الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد السابع والعشرون

الاجزاء من ٥١٣ الى ٥٣٢

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
513	سورة الانبياء	الآية 81 الى الآية 82	2
514	=	الآية 83 الى الآية 91	246
515	=	الآية 92 الى الآية 104	703
516	=	الآية 105 الى الآية 112	1064
517	سورة الحج	فصول مهمة	1645
518	=	فصل في الوقف والابتداء	1881
519	=	الآية 1 الى الآية 5	2212
520	=	الآية 6 الى الآية 18	2571
521	=	الآية 19 الى الآية 25	3008
522	=	الآية 26 الى الآية 29	3283
523	=	الآية 30 الى الآية 35	4419
524	=	الآية 36 الى الآية 37	4633
525	=	الآية 38 الى الآية 48	5055
526	=	الآية 49 الى الآية 55	5440
527	=	الآية 56 الى الآية 62	5852
528	=	الآية 63 الى الآية 72	6105
529	=	الآية 73 الى الآية 78	6336
530	سورة المؤمنون	فصول مهمة	6836
531	=	فصل في الوقف والابتداء	7008
532	=	الآية 1 الى الآية 19	7192

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث عشر بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/513)

الجزء الثالث عشر بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 81 ﴾ من سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وحتى الآية ﴿ 82 ﴾ من نفس السورة

(4/513)

قوله تعالى ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قد سخر لابنه سليمان عليه السلام الريح التي هي أقوى من بقية العناصر قال : ﴿ ولسليمان ﴾ معبراً باللام لأنها كانت تحت أمره لنفعه ولا إيهام في العبارة ﴿ الريح ﴾

قال البغوي : وهي جسم لطيف يمتنع بلطفه من القبض عليه ، ويظهر للحس بحركته ، وكان سليمان عليه السلام يأمر بالخشب فيضرب له ، فإذا حمل عليه ما يريد من الدواب ، الناس وآلة الحرب أمر العاصفة فدخلت تحت الخشب فاحتملته حتى إذا استقلت به أمر

الرخاء تمر به شهراً في غدوته وشهراً في روحته – انتهى ملخصاً .

فكان الريحان مسخرتين له ، ولكن لما كان السياق هنا لبيان الإقدار على الأفعال الغريبة الهائلة ، قال : ﴿ عاصفة ﴾ أي شديدة الهبوب ، هذا باعتبار عملها ، ووصفت بالرخاء باعتبار لطفها بهم فلا يجدون لها مشقة ﴿ تجري بأمره ﴾ إذا أمرها غادية ورائحة ذاهبة إلى حيث أراد وعائدة على حسب ما يريد ، آية في آية .

ولما كان قد علم مما مضى من القرآن لحامله المعتني بتفهم معانيه ، ومعرفة أخبار من ذكر فيه ، أنه من بني إسرائيل ، وأن قراره بالأرض المقدسة فكان من المعلوم أنه يجريها إلى غيره ، وكان الحامل إلى مكان ربما تعذر عوده مع المحمول ، عبر بحرف الغاية ذاكراً محل القرار دلالة على أنها كما تحمله ذهاباً إلى حيث أراد من قاص ودان – تحمله إلى قراره أياماً فقال : ﴿ إلى الأرض التي باركنا ﴾ أي بعزتنا ﴿ فيها ﴾ وهي الشام ﴿ وكنا ﴾ أي أزلاً وأبداً بإحاطة العظمة ﴿ بكل شي ﴾ من هذا وغيره من أمره وغيره ﴿ عالمين ﴾ فكنا على كل شيء قادرين ، فلولا رضانا به لغيرناه عليه كما غيرنا على من قدمنا أمورهم ، وهذا من طراز ﴿ قل ربي يعلم القول ﴾ كما مضى ، وتسخير الريح له كما سخرت للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليالي الأحزاب ، قال حذيفة ـ رضى الله عنهم ـ : حتى كانت تقذفهم بالحجارة ، ما تجاوز عسكرهم فهزمهم الله بها وردوا بغيظهم لم ينالوا خيراً .

وأعم من جميع ما أعطى الأنبياء عليهم السلام أنه أعطى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التصرف

في العالم العلوي الذي جعل سبحانه من الفيض على العالم السفلي بالاختراق لطباقه بالإسراء تارة ، وبإمساك المطر لما دعا بسبع كسبع يوسف ، وبإرساله أخرى كما في أحاديث كثيرة ، وأتي مع ذلك بمفاتيح خزائن الأرض كلها فردها ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(5/513)

ولما ذكر تسخير الريح له ، ذكر أنه سخر له ما غلب عناصره النار والريح للعمل في الماء ، مقابلة لارتفاع الحمل في الهواء باستفال الغوص في الماء فقال : ﴿ ومن ﴾ أي وسخرنا له من ﴿ الشياطين ﴾ الذين هم أكثر شيء تمرداً وعتواً ، وألطف شيء أجساماً ﴿ من ﴾ وعبر بالجمع لأنه أدل على عظم التصرف فقال : ﴿ يغوصون له ﴾ في المياه لما يأمرهم به من استخراج الجواهر وغيرها من المنافع ، وذلك بأن أكثفنا أجسامهم مع لطافتها لتقبل الغوص في الماء معجزة في معجزة ، وقد خنق نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ العفريت الذي جاء بشهاب من نار وأسر جماعة من أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ م عفاريت أتوا إلى ثمر الصدقة وأمكنهم الله منهم ﴿ ويعملون عملاً ﴾ أي عظيماً جداً .

ولما كان إقدارهم على الغوص أعلى ما يكون في أمرهم ، وكان المراد استغراق إقدارهم على ما هو أدنى من ذلك مما يريده منهم ، نزع الجار فقال : ﴿ دون ذلك ﴾ أي تحت هذا

الأمر العظيم أو غيره من بناء ما يريد ، واصطناع ما يشاء ، من الصنائع العجيبة ، والآثار الغريبة ، وفي ذلك تسخير الماء والتراب بواسطة الشاطين ، فقد ختم عند انتهاء الإشارة إلى تسخير العناصر - بمن سخر له العناصر الأربعة كما ابتدأ بذلك ﴿ وكنا ﴾ أي بعظمتنا التي تغلب كل شيء ﴿ لهم حافظين ﴾ من أن يفعلوا غير ما يريد ، ولمن يذكر هوداً عليه السلام هنا ، إن كان قد سخر له الريح ، لأن عملها له كان على مقتضى العادة في التدمير والأذى عند عصوفها وإن كان خارقاً بقوته ، والتي لسليمان عليه السلام للنجاة والمنافع ، هذا مع تكرارها فأمرها أظهر ، وفعلها أزكى وأطهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 102.103 ﴾

(6/513)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه سبحانه لما ذكر النعم التي خص داود بها ذكر بعده النعم التي خص بها سليمان عليه السلام ، وقال قتادة : ورث الله تعالى سليمان من داود ملكه ونبوته وزاده عليه أمرين سخر له الريح والشياطين .

الإنعام الأول : قوله تعالى : ﴿ ولسليمان الريح عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ أي جعلناها طائعة منقادة له بمعنى أنه إن أرادها عاصفة كانت عاصفة وإن أرادها لينة كانت لينة والله تعالى مسخرها في الحالتين ، فإن قيل : العاصف الشديدة الهبوب ، وقد وصفها الله تعالى بالرخاوة في قوله : ﴿ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ ﴾ فكيف يكون الجمع بينهما .

والجواب : من وجهين : الأول : أنها كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم ، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة على ما قال : ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ وكانت جامعة بين الأمرين رخاء في نفسها وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان عليه السلام وهبوبها على حسب ما يريد ويحكم آية إلى آية ومعجزة إلى معجزة .

الثاني : أنها كانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفاً ، لأجل هبوبها على حكم إرادته .

المسألة السادسة :

قرىء الريح والرياح بالرفع والنصب فيهما فالرفع على الابتداء والنصب للعطف على الجبال ، فإن قيل : قال في دواد : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال ﴾ وقال في حق سليمان : ﴿ ولسليمان الريح ﴾ فذكره في حق داود عليه السلام بكلمة مع وفي حق سليمان عليه السلام باللام وراعى هذا الترتيب أيضاً في قوله : ﴿ ياجبال أَوِّبِي مَعَهُ والطير ﴾ وقال : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح تَجْرِى بِأَمْرِهِ ﴾ فما الفائدة في تخصيص داود عليه السلام بلفظ مع ، وسليمان باللام قلنا يحتمل أن الجبل لما اشتغل بالتسبيح حصل له نوع شرف ، فما أضيف

إليه بلام التمليك ، أما الريح فلم يصدر عنه إلا ما يجري مجرى الخدمة ، فلا جرم أضيف إلى سليمان بلام التمليك ، وهذا إقناعي .

(7/513)

أما قوله : ﴿ إِلَى الأرض التى بَارَكْنَا فِيهَا وكنا بكل شيءٍ عالمين ﴾ أي إلى المضي إلى بيت المقدس ، قال الكلبي : كانت تسير في اصطخر إلى الشام يركب عليها سليمان وأصحابه .

أما قوله : ﴿ وَكُنَّا بِكُلّ شَىْء عالمين ﴾ أي لعلمنا بالأشياء صح منا أن ندبر هذا التدبير في رسلنا وفي خلقنا ، وأن نفعل هذه المعجزات القاهرة .

الإنعام الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الشياطين مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلك وَكُنَّا لَهُمْ حافظين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

المراد أنهم يغوصون له في البحار فيستخرجون الجواهر ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال والمهن وبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن محاريب وتماثيل وَجِفَانٍ ﴾ وأما الصناعات فكاتخاذ الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَمِنَ الشياطين مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ يعني وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له ، فيكون في موضع النصب نسقاً على الريح قال الزجاج ويجوز أن يكون في موضع رفع من وجهين : أحدهما : النسق على الريح ، وأن يكون المعنى : ولسليمان الريح وله من يغوصون له من الشياطين ، ويجوز أن يكون رفعاً على الابتداء ويكون له هو الخبر .

المسألة الثالثة :

يحتمل أن يكون من يغوص منهم هو الذي يعمل سائر الأعمال ، ويحتمل أنهم فرقة أخرى ويكون الكل داخلين في لفظة من وإن كان الأول هو الأقرب .

المسألة الرابعة :

ليس في الظاهر إلا أنه سخرهم ، لكنه قد روى أنه تعالى سخر كفارهم دون المؤمنين وهو الأقرب من وجهين : أحدهما : إطلاق لفظ الشياطين .

والثاني : قوله : ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ فإن المؤمن إذا سخر في أمر لا يجب أن يحفظ لئلا يفسد ، وإنما يجب ذلك في الكافر .

المسألة الخامسة :

في تفسير قوله : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حافظين ﴾ وجوه : أحدها : أنه تعالى وكل بهم جمعاً من الملائكة أو جمعاً من مؤمني الجن .

وثانيها : سخرهم الله تعالى بأن حبب إليهم طاعته وخوفهم من مخالفته .

وثالثها : قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد وسلطانه مقيم عليهم يفعل بهم ما يشاء ، فإن قيل وعن أي شيء كانوا محفوظين قلنا فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه تعالى كان يحفظهم عليه لئلا يذهبوا ويتركوه .

وثانيها ؛ قال الكلبي كان يحفظهم من أن يهيجوا أحداً في زمانه .

وثالثها : كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا فكان دأبهم أنهم يعملون بالنهار ثم يفسدونه في الليل .

المسألة السادسة :

سأل الجبائي نفسه ، وقال : كيف يتهيأ لهم هذه الأعمال وأجسامهم رقيقة لا يقدرون على عمل الثقيل ، وإنما يمكنهم الوسوسة ؟ وأجاب بأنه سبحانه كثف أجسامهم خاصة وقواهم وزاد في عظمهم ليكون ذلك معجزاً لسليمان عليه السلام ، فلما مات سليمان ردهم الله إلى الخلقة الأولى لأنه لو بقاهم على الخلقة الثانية لصار شبهة على الناس ، ولو ادعى متنبى النبوة وجعله دلالة لكان كمعجزات الرسل فلذا ردهم إلى خلقتهم الأولى ،

واعلم أن هذا الكلام ساقط من وجوه : أحدها : لم قلت إن الجن من الأجسام ، ولم لا يجوز وجود محدث ليس بمتحيز ولا قائم بالمتحيز ويكون الجن منهم ؟ فإن قلت : لو كان الأمر كذلك لكان مثلاً للباري تعالى ، قلت : هذا ضعيف لأن الاشتراك في اللوازم الثبوتية لا يدل على الاشتراك في الملزومات فكيف اللوازم السلبية ، سلمنا أنه جسم ، لكن لا يجوز حصول القدرة على هذه الأعمال الشاقة في الجسم اللطيف ، وكلامه بناء على البنية شرط وليس في يده إلا الاستقراء الضعيف .

(9/513)

سلمنا أنه لا بد من تكثيف أجسامهم لكن لم قلت بأنه لا بد من ردها إلى الخلقة الأولى بعد موت سليمان عليه السلام ، فإن قال : لئلا يفضي إلى التلبيس قلنا التلبيس غير لازم ، لأن المتنبي إذا جعل ذلك معجزة لنفسه فللمدعي أن يقول : لم لا يجوز أن يقال إن قوة أجسادهم كانت معجزة لنبي آخر قبلك ، ومع قيام هذا الاحتمال لا يتمكن المتنبي من الاستدلال به ، واعلم أن أجسام هذا العالم إما كثيفة أو لطيفة ، أما الكثيف فأكثف الأجسام الحجارة والحديد وقد جعلهما الله تعالى معجزة لداود عليه السلام ، فأنطق الحجر ولين الحديد وكل واحد منهما كما يدل على التوحيد والنبوة يدل على صحة الحشر ، لأنه لما قدر على

إحياء الحجارة فأي بعد في إحياء العظام الرميمة ، وإذا قدر على أن يجعل في إصبع داود عليه السلام قوة النار مع كون الإصبع في نهاية اللطافة ، فأي بعد في أن يجعل التراب اليابس جسماً حيوانياً ، وألطف الأشياء في هذا العالم الهواء والنار ، وقد جعلهما الله معجزة لسليمان عليه السلام ، أما الهواء فقوله تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِيح ﴾ وأما النار فلأن الشياطين مخلوقون منها وقد سخرهم الله تعالى فكان يأمرهم بالغوص في المياه والنار تنطفيء بالماء وهم ما كان يضرهم ذلك ، وذلك يدل على قدرته على إظهار الضد من الضد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 174.176 ﴾

(10/513)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾

معناه وسخرنا لسليمان الريح ، والعصوف شدة حركتها والعصف التبن ، فسمي به شدة الريح لأنها تعصفه لشدة تكسيرها له .

﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ هي أرض الشام ، وفي بركتها ثلاثة أقاويل :

أحدها : بمن بعث فيها من الأنبياء .

الثاني : أن مياه أنهار الأرض تجري منها .

الثالث : بما أودعها الله من الخيرات ، قاله قتادة : ما نقص من الأرض زيد في أرض الشام ، وما نقص من الشام زيد في فلسطين ، وكان يقال هي أرض المحشر والمنشر .

وكانت الريح تجري بسليمان وأصحابه إلى حيث شاء . قال مقاتل : وسليمان أول من استخرج اللؤلؤ بغوص الشياطين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(11/513)

وقال ابن عطية :

﴿ ولسليمان الريح ﴾

وقرأت فرقة " الريح " بالنصب على معنى وسخرنا لسليمان الريح ، وقرأت فرقة " الريحُ " بالرفع على الابتداء والخبر في المجرور قبله ، ويروى أن الريح العاصفة تهب على سرير سليمان الذي فيه بساطه وقد مد حول البساط بالخشب والألواح حتى صنع سرير يحمل جميع عسكره وأقواته ، فتقله من الأرض في الهواء ، ثم تتولاه الريح الرخاء بعد ذلك ، فتحمله إلى حيث أراد سليمان . وقوله تعالى : ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ اختلف الناس فيها ، فقالت فرقة هي أرض الشام وكانت مسكنه وموضع ملكه ، وخصص في

هذه الآية انصرافه في سفراته إلى أرضه لأن ذلك يقتضي سيره إلى المواضع التي سافر إليها .

و" البركة " في أرض الشام بينة الوجوه ، وقال بعضهم إن العاصفة هي في القفول على عادة البشر والدواب في الإسراع إلى الوطن والرخاء كانت في البداءة ، حيث أصاب ، أي حيث يقصده بأن ذلك وقت تأن وتدبير وتقلب رأي ، وقال منذر بن سعيد في الآية تقديم وتأخير والكلام تام عند قوله ﴿ إلى الأرض ﴾ ، وقوله ﴿ التي باركنا فيها ﴾ صفة ل ﴿ الريح ﴾ ع ويحتمل أن يريد الأَرض التي يسير إليها سليمان عليه السلام كائنة ما كانت ، وذلك أنه لم يكن يسير إلى أرض إلا أصلحها وقتل كفارها وأثبت فيها الإِيمان وبث فيها العدل . ولا بركة أعظم من هذا ، فكأنه قال إلى أي أرض باركنا فيها بعثنا سليمان إليها .

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾

(12/513)

يحتمل أن يكون قوله تعالى : ﴿ يغوصون ﴾ في موضع نصب على معنى وسخرنا ، ويحتمل أن يكون في موضع رفع على الابتداء ، ويتناسب هذا مع القراءتين المتقدمتين في قوله تعالى : ﴿ ولسليمان الريح ﴾ [سبأ : 12] بالنصب والرفع وقوله تعالى : ﴿ يغوصون ﴾ جمع على معنى ﴿ من ﴾ لا على لفظها . و" الغوص " الدخول في الماء

والأَرض والعمل دون ذلك البنيان وغيره من الصنائع والخدمة ونحوه ، وقوله تعالى : ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ قيل معناه من إفسادهم ما صنعوه فإنهم كان لهم حرص على ذلك لولا ما حال الله تعالى : " بينهم وبين ذلك " ، وقيل معناه عادين وحاصرين أي لا يشذ عن علمنا وتسخيرنا أحد منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(13/513)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولسليمان الرِّيحَ ﴾

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو عمران الجوني ، وأبو حيوة الحضرمي : "الرِّياحُ" بألف مع رفع الحاء .

وقرأ الحسن ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء : بالألف ونصب الحاء ، والمعنى : وسخَّرْنا لسليمان الريح ﴿ عاصفةً ﴾ أي : شديدة الهبوب ﴿ تجري بأمره ﴾ يعني : بأمر سليمان ﴿ إِلى الأرض التي باركْنا فيها ﴾ وهي أرض الشام ، وقد مَرَّ بيان بركتها في هذه السورة [الأنبياء : 72] ؛ والمعنى : أنها كانت تسير به إِلى حيث شاء ، ثم تعود به إِلى منزله بالشام .

قوله تعالى : ﴿ وكُنَّا بِكُلِّ شيء عالِمين ﴾ علمنا أن ما نُعطي سليمان يدعوه إلى الخضوع لربِّه .

قوله تعالى : ﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ﴾ قال أبو عبيدة : "مَنْ" تقع على الواحد والاثنين والجمع من المذكَّر والمؤنَّث .

قال المفسرون : كانوا يغوصون في البحر ، فيستخرجون الجواهر ، ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ قال الزجاج : معناه : سوى ذلك ، ﴿ وكُنَّا لهم حافظين ﴾ أن يُفسدوا ما عملوا .

وقال غيره : أن يخرجوا عن أمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(14/513)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِيحَ عَاصِفَةً ﴾

أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ، أي شديدة الهُبوب .

يقال منه : عَصفت الريحُ أي اشتدت فهي ريح عاصفٌ وعَصُوف .

وفي لغة بني أسد : أعَصفت الريحُ فهي مُعْصِف ومُعْصِفة .

والعَصْف التِّبن فسمى به شدة الريح ؛ لأنها تعصفه بشدة تطيرها .

وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسّلَمي وأبو بكر "وَلِسُلَيْمَان الرِّيحُ" برفع الحاء على القطع مما قبله ؛ والمعنى ولسليمان تسخير الريح ؛ ابتداء وخبر .

﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرض التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ يعني الشام .

يروى أنها كانت تجري به وبأصحابه إلى حيث أراد ، ثم تردّه إلى الشام .

وقال وهب : كان سليمان بن داود إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير ، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره .

وكان امرأ غزّاء لا يقعد عن الغزو ؛ فإذا أراد أن يغزو أمر بخُشب فمدت ورفع عليها الناس والدواب وآلة الحرب ، ثم أمر العاصف فأقلت ذلك ، ثم أمر الرخاء فمرت به شهراً في رواحه وشهراً في غدوّه ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص : 36] .

والرخاء اللينة .

﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ أي بكل شيء عملنا عالمين بتدبيره .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الشياطين مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أي وسخرنا له من يغوصون ؛ يريد تحت الماء .

أي يستخرجون له الجواهر من البحر .

والغَوْص النزول تحت الماء ، وقد غاص في الماء ، والهاجم على الشيء غائص .

والغوّاص الذي يغوص في البحر على اللؤلؤ ، وفعله الغِيَاصة .

﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلك ﴾ أي سوى ذلك من الغَوْص ؛ قاله الفراء .

وقيل : يراد بذلك المحاريب والتماثيل وغير ذلك مما يسخِّرهم فيه .

﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أي لأعمالهم .

وقال الفراء : حافظين لهم من أن يفسدوا أعمالهم ، أو يهيجوا أحداً من بني آدم في زمان سليمان .

وقيل : "حافظين" من أن يهربوا أو يمتنعوا .

(15/513)

أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره .

وقد قيل : إن الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون من استخراج الشياطين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(16/513)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تعالى ما خص به نبيه داود عليه السلام ذكر ما خص به ابنه سليمان عليه السلام ، فقال ﴿ ولسليمان الريح ﴾ وجاء التركيب هنا حين ذكر تسخير الريح لسليمان باللام ، وحين ذكر تسخير الجبال جاء بلفظ مع فقال ﴿ وسخرنا مع داود الجبال ﴾ وكذا جاء ﴿ يا جبال أوبي معه ﴾ وقال فسخرنا له الريح تجري بأمره ، وذلك أنه لما اشتركا في التسبيح ناسب ذكر مع الدالة على الاصطحاب ، ولما كانت الريح مستخدمة لسليمان أضيفت إليه بلام التمليك لأنها في طاعته وتحت أمره .

وقرأ الجمهور ﴿ الريح ﴾ مفرداً بالنصب .

وقرأ ابن هرمز وأبو بكر في رواية بالرفع مفرداً .

وقرأ الحسن وأبو رجاء الرياح بالجمع والنصب .

وقرأ بالجمع والرفع أبو حيوة فالنصب على إضمار سخرنا ، والرفع على الابتداء و ﴿ عاصفة ﴾ حال العامل فيها سخرنا في قراءة من نصب ﴿ الريح ﴾ وما يتعلق به الجار في قراءة من رفع ويقال : عصفت الريح فهي عاصف وعاصفة ، ولغة أسد أعصفت فهي معصف ومعصفة ، ووصفت هذه الريح بالعصف وبالرخاء والعصف الشدة في السير والرخاء اللين .

فقيل : كان ذلك بالنسبة إلى الوقت الذي يريد فيه سليمان أحد الوصفين فلم يتحد الزمان .

وقيل : الجمع بين الوصفين كونها رخاء في نفسها طيبة كالنسيم عاصفة في عملها تبعد في مدة يسيرة كما قال تعالى ﴿ غدوّها شهر ورواحها شهر ﴾ وقيل : الرخاء في البداءة والعصف بعد ذلك في التقول على عادة البشر في الإسراع إلى الوطن ، وهذا القول راجع إلى اختلاف الزمان وجريها بأمره طاعتها له على حسب ما يريد ، ويأمر .

و ﴿ الأرض ﴾ أرض الشام وكانت مسكنه ومقر ملكه .

وقيل : أرض فلسطين .

وقيل : بيت المقدس .

قال الكلبي كان يركب عليها من اصطخر إلى الشام .

قيل : ويحتمل أن تكون ﴿ الأرض ﴾ التي يسير إليها سليمان كائنة ما كانت ووصفت بالبركة لأنه إذا حل أرضاً أصلحها بقتل كفارها وإثبات الإيمان فيها وبث العدل ، ولا بركة أعظم من هذا .

(17/513)

والظاهر : أن ﴿ التي باركنا ﴾ صفة للأرض .

وقال منذر بن سعيد : الكلام تام عند قوله ﴿ إلى الأرض ﴾ و ﴿ التي باركنا فيها ﴾ صفة للريح ففي الآية تقديم وتأخير ، يعني إن أصل التركيب ولسليمان الريح ﴿ التي باركنا فيها ﴾ عاصفة تجري بأمره ﴿ إلى الأرض ﴾ .

وعن وهب : كان سليمان إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره ، وكان لا يقعد عن الغزو فيأمر بخشب فيمد والناس عليه والدواب وآلة الحرب ، ثم يأمر العاصف فيقله ثم يأمر الرخاء فتمر به شهراً في رواحة وشهراً في غدوه .

وعن مقاتل : نسجت له الشياطين بساطاً ذهباً في إبريسم فرسخاً في فرسخ ، ووضعت له في وسطه منبراً من ذهب يقعد عليه وحوله كراسي من ذهب يقعد عليها الأنبياء ، وكراسي من فضة يقعد عليها العلماء ، وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين ، والطير تظله من الشمس ، وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ومن الرواح إلى الصباح ، وقد أكثر الأخباريون في ملك سليمان ولا ينبغي أن يعتمد إلاّ على ما قصه الله في كتابه وفي حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ولما كانت هذه الاختصاصات في غاية الغرابة من المعهود ، أخبر تعالى أن علمه محيط بالأشياء يجريها على ما سبق به علمه ، ولما ذكر تعالى تسخير الريح له وهي جسم شفاف

لا يعقل وهي لا تدرك بالبصر ذكر تسخير الشياطين له ، وهم أجسام لطيفة تعقل والجامع بينهما أيضاً سرعة الانتقال ألا ترى إلى قوله ﴿ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ ﴿ ومن ﴾ في موضع نصب أي وسخرنا ﴿ من الشياطين من يغوصون ﴾ أو في موضع رفع على الابتداء ، والخبر في الجار والمجرور قبله .

والظاهر أن ﴿ من ﴾ موصولة .

وقال أبو البقاء : هي نكرة موصوفة ، وجمع الضمير في ﴿ يغوصون ﴾ حملاً على معنى ﴿ من ﴾ وحسن ذلك تقدم جمع قبله كما قال الشاعر :

وإن من النسوان من هي روضة . . .

يهيج الرياض قبلها وتصوح

(18/513)

لما تقدم لفظ النسوان حمل على معنى من فأنث ، ولم يقل من هو روضة والمعنى ﴿ يغوصون ﴾ له في البحار لاستخراج اللآلىء ، ودل الغوص على المغاص فيه وعلى ما يغاص لاستخراجه وهو الجوهر ، فلذلك لم يذكر أو قال له أي لسليمان لأن الغائص قد يغوص لنفسه ولغيره ، فذكر أن الغوص ليس لأنفسهم إنما هو لأجل سليمان وامتثالهم أمره

والإشارة بذلك إلى الغوص أي دون الغوص من بناء المدائن والقصور كما قال ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ﴾ الآية .

وقيل : الحمام والنورة والطاحون والقوارير والصابون من استخراجهم .

﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ أي من أن يزيغوا عن أمره أو يبدّلوا أو يغيروا أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه .

وقيل : ﴿ حافظين ﴾ أن يهيجوا أحداً في زمان سليمان .

وقيل ﴿ حافظين ﴾ حتى لا يهربوا .

قيل : سخر الكفار دون المؤمنين ، ويدل عليه إطلاق لفظ ﴿ الشياطين ﴾ وقوله ﴿ حافظين ﴾ والمؤمن إذا سخر في أمر لا يحتاج إلى حفظ لأنه لا يفسد ما عمل ، وتسخير أكثف الأجسام لداود وهو الحجر إذ أنطقه بالتسبيح والحديد إذ جعل في أصابعه قوة النار حتى لان له الحديد ، وعمل منه الزرد ، وتسخير ألطف الأجسام لسليمان وهو الريح والشياطين وهم من نار .

وكانوا يغوصون في الماء والماء يطفىء النار فلا يضرهم ، دليل واضح على باهر قدرته وإظهار الضد من الضد وإمكان إحياء العظم الرميم ، وجعل التراب اليابس حيواناً فإذا أخبر به الصادق وجب قبوله واعتقاد وجوده انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ ولسليمان الريح ﴾ أي وسخرنا له الريحَ ، وإيرادُ اللام ها هنا دون الأول للدِلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت ، فإن تسخيرَ ما سخر له عليه السلام من الريح وغيرِها كان بطريق الانقيادِ الكليِّ له والامتثالِ بأمره ونهيِه والمقهوريةِ تحت ملكوتِه ، وأما تسخيرُ الجبال والطيرِ لداودَ عليه السلام فلم يكن بهذه المثابة بل بطريق التبعيةِ له عليه السلام والاقتداء به في عبادة الله عز وعلا ﴿ عَاصِفَةً ﴾ حالٌ من الريح والعاملُ فيها الفعلُ المقدرُ ، أي وسخرنا له الريحَ حالَ كونِها شديدةَ الهبوبِ من حيث أنها كانت تبعُد بكرسيه في مدة يسيرة من الزمان كما قال تعالى : ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ وكانت رُخاءً في نفسها طيبةً ، وقيل : كانت رُخاءً تارة وعاصفةً أخرى حسب إرادتِه عليه الصلاة والسلام ، وقرىء الريحُ بالرفع على الابتداء والخبرُ هو الظرفُ المقدم وعاصفةً حينئذ حال من ضمير المبتدأ في الخبر والعاملُ ما فيه من معنى الاستقرارِ ، وقرىء الرياح نصباً ورفعاً ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ بمشيئته حالٌ ثانية أو بدلٌ من الأولى أو حال من ضميرها ﴿ إِلَى الأَرْضِ التِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ وهي الشام رَواحاً بعد ما سار به منه بكرةً ، قال الكلبي : كان

سليمانُ عليه السلام وقومه يركبون عليها من اصطخْرَ إلى الشام وإلى حيث شاء ثم يعود إلى منزله ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالمين ﴾ فنُجريه حسبما تقتضيه الحِكمة .

(20/513)

﴿ وَمِنَ الشياطين ﴾ أي وسخرنا له من الشياطين ﴿ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ في البحار ويستخرجون له من نفائسها ، وقيل : مَنْ رُفع على الابتداء وخبرُه ما قبله والأولُ هو الأظهرُ ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلك ﴾ أي غير ما ذكر من بناء المدن والقصورِ واختراعِ الصنائعِ الغريبة لقوله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن محاريب وتماثيل ﴾ الآية ، وهؤلاء أما الفرقةُ الأولى أو غيرها لعموم كلمة مَنْ ، كأنه قيل : ومَن يعملون وجمعُ الضمير الراجع إليها باعتبار معناها بعد ما رشح جانبُه بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الشياطين ﴾ ، روي أن المسخَّر له عليه السلام كفارُهم لا مؤمنوهم لقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الشياطين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حافظين ﴾ أي من أن يزيغوا عن أمره أو يُفسدوا على ما هو مقتضى جِبِلّتهم ، قيل : وكل بهم جمعاً من الملائكة وجمعاً من مؤمني الجن ، وقال الزجاجُ : كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عمِلوا وكان دأبُهم أن يفسدوا بالليل ما عمِلوه بالنهار . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ ولسليمان الريح ﴾

أي وسخرنا له الريح ، وجيء باللام هنا دون الأول للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت فإن تسخري ما سخر له عليه السلام كان بطريق الانقياد الكلي له والامتثال بأمره ونهيه بخلاف تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام فإنه كان بطريق التبعية والاقتداء به عليه السلام في عبادة الله عز وجل ﴿ عَاصِفَةً ﴾ حال من الريح والعامل فيها الفعل المقدر أي وسخرنا له الريح حال كونها شديدة الهبوب ، ولا ينافي وصفها بذلك هنا وصفها في موضع آخر بأنها رخاء بمعنى طيبة لينة لأن الرخاء وصف لها باعتبار نفسها والعصف وصف لها باعتبار قطعها المسافة البعيدة في زمان يسير كالعاصفة في نفسها فهي مع كونها لينة تفعل فعل العاصفة .

ويجوز أن يكون وصفها بكل من الوصفين بالنسبة إلى الوقت الذي يريده سليمان عليه السلام فيه ، وقيل وصفها بالرخاء في الذهاب ووصفها بالعصف بالإياب على عادة البشر في الإسراع إلى الوطن فهي عاصفة في وقت رخاء في آخر .

وقرأ ابن هرمز .

وأبو بكر في رواية ﴿ الريح ﴾ بالرفع مع الأفراد .

وقرأ الحسن .

وأبو رجاء ﴿ الرياح ﴾ بالنصب والجمع ، وأبو حيوة بالرفع والجمع ، .

(22/513)

ووجه النصب ظاهر ، وأما الرفع فعلى أن المرفوع مبتدأ والخبر هو الظرف المقدم و ﴿ عَاصِفَةً ﴾ حال من ضمير المبتدا في الخبر والعامل ما فيه من معنى الاستقرار ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِ ﴾ أي بمشيئته وعلى وفق إرادته وهو استعمال شائع ، ويجوز أن يأمرها حقيقة ويخلق الله تعالى لها فهما لأمره كما قيل في مجيء الشجرة للنبي صلى الله عليه وسلم حين دعاها ، والجملة إما حال ثانية أو بدل من الأولى على ما قيل وقد مر لك غير بعيد الكلام في إبدال الجملة من المفرد فتذكر أو حال من ضمير الأولى ﴿ إِلَى الأرض التى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ وهي الشام كما أخرج ابن عساكر عن السدي ، وكان عليه السلام مسكنه فيها فالمراد أنها تجري بأمره إلى الشام رواحاً بعد ما سارت به منها بكرة ، ولشيوع كونه عليه السلام ساكناً في تلك الأرض لم يذكر جريانها بأمره منها واقتصر على ذكر جريانها إليها وهو أظهر

في الامتنان ، وقيل كان مسكنه اصطخر وكان عليه السلام يركب الريح منها فتجري بأمره إلى الشام .

وقيل : يحتمل أن تكون الأرض أعم من الشام ، ووصفها بالبركة لأنها عليه السلام إذا حل أرضاً أمر بقتل كفارها وإثبات الايمان فيها وبث العدل ولا بركة أعظم من ذلك ، ويبعد أن المتبادر كون تلك الأرض مباركاً فيها قبل الوصول إليها وما ذكر يقتضي أن تكون مباركاً فيها من بعد .

وأبعد جداً منذر بن سعيد بقوله إن الكلام قد تم عند قوله تعالى : ﴿ إِلَى الأرض ﴾ والتي باركنا فيها صفة للريح ؛ وفي الآية تقديم وتأخير ، والأصل ولسليمان الريح التي باركنا فيها عاصفة تجري بأمره بل لا يخفى أنه لا ينبغي أن يحمل كلام الله تعالى العزيز على مثل ذلك وكلام أدنى البلغاء يجل عنه ، ثم الظاهر أن المراد بالريح هذا العنصر المعروف العام لجميع أصنافه المشهورة ، وقيل : المراد بها الصبا .

(23/513)

وفي بعض الأخبار ما ظاهره ذلك ، فعن مقاتل أنه قال نسجت لسليمان عليه السلام الشياطين بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً في فرسخ ووضعت له منبراً من ذهب يقعد

عليه وحوله كراسي من ذهب يقعد عليها الأنبياء عليهم السلام وكراسي من فضة يقعد عليها العلماء وحولهم سائر الناس وحول الناس الجن والشياطين والطير تظله من الشمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ومن الرواح إلى الصباح.

وما ذكر من أنه يحمل على البساط هو المشهور ولعل ذلك في بعض الأوقات وإلا فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال: كان لسليمان عليه السلام مركب من خشب وكان فيه ألف ركن في كل ركن ألف بيت يركب معه فيه الجن والإنس تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك المركب فإذا ارتفع أتت الريح الرخاء فسارت به فساروا معه فلا يدري القوم إلا وقد أظلهم منه الجيوش والجنود، وقيل في وجه الجمع: إن البساط في المركب المذكور وليس بذاك.

وذكر عن الحسن أن إكرام الله تعالى لسليمان عليه السلام بتسخير الريح لما فعل بالخيل حين فاتته بسببها صلاة العصر وذلك أنه تركها لله تعالى فعوضه الله سبحانه خيراً منها من حيث السرعة مع الراحة، ومن العجب أن أهل لندن قد اتعبوا أنفسهم منذ زمان بعمل سفينة تجري مرتفعة في الهواء إلى حيث شاؤا بواسطة أبخرة يحبسونها فيها اغتراراً بما ظهر منذ سنوات من عمر سفينة تجري الماء بواسطة آلات تحركها أبخرة فيها فلم يتم لها ذلك ولا أظنه يتم حسب إرادتهم على الوجه الأكمل، وأخبرني بعض المطلعين أنهم صنعوا سفينة

تجري في الهواء لكن لا إلى حيث شاؤا بل إلى حيث ألقت رحلها ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالمين ﴾ فما أعطيناه ما أعطيناه إلا لما نعلمه من الحكمة .

(24/513)

﴿ وَمِنَ الشياطين ﴾ أي وسخرنا له من الشياطين ﴿ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ فمن في موضع نصب لسخرنا ، وجوز أن تكون في موضع رفع على الابتداء وخبره ما قبله ، وهي على الوجهين على ما استظهره أبو حيان موصولة وعلى ما اختاره جمع نكرة موصوفة ، ووجه اختيار ذلك على الموصولية أنه لا عهد هنا ، وكون الموصول قد يكون للعهد الذهني خلاف الظاهر ، وجيء بضمير الجمع نظراً للمعنى ، وحسنه تقدم جمع قبله ، والغوص الدخول تحت الماء وإخراج شيء منه ، ولما كان الغائص قد يغوص لنفسه ولغيره قيل ﴿ لَهُ ﴾ للإيذان بأن الغوص ليس لأنفسهم بل لأجله عليه السلام .

وقد كان عليه السلام يأمرهم فيغوصون في البحار ويستخرجون له من نفائسه ﴿ وَيَعْمَلُونَ ﴾ له ﴿ عَمَلاً ﴾ كثيراً ﴿ دُونِ ذَلِكَ ﴾ أي غير ما ذكر من بناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة لقوله تعالى ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن محاريب وتماثيل ﴾ [سبأ : 13] الآية ، قيل : إن الحمام والنورة والطاحون والقوارير والصابون من أعمالهم ، وذكر

ذلك الإمام الرازي في "التفسير" ، لكن في كون الصابون من أعمالهم خلافاً .

ففي التذكرة الصابون من الصناعة القديمة قيل وجد في كتب هرمس وأندوخيا وهو الأظهر .

(25/513)

وقيل : من صناعة بقراط وجالينوس انتهى ؛ وقيل هو من صناعة الفارابي وأول ما صنعه في دمشق الشام ولا يصح ذلك ، وما اشتهر أن أول من صنعه البوني فمن كذب العوام وخرافاتهم ، ثم هؤلاء أما الفرقة الأولى أو غيرها لعموم كلمة ﴿ مِنْ ﴾ كأنه قيل : ومن يعملون ، والشياطين أجسام لطيفة نارية عاقلة ، وحصول القدرة على الأعمال الشاقة في الجسم اللطيف غير مستبعد فإن ذلك نظير قلع الهواء الأجسام الثقيلة ، وقال الجبائي : إنه سبحانه كثف أجسامهم خاصة وقواهم وزاد في عظمهم ليكون ذلك معجزة لسليمان عليه السلام فلما توفي ردهم إلى خلقتهم الأولى لئلا يفضي أبقاؤهم إلى تلبيس المتنبي وهو كلام ساقط عن درجة القبول كما لا يخفى .

والظاهر أن المسخرين كانوا كفاراً لأن لفظ الشياطين أكثر إطلاقاً عليهم ، وجاء التنصيص عليه في بعض الروايات ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حافظين ﴾ أي من أن يزيغوا عن

أمره أو يفسدوا ، وقال الزجاج : كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوه بالنهار ، وقيل حافظين لهم من أن يهيجوا أحداً ؛ والأنسب بالتذييل ما تقدم وذكر في حفظهم أنه وكل بهم جمعاً من الملائكة عليهم السلام وجمعاً من مؤمني الجن ، هذا وفي قصتي داود وسليمان عليهما السلام ما يدل على عظم قدرة الله تعالى .

قال الإمام : وتسخير أكثف الأجسام لداود عليه السلام وهو الحجر إذ أنطقه الله تعالى بالتسبيح والحديد إذ ألانه سبحانه له وتسخير ألطف الأجسام لسليمان عليه السلام وهو الريح والشياطين وهم من نار وكانوا يغوصون في الماء فلا يضرهم دليل واضح على باهر قدرته سبحانه وإظهار الضد من الضد وإمكان إحياء العظم الرميم وجعل التراب اليابس حيواناً فإذا أخبر الصادق بوقوعه وجب قبوله واعتقاده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(26/513)

وقال القاسمى :

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾

أي : سخرناها له : ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ وهي بيت المقدس :

﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ أي : ما تقضيه الحكمة البالغة فيه . وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [صٓ : 36] .

قال الزمخشري رحمه الله : فإن قلت : وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى ، فما التوفيق بينهما ؟ قلت : كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم . فإذا مرت بكرسيّه أبعدت به في مدة يسيرة على ما قال : ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ : 12] ، فكان جمعها بين الأمرين ، أن تكون رخاء في نفسها ، وعاصفة في عملها ، مع طاعتها لسليمان ، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم ، آية إلى آية ، ومعجزة إلى معجزة .

قال في " الانتصاف " : وهذا كما ورد في وصف عصا موسى تارة بأنها جانّ وتارة بأنها ثعبان . والجانّ الرقيق من الحيات والثعبان العظيم الجافي منها . ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين فكانت في خفتها وفي سرعة حركتها كالجانّ ، وكانت في عظم خلقها كالثعبان ، ففي كل واحد من الريح والعصا ، على هذا التقرير ، معجزتان . والله أعلم .

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أي : في البحر لاستخراج نفائسه ، تكميلاً لخزائنه وتزييناً لقومه : ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي : غير ذلك كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ ﴾ [سبأ : 13] ، ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أي : مؤيدين ومعينين .

تنبيه :

(27/513)

الشياطين المذكورون ، إما مردة الإنس وأشداؤُهم ، وإما مردة الجن لظاهر اللفظ . وعليه قال الجبائيّ : كيف يتهيأ لهم هذه الأعمال وأجسامهم رقيقة لا يقدرون على عمل الثقيل ؟ وإنما يمكنهم الوسوسة . وأجاب بأنه تعالى كثَّف أجسامهم خاصة وقواهم ، وزاد في عظمهم ليكون ذلك معجزاً لسليمان عليه السلام . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 222.223 ﴾

(28/513)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الريح ﴾ معطوف على معمول " سَخَّرْنَا " ، في قوله : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال ﴾ [الأنبياء : 79] أي وسخرنا لسليمان الريح في حال كونها عاصفة . أي شديدة الهبوب . يقال عصفت الريح أي اشتدت ، فهي ريح عاصف وعصوف ، وفي لغة بني أسد (أعصفت) فهي معصف ومعصفة ، وقد قدمنا بعض شواهده العربية في سورة

(الإسراء) .

وقوله ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ أي تطيعه وتجري إلى المحل الذي يأمرها به ، وما ذكره في هذه الآية : من تسخير الريح لسليمان ، وأنها تجري بأمره بينه في غير هذا الموضع وزاد بيان قدر سرعتها ، وذلك في قوله ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِيحَ ﴾ [سبأ : 12] ، وقوله : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص : 36] .

تنبيه

اعلم أن في هذه الآيات التي ذكرنا سؤالين معروفين :

الأول أن يقال : إن الله وصف الريح المذكورة هنا في سورة " الأنبياء " بأنها عاصفة . أي شديدة الهبوب ، ووصفها في سورة " ص " بأنها تجري بأمره رخاء . والعاصفة غير التي تجري رخاء .

والسؤال الثاني هو أنه هنا في سورة " الأنبياء " خص جريها به بكونه إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين ، وفي سورة " ص " قال : ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ ، وقوله ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي حيث أراد . قاله مجاهد . وقال ابن الأعرابي : العرب تقول : أصله الصواب ، وأخطأ الجواب : أي أراد الصواب وأخطأ الجواب . ومنه قول الشاعر :

أصاب الكلام فلم يستطع . . . فأخطأ الجواب لدى المفصل

قاله القرطبي . وعن رؤبة : أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن معنى " أصاب " . فخرج إليهما فقال : أين تصيبان ؟ فقالا : هذه طلبتنا . ورجعا .

(29/513)

أما الجواب عن السؤال الأول فمن وجهين : الأول أنها عاصفة في بعض الأوقات ، ولينة رخاء في بعضها بحسب الحاجة . كأن تعصف ويشتد هبوبها في أول الأمر حتى ترفع البساط الذي عليه سليمان وجنوده ، فإذا ارتفع سارت به رخاء حيث أصاب .

الجواب الثاني هو ما ذكره الزمخشري قال : فإن قلت : وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالرخاء أخرى ، فما التوفيق بينهما ؟ قلت : كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم ، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة ، على ما قال ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ . فكان جمعها بين الأمرين : أن تكون رخاء في نفسها ، وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان ، وهبوبها على حسب ما يريد يحتكم ا ه محل الغرض منه .

وأما الجواب عن السؤال الثاني فهو أن قوله ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ يدل على أنها تجري بأمره حيث أراد من أقطار الأرض . وقوله ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ التِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ لأن مسكنه فيها وهي الشام ، فترده إلى الشام . وعليه فقوله : ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ في حالة

الذهاب . وقوله : ﴿ إِلَى الأَرض التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ في حالة الإياب إلى محل السكنى .

فانفكت الجهة فزال الإشكال . وقد قال نابغة ذبيان :

إلا سليمان إذ قال الإله له . . . قم في البرية فاحددها عن الفند

وخيس الجن إني قد أذنت لهم . . . يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وتدمر : بلد بالشام . وذلك مما يدل على أن الشام هو محل سكناه كما هو معروف .

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾

الأظهر في قوله ﴿ مَن يَغُوصُونَ ﴾ أنه في محل نصب عطفاً على معمول ﴿ سَخَّرْنَا ﴾ أي وسخرنا له من يغوصون له من الشياطين . وقيل : " من " مبتدأ ، والجار والمجرور قبله خبره .

(30/513)

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه سخر لسليمان من يغوصون له من الشياطين .

أي يغوصون له في البحار فيستخرجون له منها الجواهر النفيسة . كاللؤلؤ ، والمرجان .

والغوص : النزول تحت الماء . والغواص : الذي يغوص البحر ليستخرج منه اللؤلؤ ونحوه .

ومنه قول نابغة ذبيان :

أو درة صدفية غواصها . . . بهج متى يراها يهل ويسجد

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أيضاً . أن الشياطين المسخرين له يعملون له عملاً دون ذلك . أي سوى ذلك الغوص المذكور . أي كبناء المدائن والقصور ، وعمل المحاريب والتماثيل ، والجفان والقدور الراسيات ، وغير ذلك من اختراع الصنائع العجيبة .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أي من أن يزيغوا عن أمره ، أو يبدلوا أو يغيروا ، أو يوجد منم فساد فيما هم مسخرون فيه . وهذه المسائل الثلاث التي تضمنتها هذه الآية الكريمة جاءت مبينة في غير هذا الموضع . كقوله في الغوص والعمل سواء : ﴿ والشياطين كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ [ص : 37] الآية ، وقوله في العمل غير الغوص : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كالجواب وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ [سبأ : 13] ، وكقوله في حفظهم من أن يزيغوا عن أمره : ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السعير ﴾ [سبأ : 12] ، وقوله : ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأصفاد ﴾ [ص : 38] .

وصفة البساط ، وصفة حمل الريح له ، وصفة جنود سليمان من الجن والإنس والطير كل ذلك مذكور بكثرة في كتب التفسير ، ونحن لم نطل به الكلام في هذا الكلام المبارك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(31/513)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾

عطف على جملة ﴿ وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن ﴾ [الأنبياء : 79] بمناسبة تسخيرٍ خارق للعادة في كلتا القصتين معجزة للنبيئين عليهما السلام .

والأرض التي بارك الله فيها هي أرض الشام .

وتسخير الريح : تسخيرها لما تصلح له ، وهو سير المراكب في البحر .

والمراد أنها تجري إلى الشام راجعة عن الأقطار التي خرجت إليها لمصالح مُلك سليمان من غزو أو تجارة بقرينة أنها مسخرة لسليمان فلا بد أن تكون سائرة لفائدة الأمة التي هُو مَلِكها .

وعلم من أنها تجري إلى الأرض التي بارك الله فيها أنها تخرج من تلك الأرض حاملة الجنود أو مصدّرة البضائع التي تصدرها مملكة سليمان إلى بلاد الأرض وتقفل راجعة بالبضائع والميرة ومواد الصناعة وأسلحة الجند إلى أرض فلسطين ، فوقع في الكلام اكتفاء اعتماداً على القرينة .

وقد صرح بما اكتفى عنه هنا في آية سورة سبأ (12) ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ ووصفها هنا بـ عاصفة ﴾ بمعنى قوية .

ووصفها في سورة ص (36) بأنها ﴿ رُخاء ﴾ في قوله تعالى : ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ والرخاء : الليلة المناسبة لسير الفُلك .

وذلك باختلاف الأحوال فإذا أراد الإسراع في السير سارت عاصفة وإذا أراد اللين سارت رُخاء ، والمقام قرينة على أن المراد المَواتاه لإرادة سليمان كما دل عليه قوله تعالى : تجري بأمره ﴾ في الآيتين المشعر باختلاف مقصد سليمان منها كما إذا كان هو راكباً في البحر فإنه يريدها رُخاء لئلا تزعجه وإذا أصدرت مملكتُه بضاعة أو اجتلبتها سارت عاصفة وهذا بيّن بالتأمل .

وعبر ﴿ بأمره ﴾ عن رغبته وما يلائم أسفار سفائنه وهي رياح مَوْسمية منتظمة سخرها الله له .

(32/513)

وأمر سليمان دعاؤه الله أن يُجري الريحَ كما يريد سليمانُ : إما دعوة عامة كقوله ﴿ وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ [ص : 35] فيشمل كل ما به استقامة أمور المُلك وتصاريفه ، وإما دعوة خاصة عند كل سفر لمراكب سليمان فجعل الله الرياح الموسمية في بحار فلسطين مدة ملك سليمان إكراماً له وتأييداً إذا كان همه نشر دين الحقّ في الأرض .

وإنما جعل الله الريح تجري بأمر سليمان ولم يجعلها تجري لسفنه لأن الله سخر الريح لكل السفن التي فيها مصلحة مُلك سليمان فإنه كانت تأتيه سفن (ترشيش) يُظن أنها طرطوشة بالأندلس أو قرطجنة بإفريقية وسفن حيرام ملك صور حاملة الذهب والفضة والعاج والقِردة والطواويس وهدَايا الآنية والحلل والسلاح والطيب والخيل والبغال كما في الإصحاح 10 من سفر الملوك الأول .

وجملة ﴿ وكنا بكل شيء عالمين ﴾ معترضة بين الجمل المسوقة لذكر عناية الله بسليمان .

والمناسبة أن تسخير الريح لمصالح سليمان أثر من آثار علم الله بمختلف أحوال الأمم والأقاليم وما هو منها لائق بمصلحة سليمان فيُجري الأمور على ما تقتضيه الحكمة التي أرادها سبحانه إذ قال : ﴿ وشددنا ملكه ﴾ [ص : 20] .

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾

هذا ذكر معجزة وكرامة لسليمان .

وهي أن سخر إليه من القُوى المجردة من طوائف الجنّ والشياطين التي تتأتّى لها معرفة الأعمال العظيمة من غوص البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ومن أعمال أخرى أجملت في قوله تعالى : ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ .

وفصّل بعضها في آيات أخرى كقوله تعالى : ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل

وجفان كالجوابي وقدور راسيات ﴾ [سبأ : 13] وهذه أعمال متعارفة .

وإنما اختصّ سليمان بعظمتها مثل بناء هيكل بيت المقدس وبسرعة إتمامها .

(33/513)

ومعنى ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ أن الله بقدرته سخرهم لسليمان ومنعهم عن أن ينفلتوا عنه أو أن يعصوه ، وجعلهم يعملون في خفاء ولا يؤذوا أحداً من الناس ؛ فجمع الله بحكمته بين تسخيرهم لسليمان وعلمه كيف يَحكمهم ويستخدمهم ويطوعهم ، وجعلهم منقادين له وقائمين بخدمته دون عناء له ، وحال دونَهم ودونَ الناس لئلا يؤذوهم .

ولما توفّي سليمان لم يسخر الله الجنّ لغيره استجابة لدعوته إذ قال : ﴿ وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ [ص : 35] .

ولما مكّن الله النبي محمداً صلى الله عليه وسلم من الجنيّ الذي كاد أن يفسد عليه صلاته وهَمَّ بأن يربطه ، ذَكَر دعوة سليمان فأطلقه فجمع الله له بين التمكين من الجنّ وبين تحقيق رغبة سليمان .

وقوله ﴿ لهم ﴾ يتعلق بـ ﴿ حافظين ﴾ واللام لام التقوية .

والتقدير : حافظينهم ، أي مانِعينهم عن الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(34/513)

وقال الشيخ الشعراوى :

ثم ينتقل السياق من الكلام عن داود إلى ابنه سليمان عليهما السلام ، فيقول الحق سبحانه : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الريح عَاصِفَةً . . . ﴾ .

لا شكّ أن سليمان – عليه السلام – قد استفاد بما علَّم الله به أباه داود ، وأخذ من نعمة الله على أبيه ، وهنا يزيده ربه – تبارك وتعالى – أموراً يتميز بها ، منها الريح العاصفة أي : القوية الشديدة ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا . . . ﴾ [الأنبياء : 81] وكأنها مواصلات داخلية في مملكته من العراق إلى فلسطين .

وفي موضع آخر قال : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي إِنَّكَ أَنتَ الوهاب * فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص : 35-36] .

رُخَاء : أي : هيّنة ليّنة ناعمة ، وهنا قال ﴿ عَاصِفَةً . . . ﴾ [الأنبياء : 81] فكأن الله تعالى جمع لهذه الريح صفة السرعة في (عاصفة) وصفة الراحة في (رخاء) ، وهاتان

صفتان لا يقدر على الجمع بينهما إلا الله ، فنحن حين تُسْرِع بنا السيارة مثلاً لا تتوفر لنا صِفَة الراحة والاطمئنان ، بل يفزع الناس ويطلبون تهدئة السرعة .

أما ريح سليمان فكانت تُسرع به إلى مراده ، وهي في الوقت نفسه مريحة ناعمة هادئة لا تُؤّثِر في تكوينات جسمه ، ولا تُحدث له رجَّة أو قوة اندفاع يحتاج مثلاً إلى حزام أمان ، فمَنْ يقدر على الجمع بين هذه الصفات إلا الله القابض الباسط ، الذي يقبض الزمن في حق قوم ويبسطه في حق آخرين .

ومعنى : ﴿ بَارَكْنَا فِيهَا . . . ﴾ [الأنبياء : 81] أي : بركة حِسّية بما فيها من الزروع والثمار والخِصْب والخيرات ، وبركة معنوية حيث جعل فيها مهابط الوحي والنبوات وآثار الأنبياء .

(35/513)

وليس تسخير الريح لسليمان أنها تحمله مثلاً ، كما رأينا في (السينما) بساط الريح الذي نراه يحمل شيئاً ويسير به في الهواء ، أو : أنها كانت تُسيِّر المراكب في البحار ، إنما المراد بتسخيرها له أن تكون تحت مراده ، وتأتمر بأمره ، فتسير حيث شاء يميناً أو شمالاً ، فهي لا تهُبُّ على مرادات الطبيعة التي خلقها الله عليها ، ولكن على مراده هو .

وإنْ كانت هذه الريح الرُّخَاء تحمله في رحلة داخلية في مملكته ، فهناك من الرياح ما يحمله في رحلات وأسفار خارجية ، كالتي قال الله تعالى عنها : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الريح غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ . . . ﴾ [سبأ : 12] فيجوب بها في الكون كيف يشاء ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص : 36] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : 81] أي عندنا علْم نُرتِّب به الأمور على وَفْق مرادنا ، ونكسر لمرادنا قانون الأشياء فَنُسيِّر الريح كما نحب ، لا كما تقتضيه الطبيعة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنَ الشياطين مَن يَغُوصُونَ . . . ﴾ .

فبعد أنْ سخَّر الله له الريح سخَّر له الشياطين ﴿ يَغُوصُونَ لَهُ . . . ﴾ [الأنبياء : 82] والغَوْصُ : النزول إلى أعماق البحر ؛ ليأتوه بكنوزه ونفائسه وعجائبه التي ادخرها الله فيه ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلك . . . ﴾ [الأنبياء : 82] أي : مما يُكلِّفهم به سليمان من أعمال شاقة لا يقدر عليها الإنسان ، وقد شرحت هذه الآية في موضع آخر : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كالجواب وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ . . . ﴾ [سبأ : 13] فأدخل مرادات العمل في مشيئته .

والمحاريب جمع محراب ، وهو مكان العبادة كالقِبْلة مثلاً ، والجِفَان : جمع جَفْنة ، وهي

القَصْعة الكبيرة الواسعة التي تكفي لعدد كبير ، والقدور الراسيات أي : الثابتة التي لا تنقل من مكان لآخر وهي مبنية .

(36/513)

وقد رأينا شيئاً من هذا في الرياض أيام الملك عبد العزيز رحمه الله ، وكان هذا القدْر من الاتساع والارتفاع بحيث إذا وقف الإنسان ماداً ذراعيه إلى أعلى لا يبلغ طولها ، وفي الجاهلية أشتهرت مثل هذه القدور عند ابن جدعان ، وعند مطعم بن عدي .

أما التماثيل فهي معروفة ، والموقف منها واضح منذ زمن إبراهيم عليه السلام حينما كسَّرها ونهي عن عبادتها ، وهذا يردُّ قول مَنْ قال بأن التماثيل كانت حلالاً ، ثم فُتِن الناس فيها ، فعبدوها من دون الله فَحرِّمت ، إذن : كيف نخرج من هذا الموقف ؟ وكيف يمتنّ الله على نبيه سليمان أن سخر له من يعملون التماثيل وهي مُحرَّمة ؟

نقول : كانوا يصنعون له التماثيل لا لغرض التعظيم والعبادة ، إنما على هيئة الإهانة والتحقير ، كأن يجعلوها على هيئة رجل جبار ، أو أسد أضخم يحمل جزءاً من القصر أو شرفه من شرفاته ، أو يُصوِّرونها تحمل مائدة الطعام . . الخ . أي أنها ليست على سبيل التقديس .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ [الأنبياء : 82] حافظين للناس المعاصرين لهذه

الأعمال يروْنَ البشر ، والبشر لا يرَوْنَهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ . . . ﴾ [الأعراف : 27] .

أما سليمان عليه السلام فكان يرى الجنَّ ويراقبهم وهم يعملون له ، وفي قصته : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الموت مَا دَلَّهُمْ على مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ . . . ﴾ [سبأ : 14] .

وفي هذا دليل على أن الجن لا يعلمون الغيب ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجن أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ الغيب مَا لَبِثُواْ فِي العذاب المهين ﴾ [سبأ : 14] .

ويُقال : إن سليمان – عليه السلام – بعد أنْ امتنَّ الله عليه ، وأعطاه مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، أخذ هؤلاء الجن وحبسهم في القماقم حتى لا يعملوا لأحد غيره .

هذه مجرد لقطة من قصة سليمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(37/513)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ

شَاهِدِينَ (78) ﴾

أخرج الحاكم عن وهب قال : داود بن إيشا بن عويد بن عابر من ولد يهوذا بن يعقوب ، وكان قصيراً أزرق قليل الشعر طاهر القلب .

وأخرج ابن جرير عن مرة رضي الله عنه في قوله : ﴿ إذ يحكمان في الحرث ﴾ قال : كان الحرث نبتاً ، فنفشت فيه ليلاً فاختصموا فيه إلى داود فقضى بالغنم لأصحاب الحرث ، فمروا على سليمان فذكروا ذلك له فقال : لا تدفع الغنم . فيصيبون منها ويقوم هؤلاء على حرثهم ، فإذا عاد كما كان ردوا عليهم فنزلت ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه والحاكم والبيهقي في سننه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ﴾ قال : كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته الغنم ، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : أغير هذا يا نبي الله ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى إذا عاد الكرم كما كان دفعت الكرم لصاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها . فذلك قوله : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مسروق قال : الحرث الذي ﴿ نفشت فيه غنم القوم ﴾ إنما كان كرماً نفشت فيه غنم القوم فلم تدع فيه ورقة ولا

عنقوداً من عنب إلا أكلته ، فأتوا داود فأعطاهم رقابها ، فقال سليمان : إن صاحب الكرم قد بقي له أصل كرمه وأصل أرضه ، بل تؤخذ الغنم فيعطاها أهل الكرم فيكون لهم لبنها وصوفها ونفعها ، ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمرونه ويصلحونه حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم ، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم كرمهم .

(38/513)

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وداود وسليمان ﴾ إلى قوله : ﴿ وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ يقول : كنا لما حكما شاهدين ، وذلك أن رجلين دخلا على داود : أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : إن هذا أرسل غنمه في حرثي فلم تبق من حرثي شيئاً . فقال له داود : اذهب فإن الغنم كلها لك . فقضى بذلك داود ، ومر صاحب الغنم بسليمان فأخبره بالذي قضى به داود ، فدخل سليمان على داود فقال : يا نبي الله ، إن القضاء سوى الذي قضيت . فقال : كيف ؟ قال سليمان : إن الحرث لا يخفى على صاحبه ما يخرج منه في كل عام ، فله من صاحب الغنم أن ينتفع من أولادها وأصوافها وأشعارها حتى يستوفي ثمن الحرث ، فإن الغنم لها نسل كل عام . فقال داود : قد أصبت ، القضاء كما قضيت . ففهمها الله

سليمان .

وأخرج ابن جرير وعبد الرزاق عن مجاهد في الآية قال : أعطاهم داود رقاب الغنم بالحرث ، وحكم سليمان بجزة الغنم وألبانها لأهل الحرث ، وعليهم رعاؤها ويحرث لهم أهل الغنم حتى يكون الحرث كهيئته يوم أكل ، ثم يدفعونه إلى أهله ويأخذون غنمهم .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : النفش بالليل والهمل بالنهار . ذكر لنا أن غنم القوم وقعت في زرع ليلاً فرفع ذلك إلى داود ، فقضى بالغنم لأصحاب الزرع فقال سليمان : ليس كذلك ، ولكن له نسلها ورسلها وعوارضها وجزازها ، حتى إذا كان من العام المقبل كهيئته يوم أكل ، دفعت الغنم إلى أربابها وقبض صاحب الزرع زرعه . قال الله : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن قتادة والزهري في الآية قال : نفشت غنم في حرث قوم فقضى داود أن يأخذوا الغنم ففهمها الله سليمان ، فلما أخبر بقضاء داود قال : لا ، ولكن خذوا الغنم ولكم ما خرج من رسلها وأولادها وأصوافها إلى الحول .

(39/513)

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت امرأة عابدة من بني إسرائيل ، وكانت تبتلت وكان لها جاريتان جميلتان ، وقد تبتلت المرأة لا تريد الرجال ، فقالت إحدى الجاريتين للأخرى : قد طال علينا هذا البلاء ، أما هذه فلا تريد الرجال ولا نزال بشر ما كنا لها ، فلو أنا فضحناها فرجمت فصرنا إلى الرجال . فأتيا ماء البيض فأتياها وهي ساجدة ، فكشفتا عن ثوبها ونضحتا في دبرها ماء البيض ، وصرختا : إنها قد بغت . وكان من زنى فيهم حدّه الرجم ، فرفعت إلى داود وماء البيض في ثيابها فأراد رجمها ، فقال سليمان : ائتوا بنار ، فإنه إن كان ماء الرجال تفرق ؛ وإن كان ماء البيض اجتمع . فأتي بنار فوضعها عليه فاجتمع فدرأ عنها الرجم ، فعطف داود على سليمان فأحبه .

ثم كان بعد ذلك أصحاب الحرث وأصحاب الشياه ، فقضى داود عليه السلام بالغنم لأصحاب الحرث فخرجوا وأخرجت الرعاة معهم الكلاب فقال سليمان : كيف قضى بينكم ؟ فأخبروه فقال : لو وليت أمرهم لقضيت بغير هذا القضاء . فقيل لداود عليه السلام : إن سليمان يقول كذا وكذا . فدعاه فقال : كيف تقضي بينهم ؟ فقال : أدفع الغنم إلى أصحاب الحرث هذا العام فيكون لهم أولادها وسلالها وألبانها ومنافعها ، ويذر أصحاب الحرث الحرث هذا العام ، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه أخذ هؤلاء الحرث ودفعوا إلى هؤلاء الغنم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ نفشت ﴾ قال : رعت .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ نفشت ﴾ قال : النفش ، الرعي بالليل . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول لبيد :

بدلن بعد النفش الوجيفا . . . وبعد طول الحزن الصريفا

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي شيبة وأحمد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ،

(40/513)

" عن حرام بن محيصة ، أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فيه ، فقضى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " على أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار ، وإن ما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها " " .

وأخرج ابن مردويه " عن عائشة رضي الله عنها أن ناقة البراء بن عازب رضي الله عنه دخلت حائطاً لقوم فأفسدت عليهم ، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال : على أهل الحائط حفظ حائطهم بالنهار ، وعلى أهل المواشي حفظ مواشيهم بالليل ، ثم تلا هذه الآية

﴿ وداود وسليمان ﴾ الآية . ثم قال : نفشت ليلاً " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه ، أنه قرأ " فافهمناها سليمان " .

وأخرج ابن جرير عن الحسن رضي الله عنه قال : كان الحكم بما قضى به سليمان ، ولم يعب داود في حكمه .

وأخرج عبد الرزاق عن عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أهون أهل النار عذاباً ، رجل يطأ جمرة يغلي منها دماغه . فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : وما جرمه يا رسول الله ؟ قال : كانت له ماشية يغشى بها الزرع ويؤذيه ، وحرم الله الرزع وما حوله غلوة سهم ، فاحذروا أن لا ستحب الرجل ما له في الدنيا ويهلك نفسه في الآخرة " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينما امرأتان معهما ابنان لهما ، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين ، فتحاكما إلى داود فقضى له للكبرى فخرجتا فدعاهما سليمان فقال : هاتوا السكين أشقه بينهما . فقالت الصغرى : يرحمك الله ، هو ابنها لا تشقه . فقضى به للصغرى " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن امرأة حسناء من بني إسرائيل راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم فامتنعت على كل واحد منهم ، فاتفقوا فيما بينهم عليها ، فشهدوا عليها عند داود أنها مكنت من نفسها كلباً لها قد عوّدته ذلك منها ، فأمر برجمها . فلما كان عشية ذلك اليوم جلس سليمان واجتمع معه ولدان مثله فانتصب حاكماً ، وتزيا أربعة منهم بزي أولئك وآخر بزي المرأة ، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً . فقال سليمان : فرقوا بينهم . فسأل أولهم : ما كان لون الكلب ؟ فقال : أسود . فعزله واستدعى الآخر فسأله عن لونه فقال : أحمر ، وقال الآخر أغبش ، وقال الآخر أبيض . فأمر عند ذلك بقتلهم ، فحكي ذلك لداود فاستدعى من فوره أولئك الأربعة فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب فاختلفوا فيه فأمر بقتلهم .

وأخرج أحمد في الزهد عن ابن أبي نجيح قال : قال سليمان عليه السلام : أوتينا ما أوتي الناس ولم يؤتوا ، وعلمنا ما علم الناس ولم يعلموا .

فلم يجد شيئاً أفضل من ثلاث كلمات : الحلم في الغضب ، والرضا والقصد في الفقر ، والغنى وخشية الله في السر والعلانية .

وأخرج أحمد عن يحيى بن أبي كثير قال : قال سليمان عليه السلام لابنه : يا بني ، إياك وغضب الملك الظلوم فإن غضبه كغضب ملك الموت .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن خيثمة قال : قال سليمان عليه السلام : جربنا العيش لينه وشديده فوجدناه يكفي منه أدناه .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ، عن يحيى بن أبي كثير قال : قال سليمان لابنه : يا بني ، لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك وإن كانت بريئة . يا بني ، إن من الحياء صمتاً ومنه وقاراً يا بني ، إن أحببت أن تغيظ عدوك فلا ترفع العصا عن ابنك . يا بني ، كما يدخل الوتد بين الحجرين وكما تدخل الحية بين الحجرين ، كذلك تدخل الخطيئة بين البيعين .

(42/513)

وأخرج أحمد عن مالك بن دينار قال : بلغنا أن سليمان قال لابنه : امش وراء الأسد ولا تمش وراء امرأة .

وأخرج أحمد عن يحيى بن أبي كثير قال : قال سليمان لابنه : يا بني ، إن من سوء العيش نقلاً من بيت إلى بيت . وقال لابنه : عليك بخشية الله فإنها غلبت كل شيء .

وأخرج أحمد عن بكر بن عبد الله ، أن داود عليه السلام قال لابنه سليمان : أي شيء أبرد ، وأي شيء أحلى ، وأي شيء أقرب ، وأي شيء أبعد ، وأي شيء أقل ، وأي شيء

أكثر ، وأي شيء آنس ، وأي شيء أوحش ؟ ؟ قال : أحلى شيء روح الله من عباده ، وأبرد شيء عفو الله عن عباده ، وعفو العباد بعضهم عن بعض . وآنس شيء الروح تكون في الجسد ، وأوحش شيء الجسد تنزع منه الروح ، وأقل شيء اليقين ، وأكثر شيء الشك ، وأقرب شيء الآخرة من الدنيا ، وأبعد شيء الدنيا من الآخرة .

وأخرج أحمد عن يحيى بن أبي كثير قال : قال سليمان لابنه : لا تقطعن أمراً حتى تؤامر مرشداً ، فإذا فعلت ذلك فلا تحزن عليه . وقال : يا بني ، ما أقبح الخطيئة مع المسكنة ! وأقبح الضلالة بعد الهدى ! وأقبح من ذلك رجل كان عابداً فترك عبادة ربه .

وأخرج أحمد عن قتادة قال : قال سليمان عليه السلام : عجباً للتاجر : كيف يخلص يحلف بالنهار وينام بالليل ؟ ؟

وأخرج أحمد عن يحيى بن أبي كثير قال : قال سليمان لابنه : يا بني ، إياك والنميمة فإنها كحد السيف .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق حماد بن سلمة ، عن حميد الطويل : أن إياس بن معاوية لما استقضى ، آتاه الحسن فرآه حزيناً فبكى إياس فقال : ما يبكيك ؟ ! فقال : يا أبا سعيد ، بلغني أن القضاة ثلاثة : رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ، ورجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة .

فقال الحسن : إن فيما قص الله من نبأ داود ما يرد ذلك . ثم قرأ ﴿ وداود وسليمان إذ

يحكمان في الحرث ﴾ حتى بلغ ﴿ وكلاً آتينا حكماً وعلماً ﴾ فأثنى على سليمان ولم يذم داود .

(43/513)

ثم قال : أخذ الله على الحكام ثلاثة : أن لا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً ، ولا يتبعوا الهوى ، ولا يخشوا الناس . ثم تلا هذه الآية ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ [ص : 26] الآية وقال ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾ [المائدة : 44] وقال ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ [المائدة : 44] .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن قتادة في قوله : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ قال : يصلين مع داود إذا صلى ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم ﴾ قال : كانت صفائح ، فأول من مدها وحلقها داود عليه السلام .

وأخرج عن السدي في قوله : ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم ﴾ قال : هي دروع الحديد ﴿ لتحصنكم من بأسكم ﴾ قال : من رتع السلاح فيكم .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم ، أنه قرأ " لنحصنكم " بالنون .

وأخرج الفريابي عن سليمان بن حيان قال : كان داود إذا وجد فترة ، أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كان عمر آدم ألف سنة ، وكان عمر داود ستين سنة . فقال آدم : أي رب ، زده من عمري أربعين سنة . فأكمل لآدم ألف سنة وأكمل لداود مائة سنة " .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي الدنيا في ذكر الموت والحاكم وصححه ، عن ابن عباس قال : مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة ، فعكفت الطير عليه تظله .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كان سليمان عليه السلام يوضع له ستمائة ألف كرسي ، ثم يجيء أشراف الناس فيجلسون مما يليه ، ثم يجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي أشراف الإنس ، ثم يدعو الطير فتظلهم ، ثم يدعو الريح فتحملهم فيسير مسيرة شهر في الغداة الواحدة .

(44/513)

وأخرج الحاكم عن محمد بن كعب قال : بلغنا أن سليمان عليه السلام كان عسكره مائة فرسخ ، خمسة وعشرون منها للإنس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش

وخمسة وعشرون للطير ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب ، فيها ثلثمائة حرة وسبعمائة سرية ، فأمر الريح العاصف فرفعته فأمر الريح فسارت به ، فأوحى الله إليه " أني أزيد في ملكك أن لا يتكلم أحد بشيء إلا جاءت الريح فأخبرتك " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : كان سليمان يأمر الريح فتجتمع كالطود العظيم ، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها ، ثم يدعو بفرس من ذوات الأجنحة فترتفع حتى تصعد على فراشه ، ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف دون السماء ، فهو يطأطئ رأسه ما يلتفت يميناً ولا شمالاً تعظيماً لله وشكراً لما يعلم من صغر ما هو فيه في ملك الله ، يضعه الريح حيث يشاء أن يضعه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : كان لسليمان مركب من خشب وكان فيه ألف ركن ، في كل ركن ألف بيت يركب معه فيه الجن والإنس ، تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك المركب ، فإذا ارتفع جاءت الريح الرخاء فسارت به وساروا معه فلا يدري القوم إلا قد أظلهم من الجيوش والجنود .

وأخرج ابن عساكر عن السدي في قوله : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة ﴾ قال : الريح الشديدة ﴿ تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ قال : أرض الشام .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ولسليمان الريح ﴾ الآية . قال : ورث الله لسليمان داود فورثه نبوته وملكه ، وزاده على ذلك أنه سخر له

الرياح والشياطين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه قرأ ﴿ ولسليمان الريح ﴾ يقول : سخرنا له الريح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ﴾ قال : يغوصون في الماء .

(45/513)

وأخرج الطبراني والديلمي عن ابن مسعود قال : " ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رقية الحية فقال : اعرضها علي . فعرضها عليه بسم الله شجنية قرنية ملحة بحر قفطا . فقال : هذه مواثيق أخذها سليمان على الهوام ولا أرى بها بأساً " .

وأخرج الحاكم عن الشعبي قال : أرخ بنو إسحاق من مبعث موسى إلى ملك سليمان .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(46/513)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِيحَ ﴾ : العامَّةُ على النصب أي : وسَخَّرْنا الريحَ لسليمانَ ، فهي منصوبةٌ بعاملٍ مقدرٍ . وقرأ ابنُ هرمزٍ ، وأبو بكر عن عاصم في روايةٍ ، بالرفع على الابتداءِ ، والخبرُ الجارُّ قبلَه . وقرأ الحسن وأبو رجاء بالجمعِ والنصبِ . وأبو حيوةَ بالجمعِ والرفعِ . وقد تقدَّم الكلامُ على الجمع والإفرادِ في البقرة ، وبعضُ هؤلاء قرأ كذلك في سبأ . وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله : ﴿ عَاصِفَةً ﴾ حالٌ . والعاملُ فيها على قراءةِ مَنْ نصب : سَخَّرْنا المقدَّر ، وفي قراءةِ مَنْ رَفَع : الاستقرارُ الذي تعلَّقَ به الخبرُ . يُقال : عَصَفَتِ الريحُ تَعْصِفُ عَصْفاً وعُصُوفاً فيه عاصِفٌ وعاصفةٌ . وأسدٌ تقولُ : أَعْصَفَتْ بالألفِ تُعْصِفُ ، فهي مُعْصِفٌ ومُعْصِفَةٌ .

و " تَجْري " يجوزُ أَنْ تكونَ حالاً ثانيةً ، وأَنْ تكونَ حالاً من الضميرِ في " عاصفةً " فتكونُ حالَيْنِ متداخلين . وزعم بعضُهم أنَّ ﴿ التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ صفةٌ للريح ، وفي الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ . والتقدير : الريحَ التي باركْنا فيها إلى الأرضِ ، وهو تَعَسُّفٌ .

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82)

قوله : ﴿ مَن يَغُوصُونَ ﴾ : يجوز أن تكونَ موصولةً أو موصوفةً . وعلى كلا التقديرين

فموضعُها : إمَّا نَصْبٌ نَسَقاً على " الريح " أي : وسَخَّرْنا له مَنْ يَغُوْصُون ، أو رفعٌ على الابتداءِ . والخبرُ في الجارِّ قبلَه . وجُمِع الضميرُ حَمْلاً على معنى " مَنْ " . وحَسَّنَ ذلك تقدُّمُ الجمعِ في قولِه ﴿ الشياطين ﴾ ، فلمَّا تَرَشَّح جانبُ المعنى رُوْعِي . ونظيرُه قولُه :

3356 وإنَّ مِن النَّسْوان مَنْ هي روضةٌ . . . تَهِيْجُ الرياضُ قبلَها وتَصُوْحُ

راعى التأنيثَ لتقدُّمِ قولِه " وإنَّ مِن النِّسْوانِ " .

و﴿ دُونَ ذلك ﴾ صفةٌ لـ " عَمَلاً " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 187 . 189 ﴾

(47/513)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾

سخَّرَ اللَّهُ له الريحَ غُدُوُّها شَهْرٌ ورواحُها شَهْرٌ ، ولو أراد أن يزيد في قَدْر مسافتها شِبْراً لما استطاع ، تعريفاً بأنه موقوفٌ على حكم التقدير ، فشهود التقدير كان يمنعه عن الإعجاب بما أُكْرِمَ به من التسخير ، ولقد نبَّه – سبحانه – من حيث الإشارة أن الذي مَلَكَه سليمان

كالريح إذا مرَّ وفات ، أو أنه لا يَبْقَى باليدِ منه شيء .

وفي القصة أنه لاحَظَ ذلك يوماً فمالت الريح ببسَاطِه قليلاً ، فقال سليمانُ لريحِ : استو .

فقالت له الريح : استو أنت . أي إنما مَيْلِي ببِسَاطِكَ لميلك بقلبك بملاحظتك فإذا استويتَ أنتَ استويتُ أنا .

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82)

إنما كان ذلك أياماً قلائل في الحقبقة . ثم إنه أراد يوماً أن يعودَ إلى مكانه فجاءه مَلَكُ الموتِ فطَالَبَه بروحه ، فقال : إليَّ حين أرجع إلى مكاني .

فقال له : لا وجه للتأخير ، وقَبضه وهو قائم يتكىء على عصاه وبقي بحالته ، ولم تعلم الجِنُّ إلى أنْ أكَلَتْ دابة الأرض – كما في القصة – عصاه ، فلما خَرّ سليمان عَلِمَتْ الشياطينُ بموته ، وتحققوا أنَّ الذي بالعصا قِيامُه فَقَهْرُ الموت يلحقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 513.514 ﴾

(48/513)

فصل فى قصة داود وسليمان عليهما السلام

قال ابن كثير :

قصة داود وما كان في أيامه ثم فضائله وشمائله ودلائل نبوته واعلامه

هو داود بن ايشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عوينا ذب بن إرم بن حصرون ابن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس

قال

(49/513)

محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه كان داود عليه السلام قصيرا أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب ونقيه تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك إلى داود عليه السلام وجمع الله له بين الملك والنبوة بين خير الدنيا والآخرة وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر فاجتمع في داود هذا وهذا كما قال تعالى وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين أي لولا اقامة الملوك حكاما على الناس لأكل قوي الناس ضعيفهم ولهذا جاء في بعض الآثار السلطان

ظل الله في أرضه وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن وقد ذكر ابن جرير في تاريخه أن جالوت لما بارز طالوت فقال له اخرج إلي وأخرج إليك فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت قال وهب بن منبه فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود وقيل إن ذلك عن أمر شمويل حتى قال بعضهم أنه ولاه قبل الوقعة قال ابن جرير والذي عليه الجمهور أنه إنما ولي ذلك بعد قتل جالوت والله أعلم وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم وأن النهر الذي هناك هو المذكور في الآية فالله أعلم وقال تعالى ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا اني بما تعملون بصير وقال تعالى وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال وقدر في السرد أي لا تدق المسمار فيغلق ولا تغلظه

(50/513)

فيفصم قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة

قال الحسن البصري وقتادة والأعمش كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة قال قتادة فكان أول من عمل الدروع من زرد وإنما كانت قبل ذلك من صفائح قال ابن شوذب كان يعمل كل يوم درعا يبيعها بستة آلاف درهم وقد ثبت في الحديث أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وان نبي الله داود كان يأكل من كسب يده وقال تعالى واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب قال ابن عباس ومجاهد الايد القوة في الطاعة يعني ذا قوة في العبادة والعمل الصالح قال قتادة اعطى قوة في العبادة وفقها في الإسلام قال وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أحب الصلوة إلى الله صلاة داود

(51/513)

وأحب الصيام إلى الله صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى وقوله انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أواب كما قال يا جبال أوبي معه والطير أي سبحي معه قاله ابن

عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق أي عند آخر النهار وأوله وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحدا بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيا صلوات الله وسلامه عليه وقال الأوزاعي حدثني عبد الله بن عامر قال اعطى داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط حتى أن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشا وجوعا وحتى ان الأنهار لتقف وقال وهب بن منبه كان لا يسمعه أحد الا حجل كهيئة الرفص وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الأذان بمثله فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعا وقال أبو عوانة الاسفراييني حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا محمد بن منصور الطوسي سمعت صبيحا أنبئنا برادح قال أبو عوانة وحدثني أبو العباس المدني حدثنا محمد بن صالح العدوي حدثنا سيار هو ابن حاتم عن جعفر عن مالك قال كان داود عليه السلام إذا أخذ في قراءة الزبور تفتقت العذارى وهذا غريب وقال عبد الرزاق عن ابن جريج سألت عطاء عن القراءة على الغناء فقال وما بأس بذلك سمعت عبيد بن عمر يقول كان داود عليه السلام يأخذ العزفة فيضرب بها فيقرأ عليها فترد عليه صوته يريد بذلك أن يبكي وتبكي وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت أبي موسى الأشعري

وهو يقرأ فقال لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه وقال أحمد

(52/513)

حدثنا حسن حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمر عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقد أعطى أبو موسى من مزامير داود على شرط مسلم وقد روينا عن أبي عثمان الترمذي أنه قال لقد سمعت البربط والمزمار فما سمعت صوتا أحسن من صوت أبي موسى الأشعري وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور كما قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خفف على داود القراءة فكان يأمر بدابته فتسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته وكان لا يأكل الا من عمل يديه وكذله رواه البخاري

منفردا به عن عبد الله بن محمد بن عبد الرزاق به ولفظه خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل الا من عمل يديه ثم قال البخاري ورواه موسى بن عقبة عن صفوان هو ابن سليم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة

عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد أسنده ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام في تاريخه من طرق عن إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة ومن طريق أبي عاصم عن أبي بكر السبري عن صفوان بن سليم به

(53/513)

والمراد بالقرآن ههنا الزبور الذي أنزله عليه وأوحاه إليه وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظا فإنه كان ملكا له اتباع فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغني به على وجه التخشع صلوات الله وسلامه عليه وقد قال الله تعالى وآتينا داود زبورا والزبور كتاب مشهور وذكرنا في التفسير الحديث الذي رواه أحمد وغيره أنه أنزل في شهر رمضان وفيه من المواعظ والحكم ما هو معروف لمن نظر فيه وقوله وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب أي أعطيناه ملكا عظيما وحكما نافذا روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام في بقر ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه فأنكر المدعى عليه فأرجأ أمرهما إلى الليل فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدعي فلما أصبح قال له داود ان الله قد أوحى إلي أن أقتلك فأنا قاتلك لا محالة فما خبرك فيما ادعيته على هذا قال والله يا نبي الله إني لمحق فيما ادعيت عليه

ولكني كنت اغتلت أباه قبل هذا فأمر به داود فقتل فعظم أمر داود في بني إسرائيل جدا وخضعوا له خضوعا عظيما قال ابن عباس وهو قوله تعالى وشددنا ملكه وقول تعالى وآتيناه الحكمة أي النبوة وفصل الخطاب قال شريح والشعبي وقتادة وأبو عبد الرحمن السلمي وغيرهم فصل الخطاب الشهود والأيمان يعنون بذلك البينة على المدعي واليمين على من أنكر وقال مجاهد والسدي هو اصابة القضاء وفهمه وقال مجاهد هو الفصل في الكلام وفي الحكم واختاره ابن جرير وهذا لا ينافي ما روى عن أبي موسى أنه قول أما بعد وقال وهب بن منبه لما كثر الشر وشهادات الزور في بني إسرائيل أعطي داود سلسلة لفصل القضاء فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس وكانت من ذهب فإذا تشاجر الرجلان في حق فأيهما كان محقا نالها والآخر لا يصل إليها فلم تزل كذلك حتى اودع رجل رجلا لؤلؤة فجحدها منه واتخذ عكازا وأودعها فيه فلما حضرا عند

(54/513)

الصخرة تناولها المدعي فلما قيل للآخر خذها بيدك عمد إلى العكاز فأعطاه المدعى وفيه تلك اللؤلؤة وقال اللهم انك تعلم أني دفعتها إليه ثم تناول السلسلة فنالها فأشكل أمرها على بني إسرائيل ثم رفعت سريعا من بينهم ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين وقد رواه

إسحاق بن بشر عن ادريس بن سنان عن وهب به بمعناه وهل أتاك نبؤ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم

قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصا وأخبارا أكثرها اسرائيليات ومنها ما هو مكذوب لا محالة تركنا ايرادها في كتابنا قصدا اكتفاء واقتصارا على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

(55/513)

وقد اختلف الأئمة فس سجدة ص هل هي من عزائم السجود أو انما هي سجدة شكر ليست من عزائم السجود على قولين قال البخاري حدثنا محمد بن عبد الله حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي عن العوام قال سألت مجاهدا عن سجدة ص فقال سألت ابن عباس

من أين سجدت قال أو ما تقرأ ومن ذريته داود وسليمان أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده فكان داود ممن أمر نبيكم صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل هو ابن علية عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال في السجود في ص ليست من عزائم السجود وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها وكذا رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث أيوب وقال الترمذي حسن صحيح وقال النسائي أخبرني أخبرني إبراهيم بن الحسن المقسمي حدثنا حجاج بن محمد عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في ص وقال سجدها داود توبة ونسجدها شكرا تفرد به أحمد ورجاله ثقات وقال أبو داود حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن أبي سعيد الخدري قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر ص فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد معه الناس فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشرف الناس للسجود فقال إنما هي توبة نبي ولكن رأيتكم تشرفتم فنزل وسجد تفرد به أبو داود واسناده على شرط الصحيح وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حميد حدثنا بكر هو ابن عمر وأبو الصديق الناجي أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري رأى رؤيا أنه يكتب ص فلما بلغ إلى

التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجدا قال فقصها على النبي صلى الله عليه وسلم فلم يزل يسجد بها بعد تفرد به أحمد وروى الترمذي وابن ماجه من حديث محمد

(56/513)

بن يزيد بن خنيس عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد قال قال لي ابن جريج حدثني جدك عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني

رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت الشجرة بسجودي فسمعتها تقول وهي ساجدة اللهم اكتب لي بها عندك أجرا واجعلها لي عندك ذخرا وضع عني بها وزرا واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود وقال ابن عباس فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة ثم قال الترمذي غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه

(57/513)

وقد ذكر بعض المفسرين أنه عليه السلام مكث ساجدا أربعين يوما وقاله مجاهد والحسن وغيرهما وورد في ذلك حديث مرفوع لكنه من رواية يزيد الرقاشي وهو ضعيف متروك الرواية قال الله تعالى فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب أي إن له يوم القيامة لزلفى وهي القربة التي يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها كما ثبت في حديث المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وحكمهم وما ولوا وقال الإمام أحمد في مسنده حدثنا يحيى بن آدم حدثنا فضيل عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا امام عادل وان أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا امام جائر وهكذا رواه الترمذي من حديث فضيل بن مرزوق الأغر به وقال لا نعرفه مرفوعا الا من هذا الوجه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر بن سليمان سمعت مالك بن دينار في قوله وان له عندنا لزلفى وحسن مآب قال يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش فيقول الله يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني في الدنيا فيقول وكيف وقد سلبته فيقول اني أرده عليك اليوم قال فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن

الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب هذا خطاب من الله تعالى مع داود والمراد ولاة الأمور وحكام الناس وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من الله لا ما سواه من الآراء والأهواء وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به في ذلك الوقت في العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات حتى إنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة

(58/513)

ليلا ونهارا كما قال تعالى اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور قال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا اسمعيل بن ابرهيم بن بسام حدثنا صالح المزي عن أبي عمران الجوني عن أبي الجلد قال قرأت في مسألة داود عليه السلام أنه قال يا رب كيف لي أن أشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك قال فأتاه الوحي أن يا داود ألست تعلم أن الذي بك من النعم مني قال بلى يا رب قال فاني أرضى بذلك منك وقال البيهقي أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا أبو بكر بن بالويه حدثنا محمد بن يونس القرشي حدثنا روح بن عبادة حدثني عبد الله بن لاحق عن ابن

(59/513)

شهاب قال قال داود الحمد لله كما ينبغي لكم وجهه وعز جلاله فأوحى الله إليه إنك أتعبت الحفظة يا داود ورواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن علي بن الجعد عن الثوري مثله وقال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد أنبأنا سفيان الثوري عن رجل عن وهب بن منبه قال إن في حكمة آل داود حق على العاقل أن لا غفل عن أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات واجمام للقلوب وحق على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ويقبل على شأنه وحق على العاقل أن لا يظعن إلا في إحدى ثلاث زاد لمعاده ومرمة لمعاشه ولذة في غير محرم وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن أبي بكر بن أبي خيثمة عن ابن مهدي عن سفيان عن أبي الأغر عن وهب بن منبه فذكره ورواه أيضا عن علي بن الجعد عن عمر بن الهيثم الرقاشي عن أبي الأغر عن وهب بن منبه فذكره وأبو الأغر هذا هو الذي أبهمه ابن المبارك في روايته قاله ابن عساكر وقال عبد الرزاق أنبأنا بشر بن رافع حدثنا شيخ من أهل صنعاء يقال له أبو عبد الله قال سمعت وهب بن منبه فذكر مثله وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرة مليحة منها قوله كن لليتيم كالأب الرحيم واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد وروى بسند غريب مرفوعا قال داود يا زارع السيئات أنت تحصد

شوكها وحسكها وعن داود عليه السلام أنه قال مثل الخطيب الأحمق في نادي القوم كمثل المغني عند رأس الميت وقال أيضا ما أقبح الفقر بعد الغنى وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى وقال انظر ما تكره أن يذكر عنك في نادي القوم فلا تفعله اذا خلوت وقال لا تعدن أخاك بما لا تنجزه له فان ذلك عداوة ما بينك وبينه وقال محمد بن سعد أنبأنا محمد بن عمر الواقدي حدثني هشام بن سعد عن عمر مولى عفرة قال قالت يهود لما رأت رسول

(60/513)

الله صلى الله عليه وسلم يتزوج النساء انظروا إلى هذا الذي لا يشبع من الطعام ولا والله ما له همة إلا إلى النساء حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك فقالوا لو كان نبيا ما رغب في النساء وكان أشدهم في ذلك حيي بن أخطب فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله عليه وسلامه فقال أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله يعني بالناس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما يعني ما أتى الله سليمان ابن داود كانت له الف امرأة سبعمائة مهرية وثلثمائة سرية وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التي تزوجها بعد الفتنة هذا أكثر مما لمحمد صلى الله عليه وسلم وقد ذكر الكلبي نحو هذا وانه

كان لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان الف امرأة منهن ثلثمائة سرية (1) وروى الحافظ في تاريخه في ترجمة صدقة الدمشقي الذي يروى عن ابن عباس من طريق الفرج

(61/513)

ابن فضالة الحمصي عن أبي هريرة الحمصي عن صدقة الدمشقي أن رجلا سأل ابن عباس عن الصيام فقال لأحدثنك بحديث كان عندي في البحث مخزونا إن شئت أنبأتك بصوم داود فإنه كان صواما قواما وكان شجاعا لا يفر إذا لاقى وكان يصوم يوما ويفطر يوما وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الصيام صيام داود وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتا يكون فيها وكانت له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ويبكي ببكائه كل شيء ويصرف بصوته الهموم والمحموم وان شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان فانه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام ومن وسطه ثلاثة أيام ومن آخره ثلاثة أيام يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام وان شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى بن مريم فانه كان يصوم الدهر ويأكل الشعير ويلبس الشعر يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد ليس له ولد يموت ولا بيت يخرب وكان أينما أدركه الليل صفن بين قدميه وقام يصلي حتى يصبح وكان راميا لا يفوته صيد يريده وكان يمر بمجالس بني إسرائيل فيقضي لهم حوائجهم

وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران فإنها كانت تصوم يوما وتفطر يومين

وإن شئت أنبأتك بصوم النبي العربي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم فإنه كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ويقول إن ذلك صوم الدهر وقد روى الإمام أحمد عن أبي النصر عن فرج بن فضالة عن أبي هرم عن صدقة عن ابن عباس مرفوعا في صوم داود

كمية حياته وكيفية وفاته عليه السلام

(62/513)

قد تقدم في ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ورأى فيهم رجلا يزهر فقال أي رب من هذا قال هذا ابنك داود قال أي رب كم عمره قال ستون عاما قال أي رب زد في عمره قال لا الا أن أزيده من عمرك وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاما فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال بقي من عمري أربعون سنة ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود فأتمها الله لآدم الف سنة ولداود مائة سنة رواه أحمد عن ابن عباس والترمذي وصححه عن أبي هريرة وابن خزيمة وابن حبان وقال الحاكم على شرط مسلم وقد تقدم ذكر طرقه والفاظه في قصة آدم قال ابن جرير وقد زعم بعض أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعا وسبعين سنة قلت هذا غلط

مردود عليهم قالوا وكان مدة ملكه أربعين سنة وهذا قد يقبل نقله لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه

(63/513)

وأما وفاته عليه السلام فقال الإمام أحمد في مسنده حدثنا قبيصة حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع قال فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة والله لنفتضحن بداود فجاء داود فإذا الرجل قائم في وسط الدار فقاله له داود من أنت قال أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب فقال داود أنت والله إذن ملك الموت مرحبا بأمر الله ثم مكث حتى قبضت روحه فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس فقال سليمان للطير أظلي على داود فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض فقال سليمان للطير اقبضي جناحا قال قال أبو هريرة فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يرينا كيف فعلت الطير وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وغلبت عليه يومئذ

المضرحية انفرد بإخراجه الإمام أحمد وأسناده جيد قوي رجاله ثقات ومعنى قوله وغلبت عليه يومئذ المضرحية أي وغلبت على التظليل عليه الصقور الطوال الأجنحة وأحدها مضرحي قال الجوهري وهو الصقر الطويل الجناح وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال مات داود عليه السلام فجأة وكان بسبت وكانت الطير تظله وقال السدي أيضا عن أبي مالك وعن سعيد بن جبير قال مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة ومات يوم الأربعاء فجأة وقال أبو السكن الهجري مات إبراهيم الخليل فجأة وداود فجأة وابنه سليمان فجأة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين رواه ابن عساكر وروى عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه فقال له دعني انزل أو أصعد فقال يا نبي الله قد نفذت السنون

(64/513)

والشهور والآثار والأرزاق قال فخر ساجدا على مرقاة من تلك المراقي فقبضه وهو ساجد وقال إسحاق بن بشر (1) أنبأنا وافر بن سليمان عن أبي سليمان الفلسطيني عن وهب بن منبه قال إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا في الشمس في يوم

صائف قال وكان قد شيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعا عليه منهم على داود قال فآذاهم الحر فنادوا سليمان عليه السلام ان يعمل لهم وقاية لما أصابهم من الحر فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت فأمرها أن تظل الناس فتراص بعضهم إلى بعض من كل وجه حتى استمسكت الريح فكاد الناس أن يهلكوا غما فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم فخرج سليمان فنادى الطير ان أظلي الناس من ناحية الشمس وتنحي عن ناحية الريح فعلت فكان الناس في ظل وتهب عليهم الريح فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو همام الوليد بن شجاع حدثني الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميد عن الوضين بن عطاء عن نصر بن علقمة عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد قبض الله داود من بين أصحابه ما فتنوا ولا بدلوا ولقد مكث اصحاب المسيح على سننه وهديه مائتي سنة هذا حديث غريب وفي رفع نظر والوضين بن عطاء كان ضعيفا في الحديث والله اعلم

(65/513)

قصة سليمان بن داود عليهما السلام قال الحافظ بن عساكر هو سليمان بن داود بن ايشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عمينا داب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبي الربيع نبي الله بن نبي الله جاء في بعض الآثار انه دخل دمشق قال ابن ماكولا فارص بالصاد المهملة وذكر نسبه قريبا مما ذكره ابن عساكر قال الله تعالى وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين أي ورثه في النبوة والملك وليس المراد ورثه في المال لأنه قد كان له بنون غيره فما كان ليخص بالمال دونهم وأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا نورث ما تركنا فهو صدقة وفي لفظ نحن معاشر الأنبياء لا نورث فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم بل يكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخصون بها أقرباؤهم لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير الآية يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وارادتها وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي أنبأنا أبو عبد الله الحافظ (1) أنبأنا علي بن حشاد (2) حدثنا إسمعيل بن قتيبة حدثنا علي بن قدامة حدثنا أبو جعفر الاسواني (3) يعني محمد بن عبد الرحمن عن أبي

يعقوب العمي حدثني أبو مالك قال مر سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة فقاله لأصحابه أتدرون ما يقول قالوا وما يقول يا نبي الله قال يخطبها إلى نفسه ويقول زوجيني أسكنك أي غرف دمشق شئت قال سليمان عليه السلام لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد ولكن كل خاطب كذاب رواه ابن عساكر عن أبي القاسم زاهر بن طاهر (2) عن البيهقي به وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات وأوتينا من كل شيء أي من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من النطقات والصامتات ثم قال إن هذا لهو الفضل المبين أي من بارىء البريات وخالق الأرض والسموات كما قال تعالى وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني

ان أشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين

(67/513)

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه ركب يوما في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير فالجن والإنس يسيرون معه والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة أي نقباء يردون أوله على آخره فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه قال الله تعالى حتى إذا أتوا على وداي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فأمرت وحذرت واعذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور وقد ذكر وهب أنه مر وهو على البساط بواد بالطائف وأن هذه النملة كان اسمها جرسا وكانت من قبيلة يقال لهم بنو الشيصبيان وكانت عرجاء وكانت بقدر الذئب وفي هذا كله نظر بل في هذا السياق دليل على أنه كان في موكبه راكبا في خيوله وفرسانه لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيء ولا وطء لأن البساط كان

عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والاثقال والخيام والأنعام والطير من فوق ذلك كله كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى

(68/513)

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لامتها من الرأي السديد والأمر الحميد وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان وتخاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان في فهم لغاتها مزية على غيره إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها لم يكن في هذا أيضا فائدة يعول عليها ولهذا قال رب أوزعني أي ألهمني وأرشدني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره وأن ييسر عليه العمل الصالح وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصاحين وقد استجاب الله تعالى له والمراد بوالديه داود عليه السلام وأمه وكانت

من العابدات الصالحات كما قال سنيد بن داود عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قالت أم سليمان بن داود يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيرا يوم القيامة رواه ابن ماجة عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه (1) وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة احدى قوائمها تستسقي فقال لأصحابه ارجعوا فقد سقيتم إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها قال ابن عساكر وقد روي مرفوعا ولم يذكر فيه سليمان ثم ساقه من طريق محمد بن عزيز عن سلامة بن روح بن خالد عن عقيل عن ابن شهاب حدثني أبو سلمة عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون الله فإذا هم بنملة رافعة

(69/513)

بعض قوائمها إلى السماء فقال النبي ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة وقال السدي أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام فأمر فأمر الناس فخرجوا فإذا بنملة قائمة على رجليها باسطة يديها وهي تقول اللهم إنا خلق من خلقك ولا غناء بنا عن فضلك قال فصب الله عليهم المطر قال تعالى وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان

من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون إلا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون

(70/513)

قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والإمر إليك فانظري ماذا تأمرين قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا اعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها

أذلة وهم صاغرون يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقدمون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة كما هي عادة الجنود مع الملوك وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره انهم كانوا إذا اعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار يجيء فينظر له هل بهذه البقاع من ماء وفيه من القوة التي اودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم فلما تطلبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقده ولم يجده في موضعه من محل خدمته فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين أي ماله مفقود من ههنا أو قد غاب عن بصري فلا أراه بحضرتي لأعذبنه عذابا شديدا توعده بنوع من العذاب اختلف المفسرون فيه والمقصود حاصل على كل تقدير أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين أي بحجة تنجيه من هذه الورطة قال الله تعالى فمكث غير بعيد أي فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها فقال لسليمان احطت بما لم أحط به أي اطلعت على ما لم تطلع عليه وجئتك من سبأ بنبأ يقين أي بخبر صادق إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين وكان الملك قد آل في ذلك الزمان

إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم

وذكر الثعلبي وغيره أن قومها ملكوا عليهم بعد أبيها رجلا فعم به الفساد فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها فلما دخلت عليه سقته خمرا ثم حزت رأسه ونصبته على بابها فأقبل الناس عليها وملكوها عليهم وهي بلقيس بنت السيرح وهو الهدهاد وقيل شراحيل بن ذي جدن بن السيرح بن الحرث بن قيس بن صيفي بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان أبوها من أكابر الملوك وكان يأبى أن يتزوج من أهل اليمن فيقال إنه تزوج بامرأة من الجن اسمها ريحانة بنت السكن فولدت له هذه المرأة واسمها تلقمة ويقال لها بلقيس وقد روى الثعلبي من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كان أحد أبوي بلقيس جنيا وهذا حديث غريب وفي سنده ضعف وقال الثعلبي أخبرني أبو عبد الله بن قبحونة حدثنا أبو بكر بن جرحة حدثنا ابن أبي الليث حدثنا أبو كريب حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن أبي بكرة قال ذكرت بلقيس

(72/513)

عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة إسماعيل بن مسلم هذا هو المكي ضعيف وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عوف عن الحسن عن أبي بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ورواه الترمذي والنسائي من حديث حميد عن الحسن عن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال الترمذي حسن صحيح وقوله وأوتيت من كل شيء أي مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ولها عرش عظيم يعني سرير مملكتها كان مزخرفا بأنواع الجواهر والآلي والذهب والحلي الباهر ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله واضلال الشيطان لهم وصده اياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون أي يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم أي له العرش العظيم الذي لا أعظم منه في المخلوقات فعند ذلك بعث معه سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة والإذعان إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه ولهذا قال لهم ألا تعلوا على أي لا تستكبروا عن طاعتي وامتثال أوامري واتوني مسلمين أي وأقدموا علي سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة فلما جاءها الكتاب مع الطير ومن ثم اتخذ الناس البطائق ولكن أين الثريا من الثرى تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن

الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فالقاه إليها وهي في خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها قالت يا أيها الملأ اني القى الى كتاب كريم ثم قرأت عليهم عنوانه أولا انه من سليمان ثم قرأته وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي واتوني مسلمين ثم شاورتهم في أمرها وما قد حل بها

(73/513)

وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمرها ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون تعني ما كنت لأبت أمرا الا وأنتم حاضرون قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد يعنون لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال فإن أردت منا ذلك فانا عليه من القادرين ومع هذا الأمر اليك فانظري ماذا تأمرين فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة وفوضوا اليها في ذلك الأمر لترى فيه ما هو الا رشد لها ولهم فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون تقول برأيها السديد إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص

الأمر من بينكم الا إلى ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة الا على وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صرفا ولا عدلا لأنهم كافرون وهو

(74/513)

وجنوده عليهم قادرون ولهذا لما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خيرا مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة كما ذكره المفسرون ثم قال لرسولها اليه ووافدها الذي قدم عليه والناس حاضرون يسمعون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون يقول ارجع بهديتك التي قدمت بها الى من قدمن بها فان عندي مما قد أنعم الله علي وأسداه إلي من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من هذا الذي أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها أي فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا مما نعتهم ولا قتالهم ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة وهم صاغرون عليهم الصغار والعار والدمار فلما بلغهم ذلك عن

نبي الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة فبادروا إلى اجابته في تلك الساعة وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم اليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان ما قصه الله عنه في القرآن قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك واني عليه لقوي أمين قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم قال نكروا لها عشرها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم ن قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين

(75/513)

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك يعني

قبل أن ينقضي مجلس حكمك وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال واني عليه لقوي أمين أي واني لذو قدرة على احضاري اليك وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك قال الذي عنده علم من الكتاب المشهور أنه آصف بن برخيا وهو ابن خالة سليمان وقيل هو رجل من مؤمني الجان كان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم وقيل رجل من بني إسرائيل من علمائهم وقيل إنه سليمان وهذا غريب جدا وضعفه السهيلي بأنه لا يصح في سياق الكلام قال وقد قيل فيه قول رابع وهو جبريل أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك قيل معناه قبل أن تبعث رسولا إلى أقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض ثم يعود اليك وقيل قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من

(76/513)

الناس وقيل قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك وقيل قبل أن يرجع اليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته وهذا أقرب ما قيل فلما رآه مستقرا عنده أي فلما رأى عرش بلقيس مستقرا عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر أي هذا من فضل الله علي وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ومن شكر فإنما يشكر

لنفسه أي إنما يعود نفع ذلك عليه ومن كفر فإن ربي غني كريم أي غني عن شكر الشاكرين ولا يتضرر بكفر الكافرين ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حلى هذا العرش وينكر لها ليختبر فهمها وعقلها ولهذا قال ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وهذا من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ولم تكن تعلم أن أحدا يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب قال الله تعالى اخبارا عن سليمان وقومه وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين أي ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتباعا لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل في ممره ماء وجعل عليه سقفا من زجاج وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين وقد قيل إن الجن أرادوا أن يبشعوا منظرها عند سليمان وأن تبدي عن ساقيها ليرى ما عليها من الشعر فينفره ذلك منها وخشوا أن يتزوجها لأن أمها من الجان فتتسلط عليهم معه وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة وهذا ضعيف وفي الأول أيضا نظر والله أعلم الا أن سليمان قيل إنه

(77/513)

لما أراد إزالته حين عزم على تزوجها سأل الانس عن زواله فذكروا له الموسى فامتنعت من ذلك فسأل الجان فصنعوا له النورة ووضعوا له الحمام فكان أول من دخل الحمام فلما وجد مسه قال أوه من عذاب اوه أوه قبل أن لا ينفع اوه رواه الطبراني مرفوعا وفيه نظر

وقد ذكر الثعلبي وغيره أن سليمان لما تزوجها اقرها على مملكة اليمن وردها اليه وكان يزورها في كل شهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن غمدان وسالحين وبيتون فالله أعلم وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه أنه سليمان لم يتزوجها بل زوجها بملك همدان وأقرها على ملك اليمن وسخر زوبعة ملك جن اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التي ذكرناها باليمن والأول أشهر وأظهر والله أعلم

(78/513)

وقال تعالى في سورة ص ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا ثم أناب قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي انك أنت الوهاب فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن مآب يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام ثم أثنى الله عليه تعالى فقال نعم العبد إنه أواب أي رجاع مطيع لله ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة الجياد وهي المضمرة السراع فقال اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب يعني الشمس وقيل الخيل على ما سنذكره من القولين ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق قيل مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف وقيل مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الآخر والذي عليه أكثر السلف الأول فقالوا اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس روى هذا عن علي بن أبي طالب وغيره والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمدا من غير عذر اللهم الا أن يقال إنه كان سائغا في شريعتهم فأخر الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك وقد ادعى طائفة من العلماء في تأخير النبي صلى الله عليه وسلم صلاة

العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعا إذ ذاك حتى نسخ بصلاة الخوف قاله الشافعي وغيره وقال مكحول والأوزاعي بل هو حكم محكم إلى اليوم أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد كما ذكرنا تقرير ذلك في سورة النساء عند صلاة الخوف وقال آخرون بل كان تأخير النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العصر وعلى هذا فيحمل يوم الخندق نسيانا فعل سليمان عليه السلام على هذا والله أعلم وأما من قال

(79/513)

الضمير في قوله حتى توارت بالحجاب عائد على الخيل وأنه لم تفته وقت صلاة وان المراد بقوله ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق يعني مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها فهذا القول اختاره ابن جرير ورواه الوالبي عن ابن عباس في مسح العرق ووجه هذا القول ابن جرير بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة ويهلك مالا بلا سبب ولا ذنب لها وهذا الذي قاله فيه نظر لأنه قد يكون هذا سائغا في ملتهم وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها جاز ذبحها واهلاكها لئلا يتقووا بها وعليه حمل صنيع جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه بموته وقد قيل إنها كانت خيلا عظيمة قيل كانت عشرة آلاف فرس وقيل عشرين ألف فرس وقيل كان فيها

عشرون فرسا من ذوات الأجنحة وقد روى أبو داود في سننه حدثنا محمد بن عوف حدثنا سعيد بن أبي مريم أنبأنا يحيى بن أيوب حدثني عمارة بن عزية أن محمد بن إبراهيم حدثه عن محمد بن أبي سلمة

(80/513)

ابن عبد الرحمن عن عائشة قالت قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها ستر فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة تلعب فقال ما هذا يا عائشة فقالت بناتي ورأى بينهن فرسا له جناحان من رقاع فقال ما هذا الذي أرى وسطهن قالت فرس قال وما الذي عليه هذا قالت جناحان قال فرس له جناحان قالت أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة قالت فضحك حتى رأيت نواجذه صلى الله عليه وسلم وقال بعض العلماء لما ترك الخيل لله عوضه الله عنها بما هو خير له منها وهو الريح التي كانت غدوها شهرا ورواحها شهرا كما سيأتي الكلام عليها كما قال الإمام أحمد حدثنا اسمعيل حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عن أبي قتادة وأبي الدهماء وكانا يكثران السفر نحو البيت قالا أتينا على رجل من أهل البادية فقال البدوي أخذ بيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل وقال انك لا تدع شيئا

اتقاء الله عز وجل الا أعطاك الله خيرا منه وقوله تعالى ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين ههنا آثارا كثيرة عن جماعة من السلف وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات وفي كثير منها نكارة شديدة وقد نبهنا على ذلك في كتابنا التفسير واقتصرنا ههنا على مجرد التلاوة ومضمون ما ذكروه أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يوما ثم عاد إليه ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناء محكما وقد قدمنا أنه جدده وأن أول من جعله مسجدا اسرائيل عليه السلام كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول قال المسجد الحرام قلت ثم أي قال مسجد بيت المقدس قلت كم بينهما قال أربعون سنة ومعلوم أن بين ابراهيم الذي بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود عليهما السلام أزيد من ألف سنة دع أربعين سنة وكان سؤاله الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده بعد إكماله البيت

(81/513)

المقدس كما قال الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالا ثلاثا فأعطاه اثنتين ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة سأله حكما يصادف حكمه فأعطاه اياه وسأله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا اياها فأما الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفشت فيه غنم قوم آخرين أي رعته بالليل فأكلت شجره بالكلية فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم بقيمته فلما خرجوا على سليمان قال بما حكم لكم نبي الله فقالوا بكذا وكذا فقال أما لو كنت أنا لما حكمت الا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجا ودرا حتى

(82/513)

يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه ثم يتسلموا غنمهم فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن

الأعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن احداهما فتنازعتا في الآخر فقالت الكبرى إنما ذهب بابنك وقالت الصغرى بل انما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى فخرجتا على سليمان فقال ائتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به لها ولعل كلا من الحكمين كان سائغا في شريعتهم ولكن ما قاله سليمان ارجح ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه اياه ومدح بعد ذلك أباه فقال وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ثم قال ولسليمان الريح عاصفة أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين وقال في سورة ص فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح التي هي أسرع سيرا وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها تجري بأمره رخاء حيث أصاب أي حيث أراد من أي البلاد كان له بساط مركب من أخشاب بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الأنس والجان وغير ذلك من

الحيوانات والطيور فإذا أراد سفرا أو مستنزها أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته فإذا استقل بين السماء والأرض أمر

(83/513)

الرخاء فسارت به فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته في أي مكان شاء بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه باصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس كما قال تعالى ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور قال الحسن البصري كان يغدو دمشق فينزل باصطخر فيتغدى بها ويذهب رائحا منها فيبيت بكابل وبين دمشق وبين اصطخر مسيرة شهر وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر قلت قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن اصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها قرار مملكة الترك قديما وكذلك غيرها من بلدان شتى كتدمر وبيت

المقدس وباب جبرون وباب البريد اللذان بدمشق على أحد الأقوال

وأما القطر فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد هو النحاس قال قتادة وكانت باليمن أنبعها الله له قال السدي ثلاثة أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها وقوله ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير أي وسخر الله له من الجن عمالا يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به يعملون له ما يشاء من محاريب وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس وتماثيل وهي الصور في الجدران وكان هذا سائغا في شريعتهم وملتهم وجفان كالجواب قال ابن عباس الجفنة كالجوبة من الأرض وعنه كالحياض وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يجبي فيه الماء كما قال الأعشى . . . تروح على آل المحلق جفنة . . . كجابية الشيخ العراقي يفهق . . .

(84/513)

وأما القدور الراسيات فقال عكرمة أثافيها منها يعني أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن وهكذا قال مجاهد وغير واحد ولما كان هذا بصدد اطعام الطعام والاحسان إلى الخلق

من انسان وجان قال تعالى

اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور وقال تعالى والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد يعني أن منهم من قد سخره في البناء ومنهم من يأمره بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر والآلي وغير ذلك مما لا يوجد الا هنالك وقوله وآخرين مقرنين في الأصفاد أي قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد وهي القيود هذا كله من جملة ما هيأه الله وسخر له من الأشياء التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ولم يكن أيضا لمن كان قبله

(85/513)

وقد قال البخاري ثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة ليقطع علي صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا اليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي فرددته خاسئا وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة وقال مسلم حدثنا محمد بن سلمة المرادي حدثنا عبد الله بن وهب عن معاوية بن صالح حدثني

ربيعة بن يزيد عن أبي ادريس الخولاني عن أبي الدرداء قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى فسمعناه يقول أعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله ثلاثا وبسط يده كأنه يتناول شيئا فلما فرغ من الصلاة قلنا يا رسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال إن عدو الله ابليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدنية وكذا رواه النسائي عن محمد بن سلمة به وقال أحمد حدثنا أبو أحمد حدثنا مرة بن معبد ثنا أبو عبيد

حاجب سليمان قال رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائما يصلي فذهبت أمر بين يديه فردني ثم قال حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فصلى صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال لو رأيتموني وابليس فاهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين اصبعي هاتين الابهام والتي تليها ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل روى أبو داود منه فمن استطاع إلى آخره عن أحمد بن سريج عن أحمد الزبيري به

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء الف امرأة سبعمائة بمهور وثلثمائة سراري وقيل بالعكس ثلثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمرا عظيما جدا قال البخاري حدثنا خالد بن مخلد حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه إن شاء الله فلم يقل فلم تحمل شيئا الا واحدا ساقطا أحد شقيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم لو قالها لجاهدوا في سبل الله وقال شعيب وابن أبي الزناد تسعين وهو أصح تفرد به البخاري من هذا الوجه وقال أبو يعلى حدثنا زهير حدثنا يزيد أنبأنا هشام بن حسان عن محمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل امرأة منهن تلد غلاما يضرب بالسيف في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله فطاف تلك الليلة على مائة امرأة فلم تلد منهن امرأة إلا امرأة ولدت نصف انسان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة منهن غلاما يضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل إسناده على شرط الصحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم ثنا هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة

منهن غلاما يقاتل في سبيل الله الله ولم يستثن فما ولدت الا واحدة منهن بشق انسان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو استثنى لولد له مائة غلام كلهم يقاتل في سبيل الله عز وجل تفرد به أحمد أيضا

(87/513)

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل في سبيل الله قال ونسي أن يقول إن شاء الله فأطاف بهن قال فلم تلد منهن امرأة الا واحدة نصف إنسان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركا لحاجته وهكذا أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به مثله وقال إسحاق بن بشر أنبأنا مقاتل عن أبي الزناد وابن أبي الزناد عن أبيه عن عبد الرحمن عن أبي هريرة أن سليمان بن داود كان له أربعمائة امرأة وستمائة سرية فقال يوما لأطوفن الليلة على الف امرأة فتحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يستثن فطاف عليهن فلم تحمل واحدة منهن

(88/513)

الا امرأة واحدة منهن جاءت بشق إنسان فقال النبي صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو استثنى فقال إن شاء الله لولد له ما قال فرسان ولجاهدوا في سبيل الله عز وجل وهذا اسناد ضعيف لحال إسحاق بن بشر فانه منكر الحديث ولا سيما وقد خالف الروايات الصحاح وقد كان له عليه السلام من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم يكن لأحد قبله ولا يعطيه الله أحدا بعده كما قال وأوتينا من كل شيء وقال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي انك أنت الوهاب وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه واسداه من النعم الكاملة العظيمة اليه قال هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب أي أعط من شئت واحرم من شئت فلا حساب عليك أي تصرف في المال كيف شئت فإن الله قد سوغ لك كلما تفعله من ذلك ولا يحاسبك على ذلك وهذا شأن النبي الملك بخلاف العبد الرسول فإن من شأنه أن لا يعطي أحدا ولا يمنع أحدا إلا بإذن الله له في ذلك وقد خير نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبدا رسولا وفي بعض الروايات أنه استشار جبريل في ذلك فأشار إليه أن تواضع فاختار أن يكون عبدا رسولا صلوات الله وسلامه عليه وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده في أمته إلى يوم القيامة فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة فالله الحمد والمنة

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبه على ما أعده له في الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل والقربة التي تقربه اليه والفوز العظيم والاكرام بين يديه وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول تعالى وان له عندنا لزلفى وحسن مآب

وفاته ومدة ملكه وحياته

(89/513)

قال الله تبارك وتعالى فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين روى ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من حديث ابراهيم بن طهمان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كان سليمان نبي الله عليه السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها ما اسمك فتقول كذا فيقول لأي شيء أنت فان كانت لغرس غرست وان كانت لدواء أنبتت فبينما هو يصلي ذات يوم اذ رأى شجرة بين يديه فقال لها ما اسمك قالت الخروب قال لأي شيء أنت قالت لخراب هذا البيت فقال سليمان اللهم عم على الجن موتى حتى تعلم الانس أن الجن لا يعلمون الغيب فنحتها عصا فتوكأ عليها حولا والجن تعمل فأكلتها الأرضة فتبينت الانس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب

ما لبثوا حولا في العذاب المهين قال وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال فشكرت الجن للأرضة فكانت تأتيها بالماء

(90/513)

لفظ ابن جرير وعطاء الخراساني في حديثه نكارة وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفا وهو أشبه بالصواب والله أعلم وقال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة كان سليمان عليه السلام يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل طعامه وشرابه فأدخله في المرة التي توفي فيها فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه الا نبتت في بيت المقدس شجرة فيأتيها فيسألها ما اسمك فتقول الشجرة اسمي كذا وكذا فان كانت لغرس غرسها وان كانت نبتت دواء قالت نبت دواء لكذا وكذا فيجعلها كذلك حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة فسألها ما اسمك فقالت أنا الخروبة فقال ولأي شيء نبت فقالت نبت لخراب هذا المسجد فقال سليمان ما كان الله ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس فتنزعها وغرسها في حائط له ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئا على عصاه فمات

ولم تعلم به الشياطين وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول الست جليدا ان دخلت فخرجت من ذلك الجانب فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر فدخل شيطان من أولئك فمر ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو في المحراب الا احترق ولم يسمع صوت سليمان ثم رجع فلم يسمع ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتا فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا منسأته وهي العصا بلسان الحبشة قد أكلتها الأرضة ولم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وهي قراءة ابن مسعود فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا كاملا فايقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا

(91/513)

يكذبون ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له وذلك قول الله عز وجل ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين يقول تبين أمرهم للناس أنهم كانوا

يكذبونهم ثم إن الشياطين قالوا للأرضة لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ولكنا سننقل اليك الماء والطين قال فانهم ينقلون اليها ذلك حيث كانت قال الم تر الى الطين الذي يكون في جوف الخشب فهو ما يأتيها بها الشيطان تشكرا لها وهذا فيه من الاسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب

وقال أبو داود في كتاب القدر حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن الأعمش عن خيثمة قال قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت اذا أردت أن تقبض روحي فأعلمني قال ما أنا أعلم بذاك منك انما هي كتب يلقي الي فيها تسمية من يموت وقال اصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب عن

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال قال سليمان لملك الموت إذا أمرت بي فاعلمني فأتاه فقال يا سليمان قد أمرت بك قد بقيت لك سويعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلي فاتكأ على عصاه قال فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوك على عصاه ولم يصنع ذلك فرارا من ملك الموت قال والجن تعمل بين يديه وينظرون اليه يحسبون أنه حي قال فبعث الله دابة الأرض عني إلى منسأته فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر فلما رأت الجن ذلك انفضوا وذهبوا قال فذلك قوله ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما

لبثوا في العذاب المهين قال اصبغ وبلغني عن غيره أنها مكثت سنة تأكل في منسأته حتى خر وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم والله أعلم

(92/513)

قال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهري وغيره أن سليمان عليه السلام عاش ثنتين وخمسين سنة وكان ملكه أربعين سنة وقال إسحاق أنبأنا أبو روق عن عكرمة عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة والله أعلم وقال ابن جرير فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام نيفا وخمسين سنة وفي سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذكر ثم ملك بعده ابنه رحبعام مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير وقال ثم تفرقت بعده مملكة بني إسرائيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البداية والنهاية حـ 2 صـ 9 . 32﴾

(93/513)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ مِن قَبْلُ ﴾

يعني : أكرمناه بالمغفرة من قبل النبوة ؛ وقال مقاتل : من قبل موسى وهارون ؛ وقال مجاهد : من قبل بلوغه ؛ وقال الكلبي : يقول ألهمناه رشدَه الخير ، وهديناه قبل بلوغه ؛ ويقال من قبل محمد صلى الله عليه وسلم القرآن .

﴿ وَكُنَّا بِهِ عالمين ﴾ بأنه أهل للرشد ، ويقال : للنبوة ، ويقال : ﴿ وَكُنَّا بِهِ عالمين ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ ﴾ ، يعني : حين قال ﴿ لأبيهِ وَقَوْمِهِ مَا هذه التماثيل ﴾ ؟ أي التصاوير ، يعني : الأصنام ، ﴿ التى أَنتُمْ لَهَا عاكفون ﴾ ؛ أي عابدون ؛ ويقال : التي عليها مقيمين .

روى ميسرة النهدي أن علياً رضي الله عنه مر بقوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : ﴿ مَا هذه التماثيل التى أَنتُمْ لَهَا عاكفون ﴾ .

فلما قال لهم ذلك إبراهيم ، ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا ءابَاءنَا لَهَا عابدين ﴾ ، يعني : فنحن نعبدها .

﴿ قَالَ ﴾ لهم إبراهيم : ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءابَاؤُكُمْ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ ، يعني : في خطإٍ بَيِّنٍ .

قال السدي : كان أبوه يصنع الأصنام ، يبعث بها مع بنيه فيبيعونها ، فبعث إبراهيم بصنم

ليبيعه ، فجعل ينادي من يشتري ما يضره ولا ينفعه ؛ وكان إخوته يبيعون ولا يبيع هو شيئاً ، وقال أنتم في ضلال مبين .

﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا بالحق أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين قَالَ ﴾ إبراهيم بل أقول لكم حقاً وأدعوكم إلى عبادة الله تعالى .

﴿ بَلِ ﴾ هو ﴿ رَّبُّكُمْ ﴾ ، أي خالقكم ورازقكم .

﴿ رَبّ السموات والأرض ﴾ ، هو ربكم ﴿ الذى فطَرَهُنَّ ﴾ ، يعني : هو الذي خلقهن .

﴿ وَأَنَاْ على ذلكم مّنَ الشاهدين ﴾ بأن الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ هو ربكم ، قال عز وجل : ﴿ وتالله لاَكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ ، يعني : قال إبراهيم : والله لأكسرن أصنامكم .

﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ ، يعني : بعد أن تنطلقوا ذاهبين إلى عيدكم .

(94/513)

وذلك أن القوم كانوا أرادوا أن يخرجوا إلى عيد لهم ، فقالوا لإبراهيم : اخرج معنا حتى تنظر إلى عيدنا .

وكان القوم في ذلك الزمان ينظرون إلى النجوم فينظر أحدهم ويقول : إنه يصيبني كذا وكذا

من الأمر .

وكان ذلك معروفاً عندهم ، وكانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يخلفوا بعدهم إلا من كان مريضاً ﴿ فَنَظَرَ إِبْرَاهِيمَ نَظْرَةً فِى النجوم فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ يعني : أشتكي غداً .

فأصبح من الغد معصوباً رأسه ، وخرج القوم إلى عيدهم ، ولم يتخلف أحد غيره .

فلما خرج القوم ، قال إبراهيم : أما والله لأكيدن أصنامكم .

فسمعه رجل منهم فحفظها عليه .

فأخذ إبراهيم فأساً ويقال قَدُوماً ، جاء إلى بيت أصنامهم ؛ وكانوا قد وضعوا ألوان الطعام بين أيديهم ؛ فإذا رجعوا من عيدهم ، رفعوا ذلك الطعام ويأكلون تبركاً .

ودخل إبراهيم بيت الأصنام ، فرأى ذلك الطعام بين أيديهم ، فقال : أَلَا تَأْكُلُونَ ؟ فلم يجيبوه ، فقال : ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً باليمين ﴾ ، يعني : جعل يضرب القوم بيده ؛ وقال السدي : قطع رؤوسها كلها ؛ وقال ابن عباس : كسرها كسراً ؛ وقال بعضهم : نَحَتَ وجوههم ؛ وقال بعضهم : قطع يد بعضهم ورجل بعضهم وأُذُنَ بعضهم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً ﴾ ، يعني : فتاتاً ؛ ويقال كسرهم قطعاً قطعاً .

وقال أهل اللغة : كل شيء كسرته فقد جذذته ؛ وقال أبو عبيد : يعني : فتاتاً ويقال : كسرهم أي استأصلهم ، ويقال : جذَّ الله دابرهم أي استأصلهم ؛ وقرأ الكسائي : ﴿ جُذَاذاً ﴾ بالكسر ؛ والباقون بالضم .

وقُرِئَ في الشاذ ﴿ جُذَاذاً ﴾ بالنصب ، ومعناه قريب بعضها من بعض ، وهو الكسر .

﴿ إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ ﴾ لم يكسره وتركه على حاله ، وقال الزجاج : يحتمل الكبير في الخلقة ، ويحتمل أكبر ما عندهم في تعظيمهم .

(95/513)

﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ ، يعني : إلى الصنم الأكبر ؛ ويقال : يرجعون إلى قوله باحتجاجه عليهم لوجوب الحجة عليهم ، فجعل القدوم على عنق ذلك الصنم الأكبر .

فلما رجعوا من عيدهم ، نظروا إلى آلهتهم مكسرة ؛ ويقال : حين دخل إبراهيم بيت الأصنام ، كان عندهم خدم ، يعني : الوصائف ، فخرجن وقلن : إن هذا الرجل مريض ، جاء يطلب من الآلهة العافية .

فلما خرج إبراهيم ودخلن ، فنظرن إلى الأصنام مقطوعة الرأس ، فخرجن إلى الناس بالويل والصياح وأخبرنهم بالقصة ، فتركوا عيدهم ودخلوا فلما رأوا ذلك ، ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين ﴾ في فعله .

﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ ، أي يَعيبهُمْ ؛ ويقال : أخبر الرجل الذي سمع منه فقال : إني سمعت فتى يذكرهم قال : تالله لأكيدن أصنامكم .

﴿ يُقَالُ لَهُ إبراهيم ﴾ .

صار إبراهيمُ رفعاً ، بمعنى يقال له هو إبراهيم ؛ وقال : يحتمل يقال له إبراهيم رفع على معنى النداء المفرد .

قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ على أَعْيُنِ الناس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ ، يعني : يشهدون عليه بما يعرفون منه ؛ ويقال : يشهدون عقوبتهم له .

قال : فجاؤوا به إلى ملكهم النمرود بن كنعان .

﴿ قَالُواْ ﴾ ، أي قال له الملك : ﴿ قَالُواْ ءأَنتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنَا إِبْرَاهِيمَ قَالَ ﴾ إبراهيم ؛ ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ ، يعني : عظيم عندكم .

وإنما قال هذا على وجه الاستهزاء ، لا على وجه الجد .

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ ، يعني : إن كانوا يتكلمون ، فسألوهم من فعل هذا بكم .

﴿ فَرَجَعُواْ إلى أَنفُسِهِمْ ﴾ ، فلاموها يعني : إلى أصحابهم .

﴿ فَقَالُواْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون ﴾ ، يعني : حَيْثُ قلتم إن إبراهيم كَسَّرها .

(96/513)

﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ على رُؤُوسِهِمْ ﴾ ، يعني : رجعوا إلى قولهم الأول ، وقال القتبي : أي ردوا إلى ما كانوا يعرفون من أنها لا تنطق ، فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ ﴾ يا إبراهيم ، يعني : تعلم أنهم لا يتكلمون يا إبراهيم .

﴿ قَالَ ﴾ لهم إبراهيم : ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً ﴾ ؟ إنْ عبدتموهم ، ﴿ وَلاَ يَضُرُّكُمْ ﴾ إن تركتموهم .

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ ﴾ ، يعني : قذراً لكم وسحقاً لكم وتعساً لكم ؛ والاختلاف في قوله : ﴿ أُفّ ﴾ مثل ما سبق .

﴿ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ ، يعني : أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله .

﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ أن من ليس له ذهن ولا قوة ولا منفعة ولا مضرة أن لا تعبدوه .

قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ ﴾ ، يعني : قال ملكهم : ﴿ حَرِّقُوهُ وانصروا ءالِهَتَكُمْ ﴾ ، يعني : انتقموا لآلهتكم ، ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ به شيئاً ، فافعلوا فأمر النمرود أهل القرى أن يجمعوا له حطباً أياماً كثيرة ، وأمر بأن يبنى بنياناً ، فبنى حائطاً مستديراً وجمعوا الحطب ما شاء الله ، ثم أضرموا فيه النار ، فارتفعت النار حتى بلغت السماء في أعين الناظرين ؛ وكانت الطير تمر بها فيصيبها حر النار ، فلا تستطيع أن تجوز فيه فتقع ميتة .

فلما أرادوا أن يلقوه فيها ، لم يستطيعوا لشدة حرها ، ولم يقدر أحد أن يدنو منها ، فبطل تدبيرهم وكادوا أن يتركوه .

حتى جاء إبليس عدو الله لعنه الله فدلهم على المنجنيق ؛ وهو أول منجنيق صُنِعَ وجاؤوا بإبراهيم ، فأوثقوا يديه وجعلوه في المنجنيق .

وروي في الخبر : أن السموات والأرض والجبال بكوا عليه ، وبكت عليه ملائكة السموات ، وقالوا : ربنا عبدك إبراهيم يحرق فيك .

فقال لهم : إن استغاث بكم فأغيثوه .

فلما رمي في المنجنيق ، قال : حسبي الله ونعم الوكيل .

فرمي به بالمنجنيق في الهواء ، فجعل يهوي نحو النار .

(97/513)

فقال جبريل : يا رب ، عبدك إبراهيم يحرق فيك ، قال الله تعالى : إن استغاث بك فأَغِثْهُ .

فأتاه جبريل وهو يهوي نحو النار ، فقال : أتطلب النجاة ؟ فقال : أما منك فلا .

قال : أفلا تسأل الله أن ينجيك منها ؟ فقال إبراهيم : حسبي من سؤالي علمه بحالي .

فلما أخلص قلبه لله تعالى ، فعند ذلك قال الله تعالى : ﴿ قُلْنَا يا ذا نَّارٍ كُونِى بَرْداً وسلاما على إبراهيم ﴾ ، يعني : سلميه من حرِّك وبردك .

قال عكرمة : بردت نار الدنيا كلها يومئذ ، فلم ينتفع بها أحد من أهلها ؛ وقال كعب : ما

أحرقت النار من إبراهيم غير وثاقه ؛ وقال قتادة : إن الخطاف كانت تطفىء النار بأجنحتها ، وكانت الوزغة تنفخها ؛ وروت عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " اقْتُلُوا الوَزَغَةَ ، فَإِنَّهَا كَانَتْ تَنْفُخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ النَّارَ " وكانت تقتلهن ؛ وقال علي بن أبي طالب في قوله : ﴿ بَرْداً وسلاما ﴾ لو لم يقل وسلاماً ، لأهلكه البرد ؛ وكذلك قال ابن عباس : فضمه جبريل بجناحه ووضعه على الأرض ، وضرب جناحه على الأرض ، فأظهر الماء واخضرت الأرض .

فلما كان في اليوم الثالث ، خرج النمرود مع جيشه وأَشْرَفَ على موضع مرتفع لينظر إلى النار ، فرأى في وسط ذلك الموضع ماء وخضرة ، ورأى هناك شخصين والنار حواليهما ، فقال : إنا قد رمينا إنساناً واحداً ، فما لي أَرى فيها شخصين ؟ فرجع متحيراً .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً ﴾ ، يعني : حرقاً ، ﴿ فجعلناهم الاخسرين ﴾ ؛ يعني : الأذلين الأسفلين ، ﴿ ونجيناه ولُوطاً إِلَى الأرض التى بَارَكْنَا فِيهَا للعالمين ﴾ ؛ يعني : إلى الأرض المقدسة ، فخرج إبراهيم من ذلك الموضع وقال للوط : إني أريد أن أهاجر ، فصدقه واتبعه ، فخرجا إلى بيت المقدس ، ويقال إلى الشام ﴿ التى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ بالماء والثمار للناس .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق ﴾ ، يعني : الولد .

﴿ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ ، يعني : زيادة ؛ وذلك أنه سأل الله تعالى الولد ، فأعطاه الله تعالى الولد وهو إسحاق عليه السلام وولد الولد فضله على مسألته وهو يعقوب عليه السلام ويقال : نافلة أي غنيمة .

﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا صالحين ﴾ ، يعني : أكرمناهم بالإسلام ؛ وقال الكلبي : كان لوط ابن أخي إبراهيم ، فكان لوط بن هازر بن آزر وهو عم لوط ؛ وقال بعضهم : كان ابن عمه ، وكانت سارة أخت لوط .

ثم قال عز وجل : ﴿ وجعلناهم أَئِمَّةً ﴾ ، يعني : قادة في الخير ؛ ويقال : أكرمناهم بالأمانة والنبوة .

﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ ، يعني : يدعون الخلق ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ إلى أمرنا وإلى ديننا .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات ﴾ ، يعني : أمرناهم بالأعمال الصالحة ، ويقال : بالدعاء إلى الله تعالى ، أي قول لا إله إلا الله .

﴿ لَّيْسَ البر ﴾ ، يعني : تمام الصلاة ، ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ ؛ يعني : الزكاة المفروضة وصدقة التطوع .

﴿ وَكَانُواْ لَنَا عابدين ﴾ ، يعني : مطيعين .

وقوله عز وجل : ﴿ وَلُوطاً ﴾ ، يعني : واذكر لوطاً إذ ﴿ اتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ، يعني :

النبوة والفهم ؛ ويقال : ﴿ لُوطاً ﴾ ، يعني : وأوحينا إليهم وآتينا لوطاً حكماً وعلماً ، يعني : النبوة والفهم .

﴿ ونجيناه مِنَ القرية ﴾ ، يعني : مدينة سدوما ﴿ التى كَانَت تَّعْمَلُ الخبائث ﴾ ، يعني : اللواطة .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فاسقين ﴾ ، يعني : عاصين .

﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَّحْمَتِنَا ﴾ ، يعني : أكرمنا لوطاً في الدنيا بطاعتنا وفي الآخرة بالجنة .

﴿ إِنَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ ، يعني : من المرسلين .

قوله عز وجل : ﴿ وَنُوحاً ﴾ ، يعني : واذكر نوحاً ﴿ إِذْ نادى مِن قَبْلُ ﴾ ، يعني : دعا على قومه من قبل إبراهيم وإسحاق ، ﴿ فاستجبنا لَهُ فنجيناه وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ ؛ يعني : الغرق وتكذيب قومه .

(99/513)

﴿ ونصرناه مِنَ القوم ﴾ ، يعني : على القوم ﴿ الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ ، يعني : كذبوا نوحاً بما أنذرهم من الغرق ، ويقال : ﴿ ونصرناه مِنَ القوم ﴾ ، أي نجيناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ ، أي كافرين ، ﴿ فأغرقناهم أَجْمَعِينَ ﴾ ؛ يعني : الصغير والكبير فلم يبق منهم أحد إلا هلك بالطوفان ، قال عز وجل ﴿ وَدَاوُودَ وسليمان ﴾ ، يعني : واذكر داود وسليمان ، ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الحرث إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهدين ﴾ ؛ وذلك أن غنماً لقوم وقعت في زرع رجل ، فأفسدته .

قال ابن عباس في رواية أبي صالح : إن غنم قوم وقعت في كرم قوم ليلاً حين خرج عناقيده ، فأفسدته ؛ فاختصموا إلى داود بن أيشا عليه السلام فقوَّم داود الكرم والغنم ، فكانت القيمتان سواء ، يعني : قيمة الغنم وقيمة ما أفسدت من الكرم ؛ فدفع الغنم إلى صاحب الكرم .

فخرجوا من عنده ، فمروا بسليمان عليه السلام فقال : بِمَ قضى بينكم الملك ؟ فأخبروه فقال : نِعْمَ ما قضى به ، وغير هذا أرفق للفريقين جميعاً .

فرجع أصحاب الكرم والغنم إلى داود ، فأخبروه بما قال سليمان ؛ فأرسل داود إلى سليمان فقال : كيف رأيت قضائي بين هؤلاء ؟ فإني لم أقض بالوحي ، إنما قضيت بالرأي .

فقال : نِعْمَ ما قضيت .

فقال : عزمت عليك أي أنشدك بحق النبوة وبحق الوالد على ولده إلا أخبرتني .

فقال سليمان : غير هذا كان أرفق بالفريقين .

فقال : وما هو ؟ قال سليمان : يأخذ أهل الكرم الغنم ، ينتفعون بألبانها وسمنها وصوفها

ونسلها ؛ ويعمل أهل الغنم لأهل الكرم في كرمهم ، حتى إذا عاد الكرم كما كان ، ردوه .

فقال داود : نِعْمَ ما قضيت به .

فقضى داود بينهم بذلك .

وقال بعضهم : كان ذلك القضاء نافذاً فلم ينقض ذلك .

(100/513)

وكان سليمان في ذلك اليوم ابن إحدى عشرة سنة فذلك قوله : ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم ﴾ يعني : دخلت فيه غنم القوم ، ويقال : نفشت أي دخلت فيه بالليل من غير حافظ لها ؛

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن الزهري رحمهم الله قال : النفش لا يكون إلا ليلاً ، والهمل بالنهار ؛ وروى قتادة ، عن الشعبي أن شاة وقعت في غزل الحواك ، فاختصموا إلى شريح رحمه الله فقال شريح : انظروا أوقعت ليلاً أو نهاراً .

فإن كان بالليل يضمن ، وإن كان بالنهار لا يضمن ، ثم قرأ شريح : ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم ﴾ وقال : النفش بالليل والهمل بالنهار ، وكلاهما الرعي بلا راع .

وروى سعيد بن المسيب أن ناقة البراء بن عازب دخلت حَائِطاً لقوم فأفسدته ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن حفظ الأموال على أهلها بالنهار ، وعلى أهل الماشية

ما أصابت الماشية بالليل .

وبهذا الخبر أخذ أهل المدينة ، وقال أهل العراق : لا يضمن ليلاً كان أو نهاراً ، إلا أن يتعمد صاحبها فيرسلها فيه ، وذهبوا إلى ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " جُرْحُ العَجْماءِ جُبَارٌ " .

﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهدين ﴾ ، يعني : عالمين .

قوله عز وجل : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ ، يعني : ألهمناها سليمان .

﴿ وَكُلاًّ ءاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ ، يعني : النبوة والفهم بالحكم .

وروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال : لولا هذه الآية ، لم يجرؤ أحد منا أن يفتي في الحوادث .

ثم قال : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودُ الجبال يُسَبِّحْنَ والطير ﴾ ، يعني : كلما سبح داود ، يسبح معه الجبال والطير ، يعني : سخرنا الجبال والطير يسبحن معه إذا سبح ؛ وقال : كان داود يمر بالجبال صبحاً ، وهي تجاوبه وكذلك الطير ؛ وقال قتادة : ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ أي يصلين معه إذا صلى ، يعني : كل ما سبح داود تسبح معه الجبال والطير ، يعني : سخرنا الطير والجبال يسبحن معه .

(101/513)

﴿ وَكُنَّا فاعلين ﴾ ، يعني : نحن فعلنا ذلك بهما .

قوله عز وجل : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ ، يعني : دروع الحديد ؛ وذلك أن داود خرج يوماً متنكراً ، ليسأل عن سيرته في مملكته ، فقال جبريل : نِعْمَ الرجل هو ، لولا أن فيه خصلة واحدة .

قال : وما هي ؟ قال : بلغني أنه يأكل من بيت المال ، وليس شيء أفضل من أن يأكل الرجل من كدّ يده .

فرجع داود عليه السلام وسأل الله عز وجل أن يجعل رزقه من كدّ يديه ، فألان له الحديد ، وكان يتخذ منها الدروع ويبيعها ويأكل من ذلك ؛ فذلك قوله : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ ﴾ يعني : ألهمناه ، ويقال : ﴿ علمناه ﴾ بالوحي صنعة اللبوس لكم .

﴿ لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ ﴾ ، يعني : يمنعكم قتال عدوكم .

قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص بالتاء ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ ﴾ ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ لنحصنكم ﴾ بالنون بدليل قوله وعلمناه وقرأ الباقون بالياء للفظ التذكير يعني : ليحصنكم الله عز وجل ، ويقال : يعني : اللبوس ، ومن قرأ بالتاء فهو كناية عن الصنعة ، واختار أبو عبيد بالتاء ﴿ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ ﴾ ، لأن اللبوس أقرب إليه ثم قال : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شاكرون ﴾ .

اللفظ لفظ الاستفهام ، يعني : اشكروا وارث هذه النعم ووحدوه .

قوله عز وجل : ﴿ ولسليمان الريح ﴾ ؛ قرأ عبد الرحمن ﴿ الريح ﴾ بضم الحاء على معنى الابتداء ، وقراءة العامة ﴿ الريح ﴾ بالنصب ، ومعناه وسخرنا لسليمان الريح ﴿ عَاصِفَةً ﴾ ، يعني : قاصفة شديدة ، وقال في موضع آخر ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص : 36] يعني : لينة ، فإنها كانت تشتد إذا أراد وتلين إذا أراد ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِ ﴾ ، يعني : تسير بأمر الله عز وجل ، ويقال : بأمر سليمان .

﴿ إِلَى الأرض التى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ بالماء والشجر ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عالمين ﴾ ، يعني : من أمر سليمان وغيره .

(102/513)

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنَ الشياطين مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ ، يعني : سخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في البحر ، ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلك ﴾ من البنيان وغيره ، ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حافظين ﴾ من أن يهيجوا أحداً في زمانه ، ويقال : يحفظهم أن لا يفسدوا ما عملوا ، ويقال : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حافظين ﴾ ليطيعوا سليمان ولا يعصوه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 429 . 435 ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾

توفيقه . القرظي : صلاحه ، ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل موسى وهارون .

قال المفسّرون : يعني هديناه صغيراً كما قال ليحيى ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ﴾ [مريم : 12] .

﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ بأنّه أهل الهداية والنبوة .

﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هذه التماثيل ﴾ والصور يعني الأصنام ﴿ التي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ على عبادتها مقيمون .

﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا آبَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ فاقتدينا بهم .

﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ بعبادتكم إيّاها .

﴿ قالوا أَجِئْتَنَا بالحق أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين ﴾ يعنون أجادّ أنت فيما تقول أم لاعب ؟

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السماوات والأرض الذي فطَرَهُنَّ ﴾ خلقهّن ﴿ وَأَنَاْ على ذلكم مِّنَ الشاهدين * وتالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ لأمكرنّ بها ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ .

قال مجاهد وقتادة : إنّما قال إبراهيم هذا في سّر من قومه ولا يسمع ذلك إلاّ رجل واحد منهم ، وهو الذي أفشاه عليه وقال : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ .

(104/513)

قال السدّي : كان لهم في كلّ سنة مجمع وعيد ، فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ، ثمَّ عادوا إلى منازلهم ، فلمّا كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم له : يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ، فخرج معهم إبراهيم فلمّا كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال : إنّي سقيم يقول : أشتكي رجلي ، فتواطؤوا رجله وهو صريع ، فلمّا مضوا نادى في آخرهم وقد بقي ضعف الناس ﴿ وتالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ فسمعوها منه ، ثم رجع إبراهيم إلى الآلهة فإذا هنَّ في بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه بعضها إلى جنب بعض ، كلّ صنم يليه أصغر منه إلى باب البهو ، وإذا هم قد جعلوا طعاماً فوضعوه بين يدي الأصنام ، قالوا : إذا كان حين نرجع رجعنا وقد بركت الآلهة في طعامنا فأكلنا ، فلمّا نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء : ألا تأكلون ؟ فلمّا لم يجبه أحد قال : ما لكم لا تنطقون ؟ ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ ﴾ [الصافات : 93] ، وجعل يكسرهنّ بفأس

في يده حتى إذا لم يبق إلاّ الصنم الأكبر علّق الفأس في عنقه ثم خرج ، فذلك قوله سبحانه ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً ﴾ .

(105/513)

قرأ يحيى بن وثاب والأعمش والكسائي بكسر الجيم أي كسراً وقطعاً جمع جذيذ وهو الهشيم ، مثل خفيف وخفاف وكريم وكرام ، وقرأ الباقون : بضمّه أي الحطام والدقاق ﴿ إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ ﴾ أي عظيماً للآلهة فإنّه لم يكسره ووضع الفأس على عنقه ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ فيتذكّرون ويعلمون ضعفها وعجزها ، وقيل : لعلّهم إليه يرجعون فيسألونه ، فلمّا جاء القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوا أصنامهم ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين * قَالُواْ ﴾ يعني الذين سمعوا إبراهيم يقول : تالله لأكيدنّ أصنامكم ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ يعيبهم ويسبّهم ويستهزئ بهم ﴿ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ هو الذي صنع هذا ، فبلغ ذلك نمرود الجبّار وأشراف قومه فقالوا ﴿ فَأْتُواْ بِهِ على أَعْيُنِ الناس ﴾ يراد بأعين الناس ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ عليه أنّه هو الذي فعل ذلك ، وكرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة ، قاله قتادة والسدّي .

وقال الضحّاك والسُدّي : لعلّهم يشهدون ما يصنع به ويعاقبه ، أي ، يحضرون ، فلمّا أتوا به

﴿ قالوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنَا يا إبراهيم * قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ غضب من أن تعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها كسرهنّ ، قاله ابن إسحاق ، وإنّما أراد إبراهيم بذلك إقامة الحجّة عليهم ، فذلك قوله سبحانه ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ حتى يخبروكم بمن فعل هذا بهم .

وروي عن الكسائي أنّه كان يقف عند قوله : بل فعله ويقول : معناه فعله من فعله ، ثم يبتدي كبيرهم هذا .

(106/513)

وقال القتيبي : جعل إبراهيم النطق شرطاً للفعل فقال ﴿ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ والمعنى إن قدروا على الفعل ، فأراهم عجزهم عن النطق والفعل ، وفي ضمنه أنا فعلت ذلك ، والذي تظاهرت به الأخبار في هذه الآية ، قول ابن إسحاق يدلّ عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم لم يكذب إلاّ ثلاث كذبات كلّها في الله عزّ وجلّ قوله ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 89] وقوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ وقوله لسارة : هي أختي ، وغير مستحيل أن يكون الله سبحانه أذن لرسوله وخليله في ذلك ليقرع قومه ويوبّخهم ويحتجّ عليهم ويعرّفهم موضع خطئهم كما أذن ليوسف حين أمر مناديه فقال لأخوته : ﴿

أَيَّتُهَا العير إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ [يوسف : 70] ولم يكونوا سرقوا شيئاً .

﴿ فرجعوا إلى أَنفُسِهِمْ ﴾ يقول : فتفكّروا بقلوبهم ورجعوا إلى عقولهم ﴿ فقالوا ﴾ ما نراه إلاّ كما قال ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون ﴾ هذا الرجل في سؤالكم إيّاه ، وهذه آلهتكم التي فعل بها ما فعل حاضرة فسلوها ، وقيل : إنّكم أنتم الظالمون بعبادتكم الأوثان الصغار مع هذا الكبير .

﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ على رُءُوسِهِمْ ﴾ متحيّرين مثبورين وعلموا أنّها لا تنطق ولا تبطش ، فقالوا ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ ﴾ فلمّا اتّجهت الحجّة لإبراهيم عليهم ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وِلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ فلمّا لزمتهم الحجّة وعجزوا عن الجواب ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وانصروا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

(107/513)

قال ابن عمر : إنّ الذي أشار عليهم بتحريق إبراهيم رجل من الأكراد ، قال شعيب الجبّائي : اسمه هيزن فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، قالوا : فلمّا جمع نمرود قومه لإحراق إبراهيم حبسوه في بيت وبنوا بنياناً كالحظيرة فذلك قوله ﴿ قَالُواْ ابنوا

لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الجحيم ﴾ [الصافات : 97] ثم جمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول لئن عافاني لأجمعنّ حطباً لإبراهيم ، وكانت المرأة تنذر في بعض ممّا تطلب ممّا تحبّ أن تدرك لئن أصابته لتحتطبنّ في نار إبراهيم التي يحرق بها احتساباً في دينها .

قال ابن إسحاق : كانوا يجمعون الحطب شهراً ، قالوا : حتى إذا أكثروا وجمعوا منه ما أرادوا أشعلوا في كلّ ناحية من الحطب ، فاشتعلت النّار واشتدّت حتّى أنْ كان الطّير لتمرّ بها فتحرق من شدّة وهجها ، ثمّ عمدوا إلى إبراهيم فرفعوه على رأس البنيان وقيّدوه ، ثم اتخذوا منجنيقاً ووضعوه فيه مقيّداً مغلولاً ، فصاحت السموات والأرض ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق إلاّ الثّقلين صيحة واحدة : أي ربّنا ، إبراهيم ليس في أرضك أحد يعبدك غيره يُحرق فيك فائذن لنا في نصرته ، فقال الله سبحانه وتعالى لهم : إنِ استَغاث بشيء منكم أودعاه فلينصره ، فقد أذنت له في ذلك ، وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به ، وأنا وليّه فخلوا بيني وبينه فلمّا أرادوا إلقاءه في النّار أتاه خازن المياه فقال : إن أردت أخمدت النّار فإنّ خزائن الأمطار بيدي ، وأتاه خازن الرياح فقال : إن شئت طيّرت النار في الهواء ، فقال إبراهيم : لا حاجة لي إليكم ، ثم رفع رأسه إلى السّماء فقال : اللهمّ أنتَ الواحد في السّماء وأنا الواحد في الأرض ، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري ، حسبي الله ونعم الوكيل .

وروى المعتمر عن أُبي بن كعب عن أرقم أنّ إبراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في النار : لا إله إلاّ أنت سبحانك ربّ العالمين ، لك الحمد ولك الملك ، لا شريك لك ، قال : ثمّ رموه في المنجنيق إلى النّار من مضرب شاسع فاستقبله جبرئيل فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أمّا إليك فلا ، قال جبرئيل : فاسأل ربّك ؟ فقال إبراهيم : حسبي من سؤالي علمه بحالي ، فقال الله سبحانه ﴿ يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ ﴾ قال السدّي : كان جبرئيل هو الذي ناداها .

قال ابن عباس : لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها ، فلم تبق يومئذ نار في الأرض إلاّ طفئت ظنت أنّها هي تُعنى .

قال السدّي : فأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم فأقعدوه على الأرض ، فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس .

قال كعب : ما أحرقت النار من إبراهيم إلاّ وثاقه ، قالوا : وكان إبراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام .

قال المنهال بن عمر : قال إبراهيم خليل الله : ما كنت أيّاماً قطّ أنعم منّي من الأيام التي كنت فيها في النار .

(109/513)

قال ابن يسار : وبعث الله جلّ اسمه ملك الظلّ في صورة إبراهيم فقعد فيها إلى جنب إبراهيم وهو يؤنسه ، قالوا : وبعث الله بقميص من حرير الجنّة وأتاه جبرئيل (عليه السلام) فقال : يا إبراهيم إنّ ربّك يقول : أما علمت أنّ النار لا تضرّ أحبّائي ، ثمّ نظر نمرود من صرح له وأشرف على إبراهيم وما شكّ في موته ، فرأى إبراهيم جالساً في روضة ورأى الملك قاعداً إلى جنبه وما حوله نار تحرق ما جمعوا له من الحطب فناداه نمرود : يا إبراهيم ، كبير إلهك الذي بلغت قدرته أن حال بينك وبين ما أرى لم يضرّك ، يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها ؟ قال : نعم ، قال : هل تخشى إن أقمت فيها أن تضرّك ؟ قال : لا ، قال : فقم فاخرج منها ، فقام إبراهيم يمشي فيها حتى خرج منها ، فلمّا خرج إليه قال له : يا إبراهيم ، مَن الرجل الذي رأيت معك مثل صورتك قاعداً إلى جنبك ؟ قال : ذلك ملك الظلّ أرسله إليَّ ربّي ليؤنسني فيها ، فقال نمرود : يا إبراهيم إنّي مقرّب إلى إلهك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزّته فيما صنع بك حين أبيت إلاّ عبادته وتوحيده ، إنّي ذابح له أربعة آلاف بقرة ، فقال

له إبراهيم : إذاً لا يقبل الله منك ما كنت على دينك هذا حتى تفارقه إلى ديني ، فقال : يا إبراهيم لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبحها له ، فذبحها له نمرود ، ثمّ كف عن إبراهيم ومنعه الله سبحانه منه .

قال أبو هريرة : إنَّ أحسن شيء قاله إبراهيم لمّا رفع عنه الطبق وهو في النار يرشح جبينه فقال نمرود عند ذلك : نعم الرب ربك يا إبراهيم قال كعب وقتادة والزهري : ما انتفع أحد من أهل الأرض يومئذ بنار ولا أحرقت النار شيئاً يومئذ إلاّ وثاق إبراهيم ولم تأت يومئذ دابّة إلاّ أطفأت عنه النار إلاّ الوزغ ، فلذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله وسمّاه فويسقاً .

(110/513)

قال شعيب الجبائي : أُلقي إبراهيم (عليه السلام) في النار وهو ابن ست عشرة سنة ، وذبح إسحاق وهو ابن سبع سنين ، وولدته سارة وهي بنت تسعين سنة ، وكان مذبحه من بيت ايليا على ميلين ، ولمّا علمت سارة بما أراد باسحاق بطنت يومئذ وماتت اليوم الثالث .

قال الله سبحانه ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخسرين * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً ﴾ من نمرود وقومه من أرض العراق ﴿ إِلَى الأَرض التي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ يعني الشام .

قال أُبيّ بن كعب سمّاها مباركة لأنّه ما من ماء عذب إلاّ وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس .

وقال قتادة : كان يقال : الشام أعقاب دار الهجرة ، وما نقص من الأرض زيد في الشام ، وما نقص عن الشام زيد في فلسطين ، وكان يقال : هي أرض المحشر والمنشر ، وبها مجمع الناس ، وبها ينزل عيسى ابن مريم ، وبها يهلك الله الدجّال .

وحدّث أبو قلابة " أنَّ رسول الله (عليه السلام) قال : رأيت فيما يرى النائم كأنّ الملائكة حملت عمود الكتاب فوضعته بالشام ، فأوّلته أنّ الفتن إذا وقعت فإنّ الإيمان بالشام " .

وذكر لنا أنّ عمر بن الخطّاب (رضي الله عنه) قال لكعب : ألا تتحوّل إلى المدينة فإنّها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضع قبره ؟ فقال له كعب : يا أمير المؤمنين إنّي أجد في كتاب الله المنزل أنّ الشام كنز الله من أرضه وبها كنزه من عباده .

(111/513)

قال محمد بن إسحاق بن يسار : استجاب لإبراهيم رجال من قومه حين رأوا ما صنع اللّه سبحانه به من جعل النار عليه برداً وسلاماً على خوف من نمرود وملِئهم ، فآمن له لوط وكان ابن أخيه ، وهو لوط بن هاران بن تارخ ، وهاران هو أخ إبراهيم ، وكان لهما أخ ثالث

يقال له باحورين تارخ ، فهاران أبو لوط وناحورا أبو تبويل وتبويل أبو لأن ، ورتقا بنت تبويل امرأة إسحاق بن إبراهيم أم يعقوب وليا وزاجيل روحيا يعقوب ابنتا لايان ، وآمنت به أيضاً سارة وهي بنت عمّه ، وهي سارة بنت هاران الأكبر عمّ إبراهيم عليه السلام .

وقال السدّي : كانت سارة بنت ملك حرّان وذلك أنّ إبراهيم ولوطاً انطلقا قِبَل الشام فلقي إبراهيم سارة وهي ابنة ملك حرّان وقد طعنت على قومها في دينهم ، فتزّوجها إبراهيم على أن يغيّرها .

قال ابن إسحاق : خرج إبراهيم من كوثى من أرض العراق مهاجراً إلى ربّه ، وخرج معه لوط وسارة كما قال الله سبحانه ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ [العنكبوت : 26] فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة الله حتى نزل حرّان فمكث بها ما شاء الله أن يمكث ، ثمّ خرج منها مهاجراً حتّى قدم مصر ، ثمَّ خرج من مصر إلى الشام ونزل السبع من أرض فلسطين وهي بُرية الشام ، ونزل لوط بالمؤتفكة وهي من السبع على مسيرة يوم وليلة وأقرب من ذلك ، فبعثه الله سبحانه نبيّاً فذلك قوله ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ التِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ يعني الشام ، وبركتها أنّ منها بعث أكثر الأنبياء وهي أرض خصبة كثيرة الأشجار والأنهار والثمار يطيب فيها عيش الفقير والغنيّ .

(112/513)

وروى العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ إِلَى الأَرضِ التي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ قال : يعني مكّة ونزول إسماعيل ، ألا ترى أنّه يقول ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : 96] والقول الأول أصوب .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ أي عطاء عن مجاهد ، الحسن والضحّاك : فضلاً ، قال ابن عباس وأُبي بن كعب وابن زيد وقتادة : سأل واحداً فقال : ربّ هب لي من الصالحين فأعطاه الله إسحاق ولداً ، وزاده يعقوب ولد الولد فهو النافلة . قال مجاهد وعطاء : معنى النافلة العطية وهما جميعاً من عطاء الله سبحانه أعطاهما إيّاه .

﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام) .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ يُقتدى بهم في الخير ﴿ يَهْدُونَ ﴾ يدعون الناس إلى ديننا .

﴿ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات وَإِقَامَ ﴾ وإقامة ﴿ الصلاة وَإِيتَآءَ الزكاة وَكَانُواْ لَنَا عَابِدِينَ وَلُوطاً ﴾ أي وآتينا لوطاً ، وقيل واذكر لوطاً ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْماً ﴾ أي الفصل بين الخصوم بالحقّ ﴿ وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ القرية التي كَانَت تَّعْمَلُ الخبائث ﴾ يعني سدّ وما كان أهلها يأتون الذكران في أدبارهم ويتضارطون في أنديتهم مع أشياء أُخر كانوا يعملونها من المنكرات .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُ مِنَ الصالحين * وَنُوحاً إِذْ نادى

﴿ دعا ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل إبراهيم ولوط ﴿ فاستجبنا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أتباعه ﴿ مِنَ الكرب العظيم ﴾ الطوفان ، والكرب أشد الغم .

﴿ وَنَصَرْنَاهُ ﴾ منعناه ﴿ مِنَ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ أن يصلوا إليه بسوء ، وقال أبو عبيد : أي على القوم .

(113/513)

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث ﴾ قال مرّة وقتادة : كان الحرث زرعاً ، وقال ابن مسعود وشريح : كان كرماً قد نبتت عناقيد ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم ﴾ أي رعته ليلاً فأفسدته ، والنفش بالليل ، والهمل بالنهار ، وهما الرعي بلا راع ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ لا يخفى علينا منه شيء ، ولا يغيب عنّا علمه .

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا ﴾ أي علّمناها وألهمناها يعني القضيّة ﴿ سُلَيْمَانَ ﴾ دون داود .

﴿ وَكُلاًّ ﴾ يعني داود وسليمان ﴿ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ .

قال ابن عباس وقتادة والزهري ومرّة : وذلك أنّ رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الزرع : هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقعت في

حرثي ، فلم تبق منه شيئاً ، فقال له داود : اذهب فإنّ الغنم لك ، فأعطاه رقاب الغنم بالحرث ، فخرجا فمرّا على سليمان فقال : كيف قضى بينكما ، فأخبراه فقال سليمان : لو ولّيت أمرهم لقضيت بغيره ، فأخبر بذلك داود فدعاه فقال : كيف تقضي بينهما ؟ قال : ادفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له نسلها ورسلها وحرثها وعوارضها ومنافعها ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم ، فإذا كان العام المقبل وصار الحرث كهيئته يوم أُكل دفع إلى أهله وأُخذ صاحب الغنم غنمه .

(114/513)

وقال ابن مسعود وشريح ومقاتل : إنّ راعياً نزل ذات ليلة بجنب كرم ، فدخلت الأغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم ، فصار صاحب الكرم من الغد إلى داود ، فقضى بالأغنام لصاحب الكرم لأنه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الأغنام تفاوت ، فمرّوا بسليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة فقال : ما قضى الملك في أمركم ؟ فقصّوا عليه القصّة فقال سليمان : غير هذا أرفق بالفريقين ، فعادوا إلى داود فأخبروه بذلك فدعا سليمان وقال له : بحقّ النبوّة والأُبوّة إلاّ أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين ، فقال سليمان : تسلّم الأغنام إلى صاحب الكرم حتى يرتفق برسلها ونسلها وصوفها ومنافعها ، ويعمل الراعي

في إصلاح الكرم إلى أن يعود كهيئته ، ثم يرد الاغنام إلى صاحبها فقال : القضاء ما قضيت

.

وحكم بذلك .

قال الحسن : كان الحكم بما قضى به سليمان ، ولم يعنف الله داود في حكمه وهذا يدلّ على أنّ كلّ مجتهد مصيب .

وروى الزهري عن حرام بن محيصة قال : دخلت ناقة للبراء بن عازب حائطاً لبعض الأنصار فأفسدته ، فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ هذه الآية ، ثم قضى على البراء بما أفسدت الناقة وقال : " على أصحاب الماشية حفظ الماشية بالليل ، وعلى أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم وزروعهم بالنهار " .

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبالَ يُسَبِّحْنَ والطير ﴾ أي وسخّرنا الجبال والطّير يسبّحن مع داود إذا سبّح .

قال وهب : كان داود يمرّ بالجبال مسبّحاً وهي تجاوبه وكذلك الطير .

قتادة : "يسبّحن" أي يصلّين معه إذا صلّى .

﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ذلك ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ اللبوس عند العرب : السلاح كلّه درعاً كان أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً ، يدلّ عليه قول الهذلي يصف رُمحاً :

ومعي لبوس للبئيس كأنّه . . . روق بجبهة ذي نعاج مُجفل

يريد باللبوس الرمح ، وإنّما عنى الله سبحانه في هذا الموضع الدرع وهو بمعنى الملبوس كالحلوب والركوب .

(115/513)

قال قتادة : أول من صنع الدروع داود (عليه السلام) وإنّما كانت صفائح ، فهو أوّل من سردها وحلقها .

﴿ لِتُحْصِنَكُمْ ﴾ لتحرزكم وتمنعكم ﴿ مِّن بَأْسِكُمْ ﴾ حربكم ، واختلف القرّاء فيه ، فقرأ شيبة وعاصم برواية أبي بكر ، ويعقوب برواية رويس ، لنحصنكم بالنون ، لقوله "وعلّمناه" وقرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص وروح ، بالتاء يعني الصنعة .

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ ﴾ أي وسخّرنا لسليمان ﴿ الرِيح ﴾ وهو هواء محرّك وهو جسم لطيف يمتنع بلطفه من القبض عليه ويظهر الحسن بحركته ، والريح تذكّر وتؤنّث .

﴿ عَاصِفَةً ﴾ شديدة الهبوب ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرض التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ يعني الشام وذلك أنّها كانت تجري لسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان ثم تعود به إلى منزله بالشام .

قال وهب بن منبه : كان سليمان إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام له الإنس

والجنّ حتى يجلس على سريره وكان إمرأً غزاً قلّ ما يقعد عن الغزو ، ولا يسمع في ناحية من الأرض بملك إلاّ أتاه حتى يذلّه ، وكان فيما يزعمون إذا أراد الغزو أمر بمعسكره فضرب له بخشب ، ثم نصب له على الخشب ، ثم حمل عليه الناس والدوابّ وآلة الحرب كلّها حتى إذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب ، فاحتملته حتى إذا استقلت أمر الرخاء فمدّته شهراً في روحته وشهراً في غدوته إلى حيث أراد .

قال : فذكر لي منزل بناحية دجلة مكتوب فيه كتاب كتبه بعض صحابة سليمان إمّا من الجنّ وإمّا من الإنس : نحن نزلناه وما بنينا ومبنيّاً وجدناه ، غزونا من اصطخر فقلناه ، ونحن رائحون منه إن شاء الله فآتون الشام .

(116/513)

قال الله سبحانه ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشياطين ﴾ يعني وسخّرنا لسليمان أيضاً من الشياطين ﴿ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أي يدخلون تحت الماء فيخرجون له الجواهر من البحر ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلك ﴾ يعني دون الغوص ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ حتى لا يخرجوا من أمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 278 . 287 ﴾

(117/513)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ (51) ﴾

الرشد : الاهتداء لوجوه الصلاح. قال اللّه تعالى فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وقرئ : رشده. والرشد والرشد ، كالعدم والعدم. ومعنى إضافته إليه : أنه رشد مثله.

وأنه رشد له شأن مِنْ قَبْلُ أى من قبل موسى وهرون عليهما السلام. ومعنى علمه به : أنه علم منه أحوالا بديعة وأسرارا عجيبة وصفات قد رضيها وأحمدها ، حتى أهله لمخالته ومخالصته ، وهذا كقولك في خير من الناس : أنا عالم بفلان. فكلامك هذا من الاحتواء على محاسن الأوصاف بمنزل إِذْ إما أن يتعلق بآتينا ، أو برشده ، أو بمحذوف ، أى : اذكر من أوقات رشده هذا الوقت. قوله ما هذِهِ التَّماثِيلُ تجاهل لهم وتغاب ، ليحقر آلهتهم ويصغر شأنها ، مع علمه بتعظيمهم وإجلالهم لها . لم ينو للعاكفين مفعولا ، وأجراه مجرى ما لا يتعدى ، كقولك : فاعلون العكوف لها . أو واقفون لها . فإن قلت : هلا قيل : عليها عاكفون ، كقوله تعالى يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ ؟ قلت : لو قصد التعدية لعدّاه بصلته التي هي «على» .

ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان ، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن

(118/513)

قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم ، وهم معتقدون أنهم على شيء ، وجادّون في نصرة مذهبهم ، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم ، وكفى أهل التقليد سبة أنّ عبدة الأصنام منهم أَنْتُمْ من التأكيد الذي لا يصح الكلام مع الإخلال به ، لأنّ العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع . ونحوه : اسكن أنت وزوجك الجنة ، أراد أن المقلدين والمقلدين جميعا ، منخرطون في سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة ، لاستناد الفريقين إلى غير دليل ، بل إلى هوى متبع وشيطان مطاع ، لاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلالا .

[سورة الأنبياء (21) : آية 55]

قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (55)

بقوا متعجبين من تضليله إياهم ، وحسبوا أن ما قاله إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة ، لا على طريق الجدّ ، فقالوا له : هذا الذي جئتنا به ، أهو جدّ وحق ، أم لعب وهزل ؟

[سورة الأنبياء (21) : آية 56]

قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56)

الضمير في فَطَرَهُنَّ للسماوات والأرض. أو للتماثيل، وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم، وأثبت للاحتجاج عليهم. وشهادته على ذلك: إدلاؤه بالحجة عليه، وتصحيحه بها كما تصحح الدعوى بالشهادة، كأنه قال: وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه كما تبين الدعاوى بالبينات، لأني لست مثلكم، فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجة. كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم، ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 57 إلى 58]

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58)

قرأ معاذ بن جبل: باللّه. وقرئ: تولوا، بمعنى تتولوا. ويقويها قوله فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ.

فإن قلت: ما الفرق بين الباء والتاء؟ قلت: أن الباء هي الأصل، والتاء بدل من الواو المبدلة منها، وأن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه، لأن ذلك كان أمرا مقنوطا منه لصعوبته وتعذره، ولعمري إن مثله صعب متعذر في كل زمان، خصوصا في زمن نمروذ مع عتوّه واستكباره وقوة سلطانه وتهالكه على نصره دينه

ولكن :

إذا اللّه سنّى عقد شيء تيسّرا «1»

روى أن آزر خرج به في يوم عيد لهم ، فبدؤا ببيت الأصنام فدخلوه وسجدوا لها ووضعوا بينها طعاما خرجوا به معهم وقالوا : إلى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا ، فذهبوا وبقي إبراهيم فنظر إلى الأصنام وكانت سبعين صنما مصطفة ، وثم صنم عظيم مستقبل الباب ، وكان من ذهب وفي عينيه جوهرتان تضيئان بالليل ، فكسرها كلها بفأس في يده ، حتى إذا لم يبق إلا الكبير علق الفأس في عنقه . عن قتادة : قال ذلك سرا من قومه ، وروى : سمعه رجل واحد جُذاذاً قطاعا ، من الجذ وهو القطع . وقرئ بالكسر والفتح . وقرئ : جذذا . جمع جذيذ ، وجذذا جمع جذة . وإنما استبقى الكبير لأنه غلب في ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه ، لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم ، فيبكتهم بما أجاب به من قوله بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ وعن الكلبي إِلَيْهِ إلى كبيرهم . ومعنى هذا : لعلهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات ، فيقولون له : ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحا والفأس على عاتقك ؟ قال هذا بناء على ظنه بهم ، لما جرب وذاق من

مكابرتهم لعقولهم واعتقادهم في آلهتهم وتعظيمهم لها .

أو قاله مع علمه أنهم لا يرجعون إليه استهزاء بهم واستجهالا ، وأن قياس حال من يسجد له ويؤهله للعبادة أن يرجع إليه في حل كل مشكل . فإن قلت : فإذا رجعوا إلى الصنم بمكابرتهم لعقولهم ورسوخ الإشراك في أعراقهم ، فأى فائدة دينية في رجوعهم إليه حتى يجعله إبراهيم صلوات اللّه عليه غرضا ؟ قلت : إذا رجعوا إليه تبين أنه عاجز لا ينفع ولا يضر ، وظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم .

[سورة الأنبياء (21) : آية 59]

قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59)

أى أن من فعل هذا الكسر والحطم لشديد الظلم ، معدود في الظلمة : إمّا لجرأته على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير والإعظام ، وإمّا لأنهم رأوا إفراطا في حطمها وتماديا في الاستهانة بها .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 60 إلى 61]

قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ (60) قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61)

---

(1) وأعلم علما ليس بالظن أنه إذا اللّه سنى عقد شيء تيسرا

ذكر المصدر توكيدا دافعا للتجوز في الفعل ، ثم بين المراد بقوله «ليس بالظن» ويجوز أنه

ذكره توطئة لوصفه بأنه غير ظن . وسنيت الشيء : فككته وسهلته . والعقد : مستعار للصعوبة تصريحا ، أى : إذا سهل اللّه صعوبة شيء وأزالها ، سهل تحصيله أو دفعه إن كان محبوبا أو مكروها .

(120/513)

فإن قلت : ما حكم الفعلين بعد سَمِعْنا فَتًى وأى فرق بينهما ؟ قلت : هما صفتان لفتى ، إلا أن الأوّل وهو يَذْكُرُهُمْ لا بد منه لسمع ، لأنك لا تقول : سمعت زيدا وتسكت ، حتى تذكر شيئا مما يسمع . وأمّا الثاني فليس كذلك . فإن قلت : إِبْراهِيمُ ما هو ؟ قلت : قيل هو خبر مبتدإ محذوف ، أو منادى . والصحيح أنه فاعل يقال ، لأن المراد الاسم لا المسمى عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ في محل الحال ، بمعنى معاينا مشاهدا ، أى : بمرأى منهم ومنظر . فإن قلت : فما معنى الاستعلاء في على ؟ قلت : هو وارد على طريق المثل ، أى : يثبت إتيانه في الأعين ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ عليه بما سمع منه . وبما فعله أو يحضرون عقوبتنا له . روى أنّ الخبر بلغ نمروذ وأشراف قومه ، فأمروا بإحضاره .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 62 إلى 63]

قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (62) قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (63)

هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني . والقول فيه أنّ قصد إبراهيم صلوات اللّه عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط : أأنت كتبت هذا وصاحبك أمّىّ لا يحسن الخطّ ولا يقدر إلا على خرمشة «1» فاسدة ، فقلت له : بل كتبته أنت ، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به ، لا نفيه عنك وإثباته للأمّىّ أو المخرمش ، لأنّ إثباته – والأمر دائر بينكما للعاجز منكما – استهزاء به وإثبات للقادر ، ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة ، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشدّ لما رأى من زيادة تعظيمهم له ، فأسند الفعل إليه لأنه هو الذي تسبب لاستهانته بها وحطمه لها ، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه . ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم ، كأنه قال لهم : ما تنكرون أن يفعله كبيرهم . فإنّ من حق من يعبد ويدعى إلها أن يقدر على هذا وأشدّ منه ، ويحكى أنه قال : فعله كبيرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها . وقرأ محمد بن السميقع : فعله كبيرهم ، يعنى : فلعله ، أى فلعلّ الفاعل كبيرهم .

[سورة الأنبياء (21) : آية 64]

فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64)

---

(1) . قوله «خرمشة فاسدة» الموجود في الصحاح: الخرش: مثل الخدش. والخراش: سمته. والمخرشة:

خشبة يخط بها الخراز. ولم يوجد فيه «خرمشة» بزيادة الميم. (ع)

(121/513)

فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم، رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: أنتم الظالمون على الحقيقة، لا من ظلمتموه حين قلتم: من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين.

[سورة الأنبياء (21) : آية 65]

ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (65)

نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه، وانتكس: انقلب، أى: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة، وأنّ هؤلاء - مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق - آلهة معبودة، مضارّة منهم. أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام مجادلين عنه، حين نفوا

عنها القدرة على النطق . أو قلبوا على رؤسهم حقيقة ، لفرط إطراقهم خجلا وانكسارا وانخزالا مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام ، فما أحاروا جوابا إلا ما هو حجة عليهم . وقرئ : نكسوا ، بالتشديد .

ونكسوا ، على لفظ ما سمى فاعله ، أى : نكسوا أنفسهم على رؤسهم . قرأ به رضوان ابن عبد المعبود .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 66 إلى 67]

قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (67)

أُفٍّ صوت إذا صوّت به علم أنّ صاحبه متضجر ، أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم . واللام لبيان المتأفف به .

أى : لكم ولآلهتكم هذا التأفف .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 68 إلى 70]

قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (68) قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ (69) وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70)

أجمعوا رأيهم - لما غلبوا - بإهلاكه : وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح ، لم

يكن أحد أبغض إليه من المحق ، ولم يبق له مفزع إلا مناصبته ، كما فعلت قريش برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين عجزوا عن المعارضة ، والذي أشار بإحراقه نمروذ . وعن ابن عمر رضى اللّه عنهما : رجل من أعراب العجم يريد الأكراد . وروى أنهم حين هموا بإحراقه ، حبسوه ثم بنوا بيتا كالحظيرة بكوثى ، وجمعوا شهرا أصناف الخشب الصلاب ، حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول : إن عافاني اللّه لأجمعنّ حطبا لإبراهيم عليه السلام ، ثم أشعلوا نارا عظيمة كادت الطير تحترق في الجوّ من وهجها ، ثم وضعوه في المنجنيق مقيدا مغلولا فرموا به فيها ، فناداها جبريل

(122/513)

عليه السلام يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً ويحكى . ما أحرقت منه إلا وثاقه . وقال له جبريل عليه السلام حين رمى به : هل لك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا . قال : فسل ربك . قال : حسبي من سؤالى علمه بحالي . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : إنما نجا بقوله : حسبي اللّه ونعم الوكيل ، وأطل عليه نمروذ من الصرح فإذا هو في روضة ومعه جليس له من الملائكة ، فقال : إنى مقرّب إلى إلهك ، فذبح أربعة آلاف بقرة وكفّ عن إبراهيم ، وكان إبراهيم صلوات اللّه وسلامه عليه إذ ذاك ابن ست عشرة سنة . واختاروا المعاقبة بالنار لأنها

أهول ما يعاقب به وأفظعه ، ولذلك جاء : «لا يعذب بالنار إلا خالقها» «1» ومن ثم قالوا إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ أى إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرا مؤزرا ، فاختاروا له أهول المعاقبات وهي الإحراق بالنار ، وإلا فرّطتم في نصرتها . ولهذا عظموا النار وتكلفوا في تشهير أمرها وتفخيم شأنها ، ولم يألوا جهدا في ذلك . جعلت النار لمطاوعتها فعل اللّه وإرادته كمأمور أمر بشيء فامتثله . والمعنى : ذات برد وسلام ، فبولغ في ذلك . كأن ذاتها برد وسلام . والمراد : ابردى فيسلم منك إبراهيم .

أو ابردى بردا غير ضارّ . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها . فإن قلت : كيف بردت النار وهي نار ؟ قلت : نزع اللّه عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحرّ والإحراق ، وأبقاها على الإضاءة والاشتعال كما كانت ، واللّه على كل شيء قدير . ويجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم عليه السلام أذى حرّها ويذيقه فيها عكس ذلك ، كما يفعل بخزنة جهنم ، ويدل عليه قوله عَلى إِبْراهِيمَ وأرادوا أن يكيدوه ويمكروا به ، فما كانوا إلا مغلوبين مقهورين غالبوه بالجدال فغلبه اللّه ولقنه بالمبكت ، وفزعوا إلى القوّة والجبروت ، فنصره وقوّاه .

[سورة الأنبياء (21) : آية 71]

وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ (71)

نجيا من العراق إلى الشام . وبركاته الواصلة إلى العالمين : أن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا

فيه فانتشرت في العالمين شرائعهم وآثارهم الدينية وهي البركات الحقيقية . وقيل : بارك اللّه فيه بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب عيش الغنىّ والفقير . وعن سفيان أنه خرج إلى الشام فقيل له : إلى أين ؟ فقال : إلى بلد يملأ فيه الجراب بدرهم . وقيل : ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس «2» . وروى أنه نزل بفلسطين ، ولوط بالمؤتفكة

---

(1) . وفي أبى داود : «إلا رب النار» .

(2) . قلت : جاء مرفوعا عن أبى بن كعب . أخرجه الطبري عن الحسين عن الفضيل بن موسى عن الحسين بن واقد عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب في قوله «و نجيناه ولوطا – الآية» قال : الشام ، وما من ماء عذب إلا يخرج من تلك الصخرة التي ببيت المقدس وأخرجه ابن أبى حاتم عن على بن الحسين بن الجنيد عن أبى عمار أخرجه أيضا من رواية محمد بن سعد بن سابق عن أبى جعفر الرازي عن الربيع عن أبى العالية مقطوعا لم يذكر أبى بن كعب ، بلفظ «هي الأرض المقدسة بارك اللّه فيها للعالمين» ولم يذكر الصخرة . وأخرجه عبد بن حميد عن أبى النضر عن أبى جعفر كذلك . وزاد «لأن كل ماء عذب في الأرض منها يخرج من أصل صخرة بيت المقدس ، يهبط من السماء إلى الصخرة ثم يتفرق في الأرض» وأخرجه أبو سعيد النقاش في فوائده من وجه آخر عن الربيع عن أبى العالية . وأخرجه أبو سعيد عبد بن حميد عن أبى النضر نحوه بتمامه وأخرجه الخطيب أبو بكر

محمد بن أحمد ابن محمد المقدسي المعروف بابن الواسطي في كتاب فضل بيت المقدس من طريق آدم ابن أبى إياس عن أبى جعفر الرازي ، بلفظ في قوله تعالى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها قال : من بركتها أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس . وأخرج الخطيب المذكور من طريق غالب بن عبد اللّه عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رفعه «الأنهار كلها والسحاب والبحار والرياح من تحت صخرة بيت المقدس» وغالب متروك .

(123/513)

وبينهما مسيرة يوم وليلة .

[سورة الأنبياء (21) : آية 72]

وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ (72)

النافلة : ولد الولد . وقيل : سأل إسحاق فأعطيه ، وأعطى يعقوب نافلة ، أى : زيادة وفضلا من غير سؤال .

[سورة الأنبياء (21) : آية 73]

وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا

لَنا عابِدِينَ (73)

يَهْدُونَ بِأَمْرِنا فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين اللّه فالهداية محتومة عليه مأمور هو بها من جهة اللّه ، ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها ، وأوّل ذلك أن يهتدى بنفسه ، لأنّ الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل فِعْلَ الْخَيْراتِ أصله أن تفعل الخيرات ، ثم فعلا الخيرات ، ثم فعل الخيرات . وكذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 74 إلى 75]

وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75)

حُكْماً حكمة وهو ما يجب فعله . أو فصلا بين الخصوم . وقيل : هو النبوّة . والقرية : سذوم ، أى : في أهل رحمتنا . أو في الجنة . ومنه الحديث «هذه رحمتي أرحم بها من أشاء «1»»

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 76 إلى 77]

وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (77)

---

(1) . متفق عليه من حديث أبى هريرة رفعه «تحاجت النار والجنة - الحديث» وفيه

فقال للجنة أنت رحمتي أرحم بها من أشاء من عبادي» ولمسلم من حديث أبي سعيد نحوه.

(124/513)

مِنْ قَبْلُ من قبل هؤلاء المذكورين.

هو «نصر» الذي مطاوعه «انتصر» وسمعت هذليا يدعو على سارق: اللهم انصرهم منه ، أي: اجعلهم منتصرين منه. والكرب: الطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه.

[سورة الأنبياء (21): الآيات 78 إلى 80]

وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (80)

أي: واذكرهما. وإذ: بدل منهما. والنفش: الانتشار بالليل. وجمع الضمير لأنه أراد هما والمتحاكمين إليهما. وقرئ: لحكمهما. والضمير في فَفَهَّمْناها للحكومة أو الفتوى. وقرئ :

فأفهمناها . حكم داود بالغنم لصاحب الحرث . فقال سليمان عليه السلام وهو ابن إحدى عشرة سنة : غير هذا أرفق بالفريقين ، فعزم عليه ليحكمنّ ، فقال : أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها ، والحرث إلى أرباب الشاء يقومون عليه حتى يعود كهيئته يوم أفسد ، ثم يترادّان . فقال : القضاء ما قضيت ، وأمضى الحكم بذلك . فإن قلت : أحكما بوحي أم باجتهاد ؟ قلت : حكما جميعا بالوحي ، إلا أن حكومة داود نسخت بحكومة سليمان . وقيل :

اجتهدا جميعا ، فجاء اجتهاد سليمان عليه السلام أشبه بالصواب . فإن قلت : ما وجه كل واحدة من الحكومتين ؟ قلت : أمّا وجه حكومة داود عليه السلام ، فلأن الضرر لما وقع بالغنم سلمت بجنايتها إلى المجنى عليه ، كما قال أبو حنيفة رضى اللّه عنه في العبد إذا جنى على النفس : يدفعه المولى بذلك أو يفديه . وعند الشافعي رضى اللّه عنه : يبيعه في ذلك أو يفديه . ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الحرث . ووجه حكومة سليمان عليه السلام أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث ، من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم ، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والنقصان ، مثاله ما قال أصحاب الشافعي فيمن غصب عبدا فأبق من يده : أنه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوّته الغاصب من منافع

العبد ، فإذا ظهر ترادّا ، فإن قلت : فلو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا ما حكمها ؟ قلت : أبو حنيفة وأصحابه رضى اللّه عنهم لا يرون فيه ضمانا بالليل أو بالنهار ، إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد والشافعي رضى اللّه عنه يوجب الضمان بالليل . وفي قوله فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ دليل على أنّ الأصوب كان مع سليمان عليه السلام . وفي قوله وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً دليل على أنهما جميعا كانا على الصواب يُسَبِّحْنَ حال بمعنى مسبحات . أو استئناف ، كأن قائلا قال : كيف سخرهنّ ؟

فقال : يسبحن وَالطَّيْرَ إمّا معطوف على الجبال ، أو مفعول معه . فإن قلت : لم قدمت الجبال على الطير ؟ قلت : لأنّ تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدلّ على القدرة وأدخل في الإعجاز ، لأنها جماد والطير حيوان ، إلا أنه غير ناطق . روى أنه كان يمرّ بالجبال مسبحا وهي تجاوبه . وقيل : كانت تسير معه حيث سار . فإن قلت : كيف تنطق الجبال وتسبح ؟ قلت . بأن يخلق اللّه فيها الكلام كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى «1» . وجواب آخر : وهو أن يسبح من رآها تسير بتسيير اللّه ، فلما حملت على التسبيح وصفت به وَكُنَّا فاعِلِينَ أى قادرين على أن نفعل هذا وإن كان عجبا عندكم وقيل : وكنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك .

اللبوس : اللباس . قال :

البس لكلّ حالة لبوسها «2»

والمراد الدرع. قال قتادة: كانت صفائح فأوّل من سردها وحلقها داود، فجمعت الخفة والتحصين لِتُحْصِنَكُمْ قرئ بالنون والياء والتاء، وتخفيف الصاد وتشديدها، فالنون للّه عز وجل، والتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع، والياء لداود أو للبوس.

---

(1). قوله «كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى» هذا عند المعتزلة، بناء على أن كلام اللّه حادث فلا يقوم بذاته تعالى: أما عند أهل السنة فكلامه تعالى قديم قائم بذاته، ويسمعه موسى عليه السلام بكشف الحجاب عنه. (ع)

(2) البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها

لبيهس الملقب بنعامة: قتل له سبعة إخوة، فجعل يلبس القميص مكان السراويل وعكسه. وإذا سئل عن ذلك قال:

هذا البيت، حتى إذا أخذت دماء السبعة. واللبوس - بالفتح -: اللباس. وقسمه في الابدال منه إلى النعيم والبؤس لعلاقة السببية. ويجوز أنه على حذف المضاف، أى: لبوس نعيمها أو لبوس بؤسها. ووسط إما للتنويع، ولكن القصة تدل على أن ذات اللباس لم تتغير، فيجوز أن اللبوس اسم مصدر وإن كان استعمال فعول بالفتح في المصدر قليلا. ويجوز أن يروى بالضم، فيكون بمعنى المصدر على الكثير، أى: البس لكل حالة ما يناسبها من اللبس.

إما اللبس المستقيم أو المنعكس . والمأمور باللبس ليس معنا . والبؤس بالهمز : الشدة ، قلبت همزته هنا واوا لتناسب القافية . وبين لبوس وبوس : الجناس الناقص .

(126/513)

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 81 إلى 82]

وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ (81) وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ (82)

قرئ : الريح . والرياح ، بالرفع والنصب فيهما ، فالرفع على الابتداء ، والنصب على العطف على الجبال . فإن قلت : وصفت هذه الرياح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى ، فما التوفيق بينهما ؟ «1» قلت : كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم ، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة ، على ما قال غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء في نفسها وعاصفة في عملها ، مع طاعتها لسليمان وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم : آية إلى آية ومعجزة إلى معجزة . وقيل كانت في وقت رخاء ، وفي وقت عاصفا ، لهبوبها على حكم إرادته ، وقد أحاط علمنا بكل شيء فنجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا .

أي : يغوصون له في البحار فيستخرجون الجواهر ، ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال والمهن وبناء المدائن والقصور واختراع الصنائع العجيبة ، كما قال يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ واللّه حافظهم أن يزيغوا عن أمره ، أو يبدلوا أو يغيروا ، أو يوجد منهم فساد في الجملة فيما هم مسخرون فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 121 .

﴿ 130

---

(1) . قال محمود : «إن قلت قد وصفت هذه الريح بأنها رخاء وبأنها عاصف فما وجه ذلك ؟ قلت : ما هي إلا جمعتهما وكانت في نفسها رخاء طيبة وفي سرعة حركتها كالعاصف» قال أحمد : وهذا كما ورد وصف عصا موسى تارة بأنها جان وتارة بأنها ثعبان ، والجان الرقيق من الحيات والثعبان العظيم الجافي منها . ووجه ذلك أنها جمعت الوصفين ، فكانت في خفتها وفي سرعة حركتها كالجان ، وكانت في عظم خلقها كالثعبان ، ففي كل واحد من الريح والعصا على هذا التقرير معجزتان واللّه سبحانه وتعالى أعلم .

(127/513)

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ﴾

أي صلاحه وهداه ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل موسى وهرون ، وقيل من قبل البلوغ وهو حين خرج من السرب وهو صغير ﴿ وكنا به عالمين ﴾ أي إنه من أهل الهداية والنبوة ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل ﴾ يعني الصور والأصنام ﴿ التي أنتم له عاكفون ﴾ أي مقيمون على عبادتها ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ أي فاقتدينا بهم ﴿ قال ﴾ يعني إبراهيم ﴿ لقد كنتم أنتم وآباءكم في ضلال مبين ﴾ أي في خطأ بين بعبادتكم إياها ﴿ قالوا أجئتنا بالحق ﴾ أي بالصدق ﴿ أم أنت من اللاعبين ﴾ يعنون أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب ﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ﴾ أي خلقهن ﴿ وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ أي على أنه الإله الذي يستحق العبادة ، وقيل شاهد على أنه خالق السموات والأرض ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ أي لأمكرن بها ﴿ بعد أن تولوا مدبرين ﴾ أي منطلقين إلى عيدكم ، قيل إنما قال إبراهيم هذا القول سراً في نفسه ، ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد من قومه فأفشاه عليه ، وهو القائل إنا سمعنا فتى يذكرهم ، وقيل كان لهم في كل سنة مجمع وعيد فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم رجعوا إلى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم يا إبراهيم لو

خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معه إبراهيم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال إني سقيم أشتكي رجلي فتركوه ومضوا ، فنادى في آخرهم وقد بقي ضعفاء الناس تالله لأكيدن أصنامكم فسمعوها منه ، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهن في بهو عظيم ، ومستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه صنم أصغر منه والأصنام جنبها إلى جنب بعض كل صنم الذي يليه أصغر منه وهكذا إلى باب البهو ، وإذا هم قد جعلوا طعاماً بين يدي الآلهة وقالوا إذا رجعنا وقد بركت الآلهة عليه أكلنا منه ، فلما نظر إبراهيم إليهم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء ﴿ ألا تأكلون ﴾ فلما لم يجيبوه ﴿ ما لكم

(129/513)

لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ وجعل يكسرهن بفأس في يده حتى إذا لم يبق إلا الصنم العظيم ، علق الفأس في عنقه ، وقيل في يده ثم خرج .

(130/513)

قوله تعالى : ﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ أي كسراً وقطعاً ﴿ إلا كبيراً لهم ﴾ أي تركه ولم يسكره ووضع الفأس في عنقه ، ثم خرج وقيل ربطه على يده وكانت اثنين وسبعين صناماً بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد وبعضها من نحاس ورصاص وحجر وخشب وكان الصنم الكبير من الذهب مكللاً بالجواهر في عينيه ياقوتتان تتقدان وقوله ﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾ قيل معناه يرجعون إلى إبراهيم وإلى دينه وما يدعوهم إليه إذا علموا ضعف الآلهة وعجزها وقيل معناه لعلهم يرجعون إلى الصنم فيسألونه ما لهؤلاء تكسروا وأنت صحيح والفأس في عنقك ، فلما رجع القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوا أصنام مكسرة ﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ أي في تكسيرها واجترائه عليها ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم ﴾ أي يسبهم ويعيبهم ﴿ يقال له إبراهيم ﴾ أي هو الذي نظن أنه صنع هذا فبلغ ذلك نمرود الجبار وأشراف قومه ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس ﴾ أي جيئوا به ظاهراً بمرأى الناس وإنما قاله نمرود ﴿ لعلهم يشهدون ﴾ أي عليه بأنه الذي فعل ذلك كرهوا أن يأخذوه بغير بنية وقيل معناه لعلهم يحضرون عذابه وما يصنع به فلما أتوا به ﴿ قالوا ﴾ له ﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال ﴾ يعني إبراهيم ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ غضب أن تعبدون معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرهن وأراد إبراهيم بذلك إقامة الحجة عليهم فذلك قوله ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ أي حتى يخبروا بمن فعل ذلك بهم ، وقيل : معناه إن قدروا على النطق قدروا

على الفعل فأراهم عجزهم عن النطق وفي ضمنه أنا فعلت ذلك (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ثنتين منهن في ذات الله قوله إني سقيم وقوله : فعله كبيرهم هذا ، وقوله لسارة : هذه أختي " لفظ الترميذي قيل في قوله إني سقيم أي : سأسقم وقيل : سقيم القلب مغتم بضلالتكم .

(131/513)

وأما قوله بل فعله كبيرهم هذا فإنه علق خبره بشرط نطقه كأنه قال : إن كان ينطق فهو على طريق التبكيت لقومه وقوله لسارة : هذه أختي ، أي في الدين والإيمان قال الله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ فكل هذه الألفاظ صدق في نفسها ليس فيها كذب .

فإن قلت : قد سماها النبي (صلى الله عليه وسلم) كذبات بقوله : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات وقال في حديث الشفاعة ويذكر كذباته .

قلت : معناه أنه لم يتكلم بكلام صورته صورة الكذب ، وإن كان حقاً في الباطن إلا هذه الكلمات ولما كان مفهوم ظاهرها خلاف باطنها أشفق إبراهيم منها بمؤاخذته بها قال البغوي : وهذه التأويلات لنفي الكذب عن إبراهيم والأولى هو الأول للحديث ، ويجوز أن يكون الله أذن له في ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم ، كما أذن ليوسف

حين أمر مناديه فقال : أيتها العير إنكم لسارقون ولم يكونوا سرقوا قال الإمام فخر الدين الرازي : وهذا القول مرغوب عنه ، والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذب لمصلحة ويأذن الله فيه فلنجوز هذا الاحتمال في كل ما أخبر الأنبياء عنه ، وذلك يبطل الوثوق بالشرائع ويطرق التهمة إلى كلها ، الحديث محمول على المعاريض ، فإنه فيها مندوحة عن الكذب .

(132/513)

وقوله : ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ يعني تفكروا بقلوبهم ورجعوا إلى عقولهم ﴿ فقالوا ﴾ ما نراه إلا كما قال ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾ يعني بعبادتكم ما لا يتكلم وقيل معناه أنتم الظالمون لهذا الرجل في سؤالكم إياه ، وهذه آلهتكم حاضرة فاسألوها ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ قال أهل التفسير أجرى الله الحق على ألسنتهم في القول الأول وهو إقرارهم على أنفسهم بالظلم ثم أدركتهم الشقاوة فرجعوا إلى حالهم الأولى وهو قوله : ثم نكسوا على رؤوسهم أي ردوا إلى الكفر وقالوا ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ يعني فكيف نسألهم ، فلما اتجهت الحجة لإبراهيم عليهم ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ﴾ يعني إن عبدتموه ﴿ ولا يضركم ﴾ يعني إن تركتم عبادته ﴿ أف لكم

﴿ يعني تباً لكم ﴾ ولما تعبدون من دون الله ﴾ والمعنى أنه حقرهم وحقر معبودهم ﴿ أفلا تعقلون ﴾ يعني أليس لكم عقل تعقلون به أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة ؟ فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ﴾ يعني أنكم لا تنصرونها إلا بتحريق إبراهيم لأنه يعيبها ويطعن فيها ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ يعني ناصرين آلهتكم .

قال ابن عمر : الذي قال هذا رجل من الأكراد قيل اسمه هيزن فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

وقيل : قاله نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن نمرود بن كوش بن حام بن نوح .

ذكر القصة في ذلك

(133/513)

فلما اجتمع نمرود وقومه لإحراق إبراهيم حبسوه في بيت وبنوا بنياناً كالحظيرة بقرية يقال لها كوثى ثم جمعوا له صلاب الحطب وأصناف الخشب مدة شهر حتى كان الرجل يمرض فيقول : لئن عوفيت لأجمعن حطباً لإبراهيم وكانت المرأة تنذر في بعض ما تطلب لئن أصابته لتحتطبن في نار إبراهيم ، وكانت المرأة تغزل وتشتري الحطب بغزلها احتساباً في

دينها ، وكان الرجل يوصي بشراء الحطب من ماله لإبراهيم ، فلما جمعوا ما أرادوا أشعلوا في كل ناحية من الحطب ناراً فاشتعلت النار واشتدت حتى إن الطير ليمر بها فتحرق من شدة وهجها وحرها ، فأوقدوا عليها سبعة أيام ، فلما أرادوا أن يلقوا إبراهيم لم يعلموا كيف يلقونه ، فقيل إن إبليس جاء وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه ثم عمدوا إلى إبراهيم فقيدوه ورفعوه على رأس البنيان ووضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً ، فصاحت السماء والأرض ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين صيحة واحدة : أي ربنا إبراهيم خليلك يلقى في النار وليس في أرضك أحد يعبدك غيره ، فأذن لنا في نصرته فقال الله تعالى : إنه خليلي ليس لي خليل غيره وأنا إلهه ليس له إله غيري فإن استغاث بأحد منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك ، وإن لم يدع غيري ، فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه ، فلما أرادوا إلقاءه في النار أتاه خازن المياه وقال : إن أردت أخمدت النار ، وأتاه خازن الهواء وقال : إن شئت طيرت النار في الهواء فقال إبراهيم : لا حاجة لي إليكم حسبي الله ونعم الوكيل .

(134/513)

وروي عن أبي بن كعب أن إبراهيم قال حين أوثقوه في النار : لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ، ثم رموا به في المنجنيق إلى النار ، فاستقبله جبريل فقال : يا إبراهيم ألك حاجة قال : أما إليك فلا قال جبريل فسأل ربك فقال إبراهيم : حسبي من سؤالي علمه بحالي (خ) عن أبن عباس في قوله تعالى : ﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ قال : قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد (صلى الله عليه وسلم) حين ﴿ قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ﴾ قال كعب الأحبار : جعل كل شيء يطفىء عنه النار إلا الوزغ فإنه كان ينفخ في النار (ق) عن أم شريك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أمر بقتل الأوزاغ زاد البخاري وقال كان ينفخ على إبراهيم "

قال : ﴿ قلنا ﴾ يعني ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ قال ابن عباس : لو لم يقل سلاماً لمات إبراهيم من بردها ، وفي بعض الآثار أنه لم يبق يومئذ نار في الأرض إلا طفئت فلم ينتفع في ذلك اليوم بنار في العالم ، ولو لم يقل على إبراهيم بقيت ذات برد أبداً ، وقيل : أخذت الملائكة بضبعي إبراهيم فأقعدوه على الأرض فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس .

قال كعب : ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه قالوا : وكان إبراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام ، قاله المنهال بن عمرو وقال إبراهيم : ما كنت أياماً قط أنعم مني من الإيام التي كنت في النار .

وقيل : وبعث الله تعالى ملك الظل في صورة إبراهيم فقعد إلى جنب إبراهيم يؤنسه .

قالوا : وبعث الله جبريل بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدثه ، وقال جبريل : يا إبراهيم إن ربك يقول : أما علمت أن النار لا تضر أحبائي .

(135/513)

ثم نظر نمرود وأشرف على إبراهيم من صرح له فرأه جالساً في روضة والملك قاعد إلى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب ، فناداه يا إبراهيم كبير إلهك الذي بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم .

قال : هل تخشى إن قمت أن تضرك قال لا .

قال : فقم فاخرج منها فقام إبراهيم يمشي فيها حتى خرج منها فلما وصل إليه قال له إبراهيم من الرجل الذي رأيته معك مثلك في صورتك قاعداً إلى جنبك ؟ قال : ذلك ملك الظل أرسله إلى ربي ليؤنسني فيها فقال نمرود يا إبراهيم إني مقرب إلى إلهك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده وإني ذابح له أربعة آلاف بقرة .

قال إبراهيم : لا يقبل الله منك ما دمت على دينك حتى تفارقه وترجع إلى ديني فقال : لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبحها ، فذبحها نمرود ، وكف عن إبراهيم ومنعه الله منه

قوله ﴿ وأرادوا به كيداً ﴾ يعني أرادوا أن يكيدوه ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ قيل : معناه أنهم خسروا السعي والنفقة ولم يحصل لهم مرادهم .

وقيل : إن الله تعالى أرسل على نمرود وقومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت في دماغه بعوضة فأهلكته .

قوله تعالى : ﴿ ونجيناه ولوطاً ﴾ يعني من نمرود وقومه ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ يعني إلى أرض الشام بارك الله فيها بالخصب وكثرة الاشجار والثمار والأنهار .

وقال أبي بن كعب : بارك الله فيها وسماها مباركة لأنه ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس .

(136/513)

وقيل : لأن أكثر الأنبياء منها (ق) عن أبي قتادة أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال لكعب : ألا تتحول إلى المدينة فيها مهاجر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقبره فقال كعب : إني وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين أن الشام كنز الله من أرضه وبها

كنز من عباده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم " أخرجه أبو داود ، أراد بالهجرة الثانية الهجرة إلى الشام يرغب في المقام بها عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " طوبى لأهل الشام فقلت وما ذاك يا رسول الله قال لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليها " أخرجه الترمذي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : " قلت يا رسول الله أين تأمرني ؟ قال ها هنا ونحا بيده نحو الشام " أخرجه الترمذي .

قال محمد بن إسحاق : استجاب لإبراهيم رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله تعالى به من جعل النار عليه برداً وسلاماً على خوف من نمرود وملئهم وآمنت به سارة بنت هاران الأكبر عم إبراهيم ، وتبعه لوط وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران وهو أخو إبراهيم ، وكان لهما أخ ثالث اسمه ناخور فثلاثتهم اولاد تارخ وهو آزر ، فخرج إبراهيم من كوثى من أرض العراق مهاجراً إلى ربه معه لوط وسارة فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله ، ثم خرج مهاجراً حتى قدم مصر ، ثم خرج ورجع إلى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين ، ونزل لوط بالمؤتفكة وهي على مسيرة يوم وليلة من السبع فبعثه الله نبياً إلى أهلها وما قرب منها فذلك قوله تعالى ﴿ ونجيناه ولوطاً إلى الأرض

التي باركنا فيها للعالمين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾ يعني عطية من عطاء الله .

(137/513)

قال ابن عباس : النافلة هو يعقوب لأن الله تعالى أعطى إبراهيم إسحاق بدعائه حيث قال : رب هب لي من الصالحين وزاده يعقوب نافلة وهو ولد الولد ﴿ وكلا جعلنا صالحين ﴾ يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿ وجعلناهم أئمة ﴾ يعني قدوة يهتدى بهم في الخير ﴿ يهدون بأمرنا ﴾ يعني يدعون الناس إلى ديننا بأمرنا ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ يعني العمل بالشرائع ﴿ وإقام الصلاة ﴾ يعني المحافظة عليها ﴿ وإيتاء الزكاة ﴾ يعني الواجبة وخصهما لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية وشرعت لذكر الله والزكاة أفضل العبادات المالية ومجموعها التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ﴿ وكانوا لنا عابدين ﴾ يعني موحدين قوله ﴿ ولوطاً آتيناه حكماً ﴾ أي الفصل بين الخصوم بالحق وقيل أراد الحكمة والنبوة ﴿ وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث ﴾ يعني قرية سدوم وأراد أهلها وأراد بالخبائث إتيان الذكور في أدبارهم ، وكانوا يتضارطون في مجالسهم مع أشياء أخرى كانوا يعلمونها من المنكرات ﴿ إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في

رحمتنا ﴾ قيل : أراد بالرحمة النبوة وقيل أراد بها الثواب ﴿ إنه من الصالحين ﴾ أي الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿ ونوحاً إذ نادى من قبل ﴾ أي من قبل إبراهيم ولوط ﴿ فاستجبنا له ﴾ أي أجبنا دعاءه ﴿ فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ قال ابن عباس من الغرق وتكذيب قومه له ، وقيل : إنه كان أطول الأنبياء عمراً وأشدهم بلاء .

والكرب أشد الغم ﴿ ونصرناه ﴾ أي منعناه ﴿ من القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ من أن يصلوا إليه بسوء وقيل من بمعنى على ﴿ إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾ .

قوله ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث ﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين : كان الحرث كرماً قد تدلت عناقيده وقيل كان زرعاً وهو أشبه بالعرف ﴿ إذ نفشت فيه غنم القوم ﴾ أي رعته ليلاً فأفسدته وكان بلا راع ﴿ وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ أي كان ذلك بعلمنا ومرأى منا لا يخفى علينا علمه .

(138/513)

وفيه دليل لمن يقول بأن أقل الجمع اثنان لقوله وكنا لحكمهم والمراد به داود وسليمان قال ابن عباس وغيره .

إن رجلين دخلا على داوود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع إن غنم هذا دخلت زرعي ليلاً فوقعت فيه فأفسدته فلم تبق منه شيئاً فأعطاه رقاب الغنم بالزرع ، فخرجا فمرا على سليمان فقال : كيف قضى بينكما فأخبراه فقال سليمان : لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا وروي أنه قال غير هذا أرفق بالفريقين ، فأخبر بذلك داود فدعاه وقال : كيف تقضي ويروى أنه قال له بحق النبوة والأبوة إلا ما أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين ؟ قال أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها ، ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه ، فاذا صار الحرث كهيئته يوم أكل دفع إلى صاحبه وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود : القضاء ما قضيت وحكم بذلك ، فقيل : كان لسليمان يوم حكم بذلك من العمر إحدى عشر سنة .

وحكم الإسلام في هذه المسألة أن ما أفسدته الماشية المرسلة من مال الغير بالنهار فلا ضمان على ربها وما أفسدته بالليل ضمنه ربها لأن في عرف الناس أن أصحاب الزرع يحفظونه بالنهار والمواشي تسرح بالنهار وترد بالليل إلى المراح .

ويدل على هذه المسألة ما روى حرام بن سعد بن محيصة أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطاً لرجل من الأنصار فأفسدت فيه فقضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن على أهل الأموال حفظها بالنهار ، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل وزاد في رواية : وإن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل ، أخرجه أبو داود مرسلاً .

وذهب أصحاب الرأي أن المالك إذا لم يكن مع ماشيته فلا ضمان عليه فيما أتلفت ليلاً كان أو نهاراً ، فذلك قوله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ أي علمناه وألهمناه حكم القضية ﴿ وكلاً ﴾ أي داود وسليمان ﴿ آتينا حكماً وعلماً ﴾ أي بوجوه الاجتهاد وطرق الأحكام قال الحسن لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا ولكن الله حمد هذا بصوابه وأثنى على هذا باجتهاده .

واختلف العلماء في أن حكم داود كان باجتهاده أم بنص ، وكذلك حكم سليمان فقال بعضهم : حكماً بالاجتهاد .

قال : ويجوز الاجتهاد للأنبياء ليدركوا ثواب المجتهدين والعلماء لهم الاجتهاد في الحوادث إذا لم يجدوا فيها نص كتاب أو سنة وإذا أخطؤوا فلا إثم عليهم (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه سلم : " إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر " وقال قوم إن داود وسليمان حكما بالوحي فكان حكم سليمان ناسخاً لحكم داود ومن قال بهذا يقول لا يجوز للأنبياء الحكم بالاجتهاد لأنهم مستغنون عنه بالوحي ، واحتج من ذهب إلى أن كل مجتهد مصيب بظاهر

هذه الآية وبالحديث حيث وعد الثواب للمجتهد على الخطأ ، وهو قول أصحاب الرأي وذهب جماعة إلى أنه ليس كل مجتهد مصيباً بل إذا اختلف اجتهاد المجتهدين في حادثة كان الحق مع واحد لا بعينه ، ولو كان كل واحد مصيباً لم يكن للتقسيم معنى ، وقوله (صلى الله عليه وسلم) : " إذا اجتهد فأخطأ فله أجر " لم يرد به أنه يؤجر على الخطأ بل يؤجر على اجتهاده في طلب الحق لأن اجتهاده عبادة والإثم في الخطأ عنه موضوع إذا لم يأل جهداً ، ووجه الاجتهاد في هذا الحكم أن داود قوم قدر الضرر في الحرث فكان مساوياً لقيمة الغنم ، وكان عنده أن الواجب في ذلك الضرر في الحرث قيمة المثل ، فلا جرم سلم الغنم إلى المجني عليه .

(140/513)

وأما سليمان فإن اجتهاده أدى إلى أنه يجب مقابلة الأصول بالأصول والزوائد بالزوائد ، فأما مقابلة الأصول بالزوائد فغير جائزة ، ولعل منافع الغنم في تلك السنة كانت موازية لمنافع الحرث فحكم به .

ومن أحكام داود وسليمان عليهما السلام ما روي عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " كانت امرأتان معها ابناهما جاء الذئب فذهب بابن

إحداهما فقالت لصاحبتها إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه فقال : ائتوني بالسكين أشقه بينهما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى " أخرجاه في الصحيحين قوله تعالى ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ أي يسبحن مع داود إذا سبح قال ابن عباس كان يفهم تسبيح الحجر والشجر ، قيل : كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير وقيل معنى يسبحن يصلين معه إذا صلى وقيل كان داود إذا افتر يسمعه الله تسبيح الجبال والطير لنشط في التسبيح ويشتاق إليه ﴿ وكنا فاعلين ﴾ يعني ما ذكر من التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير .

﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم ﴾ أي صعنة الدروع التي تلبس في الحرب قيل أول من صنع الدروع وسردها واتخذها حلقاً داود وكانت من قبل صفائح قالوا إن الله ألان الحديد لداود بأن يعمل منه بغير نار كأنه طين والدرع يجمع بين الخفة والحصانة وهو قوله تعالى : ﴿ لتحصنكم ﴾ أي تمنعكم ﴿ من بأسكم ﴾ أي حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم وقيل ليحصنكم الله به ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ أي يقول ذلك لداود وأهل بيته .

قوله ﴿ ولسليمان الريح ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح وهو جسم متحرك لطيف ممتنع بلطفه من القبض عليه يظهر للحسن بحركته ويخفى عن البصر بلطفه ﴿ عاصفة ﴾ أي شديدة الهبوب .

فإن قلت : قد وصفها الله بالرخاء وهي الريح اللينة قلت : كانت الريح تحت أمره إن أراد أن تشتد اشتدت وإن أراد أن تلين لانت ﴿ تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ يعني الشام وذلك لأنها كانت تجري بسليمان وأصحابه حيث يشاء سليمان ثم يعود إلى منزله بالشام ﴿ وكنا بكل شيء عالمين ﴾ أي بصحة التدبير فيه وعلمنا ان ما يعطى سليمان من تسخير الريح وغيره يدعوه إلى الخضوع لربه .

قال وهب : كان سليمان عليه السلام إذا خرج إلى مجلسه حلقت عليه الطير وقام له الإنس والجن حتى يجلس على سريره ، وكان أمرأ غزاء ، قلما كان يقعد عن الغزو ، ولا يسمع في ناحية من الأرض بملك إلا أتاه حتى يذله ، وكان فيما يزعمون إذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب له بخشب ، ثم نصب له على الخشب ، ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب ، فإذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته ، حتى إذا استقلت به أمر الرخاء فمرت به شهراً في روحته وشهراً في غدوته إلى حيث أراد .

وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء وبالمزرعة فما تحركها ولا تثير تراباً ولا تؤذي طائراً .

قال وهب : ذكر لي أن منزلاً بناحية دجلة مكتوب فيه كتبه بعض صحابة سليمان إما من الإنس أو من الجن نحن نزلناه وما بنيناه ومبنياً وجدناه غدونا من إصطخر فقلناه ونحن رائحون منه إن شاء الله فنازلون بالشام وقال مقاتل : نسجت الشياطين لسليمان بساطاً فرسخاً في فرسخ ذهباً في إبريسم وكان يوضع له منبر من ذهب وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة ، تقعد الأنبياء على كراسي الذهب ، والعلماء على كراسي الفضة ، وحولهم الناس ، وحول الناس الجن والشياطين ، وتظلله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه شمس ، وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح وقال الحسن : لما شغلت نبي الله سليمان الخيل حتى فاتته ، صلاة العصر غضب لله فعقر الخيل فأبدله الله مكانها خيراً منها وأسرع الريح تجري بأمره كيف شاء فكان يغدو من إيلياء فيقيل بإصطخر ثم يروح منها فيكون رواحه ببابل .

وروي أن سليمان سار من أرض العراق فقال بمدينة بلخ متخللاً بلاد الترك ، ثم جاوزهم إلى أرض الصين يعدو على مسيرة شهر ويروح على مثل ذلك ثم عطف يمنة عن مطلع الشمس على ساحر البحر حتى أتى أرض السند وجاوزها وخرج منها إلى مكران وكرمان ، ثم جاوزهما حتى أتى أرض فارس فنزلها أياماً ، وغدا منها فقال بكسكر ، ثم راح إلى الشام .

وكان مستقره بمدنية تدمر وكان أمر الشياطين قبل شخوصه إلى العراق فبنوها له بالصفاح والعمد والرخام الأصفر والأبيض ، وفي ذلك يقول النابغة :

إلا سليمان إذ قال المليك له . . .

قم في البرية فاحددها عن الفند

وجيش الجن إني قد أذنت لهم . . .

يبنون تدمر بالصفاح والعمد

(143/513)

قوله ﴿ ومن الشياطين ﴾ أي وسخرنا له من الشياطين ﴿ من يغوصون له ﴾ أي يدخلون تحت الماء فيخرجون له من قعر البحر الجواهر ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ أي دون الغوص وهو اختراع الصنائع العجيبة كما قال ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ﴾ الآية ، ويتجاوزون في ذلك إلى أعمال المدن والقصور والصناعات كاتخاذ النورة والقوارير والصابون وغير ذلك ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ يعني حتى لا يخرجوا عن أمره ، وقيل : حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا وذلك أنهم كانوا إذا عملوا عملاً في النهار وفرغ قبل الليل أفسدوه وخربوه .

قيل : إن سليمان كان إذا بعث شيطاناً مع إنسان ليعمل له عملاً قال له إذا فرغ من عمله قبل الليل اشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل ويخربه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 297.307 ﴾

(144/513)

وقال النسفى :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ ﴾

هداه ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل موسى وهرون أو من قبل محمد عليه السلام ﴿ وَكُنَّا بِهِ ﴾ بابراهيم أو برشده ﴿ عالمين ﴾ أي علمنا أنه أهل لما آتيناه ﴿ إِذْ ﴾ إما أن تتعلق ب ﴿ اتيناه ﴾ أو ب ﴿ رشده ﴾ ﴿ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هذه التماثيل ﴾ أي الأصنام المصورة على صورة السباع والطيور والإنسان ، وفيه تجاهل لهم ليحقر آلهتهم مع علمه بتعظيمهم لها ﴿ التى أَنتُمْ لَهَا عاكفون ﴾ أي لأجل عبادتها مقيمون .

فلما عجزوا عن الإتيان بالدليل على ذلك .

﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا ءابَاءنَا لَهَا عابدين ﴾ فقلدناهم ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءابَاؤُكُمْ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ أراد أن المقلدين والمقلدين منخرطون في سلك ضلال ظاهر

لا يخفى على عاقل ، وأكد ب ﴿ أنتم ﴾ ليصح العطف لأن العطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا بالحق ﴾ بالجد ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين ﴾ أي أجاد أنت فيما تقول أم لاعب استعظاماً منهم إنكاره عليهم واستبعاداً لأن يكون ما هم عليه ضلالاً ، فثم أضرب عنهم مخبراً بأنه جاد فيما قال غير لاعب مثبتاً لربوبية الملك العلام وحدوث الأصنام بقوله :

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السماوات والأرض الذى فطَرَهُنَّ ﴾ أي التماثيل فأنى يعبد المخلوق ويترك الخالق ﴿ وَأَنَاْ على ذلكم ﴾ المذكور في التوحيد شاهد ﴿ من الشاهدين وتالله ﴾ أصله "والله" وفي التاء معنى التعجب من تسهيل الكيد على يده مع صعوبته وتعذره لقوة سلطة نمروذ .

﴿ لاَكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ لأكسرنها ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم ، قال ذلك سراً من قومه فسمعه رجل واحد فعرض بقوله ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 89] أي سأسقم ليتخلف .

(145/513)

فرجع إلى بيت الأصنام ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً ﴾ قطعاً من الجذ وهو القطع جمع جذاذة كزجاجة وزجاج جذاذ بالكسر : علي ، جمع جذيذ أي مجذوذ كخفيف وخفاف ﴿ إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ ﴾ للأصنام أو للكفار أي فكسرها كلها بفأس في يده إلا كبيرها فعلق الفأس في عنقه ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ ﴾ إلى الكبير ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ فيسألونه عن كاسرها فتبين لهم عجزه ، أو إلى إبراهيم ليحتج عليهم ، أو إلى الله لما رأوا عجز آلتهم ﴿ قَالُواْ ﴾ أي الكفار حين رجعوا من عيدهم ورأوا ذلك ﴿ مَن فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين ﴾ أي إن من فعل هذا الكسر لشديد الظلم لجراءته على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير والتعظيم ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبراهيم ﴾ الجملتان صفتان ل ﴿ فتى ﴾ إلا أن الأول وهو ﴿ يذكرهم ﴾ أي يعيبهم لا بد منه للسمع لأنك لا تقول "سمعت زيداً" وتسكت حتى تذكر شيئاً مما يسمع بخلاف الثاني .

وارتفاع ﴿ إبراهيم ﴾ بأنه فاعل ﴿ يقال ﴾ فالمراد الاسم المسمى أي الذي يقال له هذا الاسم ﴿ قَالُواْ ﴾ أي نمروذ وأشراف قومه ﴿ فَأْتُواْ بِهِ ﴾ أحضروا إبراهيم ﴿ على أَعْيُنِ الناس ﴾ في محل الحال بمعنى معاينا مشاهدا أي بمرأى منهم ومنظر ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ عليه بما سمع منه أو بما فعله كأنهم كرهوا عقابه بلا بينة أو يحضرون عقوبتنا له .

فلما أحضروه ﴿ قَالُواْ ءأَنتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنَا يا إبراهيم قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ بَلْ فَعَلَهُ ﴾

عن الكسائي : إنه يقف عليه أي فعله من فعله ، وفيه حذف الفاعل وأنه لا يجوز ، وجاز أن يكون الفاعل مسنداً إلى الفتى المذكور في قوله ﴿ سمعنا فتى يذكرهم ﴾ أو إلى ﴿ إبراهيم ﴾ في قوله ﴿ يا إبراهيم ﴾ ثم قال ﴿ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ وهو مبتدأ وخبر .

(146/513)

والأكثر أنه لا وقف ، والفاعل ﴿ كبيرهم ﴾ وهذا وصف أو بدل ، ونسب الفعل إلى كبيرهم وقصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي تبكيتاً لهم وإلزاماً للحجة عليهم لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم وأنه لا يصلح إلهاً ، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رشيق أنيق : أأنت كتبت هذا وصاحبك أمي فقلت له "بل كتبته أنت" كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمي ، لأن إثباته للعاجز منكما والأمر كائن بينكما استهزاء به وإثبات للقادر ، ويمكن أن يقال : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة وكان غيظ كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له ، فأسند الفعل إليه لأن الفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه ، ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم : ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فإن من حق من يعبد ويدعى إلهاً أن يقدر على هذا .

ويحكى أنه قال : غضب أن تعبد هذه الصغار معه وهو أكبر منها فكسرهن ، أو هو متعلق بشرط لا يكون وهو نطق الأصنام فيكون نفياً للمخبر عنه أي بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون ، وقوله ﴿ فَاسْئَلُوهُمْ ﴾ اعتراض .

وقيل : عرض بالكبير لنفسه وإنما أضاف نفسه إليهم لاشتراكهم في الحضور ﴿ فَاسْئَلُوهُمْ ﴾ عن حالهم ﴿ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ ﴾ وأنتم تعلمون عجزهم عنه .

﴿ فَرَجَعُواْ إِلى أَنفُسِهِمْ ﴾ فرجعوا إلى عقولهم وتفكروا بقلوبهم لما أخذ بمخانقهم ﴿ فَقَالُواْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون ﴾ على الحقيقة بعبادة ما لا ينطق لا من ظلمتموه حين قلتم ﴿ من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ فإن من لا يدفع عن رأسه الفاس ، كيف يدفع عن عابديه البأس ؟

(147/513)

﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ على رُؤُوسَهُمْ ﴾ قال أهل التفسير : أجرى الله تعالى الحق على لسانهم في القول الأول ، ثم أدركتهم الشقاوة أي ردوا إلى الكفر بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم ، يقال : نكسته قلبته فجعلت أسفله أعلاه أي استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاؤوا بالفكرة الصالحة ثم انقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة وقالوا ﴿ لَقَدْ

عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالها ؟ والجملة سدت مسد مفعولي ﴿ علمت ﴾ والمعنى لقد علمت عجزهم عن النطق فكيف نسألهم ؟ ﴿ قَالَ ﴾ محتجاً عليهم ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً ﴾ هو في موضع المصدر أي نفعاً ﴿ وَلاَ يَضُرُّكُمْ ﴾ إن لم تعبدوه ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ "أف" صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر ، ضجر مما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق فتأفف بهم واللام لبيان المتأفف به أي لكم ولآلهتكم هذا التأفف ﴿ أف ﴾ مدني وحفص ، ﴿ أفّ ﴾ مكي وشامي ﴿ أفّ ﴾ غيرهم ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أن من هذا وصفه لا يجوز أن يكون إلهاً .

فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ ﴾ بالنار لأنها أهول ما يعاقب به وأفظع ﴿ وانصروا ءالِهَتَكُمْ ﴾ بالانتقام منه ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ أي إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً فاختاروا له أهول المعاقبات وهو الإحراق بالنار وإلا فرطتم في نصرتها ، والذي أشار بإحراقه نمروذ أو رجل من أكراد فارس .

وقيل : إنهم حين هموا بإحراقه حبسوه ثم بنوا بيتاً بكوثى وجمعوا شهراً أصناف الخشب ثم أشعلوا ناراً عظيمة كادت الطير تحترق في الجو من وهجها ، ثم وضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً فرموا به فيها وهو يقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، وقال له جبريل : هل لك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا .

قال : فسل ربك .

قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي .

(148/513)

وما أحرقت النار إلا وثاقه .

وعن ابن عباس : إنما نجا بقوله "حسبي الله ونعم الوكيل" .

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وسلاما ﴾ أي ذات برد وسلام فبولغ في ذلك كأن ذاتها برد وسلام ﴿ على إبراهيم ﴾ أراد ابردي فيسلم منك إبراهيم .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها .

والمعنى أن الله تعالى نزع عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحر والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق كما كانت وهو على كل شيء قدير ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً ﴾ إحراقاً ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ فأرسل على نمروذ وقومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت بعوضة في دماغ نمروذ فأهلكته ﴿ ونجيناه ﴾ أي إبراهيم ﴿ وَلُوطاً ﴾ ابن أخيه هاران من العراق ﴿ إِلَى الأرض التى بَارَكْنَا فِيهَا للعالمين ﴾ أي أرض الشام وبركتها أن أكثر الأنبياء منها فانتشرت في العالمين آثارهم الدينية وهي أرض خصب يطيب

فيها عيش الغني والفقير .

وقيل : ما من ماء عذب في الأرض إلا وينبع أصله من صخرة بيت المقدس .

روي أنه نزل بفلسطين ولوط بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة .

وقال عليه السلام " "إنها ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس إلى مهاجر إبراهيم" " ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ قيل : هو مصدر كالعافية من غير لفظ الفعل السابق أي وهبنا له هبة : وقيل : هي ولد الولد وقد سأل ولداً فأعطيه وأعطي يعقوب نافلة أي زيادة فضلاً من غير سؤال وهي حال من ﴿ يعقوب ﴾ ﴿ وَكُلاًّ ﴾ أي إبراهيم وإسحق ويعقوب وهو المفعول الأول لقوله ﴿ جَعَلْنَا ﴾ والثاني ﴿ صالحين ﴾ في الدين والنبوة . ﴿ وجعلناهم أَئِمَّةً ﴾ يقتدى بهم في الدين ﴿ يَهْدُونَ ﴾ الناس ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ بوحينا ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات ﴾ وهي جميع الأعمال الصالحة وأصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات ثم فعل الخيرات .

(149/513)

وكذلك قوله ﴿ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ والأصل وإقامة الصلاة إلا أن المضاف إليه جعل بدلاً من الهاء ﴿ وَكَانُواْ لَنَا عابدين ﴾ لا للإصنام فأنتم يا معشر العرب أولاد إبراهيم

فاتبعوه في ذلك .

﴿ وَلُوطاً ﴾ انتصب بفعل يفسره ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا ﴾ حكمة وهي ما يجب فعله من العمل أو فصلاً بين الخصوم أو نبوة ﴿ وَعِلْماً ﴾ فقهاً ﴿ ونجيناه مِنَ القرية ﴾ من أهلها وهي سدوم ﴿ التى كَانَت تَّعْمَلُ الخبائث ﴾ اللواطة والضراط وحذف المارة بالحصى وغيرها ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فاسقين ﴾ خارجين عن طاعة الله ﴿ وأدخلناه فِى رَحْمَتِنَا ﴾ في أهل رحمتنا أو في الجنة ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ أي جزاء له على صلاحه كما أهلكنا قومه عقاباً على فسادهم ﴿ وَنُوحاً ﴾ أي واذكر نوحاً ﴿ إِذْ نادى ﴾ أي دعا على قومه بالهلاك ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل هؤلاء المذكورين ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ أي دعاءه ﴿ فنجيناه وَأَهْلَهُ ﴾ أي المؤمنين من ولده وقومه ﴿ مِنَ الكرب العظيم ﴾ من الطوفان وتكذيب أهل الطغيان .

﴿ ونصرناه مِنَ القوم الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ منعناه منهم أي من أذاهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فأغرقناهم أَجْمَعِينَ ﴾ صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم .

﴿ وَدَاوُودَ وسليمان ﴾ أي واذكرهما ﴿ إِذْ ﴾ بدل منهما ﴿ يَحْكُمَانِ فِى الحرث ﴾ في الزرع أو الكرم ﴿ إِذْ ﴾ ظرف ل ﴿ يحكمان ﴾ ﴿ نَفَشَتْ ﴾ دخلت ﴿ فِيهِ غَنَمُ القوم ﴾ ليلاً فأكلته وأفسدته والنفش انتشار الغنم ليلاً بلا راع ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ ﴾ أرادهما والمتحاكمين إليهما ﴿ شاهدين ﴾ أي كان ذلك بعلمنا ومرأى منا .

﴿ ففهمناها ﴾ أي الحكومة أو الفتوى ﴿ سليمان ﴾ وفيه دليل على أن الصواب كان مع سليمان صلوات الله عليه .

(150/513)

وقصته أن الغنم رعت الحرث وأفسدته بلا راع ليلاً فتحاكما إلى داود فحكم بالغنم لأهل الحرث وقد استوت قيمتاهما أي قيمة الغنم كانت على قدر النقصان من الحرث فقال سليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة غير هذا أرفق بالفريقين ، فعزم عليه ليحكمن فقال : أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها والحرث إلى رب الغنم حتى يصلح الحرث ويعود كهيئته يوم أفسد ثم يترادان .

فقال : القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك ، وكان ذلك باجتهاد منهما وهذا كان في شريعتهم ، فأما في شريعتنا فلا ضمان عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم بالليل أو بالنهار إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد ، وعند الشافعي رحمه الله يجب الضمان بالليل .

وقال الجصاص : إنما ضمنوا لأنهم أرسلوها .

ونسخ الضمان بقوله عليه السلام " العجماء جبار " وقال مجاهد : كان هذا صلحاً وما

فعله داود كان حكماً والصلح خير ﴿ وَكُلاًّ ﴾ من داود وسليمان ﴿ آتيناه حُكْماً ﴾ نبوة ﴿ وَعِلْماً ﴾ معرفة بموجب الحكم ﴿ وَسَخَّرْنَا ﴾ وذللنا ﴿ مَّعَ دَاوُودُ الجبال يُسَبِّحْنَ ﴾ وهو حال بمعنى مسبحات أو استئناف كأن قائلاً قال : كيف سخرهن ؟ فقال : يسبحن ﴿ والطير ﴾ معطوف على الجبال أو مفعول معه ، وقدمت الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب وأدخل في الإعجاز لأنها جماد .

روي أنه كان يمر بالجبال مسبحاً وهي تتجاوبه : وقيل : كانت تسير معه حيث سار ﴿ وكُنَّا فاعلين ﴾ بالأنبياء مثل ذلك وإن كان عجباً عندكم .

(151/513)

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ أي عمل اللبوس والدروع واللبوس اللباس والمراد الدرع ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ ﴾ شامي وحفص أي الصنعة ، وبالنون : أبو بكر وحماد أي الله عز وجل ، وبالياء : غيرهم أي اللبوس أو الله عز وجل ﴿ مّن بَأْسِكُمْ ﴾ من حرب عدوكم ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شاكرون ﴾ استفهام بمعنى الأمر أي فاشكروا الله على ذلك ﴿ ولسليمان الريح ﴾ أي وسخرنا له الريح ﴿ عَاصِفَةً ﴾ حال أي شديدة الهبوب ووصفت في موضع آخر بالرخاء لأنها تجري باختياره ، وكانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفة لهبوبها على

حكم إرادته ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِ ﴾ بأمر سليمان ﴿ إِلَى الأرض التى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ بكثرة الأنهار والأشجار والثمار والمراد الشام ، وكان منزله بها وتحمله الريح من نواحي الأرض إليها ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عالمين ﴾ وقد أحاط علمنا بكل شيء فتجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا ﴿ وَمِنَ الشياطين ﴾ أي وسخرنا منهم ﴿ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ في البحار بأمره لاستخراج الدر وما يكون فيها ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلك ﴾ أي دون الغوص وهو بناء المحاريب والتماثيل والقصور والقدور والجفان ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حافظين ﴾ أن يزيغوا عن أمره أو يبدلوا أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 81.86 ﴾

(152/513)

وقال البيضاوى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ ﴾

الاهتداء لوجوه الصلاح وإضافته ليدل على أنه رشد مثله وأن له شأناً . وقرىء ﴿ رشده ﴾ وهو لغة . ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ موسى وهرون أو محمد عليه الصلاة والسلام . وقيل من قبل استنبائه أو بلوغه حيث قال : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ ﴾ ﴿ وَكُنَّا بِهِ عالمين ﴾ علمنا أنه

أهل لما آتيناه ، أو جامع لمحاسن الأوصاف ومكارم الخصال وفيه إشارة إلى أن فعله سبحانه وتعالى باختيار وحكمة وأنه عالم بالجزئيات .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ متعلق ب ﴿ ءَاتَيْنَا ﴾ أو ب ﴿ رشده ﴾ أو بمحذوف : أي اذكر من أوقات رشده وقت قوله : ﴿ مَا هذه التماثيل التى أَنتُمْ لَهَا عاكفون ﴾ تحقير لشأنها وتوبيخ على إجلالها ، فإن التمثال صورة لا روح فيها لا يضر ولا ينفع ، واللام للاختصاص لا للتعدية فإن تعدية العكوف بعلى . والمعنى أنتم فاعلون العكوف لها ويجوز أن يؤول بعلى أو يضمن العكوف معنى العبادة .

﴿ قَالُواْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عابدين ﴾ فقلدناهم وهو جواب ما لزم الاستفهام من السؤال عما اقتضى عبادتها وحملهم عليها .

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ منخرطين في سلك ضلال لا يخفى على عاقل لعدم استناد الفريقين إلى دليل ، والتقليد إن جاز فإنما يجوز لمن علم في الجملة أنه على حق .

﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا بالحق أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين ﴾ كأنهم لاستبعادهم تضليله إياهم ظنوا أن ما قاله إنما قاله على وجه الملاعبة ، فقالوا أبجد تقوله أم تلعب به .

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السموات والارض الذى فطَرَهُنَّ ﴾ إضراب عن كونه لاعباً بإقامة البرهان على ما ادعاه وهن للسموات والأرض أو للتماثيل ، وهو أدخل في تضليلهم وإلزام

الحجة عليهم . ﴿ وَأَنَاْ على ذلكم ﴾ أي المذكور من التوحيد . ﴿ مِّنَ الشاهدين ﴾ من المتحققين له والمبرهنين عليه ، فإن الشاهد من تحقق الشيء وحققه .

(153/513)

﴿ وتالله ﴾ وقرىء بالباء وهي الأصل والتاء بدل من الواو المبدلة منها وفيها تعجب . ﴿ لأَكِيدَنَّ أصنامكم ﴾ لأجتهدن في كسرها ، ولفظ الكيد وما في التاء من التعجب لصعوبة الأمر وتوقفه على نوع من الحيل . ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ ﴾ عنها . ﴿ مُّدْبِرِينَ ﴾ إلى عيدكم ولعله قال ذلك سراً .

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً ﴾ قطاعاً فعال بمعنى مفعول كالحطام من الجذ وهو القطع . وقرأ الكسائي بالكسر وهو لغة ، أو جمع جذيذ كخفاف وخفيف . وقرىء بالفتح و ﴿ جذذاً ﴾ جمع جذيذ وجذذاً جمع جذة . ﴿ إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ ﴾ للأصنام كسر غيره واستبقاه وجعل الفأس على عنقه . ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ لأنه غلب على ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لتفرده واشتهاره بعداوة آلهتهم فيحاجهم بقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ فيحجهم ، أو أنهم يرجعون إلى الكبير فيسألونه عن كاسرها إذ من شأن المعبود أن يرجع إليه في حل العقد فيبكتهم بذلك ، أو إلى الله أي ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ إلى توحيده عند تحققهم عجز

آلهتهم .

﴿ قَالُواْ ﴾ حين رجعوا . ﴿ مَن فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين ﴾ بجرأته على الآلهة الحقيقة بالإعظام ، أو بإفراطه في حطمها أو بتوريط نفسه للهلاك .

﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ يعيبهم فلعله فعله ويذكر ثاني مفعولي سمع ، أو صفة ل ﴿ فَتًى ﴾ مصححة لأن يتعلق به السمع وهو أبلغ في نسبة الذكر إليه . ﴿ يُقَالُ لَهُ إبراهيم ﴾ خبر محذوف أي هو إبراهيم ، ويجوز أن يرفع بالفعل لأن المراد به الاسم .

﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ على أَعْيُنِ الناس ﴾ بمرأى منهم بحيث تتمكن صورته في أعينهم تمكن الراكب على المركوب . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ بفعله أو قوله أو يحضرون عقوبتنا له .

﴿ قَالُواْ ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ حين أحضروه .

(154/513)

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَاسْئَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنْطِقُونَ ﴾ أسند الفعل إليه تجوزاً لأن غيظه لما رأى من زيادة تعظيمهم له تسبب لمباشرته إياه ، أو تقريراً لنفسه مع الاستهزاء والتبكيت على أسلوب تعريضي كما لو قال لك من لا يحسن الخط فيما كتبته بخط رشيق : أأنت كتبت لهذا فقلت بل كتبته أنت ، أو حكاية لما يلزم من مذهبهم جوازه ، وقيل إنه في

المعنى متعلق بقوله ﴿ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ ﴾ وما بينهما اعتراض أو إلى ضمير ﴿ فَتًى ﴾ أو ﴿ إبراهيم ﴾ ، وقوله ﴿ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ مبتدأ وخبر ولذلك وقف على فعله . وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال " لإِبراهيم ثلاث كذبات " تسمية للمعاريض كذباً لما شابهت صورتها صورته .

﴿ فَرَجَعُواْ إلى أَنفُسِهِمْ ﴾ وراجعوا عقولهم . ﴿ فَقَالُواْ ﴾ فقال بعضهم لبعض . ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون ﴾ بهذا السؤال أو بعبادة من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع لا من ظلمتموه بقولكم ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين ﴾ .

﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ على رُؤُوسِهِمْ ﴾ انقلبوا إلى المجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة ، شبه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء مستعلياً على أعلاه . وقرىء ﴿ نُكِّسُواْ ﴾ بالتشديد و ﴿ نكسوا ﴾ أي نكسوا أنفسهم . ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلآءِ يِنْطِقُونَ ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالها وهو على إرادة القول .

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ ﴾ إنكار لعبادتهم لها بعد اعترافهم بأنها جمادات لا تنفع ولا تضر فإنه ينافي الألوهية .

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ تضجر منه على إصرارهم بالباطل البين ، و ﴿ أُفّ ﴾ صوت المتضجر ومعناه قبحاً وتتناً واللام لبيان المتأفف له . ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ قبح صنيعكم .

﴿ قَالُواْ ﴾ أخذا في المضارة لما عجزوا عن المحاجة . ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ فإن النار أهول ما يعاقب به . ﴿ وانصروا ءَالِهَتَكُمْ ﴾ بالانتقام لها . ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ إن كنتم ناصرين لها نصراً مؤزراً ، والقائل فيهم رجل من أكراد فارس اسمه هيون خسف به الأرض وقيل نمروذ .

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وسلاما على إبراهيم ﴾ ذات برد وسلام أي ابردي بردا غير ضار ، وفيه مبالغات جعل النار المسخرة لقدرته مأمورة مطيعة وإقامة ﴿ كُونِى ﴾ ذات برد مقام أبردي ، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقيل نصب ﴿ سَلاَماً ﴾ بفعله أي وسلمنا سلاماً عليه . روي أنهم بنوا حظيرة بكوثى وجمعوا فيها ناراً عظيمة ثم وضعوه في المنجنيق مغلولاً فرموا به فيها فقال له جبريل : هل لك حاجة ، فقال : أما إليك فلا فقال : فسل ربك فقال : حسبي من سؤالي علمه بحالي ، فجعل الله تعالى ببركة قوله الحظيرة روضة ولم يحترق منه إلا وثاقه ، فاطلع عليه نمرود من الصرح فقال إني مقرب إلى إلهك فذبح أربعة آلاف بقرة وكف عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وكان إذ ذاك ابن ست عشرة سنة وانقلاب النار هواء طيباً ليس ببدع غير أنه هكذا على خلاف المعتاد

فهو إذن من معجزاته . وقيل كانت النار بحالها لكنه سبحانه وتعالى دفع عنه أذاها كما ترى في السمندل ويشعر به قوله على إبراهيم .

﴿ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً ﴾ مكراً في إضراره . ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ أخسر من كل خاسر لما عاد سعيهم برهاناً قاطعاً على أنهم على الباطل وإبراهيم على الحق وموجباً لمزيد درجته واستحقاقهم أشد العذاب .

﴿ ونجيناه ولُوطاً إِلَى الأرض التى بَارَكْنَا فِيهَا للعالمين ﴾ أي من العراق إلى الشام وبركاته العامة أن أكثر الأنبياء بعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعهم التي هي مبادي الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية .

(156/513)

وقيل كثرة النعم والخصب الغالب . روي أنه عليه الصلاة والسلام نزل بفلسطين ولوط عليه الصلاة والسلام بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ عطية فهي حال منهما أو ولد ولد ، أو زيادة على ما سأل وهو إسحاق فتختص بيعقوب ولا بأس به للقرينة . ﴿ وَكُلاًّ ﴾ يعني الأربعة . ﴿ جَعَلْنَا صالحين ﴾ بأن وفقناهم للصلاح وحملناهم عليه فصاروا كاملين .

﴿ وجعلناهم أَئِمَّةً ﴾ يقتدى بهم . ﴿ يَهْدُونَ ﴾ الناس إلى الحق . ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ لهم بذلك وأرسلنا إياهم حتى صاروا مكملين . ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات ﴾ ليحثوهم عليها فيتم كمالها بانضمام العمل إلى العلم ، وأصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات وكذلك قوله : ﴿ وَإِقَامَ الصلاة وَإِيتَاء الزكوة ﴾ وهو من عطف الخاص على العام للتفضيل ، وحذفت تاء الإِقامة المعوضة من إحدى الألفين لقيام المضاف إليه مقامها . ﴿ وَكَانُواْ لَنَا عابدين ﴾ موحدين في العبادة ولذلك قدم الصلة .

﴿ وَلُوطاً اتيناه حُكْماً ﴾ حكمة أو نبوة أو فصلاً بين الخصوم . ﴿ وَعِلْماً ﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء . ﴿ ونجيناه مِنَ القرية ﴾ قرية سدوم . ﴿ التى كَانَت تَعْمَلُ الخبائث ﴾ يعني اللواطة وصفها بصفة أهلها أو أسندها إليها على حذف المضاف وإقامتها مقامه ويدل عليه : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فاسقين ﴾ فإنه كالتعليل له .

﴿ وأدخلناه فِى رَحْمَتِنَا ﴾ في أهل رحمتنا أو جنتنا . ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى .

﴿ وَنُوحاً إِذْ نادى ﴾ إذ دعا الله سبحانه على قومه بالهلاك . ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل المذكورين . ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ دعاءه . ﴿ فنجيناه وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ من الطوفان أو أذى قومه والكرب الغم الشديد .

﴿ ونصرناه ﴾ مطاوع انتصر أي جعلناه منتصراً . ﴿ مِنَ القوم الذين كَذَّبُواْ بآياتنا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فأغرقناهم أَجْمَعِينَ ﴾ لاجتماع الأمرين تكذيب الحق والانهماك في الشر ، ولعلهما لم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى .

﴿ وَدَاوُودَ وسليمان إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الحرث ﴾ في الزرع ، وقيل في كرم تدلت عناقيده . ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم ﴾ رعته ليلاً . ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهدين ﴾ لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما عالمين .

(158/513)

﴿ ففهمناها سليمان ﴾ الضمير للحكومة أو للفتوى وقرىء "فأفهمناها" . روي أن داود حكم بالغنم لصاحب الحرث فقال سليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة : غير هذا أرفق بهما فأمر بدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها والحرث إلى أرباب الغنم يقومون عليه حتى يعود إلى ما كان ثم يترادان . ولعلهما قالا اجتهادا والأول نظير قول أبي حنيفة في العبد الجاني والثاني مثل قول الشافعي بغرم الحيلولة في العبد المغصوب إذا أبق ، وحكمه في شرعنا عند الشافعي وجوب ضمان المتلف بالليل إذ

المعتاد ضبط الدواب ليلاً وهكذا قضى النبي صلى الله عليه وسلم لما دخلت ناقة البراء حائطاً وأفسدته فقال " على أهل الأموال حفظها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظها بالليل " وعند أبي حنيفة لا ضمان إلاَّ أن يكون معها حافظ لقوله صلى الله عليه وسلم " جرح العجماء جبار " ﴿ وَكُلاًّ ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ دليل على أن خطأ المجتهد لا يقدح فيه. وقيل على أن كل مجتهد مصيب وهو مخالف لمفهوم قوله تعالى: ﴿ ففهمناها ﴾ ولولا النقل لاحتمل توافقهما على أن قوله ففهمناها لإظهار ما تفضل عليه في صغره. ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودُ الجبالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ يقدسن الله معه إما بلسان الحال أو بصوت يتمثل له، أو بخلق الله تعالى فيها الكلام. وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال أو استئناف لبيان وجه التسخير و﴿ مَّعَ ﴾ متعلقة ب ﴿ سَخَّرْنَا ﴾ أو ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ ﴿ والطير ﴾ عطف على ﴿ الجبال ﴾ أو مفعول معه. وقرىء بالرفع على الإبتداء أو العطف على الضمير على ضعف. ﴿ وَكُنَّا فاعلين ﴾ لأمثاله فليس ببدع منا وإن كان عجباً عندكم.

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ ﴾ عمل الدرع وهو في الأصل اللباس قال:

البِسْ لكُل حَالَة لَبُوسهَا . . . إمَّا نعيمها وإمَا بُوسها

قيل كانت صفائح فحلقها وسردها . ﴿ لَكُمْ ﴾ متعلق بعلم أو صفة ﴿ للبوس ﴾ ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ ﴾ بدل منه بدل الاشتمال بإعادة الجار ، والضمير لداود عليه الصلاة والسلام أو ﴿ للبوس ﴾ وفي قراءة ابن عامر وحفص بالتاء للصنعة أو لل ﴿ بوس ﴾ على تأويل الدرع وفي قراءة أبي بكر ورويس بالنون لله عز وجل ﴿ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شاكرون ﴾ ذلك أمر أخرجه في صورة الاستفهام للمبالغة والتقريع .

﴿ ولسليمان ﴾ وسخرنا له ولعل اللام فيه دون الأول لأن الخارق فيه عائد إلى سليمان نافع له ، وفي الأول أمر يظهر في الجبال والطير مع داود وبالإضافة إليه . ﴿ الريح عَاصِفَةً ﴾ شديدة الهبوب من حيث إنها تبعد بكرسيه في مدة يسيرة كما قال تعالى : ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ وكانت رخاء في نفسها طيبة . وقيل كانت رخاء تارة وعاصفة أخرى حسب إرادته . ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِ ﴾ بمشيئته حال ثانية أو بدل من الأولى أو حال من ضميرها . ﴿ إِلَى الأرض التى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ إلى الشام رواحاً بعدما سارت به منه بكرة . ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عالمين ﴾ فنجريه على ما تقتضيه الحكمة .

﴿ وَمِنَ الشياطين مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ في البحار ويخرجون نفائسها ، ﴿ وَمِنْ ﴾ عطف على ﴿ الريح ﴾ أو مبتدأ خبره ما قبله وهي نكرة موصوفة . ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلك ﴾ ويتجاوزون ذلك إلى أعمال أخر كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة

كقوله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن محاريب وتماثيل ﴾ ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حافظين ﴾ أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 96.104 ﴾

(160/513)

وقال ابن جزى :

﴿ رُشْدَهُ ﴾ أي إرشاده إلى توحيد الله وكسر الأصنام وغير ذلك ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي قبل موسى وهارون ، وقيل آتيناه رشده قبل النبوة ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ أي علمناه أنه يستحق ذلك ﴿ التماثيل ﴾ يعني الأصنام وكانت على صور بني آدم ﴿ وَجَدْنَا آبَآءَنَا ﴾ اعتراف بالتقليد من غير دليل .

﴿ قالوا أَجِئْتَنَا بالحق ﴾ أي هل الذي تقول حق أم مزاح ، وانظر كيف عبر عن الحق بالفعل ، وعن اللعب بالجملة الإسمية ، لأنه أثبت عندهم ﴿ فطَرَهُنَّ ﴾ أي خلقهن ، والضمير للسموات والأرض ، أو التماثيل ، وهذا أليق بالرد عليهم ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ يعني خروجهم إلى عيدهم ﴿ جُذَاذاً ﴾ أي فتاتاً ، ويجوز فيه الضم والكسر والفتح ، وهو من الجذ بمعنى القطع ﴿ إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ ﴾ ترك الصنم الكبير لم يكسره وعلق القدم في

يده ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ الضمير للصنم الكبير أي يرجعون إليه فيسألونه فلا يجيبهم ، فيظهر لهم أنه لا يقدر على شيء ، وقيل : الضمير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، أي يرجعون إليه فيبين لهم الحق .

﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هذا ﴾ قبله محذوف تقديره : فرجعوا من عيدهم فرأوا الأصنام مكسورة ، فقالوا : ﴿ مَن فَعَلَ هذا ﴾ ﴿ فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ أي يذكرهم بالذم وبقوله : ﴿ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ ﴿ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ قيل : إن إعراب إبراهيم منادى ، وقيل : خبر ابتداء مضمر ، وقيل رفع على الإهمال ، والصحيح أنه مفعول لم يسم فاعله ، لأن المراد الاسم لا المسمى وهذا اختيار ابن عطية والزمخشري ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ أي يشهدون عليه بما فعل أو يحضرون عقوبتنا له .

(161/513)

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ قصد إبراهيم عليه السلام بهذا القول تبكيتهم وإقامة الحجة عليهم ، كأنه يقول : إن كان إلهاً فهو قادر على أن يفعل ، وإن لم يقدر فليس بإله ولم يقصد الإخبار المحض ، لأنه كذب ، فإن قيل : فقد جاء في الحديث " إن إبراهيم كذب ثلاث كذبات : أحدها قوله (فعله كبيرهم) " فالجواب أن معنى ذلك أنه قال قولاً ظاهره الكذب

، وإن كان القصد به معنى آخر ، ويدل على ذلك قوله ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ ﴾ لأنه أراد به أيضاً تبكيتهم وبيان ضلالهم .

﴿ فرجعوا إلى أَنفُسِهِمْ ﴾ أي رجعوا إليها بالفكرة والنظر ، أو رجعوا إليها بالملامة ﴿ فقالوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون ﴾ أي الظالمون لأنفسكم ؛ في عبادتكم ما لا ينطق ولا يقدر على شيء أو الظالمون لإبراهيم في قولكم عنه ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 59] ، وفي تعنيفه على أعين الناس ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ على رُءُوسِهِمْ ﴾ استعارة لانقلابهم برجوعهم عن الاعتراف بالحق إلى الباطل والمعاندة فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ ﴾ أي فكيف تأمرنا بسؤالهم فهم قد اعترفوا بأنهم لا ينطقون ، وهم مع ذلك يعبدونهم فهذه غاية الضلال في فعلهم ، وغاية المكابرة والمعاندة في جدالهم ، ويحتمل أن يكون نكسوا على رؤوسهم بمعنى رجوعهم من المجادلة إلى الانقطاع ؛ فإن قولهم ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ ﴾ : اعتراف يلزم منه أنهم مغلوبون بالحجة ، ويحتمل على هذا أن يكون نكسوا على رؤوسهم حقيقة : أي أطرقوا من الخجل لما قامت عليهم الحجة .

(162/513)

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ ﴾ تقدم الكلام على أف في [الإسراء : 23] ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ ﴾ لما غلبهم بالحجة رجعوا إلى تغلب عليه بالظلم قلنا ﴿ يانار كُونِي بَرْداً وسلاما ﴾ أي ذات برد وسلام ، وجاءت العبارة هكذا للمبالغة ، واختلف كيف بردت النار ؟ فقيل : أزال الله عنها ما فيها من الحرّ ، والإحراق ، وقيل : دفع عن جسم إبراهيم حرها وإحراقها مع ترك ذلك فيها ، وقيل : خلق بينه وبينها حائلاً ، ومعنى السلام هنا السلامة ، وقد روي أنه لو لم يقل : ﴿ وسلاما ﴾ لهلك إبراهيم من البرد . وقد أضربنا عما ذكره الناس في قصة إبراهيم لعدم صحته ، ولأن ألفاظ القرآن لا تقتضيه .

﴿ إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ هي الشام خرج إليها من العراق ، وبركتها بخصبها وكثرة الأنبياء فيها ﴿ نَافِلَةً ﴾ أي عطية ، والتنفيل العطاء ، وقيل سماه : نافلة ؛ لأنه عطاء بغير سؤال ، فكأنه تبرع ، وقيل : الهبة إسحاق ، والنافلة يعقوب ، لأنه سأل إسحاق بقوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين ﴾ [الصافات : 100] فأعطى يعقوب زيادة على ما سأل ، واختار بعضهم على هذا الوقف على إسحاق لبيان المعنى ، وهذا ضعيف لأنه معطوف على كل قول ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أي يرشدون الناس بإذننا .

﴿ وَلُوطاً ﴾ قيل : إنه انتصب بفعل مضمر يفسره آتيناه ، والأظهر أنه انتصب بالعطف على موسى وهارون ، أو إبراهيم وانتصب ونوحاً وداود وسليمان وما بعدهم بالعطف أيضاً ، وقيل بفعل مضمر تقديره : اذكر ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْماً ﴾ أي حكماً بين الناس : أو

حكمة ﴿ مِنَ القرية ﴾ هي سدوم من أرض الشام ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَآ ﴾ أي في الجنة أو في أهل رحمتنا .

﴿ نادى مِن قَبْلُ ﴾ أي دعا قبل إبراهيم ولوط ﴿ مِنَ الكرب ﴾ يعني من الغرق ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القوم ﴾ تعدى نصرناه بمن لأنه مطاوع انتصر المتعدّي بمن ، أو تضمن معنى نجيناه أو أجزناه .

(163/513)

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ كان داود نبياً ملكاً ، وكان ابنه سليمان ابن أحد عشر عاماً ﴿ فِي الحرث ﴾ قيل : زرع ، وقيل : كرم والحرث يقال فيهما ﴿ إِذْ نَفَشَتْ ﴾ رعت فيه بالليل ﴿ لِحُكْمِهِمْ ﴾ الضمير لداود وسليمان المتخاصمين ، وقيل لداود وسليمان خاصة ، على أن يكون أقل الجمع اثنان ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ تخاصم إلى ﴿ دَاوُودَ ﴾ رجلان دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته فقضى ﴿ دَاوُودَ ﴾ بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم ، ووجه هذا الحكم أن قيمة الزرع كانت مثل قيمة الغنم ، فخرج الرجلان على سليمان وهو بالباب ، فأخبراه بما حكم به أبوه ، فدخل عليه فقال : يا نبيّ الله لو حكمت بغير هذا كان أرفق للجميع ، قال وما هو ؟ قال يأخذ صاحب الغنم

الأرض ليصلحها حتى يعود زرعها كما كان ، ويأخذ صاحب الزرع الغنم وينتفع بألبانها وصوفها ونسلها ، فإذا أكمل الزرع ردت الغنم إلى صاحبها ، والأرض بزرعها إلى ربها ، فقال له داود : وفقت يا بنيّ ، وقضى بينهما بذلك ، ووجه حكم سليمان أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الزرع ، وواجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والنقصان ، ويحتمل أن يكون ذلك إصلاحاً لا حكماً .

واختلف الناس هل كان حكمهما بوحي أو اجتهاد ؟ فمن قال كان باجتهاد أجاز الاجتهاط للأنبياء ، وروي أن داود رجع عن حكمه لما تبين له أن الصواب خلافه ، وقد اختلف في جواز الاجتهاد في حق الأنبياء ، وعلى القول بالجواز اختلف ، هل وقع أم لا ؟ وظاهر قوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ : أنه كان اجتهاد فخص الله به سليمان ففهم القضية ، ومن قال : كان بوحي ، جعل حكم سليمان ناسخاً لحكم داود .

(164/513)

وأما حكم إفساد المواشي الزرع في شرعنا ، فقال مالك والشافعي : يضمن أرباب المواشي ما أفسدت بالليل دون النهار للحديث الوارد في ذلك ، وعلى هذا يدل حكم داود وسليمان ، لأن النفش لا يكون إلا بالليل ، وقال أبو حنيفة : لا يضمن ما أفسدت

بالليل ولا بالنهار ، لقول صلى الله عليه وسلم : " العجماء جرحها جبار " ﴿ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ قيل : يعني في هذه النازلة ، وأن داود لم يخطىء فيها ، ولكنه رجع إلى ما هو أرجح ، ويدل على هذا القول أن كل مجتهد مصيب ، وقيل : بل يعني حكماً وعلماً في غير هذه النازلة ، وعلى هذا القول فإنه أخطأ فيها ، وأن المصيب واحد من المجتهدين ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبالَ يُسَبِّحْنَ والطير ﴾ كان هذا التسبيح قول سبحانه الله ، وقيل : الصلاة معه إذا صلى ، وقدم الجبال على الطير ، لأن تسبيحها أغرب إذ هي جماد ﴿ وكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ أي قادرين على أن نفعل هذا .

وقال ابن عطية : معناه كان ذلك في حقه لأجل أن داود استوجب ذلك مناصفة كذا ! ﴿ صَنْعَةَ لَبُوسٍ ﴾ يعني دروع الحديد ، وأول من صنعها داود عليه السلام ، وقال ابن عطية اللبوس في اللغة : السلاح وقال الزمخشري : اللبوس اللباس ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ ﴾ أي لتقيكم في القتال وقرىء بالياء والتاء والنون ، فالنون لله تعالى ، والتاء للصنعة ، والياء لداود أو للبوس ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ لفظ استفهام ، ومعناه استدعاء إلى الشكر ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الريح عَاصِفَةً ﴾ عطف الريح على الجبال والعاصفة هي الشديدة فإن قيل : كيف يقال عاصفة ؟ وقال في [ص : 36]

﴿ رُخَآءً ﴾ أي لينة ؟ فالجواب : أنها كانت في نفسها لينة طيبة ، وكانت تسرع في جريها كالعاصف فجمعت الوصفين ، وقيل : كانت رخاء في ذهابه ، وعاصفة في رجوعه إلى وطنه ، لأن عادة المسافرين الإسراع في الرجوع ؛ وقيل : كانت تشتدّ إذا رفعت البساط وتلين إذا حملته ﴿ إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ يعني أرض الشام ، وكانت مسكنة وموضع ملكه ، فخص في الآية الرجوع إليها لأنه يدل على الانتقال منها ﴿ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أي يدخلون في الماء ليستخرجوا له الجواهر من البحار ﴿ عَمَلاً دُونَ ذلك ﴾ أقل من الغوص كالبنيان والخدمة ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أي نحفظهم عن أن يزيغوا عن أمره ، أو نحفظهم من إفساد ما صنعوه ، وقيل : معناه عالمين بعددهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 3 صـ 27 . 31 ﴾

(166/513)

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ ولقد أتينا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ إبراهيم رشده ﴾ أي : صلاحه وهداه ﴿ من قبل ﴾ أي : من قبل موسى وهارون ومحمد صلى الله وسلم عليهم وقيل : من قبل

استنبائه أو بلوغه حيث قال : إني وجهّت وجهي ﴿ وكنّا به ﴾ ظاهراً وباطناً ﴿ عالمين ﴾ بأنه أهل لما آتيناه لأنه جبلة خير جامع لمحاسن الأوصاف ومكارم الأخلاق والخصال يدوم على الرشد ويترقى فيه إلى أعلى درجاته لما طبعناه عليه ، وفي ذلك إشارة إلى أنه فعله تعالى باختيار وحكمة وأنه عالم بالجزئيات .

وتعليق ﴿ إذ قال ﴾ أي : إبراهيم ﴿ لأبيه وقومه ﴾ بعالمين إشارة إلى أن قوله لما كان بإذن منا ورضا لنا نصرناه وهو وحده على قومه كلهم ، ولو لم يكن برضينا لمنعناه منه بنصر قومه عليه وتمكين النار منه ، ثم ذكر مقول القول في قوله : منكراً عليهم محقراً لأصنامهم ﴿ ما هذه التماثيل ﴾ أي : الصور التي صنعتموها مماثلين بها ما فيه روح الله جاعلين لها ما لا يكون إلا لمن لا مثل له وهي الأصنام ﴿ التي أنتم لها ﴾ أي : لأجلها وحدها مع كثرة ما يشابهها وما هو أفضل منها ﴿ عاكفون ﴾ أي : مقيمون على عبادتها فإن قيل : هلا قال عليها عاكفون ، كقوله تعالى : يعكفون على أصنام لهم ؟

أجيب : بأن اللام للاختصاص لا للتعدية ، ولو قصد التعدية لعدّاه بصلته التي هي على ، ثم إنه تعالى ذكر جوابهم له بما لزم الاستفهام عن السؤال بأنهم

﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ فاقتدينا بهم لا حجة لنا غير ذلك فانظر ما أقبح التقليد وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حتى استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم وهم معتقدون أنهم على شيء وجادّون في نصرة مذهبهم

ومجادلون أهل الحق عن باطلهم وكفى أهل التقليد مسبة أن عبدة الأصنام منهم والتقليد إن جاز فإنما يجوز لمن علم في الجملة أنه على حق .

(167/513)

ولذا ﴿ قال ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ لقد كنتم ﴾ وأكده بقوله : ﴿ أنتم ﴾ لأجل صحة العطف لأن الضمير المرفوع المتصل حكمه حكم جزء الفعل والعطف على ضمير هو في حكم بعض الفعل ممتنع ونحوه : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ (البقرة ،) ،

﴿ وآباؤكم ﴾ أي : من قبلكم ﴿ في ضلال مبين ﴾ فبين أن المقلدين والمقلدين جميعاً منخرطون في سلك ضلال لا يخفى على من به أدنى مسكة لاستناد الفريقين إلى غير دليل بل إلى هوى متبع وشيطان مطاع لاستبعادهم أن يكون ما هم عليه ضلالاً بقوا متعجبين من تضليله إياهم .

فلذا ﴿ قالوا ﴾ ظناً منهم أنه لم يقل لهم ذلك على ظاهره ﴿ أجئتنا ﴾ في هذا الكلام ﴿ بالحق ﴾ الذي يطابقه الواقع ﴿ أم أنت من اللاعبين ﴾ أي : تقوله على وجه المزاح والملاعبة لا على وجه الجد .

﴿ قال ﴾ عليه السلام بانياً على ما تقديره ليس كلامي لعباً بل هو جد وهذه التماثيل

ليست أربابا ﴿ بل ربكم ﴾ أي : الذي يستحق منكم اختصاصه بالعبادة ﴿ رب السموات والأرض ﴾ أي : مدبرهنّ القائم بمصالحهنّ ﴿ الذي فطرهنّ ﴾ أي : خلقهنّ على غير مثال سبق وأنتم وتماثيلكم بما فيهما من مصنوعاته أنتم تشهدون بذلك إذا رجعتم إلى عقولكم مجرّدة عن الهوى وقيل : الضمير في فطرهنّ للتماثيل قال الزمخشري : وكونه للتماثيل أدخل في تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم ﴿ وأنا على ذلكم ﴾ أي : الأمر البين من أنه ربكم وحده فلا تجوز عبادة غيره ﴿ من الشاهدين ﴾ أي : الذين يقدرون على إقامة الدليل على ما يشهدون به لم يشهدوا إلا على ما هو عندهم مثل الشمس لا كما فعلتم أنتم حين اضطرّكم السؤال إلى الضلال ، ولما أقام البرهان على إثبات الإله الحق أتبعه البرهان على إبطال الباطل بقوله:

(168/513)

﴿ وتالله ﴾ وهو قسم والأصل في القسم الباء الموحدة والواو بدل منها والتاء بدل من الواو وفيها مع كونها بدلاً زيادة على التأكيد التعجب ﴿ لأكيدن أصنامهم ﴾ أي : لأجتهدنّ في كسرها والتأكيد وما في التاء من التعجب من تسهيل الكيد على يده وتأتيه لأنّ ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره ولعمري إنّ مثله صعب متعذر في كل زمان خصوصاً في

زمن نمروذ مع عتّوه واستكباره وقوّة سلطانه وتهالكه على نصرة دينه ، ولكن إذا الله سنى عقد شيء تيسراً ، ولما كان عزمه على إيقاع الكيد في جميع الزمان الذي يقع فيه توليهم في أي جزء تيسر له منه أسقط الجار فقال : ﴿ بعد أن تولّوا مدبرين ﴾ أي : بعد أن تدبروا منطلقين إلى عيدكم قال مجاهد وقتادة : إنما قال إبراهيم هذا سراً من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد فأفشاه عليه وقال : إنا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، وقال السدّي : كان لهم في كل سنة مجمع عيد فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم ، فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم له : يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال : إني سقيم أشتكي برجلي فلما مضوا نادى في آخرهم وقد بقي ضعفاء الناس تالله لأكيدن أصنامكم فسمعوها منه ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهي في بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه والأصنام بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه إلى باب البهو وإذا هم قد جعلوا طعاماً فوضعوه بين يدي الآلهة ، وقالوا : إذا رجعنا وقد بركت الأصنام الآلهة عليه أكلنا منه فلما نظر إبراهيم إليهم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء : ألا تأكلون ؟ فلما لم يجيبوه قال لهم مالكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضرباً باليمين وجعل يكسرهن بفأس في يده حتى لم يبق إلا الصنم الأكبر علق الفأس في عنقه ثم خرج ، فذلك قوله عز وجل:

﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ أي : فتاتاً وقرأ الكسائي بكسر الجيم والباقون بضمها ﴿ إلا كبيراً لهم ﴾ فإنه لم يكسره ووضع الفأس في عنقه وقيل ربطه بيده وكانت اثنين وسبعين صنماً بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد ورصاص وخشب وحجر وكان الصنم الكبير من الذهب مكللاً بالجواهر في عينيه ياقوتتان تتقدان ﴿ لعلهم ﴾ أي : هؤلاء الضلال ﴿ إليه ﴾ أي : إبراهيم ﴿ يرجعون ﴾ عند إلزامه بالسؤال فتقوم عليهم الحجة فلما عادوا إلى أصنامهم فوجدوها على تلك الحال ﴿ قالوا من فعل هذا ﴾ الفعل الفاحش ﴿ بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ حيث وضع الإهانة في غير موضعها فإنّ الآلهة حقها الإكرام لا الإهانة والانتقام

﴿ قالوا ﴾ أي : الذين سمعوا قول إبراهيم وتالله لأكيدنّ أصنامكم ﴿ سمعنا فتى ﴾ أي : شاباً من الشباب ﴿ يذكرهم ﴾ أي : يعيبهم ويسبهم ﴿ يقال له إبراهيم ﴾ أي : هو الذي نظنّ أنه صنع هذا ، فلما بلغ ذلك نمروذ الجبار وأشراف قومه

﴿ قالوا فأتوا به ﴾ إلى بيت الأصنام ﴿ على أعين الناس ﴾ أي : جهرة والناس ينظرون إليه نظر الإخفاء معه حتى كأنه ماش على أبصارهم متمكن منها تمكن الراكب على

المركوب ﴿ لعلهم يشهدون ﴾ عليه بأنه الذي فعل بالآلهة هذا الفعل كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ، وقيل معناه : لعلهم يحضرون عذابه وما يصنع به ، فلما أتوا به

﴿ قالوا ﴾ منكرين عليه ﴿ أأنت فعلت هذا ﴾ الفعل الفاحش ﴿ بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ .

تنبيه : هنا همزتان مفتوحتان من كلمة فالقرّاء الجميع على تحقيق الأولى ، وأمّا الثانية فيسهلها نافع وابن كثير وأبو عمرو ، وهشام بخلاف عنه وأدخل بينهما ألفاً قالون وأبو عمرو والباقون بتحقيقهما وعدم الإدخال بينهما .

(170/513)

ثم ﴿ قال ﴾ إبراهيم متهكماً بهم وملزماً بالحجة ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ غيرة أن يعبد معه من هو دونه وتقييده بقوله : ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى الذي تركه من غير كسر ، ولما أخبرهم ولم يكن أحد رآه حتى يشهد على فعله وكانوا قد أحلوهم بعبادتهم ووضع الطعام لهم محل من يعقل تسبب عنه أمرهم بسؤالهم فقال : ﴿ فاسألوهم ﴾ أي : عن الفاعل ليخبروكم به وقوله : ﴿ إن كانوا ينطقون ﴾ أي : على زعمكم أنهم آلهة يضرّون وينفعون فيه تقديم جواب الشرط أي : فإن قدروا على النطق أمكنت عنهم القدرة وإلا فلا ، فأراهم عجزهم عن النطق وفي ضمنه أنا فعلت ذلك . روي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال : "لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ثنتين منهن في ذات الله قوله إني سقيم وقوله : بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله لسارة : هذه أختي" ، وقال في حديث الشفاعة ، ويذكر كذباته أي : إنه لم يتكلم بكلمات صورتها صورة الكذب وإن كان حقاً في الباطن إلا هذه الكلمات ، وقيل في قوله : إن سقيم أي : سأسقم ، وقيل سقيم القلب أي : مغتم بضلالتكم ، وقوله لسارة هذه أختي أي : في الدين وقوله بل فعله كبيرهم هذا ؛ روي عن الكسائي أنه كان يقف عند قوله بل فعله ويقول : معناه بل فعله من فعله ، وقوله : كبيرهم هذا مبتدأ وخبر قال البغوي : وهذه التأويلات لنفي الكذب ، والأولى هو الأول للحديث فيه ، ويجوز أن يكون الله تعالى قد أذن له في ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم كما أذن ليوسف عليه السلام حتى نادى مناديه فقال : ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ (يوسف ،)

ولم يكونوا سرقوا ، وقال الرازي : الحديث محمول على المعاريض ، فإن فيها مندوحة عن الكذب ، أي : تسمية المعاريض كذباً لما أشبهت صورتها صورته ، وقرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين وترك الهمزة ، وكذا يفعل حمزة في الوقف والباقون بسكون السين وبعدها همزة مفتوحة ، وقيل : الوقف على بل فعله ، ثم يبتدىء بقوله : كبيرهم هذا .

(171/513)

ولما اضطرّهم الدليل أن يحققوا أنهم على محض الباطل ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ بالتفكر ﴿ فقالوا ﴾ أي : بعضهم لبعض ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾ لكونكم وضعتم العبادة في غير موضعها إلا إبراهيم ، فإنه أصاب بإهانتها .

﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ أي : انقلبوا غير مستحبين مما يلزمهم من الإقرار بالسفه إلى المجادلة له بعد ما استقاموا بالمراجعة من قولهم نكس المريض إذا عاد إلى حاله الأول ، شبّه عودهم إلى الباطل بصورة جعل أسفل الشيء مستعلياً على أعلاه ، ثم إنهم قالوا في مجادلتهم عن شركائهم والله ﴿ لقد علمت ﴾ يا إبراهيم ﴿ ما هؤلاء ﴾ لا صحيحهم ولا جريحهم ﴿ ينطقون ﴾ أي : فكيف تأمرنا بسؤالهم ؟ ولما تسبب عن قولهم هذا إقرارهم بأنهم لا فائدة فيهم اتجه لإبراهيم عليه السلام الحجة عليهم .

﴿ قال ﴾ منكراً عليهم موبخاً لهم ﴿ أفتعبدون من دون الله ﴾ أي : بدله ﴿ ما لا ينفعكم شيئاً ﴾ من رزق وغيره لترجوه ﴿ ولا يضرّكم ﴾ شيئاً إذا لم تعبدوه لتخافوه .

﴿ أفٍ ﴾ أي : تباً وقبحاً ﴿ لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾ أي : غيره ، وقرأ نافع وحفص بتنوين الفاء مكسورة وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين والباقون بكسر الفاء من غير تنوين ، ولما تسبب عن فعلهم هذا وضوح أنه لا يقربه عاقل ، أنكر عليهم

ووبخهم بقوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ قبح صنيعكم وأنتم شيوخ قد مرّت بكم الدهور وحنكتكم التجارب ولما دحضت حجتهم وبان عجزهم ، وظهر الحق واندفع الباطل

(172/513)

﴿ قالوا ﴾ عادلين إلى العناد ، واستعمال القوّة الحسية ﴿ حرّقوه ﴾ بالنار لتكونوا قد فعلتم فيه فعلاً أعظم مما فعل بآلهتكم ﴿ وانصروا آلهتكم ﴾ التي جعلها جذاذاً ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ نصرتها قال ابن عمر : إنّ الذي قال هذا رجل من الأكراد قيل : اسمه هيتون ، فخسف الله تعالى به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، وقيل : قاله نمروذ بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام ، وروي أنّ نمروذ وقومه حين هموا بإحراقه حبسوه في بيت ، ثم بنوا عليه بيتاً كالحظيرة بقرية يقال لها كوثى ، ثم جمعوا له أصلاب الحطب من أصناف الخشب مدّة شهر حتى كان الرجل يمرض ، فيقول : لئن عوفيت لأجمعنّ حطباً لإبراهيم ، وكانت المرأة تغزل وتشتري بغزلها الحطب احتساباً في دينها ، وكان الرجل يوصي بشراء الحطب وإلقائه فيه ، فلما جمعوا ما أرادوا وأشعلوا في كل ناحية من الحطب ناراً ، فاشتعلت النار ، واشتدت حتى كان الطير يمرّ بها ، فيحترق من شدّة وهجها وحرّها ، وأوقدوا عليه سبعة أيام ، فلما أرادوا أن يلقوا إبراهيم لم يعلموا كيف يلقوه ، فجاءهم إبليس

عليه اللعنة ، فعلّمهم عمل المنجنيق فعملوا ثم عمدوا إلى إبراهيم فقيدوه ورفعوه على رأس البنيان ووضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً ، فصاحت السماء والأرض ، ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين صيحة واحدة ربنا خليلك يلقى في النار وليس في أرضك من يعبدك غيره فأذن لنا في نصرته ، فقال عز وجل : إنه خليلي وليس لي خليل غيره وأنا إلهه ليس له إله غيري ، فإن استغاث بأحد منكم أو دعاه فلينصره ، فقد أذنت له في ذلك ، وإن لم يدع أحداً غيري فأنا أعلم به وأنا وليه ، فخلوا بيني وبينه ، فلما أرادوا إلقاءه في النار أتاه خازن المياه ، فقال : إن أردت أخمدت النار وأتاه خازن الرياح ، فقال : إن شئت طيرت النار في الهواء ، فقال إبراهيم عليه السلام : لا حاجة لي إليكم حسبي الله ونعم الوكيل ، وروي عن كعب الأحبار أن إبراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في

(173/513)

النار لا

إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ، ثم رموا به في المنجنيق إلى النار ، فاستقبله جبريل ، فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، فقال جبريل : فاسأل ربك ، فقال إبراهيم عليه السلام : حسبي من سؤالي علمه بحالي .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ (آل عمران ،)

قالها إبراهيم عليه السلام : حين ألقي في النار وقالها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس : ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ (آل عمران ،)

؛ قال كعب الأحبار جعل كل شيء يطفىء النار عنه إلا الوزغ ، فإنه كان ينفخ في النار ، وعن أمّ شريك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الأوزاغ ، وقال : "كان ينفخ على إبراهيم" ، ولما أراد الله تعالى الذي له القوّة جميعاً سلامته منها قال تعالى:

(174/513)

﴿ قلنا يا نار كوني ﴾ بإرادتنا التي لا يتخلف عنها مراد ﴿ برداً ﴾ قال ابن عباس : لو لم يقل : ﴿ وسلاماً ﴾ لمات إبراهيم من بردها ، وفي الآثار أنه لم يبق يومئذٍ نار في الأرض إلا طفئت ، فلم ينتفع في ذلك اليوم بنار في العالم ، ولو لم يقل تعالى : ﴿ على إبراهيم ﴾ لبقيت ذات برد أبداً ، والمعنى كوني ذات برد وسلام على إبراهيم ، فبولغ في ذلك حتى كان ذاتها برد وسلام ، والمراد : ابردي فيسلم منك إبراهيم أو ابردي برداً غير ضارّ ، قال السدّي : فأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم فأقعدوه على الأرض ، فإذا بعين ماء عذب وورد أحمر ،

ونرجس قال كعب : ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه ، قالوا : وكان إبراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام قال المنهال ابن عمرو قال إبراهيم : ما كنت أياماً قط أنعم مني في الأيام التي كنت في النار ، وقال ابن يسار وبعث الله تعالى ملك الظل في صورة إبراهيم فقعد فيها إلى جنب إبراهيم يؤنسه قال وبعث الله تعالى جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وطنفسة ، فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدّثه ، وقال جبريل : يا إبراهيم إنّ ربك يقول : أما علمت أنّ النار لا تضر أحبابي ، ثم نظر نمروذ وأشرف على النار من صرح له ، فرآه جالساً في روضة والملك قاعد إلى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه يا إبراهيم بإلهك الذي بلغت قدرته أن حال بينك وبين ما أرى هل تستطيع أن تخرج منها ؟ قال : نعم ، قال : هل تخشى إن قمت فيها أن تضرك قال : لا ، قال : قم فاخرج منها ، فقام إبراهيم يمشي فيها حتى خرج منها ، فلما خرج إليه قال له : من الرجل الذي رأيته معك في مثل صورتك قاعداً إلى جنبك قال : ذاك ملك الظل أرسله إليّ ربي ليؤنسني فيها ، فقال نمروذ : إني مقرب إلى إلهك قرباناً لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده إني ذابح له أربعة آلاف بقرة قال : إذاً لا يقبل الله منك ما كنت على دينك حتى تفارقه إلى ديني ، فقال : لا أستطيع

ترك ملكي ، ولكن

أذبحها له فذبحها له نمروذ ، ثم كف عن إبراهيم ومنعه الله تعالى منه وكان إبراهيم إذ ذاك ابن ست عشرة سنة واختاروا المعاقبة بالنار لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه ، ولذلك جاء في الحديث : "لا يعذب بالنار إلا خالقها" ، وقيل : إنّ الله تعالى نزع عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحر والإحراق ، وأبقاها على الإضاءة والإشراق والاشتعال كما كانت والله على كل شيء قدير ، فدفع عن إبراهيم حرّها كما يدفع ذلك عن خزنة جهنم .

﴿ وأرادوا به كيداً ﴾ أي : مكراً في إضراره بالنار ، وبعد خروجه منها ﴿ فجعلناهم ﴾ أي : بما لنا من الجلال ﴿ الأخسرين ﴾ أي : أخسر من كل خاسر عاد سعيهم برهاناً قاطعاً على أنهم على الباطل ، وإبراهيم على الحق ، وموجباً لزيادة درجته واستحقاقهم أشدّ العذاب ، وقد أرسل الله تعالى على نمروذ ، وعلى قومه البعوض فأكلت لحومهم ، وشربت دماءهم ودخلت في دماغه بعوضة ، فأهلكته .

فائدة : وقع مثل هذه القصة لبعض أتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو أبو مسلم الخولانيّ طلبه الأسود العنسي لما ادّعى النبوّة فقال له : اشهد أني رسول الله ، قال : ما أسمع ، قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، فأمر بنار ، فألقي فيها ، ثم وجده قائماً يصلي فيها ، وقد صارت عليه برداً وسلاماً ، وقدم المدينة بعد موت النبي صلى الله

عليه وسلم فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر رضي الله عنهم ، وقال عمر : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله .

(176/513)

﴿ ونجيناه ولوطاً ﴾ من نمروذ وقومه من أرض العراق ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ وهي الشام بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأشجار والثمار والأنهار ، ومنها بعث أكثر الأنبياء قال أبيّ بن كعب بارك الله فيها وسماها مباركة ؛ لأن ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس أي : يهبط من السماء إلى الصخرة ثم يتفرّق في الأرض قاله أبو العالية ، وعن قتادة أنّ عمر رضي الله تعالى عنه قال لكعب الأحبار ألا تتحول إلى المدينة فيها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره ، فقال كعب : إني وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين إن الشام كنز الله في أرضه ، وبها كنزه من عباده ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون هجرة بعد هجرة ، فخيار الناس إلى مهاجر إبراهيم ؛ قال محمد بن إسحاق استجاب لإبراهيم رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله عز وجل به من جعل

النار عليه برداً وسلاماً على خوف من نمروذ وملئهم ، وآمن به لوط ، وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران بن تارح وهاران هو أخو إبراهيم ، وكان لهما أخ ثالث يقال له ناحور بن تارح ، وآمنت به أيضاً سارة وهي بنت عمه ، وهي سارة بنت هاران الأكبر عمّ إبراهيم ، فخرج من كوثى وهي بضم الكاف ومثلثة قال ابن الأثير هي كوثن العراق وهي سرّة السواد ، وبها ولد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وخرج مهاجراً إلى ربه ومعه لوط وسارة كما قال تعالى : ﴿ فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه حتى نزل حران ، فمكث بها ما شاء الله ، ثم خرج منها مهاجراً حتى قدم مصر ، ثم خرج من مصر إلى الشام ، فنزل السبع من أرض فلسطين ، وهي برية الشام ، ونزل لوط بالمؤتفكة ، وهي على مسيرة يوم وليلة من السبع فبعثه الله تعالى نبياً إلى أهلها وما قرب منها فذلك قوله تعالى : ﴿ ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ (الأنبياء ،

(177/513)

)

أي : كما أنجيناك أنت يا أشرف الخلق ويا أفضل أولاده ، وصديقك أبا بكر رضي الله تعالى عنه إلى طيبة التي شرفناها بك وبثثنا من أنوارها في أرجاء الأرض وأقطارها ما لم

نبث مثله قط وباركنا فيها للعالمين بالخلفاء الراشدين وغيرهم من العلماء والصالحين الذين انبثت خيراتهم العملية والعلمية والمالية في جميع الأقطار ، ولما ولد لإبراهيم عليه السلام في حال شيخوخته وعجز امرأته مع كونها عقيماً ، وكان ذلك دالاً على الاقتدار على البعث الذي السياق كله له قال تعالى:

﴿ ووهبنا له ﴾ دالاً على ذلك بنون العظمة ﴿ إسحاق ﴾ أي : من شبه العدم وترك شرح حاله لتقدّمه أي : فكان ذلك دليلاً على اقتدارنا على ما نريد لا سيما من إعادة الخلق في يوم الحساب ، ثم إنه قد يظن أنه لتولده بين شيخٍ فانٍ وعجوز عقيم كان على حالة من الضعف لا يولد لمثله معها نفى ذلك بقوله تعالى : ﴿ ويعقوب نافلة ﴾ أي : ولداً لإسحاق زيادة على ما دعا به إبراهيم عليهما السلام ، ثم نمى سبحانه وتعالى أولاد يعقوب ، وهو إسرائيل وذرّياتهم إلى أن ساموا النجوم عدّة وباروا الجبال شدّة ﴿ وكلاً ﴾ من هؤلاء الأربعة وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب وعظم رتبتهم بقوله تعالى : ﴿ جعلنا صالحين ﴾ أي : مهيئين لطاعتهم لله تعالى لكل ما يرونه أو يرادون له ، أو يراد منهم ، ثم لما ذكر أنه تعالى أعطاهم رتبة الصلاح في أنفسهم ذكر أنه تعالى أعطاهم رتبة لإصلاح لغيرهم ، فقال تعالى معظماً لإمامتهم:

﴿ وجعلناهم أئمة ﴾ أي : أعلاماً ومقاصد يقتدى بهم في الدين لما آتيناهم من العلم والنبوّة ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية المكسورة بين الهمزة والياء ، ويجوز إبدالها عندهم ياء خالصة ولا يدخلون بينهما شيئاً وقرأ هشام بتحقيق الهمزتين وإدخال ألف بينهما بخلاف عنه في الإدخال وعدمه ، والباقون بتحقيق الهمزتين من غير إدخال بلا خلاف ﴿ يهدون ﴾ أي : يدعون إلينا من وفقناه للهداية ﴿ بأمرنا ﴾ أي : بإذننا ﴿ وأوحينا إليهم ﴾ أيضاً ﴿ فعل ﴾ أي : أن يفعلوا ﴿ الخيرات ﴾ ليحثوهم عليها ، فيتم كمالهم بانضمام العلم إلى العمل ، قال البقاعي : ولعله تعالى عبّر بالفعل دلالة على أنهم امتثلوا كل ما يوحي إليهم ، وقال الزمخشري : أصله أن تفعل الخيرات ، ثم فعلا الخيرات ، ثم فعل الخيرات ، وكذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة انتهى . وقوله تعالى : ﴿ وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ من عطف الخاص على العام تعظيماً لشأنهما ؛ لأن الصلاة تقرب العبد إلى الحق تعالى ، والزكاة إحسان إلى الخلق ، قال الزجاج : الإضافة في الصلاة عوض عن تاء التأنيث يعني : فيكون من الغالب لا من القليل ﴿ وكانوا لنا ﴾ دائماً جبلة وطبيعة ﴿ عابدين ﴾ أي : موحدين مخلصين في العبادة ولذلك قدّم الصلة ، القصة الثالثة : قصة لوط عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ ولوطاً ﴾ أي : وآتينا لوطاً أو واذكر لوطاً ، ثم استأنف قوله تعالى : ﴿ آتيناه حكماً ﴾ أي : نبوّة وعملاً محكماً بالعلم ، وقيل : فصلاً بين الخصوم ﴿ وعلماً ﴾ مزيناً بالعمل مما ينبغي علمه للأنبياء ﴿ ونجيناه من القرية ﴾ أي : قرية سدوم ﴿ التي كانت ﴾ قبل إنجائنا له منها ﴿ تعمل ﴾ أي : أهلها الأعمال ﴿ الخبائث ﴾ من اللواط والرمي بالبندق واللعب بالطيور والتضارط في أنديتهم وغير ذلك وإنما وصف القرية بصفة أهلها وأسندها إليها على حذف المضاف وأقامته مقامه ويدل عليه ﴿ إنهم كانوا ﴾ أي : بما جبلوا عليه ﴿ قوم سوء ﴾ أي : ذوي قدرة على الشرّ بانهماكهم في الأعمال السيئة ﴿ فاسقين ﴾ أي : خارجين من كل خير

﴿ وأدخلناه ﴾ دونهم ﴿ في رحمتنا ﴾ أي : في الأحوال السنية والأقوال العلية والأفعال الزكية التي هي سبب للرحمة العظمى ومسببة عنها ثم علل ذلك بقوله تعالى ﴿ إنه من الصالحين ﴾ أي : الذين سبقت لهم منا الحسنى أي : لما جبلناه عليه من الخير . القصة الرابعة : قصة نوح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ ونوحاً ﴾ أي : واذكر نوحاً ﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ نادى ﴾ أي : دعا الله تعالى على

قومه بالهلاك بقوله : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ (نوح ،)

ونحوه من الدعاء ﴿ من قبل ﴾ أي : من قبل لوط ومن تقدّمه ﴿ فاستجبنا ﴾ أي : أردنا الإجابة وأوجدناها بعظمتنا ﴿ له ﴾ في ذلك النداء ، ثم تسبب عن ذلك قوله تعالى : ﴿ فنجيناه وأهله ﴾ أي : الذين دام ثباتهم على الإيمان وهم من كان معه في السفينة ﴿ من الكرب العظيم ﴾ أي : من أذى قومه ومن الغرق والكرب الغمّ الشديد قاله السدّي وقال أبو حيان الكرب أقصى الغمّ والأخذ بالنفس وهو هنا الغرق عبّر عنه بأوّل أحوال مأخذ الغريق .

(180/513)

﴿ ونصرناه ﴾ أي : منعناه ﴿ من القوم ﴾ أي : المتصفين بالقوّة ﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾ من أن يصلوا إليه بسوء ، وقيل : من بمعنى على ﴿ أنهم كانوا قوم سوء ﴾ أي : لا عمل لهم إلا ما يسوء ﴿ فأغرقناهم أجمعين ﴾ لاجتماع الأمرين تكذيب الحق والانهماك في الشر لم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى .

القصة الخامسة : قصة داود وسليمان عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ وداود وسليمان ﴾ ابنه أي : اذكرهما واذكر شأنهما ﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ يحكمان

في الحرث ﴾ الذي أنبت الزرع وهو من إطلاق اسم السبب على المسبب كالسماء على المطر والنبت ، قال ابن عباس : وأكثر المفسرين كان ذلك كرماً قد تدلت عناقيده ، وقال قتادة : كان زرعاً قال ابن الخازن وهو أشبه للعرف ﴿ إذ نفشت ﴾ أي : انتشرت ليلاً بغير راع ﴿ فيه غنم القوم ﴾ فرعته ، قال قتادة : النفش في الليل والعمل في النهار ﴿ وكنا لحكمهم ﴾ أي : الحكمين والمتحاكمين إليهما ﴿ شاهدين ﴾ أي : كان ذلك بعلمنا ومرأى منّا لا يخفى علينا علمه ، وقال الفرّاء : جمع الاثنين فقال لحكمهم ويريد داود وسليمان ؛ لأن الاثنين جمع وهو مثل قوله تعالى : ﴿ فإن كان له أخوة فلأمه السدس ﴾ (النساء ،)

(181/513)

وهو يريد أخوين ، قال ابن عباس وقتادة وذلك أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الزرع : إنّ هذا انفلتت غنمه ليلاً ، فوقعت في حرثي ، فأفسدته ، فلم تبق منه شيئاً ، فأعطاه داود رقاب الغنم بالحرث فخرجا فمرّا على سليمان عليه السلام فقال : كيف قضى بينكما ، فأخبراه ، فقال سليمان وهو ابن إحدى عشر سنة : لو وليت أمرهما لقضيت بغير هذا ، وروي أنه قال : غير هذا أرفق بالفريقين ، فأخبر بذلك داود ، فدعاه فقال : كيف تقضي ، ويروى أنه

قال بحق النبوة والأبوّة إلا ما أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين ، قال : ادفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بدرّها ونسلها وصوفها ، ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه ، فإذا صار الحرث كهيئته دفع إلى أهله وأخذ صاحب الغنم غنمه ، فقال داود : القضاء ما قضيت . كما قال تعالى:

﴿ ففهمناها ﴾ أي : الحكومة ﴿ سليمان ﴾ أي : علمناه القضية وألهمناها له .

تنبيه : يجوز أن تكون حكومتهما بوحي إلا أنّ حكومة داود نسخت بحكومة سليمان ، ويجوز أن تكون باجتهاد إلا أن اجتهاد سليمان أشبه بالصواب فإن قيل : ما وجه كل واحدة من الحكومتين ؟

أجيب : بأنّ وجه حكومة داود أنّ الضرر وقع بالغنم فسلمت بجنايتها إلى المجني عليه . كما قال أبو حنيفة في العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه ، وعند الشافعي يبيعه في ذلك ، أو يفديه ، ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الحرث . ووجه حكومة سليمان : أنه جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم ، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والنقصان ، مثاله ما قال أصحاب الشافعي فيمن غصب عبداً وأبق من يده أنه يضمن بالقيمة ، فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من منافع العبد ، فإذا ظهر

ترادًّا .

فإن قيل : لو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا ما حكمها ؟

(182/513)

أجيب : بأن أبا حنيفة وأصحابه لا يرون فيها ضماناً بالليل أو بالنهار إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد لقوله صلى الله عليه وسلم "جرح العجماء جبار" ، أي : هدر رواه الشيخان وغيرهما ، والشافعي وأصحابه يوجبون الضمان بالليل إذ المعتاد ضبط الدواب ليلاً ، ولذلك قضى النبيّ صلى الله عليه وسلم لما دخلت ناقة البراء حائطاً وأفسدته ، فقال على : "أهل الأموال حفظها بالنهار ، وعلى أهل الماشية حفظها بالليل" ، ولما كان ذلك ربما أوهم شيئاً في أمر داود ، نفاه بقوله تعالى : ﴿ وكلاً ﴾ أي : منهما ﴿ آتينا حكماً ﴾ أي : نبوّة وعملاً مؤسساً على حكمة العلم ﴿ وعلماً ﴾ مؤيداً بصالح العمل ، وعن الحسن لولا هذه الآية لرأيت القضاة قد هلكوا ، ولكنه تعالى أثنى على سليمان عليه السلام لصوابه ، وعلى داود باجتهاده انتهى ، وهذا على الرأي الثاني ، وعليه أكثر المفسرين ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا حكم الحاكم فاجتهد ، فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ ، فله أجر" ،

وهل كل مجتهد مصيب أو المصيب واحد لا بعينه ؟ رأيان أظهرهما الثاني ، وإن كان مخالفاً لمفهوم الآية إذ لو كان كل مجتهد مصيباً لم يكن للتقسيم في الحديث معنى وقوله صلى الله عليه وسلم وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر لم يرد به أنه يؤجر على الخطأ بل يؤجر على اجتهاده في طلب الحق ؛ لأنّ اجتهاده عبادة ، والإثم في الخطأ عنه موضوع .

(183/513)

فائدة : من أحكام داود وسليمان عليهما السلام ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كانت امرأتان معهما ابناهما ، فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت لصاحبتها : إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك ، فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان ، فأخبرتاه ، فقال : ائتوني بالسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله هو ابنها ، فقضى به للصغرى" أخرجاه في الصحيحين ، ثم إنه تعالى ذكر لداود وسليمان بعض معجزات ، فمن بعض معجزات الأوّل ما ذكره بقوله تعالى : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال ﴾ مع صلابتها وعظمها ﴿ يسبحن ﴾ معه أي : يقدّسن الله تعالى ، ولو شئنا لجعلنا الحرث والغنم تكلمه بصواب الحكم ، وقال ابن عباس : كان يفهم تسبيح الحجر والشجر ، وقوله تعالى :

﴿ والطير ﴾ عطف على الجبال أو مفعول معه ، وقال : وهب كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح ، وكذا الطير ، وقال قتادة : يسبحن أي : يصلين معه إذا صلى ، وقيل : كان داود إذا فتر يسمعه الله تعالى تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق إليه ، وقيل : يسبحن بلسان الحال ، وقيل : يسبح من رآها تسير معه بتسيير الله تعالى ، فلما جبلت على التسبيح وصفت به ﴿ وكنا غافلين ﴾ أي : من شأننا الفعل لأمثال هذه الأفاعيل ، ولكل شيء نريده ، فلا تستكثروا علينا أمراً ، وإن كان عندكم عجباً ، وقد اتفق نحو هذا لغير واحد من هذه الأمة . كان مطرف بن عبد الله بن الشخير إذا دخل بيته سبحت معه أبنيته ، وأمّا النبيّ صلى الله عليه وسلم فكان الطعام يسبح بحضرته والحصى وغيره

(184/513)

﴿ وعلمناه صنعة لبوس ﴾ أي : صنعة الدروع التي تلبس في الحرب ؛ قال قتادة : أوّل من صنع هذه الدروع وسردها واتخذها حلقاً داود ، وكانت من قبل صفائح ، وقد ألان الله تعالى لداود الحديد فكان يعمل منه بغير نار كأنه طين ؛ قال البغوي : وهو أي : اللبوس في اللغة : اسم لكل ما يلبس ويستعمل في الأسلحة كلها وهو بمعنى الملبوس كالحلوب والركوب ، وقوله تعالى : ﴿ لكم ﴾ متعلق بعلم أو صفة للبوس ، وقوله تعالى : ﴿ لتحصنكم من

بأسكم ﴾ بدل منه بدل اشتمال بإعادة الجار ومرجع الضمير يختلف باختلاف القراءات ، فقرأ شعبة بالنون فالضمير لله تعالى ، وقرأ ابن عامر وحفص بالتاء على التأنيث ، فالضمير للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع ، وقرأ الباقون بالياء التحتية ، فالضمير لداود أو للبوس ، وقوله تعالى : ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ أي : لنا على ذلك أمر أخرجه في صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع ، ومن بعض معجزات الثاني ما ذكره بقوله:

﴿ ولسليمان ﴾ أي : وسخر لسليمان ﴿ الريح ﴾ قال البغوي : وهو هواء يتحرّك وهو جسم لطيف يمتنع بلطفه من القبض عليه ، ويظهر للحس بحركته والريح تذكر وتؤنث ﴿ عاصفة ﴾ أي : شديدة الهبوب فإن قيل : قد قال تعالى في موضع آخر تجري بأمره رخاء ، والرخاء اللين ؟

أجيب : بأنها كانت تحت أمره إن أراد أن تشتدّ اشتدّت ، وإن أراد أن تلين لانت ، وقيل : كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم ، فإذا مرّت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة على ما قال تعالى : ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ (سبأ ،)

وقوله تعالى : ﴿ تجري بأمره ﴾ أي : بمشيئته حال ثانية أو بدل من الأوّل أو حال من ضميرها ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ أي : الشام ، وذلك أنها كانت تجري بسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان ، ثم يعود إلى منزله بالشام .

قال وهب بن منبه : كان سليمان عليه السلام إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير ، وقام إليه الجنّ والإنس حتى يجلس على سريره ، وكان امرأً غزاء قلما يقعد عن الغزو ، ولا يسمع في ناحية من الأرض بملك إلا أتاه حتى يذله ، فكان إذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب له بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب فإذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته حتى إذا استقلت به أمر الرخاء فمرت به شهراً في روحته ، وشهراً في غدوته إلى حيث أراد ، وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء بالمزرعة ، فما تحركها ولا تثير تراباً ، ولا تؤذي طائراً .

وقال مقاتل : نسجت الشياطين لسليمان بساطاً فرسخاً في فرسخ ذهباً في إبريسم ، وكان يوضع له منبر من الذهب في وسطه البساط ، فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة تقعد الأنبياء عليهم السلام على كراسي الذهب ، والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجنّ والشياطين ، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ، ومن الرواح إلى الغروب .

وقال سعيد بن جبير : كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي تجلس الإنس ما يليه ، ثم تليهم الجنّ ، ثم تظلهم الطير ، ثم تحملهم الريح ، وقال الحسن لما شغلت الخيل نبيّ الله

سليمان حتى فاتته صلاة العصر غضب لله فعقر الخيل ، فأبدله الله مكانها خيراً منها ، وأسرع وهي الريح تجري بأمره كيف يشاء ، فكان يغدو من إيلياء فيقيل بإصطخر ، ثم يروح منها ، فيكون رواحها ببابل .

(186/513)

وقال ابن زيد : كان له مركب من خشب ، وكان فيه ألف ركن في كل ركن ألف بيت تركب معه فيه الجنّ والإنس تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك الركن ، فإذا ارتفعت أتت الريح الرخاء ، فسارت به وبهم يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر ، ولا يدري القوم إلا وقد أظلهم معه الجيوش ﴿ وكنا ﴾ أي : أزلاً وأبداً بإحاطة العظمة ﴿ بكل شيء ﴾ أي : من هذا وغيره من أمره وغيره ﴿ عالمين ﴾ ومن علمنا أنّ ذلك لا يزيدهم إلا تواضعاً ، وكما سخرنا الريح له سخرناها للنبيّ صلى الله عليه وسلم ليالي الأحزاب قال حذيفة رضي الله عنه حتى كانت تقذفهم بالحجارة ما تجاوز عسكرهم ، فهزمهم الله تعالى بها ، وردّوا بغيظهم لم ينالوا خيراً وأعطي صلى الله عليه وسلم أعمّ مما أعطي جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقد أعطي صلى الله عليه وسلم التصرف في العالم العلوي الذي جعل الله تعالى منه الفيض على العالم السفلي بالاحتراق لطباقه بالإسراء تارة وبإمساك المطر لما دعا

بسبع كسبع يوسف عليه السلام وبإرساله أخرى كما في أحاديث كثيرة ، وأتى مع ذلك بمفاتيح خزائن الأرض كلها ، فردّها صلى الله عليه وسلم .

﴿ ومن ﴾ أي : وسخرنا لسليمان من ﴿ الشياطين ﴾ الذين هم أكثر شيء تمرداً وعتواً ﴿ من يغوصون له ﴾ أي : يدخلون في البحر ، فيخرجون منه الجواهر وغيرها من المنافع وذلك بأن أكثفنا أجسامهم مع لطافتها لتقبل الغوص في الماء معجزة في معجزة ، وقد خنق نبينا صلى الله عليه وسلم العفريت الذي جاءه بشهاب من نار ، وأسر جماعة من أصحابه رضي الله تعالى عنهم عفاريت أتوا إلى تمر الصدقة ، وأمكنهم الله تعالى منهم ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ أي : سوى الغوص كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة كقوله تعالى : ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ﴾ (سبأ ،)

(187/513)

الآية ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ أي : حتى لا يخرجوا عن أمره ، وقال الزجاج : معناه : حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا ، وكان من عادة الشياطين إذا عملوا عملاً بالنهار ، وفرغوا منه قبل الليل أفسدوه وخربوه ، وفي القصة أن سليمان كان إذا بعث شيطاناً مع

إنسان ليعمل له عملاً قال له : إذا فرغ من عمله قبل الليل فأشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل ويخربه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 234 . 249 ﴾

(188/513)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع عشر بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/514)

الجزء الرابع عشر بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 83 ﴾ من سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وحتى الآية ﴿ 91 ﴾ من نفس السورة

(4/514)

قوله تعالى ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم سبحانه ذكر من سخر لهم العناصر التي منها الحيوان المحتوم ببعثته تحقيقاً لذلك ،

ذكر بعدهم من وقع له أمر من الخوارق يدل على ذلك ، إما بإعادة أو حفظ أو ابتداء ، بدأهم بمن أعاد له ما كان أعدمه من أهل ومال ، وسخر له عنصر الماء في إعادة لحمه وجلده ، لأن الإعادة هي المقصودة بالذات في هذه السورة فقال : ﴿ وأيوب ﴾ أي واذكر أيوب ، قالوا : وهو ابن أموص بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وكان صاحب البثنية من بلاد الشام ، وكان الله قد بسط عليه الدنيا فشكره سبحانه ثم ابتلاه فصبر ﴿ إذ نادى ربه ﴾ أي المحسن إليه في عافيته وضره بما آتاه من صبره ﴿ أني مسني الضر ﴾ بتسليطك الشيطان عليّ في بدني وأهلي ومالي وقد طمع الآن في ديني ، وذلك أنه زين لامرأة أيوب عليه السلام أن تأمره أن يذبح الصنم فإنه يبرأ ثم يتوب ، ففطن لذلك وحلف : ليضربنها إن برأ ، وجزع من ذلك ، والشكوى إلى الله تعالى ليست من الجزع فلا تنافي الصبر ، وقال سفيان بن عيينة : ولا من شكا إلى الناس وهو في شكواه راض بقضاء الله تعالى .

(5/514)

﴿ وأنت ﴾ أي والحال أنك أنت ﴿ أرحم الراحمين ﴾ فافعل بي ما يفعل الرحمن بالمضرور ، وهذا تعريض بسؤال الرحمة حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وربّه بأبلغ صفاتها ولم

يصرح ، فكان ذلك ألطف في السؤال ، فهو أجدر بالنوال ﴿ فاستجبنا له ﴾ أي أوجدنا إجابته إيجاد من كأنه طالب لها بسبب ندائه ، هذا بعظمتنا في قدرتنا على الأمور الهائلة ، وسبب عن ذلك قوله : ﴿ فكشفنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ ما به من ضر ﴾ بأن أمرناه أن يركض برجله ، فتنبع له عين من ماء ، فيغتسل فيها ، فينبت لحمه وجلده أحسن ما كان وأصحه ودل على تعاظم هذا الأمر بقوله : ﴿ وءاتيناه أهله ﴾ أي أولاده وما تبعهم من حشمه ، أحييناهم له بعد أن كانوا ماتوا ﴿ ومثلهم ﴾ أي وأوجدنا له مثلهم في الدنيا ، فإن قوله : ﴿ معهم ﴾ يدل على أنهم وجدوا عند وجدان الأهل ، حال كون ذلك الكشف والإيتاء ﴿ رحمة ﴾ أي نعمة عظيمة تدل على شرفه بما شأنه العطف والتحنن ، وهو من تسمية المسبب باسم السبب ، وفخمها بقوله : ﴿ من عندنا ﴾ بحيث لا يشك من ينظر ذلك أنا ما فعلناه إلا رحمة منا له وأن غيرنا لم يكن يقدر على ذلك ﴿ وذكرى ﴾ أي عظة عظيمة ﴿ للعابدين ﴾ كلهم ، ليتأسوا به فيصبروا إذا ابتلوا بفتنة الضراء ولا يظنوا أنها لهوانهم ، ويشكروا إذا ابتلوا بنعمة السراء لئلا تكون عين شقائهم ، واتبعه سبحانه بمن أنبع له من زمزم ماءً باقياً شريفاً ، إشارة إلى شرفه وشرف ولده خاتم الرسل ببقاء رسالته ومعجزته فقال : ﴿ إسماعيل ﴾ أي ابن إبراهيم عليهما السلام الذي سخرنا له من الماء بواسطة الروح الأمين ما عاش به صغيراً بعد أن كان هالكاً لا محالة ، ثم جعلناه طعام طعم وشفاء سقم دائماً ، وصناه – وهو كبير – من الذبح فذبحه أبوه واجتهد في إتلافه إمتثالاً

لأمرنا فلم ينذبح كما اقتضته إرادتنا ﴿ وإدريس ﴾ أي ابن شيث بن آدم عليهم السلام الذي احييناه بعد موته ورفعناه مكاناً علياً ، وهو أول نبي بعث من بني آدم عليهما السلام ﴿ وذا الكفل ﴾ الذي

(6/514)

قدرناه على النوم الذي هو الموت الأصغر ، فكان يغلبه فلا ينام أو إلا قليلاً ، يقوم الليل ولا يفتر ، ويصوم النهار ولا يفطر ، ويقضي بين الناس ولا يغضب .

فقدره الله على الحياة الكاملة في الدنيا التي هي سبب الحياة الكاملة في الأخرى وهو خليفة اليسع عليه السلام تخلفه على أن يتكفل له بصيام النهار وقيام الليل وأن لا يغضب ، قيل : إنه ليس بنبي وعن الحسن أنه نبي ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه إلياس ، وقيل : هو يوشع بن نون ، وقيل : زكريا – عليهم السلام .

ولما قرن بينهم لهذه المناسبة ، استأنف مدحهم فقال : ﴿ كل ﴾ أي كل واحد منهم ﴿ من الصابرين ﴾ على ما ابتليناه به ، فآتيناهم ثواب الصابرين ﴿ وأدخلناهم ﴾ ودل على عظمة ما لهم عنده سبحانه بقوله : ﴿ في رحمتنا ﴾ ففعلنا بهم من الإحسان ما يفعله الراحم بمن يرحمه على وجه عمهم من جميع جهاتهم ، فكان ظرفاً لهم ؛ ثم علل بقوله :

﴿ إنهم من الصالحين ﴾ لكل ما يرضاه الحكيم منهم ، بمعنى أنهم جبلوا جبلة خير فعملوا على مقتضى ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 103.105 ﴾

(7/514)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في قصة أيوب عليه السلام :

ومن القصص التي تزيَّد فيها المتزيدون ، واستغلها القصاصون ، وأطلقوا فيها لخيالهم العنان : قصة سيدنا أيوب عليه السلام ، فقد رووا فيها ما عصم الله أنبياءه عنه ، وصوروه بصورة لا يرضاها الله لرسولٍ من رسله .

فقد ذكر بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ

(8/514)

أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ، ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ، وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ 1 . ذكر السيوطي في "الدر المنثور" وغيره ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ . . . الآية ، قال : ذهاب الأهل والمال ، والضر الذي أصابه في جسده ، قال : ابتلي سبع سنين وأشهرا ، فألقي على كناسة بني إسرائيل ، تختلف الدواب في جسده ، ففرَّج الله عنه ، وأعظم له الأجر ، وأحسن .

قال : وأخرج أحمد في الزهد ، وابن أبي حاتم ، وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : إن الشيطان عرج إلى السماء فقال : يا رب سلطني على أيوب عليه السلام ، قال الله : قد سلطتك على ماله ، وولده ، ولم أسلطك على جسده ، فنزل : فجمع جنوده فقال لهم : قد سلطت على أيوب عليه السلام فأروني سلطانكم فصاروا نيرانا ، ثم صاروا ماء ، فينما هم بالمشرق إذا هم بالمغرب ، وبينما هم بالمغرب إذا هم بالمشرق ، فأرسل طائفة منهم إلى زرعه ، وطائفة إلى أهله ، وطائفة إلى بقره ، وطائفة إلى غنمه ، وقال : إنه لا يعتصم منكم إلا بالمعروف : فأتوه بالمصائب بعضها على بعض ، فجاء صاحب الزرع فقال : يا أيوب ، ألم ترَ إلى ربك : أرسل على زرعك عدوا ، فذهب به ، وجاء صاحب الإبل ، وقال : ألم ترَ إلى ربك أرسل على إبلك عدوا ، فذهب بها ، ثم جاء صاحب البقر ، فقال :

ألم ترَ إلى ربك أرسل على بقرك عدوا ، فذهب بها ، وتفرد هو ببنيه جمعهم في بيت أكبرهم ، فينما هم يأكلون ، ويشربون إذ هبت ريح فأخذت بأركان البيت ، فألقته عليهم ، فجاء الشيطان إلى أيوب بصورة غلام ، فقال : يا أيوب ، ألم تر إلى ربك جمع بنيك في بيت أكبرهم ، فينما هم يأكلون ، ويشربون ؛ إذ هبت ريح ، فأخذت بأركان البيت ، فألقته عليهم ، فلو رأيتهم حين اختلطت دماؤهم ، ولحومهم بطعامهم ، وشرابهم ، فقال له أيوب : أنت الشيطان ، ثم قال له : أنا اليوم كيوم ولدتني أمي ، فقام ، فحلق رأسه ، وقام يصلي ، فرنَّ إبليس رنَّةً سمع بها أهل السماء وأهل الأرض ، ثم خرج إلى السماء ، فقال : أي

---

1 ص : 41-44 .

رب ، إنه قد اعتصم ، فلسلطني عليه ، فإني لا أستطيعه إلا بسلطانك ، قال : قد سلطتك على جسده ، ولم أسلطك على قلبه ، فنزل ، فنفخ تحت قدمه نفخة ، قرح ما بين قدميه إلى قرنه ، فصار قرحة واحدة ، وألقي على الرماد ، حتى بدا حجاب قلبه ، فكانت امرأته تسعى إليه ، حتى قالت له : أما ترى يا أيوب ، قد نزل بي والله من الجهد والفاقة ما إن بعت قروني برغيف ، فأطعمك ، فادع الله أن يشفيك ، ويريحك ، قال : ويحك ؛ كنا في

النعيم سبعين عاما ، فاصبري حتى نكون في الضر سبعين عاما ، فكان في البلاء سبع سنين ، ودعا ، فجاء جبريل عليه السلام يومًا فأخذ بيده ، ثم قال : قم : فقام ، فنحاه عن مكانه ، وقال : اركض برجلك ، هذا مغتسل بارد وشراب ، فركض برجله ، فنبعت عين ، فقال : اغتسل ، فاغتسل منها ، ثم جاء أيضا ، فقال : اركض برجلك فنبعت عين أخرى ، فقال له : اشرب منها ، وهو قوله : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ ، وألبسه الله حلة من الجنة .

فتنحى أيوب ، فجلس في ناحية ، وجاءت امرأته ، فلم تعرفه ، فقالت : يا عبد الله ، أين المبتلى الذي كان هنا ، لعل الكلاب ذهبت به ، أو الذئاب ، وجعلت تكلمه ساعة ، فقال : ويحك ، أنا أيوب ! ! قد رد الله علي جسدي ، ورد الله عليه ماله ، وولده عيانًا ومثلهم معهم . . . 1 .

قال : وأخرج أحمد في الزهد ، عن عبد الرحمن بن جبير رضي الله عنه قال : ابتلي أيوب بماله ، وولده ، وجسده ، وطرح في المزبلة ، فجاءت امرأته تخرج ، فتكتسب عليه ما تطعمه ، فحسده الشيطان بذلك ، فكان يأتي أصحاب الخير والغنى ، فيقول : اطردوا هذه المرأة التي تغشاكم ، فإنها تعالج صاحبها ، وتلمسه بيدها ، فالناس يتقذرون طعامكم من أجلها ، فجعلوا لا يدنونها منهم ، ويقولون تباعدي ونحن نطعمك ، ولا تقربينا . . .

وقد ذكر ابن جرير ، وابن أبي حاتم الكثير من هذه الروايات في تفسيريهما ، منها : ما هو

موقوف ، وبعضها مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك ذكر ابن جرير والبغوي ، وغيرهما ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ

1 الدر المنثور ج5 ص 315 ، 316 .

(10/514)

الرَّاحِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ 1 الكثير من الإسرائيليات .

فقد رويا قصة أيوب وبلائه عن وهب بن منبه ، في بضع صحائف ، وقد التبس فيها الحق بالباطل ، والصدق بالكذب2 .

وقال ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية : "وقد روي عن وهب بن منبه في خبره -يعني أيوب- قصة طويلة ، ساقها ابن جرير ، وابن أبي حاتم بالسند عنه ، وذكرها غير واحد من متأخري المفسرين ، وفيها غرابة ، تركناها لحال الطول .

ومن العجيب : أن الحافظ الناقد ابن كثير وقع فيما وقع فيه غيره في قصة أيوب ، من ذكر الكثير من الإسرائيليات ولم يعقب عليه3 ، مع أن عهدنا به أنه لا يذكر شيئا من ذلك إلا وينبه على مصدره ، ومن أين دخل في الرواية الإسلامية ، ولا أظن أنه يرى في هذا أنه مما

تباح روايته ! ! !

فقد ذكر أنه يقال : إنه أصيب بالجذام في سائر بدنه ، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر بهما الله عز وجل ، حتى عافه الجليس ، وصار منبوذا في ناحية من البلد ، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه غير زوجته ، وتحملت في بلائه ما تحملت ، حتى صارت تخدم الناس ، بل قد باعت شعرها بسبب ذلك ، ثم قال : وقد روي : أنه مكث في البلاء مدة طويلة ، ثم اختلفوا في السبب المهيج له على هذا الدعاء ، فقال الحسن يعني البصري وقتادة : ابتلي أيوب عليه السلام سبع سنين وأشهرا ملقى على كناسة بني إسرائيل ، تختلف الدواب في جسده ، ففرج الله عنه ، وأعظم له الأجر ، وأحسن عليه الثناء ، وقال وهب بن منبه : مكث في البلاء ثلاث سنين ، لا يزيد ولا ينقص . وقال السدي4 : تساقط لحم أيوب ، حتى لم يبق إلا العصب والعظام . . . ثم ذكر قصة طويلة .

---

1 الأنبياء : 83 ، 84 .

2 تفسير البغوي على هامش تفسير ابن كثير ج5 من ص 509-518 .

3 تفسير ابن كثير ج5 ص 509-518 .

4 إن كان السدي الصغير فهو كذاب ، وإن كان السدي الكبير فمختلف في تعديله .

ثم ذكر ما رواه ابن أبي حاتم بسنده ، عن الزهري ، عن أنس بن مالك : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب ، والبعيد ، إلا رجلين من إخوانه له ، كانا يغدوان إليه ، ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين ، فقال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله ، فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب عليه السلام : ما أدري ما تقول ، غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أَمُرُّ على الرجلين يتنازعان ، فيذكران الله ، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا في حق ، قال : وكان يخرج في حاجته ، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده ، حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه ، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه ، : أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب" .

وقال ابن كثير : رفع هذا الحديث غريب جدا ، وقال الحافظ ابن حجر : وأصح ما ورد في قصته : ما أخرجه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وصححه ابن حبان ، والحاكم ، بسند عن أنس : أن أيوب . . . ثم ذكر مثل ذلك .

أقول : والمحققون من العلماء على أن نسبة هذا إلى المعصوم صلى الله عليه وسلم إما من عمل بعض الوضاعين الذين يركبون الأسانيد للمتون ، أو من غلط بعض الرواة ، وأن ذلك

من إسرائيليات بني إسرائيل وافتراءاتهم على الأنبياء ، والأصحية هنا نسبية ، على أن صحة السند لا تنافي أن أصله من الإسرائيليات ، كما قلت مرارًا ، والإمام الحافظ ابن حجر على جلالته ربما يوافق على تصحيح ما يخالف الأدلة العقلية والنقلية ، كما فعل في قصة الغرانيق ، وهاروت وماروت وكل ما روي موقوفا أو مرفوعا لا يخرج عما ذكره وهب بن منبه ، في قصة أيوب ، التي أشرنا إليها آنفا ، وما رواه ابن إسحاق أيضا ، فهو مما أخذه عن وهب ، وغيره .

وهذا يدل أعظم الدلالة على أن معظم ما روي في قصة أيوب مما أخذ عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، وجاء القصاصون المولعون بالغرائب ، فزادوا في قصة أيوب ، وأذاعوها ، حتى اتخذ منها الشحاذون ، والمتسولون وسيلة لاسترقاق قلوب الناس ، واستدرار العطف عليهم .

(12/514)

الحق في هذه القصة :

وقد دل كتاب الله الصادق ، على لسان نبيه محمد الصادق على أن الله تبارك وتعالى ابتلى نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام في جسده وأهله وماله ، وأنه صبر حتى حتى صار مضرب

الأمثال في ذلك ، وقد أثنى الله عليه هذا الثناء المستطاب ، قال عز شأنه : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب ﴾ ، فالبلاء مما لا يجوز أن يشك فيه أبدًا ، والواجب على المسلم : أن يقف عند كتاب الله ، ولا يتزيد في القصة كما تزيد زنادقة أهل الكتاب ، وألصقوا بالأنبياء ما لا يليق بهم ، وليس هذا بعجيب من بني إسرائيل الذين لم يتجرأوا على أنبياء الله ورسله فحسب بل تجرأوا على الله تبارك وتعالى ونالوا منه وفحشوا عليه ، ونسبوا إليه ما قامت الأدلة العقلية والنقلية المتواترة على استحالته عليه سبحانه وتعالى من قولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء ﴾ 1 وقولهم : : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ 2 ، عليهم لعائن الله .

والذي يجب أن نعتقده : أنه ابتلي ، ولكن بلاءه لم يصل إلى حد هذه الأكاذيب ، من أنه أصيب بالجذام3 ، وأن جسمه أصبح قرحة ، وأنه أُلقِيَ على كناسة بني إسرائيل ، يرعى في جسده الدود ، وتعبث بن دواب بني إسرائيل ، أو أنه أصيب بمرض الجدري .

وأيوب عليه صلوات الله وسلامه أكرم على الله من أن يلقى على مزبلة ، وأن يصاب بمرض ينفر الناس من دعوته ، ويقززهم منه ، وأي فائدة تحصل من الرسالة وهو على هذه الحال المرزية التي لا يرضاها الله لأنبيائه ورسله ؟ .

والأنبياء إنما يبعثون من أوساط4 قومهم ، فأين كانت عشيرته فتواريه ، وتطعمه ؟ ! بدل أن تخدم امرأته الناس ، بل وتبيع ضفيرتيها في سبيل إطعامه ! !

بل أين كان أتباعه ، والمؤمنون منه ، هل تخلَّوا عنه في بلائه ؟ ! وكيف والإيمان ينافي ذلك ؟ !

---

1 آل عمران : 181 .

2 المائدة : 64 .

3 الجذام : مرض من أخبث الأمراض ، وأقذرها .

4 خيارهم وأكرمهم نسبا وعشيرة .

(13/514)

الحق : أن نسج القصة مهلهل ، لا يثبت أمام النقد ، ولا يؤيده عقل سليم ، ولا نقل صحيح ، وأن ما أصيب به أيوب من المرض إنما كان من النوع غير المنفر ، والمقزز ، وأنه من الأمراض التي لا يظهر أثرها على البشرة ، كالروماتيزم ، وأمراض المفاصل ، والعظام ونحوها ، ويؤيد ذلك : أن الله لما أمره أن يضرب الأرض بقدمه ، فنبعت عين ، فاغتسل ، منها ، وشرب ، فبرأ بإذن الله ، وقيل : إنه ضرب الأرض برجله فنبعت عين حارة ، فاغتسل منها ، وضربها مرة أخرى ، فنبعت عين باردة ، فشرب منها ، والله أعلم بالصواب ، وظاهر القرآن عدم التعدد في الضرب ولا في نبع الماء .

مقالة الإمام القاضي أبي بكر ابن العربي :

ويعجبني ما قاله الإمام القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله قال : "ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين : الأولى في قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ . . . ﴾ والثانية في "ص" : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ وأما النبي صلى الله عليه وسلم : فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله : "بينما أيوب يغتسل ، إذ خر عليه رجل من جراد من ذهب . . . "1 الحديث ، وإذا لم يصح فيه قرآن ، ولا سنة إلا ما ذكرنا فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره ، أم على أي لسان سمعه ؟ ! ، والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات ، فأعرض عن سطورها بصرك ، وأصم عن سماعها أذنيك ؛ فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالا ، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا ، وفي الصحيح واللفظ للبخاري : أن ابن عباس قال : "يا معشر المسلمين ، تسألون أهل الكتاب ، وكتابكم الذي أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله ، تقرءونه محضا لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله ، وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب ، فقالوا : هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ، فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم"2 وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الموطأ على عمر قراءته التوراة" .

---

1 هو ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى

الله عليه وسلم قال : "بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه رجل أي جماعة جراد من ذهب فجعل يحثي في ثوبه فناده ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك" .

2 صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء .

(14/514)

وقال الإمام الآلوسي في تفسيره ، بعد أن ذكر بعض مما ذكرنا : وعظم بلائه عليه السلام مما شاع وذاع ولم يختلف فيه اثنان ، لكن في بلوغ أمره إلى أن ألقي على كناسة ، ونحو ذلك فيه خلاف .

قال الطبرسي : قال أهل التحقيق : إنه لا يجوز أن يكون بصفة يستقذره الناس عليها ؛ لأن في ذلك تنفيرًا ، فأما الفقر والمرض ، وذهاب الأهل فيجوز أن يمتحنه الله تعالى بذلك .

وفي هداية المريد للَّقاني : أنه يجوز على الأنبياء عليهم السلام كل عرض بشري ، ليس محرما ولا مكروها ، ولا مباحا مرزيا ، ولا مزمنا ، ولا مما تعافه الأنفس ، ولا مما يؤدي إلى النفرة ، ثم قال بعد ورقتين : واحترزنا بقولنا : ولا مزمنا ولا مما تعافه الأنفس .

عما كان كذلك كالإقعاد ، والبرص والجذام ، والعمى ، والجنون .

وأما الإغماء : فقال النووي : لا شك في جوازه عليهم ؛ لأنه مرض بخلاف الجنون ، فإنه نقص ، وقيد أبو حامد يعني الغزالى الإغماء بغير الطويل ، وجزم به البلقيني ، قال السبكي : وليس كإغماء غيرهم ، لأنه إنما يستر حواسهم الظاهرة ، دون قلوبهم ، لأنها معصومة من النوم الأخف ، قال : ويمتنع عليهم الجنون ، وإن قل ، لأنه نقص ، ويلحق به العمى ، ولم يعمى نبي قط ، وما ذكر عن شعيب من أنه كان ضريرا لم يثبت ، وأما يعقوب فحصلت له غشاوة وزالت . انتهى .

وفرق بعضهم في عروض ذلك بين أن يكون بعد التبليغ وحصول الغرض من النبوة : فيجوز ، وبين أن يكون قبل : فلا يجوز ، ولعلك تختار القول بحفظهم مما تعافه النفوس ، ويؤدي إلى الاستقذار والنفرة كما يشعر به ما روي عن قتادة ، ونقله القصاص في كتبهم ، وذكر بعضهم أن داءه كان الجدري ، ولا أعتقد صحة ذلك ، والله تعالى أعلم1 .

أهـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير صـ 275.282 ﴾

---

1 تفسير الآلوسي ج23 ص 208 ط منير .

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) ﴾

(القصة السادسة ، قصة أيوب عليه السلام)

اعلم أن في أمر أيوب عليه السلام وما ذكره الله تعالى من شأنه ههنا وفي غيره من القرآن من العبر والدلائل ما ليس في غيره ، لأنه تعالى مع عظيم فضله أنزل به من المرض العظيم ما أنزله مما كان غبرة له ولغيره ولسائر من سمع بذلك وتعريفاً لهم أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها ، ويجتهد في القيام بحق الله تعالى ويصبر على حالتي الضراء والسراء وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال وهب بن منبه : كان أيوب عليه السلام رجلاً من الروم وهو أيوب ابن أنوص وكان من ولد عيص بن إسحق وكانت أمه من ولد لوط ، وكان الله تعالى قد اصطفاه وجعله نبياً ، وكان مع ذلك قد أعطاه من الدنيا حظاً وافراً من النعم والدواب والبساتين وأعطاه أهلاً وولداً من رجال ونساء ، وكان رحيماً بالمساكين ، وكان يكفل الأيتام والأرامل ويكرم الضيف وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وعرفوا فضله ، قال وهب : وإن لجبريل عليه السلام بين يدي الله تعالى مقاماً ليس لأحد من الملائكة مثله في القربة والفضيلة ، وهو الذي يتلقى

الكلام فإذا ذكر الله عبداً بخير تلقاه جبريل عليه السلام ثم تلقاه ميكائيل عليه السلام ثم من حوله من الملائكة المقربين ، فإذا شاع ذلك فهم يصلون عليه .

ثم صلت ملائكة السموات ثم ملائكة الأرض .

وكان إبليس لم يحجب عن شيء من السموات ، وكان يقف فيهن حيثما أراد ، ومن هناك وصل إلى آدم عليه السلام حتى أخرجه من الجنة .

ولم يزل على ذلك حتى رفع عيسى عليه السلام فحجب عن أربع .

(16/514)

فكان يصعد بعد ذلك إلى ثلاث إلى زمان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فحجب عند ذلك عن جميع السموات إلا من استرق السمع ، قال : فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب فأدركه الحسد ، فصعد سريعاً حتى وقف من السماء موقفاً كان يقفه ، فقال : يا رب إنك أنعمت على عبدك أيوب فشكرك وعافيته فحمدك ثم لم تجربه بشدة ولا بلاء وأنا لك زعيم لئن ضربته بالبلاء ليكفرن بك ، فقال الله تعالى : انطلق فقد سلطتك على ماله .

فانقض الملعون حتى وقع إلى الأرض وجمع عفاريت الشياطين ، وقال لهم : ماذا عندكم من

القوة فإني سلطت على مال أيوب ؟ قال عفريت : أعطيت من القوة ما إذا شئت تحولت إعصاراً من نار فأحرقت كل شيء آتى عليه ، فقال إبليس : فأت الإبل ورعاءها فذهب ولم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار لا يدنو منها شيء إلا احترق فلم يزل يحرقها ورعاءها حتى أتى على آخرها ، فذهب إبليس على شكل بعض أولئك الرعاة إلى أيوب فوجده قائماً يصلي ، فلما فرغ من الصلاة قال : يا أيوب هل تدري ما صنع ربك الذي اخترته بإبلك ورعائها ؟ فقال أيوب : إنها ماله أعارنيه وهو أولى به إذا شاء نزعه .

قال إبليس : فإن ربك أرسل عليها ناراً من السماء فاحترقت ورعاؤها كلها وتركت الناس مبهوتين متعجبين منها .

فمن قائل يقول : ما كان أيوب يعبد شيئاً وما كان إلا في غرور ، ومن قائل يقول : لو كان إله أيوب يقدر على شيء لمنع من وليه ، ومن قائل آخر يقول : بل هو الذي فعل ما فعل ليشمت عدوه به ويفجع به صديقه .

فقال أيوب عليه السلام : الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني ، عرياناً خرجت من بطن أمي ، وعرياناً أعود في التراب ، وعرياناً أحشر إلى الله تعالى ، ولو علم الله فيك أيها العبد خيراً لنقل روحك مع تلك الأرواح وصرت شهيداً وآجرني فيك ، ولكن الله علم منك شراً

فأخرك .

فرجع إبليس إلى أصحابه خاسئاً .

(17/514)

فقال عفريت آخر : عندي من القوة ما إذا شئت صحت صوتاً لا يسمعه ذو روح إلا خرجت روحه ، فقال إبليس : فأت الغنم ورعاءها فانطلق فصاح بها فماتت ومات رعاؤها .

فخرج إبليس متمثلاً بقهرمان الرعاة إلى أيوب فقال له القول الأول : ورد عليه أيوب الرد الأول ، فرجع إبليس صاغراً .

فقال عفريت آخر : عندي من القوة ما إذا شئت تحولت ريحاً عاصفة أقلع كل شيء أتيت عليه ، قال فاذهب إلى الحرث والثيران فأتاهم فأهلكهم ثم رجع إبليس متمثلاً حتى جاء أيوب وهو يصلي ، فقال مثل قوله الأول فرد عليه أيوب الرد الأول ، فجعل إبليس يصيب أمواله شيئاً فشيئاً حتى أتى على جميعها .

فلما رأى إبليس صبره على ذلك وقف الموقف الذي كان يقفه عند الله تعالى ، وقال : يا إلهي هل أنت مسلطي على ولده ، فإنها الفتنة المضلة .

فقال الله تعالى : انطلق فقد سلطتك على ولده ، فأتى أولاد أيوب في قصرهم فلم يزل يزلزله بهم من قواعده حتى قلب القصر عليهم ، ثم جاء إلى أيوب متمثلاً بالمعلم وهو جريح مشدوخ الرأس يسيل دمه ودماغه ، فقال : لو رأيت بنيك كيف انقلبوا منكوسين على رؤوسهم تسيل أدمغتهم من أنوفهم لتقطع قلبك ، فلم يزل يقول هذا ويرققه حتى رق أيوب عليه السلام وبكى وقبض قبضة من التراب ووضعها على رأسه ، فاغتنم ذلك إبليس ، ثم لم يلبث أيوب عليه السلام حتى استغفر واسترجع فصعد إبليس ووقف موقفه وقال : يا إلهي إنما يهون على أيوب خطر المال والولد ، لعلمه أنك تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطي على جسده وإني لك زعيم لو ابتليته في جسده ليكفرن بك ، فقال تعالى : انطلق فقد سلطتك على جسده وليس لك سلطان على عقله وقلبه ولسانه فانقض عدو الله سريعاً فوجد أيوب عليه السلام ساجداً لله تعالى فأتاه من قبل الأرض فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده وخرج به من فرقه إلى قدمه ثآليل وقد وقعت فيه حكة لا يملكها ، وكان يحك بأظفاره حتى سقطت أظفاره ، ثم حكها بالمسوح الخشنة ثم بالفخار والحجارة ، ولم يزل يحكها حتى تقطع لحمه وتغير ونتن ، فأخرجه أهل القرية وجعلوه على

كناسة وجعلوا له عريشاً ورفضه الناس كلهم غير امرأته رحمة بنت افرايم بن يوسف عليه السلام فكانت تصلح أموره ، ثم إن وهبا طول في الحكاية إلى أن قال : إن أيوب عليه السلام أقبل على الله تعالى مستغيثاً متضرعاً إليه فقال : يا رب لأي شيء خلقتني يا ليتني كنت حيضة ألقتني أمي ، ويا ليتني كنت عرفت الذنب الذي أذنبته ، والعمل الذي عملت حتى صرفت وجهك الكريم عني ، ألم أكن للغريب داراً ، وللمسكين قراراً ، ولليتيم ولياً ، وللأرملة قيماً ، إلهي أنا عبد ذليل إن أحسنت فالمن لك وإن أسأت فبيدك عقوبتي ، جعلتني للبلاء غرضاً ، وللفتنة نصباً ، وسلطت علي ما لو سلطته على جبل لضعف من حمله .

(19/514)

إلهي تقطعت أصابعي ، وتساقطت لهواتي ، وتناثر شعري وذهب المال ، وصرت أسأل اللقمة فيطعمني من يمن بها علي ويعيرني بفقري وهلاك أولادي .

قال الإمام أبو القاسم الأنصاري رحمه الله ، وفي جملة هذا الكلام : ليتك لو كرهتني لم تخلقني ، ثم قال : ولو كان ذلك صحيحاً لاغتنمه إبليس ، فإن قصده أن يحمله على الشكوى ، وأن يخرجه عن حلية الصابرين ، والله تعالى لم يخبر عنه إلا قوله : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ

أَرْحَمُ الراحمين ﴾ ثم قال :

﴿ إِنَّا وجدناه صَابِراً نِّعْمَ العبد إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : 44] واختلف العلماء في السبب الذي قال لأجله : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ وفي مدة بلائه .

فالرواية الأولى : روى ابن شهاب عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أيوب عليه السلام بقي في البلاء ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان ويروحان إليه ، فقال أحدهما للآخر ذات يوم : والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين ، فقال له صاحبه : وما ذاك ؟ فقال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى ولم يكشف ما به .

فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك لأيوب عليه السلام .

فقال أيوب : ما أدري ما تقولون ، غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله عز وجل فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق " .

وفي رواية أخرى : " أن الرجلين لما دخلا عليه وجدا ريحاً فقالا : لو كان لأيوب عند الله خير ما بلغ إلى هذه الحالة ، قال : فما شق على أيوب شيء مما ابتلى به أشد مما سمع منهما ، فقال : اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت شبعاناً وأنا أعلم بمكان جائع فصدقني فصدقه وهما يسمعان ، ثم خر أيوب عليه السلام ساجداً ثم قال : اللهم إني لا أرفع رأسي حتى تكشف ما بي قال فكشف الله ما به "

الرواية الثانية : قال الحسن رحمه الله : مكث أيوب عليه السلام بعد ما ألقى على الكناسة سبع سنين وأشهراً ، ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق غير امرأته رحمة صبرت معه وكانت تأتيه بالطعام وتحمد الله تعالى مع أيوب وكان أيوب مواظباً على حمد الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه ، فصرخ إبليس صرخة جزعاً من صبر أيوب ، فاجتمع جنوده من أقطار الأرض وقالوا له ما خبرك ؟ قال : أعياني هذا العبد الذي سألت الله أن يسلطني عليه وعلى ماله وولده فلم أدع له مالاً ولا ولداً ولم يزدد بذلك إلا صبراً وحمداً لله تعالى ، ثم سلطت على جسده فتركته ملقى في كناسة وما يقربه إلا امرأته ، وهو مع ذلك لا يفتر عن الذكر والحمد لله ، فاستعنت بكم لتعينوني عليه فقالوا له : أين مكرك ! أين عملك الذي أهلكت به من مضى ؟ قال : بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا علي ، قالوا : أدليت آدم حين أخرجته من الجنة من أين أتيته ؟ قال من قبل امرأته ، قالوا : فشأنك بأيوب من قبل امرأته فإنه لا يستطيع أن يعصيها لأنه لا يقربه أحد غيرها .

قال : أصبتم فانطلق حتى أتى امرأته فتمثل لها في صورة رجل ، فقال : أين بعلك يا أمة الله ؟ قالت : هو هذا يحك قروحه وتتردد الدواب في جسده ، فلما سمعها طمع أن يكون

ذلك كله جزعاً ، فوسوس إليها وذكرها ما كان لها من النعم والمال ، وذكرها جمال أيوب وشبابه .

(21/514)

قال الحسن رحمه الله : فصرخت ، فلما صرخت علم أنها قد جزعت فأتاها بسخلة ، وقال ليذبح هذه لي أيوب ويبرأ ، قال : فجاءت تصرخ إلى أيوب يا أيوب حتى متى يعذبك ربك ، ألا يرحمك أين المال ، أين الماشية ، أين الولد ، أين الصديق ، أين اللون الحسن ، أين جسمك الذي قد بلى وصار مثل الرماد ، وتردد فيه الدواب أذبح هذه السخلة واسترح ؟ فقال أيوب عليه السلام : أتاك عدو الله ونفخ فيك فأجبتيه ! ويلك أترين ما تبكين عليه مما تذكرين مما كنا فيه من المال والولد والصحة ، من أعطانا ذلك ؟ قالت الله .

قال : فكم متعنا به ؟ قالت : ثمانين سنة .

قال : فمنذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء ؟ قالت : منذ سبع سنين وأشهر ، قال ويلك ، والله ما أنصفت ربك ، ألا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة .

والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة .

(22/514)

أمرتيني أن أذبح لغير الله ، وحرام علي أن أذوق بعد هذا شيئاً من طعامك وشرابك الذي تأتيني به ، فطردها فذهبت ، فلما نظر أيوب في شأنه وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق ، وقد ذهبت امرأته خر ساجداً ، وقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ فقال : ارفع رأسك فقد استجبت لك ﴿ اركض بِرِجْلِكَ ﴾ فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها ، فلم يبق في ظاهر بدنه دابة إلا سقطت منه ، ثم ضرب برجله مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها ، فلم يبق في جوفه داء إلا خرج وقام صحيحاً ، وعاد إليه شبابه وجماله حتى صار أحسن ما كان ، ثم كسى حلة فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئاً مما كان له من الأهل والولد والمال ، إلا وقد ضعفه الله تعالى حتى صار أحسن مما كان ، حتى ذكر أن الماء الذي اغتسل منه تطاير على صدره جراداً من ذهب ، قال : فجعل يضمه بيده فأوحى الله إليه يا أيوب ألم أغنك ؟ قال : بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها ، قال : فخرج حتى جلس على مكان مشرف ، ثم إن امرأته قالت : هب أنه طردني أفأتركه حتى يموت جوعاً وتأكله السباع لأرجعن إليه ، فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وإذا بالأمور قد تغيرت ، فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك بعين أيوب عليه السلام ، وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأله عنه فأرسل إليها أيوب عليه السلام ودعاها وقال : ما تريدين يا أمة الله ؟ فبكت وقالت :

أردت ذلك المبتلي الذي كان ملقى على الكناسة ، فقال لها أيوب عليه السلام : ما كان منك ، فبكت وقالت بعلي ، فقال : أتعرفينه إذا رأيتيه ، قالت وهل يخفى على أحد يراه ! فتبسم وقال : أنا هو ، فعرفته بضحكه فاعتنقته ثم قال إنك أمرتيني أن أذبح سخلة لإبليس ، وإني أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله تعالى فرد علي ما ترين .

(23/514)

الرواية الثالثة : قال الضحاك ومقاتل : بقي في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات وقال وهب رحمه الله بقي في البلاء ثلاث سنين ، فلما غلب أيوب إبليس لعنه الله ذهب إبليس إلى امرأته على هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجمال على مركب ليس كمراكب الناس وقال لها : أنت صاحبة أيوب ؟ قالت : نعم ، قال : فهل تعرفيني ؟ قالت لا : قال : أنا إله الأرض أنا صنعت بأيوب ما صنعت ، وذلك أنه عبد إله السماء وتركني فأغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليك وعليه جميع مالكما من مال وولد فإن ذلك عندي ، قال وهب وسمعت أنه قال : لو أن صاحبك أكل طعاماً ولم يسم الله تعالى لعوفي مما هو فيه من البلاء ، وفي رواية أخرى : بل قال لها لو شئت فاسجدي لي سجدة واحدة حتى أرد عليك المال والولد وأعافي زوجك ، فرجعت إلى أيوب

فأخبرته بما قال لها ، فقال لها أيوب : أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ، ثم أقسم لئن عافاني الله لأجلدنك مائة جلدة ، وقال عند ذلك ﴿ مَسَّنِىَ الضر ﴾ يعني من طمع إبليس في سجودي له وسجود زوجتي ودعائه إياها وإياي إلى الكفر .

الرواية الرابعة : قال وهب : كانت امرأة أيوب عليه السلام تعمل للناس وتأتيه بقوته ، فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها فالتمست ذات يوم شيئاً من الطعام فلم تجد شيئاً فجزت قرناً من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها : أين قرنك فأخبرته بذلك ، فحينئذ قال : ﴿ مَسَّنِىَ الضر ﴾ .

الرواية الخامسة : قال إسماعيل السدي : لم يقل أيوب مسني الضر إلا لأشياء ثلاث .

أحدها : قول الرجلين له لو كان عملك الذي كنا نرى لله تعالى لما أصابك الذي أصابك .

(24/514)

وثانيها : كان لامرأته ثلاث ذوائب فعمدت إلى إحداها وقطعتها وباعتها فأعطوها بذلك خبزاً ولحماً فجاءت إلى أيوب عليه السلام فقال من أين هذا ؟ فقالت : كل فإنه حلال فلما كان من الغد لم تجد شيئاً فباعت الثانية وكذلك فعلت في اليوم الثالث ، وقالت : كل فإنه حلال فقال : لا آكل ما لم تخبريني فأخبرته ، فبلغ ذلك من أيوب ما الله به عليم ، وقيل : إنما

باعت ذوائبها لأن إبليس تمثل لقوم في صورة بشر ، وقال : لئن تركتم أيوب في قريتكم فإني أخاف أن يعدي إليكم ما به من العلة فأخرجوه إلى باب البلد ، ثم قال لهم : إن امرأته تدخل في بيوتكم وتعمل وتمس زوجها أما تخافون أن تعدي إليكم علته ، فحينئذ لم يستعملها أحد فباعت ضفيرتها .

وثالثها : حين قالت له امرأته ما قالت فحينئذ دعا .

الرواية السادسة : قيل : سقطت دودة من فخذه فرفعها وردها إلى موضعها ، وقال قد جعلني الله تعالى طعمة لك فعضته عضة شديدة ، فقال : مسني الضر .

فأوحى الله تعالى إليه لولا أني جعلت تحت كل شعرة منك صبراً لما صبرت .

المسألة الثانية :

اعلم أن المعتزلة قد طعنوا في هذه القصة من وجوه .

أحدها : قال الجبائي : ذهب بعض الجهال إلى أن ما كان به من المرض كان فعلاً للشيطان سلطه الله عليه ، لقوله تعالى حكاية عنه : ﴿ مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ وهذا جهل ، أما أولاً فلأنه لو قدر على إحداث الأمراض والأسقام وضدهما من العافية لتهيأ له فعل الأجسام ، ومن هذا حاله يكون إلهاً ، وأما ثانياً فلأن الله تعالى أخبر عنه وعن جنوده بأنه قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِى ﴾ [إبراهيم :

22] والواجب تصديق خبر الله تعالى ، دون الرجوع إلى ما يروى عن وهب بن منبه رضي الله عنه .

(25/514)

واعلم أن هذا الاعتراض ضعيف لأن المذكور في الحكاية أن الشيطان نفخ في منخره فوقعت الحكة فيه ، فلم قلتم إن القادر على النفخة التي تولد مثل هذه الحكة لا بد وأن يكون قادراً على خلق الأجسام ، وهل هذا إلا محض التحكم ، وأما التمسك بالنص فضعيف لأنه إنما يقدم على هذا الفعل متى علم أنه لو أقدم عليه لما منعه الله تعالى عنه ، وهذه الحالة لم تحصل إلا في حق أيوب عليه السلام على ما دلت الحكاية عليه من أنه استأذن الله تعالى فأذن له فيه ، ومتى كان كذلك لم يبق بين ذلك النص وبين هذه الحكاية مناقضة . (1)

وثانيها : قالوا : ما روي أنه عليه السلام لم يسأل إلا عند أمور مخصوصة فبعيد ، لأن الثابت في العقل أنه يحسن من المرء أن يسأل في ذلك ربه ويفزع إليه كما يحسن منه المداواة ، وإذا جاز أن يسأل ربه عند الغم مما يراه من إخوانه وأهله جاز أيضاً أن يسأل ربه من قبل نفسه ، فإن قيل : أفلا يجوز أنه تعالى تعبده بأن لا يسأل الكشف إلا في آخر أمره ، قلنا : يجوز ذلك

بأن يعلمه بأن إنزال ذلك به مدة مخصوصة من مصالحه ومصالح غيره لا محالة ، فعلم عليه السلام أنه لا وجه للمسألة في هذا الأمر الخاص ، فإذا قرب الوقت جاز أن يسأل ذلك ، من حيث يجوز أن يدوم ويجوز أن ينقطع .

وثالثها : قالوا : انتهاء ذلك المرض إلى حد التنفير عنه غير جائز ، لأن الأمراض المنفرة من القبول غير جائزة على الأنبياء عليهم السلام فهذا جملة ما قيل في هذه الحكاية .

المسألة الثالثة :

قال صاحب "الكشاف" قوله تعالى : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر ﴾ أي ناداه بأني مسني الضر ، وقرىء إني بالكسر على إضمار القول أو لتضمين النداء معناه ، والضر بالفتح الضرر في كل شيء ، وبالضم الضرر في النفس من مرض وهزال .

المسألة الرابعة :

أنه عليه السلام ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب ،

---

(1) الحق الذى ندين لله تعالى به فى هذه الروايات أنها من الإسرائيليات المنكرة ولا يصح نسبتها إلى نبى الله أيوب - عليه السلام - وكيف تتفق مع قوله تعالى ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ وقوله ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ فضلا على أن القصة تحمل فى طياتها وفى كل مقطع منها دليلا على كذبها وافترائها ، والعجب كل العجب كيف يدافع

عنها الإمام الفخر ؟ ؟ ! ! !

قال العلامة الثعالبى : في صدر القصة : إن اللَّه سبحانه أَذِنَ لإبليسَ (لعنه اللَّه) في إهلاك مال أيوبَ ، وفي إهلاك بنيه وقرابته ، ففعل ذلك أجمع ، واللَّه أعلم بصحة ذلك ، ولو صَحَّ لوجب تأويله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(26/514)

فإن قيل : أليس أن الشكوى تقدح في كونه صابراً .

والجواب : قال سفيان بن عيينة رحمه الله من شكا إلى الله تعالى فإنه لا يعد ذلك جزعاً إذا كان في شكواه راضياً بقضاء الله تعالى إذ ليس من شرط الصبر استحلاء البلاء ، ألم تسمع قول يعقوب عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ ﴾ [يوسف : 86] أما قوله : ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ فالدليل على أنه سبحانه : ﴿ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ أمور .

أحدها : أن كل من رحم غيره فأما أن يرحمه طلباً للثناء في الدنيا أو الثواب في الآخرة أو دفعاً للرقة الجنسية عن الطبع ، وحينئذ يكون مطلوب ذلك الراحم منفعة نفسه ، أما الحق سبحانه فإنه يرحم عباده من غير وجه من هذه الوجوه ، ومن غير أن يعود إليه من تلك الرحمة زيادة ولا نقصان من الثناء ومن صفات الكمال ، فكان سبحانه أرحم الراحمين .

وثانيها : أن كل من يرحم غيره فلا يكون ذلك إلا بمعونة رحمة الله تعالى لأن من أعطى غيره طعاماً أو ثوباً أو دفع عنه بلاء ، فلولا أنه سبحانه خلق المطعوم والملبوس والأدوية والأغذية وإلا لما قدر أحد على إعطاء ذلك الشيء ، ثم بعد وصول تلك العطية إليه ، فلولا أنه سبحانه جعله سبباً للراحة لما حصل النفع بذلك ، فإذاً رحمة العباد مسبوقة برحمة الله تعالى وملحوقة برحمته بل رحمتهم فيما بين الطرفين كالقطرة في البحر ، فوجب أن يكون تعالى هو أرحم الراحمين .

(27/514)

وثالثها : أن الله تعالى لو لم يخلق في قلب العبد تلك الدواعي والإرادات لاستحال صدور ذلك الفعل عنه ، فكان الراحم هو الحق سبحانه ، من حيث إنه هو الذي أنشأ تلك الداعية ، فثبت أنه أرحم الراحمين فإن قيل كيف يكون أرحم الراحمين مع أنه سبحانه ملأ الدنيا من الآفات والأسقام والأمراض والآلام وسلط البعض على البعض بالذبح والكسر والإيذاء ، وكان قادراً على أن يغني كل واحد عن إيلام الآخر وإيذائه ؟ والجواب : أن كونه سبحانه ضاراً لا ينافي كونه نافعاً ، بل هو الضار النافع فإضراره ليس لدفع مشقة وإنفاعه ليس لجلب منفعة ، بل لا يسأل عما يفعل .

أما قوله تعالى : ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ فإنه يدل على أنه دعا ربه ، لكن هذا الدعاء قد يجوز أن يكون واقعاً منه على سبيل التعريض ، كما يقال إن رأيت أو أردت أو أحببت فافعل كذا .

ويجوز أن يكون على سبيل التصريح وإن كان الأليق بالأدب وبدلالة الآية هو الأول ، ثم إنه سبحانه بين أن كشف ما به من ضر وذلك يقتضي إعادته إلى ما كان في بدنه وأحواله ، وبين الله تعالى أنه آتاه أهله ويدخل فيه من ينسب إليه من زوجة وولد وغيرهما ثم فيه قولان :

أحدهما : وهو قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومقاتل والكلبي وكعب رضي الله عنهم أن الله تعالى أحيا له أهله يعني أولاده بأعيانهم .

والثاني : روى الليث رضي الله عنه ، قال : أرسل مجاهد إلى عكرمة وسأله عن الآية فقال : قيل له إن أهلك لك في الآخرة فإن شئت عجلناهم لك في الدنيا ، وإن شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا .

فقال : يكونون لي في الآخرة وأوتي مثلهم في الدنيا .

والقول الأول أولى لأن قوله : ﴿ وآتيناه أهله ﴾ يدل بظاهره على أنه تعالى أعادهم في الدنيا وأعطاه معهم مثلهم أيضاً .

وأما قوله تعالى : ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ ففيه دلالة على أنه تعالى فعل ذلك لكي يتفكر فيه

فيكون داعية للعابدين في الصبر والإحتساب ، وإنما خص العابدين بالذكر [ى] لأنهم يختصون بالانتفاع بذلك .

(28/514)

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86) ﴾

(القصة السابعة)

اعلم أنه تعالى لما ذكر صبر أيوب عليه السلام وانقطاعه إليه أتبعه بذكر هؤلاء فإنهم كانوا أيضاً من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة ، أما إسمعيل عليه السلام فلأنه صبر على الإنقياد للذبح ، وصبر على المقام ببلد لا زرع فيه ولا ضرع ولا بناء ، وصبر في بناء البيت ، فلا جرم أكرمه الله تعالى وأخرج صلبه خاتم النبيين ، وأما إدريس عليه السلام فقد تقدمت قصته في سورة مريم عليها السلام ، قال ابن عمر رضي الله عنهما : "بعث إلى قومه داعياً لهم إلى الله تعالى فأبوا فأهلكهم الله تعالى ورفع إدريس إلى السماء الرابعة" وأما ذوا الكفل ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

فيها بحثان :

الأول : قال الزجاج الكفل في اللغة الكساء الذي يجعل على عجز البعير ، والكفل أيضاً النصيب واختلفوا في أنه لم سمي بهذا الاسم على وجوه .

أحدها : وهو قول المحققين أنه كان له ضعف عمل الأنبياء عليهم السلام في زمانه وضعف ثوابهم .

وثانيها : قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية : "إن نبياً من أنبياء بني إسرائيل آتاه الله الملك والنبوة ثم أوحى الله إليه أني أريد قبض روحك ، فأعرض ملكك على بني إسرائيل ، فمن تكفل لك أنه يصلي بالليل حتى يصبح ويصوم بالنهار فلا يفطر ، ويقضي بين الناس فلا يغضب فادفع ملكك إليه ، فقام ذلك النبي في بني إسرائيل وأخبرهم بذلك ، فقام شاب وقال : أنا أتكفل لك بهذا .

(29/514)

فقال في القوم : من هو أكبر منك فاقعد ثم صاح الثانية والثالثة فقام الرجل وقال : أتكفل لك بهذه الثلاث فدفع إليه ملكه ، ووفى بما ضمن .

فحسده إبليس فأتاه وقت ما يريد أن يقيل ، فقال : إن لي غريماً قد مطلني حقي وقد دعوته

إليك فأبى فأرسل معي من يأتيك به ، فأرسل معه وقعد حتى فاتته القيلولة ودعا إلى صلاته وصلى ليله إلى الصباح ، ثم أتاه من الغد عند القيلولة فقال : إن الرجل الذي استأذنتك له في موضع كذا فلا تبرح حتى آتيك به ، فذهب وبقي منتظراً حتى فاتته القيلولة ، ثم أتاه فقال له : هرب مني فمضى ذو الكفل إلى صلاته فصلى ليلته حتى أصبح ، فأتاه إبليس وعرفه نفسه ، وقال له : حسدتك على عصمة الله إياك فأردت أن أخرجك حتى لا تفي بما تكفلت به ، فشكره الله تعالى على ذلك ونبأه ، فسمي ذا الكفل" .

وعلى هذا فالمراد بالكفل هنا الكفالة .

وثالثها : قال مجاهد : لما كبر اليسع عليه السلام ، قال : لو أني استخلفت رجلاً على الناس في حياتي حتى أنظر كيف يعمل ، فجمع الناس وقال من يتقبل مني حتى استخلفه ثلاثاً يصلي بالليل ويصوم بالنهار ويقضي فلا يغضب ، وذكر علي كرم الله وجهه نحو ما ذكره ابن عباس رضي الله عنه من فعل إبليس وتفويته عليه القيلولة ثلاثة أيام .

وزاد أن ذا الكفل قال للبواب في اليوم الثالث : قد غلب علي النعاس فلا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام فإني قد شق علي النعاس ، فجاء إبليس فلم يأذن له البواب فدخل من كوة في البيت وتسور فيها فإذا هو يدق الباب من داخل ، فاستيقظ الرجل وعاتب البواب ، فقال : أما من قبلي فلم تؤت .

فقام إلى الباب فإذا هو مغلق وإبليس على صورة شيخ معه في البيت ، فقال له : أتنام

والخصوم على الباب .

فعرفه فقال : أنت إبليس ، قال نعم أعييتني في كل شيء ففعلت هذه الأفعال لأغضبك فعصمك الله مني .

فسمي ذا الكفل لأنه قد وفى بما تكفل به .

المسألة الثانية :

(30/514)

قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ومجاهد ذو الكفل لم يكن نبياً ولكن كان عبداً صالحاً ، وقال الحسن والأكثرون إنه من الأنبياء عليهم السلام وهذا أولى الوجوه : أحدها : أن ذا الكفل يحتمل أن يكون لقباً وأن يكون اسماً ، والأقرب أن يكون مفيداً ، لأن الاسم إذا أمكن حمله على ما يفيد فهو أولى من اللقب .

إذا ثبت هذا فنقول الكفل هو النصيب والظاهر أن الله تعالى إنما سماه بذلك على سبيل التعظيم ، فوجب أن يكون ذلك الكفل هو كفل الثواب فهو إنما سمي بذلك لأن عمله وثواب عمله كان ضعف عمل غيره وضعف ثواب غيره ولقد كان في زمنه أنبياء على ما روي ومن ليس بنبي لا يكون أفضل من الأنبياء .

وثانيها : أنه تعالى قرن ذكره بذكر إسمعيل وإدريس والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم وذلك يدل على نبوته .

وثالثها : أن السورة ملقبة بسورة الأنبياء فكل من ذكره الله تعالى فيها فهو نبي .

المسألة الثالثة :

قيل إن ذا الكفل زكريا وقيل يوشع وقيل إلياس ، ثم قالوا خمسة من الأنبياء سماهم الله تعالى باسمين : إسرائيل ويعقوب ، إلياس وذو الكفل ، عيسى والمسيح ، يونس وذو النون ، محمد وأحمد .

وأما قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصابرين ﴾ أي على القيام بأمر الله تعالى واحتمال الأذى في نصرة دينه .

وقوله : ﴿ وأدخلناهم فِى رَحْمَتِنَا ﴾ قال مقاتل : الرحمة النبوة ، وقال آخرون بل يتناول جميع أعمال البر والخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 176 .

183 ﴾

(31/514)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي ﴾ الآية .

حكى الحسن البصري : أن أيوب آتاه الله مالاً وولداً فهلك ماله ، ومات أولاده ، فقال : ربِّ قد أَحْسَنْتَ إِلَيَّ الإحسانَ كُلَّه ، كنتُ قبل اليوم شَغَلَنِي حُبُّ المالِ بالنهارِ ، وشَغَلَنِي حُبُّ الولدِ بالليلِ ، فالآن أُفْرِغُ لك سمعي وبصري وليلي ونهاري بالحمد والذكر فلم ينفذ لإبليس فيه مكر ، ولا قدر له على فتنة ، فَبُلِي في بَدَنِهِ حتى قرح وسعى فيه الدود ، واشتد به البلاء حتى طرح على مزبلة بني إسرائيل ، ولم يبق أحد يدنو منه غير زوجته صبرت معه ، تتصدق وتطعمه ، وقد كان آمن به ثلاثة من قومه ، رفضوا عند بلائه ، وأيوب يزداد حمداً لله وذكراً ، وإبليس يجتهد في افتتانه فلا يصل إليه حتى شاور أصحابه ، فقالوا : أرأيت آدم حين أخرجته من الجنة من أين أتيته ؟ قال : من قبل امرأته ، فقالوا شأنك أيوب من قبل امرأته قال : أصبتم فأتاها فذكر لها ضر أيوب بعد جماله وماله وولده ، فصرخت ، فطمع عدو الله فيها ، فأتاها بسخلة ، فقال ليذبح أيوب هذه السخلة لي ويبرأ ، فجاءت إلى أيوب فصرخت وقالت يا أيوب حتى متى يعذبك ربك ولا يرحمك ؟ أين المال ؟ أين الولد ؟ أين لونك الحسن ؟ قد بلى ، وقد تردد الدواب ، اذبح هذه السخلة واسترح . قال لها أيوب أتاك عدو الله فنفخ فيك فوجد فيك رفقاً فأجبتيه ؟ أرأيت ما تبكين عليه من المال والولد والشباب والصحة من أعطانيه ؟ فقالت الله ، قال : فكم متعنا به ؟ قالت : ثمانين سنة ،

قال : منذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء ؟ فقالت : منذ سبع سنين وأشهر قال : ويلك والله ما أنصفت ربك ، ألا صبرت حتى نكون في هذا البلاء ثمانين سنة والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة ، ثم طردها وقال : ما تأتيني به عليَّ حرام إن أكلته ، فيئس إبليس من فتنته .

ثم بقي أيوب وحيداً فخر ساجداً وقال : ربِّ ،

(32/514)

﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وفيه خمسة أوجه :

أحدها : أن الضر المرض ، قاله قتادة .

الثاني : أنه البلاء الذي في جسده ، قاله السدّي ، حتى قيل إن الدودة كانت تقع من جسده فيردها في مكانها ويقول : كلي مما رزقك الله .

الثالث : أنه الشيطان كما قال في موضع آخر ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص : 41] قاله الحسن .

الرابع : أنه وثب ليصلي فلم يقدر على النهوض ، فقال : مسني الضر ، إخباراً عن حاله ، لا شكوى لبلائه ، رواه أنس مرفوعاً .

الخامس : أنه انقطع الوحي عنه أربعين يوماً فخاف هجران ربه ، فقال : مسني الضر ، وهذا قول جعفر الصادق رحمه الله .

وفي مخرج قوله : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : أنه خارج مخرج الاستفهام ، وتقديره أيمسني الضر وأنت أرحم الراحمين .

الثاني : أنت أرحم بي أن يمسني الضر .

الثالث : أنه قال [ذلك] استقالة من ذنبه ورغبة إلى ربه .

الرابع : أنه شكا ضعفه وضره استعطافاً لرحمته ، فكشف بلاءه فقيل له : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ ﴾ [ص : 42] فركض برجله فنبعت عين ، فاغتسل منها وشرب فذهب باطن دائه وعاد إليه شبابه وجماله ، وقام صحيحاً ، وضاعف الله له ما كان من أهل ومال وولده .

ثم إن امرأته قالت : إن طردني فإلى من أكِله ؟ فَرَجَعَتْ فلم تَرَهُ ، فجعلت تطوف وتبكي ، وأيوب يراها وتراه فلا تعرفه فلما سألته عنه وكلمته فعرفته ، ثم إن الله رحمها لصبرها معه على البلاء ، فأمره أن يضربها بضِغث ليبّر في يمينه ، قاله ابن عباس . وكانت امرأته ماخيرا بنت ميشا بن يوسف بن يعقوب .

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ .

قال ابن مسعود : رد الله إليه أهله الذين أهلكهم بأعيانهم ، وأعطاه مثلهم معهم . قال الفراء كان لأيوب سبع بنين وسبع بنات فماتوا في بلائه ، فلما كشف الله ضره رَدّ عليه بنيه وبناته وولد له بعد ذلك مثلهم ، قال الحسن : وكانوا ماتوا قبل آجالهم فأحياهم الله فوفاهم آجالهم ، وأن الله أبقاه حتى أعطاهم من نسلهم مثلهم .

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه لم يكن نبياً وكان عبداً صالحاً كُفِلَ لنبي قيل إنه اليسع بصيام النهار وقيام الليل ، وألا يغضب ، ويقضي بالحق ، فوفى به فأثنى الله عليه ، قاله أبو موسى ، ومجاهد ، وقتادة .

الثاني : أنه كان نبياً كفل بأمر فوفى به ، قاله الحسن .

وفي تسميته بذي الكفل ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه كان . . . .

الثاني : لأنه كفل بأمر فوفى به .

الثالث : لأن ثوابه ضعف ثواب غيره ممن كان في زمانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(34/514)

وقال ابن عطية :

(35/514)

وقوله : ﴿ وأيوب ﴾ أحسن ما فيه النصب بفعل مضمر تقديره واذكر أيوب ، وفي قصص أيوب عليه السلام طول واختلاف من المفسرين ، وتلخيص ذلك أنه روي أن أيوب عليه السلام ، كان نبياً مبعوثاً إلى قوم ، وكان كثير المال من الإِبل والبقر والغنم ، وكان صاحب البثنية من أرض الشام يغمر كذلك مدة ، ثم إن الله تعالى ، لما أراد محنته وابتلاءه ، أذن لإِبليس في أن يفسد ماله ، فاستعان بذريته فأحرقوا ماله ونعمه أجمع ، فكان كلما أخبر بشيء من ذلك حمد الله تعالى وقال هي عارية استردها صاحبها والمنعم بها ، فلما رأى إبليس ذلك جاء فأخبر بعجزه عنه ، وأذن الله له في إهلاكه بنيه وقرابته ففعل ذلك أجمع ،

فدام أيوب على شكره وصبره ، فأخبره إبليس بعجزه ، فأذن الله له في إصابته في بدنه وحجر عليه لسانه وعينيه وقبله ، فجاءه إبليس وهو ساجد ، فنفخ في أنفه نفخة احترق بدنه وجعلها الله تعالى أُكلة في بدنه ، فلما عظمت وتقطع أخرجه الناس من بينهم وجعلوه على سباطة ولم يبق معه بشر حاشى زوجته ، ويقال كانت بنت يوسف الصديق ، وقيل اسمها رحمة ، وقيل في أيوب إنه من بني إسرائيل ، وقيل من الروم من قرية عيصو ، فكانت زوجته تسعى عليه وتأتيه بأكل وتقوم عليه ، فدام في هذا العذاب مدة طويلة قيل ثلاثين سنة ، وقيل ثماني عشرة ، وقيل اثنتي عشرة ، وقيل تسعة أعوام ، وقيل ثلاثة ، وهو في كل ذلك صابر وشاكر ، حتى جاءه فيما روي ثلاثة ممن كان آمن به فوقذوه بالقول وأنبوه ونجهوه . وقالوا ما صنع بك ربك هذا إلا لخبث باطنه فيك ، فراجعهم أيوب في آخر قولهم بكلام مقتضاه أنه ذليل لا يقدر على إقامة حجة ولا بيان ظلامة ، فخاطبه الله تعالى معاتباً على هذه المقالة ومبيناً أنه لا حجة لأحد مع الله يُسأل عما يفعل ثم عرفه تعالى بأنه قد أذن في صلاح حاله وعاد عليه بفضله ، فدعا أيوب عن ذلك فاستجيب له ، ويروى أن أيوب لم يزل صابراً لا يدعو في كشف ما به ، وكان فيما روي تقع منه

(36/514)

الدود فيردها بيده ، حتى مر به قوم كانوا يعادونه فشمتوا به ، فتألم لذلك ودعا حينئذ فاستجيب له ، وكانت امرأته غائبة عنه في بعض شأنها فأنبع الله تعالى له عيناً وأمر بالشرب منها فبرئ باطنه ، وأمر بالاغتسال فبرئ ظاهره ، ورد إلى أفضل جماله ، وأتي بأحسن الثياب ، وهب عليه رجل من جراد من ذهب فجعل يحثي منها في ثوبه فناداه الله تعالى يا أيوب ألم أغنيتك عن هذا ، قال بلى يا رب ولكن لا غنى بي عن بركتك ، فبينما هو كذلك إذ جاءت امرأته فلم تره على السباطة فجزعت وظنت أنه أزيل عنها ، وجعلت تتوله فقال لها ما شأنك أيتها المرأة فهابته لحسن هيئته ، وقالت إني فقدت مريضاً كان لي في هذا الموضع ومعالم المكان قد تغيرت ، وتأملته في أثناء المقاولة ، فرأت أيوب ، فقالت له أنت أيوب ، فقال لها نعم واعتنقها وبكى فروي أنه لم يفارقها حتى أراه الله تعالى جميع ماله حاضراً بين يديه ، واختلف الناس في أهله وولده بأعيانهم وجعل مثلهم له عدة في الآخرة ، وقيل بل أتى جميع ذلك في الدنيا من أهل ومال وقوله تعالى : ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ أي وتذكرة وموعظة للمؤمنين ، ولا يعبد الله تعالى إلا مؤمن والذكرى إنما هي في محنته والرحمة في زوال ذلك ، وقوله ﴿ أني مسني الضر ﴾ تقديره " بأني مسني " فحذف الجار وبقيت ﴿ أني ﴾ في موضع نصب ، وروي أن سبب محنة أيوب أنه دخل مع قوم على ماك جار عليه فأغلظ له القوم ولين له أيوب القول خوفاً منه على ماله ، فعاقبه الله تعالى على ذلك ، وروي أنه كان يقال له ما لك لا تدعو في العافية فكان يقول إني لأستحيي من الله تعالى أن

أسأله زوال عذابه حتى يمر علي فيه ما مر من الرخاء ، وأصابه البلاء فيما روي وهو ابن ثمانين سنة .

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) ﴾

(37/514)

المعنى واذكر إسماعيل وهو إسماعيل بن إبراهيم الخليل وهو أبو العرب المعروفين اليوم في قول بعضهم ﴿ وإدريس ﴾ هو خنوخ هو أول نبي بعثه الله تعالى من بني آدم وروي أنه كان خياطاً وكان يسبح الله تعالى عند إدخال الإبرة ويحمده عند أخراجها و" ذو الكفل " كان نبياً .

وروي أنه بعث إلى رجل واحد قيل لم يكن نبياً ، ولكنه كان عبداً صالحاً ، وروي أن أليسع جمع بني إسرائيل فقال من يتكفل لي بصيام النهار وقيام الليل وأن لا يغضب وأوليه النظر للعباد بعدي ، فقام إليه شاب فقال أنا لك بذلك فراجعه ثلاثاً في كل ذلك يقول أنا لك بذلك فاستعمله ، فلما مات أليسع قام بالأمر فجاء إبليس ليغضبه وكان لا ينام إلا في القائلة فكان يأتيه وقت القائلة أياماً فيوقظه ويشتكي ظلامته ويقصد تضييق صدره فلم يضق به صدراً ومضى معه لينصفه فلما رأى إبليس ذلك غلس عنه وكفاه الله شره فسمي ﴿ ذا الكفل

﴿ لأنه تكفل بأمر فوفى به وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ

﴾

(38/514)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وأيُّوبَ إِذ نادى ربَّه ﴾ أي : دعا ربَّه ﴿ أَنِّي ﴾ وقرأ أبو عمران الجوني : "إِني" بكسر الهمزة ، ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ وقرأ حمزة : "مَسِّنِيْ" بتسكين الياء ، أي : أصابني الجَهْد ، ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ أي : أكثرهم رحمة ، وهذا تعريض منه بسؤال الرحمة إِذ أثنى عليه بأنه الأرحم وسكت .

الإِشارة إِلى قصته

ذكر أهل التفسير أن أيوب عليه السلام كان أغنى أهل زمانه ، وكان كثير الإِحسان .

(39/514)

فقال إبليس : يا رب سلّطني على ماله وولده وكان له ثلاثة عشر ولداً فإن فعلتَ رأيتَه كيف يُطيعني ويَعصيكَ ، فقيل له : قد سلَّطْتُكَ على ماله وولده ، فرجع إبليس فجمع شياطينه ومردته ، فبعث بعضهم إلى دوابّه ورعاته ، فاحتملوها حتى قذفوها في البحر ، وجاء إبليس في صورة قيّمه ، فقال : يا أيوب ألا أراك تصلّي وقد أقبلتْ ريح عاصف فاحتملت دوابَّك ورعاتها حتى قذفَتْها في البحر ؟ فلم يردَّ عليه شيئاً حتى فرغ من صلاته ، ثم قال الحمد لله الذي رزقني ثم قبله منّي ، فانصرف خائباً ، ثم أرسل بعض الشياطين إلى جنانه وزروعه ، فأحرقوها ، وجاء فأخبره ، فقال مثل ذلك ، فأرسل بعض الشياطين فزلزلوا منازل أيوب وفيها ولده وخدمه ، فأهلكوهم ، وجاء فأخبره ، فحمد الله ، وقال لإبليس وهو يظنه قيّمه في ماله : لو كان فيكَ خير لقبضكَ معهم ، فانصرف خائباً ، فقيل له : كيف رأيتَ عبدي أيوب ؟ قال : يا ربِّ سلّطني على جسده فسوف ترى ، قيل له : قد سلَّطْتُكَ على جسده ، فجاء فنفخ في إبهام قدميه ، فاشتعل فيه مثل النار ، ولم يكن في زمانه أكثر بكاءً منه خوفاً من الله تعالى ، فلما نزل به البلاء لم يبكِ مخافة الجزع ، وبقي لسانُه للذِّكر ، وقلبه للمعرفة والشُّكر ، وكان يرى أمعاءه وعروقه وعظامه ، وكان مرضه أنه خرج في جميع جسده ثآليل كأليات الغنم ، ووقعت به حكّة لا يملكها ، فحكَّ بأظفاره حتى سقطت ، ثم بالمسوح ، ثم بالحجارة ، فأنتن جسمه وتقطَّع ، وأخرجه أهل القرية فجعلوا له عريشاً على كُناسة ، ورفضه الخلق سوى زوجته ، واسمها رحمة بنت إفراييم بن

يوسف بن يعقوب ، فكانت تختلف إليه بما يصلحه ، وروى أبو بكر القرشي عن الليث بن سعد ، قال : كان ملك يظلم الناس ، فكلَّمه في ذلك جماعة من الأنبياء ، وسكت عنه أيوب لأجل خيل كانت له في سلطانه ، فأوحى الله إليه : تركتَ كلامَه من أجل خيلك ؟ ! لأطيلنَّ بلاءك .

(40/514)

واختلفوا في مدة لبثه في البلاء على أربعة أقوال .

أحدها : ثماني عشرة سنة ، رواه أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والثاني : سبع سنين ، قاله ابن عباس ، وكعب ، ويحيى بن أبي كثير .

والثالث : سبع سنين وأشهر ، قاله الحسن .

والرابع : ثلاث سنين ، قاله وهب .

وفي سبب سؤاله العافية ستة أقوال .

أحدها : [أنه] اشتهى إداماً ، فلم تُصبه امرأته حتى باعت قرناً من شعرها ، فلما علم ذلك ، قال : "مسَّني الضُّر" ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أن الله تعالى أنساه الدعاء مع كثرة ذكره الله ، فلما انتهى أجل البلاء ، يسّر له

الدعاء ، فاستجاب له ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أن نفراً من بني إسرائيل مرُّوا به ، فقال بعضهم لبعض : ما أصابه هذا إلا بذنْب عظيم ، فعند ذلك قال : "مسَّني الضُّر" ، قاله نوف البكالي .

وقال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان له أخوان ، فأتياه يوماً فوجدا ريحاً ، فقالا : لو كان الله علم منه خيراً ما بلغ به كلّ هذا ، فما سمع شيئاً أشدَّ عليه من ذلك ، فقال : اللهم إن كنتَ تعلم أنّي لم أبِت ليلةً شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدّقني ، فصُدّق وهما يسمعان ، ثم قال : اللهم إن كنتَ تعلم أنّي لم ألبس قميصاً وأنا أعلم مكان عارٍ فصدّقني ، فصُدّق وهما يسمعان ، فخرَّ ساجداً ، ثم قال : اللهم لا أرفع رأسي حتى تكشفَ ما بي ، فكشف الله عز وجل ما به .

والرابع : أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلة ، فقال : ليذبح أيوب هذه لي وقد برَأ ، فجاءت فأخبرته ، فقال : إن شفاني الله لأجلدنَّك مائة جلدة ، أمرتني أن أذبح لغير الله ؟ ! ثم طردها عنه ، فذهبتْ ، فلما رأى أنه لا طعام له ولا شراب ولا صديق ، خرَّ ساجداً وقال : "مسَّني الضُّر" ، قاله الحسن .

(41/514)

والخامس : أن الله تعالى أوحى إليه وهو في عنفوان شبابه : إني مبتليك ، قال : يا رب ، وأين يكون قلبي ؟ قال : عندي ، فصبَّ عليه من البلاء ما سمعتم ، حتى إذا بلغ البلاء منتهاه ، أوحى إليه أني معافيكَ ، قال : يا رب ، وأين يكون قلبي ؟ قال : عندك ، قال : "مسَّني الضُّر" ، قاله إبراهيم بن شيبان القرميسي فيما حدّثنا به عنه .

والسادس : أن الوحي انقطع عنه أربعين يوماً ، فخاف هجران ربّه ، فقال : "مسَّني الضُّر" ، ذكره الماوردي .

فإن قيل : أين الصبر ، وهذا لفظ الشكوى ؟

فالجواب : أن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر ، وإنما المذموم الشكوى إلى الخَلْق ، ألم تسمع قول يعقوب : ﴿ إنما أشكو بَثِّي وحُزْني إلى الله ﴾ [يوسف : 86] .

قال سفيان بن عيينة : وكذلك من شكا إلى الناس ، وهو في شكواه راضٍ بقضاء الله ، لم يكن ذلك جزعاً ، ألم تسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل في مرضه : " أجدني مغموماً " و" أجدني مكروباً " ، وقوله : " بل أنا وارأساه " .

قوله تعالى : ﴿ وآتيناه أهله ﴾ يعني : أولاده ﴿ ومِثْلَهُمْ معهم ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن الله تعالى أحيا له أهله بأعيانهم ، وآتاه مثلهم معهم في الدنيا ، قاله ابن مسعود ، والحسن ، وقتادة .

وروى أبو صالح عن ابن عباس : كانت امرأته ولدت له سبعة بنين وسبع بنات ، فنُشِروا له

؛ وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات .

والثاني : أنهم كانوا قد غُيِّبوا عنه ولم يموتوا ، فآتاه إِياهم في الدنيا ومثلهم معهم في الآخرة ، رواه هشام عن الحسن .

والثالث : آتاه الله أجور أهله في الآخرة ، وآتاه مثلهم في الدنيا ، قاله نوف ، ومجاهد .

والرابع : آتاه أهله ومثلهم معهم في الآخرة ، حكاه الزجاج .

(42/514)

قوله تعالى : ﴿ رحمةً مِنْ عندنا ﴾ أي : فعلنا ذلك به رحمةً مِنْ عندنا ، ﴿ وذِكرى ﴾ أي : عِظةً ﴿ للعابدين ﴾ قال محمد بن كعب : من أصابه بلاء فليذكر ما أصاب أيوب ، فليقل : إِنه قد أصاب من هو خيرٌ مني .

قوله تعالى : ﴿ وذا الكفل ﴾ اختلفوا هل كان نبيّاً ، أم لا ؟ على قولين .

أحدهما : أنه لم يكن نبيّاً ، ولكنه كان عبداً صالحاً ، قاله أبو موسى الأشعري ، ومجاهد .

ثم اختلف أرباب هذا القول في علَّة تسميته بذي الكفل على ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رجلاً كان يصلِّي كلَّ يوم مائة صلاة فتوفي ، فكفل بصلاته ، فسمِّي : ذا الكفل ، قاله أبو موسى الأشعري .

والثاني : أنه تكفل للنبيّ بقومه أن يكفيه أمرهم ويقيمه ويقضي بينهم بالعدل ، ففعل ، فسمِّي : ذا الكفل ، قاله مجاهد .

والثالث : أن مِلكاً قَتل في يوم ثلاثمائة نبيٍّ ، وفرَّ منه مائة نبيٍّ ، فكفلهم ذو الكفل ، يطعمهم ويسقيهم حتى أُفلتوا ، فسمِّي : ذا الكفل ، قاله ابن السائب .

والقول الثاني : أنه كان نبيّاً ، قاله الحسن ، وعطاء .

قال عطاء : أوحى الله تعالى [إلى] نبيّ من الأنبياء : إني أُريد قبض روحك ، فاعرض مُلكك على بني إسرائيل ، فمن تكفَّل لك بأنه يصلِّي الليل لا يفتر ، ويصوم النهار لا يفطر ، ويقضي بين الناس ولا يغضب ، فادفع مُلكك إليه ، ففعل ذلك ، فقام شابّ فقال : أنا أتكفَّل لك بهذا ، فتكفَّل به ، فوفى ، فشكر اللهُ له ذلك ، ونبَّأه ، وسمِّي : ذا الكفل .

(43/514)

وقد ذكر الثعلبي حديث ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكفل : " أنه كان رجلاً لا ينزع عن ذنب ، وأنه خلا بامرأة ليفجر بها ، فبكت ، وقالت : ما فعلتُ هذا قطّ ، فقام عنها تائباً ، ومات من ليلته ، فأصبح مكتوباً على بابه : قد غفر الله للكفل " ؛ والحديث معروف ، وقد ذكرتُه في "الحدائق" ، فجعله الثعلبي أحد الوجوه في بيان ذي

الكفل ، وهذا غلط ، لأن ذلك اسمه الكفل ، والمذكور في القرآن يقال له : ذو الكفل ، ولأن الكفل مات في ليلته التي تاب فيها ، فلم يمض عليه زمان طويل يعالج فيه الصبر عن الخطايا .

وإذا قلنا : إنه نبيّ ، فإن الأنبياء معصومون عن مثل هذا الحال .

وذكرت هذا لشيخنا أبي الفضل بن ناصر رحمه الله تعالى ، فوافقني ، وقال : ليس هذا بذاك .

قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ من الصابرين ﴾ أي : على طاعة الله وترك معصيته ، ﴿ وأدخلناهم في رحمتنا ﴾ في هذه الرحمة ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الجنة ، قاله ابن عباس .

والثاني : النبوَّة ، قاله مقاتل .

والثالث : النِّعمة والموالاة ، حكاه أبو سليمان الدمشقي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(44/514)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾

أي واذكر أيوب إذ نادى ربه .

﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر ﴾ أي نالني في بدني ضرّ وفي مالي وأهلي .

قال ابن عباس : سمي أيوب لأنه آب إلى الله تعالى في كل حال .

وروي أن أيوب عليه السلام كان رجلاً من الروم ذا مال عظيم ، وكان براً تقياً رحيماً بالمساكين ، يكفل الأيتام والأرامل ، ويكرم الضيف ، ويبلغ ابن السبيل ، شاكراً لأنعم الله تعالى ، وأنه دخل مع قومه على جبار عظيم فخاطبوه في أمر ، فجعل أيوب يلين له في القول من أجل زرع كان له فامتحنه الله بذهاب ماله وأهله ، وبالضر في جسمه حتى تناثر لحمه وتدوّد جسمه ، حتى أخرجه أهل قريته إلى خارج القرية ، وكانت امرأته تخدمه .

قال الحسن : مكث بذلك تسع سنين وستة أشهر .

فلما أراد الله أن يفرّج عنه قال الله تعالى له : ﴿ اركض بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : 42] فيه شفاؤك ، وقد وهبت لك أهلك ومالك وولدك ومثلهم معهم .

وسيأتي في "ص" ما للمفسرين في قصة أيوب من تسليط الشيطان عليه ، والرد عليهم إن شاء الله تعالى .

واختلف في قول أيوب : ﴿ مَسَّنِيَ الضر ﴾ على خمسة عشر قولاً : الأوّل : أنه وثب ليصلي فلم يقدر على النهوض فقال : ﴿ مَسَّنِيَ الضر ﴾ إخباراً عن حاله ، لا شكوى لبلائه ؛ رواه أنس مرفوعاً .

الثاني : أنه إقرار بالعجز فلم يكن منافياً للصبر .

الثالث : أنه سبحانه أجراه على لسانه ليكون حجة لأهل البلاء بعده في الإفصاح بما ينزل بهم .

الرابع : أنه أجراه على لسانه إلزاماً له في صفة الآدمي في الضعف عن تحمل البلاء .

الخامس : أنه انقطع الوحي عنه أربعين يوماً فخاف هجران ربه فقال : ﴿ مَسَّنِيَ الضر ﴾ .

وهذا قول جعفر بن محمد .

السادس : أن تلامذته الذين كانوا يكتبون عنه لما أفضت حاله إلى ما انتهت إليه محوا ما كتبوا عنه ، وقالوا : ما لهذا عند الله قدر ؛ فاشتكى الضر في ذهاب الوحي والدين من أيدي الناس .

(45/514)

وهذا مما لم يصح سنده .

والله أعلم ؛ قاله ابن العربي .

السابع : أن دودة سقطت من لحمه فأخذها وردها في موضعها فعقرته فصاح ﴿ مَسَّنِيَ

الضر ﴾ فقيل : أعلينا تصبر .

قال ابن العربي : وهذا بعيد جداً مع أنه يفتقر إلى نقل صحيح ، ولا سبيل إلى وجوده .

الثامن : أن الدود كان يتناول بدنه فصبر حتى تناولت دودة قلبه وأخرى لسانه ، فقال : "مسَّنِي الضُّرُّ" لاشتغاله عن ذكر الله .

قال ابن العربي : وما أحسن هذا لو كان له سند ولم تكن دعوى عريضة .

التاسع : أنه أبهم عليه جهة أخذ البلاء له هل هو تأديب ، أو تعذيب ، أو تخصيص ، أو تمحيص ، أو ذُخر أو طهر ، فقال : "مَسَّنِيَ الضُّرُّ" أي ضرّ الإشكال في جهة أخذ البلاء .

قال ابن العربي : وهذا غلوّ لا يحتاج إليه .

العاشر : أنه قيل له سل الله العافية فقال : أقمت في النعيم سبعين سنة وأقيم في البلاء سبع سنين وحينئذٍ أسأله فقال : "مَسَّنِيَ الضُّرُّ" .

قال ابن العربي : وهذا ممكن ولكنه لم يصح في إقامته مدّةٌ خبرٌ ولا في هذه القصة .

الحادي عشر : أن ضره قول إبليس لزوجه اسجدي لي فخاف ذهاب الإيمان عنها فتهلك ويبقى بغير كافل .

الثاني عشر : لما ظهر به البلاء قال قومه : قد أضر بنا كونه معنا وقذره فليخرج عنا ، فأخرجته امرأته إلى ظاهر البلد ؛ فكانوا إذا خرجوا رأوه وتطيروا به وتشاءموا برؤيته ، فقالوا : ليبعد بحيث لا نراه .

فخرج إلى بعدٍ من القرية ، فكانت امرأته تقوم عليه وتحمل قوته إليه .

فقالوا : إنها تتناوله وتخالطنا فيعود بسببه ضره إلينا .

فأرادوا قطعها عنه ؛ فقال : "مَسَّنِيَ الضُّرُّ" .

(46/514)

الثالث عشر : قال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان لأيوب أخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران أن يدنوا منه من نتن ريحه ، فقال أحدهما : لو علم الله في أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا البلاء ؛ فلم يسمع شيئاً أشد عليه من هذه الكلمة ؛ فعند ذلك قال : "مَسَّنِيَ الضُّرُّ" ثم قال : "اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت شبعان قط وأنا أعلم مكان جائع فصدقني" فنادى مناد من السماء "أن صدق عبدي" وهما يسمعان فخرّا ساجدين .

الرابع عشر : أن معنى "مَسَّنِي الضُّرُّ" من شماتة الأعداء ؛ ولهذا قيل له : ما كان أشد عليك في بلائك ؟ قال شماتة الأعداء .

قال ابن العربي : وهذا ممكن فإن الكليم قد سأله أخوه العافية من ذلك فقال : ﴿ إِنَّ القوم استضعفوني وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعداآء ﴾ [الأعراف : 150] .

الخامس عشر : أن امرأته كانت ذات ذوائب فعرفت حين منعت أن تتصرف لأحد بسببه

ما تعود به عليه ، فقطعت ذوائبها واشترت بها ممن يصلها قوتاً وجاءت به إليه ، وكان يستعين بذوائبها في تصرفه وتنقله ، فلما عدمها وأراد الحركة في تنقله لم يقدر قال : ﴿ مَسَّنِيَ الضر ﴾ .

وقيل : إنها لما اشترت القوت بذوائبها جاءه إبليس (لعنه الله) في صفة رجل وقال له : إن أهلك بغت فأخذت وحلق شعرها .

فحلف أيوب أن يجلدها ؛ فكانت المحنة على قلب المرأة أشد من المحنة على قلب أيوب .

قلت : وقول سادس عشر : ذكره ابن المبارك : أخبرنا يونس بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوماً أيوب النبي صلى الله عليه وسلم وما أصابه من البلاء ؛ الحديث .

(47/514)

وفيه أن بعض إخوانه ممن صابره ولازمه قال : يا نبي الله لقد أعجبني أمرك وذكرته إلى أخيك وصاحبك ، أنه قد ابتلاك بذهاب الأهل والمال وفي جسدك ، منذ ثمانية عشرة سنة حتى بلغتَ ما ترى ؛ ألا يرحمك فيكشف عنك ! لقد أذنبت ذنباً ما أظن أحداً بلغه ! فقال أيوب عليه السلام : "ما أدري ما يقولان غير أن ربي عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين

يتزاعمان وكل يحلف بالله أو على النفر يتزاعمون فأنقلب إلى أهلي فأكفر عن أيمانهم إرادة ألا يأثم أحد ذَكَره ولا يذكره أحد إلا بالحق" فنادى ربه ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ وإنما كان دعاؤه عَرْضاً عرضه على الله تبارك وتعالى يخبره بالذي بلغه، صابراً لما يكون من الله تبارك وتعالى فيه.

وذكر الحديث.

وقول سابع عشر: سمعته ولم أقف عليه أن دودة سقطت من جسده فطلبها ليردّها إلى موضعها فلم يجدها فقال: "مَسَّنِيَ الضُّرُّ" لما فقد من أجر ألم تلك الدودة، وكان أراد أن يبقى له الأجر موفراً إلى وقت العافية، وهذا حسن إلا أنه يحتاج إلى سند.

قال العلماء: ولم يكن قوله "مَسَّنِيَ الضُّرُّ" جزعا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ [ص: 44] بل كان ذلك دعاء منه، والجزع في الشكوى إلى الخلق لا إلى الله تعالى، والدعاء لا ينافي الرضا.

قال الثعلبي: سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول؛ حضرت مجلساً غاصاً بالفقهاء والأدباء في دار السلطان، فسئلت عن هذه الآية بعد إجماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال الله تعالى؛ ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ [ص: 44] فقلت: ليس هذا شكاية وإنما كان دعاء؛ بيانه ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ والإجابة تتعقب الدعاء لا الاشتكاء.

فاستحسنوه وارتضوه .

وسئل الجنيد عن هذه الآية فقال : عرّفه فاقة السؤال ليمنّ عليه بكرم النّوال .

(48/514)

قوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ﴾ قال مجاهد وعكرمة قيل لأيوب صلى الله عليه وسلم : قد آتيناك أهلك في الجنة فإن شئت تركناهم لك في الجنة وإن شئت آتيناكهم في الدنيا .

قال مجاهد : فتركهم الله عز وجل له في الجنة وأعطاه مثلهم في الدنيا .

قال النحاس : والإسناد عنهما بذلك صحيح .

قلت : وحكاه المهدوي عن ابن عباس .

وقال الضحاك : قال عبد الله بن مسعود كان أهل أيوب قد ماتوا إلا امرأته فأحياهم الله عز وجل في أقل من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم .

وعن ابن عباس أيضاً : كان بنوه قد ماتوا فأحيوا له وولد له مثلهم معهم .

وقاله قتادة وكعب الأحبار والكلبي وغيرهم .

قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفي نشروا له

، وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات .

قال الثعلبي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية .

قلت : لأنهم ماتوا ابتلاء قبل آجالهم حسب ما تقدم بيانه في سورة "البقرة" في قصة ﴿ الذين خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الموت ﴾ [البقرة : 243] .

وفي قصة السبعين الذين أخذتهم الصعقة فماتوا ثم أُحيوا ؛ وذلك أنهم ماتوا قبل آجالهم ، وكذلك هنا والله أعلم .

وعلى قول مجاهد وعكرمة يكون المعنى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ ﴾ في الآخرة ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ﴾ في الدنيا .

وفي الخبر : إن الله بعث إليه جبريل عليه السلام حين ركض برجله على الأرض ركضة فظهرت عين ماء حار ، وأخذ بيده ونفضه نفضة فتناثرت عنه الديدان ، وغَاص في الماء غوصة فنبت لحمه وعاد إلى منزله ، ورد الله عليه أهله ومثلهم معهم ، ونشأت سحابة على قدر قواعد داره فأمطرت ثلاثة أيام بلياليها جراداً من ذهب .

فقال له جبريل : أشبعت ؟ فقال : ومن يشبع من فضل الله ! فأوحى الله إليه : قد أثنيت عليك بالصبر قبل وقوعك في البلاء وبعده ، ولولا أني وضعت تحت كل شعرة منك صبراً ما صبرت .

﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أي فعلنا ذلك به رحمة من عندنا .

وقيل : ابتليناه ليعظم ثوابه غداً .

﴿ وذكرى لِلْعَابِدِينَ ﴾ أي وتذكيراً للعباد ؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه ومحنته له وهو أفضل أهل زمانه وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نحو ما فعل أيوب ، فيكون هذا تنبيهاً لهم على إدامة العبادة ، واحتمال الضرر .

واختلف في مدة إقامته في البلاء ؛ فقال ابن عباس : كانت مدّة البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال .

وهب : ثلاثين سنة .

الحسن : سبع سنين وستة أشهر .

قلت : وأصح من هذا والله أعلم ثماني عشرة سنة ؛ رواه ابن شهاب عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره ابن المبارك وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ ﴾

وهو أخنوخ وقد تقدّم ﴿ وَذَا الكفل ﴾ أي واذكرهم .

وخرج الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" وغيره من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كان في بني إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل لا يتورع من ذنب عمله فاتبع

امرأة فأعطاها ستين ديناراً (على أن يطأها) فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت فقال : ما يبكيك قالت من هذا العمل والله ما عملته قط قال : أأكرهتك قالت : لا ولكن حملني عليه الحاجة قال : اذهبي فهو لك والله لا أعصي الله بعدها أبداً ثم مات من ليلته فوجدوا مكتوباً على باب داره إن الله قد غفر لذي الكفل " وخرجه أبو عيسى الترمذي أيضاً .

(50/514)

ولفظه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يحدّث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عدّ سبع مرات (لم أحدّث به) ولكني سمعته أكثر من ذلك ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " كان ذو الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت فقال : ما يبكيك أأكرهتك قالت : لا ولكنه عمل ما عملته قط وما حملني عليه إلا الحاجة فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته اذهبي فهي لك وقال والله لا أعصي الله بعدها أبداً فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه إن الله قد غفر لذي الكفل " قال : حديث حسن .

وقيل إن اليسع لما كبر قال : لو استخلفت رجلاً على الناس حتى أنظر كيف يعمل .

فقال : من يتكفل لي بثلاث : بصيام النهار وقيام الليل وألا يغضب وهو يقضي ؟ فقال رجل من ذرية العيص : أنا ؛ فرده ثم قال مثلها من الغد ؛ فقال الرجل : أنا ؛ فاستخلفه فوفّى فأثنى الله عليه فسمي ذا الكفل ؛ لأنه تكفل بأمر ؛ قاله أبو موسى ومجاهد وقتادة .

وقال عمر بن عبد الرحمن بن الحارث وقال أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن ذا الكفل لم يكن نبياً ، ولكنه كان عبداً صالحاً فتكفل بعمل رجل صالح عند موته ، وكان يصلي لله كل يوم مائة صلاة فأحسن الله الثناء عليه " وقال كعب : كان في بني إسرائيل ملك كافر فمرّ ببلاده رجل صالح فقال : والله إن خرجت من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام .

(51/514)

فعرض عليه فقال : ما جزائي ؟ قال : الجنة ووصفها له قال : من يتكفل لي بذلك ؟ قال : أنا ؛ فأسلم الملك وتخلى عن المملكة وأقبل على طاعة ربه حتى مات ، فدفن فأصبحوا فوجدوا يده خارجة من القبر وفيها رقعة خضراء مكتوب فيها بنور أبيض : إن الله قد غفر لي وأدخلني الجنة ووفّى عن كفالة فلان ؛ فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم

الإيمان ، ويتكفل لهم بما تكفل به للملك ، ففعل ذلك فآمنوا كلهم فسمي ذا الكفل .

وقيل : كان رجلاً عفيفاً يتكفل بشأن كل إنسان وقع في بلاء أو تهمة أو مطالبة فينجيه الله على يديه .

وقيل : سمي ذا الكفل لأن الله تعالى تكفل له في سعيه وعمله بضعف عمل غيره من الأنبياء الذين كانوا في زمانه .

والجمهور على أنه ليس بنبي .

وقال الحسن : هو نبي قبل إلياس .

وقيل : هو زكريا بكفالة مريم .

﴿ كُلٌّ مِّنَ الصابرين ﴾ أي على أمر الله والقيام بطاعته واجتناب معاصيه .

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ أي في الجنة ﴿ إِنَّهُمْ مِّنَ الصالحين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(52/514)

وقال أبو حيان :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) ﴾

طوّل الأخباريون في قصة أيوب ، وكان أيوب رومياً من ولد إسحاق بن يعقوب ، استنبأه الله وبسط عليه الدنيا وكثر أهله وماله ، وكان له سبع بنين وسبع بنات ، وله أصناف البهائم وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ونخيل ، فابتلاه الله بذهاب ولده انهدم عليهم البيت فهلكوا وبذهاب ماله وبالمرض في بدنه ثمان عشرة سنة .

وقيل دون ذلك فقالت له امرأته يوماً لو دعوت الله فقال لها : كم كانت مدة الرخاء ؟ فقالت : ثمانين سنة ، فقال : أنا أستحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي ، فلما كشف الله عنه أحياء ولده ورزقه مثلهم ونوافل منهم .

وروي أن امرأته ولدت بعد ستة وعشرين ابناً وذكروا كيفية في ذهاب ماله وأهله وتسليط إبليس عليه في ذلك الله أعلم بصحتها .

وقرأ الجمهور ﴿ أني ﴾ بفتح الهمزة وعيسى بن عمر بكسرها إما على إضمار القول أي قائلاً ﴿ أني ﴾ وإما على إجراء ﴿ نادى ﴾ مجرى قال وكسر إني بعدها وهذا الثاني مذهب الكوفيين ، والأول مذهب البصريين و ﴿ الضُّر ﴾ بالفتح الضرر في كل شيء ، وبالضم الضرر في النفس من مرض وهزال فرق بين البناءين لافتراق المعنيين ، وقد ألطف أيوب في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب ولم يعين الضر الذي مسه .

واختلف المفسرون في ذلك على سبعة عشر قولاً أمثلها أنه نهض ليصلي فلم يقدر على

النهوض ، فقال ﴿ مسني الضر ﴾ إخباراً عن حالة لا شكوى لبلائه رواه أنس مرفوعاً ، والألف واللام في ﴿ الضر ﴾ للجنس تعم ﴿ الضر ﴾ في البدن والأهل والمال .

وإيتاء أهله ظاهره أن ما كان له من أهل رده عليه وأحياهم له بأعيانهم ، وآتاه مثل أهله مع أهله من الأولاد والأتباع ، وذكر أنه جعل له مثلهم عدة في الآخرة .

(53/514)

وانتصب ﴿ رحمة ﴾ على أنه مفعول من أجله أي لرحمتا إياه ﴿ وذكرى ﴾ منا بالإحسان لمن عندنا أو ﴿ رحمة ﴾ منا لأيوب ﴿ وذكرى ﴾ أي موعظة لغيره من العابدين ، ليصبروا كما صبر حتى يثابوا كما أثيب .

وقال أبو موسى الأشعري ومجاهد : كان ذو الكفل عبداً صالحاً ولم يكن نبياً .

وقال الأكثرون : هو نبي فقيل : هو إلياس .

وقيل : زكريا .

وقيل : يوشع ، والكفل النصيب والحظ أي ذو الحظ من الله المحدود على الحقيقة .

وقيل : كان له ضعف عمل الأنبياء في زمانه وضعف ثوابهم .

وقيل : في تسميته ذا الكفل أقوال مضطربة لا تصح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(54/514)

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ الكلام فيه كما مر في قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وسليمان ﴾ أي واذكر خبرَ أيوبَ ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّى ﴾ أي بأني ﴿ مَسَّنِىَ الضر ﴾ وقرىء بالكسر على إضمار القولِ أو تضمينِ النداء معناه ، والضرُّ شائع في كل ضررٍ وبالضم خاص بما في النفس من مرض وهُزال ونحوهما ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ وصفه تعالى بغاية الرحمةِ بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى به عن عرض المطلب لطفاً في السؤال ، وكان عليه السلام رومياً من ولد عيص بن إسحاقَ استنبأه الله تعالى وكثُر أهلُه وماله فابتلاه الله تعالى بهلاك أولادِه بهدم بيت عليهم وذهابِ أمواله والمرضِ في بدنه ثمانيَ عشرةَ سنة ، أو ثلاثَ عشرةَ سنة ، أو سبعاً وسبعةَ أشهر وسبعة أيام وسبعَ ساعات ، روي أن امرأتَه ماخيرَ بنتَ ميشا بنِ يوسفَ عليه السلام أو رحمةَ بنتَ أفرايمَ بنِ يوسف قالت له يوماً : لو دعوتَ الله تعالى ، فقال : كم كانت مدةُ الرخاء ؟ فقالت : ثمانين سنة ، فقال : أستحيي من الله تعالى أن

أدعوَه وما بلغتْ مدةُ بلائي مدةَ رخائي ، وروي أن إبليسَ أتاها على هيئة عظيمة فقال : أنا إله الأرضِ فعلتُ بزوجك ما فعلت لأنه تركني وعبدَ إله السماء ، فلو سجد لي سجدةً لرددتُ عليه وعليك جميعَ ما أخذتُ منكما ، وفي رواية : لو سجدتِ لي سجدةً لرَجعتُ المالَ والولد وعافيتُ زوجَك ، فرجعت إلى أيوبَ وكان ملْقًى في الكُناسة لا يقرُب منه أحدٌ فأخبرته بالقصة فقال عليه السلام : كأنك افتُتِنْتِ بقول اللعين لئن عافاني الله عز وجل لأضرِبنّك مائة سَوْط وحرامٌ عليّ أن أذوق بعد هذا شيئاً من طعامك وشرابك ، فطردها فبقيَ طريحاً في الكُناسة لا يحوم حوله أحدٌ من الناس فعند ذلك خر ساجداً فقال : ربّ إني مسّنيَ الضرُّ وأنت أرحمُ الراحمين ، فقيل له : ارفعْ رأسك فقد استُجيب لك ، اركُضْ برجلك فركض فنبعتْ من تحته عينُ ماء فاغتسل منها فلم يبقَ في ظاهر بدنه دابةٌ إلا سقطتْ ولا

(55/514)

جراحةٌ إلا برِئت ، ثم ركض مرة أخرى فنبعت عينٌ أخرى فشرب منها فلم يبقَ في جوفه داءٌ إلا خرج وعاد صحيحاً ورجع إليه شبابُه وجمالُه ثم كُسِيَ حلة وذلك قوله تعالى : ﴿ فاستجبنا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئاً مما كان له من

الأهل والمالِ إلا وقد ضاعفه الله تعالى وذلك قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ وقيل : كان ذلك بأن وُلد له ضِعفُ ما كان ، ثم إن امرأته قالت في نفسها : هبْ أنه طردني أفأتركه حتى يموتَ جوعاً وتأكله السباع لأرجعنّ إليه ، فلما رجعت ما رأت تلك الكُناسة ولا تلك الحال وقد تغيرت الأمورُ فجعلت تطوفُ حيث كانت الكُناسة وتبكي وهابت صاحبَ الحُلة أن تأتيَه وتسألَ عنه ، فأرسل إليها أيوبُ ودعاها فقال : ما تريدين يا أمةَ الله ؟ فبكت وقالت : أريد ذلك المبتلى الذي كان ملقًى على الكناسة ، قال لها : ما كان منك ؟ فبكت وقالت : بعْلي ، قال : أتعرفينه إذا رأيته ؟ قالت : وهل يخفى عليّ ؟ فتبسم فقال : أنا ذلك فعرفته بضحكه فاعتنقتْه ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وذكرى للعابدين ﴾ أي آتيناه ما ذُكر لرحمتنا أيوبَ وتذكرةً لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيُثابوا كما أثيب ، أو لرحمتنا العابدين الذين من جملتهم أيوبُ وذكْرِنا إياهم بالإحسان وعدمِ نسياننا لهم .

﴿ وإسماعيل وَإِدْرِيسَ وَذَا الكفل ﴾ أي واذكرهم ، وذو الكِفل إلياسُ ، وقيل : يوشعُ بنُ نون ، وقيل : زكريا سُمّي به لأنه كان ذا حظ من الله تعالى أو تكفُّلٍ منه ، أو ضعفِ عمل أنبياءِ زمانه وثوابِه فإن الكفلَ يجيء بمعنى النصيب والكفالة والضِعْف ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد من هؤلاء ﴿ مّنَ الصابرين ﴾ أي على مشاقّ التكاليف وشدائدِ النُّوَب ، والجملةُ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال نشأ من الأمر بذكرهم .

﴿ وأدخلناهم فِى رَحْمَتِنَا ﴾ أي في النبوة أو في نعمة الآخرة ﴿ إِنَّهُمْ مِّنَ الصالحين ﴾ أي الكاملين في الصلاح الكاملِ الذي لا يحوم حوله شائبةُ الفساد وهم الأنبياءُ ، فإن صلاحَهم معصومٌ من كَدَر الفساد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(57/514)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ الكرم فيه كما مر في قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وسليمان ﴾ [الأنبياء : 78] ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّى ﴾ أي بأني ﴿ الإنسان الضر ﴾ وقرأ عيسى بن عمر بكسر الهمزة على إضمار القول عند البصريين أي قائلاً إني ، ومذهب الكوفيين إجراء نادى مجرى قال ، والضر بالفتح شائع في كل ضرر وبالضم خاص بما في النفس من مرض وهزال ونحوهما ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ أي وأنت أعظم رحمة من كل من يتصف بالرحمة في الجملة وإلا فلا راحم في الحقيقة سواه جل شأنه وعلاه ، ولا يخفى ما في وصفه تعالى بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها مكتفياً بذلك عن عرض الطلب من استمطار سحائب الرحمة على ألطف وجهه .

ويحكى في التلطف في الطلب أن امرأة شكت إلى بعض ولد سعد بن عبادة قلة الفار في بيتها فقال : املؤا بيتها خبزاً وسمناً ولحماً ، وهو عليه السلام على ما قال ابن جرير : ابن اموص بن رزاح بن عيص بن إسحاق ، وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام وأن أباه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام فعلى هذا كان قبل موسى عليه السلام ، وقال ابن جرير : كان بعد شعيب عليه السلام ، وقال ابن أبي خيثمة ، كان بعد سليمان عليه السلام .

وأخرج ابن سعد عن الكلبي قال : أول نبي بعث إدريس ثم نوح ثم إبراهيم ثم إسمعيل .

وإسحق ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هود ثم صالح ثم شعيب ثم موسى .

وهرون ثم الياس ثم اليسع ثم يونس ثم أيوب عليهم السلام ، وقال ابن إسحاق : الصحيح أنه كان من بني إسرائيل ولم يصح في نسبه شيء إلا أن اسم أبيه أموص .

(58/514)

وكان عليه السلام على ما أخرج الحاكم من طريق سمرة عن كعب طويلاً جعد الشعر واسع العينين حسن الخلق قصير العنق عريض الصدر غليظ الساقين والساعدين وكان قد اصطفاه الله تعالى وبسط عليه الدنيا وكثر أهله وماله فكان له سبعة بنين وسبع بنات وله

أصناف البهائم وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد فابتلاه الله تعالى بذهاب ولده بهدم بيت عليهم وبذهاب أمواله وبالمرض في بدنه ثماني عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو سبعاً وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات أو ثلاث سنين ، وعمره إذ ذاك سبعون سنة ، وقيل ثمانون سنة ، وقيل أكثر ، ومدة عمره على ما روى الطبراني ثلاث وتسعون سنة وقيل أكثر .

روى أن امرأته وكونها ماضر بنت ميشا بن يوسف عليه السلام أو رحمة بنت افراثيم بن يوسف إنما يتسنى على بعض الروايات السابقة في زمانه عليه السلام قالت له يوماً : لو دعوت الله تعالى فقال : كم كانت مدة الرخاء فذكرت مدة كثيرة وفي بعض الروايات ثمانين سنة فقال عليه السلام : أتسحي من الله تعالى أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي .

وروى أن إبليس عليه اللعنة أتاها على هيئة عظيمة فقال لها : أنا إله الأرض فعلت بزوجك ما فعلت لأنه تركني وعبد إله السماء فلو سجد لي سجدة رددت عليه وعليك جميع ما أخذت منكما .

(59/514)

وفي رواية لو سجدت لي سجدة لرددت المال والولد وعافيت زوجك فرجعت إلى أيوب عليه السلام وكان ملقى في الكناسة ببيت المقدس لا يقرب منه أحد فأخبرته بالقصة فقال عليه السلام : لعلك افتتنت بقول اللعين لئن عافاني الله عز وجل لأضربنك مائة سوط وحرام على أن أذوق بعد هذا من طعامك وشرابك شيئاً فطردها فبقى طريحاً في الكناسة لا يحوم حوله أحد من الناس فعند ذلك خر ساجداً فقال ﴿ رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ وأخرج ابن عساكر عن الحسن أنه عليه السلام قال ذلك حين مر به رجلان فقال أحدهما لصاحبه : لو كان لله تعالى في هذا حاجة ما بلغ به هذا كله فسمع عليه السلام فشق عليه فقال ﴿ رَبِّ ﴾ الخ ، وروى أنس مرفوعاً أنه عليه السلام نهض مرة ليصلي فلم يقدر على النهوض فقال : ﴿ رَبِّ ﴾ الخ وقيل غير ذلك ولعل هذا الأخير أمثال الأقوال ، وكان عليه السلام بلاؤه في بدنه في غاية الشدة ، فقد أخرج ابن جرير عن وهب بن منبه قال ، كان يخرج في بنده مثل ثدي النساء ثم يتفقأ ، وأخرج أحمد في الزهد عن الحسن أنه قال : ما كان بقى من أيوب عليه السلام إلا عيناه وقلبه ولسانه فكانت الدواب تختلف في جسده ، وأخرج أبو نعيم .

وابن عساكر عنه أن الدودة لتقع من جسد أيوب عليه السلام فيعيدها إلى مكانها ويقول : كلي من رزق الله تعالى ، وما أصاب منه إبليس في مرضه كما أخرج البيهقي في الشعب إلا

الأنين ، وسبب ابتلائه على ما أخرج ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنه استعان به مسكين على درء ظلم عنه فلم يعنه .

(60/514)

وأخرج ابن عساكر عن أبي إدريس الخولاني في ذلك أن الشام أجدب فكتب فرعون إليه عليه السلام أن هلم إلينا فإن لك عندنا سعة فأقبل بما عنده فأقطعه أرضاً فاتفق أن دخل شعيب على فرعون وأيوب عليه السلام عنده فقال : أما تخاف أن يغضب الله تعالى غضبة فيغضب لغضبه أهل السموات والأرض والجبال والبحار فسكت أيوب فلما خرجا من عنده أوحى الله تعالى إلى أيوب أو سكت عن فرعون لذهابك إلى أرضه استعد للبلاء قال : فديني قاله سبحانه : أسلمه لك قال : لا أبالي ، والله تعالى أعلم بصحة هذه الأخبار ، ثم إنه عليه السلام لما سجد فقال ذلك قيل له : ارفع رأسك فقد استجيب لك اركض برجلك فركض فنبعت من تحته عين ماء فاغتسل منها فلم يبق في ظاهر بدنه دابة إلا سقطت ولا جراحة إلى برئت ثم ركض مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلا خرج وعاد صحيحاً ورجع إليه شبابه وجماله وذلك

﴿ فاستجبنا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾

ثم كسى حلة وجلس على مكان مشرف ولم تعلم امرأته بذلك فأدركتها الرقة عليه فقالت في نفسها : هب إنه طردني أفأتركه حتى يموت جوعاً وتأكله السباع لأرجعن فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال فجعلت تطوف حيث الكناسة وتبكي وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأله فدعاها أيوب عليه السلام فقال : ما تريدين يا أمة الله ؟ فبكت وقالت : أريد ذلك المبتلي الذي كان ملقى على الكناسة قال لها : ما كان منك ؟ فبكت وقالت : بعلي قال : أتعرفينه إذا رأيتيه ؟ قالت : وهل يخفى علي فتبسم فقال : أنا ذرك فعرفته بضحكة فأعتنقته ﴿ وءاتيناه أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ﴾ الظاهر أنه عطف على ﴿ كَشَفْنَا ﴾ فيلزم أن يكون داخلاً معه في حيز تفصيل استجابة الدعاء ، وفيه خفاء لعدم ظهور كون الإتيان المذكور مدعواً به وإذا عطف على ﴿ استجبنا ﴾ لا يلزم ذلك ، وقد سئل عليه الصلاة والسلام عن هذه الآية ، أخرج ابن مردويه .

(61/514)

وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : " سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿ والكتاب وَءاتَيْنَاهُ ﴾ الخ قال : رد الله تعالى امرأته إليه وزاد في شبابها حتى ولدت له ستاً وعشرين ذكراً " فالمعنى على هذا

آتيناه في الدنيا مثل أهله عدداً مع زيادة مثل آخر ، وقال ابن مسعود .

والحسن .

وقتادة في الآية : إن الله تعالى أحيى له أولاده الذين هلكوا في بلائه وأوتي مثلهم في الدنيا ، والظاهر أن المثل من صلبه عليه السلام أيضاً ، وقيل : كانوا نوافل ؛ وجاء في خبر أنه عليه السلام كان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين فأفرغت إحداهما في أندر القمح الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض ، وأخرج أحمد ، والبخاري .

وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينما أيوب عليه السلام يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب عليه السلام يحثي في ثوبه فناداه ربه سبحانه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى قال : بلى وعزتك لكن لا غنى بي عن بركتك " وعاش عليه السلام بعد الخلاص من البلاء على ما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما سبعين سنة ، ويظهر من هذا مع القول بأن عمره حين أصابه البلاء سبعون أن مدة عمره فوق ثلاثين وتسعين بكثير ، ولما مات عليه السلام أوصى إلى ابنه حرمل كما روى عن وهب ، والآية ظاهرة في أن الأهل ليس المرأة ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وذكرى للعابدين ﴾ أي وآتيناه ما ذكر لرحمتنا أيوب عليه السلام وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب ، فرحمة نصب على أنه مفعول له و ﴿ للعابدين ﴾ متعلق بذكري ، وجوز أن

يكون ﴿ رَحْمَةً وذكرى ﴾ تنازعاً فيه على معنى وآتيناه العابدين الذين من جملتهم أيوب عليه السلام وذكرنا إياهم بالإحسان وعدم نسياننا لهم .

وجوز أبو البقاء نصب ﴿ رَحْمَةً ﴾ على المصدر وهو كما ترى .

(62/514)

﴿ وإسماعيل وَإِدْرِيسَ وَذَا الكفل ﴾

أي واذكرهم ؛ وظاهر نظم ذي الكفل في سلك الأنبياء عليهم السلام أنه منهم وهو الذي ذهب إليه الأكثر ، واختلف في اسمه فقيل بشر وو ابن أيوب عليه السلام بعثه الله تعالى نبياً بعد أبيه وسماه ذا الكفل وأمره سبحانه بالدعاء إلى توحيده ، وكان مقيماً بالشام عمره ومات وهو ابن خمس وسبعين سنة وأوصى إلى ابنه عبدان وأخرج ذلك الحاكم عن وهب ، وقيل : هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هرون أخي موسى بن عمران عليهم السلام ، وصنيع بعضهم يشعر باختياره ، وقيل يوشف بن نون ، وقيل : اسمه ذو الكفل ، وقيل هو زكريا حكى كل ذلك الكرماني في العجائب ، وقيل هو اليسع بن أخطوب بن العجوز ، وزعمت اليهود أنه حزقيال وجاءته النبوة وهو في وسط سبي بختنصر على نهر خوبار .

وقال أبو موسى الأشعري .

ومجاهد : لم يكن نبياً وكان عبداً صالحاً استخحلفه على ما أخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن مجاهد اليسع عليه السلام بشرط أن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب ففعل ولم يذكر مجاهد ما اسمه .

(63/514)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال : كان قاضياً في بني إسرائيل فحضره الموت فقال : من قوم مقامي على أن لا يغضب ؟ فقال رجل : أنا يسمى ذا الكفل الخبر ، وأخرج عن ابن حجيرة الأكبر كان ملك من ملوك بني إسرائيل فحضرته الوفاة فأتاه رؤس بني إسرائيل فقالوا : استخلف علينا ملكاً نفزع إليه فقال : من تكفل لي بثلاث فأوليه ملكي ؟ فلم يتكلم إلا فتى من القوم قال : أنا فقال : اجلس ثم قالها ثانية فلم يتكلم أحد إلا الفتى فقال : تكفل لي بثلاث وأليك ملكي تقوم الليل فلا ترقد وتصوم فلا تفطر وتحكم فلا تغضب قال : نعم قال : قد وليتك ملكي الخبر ، وفيه وكذا في الخبر السابق قصة إرادة إبليس عليه اللعنة إغضابه وحفظ الله تعالى إياه منه ، والكفل الكفالة والحظ والضعف ، وإطلاق ذلك عليه إن لم يكن اسمه إما لأنه تكفل بأمر فوفى به ، وإما لأنه كان له ذا حظ من الله تعالى ،

وقيل لأنه كان له ضعف عمل الأنبياء عليهم السلام في زمانه وضعف ثوابهم .

ومن قال إنه زكريا عليه السلام قال : إن إطلاق ذلك عليه لكفالته مريم وهو داخل في الوجه الأول ، وفي "البحر" وقيل : في تسميته ذا الكفر أقوال مضطربة لا تصح والله تعالى أعلم .

﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد من هؤلاء ﴿ مّنَ الصابرين ﴾ أي على مشاق التكاليف وشدائد النوب ويعلم هذا من ذكر هؤلاء بعد أيوب عليهم السلام ، والجملة استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من الأمر بذكرهم .

﴿ وأدخلناهم فِى رَحْمَتِنَا ﴾

الكلام فيه على طرز ما سبق من نظيره آنفاً .

﴿ إِنَّهُمْ مّنَ الصالحين ﴾ أي الكاملين في الصلاح لعصمتهم من الذنوب .

والجملة في موضع التعليل وليس فيه تعليل الشيء بنفسه من غير حاجة إلى جعل من ابتدائية كما يظهر بأدنى نظر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(64/514)

وقال القاسمى :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ

مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ .

أي : أذكر أيوب وما أصابه من البلاء ودعاءه ربه في كشف ما نزل به ، واستجابته تعالى دعاءه وما امتن به عليه في رفع البلاء . وما ضاعف له بعد صبره من النعماء ، لتعلم أن النصر مع الصبر ، وأن عاقبة العسر اليسر . وأن لك الأسوة بمثل هذا النبيّ الصبور ، فيما ينزل أحياناً بك من ضرّ . وأن البلاء لم ينج منه الأنبياء . بل هم أشد الناس ابتلاءً . كما في الحديث < أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل > .

(65/514)

وإن من أسباب الفرج دعاءه تعالى والابتهال إليه والتضرع له ، وذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . وإن البلاء لا يدل على الهوان والشقاء . فإن السعادة والشقاء في هذا العالم لا يترتبان على صالح الأعمال وسيئها . لأن الدنيا ليست دار جزاء . وإن عاقبة الصدق في الصبر ، هي توفية الأجر ومضاعفة البر . وقد روي أن أيوب عليه السلام ، لما امتحن بما فقد أرزاقه وهلك به جميع آل بيته ، وبما لبث يعاني من قروح جسده آلاماً ، وصبر وشكر ، رحمه مولاه فعادت له صحة بدنه وأوتي أضعاف ما فقده . ورزق عدة أولاد ، وعاش عمراً طويلاً أبصر أولاده إلى الجيل الرابع . ولذا قال تعالى : ﴿ وَذِكْرَى

لِلْعَابِدِينَ ﴾ أي : تذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر ، حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة . وبالجملة فالسر هو تثبيت قلوب المؤمنين وحملهم على الصبر في المجاهدة في سبيل الحق . وقد روى المفسرون ههنا في بلاء أيوب روايات مختلفات ، بأسانيد واهيات ، لا يقام لها عند أئمة الأثر وزن . ولا تُعَارُ من الثقة أدنى نظر . نعم يوجد في التوراة سفر لأيوب فيه من شرح ضره ، بفقد كل مقتنياته ومواشيه وآل بيته ، وبنزول مرض شديد به ، عدم معه الراحة ولذة الحياة ، غرائب . إلا أنها مما لا يوثق بها جميعها . لما داخلها من المزيج ، وتوسع بها في الدخيل ، حتى اختلط الحابل بالنابل . وإن كان يؤخذ من مجموعها بلاء فادح وضر مدهش . ولو علم الله خيراً في أكثر مما أجمله في تنزيله الحكيم ، لتفضل علينا بتفصيله . ولذا يوقف عند إجماله فيما أجمل ، وتفصيله فيما فصّل .

تنبيه :

(66/514)

قال بعضهم : أكثر المحققين على أن أيوب كان بعد زمن إبراهيم عليهما السلام . وأنه كان غنيّاً من أرباب العقار والماشية . وكان أميراً في قومه . وأن أملاكه ومنزله في أرض خصيبة رائعة التربة كثيرة المتسلسلة في الجنوب الشرقي من البحر الميت . ومن جبل

سُعَيْر بين بلاد أدوم وصحراء العربية . والله أعلم .

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

أي : على القيام بأمر الله ، وعلى شدائد النوب ، وعلى احتمال الأذى في نصرة دينه تعالى ، ففيهم أعظم أسوة : ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ أي : في النبوة أو في نعمة الآخرة : ﴿ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي : الكاملين في الصلاح .

قال ابن كثير : أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام . وقد تقدم ذكره في سورة مريم . وكذا إدريس عليه السلام . وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبيّ .

وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحاً ، وكان ملكاً عادلاً وحكماً مقسطاً ، وتوقف ابن جرير في ذلك ، فالله أعلم .

وذهب بعض المحققين إلى أن ذا الكفل هو حزقيل عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 223. 225 ﴾

(67/514)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) ﴾

الظاهر أن قوله ﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ منصوب باذكر مقدراً ، ويدل على ذلك قوله تعالى في " ص " ﴿ واذكر عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص : 41] .

وقد أمر جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين نبيه صلى الله عليه وسلم : أن يذكر أيوب حين نادى ربه قائلاً : ﴿ نِّي مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ وأن ربه استجاب له فكشف عنه جميع ما به من الضر ، وأنه آتاه أهله ، وآتاه مثلهم معهم رحمة منه جل وعلا به ، وتذكيراً للعابدين أي الذين يعبدون الله لأنهم هم المنتفعون بالذكرى .

وهذا المعنى الذي ذكره هنا ذكره أيضاً في سورة " ص " في قوله : ﴿ واذكر عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص : 41] إلى قوله ﴿ لأُوْلِي الألباب ﴾ [ص : 43] والضر الذي مس أيوب ، ونادى ربه ليكشفه عنه كان بلاء أصابه في بدنه وأهله وماله . ولما أراد الله إذهاب الضر عنه أمره أن يركض برجله ففعل ، فنبعت له عين ماء فاغتسل منها فزال كل ما بظاهر بدنه من الضر ، وشرب منها فزال كل ما بباطنه . كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله : ﴿ اركض بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : 42] .

وما ذكره في " الأنبياء " : من أنه آتاه أهله ومثلهم رحمة منه وذكرى لمن يعبده بينه في " ص " في قوله : ﴿ اركض بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : 43] ، وقوله في " الأنبياء " ، ﴿ وذكرى لِلْعَابِدِينَ ﴾ مع قوله في " ص " ، ﴿ وذكرى لأُوْلِي الألباب ﴾ فيه الدلالة الواضحة على أن أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال ، هم الذين يعبدون الله وحده ويطيعونه . وهذا يؤيد قول من قال من أهل العلم ، إن من أوصى بشيء من ماله لأعقل الناس أن تلك الوصية تصرف لأتقى الناس وأشدهم طاعة لله تعال . لأنهم هم أولو الألباب . أي العقول الصحيحة السالمة من الاختلال .

تنبيه

في هذه الآيات المذكورة سؤال معروف ، وهو أن يقال : إن قول أيوب المذكور في " الأنبياء " في قوله ، ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر ﴾ [الأنبياء : 83] وفي " ص " في قوله ، ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص : 41] يدل على أنه ضجر من المرض فشكا منه . مع أن قوله تعالى عنه ، ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ [ص : 44] يدل على كمال صبره ؟

والجواب أن ما صدر من أيوب دعاء وإظهار فقر وحاجة إلى ربه ، لا شكوى ولا جزع .

قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة ، ولم يكن قوله ﴿ مَسَّنِيَ الضر ﴾ [الأنبياء : 83] جزعاً . لأن الله تعالى ، قال : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ [ص : 44] بل كان ذلك دعاء منه . والجزع في الشكوى إلى الخلق لا إلى الله تعالى ، والدعاء لا ينافي الرضا .

(69/514)

قال الثعلبي : سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول : حضرت مجلساً غاصاً بالفقهاء والأدباء في دار السلطان . فسئلت عن هذه الآية الكريمة بعد اجتماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ [ص : 44] فقلت : ليس هذا شكاية ، وإنما كان دعاء . بيانه ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ [الأنبياء : 84] والإجابة تعقب الدعاء لا الاشتكاء . فاستحسنوه وارتضوه . وسئل الجنيد عن هذه الآية الكريمة فقال : عرفة فاقة السؤال ليمن عليه بكرم النوال انتهى منه .

ودعاء أيوب المذكور ذكره الله في سورة " الأنبياء " من غير أن يسند مس الضر أيوب إلى الشيطان في قوله : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ ﴾ [الأنبياء : 83] وذكره في سورة

" ص " وأسند ذلك للشيطان في قوله : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص : 41] والنصب على جميع القراءات معناه : التعب والمشقة ، والعذاب : الألم . وفي نسبة ما أصابه من المشقة والألم إلى الشيطان في آية " ص " هذه إشكال قوي معروف . لأن الله ذكر في آيات من كتابه : أن الشيطان ليس له سلطان على مثل أيوب من الأنبياء الكرام . كقوله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ على الذين آمَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل : 99- 100] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ [سبأ : 21] الآية ، وقوله تعالى عنه مقرراً له : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي ﴾ [إبراهيم : 22] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ [الحجر : 42] .

وللعلماء عن هذا الإشكال أجوبة . منها ما ذكره الزمخشري قال :

(70/514)

فإن قلت : لم نسبه إلى الشيطان ، ولا يجوز أن يسلطه على أنبيائه ليقضي من إتعابهم وتعذيبهم وطره ، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه ، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب ؟

قلت : لما كانت وسوسته إليه ، وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما مسه الله به من النصب والعذاب نسبه إليه ، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو . وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ، ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو ب التوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل .

وروي أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين . فارتد أحدهم فسأل عنه ، فقيل : ألقى إليه الشيطان أن الله لا يبتلي الأنبياء الصالحين . وذكر في سبب بلائه : أن رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغثه . وقيل : كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه . وقيل . أعجب بكثرة ماله انتهى منه .

ومنه ما ذكره جماعة من المفسرين : أن الله سلط الشيطان على ماله وأهله ابتلاء لأيوب . فأهلك الشيطان ماله وولده ، ثم سلطه على بدنه ابتلاء له فنفخ في جسده نفخة اشتعل منها ، فصار في جسده ثآليل ، فحكها بأظافره حتى دميت ، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه ، وعصم الله قلبه ولسانه .

(وغالب ذلك من الإسرائيليات) وتسليطه للابتلاء على جسده ، وماله وأهله ممكن ، وهو أقرب من تسليطه عليه بحمله على أن يفعل ما لا ينبغي . كمداهنة الملك المذكور ، وعدم إغاثة الملهوف ، إلى غير ذلك من الأشياء التي يذكرها المفسرون . وقد ذكروا ها

قصة طويلة تتضمن البلاء الذي وقع فيه ، وقدر مدته (وكل ذلك من الاسرائيليات) وقد ذكرنا هنا قليلاً .

(71/514)

وغاية ما دل عليه القرآن : أن الله ابتلى نبيه أيوب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وأنه ناداه فاستجاب له وكشف عنه كل ضر ، ووهبه أهله ومثلهم معهم ، وأن أيوب نسب ذلك في " ص " إلى الشيطان . ويمكن أن يكون سلطه الله على جسده وماله وأهله . ابتلاء ليظهر صبره الجميل ، وتكون له العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة ، ويرجع له كل ما أصيب فيه ، والعلم عند الله تعالى وهذا لا ينافي أن الشيطان لا سلطان له على مثل أيوب ، لأن التسليط على الأهل والمال والجسد من جنس الأسباب التي تنشأ عنها الأعراض البشرية كالمرض ، وذلك يقع للأنبياء ، فإنهم يصيبهم المرض ، وموت الأهل ، وهلاك المال لأسباب متنوعة . ولا مانع من أن يكون جملة تلك الأسباب تسليط الشيطان على ذلك للابتلاء وقد أوضحنا جواز وقوع الأمراض والتأثيرات البشرية على الأنبياء في سورة " طه " وقول الله لنبيه أيوب في سورة " ص " : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فاضرب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ [ص : 44] الآية ، قال المفسرون فيه : إنه حلف في مرضه ليضربن زوجه مائة سوط ، فأمره الله أن

يأخذ ضغثاً فيضربها به ليخرج من يمينه ، والضغث : الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو نحو ذلك . والمعنى : أنه يأخذ حزمة فيها مائة عود فيضربها بها ضربة واحدة ، فيخرج بذلك من يمينه . وقد قدمنا في سورة " الكهف " الاستدلال بآية ﴿ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ على أن الاستثناء المتأخر لا يفيد . إذ لفو كان يفيد لقال الله لأيوب قل إن شاء الله . ليكون ذلك استثناء في يمينك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(72/514)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) ﴾

التفسير :

[أولياء اللّه وما يبتلون به] قوله تعالى :

« وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

(73/514)

هو معطوف على قوله تعالى : « وَدَاوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ » وهو عطف قصة على قصة . أي واذكر أيوب إذ نادى ربّه » .

وذكر أيوب فى هذا المقام ، هو ذكر له دلالته العظيمة ، وذلك من وجوه :

أولا : أن أنبياء اللّه وأصفياءه يبتلون بالضرّ ، كما يبتلى الناس ، بل وكما يبتلى شرار الناس . . وأنه كما يبتلى الناس بالخير والشرّ ، كذلك يبتلى الأنبياء بالخير والشر . .

فأنبياء اللّه وأصفياؤه ، يبتلون من اللّه فيزدادون إيمانا وقربا منه ، وطمعا فى رحمته . .

وأعداء اللّه يبتلون فيزدادون بعدا من اللّه ، وكفرا به ، ومحادّة له .

وثانيا : أن أنبياء اللّه وأصفياءه ، إذا ابتلوا فى شىء من أنفسهم أو أموالهم ضروا إلى اللّه ، وبسطوا إليه أكفهم وولّوا إليه وجوههم ، وطرقوا أبواب رحمته بالدعاء والرجاء . . فباتوا على أمن من كل خوف ، وعلى طمع ورجاء من كل خير . .

وثالثا : أن اللّه سبحانه وتعالى ، يتقبل من عباده المخلصين ما يدعونه به ، فلا يقطع أمداد رحمته عنهم ، ولا يخيّب رجاءهم فيه .

وانظر إلى هذا الأدب النبوي العظمى ، فى مناجاة الخالق جلّ وعلا . .

فأيوب - عليه السلام - مع هذا البلاء العظيم ، الذي شمله فى نفسه وأهله وماله جميعا ، لم يستبدّ به الجزع ، ولم تستول عليه الحيرة ، ولم تحرقه أنفاس الضيق والألم . . بل ظلّ مجتمع النفس ، ساكن الفؤاد ، رطب اللسان بذكر اللّه . .

فلما اشتد به الكرب ، ورهقه البلاء ، وأراد أن يذكر نفسه ، ويشكو لربّه ما يجد ، لم يزد على أن يقول بلسان رطب بالصبر ، وبأنفاس ندّية بالإيمان :

« أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » وكان أن سمع اللّه دعاءه ، واستجاب له . .

« فَاسْتَجَبْنا لَهُ . . فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ . . رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ » .

(74/514)

وهكذا يجزى اللّه المحسنين الصابرين . . كما يقول سبحانه : « إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ » . . لقد كشف اللّه عن أيوب الضر الذي أصابه فى جسده ، ورزقه من البنين والأموال ضعف الذي ذهب منه . .

وقوله تعالى : « رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا » أي أن ذلك العطاء كان رحمة منّا ، أصبنا بها عبدا من عبادنا المخلصين .

وقوله تعالى : « وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ » معطوف على « رحمة » أي وكان ذلك الذي فعلناه بعبدنا « أَيُّوبَ » تذكرة وموعظة « لِلْعابِدِينَ » أي الذين يعبدون اللّه ، ويحسنون عبادته ، ويصطبرون عليها . .

فالعابدون بما لهم من صلة باللّه ، ربّما يقع فى نفوسهم أنهم بمنجاة من الابتلاء بالشر ، إذ لا يكاد يقع فى تصوّر الناس أن من وثّق طلته باللّه ، وتقرب بالعبادات والطاعات إليه ، هو فى مأمن مما يقع للناس من ضرّ وأذى ، فى نفسه أو ولده أو ماله . . وإلّا فما ثمرة هذه الصلة ، وما فضل الطائعين على العاصين ، والأولياء على الأعداء ؟

هذا ما جاء قوله تعالى : « وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ » لينبه إليه ، وليصحّح مشاعر العابدين خاصة ، بهذا الذي كان منه سبحانه لعبده أيّوب - عليه السلام - وما ابتلاه به ، فى نفسه ، وأهله ، وماله ، بما لم يكد يبتلى به أحد من عباد اللّه . . !

وقد كان أيوب - عليه السلام - من خير العابدين المقربين إلى اللّه ، حين مسّه الضرّ ، كما كان من خير الصابرين على البلاء ، الطامعين فى رحمة اللّه ، المطمئنين إلى قضائه فى عباده ، الواثقين بحكمته وبعدله . . بعد أن لبسه الضرّ وعاش فيه .

(75/514)

وإذن فليس المؤمنون ، العابدون ، الساجدون ، بمعزل عن الابتلاء بالضرّ والأذى ، بل إنهم أكثر الناس تعرضا للبلوى ، وذلك ليبتلى اللّه ما فى صدورهم ، وليمحص ما فى قلوبهم . . واللّه سبحانه وتعالى يقول للمؤمنين : « لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً » (186 : آل عمران) ويقول سبحانه : « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ » (2 : العنكبوت) .

فأولياء اللّه وأحباؤه هم أكثر عباد اللّه تعرضا للابتلاء ، إذ كان ذلك هو الدواء المرّ ، الذي تذهب الجرعة ، منه بكثير من أمراض النفوس وعللها ، وهو النار المحرقة ، التي تنصهر فى حرارتها معادن الرجال ، فتصفّى من الخبث وتنقّى من الغثاء والزّبد ! وبهذا تظهر عظمة الإنسان ، وتصفو موارده ، ويصبح - على ما يبدو عليه من ضعف ، وفقر - أقوى الأقوياء ، وأغنى الأغنياء ، ينظر إلى الدنيا ، وحطامها ، وما يتفاخر به الناس فيها من مال ، وجاه ، وسلطان - نظرته إلى أطفال يتلهون بلعبهم ، ويزهون بالجديد من ثيابهم ! ثم لعلك تسأل : أما كان غير هذا البلاء ، أولى بهم ، وهم أحباب اللّه وخلصاؤه ؟ أو ما كان الإحسان إليهم بالخير أليق من التوجه إليهم بالمساءة

والضرّ ؟ وإذا لم يكن الإحسان . . فهلا كانت العافية من البلاء ؟ وإذا كان هذا الابتلاء مرادا لغاية هى تطهير النفوس ، وتزكيتها ، وتخليصها من الآفات والعلل . . فهلا كان ذلك بالإحسان والإنعام . . وقدرة اللّه لا يعجزها شىء ، ولا يحدّها حدّ ، ولا يقيدها قيد ؟

والجواب عن هذا كله :

أولا : أن اللّه سبحانه وتعالى كما ابتلى بالخير ، ابتلى بالشر ، كما يقول سبحانه وتعالى : « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » (35 : الأنبياء) . . وقد ابتلى اللّه ـ سبحانه ـ سليمان عليه السلام بالكثير الغدق من النعم ، فسخّر له الريح والجنّ ، وعلّمه لغة الحيوان والطير ، وجعلها جنودا من جنده ، ووضع بين يديه من القوى الظاهرة والخفية ، ما جعل له ملكا وسلطانا لم يكن لأحد من بعده كما يقول اللّه سبحانه وتعالى : « قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » (35 : ص) وقد أجاب اللّه سبحانه وتعالى ما طلب ، فقال سبحانه : « فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ »

(36 ـ 39 : ص) حتى إن سليمان نفسه ليستكثر هذا الإحسان الذي لا يكاد يتسع له وجوده ، فيقول : « يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » (16 : النمل) وحتى إنه ليجد نفسه عاجزا عن الوفاء بشكر القليل من هذا الفضل العظيم ، فيقول : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ » (19 : النمل) .

فالابتلاء بالإحسان والخير ، عند من يعرف قدر الإحسان ، وفضل المحسن وجلاله وعظمته ـ لا يقلّ مئونة وعبئا ، عن الابتلاء بالمساءة والضر . . إنه ابتلاء !

(77/514)

وقد ابتلى اللّه سبحانه بعض أوليائه بالضر والمساءة ، فكان ذلك ـ في حقيقته ـ إحسانا إليهم ، إذ سلك بهم مسالك الخير والإحسان ، وزادهم من اللّه قربا ومن رضاه رضى وزلفى . .

وانظر كم لقى رسول اللّه محمد صلى اللّه عليه وسلم ـ وهو صفوة خلق اللّه وخاتم رسله ـ كم لقى على مسيرة دعوته ، وفي سبيل رسالته ، من أذى ؟ وكم احتمل من مساءة وضرّ ؟

أفرأيت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، حين خرج إلى ثقيف ، يرجو عندهم من استجابة للّه ورسوله ، ما أبته عليه قريش ، حتى إذا التقى بسادة ثقيف ، وعرض عليهم الإيمان باللّه ، ردّوه أشنع رد ، ثم أغروا به سفهاءهم ، فرجموه حتى أدموه . . ثم أ رأيت إلى رسول اللّه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ وقد أخذ طريقه إلى خارج ثقيف ، وهو يحمل هذا الهمّ الثقيل ، حتى إذا بلغ إلى حيث انقطع عنه صوت الكلاب البشرية التي كانت

تنبحه ، أسند ظهره إلى ظل شجرة هناك ، ومولاه زيد يضمد جراحه . . ثم ما كادت نفسه تهدأ ، وأنفاسه تنتظم ، حتى رفع رأسه إلى السماء ، وناجى ربه ، بتلك الكلمات الضارعة المشرقة ، التي تنبض حياة بمشاعر الإيمان ، وأنفاس التسليم والرضا . .

استمع إليها . .

« إلهى . . أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ! « يا أرحم الراحمين . . أنت رب المستضعفين وأنت ربى .

« إلى من تكلنى ؟ . . إلى بعيد يتجهمنى ؟ أو قريب ملّكته أمرى ؟

« إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى .

« غير أن عافيتك هى أوسع لى !

« أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ـ أن يحلّ علىّ غضبك ، أو ينزل بي سخطك .

« لك العتبى حتى ترضى . .

« ولا حول ولا قوة إلا بك . . »

(78/514)

إنها مناجاة ، يتنفس فيها النبي أنفاس العافية ، ويطعم منها طعم الرضا ، ولهذا طالت تلك المناجاة ، ومشت كلماتها الهوينا على شفتى رسول اللّه ، كأنها تحمل أثقالا من الهموم التي ألمت به ، وتنطلق بها فى قافلة طويلة ممتدة بين الأرض والسماء ! ! ثم انظر إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم أحد ، وقد أحاط به المشركون ، وتعاورته سهامهم ورماحهم ، وكادت تصل إليه سيوفهم ، وقد شجّ صلوات اللّه وسلامه عليه ، وكسرت ثنيتاه ، واستشهد كثير من أصحابه ، وأحبابه ، ومن بينهم عمه ، أسد اللّه ، حمزة بن عبد المطلب . ومع هذا ، فما قال النبي فى هذا المقام ، إلا القولة التي لا يقولها إنسان غيره فى هذه الدنيا . .

قال ـ صلوات اللّه وسلامه عليه : « اللهم اهد قومى ، فإنهم لا يعلمون » ! ! وكما ابتلى اللّه سبحانه ، أولياءه بالبأساء والضراء ، ابتلى أعداءه بالنعماء والسراء ، فكان ذلك بلاء عليهم ، ونقمة من نقم اللّه بهم . . لقد زادتهم تلك النعم بعدا عن اللّه ، وعمى عن الحق ، وضلالا عن الهدى .

والقرآن الكريم يذكر لنا قارون ، كمثل من أمثلة الابتلاء بالنعم ، عند من لا يقدر على الوفاء بها ، ولا يقدرها قدرها ، فكان أن عجل اللّه له الهلاك فى الدنيا ، ثم أعدّ له عذاب السعير فى الآخرة . . وكذلك فرعون ، الذي بسط له فى السلطان ، وأمدّه بموفور النعم ، فما زاده ذلك إلا كفرا باللّه ، ومحادة له . .

فمات تلك الميتة الشنعاء ، وكان مثلا وعبرة لأولى الأبصار . .

أما فى الآخرة ، فهو إمام من أئمة الضلال ، وقائد من القواد إلى عذاب الجحيم . . « يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ » (98 : هود) .

(79/514)

وثانيا : لا شك أنه سبحانه وتعالى قادر على أن يعفى أولياءه من البلاء وأن يجعل ابتلاءهم بالسراء لا بالضراء ، وأن يجعلهم طبيعة قائمة على الحمد والشكر ، وفطرة مفطورة على الاحتمال والصبر .

ولكن هذا وإن كان مما يفعله اللّه ببعض عباده وأحبابه ، كما كان ذلك لسليمان . فإن هناك درجة فوق تلك الدرجة ، وهى درجة الابتلاء بالضراء ، حيث يجد الإنسان نفسه وكأنه فى صراع ضار مع الحياة وخطوبها ، وحيث يرى نفسه وكأنه جبل راسخ شامخ تتحطم على صخوره الصلدة ، الأمواج الصاخبة ، وتتكسر تحت أقدامه القوّية ، العواصف العاتية . . وحيث يرى آخر الأمر وقد انتهى هذا الصراع ، وانجلى غبار المعركة ، وإذا به وبين يديه راية النصر ، وعلى جبينه تاج الفوز والظفر ! لقد كسب المعركة بهذا الجهد الذاتي ، وبهذا الثمن الغالي الذي قدمه من ذات نفسه ، عرقا متصببا وأرقا متصلا ،

وعملا دائبا . .

وهذا ما يجعل للنصر هذا الطعم الحلو ، الذي لا يعرف مذاقه إلا من ابتلى وصبر ، وجاهد وبذل ، وحرم نفسه النوم فى ظل الراحة والرفاهة ، وبات ليله ساهرا ، ونهاره عاملا . .

وإنه لفرق كبير بين من يجد بين يديه طعاما طيبا حاضرا عتيدا ، لم يبذل فيه جهدا ، ولم يتكلّف له عملا ، وبين من فرغت يده من كل شىء ، فيجدّ ويعمل فى غير وناء أو فتور ، وهو على ما به من حرمان ومسغبة ، حتى إذا اجتمع له من سعيه ما يهيء به لنفسه طعاما ، كانت عنده كل لقمة من هذا الطعام ، أشهى وأطيب من تلك المائدة الحافلة بطيب الطعام والمثل لهذا ، ما نجد فى حياة الوارث الذي يعيش على ما ورث ، وبين العامل الذي يعيش من عرقه وكدحه وجهده . . ! فحياة الوارث حياة رتيبة مملة ثقيلة ، ذات لون واحد ، لا يتبدل ، بينما حياة العامل خصبة مليئة بالحياة والحركة ، وتغاير الطعوم والألوان .

(80/514)

ونجد هذا فى الأنبياء - صلوات اللّه وسلامه عليهم - فأصحاب الرسالات الكبرى منهم ، هم الذين ابتلوا بالبأساء والضراء . . وعلى قدر ابتلائهم كانت منزلتهم عند ربهم .

إبراهيم عليه السلام ، ابتلى بإلقائه فى النار . . وبالأمر بذبح ولده إسماعيل بيده ، فكان

خليل الرحمن وأبا الأنبياء . .

وموسى عليه السلام ، ابتلى من أول حياته ، بإلقائه فى اليم رضيعا ، ثم بقتله المصرىّ ، وطلب فرعون له ، وفراره إلى مدين . . ثم بلقاء فرعون ، ومواجهته بالدعوة إلى الإيمان بالله . . ثم كان ابتلاؤه الأكبر فى حياته بين بنى إسرائيل ، وفى خلافهم عليه ، وشرودهم منه . . فكان كليم الله .

وعيسى - عليه السلام - نشأ فى حجر الابتلاء . . . تنعقد حوله ، وحول أمه التهم والظنون ، حتى إذا ظهر فى اليهود ، كان بينه وبينهم هذا الصراع الطويل المرير ، حتى لفّقوا له التهم ، وقدموه للحاكم الرومانى ، وطلبوا إليه أن يحكم عليه بالصلب ، حسب شريعتهم ، ولم يسترح لهم بال حتى حكم لهم بصلبه ، وحتى شبّه لهم أنهم صلبوه . . وكان كلمة الله .

ومحمد - صلوات الله وسلامه عليه - قد لقى من قومه ألوان المساءة فى كل لحظة من لحظات تلك السنوات الثلاث عشرة التي قضاها فى مكة قبل الهجرة . . فلما هاجر كانت حياته قسما مشاعا بين الدعوة إلى الله ، والجهاد فى سبيل الله . . يقوم ليله ، ويصوم نهاره . . وما شبع من طعام قط ، ولا نام إلا على حشية من ليف . . وهو الذي كان يستطيع - لو أراد - أن يأكل فى صحاف من ذهب ، وأن ينام على فراش من حرير . . فكان خاتم الأنبياء وصفوة الخلق . .

وهكذا نجد الابتلاء بالضراء أرجح كفة من الابتلاء بالسراء ، فى ميزان الصياغة لمعادن الرجال ، وصبّهم فى قوالب الكمال والإحسان . . ولهذا كان أولو العزم من الرسل ، هم الذين ابتلوا وامتحنوا أشق امتحان ، وأثقل ابتلاء . .

(81/514)

وثالثا : الابتلاء بالشرّ ليس ضربة لازب لأولياء اللّه وأحبابه وأصفيائه ، ولكنه الشأن الغالب عليهم ، لأن ذلك أشكل بطبيعتهم ، وأقرب إلى نفوسهم ، لأنهم كلما ازدادوا من اللّه قربا انكشف لهم أمر الدنيا ، ومتاعها الغرور ، فنظروا إليها نظرة استخفاف واستصغار ، لكل ما فيها ومن فيها ، ثم إذا هم رأوا تكالب الناس وتزاحمهم على مواردها ، زادهم ذلك إحقارا لها ، وبعدا عنها .

فهذا الذي نرى فيه أولياء اللّه وأصفياءه ، من فاقة ، وضرّ ، وحرمان ، ونعدّه بلاء أو ابتلاء ، هو - فى الواقع - مطلب لتلك النفوس العظيمة ، ورغبة محببة لهذه القمم العالية من عباد اللّه . .

إنهم يزهدون فيما تطلبه النفوس ، راضين . . وإنهم ليجدون فى الحرمان ، من الغبطة والرضا ، ما لا يجده الواجدون من متع الحياة ومسراتها . .

وهكذا تطلب كل نفس غذاءها الذي يهنئوها ، ويطيب لها . . وشتان بين الكلاب والأسود . . حيث تتقاتل الكلاب على الجيف ، على حين تموت الأسود جوعا ولا تدنو منها . .

رابعا ـ يبتلى المحسنون والصالحون من عباد اللّه بما يبتلون به ، وهم على وعد من اللّه سبحانه وتعالى ، بأن وراء الضيق فرجا ، وبأن مع العسر يسرا . .

وأنهم إن صبروا اليوم على الضرّ والأذى ، فإنهم لعلى موعد بلقاء غد ينجلى فيه الكرب ، وتنقشع غمامات الضر . . « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » (155 ـ 157 : البقرة) . .

(82/514)

وكما قيل ، من أن الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ، فكذلك كل نعمة من نعم اللّه ، لا يذوق حلاوة طعمها ، ولا يعرف جلال قدرها إلا من حرمها ، وطال حرمانه وافتقاده لها ، فإذا لقيها بعد هذا ، عرف كيف فضل اللّه عليه ، وكيف إحسانه إليه ، ومن ثم يعرف كيف يؤدّى للّه بعض ما يجب له ، من حمد وشكران . .

قوله تعالى :

« وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ » . .

جاء ذكر إسماعيل ، بعد ذكر أيوب ، لأن كلا منهما قد ابتلى ابتلاء عظيما من اللّه ، وكلّا منهما كان من الصابرين على ما ابتلى به .

فأيوب ، قد كان فى عافية ، وفى نعمة ظاهرة ، ثم ابتلاء اللّه فى نفسه وماله وولده جميعا . . فصبر راضيا بحكم اللّه فيه ، مطمئنا إلى مواقع الرحمة منه . .

وإسماعيل . . قد رأى أبوه فى المنام أنه يذبحه بأمر من ربه ، فلما أخبره بأمر اللّه ، وطلب إليه رأيه ، لم يتردد فى الجواب ، وقال : « يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ »

. .

وقدّم أيوب على إسماعيل ، مع أنه فرع من إبراهيم ، وإسماعيل أصل . .

لأن أيوب طالت محنته ، وطال انتظاره فى موقف البلاء سنين ، وهو صابر ومصابر ، ولم يضجر ، ولم يتكثر من الأنين والشكوى . أما إسماعيل فقد كان ابتلاؤه لساعة من الزمن ، ثم انجلى الكرب وزالت المحنة . . ومن جهة أخرى ، فإن إسماعيل كان - فى مواجهة هذا الابتلاء ما يزال غلاما ، لم يقع فى نفسه ، وقوعا واضحا كاملا أثر هذا الفعل الذي هو مساق إليه . . ولهذا كانت البلوى ، أو كان الجانب الأكبر منها واقعا على أبيه إبراهيم ، ومن أجل هذا كان حسابها مضافا إلى إبراهيم ، وإن كان لإسماعيل حسابه ، وهو حساب وإن قلّ - بالإضافة إلى أبيه - هو شىء عظيم رائع ، ترجح به موازينه فى الصابرين من عباد اللّه . . وذلك على حين كان أيوب فى دور الرجولة ، وفى حال لبس فيها الشباب ، والصحة ، وذاق حلاوة الغنى ، وعرف طعمها ، فكان انتزاع هذا كله منه ، أشدّ وقعا وأمرّ طعما مما لو وقع عليه ابتداء .

هذا وقد ذكر مع إسماعيل « إدريس » و « ذو الكفل » .

أما إدريس فهو ممن ذكرهم اللّه من أنبيائه ، كما يقول سبحانه : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا : » (56 : مريم) . . ولم يذكر القرآن عن إدريس أكثر من أنه كان نبيا وكان من الصابرين . . فلم يكن له فى القرآن قصة كقصة ، صالح ، وهود ، وإبراهيم ، ولوط ، وموسى ، وغيرهم من رسل اللّه . .

وأما « ذو الكفل » فلم يذكر إلا فى هذا الموضع ، وقد اجتمع مع النبيين الكريمين :

إسماعيل وإدريس ، وشاركهما فى صفة الصبر . . كما يقول سبحانه « كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ » . .

وقد ذهب معظم المفسرين مذاهب شتى فى « ذى الكفل » وكان أضعف الآراء عندهم فيه ، أنه نبى ، من أنبياء اللّه . .

(84/514)

والرأى عندنا واللّه أعلم - أنه نبىّ ، وأن أبرز صفة فى حياته كانت صفة الصبر . . أما رسالته ، وأما قومه ، فشأنه فى هذا شأن إدريس ، الذي لم يذكر له القرآن رسالة ولا قوما . . كما أننا نرجح أنه زكريا - عليه السلام - لأنه هو الذي كفل مريم ، كما يقول اللّه تعالى : « وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا » وتسأل : ما حكمة ذكر إدريس وذى الكفل ، هذا الذكر الذي لا يحوى إلا اسميهما دون أن تلحق بما قصة تستملى منها العبرة والعظة ؟

والجواب على هذا - واللّه أعلم - أن ذكرهما فى القرآن الكريم لم يكن مساقا للعبرة والعظة ، ففيما حدث به القرآن من قصص الأنبياء أكثر من عبرة وعظة . . وإنما كان ذكرهما تكريما لهما ، وحفظا لاسميهما الكريمين على الزمن ، ونظمهما فى عباد اللّه المصطفين من أنبيائه ورسله . .

وفى هذا تحقيق لأمرين :

أولهما : ما يجده الأحياء الذين يشهدون هذا الحديث ، من إحسان اللّه سبحانه وتعالى إلى المحسنين من عباده ، بعد أن يتركوا هذه الدنيا ، وذلك برفع ذكرهم ، وتخليد آثارهم ، وفى هذا ما يغرى بالإحسان ، وبتمجيد المحسنين . .

وثانيهما : ألا يحرم هذان النبيان نصيبهما من دعاء المؤمنين على امتداد الأزمان ، حيث يصلّى المصلون على أنبياء اللّه ، وحيث يذكرهم الذاكرون واحدا واحدا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 9 صـ 933.944 ﴾

(85/514)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) ﴾

عطف على ﴿ وداوود وسليمان ﴾ [الأنبياء : 78] أي وآتينا أيوب حكماً وعلماً إذ نادى ربه .

وتخصيصه بالذكر مع من ذكر من الأشياء لما اختصّ به من الصبر حتى كان مثلاً فيه .

وتقدمت ترجمة أيوب في سورة الأنعام .

وأما القصة التي أشارت إليها هذه الآية فهي المفصلة في السفر الخاص بأيوب من أسفار النبيئين الإسرائلية .

وحاصلها أنه كان نبيئاً وذا ثروة واسعة وعائلة صالحة متواصلة ، ثم ابتلي بإصابات لحقت أمواله متتابعة فأتت عليها ، وفقد أبناءه السبعة وبناته الثلاثَ في يوم واحد ، فتلقى ذلك بالصبر والتسليم .

ثم ابتلي بإصابة قروح في جسده وتلقى ذلك كله بصبر وحكمة وهو يبْتهل إلى الله بالتمجيد والدعاء بكشف الضر .

وتلقى رثاءَ أصحابه لحاله بكلام عزيز الحكمة والمعرفة بالله ، وأوحى الله إليه بمواعظ .

ثم أعاد عليه صحته وأخلفه مالاً أكثر من ماله وولدت له زوجه أولاداً وبناتٍ بعدد من هَلكوا له من قبلُ .

وقد ذكرت قصته بأبْسط من هنا في سورة ص ، ولأهل القصص فيها مبالغات لا تليق بمقام النبوءة .

و(إذْ) ظرف قيّد به إيتاءُ أيوب رباطة القلب وحكمة الصبر لأن ذلك الوقت كان أجلى مظاهر علمه وحكمته كما أشارت إليه القصة .

وتقدم نظيره آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ ونوحاً إذ نادى من قبل ﴾ [الأنبياء : 76] فصار أيوب مضرب المثل في الصبر .

وقوله ﴿ أَنِّي مسنِي الضرُ ﴾ بفتح الهمزة على تقدير باء الجر ، أي نادى ربه بأني مسني الضر .

والمسّ : الإصابة الخفيفة .

والتعبير به حكاية لما سلكه أيوب في دعائه من الأدب مع الله إذ جعل ما حلّ به من الضر كالمس الخفيف .

والضرّ بضمّ الضاد ما يتضرر به المرء في جسده من مرض أو هزال ، أو في ماله من نقص ونحوه .

(86/514)

وفي قوله تعالى : ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ التعريض بطلب كشف الضرّ عنه بدون سؤال فجعل وصفَ نفسه بما يقتضي الرحمة له ، ووصفَ ربه بالأرحمية تعريضاً بسؤاله ، كما قال أمية بن أبي الصلت:

إذا أثنى عليك المرء يوماً . . .

كفاه عن تعرضه الثناء

وكونُ الله تعالى أرحم الراحمين لأن رحمته أكمل الرحمات لأن كل من رحِم غيرَه فإما أن

يرحمه طلباً للثناء في الدنيا أو للثواب في الآخرة أو دفعاً للرقة العارضة للنفس من مشاهدة من تحق الرحمة له فلم يخل من قصد نفع لنفسه ، وإما رحمته تعالى عباده فهي خلية عن استجلاب فائدة لذاته العلية .

ولكون ثناء أيوب تعريضاً بالدعاء فرع عليه قوله تعالى : ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾ .

والسين والتاء للمبالغة في الإجابة ، أي استجبنا دعوته العُرْضية بإثر كلامه وكشفنا ما به من ضرّ ، إشارة إلى سرعة كشف الضرّ عنه ، والتعقيب في كل شيء بحَسَبه ، وهو ما تقتضيه العادة في البُرء وحصولِ الرزق وولادة الأولاد .

والكشف : مستعمل في الإزالة السريعة .

شبهت إزالة الأمراض والأضرار المتمكنة التي يعتاد أنها لا تزول إلا بطول بإزالة الغطاء عن الشيء في السرعة .

والموصول في قوله تعالى : ﴿ ما به من ضر ﴾ مقصود منه الإبهام .

ثم تفسيره بـ (مِن) البيانية لقصد تهويل ذلك الضرّ لكثرة أنواعه بحيث يطول عدّها .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ [النحل : 53] إشارة إلى تكثيرها .

ألا ترى إلى مقابلته ضدها بقوله تعالى : ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ [النحل : 53] ، لإفادة أنهم يهرعون إلى الله في أقل ضرّ وينسون شكره على عظيم النعم ، أي

كشفنا ما حلّ به من ضرّ في جسده وماله فأعيدت صحته وثروته .

والإيتاء : الإعطاء ، أي أعطيناه أهله ، وأهل الرجل أهل بيته وقرابته .

(87/514)

وفهم من تعريف الأهل بالإضافة أن الإيتاء إرجاع ما سلب منه من أهل ، يعني بموت أولاده وبناته ، وهو على تقدير مضاف بيّن من السياق ، أي مثل أهله بأن رُزق أولاداً بعدد ما فَقَد ، وزاده مثلهم فيكون قد رزق أربعة عشر ابناً وست بنات من زوجه التي كانت بلغت سنّ العقم .

وانتصب ﴿ رحمةً ﴾ على المفعول لأجله .

ووصفت الرحمة بأنها من عند الله تنويهاً بشأنها بذكر العندية الدالة على القرب المراد به التفضيل .

والمراد رحمة بأيوب إذ قال ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ .

والذكرى : التذكير بما هو مظنة أن ينسى أو يغفل عنه .

وهو معطوف ﴿ على رحمة ﴾ فهو مفعول لأجله ، أي وتنبيهاً للعابدين بأن الله لا يترك عنايته بهم .

وبما في ﴿ العابدين ﴾ من العموم صارت الجملة تذييلاً .

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ﴾

عطف على ﴿ وأيوبَ ﴾ [الأنبياء : 83] أي وآتينا إسماعيل وإدريس وذا الكفل حُكماً وعلماً .

وجُمع هؤلاء الثلاثة في سلك واحد لاشتراكهم في خصيصية الصبر كما أشار إليه قوله تعالى ﴿ كل من الصابرين ﴾ .

جرى ذلك لمناسبة ذكر المثل الأشهر في الصبر وهو أيوب .

فأما صبر إسماعيل عليه السلام فقد تقرّر بصبره على الرضى بالذبح حين قال له إبراهيم : ﴿ إني أرى في المنام أني أذبحك ﴾ فقال : ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ [الصافات : 102] ، وتقرر بسكناه بواد غيرِ ذي زرع امتثالاً لأمر أبيه المتلقَى من الله تعالى ، وتقدمت ترجمة إسماعيل في سورة البقرة .

وأما إدريس فهو اسم (أُخْنُوخ) على أرجح الأقوال .

وقد ذكر أُخنوخ في التوراة في سفر التكوين جَدّاً لنوح .

وتقدمت ترجمته في سورة مريم ووصف هنالك بأنه صدّيق نبيء وقد وصفه الله تعالى هنا فليعدَّ في صف الصابرين .

والظاهر أن صبره كان على تتبع الحكمة والعلوم وما لقي في رحلاته من المتاعب .

وقد عُدت من صبره قصص ، منها أنه كان يترك الطعام والنوم مدة طويلة لتصفو نفسه للاهتداء إلى الحكمة والعلم .

(88/514)

وأما ذو الكِفْل فهو نبيء اختُلف في تعيينه ، فقيل هو إلياس المسمّى في كتب اليهود (إيليا) .

وقيل : هو خليفةَ اليَسع في نبوءة بني إسرائيل .

والظاهر أنه (عُوبديا) الذي له كتاب من كتب أنبياء اليهود وهو الكتاب الرابع من الكتب الاثني عشر وتعرف بكتب الأنبياء الصغار .

والكفْل بكسر الكاف وسكون الفاء ، أصله : النصيب من شيء ، مشتق من كَفَلَ إذا تعهد .

لقب بهذا لأنه تعهد بأمر بني إسرائيل لليسع .

وذلك أن اليسع لما كبُر أراد أن يستخلف خليفة على بني إسرائيل فقال : من يتكفل لي بثلاث أستخلفه : أن يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب .

فلم يتكفل له بذلك إلا شاب اسمه (عُوبديا) ، وأنه ثبت على ما تكفل به فكان لذلك من

أفضل الصابرين .

وقد عُد عوبديا من أنبياء بني إسرائيل على إجمال في خبره (انظر سفر الملوك الأول الإصحاح 18 .

ورؤيا عوبديا صفحة 891 من الكتاب المقدس) .

وروى العبري عن أبي موسى الأشعري ومجاهد أن ذا الكفل لم يكن نبيئاً .

وتقدمت ترجمة إلياس واليسع في سورة الأنعام .

وجملة ﴿ أنهم من الصالحين ﴾ تعليل لإدخالهم في الرحمة ، وتذييل للكلام يفيد أن تلك سنة الله مع جميع الصالحين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(89/514)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) ﴾

(نَأديَ) : قلنا النداء لمثلك طلب إقبال ، أما بالنسبة لله تعالى فهو بمعنى الدعاء ، فمعنى ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ . . . ﴾ [الأنبياء : 83] أي : دعاه وناداه بمطلوب هو : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين . . . ﴾ [الأنبياء : 83] والضُّر : ابتلاء من الله في

جسده بمرض أو غيره .

أما الضرَّ بفتح الضاد ، فهو إيذاء وابتلاء في أي شيء آخر غير الجسد ، ولا مانع أن يمرض الأنبياء لكن بمرض غير مُنفِّر .

لكن ، كيف ينادي أيوب عليه السلام ربه ويتوجع ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر . . . ﴾ [الأنبياء : 83] أليس في علم الله أن أيوبَ مسَّه الضرُّ ؟ وهل يليق بالنبي أنْ يتوجّع من ابتلاء الله ؟

نعم ، يجوز له التوجُّع ؛ لأن العبد لا يَشْجَعُ على ربه ؛ لذلك فإن الإمام علياً رضي الله عنه لما دخل عليه رجل يعوده وهو يتألم من مرضه ويتوجع ، فقال له : أتوجَّع وأنت أبو الحسن ؟ فقال : أنا لا أشجع على الله يعني : أنا لست فتوة أمام الله .

ألا ترى أنه من الأدب مع مَنْ يريد أن يُثبِت لك قوته فيمسك بيدك مثلاً ، ويضغط عليها لتضجّ وتتألم ، أليس من الأدب أن تطاوعه فتقول : آه وتُظهِر له ولو مجاملة أنه أقوى منك ؟

ومعنى : ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ [الأنبياء : 83] ساعةَ أنْ ترى جَمْعاً في صفة من الصفات يُدخِل الله فيه نفسه مع خَلْقه ، كما في : ﴿ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ [الأنبياء : 83] و ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] و ﴿ خَيْرُ الماكرين ﴾ [آل عمران : 54]

فاعلم أن الله تعالى يُثبِت نفس الصفة لعباده ، ولا يبخسهم حقهم .

فالرحمة من صفات البشر ، كما جاء في الحديث الشريف : " الراحمون يرحمهم الرحمن " .

وفي " ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء " .

فالرحمة تخلُّق بأخلاق الحق سبحانه ، " والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : " تخلَّقوا بأخلاق الله " " .

إذن : للخَلْق صفة الرحمة ، لكن الله هو أرحم الراحمين جميعاً ؛ لأن رحمته تعالى وسعَتْ كل شيء . كما قلنا في صفة الخَلْق : فيمكنك مثلاً أن تصنع من الرمل كوباً ، وتُخرِجه إلى الوجود ، وتنتفع به ، لكن أخَلْقك للكوب كخَلْق الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فاستجبنا لَهُ فَكَشَفْنَا . . . ﴾ .

استجاب الله لأيوب فيما دعا به من كَشْف الضُّر الذي أصابه ، وأعطاه زيادة عليه ونافلة لم يَدْعُ بها ، حيث كان في قِلَّة من الأهل ، وليس له عِزْوة .

﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وذكرى لِلْعَابِدِينَ . . . ﴾ [الأنبياء : 84] ليعلم كلُّ عابد أخلص عبادته لله تعالى ، أنه إذا مسَّه ضُرٌّ أو كَرْب ولجأ إلى الله أجابه الله إلى ما يريد ، وأعطاه فوق الإجابة نافلة أخرى ، وكأن ما حدث لنبي الله أيوب نموذج يجب أن يُحْتَذَى . ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ . . . ﴾ .

قلنا : إن سورة الأنبياء لا تذكر قصَصاً كاملاً للأنبياء ، إنما تعطينا طَرَفاً منها ، وهنا تذكر

إسماعيل وإدريس وذا الكفل بالاسم فقط .

ثم يقول تعالى : ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصابرين ﴾ [الأنبياء : 85] كأن الصبر في حَدِّ ذاته حيثية يُرسل الله من أجلها الرسول ، ولنتأمل الصبر عند إسماعيل ، وكيف أنه صبر على أنْ يذبحه أبوه برؤيا رآها ، فأيُّ صبر أعظم من هذا ؟

ثم يعيش في صِغَره – وحتى كبر – في وَادٍ غير ذي زرع ، ويتحمل مشاق هذه البيئة الجافة المجْدِبة ، ويخضع لقول الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة . . ﴾ [إبراهيم : 37] .

وكأن في خروجه من هذه الأرض وطلبه لأرض أخرى فيها النعيم والزروع والثمار تأبياً على إقامة الصلاة ؛ لذلك نراه يُفضّل البقاء في هذا المكان ، ويزهد في نعيم الدنيا الذي يتمتع به غيره امتثالاً لأمر الله .

(91/514)

وتكون النتيجة أنْ أعطاه الله ما هو خَيْر من الزروع والثمار ، أعطاه عطاءً يفخر به بين جميع الأنبياء ، هو أنه جعل من نسله النبي الخاتم محمد بن عبد الله ، وأيُّ ثمرة أحسن من هذه ؟

وإدريس : وهو من الجيل الخامس من أولاد آدم عليه السلام ، وبعض العلماء يقولون هو "

أوزوريس " ، ونحن لا نقول إلا ما قاله القرآن (إدريس) وأهل السير يقولون : إن نبي الله إدريس أول مَنْ علّمه الله غزل الصوف وخياطة الملابس ، وكانوا قبلها يسترون عوراتهم بقطع الجلود .

وهو أول مَن استخدم النجوم لمعرفة الاتجاهات والأحوال ، وأول مَنْ خط بالقلم ، هذه يُسمُّونها أوليات إدريس .

وذا الكفل : الكِفْل هو الحظ والنصيب ، فلماذا سُمِّي " ذو الكفل " ؟ ذو الكفل ابن أيوب عليه السلام ، ويظهر أن أولاد أيوب كانوا كثيرين ، إنما اختص الله ذا الكفل بالرسالة ، وكان هذا حظه دون غيره من أبناء أيوب ؛ لذلك سُمِّي " ذو الكفل " .

وقد جاءت هذه المادة (كَفَل) أيضاً في قوله الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ . . . ﴾ [الحديد : 28] .

جاءت هذه الآية بعد الكلام عن عيسى – عليه السلام – والذين آمنوا به واتبعوه ، يقول تعالى : يا مَنْ آمنتم بالرسل السابقين ، وآخرهم عيسى – عليه السلام – آمنوا بالرسول الخاتم ليكون لكم كفلان أي : نصيبان وحظَّان من رحمةَ الله ، نصيبٌ لإيمانكم بعيسى ، ومَنْ سبقه من الرسل ، ونصيبٌ لإيمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم .

ثم يقول تعالى في وصفهم ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصابرين ﴾ [الأنبياء : 85] فوصف كلّ الأنبياء بالصبر ؛ لأنهم تعرَّضوا لأنواع الاضطهاد والإيذاء والأهوال في سبيل دعوتهم ، وصبروا

على هذا كله . ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا . . . ﴾ .

والرحمة هنا بمعنى النبوة ، وهي أمر عظيم وعطاء كبير ، فإنْ تحمّلوا في سبيله بعض المتاعب ، فلا غضاضةَ في ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(92/514)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) (الأنبياء : 83-84) ، وفي سورة ص : (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (ص : 41-43) ، ففي آية الأنبياء : (رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا) وفي آية ص : (رَحْمَةً مِنَّا) ، وفي آية الأنبياء : (وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) ، وفي آية ص : (لِأُولِي الْأَلْبَابِ) ، فيسأل عن الفرق بين الوصفين ؟ ووجه الاختصاص ؟

(93/514)

والجواب على الجملة ، والله أعلم : أنه لما ورد في الأنبياء تلطف أيوب عليه السلام بقوله : (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (الأنبياء : 83) ، فلما تلطف في سؤاله ، ولم يفصح ، عليه السلام ، تلطفاً وتضرعاً بعظيم ما أصابه من البلاء إفصاحه في آية ص بقوله : (مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) (ص : 41) ، فبني كل (من الأيتين) على ما يباسبه ، فقيل جواباً على عظيم تضرعه وتلطفه في قوله : (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) ما يلائم لطيف هذه الشكوى ، وعلى قوله (مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) ما يناسب إفصاحه بهذه البلوى ، فقيل بناء على الأول : (فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ) (الأنبياء : 84) ، وقيل بناء على الثانية : (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ) (ص : 42) ، لما وقع ذكر الشيطان ، وأنه السبب في ذلك الامتحان ، جووب باستعمال سبب فقيل له : اركض برجلك واغتسل وذلك يذهب عنك ما مسك به الشيطان ، وحين لم يذكر ، عليه السلام ، واسطة جووب برفع ما به بغير واسطة سبب ، فقيل جواباً لقوله : (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ) (الأنبياء : 84) ، وبني على الأول قوله : (رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا) لتمكن (عند) فيما قصد ، وعلى الثاني : (رَحْمَةً مِنَّا) إذ ليس موقعها موقع (مِنْ عِنْدِنَا) ، ثم قيل في الأولى : (وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) مناسبة لما تقدم ، وقيل في الثانية : (لِأُولِي الْأَلْبَابِ) مناسبة أيضاً ، إذ اعتبار أولي الألباب يورثهم مقام العابدين ، وهو أسنى

مقام ، وكل ذلك بعد مقامات عليه وأوال جليلة ، وقد جرى مع (كل) مقام ما يناسبه ، ووضح أن كلاً من هذه المبينات على ما قبلها لا يناسبه غير ما بني عليه ، والله أعلم .

(94/514)

وأما وجه خصوص الواقع في كل من السورتين بموضعه ، فإن سورة الأنبياء لما رود فيها من قصص الأنبياء المذكورين قبل ذكر أيوب ، عليه السلام ، إعلاء مقاماتهم ، ولم يرد في ذلك ما يخرج عن هذا ، وذلك من لدن قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ) (الأنبياء : 51) إلى قوله : (وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ) (الأنبياء : 82) ، ناسب ذلك من قصة أيوب ، عليه السلام ، ما يلائم هذا الغرض ، فلما ورد في ص ما بني عليه قوله تعالى : (وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ) (ص : 24) إلى قوله : (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ . . .) (ص : 25) وما بني عليه (قوله) : (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا) (ص : 34) ظغلى قوله : (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي) (ص : 35) ، ناسب ذلك أيضاً ما أعقبت به من قصة أيوب ، عليهم السلام ، فتأمل الوارد من قصص داود وسليمان في قوله في الأنبياء : (وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ) (الأنبياء : 78) إلى قوله : (فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) (الأنبياء : 80) ، والوارد من قصصهما في سورة ص ، واعتبر ذلك ، فإن الفرق في ذلك بين ، وقد تنزل على كل من

هذه القصص في السورتين ما يناسبهما من قصص أيوب ، وإذا استوضحت ذلك علمت أن كلاً منهما لا يناسبهما من قصص أيوب ، وإذا استوضحت ذلك علمت أن كلا منهما لا يناسبه غير موضعه ، ثم إن كلا من الآيتين في السورتين قد جرى على ما اتصل به مما تقدمه وتأخر عنه من فواصل الآي ومقاطعها ، فلو وردت على العكس لما ناسب آية منها ما اتصل بها ، فحصل التناسب في اللفظ والمعنى على أوضح شيء ، وأنه لا يمكن عكس الوارد على ما قد تمهد بوجه ، والله أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 351.350 ﴾

(95/514)

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر ﴾ [83] قال : الضر على وجهين : ضر ظاهر وضر باطن ؛ فالباطن حركة النفس عند الوارد واضطرابها ، والظاهر إظهار ما في السر من ذلك ، فمتى احتل الضر الباطن سكن الظاهر عن إظهاره وصبر على الآلام ، وإذا تحرك الباطن تحت الوارد انزعج الظاهر بالصياح والبكاء ، فكان شكواه إلى الله عزَّ

وجلَّ كي يعطي المعونة على رضا قلبه بالوارد ، وذلك أن القلب إذا كان راضياً بأمر الله لم يضر العبد ما فعلت جوارحه ، ألا ترى إلى بكاء النبي صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه إبراهيم كيف بكى عليه رحمة له بطبع البشرية ، فلم يضره ما فعلت جوارحه ، لأن قلبه كان راضياً به .

وكان سهل يقول لأصحابه : قولوا في دعائكم : إلهي إن طبختني فأنا قدر ، وإن شويتني فأنا محنوذ ، ولا بد أن تُعرف ، فَمُنَّ عليَّ بمعرفتك .

وسئل سهل عن الدار ، دار إسلام أم دار كفر ؟ فقال : الدار دار بلوى واختبار .

وقال عبد الرحمن المروزي لسهل : يا أبا محمد ، ما تقول في رجل منذ خمسة وعشرين يوماً تطالبه نفسه أن تشبع ورق السدر من منذ ثمانية عشر يوماً ؟ فقال له سهل : ما تقول في رجل تطالبه نفسه أن يشم ورق السدر .

قال : فوثب عبد الرحمن وانتفخت أوداجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 105.104 ﴾

(96/514)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾

جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة في المتملق له والإقرار له بصفة الرحمة وإنه أرحم الراحمين والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته وهو فقره ومتى وجد المبتلى هذا كشف عنه بلواه وقد جرب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفوائد صـ 281 ﴾

(97/514)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) ﴾

أخرج الحاكم من طريق سمرة عن كعب قال : كان أيوب بن أموص نبي الله الصابر طويلاً جعد الشعر واسع العينين حسن الخلق ، وكان على جبينه مكتوب : المبتلى الصابر ، وكان

قصير العنق عريض الصدر غليظ الساقين والساعدين ، كان يعطي الأرامل ويكسوهم جاهداً ناصحاً لله .

وأخرج الحاكم عن وهب قال : أيوب بن أموص بن رزاح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

وأخرج ابن سعد عن الكلبي قال : أول نبي بعث إدريس ، ثم نوح ثم إبراهيم ، ثم إسماعيل وإسحاق ، ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هود ، ثم صالح ثم شعيب ثم موسى وهارون ، ثم إلياس ثم اليسع ثم يونس ثم أيوب .

وأخرج ابن عساكر عن وهب قال : كان أيوب أعبد أهل زمانه وأكثرهم مالاً ، فكان لا يشبع حتى يشبع الجائع ، وكان لا يكتسي حتى يكسي العاري ، وكان إبليس قد أعياه أمر أيوب لقوته فلا يقدر عليه ، وكان عبداً معصوماً .

وأخرج أحمد في الزهد وابن عساكر ، عن وهب أنه سئل : ما كانت شريعة قوم أيوب ؟ قال : التوحيد وإصلاح ذات البين . وإذا كانت لأحد منهم حاجة خر لله ساجداً ثم طلب حاجته . قيل : فما كان ماله ؟ قال : كان له ثلاثة آلاف فدان ، مع كل فدان عبد ، مع كل عبد وليدة ومع كل وليدة أتان وأربعة عشرة ألف شاة ، ولم يبت ليلة له إلا وضيف وراء بابه ، ولم يأكل طعامه إلا ومعه مسكين .

وأخرج البيهقي في الشعب عن سفيان الثوري قال : ما أصاب إبليس من أيوب في مرضه إلا

الأنين .

وأخرج ابن عساكر عن عقبة بن عامر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم .

" قال الله لأيوب : تدري ما جرمك إليّ حتى ابتليتك ؟ فقال : لا يا رب . قال : لأنك دخلت على فرعون فداهنت عنده في كلمتين " .

(98/514)

وأخرج ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : إنما كان ذنب أيوب ، أنه استعان به مسكين على ظلم يدرؤه عنه فلم يعنه ، ولم يأمر بمعروف وينه الظالم عن ظلم المسكين فابتلاه الله .

وأخرج ابن عساكر عن الليث بن سعد قال : كان السبب الذي ابتلي فيه أيوب ، أنه دخل أهل قريته على ملكهم – وهو جبار من الجبابرة – وذكر بعض ما كان ظلمه الناس ، فكلموه فأبلغوا في كلامه ورفق أيوب في كلامه له مخافة منه لزرعه ، فقال الله : " اتقيت عبداً من عبادي من أجل زرعك ؟ " فأنزل الله به ما أنزل من البلاء .

وأخرج ابن عساكر عن أبي إدريس الخولاني ، قال : أجدب الشام ، فكتب فرعون إلى أيوب : أن هلم إلينا فإن لك عندنا سعة .

فأقبل بخيله وماشيته وبنيه فأقطعهم ، فدخل شعيب فقال فرعون : أما تخاف أن يغضب غضبة فيغضب لغضبه أهل السموات والأرض والجبال والبحار ؟ فسكت أيوب ، فلما خرجا من عنده أوحى الله إلى أيوب : أوسكت عن فرعون لذهابك إلى أرضه ؟ استعد للبلاء . قال : فديني ؟ قال : أسلمه لك . قال : لا أبالي .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم وابن عساكر ، عن يزيد بن ميسرة قال : لما ابتلى الله أيوب بذهاب المال والأهل والولد ، فلم يبق له شيء ، أحسن الذكر والحمد لله رب العالمين . ثم قال : أحمدك رب الذي أحسنت إليّ . . . . قد أعطيتني المال والولد لم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخلها ذلك ، فأخذت ذلك كله مني وفزعت قلبي ، فليس يحول بيني وبينك شيء لا يعلم عدوي إبليس الذي وصفت إلا حسدني ، فلقي إبليس من ذها شيئاً منكراً .

(99/514)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان فجاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد ، فقال أحدهما للآخر : لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط مثله ، قال

: اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعاً ، وأنا أعلم مكان جائع فصدقني . فصدّق من في السماء وهما يسمعان ، ثم خر ساجداً وقال : اللهم بعزتك لا أرفع رأسي حتى تكشف عني . فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه .

وأخرج ابن عساكر عن الحسن قال : ضرب أيوب بالبلاء ، ثم بالبلاء بعد البلاء بذهاب الأهل والمال ، ثم ابتلي في بدنه ، ثم ابتلي حتى قذف في بعض مزابل بني إسرائيل ، فما يعلم أيوب دعا الله يوماً أن يكشف ما به ليس إلا صبراً وإحتساباً ، حتى مر به رجلان فقال أحدهما لصاحبه : لو كان الله في هذا حاجة ما بلغ به هذا كله . فسمع أيوب فشق عليه فقال : رب ﴿ مسني الضر ﴾ ثم رد ذلك إلى ربه فقال : ﴿ وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قال : ﴿ وآتيناه أهله ﴾ في الدنيا ﴿ ومثلهم معهم ﴾ في الآخرة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قال : قيل له : يا أيوب ، إن أهلك لك في الجنة ، فإن شئت آتيناك بهم ، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوّضناك مثلهم . قال : لا ، بل اتركهم لي في الجنة ، فتركوا له في الجنة وعوّض مثلهم في الدنيا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن نوف البكالي في قوله : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم

﴿ قال : إني أدخرهم في الآخرة وأعطي مثلهم في الدنيا .

فحدث بذلك مطرف فقال : ما عرفت وجهها قبل اليوم .

(100/514)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني ، عن الضحاك قال : بلغ ابن مسعود أن مروان قال في هذه الآية : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قال : أوتي بأهل غير أهله ، فقال ابن مسعود : بل أوتي بأعيانهم ومثلهم معهم .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن في قوله : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قال : لم يكونوا ماتوا ولكنهم غيبوا عنه ، فأتاه أهله ﴿ ومثلهم معهم ﴾ في الآخرة .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في قوله : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قال : أحياهم بأعيانهم وزاد إليهم مثلهم .

وأخرج ابن جرير عن الحسن وقتادة في قوله : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قال : أحيا الله له أهله بأعيانهم وزاده الله مثلهم .

وأخرج ابن جرير عن الحسن ﴿ ومثلهم معهم ﴾ قال : من نسلهم .

وأخرج أحمد في الزهد عن الحسن قال : ما كان بقي من أيوب عليه السلام إلا عيناه وقلبه

ولسانه ، فكانت الدواب تختلف في جسده ؛ ومكث في الكناسة سبع سنين وأياماً .

وأخرج أحمد عن نوف البكالي قال : مر نفر من بني إسرائيل بأيوب فقالوا : ما أصابه ما أصابه إلا بذنب عظيم أصابه . فسمعها أيوب فعند ذلك قال : ﴿ مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ وكان قبل ذلك لا يدعو .

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : لقد مكث أيوب مطروحاً على كناسة سبع سنين وأشهراً ما يسأل الله أن يكشف ما به وما على وجه الأرض ، خلق أكرم من أيوب ، فيزعمون أن بعض الناس قال : لو كان لرب هذا فيه حاجة ما صنع به هذا . فعند ذلك دعا .

وأخرج ابن جرير عن وهب بن منبه قال : لم يكن بأيوب الأكلة ، إنما يخرج منه مثل ثدي النساء ثم يتفقأ .

(101/514)

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ قال : إنه لما مسه الضر أنساه الله الدعاء أن يدعوه فيكشف ما به من ضر ، غير أنه كان يذكر الله كثيراً ولا يزيده البلاء في الله إلا رغبة وحسن إيقان ، فلما انتهى الأجل وقضى الله أنه

كاشف ما به من ضر أذن له في الدعاء ويسرّه له ، كان قبل ذلك يقول تبارك وتعالى : " لا ينبغي لعبدي أيوب أن يدعوني ثم لا أستجيب له " فلما دعا استجاب له وأبدله بكل شيء ذهب له ضعفين ، رد أهله ومثلهم معهم ، وأثنى عليه فقال : ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ليث قال : أرسل مجاهد رجلاً يقال له قاسم إلى عكرمة يسأله عن قول الله لأيوب ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ فقال : قيل له : إن أهلك لك في الآخرة ، فإن شئت عجلناهم لك في الدنيا ؛ وإن شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا . فقال : يكونون في الآخرة وأوتى مثلهم في الدنيا . فرجع إلى مجاهد فقال : أصاب .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي في قوله : ﴿ رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ وقوله : ﴿ رحمة منا وذكرى لأولي الألباب ﴾ [ص : 43] قال : إنما هو من أصابه بلاء فذكر ما أصاب أيوب فليقل : إنه قد أصاب من هو خير مني نبي من الأنبياء .

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : بقي أيوب على كناسةٍ لبني إسرائيل سبع سنين وأشهراً تختلف فيه الدواب .

(102/514)

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : إن أيوب آتاه الله تعالى مالاً وولداً وأوسع عليه ، فله من الشياه والبقر والغنم والإبل . وإن عدو الله إبليس قيل له : " هل تقدر أن تفتن أيوب ؟ قال : رب ، إن أيوب أصبح في دنيا من مال وولد فلا يستطيع إلا شكرك ، فسلطني على ماله وولده فسترى كيف يطيعني ويعصيك . فسلط على ماله وولده فكان يأتي الماشية من ماله من الغنم فيحرقها بالنيران ، ثم يأتي أيوب وهو يصلي متشبهاً براعي الغنم فيقول : يا أيوب ، تصلي لرب ؟ ما ترك الله لك من ماشيتك شيئاً من الغنم إلا أحرقها بالنيران . وكنت ناحية فجئت لأخبرك . فيقول أيوب : اللهم أنت أعطيت وأنت أخذت ، مهما يبق شيء أحمدك على حسن بلائك . فلا يقدر منه على شيء مما يريد ، ثم يأتي ماشيته من البقر فيحرقها بالنيران . ثم يأتي أيوب فيقول له ذلك ، ويرد عليه أيوب مثل ذلك . وكذلك فعل بالإبل حتى ما ترك له ماشية حتى هدم البيت على ولده ، فقال : يا أيوب ، أرسل الله على ولدك من هدم عليهم البيوت حتى يهلكوا ! فيقول أيوب مثل ذلك . وقال : رب هذا حين أحسنت إلي الإحسان كله قد كنت قبل اليوم يشغلني حب المال بالنهار ويشغلني حب الولد بالليل شفقة عليهم ، فالآن أفرغ سمعي لك وبصري وليلي ونهاري بالذكر والحمد والتقديس والتهليل . فينصرف عدو الله من عنده ولم يصب منه شيئاً مما يريد . ثم إن الله تعالى قال : كيف رأيت أيوب ؟ قال إبليس : إن أيوب قد علم أنك سترد عليه ماله وولده ، ولكن سلطني على جسده فإن أصابه الضر فيه أطاعني وعصاك . فسلط على جسده ، فأتاه

فنفخ فيه نفخة أقرح من لدن قرنه إلى قدمه ، فأصابه البلاء بعد البلاء حتى حمل فوضع على مزبلة كناسة لبني إسرائيل ، فلم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ولا أحد يقربه غير رحمة صبرت عليه ، تصدق عليه وتأتيه بطعام وتحمد الله معه إذا حمده ، وأيوب على ذلك لا يفر من ذكر الله والتحميد والثناء على الله والصبر على ما ابتلاه الله ، فصرخ إبليس صرخة

(103/514)

جمع فيها جنوده من أقطاء الأرضين جزعاً من صبر أيوب ، فاجتمعوا إليه وقالوا له : اجتمعنا إليك ، ما أحزنك ؟ ! ما أعياك ؟ قال : أعياني هذا العبد الذي سألت ربي أن يسلطني على ماله وولده ، فلم أدع له مالاً ولا ولداً فلم يزدد بذلك إلا صبراً وثناء على الله تعالى وتحميداً له ، ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة بني إسرائيل لا تقربه إلا امرأته ، فقد افتضحت بربي فاستعنت بكم لتعينوني عليه .

(104/514)

فقالوا له : أين مكرك ؟ أين علمك الذي أهلكت به من مضى ؟ قال : بطل ذلك كله في أيوب ، فأشيروا علي . قالوا : نشير عليك ، أرأيت آدم حين أخرجته من الجنة ؟ من أين أتيته ؟ قال : من قبل امرأته . قالوا : فشأنك بأيوب من قبل امرأته ، فإنه لا يستطيع أن يعصيها وليس أحد يقربه غيرها . قال : أصبتم . فانطلق حتى أتى امرأته وهي تصدق ، فتمثل لها في صورة رجل فقال : أين بعلك يا أمة الله ؟ قالت : ها هو ذاك يحك قروحه ويتردد الدود في جسده . فلما سمعها طمع أن تكون كلمة جزع ، فوضع في صدرها فوسوس إليها فذكرها ما كانت فيه من النعم والمال والدواب ، وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه من الضر ، وإن ذلك لا ينقطع عنهم أبداً فصرخت ، فلما صرخت علم أن قد جزعت فأتاها بسخلة فقال : ليذبح هذا إلى أيوب ويبرأ . فجاءت تصرخ : يا أيوب ، يا أيوب . . . . حتى متى يعذبك ربك ؟ ألا يرحمك ؟ أين المال ؟ أين الشباب ؟ أين الولد ؟ أين الصديق ؟ أين لونك الحسن الذي بلي وتلدد فيه الدواب . . ؟ اذبح هذه السخلة واسترح . قال : أيوب : أتاكِ عدو الله فنفخ فيك فوجد فيك رفقاً فأجبتِه ، ويلكِ أرأيتِ ما تبكين عليه مما تذكرين مما كنا فيه من المال والولد والصحة والشباب من أعطانيه ؟ قالت : الله . . قال : فكم متعنا ؟ قالت : ثمانين سنة . قال : فمذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء الذي ابتلانا به ؟ قالت : سبع سنين وأشهراً . قال : ويلكِ . . . والله ما عدلت ولا أنصفت ربك ، إلا صبرت حتى نكون في هذا البلاء الذي ابتلانا ربنا ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين

سنة ! والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة حيث أمرتني أن أذبح لغير الله . طعامك وشرابك الذي أتيتني به عليّ حرام أن أذوق شيئاً مما تأتي به بعد إذ قلتِ لي هذا ، فاعزبي عني فلا أراكِ . فطردت فذهبت ، فقال الشيطان : هذا قد وطّن نفسه ثمانين سنة على هذا البلاء الذي هو فيه ، فباء بالغلبة ورفضه . ونظر إلى أيوب قد طرد امرأته وليس عنده طعام ولا

(105/514)

شراب ولا صديق ، ومرّ به رجلان وهو على تلك الحال ولا والله ، ما على ظهر الأرض يومئذ أكرم على الله من أيوب فقال أحد الرجلين لصاحبه : لو كان الله في هذا حاجة ما بلغ به هذا .

فلم يسمع أيوب شيئاً كان أشد عليه من هذه الكلمة فقال : رب ، ﴿ مسني الضر ﴾ ثم رد ذلك إلى الله فقال : ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ فقيل له : ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد ﴾ [ص : 42] فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها فلم يبق من دائه شيء ظاهر إلا سقط ، فأذهب الله عنه كل ألم وكل سقم وعاد إليه شبابه وجماله أحسن ما كان ، ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى ، فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلا

خرج. فقام صحيحاً وكسي حلة فجعل يلتفت فلا يرى شيئاً مما كان له من أهل ومال إلا وقد أضعفه الله له، حتى ذكر لنا أن الماء الذي اغتسل به تطاير على صدره جراد من ذهب، فجعل يضمه بيده فأوحى الله إليه: "يا أيوب، ألم أغنك عن هذا؟ قال: بلى، ولكنها بركتك فمن يشبع منها"؟ فخرج حتى جلس على مكان مشرف، ثم إن امرأته قالت: أرأيت إن كان طردني، إلى من أكله؟ أدعه يموت جوعاً أو يضيع فتأكله السباع؟ لأرجعن إليه. فرجعت فلا كناسة ترى ولا تلك الحال التي كانت، وإذا الأمور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث الكناسة وتبكي، وذلك بعين أيوب، وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأل عنه. فأرسل إليها أيوب فدعاها فقال: ما تريدين يا أمة الله؟ فبكت وقالت: أريد ذلك المبتلى الذي كان ملقى على الكناسة، لا أدري أضاع أم ما فعل! قال لها أيوب: ما كان منكِ؟ فبكت وقال: بعلي، فهل رأيته؟ فقال: وهل تعرفيته إذا رأيته؟ قالت: وهل يخفى على أحد رآه؟ ثم جعلت تنظر إليه ويعرّفها به، ثم قالت: أما إنه كان أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أيوب الذي أمرتني أن أذبح للشيطان، وإني أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله فرّد علي ما ترين.

(106/514)

ثم إن الله رحمها لصبرها معه على البلاء فأمره تخفيفاً عنها أن يأخذ جماعة من الشجر فيضربها ضربة واحدة تخفيفاً عنها بصبرها معه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر ، عن وهب قال : لم يكن الذي أصاب أيوب الجذام ولكنه أصابه أشد من ذلك ، كان يخرج في جسده مثل ثدي المرأة ثم يتفقأ .

وأخرج أبو نعيم وابن عساكر عن الحسن قال : إن كانت الدودة لتقع من جسد أيوب فيأخذها إلى مكانها ويقول : كلي من رزق الله .

وأخرج الحاكم والبيهقي في الشعب وابن عساكر ، عن ابن عباس أن امرأة أيوب قالت له : والله قد نزل بي من الجهد والفاقة ما إن بعت قرني برغيف فأطعمتك ، وإنك رجل مجاب الدعوة فادع الله أن يشفيك . فقال : ويحك . . . كنا في النعماء سبعين عاماً فنحن في البلاء سبع سنين .

وأخرج ابن أبي الدنيا وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن عساكر ، عن طلحة بن مطرف قال : قال إبليس : ما أصبت من أيوب شيئاً قط أفرح به ، إلا أني كنت إذا سمعت أنينه علمت أني أوجعته .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر ، عن مجاهد قال : أن أول من أصابه الجدري أيوب عليه السلام .

وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(107/514)

" إن أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه ، كانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد . قال : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه ما به . فلما جاء إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك ، فقال أيوب : لا أدري ما تقول ، غير أن الله يعلم أني كنت أمر بالرجلين يتباعدان يذكران الله فأرجع إلى بيتي فأؤلف بينهما كراهة أن يذكر الله لا في حق . وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ [ص : 42] فاستبطأته فأتته فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك ، هل رأيت نبي الله المبتلى ؟ والله على ذاك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً . قال : فإني أنا هو . قال : وكان له اندران ، اندر للقمح وأندر للشعير ،

فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح ، أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض " .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم ﴾ قال : رد الله امرأته وزاد في شبابها حتى ولدت له ستة وعشرين ذكراً ، وأهبط الله إليه ملكاً فقال : يا أيوب ، ربك يقرئك السلام بصبرك على البلاء ، فاخرج إلى اندرك . فبعث الله سحابة حمراء فهبطت عليه بجراد الذهب والملك قائم يجمعه ، فكانت الجراد تذهب فيتبعها حتى يردها في أندره . قال الملك : يا أيوب ، أو ما تشبع من الداخل حتى تتبع الخارج ؟ فقال : إن هذه بركة من بركات ربي ولست أشبع منها .

(108/514)

وأخرج أحمد والبخاري والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينا أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب يحثي في ثوبه فناداه ربه : " يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى وعزتك ، ولكن لا غنى لي عن بركتك " .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب ، فجعل يأخذه بيده ويجعله في ثوبه ، فقيل له : يا أيوب ، أما تشبع ؟ قال : ومن يشبع من فضلك ورحمتك ؟ " .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك ، عن ابن عباس أن أيوب عاش بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنفية ، وعلى ذلك مات ، وتغيروا بعد ذلك وغيروا دين إبراهيم كما غيره من كان قبلهم .

وأخرج الحاكم عن وهب قال : عاش أيوب ثلاثاً وتسعين سنة وأوصى عند موته إلى ابنه حرمل ، وقد بعث الله بعده بشر بن أيوب نبياً وسماه ذا الكفل ، وكان مقيماً بالشام عمره حتى مات ابن خمس وسبعين سنة ، وأن بشراً أوصى إلى ابنه عبدان ثم بعث الله بعدهم شعيباً .

وأخرج ابن عساكر عن أبي عبد الله الجدلي قال : كان أيوب عليه السلام يقول : " اللهم إني أعوذ بك من جار عينه تراني وقلبه يرعاني ، إن رأى حسنة أطفأها وإن رأى سيئة أذاعها " .

وأخرج أحمد في الزهد والبيهقي في الشعب عن مجاهد قال : يؤتى بثلاثة يوم القيامة : بالغني ، والمريض ، والعبد المملوك ، فيقال للغني : ما منعك من عبادتي ؟ فيقول : يا رب ، أكثرت

لي من المال فطغيت . فيؤتى بسليمان عليه السلام في ملكه فيقول : أنت كنت أشد شغلاً من هذا ؟ فيقول : لا ، بل هذا . قال : فإن هذا لم يمنعه ذلك أن عبدني .

(109/514)

ثم يؤتى بالمريض فيقول : ما منعك من عبادتي ؟ فيقول : شغلت على جسدي ، فيؤتى بأيوب في ضره فيقول : أنت كنت أشد ضراً من هذا ؟ قال : لا ، بل هذا . قال : فإن هذا لم يمنعه ذلك أن عبدني .

ثم يؤتى بالمملوك فيقول : ما منعك من عبادتي ؟ فيقول : يا رب ، جعلت علي أرباباً يملكونني . فيؤتى بيوسف في عبوديته فيقول : أنت كنت أشد عبودية أم هذا ؟ قال : لا بل هذا قال : فإن هذا لم يمنعه أن عبدني . والله أعلم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وذا الكفل ﴾ قال : رجل صالح غير نبي ، تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل ، ففعل ذلك فسمي ﴿ ذا الكفل ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : لما كبر اليسع قال : لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي ، حتى أنظر كيف يعمل فجمع الناس فقال : من

يتكفل لي بثلاث : أستخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب ؟ قال : فقام رجل تزدريه العين فقال : أنا .

(110/514)

فقال : أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب ؟ قال : نعم . قال : فردّه من ذلك اليوم وقال مثلها في اليوم الآخر ، فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقال : أنا . فاستخلفه . قال : فجعل إبليس يقول للشياطين : عليكم بفلان ، فأعياهم ذلك فقال : دعوني وإياه . . . فأتاه في صورة شيخ كبير فقير فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة – وكان لا ينام من الليل والنهار إلا تلك النومة – فدق الباب فقال : من هذا ؟ قال : شيخ كبير مظلوم . قال : فقام ففتح الباب ، فجعل يكثر عليه فقال : إن بيني وبين قومي خصومة وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا . . . وجعل يطول عليه حتى حضره وقت الرواح وذهبت القائلة ، وقال : إذا رحت فائتني آخذ لك بحقك . فانطلق وراح وكان في مجلسه ، فجعل ينظر هل يرى الشيخ الكبير المظلوم ، فلم يره فقام يبغيه ، فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس فينتظره فلا يراه ، فلما راح إلى بيته جاء فدق عليه الباب فقال : من هذا ؟ قال : الشيخ الكبير المظلوم ، ففتح له فقال : ألم أقل لك إذا قعدت فائتني ؟ قال : إنهم أخبث قوم . قال : إذا رحت فائتني ، ففاتته القائلة فراح

فجعل ينظر ولا يراه ، وشق عليه النعاس فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل : ما وراءك ؟ قال : إني قد أتيته أمس فذكرت له أمري . فقال : لا والله لقد أمرنا أن لا يدع أحداً يقربه . فلما أعياه نظر فرأى كوّة في البيت فتسوّر منها فإذا هو في البيت ، فإذا هو يدق الباب من داخل فاستيقظ الرجل فقال : يا فلان ، ألم آمرك ؟ قال : من قبلي والله لم تؤت ، فانظر من أين أتيت . فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه وإذا برجل معه في البيت فعرفه فقال له : عدو الله ؟ ! قال : نعم ، أعييتني في كل شيء ففعلت ما ترى لأغضبك . فسماه الله ﴿ ذا الكفل ﴾ لأنه تكفل بأمر فوفى به .

(111/514)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان قاض في بني إسرائيل فحضره الموت فقال : من يقوم مقامي على أن لا يغضب ؟ فقال رجل : أنا فسمي ﴿ ذا الكفل ﴾ فكان ليله جميعاً يصلي ثم يصبح صائماً فيقضي بين الناس ، وله ساعة يقيلها فكان بذلك فأتاه الشيطان عند نومته فقال له أصحابه : ما لك ؟ قال : إنسان مسكين له على رجل حق قد غلبني عليه . فقالوا : كما أنت حتى يستيقظ . قال وهو فوق نائم : فجعل يصيح عمداً حتى يغضبه . فسمع فقال : ما لك ؟ قال : إنسان مسكين لي على رجل حق . قال :

اذهب فقل له يعطيك . قال : قد أبى . قال : اذهب أنت إليه . فذهب ثم جاء من الغد فقال : ما لك ؟ قال : ذهبت إليه فلم يرفع بكلامك رأساً .

قال : اذهب إليه أنت . فذهب ثم جاء من الغد حين قال فقال له أصحابه : أخرج فعل الله بك تجيء كل يوم حين ينام لا تدعه ينام ؟ فجعل يصيح : من أجل أني إنسان مسكين ؟ لو كنت غنياً . . . فسمع أيضاً قال : ما لك ؟ قال : ذهبت إليه فضربني . قال : امش حتى أجيء معك ، فهو ممسك بيده فلما رآه ذهب معه نثر يده منه فذهب ففر .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الغضب وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن الحارث قال : قال نبي من الأنبياء لمن معه : أيكم يكفل لي أن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب ، ويكون معي في درجتي ويكون بعدي في مقامي ؟ قال شاب من القوم : أنا . ثم أعاد فقال الشاب : أنا ، ثم أعاد فقال الشاب أنا ، ثم أعاد فقال الشاب أنا ، فلما مات قام بعده في مقامه فأتاه إبليس بعدما قال ليغضبه يستعديه فقال لرجل : اذهب معه . فجاء فأخبره أنه لم ير شيئاً ، ثم أتاه فأرسل معه آخر فجاءه فأخبره أنه لم ير شيئاً ، ثم أتاه فقام معه فأخذ بيده فانفلت منه ، فسمي ﴿ ذا الكفل ﴾ لأنه كفل أن لا يغضب .

(112/514)

وأخرج ابن سعيد النقاش في كتاب القضاة ، عن ابن عباس قال : كان نبي جمع أمته فقال : أيكم يتكفل لي بالقضاء بين أمتي ، على أن لا يغضب ؟ فقام فتى فقال : أنا يا رسول الله ، ثم عاد فقال الفتى أنا ، ثم قال لهم الثالثة أيكم يتكفل لي بالقضاء بين الناس على أن لا يغضب ؟ فقال الفتى أنا فاستخلفه ، فأتاه الشيطان بعد حين وكان يقضي حتى إذا انتصف النهار ، ثم رجع ثم راح فأتاه الشيطان نصف النهار وهو نائم ، فناداه حتى أيقظه فاستعداه فقال : إن كتابك رده ولم يرفع به رأساً ثنتين وثلاثاً ، فأخذ الرجل بيده ثم مشى معه ساعة ، فلما رأى الشيطان ذلك نزع يده من يده ثم فر فسمي ﴿ ذا الكفل ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن حجيرة الأكبر ، أنه بلغه أنه كان ملك من ملوك بني إسرائيل عتى في ملكه ، فلما حضرته الوفاة أتاه رؤوسهم فقالوا : استخلف علينا ملكاً نفزع إليه . فجمع إليه رؤوسهم فقال : من رجل تكفل لي بثلاث وأوليه ملكي ؟ فلم يتكلم إلا فتى من القوم قال أنا . قال : اجلس . ثم قالها ثانية فلم يتكلم أحد إلا الفتى ، قال : تكفل لي بثلاث وأوليك ملكي ؟ قال : نعم . قال : تقوم الليل فلا ترقد ، وتصوم النهار فلا تفطر ، وتحكم فلا تغضب . قال : نعم . قال : قد وليتك ملكي ، فلما أن كان مكانه قام الليل وصام النهار وحكم فلا يعجل ولا يغضب ، يغدو فيجلس لهم فتمثل له الشيطان في صورة رجل ، فأتاه وقد تحين مقيله فقال : أعدني على رجل ظلمني .

فأرسل معه رسولاً فجعل يطوف به وذو الكفل ينظره حتى فاتته رقدته ، ثم انسل من وسط الناس فأتاه رسول فأخبره ، فراح للناس فجلس لهم فقال الشيطان : لعله يرقد الليل ولم يصم النهار ، فلما أمسى صلى صلاته التي كان يصلي ، ثم أتاه الغد وقد تحين مقيله فقال : أعدني على صاحبي . فأرسل معه وانتظره وتبطأ حتى فات ذو الكفل رقدته ، ثم أتاه الرسول فأخبره فراح ولم ينم فقال الشيطان : الليلة يرقد . فأمسى يصلي صلاته كما كان يصلي . ثم أتاه فقال : قد صنعت به ما صنعت لعله يغضب . قال : أعدني على صاحبي . فقال : ألم أرسل معك رسولاً ؟ قال : بلى . . . ولكن لم أجده . فقال له ذو الكفل : انطلق فأنا ذاهب معك . فانطلق فطاف به ثم قال له : أتدري من أنا ؟ قال : لا . قال : أنا الشيطان ، كنت تكفلت لصاحبك بأمر فأردت أن تدع بعضه ، وإن الله قد عصمك .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : ما كان ذو الكفل بنبي ، ولكن كان في بني إسرائيل رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة . فتوفي فتكفل له ذو الكفل من بعده . فكان يصلي كل يوم مائة صلاة فسمي ذا الكفل .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن حبان والطبراني والحاكم

وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان من طريق سعيد مولى طلحة ، عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كان ذو الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت . فقال : ما يبكيك ؟ أكرهتك ؟ . . . قالت : لا ، ولكنه عمل ما عملته قط وما حملني عليه إلا الحاجة . فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته ، اذهبي فهي لك . وقال : والله لا أعصي الله بعدها أبداً . فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه : إن الله قد غفر لذي الكفل " .

وأخرجه ابن مردويه من طريق نافع عن ابن عمرو : قال فيه ذو الكفل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(114/514)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ : كقولِه : ﴿ وَنُوحاً ﴾ [الآية : 76] وما بعده . وقرأ العامَّةُ " أني " لتسليطِ النداءِ عليها بإضمار حرفِ الجرِّ أي : بأِنِّي . وعيسى بن عمر بكسرٍ .

فمذهبُ البصريين إضمارُ القولِ أي : نادى فقال : إني . ومذهبُ الكوفيين إجراءُ النداءِ مجرى القولِ .

والضُّرُّ بالضمّ : المَرَضُ في البدنِ ، وبالفتح : الضررُ في كلِّ شيءٍ فهو أعمُّ من الأول .

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84)

قوله : ﴿ رَحْمَةً ﴾ : فيها وجهان ، أظهرهما : أنها مفعولٌ من أجلِه . والثاني : أنها مصدرٌ لفعلٍ مقدرٍ أي : رَحِمْناه رحمةً . و﴿ مِّنْ عِندِنَا ﴾ صفةٌ لـ " رحمةً " .

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85)

قوله : ﴿ وَذَا الكفل ﴾ : و﴿ وَذَا النون ﴾ [الآية : 87] عطفٌ على " أيوبَ " ، و" ذا " بمعنى صاحب . والكِفْلُ هنا : الكَفالة يقال : إنه تكفَّلَ بأمورٍ فوفى بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 189 ﴾

(115/514)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) ﴾

أي واذكر أيوبَ حين نادى ربَّه . وسمّي أيوب لكثرة إيابه إلى الله في جميع أحواله في السرَّاء والضرَّاء ، والشدَّة والرَّخاءِ .

ولم يَقُلْ : ارحمني ، بل حَفِظَ أدب الخطايا فقال : ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

ومن علامات الولاية أن يكونَ العبدُ محفوظاً عليه وقتُه في أوانِ البلاء .

ويقال إخبارُه عنه أنه قال : ﴿ مسني الضر ﴾ لم يَسْلُبْه اسمَ الصبرِ حيث أخبر عنه سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ [ص : 44] لأنَّ الغالبَ كان من أحواله الصبر ، فنادِرُ قالتِه لم يَسْلبْ عنه الغالِبَ من حالته . والإشارة من هذا إلى أنَّ الغالبَ من حال المؤمن المعرفةُ ، أو الإيمانُ بالله فهو الذي يستغرقُ جميعَ أوقاته ، ولا يخلو منه لحظةً ؛ ونادِرُ زلاَّتِه – مع دائمِ إيمانِه – لا يُزَاحِمُ الوصفَ الغالب .

ويقال ؛ لمَّا لم يكن قوله : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ على وجه الاعتراض على التقدير – بل كان على وجه إظهار العجز – فلم يكن ذلك مُنافياً لصفة الصبر .

ويقال : استخرج منه هذا القولَ ليكونَ فيه مُتنفسٌ للضعفاء في هذه الأمة حتى غذا ضَجَّوا في حالِ البلاء لم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر .

ويقال لم يكن هذا القولُ منه على جهة الشكوى ، وإنما كان من حيث الشكر ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ الذي تخصُّ به أولياءك ، ولولا أنك أرحم الراحمين لَمَا خصصتني بهذا ، ولكن

برحمتك أهَّلْتني لهذا .

ويقال لم يكن هذا القولُ من أيوب ولكنه استغاثةُ البلاء منه ، فلم يُطِقْ البلاءُ صُحْبَتَه فضجَّ منه البلاءُ لا أيوبُ ضَجَّ من البلاء . . . وفي معناه أنشدوا .

صابَرَ الصبرَ فاستغاثَ به الصبرُ . . . فصاح المحبُّ بالصبر صبرا

(116/514)

ويقال همزة الاستفهام فيه مضمرة ، ومعناه : أيمسني الضرُّ وأنت أرحم الراحمين ؟ كما قال : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ [الشعراء : 22] أي أتلك نعمة تمنها عليَّ أن عبدت بني إسرائيل ؟

ويقال إن جبريلَ – عليه السلام – أتى أيوبَ فقال : لِمَ تسكت ؟ فقال : ماذا أصنع ؟ فقال : إن الله سيان عنده بلاؤك وشفاؤك . . . فاسأل الله العافيةَ فقال أيوب : ﴿ أني مسني الضر ﴾ فقال تعالى : ﴿ فكشفنا ما به من ضر ﴾ [الأنبياء : 84] والفاء تقتضي التعقيب ، فكأنه قال : فعافيناه في الوقت . وكأنه قال : يا أيوب ، لو طلبتَ العافيةَ قبل هذا لاستَجْبْنَا لك .

ويقال سقطت دودةٌ كانت تأكل من بدنه على الأرض فرفعها أيوبُ ووضعها على موضعها

، فعقرته عقرةً عِيلَ صَبْرُه فقال : مسني الضر ، فقيل له : يا أيوب : أتصبر معنا ؟ لولا أني ضربتُ تحت كل شَعْرَةٍ من شعراتك كذا خيمة من الصبر . . . ما صَبَرْتَ ساعةً !

ويقال كانت الدودات التي تأكل منه أكلت ما عَلاَ بَدَنَه ، فلم يَبْقَ منه إلا لسانهُ وقلبه ، فصعدت دودوة إلى لسانه ، وأخرى إلى قلبه فقال :

﴿ مَسَّنِى الضُّرُّ ﴾ . . . فلم يبق لي إلا لسانٌ به اذكرك ، أو قلبٌ به أعرفك ، وإذا لم يَبْقَ أو لي ذلك فلا يمكنني أن أعيش وأصبر !

ويقال استعجمت عليه جهةُ البلاء فلم يعلم أن يصيبه بذلك تطهيراً أو تأديباً أو تعذيباً أو تقريباً أو تخصيصاً أو تمحيصاً .

. . . وكذلك كانت صحبته .

ويقال قيل لأيوب عليه السلام سَلْ العافية فقال :

عِشْتُ في النِّعم سبعين سنة فحتى يأتي عليَّ سبعون سنة في البلاء . . . وعندئذٍ أسأل الله العافية !

وقيل لَمَّا كَشَفَ الله عنه البلاء قيل له : ما أشدُّ ما لقيتَ في أيام البلاء ؟ فقال شماتة الأعداء .

وفي القصة أن تلامذة أيوب كسروا أقلامهم ، وحرّقوا ما كتبوه عنه وقالوا : لو كان لك عند الله منزلةٌ لَمَا ابْتلاكَ بكل هذا البلاء !

وقيل لم يبقَ معه إلا زوجُه ، وكانت من أولاد يوسف النبي عليه السلام ، فهي التي بقيت معه وكانت تخدمه وتتعهده .

ويقال إنما بقيت تلك المرأة معه لأنها كانت من أهل البلاء من آل يعقوب – عليه السلام .

وقيل إنما قال : مسني الضرُّ لَمَّا قال لها الشيطان : إنْ أردتِ أنْ يَشْفَى مريضُكِ فاسجدي لي ، ولم تعلم أنه إبليس لأنه ظَهَرَ لها في صورة إنسان ، فأخبرت أيوبَ بذلك فقال عندذٍ : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ .

ويقال لَمَّا ظهر به البلاءُ اجتمع قومُه وقالوا لها : أخْرِجي هذا المريضَ من قريتنا ، فإننا نخاف العَدْوَى وأنْ يَمَسَّنَا بلاؤه ، وأنْ تُعْدَى إلينا عِلَّتُه ، فأخْرَجَتْه إلى باب القرية فقالو : إنا إذا أصبحنا وقعت أبصارُنا عليه ، فنتشاءم به ، فأبْعِديه عن أبصارنا ، فحملَتْه إلى أرضٍ قَفْرٍ ، وكانت تدخل البلد ، وتُسْتَأْجَر للخَبْزِ والعمل في الدور ، فتأخذ الأجرة وتحملها إليه ، فلما عَلِموا أنَّها امرأتُه استقذروها ولم يستعلموها .

ويقال إنها كانت ذات ذوائب وقرون ، وكان أيوب يأخذ بذوائبها عند نهوضه ، فباعت ذوائبها برغيفٍ أخذته لتحمله إليه ، فوسوس له الشيطان بأنها فعلت الفحشاء ، وأن

شعرها جُزَّ في ذلك فَحَلَفَ أيوبُ أنْ يَجْلِدَها إذا صحَّ حَدْسَه ، وكانت المحنةُ على قلبِ تلك المرأة أشَدَّ مما على بَدَنِ أيوب من كل المحن .

وقيل إن امرأته غَابَتْ ودخلَتْ البلدَ ، فعافى اللَّهُ أيوبَ عليه السلام ، وعاد شاباً طرياً كما قال في قصته قوله : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : 42] فلما رجعت امرأته ولم تَرَه حسبت أنه أكله سَبْعٌ أو أصابته آفةٌ ، فأخذت تبكي وتولول ، فقال لها أيوب – وهي لم تعرفه لأنه عاد صحيحاً – مالَكِ يا امرأة ؟

قالت : كان لي ها هنا مريض فَفَقَدْته . فقال لها أيوب : أنا ذاك الذي تطلبينه !

(118/514)

وفي بعض الأخبار المروية أنه بقي في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

وقيل تعرَّضَ له إبليسُ فقال : إنْ أردتَ العافيةَ فاسجُدْ لي سجدةً ، فقال : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ .

ويقال إن أيوب – عليه السلام – كان مُكَاشَفَاً بالحقيقة ، مأخوذاً عنه ، فكان لا يُحِسُّ بالبلاء ، فَسَتَرَ عليه مرةً ، ورَدَّه إليه ، فقال : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ .

ويقال أَدْخَلَ على أيوب تلك الحالة ، واستخرج منه هذه القالة ليظهر عليه إقامة العبودية .

ويقال أوحى الله إلى أيوب – عليه السلام – أنَّ هذا البلاء اختاره سبعون نبياً قَبْلَكَ فما اخْتَرْتُه إلا لَكَ ، فلمَّا أراد كَشْفَه عنه قال : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ .

وقيل كوشف بمعنىً من المعاني فلم يَجِدْ أَلَمَ البلاء فقال : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ لِفَقْدِي أَلَمْ الضُّرِّ .

وقال جعفر الصادق : حَبَسَ عنه الوحيَ أربعين يوماً فقال : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ لما لِحَقَه من الضعف بقيام الطاعة فاستجاب إليه بأنْ ردَّ عليه قُوَّتَه ليقوم بحقِّ الطاعة .

ويقال طلب الزيادةَ في الرضا فاستُجِيبَ له بكَشْفِ ما كان به من ضعف الرضا .

ويقال إن الضرَّ الذي شكا منه أنه بقيت عليه بقية ، وبليته كانت ببقيته ، فلمَّا أُخِذَ عنه بالكلية زال البلاء ، ولهذا قال : ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ [الأنبياء : 84] وكانت نَفْسُه ضُرَّه ، ورَدَّ عليه السلامةَ والعافية والأمل – في الظاهر – لَمَّا صار مأخوذاً بالكلية عنه ، مُنْقَّىً عن كل بقية ، وعند ذلك يستوي البلاء والعافية ، والوجود والفقد .

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) ﴾

أي واذكر هؤلاء الأنبياء ثم قال : ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86) ﴾

بيَّنَ الحُكْمَ والمعنى ؛ الحكمُ صبرُهم وصلاحُهم ، والمعنى إدخالُه إياهم في الرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 518.514 ﴾

(119/514)

فصل فى قصة نبي الله أيوب

قال ابن كثير :

قال ابن إسحاق كان رجلا من الروم وهو أيوب بن موص بن زارح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل وقال غيره هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب وقيل غير ذلك في نسبه وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام وقيل كان أبوه ممن آمن بإبراهيم

(120/514)

عليه السلام يوم ألقى في النار فلم تحرقه والمشهور الأول لأنه من ذرية إبراهيم كما قررنا عند قوله تعالى ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون الآيات من أن

الصحيح أن الضمير عائد على إبراهيم دون نوح عليهما السلام وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله تعالى إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب الآية فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق وامرأته قيل اسمها ليا بنت يعقوب وقيل رحمه بنت أفرائيم وقيل منشا بن يوسف بن يعقوب وهذا أشهر فلهذا ذكرناه هاهنا ثم نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان قال الله تعالى وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين وقال تعالى في سورة ص واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب وروى ابن عساكر من طريق الكلبي أنه قال أول نبي بعث إدريس ثم نوح ثم إبراهيم ثم إسماعيل ثم إسحاق ثم يعقوب ثم يوسف ثم لوط ثم هود ثم صالح ثم شعيب ثم موسى وهارون ثم الياس ثم اليسع ثم عرفي (1) بن سويلخ بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب ثم يونس بن متي من بني يعقوب ثم أيوب بن زراح (2) بن آموص بن لبفرز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم وفي بعض هذا الترتيب نظر فإن هودا وصالحا المشهور أنهما بعد نوح وقبل إبراهيم والله أعلم

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض البثينة من أرض حوران

(121/514)

وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له وكان له أولاد وأهلون كثير فسلب من ذلك جميعه وابتلى في جسده بأنواع البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله عز وجل بها وهو في ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومسائه وطال مرضه حتى عافه الجليس وأوحش منه الأنيس وأخرج من بلده وألقي على مزبلة خارجها وانقطع عنه الناس ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته كانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته وضعف حالها وقل ما لها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقود بأوده رضي الله عنها وأرضاها وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد وما يختص بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة فإنا لله وإنا إليه راجعون وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى

الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام الا صبرا واحتسابا وحمدا وشكرا حتى أن المثل ليضرب بصبره عليه السلام ويضرب المثل أيضا بما حصل له من أنواع البلايا وقد روى عن وهب بن منبه وغيره من علماء بني إسرائيل في قصة أيوب خبر طويل في كيفية ذهاب ماله وولده وبلائه في جسده والله أعلم بصحته وعن مجاهد أنه قال كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدري وقد اختلفوا في مدة بلواه على أقوال فزعم وهب أنه ابتلى ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص وقال أنس ابتلى سبع سنين وأشهرا وألقى على مزبلة لبني إسرائيل تختلف الدواب في جسده حتى فرج الله عنه وعظم له الأجر وأحسن الثناء عليه

(122/514)

وقال حميد مكث في بلواه ثمانية عشرة سنة وقال السدي تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته فلما طال عليها قالت يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك فقال قد عشت سبعين سنة صحيحا فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة فجزعت من هذا الكلام وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها لعلمهم أنها امرأة أيوب خوفا أن ينالهم من بلائه أو تعديهم

بمخالطته فلما لم تجد أحدا يستخدمها عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير فأتت به أيوب فقال من أين لك هذا وأنكره فقالت خدمت به أناسا فلما كان الغد لم تجد أحدا فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به فأنكره أيضا وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام فكشفت عن رأسها خمارها فلما رأى رأسها محلوقا قال في دعائه ان مسني الضر وأنت أرحم الراحمين

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا جرير بن حازم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال كان لأيوب إخوان فجاءا يوما فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد فقال احدهما لصاحبه لو كان الله علم من أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا فجزع أيوب من قولهما جزعا لم يجزع من شيء قط قال اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعانا وأنا أعلم مكان جائع فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان ثم قال اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصان قط وأنا أعلم مكان عار فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان ثم قال اللهم بعزتك وخر ساجدا فقال اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبدا حتى تكشف عني فما رفع رأسه حتى كشف عنه

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعا حدثنا يونس بن عبد الأعلى انبئنا ابن وهب أخبرني

نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من اخوانه كانا من أخص اخوانه له كانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه يعلم الله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين قال له صاحبه وما ذاك قال منذ ثماني عشر سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له فقال أيوب لا أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا في حق قال وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع فلما كان ذات يوم أبطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فاستبطأته فتلقته تنظر وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان فلما رأته قالت أي بارك الله فيك هل رأيت بنى الله هذا المبتلى فوالله على ذلك ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحا قال فأنى أنا هو قال وكان له اندران اندر للقمح واندر للشعير فبعث الله سحابتين فلما كانت احداهما على اندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وافرغت الأخرى في اندر الشعير الورق حتى فاض هذا لفظ ابن جرير وهكذا رواه بتمامه ابن حبان في صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبة عن حرملة عن ابن وهب به وهذا غريب رفعه

جدا والأشبه أن يكون موقوفا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا موسى بن اسمعيل حدثنا حماد انبئنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب وجلس في ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت يا عبد الله هذا المبتلى الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب وجعلت تكلمه ساعة قال ولعل أنا أيوب قالت أتسخر مني يا عبد الله فقال ويحك أنا أيوب قد رد الله علي جسدي

(124/514)

قال ابن عباس ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم وقال وهب بن منبه أوحى الله إليه قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قربانا واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك رواه ابن أبي حاتم وقال ابن أبي حاتم ثنا أبو زرعة حدثنا عمرو بن مرزوق حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جرادا من ذهب فجعل يأخذ بيده ويجعل في ثوبه قال فقيل له يا أيوب أما تشبع قال يا رب ومن يشبع من رحمتك وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبي داود الطيالسي وعبد الصمد عن همام عن قتادة به ورواه ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن

محمد الأزدي عن إسحاق بن راهويه عن عبد الصمد به ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب وهو على شرط الصحيح فالله أعلم

وقال الإمام أحمد ثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أرسل على أيوب رجل من جراد من ذهب فجعل يقبضها في ثوبه فقيل يا أيوب ألم يكفك ما أعطيناك قال أي رب ومن يستغني عن فضلك هذا موقوف وقد روى عن أبي هريرة من وجه أخر مرفوعا

(125/514)

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثي في ثوبه فناداه ربه عز وجل يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى قال بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك رواه البخاري من حديث عبد الرزاق به وقوله أركض برجلك أي اضرب الأرض برجلك فامتثل ما أمر به فانبع الله له عينا باردة الماء وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى والسقم والمرض الذي كان في جسده ظاهرا وباطنا وابدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالا تاما ومالا كثيرا حتى صب له من المال صبا مطرا عظيما جرادا من ذهب واخلف الله له

أهله كما قال تعالى وآتيناه أهله ومثلهم معهم فقيل أحياهم الله بأعيانهم وقيل آجره فيمن سلف وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة وقوله رحمة من عندنا أي رفعنا عنه شدته وكشفنا ما به من ضر رحمة منا به ورأفة واحسانا وذكرى للعابدين أي تذكرة لمن ابتلى في جسده أو ماله أو ولده فله أسوة بنبي الله أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه

ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال هي رحمة من هذه الآية فقد ابعد النجعة واغرق النزع وقال الضحاك عن ابن عباس رد الله إليها شبابها وزادها حتى ولدت له ستة وعشرون ولدا ذكرا

(126/514)

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بارض الروم على دين الحنيفية ثم غيروا بعده دين إبراهيم وقوله خذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط فقيل حلفه ذلك لبيعها ضفائرها وقيل لأنه عرضها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فاتته خبرته فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربها مائة سوط

فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثا وهو كالعثكال الذي يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ويكون هذا منزلا منزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحنث وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة رضي الله عنها ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها بقوله إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة في باب الإيمان والنذور وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الإيمان وصدوره بهذه الآية الكريمة

وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب وسنذكر طرفا من ذلك في كتاب الأحكام عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ أن أيوب عليه السلام لما توفي كان عمره ثلاثا وتسعين سنة وقيل إنه عاش أكثر من ذلك وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء وبيوسف عليه السلام على الأرقاء وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء رواه ابن عساكر بمعناه وأنه أوصى إلى ولده حومل وقام بالأمر بعده ولده بشر بن أيوب وهو الذي يزعم كثير من الناس أنه ذو الكفل فالله أعلم ومات ابنه هذا وكان نبيا فيما يزعمون وكان عمره من السنين خمسا وسبعين ولنذكر ههنا قصة ذي

الكفل إذ قال بعضهم إنه ابن أيوب عليها السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البداية والنهاية حـ 1 صـ 220. 225﴾

(127/514)

فصل فى قصة ذي الكفل عليه السلام

قال ابن كثير :

الذي زعم قوم أنه ابن أيوب قال الله تعالى بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضا في سورة ص واذكر عبادنا ابراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي عليه من ربه الصلاة والسلام وهذا هو المشهور وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيا وانما كان رجلا صالحا وحكما مقسطا عادلا وتوقف ابن جرير في ذلك فالله أعلم

وروى ابن جرير وابن أبي نجيح عن مجاهد أنه لم يكن نبيا وانما كان رجلا صالحا وكان قد

تكفل لبني قومه ان يكفيه أمرهم ويقضي بينهم بالعدل فسمى ذا الكفل وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق داود بن أبي هند عن مجاهد أنه قال لما كبر اليسع قال لو أني استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل فجمع الناس فقال من يتقبل لي بثلاث استخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب قال فقام رجل تزدريه العين فقال أنا فقال أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب قال نعم قال فردهم ذلك اليوم وقال مثلها اليوم الآخر فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقال أنا فاستخلفه قال فجعل ابليس يقول للشياطين عليكم بفلان فاعياهم ذلك فقال دعوني واياه فأتاه في صورة شيخ كبير فقير وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا قال شيخ كبير مظلوم قال فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه فقال إن بيني وبين قومي خصومة وانهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا حتى حضر الرواح وذهبت القائلة وقال إذا رحت فأتني آخذ

(128/514)

لك بحقك فانطلق وراح فكان في مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه

فدق الباب فقال من هذا فقال الشيخ الكبير المظلوم ففتح له فقال ألم أقل لك إذا قعدت فأتني فقال إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك وإذا قمت جحدوني قال فانطلق فإذا رحت فأتني قال ففاتته القائلة فراح فجعل ينتظر فلا يراه وشق عليه النعاس فقال لبعض أهله لا تدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فاني قد شق علي النوم فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل وراءك وراءك فقال إني قد أتيته أمس فذكرت له أمري فقال لا والله لقد أمرنا أن لا ندع أحدا يقربه فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها فإذا هو في البيت وإذا هو يدق الباب من داخل قال فاستيقظ الرجل فقال يا فلان ألم آمرك قال أما من قبلي والله فلم تؤت فانظر من أين أتيت قال فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه وإذا الرجل معه في البيت فعرفه فقال أعدو الله قال نعم أعييتني في كل شيء ففعلت ما ترى لأغضبنك فسماه الله ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به

(129/514)

وقد روى ابن أبي حاتم أيضا عن ابن عباس قريبا من هذا السياق وهكذا روى عن عبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس وابن حجيرة الأكبر وغيرهم من السلف نحو هذا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الجماهر أنبئنا سعيد بن بشير حدثنا قتادة عن كنانة بن

الأخنس قال سمعت الأشعري يعني أبا موسى رضي الله عنه وهو على هذا المنبر يقول ما كان ذو الكفل نبيا ولكن كان رجلا صالحا يصلي كل يوم مائة صلاة فتكفل له ذو الكفل من بعده يصلي كل يوم مائة صلاة فسمى ذا الكفل ورواه ابن جرير من طريق عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال قال أبو موسى الأشعري فذكره منقطعا فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن عبد الله بن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لو لم أسمعه الا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرار ولكن قد سمعته أكثر من ذلك قال كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فاتته امرأة فاعطاها ستين دينارا على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارعدت وبكت فقال لها ما يبكيك أكرهتك قالت لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط وإنما حملتني عليه الحاجة قال فتفعلين هذا ولم تفعليه قط ثم نزل فقال اذهبي بالدنانير لك ثم قال والله لا يعصي الله الكفل أبدا فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه قد غفر الله لكفل ورواه الترمذي من حديث الأعمش به وقال حسن وذكر ان بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر فهو حديث غريب جدا وفي اسناده نظر فان سعدا هذا قال أبو حاتم لا أعرفه الا بحديث واحد ووثقه ابن حبان ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عبد الله الرازي هذا فالله أعلم

أهـ ﴿البداية والنهاية حـ 1 صـ 225. 226﴾

قوله تعالى ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم أتبعهم من هو أغرب حالاً منهم في الحفظ فقال ﴿ وذا النون ﴾ أي اذكره ﴿ إذ ذهب مغاضباً ﴾ أي على هيئة الغاضب لقومه بالهجرة عنهم ، ولربه بالخروج عنهم دون الانتظار لإذن خاص منه بالهجرة ، وروي عن الحسن أن معنى ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ أن لن نعاقبه بهذا الذنب ، أي ظن أنا نفعل معه من لا يقدر ، وهو تعبير عن اللازم بالملزوم مثل التعبير عن العقوبة بالغضب ، وعن الإحسان بالرحمة وفي أمثاله كثرة ، فهو أحسن الأقوال وأقومها - رواه البيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن قتادة عنه وعن مجاهد مثله وأسند من غير طريق عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ معناه ، وكذا قال الأصبهاني عنه أن معناه : لن نقضي عليه بالعقوبة ، وأنه قال أيضاً ما معناه : فظن أن لن

نضيق عليه الخروج ، من القدر الذي معناه الضيق ، لا من القدرة ، ومنه ﴿ فقدر عليه رزقه ﴾ [الفجر : 16] وروى البيهقي أيضاً عن الفراء أن نقدر بمعنى نقدر – مشدداً وبحكم ، وأنشد عن ابن الأنباري عن أبي صخر الهذلي :

ولا عائداً ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر ﴿ فنادى ﴾ أي فاقتضت حكمتنا أن عاتبناه حتى استسلم فألقى نفسه في البحر فالتقمه الحوت وغاص به إلى قرار البحر ومنعناه من أن يكون له طعاماً ، فنادى ﴿ في الظلمات ﴾ من بطن الحوت الذي في أسفل البحر في الليل ، فهي ظلمات ثلاث – نقله ابن كثير عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما ـ رضى الله عنهم ـ م .

﴿ أن لا إله إلا أنت ﴾ .

(131/514)

ولما نزهه عن الشريك عم فقال : ﴿ سبحانك ﴾ أي تنزهت عن كل نقص ، فلا يقدر على الإنجاء من مثل ما أنا فيه غيرك ؛ ثم أفصح بطلب الخلاص بقوله ناسباً إلى نفسه من النقص ما نزه الله عن مثله : ﴿ إني كنت ﴾ أي كوناً كبيراً ﴿ من الظالمين ﴾ أي في خروجي من بين قومي قبل الإذن ، فاعف عني كما هي شيمة القادرين ، ولذلك قال تعالى مسبباً عن

دعائه : ﴿ فاستجبنا له ﴾ أي أوجدنا الإجابة إيجاد من هو طالب لها تصديقاً لظنه أن لن نعاقبه " أنا عند ظن عبدي بي " والآية تفهم أن شرط الكون مع من يظن الخير دوام الذكر وصدق الإلتجاء ، وقال الرازي في اللوامع : وشرط كل من يلتجىء إلى الله أن يبتدىء بالتوحيد ثم بالتسبيح والثناء ثم بالاعتراف والاستغفار والاعتذار ، وهذا شرط كل دعاء – انتهى .

ولما كان التقدير : فخلصناه مما كان فيه ، عطف عليه قوله ، تنبيهاً على أنهما نعمتان لأن أمره مع صعوبته كان في غاية الغرابة : ﴿ ونجيناه ﴾ أي بالعظمة البالغة تنجية عظيمة ، وأنجيناه إنجاء عظيماً ﴿ من الغم ﴾ الذي كان ألجأه إلى المغاضبة ومن غيره ، قال الرازي : وأصل الغم الغطاء على القلب – انتهى .

فألقاه الحوت على الساحل وأظله الله بشجرة القرع .

(132/514)

ولما كان هذا وما تقدمه أموراً غريبة ، أشار إلى القدرة على أمثالها من جميع الممكنات ، وأن ما فعله من إكرام أنبيائه عام لأتباعهم بقوله : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك الإنجاء العظيم الشأن والتنجية ﴿ ننجي ﴾ أي بمثل ذلك العظمة ﴿ المؤمنين ﴾ إنجاء عظيماً

وننجيهم تنجية عظيمة ، ذكر التنجية أولاً يدل على مثلها ثانياً ، وذكر الإنجاء ثانياً يدل على مثله أولاً وسر ذلك الإشارة إلى شدة العناية بالمؤمنين لأنهم ليس لهم كصبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام – بما أشار إليه بحديث " أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل " " يبتلى المرء على قدر دينه " فيسلهم سبحانه من البلاء كما تسل الشعرة من العجين ، فيكون ذلك مع السرعة في لطافة وهناء – بما أشارت إليه قراءة ابن عامر وأبي بكر عن عاصم ـ رضى الله عنهم ـ بتشديد الجيم لإدغام النون الثانية فيه ، أو يكون المعنى أن من دعا منهم بهذا الدعاء أسرع نجاته ، فإن المؤمن متى حصلت له هفوة راجع ربه فنادى معترفاً بذنبه هذا النداء ، ولاسيما إن مسه بسوط الأدب ، فبادر إليه الهرب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 105.106 ﴾

(133/514)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ ﴾

(القصة الثامنة ، قصة يونس عليه السلام)

اعلم أن ههنا مسائل :

المسألة الأولى :

أنه لا خلاف في أن ذا النون هو يونس عليه السلام لأن النون هو السمكة ، وقد ذكرنا أن الاسم إذا دار بين أن يكون لقباً محضاً وبين أن يكون مفيداً ، فحمله على المفيد أولى ، خصوصاً إذا علمت الفائدة التي يصلح لها ذلك الوصف .

المسألة الثانية :

اختلفوا في أن وقوعه عليه السلام في بطن السمكة كان قبل اشتغاله بأداء رسالة الله تعالى أو بعده .

أما القول الأول : فقال ابن عباس رضي الله عنه : كان يونس عليه السلام وقومه يسكنون فلسطين ، فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً ، وبقي سبطان ونصف . فأوحى الله تعالى إلى شعيب النبي عليه السلام أن اذهب إلى حزقيل الملك وقل له حتى يوجه نبياً قوياً أميناً فإني ألقى في قلوب أولئك أن يرسلوا معه بني إسرائيل .

فقال له الملك : فمن ترى وكان في مملكته خمسة من الأنبياء ، فقال يونس بن متى : فإنه قوي أمين فدعا الملك بيونس وأمره أن يخرج فقال يونس : هل أمرك الله بإخراجي ؟ قال : لا ، قال فهل سماني لك ؟ قال : لا قال فههنا أنبياء غيري ، فألحوا عليه فخرج مغاضباً للملك ولقومه فأتى بحر الروم فوجد قوماً هيأوا سفينة فركب معهم فلما تلججت السفينة تكفأت بهم وكادوا أن يغرقوا ، فقال الملاحون : ههنا رجل عاص أو عبد آبق لأن السفينة لا تفعل هذا من غير ريح إلا وفيها رجل عاص ، ومن رسمنا أنا إذا ابتلينا بمثل هذا البلاء أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر ، ولأن يغرق [و] أحد خير من أن تغرق السفينة ، فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام ، فقال : أنا الرجل العاصي والعبد الآبق ، وألقى نفسه في البحر فجاء حوت فابتلعه ، فأوحى الله تعالى إلى الحوت لا تؤذ منه شعرة .

فإني جعلت بطنك سجناً له ولم أجعله طعاماً لك ، ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت نبذه بالعراء كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد ، فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد ، فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام فقيل له : أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون ، حيث لم تذهب إليهم ولم تطلب راحتهم .

ثم أوحى الله إليه وأمره أن يذهب إليهم فتوجه يونس عليه السلام نحوهم حتى دخل أرضهم وهم منه غير بعيد فأتاهم يونس عليه السلام ، وقال لملكهم إن الله تعالى أرسلني إليك لترسل معي بني إسرائيل ، فقالوا : ما نعرف ما تقول ، ولو علمنا أنك صادق لفعلنا ، ولقد أتيناكم في دياركم وسبيناكم فلو كان كما تقول لمنعنا الله عنكم ، فطاف ثلاثة أيام يدعوهم إلى ذلك فأبوا عليه فأوحى الله تعالى إليه : قل لهم إن لم تؤمنوا جاءكم العذاب فأبلغهم فأبوا ، فخرج من عندهم فلما فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه ، ثم ذكروا أمرهم وأمر يونس للعلماء الذين كانوا في دينهم ، فقالوا انظروا واطلبوه في المدينة فإن كان فيها فليس مما ذكر من نزول العذاب شيء ، وإن كان قد خرج فهو كما قال : فطلبوه فقيل لهم إنه خرج العشي فلما آيسوا أغلقوا باب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم ولا غنمهم وعزلوا الوالدة عن ولدها وكذا الصبيان والأمهات ، ثم قاموا ينتظرون الصبح .

فلما انشق الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل ما في بطونها ، وصاح الصبيان وثغت الأغنام والبقر ، فرفع الله تعالى عنهم العذاب ، فبعثوا إلى يونس عليه السلام فآمنوا به ، وبعثوا معه بني إسرائيل .

فعلى هذا القول كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت ، ودليل هذا القول قوله تعالى في سورة الصافات :

﴿ فنبذناه بالعراء وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وأرسلناه إلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات : 145 147] وفي هذا القول رواية أخرى وهي أن جبريل عليه السلام قال ليونس عليه السلام : انطلق إلى أهل نينوى وأنذرهم أن العذاب قد حضرهم ، فقال يونس عليه السلام : التمس دابة فقال الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق إلى السفينة ، وباقي الحكاية كما مرت إلى أن التقمه الحوت فانطلق إلى أن وصل إلى نينوى فألقاه هناك .

(136/514)

أما القول الثاني : وهو أن قصة الحوت كانت بعد دعائه أهل نينوى وتبليغه رسالة الله إليهم قالوا إنهم لما لم يؤمنوا وعدهم بالعذاب ، فلما كشف العذاب عنهم بعد ما توعدهم به خرج منهم مغاضباً ، ثم ذكروا في سبب الخروج والغضب أموراً .

أحدها : أنه استحى أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الكذب .

وثانيها : أنه كان من عادتهم قتل الكاذب .

وثالثها : أنه دخلته الأنفة .

ورابعها : لما لم ينزل العذاب بأولئك ، وأكثر العلماء على القول بأن قصة الحوت وذهاب

يونس عليه السلام مغاضباً بعد أن أرسله الله تعالى إليهم ، وبعد رفع العذاب عنهم .

المسألة الثالثة :

احتج القائلون بجواز الذنب على الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه .

أحدها : أن أكثر المفسرين على أنه ذهب يونس مغاضباً لربه ويقال ، هذا قول ابن مسعود وابن عباس والحسن والشعبي وسعيد بن جبير ووهب واختيار ابن قتيبة ومحمد بن جرير فإذا كان كذلك فيلزم أن مغاضبته لله تعالى من أعظم الذنوب ، ثم على تقدير أن هذه المغاضبة لم تكن مع الله تعالى بل كانت مع ذلك الملك أو مع القوم فهو أيضاً كان محظوراً لأن الله تعالى قال :

﴿ فاصبرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كصاحب الحوت ﴾ [القلم : 48] وذلك يقتضي أن ذلك الفعل من يونس كان محظوراً .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ وذلك يقتضي كونه شاكاً في قدرة الله تعالى .

وثالثها : قوله : ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ والظلم من أسماء الذم لقوله تعالى : ﴿ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ [هود : 18] .

ورابعها : أنه لو لم يصدر منه الذنب ، فلم عاقبه الله بأن ألقاه في بطن الحوت .

وخامسها : قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ فالتقمه الحوت وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات : 142] والمليم هو ذو الملامة ، ومن كان كذلك فهو مذنب .

(137/514)

وسادسها : قوله : ﴿ وَلاَ تَكُن كصاحب الحوت ﴾ فإن لم يكن صاحب الحوت مذنباً لم يجز النهي عن التشبه به وإن كان مذنباً فقد حصل الغرض .

وسابعها : أنه قال : ﴿ وَلاَ تَكُن كصاحب الحوت ﴾ وقال : ﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ﴾ [الأحقاف : 35] فلزم أن لا يكون يونس من أولي العزم وكان موسى من أولي العزم ، ثم قال : " في حقه لو كان ابن عمران حياً ما وسعه إلا اتباعي ، " وقال في يونس : " لا تفضلوني علىِّ يونس بن متى " وهذا خارج عن تفسير الآية .

والجواب عن الأول أنه ليس في الآية من غاضبه ، لكنا نقطع على أنه لا يجوز على نبي الله أن يغاضب ربه ؛ لأن ذلك صفة من يجهل كون الله مالكاً للأمر والنهي والجاهل بالله لا يكون مؤمناً فضلاً عن أن يكون نبياً ، وأما ما روي أنه خرج مغاضباً لأمر يرجع إلى الاستعداد ، وتناول النفل فمما يرتفع حال الأنبياء عليهم السلام عنه ، لأن الله تعالى إذا أمرهم بشيء فلا يجوز أن يخالفوه لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن

يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : 36] وقوله : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء : 65] إلى قوله : ﴿ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ [النساء : 65] فإذا كان في الاستعداد مخالفة لم يجز أن يقع ذلك منهم ، وإذا ثبت أنه لا يجوز صرف هذه المغاضبة إلى الله تعالى ، وجب أن يكون المراد أنه خرج مغاضباً لغير الله ، والغالب أنه إنما يغاضب من يعصيه فيما يأمره به فيحتمل قومه أو الملك أو هما جميعاً ، ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العذاب عليهم عندها ، وقرأ أبو شرف مغضباً .

(138/514)

أما قوله مغاضبة القوم أيضاً كانت محظورة لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُن كصاحب الحوت ﴾ [القلم : 48] قلنا لا نسلم أنها كانت محظورة ، فإن الله تعالى أمره بتبليغ تلك الرسالة إليهم ، وما أمره بأن يبقى معهم أبداً فظاهر الأمر لا يقتضي التكرار ، فلم يكن خروجه من بينهم معصية ، وأما الغضب فلا نسلم أنه معصية وذلك لأنه لما لم يكن منهياً عنه قبل ذلك فظن أن ذلك جائز ، من حيث إنه لم يفعله إلا غضباً لله تعالى وأنفة لدينه وبغضاً للكفر وأهله ، بل كان الأولى له أن يصابر وينتظر الإذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم ، ولهذا قال تعالى :

﴿ وَلَا تَكُن كصاحب الحوت ﴾ كأن الله تعالى أراد لمحمد صلى الله عليه وسلم أفضل المنازل وأعلاها .

والجواب عن الشبهة الثانية : وهي التمسك بقوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أن نقول من ظن عجز الله تعالى فهو كافر ، ولا خلاف أنه لا يجوز نسبة ذلك إلى آحاد المؤمنين ، فكيف إلى الأنبياء عليهم السلام فإذن لا بد فيه من التأويل وفيه وجوه : أحدها : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ لن نضيق عليه وهو كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ [العنكبوت : 12] أي يضيق : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق : 7] أي ضيق : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ [الفجر : 16] أي ضيق ومعناه أن لن نضيق عليه ، واعلم أن على هذا التأويل تصير الآية حجة لنا ، وذلك لأن يونس عليه السلام ظن أنه مخير إن شاء أقام وإن شاء خرج ، وأنه تعالى لا يضيق عليه في اختياره ، وكان في المعلوم أن الصلاح في تأخر خروجه ، وهذا من الله تعالى بيان لما يجري مجرى العذر له من حيث خرج ، لا على تعمد المعصية لكن لظنه أن الأمر في خروجه موسع يجوز أن يقدم ويؤخر ، وكان الصلاح خلاف ذلك .

(139/514)

وثانيها : أن يكون هذا من باب التمثيل بمعنى فكانت حالته ممثلة بحالة من ظن أن لن نقدر عليه في خروجه من قومه من غير انتظار لأمر الله تعالى .

وثالثها : أن تفسر القدرة بالقضاء فالمعنى فظن أن لن نقضي عليه بشدة ، وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والكلبي ، ورواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهم واختيار الفراء والزجاج ، قال الزجاج : نقدر بمعنى نقدر .

يقال : قدر الله الشيء قدراً وقدره تقديراً ، فالقدر بمعنى التقدير وقرأ عمر بن عبد العزيز والزهري : ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ بضم النون والتشديد من التقدير ، وقرأ عبيد بن عمر بالتشديد على المجهول وقرأ يعقوب : (يقدر عليه) بالتخفيف على المجهول ، وروي أنه دخل ابن عباس رضي الله عنهما على معاوية رضي الله عنه ، فقال معاوية : لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فعرفت فيها فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك فقال : وما هي ؟ قال : يظن نبي الله أن لن يقدر الله عليه ؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما هذا من القدر لا من القدرة .

ورابعها : فظن أن لن نقدر : أي فظن أن لن نفعل لأن بين القدرة والفعل مناسبة فلا يبعد جعل أحدهما مجازاً عن الآخر .

وخامسها : أنه استفهام بمعنى التوبيخ معناه أفظن أن لن نقدر عليه عن ابن زيد .

وسادسها : أن على قول من يقول هذه الواقعة كانت قبل رسالة يونس عليه السلام كان هذا

الظن حاصلاً قبل الرسالة ، ولا يبعد في حق غير الأنبياء والرسل أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان .

ثم إنه يرده بالحجة والبرهان .

والجواب عن الثالث : وهو التمسك بقوله : ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ فهو أن نقول إنا لو حملناه على ما قبل النبوة فلا كلام ، ولو حملناه على ما بعدها فهي واجبة التأويل لأنا لو أجريناها على ظاهرها ، لوجب القول بكون النبي مستحقاً للعن ، وهذا لا يقوله مسلم ، وإذا وجب التأويل فنقول لا شك أنه كان تاركاً للأفضل مع القدرة على تحصيل الأفضل فكان ذلك ظلماً .

(140/514)

والجواب عن الرابع : أنا لا نسلم أن ذلك كان عقوبة إذ الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا ، بل المراد به المحنة ، لكن كثير من المفسرين يذكرون في كل مضرة تفعل لأجل ذنب أنها عقوبة .

والجواب عن الخامس : أن الملامة كانت بسبب ترك الأفضل .

المسألة الرابعة :

قال صاحب "الكشاف" في الظلمات أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت كقوله

تعالى : ﴿ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظلمات ﴾ [البقرة : 17] وقوله : ﴿ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النور إِلَى الظلمات ﴾ [البقرة : 257] ومنهم من اعتبر أنواعاً مختلفة من الظلمات فإن كان النداء في الليل فهناك ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت ، وإن كان في النهار أضيف إليه ظلمة أمعاء الحوت ، أو أن حوتاً ابتلع الحوت الذي هو في بطنه ، أو لأن الحوت إذا عظم غوصه في قعر البحر كان ما فوقه من البحر ظلمة في ظلمة ، أما قول من قال : إن الحوت الذي ابتلعه غاص في الأرض السابعة فإن ثبت ذلك بخبر فلا كلام ، وإن قيل بذلك لكي يقع نداؤه في الظلمات فما قدمناه يغني عن ذلك .

أما قوله : ﴿ أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ ﴾ فالمعنى بأنه لا إله إلا أنت ، أو بمعنى أي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له " وعن الحسن : ما نجاه الله تعالى إلا بإقراره عن نفسه بالظلم .

أما قوله سبحانك فهو تنزيه عن كل النقائص ومنها العجز ، وهذا يدل على أنه ما كان مراده من قوله : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أنه ظن العجز ، وإنما قال : ﴿ سبحانك ﴾ لأن تقديره سبحانك أن تفعل ذلك جوراً أو شهوة للانتقام ، أو عجزاً عن تخليصي عن هذا الحبس ، بل فعلته بحق الإلهية وبمقتضى الحكمة .

أما قوله : ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ فالمعنى ظلمت نفسي بفراري من قومي بغير إذنك ، كأنه قال : كنت من الظالمين ، وأنا الآن من التائبين النادمين ، فاكشف عني المحنة ، يدل عليه قوله : ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ وفيه وجه آخر وهو أنه عليه السلام وصفه بقوله : ﴿ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ ﴾ بكمال الربوبية ووصف نفسه بقوله : ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ بضعف البشرية والقصور في أداء حق الربوبية ، وهذا القدر يكفي في السؤال على ما قال المتنبي :

وفي النفس حاجات وفيك فطانة . . سكوتي كلام عندها وخطاب

وروى عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما أراد الله حبس يونس عليه السلام ، أوحى إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ، ولا تكسر له عظماً " فأخذه وهوى به إلى أسفل البحر ، فسمع يونس عليه السلام حساً ، فقال في نفسه : ما هذا ؟ فأوحى الله إليه هذا تسبيح دواب البحر ، قال فسبح ، فسمعت الملائكة تسبيحه ، فقالوا مثله .

أما قوله : ﴿ ونجيناه مِنَ الغم ﴾ أي من غمه بسبب كونه في بطن الحوت ، وبسبب خطيئته ، وكما أنجينا يونس عليه السلام من كرب الحبس إذ دعانا : كذلك ننجي المؤمنين من كربهم إذا استغاثوا بنا .

روى سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " دعوة ذي النون في بطن

الحوت لا إله إلا أنت سبحانك ، إني كنت من الظالمين ، ما دعا بها عبد مسلم قط وهو مكروب إلا استجاب الله دعاءه "

قال صاحب "الكشاف" : قرىء ننجي وننجي ونجى والنون لا تدغم في الجيم ، ومن تمحل لصحته فجعله فعل وقال : نجى النجاء المؤمنين فأرسل الياء وأسنده إلى مصدره ، ونصب المؤمنين بالنجاء ، فتعسف بارد التعسف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 188.183 ﴾

(142/514)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ ﴾

وهو يونس بن متى ، سمي بذلك لأنه صاحب الحوت ، كما قال تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ [القلم : 48] والحوت النون ، نسب إليه لأنه ابتلعه ، ومنه قول الشاعر :

يا جيد القصر نعم القصر والوادي . . . وجيداً أهله من حاضر بادي

توفي قراقره والوحش راتعه . . . والضب والنون والملاح والحادي

يعني أنه يجتمع فيه صيد البر والبحر ، وأهل المال والظهر ، وأهل البدو والحضر .

﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني مراغماً للملك وكان اسمه حزقيا ولم يكن به بأس ، حكاه النقاش .

الثاني : مغاضباً لقومه ، قاله الحسن .

الثالث : مغاضباً لربه ، قاله الشعبي ، ومغاضبته ليست مراغمة ، لأن مراغمة الله كفر لا تجوز على الأنبياء ، وإنما هي خروجه بغير إذن ، فكانت هي معصيته .

وفي سبب ذهابه لقومه وجهان :

أحدهما : أنه كان في خُلُقِه ضيق ، فلما حملت عليه أثقال النبوة ضاق ذرعه بها ولم يصبر لها ، وكذلك قال الله : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : 35] قاله وهب .

الثاني : أنه كان من عادة قومه أن من كذب قتلوه ، ولم يجربوا عليه كذباً ، فلما أخبرهم أن العذاب يحل بهم ورفعه الله عنهم ، قال لا أرجع إليهم كذّاباً ، وخاف أن يقتلوه فخرج هارباً .

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : فظن أن لن نضيق طرقه ، ومنه قوله : ﴿ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق : 7

] أي ضيق عليه ، قاله ابن عباس .

الثاني : فظن أن لن نعاقبه بما صنع ، قاله قتادة ، ومجاهد .

(143/514)

الثالث : فظن أن لن نحكم عليه بما حكمنا ، حكاه ابن شجرة ، قال الفراء : معناه لن نُقدرَ عليه من العقوبة ما قَدَّرْنَا ، مأخوذ من القدر ، وهو الحكم دون القدرة ، وقرأ ابن عباس : نقدّر بالتشديد ، وهو معنى ما ذكره الفراء ، ولا يجوز أن يكون محمولاً على العجز عن القدرة عليه لأنه كفر .

الرابع : أنه على معنى استفهام ، تقديره : أفظن أن لن نقدر عليه ، فحذف ألف الاستفهام إيجازاً ، قاله سليمان بن المعتمر .

﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنها ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة جوف الحوت ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

الثاني : وقتادة .

الثاني : أنها ظلمة الحوت في بطن الحوت ، قاله سالم بن أبي الجعد .

ويحتمل ثالثاً : أنها ظلمة الخطيئة ، وظلمة الشدة ، وظلمة الوحدة .

﴿ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ يعني لنفسي في الخروج من غير أن تأذن لي ، ولم يكن ذلك عقوبة من الله ، لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا ، وإنما كان تأديباً ، وقد يؤدب من لا يستحق العقاب كالصبيان .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ وفي استجابة الدعاء قولان :

أحدهما : أنه ثواب من الله للداعي ولا يجوز أن يكون غير ثواب .

والثاني : أنه استصلاح فربما كان ثواباً وربما كان غير ثواب .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : من الغم بخطيئته .

الثاني : من بطن الحوت لأن الغم التغطية . وقيل : إن الله أوحى إلى الحوت ألاّ تكسر له عظماً ، ولا تخدش له جلداً .

وحينما صار في بطنه : قال يا رب اتخذتَ لي مسجداً في مواضع ما اتخذها أحد .

وفي مدة لبثه في بطن الحوت ثلاثة أقاويل :

أحدها : أربعون يوماً .

الثاني : ثلاثة أيام .

الثالث : من ارتفاع النهار إلى آخره . قال الشعبي : أربع ساعات ، ثم فتح الحوت فاه فرأى

يونس ضوء الشمس ، فقال : سبحانك إني كنت من الظالمين ، فلفظه الحوت . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(144/514)

وقال ابن عطية :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى ﴾

التقدير واذكر " ذا النون " والنون الحوت وصاحبه يونس بن متَّى عليه السلام ، ونسب إلى الحوت الذي التقمه على الحالة التي يأتي ذكرها في موضعها الذي يقتضيه وهو نبي من أهل نينوى وهذا هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، " من قال إني خير من يونس بن متى فقد كذب " ، وفي حديث آخر " لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى " ، وهذا الحديث وقوله " لا تفضلوني على موسى " يتوهم أنها يعارضان قوله عليه السلام على المنبر " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " والانفصال عن هذا بوجهين أحدهما ذكره الناس وهو أن يكون قوله " أنا سيد ولد آدم " متأخراً في التاريخ وأنها منزلة أعلمه الله تعالى بها لم يكن علمها وقت تلك المقالات الأخر ، والوجه الثاني وهو عندي أحرى مع حال النبي عليه السلام ، أنه إنما نهي عن التفضيل بين شخصين مذكورين وذهب مذهب التواضع ولم

يزل سيد ولد آدم ولكنه نهى أن يفضل على موسى كراهية أن تغضب لذلك اليهود فيزيد نفارها عن الإيمان ، وسبب الحديث يقتضي هذا ، وذلك أن يهودياً قال لا والذي فضل موسى على العالمين ، فقال له رجل من الأنصار تقول هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ولطمه فشري الأمر وارتفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنهى عن تفضيله على موسى ونهى عليه السلام عن تفضيله على يونس لئلا يظن أحد بيونس نقص فضيلة بسبب ما وقع له ، فنهيه عليه السلام عن التفضيل على شخص معين وقوله في حديث ثالث " لا تفضلوا بين الأنبياء " وهذا كله مع قوله : " أنا سيد ولد آدم " وإطلاق الفضل له دون اقتران بأحد ، بين صحيح وتأمل هذا ، فإنه يلوح وقد قال عمر رضي الله عنه للحطيئة امدح ممدوحك ولا تفضل بعض الناس على بعض .

(145/514)

قال القاضي أبو محمد : ولفظة سيد ولفظة خير شيئان ، فهذا مبدأ جمع آخر بين الأحاديث يذهب ما يظن من التعارض ، وقوله ﴿ مغاضباً ﴾ قيل إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعنتهم فذهب فاراً بنفسه وقد كان الله تعالى أمره بملازمتهم والصبر على دعائهم فكان ذنبه في مخالفة هذا الأمر ، وروي أنه كان شاباً فلم يحمل أثقال النبوءة

وتفسخ تحتها كما يتفسخ الربع تحت الحمل ولهذا قيل للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ [القلم : 48] أي اصبر ودم على الشقاء بقومك ، وقالت فرقة إنما غاضب الملك الذي كان على قومه ع وهذا نحو من الأول فيما يلحق منه يونس عليه السلام ، وقال الحسن بن أبي الحسن وغيره إنما ذهب ﴿ مغاضباً ﴾ ربه واستفزه إبليس ، ورووا في ذلك أن يونس لما طال عليه أمر قومه طلب من الله تعالى عذابهم فقيل له إن العذاب يجيئهم يوم كذا ، فأخبرهم يونس بذلك فقالوا إن رحل عنا فالعذاب نازل وإن أقام بيننا لم نبال ، فلما كان سحر ذلك اليوم قام يونس فرجل فأيقنوا بالعذاب فخرجوا بأجمعهم إلى البراز ، وفرقوا بين صغار البهائم وأمهاتها وتضرعوا وتابوا ، فرفع الله تعالى عنهم العذاب وبقي يونس في موضعه الذي خرج إليه فنظر فلما عرف أَنهم لم يعذبوا ساءه أن عدوه كاذباً وقال والله لا انصرفت إليهم أَبداً .

(146/514)

وروي أنه كان من دينهم قتل الكذاب فغضب حينئذ على ربه وخرج على وجهه حتى دخل في سفينة في البحر ع وفي هذا القول من الضعف ما لا خفاء به مما لا يتصف به نبي ، واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿ فظن أَن لن نقدر عليه ﴾ فقالت فرقة استزله إبليس

ووقع في ظنه إمكان أن لا يقدر الله عليه بمعاقبة ع وهذا قول مردود ، وقالت فرقة ظن أَن لن يضيق عليه في مذهبه من قوله تعالى : ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ [الإسراء : 30] ، وقالت فرقة هو من القدر ، أي ظن أن لن يقدر الله عليه بعقوبة ، وقالت فرقة الكلام بمعنى الاستفهام ، أَي أفظن أن لن يقدر الله عليه ، وحكة منذر بن سعيد أَن بعضهم قرأ " أفظن " بالألف ، وقرأ الزهري " تُقَدّر " بضم النون وفتح القاف وشد الدال ، وقرأ الحسن " يقدر " وعنه أَيضاً " نقدر " ، وبعد هذا الكلام حذف كثير أقتضب لبيانه في غير هذه الآية ، المعنى فدخل البحر وكذا حتى التقمه الحوت وصار في ظلمة جوفه ، واختلف الناس في جمع ﴿ الظلمات ﴾ ما المراد به فقالت فرقة ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الحوت ، وقالت فرقة ظلمة البحر وظلمة الحوت التقم الحوت الأول الذي التقم يونس ع ويصح أن يعبر ب ﴿ الظلمات ﴾ عن جوف الحوت الأول فقط كما قال في غيابات الجب وفي كل جهاته ظلمة فجمعها سائغ ، وروي أن يونس سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر ثم قال في دعائه " اللهم إني قد اتخذت لك مسجداً في موضع لم يتخذه أحد من قبلي " و ﴿ أن ﴾ مفسرة نحو قوله تعالى ﴿ أن امشوا ﴾ [ص : 6] وفي هذا نظر وقوله تعالى : ﴿ من الظالمين ﴾ يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم هذا أحسن الوجوه وقد تقدم ذكر غيره فاستجاب الله تعالى له وأخرجه إلى البر ، ووصف هذا يأتي في موضعه ، و ﴿ الغم ﴾ ما كان ناله حين التقمه الحوت ، وقرأ

الجمهور القراء " ننْجي " بنونين الثانية ساكنة ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر " نُجي " بنون واحدة مضمونة

(147/514)

وشد الجيم ، ورويت عن أبي عمرو ، وقرأت فرقة " نُنَجّي " بنونين الأولى مضمونة والثانية مفتوحة والجيم مشددة ، فأما القراءة الأولى والثالثة فبينتان الأولى فعلها معدى بالهمزة والأخرى بالتضعيف ، وأَما القراءة الوسطى التي هي بنون واحدة مضمونة وجيم مشددة وياء ساكنة فقال أَبو علي لا وجه لها وإنما هي وهم من السامع ، وذلك أن عاصماً قرأ " ننجي " والنون الثانية لا يجوز إظهارها لأنها تخفى مع هذه الحروف يعني الجيم وما جرى مجراها فجاء الإخفاء يشبهها بالإدغام ، ويمتنع أن يكون الأصل " ننجي " ثم يدعوا اجتماع النونين إلى إدغام إحداهما في الجيم لأَن اجتماع المثلين إنما يدعو إلى ذلك إذا كانت الحركة فيهما متفقة ، ويمتنع أَن يكون الأصل " نجي " وتسكن الياء ويكون المفعول الذي لم يسم فاعله المصدر كأنه قال " نجي " النجاء المؤمنين لأن هذه لا تجيء إلا في ضرورة فليست في كتاب الله والشاهد فيها قول الشاعر : [الوافر]

ولو ولدت قفيزة جرو كلب . . . لسب بذلك الجرو الكلابا

وأيضاً فإن الفعل الذي يبنى للمفعول إذا كان ماضياً لم يسكن آخره ع والمصاحف فيها نون واحدة كتبت كذلك من حيث النون الثانية مخفية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(148/514)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وذا النُّون ﴾ يعني : يونس بن متّى .

والنون : السمكة ؛ أُضيف إليها لابتلاعها إياه .

قوله تعالى : ﴿ إذ ذهب مغاضِباً ﴾ قال ابن قتيبة : المُغاضَبة : مُفاعَلة ، وأكثر المفاعَلة من اثنين ، كالمناظَرة والمجادَلة والمخاصَمة ، وربما تكون من واحد ، كقولك : سافرت ، وشارفت الأمر ، وهي هاهنا من هذا الباب .

وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وعاصم الجحدري ، وابن السميفع : "مُغْضَباً" باسكان الغين وفتح الضاد من غير ألف .

واختلفوا في مغاضبته لمن كانت ؟ على قولين .

أحدهما : أنه غضب على قومه ، قاله ابن عباس ، والضحاك .

وفي سبب غضبه عليهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الله تعالى أوحى إلى نبي يقال له : شعيا : أن ائت فلاناً الملك ، فقل له : يبعث نبيّاً أميناً إلى بني إسرائيل ، وكان قد غزا بني إسرائيل ملك ، وسبا منهم الكثير ، فأراد النبي والملك أن يبعثا يونس إلى ذلك الملك ليكلّمه حتى يرسلَهم ، فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله باخراجي ؟ قال : لا ، قال : فهل سماني لك ؟ قال : لا ، قال : فها هنا غيري من الأنبياء ، فألَحُّوا عليه ، فخرج مغاضباً للنبيّ والملك ولقومه ، هذا مروي عن ابن عباس ؛ وقد زدناه شرحاً في [يونس : 98] .

والثاني : أنه عانى من قومه أمراً صعباً من الأذى والتكذيب ، فخرج عنهم قبل أن يؤمنوا ضجراً ، وما ظنَّ أن هذا الفعل يوجب عليه ما جرى من العقوبة ، ذكره ابن الأنباري .

وقد روي عن وهب بن منبه ، قال : لما حُملت عليه أثقالُ النبوَّة ، ضاق بها ذرعاً ولم يصبر ، فقذفها من يده وخرج هارباً .

والثالث : أنه لمَّا أوعدهم العذاب ، فتابوا ورُفع عنهم ، قيل له : ارجع إليهم ، فقال : كيف أرجع فيجدوني كاذباً ؟ فانصرف مغاضباً لقومه ، عاتباً على ربِّه .

وقد ذكرنا هذا في [يونس : 98] .

والثاني : أنه خرج مغاضباً لربِّه ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير ، والشعبي ، وعروة .

وقال أبو بكر النقاش : المعنى : مغاضباً من أجل ربِّه ، وإنما غضب لأجل تمرُّدهم وعصيانهم .

وقال ابن قتيبة : كان مَغِيظاً عليهم لطول ما عاناه من تكذيبهم ، مشتهياً أن ينزل العذاب بهم ، فعاقبه الله على كراهيته العفو عن قومه .

قوله تعالى : ﴿ فظَنَّ أن لن نَقْدِرَ عليه ﴾ وقرأ يعقوب : "يُقَدَّر" بضم الياء وتشديد الدال وفتحها .

وقرأ سعيد بن جبير ، وأبو الجوزاء ، وابن أبي ليلى : "يُقْدَرَ" بياء مرفوعة مع سكون القاف وتخفيف الدال وفتحها .

وقرأ أبو عمران الجوني : "يَقْدِرَ" بياء مفتوحة وسكون القاف وكسر الدال خفيفة .

وقرأ الزهري ، وابن يعمر ، وحميد بن قيس : "نُقَدِّرَ" بنون مرفوعة وفتح القاف وكسر الدال وتشديدها .

ثم فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن لن نقضي عليه بالعقوبة ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك .

قال الفراء : معنى الآية : فظن أن لن نقدر عليه ما قدرنا من العقوبة ، والعرب تقول : قَدَر ،

بمعنى : قَدَّر ، قال أبو صخر :

ولا عَائداً ذاكَ الزمانُ الذي مضى . . .

تباركتَ مَا تَقْدِرْ يَكُنْ ولكَ الشُّكرُ

أراد : ما تقدّر ، وهذا مذهب الزجاج.

والثاني : فظن أن لن نضيّق عليه ، قاله عطاء .

قال ابن قتيبة : يقال : فلان مُقَدَّر عليه ، ومُقَتَّر عليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَقَدَرَ عليه رِزقَه ﴾ [الفجر : 16] أي : ضيَّق عليه فيه .

قال النقاش : والمعنى : فظن أن لن يضيّق عليه الخروج ، فكأَنَّه ظن أن الله قد وسّع له ، إِن شاء أن يقيم ، وإِن شاء أن يخرج ، ولم يؤذّن له في الخروج .

والثالث : أن المعنى : فظن أنه يعجز ربه ، فلا يقدر عليه ، رواه عوف عن الحسن .

(150/514)

وقال ابن زيد ، وسليمان التيمي : المعنى : أفظنَّ أن لن نَقْدِر عليه ؛ فعلى هذا الوجه يكون استفهاماً قد حُذفت ألفه ؛ وهذا الوجه يدل على أنه من القدرة ، ولا يتصوّر إِلا مع تقدير الاستفهام ، ولا أعلم له وجهاً إِلا أن يكون استفهام إِنكار ، تقديره : ما ظنّ عجزنا ، فأين

يهرب منا ؟ ! .

قوله تعالى : ﴿ فنادى في الظلمات ﴾ فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، قاله سعيد ابن جبير ، وقتادة ، والأكثرون .

والثاني : أن حوتاً جاء فابتلع الحوت الذي هو في بطنه ، فنادى في ظلمة حوت ، ثم في ظلمة حوت ، ثم في ظلمة البحر ، قاله سالم ابن أبي الجعد .

والثالث : أنها ظلمة الماء ، وظلمة مِعى السمكة ، وظلمة بطنها ، قاله ابن السائب .

وقد روى سعد بن أبي وقاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إِلا فرج الله عنه ، كلمة أخي يونس : فنادى في الظلمات أن لا إله إِلا أنت ، سبحانك إِني كنت من الظالمين " قال الحسن : وهذا اعتراف [من] يونس بذنْبه وتوبة من خطيئته .

قوله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ﴾ أي : أجبناه ﴿ ونجَّيناه من الغَمِّ ﴾ أي : من الظلمات ﴿ وكذلك نُنْجِي المؤمنين ﴾ إِذا دعونا .

وروى أبو بكر عن عاصم أنه قرأ : "نُجّي المؤمنين" بنون واحدة مشددة الجيم ؛ قال الزجاج : وهذا لَحْنٌ لا وجه له ، وقال أبو علي الفارسي : غلط الراوي عن عاصم ، ويدل على

هذا إِسكانه الياء من "نُجّي" ونصب "المؤمنين" ، ولو كان على ما لم يُسم فاعله ما سكّن الياء ، ولرفع "المؤمنين" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(151/514)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَذَا النون ﴾

أي واذكر "ذَا النُّون" وهو لقب ليونس بن متى لابتلاع النون إياه .

والنون الحوت .

وفي حديث عثمان رضي الله عنه أنه رأى صبياً مليحاً فقال : دَسّموا نُونَته كي لا تصيبه العين .

روى ثعلب عن ابن الأعرابي : النّونة النقبة التي تكون في ذقن الصبي الصغير ، ومعنى دسّموا سوّدوا .

﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً ﴾ قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير : مغاضباً لربه عز وجل .

واختاره الطبري والقتبي واستحسنه المهدوي ، وروي عن ابن مسعود .

وقال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة وهو قول صحيح .

والمعنى : مغاضباً من أجل ربه ، كما تقول : غضبت لك أي من أجلك .

والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عُصي .

وأكثر أهل اللغة يذهب إلى أن " قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة : "اشترطي لهم الولاء" " من هذا .

وبالغ القتبي في نصرة هذا القول .

وفي الخبر في وصف يونس : إنه كان ضيق الصدر فلما حمل أعباء النبوّة تَفسَّخ تحتها تفسّخ الرُّبَع تحت الحمل الثقيل ، فمضى على وجهه مضي الآبق النادّ .

وهذه المغاضبة كانت صغيرة .

ولم يغضب على الله ولكن غضب لله إذ رفع العذاب عنهم .

وقال ابن مسعود : أبق من ربه أي من أمر ربه حتى أمره بالعود إليهم بعد رفع العذاب عنهم .

فإنه كان يتوعد قومه نزول العذاب في وقت معلوم ، وخرج من عندهم في ذلك الوقت ، فأظلهم العذاب فتضرعوا فرفع عنهم ولم يعلم يونس بتوبتهم ؛ فلذلك ذهب مغاضباً وكان من حقه ألا يذهب إلا بإذن محدّد .

وقال الحسن : أمره الله تعالى بالمسير إلى قومه فسأل أن ينظر ليتأهب ، فأعجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلاً ليلبسها فلم يُنظر ، وقيل له : الأمر أعجل من ذلك وكان في خلقه ضيق

فخرج مغاضباً لربه ؛ فهذا قول وقول النحاس أحسن ما قيل في تأويله .

أي خرج مغاضباً من أجل ربه ، أي غضب على قومه من أجل كفرهم بربه .

(152/514)

وقيل : إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعنتهم فذهب فارّاً بنفسه ، ولم يصبر على أذاهم وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء ، فكان ذنبه خروجه من بينهم من غير إذن من الله .

روي معناه عن ابن عباس والضحاك ، وأن يونس كان شاباً ولم يحمل أثقال النبوّة ؛ ولهذا قيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحوت ﴾ [القلم : 48] .

وعن الضحاك أيضاً خرج مغاضباً لقومه ؛ لأن قومه لما لم يقبلوا منه وهو رسول من الله عز وجل كفروا بهذا فوجب أن يغاضبهم ، وعلى كل أحد أن يغاضب من عصى الله عز وجل .

وقالت فرقة منهم الأخفش : إنما خرج مغاضباً للملك الذي كان على قومه .

قال ابن عباس : أراد شعيا النبي والملك الذي كان في وقته اسمه حزقيا أن يبعثوا يونس إلى ملك نينوى ، وكان غزا بني إسرائيل وسبى الكثير منهم ليكلمه حتى يرسل معه بني إسرائيل

، وكان الأنبياء في ذلك الزمان يوحى إليهم ، والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه ، فيعمل على وحي ذلك النبي ، وكان أوحى الله لشعيا : أن قل لحزقيا الملك أن يختار نبياً قوياً أميناً من بني إسرائيل فيبعثه إلى أهل نينوى فيأمرهم بالتخلية عن بني إسرائيل فإني ملق في قلوب ملوكهم وجبابرتهم التخلية عنهم .

فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله بإخراجي ؟ قال : لا .

قال : فهل سماني لك ؟ قال : لا .

قال : فها هنا أنبياء أمناء أقوياء .

فألحوا عليه فخرج مغاضباً للنبي والملك وقومه ، فأتى بحر الروم وكان من قصته ما كان ؛ فابتلي ببطن الحوت لتركه أمر شعيا ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فالتقمه الحوت وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات : 142] والمليم من فعل ما يلام عليه .

وكان ما فعله إما صغيرة أو ترك الأولى .

(153/514)

وقيل : خرج ولم يكن نبياً في ذلك الوقت ولكن أمره ملك من ملوك بني إسرائيل أن يأتي نينوى ؛ ليدعو أهلها بأمر شعيا فأنف أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحد غير الله ، فخرج مغاضباً

للملك ؛ فلما نجا من بطن الحوت بعثه الله إلى قومه فدعاهم وآمنوا به .

وقال القشيري : والأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه ، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلهم ؛ فإنه كره رفع العذاب عنهم .

قلت : هذا أحسن ما قيل فيه على ما يأتي بيانه في "والصافات" إن شاء الله تعالى .

وقيل : إنه كان من أخلاق قومه قتل من جربوا عليه الكذب فخشي أن يقتل فغضب ، وخرج فارّاً على وجهه حتى ركب في سفينة فسكنت ولم تجر .

فقال أهلها : أفيكم آبق ؟ فقال : أنا هو .

وكان من قصته ما كان ، وابتلي ببطن الحوت تمحيصاً من الصغيرة كما قال في أهل أحدٍ : ﴿ حتى إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ [آل عمران : 152] إلى قوله : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الذين آمَنُواْ ﴾ [آل عمران : 141] فمعاصي الأنبياء مغفورة ، ولكن قد يجري تمحيص ويتضمن ذلك زجراً عن المعاودة .

وقول رابع : إنه لم يغاضب ربه ، ولا قومه ، ولا الملك ، وأنه من قولهم غضب إذا أنف .

وفَاعَل قد يكون من واحد ؛ فالمعنى أنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف عنهم العذاب ، فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج آبقاً .

وينشد هذا البيت :

وأغضب أن تُهجى تميم بدارم . . .

أي آنف .

وهذا فيه نظر ؛ فإنه يقال لصاحب هذا القول : إن تلك المغاضبة وإن كانت من الأنفة ، فالأنفة لا بد أن يخالطها الغضب وذلك الغضب وإن دق على من كان ؟ ! وأنت تقول لم يغضب على ربه ولا على قومه !

قوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فنادى فِي الظلمات ﴾ قيل : معناه استزله إبليس ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته .

وهذا قول مردود مرغوب عنه ؛ لأنه كفر .

روي عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدوي ، والثعلبي عن الحسن .

(154/514)

وذكر الثعلبي وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : فظن أن لن نضيق عليه .

قال الحسن : هو من قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد : 26] أي يضيّق .

وقوله : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق : 7] .

قلت : وهذا الأشبه بقول سعيد والحسن .

وقَدَر وقُدِرَ وقَتَر وقُتِر بمعنى ، أي ضُيِّق وهو قول ابن عباس فيما ذكره الماوردي والمهدوي .

وقيل : هو من القدر الذي هو القضاء والحكم ؛ أي فظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة ؛ قاله قتادة ومجاهد والفراء .

مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة .

وروى عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، أنه قال في قول الله عز وجل : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ هو من التقدير ليس من القدرة ، يقال منه : قدرَ الله لك الخير يقدره قدراً ، بمعنى قدّر الله لك الخير .

وأنشد ثعلب :

فليست عشيّات اللِّوَى برواجع . . .
لنا أبداً ما أورق السَّلَم النضْرُ

ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى . . .
تباركت ما تقدِر يقعْ ولك الشكرُ

يعني ما تقدّره وتقضي به يقع .

وعلى هذين التأويلين العلماء .

وقرأ عمر بن عبد العزيز والزهري : "فَظَنَّ أَنْ لَنْ نُقَدِّرَ عَلَيْهِ" بضم النون وتشديد الدال من التقدير .

وحكى هذه القراءة الماوردي عن ابن عباس .

وقرأ عبيد بن عمير وقتادة والأعرج : "أَنْ لَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ" بضم الياء مشدداً على الفعل المجهول .

وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبي إسحاق والحسن وابن عباس أيضاً "يُقْدَرَ عَلَيْهِ" بياء مضمومة وفتح الدال مخفّفاً على الفعل المجهول .

وعن الحسن أيضاً "فَظَنَّ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ" .

الباقون "نَقْدِر" بفتح النون وكسر الدال وكله بمعنى التقدير .

(155/514)

قلت : وهذان التأويلان تأولهما العلماء في قول الرجل الذي لم يعمل خيراً قط لأهله إذا مات فحرقوه : "فوالله لئن قدر الله علي" الحديث فعلى التأويل الأوّل يكون تقديره : والله لئن ضيق الله علي وبالغ في محاسبتي وجزاني على ذنوبي ليكونن ذلك ، ثم أمر أن يحرق بإفراط خوفه .

وعلى التأويل الثاني : أي لئن كان سبق في قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذي جرم على جرمه ليعذبني الله على إجرامي وذنوبي عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين غيري .

وحديثه خرجه الأئمة في الموطأ وغيره .

والرجل كان مؤمنا موحداً .

وقد جاء في بعض طرقه "لم يعمل خيراً إلا التوحيد" وقد قال حين قال الله تعالى : لم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك يا رب .

والخشية لا تكون إلا لمؤمن مصدق ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

وقد قيل : إن معنى ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ الاستفهام وتقديره : أفظن ؛ فحذف ألف الاستفهام إيجازاً ؛ وهو قول سليمان (أبو) المعتمر .

وحكى القاضي منذر بن سعيد : أن بعضهم قرأ "أفظن" بالألف .

قوله تعالى : ﴿ فنادى فِي الظلمات أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فنادى فِي الظلمات ﴾ اختلف العلماء في جمع الظلمات ما المراد به ، فقالت فرقة منهم ابن عباس وقتادة : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة الحوت .

وذكر ابن أبي الدنيا حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون قال : حدّثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال قال : لما ابتلع الحوت يونس عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض ، فسمع يونس تسبيح الحصى فنادى في الظلمات ظلمات ثلاث : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، وظلمة البحر ﴿ أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بالعرآء وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش .

وقالت فرقة منهم سالم بن أبي الجعد : ظلمة البحر ، وظلمة حوت التقم الحوت الأوّل .

ويصح أن يعبر بالظلمات عن جوف الحوت الأوّل فقط ؛ كما قال : "فِي غَيَابَات الْجُبِّ" وفي كل جهاته ظلمة فجمعها سائغ .

وذكر الماوردي : أنه يحتمل أن يعبر بالظلمات عن ظلمة الخطيئة ، وظلمة الشدّة ، وظلمة الوحدة .

وروي : أن الله تعالى أوحى إلى الحوت : "لا تؤذ منه شعرة فإني جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعامك" وروي : أن يونس عليه السلام سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر .

وذكر ابن أبي الدنيا حدثنا العباس بن يزيد العبدي حدثنا إسحاق بن إدريس حدثنا

جعفر بن سليمان عن عوف عن سعيد بن أبي الحسن قال : لما التقم الحوت يونس عليه السلام ظن أنه قد مات فطول رجليه فإذا هو لم يمت فقام إلى عادته يصلي فقال في دعائه : "واتخذت لك مسجداً حيث لم يتخذه أحد" .

وقال أبو المعالي : قوله صلى الله عليه وسلم : "لا تفضّلوني على يونس بن متى" المعنى فإني لم أكن وأنا في سدرة المنتهى بأقرب إلى الله منه ، وهو في قعر البحر في بطن الحوت .

وهذا يدل على أن الباري سبحانه وتعالى ليس في جهة .

وقد تقدّم هذا المعنى في "البقرة" و"الأعراف" .

﴿ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم .

(157/514)

وقيل : في الخروج من غير أن يؤذن له .

ولم يكن ذلك من الله عقوبة ؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا ، وإنما كان ذلك تمحيصاً .

وقد يؤدّب من لا يستحق العقاب كالصبيان ؛ ذكره الماوردي .

وقيل : من الظالمين في دعائي على قومي بالعذاب .

وقد دعا نوح على قومه فلم يؤاخذ .

وقال الواسطي في معناه : نزه ربه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافاً واستحقاقاً .

ومثل هذا قول آدم وحواء : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف : 23] إذ كانا السبب في وضعهما أنفسهما في غير الموضع الذي أنزلا فيه .

الثانية : روى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " دعاء ذي النون في بطن الحوت ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له " وقد قيل : إنه اسم الله الأعظم .

ورواه سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وفي الخبر : في هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه وينجيه كما أنجاه ، وهو قوله : ﴿ وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ وليس ها هنا صريح دعاء وإنما هو مضمون قوله : ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ فاعترف بالظلم فكان تلويحاً .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ أي نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم .

وذلك قوله : ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ وهذا حفظ من الله عز وجل لعبده يونس رعى له حق تعبده ، وحفظ زمام ما سلف له من الطاعة .

وقال الأستاذ أبو إسحاق : صحب ذو النون الحوت أياماً قلائل فإلى يوم القيامة يقال له ذو النون ، فما ظنك بعبد عبده سبعين سنة يبطل هذا عنده ! لا يظن به ذلك .

﴿ مِنَ الغم ﴾ أي من بطن الحوت .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ قراءة العامة بنونين من أنجى ينجي .

(158/514)

وقرأ ابن عامر "نُجّي" بنون واحدة وجيم مشدّدة وتسكين الياء على الفعل الماضي وإضمار المصدر أي وكذلك نُجّي النجاءُ المؤمنين ؛ كما تقول : ضُرِب زيداً بمعنى ضُرِب الضربُ زيداً وأنشد :

ولو وَلَدتْ قُفَيْرةُ جرو كَلْبٍ . . .

لَسُبَّ بذلك الجروِ الكلابَا

أراد لَسُبّ السبُّ بذلك الجرو .

وسكنت ياؤه على لغة من يقول بَقِي ورَضِي فلا يحرك الياء .

وقرأ الحسن ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الربا ﴾ [البقرة : 278] استثقالاً لتحريك ياء قبلها كسرة .

وأنشد :

خَمَّرَ الشّيبُ لِمَّتِي تَخْمِيرَا . . .

وَحَدَا بي إلى القُبور البعِيرَا

ليتَ شِعْري إذا القيامةُ قامتْ . . .

ودُعِي بالحسابِ أين المصيرَا

سكن الياء في دعي استثقالاً لتحريكها وقبلها كسرة وفاعل حدا المشيب ؛ أي وحدا المشيبُ البعير ؛ ليت شعري المصير أين هو .

هذا تأويل الفراء وأبي عبيد وثعلب في تصويب هذه القراءة .

وخطأها أبو حاتم والزجاج وقالوا : هو لحن ؛ لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله ؛ وإنما يقال : نُجِّي المؤمنون .

كما يقال : كُرِّم الصالحون .

ولا يجوز ضُرِب زيداً بمعنى ضُرِب الضَّربُ زيداً ؛ لأنه لا فائدة (فيه) إذ كان ضُرِب يدل على الضرب .

ولا يجوز أن يحتج بمثل ذلك البيت على كتاب الله تعالى .

ولأبي عبيد قول آخر وقاله القتبي وهو أنه أدغم النون في الجيم .

النحاس : وهذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين ؛ لبعد مخرج النون من مخرج الجيم فلا تدغم فيها ، ولا يجوز في "مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ" "مَجَّاءَ بِالْحَسَنَةِ" قال النحاس : ولم أسمع في هذا أحسن من شيء سمعته من عليّ بن سليمان .

قال : الأصل ننجي فحذف إحدى النونين ؛ لاجتماعهما كما تحذف إحدى التاءين ؛ لاجتماعهما نحو قوله عز وجل : "وَلَا تَفَرَّقُوا" والأصل تتفرقوا .

وقرأ محمد بن السَّمَيقع وأبو العالية "وَكَذَلِكَ نَجَّى الْمُؤْمِنِينَ" أي نجى الله المؤمنين ؛ وهي حسنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(159/514)

وقال أبو حيان :

﴿ وَذَا النون ﴾

وانتصب ﴿ مغاضباً ﴾ على الحال .

فقيل : معناه غضبان وهو من المفاعلة التي لا تقتضي اشتراكاً ، نحو : عاقبت اللص وسافرت .

وقيل ﴿ مغاضباً ﴾ لقومه أغضبهم بمفارقته وتخوفهم حلول العذاب ، وأغضبوه حين دعاهم إلى الله مدة فلم يجيبوه فأوعدهم بالعذاب ، ثم خرج من بينهم على عادة الأنبياء عند نزول العذاب قبل أن يأذن الله له في الخروج .

وقيل ﴿ مغاضباً ﴾ للملك حزقيا حين عينه لغزو ملك كان قد عاب في بني إسرائيل فقال

له يونس : آللّه أمرك بإخراجي ؟ قال : لا ، قال فهل سماني لك ؟ قال : لا ، قال ههنا غيري من الأنبياء ، فألح عليه فخرج ﴿ مغاضباً ﴾ للملك .

وقول من قال ﴿ مغاضباً ﴾ لربه وحكى في المغاضبة لربه كيفيات يجب اطّراحه إذ لا يناسب شيء منها منصب النبوة ، وينبغي أن يتأول لمن قال ذلك من العلماء كالحسن والشعبي وابن جبير وغيرهم من التابعين ، وابن مسعود من الصحابة بأن يكون معنى قولهم ﴿ مغاضباً ﴾ لربه أي لأجل ربه ودينه ، واللام لام العلة لا اللام الموصلة للمفعول به .

وقرأ أبو شرف مغضباً اسم مفعول .

﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ أي نضيق عليه من القدر لا من القدرة ، وقيل : من القدرة بمعنى ﴿ أن لن نقدّر عليه ﴾ الابتلاء .

وقرأ الجمهور ﴿ نقدر ﴾ بنون العظمة مخففاً .

وقرأ ابن أبي ليلى وأبو شرف والكلبي وحميد بن قيس ويعقوب بضم الياء وفتح الدال مخففاً ، وعيسى والحسن بالياء مفتوحة وكسر الدال ، وعليّ بن أبي طالب واليماني بضم الياء وفتح القاف والدال مشددة ، والزهري بالنون مضمومة وفتح القاف وكسر الدال مشددة .

﴿ فنادى في الظلمات ﴾ في الكلام جمل محذوفة قد أوضحت في سورة والصافات ، وهناك نذكر قصته إن شاء الله تعالى وجمع ﴿ الظلمات ﴾ لشدة تكاثفها فكأنها ظلمة مع ظلمة .

وقيل : ظلمات بطن الحوت والبحر والليل .

وقيل : ابتلع حوته حوت آخر فصار في ظلمتي بطنَي الحوتين وظلمة البحر .

(160/514)

وروي أن يونس سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر ، و ﴿ أن ﴾ في ﴿ أن لا إله إلا أنت ﴾ تفسيرية لأنه سبق ﴿ فنادى ﴾ وهو في معنى القول ، ويجوز أن يكون التقدير بأنه فتكون مخففة من الثقيلة حصر الألوهية فيه تعالى ثم نزهه عن سمات النقص ثم أقر بما بعد ذلك .

وعن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) : " ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلاّ استجيب له " و ﴿ الغم ﴾ ما كان ناله حين التقمه الحوت ومدة بقائه في بطنه .

وقرأ الجمهور : ﴿ ننجي ﴾ مضارع أنجى ، والجحدري مشدداً مضارع نجّى .

وقرأ ابن عامر وأبو بكر نجى بنون مضمومة وجيم مشددة وياء ساكنة ، وكذلك هي في مصحف الإمام ومصاحف الأمصار بنون واحدة ، واختارها أبو عبيد لموافقة المصاحف فقال الزجّاج والفارسي هي لحن .

وقيل : هي مضارع أدغمت النون في الجيم ورد بأنه لا يجوز إدغام النون في الجيم التي هي

فاء الفعل لاجتماع المثلين كما حذفت في قراءة من قرأ ونزل الملائكة يريد وننزل الملائكة ، وعلى هذا أخرجها أبو الفتح .

وقيل : هي فعل ماض مبني لما لم يسم فاعله وسكنت الياء كما سكنها من قرأ وذر وإما بقي من الربا والمقام مقام الفاعل ضمير المصدر أي نجى ، هو أي النجاء المؤمنين كقراءة أبي جعفر ﴿ ليجزي قوماً ﴾ أي وليجزي هو أي الجزاء ، وقد أجاز إقامة غير المفعول من مصدر أو ظرف مكان أو ظرف زمان أو مجرور الأخفش والكوفيون وأبو عبيد ، وذلك مع وجود المفعول به وجاء السماع في إقامة المجرور مع وجود المفعول به نحو قوله :

أتيح لي من العدا نذيراً . . .

به وقيت الشر مستطيرا

وقال الأخفش : في المسائل ضرب الضرب الشديد زيداً ، وضرب اليومان زيداً ، وضرب مكانك زيداً وأعطى إعطاء حسن أخاك درهماً مضروباً عبده زيداً .

(161/514)

وقيل : ضمير المصدر أقيم مقام الفاعل و ﴿ المؤمنين ﴾ منصوب بإضمار فعل أي ﴿ وكذلك ننجي ﴾ هو أي النجاء ﴿ ننجي المؤمنين ﴾ والمشهور عند البصريين أنه متى

وجد المفعول به لم يقم غيره إلا أن صاحب اللباب حكى الخلاف في ذلك عن البصريين ، وأن بعضهم أجاز ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(162/514)

وقال أبو السعود :

﴿ وَذَا النون ﴾ أي واذكر صاحب الحوت وهو يونسُ عليه السلام ﴿ إِذ ذَّهَبَ مغاضبا ﴾ أي مراغِماً لقومه لمّا برِمَ من طول دعوته إياهم وشدةِ شكيمتهم وتمادي إصرارِهم مهاجراً عنهم قبل أن يؤمر ، وقيل : وعدَهم بالعذاب فلم يأتِهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال فظن أنه كذّبهم فغضِب من ذلك ، وهو من بناء المغالبة للمبالغة أو لأنه أغضبهم بالمهاجَرة لخوفهم لحوقَ العذاب عندما وقرىء مُغضَباً ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي لن نضيّقَ عليه أو لن نقضيَ عليه بالعقوبة من القدر ، ويؤيده أنه قرىء مشدداً أو لن نُعمِل فيه قدرتَنا ، وقيل : هو تمثيلٌ لحاله بحال مَنْ يظن أن لن نقدر عليه أي نعامله معاملةَ من يظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومَه من غير انتظار لأمرنا كما في قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُ أَن مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أي نعامله معاملةَ من يحسَب ذلك ، وقيل : خطرةٌ شيطانية سبقت إلى وهمه فسُمّيت ظنّاً للمبالغة ، وقرىء بالياء مخففاً ومثقلاً مبنياً للمفعول ﴿ فنادى ﴾ الفاءُ

فصيحة أي فكان ما كان من المساهمة والتقامِ الحوت فنادى ﴿ فِى الظلمات ﴾ أي في الظلمة الشديدةِ المتكاثفة أو في ظلمات بطنِ الحوتِ والبحرِ والليل ، وقيل : ابتلع حوتَه حوتٌ أكبرُ منه فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمتي البحر والليل ﴿ أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ ﴾ أي بأنه لا إله إلا أنت على أنّ أنْ مخففةٌ من أنّ وضميرُ الشأن محذوف ، أو أي لا إله إلا أنت على أنها مفسّرة ﴿ سبحانك ﴾ أنزهك تنزيهاً لائقاً بك من أن يُعجزك شيءٌ أو أن يكون ابتلائي بهذا بغير سبب من جهتي ﴿ إِنّى كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ لأنفسهم بتعريضها للهلكة حيث بادرت إلى المهاجرة .

(163/514)

﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ أي دعاءَه الذي دعاه في ضمن الاعترافِ بالذنب على ألطف وجهٍ وأحسنه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مكروبٍ يدعو بهذا الدعاء إلا استُجيب له " ﴿ ونجيناه مِنَ الغم ﴾ بأن قذفه الحوتُ إلى الساحل بعد أربع ساعاتٍ كان فيها في بطنه ، وقيل : بعد ثلاثة أيام ، وقيل : الغمُّ غمُّ الالتقام ، وقيل : الخطيئة ﴿ وكذلك ﴾ أي مثلَ ذلك الإنجاءِ الكامل ﴿ نُنجِى المؤمنين ﴾ من غمومٍ دَعَوُا الله تعالى فيها بالإخلاص لا إنجاءً أدنى منه ، وفي الإمام نجّى فلذلك أخفى الجماعةُ النون الثانية فإنها

تخفى مع حروف الفم ، وقرىء بتشديد الجيم على أن أصله نُنجّي فحذفت الثانية كما حذفت التاء في تَظاهرون وهي وإن كانت فاءً فحذفُها أوقعُ من حذف حرفِ المضارَعة التي لمعنًى ، ولا يقدح فيه اختلافُ حركتي النونين فإن الداعيَ إلى الحذف اجتماعُ المِثلين مع تعذّر الإدغام وامتناعُ الحذفِ في (تتجافى) لخوف اللَّبس ، وقيل : هو ماضٍ مجهولٌ أُسند إلى ضمير المصدر وسُكّن آخره تخفيفاً ورُدّ بأنه لا يسند إلى المصدر والمفعول مذكور ، والماضي لا يسكن آخرُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(164/514)

وقال الآلوسى :

﴿ وَذَا النون ﴾ أي واذكر صاحب الحوت يونس عليه السلام ابن متى وهو اسم أبيه على ما في "صحيح البخاري" وغيره وصححه ابن حجر قال : ولم أقف في شيء من الأخبار على اتصال نسبه ، وقد قيل إنه كان في زمن ملوك الطوائف من الفرس ، وقال ابن الأثير كغيره إنه اسم أمه ولم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه غيره وغير عيسى عليهما السلام . واليهود قالوا بما تقدم إلا أنهم سموه يونه بن إميتاي ، وبعضهم يقول يونان بن أماثي ، والنون الحوت كما أشرنا إليه ويجمع على نينان كما في "البحر" وأنوان أيضاً كما في "القاموس" .

﴿ إِذ ذَّهَبَ مغاضبا ﴾ أي غضبان على قومه لشدة شكيمتهم وتمادي إصرارهم مع طول دعوته إياهم ، وكان ذهابه هذا هجرة عنهم لكنه لم يؤمر به .

(165/514)

وقيل : غضبان على الملك حزقيل ، فقد روى عن ابن عباس أنه قال : كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً فأوحي الله تعالى إلى شعياء النبي أن اذهب إلى حزقيل الملك وقل له يوجه خمسة من الأنبياء لقتال هذا الملك فقال : أوجه يونس ابن متى فإنه قومي أمين فدعاه الملك وأمره أن يخرج فقال يونس : هل أمرك الله تعالى بإخراجي ؟ قال : لا قال : هل سماني لك ، قال : لا فقال يونس : فههنا أنبياء غيري فألحوا عليه فخرج مغاضباً فأتى بحر الروم فوجد قوماً هيئوا سفينة فركب معهم فلما وصلوا اللجنة تكفأت بهم السفينة وأشرفت على الغرق فقال الملاحون : معنا رجل عاص أو عبد آبق ومن رسمنا إذا ابتلينا بذلك أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر ولأن يغرق أحدنا خير من أن تغرق السفينة فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام فقال : أنا الرجل العاصي والعبد الآبق فألقى نفسه في البحر فجاءت فحوت فابتلعته فأوحى الله تعالى إليها أن لا تؤذيه بشعرة فإني جعلت بطنك

سجناً له ولم أجعله طعاماً ثم نجاه الله تعالى من بطنها ونبذه بالعراء وقد رق جلده فأنبت عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام فقيل له : أتحزن على شجرة ولم تحزنم على مائة ألف أو يزيدون حيث لم تذهب إليهم ولم تطلب راحتهم ؟ فأوحى الله تعالى إليه وأمره أن يذهب إليهم فتوجه نحوهم حتى دخل أرضهم وهم منه غير بعيد فأتاهم وقال لملكهم : إن الله تعالى أرسلني إليك فأرسل معي بني إسرائيل قالوا : ما نعرف ما تقول ولو علمنا علمنا أنك صادق لفعلنا وقد آتيناكم في دياركم وسبيناكم فلو كان الأمر كما تقول لمنعنا الله تعالى عنكم فطاف فيهم ثلاثة أيام يدعوهم إلى ذلك فأبوا عليه فأوحى الله تعالى إليه قل لهم إن لم يؤمنوا جاءهم العذاب فأبلغهم فأبو فخرج من عندهم فلما فقدوه ندموا على فعلهم

(166/514)

فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه ثم ذكروا أمرهم وأمر يونس عليه السلام للعلماء الذين عندهم فقالوا : انظروا واطلبوه في المدينة فإن كان فيها فليس كما ذكر من نزول العذاب وإن كان قد خرج فهو كما قال فطلبوه فقيل لهم : إنه خرج العشية فلما أيسوا غلقوا باب مدينتهم ولم يدخلوا فيها دوابهم ولا غيرها وعزلوا كل واحدة عن ولدها وكذا الصبيان

والأمهات ثم قاموا ينتظرون الصبح فلما انشق الصبح نزل العذاب من السماء فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل ما في بطونها وصاحت الصبيان والدواب فرفع الله تعالى العذاب عنهم فبعثوا إلى يونس حتى لقوه فآمنوا به وبعثوا معه بني إسرائيل ، وقيل مغاضباً لربه عز وجل ، وحكى في هذه المغاضبة كيفيات ؛ وتعقب ذلك في البحر بأنه يجب إطراح هذا القول إذ لا يناسب ذلك منصب النبوة وينبغي أن يتأول لمن قال ذلك من العلماء كالحسن .

والشعبي .

وابن جبير .

وغيرهم من التابعين .

وابن مسعود من الصحابة رضي الله تعالى عنهم بأن يكون معنى قولهم لربه لأجل ربه تعالى وحمية لدينه ، فاللام لام العلة لا اللام الموصلة للمفعول به انتهى .

وكون المراد مغاضباً لربه عز وجل مقتضى زعم اليهود فإنهم زعموا أن الله تعالى أمره أن يذهب إلى نينوى وينذر أهلها فهرب إلى ترسيس من ذلك وانحدر إلى يافا ونزل في السفينة فعظمت الأمواج وأشرفت السفينة على الغرق فاقترع أهلها فوقعت القرعة عليه فرمى بنفسه إلى البحر فالتقمه الحوت ثم ألقاه وذهب إلى نينوى فكان ما كان ، ولا يخفى أن مثل هذا الهرب مما يجل عنه الأنبياء عليهم السلام واليهود قوم بهت .

ونصب ﴿ مغاضبا ﴾ على الحال وهو من المفاعلة التي لا تقتضي اشتراكاً نحو عاقبت اللص وسافرت ، وكأنه استعمل ذلك هنا للمبالغة ؛ وقيل المفاعلة على ظاهرها فإنه عليه السلام غضب على قومه لكفرهم وهم غضبوا عليه بالذهاب لخوفهم لحوق العذاب .

(167/514)

وقرأ أبو سرف ﴿ مغاضبا ﴾ اسم مفعول ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي أنه أي الشأن لن نقدر ونقضي عليه بعقوبة ونحوها أو لن نضيق عليه في أمره بحبس ونحوه ، ويؤيد الأول قراءة عمر بن عبد العزيز .

والزهري ﴿ نَّقْدِرَ ﴾ بالنون مضمومة وفتح القاف وكسر الدال مشددة ، وقراءة علي كرم الله تعالى وجهه .

واليماني ﴿ يُقَدَّرُ ﴾ بضم الياء وفتح القاف والدال مشددة فإن الفعل فيهما من التقدير بمعنى القضاء والحكم كما هو المشهور ، ويجوز أن يكون بمعنى التضيق فإنه ورد بهذا المعنى أيضاً كما ذكره الراغب ، وظن معاوية رضي الله تعالى عنه أنه من القدرة فاستشكل ذلك إذ لا يظن أحد فضلاً عن النبي عليه السلام عدم قدرة الله تعالى عليه وفزع إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فأجابه بما ذكرناه أولاً ؛ وجوز أن يكون من القدرة

وتكون مجازاً عن أعمالها أي فظن أن لن نعمل قدرتنا فيه أو يكون الكلام من باب التمثيل أي فعل فعل من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمرنا ، وقيل : يجوز أن يسبق ذلك إلى وهمه عليه السلام بوسوسة الشيطان ثم يردعه ويرد بالبرهان كما يفعل المؤمن المحقق بنزغات الشيطان وما يوسوس إليه في كل وقت ، ومنه

﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ [الأحزاب : 10] والخطاب للمؤمنين .

وتعقبه "صاحب الفرائد " بأن مثله عن المؤمن نعيد فضلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم المعصوم لأنه كفر ، وقوله تعالى : ﴿ تظنون ﴾ الخ ليس من هذا القبيل على أن شامل للخلص وغيرهم ، وبأن ما هجس ولم يستقر لا يسمى ظناً ، وبأن الخواطر لا عتب عليها ، وبأنه لو كان حامله على الخروج لم يكن من قبيل الوسوسة .

وأجيب بأن الظن بمعنى الهجس في الخاطر من غير ترجيح مجاز مستعمل والعتب على ذهابه مغاضباً ولا وجه لجعله حاملاً على الخروج ؛ ومع هذا هو وجه لا وجاهة له .

وقرأ ابن أبي ليلى .

وأبو سرف .

والكلبي .

وحميد بن قيس .

ويعقوب ﴿ واللهُ يُقَدّرُ ﴾ بضم الياء وفتح الدال مخففاً ، وعيسى .

والحسن بالياء مفتوحة وكسر الدال .

﴿ فنادى ﴾ الفاء فصيحة أي فكان ما كان من المساهمة والتقام الحوت فنادى ﴿ فِى الظلمات ﴾ أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت جعلت الظلمة لشدتها كأنها ظلمات ، وأنشد السيرافي

: وليل تقول الناس في ظلماته . . .

سواء صحيحات العيون وعورها

أو الجمع على ظاهره والمراد ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل ، وقيل : ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل في ظلمتي بطني الحوتين وظلمتي البحر والليل ﴿ أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ ﴾ أي بأنه لا إله إلا أنت على أن أن مخففة من الثقيلة والجار مقدر وضمير الشأن محذوف أو أي لا إله إلا أنت على أنها مفسرة ﴿ سبحانك ﴾ أي أنزهك تنزيهاً لائقاً بك من أن يعجزك شيء أو أن يكون ابتلائي بهذا من غير سبب من جهتي ﴿ إِنّى كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ لأنفسهم بتعريضهم للهلكة حيث بادرت إلى المهاجرة من غير أمر على خلاف معتاد الأنبياء عليهم السلام ، وهذا اعتراف منه عليه السلام بذنبه وإظهار لتوبته ليفرج عنه كربته .

﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ أي دعاءه الذي دعاه في ضمن الاعتراف وإظهار التوبة على ألطف وجه وأحسنه .

أخرج أحمد .

والترمذي .

والنسائي .

والحكيم في "نوادر الأصول" .

والحاكم وصححه .

وابن جرير .

والبيهقي في الشعب .

وجماعة عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له " وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أن ذلك اسم الله تعالى الأعظم ، وأخرج ذلك الحاكم عن سعد مرفوعاً ، وقد شاهدت أثر الدعاء به ولله تعالى الحمد حين أمرني بذلك من أظن ولايته من الغرباء المجاورين في حضرة الباز الأشهب وكان قد أصابني من البلاء ما الله تعالى أعلم به وفي شرحه طول وأنت ملول .

وجاء عن أنس مرفوعاً أنه عليه السلام حين دعا بذلك أقبلت دعوته تحف بالعرش فقالت الملائكة عليهم السلام : هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال الله تعالى : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : يا رب ومن هو ؟ قال : ذاك عبدي يونس قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة يا رب أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء قال : بلى فأمر الحوت فطرحه وذلك قوله تعالى : ﴿ ونجيناه مِنَ الغم ﴾ أي الذي ناله حين التقمه الحوت بأن قذفه إلى الساحل بعد ساعات قال الشعبي : التقمه ضحى ولفظه عشية ، وعن قتادة أنه بقي في بطنه ثلاثة أيام وهو الذي زعمته اليهود ، وعن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه أنه بقي سبعة أيام .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي مالك أنه بقي أربعين يوماً ، وقيل المراد بالغم غم الخطيئة وما تقدم أظهر ، ولم يقل جل شأنه فنجيناه كما قال تعالى في قصة أيوب عليه السلام ﴿ فكشفنا ﴾ [الأنبياء : 84] قال بعض الأجلة لأنه دعا بالخلاص من الضر فالكشف المذكور يترتب على استجابته ويونس عليه السلام لم يدع فلم يوجد وجه الترتيب في استجابته .

ورد بأن الفاء في قصة أيوب عليه السلام تفسيرية والعطف هنا أيضاً تفسيري والتفنن طريقة مسلوكة في البلاغة ، ثم لا نسلم أن يونس عليه السلام لم يدع ولو لم يكن منه دعاء لم

تتحقق الاستجابة اه .

وتعقبه الخفاجي بأنه لا محصل له ، وكونه تفسيراً لا يدفع السؤال لأن حاصله لم أتى بالفاء ثمت ولم يؤت بها هنا ؟ فالظاهر أن يقال : إن الأول دعاء بكشف الضر على وجه التلطف فلما أجمل في الاستجابة وكان السؤال بطريق الإيماء ناسب أن يؤتى بالفاء التفصيلية ، وأما هنا فلما هاجر عليه السلام من غير أمر كان ذلك ذنباً بالنسبة إليه عليه السلام كما أشر إليه بقوله :

(170/514)

﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] فما أوحى إليه هو الدعاء بعدم مؤاخذته بما صدر منه فالاستجابة عبارة عن قبول توبته وعدم مؤاخذته ، وليس ما بعده تفسيراً له بل زيادة إحسان على مطلوبه ولذا عطف بالواو اه .

ولا يخفى أن ما ذكره لا يتسنى في قوله تعالى : ﴿ وَنُوحاً إِذْ نادى مِن قَبْلُ فاستجبنا لَهُ فنجيناه وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ [الأنبياء : 76] وقوله سبحانه : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى ﴾ [الأنبياء : 89 ، 90] إذ لم يكن سؤال نوح عليه السلام بطريق الإيماء مع أنه قال تعالى في قصته ﴿

فنجينا ﴾ [الأنبياء : 76] بالفاء وزكريا عليه السلام لم يصدر منه ما يعد ذنباً بالنسبة إليه ليتلطف في سؤال عدم المؤاخذة مع أنه قال سبحانه في قصته ﴿ الألباب وَوَهَبْنَا ﴾ [الأنبياء : 90] بالواو فلا بد حينئذ من بيان نكتة غير ما ذكر للتعبير في كل موضع من هذين الموضعين بما عبر ، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما ذكره الشهاب في الآية الأخيرة ، وربما يقال : إنه جيء بالفاء التفصيلية في قصتي نوح .

وأيوب عليهما السلام اعتناء بشأن الاستجابة لمكان الإجمال والتفصيل لعظم ما كانا فيه وتفاقمه جداً ، ألا ترى كيف يضرب المثل ببلاء أيوب عليه السلام حيث كان في النفس والأهل والمال واستمر إلى ما شاء الله تعالى وكيف وصف الله تعالى ما نجى الله سبحانه منه نوحاً عليه السلام حيث قال عز وجل ﴿ فنجيناه وَأَهْلَهُ مِنَ الكلب العظيم ﴾ [الأنبياء : 76] ولا كذلك ما كان فيه ذو النون .

(171/514)

وزكريا عليهما السلام بالنسبة إلى ذلك فلذا جيء في آيتيهما بالواو وهي وإن جاءت للتفيسر لكن مجيء الفاء لذلك أكثر ، ولا يبعد عندي ما ذكره الخفاجي في هذه الآية من كون الاستجابة عبارة عن قبول توبته عليه السلام والتنجية زيادة إحسان على مطلوبه

ويقال فيما سيأتي ما ستسمعه إن شاء الله تعالى ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك الإنجاء الكامل ﴿ نُنجِي المؤمنين ﴾ من غموم دعوا الله تعالى فيها بالإخلاص لا إنجاء أدنى منه .

وقرأ الجحدري ﴿ نُنَجّي ﴾ مشدداً مضارع نجى .

وقرأ ابن عامر .

وأبو بكر ﴿ نجى ﴾ بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم وإسكان الياء ، واختار أبو عبيدة هذه القراءة على القراءة بنونين لكونها أوفق بالرسم العثماني لما أنه بنون واحدة ، وقال أبو علي في الحجة : روى عن أبي عمرو ﴿ نجى ﴾ بالإدغام والنون لا تدغم في الجيم وإنما أخفيت لأنها ساكنة تخرج من الخياشيم فحذفت من الكتاب وهي في اللفظ ، ومن قال : تدغم فقد غلط لأن هذه النون تخفى مع حروف الفم وتسمى الأحرف الشجرية وهي الجيم والشين والضاد وتبيينها لحن فلما أخفى ظن السامع أنه مدغم انتهى .

(172/514)

وقال أبو الفتح ابن جنى : أصله ننجي كما في قراءة الجحدري فحذفت النون الثانية لتوالي المثلين والأخرى جيء بها لمعنى والثقل إنما حصل بالثانية وذلك كما حذفت التاء الثانية في ﴿ ديارهم تظاهرون ﴾ [البقرة : 85] ولا يضر كونها أصلية وكذا لا يضر عدم اتحاد

حركتها مع حركة النون الأولى فإن الداعي إلى الحذف اجتماع المثلين مع تعذر الإدغام فقول أبي البقاء : إن هذا التوجيه ضعيف لوجهين ، أحدهما : أن النون الثانية أصل وهي فاء الكلمة فحذفها يبعد جداً ، والثاني : أن حركتها غير حركة النون الأولى فلا يستثقل الجمع بينهما بخلاف ﴿ تظاهرون ﴾ [البقرة : 85] ليس في حيز القبول ، وإنما امتنع الحذف في ﴿ تتجافى ﴾ [السجدة : 16] لخوف اللبس بالماضي بخلاف ما نحن فيه لأنه لو كان ماضياً لم يسكن آخره ، وكونه سكن تخفيفاً خلاف الظاهر ، وقيل هو فعل ماض مبني لما لم يسم فاعله وسكنت الياء للتخفيف كما في قراءة من قرأ ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ الربا ﴾ [البقرة : 278] وقوله :

هو الخليفة فارضوا ما رضي لكم . . .

ماضي العزيمة ما في حكمه جنف

ونائب الفاعل ضمير المصدر و﴿ المؤمنين ﴾ مفعول به ، وقد أجاز قيام المصدر مقام الفاعل مع وجود المفعول به الأخفش .

والكوفيون .

وأبو عبيد ، وخرجوا على ذلك قراءة أبي جعفر ﴿ لِيَجْزِىَ قَوْماً ﴾ [الجاثية : 41] .

ولو ولدت فقيرة جرو كلب . . .

لسب بذلك الكلب الكلابا

والمشهور عن البصريين أنه متى وجد المفعول به لم يقم غيره مقام الفاعل ، وقيل إن ﴿ المؤمنين ﴾ منصوب بإضمار فعل أي وكذلك نجى هو أي الإنجاء ننجي المؤمنين ، وقيل هو منصوب بضمير المصدر والكل كما ترى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(173/514)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) ﴾

قوله : ﴿ *وداود ﴾ معطوف على ﴿ نوحاً ﴾ ومعمول لعامله المذكور ، أو المقدّر كما مرّ ﴿ وسليمان ﴾ معطوف على داود ، والظرف في ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ متعلق بما عمل في داود ، أي واذكرهما وقت حكمهما .

والمراد من ذكرهما ذكر خبرهما .

ومعنى ﴿ فِي الحرث ﴾ : في شأن الحرث .

قيل : كان زرعاً .

وقيل : كرماً ، واسم الحرث يطلق عليهما ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ ﴾ أي : تفرقت وانتشرت فيه ﴿ غَنَمُ القوم ﴾ قال ابن السكيت : النفش بالتحريك أن تنتشر الغنم بالليل من غير راعٍ ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهدين ﴾ أي لحكم الحاكمين ، وفيه جواز إطلاق الجمع على الاثنين ، وهو مذهب طائفة من أهل العربية كالزمخشري والرضيّ ، وتقدّمهما إلى القول به الفراء .

وقيل : المراد : الحاكمان والمحكوم عليه .

ومعنى ﴿ شاهدين ﴾ : حاضرين ، والجملة اعتراضية .

وجملة ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ معطوفة على ﴿ إذ يحكمان ﴾ لأنه في حكم الماضي ، والضمير في ﴿ ففهمناها ﴾ ، يعود إلى القضية المفهومة من الكلام ، أو الحكومة المدلول عليها بذكر الحكم .

قال المفسرون : دخل رجلان على داود ، وعنده ابنه سليمان ، أحدهما : صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : إن هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقعت في حرثي فلم تبق منه شيئاً ، فقال : لك رقاب الغنم ، فقال سليمان : أو غير ذلك ، ينطلق أصحاب الكرم بالغنم فيصيبون من ألبانها ومنافعها ويقوم أصحاب الغنم على الكرم حتى إذا كان كليلة نفشت فيه دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم ، ودفع هؤلاء إلى هؤلاء كرمهم ، فقال داود : القضاء ما قضيت ، وحكم بذلك .

قال النحاس : إنما قضى داود بالغنم لصاحب الحرث لأن ثمنها كانا قريباً منه ، وأما في حكم سليمان فقد قيل : كانت قيمة ما نال من الغنم ، وقيمة ما أفسدت الغنم سواء .

قال جماعة من العلماء : إن داود حكم بوحي ، وحكم سليمان بوحي نسخ الله به حكم داود ، فيكون التفهيم على هذا بطريق الوحي .

وقال الجمهور : إن حكمهما كان باجتهاد ، وكلام أهل العلم في حكم اجتهاد الأنبياء معروف ، وهكذا ما ذكره أهل العلم في اختلاف المجتهدين ، وهل كل مجتهد مصيب ، أو الحق مع واحد ؟ وقد استدل المستدلون بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب ، ولا شك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطىء ، وأما كون كل واحد منهما مصيباً ، فلا تدلّ عليه هذه الآية ولا غيرها ، بل صرّح الحديث المتفق عليه في الصحيحين وغيرهما أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر ، فسماه النبيّ صلى الله عليه وسلم مخطئاً ، فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له ، فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين ، وإلا لزم توقف حكمه عزّ وجلّ على اجتهادات المجتهدين ، واللازم باطل فالملزوم مثله .

وأيضاً يستلزم أن تكون العين التي اختلف اجتهاد المجتهدين فيها بالحلّ والحرمة حلالاً حراماً في حكم الله سبحانه .

وهذا اللازم باطل بالإجماع ، فالملزوم مثله .

وأيضاً يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد له اجتهاد في تلك الحادثة ، ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه فيها إلا بانقطاع المجتهدين واللازم باطل فالملزوم مثله .

وقد أوضحنا هذه المسألة بما لا مزيد عليه في المؤلف الذي سميناه "القول المفيد في حكم التقليد" وفي "أدب الطلب ومنتهى الأرب" فمن أحبّ الوقوف على تحقيق الحق فليرجع إليهما .

(175/514)

فإن قلت : فما حكم هذه الحادثة التي حكم فيها داود وسليمان في هذه الشريعة المحمدية ، والملة الإسلامية ؟ قلت : قد ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من حديث البراء أنه شرع لأمته أن على أهل الماشية حفظها بالليل ، وعلى أصحاب الحوائط حفظها بالنهار ، وأن ما أفسدت المواشي بالليل مضمون على أهلها ، وهذا الضمان هو مقدار الذاهب عيناً أو قيمة .

وقد ذهب جمهور العلماء إلى العمل بما تضمنه هذا الحديث .

وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ ، وأن البهائم إذا أفسدت زرعاً في ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شيء ، وأدخلوا فسادها في عموم قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " جرح العجماء جبار " قياساً لجميع أفعالها على جرحها .

ويجاب عنه بأن هذا القياس فاسد الاعتبار ، لأنه في مقابلة النص ، ومن أهل العلم من ذهب إلى أنه يضمن ربّ الماشية ما أفسدته من غير فرق بين الليل والنهار .

ويجاب عنه بحديث البراء .

ومما يدل على أن هذين الحكمين من داود وسليمان كانا بوحي من الله سبحانه لا باجتهاد . قوله : ﴿ وَكُلاًّ ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ فإن الله سبحانه أخبرنا بأنه أعطى كل واحد منهما هذين الأمرين ، وهما إن كانا خاصين فصدقهما على هذه القضية التي حكاها الله سبحانه عنهما مقدّم على صدقهما على غيرها ، وإن كانا عامين فهذا الفرد من الحكم والعلم ، وهو ما وقع من كل واحد منهما في هذه القضية أحق أفراد ذلك العام بدخوله تحته ودلالته عليه ، ومما يستفاد من ذلك دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان بالتفهيم ، من عدم كون حكم داود حكماً شرعياً ، أي وكل واحد منهما أعطيناه حكماً وعلماً كثيراً ، لا سليمان وحده .

ولما مدح داود وسليمان على سبيل الاشتراك ، ذكر ما يختص بكل واحد منهما ، فبدأ

بداود فقال : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجبالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ التسبيح إما حقيقة أو مجاز ، وقد قال بالأوّل جماعة وهو الظاهر .

(176/514)

وذلك أن داود كان إذا سبح سبحت الجبال معه .

وقيل : إنها كانت تصلي معه إذا صلى ، وهو معنى التسبيح .

وقال بالمجاز جماعة آخرون وحملوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجباً من عظيم خلقها وقدرة خالقها .

وقيل : كانت الجبال تسير مع داود ، فكان من رآها سائرة معه سبح ﴿ والطير ﴾ معطوف على الجبال ، وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ وخبره محذوف ، أي والطير مسخرات ، ولا يصح العطف على الضمير في ﴿ يسبحن ﴾ لعدم التأكيد والفصل ﴿ وكُنَّا فاعلين ﴾ يعني ما ذكر من التفهيم ، وإيتاء الحكم والتسخير ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ اللبوس عند العرب : السلاح كله درعاً كان أو جوشناً ، أو سيفاً ، أو رمحاً .

قال الهذلي :

وعندي لبوس في اللباس كأنه . . . والمراد في الآية الدروع خاصة ، وهو بمعنى الملبوس ،

كالركوب والحلوب ، والجار والمجرور أعني لكم متعلق بعلمنا ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ ﴾ قرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر وحفص وروح ﴿ لتحصنكم ﴾ بالتاء الفوقية ، بإرجاع الضمير إلى الصنعة ، أو إلى اللبوس بتأويل الدرع .

وقرأ شيبة وأبو بكر والمفضل وابن أبي إسحاق " لنحصنكم " بالنون بإرجاع الضمير إليه سبحانه .

وقرأ الباقون بالياء بإرجاع الضمير إلى اللبوس ، أو إلى داود ، أو إلى الله سبحانه .

ومعنى ﴿ مِّن بَأْسِكُمْ ﴾ : من حربكم ، أو من وقع السلاح فيكم ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شاكرون ﴾ لهذه النعمة التي أنعمنا بها عليكم ، والاستفهام في معنى الأمر .

ثم ذكر سبحانه ما خص به سليمان .

فقال : ﴿ ولسليمان الريح ﴾ أي وسخرنا له الريح ﴿ عَاصِفَةً ﴾ أي شديدة الهبوب .

يقال : عصفت الريح ، أي اشتدت ، فهي ريح عاصف وعصوف ، وانتصاب ﴿ الريح ﴾ على الحال .

(177/514)

وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسلمي وأبو بكر ﴿ ولسليمان الريح ﴾ برفع الريح على القطع مما قبله ، ويكون مبتدأ وخبره تجري ، وأما على قراءة النصب فيكون محل ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ النصب أيضاً على الحالية ، أو على البدلية ﴿ إِلَى الأرض التى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ وهي أرض الشام كما تقدّم ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالمين ﴾ أي بتدبير كلّ شيء ﴿ وَمِنَ الشياطين ﴾ أي وسخرنا من الشياطين ﴿ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ في البحار ويستخرجون منها ما يطلبه منهم .

وقيل : إن " من " مبتدأ وخبره ما قبله ، والغوص : النزول تحت الماء ، يقال : غاص في الماء ، والغوّاص : الذي يغوص في البحر على اللؤلؤ ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلك ﴾ قال الفراء : أي سوى ذلك ، وقيل : يراد بذلك المحاريب والتماثيل وغير ذلك مما يسخرهم فيه ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حافظين ﴾ أي لأعمالهم .

وقال الفراء : حافظين لهم من أن يهربوا أو يتمنعوا ، أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره .

قال الزجاج : كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا ، وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾ معطوف على ما قبله ، والعامل فيه : إما المذكور أو المقدّر كما مرّ ، والعامل في الظرف وهو ﴿ إذ نادى ربه ﴾ هو العامل في أيوب ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر ﴾ أي بأني مسني الضرّ .

وقرىء بكسر " إني " .

واختلف في الضرّ الذي نزل به ماذا هو ؟ فقيل : إنه قام ليصلي فلم يقدر على النهوض .

وقيل : إنه أقرّ بالعجز ، فلا يكون ذلك منافياً للصبر .

وقيل : انقطع الوحي عنه أربعين يوماً .

وقيل : إن دودة سقطت من لحمه ، فأخذها وردّها في موضعها فأكلت منه ، فصاح : مسني الضرّ ؛ وقيل : كان الدود تناول بدنه فيصبر حتى تناولت دودة قلبه .

وقيل : إن ضرّه قول إبليس لزوجته : اسجدي لي ، فخاف ذهاب إيمانها ، وقيل : إنه تقذره قومه .

وقيل : أراد بالضرّ الشماتة ، وقيل : غير ذلك .

(178/514)

ولما نادى ربه متضرّعاً إليه وصفه بغاية الرحمة فقال : ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ فأخبر الله سبحانه باستجابته لدعائه ، فقال : ﴿ فاستجبنا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرّ ﴾ أي شفاه الله مما كان به وأعاضه بما ذهب عليه ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قيل : تركهم الله عزّ وجلّ له ، وأعطاه مثلهم في الدنيا .

قال النحاس : والإسناد بذلك صحيح ، وقد كان مات أهله جميعاً إلا امرأته ، فأحياهم الله في أقلّ من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم .

وقيل : كان ذلك بأن ولد له ضعف الذين أماتهم الله ، فيكون معنى الآية على هذا : آتيناه مثل أهله ومثلهم معهم ، وانتصاب ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ على العلة أي آتيناه ذلك لرحمتنا له ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ أي وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر .

واختلف في مدّة إقامته على البلاء : فقيل : سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال .

وقيل : ثلاثين سنة .

وقيل : ثماني عشرة سنة .

﴿ وإسماعيل وَإِدْرِيسَ وَذَا الكفل ﴾ أي واذكر هؤلاء ، وإدريس هو أخنوخ ، وذا الكفل : إلياس .

وقيل : يوشع بن نون .

وقيل : زكريا .

والصحيح أنه رجل من بني إسرائيل كان لا يتورّع عن شيء من المعاصي ، فتاب فغفر الله له .

وقيل : إن اليسع لما كبر قال : من يتكفل لي بكذا وكذا من خصال الخير حتى أستخلفه ؟

فقال رجل : أنا ، فاستخلفه وسمي ذا الكفل .

وقيل : كان رجلاً يتكفل بشأن كل إنسان إذا وقع في شيء من المهمات ، وقيل غير ذلك .

وقد ذهب الجمهور إلى أنه ليس بنبيّ .

وقال جماعة : هو نبيّ .

ثم وصف الله سبحانه هؤلاء بالصبر فقال : ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصابرين ﴾ أي كل واحد من هؤلاء من الصابرين على القيام بما كلفهم الله به .

(179/514)

﴿ وأدخلناهم فِى رَحْمَتِنَا ﴾ أي في الجنة ، أو في النبوّة ، أو في الخير على عمومه ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ مِّنَ الصالحين ﴾ أي : الكاملين في الصلاح ﴿ وَذَا النون ﴾ أي واذكر ذا النون ، وهو يونس بن متى ، ولقب ذا النون لابتلاع الحوت له .

فإن النون من أسماء الحوت ، وقيل : سمي ذا النون لأنه رأى صبياً مليحاً فقال : دسموا نونته ، لئلا تصيبه العين .

وحكى ثعلب عن ابن الأعرابي أن نونة الصبيّ هي الثقبة التي تكون في ذقن الصبي الصغير ، ومعنى دسموا سوّدوا ﴿ إِذ ذَّهَبَ مغاضبا ﴾ أي اذكر ذا النون وقت ذهابه مغاضباً ،

أي مراغماً .

قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير : ذهب مغاضباً لربه ، واختاره ابن جرير والقتيبي والمهدوي .

وحكى عن ابن مسعود : قال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة ، وهو قول صحيح .

والمعنى : مغاضباً من أجل ربه ، كما تقول غضبت لك ، أي من أجلك .

وقال الضحاك : ذهب مغاضباً لقومه ، وحكي عن ابن عباس .

وقالت فرقة منهم الأخفش : إنما خرج مغاضباً للملك الذي كان في وقته واسمه حزقيا

وقيل : لم يغاضب ربه ولا قومه ولا الملك ، ولكنه مأخوذ من غضب إذا أنف ، وذلك أنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف الله عنهم العذاب فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج عنهم ، ومن استعمال الغضب في هذا المعنى قول الشاعر :

وأغضب أن تهجى تميم بعامر . . . أي آنف ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ نقدر ﴾ بفتح النون وكسر الدال .

واختلف في معنى الآية على هذه القراءة .

فقيل : معناها : أنه وقع في ظنه أن الله تعالى لا يقدر على معاقبته .

وقد حكي هذا القول عن الحسن وسعيد بن جبير ، وهو قول مردود ، فإن هذا الظنّ بالله كفر ؛ ومثل ذلك لا يقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(180/514)

وذهب جمهور العلماء أن معناها : فظنّ أن لن نضيق عليه ، كقوله : ﴿ يَبْسُطُ الرزقِ لِمَنْ يَشَاء وَيَقدِرُ ﴾ [الشورى : 12] ، أي يضيق ، ومنه قوله : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق : 7] .

يقال : وقَدَرَ وقُدِر وقَتَرَ وقُتِر ، أي ضيق .

وقيل : هو من القدر الذي هو القضاء والحكم ، أي فظنّ أن لن نقضي عليه العقوبة ، قاله قتادة ومجاهد ، واختاره الفراء والزجاج ، مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة .

قال أحمد بن يحيى ثعلب : هو من التقدير ليس من القدرة ، يقال منه : قدّر الله لك الخير يقدره قدراً ، وأنشد ثعلب :

فليست عشيات اللوى برواجع . . . لنا أبداً ما أروق السلم النضر

ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى . . . تباركت ما تقدر مع ذلك الشكر

أي ما تقدره وتقضي به ، ومما يؤيد ما قاله هؤلاء قراءة عمر بن عبد العزيز والزهري : " فظنّ أن لن نقدّر " بضم النون وتشديد الدال من التقدير .

وحكى هذه القراءة الماوردي عن ابن عباس ، ويؤيد ذلك أيضاً قراءة عبيد بن عمير وقتادة والأعرج : " أن لن يقدّر " بضم الياء والتشديد مبنياً للمفعول ، وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبي إسحاق والحسن : " يقدر " بضم الياء وفتح الدال مخففاً مبنياً للمفعول .

وقد اختلف العلماء في تأويل الحديث الصحيح في قول الرجل الذي لم يعمل خيراً قط لأهله أن يحرقوه إذا مات ، ثم قال : فوالله لئن قدّر الله عليّ .

. .

الحديث كما اختلفوا في تأويل هذه الآية ، والكلام في هذا يطول وقد ذكرنا ها هنا ما لا يحتاج معه الناظر إلى غيره .

والفاء في قوله : ﴿ فنادى فِي الظلمات ﴾ فصيحة أي كان ما كان من التقام الحوت له ، فنادى في الظلمات ، والمراد بالظلمات : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وكان نداؤه : هو قوله : ﴿ أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سبحانك إِنّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ أي بأن لا إله إلا أنت .

. .

إلخ ، ومعنى ﴿ سبحانك ﴾ تنزيهاً لك من أن يعجزك شيء ، إني كنت من الظالمين الذين يظلمون أنفسهم ، قال الحسن وقتادة : هذا القول من يونس اعتراف بذنبه وتوبة من خطيئته ، قال ذلك وهو في بطن الحوت .

ثم أخبر الله سبحانه بأنه استجاب له فقال : ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ دعاءه الذي دعانا به في ضمن اعترافه بالذنب على ألطف وجه ﴿ ونجيناه مِنَ الغم ﴾ بإخراجنا له من بطن الحوت حتى قذفه إلى الساحل ﴿ وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ أي نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم وما أعددناه لهم من الرحمة ، وهذا هو معنى الآية الأخرى ، وهي قوله : ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : 143 ، 144] .

قرأ الجمهور : " ننجي " بنونين .

وقرأ ابن عامر " نُجّي " بنون واحدة وجيم مشدّدة وتسكين الياء على الفعل الماضي وإضمار المصدر ، أي وكذلك نُجّي النجاءُ المؤمنين كما تقول : ضُرب زيداً ، أي ضُرب الضربُ زيداً ، ومنه قول الشاعر :

ولو ولدت قُفَيرة جرو كلب . . . لسبّ بذلك الجرو الكلابا

هكذا قال في توجيه هذه القراءة الفرّاء وأبو عبيد وثعلب ، وخطأها أبو حاتم والزجاج

وقالا : هي لحن لأنه نصب اسم ما لم يسمّ فاعله ، وإنما يقال : نجي المؤمنون .

ولأبي عبيدة قول آخر ، وهو أنه أدغم النون في الجيم وبه قال القتيبي .

واعترضه النحاس فقال : هذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين لبعد مخرج النون من مخرج الجيم فلا تدغم فيها ، ثم قال النحاس : لم أسمع في هذا أحسن من شيء سمعته من عليّ بن سليمان الأخفش قال : الأصل : ننجي ، فحذف إحدى النونين لاجتماعهما كما يحذف إحدى التاءين لاجتماعهما نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران : 103] .

والأصل : ولا تتفرّقوا .

(182/514)

قلت : وكذا الواحدي عن أبي عليّ الفارسي أنه قال : إن النون الثانية تخفى مع الجيم ، ولا يجوز تبيينها ، فالتبس على السامع الإخفاء بالإدغام ، فظن أنه إدغام ، ويدلّ على هذا إسكانه الياء من نجي ونصب المؤمنين ، ولو كان على ما لم يسم فاعله ما سكن الياء ولوجب أن يرفع المؤمنين .

قلت : ولا نسلم قوله : إنه لا يجوز تبيينها فقد بينت في قراءة الجمهور ، وقرأ محمد بن

السميفع وأبو العالية " وكذلك نجى المؤمنين " على البناء للفاعل ، أي نجى الله المؤمنين .

وقد أخرج ابن جرير عن مرّة في قوله : ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث ﴾ قال : كان الحرث نبتاً فنفشت فيه ليلاً فاختصموا فيه إلى داود ، فقضى بالغنم لأصحاب الحرث ، فمرّوا على سليمان فذكروا ذلك له .

فقال : لا ، تدفع الغنم فيصيبون منها ويقوم هؤلاء على حرثهم ، فإذا كان كما كان ردّوا عليهم فنزلت : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ وقد روي هذا عن مرّة عن ابن مسعود .

وأخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَدَاوُدَ وسليمان إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث ﴾ قال : كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته الغنم ، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : غير هذا يا نبيّ الله قال : وما ذاك ؟ قال : يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى إذا عاد الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه والغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مسروق نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه ، ولكنه لم يذكر الكرم .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن جرير وابن المنذر ، وابن مردويه عنه نحوه بأطول

منه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ نَفَشَتْ ﴾ قال : رعت .

(183/514)

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن حرام بن محيصة : أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار ، وأن ما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها .

وقد علل هذا الحديث ، وقد بسطنا الكلام عليه في شرح المنتقى .

وأخرج ابن مردويه من حديث عائشة نحوه ، وزاد في آخره ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وَدَاوُدَ وسليمان ﴾ الآية .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينما امرأتان معهما ابنان جاء الذئب فأخذ أحد الابنين ، فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى ، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال : هاتوا السكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : رحمك الله ، هو ابنها لا تشقه ، فقضى به للصغرى " وهذا الحديث وإن لم يكن داخلاً فيما

حكته الآية من حكمهما لكنه من جملة ما وقع لهما .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة في قوله : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ * دَاوُودَ *الجبال يُسَبِّحْنَ والطير ﴾ قال : يصلين مع داود إذا صلى ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ قال : كانت صفائح ، فأوّل من سردها وحلقها داود عليه السلام .

وأخرج ابن أبي شيبة ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كان سليمان يوضع له ستمائة ألف كرسي ، ثم يجيء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه ، ثم يجيء أشراف الجنّ فيجلسون مما يلي أشراف الإنس ثم يدعو الطير فتظلهم ، ثم يدعو الريح فتحملهم تسير مسيرة شهر في الغداة الواحدة .

(184/514)

وأخرج ابن عساكر ، والديلمي ، وابن النجار عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله لأيوب : تدري ما جرمك عليّ حتى ابتليتك ؟ قال : لا يا رب ، قال : لأنك دخلت على فرعون فداهنت عنده في كلمتين " وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : إنما كان ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظالم يدرؤه فلم يعنه ، ولم يأمر

بالمعروف ، ولم ينه الظالم عن ظلم المسكين فابتلاه الله ، وفي إسناده جويبر .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد في الزهد ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان جاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه ، فقاما من بعيد ، فقال أحدهما للآخر : لو كان علم الله من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط مثله ، فقال : اللّهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعان ، وأنا أعلم مكان جائع فصدّقني ؛ فصدّق من السماء وهما يسمعان ، ثم قال : اللّهم إن كنت تعلم أني لم ألبس قميصاً قط وأنا أعلم مكان عار فصدّقني ، فصدّق من السماء وهما يسمعان ثم خرّ ساجداً وقال : اللّهم بعزتك لا أرفع رأسي حتى تكشف عني ، فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه .

وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قال : قيل له : يا أيوب ، إن أهلك لك في الجنة ، فإن شئت أتيناك بهم ، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم ، قال : لا ، بل اتركهم لي في الجنة ، قال : فتركوا له في الجنة وعوّض مثلهم في الدنيا .

(185/514)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن الضحاك قال : بلغ ابن مسعود أن مروان قال في هذه الآية : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قال : أوتي أهلاً غير أهله ، فقال ابن مسعود : بل أوتي أهله بأعيانهم ومثلهم معهم .

وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والروياني وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" إن أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخصّ إخوانه ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد .

قال : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه ما به ، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك ، فقال أيوب : لا أدري ما يقول غير أن الله يعلم أني أمرّ بالرجلين يتنازعان يذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفّر عنهما كراهة أن يذكر الله إلا في حق ، وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها ، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن ﴿ اركض بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : 42] فاستبطأته فتلقته وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك هل رأيت نبيّ الله المبتلى ،

والله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً ؟ قال : فإني أنا هو ، قال : وكان له أندران : أندر للقمح ، وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض .

(186/514)

وأفرعت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض " وأخرج ابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَذَا الكفل ﴾ قال : رجل صالح غير نبيّ تكفل لنبيّ قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل ، ففعل ذلك ، فسمي ذا الكفل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان في بني إسرائيل قاضٍ فحضره الموت ، فقال : من يقوم مقامي على أن لا يغضب ؟ فقال رجل : أنا ، فسمي : ذا الكفل ، فكان ليله جميعاً يصلي ، ثم يصبح صائماً فيقضي بين الناس ، وذكر قصة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال : ما كان ذو الكفل نبياً ، ولكن كان في بني إسرائيل رجل صالح يصلي كلّ يوم مائة صلاة فتوفي ، فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة ، فسمي ذا

الكفل .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن حبان والطبراني والحاكم وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان من طريق سعد مولى طلحة عن ابن عمر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورّع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك : أكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكنه عمل ما عملته قط ، وما حملني عليه إلا الحاجة ، فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته ، اذهبي فهي لك ، وقال : والله لا أعصي الله بعدها أبداً ، فمات من ليلته فأصبح مكتوب على بابه : إن الله قد غفر للكفل "

وأخرجه الترمذي وحسنه ، والحاكم وابن مردويه من طريق سعد مولى طلحة .

وأخرجه ابن مردويه من طريق نافع عن ابن عمر وقال فيه ذو الكفل .

(187/514)

وأخرج ابن جرير ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَذَا النونِ إِذ ذَّهَبَ مغاضبا ﴾ يقول : غضب على قومه ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ يقول : أن لن

نقضي عليه عقوبة ولا بلاء فيما صنع بقومه في غضبه عليهم وفراره ، قال : وعقوبته أخذ النون إياه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ قال : ظنّ أن لن يأخذه العذاب الذي أصابه .

وأخرج أحمد في الزهد ، وابن أبي الدنيا ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود : ﴿ فنادى فِي الظلمات ﴾ قال : ظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر .

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، والبزار وابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن سعد بن أبي وقاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له " وأخرج ابن جرير عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اسم الله الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس بن متى " ، قلت : يا رسول الله ، هل ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : " هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا به ، ألم تسمع قول الله : ﴿ وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه " وأخرج الحاكم من حديثه أيضاً نحوه ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما

من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا ينبغي لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى " وروي أيضاً في الصحيح وغيره من حديث ابن مسعود . وروي أيضاً في الصحيحين من حديث أبي هريرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(188/514)

وقال القاسمي :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

أي : اذكر ذا النون يعني صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام ، وصبره على ما أصابه ، ثم إنابته ونجاته ، ليثبت في نبئه فؤادك ويقوى على الصبر على ما يقوله الطغاة جنانك .

وهذه القصة مذكورة ههنا وفي سورة الصافات وفي سورة ن . وذلك أن يونس بن متى عليه السلام ، أمره الله أن ينطلق إلى أهل نينوى – من أرض الموصل ، كرسي سلطنة الأشوريين ليدعوهم إلى الإيمان به تعالى وحده ، وإلى إقامة القسط ونشر العدل وحسن السيرة .

وكانوا على الضد من ذلك ، تعاظم كفرهم وتزايد شرهم . فخشي أن لا يتم له الأمر معهم

، فأبق من بيت المقدس إلى يافا . ونزل في سفينة سائرة إلى ترشيش ليقيم فيها . فأرسل الله ريحاً شديدة على البحر أشرفت السفينة معه على الغرق . فتخفف الركاب من أمتعتهم فلم يفد ، فوقع في أنفسهم أن في السفينة شخصاً سيهلكون بسببه ، فاقترعوا لينظروا من هو فخرجت القرعة على يونس ، فقذفوه في البحر وسكن جيشانه وتموجه . وهيأ الله حوتاً ليونس فابتلعه ، فمكث في جوف الحوت ثلاثة أيام . ثم دعا ربه فاستجاب له ، وألقاه الحوت على الساحل . ثم أوحى الله إلى يونس ثانية بالمسير إلى نينوى ، ودعوتها إلى الله تعالى ، فوصلها ونادى فيهم بالتوحيد والتوبة . وتوعدهم إن لم يؤمنوا أن تنقلب بهم نينوى ، فلما تحققوا ذلك آمنوا . فرفع الله عنه العذاب ، قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس : 98] .

(189/514)

تنبيهات :

الأول : يونس عليه السلام يسمى في التوراة يونان وهو عبراني . ويقال إنه من جَت حافَر وهي قرية في سبط زبولون ، في شمال الأرض المقدسة . وإنه نُبِّئَ قبل المسيح بنحو ثمانمائة

سنة . والله أعلم .

الثاني : أكثر المفسرين كما حكاه الرازي على أن يونس ذهب مغاضباً لربه . وأنه ظن بإباقه إلى الفلك ، وتركه المسير إلى نينوى أولاً ، أن يترك ولا يقاصّ . قال بعض المحققين : إنما خالف يونس أولاً الأمر الإلهي وترخص فيه ، مخافة أن يظن أنه نبيّ كاذب إذا تاب أهل نينوى وعفا الله عن جرمهم . وإيثار صيغة المبالغة في مغاضباً للمبالغة . لأن أصله يكون بين اثنين ، يجهد كل منهما في غلبة الآخر . فيقتضي بذل المقدور والتناهي . فاستعمل في لازمه للمبالغة ، دون قصد مفاعلة وقد استدل بظاهر هذه الآية وأمثالها ، من ذهب إلى جواز صدور الخطأ من الأنبياء ، إلا الكذب في التبليغ ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ فيه ، لأنه حجة الله على عباده . وإلا ما يجري مجرى بيان الوحي ، فإنه لا يجوز عليهم الخطأ في حال بيان المشروع . وهو قول الكرامية في المرجئة كما في " شرح نهج البلاغة " لابن أبي الحديد . وقول الباقلاني من الأشعرية على ما حكاه ابن حزم في " الملل " : وأما الجمهور المانعون من ذلك ، فلهم في هذه الآية وأشباهها تأويلات . ونحن نؤثر ما قاله ابن حزم في هذا المقام ، لأنه أطلق لساناً ، قال رحمه الله : بعد أن حكى مذهب الكرامية المذكور : وذهب أهل السنة والمعتزلة والنجاريّة والخوارج والشيعة إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبيّ معصية بعمد لا صغيرة ولا كبيرة .

ثم قال : وهذا القول الذي ندين الله تعالى به . ولا يحل لأحد أن يدين بسواه . ونقول : إنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد . ويقع منهم أيضاً قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى ، والتقرب به منه . فيوافق خلاف مراد الله تعالى . إلا أنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذين الوجهين أصلاً ، بل ينبههم على ذلك ولا بد ، إثر وقوعه منهم . وربما يبغض المكروه في الدنيا ، كالذي أصاب آدم ويونس والأنبياء عليهم السلام ، بخلافنا في هذا . فإننا غير مؤاخذين بما سهونا فيه ، ولا بما قصدنا به وجه الله عزّ وجلّ ، فلم يصادف مراده تعالى . بل نحن مأجورون على هذا الوجه أجراً واحداً .

(191/514)

ثم قال في الكلام على يونس عليه السلام : وأما إخبار الله تعالى أن يونس ذهب مغاضباً ، فلم يغاضب ربه قط ، ولا قال الله تعالى إنه غاضب ربه . فمن زاد هذه الزيادة كان قائلاً على الله الكذب ، وزائداً في القرآن ما ليس فيه . هذا لا يحل ولا يجوز أن يظن بمن له أدنى مسكة من عقل , أنه يغاضب ربه تعالى . فكيف أن يفعل ذلك نبيٌّ من الأنبياء ؟ فعلمنا يقيناً أنه إنما غاضب قومه ، ولم يوافق ذلك مراد الله عزّ وجلّ ، فعوقب بذلك . وإن كان

يونس عليه السلام لم يقصد بذلك إلا رضاء الله عزّ وجلّ . وأما قوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ فليس على ما ظنوه من الظن السخيف الذي لا يجوز أن يظن بضعيفة من النساء أو بضعيف من الرجال . إلا أن يكون قد بلغ الغاية من الجهل . فكيف بنبيّ مفضل على الناس في العلم ؟ ومن المحال المتيقن أن يكون نبيّ يظن أن الله تعالى الذي أرسله بدينه لا يقدر عليه . وهو يرى أن آدميّاً مثله يقدر عليه . ولا شك في أن من نسب هذا للنبيّ صلى الله عليه وسلم الفاضل ، فإنه يشتد غضبه لو نسب ذلك إليه أو إلى ابنه . فكيف إلى يونس بن متى الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : < لا تفضلوني على يونس بن متى ؟ > فقد بطل ظنهم بلا شك ، وصح أن معنى قوله : ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي : لن نضيق عليه كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ [الفجر : 16] , أي : ضيق عليه . فظن يونس عليه السلام أن الله تعالى لا يضيق عليه في مغاضبته لقومه ، إذ ظن أنه محسن في فعله ذلك : وإنما نهى الله عزّ وجلّ ، محمداً صلى الله عليه وسلم عن أن يكون كصاحب الحوت ، فنعم ، نهاه الله عزّ وجلّ عن مغاضبة قومه ، وأمره بالصبر على أذاهم وبالمطاولة لهم . وأما قوله تعالى : أنه استحق الذم والملامة ، لولا النعمة التي تداركه بها ، للبث معاقباً في بطن الحوت ، فهذا نفس ما

قلناه من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون في الدنيا على ما فعلوه ، مما يظنونه خيراً وقربة إلى الله عزّ وجلّ ، إذا لم يوافق مراد ربهم . وعلى هذا الوجه أقر على نفسه بأنه كان من الظالمين . والظلم وضع الشيء في غير موضعه . فلما وضع النبيّ صلى الله عليه وسلم المغاضبة في غير موضعها ، اعترف في ذلك بالظلم . لا على أنه قصده وهو يدري أنه ظلم . انتهى كلام ابن حزم .

وأقول : إن الذي يفتح باب الإشكالات هو التعمق في الألفاظ . والتنطع في شرحها وتوليد معاني ولوازم لها ، والتوسع في وجوهها توسعاً يميت رونق التركيب ونصاعة بلاغته .

ومعلوم أن التنزيل الكريم فاق سائر أساليب الكلام المعهودة بأسلوبه البديع . ولذا كانت آية تأخذ بمجامع القلوب رقة وانسجاماً . وبلاغة وانتظاماً . فلا ترى في كلمه إلا المختارات لطفاً ، ولا في جمله إلا الفخيمات تركيباً ، ولا في إشاراته إلا الأقوى رمزاً ، ولا في كناياته إلا الأعلى مغزى . ومن ذلك سنته في الملام والوعيد من إفراغ القول في أبلغ قالب شديد ، مما يؤخذ منه شدة الخطب ، وقوة العتب وذلك لعزة الجناب الإلهي والمقام الرباني . فالعربيّ البليغ طبعاً ، الذائق جبلة ، إذا تلي عليه مجمل نبأ يونس عليه السلام في هذه الآية ، يدهش لما ترمي إليه من قوة العتب والملام ، وأنه يإباقه غاضب مولاه ، غضباً لا يماثل الغضب على العصاة . فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . وأنه ظن أن يُنسى فلا يؤاخذ . ويفلت

فلا يحصر . فأتاه ما لم يكن على بال . ووقع في شرك قدرة المتعال ، ثم تداركته النعمة ، ولحقته الرحمة . هذا مجمل ما يفهم من الآية منطوقاً ومفهوماً . فافهم ما ذكرته لك . فإنه يبلغك من التحقيق أملك .

(193/514)

الثالث : عدَّ بعض الملاحدة ابتلاع الحوت يونس مُحالاً . فكتب بعض المحققين مجيباً بأن هذا إنكار لقدرة الله فاطر السموات والأرض . الذي له في خلقه غرائب . ومنها الحيتان المتنوعة الهائلة الجثث ، التي لم يزل يصطاد منها في هذا العصر ، وفي بطونها أجساد الناس بملابسهم . وكتب آخر : لم يتعرض لتعيين نوع الحوت الذي ابتلع يونس . ولعله فيما قال قوم من المحققين . من النوع المعروف عند بعضهم بالزفا وهو من كبار الحيتان يكون في بحر الروم ، واسع الحلقوم ، حتى أنه ليبتلع الرجل برمته ، دون أن يشدخه أو يجرحه . حتى يبقى في الإمكان أن يخرج منه وهو حيّ : ومع ذلك فلم يكن بغير معجزة بقاؤه ثلاثة أيام في جوف هذا الحوت ، ولبث مالكاً رشده متمكناً من التسبيح والدعاء . انتهى .

الرابع : الجمع في قوله : ﴿ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ إما على حقيقته ، وهي ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل . وقد روي ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . أو

مجاز ، يجعل الظلمة لشدتها وتكاثفها في بطن الحوت كأنها ظلمات . والمراد منها أحد المذكورات ، أو بطن الحوت . وقدمه الزمخشري ونظره بآية : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ [البقرة : 17] .

(194/514)

الخامس : قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ أي : دعاؤه : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ يعني بأن قذفه الحوت إلى الساحل ، قيل لم يقل فنجيناه كما قال في قصة أيوب عليه السلام : ﴿ فَكَشَفْنَا ﴾ [84] ، لأنه دعا بالخلاص من الضر ، فالكشف المذكور يترتب على استجابته . ويونس عليه السلام لم يدع ، فلم يوجد وجه الترتيب في استجابته . وردّ بأن الفاء في قصة أيوب تفسيرية . والعطف هنا أيضاً تفسيري . والتفنن طريقة مسلوكة في علم البلاغة . ثم لا نسلم أن يونس لم يدع بالخلاص ولو لم يكن دعاء لم تتحقق الاستجابة .

واستظهر الشهاب في سر الإتيان بالفاء ثمة . والواو هنا غير التفنن المذكور . أن يقال : إن الأول دعاء بكشف الضر وتلطف في السؤال .

فلما أجمل في الاستجابة ، وكان السؤال بطريقة الإيماء ، ناسب أن يؤتى بالفاء التفصيلية .

وأما هنا ، فإنه لما هاجر من غير أمر ، على خلاف معتاد الأنبياء عليهم السلام . كان ذلك

ذنباً . كما أشار إليه بقوله : ﴿ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فما أوما إليه هو الدعاء بعدم مؤاخذته بما صدر منه من سيئات الأبرار . فالاستجابة عبارة عن قبول توبته وعدم مؤاخذته : وليس ما بعده تفسيراً له ، بل زيادة إحسان على مطلوبه . ولذا عطف بالواو . انتهى .

السادس : قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : إذا كانوا في غموم ، وأخلصوا في أدعيتهم منيبين ، لا سيما بهذا الدعاء : وقد روي في الترغيب آثار : منها عند أحمد والترمذي : دعوة ذي النون ، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط ، إلا استجاب له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 225.229 ﴾

(195/514)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى ﴾

أي واذكر ذا النون . والنون : الحوت . " وذا " بمعنى صاحب . فقوله ﴿ ذَا النون ﴾ معناه صاحب الحوت . كما صرح الله بذلك في " القلم " في قوله ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الحوت ﴾ [القلم : 48] الآية . وإنما أضافه إلى الحوت لأنه التقمه كما قال تعالى : ﴿ فالتقمه الحوت وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات : 142] .

وقوله : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ فيه وجهان من التفسير لا يكذب أحدهما الآخر :

الأول أن المعنى ﴿ لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي لن نضيق عليه في بطن الحوت . ومن إطلاق " قدر " بمعنى " ضيق " في القرآن قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد : 26] أي ويضيق الرزق على من يشاء ، وقوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ آتَاهُ اللهُ ﴾ [الطلاق : 7] الآية . فقوله : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ أي ومن ضيق عليه رزقه .

الوجه الثاني أن معنى ﴿ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ لن نقضي عليه ذلك . وعليه فهو من القدر والقضاء . " وقدر " بالتخفيف تأتي بمعنى " قدر " المضعفة : ومنه قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَى المآء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : 12] أي قدره الله . ومه قول الشاعر وأنشده ثعلب شاهداً لذلك :

فليست عشيات الحمى برواجع . . . لنا أبداً ما أورق السلم النضر

ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى . . . تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

(196/514)

والعرب تقول : قدر الله لك الخير يقدره قدراً ، وكضرب يضرب ، ونصر ينصر ، بمعنى قدره لك تقديراً . ومنه على أصح القولين " ليلة القدر " لأن الله يقدر فيها الأشياء . كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان : 4] والقدر بالفتح ، والقدر بالسكون : ما يقدره الله من القضاء . ومنه قول هدبة بن الخشرم :

ألا يا لقومي للنوائب والقدر . . . وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدري

أما قول من قال : إن ﴿ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ من القدرة فهو قول باطل بلا شك . لأن نبي الله يونس لا يشك في قدرة الله على كل شيء ، كما لا يخفى .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ مُغَاضِباً ﴾ أي في حال كونه مغاضباً لقومه . ومعنى المفاعلة فيه : أنه أغضبهم بمفارقته وتخوفهم حلول العذاب بهم ، وأغضبوه حين دعاهم إلى الله مدة فلم يجيبوه ، فأوعدهم بالعذاب . ثم خرج من بينهم على عادة الأنبياء عند نزول العذاب قبل أن يأذن الله له في الخروج . قاله أبو حيان في البحر . وقال أيضاً : وقيل معنى " مُغَاضِباً " غضبان ، وهو من المفاعلة التي لا تقتضي اشتراكاً . نحو عاقبت اللص ، وسافرت اه .

واعلم أن قول من قال ﴿ مُغَاضِباً ﴾ أي مغاضباً لربه كما روي عن ابن مسعود ، وبه قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير ، واختاره الطبري والقتبي ، واستحسنه المهدوي يجب حمله على معنى القول الأول .

أي مغاضباً من أجل ربه . قال القرطبي بعد أن ذكر هذا القول عمن ذكرنا : وقال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة ، وهو قول صحيح ، والمعنى : مغاضباً من أجل ربه كما تقول : غضبت لك أي من أجلك ، والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عصى انتهى منه .

والمعنى على ما ذكر : مغاضباً قومه من أجل ربه ، أي ، من أجل كفرهم به ، وعصيانهم له . وغير هذا لا يصح في الآية .

وقوله تعالى : ﴿ فنادى فِي الظلمات ﴾ .

(197/514)

أي ظلمة البحر ، وظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت . و" أن " في قوله ﴿ أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ ﴾ مفسرة ، وقد أوضحنا فيما تقدم معنى " أن لا إله " ، ومعنى " سبحانك " ، ومعنى الظلم ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وقوله : ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ أي أجبناه ونجيناه من الغم الذي هو فيه في بطن الحوت ، وإطلاق استجاب بمعنى أجاب معروف في اللغة ، ومنه قول كعب بن سعد الغنوي :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى . . . فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وما ذكره الله جل وعلا في هذه الآية : من نداء نبيه يونس في تلك الظلمات هذا النداء

العظيم ، وأن الله استجاب له ونجاه من الغم أوضحه في غير هذا الموضع .

وبين في بعض المواضع : أنه لو لم يسبح هذا التسبيح العظيم للبث في بطن الحوت إلى يوم البعث ولم يخرج منه . وبين في بعضها أنه طرحه بالعراء وهو سقيم .

وبين في بعضها : أنه خرج بغير إذن كخروج البعد الآبق ، وأنهم اقترعوا على من يلقى في البحر فوقعت القرعة على يونس أنه هو الذي يلقى فيه .

(198/514)

وبين في بعضها : أن الله تداركه برحمته . ولو لم يتداركه بها لنبذ بالعراء في حال كونه مذموماً ، ولكنه تداركه بها فنبذ غير مذموم ، قال تعالى في " الصافات " : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسلين إِذْ أَبَقَ إِلَى الفلك المشحون فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ المدحضين فالتقمه الحوت وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بالعرآء وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُواْ فَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ﴾ [الصافات : 139-148] . فقوله في آيات " الصافات " المذكورة ﴿ إِذْ أَبَقَ ﴾ أي حين أبق ، وهو من قول العرب : عبد آبق ، لأن يونس خرج قبل أن يأذن له ربه ، ولذلك أطلق عليه اسم الإباق . واستحقاق الملامة في قوله : ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ لأن المليم اسم فاعل ألام

إذا فعل ما يستوجب الملام . وقوله : ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ أي قارع بمعنى أنه وضع مع أصحاب السفينة سهام القرعة . لأنه خرج له السهم الذي يلقى صاحبه في البحر . ومن ذلك قول الشاعر :

قتلنا المدحضين بكل فج . . . فقد قرت بقتلهم العيون

وقوله ﴿ فَنَبَذْنَاهُ ﴾ أي طرحناه ، بأن أمرنا الحوت أن يلقيه بالساحل . والعراء : الصحراء . وقول من قال : العراء الفضاء أو المتسع من الأرض ، أو المكان الخالي أو وجه الأرض راجع إلى ذلك ، ومنه قول الشاعر وهو رجل من خزاعة :

ورفعت رجلاً لا أخاف عثارها . . . ونبذت بالبلد العراء ثيابي

(199/514)

وشجرة اليقطين : هي الدباء . وقوله : ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أي مريض لما أصابه من التقام الحوت إياه ، وقال تعالى في " القلم " . ﴿ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحوت إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بالعرآء وَهُوَ مَذْمُومٌ فاجتباه رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصالحين ﴾ [القلم : 48-50] فقوله في آية " القلم " هذه : ﴿ إِذْ نادى ﴾ أي نادى أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، وقوله : ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ أي مملوء غماً ، كما قال تعالى

: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم ﴾ وهو قول ابن عباس ومجاهد . وعن عطاء وأبي مالك ﴿ مَكْظُومٌ ﴾ : مملوء كرباً . قال الماوردي : والفرق بين الغم والكرب : أن الغم في القلب . والكرب في الأنفاس . وقيل ﴿ مَكْظُومٌ ﴾ محبوس . والكظم/ الحبس . ومنه قولهم : كظم غيظه ، أي حبس غضبه ، قاله ابن بحر . وقيل : المكظوم المأخوذ بكظمه ، وهو مجرى النفس ، قاله المبرد انتهى من القرطبي .

وآية " القلم " المذكورة تدل على أن نبي الله يونس عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عِجل بالذهاب ومغاضبة قومه ، ولم يصبر الصبر اللازم بدليل قوله مخاطباً نبينا صلى الله عليه وسلم فيها : ﴿ فاصبرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحوت ﴾ [القلم : 48] الآية . فإن أمره لنبينا صلى الله عليه وسلم بالصبر ونهيه إياه أن يكون كصاحب الحوت دليل على أن صاحب الحوت لم يصبر كما ينبغي . وقصة يونس ، وسبب ذهابه ومغاضبته قومه مشهورة مذكورة في كتب التفسير . وقد بين تعالى في سورة " يونس " : أن قوم يونس آمنوا فنفعهم إيمانهم دون غيرهم من سائر القرى التي بعثت إليهم الرسل ، وذلك في قوله : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ﴾ [يونس : 98] .

(200/514)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ يدل على أنه ما من مؤمن يصيبه الكرب والغم فيبتهل إلى الله داعياً بإخلاص ، إلا نجاه الله من ذلك الغم ، ولا سيما إذا دعا بدعاء يونس هذا . وقد جاء في حديث مرفوع عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : في دعاء يونس المذكور : " لم يدع به مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له " رواه أحمد والترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهم .

والآية الكريمة شاهدة لهذا الحديث شهادة قوية كما ترى ، لأنه لما ذكر أنه أنجى يونس شبه بذلك إنجاءه المؤمنين .

وقوله ﴿ نُنجِي المؤمنين ﴾ صيغة عامة في كل مؤمن كما ترى . وقرأ عامة القراء السبعة غير ابن عامر وشعبة عن عاصم ﴿ وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ بنون واحدة مضمومة بعدها جيم مكسورة مشددة فياء ساكنة . وهو على هذه القراءة بصيغة فعل ماض مبني للمفعول من مجى المضعفة على وزن فعل بالتضعيف . وفي كلتا القراءتين إشكال معروف .

أما قراءة الجمهور فهي من جهة القواعد العربية واضحة لا إشكال فيها ، ولكن فيها إشكال من جهة أخرى ، وهي : أن هذا الحرف إنما كتبه الصحابة في المصاحف العثمانية بنون واحدة ، فيقال : كيف تقرأ بنونين وهي في المصاحف بنون واحدة ؟ وأما على قراءة ابن عامر وشعبة فالإشكال من جهة القواعد العربية ، لأن نجى على قراءتهما بصيغة

ماض مبني للمفعول ، فالقياس رفع ﴿ المؤمنين ﴾ بعده على أنه نائب الفاعل ، وكذلك القياس فتح نون " نجى " لا إسكانها .

(201/514)

وأجاب العلماء عن هذا بأجوبة : منها ما ذكره بعض الأئمة ، وأشار إليه ابن هشام في باب الإدغام من توضيحه : أن الأصل في قراءة ابن عامر وشعبة " ننجي " بفتح النون الثانية مضارع نجى مضعفاً ، فحذفت النون الثانية تخفيفاً . أو ننجى بسكونها مضارع أنجى وأدغمت النون في الجيم لاشتراكهما في الجهر والانفتاح والتوسط بين القوة والضعف ، كما أدغمت في " إجاصة وإجانة " بتشديد الجيم فيهما ، والأصل " إنجاصة وإنجانة " فأدغمت النون فيهما . والإجاصة : واحدة الإجاص ، قال في القاموس : الإجاص بالكسر مشدداً : ثمر معروف دخيل ، لأن الجيم والصاد لا يجتمعان في كلمة ، الواحدة بهاء . ولا تقل انجاص ، أو لغية ا ه . والإجانة . واحدة الأجاجين . قال في التصريح : وهي بفتح الهمزة وكسرها . قال صاحب الفصيح : قصرية يعجن فيه ويغسل فيها . ويقال : إنجانة كما يقال إنجاصة ، وهي لغة يمانية فيهما أنكرها الأكثرون ا ه . فهذا وجهان في توجيه قراءة ابن عامر وشعبة ، وعليهما فلفظة " ألمؤمنين " مفعول به ل " ننجي " .

ومن أجوبة العلماء عن قراءة ابن عامر وشعبة : أن " نجى " على قراءتهما فعل ماض مبني للمفعول ، والنائب عن الفاعل ضمير المصدر ، أي نجى هو أي الإنجاء ، وعلى هذا الوجه فالآية كقراءة من قرأ ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْماً ﴾ [الجاثية : 14] الآية ، ببناء " يجزي " للمفعول والنائب ضمير المصدر ، أي ليجزي هو أي الجزاء ونيابة المصدر عن الفاعل في حال كون الفعل متعدياً للمفعول ترد بقلة ، كما أشار له في الخلاصة بقوله :

وقابل من ظرف أو من مصدر . . . أو حرف جر بنيابة حرى

ولا ينوب بعض هذا إن وجد . . . في اللفظ مفعول به وقد يرد

ومحل الشاهد منه قوله : " وقد يرد " وممن قال بجواز ذلك الأخفش والكوفيون وأبو عبيد .

ومن أمثلة ذلك في كلام العرب قول جرير يهجو أم الفرزدق :

ولو ولدت قفيرة جرو كلب . . . لسب بذلك الجرو الكلابا

يعني لسب هو أي السب . وقول الراجز :

(202/514)

لم يعن بالعلياء إلا سيدا . . . ولا شفى ذا الغي إلا ذو هدى

وأما إسكان ياء " نجي " على هذا القول فهو على لغة من يقول من العرب : رضي ، وبقي

بإسكان الياء تخفيفاً . ومنه قراءة الحسن ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الربا ﴾ [البقرة : 278]

بإسكان ياء " بقي " ومن شواهد تلك اللغة قول الشاعر :

خمر الشيب لمنى تخميرا . . . وحدا بي إلى القبور البعيرا

ليت شعري إذ القيامة قامت . . . ودعى بالحساب أين المصيرا

وأما الجواب عن قراءة الجمهور فالظاهر فيه أن الصحابة حذفوا النون في المصاحف لتمكن موافقة قراءة ابن عامر وشعبة للمصاحف لخفائها ، أما قراءة الجمهور فوجهها ظاهر ولا إشكال فيها ، فغاية الأمر أنهم حذفوا حرفاً من الكلمة لمصلحة مع تواتر الرواية لفظاً بذكر الحرف المحذوف والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(203/514)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

« وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ » .

ذا النون : هو يونس ـ عليه السلام ـ والنون : هو الحوت ، وجمعه نينان . . وقد نسب إليه يونس ، لأنه عاش فى بطنه زمنا ـ كما سترى . .

وقوله تعالى : « إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً » إشارة إلى أنه اختلف مع قومه ، فتركهم وذهب بعيدا عنهم ، مغاضبا لهم .

وفى قوله تعالى : « مُغاضِباً » إشارة إلى أنه استجلب المغاضبة ، واستعجلها ، وأنه وإن ظهر له من قومه ما يثير الغضب ، ويدعو إلى القطيعة ، إلا أنه كان جديرا به أن يصبر ، ويصابر ، وألّا يأخذ القوم بأول بادرة ، فيتخلى عن مقامه فيهم . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ، مخاطبا النبىّ الكريم ، صلوات اللّه وسلامه عليه : « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ » (48 : ن) .

ففى هذا تعريض بيونس - عليه السلام - وأنه لم يصبر الصبر المطلوب من الأنبياء . .

وقوله تعالى : « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ » أي ظن أن لن نقدر على محاسبته على هذا الموقف ، وعقابه عليه . .

ولم يكن من يونس عليه السلام هذا الظن بربه ، وبقدرته ، وإنما حاله التي كان عليها هى التي تعطى هذا الوصف له . . فهو قد فعل فعل من يظن أنه يفعل ما يفعل ، ثم لا يجد محاسبا على ما فعل . .

قوله تعالى : « فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » .

هنا كلام مضمر ، يشير إليه العطف بالفاء « فَنادى » . . وهذا المضمر ، قد ذكر فى آيات أخرى من القرآن الكريم ، وفى هذا يقول سبحانه : « وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى

الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ »

(139.142 : الصافات) .

فحرف العطف « الفاء » يشير إلى هذه الآيات . . والمعنى أن يونس لما ذهب مغاضبا قومه ، ظانّا أن لن نقدر عليه ، أبق (أي هرب) « إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ »

(204/514)

أي الذي شحن وامتلئ بالناس والأمتعة ، حتى فاض ، وكاد يغوص فى الماء . . وإنقاذا للسفينة من الغرق رؤى أن يتخفف من أمتعتها ، ثم من بعض الراكبين فيها ، وقد ارتضى الركاب أن يقترعوا فيما بينهم على من يخلى السفينة ، ويلقى بنفسه فى الماء ، ولو كان فى ذلك هلاكه ، إذ أن فى هلاكه نجاة كثيرين .

وقد وقعت القرعة على يونس فيمن وقعت عليهم ، ليلقوا بأنفسهم فى البحر . .

« فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ »

أي الساقطين ، المخذولين . . وأرض دحض أي زلق ، لا تمسك قدمى من يمشى عليها ، وحجة داحجة : أي ساقطة ، غير مقبولة . .

فلما ألقى يونس بنفسه فى الماء ، التقمه الحوت . « فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ

سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » والمراد بالنداء ، الدعاء ، والتسبيح لله . . كما يقول سبحانه : « فَلَوْلا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » و « الظُّلُماتِ » هى هذا الظلام الكثيف المشتمل عليه فى بطن الحوت ، حيث لا ينفذ إليه شعاعة من ضوء .

وقد ذكر المفسّرون أن هذه الظلمات ، هى ظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل . .

(205/514)

وأنه لا حاجة إلى هذا التكلّف ، لإيجاد وجه لجمع الظلمات . . والبحر نفسه هو ظلمات ، وبطن الحوت ظلمات وظلمات . . فما الحاجة إلى الليل ، حتى تصبح الظلمة ظلمات ؟ وهل فى أعماق البحر ، أو فى جوف الحوت ، حساب للّيل أو النهار ، والظلام والنور ؟ . . واللّه سبحانه وتعالى يقول : « أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ، ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ » (40 : النور) إن ما فى أعماق البحر ، ليست ظلمات وحسب ، وإنما هى ظلمات ، فوق ظلمات ، فوق ظلمات ! وقوله تعالى : « فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ » أي أن اللّه سبحانه قد استجاب

دعاء يونس ، ونجّاه مما هو فيه من غمّ ، وكذلك ينجى اللّه المؤمنين ، مما ينزل بهم من سوء ، وما يصيبهم من بلاء . .

ويونس لم يدع إلا بقوله : « لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » . . فهو دعاء لم يطلب فيه نجاة أو خلاصا من هذا البلاء الذي هو فيه . . ففيم استجاب اللّه له ؟

والجواب - واللّه أعلم - أنه دعا بأفضل دعاء يقتضيه حاله ، ويطلبه موقفه .

إنه قد أتى من قبل نفسه ، وإنّ نفسه هى التي أوقعته فى هذا البلاء ، ودفعت به إلى هذا الموقف الذي هو فيه ، فهو فى دعائه هذا يطلب البراءة من نفسه ، والنجاة من شباكها ، وذلك بإخلاص العبودية للّه ، والبراءة من كل شىء ، حتى من نفسه هذه ، والاستسلام للّه الذي لا إله إلا هو . .

وإنه إذا خلص من نفسه ، وبرىء من أهوائها ونوازعها ، فقد خلص من كل سوء ، وأمن كل مكروه . . ومن هنا كان خلاصه من بطن الحوت ، وكانت نجاته من هذا البلاء . .

وهكذا كل من يضيف وجوده إلى اللّه ،

ويبرأ من نفسه وما توسوس له به . . إنه يكون أبدا على شاطىء النجاة ! . انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 2 صـ 945 . 948 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ﴾

عطف على ﴿ وذا الكفل ﴾ [الأنبياء : 85] .

وذكر ذي النون في جملة من خُصّوا بالذكر من الأنبياء لأجل ما في قصته من الآيات في الالتجاء إلى الله والندم على ما صدر منه من الجزع واستجابة الله تعالى له .

و(ذو النون) وصفٌ ، أي صاحب الحوت .

لقب به يونس بن متَى عليه السلام .

وتقدمت ترجمته في سورة الأنعام وتقدمت قصته مع قومه في سورة يونس .

وذهابُه مغاضباً قيل خروجه غضبان من قومه أهل (نينَوى) إذْ أَبوا أن يؤمنوا بما أرسل إليهم به وهم غاضبون من دعوته ، فالمغاضبة مفاعلة .

وهذا مقتضى المروي عن ابن عباس .

وقيل : إنه أوحي إليه أن العذاب نازل بهم بعد مدة فلما أشرفت المدّة على الانقضاء آمنوا فخرج غضبانَ من عدم تحقق ما أنذرهم به ، فالمغاضبة حينئذ للمبالغة في الغضب لأنه غَضب غريب .

وهذا مقتضى المروي عن ابن مسعود والحسن والشعبي وسعيد بن جبير ، وروي عن ابن

عباس أيضاً واختاره ابن جرير .

والوجه أن يكون ﴿ مغاضباً ﴾ حالاً مراداً بها التشبيه ، أي خرج كالمغاضب .

وسيأتي تفصيل هذا المعنى في سورة الصافات .

وقوله تعالى : ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ يقتضي أنه خرج خروجاً غير مأذون له فيه من الله .

ظن أنه إذا ابتعد عن المدينة المرسل هو إليها يرسل الله غيره إليهم .

وقد روي عن ابن عباس أن (حزقيال) ملكَ إسرائيل كان في زمنه خمسةُ أنبياء منهم يونس ، فاختاره المِلك ليذهب إلى أهل (نينوَى) لدعوتهم فأبى وقال : ههنا أنبياء غيري وخرج مغاضباً للمِلك .

وهذا بعيد من القرآن في آيات أخرى ومن كتب بني إسرائيل .

ومحلّ العبرة من الآية لا يتوقف على تعيين القصة .

(207/514)

ومعنى ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ قيل نقدر مضارع قَدَر عليه أمراً بمعنى ضيّق كقوله تعالى : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ [الرعد : 26] وقوله تعالى : ﴿ ومن

قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾ [الطلاق : 7] ، أي ظن أن لن نضيّق عليه تَحْتيم الإقامة مع القوم الذين أرسل إليهم أو تحتيم قيامه بتبليغ الرسالة ، وأنه إذا خرج من ذلك المكان سقطَ تعلق تكليف التبليغ عنه اجتهاداً منه ، فعوتب بما حلّ به إذ كان عليه أن يستعلم ربه عما يريد فعله .

وفي "الكشاف" : أن ابن عباس دخل على معاوية فقال له معاويةُ : "لقد ضربتني أمواجُ القرآن البارحة فغرِقت فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك .

قال : وما هي ؟ فقرأ معاوية هذه الآية وقال : أو يظن نبيءُ الله أن الله لا يقدر عليه ؟ قال ابن عباس : هذا من القَدرْ لا من القُدرة" .

يعني التضييق عليه .

وقيل ﴿ نقدر ﴾ هنا بمعنى نحكم مأخوذ من القُدرة ، أي ظن أن لن نؤاخذه بخروجه من بين قومه دون إذنٍ .

ونقل هذا عن مجاهد وقتادة والضحاك والكلبي وهو رواية عن ابن عباس واختاره الفرّاء والزجاج .

وعلى هذا يكون يونس اجتهد وأخطأ .

وعلى هذا الوجه فالتفريع تفريع خُطور هذا الظن في نفسه بعد أن كان الخروج منه بادرةً بدافع الغضب عن غير تأمل في لوازمه وعواقبه ، قالوا : وكان في طبعه ضيق الصدر .

وقيل معنى الكلام على الاستفهام حذفت همزته .

والتقدير : أفظن أن لن نقدر عليه ؟ ونسب إلى سليمان بن المعتمر أو أبي المعتمر .

قال منذر بن سعيد في "تفسيره" : وقد قرىء به .

وعندي فيه تأويلان آخران وهما : أنه ظن وهو في جوف الحوت أن الله غير مخلصه في بطن الحوت لأنه رأى ذلك مستحيلاً عادة ، وعلى هذا يكون التعقيب بحسب الواقعة ، أي ظن بعد أن ابتلعَه الحوت .

(208/514)

وأما نداؤه ربه فذلك توبة صدرت منه عن تقصيره أو عجلته أو خطأ اجتهاده ، ولذلك قال : ﴿ إني كنت من الظالمين ﴾ مبالغة في اعترافه بظلم نفسه ، فأسند إليه فعل الكون الدال على رسوخ الوصف ، وجعل الخبر أنه واحد من فريق الظالمين وهو أدل على أرسخية الوصف ، أو أنه ظن بحسب الأسباب المعتادة أنه يهاجر من دار قومه ، ولم يظن أن الله يعوقه عن ذلك إذ لم يسبق إليه وحي من الله .

و﴿ إني ﴾ مفسرة لفعل ﴿ نادى .

﴾ وتقديمه الاعتراف بالتوحيد مع التسبيح كنّى به عن انفراد الله تعالى بالتدبير وقدرته

على كل شيء .

والظلمات : جمع ظلمة .

والمراد ظلمة الليل ، وظلمة قعر البحر ، وظلمة بطن الحوت .

وقيل : الظلمات مبالغة في شدة الظلمة كقوله تعالى : ﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ [البقرة : 257] .

وقد تقدم أنا نظن أن "الظلمة" لم ترد مفردة في القرآن .

والاستجابة : مبالغة في الإجابة .

وهي إجابة توبته مما فرط منه .

والإنجاء وقع حين الاستجابة إذ الصحيح أنه ما بقي في بطن الحوت إلا ساعة قليلة ، وعطف بالواو هنا بخلاف عطف ﴿ فكشفْنا ﴾ على ﴿ فاستجبنا ﴾ وإنجاؤه هو بتقدير وتكوين في مزاج الحوت حتى خرج الحوت إلى قرب الشاطىء فتقاياه فخرج يسبَح إلى الشاطىء .

وهذا الحوت هو من صنف الحوت العظيم الذي يبتلع الأشياء الضخمة ولا يقضمها بأسنانه .

وشاع بين الناس تسمية صنفٍ من الحوت بحوت يونس رجماً بالغيب .

وجملة ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ تذييل .

والإشارة بـ ﴿ كذلك ﴾ إلى الإنجاء الذي أُنجي به يونس ، أي مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين من غُموم بحسب من يقع فيها أن نجاته عسيرة .

وفي هذا تعريض للمشركين من العرب بأن الله منجي المؤمنين من الغمّ والنكد الذي يلاقونه من سوء معاملة المشركين إياهم في بلادهم .

(209/514)

واعلم أن كلمة ﴿ فنجّيَ ﴾ كتبت في المصاحف بنون واحدة كما كتبت بنون واحدة في قوله في [سورة يوسف : 110] ﴿ فننجي من نشاء ﴾ ووجّه أبو علي هذا الرسم بأن النون الثانية لما كانت ساكنة وكان وقوع الجيم بعدها يقتضي إخفاءها لأن النون الساكنة تخفى مع الأحرف الشجرية وهي الجيم والشين والضاد فلما أُخفيت حذفت في النطق فشابَه إخفاؤُها حالةَ الإدغام فحذفَها كاتبُ المصحف في الخطّ لخفاء النطق بها في اللفظ ، أي كما حذفوا نون (إن) مع (لا) في نحو إلا فعلوه من حيث إنها تدغم في اللام .

وقرأ جمهور القراء بإثبات النونين في النطق فيكون حذف إحدى النونين في الخط مجرد تنبيه على اعتبارٍ من اعتبارات الأداء .

وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم بنون واحدة وبتشديد الجيم على اعتبار إدغام النون

في الجيم كما تدغم في اللام والراء .

وأنكر ذلك عليهما أبو حاتم والزجّاج وقالا : هو لَحن .

ووجّه أبو عبيد والفراء وثعلب قراءتهما بأن نُجِي سكنت ياؤه ولم تحرك على لغة من يقول بَقِي ورضِي فيسكن الياء كما في قراءة الحسن ﴿ وذروا ما بِقِي من الربا ﴾ [البقرة : 278] بتسكين ياء ﴿ بقي .

وعن أبي عبيد والقُتبي أن النون الثانية أدغمت في الجيم .

ووجّه ابن جني متابعاً للأخفش الصغير بأن أصل هذه القراءة : نُنَجّي بفتح النون الثانية وتشديد الجيم فحذفت النون الثانية لتوالي المثلين فصار نُجي .

وعن بعض النحاة تأويل هذه القراءة بأن نُجِّي فعل مضي مبني للنائب وأن نائب الفاعل ضمير يعود إلى النجاء المأخوذ من الفعل ، أو المأخوذ من اسم الإشارة في قوله وكذلك .

وانتصب المؤمنين ﴾ على المفعول به على رأي من يجوز إنابة المصدر مع وجود المفعول به .

كما في قراءة أبي جعفر ﴿ ليُجزَى بفتح الزاي قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ [الجاثية : 14] بتقدير ليجزَى الجزاءُ قوماً .

وقال الزمخشري في "الكشاف" : إن هذا التوجيه بارد التعسف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾

" ذو النون " : هو سيدنا يونس بن متى صاحب الحوت ، والنون من أسماء الحوت ، وجمعه (نينان) كحوت وحيتان ؛ لذلك سُمِّيَ به ، وقد أُرسل يونس عليه السلام إلى أهل (نِينَوِيَ) من أرض الموصل بالعراق .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعداس : " أنت من بلد النبي الصالح : يونس ابن متّى " .

والنون أيضاً اسم لحرف من حروف المعجم ، لكن قد يوافق اسمُ الحرف اسماً لشيء آخر ، كما في (ق) وهو اسم جبل ، وكذلك السين ، فهناك نهر اسمه نهر السين ، وهكذا تصادف أسماء الحروف أسماء أشياء .

وقوله تعالى : ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً . . . ﴾ [الأنبياء : 87] مادة (غضب) نأخذ منها الوصف للمفرد . نقول : غاضب وغضبان ، أمّا (مغاضب) فتعطي معنى آخر ؛ لأنها تدل على المفاعلة ، فلا بُدَّ أن أمامك شخصاً آخر ، أنت غاضب وهو غاضب ، مثل : شارك فلان فلاناً .

لكن في أصول اللغة رجحنا جانب الفاعلية في أحدهما ، والمفعُولية في الآخر ، كما نقول :

شارك زيدٌ عَمْراً ، فالمشاركة حدثتْ منهما معاً ، لكن جانب الفاعلية أزيد من ناحية زيد ، فكلٌّ واحد منهما فاعل مرة ومفعول أخرى .

واللغة أحياناً تلحظ هذه المشاركة ؛ فتُحمِّل اللفظ المعنيين معاً : الفاعل والمفعول ، كما جاء في قَوْل الشاعر العربي الذي يصف السير في أرض معقربة ، والتي إذا سرْت فيها دون أنْ تتعرض للعقارب فإنها تسالمك ولا تؤذيك ، فيقول :

قَدْ سَالَم الحياتُ مِنْه القَدَمَا . . . الأفْعُوانَ والشُّجاعَ القَشْعَمَا

(211/514)

أي : أنه سَالَم الحيات ، فالحيات سالمتْه ، فالمسالمة منهما معاً ، لكن غلب جانب الحيات فجاءت فاعلاً ؛ لأن إيذاءَها أقوى من إيذائه ، فلما أبدل من الحيات (الأفعوان والشجاع القشعما) وهما من أسماء الحيات كان عليه أنْ يأتي بالبدل مرفوعاً تابعاً للمبدل منه ، إلا أنه نصبه فقال : الأُفْعَوانَ والشجاعَ القشعمَا ؛ لأنه لاحظ في جانب الحيات أنها أيضاً مفعولٌ .

فَمِمَّ غضب ذو النون ؟ غضب لأن قومه كذبوه ، فتوعدهم إنْ لم يتوبوا أنْ يُنزل بهم العذاب ، وأتى الموعد ولم ينزل بهم ما توعدهم به ، فخاف أنْ يُكذِّبوه ، وأن يتجرَّأوا عليه ، فخرج من

بينهم مغاضباً إلى مكان آخر ، وهو لا يعلم أنهم تابوا فأخّر الله عذابهم ، وأجّل عقوبتهم .

وفي آية أخرى يُوضِّح الحق سبحانه هذا الموقف : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحياة الدنيا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ﴾ [يونس : 98] .

أي : لم يحدث قبل ذلك أنْ آمنتْ قرية ونفعها إيمانها إلا قرية واحدة هي قوم يونس ، فقد آمنوا وتابوا فأجّل الله عذابهم .

إذن : خرج يونس مُغاضِباً لا غاضباً ؛ لأن قومه شاركوه ، وكانوا سبب غضبه ، كما حدث في مسألة هجرة النبي صلى الله عليه وسلم هاجر من مكة لكنه لم يهْجرهَا ، فسُمِّيَتْ هجرة ؛ لأن أهل مكة هجروا رسول الله أولاً ، وهجروا دعوته وألجَئوه أيضاً إلى الهجرة وتَرْك مكة ، فهم طرف في الهجرة وسببٌ لها .

لذلك قال صلى الله عليه وسلم مخاطباً مكة : " والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إليَّ ، ولولا أنَّ أهلك أخرجوني منكِ ما خرجْتُ " .

وقد أخذ المتنبي هذا المعنى ، وعبَّر عنه بقوله :

إذَا ترحلْتَ عَنْ قَوْمٍ وقَدْ قَدَرُوا . . . ألاَّ تُفارِقَهُمْ فالراحِلُون هُمُ

وقوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ . . . ﴾ [الأنبياء : 87] البعض ينظر في الآية نظرةً سطحية ، فيقولون : كيف يظن يونس أن الله لن يقدر عليه ؟ وهذا الفَهْم ناشيء عن جَهْل باستعمالات اللغة ، فليس المعنى هنا من القدرة على الشيء والسيطرة ، ولو استوعبتَ هذه المادة في القرآن (قَدَرَ) لوجدت لها معنى آخر ، كما في قوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ . . . ﴾ [الطلاق : 7] معنى قُدِر عليه رزقه يعني : ضُيِّق عليه .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ . . . ﴾ [الإسراء : 30]

وقوله سبحانه تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإنسانُ إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ [الفجر : 15-16] .

إذن : فقوله : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ . . . ﴾ [الأنبياء : 87] أي : أن يونس لما خرج من بلده مُغاضباً لقومه ظنَّ أن الله لن يُضيِّق عليه ، بل سيُوسِّع عليه ويُبدله مكاناً أفضل منها ، بدليل أنه قال بعدها ﴿ فنادى فِي الظلمات أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] يريد منه سبحانه تنفيس كربته ، وتنفيس الكربة لا يكون إلا بصفة القدرة له .

فكيف يستقيم المعنى لو قلنا : لن يقدر عليه بمعنى : أن الله لا يقدر على يونس ؟

إذن : المعنى : لن يُضيِّق عليه ؛ لأنه يعلم أنه رسول من الله ، وأن ربه لن يُسلْمه ، ولن يخذله ، ولن يتركه في هذا الكرب .

وقد وُجدَتْ شبهة في قصة يونس – عليه السلام – في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : 143-144] .

(213/514)

فكيف يلبث في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون ، مع أن يونس سيموت ، وسيأتي أجَل الحوت ويموت هو أيضاً ، أم أن الحوت سيظل إلى يوم القيامة يحمل يونس في بطنه ؟

وفات هؤلاء نظرية الاحتواء في المزيجات ، كما لو أذبتَ قالباً من السكر في كوب ماء ، فسوف تحتوي جزئيات الماء جزئيات السكر ، والأكثر يحتوي الأقل ، فقالب السكر لا يحتوي الماء ، إنما الماء يحتوي السكر .

فلو مات الحوت ، ومات في بطنه يونس – عليه السلام – وتفاعلت ذراتهما وتداخلتْ ، فقد احتوى الحوتُ يونسَ إلى أن تقوم الساعة ، وعلى هذا يظل المعنى صحيحاً ، فهو في بطنه رغم تناثر ذراتهما . ﴿ فاستجبنا لَهُ . . . ﴾ .

استجاب الله نداء يونس – عليه السلام – ونجَّاه من الكرب ﴿ وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ [الأنبياء : 88] إذن : فهذه ليست خاصة بيونس ، بل بكل مؤمن يدعو الله بهذا الدعاء ﴿ وكذلك . . . ﴾ [الأنبياء : 88] أي : مثل هذا الإنجاء نُنْجي المؤمنين الذين يفزعون إلى الله بهذه الكلمة : ﴿ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] فيُذهِب الله غَمَّه ، ويُفرِّج كَرْبه .

لذلك يقول ابن مسعود رضي الله عنه : " ثوِّروا القرآن " يعني : أثيروه ونقِّبوا في آياته لتستخرجوا كنوزه وأسراره .

وكان سيدنا جعفر الصادق من المثوِّرين للقرآن المتأملين فيه ، وكان يُخرِج من آياته الدواء لكل داء ، ويكون كما نقول (روشتة) لكل أحوال المؤمن .

والمؤمن يتقلّب بين أحوال عدة منها : الخوف سواء الخوف أنْ يفوته نعيم الدنيا ، أو الخوف من جبار يهدده ، وقد يشعر بانقباض وضيق في الصدر لا يردي سببه وهذا هو الغَمُّ ، وقد يتعرض لمكر الماكرين ، وكَيْد الكائدين ، وتدبير أهل الشر .

هذه كلها أحوال تعتري الإنسان ، ويحتاج فيها لمَنْ يسانده ويُخرجه مما يعانيه ، فليس له حَوْل ولا قوة ، ولا يستطيع الاحتياط لكل هذه المسائل .

وقد تراوده بهجة الدنيا وزُخْرفها ، فينظر إلى أعلى مِمّا هو فيه ، ويطلب المزيد ، ولا نهايةَ لطموحات الإنسان في هذه المسألة ، كما قال الشاعر :

تَمُوتُ مع المرْءِ حَاجَاتُه . . . وتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِي

والناس تحرص دائماً على أن تستوعب نِعَم الحياة وراحتها ، وهم في ذلك مُخْطِئون ؛ لأن تمام الشيء بداية زواله ، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شَيءٌ بَدَا نَقْصُه . . . تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قيل تَم

لأن الإنسان ابنُ أغيار ، ولا يدوم له حال من صحة أو مرض ، أو غِنيً أو فقر ، أو حزن أو سرور ، فالتغيُّر سِمَة البشر ، وسبحان مَنْ لا يتغير ، إذن : فماذا بعد أنْ تصل إلى القمةَ ، وأنت ابنُ أغيار ؟

ونرى الناس يغضبون ويتذمرون إنْ فاتهم شيء من راحة الدنيا ونعيمها ، أو انتقصتهم الحياة شيئاً ؟ وهم لا يدرون أن هذا النقص هو الذي يحفظ عليك النعمة ، ويدفع عنك عيون الحاسدين فيُسلِّم لك ما عندك .

فتجد مثلاً أسرة طيبة حازتْ اهتمام الناس واحترامهم ، غير أن بها شخصاً شريراً سيّئاً ، يعيب الأسرة ، فهذا الشخص هو الذي يدفع عنها عُيون الناسِ وحَسَدهم .

وقد أخذ المتنبي هذا المعنى ، وعبَّر عنه في مدحه لسيف الدولة ، فقال :

شَخَصَ الأَنَامُ إِلَى كَمَالِكَ فَاستَعِذ . . . مِنْ شَرِّ أعيُنهم بِعَيْبٍ وَاحِدٍ

نعود إلى (روشته) سيدنا جعفر الصادق التي استخلصها لنا من كتاب الله ، كما يستخلص الأطباء الدواءَ والعقاقير من كتب الحكماء :

يقول : عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوكيل ﴾ [آل عمران : 173] فإِنّي سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سواء . . ﴾ [آل عمران : 174] .

(215/514)

وعجبتُ لَمَنْ اغتمَّ ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] فإِنّي سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ [الأنبياء : 88] .

وعجبتُ لمن مُكِرَ به ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أمري إِلَى الله ﴾ [غافر : 44] فإني سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَوقَاهُ الله سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ . . . ﴾ [غافر : 45]

.

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ مَا شَآءَ الله لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بالله .

. . ﴾ [الكهف : 39] فإنِّ سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فعسى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ . . . ﴾ [الكهف : 40] .

وهكذا يجب على المؤمن أن يكون مُطْمئناً واثقاً من معيّة الله ، ويضع كما نقول (في بطنه بطيخة صيفي) ؛ لأنه يفزع إلى ربه بالدعاء المناسب في كل حال من هذه الأحوال ، وحين يراك ربك تلجأ إليه وتتضرع ، وتعزو كل نعمة في ذاتك أو في أهلك أو في مالك وتنسبها إلى الله ، وتعترف بالمنعِم سبحانه فيعطيك أحسنَ منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(216/514)

وقال صاحب التفسير الواضح :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ ﴾

المفردات :

وَذَا النُّونِ هو يونس – عليه السلام – . صاحب الحوت ، والنون هو الحوت نَقْدِرَ من القدر والتقدير الذي هو القضاء والحكم ، والمراد فظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة . ، ويؤيد هذا

قراءة نقدر وقيل المراد : أى نقتر يقال قدر يقدر أى : يقتر عليه وقوله تعالى اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ أى : يبسط ويقتر أى :

فظن أن لن نضيق عليه .

قصة يونس – عليه السلام – صاحب الحوت من المواضع الدقيقة في القرآن الكريم التي تحتاج من الباحث سعة اضطلاع وحسن تصرف ، وذلك أن القصة ذكرت في سورة الأنبياء كما هنا ، وفي سورة (ص) الآتية ، وفيهما يقول اللّه : إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً ، ويقول في سورة (ص) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

ويقول كما هنا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ . إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .

(217/514)

وظاهر نصوص القرآن الكريم تثبت ليونس أنه غاضب . فممّن غاضب ؟ ! . ، وأنه أبق ! وأنه ظن أن لن نقدر عليه ، وأنه كان من الظالمين . . ، وهذا بلا شك لا يليق بالأنبياء على أن هذا الموضوع سيجرنا إلى البحث عن عصمة الأنبياء وإلى أى مدى تكون ، ويحملنا كذلك على تأويل تلك النصوص بما يتفق وروح الدين والقول الحق في نظري عن عصمة الأنبياء خلاصته : أن الأنبياء – صلوات اللّه عليهم – معصومون عن الكبائر

مطلقا . وأما عن الصغائر فهم معصومون على الإتيان بها عمدا في حال النبوة ، وإن جاز أن يقع منهم شيء فهم متأولون أو ناسون وهذه تعتبر ذنوبا في حقهم ، وإن كانت غير ذنوب عند أممهم نظرا لما لهم من القرب والاتصال بالحضرة العلية ، وصدق من قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وموضوع كلامنا قصة يونس فنقول : سائلين اللّه أن يحفظنا من الخطأ .

المعنى :

واذكر يا محمد ذا النون وهو يونس إذ ذهب مغاضبا للّه ، أى : لأجل اللّه فيونس غاضب قومه من أجل ربه إذ يكفرون به ولا يصدقون برسله .

والظاهر أن يونس أرسل إلى قومه فعصوه ، ولم يتبعه إلا القليل ، وكان ذلك مما يحز في نفسه ويؤلمه ويغضبه ، وكان يونس ضيق الصدر شديد الإخلاص لقومه كثير الحرص عليهم فهذا كله يجعله يغضب ويثور ، وما هكذا تكون الأنبياء والرسل انظر إلى اللّه يقول لمحمد صلّى اللّه عليه وسلم : وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ « 1 » وكثيرا ما كان يعالج القرآن ذلك عند النبي صلّى اللّه عليه وسلّم المعصوم والمبرأ من كل عيب فيقول : فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ [سورة هود آية 12] .

ولهذا كان الأنبياء الذين بالغوا في الصبر والمثابرة وهم - إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ونوح . ومحمد - صلوات اللّه عليهم جميعا - أولى العزم .

فيونس ذهب مغاضبا من أجل عصيان ربه ، وليس مغاضبا ربه أو آبقا حقا ، وإلا كان من مرتكبا لكبيرة لا تليق بالفرد العادي فما بال يونس النبي الكريم ؟ ! الذي يقول فيه المصطفى « لا تفضّلونى على يونس بن متّى » .

إذا فهو مغاضب من أجل ربه ، وكان في خروجه من عند قومه في صورة الآبق وهذا لا يليق بنبي كريم ولذا كان العتاب وكان وصفه لنفسه أنه من الظالمين وأما قوله تعالى : أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فالمعنى فظن يونس أن لن نقتر عليه ونضيق بل نتركه يسير حيث أراد ، أو فظن أن لن نقدر عليه من القدر أى : فظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة .

والذي ذكر في قصته أنه خرج مغاضبا من أجل ربه خرج في صورة الآبق إلى ساحل البحر فوجد سفينة فركبها ، وهو هائم على وجهه فلما سارت السفينة إلى عرض البحر اضطربت واهتزت وأشرفت على الغرق فقال ربانها : لأن يغرق شخص خير من أن نغرق جميعا فاستهموا فخرج سهمه فألقى في البحر فالتقمه الحوت وهو مليم ، (فعل فعلا يلام عليه) إذ كان الأولى أن يصبر حتى يأتى أمر اللّه في قومه ، فلما قر في جوف الحوت أدرك نفسه وعرف موقفه فنادى في الظلمات ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة جوف الحوت :

أن لا إله إلا أنت سبحانك يا رب ! ! إني كنت من الظالمين فاغفر لي يا رب فغفر اللّه له ونجاه مما هو فيه ، وكذلك ينجي اللّه المؤمنين . فاعتبروا يا أولي الأبصار واتعظوا بهذا . أما قومه فلما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ [يونس 98] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير الواضح حـ 2 صـ 550. 552 ﴾

(219/514)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) ﴾

أخرج ابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً ﴾ يقول : غضب على قومه ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ يقول : أن لن نقضي عليه عقوبة ولا بلاء فيما صنع بقومه في غضبه عليهم وفراره . قال : وعقوبته أخذ

النون إياه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الضحاك في قوله : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً ﴾ قال : مغاضباً لقومه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن قيس قال : كانت تكون أنبياء جميعاً يكون عليهم واحد ، فكان يوحى إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم : أرسل فلان إلى بني فلان ، فقال الله : ﴿ إذ ذهب مغاضباً ﴾ قال : مغاضباً لذلك النبي .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ قال : ظن أن لن يأخذه العذاب الذي أصابه .

وأخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ إذ ذهب مغاضباً ﴾ قال : انطلق آبقا ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ فكان له سلف من عمل صالح فلم يدعه الله ، فبه أدركه .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ قال : ظن أن لن نعاقبه بذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية في قوله : ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ قال : أن لن نقضي

عليه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ يقول : ظن أن الله لن يقضي عليه عقوبة ولا بلاء في غضبه الذي غضب على قومه وفراقه إياهم .

(220/514)

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن الحارث قال : لما التقم الحوت يونس نبذ به إلى قرار الأرض ، فسمع تسبيح الأرض فذاك الذي حاجه فناداه .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ قال : ظن أن لن نعاقبه ﴿ فنادى في الظلمات ﴾ قال : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ﴿ أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ قال الملائكة : صوت معروف في أرض غريبة .

وأخرج ابن جرير عن قتادة والكلبي ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ قالا : ظن أن لن نقضي عليه العقوبة .

وأخرج ابن جرير من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فنادى في الظلمات ﴾ قال : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب وعمرو بن ميمون وقتادة مثله .

وأخرج أحمد في الزهد عن سعيد بن جبير مثله .

وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الفرج بعد الشدة ، وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ فنادى في الظلمات ﴾ قال : ظلمة الليل وظلمة بطن الحوت وظلمة البحر .

وأخرج ابن جرير عن سالم بن أبي الجعد قال : أوحى الله تعالى إلى الحوت أن " لا تضر له لحماً ولا عظماً " ثم ابتلع الحوت حوت آخر ، قال : ﴿ فنادى في الظلمات ﴾ قال : ظلمة الحوت ، ثم حوت ، ثم ظلمة البحر .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك قال : كل تسبيح في القرآن صلاة ، إلا قوله : ﴿ سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ .

(221/514)

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات من طريق الكلبي ، عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن معاوية قال له يوماً : إني قد ضربتني أمواج القرآن البارحة في آيتين لم أعرف تأويلهما ففزعت إليك . قال : وما هما ؟ قال : قول الله : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا

فظن أن لن نقدر عليه ﴾ وأنه يفوته إن أراده ، وقول الله : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ [يوسف : 110] كيف هذا يظنون أنه قد كذبهم ما وعدهم ؟ فقال ابن عباس : أما يونس ، فظن أن لن تبلغ خطيئته أن يقدر الله عليه فيها العقاب ولم يشك أن الله إن أراده قدر عليه .

وأما الآية الأخرى ، فإن الرسل استيأسوا من إيمان قومهم وظنوا أن من عصاهم لرضا في العلانية قد كذبهم في السر ، وذلك لطول البلاء عليهم ولم تستيئس الرسل من نصر الله ، ولم يظنوا أنهم كذبهم ما وعدهم . فقال معاوية : فرجت عني يا ابن عباس فرج الله عنك .

(222/514)

وأخرج ابن أبي حاتم ن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما دعا يونس قومه أوحى الله إليه أن العذاب يصبحهم ، فقال لهم فقالوا : ما كذب يونس وليصبحنا العذاب ، فتعالوا حتى نخرج سخال كل شيء فنجعلها من أولادنا لعل الله أن يرحمهم . فأخرجوا النساء مع الولدان وأخرجوا الإبل مع فصلانها ، وأخرجوا البقر مع عجاجيلها وأخرجوا الغنم مع سخالها فجعلوه أمامهم ، وأقبل العذاب . . . فلما رأوه جأروا إلى الله ودعوا ، وبكى النساء والولدان ورغت الإبل وفصلانها وخارت البقر وعجاجيلها وثغت الغنم وسخالها

فرحمهم الله فصرف ذلك العذاب عنهم ، وغضب يونس فقال : كذبت ، فهو قوله : ﴿ إذ ذهب مغاضباً ﴾ فمضى إلى البحر ، وقوم رست سفينتهم فقال : احملوني معكم فحملوه ، فأخرج الجعل فأبوا أن يقبلوه منه فقال : إذاً أخرج عنكم . فقبلوه ، فلما لجت السفينة في البحر أخذهم البحر والأمواج ، فقال لهم يونس : اطرحوني تنجوا . قالوا : بل نمسكك ننجوا . قال : فساهموني - يعني قارعوني - فساهموه ثلاثاً فوقعت عليه القرعة ، فأوحى إلى سمكة يقال لها النجم من البحر الأخضر ، أن " شقي البحار حتى تأخذي يونس ، فليس يونس لك رزقاً ولكن بطنك له سجن ، فلا تخدشي له جلداً ولا تكسري له عظماً " فجاءت حتى استقبلت السفينة ، فقارعوه الثالثة فوقعت عليه القرعة فاقتحم الماء ، فالتقمته السمكة فشقت به البحار حتى انتهت به إلى البحر الأخضر .

(223/514)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما التقم الحوت يونس ذهب به حتى أوقفه بالأرض السابعة ، فسمع تسبيح الأرض فهيجه على التسبيح فقال : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فأخرجته حتى ألقته على الأرض بلا شعر ولا ظفر مثل الصبي المنفوس ، فأنبتت عليه شجرة تظله ويأكل من تحتها من

حشرات الأرض ، فبينا هو نائم تحتها إذ تساقط ورقها قد يبست . فشكا ذلك إلى ربه فقال : تحزن على شجرة يبست ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون يعذبون ؟ .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في الفرج وابن مردويه ، عن أنس رفعه : أن يونس حين بدا له أن يدعو الله بالكلمات حين ناداه في بطن الحوت قال : اللهم ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فأقبلت الدعوة تحف بالعرش فقالت الملائكة : هذا صوت ضعيف معروف في بلاد غريبة ! فقال : أما تعرفون ذلك ؟ قال : يا رب ، ومن هو ؟ قال : ذاك عبدي يونس . قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوه مجابة ؟ ! قال : نعم . قالوا : يا رب ، أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال : بلى . فأمر الحوت فطرحه بالعراء فأنبت الله عليه اليقطينة " .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وعبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر ، عن علي رضي الله عنه مرفوعاً : ليس لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى ، سبح الله في الظلمات .

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي والحكيم في نوادر الأصول ، والحاكم وصححه وابن جرير وابن أبي حاتم والبزار وابن مردويه والبيهقي في الشعب ، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " دعوة ذي النون إذ هو في بطن

الحوت ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له " .

(224/514)

وأخرج ابن جرير عن سعد رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اسم الله الذي دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس بن متى . قلت : يا رسول الله ، هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : هي ليونس خاصة وللمؤمنين إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله : ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه " .

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " هذه الآية مفزع للأنبياء ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ نادى بها يونس في ظلمة بطن الحوت " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال : اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ .

وأخرج الحاكم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال

: " هل أدلكم على اسم الله الأعظم ؟ دعاء يونس ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فأيما مسلم دعا ربه به في مرضه أربعين مرة فمات في مرضه ذلك ، أعطي أجر شهيد . وإن برأ برأ مغفوراً له " .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب " .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما : " أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على ثنية فقال : ما هذه ؟ قالوا : ثنية كذا وكذا . قال : كأني أنظر إلى يونس على ناقة خطامها ليف وعليه جبة من صوف وهو يقول : لبيك اللهم لبيك ! . . . " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى – نسبة إلى أبيه – أصاب ذنباً ثم اجتباه ربه " .

(225/514)

وأخرج عبد بن حميد والبخاري والنسائي وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متى " .

وأخرج البخاري ومسلم وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(226/514)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَذَا النون ﴾ : الحُوْتُ ، ويُجمع على نِيْنان ، كحُوْت وحِيْتان . وسُمِّي بذلك ، لأنَّ النونَ ابتلعه .

قوله : ﴿ مُغَاضِباً ﴾ حالٌ مِنْ فاعِل " ذهب " . والمفاعلةُ هنا تحتمل أَنْ تكونَ على بابِها من المشاركةِ . أي : غاضَبَ قومه وغاضَبوه ، حين لم يُؤْمِنُوا في أول الأمر . وفي بعض التفاسير : مُغاضباً لربِّه . فإنْ صَحَّ ذلك عَمَّن يُعتبر قولُه ، فينبغي أَنْ تكونَ اللامُ للتعليلِ لا للتعديةِ للمفعول أي : لأجلِ ربِّه ولدينِه . ويُحتمل أَنْ تكونَ بمعنى : غضبانَ فلا مشاركةَ كعاقَبْتُ وسافَرْتُ .

والعامَّة على " مُغاضِباً " اسمَ فاعلٍ . وقرأ أبو شرف " مغاضَباً " بفتح الضادِ على ما لم

يُسَمَّ فاعلُه . كذا نقله الشيخ ، ونقله الزمخشري عن أبي شرف " مُغْضَباً " دون ألفٍ مِنْ أَغْضَبْتَه فهو مُغْضَب .

قوله : ﴿ أَن لَّن ﴾ " أَنْ " هذه المخففةُ ، واسمُها ضمير الشأنِ محذوفٌ . و ﴿ لَّن نَّقْدِرَ ﴾ هو الخبرُ . والفاصل/ حرفُ النفي المعنى : أَنْ لَنْ نُضَيِّق عليه ، من باب قوله : ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ [الفجر : 16] ، ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق : 7] . والعامَّةُ على " نَقْدِرَ " بنون العظمة مفتوحةً وتخفيفِ الدالِ . والمفعولُ محذوفٌ أي : الجهات والأماكن . وقرأ الزُّهريُّ بضمِّها وتشديد الدال . وقرأ ابنُ أبي ليلى وأبو شرفٍ والكلبي وحميد بن قيس "يُقْدَر " بضمِّ الياءِ مِنْ تحتُ وفتحِ الدالِ خفيفةً مبنياً للمفعول . وقرأ الحسنُ وعيسى بنُ عمرَ بفتح الياءِ وكسرِ الدالِ خفيفةً . وعليُ بن أبي طالب واليمانيُّ بضم الياءِ وكسرِ الدالِ مشددةً . والفاعلُ على هذين الوجهين ضميرٌ يعود على اللهِ تعالى .

(227/514)

قوله : ﴿ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ ﴾ يجوزُ في " أَنْ " وجهان ، أحدُهما : أنها المخففةُ من الثقيلةِ . فاسمُها كما تقدَّم محذوفٌ . والجملةُ المنفيةُ بعدها الخبرُ . والثاني : أنها تفسيريةٌ ؛ لأنها بعد

ما هو بمعنى القولِ لا حروفِه .

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88)

قوله : ﴿ وكذلك نُنجِي ﴾ : الكاف نعتٌ لمصدرٍ أو حالٌ من ضميرِ المصدرِ . وقرأ العامَّة " نُنْجي " بضم النونِ الأولى وسكونِ الثانية مِنْ أَنْجى يُنْجي . وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم " نُجِّيْ " بتشديد الجيمِ وسكونِ الياءِ . وفيها أوجهٌ ، أحسنها : أن يكونَ الأصل " نُنَجِّي " بضمِّ الأولى وفتح الثانيةِ وتشديد الجيمِ ، فاستثقل توالي مِثْلين ، فحُذِفت الثانيةُ ، كما حُذِفَت في قوله ﴿ وَنُزِّلَ الملائكة ﴾ [الفرقان : 25] في قراءةِ مَنْ قرأه كما تقدَّم ، وكما حُذِفَتْ التاءُ الثانيةُ في قولِه ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : 152] و ﴿ تَظَاهَرُونَ ﴾ [البقرة : 85] وبابِه .

ولكنَّ أبا البقاء استضعَفَ هذا التوجيهَ بوجهين فقال : " أحدهُما : أنَّ النونَ الثانية أصلٌ ، وهي فاءُ الكلمةِ فَحَذْفُها يَبْعُدُ جداً . والثاني : أنَّ حركَتَها غيرُ حركةِ النونِ الأولى ، فلا يُسْتَثْقَلُ الجمعُ بينهما بخلافِ " تَظاهَرون " ألا ترى أنَّك لو قلتَ : " تُتَحامى المظالِمُ " لم يَسُغْ حَذْفُ الثانية " .

أمَّا كونُ الثانيةِ أصلاً فلا أثرَ له في مَنْعِ الحَذْفِ ، ألا ترى أن النَّحْويين اختلفوا في إقامة واستقامة : أيُّ الألفينِ المحذوفة ؟ مع أنَّ الأولى هي أصلٌ لأنَّها عينُ الكلمةِ . وأمَّا اختلافُ الحركةِ فلا أثرَ له أيضاً ؛ لأنَّ الاستثقالَ باتحادِ لفظِ الحرفين على أيِّ حركةٍ كانا .

الوجه الثاني : أن " نُجِّي " فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمفعول ، وإنما سُكِّنَتْ لامُه تخفيفاً ، كما سُكِّنت في قوله : ﴿ مَا بَقِيْ مِنَ الربا ﴾ [البقرة : 278] في قراءةٍ شاذةٍ تقدَّمَتْ لك .

قالوا : وإذا كان الماضي الصحيحُ قد سُكِّن تخفيفاً فالمعتلُّ أولى ، فمنه :

3357 إنّما شِعْرِيَ قَيْدٌ . . . قد خُلِطْ بجُلْجُلانِ

وقد ذَكَرْتُ منه جملةً صالحةً .

وأُسْنِدَ هذا الفعلُ إلى ضميرِ المصدرِ مع وجودِ المفعول الصريحِ كقراءةِ أبي جعفرٍ ﴿ ليجزى قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الجاثية : 14] وهذا رأيُ الكوفيين والأخفش . وقد ذكرْتُ له شواهدَ فيما مضى من هذا التصنيفِ ، والتقدير : نُجِّيَ النَّجاءُ . قال أبو البقاء : " وهو ضعيفٌ من وجهين ، أحدُهما : تسكينُ آخرِ الفعلِ الماضي ، والآخرُ إقامةُ المصدرِ مع وجودِ المفعولِ الصَّريح " . قلت : عَرَفْتَ جوابَهما ممَّا تقدم .

الوجه الثالث : أنَّ الأصلَ : ننجِّي كقراءةِ العامة ، إلاَّ أنَّ النونَ الثانيةَ قُلِبَتْ جيماً ، وأُدغِمت في الجيم بعدها . وهذا ضعيفٌ جداً ؛ لأن النونَ لا تُقارِبُ الجيمَ فتُدغَمُ فيها .

الوجه الرابع : أنه ماضٍ مسندٌ لضمير المصدرِ أي : نُجِّي النَّجاءُ كما تقدم في الوجه الثاني ،

إلاَّ أن " المؤمنين " ليس منصوباً بنجّي بل بفعلٍ مقدرٍ ، وكأنَّ صاحبَ هذا الوجهِ فرَّ من إقامةِ غيرِ المفعول به مع وجودِه ، فجعله مِنْ جملةٍ أخرى .

(229/514)

وهذا القراءةُ متواترةٌ ، ولا التفاتَ على مَنْ طَعَن على قارئِها ، وإنْ كان أبو عليٍ قال : " هي لحنٌ " . وهذه جرأةٌ منه قد سبقه إليها أبو إسحاق الزجَّاج . وأمَّا الزمخشري فلم يَطْعن عليها ، إنما طعن على بعضِ الأوجهِ التي قدَّمْتُها فقال : " ومَنْ تَمَحَّل لصحتِه فجعله فُعِل وقال : نُجِّي النَّجاءُ المؤمنين ، فأرسل الياء وأسنده إلى مصدرِه ونَصَبَ المؤمنين ، فتعسُّفٌ باردُ التعسُّفِ " . قلت : فلم يَرْتَضِ هذا التخريجَ بل للقراءةِ عنده تخريجٌ آخرُ . وقد يمكنُ أن يكونَ هو الذي بدأت به لسلامتِه ممَّا تقدَّم من الضعف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 190.194 ﴾

(230/514)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) ﴾

﴿ مُغَاضِباً ﴾ : على مَلِكِ وقته حيث اختاره للنبوة ، وسأله : لِمَ اخترتني ؟ فقال : لقد أَوْحَى اللَّهُ إلى نَبِي : أَنْ قُلْ لفلانِ المَلِك حتى يختار واحداً لِيُرْسَلَ إلى نينوى بالرسالة . فَثَقُلَ على ذي النون لما اختارَه المَلِكُ ، لأن علم أن النبوةَ مقرونةٌ بالبلاء ، فكان غضبُه عليه لذلك .

ويقال مغاضباً على قومه لَمَّا امتنعوا عن الإيمان وخرج من بينهم .

ويقال مغاضباً على نفسه أي شديد المخالفة لهواه ، وشديداً على أعداء الدين من مُخَالِفيه .

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي أَنْ لن نُضَيِّقَ عليه بطن الحوت ، ومن قوله : ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ [الفجر : 16] أي ضيَّق .

ويقال فظنَّ أن لن نقدر عليه من حَبْسِه في بَطْنِ الحوت .

وخرج من بين قومه لَمَّا أُخْبِرَ بأَنَّ الله يُعَذِّب قومَه ، وخرج بأهله .

ويقال إن السبعَ افترس أهله في الطريق ، وأخذ النَّمِرُ ابناً صغيراً له كان معه ، وجاء موج

البحر فأغرق ابنَه الآخر ، وركب السفينة ، واضطرب البحر ، وتلاطمت أمواجُه ، وأشرفَتْ السفينةُ على الغرق ، وأخذ الناسُ في إلقاء الأمتعة في البحر تخفيفاً عن السفينة ، وطلباً لسلامتها من الغَرَقِ ، فقال لهم يونس : لا تُلْقُوا أمْتِعَتَكم في البحر بل أطرحوني فيه فأنا المجرم فيما بينكم لتخلصوا . فنظروا إليه وقالوا : نرى عليكَ سيماء الصلاح ، وليست تسمح نفوسُنا بإلقائك في البحر ، فقال تعالى مخبراً عنه : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ [الصافات : 141] أي فقارعهم ، فاستهموا ، فوقعت القُرْعَةُ عليه .

(231/514)

وفي القصة أنه أتى حَرْفَ السفينة ، وكان الحوتُ فاغراً فاه ، فجاء إلى الجانب الآخر فجاء الحوت إليه كذلك ، حتى جاز كل جانب . ثم لَمَّا عَلِمَ أنه مُرَادٌ بالبلاء ألقى نَفْسَه في الماء فابتلعه الحوت : " وهو مليم " : أي أتى بما يُلام عليه ، قال تعالى : ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات : 142] .

وأوحى الله إلى السمك : لا تَخْدِشْ منه لَحْماً ولا تَكْسِرْ منه عَظْماً ، فهو وديعةٌ عندك وليس بِطُعْمَةٍ لك . فَبَقِي في بطنه – كما في القصة – أربعين يوماً .

وقيل إن السمك الذي ابتلعه أُمِرَ بأن يطوف في البحر ، وخلق الله له إدراك ما في البحر ،

وكان ينظر إلى ذلك .

ويقال إن يونس عليه السلام صَحِبَ الحوتَ أياماً قلائل فإلى القيامة يقال له : ذا النون ، ولم تبطل عنه هذه النسبة . . فما ظَنُّكَ بِعَبْدٍ عَبَدَه – سبحانه – سبعين سنة ، ولازم قلبه محبته ومعرفته طولَ عمره . . . ترى أيبطل هذا ؟ لا يُظَنُّ بِكَرَمِهِ ذلك !

﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ يقال ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت – هذا بيان التفسير ، ويحتمل أن تكون الظلمات ما التبس عليه من وقته واستبهم عليه من حاله .

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88)

استجبنا له ولم يَجْرِ منه دعاءٌ ؛ لأنه لم يصدر عنه أكثر من قوله : ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، ولم يقر بالظلم إلا وهو يستغفر منه .

ثم قال : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ ﴾ : يعني : كُلُّ مَنْ قال من المؤمنين – إذا أصابه غمٌّ ، أو استقبله مُهِمٌّ – مثلما قال ذو النون نجيناه كما نجينا ذا النون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 518.520 ﴾

(232/514)

قوله تعالى ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (91) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان حاصل أمر يونس عليه السلام أنه خرج من بطن لم يعهد الخروج من مثله ، عطف عليه قصة زكريا عليه السلام في هبته له ولداً من بطن لم يعهد الحمل من مثله في العقم واليأس ناظراً إلى أبيه إبراهيم عليه السلام أول من ذكر تصريفه في أحاد العناصر فيما اتفق له من مثل ذلك في ابنه إسحاق عليه السلام تكريراً لأعلام القيامة وتقريراً للقدرة التامة فقال :

﴿ وزكريا ﴾ أي اذكره ﴿ إذ نادى ربه ﴾ نداء الحبيب القريب فقال : ﴿ رب ﴾ بإسقاط أداة البعد ﴿ لا تذرني فرداً ﴾ أي من غير ولد يرث ما آتيتني من الحكمة .

(233/514)

ولما كان من الوارث من يحب من يحجبه من الإرث أو يشاركه فيه ، ومنهم من لا يحب ذلك ويسعى في إهلاك من يحجبه أو ينقصه ، ومنهم من يأخذ الإرث فيصرفه في المصارف القبيحة على ما تدعوه إليه شهوته وحاجته ، ومنهم من يأخذه بعفة فينفذ وصايا الموروث ويصل ذا قرابته وأهل وده ، ويتصدق عنه ، ويبادر إلى كل ما كان يحبه وينفعه ، كل ذلك لغنى نفسه وكرم طبعه مع كونه مجبولاً على الحاجة والنقص ، وكان الله هو الغني الحميد ، الحكيم المجيد ، قال ملوحاً بمقصده في أسلوب الإلهاب والتهييج : ﴿ وأنت ﴾ أي والحال أنك ﴿ خير الوارثين ﴾ لأنك أغناهم عن الإرث وأحسنهم تصرفاً ، وكثيراً ما تمنح إرث بعض عبيدك عبيداً آخرين ، فأنت الحقيق بأن تفعل في إرثي من العلم والحكمة ما أحبه ، فتهبني ولداً تمن عليه بذلك ﴿ فاستجبنا له ﴾ بعظمتنا وإن كان في حد من السن لا حراك به معه وزوجه في حال من العقم لا يرجى معه حبلها ، فكيف وقد جاوزت سن اليأس ، ولذلك عبر بما يدل على العظمة فقال : ﴿ ووهبنا له يحيى ﴾ وارثاً حكيماً نبياً عظيماً ﴿ وأصلحنا له ﴾ خاصة من بين أهل ذلك الزمان ﴿ زوجه ﴾ أي جعناها صالحة لكل خير ، خالصة له ولا سيما لما مننا عليه به من هذه الهبة بعد أن كانت بعقمها وكبرها غير صالحة له بوجه يقدر عليه غيرنا ؛ ثم استأنف البيان لخيرية الموروث والوارث والمصلحة للولادة فقال ، مؤكداً ترغيباً في مثل أحوالهم وأنها مما يلتذ بذكره ويعجب من أمره : ﴿ إنهم كانوا ﴾ مجبولين في أول ما خلقناهم جبلة خير ، مهيئين لأنهم ﴿ يسارعون في الخيرات ﴾

أي يبالغون في الإسراع بها مبالغة من يسابق آخر ، ودل على عظيم أفعالهم بقوله :

﴿ ويدعوننا ﴾ مستحضرين لجلالنا وعظمتنا وكمالنا ﴿ رغباً ﴾ في رحمتنا

﴿ ورهباً ﴾ من سطوتنا ﴿ وكانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ لنا ﴾ خاصة ﴿ خاشعين ﴾

ي خائفين خوفاً عظيماً يحملهم على الخضوع والانكسار .

(234/514)

ولما استدل على الساعة بما وهب لهؤلاء القوم من أهل الطاعة من التصرف في العناصر وغيرها إلى أن ذكر أنه خرق العادة في إيداع يحيى عليه الصلاة والسلام بين والدين لا يولد لمثلهما لأن أباه زكريا عليه السلام كان قد صار إلى حالة الكبر ويبس من الأعضاء عظيمة ، وأمه كانت – مع وصولها إلى مثل تلك الحال – عاقراً في حال شبابها ، تلاه بإبداع ابن خالته عيسى عليه السلام الذي هو علم للساعة على حال أغرب من حاله ، فأخرجه من أنثى بلا ذكر ، إشارة إلى قرب الوقت لضعف الأمر ، كضعف الأنثى بالنسبة إلى الذكر ، فقال : ﴿ والتي أحصنت فرجها ﴾ أي حفظته من الحلال والحرام حفظاً يحق له أن يذكر ويتحدث به ، لأنه غاية في العفة والصيانة ، والتخلي عن الملاذ إلى الانقطاع إلى الله تعالى بالعبادة ، مع ما جمعت إلى ذلك من الأمانة والاجتهاد في متانة الديانة ﴿ فنفخنا ﴾ أي بما

لنا من العظمة التي لا يداني أوجها نقص ، ولا يقرب من ساحتها حاجة ولا وهن ﴿ فيها ﴾ أي في فرجها – كما التحريم ، نفخاً هو من جناب عظمتنا ؛ ودل على عظم خلوصه وصفائه بقوله : ﴿ من روحنا ﴾ أي من روح يحق له أن يضاف إلينا لجلالته وطهارته ، فكان من ذلك النفخ حبل وولد .

ولعله أضاف هنا النفخ إليها ، لا إلى فرجها وحده ، ليفيد أنه – مع خلق عيسى عليه السلام به وإفاضة الحياة عليه حساً ومعنى – أحياها هي به معنى بأن قوى به معانيها القلبية حتى كانت صديقة متأهلة لزواجها بخير البشر في الجنة ، وخصت هذه السورة بهذا لأن مقصودها الدلالة على البعث الذي هو إفاضة الأرواح على الأموات ، قال الرازي : وعلى الجملة هذه عبارة عن إبداع عيسى عليه السلام في رحم مريم عليها السلام من غير نطفة .

ولما قدمته من السر في إفاضة النفخ إلى حملتها ، أتبع ذلك قوله : ﴿ وجعلناها وابنها ﴾ أي بتلك العظمة العظمى ﴿ ءاية ﴾ جعلهما نفس الآية لكثرة ما كان فيهما من الأعاجيب .

(235/514)

ولما كان ما فيهما من ذلك ليس مقصوداً لذاته ، بل لتقرير أمر عيسى عليه السلام ، لم يقل : آيتين ، أو لئلا يظن أن نفس العدد مقصود فينقص المعنى ﴿ للعالمين ﴾ أي في أن الله قادر على كل شيء لا سيما البعث الذي هو آيته ، يتحدث بذلك بعدهما جيل بعد جيل ، وعالم بعد عالم ، وأمة بعد أمة ، إلى قيام الساعة التي هو علمها ، وحفظنا ابنها بعلمنا وحكمتنا وقدرتنا وعظمتنا ممن كاده ، ورفعناه إلى محل قدسنا ، وختم به الأنبياء المذكورين هنا لأنه خاتم المجددين لهذا الدين المحمدي ، وهو دليل الساعة ، وكتابة أعظم كتاب بعد التوراة التي ابتدأ بصاحبها ذكر هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، حاشى القرآن الذي عجزت لبلاغته الإنس والجان .

(236/514)

ذكر شيء من دلائل كونه آية من الإنجيل : قال متى أحد المترجمين الأربعة للإنجيل وأغلب السياق له بعد أن ذكر مقتل يحيى ابن زكريا عليهما السلام كما مضى في آل عمران : فلما سمع يسوع مضى من هناك في سفينة إلى البرية مفرداً ، وسمع الجمع فتبعوه ماشين من المدينة ، فلما خرج أبصر جمعاً كثيراً فتحنن عليهم وأبرأ أعلاءهم ومرضاهم وقال مرقس : فلما خرج يسوع أبصر جمعاً كثيراً فتحنن عليهم لأنهم كانوا كخراف لا راعي لها فبدأ يعلمهم ،

وبعد ساعات كثيرة جاء تلاميذه إليه ، وقال متى : ولما كان المساء أتى تلاميذه وقالوا : إن المكان قفر ، والساعة قد جازت ، أطلق الجمع يذهبوا إلى القرى المحيطة فيبتاعوا لهم طعاماً ، فقال لهم : أعطوهم أنتم ليأكلوا ، فقالوا : ليس ها هنا ، وأمر بإجلاس الجميع على العشب ، وقال مرقس : الأخضر أحزاباً أحزاباً ، فجلسوا رفاقاً رفاقاً مائة مائة وخمسين خمسين ، وقال يوحنا : فقال لفيلبس : من أين نبتاع لهؤلاء خبزاً ؟ قاله ليجربه ، فقال فيلبس : ما يكفيهم خبز بمائتي دينار ، وقال إندراوس أخو شمعون الصفاء : إن ها هنا حدثاً معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان ، فقال يسوع : مروا الناس بالجلوس ، وقال متى : وأخذ الخمس خبزات والحوتين ، ونظر إلى السماء وبارك وقسم وأعطى الخبز لتلاميذه ، وقال مرقس : وقسم الحوتين وناول التلاميذ الجميع فأكل جميعهم وشبعوا ورفعوا من فضلات الكسر اثني عشر سلاًّ مملوءة ، ومن السمك ، وكان عدد الآكلين خمسة آلاف رجل ، وقال متى : سوى النساء والصبيان ، وقال يوحنا : فقالوا : حقاً إن هذا هو النبي الجائي إلى العالم ، فعلم يسوع أنهم اجتمعوا ليحتفظوا به ويصيروه ملكاً ، فتحوّل إلى الجبل ، وقال متى : وللوقت أمر تلاميذه أن يصعدوا إلى السفينة ويسبقوه إلى العبر ليطلق الجموع ، وقال يوحنا : ليعبروا إلى الكفر ناحوم وكان ظلاماً ، وقال متى : فأطلق الجمع وصعد إلى الجبل منفرداً يصلي ، وقال مرقس : وللوقت

تقدم إلى تلاميذه بركوبهم السفينة وأن يسبقوه إلى العبر عند بيت صيدا ليطلق هو الجماعة ، فلما ودعهم وذهب إلى الجبل ليصلي ، قال متى : فلما كان المساء وكان وحده هناك والسفينة في وسط البحر ، فضربتها الأمواج لمعاندة الريح لها ، قال يوحنا : فمضوا نحو خمسة وعشرين غلوة أو ثلاثين ، وقال متى : وفي الهجعة الرابعة من الليل جاءهم ماشياً على البحر فاضطربوا وقالوا : إنه خيال ، ومن خوفهم صرخوا ، فكلمهم قائلاً : أنا هو ، لا تخافوا ، أجابه بطرس وقالوا : إن كنت أنت هو فمرني أن آتي إليك على الماء ، فقال له : تعال ! فنزل بطرس من السفينة ومشى على الماء ، فرأى قوة الريح فخاف ، وكاد أن يغرق فصاح قائلاً : يا رب نجني ! فللوقت مد يسوع يده وأخذه وقال له : يا قليل الأمانة ! لم شككت ؟ فلما صعد السفينة سكنت الريح ، قال يوحنا : وللوقت صارت إلى الأرض التي أرادوها ، وفي الغد نظرت الجموع الذين كانوا معه في عبر البحر أن ليس هناك سوى سفينة واحدة ، وأن يسوع لم يركبها مع تلاميذه لكن تلاميذه مضوا وحدهم ، وكانت سفن أخر وافت من طبرية حتى انتهت إلى الموضع الذي أكلوا الخبز الذي بارك عليه ، فحين لم ير الجماعة يسوع هناك ولا تلاميذه ، ركبوا تلك السفن ، وأتوا إلى كفرناحوم يطلبون يسوع ، فلما قصدوه في عبر البحر قالوا له : يا معلم ! متى صرت ها هنا ؟ أجاب يسوع وقال : الحق الحق أقول لكم ! إنكم لم تطلبوني لنظركم الآيات بل لأكلكم الخبز فشبعتم ، اعلموا لا

للطعام الزائل بل للطعام الباقي في الحياة المؤبدة الذي يعطيكموه ابن البشر ، ثم قال : لست أعمل بمشيئتي ، لكن بمشيئة الذي أرسلني ، ثم قال : قد كتب في الأنبياء أنهم يكونون بأجمعهم معلمين ، الحق أقول لكم ! من يؤمن بي فله الحياة الدائمة ، قالوا : ما نصنع حتى نعمل أعمال الله ؟ قال : عمل الله هو أن تؤمنوا بمن أرسله ، قال متى : ولما عبروا جاؤوا إلى أرض جناشر ، قال مرقس : فأرسوا وخرجوا من السفينة

(238/514)

- انتهى .

فعرفه أهل ذلك المكان وأرسلوا إلى جميع تلك الكور فقدموا إليه كل المسقومين وطلبوا إليه أن يلمسوا طرف ثوبه فقط ، وكل من لمسه خلص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 106.110 ﴾

(239/514)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) ﴾

(القصة التاسعة ، قصة زكريا عليه السلام)

اعلم أنه تعالى بين انقطاع زكريا عليه السلام إلى ربه تعالى لما مسه الضر بتفرده ، وأحب من يؤنسه ويقويه على أمر دينه ودنياه ويكون قائماً مقامه بعد موته ، فدعا الله تعالى دعاء مخلص عارف بأنه قادر على ذلك ، وإن انتهت الحال به وبزوجته من كبر وغيره إلى اليأس من ذلك بحكم العادة .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان سنه مائة وسن زوجته تسعاً وتسعين .

أما قوله : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ ففيه وجهان : أحدهما : أنه عليه السلام إنما ذكره في جملة دعائه على وجه الثناء على ربه ليكشف عن علمه بأن مآل الأمور إلى الله تعالى .

والثاني : كأنه عليه السلام قال : "إن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث" .

وأما قوله تعالى : ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ أي فعلنا ما أراده لأجل سؤاله ، وفي ذلك إعظام له ، فلذلك تقول العلماء بأن الاستجابة ثواب لما فيه من الإعظام .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى ﴾ فهو كالتفسير للاستجابة وفي تفسير قوله : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها : أصلحها للولادة بأن أزال عنها المانع

بالعادة ، وهذا أليق بالقصة .

والثاني : أنه أصلحها في أخلاقها وقد كانت على طريقة من سوء الخلق وسلاطة اللسان تؤذيه وجعل ذلك من نعمه عليه .

والثالث : أنه سبحانه جعلها مصلحة في الدين ، فإن صلاحها في الدين من أكبر أعوانه في كونه داعياً إلى الله تعالى فكأنه عليه السلام سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والأهل جميعاً .

(240/514)

وهذا كأنه أقرب إلى الظاهر لأنه إذا قيل : أصلح الله فلاناً فالأظهر فيه ما يتصل بالدين ، واعلم أن قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ يدل على أن الواو لا تفيد الترتيب لأن إصلاح الزوج مقدم على هبة الولد مع أنه تعالى أخره في اللفظ وبين تعالى مصداق ما ذكرناه فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِى الخيرات ﴾ وأراد بذلك زكريا وولده وأهله فبين أنه آتاهم ما طلبوه وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون في الخيرات ، والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة .

أما قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ قرىء رغباً ورهباً وهو كقوله : ﴿ يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُواْ رَّحْمَةِ رَبِّهِ ﴾ والمعنى أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين : أحدهما : الفزع إلى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة في عقابه .

والثاني : الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب ، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفاً من الإثم .

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (91) ﴾

(القصة العاشرة ، قصة مريم عليها السلام)

اعلم أن التقدير واذكر التي أحصنت فرجها ، ثم فيه قولان : أحدهما : أنها أحصنت فرجها إحصاناً كلياً من الحلال والحرام جميعاً كما قالت : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 20] .

والثاني : من نفخة جبريل عليه السلام حيث منعته من جيب درعها قبل أن تعرفه والأول أولى لأنه الظاهر من اللفظ .

وأما قوله : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ فلقائل أن يقول : نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه قال تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر : 29] أي أحييته وإذا ثبت ذلك كان قوله : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ ظاهر الإشكال لأنه يدل على إحياء مريم عليها السلام .

والجواب من وجوه : أحدها : معناه فنفخنا الروح في عيسى فيها ، أي أحييناه في جوفها كما يقول الزمار نفخت في بيت فلان أي في المزمار في بيته .

وثانيها : فعلنا النفخ في مريم عليها السلام من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها ثم بين تعالى بأخصر الكلام ما خص به مريم وعيسى عليهما السلام من الآيات فقال : ﴿ وجعلناها وابنها ءَايَةً للعالمين ﴾ أما مريم فآياتها كثيرة : أحدها : ظهور الحبل فيها لا من ذكر فصار ذلك آية ومعجزة خارجة عن العادة .

وثانيها : أن رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة وهو قوله تعالى : ﴿ أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله ﴾ .

وثالثها ورابعها : قال الحسن إنها لم تلتقم ثدياً يوماً قط وتكلمت هي أيضاً في صباها كما تكلم عيسى عليه السلام ، وأما آيات عيسى عليه السلام فقد تقدم بيانها فبين سبحانه أنه جعلهما آية للناس يتدبرون فيما خصا به من الآيات ويستدلون به على قدرته وحكمته

سبحانه وتعالى فإن قيل : هلا قيل آيتين كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار ءَايَتَيْنِ ﴾ [الإسراء : 12] قلنا ؛ لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة ، وهي ولادتها إياه من غير فحل .

وهنا آخر القصص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 188.189 ﴾

(242/514)

وقال الماوردى :

﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : خلياً من عصمتك ، قاله ابن عطاء .

الثاني : عادلاً عن طاعتك .

الثالث : وهو قول الجمهور يعني وحيداً بغير ولد .

﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ أي خير من يرث العباد من الأهل والأولاد ، ليجعل رغبته إلى الله في الولد والأهل لا بالمال ، ولكن ليكون صالحاً ، وفي النبوة تالياً .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنها كانت عاقراً فَجُعِلَتْ ولوداً . قال الكلبي : وَلَدَتْ له وهو ابن بضع وسبعين سنة .

والثاني : أنها كانت في لسانها طول فرزقها حُسْنَ الخَلْقِ ، وهذا قول عطاء ، وابن كامل .

﴿ . . . يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ أي يبادرون في الأعمال الصالحة ، يعني زكريا ، وامرأته ، ويحيى .

﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : رغباً في ثوابنا ورهباً من عذابنا .

الثاني : رغباً في الطاعات ورهباً من المعاصي .

والثالث : رغباً ببطون الأكف ورهباً بظهور الأكف .

والرابع : يعني طمعاً وخوفاً .

ويحتمل وجهاً خامساً : رغباً فيما يسعون من خير ، ورهباً مما يستدفعون من شر .

﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني متواضعين ، وهذا قول ابن عباس .

والثاني : راغبين راهبين ، وهو قول الضحاك .

والثالث : أنه وضع اليمنى على اليسرى ، والنظر إلى موضع السجود في الصلاة .

قوله عز وجل : ﴿ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾

فيه وجهان :

أحدها : عفّت فامتنعت عن الفاحشة .

والثاني : أن المراد بالفَرْج فَرْجُ درعها منعت منه جبريل قبل أن تعلم أنه رسول .

﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ أي أجرينا فيها روح المسيح كما يجري الهواء بالنفخ ، فأضاف الروح إليه تشريفاً له ، وقيل بل أمر جبريل فحلّ جيب ردعها بأصابعه ثم نفخ فيه فحملت من وقتها .

(243/514)

﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ لأنها حملت من غير مسيس ، ووُلد عيسى من غير ذَكَرٍ ، مع كلامه في المهد ، ثم شهادته ببراءتها من الفاحشة ، فكانت هذه هي الآية ، قال الضحاك : ولدته في يوم عاشوراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(244/514)

وقال ابن عطية :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) ﴾

تقدم أمر زكرياء عليه السلام في سورة مريم ، وإصلاح الزوجة قيل بأن جعلها ممن تحمل وهي عاقر قاعد فحاضت وحملت وهذا هو الذي يشبه الآية وقيل بأن أزيل بذاء كان في لسانها ع وهذا ضعيف وعموم اللفظ يتناول جميع وجوه الإصلاح ، وقرأت فرقة " يدعوننا " وقرأت فرقة " يدعونا " ، وقرأت فرقة " رَغَباً " بفتح الراء والغين " ورَهَباً " كذلك ، وقرأت فرقة بضم الراء فيهما وسكون الغين والهاء ، وقرأت فرقة بفتح الراء وسكون الغين والهاء ، والمعنى أنهم يدعون في وقت تعبدهم وهم بحال رغبة ورجاء ، ورهبة وخوف من حال واحدة لأَن الرغبة والرهبة متلازمان ، وقال بعض الناس الرغب أَن ترفع بطون الأكف نحو السماء والرهب أَن ترفع ظهورها ع وتلخيص هذا أَن عادة كل داع من البشر أن يستعين بيديه ، فالرغب من حيث هو طلب يحسن معه أن يوجه باطن الراح نحو المطلوب منه إذ هي موضع الإعطاء وبها يتملك ، والرهب من حيث هو دفع مضرة يحسن معه طرح ذلك والإشارة إلى إذهابه وتوقيه بنفض اليد ونحوه و" الخشوع " التذلل بالبدن المتركب على التذلل بالقلب .

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾

المعنى واذكر ﴿ التي أحصنت ﴾ وهي مريم بنت عمران أم عيسى ، و" الفرج " فيما قال

الجمهور وهو ظاهر القرآن الجارحة المعروفة وفي إحصانها هو المدح ، وقالت فرقة الفرج هنا هو فرج ثوبها الذي منه نفخ الملك وهو ضعيف ، وأما نفخ الولد فيها فقال كثير من العلماء إنما نفخ في جيب درعها وأخاف الروح إضافة الملك إلى المالك ، ﴿ وابنها ﴾ هو عيسى ابن مريم عليه السلام ، وأراد تعالى أَنه جعل مجموع قصة عيسى وقصة مريم من أولها إلى آخرها ﴿ آية ﴾ لمن اعتبر ذلك ، و﴿ للعالمين ﴾ يريد لمن عاصره فيما بعد ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(245/514)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَوْلُهُ (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا) قَدْ يَسْتَأْنِسُ بِهِ فِي أَنَّ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ ، لِأَنَّهَا ذُكِرَتْ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ فَيُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ جَمَاعَةٍ .

وَقَدْ مَالَ خَاطِرِي إلَيْهِ لِهَذِهِ الْإِشَارَةِ وَإِنْ كَانَ الْمَشْهُورُ خِلَافَهُ ؛ فَإِنَّ مَا رَأَيْنَاهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ

ذَكَرَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرَهُمْ ؛ وَهَذِهِ قَرِينَةٌ يُسْتَفَادُ مِنْهَا ذَلِكَ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 70 ﴾

(246/514)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لا تذرني فرداً ﴾ أي : وحيداً بلا ولد ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ أي : أفضل من بقي حياً بعد ميت .

قوله تعالى : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أُصلحت للولد بعد أن كانت عقيماً ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وقتادة .

والثاني : أنه كان في لسانها طول ، وهو البذاء ، فأُصلحت ، قاله عطاء .

وقال السدي : كانت سليطة فكفَّ عنه لسانها .

والثالث : أنه كان خُلُقها سيّئاً ، قاله محمد ابن كعب .

قوله تعالى : ﴿ إِنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾ أي : يبادرون في طاعة الله .

وفي المشار إِليهم قولان .

أحدهما : زكريا ، وامرأته ، ويحيى .

والثاني : جميع الأنبياء المذكورون في هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ ويدعوننا ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وابن محيصن : "ويدعونا" بنون واحدة .

قوله تعالى : ﴿ رَغَباً ورَهَباً ﴾ أي : رغباً فيما عندنا ، ورهباً منا .

وقرأ الأعمش : "رُغْباً ورُهْباً" بضم الراءين وجزم الغين والهاء ، وهما لغتان مثل النُّحْل ، والنَحَل ، والسُّقْم ، والسَّقَم ، ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ أي : متواضعين .

قوله تعالى : ﴿ والتي أحصنت فرجها ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه مخرج الولد ، والمعنى : منعته مما لا يحل .

وإنما وُصِفَتْ بالعفاف لأنها قُذفت بالزنا .

والثاني : أنه جيب درعها .

ومعنى الفرج في اللغة : كل فرجة بين شيئين ، وموضع جيب درع المرأة مشقوق ، فهو يسمى فرجاً .

وهذا أبلغ في الثناء عليها ، لأنها إذا منعت جيب درعها ، فهي لنفسها أمنع .

قوله تعالى : ﴿ فنفخنا فيها ﴾ أي : أمرنا جبريل ، فنفخ في درعها ، فأجرينا فيها روح عيسى كما تجري الريح بالنفخ .

وأضاف الروح إليه إضافة الملك ، للتشريف والتخصيص ﴿ وجعلناها وابنها آية ﴾ قال

الزجاج: لما كان شأنهما واحداً، كانت الآية فيهما آية واحدة، وهي ولادة من غير فحل.

وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبلة: "آيتين" على التثنية. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(247/514)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾

أي واذكر زكريا.

وقد تقدم في "آل عمران" ذكره.

﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً ﴾ أي منفرداً لا ولد لي وقد تقدم.

﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ أي خير من يبقى بعد كل من يموت؛ وإنما قال "وأنت خير الْوَارِثِينَ" لما تقدم من قوله: "يَرِثُنِي" أي أعلم أنك لا تضيع دينك، ولكن لا تقطع هذه الفضيلة التي هي القيام بأمر الدين عن عقبِي.

كما تقدم في "مريم" بيانه.

قوله تعالى: ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ أي أجبنا دعاءه: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى ﴾.

تقدم ذكره مستوفى : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين : إنها كانت عاقراً فجعلت ولوداً .

وقال ابن عباس وعطاء : كانت سيئة الخلق ، طويلة اللسان ، فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق .

قلت : ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولوداً .

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعني الأنبياء المسمين في هذه السورة ﴿ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات ﴾ .

وقيل : الكناية راجعة إلى زكريا وامرأته ويحيى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ أي يفزعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء وحال الشدة .

وقيل : المعنى يدعون وقت تعبدهم وهم بحال رغبة ورجاء ورهبة وخوف ، لأن الرغبة والرهبة متلازمان .

وقيل : الرغَب رفع بطون الأكف إلى السماء ، والرهَب رفع ظهورها ؛ قاله خصيف ؛

وقال ابن عطية : وتلخيص هذا أن عادة كل داع من البشر أن يستعين بيديه فالرغب من حيث هو طلب يحسن منه أن يوجه باطن الراح نحو المطلوب منه ، إذ هو موضع إعطاء أو

بها يتملك ، والرهب من حيث هو دفع مضرة يحسن معه طرح ذلك ، والإشارة إلى ذها به وتوقيه بنفض اليد ونحوه .

(248/514)

الثانية : روى الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطَّهما حتى يمسح بهما وجهه .

وقد مضى في "الأعراف" الاختلاف في رفع الأيدي ، وذكرنا هذا الحديث وغيره هناك .

وعلى القول بالرفع فقد اختلف الناس في صفته وإلى أين ؟ فكان بعضهم يختار أن يبسط كفيه رافعهما حذو صدره وبطونهما إلى وجهه ؛ روي عن ابن عمر وابن عباس .

وكان عليّ يدعو بباطن كفيه ؛ وعن أنس مثله ، وهو ظاهر حديث الترمذي .

وقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها وامسحوا بها وجوهكم " وروي عن ابن عمر وابن الزبير برفعهما إلى وجهه ، واحتجوا بحديث أبي سعيد الخدري ؛ قال : " وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة فجعل يدعو وجعل ظهر كفيه مما يلي وجهه ، ورفعهما فوق ثدييه وأسفل من منكبيه "

وقيل : حتى يحاذي بهما وجهه وظهورهما مما يلي وجهه .

قال أبو جعفر الطبري والصواب أن يقال : إن كل هذه الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم متفقة غير مختلفة المعاني ، وجائز أن يكون ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم لاختلاف أحوال الدعاء كما قال ابن عباس : إذا أشار أحدكم بإصبع واحد فهو الإخلاص ، وإذا رفع يديه حذو صدره فهو الدعاء ، وإذا رفعهما حتى يجاوز بهما رأسه وظاهرهما مما يلي وجهه فهو الابتهال .

قال الطبري وقد روى قتادة عن أنس قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بظهر كفيه وباطنهما .

و﴿ رَغَباً وَرَهَباً ﴾ منصوبان على المصدر ؛ أي يرغبون رغباً ويرهبون رهباً .

أو على المفعول من أجله ؛ أي للرغب والرهب .

أو على الحال .

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف "وَيَدْعُونَا" بنون واحدة .

وقرأ الأعمش بضم الراء وإسكان الغين والهاء مثل السُّقْم والبُخْل ، والعدْم والضُّر لغتان .

(249/514)

وابن وثاب والأعمش أيضاً "رَغْباً وَرَهْباً" بالفتح في الراء والتخفيف في الغين والهاء ، وهما لغتان مثل نَهَر ونَهْر وصَخَر وصَخْر .

ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو .

﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ أي متواضعين خاضعين .

قوله تعالى : ﴿ والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾

أي واذكر مريم التي أحصنت فرجها .

وإنما ذكرها وليست من الأنبياء ليتم ذكر عيسى عليه السلام ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وابنها آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ولم يقل آيتين لأن معنى الكلام : وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين .

وقال الزجاج ؛ إن الآية فيهما واحدة ؛ لأنها ولدته من غير فحل ؛ وعلى مذهب سيبويه التقدير : وجعلناها آية للعالمين وجعلنا ابنها آية للعالمين ثم حذف .

وعلى مذهب الفراء : وجعلناها آية للعالمين وابنها ؛ مثل قوله جل ثناؤه : ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] .

وقيل ؛ إن من آياتها أنها أول امرأة قبلت في النذر في المتعبد .

ومنها أن الله عز وجل غذاها برزق من عنده لم يجره على يد عبد من عبيده .

وقيل : إنها لم تلقم ثدياً قط .

"وَأَحْصَنَتْ" يعني عَفّت فامتنعت من الفاحشة .

وقيل : إن المراد بالفرج فرج القميص ؛ أي لم تعلق بثوبها ريبة ؛ أي إنها طاهرة الأثواب .

وفروج القميص أربعة : الكمان والأعلى والأسفل .

قال السهيلي : فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا ؛ فإنه من لطيف الكناية لأن القرآن أنزه معنًى ، وأوزن لفظاً ، وألطف إشارة ، وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه وهم الجاهل ، لاسيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس ، فأضف القدس إلى القدوس ، ونزِّه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس .

﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ يعني أمرنا جبريل حتى نفخ في درعها ، فأحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها .

وقد مضى هذا في "النساء" و"مريم" فلا معنى للإعادة .

﴿ آيَةً ﴾ أي علامة وأعجوبة للخلق ، وعلما لنبوة عيسى ، ودلالة على نفوذ قدرتنا فيما نشاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(250/514)

وقال أبو حيان :

﴿ لا تذرني فرداً ﴾ أي وحيداً بلا وارث ، سأل ربه أن يرزقه ولداً يرثه ثم رد أمره إلى الله فقال ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ أي إن لم ترزقني من يرثني فأنت خير وارث ، وإصلاح زوجه بحسن خلقها ، وكانت سيئة الخلق قاله عطاء ومحمد بن كعب وعون بن عبد الله .

وقيل : إصلاحها للولادة بعد أن كانت عاقراً قاله قتادة .

وقيل : إصلاحها رد شبابها إليها ، والضمير في ﴿ إنهم ﴾ عائد على الأنبياء السابق ذكرهم أي إن استجابتنا لهم في طلباتهم كان لمبادرتهم الخير ولدعائهم لنا .

﴿ رغباً ورهباً ﴾ أي وقت الرغبة ووقت الرهبة ، كما قال تعالى ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ وقيل : الضمير يعود على ﴿ زكريا ﴾ و ﴿ زوجه ﴾ وابنهما يحيى .

وقرأت فرقة يدعونا حذفت نون الرفع وطلحة بنون مشددة أدغم نون الرفع في ن ضمير النصب .

وقرأ ابن وثاب والأعمش ووهب بن عمرو والنحوي وهارون وأبو معمر والأصمعي واللؤلؤي ويونس وأبو زيد سبعتهم عن أبي عمرو ﴿ رغباً ورهباً ﴾ بالفتح وإسكان الهاء ، والأشهر عن الأعمش بضمتين فيهما .

وقرأ فرقة : بضم الراءين وسكون الغين والهاء ، وانتصب ﴿ رغباً ورهباً ﴾ على أنهما

مصدران في موضع الحال أو مفعول من أجله .

﴿ والتي أحصنت فرجها ﴾ هي مريم بنت عمران أم عيسى عليه السلام ، والظاهر أن الفرج هنا حياء المرأة أحصنته أي منعته من الحلال والحرام كما قالت ﴿ ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً ﴾ وقيل : الفرج هنا جيب قميصها منعته من جبريل لما قرب منها لينفخ حيث لم يعرف ، والظاهر أن قوله ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ كناية عن إيجاد عيسى حياً في بطنها ، ولا نفخ هناك حقيقة ، وأضاف الروح إليه تعالى على جهة التشريف .

وقيل : هناك نفخ حقيقة وهو أن جبريل عليه السلام نفخ في جيب درعها وأسند النفخ إليه تعالى لما كان ذلك من جبريل بأمره تعالى تشريفاً .

(251/514)

وقيل : الروح هنا جبريل كما قال ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها ﴾ والمعنى ﴿ فنفخنا فيها ﴾ من جهة جبريل وكان جبريل قد نفخ من جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها .

قال الزمخشري : فإن قلت : نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه قال الله تعالى ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ أي أحييته ، وإذا ثبت ذلك كان قوله ﴿ فنفخنا فيها

من روحنا ﴾ ظاهر الإشكال لأنه يدل على إحياء مريم .

قلت : معناه نفخنا الروح في عيسى فيها أي أحييناه في جوفها ، ونحو ذلك أن يقول الزمار نفخت في بيت فلان أي نفخت في المزمار في بيته انتهى .

ولا إشكال في ذلك لأنه على حذف مضاف أي ﴿ فنفخنا في ﴾ ابنها ﴿ من روحنا ﴾ وقوله قلت معناه نفخنا الروح في عيسى فيها استعمل نفخ متعدياً ، والمحفوظ أنه لا يتعدى فيحتاج في تعديه إلى سماع وغير متعد استعمله هو في قوله أي نفخت في المزمار في بيته انتهى .

ولا إشكال في ذلك .

وأفرد ﴿ آية ﴾ لأن حالهما لمجموعهما آية واحدة وهي ولادتها إياه من غير فحل ، وإن كان في مريم آيات وفي عيسى آيات لكنه هنا لحظ أمر الولادة من غير ذكر ، وذلك هو آية واحدة وقوله ﴿ للعالمين ﴾ أي لمن اعتبر بها من عالمي زمانها فمن بعدهم ، ودل ذكر مريم مع الأنبياء في هذه السورة على أنها كانت نبية إذ قرنت معهم في الذكر ، ومن منع تنبؤ النساء قال : ذكرت لأجل عيسى وناسب ذكرهما هنا قصة زكريا وزوجه ويحيى للقرابة التي بينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(252/514)

وقال أبو السعود :

﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ أي واذكر خبره ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾ وقال : ﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْنِى فَرْداً ﴾ أي وحيداً بلا ولدٍ يرثني ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ فحسبي أنت إن لم ترزُقني وارثاً ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ أي دعاءَه ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى ﴾ وقد مر بيانُ كيفية الاستجابة والهبة في سورة مريم ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ أي أصلحناها للولادة بعد عُقْرها أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقِها وكانت حَرِدةً ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِى الخيرات ﴾ تعليل لما فصل من فنون إحسانِه تعالى المتعلقة بالأنبياء المذكورين ، أي كانوا يبادرون في وجوه الخيراتِ مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير وهو السرُّ في إيثار كلمة (في) على كلمة إلى المُشعرة بخلاف المقصودِ من كونهم خارجين عن أصل الخيراتِ متوجهين إليها كما في قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُواْ إلى مَغْفِرَةٍ مّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ ذوي رغَبٍ ورهَب أو راغبين في الثواب راجين للإجابة أو في الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية أو للرغب والرهب ﴿ وَكَانُواْ لَنَا خاشعين ﴾ أي مُخْبتين متضرعين أو دائمي الوجَل ، والمعنى أنهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافِهم بهذه الخصال الحميدة .

﴿ والتى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي اذكر خبرَ التي أحصنتْه على الإطلاق من الحلال والحرام ، والتعبيرُ عنها بالموصول لتفخيم شأنِها وتنزيهها عما زعموه في حقها آثرَ ذي أثيرٍ ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا ﴾ أي أحيينا عيسى في جوفها ﴿ مِن رُّوحِنَا ﴾ من الروح الذي هو من أمرنا ، وقيل : فعلنا النفخَ فيها من جهة روحنا جبريلَ عليه السلام ﴿ وجعلناها وابنها ﴾ أي قصتهما أو حالهما ﴿ ءَايَةً للعالمين ﴾ فإن مَنْ تأمل حالهما تحقق كمالَ قدرتِه عز وجل ، فالمرادُ بالآية ما حصل بهما من الآية التامةِ مع تكاثر آياتِ كلِّ واحد منهما ، وقيل : أريد بالآية الجنسُ الشاملُ لما لكل واحدٍ منهما من الآيات المستقلة ، وقيل : المعنى وجعلناها آيةً وابنها آيةً فحذفت الأولى لدِلالة الثانية عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(254/514)

وقال الآلوسى :

﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ أي واذكر خبره عليه السلام ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ رَبّ لاَ تَذَرْنِى فَرْداً ﴾ أي وحيداً بلا ولد يرثني كما يشعر به التذييل بقوله تعالى ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ ولو كان

المراد بلا ولد يصاحبني ويعاونني لقيل وأنت خير المعينين ، والمراد بقوله ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ وأنت خير حي يبقى بعد ميت ، وفيه مدح له تعالى بالبقاء وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء .

وفي ذلك استمطار لسحائب لطفه عز وجل ، وقيل أراد بذلك رد الأمر إليه سبحانه كأنه قال : إن لم ترزقني ولداً يرثني فأنت خير وارث فحسبي أنت .

واعترض بأنه لا يناسب مقام الدعاء إذ من آداب الداعي أن يدعو بجد واجتهاد وتصميم منه .

ففي "الصحيحين" عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دعا أحدكم فلا يقل : اللهم اغفر لي إن شئت ارحمني إن شئت ارزقني إن شئت ليعزم مسألته فإن الله تعالى يفعل ما يشاء لا مكره له " وفي رواية في "صحيح مسلم" : " ولكن ليعزم المسألة وليعزم الرغبة فإن الله تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه " ويمكن أن يقال : ليس هذا من قبيل ارزقني إن شئت إذ ليس المقصود منه إلا إظهار الرضا والاعتماد على الله عز وجل لو لم يجب دعاءه وليس المقصود من ارزقني إن شئت ذلك فتأمل .

﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ دعاءه ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى ﴾ وقد مر بيان كيفية ذلك ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ أي أصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقها وكانت سيئة الخلق طويلة اللسان كما روى عن ابن عباس .

وعطاء بن أبي رباح.

ومحمد بن كعب القرظي.

وعون بن عبد الله أو أصلحناها له عليه السلام برد شبابها إليها وجعلها ولوداً وكانت لا تلد كما روى عن ابن جبير.

وقتادة، وعلى الأول تكون هذه الجملة عطفاً على جملة ﴿ استجبنا ﴾ لأنه عليه السلام لم يدع بتحسين خلق زوجه.

(255/514)

قال الخفاجي: ويجوز عطفها على ﴿ الله وَهَبْنَا ﴾ وحينئذ يظهر عطفه بالواو لأنه لما فيه من الزيادة على المطلوب لا يعطف بالفاء التفصيلية، وعلى الثاني العطف على ﴿ وَهَبْنَا ﴾ وقدم هبة يحيى مع توقفها على إصلاح الزوج للولادة لأنها المطلوب الأعظم، والواو لا تقتضي ترتيباً فلا حاجة لما قيل: المراد بالهبة إرادتها، قال الخفاجي: ولم يقل سبحانه: فوهبنا لأن المراد الامتنان لا التفسير لعدم الاحتياج إليه مع أنه لا يلزم التفسير بالفاء بل قد يكون العطف التفسيري بالواو انتهى، ولا يخفى ما فيه فتدبر، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِى الخيرات ﴾ تعليل لما فصل من فنون إحسانه المتعلقة بالأنبياء المذكورين

سابقاً عليهم السلام ، فضمائر الجمع للأنبياء المتقدمين .

وقيل : لزكريا .

وزوجه .

ويحيى ، والجملة تعليل لما يفهم من الكلام من حصول القربى والزلفى والمراتب العالية لهم أو استئناف وقع جواباً عن سؤال تقديره ما حالهم ؟ والمعلول عليه ما تقدم ، والمعنى إنهم كانوا يجدون ويرغبون في أنواع الأعمال الحسنة وكثيراً ما يتعدى أسرع بفي لما فيه من معنى الجد والرغبة فليست في بمعنى إلى أو للتعليل ولا الكلام من قبيل

: يجرح في عراقيبها نصلي . . .

﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ أي راغبين في نعمنا وراهبين من نقمنا أو راغبين في قبول أعمالهم وراهبين من ردها ، فرغبا ورهبا مصدران في موضع الحال بتأويلهما باسم الفاعل ، ويجوز أن يكون ذلك بتقدير مضاف أي ذوي رغب ، ويجوز إبقاؤهما على الظاهر مبالغة ، وجوز أن يكونا جمعين كخدم جمع خادم لكن قالوا .

إن هذا الجمع مسموع في ألفاظ نادرة .

وجوز أن يكونا نصباً على التعليل أي لأجل الرغبة والرهبة ، وجوز أبو البقاء نصبهما على المصدر نحو قعدت جلوساً وهو كما ترى .

وحكمى في "مجمع البيان" أن الدعاء رغبة ببطون الأكف ورهبة بظهورها ، وقد قال به بعض علمائنا ، والظاهر أن الجملة معطوفة على جملة ﴿ يسارعون ﴾ فهي داخلة معها في حيز ﴿ كَانُواْ ﴾ ، وفي عدم إعادتها رمز إلى أن الدعاء المذكور من توابع تلك المسارعة ، وقرأت فرقة ﴿ يدعونا ﴾ بحذف نون الرفع ، وقرأ طلحة ﴿ يدعونا ﴾ بنون مشددة أدغم نون الرفع في نون ضمير النصب ، وقرأ ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ بفتح الراء وإسكان ما بعدها و ﴿ رَغَباً وَرَهَباً ﴾ بالضم والإسكان ﴿ وَكَانُواْ لَنَا خاشعين ﴾ أي مخبتين متضرعين أو دائمي الوجل ، وحال التعليل أنهم نالوا من الله تعالى ما نوالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة .

﴿ والتى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ نصب نصب نظائره السابقة ، وقيل رفع على الابتداء والخبر محذوف أي مما يتلى عليكم أو هو قوله تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ والفاء زائدة عند من يجيزه ، والمراد بالموصول مريم عليها السلام ، والإحصان بمعناه اللغوي وهو المنع مطلقاً ، والفرج في الأصل الشق بين الشيئين كالفرجة وما بين الرجلين ويكنى به عن السوأة وكثر حتى صار كالصريح في ذلك وهو المراد به هنا عند جماعة أي منعت فرجها من النكاح بقسميه كما قالت ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 20] وكان التبتل إذ ذاك مشروعاً للنساء والرجال ، وقيل الفرج هنا جيب قميصها منعته من جبريل

عليه السلام لما قرب منها لينفخ حيث لم تعرفه .

وعبر عنها بما ذكر لتفخيم شأنها وتنزيهها عما زعموه في حقها ، والمراد من الروح معناه المعروف ، والإضافة إلى ضميره تعالى للتشريف ، ونفخ الروح عبارة عن الإحياء وليس هناك نفخ حقيقة .

ثم هذا الاحياء لعيسى عليه السلام وهو لكونه في بظنها صح أن يقال : نفخنا فيها فإن ما يكون فيما في الشيء يكون فيه فلا يلزم أن يكون المعنى أحييناها وليس بمراد ، وهذا كما يقول الزمار .

(257/514)

نفخت في بيت فلان وهو قد نفخ في المزمار في بيته ، وقال أبو حيان : الكلام على تقدير مضاف أي فنفخنا في ابنها .

ويجوز أن يكون المراد من الروح جبريل عليه السلام كما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ [مريم : 17] ومن ابتدائية وهناك نفخ حقيقة وإسناده إليه تعالى مجاز أي فنفخنا فيها من جهة روحنا ، وكان جبريل عليه السلام قد نفخ من جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها فصح أن النفخ فيها من غير غبار يحتاج إلى النفخ ، ثم النفخ لازم وقد

يتعدى فيقال نفخنا الروح.

وقد جاء ذلك في بعض الشواذ ونص عليه بعض الأجلة فإنكاره من عدم الإطلاع ﴿ وجعلناها وابنها ﴾ أي جعلنا قصتهما أو حالهما ﴿ للعالمين إِنَّ ﴾ فإن من تأمل حالتهما تحقق كمال قدرته عز وجل ، فالمراد بالآية ما حصل بهما من الآية التامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما ، وقيل أريد بالآية الجنس الشامل ما لكل واحد منهما من الآيات المستقلة ، وقيل : المعنى وجعلناها آية وابنها آية فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها واستدل بذكر مريم عليها السلام مع الأنبياء في هذه السورة على أنها كانت نبية إذ قرنت معهم في الذكر . وفيه أنه لا يلزم من ذكرها معهم كونها منهم ولعلها إنما ذكرت لأجل عيسى عليه السلام ، وناسب ذكرهما هنا قصة زكريا وزوجه وابنهما يحيى للقرابة التي بينهم عليهم السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(258/514)

وقال القاسمى :

﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ أي : واذكر خبره : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً ﴾ أي : حين طلب أن يهبه ربه ولداً يكون من بعده نبيّاً ، ولا يتركه فرداً وحيداً بلا وارث ، وقد تقدمت القصة

مبسوطة في أول سورة مريم وفي سورة آل عِمْرَان أيضاً . وقوله : ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ ثناء مناسب للمسألة . قال الغزالي في " شرح الأسماء الحسنى " : الوارث هو الذي ترجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك . وذلك هو الله سبحانه ، إذ هو الباقي بعد فناء خلقه ، وإليه مرجع كل شيء ومصيره . وقوله تعالى :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ أي : دعاءَهُ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ أي : أصلحناها للولادة بعد عقرها ، معجزة وكرامة له . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ تعليل لما فصّل من فنون إحسانه تعالى ، المتعلقة بالأنبياء المذكورين ، أي : كانوا يبادرون في كل باب من الخير . وإيثارُ في على إلى للإشارة إلى ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير . لأن إلى تدل على الخروج عن الشيء والتوجه إليه : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ أي : ذوي رغب ورهب ، أو راغبين في الثواب راجين للإجابة : ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ أي : مخبتين متضرعين . وقوله تعالى :

(259/514)

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي : اذكر نبأ التي أحصنته إحصاناً كلياً ، عن الحلال والحرام جميعاً . كما قالت : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [آل عِمْرَان : 47] و[مريم :

20] . والتعبير عنها بالموصول ، لتفخيم شأنها ، وتنزيهها عما زعموه في حقها ، بادئ بدء : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ أي : نفخنا الروح في عيسى فيها . أي : أحييناه في جوفها . فنزّل نفخ الروح في عيسى ، لكونه في جوف مريم ، منزلة نفخ الروح فيها . ونفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه . وقيل المعنى : فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام ، أي : أمرناه فنفخ . أو فنفخنا فيها بعض روحنا ، أي : بعض الأرواح المخلوقة لنا . وذلك البعض هو روح عيسى ، لأنها وصلت في الهواء الذي نفخه في رحمها : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ﴾ أي : نبأهما : ﴿ آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي : في كمال قدرته واختصاصه من شاء بما شاء . وقد كان من آيتهما إتيان الرزق لمريم في غير أوانه . وتثمير النخل اليابس . وإجراء العين ، ونطق ابنها في المهد . وإحياء الموتى . وإبراء الأكمه والأبرص .

قال الزمخشري : فإن قلت : هلا قيل : ﴿ ءَايَتَيْنِ ﴾ كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ [الإسراء : 12] ؟ قلت : لأن حالهما بمجموعها آية واحدة . وهي ولادتها إياه من غير فحل . انتهى . وقيل : المعنى وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً وَابْنَهَا آيَةً . فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 230 . 231 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِى فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾

كان أمر زكرياء الذي أشار إليه قوله : ﴿ إذ نادى ربه ﴾ آية من آيات الله في عنايته بأوليائه المنقطعين لعبادته فخصّ بالذكر لذلك .

والقول في عطف ﴿ وزكرياء ﴾ كالقول في نظائره السابقة .

وجملة ﴿ رب لا تذرني فردا ﴾ مبيّنة لجملة ﴿ نادى ربه ﴾ .

وأطلق الفرد على من لا ولد له تشبيهاً له بالمُنفرد الذي لا قرين له .

قال تعالى : ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ [مريم : 95] ، ويقال مثله الواحد للذي لا رفيق له ، قال الحارث بن هشام:

وعَلمتُ أني إن أُقاتل واحداً . . .

أقتل ولا يَضررُ عدوي مشهدي

فشُبه من لا ولد بالفرد لأن الولد يصيّر أباه كالشفع لأنه كجزء منه .

ولا يقال لذي الولد زوجٌ ولا شفع .

وجملة ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ ثناء لتمهيد الإجابة ، أي أنت الوارث الحق فاقض عليّ من صفتك العلية شيئاً .

وقد شاع في الكتاب والسنة ذكر صفة من صفات الله عند سؤاله إعطاء ما هو من جنسها ، كما قال أيوب ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ [الأنبياء : 83] ، ودلّ ذكر ذلك على أنه سأل الولد لأجل أن يرثه كما في آية [سورة مريم : 6] ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ حُذفت هاته الجملة لدلالة المحكي هنا عليها .

والتقدير : يرثني الإرثَ الذي لا يداني إرثَك عبادك ، أي بقاء ما تركوه في الدنيا لتصرُّف قدرتك ، أو يرثني مالي وعلمي وأنت ترث نفسي كلها بالمصير إليك مصيراً أبدياً فأرثك خير إرث لأنه أشمل وأبقى وأنت خير الوارثين في تحقق هذا الوصف .

وإصلاح زوجه : جعلها صالحة للحمل بعد أن كانت عاقراً .

وتقدم ذكر زكرياء في سورة آل عمران وذكر زوجه في سورة مريم .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِى الخيرات وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خاشعين ﴾

(261/514)

جملة واقعة موقع التعليل للجمل المتقدمة في الثناء على الأنبياء المذكورين ، وما أوتوه من النصر ، واستجابة الدعوات ، والإنجاء من كيد الأعداء ، وما تبع ذلك ، ابتداءً من قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء ﴾ [الأنبياء : 48] .

فضمائر الجمع عائدة إلى المذكورين .

وحرف التأكيد مفيد معنى التعليل والتسبب ، أي ما استحقّوا ما أوتوه إلا لمبادرتهم إلى مسالك الخير وجدّهم في تحصيلها .

وأفاد فعل الكون أن ذلك كان دأبَهم وهجِّيراهم .

والمسارعة : مستعارة للحرص وصرف الهمة والجِدّ للخيرات ، أي لفعلها ، تشبيهاً للمداومة والاهتمام بمسارعة السائر إلى المكان المقصود الجادّ في مسالكه .

والخيرات : جمع خَيْر بفتح الخاء وسكون الياء وهو جمع بالألف والتاء على خلاف القياس فهو مثل سرادقات وحمامات واصطبلات .

والخير ضدّ الشرّ ، فهو ما فيه نفع .

وأما قوله تعالى : ﴿ فيهن خيرات حِسان ﴾ [الرحمن : 70] فيحتمل أنه مثل هذا ، ويحتمل أنه جمع خَيْرة بفتح فسكون الذي هو مخفف خَيِّره المشدّد الياء ، وهي المرأة ذات الأخلاق الخيرية .

وقد تقدم الكلام على ﴿ الخَيْرات ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وأولئك لهم الخيرات ﴾ في [سورة براءة : 88] .

وعطف على ذلك أنهم يدْعُون الله رغبةً في ثوابه ورهبة من غضبه ، كقوله تعالى : ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ [الزمر : 9] .

والرغَب والرهَب بفتح ثانيهما مصدران من رغب ورهب .

وهما وصف لمصدر ﴿ يدعوننا ﴾ لبيان نوع الدعاء بما هو أعم في جنسه ، أو يقدر مضاف ، أي ذوي رغب ورهب ، فأقيم المضاف إليه مقامه فأخذ إعرابه .

وذكر فعل الكون في قوله تعالى : ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ مثل ذكره في قوله تعالى : ﴿ كانوا يسارعون ﴾ .

والخشوع : خوف القلب بالتفكر دون اضطراب الأعضاء الظاهرة .

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾

(262/514)

لما انتهى التنويه بفضل رجال من الأنبياء أعقب بالثناء على امرأة نبيئة إشارة إلى أن أسباب الفضل غير محجورة ، كما قال الله تعالى : ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ [الأحزاب : 35] الآية .

هذه هي مريم ابنة عمران .

وعبر عنها بالموصول دلالة على أنها قد اشتهرت بمضمون الصلة كما هو شأن طريق الموصولية غالباً ، وأيضاً لما في الصلة من معنى تسفيه اليهود الذين تقوّلوا عنها إفكاً وزُوراً ،

وليبنى على تلك الصلة ما تفرع عليها من قوله تعالى : ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ الذي هو في حكم الصلة أيضاً ، فكأنه قيل : والتي نفخنا فيها من روحنا ، لأن كلا الأمرين مُوجب ثناء .

وقد أراد الله إكرامها بأن تكون مظهر عظيمِ قدرته في مخالفة السنة البشرية لحصول حَمل أنثى دون قربان ذكر ، ليرى الناس مثالاً من التكوين الأوّل كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ [آل عمران : 59] .

والنفخ ، حقيقته : إخراج هواء الفم بتضييق الشفتين .

وأطلق هنا تمثيلاً لإلقاء روح التكوين للنسل في رحم المرأة دفعة واحدة بدون الوسائل المعتادة تشبيهاً لِهيئة التكوين السريع بهيئة النفخ .

وقد قيل : إن الملَك نفخَ مما هو لَه كالفم .

والظرفية المفادة بـ (في) كونُ مريم ظرفاً لحلول الروح المنفوخ فيها إذ كانت وعاءه ، ولذلك قيل ﴿ فيها ﴾ ولم يقل (فيه) للإشارة إلى أن الحمل الذي كُوّن في رحمها حمل من غير الطريق المعتاد ، كأنه قيل : فنفخنا في بطنها .

وذلك أعرق في مخالفة العادة لأن خرق العادة تقوى دلالته بمقدار ما يضمحل فيه من الوسائل المعتادة .

والروح : هو القوة التي بها الحياة ، قال تعالى : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ [الحجر : 29] ، أي جعلت في آدم روحاً فصار حَياً .

وحَرف (مِن) تبعيضي ، والمنفوخ رُوح لأنه جعل بعض روح الله ، أي بعض جنس الروح الذي به يجعل الله الأجسام ذات حياة .

(263/514)

وإضافة الروح إلى الله إضافة تشريف لأنه روح مبعوث من لدن الله تعالى بدون وساطة التطورات الحيوانية للتكوين النسلي .

وجعلها وابنها آية هو من أسباب تشريفهما والتنويه بهما إذ جعلهما الله وسيلة لليقين بقدرته ومعجزات أنبيائه كما قال في [سورة المؤمنين : 50] ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ﴾ وبهذا الاعتبار حصل تشريف بعض المخلوقات فأقسم الله بها نحو : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ [الليل : 1] ، ﴿ والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ﴾ [الشمس : 12] .

وإفراد الآية لأنه أريد بها الجنس .

وحيث كان المذكور ذاتين فأخبر عنهما بأنهما آية عُلِم أن كل واحد آيةٌ خاصة .

ومن لطائف هذا الإفراد أن بين مريم وابنها حالة مشتركة هي آية واحدة ، ثم في كل منهما آية أخرى مستقلة باختلاف حال الناظر المتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(264/514)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾

لقد بلغ زكريا – عليه السلام – من الكبر عتياً ، ولم يرزقه الله الولد ، فتوجه إلى الله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنِّي واشتعل الرأس شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الموالي مِن وَرَآئِي وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ [مريم : 4-5] .

فلما بشَّره الله بالولد تعجَّب ؛ لأنه نظر إلى مُعْطيات الأسباب ، كيف يرزقه الله الولد ، وقد بلغ من الكِبَر عتياً وامرأته عاقر ، فأراد أن يُؤكّد هذه البُشْرى : ﴿ قَالَ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً * قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 8-9] .

يُطمئنُ الله تعالى نبيَّه زكريا : اطرح الأسباب الكونية للخَلْق ؛ لأن الذي يُبشّرك هو الخالق .

وقد تعلَّم زكريا من كفالته لمريم أن الله يُعطي بالأسباب ، ويعطي إن عزَّتْ الأسباب ، وقد تباري أهل مريم في كفالتها ، وتسابقوا في القيام بهذه الخدمة ؛ لأنهم يعلمون شرفها ومكانتها ؛ لذلك أجروا القرعة على مَنْ يكفلها فأتوا بالأقلام ورموْها في البحر فخرج قلم زكريا ، ففاز بكفالة مريم : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَآءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : 44] .

وإجراء القرعة لأهمية هذه المسألة ، وعِظَم شأنها ، والقرعة إجراء للمسائل على القَدَر ، حتى لا تتدخّل فيها الأهواء .

(265/514)

فلما كَفَل زكريا مريم كان يُوفّر لها ما تحتاج إليه ، ويرعى شئونها ، وفي أحد الأيام دخل عليها ، فوجد عندها طعاماً لم يأْتِ به : ﴿ قَالَ يا مريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] .

وهنا مَلْحظ وإشارة إلى ضرورة متابعة ربِّ الأسرة لأسرته ، فإذا ما رأى في البيت شيئاً لم يأْتِ به فليسأل عن مصدره ، فربما امتدت يد الأولاد إلى ما ليس لهم ، إنه أصل لقانون " من أين لك هذا ؟ " الذي نحتاج إلى تطبيقه حين نشكّ .

التقط زكريا إجابة مريم التي جاءتْ سريعة واثقة ، تدل على الحق الواضح الذي لا يتلجلج : ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] .

نعم ، هذه مسألة يعرفها زكريا ، لكنها لم تكُنْ في بُؤْرة شعوره ، فقد ذكَّرْته بها مريم : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدعآء ﴾ [آل عمران : 38] .

أي : ما دام الأمر كذلك ، فَهَبْ لي ولداً يرثُ النوبة من بعدي . ثم يذكر حيثيات ضَعْفه وكِبَر سِنَّه ، وكوْنَ امرأته عاقراً ، وهي حيثيات المنع لا حيثيات الإنجاب ؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب وبغير أسباب .

وهكذا ، استفاد زكريا من هذه الكلمة ، واستفادتْ منها مريم كذلك فيما بعد ، وحينما جاءها الحَمْل في المسيح بدون الأسباب الكونية .

وهنا يدعو زكريا ربه ، فيقول : ﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ [الأنبياء : 89] أي : لا أطلب الولد ليرث مُلْكي من بعدي ، فأنت خير الوارثين ترِثُ الأرضَ والسماء ، ولك كل شيء . ﴿ فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا . . . ﴾ .

فلم تكُنْ استجابة الله لزكريا أنْ يهبه الولد حال كِبَره وكوْن امرأته عاقراً ، إنما أيضاً سماه ، ولله تعالى سِرٌّ في هذه التسمية ؛ لأن الناس أحرار في وَضْع الأسماء للمُسمّيات كما قلنا فلا مانع أن نسمي فتاة زنجية (قمر) ؛ لأن الاسم يخرج عن معناه الأصلي ، ليصير عَلَماً على هذا المسمى . إذن : هناك فَرْق بين الاسم وبين المسمَّى .

وقد نُسمِّي الأسماء تفاؤلاً أن يكونوا كذلك ، كالذي سمَّي ولده يحيى ، ويظهر أنه كان يعاني من موت الأولاد ؛ لذلك قال :

فَسمَّيْتُه يَحيى ليحيى فَلَم يكُنْ . . . لِرَدِّ قَضَاءِ اللهِ فيه سَبيلُ

أي : سمَّيْته يحي أَملاً في أن يحيا ، لكن هذا لم يردّ عنه قضاء الله .

وكذلك لما سمَّي عبد المطلب محمداً قال : سمَّيته محمداً ليُحمد في الأرض وفي السماء .

لكن ، حين يُسمِّي يحيى مَنْ يملك الحياة ويملك الموت ، فلا بُدَّ أن يكون اسماً على مُسمَّى ، ولا بُدَّ له أن يحيا ، حتى إنْ مات يموت شهيداً ، لتتحقق له الحياة حتى بعد الموت .

ومعنى : ﴿ وَوَهَبْنَا . . ﴾ [الأنبياء : 90] أي : أعطيناه بدون قانون التكوين الإنساني ، وبدون أسباب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ . . . ﴾ [الأنبياء : 90] فبعَد أنْ كانت عاقراً لا تلد أجرينا لها عملية ربانية أعادتْ لها مسألة الإنجاب ؛ لأن المرأة تلد طالما فيها البويضات التي تكوِّن الجنين ، فإذا ما انتهتْ هذه البويضات قد أصبحت عقيماً ، وهذه

البويضات في عنقود ، ولها عدد مُحدَّد أشبه بعنقود البيض في الدجاجة ؛ لذلك يسمون آخر الأولاد "آخر العنقود" .

إذن : وُجِد يحيى من غير الأسباب الكونية للميلاد ؛ لأن المكوِّن سبحانه أراد ذلك .

لكن ، لماذا لم يقُلْ لزكريا أصلحناك ؟ قالوا : لأن الرجل صالح للإنجاب ما دام قادراً على العملية الجنسية ، مهما بلغ من الكِبَر على خلاف المرأة المستقبِلة ، فهي التي يحدث منها التوقُّف .

(267/514)

وأصحاب العُقْم وعدم الإنجاب نرى فيهم آيات من آيات الله ، فنرى الزوجين صحيحين ، أجهزتُهما صالحة للإنجاب ، ومع ذلك لا ينجبان ، فإذا ما تزوج كل منهما بزوج آخر ينجب ؛ لأن المسألة ليست (آلّية) ، بيل وراء الأسباب الظاهرة إرادة الله ومشيئته .

لذلك يقول تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً . . . ﴾ [الشورى : 49 – 50] .

ثم تُوضِّح الآيات سبب وعِلَّة إكرام الله واستجابته لنبيه زكريا – عليه السلام : ﴿ إِنَّهُمْ

كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : 90]

هذه صفات ثلاث أَهَّلَتْ زكريا وزوجته لهذا العطاء الإلهي ، وعلينا أن نقف أمام هذه التجربة لسيدنا زكريا ، فهي أيضاً ليستْ خاصة به إنما بكل مؤمن يُقدِّم من نفسه هذه الصفات .

لذلك ، أقول لمن يُعاني من العقم وعدم الإنجاب وضاقتْ به أسباب الدنيا ، وطرق باب الأطباء أن يلجأ إلى الله بما لجأ به زكريا – عليه السلام – وأهله ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : 90] خذوها (روشتة) ربانية ، ولن تتخلف عنكم الاستجابة بإذن الله .

لكن ، لماذا هذه الصفة بالذات : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات . . ﴾ [الأنبياء : 90] ؟

قالوا : لأنك تلاحظ أن أصحاب العُقْم وعدم الإنجاب غالباً ما يكونون بُخَلاء مُمْسِكين ، فليس عندهم ما يُشجِّعهم على الإنفاق ، فيستكثرون أن يُخرجوا شيئاً لفقير ؛ لأنه ليس ولده .

فإذا ما سارع إلى الإنفاق وسارع في الخيرات بشتى أنواعها ، فقد تحدَّى الطبيعة وسار ضدها في هذه المسألة ، وربما يميل هؤلاء الذين ابتلاهم الله بالعُقْم إلى الحقد على الآخرين ، أو يحملون ضغينة لمن ينجب ، فإذا طرحوا هذا الحقد ونظروا لأولاد الآخرين على أنهم أولادهم ، فعطفوا عليهم وسارعوا في الخيرات ، ثم توجَّهوا إلى الله بالدعاء رَغَباً ورَهَباً ، فإن الله تعالى وهو المكوِّن الأعلى يخرق لهم النواميس والقوانين ، ويرزقهم الولد من حيث لا يحتسبون .

ومعنى : ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : 90] يعني : راضين بقدرنا فيهم ، راضين بالعُقْم على أنه ابتلاء وقضاء ، ولا يُرفع القضاء عن العبد حتى يرضى به ، فلا ينبغي للمؤمن أنْ يتمرَّد على قدر الله ، ومن الخشوع التطامن لمقادير الخَلْق في الناس .

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾

ولك أن تسأل : لماذا يأتي ذِكْر السيدة مريم ضمن مواكب النبوة ؟ نقول : لأن النبوة اصطفاء الله لنبي من دون خَلْق الله ، وكوْنه يصطفي مريم من دون نساء العالمين لتلد بدون ذكورة ، فهذا نوع من الاصطفاء ، وهو اصطفاء خاص بمريم وحدها من بين نساء العالمين ؛ لأن اصطفاء الأنبياء تكرَّر ، أمّا اصطفاء مريم لهذه المسألة فلم يتكرر في غيرها أبداً .

وقوله تعالى : ﴿ والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا . . ﴾ [الأنبياء : 91] يعني : عَفَّتْ وحفظتْ

فَرْجها ، فلم تمكّن منها أحداً .

ومعنى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا . . ﴾ [الأنبياء : 91] يعني : مسألة خاصة به ، خارجة على قانون الطبيعة ، فليس في الأمر ذكورة أو انتقاء ، إنما النفخة التي نفخها الله في آدم ، فجاءت منها كل هذه الأرواح ، هي التي نفخها في مريم ، فجاءت منها روح واحدة . فالروح هي نفسها التي قال الله فيها : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي . . ﴾ [الحجر : 29] .

(269/514)

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وابنها آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 91] يعني : شيئاً عجيباً في الكون ، والعجيبة فيها أن تلدَ بدون ذكورة ، والعجيبة فيه أن يُولَد بلا أب ، فكلاهما آية لله ومعجزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(270/514)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا) (الأنبياء : 91) ، وفي سورة التحريم : (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) (التحريم : 12) ، فيسأل عن وجه الاختلاف في الضميرين مع اتحاد المعنى المقصود من الواقع به الثناء وإن اختلف الحامل على ذكر قصتها في الموضعين ؟ وعن وجه اختصاص كل واحد من الموضعين بالوارد (فيه) ؟

والجواب عن الأول ، والله أعلم : بعد تسلمي اتحاد المعنى الواقع به البناء ، إن الضمير في الأولى عائد إلى ما أشير إليه بالموصول الذي هو التي ، وهي مريم ابنة عمران

(271/514)

المفتتح باسمها في آية التحريم ، أعيد الضمير هنا إليها من حيث إن ذلك تخصيص وتكريم جليل وآية باهرة ، وقد قصد ههنا تشريفها وتشريف ابنها ، عليه السلام ، بالذكر في قوله : (وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً) (الأنبياء : 91) ، ولم يقع في آية التحريم ذكر ابنها ، فلما اتسع المقصود هنا بذكر من لم يذكر هناك ، وقصد من التشريف ما هو أكثر ، ناسبه التوسعة في

عودة الضمير ، فأعيد إلى الذات المطهرة (بجملتها ، فقيل) : (فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا) ، وأفهم ذلك ما أفهمه الضمير الخاص بمحل النفخ من غير إشكال ، وقيل في آية التحريم : (فيه) لعوده إلى الموضع المخصوص على ما يجب ، لم يقصد هنا من توسع المدح ما قصد في الأولى ، وإنما قصد بآية التحريم تخصيصها في ذاتها بعظيم إيمانها ، وتصديقها ، وإثباتها في القانتين ، وتشبيه حالها في سابق سعادتها بالمذكورة قبلها ، واجتماعهما في ضرب المثل بهما للمؤمنين ، فالحامل على ذكرها هنا غير الحامل في سورة الأنبياء مع اتحاد الوصف الواقع به التمدح ، مع تناظر الألفاظ (وتشاكلها) ، وهي قوله تعالى : (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا) (الأنبياء : 91) ، فاجتمع في هذا الموضع ما قصد من مدحها ومدح ابنها ، عليه السلام ، مع مضارعة الألفاظ وتشاكلها ، فجاء كل على ما ثبت فيه ، ولم يقصد في التحريم غير ذكرها بالحال التي ناسبتها فيها امرأة فرعون ، ولم يوسع الكلام بذكر ابنها ، عليه السلام ، كما ذكر في الأخرى ، ولا هنا داعية تشاكل كما هناك ، فلهذا ورد الضمير على ما ورد من الخصوص فقيل : (فيه) .

(272/514)

والجواب ، عن وجه اختصاص كل واحد من الموضعين بالوارد فيه : أن آية الأنبياء ورت منسوقة على آيات تضمنت ذكر جملة من الرسل ، موصوفين بخصائص عليه وآيات نبوية ، أولهم إبراهيم ، عليه السلام ، ثم ابنه إسحاق ثم ابنه يعقوب ثم نوح ولوط وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وذو النون وزكرياء ، فلما ذكر هؤلاء العلية ، عليهم السلام ، بخصائص ومنح ناسب ذلك ذكر مريم وابنها بما منحا عليهما السلام . وأما آية التحريم فمقصود فيها ذكر عظيمتين جليلتين يبين بهما حكم سبقية القدر بالإيمان والكفر ، وهما قضية امرأتي نوح ولوط ، وإن انضواءهما إلى هذين النبيين الكريمين ، عليهما السلام ، انضواء الزوجية التي لا أقرب منها ، ومع ذلك لم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقصة امرأة فرعون وقد انضوت إلى أكفر كافر ، فلم يضرها كفره ، ثم ذكرت مريم ، عليها السلام ، للالتقاء في الاختصاص وسبقية السعادة ، ولم يدع داع إلى ذكر ابنها فلا وجه لذكره هنا ، وأما آية الأنبياء فلذكره هناك أوضح حامل ، فجاء كل على ما يجب ، ولا يمكن فيه عكس الوارد ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 351 . 353 ﴾

(273/514)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) ﴾

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ قال : كان في لسان امرأة زكريا طول فأصلحه الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والخرائطي في مساوئ الأخلاق وابن عساكر ، عن عطاء بن أبي رباح في قوله : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ قال : كان في خلقها سوء وفي لسانها طول – وهو البذاء – فأصلح الله ذلك منها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر ، عن محمد بن كعب القرظي في قوله : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ قال : كان في خلقها شيء .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن عساكر ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ قال : كانت لا تلد .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ قال : كانت لا تلد .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ قال : وهبنا له ولداً منها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وأصلحنا له زوجه ﴾ قال : كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً ووهب له منها يحيى . وفي قوله : ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ قال : أذلاء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ قال : ﴿ رغباً ﴾ طمعاً وخوفاً ، وليس ينبغي لأحدهما أن يفارق الآخر .

وأخرج ابن المبارك عن الحسن في قوله : ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ قال : الخوف الدائم في القلب .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في قوله : ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ قال : ما دام خوفهم ربهم فلم يفارق خوفه قلوبهم ، إن نزلت بهم رغبة خافوا أن يكون ذلك استدراجاً من الله لهم ، وإن نزلت بهم رهبة خافوا أن يكون الله عز وجل قد أمر بأخذهم لبعض ما سلف منهم .

(274/514)

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل : ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ قال : ﴿ رهباً ﴾ هكذا ، وبسط كفيه

".

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإني أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو له أهل ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ قال : متواضعين .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ قال : الذلة لله .

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (91) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كتب قيصر إلى معاوية : سلام عليك ، أما بعد . . . فأنبئني بأكرم عباد الله عليه وأكرم إمائه عليه . فكتب إليه :

أما بعد . . . كتبت إلي تسألني فقلت : أمّا أكرم عباده عليه فآدم ، خلقه بيده وعلّمه الأسماء كلها . وأمّا أكرم إمائه عليه فمريم بنت عمران ﴿ التي أحصنت فرجها ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ قال :

نفخ في جيبها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال : نفخ في فرجها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(275/514)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90) ﴾

قوله : ﴿ وَيَدْعُونَنَا ﴾ : العامَّةُ على ثبوتِ الرفع قبل " ن " مفكوكةً منها . وقرأَتْ فرقةٌ " يَدْعُوْنا " بحذفِ نونِ الرفع . وطلحة بإدغامِها فيها . وهذان الوجهان فيهما إجراءُ نون " ن " مُجْرَى نونِ الوقاية . وقد تقدَّم ذلك .

قوله : ﴿ رَغَباً وَرَهَباً ﴾ يجوز أَنْ يَنْتَصِبا / على المفعولِ من أجله ، وأَنْ ينتصِبا على أنهما مصدران واقعان موقعَ الحال أي : راغبين راهبين ، وأن ينتصِبا على المصدرِ الملاقي لعامِله في المعنى دون اللفظِ لأنَّ ذلك نوعٌ منه .

والعامَّةُ على فتحِ الغينِ والهاء . وابن وثاب والأعمش ورُويت عن أبي عمرو بسكون الغين والهاءِ . ونُقِل عن الأعمش وهو الأشهرُ عنه بضمِّ الراء وما بعدها . وقرأَتْ فِرْقَةٌ بضمةٍ وسكونٍ فيهما .

قوله : ﴿ والتي أَحْصَنَتْ ﴾ : يجوز أَنْ ينتصِبَ نَسَقاً على ما قبلَها ، وأن ينتصِبَ بإضمارِ اذكُرْ ، وأن يرتفعَ بالابتداء ، والخبرُ محذوف أي : وفيما يُتْلى عليكم التي أحصنت . ويجوز أن يكونَ الخبرُ " فنفَخْنا " وزِيْدَت الفاءُ على رأي الأخفش نحو : " زيدٌ فقائمٌ " .

وفي كلامِ الزمخشري " فَنَفَخْنا الروحَ في عيسى فيها " . قال الشيخ مؤاخِذاً له : " فاستعمل " نَفَخَ " متعدياً " . والمحفوظُ أنه لا يتعدى فيحتاج في تَعَدِّيه إلى سماعٍ ، وغيرَ متعدٍّ استعمله هو في قولِه " أي : نَفَخَتْ في المِزْمار " انتهى ما واخَذَه به . قلت : وقد سُمِعَ " نَفَخَ " متعدياً . ويَدُلُّ على ذلك ما قُرِىء في الشاذ " فأنفخها فيكونُ طائراً " وقد حكاها هو قراءةً فكيف يُنْكِرُها ؟ فعليك بالالتفات إلى ذلك .

(276/514)

قوله : ﴿ آيَةً ﴾ إنما لم يطابِقْ المفعولَ الأولَ فيُثَنّي الثاني ؛ لأنَّ كلاً منهما آيةٌ بالآخر فصارا آيةً واحدة . أو نقولُ : إنَّه حُذِف من الأولِ لدلالةِ الثاني ، أو بالعكس أي : وَجَعْلنا ابنَ مريمَ

آيةً . وأمَّه كذلك . وهو نظيرُ الحذفِ في قولِه ﴿ واللهُ ورَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] وقد تقدَّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 194 . 195 ﴾

(277/514)

فصل فى منزلة الرغبة

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة

الرغبة قال الله عز وجل: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ [الأنبياء : 90] والفرق بين الرغبة و الرجاء أن الرجاء طمع والرغبة طلب فهي ثمرة الرجاء فإنه إذا رجا الشيء طلبه والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف فمن رجا شيئًا طلبه ورغب فيه ومن خاف شيئًا هرب منه

والمقصود : أن الراجي طالب والخائف هارب قال صاحب المنازل: الرغبة: هي من الرجاء بالحقيقة لأن الرجاء طمع يحتاج إلى تحقيق والرغبة سلوك على التحقيق أي الرغبة تتولد من الرجاء لكنه طمع وهي سلوك وطلب وقوله: الرجاء طمع يحتاج إلى تحقيق أي طمع في مغيب عنه مشكوك في حصوله وإن كان متحققا في نفسه كرجاء العبد دخول الجنة

فإن الجنة متحققة لا شك فيها وإنما الشك في دخوله إليها وهل يوافي ربه بعمل يمنعه منها أم لا بخلاف الرغبة فإنها لا تكون إلا بعد تحقق ما يرغب فيه فالإيمان في الرغبة أقوى منه في الرجاء فلذلك قال والرغبة سلوك على التحقيق هذا معنى كلامه وفيه نظر فإن الرغبة أيضا طلب مغيب هو على شك من حصوله فإن المؤمن يرغب في الجنة وليس بجازم بدخولها فالفرق الصحيح: أن الرجاء طمع و الرغبة طلب فإذا قوي الطمع صار طلبا قال: والرغبة على ثلاث درجات الدرجة الأولى: رغبة أهل الخبر تتولد من العلم فتبعث على الاجتهاد المنوط بالشهود وتصون السالك عن وهن الفترة وتمنع صاحبها من الرجوع إلى غثاثة الرخص أراد بالخبر ههنا الإيمان الصادر عن الأخبار ولهذا جعل تولدها من العلم ولكن هذا الإيمان متصل بمنزلة الإحسان منه يشرف عليه ويصل إليه ولهذا قال: المنوط بالشهود أي المقترن بالشهود وذلك الشهود: هو مشهد مقام الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه ولا مشهد للعبد في الدنيا أعلى من هذا وعند كثير من الصوفية أن فوقه مشهدا أعلى منه وهو شهود الحق مع

(278/514)

غيبته عن كل ما سواه وهو مقام الفناء وقد عرفت ما فيه ولو كان فوق مقام الإحسان مقام آخر لذكره النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل ولسأله جبريل عنه فإنه جمع مقامات الدين كلها في الإسلام والإيمان والإحسان نعم الفناء المحمود: هو تحقيق مقام الإحسان وهو أن يفنى بحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه وعبادته والتبتل إليه عن غيره وليس فوق ذلك مقام يطلب إلا ما هو من عوارض الطريق

قوله: وتصون السالك عن وهن الفترة أي تحفظه عن وهن فتوره وكسله الذى سببه عدم الرغبة أو قلتها وقوله: وتمنع صاحبها من الرجوع إلى غثاثه الرخص أهل العزائم بناء أمرهم على الجد والصدق فالسكون منهم إلى الرخص رجوع وبطالة

وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل ليس على إطلاقه فإن الله عز وجل يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه وفي المسند مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته فجعل الأخذ بالرخص قبالة إتيان المعاصي وجعل حظ هذا: المحبة وحظ هذا: الكراهية وما عرض للنبي أمران إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما والرخصة أيسر من العزيمة وهكذا كان حاله في فطره وسفره وجمعه بين الصلاتين والاقتصار من الرباعية على ركعتين وغير ذلك فنقول:

الرخصة نوعان أحدهما: الرخصة المستقرة المعلومة من الشرع نصا كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير عند الضرورة وإن قيل لها: عزيمة باعتبار الأمر والوجوب فهي رخصة باعتبار

الإذن والتوسعة وكفطر المريض والمسافر وقصر الصلاة في السفر وصلاة المريض إذا شق عليه القيام قاعدا وفطر الحامل والمرضع خوفا على ولديهما ونكاح الأمة خوفا من العنت ونحو ذلك فليس في

(279/514)

تعاطي هذه الرخص ما يوهن رغبته ولا يرد إلى غثاثة ولا ينقص طلبه وإرادته ألبتة فإن منها ما هو واجب كأكل الميتة عند الضرورة ومنها ما هو راجح المصلحة كفطر الصائم المريض وقصر المسافر وفطره ومنها ما مصلحته للمترخص وغيره ففيه مصلحتان قاصرة ومتعدية كفطر الحامل والمرضع ففعل هذه الرخص أرجح وأفضل من تركها النوع الثاني: رخص التأويلات واختلاف المذاهب فهذه تتبعها حرام ينقص الرغبة ويوهن الطلب ويرجع بالمترخص إلى غثاثة الرخص

فإن من ترخص بقول أهل مكة في الصرف وأهل العراق في الأشربة وأهل المدينة في الأطعمة وأصحاب الحيل في المعاملات وقول ابن عباس في المتعة وإباحة لحوم الحمر الأهلية وقول من جوز نكاح البغايا المعروفات بالبغاء وجوز أن يكون زوج قحبة وقول من أباح آلات اللهو والمعازف: من اليراع والطنبور والعود والطبل والمزمار وقول من أباح الغناء وقول من جوز

استعارة الجواري الحسان للوطء وقول من جوز للصائم أكل البرد وقال: ليس بطعام ولا شراب وقول من جوز الأكل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس للصائم وقول من صحح الصلاة بمدها متان بالفارسية وركع كلحظة الطرف ثم هوى من غير اعتدال وفصل بين السجدتين بارتفاع كحد السيف ولم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم وخرج من الصلاة بحبقة وقول من جوز وطء النساء في أعجازهن ونكاح بنته المخلوقة من مائه الخارجة من صلبه حقيقة إذا كان ذلك الحمل من زني وأمثال ذلك من رخص المذاهب وأقوال العلماء فهذا الذي تنقص بترخصه رغبته ويوهن طلبه ويلقيه في غثاثة الرخص فهذا لون والأول لون قال: الدرجة الثانية: رغبة أرباب الحال وهي رغبة لا تبقي من المجهود مبذولا ولا تدع للهمة ذبولا ولا تترك غير القصد مأمولا

يعني أن الرغبة الحاصلة لأرباب الحال: فوق رغبة أصحاب الخبر لأن صاحب

(280/514)

الحال كالمضطر إلى رغبته وإرادته فهو كالفراش الذي إذا رأى النور ألقى نفسه فيه ولا يبالي ما أصابه فرغبته لا تدع من مجهوده مقدورا له إلا بذله ولا تدع لهمته وعزيمته فترة ولا خمودا وعزيمته في مزيد بعدد الأنفاس ولا تترك في قلبه نصيبا لغير مقصوده وذلك لغلبة سلطان

الحال وصاحب هذه الحال لا يقاومه إلا حال مثل حاله أو أقوى منه ومتى لم يصادفه حال تعارضه فله من النفوذ والتأثير بحسب حاله

قال: الدرجة الثالثة: رغبة أهل الشهود وهي تشرف يصحبه تقية تحمله عليها همة نقية لا تبقي معه من التفرق بقية يشير الشيخ بذلك إلى حالة الفناء التي يحمله عليها همة نقية من أدناس الالتفات إلى ما سوى الحق بحيث لا يبقى معه بقية من تفرقة بل قد اجتمع شاهده كله وانحصر في مشهوده وأراد بالشهود ههنا شهود الحقيقة

وقوله: تشرف أي استشرف الغيبة في الفناء ويحتمل أن يريد به تشرفا عن التفاته إلى ما سوي مشهوده

والتقية التي تصحب هذا التشرف: يحتمل أن يريد بها التقية من إظهار الناس على حاله وإطلاعهم عليها صيانة لها وغيرة عليها

ويحتمل أن يريد بها الحذر من التفاته في شهوده إلى ما سوى حضرة مشهوده فهي تتقي ذلك الالتفات وتحذره كل الحذر

ثم ذكر الحامل له على هذه الرغبة وهي اللطيفة المدركة المريدة التي قد تطهرت قبل وصولها إلى هذه الغاية وهي الهمة النقية ولو لم يحصل لها كمال الطهارة لبقيت عليها بقية منها تمنعها من وصولها إلى هذه الدرجة والله سبحانه وتعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ

﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 55. 59 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) ﴾

سأل الوَلَدَ ، وإنما سأله ليكون له مُعِيناً على عبادةِ ربِّه وليقوم في النبوة مقامَه ، ولئلا تنقطعَ بركةُ الرسالة من بيته ، ولقد قاسى زكريا من البلاء ما قاسى حتى حاولوا قطْعَه بالمنشار ، ولما التجأ إلى الشجرة انشقت له وتَوَسَّطَها ، والتأمت الشجرة ، وفطنوا إلى ذلك فقطعوا الشجرة بالمنشار ، وصبر لله ، وسبحان الله !

كان انشقاق الشجرة له معجزة ، وفي الظاهر كان حفظاً له منهم ، ثم لو لم يطلعهم عليه لكان في ذلك سلامته ، ولعلَّهم – لو قتلوه – لم يُصِبْه من الألم القدْرُ الذي لحقه من القطع بالمنشار طول إقامته وإنما المعنى فيه أن أنشقاق الشجرة كان له معجزة فَقَوي بذلك يقينُه لمَّا رأى عجيبَ الأمر فيه من نَقْضِ العادة ، ثم البلاء له بالقتل ليس ببلاء في التحقيق ، ولقد قال قائلهم : " إنما يستعذب الأولياء البلوى للمناجاة مع المولى " .

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾

سمي يحيى لأنه حَيِيَ به عقر أمه .

وقوله : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ : لتكون الكرامةُ لهم جميعاً بالولد ، ولئلا يستبدَّ زكريا بفرح الولد دونها مراعاةً لحقِّ صحبتها . . . وهذه سُنَّةُ الله في باب إكرام أوليائه ، وفي معناه أنشدوا :

إنَّ الكرامَ إذا ما أيسروا ذكروا . . . مَنْ كان يألفهم في المنزل الخشن

ثم قال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا ﴾ وفي هذه بشارة لجميع المؤمنين ، لأن المؤمن لا يخلو من حالة من أحوال الرغبة أو الرهبة ؛ إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطاً والقنوط كفر ، ولو لم تكن رهبة لكان أمناً والأمن كفر .

(282/514)

قوله : ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ الخشوع قشعريرة القلب عند اطلاع الربِّ ، وكان لهم ذلك على الدوام .

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (91) ﴾

يعني مريم ، وقد نَفَى عنها سِمَةَ الفحشاء وهجنة الذم .

ويقال فنفخنا فيها من روحنا ، وكان النفخُ من جبريل عليه لاسلام ، ولكن لمَّا كان بأمره – سبحانه – صحَّتْ الإضافةُ إليه ، وفي هذا دليل على تأويل خبر النزول ، فإنه يكون بإنزال مَلَكٍ فتَصِحُّ الإضافة إلى الله إذ كان بأمره . . . وإضافة الروح إلى نفسه على جهة التخصيص ، كقوله (ناقة الله ، وبيتي) . . . ونحو ذلك : ﴿ وجعلنا وابنها آيةً للعالمين ﴾ : ولم يقل آيتين لأن أمرهما كان معجزة ودلالة ، ويصح أن يراد أنّ كلَّ واحدٍ مهما آيةٌ – على طريقة العرب في أمثال هذا .

وفيه نفي لتهمة مَنْ قال إنها حبلت من الله . . . . تعالى الله عن قولهم !

قوله : ﴿ آية للعالمين ﴾ : وإن لم يهتد بهما جميعُ الناس . . . لكنهما كانا آيةً . ومَنْ نَظَرَ في أمرهما ، ووضَعَ النظرَ مَوضِعَه لاهتدى ، وإذا أعرض ولم ينظر فالآية لا تخرج عن كونها حُجَّةً ودلالةً بتقصير المُقَصِّر في بابها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 522.520 ﴾

(283/514)

فصل فى قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قال ابن كثير :

قال الله تعالى في كتابه العزيز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا ﴾ وقال تعالى وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم انى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين قال رب انى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء قال رب اجعل لي آية قال آيتك ان لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار وقال تعالى في سورة الأنبياء وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وانت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين وقال تعالى وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في كتابه التاريخ المشهور الحافل زكريا بن برخيا ويقال زكريا بن دان يقال زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعاطة بن ناحور بن شلوم بن بهفاشاط بن اينا من ابن رحبعام بن سليمان بن داود أبو يحيى النبي عليه السلام من بني إسرائيل دخل البثينة من

أعمال دمشق في طلب ابنه يحيى وقيل انه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى والله أعلم وقد قيل غير ذلك في نسبه

ويقال فيه زكريا بالمد وبالقصر ويقال زكرى أيضا

(284/514)

والمقصود ان الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه الله ولدا على الكبر وكانت امرأته عاقرا في حال شبيبتها وقد أسنت أيضا حتى لا ييئس أحد من فضل الله ورحمته ولا يقنط من فضله تعالى وتقدس قال تعالى ذكر رحمت ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا قال قتادة عند تفسيرها ان الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي وقال بعض السلف قام من الليل فنادى ربه مناداة اسرها عمن كان حاضرا عنده مخافته فقال يا رب يا رب يا رب فقال الله لبيك لبيك لبيك قال رب اني وهن العظم مني أي ضعف وخار من الكبر واشتعل الرأس شيبا استعارة من اشتعال النار في الحطب أي غلب على سواد الشعر شيبه كما قال ابن دريد في مقصورته . . . أما ترى رأسي حاكى لونه . . . طرة صبح تحت أذيال الدجا

. . . واشتعل المبيض في مسوده . . . مثل اشتعال النار في جمر الغضا . . . وآض عود اللهو يبسا ذاويا . . . من بعد ما قد كان مجاج الثرى . . .

(285/514)

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطنا وظاهرا وهكذا قال زكريا عليه السلام اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا وقوله لم أكن بدعائك رب شقيا أي ما دعوتني فيما أسألك الا الإجابة وكان الباعث له على هذه المسئلة انه لما كفل مريم بنت عمران بن ماثان وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير إوانها ولا في آوانها وهذه من كرامات الأولياء فعلم أن الرازق للشئ في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولدا وان كان قد طعن في سنه هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء وقوله واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا قيل المراد بالموالي العصبة وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بني اسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته فسأل وجود ولد من صلبه يكون برا تقيا مرضيا ولهذا قال فهب لي من لدنك أي من عندك بحولك وقوتك وليا يرثني أي في النبوة والحكم في بني إسرائيل ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا يعني كما كان آباؤه واسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة

والوحي وليس المراد ههنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ووافقهم ابن جرير ههنا وحكاه عن أبي صالح من السلف لوجوه أحدها ما قدمنا عند قوله تعالى وورث سليمان داود أي في النبوة والملك كما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين العلماء المروى في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا نورث ما تركنا فهو صدقة فهذا نص على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يورث ولهذا منع الصديق ان يصرف ما كان يختص به في حياته إلى أحد من وراثه الذين لولا هذا

(286/514)

النص لصرف إليهم وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضي الله عنهم واحتج عليهم الصديق في منعه اياهم بهذا الحديث وقد وافقه على روايته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون رضي الله عنهم الثاني أن الترمذي رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء نحن معاشر الأنبياء لا نورث وصححه الثالث أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا اليها أو يهمهم أمرها

حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم فان من لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولدا يكون وارثا له فيها الرابع أن زكريا عليه السلام كان نجارا يعمل بيده ويأكل من كسبها كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في العمل اجهادا يستفضل منه ما لا يكون ذخيرة له يخلفه من بعده وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله وتدبره وتفهم ان شاء الله

(287/514)

قال الإمام أحمد حدثنا يزيد يعني ابن هارون أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان زكريا نجارا وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه عن حماد بن سلمة به وقوله يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا وهذا مفسر بقوله فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين فلما بشر بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد والحالة هذه له قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا أي كيف يوجد ولد من شيخ كبير قيل كان عمره إذ ذاك سبعا وسبعين سنة والأشبه والله أعلم أنه كان أسن من ذلك

وكانت امرأتي عاقرا يعني وقد كانت امرأتي في حال شبيبتها عاقرا لا تلد والله أعلم كما قال الخليل أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون وقالت سارة يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ان هذا لشئ عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد وهكذا أجيب زكريا عليه السلام قال له الملك الذي يوحي اليه بأمر ربه كذلك قال ربك هو على هين أي هذا سهل يسير عليه وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا أي قدرته أوجدتك بعد ان لم تكن شيئا مذكورا أفلا يوجد منك ولدا وان كنت شيخا وقال تعالى فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ومعنى اصلاح زوجته انها كانت لا تحيض فحاضت وقيل كان في لسانها شئ أي بذاءة قال رب اجعل لي آية أي علامة على وقت تعلق مني المرأة بهذا الولد المبشر به قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا يقول علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام الا رمزا وانت في ذلك سوي الخلق صحيح المزاج معتدل البنية وأمر

(288/514)

بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والابكار فلما بشر بهذه البشارة خرج مسرورا بها على قومه من محرابه فأوحى إليهم أن سبحوه بكرة وعشيا والوحي ههنا هو الأمر الخفي اما بكتابه كما قاله مجاهد والسدي أو اشارة كما قاله مجاهد أيضا ووهب وقتادة قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدي وقتادة اعتقل لسانه من غير مرض وقال ابن زيد كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد وقوله يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الالهية لأبيه زكريا عليه السلام وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه قال عبد الله بن المبارك قال معمر قال الصبيان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب فقال ما للعب خلقنا قال وذلك قوله وآتيناه الحكم صبيا وأما قوله وحنانا من لدنا فروى ابن جرير عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال لا أدري ما الحنان وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وحنانا من لدنا أي رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد وعن عكرمة وحنانا أي محبة عليه ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيى على الناس ولا سيما على أبويه وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما وأما الزكاة فهو طهارة الخلق وسلامته من النقائض والرذائل والتقوى طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمرا ونهيا وترك عقوقهما قولا وفعلا فقال وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا ثم قال وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا هذه الأوقات الثلاثة أشد ما

تكون على الإنسان فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر فيفقد الأول بعد ما كان الفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه ولهذا يستهل صارخا إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار وصار بعد

(289/514)

الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور وما بين جبير وكسير وفريق في الجنة وفريق في السعير ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول . . . ولدتك أمك باكيا مستصرخا . . . والناس حولك يضحكون سرور . . . فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا . . . في يوم موتك ضاحكا مسرورا . . .

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة اشق ما تكون على ابن آدم سلم الله على يحيى في كل موطن منها فقال وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أن الحسن قال إن يحيى وعيسى التقيا فقال له عيسى استغفر لي أنت خير مني فقال له الآخر استغفر لي أنت خير مني فقال له عيسى أنت خير مني سلمت على نفسي وسلم

الله عليك فعرف والله فضلهما وأما قوله في الآية الأخرى وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين فقيل المراد بالحصور الذي لا يأتي النساء

(290/514)

وقيل غير ذلك وهو أشبه لقوله هب لي من لدنك ذرية طيبة وقد قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد أنبأنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا وما ينبغي لأحد يقول أنا خير من يونس بن متي علي بن زيد بن جدعان تكلم فيه غير واحد من الأئمة وهو منكر الحديث وقد رواه ابن خزيمة والدارقطني من طريق أبي عاصم العباداني عن علي بن زيد بن جدعان به مطولا ثم قال ابن خزيمة وليس على شرطنا وقال ابن وهب حدثني ابن لهيعة عن عقيل عن ابن شهاب قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه يوما وهم يتذاكرون فضل الأنبياء فقال قائل موسى كليم الله وقال قائل عيسى روح الله وكلمته وقال قائل ابراهيم خليل الله فقال ابن الشهيد ابن الشهيد يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب قال ابن وهب يريد يحيى بن زكريا وقد رواه محمد بن اسحاق وهو مدلس عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب

حدثني ابن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب الا ما كان من يحيى بن زكريا فهذا من رواية ابن اسحاق وهو من المدلسين وقد عنعن ههنا ثم قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن سعيد بن المسيب مرسلا ثم رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبي أسامة عن يحيى بن سعيد الأنصاري ثم قد رواه ابن عساكر من طريق ابراهيم بن يعقوب الجوزجاني خطيب دمشق حدثنا محمد بن الأصبهاني حدثنا أبو خالد الأحمر عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو قال ما أحد لا يلقى الله بذنب الا يحيى بن زكريا ثم تلا وسيدا وحصورا ثم رفع شيئا من الأرض فقال ما كان معه الا مثل هذا ثم ذبح ذبحا وهذا موقوف من هذه الطريق وكونه موقوفا أصح من رفعه والله أعلم وأورده ابن عساكر من طرق عن معمر عن ذلك ما أورده من حديث اسحاق بن بشر وهو ضعيف عن عثمان بن سباح

(291/514)

عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه وروى من طريق أبي داود الطيالسي وغيره عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نعيم عن أبيه عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة

الا ابني الخالة يحيى وعيسى عليها السلام وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهاني حدثنا اسحاق بن أحمد حدثنا ابراهيم بن يوسف حدثنا أحمد بن أبي الحواري سمعت أبا سليمان يقول خرج عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا يتماشيان فصدم يحيى امرأة فقال له عيسى يا ابن خالة لقد أصبت اليوم خطيئة ما اظن أنه يغفر لك أبدا قال وما هي يا ابن خالة قال امرأة صدمتها قال والله ما شعرت بها قال سبحان الله بدنك معي فأين روحك قال معلق بالعرش ولو أن قلبي اطمئن إلى جبريل لظننت أني ما عرفت الله طرفة عين فيه غرابة وهو من الإسرائيليات وقال اسرائيل عن أبي حصين عن خيثمة قال كان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة وكان عيسى يلبس الصوف وكان يحيى يلبس الوبر ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا

عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان اليه اين ماجنهما الليل أويا فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى أوصني قال لا تغضب قال لا أستطيع الا أن أغضب قال لا تقتن مالا قال أما هذه فعسى

(292/514)

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه هل مات زكريا عليه السلام موتا أو قتل قتلا على روايتين فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال هرب من

قومه فدخل شجرة فجاؤا فوضعوا المنشار عليهما فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنَّ
فأوحى الله إليه لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرض ومن عليها فسكن أنينه حتى قطع باثنتين
وقد روى هذا في حديث مرفوع سنورده بعد إن شاء الله وروى إسحاق بن بشر عن
إدريس بن سنان عن وهب أنه قال الذي انصدعت له الشجرة هو شعيا فأما زكريا فمات
موتا فالله أعلم وقال الإمام أحمد حدثنا عفان أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف وكان يعد
من البدلاء حدثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث
الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن
يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن وكاد أن يبطىء فقال له عيسى عليه السلام
إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فأما أن تبلغهن
وإما أن أبلغهن فقال يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي قال فجمع
يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله
وأثنى عليه ثم قال إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن
وأولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئا فان مثل ذلك مثل من اشترى عبدا من خالص ماله
بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك
وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأمرك بالصلاة فإن الله ينصب
وجهه قبل عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل

رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك وان خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال هل لكم

(293/514)

أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه وآمركم بذكر الله عز وجل كثيرا فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في اثره فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه وأن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل قال وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله فان من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربق الاسلام من عنقه الا أن يرجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حثا جهنم قال يا رسول الله وان صام وصلى قال وان صام وصلى وزعم أنه مسلم ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل

وهكذا رواه أبو يعلى عن هدبة بن خالد عن ابان بن يزيد عن يحيى بن أبي كثير وكذلك رواه

الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي وموسى بن إسماعيل كلاهما عن أبان بن يزيد العطار به ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار عن محمد بن شعيب بن سابور عن معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري به ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطاطري عن معاوية بن سلام عن أخيه به ثم قال تفرد به مروان الطاطري عن معاوية بن سلام قلت وليس كما قال ورواه الطبراني عن محمد بن عبدة عن أبي نوبة الربيع بن يافع عن معاوية بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري فذكر نحو هذه الرواية ثم روى الحافظ بن عساكر من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع بن أنس قال ذكر لنا عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما سمعوا من علماء بني إسرائيل أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلمات وذكر نحو ما تقدم وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس انما كان يأنس إلى البراري ويأكل من ورق الأشجار ويرد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان ويقول من انعم منك يا يحيى وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا في تطلبه فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاء شديدا لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل وقال ابن وهب عن

مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد قال كان طعام يحيى بن زكريا العشب وانه كان ليبكي من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه

(295/514)

وقال محمد بن يحيى الذهلي حدثنا أبو صالح حدثنا الليث حدثني عقيل عن ابن شهاب قال جلست يوما إلى أبي إدريس الخولاني وهو يقص فقال الا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاما فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاما انما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس في معايشهم وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه في البرية فإذا هو قد احتفر قبرا وأقام فيه يبكي عل نفسه فقال يا بني أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبر قد احتفرته قائم تبكي فيه فقال يا أبت الست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطع الا بدموع البكائين فقال له ابك يا بني فبكيا جميعا وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد بنحوه وروى ابن عساكر عنه أنه قال إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم فكذا ينبغي للصديقين أن لا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل ثم قال كم بين النعيمين وكم بينهما وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثر البكاء في خديه من كثرة دموعه

بيان سبب قتل يحيى عليه السلام

وذكروا في قتله أسبابا من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقي في نفسها منه فلما كان بينها وبين الملك

(296/514)

ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها فبعثت اليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طشت إلى عندها فيقال أنها هلكت من فورها وساعتها وقيل بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعث من قتله وأحضر اليها رأسه ودمه في طشت وقد ورد معناه في حديث رواه اسحاق بن بشر في كتابه المبتدأ حيث قال أنبأنا يعقوب الكوفي عن عمرو بن ميمون عن أبيه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به رأى زكريا في السماء فسلم عليه وقال له يا أبا يحيى خبرني عن قتلك كيف كان ولم قتلك بنو اسرائيل قال يا محمد أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه وكان أجملهم وأصبحهم وجها وكان كما قال الله تعالى سيدا وحصورا وكان لا يحتاج إلى النساء فهوته امرأة ملك بني إسرائيل

وكانت بغية فأرسلت إليه وعصمه الله وامتنع يحيى وأبى عليها فأجمعت على قتل يحيى ولهم عيد يجتمعون في كل عام وكانت سنة الملك أن يوعد ولا يخلف ولا يكذب قال فخرج الملك إلى العيد فقامت امرأته فشيعته وكان بها معجبا ولم تكن تفعله فيما مضى فلما أن شيعته قال الملك سليني فما سألتني شيئا الا أعطيتك قالت أريد دم يحيى بن زكريا قال لها سليني غيره قالت هو ذاك قال هو لك قال فبعثت جلاوزتها إلى يحيى وهو في محرابه يصلي وأنا الى جانبه أصلي قال فذبح في طشت وحمل رأسه ودمه إليها قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فما بلغ من صبرك قال ما انفتلت من صلاتي قال فلما حمل رأسه اليها فوضع بين يديها فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه فلما أصبحوا قالت بنو اسرائيل قد غضب إله زكريا لزكريا فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا قال فخرجوا في طلبي ليقتلوني وجاءني النذير فهربت منهم وابليس أمامهم يدلهم علي فلما تخوفت أن لا أعجزهم عرضت لي شجرة فنادتني وقالت إلي إلي وانصدعت لي ودخلت فيها قال وجاء ابليس حتى

(297/514)

أخذ بطرف ردائي والتأمت الشجرة وبقي طرف ردائي خارجا من الشجرة وجاءت بنو اسرائيل فقال ابليس أما رأيتموه دخل هذه الشجرة هذا طرف ردائه دخلها بسحره فقالوا نحرق هذه الشجرة فقال ابليس شقوه بالمنشار شقا قال فشققت مع الشجرة بالمنشار قال له النبي صلى الله عليه وسلم هل وجدت له مسا أو وجعا قال لا انما وجدت ذلك الشجرة التي جعل الله روحي فيها هذا سياق غريب جدا وحديث عجيب ورفعه منكر وفيه ما ينكر على كل حال ولم ير في شيء من أحاديث الإسراء ذكر زكريا عليه السلام الا في هذا الحديث وانما المحفوظ في بعض الفاظ الصحيح في حديث الاسراء فمررت بابني الخالة يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث فان أم يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران وقيل بل أشياع وهي امرأة زكريا أم يحيى هي أخت حنة امرأة عمران أم مريم فيكون يحيى ابن خالة مريم فالله أعلم

ثم اختلف في مقتل يحيى بن زكريا هل كان في المسجد الأقصى أم بغيره على قولين فقال الثوري

عن الأعمش عن شمر بن عطية قال قتل على الصخرة التي ببيت المقدس سبعون نبيا منهم يحيى بن زكريا عليه السلام وقال أبو عبيد القاسم بن سلام حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال قدم بخت نصر دمشق فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي فسأل عنه فأخبروه فقتل على دمه سبعين ألفا فسكن وهذا اسناد

صحيح إلى سعيد بن المسيب وهو يقتضي أنه قتل بدمشق وان قصة بخت نصر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصري فالله أعلم

(298/514)

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب مما يلي الشرق فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير وفي رواية كأنما قتل الساعة وذكر في بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة فالله أعلم وقد روى الحافظ ابن عساكر في المستقصي في فضائل الأقصى من طريق العباس بن صبح عن مروان عن سعيد بن عبد العزيز عن قاسم مولى معاوية قال كان ملك هذه المدينة يعني دمشق هداد بن هداد وكان قد زوجه ابنه بابنة أخيه أريل ملكة صيدا وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة قال وكان قد حلف بطلاقها ثلاثا ثم أنه أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا فقال لا تحل لك حتى تنكح زوجا غيرك فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا وذلك بإشارة أمها فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك وبعث إليه وهو قائم يصلي بمسجد جيرون من أتاه برأسه في صينية فجعل الرأس يقول

له لا تحل له لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك فلما تمثلت بين يدي أمها خسف بها إلى قدميها ثم الى حقويها وجعلت أمها تولول والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن ثم خسف بها إلى منكبيها فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها ففعل فلفظت الأرض جثتها عند ذلك ووقعوا في الذل والفناء ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بخت نصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفا قال سعيد بن عبد العزيز وهي دم كل نبي ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال أيها الدم أفنيت بني إسرائيل فاسكن بإذن الله فسكن فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس فتبعهم اليها فقتل خلقا كثيرا لا يحصون كثرة وسبا منهم ثم رجع عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البداية والنهاية حـ 2 صـ 47 . 55 ﴾

(299/514)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) ﴾

التفسير : الرشد الاهتداء لوجوه المصالح في الدين والدنيا وقد يخص ههنا بالنبوة لقوله ﴿

رشده ﴾ ومعنى الإضافة أن لهذا الرشد شأناً ولقوله ﴿ وكنا به عالمين ﴾ وفيه أنه علم منه أسراراً عجيبة وأحوالاً بديعة حتى اتخذه خليلاً واصطفاه نبياً نظيره ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [الأنعام : 124] وعلى هذا فمعنى قوله ﴿ من قبل ﴾ اي من قبل موسى وهارون قاله ابن عباس : وعلى الأول يحتمل هذا وأن يراد من قبل البلوغ حين استدل بالكواكب قاله مقاتل . وعن ابن عباس في رواية الضحاك حين أخذ الله ميثاق النبيين في صلب آدم . قالت الأشاعرة : أراد بإيتاء الرشد خلق ذلك فيه إذ لو حمل على أسباب ذلك تناول الكفار . أجاب الكعبي بأن هذا إنما يقال فيمن قبل لا فيمن رد ، نظيره بأن يعطي الأب كل واحد من ولديه ألفاً فقبله أحدهما وثمره ورده الآخر أو أخذه ثم ضيعه فيقال : أغنى فلان ابنه فيمن ثمر المال ، ولا يقال مثله فيمن ضيع . واعترض بأن قبوله على هذا التقدير يكون جزءاً من مسمى الرشد وحينئذ لا يصح إستناد إيتاء الرشد إلى الله وحده ، وهذا بخلاف نص القرآن . والتمثال اسم للشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله تعالى من مثلت الشيء بالشيء شبهته به ، وإسم ذلك الممثل تمثال جعل إبراهيم عليه السلام هذا التجاهل والتغابي ابتداء كلامه لينظر فيما عساهم يوردونه من شبهة فيحلها لهم مع ما في هذا السؤال من تحقير آلهتهم وتسفيه أحلافهم . وفي قوله ﴿ أنتم لها عاكفون ﴾ دون أن يقول عليها كقوله ﴿ يعكفون على أصنام لهم ﴾ [الأعراف : 138] نوع آخر من التجهيل والتوبيخ لأنه ادعى عليهم أنهم جعلوا العكوف مختصاً بها دون خالقها

وخالق كل شيء ﴿ قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين ﴾ لا يمكن لهم أن يتمسكوا بشيء آخر سوى التقليد فزيف طيقتهم بالتنبيه على خطئهم وخطأ أسلافهم فقال : ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ لأن كل مذهب لا يستند إلى دليل كان صاحبه ضالاً أو في حكم ذلك .

(300/514)

ثم إن القوم تعجبوا من تضليلهم مع كثرتهم ووحدته ومنعهم عما ألفوه وضروا به فقالوا ﴿ أجئتنا بالحق ﴾ أي بما ليس بهزل ودعابة ﴿ أم أنت من اللاعبين ﴾ فحينئذ عدل إبراهيم عن مجرد التنبيه إلى إثبات الدعوى بالبينة والدليل وجاهدهم أولاً باللسان قائلاً ﴿ بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ﴾ الظاهر أن الضمير للسموات والأرض إلا أنه قيل : كونه للتماثيل أدخل في تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم . وقوله ﴿ وأنا على ذلكم من الشهداء ﴾ فيه تأكيد وتحقيق لما قاله كقول الرجل إذا بالغ في مدح أحد أو ذمه " أشهد إنه كريم أو لئيم " لأن الشهادة خبر قاطع . وفيه أنه قادر على إثبات ما ادعاه بالحجج والبينات كما شاؤوا ثم أخبر أنه سيجاهدهم جهاداً بالفعل من غير تقية وخوف قال ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ قال جار الله : في تاء القسم مع أنه عوض عن

الباء زيادة معنى وهو التعجب كأنه تعجب من سهولة الكيد على يده لأن ذلك لصعوبته كان كالمقنوط منه خصوصاً في زمن نمرود مع شدة شكيمته وقوة سلطانه .

(301/514)

قلت : لا ريب أن هذا مستبعد عادة ولكنه سهل لمن ايده الله ونصره كما قال علي رضي الله عنه : والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولكن بقوة رحمانية . سؤال : الكيد هو الاحتيال على الغير في ضرر لا يشعر به فكيف يتصور ذلك في حق الأصنام ؟ وجوابه أنه قال ذلك بناء على زعمهم أنه يجوز ذلك عليها ، أو أراد لأكيدنكم في أصنامكم لأنه بذلك الفعل أهمهم وأحزنهم . قال السدي : كانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا ثم عادوا إلى منازلهم ، فلما كان هذا الوقت قال آزر لإبراهيم : لو خرجت معنا ؟ فخرج معهم . فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال إني سقيم أشتكي رجلي ، فلما بقي هو وضعفاء الناس نادى وقال الله لأكيدن أصنامكم . وروى الكلبي أن إبراهيم كان من أهل بيت ينظرون في النجوم وكانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يتركوا إلا مريضاً ، فلما هم إبراهيم بالذي هم به من كسر الصنام نظر قبل يوم العيد إلى السماء فقال لأصحابه : إني أراني أشتكي عدا فذلك قوله في الصافات ﴿ فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم ﴾ [

الصافات : 88 ، 89] وأصبح من الغد معصوباً رأسه ، فخرج القوم لعيدهم ولم يتخلف أحد غيره فقال سراً : أما والله لأكيدن أصنامكم ، فسمعه رجل واحد وأخبر به غيره وانتشر الخبر . وعلى الوجهين يصح قوله فيما بعد ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم ﴾ وروي أن آزر خرج به في عيد لهم فبدأوا ببيت الأصنام فدخلوه وسجدوا لها ووضعوا بينها طعاماً خرجوا به معهم وقالوا : إلى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا ، فذهبوا وبقي إبراهيم فنظر إلى الأصنام وكانت سبعين صنماً مصطفة وثمة صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وفي عينيه جوهرتان تضيئان بالليل ، فكسرها كلها بفأس في يده حتى إذا لم يبق إلا الكبير علق الفأس في عنقه ﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ قال الجوهري : جذذت الشيء جذاً قطعته وكسرته ، والجذاذ ما كسر منه وضمه أفصح من كسره . قلت : فعلى هذا هو اسم جمع لا جمع ﴿ إلا كبيراً

(302/514)

لهم ﴾ أي في الخلقة كما روينا . وقيل : في التعظيم . ويحتمل أن يكون جامعاً للأمرين . أما الضمير الواحد في قوله ﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾ فيحتمل عوده إلى إبراهيم أي جعلهم جذاذاً واستبقى الكبير رجاء أنهم يرجعون إلى دينه أو غلى السؤال عنه لما تسامعوه من

إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم فيبكتهم بقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ﴾ ويحتمل عوده الكبير كما ذهب إليه الكلبي .

(303/514)

والمعنى لعلهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات فيقولون ما لهؤلاء مكسورة وما لك صحيحاً والفأس على عاتقك ، وهذا بناء على ظنهم أن الأصنام قد تتكلم وتجيب ، على أن نفس ذلك الكبير كان دليلاً على فساد مذهبهم لأن الآلهة يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء لأنهم كانوا يعظمونها ويقولون : إن المستخف بها يلحقه ضرر عظيم ، فحين كسرها إبراهيم ولم ينله ضرر من تلك الجهة بطل ما اعتقدوه . فلما انكشفت لهم جلية الحال و﴿ قالوا من فعل هذا ﴾ الكسر والحطم والاستخفاف ﴿ بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ المعدودين في جملة من يضع الشيء في غير موضعه لأنه وضع الإهانة مكان التعظيم ﴿ قالوا سمعنا ﴾ احتمل أن يكون القائل واحداً ، ونسب القول إلى الجماعة لأنه منهم ، واحتمل أن يكون جمعاً على الوجهين اللذين رويناهما ، أو لأنهم سمعوا منه قوله على وجه الاستهزاء ﴿ ما هذه التماثيل ﴾ والفعلان بعد ﴿ فتى ﴾ صفتان له إلا أن ، الأول ضروري ذكره لأنك لا تقول " سمعت زيداً " وتسكت حتى تذكر شيئاً مما تسمع ، والثاني

ليس كذلك . والأصح أن قوله ﴿ إبراهيم ﴾ فاعل ﴿ يقال ﴾ لأن المراد الاسم لا المسمى وقيل : هو خبر مبتدأ محذوف أو منادى . ﴿ قالوا ﴾ اي فيما بينهم ﴿ فأتوا به على أعين الناس ﴾ الجار والمجرور في محل الحال اي بمرأى منهم ومنظر أو معايناً ومشاهداً قال . في الكشاف : معنى الاستعلاء في " على " أنه يثبت إتيانه في الأعين ويتمكن ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه ﴿ لعلهم يشهدون ﴾ عليه بما سمع منه وبما فعله فيكون حجة عليه قاله الحسن وقتادة والسدي وعطاء عن ابن عباس . وقال محمد بن إسحق : معناه لعلهم يحضرون عقوبتنا له ليكون ذلك زاجراً لهم عن الإقدام على مثل فعله . وههنا إضمار أي فأتوا به ثم ﴿ قالوا أأنت فعلت هذا ﴾ الظلم والاستخفاف ﴿ بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ طلبوا منه الاعتراف ليقدموا على إيذائه ﴿ فقال بل فعله كبيرهم ﴾ وقوله ﴿ هذا ﴾ صفة كبيرهم .

(304/514)

زعم الطاعنون في عصمة الأنبياء أن هذا القول من إبراهيم كذب وأكدوا قولهم بما جاء في الحديث " إن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات " وللعلماء في جوابهم طريقان : أحدهما تسليم أنه كذب ولكنهم قالوا : الكذب ليس قبيحاً لذاته وإنما يقبح لاشتماله على

مفسدة . وقد يحسن الكذب إذا اشتمل على مصلحة كتخليص نبي ونحوه ، وزيف هذا الطريق بأنا لو جوزنا أن يكذب النبي لمصلحة لبطل الوثوق بالشرائع ، فلعل الأنبياء أخبروا عما أخبروا لمصلحة المكلفين في باب المعاش مع أنه ليس للمخبر عنه وجود كما في الواقع .

الطيق الثاني وعليه جمهور المحققين المنع من أنه كذب وبيانه من وجوه : الأول أنه من المعاريض التي يقصد بها الحق وهو إلزام الخصم وتبكيته كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط في غاية الحسن ، أنت كتبت هذا وصاحبك أمي لا يحسن الخط فقلت له : بل كتبته أنت .

(305/514)

كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع استهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمي . الثاني أن إبراهيم عليه السلام غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مزينة ، وكأن غيظ كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه لأنه هو الذي تسبب لاستهانته بها . الثالث أن يكون ذلك حكاية لما يؤل إليه مذهبهم كأنه قال : ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فإن من حق من يعبد ويدعى إلهاً أن يقدر على أمثال هذه الأفعال ، ويؤيد هذا الوجه ما يحكى أنه قال ﴿ فعله كبيرهم هذا ﴾ غضب أن تعبد معه هذه الصغار ، الرابع ما يروى عن

الكسائي أنه كان يقف عند قوله ﴿ بل فعله ﴾ ثم يبتدئ ﴿ كبيرهم هذا ﴾ أي فعله من فعله . الخامس عن بعضهم أنه يقف عند قوله ﴿ كبيرهم هذا فاسئلوهم ﴾ وأراد بالكبير نفسه لأن الإنسان أكبر من كل صنم . السادس أن في الكلام تقديماً وتأخيراً والتقدير " بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم " . فيكون إضافة الفعل إلى كبيرهم مشروطاً بكونهم ناطقين ، فلما لم يكونوا ناطقين امتنع أن يكونوا فاعلين ، السابع قراءة محمد بن السميفع ﴿ فعله كبيرهم ﴾ بالتشديد أي فلعل الفاعل ﴿ كبيرهم ﴾ وفيه تعسف . وأما قول إبراهيم عليه السلام ﴿ إني سقيم ﴾ فلعله كان به سقم قليل وسوف يجيء تمام البحث فيه . وأما قوله لسارة " إنها أختي " فالمراد أنها أخته في الدين فلم يكن وقتئذ على وجه الأرض مسلم سواهما ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ حين نبههم على قبح طريقتهم ﴿ فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ لأنكم تعبدون من لا يستحق العبادة . وقال مقاتل : معناه فلاموا أنفسهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون لإبراهيم حيث تزعمون أنه كسرها مع أن الفأس بين يدي الصنم الكبير . وقيل : أنتم الظالمون لأنفسكم إذا سألتم منه ذلك حتى أخذ يستهزئ بكم في الجواب . يقال : نكسته اي قلبته فجعلت أسفله أعلاه ، وانتكس انقلب ، وانتكاس الإنسان هو أن يكون رأسه من تحت فلهذا قال ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ والمراد

أنهم استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاؤوا بالفكرة الصالحة ، ثم انقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا في المجادلة قائلين ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ وفيه أنهم رضوا بإلاهتها مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق . وقال ابن جرير : المعنى نكست حجتهم فأقيم الخبر عنهم مقام الخبر عن حجتهم وبيان انتكاس الحجة قولهم ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ فإن هذه حجة عليهم لا لهم . وقيل : المراد بانتكاس رؤوسهم إطراقهم خجلاً وانكساراً .

ثم زاد إبراهيم في توبيخهم قائلاً ﴿ أفتعبدون ﴾ الآية وقد مر في سورة سبحان أن " أف " صوت يدل على التضجر ، والام لبيان المتأفف به ، أي لكم ولآلهتكم هذا التأفف وذلك أنه أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم . ﴿ قالوا حرقوه ﴾ المشهور أن الذي اشار بتحريقه هو نمرود بن كنعان ابن سنجاريب بن نمرود بن كوش بن حام بن نوح . وقال مجاهد : سمعت ابن عمر يقول : إنه رجل من أعراب العجم يريد الأكراد . وعن ابن جريج عن وهب أن الذي قال هذا القول قد خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

روى مقاتل أن نمرود وقومه أجمعوا على إحراقه فحبسوه ثم بنوا بيتاً كالحظيرة بكوثى وهي من قرى الأنباط وذلك قوله ﴿ ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم ﴾ [الصافات : 97] ثم جمعوا له الحطب الكثير اربعين يوماً حتى إن كانت المرأة لتمرض فتقول : إن عافاني الله لأجمعن حطباً لإبراهيم . فلما اشتعلت النار اشتدت وصار الهواء بحيث لو مر الطير في أقصى الهواء لاحترق ثم أخذوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مقيداً مغلولاً فضجت السماء والأرض ومن فيهما من الملائكة إلا الثقلين ضجة واحدة : أي ربنا ليس في أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم وإنه يحرق فيك ، فأذن لنا في نصرته ، فقال سبحانه : إن استغاث بأحد منكم فأغيثوه وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه . فلما أرادوا إلقاءه في النار أتاه خازن الرياح وقال : إن شئت طيرت النار في الهواء فقال إبراهيم : لا حاجة لي إليك . ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري حسبي الله ونعم الوكيل . وروي أنه قال : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك . ثم أتاه جبرائيل في الهواء فقال : يا إبراهيم هل لك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . قال : فسل ربك . قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي : فأرسل الله ملائكة أخذوا بضبعيه وأقعدوه في الأرض ، فإذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار منه إلا وثاقه . وأتاه جبرائيل

بقميص من حرير الجنة وقال : يا إبراهيم إن ربك يقول : أما علمت أن النار لا تضر أحبائي . قال المنهال بن عمرو : أخبرت أن إبراهيم مكث في النار أربعين يوماً أو خمسين . وقال : ما كنت أياماً أطيب عيشاً مني إذ كنت فيها قلت : وذلك لاستغراقه في بحر الفيوض والآثار الربانية ولو لم يكن فيه إلا القرب من لطف خليله والبعد من قهر عدوه لكفى . ثم نظر نمرود من صرح له مشرف على إبراهيم فرآه جالساً في روضة ومعه

(308/514)

جليس له من الملائكة والحطب يحترق حواليه فناداه يا إبراهيم : هل تستطيع أن تخرج منها ؟ قال : نعم .

(309/514)

فقام يمشي حتى خرج . فقال نمرود : إني مقرب إلى ربك قرباناً فذبح أربعة آلاف بقرة وكف عن إبراهيم ، وكان إبراهيم عليه السلام إذ ذاك ابن ست عشرة سنة . قال العلماء : اختاروا العقاب بالنار لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه ولهذا جاء في الحديث " لا يعذب في

النار إلا خالقها " ومن ثم قالوا ﴿ وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ أي إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً قوياً فاختاروا له أشد العقاب وهو الإحراق وإلا كنتم مقصرين في نصرتها ﴿ قلنا ﴾ عن السدي أن القائل هو جبرائيل عليه السلام والأكثرون على أنه سبحانه .

وذهب ابو مسلم الأصفهاني إلى أنه لا قول هناك بل أراد به الجعل لأن النار جماد فلا فائدة في خطابه . ويمكن أن يجاب بأن الله قادر على أن يخلق لها فهماً يصح به التخاطب ، ولو سلم فلعل في ذلك الخطاب مصلحة للملائكة . والظاهر أن قوله ﴿ يا نار ﴾ خطاب لتلك النار المخصوصة فإن الغرض يتعلق ببردها فقط وفي النار منافع للخلائق ، فلا يحسن من الكريم إبطالها . وقيل : المذكور اسم الماهية فلا بد من حصول البرد في تلك الماهية أينما وجدت ، ويناسبه رواية مجاهد عن ابن عباس أنه لم يبق يومئذ في الدنيا ونار إلا طفئت . واختلفوا في أن النار كيف بردت ؟ فقيل : إنه تعالى أزال عنها ما فيها من الحر والإحراق وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق والله على كل شيء قدير . وقيل : خلق في جسد إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار كما يفعل بخزنة جهنم ، وكذلك في النعامة لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة ، والسمندل ولا يؤذيه المقام في النار . وقيل : جعل بينه وبين النار حائلاً منع وصول اثر النار إليه . والمحققون على القول الأول لأن النص دل ظاهره على أن نفس النار صارت باردة ، وليست الحرارة جزءاً من مسمى النار حتى يمتنع كونها ناراً

وهي باردة ، وأما على القولين الآخرين فيلزم أن لا يحصل البرد فيها وهو خلاف النص قوله ﴿ وسلاماً ﴾ أي ذات برد وسلام فبولغ في ذلك حتى

(310/514)

كأن ذاتها برد وسلام . والمعنى ابردي حتى يسلم منك إبراهيم ، أو ابردي برداً غير ضار ويناسبه ما روي عن ابن عباس لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها . وقوله ﴿ على إبراهيم ﴾ حال من فاعل الكون أو متعلق بالبرد والسلام ، ولولا هذا القيد لكانت النار برداً على كافة الخلق ، قوله ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ وفي الصافات ﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ [الآية : 98] لأن في هذه السورة كادهم إبراهيم لقوله ﴿ لأكيدن أصنامكم ﴾ وكادوه لقوله ﴿ وارادوا به كيداً ﴾ فغلبهم إبراهيم لأنه كسر أصنامهم وسلم من نارهم فكانوا هم الأخسرين . وفي الصافات ﴿ قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم ﴾ [الصافات : 97] فأججوا ناراً عظيمة وبنوا بناء عالياً ورفعوه إليه ورموا به إلى أسفل فرفعه الله وجعلهم في الدنيا من السافلين وفي العقبة في السافلين .

(311/514)

ويروى أنهم بنوا لإبراهيم بنياناً وألقوه فيه ، ثم أوقد عليه النار سبعة أيام ثم أطبقوا عليه ، ثم فتحوا عنه فإذا هو غير محترق يعرق عرقاً . فقال لهم حارث أبو لوط : إن النار لا تحرقه لأنه سحر النار ولكن اجعلوه على شيء وأوقدوا تحته فإن الدخان يقتله ، فجعلوا فوق بئر وأوقدوا تحته فطارت شرارة فوقعت في لحية أبي لوط فأحرقته فآمن له لوط كما يجيء في العنكبوت ، وهاجر إلى ارض الشام فذلك قوله ﴿ ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ اي بالخصب وسعة الأرزاق أو بالمنافع الدينية لأن أكثر الأنبياء بعثوا فيها . وقيل : ما من أرض عذب إلا وينبع أصله من تحت صخرة بيت المقدس . يروى أنه نزل بفلسطين ولوط بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة . وقيل : الأرض مكة ﴿ ووهبنا له ﴾ أي لإبراهيم ﴿ إسحق ويعقوب نافلة ﴾ هي ولد الولد وهي حال من يعقوب فقط ، وقيل : النافلة العطية الزائدة ومنه الصلاة النافلة . ونوفل للرجل الكثير العطاء ، وعلى هذا احتمل أن يكون حالاً من يعقوب فقط أي سأل إسحق فأعطيه وأعطى يعقوب زيادة وفضلاً من غير سؤال . واحتمل أن يكون حالاً من كليهما أي وهبناهما له عطية منا ، والأول قول مجاهد وعطاء ، والثاني وهو أن النافلة العطية قول ابن عباس وأبي بن كعب وقتادة والفراء والزجاج ﴿ وكلا ﴾ من إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴿ جعلنا صالحين ﴾ قال الضحاك : اي مرسلين وقال غيره : عالمين عاملين . وفي قوله ﴿ جعلنا صالحين ﴾ وكذا

قوله ﴿ وجعلناهم أئمة ﴾ دلالة الأشاعرة على أن الصلاح بجعل الله وكذا الإمامة وغيرها من الأفعال أجاب الجبائي بأنه اراد تسميتهم بذلك ومدحهم وأنه حكم به لهم كما يقال : إن الحاكم عدل فلاناً وجرحه إذا حكم بالعدالة والجرح ، وضعف بأنه خلاف الظاهر . وقوله ﴿ يهدون بأمرنا ﴾ اي يدعون الناس إلى دين الله بأمرنا وإرادتنا . قال أهل السنة : فيه أن الدعوة إلى الحق والمنع من الباطل لا يجوز إلا بأمر الله تعالى . وقالت المعتزلة :

(312/514)

فيه أن من صلح لأن يقتدى به في الدين فالهداية واجبة عليه ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها . ولا خلاف في أن الهادي إذا كان مهتدياً بنفسه كان الإنتفاع بهداه أعم والنفوس إلى الاقتداء به أميل فلذلك قال ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ اي أن يفعلوها لأن المراد هو إيحاء أن يحدثوا الخيرات من انفسهم ونفس الفعل الخير لا يمكن إيحاؤه فرد إلى فعل الخيرات تخفيفاً ، فإن المقصود معلوم ، ثم أضيف المصدر إلى المفعول لإفادة تخفيف آخر في اللفظ وكذلك ﴿ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ أي أوحينا إليهم أن يقيموا ويؤتوا ، قال الزجاج ، حذف الهاء من إقامة لأن المضاف إليه عوض منها .

وقال غيره : الإقام والإقامة مصدران . ولا ريب أن تخصيص هاتين الخصلتين بالذكر دليل على شرفهما والأولى أصل التعظيم لأمر الله ، والثانية أصل الشفقة على خلق الله . ﴿ وكانوا لنا عابدين ﴾ فيه أنه سبحانه لما وفى بعهد الربوبية فآتاهم النبوّة والدرجات العالية فهم ايضاً وفوا بعهد العبودية فلم يغفلوا عنها طرفة عين .

(313/514)

قوله ﴿ ولوطاً ﴾ عن الزجاج أنه معطوف على ﴿ أوحينا ﴾ وعن أبي مسلم أنه معطوف على قوله ﴿ ولقد آتينا إبراهيم ﴾ والحكم الحكمة ، وقيل الفصل بين الخصوم ، وقيل النبوة والقرية سذوم والمراد أهلها وخبائثهم مشهورة قد عددت في " الأعراف " وفي " هود " . و ﴿ قوم سوء ﴾ نقيض رجل صدق ﴿ وأدخلناه في رحمتنا ﴾ أي أهل رحمتنا أو في الجنة والثواب . عن ابن عباس والضحاك . وقال مقاتل : هي النبوة أي أنه لما كان من الصالحين آتيناه النبوة كي يقوم بحقها . وقال أهل التحقيق : حين آتاه الحكم والعلم وتخلص من جلساء السوء فتحت عليه أبواب المكاشفات وتجلت له أنوار الذات والصفات وإنها هي الرحمة في الحقيقة . قوله ﴿ ونوحاً ﴾ وكذا نظائره معطوف على قوله ﴿ ولقد آتينا ﴾ أو المراد واذكر نوحاً . و ﴿ إذ نادى ﴾ بدل منه اي اذكر وقت ندائه ﴿ من قبل ﴾

هؤلاء المذكورين والنداء هو دعاؤه على قومه بنحو قوله ﴿ رب إني مغلوب فانتصر ﴾ [القمر : 10] . وقوله ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ [نوح : 26] بدليل قوله ﴿ فاستجبنا له فنجيناه وأهله ﴾ أي أهل دينه وهم من معه في الفلك ﴿ من الكرب العظيم ﴾ وهو الطوفان وما كان فيه من تكذيب قومه وإيذائهم . وفي لفظ الكرب وهو الغم الذي يأخذ بالنفس ، ثم وصفه بالعظم إشعار بأنه عليه السلام لقي من قومه أذى شديداً لا يكتنه كنهه . ثم زاده بياناً بقوله ﴿ ونصرناه ﴾ الاية . تقول : نصرته منه فانتصر إذا جعلته منتصراً منه أي منتقماً . ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في ﴾ شأن ﴿ الحرث إذ نفشت ﴾ ظرف ﴿ ليحكمان ﴾ وهو حكاية حال ماضية . قال ابن السكيت . النفش بالتحريك أن ينتشر الغنم بالليل من غير راع وعليه جمهور المفسرين . وعن الحسن : إنه يكون ليلاً ونهاراً . وليس في قوله ﴿ وكنا لحكمهم ﴾ دلالة على أن أقل الجمع اثنان لاحتمال أنه أرادهما والمتحاكمين إليهما . والضمير في ﴿ ففهمناها ﴾ للحكومة أو الفتوى . ويروى أنه دخل رجلن على داود عليه

السلام أحدهما صاحب حرث . اي زرع . وقيل كرم- والآخر صاحب غنم . فقال صاحب الحرث : إن غنم هذا دخلت حرثي وأكلت منه شيئاً . فقال داود : اذهب فإن الغنم لك . فخرجا فمرا على سليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة فقال : كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه . فقال : لو كنت أنا القاضي لقضيت بغير هذا . فأخبر بذلك أبوه فدعاه وقال : كيف كنت تقضي بينهما ؟ قال : أدفع الغنم إلى صاحب الحرث فتكون له منافعها من الدر والنسل والوبر حتى إذا عاد الحرث من العام القابل كهيئته يوم أكل دفعت الغنم غلى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه .

(315/514)

قال أبو بكر الأصم : الحكمان واحد لأن الثاني بيان للأول . والمشهور عن الصحابة ومن بعدهم أنهما متغايران لقوله ﴿ وكنا لحكمهم ﴾ ولقوله : ﴿ ففهمناها ﴾ والفاء للتعقيب فدل على أنه فهم حكماً خلاف الأول . وعلى تقدير الاختلاف فهما بالوحي أو بالاجتهاد ، فيه خلاف بين العلماء ، فمنهم من لم يجوز الاجتهاد على الأنبياء أصلاً كالجبائي لقوله : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ [النجم : 3] ﴿ أن أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ [الأنعام : 50] ولأن النبي قادر على تحصيل حكم الواقعة بالنص ، ولأن مقتضى

الاجتهاد مظنون وخلاف المظنون لا يوجب الكفر وخلاف الرسول يوجب الكفر ، ولما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوقف في بعض الأحكام انتظاراً للوحي ولو جاز له الاجتهاد لم يتوقف ، ولأنه لو جاز على النبي لجاز على جبرائيل ايضاً وحينئذ يرتفع الأمان عن الوحي فلعل هذه الشرائع من مجتهدات جبرائيل . وأجيب بأنه إذا أوحي إليه جواز الاجتهاد له صح قوله : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ [النجم : 3-4] وبأن الحكم الحاصل عن الاجتهاد مقطوع لا مظنون لأنه تعالى إذا قال له مهما غلب على ظنك كون الحكم في الأصل معللاً بكذا ثم غلب على ظنك قيام ذلك المعنى في صورة أخرى فاحكم بذلك فهذا الحكم مقطوع به والظن واقع في طريقه . سلمنا جواز المخالفة لكنه مشروط بصدوره عن غير معصوم ، ولهذا لو اجتمعت الأمة على مسألة اجتهادية امتنع خلافهم . وكان الرسول أوكد ، وبأن التوقف لعله وجد منه حين لم يظهر له وجه الاجتهاد وبأن الأمة أجمعوا على عدم جواز اجتهاد جبرائيل . ومما يدل على جواز الاجتهاد لنا أنه إذا غلب على ظن المجتهد أحد الطرفين فإن عمل بهما كان جمعاً بين النقيضين ، وان أهملهما لزم ارتفاع النقيضين ، وإن عمل بالمرجوح دون الراجح فذلك باطل بالاتفاق فلم يبق إلا العمل بالراجح . قال الجبائي : ولئن سلمنا أن الاجتهاد على الأنبياء جائز لكن هذه المسألة غير

اجتهادية لأن الذي أتلفه صاحب الماشية مجهول المقدار ، فكيف يجعل الغنم في مقابلة ذلك ؟ وأيضاً إن اجتهاد داود إن كان صواباً فالاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد ، وإن كان خطأ فكيف لم يذكر الله توبته بل مدحه بقوله ﴿ وكلا آتينا حكماً وعلماً ﴾ وايضاً لو حكم بالاجتهاد لم يسم ذلك علماً ، وأيضاً قوله ﴿ ففهمناها ﴾ يدل على أنه من الله لا من سليمان . وأجيب بأن الجهالة بعد تسليمها قد تكون معفواً عنها كما في حكم المصراة ، ولعل الخطأ في اجتهاده كان من الصغائر فلهذا أهمل ذكره والاجتهاد من باب العلوم والظن في الطريق كما مر ، والذي يحصل في نظر المجتهد مستند إلى الله .

(317/514)

أما الذين منعوا من الاجتهاد مطلقاً أو في هذه المسألة ، فذهبوا إلى أن حكومة داود نسخت بحكومة سليمان ، ولا استبعاد في أن يوحي الناسخ إلى غير من أوحى إليه المنسوخ. قال الفقهاء : مثال حكومة داود في شرعنا قول أبي حنيفة في العبد إذا جنى على النفس خطأ يدفعه المولى بذلك أو يفديه ، وعند الشافعي يبيعه في ذلك ويفديه ، ولعل قيمة الغنم كانت على قدر النقصان في الحرث . ومثال حكومة سليمان قول الشافعي فمن

غصب عبداً فأبق من يده فإنه يضمن القيمة فينتفع به المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من منافع العبد ، فإذا ظهر العبد يرد ويقال له ضمان الحيلولة . هذا ولو وقعت هذه القضية في شرعنا فلا ضمان عند أبي حنيفة وأصحابه لا بالليل ولا بالنهار ، لأن جرح العجماء جبار . إلا أن يكون معها راع . والشافعي يوجب الضمان بالليل دون النهار لأن الليل وقت الهدوء وجمع الماشية ، فتسريحها تقصير من صاحبها بخلاف النهار . وعن البراء بن عازب أنه كانت له ناقة ضارية فدخلت حائطاً فأفسدته ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى أن حفظ الحوائط بالنهار على أهلها ، وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها ، لأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل . قال بعض الأصوليين : كل مجتهد مصيب لقوله ﴿ وكلا آتينا حكماً وعلماً ﴾ وقال بعضهم : المصيب واحد لقوله ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ ولو كان كلاهما مصيباً لم يكن لتخصيص سليمان بالفهم فائدة . وضعف بعضهم كلا الاستدلالين بعد تسليمهما بأن ما ثبت في شرعهم لا يلزم أن يكون ثابتاً في شرعنا .

(318/514)

ولما مدح داود على سبيل الاشتراك ذكر ما يختص بكل منهما فبدأ بداود قائلاً : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ﴾ أي حال كونهن مسبحات أو هو استئناف كأنه قيل : كيف سخرهن ؟ فقال : ﴿ يسبحن ﴾ ﴿ والطير ﴾ وهو معطوف على الجبال أو مفعول معه ، وتسبيح الجبال إما حقيقة أو مجاز وعلى الأول قال مقاتل : كان إذا سبح داود سبح الجبال والطير معه . وقال الكلبي : إذا سبح داود أجابته الجبال . وقال سليمان بن حيان : كان داود إذا وجد فترة أمر الله تعالى الجبال فسبحت فيزداد نشاطاً واشتياقاً . وعلى الثاني قيل : كانت الجبال تسير معه حيث سار فكل من رآها كان يسبح الله تعالى ، فلما حملت على التسبيح وصفت به وهذا القول اختيار كثير من أصحاب المعاني والمعتزلة ، لأن الجماد غير قابل للحياة والفهم عندهم ، ولأن المتكلم هو الذي يفعل الكلام لا الذي يكون محلاً للكلام ، ولهذا يقال : إن المتكلم هو الله حين كلم موسى لا الشجرة . وإنما قدم التسبيح الجبال على الطير لأن ذلك أدل على القدرة وأدخل في الإعجاز ، فإن الطير أقرب إلى الحيوان الناطق من الجماد ولا يلزم من نطق الطير أو الجبل أن يكونا مكلفين فليس كل ناطق مكلفاً كالأطفال والمجانين : ﴿ وكنا فاعلين ﴾ اي قادرين على أن نفعل أمثال هذه الخوارق على أيدي الأنبياء لأجلهم وإن كانت عجيبة عندكم .

(319/514)

واللبوس اللباس يقال : البس لكل حالة لبوسها والمراد الدرع . عن قتادة أنها كانت صفائح فسردها وحلقها داود فجمعت الخفة والتحصين وتوارث الناس منه وعمت النعمة بها لكل المحاربين فلذلك قال ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ قال علماء المعاني : هذا التركيب أدخل في الإنباء عن طلب الشكر من قولنا " فهل أنتم تشكرون " إذ المختار فيه أن يقدر مفسر محذوف اي هل تشكرون تشكرون . ومن قولنا " أفأنتم شاكرون " لأنه وإن كان ينبئ عن عدم التجدد لمكان الجملة الاسمية إلا أنه دون المذكور في القرآن فإن " هل " ادعى للفعل من الهمزة ، فترك الفعل معه يكون أدخل في الإنباء عن استدعاء المقام عدم التجدد لأن تخلف المعلوم عن العلة القوية يدل على وجود مانع أقوى منه إذا تخلف عن العلة الضعيفة .

(320/514)

ثم حكى ما أنعم به على سليمان فقال ﴿ ولسليمان ﴾ أي وسخرنا له ﴿ الريح ﴾ حال كونها ﴿ عاصفة ﴾ ولا ينافي هذا قوله في ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ [ص : 36] لأن المراد أنها مع كونها في نفسها رخية طيبة كالنسيم كانت في

عملها عاصفة تحمل كرسيه من اصطخر إلى الشام ، أو أنها كانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفاً لهبوبها على حسب إرادته وأمره . وفي قوله ﴿ وكنا بكل شيء عالمين ﴾ إشارة أنه فعل كل ما فعل بالأنبياء المذكورين عن حكمة بالغة وتدبير محكم وإحاطة بأحوالهم وعلم باستئهالهم . قوله ﴿ ومن الشياطين ﴾ أي سخرنا من الشياطين ﴿ من يغوصون له ﴾ ويجوز أن يكون الكلام خبر أو مبتدأ و" من " موصولة أو موصوفة . كانوا يغوصون لأجله في البحار فيستخرجون الجواهر ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ أي متجاوزاً ما ذكر من بناء المدائن والقصور وسائر الصنائع العجيبة . قالت العلماء : الظاهر أن التسخير لكفارهم دون المؤمنين منهم لإطلاق الشياطين ولقوله : ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ أي من أن يزيغوا عن أمره أو يبدلوا أو يوجد منهم فساد في الجملة إذ كان من دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار . والحفظ إما بسبب الملائكة أو مؤمني الجن الموكلين بهم ، أو بأن حبب إليهم طاعته وخوفهم مخالفته . قال ابن عباس في تفسيره : يريد أن سلطانه مقيم عليهم يفعل بهم ما يشاء . قبل الجبائي : كيف تتهيأ منهم هذه الأعمال وأجسامهم رقيقة وإنما تمكنهم الوسوسة فقط ، فلعل الله تعالى كثف أجسامهم خاصة وقواهم على تلك الأعمال الشاقة وزاد في عظمهم معجزة لسليمان فلما مات سليمان ردهم إلى الخلقة الأولى . إذ لو أبقاهم على الخلقة الثانية لكان شبهة على الناس ، فلعل بعض الناس يدعي النبوة ويجعله دلالة عليها .

(321/514)

واعترض عليه الإمام فخر الدين الرازي رضي الله عنه بأنك لم قلت : إن الجن أجسام فلعلهم من الموجودات التي ليست متحيزة ولا حالة في المتحيز . ولا يلزم منه الاشتراك مع الباري فإن الاشتراك في اللوازم الثبوتية لا يدل على الاشتراك في الملزومات فضلاً عن اللوازم السلبية . سلمنا أن الجن أجسام لكن لم قلت : إن البنية شرط للقدرة وليس في يدكم إلا الاستقراء الضعيف ؟ سلمنا أنه لا بد من تكثيف أجسامهم فمن اين يلزم ردهم إلى الخلقة الأولى ؟ فإن قال : لئلا يفضي إلى التلبيس . قلنا : إذا ثبت أن ذلك كان معجزة لنبي قبله لم يتمكن المتنبي من الاستدلال ومن عجيب قدرة الله سبحانه أن أصلب الأجسام في هذا العالم الحجارة والحديد ، وقد سخرهما الله تعالى لداود فأنطق الحجر ولين الحديد ، وفي ذلك دلالة باهرة على أنه تعالى قادر على إحياء العظام الرميمة . ومن الغرائب أن الشياطين مخلوقة من النار وكان يأمرهم بالغوص في الماء ، وفيه إظهار الضد بالضد فتبارك الله رب العالمين .

(322/514)

ومن عجائب القصص والأخبار حكاية أيوب عليه السلام وصبره على بلائه حتى صار مثلاً . عن وهب بن منبه أنه كان من الروم من ولد عيص بن إسحاق وكانت أمه من ولد لوط اصطفاه الله وجعله نبياً ، ومع ذلك بسط عليه الدنيا وكثر أهله وماله وكان له سبعة بنين وسبع بنات وله أصناف المواشي وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ونخيل . وكان إبليس لا يحجب عن السموات حين اخرجه الله من الجنة حتى رفع عيسى عليه السلام فحجب عن أربع حتى إذا ولد نبينا صلى الله عليه وسلم حجب عن جميع السموات إلا من استرق السمع . قال : فسمع غبليس تحاور الملائكة في شأن أيوب فأدركه الحسد فقال : يا رب إنك أنعمت على عبدك ايوب فشكرك وعافيته فحمدك ثم لم تجرّبه بشدة ولا بلاء ، وأنا زعيم إن ضربته بالبلاء ليكفرن بك . فقال الله تعالى : انطلق فقد سلطتك على ماله . فجمع إبليس عفاريت الجن وقال لهم : ماذا عندكم من القوة فإني سلطت على مال ايوب . فقال عفريت أعطيت من القوة ما إذا شئت تحولت إعصاراً من النار فأحرقت كل شيء فقال إبليس : فأت الإبل ورعاتها . فذهب ولم يشعر الناس حتى ظهر من تحت الأرض ، إعصار لا يدنو منها شيء إلا احترق ، فلم يزل يحرقها ورعاتها حتى أتى على آخرها . فذهب إبليس على شكل أولئك الرعاء إلى أيوب فوجده قائماً يصلي ، فلما فرغ من الصلاة قال : يا ايوب هل تدري ما الذي صنع ربك ؟ وأخبره بحال الإبل ورعاتها . فقال أيوب : إنها ماله إذا شاء نزعه .

فقال إبليس : إن الناس منهم من يقول ما كان أيوب يعبد شيئاً وما كان إلا في غرور ، ومنهم من يقول : لو كان إلهه يقدر على شيء لمنع من وليه . ومنهم من يقول : بل هو الذي فعل ما فعل ليشمت به أعداءه ويفجع به أصدقاءه فقال أيوب : الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني ، خرجت من بطن أمي عرياناً وأضجع في التراب عرياناً وأحشر إلى الله عرياناً ، ولو علم الله عرياناً ، ولو علم الله فيك أيها العبد خيراً لنقل روحك مع تلك الرواح وصرت شهيداً وأوجر فيك . فرجع غبليس إلى أصحابه خاسئاً فقال عفريت آخر : عندي من القوة ما إذا شئت صحت صوتاً لا يسمعه ذو روح إلا خرجت روحه . فقال إبليس : فأت الغنم ورعاءها فانطلق فصاح بها فماتت ومات رعاؤها ، فخرج إبليس متمثلاً بقهرمان الرعاة إلى أيوب فقال له القول الأول ، ورد عليه أيوب الرد الأول ، فرجع إبليس صاغراً فقال له عفريت آخر : عندي من القوة إذا شئت تحولت رياحاً عاصفة أقلع كل شيء أتيت عليه قال : فاذهب إلى الحرث والثيران ، فأتاهم فأهلكهم وأخبر إبليس به ايوب فرد عليه مثل الرد الأوّل ، فجعل إبليس يصيب أمواله شيئاً فشيئاً حتى أتى على جميعها . فلما رأى إبليس صبره على ذلك صعد إلى السماء وقال : إلهي هل أنت مسلطي على ولده فإنها

الفتنة الكاملة . فقال الله : انطلق فقد سلطتك ، فأتى أولاد ايوب في قصرهم فقلب القصر عليهم ثم جاء إلى أيوب متمثلاً بالمعلم وهو جريح مشدوخ الرأس يسيل دمه ودماغه فقال : لو رأيت بنيك كيف انقلبوا منكوسين على رؤوسهم تسيل جميع أدمغتهم من أنوفهم لتقطع قلبك ! فلم يزل يقول هذا ويرققه حتى رق أيوب وبكى وقبض قبضة من التراب فحثاها على رأه ، فاغتنم ذلك إبليس ، ثم يلبث أيوب حتى استغفر واسترجع فصعد إبليس ووقف موقفه وقال : إلهي إنما هون أيوب خطب المال والولد لعلمه أنك تعيد له المال والولد ، فهل أنت مسلطي على جسده وإني لك زعيم لو ابتليته في جسده ليكفرن بك . فقال تعالى : انطلق

(324/514)

فقد سلطتك على جسده وليس لك سلطان على عقله وقلبه ولسانه . فأتاه فنفخ في منخره حين هو ساجد فاشتعل منه جسده وخرج من فرقه إلى قدمه ثآليل ، وقد وقعت فيه حكة لا يملكها فكان يحك بأظفاره حتى كشطت أظفاره ، ثم حكها بالمسوح الخشنة ثم حكها بالفخار والحجارة ، ولم يزل يحكها حتى تقطع لحمه وتغير وأنتن فأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشاً ، ورفضه الناس كلهم غير امرأته رحمة بنت

إفرايم بن يوسف عليه السلام فكانت تصلح أموره . ثم إن وهباً طول في الحكاية إلى أن قال : إن أيوب عليه السلام أقبل على الله تعالى مستغيثاً متضرعاً إليه قائلاً : يا رب لأي شيء خلقتني يا ليتني كنت حيضة ألقتني أمي ، يا ليتني كنت عرفت الذي أذنبته والعمل الذي عملت حتى صرفت وجهك الكريم عني .

ألم أكن للغريب داراً وللمسكين قراراً ولليتيم ولياً وللأرملة قيماً . إلهي أنا عبد ذليل فإن أحسنت فالمن لك وإن أسأت فبيدك عقوبتي . جعلتني للبلاء غرضاً وسلطت عليّ ما لو سطته على جبل لضعف عن حمله . إلهي تقطعت أصابعي وسقطت لهواتي وتناثر شعري وذهب المال وصرت أسال اللقمة فيطعمني من يمن بها عليّ ويعيرني بفقري وهلاك أولادي . قال الإمام أبو القاسم الأنصاري في جملة هذا الكلام : ليتك لو كرهتني لم تخلقني . ثم قال : ولو كان ذلك صحيحاً لاغتنمه إبليس فإن قصده أن يحمله على الشكوى وأن يخرجه من زمرة الصابرين . قلت : إن غرض إبليس لا يحصل بمجرد الشكوى وإنما كان غرضه أن يرتد أيوب عليه السلام ولهذا قال سفيان بن عيينة : من شكا إلى الله تعالى فإنه لا يعد ذلك جزعاً إذا كان في شكواه راضياً بقضاء الله تعالى إذ ليس من شرط الصبر استحلاء البلاء . الم تسمع قول يعقوب عليه السلام : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ [يوسف : 86] .

ومما حكاه الله سبحانه من شكوى أيوب قوله ﴿ إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ الضر بالفتح الضرر في كل شيء ، وبالضم الضرر في النفس من مرض وهزال . قال جار الله : ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة عليه وذكر ربه بما يجب أن يصدر دعاء الرحمة عنه ولم يصرح بالمطلوب ، وحسن الطلب باب من أبواب الأدب . يحكى أن عجوزاً تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت : يا أمير المؤمنين مشت جرذان بيتي على العصا . فقال لها : ألطفت في السؤال لا جرم لأردنها تثب وثبة الفهود وملأ بيتها حباً . وفي قوله : ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ رمز إلى أنه جواد مطلق لا يرحم لمنفعة تعود إليه ، ولا لمضرة يدفعها عنه ، ولا يطلب شيئاً ، ولا يجلب مدحاً وكل رحيم سواه . فأما رحمته لغرض من الأغراض أو لرقة طبع ونحو ذلك على أن تلك الرحمة أيضاً تتوقف على داعية يخلقها الله فيه ، والآفات والآلام التي تراها في هذا العالم كلها مستندة إلى صفة قهره التي لا بد لكل ملك منه أو مستتبعة لمصالح وغايات لا يعلمها إلا هو ، وإنها ضرورية في الوجود لاشتمالها على خيرات أكثر من الشرور . واختلف العلماء في السبب الذي لأجله دعا الله ايوب ؛ فعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أيوب عليه السلام بقي في البلاء ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب ولا بعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه

ويروحان فدخلا عليه ذات يوم فوجدا ريحاً فقالا : لو كان أيوب عند الله خير ما بلغ إلى هذه الحالة .

(326/514)

قال : فما شق على أيوب شيء مما ابتلي به مثل ما سمع منهما . فقال : اللهم إن كنت تعلم إني لم أبت شبعان وأنا أعلم بمكان جائع فصدق وهما يسمعان ثم خر أيوب ساجداً . وقال : اللهم إني لا أرفع رأسي حتى تكشف ما بي فكشف الله ما به . وقال الحسن : مكث ايوب بعد ما ألقي على الكناسة سبع سنين وأشهراً ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق غير امرأته صبرت معه وكانت تأتيه بالطعام . وكان أيوب مواظباً على حمد الله والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه فصرخ إبليس صرخة جزعاً من صبر أيوب فاجتمع جنوده من أقطار الأرض قالوا له : ما خبرك ؟ قال : أعياني هذا العبد الذي سالت الله أن يسلطني عليه وعلى ماله وولده فإنه لا يزيد بالبلاء إلاّ صبراً وحمداً لله تعالى . فقالوا له : أي مكرك أين عملك الذي أهلكت به من مضى ؟ من اين أتيت آدم حين أخرجته من الجنة ؟ قال : من قبل امرأته . قالوا : فشأنك بأيوب من قبل امرأته فإنه لا يستطيع أن يعصيها لأنه لا يقربه أحد غيرها . قال : أصبتم فانطلق حتى إذا أتى امرأته فتمثل لها في صورة رجل فقال : أين

بعلك يا أمة الله ؟ قالت : هو هذا يحك قروحه وتتردد الدواب في جسده . فظن إبليس أنها جزعت فطمع فيها ووسوس إليها وذكر لها ما كان بها من النعم والمال ، وذكرها جمال أيوب وشبابه . قال الحسن : فصرخت فلما صرخت علم أن قد جزعت فأتاها بسخلة وقال : لتذبح هذه باسم أيوب ويبرأ . قال : فجاءت تصرخ يا أيوب حتى متى يعذبك ربك أين المال وأين الماشية ؟ أين الولد ؟ أين الصديق ؟ أين اللون ؟ أين الحسن ؟ أين جسمك الذي قد بلى وقد صار مثل الرماد وتتردد فيه الدواب ؟ اذبح هذه السخلة واسترح ، فقال أيوب : أتاك عدوّ الله ونفخ فيك ويلك من أعطانا الذي تذكرين من المال والولد والصحة ؟ قالت : الله . قال : كم متعنا به ؟ قالت : ثمانين سنة . قال : فمنذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء ؟ قالت : منذ سبع سنين وأشهر . قال : ويلك ما أنصفت ربك ألا صبرت في البلاء ثمانين سنة !

(327/514)

والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة ، أمرتني أن نذبح لغير الله وحرام عليّ أن أذوق بعد هذا شيئاً من طعامك وشرابك الذي تأتيني به فطردها . فلما نظر ايوب في شأنه وليس عنده لا طعام ولا شراب ولا صديق وقد ذهبت امرأته خر ساجداً وقال ﴿ إني

مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ فقال : ارفع رأسك فقد استجبت لك ﴿ اركض برجلك ﴾ [ص : 42] فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها فلم يبق في ظاهر بدنه دابة . إلا سقطت ثم ضرب رجله مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلا خرج وقام صحيحاً ، وعاد غلى شبابه وجماله حتى صار أحسن مما كان حتى ذكر أن الماء الذي اغتسل منه تطاير على صدره جراداً من ذهب فجعل يضكه بيده فأوحي إليه : يا أيوب ألم أغنك ؟ قال : بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها .

(328/514)

قال : فخرج حتى جلس على مكان مشرف . ثم إن امرأته قالت : هب أنه طردني أفأتركه حتى يموت وتأكله السباع لأرجعن إليه . فلما رجعت ما رأته في تلك الكناسة ولا تلك الحالة فجعلت تطوف وتبكي فدعاها أيوب وقال : ما تريدين يا أمة الله ؟ فقالت : أردت ذلك المبتلى الذي كان ملقى على الكناسة . فقال : تعرفينه إذا رايته ؟ قالت : وهل يخفى علي أحد يراه . فتبسم قائلاً : أنا هو . فعرفته بضحكه فاعتنقته ثم قال : إنك أمرتني أن أذبح لإبليس وإني أطعت الله وعصيت الشيطان فعافاني الله ببركة ذلك . الرواية الثالثة : قال الضحاك ومقاتل : بقي في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات ،

فلما غلب أيوب إبليس ذهب إبليس إلى امرأته على هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والحجسم والجمال على مركب ليس كمراكب الناس وقال لها : أنت صاحبة أيوب ؟ قالت : نعم . قال : فهل تعرفيني ؟ قالت : لا . قال : أنا إله الأرض ، أنا صنعت بأيوب ما صنعت وذلك أنه عبد إله السماء وتركني فأغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليه وعليك جميع ما لكما من مال وولد فإن ذلك عندي . قال وهب : وسمعت أنه قال : لو أن صاحبك أكل طعاماً ولم يسم الله تعالى لعوفي مما فيه من البلاء . وايضاً قال لها : لو شئت فاسجدي لي سجدة واحدة حتى ارد عليك المال والولد وأعافي زوجك . فرجعت إلى أيوب فأخبرته فقال : أتاك عدوّ الله ليفتنك عن دينك ، ثم أقسم لئن عافاني الله لأجلدنك مائة جلدة وقال عند ذلك ﴿ مسني الضر ﴾ يعني من طمع إبليس في سجودي وسجود زوجتي له . الرواية الرابعة قال إسماعيل السدي : إن إبليس تمثل للقوم في صورة بشر وقال : تركتم أيوب في قريتكم أعدى إليكم ما به من العلة ، فأخرجوه إلى باب البلد ثم قال لهم : إن امرأته تدخل عليكم وتعمل وتمس زوجها أما تخافون أن تعدي إليكم علته ، فحينئذ لم يستعملها أحد فتحيرت وكان لها ثلاث ذوائب فعمدت غلى إحداها وقطعتها وباعتها فأعطوها بذلك خبزاً ولحماً فقال

أيوب : من أين هذا ؟ قالت : كل فإنه حلال . فلما كان من الغد لم تجد شيئاً فباعت الثانية ، وكذلك فعلت في اليوم الثالث وقالت : كل فإنه حلال . فقال : لا آكل أو تخبريني فأخبرته فبلغ ذلك من أيوب ما الله به عليم فقال : ﴿ رب إني مسني الضر ﴾ . والرواية الخامسة قيل : سقطت دودة من فخذه فرفعها وردها على موضعها وقال : قد جعلني الله طعمة لك فعضته عضة شديدة فقال : ﴿ مسني الضر ﴾ فأوحى الله إليه : لولا أني جعلت في كل شعرة منك صبراً لما صبرت .

(330/514)

واعلم أن مس الضر ههنا مطلق إلا أنه ورد في " ص " مقيداً وذلك قوله ﴿ أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ [ص : 41] فصح أن يكون سنداً لهذه الروايات إلا أن الجبائي طعن فيها بأن الشيطان كيف يقدر على إحداث الأمراض والاسقام والقادر على ذلك قادر على خلق الأجسام وحينئذ يكون إلهاً . وأيضاً إن هذه التأثيرات تنافي قوله سبحانه حكاية عنه ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم ﴾ [إبراهيم : 22] والجواب أنه كان بإذن من الله كما حكينا فلا محذور ولا تنافي . وقال ومن البعيد أنه

لم يسأل الله إلا عند أمور مخصوصة والجواب أن الأمور مرهونة بأوقاتها . وقال انتهاء أمراض الأنبياء إلى حد التنفير من القبول غير جائز . والجواب المنع ولا سيما بشرط العافية في العاقبة . قوله سبحانه ﴿ فكشفنا ما به من ضر ﴾ مجمل يقتضي إعادته إلى ما كان في بدنه وأحواله . وقوله : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ تفصيل لذلك المجمل وفيه قولان : الأول قال ابن عباس وابن مسعود وقتادة ومقاتل والكلبي : إن الله تعالى أحيا له أهله يعني أولاده بأعيانهم . والثاني قال الليث : ارسل مجاهد إلى عكرمة وسئل عن الآية فقال : أراد أهلك لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا . فقد روي أن زوجته ولدت بعد ذلك ستة وعشرين ابناً له . ثم بين الحكمة في ذلك الابتلاء ثم الاستجابة بقوله ﴿ رحمة من عندنا ﴾ لأيوب ﴿ وذكرى ﴾ لغيره من العابدين للرحمن أو الرحمة والذكرى كلاهما ﴿ للعابدين ﴾ لكي يتفكروا فيصبروا كما صبر حتى يثابوا في الدارين كما أثيب . وإنما خص الرحمة والتذكرة بالعابدين لأنهم هم المنتفعون بذلك لا الذين يعبدون الهوى والشيطان . قال أهل البرهان : إنما قال في هذه السورة ﴿ رحمة من عندنا ﴾ وقال في "ص" ﴿ رحمة منا ﴾ [ص : 43] لأنه بالغ ههنا في الدعاء بزيادة قوله : ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ فبالغ في الاستجابة لأن لفظ "عند" يدل على مزيد التخصيص وأنه سبحانه تولى ذلك من غير واسطة .

وحين ذكر صبر أيوب وانقطاعه إليه ذكر غيره من الأنبياء المشهورين بالصبر منهم إسماعيل عليه السلام ، صبر على الانقياد للذبح وعلى الإقامة بوادٍ لا زرع فيه ولا ضرع ، وصبر على بناء البيت ورفع قواعده ، فلا جرم أخرج الله ببركة ذلك من صلبه خاتم النبيين ، ومنهم إدريس وقد مر ذكره في سورة مريم . قال ابن عمر : بعث إلى قومه داعياً لهم إلى الله فأبوا فأهلكهم الله ورفع إدريس إلى السماء . ومنهم ذو الكفل قيل : هو زكريا وعلى هذا فقد تقدمت قصته أيضاً .

(332/514)

وفي هذا القول نظر ، لأن قصة زكريا تجيء عن عقيب فيلزم التكرار . وقيل : هو إلياس وكان خمسة من الأنبياء ذوي اسمين : إسرائيل ويعقوب ، وإلياس وذو الكفل ، وعيسى والمسيح ، ويونس وذو النون ، ومحمد وأحمد . وقيل : يوشع بن نون سمي بذلك لأنه ذو الحظ من الله ديناً ودنيا ، أو لأنه كان له ضعف عمل الأنبياء في زمانه وضعف ثوابهم . وقال أبو موسى الأشعري ومجاهد : إنه لم يكن نبياً ولكن كان عبداً صالحاً ، وقال الحسن والأكثرون : إنه من الأنبياء وهذا أقرب لأنه معطوف عليهم معدود فيما بينهم . يروى عن

ابن عباس أن اليسع أو نبياً آخر في بني إسرائيل قربت وفاته فأراد أن يستخلف رجلاً على الناس فقال : من يقبل مني خلافتي على أن يصلي بالليل ويصوم بالنهار ويقضي بين الناس فلا يغضب ؟ فقام رجل وقال : أنا أتكفل لك هذه الثلاثة فدفع إليه ملكه ووفى بما ضمن ، فحسده إبليس فأتاه وقت القيلولة فقال : إني لي غريماً قد ظلمني حقي وقد دعوته إليك فأبى فأرسل معي من يأتيك به ، فأرسل معه وقعد حتى فاتته القيلولة وعاد إلى صلاته وصلى ليله إلى الصباح ، ثم أتاه من الغد وقال مثل ذلك حتى شغله عن القيلولة وهكذا في اليوم الثالث . وقيل : إنه في اليوم الثالث قال للبواب : قد غلب عليّ النعاس فجاء إبليس فلم يأذن له البواب فدخل من كوة البيت ودق الباب من داخل ، فاستيقظ الرجل وعاتب البواب فقال : أما من قبلي فلم تؤت فقام إلى الباب ، فإذا هو مغلق وإبليس على صورة شيخ في البيت فقال له : أتنام والخصوم على الباب فعرفه وقال : إبليس ؟ قال : نعم . أعييتني في كل شيء فعلت هذه الأفعال لأغضبك فعصمك الله مني فسمي ذا الكفل لأنه قد وفى بالكفالة . ولا خلاف أن ذا النون هو يونس لأن النون هو المسكة والاسم إذا دار بين أن يكون لقباً محضاً وبين أن يكون مقيداً فحمله على المقيد أولى . واختلفوا في أن وقوعه في بطن الحوت كان قبل اشتغاله بأداء الرسالة أو بعد .

(333/514)

أما القول الأوّل فعن ابن عباس أن يونس وقومه كانوا من فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقي سبطان ونصف ، فأوحى الله تعالى إلى شعيب عليه السلام أن اذهب إلى حزقيل الملك وقل له حتى يوجه نبياً قوياً فإني ألقي في قلوب أولئك أن يرسلوا معه بني إسرائيل . فقال له الملك : من ترى وكان في مملكته خمسة من الأنبياء ؟ فقال : يونس بن متى . فإنه قويّ أمين . فدعاه الملك وأمره أن يخرج فقال له يونس : هل أمرك الله بإخراجي ؟ قال : لا . قال : فههنا أنبياء غيري فألحوا عليه فخرج مغاضباً للملك ولقومه فأتى بحر الروم فوجد قوماً هناك وسفينة فركب معهم فاضطربت السفينة حتى كادوا أن يغرقوا فقال الملاحون : ههنا رجل عاصٍ أو عبد آبق لأن السفينة لا تفعل هذا من غير ريح ، إلا وفيها رجل عاصٍ ، ومن عادتنا في مثل هذا البلاء أن نقترع فمن خرجت له القرعة ألقيناه في البحر حتى تسلم السفينة .

(334/514)

فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة كلها على يونس . فقال : أنا الرجل العاصي والعبد الآبق وألقى نفسه في البحر فابتلعه حوت ، فأوحى الله تعالى إلى الحوت لا تؤذ منه شعرة

فإني جعلت بطنك سجناً له ولم أجعله طعاماً لك . ثم نجاه الله من بطن الحوت فنبذه بالعراء كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد ، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرتها حتى اشتد ، فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس فقيل له . أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون حيث لم تذهب إليهم ولم تطلب سلامتهم ؟ . فتوجه يونس نحوهم حتى دخل أرضهم وهم منه غير بعيد فقال لملكهم : إن الله أرسلني إليك لترسل معي بني إسرائيل . فقالوا : ما نعرف ما تقول ولو علمنا أنك صادق لفعلنا ولقد أتيناكم في دياركم وسبيناكم ، فلو كان كما تقول لمنعنا الله منكم . فطاف فيهم ثلاثة أيام يدعوهم إلى ذلك فأبوا عليه فأوحى الله إليه قل لهم : إن لم تؤمنوا جاءكم العذاب . فأبلغهم فأبوا فخرج من عندهم فلما فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه . فقال علماؤهم : اطلبوه فإن كان في المدينة فليس ما ذكره بشيء ، وإن كان قد خرج فهو كما قال . فطلبوه فلم يجدوه ، فلما أيسوا أغلقوا باب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم وغنمهم وعزلوا الوالدة عن ولدها وكذا الصبيان والأمهات ، فلما طلع الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل ما في بطونها وصاح الصبيان وثغت المواشي فرفع الله عنهم فبعثوا إلى يونس وآمنوا به وبعثوا معه بني إسرائيل .

(335/514)

القول الثاني وعليه أكثر المفسرين : أن قصة الحوت كانت بعد دعائه أهل نينوى وتبليغه رسالة الله إليهم كما مر في سورة يونس . واحتج الطاعنون في عصمة الأنبياء بهذه القصة من وجوه : الأوّل أنه ذهب مغاضباً لربه هكذا فسره ابن عباس وابن مسعود والحسن والشعبي وسعيد وابن جبير ووهب واختاره ابن قتيبة ومحمد بن جرير ، ومن المعلوم أن مغاضبة الله من أعظم الذنوب . ولئن سلم أنه كان مغاضباً لقومه فذلك ايضاً محظور لأنه كان يجب أن يصبر معهم . الثاني قوله ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ وهو شك في قدرة الله . الثالث اعترافه بأنه من الظالمين والظلم من صفات الذم . الرابع : إخبار الله تعالى في موضع آخر بقوله ﴿ فالتقمه الحوت وهو مليم ﴾ [الصافات : 142] والمليم ذو الملامة . الخامس : قوله للنبي صلى الله عليه وسلم

(336/514)

﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ [القلم : 48] وقال في موضع آخر ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم ﴾ [الأحقاف : 35] والجواب أنه عليه السلام غضب لأجل ربه أنفة لدينه وبغضاً للكفر وأهله ، وغاضب قومه بمفارقته كي يخوّفهم حلول العقاب عليهم

عندها . فغاية ما في الباب أن تلك المغاضبة ترك الأولى وهو الصبر على مشاق الرسالة بعد ادائها إلى أن يأذن الله له في المهاجرة . وعن الثاني أن معنى . ﴿ لن نقدر عليه ﴾ لن نضيق كقوله ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ [الرعد : 26] ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ [الطلاق : 7] فهو من القدر لا من القدرة ، ويجوز أن يكون من القدر بمعنى القضاء . قال الزجاج : يقال قدر الله الشيء قدراً وقدره تقديراً . والمعنى فظن أن لن نقضي عليه بشدة وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والكلبي وابن عباس في رواية واختاره الفراء والزجاج . يقال : قدر الله عليه الضراء وقدر له السراء كما يقال : قدر القاضي على فلان أوله . ولئن سلمنا أنه من القدرة فالمراد القدرة بالفعل أي فظن أن لن نعمل فيه قدرتنا ، فالقدرة غير وإعمالها غير ، فظن انتفاء الأول كفر دون الثاني أو هو وارد على سبيل التمثيل والاستعارة أي كانت حاله ممثلة بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمر الله ، أو هو استفهام بمعنى التوبيخ معناه أفظن أن لن نقدر عليه : عن ابن زيد . سلمنا الكل لكن هذه الواقعة لعلها قبل رسالته كما حكينا ومثل هذا الظن في حق غير الأنبياء لا يبعد بوسوسة الشيطان ، ولكن المؤمن يرده بعد ذلك بالبرهان . وعن البواقي أن الكل راجع إلى ترك الأولى ونحن لا ننكر ذلك وكفى بذكر يونس في عدد الأنبياء الصابرين الصالحين دليلاً على أنه لم يصدر عنه شيء ينافي عصمته والله تعالى أعلم .

أما قوله ﴿ فنادى في الظلمات ﴾ فمعنى الجمع راجع إلى شدة الظلمة وتكاثفها أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت كقوله ﴿ يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ [البقرة : 257] وقيل : ظلمات بطن الحوت والبحر والليل . وقيل : ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل في ظلمتي بطن الحوتين وظلمة البحر . وقيل : إن الحوت إذا عظم غوصه في البحر كان ما فوقه من البحر ظلمة في ظلمة . ومعنى ﴿ أن لا إله إلا أنت ﴾ أي لا إله إلا أنت أو بأنه لا إله إلا أنت ﴿ سبحانك ﴾ تنزيه له عن كل النقائص . منها الظن المذكور على أي وجه فرض ، ومنها العجز عن تخليصه ، ومنها خلو ذلك الفعل عن حكمة كاملة . ﴿ إني كنت من الظالمين ﴾ بالفرار من غير إذن وأنا الآن من التائبين وفيه من حسن الطلب ما فيه فلذلك قال ﴿ فاستجبنا له ﴾ ثم بين الاستجابة بقوله ﴿ ونجيناه من الغم ﴾ أي من غمه بسبب كونه في بطن الحوت وبسبب خطيئته ﴿ و ﴾ كما أنجينا يونس من كرب الحبس إذ دعانا ﴿ كذلك ننجي المؤمنين ﴾ من كل كرب إذا استغاثوا بنا .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له " وعن الحسن : ما نجاه الله إلا إقراره على نفسه بالظلم . وقد بقي في الآية بحث لفظي وهو أن

بعض أهل العربية غلطوا عاصماً في قراءته ﴿ نجي ﴾ بالتشديد والنون لا تدغم في الجيم . واستخرج بعضهم له وجهاً وهو أن يكون ﴿ نجي ﴾ فعلاً ماضياً مجهولاً من التنجية لكنه أرسل الياء وأسند الفعل إلى المصدر المضمر ونصب المؤمنين بذلك المصدر أي نجى نجاء المؤمنين كقولك " ضرب الضرب زيداً " ثم ضرب زيداً على إضمار المصدر ، وأنشد ابن قتيبة حجة لهذه القراءة :

ولو ولدت فقيرة جرو كلب . . . لسب بذلك الجرو الكلابا

(338/514)

وقال أبو علي الفارسي وغيره من الأئمة المحققين : إن مثل هذا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر وإنما الوجه الصحيح في قراءة عاصم أن يحمل ذلك على الإخفاء ، فلعل الراوي التبس عليه فظنه إدغاماً . ثم بين انقطاع زكريا وتبتله غليه رغبة فيمن يؤنسه ويعينه في أمر دينه ودنياه وإن انتهى الحال به وبزوجته في الكبر إلى حد اليأس من ذلك عادة . وفي قوله ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ وجهان : أحدهما أنه ثناء على الرب بأن مآل كل الأمور إليه فيكون مؤكداً لما فوض إليه أمر الولد . والثاني أنه اراد إن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث . وفي إصلاح زوجه وجوه : منها أنها جعلت صالحة للولادة بعد عقرها . ومنها أنها

جعلت حسنة الخلق وكانت سيئة الخلق ، ولا شك أن حسن خلق الزوج نعمة عظيمة .

ومنها أن الإصلاح يتعلق بأمر الدين كأنه سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والأهل جميعاً . ويرد على الوجه الأول إن إصلاح الزوج مقدم على هبة الولد ، والجواب أن الواو لا تفيد الترتيب أو أراد بالهبة إرادة الهبة . أما الضمير في قوله ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾ فقد قيل : إنه عائد إلى زكريا وولده وأهله . وقال جار الله : إنه للمذكورين من الأنبياء عليهم السلام يريد أنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمسارعتهم في تحصيل الخيرات ، وهذا من أجلّ ما يمدح به المؤمن لأنه يدل على الجد والرغبة في الطاعة . ﴿ ويدعوننا رغباً ﴾ في ثوابنا ﴿ ورهباً ﴾ عن عقابنا . ومعنى ﴿ خاشعين ﴾ قال الحسن : ذللاً لأمر الله . وقيل : متواضعين . وعن مجاهد : الخشوع الخوف الدائم في القلب . وفي تقديم الجار والمجرور على ﴿ خاشعين ﴾ إشارة إلى أنهم لا يخشون أحداً إلا الله . وروى الأعمش عن إبراهيم النخعي أنه الذي إذا ارخى ستره وأغلق بابه رأى الله منه خيراً ليس هو الذي يأكل خشباً اي علقاً ويلبس خشناً ويطأطئ رأسه .

(339/514)

ولما فرغ من ذكر الرجال الكاملين ذكر من هي سيدة نساء العالمين فمدحها بإحصان فرجها إحصاناً كلياً من الحلال والحرام جميعاً حتى إنها منعت جبرائيل جيب درعها قبل أن عرفته . والنفخ فيها عبارة عن إحياء عيسى في بطنها أي فنفخنا الروح في عيسى فيها كقول الزامر " فنفخت في بيت فلان " أي نفخت في المزمار في بيته ، أو المراد وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا –وهو جبرائيل– لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ غلى جوفها . وهذا البيان هو المراد في سورة التحريم فلذلك قال ﴿ فنفخنا فيه ﴾ [التحريم : 12] أراد فرج الجيب أو غيره . وإنما قال ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ لأنه أراد أن مجموعهما آية واحدة وهي ولادتها إياه من غير أب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 28.49 ﴾

(340/514)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : الإشارات المفهومة من قصص الأنبياء أكثرها مرّ فلنذكر ما يختص بالمقام . منها قوله ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ أي الله الكبير لأن كسر الأصنام ليس من طبيعة الإنسانية بل

من طبيعتها أن تنحتها ، فإن صدر من أحدهم كسرها فإنما ذلك بتوفيق الله وتأييده .

فقوله ﴿ هذا ﴾ بدل الكلِ من الضمير في فعله : ﴿ قالوا حرقوه ﴾ إذا أراد الله أن يكمل عبداً من عباده المخلصين فداه خلقاً عظيماً كما اراد استكمال حوت في البحر فداه كثيراً من الحيتان الصغار ، فلما أراد تخليص جسد الخلة من غش البشرية جعل نمرود وقومه فداء له حتى أجمعوا على تحريقه ولم يعلموا أن تلك النار له نور . وذلك العذاب له روح وريحان ، لأن نار العشق قد احرقت أنانيته حتى لم ير غير الله بل لم يبق إلا هو فلم يمكن للنار أن تتصرف فيه فوقع قوله : ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ تمثيلاً لهذا المعنى .

بالنار خوفني قومي فقلت لهم . . . النار ترحم من في قلبه نار

(341/514)

ونجينا إبراهيم الروح ولوط القلب من أرض البشرية إلى أرض الروحانية المتبركة المشرفة المشرقة لتجلي الذات واصلفات . ﴿ ونجيناه ﴾ من قرية القالب . ﴿ التي كانت تعمل الخبائث ﴾ بالأوصاف البهيمية والسبعية ﴿ وداود ﴾ الروح ﴿ وسليمان ﴾ القلب ﴿ إذ يحكمان في ﴾ شأن حرث الدنيا ﴿ إذ نفشت ﴾ اي دخلت فيه في ظلمة ليل

البشرية ﴿ غنم القوم ﴾ أي الصفات البشرية من غير راعي العقل فأفسدت الحرث بالإفراط والإسراف . فحكم الروح بانجذابه إلى عالمه بالكلية أن يمنع الأوصاف عن التصرف فيها مطلقاً . ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ القلب لكونه متقلباً في طودي الروح والجسد أن يحكم بمنع التصرف فيها إلى أن يعود الحرث من حالة الإسراف فيه المؤدي إلى الفساد إلى حالة التوسط والاعتدال الذي هو المعتبر في باب الكمال والإكمال جمعاً بين المصلحتين ورعاية للجانبين . ﴿ وسخرنا مع داود الجبال ﴾ وهي الأعضاء والجوارح التي فيها ثقل وكثافة ﴿ يسبحن ﴾ بتسبيحه ﴿ والطير ﴾ وهن القوى الحيوانية السيارة بل الطيارة بين قضاء القلب والقالب .

(342/514)

هذا في الباطن ، وأما في الظاهر فإذا استولى سلطان الذكر على أجزاء البدن انعكس نوره في مرآة القلب إلى ما يحاذيها من الجمادات والحيوانات فيذكر ما يذكره كالحصاة سبحت في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن بعض الصحابة أنه قال : كنا نأكل الطعام ونسمع تسبيحه ﴿ وعلمنا صنعة لبوس لكم ﴾ إن الله تعالى ألهم داود الروح كيفية إلانة القلب الذي هو في القساوة بمنزلة الحديد حتى يتولد من ذلك القلب أوصاف حميدة تحصن

الإنسان من بأس الأعداء التي هي النفس والهوى والشيطان . وسخرنا لسليمان ﴿ القلب ريح الروح الحيواني فإنه مركب الروح الإنساني به يتهيأ له السير إلى مقام بورك له فيه ﴿ ومن الشياطين ﴾ وهم الأوصاف النفسية ﴿ من يغوصون له ﴾ في بحر الحديد فيستخرجون درر الفضائل الإنسية ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ من الوسائط والوسائل إلى تلك الفضائل : ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ من أن يزيغوا عن سواء السبيل ويميلوا عن جادة الشريعة وقانون الطريقة . قال أهل التحقيق : إذا بلغ الإنسان مبلغ الرجال البالغين سخر الله له بحسب مقامه السفليات والعلويات كما سخر لسليمان الريح والجن والشياطين والطير ومن العلويات الشمس حين ردت أجل صلاته ، وسخر لنبينا جميع السفليات والعلويات حتى قال " زويت لي الأرض " وقال " أوتيت مفاتيح خزائن الأرض " وكان الماء ينبع من بين أصابعه . وقال " نصرت بالصبا " وكانت الأشجار تسلم عليه وتسجد له وتنقلع بإشارته من مكانها وترجع ، والحيوانات تتكلم معه وتشهد بنبوته . وقال " أسلم شيطاني على يدي " وأما من العلويات فقد انشق القمر بإشارته وسخر له البراق وجبرائيل ، وعبر السموات والجنة والنار والعرش والكرسي إلى مقام قاب قوسين أو أدنى . ﴿ وأيوب ﴾ القلب المبتلى بديوان الهواجس والوساوس الذي فارقه أوصافه الحميدة وأخلاقه الشريفة لشدة تألمه بالعلائق البدنية وعوائق الأمور الدنيوية ﴿ فكشفنا ما به من ضر ﴾ بأن قلنا له ﴿ إركض برجلك ﴾ [ص

(343/514)

: 42] نظيره ﴿ وألق ما في يمينك ﴾ [طه : 69] لينبع ماء حياة العلم والمعرفة فتسلم من تعلقات الكونين المؤذية للقلب والروح ﴿ إذ ذهب ﴾ من عالمه ﴿ مغاضباً ﴾ لغيره من المجردات فألقي في بحر الدنيا فالتقمه حوت النفس الأمارة بالسوء ، وابتلع حوت النفس حوت القالب ﴿ فنادى ﴾ في ظلمات حجب النفس والقالب والدنيا ﴿ وزكريا ﴾ الروح ﴿ وهبنا له يحيى ﴾ القلب ﴿ واصلحنا له ﴾ زوج القالب ﴿ ويدعوننا رغباً ﴾ في الفناء فينا ﴿ ورهباً ﴾ من البقاء بأنانيتهم ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ أما القالب فبأعمال الشريعة ، وأما النفس فبتهذيب الأخلاق ، وأما القلب فبالاطمئنان بذكر الله ، وأما السر فباجتهاده في كشف السرار ، وأما الروح فببذل الوجود في طلب المعبود ، وأما الخفي فبإفنائه في الله وبقائه بالله . ﴿ ومريم ﴾ النفس ﴿ التي أحصنت ﴾ قلبها عن تصرفات الكونين فأحييناها بالحياة الأبدية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 51.49 ﴾

(344/514)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس عشر بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/515)

الجزء الخامس عشر بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 92 ﴾ من سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وحتى الآية ﴿ 104 ﴾ من نفس السورة

(4/515)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (94) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما دل ما مضى من قصص هؤلاء الأنبياء وغيرهم على أن لله القدرة الباهرة ، القوة البالغة الشاملة للبعث وغيره ، وكان ذلك دالاًّ على التوحيد الذي هو أصل الدين ، وأنهم كلهم متفقون عليه بالتصريح من البعض هنا ومن الباقين فيما سبق ، كان إثباته فذلكة هذه القصص وما تقدمها من هذه السورة ، فلذلك اتصل به قوله مخاطباً لمن قال لهم : أفأنتم له منكرون : ﴿ إن هذه ﴾ أي الأنبياء الذين أرسلناهم قبل نبيكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ

رجالاً نوحي إليهم كما أنه رجل نوحي إليه لا آباؤكم ولا ما وجدتموه عليه ﴿أمتكم﴾ أي مقصودكم أيها الخلق بالاقتداء في الاهتداء ، حال كونها ﴿أمة﴾ قال البغوي : وأصل الأمة الجماعة التي هي على مقصد واحد - انتهى .

وأكد سبحانه هذا المعنى فقال : ﴿واحدة﴾ كما في الخبر أنهم أولاد علات .

أمهاتهم شتى ودينهم واحد .

لا اختلاف بينهم أصلاً في التوحيد الذي هو الأصل ولا في توجيه الرغبات إلينا ، وقصر النظر علينا ، علماً منهم بما لنا من صفات الكمال ، وأن كل شيء فإلينا مفتقر ، ولدينا خاضع منكسر ، فاتبعوهم في ذلك ، لا تحيدوا عنهم تضلوا ، وإنما فرقناهم وجعلناهم عدداً بحسب الأمم المتشعبة في الأزمان المتطاولة ، وأنا لم نجعل لأحد منهم الخلد ، ولغير من الحكم ، فبثثناهم في الأقطار ، حتى ملؤوها من الأنوار .

(5/515)

ولما كان المقصود تعيين المراد من غير لبس ، عدل عن صيغة العظمة فقال : ﴿وأنا ربكم﴾ أي لا غيري ، في كل زمان وكل مكان ، لكل أمة ، لأني لا أتغير على طول الدهر ، ولا يشغلني شأن عن شأن ﴿فاعبدون﴾ دون غيري فإنه لا كفوء لي .

ولما كان من المعلوم أنهم لم يفعلوا ، أعرض إلى أسلوب الغيبة إيذاناً بالغضب ، فكان التقدير في جواب من كأنه قال : ما فعلوا ؟ : لم يطيعوا أمري في الاجتماع على ما جمعتهم عليه من عبادتي التي هي سبب لجلب كل خير ، ودفع كل ضير ولا افتدوا في ذلك بالكمّل من عبادي ، فعطف عليه قوله ﴿ وتقطعوا ﴾ أي مخالفة للأمر بالاجتماع ولما كان الدين الحق من الجلاء والعظمة والملاءمة للنفوس بحيث لا يجهله ولا يأباه أحد نصح لنفسه وإن جهله ، كفى أدنى تنبيه في المبادرة إليه وترك ما سواه كائناً ما كان ، فكان خروج الإنسان عنه بعد أن كان عليه في غاية البعد فضلاً عن أن يتكلف ذلك بمنازعة غيره المؤدية إلى الافتراق والتباغض ولا سيما إن كان ذلك الغير قريبه أو صديقه ، وكانت صيغة التفعل من القطع صريحة في التفرق ، وتفيد العلاج والتكلف ، وكانت تأتي بمعنى التفعيل والاستفعال ، عبر بها .

ولما كان في غاية البعد أن يقطع الإنسان أمر نفسه ، كان تقديم الأمر أهم فقال :

﴿ أمرهم ﴾ فنصبه بفعل التقطع لأنه بمعنى التقطيع كما قاله البغوي وغيره ، أو بمعنى الاستفعال كما قالوا في تجبر وتكبر .

(6/515)

ولما كان في غاية من العجب أن يكون التقطيع واقعاً منهم بهم وأن يكون مستغرقاً لظرفه ، قال : ﴿ بينهم ﴾ أي فكانوا فرقاً كل فرقة على شعبة من ضلال ، زينها لها هواها ، فلم يدعوا شيئاً من الأمر بغير تقطيع ، وكان العطف بالواو دون الفاء كما في المؤمنون لأن ترك العبادة ليس سبباً للتقطع ، بل ربما كان عنه الاجتماع على الضلال ، كما يكون في آخر الزمان وكما قال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ [البقرة : 213] الآية ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ [البينة : 4] .

ولما كان كأنه قيل : فماذا يفعل بهم ؟ قال ما هو غاية في الدلالة على باهر العظمة وتام القدرة ليكون أشد في الوعيد ، وصادع التهديد : ﴿ كل ﴾ أي من هذه الفرق وإن بالغ في التمرد ﴿ إلينا ﴾ على عظمتنا التي لا يكافئها شيء ، لا إلى غيرنا ﴿ راجعون ﴾ فنحكم بينهم فيتسبب عن ذلك أنا نجازيهم إقامة للعدل فنعطي كلاًّ من المحق التابع لأصفيائنا والمبطل المائل إلى الشياطين أعدائنا ما يستحقه ، وذلك هو معنى قوله تعالى ، فارقاً بين المحسن والمسيء تحقيقاً للعدل وتشويقاً بالفضل : ﴿ فمن يعمل ﴾ أي منهم الآن من ﴿ الصالحات وهو ﴾ أي والحال أنه ﴿ مؤمن ﴾ أي بان لعمله على الأساس الصحيح ﴿ فلا كفران ﴾ أي إبطال بالتغطية ﴿ لسعيه ﴾ بل نحن نجزيه عليه بما يستحقه ونزيده من فضلنا ﴿ وإنا له ﴾ أي لسعيه الآن على عظمتنا ﴿ كاتبون ﴾ وما كتبناه فهو غير ضائع ، بل باق ، لنطلعه على يوم الجزاء بعد أن نعطيه قدرة على تذكره ، فلا يفقد منه شيئاً قل أو

جل ، ومن المعلوم أن قسميه " ومن يعمل من السيئات وهو كافر فلا نقيم له وزناً " و" من عمل منها وهو مؤمن فهو في مشيئتنا " ، ولعله حذف هذين القسمين ترغيباً في الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 110.112 ﴾

(7/515)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ وحرم ﴾ بكسر الحاء : حمزة وعلي وعاصم غير حفص وأبي زيد عن المفضل ﴿ فتحت ﴾ بالتشديد : ابن عامر ويزيد ويعقوب . ﴿ لا يحزنهم ﴾ بضم الياء وكسر الزاء يزيد ﴿ نطوي ﴾ بضم التاء الفوقانية وفتح الواو ﴿ والسماء ﴾ بالرفع : يزيد . ﴿ للكتب ﴾ على الجمع : حمزة وعلي وخلف وحفص ﴿ بدأنا ﴾ مثل ﴿ أنشأنا ﴾ ﴿ قال ﴾ بالألف على حكاية قول الرسول ﴿ رب ﴾ بحذف الياء اكتفاء بالكسرة : حفص غير الخزاز ﴿ رب ﴾ بضم الباء على أنه مبتدأ ﴿ احكم ﴾ على صيغة التفضيل . يزيد عن يعقوب الباقون ﴿ رب احكم ﴾ ﴿ يصفون ﴾ على الغيبة : المفضل وابن ذكوان في رواية .

الوقوف : ﴿ واحدة ﴾ ز لأن المقصود من قوله ﴿ أنا ربكم ﴾ قوله ﴿ فاعبدون ﴾ وكان الكلام متصلاً ﴿ فاعبدون ﴾ 5 ﴿ وبينهم ﴾ ط ﴿ راجعون ﴾ 5 ﴿ لسعيه ﴾ ج لاختلاف الجملتين ﴿ كاتبون ﴾ 5 ﴿ لا يرجعون ﴾ 5 ﴿ ينسلون ﴾ 5 ﴿ كفروا ﴾ ط لإضمار القول ﴿ ظالمين ﴾ 5 ﴿ جهنم ﴾ ط ﴿ واردون ﴾ 5 ﴿ ما وردوها ﴾ ط ﴿ خالدون ﴾ 5 ﴿ فيها ﴾ ط ﴿ لا يسمعون ﴾ 5 ﴿ الحسنى ﴾ لا لأن ما بعد خبر "إن" ﴿ مبعدون ﴾ 5 لا لأن ما بعده خبر بعد خبر ﴿ حسيسها ﴾ ج لاحتمال الواو الحال والاستئناف ﴿ خالدون ﴾ 5 ج لاحتمال الجملة بعده أن تكون صفة أو استئنافاً ﴿ الملائكة ﴾ ط لأن التقدير قائلين هذا يومكم ﴿ توعدون ﴾ 5 ﴿ للكتب ﴾ ط لأن الجار يتعلق بما بعده ﴿ نعيده ﴾ ط لحق المضمر اي وعدنا وحقاً ﴿ علينا ﴾ ط ﴿ فاعلين ﴾ 5 ﴿ الصالحون ﴾ 5 ﴿ عابدين ﴾ 5 ط لاختلاف الجملتين ﴿ للعالمين ﴾ 5 واحد ج للاستفهام مع الفاء ﴿ مسلمون ﴾ 5 ﴿ على سواء ﴾ ط لابتداء النفي ﴿ توعدون ﴾ 5 ﴿ تكتمون ﴾ 5 ﴿ حين ﴾ 5 ﴿ بالحق ﴾ ط لأن ما بعده مبتدأ خارج عن المقول ، ومن قرأ ﴿ ربي احكم ﴾ فوقفه مجوز لنوع عدول من الواحد إلى الجمع ﴿ تصفون ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 52 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) ﴾

قال صاحب "الكشاف" : الأمة الملة وهو إشارة إلى ملة الإسلام ، أي أن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها يشار إليها بملة واحدة غير مختلفة ، وأنا إلهكم إله واحد فاعبدون ، ونصب الحسن (أمتكم) على البدل من هذه ورفع أمة خبراً وعنه رفعهما جميعاً خبرين أو نوى للثاني المبتدأ .

أما قوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ والأصل وتقطعتم إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريق الالتفات كأنه ينقل عنهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء ، والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما تتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب تمثيلاً لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى .

(9/515)

أما قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا راجعون ﴾ فقد توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ، فهو محاسبهم ومجازيهم ، وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تفرقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون وخلصت فرقة ، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة فتهلك إحدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة واحدة ، قالوا : يا رسول الله من تلك الفرقة الناجية ؟ قال : الجماعة الجماعة الجماعة " فتبين بهذا الخبر أن المراد بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ ﴾ الجماعة المتمسكة بما بينه الله تعالى في هذه السورة من التوحيد والنبوات ، وأن في قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الناجية إنها الجماعة إشارة إلى أن هذه أشار بها إلى أمة الإيمان وإلا كان قوله في تعريف الفرقة الناجية إنها الجماعة لغواً إذ لا فرقة تمسكت بباطل أو بحق إلا وهي جماعة من حيث العدد وطعن بعضهم في صحة هذا الخبر ، فقال : إن أراد بالثنتين والسبعين فرقة أصول الأديان فلم يبلغ هذا القدر ، وإن أراد الفروع فإنها تتجاوز هذا القدر إلى أضعاف ذلك ، وقيل أيضاً : قد روى ضد ذلك ، وهو أنها كلها ناجية إلا فرقة واحدة .

والجواب : المراد ستفترق أمتي في حال ما وليس فيه دلالة على افتراقها في سائر الأحوال لا يجوز أن يزيد وينقص .

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (94) ﴾

اعلم أنه سبحانه لما ذكر أمر الأمة من قبل وذكر تفرقهم وأنهم أجمع راجعون إلى حيث لا أمر إلا له أتبع ذلك بقوله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ بين أن من جمع بين أن يكون مؤمناً وبين أن يعمل الصالحات فيدخل في الأول العلم والتصديق بالله ورسوله وفي الثاني فعل الواجبات وترك المحظورات : ﴿ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ أي لا بطلان لثواب عمله وهو كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : 19] فالكفران مثل في حرمان الثواب والشكر مثل في إعطائه وقوله : ﴿ فَلاَ كُفْرَانَ ﴾ المراد نفي الجنس ليكون في نهاية المبالغة لأن نفي الماهية يستلزم نفي جميع أفرادها .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَهُ كاتبون ﴾ فالمراد وإنا لسعيه كاتبون ، فقيل : المراد حافظون لنجازي عليه ، وقيل : كاتبون إما في أم الكتاب أو في الصحف التي تعرض يوم القيامة ، والمراد بذلك ترغيب العباد في التمسك بطاعة الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 189 . 191 ﴾

(11/515)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

معناه أن دينكم دين واحد ، وهذا قول ابن عباس ، وقتادة .

ويحتمل عندي وجهين آخرين :

أحدهما : أنكم خلق واحد ، فلا تكونوا إلا على دين واحد .

والثاني : أنكم أهل عصر واحد ، فلا تكونوا إلا على دين واحد .

﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ فأوصى ألا يعبد سواه .

﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : اختلفوا في الدين ، قاله الأخفش .

الثاني : تفرقوا ، قاله الكلبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(12/515)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم ﴾ يحتمل الكلام أن يكون منقطعاً خطاباً لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم ثم أخبر عن الناس أنهم تقطعوا ثم وعد وأوعد ، ويحتمل أن يكون

متصلاً أي جعلنا مريم ﴿ وابنها آية للعالمين ﴾ بأن بعث لهم بملة وكتاب وقيل لهم ﴿ إن هذه أمتكم ﴾ أي دعي الجميع إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته ، ثم أخبر تعالى أَنهم بعد ذلك اختلفوا وتقطعوا أمرهم ثم فرق بين المحسن والمسيء فذكر المحسن بالوعد أي ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾ فهو بنعيمه مجازى وذكر المسيء في قوله ، ﴿ حرام ﴾ إلى آخر الآية فتأمل الوعيد فيها على كل قول تذكرة فإنه بين ، و" الكفران " مصدر كالكفر ومنه قول الشاعر : [الطويل]

رأيت أناساً لا تنام جدودُهم . . . وجدي ولا كفران لله نائم

واختلف القراء في قوله تعالى ﴿ وحرام ﴾ ، فقرأ عكرمة وغيره " وحَرِم " بفتح الحاء وكسر الراء ، وقرأ جمهور السبعة و" حرام " وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ، و" حِرْم " بكسر الحاء وسكون الراء ، وقرا ابن العباس بخلاف عنه " وحَرْم " بفتح وسكون الراء ، وقرأت فرقة " وحَرّم " بفتح الحاء وشد الراء ، وقرأت فرقة " وحُرِّم " بضم الحاء وكسر الراء وشدها ، وقرأ قتادة ومطر الوراق " وحَرُم " بفتح الحاء وضم الراء ، والمستفيض من هذه القراءات قراءة من قرأ و" حرم " وقراءة من قرأ و" حرام " وهما مصدران بمعنى نحو الحل والحلال ، فأما معنى الآية فقالت فرقة " حرام وحرم " معناه جزم وحتم فالمعنى وحتم ﴿ على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ إلى الدنيا فيتوبون ويستعتبون بل هو صائرون إلى العقاب ، وقال بعض هذه الفرقة الإهلاك هو بالطبع على

القلوب ونحوه والرجوع هو إلى التوبة والإيمان ، وقالت فرقة المعنى ﴿ وحرام ﴾ أي ممتنع ، و" حرم " كذلك ، ﴿ على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ وقالوا ﴿ لا ﴾ زائدة في الكلام واختلفوا في الإهلاك والرجوع بحسب القولين المذكورين ، قال أبو علي يحتمل أن يرتفع " حرامٌ " بالابتداء والخبر رجوعهم و ﴿ لا ﴾ زائدة ، ويحتمل أن يرتفع " حرام " على خبر الابتداء كأنه قال والإقالة والتوبة " حرام " ثم يكون التقدير " بأنهم لا يرجعون " فتكون ﴿ لا ﴾ على بابها كأنه قال هذا عليهم ممتنع بسبب كذا فالتحريم في الآية بالجملة ليس كتحريم الشرع الذي إن شاء المنهي ركبه .

قال القاضي أبو محمد : ويتجه في الآية معنى ضمنه وعيد بيّن وذلك أنه ذكر من عمل صالحاً وهو مؤمن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(13/515)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكم ﴾

قال ابن عباس : المراد بالأُمَّة ها هنا : الدّين .

وفي المشار إِليهم قولان .

أحدهما : أنهم أُمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو معنى قول مقاتل .

والثاني : أنهم الأنبياء عليهم السلام ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

ثم ذكر أهل الكتاب ، فذمَّهم بالاختلاف ، فقال تعالى : ﴿ وتقطَّعوا أمرهم بينهم ﴾ أي : اختلفوا في الدِّين ، ﴿ فمن يعمل من الصالحات ﴾ أي : شيئاً من الفرائض وأعمال البرِّ ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾ أي : لا نجحد ما عمل ، قاله ابن قتيبة ، والمعنى : أنه يقبل منه ، ويثاب عليه ﴿ وإنا له كاتبون ﴾ ذلك ، نأمر الحفظة أن يكتبوه لنجازيَه به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(14/515)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ل

ما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد ؛ فالأمة هنا بمعنى الدين الذي هو الإسلام ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

فأما المشركون فقد خالفوا الكل .

﴿ وَأَنَاْ رَبُّكُمْ ﴾ أي إلهكم وحدي .

﴿ فاعبدون ﴾ أي أفردوني بالعبادة .

وقرأ عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق "إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدة" ورواها حسين عن أبي عمرو .

الباقون ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ بالنصب على القطع بمجيء النكرة بعد تمام الكلام ؛ قاله الفراء .

الزجاج : انتصب "أُمَّةً" على الحال ؛ أي في حال اجتماعها على الحق ؛ أي هذه أمتكم ما دامت أمة واحدة واجتمعتم على التوحيد ؛ فإذا تفرقتم وخالفتم فليس من خالف الحق من جملة أهل الدين الحق ؛ وهو كما تقول : فلان صديقي عفيفاً أي ما دام عفيفاً فإذا خالف العفة لم يكن صديقي .

وأما الرفع فيجوز أن يكون على البدل من "أمتكم" أو على إضمار مبتدأ ؛ أي إن هذه أمتكم ، هذه أمة واحدة .

أو يكون خبراً بعد خبر .

ولو نصبت "أمتكم" على البدل من "هذه" لجاز ويكون "أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ" خبر "إن" .

قوله تعالى : ﴿ وتقطعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أي تفرقوا في الدين ؛ قاله الكلبي .

الأخفش ؛ اختلفوا فيه .

والمراد المشركون ؛ ذمّهم لمخالفتهم الحق ، واتخاذهم آلهة من دون الله .

قال الأزهري : أي تفرقوا في أمرهم ؛ فنصب "أَمْرَهُمْ" بحذف "في" .

فالمتقطع على هذا لازم وعلى الأوّل متعد .

والمراد جميع الخلق ؛ أي جعلوا أمرهم في أديانهم قطعاً وتقسموه بينهم ، فمن موحد ، ومن يهوديّ ، ومن نصرانيّ ، ومن عابد ملك أو صنم .

﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ أي إلى حكمنا فنجازيهم .

(15/515)

قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ "مِن" للتبعيض لا للجنس إذ لا قدرة للمكلف أن يأتي بجميع الطاعات كلّها فرضها ونفلها ؛ فالمعنى : من يعمل شيئاً من الطاعات فرضاً أو نفلاً وهو موحّد مسلم .

وقال ابن عباس : مصدقاً بمحمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ أي لا جحود لعمله ؛ أي لا يضيع جزاؤه ولا يغطى .

والكفر ضدّه الإيمان .

والكفر أيضاً جحود النعمة ، وهو ضدّ الشكر .

وقد كفره كفوراً وكفرانا .

وفي حرف ابن مسعود "فَلاَ كُفْرَ لِسَعْيِهِ" .

﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ لعمله حافظون .

نظيره ﴿ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى ﴾ [آل عمران : 195] أي كل ذلك محفوظ ليجازى به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(16/515)

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) ﴾

الحدب : المسنم من الأرض كالجبل والكدية والقبر ونحوه .

النسلان : مقاربة الخطو مع الإسراع قال الشاعر :

عسلان الذئب أمسى قارباً . . .

برد الليل عليه فنسل

الحصب : الحطب بلغة الحبشة إذا رمى به في النار قبل وقبل أن يرمي به لا يسمى حصباً .

وقيل : الحصب ما توقد به النار .

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون

فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾ .

والظاهر أن قوله ﴿ أمتكم ﴾ خطاب لمعاصري الرسول (صلى الله عليه وسلم) و ﴿ هذه ﴾ إشارة إلى ملة الإسلام ، أي إن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها ملة واحدة غير مختلفة ، ويحتمل أن تكون ﴿ هذه ﴾ إشارة إلى الطريقة التي كان عليها الأنبياء المذكورون من توحيد الله تعالى هي طريقتكم وملتكم طريقة واحدة لا اختلاف فيها في أصول العقائد ، بل ما جاء به الأنبياء من ذلك هو ما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : معنى ﴿ أمة واحدة ﴾ مخلوقة له تعالى مملوكة له ، فالمراد بالأمة الناس كلهم .

وقيل : الكلام يحتمل أن يكون متصلاً بقصة مريم وابنها أي ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ بأن بعث لهم بملة وكتاب ، وقيل لهم ﴿ إن هذه أمتكم ﴾ أي دعا الجميع إلى الإيمان بالله وعبادته .

ثم أخبر تعالى أنهم بعد ذلك اختلفوا ﴿ وتقطعوا أمرهم ﴾ وقرأ الجمهور ﴿ أمتكم ﴾ بالرفع خبر إن ﴿ أمة واحدة ﴾ بالنصب على الحال ، وقيل بدل من ﴿ هذه ﴾ وقرأ الحسن ﴿ أمتكم ﴾ بالنصب بدل من ﴿ هذه ﴾ .

وقرأ أيضاً هو وابن إسحاق والأشهب العقيلي وأبو حيوة وابن أبي عبلة والجعفي وهارون عن أبي عمرو والزعفراني ﴿ أمتكم أمة واحدة ﴾ برفع الثلاثة على أن ﴿ أمتكم ﴾ و﴿ أمة واحدة ﴾ خبر ﴿ إن ﴾ أو ﴿ أمة واحدة ﴾ بدل من ﴿ أمتكم ﴾ بدل نكرة من معرفة ، أو خبر مبتدأ محذوف أي هي ﴿ أمة واحدة ﴾ والضمير في ﴿ وتقطعوا ﴾ عائد على ضمير الخطاب على سبيل الالتفات أي وتقطعتم .

ولما كان هذا الفعل من أقبح المرتكبات عدل عن الخطاب إلى لفظ الغيبة كأن هذا الفعل ما صدر من المخاطب لأن في الإخبار عنهم بذلك نعياً عليهم ما أفسدوه ، وكأنه يخبر غيرهم ما صدر من قبيح فعلهم ويقول ألا ترى إلى ما ارتكب هؤلاء في دين الله جعلوا أمر دينهم قطعاً كما يتوزع الجماعة الشيء لهذا نصيب ولهذا نصيب ، تمثيلاً لاختلافهم ثم توعدهم برجوع هذه الفرقة المختلفة إلى جزائه .

وقيل : كل من الثابت على دينه الحق والزائغ عنه إلى غيره .

وقرأ الأعمش زبراً بفتح الباء جمع زبرة ، ثم ذكر حال المحسن وأنه لا يكفر سعيه والكفران

مثل في حرمان الثواب كما أن الشكر مثل في إعطائه إذا قيل لله شكور ولا لنفي الجنس فهو أبلغ من قوله فلا يكفر سعيه ، والكتابة عبارة عن إثبات عمله الصالح في صحيفة الأعمال ليثاب عليه ، ولا يضيع ، والكفران مصدر كالكفر .

قال الشاعر :

رأيت أناساً لا تنام جدودهم . . .

وجدي ولا كفران لله نائم

وفي حرف عبد الله لا كفر و﴿ لسعيه ﴾ متعلق بمحذوف ، أي نكفر ﴿ لسعيه ﴾ ولا يكون متعلقاً بكفران إذ لو كان متعلقاً به لكان اسم لا مطولاً فيلزم تنوينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(18/515)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ هذه ﴾ أي ملةَ التوحيد والإسلام أشير إليها بهذه تنبيهاً على كمال ظهور أمرِها في الصحة والسَّداد ﴿ أُمَّتُكُمْ ﴾ أي ملتُكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها وتُراعوا حقوقَها ولا تُخِلّوا بشيء منها والخطابُ للناس قاطبة ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ نصب على

الحالية من أمتُكم أي غيرَ مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم السلام ، إذ لا مشاركةَ لغيرها في صحة الاتباعِ ولا احتمال لتبدّلها وتغيُّرها كفروع الشرائعِ المتبدلة حسب تبدّلِ الأممِ والأعصار ، وقرىء أمتَكم بالنصب على البدلية من اسم إن أمةٌ واحدةٌ بالرفع على الخبرية وقرئتا بالرفع على أنهما خبران ﴿ وَأَنَاْ رَبُّكُمْ ﴾ لا إله لكم غيري ﴿ فاعبدون ﴾ خاصة لا غيرُ .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ التفاتٌ إلى الغَيبة لينعى عليهم ما أفسدوه من التفرق في الدين وجعلِ أمره قِطَعاً مُوَزّعةً وينهى قبائحَ أفعالهم إلى الآخرين كأنه قيل : ألا ترَون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله الذي أجمعت عليه كافةُ الأنبياء عليهم السلام ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كلُّ واحدة من الفرق المتقطّعة أو كلُّ واحد من آحاد كلِّ واحدة من تلك الفرق ﴿ إِلَيْنَا راجعون ﴾ بالبعث لا إلى غيرنا فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم ، وإيرادُ اسمِ الفاعل للدِلالة على الثبات والتحقق .

(19/515)

وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾ الخ ، تفصيلٌ للجزاء أي فمن يعملْ بعضَ الصالحات أو بعضاً من الصالحات ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بالله ورسله ﴿ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾

أي لا حِرمانَ لثواب عملِه ذلك ، عبّر عن ذلك بالكفران الذي هو سَتْرُ النعمة وجحودُها لبيان كمال نزاهتِه تعالى عنه بتصويره بصورة ما يستحيل صدورُه عنه تعالى من القبائح وإبرازِ الإثابة في معرِض الأمور الواجبةِ عليه تعالى ، ونفيُ الجنس للمبالغة في التنزيه وعبّر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به ﴿ وَإِنَّا لَهُ ﴾ أي لسعيه ﴿ كاتبون ﴾ أي مُثبّتون في صحائف أعمالِهم لا نغادر من ذلك شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(20/515)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ ﴾

خطاب للناس قاطبة ، والإشارة إلى ملة التوحيد والإسلام وذلك من باب ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : 78] وهذا أخوك تصور المشار إليه في الذهن وأشير إليه ، وفيه أنه متميز أكمل التمييز ولهذا لم يبين بالوصف ، والأمة على ما قاله صاحب المطلع أصلها القوم يجتمعون على دين واحد ثم اتسع فيها حتى أطلقت على نفس الدين ، والأشهر أنها الناس المجمعون على أمر أو في زمان وإطلاقها على نفس الدين مجاز ، وظاهر

كلام الراغب أنه حقيقة أيضاً وهو المراد هنا ، وأريد بالجملة الخبرية الأمر بالمحافظة على لك الملة ومراعاة حقوقها ، والمعنى أن ملة الإسلام ملتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها فافعلوا ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ نصب على الحال من ﴿ أُمَّةٍ ﴾ والعامل فيها اسم الإشارة ، ويجوز أن يكون العامل في الحال غير العامل في صاحبها وإن كان الأكثر الاتحاد كما في شرح التسهيل لأبي حيان ، وقيل بدل من ﴿ هذه ﴾ ومعنى وحدتها اتفاق الأنبياء عليهم السلام عليها أي إن هذه أمتكم أمة غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم السلام بل أجمعوا كلهم عليها فلم تتبدل في عصر من الأعصار كما تبدلت الفروع ، وقيل : معنى وحدتها عدم مشاركة غيرها وهو الشرك لها في القبول وصحة الاتباع .

(21/515)

وجوز أن تكون الإشارة إلى طريقة الأنبياء المذكورين عليهم السلام والمراد بها التوحيد أيضاً ، وقيل : هي إشارة إلى طريقة إبراهيم عليه السلام والكلام متصل بقصته وهو بعيد جداً ، وأبعد منه بمراحل ما قيل إنها إشارة إلى ملة عيسى عليه السلام والكلام متصل بما عنده كأنه قيل وجعلناها وابنها آية العالمين قائلين لهم إن هذه أي الملة التي بعث بها عيسى

أمتكم الخ بل لا ينبغي أن يلتفت إليه أصلاً ، وقيل : إن ﴿ هذه ﴾ إشارة إلى جماعة الأنبياء المذكورين عليهم السلام والأمة بمعنى الجماعة أي إن هؤلاء جماعتكم التي يلزمكم الاقتداء بهم مجتمعين على الحق غير مختلفين ، وفيه جهة حسن كما لا يخفى ، والأول أحسن وعليه جمهور المفسرين وهو المروى عن ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة ، وجوز بعضهم كون الخطاب للمؤمنين كافة ، وجعله الطيبي للمعاندين خاصة حيث قال في وجه ترتيب النظم الكريم : إن هذه السورة نازلة في بيان النبوة وما يتعلق بها والمخاطبون المعاندون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلما فرغ من بيان النبوة وتكريره تقريراً ومن ذكر الأنبياء عليهم السلام مسلياً عاد إلى خطابهم بقوله تعالى شأنه : ﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ ﴾ الخ أي هذه الملة التي كررتها عليهكم ملة واحدة أختارها لكم لتتمسكوا بها وبعبادة الله تعالى والقول بالتوحيد وهي التي أدعوكم إليها لتعضوا عليها بالنواجذ لأن سائر الكتب نازلة في شأنها والأنبياء كلهم مبعثون للدعوة إليها ومتفقون عليها ، ثم لما علم إصرارهم قيل

﴿ وَتَقَطَّعُواْ ﴾ [الأنبياء : 93] الخ ، وحاصل المعنى الملة واحدة والرب واحد والأنبياء عليهم السلام متفقون عليها وهؤلاء البعداء جعلوا أمر الدين الواحد فيما بينهم

قطعاً كما يتوزع الجماعة الشيء الواحد انتهى ، والأظهر العموم ، وأمر النظم عليه يؤخذ من كلام الطيبي بأدنى التفات .

(22/515)

وقرأ الحسن ﴿ أُمَّتُكُمْ ﴾ بالنصب على أنه بدل من ﴿ هذه ﴾ أو عطف بيان عليه و ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ بالرفع على أنه خبر إن .

وقرأ هو أيضاً وابن إسحاق .

والأشهب العقيلي .

وأبو حيوة .

وابن أبي عبلة .

والجعفي .

وهارون عن أبي عمرو .

والزعفراني برفعهما على أنهما خبرا إن ، وقيل : الأول خبر والثاني بدل منه بدل نكرة من معرفة أو هو خبر مبتدأ محذوف أي هي أمة واحدة ﴿ وَأَنَاْ رَبُّكُمْ ﴾ أي أنا إلهكم إله واحد ﴿ فاعبدون ﴾ خاصة ؛ وتفسير الرب بالإله لأنه رتب عليه الأمر بالعبادة ،

والدلالة على الوحدة من حدة الملة ، وفي لفظ الرب إشعار بذلك من حيث أن الرب وإن توهم جواز تعدده في نفسه لا يمكن أن يكون لكل مربوب إلا رب واحد لأنه مفيض الوجود وكمالاته معاً ، وفي العدول إلى لفظ الرب ترجيح جانب الرحمة وأنه تعالى يدعوهم إلى عبادته بلسان الترغيب والبسط قاله في "الكشف" .

﴿ وَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أي جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً على أن تقطع مضمن معنى الجعل فلذا تعدى إلى ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ بنفسه ، وقال أبو البقاء : تقطعوا أمرهم أي في أمرهم أي تفرقوا ، وقيل : عدى بنفسه لأنه بمعنى قطعوا أي فرقوا ، وقيل : ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ تمييز محول عن الفاعل أي تقطع أمرهم انتهى ، وما ذكر أولاً أظهر وأمر التمييز لا يخفى على ذي تمييز ، ثم أصل الكلام وتقطعتم أمركم بينهم على الخطاب فالتفت إلى الغيبة لينعي عليهم ما فعلوا من الفرق في الدين وجعله قطعاً موزعة وينهى ذلك إلى الآخرين كأنه قيل ألا ترون إلى عظم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى الذي أجمعت عليه كافة الأنبياء عليهم السلام وفي ذلك ذم للاختلاف في الأصول .

﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحدة من الفرق المتقطعة أو كل واحد من آحاد كل واحدة من تلك الفرق ﴿ إِلَيْنَا راجعون ﴾ بالبعث لا إلى غيرنا فنجازيهم حينئذٍ بحسب أعمالهم ، ولا يخفى ما في الجملة من الدلالة على الثبوت والتحقق .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾ تفصيل للجزاء أي فمن يعمل بعض الصالحا أو بعضاً من الصالحا ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ أي لا حرمان لثواب عمله ذلك ، عبر عنه بالكفران الذي هو سر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من القبائح ، وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى ونفى نفي الجنس المفيد للعموم للمبالغة في التنزيه ، والظاهر أن التركيب على طرز "لا مانع لما أعطيت" والكلام فيه مشهور بين علماء العربية ؛ وعبر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به ، وفي حرف عبد الله ﴿ فَلاَ كُفْرَانَ ﴾ والمعنى واحد ﴿ وَإِنَّا لَهُ ﴾ أي لسعيه ، وقيل : الضمير لمن وليس بشيء ﴿ كاتبون ﴾ أي مثبتون في صحيفة عمله لا يضيع بوجه ما ، واستدل بالآية على أن قبول العمل الصالح مطلقاً مشروط بالإيمان وهو قول لبعضهم ، وقال آخرون : الإيمان شرط لقبول ما يحتاج إلى النية من الأعمال ، وتحقيقه في موضعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(24/515)

وقال القاسمي :

﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ أي : علة التوحيد والاستسلام لمعبود واحد لا شريك له : ﴿ أُمَّتُكُمْ ﴾ أي : ملتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها . والخطاب للناس كافة : ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي : غير مختلفة . بل هي ملة واحدة . أي : أن جميع الأنبياء ورسل الله على ملة واحدة ودين واحد . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسلام ﴾ [آل عِمْرَان : 19] ، ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾ أي : لا إله لكم غيري : ﴿ فَاعْبُدُونِ ﴾ أي : ولا تشركوا بي شيئاً .

تنبيه :

(25/515)

قلنا : إن الأمة هنا بمعنى الملة ، وهو الدين المجتمع عليه ، كما في قوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف : 23] ، أي : على دين يجتمع عليه . والأمة بهذا المعنى هو ما رجحه كثير من المفسرين في هذه الآية ، وفي آية : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون : 51 - 52] ، وتطلق الأمة بمعنى الجماعة . كما هي في قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ

يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ أي : جماعة [الأعراف : 181] . وكما في قوله : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عِمْرَان : 104] ، ولا تكون بمعنى الجماعة مطلقاً ، وإنما هي بمعنى الجماعة الذين تربطهم رابطة اجتماع ، يعتبرون بها واحداً ، وتسوغ أن يطلق عليهم اسم واحد كاسم الأمة . وتطلق الأمة بمعنى السنين كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ [هود : 8] ، وفي قوله : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : 45] ,وبمعنى الإمام الذي يقتدى به ,كما في قوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ ﴾ [النحل : 120] ، وبمعنى إحدى الأمم المعروفة كما في قوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عِمْرَان : 110] ، وهذا المعنى الأخير لا يخرج عن معنى الجماعة ، على ما ذكرنا . وإنما خصصه العرف تخصيصاً . كذا حققه العلامة محمد عبده رحمه الله في تفسير آية : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [البقرة : 213] .

(26/515)

﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ أي : تفرق الناس في دينهم الذي أمرهم الله به ، ودعاهم إليه ، فصاروا فيه أحزاباً ومللاً .

قال الزمخشري رحمه الله : والأصل وتقطعتم إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات . كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه ، إلى آخرين ، ويقبح عندهم فعلهم ، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله ؟ والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً ، كما يتورع الجماعة الشيء ويقتسمونه . فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب ، تمثيلاً لاختلافهم فيه ، وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى . ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة ، إليه يرجعون . فهو محاسبهم ومجازيهم ، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ أي : فمن عمل من هؤلاء ، الذين تفرقوا في دينهم ، بما أمر الله به من العمل الصالح ، وأطاعه في أمره ونهيه ، وهو مقر بوحدانية الله ، مصدق وعده ووعيده ، متبرئ من الأنداد والآلهة ، فلا كفران لسعيه ، بل يشكر الله عمله هذا ، ويثيبه ثواب أهل طاعته . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَهُ ﴾ أي : لسعيه المشكور : ﴿ كَاتِبُونَ ﴾ أي : مثبتوه في صحيفة أعماله ، ولا نضيعه .

تنبيه :

الكفران مصدر من : كفر فلان النعمة كُفراً وكفراناً وأوثر لا كفران على لا نكفر للمبالغة . لأن نفي الجنس مستلزم له وأبلغ في التنزيه بعمومه . وعبر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به . والآية كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ﴾ [الإسراء : 19] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 231.233 ﴾

(27/515)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) ﴾

قد قدمنا معاني " الأمة " في القرآن في سورة " هود " . والمراد بالأمة هنا : الشريعة والملة . والمعنى : وأن هذه شريعتكم شريعة واحدة ، وهي توحيد الله على الوجه الأكمل من جميع الجهات ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه بإخلاص في ذلك . على حسب ما شرعه لخلقه ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فاعبدون ﴾ أي وحدي . والمعنى دينكم واحد وربكم واحد ، فلم تختلفون ﴿ وتقطعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ المعنى : جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما يتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه . فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب . تمثيلاً لاختلافهم فيه ، وصيرورتهم فرقاً شتى ا ه .

وظاهر الآية أن " تقطع " متعدية إلى المفعول ومفعولها " أمرهم " ومعنى تقطعوه . أنهم جعلوه قطعاً كما ذكرنا . وقال القرطبي قال الأزهري : ﴿ وتقطعوا أَمْرَهُمْ ﴾ أي تفرقوا في

أمرهم فنصب " أمرهم " بحذف " في " ومن إطلاق الأمة بمعنى الشريعة والدين كما في هذه الآية : قوله تعالى عن الكفار : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف : 22] أي على شريعة وملة ودين . ومن ذلك قول نابغة ذبيان :

حلفت فلم أترك في نفسك ريبة . . . وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

ومعنى قوله : " وهل يأثمن ذو أمة . . الخ " أن صاحب الدين لا يرتكب الإثم طائعاً .

(28/515)

وما ذكره جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين : من أن الدين واحد والرب واحد فلا داعي للاختلاف . وأنهم مع ذلك اختلفوا وصاروا فرقاً أوضحه في سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] وزاد أن كل حزب من الأحزاب المختلفة فرحون بما عندهم . وذلك في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فاتقون فتقطعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حتى حِينٍ ﴾ [المؤمنون : 51-54] . وقوله في هذه الآية ﴿ زُبُراً ﴾ أي قطعاً كزبر الحديد والفضة ، أي قطعها . وقوله ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون : 53] أي كل فرقة من هؤلاء الفرق الضالين المختلفين المتقطعين

دينهم قطعاً فرحون بباطلهم ، مطمئنون إليه ، معتقدون أنه هو الحق .

وقد بين جل وعلا في غير هذا الموضع : أن ما فرحوا به ، واطمأنّوا إليه باطل ، كما قال تعالى في سورة " المؤمن " : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قالوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر : 83-84] ، وقال : ﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى الله ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : 159] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ هذه ﴾ " هَذِه " اسم " إِنَّ " وخبرها ﴿ أُمَّتُكُمْ ﴾ . وقوله ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ حال كما هو ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(29/515)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) ﴾

﴿ إنّ ﴾ مكسورة الهمزة عند جميع القراء ، فهي ابتداء كلام .

واتفقت القراءات المشهورة على رفع ﴿ أمتُكم ﴾ .

والأظهر أن الجملة محكية بقول محذوف يدل عليه السياق .

وحذف القول في مثله شائع في القرآن .

والخطاب للأنبياء المذكورين في الآيات السابقة .

والوجه حينئذ أن يكون القول المحذوف مصوغاً في صيغة اسم الفاعل منصوباً على الحال .

والتقدير : قائلين لهم إن هذه أمتكم إلى آخره .

والمقول محكي بالمعنى ، أي قائلين لكلّ واحد من رسلنا وأنبيائنا المذكورين ما تضمنته جملة ﴿ إن هذه أمتكم ﴾ .

فصيغة الجمع مراد بها التوزيع ، وهي طريقة شائعة في الإخبار عن الجماعات .

ومنه قولهم : ركب القوم دَوَابهم ، فتكون هذه الآية جارية على أسلوب نظيرها في سورة المؤمنين .

وفيه ما يزيد هذه توضيحاً فإنه ورد هنالك ذِكر عدة من الأنبياء تفصيلاً وإجمالاً ، كما ذُكروا في هذه السورة .

ثم عقب بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ [المؤمنون : 51] وأَنّ بفتح الهمزة وبكسرها ﴿ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ [المؤمنون : 52] ، فظاهر العطف يقتضي دخول قوله تعالى : ﴿ وإنّ هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ في الكلام المخاطب به الرسل ، والتأكيد عن هذا الوجه لمجرد

الاهتمام بالخبر ليتلقاه الأنبياء بقوة عزم ، أو روعي فيه حال الأمم الذين يبلغهم ذلك لأن الإخبار باتحاد الحال المختلفة غريب قد يثير تردّداً في المراد منه فقد يحمل على المجاز فأكد برفع ذلك .

وهو وإن كان خطاباً للرسل فإن مما يقصد منه تبليغَ ذلك لأتباعهم ليعلموا أن دين الله واحد ، وذلك عون على قبول كل أمة لما جاء به رسولها لأنه معضود بشهادة مَن قبله من الرسل .

(30/515)

ويجوز أن تكون الجملة استئنافاً والخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أي أن هذه الملة ، وهي الإسلام ، هي ملة واحدة لسائر الرسل ، أي أصولها واحدة كقوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ [الشورى : 13] الآية .

والتأكيد على هذا لردّ إنكار من ينكر ذلك مثل المشركين .

والإشارة بقوله تعالى : ﴿ هذه ﴾ إلى ما يفسره الخبر في قوله تعالى : ﴿ أُمتكم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قال هذا فراق بيني وبينك ﴾ [الكهف : 78] .

فالإشارة إلى الحالة التي هم عليها يعني في أمور الدين كما هو شأن حال الأنبياء والرسل .

فما أفادته الإشارةُ من التمييز للمشار إليه مقصود منه جميع مَا عَليه الرسل من أصول

الشرائع وهو التوحيد والعمل الصالح .

والأمة هنا بمعنى الملة كقوله تعالى : ﴿ قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ [الزخرف : 22] ، وقال النابغة:

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبَة . . .

وهل يأثَمَنْ ذو أُمة وهو طائع

وأصل الأمة : الجماعة التي حالها واحد ، فأطلقت على ما تكون عليه الجماعة من الدين بقرينة أن الأمم ليست واحدة .

و﴿ أمة واحدة ﴾ حال من ﴿ أمتكم ﴾ مؤكدة لما أفادته الإشارة التي هي العامل في صاحب الحال .

وأفادت التمييز والتشخيص لحال الشرائع التي عليها الرسل أو التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم

ومعنى كونها واحدة أنها توحّد الله تعالى فليس دونه إله .

وهذا حال شرائع التوحيد وبخلافها أديان الشرك فإنها لتعدد آلهتها تتشعب إلى عدة أديان لأن لكل صنم عبادة وأتباعاً وإن كان يجمعها وصف الشرك فذلك جنس عام وقد أوماً إلى هذا قوله تعالى : ﴿ وأنا ربكم ﴾ ، أي لا غيري .

وسيأتي بسط القول في عَربية هذا التركيب في تفسير سورة المؤمنين .

وأفاد قوله تعالى : ﴿ وأنا ربكم ﴾ الحصر ، أي أنا لا غيري بقرينة السياق والعطف على ﴿ أمة واحدة ﴾ ، إذ المعنى : وأنا ربكم رباً واحداً ، ولذلك فرع عليه الأمر بعبادته ، أي فاعبدون دون غيري .

(31/515)

وهذا الأمر مراعى فيه ابتداءً حال السامعين من أمم الرسل ، فالمراد من العبادة التوحيد بالعبادة والمحافظة عليها .

﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93) ﴾

عطف على جملة ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ [الأنبياء : 92] أي أعرضوا عن قولنا .

و ﴿ تقطّعوا ﴾ وضمائر الغيبة عائدة إلى مفهوم من المقام وهم الذين مِن الشأن التحدّثُ عنهم في القرآن المكي بمثل هذه المذام ، وهم المشركون .

ومثل هذه الضمائر المرادِ منها المشركون كثير في القرآن .

ويجوز أن تكون الضمائر عائدة إلى أمم الرسل .

فعلى الوجه الأول الذي قدمناه في ضمائر الخطاب في قوله تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة

واحدة ﴾ [الأنبياء : 92] يكون الكلام انتقالاً من الحكاية عن الرسل إلى الحكاية عن حال أممهم في حياتهم أو الذين جاءوا بعدهم مثل اليهود والنصارى إذ نقضوا وصايا أنبيائهم .

وعلى الوجه الثاني تكون ضمائر الغيبة التفاتاً .

ثم يجوز أن تكون الواو عاطفة قصة على قصة لمناسبة واضحة كما عطف نظيرها بالفاء في سورة المؤمنين .

ويجوز كونها للحال ، أي أمَرنا الرسل بملة الإسلام ، وهي الملة الواحدة ، فكان من ضلال المشركين أن تقطعوا أمرهم وخالفوا الرسل وعدلوا عن دين التوحيد وهو شريعة إبراهيم أصلهم .

ويؤيد هذا الوجه أن نظير هذه الآية في سورة المؤمنين جاء فيه العطف بفاء التفريع .

والتقطع : مطاوع قَطّع ، أي تفرقوا .

وأسند التقطع إليهم لأنهم جعلوا أنفسهم فرقاً فعبدوا آلهة متعددة واتخذت كل قبيلة لنفسها إلهاً من الأصنام مع الله ، فشبه فعلهم ذلك بالتقطع .

وفي "جمهرة الأنساب" لابن حزم : "كان الحُصين بن عبيد الخُزاعي ، وهو والد عمران بن حُصين لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله : " يا حصين ما تعبد ؟ قال : عشرة آلهة ، قال : ما هم وأين هم ؟ قال : تسعة في الأرض وواحد في السماء .

قال : فمَن لحاجتك ؟ قال : الذي في السماء ، قال : فمن لِطلْبَتِكَ ؟ قال : الذي في السماء ، قال : فمن لكذا ؟ فمن لكذا ؟ كُلّ ذلك يقول : الذي في السماء ، قال رسول الله : فالغ التسعة " .

وفي كتاب الدعوات : من "سنن الترمذي" : أنه قال : " سبعة ستة في الأرض وواحد في السماء " .

والأمر : الحال .

والمراد به الدين كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم في ﴾ [سورة الأنعام : 159] .

ولمّا ضُمن ﴿ تقطعوا ﴾ معنى توزّعوا عُدّي إلى "دينهم" فنصبَه ، والأصل : تقطعوا في دينهم وتوزعوه .

وزيادة ﴿ بينهم ﴾ لإفادة إنهم تعاونوا وتظاهروا على تقطّع أمرهم .

فربّ قبيلة اتخذت صنماً لم تكن تعبُدهُ قبيلة أخرى ثم سوّلوا لجيرتهم وأحلافهم أن يعبدوه فألحقوه بآلهتهم .

وهكذا حتى كان في الكعبة عدة أصنام وتماثيل لأن الكعبة مقصودة لجميع قبائل العرب .

وقد روي أن عَمرو بن لُحيَ الملقب بخزاعة هو الذي نقل الأصنام إلى العرب .

وجملة ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لجواب سؤال يجيش في نفس سامع قوله تعالى ﴿ وتقطعوا أمرهم ﴾ وهو معرفة عاقبة هذا التقطع .

وتنوين ﴿ كلٌّ ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أي كلّهم ، أي أصحاب ضمائر الغيبة وهم المشركون .

والكلام يفيد تعريضاً بالتهديد .

ودلّ على ذلك التفريع في قوله تعالى ﴿ فمن يعمل من الصالحات ﴾ [الأنبياء : 94] إلى آخره .

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾

فُرّع على الوعيد المعرض به في قوله تعالى : ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ [الأنبياء : 94] تفريعٌ بديع من بيان صفة ما توعدوا به ، وذلك من قوله تعالى : ﴿ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ [الأنبياء : 97] الآيات .

(33/515)

وقدم وَعد المؤمنين بجزاء أعمالهم الصالحة اهتماماً به ، ولوقوعه عقب الوعيد تعجيلاً لمسرة المؤمنين قبل أن يسمعوا قوارع تفصيل الوعيد ، فليس هو مقصوداً من التفريع ، ولكنه يشبه الاستطراد تنويهاً بالمؤمنين كما سيُعتَنى بهم عقب تفصيل وعيد الكافرين بقوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ [الأنبياء : 101] إلى آخر السورة .

والكفران مصدر أصله عدم الاعتراف بالإحسان ، ضد الشكران .

واستعمل هنا في حرمان الجزاء على العمل الصالح على طريقة المجاز لأن الاعتراف بالخير يستلزم الجزاء عليه عُرفاً كقوله تعالى : ﴿ وما تفعلوا من خير فلن تكفروه ﴾ [آل عمران : 115] فالمعنى : أنهم يُعطَون جزاء أعمالهم الصالحة .

وأكد ذلك بقوله : ﴿ وإنا له كاتبون ﴾ مؤكداً بحرف التأكيد للاهتمام به .

والكتابة كناية عن تحققه وعدم إضاعته لأن الاعتناء بإيقاع الشيء يستلزم الحفظ عن إهماله وعن إنكاره ، ومن وسائل ذلك كتابته ليذكر ولو طالت المدة .

وهذا لزوم عرفي .

قال الحارث بن حلزة:

وهَل يَنقض ما في المهارق الأهواء

وذلك مع كون الكتابة مستعملة في معناها الأصلي كما جاءت بذلك الظواهر من الكتاب والسنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(34/515)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) ﴾

الأمة : الجماعة يجمعها رباط واحد من أرض أو مُلك مَلِك أو دين ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ . . ﴾ [الزخرف : 22] يعني : على دين .

فالمراد : هذه أمتكم أمةٌ حال كَوْنها أمةً واحدة ، لا اختلافَ فيها والرسل جميعاً إنما جاءوا ليتمموا بناءً واحداً ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاّ وُضِعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين " .

والمعنى أن به صلى الله عليه وسلم تتم النبوة وتختم .

وتُطلَق الأمة على الرجل الذي يجمع خصال الخير كلها ؛ لأن الله تعالى بعثر خصال الخير في الخَلْق ، فليس هناك مَنْ هو مَجْمع مواهب وفضائل ، إنما في كل منا ميزةٌ وفضيلةٌ في جانب

من الجوانب ؛ ليتكامل الناس ويحتاج بعضهم إلى بعض ، ويحدث الترابط بين عناصر المجتمع ، هذا الترابط يتم إمَّا بحاجات تطوُّعية ، أو حاجات اضطرارية .

فلو تعلَّم الناس جميعاً وتخرجوا في الجامعة فَمنْ للمِهَن والحِرَف الأخرى ؟ مَنْ سيكنس الشوارع ، ويقضي مثل هذه الأمور ؟ لو تعطلتْ مجاري الصرف الصحي ، أيجتمع هؤلاء الدكاترة والأساتذة لإصلاحها ، ولو أصلحوها مرة فهذا تطوُّع .

أمّا المصالح العامة فلا تقوم على التطوع إنما تقوم على الحاجة والاضطرار ، ولولا هذه الحاجة لما خرجَ عامل الصرف الصحي في الصباح إلى هذا العمل الشاقّ المنفّر ، لكن كيف وفي رقبته مسئولية أُسْرة وأولاد ونفقات ؟

وسبق أنْ قُلْنا : ينبغي ألَّا يغترَّ المرء بما عنده من مواهب ومميزات ، ولا يتعالى بها على خَلْق الله ، وعليه أنْ يسأل عَمَّا عند الآخرين من مواهب يحتاج هو إليها ، ولا يؤديها بنفسه .

(35/515)

إذن : الحاجة هي الرابطة في المجتمع ، ولو كانَ التطوّع والتفضّل فلن نحقق شيئاً ، فلو قلنا للعامل : تفضل بكنس الشارع لوجدَ ألْفَ عذر يعتذر به ، أما إنْ كان أولاده سيموتون جوعاً إن لم يعمل فلا شكَّ أنه سيُسرع ويُبادر .

فالحقيقة أن كل فرد في المجتمع لا يخدم إلا نفسه ، فكما تنفع الآخرين تنتفع بهم ؛ لذلك إياك أنْ تحسد صاحب التفوق على تفوّقه في أمر من الأمور ؛ لأن تفوقه في النهاية عائد عليك .

وكما نقول هذه المسائل في أمور الدنيا نقولها في أمور الآخرة ، حين نرى صاحب التديُّن ، وصاحب الخُلق والالتزام لا نهزأ به ولا نسخر منه ، كما يحلو للبعض ؛ لأن صلاحه سيعود عليك ، وسوف تنتفع بتديُّنه واستقامته ولعلنا نُرزَق بسبب هؤلاء .

وقد يكون في البيت الواحد فُتوات وأذكياء ومتعلمون وفيهم مُعوَّق أو مجنون أو مجذوب ، فترى الجميع يحتقرونه ، ويُهوِّنون من شأنه ، أو تراه منبوذاً بين هؤلاء مُبْعَداً ، لا يشرُف بمعرفته أحد ، وربما يعيشون جميعاً في ظِلّه ويُرزَقون كرامة له .

وكثيراً ما نرى الناس يغضبون وينقمون على قضاء الله إن رزقهم بمولود فيه عيب أو إعاقة ، ووالله لو رضيتَ به وتقبلْتَ قضاء الله فيه ، لكان هو الظل الظليل لك .

فهؤلاء خُلِقوا هكذا لحكمة ، حتى لا نتمرد على صَنْعة الله في كَوْنه ، وحتى يشعر أهل النعمة والسلامة والصحة بفضل عليهم ، ولنعلم أن الله تعالى لا يسلب شيئاً من عبده إلاّ وقد أعطاه عِوَضاً عنه .

(36/515)

ولك أن تلاحظ مثلاً أحوال الناس المجاذيب الذين تراهم في أيِّ مكان مُهملين يستقلهم الناس ، وينفرون من هيئتهم الرثّة ، ومع ذلك ترى أصحاب الجاه والسلطان إذا نزلتْ بهم ضائقة وأعيَتْهم الأسباب يلجئون لمثل هؤلاء المجاذيب يلتمسون منهم البركة والدعاء ، وهذا في حَدِّ ذاته أسمى ما يمكن أن يتطلع إليه أهل الجاه وأهل السلطان والنفوذ ، أن تكون كلمتهم مسموعةً وأمرهم مُطاعاً ، وأن يلجأ الناس إليهم كما لجئوا إلى هذا المجذوب المسكين .

فإذا ما أجرى الله الخير على يد هذا الشيخ المجذوب ترى السيد العظيم يتمحك فيه ، ويدعوه إلى طعامه ، ويدفع عنه أذى الناس ويحتضنه ، لأنه جرَّب وعلم أن لديه فيضاً من فيض الله وكرامة يختص الله بها مَنْ يشاء من عباده ، ونحن جميعاً عباد الله ليس فينا مَنْ هو ابن لله ، أو بينه وبين الله قرابة .

وإنْ كان العقل هو أعزّ ما يعتز به الإنسان ، وهو زينته وحليته ، فلك أن تنظر إلى المجنون الذي فقد العقل ، وحُرِم هذه الآلة الغالية ، وترى الناس يشيرون إليه : هذا مجنون ، نعم هو مجنون ، لكن انظر إلى سلوكه : هل رأيتم مجنوناً يسرق ؟ هل رأيتم مجنوناً يزني ؟ هل رأيتم مجنوناً انتحر ؟

إذن : مع كونه مجنوناً إلا أنه مدرك لنفسه تماماً ؛ لأن خالقه عز وجل وإنْ سلبه العقل إلا أنه أعطاه غريزة تحكمه كما تحكم الغريزة الحيوان ، وهل رأيتم حماراً ألقى بنفسه مثلاً أمام القطار ؟

إذن : علينا ألاَّ نُحقِّر هؤلاء ، وألاَّ نستقل بهم فقد عوَّضهم الله عما سلبه منهم ، ومنّا مَنْ يسعى ليصل إلى ما وصلوا هم إليه ولا يستطيع ، ومَنْ مِنّا لا يتمنى أن يكون مثل هذا المجذوب الذي يتمسَّح الناس فيه ، ويطلبون منه البركة والدعاء ؟ وأيُّ عظمة يطلبها الإنسان فوق هذا ؟ ويكفي هذا أنه لا يُسأَلُ عَمّا يفعل في الدنيا ، ولا يُسْأَل كذلك في الآخرة .

(37/515)

نعود إلى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً . . ﴾ [الأنبياء : 92] فمن معاني أمة : الرجل الذي جمع خصال الخير كلها ؛ لذلك وصف الله نبيه إبراهيم بأنه أمة ، فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً . . ﴾ [النحل : 120] .

يعني : جمع من خصال الخير مَا لا يوجد إلا في أمة كاملة .

والأمة لا تكون واحدة ، إلا إذا صدر تكوينها المنهجي عن إله واحد ، فلو كان تكوينها من متعدد لذهب كُلٌّ إله بما خلق ، ولعلاَ بعضهم على بعض ، ولفسد الحال .

إذن : كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض . . ﴾ [المؤمنون : 71] .

فلا تكون الأمة واحدة إلا إذا استقبلت أوامرها من إله واحد وخضعت لمعبود واحد ، فإنْ نسيتْ هذا الإله الواحد تضاربتْ وتشتتتْ .

وكأن الحق سبحانه يقول : أنتم ستجربون أمة واحدة ، تسودون بها الدنيا وتنطلق دعوتكم من أمة أمية لا تعرف ثقافة ، ولا تعرف علماً ، ولم تتمرس بحكم الأمم ؛ لأنها كانت أمة قبلية ، لكل قبيلة قانونها وسيادتها وقيادتها .

ثم ينزل لكم نظام يجمع الدنيا كلها بحضاراتها ، نظام يطوي تحت جناحه حضارة فارس وحضارة الروم ويُطوِّعها ، ولو أنكم أمة مثقفة لقالوا قفزة حضارية ، إنما هذه أمة أمية ، ونبيها أيضاً أُمِّي إذن : فلا بُدَّ أن يكون المنهج الذي جاء به ليسلب هذه الحضارات عِزَّها ومجدَها منهجاً أعلى من كل هذه المناهج والحضارات .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فاعبدون ﴾ [الأنبياء : 92] أي : التزموا بمنهجي لتظلوا أمة واحدة ، واختار صفة الربوبية فلم يقُلْ : إلهكم ؛ لأن الرب هو الذي خلق ورزق وربى ، أمّا الإله فهو الذي يطلب التكاليف .

(38/515)

فالمعنى : ما دُمْتُ أنا ربكم الذي خلقكم من عَدَم ، وأمدكم من عُدْم ، وأنا القيوم على مصالحكم ، أكلؤكم بالليل والنهار ، وأرزق حتى العاصي والكافر بي ، فأنا أوْلَى بالعبادة ، ولا يليق بكم أن أصنع معكم هذا كله وتذهبون إلى إله غيري ، هذا منطق العقل السليم ، وكما يقولون (اللي يأكل لقمتي يسمع كلمتي) .

ومن العبادة أن تطيع الله في أمره ونَهْيه ؛ لأن ثمرة هذه الطاعة عائدة عليك بالنفع ، فلله تعالى صفات الكمال الأزليّ قبل أنْ يخلق مَنْ يطيعه ، فطاعتك لن تزيد شيئاً في مُلْك الله ، ومعصيتك لن تنتقص منه شيئاً . إذن : فالأمر راجع إليك ، وربك يُثيبك على فعل هو في الحقيقة لصالحك .

لكن ، هل سمع الناس هذا النداء وعملوا بمقتضاه ، فكانوا أمة واحدة كهذه الأمة التي أدخلتْ الدنيا في رحاب الإسلام في نصف قرن ؟ هذه الأمة التي ما زلنا نرى أثرها في البلاد التي تمردتْ على العروبة ، وعلى لغة القرآن ، ومع ذلك هم مسلمون على لغاتهم وعلى حضارتهم ، إن الدين الذي يصنع هذا ، والأمة الواحدة التي تحمَّلتْ هذه المسئولية ما كان ينبغي أن نتخلى عنها .

والسؤال : هل بقيت الأمة الواحدة ؟ تجيب الآيات : ﴿ وتقطعوا أَمْرَهُمْ . . ﴾ .

أي : صاروا شيعاً وأحزاباً وجماعات وطوائف ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ . . ﴾ [الأنعام : 159] .

لماذا ، لست منهم في شيء ؟ لأنهم يقضون على واحدية الأمة ، ولا يقضون على واحدية الأمة إلا إذا اختلفتْ ، ولا تختلف الأمة إلا إذا تعددتْ مناهجها ، هنا ينشأ الخلاف ، أمَّا إنْ صدروا جميعاً عن منهج واحد فلن يختلفوا .

وما داموا قد تقطعوا أمرهم بينهم ، فصاروا قِطَعاً مختلفة ، لكل قطعة منهج وقانون ، ولكل قطعة تكاليف ، ولكل قطعة راية ، وكأن آلهتهم متعددة ، فهل سيُتركون على هذا الحال ، أم سيعودون إلينا في النهاية ؟

(39/515)

﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : 93] إذن : أنتم أمة واحدة في الخَلْق من البداية ، وأمة واحدة في المرجع وفي النهاية ، فلماذا تختلفون في وسط الطريق ؟

إذن : الاختلاف ناشىء من اختلاف المنهج ، وكان ينبغي أن يكون واضع المنهج واحداً .

وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم خَاتَماً للرسالات ، وجاءت شريعته جامعة لمزايا الشرائع السابقة ، بل وتزيد عليها المزايا التي تتطلبها العصور التي تلي بعثته .

فكان المفروض أن تجتمع الأمة المؤمنة على ذلك المنهج الجامع المانع الشامل ، الذي لا يمكن أن يستدرك عليه ، وبذلك تتحقق وحدة الأمة ، وتصدر في تكليفاتها عن إله واحد ، فلا

يكون فيها مَدْخَل للأهواء ولا للسلطات الزمنية أو الأغراض الدنيئة .

لذلك ، إذا تعددت الجماعات التي تقول بالإسلام وتفرقت نقول لهم : كونوا جماعة واحدة ، وإلا فالحق مع أيّ جماعة منكم ؟ ! لأن الله تعالى خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 159] .

ولا يتفرق الداعون لدعوة واحدة إلا باتباع الأهواء والأغراض ، أما الدين الحق فهو الذي يأتي على هوى السماء ، موافقاً لما ارتضاه الله تعالى لخَلْقه .

لقد انفضَّ المؤمنون عن الجامع الذي يجمعهم بأمر الله ، فانفضت عنهم الوحدة ، وتدابروا حتى لم يَعُدْ يجمعهم إلا قَوْلُ " لا إله إلا الله محمد رسول الله " أما مناهجهم وقوانينهم فقد أخذوها من هنا أو من هناك ، وسوف تعضهم هذه القوانين ، وسوف تخذلهم هذه الحضارات ، ويرون أثرها السيء ، ثم يعودون في النهاية إلى الإسلام فهو مرجعهم الوحيد ، كما نسمع الآن نداء لا حَلَّ إلا الإسلام .

(40/515)

نعم ، الإسلام حَلٌّ للمشاكل والأزمات والخلافات والزعامات ، حَلٌّ للتعددية التي أضعفتْ المسلمين وقوَّضَتْ أُخوَّتهم التي قال الله فيها : ﴿ واعتصموا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ

واذكروا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً . . ﴾ [آل عمران : 103] .

ووالله ، لو عُدْنا إلى حبل الله الواحد فتمسّكنا به ، ولم تلعب بنا الأهواء لَعُدْنا إلى الأمة الواحدة التي سادتْ الدنيا كلها .

إذن : ﴿ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : 93] أي : في الآخرة للحساب ، وأنا أقول يا رب . لعل هذا الرجوع يكون في الدنيا بأنْ تعضَّنا قوانين البشر ، فنفزع إلى الله ونعود إليه من جديد ، فيعود لنا مجدنا ، ويصْدُق فينا قَوْل الرسول صلى الله عليه وسلم : " بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ غريباً ، فطوبى للغرباء " .

ويُعزِّز هذا الفهم ويُقوِّي هذا الرجاء قول الله تعالى بعدها : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ . . ﴾ .

الحق –سبحانه وتعالى– يستأنف معنا العظة بالعمل الصالح ليعطينا الأمل لو رجعنا إلى الله ، والدنيا كلها تَشهد أن أيَّ مبدأ باطل ، أو شعار زائف زائل يُزخرفون به أهواءهم لا يلبث أنْ ينهار ولو بَعْد حين ، ويتبين أصحابه أنه خطأ ويعدلون عنه .

ومثال ذلك الفكر الشيوعي الذي ساد روسيا منذ عام 1917 وانتهكت في سبيله الحرمات ، وسفكتْ الدماء ، وهدمتْ البيوت ، وأخذت الثروات ، وبعد أن كانت أمة

تصدر الغذاء لدول العالم أصبحت الآن تتسول من دول العالم ، وهم أول مَنْ ضَجَّ من هذا الفكر وعانى من هذه القوانين .

(41/515)

وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ . . ﴾ [الأنبياء : 94] ربط العمل الصالح بالإيمان ، لأنه مُنطلَق المؤمن في كُلِّ ما يأتي وفي كُلِّ ما يدع ؛ لينال بعمله سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

أمّا مَنْ يعمل الصالح لذات الصلاح ومن منطلق الإنسانية والمروءة ، ولا يخلو هذا كله في النهاية عن أهواء وأغراض ، فليأخذ نصيبه في الدنيا ، ويحظى فيها بالتكريم والسيادة والسُّمْعة ، وليس له نصيب في ثواب الآخرة ؛ لأنه فَعَل الخير وليس في باله الله .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لذلك في قوله تعالى : ﴿ الذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ . . ﴾ [النور : 39] .

يعني : فوجئ بوجود إله يحاسبه ويجازيه ، وهذه مسألة لم تكُنْ على باله ، فيقول له : عملتَ ليقال وقد قيل . وانتهت المسألة ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ

فِي حَرْثِهِ . . ﴾ [الشورى : 20] أي : نعطيه أجره في عالم آخر لا نهاية له ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20] .

لأنه عَمِلَ للناس ، فليأخذ أجره منهم ، يُخلِّدون ذكراه ، ويُقيمون له المعارض والتماثيل . . الخ .

وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ . . ﴾ [الأنبياء : 94] يعني : لا نبخسه حَقَّه ولا نجحد سَعْيه أبداً ﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ [الأنبياء : 94] نسجِّل له أعماله ونحفظها ، والمفروض أن الإنسان هو الذي يُسجِّل لنفسه ، فإنْ سجَّل لك عملَك ربُّك الذي يُثيبك عليه ، وسجَّله على نفسه ، فلا شكَّ أنه تسجيل دقيق لا يبخسك مثقال ذرة من عملك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(42/515)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) (الأنبياء : 92-93) ، وفي سورة المؤمنون : (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (المؤمنون : 52-53) ، للسائل أن يسأل عن قوله في الأولى : (فَاعْبُدُونِ) وفي الثانية : (فَاتَّقُونِ) ؟ وفي الأولى : (وَتَقَطَّعُوا) وفي الثانية (فَتَقَطَّعُوا) ؟ وفيها أيضاً : (زُبُرًا) ولم يرد في الأولى ؟ وأتبعت الأولى بقوله : (كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) والثانية بقوله : (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) ؟ فهذه أربعة مواضع مما يسأل عنها ؟

فأقول تمهيداً للجواب : الأمة هنا الملة ، وقوله : (إِنَّ هَذِهِ) إشارة إلى ملة الإسلام ، قال الزمخشري : أي ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها ، لا تنحرفون عنها ، ملة واحدة وغير مختلفة ، وأنا إلهكم إله واحد فاعبدون ، والخطاب للناس كافة ، قال : والأصل وتقطعتم إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات ، كأنه ينفي عنهم ما أسمدوه ، ويقبح عندهم فعله ، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله ، قال والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما تتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه فيصير لهذا نصيب ولذاك نصيب ، تمثيلاً لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى ، ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ، فهو يحاسبهم ويجازيهم ، هذا معنى كلامه .

(43/515)

ونرجع إلى الجواب (فنقول : الجواب) عن الأول أن سورة الأنبياء لم يرد فيها ذكر لفظ التقوى في أمر ولا خبر من أولها إلى آخرها ، وورد الأمر بالعبادة في قوله : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء : 25) . وأما سورة المؤمنون فتكرر فيها ذكر التقوى في ثلاثة مواضع ، أولها –قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) (المؤمنون : 23) ، وفي ما بعد الآية المتكلم فيها (قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) (المؤمنون : 87) ، فروعي في الأولى ما تقدمها ، ونوسب بالثانية ما اكتنفها ، وأيضاً فإن العبادة مأمور بها ليحصل الاتقاء ، فهي مقدمة في الطلب لتحصيل ما يتسبب عنها إذا كانت الإجابة ، وعلى ذلك ورد دعاء الخلق ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة : 21) ، وفي سورة المؤمنون المذكورة : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا

(44/515)

إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) (المؤمنون : 23) ، فالاتصاف بالتقوى ثان عن الاتصاف بالعبادة ، فقيل في الأنبياء : (فَاعْبُدُونِ) وفي سورة

المؤمنون : (فَاتَّقُونِ) ، وكلاهما ذكر على مقتضى الترتيب ، وأيضاً فإنا إذا اعتبرنا ما قدم من قصص الرسل في السورتين وجدنا الوارد في سورة الأنبياء مقصوراً على ذكر منحهم وتخليصهم وتأييدهم من لدن قوله تعالى في إبراهيم : (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ) (الأنبياء : 51) ، وقوله : (وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) (الأنبياء : 73) ، فتضمنت هذه الآي بضعة عشر نبياً ، أولهم إبراهيم وآخرهم من أعقب ذكره بالآية المذكورة ، وقد اقتصر من قصصهم في هذه الآي على ما يطلع المؤمنين على تكفله سبحانه بالمصطفين من عباده وما اختصهم به ، ولم يرد مع ذلك تكذيب قومهم لهم ، ولا ما يرجع إلى هذا وكل هذا تأنيس وذكر نعم وآلاء وألطاف يناسبها قوله : (فَاعْبُدُونِ) لكونه أمراً بالعبادة مجرداً عما في قوله : (فَاتَّقُونِ) من التخويف .

(45/515)

وأما الوارد في سورة طه فمتضمن الطرف الذي عدل عنه في سورة الأنبياء ، وهو ذكر جواب الأمم للرسل وقبيح تكذيبهم إياهم وشنيع ردهم وقبيح مقالهم كقول قوم نوح ، عليه السلام : (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ) (المؤمنون : 24) ، (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ) (المؤمنون : 24-25) ، ثم بالغوا في

الاستهزاء بقولهم في إخبار الله تعالى عنهم : (فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ) (المؤمنون : 25) ، وقول أهل القرون المذكورين بعد قوم نوح لنبيهم : (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) (المؤمنون : 33) ، وقوله : (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ) (المؤمنون : 34) إلى قوله : (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) (المؤمنون : 38) ، وقوله تعالى لما تواتر ذكر إرسال الرسل وتكذيب قومهم لهم فقال تعالى : (كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ) (المؤمنون : 44) إلى قوله : (فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) (المؤمنون : 44) ، وقال تعالى مخبراً عن قوم موسى : (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) (المؤمنون : 46) ، فناسب هذا التخويف بقوله عقب هذا : (فَاتَّقُونِ) ، كما ناسب ما تقدم في آية سورة الأنبياء قوله تعالى : (فَاعْبُدُونِ) ، ولم يكن ليناسب ورود واحدة منها موضع الأخرى ، فجاء كل على ما يجب ، ولا يمكن خلافه .

(46/515)

والجواب عن السؤال الثاني ، وهو الفرق بين قوله في سورة الأنبياء (وَتَقَطَّعُوا) ، وفي سورة المؤمنون (فَتَقَطَّعُوا) بفاء التعقيب : أنه ورد في آي الأنبياء قبل هذه الآية تأنيساً لنبيا صلى الله عليه وسلم قوله : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) (الأنبياء : 7)

وقوله : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (الأنبياء : 7) ، ثم قال : (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) (الأنبياء : 8) إلى قوله : (ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ) (الأنبياء : 9) ، فنبهوا على السؤال ، ثم ذكر من قصص الأنبياء أوضحه وأجلاه لمن اعتبر ، وأورد ذلك إيراد التلطف بذكر تخليص أولئك العيلة ، عليهم السلام ، وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ) (الأنبياء : 25-26) ، ونظير هذا قوله تعالى : (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) (الرعد : 30) . فهذه الآي في قوة أن لو قيل : نحن نبين لهم وهم يكفرون ، فهو سبحانه يذكر لنبيه صلى الله عليه وسلم أحوال الأمم مع الرسل مع مشاهدة الآيات تأنيساً له صلى الله عليه وسلم وتذكيراً بالصبر على قومه ، (فعلى) هذا المنهج جرى الوارد من قوله : (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ) (الأنبياء : 93) أي نبهناهم على السؤال ، وأوضحنا (لهم) أمر من تقدمهم وعاقبة الاستجابة لمن تمسك بهدي المذكورين ، وهم مع ذلك على عنادهم وافتراقهم ، وكأن الكلام وارد مورد التعجب من أمرهم ، ولم يشبه شدة الوعيد ليبقى

رجاؤه ، عليه السلام ، في استجابتهم ، فلم يخل معنى الكلام مع الإخبار بتفرقهم عن بعض إبقاء تأنيس مناسباً لما تقدمه ، ولهذا لم يقع بعد الآية تسجيل بتصميم على الكفر ولا إمعان في طرف التخويف الوارد في آية المؤمنون من قوله : (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (المؤمنون : 53) إلى قوله : (بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) (

(48/515)

المؤمنون : 56) كما في آية الأنبياء آنفاً .

أما قوله في المؤمنون : (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ) (المؤمنون : 53) فمنزل على ما قبله منزلة قوله في سورة النحل : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ) (النحل : 36) إلى قوله : (وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) (النحل : 36) ، وهذا وعيد شديد لمن حقت عليه كلمة العذاب ولم يجد عليه التذكار ، فكان مجموع هذه الآي في قوة أن لو قيل لهم : قد بين لكم ، وأطلعتم على مآل من كذب ، وخوطبتم بما قيل للرسل : (كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا) (المؤمنون : 51) ، وملة الكل ملة واحدة ، ولم تؤمروا بما لا تطيقونه ، فتقطعتم . إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات ، كما جرى في سورة الأنبياء فقيل : (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ) أي فتفرقوا وما أجدي عليهم القرآن شيئاً ، فهذه الآية أشد في

التخويف والترهيب من الأخرى ، وكل يناسب ما قبله . ولو وردت إحداهما موضع الأخرى لما ناسب ، والله أعلم .

(49/515)

والجواب عن السؤال الثالث : أن قوله في آية المؤمنون (زُبرا) تأكيد لافتراقهم ، وانتصابه على الحال الواردة بياناً وتأكيداً لقبح تفرقهم وشنيع مرتكبيهم ، فناسب ذلك مقصود هذه الآية هنا من التخويف والإنذار ، ولم يكن ليناسب آية الأنبياء لبنائها على غير ما قصد هنا ، لما تقدمها من تأنيس نبينا صلى الله عليه وسلم ، وتعريفه بما منح سبحانه متقدمي الرسل ، وما أعقبهم صبرهم على أممهم ، وهو ، عليه السلام ، قد قيل له : (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) (الأنعام : 90) ، فقدم له ، عليه السلام ، في سورة الأنبياء من قصصهم ما ثبت فؤاده ، وصار جليل هذا التأنيس مما بنيت عليه السورة ، وعلى ذلك جرت سورة مريم وسورة طه على ما مهدته وبسطته في ترتيب هذه السور الكريمة ، فمن حيث الإشارة إلى ما ذكر لم يكن ليناسب ذلك تأكيد افتراقهم وتشتتهم ، ولما رجع الكلام للآية الثانية ، بعد تثبيته ، عليه السلام ، وتأنيسه ، إلى التعريف بمرتكبات الأمم ، وذكر ما

استحقوا به ما عوقبوا به ، وإن كلاً من المكذبين أخذ بذنبه ، كان ذلك مظنة تأكيد المرتكب ، فقيل : (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا) (المؤمنون : 53) ، والله أعلم .

(50/515)

والجواب عن السؤال الرابع : أن تعقيب آية الأنبياء بقوله : (كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) (الأنبياء : 93) وإن كان وعيداً وتهديداً فليس في شدة التهديد ومخوف الوعيد كالواقع في سورة المؤمنون ، يوضح ذلك ويبينه ما اتصل بكل من الآيتين من قوله في آية الأنبياء : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) (الأنبياء : 94) ، فذكر عند وجوعهم إليه سبحانه جزاء من أجاب وأحسن ، وطوى الكلام عن الإفصاح بحكم الطرف الآخر من ذكر من أساء ، فلم يجر لهم ذكر مفصح به كما في الطرف الآخر ، مع أن إجمال قوله تعالى : (كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) (الأنبياء : 93) وما أعقب به من قوله : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) (الأنبياء : 94) كقوله في آية المؤمنون : (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ) (المؤمنون : 54) وقوله : (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) (المؤمنون : 55-56) فقد وضح مناسبة المتبع به في كل من

الآيتين لما تقدمه ، ولم يكن ليناسب عكس الوارد ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 353.356 ﴾

(51/515)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) ﴾

قوله : ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ : العامَّةُ على رفع " أمتكُم " خبراً ل " إنَّ " ونصب " أمةً واحدةً " على الحالِ . وقيل على البدل من " هذه " ، فيكونُ قد فُصِلَ بالخبرِ بين البدلِ والمبدلِ منه نحو " إن زيداً قائمٌ أخاك " .

وقرأ الحسنُ " أُمَّتَكم " بالنصبِ على البدل من " هذه " أو عطف البيان . وقرأ أيضاً هو وابن أبي إسحاق والأشهبُ العقيلي وأبو حيوة وابن أبي عبلة وهارون عن أبي عمرو " أُمَّتُكم أمَّةٌ واحدةٌ " برفع الثلاثة على أنْ تكونَ " أمتُكم " خبرَ " إنَّ " كما تقدَّم و " أمةٌ واحدةٌ " بدلٌ منها بدلُ نكرةٍ من معرفةٍ ، أو تكونَ " أمةٌ واحدةٌ " خبرَ مبتدأ محذوفٍ .

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93)

قوله : ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه منصوبٌ على إسقاطِ حرفِ الخفضِ أي : تَفَرَّقوا في أمرِهم . الثاني : أنه مفعولٌ به ، وعدى تَقَطَّعوا لأنه بمعنى قَطَّعوا . الثالث : أنه تمييزٌ . وليس بواضحٍ معنىً وهو معرفةٌ ، فلا يَصِحُّ من جهة صناعةِ البصريين . قال أبو البقاء : " وقيل : هو تمييزٌ أي تقطَّع أمرُهم " فجعله منقولاً من الفاعلية .

(52/515)

و " زُبُراً " يجوز أن يكونَ مفعولاً ثانياً على أن يُضَمَّنَ " تقطَّعوا " معنى صَيَّروا بالتقطيع ، وإمَّا أن ينتصِبَ على الحالِ من المفعول أي : مثل زُبُرٍ أي : كُتُبٍ ؛ فإنَّ الزُّبُرَ جمعُ زَبُور كرُسُل جمعَ رسول ، أو يكون حالاً من الفاعل . نقله أبو البقاء في سورة المؤمنين . وفيه نظرٌ ؛ إذ لا معنى له ، وإنما يَظْهر كونُه حالاً من الفاعلِ في قراءةِ " زَبَرا " بفتح الباءِ أي فِرَقاً . والمعنى : صَيَّروا أمرهم زُبُراً أو تقطَّعوه في هذه الحالِ . والوجهان مأخوذان مِنْ تفسير الزمخشري لمعنى الآية الكريمة ، فإنه قال : " والمعنى : جعلوا أَمْرَ دينهم فيما بينهم قِطَعاً كما يتوزَّعُ الجماعةُ [الشيءَ] ويقتسمونه ، فيطير لهذا نصيبٌ ولذلك نصيبٌ ، تمثيلاً لاختلافهم فيه وصيرورتِهم فِرَقاً وأحزاباً " .

وفي الكلامِ التفاتٌ من الخطاب وهو قوله " أمتُكم " إلى الغَيْبة تشنيعاً عليهم بسوءِ صنيعهم

.

وقرأ الأعمش بفتحِ الباء جمع زُبْرَة ، وهي قطعة الحديد في الأصل . ونصبُه على الحال من ضمير الفاعِل في " تقطَّعوا " وقد تقدَّم . ولم يَتعرَّض له أبو البقاء في هذه السورة وتَعَرَّض له في المؤمنين فذكر فيه الأوجهَ المتقدمة وزاد أنه قُرِىء " زُبْراً " بكونِ الباء ، وهو بمعنى المضمومِها .

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (94)

قوله : ﴿ فَلاَ كُفْرَانَ ﴾ الكُفْران : مصدرٌ بمعنى الكُفْر . قال :

3358 رأيتُ أُناساً لا تَنام جُدُوْدُهُمْ . . . وجَدّيْ ولا كفرانَ للهِ نائمُ

و" لِسَعْيه " متعلقٌ بمحذوفٍ أي : يكفُر لسَعْيه ، ولا يتعلَّق بكفران ؛ لأنه يَصير مُطوَّلاً ، والمطوَّل يُنْصَبُ . وهذا مبنيٌّ . والضميرُ في " له " يعودُ على السعي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 195 . 197 ﴾

(53/515)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) ﴾

أي كلكم خِلْقَتُه ، وكلكم اتفقتم في الفقر ، وفي الضعف ، وفي الحاجة . ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾ : وخالقكم على وصفِ التَّفَرُّد .

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93)

اختلفوا وتنازعوا ، واضطربت أمورهم ، وتفرَّقَتْ أحوالُهم ، فاستأصلتهم البلايا . قوله : ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ : وكيف لا . . . . . وهم ما يتقلبون إلاَّ في قبضة التقدير ؟

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (94)

مَنْ تَعنَّى لله لم يخسر على الله ، ومَنْ تَحَمَّلَ لله مشقةً وَجَبَ حقُّه على الله : قوله : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بعد قوله : ﴿ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ ﴾ دليل على أن من لا يكون مؤمناً لا يكون علمه صالحاً ففائدة قوله ها هنا : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ في المآل والعاقبة ، فقد يعمل الأعمال الصالحة من لا يُخْتَمُ له بالسعادة ، فيكون في الحال مؤمناً وعملُه يكون على الوجه الذي آمن ثم لا ثواب له ، فإذا كانت عاقبته على الإسلام والتوحيد فحينئذٍ لا يضيع سَعْيُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 522 ﴾

(54/515)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (48) ﴾

هذا الشوط الثالث يستعرض أمة الرسل . لا على وجه الحصر . يشير إلى بعضهم مجرد إشارة ؛ ويفصل ذكر بعضهم تفصيلاً مطولاً ومختصراً .

وتتجلى في هذه الإشارات والحلقات رحمة الله وعنايته برسله ، وعواقب المكذبين بالرسل بعد أن جاءتهم البينات . كما تتجلى بعض الاختبارات للرسل بالخير وبالضر ، وكيف اجتازوا الابتلاء .

كذلك تتجلى سنة الله في إرسال الرسل من البشر . ووحدة العقيدة والطريق ، لجماعة الرسل على مدار الزمان ؛ حتى لكأنهم أمة واحدة على تباعد الزمان والمكان .

وتلك إحدى دلائل وحدانية الألوهية المبدعة ، ووحدانية الإرادة المدبرة ، ووحدانية الناموس الذي يربط سنن الله في الكون ، ويؤلف بينها ، ويوجهها جميعاً وجهة واحدة ، إلى معبود واحد : ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾

﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب ، وهم من الساعة مشفقون . وهذا ذكر مبارك أنزلناه ، أفأنتم له منكرون ؟ ﴾ .

ولقد سبق في سياق السورة أن المشركين كانوا يستهزئون بالرسول صلى الله عليه وسلم لأنه

بشر . وأنهم كانوا يكذبون بالوحي ، ويقولون : إنه سحر أو شعر أو افتراء .

فها هو ذا يكشف لهم أن إرسال الرسل من البشر هي السنة المطردة ، وهذه نماذج لها من قبل . وأن نزول الكتب على الرسل ليس بدعة مستغرقة فها هما ذان موسى وهارون آتاهما الله كتاباً .

ويسمى هذا الكتاب ﴿ الفرقان ﴾ وهي صفة القرآن . فهناك وحدة حتى في الاسم . ذلك أن الكتب المنزلة كلها فرقان بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، وبين منهج في الحياة ومنهج ، واتجاه في الحياة واتجاه . فهي في عمومها فرقان . وفي هذه الصفة تلتقي التوراة والقرآن .

(55/515)

وجعل التوراة كذلك ، ﴿ ضياء ﴾ يكشف ظلمات القلب والعقيدة ، وظلمات الضلال والباطل . وهي ظلمات يتوه فيها العقل ويضل فيها الضمير . وإن القلب البشري ليظل مظلماً حتى تشرق فيه شعلة الإيمان ، فتنير جوانبه ، ويتكشف له منهجه ، ويستقيم له اتجاهه ، ولا تختلط عليه القيم والمعاني والتقديرات .

وجعل التوراة كالقرآن ﴿ ذكراً للمتقين ﴾ تذكرهم بالله ، وتبقي لهم ذكراً في الناس . وماذا

كان بنو إسرائيل قبل التوراة ؟ كانوا أذلاء تحت سياط فرعون ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ويستذلهم بالسخرة والإيذاء .

ويخص المتقين ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ لأن الذين تستشعر قلوبهم خشية الله ولم يروه ، ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ فيعملون لها ويستعدون هؤلاء هم الذين ينتفعون بالضياء ، ويسيرون على هداه ، فيكون كتاب الله لهم ذكراً ، يذكرهم بالله ، ويرفع لهم ذكراً في الناس .

ذلك شأن موسى وهارون . . ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ فليس بدعاً ولا عجباً ، إنما هو أمر مسبوق وسنة معروفة ﴿ أفأنتم له منكرون ؟ ﴾ فماذا تنكرون منه ، وقد سبقت به الرسالات ؟

وبعد الإشارة السريعة إلى موسى وهارون وكتابهما يرتد السياق إلى حلقة كاملة من قصة إبراهيم ، وهو جد العرب الأكبر وباني الكعبة التي يحشدون فيها الأصنام ، ويعكفون عليها بالعبادة ، وهو الذي حطم الأصنام من قبل .

والسياق يعرضه هنا وهو يستنكر الشرك ويحطم الأصنام .

والحلقة المعروفة هنا هي حلقة الرسالة . وهي مقسمة إلى مشاهد متتابعة ، بينها فجوات صغيرة . وهي تبدأ بالإشارة إلى سبق هداية إبراهيم إلى الرشد . ويعني به الهداية إلى التوحيد . فهذا هو الرشد الأكبر الذي تنصرف إليه لفظة " الرشد " في هذا المقام .

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين ﴾ . .

آتينا رشده ، وكنا عالمين بحاله وباستعداده لحمل الأمانة التي يحملها المرسلون .

﴿ إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ . .

(56/515)

فكانت قولته هذه دليل رشده . . سمى تلك الأحجار والخشب باسمها : ﴿ هذه التماثيل ﴾ ولم يقل : إنها آلهة ، واستنكر أن يعكفوا عليها بالعبادة . وكلمة ﴿ عاكفون ﴾ تفيد الانكباب الدائم المستمر . وهم لا يقضون وقتهم كله في عبادتها . ولكنهم يتعلقون بها . فهو عكوف معنوي لا زمني . وهو يسخف هذا التعلق ويبشعه بتصويرهم منكبين أبداً على هذه التماثيل !

فكان جوابهم وحجتهم أن

﴿ قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ !

وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة ، في مقابل حرية الإيمان ، وانطلاقه للنظر والتدبر ، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمها الحقيقية لا التقليدية .

فالإيمان بالله طلاقة وتحرر من القداسات الوهمية التقليدية ، والوراثات المتحجرة التي لا

تقوم على دليل :

﴿ قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ . .

وما كانت عبادة الآباء لتكسب هذه التماثيل قيمة ليست لها ، ولا لتخلع عليها قداسة لا تستحقها . فالقيم لا تنبع من تقليد الآباء وتقديسهم ، إنما تنبع من التقويم المتحرر الطليق .

وعندما واجههم إبراهيم بهذه الطلاقة في التقدير ، وبهذه الصراحة في الحكم ، راحوا يسألون :

﴿ قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟ ﴾ . .

وهو سؤال المزعزع العقيدة ، الذي لا يطمئن إلى ما هو عليه ، لأنه لم يتدبره ولم يتحقق منه . ولكنه كذلك معطل الفكر والروح بتأثير الوهم والتقليد . فهو لا يدري اي الأقوال حق . والعبادة تقوم على اليقين لا على الوهم المزعزع الذي لا يستند إلى دليل ! وهذا هو التيه الذي يخبط فيه من لا يدينون بعقيدة التوحيد الناصعة الواضحة المستقيمة في العقل والضمير .

فأما إبراهيم فهو مستيقن واثق عارف بربه ، متمثل له في خاطره وفكره ، يقولها كلمة المؤمن المطمئن لإيمانه :

﴿ قال : بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ .

فهو رب واحد . رب الناس ورب السماوات والأرض . ربوبيته ناشئة عن كونه الخالق .

فهما صفتان لا تنفكان : ﴿ بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن ﴾ .

. فهذه هي العقيدة المستقيمة الناصعة ، لا كما يعتقد المشركون أن الآلهة أرباب ، في الوقت الذي يقرون أنها لا تخلق ، وأن الخالق هو الله . ثم هم يعبدون تلك الآلهة التي لا تخلق شيئاً وهم يعلمون !

إنه واثق وثوق الذي يشهد على واقع لا شك فيه : ﴿ وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ . . وإبراهيم عليه السلام لم يشهد خلق السماوات والأرض ، ولم يشهد خلق نفسه ولا قومه . . ولكن الأمر من الوضوح والثبوت إلى حد أن يشهد المؤمنون عليه واثقين . . إن كل ما في الكون لينطق بوحدة الخالق المدبر . وإن كل ما في كيان الإنسان ليهتف به إلى الإقرار بوحدانية الخالق المدبر ، وبوحدة الناموس الذي يدبر الكون ويصرفه .

ثم يعلن إبراهيم لمن كان يواجههم من قومه بهذا الحوار . أنه قد اعتزم في شأن آلهتهم أمراً لا رجعة فيه :

﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ . .

ويترك ما اعتزمه من الكيد للأصنام مبهماً لا يفصح عنه . . ولا يذكر السياق كيف ردوا عليه . ولعلهم كانوا مطمئنين إلى أنه لن يستطيع لآلهتهم كيدا . فتركوه !

﴿ فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ . .

وتحولت الآلهة المعبودة إلى قطع صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشمة . . إلا كبير الأصنام فقد تركه إبراهيم ﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾ فيسألونه كيف وقعت الواقعة وهو حاضر فلم يدفع عن صغار الآلهة ! لعلهم حينئذ يراجعون القضية كلها ، فيرجعون إلى صوابهم ، ويدركون منه ما في عبادة هذه الأصنام من سخف وتهافت .

(58/515)

وعاد القوم ليروا آلهتهم جذاذاً إلا ذلك الكبير ! ولكنهم لم يرجعوا إليه يسألونه ولا إلى أنفسهم يسألونها : إن كانت هذه آلهة فكيف وقع لها ما وقع دون أن تدفع عن أنفسها شيئاً . وهذا كبيرها كيف لم يدفع عنها ؟ لم يسألوا أنفسهم هذا السؤال ، لأن الخرافة قد عطلت عقولهم عن التفكير ، ولأن التقليد قد غل أفكارهم عن التأمل والتدبر . فإذا هم يدعون هذا السؤال الطبيعي لينتقموا على من حطم آلهتهم ، وصنع بها هذا الصنيع :

﴿ قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ . .

عندئذ تذكر الذين سمعوا إبراهيم ينكر على أبيه ومن معه عبادة هذه التماثيل ، ويتوعدهم أن يكيد لآلهتهم بعد انصرافهم عنها !

﴿ قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبرهيم ﴾ . .

ويبدو من هذا أن إبراهيم عليه السلام كان شاباً صغير السن ، حينما آتاه الله رشده ، فاستنكر عبادة الأصنام وحطمها هذا التحطيم . ولكن أكان قد أوحي إليه بالرسالة في ذلك الحين ؟ أم هو إلهام هداه إلى الحق قبل الرسالة . فدعا إليه أباه ، واستنكر على قومه ما هم فيه ؟ .

هذا هو الأرجح . . .

وهناك احتمال أن يكون قولهم : ﴿ سمعنا فتى ﴾ يقصد به إلى تصغير شأنه بدليل تجهيلهم لأمره في قولهم : ﴿ يقال له إبراهيم ! ﴾ للتقليل من أهميته ، وإفادة أنه مجهول لا خطر له ؟ قد يكون .

ولكننا نرجح انه كان فتى حديث السن في ذلك الحين .

﴿ قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴾ . .

وقد قصدوا إلى التشهير به ، وإعلان فعلته على رؤوس الأشهاد !

﴿ قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ ﴾ . .

فهم ما يزالون يصرون على أنها آلهة وهي جذاذ مهشمة . فأما إبراهيم فهو يتهكم بهم

ويسخر منهم ، وهو فرد وحده وهم كثير . ذلك أنه ينظر بعقلة المفتوح وقلبه الواصل فلا يملك إلا أن يهزأ بهم ويسخر ، وأن يجيبهم إجابة تناسب هذا المستوى العقلي الدون :

﴿ قال : بل فعله كبيرهم هذا . فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ . .

(59/515)

والتهكم واضح في هذا الجواب الساخر . فلا داعي لتسمية هذه كذبة من إبراهيم عليه السلام والبحث عن تعليلها بشتى العلل التي اختلف عليها المفسرون . فالأمر أيسر من هذا بكثير ! إنما أراد أن يقول لهم : إن هذه التماثيل لا تدري من حطمها إن كنت أنا أم هذا الصنم الكبير الذي لا يملك مثلها حراكاً . فهي جماد لا إدراك له أصلاً . وأنتم كذلك مثلها مسلوبو الإدراك لا تميزون بين الجائز والمستحيل . فلا تعرفون إن كنت أنا الذي حطمتها ام إن هذا التمثال هو الذي حطمها ! ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ !

ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزهم هزاً ، وردهم إلى شيء من التدبر والتفكر : ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ﴾ . .

وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما في موقفهم من سخف ، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم . وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسهم ،

وذلك الظلم الذي هم فيه سادرون .

ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام ، وإلا خفقة واحدة عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود :

﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم . لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ !

وحقاً لقد كانت الأولى رجعة إلى النفوس ، وكانت الثانية نكسة على الرؤوس ؛ كما يقول التعبير القرآني المصور العجيب . . كانت الأولى حركة في النفس للنظر والتدبر . أما الثانية فكانت انقلاباً على الرأس فلا عقل ولا تفكير . وإلا فإن قولهم هذا الأخير هو الحجة عليهم . وأية حجة لإبراهيم أقوى من أن هؤلاء لا ينطقون ؟ !

ومن ثم يجبههم بعنف على غير عادته وهو الصبور الحليم . لأن السخف هنا يجاوز صبر الحليم :

﴿ قال : أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ؟ ! ﴾

وهي قولة يظهر فيها ضيق الصدر ، وغيظ النفس ، والعجب من السخف الذي يتجاوز كل مألوف .

عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم كما تأخذ الطغاة دائماً حين يفقدون الحجة ويعوزهم الدليل ، فيلجأون إلى القوة الغاشمة والعذاب الغليظ :

﴿ قالوا : حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ .

.

فيا لها من آلهة ينصرها عبادها ، وهي لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً ؛ ولا تحاول لها ولا لعبادها نصراً !

﴿ قالوا : حرِّقوه ﴾ ولكن كلمة أخرى قد قيلت . . فأبطلت كل قول ، وأحبطت كل كيد . ذلك أنها الكلمة العليا التي لا ترد :

﴿ قلنا : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ . .

فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم . .

كيف ؟

ولماذا نسأل عن هذه وحدها . و﴿ كوني ﴾ هذه هي الكلمة التي تكون بها أكوان ، وتنشأ بها عوالم ، وتخلق بها نواميس : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون ﴾ .

فلا نسأل : كيف لم تحرق النار إبراهيم ، والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية ؟

فالذي قال للنار : كوني حارقة . هو الذي قال لها : كوني برداً وسلاماً . وهي الكلمة الواحدة التي تنشئ مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول . مألوفاً للبشر أو غير مألوف .

إن الذين يقيسون أعمال الله سبحانه إلى أعمال البشر هم الذين يسألون : كيف كان هذا ؟ وكيف أمكن أن يكون ؟ فأما الذين يدركون اختلاف الطبيعتين ، واختلاف الأداتين ، فإنهم لا يسألون أصلاً ، ولا يحاولون أن يخلقوا تعليلاً . علمياً أو غير علمي . فالمسألة ليست في هذا الميدان اصلاً . ليست في ميدان التعليل والتحليل بموازين البشر ومقاييس البشر . وكل منهج في تصور مثل هذه المعجزات غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة هو منهج فاسد من أساسه ، لأن أعمال الله غير خاضعة لمقاييس البشر وعلمهم القليل المحدود .

(61/515)

إن علينا فقط أن نؤمن بأن هذا قد كان ، لأن صانعه يملك أن يكون . أما كيف صنع بالنار فإذا هي برد وسلام ؟ وكيف صنع بإبراهيم فلا تحرقه النار . . فذلك ما سكت عنه النص القرآني لأنه لا سبيل إلى إدراكه بعقل البشر المحدود . وليس لنا سوى النص القرآني

من دليل .

وما كان تحويل النار برداً وسلاماً على إبراهيم إلا مثلاً تقع نظائره في صور شتى . ولكنها قد لا تهز المشاعر كما يهزها هذا المثل السافر الجاهر . فكم من ضيقات وكربات تحيط بالأشخاص والجماعات من شأنها أن تكون القاصمة القاضية ، وإن هي إلا لفتة صغيرة ، فإذا هي تحيي ولا تميت ، وتنعش ولا تخمد ، وتعود بالخير وهي الشر المستطير .

إن ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ لتتكرر في حياة الأشخاص والجماعات والأمم ؛ وفي حياة الأفكار والعقائد والدعوات . وإن هي إلا رمز للكلمة التي تبطل كل قول ، وتحبط كل كيد ، لأنها الكلمة العليا التي لا ترد !

﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ . .

وقد روي أن الملك المعاصر لإبراهيم كان يلقب " بالنمرود " وهو ملك الآراميين بالعراق . وأنه قد أهلك هو والملأ من قومه بعذاب من عند الله . تختلف الروايات في تفصيلاته ، وليس لنا عليها من دليل . المهم أن الله قد أنجى إبراهيم من الكيد الذي أريد به ، وباء الكائدون له بخسارة ما بعدها خسارة ﴿ فجعلناهم الأخسرين ﴾ هكذا على وجه الإطلاق دن تحديد !

﴿ ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ . .

وهي أرض الشام التي هاجر إليها هو وابن أخيه لوط . فكانت مهبط الوحي فترة طويلة ،

ومبعث الرسل من نسل إبراهيم . وفيها الأرض المقدسة . وثاني الحرمين . وفيها بركة الخصب والرزق ، إلى جانب بركة الوحي والنبوة جيلاً بعد جيل .

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ، وكلاً جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين ﴾ . .

(62/515)

لقد ترك إبراهيم عليه السلام وطناً وأهلاً وقوماً . فعوضه الله الأرض المباركة وطناً خيراً من وطنه . وعوضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلاً خيراً من أهله . وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قوماً خيراً من قومه . وجعل من نسله أئمة يهدون الناس بأمر الله ؛ وأوحى إليهم أن يفعلوا الخيرات على اختلافها ، وأن يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة . وكانوا طائعين لله عابدين . . فنعم العوض ، ونعم الجزاء ، ونعمت الخاتمة التي قسمها الله لإبراهيم . لقد ابتلاه بالضراء فصبر ، فكانت الخاتمة الكريمة اللائقة بصبره الجميل .

﴿ ولوطا آتيناه حكماً وعلماً ؛ ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث ، إنهم كانوا قوم سوء فاسقين . وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين ﴾ . .

وقصة لوط قد سبقت مفصلة . وهو يشير إليها هنا مجرد إشارة . وقد صحب عمه

إبراهيم من العراق إلى الشام ، وأقام في قرية سدوم . وكانت تعمل الخبائث . وهي إتيان الفاحشة مع الذكور جهرة وبلا حياء أو تحرج . فأهلك الله القرية وأهلها : ﴿ إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ . وأنجى لوطاً وأهله إلا امرأته . ﴿ وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين ﴾ . . وكأنما الرحمة مأوى وملاذ يدخل الله فيه من يشاء ، فإذا هو آمن ناعم مرحوم .

ويشير إلى نوح إشارة سريعة كذلك :

﴿ ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له ، فنجيناه وأهله من الكرب العظيم . ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾ . .

وهي إشارة كذلك لا تفصيل فيها . لإثبات استجابة الله لنوح عليه السلام حين ناداه ﴿ من قبل ﴾ وهو سابق لإبراهيم ولوط . ولقد أنجاه الله وأهله كذلك . إلا امرأته ، وأهلك قومه بالطوفان وهو ﴿ الكرب العظيم ﴾ الذي وصفه بالتفصيل في سورة هود .

ثم يفصل بعض الشيء في حلقة من قصة داود وسليمان :

﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ؛ وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان . وكلا آتينا حكماً وعلماً .

وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير . وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون ؟ ﴾ .

﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ، وكنا بكل شيء عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ، ويعملون عملاً دون ذلك ، وكنا لهم حافظين ﴾ . .

وقصة الحرث التي حكم فيها داود وسليمان يقول الرواة في تفصيلها : إن رجلين دخلا على داود ، أحدهما صاحب حرث أي حقل وقيل حديقة كرم والآخر صاحب غنم . فقال صاحب الحرث : إن غنم هذا قد نفشت في حرثي أي انطلقت فيه ليلاً فلم تبق منه شيئاً . فحكم داود لصاحب الحرث أن يأخذ غنم خصمه في مقابل حرثة . . ومر صاحب الغنم بسليمان ؛ فأخبره بقضاء داود . فدخل سليمان على أبيه فقال : يا نبي الله إن القضاء غير ما قضيت . فقال : كيف ؟ قال : ادفع الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بها ، وادفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان . ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده . فيأخذ صاحب الحرث حرثه ، وصاحب الغنم غنمه . . فقال داود : القضاء ما قضيت . وأُمضي حكم سليمان .

وكان حكم داود وحكم سليمان في القضية اجتهاداً منهما . وكان الله حاضراً حكمهما ،

فألهم سليمان حكماً أحكم ، وفهمه ذلك الوجه وهو أصوب .

لقد اتجه داود في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث . وهذا عدل فحسب . ولكن حكم سليمان تضمن مع العدل البناء والتعمير ، وجعل العدل دافعاً إلى البناء والتعمير .

وهذا هو العدل الحي الإيجابي في صورته البانية الدافعة . وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء .

ولقد أوتي داود وسليمان كلاهما الحكمة والعلم : ﴿ وكلاً آتينا حكماً وعلماً ﴾ . .

وليس في قضاء داود من خطأ ، ولكن قضاء سليمان كان أصوب ، لأنه من نبع الإلهام .

ثم يعرض السياق ما اختص به كلا منهما . فيبدأ بالوالد :

﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير . وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون ؟ ﴾ .

(64/515)

وقد عرف داود عليه السلام بمزاميره . وهي تسابيح لله كان يرتلها بصوته الحنون ، فتتجاوب أصداؤها حوله ، وترجع معه الجبال والطير . .

وحينما يتصل قلب عبد بربه فإنه يحس الاتصال بالوجود كله ؛ وينبض قلب الوجود معه ؛

وتنزاح العوائق والحواجز الناشئة عن الشعور بالفوارق التي تميز الأنواع والأجناس ، وتقيم بينها الحدود والحواجز ، وعندئذ تتلاقى ضمائرها وحقائقها في ضمير الكون وحقيقته . وفي لحظات الإشراق تحس الروح باندماجها في الكل ، واحتوائها على الكل . . عندئذ لا تحس بأن هنالك ما هو خارج عن ذاتها ؛ ولا بأنها هي متميزة عما حولها . فكل ما حولها مندمج فيها وهي مندمجة فيه .

ومن النص القرآني نتصور داود وهو يرتل مزاميره ، فيسهو عن نفسه المنفصلة المتميزة المتحيزة .

وتهيم روحه في ظلال الله في الكون ومجاليه ومخلوقاته الجوامد منها والأحياء . فيحس ترجيعها ، ويتجاوب معها كما تتجاوب معه . وإذا الكون كله فرقة مرتلة عازفة مسبحة بجلال الله وحمده . ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ إنما يفقهه من يتجرد من الحواجز والفواصل ، وينطلق مع أرواح الكائنات ، المتجهة كلها إلى الله .

﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ . . ﴿ وكنا فاعلين ﴾ فما هنالك من شيء يعز على القدرة أو يتأبى حين تريد . يستوي أن يكون مألوفاً للناس أو غير مالوف .

﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ؟ ﴾ . .

تلك هي صنعة الدروع حلقاً متداخلة ، بعد أن كانت تصنع صفيحة واحدة جامدة .

والزرد المتداخل أيسر استعمالاً وأكثر مرونة ، ويبدو أن داود هو الذي ابتدع هذا النوع من الدروع بتعليم الله . والله يمن على الناس أن علم داود هذه الصناعة لوقايتهم في الحرب : ﴿ لتحصنكم من بأسكم ﴾ وهو يسألهم سؤال توجيه وتحضيض : ﴿ فهل أنتم شاكرون ؟ ﴾ . .

(65/515)

والحضارة البشرية سارت في طريقها خطوة خطوة وراء الكشوف . ولم تجئ طفرة ، لأن خلافة الأرض تركت لهذا الإنسان ، ولمداركه التي زوده الله بها ليخطو في كل يوم خطوة ؛ ويعيد تنسيق حياته وفق هذه الخطوة . وإعادة تنسيق الحياة وفق نظام جديد ليست سهلة على النفس البشرية ؛ فهي تهز أعماقها ؛ وتغير عاداتها ومألوفاً ؛ وتقتضي فترة من الزمان لإعادة الاستقرار الذي تطمئن فيه إلى العمل والإنتاج . ومن ثم شاءت حكمة الله أن تكون هناك فترة استقرار تطول أو تقصر . بعد كل تنسيق جديد .

والقلق الذي يستولي على أعصاب العالم اليوم منشؤه الأول سرعة توالي الهزات العلمية والاجتماعية التي لا تدع للبشرية فترة استقرار ، ولا تدع للنفس فرصة التكيف والتذوق للوضع الجديد .

ذلك شأن داود . فأما شأن سليمان فهو أعظم :

﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ؛ وكنا بكل شيء عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك . وكنا لهم حافظين ﴾ . .

وتدور حول سليمان روايات وتصورات وأقاويل ، معظمها مستمد من الإسرائيليات والتخيلات والأوهام . ولكن لا نضل في هذا التيه . فإننا نقف عند حدود النصوص القرآنية وليس وراءها أثر مستيقن في قصة سليمان بالذات .

والنص القرآني هنا يقرر تسخير الريح وهي عاصفة لسليمان ، تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها . وهي في الغالب الشام لسبق الإشارة إليها بهذه الصفة في قصة إبراهيم . . فكيف كان هذا التسخير ؟

هنالك قصة بساط الريح الذي قيل : إن سليمان كان يجلس عليه وهو وحاشيته فيطير بهم إلى الشام في فترة وجيزة . وهي مسافة كانت تقطع في شهر على الجمال .

ثم يعود كذلك . . وتستند هذه الرواية إلى ما ورد في سورة " سبأ " من قوله : ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ ولكن القرآن لم يذكر شيئاً عن بساط الريح ذاك ؛ ولم يرد ذكره كذلك في أي أثر مستيقن . فليس لنا ما نستند عليه لنقرر مسألة البساط .

والأسلم إذن أن نفسر تسخير الريح بتوجيهها بأمر الله إلى الأرض المباركة في دورة تستغرق شهراً طرداً وعكساً . . كيف ؟ لقد قلنا : إن القدرة الإلهية الطليقة لا تسأل كيف ؟ فخلق النواميس وتوجيهها هو من اختصاص تلك القدرة الطليقة . والمعلوم للبشر من نواميس الوجود قليل . ولا يمتنع أن تكون هناك نواميس أخرى خفية على البشر تعمل ، وتظهر آثارها عندما يؤذن لها بالظهور : ﴿ وكنا بكل شيء عالمين ﴾ . . العلم المطلق لا كعلم البشر المحدود .

وكذلك تسخير الجن لسليمان عليه السلام ليغوصوا في أعماق البحر أو أعماق اليابسة . ويستخرجوا كنوزها المخبوءة لسليمان ؛ أو ليعملوا له أعمالاً غير هذا وذاك . . فالجن كل ما خفي . وقد قررت النصوص القرآنية أن هناك خلقاً يسمون الجن خافين علينا ، فمن هؤلاء سخر الله لسليمان من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك . وحفظهم فلا يهربون ولا يفسدون ولا يخرجون على طاعة عبده . وهو القاهر فوق عباده يسخرهم حين يشاء كيف يشاء .

وعند هذا الحد المأمون نقف في ظلال النصوص . فلا نسبح في الإسرائيليات .

لقد ابتلى الله داود وسليمان عليهما السلام بالسراء . وفتنتهما في هذه النعمة . فتن داود في القضاء . وفتن سليمان بالخيل الصافنات كما سيأتي في سورة (صلى الله عليه وسلم) فلا نتعرض هنا لتفصيلات الفتنة حتى يأتي ذكرها في موضعها . إنما نخلص إلى نتائجها . .

لقد صبر داود ، وصبر سليمان للابتلاء بالنعمة بعد الاستغفار من الفتنة واجتازا الامتحان في النهاية بسلام ؛ فكانا شاكرين لنعمة الله .

والآن نجيء إلى الابتلاء بالضراء في قصة أيوب عليه السلام :

﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر ، وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم ، رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ . .

(67/515)

وقصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء . والنصوص القرآنية تشير إلى مجملها دون تفصيل . وهي في هذا الموضع تعرض دعاء أيوب واستجابة الله للدعاء . لأن السياق سياق رحمة الله بأنبيائه ، ورعايته لهم في الابتلاء . سواء كان الابتلاء بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم ، كما في قصص إبراهيم ولوط ونوح . أو بالنعمة في قصة داود وسليمان . أو بالضر كما في حال أيوب . .

وأيوب هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله : ﴿ أني مسني الضر ﴾ . . ووصف ربه بصفته : ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ . ثم لا يدعو بتغيير حاله ، صبراً على بلائه ، ولا يقترح شيئاً على ربه ، تأدباً معه وتوقيراً .

فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء ، ولا يتململ من الضر الذي تضرب به الأمثال في جميع الأعصار . بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه ، فيدع الأمر كله إليه ، اطمئناناً إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال .

وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة ، وكانت الرحمة ، وكانت نهاية الابتلاء : ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ . .

رفع عنه الضر في بدنه فإذا هو معافى صحيح . ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقد منهم ، ورزقه مثلهم . وقيل هم أبناؤه فوهب الله له مثليهم . أو أنه وهب له أبناء وأحفاداً . ﴿ رحمة من عندنا ﴾ فكل نعمة فهي رحمة من عند الله ومنة . ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ . تذكرهم بالله وبلائه ، ورحمته في البلاء وبعد البلاء . وإن في بلاء أيوب لمثلاً للبشرية كلها ؛ وإن في صبر أيوب لعبرة للبشرية كلها . وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار .

والإشارة ﴿ للعابدين ﴾ بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها . فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء . وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان . والأمر جد لا لعب . والعقيدة أمانة لا تسلم إلا للأمناء القادرين عليها ، المستعدين لتكاليفها وليست كلمة تقولها الشفاه ، ولا دعوى يدعيها من يشاء . ولا بد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء . .

بعد ذلك يشير السياق مجرد إشارة إلى إسماعيل وإدريس وذي الكفل :

﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل . كل من الصابرين . وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ . .

فهو عنصر الصبر كذلك يشير إليه في قصص هؤلاء الرسل .

فأما إسماعيل فقد صبر على ابتلاء ربه له بالذبح فاستسلم لله وقال : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شآء الله من الصابرين ﴾ وأما إدريس فقد سبق إن زمانه مجهول وكذلك مكانه ، وإن هنالك قولاً بأنه ، أوزوريس الذي عبده المصريون بعد موته ، وصاغوا حوله الأساطير . بوصف المعلم الأول للبشر ، الذي علمهم الزراعة والصناعة !

ولكننا لا نملك على هذا دليلاً . فلنعلم أنه كان من الصابرين على نحو من أنحاء الصبر يستحق التسجيل في كتاب الله الباقي .

وأما ذو الكفل فهو كذلك مجهول لا نملك تحديد زمانه ولا مكانه . والأرجح أنه من أنبياء بني

إسرائيل . وقيل : إنه من صالحيهم ، وأنه تكفل لأحد أنبيائهم قبل موت هذا النبي ، بأن يخلفه في بني إسرائيل على أن يتكفل بثلاث : أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب في القضاء . فوفى بما تكفل به وسمي ذا الكفل لذاك ولكن هذه ليست سوى أقوال لا دليل عليها . والنص القرآني يكفي في هذا الموضع لتسجيل صفة الصبر لذي الكفل .

﴿ وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ . . وهذا هو المقصود بذكرهم في هذا لسياق .

ثم تجيء قصة يونس – عليه السلام وهو ذو النون .

(69/515)

﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً . فظن أن لن نقدر عليه . فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم . وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ . .

وقصة يونس تأتي هنا في صورة إشارة سريعة مراعاة للتناسق في السياق ، وتفصل في سورة الصافات . ولكن لا بد لنا من بعض التفصيل هنا لهذه الإشارة كي تكون مفهومة .

لقد سمي ذا النون أي صاحب الحوت لأن الحوت التقمه ثم نبذه ، وقصة ذلك أنه أرسل إلى

قرية فدعا أهلها إلى الله فاستعصوا عليه ، فضاق بهم صدراً ، وغادرهم مغاضباً ، ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم . ظاناً أن الله لن يضيق عليه الأرض ، فهي فسيحة ، والقرى كثيرة ، والأقوام متعددون . وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة ، فسيوجهه الله إلى قوم آخرين .

ذلك معنى ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ أي أن لن نضيق عليه .

وقاده غضبه الجامح ، وضيقه الخانق ، إلى شاطئ البحر ، فوجد سفينة مشحونة فركب فيها . حتى إذا كانت في اللجة ثقلت ، وقال ربانها : إنه لا بد من إلقاء أحد ركابها في البحر لينجو سائر من فيها من الغرق . فساهموا فجاء السهم على يونس ، فألقوه أو ألقى هو بنفسه . فالتقمه الحوت ، مضيقاً عليه أشد الضيق ! فلما كان في الظلمات : ظلمة جوف الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل نادى : ﴿ أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ . فاستجاب الله دعاءه ، ونجاه من الغم الذي هو فيه . ولفظه الحوت على الساحل . ثم كان من أمره ما يفصله في سورة الصافات . فحسبنا هذا في هذا السياق .

إن في هذه الحلقة من قصة يونس عليه السلام لفتات ولمسات نقف أمامها لحظات .

(70/515)

إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة ، فضاق صدراً بالقوم ، وألقى عبء الدعوة ، وذهب مغاضباً ، ضيق الصدر ، حرج النفس ؛ فاوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبيه مضايقات المكذبين . لولا أن ثاب إلى ربه ! واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه . لما فرج الله عنه هذا الضيق . ولكنها القدرة حفظته ونجته من الغم الذي يعانيه . وأصحاب الدعوات لا بد أن يحتملوا بتكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، والإيذاء من أجلها . وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقاً . ولكنه بعض تكاليف الرسالة . فلا بد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا ، ولا بد أن يثابروا ويثبتوا . ولا بد أن يكرروا الدعوة ويبدئوا فيها ويعيدوا .

إنهم لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب ، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب ، ومن عتو وجحود . فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب ، فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة .

. وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف . . ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم أرصاد القلوب !

إن طريق الدعوات ليس هيناً ليناً . واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة . فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات ، والنظم والأوضاع ، يجثم على القلوب . ولا بد من إزالة هذا الركام . ولا بد من استحياء القلوب بكل وسيلة . ولا بد من

لمس جيمع المراكز الحساسة . ومن محاولة العثور على العصب الموصل . . وإحدى اللمسات ستصادف مع المثابرة والصبر والرجاء . ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشري تحويلاً تاماً في لحظة متى أصابت اللمسة موضعها . وإن الإنسان ليدهش أحياناً وهو يحاول ألف محاولة ، ثم إذا لمسة عابرة تصيب موضعها في الجهاز البشري فينتفض كله بأيسر مجهود ، وقد أعيا من قبل على كل الجهود !

(71/515)

وأقرب ما يحضرني للتمثيل لهذه الحالة جهاز الاستقبال عند البحث عن محطة إرسال . . إنك لتحرك المشير مرات كثيرة ذهاباً وإياباً فتخطئ المحطة وأنت تدقق وتصوب . ثم إذا حركة عابرة من يدك . فتتصل الموجة وتنطلق الأصداء والأنغام !

إن القلب البشري هو أقرب ما يكون إلى جهاز الاستقبال . وأصحاب الدعوات لا بد ان يحاولوا تحريك المشير ليتلقى القلب من وراء الأفق . ولمسة واحدة بعد الف لمسة قد تصله بمصدر الإرسال !

إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ، فيهجر الناس . . إنه عمل مريح ، قد يفثأ الغضب ، ويهدئ الأعصاب . . ولكن أين هي الدعوة ؟

وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين ؟ !

إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية ! فليضق صدره . ولكن ليكظم ويمض . وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون !

إن الداعية أداة في يد القدرة . والله أرعى لدعوته وأحفظ . فليؤد هو واجبه في كل ظرف ، وفي كل جو ، والبقية على الله . والهدى هدى الله .

وإن في قصة ذي النون لدرساً لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه .

وإن في رجعة ذي النون إلى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها .

وإن رحمة الله لذي النون واستجابة دعائه المنيب في الظلمات لبشرى للمؤمنين : ﴿ كذلك ننجي المؤمنين ﴾ . .

ثم إشارة إلى قصة زكريا ويحيى عليهما السلام واستجابة الله لزكريا دعاه :

﴿ وزكريا إذ نادى ربه . رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجه . إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ، ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين ﴾ . .

وقصة مولد يحيى سبقت مفصلة في سورة مريم وفي سورة آل عمران . وهي ترد هنا متناسقة مع السياق . فتبدأ بدعاء زكريا : ﴿ رب لا تذرني فرداً ﴾ بلا عقب يقوم على الهيكل : وكان زكريا قائماً على هيكل العبادة في بني إسرائيل قبل مولد عيسى عليه السلام ولا ينسى زكريا أن الله هو وارث العقيدة ووارث المال : ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ إنما هو يريد من ذريته من يحسن الخلافة بعده في أهله ودينه وماله .

(73/515)

لأن الخلق ستار القدرة في الأرض .

وكانت الاستجابة سريعة ومباشرة : «فَاسْتَجَبْنا لَهُ ، وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ» وكانت عقيما لا تصلح للنسل . . ويختصر السياق تفصيلات هذا كله ليصل مباشرة إلى استجابة اللّه للدعاء .

«إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ» . . فسارع اللّه في استجابة الدعاء .

«وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً» . . رغبة في الرضوان ورهبة للغضب . فقلوبهم وثيقة الصلة دائمة التطلع .

«وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ» . . لا متكبرين ولا متجبرين . .

بهذه الصفات في زكريا وزوجه وابنهما يحيى استحق الوالدان أن ينعم عليهما بالابن الصالح . فكانت أسرة مباركة تستحق رحمة اللّه ورضاه .

أخيرا يذكر مريم بمناسبة ذكر ابنها عليه السلام :

«وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ، فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ، وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ» . .

ولا يذكر هنا اسم مريم ، لأن المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابنها – عليه السلام – وقد جاءت هي تبعا له في السياق . إنما يذكر صفتها المتعلقة بولدها : «وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا» . أحصنته فصانته من كل مباشرة .

والإحصان يطلق عادة على الزواج بالتبعية ، لأن الزواج يحصن من الوقوع في الفاحشة . أما هنا فيذكر في معناه الأصيل ، وهو الحفظ والصون أصلا من كل مباشرة شرعية أو غير شرعية . وذلك تنزيها لمريم عن كل ما رماها به اليهود مع يوسف النجار الذي كان معها في خدمة الهيكل . والذي تقول عنه الأناجيل المتداولة ، إنه كان قد تزوجها ولكنه لم يدخل بها ولم يقربها .

لقد أحصنت فرجها «فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا» والنفخ هنا شائع لا يحدد موضعه كما في سورة التحريم – وقد سبق الحديث عن هذا الأمر في تفسير سورة مريم – ومحافظة على

أن نعيش في ظلال النص الذي بين أيدينا فإننا لا نفصل ولا نطوّل ، فنمضي مع النص إلى غايته :

(74/515)

«وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ» . .

وهي آية غير مسبوقة ولا ملحوقة . آية فذة واحدة في تاريخ البشرية جميعا . ذلك أن المثل الواحد من هذا النوع يكفي لتتأمله البشرية في أجيالها جميعا وتدرك يد القدرة الطليقة التي تخلق النواميس ، ولكنها لا تحتبس داخل النواميس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2382.2395 ﴾

(75/515)

قوله تعالى ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (95) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (97) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا غير صريح في أن هذا الرجوع بعد الموت ، بينه بقوله : ﴿ وحرام ﴾ أي وممنوع ومحجور ﴿ على قرية ﴾ أي أهلها ﴿ أهلكناها ﴾ أي بالموت بعظمتنا ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ أي إلينا بأن يذهبوا تحت التراب باطلاً من غير إحساس ، بل إلينا بموتهم رجعوا فحبسناهم في البرزخ منعمين أو معذبين نعيماً وعذاباً دون النعيم والعذاب الأكبر ، ولقد دل على قدرته قوله : ﴿ حتى إذا فتحت ﴾ بفتح السد الذي تقدم وصفنا له ، وأن فتحه لا بد منه وقراءة ابن عامر بالتشديد تدل على كثرة التفتيح أو على كثرة الخارجين من الفتح وإن كان فرحة واحدة كما أشار إطلاق قراءة الجماعة بالتخفيف ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ فخرجوا على الناس ؛ وعبر عن كثرتهم التي لا يعلمها إلا هو سبحانه بقوله : ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم ﴿ من كل حدب ﴾ أي نشز عال من الأرض ﴿ ينسلون ﴾ أي يسرعون ، من النسلان وهو تقارب الخطا مع السرعة كمشي الذئب ، وفي العبارة إيماء إلى أن الأرض كرية ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ وهو حشر الأموات الذي يطابقه الواقع ، إذا وجد قرباً عظيماً ، كأن الوعد طالب له ومجتهد فيه .

(76/515)

ولما دلت صيغة " افتعل " على شدة القرب كما في الحديث أن الساعة إذ ذاك مثل الحامل المتمّ ، علم أن التقدير جواباً لإذا : كان ذلك الوعد فقام الناس من قبورهم : ﴿ فإذا هي شاخصة ﴾ أي واقفة جامدة لا تطرف لما دهمهم من الشدة ، ويجوز وهو أقرب أن تكون إذا هذه الفجائية هي جواب إذا الشرطية ، وهي تقع في المجازات سادة مسد الفاء ، فإذا جاءت الفاء معها متفاوتة على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ، فالمعنى : إذا كان الفتح ووقع ما تعقبه فاجأت الشخوص ﴿ أبصار الذين كفروا ﴾ أي منهم ، لما بدا لهم ما لم يكونوا يحتسبونه من الأهوال ، قائلين : ﴿ يا ويلنا ﴾ أي حضرنا الويل فهو نديمنا فلا مدعو لنا غيره ﴿ قد كنا ﴾ أي في الدنيا ﴿ في غفلة من هذا ﴾ أي مبتدئة من اعتقاد هذا البعث فكنا نكذب به فعمتنا الغفلة .

ولما كان من الوضوح في الدلائل والرسوخ في الخواطر بحيث لا يجهله أحد ، أضربوا عن الغفلة فقالوا : ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ أي بعدم اعتقاده واضعين الشيء في غير موضعه حيث أعرضنا عن تأمل دلائله ، والنظر في مخايله ، وتقبل كلام الرسل فيه ، فأنكرنا ما هو أضوأ من الشمس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 112 . 113 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أهلكناها أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾

فاعلم أن قوله : ﴿ وَحَرَامٌ ﴾ خبر فلا بد له من مبتدأ وهو إما قوله : ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ أو شيء آخر أما الأول فالتقدير أن عدم رجوعهم حرام أي ممتنع وإذا كان عدم رجوعهم ممتنعاً كان رجوعهم واجباً فهذا الرجوع إما أن يكون المراد منه الرجوع إلى الآخرة أو إلى الدنيا .

أما الأول : فيكون المعنى أن رجوعهم إلى الحياة في الدار الآخرة واجب ، ويكون الغرض منه إبطال قول من ينكر البعث ، وتحقيق ما تقدم أنه لا كفران لسعي أحد فإنه سبحانه سيعطيه الجزاء على ذلك يوم القيامة وهو تأويل أبي مسلم بن بحر .

وأما الثاني : فيكون المعنى أن رجوعهم إلى الدنيا واجب لكن المعلوم أنهم لم يرجعوا إلى الدنيا فعند هذا ذكر المفسرون وجهين : الأول : أن الحرام قد يجيء بمعنى الواجب والدليل عليه الآية والاستعمال والشعر ، أما الآية فقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَن لاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ [الأنعام : 151] وترك الشرك واجب وليس بمحرم ، وأما الشعر فقول الخنساء :

وإن حراماً لا أرى الدهر باكياً . . على شجوه إلا بكيت على عمرو

يعني وإن واجباً ، وأما الاستعمال فلأن تسمية أحد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] إذا ثبت هذا فالمعنى أنه واجب على أهل كل قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ، ثم ذكروا في تفسير الرجوع أمرين :

أحدهما : أنهم لا يرجعون عن الشرك ولا يتولون عنه وهو قول مجاهد والحسن .

وثانيها : لا يرجعون إلى الدنيا وهو قول قتادة ومقاتل .

(78/515)

الوجه الثاني : أن يترك قوله وحرام على ظاهره ويجعل في قوله : ﴿ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ صلة زائدة كما أنه صلة في قوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن لاَ تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف : 12] والمعنى حرام على قرية أهلكناها رجوعهم إلى الدنيا وهو كقوله : ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يس : 50] أو يكون المعنى وحرام عليهم رجوعهم عن الشرك وترك الأيمان ، وهذا قول طائفة من المفسرين ، وهذا كله إذا جعلنا قوله وحرام خبراً لقوله : ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ أما إذا جعلناه خبراً لشيء آخر فالتقدير وحرام على قرية أهلكناها ذاك ، وهو المذكور في الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعي المشكور غير المكفور ثم علل

فقال : ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ عن الكفر فكيف لا يمتنع ، ذلك هذا على قراءة إنهم بالكسر والقراءة بالفتح يصح حملها أيضاً على هذا أي أنهم لا يرجعون .

أما قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * واقترب الوعد الحق فَإِذَا هِيَ شاخصة أبصار الذين كَفَرُواْ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

أن (حتى) متعلقة بحرام فأما على تأويل أبي مسلم فالمعنى أن رجوعهم إلى الآخرة واجب حتى أن وجوبه يبلغ إلى حيث أنه إذا فتحت يأجوج ومأجوج ، واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ، والمعنى أنهم يكونون أول الناس حضوراً في محفل القيامة ، فحتى متعلقة بحرام وهي غاية له ولكنه غاية من جنس الشيء كقولك دخل الحاج حتى المشاة .

وحتى ههنا هي التي يحكى بعدها الكلام .

(79/515)

والكلام المحكى هو هذه الجملة من الشرط والجزاء أعني قوله : ﴿ وَإِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ * واقترب الوعد الحق ﴾ فهناك يتحقق شخوص أبصار الذين كفروا ، وذلك

غير جائز لأن الشرط إنما يحصل في آخر أيام الدنيا والجزاء إنما يحصل في يوم القيامة ، والشرط والجزاء لا بد وأن يكونا متقاربين ، قلنا التفاوت القليل يجري مجرى المعدوم ، وأما على التأويلات الباقية فالمعنى أن امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم الساعة .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ ﴾ المعنى فتح سد يأجوج ومأجوج فحذف المضاف وأدخلت علامة التأنيث في فتحت لما حذف المضاف لأن يأجوج ومأجوج مؤنثان بمنزلة القبيلتين ، وقيل حتى إذا فتحت جهة يأجوج .

المسألة الثالثة :

هما قبيلتان من جنس الإنس ، يقال : الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد .

المسألة الرابعة :

قيل : السد يفتحه الله تعالى ابتداء ، وقيل : بل إذا جعل الله تعالى الأرض دكاً زالت الصلابة عن أجزاء الأرض فحينئذ ينفتح السد .

أما قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ فحشو في أثناء الكلام ، والمعنى إذا فتحت يأجوج واقترب الوعد الحق شخصت أبصار الذين كفروا ، والحدب النشز من الأرض ، ومنه حدبة الأرض ، ومنه حدبة الظهر ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ مِن

كُلّ جدث يَنسِلُونَ ﴾ ، اعتباراً بقوله :

﴿ فَإِذَا هُم مّنَ الأجداث إلى ربّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : 51] وقرىء بضم السين ونسل وعسل أسرع ثم فيه قولان ، قال أكثر المفسرين إنه كناية عن يأجوج ومأجوج ، وقال مجاهد : هو كناية عن جميع المكلفين أي يخرجون من قبورهم من كل موضع فيحشرون إلى موقف الحساب ، والأول هو الأوجه وإلا لتفكك النظم ، وأن يأجوج ومأجوج إذا كثروا على ما روى في "الخبر" ، فلا بد من أن ينشروا فيظهر إقبالهم على الناس من كل موضع مرتفع .

(80/515)

أما قوله تعالى : ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ فلا شبهة أن الوعد المذكور هو يوم القيامة .

أما قوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ فاعلم أن (إذا) ههنا للمفاجأة فسمى الموعد وعداً تجوزاً ، وهي تقع في المجازاة سادة مسد الفاء كقوله : ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم : 36] فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل : ﴿ إِذَا هِيَ شاخصة ﴾ أو فهي شاخصة كان سديداً ، أما لفظة ﴿ هِيَ ﴾ فقد ذكر النحويون فيها ثلاثة أوجه .

أحدها : أن تكون كناية عن الأبصار ، والمعنى فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة

أبصارهم كني عن الإبصار ثم أظهر .

والثاني : أن تكون عماداً ويصلح في موضعها هو فيكون كقوله : ﴿ إِنَّهُ أَنَا اللهُ ﴾ [النمل : 9] ومثله : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ﴾ [الحج : 46] وجاز التأنيث لأن الأبصار مؤنثة وجاز التذكير للعماد وهو قول الفراء ، وقال سيبويه الضمير للقصة بمعنى فإذا القصة شاخصة ، يعني أن القصة أن أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك ، ومعنى الكلام أن القيامة إذا قامت شخصت أبصار هؤلاء من شدة الأهوال ، فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم ، ومن توقع ما يخافونه ، ويقولون : ﴿ يا ويلنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ يعني في الدنيا حيث كذبناه وقلنا : إنه غير كائن بل كنا ظالمين أنفسنا بتلك الغفلة وبتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وعبادة الأوثان ، واعلم أنه لا بد قبل قوله يا ويلنا من حذف والتقدير يقولون يا ويلنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 191.192 ﴾

(81/515)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾

فيه تأويلان :

أحدهما : معناه حرام على قرية وجدناها هالكة بالذنوب أنهم لا يرجعون إلى التوبة ، وهو قول عكرمة .

الثاني : وحرام على قرية أهلكناها بالعذاب أنهم لا يرجعون إلى الدنيا ، وهذا قول الحسن ، وقرأ ابن عباس : وحَرُم على قرية ، وتأويلها ما قاله سفيان : وجب على قرية أهلكناها . [أنهم لا يرجعون قال : لا يتوبون] .

قوله عز وجل : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ أي فتح السد ، وهو من أشراط الساعة ، وروى أبو هريرة عن زينب بنت جحش قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نائماً في بيته ، فاستيقظ محمرة عيناه ، فقال : " لا إله إلا الله ثلاثاً ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِن شَرٍ قَدِ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ اليَومَ مِن رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجُ مِثْلَ هذا " وأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عِقْدِ التِّسْعِينَ .

ويأجوج ومأجوج قيل إنهما أخوان ، وهما ولدا يافث بن نوح ، وفي اشتقاق اسميهما قولان :

أحدهما : أنه مشتق من أَجّت النار .

والثاني : من الماء الأُجاج . وقيل إنهم يزيدون على الإِنس الضعف .

﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ وفي حدب الأرض ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه فجاجها وأطرافها ، قاله ابن عباس .

والثاني : حولها .

الثالث : تلاعها وآكامها ، مأخوذ من حدبة الظهر ، قال عنترة :

فما رعشت يداي ولا ازْدَهاني . . . تواترهم إليَّ من الحِداب

وفي قوله : ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ وجهان :

أحدها : معناه يخرجون ، ومنه قول امرىء القيس :

فسلي ثيابي من ثيابك تنسلِ . . . والثاني : معناه يسرعون ، ومنه قول الشاعر :

عسلان الذئب أمسى قارباً . . . برد الليل عليه فنسل

وفي الذي هم من كل حدب ينسلون قولان :

أحدهما : هم يأجوج ومأجوج ، وهذا قول ابن مسعود .

الثاني : أنهم الناس يحشرون إلى الموقف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ

﴾

(82/515)

وقال ابن عطية :

﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ ﴾

ثم عاد إلى ذكر الكفرة الذين من كفرهم ومعتقدهم أنهم لا يحشرون إلى رب ولا يرجعون إلى معاد فهم يظنون بذلك أنه لا عقاب ينالهم فجاءت الآية مكذبة لظن هؤلاء أي وممتنع على

الكفرة المهلكين أن لا يرجعون بل هم راجعون إلى عقاب الله وأليم عذابه فتكون ﴿ لا ﴾ على بابها والحرام على بابه وكذلك الحرم فتأمله .

﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) ﴾

(83/515)

تحتمل ﴿ حتى ﴾ في هذه الآية أن تكون متعلقة بقوله ﴿ وتقطعوا ﴾ [الأنبياء : 93] وتحتمل على بعض التأويلات المتقدمة أن تعلق ب ﴿ يرجعون ﴾ [الأنبياء : 95] وتحتمل أن تكون حرف ابتداء وهو الأظهر بسبب ﴿ إذا ﴾ لأنها تقتضي جواباً وهو المقصود ذكره ، واختلف هنا الجواب ، فقالت فرقة الجواب قوله ﴿ اقترب الوعد ﴾ والواو زائدة ، وقالت فرقة منها الزجاج وغيره الجواب في قوله ﴿ يا ويلنا ﴾ التقدير قالوا ﴿ يا ويلنا ﴾ وليست الواو بزائدة ، والذي أقول إن الجواب في قوله ﴿ فإذا هي شاخصة ﴾ وهذا هو المعنى الذي قصد ذكره لأَنه رجوعهم الذي كانوا يكذبون به وحرم عليهم امتناعه ، وقرأ الجمهور " فَتحت " بتخفيف التاء ، وقرأ ابن عامر وحده " فتّحت " بتثقيلها ، وروي أن ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ يشرفون في كل يوم على الفتح فيقولون غداً نفتح ولا يردون المشيئة إلى الله تعالى فإذا كان غداً وجدوا الردم كأوله حتى إذا أذن الله تعالى في

فتحه قال قائلهم غداً نفتحه إن شاء الله فيجدونه كما تركوه قريب الانفتاح فيفتحونه حينئذ ، وقرأ عاصم وحده " يأجوج ومأجوج " بالهمز ، وقرأ الجمهور بالتسهيل ، وقد تقدم في سورة الكهف توجيه ذلك وكثير من حال ﴿ يأجوج وماجوج ﴾ فغنينا ها هنا من إعادة ذلك . و" الحدب " كل متسنم من الأرض كالجبل والظرب والكدية والقبر ونحوه . وقالت فرقة المراد بقوله ، ﴿ وهم ﴾ ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ لأنهم يطلعون من كل ثنية ومرتفع ويعمون الأرض وذلك أنهم من الكثرة بحيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، " يقول الله تعالى يوم القيامة لآدم أخرج بعث النار من ذريتك فيخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين " قال ففزع الناس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، " إن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف رجل " ويروى أن الرجل منهم لا يموت حتى يولد له ألف بين رجل وامرأة وقالت فرقة المراد بقوله ﴿ وهم ﴾ جميع العالم وإنما هو تعريف بالبعث من القبور وقرأ ابن مسعود " من

(84/515)

كل جدث " وهذه القراءة تؤيد هذا التأويل ، و﴿ ينسلون ﴾ معناه يسرعون في تطامن ومنه قول الشاعر : [الرمل]

عسلان الذئب أمسى قارباً . . . برد الليل عليه فنسل

وقرأت فرقة بكسر السين ، وقرأت بضمها ، وأسند الطبري عن أبي سعيد قال يخرج يأجوج ومأجوج فلا يتركون أحداً إلا قتلوه إلا أهل الحصون فيمرون على بحيرة طبرية فيمر آخرهم فيقول كان هنا مرة ما ، قال فيبعث الله عليهم النغف حتى تكسر أعناقهم فيقول أهل الحصون لقد هلك أعداء الله فيدلون رجلاً ينظر فيجدهم قد هلكوا قال فينزل الله تعالى من السماء فيقذف بهم في البحر فيطهر الأرض منهم ، وفي حديث حذيفة نحو هذا وفي آخره قال وعند ذلك طلوع الشمس من مغربها ، وروي أن ابن عباس رأى صبياناً يلعبون وينزوا بعضهم على بعض فقال هكذا خروج يأجوج ومأجوج .

وقوله تعالى : ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ يريد يوم القيامة ، وروي في الحديث " أن الرجل ليتخذ الفلو بعد يأجوج ومأجوج فلا يبلغ منفعته حتى تقوم الساعة " ، وقوله تعالى : ﴿ هي ﴾ ، مذهب سيبويه أنها ضمير القصة كأنه قال فإذا القصة أو الحادثة ﴿ شاخصة أبصار ﴾ وجوز الفراء أن تكون ضمير الإبصار تقدمت لدلالة الكلام ويجيء ما يفسرها وأنشد على ذلك : [الطويل]

فلا وأبيها لا تقول حليلتي . . . ألا فرَّعني مالك بن أبي كعب

والشخوص بالعين إحداد النظر دون أن يطرف ، وذلك يعتري من الخوف المفرط أو علة أو نحوه ، وقوله : ﴿ يا ويلنا ﴾ تقديره يا ويلنا لقد كانت بنا غفلة عما وجدنا الآن وتبينا الآن

من الحقائق ثم تركوا الكلام الأول ورجعوا إلى نقد ما كان يداخلهم من تعهد الكفر وقصد الإعراض فقالوا ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(85/515)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وحرام على قرية ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : "وحرام" بألف .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "وحِرْم" بكسر الحاء من غير ألف ، وهما لغتان .

يقال : حِرْم وحرام .

وقرأ معاذ القارىء ، وأبو المتوكل ، وأبو عمران الجوني : "حَرَمٌ" بفتح الحاء وسكون الراء من غير ألف والميم مرفوعة منوّنة .

وقرأ سعيد بن جبير : "وحَرْمَ" بفتح الحاء وسكون الراء وفتح الميم من غير تنوين ولا ألف .

وقرأ أبو الجوزاء ، وعكرمة ، والضحاك : "وحَرِمَ" بفتح الحاء والميم وكسر الراء من غير تنوين ولا ألف .

وقرأ سعيد بن المسيب ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء : "وحَرُمَ" بفتح الحاء وضم الراء ونصب الميم من غير ألف .

وفي معنى قوله تعالى : "وحرام" قولان .

أحدهما : واجب ، قاله ابن عباس ، وأنشدوا في معناه :

فَإِنَّ حَرَاماً لاَ أَرَى الدَّهْرَ بَاكِياً . . .

عَلَى شَجْوِهِ إِلاَّ بَكَيْتُ على عَمْرو

أي : واجب .

والثاني : أنه بمعنى العزم ، قاله سعيد بن جبير .

وقال عطاء : حتم من الله .

والمراد بالقرية : أهلها .

ثم في معنى الآية أربعة أقوال .

أحدها : واجب على قرية أهلكناها أنهم لا يتوبون ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : واجب عليها أنها إِذا أُهلكت لا ترجع إِلى دنياها ، هذا قول قتادة ؛ وقد روي عن ابن عباس نحوه .

والثالث : أن "لا" زائدة ؛ والمعنى : حرام على قرية مهلكة أنهم يرجعون إِلى الدنيا ، قاله ابن جريج ، وابن قتيبة في آخرين .

والرابع : أن الكلام متعلق بما قبله ، لأنه لما قال : "فلا كفران لسعيه" أعلمنا أنه قد حرَّم قبول أعمال الكفار ؛ فمعنى الآية : وحرام على قرية أهلكناها أن يُتقبَّل منهم عمل ، لأنهم لا يتوبون ، هذا قول الزجاج .

فإن قيل : كيف يصح أن يحرم على الإِنسان ما ليس من فعله ، ورجوعهم بعد الموت ليس إِليهم ؟

(86/515)

فالجواب : أن المعنى : مُنعوا من ذلك ، كما يُمنع الإِنسان من الحرام وإِن قدر عليه ، فكان التشبيه بالتحريم للحالتين من حيث المنع .

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذا فُتِحَتْ يأجوجُ ومأجوجُ ﴾ وقرأ ابن عامر : "فُتِّحت" بالتشديد ، والمعنى : فُتح الردم عنهم ﴿ وهم من كل حَدب ﴾ قال ابن قتيبة : من كل نشَز من الأرض وأَكَمة ﴿ يَنْسِلون ﴾ من النَّسَلان : وهو مقاربة الخطو مع الإِسراع ، كمشي الذئب إِذا بادر ، والعَسَلان مثله .

وقال الزجاج : الحَدَبُ : كل أَكَمَة ، و"يَنْسِلون" : يُسرعون .

وقرأ أبو رجاء العطاردي ، وعاصم الجحدري : "يَنْسُلون" بضم السين .

وفي قوله تعالى : ﴿ وهم ﴾ قولان .

أحدهما : أنه إِشارة إِلى يأجوج ومأجوج ، قاله الجمهور .

والثاني : إِلى جميع الناس ؛ فالمعنى : وهم يُحشَرون إِلى الموقف ، قاله مجاهد .

والأول أصح .

فإن قيل : أين جواب "حتى" ؟ ففيه قولان .

أحدهما : أنه قوله تعالى : ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ والواو في قوله تعالى : "واقترب" زائدة ، قاله الفراء .

قال : ومثله ﴿ حتى إِذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : 73] ، وقوله تعالى : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه ﴾ [الصافات : 103 ، 104] ، المعنى : نادينا .

وقال عبد الله بن مسعود : الساعة من الناس بعد يأجوج ومأجوج ، كالحامل المتمّ ، لا يدري أهلها متى تفجؤُهم بولدها ليلاً أو نهاراً .

والثاني : أنه قول محذوف في قوله : ﴿ يا ويلنا ﴾ ، فالمعنى : حتى إِذا فُتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد ، قالوا : يا ويلنا .

قال الزجاج : هذا قول البصريين .

فأما ﴿ الوعد الحق ﴾ فهو القيامة .

قوله تعالى : ﴿ فإذا هي ﴾ في "هي" أربعة أقوال .

أحدها : أن "هي" كناية عن الأبصار ، والأبصار تفسير لها ، كقول الشاعر :

لَعَمْرُو أبيها لا تَقُولُ ظَعِينَتِي . . .

أَلاَ فَرَّعَنِّي مَالكُ بن أبِي كَعْبِ

فذكر الظعينة ، وقد كنى عنها في "لعمرو أبيها" .

(87/515)

والثاني : أن "هي" [ضمير فصل ، و] عمادٌ ، ويصلح في موضعها "هو" ، ومثله قوله : ﴿ إنه أنا الله ﴾ [النمل : 9] ، وقوله : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ﴾ [الحج : 46] ، وأنشدوا :

بثوبٍ وَدينارٍ وشاةٍ ودرهمٍ . . .

فهَل هو مَرفوع بما هَاهُنا رأْس

ذكرهما الفراء .

والثالث : أن يكون تمام الكلام عند قوله : "هي" على معنى : فإذا هي بارزة واقفة ، يعني : من قربها ، كأنها آتية حاضرة ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ شاخصة ﴾ ، ذكره الثعلبي .

والرابع : أن "هي" كناية عن القصة ، والمعنى : القصة أن أبصارهم شاخصة في ذلك اليوم ،

ذكره علي بن أحمد النيسابوري .

قال المفسرون : تشخص أبصار الكفار من هول يوم القيامة ، ويقولون : ﴿ يا ويلنا قد كنا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ في غفلة من هذا ﴾ أي : عن هذا ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ أنفسنا بكفرنا ومعاصينا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(88/515)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾

قراءة زيد بن ثابت وأهل المدينة "وَحَرَامٌ" وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم .

وأهل الكوفة "وَحِرْمٌ" ورويت عن علي وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم .

وهما لغتان مثل حِلّ وحَلاَل .

وقد روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير "وَحَرِمَ" بفتح الحاء والميم وكسر الراء .

وعن ابن عباس أيضاً وعكرمة وأبي العالية "وَحَرُمَ" بضم الراء وفتح الحاء والميم .

وعن ابن عباس أيضاً "وَحَرَمَ" وعنه أيضاً "وَحَرَّمَ" ، "وَحُرِّمَ" .

وعن عكرمة أيضاً "وَحَرِمٌ" .

وعن قتادة ومطر الوراق "وَحَرَمٌ" تسع قراءات .

وقرأ السُّلَمي "عَلَى قَرْيَةٍ اهْلَكْتُها" .

واختلف في "لا" في قوله : "لاَ يَرْجِعُونَ" فقيل : هي صلة ؛ روي ذلك عن ابن عباس ، واختاره أبو عبيد ؛ أي وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك .

وقيل : ليست بصلة ، وإنما هي ثابتة ، ويكون الحرام بمعنى الواجب ؛ أي وجب على قرية ؛ كما قالت الخنساء :

وَإِنَّ حَراماً لاَ أَرَى الدَّهْرَ بَاكِياً . . .
عَلَى شَجْوِهِ إِلاَّ بَكيتُ على صَخْرِ

تريد أخاها ؛ ف"لا" ثابتة على هذا القول .

قال النحاس : والآية مشكلة ومن أحسن ما قيل فيها وأجلّه ما رواه ابن عيينة وابن عُلَيّة وهشيم وابن إدريس ومحمد بن فضيل وسليمان بن حيان ومعلّى عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس في قول الله عز وجل : ﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ ﴾ قال : وجب أنهم لا يرجعون ؛ قال : لا يتوبون .

(89/515)

قال أبو جعفر : واشتقاق هذا بيّن في اللغة ، وشرحه : أن معنى حُرّم الشيء حُظِر ومُنع منه ، كما أن معنى أحل أبيح ولم يمنع منه ، فإذا كان "حَرامٌ" و"حِرْمٌ" بمعنى واجب فمعناه أنه قد ضيق الخروج منه ومنع فقد دخل في باب المحظور بهذا ؛ فأما قول أبي عبيد : إن "لا" زائدة فقد رده عليه جماعة ؛ لأنها لا تزاد في مثل هذا الموضع ، ولا فيما يقع فيه إشكال ، ولو كانت زائدة لكان التأويل بعيداً أيضاً ؛ لأنه إن أراد وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا فهذا ما لا فائدة فيه ، وإن أراد التوبة فالتوبة لا تُحرّم .

وقيل : في الكلام إضمار أي وحرام على قرية حكمنا باستئصالها ، أو بالختم على قلوبها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون أي لا يتوبون ؛ قاله الزجاج وأبو علي ؛ و"لا" غير زائدة .

وهذا هو معنى قول ابن عباس رضي الله عنه .

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ تقدّم القول فيهم .

وفي الكلام حذف ، أي حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج ، مثل "وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ" .

﴿ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ قال ابن عباس : من كل شرف يُقبلون ؛ أي لكثرتهم ينسلون من كل ناحية .

والحدب ما ارتفع من الأرض ، والجمع الحِداب ؛ مأخوذ من حدبة الظهر ؛ قال عَنْتَرة :

فما رعِشت يداي ولا ازدهاني . . .

تَواتُرهم إليّ من الحدَاب

وقيل : "يَنْسِلُونَ" يخرجون ؛ ومنه قول امرىء القيس :

فَسُلِّي ثِيابِي من ثِيابِك تَنْسُلِ . . .

وقيل : يسرعون ؛ ومنه قول النابغة :

عَسَلاَن الذئبِ أَمْسَى قَارِباً . . .

بَرَد الليلُ عليهِ فَنَسَلْ

يقال : عَسَل الذئبُ يَعسِل عَسَلاً وعَسَلانا إذا أعنق وأسرع .

وفي الحديث : "كَذبَ عليك العَسَلَ " أي عليك بسرعة المشي .

وقال الزجاج : والنَّسَلان مِشية الذئب إذا أسرع ؛ يقال : نسل فلان في العدو يَنْسُل بالكسر والضم نَسْلا ونُسولاً ونَسَلانا ؛ أي أسرع .

(90/515)

ثم قيل في الذين ينسلون من كل حدب : إنهم يأجوج ومأجوج ، وهو الأظهر ؛ وهو قول ابن مسعود وابن عباس .

وقيل : جميع الخلق ؛ فإنهم يحشرون إلى أرض الموقف ، وهم يسرعون من كل صوب .

وقرىء في الشواذ "وَهُمْ مِّن كُلِّ جَدَثٍ يَنسِلُونَ" أخذا من قوله : ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : 51] .

وحكى هذه القراءة المهدوي عن ابن مسعود والثعلبي عن مجاهد وأبي الصهباء .

قوله تعالى : ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ يعني القيامة .

وقال الفراء والكسائي وغيرهما : الواو زائدة مقحمة ؛ والمعنى : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق "فَاقْتَرَبَ" جواب "إذا" .

وأنشد الفراء :

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى . . .

أي انتحى ، والواو زائدة ؛ ومنه قوله تعالى : "وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ .

وَنَادَيْنَاهُ" أي للجبين ناديناه .

وأجاز الكسائي أن يكون جواب "إذا" ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الأنبياء : 97] ويكون قوله : ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ معطوفاً على الفعل الذي هو شرط .

وقال البصريون : الجواب محذوف والتقدير : قالوا يا ويلنا ؛ وهو قول الزجاج ، وهو قول حسن .

قال الله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى ﴾ [

الزمر : 3] المعنى : قالوا ما نعبدهم ، وحذف القول كثير .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ ﴾ "هي" ضمير الأبصار ، والأبصار المذكورة بعدها تفسير لها ؛ كأنه قال : فإذا أبصار الذين كفروا شخصت عند مجيء الوعد .

وقال الشاعر :

لَعمرُ أبيها لا تقول ظَعِينتِي . . .

أَلاَ فَرَّ عني مالكُ بن أبِي كعب

فكنى عن الظعينة في أبيها ثم أظهرها .

وقال الفراء : "هي" عماد ، مثل ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ﴾ [الحج : 46] .

(91/515)

وقيل : إن الكلام تم عند قوله : "هي" التقدير : فإذا هي ؛ بمعنى القيامة بارزة واقعة ؛ أي مِن قُربها كأنها آتية حاضرة ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ ﴾ على تقديم الخبر على الابتداء ؛ أي أبصار الذين كفروا شاخصة من هذا اليوم ؛ أي من هوله لا تكاد تطرف ؛ يقولون : يا ويلنا إنا كنا ظالمين بمعصيتنا ، ووضعنا العبادة في غير موضعها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

وقرأ الجمهور ﴿ وحرام ﴾ وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وطلحة والأعمش وأبو حنيفة وأبو عمرو في رواية وحِرْم بكسر الحاء وسكون الراء .

وقرأ قتادة ومطر الوراق ومحبوب عن أبي عمرو بفتح الحاء وسكون الراء .

وقرأ عكرمة وحُرِمٌ بكسر الراء والتنوين .

وقرأ ابن عباس وعكرمة أيضاً وابن المسيب وقتادة أيضاً بكسر الراء وفتح الحاء والميم على المضي بخلاف عنهما ، وأبو العالية وزيد بن عليّ بضم الراء وفتح الحاء والميم على المضي .

وقرأ ابن عباس أيضاً بفتح الحاء والراء والميم على المضيّ .

وقرأ اليماني وحُرِّمَ بضم الحاء وكسر الراء مشددة وفتح الميم .

وقرأ الجمهور ﴿ أهلكناها ﴾ بنون العظمة .

وقرأ السلمي وقتادة بتاء المتكلم ، واستعير الحرام للمتنع وجوده ومنه ﴿ إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ ومعنى ﴿ أهلكناها ﴾ قدرنا إهلاكها على ما هي عليه من الكفر ،

فالإهلاك هنا إهلاك عن كفر و﴿ لا ﴾ في ﴿ لا يرجعون ﴾ صلة وهو قول أبي عبيد كقولك : ما منعك أن لا تسجد ، أي يرجعون إلى الإيمان والمعنى وممتنع على أهل قرية قدرنا عليهم إهلاكهم لكفرهم رجوعهم في الدنيا إلى الإيمان إلى أن تقوم القيامة ، فحينئذ يرجعون ويقولون ﴿ يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا ﴾ وغياً بما قرب من مجيء الساعة وهو فتح ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ وقرىء ﴿ إنهم ﴾ بالكسر فيكون الكلام قد تم عند قوله ﴿ أهلكناها ﴾ ويقدر محذوف تصير به ﴿ وحرام على قرية أهلكناها ﴾ جملة أي ذاك ، وتكون إشارة إلى العمل الصالح المذكور في قسيم هؤلاء المهلكين ، والمعنى ﴿ وحرام على ﴾ أهل ﴿ قرية ﴾ قدرنا إهلاكهم لكفرهم عمل صالح ينجون به من الإهلاك ثم أكد ذلك وعلله بأنهم ﴿ لا يرجعون ﴾ عن الكفر ، فكيف لا يمتنع ذلك فالمحذوف مبتدأ والخبر ﴿ وحرام ﴾ وقدره بعضهم متقدماً كأنه قال : والإقالة والتوبة حرام .

وقراءة الجمهور بالفتح تصح على هذا المعنى وتكون ﴿ لا ﴾ نافية على بابها والتقدير لأنهم لا يرجعون .

(93/515)

وقيل ﴿ أهلكناها ﴾ أي وقع إهلاكنا إياهم ويكون رجوعهم إلى الدنيا فيتوبون بل هم صائرون إلى العذاب .

وقيل : الإهلاك بالطبع على القلوب ، والرجوع هو إلى التوبة والإيمان .

وقال الزجاج ﴿ وحرام على قرية أهلكناها ﴾ حكمنا بإهلاكها أن نتقبل أعمالهم لأنها ﴿ لا يرجعون ﴾ أي لا يتوبون ، ودل على هذا المعنى قوله قبل ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾ أي يتقبل عمله ثم ذكر هذا عقيبه وبين أن الكافر لا يتقبل عمله .

وقال أبو مسلم بن بحر ﴿ حرام ﴾ ممتنع و ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ انتقام الرجوع إلى الآخرة ، وإذا امتنع الانتفاء وجب الرجوع فالمعنى أنه يجب رجوعهم إلى الحياة في الدار الآخرة ويكون الغرض إنكار قول من ينكر البعث ، وتحقيق ما تقدم من أنه لا كفران لسعي أحد وأنه يجزى على ذلك يوم القيامة .

وقيل : الحرام يجيء بمعنى الواجب يدل عليه ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا ﴾ وترك الشرك واجب .

وقالت الخنساء :

حرام علي أن لا أرى الدهر باكيا . . .

على شجوه إلاّ بكيت على صخر

وأيضاً فمن الاستعمال إطلاق الضمير على ضده ، وعلى هذا فقال مجاهد والحسن ﴿ لا

يرجعون ﴾ عن الشرك .

وقال قتادة ومقاتل إلى الدنيا .

قال ابن عطية : ويتجه في الآية معنى ضمنه وعيد بيّن وذلك أنه ذكر من عمل صالحاً وهو مؤمن ثم عاد إلى ذكر الكفرة الذين من كفرهم ومعتقدهم أنهم لا يحشرون إلى رب ولا يرجعون إلى معاد فهم يظنون بذلك أنه لا عقاب ينالهم ، فجاءت الآية مكذبة لظن هؤلاء أي وممتنع على الكفرة المهلكين ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ بل هم راجعون إلى عقاب الله وأليم عذابه ، فيكون لا على بابها والحرام على بابه .

وكذلك الحرم فتأمله انتهى .

و﴿ حتى ﴾ قال أبو البقاء متعلقة في المعنى بحرام أي يستمر الامتناع إلى هذا الوقت ولا عمل لها في ﴿ إذا ﴾ .

وقال الحوفي ﴿ حتى ﴾ غاية ، والعمل فيها ما دل عليه المعنى من تأسفهم على ما فرطوا فيه من الطاعة حين فاتهم الاستدراك .

(94/515)

وقال الزمخشري : فإن قلت : بم تعلقت ﴿ حتى ﴾ واقعة غاية له وأية الثلاث هي ؟ قلت : هي متعلقة بحرام ، وهي غاية له لأن امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة ، وهي ﴿ حتى ﴾ التي تحكي الكلام ، والكلام المحكي الجملة من الشرط والجزاء أعني إذا وما في حيزها انتهى .

وقال ابن عطية : هي متعلقة بقوله ﴿ وتقطعوا ﴾ ويحتمل على بعض التأويلات المتقدمة أن تعلق بيرجعون ، ويحتمل أن تكون حرف ابتداء وهو الأظهر بسبب ﴿ إذ ﴾ لأنها تقتضي جواباً هو المقصود ذكره انتهى .

وكون ﴿ حتى ﴾ متعلقة فيه بعد من حيث ذكر الفصل لكنه من جهة المعنى جيد ، وهو أنهم لا يزالون مختلفين غير مجتمعين على دين الحق إلى قرب مجيء الساعة ، فإذا جاءت الساعة انقطع ذلك الاختلاف وعلم الجميع أن مولاهم الحق وأن الدين المنجي هو كان دين التوحيد .

وجواب ﴿ إذا ﴾ محذوف تقديره ﴿ قالوا يا ويلنا ﴾ قاله الزجاج وجماعة أو تقديره ، فحينئذ يبعثون ﴿ فإذا هي شاخصة ﴾ .

أو مذكور وهو واقترب على زيادة الواو قاله بعضهم ، وهو مذهب الكوفيين وهم يجيزون زيادة الواو والفاء في فإذا هي قاله الحوفي .

وقال الزمخشري : وإذا هي المفاجأة وهي تقع في المفاجآت سادة مسد الفاء لقوله تعالى ﴿

إذا هم يقنطون ﴾ فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط ، فيتأكد ولو قيل ﴿ إذا هي شاخصة ﴾ كان سديداً .

وقال ابن عطية : والذي أقول أن الجواب في قوله ﴿ فإذا هي شاخصة ﴾ وهذا هو المعنى الذي قصد ذكره لأنه رجوعهم الذي كانوا يكذبون به وحرّم عليهم امتناعه ، وتقدم الخلاف في ﴿ فتحت ﴾ في الأنعام ووافق ابن عامر أبو جعفر وشيبة وكذا التي في الأنعام والقمر في تشديد التاء ، والجمهور على التخفيف فيهن و ﴿ فتحت يأجوج ﴾ على حذف مضاف أي سد ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ وتقدم الخلاف في قراءة ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ والظاهر أن ضمير ﴿ وهم ﴾ عائد على ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ أي يطلعون من كل ثنية ومرتفع ويعمون الأرض .

(95/515)

وقيل : الضمير للعالم ويدل عليه قراءة عبد الله وابن عباس من كل جدث بالثاء المثلثة وهو القبر .

وقرىء بالفاء الثاء للحجاز والفاء لتميم وهي بدل من الثاء كما أبدلوا الثاء منها قالوا وأصله مغفور .

وقرأ الجمهور ﴿ ينسلون ﴾ بكسر السين وابن أبي إسحاق وأبو السمال بضمها ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ أي الوعد بالبعث الحق الذي لا شك فيه ﴿ واقترب ﴾ قيل : أبلغ في القرب من قرب وضمير ﴿ هي ﴾ للقصة كأنه قيل : فإذا القصة والحادثة ﴿ أبصار الذين كفروا ﴾ ﴿ شاخصة ﴾ ويلزم أن تكون ﴿ شاخصة ﴾ الخبر و﴿ أبصار ﴾ مبتدأ ، ولا يجوز ارتفاع أبصار شاخصة لأنه يلزم أن تكون بعد ضمير الشأن ، أو القصة جملة تفسر الضمير مصرح بجزأيها ، ويجوز ذلك على مذهب الكوفيين .

وقال الزمخشري : ﴿ هي ﴾ ضمير مبهم توضحه الأبصار وتفسره كما فسر الذين ظلموا وأسروا انتهى .

ولم يذكر غير هذا الوجه وهو قول للفراء .

قال الفراء : ﴿ هي ﴾ ضمير الأبصار تقدمت لدلالة الكلام ومجيء ما يفسرها وأنشد على ذلك قول الشاعر :

فلا وأبيها لا تقول خليلتي . . .

إلاّ قرّ عني مالك بن أبي كعب

وذكر أيضاً الفراء أن ﴿ هي ﴾ عماد يصلح في موضعها هو وأنشد :

بثوب ودينار وشاة ودرهم . . .

فهل هو مرفوع بما ههنا رأس

وهذا لا يتمشى إلا على أحد قولي الكسائي في إجازته تقديم الفصل مع الخبر على المبتدأ أجاز هو القائم زيد على أن زيد هو المبتدأ والقائم خبره ، وهو عماد وأصل المسألة زيد هو القائم ، ويقول : أصله هذه فإذا ﴿ أبصار الذين كفروا ﴾ هي ﴿ شاخصة ﴾ فشاخصة خبر عن ﴿ أبصار ﴾ وتقدم مع العماد ، ويجيء على مذهب من يجيز العماد قبل خبره نكرة ، وذكر الثعلبي وجها آخر وهو أن الكلام ثم عند قوله : ﴿ فإذا هي ﴾ أي بارزة واقعة يعني الساعة ، ثم ابتدأ فقال ﴿ شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ وهذا وجه متكلف متنافر التركيب .

(96/515)

وروى حذيفة لو أن رجلاً اقتنى فلوا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة يعني في مجيء الساعة إثر خروجهم .

﴿ يا ويلنا ﴾ معمول لقول محذوف .

قال الزمخشري : تقديره يقولون وهو في موضع الحال من الذين كفروا وتقدم قول الزجاج أن هذا القول جواب ﴿ إذا ﴾ والشخوص إحداد النظر دون أن يطرف في غفلة من هذا انتهى .

أي مما وجدنا الآن وتبينا من الحقائق ثم أضربوا عن قولهم ﴿ قد كنا في غفلة ﴾ وأخبروا بما قد كانوا تعمدوه من الكفر والإعراض عن الإيمان فقالوا ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(97/515)

وقال أبو السعود :

﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ ﴾ أي ممتنعٌ على أهلها غيرُ متصوَّر منهم ، وقرىء حِرْمٌ وهي لغة كالحِل والحلال ﴿ أهلكناها ﴾ قدّرنا هلاكها أو حكمنا به لغاية طغيانهم وعتوّهم وقوله تعالى : ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ في حيز الرفع على أنه مبتدأٌ خبرُه حرامٌ أو فاعل له سادٌّ مسدَّ خبرِه ، والجملةُ لتقرير مضمونِ ما قبلها من قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا راجعون ﴾ وما في أنّ من معنى التحقيق معتبرٌ في النفي المستفادِ من حرامٌ لا من المنفي أي ممتنعٌ ألبتةَ عدمُ رجوعِهم إلينا للجزاء ، لا أن عدمَ رجوعِهم المحقق ممتنعٌ ، وتخصيصُ امتناعِ عدمِ رجوعِهم بالذكر مع شمول الامتناعِ لعدم رجوعِ الكل حسبما نطق به قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا راجعون ﴾ لأنهم المنكِرون للبعث والرجوعِ دون غيرهم ، وقيل : ممتنعٌ رجوعُهم إلى التوبة على أن (لا) صلةٌ ، وقرىء أنهم لا يرجِعون بالكسر على أنه استئنافٌ تعليليٌّ لما قبله فحرامٌ خبرُ

مبتدأ محذوفٍ أي محرمٌ عليها ذلك وهو ما ذكر في الآية السابقة من العمل الصالح المشفوعِ بالإيمان والسعي المشكور ، ثم علل بقوله تعالى : ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه من الكفر فكيف لا يمتنع ذلك ، ويجوز حملُ المفتوحة أيضاً على هذا المعنى بحذف اللامِ عنها ، أي لأنهم لا يرجعون وحتى في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ الخ ، هي التي يُحكى بعدها الكلامُ وهي على الأول غايةٌ لما يدل عليه ما قبلها ، كأنه قيل : يستمرون على ما هم عليه من الهلاك حتى إذا قامت القيامةُ يرجعون إلينا ويقولون : يا ويلنا الخ ، وعلى الثاني غايةٌ للحُرمة أي يستمر امتناعُ رجوعِهم إلى التوبة حتى إذا قامت القيامة يرجعون إليها حين لا تنفعهم التوبةُ ، وعلى الثالث غايةٌ لعدم الرجوعِ عن الكفر أي لا يرجعون عنه حتى إذا قامت القيامة يرجعون عنه حين لا ينفعهم الرجوع ، ويأجوجُ ومأجوجُ قبيلتان من الإنس

(98/515)

قالوا : الناسُ عشرةُ أجزاء تسعةٌ منها يأجوجُ ومأجوج ، والمرادُ بفتحها فتحُ سدِّها على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامَه ، وقرىء فتّحت بالتشديد ﴿ وَهُمْ ﴾ أي يأجوجُ ومأجوجُ ، وقيل : الناس ﴿ مّن كُلّ حَدَبٍ ﴾ أي نشَز من الأرض ، وقرىء جدَث

وهو القبر ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ أي يسرعون وأصله مقاربةُ الخَطْو مع الإسراع ، وقرىء بضم السين ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ عطف على فُتحت والمرادُ به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحسابِ والجزاء لا النفخةُ الأولى ﴿ فَإِذَا هِىَ شاخصة أبصار الذين كَفَرُواْ ﴾ جوابُ الشرط وإذا للمفاجأة تسدّ مسدّ الفاءِ الجزائية كما في قوله تعالى :

﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فإذا دخلتها الفاء تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط ، والضميرُ للقصة أو مبهمٌ يفسره ما بعده ﴿ ياويلنا ﴾ على تقدير قول وقع حالاً من الموصول ، أي يقولون : يا ويلنا تعالَ فهذا أوانُ حضورِك ، وقيل : هو الجواب للشرط ﴿ قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ ﴾ تامة ﴿ مّنْ هذا ﴾ الذي دهمنا من البعث والرجوع إليه تعالى للجزاء ولم نعلم أنه حقٌ ﴿ بَلْ كُنَّا ظالمين ﴾ إضرابٌ عما قبله من وصف أنفسهم بالغفلة ، أي لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذرِ مكذّبين بها ، أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب .

(99/515)

﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ عطف على فُتحت والمرادُ به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحسابِ والجزاء لا النفخةُ الأولى ﴿ فَإِذَا هِىَ شاخصة أبصار الذين كَفَرُواْ ﴾ جوابُ

الشرط وإذا للمفاجأة تسدّ مسدّ الفاءِ الجزائية كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فإذا دخلتها الفاء تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط ، والضميرُ للقصة أو مبهمٌ يفسره ما بعده ﴿ ياويلنا ﴾ على تقدير قول وقع حالاً من الموصول ، أي يقولون : يا ويلنا تعالَ فهذا أوانُ حضورِك ، وقيل : هو الجواب للشرط ﴿ قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ ﴾ تامة ﴿ مّنْ هذا ﴾ الذي دهمنا من البعث والرجوع إليه تعالى للجزاء ولم نعلم أنه حقٌ ﴿ بَلْ كُنَّا ظالمين ﴾ إضرابٌ عما قبله من وصف أنفسهم بالغفلة ، أي لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذرِ مكذّبين بها ، أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(100/515)

وقال الآلوسى :

﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ ﴾

أي على أهل قرية فالكلام على تقدير مضاف أو القرية مجاز عن أهلها .

والحرام مستعار للممتنع وجوده بجامع أن كل واحد منهما غير مرجو الحصول ، وقال الراغب : الحرام الممنوع منه إما بتسخير إلهي وإما بمنع قهري وإما بمنع من جهة العقل أو من

جهة الشرع أو من جهة من يرتسم أمره ، وذكر أنه قد حمل في هذه الآية على التحريم بالتسخير كما في قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [القصص : 12] وقرأ أبو حنيفة وحمزة والكسائي .

وأبو بكر .

وطلحة .

والأعمش .

وأبو عمرو في رواية ﴿ البيع وَحَرَّمَ ﴾ بكسر الحاء وسكون الراء .

وقرأ قتادة .

ومطر الوراق .

ومحبوب عن أبي عمرو بفتح الحاء وسكون الراء ، وقرأ عكرمة ﴿ وَحَرَّمَ ﴾ الحاء وكسر الراء والتنوين .

وقرأ ابن عباس .

وعكرمة أيضاً .

وابن المسيب .

وقتادة أيضاً بكسر الراء وفتح الحياء والميم على المضي .

وقرأ ابن عباس .

وعكرمة بخلاف عنهما .

وأبو العالية .

وزيد بن علي بضم الراء وفتح الحاء والميم على المضي أيضاً ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه قرأ بفتح الحاء والراء والميم على المضي أيضاً .

وقرأ اليماني ﴿ وَحَرَّمَ ﴾ بضم الحاء وكسر الراء مشددة وفتح الميم على أنه فعل ماض مبني لما لم يسم فاعله .

﴿ أهلكناها ﴾ أي قدرنا هلاكها أو حكمنا به في الأزل لغاية طغيانهم وعتوهم فيما لا يزال .

وقرأ السلمي .

وقتادة ﴿ أهلكتها ﴾ بتاء المتكلم ، وقوله تعالى : ﴿ أهلكناها أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ في تأويل اسم مرفوع على الابتداء خبره ﴿ حَرَامٌ ﴾ قال ابن الحاجب في أماليه : ويجب حينئذٍ تقديمه لما تقرر في النحو من أن الخبر عن أن يجب تقديمه ، وجوز أن يكون ﴿ حَرَامٌ ﴾ مبتدأ و ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ فاعل له سد مسد خبره وإن لم يعتمد على نفي أو استفهام بناءً على مذهب الأخفش فإنه لا يشترط في ذلك الاعتماد خلافاً للجمهور كما هو المشهور .

وذهب ابن مالك أن رفع الوصف الواقع مبتدأ لمكتفى به عن الخبر من غير اعتماد جائز بلا خلاف وإنما الخلاف في الاستحسان وعدمه فسيبويه يقول : هو ليس بحسن والأخفش يقول : هو حسن وكذا الكوفيون كما في "شرح التسهيل" ؛ والجملة لتقرير ما قبلها من قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا راجعون ﴾ [الأنبياء : 93] وما في أن من معنى التحقيق معتبر في النفي المستفاد في ﴿ حَرَامٌ ﴾ لا في المنفى أي ممتنع البتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء لا أن عدم رجوعهم المحقق ممتنع ، وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع لعدم رجوع الكل حسبما نطق به قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا راجعون ﴾ لأنهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم ، وهذا المعنى محكي عن أبي مسلم بن بحر ، ونقله أبو حيان عنه لكنه قال : إن الغرض من الجملة على ذلك إبطال قول من ينكر البعث ، وتحقيق ما تقدم من أنه لا كفران لسعي أحد وأنه يجزى على ذلك يوم القيامة ، ولا يخفى ما فيه .

وقال أبو عتبة : المعنى وممتنع على قرية قدرنا هلاكها أو حكمنا به رجوعهم إلينا أي توبتهم على أن ﴿ لا ﴾ سيف خطيب مثلها في قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن لاَ تَسْجُدُ ﴾ [الأعراف : 12] في قول ، وقيل ﴿ حَرَامٌ ﴾ بمعنى واجب كما في قول الخنساء

: وإن حراماً لا أرى الدهر باكيا . . .

على شجوة إلا بكيت على ثخر

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَن لاَ تُشْرِكُواْ ﴾ [الأنعام : 151] الخ فإن ترك الشرك واجب ، وعلى هذا قال مجاهد .

والحسن ﴿ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ لا يتوبون عن الشرك .

وقال قتادة .

ومقاتل : لا يرجعون إلى الدنيا ، والظاهر على هذا أن المراد بأهلكناها أوجدنا إهلاكها بالفعل ، والمراد بالهلاك الهلاك الحسي ، ويجوز على القول بأن المراد بعدم الرجوع عدم التوبة أن يراد به الهلاك المعنوي بالكفر والمعاصي .

(102/515)

وقرىء ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ بكسر الهمزة على أن الجملة استئناف تعليلي لما قبلها ؛ فحرام خبر مبتدأ محذوف أي حرام عليها ذلك وهو ما ذكر في الآية السابقة من العمل الصالح المشفوع بالإيمان والسعي المشكور ثم علل بقوله تعالى : ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه من الكفر فكيف لا يمتنع ذلك ، ويجوز حمل الكلام على قراءة الجمهور بالفتح على هذا المعنى بحذف حرف التعليل أي لأنهم لا يرجعون .

والزجتج قدر المبتدأ في ذلك أن يتقبل عملهم فقال : المعنى وحرام على قرية حكمنا

بهلاكها أن يتقبل عملهم لأنهم لا يتوبون ودل على ذلك قوله تعالى قبل : ﴿ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ [الأنبياء : 94] حيث أن المراد منه يتقبل عمله و ﴿ حتى ﴾

﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾

ابتدائية والكلام بعدها غاية لما يدل عليه ما قبلها كأنه قيل : يستمرون على ما هم عليه من الهلاك حتى إذا قامت القيامة يرجعون إلينا ويقولون يا ويلنا الخ أو غاية للحرمة أي يستمر امتناع رجوعهم إلى التوبة حتى إذا قامت القيامة يرجعون إليها وذلك حين لا ينفعهم الرجوع أو غاية لعدم الرجوع عن الكفر أي لا يرجعون عنه حتى إذا قامت القيامة يرجعون عنه وهو حين لا ينفعهم ذلك ، وهذا بحسب تعدد الأقوال في معنى الآية المتقدمة والتوزيع غير خفي ، وقال ابن عطية : حتى متعلقة بقوله تعالى : ﴿ تقطعوا ﴾ [الأنبياء : 93] الخ قال أبو حيان : وفيه بعد من كثرة الفصل لكنه من جهة المعنى جيد ، وحاصله أنهم لا يزالون مختلفين غير مجتمعين على دين الحق إلى قرب مجيء الساعة فإذا جاءت الساعة انقطع ذلك الاختلاف وعلم الجميع أن مولاهم الحق وأن الدين المنجي كان دين التوحيد ، ونسبة الفتح إلى يأجوج ومأجوج مجاز وهي حقيقة إلى السد أو الكلام على حذف المضاف وهو السد وإقامة المضاف إليه مقامه .

وقرأ فرقة ﴿ جَاءوهَا فُتِحَتْ ﴾ بالتشديد ، وتقدم الكلام في يأجوج ومأجوج ﴿ وَهُمْ ﴾ أي يأجوج ومأجوج ، وقيل الناس وروي عن مجاهد ﴿ مّن كُلّ حَدَبٍ ﴾ أي مرتفع من الأرض كجبل وأكمة .

وقرأ ابن عباس ﴿ جدث ﴾ بالجيم والثاء المثلثة وهو القبر ، وهذه القراءة تؤيد رجوع الضمير إلى الناس ، وقرىء بالجيم والفاء وهي بدل الثاء عند تميم ولا يختص إبدالها عندهم في آخر الكلمة فإنهم يقولون مغثور مكان مغفور ﴿ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ أي يسرعون ، وأصل النسلان بفتحتين مقاربة الخطو مع الإسراع ، قيل ويختص وضعاً بالذئب وعليه يكون مجازاً هنا .

وقرأ ابن إسحاق .

وأبو السمال بضم السين .

﴿ واقترب ﴾ أي قرب ، وقيل هو أبلغ في القرب من قرب ﴿ الوعد الحق ﴾ وهو ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء لا النفخة الأولى ، والجملة عطف على ﴿ فُتِحَتْ يَأْجُوجُ ﴾ [الأنبياء : 96] ثم إن هذا الفتح في زمن نزول عيسى عليه السلام من السماء وبعد قتله الدجال عند باب لد الشرقي ، فقد أخرج مسلم .

وأبو داود .

والترمذي .

والنسائي .

(104/515)

وابن ماجه من حديث طويل " إن الله تعالى يوحي إلى عيسى عليه السلام بعد أن يقتل الدجال أني قد أخرجت عباداً من عبادي لا يدان لك بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور فيبعث الله تعالى يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله تعالى : ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ فيرغب عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله عز وجل فيرسل عليهم نغفاً في رقابهم فيصبحون موتي كموت نفس واحدة فيهبط عيسى عليه السلام وأصحابه فيرسل عليهم طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله تعالى ويرسل الله عز وجل مطراً لا يكن منه نبت مدر ولا وبر أربعين يوماً فيغسل الأرض حتى يتركها زلفة ويقال للأرض انبتي ثمرتك فيومئذٍ يأكل النفر من الرماية ويستظلون بقحفها ويبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللقحة من البقر تكفي الفخذ والشاة من الغنم تكفي البيت فبينما هم على ذلك إذ بعث الله تعالى ريحاً طيبة تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة " وجاء من حديث رواه

أحمد .

وجماعة " أن الساعة بعد أن يهلك يأجوج ومأجوج كالحامل لا يدري أهلها حتى تفجأهم بولادها ليلاً أو نهاراً " وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو نتجت فرس عند خروجهم ما ركب فلوها حتى تقوم الساعة " وهذا مبالغة في القرب كالخبر الذي قبله .

(105/515)

﴿ فَإِذَا هِيَ شاخصة أبصار الذين كَفَرُواْ ﴾ جواب الشرط ، وإذا للمفاجأة وهي تسد مسد الفاء الجزائية في الربط وليست عوضاً عنها فمتى كانت الجملة الاسمية الواقعة جزاء مقترنة بها لم تحتج إلى الفاء نحو ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم : 36] وإذا جيء بهما معاً كما هنا يتقوى لربط ، والضمير للقصة والشأن وهو مبتدأ و ﴿ شاخصة ﴾ خبر مقدم و ﴿ أبصار ﴾ مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر الضمير ، ولا يجوز أن يكون ﴿ شاخصة ﴾ الخبر و ﴿ أبصار ﴾ مرفوعاً به لأن خبر الضمير الشأن لا يكون إلا جملة مصرحاً بجزءيها ، وأجاز بعض الكوفيين كونه مفرداً فيجوز ما ذكر عنده .

وعن الفراء أن ﴿ هِيَ ﴾ ضمير الأبصار فهو ضمير مبهم يفسره ما في حيز خبره ؛ وعود

الضمير على متأخر لفظاً ورتبة في مثل ذلك جائز عند ابن مالك .

وغيره كما في ضمير الشأن ، ومن ذلك قوله

: هو الجد حتى تفضل العين أختها . . .

بل نقل عن الفراء أنه متى دل الكلام على المرجع وذكر بعده ما يفسره وإن لم يكن في حيز خبره لا يضر تقدمه ، وأنشد قوله

: فلا وأبيها لا تقول خليلتي . . .

ألا فرعني مالك بن أبي كعب

ونقل عنه أيضاً أن ﴿ هِيَ ﴾ ضمير فصل وعماد يصلح موضعه هو وأنشد قوله

: بثوب ودينار وشاة ودرهم . . .

فهل هو مرفوع بما ههنا رأس

وهذا لا يتمشى إلا على أحد قولي الكسائي من إجازته تقديم الفصل مع الخبر على المبتدأ وقول من أجاز دونه قبل خبر نكرة ، وذكر الثعلبي أن الكلام قد تم عند قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ أي فإذا هي أي الساعة حاصله أو بارزة أو واقعة ثم ابتدىء فقيل ﴿ شاخصة أبصار الذين كَفَرُواْ ﴾ وهو وجه متكلف متنافر التركيب ، وقيل : جواب الشرط ﴿ اقترب ﴾ والواو سيف خطيب .

ونقل ذلك في "مجمع البيان" عن الفراء .

(106/515)

ونقل عن الزجاج أن البصريين لا يجوزون زيادة الواو وأن الجواب عندهم قوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَنَا ﴾ أي القول المقدر قبله فإنه بتقدير قالوا يا ويلنا ، ومن جعل الجواب ما تقدم قدر القول ههنا أيضاً وجعله حالاً من الموصول يقولون أو قائلين ﴿ يا ويلنا ﴾ وجوز كون جملة يقولون يا ويلنا استئنافاً ، وشخوص الأبصار رفع أجفانها إلى فوق من دون أن تطرف وذلك للكفرة يوم القيامة من شدة الهول ، وأرادوا من نداء الويل التحسر وكأنهم قالوا : يا ويلنا تعال فهذا أوان حضورك ﴿ كَفَرُواْ ياويلنا قَدْ كُنَّا ﴾ في الدنيا ﴿ فِى غَفْلَةٍ ﴾ تامة ﴿ مّنْ هذا ﴾ الذي دهمنا من البعث والرجوع إليه عز وجل للجزاء ، وقيل : من هذا اليوم ولم نعلم أنه حق ﴿ بَلْ كُنَّا ظالمين ﴾ أضراب عن وصف أنفسهم بالغفلة أي لم نكن في غفلة منه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بترك الآيات والنذر مكذبين بها أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(107/515)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) ﴾

قوله : ﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ أي واذكر خبر زكريا وقت ندائه لربه قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً ﴾ أي منفرداً وحيداً لا ولد لي .

وقد تقدّم الكلام على هذه الآية في آل عمران ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ أي خير من يبقى بعد كل من يموت ، فأنت حسبي إن لم ترزقني ولداً فإني أعلم أنك لا تضيع دينك وأنه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له وترتضيه للتبليغ : ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ دعاءه ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى ﴾ .

وقد تقدّم مستوفى في سورة مريم ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ .

قال أكثر المفسرين : إنها كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً .

فهذا هو المراد بإصلاح زوجه .

وقيل : كانت سيئة الخلق فجعلها الله سبحانه حسنة الخلق ، ولا مانع من إرادة الأمرين جميعاً ، وذلك بأن يصلح الله سبحانه ذاتها ، فتكون ولوداً بعد أن كانت عاقراً ، ويصلح أخلاقها فتكون أخلاقها مرضية بعد أن كانت غير مرضية ، وجملة : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات ﴾ للتعليل لما قبلها من إحسانه سبحانه إلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، فالضمير المذكور راجع إليهم ، وقيل : هو راجع إلى زكريا وامرأته ويحيى .

ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم كانوا يدعونه ﴿ رَغَباً وَرَهَباً ﴾ أي يتضرّعون إليه في حال الرّخاء وحال الشدّة ، وقيل الرغب : رفع بطون الأكف إلى السماء ، والرهب : رفع ظهورها ، وانتصاب رغباً ورهباً على المصدرية أي : يرغبون رغباً ويرهبون رهباً ، أو على العلة أي للرّغب والرّهب ، أو على الحال ، أي راغبين وراهبين .

(108/515)

وقرأ طلحة بن مصرِّف " ويدعونا " بنون واحدة ، وقرأ الأعمش بضم الراء فيهما وإسكان ما بعده ، وقرأ ابن وثاب بفتح الراء فيهما مع إسكان ما بعده ، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو ، وقرأ الباقون بفتح الراء وفتح ما بعده فيهما ﴿ وَكَانُواْ لَنَا خاشعين ﴾ أي : متواضعين متضرّعين .

﴿ والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي واذكر خبرها ، وهي مريم ، فإنها أحصنت فرجها من الحلال والحرام ولم يمسسها بشر ، وإنما ذكرها مع الأنبياء وإن لم تكن منهم لأجل ذكر عيسى ، وما في ذكر قصتها من الآية الباهرة ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ أضاف سبحانه الروح إليه ، وهو للملك تشريفاً وتعظيماً ، وهو يريد روح عيسى ﴿ وجعلناها وابنها ءَايَةً للعالمين ﴾ قال الزجاج : الآية فيهما واحدة لأنها ولدته من غير فحل .

وقيل : إن التقدير على مذهب سيبويه : وجعلناها آية وجعلنا ابنها آية كقوله سبحانه : ﴿ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] والمعنى : أن الله سبحانه جعل قصتهما آية تامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما .

وقيل : أراد بالآية الجنس الشامل ، لما لكل واحد منهما من آيات ، ومعنى : ﴿ أحصنت ﴾ عفت فامتنعت من الفاحشة وغيرها .

وقيل : المراد بالفرج : جيب القميص ، أي أنها طاهرة الأثواب ، وقد مضى بيان مثل هذا في سورة النساء ومريم .

ثم لما ذكر سبحانه الأنبياء بيّن أنهم كلهم مجتمعون على التوحيد فقال : ﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ والأمة : الدّين كما قال ابن قتيبة ، ومنه : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءنَا على أمة ﴾ [الزخرف : 22] أي على دين ، كأنه قال : إن هذا دينكم دين واحد لا خلاف بين الأمم المختلفة في التوحيد ، ولا يخرج عن ذلك إلا الكفرة المشركون بالله ، وقيل : المعنى إن هذه الشريعة التي بينتها لكم في كتابكم شريعة واحدة ، وقيل : المعنى إن هذه ملتكم ملة واحدة ، وهي ملة الإسلام .

(109/515)

وانتصاب ﴿ أمة واحدة ﴾ على الحال ، أي متفقة غير مختلفة ، وقرىء : " إن هذه أمتكم " بنصب أمتكم على البدل من اسم إنّ والخبر أمة واحدة .

وقرىء برفع ﴿ أمتكم ﴾ ورفع ﴿ أمة ﴾ على أنهما خبران ؛ وقيل : على إضمار مبتدأ أي : هي أمة واحدة .

وقرأ الجمهور برفع (أمتكم) على أنه الخبر ونصب (أمة) على الحال كما قدّمنا .

وقال الفراء والزجاج : على القطع بسبب مجيء النكرة بعد تمام الكلام ﴿ وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فاعبدون ﴾ خاصة ، لا تعبدوا غيري كائناً ما كان .

﴿ وَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أي تفرّقوا فرقاً في الدين حتى صار كالقطع المتفرّقة .

وقال الأخفش : اختلفوا فيه ، وهو كالقول الأوّل .

قال الأزهري : أي تفرّقوا في أمرهم ، فنصب أمرهم بحذف في ، والمقصود بالآية المشركون ، ذمهم الله بمخالفة الحق واتخاذهم آلهة من دون الله .

وقيل : المراد : جميع الخلق وأنهم جعلوا أمرهم في أديانهم قطعاً وتقسموه بينهم ، فهذا موحّد ، وهذا يهوديّ ، وهذا نصرانيّ ، وهذا مجوسيّ ، وهذا عابد وثن .

ثم أخبر سبحانه بأن مرجع الجميع إليه فقال : ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا راجعون ﴾ أي : كل واحد من هذه الفرق راجع إلينا بالبعث ، لا إلى غيرنا .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾ أي من يعمل بعض الأعمال الصالحة ، لا كلها ، إذ لا يطيق

ذلك أحد ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بالله ورسله واليوم الآخر ﴿ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ أي لا جحود لعمله ، ولا تضييع لجزائه ، والكفر ضدّ الإيمان ، والكفر أيضاً جحود النعمة وهو ضدّ الشكر ، يقال : كفر كفوراً وكفراناً ، وفي قراءة ابن مسعود : " فلا كفر لسعيه " .

﴿ وَإِنَّا لَهُ كاتبون ﴾ أي لسعيه حافظون ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ أَنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثى ﴾ [آل عمران : 195] .

﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أهلكناها ﴾ .

(110/515)

قرأ زيد بن ثابت وأهل المدينة ﴿ وحرام ﴾ وقرأ أهل الكوفة : " وحرم " وقد اختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم ، ورويت القراءة الثانية عن عليّ وابن مسعود وابن عباس : وهما لغتان مثل حلّ وحلال .

وقرأ سعيد بن جبير " وحرم " بفتح الحاء وكسر الراء وفتح الميم .

وقرأ عكرمة وأبو العالية " حرم " بضم الراء وفتح الحاء والميم ، ومعنى ﴿ أهلكناها ﴾ : قدّرنا إهلاكها ، وجملة : ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ في محل رفع على أنه مبتدأ وخبره ﴿ حرام ﴾ أو على أنه فاعل له سادّ مسدّ خبره .

والمعنى : وممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء ، وقيل : إن ﴿ لا ﴾ في ﴿ لا يرجعون ﴾ زائدة أي حرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا ، واختار هذا أبو عبيدة ؛ وقيل : إن لفظ حرام هنا بمعنى الواجب ، أي واجب على قرية ، ومنه قول الخنساء :

وإن حراماً لا أرى الدهر باكياً . . . على شجوه إلا بكيت على صخر

وقيل : حرام : أي ممتنع رجوعهم إلى التوبة ، على أن لا زائدة .

قال النحاس : والآية مشكلة ، ومن أحسن ما قيل فيها وأجلّه ما رواه ابن عيينة وابن علية وهشيم وابن إدريس ومحمد بن فضيل ، وسليمان بن حيان ومعلى عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس في معنى الآية قال : واجب أنهم لا يرجعون ، أي لا يتوبون .

قال الزجاج وأبو علي الفارسي : إن في الكلام إضماراً ، أي وحرام على قرية حكمنا باستئصالها ، أو بالختم على قلوب أهلها ، أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون ، أي لا يتوبون .

﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ : " حتى " هذه هي التي يحكى بعدها الكلام ، ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الإنس ، والمراد بفتح يأجوج ومأجوج فتح السدّ الذي عليهم ، على حذف المضاف ، وقيل : إن حتى هذه هي التي للغاية .

والمعنى : أن هؤلاء المذكورين سابقاً مستمرّون على ما هم عليه إلى يوم القيامة ، وهي يوم فتح سدّ يأجوج ومأجوج ﴿ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ الضمير ليأجوج ومأجوج ، والحدب ، كلّ أكمة من الأرض مرتفعة والجمع أحداب ، مأخوذ من حدبة الأرض ، ومعنى ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ يسرعون .

وقيل : يخرجون .

قال الزجاج : والنسلان مشية الذئب إذا أسرع .

يقال : نسل فلان في العدو ينسل بالكسر والضم نسلاً ونسولاً ونسلاناً ، أي أن يأجوج ومأجوج من كلّ مرتفع من الأرض يسرعون المشي ويتفرقون في الأرض ؛ وقيل : الضمير في قوله : ﴿ وهم ﴾ لجميع الخلق ، والمعنى : أنهم يحشرون إلى أرض الموقف وهم يسرعون من كلّ مرتفع من الأرض .

وقرىء بضم السين .

حكى ذلك المهدوي عن ابن مسعود .

وحكى هذه القراءة أيضاً الثعلبي ، عن مجاهد ، وأبي الصهباء .

﴿ واقترب الوعد ﴾ عطف على ﴿ فتحت ﴾ ، والمراد : ما بعد الفتح من الحساب .

وقال الفراء والكسائي وغيرهما : المراد بالوعد الحق : القيامة والواو زائدة ؛ والمعنى :

حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق وهو القيامة ، فاقترب جواب إذا ، وأنشد الفراء :

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى . . . أي انتحى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وناديناه ﴾ [الصافات : 103 ، 104] .

وأجاز الفراء أن يكون جواب إذا ﴿ فَإِذَا هِيَ شاخصة أبصار الذين كَفَرُواْ ﴾ وقال البصريون : الجواب محذوف ، والتقدير : قالوا : يا ويلنا .

وبه قال الزجاج ، والضمير في ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ للقصة ، أو مبهم يفسره ما بعده ، وإذا للمفاجأة .

(112/515)

وقيل : إن الكلام تمّ عند قوله ﴿ هي ﴾ ، والتقدير : فإذا هي ، يعني : القيامة بارزة واقعة كأنها آتية حاضرة ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ على تقديم الخبر على المبتدأ ، أي أبصار الذين كفروا شاخصة ، و﴿ يا ويلنا ﴾ على تقدير القول : ﴿ قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ أي من هذا الذي دهمنا من العبث والحساب ﴿ بَلْ كُنَّا ظالمين ﴾ أضربوا عن وصف أنفسهم بالغفلة ، أي لم نكن غافلين بل كنا ظالمين لأنفسنا

بالتكذيب وعدم الانقياد للرسل .

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ قال : كان في لسان امرأة زكريا طول فأصلحه الله .

وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : وهبنا له ولدها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً ووهب له منها يحيى ، وفي قوله : ﴿ وَكَانُوا لَنَا خاشعين ﴾ قال : أذلاء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ قال : رغباً في رحمة الله ورهباً من عذاب الله .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله سبحانه : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ قال : " رغباً هكذا ورهباً هكذا وبسط كفيه " ، يعني : جعل ظهرهما للأرض في الرغبة وعكسه في الرهبة .

(113/515)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر الصديق فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله ، وأن تثنوا عليه بما هو له أهل ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خاشعين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال : إن هذا دينكم ديناً واحداً .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿ وَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ قال : تقطعوا : اختلفوا في الدين .

وأخرج الفريابي وابن المنذر ، وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أهلكناها ﴾ قال : وجب إهلاكها ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ قال : لا يتوبون .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد ابن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ : " وَحَرَّمَ على قَرْيَةٍ " قال : وجب على قرية ﴿ أهلكناها أَنَّهُمْ لاَ

يَرْجِعُونَ ﴾ كما قال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [ياس : 31] .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة وسعيد بن جبير مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ ﴾ قال : شرف ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ قال : يقبلون ، وقد ورد في صفة يأجوج ومأجوج وفي وقت خروجهم أحاديث كثيرة لا يتعلق بذكرها ها هنا كثير فائدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(114/515)

وقال القاسمي :

﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : وحرام على أهل قرية فسقوا عن أمر ربهم ، فأهلكهم بذنوبهم ، أن يرجعوا إلى أهلهم ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [يّس : 31] ، وقوله : ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يّس : 50] ، وزيادة لا هنا لتأكيد معنى النفي من حرام وهذا من أساليب التنزيل البديعة البالغة النهاية في الدقة . وسر الإخبار بعدم الرجوع

مع وضوحه ، هو الصدع بما يزعجهم ويؤسفهم ويلوّعهم من الهلاك المؤبد ، وفوات أمنيتهم الكبرى ، وهي حياتهم الدنيا . وجعل أبو مسلم هذه الآية من تتمة ما قبلها ، ولا فيها على بابها . وهي مع حرام من قبيل نفي النفي . فيدل على الإثبات . والمعنى : وحرام على القرية المهلكة ، عدم رجوعها إلى الآخرة . بل واجب رجوعها للجزاء . فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث . وتحقيق ما تقدم أنه لا كفران لسعي أحدٍ . وأنه سبحانه سيحييه ، وبعمله يجزيه . واللفظ الكريم يحتمله ويتضح فيه . إلا أن الأول لرعاية النظائر من الآي أولى . وأما ذكر سواهما ، فلا يدل عليه السياق ولا النظير . وفيه ما يخل بالبلاغة من التعقيد وفوات سلاسة التعبير .

ثم أشار إلى تحقق نصر الرسل وغلبتهم ، وكثرة أتباعهم حتى يحيطوا بأعدائهم من كل جانب ، وينزلوا بهم ما تشخص لهم أبصارهم ، يورثهم طول الندامة ، بقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ علم لكل أمة كثيرة العدد مختلطة مِنْ أَجْنَاسٍ شتى : ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ أي : من كل نشز من الأرض يسرعون ، متجندين لقهر أعدائهم ، تحت راية نبيهم أو أميره أو خليفته .

(115/515)

﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ أي : طلعت طلائع النصر والقهر ، ودحر الباطل والكفر : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : لهول ما حل بساحتهم والدهشة منه ، قائلين : ﴿ يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ أي : لم نعلم أنه حق : ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي لأنفسنا ، بالإخلال بالنظر والإباء والعناد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 233.234 ﴾

(116/515)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (95) ﴾

جملة معترضة ، والمراد بالقرية أهلها .

وهذا يعم كلّ قرية من قرى الكفر ، كما قال تعالى : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾ [الكهف : 59] .

والحرام : الشيء الممنوع ، قال عنترة:

حَرُمت عليّ وليتَها لم تحرُم . . .

أي : مُنِعت أي مَنَعها أهلها .

أي ممنوع على قرية قدّرْنا إهلاكها أن لا يرجعوا ، ف ﴿ حرام ﴾ خبر مقدم و ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ في قوة مصدر مبتدأ .

والخبر عن (أنّ) وصلِتها لا يكون إلاّ مقدّماً ، كما ذكره ابن الحاجب في "أماليه" في ذكر هذه الآية .

وفعل ﴿ أهلكناها ﴾ مستعمل في إرادة وقوع الفعل ، أي أردنا إهلاكها .

والرجوع : العود إلى ما كان فيه المرء ؛ فيحتمل أن المراد رجوعهم عن الكفر فيتعين أن تكون (لا) في قوله تعالى : ﴿ لا يرجعون ﴾ زائدة للتوكيد ، لأن (حرام) في معنى النفي و(لا) نافية ونفي النفي إثبات ، فيصير المعنى منع عدم رجوعهم إلى الإيمان ، فيؤُول إلى أنهم راجعون إلى الإيمان .

وليس هذا بمراد فتعين أن المعنى : مَنْع على قرية قدرنا هلاكها أن يرجعوا عن ضلالهم لأنه قد سبق تقدير هلاكها .

وهذا إعلام بسنة الله تعالى في تصرفه في الأمم الخالية مقصود منه التعريض بتأييس فريق من المشركين من المصير إلى الإيمان وتهديدهم بالهلاك .

وهؤلاء هم الذين قدّر الله هلاكَهم يوم بدر بسيوف المؤمنين .

ويجوز أن يراد رجُوعهم إلى الآخرة بالبعث ، وهو المناسب لتفريعه على قوله تعالى : ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ [الأنبياء : 93] فتكون (لا) نافية .

والمعنى : ممنوع عَدَم رجوعهم إلى الآخرة الذي يزعمونه ، أي دعواهم باطلة ، أي فهم راجعون إلينا فمجازَوْن على كفرهم ، فيكون إثباتاً للبعث بنفي ضده ، وهو أبلغ من صريح الإثبات لأنه إثبات بطريق الملازمة فكأنه إثبات الشيء بحجة .

(117/515)

ويفيد تأكيداً لقوله تعالى : ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ [الأنبياء : 93] .

وجملة ﴿ أهلكناها ﴾ إدماج للوعيد بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة .

وفعل ﴿ أهلكناها ﴾ مستعمل في أصل معناه ، أي وقع إهلاكنا إياها .

والمعنى : ما من قرية أهلكناها فانقرضت من الدنيا إلا وهم راجعون إلينا بالبعث .

وقيل ﴿ حرام ﴾ اسم مشترك بين الممنوع والواجب ، وأنشدوا قول الخنساء :

وإن حراماً لا أرى الدهر باكيا . . .

على شجوه إلا بَكيتُ على صَخْر

وفي كتاب "لسان العرب" "في حديث عمر : في الحرَام كفارة يمين : هو أن يقول الرجل : حرامُ الله لا أفعل ، كما يقول : يمينُ الله لا أفعل ، وهي لغة العُقيليين" أ هـ .

ورأيت في مجموعة أدبية عتيقة (من كتب جامع الزيتونة عددها 4561) : أن بني عُقيل

يقولون حَرام الله لآتينك كما يقال يمين الله لآتينك آه .

وهو يشرح كلام "لسان العرب" بأن هذا اليمين لا يختص بالحلف على النفي كما في مثال "لسان العرب" .

فيتأتى على هذا وجه ثالث في تفسير قوله تعالى : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ أي ويمين منا على قرية ، فحرف (علىَ) داخل على المُسلطة عليه اليمين ، كما تقول : عزمتُ عليك ، وكما يقال : حلفت علىَ فلان أن لا ينطق .

وكقول الراعي:

إني حلفتُ علىَ يمين بَرّة . . .

لاَ أَكتُم اليومَ الخليفةَ قيلا

وفتح همزة "أنّ" في اليمين أحد وجهين فيها في سياق القسم .

ومعنى ﴿ لا يرجعون ﴾ على هذا الوجه لا يرجعون إلى الإيمان لأن الله علم ذلك منهم فقدر إهلاكهم .

وقرأ الجمهور ﴿ وحَرام ﴾ بفتح الحاء وبألف بعد الراء .

وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿ وحِرْم ﴾ بكسر الحاء وسكون الراء ، وهو اسم بمعنى حرام .

والكلمة مكتوبة في المصحف بدون ألف ومروية في روايات القراء بوجهين ، وحذف الألف

المشبعة من الفتحة كثير في المصاحف .

﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) ﴾

(حتى) ابتدائيةٌ .

(118/515)

والجملة بعدها كلام مستأنف لا محل له من الإعراب ولكن (حَتّى) تكسبه ارتباطاً بالكلام الذي قبله .

وظاهر كلام الزمخشري : أن معنى الغاية لا يفارق (حتّى) حين تكون للابتداء ، ولذلك عُني هو ومن تبعه من المفسرين بتطلب المغيّا بها ههنا فجعلها في "الكشاف" غاية لقوله ﴿ وحرَام ﴾ فقال : " (حتّى) متعلقة بـ ﴿ حَرام ﴾ وهي غاية له لأن امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة" أ هـ .

أي : فهو من تعليق الحكم على أمر لا يقع كقوله تعالى : ﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ [الأعراف : 40] ، ويتركب على كلامه الوجهان اللذان تقدما في معنى الرجوع من قوله تعالى : ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ [الأنبياء : 95] ، أي لا يرجعون عن كفرهم حتى ينقضي العالم ، أو انتفاء رجوعهم إلينا في اعتقادهم يزول عند انقضاء

الدنيا .

فيكون المقصود الإخبار عن دوام كفرهم على كلا الوجهين .

وعلى هذا التفسير ففتح ياجوج وماجوج هو فتح السدّ الذي هو حائل بينهم وبين الانتشار في أنحاء الأرض بالفساد ، وهو المذكور في قصة ذي القرنين في سورة الكهف .

وتوقيت وعد الساعة بخروج ياجوج وماجوج أن خروجهم أول علامات اقتراب القيامة .

وقد عدّه المفسرون من الأشراط الصغرى لقيام الساعة .

وفسّر اقتراب الوعد باقتراب القيامة ، وسُمّيت وعداً لأن البعث سمّاه الله وعداً في قوله تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ [الأنبياء : 104] .

وعلى هذا أيضاً جعلوا ضمير ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ عائد إلى "ياجوج وماجوج" فالجملة حال من قوله ﴿ ياجوج وماجوج ﴾ .

وبناء على هذا التفسير تكون هذه الآية وصفتْ انتشار ياجوج وماجوج وصفاً بديعاً قبل خروجهم بخمسة قرون فعددنا هذه الآية من معجزات القرآن العلمية والغيبية .

(119/515)

ولعل تخصيص هذا الحادث بالتوقيت دون غيره من علامات قرب الساعة قصد منه مع التوقيت إدماجُ الإنذار للعرب المخاطبين ليكون ذلك نُصب أعينهم تحذيراً لذرياتهم من كوارث ظهور هذين الفريقين فقد كان زوال ملك العرب العتيد وتدهور حضارتهم وقوتهم على أيدي ياجوج وماجوج وهم المَغول والتتار كما بيّن ذلك الإنذارُ النبوي في ساعة من ساعات الوحي .

فقد روت زينب بنت جحش أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فَزِعاً يقول : " لا إله إلا الله ، ويلٌ للعرب من شرّ قد اقترب ، فُتح اليوم من رَدْم ياجوج وماجوج هكذا " وحلّق بأصبعه الإبهام والتي تليها .

والاقتراب على هذا اقتراب نسبي على نسبة ما بقي من أجل الدنيا بما مضى منه كقوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشقّ القمر ﴾ [القمر : 1] .

ويجوز أن يكون المراد بفتح ياجوج وماجوج تمثيلَ إخراج الأموات إلى الحَشر ، فالفتح معنى الشق كقوله تعالى : ﴿ يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير ﴾ [ق : 44] ، ويكون اسم ياجوج وماجوج تشبيهاً بليغاً .

وتخصيصهما بالذكر لشهرة كثرة عددهما عند العرب من خبر ذي القرنين .

ويدلّ لهذا حديث أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله لآدم (يوم القيامة) أخرج بَعث النار ، فيقول : يا رب ، وما بعث النار ؟ فيقول الله : من كل ألف

تُسعمائة وتسعة وتسعون .

قالوا : يا رسول الله وأيُّنا ذلك الواحد ؟ قال : أبشروا ، فإن منكم رجلاً ومن يأجوج وماجوج تسعمائة وتسعة وتسعين " .

أو يكون اسم يأجوج ومأجوج استعمل مثلاً للكثرة كما في قول ذي الرمة:

لوَأنَ يأجوج وماجوجَ معاً . . .

وعادَ عادٌ واستجاشوا تُبّعا

أي : حتى إذا أخرجت الأموات كيَأجوج ومأجوج على نحو قوله تعالى : ﴿ يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ [القمر : 7] ، فيكون تشبيهاً بليغاً من تشبيه المعقول بالمعقول .

(120/515)

ويؤيده قراءة ابن عباس وابن مسعود ومجاهد ، (جدث) بجيم ومثلثة ، أي من كل قبر في معنى قوله تعالى : ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ [الانفطار : 4] فيكون ضميرا ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ عائدَيْنِ إلى مفهومٍ من المقام دلّت عليه قرينة الرجوع من قوله تعالى : ﴿ لا يرجعون ﴾ [الأنبياء : 95] أي أهل كُل قرية أهلكناها .

والاقتراب ، على هذا الوجه : القرب الشديد وهو المشارفة ، أي اقترب الوعد الذي وُعده المشركون ، وهو العذاب بأن رأوا النار والحساب .

وعلامة التأنيث في فعل ﴿ فُتحت ﴾ لتأويل ياجوج وماجوج بالأمة .

ثم يقدر المضاف وهو سُدٌّ فيكتسب التأنيث من المضاف إليه .

وياجوج وماجوج هم قبيلتان من أمةٍ واحدة مثل طَسم وجديس .

وإسناد فعل ﴿ فتحت ﴾ إلى ﴿ ياجوج وماجوج ﴾ بتقدير مضاف ، أي فُتح رَدْمهما أو سُدّهما .

وفعل الفتح قرينة على المفعول .

وقرأ الجمهور ﴿ فتحت ﴾ بتخفيف التاء الفوقية التي بعد الفاء .

وقرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بتشديدها .

وتقدم الكلام على ياجوج وماجوج في سورة الكهف .

والحدب : النَشَز من الأرض ، وهو ما ارتفع منها .

و ﴿ ينسِلون ﴾ يمشون النّسَلانَ بفتحتين وفعله من باب ضرب ، وأصله : مشي الذئب .

والمراد : المشي السريع .

وإيثار التعبير به هنا من نكت القرآن الغيبية ، لأن ياجوج وماجوج لما انتشروا في الأرض انتشروا كالذئاب جياعاً مفسدين .

هذا حاصل ما تفرق من كلام المفسرين وما فرضوه من الوجوه ، وهي تدور حول محوَر التزام أنّ (حتى) الابتدائية تفيد أن ما بعدها غاية لما قبلها مع تقدير مفعول ﴿ فُتحت ﴾ بأنه سدّ ياجوج وماجوج .

ومع حمل ياجوج وماجوج على حقيقة مدلول الاسم ، وذلك ما زج بهم في مضيق تعاصى عليهم فيه تبيين انتظام الكلام فألجئوا إلى تعيين المغيّا وإلى تعيين غاية مناسبة له ولهاته المحامل كما علمت مما سبق .

ولا أرى متابعتهم في الأمور الثلاثة .

(121/515)

فأما دلالة (حتى) الابتدائية على معنى الغاية ، أي كون ما بعدها غاية لمضمون ما قبلها ، فلا أراه لازماً .

ولأمر ما فرق العرب بين استعمالها جارّة وعاطفة وبين استعمالها ابتدائية ، أليس قد صرح النحاة بأن الابتدائية يكون الكلام بعدها جملة مستأنفة تصريحاً جرى مجرى الصواب على ألسنتهم فما رَعَوه حق رعايته فإن معنى الغاية في (حتى) الجارّة (وهي الأصل في استعمال هذا الحرف) ظاهر لأنها بمعنى (إلى) .

وفي (حتّى) العاطفة لأنها تفيد التشريك في الحكم وبين أن يكون المعطوف بها نهاية للمعطوف عليه في المعنى المراد .

فأما (حتى) الابتدائية فإن وجود معنى الغاية معها في مواقعها غير منضبط ولا مطرّد ، ولما كان ما بعدها كلاماً مستقلاً تعيّن أن يكون وجودها بين الكلامين لمجرد الربط بين الكلامين فقد نقلت من معنى تنهية مدلول ما قبلها بما بعدها إلى الدلالة على تنهية المتكلم غرض كلامه بما يورده بعد (حتى) ولا يقصد تنهية مدلول ما قبل (حتى) بما عند حصول ما بعدها (الذي هو المعنى الأصل للغاية) .

وانظر إلى استعمال (حتى) في مواقع من معلقة لبيد .

وفي قوله تعالى : ﴿ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ [البقرة : 214] فإن قول الرسول ليس غاية للزلزلة ولكنه ناشىء عنها ، وقد مُثلت حالة الكافرين في ذلك الحين بأبلغ تمثيل وأشدّه وقعاً في نفس السامع ، إذ جعلت مفرعة على فتح ياجوج وماجوج واقترابِ الوعد الحقّ للإشارة إلى سرعة حصول تلك الحالة لهم ثم بتصدير الجملة بحرف المفاجأة والمجازاة الذي يفيد الحصول دَفعة بلا تدرّج ولا مهلة ، ثم بالإتيان بضمير القصة ليحصل للسامع علم مجمل يفصله ما يفسِّر ضمير القصة فقال تعالى : ﴿ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ إلى آخره .

والشخوص : إحداد البصر دون تحرك كما يقع للمبهوت .

وجملة : ﴿ يا ويلنا ﴾ مقول قول محذوف كما هو ظاهر ، أي يقولون حينئذ : يا ويلنا .

(122/515)

ودلت (في) على تمكن الغفلة منهم حتى كأنها محيطة بهم إحاطة الظرف بالمظروف ، أي كانت لنا غفلة عظيمة ، وهي غفلة الإعراض عن أدلة الجزاء والبعث .

و ﴿ يا ويلنا ﴾ دعاء على أنفسهم من شدة ما لحقهم .

و ﴿ بل ﴾ للإضراب الإبطالي ، أي ما كنا في غفلة لأننا قد دُعينا وأُنذرنا وإنما كنا ظالمين أنفسنا بمكابرتنا وإعراضنا .

والمشار إليه بـ (هذا) هو مجموع تلك الأحوال من الحشر والحساب والجزاء . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(123/515)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (95) ﴾

﴿ حَرَامٌ . . ﴾ [الأنبياء : 95] يعني : ممتنع : لا يجب أن يكون ، والقرية : أي قرية أهلكناها ؛ لأنها كذَّبَتْ الرسل ، ووقفتْ منهم موقف اللَّدَد والعناد والمعارضة ، فأهلكها الله بذنوبها في الدنيا ، أيُعقَلُ بعد هذا أن نتركها في الآخرة من غير أنْ نأخذها بذنوبها ؟ لا بُدَّ – إذن – أن ترجع إلينا في الآخرة لنحاسبها الحساب الدائم الخالد ، فلا نكتفي بحساب الدنيا المنتهي .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ . . ﴾ .

وردتْ قصة يأجوج ومأجوج في آخر سورة الكهف ، حينما سُئِلَ النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل الجوَّال الذي طاف الأرض ، فنزلت : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف : 83] .

وقد تكلم العلماء في ذي القرنين ، منهم مَنْ قال : هو قورش ومنهم مَنْ قال هو : الإسكندر الأكبر . والقرآن لا يعنيه الشخص وإلاَّ لذكره باسمه ، فالقرآن لا يُؤرِّخ له ، لا يقيم له تمثالاً ، إنما يريد التركيز على الأوصاف التي تعني الحق وتعني الخَلْق .

فيكفي أن نعلم أنه إنسان مكَّنَه الله في الأرض . يعني : أعطاه من أسباب القوة وأسباب المهابة والسيطرة ، وأعطاه من كُلِّ مُقوِّمات القوة : أعطاه المال والعلم والجيوش ، فلم يكتف

بذلك كله ، بل ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ [الكهف : 85] يعني : أخذ بالأسباب التي تؤدّي إلى الخير .

وسبق أنْ تحدثنا عن تشخيص البطل في قصص القرآن ؛ لأن القرآن لا يُؤرِّخ للشخصية ، ولا يُعطى لها خصوصية ، وإنما يريدها عامة لتكون مثلاً يُحتذَى ، ويتم بها الاعتبار ، وتُحدِث الأثر المراد من القصة .

(124/515)

فما يعنينا في قصة ذي القرنين أنه رجل مُكّن في الأرض ، وكان من صفاته كذا وكذا ، وما يعنينا من أهل الكهف أنهم فتية آمنوا بربهم وتمسّكوا بدينهم وعقيدتهم وضَحَّوْا في سبيلها ، لا يهمنا الأشخاص ولا الزمان ولا المكان ولا العدد .

لذلك ؛ أبهم القرآن كل هذه المسائل ، فأيّ فتية ، في أيّ زمان ، وفي أيِّ مكان ، وبأيِّ أسماء يمكن أن يقفوا هذا الموقف الإيماني ، ولو شخَّصناهم وعيَّناهم لَقالَ الناس : إنها حادثة خاصة بهؤلاء ، أو أنهم نماذج لا تتكرر ؛ لذلك أبهمهم القرآن ليكونوا عبرة وأُسْوة تسير في الزمان كله .

كذلك ، لما أراد القرآن أنْ يضرب مثلاً للذين كفروا ذكر امرأة نوح وامرأة لوط ولم يُعيِّنهما ،

وكذلك ضرب مثلاً للذين آمنوا بامرأة فرعون ولم يذكر مَنْ هي ، فالغرض من ضَرْب هذه الأمثال ليس الأشخاص ، إنما لنعلم أن للمرأة حريةَ العقيدة واستقلاليةَ الرأي ، فليست هي تابعة لأحد ، بدليل أن نوحاً ولوطاً لم يتمكَّن كل منهما من هداية امرأته .

وفرعون الكافر الذى ادَّعَى الألوهية ، لم يستطع أن يمنع زوجته من الإيمان ، وهي قالت : ﴿ رَبِّ ابن لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين ﴾ [التحريم : 11] .

إذن : ما يعنينا في قصة " ذي القرنين " أن الله مكَّن له في الأرض وأعطاه كُلَّ أسباب القوة والسيطرة ؛ لذلك ائتمنه أنْ يكونَ ميزاناً للخير وللحق ، وفوَّضَهُ أن يقضي في الخَلْق بما يراه من الحق والعدل . ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا ياذا القرنين إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ [الكهف : 86] .

لأننا مكَّنَّاه وفوَّضناه ، فاستعمل التمكين في موضعه ، وأخذ الأمانة بحقِّها ، فقال :

﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ [الكهف : 87] أي : نُعذِّبه على قَدْر مقدرتنا ، ثم يُرَدُّ إلى ربه فيُعذِّبه على قَدْر قدرته تعالى . ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَآءً الحسنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ [الكهف : 88]

وهكذا يكون دستور الحياة من الحاكم الممكَّن في الخَلْق ، دستور الثواب والعقاب الذي تستقيم به أمور البلاد والعباد ، فحين يرى تقصيراً لا بُدَّ أنْ يأخذ على يد صاحبه مهما تكُنْ منزلته ، لا يخافه ولا ينافقه ولا يخشى في الله لومة لائم ، وإنْ رأى المحسن المجتهد يُثيبه ويكافئه .

وهذا القانون نراه في مجتمعنا يكاد يكون مُعطّلاً بين العاملين ، فاختلط الحابل بالنابل ، وتدهورتْ الأمور ، ودخلت بيننا مقاييس أخرى للثواب وللعقاب ما أنزل الله بها من سلطان ، فانقلبتْ الموازين ، حيث تبجح الكسالى ، وأُحْبط المجدُّون المحسنون . ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشمس وَجَدَهَا تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً ﴾ [الكهف : 90] .

هذا كُلُّ ما أخْبر الله به ، ويبدو أنه وصل في تجواله العام إلى بلاد تظل الشمس بها مشرقة ثلاثة أو ستة أشهر لا تغرب ؛ لذلك لم يجد لهم من دون الشمس سِتْراً يسترها أيْ ظلمة ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ [الكهف : 93] .

ومع ذلك احتال أن يفهم منهم ، ويخاطبهم ؛ لحرصه على نفعهم وما يصلحهم ، وهذه صفة الحاكم المؤمن حين يُمكَّن في الأرض ، وتُعطَى له أسباب القيادة ، ويُفوَّض في خَلْق الله ، ولو لم يكُنْ حريصاً على نفعهم لوجد العذر في كونه لا يفهم منهم ولا يفهمون منه .

(126/515)

فلما توصلوا إلى لغة مشتركة ، ربما هي لغة الإشارة التي نتفاهم بها مع الأخرس مثلاً : ﴿ قَالُواْ يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴾ [الكهف : 94] .

ثم أمرهم أن يأتوا بقطَع الحديد ، فأشعل فيها النار حتى احمرَّت فقال ﴿ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ [الكهف : 96] وهكذا صنع لهم السدَّ الذي يحميهم من هؤلاء القوم ، فلم يَقصُر نفعه لهم على هذه القضية ذاتها ، إنما نفعهم نَفْعاً يعطيهم الخير والقوة في ألَّا يتعرضوا لمثلها بعد ذلك ، عملاً بالحكمة التي تقول : لا تعطني سمكة ، ولكن علمني كيف أصطاد . ذلك لأنه أشركهم في العمل ؛ ليشعروا بأهميته ويتمسكوا بالمحافظة عليه وصيانته ، وإذا ما تعرضوا لمثل هذا الموقف لا ينتظرون مَنْ يصنع لهم .

هذا هو النموذج الذي تُقدِّمه قصة " ذي القرنين " وهو نموذج صالح لكل الزمان ولكل

المكان ولكل حاكم مكَّنه الله في الأرض ، وألقى بين يديه أزِمّة الأمور ، وفي حديث أفضل العمل يقول صلى الله عليه وسلم : " تعين صانعاً ، أو تصنع لأخرق " .

وقد تضاربتْ الأقوال حول : مَنْ هم يأجوج ومأجوج ، فمنْ قائل : هم التتار .

وآخر قال : المغول . وآخر قال : هم الحتيت ، أو السرديال ، أو قبائل الهُونْ .

ولو كان في تحديدهم فائدة لعيَّنهم القرآن ، إنما المهم من قصتهم أنهم قومٌ مفسدون في الأرض لا يتركون الصالح على صلاحه ، فإذا ما تصدَّى لهم الممكَّن في الأرض فعليه أن يحول بينهم وبين هذا الإفساد في غيرهم ، وعلينا نحن ألاَّ نُفسِد الصالح كهؤلاء ، إنما نترك الصالح على صلاحه ، بل ونزيده صلاحاً .

(127/515)

وفي بناء ذي القرنين للسد دروس يجب أنْ يعيها أولو الأمر الذين يتوَّلون مصالح الخَلْق ، من هذه الدروس أنه لم يقف عند طلبهم في بناء سدٍّ يمنع عنهم أذى عدوهم ، إنما اجتهد وترقَّى بالمسألة إلى ما هو أفضل لهم ، فالسدُّ الأصمّ المتماسك كقطعة واحدة يسهل هَدْمه أو النفاذ منه ؛ لذلك قال : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴾ [الكهف : 95] .

لقد طلبوا سداً وهو يقول : رَدْماً ، لقد رقّى لهم الفكرة ، وأراد أن يصنع لهم سداً على هيئة خاصة تمتصّ الصدمات ، ولا تؤثر في بنائه ؛ لأنه جعل بين الجانبين رَدْماً كأنه سوسته تُعطِي السدّ نوعاً من المرونة . وهكذا يجب أن يكون المؤمن عند تحمُّل مسئولية الخَلْق .

ولما عرضوا عليه المال نظير عمله أبى ، وقال : ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ . . ﴾ [الكهف : 95] أي : عندي المال الكثير من عطاء الله لكن أعينوني بما لديكم من قوة . إذن : زكاة القوة أنْ تمنع الفساد من الغير .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ . . ﴾ [الأنبياء : 96] فلها علاقة بقوله تعالى : ﴿ وتقطعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ . . ﴾ [الأنبياء : 93] فتقطّع أهل الخير وتفرُّقهم يُجرِّئ عليهم أصحاب الفساد ، وأقل ما يقولونه في حقِّهم أنهم لو كانوا على خير لنفعوا أنفسهم ، فدعُوكم من كلامهم ، وهكذا يفُتُّ أهل الباطل في عَضُدِ أهل الحق ، ويصرفون الناس عنهم .

﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ . . ﴾ [الأنبياء : 96] يعني : جاءت عناصر الفساد والفتنة في الكون ، وعناصر الفساد والفتنة لا تتمكن ولا تجد الفرصة والسلطة الزمنية إلا إذا غفل أهل الحق وتفرقوا فلم يردوهم ، ويأخذوا على أيديهم .

ويأجوج ومأجوج هم أهل الفساد في كل زمان ومكان ، فجنكيزخان الذي هدم أول ولاية إسلامية في خوارزم ، وكان عليها الملك قطب أرسلان ، ثم جاء من ذريته الثالثة هولاكو الذي دخل بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وخربَّها وقتل أهلها حتى سالتْ الدماء ، وألقى بالكتب الإسلامية في النهر حتى كانت قنطرة يعبرون عليها . هؤلاء الذين نُسمِّيهم التتار .

إذن : فالقرآن قَصَّ علينا من التاريخ القديم قصة يأجوج ومأجوج أيام ذي القرنين ، ثم رأيناهم في حياتنا الإسلامية ، وشاء الله أن يستفيد المسلمون من هجمات هؤلاء البرابرة ، وأن تتجمع ولاياتهم ويصدُّوا هجمات التتار على أرض مصر بقيادة قطز والظاهر بيبرس ، وهما مثالان للممكَّنين في الأرض ، مع أنهما من المماليك .

هذه الهجمات التترية للمفسدين في الأرض كانت هجمات همجية وحشية ، وقد تجمَّع أحفاد هؤلاء من يأجوج ومأجوج العصر الحديث في هجمات مدنية تغزونا بحضارتها ، إنهم الصليبيون الذين انهزموا أمام وحدة المسلمين بقيادة صلاح الدين .

وهكذا على مرِّ التاريخ ننتصر إذا كنا أمة واحدة ، ونُهزَم إذا تفرّقنا وتقطّعنا أمماً وأحزاباً ، وهذه حقائق تُثبِت صِدْق القرآن فيما وجَّهنا إليه من الوحدة وعدم التفرق .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء : 96] .

الحدب : المكان المرتفع ، نقول : فلان أحدب الظهر يعني : في ظهره منطقة مرتفعة ، وكذلك هؤلاء المفسدون أتوْا من أماكن مرتفعة في هضبة شمال الصين . ومعنى ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء : 96] يعني : يسرعون ، ومنه نقول : انسلَّ القماش ؛ لأن القماش مُكوَّن من سُدى ولُحمة ، يعني خيوط طولية وخيوط عرضية ، تتداخل فتكوِّن القماش ، فنسل القماش أن تنزع خيوط العرض وتفكّ تداخلها مع خيوط الطول ، ولا تُنزع خيوط الطول لأنها دائماً مُحكَمة بثَنْي السُّدَى على اللحمة .

(129/515)

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ واقترب الوعد الحق فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ . . ﴾ .

فكوْنُ أهل الفساد يأتون مُسْرِعين من كل حَدب وصَوْب إلا أن فسادهم لن يطول ، فقد اقتربت القيامة ، قال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [القمر : 1] .

وقال : ﴿ أَتَى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . ﴾ [النحل : 1] .

وهذا تنبيه للغافل ، وتحذير للباغي من أهل الفساد ، وتطمين ورجاء للمظلومين المستضعفين المعتدَى عليهم : اطمئنوا فقد قرب وقت الجزاء .

﴿ واقترب الوعد الحق . . ﴾ [الأنبياء : 97] والوعد الحق أي : الصادق الذي يملك صاحبه أن يُنفّذه ، فقد تَعِد وعداً ولا تملك تنفيذه فهو وَعْد ، لكنه وَعْد باطل ، فالوعد يختلف حَسْب مروءة الواعد وإمكانياته وقدرته على إنفاذ ما وعد به .

لكن مهما كانت عندك من إمكانيات ، ومهما ملكتَ من أسباب التنفيذ ، أتضمن أن تُمكّنك الظروف والأحوال من التنفيذ ؟ ولا يملك هذا كله إلا الله عز وجل ، فإذا وعد حقق ما وعد به ، فالوعد الحق – إذن – هو وعد الله .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ واقترب الوعد الحق . . ﴾ [الأنبياء : 97] فتنبه ولا تَقِسْ الدنيا بعمرها الأساسي ، إنما قِسْ الدنيا بعمرك فيها ، فهذه هي الدنيا بالنسبة لك ، ولا دَخْلَ لك بدنيا غيرك ، فإذا كنتَ لا تعلم متى تفارق دنياك فلا شَكَّ أن عمرك قريب ، واقترب الوعد الحق بالنسبة لك .

وكذلك مدة مُكْثِك في قبرك إلى أن تقوم الساعة ستمر عليكِ كساعة من نهار ، كما قال سبحانه : ﴿ كَأَن لَّمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار . . ﴾ [يونس : 45] .

ولو تنَبه كل مِنّا إلى إخفاء الله لأجله ، لعلم أن في هذا الإخفاء أعظمَ البيان ، فحين أخفاه ترقبناه في كل طَرْفة عَيْن ، وتنفُّس نَفَسٍ ؛ لذلك يقولون : " مَنْ مات قامت قيامته " ، لأن القيامة تعنى الحساب والجزاء على الأعمال ، ومَنْ مات انقطع عمله ، وطُوِيَتْ صحيفته .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ . . ﴾ [الأنبياء : 97] وَعْد الله هنا هو القيامة ، وهي تفاجئنا وتأتينا بغتة ؛ لذلك نقول في (فَإِذَا) أنها الفجائية ، كما تقول : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب ، يعني : فوجئت به ، وهكذا ساعةَ تقوم الساعة سوف تُفَاجِئ الجميع ، لا يدري أحد ماذا يفعل .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ . . ﴾ [الأنبياء : 97] وشخوص البصر يأتي حين ترى شيئاً لا تتوقعه ، ولم تحسب حسابه ، فتنظر مُنْدهِشاً يجمد جفنُك الأعلى الذي يتحرك على العين ، فلا تستطيع حتى أنْ ترمش أو تطرف .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [إبراهيم : 42] .

وإذا أردتَ أن ترى شُخوص البصر فانظر إلى شخص يُفَاجأ بشئ لم يكُنْ في باله ، فتراه – بلا شعور وبغريزته التكوينية – شاخصَ البصر ، لا ينزل جفنه .

ثم يقولون : ﴿ ياويلنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا . . ﴾ [الأنبياء : 97] فلم يقتصر الموقف على شخوص البصر إنما تتحرك أيضاً أدوات الإدراك فيقول اللسان : ﴿ ياويلنا ﴾ وهذا نداء للويل أي : جاء وقتُك فلم يَعُدْ أمامهم إلا أنْ يقولوا : يا عذاب هذا أوانك فاحضر .

والويل : هو الهلاك السريع ينادونه ، فهل يطلب الإنسان الهلاكَ ، ويدعو به لنفسه ؟ نقول : نعم ، حين يفعل الإنسان الفعلَ ويجد عواقبه السيئة ، وتواجهه الحقيقة المرّة يميل إلى تعذيب نفسه ، أَلاَ تسمع مثل هؤلاء يقولون : أنا أستحق . . أنا أستاهل الضرب . . ؟ إنه لَوْم النفس وتأنيبها على ما كان منها ، فهي التي أوقعتْه في هذه الورطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] .

(131/515)

فلماذا لا يُؤنِّب نفسه ، ويطلب لها العذاب ، وهي التي أردتْه في التهلكة ، ففي هذا الموقف تنقلب موازينهم التي اعتادوها في الدنيا ، فالأصدقاء في الشر وفي المعصية هم الآن الأعداء .

﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا . . ﴾ [الأنبياء : 97] لم يكن هذا الموقف في بالنا ، ولم نعمل له حساباً ، والغفلة : أنْ تدرأ عن بالك ما يجب أن يكون على بالك دائماً .

لكن ، أيّ غفلة هذه والله – عز وجل – يُذكِّرنا بهذا الموقف في كل وقت من ليل أو نهار ، ألاَ ترى أنه سبحانه سَمَّى القرآن ذِكْراً ليزيح عنّا هذه الغفلة ، فكلما غفلتَ ذكّرك ، وهزَّ

مواجدك ، وأثار عواطفك .

إذن : المسألة ليست غفلة ؛ لذلك نراهم يستدركون على كلامهم ، فيقولون : ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : 97] لأنهم تذكَّروا أن الله تعالى طالما هَزَّ عواطفهم ، وحرَّك مواجيدهم ناحية الإيمان ، فلم يستجيبوا .

لذلك اعترفوا هنا بظلمهم ، ولم يستطيعوا إنكاره في مثل هذا الموقف ، فلم يعُدْ الكذب مُجْدِياً ، ولعلّهم يلتمسون بصدقهم هذا نوعاً من الرحمة ، ويظنون أن الصدق نافعهم ، لكن هيهات .

وكأن الحق سبحانه يحكي عنهم هذه المواجهة حين تفاجئهم القيامة بأهوالها ، فتشخص لها أبصارهم ، ويقول بعضهم ﴿ ياويلنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا . . ﴾ [الأنبياء : 97] فيردّ عليهم إخوانهم : أيّ غفلة هذه ، وقد كان الله يُذكِّرنا بالقيامة وبهذا الموقف في كل وقت ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : 97] .

و(بَلْ) حرف إضراب عن الكلام السابق ، وإثبات للكلام اللاحق ، وهكذا يُراجِعون أنفسهم ، ويُواجِه بعضهم بعضاً ، لكن بعد فوات الأوان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ قال : إن هذا دينكم ديناً واحداً .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ أي دينكم دين واحد وربكم واحد والشريعة مختلفة .

وأخرج عبد بن حميد عن الكلبي ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ قال : لسانكم لسان واحد .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ قال : ﴿ تقطعوا ﴾ اختلفوا في الدين .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ، أنه قرأ " وحرم على قرية " .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن الزبير قال : إن صبياناً ههنا يقرؤون " وحرم على قرية " وإنما هي ﴿ وحرام على قرية ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه كان يقرأ ﴿ وحرام على قرية ﴾ بالألف .

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها ﴾ قال : وجب إهلاكها . قال : دمرناها ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ قال : إلى الدنيا .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس أنه كان يقرأ " وحرم على قرية " قال : وجب على قرية ﴿ أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ كما قال : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ [يس : 31] .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة وسعيد بن جبير مثله .

وأخرج ابن جرير من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه كان يقرأ هذا الحرف " وحرم على قرية " فقيل لسعيد : أي شيء حرم ؟ قال : يحرم .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة " وحرم " قال : وجب ﴿ على قرية أهلكناها ﴾ قال : كتبنا عليها الهلاك في دينها ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ عما هم عليه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة " وحرم " قال : وجب بالحبشية .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وحرام على قرية ﴾ أي وجب عليها أنها إذا أهلكت لا ترجع إلى دنياها .

﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) ﴾

أخرج عبد بن حميد عن عاصم ، أنه قرأ ﴿ حتى إذا فتحت ﴾ خفيفة ﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ مهموزة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ قال : جميع الناس من كان مكان جاؤوا منه يوم القيامة فهو حدب .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة في قوله : ﴿ من كل حدب ينسلون ﴾ قال : من كل أكمة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ من كل حدب ﴾ قال : شرف ﴿ ينسلون ﴾ قال : يقبلون .

وأخرج الطستي عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق سأله قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ من كل حدب ينسلون ﴾ قال : ينشرون من جوف الأرض من كل ناحية . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت طرفة وهو يقول :

فأما يومهم فيوم سوء . . . تخطفهن بالحدب الصقور

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ قال : هذا مبتدأ يوم القيامة .

وأخرج الحاكم عن ابن مسعود أنه قرأ " من كل جدث " بالجيم والثاء ، مثل قوله : ﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ [يس : 51] وهي القبور .

(134/515)

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول : " يفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله : ﴿ من كل حدب ينسلون ﴾ فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ويشربون مياه الأرض حتى يتركوه يبساً ، حتى إن بعضهم ليمر بذلك النهر فيقول : قد كان ههنا مرة ماء . حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أخذ في حصن أو مدينة ، قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض ، قد فرغنا منهم وبقي أهل السماء . قال : يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة دماً للبلاء والفتنة ، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله دوداً في أعناقهم كنغف الجراد يخرج في أعناقه ، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس ،

فيقول المسلمون : ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هؤلاء العدو ؟ فيتجرد رجل منهم محتسباً نفسه قد أوطنها على أنه مقتول ، فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض !

فينادي معشر المسلمين ، أبشروا إن الله قد كفاكم عدوكم . فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم فما يكون لها مرعى إلا لحومهم ، فتشكر عنه أحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث ، عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(135/515)

" لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى ، فتذاكروا أمر الساعة فردوا أمرهم إلى إبراهيم ، فقال : لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى موسى فقال : لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال : أما وجبتُها فلا يعلم بها أحد إلا الله ، وفيما عهد إليّ ربي أن الدجال خارج ومعي قضيبان ، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص فيهلكه الله إذا رآني ، حتى أن الحجر والشجر يقول : يا مسلم ، إن تحتي كافراً فتعال فاقتله . فيهلكهم الله ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم لا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ، ثم رجع الناس

يشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجري الأرض من نتن ريحهم ، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر . وفيما عهد إلي ربي ، إذا كان ذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلاً أو نهاراً " .

قال ابن مسعود : فوجدت تصديق ذلك في كتاب الله : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق ﴾ الآية . قال : جميع الناس من مكان كانوا جاؤوا منه يوم القيامة فهو حدب .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق خالد بن عبد الله بن حرملة ، عن حذيفة قال : " خطب رسول الله صلى عليه وسلم وهو عاصب أصبعه من لدغة عقرب فقال : إنكم تقولون لا عدوّ لكم ، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج عراض الوجوه صغار العيون ، صهب الشفار ، من كل حدب ينسلون . . . كأن وجوههم المجان المطرقة " .

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن أبي يزيد قال : رأى ابن عباس صبياناً ينزو بعضهم على بعض يلعبون ، فقال ابن عباس : هكذا يخرج يأجوج ومأجوج .

(136/515)

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في البعث ، عن النّواس بن سمعان قال : " ذكر رسول الله صلى عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه رفع ، حتى ظننا أنه في ناحية النخل فقال : غير الدجال أخوفني عليكم ، فإن خرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ؛ وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم . إنه شاب جعد قطط عينه طافئة ، وإنه تخرج خيله بين الشام والعراق ، فعاث يميناً وشمالاً ، يا عباد الله اثبتوا : قلنا : يا رسول الله ، ما لبثه في الأرض ؟ قال : أربعون يوماً ، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة ، وسائر الأيام كأيامكم . قلنا : يا رسول الله ، فذلك اليوم الذي هو كسنة ، أتكفينا فيه صلاة يوم وليلة ؟ قال : لا . . . أقدروا له قدره . قلنا : يا رسول الله ، ما أسرعه في الأرض ؟ قال : كالغيث يشتد به الريح ، فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كان دراً ، وأمده خواصر وأشبعه ضروعاً ، ويمرّ بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فتتبعه أموالهم فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شيء ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك . فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ، ويأمر برجل فيقتل فيضربه ضربة بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل إليه .

فبينما هم على ذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين ، واضعاً يده على أجنحة ملكين فيتبعه فيدركه فيقتله عند باب لدّ الشرقي ، فبينما هم كذلك أوحى الله إلى عيسى ابن مريم : أني قد أخرجت عباداً من عبادي لا يدان لك بقتالهم ، فحرز عبادي إلى الطور . فيبعث الله يأجوج ومأجوج كما قال الله : ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل عليهم نغفاً في رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة ، فيهبط عيسى وأصحابه إلى الأرض فيجدون نتن ريحهم ، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ويرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا بر أربعين يوماً فتغسل الأرض حتى تتركها زلفة ، ويقال للأرض : أنبتي ثمرتك فيومئذ يأكل النفر من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرسل ، حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس ، واللقحة من البقر تكفي الفخذ ، والشاة من الغنم تكفي البيت ، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله ريحا طيبة تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو نتجت فرس عند خروجهم ما ركب فلوها حتى تقوم الساعة " .

وأخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول الآيات : الدجال ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا ، وتبيت معهم إذا باتوا ، والدخان ، والدابة ، ويأجوج ومأجوج . قال حذيفة : قلت : يا رسول الله ، ما يأجوج ومأجوج ؟ قال : يأجوج ومأجوج أمم ، كل أمة أربعمائة ألف أمة . . . لا يموت الرجل منهم حتى يرى ألف عين تطوف بين يديه من صلبه ، وهم ولد آدم ، فيسيرون إلى خراب الدنيا ويكون مقدمتهم بالشام وساقتهم بالعراق ، فيمرون بأنهار الدنيا فيشربون الفرات ودجلة وبحيرة طبرية ، حتى يأتوا بيت المقدس فيقولون : قد قتلنا أهل الدنيا فقاتلوا من في السماء ، فيرمون بالنشاب إلى السماء فترجع نشابتهم مخضبة بالدم ، فيقولون : قد قتلنا من في السماء . وعيسى والمسلمون بجبل طور سينين فيوحي الله إلى عيسى : أن أحرز عبادي بالطور وما يلي أيلة ، ثم إن عيسى يرفع يديه إلى السماء ويؤمن المسلمون فيبعث الله عليهم دابة يقال لها ، النغف . تدخل في مناخرهم فيصبحون موتى من حاق الشام إلى حاق المشرق ، حتى تنتن الأرض من جيفهم ، ويأمر الله السماء فتمطر كأفواه القرب فتغسل الأرض من جيفهم وتنتهم ، فعند ذلك طلوع

الشمس من مغربها " .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : يخرج يأجوج ومأجوج فيموجون في الأرض فيفسدون فيها . ثم قرأ ابن مسعود ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ قال : ثم يبعث الله عليهم دابة مثل النغف فتلج في أسماعهم ومناخرهم فيموتون منها ، فتنتن الأرض منهم فيرسل الله ماء فيطهر الأرض منهم .

(139/515)

وأخرج ابن جرير من طريق عطية قال : قال أبو سعيد : يخرج يأجوج ومأجوج فلا يتركون أحداً إلا قتلوه ، إلا أهل الحصون فيمرون على البحيرة فيشربونها ، فيمر المار فيقول : كأنه كان ههنا ماء ! فيبعث الله عليهم النغف حتى يكسر أعناقهم فيصيروا خبالاً ، فيقول أهل الحصون : لقد هلك أعداء الله . فيرسلون رجلاً لينظر ويشرط عليهم إن وجدهم أحياء أن يرفعوه ، فيجدهم قد هلكوا . فينزل الله ماء من السماء فيقذف بهم في البحر فتطهر الأرض منهم ، ويغرس الناس بعدهم الشجر والنخل وتخرج الأرض ثمرها كما كانت تخرج في زمن يأجوج ومأجوج .

(140/515)

وأخرج ابن جرير عن كعب قال : إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم ، فإذا كان الليل قالوا : نجي غداً نخرج . فيعيده الله كما كان فيجيئون غداً فيحفرون حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم ، فإذا كان الليل قالوا : نجي فنخرج ، فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله تعالى كما كان ، فيحفرونه حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم ، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول : نجيء غداً فنخرج إن شاء الله . فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه فيخرقون ثم يخرجون ، فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة فيشربون ماءها ، ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها ، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون : كان ههنا مرة ماء . ويفر الناس منهم ولا يقوم لهم شيء ، ويرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون : غلبنا أهل الأرض وأهل السماء ، فيدعو عليهم عيسى عليه السلام فيقول : اللهم لا طاقة ولا يد لنا بهم فاكفناهم بما شئت . فيرسل الله عليهم دوداً يقال له : " النغف " فتقرس رقابهم ، ويبعث الله عليهم طيراً فتأخذهم بمناقيرها فتلقيهم في البحر ، ويبعث الله تعالى عيناً يقال لها الحياة تطهر الأرض منهم ، وينبتها حتى أن الرمانة ليشبع منها السكن قيل : وما السكن يا كعب ؟ قال : أهل البيت . قال : فبينا الناس كذلك إذ أتاهم الصراخ ، أن ذا السويقتين أتى البيت يريده . فيبعث عيسى طليعة سبعمائة أو بين السبعمائة والثمانمائة ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق يبعث

الله ريحاً يمانية طيبة فيقبض فيها روح كل مؤمن ، ثم يبقى محاح من الناس فيتسافدون كما تتسافد البهائم ، فمثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه ينظرها متى تضع .

(141/515)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : ما كان منذ كانت الدنيا رأس مائة سنة ، إلا كان عند رأس المائة أمر . قال : فتحت يأجوج ومأجوج . وهم كما قال الله : ﴿ من كل حدب ينسلون ﴾ فيأتي أوّلهم على نهر عجاج فيشربونه كله حتى ما يبقى منه قطرة ، ويأتي آخرهم فيمر فيقول : قد كان ههنا مرة ماء ، فيفسدون في الأرض ويحاصرون المؤمنين في مدينة إليا ، فيقولون : لم يبق في الأرض أحد إلا قد ذبحناه . . . هلموا نرمي من في السماء . فيرمون في السماء فترجع إليهم سهامهم في نصلها الدم ، فيقولون : ما بقي في الأرض ولا في السماء أحد إلا وقد قتلناه . فيقول المؤمنون : يا روح الله ، ادع الله عليهم . فيدعو عليهم فيبعث الله في آذانهم النغف فيقتلهم جميعاً في ليلة واحدة ، حتى تنتن الأرض من جيفهم فيقول المؤمنون : يا روح الله ، ادع الله فإنا نخشى أن نموت من نتن جيفهم . فيدعو الله فيرسل عليهم وابلاً من السماء فيجعلهم سيلاً ، فيقذفهم في البحر .

وأخرج ابن جرير عن حذيفة رضي الله عنه قال : لو أن رجلاً اقتنى فلواً بعد خروج يأجوج

ومأجوج، لم يركبه حتى تقوم الساعة.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري وأبو يعلى وابن المنذر، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج".

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ قال: اقترب يوم القيامة.

وأخرج عن الربيع ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ قال: قامت عليهم الساعة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(142/515)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (95) ﴾

قوله: ﴿ وَحَرَامٌ ﴾: قرأ الأخَوان وأبو بكر ورُوِيَتْ عن أبي عمرو "وحِرْمٌ" بكسرِ الحاء وسكونِ الراءِ. وهما لغتان كالحِلِّ والحَلال. وقرأ ابن عباس وعِكْرمة و"حَرِمَ" بفتح الحاء وكسر الراء وفتح الميم، على أنه فعلٌ ماضٍ، ورُوي عنهما أيضاً وعن أبي العالية بفتح الحاء

والميم وضمّ الراءِ بزنة كُرِمَ ، وهو فعلٌ ماض أيضاً . ورُوي عن ابن عباس فتحُ الجميع . وهو فعلٌ ماضٍ أيضاً . واليمانيُّ بضم الحاء وكسر الراءِ مشددةً وفتح الميم ماضياً مبنياً للمفعول . ورُوي عن عكرمةَ بفتح الحاء وكسرِ الراء وتنوين الميم .

فَمَنْ جعله اسماً : ففي رفعه وجهان ، أحدهما : أنه مبتدأ/ وفي الخبر حينئذٍ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدهُا : قوله ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ وفي ذلك حينئذٍ أربعةُ تأويلاتٍ ، التأويلُ الأولُ : أنَّ " لا " زائدةٌ والمعنى : وممتنعٌ على قريةٍ قدَّرْنا إهلاكَها لكفرِهم رجوعُهم إلى الإيمانِ ، إلى أَنْ تقومَ الساعةُ . وممَّن ذهب إلى زيادتِها أبو عمرو مستشهداً عليه بقولِه تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف : 12] يعني في أحدِ القولين . التأويل الثاني : أنها غيرُ زائدةٍ ، وأنَّ المعنى : أنَّهم غيرُ راجعين عن معصيتهم وكفرِهم . التأويلُ الثالث : أنَّ الحرامَ يُرادُ به الواجب . ويَدُلُّ عليه قولُه تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ ﴾ [الأنعام : 151] وتَرْكُ الشِّرْكِ واجبٌ ، ويَدُلُّ عليه أيضاً قولُ الخنساء :

3359 حرامٌ عليَّ لا أرى الدهرَ باكياً . . . على شَجْوِه إلا بَكَيْتُ على صَخْرِ

وأيضاً فمن الاستعمالِ إطلاقُ أحدِ الضدين على الآخرِ .

(143/515)

ومِنْ ثَمَّ قال الحسن والسدي : لا يَرْجِعون عن الشرك . وقال قتادة : إلى الدنيا . التأويل الرابع : قال أبو مسلم ابن بَحْر : " حرامٌ : ممتنع . وأنهم لا يرجعون : انتفاء الرجوعِ إلى الآخرة ، فإذا امتنع الانتفاءُ وَجَبَ الرجوعُ . فالمعنى : أنه يجبُ رجوعُهم إلى الحياة في الدار الآخرة . ويكون الغرضُ إبطالَ قولِ مَنْ يُنْكر البعثَ . وتحقيقُ ما تقدَّم من أنه لا كُفْرانَ لسَعْي أحدٍ ، وأنه يُجْزَى على ذلك يومَ القيامةِ " . وقولُ ابن عطية قريبٌ من هذا قال : " وممتنعٌ على الكفرةَ المُهْلَكين أنهم لا يَرْجعون إلى عذاب الله وأليم عِقابِه ، فتكون " لا " على بابِها ، والحرامُ على بابه " .

الوجه الثاني : أنَّ الخبرَ منحذوفٌ تقديرُه : حرامٌ توبتُهم أو رجاءُ بعثهم ، ويكونُ " أَنَّهم لا يَرْجعون " علةً لما تقدَّم من معنى الجملة ، ولكن لك حينئذ في " لا " احتمالان ، الاحتمال الأول : أَنْ تكونَ زائدةً . ولذلك قال أبو البقاء في هذا الوجهِ بعدَ تقديرِه الخبرَ المتقدم : " إذا جَعَلْتَ لا زائدةً " قلت : والمعنى عنده : لأنهم يَرْجعون إلى الآخرة وجزائها . الاحتمال الثاني : أن تكونَ غيرَ زائدةٍ بمعنى : ممتنعٌ توبتُهم أو رجاءُ بعثِهم ؛ لأنهم لا يَرْجعون إلى الدنيا فَيَسْتدركوا فيها ما فاتهم من ذلك .

(144/515)

الوجهُ الثالث : أَنْ يكونَ هذا المبتدأ لا خبرَ له لفظاً ولا تقديراً ، وإنما رَفَع شيئاً يقوم مقامَ خبرِه من باب " أقائم أخواك " . قال أبو البقاء : " والجيدُ أن يكونَ " أنهم " فاعلاً سَدَّ مَسَدَّ الخبر " ، قلت : وفي هذا نظرٌ ؛ لأن ذلك يُشْترطُ فيه أن يَعتمد الوصفُ على نفيٍ أو استفهامٍ ، وهنا فلم يعتمِدْ المبتدأُ على شيءٍ من ذلك ، اللهم إلاَّ أَنْ ينحوَ نَحْوَ الأخفشِ ، فإنه لا يَشترطُ ذلك . وقد قررتُ هذه المسألةَ في غيرِ هذا الموضوع ، والذي يظهر قولُ الأخفش ، وحينئذ يكون في " لا " الوجهان المتقدمان من الزيادة وعدمِها ، باختلاف معنيين : أي امتنع رجوعُهم إلى الدنيا أو عن شركِهم إذا قَدَّرْتَها زائدةً ، أو امتنع عدمُ رجوعِهم إلى عقابِ اللهِ في الآخرة إذا قَدَّرْتها غيرَ زائدة .

الوجه الثاني : من وجهَيْ رفعِ " حرام " أنه خبرُ مبتدأ محذوف ، فقدَّره بعضهم : الإِقالةُ والتوبةُ حرامٌ . وقَدَّره أبو البقاء : " أي ذلك الذي ذُكِرَ من العملِ الصالحِ حرامٌ " . وقال الزمخشري : " وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها ذاك ، وهو المذكورُ في الآية المتقدمةِ من العملِ الصالح والسَّعيِ المشكورِ غير المكفورِ . ثم عَلَّل فقيل : إنهم لا يرجعون عن الكفر فكيف لا يمتنع ذلك ؟

وقرأ العامَّةُ " أَهْلكناها " بنونِ العظمة . وقرأ أبو عبد الرحمن وقتادةُ " أهلكتُها " بتاءِ المتكلم . ومَن قرأ " حَرِمٌ " بفتح الحاءِ وكسرِ الراء وتنوينِ الميم ، فهو في قراءتِه صفةٌ على

فَعلِ نحو: حَذِر . وقال:

3360 وإن أتاه خليلٌ يومَ مسألةٍ . . . يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ

(145/515)

ومَنْ قرأه فعلاً ماضياً فهو في قراءتِه مسندٌ ل "أنَّ" وما في حَيّزها . ولا يَخْفى الكلامُ في "لا" بالنسبة إلى الزيادةِ وعدمِها / فإنَّ المعنى واضحٌ مما تقدَّم وقُرِىء "إنَّهم" بالكسرِ على الاستئناف، وحينئذٍ فلا بد من تقديرِ مبتدأ يَتِمُّ به الكلام، تقديرُه: ذلك العملُ الصالحُ حرامٌ . وتقدَّم تحريرُ ذلك .

حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96)

قوله: ﴿ حتى إِذَا ﴾: قد تقدم الكلام على "حتى" الداخلةِ على "إذا" مشبعاً .

وقال الزمخشري هنا: "فإنْ قلت: بمَّ تعلَّقَتْ "حتى" واقعةً غايةً له وأيَّة الثلاث هي؟ قلت: هي متعلقةٌ ب "حرامٌ" وهي غايةٌ له؛ لأنَّ امتناعَ رجوعِهم لا يزول حتى تقومَ القيامةُ، وهي "حتى" التي يحكى بعدها الكلامُ، والكلامُ المحكيُّ هو الجملةُ من الشرطِ والجزاءِ، أعني "إذا" وما في حيزها" . وأبو البقاء نَحا هذا النحوَ فقال: "وحتى" متعلقةٌ في المعنى ب "حرامٌ" أي: يستمرُّ الامتناع إلى هذا الوقتِ، ولا عملَ لها في "إذا" .

وقال الحوفي : " هي غايةٌ ، والعاملُ فيها ما دَلَّ عليه المعنى مِنْ تأسُّفِهم على ما فرَّطوا فيه من الطاعةِ حين فاتَهم الاستدارك " . وقال ابنُ عطية : " حتى " متعلقةٌ بقوله " وتَقَطَّعوا " . وتحتملُ على بعضِ التأويلاتِ المتقدمة أَنْ تتعلَّق ب " يَرْجِعون " ، وتحتمل أَنْ تكونَ حرفَ ابتداءٍ ، وهو الأظهر ؛ بسبب " إذا " ؛ لأنها تقتضي جواباً هو المقصودُ ذِكْرُه " . قال الشيخ : " وكونُ " حتى " متعلقةً ب " تَقَطَّعوا " فيه بُعْدٌ من حيثُ كثرةُ الفصلِ لكنه من حيث المعنى جيدٌ : وهو أنهم لا يزالون مختلفين على دين الحقِّ إلى قُرْب مجيءِ الساعةِ ، فإذا جاءت الساعةُ انقطع ذلك كلُّه " .

(146/515)

وتلخَّصَ في تعلُّق " حتى " أوجهُ ، أحدها : أنها متعلقةٌ ب " حرامٌ " . الثاني : أنها متعلقةٌ بمحذوفٍ دَلَّ عليه المعنى ، وهو قولُ الحوفيِّ . الثالث : أنها متعلقةٌ ب " تَقَطَّعوا " . الرابع : أنها متعلقةٌ ب " يَرْجِعون " . وتلخَّص في " حتى " وجهان ، أحدهما : أنها حرفُ ابتداءٍ وهو قولُ الزمخشري وابنِ عطية فيما اختاره ، الثاني : حرفُ جرّ ، بمعنى إلى .

وقرأ " فُتِّحَتْ " بالتشديد ابنُ عامر . والباقون بالتخفيفِ . وقد تقدَّم ذلك أولَ الأنعام ، وفي جواب " إذا " أوجهٌ أحدُها : أنه محذوفٌ فقدَّره أبو إسحاق : " قالوا يا وَيْلَنا " ،

وقدَّره غيرُه : فحينئذٍ يُبعثون . وقوله " فإذا هي شاخصة " عطفٌ على هذا المقدرِ .

الثاني : أنَّ جوابَها الفاءُ في قولِه " فإذا هي " قاله الحوفي والزمخشري وابن عطية . فقال الزمخشري : " وإذا هي المفاجأةُ ، وهي تقع في المجازاة سادَّةً مَسَدَّ الفاءِ كقوله تعالى : ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم : 36] فإذا جاءت الفاءُ معها تعاونَتا على وَصْل الجزاء بالشرط فيتأكَّدُ . ولو قيل : إذا هي شاخصة كان سديداً . وقال ابن عطية : " والذي أقول : إنَّ الجوابَ في قوله " فإذا هي شاخِصَةٌ " ، وهذا هو المعنى الذي قُصِد ذِكْرُه ؛ لأنه رجوعُهم الذي كانوا يُكَذِّبون به وحَرَّم عليهم امتناعَه " .

وقوله : ﴿ يَأْجُوجُ ﴾ هو على حذفِ مضاف أي : سدُّ يأجوجَ ومَأْجوجَ . وتقدَّم الكلامُ فيهما قريباً .

قوله : " وهم " يجوز أَنْ يعودَ على يأجوج ومأجوج ، وأن يعودَ على العالَم بأَسْرِهم . والأولُ أظهر .

(147/515)

وقرأ العامَّةُ : "يَنْسِلون " بكسر السين ، وأبو السمَّالِ وابنُ أبي إسحاق بضمها . والحَدَب : النَّشَزُ من الأرض أي : المرتفعُ ، ومنه الحَدَبُ في الظهر وكلُّ كُدْية أو أَكَمَةٍ فهي حَدَبَة ، وبها

سُمِّيَ القبرُ لظهورِه على وجه الأرض ، والنَّسَلان مقارَبَةُ الخَطْوِ مع الإِسراعِ ، يُقال : نَسَل ينسِل وينسُل بالفتح في الماضي ، والكسرِ والضم في المضارع ، ونسل وعَسَل واحد ، قال الشاعر :

3361 عَسَلانَ الذئبِ أمسى قارِباً . . . بَرَدَ الليلُ عليه فَنَسَلْ

والنَّسْلُ من ذلك وهو الذُّرِّيَّة ، أطلقَ المصدرَ على المَفْعول . و" نَسَلْتُ ريشَ الطائر " من ذلك . وقُدِّمَ الجارُّ على متعلقه لتواخي رؤوسِ الآي . وقرأ عبد الله وابن عباس " جَدَث " بالثاء المثلثة ، وهو القبرُ . وقُرِىء بالفاء وهي بدلٌ منها . قال الزمخشري : " الثاء للحجاز والفاء لتميم " . وينبغي أَنْ يكونا أصلين ؛ لأنَّ كلاً منهما لغةٌ مستقلةٌ ، ولكن قد كَثُر إبدال الثاء من الفاء قالوا : مَعْثُور في مَعْفور ، وقالوا : " فُمَّ " في ثُمَّ ، فأبدلت هذه من هذه تارةً ، وهذه من هذه أخرى .

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (97)

(148/515)

قوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ ﴾ : فيه أوجهٌ أحدُها : وهو الأجود أن تكونَ " هي " ضميرَ القصة ، و " شاخصةٌ " خبرٌ مقدمٌ ، و " أبصارُ " مبتدأ مؤخر ، والجملةُ خبرٌ لـ " هي " لأنها لا تُفَسَّر إلاَّ بجملةٍ مصرِّحٍ بجزأيها ، وهذا مذهبُ البصريين . الثاني : أن تكونَ " شاخصة " مبتدأ ، و " أبصارُ " فاعلٌ سدَّ مَسَدَّ الخبرِ ، وهذا يتمشى على رأي الكوفيين ؛ لأنَّ ضميرَ القصةِ يُفَسَّر عندهم بالمفردِ العاملِ عملَ الفعلِ فإنَّه في قوة الجملة . الثالث : قال الزمخشري : " هي " ضميرٌ مُبْهَمٌ تُوَضِّحه الأبصارُ وتُفَسِّره ، كما فُسِّر ﴿ الذين ظَلَمُواْ ﴾ ﴿ وَأَسَرُّواْ ﴾ [الأنبياء : 3] . ولم يَذْكر غيرَه . قلت : وهذا هو قولُ الفراء ؛ فإنَّه قال : " هي " ضميرُ الأبصارِ تقدَّمَتْ لدلالة الكلام ومجيءِ ما يُفَسِّرها " . وأنشد شاهداً على ذلك : /

3362 فلا وأبيها لا تقول حَليلتي . . . ألا فَرِّعني مالكُ بنُ أبي كعبِ

الرابع : أن تكونَ " هي " عماداً ، وهو قول الفراء أيضاً ، قال : " لأنه يَصْلُح موضعَها " هو " وأنشد :

3363 بثوبٍ ودينارٍ وشاةٍ ودِرْهمٍ . . . فهل هو مرفوعٌ بما ههنا راسُ

وهذا لا يَتَمَشَّى إلاَّ على أحدِ قولي الكسائي : وهو أنه يُجيز تقدُّمَ الفصلِ مع الخبرِ المقدَّم نحو : " هو خيرٌ منك زيد " الأصل : زيدٌ هو خيرٌ منك ، وقال الشيخ : " أجاز هو القائمُ زيدٌ ، على أنَّ " زيداً " هو المبتدأ و" القائم " خبره و" هو " عمادٌ . وأصلُ المسألةِ : زيدٌ هو القائم " . قلتُ : وفي هذا التمثيلِ [نظرٌ] ؛ لأنَّ تقديمَ الخبرِ هنا ممتنعٌ لاستوائِهما في التعريفِ ، بخلاف المثال الذي قَدَّمْتُه ، فيكون أصلُ الآيةِ الكريمة : فإذا أبصارُ الذين كفروا هي شاخصةٌ ، فلما قُدِّم الخبرُ وهو " شاخصةٌ " قُدِّم معها العِمادُ . وهذا أيضاً إنما يجيءُ على مذهبِ مَنْ يرى وقوعَ العمادِ قبل النكرة غيرِ المقاربةِ للمعرفةِ .

الخامس : أَنْ تكونَ " هي " مبتدأً ، وخبرُه مضمرٌ ، ويَتمُّ الكلامُ حينئذٍ على " هي " ، ويُبْتَدأ بقوله " شاخصة أبصار " . والتقديرُ : فإذا هي بارزةٌ أي : الساعةُ بارزةٌ أو حاضرة ، و" شاخصةٌ " خبرٌ مقدمٌ و" أبصارُ " مبتدأٌ مؤخرٌ . ذكره الثعلبي . وهو بعيدٌ جداً لتنافرِ التركيبِ ، وهو التعقيدُ عند علماءِ البيان .

قوله : ﴿ ياويلنا ﴾ معمولٌ لقولٍ محذوفٍ ، وفي هذا القولِ المحذوفِ وجهان ، أحدُهما : أنَّه جوابُ " حتى إذا " كما تقدَّم . والثاني : في محلِّ نصبٍ على الحالِ من " الذين كفروا " ، قاله الزمخشري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 198 . 206 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (95) ﴾

أي لا نهلك قوماً وإن تمادوا في العصيان إلا إذا علمنا أنهم لا يؤمنون ، وأنه بالشقاوة تُخْتَمُ أمورُهم .

حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96)

أي يحق القولُ عليهم ، ويتم الأجلُ المضروبُ لهم ، فعند ذلك تظهر أيامهم ، وإلى القَدْرِ المعلومِ في التقدير لا تحصل نُجاةُ الناسِ من شرّهم .

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (97)

تأخذهم القيامةُ بغتةً ، وتظهر أشراطُ الساعة فجأة ، ويُقِرُّ الكاذبون بأنَّ الذنبَ عليهم ، ولكن في وقتٍ لا تُقْبَلُ فيه مَعْذِرَتُهم ، وأوانٍ لا ينفعهم فيه إيمانهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 523 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (99) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (100) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا محلاًّ يخطر بالبال فيه آلهتهم بما يترجونه منها من النفع ، قال مخاطباً لهم إرادة التعنيف والتحقير : ﴿ إنكم ﴾ وأكده لإنكارهم مضمون الخبر : ﴿ وما تعبدون ﴾ أيها المشركون من الأصنام والشياطين ؛ ولما كان يتعبدون له سبحانه طوعاً وكرهاً مع الإشراك ، قيد بقوله دالاًّ على أن رتبة ما عبدوه من أدنى المراتب الكائنة تحت رتبته سبحانه : ﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا كفوء له ؛ ولما كانوا يرمى بهم في جهنم رمي الحجارة الصغار التي تسمى الحصباء إلى المحصوب إسراعاً وإكراهاً ، فيكونون وقودها من غير إخراج ، قال : ﴿ حصب جهنم ﴾ أي الطبقة التي تلقى المعذب بها بالتجهم والعبوسة والتكره ؛ ثم أكد ذلك بقوله استئنافاً : ﴿ أنتم لها واردون ﴾ أي داخلون دخول ورد الحمى على حالة هي بين السواد بالدخان والاحمرار باللب .

ولما قرعهم من هذا الكلام بما لا جواب لهم عنه غير المكابرة ، أعرض عنهم الخطاب استهانة بهم واحتقاراً لهم فقال : ﴿ لو كان هؤلاء ﴾ أي الذين أهلوهم لرتبة الإلهية وهم في الحقارة بحيث يقذف بهم في النار قذفاً ﴿ ءالهة ﴾ أي كما زعم العابدون لهم ﴿ ما وردوها ﴾ أي جهنم أصلاً ، فكيف على هذه الصفة ؛ ثم أخبر عنهم وعنها بقوله : ﴿ وكل ﴾ أي منهم ومنها ﴿ فيها ﴾ أي جهنم ﴿ خالدون ﴾ لا انفكاك لهم عنها ، بل يحمى بكل منهم فيها على الآخر ﴿ لهم ﴾ أي لمن فيه الحياة من المذكورين العابدين مطلقاً والمعبودين الراضين كفرعون ﴿ فيها زفير ﴾ أي تنفس عظيم على غاية من الشد والمد . تكاد تخرج معه النفس ، ويقرنون بآلهتهم زيادة في عذابهم حيث جعل المعبود الذي كان يطلب من السعادة زيادة في الشقاوة فصار عدواً ولا يكون أنكأ من مقارنة العدو .

ولما كانت تعمية الأخبار مما يعدم القرار ، ويعظم الأكدار ، قال ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ حذف المتعلق تعميماً لكل مسموع ، قال ابن كثير : قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن محمد الطنافسي ثنا ابن فضيل ثنا عبد الرحمن – يعني المسعودي – عن أبيه قال : قال ابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ : إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توابيت من نار فيها مسامير

من نار فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره ، ثم تلا عبد الله – يعني هذه الآية ، قال : ورواه ابن جرير من حديث حجاج بن محمد عن المسعودي عن يونس بن خباب عن ابن مسعود فذكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 113.114 ﴾

(153/515)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ خطاب لمشركي مكة وعبدة الأوثان .

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ روي أنه عليه السلام دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفحمه ثم تلا عليهم : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ الآية فأقبل عبد الله بن الزبعري فرآهم يتهامسون فقال : فيم خوضكم ؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عبد الله أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه ، فقال ابن الزبعري أأنت قلت

ذلك ؟ قال نعم ، قال قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنوا مليح عبدوا الملائكة (1) ثم روي في ذلك روايتان : إحداهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُواْ أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف : 57 ، 58] ونزل في عيسى والملائكة : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ [الأنبياء : 101] الآية هذا قول ابن عباس .

الرواية الثانية : أنه عليه السلام أجاب وقال بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك فأنزل الله سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ [الأنبياء : 101] الآية يعني عزيراً والمسيح والملائكة واعلم أن سؤال ابن الزبعري ساقط من وجوه : أحدها : أن قوله : ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ خطاب مشافهة وكان ذلك مع مشركي مكة وهم كانوا يعبدون الأصنام فقط .

---

(1) لهذا الخبر تتمة ، وهي أن

الرسول صلى الله عليه وسلم رد على ابن الزبعري حينئذاك بقوله : «ما أجهلك بلغة قومك ! ما لما لا يعقل ،

أي أن العرب جعلوا من للعقلاء وما لغيرهم وعزير والأنبياء والملائكة من العقلاء فلا يشار إليهم بما .

وثانيها : أنه لم يقل ومن تعبدون بل قال ما تعبدون وكلمة ما لا تتناول العقلاء .

أما قوله تعالى : ﴿ والسماء وَمَا بناها ﴾ [الشمس : 5] وقوله : ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون : 2] فهو محمول على الشيء ونظيره ههنا أن يقال : إنكم والشيء الذي تعبدون من دون الله لكن لفظ الشيء لا يفيد العموم فلا يتوجه سؤال ابن الزبعري .

وثالثها : أن من عبد الملائكة لا يدعي أنهم آلهة ، وقال سبحانه : ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاء ءالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ .

ورابعها : هب أنه ثبت العموم لكنه مخصوص بالدلائل العقلية والسمعية في حق الملائكة والمسيح وعزير لبراءتهم من الذنوب والمعاصي ، ووعد الله إياهم بكل مكرمة ، وهذا هو المراد من قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] .

وخامسها : الجواب الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أنهم كانوا يعبدون الشياطين ، فإن قيل الشياطين عقلاء ، ولفظ ما لا يتناولهم فكيف قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ؟ قلنا كأنه عليه السلام قال : لو ثبت لكم أنه يتناول العقلاء فسؤالكم

أيضاً غير لازم من هذا الوجه .

وأما ما قيل : إنه عليه السلام سكت عند إيراد ابن الزبعري هذا السؤال فهو خطأ لأنه لا أقل من أنه عليه السلام كان يتنبه لهذه الأجوبة التي ذكرها المفسرون ، لأنه عليه السلام كان أعلم منهم باللغة وبتفسير القرآن ، فكيف يجوز أن تظهر هذه الأجوبة لغيره ، ولا يظهر شيء منها له عليه السلام .

فإن قيل : جوزوا أن يسكت عليه السلام انتظاراً للبيان قلنا : لما كان البيان حاضراً معه لم يجز عليه السكوت لكي لا يتوهم فيه الانقطاع عن سؤالهم ، ومن الناس من أجاب عن سؤال ابن الزبعري فقال : إن الله تعالى يصور لهم في النار ملكاً على صورة من عبدوه ، وحينئذ تبقى الآية على ظاهرها واعلم أن هذا ضعيف من وجهين .

(155/515)

الأول : أن القوم لم يعبدوا تلك الصورة وإنما عبدوا شيئاً آخر لم يحصل معهم في النار .

الثاني : وهو أن الملك لا يصير حصب جهنم في الحقيقة وإن صح أن يدخلها ، فإن خزنة النار يدخلونها مع أنهم ليسوا حصب جهنم .

المسألة الثانية :

الحكمة في أنهم قرنوا بآلهتهم أمور .

أحدها : أنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة ، لأنهم ما وقعوا في ذلك العذاب إلا بسببهم والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب . (1)

وثانيها : أن القوم قدروا أنهم يشفعون لهم في الآخرة في دفع العذاب ، فإذا وجدوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شيء أبغض إليهم منهم .

وثالثها : أن إلقاءها في النار يجري مجرى الاستهزاء بعبادها .

ورابعها : قيل ما كان منها حجراً أو حديداً يحمى ويلزق بعبادها ، وما كان خشباً يجعل جمرة يعذب بها صاحبها .

أما قوله تعالى : ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ فالمراد يقذفون في نار جهنم فشبههم بالحصباء التي يرمى بها الشيء فلما رمى بها كرمي الحصباء ، جعلهم حصب جهنم تشبيهاً ، قال صاحب "الكشاف" : الحصب الرمي وقرىء بسكون الصاد وصفاً بالمصدر ، وقرىء حطب وحضب بالضاد المنقوطة متحركاً وساكناً .

أما قوله تعالى : ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ فإنما جاز مجيء اللام في لها لتقدمها على الفعل تقول أنت لزيد ضارب كقوله تعالى : ﴿ والذين هُمْ لأماناتهم وَعَهْدِهِمْ ﴾ [المؤمنون : 8] ﴿ والذين هُمْ لفُرُوجِهِمْ ﴾ [المؤمنون : 5] أي أنتم فيها داخلون ، والمعنى أنه لا بد وأن تردوها ولا معدل لكم عن دخولها .

أما قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاء ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ فاعلم أن قوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ بالأصنام أليق لدخول لفظة ما ، وهذا الكلام بالشياطين أليق لقوله هؤلاء ويحتمل أن يريد الشياطين والأصنام فيغلب بأن يذكروا بعبارة العقلاء ، ونبه الله تعالى على أن من يرمى إلى النار لا يمكن أن يكون إلهاً .

---

(1) قال أبو الطيب المتنبي في هذا المعنى :

واحتمال الأذى ورؤية جاليه غذاء تضوى به الأجسام

(156/515)

وههنا سؤال : وهو أن قوله : ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاء ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ لكنهم وردوها فهم ليسوا آلهة حجة ، وهذه الحجة إما أن يكون ذكرها لنفسه أو لغيره ، فإن ذكرها لنفسه فلا فائدة فيه لأنه كان عالماً بأنها ليست آلهة وإن ذكرها لغيره ، فإما أن يذكرها لمن يصدق بنبوته أو لمن يكذب بنبوته ، فإن ذكرها لمن صدق بنبوته فلا حاجة إلى هذه الحجة لأن كل من صدق بنبوته لم يقل بإلهية هذه الأصنام وإن ذكرها لمن يكذب بنبوته ، فذلك المكذب لا يسلم أن تلك الآلهة يردون النار ويكذبونه في ذلك ، فكان ذكره هذه الحجة ضائعاً كيف كان ، وأيضاً فالقائلون بآلهيتها لم يعتقدوا فيها كونها مدبرة للعالم وإلا لكانوا مجانين ، بل

اعتقدوا فيها كونها تماثيل الكواكب أو صور الشفعاء ، وذلك لا يمنع من دخولها في النار .

وأجيب عن ذلك بأن المفسرين قالوا : المعنى لو كان هؤلاء يعني الأصنام آلهة على الحقيقة ما وردوها أي ما دخل عابدوها النار ، ثم إنه سبحانه وصف ذلك العذاب بأمور ثلاثة :

أحدها : الخلود فقال : ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خالدون ﴾ يعني العابدين والمعبودين وهو تفسير لقوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ .

وثانيها : قوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ قال الحسن : الزفير هو اللهيب ، أي يرتفعون بسبب لهب النار حتى إذا ارتفعوا ورجوا الخروج ضربوا بمقامع الحديد فهووا إلى أسفلها سبعين خريفاً ، قال الخليل : الزفير أن يملأ الرجل صدره غماً ثم ينتفس قال أبو مسلم وقوله لهم : عام لكل معذب ، فنقول لهم : زفير من شدة ما ينالهم والضمير في قوله : ﴿ وَهُمْ فِيهَا يَسْمَعُونَ ﴾ يرجع إلى المعبودين أي لا يسمعون صراخهم وشكواهم .

ومعناه : أنهم لا يغيثونهم وشبهه سمع الله لمن حده أي أجاب الله دعاءه .

وثالثها : قوله : ﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ وفيه وجهان : أحدهما : أنه محمول على الأصنام خاصة على ما حكيناه عن أبي مسلم .

والثاني : أنها محمولة على الكفار ، ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه .

أحدها : أن الكفار يحشرون صماً كما يحشرون عمياً زيادة في عذابهم .

وثانيها : أنهم لا يسمعون ما ينفعهم لأنهم إنما يسمعون أصوات المعذبين أو كلام من يتولى تعذيبهم من الملائكة .

وثالثها : قال ابن مسعود إن الكفار يجعلون في توابيت من نار والتوابيت في توابيت أخر فلذلك لا يسمعون شيئاً والأول ضعيف لأن أهل النار يسمعون كلام أهل الجنة فلذلك يستغيثون بهم على ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 192 . 195 ﴾

(158/515)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : وقود جهنم ، وهو قول بن عباس .

الثاني : معناه حطب جهنم ، وقرأ علي بن أبي طالب وعائشة : حطب جهنم .

الثالث : أنهم يُرمَون فيها كما يُرْمَى بالحصباء ، حتى كأن جهنم تحصب بهم ، وهذا قول الضحاك ، ومنه قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام يضربنا . . . بحاصب كنديف القطن منثور

يعني الثلج ، وقرأ ابن عباس : حضب جهنم ، بالضاد معجمة . قال الكسائي : حضبت النار بالضاد المعجمة إذا أججتها فألقيت فيها ما يشعلها من الحطب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(159/515)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾

هذه مخاطبة لكفار مكة أي إنكم وأصنامكم ﴿ حصب جهنم ﴾ والحصب ما توقد به النار ، إما لأنها تحصب به أي ترمى وإما أن تكون لغة في الحطب إذا رمي وأما أن يرمى به فلا يسمى حصباً الا بتجوز ، وقرأ الجمهور " حصَب " الصاد مفتوحة ، وسكنها ابن السميفع وذلك على إيقاع المصدر موقع إسم المفعول ، وقرأ علي بن أبي طالب وأبي بن كعب وعائشة وابن الزبير " حطب جهنم " بالطاء ، وقرأ ابن عباس " حضَب " جهنم

بالضاد منقوطة وسكنها كثير غيره ، والحضب أيضاً ما يرمى به في النار لتوقد به والمحضب العود الذي تحرك به النار أو الحديدة أو نحوه ومنه قول الأعشى : [المتقارب]

فلا تك في حربنا محضباً . . . لتجعل قومك شتى شعوبا

وقوله ﴿ وما تعبدون ﴾ يريد الأصنام وحرقها في النار على جهة التوبيخ لعابدها ومن حيث تقع " ما " لمن يعقل في بعض المواضع اعترض في هذه الآية عبد الله بن الزبعري على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال إن عيسى وعزيزاً ونحوهما قد عبدوا من دون الله فيلزم أن يكونوا حصباً لجهنم فنزلت ﴿ إن الذين سبقت ﴾ [الانبياء : 101] ثم قرر الأَمر بالإشارة إلى الأَصنام التي أرادها في قوله ﴿ ما تعبدون ﴾ ، فقال ﴿ لو كان هؤلاء آلهة ﴾ وعبر عن الأَصنام ب ﴿ هؤلاء ﴾ من حيث هي عندهم بحال من يعقل ، و" الورود " في هذه الآية ورود الدخول .

﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (100) ﴾

الضمير في ﴿ لهم ﴾ عائد على من يعقل ممن توعد ، و" الزفير " صوت المعذب وهو كنهيق الحمير ، وشبهه إلا أنه من الصدر ، وقوله : ﴿ لا يسمعون ﴾ قالت فرقة معناه لا يسمعون خيراً ولا ساراً من القول وقالت فرقة إن عذابهم أن يجعلوا في توابيت في داخل توابيت أخرى فيصيرون هنالك لا يسمعون شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ

﴾

وقال ابن الجوزى :

ثم خاطب أهل مكة ، فقال : ﴿ إِنكم وما تعبدون من دون الله ﴾ يعني : الأصنام ﴿ حَصَبُ جهنم ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب ، وأبو العالية ، وعمر بن عبد العزيز : "حَطَب" بالطاء .

وقرأ ابن عباس ، وعائشة ، وابن السميفع : "حَضَب" بالضاد المعجمة المفتوحة .

وقرأ عروة ، وعكرمة ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة : "حَضْب جهنم" بإسكان الضاد المعجمة .

وقرأ أبو المتوكل ، وأبو حيوة ، ومعاذ القارىء : "حِضْب" بكسر الحاء مع تسكين الضاد المعجمة .

وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء ، وابن محيصن : "حَصْب" بفتح الحاء وبصاد غير معجمة ساكنة .

قال الزجاج : من قرأ "حصَب جهنم" فمعناه : كلُّ ما يرمى به فيها ، ومن قرأ "حطب" فمعناه : ما تُوقَد به ، ومن قرأ بالضاد المعجمة ، فمعناه : ما تهيج به النار وتُذْكى به .

قال ابن قتيبة : الحصَب : ما أُلقي فيها ، وأصله من الحَصْباء ، وهو : الحصى ، يقال : حصبتُ فلاناً : إذا رميتَه ، حَصْباً ، بتسكين الصاد ، وما رَمَيْتَ به فهو حَصَب ، بفتح الصاد .

قوله تعالى : ﴿ أنتم ﴾ يعني : العابدين والمعبودين ﴿ لها واردون ﴾ أي : داخلون .

﴿ لو كان هؤلاء ﴾ يعني : الأصنام ﴿ آلهةً ﴾ على الحقيقة ﴿ ما وردوها ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه إشارة إلى الأصنام ، والمعنى : لو كانوا آلهةً ما دخلوا النار .

والثاني : أنه إشارة إلى عابديها ، فالمعنى : لو كانت الأصنام آلهة ، منعت عابديها دخول النار .

والثالث : أنه إشارة إلى الآلهة وعابديها ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وكلٌّ فيها خالدون ﴾ يعني : العابد والمعبود .

قوله تعالى : ﴿ لهم فيها زفير ﴾ قد شرحنا معنى الزفير في [هود : 106] .

وفي علَّة كونهم لا يسمعون ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه يوضع في مسامعهم مسامير من نار ، ثم يُقذَفون في توابيت من نار مقفلة عليهم ، رواه أبو أُمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث طويل .

وقال ابن مسعود : إذا بقي في النار مَنْ يخلَّد فيها جُعلوا في توابيت من نار ، ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخرى ، فلا يسمعون شيئاً ، ولا يرى أحدهم أن في النار أحداً يعذَّب غيرُه .

والثاني : أن السماع أُنسٌ ، والله لا يحب أن يؤنسَهم ، قاله عون بن عمارة .

والثالث : إنما لم يسمعوا لشدة غليان جهنم ، قاله أبو سليمان الدمشقي . انتهى انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(162/515)

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ قال ابن عباس : آية لا يسألني الناس عنها لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها ، أو جهلوها فلا يسألون عنها ؛ فقيل : وما هي ؟ قال : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ لما أنزلت شقّ على كفار

قريش ، وقالوا : شتم آلهتنا ، وأتوا ابن الزّبعرى وأخبروه ، فقال : لو حضرتُه لرددتُ عليه .

قالوا : وما كنت تقول له ؟ قال : كنت أقول له : هذا المسيح تعبده النصارى واليهود تعبد عزيراً أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ، ورأوا أن محمداً قد خُصم ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] وفيه نزل ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ [الزخرف : 57] يعني ابن الزبعرى ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [الزخرف : 57] بكسر الصاد ؛ أي يضجون ؛ وسيأتي .

الثانية : هذه الآية أصل في القول بالعموم وأن له صيغاً مخصوصة ، خلافاً لمن قال : ليست له صيغة موضوعة للدلالة عليه ، وهو باطل بما دلت عليه هذه الآية وغيرها ؛ فهذا عبد الله بن الزّبعرى قد فهم "ما" في جاهليته جميع من عبد ، ووافقه على ذلك قريش وهم العرب الفصحاء ، واللسن البلغاء ، ولو لم تكن للعموم لما صح أن يستثنى منها ، وقد وجد ذلك فهي للعموم وهذا واضح .

الثالثة : قراءة العامة بالصاد المهملة ؛ أي إنكم يا معشر الكفار والأوثان التي تعبدونها من دون الله وقود جهنم ؛ قاله ابن عباس .

وقال مجاهد وعكرمة وقتادة : حطبها .

وقرأ علي بن أبي طالب وعائشة رضوان الله عليهما "حَطَبُ جَهَنَّمَ" بالطاء .

وقرأ ابن عباس "حَضَبُ" بالضاد المعجمة ؛ قال الفراء : يريد الحصب .

قال : وذكر لنا أن الحضب في لغة أهل اليمن الحطب ، وكل ما هيجت به النار وأوقدتها به فهو حَضَب ؛ ذكره الجوهري .

والموقد مِحْضب .

وقال أبو عبيدة في قوله تعالى : ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ كل ما ألقيته في النار فقد حصبتها به .

ويظهر من هذه الآية أن الناس من الكفار وما يعبدون من الأصنام حطب لجهنم .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فاتقوا النار التي وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ [البقرة : 24] .

وقيل : إن المراد بالحجارة حجارة الكبريت ؛ على ما تقدّم في "البقرة" وأن النار لا تكون على الأصنام عذاباً ولا عقوبة ؛ لأنها لم تذنب ، ولكن تكون عذاباً على من عبدها : أول شيء بالحسرة ، ثم تجمع على النار فتكون نارها أشد من كل نار ، ثم يعذَّبون بها .

وقيل : تحمى فتلصق بهم زيادة في تعذيبهم .

وقيل : إنما جعلت في النار تبكيتاً لعبادتهم .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ أي فيها داخلون .

والخطاب للمشركين عبدة الأصنام ؛ أي أنتم واردوها مع الأصنام .

ويجوز أن يقال : الخطاب للأصنام وعبدتها ؛ لأن الأصنام وإن كانت جمادات فقد يخبر عنها بكنايات الآدميين .

وقال العلماء : لا يدخل في هذا عيسى ولا عزير ولا الملائكة صلوات الله عليهم ؛ لأن "ما" لغير الآدميين .

فلو أراد ذلك لقال : "ومن" .

قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ هؤلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾

أي لو كانت الأصنام آلهة لما ورد عابدوها النار .

وقيل : ما وردها العابدون والمعبودون ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ أي لهؤلاء الذين وردوا النار من الكفار والشياطين ؛ فأما الأصنام فعلى الخلاف فيها ؛ هل يحييها الله تعالى ويعذبها حتى يكون لها زفير أو لا ؟

قولان : والزفير صوت نفس المغموم يخرج من القلب .

وقد تقدّم في "هود" .

﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ قيل : في الكلام حذف ؛ والمعنى وهم فيها لا يسمعون شيئاً ؛ لأنهم يحشرون صماً ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ﴾ [الإسراء : 97] .

وفي سماع الأشياء رَوْح وأنس ، فمنع الله الكفار ذلك في النار .

وقيل : لا يسمعون ما يسرهم ، بل يسمعون صوت من يتولى تعذيبهم من الزبانية .

وقيل : إذا قيل لهم ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] يصيرون حينئذٍ صماً بكما ؛ كما قال ابن مسعود : إذا بقي من يخلد في النار في جهنم جعلوا في توابيت من نار ، ثم جعلت التوابيت في توابيت أخرى فيها مسامير من نار ، فلا يسمعون شيئاً ، ولا يرى أحد منهم أن في النار من يعذب غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(165/515)

وقال أبو حيان :

والخطاب بقوله ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله ﴾ للكفار المعاصرين رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) ، ولا سيما أهل مكة ومعبوداتهم هي الأصنام .

وقرأ الجمهور ﴿ حصب ﴾ بالحاء والصاد المهملتين ، وهو ما يحصب به أي يرمى به في نار جهنم .

وقبل أن يرمي به لا يطلق عليه حصب إلا مجازاً .

وقرأ ابن السميفع وابن أبي عبلة ومحبوب وأبو حاتم عن ابن كثير بإسكان الصاد ، ورويت عن ابن عباس وهو مصدر يراد به المفعول أي المحصوب .

وقرأ ابن عباس : بالضاد المعجمة المفتوحة وعنه إسكانها ، وبذلك قرأ كثير عزة : والحضب ما يرمى به في النار ، والمحضب العود أو الحديدة أو غيرهما مما تحرك به النار .

قال الشاعر :

فلا تك في حربنا محضباً . . .

فتجعل قومك شتى شعوبا

وقرأ أُبي وعليّ وعائشة وابن الزبير وزيد بن علي حطب بالطاء ، وجمع الكفار مع معبوداتهم في النار لزيادة غمهم وحسرتهم برؤيتهم معهم فيها إذ عذبوا بسببهم ، وكانوا يرجون الخير بعبادتهم فحصل لهم الشر من قبلهم ولأنهم صاروا لهم أعداء ورؤية العدوّ مما يزيد في العذاب .

كما قال الشاعر :

واحتمال الأذى ورؤية جابيه . . .

غذاء تضنى به الأجسام

﴿ أنتم لها ﴾ أي للنار ﴿ واردون ﴾ الورود هنا ورود دخول ﴿ لو كان هؤلاء ﴾ أي الأصنام التي تبعدونها ﴿ آلهة ما وردوها ﴾ أي ما دخلوها ودل على أنه ورود دخول قوله ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ وقرأ الجمهور ﴿ آلهة ﴾ بالنصب على خبر ﴿ كان ﴾ .

وقرأ طلحة بالرفع على أن في ﴿ كان ﴾ ضمير الشأن ﴿ وكل فيها ﴾ أي كل من العابدين ومعبوداتهم .

﴿ لهم فيها زفير ﴾ وهو صوت نفس المغموم يخرج من القلب ، والظاهر أن الزفير إنما يكون ممن تقوم به الحياة وهم العابدون والمعبودون ممن كان يدعي الإلهية كفرعون وكغلاة الإسماعيلية الذين كانوا ملوك مصر من بني عبيد الله أول ملوكهم ، ويجوز أن يجعل الله للأصنام التي عبدت حياة فيكون لها زفير .

(166/515)

وقال الزمخشري : إذا كانوا هم وأصنامهم في قرن واحد جاز أن يقال لهم فيها إن لم يكن الزافرين إلاّ وهم فيها ﴿ لا يسمعون ﴾ وروي عن ابن مسعود أنهم يجعلون في توابيت من نار فلا يسمعون وقال تعالى ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ﴾ وفي سماع الأشياء روح فمنع الله الكفار ذلك في النار .

وقيل ﴿ لا يسمعون ﴾ ما يسرهم من كلام الزبانية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(167/515)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾

خطابٌ لكفار مكةَ وتصريحٌ بمآل أمرهم مع كونه معلوماً مما سبق على وجه الإجمالِ مبالغة في الإنذار وإزاحةِ الاعتذار ، وما تعبدون عبارةٌ عن أصنامهم لأنها التي يعبدونها كما يفصح عنه كلمة ما ، وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تلا الآيةَ قال له ابن الزِّبَعْرَي : خصمتُك وربِّ الكعبة أليست اليهودُ عبدوا عُزيراً والنصارى المسيحَ وبنو مليحٍ الملائكةَ ؟ ردّ عليه بقوله عليه السلام : " ما أجهلك بلغة قومك ، أما فهمت أن ما لما لا

يعقل ؟ " ولا يعارضه ما روي أنه عليه السلام رده بقوله : " بل هم عبدوا الشياطينَ التي أمرتْهم بذلك " ولا ما روي أن عبدَ اللَّه بن الزُّبعري قال : هذا شيءٌ لآلهتنا خاصة أو لكل مَنْ عُبد من دون الله ، فقال عليه السلام : " بل لكل من عُبد من دون الله تعالى " إذ ليس شيءٌ منهما نصاً في عموم كلمة ما كما أن الأولَ نصٌّ في خصوصها ، وشمولُ حكم النص لا يقتضي شمولَه بطريق العبارة بل يكفي في ذلك شمولُه لهم بطريق دِلالة النصِّ بجامع الشركةِ في المعبودية من دون الله تعالى ، فلعله عليه السلام بعد ما بين مدلولَ النظمِ الكريم بما ذكر ، وعدمَ دخول المذكورين في حكمه بطريق العبارةِ بيّن عدم دخولِهم فيه بطريق الدِلالة أيضاً تأكيداً للرد والإلزام وتكريراً للتبكيت والإفحام ، لكن لا باعتبار كونهم معبودين لهم كما هو زعمُهم فإن إخراجَ بعضِ المعبودين عن حكم منبىءٍ عن الغضب على العبَدة والمعبودين مما يوهم الرخصةَ في عبادته في الجملة ، بل بتحقيق الحقِّ وبيانِ أنهم ليسوا من المعبودية في شيء حتى يُتوهم دخولُهم في الحكم المذكورِ دلالة بموجب شركتهم للأصنام في المعبودية من دون الله تعالى ، وإنما معبودُهم الشياطينُ التي أمرتهم بعبادتهم كما نطق به قولُه تعالى :

(168/515)

﴿ سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن ﴾ الآية ، فهم الداخلون في الحُكم المذكور لإشراكهم الأصنامَ في المعبودية من دونه تعالى دون المذكورين عليهم السلام وهذا هو الوجهُ في التوفيق بين الأخبار المذكورة ، وأما تعميمُ كلمةِ ما للعقلاء أيضاً وجعلُ ما سيأتي من قوم تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ الخ ، بياناً للتجوز أو التخصيص فمما لا يساعده السباقُ والسياق كما يشهد به الذوقُ السليم ، والحَصَبُ ما يُرمى به ويهيج به النار من حصَبه إذا رماه بالحصْباء ، وقرىء بسكون الصاد وصفاً له بالمصدر للمبالغة ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ استئنافٌ أو بدلٌ من حصبُ جهنمَ واللامُ معوّضة من على للدِلالة على الاختصاص وأن ورودَهم لأجلها والخطابُ لهم ولما يعبدون تغليباً .

﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاء ﴾ أي أصنامُهم ﴿ ءالِهَةً ﴾ كما يزعمون ﴿ مَّا وَرَدُوهَا ﴾ وحيث تبين ورودُهم إياها تعين امتناعُ كونها آلهةً بالضرورة ، وهذا كما ترى صريحٌ في أن المرادَ بما يعبدون هي الأصنامُ لأن المرادَ إثباتُ نقيضِ ما يدّعونه وهم إنما يدّعون إلهية الأصنام لا إلهية الشياطين حتى يُحتجَّ بورودها النارَ على عدم إلهيّتها ، وأما ما وقع في الحديث الشريف فقد وقع بطريق التكملة بانجرار الكلام إليه عند بيان ما سيق له النظمُ الكريم بطريق العبارة ، حيث سأل ابنُ الزبعرى عن حال سائرِ المعبودين وكان الاقتصارُ على الجواب الأول مما يوهم الرخصةَ في عبادتهم في الجملة لأنهم المعبودون عندهم ، أجيب

ببيان أن المعبودين هم الشياطينُ وأنهم داخلون في حكم النص لكن بطريق الدِلالة لا بطريق العبارة لئلا يلزَمَ التدافعُ بين الخبرين ﴿ وَكُلٌّ ﴾ أي من العبَدة والمعبودين ﴿ فِيهَا خالدون ﴾ لا خلاصَ لهم عنها .

(169/515)

﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ أي أنينٌ وتنفسٌ شديدٌ وهو مع كونه من أفعال العبَدة أضيف إلى الكل للتغليب ، ويجوز أن يكون الضميرُ للعبدة لعدم الإلباس وكذا في قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يسمع بعضُهم زفيرَ بعض لشدة الهول وفظاعةِ العذاب ، وقيل : لا يسمعون ما يسرهم من الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(170/515)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾

خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل أمرهم مع كونه معلوماً مما سبق على وجه الإجمال مبالغة

في الإنذار وإزاحة الأعذار ، فما عبارة عن أصنامهم ، والتعبير عنها بما على بابه لأنها على المشهور لما لا يعقل فلا يرد أن عيسى .

وعزيراً .

والملائكة عليهم الصلاة والسلام عبدوا من دون الله تعالى مع أن الحكم لا يشملهم ، وشاع أن عبد الله بن الزبعري القرشي اعترض بذلك قبل إسلامه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عليه الصلاة والسلام : يا غلام ما أجهلك بلغة قومك لأني قلت ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ وما لما لم يعقل ولم أقل ومن تعبدون .

وتعقبه ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف بأنه أشهر على ألسنة كثير من علماء العجم وفي كتبهم وهو لا أصل له ولم يوجد في شيء من كتب الحديث مسنداً ولا غير مسند والوضوع عليه ظاهر والعجب ممن نقله من المحدثين انتهى ، وبشكل على ما قلنا ما أخرجه أبو داود في اناسخه .

وابن المنذر .

وابن مردويه .

(171/515)

والطبراني عن ابن عباس قال : لما نزل ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ الخ شق ذلك على أهل مكة وقالوا : أتشتم آلهتنا فقال ابن الزبعري : أنا أخصم لكم محمداً ادعوه لي فدعي عليه الصلاة والسلام فقال : يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله تعالى ؟ قال : بل لكل من عبد من دون الله تعالى فقال ابن الزبعري : خصمت ورب هذه البنية يعني الكعبة ألست تزعم يا محمد أن عيسى عبد صالح وأن عزيراً عبد صالح وأن الملائكة صالحون ؟ قال : بلى قال : فهذه النصارى تعبد عيسى وهذه اليهود تعبد عزيراً وهذه بنو مليح تعبد الملائكة فضج أهل مكة وفرحوا فنزلت : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ [الأنبياء : 101] الخ ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [الزخرف : 57] الخ ، وجاء في روايات أخر ما يعضده فإن ظاهر ذلك أن ما هنا شامل للعقلاء وغيرهم .

وأجيب بأن الشمول للعقلاء الذي ادعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بطريق دلالة النص بجامع الشركة في المعبودية من دون الله تعالى فلما أشار صلى الله عليه وسلم إلى عموم الآية بطريق الدلالة اعترض ابن الزبعري بما اعترض وتوهم أنه قد بلغ الغرض فتولى الله تعالى الجواب بنفسه بقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ [الأنبياء : 101] الآية ، وحاصله تخصيص العموم المفهوم من دلالة النص بما سوى الصلحاء الذين سبقت لهم الحسنى فيبقى الشياطين الذين عبدوا من دون الله سبحانه داخلين في الحكم

بحكم دلالة النص فيفيد النص بعد هذا التخصيص عبارة ودلالة حكم الأصنام والشياطين ويندفع الاعتراض ، وقال بعضهم : إن ﴿ مَا ﴾ تعم العقلاء وغيرهم وهو مذهب جمهور أئمة اللغة كما قال العلامة الثاني في التلويح ، ودليل ذلك النص والإطلاق . والمعنى .

(172/515)

أما النص فقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والانثى ﴾ [الليل : 3] وقوله سبحانه : ﴿ والسماء وَمَا بناها ﴾ [الشمس : 5] وقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 3] وأما الإطلاق فمن وجهين ، الأول : أن ﴿ مَا ﴾ قد تطلق بمعنى الذي باتفاق أهل اللغة والذي يصح إطلاقه على من يعقل بدليل قولهم الذي جاء زيد فما كذلك ، الثاني : أنه يصح أن يقال ما في داري من العبيد أحرار ، وأما المعنى فمن وجهين أيضاً ، الأول أن مشركي قريش كما جاء من عدة طرق عن ابن عباس لما سمعوا هذه الآية اعترضوا بعيسى .

وعزير .

والملائكة عليهم السلام .

وهم من فصحاء العرب فلو لم يفهموا العموم لما اعترضوا ، الثاني : أن ﴿ مَا ﴾ لو كانت مختصة بغير العالم لما احتيج إلى قوله تعالى : ﴿ مِن دُونِ اللهِ ﴾ وحيث كانت بعمومها متناولة له عز وجل احتيج إلى التقييد بقوله سبحانه : ﴿ مِن دُونِ اللهِ ﴾ وحينئذٍ تكون الآية شاملة عبادة لأولئك الكرام عليهم الصلاة والسلام ويكون الجواب الذي تولاه الله تعالى بنفسه جواباً بالتخصيص ، وفي ذلك حجة للشافعي في قوله بجواز تخصيص العام بكلام مستقل متراخ خلافاً للحنفية .

(173/515)

وأجيب بأن ما ذكر من النصوص والإطلاقات فغايته جواز إطلاق ﴿ مَا ﴾ على من يعلم ولا يلزم من ذلك أن تكون ظاهرة فيه أو فيما يعمه بل هي ظاهرة في غير العالم لا سيما هنا لأن الخطاب مع عبدة الأصنام وإذا كانت ظاهرة فيما لا يعقل وجب تنزيلها عليه ، وما ذكر من الوجه الأول في المعنى فليس بنص في أن المعترضين إنما اعترضوا لفهمهم العموم من ﴿ مَا ﴾ وضعاً لجواز أن يكون ذلك لفهمهم إياه من دلالة النص كما مر ، وما ذكر من الوجه الثاني من عدم الاحتياج إلى قوله تعالى : ﴿ مِن دُونِ اللهِ ﴾ فإنما يصح أن لو لم تكن فيه فائدة ، وفائدته مع التأكيد تقبيح ما كانوا عليه ، وإن سلمنا أن ﴿ مَا ﴾ حقيقة فيمن يعقل فلا

نسلم أن بيان التخصيص لم يكن مقارناً للآية فإن دليل العقل صالح للتخصيص خلافاً لطائفة شاذة من المتكلمين ، والعقل قد دل على امتناع تعذيب أحد بجرم صادر من غيره اللهم إلا أن يكون راضياً بجرم ذلك الغير ، وأحد من العقلاء لم يخطر بباله رضا المسيح .

وعزير .

(174/515)

والملائكة عليهم السلام بعبادة من عبدهم وما مثل هذا الدليل العقلي فلا نسلم عدم مقارنته للآية ، وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ الآية فإنما ورد تأكيداً بضم الدليل الشرعي إلى الدليل العقلي مع الاستغناء عن أصله أما أن يكون هو المستقل بالبيان فلا ، وعدم تعرضه صلى الله عليه وسلم للدليل العقلي لم يكن لأنه لم يكن بل لأنه عليه الصلاة والسلام لما رآهم لم يلتفتوا إليه وأعرضوا عنه فاعترضوا بما اعترضوا مع ظهوره انتظر ما يقويه من الدليل السمعي أو لأن الوحي سبقه عليه الصلاة والسلام فنزلت الآية قبل أن ينبههم على ذلك ، وقيل : إنهم تعنتوا بنوع من المجاز فنزل ما يدفعه ، وقيل : إن هذا خبر لا تكليف فيه والاختلاف في جواز تأخير البيان مخصوص بما فيه تكليف ، وفيه نظر ، وقال العلامة ابن الكمال : لا خلاف بيننا وبين الشافعي في قصر العام على بعض ما

يتناوله بكلام مستقل متراخ إنما الخلاف في أنه تخصيص حتى يصير العام به ظنياً في الباقي أو نسخ حتى يبقى على ما كان فلا وجه للاحتجاج بقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ لأن الثابت به على تقدير التمام قصر العام بالمتراخي والخلاف فيما وراءه والدليل قاصر عن بيانه ولا للجواب بأن ما تعبدون لا يتناول عيسى .

وعزيراً والملائكة عليهم السلام لا لأن ﴿ مَا ﴾ لغير العقلاء لما أنه على خلاف ما عليه الجمهور بل لأنهم ما عبدوا حقيقة على ما أفصح عنه صلى الله عليه وسلم حين قال ابن الزبعري : أليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة بقوله صلى الله عليه وسلم : بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين ﴾ [الأنبياء : 101] الآية لدفع ذهاب الوهم إلى التناول لهم نظراً إلى الظاهر .

وجوابه صلى الله عليه وسلم بذلك مما رواه ابن مردويه .

(175/515)

والواحدي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وفيه فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ ﴾ [الأنبياء : 101] الآية ، وعلى وفق هذا ورد جواب الملائكة عليهم السلام في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ للملائكة أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ قَالُواْ

سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن ﴾ [سبأ : 40 ، 41] والجمع بين هذه الرواية والرواية السابقة أنه صلى الله عليه وسلم بعد أن ذكر لابن الزبعري أن الآية عامة لكل من عبد من دون الله تعالى بطريق دلالة النص وقال ابن الزبعري : أليس اليهود الخ ذكر عدم تناولها المذكورين عليهم السلام من حيث أنهم لم يشاركوا الأصنام في المعبودية من دون الله تعالى لعدم أمرهم ولا رضاهم بما كان الكفرة يفعلون ، ولعل فيه رمزاً خفياً إلى الدليل العقلي على عدم مؤاخذتهم ثم نزلت الآية تأكيداً لعدم التناول ، لكن لا يخفى أن هذه الرواية إن صحت تقتضي أن لا تكون الأصنام معبودة أيضاً لأنها لم تأمرهم بالعبادة فلا تكون ﴿ مَا ﴾ مطلقة عليها بل على الشياطين بناءً على أنها هي الآمرة الراضية بذلك فهي معبوداتهم ، ولذا قال إبراهيم عليه السلام :

﴿ سَوِيّاً يا أبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان ﴾ [مريم : 44] مع أنه كان يعبد الأصنام ظاهراً . ووجه إطلاقها عليها بناءً على أنها ليست لذوي العقول أنها أجريت مجرى الجمادات لكفرها ، وفي قوله صلى الله عليه وسلم التي أمرتهم دون الذين أمروهم إشارة إلى ذلك ، ثم في عدم تناول الآية الأصنام هنا من البعد ما فيه فلعل هذه الرواية لم تثبت ، ولمولانا أبي السعود كلام مبناه خبر أنه صلى الله عليه وسلم رد على ابن الزبعري بقوله ما أجلهك بلغة قومك الخ ، وقد علمت ما قاله الحافظ ابن حجر فيه وهو وأمثاله المعول عليهم في أمثال

ذلك فلا ينبغي الاغترار بذكره في أحكام الآمدي .

وشرح المواقف .

(176/515)

وفصول البدائع للفناري وغير ذلك مما لا يحصى كثرة فماء ولا كصداء ومرعى ولا كالسعدان .

وأورد على القول بأن العموم بدلالة النص والتخصيص بما نزل بعد حديث الخلاف في التخصيص بالمستقل المتراخي ويعلم الجواب عنه مما تقدم ، وقيل هنا زيادة على ذلك .

إن ذلك ليس من تخصيص العام المختلف فيه لأن العام هناك هو اللفظ الواحد الدال على مسميين فصاعداً مطلقاً معاً وهو ظاهر فيما فيه الدلالة عبارة والعموم هنا إنما فهم من دلالة النص ، ولا يخفى أن الأمر المانع من التأخير ظاهر في عدم الفرق فتدبر فالمقام حري به ، والحصب ما يرمى به وتهيج به النار من حصبه إذا رماه بالحصباء وهي صغار الحجارة فهو خاص وضعاً عام استعمالاً .

وعن ابن عباس أنه الحطب بالزنجية .

وقرأ عليه .

وأبي .

وعائشة وابن الزبير .

وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهم ﴿ حطب ﴾ بالطاء .

وقرأ ابن أبي السميقع .

وابن أبي عبلة .

ومحبوب .

(177/515)

وأبو حاتم عن ابن كثير ﴿ اللهُ حَصَبُ ﴾ بإسكان الصاد ، ورويت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وهو مصدر وصف به للمبالغة ، وفي رواية أخرى عنه أنه قرأ ﴿ حضب ﴾ بالضاد المعجمة المفتوحة ، وجاء عنه أيضاً إسكانها وبه قرأ كثير عزة ، ومعنى الكل واحد وهو معنى الحصب بالصاد ﴿ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ استئناف نحوي مؤكد لما قبله أو بدل من ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ وتبدل الجملة من المفرد ولا يضر كونه في حكم النتيجة ، وجوز أبو البقاء كون الجملة حالاً من ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ وهو كما ترى ، واللام معوضة من على للدلالة على الاختصاص وأن ورودهم لأجلها ، وهذا مبني على أن

الأصل تعدى الورود إلى ذلك بعلى كما أشار إليه في القاموس بتفسيره بالإشراف على الماء وهو في الاستعمال كثير وإلا فقد قيل إنه متعد بنفسه كما في قوله تعالى : ﴿ ورودها ﴾ [الأنبياء : 99] فاللام للتقوية لكون المعمول مقدماً والعامل فرعي ، وقيل إن اللام بمعنى إلى كما في قوله تعالى : ﴿ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 5] وليس بذلك .

والظاهر أن الورود هنا ورود دخول والخطاب للكفرة وما يعبدون تغليباً .

﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاء ءالِهَةً ﴾ كما تزعمون أيها العابدون إياها ﴿ مَّا وَرَدُوهَا ﴾ وحيث تبين ورودهم إياها على أتم وجه حيث أنهم حصب جهنم امتنع كونهم آلهة بالضرورة ، وهذا ظاهر في أن المراد مما يعبدون الأصنام لا الشياطين لأن المراد به إثبات نقيض ما يدعونه وهم يعدون إلهية الأصنام لا إلهيتها حتى يحتج بورودها النار على عدمها ، نعم الشياطين التي تعبد داخلة في حكم النص بطريق الدلالة فلا تغفل .

﴿ وَكُلٌّ ﴾ من العبدة والمعبودين ﴿ فِيهَا خالدون ﴾ باقون إلى الأبد .

(178/515)

﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ هو صوت نفس المغموم يخرج من أقصى الجوف ، وأصل الزفر كما قال الراغب : ترديد النفس حتى تنتفخ منه الضلوع ، والظاهر أن ضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ للكل أعني

العبدة والمعبودين ، وفيه تغليب العقلاء على غيرهم من الأصنام حيث جيء بضمير العقلاء راجعاً إلى الكل ، ويجري ذلك في ﴿ خالدون ﴾ [الأنبياء : 99] أيضاً ، وكذا غلب من يتأتى منه الزفير ممن فيه حياه على غيره من الأصنام أيضاً حيث نسب الزفير للجميع ، وجوز أن يجعل الله تعالى للأصنام التي عبدت حياة فيكون حالها حال من معها ولها ما لهم فلا تغليب ، وقيل : الضمير للمخاطبين في ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ [الأنبياء : 98] خاصة على سبيل الالتفات فلا حاجة إلى القول بالتغليب أصلاً .

ورد بأنه يوجب تنافر النظم الكريم ألا ترى قوله تعالى : ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98] كيف جمع بينهم تغليباً للمخاطبين فلو خص ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ لزم التفكيك ، وكذا الكلام في قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول وفظاعة العذاب على ما قيل ، وقيل : لا يسمعون لو نودي عليهم لشدة زفيرهم ، وقيل : لا يسمعون ما يسرهم من الكلام إذ لا يكلمون إلا بما يكرهون ، وقيل : إنهم يبتلون بالصمم حقيقة لظاهر قوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمّا ﴾ [الإسراء : 97] وهو كما ترى ، وذكر في حكمة إدخال المشركين النار مع معبوداتهم أنها زيادة غمهم برؤيتهم إياها معذبة مثلهم وقد كانوا يرجون شفاعتها ، وقيل : زيادة غمهم برؤيتها معهم وهي السبب في عذابهم فقد قيل

: واحتمال الأذى ورؤية جاني . . .

ه غذاء تضنى به الأجسام

وظاهر بعض الأخبار أن نهاية المخلدين أن لا يرى بعضهم بعضاً فقد روى ابن جرير .

(179/515)

وجماعة عن ابن مسعود أنه قال : إذا بقى في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من حديد فيها مسامير من حديد ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت من حديد ثم قذفوا في أسفل الجحيم فما يرى أحدهم أنه يعذب في النار غيره ثم قرأ الآية ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ ومنه يعلم قول آخر في ﴿ لاَيَسْمَعُونَ ﴾ والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(180/515)

وقال القاسمى :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : من الأوثان والأصنام : ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ أي : ما يرمى به إليها : ﴿ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ

﴿ أي : فلا منجى لهم منها .

قال الزمخشري : فإن قلت : لِمَ قرنوا بآلهتهم ؟ قلت : لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة . حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر إلى وجه العدوّ باب من العذاب . ولأنهم قدروا أنهم يستشفعون بهم في الآخرة ، ويستنفعون بشفاعتهم . فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا ، لم يكن شيء أبغض إليهم منهم : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ أي : ترديد نفس تنتفخ منه الضلوع : ﴿ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ ﴾ أي : من الهول وشدة العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 235 ﴾

(181/515)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن أهل النار لهم فيها زفير والعياذ بالله تعالى . وأظهر الأقوال في الزفير : أنه كأول صوت الحمار ، وأن الشهيق كآخره وقد بين تعالى أن أهل النار لهم فيها زفير في غير هذا الموضع وزاد على ذلك الشهيق والخلود ، كقوله في " هود " : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِي النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ [هود : 106-107

]الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن أهل النار لا يسمعون فيها . وبين في غير هذا الموضع: أنهم لا يتكلمون ولا يبصرون، كقوله في "الإسراء": ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ﴾ [الإسراء: 97] الآية، وقوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ [طه: 124]، وقوله: ﴿ وَوَقَعَ القول بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ [النمل: 85] مع أنه جلا وعلا ذكر في آيات أخر ما يدل على أنهم يسمعون ويبصرون ويتكلمون، كقوله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: 38] الآية، وقوله: ﴿ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ [السجدة: 12] الآية، وقوله: ﴿ وَرَأَى المجرمون النار ﴾ [الكهف: 53] الآية. وقد بينا أوجه الجمع بين الآيات المذكورة في "طه" فأغنى ذلك عن إعادته هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(182/515)

وقال ابن عاشور:

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) ﴾

جملة ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾

جواب عن قولهم ﴿ يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا ﴾ [الأنبياء : 97] إلى آخره .

فهي مقول قول محذوف على طريقة المحاورات .

فالتقدير : يقال لهم : إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَب جهنّم .

وهو ارتقاء في ثبورهم فهم قالوا : ﴿ يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا ﴾ [الأنبياء : 97]

فأخبروا بأن آلهتهم وهم أعزّ عليهم من أنفسهم وأبعد في أنظارهم عن أن يلحقهم سوء

صائرون إلى مصيرهم من الخزي والهوان ، ولذلك أكد الخبر بحرف التأكيد لأنهم كانوا

بحيث ينكرون ذلك .

و(ما) موصولة وأكثر استعمالها فيما يكون فيه صاحب الصلة غير عاقل .

وأطلقت هنا على معبوداتهم من الأصنام والجنّ والشياطين تغليباً ، على أن (ما)

تستعمل فيما هو أعمّ من العاقل وغيره استعمالاً كثيراً في كلام العرب .

وكانت أصنامهم ومعبوداتهم حاضرة في ذلك المشهد كما دلّت عليه الإشارة ﴿ لو كان

هؤلاء آلهة ما وردوها ﴾ .

والحصَب : اسم بمعنى المحصوب به ، أي المرمي به .

ومنه سُميت الحصباء لأنها حجارة يرمى بها ، أي يُرمَوْن في جهنم ، كما قال تعالى : ﴿

وقودها الناس والحجارة ﴾ [البقرة : 24] أي الكفار وأصنامهم .

وجملة ﴿ أنتم لها واردون ﴾ بيان لجملة ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ .

والمقصود منه : تقريب الحصْب بهم في جهنم لما يدلّ عليه قوله ﴿ واردون ﴾ من الاتصاف بورود النار في الحال كما هو شأن الخبر باسم الفاعل فإنه حقيقة في الحال مجاز في الاستقبال .

وقد زيد في نكايتهم بإظهار خطئهم في عبادتهم تلك الأصنام بأن أشهدوا إيرادها النار وقيل لهم : ﴿ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ﴾ .

وذُيل ذلك بقوله تعالى : ﴿ وكل فيها خالدون ﴾ أي هم وأصنامهم .

(183/515)

والزفير : النفَس يخرج من أقصى الرئتين لضغط الهواء من التأثر بالغمّ .

وهو هنا من أحوال المشركين دون الأصنام .

وقرينة معاد الضمائر واضحة .

وعطف جملة ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ اقتضاه قوله ﴿ لهم فيها زفير ﴾ لأن شأن الزفير أن يُسمع فأخبر الله بأنهم من شدة العذاب يفقِدون السمع بهذه المناسبة .

فالآية واضحة السياق في المقصود منها غنية عن التلفيق .

وقد روى ابن إسحاق في "سيرته" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد الحرام فجاء النَضْر بن الحارث فجلس معهم في مجلس من رجال قريش ، فتَلا رسول الله عليهم : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ ثم قام رسول الله وأقبل عبد الله بن الزِبَعْرَى السهمي قبل أن يُسلم فحدثه الوليد بن المغيرة بما جرى في ذلك المجلس فقال عبد الله بن الزِبعْرى : أما والله لو وجدتُه لخصمته ، فاسألوا محمداً أكلُّ ما يعبد من دون الله في جهنم مع مَن عبدوهم ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهودُ تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم .

فحُكِي ذلك لرسول الله ، فقال رسول الله : إن كلّ من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبَده ، إنهم إنما يعبدون الشيطانَ الذي أمرهم بعبادتهم ، فأنزل الله : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ [الأنبياء : 101] أهـ .

وقريب من هذا في "أسباب النزول" للواحدي ، وفي "الكشاف" مع زيادات أن ابن الزبعرى لقي النبي صلى الله عليه وسلم فذكر هذا وزاد فقال : خُصِمْتَ وربّ هذه البَنِيّة ألستَ تزعم أن الملائكة عباد مكرمَون ، وأن عيسى عبد صالح ، وأن عزيرا عبد صالح ، وهذه بنو مُلَيْح يعبدون الملائكة ، وهذه النصارى يعبدون المسيح ، وهذه اليهود يعبدون عزيراً ، فضجّ أهل مكة (أي فرَحاً) وقالوا : إن محمداً قد خُصم .

(184/515)

ورويت القصة في بعض كتب العربية وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لابن الزِبَعْرى : مَا أجهلك بلغة قومك إني قلت ﴿ وما تعبدون ﴾ ، و(ما) لمَا لا يعقل ولم أقل "ومَن تعبدون" .

وإن الآية حكت ما يجري يوم الحشر وليس سياقها إنذاراً للمشركين حتى يكون قوله ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ [الأنبياء : 101] تخصيصاً لها ، أو تكون القصة سبباً لنزوله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(185/515)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾

فالذين اتخذتموهم آلهة من دون الله من الأصنام والأوثان والشمس والقمر والأشجار سيسبقونكم إلى جهنم لنقطع عليكم أيَّ أمل في النجاة ؛ لأنهم حين يروْنَ العذاب ربما

تذكّروا هؤلاء ، وفكَّروا في اللجوء إليهم والاستنجاد بهم ، لعلّهم يُخرِجونهم من هذا المأزق ، وقد سبق أنْ قالوا عنهم : ﴿ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله . . ﴾ [يونس : 18] وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زلفى . . ﴾ [الزمر : 3] .

لذلك ، يجمعهم الله جميعاً في جهنم ليقطع عنهم الآمال ، ويبدو خجل المعبود وخيبة العابد ؛ لأنه جاء النارَ فوجد معبوده قد سبقه إليها . . لكن ، هل هذا الكلام على إطلاقه فقد عبد الكفارُ الأصنامَ ، ومنهم مَنْ عبدوا عيسى عليه السلام ، ومنهم مَنْ عبدوا عُزَيْراً ، ومنهم مَنْ عبدوا الملائكة ، فهل سيُجمع هؤلاء أيضاً مع عابديهم في النار ؟

لو قُلْنا بهذا الرأي فدخولهم النار مثلما دخلها إبراهيم ، فجمع الله له النار والسلامة في وقت واحد ، ويكون وجودهم لمجرد أنْ يراهم عابدوهم ، ويعلموا أنهم لا ينفعونهم .

(186/515)

ومعنى ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ . . ﴾ [الأنبياء : 98] الحصب مثل : الحطب ، وهو كل ما تُوقَد به النار أياً كان خشباً أو قَشاً أو بترولاً أو كهرباء ، وفي آية أخرى : ﴿ وَقُودُهَا الناس والحجارة . . ﴾ [التحريم : 6] لذلك فإن النار نفسها تشتاق للكفار ، وتنتظرهم ، وتتلهّف عليهم كما يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق

: 30] وقوله تعالى : ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ . . ﴾ [الملك : 7 – 8] وقوله تعالى : ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 98]

الورود هنا بمعنى : الدخول والمباشرة ، لا كالورود في الآية الأخرى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا . . ﴾ [مريم : 71] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لَوْ كَانَ هؤلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا . . ﴾ .

لأنهم سيدخلون فيجدون آلهتهم أمامهم ؛ لينْقطِع أملهم في شفاعتهم التي يظنونها ، كما قال تعالى في شأن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار . . ﴾ [هود : 98]

فرئيسهم وقُوتهم يتقدمهم ، ويسبقهم إلى النار ، فلو لم يكُنْ أمامهم لظنوا أنه ينقذهم من هذا المأزق . ولو كان هؤلاء آلهة – كما تدَّعون – ما وردوا النار .

ومعنى : ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 99] لأن المعروف عن النار أنها تأكل ما فيها ، ثم تنتهي ، أما هذه النار فلا نهايةَ لها ، فكلما نضجَتْ جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، وهكذا تظل النار مُتوقِّدة لا تنطفئ . ومعنى ﴿ كُلٌّ . . ﴾ [الأنبياء : 99]

أي : العابد والمعبود .

﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ (100) ﴾

معلوم أن الزفير هو الخارج من عملية التنفس ، فالإنسان يأخذ في الشهيق الأكسجين ، ويُخرِج في الزفير ثاني أكسيد الكربون ، فنلحظ أن التعبير هنا اقتصر على الزفير دون الشهيق ؛ لأن الزفير هو الهواء الساخن الخارج ، وليس في النار هواء للشهيق ، فكأنه لا شهيقَ لهم ، أعاذنا الله من العذاب .

﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنبياء : 100] .

وهذه من الآيات التي توقف عندها المستشرقون ، لأن هناك آياتٍ أخرى تُثبت لهم في النار سَمْعاً وكلاماً . كما في قوله سبحانه : ﴿ ونادى أَصْحَابُ الجنة أَصْحَابَ النار أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ [الأعراف : 44]

نعم ، هم يسمعون ، لكن لا يسمعون كلاماً يَسُرُّ ، إنما يسمعون تبكيتاً وتأنيباً ، كما في قوله تعالى : ﴿ ونادى أَصْحَابُ النار أَصْحَابَ الجنة أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ المآء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله قالوا إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين ﴾ [الأعراف : 50] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ .

هذه الآية تدل على أن جميع المعبودات مع عابديها في النار .

وقد أشارت آيات أخر إلى أن بعض المعبودين كعيسى والملائكة ليسوا من أهل النار كقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ الآية, وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ وقوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ . الآية .

والجواب من وجهين:

الأول: أن هذه الآية لم تتناول الملائكة ولا عيسى لتعبيره بما الدالة على غير العاقل ، وقد أشار تعالى إلى هذا الجواب بقوله: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ ، لأنهم لو أنصفوا لما ادعوا دخول العقلاء في لفظ لا يتناولهم لغة .

الثاني: أن الملائكة وعيسى نص الله على إخراجهم من هذا دفعا للتوهم ولهذه الحجة الباطلة بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ الآية, قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ , عبر في هذه الآية

الكريمة بلفظ (إنما) وهي تدل على الحصر عند الجمهور وعليه فهي تدل على حصر الوحي في توحيد الألوهية وقد جاءت آيات أخر تدل على أنه أوصى إليه غير ذلك كقوله: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ الآية, وقوله: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ , وقوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الآية .

(189/515)

والجواب أن حصر الوحي في توحيد الألوهية حصر له في أصله الأعظم الذي يرجع إليه جميع الفروع لأن شرائع كل الأنبياء داخلة في ضمن لا إله إلا الله لأن معناها خلع كل الأنداد سوى الله في جميع أنواع العبادات وإفراد الله بجميع أنواع العبادات فيدخل في ذلك جميع الأوامر والنواهي القولية والفعلية والاعتقادية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 203.204 ﴾

(190/515)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) ﴾

قوله : ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ : أتى هنا ب " ما " وهي لغيرِ العقلاءِ ، لأنه متى اختلطَ العاقلُ بغيرِه تَخَيَّر الناطقُ بين ما ومَنْ .

وقرأ العامَّةُ " حَصَبُ " بالمهملتين والصادُ مفتوحةٌ ، وهو ما يُحْصَبُ أي : يرمى في النارِ ، ولا يقالُ له حَصَب إلاَّ وهو في النارِ . فأمَّا [ما] قبل ذلك فَحَطَبٌ وشجرٌ وغير ذلك وقيل : هي لغةٌ حبشية . وقيل : يُقال له حَصَبٌ قبل الإِلقاء في النار . وقرأ ابن السَّميفع وابن أبي عبلة ورُويت عن ابنِ كثير بسكونِ الصادِ وهو مصدرٌ ، فيجوز أن يكونَ واقعاً موقع المفعول ، أو على المبالغةِ أو على حَذْفِ مضافٍ . وقرأ ابن عباس بالضاد معجمةً مفتوحة أو ساكنةً ، وهو أيضاً ما يُرمَى به في النار ، ومنه المِحْضَبُ : عُوْدٌ تُحَرَّك به النارُ لتُوقَدَ . وأُنْشِدَ :

3364 فلا تَكُ في حَرْبِنا مِحْضَباً . . . فتجعلَ قومَك شَتَّى شُعوبا

وقرأ أميرُ المؤمنين وأُبَيٌّ وعائشة وابن الزبير " حَطَبُ " بالطاء ، ولا أظنُّها إلاَّ تفسيراً لا تلاوةً .

لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (99)

قوله : ﴿ آلِهَةً ﴾ : العامَّةُ على النصب خبراً ل "كان" وقرأ طلحة بالرفع . وتخريجُها كتخريج قوله :

3365 إذا مِتُّ كان الناسُ صِنْفَانِ . . . . . .

. . . . . .

ففيها ضمير الشأن .

(191/515)

وقوله : ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ جَوَّز أبو البقاء في هذه الجملةِ ثلاثةَ أوجه ، أحدها : أن تكونَ بدلاً من " حَصَبُ جنهم " . قلت : يعني أن الجملةَ بدلٌ من المفردِ الواقعِ خبراً ، وإبدال الجملةِ من المفردِ إذا كان أحدُهما بمعنى الآخر جائز ، إذ التقديرُ : إنكم أنتم لها واردون . والثاني : أن تكونَ الجملةُ مستأنفةً . والثالث : أن تكونَ في محلِّ نصب على الحال من " جهنم " ذكره أبو البقاء . وفيه نظرٌ من حيث مجيءُ الحالِ من المضافِ إليه في غيرِ المواضعِ المستثناةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 206 . 208 ﴾

(192/515)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾

﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ : أي الأصنام التي عبدوها ، ولم تدخل في الخطاب الملائكة التي عبدها قومٌ ، ولا عيسى وإن عبَدَه قومٌ لأنه قال :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ ولم يقل إنكم ومن تعبدون . فيُحْشَرُ الكافرون في النار ، وتُحْشَرُ أصنامُهم معهم . والأصنامُ جماداتٌ فلا جُرْمَ لها ، ولا احتراقها عقوبة لها ، ولكنه على جهة براءة ساحتها ، فالذنبُ للكفار وما الأصنامُ إلا جماداتٌ .

لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (99)

القوم قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] فعَلِمُوا أن الأصنامَ جماداتٌ ، ولكن توهموا أن لها عند الله خطراً ، وأنَّ مَنْ عبدها يَقْرُبُ بعبادتها من الله ، فَيُبَيِّن اللَّهُ لهم – غداً – بأنَّها لو كانت تستحق العبادة ، ولو كان لها عند الله خطرٌ لَمَا أُلْقِيَتْ في النار ، ولَمَا أُحْرِقَتْ .

لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (100)

﴿ لَهُمْ ﴾ : أي لِعَبَدَةِ الأصنام ، ﴿ فِيهَا ﴾ أي في النار ، ﴿ زَفِيرٌ ﴾ حسرتهم على ما

فاتهم ، ﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ مِنْ نداءٍ يبشرهم بانقضاءِ عقوبتهم .

وبعكس أحوالهم عُصاة المسلمين في النار فَهَمْ – وإنْ عُذِّبوا حيناً – فإنهم يسمعون قَوْلَ مَنْ يُبَشِّرِهم يوماً بانقضاء عذابهم – وإن كان بعد مدة مديدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ2 صـ 523.524 ﴾

(193/515)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103) ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر حالهم وحال معبوديهم بغاية الويل ، كان موضع السؤال عمن عبدوهم من الصالحين من نبي أو ملك وغيرهما من جميع من عبده سبحانه لا يشرك به شيئاً ، فقال مبيناً أنهم ليسوا مرادين لشيء من ذلك على وجه يعمهم وغيرهم من الصالحين : ﴿ إن الذين سبقت

لهم منا ﴾ أي ولنا العظمة التي لا يحاط بها ﴿ الحسنى ﴾ أي الحكم بالموعدة البالغة في الحسن في الأزل سواء ضل بأحد منهم الكفار فأطروه أو لا ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتبة ﴿ عنها ﴾ أي جهنم .

ولما كان الفوز مطلق الإبعاد عنها لا كونه من مبعد معين ، قال : ﴿ مبعدون ﴾ برحمة الله لأنهم أحسنوا في العبادة واتقوا ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؛ قال ابن كثير في تفسيره : قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن علي بن سهل ثنا محمد بن حسن الأنماطي ثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة ثنا يزيد بن أبي حكيم أن الحكم – يعني ابن أبان – عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : جاء عبد الله بن الزبعرى إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ قال ابن الزبعرى : قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم أكل هؤلاء في النار مع آلهتنا ؟ فنزلت ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾ ثم نزلت ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ رواه الحافظ أبو عبد الله في كتابة الأحاديث المختارة انتهى .

وفي السيرة النبوية أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما بلغه اعتراض ابن الزبعرى قال : "كل

من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته " وقد أسلم ابن الزبعرى بعد ذلك ومدح النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(194/515)

ولما كان أقل ما ينكىء من المكروه سماعه ، قال : ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ أي حركتها البالغة وصوتها الشديد ، فكيف بما دونه لأن الحس مطلق الصوت أو الخفي منه كما قال البغوي ، فإذا زادت حروفه زاد معناه ﴿ وهم ﴾ أي الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴿ في ما ﴾ ولما كانت الشهوة – وهي طلب النفس اللذة – لا تكون إلا بليغة ، عبر بالافتعال دلالة على عظيم ما هم فيه من اللذة فقال : ﴿ اشتهت أنفسهم ﴾ في الجنة ﴿ خالدون ﴾ أي دائماً أبداً .

ولما كان معنى ذلك أن سرورهم ليس له زوال ، أكده بقوله : ﴿ لا يحزنهم ﴾ أي يدخل عليهم حزناً – على قراءة الجماعة حتى نافع بالفتح ، عن حزنه ، أو جعلهم حزين – على قراءة أبي جعفر بضم ثم كسر ، من أحزنه – رباعياً ، فهي أشد ، فالمنفي فيها كونه يكون لهم صفة ﴿ الفزع الأكبر ﴾ أي فما الظن بما دونه ﴿ وتتلقاهم ﴾ أي تلقياً بالغاً في الإكرام ﴿ الملائكة ﴾ حيثما توجهوا ، قائلين بشارة لهم : ﴿ هذا يومكم ﴾ إضافة إليهم لأنهم

المنتفعون به ﴿ الذي كنتم ﴾ في الدنيا .

ولما تطابق على الوعد فيه الرسل والكتب والأولياء من جميع الأتباع ، بنى الفعل للمفعول إفادة للعموم فقال : ﴿ توعدون ﴾ أي بحصول ما تتمنون فيه من النصر والفوز العظيم ، والنعيم المقيم ، فأبشروا فيه بجميع ما يسركم .

(195/515)

ولما كانت هذه الأفعال على غاية من الأهوال ، تتشوف بها النفس إلى معرفة اليوم الذي تكون فيه ، قال تعالى شافياً لعيّ هذا السؤال ، زيادة في تهويل ذلك اليوم لمن له وعي : ﴿ يوم ﴾ أي تكون هذه الأشياء يوم ﴿ نطوي ﴾ أي بما لنا من العظمة الباهرة ﴿ السماء ﴾ طياً فتكون كأنها لم تكن ؛ ثم صور طيّها بما يعرفون فقال مشبهاً للمصدر الذي دل عليه الفعل : ﴿ كطيّ السجل ﴾ أي الكتاب الذي له العلو والقدرة على مكتوبه ﴿ للكتب ﴾ أي القرطاس الذي يكتبه ويرسله إلى أحد ، وإنما قلت ذلك لأن السجل يطلق على الكتاب وعلى الكاتب – قاله في القاموس ، واختير للفاعل لفظ السجل لما مضى في سورة هود من أن هذه المادة تدور على العلو ، وللمطوي لفظا الكتاب الدال على الجمع ، لكونه لازماً للطي ، مع أن ذلك أنسب لما جعل كل منهما مثالاً له ، وقراءة المفرد

لمقابلة لفظ السماء ، والجمع للدلالة على أن المراد الجنس ، فجميع السماوات تطوى ؛ قال ابن كثير : قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ثنا محمد بن أحمد بن الحجاج الرقي حدثنا محمد بن سلمة عن أبي الواصل عن أبي المليح عن الأزدي عن أبي الجوزاء الأزدي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : يطوي الله السماوات السبع بما فيها من الخليفة ، والأرضين السبع بما فيها من الخليفة ، يطوي ذلك كله بيمينه حتى يكون ذلك بمنزلة خردلة .

(196/515)

ولما كان هذا عند من لا يعلم أعظم استبعاداً من استبعادهم إعادة الموتى ، قال دالاًّ عليه مقرباً له إلى العقول بتشبيه الإعادة بالإبداء ، في تناول القدرة لهما على السواء ، فإنه كما أخرجه بعلم من خزائن قدرته كذلك يرده بعلمه في خزائن قدرته ، كما يصنع في نور السراج ونحوه إذا أطفىء ، فكذا في غيره من جميع الأشياء ﴿كما﴾ أي مثل ما ﴿بدأنا﴾ أي بما عُلم لنا من العظمة ﴿أول خلق﴾ أي تقدير أيّ تقدير كان ، نكره ليفيد التفصيل واحداً واحداً ، بمعنى أن كل خلق جل أو قل سواء في هذا الحكم ، وهو أنا ﴿نعيده﴾ أي بتلك العظمة بعينها ، غير ناسين له ولا غافلين ولا عاجزين عنه ، فما كان متضامّ الأجزاء فمددناه نضمه بعد امتداده ، وما كان ميتاً فأحييناه نميته بعد حياته ، وما كان

حياً فأمتناه نحييه بعد موته ، ونعيد منهم من التراب من بدأناه منه ، والحاصل أن من أوجد شيئاً لا يبعد عليه التصرف فيه كيفما كان ؛ روى البخاري في التفسير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : خطب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال :

" إنكم محشورون إلى الله عراة غرلاً ﴿ كما بدأنا أول الخلق نعيده ﴾ - الآية ، أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ، ألا إنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يارب ! أصحابي ! فيقال : لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ كنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم - إلى قوله - شهيد ﴾ فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم " ثم أعلم أن ذلك أمر لابد منه بالتعبير بالمصدر تأكيداً لما أنكروه وبالغوا في إنكاره فقال : ﴿ وعداً ﴾ وأكد بقوله : ﴿ علينا ﴾ وزاده بقوله : ﴿ إنا كنا ﴾ أي أزلاً وأبداً ، على حالة لا تحول ﴿ فاعلين ﴾ أي شأننا أن نفعل ما نريد ، لا كلفة علينا في شيء من ذلك بوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 117.114 ﴾

(197/515)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) ﴾

اعلم أن من الناس من زعم أن ابن الزبعري لما أورد ذلك السؤال على الرسول صلى الله عليه وسلم بقي ساكتاً حتى أنزل الله تعالى هذه الآية جواباً عن سؤاله لأن هذه الآية كالإستثناء من تلك الآية .

وأما نحن فقد بينا فساد هذا القول وذكرنا أن سؤاله لم يكن وارداً ، وأنه لا حاجة في دفع سؤاله إلى نزول هذه الآية ، وإذا ثبت هذا لم يبق ههنا إلا أحد أمرين : الأول : أن يقال : إن عادة الله تعالى أنه متى شرح عقاب الكفار أردفه بشرح ثواب الأبرار ، فلهذا السبب ذكر هذه الآية عقيب تلك فهي عامة في حق كل المؤمنين .

الثاني : أن هذه الآية نزلت في تلك الواقعة لتكون كالتأكيد في دفع سؤال ابن الزبعري ، ثم من قال العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهو الحق أجراها على عمومها فتكون الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام داخلين فيها ، لا أن الآية مختصة بهم ، ومن قال : العبرة بخصوص السبب خصص قوله : ﴿ إِنَّ الذين ﴾ بهؤلاء فقط .

أما قوله تعالى : ﴿ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ فقال صاحب "الكشاف" : الحسنى الخصلة المفضلة والحسنى تأنيث الأحسن ، وهي إما السعادة وإما البشرى بالثواب ، وإما

التوفيق للطاعة .

والحاصل أن مثبتي العفو حملوا الحسنى على وعد العفو ومنكري العفو حملوه على وعد الثواب ، ثم إنه سبحانه وتعالى شرح من أحوال ثوابهم أمور خمسة : أحدها : قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ فقال أهل العفو معناه أولئك عنها مخرجون ، واحتجوا عليه بوجهين : الأول : قوله : ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] أثبت الورود وهو الدخول ، فدل على أن هذا الإبعاد هو الإخراج .

(198/515)

الثاني : أن أبعاد الشيء عن الشيء لا يصح إلا إذا كانا متقاربين لأنهما لو كانا متباعدين استحال إبعاد أحدهما عن الآخر ، لأن تحصيل الحاصل محال ، واحتج القاضي عبد الجبار على فساد هذا القول الأول بأمور : أحدها : أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مّنَّا الحسنى ﴾ يقتضي أن الوعد بثوابهم قد تقدم في الدنيا وليس هذا حال من يخرج من النار لو صح ذلك .

وثانيها : أنه تعالى قال : ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ وكيف يدخل في ذلك من وقع فيها .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ وقوله : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ يمنع

من ذلك .

والجواب عن الأول : لا نسلم أن [يقال] المراد من قوله : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ هو أن الوعد بثوابهم قد تقدم ، ولم لا يجوز أن المراد من الحسنى تقدم الوعد بالعفو ، سلمنا أن المراد من الحسنى تقدم الوعد بالثواب ، لكن لم قلتم إن الوعد بالثواب لا يليق بحال من يخرج من النار فإن عندنا المحابطة باطلة ويجوز الجمع بين استحقاق الثواب والعقاب .

وعن الثاني : أنا بينا أن قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ لا يمكن إجراؤه على ظاهره إلا في حق من كان في النار .

وعن الثالث : أن قوله : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ مخصوص بما بعد الخروج .

أما قوله : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ فالفزع الأكبر هو عذاب الكفار ، وهذا بطريق المفهوم يقتضي أنهم يحزنهم الفزع الأصغر ، فإن لم يدل عليه فلا أقل من أن لا يدل على ثبوته ولا على عدمه .

(199/515)

الوجه الثاني : في تفسير قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ أن المراد الذين سبقت لهم منا الحسنى لا يدخلون النار ولا يقربونها ألبتة ، وعلى هذا القول بطل قول من يقول : إن جميع الناس يردون النار ثم يخرجون إلى الجنة ، لأن هذه الآية مانعة منه وحينئذ يجب التوفيق بينه وبين قوله : ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] وقد تقدم .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ والحسيس الصوت الذي يحس ، وفيه سؤالان : الأول : أي وجه في أن لا يسمعوا حسيسها من البشارة ولو سمعوه لم يتغير حالهم .

قلنا : المراد تأكيد بعدهم عنها لأن من لم يدخلها وقرب منها قد يسمع حسيسها .

السؤال الثاني : أليس أن أهل الجنة يرون أهل النار فكيف لا يسمعون حسيس النار ؟

الجواب : إذا حملناه على التأكيد زال هذا السؤال .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَهُمْ فِيمَا اشتهت أَنفُسُهُمْ خالدون ﴾ والشهوة طلب النفس للذة يعني نعيمها مؤبد ، قال العارفون : للنفوس شهوة وللقلوب شهوة وللأرواح شهوة ، وقال الجنيد : سبقت العناية في البداية ، فظهرت الولاية في النهاية .

الصفة الرابعة : قوله : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ وفيه وجوه : أحدها : أنها النفخة الأخيرة لقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور فَفَزِعَ مَن فِي السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ [النمل : 87] .

وثانيها : أنه الموت قالوا : إذا استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بعث الله تعالى جبريل عليه السلام ومعه الموت في صورة كبش أملح فيقول لأهل الدارين أتعرفون هذا فيقولون : لا فيقول هذا الموت ثم يذبحه ثم ينادي يا أهل الجنة خلود ولا موت أبداً ، وكذلك لأهل النار ، واحتج هذا القائل بأن قوله : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ إنما ذكر بعد قوله : ﴿ وَهُمْ فِيهَا خالدون ﴾ [البقرة : 25] فلا بد وأن يكون لأحدهما تعلق بالآخر ، والفزع الأكبر الذي هو ينافي الخلود هو الموت .

وثالثها : قال سعيد بن جبير هو إطباق النار على أهلها فيفزعون لذلك فزعة عظيمة ، قال القاضي عبد الجبار : الأولى في ذلك إنه الفزع من النار عند مشاهدتها لأنه لا فزع أكبر من ذلك ، فإذا بين تعالى أن ذلك لا يحزنهم فقد صح أن المؤمن آمن من أهوال يوم القيامة ، وهذا ضعيف لأن عذاب النار على مراتب فعذاب الكفار أشد من عذاب الفساق ، وإذا كانت مراتب التعذيب بالنار متفاوتة كانت مراتب الفزع منها متفاوتة ، فلا يلزم من نفي الفزع الأكبر نفي الفزع من النار .

الصفة الخامسة : قوله : ﴿ وتتلقاهم الملئكة هذا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ قال

الضحاك : هم الحفظة الذين كتبوا أعمالهم وأقوالهم ويقولون لهم مبشرين : ﴿ هذا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

ي﴿ وَمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾

اعلم أن التقدير لا يحزنهم الفزع الأكبر يوم نطوي السماء ، أو وتتلقاهم الملائكة يوم نطوي السماء .

(201/515)

وقرىء يوم تطوى السماء على البناء للمفعول والسجل بوزن العتل والسجل بوزن الدلو وروى فيه الكسر ، وفي السجل قولان : أحدهما : أنه اسم للطومار الذي يكتب فيه والكتاب أصله المصدر كالبناء ، ثم يوقع على المكتوب ، ومن جمع فمعناه للمكتوبات أي لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة ، فيكون معنى طي السجل للكتاب كون السجل ساتراً لتلك الكتابة ومخفياً لها لأن الطي ضد النشر الذي يكشف والمعنى نطوي السماء كما يطوى الطومار الذي يكتب فيه .

القول الثاني : أنه ليس اسماً للطومار ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما : السجل اسم ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه ، وهو مروي عن علي عليه السلام ، وروى أبو الجوزاء

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسم كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا بعيد ؛ لأن كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا معروفين وليس فيهم من سمي بهذا ، وقال الزجاج : هو الرجل بلغة الحبشة ، وعلى هذه الوجوه فهو على نحو ما يقال : كطي زيد الكتاب واللام في للكتاب زائدة كما في قوله ردف لكم ، وإذا قلنا : المراد بالسجل الطومار فالمصدر وهو الطي مضاف إلى المفعول والفاعل محذوف والتقدير كطي الطاوي السجل ، وهذا الأخير هو قول الأكثرين .

أما قوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الفراء : انقطع الكلام عند قوله الكتاب ثم ابتدأ فقال : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا ﴾ ومنهم من قال : إنه تعالى لما قال : ﴿ وتتلقاهم الملئكة هذا يَوْمُكُمُ الذى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 103] عقبه بقوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السماء كَطَيِّ السجل لِلْكُتُبِ ﴾ فوصف اليوم بذلك ، ثم وصفه بوصف آخر فقال : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" رحمه الله : ﴿ أَوَّلَ خَلْقٍ ﴾ مفعول (نعيد) الذي يفسره نعيده والكاف مكفوفة بما والمعنى نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيهاً للإعادة بالابتداء ، فإن قلت : ما بال خلق منكراً ؟ قلت : هو كقولك أول رجل جاءني زيد ، تريد أول الرجال ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلاً رجلاً ، فكذلك معنى أول خلق أول الخلق بمعنى أول الخلائق لأن الخلق مصدر لا يجمع .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في كيفية الإعادة فمنهم من قال : إن الله تعالى يفرق أجزاء الأجسام ولا يعدمها ثم إنه يعيد تركيبها فذلك هو الإعادة ، ومنهم من قال : إنه تعالى يعدمها بالكلية ثم إنه يوجدها بعينها مرة أخرى وهذه الآية دلالة على هذا الوجه لأنه سبحانه شبه الإعادة بالإبتداء .

ولما كان الابتداء ليس عبارة عن تركيب الأجزاء المتفرقة بل عن الوجود بعد العدم ، وجب أن يكون الحال في الإعادة كذلك واحتج القائلون بالمذهب الأول بقوله تعالى : ﴿ والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : 67] فدل هذا على أن السموات حال كونها مطوية تكون موجودة ، وبقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض ﴾ [إبراهيم : 48] وهذا يدل على أن أجزاء الأرض باقية لكنها جعلت غير الأرض .

أما قوله تعالى : ﴿ وَعْداً عَلَيْنَا ﴾ ففيه قولان : أحدهما : أن وعداً مصدر مؤكد لأن قوله : ﴿ نُّعِيدُهُ ﴾ عدة للإعادة .

الثاني : أن يكون المراد حقاً علينا بسبب الإخبار عن ذلك وتعلق العلم بوقوعه مع أن وقوع ما علم الله وقوعه واجب ، ثم إنه تعالى حقق ذلك بقوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا فاعلين ﴾ أي سنفعل ذلك لا محالة وهو تأكيد لما ذكره من الوعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 195.198 ﴾

(203/515)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَى ﴾

فيها ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنها الطاعة لله تعالى : حكاه ابن عيسى .

والثاني : السعادة من الله ، وهذا قول ابن زيد .

والثالث : الجنة ، وهو قول السدي .

ويحتمل تأويلاً رابعاً : أنها التوبة .

﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ يعني عن جهنم . وفيهم ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم عيسى والعزير والملائكة الذين عُبِدوا من دون الله وهم كارهون وهذا قول

مجاهد .

الثاني : أنهم عثمان وطلحة والزبير ، رواه النعمان بن بشير عن علي بن أبي طالب .

الثالث : أنها عامة في كل من سبقت له من الله الحسنى .

وسبب نزول هذه الآية ما حكي أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ قال المشركون : فالمسيح والعزير والملائكة قد عُبِدُوا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ يعني عن جهنم ، ويكون قوله : ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ محمولاً على من عذبه ربه .

قوله عز وجل : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الفزع الأكبر النفخة الأخيرة ، وهذا قول الحسن .

والثاني : أنه ذبحُ الموتِ ، حكاه ابن عباس .

والثالث : حين تطبق جهنم على أهلها ، وهذا قول ابن جريج .

ويحتمل تأويلاً رابعاً : أنه العرض في المحشر .

قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن السجل الصحيفة تطوى على ما فيها من الكتابة ، وهذا قول مجاهد ، وقتادة .

الثاني : أنه الملك .

الثالث : أنه كاتب يكتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا قول ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(204/515)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾

ولما اعترض ابن الزبعرى بأمر عيسى ابن مريم وعزيز نزلت ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ مبينة ان هؤلاء ليسوا تحت المراد لأنهم لم يرضوا ذلك ولا دعوا إليه ، و ﴿ الحسنى ﴾ يريد كلمة الرحمة والحتم بالتفضيل ، و" الحسيس " الصوت وهو الجملة ما يتأدى إلى الحس من حركة الأجرام وهذه صفة لهم بعد دخولهم الجنة لأن الحديث يقتضي أن في الموقف تزفر جهنم زفرة لا يبقى نبي ولا ملك إلا جثا على ركبتيه ، و ﴿ الفزع الأكبر ﴾ عام في كل هول في يوم القيامة فكأن يوم القيامة بجملته هو ﴿ الفزع الأكبر ﴾ وإن خصص بشيء من ذلك فيجب أن يقصد لأعظم هوله ، قالت فرقة في ذلك هو ذبح الموت ، وقالت فرقة هو وقوع طبق جهنم على جهنم ، وقال فرقة هو الأمر بأهل النار إلى النار ،

وقالت فرقة هو النفخة الآخرة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا وما قبله من الأَوقات أشبه أن يكون فيها ﴿ الفزع ﴾ لأَنها وقت لترجم الظنون وتعرض الحوادث ، فأما وقت ذبح الموت ووقوع الطبق فوقت قد حصل فيه أهل الجنة في الجنة فذلك فزع بين إلا أنه لا يصيب أحداً من أهل الجنة فضلاً عن الانبياء ، اللهم إلا أن يريد لا يحزنهم الشيء الذي هو عند أهل النار فزع أكبر ، فأما إن كان فزعاً للجميع فلا بد مما قلنا من أنه قبل دخول الجنة وقد ذهب بعض الناس إلى أن قوله تعالى ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ يعم كل مؤمن .

وروي عن علي بن طالب رضي الله عنه أنه قال عثمان منهم ع ولا مرية أنها مع نزولها في خصوص مقصود تتناول كل من سعد في الآخرة وقوله تعالى : ﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ يريد بالسلام عليهم والتبشير لهم ، أي هذا يومكم الذي وعدتم فيه الثواب والنعيم .

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾

(205/515)

قرأت فرقة " نطوي " بنون العظمة ، وقرأت فرقة "يَطوي السماء " بياء مفتوحة على معنى يطوي الله تعالى ، وقرأ فرقة " تُطوى السماءُ " بتاء مضمومة ورفع " السماءُ " على ما لم يسم

فاعله ، واختلف الناس في ﴿ السجل ﴾ فقالت فرقة هو ملك يطوي الصحف ، وقالت فرقة ﴿ السجل ﴾ رجل كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ع وهذا كله وما شاكله ضعيف ، وقالت فرقة ﴿ السجل ﴾ الصحيفة التي يكتب فيها ، والمعنى ﴿ كطي السجل ﴾ أي كما يطوي السجل من أجل الكتاب الذي فيه ، فالمصدر مضاف إلى المفعول ويحتمل أن يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل ، أي كما يطوي السجل الكتاب الذي فيه ، فكأنه قال ﴿ يوم نطوي السماء ﴾ كالهيئة التي فيها طي السجل للكتاب ، ففي التشبيه تجوز ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " السّجْل " بشد السين وسكون الجيم وتخفيف اللام وفتح أبو السمال السين فقرأ " السَّجل " وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير " السُّجُل " بضم السين وشدها وضم الجيم ، وقرأ الجمهور " للكتاب " ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم " للكتب " وقوله تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما أن يكون خبراً عن البعث أي كما اخترعنا الخلق أولاً على غير مثال ذلك كذلك ننشئهم تارة أخرى فنبعثهم من القبور ، والثاني أن يكون خبراً عن أن كل شخص يبعث يوم القيامة على هيئته التي خرج بها إلى الدنيا ، ويؤيد هذا التأويل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده " وقوله تعالى : ﴿ كما بدأنا ﴾ الكاف متعلقة بقوله ﴿ نعيده ﴾ ، وقوله ﴿ إنا كنا

فاعلين ﴾ تأكيد للأمر بمعنى أن الأمر واجب في ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(206/515)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِن الذين سبقت لهم مِنّا الحسنى ﴾

سبب نزولها أنه " لما نزلت "إِنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم" شَقَّ ذلك على قريش ، وقالوا : شتم آلهتنا ، فجاء ابن الزّبعرى ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : شتم آلهتنا ، قال : وما قال ؟ فأخبروه ، فقال : ادعوه لي ، فلما دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يا محمد ، هذا شيء لآلهتنا خاصة ، أو لكل من عُبد من دون الله ؟ قال : "لا ، بل لكل من عُبد من دون الله" ، فقال ابن الزِّبعرى : خُصمْتَ وربِّ هذه البنية ، ألستَ تزعم أن الملائكة عباد صالحون ، وأن عيسى عبد صالح ، وأن عزيراً عبد صالح ، فهذه بنو مليح يعبدون الملائكة ، وهذه النصارى تعبد عيسى ، وهذه اليهود تعبد عزيراً ، فضج أهل مكة " ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس .

وقال الحسين بن الفضل : إِنما أراد بقوله : ﴿ وما تعبدون ﴾ الأصنام دون غيرها .

لأنه لو أراد الملائكة والناس ، لقال : "ومَنْ" ، وقيل : "إنَّ" بمعنى : "إلاَّ" ، فتقديره : إلا الذين سبقت لهم مِنّا الحسنى ، وهي قراءة ابن مسعود ، وأبي نهيك ، فإنهما قرءا : "إلا الذين" .

وروي عن عليّ بن أبي طالب أنه قرأ هذه الآية ، فقال : أنا منهم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن .

وفي المراد بالحسنى قولان .

أحدهما : الجنة ، قاله ابن عباس ، وعكرمة .

والثاني : السعادة ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ أولئك عنها ﴾ أي : عن جهنم ، وقد تقدم ذكرها ﴿ مُبْعَدُون ﴾ والبعد : طول المسافة ، والحسيس : الصوت تسمعه من الشيء إذا مَرَّ قريباً منك .

قال ابن عباس : لا يسمع أهل الجنة حسيس أهل النار إذا نزلوا منازلهم من الجنة .

قوله تعالى : ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ وقرأ أبو رزين ، وقتادة ، وابن أبي عبلة ، وابن محيصن ، وأبو جعفر الشيزري عن الكسائي : "لا يُحْزِنُهُم" بضم الياء وكسر الزاي .

(207/515)

وفي الفزع الأكبر أربعة أقوال .

أحدها : أنه النفخة الآخرة ، رواه العوفي عن ابن عباس ؛ وبهذه النفخة يقوم الناس من قبورهم ، ويدل على صحة هذا الوجه قوله تعالى : ﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ .

والثاني : أنه إِطباق النار على أهلها ، رواه سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

والثالث : أنه ذبح الموت بين الجنة والنار ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال ابن جريج .

والرابع : أنه حين يؤمر بالعبد إِلى النار ، قاله الحسن البصري .

وفي مكان تلقّي الملائكة لهم قولان .

أحدهما : إِذا قاموا من قبورهم ، قاله مقاتل .

والثاني : على أبواب الجنة ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ هذا يومُكم ﴾ فيه إِضمار : "يقولون" هذا يومكم ﴿ الذي كنتم توعدون ﴾ فيه الجنة .

قوله تعالى : ﴿ يوم نَطْوي السماءَ ﴾ وقرأ أبو العالية ، وابن أبي عبلة ، وأبو جعفر : "تُطْوى" بتاء مضمومة "السماءُ" بالرفع ؛ وذلك بمحو رسومها ، وتكدير نجومها ، وتكوير شمسها ، ﴿ كطيِّ السِّجِلِّ للكتاب ﴾ قرأ الجمهور : "السِّجِلِّ" بكسر السين والجيم

وتشديد اللام.

وقرأ الحسن، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء، ومحبوب عن أبي عمرو: "السِّجْلِ" بكسر السين وإسكان الجيم خفيفة.

وقرأ أبو السماك كذلك، إلا أنه فتح الجيم.

قوله تعالى: ﴿ للكتاب ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: "للكتاب".

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: "للكتب" على الجمع.

وفي السّجل أربعة أقوال.

أحدها: أنه مَلك، قاله علي بن أبي طالب، وابن عمر، والسدي.

والثاني: أنه كاتِب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس.

والثالث: أن السجل بمعنى: الرجل، روى أبو الجوزاء عن ابن عباس، قال: السجل: هو الرجل.

قال شيخنا أبو منصور اللغوي: وقد قيل: "السجل" بلغة الحبشة: الرجل.

والرابع: أنه الصحيفة.

رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والفراء ، وابن قتيبة .

وقرأت على شيخنا أبي منصور ، قال : قال أبو بكر ، يعني ابن دريد : السجل : الكتاب ، والله أعلم ؛ ولا ألتفت إلى قولهم : إنه فارسي معرب ، والمعنى : كما يُطوى السجل على ما فيه من كتاب .

و"اللام" بمعنى "على" .

وقال بعض العلماء : المراد بالكتاب : المكتوب ، فلما كان المكتوب ينطوي بانطواء الصحيفة ، جعل السجل كأنه يطوي الكتاب .

ثم استأنف ، فقال تعالى : ﴿ كما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعيده ﴾ الخلق ها هنا مصدر ، وليس بمعنى المخلوق .

وفي معنى الكلام أربعة أقوال .

أحدها : كما بدأناهم في بطون أُمَّهاتهم حفاةً عُراةً غُرلاً ، كذلك نعيدهم يوم القيامة ؛ روي عن ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يحشر الناس يوم القيامة عراةً حفاةً غرلاً كما خُلقوا ، ثم قرأ : كما بدأنا أول خلق نعيده " ؛ وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد .

والثاني : أن المعنى : إنا نُهلك كل شيء كما كان أول مرة ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أن السماء تمطر أربعين يوماً كمني الرجال ، فينبتون بالمطر في قبورهم ، كما ينبتون

في بطون أُمَّهاتهم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والرابع : أن المعنى : قُدرتنا على الإِعادة كقُدرتنا على الابتداء ، قاله الزجاج.

قوله تعالى : ﴿ وَعْداً ﴾ قال الزجاج : هو منصوب على المصدر ، لأن قوله تعالى : "نعيده" بمعنى : وعدنا هذا وعداً ، ﴿ إِنَّا كُنَّا فاعلين ﴾ أي : قادرين على فعل ما نشاء .

وقال غيره : إِنا كنا فاعلين ما وَعَدْنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(209/515)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾

أي الجنة ﴿ أولئك عَنْهَا ﴾ أي عن النار ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ فمعنى الكلام الاستثناء ؛ ولهذا قال بعض أهل العلم : "إن" ها هنا بمعنى "إلا" وليس في القرآن غيره .

وقال محمد بن حاطب : سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقرأ هذه الآية على المنبر ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ فقال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "إن عثمان منهم" .

قوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أي حسّ النار وحركة لهبها .

والحسيس والحسّ الحركة .

وروى ابن جريج عن عطاء قال : قال أبو راشد الحَروريّ لابن عباس : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ فقال ابن عباس أمجنون أنت ؟ فأين قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ [هود : 98] وقوله : ﴿ إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ [مريم : 86] .

ولقد كان من دعاء من مضى : اللهم أخرجني من النار سالماً ، وأدخلني الجنة فائزاً .

وقال أبو عثمان النهدي : على الصراط حيات تلسع أهل النار فيقولون : حَسّ حَسّ .

وقيل : إذا دخل أهل الجنة الجنة لم يسمعوا حسّ أهل النار وقبل ذلك يسمعون ؛ فالله أعلم .

﴿ وَهُمْ فِي مَا اشتهت أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ أي دائمون وهم فيما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

وقال : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تشتهى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ وقرأ أبو جعفر وابن محيصن "لاَ يُحْزِنُهُمْ" بضم الياء وكسر الزاي .

الباقون بفتح الياء وضم الزاي .

قال اليزيدي : حزنه لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم ، وقد قرىء بهما .

والفزع الأكبر أهوال يوم القيامة والبعث ؛ عن ابن عباس .

وقال الحسن : هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار .

(210/515)

وقال ابن جريج وسعيد بن جبير والضحاك : هو إذا أطبقت النار على أهلها ، وذبح الموت بين الجنة والنار .

وقال ذو النون المصري : هو القطيعة والفراق .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة يوم القيامة في كثيب من المسك الأذفر ولا يحزنهم الفزع الأكبر رجل أمّ قوماً محتسباً وهم له راضون ورجل أذّن لقوم محتسباً ورجل ابتلي برق في الدنيا فلم يشغله عن طاعة ربه " وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : مررت برجل يضرب غلاماً له ، فأشار إليّ الغلام ، فكلمت مولاه حتى عفا عنه ؛ فلقيت أبا سعيد الخدري فأخبرته ، فقال : يا ابن أخي ! "من أغاث مكروباً أعتقه الله من النار يوم الفزع الأكبر" سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الملائكة ﴾ أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم : ﴿

هذا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

وقيل : تستقبلهم ملائكة الرحمة عند خروجهم من القبور .

عن ابن عباس : ﴿ هذا يَوْمُكُمُ ﴾ أي ويقولون لهم ؛ فحذف .

﴿ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فيه الكرامة .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السمآء ﴾

قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نِصَاح والأعرج والزُّهري "تُطْوَىَ" بتاء مضمومة "السَّمَاءُ" رفعاً على ما لم يسم فاعله .

مجاهد "يَطوِي" على معنى يطوي الله السماء .

الباقون "نَطْوِي" بنون العظمة .

وانتصاب "يوم" على البدل من الهاء المحذوفة في الصلة ؛ التقدير : الذي كنتم توعدونه يوم نطوي السماء .

أو يكون منصوباً ب"نعيد" من قوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ .

أو بقوله : "لا يحزنهم" أي لا يحزنهم الفزع الأكبر في اليوم الذي نطوي فيه السماء .

أو على إضمار واذكر ، وأراد بالسماء الجنس ؛ دليله : ﴿ والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : 67] .

﴿ كَطَيِّ السجل للكِتَاب ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : أي كطي الصحيفة على ما فيها ؛ فاللام بمعنى "على" .

(211/515)

وعن ابن عباس أيضاً : اسم كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بالقوي ؛ لأن كُتّاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفون ليس هذا منهم ، ولا في أصحابه من اسمه السِّجل .

وقال ابن عباس أيضاً وابن عمر والسدي : "السّجل" ملَك ، وهو الذي يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه .

ويقال : إنه في السماء الثالثة ، ترفع إليه أعمال العباد ، يرفعها إليه الحفظة الموكلون بالخلق في كل خميس واثنين ، وكان من أعوانه فيما ذكروا هاروت وماروت .

والسجل الصك ، وهو اسم مشتق من السّجالة وهي الكتابة ؛ وأصلها من السّجْل وهو الدّلو ؛ تقول : ساجلت الرجل إذا نزعت دلواً ونزع دلواً ، ثم استعيرت فسميت المكاتبة والمراجعة مساجلة .

وقد سَجّل الحاكمُ تسجيلاً .

وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

مَنْ يُسَاجِلْنِي يُساجلْ ماجداً . . .

يَملأ الدَّلو إلى عَقْدِ الكَرَب

ثم بنى هذا الاسم على فِعِلّ مثل حِمِرّ وطِمِرّ وبِلِيّ .

وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير "كَطَيِّ السُّجُلِّ" بضم السين والجيم وتشديد اللام .

وقرأ الأعمش وطلحة "كَطَيِّ السَّجْلِ" بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام .

قال النحاس : والمعنى واحد إن شاء الله تعالى .

والتمام عند قوله : "لِلْكِتَابِ" .

والطَّي في هذه الآية يحتمل معنيين : أحدهما : الدَّرْج الذي هو ضد النّشر ، قال الله تعالى :

﴿ والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : 67] .

والثاني : الإخفاء والتعمية والمحو ؛ لأن الله تعالى يمحو ويطمس رسومها ويكدر نجومها .

قال الله تعالى : ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ * وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ [التكوير : 21] ،

﴿ وَإِذَا السمآء كُشِطَتْ ﴾ [التكوير : 11] .

"لِلْكِتَابِ" وتم الكلام .

وقراءة الأعمش وحفص وحمزة والكسائي ويحيى وخلف : "لِلْكُتُبِ" جمعاً ثم استأنف

الكلام فقال : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ أي نحشرهم حفاة عراة غرلاً كما بُدئوا في البطون .

(212/515)

وروى النّسائي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يحشر الناس يوم القيامة عُراة غُرْلاً أوّل الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ثم قرأ ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ "

أخرجه مسلم أيضاً عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : " يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حُفاة عُراة غُرْلاً ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ألا وإن أوّل الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام " وذكر الحديث .

وقد ذكرنا هذا الباب في كتاب "التذكرة" مستوفى .

وذكر سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء عن عبد الله بن مسعود قال : يرسل الله عز وجل ماء من تحت العرش كمنيّ الرجال فتنبت منه لُحمانهم وجسمانهم كما تنبت الأَرَضُ بالثرى .

وقرأ ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ .

وقال ابن عباس : المعنى نهلك كل شيء ونفنيه كما كان أوّل مرة ؛ وعلى هذا فالكلام متصل بقوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السمآء ﴾ أي نطويها فنعيدها إلى الهلاك والفناء فلا تكون شيئاً .

وقيل : نفني السماء ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها وزوالها ؛ كقوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات ﴾ [إبراهيم : 48] والقول الأوّل أصح وهو نظير قوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الكهف : 48] .

﴿ وَعْداً ﴾ نصب على المصدر ؛ أي وعدنا وعداً ﴿ عَلَيْنَآ ﴾ إنجازه والوفاء به أي من البعث والإعادة ، ففي الكلام حذف .

ثم أكد ذلك بقوله جل ثناؤه : ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال الزجاج : معنى ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ إنا كنا قادرين على ما نشاء .

(213/515)

وقيل : "إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ" أي ما وعدناكم وهو كما قال : ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ [المزمل : 18] .

وقيل : "كان" للإخبار بما سبق من قضائه .

وقيل : صلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(214/515)

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) ﴾

سبب نزول ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ قول ابن الزبعري حين سمع ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ قال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : قد خصمتك ورب الكعبة ، أليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى عبدوا المسيح ، وبنو مليح عبدوا الملائكة فقال (صلى الله عليه وسلم) : " هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك " فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ الآية .

وقيل : لما اعترض ابن الزبعري قيل لهم : ألستم قوماً عرباً أو ما تعلمون أن من لمن يعقل وما لما لا يعقل ، فعلى القول الأول يكون ابن الزبعري قد فهم من قوله ﴿ وما تعبدون ﴾ العموم

فلذلك نزل قوله ﴿ إن الذين سبقت لهم ﴾ الآية تخصيصاً لذلك العموم ، وعلى هذا القول الثاني يكون ابن الزبعري رام مغالطة ، فأجيب بأن من لمن يعقل وما لما لا يعقل فبطل اعتراضه .

﴿ والحسنى ﴾ الخصلة المفضلة في الحسن تأنيث الأحسن ، إما السعادة وإما البشرى بالثواب ، وإما التوفيق للطاعة .

والظاهر من قوله ﴿ مبعدون ﴾ فما بعده أن من سبقت له الحسنى لا يدخل النار .

وروي أن علياً كرم الله وجهه قرأ هذه الآية ثم قال : أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف ، ثم أقيمت الصلاة فقام يجرّ رداءه وهو يقول ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ والحسيس الصوت الذي يحس من حركة الأجرام ، وهذا الإبعاد وانتفاء سماع صوتها قيل هو قبل دخول الجنة .

وقيل : بعد دخولهم واستقرارهم فيها ، والشهوة طلب النفس اللذة .

(215/515)

وقال ابن عطية : وهذه صفة لهم بعد دخولهم الجنة لأن الحديث يقتضي أنه في الموقف تزفر جهنم زفرة لا يبقى نبيّ ولا ملك إلاّ جثا على ركبتيه و ﴿ الفزع الأكبر ﴾ عام في كل هول

يكون في يوم القيامة فكان يوم القيامة بجملته هو ﴿ الفزع الأكبر ﴾ وإن خصص بشيء فيجب أن يقصد لا عظم هو له انتهى .

وقيل : ﴿ الفزع الأكبر ﴾ وقوع طبق جهنم عليها قاله الضحاك .

وقيل : النفخة الأخيرة .

وقيل : الأمر بأهل النار إلى النار ، روي عن ابن جبير وابن جريج والحسن .

وقيل : ذبح الموت .

وقيل : إذا نودي ﴿ اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ وقيل ﴿ يوم نطوي السماء ﴾ ذكره مكي .

﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ بالسلام عليهم .

وعن ابن عباس : تلقاهم الملائكة بالرحمة عند خروجهم من القبور قائلين لهم ﴿ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ بالكرامة والثواب والنعيم .

وقرأ أبو جعفر ﴿ لا يحزنهم ﴾ مضارع أحزن وهي لغة تميم ، وحزن لغة قريش ، والعامل في يوم ﴿ لا يحزنهم ﴾ و ﴿ تتلقاهم ﴾ وأجاز أبو البقاء أن يكون بدلاً من العائد المحذوف في ﴿ توعدون ﴾ فالعامل فيه ﴿ توعدون ﴾ أي أيوعدونه أو مفعولاً باذكر أو منصوباً بأعني .

وأجاز الزمخشري أن يكون العامل فيه ﴿ الفزع ﴾ وليس بجائز لأن ﴿ الفزع ﴾ مصدر

وقد وصف قبل أخذ معموله فلا يجوز ما ذكر .

وقرأ الجمهور ﴿ نطوي ﴾ بنون العظمة .

وفرقة منهم شيبة بن نصاح يطوي بياء أي الله ، وأبو جعفر وفرقة بالتاء مضمومة وفتح الواو و ﴿ السماء ﴾ رفعاً والجمهور ﴿ السجل ﴾ على وزن الطمر .

وأبو هريرة وصاحبه وأبو زرعة بن عمرو بن جرير بضمتين وشد اللام ، والأعمش وطلحة وأبو السماك ﴿ السجل ﴾ بفتح السين والحسن وعيسى بكسرهما ، والجيم في هاتين القراءتين ساكنة واللام مخففة .

وقال أبو عمر : وقراءة أهل مكة مثل قراءة الحسن .

وقال مجاهد ﴿ السجل ﴾ الصحيفة .

(216/515)

وقيل : هو مخصوص من الصحف بصحيفة العهد ، والمعنى طياً مثل طي السجل ، وطي مصدر مضاف إلى المفعول ، أي ليكتب فيه أو لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة ، والأصل ﴿ كطيّ ﴾ الطاوي ﴿ السجل ﴾ فحذف الفاعل وحذفه يجوز مع المصدر المنحل لحرف مصدري ، والفعل ، وقدره الزمخشري مبنياً للمفعول أي كما يُطْوَى السجل .

وقال ابن عباس وجماعة ﴿ السجل ﴾ ملك يطوى كتب بني آدم إذا رفعت إليه .

وقالت فرقة : هو كاتب كان لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى هذين القولين يكون المصدر مضافاً للفاعل .

وقال أبو الفضل الرازي : الأصح أنه فارسي معرب انتهى .

وقيل : أصله من المساجلة وهي من ﴿ السجل ﴾ وهو الدلو ملأى ماء .

وقال الزجاج : هو رجل بلسان الحبش .

وقرأ الجمهور : للكتاب مفرداً وحمزة والكسائي وحفص ﴿ للكتب ﴾ جمعاً وسكن التاء الأعمش .

وقال الزمخشري : ﴿ أول خلق ﴾ مفعول نعيد الذي يفسره ﴿ نعيده ﴾ والكاف مكفوفة بما ، والمعنى نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيهاً للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء فإن قلت : وما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه قلت : أوله إيجاده من العدم ، فكما أوجده أولاً عن عدم يعيده ثانياً عن عدم .

فإن قلت : ما بال خلق منكراً ؟ قلت : هو كقولك : هو أول رجل جاءني تريد أول الرجال ، ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلاً رجلاً فكذلك معنى ﴿ أول خلق ﴾ أول الخلائق لأن الخلق مصدر لا يجمع ووجه آخر ، وهو أن ينتصب الكاف بفعل مضمر يفسره نعيده وما موصولة ، أي نعيد مثل الذي بدأناه ﴿ نعيده ﴾ و ﴿ أول خلق ﴾ ظرف

لبدأناه أي أول ما خلق أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ الثابت في المعنى انتهى .

والظاهر أن الكاف ليست مكفوفة كما ذكر بل هي جارة وما بعدها مصدرية ينسبك منها مع الفعل مصدر هو في موضع جر بالكاف .

(217/515)

و ﴿ أول خلق ﴾ مفعول ﴿ بدأنا ﴾ والمعنى نعيد أول خلق إعادة مثل بدأتنا له ، أي كما أبرزناه من العدم إلى الوجود نعيده من العدم إلى الوجود .

في ما قدره الزمخشري تهيئة ﴿ بدأنا ﴾ لأن ينصب ﴿ أول خلق ﴾ على المفعولية .

وقطعه عنه من غير ضرورة تدعو إلى ذلك وارتكاب إضمار يعيد مفسراً بنعيده وهذه عجمة في كتاب الله ، وأما قوله : ووجه آخر وهو أن ينتصب الكاف بفعل مضمر يفسره ﴿ نعيده ﴾ فهو ضعيف جداً لأنه مبني على أن الكاف اسم لا حرف ، فليس مذهب الجمهور إنما ذهب إلى ذلك الأخفش وكونها اسماً عند البصريين غير مخصوص بالشعر .

وقال ابن عطية : يحتمل معنيين أحدهما : أن يكون خبراً عن البعث أي كما اخترعنا الخلق أولاً على غير مثال كذلك ننشئهم تارة أخرى فنبعثهم من القبور .

والثاني أن يكون خبراً عن أن كل شخص يبعث يوم القيامة على هيئته التي خرج بها إلى الدنيا ويؤيده "يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً" ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ وقوله ﴿ كما بدأنا ﴾ الكاف متعلقة بقوله ﴿ نعيده ﴾ انتهى .

وانتصب ﴿ وعداً ﴾ على أنه مفعول مصدر مؤكداً لمضمون الجملة الخبرية قبله ﴿ إنّا كنا فاعلين ﴾ تأكيد لتحتم الخبر أي نحن قادرون على أن نفعل و ﴿ الزبور ﴾ الظاهر أنه زبور داود وقاله الشعبي ، ومعنى هذه الآية موجود في زبور داود وقرأناه فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(218/515)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾

شروعٌ في بيان حال المؤمنين إثرَ شرح حالِ الكفرة حسبما جرت به سنةُ التنزيل من شفْع الوعد بالوعيد وإيرادِ الترغيب مع الترهيب ، أي سبقت لهم منا في التقدير الخَصلةُ الحسنى التي هي أحسنُ الخصال وهي السعادةُ ، وقيل : التوفيقُ للطاعة أو سبقت لهم كلمتُنا بالبشرى بالثواب على الطاعة وهو الأدخلُ الأظهرُ في الحمل عليها لما أن الأولَين مع

خفائهما ليسا من مقدورات المكلفين ، فالجملةُ مع ما بعدها تفصيلٌ لما أُجمل في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتبون ﴾ كما أن ما قبلها من قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ الخ ، تفصيلٌ لما أُجمل في قوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ ﴾ الخ ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى الموصول باعتبار اتصافِه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلوّ درجتهم وبُعد منزلتِهم في الشرف والفضل ، أي أولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل ﴿ عَنْهَا ﴾ أي عن جهنم ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ لأنهم في الجنة وشتان بينها وبين النار ، وما روي أن علياً رضي الله تعالى عنه خطب يوماً فقرأ هذه الآية ثم قال : أنا منهم وأبو بكر وعمرُ وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ وسعدٌ وسعيدٌ وعبدُ الرحمن بنُ عوف وأبو عبيدةَ بنُ الجراح رضوانُ الله تعالى عنهم أجمعين ، ثم أقيمت الصلاةُ فقام يجرّ رداءه ويقول : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ ليس بنص في كون الموصول عبارةً عن طائفة مخصوصة ، والحسيسُ صوتٌ يُحَسّ به ، أي لا يسمعون صوتَها سمعاً ضعيفاً كما هو المعهودُ عند كون المصوّت بعيداً وإن كان صوتُه في غاية الشدة ، لا أنهم لا يسمعون صوتَها الخفيَّ في نفسه فقط ، والجملةُ بدلٌ من مبعَدون أو حال من ضميره مَسوقةٌ للمبالغة في إنقاذهم منها وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِى مَا اشتهت أَنفُسُهُمْ خالدون ﴾ بيانٌ لفوزهم بالمطالب إثرَ بيان خلاصِهم من المهالك والمعاطب أي

دائمون في غاية التنعمَ ، وتقديمُ الظرف للقصر والاهتمام به .

وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ بيانٌ لنجاتهم من الأفزاع بالكلية بعد بيان نجاتِهم من النار ، لأنهم إذا لم يُحزنْهم أكبرُ الأفزاع لا يحزنهم ما عداه بالضرورة ، عن الحسن رضي الله عنه أنه الانصرافُ إلى النار ، وعن الضحاك حتى يطبَقَ على النار ، وقيل : حين يُذبح الموتُ في صورة كبشٍ أملحَ ، وقيل : النفخةُ الأخيرة لقوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ وليس بذاك فإن الآمنَ من ذلك الفزع من استثناه الله تعالى بقوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ لا جميعُ المؤمنين الموصوفين بالأعمال الصالحة ، على أن الأكثرين على أن ذلك في النفخة الأولى دون الأخيرة كما سيأتي في سورة النمل ﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ أي تستقبلهم مهنّئين لهم ﴿ هذا يَوْمُكُمُ ﴾ على إرادة القولِ أي قائلين : هذا اليومُ يومُكم ﴿ الذى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا وتبشرون بما فيه من فنون المَثوبات على الإيمان والطاعات ، وهذا كما ترى صريحٌ في أن المرادَ بالذين سبقت لهم الحسنى كافةُ المؤمنين الموصوفين بالإيمان والأعمال الصالحةِ لا مَنْ ذكر من المسيح وعُزيرٍ والملائكة عليهم السلام خاصة كما قيل .

(220/515)

﴿ يَوْمَ نَطْوِى السماء ﴾ بنون العظمة منصوبٌ باذكرْ ، وقيل : ظرفٌ لقوله تعالى : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع ﴾ وقيل : بتتلقاهم ، وقيل : حالٌ مقدرة من الضمير المحذوفِ في توعدون والطيُّ ضدُّ النشر ، وقيل : المحوِ ، وقرىء يُطوى بالياء والتاء والبناء للمفعول ﴿ كَطَىّ السجل ﴾ وهي الصحيفة أي طياً كطيّ الطوُّمار ، وقرىء السَّجْل كلفظ الدلو وبالكسر والسُّجُلّ على وزن العُتُلّ وهما لغتان واللام في قوله تعالى : ﴿ لِلْكُتُبِ ﴾ متعلقةٌ بمحذوف هو حال من السجلّ أو صفةٌ له على رأي من يجوّز حذفَ الموصولِ مع بعض صلتِه ، أي كطي السجل كائناً للكتب أو الكائن للكتب فإن الكتبَ عبارةٌ عن الصحائف وما كتب فيها فسجلُّها بعضُ أجزائها وبه يتعلق الطيُّ حقيقةً ، وقرىء للكتاب وهو إما مصدرٌ واللامُ للتعليل أي كما يُطوى الطومارُ للكتابة أو اسم كالإمام فاللامُ كما ذكر أولاً ، وقيل : السجلُّ اسمُ ملَكٍ يطوي كتبَ أعمالِ بني آدمَ إذا رُفعت إليه ، وقيل : هو كاتبٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ أي نعيد ما خلقناه مبتدأً إعادةً مثلَ بدئنا إياه في كونها إيجاداً بعد العدم أو جمعاً من الأجزاء المتبدّدة ، والمقصودُ بيانُ صِحّةِ الإعادةِ بالقياس على المبدأ لشمول الإمكانِ الذاتي المصحّح للمقدورية وتناولِ القدرة لهما على السواء ، وما كافةٌ أو مصدرية وأولَ مفعولٌ لبدأنا أو لفعل يفسّره نعيده ، أو موصولةٌ والكافُ متعلقةٌ بمحذوف يفسره نعيده أي نعيدُه مثل الذي بدأناه وأولَ خلقٍ ظرفٌ لبدأنا

أو حالٌ من ضمير الموصول المحذوف ﴿ وَعْداً ﴾ مصدرٌ مؤكد لفعله ومقرّرٌ لنعيده أو منتصبٌ به لأنه عِدَةٌ بالإعادة ﴿ عَلَيْنَا ﴾ أي علينا إنجازُه ﴿ إِنَّا كُنَّا فاعلين ﴾ لما ذكر لا محالة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(221/515)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾

أي الخصلة المفضلة في الحسن وهي السعادة ، وقيل : التوفيق للطاعة ، والمراد من سبق ذلك تقديره في الأزل ، وقيل : الحسنى الكلمة الحسنى وهي المتضمنة للبشارة بثوابهم وشكر أعمالهم ، والمراد من سبق ذلك تقدمه في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتبون ﴾ [الأنبياء : 94] وهو خلاف الظاهر ، والظاهر أن المراد من الموصول كل من اتصف بعنوان الصلة وخصوص السبب لا يخصص ، وما ذكر في بعض الآثار من تفسيره بعيسى .

وعزير .

والملائكة عليهم السلام فهو من الاقتصار على بعض أفراد العام حيث أنه السبب في النزول

، وينبغي أن يجعل من باب الاقتصار ما أخرجه ابن أبي شيبة .

وغيره عن محمد بن حاطب عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه فسر الموصول بعثمان وأصحابه رضي الله تعالى عنهم .

وروى ابن أبي اتم .

وجماعة عن النعمان بن بشير أن علياً كرم الله تعالى وجهه قرأ الآية فقال : أنا منهم وعمر منهم وعثمان متهم والزبير منهم وطلحة منهم وسعد وعبد الرحمن منهم كذا رأيته في "الدر المنثور" ، ورأيت في غيره عد العشرة المبشرة رضي الله تعالى عنهم ، والجاران متعلقان بسبقت .

وجوز أبو البقاء في الثاني كونه متعلقاً بمحذوف وقع حالاً من ﴿ الحسنى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم في الشرف والفضل أي أولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل ﴿ عَنْهَا ﴾ أي عن جهنم ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ لأنهم في الجنة وشتان بينها وبين النار :

(222/515)

﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أي صوتها الذي يحس من حركتها ، والجملة بدل من ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ ، وجوز أن تكون حالاً من ضميره ، وأن تكون خبراً بعد خبر ، واستظهر كونها مؤكدة لما أفادته الجملة الأولى من بعدهم عنها ، وقيل : إن الابعاد يكون بعد القرب فيفهم منه أنهم وردوها أولاً ، ولما كان مظنة التأذي بها دفع بقوله سبحانه ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنبياء : 100] فهي مستأنفة لدفع ذلك ، فعلى هذا يكون عدم سماع الحسيس قبل الدخول إلى الجنة ، ومن قال به قال : إن ذلك حين المرور على الصراط وذلك لأنهم ما ورد في بعض الآثار يمرون عليها وهي خامدة لا حركة لها حتى أنهم يظنون وهم في الجنة أنهم لم يرموا عليها ، وقيل لا يسمعون ذلك لسرعة مرورهم وهو ظاهر ما أخرجه ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية : أولئك أولياء الله تعالى يمرون على الصراط مراً هو أسرع من البرق فلا تصيبهم ولا يسمعون حسيسها ويبقى الكفار جثياً ، لكن جاء في خبر آخر رواه عنه ابن أبي حاتم أيضاً .

وابن جرير أنه قال في ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنبياء : 100] الخ لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزلوا منازلهم في الجنة ، وقيل : إن الابعاد عنها قبل الدخول إلى الجنة ، والمراد بذلك حفظ الله تعالى إياهم عن الوقوع فيها كما يقال أبعد الله تعالى فلاناً عن فعل الشر ، والأظهر أن كلا الأمرين بعد دخول الجنة وذلك بيان لخلاصهم عن المهالك

والمعاطب .

﴿ وَهُمْ فِي مَا اشتهت أَنفُسُهُمْ خالدون ﴾ بيان بفوزهم بالمطالب بعد ذلك الخلاص ، والمراد أنهم دائمون في غاية التنعم ، وتقديم الظرف للقصر والاهتمام ورعاية الفواصل .

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾

(223/515)

بيان لنجاتهم من الإفزاع بالكلية بعد نجاتهم من النار لأنهم إذا لم يحزنهم أكبر الإفزاع لم يحزنهم ما عداه بالضرورة كذا قيل ، وليلاحظ ذلك مع ما جاء في الاخبار أن النار تزفر في الموقف زفرة لا يبقى نبي ولا ملك إلا جثا على ركبتيه فإن قلنا : إن ذلك لا ينافي في عدم الحزن فلا إشكال وإذا قلنا : إنه ينافي فهو مشكل إلا أن يقال : إن ذلك لقلة زمانه وسرعة الأمن مما يترتب عليه نزل منزلة العدم فتأمل ، والفزع كما قال الراغب انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع ويطلق على الذهاب بسرعة لما يهول .

واختلف في وقت هذا الفزع فعن الحسن .

وابن جبير .

وابن جريج أنه حين انصراف أهل النار إلى النار .

ونقل عن الحسن أنه فسر الفزع الأكبر بنفس هذا الانصراف فيكون الفزع بمعنى الذهاب المتقدم ، وعن الضحاك أنه حين وقوع طبق جهنم عليها وغلقها على من فيها ، وجاء ذلك في رواية ابن أبي الدنيا عن ابن عباس ، وقيل حين ينادي أهل النار ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] وقيل حين يذبح الموت بين الجنة والنار ، وقيل يوم تطوى السماء ، وقيل حين النفخة الأخيرة ، وأخرج ذلك ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، والظاهر أن المراد بها النفخة للقيام من القبور لرب العالمين ، وقال في قوله تعالى : ﴿ نُنَزِّلُ الملائكة ﴾ أي تستقبلهم بالرحمة عند قيامهم من قبورهم ، وقيل بالسلام عليهم حينئذ قائلين ﴿ هذا يَوْمُكُمُ الذى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا مجيئه وتبشرون بما فيها لكن من المثوبات على الايمان والطاعة .

(224/515)

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال في الآية : تتلقاهم الملائكة الذين كانوا قرناءهم في الدنيا يوم القيامة فيقولون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة ، وقيل تتلقاهم عند باب الجنة بالهدايا أو بالسلام ، والأظهر أن ذلك عند القيام من القبور وهو كالقرينة على أن عدم الحزن حين النفخة الأخيرة ، وظاهر أكثر الجمل يقتضي

عدم دخول الملائكة في الموصول السابق بل قوله تعالى : ﴿ وتتلقاهم ﴾ الخ نص في ذلك فلعل الإسناد في ذلك عند من أدرج الملائكة عليهم السلام في عموم الموصول لسبب النزول على سبيل التغليب أو يقال : إن استثناءهم من العموم السابق لهذه الآية بطريق دلالة النص كما أن دخولهم فيما قبل كان كذلك .

وقرأ أبو جعفر ﴿ لاَيَحْزُنُهُمُ ﴾ مضارع أحزن وهي لغة تميم وحزن لغة قريش .

﴿ يَوْمَ نَطْوِى السماء ﴾

منصوب باذكر ، وقيل ظرف ل ﴿ لايحزنهم ﴾ [الأنبياء : 103] ، وقيل للفزع ، والمصدر المعرف وإن كان ضعيفاً في العمل لا سيما وقد فصل بينه وبين معموله بأجنبي إلا أن الظرف محل التوسع قاله في "الكشف" .

وقال الخفاجي : إن المصدر الموصوف لا يعمل على الصحيح وإن كان الظرف قد يتوسع فيه ، وقيل ظرف ل ﴿ تتلقاهم ﴾ [الأنبياء : 103] ، وقيل هو بدل من العائد المحذوف من ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 103] بدل كل من كل وتوهم أنه بدل اشتمال ، وقيل حال مقدرة من ذلك العائد لأن يوم الطي بعد الوعد .

وقرأ شيبة بن نصاح .

وجماعة ﴿ يطوى ﴾ بالياء والبناء للفاعل وهو الله عز وجل .

وقرأ أبو جعفر .

وأخرى بالتاء الفوقية والبناء للمفعول ورفع ﴿ فِى السماء ﴾ على النيابة ، والطي ضد النشر ، وقيل الإفناء والإزالة من قولك : أطوعني هذا الحديث ، وأنكر ابن القيم إفناء السماء وإعدامها إعداماً صرفاً وادعى أن النصوص إنما تدل على تبديلها وتغييرها من حال إلى حال ، ويبعد القول بالإفناء ظاهر التشبيه في قوله تعالى : ﴿ كَطَىّ السجل ﴾ وهو الصحيفة على ما أخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد ونسبه في مجمع البيان إلى ابن عباس .

وقتادة .

والكلبي أيضاً ، وخصه بعضهم بصحيفة العهد ، وقيل : هو في الأصل حجر يكتب فيه ثم سمي به كل ما يكتب فيه من قرطاس وغيره ، والجار والمجرور في موضع الصفة لمصدر مقدر أي طياً كطي الصحيفة ، وقرأ أبو هريرة ، وصاحبه أبو زرعة بن عمرو بن جرير ﴿ السجل ﴾ بضمتين وشد اللام ، والأعمش .

وطلحة .

وأبو السمال ﴿ السجل ﴾ بفتح السين ، والحسن .

وعيسى بكسرها والجيم في هاتين القراءتين ساكنة واللام مخففة ، وقال أبو عمرو : قرأ أهل مكة كالحسن ، واللام في قوله تعالى : ﴿ لِلْكُتُبِ ﴾ متعلق بمحذوف هو حال من ﴿ السجل ﴾ أو صفة له على رأي من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أي كطي السجل كائناً للكتب أو الكائن فإن الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها فسجلها بعض أجزائها وبه يتعلق الطي حقيقة ، وقرأ الأعمش ﴿ لِلْكُتُبِ ﴾ بإسكان التاء ، وقرأ الأكثر ﴿ للكتاب ﴾ بالإفراد وهو إما مصدر واللام للتعليل أي كما يطوى الطومار للكتابة أي ليكتب فيه وذلك كناية عن اتخاذه لها ووضعه مسوى مطوياً حتى إذا احتيج إلى الكتابة لم يحتج إلى تسويته فلا يرد أن المعهود نشر الطومار للكتابة لا طيه لها ، وإما اسم كالإمام فاللام كما ذكر أولاً .

وأخرج عبد حميد عن علي كرم الله تعالى وجهه أن السجل اسم ملك ، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم .

وابن عساكر عن الباقر رضي الله تعالى عنه ، وأخرج ابن جرير .

(226/515)

وغيره عن السدي نحوه إلا أنه قال : إنه موكل بالصحف فإذا مات الإنسان وقع كتابه إليه فطواه ورفعه إلى يوم القيامة ، واللام على هذا قيل متعلقة بطي ، وقيل سيف خطيب ، وكونها بمعنى على كما ترى .

واعترض هذا القول بأنه لا يحسن التشبيه عليه إذ ليس المشبه به أقوى ولا أشهر .

وأجيب بأنه أقوى نظراً لما في أذهان العامة من قوة الطاوي وضعف المطوي وصغر حجمه بالنسبة للسماء أي نظراً لما في أذهانهم من مجموع الأمرين فتأمل ، وأخرج أبو داود .

والنسائي .

وجماعة منهم البيهقي في "سننه" وصححه عن ابن عباس أن السجل كاتب للنبي صلى الله عليه وسلم وأخرج جماعة عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما نحوه ، وضعف ذلك بل قيل إنه قول واه جداً لأنه لم يعرف أحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم اسمه السجل ولا حسن للتشبيه عليه أيضاً ، وأخرج النسائي .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم .

وابن عساكر .

وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الرجل زاد ابن مردويه بلغة الحبشة

ونقل ذلك عن الزجاج ، وقال بعضهم : يمكن حمل الرواية السابقة عن ابن عباس على هذا والأكثر على ما قيل على تفسير السجل بالصحيفة .

(227/515)

واختلف في أنه عربي أو معرف فذهب البصريون إلى أنه عربي ، وقال أبو الفضل الرازي : الأصح أنه فارسي معرب ، هذا ثم إن الآية نص في دثور السماء وهو خلاف ما شاع عن الفلاسفة ، نعم ذكر صدر الدين الشيرازي في كتابه الأسفار أن مذهب أساطين الفلاسفة المتاقدمين القول بالدثور والقول بخلاف ذلك إنما هو لمتأخريهم لقصور أنظارهم وعدم صفاء ضمائرهم ، فمن الأساطين انكسيمائس الملطي قال : إنما ثبات هذا العالم بقدر ما فيه من قليل نور ذلك العالم وأراد به عالم المجردات المحضة وإلا لما ثبت طرفة عين ويبقى ثباته إلى أن يصفى جزؤه الممتزج جزأها المختلط فإذا صفي الجزآن عند ذلك دثرت أجزاء هذا العالم وفسدت وبقيت مظلمة وبقيت الأنفس الدنسة في هذه الظلمة لا نور لها ولا سرور ولا راحة ولا سكون ولا سلوة .

ومنهم فيثاغورس نقل عنه أنه قيل له : لم قلت بإبطال العالم ؟ فقال : لأنه يبلغ العلة التي من أجلها كان فإذا بلغها سكنت حركته ، ومنهم أفلاطون حكى الشيخ أبو الحسن العامري أنه

ذكر في كتابه المعروف بطيماوس أن العالم مكون وأن الباري تعالى قد صرفه من لا نظام إلى نظام وأن جواهره كلها مركبة من المادة والصورة وأن كل مركب معرض للإنحلال ، نعم أنه قال في أسولوطيقوس أي تدبير البدن .

إن العالم أبدي غير مكون دائم البقاء وتعلق بهذا ابرقلس فبين كلاسيه تناف ، وقد وفق بينهما تلميذه أرسطاطاليس بما فيه نظر ، ولعل الأوفق أن يقال على مشربهم : أراد بالعالم الأبدي عالم المفارقات المحضة ، ومنهم أرسطاطاليس قال في كتاب أثولوجيا .

(228/515)

إن الأشياء العقلية تلزم الأشياء الحسية والباري سبحانه لا يلزم الأشياء الحسية والعقلية بل هو سبحانه ممسك لجميع الأشياء غير أن الأشياء العقلية هي آنيات حقية لأنها مبتدعة من العلة الأولى بغير وسط وأما الأشياء الحسية فهي آنيات دائرة لأنها رسوم الآنيات الحقية ومثالها وإنما قوامها ودوامها بالكون والتناسل كي تدوم وتبقى تشبيهاً بالأشياء العقلية الثابتة الدائمة ، وقال في كتاب الربوبية : ابدع العقل صورة النفس من غير أن يتحرك تشبيهاً بالواحد الحق وذلك أن العقل أبدعه الواحد الحق وهو ساكن فكك النفس أبدعها العقل وهو ساكن أيضاً غير أن الواحد الحق أبدع هوية العقل وأبدع العقل صورة النفس ولما كانت

معلولة من معلول لم تقو أن تفعل فعلها بغير حركة بل فعلته بحركة وأبدعت صنماً وإنما سمي صنماً لأنه فعل داثر غير ثابت ولا باق لأنه كان يحركه والحركة لا تأتي بالشيء الثابت الباقي بل إنما تأتي بالشيء الداثر وإلا لكان فعلها أكرم منها وهو قبيح جداً ، وسأله بعض الدهرية إذا كان المبدع لم يزل ولا شيء غيره ثم أحدث العالم فلم أحدثه ؟ فقال : لم غير جائزة عليه لأن لم تقتضي علية والعلة محمولة فيما هي علة عليه من معل فوقه وليس بمركب يتحمل ذاته العلل فلم عنه منفية فإنما فعل ما فعل لأنه جواد فقيل : يجب أن يكون فاعلاً لم يزل لأنه جواد لم يزل فقال : معنى لم يزل لا أول له وفعل فاعل يقتضي أولاً واجتماع أن يكون ما لا أول له وذا أول في القول والذات محض متناقض ، فقيل : فهل يبطل هذا العالم ؟ قال : نعم فقيل : فإذا أبطله بطل الجود فقال : يبطل ليصوغه الصيغة التي لا تحتمل الفساد لأن هذه الصيغة تحتمل الفساد ، ومنهم فرفوريوس واضع إيساغوجي قال : المكونات كلها إنما تتكون بتكون الصورة على سبيل التغير وتفسد بخلو الصورة إلى غير ذلك من الفلاسفة وأقوالهم .

(229/515)

وذكر جميع ذلك مما يفضي إلى الملل ، ومن أراده فليرجع إلى الأسفار وغيره من كتب الصدر ، والحق أنه قد وقع في كلام متقدمي الفلاسفة كثيراً مما هو ظاهر في مخالفة مدلول الآية الكريمة ولا يكاد يحتمل التأويل وهو مقتضى أصولهم وما يتراءى منه الموافقة فإنما يتراءى منه الموافقة في الجملة والتزام التوفيق بين ما يقوله المسلمون في أمر العالم بأسره وما يقوله الفلاسفة في ذلك كالتزام التوفيق بين الضب والنون بل كالتزام الجمع بين الحركة والسكون .

أيها المنكح الثريا سهيلا . . .

عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلت . . .

وسهيل إذا ما استقل يماني

فعليك بما نطق به الكتاب المبين أو صح عن الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم ، وما عليك إذا خالفت الفلاسفة فأغلب ما جاؤوا به جعل وسفه ؛ ولعمري لقد ضل بكلامهم كثير من الناس وباض وفرخ في صدورهم الوسواس الخناس وهو جعجعة بلا طحن وقعقعة كقعقعة شن ولولا الضرورة التي لا أبديها والعلة التي عز مداويها لما أضعت في درسه وتدريسه شرخ شبابي ولما ذكرت شيئاً منه خلال سطور كتابي ، هذا وأنا اسأل الله تعالى التوفيق للتمسك بحبل الحق الوثيق ، ثم إن الظاهر من الأخبار الصحيحة أن العرش لا يطوي كما تطوى السماء فإن كان هو المحدد كما يزعمه الفلاسفة ومن تبع آثارهم فعدم دثوره

بخصوصه مما صرح به من الفلاسفة الإسكندر الأفروديسي من كبار أصحاب أرسطاطاليس وإن خالفه في بعض المسائل ، ومن حمل كلامه على خلاف ذلك فقد تعسف وأتى بما لا يسلم له ، وظاهر الآية الكريمة أيضاً مشعر بعدم طيه للاقتصار فيها على طي السماء ، والشائع عدم إطلاقها على العرش ، ثم أن الطي لا يختص بسماء دون سماء بل تطوى جميعها لقوله تعالى :

﴿ والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : 67] .

(230/515)

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ الظاهر أن الكاف جارة وما مصدرية والمصدر مجرور بها والجار والمجرور صفة مصدر مقدر و ﴿ أَوَّلَ ﴾ مفعول بدأنا أي نعيد أول خلق إعادة مثل بدئنا إياه أي في السهولة وعدم التعذر وقيل أي في كونها إيجاداً بعد العدم أو جمعاً من الأجزاء المتفرقة ، ولا يخفى أن في كون الإعادة إيجاداً بعد العدم مطلقاً بحثاً ، نعم قال اللقاني : مذهب الأكثرين أن الله سبحانه يعدم الذوات بالكلية ثم يعيدها وهو قول أهل السنة والمعتزلة القائلين بصحة الفناء على الأجسام بل بوقوعه .

وقال البدر الزركشي .

والآمدي : إنه الصحيح ، والقول بأن الإعادة عن تفريق محض قول الأقل وحكاه جمع بصيغة التمريض لكن في المواقف وشرحه هل يعدم الله تعالى الأجزاء البدنية ثم يعيدها أو يفرقها ويعيد فيها التآليف ؟ الحق أنه لم يثبت في ذلك شيء فلا جزم فيه نفياً ولا إثباتاً لعدم الدليل على شيء من الطرفين .

وفي الاقتصاد لحجة الإسلام الغزالي فإن قيل هل تعدم الجواهر والأعراض ثم تعادان جميعاً أو تعدم الاعراض دون الجواهر وتعاد الاعراض ؟ قلنا : كل ذلك ممكن ، والحق أنه ليس في الشرع دليل قاطع على تعيين أحد هذه الممكنات .

(231/515)

وقال بعضهم : الحق وقوع الأمرين جميعاً إعادة ما انعدم بعينه وإعادة ما تفرق بإعراضه ، وأنت تعلم أن الأخبار صحت ببقاء عجب الذنب من الإنسان فإعادة الإنسان ليست كبدئه ، وكذا روى أن الله تعالى عز وجل حرم على الأرض أجساد الأنبياء وهو حديث حسن عند ابن العربي ، وقال غيره : صحيح ، وجاء نحو ذلك في المؤذنين احتساباً وحديثهم في الطبراني ؛ وفي حملة القرآن وحديثهم عند ابن منده ، وفيمن لم يعمل خطيئة قط وحديثهم عن المروزي فلا تغفل ، وكذا في كون البدء جمعاً من الأجزاء المتفرقة إن صح

في المركب من العناصر كالإنسان لا يصح في نفس العناصر مثلاً لأنها لم تخلق أولاً من أجزاء متفرقة بإجماع المسلمين فلعل ما ذكرناه في وجوه الشبه أبعد عن القال والقيل .

واعترض جعل ﴿ أَوَّلُ ﴾ مفعول بدأنا بأن تعلق البداءة بأول الشيء المشروع فيه ركيك لا يقال بدأت أول كذا وإنما يقال بدأت كذا وذلك لأن بداية الشيء هي المشروع فيه والمشروع يلاقي الأول لا محالة فيكون ذكره تكراراً ونظراً فيه بأن المراد بدأنا ما كان أولاً سابقاً في الوجود وليس المراد بالأول أول الأجزاء حتى يتوهم ما ذكر ، وقيل ﴿ أَوَّلَ خَلْقٍ ﴾ مفعول نعيد الذي يفسره ﴿ نُّعِيدُهُ ﴾ والكاف مكفوفة بما أي نعيد أول خلق نعيده وقد تم الكلام بذلك ويكون ﴿ كَمَا بَدَأْنَا ﴾ جملة منقطعة عن ذلك على معنى تحقق ذلك مثل تحققه ، وليس المعنى على إعادة مثل البد ، ومحل الكاف في مثله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف جيء به تأكيداً ، والمقام يقتضيه كما يشعر به التذنيب فلا يقال : إنه لا داعي إلى ارتكاب خلاف الظاهر ، وتنكير ﴿ خَلْقٍ ﴾ لإرادة التفصيل وهو قائم مقام الجمع في إفادة تناول الجميع فكأنه قيل نعيد المخلوقين الأولين .

(232/515)

وجوز أن تنصب الكاف بفعل مضمر يفسره ﴿ نُّعِيدُهُ ﴾ وما موصولة و ﴿ أَوَّلُ ﴾ ظرف لبدأنا لأن الموصول يستدعي عائداً فإذا قدر هنا يكون مفعولاً ، ولأل قابلية النصب على الظرفية فينصب عليها ، ويجوز أن يكون في موضع الحال من ذلك العائد ، وحاصل المعنى نعيد مثل الذي بدأناه في أول خلق أو كائناً أول خلق ، والخلق على الأول مصدر وعلى الثاني بمعنى المخلوق ، وجوز كون ما موصوفة وباقي الكلام بحاله .

وتعقب أبو حيان نصف الكاف بأنه قول باسميتها وليس مذهب الجمهور وإنما ذهب إليه الأخفش ، ومذهب البصريين سواه أن كونها اسماً مخصوص بالشعر ، وأورد نحوه على القول بأن محلها الرفع في الوجه السابق ، وإذا قيل بأن للمكفوفة متعلقاً كما اختاره بعضهم خلافاً للرضى ومن معه فليكن متعلقها خبر مبتدأ محذوف هناك ، ورجح كون المراد نعيد مثل الذي بدأناه في أول خلق بما أخرجه ابن جرير عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي عجوز من بني عامر فقال : من هذه العجوز يا عائشة ؟ فقلت : إحدى خالاتي فقالت : ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة فقال عليه الصلاة والسلام : إن الجنة لا يدخلها العجز فأخذ العجوز ما أخذها فقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى ينشئهن خلقاً غير خلقهن ثم قال : تحشرون حفاة عراة غلفاً فقالت : حاش لله تعالى من ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى إن الله تعالى قال : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ ومثل هذا المعنى حاصل على ما جوزه ابن

الحاجب من كون ﴿ كَمَا بَدَأْنَا ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ نُّعِيدُهُ ﴾ أي نعيد أول خلق مماثلاً للذي بدأناه ، ولا تغفل عما يقتضيه التشبيه من مغايرة الطرفين ، وأياً ما كان فالمراد الأخبار بالبعث وليست ما في شيء من الأوجه خاصة بالسماء إذ ليس المعنى عليه ولا اللفظ يساعده .

(233/515)

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن معنى الآية تهلك كل شيء كما كان أول مرة ويحتاج ذلك إلى تدبر فتدبر .

﴿ وَعْداً ﴾ مصدر منصوب بفعله المحذوف تأكيداً له ، والجملة مؤكدة لما قبلها أو منصوب بنعيد لأنه عدة بالإعادة وإلى هذا ذهب الزجاج ، واستجود الأول الطبرسي بأن القراء يقفون على ﴿ نُّعِيدُهُ ﴾ ﴿ عَلَيْنَا ﴾ في موضع الصفة لوعداً أي وعداً لازماً علينا ، والمراد لزم انجازه من غير حاجة إلى تكلف الاستخدام ﴿ إِنَّا كُنَّا فاعلين ﴾ ذلك بالفعل لا محالة ، والأفعال المستقبلة التي علم الله تعالى وقوعها كالماضية في التحقق ولذا عبر عن المستقبل بالماضي في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز أو قادرين على أن نفعل ذلك واختاره

الزمخشري ، وقيل عليه : إنه خلاف الظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(234/515)

وقال القاسمى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى ﴾

أي : الخصلة الحسنى ، وهي السعادة أو التوفيق : ﴿ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ لأنهم في غرفات الجنان آمنون . إذ وقاهم ربهم عذاب السعير : ﴿ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أي : صوتاً يحس به منها ، لبعدهم عنها وعما يفزعهم : ﴿ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ أي : للحشر كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النمل : 87] ، ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ﴾ أي : تستقبلهم مهنئين لهم قائلين : ﴿ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أي في الدنيا ، وتبشرون بنيل المثوبة الحسنى فيه . وقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ ﴾ أي : اذكره . أو ظرف لـ : ﴿ لا يحزنهم ﴾ أو لـ : ﴿ تتلقاهم ﴾ . والطيّ ضد النشر . وقوله : ﴿ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ أي : كما يطوى السجل

وهو الكتاب . واللام في للكتب لام التبيين . ولذلك قرئ : الكتاب بالإفراد . أو بمعنى من وفيه قرب من الأول . أو الكتب بمعنى المكتوب . أي : كطي الصحيفة على مكتوبها . فاللام بمعنى على وهو ما اختاره ابن جرير .

تنبيه :

ما نقل عن ابن عباس أن السجل اسم رجل كان يكتب للنبيّ صلوات الله عليه ، كما رواه أبو داود والنسائي وغيرهما ، فأثر منكر لا يصح .

قال ابن كثير : وقد صرح بوضعه جماعة من الحفاظ ، وإن كان في سنن أبي داود . منهم شيخنا الحافظ أبو الحجاج المِزِيّ .

وكذلك تقدم في رده الإمام ابن جرير وقال : لا يعرف في الصحابة أحد اسمه السجل .

وكُتَّابُ النبيّ صلوات الله عليه ، معروفون ، وليس فيهم أحد اسمه السجل .

وصدق رحمه الله في ذلك . وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث .

(235/515)

وأما من ذكره في أسماء الصحابة ، فإنما اعتمد على هذا الحديث . والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة . انتهى .

هذه الآية كآية : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : 67] ، وطي السماء كناية عن انكدار نجومها ، ومحو رسومها ، بفساد تركيبها واختلال نظامها . فلا يبقى أمر ما فيها من الكواكب على ما نراه اليوم . فيخرب العالم بأسره : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ أي : منجزين إياه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 235.236 ﴾

(236/515)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة . إن الذين سبقت لهم منه في علمه الحسنى وهي تأنيث الأحسن ، وهي الجنة أو السعادة مبعدون يوم القيامة عن النار . وقد أشار إلى نحو ذلك في غير هذا الموضع ، كقوله : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] ، وقوله : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ [الرحمن : 60] ، ونحو ذلك من الآيات .

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن عباده المؤمنين الذين سبقت لهم منه الحسنى ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الملائكة ﴾ أي تستقبلهم بالبشارة ، وتقول لهم : ﴿ هذا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أي توعدون فيه أنواع الكرامة والنعيم . قيل : نستقبلهم على أبواب الجنة بذلك . وقيل : عند الخروج من القبور كما تقدم .

وما ذكره جل وعلا من استقبال الملائكة لهم بذلك بينه في غير هذا الموضع ، كقوله في " فصلت " : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلَّا تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة وَلَكُمْ فِيهَا مَا تشتهي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : 30- 32] وقوله في " النحل " : ﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادخلوا الجنة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 32] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السمآء كَطَيِّ السجل لِلْكُتُبِ ﴾ .

(237/515)

قوله ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السمآء ﴾ منصوب بقوله : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع ﴾ [الأنبياء : 103] ، أو بقوله ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ ﴾ [الأنبياء : 103] . وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة

أنه يوم القيامة يطوي السماء كطي السجل للكتب . وصرح في " الزمر " بأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، وأن السموات مطويات بيمينه ، وذلك في قوله : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : 67] . وما ذكره من كون السموات مطويات بيمينه في هذه الآية جاء في الصحيح أيضاً عن النَّبي صلى الله عليه وسلم وقد قدمنا مراراً أن الواجب في ذلك إمراره كما جاء ، والتصديق به مع اعتقاد أن صفة الخالق أعظم من أن تماثل صفة المخلوق . وأقوال العلماء في معنى قوله ﴿ كَطَيِّ السجلِ لِلْكُتُبِ ﴾ راجعة إلى أمرين :

الأول أن السجل الصحيفة : والمراد بالكتب : ما كتب فيها ، واللام بمعنى على ، أي كطي السجل على الكتب ، أي كطي الصحيفة على ما كتب فيها ، وعلى هذا فطي السجل مصدر مضاف إلى مفعوله ، لأن السجل على هذا المعنى مفعول الطي .

الثاني أن السجل ملك من الملائكة ، وهو الذي يطوي كتب أعمال بني آدم إذا رفعت إليه ، ويقال : إنه في السماء الثالثة ، ترفع إليه الحفظة الموكلون بالخلق أعمال بني آدم في كل خميس واثنين ، وكان من أعوانه (فيما ذكروا) هاروت وماروت ، وقيل ، إنه لا يطوي الصحيفة حتى يموت صاحبها فيرفعها ويطويها إلى يوم القيامة ، وقول من قال : إن السجل صحابي ، كاتب للنبي صلى الله عليه وسلم ظاهر السقوط كما ترى .

وقوله في هذه الآية الكريمة " للكتاب " قرأه عامة السبعة غير حمزة والكسائي وحفص عن عاصم " للكتاب " بكسر الكاف وفتح التاء بعدها ألف بصيغة الإفراد . وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم " للكتب " بضم الكاف والتاء بصيغة الجمع . ومعنى القراءتين واحد . لأن المراد بالكتاب على قراءة الإفراد جنس الكتاب ، فيشمل كل الكتب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(239/515)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ ﴾

تعرض هذه الآيات الثلاث ما يلقى المؤمنون يوم القيامة من ربهم ، من كرامة وتكريم . . وقد وصفوا بأنهم الذين سبقت لهم من اللّه الحسنى ، لأن إيمانهم باللّه ، وتوفيقهم للأعمال الصالحة ، لم يكن إلا بما سبق من علم اللّه بهم ، وإرادته فيهم ، وأنهم كانوا فى علم اللّه ، وبمقتضى إرادته من أصحاب اليمين . .

هكذا خلقهم اللّه أزلا . . فلما جاءوا إلى هذه الدنيا ، جروا على ما علم اللّه منهم ،

وعلى ما أراد لهم ، فآمنوا ، وعملوا الصالحات ، وكانوا من عباد اللّه المكرمين . .

فالإيمان والكفر ، والهوى والضلال ، وأصحاب الجنة وأصحاب النار . .

كلّ ذلك فى علم اللّه القديم ، وفى إرادته السابقة . . كما يقول سبحانه :

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ » (2 : التغابن) وكما يقول جلّ شأنه : « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » (7 : الشورى) .

وقد شرحنا هذه القضية فى مبحث خاص تحت هذا العنوان : « مشيئة اللّه .

ومشيئة العباد » .

فهؤلاء الذين سبقت لهم من اللّه الحسنى ، هم مبعدون عن تلك النّار التي يتقلب على جمرها ، ولهيبها ، الكافرون والضالون . . فلا يخلص إلى المؤمنين شىء من حرّها ، ولا يصل إلى أسماعهم حسّ من زفيرها وشهيقها « لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا » حتى لا تتأذى مشاعرهم بهذه الأصوات الرهيبة ، المفزعة ، « وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ » أي أنهم يلقون فى الجنة ما تشتهى أنفسهم ، من نعيم دائم لا ينقطع أبدا . . « لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » أي أنهم لا يجزعون ليوم القيامة ولا يفزعون منه ، إذ ملأ اللّه قلوبهم طمأنينة وأمنا ، بما أراهم من فضله ، وبما استقبلتهم به الملائكة من بشريات بهذا الفضل ، إذ الملائكة

يلقونهم على أول الطريق فى هذا اليوم ، ويقولون لهم : « هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » أي هذا اليوم يوم جزاؤكم ، ونعيمكم ، ورضوانكم ، الذي وعدكم اللّه به ، ولن يخلف اللّه وعده . . فهيّا استقبلوا ما وعدكم اللّه من رضوان ، وجنات لكم فيها نعيم مقيم .

قوله تعالى : « يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ » .

« يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ » ظرف متعلق بقوله تعالى : « لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » لا يحزن الذين لهم من اللّه الحسنى ، الفزع الأكبر فى هذا اليوم ، الذي نطوى فيه السماء كطىّ السجل للكتب ، وهو يوم القيامة ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات . . ويصح أن يكون هذا الظرف « يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ » متعلقا بقوله تعالى : « نُعِيدُهُ » أي نعيد الخلق كما بدأناه ، وذلك يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب .

وطىّ الشيء ، ضمه ، ولفّه كما يلفّ البساط ويطوى .

وطى السماء ، ضمها ، ولفّها ، فينكشف هذا السقف المعقود بها ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً » . . فالسماء تطوى كما يطوى السّجلّ ، بما كتب فيه ، فهى تطوى بعوالمها كلها ، من كواكب وشموس وأقمار . .

والسجلّ : أصله الحجر ، الذي يكتب عليه ، ثم استعمل لكل ما يكتب عليه ، من جلد

وورق ونحوه . . وللكتب : أي على الكتب . . والكتب بمعنى المكتوبات .

وهذا التحول فى العوالم العلوية والسفلية ، إنما هو تصوير لما يقع فى مفهوم الإنسان ، حين ينتقل إلى الدار الآخرة ، حيث يشهد الوجود على غير ما يقع لحواسه ومدركاته وهو فى هذه الدنيا .

(241/515)

وهذا يعنى أن الإنسان بعد أن يفارق هذا الجسد ، يعود إلى عالم الرّوح ، فينطلق من أسر هذا الجسد المحدود ، ويسبح فى عالم ماوراء المادة ، وهناك يرى الأرض ، والسماء غير السماء . . كما يقول سبحانه : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ » (48 : إبراهيم) . . فهذا التبدل هو تبدّل فيما يقع على تصورات الإنسان ومدركاته ، بانتقاله من العالم المادي إلى العالم الروحي . . وإلا فإن العوالم ثابتة على ما أقامها اللّه سبحانه وتعالى ، فى هذا النظام المحكم .

فالأمر إذن ، ليس كما يتصور الذين أخذوا أوصاف يوم القيامة التي جاء بها القرآن ، على هذا التصور الذي تذهب به معالم الوجود كلّه ، وتنقلب أوضاع السموات والأرض . .

وكلّا ، فإن هذا الوجود العظيم ، ليس للإنسان ، ولا من أجل الإنسان ، وإنما الإنسان ذرة

من ذراته ، وشيء من أشيائه . . وإن التغير والتبدل واقع عليه هو ، فتتغير لذلك مدركاته ، ويرى الوجود ، والموجودات بعين غير التي يراها عليه ، وهو فى هذا الكيان المادي . . وذلك يوم يكشف هذا العطاء المادىّ ، الذي يحجب نظر الإنسان ، ويحصره فى هذه الدائرة المحدودة الضيقة ، وعندئذ يرى ما لم يكن ليراه فى عالمه المادىّ ، كما يقول سبحانه : « فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » (22 : ق) .

وإذا صحّ الحديث الذي يروى عن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم : « من مات فقد قامت قيامته » فهذا يعنى أن كل من مات وانتقل إلى العالم الآخر ، يرى الوجود قائما على هذه الصورة التي يصوّر فيها القرآن مشاهد القيامة ، وما يتبدل من معالم الوجود . . فهو تبدل فى مدركات الإنسان وفى تصوراته ، بعد خلاصه من الجسد وتحرره من أسر المادة . .

(242/515)

ـ وفى قوله تعالى : « كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » أي أننا نعيد الموتى وننشرهم كما خلقناهم ابتداء ، فلا يصحّ للمشركين والكافرين ، الذي يكذبون بيوم الدين ، أن ينكروا هذا البعث ، وأن يستبعدوه . . فهو أهون من الخلق ابتداء « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » . . « وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ

قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » (78 ، 79 : يس) .وفى قوله تعالى : « أَوَّلَ خَلْقٍ » وفى تنكير « خَلْقٍ » ما يفيد الاستغراق والعموم ، فهو بمعنى أول كل خلق . . كما يفيد أيضا أن كلّ مخلوق له خلق خاصّ به ، وأن له من علم اللّه وقدرته وحكمته ، نصيبه المقدور له . . وهذا خاصّ به ، وأن له من علم اللّه وقدرته وحكمته ، نصيبه المقدور له . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ » (49 : القمر) .

.وقوله تعالى : « وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ » أي إن إعادة الموتى إلى الحياة مرة أخرى ، للحساب والجزاء ، هو أمر قضى اللّه به ، ولا رادّ له . .

وفى هذا يقول سبحانه : « ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ » (15 . 16 : المؤمنون) ويقول جل شأنه : « زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » (7 : التغابن) .

(243/515)

وهذا وعد من اللّه ، ولن يخلف اللّه وعده وقد أكّده سبحانه بقوله :

« إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ » . . وهو وعد لا يحتاج إلى توكيد ، عند المؤمنين ، وإنما التأكيد منظور

فيه إلى الكافرين ، الذين يكذبون بيوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 9 صـ 957.960 ﴾

(244/515)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) ﴾

جملة ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً دعا إليه مقابلة حكاية حال الكافرين وما يقال لهم يوم القيامة بحكاية ما يلقاه الذين آمنوا يوم القيامة وما يقال لهم .

فالذين سبقت لهم الحسنى هم الفريق المقابل لفريق القرية التي سبق في علم الله إهلاكها ، ولما كان فريق القرية هم المشركين فالفريق المقابل له هم المؤمنون .

ولا علاقة لهذه الجملة بجملة ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ [الأنبياء : 98] ولا هي مخصصة لعموم قوله تعالى : ﴿ وما تعبدون من دون الله ﴾ بل قوله تعالى : ﴿ والذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ عام يعم كل مؤمن مات على الإيمان والعمل الصالح .

والسبق ، حقيقته : تجاوز الغير في السير إلى مكان معين ، ومنه سباق الخيل ، واستعمل هنا مجازاً في ثبوت الأمن في الماضي ، يقال كان هذا في العصور السابقة ، أي التي مضت أزمانها لما بين السبق وبين التقدم من الملازمة ، أي الذين حصلت لهم الحسنى في الدنيا ، أي حصل لهم الإيمان والعمل الصالح من الله ، أي بتوفيقه وتقديره ، كما حصل الإهلاك لأضدادهم بما قدر لهم من الخذلان .

والحسنى : الحالة الحسنة في الدين ، قال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [يونس : 26] أو الموعدة الحسنى ، أي تقرّرَ وعد الله إياهم بالمعاملة الحسنى .

وتقدم في سورة يونس .

وذِكر الموصول في تعريفهم لأن الموصول للإيماء إلى أن سبب فوزهم هو سبق تقدير الهداية لهم .

وذِكر اسم الإشارة بعد ذلك لتمييزهم بتلك الحالة الحسنة ، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما يذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما تقدم على اسم الإشارة من الأوصاف ، وهو سبق الحسنى من الله .

واختير اسم إشارة البعيد للإيماء إلى رفعة منزلتهم ، والرفعةُ تشبه بالبعد .

وجملة ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ بيان لمعنى مبعَدون ، أي مبعدون عنها بعداً شديداً بحيث لا يلفحهم حرّها ولا يروعهم منظرها ولا يسمعون صوتها ، والصوت يبلغ إلى السمع مِنْ أبعد مما يبلغ منه المرئي .

والحسيس : الصوت الذي يبلغ الحس ، أي الصوت الذي يسمع من بعيد ، أي لا يقربون من النار ولا تبلغ أسماعهم أصواتُها ، فهم سالمون من الفزع من أصواتها فلا يقرع أسماعهم ما يؤلمها .

وعقّب ذلك بما هو أخص من السلامة وهو النعيم الملائم .

وجيء فيه بما يدل على العموم وهو ﴿ فيما اشتهت أنفسهم ﴾ وما يدلّ على الدوام وهو ﴿ خالدون ﴾ .

والشهوة : تشوق النفس إلى ما يَلَذّ لها .

وجملة ﴿ لا يحزنهم الفزع ﴾ خبر ثان عن الموصول .

والفزع : نفرة النفس وانقباضها مما تتوقع أن يحصل لها من الألم وهو قريب من الجَزع .

والمراد به هنا فزع الحشر حين لا يعرف أحد ما سيؤول إليه أمره ، فيكونون في أمن من ذلك بطمأنة الملائكة إياهم .

وذلك مفاد قوله تعالى : ﴿ وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ فهؤلاء

الذين سبقت لهم الحسنى هم المراد من الاستثناء في قوله تعالى:

﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا مَن شاء الله ﴾ [النمل : 87].

والتلقي : التعرض للشيء عند حلوله تعرض كرامة .

والصيغة تشعر بتكلف لقائه وهو تكلف تهيؤ واستعداد .

وجملة ﴿ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ مقول لقول محذوف ، أي يقولون لهم : هذا يومكم الذي كنتم توعدون ، تذكيراً لهم بما وُعدوا في الدنيا من الثواب ، لئلا يحسبوا أن الموعود به يقع في يوم آخر .

أي هذا يوم تعجيل وعدكم .

والإشارة باسم إشارة القريب لتعيين اليوم وتمييزه بأنه اليوم الحاضر .

وإضافة (يوم) إلى ضمير المخاطبين لإفادة اختصاصه بهم وكون فائدتهم حاصلة فيه كقول جرير:

يا أيها الراكب المزجي مطيته . . .

هذا زمَانُك إني قد خلا زمني

أي هذا الزمن المختص بك ، أي لتتصرف فيه .

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾

جملة مستأنفة قصد منها إعادة ذكر البعث والاستدلال على وقوعه وإمكانِه إبطالاً لإحالة المشركين وقوعه بعلة أن الأجساد التي يدّعي بعثها قد انتابها الفناء العظيم ﴿ وقالوا أإذا كنا تراباً وعظاماً أإنا لفي خلق جديد ﴾ [السجدة : 10] والمناسبة في هذا الانتقال هو ما جرى من ذكر الحشر والعقاب والثواب من قوله تعالى ﴿ لهم فيها زفير ﴾ [الأنبياء : 100] وقوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ [الأنبياء : 101] الآية .

وقد رُتّب نظم الجملة على التقديم والتأخير لأغراض بليغة .

وأصل الجملة : نعيد الخلق كما بدأنا أولَ خلق يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب وعْداً علينا .

فحُوّل النظم فقدم الظرف بادىء ذي بَدء للتشويق إلى متعلقه ، ولما في الجملة التي أضيف إليها الظرف من الغرابة والطباقِ إذ جعل ابتداءُ خلق جديد وهو البعث مؤقتاً بوقت نقض خَلق قديم وهو طي السماء .

وقدم ﴿ كما بدأنا أول خلق ﴾ وهو حال من الضمير المنصوب في ﴿ نعيده ﴾ للتعجيل بإيراد الدليل قبل الدعوى لتتمكن في النفس فضلَ تمكّن .

وكل ذلك وجوه للاهتمام بتحقيق وقوع البعث ، فليس قوله ﴿ يوم نطوي السماء ﴾ متعلقاً

بما قبله من قوله تعالى : ﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ [الأنبياء : 103] .

وعقب ذلك بما يفيد تحقق حصول البعث من كونه وعداً على الله بتضمين الوعد معنى الإيجاب ، فعدي بحرف (على) في قوله تعالى : ﴿ وعداً علينا ﴾ أي حقاً واجباً .

وجملة ﴿ إنا كنا فاعلين ﴾ مؤكّدة بحرف التوكيد لتنزيل المخاطبين منزلة من ينكر قدرة الله لأنهم لما نَفَوا البعث بعلة تعذر إعادة الأجسام بعد فنائها فقد لزمهم إحالتهم ذلك في جانب قدرة الله .

والمراد بقوله ﴿ فاعلين ﴾ أنه الفاعل لما وُعد به ، أي القادر .

والمعنى : إنا كنا قادرين على ذلك .

(247/515)

وفي ذكر فعل الكون إفادة أن قدرته قد تحققت بما دل عليه دليل قوله ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ .

والطّيُّ : رَدُّ بعض أجزاء الجسم اللّيِن المطلوق على بعْضه الآخر ، وضدّه النشر .

والسجل : بكسر السين وكسر الجيم هنا ، وفيه لغات .

يطلق على الورقة التي يكتب فيها ، ويُطلق على كاتب الصحيفة ، ولعله تسمية على تقدير

مضاف محذوف ، أي صاحب السجل ، وقيل سجل : اسم ملك في السماء ترفع إليه صحائف أعمال العباد فيحفظها .

ولا يحسن حملهُ هنا على معنى الصحيفة لأنه لا يلائم إضافة الطيّ إليه ولا إردافه لقوله ﴿ للكتاب ﴾ أو ﴿ للكتب ، ﴾ ولا حملهُ على معنى المَلَك الموكَل بصحائف الأعمال لأنه لم يكن مشهوراً فكيف يشبه بفعله .

فالوجه : أن يراد بالسجل الكاتب الذي يكتب الصحيفة ثم يطويها عند انتهاء كتابتها ، وذلك عمل معروف .

فالتشبيه بعمله رشيق .

وقرأ الجمهور ﴿ للكتاب ﴾ بصيغة الإفراد ، وقرأه حفص وحمزة والكسائي وخلف ﴿ للكُتُب ﴾ بضم الكاف وضم التاء بصيغة الجمع .

ولما كان تعريف السجل وتعريفُ الكتاب تعريفَ جنس استوى في المعرّف الإفرادُ والجمعُ .

فأما قراءتهما بصيغة الإفراد ففيها محسن مراعاة النظير في الصيغة ، وأما قراءة الكتب بصيغة الجمع مع كون السِجل مفرداً ففيها حسن التفنن بالتضاد .

ورسمُها في المصحف بدون ألف يحتمل القراءتين لأن الألف قد يُحذف في مثله .

واللام في قوله ﴿ للكتاب ﴾ لتقوية العامل فهي داخلة على مفعول ﴿ طَيّ ﴾ .

ومعنى طي السماء تغييرُ أجرامها من موقع إلى موقع أو اقترابُ بعضها من بعض كما تتغير

أطراف الورقة المنشورة حين تطوى ليَكتب الكاتب في إحدى صفحتيها ، وهذا مظهر من مظاهر انقراض النظام الحالي ، وهو انقراض له أحوال كثيرة وُصف بعضها في سُور من القرآن .

(248/515)

وليس في الآية دليل على اضمحلال السماوات بل على اختلال نظامها ، وفي [سورة الزمر : 67] ﴿ والسماوات مطويات بيمينه ﴾ ومسألة دثور السماوات (أي اضمحلالها) فَرَضَها الحكماء المتقدمون ومال إلى القول باضمحلالها في آخر الأمر (انكسمائس) المَلْطي و(فيثاغورس) و(أفلاطون) .

وقرأ الجمهور نطوي ﴾ بنون العظمة وكسر الواو ونصب ﴿ السماء ﴾ .

وقرأه أبو جعفر بضم تاء مضارعة المؤنث وفتح الواو مبنياً للنائب وبرفع ﴿ السماء ﴾ .

والبَدء : الفعل الذي لم يُسبق مماثله بالنسبة إلى فاعلٍ أو إلى زمانٍ أو نحو ذلك .

وبَدْء الخلق كونه لم يكن قبل ، أي كما جعلنا خلْقاً مبدوءاً غير مسبوق في نوعه .

وخلق : مصدر بمعنى المفعول .

ومعنى إعادة الخلق : إعادة مماثلة في صورته فإن الخلق أي المخلوق باعتبار أنه فرد من

جنس إذَا اضمحل فقيل فإنما يعاد مثله لأن الأجناس لا تحقق لها في الخارج إلا في ضمن أفرادها كما قال تعالى : ﴿ سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ أي مثل سيرتها في جنسها ، أي في أنها عصا من العصيّ .

وظاهر ما أفاده الكاف من التشبيه في قوله تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ أن إعادة خلق الأجسام شبّهت بابتداء خلقها .

ووجه الشبه هو إمكان كليهما والقدرة عليهما وهو الذي سيق له الكلام على أن التشبيه صالح للمماثلة في غير ذلك .

روى مسلم عن ابن عباس قال : " قام فينا رسول الله بموعظة فقال : يا أيها الناس إنكم تُحشرون إلى الله حُفاة عراة غُرْلاً ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ " الحديث .

فهذا تفسير لبعض ما أفاده التشبيه وهو من طريق الوحي واللفظ لا يأباه فيجب أن يعتبر معنى للكاف مع المعنى الذي دلت عليه بظاهر السياق .

وهذا من تفاريع المقدمة التاسعة من مقدمات تفسيرنا هذا .

وانتصب ﴿ وعداً ﴾ على أنه مفعول مطلق ل ﴿ نعيده ﴾ لأن الإخبار بالإعادة في معنى الوعد بذلك فانتصب على بيان النوع للإعادة .

ويجوز كونه مفعولاً مطلقاً مؤكداً لمضمون جملة ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(249/515)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) ﴾

بعد أن ذكر سبحانه جزاء الكافرين في النار ذكر المقابل ، وذِكْر المقابل يوضح المعنى ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : 13 - 14] .

ويقول : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً . . ﴾ [التوبة : 82] لذلك تظل المقارنة حيَّة في الذِّهْن .

ومعنى : ﴿ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى . . ﴾ [الأنبياء : 101] الحُسْنى : مؤنث الأحسن ، تقول : هذا حَسَن ، وهذه حسنة ، فإنْ أردتَ المبالغة تقول : هذا أحسن ، وهذه حُسْنى . مثل : أكبر وكُبْرى . ومعنى : ﴿ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى . . ﴾ [الأنبياء : 101] أنهم من أهل الطاعة ، ومن أهل الجنة ، فهكذا حُكْم الله لهم ، وقد أخذ

الله تعالى جزءاً من خَلْقه وقال : " هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء للنار ولا أبالي " .

ولا تقُلْ : ما ذنب هؤلاء ؟ لأنه سبحانه حكم بسابق عِلْمه بطاعة هؤلاء ، ومعصية هؤلاء

.

وقوله : ﴿ أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] أي : مبعدون عن النار .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشتهت . . ﴾ .

حسيس النار : أزيزها ، وما ينبعث منها من أصوات أول ما تشتعل ﴿ وَهُمْ فِي مَا اشتهت أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 102] فلم يقُلْ مثلاً : وهم بما اشتهتْ أنفسهم ، إنما ﴿ فِي مَا اشتهت أَنفُسُهُمْ . . ﴾ [الأنبياء : 102] كأنهم غارقون في النعيم ممَّا اشتهتْ أنفسهم ، كأن شهوات أنفسهم ظرف يحتويهم ويشملهم . وهذا يُشوِّق أهل الخير والصلاح للجنة ونعيمها ، حتى نعمل لها ، ونُعِد العُدَّة لهذا النعيم .

(250/515)

وسبق أن قلنا : إن الإنسان يتعب في أول حياته ، ويتعلم صنعة ، أو يأخذ شهادة لينتفع بها فيما بعد ويرتاح في مستقبل حياته ، وعلى قَدْر تعبك ومجهودك تكون راحتك ، فكل ثمرة لا بُدَّ لها من حَرْث ومجهود ، والله عز وجل لا يُضيع أجرَ مَنْ أحسن عملاً .

وكنا نرى بعض الفلاحين يقضي يومه في حقله ، مهملَ الثياب ، رثَّ الهيئة ، لا يشغله إلا العمل في زرعه ، وآخر تراه مُهنْدماً نظيفاً يجلس على المقهى سعيداً بهذه الراحة ، وربما يتندر على صاحبه الذي يُشقِي نفسه في العمل ، حتى إذا ما جاء وقت الحصاد وجد العامل ثمرة تعبه ، ولم يجد الكسول غير الحسرة والندم .

إذن : ربك – عز وجل – أعطاك الطاقة والجوارح ، ويريد منك الحركة ، وفي الحركة بركة ، فلو أن الفلاح جلس يُقلِّب في أرضه ويُثير تربتها دون أنْ يزرعها لَعوَّضه الله وأثمر تعبه ، ولو أن يجد شيئاً في الأرض ينتفع به مثل خاتم ذهب أو غيره .

وترف الإنسان وراحته بحسب تَعبه في بداية حياته ، فالذي يتعب ويعرق مثلاً عَشْر سنين يرتاح طوال عمره ، فإنْ تعب عشرين سنة يرتاح ويرتاح أولاده من بعده ، وإنْ تعِب ثلاثين سنة يرتاح أحفاده وهكذا .

وترَف المتعلم يكون بحسب شهادته : فهذا شهادة متوسطة ، وهذا عُلْيا ، وهذا أخذ الدكتوراة ، ليكون له مركز ومكانة في مجتمعه .

لكن مهما أعدَّ الإنسان لنفسه من نعيم الحياة وترفها فإنه نعيم بقّدْر إمكانياته وطاقاته ؛ لذلك ذكرنا أننا حين سافرنا إلى سان فرانسيسكو رأينا أحد الفنادق الفخمة وقالوا : إن الملك فيصل – رحمه الله – كان ينزل فيه ، فأردنا أنْ نتجوّل فيه ، وفعلاً أخذنا بما فيه مظاهر الترف والأُبهة وروعة الهندسة ، وكان معي ناس من عِلْية القوم فقلتُ لهم : هذا ما

أعدّه العباد للعباد ، فما بالكم بما أعدَّه رب العباد للعباد ؟

فإذا ما رأيتَ أهل النعيم والترف في الدنيا فلا تحقد عليهم ؛ لأن نعيمهم يُذكِّرك ويُشوِّقك لنعيم الآخرة .

(251/515)

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر . . ﴾ .

ذلك لأنهم في نعيم دائم لا ينقطع ، وعطاء غير مجذوذ ، لا يفوتك بالفقر ولا تفوته بالموت ؛ لذلك : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر . . ﴾ [الأنبياء : 103] وأيُّ فزع مع هذه النعمة الباقية ؟ أو : لا يحزنهم فزع القيامة وأهوالها .

وقوله : ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الملائكة هذا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 103] فقد صَدَقكم الله وَعْده ، وأنجزَ لكم ما وعدكم به من نعيم الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السماء كَطَيِّ السجل لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ . . ﴾ .

أي : ما يحدث من عذاب الكفار وتنعيم المؤمنين سيكون ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السماء كَطَيِّ السجل لِلْكُتُبِ . . ﴾ [الأنبياء : 104] و(يَوْمَ) : زمن وظَرْف للأحداث ، فكأن ما يحدث للكافرين من العذاب والتنكيل ، وما يحدث للمؤمنين من الخلود في النعيم يتم في هذا

اليوم .

والسجل : هو القرطاس ، والورق الذي نكتب فيه يُسمَّى سجلاً ؛ ولذلك الناس يقولون : نسجل كذا ، أي : نكتبه في ورقة حتى يكون محفوظاً ، والكتاب : هو المكتوب .

والحق سبحانه يقول في آية أخرى : ﴿ والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ . . ﴾ [الزمر : 67] يطويها بقدرته ؛ لأن اليمين عندنا هي الفاعلة في الأشياء ، ولكن لا نأخذ الطي أنه الطي المعروف ، بل نأخذه في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . ﴾ [الشورى : 11] .

وقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ . . ﴾ [الأنبياء : 104] يدلنا على أن الحق سبحانه يتكلم عن الخَلْق الأول و ﴿ نُّعِيدُهُ . . ﴾ تدل على وجود خَلْق ثَان .

(252/515)

إذن : فقوله تعالى في موضع آخر : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات وَبَرَزُواْ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : 48] دليل على أن الخَلْق الأول خَلْق فيه الأسباب وفيه المسبّب ، فالحق سبحانه أعطاك في الدنيا مُقوّمات الحياة من : الشمس والقمر والمطر والأرض والماء . . . . الخ ، وهذه أمور لا دَخْل لك فيها ، وكل ما عليك أنْ تستخدمَ عقلك الذي خلقه الله في الترقي بهذه الأشياء والترف بها .

أما في الخلق الثاني فأنت فقط تستقبل النعيم من الله دون أَخْذ بالأسباب التي تعرفها في الدنيا ؛ لأن الآخرة لا تقوم بالأسباب إنما بالمسبِّب سبحانه ، وحين ترى في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر تعلم أن فِعْل ربك لك أعظم من فِعْلك لنفسك .

ومهما ارتقتْ أسباب الترف في الدنيا ، ومهما تفنَّن الخَلْق في أسباب الراحة والخدمة الراقية ، فقصارى ما عندهم أن تضغط على زرٍّ يفتح لك الباب ، أو يُحضِر لك الطعام أو القهوة ، لكن أتحدَّى العالم بما لدية من تقدُّم وتكنولوجيا أنْ يُقدم لي ما يخطر ببالي من طعام أو شراب ، فأراه أمامي دون أنْ أتكلم ؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله عز وجل .

فقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ . . ﴾ [الأنبياء : 103] فالمعنى ليستْ مجرد إعادته كما كان ، إنما نعيده على أَرْقى وأفضل مما كان بحيث يصل بك النعيم أنْ يخطرَ الشئ ببالك فتجده بين يديك ، بل إنَّ المؤمن في الجنة يتناول الصنف من الفاكهة فيقول : لقد أكلْتُ مثل هذا من قبل فيُقال له : ليس كذلك بل هو أفضل مما أكلْتَ ، وأهنأ مما تذوقتَ . فلو تناولتَ مثلاً تفاح الدنيا تراه خاضعاً لنوعية التُّرْبة والماء والجو المحيط به والمبيدات التي لا يستغني عنها الزرع هذه الأيام . . . إلخ . أمّا تفاح الآخرة فهو شيء آخر تماماً ، إنه صَنْعة ربانية وإعداد إلهيّ .

وكأن الحق سبحانه يلفت عباده إلى أن عنايته بهم أفضل من عنايتهم بأنفسهم ؛ لأنه سبحانه أوْلَى بنا من أنفسنا ، ولكي نعلم الفرق بين الشيء في أيدينا والشيء في يده عز وجل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَعْداً عَلَيْنَا آنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : 104] أي : لا يُخرِجنا شيء عمَّا وعدنا به ، ولا يخالفنا أحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(254/515)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) ﴾

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وأبو داود في ناسخه والحاكم وصححه من طرق ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ قال المشركون : فالملائكة وعيسى وعزير ، يعبدون من دون الله . فنزلت ﴿ إن الذين سبقت لهم منا

الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ عيسى وعزير والملائكة .

وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء عبد الله بن الزبعرى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : تزعم أن الله أنزل عليه هذه الآية ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ قال ابن الزبعرى : قد عبدت الشمس ، والقمر والملائكة ، وعزير وعيسى ابن مريم ، كل هؤلاء في النار مع آلهتنا ، فنزلت ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾ [الزخرف : 57] ثم نزلت ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ .

(255/515)

وأخرج أبو داود في ناسخه وابن المنذر وابن مردويه والطبراني من وجه آخر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ شق ذلك على أهل مكة . وقالوا : شتم الآلهة . فقال ابن الزبعرى : أنا أخصم لكم محمداً ، ادعوه لي فدعي . فقال : يا محمد ، هذا شيء لآلهتنا خاصة ؟ أم لكل عبد من دون الله ؟ قال : بل لكل من عبد من دون الله فقال ابن الزبعرى : خصمت .

ورب هذه البنية ، يعني الكعبة ، ألست تزعم يا محمد ، أن عيسى عبد صالح ، وأن عزيراً عبد صالح ، وأن الملائكة صالحون ؟ قال : بلى . قال : فهذه النصارى تعبد عيسى . وهذه اليهود . تعبد عزيراً ، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة ، فضج أهل مكة وفرحوا ! فنزلت ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ عزير وعيسى والملائكة ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾ ونزلت ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ﴾ [الزخرف : 57] قال : وهو الصحيح .

وأخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ ثم نسختها ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ يعني عيسى ومن كان معه .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله ﴾ يعني الآلهة ومن يعبدها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ حصب جهنم ﴾ قال : وقودها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ حصب جهنم ﴾ قال : شجر جهنم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ حصب

جهنم ﴾ قال : حطب جهنم بالزنجية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن عكرمة رضي الله عنه في قوله : ﴿ حصب جهنم ﴾ قال : حطب جهنم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ حصب جهنم ﴾ قال : يقذفون فيها .

(256/515)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ حصب جهنم ﴾ قال : حطبها .

قال بعض القراء " حطب جهنم " من قراءة عائشة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ حصب جهنم ﴾ يقول : إن جهنم تحصب بهم ، وهو الرمي : يقول : يرمي بهم فيها .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله : " حضب جهنم " بالضاد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في صفة النار ، والطبراني والبيهقي في البعث ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إذا بقي في النار من يخلد فيها ، جعلوا في توابيت من حديد نار ، فيها مسامير من حديد نار ، ثم جعلت تلك التوابيت في

توابيت من حديد ، ثم قذفوا في أسفل الجحيم فما يرى أحدهم أنه يعذب في النار غيره . ثم قرأ مسعود رضي الله عنه ﴿ لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ قال : عيسى والملائكة وعزير " .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾ قال : عيسى وعزير والملائكة .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أصبغ ، عن علي في قوله : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ الآية . قال : كل شيء يعبد من دون الله في النار ، إلا الشمس والقمر وعيسى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ قال : أولئك أولياء الله ، يمرون على الصراط مراً هو أسرع من البرق فلا تصيبهم و ﴿ يسمعون حسيسها ﴾ ويبقى الكفار فيها حبيساً .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عدي وابن مردويه ، عن النعمان بن بشير : أن علياً قرأ ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ فقال : أنا منهم وعمر منهم وعثمان منهم والزبير منهم وطلحة منهم وسعد وعبد الرحمن منهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي عثمان النهدي في قوله : ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ قال : حيات على الصراط تلسعهم ، فإذا لسعتهم قالوا : حس . . حس .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة ، " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ قال : حيات على الصراط تقول : حس حس " .

وأخرج ابن مردويه وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ قال : السعادة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير ، عن محمد بن حاطب قال : سئل علي عن هذه الآية ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ قال : هو عثمان وأصحابه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ يقول : لا يسمع أهل الجنة حسيس أهل النار إذا نزلوا منازلهم من الجنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سفيان ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ قال : صوتها .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري قالا : قال في سورة الأنبياء ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ إلى قوله : ﴿ وهم فيها لا يسمعون

﴿ ثم استثنى فقال : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ فقد عبدت الملائكة من دون الله وعزير وعيسى .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : يقول ناس من الناس : إن الله قال : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ يعني من الناس أجمعين ، وليس كذلك إنما يعني من يعبد الله تعالى ، وهو لله مطيع مثل عيسى وأمه وعزير والملائكة . واستثنى الله تعالى هؤلاء من الآلهة المعبودة التي هي مع من يعبدها في النار .

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ قال : أذا أطبقت جهنم على أهلها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ يعني النفخة الآخرة .

(258/515)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ قال : النار إذا أطبقت على أهلها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن الحسن ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ قال : إذا

أطبقت النار عليهم ، يعني على الكفار .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ قال : انصراف العبد حين يؤمر به إلى النار .

وأخرج ابن جرير في قوله : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ قال : حين تطبق جهنم . وقال : حين ذبح الموت .

وأخرج البزار وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن للمهاجرين منابر من ذهب يجلسون عليها يوم القيامة قد أمنوا من الفزع " .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة أن رسول الله صلى عليه وسلم قال : " بشر المدلجين في الظلم بمنابر من نور يوم القيامة ، يفزع الناس ولا يفزعون " .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول : " المتحابون في الله في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله على منابر من نور ، يفزع الناس ولا يفزعون " .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة على كثبان المسك لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة : رجل أَمَّ قوماً وهم به راضون ، ورجل كان يؤذن في كل يوم وليلة ، وعبد أدى حق الله وحق مواليه " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ قال : تتلقاهم الملائكة

الذين كانوا قرناءهم في الدنيا يوم القيامة ، فيقولون : نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ قال : هذا قبل أن يدخلوا الجنة .

وأخرج عبد بن حميد عن علي في قوله : ﴿ كطي السجل ﴾ قال : ملك .

وأخرج عبد بن حميد عن عطية قال : السجل ، اسم ملك .

(259/515)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله : ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل ﴾ قال : السجل ملك ، فإذا صعد بالاستغفار قال : اكتبوها نوراً .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن أبي جعفر الباقر قال : السجل ملك ، وكان هاروت وماروت من أعوانه ، وكان له كل يوم ثلاث لمحات ينظرهن في أم الكتاب ، فنظر نظرة لم تكن له ، فأبصر فيها خلق آدم وما فيه من الأمور فأسّر ذلك إلى هاروت وماروت ، فلما قال تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة : 30] قال : ذلك استطالة على الملائكة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن السدي قال : السجل ملك موكل بالصحف ، فإذا مات دفع كتابه إلى السجل فطواه ورفعه إلى يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد في الآية قال : السجل ، الصحيفة .

وأخرج أبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده في المعرفة ، وابن مردويه والبيهقي في سننه وصححه عن ابن عباس قال : السجل ، كاتب للنبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن المنذر وابن عدي وابن عساكر ، عن ابن عباس قال : كان لرسول الله صلى عليه وسلم كاتب يسمى السجل ، وهو قوله : ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ .

وأخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر ، عن ابن عباس قال : السجل ، هو الرجل ، زاد ابن مردويه بلغة الحبشة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كطي السجل للكتب ﴾ قال : كطي الصحيفة على الكتاب .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ كما بدأنا أوّل خلق نعيده ﴾ يقول : نهلك كل شيء كما كان أوّل مرة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ كما بدأنا أوّل خلق نعيده ﴾ قال : عراة حفاة غرلاً .

(260/515)

وأخرج ابن جرير عن عائشة قالت : " دخل عليّ رسول الله صلى عليه وسلم وعندي عجوز من بني عامر فقال : من هذه العجوز يا عائشة ؟ فقلت : إحدى خالاتي . فقالت : ادع الله أن يدخلني الجنة . فقال : إن الجنة لا يدخلها العجوز . فأخذ العجوز ما أخذها فقال : إن الله تعالى ينشئهن خلقاً غير خلقهن ، ثم قال : تحشرون حفاة عراة غلفاً . فقالت : حاشا لله من ذلك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى . إن الله تعالى قال : ﴿ كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ فأول من يكسى إبراهيم خليل الرحمن " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : يبعثهم الله يوم القيامة على قامة آدم وجسمه ، ولسانه السريانية ، عراة حفاة غرلاً كما ولدوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(261/515)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) ﴾

قوله : ﴿ مِنَّا ﴾ : يجوز أن يتعلَّقَ ب " سَبَقَتْ " ، ويجوز أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنَّها حالٌ من الحسنى .

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102)

قوله : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ بدلاً من " مُبْعَدُون " لأنه يَحُلُّ مَحَلَّه ، فيغني عنه ، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً ، ويجوز أَنْ يكونَ حالاً من الضميرِ المستترِ في " مُبْعَدون " .

قوله : ﴿ وَهُمْ فِي مَا اشتهت ﴾ إلى قوله " وتَتَلَقَّاهم " كلُّ جملةٍ من هذه الجملِ يحتمل أَنْ تكونَ حالاً مِمَّا قبلها . وأن تكون مستأنفةً . وكذا الجملةُ المضمرةُ من القولِ العاملِ في جملة قولِه " هذا يومُكم " إذا التقديرُ : وتَتَلَقَّاهم يقولون : هذا يومُكم .

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104)

قوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه منصوبٌ ب " لا يَحْزُنُهم " . والثاني : أنه منصوبٌ ب " تتلقَّاهم " . الثالث أنه منصوبٌ بإضمار اذكر أو أعني . الرابع : أنه بدلٌ من

العائدِ المقدرِ تقديرُه : تُوْعَدُونه/ يومَ نَطْوي ف " يومَ " بدل من الهاء . ذكره أبو البقاء . وفيه نظرٌ ؛ إذ يَلْزَمُ مِنْ ذلك خُلُوُّ الجملةِ الموصولِ بها من عائدٍ على الموصول ، ولذلك مَنَعُوا " جاء الذي مررتُ به أبي عبد الله " على أن يكونَ " أبي عبد الله " بدلاً من الهاءِ لما ذكرْتُ ، وإن كان في المسألة خلاف . الخامس : أنه منصوبٌ بالفزع ، قاله الزمخشري ، وفيه نظر ؛ من حيث إنه أَعْمَلَ المصدرَ الموصوفَ قبل أَخْذِه معمولَه .

(262/515)

وقد تقدَّم أنَّ نافعاً يقرأ "يُحْزِنُ" بضم الياء إلاَّ هنا ، وأن شيخَه ابن القَعْقاع يَقْرأ "يَحْزُن" بالفتح إلاَّ هنا .

وقرأ العامَّة " نَطْوي " بنون العظمة وشيبة بن نصاح في آخرين " يطوي " بياء الغَيْبة ، والفاعلُ هو الله تعالى ، وقرأ أبو جعفر في آخرين " تطوى " بضمِّ التاءِ مِنْ فوقُ وفتحِ الواوِ مبنياً للمفعول .

وقرأ العامَّةُ " السِّجِلِّ " بكسر السينِ والجيمِ وتشديدِ اللامِ كالطِّمِرِّ . وقرأ أبو هريرة وصاحبُه أبو زرعة بن عمرو بن جرير بضمِّهما ، واللامُ مشددةٌ أيضاً بزنةِ " عُتُلّ " . ونقل أبو البقاء تخفيفَها في هذه القراءةِ أيضاً ، فتكونَ بزنةِ عُنُق ، وأبو السَّمَّال وطلحة والأعمش

بفتح السين . والحسن وعيسى بن عمر [بكسرِها] . والجيمُ في هاتين القراءتين ساكنةٌ واللامُ مخففةٌ ، قال أبو عمرو : " قراءةُ أهلِ مكةَ مثل قراءةِ الحسن " .

والسِّجِلُّ : الصحيفةُ مطلقاً . وقيل : بل هو مخصوصٌ بصحيفةِ العهد ، وهي من المساجلةِ ، والسَجْل : الدلْوُ الملأى . وقال بعضهم : هو فارسيٌّ معرَّب فلا اشتقاقَ له .

و" طَيّ " مصدرٌ مضافٌ للمفعولِ . والفاعلُ محذوفٌ تقديرُه : كما يطوي الرجلُ الصحيفةَ ليكتبَ فيها ، أَو لما يكتُبه فيها من المعاني ، والفاعلُ يُحْذف مع المصدرِ باطِّراد . والكلامُ في الكاف معروفٌ أعني كونَها نعتاً لمصدرٍ مقدرٍ أو حالاً مِنْ ضميرِه . وأصلُ طيّ : طَوْيٌ فأُعِلَّ كنظائره .

(263/515)

وقيل : السِّجِلُّ سامُ مَلَكٍ يَطْوي كتبَ أعمالِ بني آدم . وقيل : اسمُ رجلٍ كان يكتب لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم . وعلى هذين القولين يكون المصدرُ مضافاً لفاعله . و" الكتاب " اسمٌ للصحيفةِ المكتوبِ فيها . وقال أبو إسحاق : " السِّجِلُّ : الرجلُ بلسان الحبشة " . وقال الزمخشري : كما يطوى الطُّومارُ للكتابة ، أي : ليُكتبَ فيه ، أو لما يُكتب فيه ؛ لأن الكتابَ أصلُه المصدرُ كالبناء ثم يوقع على المكتوب " . فقدَّره الزمخشريُّ من الفعلِ المبنيِّ

للمفعول .

وقد عَرَفْتَ ما فيه من الخلاف .

واللام في " للكتاب " : إمَّا مزيدةٌ في المفعول إنْ قلنا إنَّ المصدرَ مضافٌ لفاعِله ، وإمَّا متعلقةٌ بطَيّ ، وإمَّا بمعنى " على " . وهذا ينبغي أَنْ لا يجوزَ لبُعْدِ معناه على كل قول . والقراءاتُ المذكورةُ في " السِّجِلْ " كلُّها لغات . وقرأ الأخَوان وحفص " للكتب " جمعاً ، والباقون " للكتاب " مفرداً ، والرسُم يحتملهما : فالإفرادُ يُراد به الجنسُ ، والجمعُ للدلالةِ على الاختلافِ .

قوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ ﴾ في متعلّق هذه الكافِ وجهان ، أحدُهما : أنَّها متعلقةٌ ب " نُعِيده " ، و" ما " مصدريةٌ و" بدأنا " صلتُها ، فهي وما في حَيِّزِها في محلِّ جر بالكاف . و" أولَ خَلْقٍ " مفعولُ " بَدَأْنا " ، والمعنى : نُعيد أولَ خَلْقٍ إعادةً مثلَ بَداءَتِنا له أي : كما أبْرَزْناه من العَدَمِ إلى الوجودِ نُعيده من العَدَمِ إلى الوجود . وإلى هذا نحا أبو البقاء فإنه قال : " الكافُ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ أي : نُعيده عَوْداً مثلَ بَدْئه " وفي قولِه : " عَوْد " نظرٌ إذ الأحسنُ أَنْ يقولَ : إعادة .

والثاني : أنها تتعلَّقُ بفعلٍ مضمرٍ . قال الزمخشري : " ووجهٌ آخرُ : وهو أَنْ تَنْتَصِبَ الكافُ بفعلٍ مضمرٍ يفسّره " نُعيده " و " ما " موصولةٌ أي : نُعيد مثلَ الذي بَدَأْنا نُعيده ، و " أولَ خَلْقٍ " ظرف ل " بَدَأْناه " أي : أولَ ما خلق ، أو حالٌ من ضميرِ الموصولِ السَّاقط من اللفظِ الثابتِ في المعنى " .

قال الشيخ : " وفي تقديرِه تهيئةُ " بَدَأْنا " لأَنْ يَنْصِبَ " أولَ خَلْقٍ " على المفعوليةِ وقَطْعُه عنه ، من غيرِ ضرورةٍ تدعو إلى ذلك ، وارتكابُ إضمارٍ بعيدٍ مُفَسَّرًا ب " نُعِيْدُه " ، وهذه عُجْمَةٌ في كتاب الله . وأمَّا قولُه " ووجهٌ آخرُ : وهو أن تنتصبَ الكافُ بفعلٍ مضمرٍ يفسّرُه " نُعِيْدُه " فهو ضعيفٌ جداً ؛ لأنه مبنيٌّ على أن الكافَ اسمٌ لا حرفٌ ، وليس مذهبَ الجمهور ، وإنما ذهب إلى ذلك الأخفشُ . وكونُها اسماً عند البصريين مخصوصٌ بالشعرِ " .

قلت : كلُّ ما قَدَّره فهو جارٍ على القواعدِ المنضبطةِ ، وقادَه إلى ذلك المعنى الصحيحُ ، فلا مُؤَاخَذَةَ عليه . يظهرُ ذلك بالتأمُّلِ لغيرِ الفَطِنِ .

وأمَّا قوله : " ما " ففيها ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنها مصدريةٌ . والثاني : أنَّها بمعنى الذي . وقد تقدَّم تقريرُ هذين والثالث : أنها كافةٌ للكافِ عن العملِ كما هي في قولِه :

3366 . . . . . كما الناسُ

مَجْرُوْمٌ عليه وجارِمُ

فيمَنْ رفع " الناس " . قال الزمخشري : " أولَ خَلْقٍ " مفعولُ " نُعيد " الذي يُفَسّره " نُعِيده "

، والكافُ مكفوفةٌ ب " ما " . والمعنى : نُعيد أولَ الخَلْقِ كما بَدَأْناه تَشْبيهاً للإعادةِ بالابتداء في تناوُلِ/ القُدْرَةِ لهما على السَّواء .

فإنْ قلتَ : فما أولُ الخَلْقِ حتى يُعيدَه كما بدأه ؟ قلت : أوَّلُه إيجادُه عن العَدَمِ ، فكما أوجدَه أولاً عن عدمٍ يُعيده ثانياً عن عدمٍ " .

(265/515)

وأمَّا " أولَ خلق " فتَحصَّل فيه أربعةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه مفعولُ " بَدَأْنا " . والثاني : أنه ظرفٌ ل " بَدَأْنا " . والثالث : أنه منصوبٌ على الحال مِنْ ضميرِ الموصولِ كما تقدَّم تقريرُ كل ذلك . والرابع : أنه حالٌ مِنْ مفعول " نُعيده " قاله أبو البقاء ، والمعنى : مثلَ أولِ خَلْقِه .

وأمَّا تنكيرُ " خَلْقٍ " فللدلالةِ على التفصيلِ . قاله الزمخشري : " فإن قلتَ " ما بالُ " خَلْقٍ " منكَّراً ؟ قلت : هو كقولِك : " هو أولُ رجلٍ جاءني " تريد : أول الرجال . ولكنك وَحَّدْتَه ونَكَّرتَه إرادةَ تفصيلِهم رجلاً رجلاً ، وكذلك معنى " أولَ خَلْقٍ " بمعنى : أول الخلائق ؛ لأنَّ الخَلْقَ مصدرٌ لا يُجْمَعُ " .

قوله : ﴿ وَعْداً ﴾ منصوبٌ على المصدرِ المؤكِّد لمضمونِ الجملة المتقدِّمة ، فناصبُه

مضمرٌ أي : وَعَدْنا ذلك وَعْداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 208 .

213 ﴾

(266/515)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الإحساس)

وقد ورد فى القرآن على أَربعة أَوجه :

الأَول : بمعنى الرُّؤية : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ أَى أَبصر ورأَى ، ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ ﴾ ، ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ .

الثانى : بمعنى القتل والاستئصال : ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾ أَى تستأْصلونهم قتلاً .

الثالث : بمعنى البحث وطلب العلم : ﴿ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ .

الرّابع : بمعنى الصّوت : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أَى صوتها .

والأَصل فيه راجع إِلى الحاسّة ، وهى القوّة الّتى بها يدرك الأَعراض الجِسمِيّة .

والحواسّ : المشاعر الخمس .

يقال : حَسَسْت ، وحَسِسْت ، وحسِيت .

وأَحْسَسْت ، وأَحَسْت .

فحَسسْت على وجهين .

أَحدهما : أَصبته بِحِسّى ؛ نحو عِنْته .

والثانى : أَصبت حاسّته ؛ نحو كَبَدْته .

ولّما كان ذلك قد يتولَّد منه القتلُ (عُبر به عن القتل) فقيل : حَسَسْتُه : أَى قتلته : كقَوله تعالى : ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ والحَسِيس : القتيل .

ومنه جَرَاد محسوس : إِذا طُبِخ ، وقولهم : البَرْد مَحَسّة للنَّبت .

وانحس أَسنانه : انفعال منه (وأَما حسِست فنحو علمت وفهمت ، ولكن لا يقال ذلك إِلاَّ فيما كان من جهة الحاسّة) وأَمّا حسِيت فتقلب إِحدى السّينين ياءً .

وأَمّا أَحسسته فحقيقته : أَدركته .

وأَحَسْتُ مثله ؛ لكن حُذف إِحدى السّينين تخفيفاً ؛ نحو ظَلْت .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أى هل تجد بحاسَّتك أَحداً منهم .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ ﴾ تنبيه أَنه ظهر منهم الكفر ظهورا بان للحسّ ، فضلاً عن التفهّم .

والحُساس : عبارة عن سُوءِ الخُلُق ، على بناءِ زُكام وسعال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 153.154 ﴾

(267/515)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) ﴾

﴿ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى ﴾ : أي الكلمة بالحسنى ، والمشيئة والإرادة بالحسنى ، لأن الحسنى فعله ، وقوله : ﴿ سَبَقَتْ ﴾ إخبار عن قِدَمِه ، والذي كان لهم في القِدَمِ هو الكلمة التي هي صفة تعلَّقَتْ بهم في معنى الإخبار بالسعادة .

ثم قال : ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ أي عن النار ، ولم يقل متباعدون لِيَعْلَمَ العالِمُون أن المدارَ على التقدير ، وسَابقِ الحُكْم من الله ، لا على تَبَاعُدِ العبد أو بتقرُّبه .

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102)

يدل على ذلك أنهم لا يُعَذَّبون فيها بكل وجهٍ . والمراد منه العِبَادُ من المؤمنين الذين لا جُرْمَ لهم .

﴿ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ : مقيمين لا يبرحون .

لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103)

قيل الفزَعُ الأكبرُ قول المَلَكِ : ﴿ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان : 22] .

ويقال إذا قيل : ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يس : 59] .

ويقال إذا قيل : يا أهلَ الجنةِ . . . خلوداً لا موتَ فيه ، ويا أهل النار . خلوداً لا موت فيه !

وقيل إذا : ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] .

وقيل الفزع الأكبر هو الفراق . وقيل هو اليأس من رحمة الله ، وتعريفهم ذلك .

قوله : ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ يقال لهم هذا يومكم الذي كنتم وُعِدْتُم فيه بالثواب ؛

فمنهم مَنْ يتلقَّاه المَلَكُ ، ومنهم مَنْ يَرِدُ عليه الخطاب والتعريف من المَلِك .

(268/515)

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104)

إنما كانت السماءُ سقفاً مرفوعاً حين كان الأولياءُ تحتها ، والأرضُ كانت فِرَاشاً إذ كانوا عليها ، فإذا ارتحل الأحبابُ عنها تخرب ديارهم . على العادة بين الخَلْقِ من خراب الديار

بعد مفارقة الأحباب .

ويقال نطوي السماء التي إليها عَرَجَت دواوينُ العصاة من المسلمين لئلا تشهدَ عليهم بالإجرام ، وتُبَدَّلُ الأرضُ التي عصوا عليها غير تلك الأرض حتى لا تشهد عليهم بالإجرام .

أو نطوي السماء لنُقَرِّبَ قَطْعَ المسافات على الأحباب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 524 . 525 ﴾

(269/515)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس عشر بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/516)

الجزء السادس عشر بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 105 ﴾ من سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وحتى الآية ﴿ 112 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/516)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (106) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107) قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر صدقه في الوعد وسهولة الأفعال عليه ، وكان من محط كثير مما مضى أن من فعل ما لا يرضي الله غيّر عليه ، كائناً من كان ، ومن فعل ما أمره به نصره وأيده ولو بعد حين ، كما أشير إليه بقوله تعالى ﴿ قل ربي يعلم القول في السماء والأرض ﴾ وما بعده من أشكاله ، حتى ختم بقوله ﴿ أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها ﴾ الآية ، قال تعالى عاطفاً على ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ وما عطف عليه من أشباهه مذكراً بما وعد على لسان داود عليه السلام : ﴿ ولقد كتبنا ﴾ أي على عظمتنا التي نفوذها محقق لا تخلف له أصلاً ﴿ في الزبور ﴾ أي الذي أنزلناه على داود عليه السلام .

(5/516)

ولما كان المكتوب المشار إليه لم يستغرق ما بعد الذكر المراد من هذا الزبور ، أشار إلى التبعيض بإثبات الجار فقال : ﴿ من بعد الذكر ﴾ أي الكلام الداعي إلى الله تعالى الدال عليه من الدعاء والمواعظ والتسبيح والتمجيد الذي ابتدأنا به الزبور ﴿ أن الأرض ﴾ أي جنسها الشامل لبقاع أرض الدنيا كلها ولأرض المحشر والجنة وغير ذلك مما يعلمه الله

﴿ يرثها عبادي ﴾ وحقق ما أفادته إضافتهم إليه من الخصوص بقوله : ﴿ الصالحون ﴾ أي المتخلقون بأخلاق أهل الذكر ، المقبلين على ربهم ، الموحدين له ، المشفقين من الساعة ، الراهبين من سطوته ، الراغبين في رحمته ، الخاشعين له - كما أشرنا إليه بقولنا ﴿ قل ربي يعلم القول ﴾ وما ضاهاه وبذكر ما سلف في هذه السورة من شاهد ذلك من قصص هؤلاء الأنبياء الذي ضمنّاها بعض أخبارهم دلالة على أن العاقبة لمن أرضانا ﴿ لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ [إبراهيم : 13-14] ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ﴾ [الأعراف : 128] ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ﴾ [المؤمنون : 11] وفي هذا إشارة بالبشارة بأنه تعالى يورث هذه الأمة على ضعفها ما أورث داود وابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام على ما أعطاهما من القوة من إلانة الحديد والريح والحيوانات كلها من الجن والإنس والوحش والطير وغير ذلك ، والمراد بهذا الكلام - والله أعلم - ظاهره ، فإنه ابتدأ سبحانه الزبور بالأذكار والمواعظ إلى أن قال في المزمور السادس والثلاثين وهو قبل ربعه - هذا اللفظ بعينه .

بيان ذلك :

(6/516)

المزمور الأول : طوبى للرجل الذي لا يتبع رأي المنافقين ، ولم يقف في طريق الخاطئين ، ولم يجلس في مجالس المستهزئين ، لكن في ناموس الرب مشيئته ، وفي سننه يتلوا ليلاً ونهاراً ، فيكون كمثل الشجرة المغروسة على مجاري المياه التي تعطي ثمرتها في حينها ، وورقها لا ينتثر ، وكل ما يعمل يتم ، ليس كذلك المنافقون ، بل كالهباء الذي تذريه الرياح عن وجه الأرض ، فلهذا لا يقوم المنافقون في القضاء ولا الخطأة في مجمع الصديقين ، لأن الرب عالم بطريق الأبرار ، وطريق المنافقين تبيد .

المزمور الثاني : لماذا ارتجت الشعوب ؟ وهدت الأمم بالباطل ؟ قامت ملوك الأرض ورؤساؤها وائتمروا جميعاً على الرب وعلى مسيحه قائلين لنقطع أغلالهما ونلقي عنا سيرهما ، الساكن في السماء يضحك بهم ، والرب يمقتهم ، حينئذ يكلمهم بغضبه ، وبسخطه يذهلهم ، أنا أقمت ملكاً منهم على صهيون جبل قدسه ، لأخبر ميثاق الرب ، الرب قال لي : أنت ابني ، أنا اليوم ولدتك ، سلني فأعطيك الشعوب ، ميراثك وسلطانك على أقطار الأرض ، ترعاهم بقضيب من حديد ، ومثل آنية الفخار تسحقهم ، من الآن تفهموا أيها الملوك ! تأدبوا يا جميع قضاة الأرض ! اعبدوا الرب بخشية ، سبحوه برعدة ، الزموا الأدب لئلا يسخط الرب عليكم فتضلوا عن سبيله العادلة ، إذا ما توقد رجزه عن قليل ، طوباهم المتوكلين عليه .

المزمور الخامس : استمع يارب قولي داعياً ، وكن لدعائي مجيباً ، وأنصت إلى صوت تضرعي ، فإنك ملكي وإلهي ، وإني لك أصلي في غدواتي ، استمع يا رب طلبتي لأقف أمامك بالغداة وتراني ، لأنك إله لا ترضى الإثم ، ولا يحل في مساكنك شرير ، ولا يثبت مخالفو وصاياك بين يديك ، أبغضت جميع عاملي الإثم ، وأبدت كل الناطقين بالكذب ؛ الرجل السافك الدماء الغاش الرب يرذله ، وأنا بكثرة رحمتك أدخل بيتك ، وأسجد في هيكل قدسك مستشعراً بخشيتك ، اهدني يا رب بعدلك ، ومن أجل أعدائي سهل أمامك طريقي ، فإنه ليس في أفواههم صدق ، بل الإثم في قلوبهم ، حناجرهم قبور مفتحة ، وألسنتهم غاشة ، دنهم يا الله ! ومثل كثرة نفاقهم ارفضهم لأنهم أسخطوك يا رب ، ويفرح بك جميع المتوكلين عليك ، وإلى الأبد يسرون ، وفيهم تحل بركتك ، ويفتخر بك كل محبي اسمك ، لأنك يارب تبارك الصديق ، وكمثل سلاح ، المسرة كللتنا .

المزمور السادس : يارب ! لا تبكتني بغضبك ، ولا تؤدبني بزجرك ، ارحمني يا رب فإني ضعيف ، اشفني يارب فإن عظامي قلقت ، ونفسي جزعت جداً ، وأنت نج نفسي وخلصني برحمتك ، فليس في الموتى من يذكرك ، ولا في الجحيم من يشكرك ، تعبت في تنهدي ، أحمم في كل ليلة سريري ، وبدموعي أبلّ فراشي ، ذبلت من السخط عيناي ،

ابعدوا عني يا جميع عاملي الإثم ، فإن الرب سمع صوت بكائي ، الرب سمع صوت تضرعي ، الرب قبل صلاتي ، يخزون ويبهتون جميع أعدائي ، ويتضرعون ويسقطون جداً عاجلاً .

(8/516)

وفي المزمور التاسع : أشكرك يا رب من كل قلبي ، وأقص جميع عجائبك ، أفرح وأسر بك ، وأرتل لاسمك العلي حين تولى أعدائي على أدبارهم يضعفون ويبيدون من بين يديك ، لأنك قضيت لي وانتقمت لي ، استويت على العرش يا ديان الحق ، زجرت الشعوب ، أبدت المنافق أسقطت اسمه إلى الأبد وإلى أبد الأبد ، لأنك أبدت سلاح العدو ، وأفنيت مدائنه ، وأزلت ذكرها ، الرب دائم إلى الأبد ، أعدّ كرسيه للقضاء ليقضي للمسكونة بالعدل ، ويدين الشعوب بالاستقامة .

المزمور الثاني عشر : حتى متى يا رب تنساني إلى التمام ؟ حتى متى يا رب تصرف وجهك عني ؟ حتى متى تترك هذه الأفكار في نفسي والهموم والأوجاع في قلبي النهار كله ؟ حتى متى يعلو عدوي عليّ ؟ انظر إليّ واستجب لي يا ربي وإلهي ! أنر عيني لئلا أنام ميتاً ، ولئلا يقول عدوي : إني عليه قد قدرت ، والمضطهدون لي يفرحون إذا أنا زللت ، وأنا على رحمتك توكلت ، فلبي بخلاصك يفرح ، أرتل الرب الذي صنع لي حسناً ، وأسبح

اسم الرب العالي .

المزمور الرابع عشر : يا رب من يسكن في مسكنك أو من يحل في طور قدسك ؟ ذاك الذي يمشي بلا عيب ويعمل البر ويتكلم في قلبه بالحق ، ولا يغش بلسانه أحداً ، ولا يصنع بقريبه سوءاً ، ولا يلتمس لجيراته عاراً ، عيناه تشنأ الأثمة ، يمجد أتقياء الرب ، يحلف لقريبه ولا يكذب ، ولا يعطي فضته بالربا ، ولا يقبل الرشوة على الأزكياء ، الذي يفعل هذا يدوم ولا يحول إلى الأبد .

(9/516)

المزمور السادس عشر : استمع يا الله يبري ، وانظر إلى تواضعي ، وأنصت لصلاتي من شفتين غير غاشتين ، من قدامك يخرج قضائي ، عيناك تنظران الاستقامة ، بلوت قلبي وتعاهدتني ، جربتني فلم تجد فيّ ظلماً ، ولم يتكلم فمي بأعمال الشر ، من أجل كلام شفتيك حُفظت طرق صعبة لكيما يشتد في سبلك نهوضي ولا تزل خطاي ، وإذا ما دعوتك استجب لي ، اللهم أنصت إليّ أسمعك ، وتقبل دعائي يا مخلص المتوكلين عليك ، خلصني بيمينك من المضادين لي ، احفظني مثل حدقة العين ، وبظلال جناحك ظللني ، من وجه المنافقين الذين أجهدوني ، وأعدائي الذين اكتنفوا نفسي ، تفقدت شحومهم ، وتكلمت

أفواههم بالكبرياء ، عندما أخرجوني أحاطوا بي ، نصبوا عيونهم ليضربوا بي الأرض ، استقبلوني مثل الأسد المستعد للفريسة ، ومثل الشبل الذي يأوي في خفية ، قم يا رب ! أدركهم وعرقلتهم ، ونج نفسي من المنافقين ، ومن سيف أعدائك ، اللهم عن قرب شتتهم في الأرض ، اقسمهم في حياتهم .

(10/516)

المزمور السابع عشر : أحبك يا رب قوتي ! الرب رجائي وملجأي ومخلصني إلهي عوني ، عليه توكلي ، ساتري وخلاصي وناصري ، أسبح الرب وأدعوه ، أنجو من أعدائي ، لأن غمرات الموت اكتنفتني ، وأودية الأثمة أفزعتني ، أحاطت بي أهوال الجحيم ، شباك الموت أدركتني ، وعند شدتي دعوت الرب ، وإلى إلهي صرخت ، سمع من هيكل قدسه صوت دعائي ، أمامه يدخل إلى مسامعه ، تزلزلت الأرض وارتعدت ، تحركت أساسات الجبال وتزعزعت من أجل أن الرب غضب عليها ، صعد الدخان من رجزه والتهبت النار أمامها ، اشتعل منه جمر نار ، طأطأ السماوات ، والضباب تحت رجليه ، طار على أجنحة الرياح ، جعل الظلمة حجابه ، تحوط مظلته مياه مظلمة في سحب الهواء من الزمهرير ظلاله ، ومن بريق نور وجهه جعل الغمام يجري بين يديه ، برداً وجمر نار ، أرعد الرب من السماء ،

وأبدى العلي صوته ، أرسل سهاماً وفرقهم ، وأكثر البرق وأفزعهم وأقلقهم ، ظهرت عيون المياه ، وانكشفت أساسات المسكونة من انتهارك يا رب ! ومن هبوب الريح سخطك ، أرسل من العلى وأخذني ، نشلني من المياه الغزيرة ، وخلصني من أعدائي الأشداء ، ومن المبغضين لي ، لأنهم تقووا أكثر مني ، سبقوني في يوم حزني ، نجاني في يوم جزعي ، الرب صار لي سنداً ، أخرجني إلى السعة ، وأنقذني لأنه ترأف لي ، خلصني من أعدائي الأشداء المبغضين ، جازاني الرب مثل بري ، ومثل طهر يدي يعطيني ، لأني حفظت سبل الرب ، ولم أبعد من إلهي ، إذ كل أحكامه قدامي ، وعدله لم أبعده عني ، أكون معه بلا عيب ، ولم تزدحف خطاي ، جازاني الرب مثل بري ، ومثل طهر يدي أمامه ، مع العفيف عفيفاً تكون ، ومع البار باراً تكون ، ومع الملتوي ملتوياً تكون ، ومع المختار مختاراً تكون ، من أجل أنك تنجي الشعب المتواضع وتذل أعين المتعظمين ، وأنت يا رب تضيء سراجي ، لأني بك أنجو من الرصد ، وبإلهي اعبر السور ، والله لا ريب في سبله ، كلام الرب مختبر ، يخلص جميع المتوكلين عليه ، لا

(11/516)

إله مثل الرب ، ولا عزيز مثل إلهنا ، الإله الذي عضدني بقوته ، جعل سبلي بلا عيب ، ثبت قدمي ، وعلى المشارق رفعني ، علم يدي القتال ، شدد ذراعي مثل قوس نحاس ، أعطاني الخلاص ، يمينه نصرتني ، وأدبه أقامني إلى التمام ، حكمتك علمتني ، وسعت خطاي تحتي ، ولم تضعف قدماي ، أطلب أعدائي وأدركهم ، ولا أرجع حتى أفنيهم ، أرميهم فلا يستطيعون القيام ، يسقطون تحت قدمي ، عضدتني بقوة في الحرب ، جعلت كل الذين قاموا عليّ تحتي ، أبدت أعدائي ، استأصلت الذي شنؤوني ، صرخوا فلم يكن لهم مخلص ، رغبوا إلى الله فلم يستجب لهم ، أسحقهم مثل الثرى أمام الريح ، وكمثل طين الطرق أطؤهم ، نجني من مقاومة الألسن ، سيرني رأساً على الشعوب ، الشعب الذي لا أعرفه تعبد لي ، سمع لي سماع الأذن ، بنو الغرباء أقبلوا وأطيعوني ، ولم يؤمن بي بنو الغرباء ، حي هو الله ، وتبارك إله خلاصي ، تعالى الرب الذي أنقذني ، الله الذي ثبّت لي الانتقام ، أخضع الشعوب تحتي ، ونجاني من أعدائي ، ورفعني على الذين قاموا عليّ ، ومن الرجال الأثمة نجاني ، لذلك أشكرك يا رب بين الشعوب ، وأرتل لاسمك .

(12/516)

المزمور الحادي والعشرون : إلهي إلهي لماذا تركتني ؟ تباعدت عن خلاصي لقول جهلي ، إلهي دعوتك بالنهار فلم تستجب لي ، وفي الليل فلم يكن مني جهلاً ، أنت كائن في القديسين يا فخر إسرائيل ، بك آمن آباؤنا ، وتوكلوا عليك فنجيتهم ، وصرخوا إليك فخلصتهم ، رجوك فلم يخزوا ، وأنا فدودة ولست إنساناً ، عار في الناس ، مرذول في الشعب ، كل من رآني يمقتني ، تكلموا بشفاههم وهزوا رؤوسهم وقالوا : إن كان آمن أو توكل على الرب فلينجه ، ويخلصه إن كان يحبه ، وأنت من البطن أخرجتني ، ومذ كنت أرتضع من بطن أمي ألقيت إليك ، وعليك من الرحم توكلت ، ومن بطن أمي أنت إلهي فلا تبعد عني ، فإن الشدة قريبة ، وليس من يخلصني ، أحاطت بي عجول كثيرة ، اكتنفتني ثيران سمان ، فتحت أفواهها على مثل الأسد الزائر المفترس ، ومثل الماء انهرقت عظامي ، وصار قلبي مثل الشمع المذاب في وسط بطني ، يبست قواي مثل الفخار ، لصق لساني بحنكي ، وإلى تراب الموت أنزلتني ، أحاطت بي كلاب كثيرة ، اكتنفتني جماعة الأشرار ، ثقبوا يدي ورجلي ، وزعزعوا جميع عظامي ، نظروا إليّ وشتموني ، واقتسموا بينهم ثيابي ، واقترعوا على لباسي ، وأنت يا رب فلا تبعد من معونتي ، انظر إلى تضرعي ، نج من السيف نفسي ، ومن يد الكلاب التي احتوشتني ، ومن فم الأسد خلصني ، ومن القرن المتعالي على تواضعي ، لأبشر باسمك إخوتي ، وبين الجماعة أمجدك ، أيها الخائفون من الرب مجدوه ! يا جميع ذرية يعقوب سبحوه ! يخشاه كل زرع إسرائيل ، لأنه لم يهن ولم يرذل

دعوة المسكين ، ولا صرف وجهه عني ، وعند دعائي استجاب لي ، يأكل المساكين ويشبعون ، ويسجد قدامه جميع قبائل الشعوب ، لأنه الملك الرب ، وسلطانه على الأمم ، تأكل وتسجد قدام الرب جميع ملوك الأرض ، وبين يديه يجثو جميع هابطي التراب لله ، يحيي نفسي ، وذريتي له تتعبد ، أخبروا بالرب أيها الجيل الآتي ، وحدثوا بعدله ، ليرى الشعب الذي يولد صنع الرب .

(13/516)

المزمور الثلاثون : عليك يا رب توكلت فلا أخزى إلى الأبد ، خلصني وأنقذني بعدلك ، أنصت لي بسمعك ، واستنقذني عاجلاً ، كن لي إلهاً نصيراً وملجأ ومخلصاً لأنك عوني وملجئي ، وباسمك يا رب تهديني وتعينني وتخرجني من هذا الفخ الذي أخفي لي ، لأنك ناصري ، وفي يدك أسلم روحي ، نجني يا رب إله الحق ، شنأت الذين يغتبطون بالأوثان الباطله ، وأنا على الرب توكلت ، أفرح وأسر برحمتك لأنك نظرت إلى تواضعي ، وخلصت نفسي من الشدائد ، ولمن تسلمني في أيدي الأعداء ، اقمت رجلي في السعة ، ارحمني يا رب فإني حزين ، جزعت عيناي من سخطك ، ونفسي وقواي ، فني عمري بالأحزان ، وسني بالزفرات ، ضعفت بالمسكنة قوتي وقلقت عظامي ، صرت عاراً في

أعدائي وجيرتي ، ورهبة لمن عرفني ، من عايني تباعد عني ، ونسوني في قلوبهم مثل الميت ، صرت مثل إناء مكسور ، لأني سمعت سب جميع من حولي ، هموا بي وعند اجتماعهم عليّ جميعاً تآمروا لأخذ نفسي ، فأنا يا رب عليك توكلت ، قلت : أنت إلهي ، وفي يدك قسمي ، نجني من يد أعدائي والطاردين لي ، أضيء وجهك على عبدك ، وخلصني برحمتك ، يارب لا تخزني فإني دعوتك ، تخزي المنافقين ويهبطون إلى الجحيم ، تبكم الشفاه الغاشة المتقولة على الصديق بالزور والبهتان ، ما أكثر رحمتك يا رب لجميع خائفيك ، أعددتها لمن اعتصم بك أمام بني البشر ، استرهم في كنفك من أشرار الناس وفي ظلال وجهك ، وقهم من مقاومة الألسن ، تبارك الرب الذي انتخب له الأصفياء في المدينة العظيمة ، أنت قلت في تحيري : إني سقطت من حذاء عينيك ، ولذلك سمعت صوت تضرعي حين دعوتك ، حبوا الرب يا جميع أصفيائه ، فإن الرب يبتغي الحق ، ويكافيء المستكبرين بفعلهم ، تشتد قلوبكم وتقوى أيها المتوكلون على الرب .

(14/516)

المزمور الثالث والثلاثون : أبارك الرب في كل حين ، وكل أوان تسبيحه في فمي ، بالرب تفتخر نفسي ، فليسمع أهل الدعة ويفرحوا ، عظموا معي الرب وشرفوا اسمه أجمعون ، أنا

طلبت الرب فأجابني ، ومن شدائدي نجاني ، أقبلوا إلى الرب واستتروا به ، فإن وجوهكم لا تخزى ، إن المسكين دعا فاستجاب له الرب ، ومن جميع أحزانه خلصه ، ملك الرب يحوط أتقياءه وينجيهم ، ذوقوا وتيقنوا طيب الرب ، طوبى للرجل المتوكل عليه ، اتقوا الرب ياجميع قديسيه لأنه لا منقصة لأتقيائه ، الأغنياء افتقروا وجاعوا ، والذين يطلبون الرب لا يعدمون كل الخيرات ، هلموا أيها الأبناء واسمعوا مني لأفهمكم مخافة الرب ، من هو الرجل الذي يهوى الحياة ويحب أن يرى الأيام الصالحة ، اكفف لسانك من الشر وشفتيك ، لا تتكلم بالغدر ، ابعد عن الشر ، واصنع الخير ، اطلب السلامة واتبعها ، فإن عين الرب على الأبرار ، وسمعه إلى تضرعهم ، وجه الرب على صانعي الشر ليمحو ذكرهم من الأرض ، الأبرار دعوا فاستجاب لهم الرب ، من جميع شدائدهم نجاهم ، الرب قريب من مستقيمي القلوب ، يخلص متواضعي الأرواح ، كثيرة هي أحزان الصديقين ، ومن جميعها ينجيهم الرب ، الرب يحفظ جميع عظامهم ، وواحد منهم لا ينكسر ، موت الخطأة سيىء ، ومبغضو البار يهلكون ، الرب ينجي نفوس عبيده ، ولا يخيب المتوكلين عليه .

(15/516)

المزمور الرابع والثلاثون : حاكم يا رب الذين يظلمونني ، قاتل الذي يقاتلونني ، خذ سلاحاً وترساً وقم لمعونتي ، استل سيفاً ورد به أعدائي الذين يرهقونني ، وقل لنفسي : أنا مخلصك ، يخزى ويبهت طالبو نفسي ، يرتدون على أعقابهم ويخزي الذين يتفكرون بي الشر ، ويكونون كالغبار أمام الريح ، وملك الرب يخزيهم ، تكون طريقهم زلقة ظلمة عليهم وملك الرب يطاردهم ، لأنهم أخفوا لي فخاً ، بغير حق عيروا نفسي ، فليأتهم الشر بغتة ، والمصيدة التي أخفوها تأخذهم ، وفي الحفرة التي حفروها يسقطون ، نفسي تبتهج بالرب ، وتنعم بخلاصه ، عظامي كلها تقول : يا رب من مثلك منجي المسكين من يد القوي ، والفقير والبائس من يد الذين يختطفونه ، قام عليّ شهود الزور ، وعما لم أعلم ساءلوني ، جازوني بدل الخير شراً ، وأبادوا نفسي وأنا عندما لجوا عليّ لبست مسحاً ، وبالصيام أذللت نفسي ، وصلاتي عادت إلى حضني ، مثل قريب وأخ كنت لهم ، صرت كالحزين الكئيب في تواضعي ، اجتمعوا عليّ وفرحوا ، اجتمع عليّ الأشرار ولم أشعر ، أثموا ولم يندموا ، أحزنوني وهزؤوا بي وصروا أسنانهم عليّ ، يا رب إلى متى تنتظر ! نج نفسي من شر ما نصبوا ، ومن الأسد نج وحدتي ، لأشكرك يا رب في الجموع الكثيرة وفي الشعب الصالح أرتل لك ، لا يسر بي المعادون لي ظلماً ، الذين يشنؤونني باطلاً ويتغامزون بعيونهم ، لأنهم يتكلمون بالسلام وبالدغل يفكرون ، وعلى المتواضعين في الأرض يقولون الكذب ، فتحوا عليّ أفواههم ، وقالوا : نعماً نعماً ! قد قرت به عيوننا ، اللهم قد رأيت ، لا تغفل ، لا

تبعد عني يا رب ! انظر سريعاً في قضائي إلهي وربي ، كن في ظلامتي ، واحكم لي مثل برك يا ربي وإلهي ، لا تسرهم بي ، لئلا يقولوا في قلوبهم : تفتحت نفوسنا ، ولا يقولوا : قد ابتلعناه ، يخزون ويهنون جميعاً الذين يفرحون بإساءتي ، يلبس الخزي والبهت المتعظمون بالقول عليّ يسر ويفرح الذين يهوون بري ، ويقولون في كل حين :

(16/516)

عظيم هو الرب ، الذين يريدون سلامة عبدك ، لساني يتلو عدلك وتمجيدك النهار كله .

(17/516)

المزمور السادس والثلاثون : لا تغبط الأشرار ولا تتأسّ بفاعلي الإثم ، لأنهم مثل العشب سريعاً يجفون ، ومثل البقل الأخضر عاجلاً يذبلون ، توكل على الرب واصنع الخير ، واسكن في الأرض ، وعش من نعيمها ، استبشر بالرب يعطيك مطلوبات قلبك ، واكشف سبلك للرب وتوكل عليه وهو يصنع لك ، يخرج مثل النور عدلك ، ومثل الظهيرة أحكامك ، اخضع للرب واضرع إليه ، لا تغبط الرجل المستقيم في طريقه المقيم على إثمه ، ولا رجلاً

يعمل بخلاف الناموس ، اكفف من السخط ، ودع الغضب ، لا تبار الشرير ، فإن الأشرار جميعاً يبيدون ، والذين يرجون الرب يرثون الأرض عن قليل ، لا يوجد الخاطىء ، ويطلب مكانه فلا يوجد ، أهل الدعة يرثون الأرض ، ويتنعمون بكثرة السلامة ، المنافق يرصد الصديق ويصر عليه أسنانه ، والرب يهزأ به ، لأنه قد علم أن يومه يدركه ، استل الخطأة سيوفهم ، وأوتروا قسيهم ، ليصرعوا المسكين والبائس ، ويقتلوا المستقيم القلب ، تدخل سيوفهم إلى قلوبهم ، وتنكسر قسيهم ، اليسير للصديق خير من كثرة غنى الخطأة ، لأن سواعد الخطأة تنكسر ، والرب يحفظ الأبرار ، الرب يعرف أيام صديقيه الذين لا عيب فيهم وميراثهم إلى الأبد ، ولا يخزون في زمان سوء ، وفي أيام الشدائد يشبعون ، لأن الأثمة يبيدون ، أعداء الرب حين يرتعون ويتمجدون يذهبون مثل الدخان ويضمحلون ، الخاطىء يقترض ولا يوفى ، والبار يترأف ويعطي ، لأن مباركيه يرثون الأرض ، ولا غيه يستأصلون ، الرب يقوِّم خطأ الإنسان ويهديه في الطريق ، إن سقط البار لم يجزع ، لأن الرب ممسك بيده ، كنت صبياً وشخت ولم أر صديقاً رفض ، ولا ذريته طلبت خبزاً النهار كله يترحم ويقرض ونسله مبارك ، ابعد عن الشر وافعل الخير ، واسكن إلى أبد الأبد ، لأن الرب يحب العدل ، ولا يضيع أصفياءه ، يحفظهم إلى أبد الأبد ، الأثمة يهلكون ونسل الخطأة يستأصلون ، الصديقون يرثون الأرض ويسكنون فيها إلى أبد الأبد ، فم الصديق ينطق بالحكمة

ولسانه يقول العدل ، سنة إلهه في قلبه ، ولا تزدحف قدماه ، الخاطىء يرصد البار ويهم بقتله ، والرب لا يسلمه في يديه ، ولا يدخله في الحكم ، ترج الرب واحفظ طرقه ، وهو يرفعك لترث الأرض وتعاين الخطأة يبيدون ، رأيت المنافق يتعالى : ويتطاول مثل أرز لبنان ، مررت به فلم أجده وطلبت موضعه فلم أصبه ، تمسك بالدعة وسترى الاستقامة ، فإن عاقبة الرجل المستقيم سلامة ، الخطأة جميعاً يبيدون ، وبقايا الأشرار يستأصلون ، خلاص الأبرار من عند الرب وهو ناصرهم في زمان الشدائد ، الرب عونهم ومنجيهم ومنقذهم من الخطأة ، ويخلصهم لأنهم توكلوا عليه .

ولما كان ما ذكر في هذه السورة من الحكم والدلائل والقصص واعظاً شافياً حكيماً ، ومرشداً هادياً عليماً ، قال واصلاً بما تقدم إشارة إلى أنه نتيجته : ﴿ إن في هذا ﴾ أي الذي ذكرناه هنا من الأدلة على قدرتنا على قيام الساعة وغيرها من الممكنات ، وعلى أن من ادعى علينا أمراً فأيدناه عليه وجعلنا العاقبة له فيه فهو صادق محق ، وخصمه كاذب مبطل ﴿ لبلاغاً ﴾ لأمراً عظيماً كافياً في البلوغ إلى معرفة الحق فيما ذكرناه من قيام الساعة والوحدانية وجميع ما تحصل به البعثة ﴿ لقوم ﴾ أي لأناس أقوياء على ما يقصدونه

﴿ عابدين ﴾ أي معترفين بالعبودية لربهم الذي خلقهم اعترافاً تطابقه الأفعال بغاية الجد والنشاط.

(19/516)

ولما كان هذا مشيراً إلى رشادهم، فكان التقدير: فما أرسلناك إلا لإسعادهم والكفاية لهم في البلاغ إلى جنات النعيم، عطف عليه ما يفهم سبب التأخير لإنجاز ما يستعجله غير العابدين من العذاب فقال: ﴿ وما أرسلناك ﴾ أي بعظمتنا العامة على حالة من الأحوال ﴿ إلا ﴾ على حال كونك ﴿ رحمة للعالمين ﴾ كلهم، أهل السماوات وأهل الأرض من الجن والأنس وغيرهم، طائعهم بالثواب، وعاصيهم بتأخير العقاب، الذي كنا نستأصل به الأمم، فنحن نمهلهم ونترفق بهم، إظهاراً لشرفك وإعلاء لقدرك، حتى نبين أنهم مع كثرتهم وقوتهم وشوكتهم وشدة تمالئهم عليك لا يصلون إلى ما يريدون منك، ثم نرد كثيراً منهم إلى دينك، ونجعلهم من أكابر أنصارك وأعاظم أعوانك، بعد طول ارتكابهم الضلال، وارتباكهم في أشراك المحال، وإيضاعهم في الجدال والمحال، فيلعم قطعاً أنه لا ناصر لك إلا الله الذي يعلم القول في السماء والأرض، ومن أعظم ما يظهر فيه هذا الشرف في عموم الرحمة وقت الشفاعة العظمى يوم يجمع الأولون والآخرون، وتقوم الملائكة صفوفاً والثقلان

وسطهم ، ويموج بعضهم في بعض من شدة ما هم فيه ، يطلبون من يشفع لهم في أن يحاسبوا ليستريحوا من ذلك الكرب أما إلى جنة أو نار ، فيقصدون أكابر الأنبياء نبياً نبياً عليهم الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام ، فيحيل بعضهم على بعض ، وكل منهم يقول : لست لها ، حتى يأتوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول : أنا لها ، ويقوم ومعه لواء الحمد فيشفعه الله وهو المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون وقد سبقت أكثر الحديث بذلك في سورة غافر عند ﴿ ولا شفيع يطاع ﴾ [الآية : 18] .

ولما كان البلاغ الذي رتب هذا لأجله هو التوحيد الملزوم لتمام القدرة ، أتبع الإشارة إلى تأخيرهم الإيمان إلى تحذيرهم فقال : ﴿ قل ﴾ أي لكل من يمكنك له القول : ﴿ إنما يوحى إليّ ﴾ أي ممن لا موحي بالخير سواه وهو الله الذي خصني بهذا الكتاب المعجز ﴿ أنما إلهكم ﴾ .

(20/516)

ولما كان المراد إثبات الوحدانية ، لإله مجمع على إلهيته منه ومنهم ، كرر ذكر الإله فقال : ﴿ إله واحد ﴾ لا شريك له ، لم يوح إليّ في أمر الإله إلا الوحدانية ، وما إلهكم إلا واحد لمن يوح إليّ فيما تدعون من الشركة غير ذلك ، فالأول من قصر الصفة على الموصوف ، أي

الحكم على الشيء ، أي الموحي به إليّ مقصور على الوحدانية لا يتعداها إلى الشركة ، والثاني من قصر الموصوف على الصفة ، أي الإله مقصور على الوحدة لا يتجاوزها إلى التعدد ، والمخاطب بهما من يعتقد الشركة ، فهو قصر قلب .

ولما انضم إلى ما مضى من الأدلة العقلية في أمر الوحدانية هذا الدليل السمعي ، وكان ذلك موجباً لأن يخشى إيجاز ما توعدهم به فيخلصوا العبادة لله ، أشار إلى ذلك مرهباً ومرغباً بقوله : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أي مذعنون له ملقون إليه مقاليدكم متخلون عن جميع ما تدعونه من دونه لتسلموا من عذابه وتفوزوا بثوابه ، ففي الآية أن هذه الوحدانية يصح أن يكون طريقها السمع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 117 .

﴿ 126

(21/516)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور مِن بَعْدِ الذكر ﴾

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة بضم الزاي والباقون بفتحها يعني الزبور كالحلوب والركوب يقال : زبرت الكتاب أي كتبته والمزبور بضم الزاي جمع زبر كقشر وقشور ، ومعنى القراءتين واحد لأن الزبور هو الكتاب .

المسألة الثانية :

في الزبور والذكر وجوه : أحدها : وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد والكلبي ومقاتل وابن زيد الزبور هو الكتب المنزلة والذكر الكتاب الذي هو أم الكتاب في السماء ، لأن فيها كتابة كل ما سيكون اعتباراً للملائكة وكتب الأنبياء عليهم السلام من ذلك الكتاب تنسخ .

وثانيها : الزبور هو القرآن والذكر هو التوراة وهو قول قتادة والشعبي .

وثالثها : الزبور زبور داود عليه السلام ، والذكر هو الذي يروي عنه عليه السلام ، قال : كان الله تعالى ولم يكن معه شيء ، ثم خلق الذكر .

وعندي فيه وجه رابع : وهو أن المراد بالذكر العلم أي كتبنا ذلك في الزبور بعد أن كنا عالمين علماً لا يجوز السهو والنسيان علينا ، فإن من كتب شيئاً والتزمه ولكنه يجوز السهو عليه فإنه لا يعتمد عليه ، أما من لم يجز عليه السهو والخلف فإذا التزم شيئاً كان ذلك الشيء واجب الوقوع .

أما قوله تعالى : ﴿ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ ففيه وجوه : أحدها : الأرض أرض الجنة والعباد الصالحون هم المؤمنون العاملون بطاعة الله تعالى فالمعنى أن الله تعالى كتب في كتب الأنبياء عليهم السلام وفي اللوح المحفوظ أنه سيورث الجنة من كان صالحاً من عباده وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وأبي العالية وهؤلاء أكدوا هذا القول بأمور : أما أولاً : فقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ [الزمر : 74] ، وأما ثانياً : فلأنها الأرض التي يختص بها الصالحون لأنها لهم خلقت ، وغيرهم إذا حصل معهم في الجنة فعلى وجه التبع ، فأما أرض الدنيا فلأنها للصالح وغير الصالح .

وأما ثالثاً : فلأن هذه الأرض مذكورة عقيب الإعادة وبعد الإعادة الأرض التي هذا وصفها لا تكون إلا الجنة .

وأما رابعاً : فقد روى في الخبر أنها أرض الجنة فإنها بيضاء نقية .

وثانيها : أن المراد من الأرض أرض الدنيا فإنه سبحانه وتعالى سيورثها المؤمنين في الدنيا وهو قول الكلبي وابن عباس في بعض الروايات ودليل هذا القول قوله سبحانه : ﴿ وَعَدَ الله الذين ءَامَنُواْ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأرض ﴾ [النور : 55] وقوله تعالى : ﴿ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ استعينوا بالله واصبروا إِنَّ الأرض للَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [

الأعراف : 128] .

وثالثها : هي الأرض المقدسة يرثها الصالحون ، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض ومغاربها التى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف : 137] ثم بالآخرة يورثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم عند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام .

(23/516)

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي هذا لبلاغا لِّقَوْمٍ عابدين ﴾ فقوله هذا إشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة والبلاغ الكفاية وما تبلغ به البغية وقيل في العابدين إنهم العالمون وقيل بل العاملون والأولى أنهم الجامعون بين الأمرين ، لأن العلم كالشجر والعمل كالثمر ، والشجر بدون الثمر غير مفيد ، والثمر بدون الشجر غير كائن .

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

أنه عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا ، أما في الدين فلأنه عليه السلام بعث والناس في جاهلية وضلالة ، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم فبعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم حين لم يكن

لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب ، فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام ، ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والإستكبار وكان التوفيق قريناً له قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَاء ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : 44] وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه .

فإن قيل : كيف كان رحمة وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال ؟ قلنا : الجواب من وجوه : أحدها : إنما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند ولم يتفكر ولم يتدبر ، ومن أوصاف الله الرحمن الرحيم ، ثم هو منتقم من العصاة .

وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السماء مَاء مباركا ﴾ [ق : 9] ثم قد يكون سبباً للفساد .

(24/516)

وثانيها : أن كل نبي قبل نبينا كان إذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق وأنه تعالى أخر عذاب من كذب رسولنا إلى الموت أو إلى القيامة قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

[الأنفال : 33] لا يقال : أليس أنه تعالى قال : ﴿ قاتلوهم يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة :

14] وقال تعالى : ﴿ لِّيُعَذِّبَ اللهُ المنافقين والمنافقات ﴾ [الأحزاب : 73] لأنا نقول تخصيص العام لا يقدح فيه .

وثالثها : أنه عليه السلام كان في نهاية حسن الخلق قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 4] وقال أبو هريرة رضي الله عنه : " قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أدع على المشركين ، قال : " إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذاباً " وقال في رواية حذيفة : " إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ، فأيما رجل سببته أو لعنته فاجعلها اللهم عليه صلاة يوم القيامة " ورابعها : قال عبد الرحمن بن زيد : ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] يعني المؤمنين خاصة ، قال الإمام أبو القاسم الأنصاري والقولان يرجعان إلى معنى واحد ، لما بينا أنه كان رحمة للكل لو تدبروا في آيات الله وآيات رسوله ، فأما من أعرض واستكبر ، فإنما وقع في المحنة من قبل نفسه كما قال : ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ .

المسألة الثانية :

(25/516)

قالت المعتزلة لو كان الله تعالى أراد من الكافرين الكفر ولم يرد منهم القبول من الرسول ، بل ما أراد منهم إلا الرد عليه وخلق ذلك فيهم ولم يخلقهم إلا كذلك كما يقوله أهل السنة ، لوجب

أن يكون إرساله نقمة وعذاباً عليهم لا رحمة وذلك على خلاف هذا النص ، لا يقال : إن رسالته عليه السلام رحمة للكفار من حيث لم يعجل عذابهم في الدنيا ، كما عجل عذاب سائر الأمم ، لأنا نقول : إن كونه رحمة للجميع على حد واحد وما ذكرتموه للكفار فهو حاصل للمؤمنين أيضاً ، فإذا يجب أن يكون رحمة للكافرين من الوجه الذي صار رحمة للمؤمنين .

وأيضاً فإن الذي ذكروه من نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار قبل بعثته صلى الله عليه وسلم كحصولها بعده ، بل كانت نعمهم في الدنيا قبل بعثته أعظم لأن بعد بعثته نزل بهم الغم والخوف منه ، ثم أمر بالجهاد الذي فني أكثرهم فيه فلا يجوز أن يكون هذا هو المراد .

والجواب : أن نقول لما علم الله سبحانه وتعالى أن أبا لهب لا يؤمن ألبتة وأخبر عنه أنه لا يؤمن كان أمره إياه بالإيمان أمراً يقلب علمه جهلاً وخبره الصدق كذباً وذلك محال ، فكان قد أمره بالمحال .

وإن كانت البعثة مع هذا القول رحمة ، فلم لا يجوز أن يقال البعثة رحمة مع أنه خلق الكفر في الكافر ؟ ولأن قدرة الكافر إن لم تصلح إلا للكفر فقط فالسؤال عليهم لازم ، وإن كانت صالحة للضدين توقف للترجيح على مرجح من قبل الله تعالى ، قطعاً للتسلسل .

وحينئذ يعود الإلزام ثم نقول : لم لا يجوز أن يكون رحمة للكافر بمعنى تأخير عذاب الاستئصال عنه ؟ قوله : أولاً لما كان رحمة للجميع على حد واحد وجب أن يكون رحمة

للكفار من الوجه الذي كان رحمة للمؤمنين ، قلنا : ليس في الآية أنه عليه السلام رحمة للكل باعتبار واحد أو باعتبارين مختلفين ، فدعواك بكون الوجه واحداً تحكم .

(26/516)

قوله نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار من قبل قلنا : نعم ولكنه عليه السلام لكونه رحمة للمؤمنين لما بعث حصل الخوف للكفار من نزول العذاب ، فلما اندفع ذلك عنهم بسبب حضوره كان ذلك رحمة في حق الكفار .

المسألة الثالثة :

تمسكوا بهذه الآية في أنه أفضل من الملائكة ، قالوا : لأن الملائكة من العالمين .

فوجب بحكم هذه الآية أن يكون عليه السلام رحمة للملائكة ، فوجب أن يكون أفضل منهم .

والجواب : أنه معارض بقوله تعالى في حق الملائكة : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [غافر : 7] وذلك رحمة منهم في حق المؤمنين ، والرسول عليه السلام داخل في المؤمنين ، وكذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وملائكته يُصَلُّونَ عَلَى النبي ﴾ [الأحزاب : 56] .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) ﴾

اعلم أنه تعالى لما أورد على الكفار الحجج في أن لا إله سواه من الوجوه التي تقدم ذكرها ، وبين أنه أرسل رسوله رحمة للعالمين ، أتبع ذلك بما يكون إعذاراً وإنذاراً في مجاهدتهم والإقدام عليهم ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يوحى إِلَيَّ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : إنما يقصر الحكم على شيء أو يقصر الشيء على حكم ، كقولك إنما زيد قائم أو إنما يقوم زيد ، وقد اجتمع المثالان في هذه الآية .

لأن : ﴿ إِنَّمَا يوحى إِلَيَّ ﴾ مع فاعله بمنزلة إنما يقوم زيد : ﴿ أَنَّمَا إلهكم إله واحد ﴾ بمنزلة إنما زيد قائم ، وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على إثبات وحدانية الله تعالى وفي قوله ؛ ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ أن الوحي الوارد على هذا السنن يوجب أن تخلصوا التوحيد له وأن تتخلصوا من نسبة الأنداد ، وفيه أنه يجوز إثبات التوحيد بالسمع .

(27/516)

فإن قيل : لو دلت إنما على الحصر لزم أن يقال : إنه لم يوح إلى الرسول شيء إلا التوحيد ومعلوم أن ذلك فاسد ، قلنا : المقصود منه المبالغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 198 . 201 ﴾

(28/516)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الزبور الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه ، والذكر أُمّ الكتاب الذي عنده في السماء ، وهذا قول مجاهد .

والثاني : أن الزبور من الكتب التي أنزلها الله تعالى على مَنْ بعد موسى من أنبيائه ، وهذا قول الشعبي .

﴿ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها أرض الجنة يرثها أهل الطاعة ، وهذا قول سعيد بن جبير ، وابن زيد .

والثاني : أنها الأرض المقدسة يرثها بنو إسرائيل ، وهذا قول الكلبي .

والثالث : أنها أرض الدنيا ، والذي يرثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا قول ابن عباس .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ أما قوله ﴿ إِنَّ فِي هَذَا ﴾ ففيه قولان :

أحدهما : يعني في القرآن .

والثاني : في هذه السورة .

وفي قوله : ﴿ لَبَلاَغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه بلاغ إليهم يَكُفُّهُم عن المعصية ويبعثهم على الطاعة .

الثاني : أنه بلاغ لهم يبلغهم إلى رضوان الله وجزيل ثوابه .

وفي قوله : ﴿ عَابِدِينَ ﴾ وجهان :

أحدهما : مطيعين .

والثاني : عالمين .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ فيما أريد بهذه الرحمة وجهان :

أحدهما : الهداية إلى طاعة الله واستحقاق ثوابه .

الثاني : أنه ما رفع عنهم من عذاب الاستئصال .

وفي قوله : ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ وجهان :

أحدهما : من آمن منهم ، فيكون على الخصوص في المؤمنين إذا قيل إن الرحمة الهداية .

الثاني : الجميع ، فيكون على العموم في المؤمنين والكافرين إذا قيل إن الرحمة ما رفع عنهم من عذاب الاستئصال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(29/516)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور ﴾

وقالت فرقة ﴿ الزبور ﴾ اسم يعم جميع الكتب المنزلة لأنه مأخوذ من زبرت الكتاب اذا كتبته ، قالت هذه الفرقة و ﴿ الذكر ﴾ أراد به اللوح المحفوظ ، وقال بعضهم ﴿ الذكر ﴾ الذي في السماء ، وقالت فرقة ﴿ الزبور ﴾ هو اسم زبور داود ، و ﴿ الذكر ﴾ أراد به التوارة ، وقالت فرقة ﴿ الزبور ﴾ ما بعد التوارة من الكتب ، و ﴿ الذكر ﴾ التوراة ، وقرأ حمزة وحده " الزُّبور " بضم الزاي ، وقالت فرقة ﴿ الأرض ﴾ أراد بها أرض الدنيا أي كل ما يناله المؤمنون من الأرض ، وقالت فرقة أراد أرض الجنة ، واستشهدت بقوله تعالى ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ [الزمر : 74] وقالت فرقة إنما أراد بهذه الآية الإخبار عما كان صنعه مع بني إسرائيل أي

فاعلموا أنا كما وفينا لهم بما وعدناهم فكذلك ننجز لكم ما وعدناكم من النصرة .

﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (106) ﴾

قالت فرقة الإشارة بقوله ﴿ في هذا ﴾ إلى هذه الأبيات المتقدمة ، وقالت فرقة الإشارة إلى القرآن بجملته ، و" العبادة " تتضمن الإيمان بالله تعالى ، وقوله ﴿ إلا رحمة للعالمين ﴾ قالت فرقة عم العالمين وهو يريد من آمن فقط ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس برحمة على من كفر به ومات على الكفر ، وقالت فرقة " العالمون " عام ورحمته للمؤمنين بينة وهي للكافرين بأن الله تعالى رفع عن الأمم أن يصيبهم ما كان يصيب القرون قبلهم من أنواع العذاب المتسأصلة كالطوفان وغيره .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل الكلام أن يكون معناه " وما أرسلنك للعالمين إلا رحمة " أي هو رحمة في نفسه وهذا بين أخذ من أخذ ، وأعرض عنه من أعرض . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(30/516)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد كَتَبْنَا في الزَّبور من بعد الذِّكْر ﴾

فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن الزَّبور جميع الكتب المنزَلة من السماء ، و"الذِّكْر" : أُمُّ الكتاب الذي عند الله ، قاله سعيد بن جبير في رواية ، ومجاهد ، وابن زيد ، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية ابن جبير ، فإنه قال : الزبور : التوارة والإِنجيل والقرآن ، والذِّكر : الذي في السماء .

والثاني : أن الزبور : الكتب ، والذِّكر : التوراة ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أن الزبور : القرآن ، والذِّكْر : التوراة والإِنجيل ، قاله سعيد بن جبير في رواية .

والرابع : أن الزبور : زبور داود ، والذِّكْر : ذِكْر موسى ، قاله الشعبي .

وفي الأرض المذكورة ها هنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها أرض الجنة ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال الأكثرون .

والثاني : أرض الدنيا ، وهو منقول عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : الأرض المقدسة ، قاله ابن السائب .

وفي قوله تعالى : ﴿ يرثها عباديَ الصالحون ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وفي رواية : ترث أُمَّة محمد أرض الدنيا بالفتوح .

والثاني : بنو إِسرائيل ، قاله ابن السائب .

والثالث : أنه عامّ في كل صالح ، قاله بعض فقهاء المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ إِن في هذا ﴾ يعني : القرآن ﴿ لَبَلاغاً ﴾ أي : لَكِفاية ؛ والمعنى : أن من اتَّبع القرآن وعمل به ، كان القرآن بلاغه إلى الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ لقوم عابدين ﴾ قال كعب : هم أُمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يصلُّون الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان .

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناكَ إلا رحمة للعالَمين ﴾ قال ابن عباس : هذا عامّ للبَرِّ والفاجر ، فمن آمن به تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن كفر به صُرفت عنه العقوبة إلى الموت والقيامة .

وقال ابن زيد : هو رحمة لمن آمن به خاصة .

قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾

قال ابن عباس : فهل أنتم مخلِصون له العبادة ؟ قال أهل المعاني : هذا استفهام بمعنى الأمر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(31/516)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور ﴾

الزبور والكتاب واحد ؛ ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور .

زَبرت أي كتبت وجمعه زُبُر .

وقال سعيد بن جبير : "الزّبور" التوراة والإنجيل والقرآن .

﴿ مِن بَعْدِ الذكر ﴾ الذي في السماء ﴿ أَنَّ الأرض ﴾ أرض الجنة ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ رواه سفيان عن الأعمش عن سعيد بن جبير .

الشعبي : "الزّبور" زبور داود ، و"الذكر" توراة موسى عليه السلام .

مجاهد وابن زيد : "الزّبور" كتب الأنبياء عليهم السلام ، و"الذّكر" أم الكتاب الذي عند الله في السماء .

وقال ابن عباس : "الزّبور" الكتب التي أنزلها الله من بعد موسى على أنبيائه ، و"الذكر" التوراة المنزلة على موسى .

وقرأ حمزة "فِي الزُّبُورِ" بضم الزاي جمع زِبْرٍ .

﴿ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ؛ لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم .

وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

وقال مجاهد وأبو العالية : ودليل هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض ﴾ [الزمر : 74] وعن ابن عباس : أنها الأرض المقدّسة .

وعنه أيضاً : أنها أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالفتوح.

وقيل : إن المراد بذلك بنو إسرائيل ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف : 137] وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقرأ حمزة "عِبَادِي الصَّالِحُونَ" بتسكين الياء .

﴿ إِنَّ فِي هذا ﴾ أي فيما جرى ذكره في هذه السورة من الوعظ والتنبيه .

وقيل : إن في القرآن ﴿ لَبَلاَغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ قال أبو هريرة وسفيان الثوري : هم أهل الصلوات الخمس .

(32/516)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : "عابدين" مطيعين .

والعابد المتذلل الخاضع .

قال القشيري : ولا يبعد أن يدخل فيه كل عاقل ؛ لأنه من حيث الفطرة متذلل للخالق ، وهو بحيث لو تأمل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة .

وقال ابن عباس أيضاً : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يصلون الصلوات الخمس

ويصومون شهر رمضان .

وهذا هو القول الأوّل بعينه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصدّق به سعد ، ومن لم يؤمن به سلِم مما لحق الأمم من الخسف والغرق .

وقال ابن زيد : أراد بالعالمين المؤمنين خاصة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ فلا يجوز الإشراك به .

﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون لتوحيد الله تعالى ؛ أي فأسلموا ؛ كقوله تعالى : "فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ" أي انتهوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(33/516)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور من بعد الذكر ﴾

و ﴿ الذكر ﴾ التوراة قاله ابن عباس .

وقيل ﴿ الزبور ﴾ ما بعد التوراة من الكتب و ﴿ الذكر ﴾ التوراة وقيل ﴿ الزبور ﴾ يعم

الكتب المنزلة و﴿ الذكر ﴾ اللوح المحفوظ .

﴿ الأرض ﴾ قال ابن عباس أرض الجنة .

وقيل : الأرض المقدسة ﴿ يرثها ﴾ أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

والإشارة في قوله ﴿ إن في هذا ﴾ أي المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعيد والوعيد والمواعظ البالغة لبلاغاً كفاية يبلغ بها إلى الخير .

وقيل : الإشارة إلى القرآن جملة ، وكونه عليه السلام رحمة لكونه جاءهم بما يسعدهم .

﴿ وللعالمين ﴾ قيل خاص بمن آمن به .

وقيل : عام وكونه ﴿ رحمة ﴾ للكافر حيث أخر عقوبته ، ولم يستأصل الكفار بالعذاب قال معناه ابن عباس .

قال : عوفي مما أصاب غيرهم من الأمم من مسخ وخسف وغرق وقذف وأخر أمره إلى الآخرة .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون معناه ﴿ وما أرسلناك ﴾ للعالمين ﴿ إلا رحمة ﴾ أي هو رحمة في نفسه وهدى بين أخذ به من أخذ وأعرض عنه من أعرض انتهى .

ولا يجوز على المشهور أن يتعلق الجار بعد ﴿ إلا ﴾ بالفعل قبلها إلا أن كان العامل مفرغاً له نحو ما مررت إلاّ بزيد .

وقال الزمخشري : إنما تقصر الحكم على شيء أو لقصر الشيء على حكم كقولك : إنما

زيد قائم وإنما يقوم زيد وقد اجتمع ، المثلان في هذه الآية لأن ﴿ إنما يوحى إليّ ﴾ مع فاعله بمنزلة إنما يقوم زيد و ﴿ إنما إلهكم إله واحد ﴾ بمنزلة إنما زيد قائم ، وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) مقصور على استئثار الله بالوحدانية انتهى .

(34/516)

وأما ما ذكره في ﴿ إنما ﴾ إنها لقصر ما ذكر فهو مبني على إنما للحصر وقد قررنا أنها لا تكون للحصر ، وإنما مع أن كهي مع كان ومع لعل ، فكما أنها لا تفيد الحصر في التشبيه ولا الحصر في الترجي فكذلك لا تفيده مع أن وأما جعله ﴿ أنما ﴾ المفتوحة الهمزة مثل مكسورتها يدل على القصر ، فلا نعلم الخلاف إلاّ في ﴿ إنما ﴾ بالكسر ، وأما بالفتح فحرف مصدري ينسبك منع مع ما بعدها مصدر ، فالجملة بعدها ليست جملة مستقلة ، ولو كانت إنما دالة على الحصر لزم أن يقال إنه لم يوح إليه شيء إلاّ التوحيد .

وذلك لا يصح الحصر فيه إذ قد أوحى له أشياء غير التوحيد وفي الآية دليل على تظافر المنقول للمعقول وأن النقل أحد طريقي التوحيد ، ويجوز في ما من ﴿ إنما ﴾ أن تكون موصولة .

﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ استفهام يتضمن الأمر بإخلاص التوحيد والانقياد إلى الله تعالى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(35/516)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور ﴾

هو كتابُ داودَ عليه السلام ، وقيل : هو اسمٌ لجنس ما أُنزل على الأنبياء عليهم السلام ﴿ مِن بَعْدِ الذكر ﴾ أي التوراةِ وقيل : اللوحِ المحفوظ أي وبالله لقد كتبنا في كتاب داودَ بعد ما كتبنا في التوراة أو كتبنا في جميع الكتب المنزلة بعد ما كتبنا وأثبتنا في اللوح المحفوظ ﴿ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصالحون ﴾ أي عامةُ المؤمنين بعد إجلاءِ الكفار ، وهذا وعدٌ منه تعالى بإظهار الدينِ وإعزازِ أهلِه ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن المرادَ أرضُ الجنة كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَاء ﴾ وقيل : الأرضُ المقدسة يرثها أمةُ محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ إِنَّ فِى هذا ﴾ أي فيما ذكر في السورة الكريمة من الأخبار والمواعظِ البالغة والوعدِ

والوعيد والبراهينِ القاطعة الدالة على التوحيد وصحةِ النبوة ﴿ لبلاغا ﴾ أي كفايةً أو سببَ بلوغٍ إلى البُغية ﴿ لّقَوْمٍ عابدين ﴾ أي لقوم همُّهم العبادةُ دون العادة.

(36/516)

﴿ وَمَا أرسلناك ﴾ بما ذكر وبأمثاله من الشرائع والأحكامِ وغير ذلك من الأمور التي هي مناطٌ لسعادة الدارين ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ هو في حيز النصب على أنه استثناءٌ من أعم العلل أو من أعم الأحوال، أي ما أرسلناك بما ذكر لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعةِ للعالمين قاطبةً، أو ما أرسلناك في حال من الأحوال إلا حال كونِك رحمةً لهم فإن ما بُعثتَ به سببٌ لسعادة الدارين ومنشأٌ لانتظام مصالحهم في النشأتين، ومن لم يغتنمْ مغانمَ آثارِه فإنما فرّط في نفسه وحُرمةِ حقه لا أنه تعالى حَرَمه مما يُسعِده، وقيل: كونُه رحمةً في حق الكفار أمنُهم من الخسف والمسخِ والاستئصال حسبما ينطِق به قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُعَذّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَا يوحى إِلَىَّ أَنَّمَا إلهكم إله واحد ﴾ أي ما يوحى إليّ إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحدٌ لأنه المقصودُ الأصليُّ من البعثة، وأما ما عداه فمن الأحكام المتفرّعة عليه فإنما الأولى لقصر الحُكم على الشيء كقولك: إنما يقوم زيد أي ما يقوم إلا زيد، والثانيةُ لقصر الشيءِ على الحكم كقولك: إنما زيدٌ قائم أي ليس له إلا صفةُ القيام ﴿ فَهَلْ

أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ أي مخلِصون العبادةَ لله تعالى مخصّصون لها به تعالى ، والفاءُ للدِلالة على أن ما قبلها موجبٌ لما بعدها . قالوا : فيه دَلالةٌ على أن صفةَ الوَحْدانية تصحّ أن يكون طريقُها السمعَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(37/516)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور ﴾

الظاهر أنه زبور داود عليه السلام وروى ذلك عن الشعبي .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه الكتب ، والذكر في قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ الذكر ﴾ التوراة .

وروى تفسيره بذلك عن الضحاك أيضاً .

وقال في "الزبور" : الكتب من بعد التوراة .

وأخرج عن ابن جبير أن الذكر التوراة والزبور والقرآن .

وأخرج عن ابن زيد أن الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء عليهم السلام والذكر أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك وهو اللوح المحفوظ كما في بعض الآثار ، واختار

تفسيره بذلك الزجاج وإطلاق الذكر عليه مجاز .

وقد وقع في حديث البخاري عنه صلى الله عليه وسلم : "كان الله تعالى ولم يكن قبله شيء وكان عرشه على الماء ثم خلق الله السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء "

وقيل الذكر العلم وهو المراد بأم الكتاب ، وأصل الزبور كل كتاب غليظ الكتابة من زبرت الكتاب أزبر بفتح الموحدة وضمها كما في المحكم إذا كتبته كتابة غليظة وخص في المشهور بالكتاب المنزل على داود عليه السلام ، وقال بعضهم : هو اسم للكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعية ولهذا يقال للمنزل على داود عليه السلام إذ لا يتضمن شيئاً من الأحكام الشرعية .

والظاهر أنه اسم عربي بمعنى المزبور ، ولذا جوز تعلق ﴿ مِن بَعْدِ ﴾ به كما جوز تعلقه بكتبنا ، وقال حمزة : هو اسم سرياني ، وأياً كان فإذا أريد منه الكتب كان اللام فيه للجنس أي كتبنا في جنس الزبور .

﴿ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصالحون ﴾ أخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

(38/516)

وغيرهما عن ابن عباس أن المراد بالأرض أرض الجنة ، قال الإمام : ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَاء ﴾ [الزمر : 74] وإنها الأرض التي يختص بها الصالحون لأنها لهم خلقت ، وغيرهم إذا حصلوا فيها فعلى وجه التبع وأن الآية ذكرت عقيب ذكر الإعادة وليس بعد الإعادة أرض يستقر بها الصالحون ويمتن بها عليهم سوى أرض الجنة ، وروى هذا القول عن مجاهد .

وابن جبير .

وعكرمة .

والسدي .

وأبي العالية ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المراد بها أرض الدنيا يرثها المؤمنون ويستولون عليها وهو قول الكلبي وأيد بقوله تعالى : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأرض ﴾ [النور : 55] .

وأخرج مسلم .

وأبو داود .

والترمذي .

عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وأن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها " وهذا وعد منه تعالى بإظهار

الدين وإعزاز أهله واستيلائهم على أكثر المعمورة التي يكثر تردد المسافرين إليها وإلا فمن الأرض ما لم يطأها المؤمنون كالأرض الشهيرة بالدنيا الجديدة وبالهند الغربي ، وإن قلنا بأن جميع ذلك يكون في حوزة المؤمنين أيام المهدي رضي الله تعالى عنه ونزول عيسى عليه السلام فلا حاجة إلى ما ذكر ، وقيل : المراد بها الأرض المقدسة ، وقيل : الشأم ولعل بقاء الكفار وحدهم في الأرض جميعها في آخر الزمان كما صحت به الأخبار لا يضر في هذه الوراثة لما أن بين استقلالهم في الأرض حينئذ وقيام الساعة زمناً يسيراً لا يعتد به وقد عد ذلك من المبادى القريبة ليوم القيامة ، والأولى أن تفسر بأرض الجنة كما ذهب إليه الأكثرون وهو أوفق بالمقام .

(39/516)

ومن الغرائب قصة تفاؤل السلطان سليم بهذه الآية حين أضمر محاربته للغوري وبشارة ابن كمال له أخذاً مما رمزت إليه الآية بملكة مصر في سنة كذا ووقوع الأمر كما بشر وهي قصة شهيرة وذلك من الأمور الاتفاقية ومثله لا يعول عليه .

﴿ إِنَّ فِى هذا ﴾ أي فيما ذكر في هذه السورة الكريمة من الأخبار والمواعظ البالغة والوعد والوعيد والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة ، وقيل : الإشارة إلى

القرآن كله ﴿ لبلاغا ﴾ أي كفاية أو سبب بلوغ إلى البغية أو نفس البلوغ إليها على سبيل المبالغة ﴿ لّقَوْمٍ عابدين ﴾ أي لقوم هممهم العبادة دون العادة ، وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنهم الذين يصلون الصلوات الخمس بالجماعة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ذلك فقال : هي الصلوات الخمس في المسجد الحرام جماعة ، وضمير ﴿ هِىَ ﴾ للعبادة المفهومة من ﴿ عابدين ﴾ وقال أبو هريرة .

ومحمد بن كعب ومجاهد : هي الصلوات الخمس ولم يقيدوا بشيء ، وعن كعب الأحبار تفسيرها بصيام شهر رمضان وصلاة الخمس والظاهر العموم وأن ما ذكر من باب الاقتصار على بعض الأفراد لنكتة .

(40/516)

﴿ وَمَا أرسلناك ﴾ بما ذكر وبأمثاله من الشرائع والأحكام وغير ذلك مما هو مناط لسعادة الدارين ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ استثناء من أعم العلل أي وما أرسلناك بما ذكر لعلة من العلل إلا لتراحم العالمين بإرسالك أو من أعم الأحوال أي وما أرسلناك في حال من الأحوال إلا حال كونك رحمة أو ذا رحمة أو راحماً لهم ببيان ما أرسلت به ، والظاهر أن المراد

بالعالمين ما يشمل الكفار ، ووجهه ذلك عليه أنه عليه الصلاة والسلام أرسل بما هو سبب لسعادة الدارين ومصحلة النشأتين إلا أن الكافر فوت على نفسه الانتفاع بذلك وأعرض لفساد استعداده عما هنالك ، فلا يضر ذلك في كونه صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة بالنسبة إليه أيضاً كما لا يضر في كون العين العذبة مثلاً نافعة عدم انتفاع الكسلان بها لكسله وهذا ظاهر خلافاً لمن ناقش فيه ، وهل يرادذ بالعالمين ما يشمل الملائكة عليهن السلام أيضاً فيه خلاف مبني على الخلاف في عموم بعثته صلى الله عليه وسلم لهم ، فإذا قلنا بالعموم كما رجحه من الشافعية البارزي .

وتقي الدين السبكي والجلال المحلي في خصائصه ، ومن الحنابلة ابن تيمية .

وابن حامد .

وابن مفلح في كتاب الفروع ، ومن المالكية عبد الحق قلنا بشمول العالمين لهم هنا .

وكونه صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة بالنسبة إليهم لأنه جاء عليه الصلاة والسلام أيضاً بما فيه تكليفهم من الأوامر والنواهي وإن لم نعلم ما هنا ، ولا شك أن في امتثال المكلف ما كلف به نفعاً له وسعادة ، وإن قلنا بعدم العموم كما جزم به الحليمي .

والبيهقي .

والجلال المحلى في "شرح جمع الجوامع" .

وزين الدين العراقي في نكته على ابن الصلاح من الشافعية .

ومحمود بن حمزة في كتابه العجائب والغرائب من الحنفية بل نقل البرهان النسفي .

(41/516)

والفخر الرازي في "تفسيريهما" الاجماع عليه وإن لم يسلم قلنا بعدم شموله لهم هنا وإرادة من عداهم منه ، وقيل : هم داخلون هنا في العموم وإن لم نقل ببعثته صلى الله عليه وسلم إليهم لأنهم وقفوا بواسطة إرساله عليه الصلاة والسلام على علوم جمة وأسرار عظيمة مما أودع في كتابه الذي فيه بناء ما كان وما يكون عبارة وإشارة وأي سعادة أعظم من التحلي بزينة العلم ؟ وكونهم عليهم السلام لا يجعلون شيئاً مما لم يذهب إليه أحد من المسلمين ، وقيل : لأنهم أظهر من فضلهم على لسانه الشريف ما أظهر .

وقال بعضهم : إن الرحمة في حق الكفار أمنهم ببعثته صلى الله عليه وسلم من الخسف والمسخ والقذف والاستئصال ، وأخرج ذلك الطبراني .

والبيهقي .

وجماعة عن ابن عباس ، وذكر أنها في حق الملائكة عليهم السلام الأمن من نحو ما ابتلى به هاروت وماروت ، وأيد بما ذكره صاحب الشفاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل

عليه السلام : هل أصابك من هذه الرحمة شيء ؟ قال : نعم كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء الله تعالى علي في القرآن بقوله سبحانه

﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ ﴾ [التوكير : 20] وإذا صح هذا الحديث لزم القول بشمول العالمين للملائكة عليهم السلام إلا أن الجلال السيوطي ذكر في تزيين الارائك أنه لم يوقف على إسناد ، وقيل المراد بالعالمين جميع الخلق فإن العالم ما سوى الله تعاى وصفاته جل شأنه ، وجمع جمع العقلاء تغليباً للإشرف على غيره .

(42/516)

وكونه صلى الله عليه وسلم رحمة للجميع باعتبار أنه عليه الصلاة والسلام واسطة الفيض الإلهي على الممكنات على حسب القوابل ، ولذا كان نوره صلى الله عليه وسلم أول المخلوقات ، ففي الخبر " أول ما خلق الله تعالى نور نبيك يا جابر " وجاء " الله تعالى المعطي وأنا القاسم " وللصوفية قدست أسرارهم في هذا الفصل كلام فوق ذلك ، وفي مفتاح السعادة لابن القيم أنه لولا النبوات لم يكن في العالم علم نافع البتة ولا عمل صالح ولا صلاح في معيشة ولا قوام لمملكة ولكان الناس بمنزلة البهائم والسباع العادية والكلاب الضارب التي يعدو بعضها على بعض ، وكل خير في العالم فمن آثار النبوة وكل شر وقع في

العالم أو سيقع فبسبب خفاء آثار النبوة ودروسها فالعالم جسد روحه النبوة ولا قيام للجسد بدون روحه ، ولهذا إذا انكسفت شمس النبوة من العالم ولم يبق في الأرض شيء من آثارها البتة انشقت سماؤه وانتشرت كواكبه وكورت شمسه وخسف قمره ونسفت جباله وزلزلت أرضه وأهلك من عليها فلا قيام للعالم إلا بآثار النبوة أه ؛ وإذا سلم هذا علم منه بواسطة كونه صلى الله عليه وسلم أكمل النبيين وما جاء به أجل مما جاؤوا به عليهم السلام وإن لم يكن في الأصول اختلاف وجه كونه عليه الصلاة والسلام أرسل رحمة للعالمين أيضاً لكن لا يخلو ذلك عن بعث .

(43/516)

وزعم بعضهم أن العالمين هنا خاص بالمؤمنين وليس بشيء ، ولواحد من الفضلاء كلام طويل في هذه الآية الكريمة نقض فيه وأبرم ومنع وسلم ولا أرى له منشأ سوى قلة الاطلاع على الحق الحقيق بالاتباع ، وأنت متى أخذت العناية بيدك بعد الاطلاع عليه سهل عليك رده ولم يهولك هزله وجده ، والذي أختاره أنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث رحمة لكل فرد فرد من العالمين ملائكتهم وانسهم وجنهم ولا فرق بين المؤمن والكافر من الانس والجن في ذلك ، والرحمة متفاوتة ولبعض من العالمين المعلى والرقيب منها ، وما يرى أنه ليس من

الرحمة فهو إما منها في النظر الدقيق أو ليس مقصوداً بالقصد الأولى كسائر الشرور الواقعة في العالم بناء على ما حقق في محله أن الشر ليس داخلاً في قضاء الله تعالى بالذات ، ومما هو ظاهر في عموم العالمين الكفار ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة قال : قيل يا رسول الله ادع على المشركين قال :

" إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة " ولعله يؤيد نصب ﴿ رَحْمَةً ﴾ في الآية على الحال كقوله صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة " إنما أنا رحمة مهداة " ولا يشين احتمال التعليل ما ذهب إليه الأشاعرة من عدم تعليل أفعاله عز وجل فإن الماتريدية وكذا الحنابلة ذهبوا إلى خلافه وردوه بما لا مزيد عليه ، على أنه لا مانع من أن يقال فيه كما قيل في سائر ما ظاهره التعليل ووجود المانع هنا توهم محض فتدبر ؛ ثم لا يخفى أن تعلق ﴿ للعالمين ﴾ برحمة هو الظاهر .

وقال ابن عطية : يحتمل أن يتعلق بأرسلناك ، وفي البحر لا يجوز على المشهور أن يتعلق الجار بعد إلا بالفعل قبلها إلا إن كان العامل مفرغاً له نحو ما مررت إلا بزيد .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله واحد ﴾

(44/516)

ذهب جماعة إلى أن في الآية حصرين بناء على أن أنما المفتوحة تفيد ذلك الكمكسورة ، والأول لقصر الصفة على الموصوف والثاني لقصر الموصوف على الصفة فالثاني قصر فيه الله تعالى على الوحدانية والأول قصر فيه الوحي على الوحدانية ، والمعنى ما يوحى إلى إلا اختصاص الله تعالى بالوحدانية .

واعترض بأنه كيف يقصر الوحي على الوحدانية وقد أوحى إليه صلى الله عليه وسلم أمور كثيرة غير ذلك كالتكاليف والقصص ، وأجيب بوجهين .

الأول أن معنى قصره عليه أنه الأصل الأصيل وما عداه راجع إليه أو غير منظور إليه في جنبه فهو قصر ادعائي ، والثاني أنه قصر قلب بالنسبة إلى الشرك الصادر من الكفار ، وكذا الكلام في القصر الثاني .

وأنكر أبو حيان إفادة أنما المفتوحة الحصر لأنها مؤولة بمصدر واسم مفرد وليست كالمكسورة المؤولة بما وإلا وقال : لا نعلم خلافاً في عدم إفادتها ذلك والخلاف إنما هو في إفادة إنما المكسورة إياه .

وأنت تعلم أن الزمخشري .

وأكثر المفسرين ذهبوا إلى إفادتها ذلك ، والحق مع الجماعة ، ويؤيده هنا أنها بمعنى المسكورة لوقوعها بعد الوحي الذي هو في معنى القول ولأنها مقولة ﴿ قُلْ ﴾ في الحقيقة ولا شك في إفادتها التأكيد فإذا اقتضى المقام القصر كما فيما نحن فيه انضم إلى التأكيد

لكنه ليس بالوضع كما في المكسورة فقد جاء ما لا يحتمله كقوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فتناه ﴾ [ص : 24] ولذا فسره الزمخشري بقوله ابتليناه لا محالة مع تصريحه بالحصر هنا ، نعم في توجيه القصر هنا بما سمعت من كونه قصر الله تعالى على الوحدانية ما سمعته في آخر سورة الكهف فتذكر .

وجوز في ما في "إنما يوحى" أن تكون موصولة وهو خلاف الظاهر .

(45/516)

وتجويزه فيما بعد بعيد جداً موجب لتكلف لا يخفى ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون لما يوحى إلي من التوحيد ، وهو استفهام يتضمن الأمر بالانقياد ، وبعضهم فسر الإسلام بلازمه وهو إخلاص العبادة له تعالى وما أشرنا إليه أولى .

والفاء للدلالة على أن ما قبلها موجب لما بعدها قالوا فيه دلالة على أن صفة الوحدانية يصح أن يكون طريقها السمع بخلاف إثبات الواجب فإن طريقه العقل لئلا يلزم الدور .

قال في شرح المقاصد : ان بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصدقهم لا يتوقف على الوحدانية فيجوز التمسك بالأدلة المسعية كإجماع الأنبياء عليهم السلام على الدعوة إلى التوحيد ونفي الشريك وكالنصوص القطعية من كتاب الله تعالى على ذلك ، وما قيل إن

التعدد يستلزم الإمكان لما عرفت من أدلة التوحيد وما لم تعرف أن الله تعالى واجب الوجود خارج عن جميع الممكنات لم يتأت إثبات البعثة والرسالة ليس بشيء لأن غاية استلزام الوجوب الوحدة لا استلزام معرفته معرفتها فضلاً عن التوقف ، وسبب الغلط عدم التفرقة بين ثبوت الشيء والعلم بثبوته انتهى .

وتفريع الاستفهام هنا صريح في ثبوت الوحدانية بما ذكر ، وقول صاحب الكشف : إن الآية لا تصلح دليلاً لذلك لأنه إنما يوحى إليه صلى الله عليه وسلم ذلك مبرهنا لا على قانون الخطابة فلعل نزولها كان مصحوباً بالبرهان العقلي ليس بشيء لظهور أن التفريع على نفس هذا الموحى ، وكون نزوله مصحوباً بالبرهان العقلي والتفريع باعتباره نير ظاهر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(46/516)

وقال القاسمى :

ثم أشار إلى تحقيق مصداقه ، بإعزاز المنبئ عنه ، وإيراثه ملك جاحده بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ أي : العاملون بطاعته . المنتهون إلى أمره ونهيه . دون العاملين منهم بمعصيته ، المؤثرين طاعة الشيطان

على طاعته . والزبور علم على كتاب داود عليه السلام ، ويقال : المراد به كل كتاب منزل . والذكر – قالوا – التوراة أو أم الكتاب . يعني اللوح الذي كتب فيه كل شيء قبل الخلق ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ إشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة . أو إلى العبرة في إيراث الأرض الصالحين ودحر المجرمين . والبلاغ الكفاية . وقوله : ﴿ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ أي : يعبدون الله ، بما شرعه وأحبه ورضيه . ويؤثرون طاعته على طاعة الشياطين وشهوات النفس : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي : وما أرسلناك بهذه الحنيفية والدين الفطريّ ، إلا حال كونك رحمة للخلق ، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين . وفي جعله نفس الرحمة مبالغة جلية . وجوز كون رحمة مفعولاً له . أي : للرحمة ، فهو نبيّ الرحمة .

تنبيه :

(47/516)

قال الرازي : إنه عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا . أما في الدين فلأنه بعث والناس في جاهلية وضلالة وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم . فبعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم حين لم يكن

يطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب . فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام . ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق ، فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار ، وكان التوفيق قريناً له . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ ﴾ [فصلت : 44] إلى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً ﴾ [فصلت : 44] ، وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ، ونصروا ببركة دينه . انتهى .

(48/516)

وقد أشرت إلى وجه الرحمة في بعثته صلوات الله عليه ، في " الشذرة " التي جمعتها في سيرته الزكية ، في بيان افتقار الناس جميعاً إلى رسالته ، فقلت : كل من لحظ بعين الحكمة والاعتبار ، ونفذت بصيرته إلى مكنون الأسرار ، علم حاجة البشر كافة إلى رسالة خاتم النبيين ، وأكبر منة الله به على العالمين ، فقد بعث صلوات الله عليه وسلامه على حين فترة من الرسل ، وإخافة للسبل ، وانتشار من الأهواء ، وتفرق من الملل ، ما بين مشبه لله بخلقه ، وملحد في اسمه ، ومشير إلى غيره ، كفر بواح ، وشرك صراح ، وفساد عام ، وانتهاب للأموال والأرواح واغتصاب للحقوق ، وشن للغارات ، ووأد للبنات وأكل للدماء والميتات

، وقطع للأرحام ، وإعلان بالسفاح ، وتحريف للكتب المنزلة ، واعتقاد لأضاليل المتكهنة . وتأليه للأحبار والرهبان ، وسيطرة من جبابرة الجور وزعماء الفتن وقادة الغرور ، ظلمات بعضها فوق بعض ، وطامات طبقت أكناف الأرض ، استمرت الأمم على هذه الحال ، الأجيال الطوال ، حتى دعا داعي الفلاح ، وأذن الله تعالى بالإصلاح . فأحدث بعد ذلك أمراً ، وجعل بعد عسر يسراً . فإن النوائب إذا تناهت انتهت ، وإذا توالت تولّت . وذلك أن الله تعالى أرسل إلى البشر رسولاً ليعتقهم من أسر الأوثان ، ويخرجهم من ظلمة الكفر وعمى التقليد إلى نور الإيمان ، وينقذهم من النار والعار ، ويرفع عنه الآصار ، ويطهرهم من مساوئ الأخلاق والأعمال ، ويرشدهم إلى صراط الحق . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ [آل عِمْرَان : 164] . انتهى . وقوله تعالى :

(49/516)

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

أي : ما يوحى إليَّ ، إلاّ استئثاره تعالى بالوحدانية في الألوهية . ومعنى القصر على ذلك ،

أنه الأصل الأصيل ، وما عداه راجع إليه في جنبه . فهو قصر دعائي : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي : منقادون لما يوحى من التوحيد ، مستسلمون له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 237.238 ﴾

(50/516)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) ﴾

أظهر الأقوال عندي في هذه الآية الكريمة : أن الزبور الذي هو الكتاب يراد به جنس الكتاب فيشمل الكتب المنزلة ، كالتوراة والإنجيل ، وزبور داود ، وغير ذلك . وأن المراد بالذكر : أم الكتاب ، وعليه فالمعنى : ولقد كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء أن الأرض يرثها عبادي الصالحون بعد أن كتبنا ذلك في أم الكتاب . وهذا المعنى واضح لا إشكال فيه . وقيل الزبور في الآية : زبور داود ، والذكر : التوراة . وقيل غير ذلك . وأظهرها هو ما ذكرنا واختاره غير واحد .

واعلم أن قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن الآية قد يكون فيها قولان للعلماء ، وكلاهما حق ويشهد له قرآن فتذكر الجميع . لأنه لكه حق داخل في الآية . ومن ذلك هذه

الآية الكريمة ، لأن المراد بالأرض في قوله هنا ﴿ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ فيه للعلماء وجهان :

الأول أنها أرض الجنة يورثها الله يوم القيامة عباده الصالحين . وهذا القول يدل له قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ [الزمر : 74] وقد قدمنا معنى إيراثهم الجنة مستوفى في سورة " مريم " .

(51/516)

الثاني أن المراد بالأرض : أرض العدو يورثها الله المؤمنين في الدنيا : ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾ [الأحزاب : 27] ، وقوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا ﴾ [الأعراف : 137] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ استعينوا بالله واصبروا إِنَّ الأرض للَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : 128] ، وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور : 55] الآية ، وقوله تعالى ﴿ وَقَالَ الذين

كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فأوحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرض مِن بَعْدِهِمْ ﴾ [إبراهيم : 13-14] إلى غير ذلك من الآيات .

وقرأ هذا الحرف عامة القراء غير حمزة ﴿ فِي الزبور ﴾ بفتح الزاي ومعناه الكتاب . وقرأ حمزة وحده (فِي الزُّبُورِ) بضم الزاي . قال القرطبي : وعلى قراءة حمزة فهو جمع زبر . والظاهر أنه يريد الزبر بالكسر بمعنى المزبور أي المكتوب . وعليه فمعنى قراءة حمزة : ولقد كتبنا في الكتب : وهي تؤيد أن المراد بالزبور على قراءة الفتح جنس الكتب لا خصوص زبور وداود كما بينا . وقرأ حمزة "يَرِثُها عِبَادِيْ" بإسكان الياء ، والباقون بفتحها .

﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (106) ﴾

(52/516)

الإشارة في قوله ﴿ هذا ﴾ للقرآن العظيم ، الذي منه هذه السورة الكريمة . والبلاغ : الكفاية ، وما تبلغ به البغية . وما ذكره هنا من أن هذا القرآن فيه الكفاية للعابدين ، وما يبلغون به بغيتهم ، أي من خير الدنيا والآخرة ذكره في غير هذا الموضع . كقوله : ﴿ هذا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وليعلموا أَنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الألباب ﴾ [إبراهيم : 52] وخص القوم العابدين بذلك لأنهم هم المنتفعون به .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه ما أرسل هذا النَّبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلى الخلائق إلا رحمة لهم . لأنه جاءهم بما يسعدهم وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه . ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى . وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلاً قال : لو فجر الله عيناً للخلق غزيرة الماء ، سهلة التناول . فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها . فتتابعت عليهم النعم بذلك ، وبقي أناس مفرطون كسالى عن العمل . فضيعوا نصيبهم من تلك العين ، فالعين المفجرة في نفسها رحمة من الله ، ونعمة للفريقين . ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما ينفعها . ويوضح ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَةَ الله كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ البوار ﴾ [إبراهيم : 28] . وقيل : كونه رحمة للكفار من حيث إن عقوبتهم أخرت بسببه ، وأمنوا به عذاب الاستئصال . والأول أظهر .

(53/516)

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة : من أنه ما أرسله إلا رحمة للعالمين يدل على أنه جاء بالرحمة للخلق فيما تضمنه هذا القرآن العظيم . وهذا المعنى جاء موضحاً في

مواضع من كتاب الله ، كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلك لَرَحْمَةً وذكرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : 51] ، وقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ ترجوا أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص : 86] الآية .

وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك في سورة " الكهف " في موضعين منها . وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله قال : قيل : يا رسول الله ، ادع على المشركين . قال : " إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(54/516)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ (105) ﴾

التفسير :

قوله تعالى :

« وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ » . .

المراد بالزّبور هنا - والله أعلم - الكتب السماوية ، التي هى بعض الكتاب « الأم » ، كتاب اللّه ، وهو مستودع علمه الذي لا ينفد . .

وأصل الزبور : القطعة من الشيء وجمعه زبر ، كما يقول تعالى : « آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ »

والذكر : على هذا التقدير ، هو أم الكتاب .

والمعنى ، أن اللّه سبحانه وتعالى كتب وقضى فى الكتب المنزلة على رسله بعد أن كان ذلك مسطورا فى الكتاب الأمّ . « أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ » . .

(55/516)

والمراد بميراثهم الأرض ، أنهم هم الذين ينتفعون بحياتهم فيها ، ويتزودون فيها الزاد الطيب ، الذي يلقونه يوم القيامة ، فيكون لهم مطية يجوزون بها النار إلى الجنة ، حيث ينعمون بنعيمها الخالد . . فهذا كلّ ما يجنى من ثمر ، وما يحصل من خير فى هذه الدنيا ، وهو الذي يستحقّ أن يسمى ميراثا . .

أما غير المؤمنين ، فإنهم مهما ملكوا من هذه الدنيا ، ومهما وقع لأيديهم منها من مال ، وجاه ، وسلطان . فلن يكون لهم من هذا شىء فى حياتهم الآخرة ، بل سيكون عليهم وبالا وحسرة ، على حين تمر بهم حياتهم الدنيا ، وكأنها ضحوة يوم أو عشيته . . « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها » . (46 : النازعات) .

فالمراد بالميراث هنا ، الميراث النافع ، الذي يبقى لما بعد الموت ، حيث يجده الإنسان ،

وكأنه فى حياته الثانية ، قد ورث حياته الأولى . . أو كأنه هذا الحىّ فى الآخرة ، الذي ورث هذا الميت الذي كان فى الدنيا . . وهذا هو بعض السرّ فى التعبير بكلمة « يَرِثُها » . .

قوله تعالى : « إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ » . .

أي إن فى هذا الذي تحدّث به القرآن الكريم من قصص ، وما فيه من عبر ـ لبلاغا ، أي لبيانا كاشفا شافيا . . أو أن فى هذا الحكم الذي ضمّت عليه الآية الكريمة : « وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ . . » ـ إن فى هذا لبيانا مبينا وحجة قاطعة ، يتلقى منها العابدون العبرة والعظة .

والمراد بالعابدين ، المؤمنون ، وقد ذكروا بالصفة الغالبة عليهم ، وهى التعبد للّه ، والولاء له . . فلا يكون المؤمن مؤمنا إلا إذا عبد اللّه ، وذكره ، ذكرا متصلا . .

(56/516)

قوله تعالى : « وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ » .

الخطاب للنبىّ صلوات اللّه وسلامه عليه ، وأن اللّه سبحانه وتعالى إنما أرسله رحمة للناس جميعا . . كما يقول صلوات اللّه وسلامه عليه : « أنا رحمة مهداة » . .

ويسأل سائل :

كيف يكون النبىّ صلوات اللّه وسلامه عليه رحمة للعالمين جميعا . الناس كلّهم أسودهم وأحمرهم ، وما بين أسودهم وأحمرهم ، وقليل من كثيرهم أولئك الذين آمنوا به واهتدوا بهديه ، وانتفعوا برسالته ؟ كيف هذا ، وقوله تعالى « لِلْعالَمِينَ » يفيد العموم والشمول ؟

والجواب على هذا - واللّه أعلم - من وجوه :

أولا : أن الهدى الذي جاء به - صلوات اللّه وسلامه عليه - هو خير ممدود للناس جميعا ، وهو رحمة غير محجوزة عن أحد ، بل إنها مبسوطة لكل إنسان ، أيا كان لونه وجنسه . .

وفى هذا يقول اللّه تعالى لنبيه الكريم :

« قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . . » (158 : الأعراف) فهو صلوات اللّه وسلامه عليه رحمة مهداة ، يطرق بها باب كل إنسان ، من غير أن يطلب لذلك أجرا ، وليس على النبي - بعد هذا - أن يرغم المتأبّين عليه أن يقبلوا ما يقدمه هدية لهم . . إنه أشبه بالشمس ، وهى رحمة عامة لكل حىّ . . ولكنّ كثيرا من الأحياء يعشون عن ضوئها ، وكثير من الأحياء ، إذا آذنهم ضوؤها انجحروا وقضوا يومهم فى ظلام دامس . . فآية النهار قائمة ، ولكنها بالنسبة لهم منسوخة غير عاملة .

وثانيا : أن الذين آمنوا بهذا النبىّ ، والذين يؤمنون به فى كل جيل من أجيال الناس ، وفى كل أمة من الأمم ، وفى كل جماعة من الجماعات ، هم رحمة فى هذه الدنيا على أهلها جميعا ، إذ كانوا - بما معهم من إيمان - عناصر خير ، وخمائر رحمة ، ومصابيح هدى . . وبهم تنكسر ضراوة الشر ، وتخفّ وطأة الظلم ، وترقّ كثافة الظلام .

وثالثا : هذا الكتاب الذي تلقّاه النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - وحيا من ربّه ، وهذه الآيات المضيئة التي نطق بها ، والتي وعتها الآذان ، وسلجتها الصحف . . كل هذا رحمة قائمة فى الناس جميعا ، وميراث من النور والهدى ، يستهدى به الناس ، ويصيبون منه ما يسع جهدهم ، وما تطول أيديهم من خير . .

وعلى هذا ، فالمراد بالعالمين ، الناس جميعا ، منذ مبعث النبىّ ، إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « أَرْسَلْناكَ » الذي يفهم منه أن الرحمة كانت منذ إرساله ومبعثه ، صلوات اللّه وسلامه عليه . .

قوله تعالى : « قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ . . فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .

هذه هى الرحمة التي يؤذّن بها النبىّ فى الناس ، ويقدمها هدية لهم . .

« أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ » . . هذا هو مفتاح الرحمة ، وذلك هو مفتاح الهدى . . فمن أمسك بقلبه هذا المفتاح ، ثم أداره ، فقد وضع يده على كنوز الخير كلها . .

ـ وفى قوله تعالى : « فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . . هو تحريض للناس جميعا على الاستجابة لهذه الدعوة الكريمة ، التي خفّف محملها ، وغلا ثمنها . . إنها كلمة واحدة : « لا إله إلا اللّه » فما أخفها على اللسان ، وما أطيب بردها على القلب ، وما أقوم سبيلها إلى العقل ! ! فهل يلتوى بها فم ؟ وهل يضيق بها صدر ؟

وهل يزورّ بها عقل ؟ إن ذلك لا يكون إلا عن آفات تغتال فطرة الإنسان ، وتفسد كيانه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 2 صـ 961.965 ﴾

(58/516)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾

إن كان المراد بالأرض أرض الجنة كما في قوله تعالى في [سورة الزمر : 7374] ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً إلى قوله تعالى : وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فمناسبة ذكر هذه الآية عقب التي تقدمتها ظاهرة .

ولها ارتباط بقوله تعالى : أفلا ترون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ [الأنبياء : 44] .

وإن كان المراد أرضاً من الدنيا ، أي مَصيرَها بيدِ عباد الله الصالحين كانت هذه الآية مسوقة لوعد المؤمنين بميراث الأرض التي لَقُوا فيها الأذَى ، وهي أرض مكة وما حولها ، فتكون بشارة بصلاح حالهم في الدنيا بعد بشارتهم بحسن مآلهم في الآخرة على حد قوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : 97] .

على أن في إطلاق اسم الأرض ما يصلح لإرادة أن سلطان العالم سيكون بيد المسلمين ما استقاموا على الإيمان والصلاح .

وقد صدق الله وعده في الحالين وعلى الاحتمالين .

وفي حديث أبي داوود والترمذي عن ثَوبان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنّ الله زوَى لي الأرض فرأيت مشارقَها ومغاربَها وأن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها " .

وقرأ الجمهور ﴿ في الزبور ﴾ بصيغة الإفراد وهو اسم للمزبور ، أي المكتوب ، فعول بمعنى مفعول ، مثل : ناقة حَلوب وركوب .

وقرأ حمزة بصيغة الجمع ﴿ زُبور بوزن فعول جمع زِبْر بكسر فسكون أي مزبور ، فوزنه مثل قِشر وقُشور ، أي في الكتب .

فعلى قراءة الجمهور فو غالب في الإطلاق على كتاب داوود قال تعالى : ﴿ وآتينا داوود زبوراً ﴾ في [سورة النساء : 163] وفي [سورة الإسراء : 55] ، فيكون تخصيص هذا الوعد بكتاب داوود لأنه لم يذكر وعْد عامّ للصالحين بهذا الإرث في الكتب السماوية قبله .

(59/516)

وما ورد في التوراة فيما حكاه القرآن من قول موسى عليه السلام : ﴿ إن الأرض لله يُورثها من يشاء من عباده ﴾ [الأعراف : 128] فذلك خاص بأرض المقدس وببني إسرائيل .

والزبور : كتاب داوود وهو مبثوث في الكتاب المسمى بالمزامير من كتب اليهود .

ولم أذكر الآن الجملة التي تضمنت هذا الوعد في المزامير .

ووجدت في محاضرة للإيطالي المستعرب (فويدو) أن نص هذا الوعد من الزبور باللغة العبرية هكذا : صديقين يرشون أرص بشين معجمة في يرشون وبصاد مهملة في أرص ، أي الصديقون يرثون الأرض .

والمقصود : الشهادة على هذا الوعد من الكتب السالفة وذلك قبل أن يجيء مِثل هذا الوعد في القرآن في [سورة النور : 55] في قوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم

وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ وعلى قراءة حمزة أن هذا الوعد تكرر في الكتب لِفِرق من العباد الصالحين .

ومعنى ﴿ من بعد الذكر ﴾ أن ذلك الوعد ورد في الزبور عقب تذكير ووعظ للأمة .

فبعد أن ألقيت إليهم الأوامر وُعِدوا بميراث الأرض ، وقيل المراد بـ ﴿ الذكر ﴾ كتاب الشريعة وهو التوراة .

قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين ﴾ [الأنبياء : 48] فيكون الظرف في قوله تعالى : ﴿ من بعد الذكر ﴾ مستقرّاً في موضع الحال من الزبور .

والمقصود من هذه الحال الإيماء إلى أن الوعد المتحدّث عنه هنا هو غير ما وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى من إعطائهم الأرض المقدسة .

وهو الوعد الذي ذكر في قوله تعالى حكاية عن موسى : ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ﴾ [المائدة : 21] ، وأنه غير الإرث الذي أورثه الله بني إسرائيل من المُلك والسلطان لأن ذلك وعد كان قبل داوود .

فإن مُلك داوود أحد مظاهره .

بل المراد الإيماء إلى أنه وعد وعده الله قوماً صالحين بعد بني إسرائيل وليسوا إلا المسلمين الذين صدقَهم الله وعده فملكوا الأرض ببركة رسولهم صلى الله عليه وسلم وأصحابه واتسع ملكهم وعظم سلطانهم حسب ما أنبأ به نبيئهم صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم آنفاً .

وجملة ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ تذييل للوعد وإعلان بأن قد آن أوانه وجاء إبانه .

فإن لم يأت بعد داوود قوم مؤمنون ورَثوا الأرض ، فلما جاء الإسلام وآمن الناس بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد بلغ البلاغُ إليهم .

فالإشارة بقوله تعالى : ﴿ إن في هذا ﴾ إلى الوعد الموعود في الزبور والمبلّغ في القرآن .

والمراد بالقوم العابدين مَن شأنهم العبادة لا ينحرفون عنها قِيد أنملة كما أشعر بذلك جريان وصف العابدين على لفظ ﴿ قوم ﴾ المشعرِ بأن العبادة هي قِوام قوميتهم كما قدمناه عند قوله تعالى : ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ في آخر [سورة يونس : 101] .

فكأنه يقول : فقد أبلغتكم الوعد فاجتهدوا في نواله .

والقوم العابدون هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الموجودون يومئذ والذين

جاءوا من بعدهم .

والعبادة : الوقوف عند حدود الشريعة .

قال تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [آل عمران : 110] .

وقد ورثوا هذا الميراث العظيم وتركوه للأمة بعدهم ، فهم فيه أطوار كشأن مختلف أحوال الرشد والسفه في التصرف في مواريث الأسلاف .

وما أشبه هذا الوعد المذكورَ هنا ونوطَه بالعبادة بالوعد الذي وُعدته هذه الأمة في القرآن : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴾ [النور : 5556] .

(61/516)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107) ﴾

أقيمت هذه السورة على عماد إثبات الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم وتصديق

دعوته .

فافتتحت بإنذار المعاندين باقتراب حسابهم ووشْك حلول وعد الله فيهم وإثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لم يكن بدعاً من الرسل ، وذُكروا إجمالاً ، ثم ذُكرت طائفة منهم على التفصيل ، وتُخلِّل ذلك بمواعظ ودلائل .

وعطفت هذه الجملة على جميع ما تقدم من ذكر الأنبياء الذين أوتوا حكماً وعلماً وذكر ما أوتوه من الكرامات ، فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومَها ودوامها ، وذلك كونها رحمة للعالمين ، فهذه الجملة عطف على جملة ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ [الأنبياء : 91] ختاماً لمناقب الأنبياء ، وما بينهما اعتراض واستطراد .

ولهذه الجملة اتصال بآية ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ [الأنبياء : 3] .

ووزانها في وصف شريعة محمد صلى الله عليه وسلم وزان آية : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ [الأنبياء : 48] وآية : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ﴾ [الأنبياء : 51] والآيات التي بعدهما في وصف ما أوتيه الرسل السابقون .

وصيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول عليه الصلاة

والسلام ومدح مرسله تعالى ، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه .

(62/516)

فهي تشتمل على أربعة وعشرين حرفاً بدون حرف العطف الذي عطفت به ، ذكر فيه الرسول ، ومرسله ، والمرسَل إليهم ، والرسالة ، وأوصاف هؤلاء الأربعة ، مع إفادة عموم الأحوال ، واستغراق المرسل إليهم ، وخصوصية الحصر ، وتنكير ﴿ رحمة ﴾ للتعظيم ، إذ لا مقتضى لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة التعظيم وإلا لقيل : إلا لنرحم العالمين ، أو إلا أنك الرحمة للعالمين .

وليس التنكير للإفراد قطعاً لظهور أنّ المراد جنس الرحمة وتنكير الجنس هو الذي يعرض له قصد إرادة التعظيم .

فهذه اثنا عشر معنى خصوصياً ، فقد فاقت أجمع كلمةٍ لبلغاء العرب ، وهي:

قِفا نَبْكِكِ من ذِكرَى حبيبٍ ومنزل . . .

إذ تلك الكلمة قصاراها كما قالوا : "أنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل" دون خصوصية أزيد من ذلك فجمَع ستة معان لا غير .

وهي غير خصوصية إنما هي وفرة معان .

وليس تنكير "حبيب ومنزل" إلا للوحدة لأنه أراد فرداً معيّناً من جنس الأحباب وفرداً معيناً من جنس المنازل ، وهما حبيبه صاحب ذلك المنزل ، ومنزلُه .

واعلم أن انتصاب ﴿ رحمة ﴾ على أنه حال من ضمير المخاطب يجعله وصفاً من أوصافه فإذا انضم إلى ذلك انحصار الموصوف في هذه الصفة صار من قصر الموصوف على الصفة .

ففيه إيماء لطيف إلى أن الرسول اتحد بالرحمة وانحصر فيها ، ومن المعلوم أن عنوان الرسُولية ملازم له في سائر أحواله ، فصار وجوده رحمةً وسائر أكوانه رحمة .

ووقوع الوصف مصدراً يفيد المبالغة في هذا الاتحاد بحيث تكون الرحمة صفة متمكنة من إرساله ، ويدلّ لهذا المعنى ما أشار إلى شرحه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:

" إنما أنا رحمة مهداة " وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين : الأول تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة ، والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته .

(63/516)

فأما المظهر الأول فقد قال فيه أبو بكر محمد بن طاهر القيسي الإشبيلي أحد تلاميذه أبي علي الغساني وممن أجاز لهم أبو الوليد الباجي من رجال القرن الخامس : "زين الله محمداً صلى الله عليه وسلم بزينة الرحمة فكان كونه رحمة وجميع شمائله رحمة وصفاته رحمة على الخلق" أهـ .

وذكره عنه عياض في "الشفاء" .

قلت : يعني أن محمداً صلى الله عليه وسلم فُطر على خُلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة لتتكون مناسبة بين روحه الزكية وبين ما يلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة حتى يكون تلقيه الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يوحَى به إليه ملائماً رغبتَه وخلقه .

قالت عائشة : "كان خلقُه القرآن" .

ولهذا خصّ الله محمداً صلى الله عليه وسلم في هذه السورة بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء ، وكذلك في القرآن كله ، قال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ [التوبة : 128] وقال تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ [آل عمران : 159] أي برحمة جبلَك عليها وفَطرك بها فكنت لهم لَيِّناً .

وفي حديث مسلم : أن رسول الله لما شُجّ وجههُ يوم أُحد شقّ ذلك على أصحابه فقالوا : لو دعوت عليهم فقال : "إني لم أُبعث لعاناً وإنما بُعثتُ رحمة" .

وأما المظهر الثاني من مظاهر كونه رحمة للعالمين فهو مظهر تصاريف شريعته ، أي ما فيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم لأن قوله تعالى ﴿ للعالمين ﴾ متعلق بقوله ﴿ رحمة ﴾ .

والتعريف في ﴿ العالمين ﴾ لاستغراق كل ما يصدق عليه اسم العالم .

والعالَم : الصنف من أصناف ذوي العلم ، أي الإنسان ، أو النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة كما تقدم من احتمال المعنيين في قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] .

(64/516)

فإن أريد أصناف ذوي العلم فمعنى كون الشريعة المحمدية منحصرة في الرحمة أنها أوسع الشرائع رحمة بالناس فإن الشرائع السالفة وإن كانت مملوءة برحمة إلا أن الرحمة فيها غير عامة إمّا لأنها لا تتعلق بجميع أحوال المكلفين ، فالحنيفية شريعة إبراهيم عليه السلام كانت رحمة خاصة بحالة الشخص في نفسه وليس فيها تشريع عام ، وشريعة عيسى عليه السلام قريبة منها في ذلك ؛ وإما لأنها قد تشتمل في غير القليل من أحكامها على شدّة اقتضتها حكمة الله في سياسة الأمم المشروعة هي لها مثل شريعة التوراة فإنها أوسع الشرائع

السالفة لتعلقها بأكثر أحوال الأفراد والجماعات ، وهي رحمة كما وصفها الله بذلك في قوله تعالى:

﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴾ [الأنعام : 154] ، فإن كثيراً من عقوبات أمتها جعلت في فرض أعمال شاقة على الأمة بفروض شاقة مستمرة قال تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلّت لهم ﴾ وقال : فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم إلى آيات كثيرة .

لا جرم أن الله تعالى خصّ الشريعة الإسلامية بوصف الرحمة الكاملة .

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى فيما حكاه خطاباً منه لموسى عليه السلام : ﴿ ورَحمتي وسِعت كل شيء فسأكتبها للذين يتّقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ﴾ [الأعراف : 156157] الآية .

ففي قوله تعالى : ﴿ وسعت كل شيء إشارة إلى أن المراد رحمة هي عامة فامتازت شريعة الإسلام بأن الرحمة ملازمة للناس بها في سائر أحوالهم وأنها حاصلة بها لجميع الناس لا لأمة خاصة .

وحكمة تمييز شريعة الإسلام بهذه المزية أن أحوال النفوس البشرية مضت عليها عصور وأطوار تهيأت بتطوراتها لأن تُساس بالرحمة وأن تدفع عنها المشقة إلا بمقادير ضرورية لا تُقام المصالح بدونها ، فما في الشرائع السالفة من اختلاط الرحمة بالشدة وما في شريعة الإسلام من تمحّض الرحمة لم يجر في زمن من الأزمان إلا على مقتضى الحكمة ، ولكن الله أسعد هذه الشريعة والذي جاء بها والأمة المتبعة لها بمصادفتها للزمن والطور الذي اقتضت حكمة الله في سياسة البشر أن يكون التشريع لهم تشريع رحمة إلى انقضاء العالم . فأقيمت شريعة الإسلام على دعائم الرحمة والرفق واليسر .

قال تعالى : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ [الحجّ : 78] وقال تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة : 185] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم "بُعثت بالحنيفية السمحة" .

وما يتخيل من شدة في نحو القِصاص والحدود فإنما هو لمراعاة تعارض الرحمة والمشقة كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ [البقرة : 179] فالقصاص والحدود شدة على الجناة ورحمة ببقية الناس .

وأما رحمة الإسلام بالأمم غير المسلمين فإنما نعني به رحمته بالأمم الداخلة تحت سلطانه وهم أهل الذمة .

ورحمته بهم عدمُ إكراههم على مفارقة أديانهم ، وإجراءُ العدل بينهم في الأحكام بحيث لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم في الحقوق العامة .

هذا وإن أريد بـ ﴿ العالمين ﴾ في قوله تعالى : ﴿ إلا رحمة للعالمين ﴾ النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة فإن الشريعة تتعلق بأحوال الحيوان في معاملة الإنسان إياه وانتفاعه به .

(66/516)

إذ هو مخلوق لأجل الإنسان ، قال تعالى : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ [البقرة : 29] وقال تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤف رحيم ﴾ [النحل : 57] .

وقد أذنت الشريعة الإسلامية للناس في الانتفاع بما يُنتفع به من الحيوان ولم تأذن في غير ذلك .

ولذلك كُره صيد اللهو وحرم تعذيب الحيوان لغير أكله ، وعدّ فقهاؤنا سباقَ الخيل رخصة للحاجة في الغزو ونحوه .

ورغبت الشريعة في رحمة الحيوان ففي حديث "الموطأ" عن أبي هريرة مرفوعاً : "أن الله غفر لرجل وجد كلباً يلهثُ من العطش فنزل في بئر فملأ خفّه ماء وأمسكه بفمه حتى رقِي فسقَى الكلب فغفر الله له" .

أما المؤذي والمضرّ من الحيوان فقد أُذن في قتله وطرده لترجيح رحمة الناس على رحمة البهائم .

وهي تفاصيل الأحكام من هذا القبيل كثرة لا يعوز الفقيه تتبعها .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

عقب الوصف الجامع لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم من حيث ما لها من الأثر في أحوال البشر بوصف جامع لأصل الدعوة الإسلامية في ذاتها الواجب على كلّ متبع لها وهو الإيمان بوحدانية الله تعالى وإبطال إلهية ما سواه ، لنبذ الشرك المبثوث بين الأمم يومئذ .

وللاهتمام بذلك صُدرت جملته بالأمر بأن يقول لهم لاستصغاء أسماعهم .

وصيغت الجملة في صيغة حصر الوحي إليه في مضمونها لأن مضمونها هو أصل الشريعة الأعظم ، وكل ما تشتمل عليه الشريعة متفرع عليه ، فالدعوة إليه هي مَقادة الاجتلابِ إلى الشريعة كلّها ، إذ كان أصل الخلاف يومئذ بين الرسول ومُعانديه هو قضية الوحدانية ولذلك قالوا : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ [ص : 5] .

وما كان إنكارهم البعث إلا لأنهم لم يجدوه في دين شركهم إذ كان الذين وضعوا لهم الشرك لا يحدثونهم إلا عن حالهم في الدنيا فما كان تصلبهم في إنكار البعث إلا شعبة من شعب الشرك .

فلا جرم كان الاهتمام بتقرير الوحدانية تضييقاً لشقة الخلاف بين النبي وبين المشركين المعرضين الذين افتتحت السورة بوصف حالهم بقوله تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدَث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ﴾ [الأنبياء : 13] .

وأفادت (إنما) المكسورة الهمزة وإتلاؤها بفعل ﴿ يوحى ﴾ قصر الوحي إلى الرسول على مضمون جملة ﴿ أنّما إلهكم إله واحد ﴾ .

وهو قصر صفة على موصوف .

و(أنما) المفتوحة الهمزة هي أخت "إنما" المكسورة الهمزة في إفادة القصر لأن (أَنما) المفتوحة مركبة من (أنّ) المفتوحة الهمزة و(مَا) الكافّة .

كما ركبت (إنّما) المكسورة من (إِن) المكسورة الهمزة و(ما) الكافّة .

وإذ كانت (أنّ) المفتوحة أخت (إن) المكسورة في إفادة التأكيد فكذلك كانت عند اتصالها بـ (ما) الكافّة أختاً لها في إفادة القصر .

وتقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ في سورة العقود (92) .

وإذ قد أُتليتْ (أنَما) المفتوحة بالاسم الجامع لحقيقة الإله ، وأخبر عنه بأنه إلهٌ واحد فقد أفادت أن صاحب هذه الحقيقة مستأثر بالوحدانية فلا يكون في هذه الحقيقة تعدد أفراد فأفادت قصراً ثانياً ، وهو قصر موصوف على صفة .

والقصر الأول إضافي ، أي ما يوحى إلي في شأن الإله إلا أن الإله إله واحد .

والقصر الثاني أيضاً إضافي ، أي في شأن الإله من حيث الوحدانية .

ولما كان القصر الإضافي من شأنه ردُّ اعتقاد المخاطب بجملة القصر لزم اعتبار ردّ اعتقاد المشركين بالقصرين .

(68/516)

فالقصر الأول لإبطال ما يُلبسون به على الناس من أن محمداً يدعو إلى التوحيد ثم يذكر الله والرحمان ، ويُلبسون تارة بأنه ساحر لأنه يدعو إلى ما لا يُعقل ، قال تعالى : ﴿ وقال

الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ [ص : 45] فيكون معنى الآية في معنى قوله تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ [الأحقاف : 9] وقوله تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا قبلك من رُسُلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ [الزخرف : 45] .

ثم إن كلا القصرين كان كلمة جامعة لدعوة الإسلام تقريباً لشقة الخلاف والتشعيب .

وعلى جميع هذه الاعتبارات تفرع عليها جملة ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ .

والاستفهام حقيقي ، أي فهل تسلمون بعد هذا البيان .

وهو مستعمل أيضاً في معنى كنائي وهو التحريض على نبذ الإشراك وعلى الدخول في دعوة الإسلام .

واسم الفاعل مستعمل في الحال على أصله ، أي فهل أنتم مسلمون الآن استبطاء لتأخر إسلامهم .

وصيغ ذلك في الجملة الاسمية الدالة على الثبات دون أن يقال : فهل تسلمون ، لإفادة أن المطلوب منهم إسلام ثابت .

وكأنّ فيه تعريضاً بهم بأنهم في ريب يترددون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر . . ﴾ .

والكَتْب : التسجيل ، لكن علم الله أزليٌّ لا يحتاج إلى تسجيل ، إنما التسجيل من أجلنا نحن حتى نطمئن ، كما لو أخذتَ من صاحبك قَرْضاً وبينكما ثقة ، ويأمن بعضكم بعضاً ، لكن مع هذا نكتب القَرْض ونُسجّله حتى تطمئن النفس .

ومعنى : ﴿ كَتَبْنَا فِي الزبور . . ﴾ [الأنبياء : 105] الزبور : الكتاب الذي أُنزِل على نبي الله داود ، ومعنى الزبور : الشيء المكتوب ، فإنْ أطلقتَها على عمومها تُطلَق على كل كتاب أنزله الله ، ومعنى : ﴿ مِن بَعْدِ الذكر . . ﴾ [الأنبياء : 105] الذِكْر : يُطلَق مرة على القرآن ، ومرة على الكتب السابقة . وما دام الزَبور يُطلَق على كل كتاب أنزله الله فلا بُدَّ أن للذكر معنى أوسع ؛ لذلك يُطلَق الذكر على اللوح المحفوظ ، لأنه ذكْر الذكْر ، وفيه كل شيء .

فمعنى : ﴿ كَتَبْنَا فِي الزبور . . ﴾ [الأنبياء : 105] أي : في الكتب التي أُنزلَتْ على الأنبياء ما كتبناه في اللوح المحفوظ ، أو ما كتبناه في الزبور ، لا أنّ سيدنا داود أعطاه الله فوق ما أعطى الآخرين .

ومعنى : ﴿ مِن بَعْدِ الذكر . . ﴾ [الأنبياء : 105] هذه تدل على أن واحداً أسبق

من الآخر ، نقول : القرآن هو كلام الله القديم ، ليس في الكتب السماوية أقدم منه ، والمراد هنا ﴿ مِن بَعْدِ الذكر . . ﴾ [الأنبياء : 105] بعدية ذِكْرية ، لا بعدية زمنية .

فما الذي كتبه الله لداود في الزبور ؟ كتب له ﴿ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ [الأنبياء : 105] كلمة الأرض إذا أُطلقَتْ عموماً يُراد بها الكرة الأرضية كلها .

وقد تُقيَّد بوصف معين . كما في : ﴿ الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ . . ﴾ [المائدة : 21] .

وفي : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض . . ﴾ [يوسف : 80] أي : التي كان بها .

(70/516)

وهنا يقول تعالى : ﴿ أَنَّ الأرض . . ﴾ [الأنبياء : 105] أي : الأرض عموماً ﴿ يَرِثُهَا . . ﴾ أي : تكون حقاً رسمياً لعبادي الصالحين . فأيُّ أرض هذه ؟ أهي الأرض التي نحن عليها الآن ؟ أم الأرض المبدلة ؟

ما دُمْنَا نتكلّم عن بَدْء الخَلْق وإعادته ، فيكون المراد الأرض المبدلَة المعادة في الآخرة ، والتي يرثها عباد الله الصالحون ، والإرْث هنا كما في قوله تعالى : ﴿ تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 43] .

فعن مَنْ ورثوا هذه الأرض ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الخَلْق أعدَّ الجنةِ لتسعَ كلَّ بني آدم إنْ آمنوا ، وأعدَّ النار لتسع كُلَّ بني آدم إنْ كفروا ، فليس في المسألة زحام على أيِّ حال . فإذا ما دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ، ودخل أهلُ النارِ النارَ ظلَّتْ أماكن أهل النار في الجنة خالية فيُورثها الله لأهل الجنة ويُقسِّمها بينهم ، ويُفسح لهم أماكنهم التي حُرِم منها أهل الكفر .

أو نقول : الأرض يُراد بها أرض الدنيا . ويكون المعنى أن الله يُمكِّن الصالح من الأرض ، الصالح الذي يَعْمُرها ولو كان كافراً ؛ لأن الله تعالى لا يحرم الإنسان ثمار عمله ، حتى وإنْ كان كافراً ، يقول تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾

[الشورى : 20] .

(71/516)

لكن عمارة الكفار للأرض وتمكينهم للحضارة سَرْعان ما تنزل بهم النكبات ، وتنقلب عليهم حضارتهم ، وها نحن نرى نكبات الأمم المرتقية والمتقدمة وما تعانيه من أمراض اجتماعية مستعصية ، فليست عمارة الأرض اقتصاداً وطعاماً وشراباً وترفاً . ففي السويد – مثلاً – وهي من أعلى دول العالم دَخْلاً ومع ذلك بها أعلى نسبة انتحار ، وأعلى

نسبة شذوذ ، وهذه هي المعيشة الضَّنْك التي تحدَّث عنها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ [طه : 124]

فالضَّنْك لا يعني فقط الفقر والحاجة ، إنما له صور أخرى كثيرة .

إذن : لا تَقِسْ مستوى التحضُّر بالماديات فحسب ، إنما خُذْ في حُسبانك كُلَّ النواحي الأخرى ، فمَنْ أتقن النواحي المادية الدنيوية أخذها وترف بها في الدينا ، أمّا الصلاح الديني والخُلقي والقِيَمي فهو سبيل لترف الدنيا ونعيم الآخرة .

وهكذا تشمل الآية : ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ [الأنبياء : 105] الصلاح المادي الدنيوي ، والصلاح المعنوي الأخروي ، فإنْ أخذتَ الصلاح مُطلقاً بلا إيمان ، فإنك ستجد ثمرته إلى حين ، ثم ينقلب عليك ، فأين أصحاب الحضارات القديمة من عاد وثمود والفراعنة ؟

إن كُلَّ هذه الحضارات مع ما وصلتْ إليه ما أمكنها أن تحتفظ لنفسها بالدوام ، فزالتْ وبادتْ .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ [الفجر : 6 – 10] .

إنها حضارات راقية دُفِنَتْ تحت أطباق التراب ، لا نعرف حتى أماكنها . أمّا إنْ أخذت الصلاح المعنوي ، الصلاح المنهجي من الله عز وجل فسوف تحوز به الدنيا والآخرة ؛ ذلك لأن حركة الحياة تحتاج إلى منهج يُنظِّمها : افعل كذا ولا تفعل كذا . وهذا لا يقوم به البشر أمّا ربُّ البشر فهو الذي يعلم ما يُصلحهم ويُشرِّع لهم ما يُسعدهم .

إن منهج الله وحده هو الذي يأمرنا وينهانا ، ويخبرنا بالحلال والحرام ، وعلينا نحن التنفيذ ، وعلى الحكام وأولياء الأمر الممسكين بميزان العدل أنْ يراقبوا مسألة التنفيذ هذه ، فيُولُّوا مَنْ يصلُح للمهمة ، ويقوم بها على أكمل وجه ، وإلا فسد حال المجتمع ، الحاكم يُشرف ويُراقِب ، يُشجِّع العامل ويُعاقب الخامل ، ويضع الرجل المناسب في مكانه المناسب .

فعناصر الصلاح في المجتمع : علماء يُخططون ، وحكام يُنفّذون ، ويديرون الأمور ، وكلمة حاكم مأخوذة من الحكَمة (بالفتح) وهي : اللجام الذي يكبح الفَرس ويُوجِّهها .

لذلك جاء في الحديث الشريف : " مَنْ ولَّى أحداً على جماعة ، وفي الناس خير منه لا يشم رائحة الجنة " .

لماذا ؟ لأن ذلك يُشيع الفساد في الأرض ، ويُثبِّط العزائم العالية والهمم القوية حين ترى مَنْ

هو أقلّ منك كفاءة يتولّى الأمر ، وتُستبعد أنت .

أما حين تعتدِ كِفَة الميزان فسوف يجتهد كُلٌّ مِنّا ليصل إلى مكانه المناسب .

إذن : مهمة الحكام وولاة الأمر ترقية المجتمع ، فلا نقول لحاكم مثلاً يُعِدُّ لنا طعاماً ، أو يصنع لنا آلة ، فليستْ هذه مهمته ، ولقد رأينا أحد الأمراء وكان له أرض يزرعها ، يتولاها أحد الموظفين يقولون له (الخُولي) ومهمة الخولي الإشراف والمراقبة .

وفي يوم جاء الأمير ليباشر أرضه ويتفقد أحوالها في صُحْبة الخولي ، وفي أثناء جولتهما بالأرض رأى الخولي قناةً ينسابُ منها الماء حتى أغرق الزرع فنزل وسَدَّ القناة بنفسه .

(73/516)

وعندها غضب الأمير وفصله من عمله ؛ لأنه عمل بيده في حين أن مهمته الإشراف ولديه من العمال مَنْ يقوم بمثل هذا العمل .

لكن لماذا هذه النظرة في إدارة الأعمال ؟ قالوا : لإنك إنْ عملتَ بيدك فأنت واحد ، لكن إنْ أشرفتَ فيمكن أنْ تُشرِف على آلاف من العمال . ومن هنا جاءت مسألة التخصُّص في الأعمال .

وعلى الحاكم ووليّ الأمر أنْ يحافظ على منهج الله ، ويتابع تطبيق الناس له ، فيقف أمام أي

فساد ، ويأخذ على يد صاحبه ، ويثيب المجتهد العامل ، كما جاءَ في قوله تعالى في قصة القرنين : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف : 87 – 88] .

ذلك ، لأن الله تعالى يزَعُ بالسلطان مَا لا يزع بالقرآن ، ولو تركنا أهل الفساد والمنحرفين لجزاء القيامة لفسد المجتمع ، لا بُدَّ من قوة تصون صلاح المجتمع ، وتضرب على أيدي المفسدين ، لا بُدَّ من قوة تمنع مَنْ يتجرؤون علينا ويطالبون بتغيير نظامنا الإسلامي .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : 60] لا بُدَّ أن يعلم العدو أن لديك الرادعَ الذي يَردعه إن اعتدى عليك أو حاول إفساد صلاح المجتمع .

لذلك ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث إن السهم الذي يُرمى في سبيل الله ، لكل مَنْ شارك في إعداده ورمية جزء من الثواب ، فالذي قطعه من الشجرة والذي براه ، والذي وضعه في القوس ورمى به ؛ لأن في ذلك صيانةً للحق وصيانة للصلاح حتى يدوم ، ولا يفسده أحد .

والمسئولية هنا لا تقتصر على الحكام وولاة الأمر ، إنما هي مسئولية كل فرد فيمن ولي أمراً من أمور المسلمين ، كما جاء في الحديث : "كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته : فالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بَعْلها وولده وهي مسئولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته " .

وعلى العامل ألاّ ينظرَ إلى مراقبة صاحب العمل ، وليكُنْ هو رقيباً على نفسه ، والله عز وجل يراقب الجميع ، وقد جاء في الحديث القدسي

" " إن كنتم تعتقدون أنِّي لا أراكم فالخَلل في إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنِّي أراكم فَلِمَ جعلتموني أهونَ الناظرين إليكم ؟ " .

والمتأمل في حركة الحياة يجدها متداخلة ، فمثلاً لو أردتَ بناء بيت ، فالهندسة حركة ، والبناء حركة ، والكهرباء حركة ، والنجارة حركة ، وهكذا . . . ، فلو قلنا : إن هذا العمل يتكون من مائة حركة مثلاً ، فإنك لا تملك منها إلا حركة واحدة هي عملك الذي تتقنه ، والباقي حركات لغيرك ، فإنْ أخلصتَ فيما للناس عندك ألهمهم الله أنْ يخلصوا لك ولو عن غير قصد ، فأنت أخلصتَ وأتقنتَ حركة واحدة ، وأخلص الناس لك في تسع وتسعين حركة .

واعلم أن الخواطر والأفكار بيد الله سبحانه ، فإنْ راقبتَ الله فيما للناس عندك راقبهم الله لك فيما لك عندهم ، وكفاك مُؤْنة المراقبة ، فقد يصنع لك الصانع شيئاً ، ويريد أنْ يغشّك فيه فيحول الله بينه وبين هذا ؛ ربما يجلس معه أحد معارفه فيستحي أن يغش أمامه ، أو لا يجد الشيء الذي يغشك به ، أو غير ذلك من الأسباب التي يُسخِّرها الله لك ، فيتقن لك الصانع صَنْعته ، ولو رَغْماً عن إرادته .

إذن : إن أردتَ صلاحَ أمرك فأصلح أمور الآخرين .

(75/516)

ومن الأساسيات التي نُصلح بها ونرث الأرض أن ننظر إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية ، لا فضلَ لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فليس فينا مَنْ هو ابن لله عز وجل ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ . . ﴾ [الحجرات : 13] .

والإسلام لا يعرف الطبقية إلا في إتقان العمل ، فقيمة كل امرئ ما يُحسِنه ، وقد ضربنا لذلك مثلاً ، وما نزال نذكره مع أنه لرجل غير مسلم ، إنه رجل فرنسي كان نقيباً للعمال ، وكان يدافع عن حقوقهم ، ويطلب لهم زيادة الدَّخْل من ميزانية الوزارة ، فلما تولى منصب

الوزارة وتولى المسئولية عدلَ عَمَّا كان يطالب به ، فضجَّ العمال ، وأراد أحدهم أنْ يغيظه فقال له : اذكر يا معالي الوزير أنك كنت في يوم من الأيام ماسح أحذية ، فما كان من الرجل إلا أن قال : نعم . . لكني كنت أجيدها .

وسبق أن ذكرنا أن الله تعالى وزَّعَ المواهب والقدرات بين خَلْقه ، فساعة ترى نفسك مُميزاً على غيرك في شيء فلا تغتر به ، وابحثْ فيما مُيّز به عنك غيرُك ؛ لأننا جميعاً عند الله سواء ، لا يحابي أحداً على أحد ، فأنت مُميز بعلمك أو قوتك ، وغيرك أيضاً مُميز في سعادته مع أهله أو في أمانته وثقة الناس به ، أو في رضاه بما قسم له أو في مقدرته على نفسه ورضاه بالقليل ، وقد يُميَّز الواحد مِنَّا بالولد الصالح الذي يكون مِطْواعاً لأبيه ، وقُرة عَيْن له .

إذن : هذه مسألة مُقدّرة محسوبة ؛ لأن ربك سبحانه قيُّوم عليك ، لا تخفى عليه منك خافية ، وحين يُميّز بعضنا على بعض إنما ليدكّ فينا الغرور والكبرياء ، وينزع من قلوبنا الحِقْد والغلَّ ، وهكذا يتوازن المجتمع ، ولا يكون التميز مثار حقدٍ ؛ لأن تميزَ غيرك لصالحك ، وسيعود عليك .

(76/516)

والحق – سبحانه وتعالى – يُحدِّثنا عن يوم القيامة ، وكيف أن الشمس ستدنو من الرؤوس ، ويشتدّ بالناس الكرب ، إلا هؤلاء الذين يُظلُّهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، ذلك لأنهم كانوا مظلة أمان في الدنيا ، فأظلهم الله في الآخرة .

كما جاء في الحديث الشريف : " سبعة يُظلهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه مُعلَّق في المساجد ، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه " .

نعم ، لقد صنع هؤلاء بسلوكهم القويم مظلَّة أمانٍ في الكون ، فاستحقوا مظلَّة الله في الآخرة . وبمثل هؤلاء يتوازن المجتمع المسلم ويَرْقَى إلى القمة ، هذا المجتمع الذي نريده هو مجتمع غنيّه متواضع ، وفقيره كريم شريف ، وشابُّه طائع .

يقول رب العزة سبحانه في الحديث القدسي : " " أحب ثلاثة وحُبِّي لثلاثة أشدُّ – فهؤلاء ستة نقسمهم إلى قسمين – أحب الفقير المتواضع ، وحُبِّي للغني المتواضع أشد – لأن عنده أسبابَ الكبر ومع ذلك يتواضع – وأحب الغنيِّ الكريم وحُبِّي للفقير الكريم أشدّ ، وأحب الشيخ الطائع وحبي للشاب الطائع أشدُّ "

. " وأكره ثلاثة وكُرْهي لثلاثة أشد : أكره الغني المتكبر ، وكُرْهي للفقير المتكبر أشدّ ،

وأكره الفقير البخيل ، وكُرْهي للغني البخيل أشد ، وأكره الشاب العاصي وكرهي للشيخ العاصي أشد " .

هؤلاء اثنا عشر نوعاً : ستة في المحبوبية ، وستة في المكروهية ، وكلما التزمنا بتطبيق هذا المنهج وجدنا مجتمعاً راقياً من الدرجة الأولى .

﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (106) ﴾

(77/516)

البلاغ : الشيء المهم الذي يجب أن يعلمه الناس ؛ لذلك حين ينشغل الناس بالحرب ، وينتظرون أخبارها تأتيهم على صورة بلاغات ، يقولون : بلاغ رقم واحد ، لأنه أمر مهم .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي هذا لَبَلاَغاً . . ﴾ [الأنبياء : 106] أي : أن ما جاء به القرآن هو البلاغ الحق ، والبلاغ الأعلى الذي لم يترك لكم عذراً ، ولا لغفلتكم مجالاً ، ولا لمستدرك أنْ يستدرك عليه في شيء . فهو مُنتْهى ما يمكن أنْ أخبركم به .

وهو بلاغ لمن ؟ ﴿ لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 106] أي : يتلقفون مُرادَ الله لينفذوه ، سواء أكان أمراً أمْ نَهياً .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (107) ﴾

وما دام صلى الله عليه وسلم خاتَم الرسل ، وبعثتُه للناس كافة ، وللزمن كله إلى أنْ تقوم الساعة . وقد جاء الرسل السابقون عليه لفترة زمنية محددة ، ولقوم بعينهم ، أما رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتْ رحمةً للعالمين جميعاً ؛ لذلك لابُدَّ لها أنْ تتسعَ لك أقضية الحياة التي تعاصرها أنت ، والتي يعاصرها خَلَفُك ، وإلى يوم القيامة .

ومعنى : العالمين ، كُلُّ ما سوى الله عز وجل : عالم الملائكة ، وعالم الجن ، وعالم الإنس ، وعالم الجماد ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات . لكن كيف تكون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم رحمةً لهم جميعاً ؟

قالوا : نعم ، رحمة للملائكة ، فجبريل – عليه السلام – كان يخشى العاقبة حتى نزل على محمد قوله تعالى : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ ﴾ [التكوير : 20] فاطمأن جبريل عليه السلام وأَمِن .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للجماد ؛ لأنه أمرنا بإماطة الأذى عن الطريق .

وهو رحمة بالحيوان . وفي الحديث الشريف : " ما من مسلم يزرع زَرْعاً ، أو يغرس غَرْساً فيأكلَ منه طيْرٌ أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة " .

(78/516)

وحديث المرأة التي دخلتْ النار في هِرَّة حبستْها ، فلا هي أطعمتْها وسقتْها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاش الأرض .

وحديث الرجل الذي دخل الجنة ؛ لأنه سقى كلباً كان يلهث يأكل الثرى من شدة العطش ، فنزل الرجل البئر وملأ خُفَّه فسقى الكلب ، فشكر الله له وغفر له ، لأنه نزل البئر وليس معه إناء يملأ به الماء ، فاحتال للأمر ، واجتهد ليسقي الكلب .

وهكذا نالتْ رحمة الإسلام الحيوان والطير والإنسان ، ففي الدين مبدأ ومنهج يُنظِّم كل شيء ولا يترك صغيرة ولا كبيرة في حياة الناس ؛ لذلك فهو رحمة للعالمين .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 107] يعني أن كل ما يجيء به الإسلام داخل في عناصر الرحمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ . . . ﴾ .

فالوحدانية هي أول رحمة بنا ، أن نكون كلنا سواء ، ليس لنا إلا إله واحد ، هذه من أعظم رحمات الله أن نعبده وحده لا شريك له ، فعبادته تُغنينا عن عبادة غيره ، ولو كانت آلهةً متعددة لأصابتنا الحيرة بين إله يأمر ، وإله ينهى .

لذلك ؛ فالحق – سبحانه وتعالى – يطلب منا أنْ نعتزّ وأنْ نفخَر بهذه الوحدانية ، وبهذه الألوهية ، وفي هذا يقول الشاعر الإسلامي محمد إقبال :

والسُّجود الذِي تَجْتويه . . . مِنْ أُلُوفِ السُّجودِ فِيهِ نَجَاةُ

فسجودك لله وتعفير وجهك له سبحانه يحميك من السجود لغيره ، ولولا سجودك لله لَسجدت لكل مَنْ هو أقوى منك ، فعليك – إذن – أن تعتز بعبوديتك لله ؛ لأنها تحميك من العبودية لغيرك من البشر ، وحتى لا يقول لك شخص أنت عبد ، نعم أنا عبد لكن لستُ عبداً لك ، فعبد غيرك حُرٌّ مثلك .

(79/516)

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً في هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ [الزمر : 29] فهل يستوي عبد لعدة أسياد يتجاذبونه في وقت واحد ، وهم مع ذلك مختلفون بعضهم مع بعض ، وعبد سَلَماً لسيد واحد ؟

وهكذا ، نحن جميعاً عبيد لله – عز وجل – حين نخضع لا نخضع إلا له سبحانه ، فلا أخضع لك ولا تخضع أنت لي ؛ لذلك يقولون " اللي الشرع يقطع صباعه ميخرش دم " لأنه أمر من أعلى ، من السماء ، لا دَخْلَ لأحد فيه .

لذلك ؛ فالعبودية تُكره حين تكون عبوديةً للبشر ، لأن عبودية البشر للبشر يأخذ السيد خير عبده ، أما العبودية لله فيأخذ العبد خير سيده .

والشاعر يقول :

حَسْبُ نفسي عِزاً بأنِّي عَبْدٌ . . . يحتفي بي بلاَ مواعيدَ رَبُّ

هُوَ في قُدْسِه الأعزِّ ولكِنْ . . . أنا أُلْقَى متى وأَيْنَ أُحِبُّ

ولك أنْ تقارن بين مقابلة عظيم من عظماء الدنيا ، ومقابلة ربك عز وجل . فإنْ أردتَ الدخولَ على أحد هؤلاء لا بُدَّ أن تطلب المقابلة ، ويا ترى تقبل أم ترفض ، وإنْ قبلت فلا تملك من عناصرها شيئاً ، فالزمان ، والمكان ، وموضوع الكلام . كلها أمور يحددها غيرك .

أما إن أردتَ مقابلة ربك – عز وجل – فما عليك إلا أنْ تتوضأ وترفع يديك قائلاً : الله أكبر بعدها ستكون في معية الله ، وقد اخترتَ أنت الزمان ، والمكان ، وموضوع الحديث ، وإنهاء اللقاء .

(80/516)

أَلاَ ترى كيف امتنَّ الله تعالى على رسوله في رحلة " الإسراء والمعراج " بأنْ وصفه بالعبودية له سبحانه ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : 1] إذن : جاء قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلهكم إله وَاحِدٌ . . ﴾ [الأنبياء : 108] بعد قوله :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 107] ليدلنا : أن دعوة الله لنا إلى عبادة إله واحد ترحمنا من عبوديتنا بعضنا لبعض .

ثم يُرغِّبنا الحق سبحانه في هذه العبودية ، فيقول : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء : 108] كما تحث ولدك المتكاسل أن يكون مثل زميله الذي تفوّق ، وأخذ المركز الأول ، فتقول له : ألا تذاكر وتجتهد حتى تكون مثله ؟

وهكذا في ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء : 108] أي : مسلمون لله ؛ لأن مصلحتكم في الإسلام وعزّكم في عبوديتكم لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(81/516)

فائدة

قال التسترى :

قوله : ﴿ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ [105] قال : أضافهم إلى نفسه وحلاهم بحلية الصلاح ، معناه : لا يصلح إلا ما كان خالصاً لي ، لا يكون لغيري فيه أثر ، وهم الذين أصلحوا سريرتهم مع الله ، وانقطعوا بالكلية عن جميع ما دونه .

(82/516)

قوله : ﴿ إِنَّ فِي هذا لَبَلاَغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [106] قال : لم يجعله بلاغاً لجميع عباده ، بل خصه لقوم عابدين ، وهم الذين عبدوا الله تعالى ، وبذلوا له مهجهم ، لا من أجل عوض ، ولا من أجل الجنة ، ولا من أجل النار ، بل حباً له وافتخاراً بما أهّلهم لعبادتهم إياه ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 105 ﴾

(83/516)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾

وأصح القولين في قوله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ الأنبياء 107 أنه على عمومه وفيه على هذا التقدير وجهان

أحدهما أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته أما أتباعه فنالوا به كرامة الدنيا والآخرة

وأما أعداؤه فالمحاربون له عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة وهم قد كتب عليهم الشقاء فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته وهم أقل شرا بذلك العهد من المحاربين له

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيره وأما الأمم النائية عنه فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته

الوجه الثاني أنه رحمة لكل أحد لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها كما يقال هذا دواء لهذا المرض فإذا لم يستعمله المريض لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض

ومما يحمد عليه ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم فإن من نظر في أخلاقه وشيمه علم إنها خير أخلاق الخلق وأكرم شمائل الخلق فإنه كان أعلم الخلق وأعظمهم أمانة وأصدقهم حديثا وأحلمهم وأجودهم وأسخاهم وأشدهم احتمالا وأعظمهم عفوا ومغفرة وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما

كما روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال في صفة رسول الله في التوراة محمد عبدي ورسولي سميته المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله وأفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا

وأرحم الخلق وأرأفهم بهم وأعظم الخلق نفعا لهم في دينهم ودنياهم وأفصح خلق الله وأحسنهم تعبيرا عن المعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة الدالة على المراد وأصبرهم في مواطن الصبر وأصدقهم في مواطن اللقاء وأوفاهم بالعهد والذمة وأعظمهم مكافأة على الجميل بأضعافه وأشدهم تواضعا واعظمهم إيثارا على نفسه وأشد الخلق ذبا عن أصحابه وحماية

لهم ودفاعا عنهم وأقوم الخلق بما يأمر به وأتركهم لما ينهى عنه وأوصل الخلق لرحمه فهو أحق بقول القائل

برد على الأدنى ومرحمة . . . وعلى الأعادي مارن جلد

قال علي رضي الله عنه كان رسول الله أجود الناس صدرا وأصدقهم لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله

فقوله كان اجود الناس صدرا أراد به بر الصدر وكثرة خيره وأن الخير يتفجر منه تفجيرا وأنه منطو على كل خلق جميل وكل خير كما قال بعض أهل العلم ليس في الدنيا كلها محل كان أكثر خيرا من صدر رسول الله قد جمع الخير بحذافيره وأودع في صدره

وقوله أصدق الناس لهجة هذا مما أقر له به أعداؤه المحاربون له ولم يجرب عليه أحد من أعدائه كذبة واحدة قط دع شهادة أوليائه كلهم له به فقد حاربه أهل الأرض بأنواع المحاربات مشركوهم وأهل الكتاب منهم وليس أحد منهم يوما من الدهر طعن فيه بكذبة واحدة صغيرة ولا كبيرة

(85/516)

قال المسور بن مخرمة قلت لأبي جهل وكان خالي يا خال هل كنتم تتهمون محمدا بالكذب قبل أن يقول مقالته فقال والله يا ابن أختي لقد كان محمد وهو شاب يدعى فينا الأمين فلما وخطه الشيب لم يكن

ليكذب قلت يا خال فلم لا تتبعونه فقال يا ابن أختي تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف فأطعموا وأطعمنا وسقوا وسقينا وأجاروا وأجرنا فلما تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي فمتى نأتيهم بهذه أو كما قال

وقال تعالى يسليه ويهون عليه قول أعدائه قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين الأنعام 33 34

وقوله ألينهم عريكة يعني سهل لين قريب من الناس مجيب لدعوة من دعاه قاض لحاجة من استقضاه جابر لقلب من قصده لا يحرمه ولا يرده خائبا إذا أراد أصحابه منه أمرا وافقهم عليه وتابعهم فيه وإن عزم على أمر لم يستبد دونهم بل يشاورهم ويؤامرهم وكان يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئهم

وقوله أكرمهم عشرة يعني أنه لم يكن يعاشر جليسا له إلا اتم عشرة وأحسنها وأكرمها فكان لا يعبس في وجهه ولا يغلظ له في مقاله ولا يطوي عنه بشره ولا يمسك عليه فلتات لسانه ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة ونحوها بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان ويحتمل غاية الاحتمال فكانت عشرته لهم احتمال أذاهم وجفوتهم جملة لا يعاقب أحدا منهم ولا يلومه ولا يباديه بما يكره من خالطه يقول أنا احب الناس إليه لما يرى من لطفه به وقربه منه وإقباله عليه واهتمامه بأمره وتضحيته له وبذل إحسانه إليه واحتمال جفوته فأي عشرة كانت أو تكون أكرم من هذه العشرة

قال الحسين رضي الله عنه: سألت أبي عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في جلسائه فقال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش, ولا عياب, ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يؤيس منه راجيه ، ولا يخيب فيه ، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء ، والإكثار ، وترك ما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يعيبه, ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه ، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ،

(87/516)

حديثهم عنده حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون منه, ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة من منطقه ، ومسألته ، حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم, ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه ، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ ، ولا يقطع على أحد حديثه, حتى يجوز ، فيقطعه بنهي أو قيام" .

وقوله: من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه: وصفه بصفتين خص الله بهما أهل

الصدق والإخلاص: وهما الإجلال والمحبة ، فكان قد ألقى عليه هيبة منه ومحبة, فكان كل من يراه يهابه ويجله ، ويملأ قلبه تعظيماً وإجلالاً وإن كان عدواً له ، فإذا خالطه وعاشره كان أحب إليه من كل مخلوق ، فهو المجل المعظم المحبوب المكرم ، وهذا كمال المحبة أن تقرن بالتعظيم والهيبة, فالمحبة بلا تعظيم ولا هيبة ناقصة ، والهيبة والتعظيم من غير محبة ناقصة ، كما تكون للغادر الظالم نقص أيضاً ، والكمال: أن تجتمع المحبة والود ، والتعظيم والإجلال ، وهذا لا يوجد إلا إذا كان في المحبوب صفات الكمال التي يستحق أن يعظم لأجلها ويحب لأجلها .

ولما كان الله سبحانه وتعالى أحق بهذا من كل أحد كان المستحق لأن يعظم ويكبر ويهاب ويحب ، ويود بكل جزء من أجزاء القلب ، ولا يجعل له شريك في ذلك, وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله سبحانه: أن يسوي بينه وبين غيره في هذا الحب ، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّه ﴾ البقرة: من الآية165 فأخبر أن من أحب شيئاً غير الله مثل حبه لله كان قد اتخذه نداً ، وقال أهل النار في النار لمعبودهم: ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ

(88/516)

إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الشعراء: 98-97 ، ولم تكن تسويتهم لهم بالله في كونهم خلقوا السماوات والأرض ، أو خلقوهم ، أو خلقوا آباءهم, وإنما سووهم برب العالمين في الحب لهم كما يحب الله ، فإن حقيقة العبادة هي الحب والذل ، وهذا هو الإجلال والإكرام الذي وصف به نفسه في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ الرحمن: 78 .

وأصح القولين في ذلك: أن الجلال هو التعظيم ، والإكرام هو الحب, وهو سر قول العبد : لا إله إلا الله ، والله أكبر, ولهذا جاء في مسند الإمام أحمد : من حديث أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام أي: الزموها والهجوا بها .

وفي مسند أبي يعلى الموصلي: عن بعض الصحابة, أنه طلب أن يعرف اسم الله الأعظم, فرأى في منامه مكتوباً في السماء بالنجوم: يا بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، وكل محبة وتعظيم للبشر ، فإنما تجوز تبعاً لمحبة الله وتعظيمه ، كمحبة رسوله وتعظيمه ، فإنها من تمام محبة مرسله وتعظيمه ، فإن أمته يحبونه لحب الله له . ويعظمونه ويجلونه لإجلال الله له, فهي محبة لله من موجبات محبة الله, وكذلك محبة أهل العلم والإيمان ، ومحبة الصحابة رضي الله عنهم وإجلالهم ، تابع لمحبة الله ورسوله لهم .

المقصود أن النبي صلى الله عليه وسلم ألقى الله عليه من المهابة والمحبة, ولكل مؤمن مخلص

حظ من ذلك .

قال الحسن البصري رحمه الله: إن المؤمن رزق حلاوة ومهابة .

(89/516)

يحب ويهاب ويجل بها ، ألبسه الله سبحانه من ثوب الإيمان المقتضي لذلك, ولهذا لم يكن بشر أحب إلى بشر ولا أهيب وأجل في صدره من رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر الصحابة رضي الله عنهم .

قال عمرو بن العاص قبل إسلامه: "إنه لم يكن شخص أبغض إلي منه, فلما أسلم لم يكن شخص أحب إليه منه ولا أجل في عينه منه ، قال: ولو سئلت أن أصفه لكم لما أطقت, لأني لم أكن أملأ عيني منه إجلالاً له" .

وقال عروة بن مسعود لقريش: "يا قوم والله لقد وفدت على كسرى وقيصر والملوك ، فما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً صلى الله عليه وسلم ، والله ما يحدون النظر إليه تعظيماً له ، وما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فيدلك بها وجهه وصدره, وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه" .

فلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشتملاً على ما يقتضي أن يحمد مرة بعد مرة

سمي محمداً ، وهو اسم موافق لمسماه ، ولفظ مطابق لمعناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ جلاء الأفهام صـ 141 . صـ 147 ﴾

(90/516)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾ القرآن ﴿ أن الأرض ﴾ قال : أرض الجنة .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾ قال : يعني بالذكر ، كتبنا في القرآن من بعد التوراة ، و ﴿ الأرض ﴾ أرض الجنة .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾ يعني بالذكر ، التوراة ، ويعني بالزبور ، الكتب من بعد التوراة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ ولقد كتبنا في الزبور ﴾ قال : الكتب . ﴿ من بعد الذكر ﴾ قال : التوراة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه ، عن ابن عباس في الآية قال : الزبور ، التوراة والإنجيل والقرآن ، والذكر الأصل الذي نسخت منه هذه الكتب الذي في السماء والأرض ، أرض الجنة .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن جرير ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور ﴾ قال : الزبور ، التوراة والإنجيل والقرآن ﴿ من بعد الذكر ﴾ قال : الذكر الذي في السماء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في الآية قال : الزبور ، الكتب . والذكر ، أم الكتاب عند الله ، والأرض الجنة .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال : الزبور ، الكتب التي أنزلت على الأنبياء ، والذكر ، أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ قال : أرض الجنة .

(91/516)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور ﴾ الآية . قال : أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض ، أن يورث أمة محمد الأرض ويدخلهم الجنة ، وهم ﴿ الصالحون ﴾ وفي قوله : ﴿ لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ قال : عالمين .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ قال : أرض الجنة ، يرثها الذين يصلون الصلوات الخمس في الجماعات .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم ، عن الشعبي في قوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾ قال : في زبور داود ﴿ من بعد ﴾ ذكر موسى التوراة ﴿ أن الأرض يرثها ﴾ قال : الجنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : كتب الله في زبور داود بعد التوراة .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله : ﴿ أن الأرض يرثها ﴾ قال : الجنة .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ قال : الجنة وقرأ ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء ﴾ [الزمر : 74] قال : فالجنة مبتدؤها في الأرض ثم تذهب درجاً علوّا .

والنار مبتدؤها في الأرض ، وبينهما حجاب ، سور ما يدري أحد ما ذاك السور . وقرأ ﴿ باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ [الحديد : 13] قال : ودرجها تذهب سفالاً في الأرض ، ودرج الجنة تذهب علوّاً في السماء .

وأخرج ابن جرير ، عن صفوان قال : سألت عامر بن عبد الله أبا اليمان ، هل لأنفس المؤمنين مجتمع ؟ فقال : يقول الله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ قال : هي الأرض التي تجمع إليها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث .

(92/516)

وأخرج البخاري في تاريخه وابن أبي حاتم ، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تعالى : ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ فنحن الصالحون " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن جرير في قوله : ﴿ إن في هذا لبلاغاً ﴾ قال : كل ذلك يقال : إن في هذه السورة ، وفي هذا القرآن لبلاغاً .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن زيد في قوله : ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ قال : إن في هذا لمنفعة وعلماً ﴿ لقوم عابدين ﴾ ذلك البلاغ .

وأخرج ابن جرير ، عن كعب الأحبار ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ قال : لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير ، عن كعب في قوله : ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ قال : صوم شهر رمضان ، والصلوات الخمس .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن أبي هريرة ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ قال : في الصلوات الخمس شغلاً للعبادة .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ﴿ لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ قال : هي الصلوات الخمس في المسجد الحرام جماعة .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، عن محمد بن كعب ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ قال : الصلوات الخمس .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنه ﴿ لقوم عابدين ﴾ قال : الذين يحافظون على الصلوات الخمس في الجماعة .

وأخرج عن قتادة رضي الله عنه ﴿ لقوم عابدين ﴾ قال : عاملين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ قال : من آمن تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن عوفي مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من

العذاب ؛ من المسخ والخسف والقذف .

وأخرج مسلم ، " عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله ، ادع على المشركين . قال : " إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة " " .

(93/516)

وأخرج أبو نعيم في الدلائل ، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " إن الله بعثني رحمة للعالمين وهدى للمتقين " .

وأخرج أحمد وأبو داود والطبراني ، عن سلمان : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أيما رجل من أمتي سببته سبة في غضبي ، أو لعنته لعنة ، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون ، وإنما بعثني رحمة للعالمين ، وأجعلها عليه صلاة يوم القيامة " .

وأخرج البيهقي في الدلائل ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما أنا رحمة مهداة " .

وأخرج عبد بن حميد ، " عن عكرمة رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله ، ألا تلعن قريشاً بما أتوا إليك ؟ فقال : " لم أبعث لعاناً إنما بعثت رحمة " يقول الله : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) ﴾

قوله : ﴿ مِن بَعْدِ الذكر ﴾ : يجوز أَنْ يتعلَّق ب "كَتَبْنا " ، ويجوز أَنْ يتعلَّقَ بنفسِ " الزَّبُورِ " لأَنَّه بمعنى المَزْبُور أي : المكتوب أي : المَزْبُور مِنْ بَعْدِ . ومفعولُ "كَتَبْنا " أَنَّ وما في حَيِّزِها أي : كَتَبْنا وراثَةَ الصالحينِ للأرضِ أي : حَكَمْنا به .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107) ﴾

قوله : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مفعولاً له أي : لأجلِ الرَّحْمة . ويجوز أَنْ ينتصِبَ على الحال مبالغةً في أَنْ جعَلَه نفسَ الرحمة ، وإمَّا على حَذْفِ مضافٍ أي : ذا رحمةٍ أو بمعنى راحِم . وفي الحديث " يا أيها الناسُ إنما أنا رحمةٌ مُهْداة " .

قوله : ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ يجوز أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنها صفةٌ ل " رَحْمَةً " أي : كائنةً للعالمين . ويجوز أَنْ يتعلَّقَ ب " أَرْسَلْناك " عند مَنْ يَرَى تَعَلُّقَ ما بعد " إلاَّ " بما قبلها جائزاً أو بمحذوفٍ عند مَنْ لا يَرَى ذلك . هذا إذا لم يُفَرَّغ الفعلُ لما بعدها ، أما إذا فُرِّغ فيجوزُ نحو :

ما مررتُ إلاَّ بزيدٍ ، كذا قاله الشيخ هنا . وفيه نظرٌ من حيث إن هذا أيضاً مفرغ ؛ لأنَّ المفرَّغَ عبارةٌ عمَّا افتقر ما بعد " إلاَّ " لِما قبلها على جهةِ المعمولية له .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) ﴾

(95/516)

قوله : ﴿ أَنَّمَآ إلهكم ﴾ : " أنَّ " وما في حَيِّزِها في محلِّ رفعٍ لقيامِه مَقامَ الفاعلِ ؛ إذا التقديرُ : إنما يوحى إليَّ وَحْدانيةُ إلهكم . وقال الزمخشري : " إنَّما " لقَصْرِ الحكمِ على شيءٍ أو لقَصْرِ الشيءِ على حكمٍ كقولِك : " إنما زيدٌ قائم " و " إنما يقومُ زيدٌ " . وقد اجتمع المثالان في هذه الآيةِ ؛ لأنَّ ﴿ إِنَّمَآ يوحى إِلَيَّ ﴾ مع فاعِله بمنزلةِ " إنما يقومُ زيد " ، و ﴿ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ بمنزلةِ " إنَّما زيد قائم " . وفائدةُ اجتماعِهما الدلالةُ على أنَّ الوَحْيَ لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم مقصورٌ على استئثارِ الله بالوَحْدانية " .

قال الشيخ : " أمَّا ما ذكره في " أنَّما " أنَّها لقَصْرِ ما ذَكَر ، فهو مبنيٌّ على أن " أنَّما " للحصر ، وقد قررنا أنها لا تكون للحصر وأنَّ " ما " مع " أنَّ " كهي مع كأنَّ ومع لعلَّ . فكما أنها لا تفيد الحصر في التشبيه ولا الحصر في الترجي ، فكذلك لا تفيده مع " أنَّ " . وأما جَعْلُه " أنما " المفتوحةَ الهمزةِ مثلَ المكسورتِها تدلُّ على القَصْر فلا نعلم الخلاف إلاَّ في " إنما "

بالكسر ، وأما " أنما " بالفتح فحرفٌ مصدريٌّ ، ينسَبِكُ منه مع ما بَعْدَه مصدرٌ ، فالجملةُ بعدها ليسَتْ جملةً مستقلةً . ولو كانَتْ " أنما " دالةً على الحصر لزم أَنْ يُقال : إنه لم يُوْحَ إليه شيءٌ إلاَّ التوحيدُ ، وذلك لا يَصِحُّ الحَصْرُ فيه ، إذ قد أُوْحي له أشياءُ غيرُ التوحيد " .

(96/516)

قلت : الحَصْرُ بحسب كلِّ مقامٍ على ما يناسِبُه ؛ فقد يكون هذا المقامُ يقتضي الحصرَ في إيحاءِ الواحدنية لشيءٍ جرى من إنكارِ الكفارِ وحدانيتَه تعالى ، وأنَّ اللهَ لم يُوْحِ إليه لها شيئاً . وهذا كما أجاب الناسُ عن هذا الإشكالِ الذي ذكره الشيخُ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ [الرعد : 7] ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ ﴾ [الكهف : 110] ﴿ إِنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [محمد 36] إلى غير ذلك . و" ما " من قوله ﴿ إِنَّمَآ يوحى ﴾ يجوز فيها وجهان ، أحدهما : أن تكونَ كافةً وقد تقدَّم . والثاني : أن تكونَ موصولةً كهي في قوله : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ ﴾ [طه : 69] ويكون الخبرُ هو الجملةَ مِنْ قوله : ﴿ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ تقديرُه : إن الذي يوحى إليَّ هو هذا الحكمُ .

قوله : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ استفهامٌ معناه الأمرُ بمعنى أَسْلِموا ، كقوله : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ

مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: 91] أي: انتهوا. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 215.213﴾

(97/516)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) ﴾

﴿ الذِّكْرِ ﴾ هنا هو التوراة، و"كَتَبَ": أي أخبر وحَكَمَ، و﴿ الصَّالِحُونَ ﴾ أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - أنَّ ﴿ الأَرْضَ ﴾ هم الذين يرثونها.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107) ﴾

أمَّا مَنْ أسلم فبِكَ ينجون، وأمَّا مَنْ كَفَرَ فلا نعذبهم ما دُمْتَ فيهم؛ فأنت رحمة مِنَّا على الخلائق أجميعن.

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) ﴾

واحدٌ في ذاته، واحدٌ في صفاته، واحدٌ في أفعاله، واحد بلا قسيم، واحد بلا شبيه، واحدٌ بلا شريك.

﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ مخلصون في عقد التوحيد بالتبرّي عن كلّ غيرٍ في حسبان صَلاَحِيَّتِهِ للألوهية ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 526 ﴾

(98/516)

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (109) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (110) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (111) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (112) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان توليهم بعد هذه القواطع مستبعد ، أشار إلى ذلك بإيراده بأداة الشك فقال :

﴿ فإن تولوا ﴾ أي لم يقبلوا ما دعوتهم إليه ﴿ فقل ﴾ أي لهم : ﴿ ءاذنتكم ﴾ أي أعلمتكم ببراءتي منكم وأني غير راجع إليكم أبداً كما أنكم تبرأتم مني ولم ترجعوا إليّ ، فصار علمكم أن لا صلح بيننا مع التولي كعلمي وعلم من اتبعني .

لتتأهبوا لجميع ما تظنونه ينفعكم ، فهو كمن بينه وبين أعدائه هدنة فأحس منهم بغدره ،

فنبذ إليهم العهد ، شهر ذلك النبذ وأشاعه فلم يخفه عن أحد منهم ، وهو مما اشتهر أنه بلغ النهاية في الفصاحة والوجازة ، أو أبلغتكم جميع ما أرسلت به ولم أخص به أحداً دون أحد ، وهذا كله معنى ﴿ على سواء ﴾ أي إيذاناً مستعلياً على أمر نصف وطريق عدل ، ليس فيه شيء من خفاء ولا غش ولا خداع ولا عذر ، بل نستوي فيه نحن وأنتم .

ولما كان من لازم البراءة من شخص الإيقاع به كان موضع أن يقولوا هزؤاً على عادتهم : نبذت إلينا على سواء فعجل لنا ما تتوعدنا به ، فقال : ﴿ وإن ﴾ أي وما ﴿ أدري أقريب ﴾ جداً بحيث يكون قربه على ما تتعارفونه ﴿ أم بعيد ما توعدون ﴾ من عذاب الله في الدنيا بأيدي المسلمين أو بغيره ، أو في الآخرة مع العلم بأنه كائن لا محالة ، وأنه لا بد أن يلحق من أعراض عن الله الذل والصغار .

ولما كان من المقطوع به من كون الشك إنما هو في القرب أو البعد أن يكون التقدير : لكنه محقق الوجود ، لأن الله واحد لا شريك له ، وقريب عند الله ، لأن كل ما حقق إيجاده قريب ، علله بقوله : ﴿ إنه ﴾ أي الله تعالى ﴿ يعلم الجهر ﴾ ولما كان الجهر قد يكون في الأفعال ، بينه بقوله : ﴿ من القول ﴾ مما تجاهرونه به من العظائم وغير ذلك ، ونبه الله تعالى على ذلك لأن من أحوال الجهر أن ترتفع الأصوات جداً بحيث تختلط ولا يميز بينها ولا يعرف كثير من حاضريها ما قاله أكثر القائلين ، فأعلم سبحانه أنه لا يشغله صوت عن آخر ولا يفوته شيء عن ذلك ولو كثر ﴿ ويعلم ما تكتمون ﴾ مما تضمرونه من المخازي كما قال تعالى أولها

﴿ قل ربي يعلم القول في السماء والأرض ﴾ ومن لازم ذلك المجازاة عليه بما يحق لكم من تعجيل وتأجيل ، فستعلمون كيف يخيب ظنونكم ويحقق ما أقول ، فتقطعون بأني صادق عليه ولست بساحر ، ولا حالم ولا كاذب ولا شاعر ، فهو من أبلغ التهديد فإنه لا أعظم من التهديد بالعلم .

(99/516)

ولما كان الإمهال قد يكون نعمة ، وقد يكون نقمة ، قال : ﴿ وإن ﴾ وما ﴿ أدري ﴾ أي أيكون تأخير عذابكم نعمة لكم كما تظنون أو لا .

ولما كان إلى كونه نقمة أقرب ، قال معبراً عما قدرته : ﴿ لعله ﴾ أي تأخير العذاب وإيهام الوقت ﴿ فتنة لكم ﴾ أي اختبار من الله ليظهر ما يعلمه منكم من الشر لغيره ، لأن حالكم حال من يتوقع منه ذلك ﴿ ومتاع ﴾ لكم تتمتعون به ﴿ إلى حين ﴾ أي بلوغ مدة آجالكم التي ضربها لكم في الأزل ، ثم يأخذكم بغتة أخذه يستأصلكم بها .

ولما كان اللازم من هذه الآيات تجويز أمور تهم سامعها وتقلقه للعلم بأن الله تعالى له أن يفعل ما يشاء من عدل وفضل ، وكان من العدل جواز تعذيب الطائع وتنعيم العاصي ، كان كأنه قيل : فما قال الرسول الشفوق على الأمة حين سمع هذا الخطاب ؟ فقيل : قال مبتهلاً إلى

الله تعالى – هذا على قراءة حفص .

وعلى قراءة الجمهور : لما علم سبحانه أن ذلك مقلق ، أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يرجى من يقلق من أتباعه فقال : ﴿ قال رب ﴾ أي ايها المحسن إلي في نفسي واتباعي بامتثال أوامرك واجتناب نواهيك ﴿ احكم ﴾ أي أنجز الحكم بيني وبين هؤلاء المخالفين ﴿ بالحق ﴾ أي بالأمر الذي يحق لكل منا من نصر وخذلان على ما أجريته من سنتك القديمة في أوليائك وأعدائك ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾ [الحجر : 8] أي الأمر الفصل الناجز ، قال ابن كثير : وعن مالك عن زيد بن أسلم : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا شهد قتالاً قال ﴿ رب احكم بالحق ﴾ .

وفي الآية أعظم حث على لزوم الإنسان بالحق ليتأهل لهذه الدعوة .

(100/516)

ولما كان التقدير : فربنا المنتقم الجبار له أن يفعل ما يشاء وهو قادر على ما توعدون ، عطف عليه قوله : ﴿ وربنا ﴾ أي المحسن إلينا أجمعين ؛ ثم وصفه بقوله : ﴿ الرحمن ﴾ أي العام الرحمة لنا ولكم بإدرار النعم علينا ، ولولا عموم رحمته لأهلكنا أجمعين وإن كنا نحن أطعناه ، لأنا لا نقدره حق قدره ﴿ لو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها

من دابة ﴾ والحاصل أنه لما سأل ﴿ الحق ﴾ المراد به الهلاك للعدو والنجاة للولي ، أفرد الإضافة إشارة إلى تخصيصه بالفضل ، وإفرادهم بالعدل ، ولما سأل العون عم بالإضافة والصفة قنوعاً بترجيح جانبه بالعون وإن شملتم الرحمة ، ولأن من رحمتهم خليتهم عما هم عليه من الشر فقال : ﴿ المستعان ﴾ أي المطلوب منه العون وهو خبر المبتدأ موصوف ﴿ على ما تصفون ﴾ مما هو ناشىء عن غفلتكم الناشئة عن إعراضكم عن هذا الذكر من الاستهزاء والقذف بالسحر وغيره ، والمناصبة بالعداوة والتوعد بكل شر ، فقد انطبق آخر السورة على أولها بذكر الساعة رداً على قوله ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ وذكر غفلتهم وإعراضهم وذكر القرآن الذي هو البلاغ ، وذكر الرسالة بالرحمة لمن نسبوه إلى السحر وغيره ، وتفصيل ما استعجلوا به من آيات الأولين وغير ذلك ، وقام الدليل بالسمع بعد العقل على تحقق أمر الساعة بأنه سبحانه لا شريك له يمنعه من ذلك ، وأنه يعلم السر وأخفى ، وهو رحمن ، فمن رحمته إيجاد يوم الدين ليجازي فيه المحسن بإحسانه ، والمسيء بكفرانه ، وفي ذلك أعظم ترهيب في أعلى حاث على التقوى للنجاة في ذلك اليوم ، وهو أول التي تليها – والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 126 . 128 ﴾

(101/516)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءاذَنتُكُمْ على سَوَاء ﴾

فقال صاحب "الكشاف" : آذن منقول من أذن إذا علم ولكنه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار ، ومنه قوله : ﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مّنَ الله وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة : 279] إذا عرفت هذا فنقول : المفسرون ذكروا فيه وجوهاً .

أحدها : قال أبو مسلم : الإيذان على السواء الدعاء إلى الحرب مجاهرة لقوله تعالى : ﴿ فانبذ إِلَيْهِمْ على سَوَاء ﴾ [الأنفال : 58] وفائدة ذلك أنه كان يجوز أن يقدر على من أشرك من قريش أن حالهم مخالف لسائر الكفار في المجاهدة ، فعرفهم بذلك أنهم كالكفار في ذلك .

وثانيها : أن المراد فقد أعلمتكم ما هو الواجب عليكم من التوحيد وغيره على السواء ، فلم أفرق في الإبلاغ والبيان بينكم ، لأني بعثت معلماً .

والغرض منه إزاحة العذر لئلا يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ [طه : 134] .

وثالثها : على سواء على إظهار وإعلان .

ورابعها : على مهل ، والمراد أني لا أعاجل بالحرب الذي آذنتكم به بل أمهل وأؤخر رجاء

الإسلام منكم .

أما قوله : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ ففيه وجهان : أحدهما : ﴿ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ من يوم القيامة ، ومن عذاب الدنيا ثم قيل : نسخه قوله : ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ [الأنبياء : 97] يعني منهما ، فإن مثل هذا الخبر لا يجوز نسخه .

وثانيها : المراد أن الذي آذنهم فيه من الحرب لا يدري هو قريب أم بعيد لئلا يقدر أنه يتأخر كأنه تعالى أمره بأن ينذرهم بالجهاد الذي يوحى إليه أن يأتيه من بعد ولم يعرفه الوقت ، فلذلك أمره أن يقول : إنه لا يعلم قربه أم بعده .

تبين بذلك أن السورة مكية ، وكان الأمر بالجهاد بعد الهجرة .

(102/516)

وثالثها : أن ما يوعدون به من غلبة المسلمين عليهم كائن لا محالة ولا بد أن يلحقهم بذلك الذل والصغار ، وإن كنت لا أدري متى يكون ، وذلك لأن الله تعالى لم يطلعني عليه .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ فالمقصود منه الأمر بالإخلاص وترك النفاق ، لأنه تعالى إذا كان عالماً بالضمائر وجب على العاقل أن يبالغ في الإخلاص .

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ ففيه وجوه ؛ أحدها : لعل تأخير العذاب عنكم .

وثانيها : لعل إبهام الوقت الذي ينزل بكم العذاب فيه فتنة لكم أي بلية واختبار لكم ليرى صنعكم وهل تحدثون توبة ورجوعاً عن كفركم أم لا .

وثالثها : قال الحسن : لعل ما أنتم فيه من الدنيا بلية لكم والفتنة البلوى والاختبار .

ورابعها : لعل تأخير الجهاد فتنة لكم إذا أنتم دمتم على كفركم ، لأن ما يؤدي إلى الضرر العظيم يكون فتنة ، وإنما قال لا أدري لتجويز أن يؤمنوا فلا يكون تبقيتهم فتنة بل ينكشف عن نعمة ورحمة .

وخامسها : أن يكون المراد وإن أدري لعل ما بينت وأعلمت وأوعدت فتنة لكم ، لأنه زيادة في عذابكم إن لم تؤمنوا لأن المعرض عن الإيمان مع البيان حالاً بعد حال يكون عذابه أشد ، وإذا متعه الله تعالى بالدنيا يكون ذلك كالحجة عليه .

أما قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احكم بالحق ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء : (قل رب أحكم بالحق) على الإكتفاء بالكسرة (ورب احكم) على الضم (وربي أحكم) أفعل التفضيل (وربي أحكم) من الإحكام .

المسألة الثانية :

﴿ رَبِّ احكم بالحق ﴾ فيه وجوه : أحدها أي ربي اقض بيني وبين قومي بالحق أي بالعذاب .

(103/516)

كأنه قال : اقض بيني وبين من كذبني بالعذاب ، وقال قتادة : أمره الله تعالى أن يقتدي بالأنبياء في هذه الدعوة وكانوا يقولون : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ [الأعراف : 89] فلا جرم حكم الله تعالى عليهم بالقتل يوم بدر .

وثانيها : افصل بيني وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو أن تنصرني عليهم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّنَا الرحمن المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ ففيه وجهان ؛ أحدهما : أي من الشرك والكفر وما تعارضون به دعوتي من الأباطيل والتكذيب كأنه سبحانه قال : قل داعياً لي : ﴿ رَبِّ احكم بالحق ﴾ وقل متوعداً للكفار : ﴿ وَرَبُّنَا الرحمن المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ قرأ ابن عامر بالياء المنقوطة من تحت ، أي قل لأصحابك المؤمنين ، وربنا الرحمن المستعان على ما يصف الكفار من الأباطيل ، أي من العون على دفع أباطيلهم .

وثانيها : كانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وخذلهم ، قال القاضي : إنما ختم الله هذه

السورة بقوله : ﴿ قال رَبّ احكم بالحق ﴾ لأنه عليه السلام كان قد بلغ في البيان الغاية لهم وبلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفاً أن المقصود مصلحتهم ، فإذا أبوا إلا التمادي في كفرهم ، فعليك بالانقطاع إلى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق ، إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره ، وإما بتأخير ذلك فإن أمرهم وإن تأخر فما هو كائن قريب ، وما روي أنه عليه السلام كان يقول ذلك في حروبه كالدلالة على أنه تعالى أمره أن يقول هذا القول كالإستعجال للأمر بمجاهدتهم وبالله التوفيق ، وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وسلم تسليماً آمين .

(104/516)

وقد عني بتصحيحه ومراجعته والتعليق عليه على النسخة الأميرية المطبوعة في مطبعة بولاق المقر بالعجز والتقصير عبد الله إسماعيل الصاوي عاملة الله بلطفه وجزى الله طابعه حضرة السيد الفاضل عبد الرحمن أفندي محمد صاحب المطبعة البهية أحسن الجزاء وأثابه أجزل الصواب بحرصه على نشر العلم ونفع علماء المسلمين إنه سميع مجيب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 22 صـ 201 . 203 ﴾

(105/516)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾

يعني أعرضوا ، وفيه وجهان :

أحدهما : عنك .

والثاني : عن القرآن .

﴿ فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَآءٍ ﴾ فيه سبعة تأويلات :

أحدها : على امر بَيِّنٍ سَوِي ، وهذا قول السدي .

والثاني : على مَهْل ، وهذا قول قتادة .

والثالث : على عدل ، وهذا قول الفراء .

والرابع : على بيان علانية غير سر ، وهذا قول الكلبي .

والخامس : على سَواءٍ في الإِعلام يظهر لبعضهم ميلاً عن بعض ، وهذا قول علي بن عيسى .

والسادس : استواء في الإِيمان به .

والسابع : معناه أن من كفر به فهم سواء في قتالهم وجهادهم ، وهذا قول الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لعل تأخير العذاب فتنة لكم .

والثاني : لعل رفع عذاب الاستئصال فتنة لكم .

وفي هذه الفتنة ثلاثة أوجه :

أحدها : هلاك لكم .

والثاني : محنة لكم .

والثالث : إحسان لكم .

﴿ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : إلى يوم القيامة ، وهذا قول الحسن .

والثاني : إلى الموت ، وهذا قول قتادة .

والثالث : إلى أن يأتي قضاء الله تعالى فيهم .

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عجّل الحكم بالحق .

الثاني : معناه افصل بيننا وبين المشركين بما يظهر به الحق للجميع ، وهذا معنى قول قتادة .

﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : على ما تكذبون ، قاله قتادة .

والثاني : على ما تكتمون ، قاله الكلبي .

وقيل إن النبي صلى الله عليه وسلم إذا شهد قتالاً قرأ هذه الآية . والله أعلم . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(106/516)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ آذنتكم على سواء ﴾ معناه عرفتكم بنذارتي وأردت أن تشاركوني في معرفة ما عندي من الخوف عليكم من الله تعالى ، ثم أعلمهم بأنه لا يعرف تعيين وقت لعقابهم بل هو مترقب في القرب والبعد وهذا أهول وأخوف .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (110) ﴾

الضمير في قوله ﴿ إنه ﴾ عائد على الله عز وجل ، وفي هذه الآية تهديد أي يعلم جميع الأشياء الواقعة منكم وهو بالمرصاد في الجزاء عليها ، وقرأ يحيى بن عامر " وإن أدريَ لعله وإن أدريَ أقريب " بفتح الياء فيهما وأنكر ابن مجاهد فتح هذه الياء ووجهه أبو الفتح ، قوله ﴿ لعله ﴾ الضمير فيه عائد على الإملاء لهم وصفح الله تعالى عن عذابهم وتمادي النعمة عليهم ، و﴿ فتنة ﴾ معناه امتحان وابتلاء ، و" المتاع " ، ما يستمتع به مدة الحياة الدنيا ، ثم أمره تعالى أن يقول على جهة الدعاء ﴿ رب احكم بالحق ﴾ والدعاء هنا بهذا فيه

توعد ، أي إن الحق إنما هو في نصرتي عليكم ، وأمر الله تعالى بهذا الدعاء دليل على الإجابة والعدة بها ، وقرأت فقر " رب احكم " وقرأ أبو جعفر بن القعقاع " ربُّ " بالرفع على المنادى المفرد وقرأت فرقة " ربي أحْكَمُ " على وزن أفعل وذلك على الابتداء والخبر ، وقرأت فرقة " ربي أحْكَمُ " على وزن أنه فعل ماض ، ومعاني هذه القراءات بينة ، ثم توكل في آخر الآية واستعان بالله تعالى ، وقرأ جمهور القراء " قل رب " وقرأ عاصم فيما روي عنه " قال رب " وقرأ ابن عامر وحده " يصفون " بالياء ، وقرأ الباقون والناس " تصفون " بالتاء من فوق على المخاطبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(107/516)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فإن تَوَلَّوا ﴾ أي : أَعْرَضُوا ولم يؤمنوا ﴿ فقل آذنتُكم على سواءٍ ﴾ في معنى الكلام قولان .

أحدهما : نابذتُكم وعاديتُكم وأعلمتُكم ذلك ، فصرتُ أنا وأنتم على سواءٍ قد استوينا في العلم بذلك ، وهذا من الكلام المختصر ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : أعلمتكم بالوحي إليَّ لتستووا في الإِيمان به ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ وإِن أدري ﴾ أي : وما أدري ﴿ أقريبٌ أم بعيد ما توعدون ﴾ بنزول العذاب بكم .

﴿ إِنه يعلم الجهر ﴾ وهو ما يقولونه للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [يس : 48] ، و ﴿ ما تَكْتُمون ﴾ إِسرارُهم أن العذاب لا يكون .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُ فتنةٌ لكم ﴾ في هاء "لَعَلَّه" قولان .

أحدهما : أنها ترجع إِلى ما آذنهم به ، قاله الزجاج .

والثاني : إِلى العذاب ؛ فالمعنى : لعل تأخير العذاب عنكم فتنة ، قاله ابن جرير ، وأبو سليمان الدمشقي .

ومعنى الفتنة هاهنا : الاختبار ، ﴿ ومتاعٌ إِلى حين ﴾ أي : تستمعون إِلى انقضاء آجالكم .

﴿ قُلْ رَبِّ ﴾ وروى حفص عن عاصم : "قال رَبِّ" ﴿ احكم ﴾ قرأ أبو جعفر : "ربُّ احكم" بضم الباء .

وروى زيد عن يعقوب : "رِبِّيَ" بفتح الياء "أَحْكَمُ" بقطع الهمزة وفتح الكاف ورفع الميم .

ومعنى "احكم بالحق" أي : بعذاب كفار قومي الذي نزوله حقٌّ ، فحكَم عليهم بالقتل في يوم بدر وفيما بعده من الأيام ؛ والمعنى على هذا : افصل بيني وبين المشركين بما يظهر به الحق .

ومعنى ﴿ على ما تصفون ﴾ أي : من كذبكم وباطلكم .

وقرأ ابن عامر ، والمفضل عن عاصم : "يصفون" بالياء .

فإن قيل : فهل يجوز على الله أن يحكُم بغير الحق ؟

فالجواب : أن المعنى : احكم بحكمك الحق ، كأنه استعجل النصر عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(108/516)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾

أي إن أعرضوا عن الإسلام ﴿ فَقُلْ آذَنتُكُمْ على سَوَآءٍ ﴾ أي أعلمتكم على بيان أنا وإياكم حرب لا صلح بيننا ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فانبذ إِلَيْهِمْ على سَوَآءٍ ﴾ [الأنفال : 58] أي أعلمهم أنك نقضت العهد نقضاً ، أي استويت أنت وهم فليس لفريق عهد ملتزم في حق الفريق الآخر .

وقال الزجاج : المعنى أعلمتكم بما يوحى إليّ على استواء في العلم به ، ولم أظهر لأحد شيئاً كتمته عن غيره .

﴿ وَإِنْ أدري ﴾ "إن" نافية بمعنى "ما" أي وما أدري .

﴿ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ يعني أجل يوم القيامة لا يدريه أحد لا نبي مرسل ولا مَلَك مقرّب ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : آذنتكم بالحرب ولكني لا أدري متى يؤذن لي في محاربتكم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾

أي من الشرك وهو المجازي عليه .

﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ ﴾ أي لعل الإمهال ﴿ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾ أي اختبار ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم .

﴿ وَمَتَاعٌ إِلى حِينٍ ﴾ قيل : إلى انقضاء المدّة .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بني أمية في منامه يلون الناس ، فخرج الحَكَمُ من عنده فأخبر بني أمية بذلك ؛ فقالوا له : ارجع فسله متى يكون ذلك .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أدري أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 109] ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلى حِينٍ ﴾ [الأنبياء : 111] يقول لنبيه عليه السلام قل لهم ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ رَبِّ احكم بالحق ﴾ ختم السورة بأن أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بتفويض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده ، أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذّبين وانصرني عليهم .

روى سعيد عن قتادة قال: كانت الأنبياء تقول: ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ [الأعراف: 89] فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقول: "رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ" فكان إذا لقي العدو يقول وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل ﴿ رَبِّ احكم بالحق ﴾ أي اقض به.

وقال أبو عبيدة: الصفة ها هنا أقيمت مقام الموصوف والتقدير: رب احكم بحكمك الحق.

و"رب" في موضع نصب؛ لأنه نداء مضاف.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن "قُلْ رَبُّ احْكُمْ بِالْحَقِّ" بضم الباء.

قال النحاس: وهذا لحن عند النحويين؛ لا يجوز عندهم رجلُ أقبلْ، حتى تقول يا رجلُ أقبلْ أو ما أشبهه.

وقرأ الضحاك وطلحة ويعقوب "قَالَ رَبِّي أَحْكَمُ بِالْحَقِّ" بقطع الألف مفتوحة الكاف والميم مضمومة.

أي قال محمد ربّي أحكَمُ بالحق من كل حاكم.

وقرأ الجحدري "قُلْ رَبِّي أَحْكَمَ" على معنى أحكم الأمور بالحق .

﴿ وَرَبُّنَا الرحمن المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ أي تصفونه من الكفر والتكذيب .

وقرأ المفضل والسلمي "عَلَى مَا يَصِفُونَ" بالياء على الخبر .

الباقون بالتاء على الخطاب والله أعلم .

أهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 11 صـ ﴾

(110/516)

وقال أبو حيان :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءاذَنتُكُمْ ﴾

﴿ آذنتكم ﴾ أعلمتكم وتتضمن معنى التحذير والنذارة ﴿ على سواء ﴾ لم أخص أحداً دون أحد ، وهذا الإيذان هو إعلام بما يحل بمن تولى من العقاب وغلبة الإسلام ، ولكني لا أدري متى يكون ذلك و ﴿ إن ﴾ نافية و ﴿ أدري ﴾ معلقة والجملة الاستفهامية في موضع نصب بأدري ، وتأخر المستفهم عنه لكونه فاصلة إذ لو كان التركيب ﴿ أقريب ﴾ ﴿ ما توعدون ﴾ ﴿ أم بعيد ﴾ لم تكن فاصلة وكثيراً ما يرجح الحكم في الشيء لكونه فاصلة آخر آية .

وعن ابن عامر في رواية ﴿ وإن أدري ﴾ بفتح الياء في الآيتين تشبيهاً بياء الإضافة لفظاً ، وإن كانت لام الفعل ولا تفتح إلاّ بعامل ، وأنكر ابن مجاهد فتح هذه الياء والمعنى أنه تعالى لم يعلمني علمه ولم يطلعني عليه ، والله هو العالم الذي لا يخفى عليه شيء .

﴿ وإن أدري لعله فتنة ﴾ أي لعل تأخير هذا الموعد امتحان لكم لننظر كيف تعملون ، أو يمتنع لكم إلى حين ليكون ذلك حجة وليقع الموعد في وقت هو حكمة ، ولعل هنا معلقه أيضاً وجملة الترجي هي مصب الفعل ، والكوفيون يجرون لعل مجرى هل ، فكما يقع التعليق عن هل كذلك عن لعل ، ولا أعلم أحداً ذهب إلى أن لعل من أدوات التعليق وإن كان ذلك ظاهراً فيها كقوله

﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ وقيل ﴿ إلى حين ﴾ إلى يوم القيامة .

وقيل : إلى يوم بدر .

وقرأ الجمهور ﴿ قل رب ﴾ أمراً بكسر الباء .

وقرأ حفص قال وأبو جعفر ﴿ رب ﴾ بالضم .

قال صاحب اللوامح : على أنه منادى مفرد وحذف حرف النداء فيما جاز أن يكون وصفاً لأي بعيد بابه الشعر انتهى .

وليس هذا من نداء النكرة المقبل عليها بل هذا من اللغات الجائزة في يا غلامي ، وهي أن

تبنيه على الضم وأنت تنوي الإضافة لما قطعته عن الإضافة وأنت تريدها بنيته ، فمعنى ﴿ رب ﴾ يا ربي .

وقرأ الجمهور ﴿ احكم ﴾ على الأمر من حكم .

(111/516)

وقرأ ابن عباس وعكرمة والجحدري وابن محيصن ربي بإسكان الياء أحكم جعله أفعل التفضيل فربي أحكم مبتدأ وخبر .

وقرأت فرقة أحكم فعلاً ماضياً .

وقرأ الجمهور ﴿ تصفون ﴾ بتاء الخطاب .

وروي أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قرأ على أُبيّ على ما يصفون بياء الغيبة ، ورويت عن ابن عامر وعاصم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(112/516)

وقال أبو السعود :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عن الإسلام وعن شرائعه ومباديه ولم يلتفتوا إلى ما يوجبه من الوحي ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ ءاذَنتُكُمْ ﴾ أي أعلمتُكم ما أُمرت به أو حربي لكم ﴿ على سَوَاء ﴾ كائنين على سواءٍ في الإعلام به لم أطْوِه عن أحد منكم أو مستوين به أنا وأنتم في العلم بما أعلمتُكم به أو في المعاداة أو إيذاناً على سواء ، وقيل : أعلمتكم أني على سواء أي عدلٍ واستقامة رأيٍ بالبرهان النيّر ﴿ وَإِنْ أَدْرِى ﴾ أي ما أدري ﴿ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ من غلَبة المسلمين وظهورِ الدين أو الحشرُ مع كونه آتياً لا محالة .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول ﴾ أي ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام وتكذيبِ الآياتِ التي من جملتها ما نطق بمجيء الموعود ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ من الإحْن والأحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه نقيراً وقطميراً .

﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾ أي ما أدري لعل تأخيرَ جزائِكم استدراجٌ لكم وزيادةٌ في افتتانكم ، أو امتحانٌ لكم لينظرَ كيف تعملون ﴿ ومتاع إلى حِينٍ ﴾ أي وتمتُّعٌ لكم إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئتَه المبنيةُ على الحِكَم البالغةِ ليكون ذلك حجةً عليكم .

(113/516)

﴿ قَالَ رَبِّ احكم بالحق ﴾ حكايةٌ لدعائه عليه الصلاة والسلام ، وقرىء قلْ : رب على صيغة الأمر أي اقضِ بيننا وبين أهل مكةَ بالعدل المقتضي لتعجيل العذابِ والتشديد عليهم ، وقد استجيب دعاؤُه عليه السلام حيث عُذّبوا ببدر أيَّ تعذيبٍ ، وقرىء ربُّ احكم بضم الباء وربِّ أحكَمُ على صيغةِ التفضيل وربِّ أَحكِمْ من الإحكام ﴿ وَرَبُّنَا الرحمن ﴾ مبتدأ أي كثيرُ الرحمة على عباده وقوله تعالى : ﴿ المستعان ﴾ أي المطلوبُ منه المعونةُ خبر ، أو خبرٌ آخرُ للمبتدأ ، وإضافةُ الربِّ فيما سبق إلى ضميره عليه السلام خاصة لما أن الدعاءَ من الوظائف الخاصةِ به عليه السلام كما أن إضافتَه ها هنا إلى ضمير الجمعِ المنتظمِ للمؤمنين أيضاً لما أن الاستعانةَ من الوظائف العامة لهم ﴿ على مَا تَصِفُونَ ﴾ من الحال فإنهم كانوا يقولون : إن الشوكةَ تكون لهم وإن رايةَ الإسلام تخفُق ثم تركُد وإن المتوعَّد به لو كان حقاً لنزل بهم إلى غير ذلك مما لا خيرَ فيه ، فاستجاب الله عز وجل دعوةَ رسوله عليه السلام فخيب آمالَهم وغيّر أحوالَهم ونصر أولياءَه عليهم ، فأصابهم يومَ بدرٍ ما أصابهم ، والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لمضمون ما قبله ، وقرىء يصفون بالياء التحتانية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(114/516)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾

عن الإسلام ولم يلتفتوا إلى ما يوجبه ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ ءاذَنتُكُمْ ﴾ أي اعلمتكم ما أمرت به أو حربي لكم ، والإيذان إفعال من الاذن وأصله العلم بالإجازة في شيء وترخيصه ثم تجوز به عن مطلق العلم وصيغ منه الأفعال ، وكثيراً ما يتضمن معنى التحذير والإنذار وهو يتعدى لمفعولين الثاني منهما مقدر كما أشير إليه .

وقوله تعالى : ﴿ على سَوَاء ﴾ في موضع الحال من المفعول الأول أي كائنين على سواء في الاعلام بذلك لم أخص أحداً منكم دون أحد .

وجوز أن يكون في موضع الحال من الفاعل والمفعول معا أي مستوياً أنا وأنتم في المعاداة أو في العلم بما أعلمتكم به من وحدانية الله تعالى لقيام الأدلة عليها .

وقيل ما أعلمهم صلى الله عليه وسلم به يجوز أن يكون ذلك وأن يكون وقوع الحرب في البين واستوائهم في العلم بذلك جاء من أعلامهم به وهم يعلمون أنه عليه الصلاة والسلام الصادق الأمين وإن كانوا يجحدون بعض ما يخبر به عناداً فتدبر .

وجوز أن يكون الجار والمجرور في موضع الصفة لمصدر مقدر أي إيذاناً على سواء .

وأن يكون في موضع الخبر لأن مقدرة أي أعلمتكم أني على سواء أي عدل واستقامة رأي بالبرهان النير وهذا خلاف المتبادر جداً .

وفي الكشاف أن قوله تعالى : ﴿ ءاذَنتُكُمْ ﴾ الخ استعارة تمثيلية شبه بمن بينه وبين أعدائه هدنة فأحس بغدرهم فنبذ إليهم العهد وشهر النبذ وأشاعه وآذانهم جميعاً بذلك وهو من الحسن بمكان ﴿ وَإِنْ أَدْرِى ﴾ أي ما أدرى ﴿ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ من غلبة المسلمين عليكم وظهور الدين أو الحشر مع كونه آتياً لا محالة ، والجملة في موضع نصب بأدري .

ولم يجيء التركيب أقريب ما توعدون أم بعيد لرعاية الفواصل .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول ﴾

(115/516)

أي ما تجهرون به من الطعن في الإسلام وتكذيب الآيات التي من جملتها ما نطق بمجيء الموعود ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ من الأحن والأحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه نقيراً وقطميراً .

﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾

أي ما أدري لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة في افتتانكم أو امتحان لكم لينظر كيف تعملون .

وجملة ﴿ لَعَلَّهُ ﴾ الخ في موضع المفعول على قياس ما تقدم .

والكوفيون يجرون لعل مجرى هل في كونها معلقة .

قال أبو حيان : ولا أعلم أحداً ذهب إلى أن لعل من أدوات التعليق وإن كان ذلك ظاهراً فيها .

وعن ابن عباس في رواية أنه قرأ ﴿ أَدْرِى ﴾ بفتح الياء في الموضعين تشبيهاً لها بياء الإضافة لفظاً وإن كانت لام الفعل ولا تفتح إلا بعامل .

وأنكر أن مجاهد فتح هذه الياء .

﴿ ومتاع إلى حِينٍ ﴾ أي وتمتيع لكم وتأخير إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ليكون ذلك حجة عليكم .

وقيل المراد بالحين يوم بدر .

وقيل يوم القيامة .

﴿ قَالَ رَبِّ احكم بالحق ﴾

حكاية لدعائه صلى الله عليه وسلم .

وقرأ الأكثر ﴿ قُلْ ﴾ على صيغة الأمر .

والحكم القضاء .

والحق العدل أي رب أقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضى لتعجيل العذاب والتشديد

عليهم فهو دعاء بالتعجيل والتشديد وإلا فكل قضائه تعالى عدل وحق .

وقد استجيب ذلك حيث عذبوا ببدر أي تعذيب .

وقرأ أبو جعفر ﴿ رَبّ ﴾ بالضم على أنه منادى مفرد كما قال صاحب "اللوامح" ،

وتعقبه بأن حذف حرف النداء من اسم الجنس شاذ بابه الشعر .

وقال أبو حيان : إنه ليس بمنادى مفرد بل هو منادى مضاف إلى الياء حذف المضاف إليه

وبنى على الضم كقبل وبعد وذلك لغة حكاها سيبويه في المضاف إلى ياء المتكلم حال

ندائه ولا شذوذ فيه .

وقرأ ابن عباس .

وعكرمة .

والجحدري .

وابن محيصن ﴿ ربّى ﴾ بياء ساكنة ﴿ أَحْكَمُ ﴾ على صيغة التفضيل أي أنفذ أو

أعدل حكماً أو أعظم حكمة .

فربى أحكم مبتدأ وخبر .

(116/516)

وقرأت فرقة ﴿ أَحْكَمُ ﴾ فعلاً ماضياً ﴿ مُّقْتَدِرِ الرحمن ﴾ مبتدأ وخبر أي كثير الرحمة على عباده .

وقوله سبحانه ﴿ المستعان ﴾ أي المطلوب منه العون خبر آخر للمبتدأ .

وجوز كونه صفة للرحمن بناء على اجرائه مجرى العلم .

وإضافة الرب فيما سبق إلى ضميره صلى الله عليه وسلم خاصة لما أن الدعاء من الوظائف الخاصة به عليه الصلاة والسلام كما أن إضافته ههنا إلى ضمير الجمع المنتظم للمؤمنين أيضاً لما أن الاستعانة من الوظائف العامة لهم .

﴿ على مَا تَصِفُونَ ﴾ من الحال فانهم كانوا يقولون : إن الشركة تكون لهم وإن راية الإسلام تخفق ثم تسكن وإن المتوعد به لو كان حقاً لنزل بهم إلى غير ذلك مما لا خير فيه فاستجاب الله عز وجل دعوة رسوله صلى الله عليه وسلم فخيب آمالهم وغير أحوالهم ونصر أولياءه عليهم فأصابهم يوم بدر ما أصابهم : والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله .

وروي أن النبي عليه الصلاة والسلام قرأ أبي رضي الله تعالى عنه ﴿ يَصِفُونَ ﴾ بيان الغيبة ورويت عن ابن عامر .

وعاصم .

هذا وفي جعل خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما يتعلق به .

خاتمة لسورة الأنبياء طيب كما قال الطيبي يتضوع منه مسك الختام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(117/516)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) ﴾

بيّن سبحانه حال معبودهم يوم القيامة فقال : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ وهذا خطاب منه سبحانه لأهل مكة ، والمراد بقوله ﴿ وما تعبدون ﴾ : الأصنام التي كانوا يعبدون .

قرأ الجمهور : ﴿ حصب ﴾ بالصاد المهملة ، أي وقود جهنم وحطبها ، وكل ما أوقدت به النار أو هيجتها به فهو حصب ، كذا قال الجوهري .

قال أبو عبيدة : كل ما قذفته في النار فقد حصبتها به ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ فاتقوا النار التي وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ [البقرة : 24] .

وقرأ عليّ بن أبي طالب وعائشة : " حطب جهنم " بالطاء ، وقرأ ابن عباس : " حضب " بالضاد المعجمة .

قال الفراء : ذكر لنا أن الحضب في لغة أهل اليمن : الحطب ، ووجه إلقاء الأصنام في النار مع كونها جمادات لا تعقل ذلك ولا تحسّ به : التبكيت لمن عبدها وزيادة التوبيخ لهم وتضاعف الحسرة عليهم .

وقيل : إنها تحمى فتلصق بهم زيادة في تعذيبهم ، وجملة : ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ إما مستأنفة أو بدل من ﴿ حصب جهنم ﴾ والخطاب لهم ولما يعبدون تغليباً ، واللام في ﴿ لها ﴾ للتقوية لضعف عمل اسم الفاعل .

وقيل : هي بمعنى على ، والمراد بالورود هنا : الدخول .

قال كثير من أهل العلم : ولا يدخل في هذه الآية عيسى وعزير والملائكة ، لأن ﴿ ما ﴾ لمن لا يعقل ، ولو أراد العموم لقال : ومن يعبدون .

قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم .

(118/516)

﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاء ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ أي لو كانت هذه الأصنام آلهة كما تزعمون ، ما وردوها أي : ما ورد العابدون هم والمعبودون النار ، وقيل : ما ورد العابدون فقط ، لكنهم وردوها فلم يكونوا آلهة ، وفي هذا تبكيت لعباد الأصنام وتوبيخ شديد ﴿ وَكُلٌّ

فِيهَا خالدون ﴾ أي : كلّ العابدين والمعبودين في النار خالدون لا يخرجون منها ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ أي لهؤلاء الذين وردوا النار ، والزفير صوت نفس المغموم ، والمراد هنا : الأنين والتنفس الشديد ، وقد تقدّم بيان هذا في هود .

﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدّة الهول .

وقيل : لا يسمعون شيئاً ، لأنهم يحشرون صماً كما قال سبحانه : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمّا ﴾ [الإسراء : 97] .

وإنما سلبوا السماع ، لأن فيه بعض تروّح وتأنس ، وقيل : لا يسمعون ما يسرهم ، بل يسمعون ما يسوؤهم .

ثم لما بيّن سبحانه حال هؤلاء الأشقياء شرع في بيان حال السعداء فقال : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مّنَّا الحسنى ﴾ أي الخصلة الحسنى التي هي أحسن الخصال وهي السعادة .

وقيل : التوفيق ، أو التبشير بالجنة ، أو نفس الجنة .

﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ إشارة إلى الموصوفين بتلك الصفة ﴿ عَنْهَا ﴾ أي عن جهنم ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ لأنهم قد صاروا في الجنة .

﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ الحسّ والحسيس : الصوت تسمعه من الشيء يمرّ قريباً منك .

والمعنى : لا يسمعون حركة النار وحركة أهلها ، وهذه الجملة بدل من ﴿ مبعدون ﴾ أو

حال من ضميره ﴿ وَهُمْ فِيمَا اشتهت أَنفُسُهُمْ خالدون ﴾ أي دائمون ، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذّ به الأعين كما قال سبحانه : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت : 31] .

(119/516)

﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ قرأ أبو جعفر وابن محيصن : " لا يحزنهم " بضم الياء وكسر الزاي ، وقرأ الباقون ﴿ لا يحزنهم ﴾ بفتح الياء وضم الزاي .

قال اليزيدي : حزنه لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم .

والفزع الأكبر : أهوال يوم القيامة من البعث والحساب والعقاب ﴿ وتتلقاهم الملئكة ﴾ أي تستقبلهم على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم : ﴿ هذا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أي توعدون به في الدنيا وتبشرون بما فيه ، هكذا قال جماعة من المفسرين إن المراد بقوله : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ إلى هنا هم كافة الموصوفين بالإيمان والعمل الصالح ، لا المسيح وعزير والملائكة ، وقال أكثر المفسرين : إنه لما نزل ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ الآية " أتى ابن الزبعري إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ألست تزعم أن عزيراً رجل صالح ، وأن عيسى رجل صالح ، وأن مريم امرأة صالحة ؟ قال : بلى ، فقال :

فإن الملائكة وعيسى وعزيراً ومريم يعبدون من دون الله ، فهؤلاء في النار ، فأنزل الله ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ " وسيأتي بيان من أخرج هذا قريباً إن شاء الله .

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السماء كَطَيِّ السجل للكتب ﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج والزهري : " تطوي " بمثناة فوقية مضمومة ورفع السماء ، وقرأ مجاهد : " يطوي " بالتحتية المفتوحة مبنياً للفاعل على معنى يطوي الله السماء ، وقرأ الباقون ﴿ نطوي ﴾ بنون العظمة وانتصاب ﴿ يوم ﴾ بقوله : ﴿ نُّعِيدُهُ ﴾ أي نعيده يوم نطوي السماء ، وقيل : هو بدل من الضمير المحذوف في توعدون ، والتقدير : الذي كنتم توعدونه يوم نطوي .

وقيل : بقوله : ﴿ لا يحزنهم الفزع ﴾ وقيل : بقوله : ﴿ تتلقاهم ﴾ .

وقيل : متعلق بمحذوف ، وهو اذكر ، وهذا أظهر وأوضح ، والطيّ ضد النشر .

وقيل : المحو ، والمراد بالسماء : الجنس ، والسجل : الصحيفة ، أي طياً كطيّ الطومار .

(120/516)

وقيل : السجل : الصك ، وهو مشتق من المساجلة وهي المكاتبة ، وأصلها من السجل ، وهو الدلو ، يقال : ساجلت الرجل : إذا نزعت دلواً ونزع دلواً ، ثم استعيرت للمكاتبة والمراجعة في الكلام ، ومنه قول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

من يساجلني يساجل ماجداً . . . يملأ الدلو إلى عقد الكرب

وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير : " السجل " بضم السين والجيم وتشديد اللام ، وقرأ الأعمش وطلحة بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام ، والطيّ في هذه الآية يحتمل معنيين أحدهما : الطيّ الذي هو ضدّ النشر ، ومنه قوله :

﴿ والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : 67] .

والثاني : الإخفاء والتعمية والمحو ، لأن الله سبحانه يمحو ويطمس رسومها ويكدّر نجومها .

وقيل : السجل اسم ملك ، وهو الذي يطوي كتب بني آدم .

وقيل : هو اسم كاتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأوّل أولى .

قرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائي ويحيى وخلف : ﴿ للكتب ﴾ جمعاً ، وقرأ الباقون : ﴿ للكتاب ﴾ وهو متعلق بمحذوف حال من السجل ، أي كطيّ السجل كائناً للكتب أو صفة له أي الكائن للكتب ، فإن الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها ، فسجلها بعض أجزائها ، وبه يتعلق الطيّ حقيقة .

(121/516)

وأما على القراءة الثانية فالكتاب مصدر ، واللام للتعليل ، أي كما يطوي الطومار للكتابة ، أي ليكتب فيه ، أو لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة ، وهذا على تقدير أن المراد بالطيّ المعنى الأوّل ، وهو ضدّ النشر ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ أي كما بدأناهم في بطون أمهاتهم وأخرجناهم إلى الأرض حفاة عراة غرلاً كذلك نعيدهم يوم القيامة ، فأوّل خلق مفعول نعيد مقدّراً يفسره نعيده المذكور ، أو مفعول لبدأنا ، وما كافة أو موصولة ، والكاف متعلقة بمحذوف ، أي نعيد مثل الذي بدأناه نعيده ، وعلى هذا الوجه يكون أوّل ظرف لبدأنا ، أو حال ، وإنما خص أوّل الخلق بالذكر تصويراً للإيجاد عن العدم ، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على المبدأ للشمول الإمكاني الذاتي لهما ، وقيل معنى الآية : نهلك كلّ نفس كما كان أوّل مرّة ، وعلى هذا فالكلام متصل بقوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السماء ﴾ .

وقيل : المعنى نغير السماء ، ثم نعيدها مرّة أخرى بعد طيها وزوالها ، والأوّل أولى ، وهو مثل قوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 94] .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فاعلين ﴾ انتصاب ﴿ وعداً ﴾ على أنه مصدر أي وعدنا وعداً علينا إنجازه والوفاء به .

وهو البعث والإعادة ، ثم أكد سبحانه ذلك بقوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا فاعلين ﴾ .

قال الزجاج : معنى ﴿ إنا كنا فاعلين ﴾ : إنا كنا قادرين على ما نشاء .

وقيل : إنا كنا فاعلين ما وعدناكم ، ومثله قوله : ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ [المزمل : 18

].

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور ﴾ الزبر في الأصل : الكتب ، يقال : زبرت ، أي كتبت ، وعلى هذا يصح إطلاق الزبور على التوراة والإنجيل ، وعلى كتاب داود المسمى بالزبور .

وقيل : المراد به هنا : كتاب داود ، ومعنى ﴿ مِن بَعْدِ الذكر ﴾ أي اللوح المحفوظ .

(122/516)

وقيل : هو التوراة ، أي والله لقد كتبنا في كتاب داود من بعد ما كتبنا في التوراة أو من بعد ما كتبنا في اللوح المحفوظ ﴿ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ .

قال الزجاج : الزبور جميع الكتب : التوراة والإنجيل والقرآن ، لأن الزبور والكتاب في معنى واحد ، يقال : زبرت وكتبت ، ويؤيد ما قاله قراءة حمزة في الزبور بضم الزاي ، فإنه جمع زبر .

وقد اختلف في معنى ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ فقيل : المراد : أرض الجنة ، واستدل القائلون بهذا بقوله سبحانه :

﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض ﴾ [الزمر : 74] .

وقيل : هي الأرض المقدسة .

وقيل : هي أرض الأمم الكافرة يرثها نبينا صلى الله عليه وسلم وأمته بفتحها .

وقيل : المراد بذلك : بنو إسرائيل ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض ومغاربها التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف : 137] والظاهر أن هذا تبشير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بوراثة أرض الكافرين ، وعليه أكثر المفسرين .

وقرأ حمزة : " عبادي " بتسكين الياء ، وقرأ الباقون بتحريكها .

﴿ إِنَّ فِي هذا لبلاغا ﴾ أي فيما جرى ذكره في هذه السورة من الوعظ والتنبيه ﴿ لبلاغاً ﴾ : لكفاية ، يقال : في هذا الشيء بلاغ وبلغة وتبلغ ، أي كفاية .

وقيل : الإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ فِي هذا ﴾ إلى القرآن ﴿ لّقَوْمٍ عابدين ﴾ أي مشغولين بعبادة الله مهتمين بها .

والعبادة هي : الخضوع والتذلل ، وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ورأس العبادة الصلاة .

(123/516)

﴿ وَمَا أرسلناكَ إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ أي وما أرسلناك يا محمد بالشرائع والأحكام إلا رحمة لجميع الناس ، والاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال والعلل ، أي ما أرسلناك لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعة ، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ، قيل : ومعنى كونه رحمة للكفار : أنهم أمنوا به من الخسف والمسخ والاستئصال ، وقيل : المراد بالعالمين : المؤمنون خاصة ، والأوّل أولى بدليل قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : 33] .

ثم بيّن سبحانه أن أصل تلك الرحمة هو التوحيد والبراءة من الشرك فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله واحد ﴾ إن كانت "ما" موصولة فالمعنى : أن الذي يوحى إليّ هو أن وصفه تعالى مقصور على الوحدانية لا يتجاوزها إلى ما يناقضها أو يضادّها ، وإن كانت "ما" كافة فالمعنى : أن الوحي إليّ مقصور على استئثار الله بالوحدة ، ووجه ذلك أن القصر أبداً يكون لما يلي إنما ، فإنما الأولى لقصر الوصف على الشيء كقولك : إنما يقوم زيد ، أي ما يقوم إلا زيد .

والثانية لقصر الشيء على الحكم كقولك : إنما زيد قائم ، أي ليس به إلا صفة القيام ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ منقادون مخلصون للعبادة ولتوحيد الله سبحانه .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي أعرضوا عن الإسلام ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ آذنكم على سَوَاء ﴾ أي : أعلمتكم أنا وإياكم حرب لا صلح بيننا كائنين على سواء في الإعلام لم أخصّ به بعضكم

دون بعض كقوله سبحانه : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فانبذ إِلَيْهِمْ على سَوَاء ﴾ [الأنفال : 58] أي أعلمهم أنك نقضت العهد نقضاً سوّيت بينهم فيه .

(124/516)

وقال الزجاج : المعنى : أعلمتكم ما يوحى إليّ على استواء في العلم به ، ولا أظهر لأحد شيئاً كتمته على غيره ﴿ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ أي ما أدري أما توعدون به قريب حصوله أم بعيد ، وهو غلبة الإسلام وأهله على الكفر وأهله ؛ وقيل : المراد بما توعدون : القيامة .

وقيل : آذنتكم بالحرب ولكن لا أدري ما يؤذن لي في محاربتكم ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أي يعلم سبحانه ما تجاهرون به من الكفر والطعن على الإسلام وأهله وما تكتمونه من ذلك وتخفونه ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾ أي ما أدري لعلّ الإمهال فتنة لكم واختبار ليرى كيف صنعكم ﴿ ومتاع إلى حِينٍ ﴾ أي وتمتيع إلى وقت مقدّر تقتضيه حكمته .

ثم حكى سبحانه وتعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ احكم بالحق ﴾ أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين بما هو الحق عندك ففوّض الأمر إليه سبحانه .

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن : " رب " بضم الباء .

قال النحاس : وهذا لحن عند النحويين لا يجوز عندهم : رجل أقبل ، حتى يقول : يا رجل .

وقرأ الضحاك وطلحة ويعقوب : " أحكم " بقطع الهمزة وفتح الكاف وضم الميم ، أي قال محمد : ربي أحكم بالحقّ من كل حاكم .

وقرأ الجحدري : " أحكم " بصيغة الماضي ، أي أحكم الأمور بالحق .

وقرىء : " قل " بصيغة الأمر ، أي قل يا محمد .

قال أبو عبيدة : الصفة هنا أقيمت مقام الموصوف ، والتقدير : ربّ احكم بحكمك الحق ، ﴿ وربّ ﴾ في موضع نصب ، لأنه منادى مضاف إلى الضمير ، وقد استجاب سبحانه دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم فعذبهم ببدر ، ثم جعل العاقبة والغلبة والنصر لعباده المؤمنين والحمد لله ربّ العالمين .

(125/516)

ثم قال سبحانه متمماً لتلك الحكاية ﴿ وَرَبُّنَا الرحمن المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ من الكفر والتكذيب ، ف ﴿ ربنا ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ الرحمن ﴾ أي هو كثير الرحمة لعباده

، ﴿ المستعان ﴾ خبر آخر ، أي المستعان به في الأمور التي من جملتها ما تصفونه من أن الشوكة تكون لكم ، ومن قولكم : ﴿ هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الأنبياء : 3] وقولكم : ﴿ اتخذ الرحمن وَلَداً ﴾ [مريم : 88] وكثيراً ما يستعمل الوصف في كتاب الله بمعنى الكذب كقوله : ﴿ وَلَكُمُ الويل مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : 18] ، وقوله : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ [الأنعام : 139] وقرأ المفضل والسلمي : " على ما يصفون " بالياء التحتية .

وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب .

وقد أخرج الفريابي وعبد بن حميد ، وأبو داود في ناسخه ، وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ قال المشركون : فالملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله ، فنزلت : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ عيسى وعزير والملائكة .

وأخرج ابن مردويه ، والضياء في المختارة عنه قال : جاء عبد الله بن الزبعري إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ قال ابن الزبعري : قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم كل هؤلاء في النار مع آلهتنا ، فنزلت :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُواْ آَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: 57، 58].

(126/516)

ثم نزلت: ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾.

وأخرج أبو داود في ناسخه وابن المنذر والطبراني من وجه آخر عنه أيضاً نحوه بأطول منه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ قال: "عيسى وعزير والملائكة".

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله: ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ قال: شجر جهنم، وفي إسناده العوفي.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه من وجه آخر أن ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ وقودها.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: هو حطب جهنم بالزنجية.

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ قال: "حيات على الصراط تقول حس حس" وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عثمان النهدي في قوله: ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ قال:

حيات على الصراط تلسعهم ، فإذا لسعتهم قالوا : حس حس .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن محمد بن حاطب قال : سئل عليّ عن هذه الآية : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ قال : هو عثمان وأصحابه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ يقول : لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزل منزلهم من الجنة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ قال : النفخة الآخرة ، وفي إسناده العوفي .

وأخرج أحمد ، والترمذي وحسنه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة على كثبان المسك لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة : رجل أمّ قوماً وهم به راضون ، ورجل كان يؤذن في كل يوم وليلة .

وعبد أدّى حق الله وحقّ مواليه " وأخرج عبد بن حميد عن عليّ في قوله : ﴿ كَطَيّ السجل ﴾ قال : ملك .

وأخرج عبد بن حميد عن عطية مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : السجل ملك ، فإذا صعد بالاستغفار قال : اكتبوها نوراً .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن أبي جعفر الباقر قال : السجل ملك .

وأخرج أبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، وابن منده في المعرفة ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه وصححه عن ابن عباس قال : السجل كاتب للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن المنذر وابن عديّ وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم كاتب يسمى : السجل ، وهو قوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السماء كَطَيّ السجل ﴾ قال : كما يطوي السجل الكتاب كذلك نطوي السماء .

وأخرج ابن المنذر ، وأبو نعيم في المعرفة وابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن ابن عمر قال : كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم كاتب يقال له : السجل ، فأنزل الله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السماء كَطَيّ السجل ﴾ .

قال ابن كثير في تفسيره بعد إخراج هذا الحديث : وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر ، لا يصح أصلاً .

قال : وكذلك ما تقدّم عن ابن عباس من رواية أبي داود وغيره لا يصح أيضاً .

وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ، وإن كان في سنن أبي داود منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً له على حدة ، ولله الحمد .

قال : وقد تصدّى الإمام أبو جعفر ابن جرير للإنكار على هذا الحديث وردّه أتمّ ردّ ، وقال : ولا نعرف في الصحابة أحداً اسمه سجلّ ، وكتاب النبيّ صلى الله عليه وسلم كانوا معروفين ، وليس فيهم أحد اسمه السجل .

وصدق رحمه الله في ذلك وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث .

وأما من ذكر في أسماء الصحابة هذا فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره والله أعلم .

قال : والصحيح عن ابن عباس : أن السجلّ هو الصحيفة ، قاله عليّ بن أبي طلحة والعوفي عنه .

(128/516)

ونصّ على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة ، فعلى هذا يكون معنى الكلام : يوم نطوي السماء كطيّ السجلّ للكتاب أي : على الكتاب ، يعني المكتوب كقوله : ﴿ افلما أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات : 103] ، أي : على

الجبين ، وله نظائر في اللغة والله أعلم .

قلت : أما كون هذا هو الصحيح عن ابن عباس فلا ، فإن عليّ بن أبي طلحة والعوفيّ ضعيفان ، فالأولى التعويل على المعنى اللغوي والمصير إليه .

وقد أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : ﴿ السجل ﴾ هو الرجل ، زاد ابن مردويه : بلغة الحبشة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في تفسير الآية قال : كطيّ الصحيفة على الكتاب .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ يقول : نهلك كل شيء كما كان أوّل مرّة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر ﴾ قال : القرآن ﴿ أَنَّ الأرض ﴾ قال : أرض الجنة .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور ﴾ قال : الكتب ﴿ مِن بَعْدِ الذكر ﴾ قال : التوراة وفي إسناده العوفي .

وأخرج سعيد بن منصور عنه أيضاً ، قال : الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن .

والذكر : الأصل الذي نسخت منه هذه الكتب الذي في السماء ، والأرض : أرض الجنة .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ

الصالحون ﴾ قال : أرض الجنة .

وأخرج بن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد الأرض ، ويدخلهم الجنة ، وهم الصالحون ، وفي قوله : ﴿ لبلاغا لّقَوْمٍ عابدين ﴾ قال : عالمين ، وفي إسناده عليّ بن أبي طلحة .

(129/516)

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبي هريرة : ﴿ إِنَّ فِي هذا لبلاغا لّقَوْمٍ عابدين ﴾ قال : الصلوات الخمس .

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والديلمي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في قول الله : ﴿ إِنَّ فِي هذا لبلاغا لّقَوْمٍ عابدين ﴾ قال : في الصلوات الخمس شغلاً للعبادة " وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : ﴿ لبلاغا لّقَوْمٍ عابدين ﴾ قال : " هي الصلوات الخمس في المسجد الحرام جماعة "

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ قال : من آمن تمت له الرحمة في

الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن عوفي مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب من الخسف والمسخ والقذف .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ادع الله على المشركين ، قال : " إني لم أبعث لعاناً ، وإنما بعثت رحمة " وأخرج الطيالسي وأحمد والطبراني ، وأبو نعيم في الدلائل عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله بعثني رحمة للعالمين وهدى للمتقين " وأخرج أحمد والطبراني عن سلمان ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أيما رجل من أمتي سببته سبة في غضبي أو لعنته لعنة ، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما يغضبون ، وإنما بعثني رحمة للعالمين ، فاجعلها عليه صلاة يوم القيامة " وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما أنا رحمة مهداة " وقد روي معنى هذا من طرق .

(130/516)

وأخرج ابن أبي خيثمة وابن عساكر عن الربيع بن أنس قال : لما أسري بالنبيّ صلى الله عليه وسلم رأى فلاناً ، وهو بعض بني أمية على المنبر يخطب الناس ، فشقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ يقول :

هذا الملك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ ﴾ يقول : ما أخبركم به من العذاب والساعة ، لعلّ تأخير ذلك عنكم فتنة لكم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه في قوله : ﴿ قُل رَّبِّ احكم بالحق ﴾

قال : لا يحكم الله إلا بالحق ، وإنما يستعجل بذلك في الدنيا يسأل ربه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(131/516)

وقال القاسمي :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي : عن التوحيد : ﴿ فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أي : أعلمتكُمْ وهديتكم على كلمة سواء بيننا وبينكم ، نؤمن بها ونجني ثمرات سعادتها في الدارين . أو المعنى دللتكم على صراط مستقيم ، وبلغتكم الأمر به . فإن آمنتم به فقد سعدتم ، وإلا فإن وعد الجاحدين آتيكم ، وليس بمصروف عنكم . وإن كنت لا أدري متى يكون ذلك ، لأن الله تعالى لم يعلمني علمه ، ولم يطلعني عليه كما قال : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي ﴾ أي : وما أدري : ﴿ أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ أي : من الفتح عليكم ، وإيراث أرضكم غيركم ، ولحوق

الذل والصغار بعصيانكم : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أي : فسيجزيكم على ذلك : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ ﴾ أي : وما أدري لعل [في المطبوع : لعلل] تأخير جزائكم استدراج لكم ، وزيادة في افتتانكم ، أو ابتلاء لينظر كيف تعملون . فالفتنة إما مجاز عن الاستدراج بذكر السبب وإرادة المسبب ، أو هو بمعناه الأصليّ . فهو استعارة مصرحة . وقول تعالى : ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ أي : تمتيع لكم إلى أجل مقدور . والتمتيع بمعنى الإبقاء والتأخير : ﴿ قَالَ ﴾ وقرئ : قُل : ﴿ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أي : افصل بيننا وبينهم بالحق . وذلك بنصر من آمن بما أنزلت ، على من كفر به ، كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف : 89] ، ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أي : من الكذب والافتراء على الله ورسوله . بنصر أوليائه ، وقهر أعدائه . وقد أجاب سبحانه دعوته ، وأظهر كلمته ، فله الحمد في الأولى والآخرة ، إنه حميد مجيد .

(132/516)

قال الرازي : قال القاضي : إنما ختم الله هذه السورة بقوله : ﴿ قُلْ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ لأنه عليه السلام كان قد بلغ في البيان لهم الغاية ، وبلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه . فكان

قصارى أمره تعالى بذلك تسليةً له وتعريفاً أن المقصود مصلحتهم . فإذا أبوا إلا التمادي في كفرهم ، فعليك بالانقطاع إلى ربك ، ليحكم بينك وبينهم بالحق . إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره . وإما بتأخير ذلك . فإن أمرهم ، وإن تأخر فما هو كائن قريب . وما روي أنه عليه السلام كان يقول ذلك في حروبه ، كالدلالة على أنه تعالى أمره أن يقول هذا القول ، كالاستعجال للأمر بمجاهدتهم . وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 11 صـ 238.239 ﴾

(133/516)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي أعرضوا وصدوا عما تدعوهم إليه ﴿ فَقُلْ آذَنتُكُمْ على سَوَآءٍ ﴾ أي أعلمتكم أني حرب لكم كما أنكم حرب لي ، بريء منكم كما أنتم برآء مني . وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية أشارت إليه آيات أخر ، كقوله : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فانبذ إِلَيْهِمْ على سَوَآءٍ ﴾ [الأنفال : 58] أي ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء . وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بريائون مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَاْ بريء مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : 41] . وقوله : ﴿ آذَنتُكُمْ ﴾ الأذان :

الإعلام. ومنه الأذان الصلاة. وقوله تعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: 3] الآية، أي إعلام منه، قوله: ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: 279] الآية، أي اعلموا. ومنه قول الحرث بن حلزة:

آذنتنا ببينها أسماء . . . رب ثاو يمل منه الثواء

يعني أعلمتنا ببينها.

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (110) ﴾

(134/516)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه يعلم ما يجهر به خلقه من القول، ويعلم ما يكتمونه. وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [الملك: 13]، وقوله: ﴿ واللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة: 99] في الموضعين، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السماوات والأرض وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: 33]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ق: 16]، وقوله: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ [طه: 7] إلى غير ذلك من

الآيات .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احكم بالحق ﴾ .

(135/516)

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حفص عن عاصم ﴿ قُل ربِّ ﴾ بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر . وقرأه حفص وحده ﴿ قَالَ ﴾ بفتح القاف واللام بينهما ألف بصيغة الماضي . وقراءة الجمهور تدل على أنه صلى الله عليه وسلم أمر أن يقول ذلك . وقراءة حفص تدل على أنه امتثل الأمر بالفعل . وما أمره أن يقوله هنا قاله نبي الله شعيب كما ذكره الله عنه في قوله : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ [الأعراف : 89] . وقوله : ﴿ افْتَحْ ﴾ أي احكم كما تقدم . وقوله : ﴿ وَرَبُّنَا الرحمن المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ أي تصفونه بألسنتكم من أنواع الكذب بادعاء الشركاء والأولاد وغير ذلك . كما قال تعالى : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب ﴾ [النحل : 62] الآية ، وقال : ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب ﴾ [النحل : 166] الآية . وما قال النَّبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قاله يعقوب لما علم أن أولاده فعلوا بأخيهم يوسف شيئاً غير ما أخبروه به . وذلك في قوله : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ

جَمِيلٌ واللهُ المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : 18] والمستعان : المطلوب منه العون . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(136/516)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾

أي فإن أعرضوا بعد هذا التبيين المفصّل والجامع فأبلغهم الإنذار بحلول ما توّعدهم الله به .

والإيذان : الإعلام ، وهو بوزن أفعل من أذِن لكذا بمعنى سمع .

واشتقاقه من اسم الأُذُن ، وهي جارحة السمع ، ثم استعمل بمعنى العلم بالسمع ثم شاع استعماله في العلم مطلقاً .

وأما (آذن) فهو فعل متعد بالهمزة وكثر استعمال الصيغتين في معنى الإنذار وهو الإعلام المشوب بتحذير .

فمن استعمال أذِن قوله تعالى : ﴿ فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ [البقرة : 279] ،

ومن استعمال (آذن) قول الحارث بن حِلزة:

آذنتنا ببينها أسماء

وحذف مفعول ﴿ آذنتكم ﴾ الثاني لدلالة قوله تعالى ﴿ ما توعدون ﴾ عليه ، أو يقدر : آذنتكم ما يوحى إليّ لدلالة ما تقدم عليه .

والأظهر تقدير ما يشمل المعنيين كقوله تعالى : ﴿ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴾ [هود : 57] .

وقوله تعالى : ﴿ على سواء ﴾ (على) فيه للاستعلاء المجازي ، وهو قوة الملابسة وتمكّن الوصف من موصوفه .

و(سَواء) اسم معناه مستو .

والاستواء : المماثلة في شيء ويجمع على أسواء .

وأصله مصدر ثم عومل معاملة الأسماء فجمعوه لذلك ، وحقّه أن لا يجمع فيجوز أن يكون ﴿ على سواء ﴾ ظرفاً مستقراً هو حال من ضمير الخطاب في قوله تعالى ﴿ آذنتكُم ﴾ أي أنذرتكم مستوين في إعلامكم به لا يدعي أحد منكم أنه لم يبلغه الإنذار .

وهذا إعذار لهم وتسجيل عليهم كقوله في خطبته "ألا هل بلّغت" .

ويجوز أن يتعلق المجرور بفعل ﴿ آذنتكم ﴾ قال أبو مسلم : الإيذان على السواء : الدعاء إلى الحرب مجاهرة لقوله تعالى : ﴿ فانبذ إليهم على سواء ﴾ [الأنفال : 58] آه .

يريد أن هذا مثل بحال النذير بالحرب إذ لم يكن في القرآن النازل بمكة دعاءٌ إلى حرب

حقيقية .

وعلى هذا المعنى يجوز أن يكون ﴿ على سواء ﴾ حالاً من ضمير المتكلم .

(137/516)

وحذف متعلق ﴿ آذنتكم ﴾ لدلالة قوله تعالى : ﴿ وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ عليه ، ولأن السياق يؤذن به لقوله قبله : ﴿ حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج ﴾ [الأنبياء : 96] الآية .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فانبذ إليهم على سواء ﴾ في [سورة الأنفال : 58] .

وقوله : ﴿ وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ يشمل كل ما يوعدونه من عقاب في الدنيا والآخرة إن عاشوا أو ماتوا .

و(إنْ) نافية وعلق فعل ﴿ أدري ﴾ عن العمل بسبب حرف الاستفهام وحُذف العائد .

وتقديره : ما توعدون به .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (110) ﴾

جملة معترضة بين الجمل المتعاطفة .

وضمير الغائب عائد إلى الله تعالى بقرينة المقام .

والمقصود من الجملة تعليل الإنذار بتحقيق حلول الوعيد بهم وتعليل عدم العلم بقربه أو بعده ؛ علل ذلك بأن الله تعالى يعلم جهرهم وسرّهم وهو الذي يؤاخذهم عليه وهو الذي يعلم متى يحلّ بهم عذابه .

وعائد الموصول في قوله تعالى : ﴿ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ ضمير محذوف .

﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (111) ﴾

عطف على جملة ﴿ وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ [الأنبياء : 109] .

والضمير الذي هو اسم (لعلّ) عائد إلى ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ من أنه أمر منتظر الوقوع وأنه تأخر عن وجود موجِبه ، والتقدير : لعل تأخيره فتنة لكم ، أو لعل تأخير ما توعدون فتنة لكم ، أي ما أدرى حكمة هذا التأخير فلعله فتنة لكم أرادها الله ليملي لكم إذ بتأخير الوعد يزدادون في التكذيب والتولّي وذلك فتنة .

والفتنة : اختلال الأحوال المفضي إلى ما فيه مضرة .

والمتاع : ما ينتفع به مدة قليلة ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ﴾ في [سورة آل عمران : 196197] .

والحين : الزمان .

﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾

استئناف ابتدائي بعد ما مضى من وصف رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإجمال أصلها وأمره بإنذارهم وتسجيل التبليغ .

قصد من هذا الاستئناف التلويح إلى عاقبة أمر هذا الدين المرجوة المستقبلة لتكون قصة هذا الدين وصاحبه مستوفاة المبدأ والعاقبة على وِزان ما ذكر قبلها من قصص الرسل السابقين من قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء ﴾ [الأنبياء : 48] إلى هنا .

وفي أمر الله تعالى نبيئه عليه الصلاة والسلام بالالتجاء إليه والاستعانة به بعد ما قال له : ﴿ فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء ﴾ [الأنبياء : 109] رمز إلى أنهم متولُّون لا محالة وأن الله سيحكم فيهم بجزاء جرمهم لأن الحكم بالحق لا يغادرهم ، وإن الله في إعانته لأن الله إذا لقن عباده دعاء فقد ضمن لهم إجابته كقوله تعالى : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ [البقرة : 286] ونحو ذلك ، وقد صدق الله وعده واستجاب لعبده فحكم في هؤلاء المعاندين بالحق يوم بدر .

والمعنى : قل ذلك بمسمع منهم إظهاراً لتحديه إياهم بأنه فوّض أمره إلى ربه ليحكم فيهم بالحق الذي هو خضد شوكتهم وإبطال دينهم ، لأن الله يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .

الباء في قوله تعالى ﴿ بالحق ﴾ للملابسة .

وحُذف المتعلّق الثاني لِفعل ﴿ احكم ﴾ لتنبيههم إلى أن النبي على الحق فإنه ما سأل الحكم بالحق إلا لأنه يريده ، أي احكم لنا أو فيهم أو بيننا .

وقرأ الجمهور ﴿ قل ﴾ بصيغة الأمر .

وقرأ حفص ﴿ قال ﴾ بصيغة الماضي مثل قوله تعالى : ﴿ قل ربي يعلم القول ﴾ [الأنبياء : 4] في أول هذه السورة .

ولم يكتب في المصحف الكوفي بإثبات الألف .

على أنه حكاية عن الرسول صلى الله عليه وسلم

و ﴿ ربّ ﴾ منادى مضاف حذفت منه ياء المتكلم المضاف هو إليها وبقيت الكسرة دليلاً على الياء .

وقرأ الجمهور بكسر الباء من ﴿ ربّ ﴾ .

(139/516)

وقرأه أبو جعفر بضم الباء وهو وجه عربيّ في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم كأنهم جعلوه بمنزلة الترخيم وهو جائز إذا أُمِن اللبس .

وتعريف المسند إليه بالإضافة في قوله تعالى وربّنا ﴾ لتضمنها تعظيماً لشأن المسلمين بالاعتزاز بأن الله ربُّهم .

وضمير المتكلم المشارك للنبيء ومن معه من المسلمين .

وفيه تعريض بالمشركين بأنهم ليسوا من مربوبية الله في شيء حَسْبَ إعراضهم عن عبادته إلى عبادة الأصنام كقوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ [محمد : 11] .

والرحمان عطف بيان من ﴿ ربُّنا ﴾ لأن المراد به هنا الاسم لا الوصف تورُّكاً على المشركين ، لأنهم أنكروا اسم الرحمان ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمان أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾ [الفرقان : 60] .

وتعريف ﴿ المستعان ﴾ لإفادة القصر ، أي لا أستعين بغيره على ما تصفون ، إذ لا ينصرنا غير ربنا وهو ناظر إلى قوله تعالى : ﴿ وإياك نستعين ﴾ [الفاتحة : 5] .

وفي قوله تعالى : ﴿ على ما تصفون ﴾ مضاف محذوف هو مجرور (على) ، أي على إبطال ما تصفون بإظهار بطلانكم للناس حتى يؤمنوا ولا يتبعوكم ، أو على إبطال ما يترتب عليه من أذاهم له وللمؤمنين وتأليب العرب عليه .

ومعنى ﴿ ما تصفون ﴾ وما تَصدر به أقوالكم من الأذى لنا .

فالوصف هنا هو الأقوال الدالة عن الأوصاف ، وقد تقدم في سورة يوسف .

وهم وصفوا النبي صلى الله عليه وسلم بصفات ذم كقولهم : مجنون وساحر ، ووصفوا القرآن بأنه شعر وأساطير الأولين ، وشهروا ذلك في دهمائهم لتأليب الناس عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(140/516)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ [الأنبياء : 109] يعني : أعرضوا وانصرفوا ﴿ فَقُلْ آذَنتُكُمْ . . ﴾ [الأنبياء : 109] مادة : أذن ومنها الأذان تعني الإعلام بالشيء ، والأصل في الإعلام كان في الأُذُن بالكلام ، حيث لم يكُنْ عندهم قراءة وكتابة ، فاعتمد الإعلام على الكلام ، والسماع بالأذن ، فمعنى : ﴿ آذَنتُكُمْ . . ﴾ [الأنبياء : 109] أعلمتُكم وأخبرتُكم .

وقوله تعالى : ﴿ على سَوَآءٍ . . ﴾ [الأنبياء : 109] يعني : جاء الإعلام لكم جميعاً لم أخصّ أحداً دون الآخر ، فأنتم في الإعلام سواء ، لا يتميز منكم أحد على أحد ؛ لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على إبلاغ الجميع ، فيقول : " نضَّر الله امْرأً سمع مقالتي فوعاها ، ثم أدّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع " وهكذا يشيع

الخَيْر ويتداول بين الجميع .

﴿ فَقُلْ آذَنتُكُمْ على سَوَآءٍ . . ﴾ [الأنبياء : 109] فلم أُعْلِم قوماً دون قوم ، ولم أُسْمِع أُذناً دون أُذن ، وجعلت من كمال الإيمان أن يخبر السامع مَنْ لم يسمع ؛ لأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

ثم يُنبِّههم إلى أمر الساعة : ﴿ وَإِنْ أدري أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 109] فانتبهوا وخُذوا بالكم ، واحتاطوا ، فلا أدري لعلَّ الساعةَ تكون قريباً ، ولعلها تفاجئكم من قبل أنْ أُنهي كلامي معكم .

لذلك ؛ لما سألوا أحد الصالحين : فِيمَ أفنيتَ عمرك ؟ قال : " أفنيت عمري في أربعة أشياء : علمت أني لا أخلو من نظر الله طَرْفة عين فاستحييتُ أنْ أعصيه ، وعلمتُ أن لي رزْقاً لا يتجاوزني قد ضمنه الله لي فقنعتُ به ، وعلمتُ أن عليَّ دَيْناً لا يؤديه عني غيري فاشتغلتُ به ، وعلمتُ أن لي أَجَلاً يبادرني فبادرتُه " .

إذن : فالمراد : استعدوا لهذه المسألة قبل أن تفاجئكم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول . . ﴾ .

(141/516)

وما دام ربك – عز وجل – يعلم الجهر ويعلم السرَّ وأخْفى ، فإياك أنْ تنافق ؛ لأننا ننهاك عن النفاق مع البشر ، فمن باب أَوْلى أن ننهاك عن نفاق ربك سبحانه الذي يعلم سِرَّك كما يعلم علانيتك ، وقصارى أمر البشر أنْ يُراقبوا علانيتك . لذلك ، فإن كل احتياطات أهل الإجرام التخفِّي عن أعين الدولة ، والهرب من مراقبة الشرطة ، لكن كيف التخفي عن نظر الله وعلمه ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ [الأنبياء : 110] يُعلّمنا الأدب حتى فيما نكتم ، فالأدب في الجهر من باب أَوْلَى ، ونحن مؤمنون بأن الله سبحانه غَيْب غير مشهد ، وهَبْ أنك في بيتك تعلم كل شيء فيه ؛ لأنه مشهد لك ، أمّا ما كان خارج البيت فهو غَيْب عنك لا تعلمه ، أمّا الحق سبحانه فهو غَيْب يعلم كل مَشْهد وكل غيب .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ . . ﴾ .

أي : لعل الإمهال وبقاءكم دون عذاب وتباطؤ الساعة عنكم فتنةٌ واختبار ، يا ترى أتُوفَّقون وتفوزون في هذا الاختبار ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : 55] .

وقال تعالى : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا

إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران : 178] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [الأنبياء : 111] أي : لن يدوم هذا النعيم وهذا المتاع ؛ لأن له مدة موقوتة .

ثم يقول الحق سبحانه في ختام سورة الأنبياء : ﴿ قَالَ رَبِّ احكم بالحق وَرَبُّنَا الرحمن . . ﴾ .

(142/516)

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احكم بالحق . . ﴾ [الأنبياء : 112] كما دعا بذلك الرسل السابقون : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ [الأعراف : 89] .

وهل يحكم الله سبحانه إلا بالحق ؟ قالوا : الحق سبحانه يُبيِّن لنا ؛ لأننا عِشْنا في الدنيا ورأينا كثيراً من الباطل ، فكأننا لأول مرة نسمع الحكم بالحق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَرَبُّنَا الرحمن المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : 112] أي : المستعان على تُجرمون فيه من نسبتنا إلى الجنون ، أو إلى السحر . . الخ .

وتلاحظ أن الحق سبحانه في آيات سورة الأنبياء تكلم عن طَيِّ السماء كطَيِّ السجل

للكتب ، ثم قال : ﴿ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ . . ﴾ [الأنبياء : 111] ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [الأنبياء : 111] ، ثم قال : ﴿ رَبِّ احكم بالحق . . ﴾ [الأنبياء : 112] هذا كله ليُقرِّب لنا مسألة الساعة وقيامها ، ويُعِدُّنا لاستقبال " سورة الحج " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(143/516)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (109) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ على سواء ﴾ قال : على مهل .

﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (111) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن عساكر ، عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال : لما أسري بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله ﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ يقول : هذا الملك .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة والبيهقي في الدلائل ، عن الشعبي قال : لما سلم الحسن بن علي - رضي الله عنه - الأمر إلى معاوية ، قال له معاوية : قم فتكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا الأمر تركته لمعاوية . إرادة إصلاح المسلمين وحقن دمائهم ﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ ثم استغفر ونزل .

وأخرج البيهقي ، عن الزهري قال : خطب الحسن رضي الله عنه فقال : أما بعد : أيها الناس إن الله هداكم بأوّلنا ، وحقن دمائكم بآخرنا ، وإن لهذا الأمر مدة والدنيا دول ، وإن الله تعالى قال لنبيه : ﴿ وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ إلى قوله : ﴿ ومتاع إلى حين ﴾ الدهر كله . وقوله : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ [الإنسان : 1] الدهر : الدهر كله . وقوله : ﴿ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴾ [إبراهيم : 25] قال : هي النخلة من حين تثمر إلى أن تصرم . وقوله : ﴿ ليسجننه حتى حين ﴾ [يوسف : 35] .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ﴾ يقول : ما أخبركم به من العذاب والساعة ، أن يؤخر عنكم لمدتكم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ قل رب احكم بالحق ﴾ قال : لا يحكم الله إلا بالحق ، ولكن إنما يستعجل بذلك في الدنيا ، يسأل ربه على قومه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة : إن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان إذا شهد قتالاً قال : ﴿ رب احكم بالحق ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة قال : كانت الأنبياء تقول : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ [الأعراف : 89] فأمر الله نبيه أن يقول : ﴿ رب احكم بالحق ﴾ أي اقض بالحق . وكان رسول الله – صلى عليه وسلم – يعلم أنه على الحق ، وأن عدوّه على الباطل ، وكان إذا لقي العدوّ قال : ﴿ رب احكم بالحق ﴾ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(145/516)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾

قوله : ﴿ آذَنْتُكُمْ ﴾ : أي : أَعْلَمْتُكم . فالهمزةُ فيه للنقلِ . قال الزمخشري : " آذن منقولٌ مِنْ أَذِنَ إذا عَلِمَ ، ولكنه كَثُرَ استعمالُه في الجَرْيِ مجرى الإِنذار . ومنه قولُه تعالى : ﴿

فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ ﴾ [البقرة : 279] وقول ابن حِلّزَة : /

3367 آذَنَتْنا بِبَيْنِها أسماءُ . . . . . .

. .

قلت : وقد تقدَّم تحقيقُ هذا في البقرة .

قوله : ﴿ على سَوَآءٍ ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحال من الفاعل والمفعول معاً ، أي : مُسْتَوِين في العلم بما أَعْلَمْتُكم به لم يَطْوِه عن أحدٍ منهم .

قوله : ﴿ وَإِنْ أدري ﴾ العامَّةُ على إرسالِ الياء ساكنةً ، إذ لا مُوْجِبَ لغيرِ ذلك . ورُوي عن ابن عباس أنه قرأ : " وإنْ أَدْرِيَ أقريبٌ " ، " وَإِنْ أَدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ " بفتح الياءَيْن . وخُرِّجَتْ على التشبيهِ بياءِ الإضافة . على أن ابنَ مجاهدٍ أنكر هذه القراءةَ البتة . وقال ابن جني : " هو غَلَطٌ ، لأنَّ " إنْ " نافيةٌ لا عملَ لها " . ونَقَل أبو البقاء عن غيرِه أنه قال في تخريجها : " إنه ألقى حركةَ الهمزةِ على الياءِ فتحرَّكَتْ وبقيتْ الهمزةُ ساكنةً ، فأُبْدِلَتْ ألفاً لانفتاحِ ما قبلها ، ثم أُبْدِلَتْ همزةً متحركةً ؛ لأنها في حُكْمِ المبتدأ بها ، والابتداءُ بالساكنِ مُحالٌ . وهذا تخريجٌ متكلّفٌ لا حاجةَ إليه . ونِسْبَةُ راويها عن ابن عباس إلى الغلطِ أَوْلَى من هذا التكلُّفِ ، فإنها قراءةٌ شاذةٌ مُنْكَرَة . وهذا التخريجُ وإنْ نَفَعَ في الأولى فلا يُجْدي في الثانيةِ شيئاً . وسيأتي لك قريبٌ من ادِّعاء قَلْبِ الهمزةِ ألفاً ثم قَلْبِ الألفِ همزةً في قوله

: ﴿ مِنسَأَتَهُ ﴾ [سبأ : 14] إنْ شاء اللهُ تعالى ، وبذلك يَسْهُلُ الخَطْبُ في التخريج المذكور .

(146/516)

والجملةُ الاستفهاميةُ في محلِّ نصبٍ ب " أدْري " لأنها معلّقَةٌ لها عن العملِ ، وأَخَّرَ المُسْتَفْهَمَ عنه لكونِه فاصلةً . ولو وَسَّطه لكان التركيبُ : أقريب ما تُوعدون أم بعيدٌ ، ولكنه اُخِّر مراعاةً لرؤوسِ الآي .

و ﴿ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ مبتدأ ، وما قبله خبرٌ عنه ومعطوفٌ عليه . وجَوَّز أبو البقاء فيه أن يرتفعَ فاعلاً ب " قريبٌ " . قال : " لأنه اعتمد على الهمزة " . قال : " ويُخرَّج على قولِ البصريينَ أن يرتفعَ ب " بعيد " لأنه أقربُ إليه " . قلت : يعني أنه يجوز أَنْ تكونَ المسألةُ من التنازع فإنّ كلاً من الوصفَيْنِ يَصِحُّ تَسَلُّطُه على " ما تُوْعَدون " من حيث المعنى .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (110) ﴾

قوله : ﴿ مِنَ القول ﴾ : حالٌ مِنْ " الجهر " .

﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (111) ﴾

قوله : ﴿ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ ﴾ : الظاهرُ أنَّ هذه الجملةَ معلّقةٌ ل " أَدْري " ، والكوفيون يُجْرون الترجّي مجرى الاستفهام في ذلك ، إلاَّ أنَّ النَّحْويين لم يَعُدُّوا من المعلّقات " لعلَّ " وهي ظاهرةٌ في ذلك كهذه الآيةِ وكقولِه : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ [عبس : 3] ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : 17] .

﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (112) ﴾

(147/516)

قوله : ﴿ قَالَ ﴾ : قرأ حفص " قال " خبراً عن الرسولِ عليه السلام . الباقون " قل " على الأمر . وقرأ العامَّةُ " رَبِّ " بكسرِ الباءِ اجتزاءً بالكسرةِ عن ياءِ الإضافةِ ، وهي الفصحى . وقرأ أبو جعفر بضمِّ الباءِ ، فقال صاحبُ " اللوامح " : " إنه منادى مفردٌ ثم قال : " وحَذْفُ حَرْفِ النداء فيما جاز أن يكونَ وصفاً ل " أَيّ " بعيدٌ ، بابُه الشعرُ " . قلت : ليس هذا من المنادى المفردِ ، بل نَصَّ بعضُهم على أنَّ هذه بعضُ اللغاتِ الجائزةِ في المضافِ إلى ياء المتكلم حالَ ندائه .

وقرأ العامَّةُ " احْكُمْ " على صورةِ الأمر . وقرأ ابن عباس وعكرمة وابن يعمر " رَبِّيْ " بسكونِ الياء " أَحْكَمُ " أفعلُ تفضيلٍ فهما مبتدأ وخبر .

وقُرِىء "أَحْكَمَ" بفتح الميم كألزَمَ، على أنَّه فعلٌ ماضٍ في محلِّ خبرٍ أيضاً ل "ربّي" وقرأ العامَّةُ "تَصِفُوْن" بالخطاب. وقرأ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على أُبَي رضي الله عنه "يَصِفُون" بالياء مِنْ تحت، وهي مَرْوِيَّةٌ أيضاً عن عاصم وابن عامر. والغيبة والخطاب واضحان. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 216.219﴾

(148/516)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (109) ﴾

إن أعرضوا ولم يؤمنوا فَقُلْ: إني بالالتزام أعلمتُكم، ولكن للإكرام ما ألهمتكم، فَتَوَجَّهَتْ عليكم الحجة واستبهمَتْ عليكم المحجة.

قوله: ﴿ وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ ﴾ إنَّ علمي متقاصِرٌ عن تفصيل أحوالكم في مآلكم، ووقت ما توعدون به في القيامة من تحصيل أهوالكم، ولكنَّ حُكمَ الله غيرُ مستأخرٍ إذا أراد شيئاً من تغيير أحوالكم.

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (110) ﴾

لا يخفى عليه سرُّكم ونجواكم ، وحالكم ومآلكم ، وظاهركم وباطنكم . . . فعلى قَدْرِ استحقاقكم يُجازيكم ، وبموجب أفعالكم يحاسبكم ويكافيكم .

﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (111) ﴾

ليس يحيط عِلْمي إلا بما يُعْلِمُني ، وإعْلامُه إياي ليس باختياري ، ولا هو مقصودٌ على حسب مرادي وإيثاري .

﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (112) ﴾

الرحمن كثير الرحمة عامةً لكل أحد ، ومنه يوجد العون والنصر حين يوجد وكيف يوجد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 526 . 527 ﴾

(149/516)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾

يعني : اذكر أيوب عليه السلام روي في الخبر أن أيوب كان بمنزلة الملك ، وهو أيوب بن مرضي النبي عليه السلام وكانت له أموال من صنوف مختلفة ، وكانت له ضياع كثيرة ، وكان له

ثلاثمائة زوج ثيران ، وغلمان يعملون له في ضياعه ، وأموال السوائم من الغنم والإبل والبقر ، وكان متعبداً ناسكاً منفقاً متصدقاً ، فحسده إبليس عدو الله وقال : إن هذا يذهب بالدنيا والآخرة .

وأراد أن يفسد عليه إحدى الدارين أو كلتيهما ، فسأل الله تعالى وقال : إن عبدك أيوب يعبدك ، لأنك أعطيته السعة في الدنيا ، ولولا ذلك لم يعبدك قال الله تعالى : إني أعلم منه أنه يعبدني ويشكرني ، وإن لم يكن له سعة في الدنيا .

فقال : يا رب سلطني عليه .

فسلطه على كل شيء منه إلا على روحه .

وجاء إبليس إلى غنمه كهيئة النار ، وضرب عليها فأهلك جميع غنمه ، فجاءت رعاته فأخبروه بالقصة ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وقال : هو الذي أعطى وهو الذي أخذ ، وهو أحق به .

ويقال : إنه أحرق غنمه ورعاته ، فجاء إبليس على هيئة راع من رعاته فأخبره بذلك ، فقال له أيوب : لو كان فيك خير لهلكت مع أصحابك .

ثم جاء إلى إبله وبقره ففعل مثل ذلك ، ثم جاء إلى زرعه كهيئة النار فأفسد جميع زرعه ، فأخبر بذلك ، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ، وقال : هو الذي أعطى وهو الذي أخذ ، وهو أحق به .

وكان له سبعة بنين وثلاث بنات ؛ ويقال : سبعة بنين وسبع بنات في بيت ، فجاء إبليس عليه اللعنة فهدم البيت عليهم فماتوا كلهم ، فذكر ذلك لأيوب فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه على ذلك ، ولم يجزع وقال : هو الذي أعطى ثم أخذ .

ثم جاء إلى أيوب وهو في الصلاة ، فلما سجد نفخ في أنفه وفمه نفخة ، فانتفخ أيوب عليه السلام وخرجت به قروح ، وجعل تسيل منها الصديد ، وتفرق عنه أقرباؤه وأصدقاؤه ، ولم يبق معه إلا امرأته .

(150/516)

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح : كان اسم امرأته ماحين بنت ميشا بن يوسف بن يعقوب ، ويقال : كان اسمها رحمة .

فتأذى به جيرانه ، وقالوا لامرأته : احمليه من هاهنا ، فإنا نتأذى به .

فحملته حتى أخرجته إلى كناسة قوم ، ووضعته عليها ، وجعلت تدخل على الناس وتخدمهم ، وتأخذ شيئاً وتنفقه عليه .

فكان ذلك البلاء ما شاء الله ، فجاء إبليس في صورة طبيب ، وقال للمرأة : إن أردت أن يبرأ من علته ، فمريه يشرب الخمر ، ويتكلم بكلمة الكفر .

فأخبرته المرأة بذلك ، فقال لها : ذلك إبليس الذي أمرك بهذا ، فألَّحت عليه ، فغضب وقال : والله لئن برئت ، لأضربنك مائة سوط .

فقالت : متى تبرأ ؟ فقال عند ذلك : ربِّ ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر ﴾ .

ويقال : إنه اشتهى شيئاً يتخذ بالسمن ، فدخلت امرأته على امرأة غني من الأغنياء وسألتها ذلك ، فأبت عليها ؛ ثم نظرت إلى ذوائبها ، فرأت ذوائبها مثل الحبل ، فقالت : لئن دفعت إليّ ذوائبك ، دفعت إليك ما تطلبين مني .

فدفعت بالمقراض وقطعت ذوائبها ودفعتها إليها ، وأخذت منها ما سألت ، وجاءت به إلى أيوب فقال لها : من أين لك هذا ؟ فأخبرته بالقصة ، فبكى أيوب عند ذلك ، وقال : رَبِّ ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر ﴾ .

قال بعضهم : مكث أيوب في بلائه سبع سنين ، وقال بعضهم : عشر سنين ، وروى بعضهم ، عن أنس بن مالك : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" إِنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللهِ لَبِثَ فِي بَلاَئِهِ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً ، فَرَفَضَهُ القَرِيبُ وَالبَعِيدُ ، إِلاَّ رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا يَعُودَانِهِ وَيَغْدُوانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : وَاللهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْباً مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ العَالَمِينَ .

فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : وما ذلك ؟ قال لَهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ تَعَالَى ، فَيَكْشِفُ ما بِهِ .

ثُمَّ رَاحَا إِلَيْهِ فَلَمْ يَصْبِرَا ، حَتَّى ذَكَرَا ذلكَ لَهُ ، فَعِنْدَ ذلكَ قالَ : ربِّ ﴿ مَسَّنِيَ الضر ﴾ " .

قال : فلما كان ذات يوم ، خرجت امرأته ، فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام في مكانه أن ﴿ اركض بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : 42] فشرب واغتسل ، فأذهب الله عز وجل ما به من البلاء ، فقال أيوب : كان الركض برجلي أشد علي من البلاء الذي كنت فيه .

قال ابن عباس : لما قال الله تعالى له : ﴿ اركض بِرِجْلِكَ ﴾ ففعل ، فانفجرت عين اغتسل منها فصح جسده .

ثم قيل له : اركض برجلك ففعل ، فخرجت عين فشرب منها ، فالتأم ما في جوفه .

فلما رجعت إليه المرأة ، لم تعرفه ، فقالت له : بارك الله فيك ، هل رأيت نبي الله المبتلى ؟ فوالله ما رأيت أحداً أشبه به منك إذ كان صحيحاً .

قال : فإني أيوب .

قال : وكان له آنذاك أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين : إحداهما على أندر القمح فأفرغت الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأُخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض ؛

ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضر ﴾ ، أصابني البلاء والشدة ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ فعرض ولم يفصل بالدعاء .

قال الله تعالى : ﴿ فاستجبنا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرّ ﴾ ، يعني : رفعنا ما به من شدة ﴿ فاستجبنا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا ﴾ ؛ قال مقاتل : ولدت امرأة أيوب منه سبعة بنين وثلاث بنات قبل البلاء ، فأحياهم الله تعالى ؛ ثم ولدت بعد كشف البلاء سبعة بنين وثلاث بنات ، فذلك قوله : ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ﴾ .

وقال الكلبي : ولدت سبعة بنين وسبع بنات ، فنشروا له ، وولدت امرأته مثلهم سبعة بنين وسبع بنات ؛ ويقال : آتاه الله عز وجل أهله في الدنيا ، ومثلهم معهم في الآخرة .

وروى وكيع ، عن ابن سفيان ، عن الضحاك : أن ابن مسعود بلغه أن مروان بن الحكم قال : ﴿ فاستجبنا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا ﴾ أي أهلاً غير أهله .

(152/516)

فقال ابن مسعود : لا بل أهله بأعيانهم ومثلهم معهم .

ثم قال : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ ، يعني : نعمة منا .

﴿ وذكرى للعابدين ﴾ ؛ يعني : عظة للمطيعين ؛ وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم

ليعتبروا به ، لأن أيوب عليه السلام لم يفتر عن عبادة ربه عز وجل في بلائه .

ثم قال تعالى : ﴿ وإسماعيل وَإِدْرِيسَ ﴾ ، يعني : واذكر إسماعيل ، وهو إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، وإدريس وهو جد أبي نوح .

﴿ وَذَا الكفل ﴾ .

قال بعضهم : كان ذو الكفل نبياً ؛ وقال مجاهد : ذو الكفل لم يكن نبياً ، وكان رجلاً صالحاً ، تكفل لبني قومه أن يكفيه أمر قومه ، ويقضي بينهم بالعدل ؛ ولذلك سمي ذا الكفل ؛ ويقال : إنما ذكره مع الأنبياء عليهم السلام لأنه عمل عمل الأنبياء ؛ وقال قتادة : كفل عن رجل صلاته ، كان يصلي كل يوم ألف ركعة ، فكفل عنه فكان يصلي بعد موته ؛ فسمي ذا الكفل ؛ ويقال : إنه كفل مائة نبي ، وأنجاهم من القتل ، وضمهم إلى نفسه ، فسمي ذا الكفل .

﴿ كُلٌّ مِّنَ الصابرين ﴾ ، يعني : صبروا على طاعة الله عز وجل وعلى ما أصابهم من الشدة في الله تعالى : ﴿ وأدخلناهم فِى رَحْمَتِنَا ﴾ ، يعني : أكرمناهم بالنبوة ، ويقال : أدْخلناهم في الجنةِ ﴿ إِنَّهُمْ مِّنَ الصالحين ﴾ ، يعني : المطيعين لله تعالى .

﴿ وَذَا النُّونِ ﴾ ، يعني : واذكر ذا النون ، يعني : ذا السمكة ؛ وهو يونس بن متى عليه السلام ، يعني : واذكر ذا النون ، يعني : ذا السمكة ؛ وهو يونس بن متى عليه السلام ﴿ إِذ ذَّهَبَ مغاضبا ﴾ ، يعني : مصارعاً من قومه ؛ ويقال : كان ضيق الصدر سريع الغضب ؛

وذلك أنه لما دعا قومه إلى الله تعالى ، كذبوه فأخبرهم بأن العذاب نازل بهم ، فأتاهم العذاب ؛ فأخلصوا لله تعالى بالدعاء ، فصرف عنهم .

(153/516)

وكان يونس اعتزلهم ينتظر هلاكهم ، فسأل بعض من مر عليه من أهل تلك المدينة ، فلما علم أنهم لم يهلكوا ، أنف أن يرجع إليهم مخافة أن ينسب إلى الكذب ويُعَيَّرَ به ؛ و﴿ ذَّهَبَ مغاضبا ﴾ ، يعني : أنفاً .

قال القتبي : غضب وأنف بمعنى واحد لقربهما .

وقال بعضهم : إنما غضب على الملك ؛ وذلك أن ملكاً من الملوك ، يقال له ابن تغلب ، غزا بني إسرائيل ونزل أيام عافيتهم ، أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل ، يسمَّى شعياء أن ائت حَزْقِيا الملك ، ومره ليبعث نبياً قوياً أميناً .

وكان في ملكه خمسة من الأنبياء ، فجاء شعياء إلى حزقيا وأخبره بذلك ، فدعا الملك يونس بن متى ، وأمره بأن يخرج ، فأبى أن يخرج وقال : إن في بني إسرائيل أنبياء أقوياء غيري ، فعزم عليه الملك ، فخرج وهو كاره ، فغضب على الملك .

فوجد قوماً قد شحنوا سفينتهم ، فقال لهم : أتحملونني معكم ؟ فعرفوه فحملوه .

فلما شحنت السفينة بهم وأسرعت في البحر ، انكفأت وغرقت بهم ، فقال ملاحوها : يا هؤلاء ، إن فيكم رجلاً عاصياً ، وإن السفينة لا تفعل هذا من غير ريح ، إلا وفيكم رجل عاصٍ ، فاقترعوا فخرج بينهم يونس عليه السلام فقال التجار : نحن أولى بالمعصية من نبي الله .

ثم أعادوا الثانية والثالثة ، فخرج سهم يونس ، فقال : يا هؤلاء ، أنا والله العاصي .

قال : فتلفف في كسائه وقام على رأس السفينة ، فرمى بنفسه فابتلعته السمكة ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ إِذ ذَّهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ يعني : لن يقدر عليه العقوبة ، ويقال : إن ذنبه لم يبلغ الذي نقدر عليه العقوبة ؛ ويقال : ظن أنا لن نضيق عليه الحبس ، كقوله : ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ ربى أَهَانَنِ ﴾ [الفجر : 16] أي ضيق .

وقرأ بعضهم : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ بالتشديد ، فهو من التقدير ، وقراءة العامة بالتخفيف .

(154/516)

﴿ فنادى فِى الظلمات ﴾ ، يعني : في ظلمات ثلاث : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت : ﴿ أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ ﴾ ، أي ليس أحد له سجن كسجنك .

﴿ سبحانك ﴾ إني تبت إليك .

﴿ إِنّى كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ لنفسي .

قال الله تعالى : ﴿ فاستجبنا لَهُ ونجيناه مِنَ الغم ﴾ ، يعني : غم الماء في بطن الحوت ، ويقال : من غم الذنب وقد بقي في بطن الحوت أربعين يوماً ، ويقال : أقل من ذلك .

ثم قال : ﴿ وكذلك نُنجِى المؤمنين ﴾ .

قرأ عاصم في رواية أبي بكر ، وابن عامر في إحدى الروايتين ﴿ نُجِّي ﴾ بنون واحدة وتشديد الجيم ؛ وقال الزجاج : هو لحن ، لأن فعل ما لم يسم فاعله ، لا يكون بغير فاعل ؛ وإنما كتب في المصحف بنون واحدة ، لأن الثانية تخفى مع الجيم ؛ وقال أبو عبيدة : والذي عندنا أنه ليس بلحن ، وله مخرجان في العربية : أحدهما أنه يريد ﴿ ثُمَّ نُنَجّى ﴾ مشددة كقوله : ونجيناه من الغم ، ثم يدغم النون الثانية في الجيم ؛ والآخر معناه نجِّي نجاة المؤمنين .

قال : هذه القراءة أحب إلي ، لأن المصاحف كلها كتبت بنون واحدة ، وهكذا رأيت في مصحف الإمام عثمان رضي الله عنه وقرأ الباقون ﴿ نُنجِى المؤمنين ﴾ بنونين .

قوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ يعني : واذكروا زكريا ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾ ، يعني : إذ دعا ربه : ﴿ رَبّ لاَ تَذَرْنِى فَرْداً ﴾ ، يعني : وحيداً لا وارث لي .

﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ ، يعني : أفضل الوارثين .

قال الله تعالى : ﴿ فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ ، يعني : رحم امرأته وكانت عقيماً لم تلد قط ، سيئة الخلق ، فأصلحها الله تعالى .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِى الخيرات ﴾ ، يعني : يبادرون في الطاعات ، وهو زكريا وامرأته ويحيى عليهم السلام ويقال : الأنبياء الذين سبق ذكرهم .

(155/516)

﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ ، يعني : رغبة فيما عند الله من الثواب والجنة ، ورهباً أي فرقاً من عذاب الله تعالى .

﴿ وَكَانُواْ لَنَا خاشعين ﴾ ، يعني : مطيعين ، ويقال : متواضعين .

قوله عز وجل : ﴿ والتى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ ، يعني : واذكر مريم التي حفظت نفسها من الفواحش .

﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ ، يعني : نفخ جبريل في نفسها بأمرنا ﴿ وجعلناها وابنها ءايَةً ﴾ يعني عبرة ﴿ للعالمين ﴾ أي : لجميع الخلق ويقال آية ، ولم يقل آيتين لأن شأنهما واحد الآية فيهما بمعنى واحد بغير أب .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ، يعني : دينكم دين الإسلام ديناً واحداً ، قرأ بعضهم : ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ بالضم ومعناه إن هذه أمتكم وقد تم الكلام ، ثم يقول : ﴿ أُمَّةٍ ﴾ ، يعني : هذه أمة واحدة ؛ وقرأ العامة بالنصب على معنى التفسير ثم قال : ﴿ وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فاعبدون ﴾ ، يعني : فوحدوني .

ثم قال : ﴿ وَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : عرفوا فيما بينهم وهم اليهود والنصارى .

﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا راجعون ﴾ في الآخرة ، فهذا تهديد للذين تفرقوا في الدين .

ثم بيَّن ثواب الذين ثبتوا على الإسلام ، فقال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾ ، يعني : الطاعات ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ، يعني : مصدق بتوحيد الله عز وجل ، ﴿ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ ، يعني : لا يُجحد ولا يُنسى ثواب عمله .

والكفران مصدر مثل الشكران والغفران .

﴿ وَإِنَّا لَهُ كاتبون ﴾ ، يعني : حافظين مجازين .

قوله عز وجل : ﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ ﴾ ، يعني : على قرية فيما مضى ﴿ أهلكناها ﴾ بالعذاب في الدنيا ، ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ إلى الدنيا ، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ وَحَرَّمَ ﴾ ، الباقون ﴿ وَحَرَامٌ ﴾ بنصب الحاء والألف .

وَحُرْمٌ وَحَرَامٌ بمعنى واحد ، كقوله : حلّ وحلال ، وروي عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ وَحَرَّمَ ﴾ وقال : واجب عليهم أن لا يرجع منهم راجع ، ويقال معناه وحرام على أهل قرية أهلكناها أن يتقبل منهم عمل ، لأنهم لا يرجعون أي لا يتوبون ؛ ويقال : ﴿ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ لا : زيادة ومعناه حرام عليهم أن يرجعوا .

ثم قال تعالى : ﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ ، قرأ ابن عامر ﴿ فُتِحَتْ ﴾ بالتشديد على معنى المبالغة والتكثير ؛ وقرأ الباقون بالتخفيف ؛ وقرأ عاصم ﴿ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ بالهمز والباقون بغير همز .

﴿ وَهُمْ مّن كُلّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ ، قال مقاتل : يعني : من كل مكان يخرجون ، من كل جبل أو أرض أو واد ، وخروجهم عند قيام الساعة ؛ وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه : لا يموت واحد منهم إلا ترك من صلبه ألف ذرية فصاعداً .

وروى قتادة ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم أنه قال : الإنس عشرة أجزاء منهم يأجوج ومأجوج تسعة أجزاء ، وجزء واحد سائر الإنس .

وروى سفيان ، عن سلمة بن كهيل ، عن أبي الزبعرى ، عن عبد الله بن مسعود قال : يَخْرُجُ يَأْجُوجُ ومأجوج بعد الدجال ، يموجون في الأرض فيفسدون فيها ، ثم قرأ ﴿ وَهُمْ مّن كُلّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ ، أي يخرجون فيبعث الله تعالى عليهم دابة مثل هذا النغف ، فتلج في

أسماعهم ومناخرهم فيموتون ، فتنتن الأرض ؛ فيرسل الله تعالى ماء فيطهر منهم ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ ، يعني : أرسلت كقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُواْ وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : 96] ، يعني : أرسلنا ﴿ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ ﴾ ، أي من كل أكمة ونشرة من الأرض يخرجون ، وقال بعضهم : يكون خروجهم قبل الدجال .

(157/516)

والأصح ما روي عن عبد الله بن مسعود .

قوله تعالى : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ ، يعني : قيام الساعة .

﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ ﴾ ، أي فاتحة ﴿ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَاوَيْلَنَا ﴾ ، يعني : يقولون : يَا وَيْلَنَا ﴿ يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ ﴾ ؛ يعني : في جهل ﴿ مِّنْ هَذَا ﴾ اليوم .

ثم ذكروا أن المرسلين كانوا أخبروهم ، فقالوا : ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ، يعني : قد أخبرونا فكذبناهم .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ وروي عن علي بن أبي طالب أنه كان يقرأ حطب جهنم ، وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ حضب جهنم ،

بالضاد ، وقراءة العامة ﴿ حَصَبُ ﴾ بالصاد ، يعني : رمياً في جهنم .

وكل ما يرمى في جهنم فهو حصب ، ويقال : حصب هو الحطب بلسان الزنجية .

ومن قرأ : حطب ، أي كل ما يوقد به جهنم ، ومن قرأ حضب ، بالضاد معناه ما يهيج به النار .

﴿ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ ، أي داخلون .

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى قريشاً وهم في المسجد مجتمعون ، وثلاثمائة وستون صنماً مصفوفة ، وصنم كل قوم بحيالهم ؛ فقال : " ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ يعني : من هذه الأصنام ، فِي النَّارِ " .

ثم انصرف عنهم ، فشق ذلك عليهم مشقة عظيمة شديدة .

وأتاهم عبد الله بن الزبعرى ، وكان شاعراً ، فقال : ما لي أراكم بحال لم أركم عليها قبل ؟

فقالوا : إن محمداً يزعم أنا وما نعبد في النار .

فقال : لو كنت هاهنا لخصمته .

فقالوا : هل لك أن نرسل إليه ؟ فقال : نعم .

فبعثوا إليه ، فأتاهم ، فقال له ابن الزبعرى : أرأيت ما قلت لقومك آنفاً ، أخاص لهم أم عام ؟

فقال : بل عام ، كل من عبد من دون الله فهو وما يعبد في النار .

قال : أرأيت عيسى ابن مريم عليه السلام هذه النصارى تعبده ، فعيسى والنصارى في النار ؟ وهذا عزير تعبده اليهود ، فعزير واليهود في النار ؟ وهذا حي يقال لهم بنو مليح يعبدون الملائكة ، فالملائكة وهم في النار ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم ، فضج أصحابه وضحكوا فنزل : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ ، ونزل في عيسى وعزير والملائكة ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 101] .

يقال إن هذه القصة لا تصح ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب ، وأنطقهم لساناً ، وأحضرهم جواباً كما وصف نفسه : " أَنَا أَفْصَحُ العَرَبِ " فلا يجوز أن يسكت على مثل هذا السؤال ، ولم يكن السؤال لازماً ؛ ويقال : كان سكوته الاستخفاف ، لأنه سئل سؤالاً محالاً ، لأنه قال : إنكم وما تعبدون من دون الله ، ولم يقل ومن تعبدون .

وما لا يقع على النواطق ، ومن تقع على النواطق ؛ ويقال : هذا القول يقال لهم يوم القيامة ، لأنه قال : ﴿ قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالمين ﴾ .

يقال لهم عند ذلك : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ، فإن قيل : ما الحكمة في إدخال الأصنام في النار ؟ قيل : زيادة عقوبة للكفار ، لأن الأصنام أحجار ، فيكون الحر فيها أشد ؛ ويقال : الفائدة في إدخال المعبود النار زيادة ذل وإصغار عليهم ،

حيث رأوا معبودهم في النار معهم من غير أن يكون للأصنام عقوبة ، لأنه لا يجوز التعذيب بذنب غيرهم .

ثم قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاء ءالِهَةً ﴾ ، يعني : الأصنام ﴿ مَّا وَرَدُوهَا ﴾ ، أي ما دخلوها ومنعوا أنفسهم من النار .

﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خالدون ﴾ ، يعني : العابد والمعبود .

﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ ، يعني : في النار صوتهم مثل نهيق الحمار .

(159/516)

﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ ، يعني : عيسى وعزيراً في الجنة لا يسمعون زفيرهم ؛ ويقال : يعني : أن أهل النار لا يسمعون في النار الصوت ، وذلك حين يقال لهم : ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ ، فصاروا صماً بكماً عمياً ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ ، يعني : الذين وجبت لهم منا الجنة ، يعني : عيسى وعزيراً .

﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ ، يعني : منجون من النار .

قوله : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ ، يعني : صوت جهنم ﴿ وَهُمْ فِيمَا اشتهت أَنفُسُهُمْ ﴾ ، يعني : لهم ما تمنت أنفسهم في الجنة .

﴿ خالدون ﴾ ، يعني : دائمين .

﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ ؛ قال ابن عباس رضي الله عنه يعني : النفخة الأخيرة دليل قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور فَفَزِعَ مَن فِى السماوات وَمَن فِى الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخرين ﴾ [النمل : 87] ، وقال الحسن : حين يؤمر بالعبد إلى النار ؛ وقال مقاتل : إذا ذبح الموت بين الجنة والنار ، فيأمن أهل الجنة من الموت ويفزع أهل النار ، فيفزعون حين أيسوا من الموت ؛ وقال الكلبي ، وسعيد بن جبير ، والضحاك : إنه حين وضع الطبق على النار بعد ما أخرج منها من أخرج ، فيفزعوا لذلك فزعاً لم يفزعوا لشيء قط ؛ وذلك الفزع الأكبر .

وقال مقاتل ، وابن شريح : حين يذبح الموت على هيئة كبش أملح على الأعراف ، والفريقان ينظرون فينادى : يا أهل الجنة ، خلود لا موت ؛ ويا أهل النار ، خلود لا موت .

وقال ذو النون المصري : هو القطيعة والفراق ؛ ويقال : إنه الموت ، لأن أول هول يراه الإنسان من أمر الآخرة هو الموت ؛ ويقال : الفزع الأكبر عند قوله : ﴿ وامتازوا اليوم أَيُّهَا المجرمون ﴾ [يس : 59] ويقال : هذا حين دعوا إلى الحساب ؛ ويقال : عند الصراط .

ثم قال تعالى : ﴿ وتتلقاهم الملئكة ﴾ ، يعني : يوم القيامة لأهل الجنة .

قال مقاتل : يعني الملائكة الذين كتبوا أعمال بني آدم ، حين خرجوا من قبورهم فيقولون للمؤمنين : ﴿ هذا يَوْمُكُمُ الذى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الجنة ؛ وقال الكلبي : تتلقاهم الملائكة عند باب الجنة ويبشرونهم بذلك ، ويقولون : ﴿ هذا يَوْمُكُمُ الذى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا .

قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى السماء ﴾ ، يعني : واذكر يوم نطوي السماء ، ﴿ كَطَىِّ السجلِ لِلْكُتُبِ ﴾ .

قال السدي : السجل ملك موكل بالصحف ؛ فإذا مات الإنسان ، دفع كتابه إلى السجل فطواه ؛ ويقال : السجل الصحيفة ، ويقال : السجل الكاتب .

وروى أبو الجوزاء ، عن ابن عباس قال : السجل كان كاتب النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره الله تعالى أنه يطوي السماء يوم القيامة ، كما يطوي السجل الكتاب .

قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿ لِلْكُتُبِ ﴾ بلفظ الجماعة ؛ وقرأ الباقون : ﴿ للكتاب ﴾ بلفظ الواحد ، وقرأ أبو حفص المدني ﴿ فِى السماء ﴾ بالتاء والضم على فعل ما لم يسم فاعله ؛ وقراءة العامة ﴿ نَطْوِى السماء ﴾ بالنون ؛ وقرأ بعضهم : السجل بجزم الجيم والتخفيف ، وقراءة العامة بالتشديد وبكسر الجيم .

ثم استأنف الكلام فقال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ ، يعني : خلقهم في الدنيا

يعيدهم في الآخرة؛ ويقال: كما بدأناهم شقياً وسعيداً في الدنيا.

فكذلك يكونون في الآخرة؛ ويقال: كما بدأنا أول خلق من نطفة في الدنيا، نعيده وأن تمطر السماء أربعين يوماً كمني الرجال فينبتون فيه.

﴿ وَعْداً عَلَيْنَا ﴾، يعني: وعدنا البعث صدقاً وحقاً لا خلاف فيه، كقوله ﴿ تَنزِيلُ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ [السجدة: 2] ﴿ وَعْداً ﴾ صار نصباً للمصدر.

﴿ إِنَّا كُنَّا فاعلين ﴾ بهم، أي باعثين بعد الموت.

(161/516)

وروي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ عُرَاةً غُرْلاً بُهْماً، ثمَّ قال: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ ".

ثم قال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور ﴾، يعني: في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وكل كتاب زبور.

﴿ مِن بَعْدِ الذكر ﴾، يعني: من بعد اللوح المحفوظ؛ ويقال: الذكر التوراة، يعني: كتبنا في الإنجيل والزبور والفرقان من بعد التوراة، أي بيَّنا في هذه الكتب ﴿ إِنَّ الأرض ﴾،

يعني : أرض الجنة ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصالحون ﴾ ، يعني : ينزلها عبادي المؤمنون ، وهذا قول مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير ومقاتل رضي الله عنه ويقال : إن الأرض المقدسة يرثها ، أي ينزلها ، بنو إسرائيل ؛ ويقال : يعني أرض الشام يرثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقال جميع الأرض تكون في آخر الزمان .

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " سَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا " .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِى هذا ﴾ ، أي في هذا القرآن .

﴿ لبلاغا ﴾ إلى الجنة ﴿ لّقَوْمٍ عابدين ﴾ ، أي موحدين ؛ ويقال : في هذا القرآن لبلاغاً بلغهم من الله عز وجل لقوم مطيعين .

وعن كعب أنه قال : إنهم أهل الصلوات الخمس .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ ، يعني : ما بعثناك يا محمد إلاَّ رحمة للعالمين ، يعني : نعمة للجن والإنس ؛ ويقال : ﴿ للعالمين ﴾ أي لجميع الخلق ، لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف : مؤمن وكافر ومنافق .

وكان رحمة للمؤمنين ، حيث هداهم طريق الجنة ؛ ورحمة للمنافقين ، حيث أمنوا القتل ؛ ورحمة للكافرين بتأخير العذاب .

وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : من آمن بالله ورسوله فله الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي أن يصيبه ما كان يصيب الأمم السالفة قبل ذلك ؛ فهو رحمة للمؤمنين والكافرين .

وذكر في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام : يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَا أرسلناكَ إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ ، فهل أصابك من هذه الرحمة ؟ قال : نعم أصابني من هذه الرحمة .

أني كنت أخشى عاقبة الأمر ، فآمنت بك لثناء أثنى الله تعالى عليّ بقوله عز وجل : ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى العرش مَكِينٍ مطاع ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : 21/20] .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يوحى إِلَىَّ أَنَّمَا إلهكم إله واحد ﴾ ، أي ربكم رب واحد .

﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ ؟ أي مخلصون بالتوحيد ، ويقال : مخلصون بالعبادة .

اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به الأمر يعني : أسلموا .

ثم قال : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ ؛ قال : فإن أعرضوا عن الإيمان ، ﴿ فَقُلْ ءاذَنتُكُمْ ﴾ يعني : أعلمتكم ﴿ على سَوَاء ﴾ ، أي على بيان علانية غير سر ؛ ويقال : أعلمتكم بالوحي الذي يوحى إليّ ، لنستوي في الإيمان به ؛ ويقال : معناه أعلمتكم ، فقد صرت أنا وأنتم على سواء .

وهذا من الاختصار .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِنْ أَدْرِى ﴾ ، يعني : وما أدري ، ﴿ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ من نزول العذاب بكم في الدنيا فقل لهم : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول ﴾ ، يعني : العلانية .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ ، يعني : ما تسرون من التكذيب بالعذاب .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِنْ أَدْرِى ﴾ ، يعني : وما أدري ﴿ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾ ، لعل تأخير العذاب عنكم في الدنيا فتنة لكم ، لأنهم كانوا يقولون : لو كان حقاً لنزل بنا العذاب .

﴿ ومتاع إلى حِينٍ ﴾ ، أي بلاغ إلى منتهى آجالكم ، يعني : تعيشون إلى الموت .

(163/516)

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ رَبِّ احكم بالحق ﴾ ، يعني : اقض بيني وبين أهل مكة بالعدل ، ويقال : بالعذاب ﴿ وَرَبُّنَا الرحمن ﴾ ، أي العاطف على خلقه بالرزق .

﴿ المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ ، يعني : أستعين به على ما تقولون وتكذبون ؛ ويقال : المطلوب منه العون والنصرة .

وروي عن الضحاك أنه قرأ ﴿ قُل رَّبِّ احكم بالحق ﴾ على معنى الخبر على ميزان افعل

، يعني : هو أحكم الحاكمين .

قال : لأنه لا يجوز أن يسأل أن يحكم بالحق ، وهو لا يحكم إلاَّ بالحق .

وقرأه العامة ﴿ قُل رَّبِّ أَحْكَمُ ﴾ على معنى السؤال ؛ معناه احكم بحكمك .

ثم يخبر عن ذلك الحكم أنه حق ، قرأ عاصم في رواية حفص ﴿ قَالَ رَبِّ احكم ﴾ على معنى الحكاية ؛ وقرأ الباقون ﴿ قُل رَّبِّ أَحْكَمُ ﴾ .

وقرأ ابن عامر في إحدى الروايتين ﴿ على مَا يَصِفُونَ ﴾ بالياء بلفظ المغايبة ، وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة ، وقرأ حمزة ﴿ الزبور ﴾ بضم الزاي ؛ وقرأ الباقون بالنصب ؛ والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 435.446 ﴾

(164/516)

وقال الثعلبى :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾ الآية .

قال وهب بن منبّه : كان أيوب رجلاً من الروم ، وهو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ، وكانت أُمّه من ولد لوط بن هاران ، وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبّأه وبسط عليه الدنيا ، وكانت له البثينة من أرض الشام كلّها سهلها وجبلها بما

فيها ، وكان له من أصناف المال كلّه من الابل والبقر والخيل والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه في العُدّة والكثرة ، وكان له بها خمسمائة فدّان يتبعها خمسمائة عبد ، لكلّ عبد امرأة وولد ومال ، ويحمل له كلّ فدان أتان ، لكلّ أتان ولد من اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة وفوق ذلك ، وكان الله سبحانه أعطاه أهلاً وولداً من رجال ونساء ، وكان برّاً تقيّاً رحيماً بالمساكين ، يكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل ، وكان شاكراً لأنعم الله سبحانه ، مؤدياً لحقّ الله تعالى ، قد امتنع من عدوّ الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من العزّة والغفلة والسهو والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا ، وكان معه ثلاثة قد آمنوا به وصدّقوه وعرفوا فضله : رجل من أهل اليمن يقال له اليفن ، ورجلان من أهل بلاده يقال لأحدهما بلدد وللآخر صافر ، وكانوا كهولاً .

(165/516)

قال وهب : إنّ لجبرئيل (عليه السلام) بين يدي الله سبحانه مقاماً ليس لأحد من الملائكة في القربة والفضيلة ، وإنّ جبرئيل هو الذي يتلقّى الكلام ، فإذا ذكر الله عبداً بخير تلقّاه جبرئيل ثم لقّاه ميكائيل وحوله الملائكة المقرّبون حافّين من حول العرش ، فإذا شاع ذلك في الملائكة المقرّبين صارت الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات ، فإذا صلّت عليه

ملائكة السموات هبطت عليه بالصلاة إلى ملائكة الأرض ، وكان إبليس لعنه الله لا يحجب عن شيء من السماوات ، وكان يقف فيهنّ حيث ما أراد ، ومن هنالك وصل إلى آدم حين أخرجه من الجنّة ، فلم يزل على ذلك يصعد في السموات حتى رفع الله سبحانه عيسى ابن مريم فحجب من أربع ، وكان يصعد في ثلاث ، فلمّا بعث الله تعالى محمداً (عليه السلام) حجب من الثلاث الباقية ، فهو وجنوده محجوبون من جميع السموات إلى يوم القيامة ﴿ إِلاَّ مَنِ استرق السمع فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر : 18] .

قال : فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكره الله سبحانه وأثنى عليه ، فأدركه البغي والحسد وصعد سريعاً حتى وقف من السماء موقفاً كان يقفه فقال : يا إلهي نظرت في أمر عبدك أيوّب فوجدته أنعمت عليه فشكرك ، وعافيته فحمدك ، ثمّ لم تجرّبه بشدّة ولا بلاء وأنا لك زعيم ، لئن ضربته بالبلاء ليكفرنّ بك ولينسينّك ، فقال الله سبحانه وتعالى له : انطلق فقد سلّطتك على ماله ، فانقض عدوّ الله حتى وقع إلى الأرض ثم جمع عفاريت الشياطين وعظماءهم وقال لهم : ماذا عندكم من القوّة والمعرفة ؟ فإنّي قد سُلّطتُ على مال أيوب ، وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال .

(166/516)

قال عفريت من الشياطين : أُعطيتُ من القوّة ما إذا شئت تحوّلت إعصاراً من النار وأحرقت كلّ شيء آتي عليه ، قال له إبليس : فاتِ الإبل ورِعاها فانطلق يؤم الإبل وذلك حين وضعت رؤوسها ويثبت في مراعيها ، فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار ينفخ منها أرواح السّموم ، لا يدنو منها أحد إلاّ احترق ، فلم يزل يحرقها ورعاها حتى أتى على آخرها ، فلمّا فرغ منها تمثّل إبليس على قعود منها يراعها ثم انطلق يؤم أيّوب حتّى وجده قائماً يصلّي فقال : يا أيوب ، قال : لبيّك ، قال : هل تدري ما الذي صنع ربك الذي اخترته وعبدته بإبلك ورعائها ؟ قال أيوب : انّها ماله أعارنيه وهو أولى به إذا شاء نزعه ، وقديماً وطّنت مالي ونفسي على الفناء .

قال إبليس : فإنّ ربّك أرسل عليها ناراً من السّماء فاحترقت ورعاؤها كلّها ، فتركت الناس مبهوتين وقفاً عليها يتعجّبون منها ، منهم من يقول : ما كان أيّوب يعبد شيئاً وما كان إلاّ في غرور ، ومنهم من قال : لو كان إله أيّوب يقدر على أن يصنع شيئاً لمنع وليّه ، ومنهم من يقول : بل هو الذي فعل ما فعل ليشمت به عدوّه ويفجع به صديقه .

قال أيوب : الحمد لله حين أعطاني وحين نزع منّي ، عرياناً خرجت من بطن أُمّي ، وعرياناً أعود في التراب ، وعرياناً أُحشر إلى الله سبحانه ، ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعارك وتجزع حين قبض عاريته ، الله أولى بك وبما أعطاك ، ولو علم الله فيك أيّها العبد خيراً

لتقبّل روحك مع تلك الأرواح فآجر لي فيك وصرت شهيداً ، ولكنه علم منك شراً فاخّرك ، وخلصك من البلاء كما يخلص الزوّان من القمح الخالص .

(167/516)

فرجع إبليس لعنه الله إلى أصحابه خاسئاً ذليلاً فقال : ماذا عندكم من القوّة فإني لم أكلّم قلبه ، قال عفريت من عظمائهم : عندي من القوة اما إذا شئت صحت صوتاً لا يسمعه ذو روح إلاّ خرجت مهجة نفسه ، قال له ابليس : فأتِ الغنم ورعاها فانطلق يأتي الغنم ورعاها حتى إذا توسطها صاح صوتاً جثمت أمواتاً من عند آخرها ، ومات رعاؤها ، ثم خرج إبليس متمثّلاً بقهرمان الرعاء حتى إذا جاء أيوب وهو قائم يصلّي ، فقال له القول الأول وردّ عليه أيوب الردّ الأول .

ثمّ إن إبليس رجع إلى أصحابه فقال لهم : ماذا عندكم من القوّة فإنّي لم أُكلّم قلب أيوّب ، فقال عفريت من عظمائهم : عندي من القوّة ما إذا شئت تحوّلت ريحاً عاصفاً تنسف كلّ شيء تأتي عليه حتى لا أُبقي شيئاً ، قال له إبليس : فأت الفدادين والحرث ، فانطلق يؤمهم وذلك حين قرنوا الفدادين وأنسؤوا في الحرث ، وأولادها رتوع ، فلم يشعروا حتى هبّت ريح عاصف فنسفت كلّ شيء من ذلك حتّى كأنّه لم يكن ، ثم خرج إبليس متمّثلاً بقهرمان

الحرث حتى جاء أيوب وهو قائم يصلّي فقال له مثل قوله الأوّل وردّ عليه أيوّب مثل ردّه الأوّل ، فجعل إبليس يصيب ماله مالاً مالاً حتى مرَّ على آخره ، كلّما انتهى إليه هلاك مال من أمواله حمد الله وأحسن عليه الثناء ورضي بالقضاء ووطّن نفسه للصبر على البلاء حتى لم يبق له مال .

فلمّا رأى إبليس أنّه قد أفنى ماله ولم ينجح منه بشيء صعد سريعاً حتى وقف الموقف الذي كان يقفه فقال : إلهي إنّ أيوب يرى أنّك ما متّعته بنفسه وولده فأنت معطيه المال ، فهل أنت مسلطي على ولده فإنّها الفتنة المضلّة والمصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال ولا يقوى عليها صبرهم .

(168/516)

قال الله سبحانه : انطلق فقد سلّطتك على ولده ، فانقضّ عدوّ الله حتى جاء بني أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلزل بهم حتى تداعى من قواعده ، ثم جعل يناطح جدره بعضها ببعض ويرميهم بالخشب والجندل حتى إذا مثّل بهم كلّ مثلة رفع بهم القصر وقلبه فصاروا منكّسين ، وانطلق إلى أيوب متمثّلاً بالمعلّم الذي كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه ودماغه ، فأخبره بذلك وقال : يا أيوب لو رأيت بنيك كيف عذّبوا وكيف

قلبوا فكانوا منكّسين على رؤوسهم ، تسيل دماؤهم ودماغهم من أُنوفهم وأشفارهم وأجوافهم ، ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لقطع قلبك ، فلم يزل يقول هذا ونحوه ويرقّقه حتى رقّ أيوب فبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه ، فاغتنم إبليس ذلك فصعد سريعاً بالذي كان من جزع أيّوب مسروراً به ، ثمّ لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر ، فاستغفر وصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته ، فبدروا إبليس إلى الله سبحانه وهو أعلم ، فوقف إبليس خازياً ذليلاً فقال : يا إلهي إنّما هوّن على أيّوب خطر المال والولد إنه يرى أنك ما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد ، فهل أنت مسلطي على جسده ، فأنى لك زَعم لئن ابتليته في جسدِهِ لَيُنَسِينّك وليكفِرنّ بك ولجحدنّك نعمتك .

فقال الله سبحانه : انطلق فقد سلّطتُك على جسده ، ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه ولا على عقله ، وكان الله تعالى هو أعلم به ، لم سلطه عليه إلاّ رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين في كلّ بلاء نزل بهم ليتأسّوا به في الصبر ورّجاء الثواب .

(169/516)

وانقض عدو الله إبليس سريعاً فوجد أيوب ساجداً فعجّل قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قِبل الأرض في موضع وجهه فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده فذهل وخرج به من قرنه إلى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم وقعت فيه حكّة لا يملكها ، فحكّ بأظفاره حتى سقطت كلها ، ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ، ثم حكها بالفخّار والحجارة الخشنة فلم يزل حكها حتى نفل لحمه وتقطع وتغير وانتن .

(170/516)

فأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشاً ورفضه خلق الله كلهم غير امرأته ، وهي رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، وكانت تختلف إليه بما يصلحه ويلزمه ، فلما رأى الثلاثة من أصحابه وهم : أليفر وبلدد وصافر ما إبتلاه الله سبحانه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه ، فلما طال به البلاء انطلقوا إليه وهو في بلائه فبكتوه ولاموه وقالوا له : تب إلى الله سبحانه من الذنب الذي عوقبت به ، قال : وحضر معهم فتى حديث السِن وكان قد آمن به وصدّقه فقال لهم : إنكم تكلمتم أيها الكهول وكنتم أحق بالكلام لأسنانكم ، ولكن قد تركتم من القول أحسن من الذي قلتم ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم ، ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم ، وقد كان لا يؤت عليكم من الحق والذمام

أفضل من الذي وصفتم ، فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ، ومن الرجل الذي عِبتم واتهمتم ؟ ألم تعلموا أن أيوب نبي الله وخيرته وصفوته من أهل الأرض يومكم هذا ، ثم لم تعلموا أو لم يطلعكم الله على أنه قد سخط شيئاً من أمره منذ أتاه ما أتاه إلى يومكم هذا ، ولا على أنه نزع منه شيئاً من الكرامة التي اكرمه بها ، ولا أن أيوب غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا ، وإن كان البلاء هو الذي أزري به عندكم ووضعه في أنفسكم ، فقد علمتم أن الله سبحنه يبتلي النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ثم ليس بلاؤه لأولئك بدليل على سخطه عليهم ، ولا هوانه لهم ، ولكنها كرامة وخيرة لهم ، ولو كان أيوب ليس من الله تعالى بهذه المنزلة إلاّ أنه أخٌ اجتبيتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحليم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيّره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم ، وهو مكروب جرين ، ولكنه يرحمه ويبكي معه ويستغفر له ويحزن بحزنه ويدله على مراشد أمره ، وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا ، فالله الله أيها الكهول وقد كان في عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر

(171/516)

قلوبكم .

ألم تعلموا أن لله عباداً أسكتتهم خشية من غير عيّ ولا بُكْم ، وأنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الأولياء العالمون بالله وبأيامه ، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرّت جلودهم ، وانكسرت قلوبهم ، وطاشت عقولهم إعظاماً لله وإعزازاً وإجلالاً ، فإذا استفاقوا من ذلك اسْتَبَقُوا إلى الله بالأعمال الزاكية ، يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين ، وإنهم لأَنْزَاه برآء ، ويعدون أنفسهم مع المقصرين المفرطين ، وإنهم لأكياس أقوياء ، ولكنهم لا يستكثرون لله الكثير ولا يرضون لله بالقليل ، ولا يدلون عليه بالأعمال فهم مروّعون مفزَّعون خاشعون مستكينون .

فقال أيوب : إن الله سبحانه يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير فمتى ثبتت في القلب يظهرها الله على اللسان ، وليست تكون الحكمة من قبل السنّ والشيبة ولا طول التجربة ، ولئن جعل الله تعالى العبد حكيماً في الصبا لم يسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله سبحانه عليه نور الكرامة .

ثم أقبل أيوب على الثلاثة فقال : أتيتموني غضاباً رهبتم قبل أن تسترهبوا ، وبكيتم من قبل أن تضربوا ، كيف بي لو قلتُ لكم تصدّقوا عنّي بأموالكم لعلّ الله أن يخلّصني ، أو قرّبوا عنّي قرباناً لعلّ الله يتقبّله ويرضى عني ، وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم أنكم عوقبتم بإحسانكم فهنالك بغيتم وتعزّزتم ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربّكم ثمّ صدقتم لوجدتم لكم

عيوباً سترها الله بالعافية التي ألبسكم ، وقد كنت فيما خلا والرجال يوقّرونني وأنا مسموع كلامي ، معروف حقّي ، منصف من خصمي ، فأصبحت اليوم وليس لي رأي ولا كلام معكم ، فإنّكم كنتم عليَّ أشدّ من مصيبتي .

(172/516)

ثمّ أعرض عنهم وأقبل على ربّه مستعيناً به متضرعاً إليه فقال : ربّ لأيّ شيء خلقتني ؟ ليتني إذ كرهتني لم تخلقني ، يا ليتني كنت حيضة ألقتني أُمّي ، أو يا ليتني عرفت الذّنب الذي أذنبتُ والعمل الذي عملتُ فصرفت وجهك الكريم عنّي ، لو كنت أمتّني فألحقتني بآبائي فالموت كان أجمل لي ، ألم أكن للغريب داراً وللمسكين قراراً ولليتيم وليّاً وللأرملة قيّماً ؟ الهي أنا عبد ذليل ، إن أحسنتُ فالمنّ لك ، وإن أسأت فبيدك عقوبتي ، جعلتني للبلاء غرضاً وللفتنة نصباً ، وقد وقع عليَّ بلاء لو سلّطته على جبل ضَعُف عن حمله ، فكيف يحمله ضعفي ، إلهي تقطّعت أصابعي فإنّي لأرفع الأكلة من الطعام بيديَّ جميعاً فما تبلغان فمي إلاّ على الجهد منّي ، تساقطت لهواتي ولحم رأسي ، فما بين أُذنيَّ من سداد حتى أنّ إحداهما تُرى من الأُخرى ، وإنّ دماغي يسيل من فمي .

(173/516)

تساقط شعر عيني فكأنما حُرّق بالنار وجهي ، وحدقتاي هما متدلّيتان على خدّي ، ورم لساني حتى ملأ فمي ، فما أدخل منه طعاماً إلاّ غصّني ، ورمتْ شفتاي حتّى غطّت العليا أنفي والسفلى ذقني ، تقطّعت أمعائي في بطني فإنّي لأُدخله الطعام فيخرج كما دخل ما أُحسّه ولا ينفعني ، ذهبت قوّة رجليَّ فكأنهما قربتا ماء أُطيق حملهما ، ذهب المال فصرت أسأل بكفّي فيطعمني من كنت أعوله اللقمة الواحدة ، فيمنّها عليّ ويعيّرني ، هلك أولادي ولو بقي أحد منهم أعانني على بلائي ونفعني ، قد ملّني أهلي وعقّني أرحامي وتنكّرت معارفي ورغب عنّي صديقي وقطعني أصحابي وجُحدتْ حقوقي ونُسيتْ صنايعي ، أصرخ فلا يصرخونني وأعتذر فلا يعذرونني ، ودعوت غلامي فلم يجبني وتضرّعت لأمتي فلم ترحمني وأنحل جسمي ولو أنّ ربيّ نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتّى أتكلّم بملء فمي ، ثمّ كان ينبغي للعبد أن يحاجّ عن نفسه ، لرجوت أن يعافيني عند ذلك ممّا بي ولكنّه ألقاني وتعالى عنّي فهو يراني ولا أراه ، ويسمعني ولا أسمعه ، لا نظر إليّ فرحمني ولا دنا منّي ولا أدناني ، فأتكلم ببراءتي وأُخاصم عن نفسي .

فلمّا قال ذلك أيّوب وأصحابه أظلّه غمام حتّى ظنّ أصحابه أنّه عذاب ، ثمّ نودي منه : يا أيّوب إنّ الله يقول : ها أنا دنوت منك ولم أزل منك قريباً ، فقم فأدل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك واشدد إزارك وقم مقام جبّار فإنّي لا ينبغي لي أن يخاصمني إلاّ جبّار

مثلي ولا ينبغي أن يخاصمني إلاّ من يجعل الزمّار ، في فم الأسد والسّخال في فم العنقاء واللجام في فم التنينّ ، ويكتال مكيالاً من النّور ويزن مثقالاً من الرّيح ويصرّ صرّةً من الشّمس ويردّ أمس ، لقد منّتك نفسك أمراً ما يبلغ بمثل قوتّك ولو كنت إذ منّتك ذلك ودعتك إليه ، تذكّرت أيّ مرام رامت بك .

(174/516)

أردت أن تخاصمني بفيك أم أن تحاجّني بخطابك أم أردت ان تكابرني بضعفك ؟ أين أنت منّي يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها ؟ هل علمت بأي مقدار قدّرتها أم كنت معي تمد بأطرافها ، أم تعلم ما بعد زواياها أم على أيّ شيء وضعت أكنافها ؟ أبطاعتك حمل الماء الأرض ، أم بحكمتك كانت الأرض للماء غطاءً ؟ أين كنت منّي يوم رفعت السّماء سقفاً في الهواء لا بعلائق سُيّبت ولا يحملها دعم من تحتها ؟ هل يبلغ من حكمتك أن تجري نورها أو تسيّر نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها ؟ أين أنت منّي يوم سخّرت البحار ونبعت الأنهار ؟ أقدرتك حبست أمواج البحار على حدودها أم قدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدّتها ؟ أين أنت منّي يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال ؟ هل لك من ذراع يطيق حملها أم هل تدري كم من مثقال فيها ، أم أين الماء الذي

أنزلت من السماء ؟ هل تدري أمٌّ تلده أو أبٌ يولدهُ ؟ أحكمتك أحصت القطر وقَسمت الأرزاق ، أم قدرتك تثير السحاب وتغشيه الماء ؟ هل تدري ما أصوات الرعود أم من أيّ شيء لهب البرق ؟ وهل رأيت عمق البحر ، أم هل تدري ما بعد الهواء ، أم هل خزنت أرواح الأموات ، أم هل تدري أين خزانة الثلج ، أو أين خزائن البرد ، أم أين جبال البرد ، أم هل تدري أين خزانة الليل بالنهار ، وأين خزانة النهار بالليل ، وأين طريق النور ، وبأيّ لغة تتكلّم الأشجار ، وأين خزانة الريح ؟ وكيف تحبسه الأغلاق ؟ ومن جعل العقول في الرّجال ؟ ومن شق الأسماع ؟ ومن ذلّت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته وقسم أرزاق الدوابّ بحكمته ؟ من قسّم للأُسد رزقها وعرّف الطير معاشها وعطفها على أفراخها ؟ من أعتق الوحش من الخدمة وجعل مساكنها البريّة ، لا تستأنس بالأصوات ولا تهاب المسلّطين ، أم حكمتك عطفت أمهاتها عليها حتى أخرجت لها الطعام من بطونها وآثرتها بالعيش على نفوسها ، أم من حكمتك تُبصّر العقاب الصيد البصر البعيد وأصبح في أماكن القتلى ؟ أين أنت منّي يوم خلقت

(175/516)

يهموت مكانه في مقطع التراب والوثبان يحملان الجبال والقرى والعمران ، آذانهما كأنها شجر الصنوبر الطوال ، ورؤسهما كأنها كوم الجبال ، وعروق أفخاذها كأنها عمد النحاس ، أنت ملأت جلودهما لحماً أم أنت ملأت رؤسهما دماغاً ؟ هل لك في خلقهما من شرك أم لك بالقوة التي غلبتها يدان ؟ هل تبلغ من قوّتك أن تضع يدك على رؤوسهما أو تقعد لهما على طريق فتحبسهما أو تصدّهما من قوتهما ؟ أين أنت يوم خلقت للتّنين رزقه في البحر ومسكنه في السحاب ؟ عيناه توقدان ناراً ومنخراه يثوران دخاناً ، أُذناه مثل قوس السحاب ، يثور منهما لهب كأنّه إعصار العجاج ، جوفه يحترق ونفسه تلتهب وزبده جمر كأمثال الصخور ، وكأنّ صريف أسنانه أصوات الصواعق ، وكأنّ نظر عينيه لهب البرق ، وتمرّ به الجيوش وهو متكئ لا يفزعه شيء ، ليس فيه مفصل الحديد ، عنده مثل الطين ، والنحاس ، عنده مثل الخيوط لا يفزع من النشّاب ولا يحسّ وقع الصخور على جسده ، ويسير في الهواء كأنّه عصفور ، ويهلك كلّ شيء يمرّ به ، هل أنت آخذه بأُحبولتك أو واضع اللجام في شدقه ؟ هل تحصي عمره أم هل تعرف تقّوت رزقه أم هل تدري ماذا خرّب من الأرض ؟ وماذا يخرّب فيما بقي من عمره ؟ أتطيق غضبه حين يغضب أم تأمره فيطيعك ؟ تبارك الله وتعالى .

(176/516)

فقال أيوب : قصرت عن هذا الأمر الذي يعرض عليّ ليت الأرض انشقّت فذهبت فيها ولم أتكلّم بشيء يسخط ربّي ، اجتمع عليّ البلاء إلهي فجعلتني مثل العدوّ ، وقد كنت تكرمني وتعرف نصحي ، وقد علمت أنّ كلّ الذي ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك وأعظم من هذا ، ما شئت عملت ، لا يعجزك شيء ولا تخفى عليك خافية ولا تغيب عنك غائبة ، من هذا الذي يظن أن يسرّ عنك سرّاً وأنت تعلم ما يخطر على القلوب ؟ وقد علمت منك في بلائي هذا ما لم أكن أعلم ، وخفت حين بلوت أمرك أكثر ممّا كنت أخاف ، إنّما كنت أسمع بسطوتك سمعاً فأمّا الآن فهو نظر العين ، إنّما تكلمت حين تكلمت لتعذرني ، وسكتُّ حين سكتُّ لترحمني ، كلمة زلّت فلن أعود ، قد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني وألصقت بالتراب خدّي ودسست فيه وجهي لصَغاري ، وسكتُّ كما أسكتتني خطيئتي ، فاغفر لي ما قلت فلن أعود لشيء تكرهه مني .

فقال الله سبحانه : يا أيوب فقد نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي إذ خطئت فقد غفرت لك ، ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم ليكون لمن خلفك آية ، ويكون عبرة لأهل البلاء وغزاءً للصابرين فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، فيه شفاؤك ، وقرّب عن صحابتك قرباناً واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك .

فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها ، فاغتسل فأذهب الله عنه كلّما كان به من

البلاء ، ثمَّ خرج فجلس وأقبلت امرأته فقامت تلتمسه في مضجعه فلم تجده فقامت كالواله مترددة متحيّرة ثم قالت : يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان ها هنا ؟ فقال لها : وهل تعرفينه إذا رأيته ؟ قالت : نعم ومالي لا أعرفه ؟ فتبسم وقال : أنا هو فعرفته بمضحكه فاعتنقته .

قال ابن عباس : فوالذي نفس عبد الله بيده ما فارقته من عناقه حتى مرّ بهما كلّ مال لهما وولد ، فذلك قوله ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾ ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر ﴾ .

(177/516)

واختلف العلماء في وقت ندائه ، والسبب الذي قال : لأجله أنّي مسّني الضرّ وفي مدّة بلائه .

فحدَّثنا الإمام أبو الحسن عليّ بن سهل الماسرخسي إملاء يوم الجمعة سنة أربع وثمانين وثلاثمائة قال : أخبرنا أبو طالب عمر بن الربيع بن سليمان الخشّاب بمصر قال : حدَّثنا يحيى بن أيوب العلاّف قال : حدَّثنا سعيد بن أبي مريم قال : حدَّثنا نافع بن يزيد عن عقيل عن شهاب عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أيوب نبيّ الله لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلاّ رجلين من إخوانه كانا يغدوان

إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم : والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين ، فقال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به ، فلمّا راحا إلى أيوّب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك ، فقال أيوب : ما أدري ما يقولان غير أنّ الله سبحانه يعلم أني كنت أمرّ بالرجلين يتنازعان فيذكران الله سبحانه وتعالى ، فأرجع إلى بيتي فأكفّر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلاّ في حقّ " .

قال : فكان يخرج بحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلمّا كان ذات يوم أبطأ عليها ، وأُوحي إلى أيّوب في مكانه ﴿ اركض بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : 42] فاستبطأته فتلقته تنظر ، وأقبل عليها وقد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان ، فلمّا رأته قالت : هل رأيت نبيّ الله هذا المبتلى ؟ قال : إنّي أنا هو ، وكان له اندران : أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سبحانه سحابتين ، فلمّا كانت أحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأُخرى في أندر الشعير الوَرَق حتى فاض .

وقال الحسن : مكث أيّوب مطروحاً على كناسة في مزبلة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهراً تختلف فيه الدوابّ .

(178/516)

وقال وهب : لم يكن بأيوب أكلة إنّما كان يخرج منه مثل ثدي النّساء ثم يتفقّأ .

قال الحسن : ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ولا أحد يقرّبه غير رحمة صبرت معه ، تصدّق وتأتيه وتحمد الله إذا حمد ، وأيوب على ذلك لا يفتر من ذكر الله سبحانه والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه ، فصرخ عدوّ الله إبليس صرخة جمع فيها جنوده من أقطار الأرض جزعاً من صبر أيوّب فلمّا اجتمعوا إليه قالوا : ما جزعك ؟ قال : أعياني هذا العبد الذي سألت ربّي أن يسلّطني على ماله وولده فلم أدع له مالاً ، وولداً فلم يزدد بذلك إلاّ صبراً وثناءً على الله سبحانه ، ثمّ سلّطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة بني إسرائيل ، لا تقربه إلاّ إمرأته ، فقد افتضحت بربي فاستعنت بكم لتعينوني عليه ، قالوا له : أين مكرك ؟ أين عملك الذي أهلكت به من مضى ؟ قال : بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا عليَّ ، قالوا : نشير عليك ، أرأيت آدم حين أخرجته من الجنة ؟ قال : من قبل امرأته ، قالوا : فشأنك بأيوب من قبل امرأته فإنّه لا يستطيع أن يعصيها وليس أحد يقرّبه غيرها ، قال : أصبتم ، فانطلق حتى أتى امرأته وهي تصدّق ، فتمثّل لها في صورة رجل ، فقال : أين بعلك يا أمة الله ؟ قالت : هو ذاك يحكّ قروحه ، وتتردّد الدوابّ في جسده ، فلمّا سمعها طمع أن يكون كلمة جزع ، فوسوس إليها فذكّرها ما كانت فيه من النعيم والمال ، وذكّرها جمال أيوب وشبابه ، وما هو فيه من الضرّ ، وأنّ ذلك لا ينقطع عنهم أبداً .

قال الحسن : فصرخت ، فلمّا صرخت علم أن قد جزعت ، فأتاها بسخلة فقال : ليذبح هذا لي أيّوب ويبرأ .

قال : فجاءت تصرخ : يا أيّوب حتى متى يعذّبك ربّك ؟ ألا يرحمك ؟ أين المال ؟ أين الماشية ؟ أين الولد ؟ أين الصديق ؟ إنّ لونك الحسن قد تغيّر وصار مثل الرّماد ، أين جسمك الحسن الذي قد بلي وتردّد فيه الدواب ؟ اذبح هذه السخلة واسترح .

(179/516)

قال أيّوب : أتاكِ عدوّ الله فنفخ فيك وأجبته ؟ ويلك أرأيت ما تبكين عليه ممّا تذكرين ممّا كنا فيه من المال والولد والصحة ، من أعطانيه ؟ قالت : الله ، قال : فكم متّعنا به ؟ قالت : ثمانين سنة ، قال : فمذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء ؟ قالت : منذ سبع سنين وأشهر . قال : ويلك والله ما عدلت ولا أنصفت ربَك ، ألا صبرتِ يكون في هذا البلاء الذي ابتلانا ربّنا به ثمانين سنة ، كما كنا في الرخاء ثمانين سنة والله لئن شفاني الله لأجلدنّك مائة جلدة ، أمرتني أن أذبح لغير الله طعامك وشرابك الذي أتيت به ؟ علي حرام أن أذوق شيئاً ممّا تأتينني به بعد إذ قلت لي هذا ، فاغربي عنّي فلا أراك ، فطردها فذهبت فلمّا نظر أيّوب إلى إمرأته قد طردها ، وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خرَّ ساجداً وقال : رب مسّني الضر

ثم ردّ ذلك إلى ربّه فقال ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ فقيل له : إرفع رأسك فقد استجبت لك ، اركض برجلك ، فركض برجله فنبعت عين فاغتسل منها فلم يبق عليه من دابّةٍ شيء ظاهر إلاّ سقط ، فأذهب الله كلّ ألم وكلّ سقم ، وعاد إليه شبابه وجماله أحسن ما كان وأفضل ما كان ، ثم ضرب رجله فنبعت عين أخرى فشرب منها ، فلم يبق في جوفه داء إلاّ خرج ، فقام صحيحاً وكُسي حلّة .

قال : فجعل يلتفت فلا يرى شيئاً ممّا كان له من أهل ومال إلاّ وقد أضعفه الله له حتى والله ذكر لنا أن الماء الذي اغتسل منه تطاير على صدره جراداً من ذهب ، قال : فجعل يضمّه بيده فأوحى إليه : يا أيوب ألم أغنك ؟ قال : بلى ولكنّها بركتك فمن يشبع منها ، قال : فخرج حتى جلس على مكان مشرف ، ثمّ إنّ امرأته قالت : أرأيت إن كان طردني ، إلى من أَكِله ؟ أدعه يموت جوعاً وتأكله السباع لأرجعنّ إليه ، فرجعت إليه فلا كناسة ترى ولا تلك الحال التي كانت ، وإذا الأمور قد تغيّرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي ، وذلك بعين أيّوب .

(180/516)

قال : وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأله عنه ، فأرسل إليها أيوب فدعاها فقال : ما تريدين يا أمة الله ؟ فبكت وقالت : أردت ذلك المبتلى الذي كان منبوذاً على الكناسة لا أدري أضاع أم ما فعل ؟ .

فقال لها أيوب : ما كان منك ؟ فبكت وقالت : أردت بعلي فهل رأيته ؟ قال : وهل تعرفينه إذا رأيته ؟ قالت : وهل يخفى على أحد رآه ؟ ثم جعلت تنظر إليه وهي تهابه ، ثم قالت : أما إنّه كان أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحاً ، قال : فإنّي أنا أيوب الذي أمرتني أنّ أذبح لإبليس ، وإنّي أطعتُ الله وعصيت الشيطان ودعوت الله سبحانه وتعالى فردَّ عليَّ ما ترين .

وقال كعب : كان أيوب في بلائه سبع سنين .

وقال وهب : لبث أيوب في ذلك البلاء ثلاث سنين لم يزد يوماً واحداً ، فلمّا غلب أيوب إبليس ولم يستطع منه شيئاً اعترض امرأته في هيئة ليس كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال ، على مركب ليس من مراكب الناس ، له عظم وبهاء وجمال ، فقال لها : أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى ؟ قالت : نعم قال : هل تعرفينني ؟ قالت : لا ، قال : فأنا إله الأرض ، وأنا الذي صنعت ، بصاحبك ما صنعت وذلك أنّه عبد إله السّماء وتركني فأغضبني ، ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان لكما من مال وولد فإنّه عندي ، ثم أراها إيّاهم فيما ترى ببطن الوادي الذي لقيها فيه .

قال وهب : وقد سمعت أنّه إنّما قال : لو أنّ صاحبك أكل طعاماً ولم يسمّ عليه لعُوفي ممّا به من البلاء ، والله أعلم ، وأراد إبليس لعنه الله أن يأتيه من قِبلها .

ورأيت في بعض الكتب أنّ إبليس قال لرحمة : وإن شئت فاسجدي لي سجدة واحدة حتى أردّ عليك المال والأولاد وأُعافي زوجك ، فرجعت إلى أيّوب فأخبرته بما قال لها وما أراها ، قال : قد أتاكِ عدوّ الله ليفتنكِ عن دينكِ ، ثمّ أقسم إن عافاه اللّه ليضربنّها مائة جلدة .

(181/516)

وقال عند ذلك : مسّني الضر من طمع إبليس في سجود حرمتي له ، ودعائه إيّاها وإيّاي إلى الكفر ، قالوا : ثمّ الله سبحانه رحم رحمة امرأة أيّوب بصبرها معه على البلاء ، وخفّف عنها ، وأراد أن يبرئ يمين أيوب فأمره أن يأخذ جماعة من الشجر فيضربها بها ضربة واحدة كما قال الله سبحانه ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فاضرب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ [ص : 44] الآية .

وقال وهب وغيره : كانت امرأة أيوب تكسب له وتعمل للناس وتجيئه بقوته ، فلمّا طال عليهما البلاء وسئمها الناس فلم يستعملها التمست له يوماً من الأيام ما تطعمه ، فما

وجدت شيئاً فجزّت قرناً من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها : أين قرنك فأخبرته بذلك فحينئذ قال : مسّني الضر .

وقال قوم : إنّما قال : مسّني الضر حين قصدت الدود إلى قلبه ولسانه فخشي أن يعيى عن الذكر والفكر .

وقال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان لأيوب أخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران أن يدنوا منه من ريحه ، فقال أحدهما لصاحبه : لو كان الله علم في أيوب خيراً ما ابتلاه بما نرى : قال : فلم يسمع أيوب شيئاً كان عليه أشدّ من هذه الكلمة ، وما جزع من شيء أصابه جزعه من تلك الكلمة ، فعند ذلك قال : مسّني الضرّ ، ثم قال : اللهمَّ إن كنت تعلم أني لم أبتْ ليلة شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدّقني فصدّق ، وهما يسمعان ، ثمّ قال : اللهمّ إن كنت تعلم أنّي لم أتّخذ قميصين قطّ وأنا أعلم مكاناً عار فصدقني فصدّق وهما يسمعان فخرَّ ساجداً .

وقيل معناه : مسّني الضر من شماتة الأعداء ، يدلّ عليه ما روي أنّه قيل له بعد ما عوفي : ما كان أشدّ عليك في بلائك ؟ قال : شماتة الأعداء .

وقيل : إنّما قال ذلك حين وقعت دودة من فخذه فرفعها وردّها إلى وضعها وقال : كلي فقد جعلني الله طعامك ، فعضّتهُ عضّة زاد ألمها على جميع ما قاسى من عضّ الديدان .

وسمعت أبا عبد الله بن محمد بن جعفر الأبيوردي يقول : سمعت أبا عبد الله محمد بن عبّاد البغدادي يقول : سئل أبو القاسم جنيد عن هذه الآية فقال : عرّفه فاقة السؤال ليمنّ عليه بكرم النوال .

وسمعت استاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول : حضرت مجلساً غاصّاً بالفقهاء والأُدباء في دار سلطان فسئلت عن هذه الآية بعد إجماعهم على أنّ قول أيوب ﴿ مَسَّنِيَ الضر ﴾ شكاية وقد قال الله سبحانه

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ [ص : 44] فقلت : ليس هذا شكاية وإنما هو دعاء ، بيانه قوله سبحانه ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ والإجابة تعقب الدعاء لا الاشتكاء ، فاستحسنوه وارتضوه .

﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ﴾ واختلفوا في كيفية ذلك فقال قوم : إنما آتى الله سبحانه أيوب في الدُنيا مثل أهله الذين هلكوا ، فأما الذين هلكوا فإنّهم لم يُردّوا عليه ، وإنّما وعد الله أيوب أن يؤتيه إيّاهم في الآخرة .

وروى عبد الله بن إدريس عن ليث قال : أرسل مجاهد رجلاً يقال له قاسم إلى عكرمة يسأله عن هذه الآية فقال : قيل له : إنّ أهلك لك في الآخرة ، فإن شئت عجّلناهم لك في الدنيا ، وإن شئت كانوا لك في الآخرة ، وآتيناك مثلهم في الدنيا ؟ فقال : يكونون لي في

الآخرة ، وأُوتي مثلهم في الدنيا .

قال : فرجع إلى مجاهد فقال : أصاب ، ويكون معنى الآية على هذا التأويل وآتيناه أهله في الآخرة ، ومثلهم معهم في الدنيا ، وأراد بالأهل الأولاد .

قال وهب : كان له سبع بنات وثلاثة بنين .

وقال ابن يسار : كان له سبع بنين وسبع بنات ، وقال آخرون : بل ردّهم الله سبحانه بأعيانهم وأعطاه مثلهم معهم ، وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة وكعب قال : أحياهم الله وأُوتي مثلهم ، وهذا القول أشبه بظاهر الآية .

وقال الحسن : آتاه الله المثل من نسل ماله الذي ردّ عليه وأهله ، فأمّا الأهل والمال فإنه ردّهما عليه بأعيانهما .

(183/516)

﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وذكرى لِلْعَابِدِينَ ﴾ عظة لهم ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ يعني ابن إبراهيم ﴿ وَإِدْرِيسَ ﴾ وهو أخنوخ ﴿ وَذَا الكفل كُلٌّ مِّنَ الصابرين ﴾ على أمر الله ، واختلفوا في ذي الكفل ، فأخبرني ابن فنجويه بقراءتي عليه في داري قال : حدّثنا عمر بن الخطاب قال : حدّثنا عبد الله الرازي عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال : سمعت حديثاً للنبي

صلى الله عليه وسلم لو لم أسمعه إلاّ مرة أو مرّتين لم أُحدّث به ، سمعته منه أكثر من سبع مرات ، قال صلى الله عليه وسلم " كان في بني إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل لا ينزع عن ذنب عمله ، فاتبع امرأة فأعطاها ستّين ديناراً على أن تعطيه نفسها ، فلمّا قعد منها مقعد الرجل من المرأة أُرعدت وبكت فقال : ما يبكيك ؟ قالت : من هذا العمل ، ما عملته قطّ ، قال : أكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكن حملتْني عليه الحاجة ، قال : اذهبي فهو لك ، ثم قال : والله لا أعصي الله أبداً ، فمات من ليلته فقيل مات ذو الكفل ، فوجدوا على باب داره مكتوباً : إنّ الله قد غفر لذي الكفل " .

وروى الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحرث أنّ نبيّاً من الأنبياء قال : من يكفل لي أن يصوم النّهار ويقوم الليل ولا يغضب ؟ فقام شاب فقال : أنا ، فقال : اجلس ، ثم عاد فقال : من يكفل لي أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب ؟ فقام ذلك الشاب فقال : انا ، فقال : اجلس ، ثم عاد فقام الشاب فقال : أنا فقال : تقوم الليل وتصوم النهار ولا تغضب ؟ قال : نعم .

فمات ذلك النبي فجلس ذلك الشاب مكانه يقضي بين الناس فكان لا يغضب ، فجاءه الشيطان في صورة إنسان ليغضبه وهو صائم يريد أن يقيل ، فضرب الباب ضرباً شديداً فقال : من هذا ؟ فقال : رجل له حاجة ، فأرسل معه رجلاً فرجع فقال : لا أرضى بهذا

الرجل ، فأرسل معه آخر ، فقال : لا أرضى بهذا ، فخرج إليه فأخذ بيده فانطلق معه حتى إذا كان في السوق خلاّه وذهب ، فسمّي ذا الكفل .

(184/516)

وقال مجاهد : لما كبر اليسع (عليه السلام) قال : لو أنّي استخلفتُ رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى انظر كيف يعمل ، قال : فجمع الناس فقال : من يتقبّل لي بثلاث استخلفه : يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب ، فقام رجل تزدريه العين فقال : أنا فردّه ذلك اليوم . وقال مثلها اليوم الآخر فسكت الناس ، وقام ذلك الرجل فقال : أنا فاستخلفه قال : فجعل إبليس يقول للشياطين : عليكم بفلان فأعياهم فقال : دعوني وإياه فأتاه في صورة شيخ فقير حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام بالليل والنهار إلاّ تلك النومة فدّق الباب فقال : من هذا ؟ قال : شيخ فقير كبير مظلوم ، فقام ففتح الباب فجعل يقصّ عليه فقال : إنّ بيني وبين قومي خصومة وإنّهم ظلموني وفعلوا ، وفعلوا فجعل يطوّل عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة ، قال : إذا رحت فإنّني آخذ لك بحقّك ، فانطلق وراح ، فكان في مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ ، فلم يره فقام يتبعه ، فلمّا كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه ، فلمّا رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدّق الباب فقال : من

هذا ؟ قال : الشيخ المظلوم ، ففتح له فقال : ألم أقل إذا قعدت فأتني قال : إنّهم أخبّ قوم ، إذا عرفوا أنك قاعد قالوا : نعطيك حقّك ، وإذا قمت جحدوني ، قال : فانطلق فإذا رحت فأتني ، ففاتته القائلة فراح فجعل ينظر ولا يراه وشقّ عليه النعاس ، فقال لبعض أهله : لا تدعنّ أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام فإنّي قد شقّ عليَّ النوم .

(185/516)

فلمّا كان تلك الساعة جاء فلم يأذن له الرجل فلمّا أعياه نظر فرأى كوّة في البيت فتسوّر منها فإذا هو في البيت ، وإذا هو يدّق الباب من داخل فاستيقظ الرجل فقال : يا فلان ألم آمرك ؟ فقال : أمّا من قبلي فلم تُؤتَ والله ، فانظر من أين أُتيت ؟ فقام إلى الباب فهو مغلق كما أغلقه وإذا الرجل معه في البيت فقال له : أتنام والخصوم ببابك ؟ فعرفه فقال : أعدوّ الله ؟ قال : نعم أعييتني في كلّ شيء ففعلت ما ترى لأغضبك فعصمك الله منّي ، فسمّي ذا الكفل لأنه تكفّل بأمر فوفى به .

وقال أبو موسى الأشعري : إنَّ ذا الكفل لم يكن نبيّاً ولكن كان عبداً صالحا تكفّل بعمل رجل صالح عند موته وكان يصلّي لله سبحانه وتعالى كل يوم مائة صلاة ، فأحسن الله عزّ وجلّ عليه الثناء .

وقيل : كان رجلاً تكفّل بشأن رجل وقع في بلاء فأنجاه الله على يديه .

وقيل : ذو الكفل إلياس ، وقيل : هو زكريّا ، والله أعلم .

(186/516)

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصالحين * وَذَا النون ﴾ واذكر صاحب النون وهو يونس بن متّى ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً ﴾ اختلفوا في معنى الآية ووجهها فقال الضحّاك : ذهب مغاضباً لقومه ، وهي رواية العوفي وغيره عن ابن عباس قال : كان يونس وقومه يسكنون فلسطين ، فغزاهم ملك فسبي منهم تسعة أسباط ونصف سبط وبقي سبطان ونصف ، فأوحى الله تعالى إلى شعياً النبي أن سر إلى حزقيا الملك وقل له حتى يوجّه نبياً قويّاً أميناً فإنّي أُلقي في قلوب أُولئك حتى يرسلوا معه بني إسرائيل ، فقال له الملك : فمن ترى ؟ وكان في مملكته خمسة من الأنبياء ، فقال : يونس ، فإنّه قوي أمين ، فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج ، فقال يونس : هل أمرك الله بإخراجي ؟ قال : لا ، قال : فهل سمّاني لك ؟ قال : لا ، قال : فها هنا غيري أنبياء أقوياء أُمناء ، فالحّوا عليه فخرج مغاضباً للنبيّ وللملك ولقومه ، فأتى بحر الروم فإذا سفينة مشحونة فركبها فلمّا تلججت السفينة تكفأت حتى كادوا أن يغرقوا فقال الملاّحون ، ها هنا رجل عاص أو عبد آبق ، ومن رسمنا أن

نقترع في مثل هذا فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر . ولئن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة بما فيها ، فاقترعوا ثلاث مرّات فوقعت القرعة في كلّها على يونس .

فقام يونس فقال : أنا الرجل العاصي والعبد الآبق ، وألقى نفسه في الماء فجاء حوت فابتلعه ، ثمَّ جاء حوت آخر أكبر منه فابتلع هذا الحوت ، وأوحى الله إلى الحوت : لا تؤذ منه شعرة فإنّي جعلت بطنك سجنه ، ولم أجعله طعاماً لك .

وقال الآخرون : بل ذهب عن قومه مغاضباً لرّبه إذ كشف عنهم العذاب بعدما وعدهموه ، وذلك أنّه كره أن يكون بين قوم قد جرّبوا عليه الخلف فيما وعدهم ، واستحيا منهم ، ولم يعلم السبب الذي به دفع عنهم العذاب والهلاك ، فخرج مغاضباً وقال : والله لا أرجع إليهم كذّاباً أبداً ، وإنّي وعدتهم العذاب في يوم فلم يأتِ .

(187/516)

وفي بعض الأخبار : إنّ قومه كان من عادتهم أن يقتلوا من جرّبوا عليه الكذب ، فلمّا لم يأتهم العذاب للميعاد الذي وعدهم خشي أن يقتلوه ، فغضب وقال : كيف أرجع إلى قومي وقد أخلفتهم الوعد ؟ ولم يعلم سبب صرف العذاب عنهم ، وكيفية القصّة ، وذلك أنّه كان خرج من بين أظهرهم ، وقد ذكرتْ القصة بالشرح في سورة يونس .

قال القتيبي : المغاضبة مفاعلة ، وأكثر المفاعلة من اثنين كالمناظرة والمخاصمة والمجادلة وربّما تكون من واحد كقولك : سافرت وعاقبت الرجل وطارقت النعل وشاركت الأمر ونحوها ، وهي ها هنا من هذا الباب ، فمعنى قوله : مغاضباً أي غضبان أنفاً ، والعرب تسمّي الغضب أنفاً ، والأنف غضباً لقرب أحدهما من الآخر ، وكان يونس وعد قومه أن يأتيهم العذاب لأجل ، فلمّا فات الأجل ولم يعذّبوا غضب وأنف أن يعود إليهم فيكذّبوه ، فمضى كالنادّ الآبق إلى السفينة ، وكان من طول ما عاين وقاسى من بلاء قومه يشتهي أن ينزل الله بهم بأسه .

وقال الحسن : إنّما غاضب ربّه من أجل أنّه أمر بالمصير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه ، فسأل ربّه أن يُنظره ليتأهّب للشخوص إليهم ، فقيل له : إنّ الأمر أسرع من ذلك ولم يُنظر حتى سأل أن ينظر إلى أن يأخذ نعلاً يلبسها ، فقيل له نحو القول الأول ، وكان رجلاً في خلقه ضيق ، فقال : أعجلني ربي أن آخذ نعلا ؟ فذهب مغاضباً .

وقال وهب بن منّبه اليماني : إنّ يونس بن متّى كان عبداً صالحاً ، وكان في خلقه ضيق ، فلمّا حملت عليه أثقال النبوّة تفسّخ تحتها تفسّخ الربع تحت الحمل الثقيل ، فقذفها من يده وخرج هارباً منها ، فلذلك أخرجه الله سبحانه من أُولي العزم ، فقال لنبيّه محمد (عليه السلام) : ﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ﴾ [الأحقاف : 35] وقال : ﴿ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحوت ﴾ [القلم : 48] أي لا تلق أمري كما ألقاه .

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أن لن نقضي عليه العقوبة ، قاله مجاهد وقتادة والضحّاك والكلبي ، وهي رواية العوفي عن ابن عباس ، تقول العرب : قدّر الله الشيء بقدره تقديراً وقدره يقدره قدراً ، ومنه قوله ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ [الواقعة : 60] وقوله ﴿ والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 3] في قراءة من خفّفهما ، ودليل هذا التأويل قراءة عمر بن عبد العزيز والزّهري ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ بضم النون وتشديد الدال من التقدير ، وقرأ عبيد بن عمير وقتادة : فظنّ أن لن يُقدّر عليه بالتشديد على المجهول ، وقرأ يعقوب يُقدَر بالتخفيف على المجهول . وقال الشاعر في القدر بمعنى التقدير :

فليست عشيّات الحمى برواجع . . . لنا أبداً ما أورق السلم النضر

ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى . . . تباركت ما تقدر نفع ولك الشكر

وقال عطاء وكثير من العلماء : معناه فظنّ أن لن نضيّق عليه الحبس من قوله سبحانه ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد : 26] أي يضيّق .

وقال سبحانه وتعالى ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزقُهُ ﴾ [الطلاق : 7] ، وقال ابن زيد : هو استفهام معناه : أفظنّ أن لن نقدر عليه ؟ .

وروى عوف عن الحسن أنّه قال : معناه : فظنّ أنّه يعجز ربّه فلا يقدر عليه .

قال : وبلغني أن يونس لمّا أذنب انطلق مغاضباً لربّه واستزلّه الشيطان حتّى ظنّ أن لن يقدر عليه .

قال : وكان له سلف وعبادة فأبى الله أن يدعه للشيطان فقذفه في بطن الحوت ، فمكث في بطن الحوت أربعين من بين يوم وليلة ، وقيل : سبعة أيام ، وقيل : ثلاثة ، وأمسك الله نفسه فلم يقتله هناك ، فتاب إلى ربّه في بطن الحوت وراجع نفسه فقال : ﴿ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ فاستخرجه الله من بطن الحوت برحمته .

(189/516)

قال عوف : وبلغني أنّه قال : وبنيت لك مسجداً في مكان لم يبنه أحد قبلي . والتأويلات المتقدمة أولى بالأنبياء وأبعد من الخطأ .

﴿ فنادى فِي الظلمات ﴾ أي ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ، قاله أكثر المفسّرين ، وقال سالم بن أبي الجعد : ظلمة جوف الحوت ، ثم ظلمة جوف الحوت الآخر الذي ابتلعه في ظلمة البحر .

﴿ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ قال محمد بن قيس : قال يونس :

﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ حين عصيتك ، وما صنعت من شيء فلم أعبد غيرك .

وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لمّا أراد الله سبحانه حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً ، فأخذه ثمّ هوى به إلى مسكنه في البحر ، فلمّا انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسّاً فقال في نفسه : ما هذا ؟ فأوحى الله سبحانه إليه وهو في بطن الحوت : إنّ هذا تسبيح دوابّ البحر ، قال : فسبّح وهو في بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنّا لنسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة قال : ذاك عبدي يونس عصاني ، فحبسته في بطن الحوت ، قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كلّ يوم وليلة عمل صالح ؟ قال : نعم ، فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال الله سبحانه ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 145] " .

(190/516)

وروى أبو هلال محمد بن سليمان عن شهر بن حوشب عن ابن عباس قال : أتى جبرئيل يونس (عليهما السلام) فقال له : انطلق إلى السفينة ، فركبها فاحتبست السفينة فساهموا فسهم ، فجاء الحوت يبصبص بذنبه فنودي الحوت : إنّا لم نجعل يونس لك رزقاً ، إنّا جعلناك

له حرزاً ومسجداً ، فالتقمه الحوت فانطلق به من ذلك المكان حتى مرّ به على الإبلّة ، ثمَّ مرَّ به على دجلة ثم انطلق حتى ألقاه في نينوى ، فكان ابن عباس يقول : إنّما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت ، ودليل هذا القول أنَّ الله تعالى ذكر قصة يونس في سورة والصافّات ثم عقّبها بقوله ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات : 147] .

وقال الآخرون : بل كانت قصّة الحوت بعد دعائه قومه وتبليغهم رسالة ربّه كما قد بيّنا ذكره .

﴿ فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ من كربهم إذا استغاثوا بنا ودعونا .

وروى علي بن زيد عن سعيد بن المسيّب قال : سمعت سعد بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " " اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متّى " قال : فقلت : يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامّة إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله تعالى ﴿ فنادى فِي الظلمات ﴾ إلى قوله ﴿ وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ " وهو شرط الله لمن دعاه بها .

واختلفت القراءة في قوله "ننج" فقرأه العامة بنونين الثانية منهما ساكنة من الإنجاء على معنى نحن ننجي ، فإن قيل : لم كتبت في المصاحف بنون واحدة ؟ قيل : لأنّ النون الثانية لمّا سكنت وكان الساكن غير ظاهر على اللسان حذفت ، كما فعلوا ذلك بإلاّ فحذفوا النون من لجعلها أو كاشفة إذا كانت مدغمةً في اللام ، وقرأ ابن عامر وعاصم برواية ابن بكر ﴿ نُنجِي المؤمنين ﴾ بنون واحدة وتشديد الجيم وتسكين الياء ، واختلف النحاة في هذه القراءة فمنهم من صوّبها وقال : فيه إضمار معناه : نجي المؤمنين كما يقال : ضرب زيداً بمعنى ضرب الضرب زيداً . قال الشاعر :

ولو ولدت قفيرة جرو كلب . . . لسُبَّ بذلك الجرو الكلابا

أراد لسبّه بذلك الجرو ولسبّ الكلابا .

قالوا : وإنّما سكّن الياء في نجّي كما سكّنوها في بقر فقالوا بقره ونحوها وإنّما اتبع أهل هذه القراءة المصحف لأنّها مكتوبة بنون واحدة .

وقال القتيبي : من قرأ بنون واحدة والتشديد فإنّه أراد ننجي من التنجية إلاّ أنّه أدغم وحذف نوناً على طلب الخفّة .

وقال النحويون : وهو رديء لبعد مخرج النون من الجيم ، وممن جوّز هذه القراءة أبو عبيد ، وأما أبو حاتم السجستاني فإنه لحّنها ونسب قارئها إلى الجهل وقال : هذا لحن لايجوز في

اللغة ، ولا يحتج بمثل ذلك البيت على كتاب الله سبحانه وتعالى إلاّ أن يقول : وكذلك نُجي المؤمنين ، ولو قرئ كذلك لكان صواباً ، والله أعلم .

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نادى ﴾ دعا ﴿ رَبَّهُ ﴾ فقال ﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً ﴾ وحيداً لا ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين * فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى ﴾ ولد لي ولا عقب وارزقني وارثاً ، ثمّ ردّ الأمر إلى الله سبحانه فقال ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ بأن جعلناها ولوداً بعد ما كانت عقيماً ، قاله أكثر المفسّرين ، وقال بعضهم : كانت سيئة الخلق فأصلحها له بأن رزقها حسن الخلق .

(192/516)

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعني الأنبياء الذين سمّاهم في هذه السورة .

﴿ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ خوفاً وطمعاً رغباً في رحمة الله ورهباً من عذاب الله ، وقرأ الأعمش ، رُغباً ورُهباً بضم الراء وجزم الغين والهاء وهما لغتان مثل السقم والسُقم والثَكل والثُكل والنَحل والنُحل والعَدم والعُدم .

﴿ وَكَانُواْ لَنَا خاشِعِينَ ﴾ خاضعين متواضعين .

﴿ والتي أَحْصَنَتْ ﴾ حفظت ومنعت ﴿ فَرْجَهَا ﴾ ممّا حرم الله سبحانه وهي مريم

بنت عمران ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ أي أمرنا جبرئيل حتى نفخ في جيب درعها وأحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها ، وأضاف الروح إليه على معنى الملك والتشريف لمريم وعيسى بتخصيصها بالإضافة إليه .

﴿ وَجَعَلْنَاهَا وابنها آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أي دلالة على كمال قدرتنا وحكمتنا ، حمل امرأة بلا مماسّة ذكر ، وكون ولد من غير أب ، وإنّما قال "آية" ولم يقل آيتين لأن معنى الكلام وجعلنا شأنهما وأمرهما آية للعالمين .

﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ ﴾ ملّتكم ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ملّة واحدة وهي الإسلام فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان ، وأصل الأُمّة الجماعة التي هي على مقصد واحد فجعلت بالشريعة أُمة واحدة لاجتماع أهلها بها على مقصد واحد ، ونصب أمّة على القطع ، وقرأ ابن أبي إسحاق أُمّةٌ بالرفع على التكرير .

﴿ وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فاعبدون * وتقطعوا أَمْرَهُمْ ﴾ أي اختلفوا في الدين صاروا فيه فرقاً وأحزاباً ، ثم قال ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ فنجزيهم بأعمالهم .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ لا نبطل عمله ولا نجحده بل يُشكر ويثاب عليه ﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ لعمله حافظون .

﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ ﴾ قرأ أهل الكوفة : وحِرْم بكسر الحاء وجزم الراء من غير ألف ، وقرأ الآخرون : وحرام ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، هما لغتان مثل حِلْ وحلال .

قال ابن عباس : معنى الآية " وحرامٌ على قرية " أي أهل قرية ﴿ أَهْلَكْنَاهَآ ﴾ أي يرجعون بعد الهلاك وعلى هذا التأويل يكون لا صلة مثل قول العجاج :

في سر لا حورى سرى وما شعر . . . أي في سر حور .

وقال الآخرون : الحرام بمعنى الواجب كقول الخنساء :

وإنّ حراما لا أرى الدهر باكياً . . . على شجوه إلاّ بكيت على عمرو

وعلى هذا التأويل يكون لا ثابتاً .

وقال جابر الجعفي : سألت أبا جعفر عن الرجعة فقرأ هذه الآية .

﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ ﴾ قرأه العامة بالتخفيف ، وقرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب بالتشديد على الكسرة .

﴿ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ ومعنى الآية فرّج السد عن يأجوج ومأجوج ، وقد ذكرنا قصتهما بالشرح .

وروى منصور بن المعتمر عن ربعي بن خراش عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أوّل الآيات الدجّال ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من قعر عدن أبين

تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا ، والدخان والدابّة ، ثم يأجوج ومأجوج .

قال حذيفة : قلت : يا رسول الله ما يأجوج ومأجوج ؟

قال : أُمم ، كلّ أُمّة أربعمائة ألف أُمّة ، لا يموت الرجل منهم حتى يرى ألف عين تطرف بين يديه من صلبه ، وهم ولد آدم (عليه السلام) فيسيرون إلى خراب الدنيا ، ويكون مقدمتهم بالشام وساقهم بالعراق ، فيمرّون بأنهار الدنيا فيشربون الفرات ودجلة وبحر الطبرية حتى يأتوا بيت المقدس فيقولوا : قد قتلنا أهل الدنيا ، فقاتلوا من في السماء فيرمون بالنشّاب إلى السّماء ، فيرجع نشابهم مخضّبة بالدم فيقولون : قد قتلنا من في السّماء .

(194/516)

وعيسى والمسلمون بجبل طور سينين فيوحي الله سبحانه إلى عيسى أن احرز عبادي بالطور وما يلي ، ثمّ إنّ عيسى يرفع يديه إلى السّماء ، ويؤمّن المسلمون ، فيبعث الله سبحانه عليهم دابّة يقال لها النغف تدخل في مناخرهم فيصبحون موتى من حاقّ الشام إلى حاق المشرق حتى تنتن الأرض من جيَفهم ويأمر الله سبحانه السماء فتمطر كأفواه القرب فتغسل الأرض من جيفهم ونتنهم ، فعند ذلك طلوع الشمس من مغربها . "

﴿ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ ﴾ أي نشز وتلّ ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ يخرجون مشاة مسرعين كنسلان

الذئب .

واختلف العلماء في هذه الكناية فقال قوم : عنى بهم يأجوج ومأجوج ، واستدلّوا بحديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله سبحانه ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ فيغشون الأرض .

وروى عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكر عن عيسى قال :

" قال عيسى : عهد إليَّ ربي أنّ الدجّال خارج وأنّه مهبطي إليه ، فذكر أنّ معه قصبتين فإذا رآني أهلكه الله ، قال : فيذوب كما يذوب الرصاص حتى أنَّ الشجر والحجر ليقول : يا مسلم هذا كافر فاقتله ، فيهلكهم الله عزّ وجلّ ويرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم ، فيستقبلهم يأجوج ومأجوج من كلّ حدب ينسلون ، لا يأتون على شيء إلاّ أهلكوه ولا يمرّون على ماء إلاّ شربوه " .

وقال آخرون : أراد جميع الخلق ، يعني أنّهم يخرجون من قبورهم ومواضعهم فيحشرون إلى موقف القيامة ، تدلّ عليه قراءة مجاهد : وهم من كلّ جدث بالجيم والثاء يعني القبر اعتباراً بقوله سبحانه ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : 51] .

﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ يعني القيامة ، قال الفرّاء وجماعة من العلماء : الواو في قوله " واقترب " مقحم ومجاز الآية : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحقّ ، نظيرها قوله ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ ﴾ [الصافات : 103-104] أي ناديناه . قال امرؤ القيس :

فلمّا أجزنا ساحة الحيّ وانتحى . . . بباطن خبت ذي قفاف عقنقل

يُريد انتحى ، ودليل هذا التأويل حديث حذيفة قال : لو أنّ رجلاً اقتنى فلْواً بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتّى تقوم الساعة .

وقال الزجّاج : البصريون لا يجيزون طرح الواو ويجعلون جواب حتى إذا فتحت في قوله " يا ويلنا " وتكون مجازاً الآية ﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ ﴿ واقترب الوعد ﴾ ﴿ يا ويلنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ .

﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ ﴾ في قوله ﴿ هِيَ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون هي كناية عن الأبصار ويكون الأبصار الظاهرة بياناً عنها كقول الشاعر :

لعمر أبيها لا تقول ظعينتي . . . ألا فرّعنّي مالك بن أبي كعب

فكنى عن الظعينة في أبيها ثم أظهرها فيكون تأويل الكلام : فإذا الأبصار شاخصة أبصار

الذين كفروا .

والثاني : أن تكون هي عماداً كقوله " فَإِنّها لا تَعْمى الأبصارُ " ، وكقول الشاعر :

فهل هو مرفوع بما ها هنا رأس . . . والثالث : أن يكون تمام الكلام عند قوله ﴿ هِيَ ﴾ على معنى هي بارزة واقفة يعني : من قربها كأنّها آتية حاضرة ، ثم ابتدأ ﴿ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ ﴾ على تقديم الخبر على الابتداء مجازها : أبصار الذين كفروا شاخصة من هول قيام الساعة ، وهم يقولون ﴿ ياويلنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ أي من هذا اليوم ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ بمعصيتنا ربَّنا ووضعنا العبادة في غير موضعها .

(196/516)

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أيها المشركون ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ يعني الاصنام ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ قراءة العامة بالصاد أي وقودها عن ابن عباس .

وقال مجاهد وقتادة وعكرمة : حطبها ، وذُكر أنَّ الحصب في لغة أهل اليمن الحطب .

الضحّاك : يعني يرمون بهم في النار كما يرمى بالحصباء ، وأصل الحصب الرمي يقال : حصبت الرجل إذا رميته ، قال الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ﴾ [القمر : 34] يعني ريحاً ترميهم بالحجارة وقرأ ابن عباس : حَضَب بالضاد ، وهو كل ما

هيّجت وأُوقدت به النار ، ومنه قيل لدقاق النار : حَضبٌ ، وقرأ علي وعائشة : ولاهو بن حميد : حطب بالطاء نظيرها قوله سبحانه " وقودها الناس والحجارة " .

﴿ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ أي فيها داخلون ﴿ لَوْ كَانَ هؤلاء ﴾ الأصنام ﴿ آلِهَةً ﴾ على الحقيقة ﴿ مَّا وَرَدُوهَا ﴾ يعني ما دخل عابدوها النار ، بل منعتها ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ يعني العابد والمعبود .

﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ قال ابن مسعود في هذه الآية : إذا بقي في النار من يخلد فيها جُعلوا في توابيت من نار ، ثم جُعل التوابيت في توابيت أُخرى ، ثم جعلت التوابيت في أُخرى فيها مسامير من نار ، فلا يسمعون شيئاً ولا يرى أحد منهم أن في النار أحداً يُعذّب غيره .

ثم استثنى فقال سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ ﴾ قال قوم من العلماء : إنّها هنا بمعنى إلاّ وليس في القرآن سواه ، والسبق تقدّم الشيء على غيره .

(197/516)

﴿ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ السعادة والعدة الجميلة بالجنّة ﴿ أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ والإبعاد : تطويل المسافة . واختلفوا في هؤلاء من هم ؟ فقال أكثر المفسرين : عني بذلك

كلّ من عُبد من دون الله وهو طائع ولعبادة من يعبده كاره ، وذلك " أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستّون صنماً فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحارث فكلّمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ الآيات الثلاث ، ثمَّ قام فأقبل عبد الله بن الزبعرى بن قيس بن عدي السهمي فرآهم يتهامسون قال : فيم خوضكم ؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله : أما والله لو وجدته لخصمته ، فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن الزبعرى : أنت قلت : إنّكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ؟ قال : نعم ، قال : قد خصمتك وربّ الكعبة ، أليست اليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد المسيح وبنو مليح يعبدون الملائكة ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم ، بل هم يعبدون الشياطين ، هي التي أمرتهم بذلك ، فأنزل الله سبحانه ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ الآية يعني عزيراً وعيسى والملائكة " .

قال الحسن بن الفضل : إنما أراد بقوله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ الأوثان دون غيرها لأنّه لو أراد الملائكة والنّاس لقال : "ومن تعبدون" ، قلت : ولأنّ المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة وهم كانوا يعبدون الأصنام .

وقال بعضهم : هذه الآية عامّة في كلّ من سبقت له من الله السعادة .

قال محمّد بن حاطب : سمعت عليّاً كرّم الله وجهه يخطب ، فقرأ هذه الآية ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ ﴾ فقال : عثمان (رضي الله عنه) منهم .

(198/516)

وقال الجنيد في هذه الآية : سبقت لهم من الله العناية في البداية ، فظهرت الولاية في النهاية .

أخبرني أبو عبد الله محمد بن عبد الله قال : حدّثنا أبو الحسين محمد بن عثمان النصيبي قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين السبيعي بحلب قال : أخبرنا أحمد بن الحسين بن عبد الجبار الصوفي قال : حدّثنا عبيد الله القواريري قال : حدّثنا محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني قال : حدّثنا ليث عن ابن عمّ النعمان بن بشير وكان من سمّار عليّ قال : تلا عليّ ليلةً هذه الآية ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ قال : أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرَّحْمن بن عوف منهم ، ثم أُقيمت الصلاة فقام عليّ يجرّ رداءهُ وهو يقول ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ يعني صوتها إذا نزلوا منازلهم من الجنة ﴿ وَهُمْ فِي مَا اشتهت أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ والشهوة طلب النفس اللذّة ، نظيرها قوله ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس وَتَلَذُّ الأعين ﴾ [الزخرف : 71] .

﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ وقرأ أبو جعفر بضمّ الياء وكسر الزاي ، والباقون : بفتح الياء وضمّ الزاي ، واختلفوا في الفزع الأكبر ، فقال ابن عباس : النفخة الآخرة ، دليله قوله سبحانه ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور فَفَزِعَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل : 87] .

وقال الحسن : حين يؤمر بالعبد إلى النار .

سعيد بن جبير والضحّاك : إذا أُطبقت على أهل النار .

ابن جريج : حين يذبح الموت على صورة كبش أملح على الأعراف والفريقان ينظران فينادى : يا أهل الجنّة خلود فلا موت ، ويا أهل النّار خلود فلا موت .

ذو النون المصري : هو القطيعة والهجران والفِراق .

(199/516)

﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ ﴾ تستقبلهم ﴿ الملائكة ﴾ على أبواب الجنة يهنّونهم ويقولون لهم ﴿ هذا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * يَوْمَ نَطْوِي السمآء ﴾ قرأ أبو جعفر تُطوى السماء بضم التاء والهمزة على المجهول ، وقرأ الباقون بالنون السماء نصب ﴿ كَطَيِّ السجل لِلْكُتُبِ ﴾ قرأ أهل الكوفة على الجمع ، غيرهم : للكتاب على الواحد واختلفوا في السجلّ ، فقال ابن

عمر والسدىّ : السجل : ملك يكتب أعمال العباد فإذا صعد بالاستِغفار قال الله سبحانه : أُكتبها نوراً .

وقال ابن عباس ومجاهد : هو الصحيفة ، واللام في قوله للكتب بمعنى على تأويلها كطىّ الصحيفة على مكتوبها .

وروى أبو الجوزاء وعكرمة عن ابن عباس أنّ السجلّ اسم كاتب لرسول الله ، وهذا قول غير قوي لأنّ كتّاب رسول الله كانوا معروفين وقد ذكرتهم في كتاب "الربيع" ، والسجلّ اسم مشتقّ من المساجلة وهي المكاتبة ، وأصلها من السجل وهو الدلو ، يقال : سجلت الرجل إذا نزعت دلواً ونزع دلواً ثم استعيرت فسميت المكاتبة والمراجعة مساجلة ، قال الشاعر :

من يساجلني يساجل ماجداً . . . يملأ الدلو إلى عقد الكرب

ثم بنى هذا الاسم على فعل مثل طمر وقلز . والطي في هذه الآية يحتمل معنيين : أحدهما : الدرج الذي هو ضدّ النشر قال الله سبحانه

﴿ والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : 67] .

والثاني : الإخفاء والتعمية والمحو والطمس لأنّ الله سبحانه يمحو رسومها ويكدر نجومها ، قال الله سبحانه وتعالى ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ * وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ [التكوير : 1-2] تقول العرب : اطو عن فلان هذا الحديث أي استره وأخفه .

ثمّ ابتدأ واستأنف الكلام فقال عزّ من قائل ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ قال أكثر العلماء : كما بدأناهم في بطون أُمهاتهم حفاة عُزّلا كذلك نعيدهم يوم القيامة ، نظيرها قوله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 94] وقوله ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الكهف : 48] .

ودليل هذا التأويل ما روى ليث " عن مجاهد عن عائشة رضي الله عنه قالت : دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي عجوز من بني عامر فقال : من هذه العجوز يا عائشة ؟ فقلت : إحدى خالاتي ، فقالت : ادع الله أن يدخلني الجنّة فقال : إنّ الجنّة لا يدخلها العجّز ، فأخذ العجوز ما أخذها .

فقال (عليه السلام) : إنّ الله ينشئهنّ خلقاً غير خلقهن ، قال الله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً ﴾ [الواقعة : 35] الآية ثمّ قال : يُحشرون يوم القيامة عراة حفاة غلفاً ، فأوّل مَنْ يكسى إبراهيم صلوات الله عليه " .

فقالت عائشة رضي الله عنها وعن أبيها : واسوأتاه فلا تحتشم الناس بعضهم بعضاً ؟ قال : ﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 37] ، ثم قرأ رسول الله ﴿ كَمَا

بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ كيوم ولدته أُمهُ " .

وقال ابن عباس : يقول : نهلك كلّ شيء كما كان أول مرّة ، وقيل : كما بدأناه من الماء نعيده من التراب .

﴿ وَعْداً عَلَيْنَآ ﴾ نصب على المصدر يعني وعدناه وعداً علينا ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ يعني الإعادة والبعث .

(201/516)

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر ﴾ قرأ الأعمش وحمزة : الزبور بضم الزاي ، وغيرهما يقرؤون بالنصب وهو بمعنى المزبور كالحلوب والركوب ، يقال : زبرت الكتاب وذبرته إذا كتبته ، واختلفوا في معنى الزبور في هذه الآية ، فقال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد : عنى بالزبور الكتب المنزلة وبالذكر أُمّ الكتاب الذي عنده .

وقال ابن عباس والضحّاك : الذكر التوراة والزبور الكتب المنزلة من بعد التوراة .

وقال الشعبي : الزبور كتاب داود والذكر التوراة .

وقال بعضهم : الزبور زبور داود والذكر القرآن ، وبعد بمعنى قبل كقوله ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ [الكهف : 79] أي أمامهم ، وقوله ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [

النازعات : 30] أي قبل ذلك .

﴿ أَنَّ الأرض ﴾ يعني أرض الجنّة ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ يعني أُمة محمد (عليه السلام) قاله مجاهد وأبو العالية ، ودليل هذا التأويل قوله ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض ﴾ [الزمر : 74] .

وقال ابن عباس : أراد أنّ الأرضَ في الدُنيا تصير للمؤمنين ، وهذا حكم من الله سبحانه بإظهار الدّين وإعزازِ المسلمين وقهر الكافرين .

قال وهب : قرأت في عدّة من كتب الله أنّ الله عزّ وجلّ قال : إنّي لأُورث الأرض عبادي الصالحين من أُمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ فِي هذا لَبَلاَغاً ﴾ وصولاً إلى البغية ، من اتّبع القرآن وعمل به وصل إلى ما يرجو من الثواب ، فالقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر .

﴿ لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ أي مؤمنين يعبدون الله سبحانه وتعالى .

وقال ابن عباس : عالمين ، وقال كعب الأحبار : هم أُمّة محمد أهل الصلوات الخمس وشهر رمضان ، سمّاهم الله سبحانه وتعالى عابدين .

(202/516)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ ﴾ يا محمّد ﴿ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ قال ابن زيد : يعني المؤمنين خاصة ، وقال ابن عباس : هو عامّ فمن آمن بالله واليوم الآخر كتب له رحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن عوفي ممّا أصاب الأُمم من المسخ والخسف والقَذف .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ آذَنتُكُمْ على سَوَآءٍ ﴾ يعني أعلمتكم على بيان أنا وإيّاكم حرب لا صلح بيننا ، وإنّي مخالف لدينكم ، وقيل : معناه على سواء من الإنذار لم أُظهر بعضكم على شيء كتمته عن غيره ، وقيل : لتستووا في الإيمان به ، وهذا من فصيحات القرآن .

﴿ وَإِنْ أدري ﴾ وما أعلم ﴿ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ يعني القيامة ، نسخها قوله ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ ﴾ أي لعّل تأخير العذاب عنكم ، كناية عن غير مذكور ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ اختبار ﴿ لَّكُمْ ﴾ ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم ﴿ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ ﴾ إلى أجل يقضي الله فيه ما شاء .

أخبرنا أبو بكر الجوزقي قال : أخبرنا أبو العباس الدعولي قال : أخبرنا أبو بكر بن أبي خيثمة قال : حدّثنا محمد بن أبي غالب قال : أخبرنا هشام قال : أخبرنا مجالد قال : حدّثني السبعي قال : لما سلم الحسن بن عليّ لمعاوية الأمر ، قال له معاوية : قم فاخطب واعتذر إلى الناس ، فقام الحسن فخطب ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنّ أَكْيَسَ الكيس التُقى ،

وإنّ أحْمَق الحُمْق الفجور ، وإنّ هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إمّا حقّ امرئ كان أحقّ به ، وإمّا حقّ كان لي فتركته التماس الصلاح لهذه الأُمّة ، ثم قال : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلى حِينٍ ﴾ .

(203/516)

﴿ قَالَ رَبِّ احكم بالحق ﴾ افعل بيني وبين من كذبني بالحق ، والله لا يحكم إلاّ بالحق ، وفيه وجهان من التأويل :

قال أهل التفسير : الحق ها هنا بمعنى العذاب كأنّه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر وليله ، نظيره قوله ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ [الأعراف : 89] .

وقال قتادة : كان رسول الله (عليه السلام) إذا شهد قتالا قال : ربّ احكم بالحق .

وقال أهل المعاني : معناه : رب احكم بحكمك الحق ، فحذف الحكم وأُقيم الحق مقامهُ ، واختلف القراء في هذه الآية فقرأ حفص ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ بالألف على الخبر ، الباقون : ﴿ قَالَ ﴾ على الأمر ، وقرأ أبو جعفر : ربِّ احكم برفع الباء على النداء والمفرد ، وقرأ الضحاك ويعقوب : ربي احكم باثبات الياء على وجه الخبر بأنَّ الله سبحانه أحكم بالحق من كل حاكم وهذه قراءة غير مرضية لمخالفة المصحف ، والقرّاء الباقون : ﴿ رَبِّ احكم

بالحق ﴿ على الدعاء ﴿ وَرَبُّنَا الرحمن المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 6 صـ 287.315 ﴾

(204/516)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) ﴾

أى : ناداه بأنى مسنى الضر . وقرئ : إنى ، بالكسر على إضمار القول أو لتضمن النداء معناه والضر - بالفتح - : الضرر في كل شيء ، وبالضم : الضرر في النفس من مرض وهزال ، فرق بين البناءين لافتراق المعنيين . ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب . ويحكى أنّ عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت :

يا أمير المؤمنين ، مشت جرذان «1» بيتي على العصىّ ! فقال لها : ألطفت في السؤال ، لا جرم

---

(1) . قوله «جرذان بيتي» في الصحاح «الجرذ» ضرب من الفأر . والجمع جرذان . (ع)

لأردنها تثب وثب الفهود وملأ بيتها حبا . كان أيوب عليه السلام روميا من ولد إسحاق بن يعقوب عليهم السلام ، وقد استنبأه اللّه وبسط عليه الدنيا وكثر أهله وماله : كان له سبعة بنين وسبع بنات ، وله أصناف البهائم ، وخمسمائة فدان « 1 » يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ونخيل ، فابتلاه اللّه بذهاب ولده - انهدم عليهم البيت فهلكوا - وبذهاب ماله ، وبالمرض في بدنه ثماني عشرة سنة . وعن قتادة : ثلاث عشرة سنة . وعن مقاتل : سبعا وسبعة أشهر وسبع ساعات ، وقالت له امرأته يوما :

لو دعوت اللّه ، فقال لها : كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة ، فقال : أنا أستحى من اللّه أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي فلما كشف اللّه عنه أحيا ولده ورزقه مثلهم ونوافل منهم . وروى أن امرأته ولدت بعد ستة وعشرين ابنا . أى : لرحمتنا العابدين وأنا نذكرهم بالإحسان لا ننساهم أو رحمة منا لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين ، ليصبروا كما صبر حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 85 إلى 86]

وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ

الصَّالِحِينَ (86)

قيل في ذى الكفل : هو إلياس . وقيل : زكريا . وقيل : يوشع بن نون ، وكأنه سمى بذلك لأنه ذو الحظ من اللّه والمجدود «2» على الحقيقة . وقيل : كان له ضعف عمل الأنبياء في زمانه وضعف ثوابهم . وقيل : خمسة من الأنبياء ذوو اسمين : إسرائيل ويعقوب . إلياس وذو الكفل . عيسى والمسيح . يونس وذو النون . محمد وأحمد : صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين .

[سورة الأنبياء (21) : آية 87]

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)

النُّونِ الحوت ، فأضيف إليه . برم «3» بقومه لطول ما ذكرهم فلم يذكروا وأقاموا على كفرهم ، فراغمهم وظنّ أنّ ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضبا للّه وأنفة لدينه وبغضا للكفر وأهله ، وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من اللّه في المهاجرة عنهم ، فابتلى ببطن الحوت . ومعنى مغاضبته لقومه : أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها . وقرأ أبو شرف : مغضبا . قرئ : نقدر . ونقدّر ، مخففا ومثقلا . ويقدر ، بالياء بالتخفيف . ويقدر .

---

(1) . قوله «وخمسمائة فدان» في الصحاح «الفدن» القصر . والفدان : آلته الثورين

للحرث. (ع)

(2) . قوله «والمجدود» في الصحاح «الجد» الحظ والبخت. تقول: جددت يا فلان، أي: صرت ذا جد، فأنت جديد حظيظ، ومجدود محظوظ. (ع)

(3) . قوله «برم بقومه» سئمهم وتبرم بهم. أفاده الصحاح. (ع) [. . . . .]

(206/516)

ويقدّر، على البناء للمفعول مخففا ومثقلا. وفسرت بالتضييق عليه، وبتقدير اللّه عليه عقوبة.

وعن ابن عباس: أنه دخل على معاوية فقال: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها، فلم أجد لنفسي خلاصا إلا بك. قال: وما هي يا معاوية، فقرأ هذه الآية وقال: أو يظن نبيّ اللّه أن لا يقدر عليه؟ قال: هذا من القدر لا من القدرة. والمخفف يصح أن يفسر بالقدرة، على معنى: أن لن نعمل فيه قدرتنا، وأن يكون من باب التمثيل، بمعنى: فكانت حاله ممثلة بحال من ظنّ أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه، من غير انتظار لأمر اللّه. ويجوز أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان، ثم يردعه ويرده بالبرهان، كما يفعل المؤمن المحقق بنزغات الشيطان وما يوسوس إليه في كل وقت. ومنه قوله تعالى وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ

الظُّنُونَا والخطاب للمؤمنين فِي الظُّلُماتِ أى في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت ، كقوله ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ وقوله يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ وقيل : ظلمات بطن الحوت والبحر والليل . وقيل : ابتلع حوته حوت أكبر منه ، فحصل في ظلمتى بطني الحوتين وظلمة البحر . أى بأنه لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ أو بمعنى «أى» . عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له «1»» وعن الحسن : ما نجاه واللّه إلا إقراره على نفسه بالظلم .

[سورة الأنبياء (21) : آية 88]

فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88)

نُنْجِي وننجي . ونجى . والنون لا تدغم في الجيم ، ومن تمحل لصحته فجعله فعل وقال نجى النجاء المؤمنين ، فأرسل الياء وأسنده إلى مصدره ونصب المؤمنين بالنجاء - فمتعسف بارد التعسف

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 89 إلى 90]

وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ (90)

---

(1) . أخرجه الترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب في السبعين من رواية إبراهيم بن محمد

بن سعد عن أبيه عن جده سعد بن أبى وقاص رفعه «دعوة ذى النون إذ دعا وهو في بطن الحوت لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فانه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب اللّه له» قال الترمذي ، رواه بعضهم عن إبراهيم عن جده ، لم يقل عن أبيه اه

وله منابع أخرجه الحاكم من رواية كثير بن زيد عن المطلب بن حنطب عن مصعب بن سعد عن أبيه ، بلفظ «ألا أخبركم بشيء إذا نزل بأحدكم كرب أو بلاء فدعا به إلا فرج عنه . قالوا : بلى يا رسول اللّه .

قال دعوة ذى النون لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ وأخرجه الحاكم أيضا من رواية معمر بن سليمان عن معمر عن الزهري عن أبى أمامة بن سهيل بن حنيف عن سعد .

(207/516)

سأل ربه أن يرزقه ولدا يرثه ولا يدعه وحيدا بلا وارث ، ثم ردّ أمره إلى اللّه مستسلما فقال وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ أى إن لم ترزقني من يرثني فلا أبالى ، فإنك خير وارث . إصلاح زوجه : أن جعلها صالحة للولادة بعد عقرها . وقيل : تحسين خلقها وكانت سيئة الخلق .

الضمير للمذكورين من الأنبياء عليهم السلام يريد أنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا

لمبادرتهم أبواب الخير ومسارعتهم في تحصيلها كما يفعل الراغبون في الأمور الجادون .

وقرئ رَغَباً وَرَهَباً بالإسكان ، وهو كقوله تعالى يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ .

خاشِعِينَ قال الحسن : ذللا لأمر اللّه . وعن مجاهد : الخشوع الخوف الدائم في القلب . وقيل : متواضعين .

وسئل الأعمش فقال : أما إنى سألت إبراهيم فقال : ألا تدرى ؟ قلت : أفدنى . قال : بينه وبين اللّه إذا أرخى ستره وأغلق بابه ، فليرا اللّه منه خيرا ، لعلك ترى أنه أن يأكل خشنا ويلبس خشنا ويطأطئ رأسه .

[سورة الأنبياء (21) : آية 91]

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (91)

أَحْصَنَتْ فَرْجَها إحصانا كليا من الحلال والحرام جميعا كما قالت وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . فإن قلت : نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه . قال اللّه تعالى فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي أى أحييته . وإذا ثبت ذلك كان قوله فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا ظاهر الإشكال ، لأنه يدل على إحياء مريم . قلت : معناه نفخنا الروح في عيسى فيها ، أى : أحييناه في جوفها «1» . ونحو ذلك أن يقول الزمار : نفخت في بيت فلان ، أى : نفخت في المزمار في بيته . ويجوز أن يراد : وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام ، لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها . فإن قلت : هلا قيل آيتين كما

قال وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ ؟ قلت : لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة ، وهي ولادتها إياه من غير فحل .

[سورة الأنبياء (21) : آية 92]

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92)

---

(1) . قال محمود : «إن قلت نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه وحينئذ يكون معناه فأحيينا مريم ويشكل إذ ذاك . قلت : معناه فنفخنا الروح في عيسى في مريم أى أحييناه في جوفها انتهى كلامه» قال أحمد : وقد اختار الزمخشري في قوله عز وجل إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ أن تكون الضمائر كلها راجعة إلى موسى . أما الأول فلا إشكال فيه ، وأما التابوت إذا قذف في اليم وموسى فيه ، فقد قذف موسى في اليم . وكذلك الثالث . واختار غيره عود الضميرين الأخيرين إلى التابوت ، لأنه فهم من قوله فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ أن المراد التابوت . وأما موسى فلم يقذف في اليم . والزمخشري نزل قذف التابوت في اليم وموسى فيه منزلة قذفه في اليم . وفي هذه الآية مصداق لما اختاره ، فان اللّه تعالى نزل نفخ الروح في عيسى لكونه في جوف مريم منزلة نفخ الروح في مريم ، فعبر بما يفهم ظاهر هذا .

الأمّة : الملة ، وهذِهِ إشارة إلى ملة الإسلام ، أى : إن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها ، يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة وَأَنَا إلهكم إله واحد فَاعْبُدُونِ ونصب الحسن أمّتكم على البدل من هذه ، ورفع أمّة خبرا . وعنه رفعهما جميعا خبرين لهذه . أو نوى للثاني مبتدأ ، والخطاب للناس كافة .

[سورة الأنبياء (21) : آية 93]

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (93)

والأصل : وتقطعتم ، إلا أن الكلام حرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات ، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين اللّه . والمعنى : جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا ، كما يتوزع الجماعة الشيء ويتقسمونه ، فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب ، تمثيلا لاختلافهم فيه ، وصيرورتهم فرقا وأحزابا شتى . ثم توعدهم بأنّ هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون ، فهو محاسبهم ومجازيهم .

[سورة الأنبياء (21) : آية 94]

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ (94)

الكفران : مثل في حرمان الثواب ، كما أن الشكر مثل في إعطائه إذا قيل للّه : شكور .

وقد نفى نفى الجنس ليكون أبلغ من أن يقول : فلا نكفر سعيه وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ أى نحن كاتبو ذلك السعى ومثبتوه في صحيفة عمله ، وما نحن مثبتوه فهو غير ضائع ومثاب عليه صاحبه .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 95 إلى 96]

وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (95) حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96)

استعير الحرام للممتنع وجوده . ومنه قوله عز وجل إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ أى منعهما منهم ، وأبى أن يكونا لهم . وقرئ : حرم وحرم ، بالفتح والكسر . وحرّم وحرّم . ومعنى أَهْلَكْناها عزمنا على إهلاكها . أو قدرنا إهلاكها . ومعنى الرجوع : الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة . ومجاز الآية : أن قوما عزم اللّه على إهلاكهم غير متصوّر أن يرجعوا وينيبوا ، إلى أن تقوم القيامة فحينئذ يرجعون ويقولون : يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ يعنى : أنهم مطبوع على قلوبهم فلا يزالون على كفرهم ويموتون عليه حتى يروا العذاب . وقرئ : إنهم ، بالكسر . وحق هذا أن يتمّ الكلام قبله ، فلا بدّ من تقدير محذوف ، كأنه قيل : وحرام على قرية أهلكناها ذاك . وهو المذكور في الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعى المشكور غير المكفور ، ثم علل فقيل : إنهم لا يرجعون عن الكفر

، فكيف لا يمتنع ذلك . والقراءة بالفتح يصح حملها على هذا ؟ أى : لأنهم لا يرجعون ولا صلة على

(209/516)

الوجه الأوّل . فإن قلت : بم تعلقت حَتَّى واقعة غاية له ، وأية الثلاث هي ؟ قلت : هي متعلقة بحرام ، وهي غاية له لأنّ امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة ، وهي حَتَّى التي يحكى بعدها الكلام ، والكلام المحكىّ : الجملة من الشرط والجزاء ، أعنى : «إذا» وما في حيزها .

حذف المضاف إلى يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وهو سدّهما ، كما حذف المضاف إلى القرية وهو أهلها .

وقيل : فتحت كما قيل أَهْلَكْناها وقرئ : آجوج . وهما قبيلتان من جنس الإنس ، يقال : الناس عشرة أجزاء ، تسعة منها يأجوج ومأجوج وَهُمْ راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر وقيل : هم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السدّ . الحدب : النشز «1» من الأرض . وقرأ ابن عباس رضى اللّه عنه : من كل جدث ، وهو القبر ، الثاء : حجازية ، والفاء : تميمية . وقرئ يَنْسِلُونَ بضم السين . ونسل وعسل : أسرع .

[سورة الأنبياء (21) : آية 97]

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ (97)

وفَإِذا هي إذا المفاجأة ، وهي تقع في المجازاة سادّة مسدّ الفاء ، كقوله تعالى إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد . ولو قيل : إذا هي شاخصة .

أو فهي شاخصة ، كان سديدا هِيَ ضمير مبهم «2» توضحه الأبصار وتفسره ، كما فسر الذين ظلموا وأسروا يا وَيْلَنا متعلق بمحذوف تقديره : يقولون يا ويلنا . ويقولون : في موضع الحال من الذين كفروا .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 98 إلى 100]

إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (98) لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ (99) لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ (100)

ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يحتمل الأصنام وإبليس وأعوانه ، لأنهم بطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم . ويصدّقه ما روى : أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ، فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا

عليهم

---

(1) . قوله «النشز من الأرض» في الصحاح «النشز» المكان المرتفع . (ع)

(2) . قوله «هي ضمير مبهم . . . الخ» لعله ضمير وَأَسَرُّوا أو لعله واو وَأَسَرُّوا . (ع)

(210/516)

إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ . . . الآية ، فأقبل عبد اللّه بن الزبعرى فرآهم يتهامسون ، فقال : فيم خوضكم ؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقال عبد اللّه : أما واللّه لو وجدته لخصمته ، فدعوه . فقال ابن الزبعرى : أأنت قلت ذلك ؟ قال : نعم . قال : قد خصمتك ورب الكعبة . أليس اليهود عبدوا عزيرا ، والنصارى عبدوا المسيح ، وبنو مليح عبدوا الملائكة ؟

فقال صلى اللّه عليه وسلم : بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك « 1 » . فأنزل اللّه تعالى إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى . . . الآية يعنى عزيرا والمسيح والملائكة عليهم السلام . فإن قلت :

لم قرنوا بآلهتهم ؟ قلت : لأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غمّ وحسرة ، حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم . والنظر إلى وجه العدوّ باب من العذاب ، ولأنهم قدّروا ، أنهم

يستشفعون بهم في الآخرة ويستنفعون بشفاعتهم ، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شيء أبغض إليهم منهم .

فإن قلت : إذا عنيت بما تعبدون الأصنام ، فما معنى لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ ؟ قلت : إذا كانوا هم وأصنامهم في قرن «2» واحد ، جاز أن يقال : لهم زفير ، وإن لم يكن الزافرين إلا هم دون الأصنام للتغليب ولعدم الإلباس . والحصب : المحصوب به ، أى : يحصب بهم في النار . والحصب : الرمي .

وقرئ بسكون الصاد ، وصفا بالمصدر . وقرئ حطب ، وحضب ، بالضاد متحركا وساكنا .

وعن ابن مسعود : يجعلون في توابيت من نار فلا يسمعون . ويجوز أن يصمهم اللّه كما يعميهم .

[سورة الأنبياء (21) : آية 101]

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ (101)

---

(1) . هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوي بغير إسناد . لم أجده هكذا إلا ملفقا فأما صدره ففي الطبراني الصغير في أواخره من حديث ابن عباس قال «دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنما قد شدت أقدامها برصاص – الحديث» وأما قوله «وكانت صناديد قريش فقصة أخرى ذكرها ابن إسحاق في المغازي

والطبري من طريقه قال «جلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوما في المسجد مع رجال من قريش فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى أفحمه – فذكر نحو المذكور هنا إلى آخره وفيه «إن كل من أحب أن يعبد من دون اللّه فهو مع من عبده إنهم إنما يعبدون الشياطين» وروى ابن مردويه والواحدي من طريق أبى رزين عن أبى يحيى عن ابن عباس قال «لما نزلت إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ . . . الآية شق ذلك على قريش وقالوا : يشتم آلهتنا . فجاء ابن الزبعرى . وقال : يا محمد هذا شتم لآلهتنا خاصة ، أم لكل من عبد من دون اللّه ؟

قال : لكل من عبد من دون اللّه . قال . خصمتك ورب الكعبة – فذكر نحوه .

«تنبيهان» أحدهما : اشتهر في ألسنة كثير من علماء العجم وفي كتبهم : أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال في هذه القصة لابن الزبعرى «ما أجهلك بلغة قومك . فانى قلت : وما تعبدون . وهي لما لا يعقل . ولم أقل : ومن تعبدون اه .

وهو شيء لا أصل له . ولا يوجد لا مسندا ولا غير مسند . الثاني قال السهيلي اعتراض ابن الزبعرى غير لازم ، لأن الخطاب مخصوص بقريش وما يعبدون من الأصنام . ولذلك أتى بما الواقعة على ما لا يعقل اه . وحديث ابن عباس الذي تقدم ينقض عليه هذا التأويل . فانه صرح بأن المراد كل ما يعبد من دون اللّه

(2) . قوله «في قرن هو حبل يقرن به البعيران . أفاده الصحاح . (ع)

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 101 إلى 103]

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ (101) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ (102) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103)

الْحُسْنى الخصلة المفضلة في الحسن تأنيث الأحسن : إمّا السعادة ، وإما البشرى بالثواب وإما التوفيق للطاعة . يروى أنّ عليا رضى اللّه عنه قرأ هذه الآية ثم قال : أنا منهم ، وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف ، ثم أقيمت الصلاة فقام يجرّ رداءه وهو يقول لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها «1» والحسيس : الصوت يحس ، والشهوة : طلب النفس اللذة . وقرئ لا يَحْزُنُهُمُ من أحزن . والْفَزَعُ الْأَكْبَرُ قيل : النفخة الأخيرة ، لقوله تعالى يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وعن الحسن : الانصراف إلى النار .

وعن الضحاك : حين يطبق على النار . وقيل : حين يذبح الموت على صورة كبش أملح ، أى تستقبلهم الْمَلائِكَةُ مهنئين على أبواب الجنة . ويقولون : هذا وقت ثوابكم الذي وعدكم

ربكم قد حلّ.

[سورة الأنبياء (21) : آية 104]

يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (104)

العامل في يَوْمَ نَطْوِي لا يحزنهم. أو الفزع. أو تتلقاهم. وقرئ: تطوى السماء، على البناء للمفعول السِّجِلِّ بوزن العتلّ «2» والسجل بلفظ الدلو. وروى فيه الكسر: وهو الصحيفة، أى: كما يطوى الطومار للكتابة، أى: ليكتب فيه، أو: لما يكتب فيه، لأن الكتاب أصله المصدر كالبناء، ثم يوقع على المكتوب، ومن جمع فمعناه: للمكتوبات، أى: لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة. وقيل السِّجِلِّ ملك يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه. وقيل: كاتب كان لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. والكتاب - على هذا - اسم الصحيفة المكتوب فيها أَوَّلَ خَلْقٍ مفعول نعيد الذي يفسره نُعِيدُهُ والكاف مكفوفة بما. والمعنى: نعيد أوّل الخلق كما بدأناه، تشبيها للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء، فإن قلت: وما أوّل الخلق حتى يعيده كما بدأه؟ قلت: أوّله إيجاده عن العدم، فكما أوجده أولا عن عدم، يعيده ثانيا عن عدم «3». فإن قلت: ما بال خَلْقٍ

---

(1). أخرجه ابن أبى حاتم وابن عدى وابن مردويه والثعلبي من رواية ليث بن أبى سليم عن ابن عم النعمان بن بشير. وكان من سمار على قال: تلا على هذه الآية - فذكره

(2) . قوله «بوزن العتل» العتل : الغليظ الجافي . وقال تعالى عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ والعتل أيضا : الرمح الغليظ .

ورجل عتل - بالكسر - : بين العتل ، كذا في الصحاح . (ع)

(3) . قال محمود : «إن قلت ما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه ؟ قلت : أول الخلق إيجاده عن العدم ، فكما أوجده أولا عن عدم يعيده ثانيا عن عدم» قلت : هذا الذي ذكره ها هنا في المعاد قد عاد به إلى الحق ورجع عما قاله في سورة مريم ، حيث فسر الاعادة بجمع المتفرق خاصة ، إلا أنه كدر صفو اعترافه بالحق بتفسيره قوله إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ بالقدرة على الفعل ، ولا يلزم على هذا من القدرة على الفعل حصوله ، تحويما على أن الموعود به ليس إعادة الأجسام عن عدم وإن كانت القدرة صالحة لذلك ، ولكن إعادة الأجزاء على صورها مجتمعة مؤتلفة على ما تقدم له في سورة مريم ، إلا أن يكون الباعث له على تفسير الفعل بالقدرة : أن اللّه ذكر ماضيا والاعادة وقوعها مستقبل ، فتعين عنده من ثم حمل الفعل على القدرة فقد قارب ، ومع ذلك فالحق بقاء الفعل على ظاهره لأن الأفعال المستقبلة التي علم اللّه وقوعها ، كالماضية في التحقيق ، فمن ثم عبر عن المستقبل بالماضي في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز .

والغرض الإيذان بتحقيق وقوعه ، واللّه أعلم .

منكرا ؟ قلت : هو كقولك : هو أوّل رجل جاءني ، تريد أوّل الرجال ، ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلا رجلا ، فكذلك معنى أَوَّلَ خَلْقٍ : أوّل الخلق ، بمعنى : أوّل الخلائق ، لأن الخلق مصدر لا يجمع . ووجه آخر ، وهو أن ينتصب الكاف بفعل مضمر يفسره نُعِيدُهُ وما موصولة ، أى : نعيد مثل الذي بدأناه نعيده . وأول خلق : ظرف لبدأناه ، أى : أوّل ما خلق ، أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ ، الثابت في المعنى وَعْداً مصدر مؤكد ، لأنّ قوله نُعِيدُهُ عدة للإعادة إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ أى قادرين على أن نفعل ذلك .

[سورة الأنبياء (21) : آية 105]

وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ (105)

عن الشعبي رحمة اللّه عليه : زبور داود عليه السلام ، والذكر : التوراة . وقيل اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب . والذكر : أم الكتاب ، يعنى اللوح ، أى : يرثها المؤمنون بعد إجلاء الكفار ، كقوله تعالى وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا ، قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : هي أرض الجنة . وقيل : الأرض المقدّسة ، ترثها أمّة محمد صلى اللّه عليه وسلم .

[سورة الأنبياء (21) : آية 106]

إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ (106)

الإشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة. والبلاغ

:

الكفاية وما تبلغ به البغية.

[سورة الأنبياء (21) : آية 107]

وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (107)

أرسل صلى اللّه عليه وسلم رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع. فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها. ومثاله: أن يفجر اللّه عينا غديقة، فيسقى ناس زروعهم ومواشيهم بمائها فيفلحوا، ويبقى ناس مفرطون عن السقي فيضيعوا، فالعين

(213/516)

المفجرة في نفسها، نعمة من اللّه ورحمة للفريقين، ولكن الكسلان محنة على نفسه، حيث حرمها ما ينفعها. وقيل: كونه رحمة للفجار، من حيث أنّ عقوبتهم أخرت بسببه وأمنوا به عذاب الاستئصال.

[سورة الأنبياء (21) : آية 108]

قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108)

إنما لقصر الحكم على شيء ، أو لقصر الشيء على حكم ، كقولك : إنما زيد قائم ، وإنما يقوم زيد . وقد اجتمع المثالان في هذه الآية ، لأن إِنَّما يُوحى إِلَيَّ مع فاعله ، بمنزلة : إنما يقوم زيد . وأَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ بمنزلة : إنما زيد قائم . وفائدة اجتماعهما : الدلالة على أن الوحى إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مقصور على استئثار اللّه بالوحدانية : وفي قوله فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أن الوحى الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد للّه ، وأن تخلعوا الأنداد . وفيه أن صفة الوحدانية يصح أن تكون طريقها السمع . ويجوز أن يكون المعنى :

أن الذي يوحى إلى ، فتكون «ما» موصولة .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 109 إلى 111]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ (109) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ (110) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (111)

آذن : منقول من أذن إذا علم ، ولكنه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار . ومنه قوله تعالى فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وقول ابن حلزة :

آذنتنا ببينها أسماء «1»

والمعنى : أنى بعد توليكم وإعراضكم عن قبول ما عرض عليكم من وجوب توحيد اللّه وتنزيهه عن الأنداد والشركاء ، كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحس منهم بغدرة ، فنبذ اليهم العهد ، وشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعا بذلك عَلى سَوَاءٍ أى مستوين في الإعلام به ، لم يطوه عن

---

(1) آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

للحارث بن حلزة مطلع معلقته . وأذن الشيء : علمه بحاسة الأذن ، وتوسع فيه حتى صار بمعنى مطلق العلم . وآذنه - بالمد - : أعلمه . والبين : مصدر بمعنى البعد والفراق . وتقدم أن «أسماء» من الوسامة أى الحسن . والثاوي : المقيم .

والملل : السآمة . والثواء : الاقامة . يقول : أعلمتنا لفراقها . ورب سقيم يسأم الناس من إقامته ، وهي ليست كذلك . وحذف هذا للعلم به من المقام .

أحد منهم وكاشف كلهم ، وقشر العصا عن لحائها «1» . وما تُوعَدُونَ من غلبة المسلمين عليكم كائن لا محالة ، ولا بد من أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار ، وإن كنت لا أدرى متى يكون ذلك لأن اللّه لم يعلمني علمه ولم يطلعني عليه ، واللّه عالم لا يخفى عليه ما تجاهرون به

من كلام الطعانين في الإسلام ، وما تَكْتُمُونَ في صدوركم من الإحن والأحقاد للمسلمين ، وهو يجازيكم عليه .

وما أدرى لعلّ تأخير هذا الموعد امتحان لكم لينظر كيف تعملون . أو تمتيع لكم إِلى حِينٍ ليكون ذلك حجة عليكم ، وليقع الموعد في وقت هو فيه حكمة .

[سورة الأنبياء (21) : آية 112]

قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (112)

قرئ قل وقالَ ، على حكاية قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . ورَبِّ احْكُمْ على الاكتفاء بالكسرة . ورب احكم ، على الضم . وربى أحكم ، على أفعل التفضيل . وربى أحكم :

من الإحكام ، أمر باستعجال العذاب لقومه فعذبوا ببدر . ومعنى بِالْحَقِّ لا تحابهم وشدد عليهم كما هو حقهم ، كما قال «اشدد وطأتك على مضر» «2» قرئ تَصِفُونَ بالتاء والياء .

كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه ، وكانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة ، فكذب اللّه ظنونهم وخيب آمالهم ، ونصر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، وخذلهم .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم «من قرأ اقترب للناس حسابهم حاسبه اللّه

حسابا يسيرا ، وصافحه وسلم عليه كل نبيّ ذكر اسمه في القرآن» «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 130. 140 ﴾

---

(1) . قوله «لحائها» في الصحاح : اللحاء - ممدود - فشر الشجر . (ع)

(2) . متفق عليه من حديث أبى هريرة في قصة القنوت في صلاة الصبح .

(3) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبى بن كعب

(215/516)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه ﴾

يعني دعا ربه .

ذكر قصة أيوب عليه السلام

قال وهب بن منبه : كان أيوب رجلاً من الروم وهو أيوب بن أموص بن تارخ بن روم ابن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ، وكانت أمه من ولد لوط بن هاران ، وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه وبسط له الدنيا ، وكانت له البثنية من أرض البلقاء من أعمال خوازم مع أرض الشام كلها سهلها وجبلها وكان له فيها من أصناف المال كله من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير

مالا يكون لرجل أفضل منه في العدد والكثرة ، كان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ومال ويحمل له آلة كل فدان أتان لكل أتان من الولد اثنان أو ثلاثة أو ربع أو خمس وفوق ذلك ، وكان الله تعالى قد أعطاه أهلاً وولداً من رجال ونساء وكان براً تقياً رحيماً بالمساكين يطعمهم ويكفل الأيتام والأرامل ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل وكان شاكراً لأنعم الله ، مؤدياً لحق الله قد امتنع عن عدو الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من أمر الدنيا ، وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه : رجل من أهل اليمن يقال له النغر وقيل نغير ، ورجلان من أهل بلده يقال لأحدهما تلدد والآخر صافر كان لهؤلاء مال ، وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات ، وكان يقف فيهن حيثما أراد حتى رفع الله عيسى فحجب عن أربع .

فلما بعث محمد (صلى الله عليه وسلم) حجب عن السموات كلها إلا من استرق السمع ، فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب ، وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه ، فأدرك إبليس الحسد والبغي ، فصعد سريعاً حتى وقف من السماء حيث كان يقف وقال : إلهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ، ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ولخرج عن طاعتك ، قال الله تعالى : انطلق فقد سلطتك على ماله .

فانقض عدو الله إبليس حتى وقع على الأرض فجمع عفاريت الجن ومردة الشياطين وقال لهم : ماذا عندكم من القوة فقد سلطت على مال أيوب هي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال .

فقال عفريت من الشياطين : أعطيت من القوة ما إذا شئت تحولت إعصاراً من نار فأحرق كل شيء آتي عليه قال إبليس : اذهب فأن الإبل ورعاتها ، فأتى الإبل حين وضعت رؤوساها ورعت فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض وإعصار من نار فأحرق الإبل ورعاتها حتى أتى على آخرها ، ثم جاء عدو الله إبليس في صورة قيم ممن كانوا عليها على قعود إلى أيوب فوجده قائماً يصلي فقال يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت إبلك وأحرقتها ومن فيها غيري ، فقال أيوب بعد أن فرغ من الصلاة : الحمد لله هو أعطانيها وهو أخذها ، وإنها مال الله أعارنيها وهو أولى بها ، إذا شاء نزعها .

قال فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها ، منهم من يقول : ما كان أيوب يعبد شيئاً وما كان إلا في غرور ، ومنهم من يقول : لو كان إله أيوب يقدر أن يمنع شيئاً لمنع وليه ، ومنهم من يقول : بل هو الذي فعل ما فعل ليشمت به عدوه ويفجع صديقه ، فقال أيوب : الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني ، عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود إلى التراب وعرياناً أحشر إلى الله ، ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعارك وتجزع حين قبض عاريته ، الله أولى بك

وبما أعطاك ، ولو علم الله فيك أيها العبد خيراً لنقل روحك مع تلك الأرواح وصرت شهيداً ولكنه علم منك شراً فأخرك .

فرجع إبليس إلى أصحابه خاسئاً ذليلاً فقال : ما عندكم من القوة فاني لم أكلم قبله .

قال عفريت من الجن عندي من القوة ما إذا شئت صحت صيحة لا يسمعها ذو روح إلا خرجت روحه .

(217/516)

قال إبليس : فأت الغنم ورعاتها فانطلق حتى توسطها ثم صاح صيحة فتجثمت أمواتاً من عند آخرها مات رعاتها ، فجاء إبليس متمثلاً بقهرمان الرعاء إلى أيوب فوجده يصلي فقال له مثل القول الأول ، فرد عليه مثل الرد الأول ، فرجع إبليس إلى أصحابه فقال : ماذا عندكم من القوة فإني لم أكلم قلب أيوب ، فقال عفريت : عندي من القوة ما إذا شئت تحولت ريحاً عاصفة تنسف كل شيء تأتي عليه .

قال : فأت الفدادين في الحرث والزرع فانطلق يؤمهم وذلك حين شرع الفدادون في الحرث والزرع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصفة فنسفت كل شيء من ذلك ، حتى كأنه لم يكن ثم جاء إبليس متمثلاً بقهرمانهم إلى أيوب وهو قائم يصلي ، فقال له مثل قوله الأول فرد عليه

أيوب مثل رده الأول ، وجعل إبليس يصف ماله مالاً مالاً حتى مر على آخره كلما انتهى إلى هلاك مال من أمواله حمد الله وأحسن الثناء عليه ، ورضي عنه بالقضاء ، ووطن نفسه بالصبر والبلاء حتى لم يبق له مال .

فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينجح منه بشيء صعد سريعاً حتى وقف في الموقف الذي يقف فيه وقال : إلهي إن أيوب يرى أنك ما متعته بولده فأنت معطيه المال فهل أنت مسلطي على ولده فإنها المصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال قال الله : انطلق فقد سلطتك على ولده .

فانقض عدو الله حتى أتى بني أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلزل بهم القصر حتى تداعى من قواعده ، وجعل جدره يضرب بعضها بعضاً برميهم بالخشب والحجارة ، فلما مثل بهم كل مثلة رفع القصر وقلبه عليهم ، وصاروا منكسين وانطلق إلى أيوب متمثلاً بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه فأخبره وقال : لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف انقلبوا منكوسين على رؤوسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم ، ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك عليهم ، فلم يزل يقول هذا ونحوه حتى رق قلب أيوب وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال : يا ليت أمي لم تلدني .

فاغتنم إبليس ذلك فصعد سريعاً بالذي كان من جزع أيوب مسروراً به ، ثم لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر واستغفر ، فصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته إلى الله وهو أعلم ، فوقف إبليس خاسئاً ذليلاً وقال : إلهي إنما هون على أيوب المال والولد أنه يرى أنك ما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطي على جسده فقال الله : انطلق فقد سلطتك على جسده لكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه وعقله ، وكان الله أعلم به ، ولم يسلطه عليه إلا رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين في كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به في الصبر ورجاء الثواب .

فانقض عدو الله إبليس سريعاً إليه فوجد أيوب ساجداً فعجل قبل أن يرفع رأسه ، فأتاه من قبل وجهه فنفخ في منخريه نفخة اشتعل منها جسده فخرج من قرنه إلى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم ، ووقعت فيه حكة فحك بأظفاره حتى سقطت كلها ، ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة .

فلم يزل يحك حتى قرح لحمه وتقطع وتغير وأنتن فأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة لهم وجعلوا له عريشة ، ورفضه خلق الله كلهم غير امرأته وهي رحمة بنت أفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، فكانت تختلف إليه بما يصلحه وتلزمه ، فلما رأى الثلاثة من أصحابه ما

ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه ، فلما طال به البلاء انطلق إليه أصحابه فبكتوه ولاموه وقالوا : تب إلى الله من الذنب الذي عوقبت به .

(219/516)

قال : وحضر معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقه فقال لهم الفتى : إنك تكلمتم أيها الكهول وأنتم أحق بالكلام مني لأسنانكم ولكن تركتم من القول ما هو أحسن من الذي قلتم ، ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم ، ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم ، وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذي وصفتم ، فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم ، وحرمة من انتهكتم ، ومن الرجل الذي عبتم واتهمتم ألم تعلموا أن أيوب نبي الله وصفوته وخيرته من أهل الأرض إلى يومكم هذا ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على أنه سخط شيئاً من أمره منذ أتاه الله ما أتاه إلى يومكم هذا ولا على أنه نزع منه شيئاً من الكرامة التي أكرمه الله بها ولا أن أيوب قال على الله غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا .

فإن كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم ، ووضعه في أنفسكم فقد علمتم أن الله تعالى يبتلي المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين ، وليس بلاؤه لأولئك دليلاً على سخطه عليهم ، ولا لهوانهم عليه ، ولكنها كرامة وخيرة لهم ولو كان أيوب ليس من الله بهذه إلا أنه أخ

أحببتموه على وجه الصحبة لكان لا يجعل بالحليم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ، ولكنه يرحمه ويبكي ويستغفر له ويحزن لحزنه ويدله على مراشد أمره ، وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله الله أيها الكهول ، وقد كان بي عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ألم تعلمون أن لله عباداً أسكنتهم الخشية من غير عيّ ولا بكم وإنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الألباء العالمون بالله ، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله أنقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم إعظاماً لأمر الله وإجلالاً ، فإذا اشتاقوا من ذلك استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية يعدون أنفسهم من الظالمين والخاطئين وإنهم لأبرار برآء ومع المقصرين المفرطين وإنهم لأكياس أقوياء .

(220/516)

قال أيوب عليه السلام : إن الله يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير ، فإذا نبتت في القلب يظهرها الله على اللسان وليست تكون الحكمة من قبل السن ولا طول التجربة ، وإذا جعل الله العبد حكيماً في الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء ، وهم يرون من الله سبحانه وتعالى عليه نور الكرامة ، ثم أقبل أيوب على الثلاثة وقال : أتيتموني غضاباً

رهبتم قبل أن تسترهبوا ، وبكيتم قبل أن تضربوا كيف بي لو قلت تصدقوا عني بأموالكم لعل الله أن يخلصني ، أو قربوا عني قرباناً لعل الله أن يقبله ويرضى عني وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم ، وظننتم أنكم قد عوفيتم بإحسانكم ، ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوباً سترها الله تعالى بالعافية التي ألبسكم .

وقد كنتم فيما خلا توقرونني وأنا مسموع كلامي معروف حقي منتصف من خصمي ، فأصبحت اليوم وليس لي رأي ولا كلام معكم ، فأنتم كنتم أشد عليَّ من مصيبتي .

ثم أعرض عنهم أيوب ، وأقبل على ربه مستغيثاً به متضرعاً إليه فقال : يا رب لأي شيء خلقتني ؟ ليتني إذ كرهتني لم تخلقني ، يا ليتني عرفت الذنب الذي أذنبت والعمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عني لو كنت أمتني فألحقتني بآبائي ، فالموت كان أجمل بي .

ألم أكن للغريب داراً وللمسكين قراراً ولليتيم وليّاً وللأرملة قَيِّماً إلهي أنا عبد ذليل إن أحسنت فالمنُّ لك ، وإن أسأت فبيدك عقوبتي ، جعلتني للبلاء غرضاً ، وللفتنة نصيباً ، وقد وقع عليَّ من البلاء ما لو سلطته على جبل لضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفي .

وإن قضاءك هو الذي أذلني ، وإن سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي ، ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فيَّ فأدلي بعذري وأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي ، ولكنه ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه .

فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب ، ثم نودي يا أيوب إن الله يقول ها أنا قد دنوت منك ولم أزل منك قريباً قم فأدل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك واشدد أزرك وقم مقام جبار يخاصم جبارا إن استطعت ، فإنه لا ينبغي أن يخاصمني إلا جبار مثلي .

لقد منتك نفسك يا أيوب أمراً ، ما يبلغ لمثله مثلك .

أين أنت مني يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها ؟ هل كنت معي تمد بأطرافها ؟ هل علمت أي مقدار قدرتها ، أم على أي شيء وضعت أكنافها .

أبطاعتك حمل الماء الأرض ، أم بحكمتك كانت الأرض للماء غطاء ؟ أين كنت مني يوم رفعت السماء سقفاً في الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها ؟ هل يبلغ من حكمتك أن تجري نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها ؟ أين كنت مني يوم أنبعت الأنهار وسكبت البحار ؟ أبسلطانك حبست أمواج البحار على حدودها أم بقدرتك فتحت الأرحام حين بلغت ملتها ؟ أين كنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال ؟ هل تدري على أي شيء أرسيتها أم بأي مثقال وزنتها ؟ أم هل

لك من ذراع تطيق حملها ؟ أم هل تدري من أين الماء الذي أنزلت من السماء ؟ أم هل تدري من أي شيء أنشأت السحاب ؟ أم هل تدري أين خزانة الثلج ؟ أم أين جبال البرد ؟ أم أين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل ؟ وأين خزانة الريح ؟ وبأي لغة تتكلم الأشجار ومن جعل العقول في أجواف الرجال ؟ وشق الأسماع والأبصار ؟ ومن ذلت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته وقسم الأرزاق بحكمته ؟ في كلام كثير يدل على آثار قدرته ذكرها لأيوب فقال أيوب : صغر شأني وكل لساني وعقلي ورأيي وضعفت قوتي عن هذا الأمر الذي يعرض عليَّ إلهي .

قد علمت أن كل الذي قد ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك وأعظم من ذلك وأعجب لو شئت عملت ولا يعجزك شيء ولا تخفى عليك خافية إلهي أوثقني البلاء فتكلمت ولم أملك نفسي فكان البلاء الذي أنطقني .

(222/516)

ليت الأرض انشقت بي فذهبت فيها ولم أتكلم بشيء يسخطك .

ربي وليتني مت بغمي في أشد بلائي قبل ذلك .

إنما تكلمت حين تكلمت بعذري ، وسكت حين سكت لترحمني كلمة زلت مني فلن أعود

، وقد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني وألصقت بالتراب خدي ، أعوذ بك اليوم منك وأستجير بك من جهد البلاء ، فأجرني وأستغيث بك من عقابك فأغثني ، وأستعينك عن أمري فأعني ، وأتوكل عليك فاكفني ، وأعتصم بك فاعصمني وأستغفرك فاغفر لي فلن أعود لشيء تكرهه مني .

قال الله تعالى : يا أيوب نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي ، فقد غفرت لك ، ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلفك آية وتكون عبرة لأهل البلاء وعزاً للصابرين ، فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، فمنه تناول وقرب عن أصحابك قرباناً استغفر لهم ، فإنهم قد عصوني فيك .

روي عن أنس يرفعه أن أيوب لبث ببلائه ثماني عشرة سنة ، وقال وهب : ثلاث سنين لم يزد يوماً ، وقال كعب : سبع سنين ، وقال الحسن : مكث أيوب مطروحاً على كناسة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهراً يختلف فيه الدود لا يقربه أحد غير رحمة صبرت معه بصدق ، وكانت تأتيه بالطعام ، وتحمد الله معه إذ حمد ، وأيوب مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله تعالى والصبر على بلائه ، فصرخ إبليس صرخة جمع فيها جنوده من أقطار الأرض ، فلما اجتمعوا إليه قالوا : ما أحزنك ؟ قال : أعياني هذا العبد الذي لم أدع له مالاً ولا ولداً ولم يزدد إلا صبراً ، ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة لا تقربه إلا امرأته ، فاستعنت بكم لتعينوني عليه ، فقالوا له : فأين مكرك الذي أهلكت به من مضى ؟ قال :

بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا عليَّ قالوا : من أين أتيت آدم حين أخرجته من الجنة ؟ قال : من قبل امرأته .

قالوا فشأنك بأيوب من قبل امرأته فإنه لا يستطيع أن يعصيها وليس يقربه أحد غيرها .

(223/516)

قال : أصبتم فانطلق إبليس حتى أتى رحمة امراة أيوب وهي تصدق فتمثل لها في صورة رجل وقال لها : أين بعلك يا أمة الله ؟ قالت هو ذاك يحك قروحه ويتردد الديدان في جسده .

فلما سمعها طمع أن تكون كلمة جزع ، فوسوس إليها وذكرها ما كانت فيه من النعم والمال ، وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه من الضر ، وأن ذلك لا ينقطع عنه أبداً ، فصرخت فعلم أنها قد جزعت فأتاها بسخلة وقال : ليذبح لي هذه أيوب ويبرأ افجاءت تصرخ يا أيوب حتى متى يعذبك ربك أين المال أين الولد أين الصديق أين لونك الحسن أين جسمك الحسن ؟ اذبح هذه السخلة واسترح .

قال أيوب : أتاك عدو الله فنفخ فيك ؟ ويلك أرأيت ما تبكين عليه من المال والولد والصحة من أعطانيه ؟ قالت الله قال كم متعنا به قالت ثمانين سنة .

قال فمنذ كم ابتلانا قالت منذ سبع سنين وأشهر قال ويلك ما أنصفت ربك ألا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة ، والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة أمرتيني أن أذبح لغير الله .

طعامك وشرابك الذي تأتيني به علي حرام أن أذوق منه شيئاً أعزبي عني فلا أراك ، فطردها ، فذهبت .

فلما نظر أيوب وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خر ساجداً لله وقارب ﴿ أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ فقيل له ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك ، فركض برجله فنبعت عين ماء ، فاغتسل منها فلم يبق عليه من درنه ودائه شيء ظاهر إلا سقط ، وعاد شبابه وجماله أحسن ما كان ، ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها ، فلم يبق في جوفه داء إلا خرج ، فقام صحيحاً وكسي حلة فجعل يلتفت فلا يرى شيئاً مما كان عليه وما كان له .

من أهل ومال إلا وقد ضعفه الله له وذكر لنا أن الماء الذي اغتسل منه تطاير على صدره جراد من ذهب فجعل يضمه بيده فأوحى الله إليه يا أيوب ألم أغنك ؟ قال بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها ؟ قال : فخرج حتى جلس على مكان مشرف .

(224/516)

ثم إن امرأته قالت : أرأيت إن كان طردني إلى من أكله ؟ أدعه يموت جوعاً ؟ ويضيع فتأكله السباع ؟ لأرجعن إليه .

فرجعت إليه فلا الكناسة رأت ، ولا تلك الحالة التي كانت تعرف ، وإذا الأمور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك بعيني أيوب ، وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأله عن أيوب ، فدعاها وقال : ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت : أردت ذلك المبتلى الذي كان منبوذاً على الكناسة لا أدري أضاع أم ما فعل به ؟ فقال أيوب : ما كان منك فبكت وقالت بعلي .

فقال هل تعرفينه إذا رأيتيه ؟ قالت وهل يخفى على أحد رآه ثم جعلت تنظر إليه وهي تهابه ثم قالت : أما إنه أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحاً .

قال : فإني أنا أيوب الذي أمرتني أن أذبح لإبليس ، وإني أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله فرد عليَّ ما ترين .

وقال وهب : لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين ، فلما غلب أيوب إبليس ولم يستطع منه شيئاً اعترض امرأته في هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء .

فقال لها : أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى قالت نعم .

قال : هل تعرفيني ؟ قالت لا .

قال : أنا إله الأرض وأن الذي صنعت بصاحبك ما صنعت لأنه عبد إله السماء وتركني فأغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليك وعليه كل ما كان لكما من مال وولد فإنه عندي ثم أراها إياه ببطن الوادي الذي لقيها فيه .

وفي بعض الكتب أن إبليس قال لها اسجدي لي سجدة واحدة حتى أرد عليك المال والولد وأعافي زوجك .

فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها وما رأها .

قال : لقد أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ، ثم أقسم إن عافاه الله ليضربها مائة جلدة وقال عند ذلك : مسني الضر من طمع إبليس في سجود حرمتي له ودعائه إياها وإياي إلى الكفر .

(225/516)

ثم إن الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عليها ، وأراد أن يبر يمين أيوب ، فأمره أن يأخذ ضغثاً يشتمل على مائة عود صغير فيضربها به ضربة واحدة .

وقيل : لم يدع الله بالكشف عنه حتى ظهرت له ثلاثة أشياء : أحدها : ما قيل في حقه : لو كان لك عند الله منزلة ما أصابك هذا ، والثاني : أن امرأته طلبت طعاماً فلم تجد ما تطعمه فباعت ذوائبها فأتته بطعام ، والثالث : قول إبليس : إني أدوايه على أن يقول أنت شفيتني .

وقيل مسني الضر أي من شماتة الأعداء حتى روي أنه قيل له بعد ما عوفي ما كان أشد عليك في بلائك ؟ قال : شماتة الأعداء .

فإن قلت كيف سماه الله صابراً وقد أظهر الشكوى والجزع بقوله مسني الضر وقوله مسني الشيطان بنصب وعذاب ؟ قلت : ليس هذا شكاية وإنما هو دعاء بدليل .

قوله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ﴾ والشكوى إنما تكون إلى الخلق لا إلى الخالق بدليل قول يعقوب إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وقال سفيان بن عيينة : من أظهر الشكوى إلى الناس وهو راض بقضاء الله تعالى لا يكون ذلك جزعاً كما " روي أن جبريل عليه السلام داخل على النبي (صلى الله عليه وسلم) في مرضه فقال كيف تجدك ؟ قال : أجدني مغموماً وأجدني مكروباً .

(226/516)

وقال لعائشة حين قالت : وارأساه بل أنا وارأساه " قوله تعالى ﴿ فاستجبنا له ﴾ أي أجبنا دعاءه ﴿ فكشفنا ما به من ضر ﴾ وذلك أنه قال له ﴿ اركض برجلك ﴾ فركض برجله فنبعت عين ماء فأمره أن يغتسل منها ففعل فذهب كل داء كان بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فأمره أن يضرب برجله الأرض مرة أخرى ففعل ، فنبع عين ماء بارد ، فأمره أن يشرب منها ، فشرب ، فذهب كل داء كان بباطنه فصار كأصح ما كان ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين : رد الله إليه أهله وأولاده بأعيانهم وأحياهم الله وأعطاه مثلهم معهم ، وهو ظاهر القرآن ، وعن ابن عباس رواية أخرى أن الله رد إلى المرأة شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكراً .

وقيل كان له سبع بني وسبع بنات .

وعن أنس يرفعه أن كان له أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين فأفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب ، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاضا .

وروى أن الله تعالى بعث إليه ملكاً وقال له : إن ربك يقرئك السلام بصبرك فاخرج إلى أندرك ، فخرج إليه فأرسل الله عليه جراداً من ذهب فذهبت واحدة فأتبعها وردها إلى أندره فقال له الملك ما يكفيك ما أندرك ؟ فقال هذه بركة من بركات ربي ولا أشبع من بركاته (خ) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " بينما أيوب

يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثي في ثوبه فناداه ربه يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ولكني لا غنى لي عن بركتك " وقيل : أتى الله أيوب مثل أهله الذي هلكوا .

قال عكرمة : قيل لأيوب إن أهلك في الآخرة فإن شئت عجلناهم لك في الدنيا ، وإن شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا فقال : بل يكونون لي في الآخرة وأوتى مثلهم في الدنيا .

(227/516)

فعلى هذا يكون معنى الآية ﴿ وآتيناه أهله ﴾ في الآخرة ومثلهم معهم في الدنيا وأراد بالأهل الأولاد ﴿ رحمة من عندنا ﴾ إي نعمة ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ يعني عظة وعبرة لهم .

قوله : ﴿ وإسماعيل ﴾ هو ابن إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وإدريس ﴾ هو أخنوخ ﴿ وذا الكفل كل من الصابرين ﴾ لما ذكر الله أمر أيوب وصبره على البلاء أتبعه بذكر هؤلاء الأنبياء لأنهم صبروا على المحن والشدائد والعبادة أيضاً .

أما إسماعيل (صلى الله عليه وسلم) فإنه على الانقياد إلى الذبح .

وأما ادريس فقد تقدمت قصته .

وأما ذو الكفل فاختلفوا فيه فقيل نبياً من بني إسرائيل وكان ملكاً أوحى الله إليه إني أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بني إسرائيل فمن تكفل أنه يصلي الليل ولا يفتر ويصوم النهار ولا يفطر ويقضي بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك إليه ففعل ذلك ، فقام شاب فقال : أنا أتكفل لك بهذا ، فتكفل ووفى فشكر الله له ونبأه فسمي ذا الكفل .

(228/516)

وقيل : لما كبر اليسع قال إني أستخلف رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي أنظر كيف يعمل قال : فجمع الناس وقال : من يتقبل من ثلاثاً أستخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ويقضي ولا يغضب فقام رجل تزدريه العين فقال : أنا ، فاستخلفه فأتاه إبليس في صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة ، وكان لا ينام من الليل والنهار إلا تلك النومة : فدق الباب فقال : من هذا ، فقال : شيخ كبير مظلوم ، فقام ففتح الباب فقال إني بيني وبين قومي خصومة وإنهم ظلموني وفعلوا وفعلوا ، وجعل يطول عليه ؛ حتى ذهبت القائلة فقال : إذا رحت فائتني حتى آخذك حقك ، فانطلق وراح فكان في مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يبتغيه فلم يجده ، فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلم يره ، فلما رجع

إلى القائلة وقال وأخذ مضجعه دق الباب فقال : من هذا فقال : الشيخ المظلوم ففتح وقال له : ألم أقل إذا قعدت فائتني ؟ قال : إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك إذا قمت جحدوني قال : فانطلق فإذا جلست فائتني وفاتته القائلة ، فلما جلس جعل ينظر فلا يراه وشق عليه النعاس فلما كان اليوم الثالث قال لبعض أهله لا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام فإنه قد شق علي النعاس فلما كانت تلك الساعة نام فجاء فلم يأذن له الرجل فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها ، فإذا هو في البيت فدق الباب من داخل فاستيقظ فقال يا فلان ألم آمرك قال أما من قبلي فلم تؤت فانظر من أين أتيت فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه ، وإذا الرجل معه في البيت فقال : أتنام والخصوم ببابك ، فنظر إليه فعرفه فقال : أعدو الله ؟ قال نعم أعييتني وفعلت ما فعلت لأغضبك فعصمك الله فسمي ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به ، واختلف في نبوته فقيل كان نبياً ، وهو إلياس وقيل هو زكريا ، وقيل إنه كان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً ﴿ وأدخلناهم في رحمتنا ﴾ يعني ما أنعم به عليهم من النبوة وصبرهم

(229/516)

إليه في الجنة من الثواب ﴿ إنهم من الصالحين ﴾ .

قوله : ﴿ وذا النون ﴾ أي واذكر صاحب الحوت أضيف إلى الحوت لابتلاعه إياه وهو يونس بن متى ﴿ إذ ذهب مغاضباً ﴾ قال ابن عباس في رواية عنه : كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منها تسعة أسباط ونصفاً وبقي منهم سبطان ونصف ، فأوحى الله إلى شعياء النبي أن سر إلى حزقيل الملك وقل له يوجه نبياً قوياً فإني ألقي في قلوب أولئك حتى يرسلوا معه بني إسرائيل فقال له الملك : فمن ترى ، وكان في مملكته خمسة من الأنبياء .

قال : يونس إنه قوي أمين فدعا الملك يونس : وأمره أن يخرج فقال يونس هل الله أمرك بإخراجي ؟ قال لا .

قال فهل سماني الله لك ؟ قال لا .

قال ها هنا غيري أنبياء أقوياء ، فألحوا عليه فخرج مغاضباً للنبي وللملك وقومه وأتى بحر الروم فركب وقيل ذهب عن قومه مغاضباً لربه لما كشف عنه العذاب بعد ما أوعدهم وكره أن يكون بين أظهر قوم جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم ، واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذي رفع العذاب عنهم به فكان غضبه أنفقة من ظهور خلف وعده وأنه يسمى كذاباً لا كراهية لحكم الله .

وفي بعض الأخبار أنه كان من عادة قومه أنهم يقتلون من جربوا عليه الكذب فخشي أن

يقتلوه ما لم يأتهم العذاب للمعياد فذهب مغاضباً .

قال ابن عباس : أتى جبريل يونس فقال انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم فقال : ألتمس دابة

قال : الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق إلى السفينة .

وقال وهب : إن يونس كان عبداً صالحاً كان في خلقه ضيق فلما حمل أثقل النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل ، فقذفها من يده وخرج هارباً منها فلذلك أخرجه الله من أولي العزم من الرسل وقال لنبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ وقال ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ وقوله ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ أي لن نقضي عليه العقوبة .

(230/516)

قاله ابن عباس في رواية عنه وقيل معناه فظن أن لن نضيق عليه الحبس وقيل معناه فظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه ، قيل لما انطلق يونس مغاضباً لربه واستزله الشيطان حتى ظن أن لن يقدر عليه وكان له سلف وعبادة إبى الله أن يدعه للشيطان فقذفه في بطن الحوت فمكث فيه أربعين ما بين يوم وليلة .

وقيل سبعة أيام وقيل ثلاثة .

وقيل : إنه الحوت ذهب به حتى بلغ تخوم الأرض السابعة فتاب إلى ربه وراجع نفسه في بطن الحوت ﴿ فنادى في الظلمات ﴾ أي ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ﴿ أن لا إله إلا إنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ أي حيث عصيتك وما صنعت من شيء فلم أعبد غيرك فأخرجه الله من بطن الحوت برحمته وروى أبو هريرة مرفوعاً قال أوحى الله تعال إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً فأخذه ثم أهوى به إلى مسكنه في البحر فلما انتهى به أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه ما هذا فأوحى الله إليه هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح هو في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة وفي رواية صوتاً معروفاً من مكان مجهول فقال : ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت فقالوا العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه في الساحل فذلك .

قوله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾ أي تلك الظلمات ﴾ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ أي من الكروب إذا دعونا واستغاثوا بنا .

(231/516)

فإن قلت قد تمسك بمواضع من هذه القصة من أجاز وقوع الذنب من الأنبياء منها قوله ﴿ إذ هب مغاضباً ﴾ ومنها ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ ومنها قوله ﴿ إني كنت من الظالمين ﴾ قلت أما الجواب الكلي فقد اختلفوا في هذه الواقعة هل كانت من قبل الرسالة أم لا ؟ فقال ابن عباس : كانت رسالته بعد أن أخرجه الله من بطن الحوت بدليل قوله تعالى في الصافات بعد ذكر خروجه ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ فثبت بهذا أن هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد أجاز بعضهم عليه الصغائر قبل النبوة ومنعها بعد النبوة وهو الصحيح .

وأما الجواب التفصيلي لقوله إذ ذهب مغاضباً فحمله على أنه لقومه أو للملك أولى بحال الأنبياء وأما قوله ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ فقد تقدم معناه أي لن نضيق عليه وذلك أن يونس ظن أنه مخير إن شاء أقام وإن شاء خرج .

وإن الله تعالى لا يضيق عليه في اختياره وقيل هو من القدر لا من القدرة وأما قوله ﴿ إني كنت من الظالمين ﴾ فالظلم وضع الشيء في غير موضعه وهذا اعتراف عند بعضهم بذنبه فإما أن يكون لخروجه عن قومه بغير إذن ربه أو لضعفه عما حمله ، أو لدعائه بالعذاب على قومه وفي هذه الأشياء ترك الأفضل مع قدرته على تحصيله فكان ذلك ظلماً .

وقيل كانت رسالته قبل هذه الواقعة بدليل قوله ﴿ وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون ﴾ فعلى هذا يكون الجواب عن هذه الواقعة ما تقدم من التفصيل والله أعلم .

(232/516)

قوله ﴿ وزكريا إذ نادى ربه ﴾ أي دعا ربه فقال ﴿ رب لا تذرني فرداً ﴾ أي وحيداً لا ولد لي يساعدني وارزقني وارثاً ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ هو ثناء على الله بأنه الباقي بعد فناء الخلق وأنه الوارث لهم وهذا على سبيل التمثيل والمجاز فهو كقوله وأنت خير الرازقين ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى ﴾ أي ولداً ﴿ وأصلحنا له زوجة ﴾ أي جعلناها ولوداً بعد ما كانت عقيماً وقيل كانت سيئة الخلق فأصلحها الله تعالى له بأن رزقها حسن الخلق ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾ يعني الأنبياء المذكورين في هذه السورة .

وقيل زكريا وأهل بيته ، والمسارعة في الخيرات من أكبر ما يمدح به المرء لأنها تدل على حرص عظيم في طاعة الله ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ يعني إنهم ضموا إلى فعل الطاعات أمرين : أحدهما : الفزع إلى الله لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة من عقابه .

والثاني : الخشوع وهو قوله تعالى ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ الخشوع هو الخوف اللازم

للقلب فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفاً من الوقوع في الإثم .

قوله تعالى ﴿ والتي أحصنت فرجها ﴾ أي إحصاناً كلياً من الحلال والحرام جميعاً كما قالت ﴿ لم يمسسني بشر ولم أك بغياً ﴾ وهي مريم بنت عمران ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ أمرنا جبريل حتى نفخ في جيب درعها فخلقنا بذلك النفخ المسيح في بطنها ، وأضاف الروح إليه تشريفاً لعيسى كبيت الله وناقة الله ﴿ وجعلناها وابنها آية ﴾ أي دلالة ﴿ للعالمين ﴾ على كمال قدرتنا وعلى خلق ولد من غير أب ، فان قلت هما آيتان فكيف قال آية ؟ .

قلت معنى الكلام وجعلنا شأنهما وأمرهما آية واحدة أي ولادتها إياها من غير أب آية .

(233/516)

قوله تعالى ﴿ إن هذه أمتكم ﴾ أي ملتكم ودينكم ﴿ أمة واحدة ﴾ أي ديناً واحداً وهو الإسلام فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان والأمة الجماعة التي هي على مقصد واحد ، وجعلت الشريعة أمة لاجتماع أهلها على مقصد واحد ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ اي لا دين سوى ديني ولا رب لكم غيري فاعبدوني أي وحدوني .

﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ أي اختلفوا في الدين فصاروا فرقاً وأحزاباً حتى لعن بعضهم

بعضاً وتبرأ بعضهم من بعض ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ فنجزيهم بأعمالهم ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ﴾ أي لا يجحد ولا يبطل سعيه بل يشكر ويثاب عليه ﴿ وإنا له كاتبون ﴾ أي لعلمه وحافظون له .

وقيل : الشكر من الله المجازاة ، والكفران ترك المجازاة .

قوله ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ قال ابن عباس : ومعناه وحرام على أهل قرية أهلكانهم أن يرجعوا بعد الهلاك ، وقيل : معناه وحرام على أهل قرية حكمنا بهلاكهم أن نقبل أعمالهم لأنهم لا يتوبون .

قوله ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ يريد فتح السد وذلك أن الله يفتحه أخبر عن يأجوج ومأجوج وهما قبيلتان ، يقال إنهما تسعة أعشار بني آدم ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ أي يسرعون النزول من كل الآكام والتلال .

(234/516)

وفي هذه الكناية وجهان : أحدهما أن المراد بهم يأجوج ومأجوج وهو الأصح بدليل ما روي عن النواس بن سمعان قال " ذكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظننا أنه من طائفة النخل فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال

: ما شأنكم ؟ قلنا : يا رسول الله ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل فقال : غير الدجال أخوفني عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم إنه شاب قطط عينه طافئة كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وعاث شمالاً يا عباد الله فاثبتوا قلنا يا رسول الله وما لبثه في الأرض ؟ قال أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا : يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال لا أقدروا له قدره قلنا يا رسول الله وما إسراعه في الأرض ؟ قال كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر لهم السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا وأصبغه ضروعاً وأمده خواصر ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه " قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأديهم شيء من أموالهم " ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين

إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي إلى حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله .

(235/516)

ثم يأتي عيسى عليه السلام إلى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح على وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد أن يقاتلهم فحرز عبادي إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقول لقد كان بهذة مرة ماء ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله فيهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسي كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة .

ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرتك ودري بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون

بقحفها ويبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة " أخرجه مسلم .

شرح غريب ألفاظ الحديث

قوله حتى طنناه في طائفة النخل أي ناحية النخل وجانبه والطائفة القطعة من الشيء ، وقوله فخفض فيه ورفع خفض صوته ورفعه من شدة ما تكلم به في أمره .

وقيل إنه خفض من أمره تهوينا له ورفع من شدة فتنته والتخويف من أمره .

قوله إنه شاب قطط أي جعد الشعر وقوله طافئة أي خارجة عن حدها قوله إنه خارج خلة أي إنه يخرج قصداً وطريقاً بين جهتين والتخلل الدخول في الشيء .

قوله فعاث أي أفسد .

(236/516)

قوله اقدروا له قدرة أي قدروا قدر يوم من أيامكم المعهودة وصلوا فيه بقدر أوقاته ، وقوله فتروح عليهم سارحتهم أي مواشيهم ، وقوله فيصبحون ممحلين أي مقحطين قد أجدبت

أرضهم وغلت أسعارهم .

قوله كيعاسيب النحل جمع يعسوب وهو فحل النحل ورئيسها .

قوله فيقطعه جزلتين رمية الغرض أي قطعتين والغرض الهدف الذي يرمى بالنشاب .

قوله بين مهرودتين رويت بالدال المهملة وبالمعجمة أي شقتين وقيل حلتين وقيل الهرد الصبغ الأصفر بالورس والزعفران .

قوله لا يدان لأحد بقتالهم أي لا قدرة ولا قوة لأحد بقتالهم والنغف دود يكون في أنوف الإبل والغنم فرسى جمع فريس وهو القتيل .

قوله زهمهم أي ريحهم النتنة .

قوله كالزلفة أي كالمرآة وجمعها زلف ويروى بالقاف وأراد به استوائها ونظافتها .

قوله تأكل العصابة أي الجماعة قيل يبلغون أربعين وقحف الرمانة في الحديث قشرها .

والرسل بكسر الراء اللبن واللقحة الناقة ذات اللبن ، والفئام الجماعة من الناس ، والفخذ دون القبيلة ، وقوله يتهارجون أي يختلفون والتهاريج الاختلاف ، وأصله القتل .

الوجه في تفسير قوله تعالى ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾

قيل جميع الخلائق يخرجون من قبورهم إلى موقف الحساب (م) عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : اطلع النبي (صلى الله عليه وسلم) علينا ونحن نتذاكر فقال : " ما تذكرون قالوا ؟ نذكر الساعة قال إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال

والدابة وطلوع الشمس من مغاربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم " قوله ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ أي القيامة قال حذيفة لو أن رجلاً اقتنى فلواً بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة .

(237/516)

الفلو المهر ﴿ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ قيل معنى الآية أن القيامة إذا قامت شخص أبصار الذين كفروا من شدة الأهوال ولا تكاد تطوف هول ذلك اليوم ويقولون ﴿ يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا ﴾ يعني في الدنيا حيث كذبنا به وقلنا إنه غير كائن ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ أي في وضعنا العبادة في غير موضعها .

قوله ﴿ إنكم ﴾ الخطاب للمشركين ﴿ وما تعبدون من دون الله ﴾ يعني الأصنام ﴿ حصب جهنم ﴾ أي حطبها ووقودها وقيل يرمي بهم في النار كما يرمي بالحصباء وأصل الحصب الرمي ﴿ أنتم لها واردون ﴾ أي فيها داخلون ﴿ لو كان هؤلاء ﴾ يعني الأصنام ﴿ آلهة ﴾ أي على الحقيقة ﴿ ما وردوها ﴾ أي ما دخل الأصنام النار وعبدوها ﴿ وكل فيها خالدون ﴾ يعني العابدين والمعبودين ﴿ لهم فيها زفير ﴾ قيل الزفير هو أن يملأ

الرجل صدره غماً ثم يتنفس وقيل هو شدة ما ينالهم من العذاب ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ قال ابن مسعود في هذه الآية : إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخر ثم تلك التوابيت في توابيت أخر عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيئاً ولا يرى أحد منهم أن في النار أحداً يعذب غيره .

(238/516)

قوله تعالى ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ قال العلماء : إن هنا بمعنى إلا أي إلا الذين سبقت لهم منا الحسنى يعني السعادة والعدة الجميلة بالجنة ﴿ أولئك عنها ﴾ أي عن النار ﴿ مبعدون ﴾ قيل : الآية عامة من كل من سبقت لهم من الله السعادة ، وقال أكثر المفسرين عنى بذلك كل من عبد من دون الله وهو الله طائع ولعبادة من يعبده كاره وذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى أفحمه ثم تلا عليه ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جنهم ﴾ الآيات الثلاث ثم قال فأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمي فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال ابن الزبعرى : أما والله لو وجدته لخصمته

فدعوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال له الزبعرى أنت قلت إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ؟ قال نعم قال أليست اليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد المسيح وبني مليح تعبد الملائكة فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : بل هم يعبدون الشياطين فأنزل الله تعالى ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ يعني عزيراً والمسيح والملائكة أولئك عنها مبعدون وأنزل في ابن الزبعرى ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾ وزعم جماعة أن المراد من الآية الأصنام لأن الله تعالى قال إنكم وما تعبدون من دون الله ، ولو أراد به الملائكة والناس لقال إنكم ومن تعبدون لأن من لمن يعقل وما لمن لا يعقل ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ يعني صوتها وحركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم في الجنة ﴿ وهم فيما اشتهت أنفسهم ﴾ أي من النعيم والكرامة ﴿ خالدون ﴾ أي مقيمون .

(239/516)

قوله تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ قال ابن عباس : يعني النفخة الأخيرة ، وقيل هو حين يذبح الموت وينادى يا أهل النار خلود بلا موت وقيل هو حين يطبق على جنهم وذلك بعد أن يخرج الله منها من يريد أن يخرجه ﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون ﴿ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ أي في الدنيا .

قوله ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ قال ابن عباس : السجل الصحيفة والمعنى كطي الصحيفة على مكتوبها والطي هو الدرج الذي هو ضد النشر .

وقيل : السجل اسم ملك يكتب أعمال العباد إذا رفعت إليه والمعنى نطوي السماء كما يطوي السجل والطومار الذي يكتب فيه والتقدير لا يحزنهم الفزع الأكبر في اليوم ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ أي كما بدأناهم في بطون أمهاتهم عراة غرلاً كذلك نعيدهم يوم القيامة (ق) عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بموعظة فقال :

" أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده " قوله غرلاً أي قلفا .

وقوله تعالى ﴿ وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ يعني الإعادة والبعث بعد الموت .

قوله تعالى ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾ قيل : الزبور جميع الكتب المنزلة على الأنبياء والذكر هو أم الكتاب الذي عنده ومن ذلك الكتاب تنسخ جميع الكتب ومعنى من بعد الذكر أي بعد ما كتب في اللوح المحفوظ .

وقال ابن عباس : الزبور التوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد التوراة .

وقيل الزبور : كتاب داود والذكر هو القرآن وبعد هنا بمعنى قبل ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ يعني أرض الجنة يرثها أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) والمعنى أن الله

تعالى كتب في اللوح المحفوظ في كتب الأنبياء : أن الجنة يرثها من كان صالحاً من عباده عاملاً بطاعته .

(240/516)

وقال ابن عباس : أراد أن أراضي الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله تعالى بإظهار الدين وإعزاز المسلمين ، وقيل أراد الأرض المقدسة يرثها الصالحون بعد من كان فيها ﴿ إن في هذا ﴾ أي في القرآن ﴿ لبلاغاً ﴾ أي وصولاً إلى البغية يعني من اتبع القرآن وعمل بما فيه وصل إلى ما يرجو من الثواب ، وقيل البلاغ الكفاية أي فيه كفاية لما فيه من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة فهو زاد العباد إلى الجنة وهو قوله تعالى ﴿ لقوم عابدين ﴾ يعني مؤمنين لا يعبدون أحداً من دون الله تعالى وقيل هم أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) أهل الصلوات الخمس وشهر رمضان والحج .

وقال ابن عباس : عالمين وقيل : هم العالمون العاملون .

قوله ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ قيل : كان الناس أهل كفر وجاهلية وضلال وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم فبعث الله محمداً (صلى الله عليه وسلم) حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب

فدعاهم إلى الحق ، وبين لهم سبيل الصواب وشرع لهم الأحكام وبين الحلال من الحرام قال الله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ قيل يعني المؤمنين خاصة فهو رحمة لهم . وقال ابن عباس : هو عام في حق من آمن ومن لم يؤمن ، فمن آمن فهو رحمة له في الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن فهو رحمة له في الدنيا بتأخير العذاب عنه ورفع المسخ والخسف والاستئصال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إنما أنا رحمة مهداة " .

(241/516)

﴿ قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴾ يعني منقادون لما يوحى إلي من إخلاص الإلهية والتوحيد لله والمراد بهذا الاستفهام الأمر أي أسلموا ﴿ فإن تولوا ﴾ أي أعرضوا ولم يسلموا ﴿ فقل آذنتكم ﴾ أعلمتكم بالحرب وأن لا صلح بيننا ﴿ على سواء ﴾ أي إنذاراً بيناً نستوي في علمه لا أستبد أنا به دونكم لتتأهبوا لما يراد بكم والمعنى آذنتكم على وجه نستوي نحن وأنتم في العلم به وقيل معناه لتستووا في الإيمان به وأعلمتكم بما هو الواجب عليكم من التوحيد وغيره ﴿ وإن أدري ﴾ أي وما أعلم ﴿ أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ يعني يوم القيامة لا يعلمه إلا الله ﴿ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ أي لا يغيب عن علمه شيء منكم في علانيتكم وسركم ﴿ وإن أدري لعله

فتنة لكم ﴾ أي لعل تأخير العذاب عنكم اختبار لكم ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم بكم ﴿ ومتاع إلى حين ﴾ أي تتمتعون إلى انقضاء آجالكم ﴿ قال رب احكم ﴾ أي افصل بيني وبين من كذبني ﴿ بالحق ﴾ أي بالعذاب كأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر .

وقيل : معناه افصل بيني وبينهم بما يظهر الحق من الجميع وهو أن تنصرني عليهم والله يحكم بالحق طلب ولم يطلب ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب ﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ أي من الشرك والكفر والكذب والأباطيل ، كأنه سبحانه وتعالى قال قل داعياً إلى رب احكم بالحق ، وقل متوعداً للكفار وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ 326.307 ﴾

(242/516)

وقال النسفى :

﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ أي واذكر أيوب ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّى ﴾

أي دعا بأني ﴿ مَسَّنِىَ الضر ﴾ الضر بالفتح الضرر في كل شيء وبالضم الضرر في النفس

من مرض أو هزال ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب فكأنه قال : أنت أهل أن ترحم وأيوب أهل أن يرحم فارحمه واكشف عنه الضر الذي مسه .

عن أنس رضي الله عنه : أخبر عن ضعفه حين لم يقدر على النهوض إلى الصلاة ولم يشتك وكيف يشكو من قيل له ﴿ إِنَّا وجدناه صَابِراً نِّعْمَ العبد ﴾ [ص : 44] وقيل : إنما شكا إليه تلذذاً بالنجوى لا منه تضرراً بالشكوى ، والشكاية إليه غاية القرب كما أن الشكاية منه غاية البعد ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ أجبنا دعاءه ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ فكشفنا ضره إنعاماً عليه ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ روي أن أيوب عليه السلام كان رومياً من ولد إسحاق بن إبراهيم عليه السلام وله سبعة بنين وسبع بنات وثلاثة آلاف بعير وسبعة الاف شاة وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ونخيل ، فابتلاه الله تعالى بذهاب ولده وماله وبمرض في بدنه ثماني عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو ثلاث سنين ، وقالت له امرأته يوماً : لو دعوت الله عز وجل .

فقال : كم كانت مدة الرخاء ؟ فقالت : ثمانين سنة .

فقال : أنا أستحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي .

فلما كشف الله عنه أحيا ولده بأعيانهم ورزقه مثلهم معهم ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ هو مفعول له ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ يعني رحمة لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا

كصبره فيثابوا كثوابه .

﴿ وإسماعيل ﴾ بن إبراهيم ﴿ وَإِدْرِيسَ ﴾ بن شيث بن آدم ﴿ وَذَا الكفل ﴾ أي اذكرهم وهو الياس أو زكريا أو يوشع بن نون ، وسمي به لأنه ذو الحظ من الله والكفل الحظ ﴿ كُلٌّ مّنَ الصابرين ﴾ أي هؤلاء المذكورون كلهم موصوفون بالصبر .

(243/516)

﴿ وأدخلناهم فِى رَحْمَتِنَا ﴾ نبوتنا أو النعمة في الآخرة ﴿ إِنَّهُمْ مّنَ الصالحين ﴾ أي ممن لا يشوب صلاحهم كدر الفساد .

﴿ وَذَا النون ﴾ أي اذكر صاحب الحوت والنون الحوت فأضيف إليه ﴿ إِذ ذَّهَبَ مغاضبا ﴾ حال أي مراغماً لقومه .

ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها .

روي أنه برم بقومه لطول ما ذكرهم فلم يتعظوا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضباً لله وبغضاً للكفر وأهله وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم فابتلي ببطن الحوت ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ ﴾ نضيق ﴿ عَلَيْهِ ﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه دخل يوماً على معاوية فقال : لقد ضربتني أمواج

القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك .

قال : وما هي يا معاوية ؟ فقرأ الآية .

فقال : أو يظن نبي الله أن لا يقدر عليه ؟ قال : هذا من القدر لا من القدرة ﴿ فنادى فِى الظلمات ﴾ أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت كقوله ﴿ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظلمات ﴾ [البقرة : 17] أو ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت ﴿ أن ﴾ أي بأنه ﴿ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ ﴾ أو بمعنى أي ﴿ سبحانك إِنّى كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ لنفسي في خروجي من قومي قبل أن تأذن لي في الحديث " ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له " وعن الحسن : ما نجاه والله إلا إقراره على نفسه بالظلم .

﴿ فاستجبنا لَهُ ونجيناه مِنَ الغم ﴾ غم الزلة والوحشة والوحدة ﴿ وكذلك نُنجِى المؤمنين ﴾ إذا دعونا واستغاثوا بنا .

﴿ نجى ﴾ شامي وأبو بكر بإدغام النون في الجيم عند البعض لأن النون لا تدغم في الجيم . وقيل : تقديره نجى النجاء المؤمنين فسكن الياء تخفيفاً وأسند الفعل إلى المصدر ونصب المؤمنين بالنجاء لكن فيه إقامة المصدر مقام الفاعل مع وجود المفعول وهذا لا يجوز ، وفيه تسكين الياء وبابه الضرورات .

وقيل : أصله "ننجى" من التنجية فحذفت النون الثانية لاجتماع النونين كما حذفت إحدى التاءين في ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾ [القدر : 4] .

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِى فَرْداً ﴾ سأل ربه أن يرزقه ولداً يرثه ولا يدعه وحيداً بلا وارث ، ثم رد أمره إلى الله مستسلماً فقال ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ أي فإن لم تزرقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث أي باق ﴿ فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى ﴾ ولداً ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ جعلناها صالحة للولادة بعد العقار أي بعد عقرها أو حسنة وكانت سيئة الخلق ﴿ إنهم ﴾ أي الأنبياء المذكورين ﴿ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِى الخيرات ﴾ أي أنهم إنما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم لمبادرتهم أبواب الخير ومسارعتهم في تحصيلها ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ أي طمعاً وخوفاً كقوله ﴿ يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُو رَّحْمَةِ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : 9] وهما مصدران في موضع الحال أو المفعول له أي للرغبة فينا والرهبة منا ﴿ وَكَانُواْ لَنَا خاشعين ﴾ متواضعين خائفين .

﴿ والتى ﴾ أي واذكر التي ﴿ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ حفظته من الحلال والحرام ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ أجرينا فيها روح المسيح أو أمرنا جبريل فنفخ في جيب درعها فأحدثنا بذلك النفخ عيسى في بطنها ، وإضافة الروح إليه تعالى لتشريف عيسى عليه السلام ﴿ وجعلناها وابنها ءايَةً ﴾ مفعول ثان ﴿ للعالمين ﴾ وإنما لم يقل آيتين كما قال ﴿

وَجَعَلْنَا الليل والنهار ءايَتَيْنِ ﴾ [الإسراء : 12] لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة وهي ولادتها إياه من غير فحل ، أو التقدير وجعلناها آية وابنها كذلك ف ﴿ آية ﴾ مفعول المعطوف عليه ويدل عليه قراءة من قرأ ﴿ آيتين ﴾ .

﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ لأمة الملة وهذه إشارة إلى ملة الإسلام وهي ملة جميع الأنبياء .

(245/516)

و ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ حال أي متوحدة غير متفرقة والعالم ما دل عليه اسم الإشارة أي أن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة ﴿ وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فاعبدون ﴾ أي ربيتكم اختياراً فاعبدوني شكراً وافتخاراً والخطاب للناس كافة .

﴿ وَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أصل الكلام وتقطعتم إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات ، والمعنى وجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً وصاروا فرقاً وأحزاباً .

ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا راجعون ﴾ فنجازيهم على أعمالهم ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات ﴾ شيئاً ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿ فَلاَ كُفْرَانَ

لِسَعْيِهِ ﴾ أي فإن سعيه مشكور مقبول والكفران مثل في حرمان الثواب كما أن الشكر مثل في إعطائه وقد نفى نفي الجنس ليكون أبلغ ﴿ وَإِنَّا لَهُ ﴾ للسعي أي الحفظة بأمرنا ﴿ كاتبون ﴾ في صحيفة عمله فنثيبه به ﴿ وَحَرَامٌ ﴾ ﴿ وحرم ﴾ كوفي غير حفص وخلف وهما لغتان كحل وحلال وزناً وضده معنى والمراد بالحرام الممتنع وجوده ﴿ على قَرْيَةٍ أهلكناها أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ والمعنى ممتنع على مهلك غير ممكن أن لا يرجع إلى الله بالبعث ، أو حرام على قرية أهلكناها أي قدرنا إهلاكهم أو حكمنا بإهلاكهم ذلك وهو المذكور في الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعي المشكور غير المكفور أنهم لا يرجعون من الكفر إلى الإسلام .

﴿ حتى ﴾ هي التي يحكى بعدها الكلام والكلام المحكي الجملة من الشرط والجزاء أعني ﴿ إِذَا ﴾ و"ما" في حيزما ﴿ فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ أي فتح سدهما فحذف المضاف كما حذف المضاف إلى قرية ﴿ فتّحت ﴾ : شامي وهما قبيلتان من جنس الإنس .

يقال : الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج ﴿ وَهُمْ ﴾ راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر .

وقيل : هم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد ﴿ مّن كُلّ حَدَبٍ ﴾ نشز من الأرض أي ارتفاع ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ يسرعون

﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ أي القيامة وجواب ﴿ إذا ﴾ ﴿ فَإِذَا هِىَ ﴾ وهي "إذا" المفاجأة وهي تقع في المجازاة سادة مسد الفاء كقوله ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم : 36] فإذا جاءت الفاء معها تعاونتاً على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ، ولو قيل فهي شاخصة أو إذا هي شاخصة كان سديداً وهي ضمير مبهم يوضحه الأبصار ويفسره ﴿ شاخصة أبصار الذين كَفَرُواْ ﴾ أي مرتفعة الأجفان لا تكاد تطرف من هول ما هم فيه ﴿ ياويلنا ﴾ متعلق بمحذوف تقديره يقولون يا ويلنا و ﴿ يقولون ﴾ حال من ﴿ الذين كفروا ﴾ ﴿ قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مّنْ هذا ﴾ اليوم ﴿ بَلْ كُنَّا ظالمين ﴾ بوضعنا العبادة في غير موضعها .

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ يعني الأصنام وإبليس وأعوانه لأنهم بطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم ﴿ حَصَبُ ﴾ حطب وقرىء ﴿ حطب ﴾ ﴿ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ فيها داخلون ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاء ءالِهَةً ﴾ كما زعمتم ﴿ مَّا وَرَدُوهَا ﴾ ما دخلوا النار ﴿ وَكُلٌّ ﴾ أي العابد والمعبود ﴿ فِيهَا ﴾ في النار ﴿

خالدون لَهُمْ ﴾ للكفار ﴿ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ أنين وبكاء وعويل .

﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ شيئاً ما لأنهم صاروا صماً وفي السماع نوع أنس فلم يعطوه .

(247/516)

﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ الخصلة المفضلة في الحسن تأنيث الأحسن وهي السعادة أو البشرى بالثواب أو التوفيق للطاعة فنزلت جواباً لقول ابن الزبعري عند تلاوته عليه السلام على صناديد قريش ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ إلى قوله ﴿ خالدون ﴾ أليس اليهود عبدوا عزيراً ، والنصارى المسيح ، وبنو مليح الملائكة على أن قوله ﴿ وما تعبدون ﴾ لا يتناولهم لأن "ما" لمن لا يعقل إلا أنهم أهل عناد فزيد في البيان ﴿ أولئك ﴾ يعني عزيراً والمسيح والملائكة ﴿ عَنْهَا ﴾ عن جهنم ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ لأنهم لم يرضوا بعبادتهم .

وقيل : المراد بقوله ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ جميع المؤمنين لما روي أن عليًّا رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال : "أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف" وقال الجنيد رحمه الله : سبقت لهم منا العناية في البداية فظهرت لهم الولاية في النهاية .

﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ صوتها الذي يحس وحركة تلهبها وهذه مبالغة في الإبعاد عنها أي لا يقربونها حتى لا يسمعوا صوتها وصوت من فيها ﴿ وَهُمْ فِى مَا اشتهت أَنفُسُهُمْ ﴾ من النعيم ﴿ خالدون ﴾ مقيمون والشهوة طلب النفس اللذة ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ النفخة الأخيرة ﴿ وتتلقاهم الملئكة ﴾ أي تستقبلهم الملائكة مهنئين على أبواب الجنة يقولون ﴿ هذا يَوْمُكُمُ الذى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أي هذا وقت ثوابكم الذي وعدكم ربكم في الدنيا .

(248/516)

العامل في ﴿ يَوْمَ نَطْوِى السماء ﴾ ﴿ لا يحزنهم ﴾ أو ﴿ تتلقاهم ﴾ ﴿ تطوى السماء ﴾ يزيد ، وطيها تكوير نجومها ومحو رسومها أو هو ضد النشر نجمعها ونطويها ﴿ كَطَىّ السجل ﴾ أي لصحيفة ﴿ لِلْكُتُبِ ﴾ حمزة وعلي وحفص أي للمكتوبات أي لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة وغيرهم للكتاب أي كما يطوى الطومار للكتابة ، أو لما يكتب فيه لأن الكتاب أصله المصدر كالبناء ثم يوقع على المكتوب .

وقيل : السجل : ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه .

وقيل : كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والكتاب على هذا اسم الصحيفة المكتوب فيها والطي مضاف إلى الفاعل وعلى الأول إلى المفعول ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ انتصب الكاف بفعل مضمر يفسره ﴿ نعيده ﴾ و"ما" موصولة أي نعيد مثل الذي بدأناه نعيده ، و ﴿ أول خلق ﴾ ظرف ل ﴿ بدأنا ﴾ أي أول ما خلق ، أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ الثابت في المعنى .

وأول الخلق إيجاده أي فكما أوجده أو لا يعيده ثانياً تشبيهاً للإعادة بالإبداء في تناول القدرة لهما على السواء .

والتنكير في خلق مثله في قولك "هو أول رجل جاءني" تريد أول الرجال ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلاً رجلاً فكذلك معنى ﴿ أول خلق ﴾ أول الخلق بمعنى أول الخلائق لأن الخلق مصدر لا يجمع ﴿ وَعْداً ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله ﴿ تعيده ﴾ عدة للإعادة ﴿ عَلَيْنَا ﴾ أي وعدا كائناً لا محالة ﴿ إِنَّا كُنَّا فاعلين ﴾ ذلك أي محققين هذا الوعد فاستعدوا له وقدموا صالح الأعمال للخلاص من هذه الأهوال .

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور ﴾ كتاب داود عليه السلام ﴿ مِن بَعْدِ الذكر ﴾ التوراة ﴿ أن الأرض ﴾ أي الشام ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ﴾ ساكنة الياء : حمزة غيره بفتح الياء ﴿ الصالحون ﴾ أي أمة محمد عليه السلام ، أو الزبور بمعنى المزبور أي المكتوب يعني ما أنزل على الأنبياء من الكتب .

والذكر أم الكتاب يعني اللوح لأن الكل أخذوا منه .

دليله قراءة حمزة وخلف بضم الزاي على جمع الزبر بمعنى المزبور والأرض أرض الجنة .

﴿ إِنَّ فِى هذا ﴾ أي القرآن أو في المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ ﴿ لبلاغا ﴾ لكفاية وأصله ما تبلغ به البغية ﴿ لِّقَوْمٍ عابدين ﴾ موحدين وهم أمة محمد عليه السلام ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً ﴾ قال عليه السلام " إنما أنا رحمة مهداة " ﴿ للعالمين ﴾ لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه ومن لم يتبع فإنما أتى من نفسه حيث ضيع نصيبه منها .

وقيل : هو رحمة للمؤمنين في الدارين وللكافرين في الدنيا بتأخير العقوبة فيها .

وقيل : هو رحمة للمؤمنين والكافرين في الدنيا بتأخير عذاب الاستئصال والمسخ والخسف .

و ﴿ رحمة ﴾ مفعول له أو حال أي ذا رحمة .

﴿ قُلْ إِنَّمَا ﴾ إنما لقصر الحكم على شيء أو لقصر الشيء على حكم نحو "إنما زيد قائم وإنما يقوم زيد" .

وفاعل ﴿ يوحى إِلَىَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ والتقدير يوحي إليَّ وحدانية إلهي ، ويجوز

أن يكون المعنى أن الذي يوحي إليّ فتكون "ما" موصولة ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ استفهام بمعنى الأمر أي أسلموا ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عن الإسلام ﴿ فَقُلْ ءاذَنتُكُمْ ﴾ أعلمتكم ما أمرت به ﴿ على سَوَاء ﴾ حال أي مستوين في الإعلام به ولم أخصص بعضكم ، وفيه دليل بطلان مذهب الباطنية ﴿ وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ أي لا أدري متى يكون يوم القيامة لأن الله تعالى لم يطلعني عليه ولكني أعلم بأنه كائن لا محالة ، أو لا أدري متى يحل بكم العذاب إن لم تؤمنوا ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ إنه عالم بكل شيء يعلم ما تجاهرونني به من الطعن في الإسلام وما تكتمونه في صدوركم من الأحقاد للمسلمين وهو مجازيكم عليه .

(250/516)

﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾ وما أدري لعل تأخير العذاب عنكم في الدنيا امتحان لكم لينظر كيف تعملون ﴿ ومتاع إلى حِينٍ ﴾ وتمتيع لكم إلى الموت ليكون ذلك حجة عليكم ﴿ قَالَ رَبِّ احكم بالحق ﴾ اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل ، أو بما يحق عليهم من العذاب ولا تحابهم وشدد عليهم كما قال "واشدد وطأتك على مضر" .

﴿ قال رب ﴾ حفص على حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ رب احكم

﴿ يزيد ﴿ ربي أحكم ﴾ زيد عن يعقوب ﴿ وَرَبُّنَا الرحمن ﴾ العاطف على خلقه ﴿ المستعان ﴾ المطلوب منه المعونة ﴿ على مَا تَصِفُونَ ﴾ وعن ابن ذكوان بالياء ، كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه وكانوا يطمعون أن تكون الشوكة لهم والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وخذلهم أي الكفار وهو المستعان على ما يصفون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 86.92 ﴾

(251/516)

وقال البيضاوى :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضر ﴾

بأني مسني الضر ، وقرىء بالكسر على إضمار القول أو تضمين النداء معناه و ﴿ الضر ﴾ بالفتح شائع في كل ضرر ، وبالضم خاص بما في النفس كمرض وهزال . ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ وصف ربه بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى بذلك عن عرض المطلوب لطفاً في السؤال ، وكان رومياً من ولد عيص بن إسحاق استنبأه الله وكثر أهله وماله فابتلاه الله بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وذهاب أمواله ، والمرض في بدنه ثماني

عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو سبعاً وسبعة أشهر وسبع ساعات . روي أن امرأته ماخير بنت ميشا بن يوسف ، أو رحمة بنت إفراثيم بن يوسف قالت له يوماً : لو دعوت الله فقال : كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال : أستحيي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي .

﴿ فاستجبنا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ بالشفاء من مرضه . ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ بأن ولد له ضعف ما كان أو أحيي ولده وولد له منهم نوافل . ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وذكرى للعابدين ﴾ رحمة على أيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب ، أو لرحمتنا للعابدين فإنا نذكرهم بالإحسان ولا ننساهم .

﴿ وإسماعيل وَإِدْرِيسَ وَذَا الكفل ﴾ يعني إلياس ، وقيل يوشع ، وقيل زكريا سمي به لأنه كان ذا حظ من الله تعالى أو تكفل أمته أو له ضعف عمل أنبياء زمانه وثوابهم ، والكفل يجيء بمعنى النصيب والكفالة والضعف . ﴿ كُلٌّ ﴾ كل هؤلاء . ﴿ مِّنَ الصابرين ﴾ على مشاق التكاليف وشدائد النوب .

﴿ وأدخلناهم فِى رَحْمَتِنَا ﴾ يعني النبوة أو نعمة الآخرة . ﴿ إِنَّهُمْ مِّنَ الصالحين ﴾ الكاملين في الصلاح وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإن صلاحهم معصوم عن كدر الفساد .

﴿ وَذَا النون ﴾ وصاحب الحوت يونس بن متى ﴿ إِذ ذَّهَبَ مغاضبا ﴾ لقومه لما برم بطول دعوتهم وشدة شكيمتهم وتمادي إصرارهم مهاجراً عنهم ، قبل أن يؤمر وقبل وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال فظن أنه كذبهم وغضب من ذلك ، وهو من بناء المغالبة للمبالغة أو لأنه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها وقرىء "مغضباً" . ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ لن نضيق عليه أو لن نقضي عليه بالعقوبة من القدر ، ويعضده أنه قرىء مثقلاً أو لن نعمل فيه قدرتنا ؛ وقيل هو تمثيل لحاله بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمرنا ، أو خطرة شيطانية سبقت إلى وهمه فسميت ظناً للمبالغة . وقرىء بالياء وقرأ يعقوب على البناء للمفعول وقرىء به مثقلاً . ﴿ فنادى فِى الظلمات ﴾ في الظلمة الشديدة المتكاثفة أو ظلمات بطن الحوت والبحر والليل . ﴿ أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ ﴾ بأنه لا إله إلا أنت . ﴿ سبحانك ﴾ من أن يعجزك شيء . ﴿ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ لنفسي بالمبادرة إلى المهاجرة . وعن النبي عليه الصلاة والسلام " ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له " .

(253/516)

﴿ فاستجبنا لَهُ ونجيناه مِنَ الغم ﴾ بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات كان في بطنه . وقيل ثلاثة أيام والغم غم الالتقام وقيل غم الخطيئة . ﴿ وكذلك نُنْجِى المؤمنين ﴾ من غموم دعوا الله فيها بالإِخلاص وفي الإمام : "نجي" ولذلك أخفى الجماعة النون الثانية فإنها تخفى مع حروف الغم ، وقرأ ابن عامر وأبو بكر بتشديد الجيم على أن أصله ﴿ نُنَجّى ﴾ فحذفت النون الثانية كما حذفت التاء الثانية في ﴿ تظاهرون ﴾ ، وهي وإن كانت فاء فحذفها أوقع من حذف حرف المضارعة التي لمعنى ولا يقدح فيه اختلاف حركتي النونين فإن الداعي إلى الحذف اجتماع المثلين مع تعذر الإِدغام وامتناع الحذف تجافى لخوف اللبس . وقيل هو ماض مجهول أسند إلى ضمير المصدر وسكن آخره تخفيفاً ورد بأنه لا يسند إلى المصدر والمفعول مذكور والماضي لا يسكن آخره .

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِى فَرْداً ﴾ وحيداً بلا ولد يرثني . ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ فإن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي به .

﴿ فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ أي أصلحناها للولادة بعد عقرها أول ﴿ زَكَرِيَّا ﴾ بتحسين خلقها وكانت حردة . ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعني المتوالدين أو المذكورين من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ﴿ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِى الخيرات ﴾ يبادرون إلى أبواب الخير . ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ ذوي رغب ورهب ، أو راغبين في الثواب

راجين للإجابة ، أو في الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية . ﴿ وَكَانُواْ لَنَا خاشعين ﴾ مخبتين أو دائبين الوجل ، والمعنى أنهم نالوا من الله ما نالوا بهذه الخصال .

(254/516)

﴿ والتى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ من الحلال والحرام يعني مريم . ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا ﴾ أي عيسى عليه الصلاة والسلام فيها أي أحييناه في جوفها ، وقيل فعلنا النفخ فيها . ﴿ مِن رُّوحِنَا ﴾ من الروح الذي هو بأمرنا وحده أو من جهة روحنا يعني جبريل عليه الصلاة والسلام . ﴿ وجعلناها وابنها ﴾ أي قصتهما أو حالهما ولذلك وحد قوله : ﴿ ءَايَةً للعالمين ﴾ فإن من تأمل حالهما تحقق كمال قدرة الصانع تعالى .

﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ ﴾ أي إن ملة التوحيد والإِسلام ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها فكونوا عليها . ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا مشاركة لغيرها في صحة الاتباع . وقرىء ﴿ أُمَتُكُمْ ﴾ بالنصب على البدل و ﴿ أُمَّةٌ ﴾ بالرفع على الخبر وقرئتا بالرفع عن أنهما خبران . ﴿ وَأَنَاْ رَبُّكُمْ ﴾ لا إله لكم غيري . ﴿ فاعبدون ﴾ لا غير .

﴿ وَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ صرفه إلى الغيبة التفاتاً لينعى على الذين تفرقوا في الدين

وجعلوا أمره قطعاً موزعة بقبيح فعلهم إلى غيرهم . ﴿ كُلٌّ ﴾ من الفرق المتحزبة . ﴿ إِلَيْنَا راجعون ﴾ فنجازيهم .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ بالله ورسله . ﴿ فَلاَ كُفْرَانَ ﴾ فلا تضييع . ﴿ لِسَعْيِهِ ﴾ استعير لمنع الثواب كما استعير الشكر لإعطائه ونفي الجنس للمبالغة . ﴿ وَإِنَّا لَهُ ﴾ لسعيه . ﴿ كاتبون ﴾ مثبتون في صحيفة عمله لا يضيع بوجه ما .

(255/516)

﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ ﴾ وممتنع على أهلها غير متصور منهم . وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي "وَحِرْمٌ" بكسر الحاء وإسكان الراء وقرىء "حرم" . ﴿ أهلكناها ﴾ حكمنا بإهلاكها أو وجدناها هالكة . ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ رجوعهم إلى التوبة أو الحياة ولا صلة ، أو عدم رجوعهم للجزاء وهو مبتدأ خبره حرام أو فاعل له ساد مسد خبره أو دليل عليه وتقديره : توبتهم أو حياتهم أو عدم بعثهم ، أو لأنهم ﴿ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ ولا ينيبون ﴿ وَحَرَامٌ ﴾ خبر محذوف أي وحرام عليها ذاك وهو المذكور في الآية المتقدمة ويؤيده القراءة بالكسر . وقيل ﴿ حَرَامٌ ﴾ عزم وموجب عليهم ﴿ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ .

﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ متعلق ب ﴿ حَرَامٌ ﴾ أو بمحذوف دل الكلام

عليه ، أو ب ﴿ لاَيَرْجِعُونَ ﴾ أي يستمر الامتناع أو الهلاك أو عدم الرجوع إلى قيام الساعة وظهور أماراتها : وهو فتح سد يأجوج ومأجوج وهي حتى التي يحكى الكلام بعدها ، والمحكي هي الجملة الشرطية . وقرأ ابن عامر ويعقوب ﴿ فُتِّحَتْ ﴾ بالتشدد . ﴿ وَهُمْ ﴾ يعني يأجوج ومأجوج أو الناس كلهم . ﴿ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ ﴾ نشز من الأرض ، وقرىء جدث وهو القبر . ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ يسرعون من نسلان الذئب وقرىء بضم السين .

﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ وهو القيامة . ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ جواب الشرط و"إذا" للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية كقوله تعالى : ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فإذا جاءت الفاء معها تظاهرتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ، والضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبصار . ﴿ يَا وَيْلَنَا ﴾ مقدر بالقول واقع موقع الحال من الموصول . ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ﴾ لم نعلم أنه حق . ﴿ بَلْ كُنَّا ظالمين ﴾ لأنفسنا بالإخلال بالنظر وعدم الاعتداد بالنذر .

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ يحتمل الأوثان وإبليس وأعوانه لأنهم بطاعتهم لهم في حكم عبدتهم ، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام لما تلا الآية على المشركين قال له ابن الزبعري : قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة ، فقال صلى الله عليه وسلم : " بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك " فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ الآية . وعلى هذا يعم الخطاب ويكون ﴿ مَا ﴾ مؤولاً ب ﴿ مِنْ ﴾ أو بما يعمه ، ويدل عليه ما روي أن ابن الزبعري قال : هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله فقال صلى الله عليه وسلم " بل لكل من عبد من دون الله " ويكون قوله ﴿ إِنَّ الذين ﴾ بياناً للتجوز أو للتخصيص فأخر عن الخطاب . ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ما يرمي به إليها وتهيج به من حصبه يحصبه إذا رماه بالحصباء وقرىء بسكون الصاد وصفاً بالمصدر . ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ استئناف أو بدل من ﴿ حَصَبُ جهنم ﴾ واللام معوضة من على للاختصاص والدلالة على أن ورودهم لأجلها .

﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ لأن المؤاخذ بالعذاب لا يكون إلهاً . ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خالدون ﴾ لا خلاص لهم عنها .

﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ أنين وتنفس شديد وهو من إضافة فعل البعض إلى الكل للتغلب إن

أريد ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ الأصنام. ﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ من الهول وشدة العذاب.

وقيل ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ ما يسرهم.

(257/516)

﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ أي الخصلة الحسنى وهي السعادة أو التوفيق بالطاعة أو البشرى بالجنة. ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ لأنهم يرفعون إلى أعلى عليين.

روي أن علياً كرم الله وجهه خطب وقرأ هذه الآية ثم قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابن الجراح، ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه ويقول:

﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ وهو بدل من ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ أو حال من ضميره سيق للمبالغة في إبعادهم عنها، والحسيس صوت يحس به. ﴿ وَهُمْ فِيمَا اشتهت أَنفُسُهُمْ خالدون ﴾ دائمون في غاية التنعم وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به.

﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ النفخة الأخيرة لقوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور فَفَزِعَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ أو الانصراف إلى النار

أو حين يطبق على النار أو يذبح الموت . ﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ تستقبلهم مهنئين لهم . ﴿ هذا يَوْمُكُم ﴾ يوم ثوابكم وهو مقدر بالقول . ﴿ الذى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا .

(258/516)

﴿ يَوْمَ نَطْوِى السماء ﴾ مقدر باذكر أو ظرف ل ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ ﴾ ، أو ﴿ تتلقاهم ﴾ أو حال مقدرة من العائد المحذوف من ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ ، والمراد بالطي ضد النشر أو المحو من قولك اطو عني هذا الحديث ، وذلك لأنها نشرت مظلة لبني آدم فإذا انتقلوا قوضت عنهم ، وقرىء بالياء والبناء للمفعول . ﴿ كَطَىِّ السجل لِلْكِتَابِ ﴾ طياً كطي الطومار لأجل الكتابة أو لما يكتب أو كتب فيه ، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص على الجمع أي للمعاني الكثيرة المكتوبة فيه . وقيل ﴿ السجل ﴾ ملك يطوي كتب الأعمال إذا رفعت إليه أو كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقرىء ﴿ السجل ﴾ كالدلو و ﴿ السجل ﴾ كالعتل وهما لغتان فيه . ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ أي نعيد ما خلقناه مبتدأ إعادة مثل بدئنا إياه في كونهما إيجاداً عن العدم ، أو جمعاً بين الأجزاء المتبددة والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على الإبداء لشمول الإمكان الذاتي المصحح للمقدورية . وتناول القدرة القديمة لهما على السواء ، و "ما" كافة أو مصدرية وأول مفعول

ل ﴿ بَدَأْنَا ﴾ أو لفعل يفسره ﴿ نُّعِيدُهُ ﴾ أو موصولة والكاف متعلقة بمحذوف يفسره ﴿ نُّعِيدُهُ ﴾ أي نعيد مثل الذي بدأنا وأول خلق ظرف ل ﴿ بَدَأْنَا ﴾ أو حال من ضمير الموصول المحذوف. ﴿ وَعْداً ﴾ مقدر بفعله تأكيداً ل ﴿ نُّعِيدُهُ ﴾ أو منتصب به لأنه عدة بالإعادة. ﴿ عَلَيْنَا ﴾ أي علينا إنجازه. ﴿ إِنَّا كُنَّا فاعلين ﴾ ذلك لا محالة.

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزبور ﴾ في كتاب داود عليه السلام. ﴿ مِن بَعْدِ الذكر ﴾ أي التوراة ، وقيل المراد ب ﴿ الزبور ﴾ جنس الكتب المنزل وب ﴿ الذكر ﴾ اللوح المحفوظ. ﴿ إِنَّ الأرض ﴾ أي أرض الجنة أو الأَرض المقدسة. ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصالحون ﴾ يعني عامة المؤمنين أو الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ، أو أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

(259/516)

﴿ إِنَّ فِى هذا ﴾ أي فيما ذكر من الأخبار والمواعظ والمواعيد ﴿ لبلاغا ﴾ لكفاية أو لسبب بلوغ إلى البغية. ﴿ لِّقَوْمٍ عابدين ﴾ همهم العبادة دون العادة.

﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ لأن ما بعثت به سبب لإسعادهم وموجب لصلاح معاشهم ومعادهم ، وقيل كونه رحمة للكفار أمنهم به من الخسف والمسخ وعذاب

الاستئصال .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله واحد ﴾ أي ما يوحى إلي إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد ، وذلك لأن المقصود الأصلي من بعثته مقصور على التوحيد فالأولى لقصر الحكم على الشيء والثانية على العكس . ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ مخلصون العبادة لله تعالى على مقتضى الوحي المصدق بالحجة ، وقد عرفت أن التوحيد مما يصح إثباته بالسمع .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ عن التوحيد . ﴿ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ ﴾ أي أعلمتكم ما أمرت به أو حربي لكم . ﴿ على سَوَاءٍ ﴾ مستوين في الإعلام به أو مستوين أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم به ، أو في المعاداة أو إيداناً على سواء . وقيل أعلمتكم أني على ﴿ سَوَآء ﴾ أي عدل واستقامة رأي بالبرهان النير . ﴿ وَإِنْ أَدْرِى ﴾ وما أدري . ﴿ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ من غلبة المسلمين أو الحشر لكنه كائن لا محالة .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول ﴾ ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ من الإحن والأحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه .

﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾ وما أدري لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة في افتتانكم أو امتحان لينظر كيف تعملون . ﴿ ومتاع إلى حِينٍ ﴾ وتتمتع إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئته .

﴿ قُل رَّبِّ احكم بالحق ﴾ اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضى لاستعجال العذاب والتشديد عليهم ، وقرأ حفص ﴿ قَالَ ﴾ على حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقرىء ﴿ رَبُّ ﴾ بالضم و"ربي" احكم على بناء التفضيل و﴿ احكم ﴾ من الأحكام . ﴿ وَرَبُّنَا الرحمن ﴾ كثير الرحمة على خلقه . ﴿ المستعان ﴾ المطلوب منه المعونة . ﴿ على مَا تَصِفُونَ ﴾ من الحال بأن الشوكة تكون لهم وأن راية الإِسلام تخفق أياماً ثم تسكن ، وأن الموعد به لو كان حقاً لنزل بهم فأجاب الله تعالى دعوة رسوله صلى الله عليه وسلم فخيب أمانيهم ونصر رسوله صلى الله عليه وسلم عليهم ، وقرىء بالياء . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ اقترب حاسبه الله حساباً يسيراً وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن " والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 112.104 ﴾

(261/516)

وقال ابن جزى :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾

كان أيوب عليه السلام نبياً من الروم ، وقيل من بني إسرائيل ، وكان له أولاد ومال كثير فأذهب الله ماله فصبر ، ثم أهلك الأولاد فصبر ، ثم سلط البلاء على جسمه فصبر إلى أن مر به قومه فشمتوا به ، فحينئذ دعا الله تعالى ، على أن قوله : ﴿ مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ ليس تصريحاً بالدعاء ، ولكنه ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه ، فكان في ذلك من حسن التلطف ما ليس في التصريح بالطلب ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ لما استجاب الله له أنبع له عيناً من ماء فشرب منه واغتسل فبرىء من المرض والبلاء ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ﴾ روى أن الله أحيا أولاده الموتى ورزقهم مثلهم معهم في الدنيا وقيل : في الآخرة ، وقيل : ولدت امرأته مثل عدد الموتى ، ومثلهم معهم ، وأخلف الله عليه أكثر مما ذهب من ماله ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أي رحمة لأيوب ، وذكرى لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر ، ويحتمل أن تكون الرحمة والذكرى معاً للعابدين .

﴿ وَذَا الكفل ﴾ قيل : هو إلياس وقيل : زكريا ، وقيل : نبيّ بعث إلى رجل واحد ، وقيل : رجل صالح غير نبي ، وسمى ذا الكفل ، أي ذا الحظ من الله وقيل : لأنه تكفل لليسع بالقيام بالأمر من بعده .

﴿ وَذَا النون ﴾ هو يونس عليه السلام ، والنون هو الحوت نسب إليه لأنه التقمه ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً ﴾ أي مغاضباً لقومه ، إذ كان يدعهم إلى الله فيكفرون ، حتى أدركه ضجر منهم فخرج عنهم ، ولذلك قال الله : ﴿ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحوت ﴾ [القلم : 48] ، ولا يصح قول من قال مغاضباً لربه ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي ظن أن [لن] نضيق عليه ، فهو من معنى قوله قدر عليه رزقه ، وقيل : هو من القدر والقضاء : أي ظنّ أن لن نضيق عليه بعقوبة ، ولا يصح قول من قال : إنه من القدرة ﴿ فنادى فِي الظلمات ﴾ قيل هذا الكلام محذوف ؛ لبيانه في غير هذه الآية ، وأنه لما خرج ركب السفينة فرمي في البحر فالتقمه الحوت ؛ ﴿ فنادى فِي الظلمات ﴾ ، وهي ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت ، ويحتمل أنه عبر بالظلمة عن بطن الحوت ، لشدّة ظلمته كقوله : ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ [البقرة : 17] ﴿ أَن لاَّ إِلهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ أن مفسرة أو مصدرية على تقدير نادى بأن ، والظلم الذي اعترف به كونه لم يصبر على قومه وخرج عنهم ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم ﴾ يعني من بطن الحوت وإخراجه إلى البرّ ﴿ وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾ يحتمل أن يكون مطلقاً أو لمن دعا بدعاء يونس ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دعوة أخي يونس ذي النون ما دعا بها مكروب إلا استجيب له " .

﴿ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً ﴾ أي بلا ولد ولا وارث ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ إن لم ترزقني وارثاً

فأنت خير الوارثين ، فهو استسلام لله ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ يعني ولدت بعد أن كانت عاقراً ، واسم زوجته أشياع ، قاله السهيلي ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات ﴾ والضمير للأنبياء المذكورين ﴿ رَغَباً وَرَهَباً ﴾ الرغب الرجاء ، والرهب الخوف ، وقيل : الرغب أن ترفع إلى السماء بطون الأيدي ، والرهب أن ترفع ظهورها .

(263/516)

﴿ والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ هي مريم بنت عمران ، ومعنى أحصنت من العفة أي أعفته عن الحرام والحلال ، كقولها : ﴿ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [آل عمران : 47 ، مريم : 20] ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ أي أجرينا فيها روح عيسى لما نفخ جبريل في جيب درعها ، ونسب الله النفخ إلى نفسه ، لأنه كان بأمره والروح هنا هو الذي في الجسد ، وأضاف الله الروح إلى نفسه للتشريف أو للملك ﴿ آيَةً ﴾ أي دلالة ، ولذلك لم يثن .

﴿ إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ ﴾ أي ملتكم ملة واحدة ، وهو خطاب للناس كافة ، أو للمعاصرين لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم : إي إنما بعث الأنبياء المذكورون بما أمرتم به من الدين ، لأن جميع الأنبياء متفقون في أصول العقائد ﴿ وتقطعوا أَمْرَهُمْ ﴾ أي اختلفوا فيه ، وهو استعارة من جعل الشيء قطعاً ، والضمير للمخاطبين ، قيل فالأصل تقطعتم .

﴿ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ أي لإبطال ثواب عمله ﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ أي نكتب عمله في صحيفته .

﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ قرىء حِرْم بكسر الحاء وهو بمعنى حرام ، واختلف في معنى الآية ، فقيل حرام بمعنى ممتنع على قرية أراد الله إهلاكها أن يرجعوا إلى الله بالتوبة ، أو ممتنع على قرية أهلكها الله أن يرجعوا إلى الدنيا ، ولا زائدة في الوجهين ، وقيل : حرام بمعنى حتم واقع لا محالة ، ويتصور فيه الوجهان ، وتكون لا نافية فيهما أي : حتمٌ عدم رجوعهم إلى الله بالتوبة أو : حتم عدم رجوعهم إلى الدنيا وقيل : المعنى ممتنع على قرية أهكلها الله أنهم لا يرجعون إليه في الآخرة ، ولا على هذا نافية أيضاً ، ففيه ردّ على من أنكر البعث .

(264/516)

﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ حتى هنا حرف ابتداء أو غاية متعلقة بيرجعون ، وجواب إذا : فإذا هي شاخصة ، وقيل : الجواب يا ويلينا لأن تقديره يقولون يا ويلنا ، وفتحت يأجوج ومأجوج أي فتح سدها فحذف المضاف ﴿ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ الحدب المرتفع من الأرض ، وينسلون : أي يسرعون ، والضمير ليأجوج ومأجوج : أي

يخرجون من كل طريق لكثرتهم ، وقيل : لجميع الناس ﴿ الوعد الحق ﴾ يعني القيامة ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ ﴾ إذا هنا للمفاجأة ، والضمير عند سيبويه ضمير القصة ، وعند الفراء ، للأبصار ، وشاخصة من الشخوص وهو : إحداد النظر من الخوف ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ هذا خطاب للمشركين ، والحصب : ما توقد به النار : كالحطب . وقرأ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه " حطب جنهم " والمراد بما تعبدون الأصنام وغيرها تحرق في النار توبيخاً لمن عبدها ﴿ وَارِدُونَ ﴾ الورود هنا الدخول .

﴿ زَفِيرٌ ﴾ ذكر في هود ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ .

قيل يجعلون في توابيت من نار فلا يسمعون شيئاً ، وقيل : يصمهم الله كما يعميهم .

(265/516)

﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ سبقت أي : قُضيت في الأزل ، والحسنى السعادة ، ونزلت الآية لما اعترض ابن الزبعرى على قوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] ، فقال : إن عيسى وعزير والملائكة قد عُبدوا ؛ فالمعنى إخراج هؤلاء من ذلك الوعيد ، واللفظ مع ذلك على عمومه في كل من سبقت له

السعادة ﴿ حَسِيسَهَا ﴾ أي صوتها ﴿ الفزع الأكبر ﴾ أهوال القيامة على الجملة ، وقيل ذبح الموت وقيل : النفخة الأولى في الصور لقوله : ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض ﴾ [النمل : 87] ﴿ كَطَيِّ السجل لِلْكُتُبِ ﴾ السجل الصحيفة والكتاب مصدر : أي كما يطوي السجل ليكتب فيه ، أو ليصان الكتاب الذي فيه ، وقيل : السجل رجل كاتب وهذا ضعيف ، وقيل : هو ملك في السماء الثانية : ترفع إليه الأعمال ، وهذا أيضاً ضعيف ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ أي كما قدرنا على البداءة نقدر على الإعادة ، فهو كقوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس : 79] ، وقيل : المعنى نعيدهم على الصورة التي بدأناهم كما جاء في الحديث : " يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً " ثم قرأ : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ ، والكاف متعلقة بقوله بقوله ﴿ نُّعِيدُهُ ﴾ ﴿ فَاعِلِينَ ﴾ تأكيداً لوقوع البعث .

(266/516)

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر ﴾ في الزبور هنا قولان : أحدهما أنه كتاب داود ، والذكر هنا على هذا التوراة التي أنزل الله على موسى ، وما في الزبور من ذكر الله تعالى ، والقول الثاني أن الزبور جنس الكتب التي أنزلها الله على جميع الأنبياء ، والذكر على هذا

هو اللوح المحفوظ : أي كتب الله هذا في الكتاب الذي أفرد له ، بعد ما كتبه في اللوح المحفوظ حتى قضى الأمور كلها ، والأول أرجح ، لأن إطلاق الزبور على كتاب داود أظهر وأكثر استعمالاً ، ولأن الزبور مفرد فدلالته على الواحد أرجح من دلالته على الجمع ، ولأن النص قد ورد في زبور داود بأن الأرض يرثها الصالحون ﴿ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ الأرض هنا على الاطلاق في مشارق الأرض ومغاربها ، وقيل : الأرض المقدسة ، وقيل : أرض الجنة ، والأول أظهر ، والعباد الصالحون : أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ففي الآية ثناء عليهم ، وإخبار بظهور غيب مصداقة في الوجود إذ فتح الله لهذه الأمة مشارق الأرض ومغاربها .

(267/516)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

هذا خطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيه تشريف عظيم ، وانتصب رحمة على أنه حال من ضمير المخاطب المفعول ، والمعنى على هذا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الرحمة ، ويحتمل أن يكون مصدراً في موضع الحال من ضمير الفاعل تقديره : أرسلناك راحمين للعالمين ، أو يكون مفعولاً من أجله ، والمعنى على كل وجه : أن الله رحم

العالمين بإرسال سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه جاءهم بالسعادة الكبرى ، والنجاة من الشقاوة العظمى ، ونالوا على يديه الخيرات الكثيرة في الآخرة والأولى ، وعلمهم بعد الجهالة وهداهم بعد الضلالة ، فإن قيل : رحمة للعالمين عموم ، والكفار لم يرحموا به ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما أنهم كانوا معرضين للرحمة به لو آمنوا فهم الذين تركوا الرحمة بعد تعريضها لهم ، والآخر أنهم رحموا به لكونهم لم يعاقبوا بمثل ما عوقب به الكفار المتقدّمون من الطوفان والصيحة وشبه ذلك .

﴿ آذَنتُكُمْ على سَوَآءٍ ﴾ أي أعلمتكم بالحق على استواء في الإعلام وتبليغ إلى جميعكم لم يختص به واحد دون آخر .

﴿ وَإِنْ أدري أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ إن هنا وفي الموضع الآخر نافية ، وأدري فعل علق عن معموله لأنه من أفعال القلوب وما بعده في موضع المعمول ، من طريق المعنى فيجب وصله معه ، والهمزة في قوله : ﴿ أَقَرِيبٌ ﴾ للتسوية لا لمجرد الاستفهام ، وقيل : يوقف على إن أدرى في الموضعين ، ويبتدأ بما بعده ، وهذا خطأ لأنه يطلب ما بعده ﴿ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ ﴾ الضمير لإمهالهم وتأخير عقوبتهم ﴿ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ ﴾ أي الموت أو القيامة ﴿ المستعان على مَا تَصِفُونَ ﴾ أي أستعين به على الصبر على ما تصفون من الكفر والتكذيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 31.34 ﴾

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) ﴾

التفسير : لما فرغ من قصص الأنبياء أراد أن يذكر ما استقر عليه أمر الشرائع في آخر الزمان فقال ﴿ إن هذه أمتكم ﴾ وسيرتكم ، فالأمة الدين والطريقة لأنه أصل وقانون يرجع إليه . وللتركيب دلالة على ذلك وهذا إشارة إلى ملة الإسلام أي إن هذه الملة هي طريقتكم وسيرتكم التي يجب أن تكونوا عليها حال كونها طريقة واحدة غير مختلفة . ﴿ وأنا ربكم ﴾ لا غيري ﴿ فاعبدون ﴾ والخطاب للناس كافة ، وكان الظاهر أن يقال بعده وتقطعتم أمركم بينكم أي جعلتم أمر دينكم بينكم قطعاً كما يقسم الشيء بين الجماعة فيصير لهذا نصيب ولهذا نصيب فصرتم فرقاً مختلفة وأحزاناً شتى ، إلا أنه عدل من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه يقبح أمرهم إلى غيرهم فيقول : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء ؟ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " تفرقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون وخلصت فرقة وأن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة وتخلص فرقة واحدة قالوا : يا رسول الله ومن الفرقة الناجية ؟ قال : الجماعة الجماعة "

فهذا الحديث مفسر للآية من حيث إن هذه الأمة يجب أن يكونوا على كلمة واحدة ، طعن بعضهم في الحديث أنه أراد بالاثنتين والسبعين فرقة اصول الأديان فإنها لا تبلغ هذا العدد ، وإن أراد الفروع فإنها أضعاف هذا العدد . وأجيب بأنه أراد ستفترق أمتي هذا العدد في حال ما ، وهذا لا ينافي كون العدد في بعض الأحوال أنقص أو أزيد . قال أهل البرهان : إنما قال في هذه السورة ﴿ فاعبدون وتقطعوا ﴾ بالواو وفي " المؤمنين " ﴿ فاتقون فتقطعوا ﴾ [الأية : 5253] بالفاء لأن الخطاب ههنا أعم والعبادة أعم من التقوى . وأيضاً الخطاب يتناول الكفار وقد وجد منهم التقطع قبل هذا القول ، وفي سورة المؤمنين الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بدليل قوله ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ [الآية : 51] ثم قال ﴿ فتقطعوا ﴾ [الآية : 53] اي ظهر منهم أي من أمتهم التقطع بعد هذا القول ولأن التقطع منهم أغرب أكده هناك بقوله ﴿ زبراً ﴾ وفي قوله ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ وعيد عظيم للفرق المختلفة . ثم فصل مآل لهم بقوله ﴿ فمن يعمل ﴾ الآية والكفران مثل في حرمان الثواب كما أن الشكر مثل في إعطائه في قوله ﴿ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ [الإسراء : 19] وإنما لم يقل " فلا يكفر سعيه " لأن نفي الجنس أبلغ فإن نفي الماهية يستلزم نفي جميع أفرادها . وفي قوله ﴿ وأنا له ﴾ اي لذلك السعي ﴿ كاتبون ﴾ مبالغة أخرى فإن المثبت في الصحيفة أبعد من النسيان والغلط كما قيل : قيدوا

العلم بالكتابة . ولا سيما إذا كان الكاتب ممن لا يجوز عليه السهو والنسيان . قال المفسرون : معناه حافظون لنجازي عليه . وقيل : مثبتون في أم الكتاب أو في صحف الأعمال . هذا حال السعداء وأما أحوال أضدادهم فذلك قوله ﴿ وحرام ﴾ ومن قرأ ﴿ حرم ﴾ فإنه فعل بمعنى مفعول . والتركيب يدور على المنع اي ممتنع أو ممنوع وهذا خبر لا بد له من مبتدأ وذلك قوله ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ أو غير ذلك . والرجوع إما الرجوع عن الشرك

(270/516)

إلى الإسلام أو الرجوع إلى الدنيا أو إلى الآخرة . وعلى الأول إما أن تكون " لا " زائدة أقحمت للتأكيد ومعنى الآية ممتنع على أهل قرية عزمنا على إهلاكها أو قدرنا إهلاكها أن يرجعوا أو يتوبوا إلى أن تقوم الساعة والمراد تصميمهم على الكفر . وإما أن تكون معيدة ولكن الحرام بمعنى الواجب تسمية لأحد الضدين باسم الآخر باشتراكهما في المنع إلا أن الوجوب منع عن الترك والحرمة منع عن الفعل ، وقد ورد في الاستعمال مثل ذلك قال سبحانه ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا ﴾ [الأنعام : 151] وترك الشرك واجب وليس بمحرم ، وقالت الخنساء :

وإن حراماً لا ارى الدهر باكياً . . . على شجوه إلا بكيت على عمرو

وعلى الثاني فالإهلاك على أصله ، والمعنى أن رجوعهم إلى الدنيا ممتنع أو عدم رجوعهم واجب إلى قيام الساعة نظيره قوله ﴿ فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ [يس : 50] وعلى الثالث فقوله " حتى " غاية لقوله ﴿ لا يرجعون ﴾ اي ممتنع عدم رجوع المهلكين إلى عذاب الآخرة حتى الساعة ، وذلك أن رجوعهم إلى عذاب النار قبل الساعة واجب بقوله ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ [غافر : 46] وقال أبو مسلم : أراد أن رجوعهم إلى الآخرة واجب إلى هذه الغاية أي أنهم يكونون أول الناس حضوراً في محفل القيامة . وعلى الرابع فالمعنى وحرام عليهم ذلك وهو المذكور من السعي المشكور غير المكفور لأنهم لا يرجعون عن الكفر إلى أن تقوم الساعة .

(271/516)

قوله تعالى ﴿ حتى إذا فتحت ﴾ " حتى " هي التي يقع بعدها الجملة وهي ههنا مجموع الشرط والجزاء و" إذا " المفاجأة تسد مسد فاء الجزاء ، وقد يجمع بينهما للتعاون على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد وإنما احتيج إلى هذا التأكيد لأن الشرط يحصل في آخر أيام الدنيا والجزاء إنما يحصل يوم القيامة ، ولعل بينهما فاصلة بالزمان إلا أن التفاوت القليل

كالمعدوم والمضاف محذوف أي سد يأجوج ومأجوج وتأنيث الفعل لأنهما قبيلتان وهما ومن جنس الأنس كما مر في آخر الكهف . يقال : الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج . وفي الحديث " إن منكم واحداً ومن يأجوج ومأجوج ألف " قوله ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ قال أكثر المفسرين : الضمير ليأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد . وعن مجاهد أنه لجميع المكلفين الذين يساقون إلى المحشر . والحدب ما إرتفع من الأرض والنسل الإسراع . ﴿ واقترب ﴾ عطف على ﴿ فتحت ﴾ وهو داخل في الشرط . و ﴿ الوعد الحق ﴾ القيامة وقوله ﴿ فإذا هي شاخصة ﴾ كقوله في سورة إبراهيم ﴿ ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ [إبراهيم : 42] وقال في الكشاف : ﴿ هي ﴾ ضمير مبهم توضحه الأبصار وتفسره . قلت : فعلى هذا ﴿ هي ﴾ مبتدأ ﴿ وشاخصة ﴾ خبره ﴿ وأبصار ﴾ بدل ﴿ هي ﴾ ولو قيل : ﴿ هي ﴾ ضمير القصة مبتدأ والجملة التي هي أبصار الذين كفروا شاخصة خبره جاز وهو قول سيبويه . ثم ههنا إضمار اي يقولون ﴿ يا ويلنا ﴾ وهو في موضع الحال من الذين كفروا والعامل شاخصة ﴿ قد كنا في غفلة من هذا ﴾ الوعد أو الأمر ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ أنفسنا بتلك الغفلة وبتكذيب الرسل وعبادة الأوثان . ثم بين حال معبوديهم يوم القيامة فقال : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ اي محصوبها بمعنى محصوب فيها ، والحصب الرمي ومنه الحصباء لأنه يرمى بها الشيء وقرئ حطب . واللام في قوله ﴿ أنتم لها واردون ﴾

كاللام في قوله " هو لزيد ضارب " وذلك لضعف عمل اسم فيما تقدم عليه . والمعنى لا بد لكم أن تردوها ولا معدل

(272/516)

لكم عن دخولها .

(273/516)

ثم ألزمهم الحجة بقوله ﴿ لو كان هؤلاء ﴾ المعبودون ﴿ آلهة ﴾ في الحقيقة ﴿ ما وردوها ﴾ لكنهم واردوها للخبر الصادق الذي يتنبه لصدقه من يتأمل في إعجازه فينتج أن هؤلاء ليسوا بآلهة وأنها لا تستحق تعظيماً أصلاً . ثم أخبر أنهم بعد ورودهم النار لا يخلصون منها أبداً فقال ﴿ وكل ﴾ اي من العابدين والمعبودين ﴿ فيها خالدون لهم فيها زفير ﴾ قد سبق معانيه في آخر سورة هود ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ شيئاً إما لأنهم يجعلون في توابيت من نار عن ابن مسعود ، وإما لأنه تعالى يصمهم كما يعميهم . والصمم في بعض الأوقات لا ينافي كونهم سامعين أقوال أهل الجنة في غير ذلك الوقت ، أو المراد أنهم لا

يسمعون ما يسرهم ، أو الضمير للمعبودين والسماع سماع إجابة ، وعلى هذا فالضمير في ﴿ لهم فيها زفير ﴾ للعابدين وجاز اعتماداً على فهم السامع حيث يرد كلاً من الضميرين غلى ما يناسبهما كأنه قيل : العابد يدعو والمعبود لا يجيب ، ويجوز أن يكون للمعبودين أيضاً لأن فيهم من يتأتى منه الزفير كالشياطين فغلب ، أو لأن الجماد ينطقه الله وقتئذ والزفير بمعنى اللهيب والله أعلم . يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنماً ، فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحرث وكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ثم تلا عليهم ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله ﴾ الاية . فأقبل عبد الله بن الزبعري فأخبره الوليد بن المغيرة بنا جرى فقال معترضاً : اليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة ؟ فقال عليه السلام : بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك وأنزل الله تعالى ﴿ إن الذين سبقت ﴾ الآية . فخرج من الحديث . الآية جواب ابن الزبعري على أتم وجه وأكمله كأنه قيل أولاً إن الاية باقية على عمومها لأن الذين عبدوا عزيراً والمسيح والملائكة لم يعبدونهم في الحقيقة ، وإنما عبدوا الشياطين التي دعتهم

إلى ذلك ، ولئن سلم أنهم عبدوهم في الحقيقة لكنهم مخصوصون بما سبقت لهم منا الخصلة الحسنى وهي السعادة أو البشرى بالثواب أو بتوفيق الطاعة وكل ميسر لما خلق له . ومن المفسرين من أجاب عن اعتراض ابن الزبعري بوجوه آخر منها : أن قوله ﴿ إنكم ﴾ خطاب لمشركي قريش وإنهم لم يعبدوا سوى الأصنام . ولقائل أن يقول : حمل الآية على العموم أتم فائدة . ومنها أن قوله ﴿ وما تعبدون ﴾ لا يتناول العقلاء فيسقط الاعتراض . ولقائل أن يقول : ما أعم لا مباين فيشمل ذوي العقول وغيرهم ولهذا جاء ﴿ والسماء وما بناها ﴾ [الشمس : 5] سبحان ما سخركن لنا . ومنها أنه تعالى يصور لهم في النار ملكاً على صورة من عبدوه ، وضعف بأن القوم لم يعبدوا تلك الصورة ، وبأن الملك لا يتعذب بالنار كخزنة جهنم .

(275/516)

واعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فقوله ﴿ إن الذين ﴾ لا يبعد أن يكون عاماً لكل المؤمنين ويؤيده ما روي أن علياً قرأ هذه الآية ثم قال : أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف . وزعم مثبتوا لعفو أن الحسنى في الاية هي الوعد بالعفو لأنه قال ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾ بأزاء قوله ﴿ أنتم لها واردون

﴿ والورود الدخول فالإبعاد الإخراج من النار بعد أن كانوا فيها . وأيضاً إبعاد البعيد محال . وقوله ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ إذ الصوت الذي يحس به مخصوص بما بعد الإخراج . وايضاً قوله ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ يفهم منه أنه يحزنهم الفزع الأصغر ، فالأكبر عذاب الكفار والأصغر عذاب صاحب الكبيرة ، والأكثرون على أن المراد من قوله ﴿ مبعدون ﴾ أنهم لا يدخلون النار ولا يقربونها ألبتة لأن ما جعل بعيداً عن شيء ابتداء يحسن أن يقال : إنه أبعد عنه ، وهؤلاء لم يفسروا الورود في قوله ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : 71] بالدخول كما مر في سورة مريم . وفي قوله ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ تأكيد للإبعاد فقد لا يدخل النار ويسمع حسيسها . ثم بين أنهم مع العبد عن المنافي منتفعون بالقرب من الملائم ملتذون به على سبيل التأبيد فقال ﴿ وهم فيما إشتهت ﴾ ﴿ أنفسهم ﴾ أي فيما تطلبه للالتذاذ به ﴿ خالدون ﴾ هذا نصيب أهل الجنة ، وأما أهل الله فهم فيما اشتهت قلوبهم وارواحهم وأسرارهم خالدون . والفزع الأكبر قيل : النفخة الأخيرة لقوله ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض ﴾ [النمل : 87] وعن الحسن هو الانصراف إلى النار فإنه لا فزع أكبر مما إذا شاهدوا النار ، وهذا أمر يشترك فيه أهل النار جيمعاً ، ثم مراتب التعذيب بعد ذلك متفاوتة . وعن الضحاك وسعيد بن جبير هو حين تطبق النار على أهلها فيفزعون لذلك فزعة عظيمة ،

وقيل : حين يذبح الموت على صورة كبش أملح فعند ذلك يستقر أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة

(276/516)

وتستقبلهم الملائكة مهنئين قائلين ﴿ هذا يومكم ﴾ اي وقت ثوابكم ﴿ الذي كنتم توعدون ﴾ ذلك قال الضحاك : هم الحفظة الذين كتبوا أعمالهم . والعامل في ﴿ يوم نطوي السماء ﴾ : ﴿ لا يحزنهم ﴾ أو ﴿ تتلقاهم ﴾ . والسجل اسم للطومار الذي يكتب فيه . وعن ابن عباس أنه ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه وهو مروي ايضاً عن علي رضي الله عنه . وروى أيضاً أبو الجوزاء عن ابن عباس أنه كاتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بمعروف . قال الزجاج : هو الرجل بلغة الحبش . فعلى هذه الوجوه فالطي وهو المصدر مضاف إلى الفاعل وعلى الوجه الأول هو مضاف إلى المفعول والفاعل محذوف كطي الطاوي للسجل وهو قول الأكثرين وإشتقاقه من السجل الدلو العظيم وقد قرئ به والتركيب يدل على الامتلاء والاجتماع ولهذا لا يسمى الدلو سجلاً إلا إذا كان فيه ماء ومنه " أسجلت الحوض ملأته " .

(277/516)

وقوله ﴿ للكتاب ﴾ أي للكتابة ومعناه ليكتب فيه أو لما يكتب فيه لأن الكتاب أصله المصدر كالبناء ثم يوقع على المكتوب . ومن جمع فمعناه للمكتوبات أي ما يكتب فيه من المعاني الكثيرة ، وكيفية هذا الطي لا يعلمها إلا من أخبر عن ذلك أما قوله ﴿ كما بدأنا ﴾ فمن المفسرين من قال : إنه ابتداء كلام ومنهم من قال : إنه وصف قوله ﴿ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ بقوله ﴿ يوم نطوي ﴾ ثم عقبه بوصف آخر فقال ﴿ كما بدأنا أول خلق ﴾ وهو مفعول نعيد الذي يفسره ﴿ نعيده ﴾ و" ما "كافة أي نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيهاً للإعادة بالابتداء في تناول القدرة لهما على السواء . فكما أوجده أولاً عن عدم يعيده ثانياً عن عدم . ومنهم من قال : الإعادة إنما تتعلق بالضم والتركيب بعد تفريق الأجزاء الاصلية والآية لا تطابقه كل المطابقة . وأول خلق كقولك " هو أول رجل " اي إذا فضلت رجلاً رجلاً فهو أولهم ، وإنما خص أول الخلائق بالذكر تصويراً للإيجاد عن العدم ودفعاً للاعتراض . وجوز جار الله أن تنتصب الكاف بفعل مضمر يفسره نعيده و" ما " موصولة اي نعيد مثل الذي بدأنا نعيده و﴿ أول خلق ﴾ ظرف ﴿ لبدأنا ﴾ أي أول ما خلق أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ وقوله ﴿ وعداً ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله نعيد عدة للإعادة وقيل : أراد حتماً ﴿ علينا ﴾ لسبب الإخبار عن ذلك وتعلق العلم بوقوعه فإن وقوع ما علم الله وقوعه واجب ثم حقق ذلك بقوله ﴿ إنا كنا فاعلين ﴾

اي سنفعل ذلك لا محالة فإنا قادرون عليه . عن سعيد بن جبير ومجاهد والكلبي ومقاتل وابن زيد أن الزبور جنس للكتب المنزلة كلها ، والذكر أم الكتاب يعني اللوح ففيه كتابة كل ما سيكون اعتباراً للملائكة ، وكتب الأنبياء كلهم منتسخة منه ، وعن قتادة أن الزبور هو القرآن ، والذكر هو التوراة . وعن الشعبي أن الزبور هو كتاب داود عليه السلام والذكر التوراة . وجوز الإمام فخر الدين أن يراد بالذكر العلم أي كتبنا فيه بعد أن كنا

(278/516)

عالمين غير ساهين . والمراد تحقيق وقوع المكتوب فيه ، والأرض أرض الجنة ، والعباد الصالحون هم المؤمنون العالمون بما يجب عليهم نظيره قوله ﴿ وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾ [الزمر : 74] قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والسدي وأبو العالية . وإنما ذهبوا إلى هذا القول لأن أرض الدنيا تعم الصالح وغير الصالح ، ولأن الآية وردت بعد ذكر الإعادة . وعن ابن عباس أيضاً في رواية الكلبي أنها أرض الدنيا يرثها المؤمنون بعد إجلاء الكفار نظيره ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفكم في الأرض ﴾

(279/516)

[النور : 55] وقيل : الأرض المقدسة يرثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم عند نزول عيسى ابن مريم ﴿ إن في هذا ﴾ الذي ذكر في السورة من الأخبار والوعد والوعيد وغير ذلك ﴿ لبلاغاً ﴾ لكفاية ﴿ لقوم عابدين ﴾ عاملين بما ينبغي عمله من الخيرات بعد ما عملوا من كيفية أدائها . والبلاغ ما يبلغ به المرء مطلوبه من الوسائط والوسائل ، ولا مطلوب أجل من سعادة الدارين فكل من كان وسيلة إلى نيل هذا المطلوب على الوجه الأتم الأكمل كان وجوده رحمة من الله للطالب المتحير وما ذاك إلا خاتم النبيين فلهذا قال ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ وكونه رحمة للكل لا ينافي قتله بعض الكفرة والتعرض لأموالهم وأولادهم كما أن كي بعض أعضاء المريض بل قطعه لا ينافي حذق الطبيب وإشفاقه على المريض ومن هنا قيل : آخر الدواء الكي . والعاقل لا ينسب التقصير إلى الفاعل لقصور في القابل . قالت المعتزلة : لو كان الكفر الكافر بخلق الله لم يكن إرسال الرسول رحمة له لأنه لا يحصل له حينئذ إلا لزوم الحجة عليه . وأجيب بأنه كونه رحمة للفجار هو أنهم أمنوا بسببه عذاب الاستئصال ، ولا يلزم أن يكون الرسول رحمة للمؤمنين من جهة كونه رحمة للكافرين ، والجواب المحقق أن كونه رحمة عامة بالنسبة غلى أمة الدعوة لا ينافي كونه رحمة خاصة بالنسبة إلى أمة الإجابة وهو قريب مما ذكرناه أولاً ، والحجة وتبعتها لازمة على الكافر وإن لم يبعث النبي غايته أنها بعد البعثة ألزم . وفي الآية دلالة على أن النبي صلى الله عليه وسلم

أفضل من الملائكة لأنه رحمة لهم فإنهم من العالمين وعورض بقوله ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ [الشورى : 5] والاستغفار رحمة . والجواب أن الرحمة بمعنى كونه في نفسه مكملاً في الغاية غير الرحمة بمعنى الدعاء ، فلا يلزم من كون الأول سبباً للأفضلية كون الثاني كذلك ، ثم بين أن أصل تلك الرحمة وأسها هو دعاؤه إلى التوحيد والبراءة عن الشرك فقال ﴿ قال إنما يوحى إلي ﴾ إن كانت

(280/516)

" ما " موصولة فمعناه أن الذي يوحي إليَّ هو أن وصفه تعالى مقصور على الوحدانية لا يتجاوزه إلى ما يناقضها أو يضادها بأي قسمة فرضت وإن كانت كافة المعنى أن الوحي مقصور على استئثار الله بالوحدة ، وذلك أن القصر يكون أبداً لما يلي إنما وفي قوله ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ بعث لهم على قبول هذا الوحي الذي هو أصل التكاليف كلها ، وفيه نوع من التهديد فلذلك صرح به قائلاً ﴿ فإن تولوا فقل آذنتكم ﴾ اي أعلمتكم والمراد ههنا أخص من ذلك وهو الإنذار ﴿ على سواء ﴾ هو الدعاء إلى الحرب مجاهرة كقوله ﴿ فأنبذ عليهم على سواء ﴾ [الأنفال : 58] إلى وقت اي حال كونكم مستوين في ذلك لا

فرق بين القريب والأجنبي والقاصي والداني والشريف والوضيع ولهذا قال أبو مسلم : الإيذان على سواء هو الدعاء إلى الحرب مجاهرة كقوله

(281/516)

﴿ فأنبذ إليهم على سواء ﴾ [الأنفال : 58] وقيل : أراد أعلمتكم ما هو الواجب عليكم من أصول التكاليف ولا سيما التوحيد على السوية من غير فرق في الإبلاغ بين مكلف ومكلف . ولست ﴿ أدري أقريب ما توعدون ﴾ أم بعيد والموعود قيل : هو عذاب الآخرة . واعترض بأنه ينافي قوله ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ وقيل : هو الأمر بالقتال لأن السورة مكية وكان الأمر بالجهاد بعد الهجرة . وقيل : هو إعلاء شأن الإسلام وغلبة ذويه فإنه لا بد أن يلحق للكفار حينئذ ذلة وصغار . ولما أمره أن ينفي عن نفسه علم الغيب أمره أن يقول لهم إن الله سبحانه هو العالم بالسر والعلن فيعلم ما تجاهرون به من المطاعن في الإسلام وما تكتمونه في صدوركم من الإحن والضغائن فيجازيكم على القبيلين ﴿ وإن أدري لعله ﴾ اي ما أدري لعل تأخير هذا الوعد أو إبهام وقته أو تأخير الأمر بالجهاد امتحان لكم لينظر كيف تعملون وتمتيع لكم ﴿ إلى حين ﴾ حضور وقت الموعد . وقال الحسن : لعل ما أنتم عليه من الدنيا ونعيمها بلية لكم . وقيل : اراد لعل ما بينت

وأعلمت وأوعدت ابتلاء لكم لأن المعرض عن الإيمان مع البيان حالاً بعد حال يكون عذابه اشد . ومعنى ﴿ رب احكم بالحق ﴾ أقضى بيني وبين من يكذبني بالعذاب . قال قتادة : امره الله تعالى أن يقتدي بالأنبياء في هذه الدعوة وكانوا يقولون ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ [الأعراف : 89] فاستجيب له فعذبوا ببدر ، وقال جار الله : بالحق لا تحابهم وشدد عليهم كما هو حقهم كما قال " أشدد وطأتك على مضر " وقيل : معناه وافعل بيني وبينهم بما يظهر الحق للجميع تنصرني عليهم كأنه سبحانه قال له : قل داعياً إليَّ رب احكم بالحق وقل متوعد للكفار ﴿ وربنا الرحمن المستعان ﴾ الذي يستعان به ﴿ على ما تصفون ﴾ من الشرك والكفر وما تعارضون به دعوتي من الأباطيل ، وكانوا يطمعون أن يكون لهم الغلبة والدولة فقلب الله الأمر عليهم . وفي هذا الأمر تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم

ورفع عن مقداره حيث أمر بالانقطاع إلى الرب في دفع أذية القوم ليحصل له مع الخلاص من أذيتهم شرف الاستجابة وهذه غاية العناية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 59.52 ﴾

(282/516)

وقال الخطيب الشربيني :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

﴿ وأيوب ﴾ أي : واذكر أيوب ويبدل منه ﴿ إذ نادى ربه ﴾ قال وهب بن منبه : كان أيوب عليه السلام رجلاً من الروم وهو أيوب بن أموص بن رزاح بن روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم ، وكانت أمّه من ولد لوط بن هاران ، وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا .

وكانت له الثنية من أرض البلقاء من أعمال حوران من أرض الشام كلها سهلها وجبلها ، وكان له فيها من أصناف المال كله من الإبل والبقر والغنم ، والخيل والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه في العدّة والكثرة .

وكان له خمسمائة فدّان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وعبد وولد ومال ، ويحمل آلة كل فدّان أتان لكل أتان من الولد اثنان أو ثلاث أو أربع أو خمس وفوق ذلك .

وكان الله تعالى قد أعطاه أهلاً وولداً من رجال ونساء ، وكان برّاً تقياً رحيماً بالمساكين يطعمهم ويكفل الأيتام والأرامل ، ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل ، وكان شاكراً لأنعم الله مؤدياً لحق الله تعالى قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى من الغرّة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من الدنيا .

وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه رجل من اليمن يقال له اليفن ، ورجلان من بلده يقال لأحدهما بلدد ، والآخر صابر ، وكانوا كهولاً ، وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات ، وكان يقف فيهنّ حيثما أراد حتى رفع الله تعالى عيسى عليه السلام ، فحجب من أربع ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم عن السموات كلها إلا من استرق السمع ، فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب عليه السلام ، وذلك حين ذكره الله تعالى وأثنى عليه ، فأدركه البغي والحسد ، فصعد سريعاً حتى وقف من السماء موقفاً كان يقفه ، فقال : إلهي نظرت في أمر عبدك أيوب ، فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ، ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ، ولخرج من طاعتك ؛ قال الله تعالى : انطلق فقد سلطتك على ماله ، فانقض عدو الله إبليس حتى وقع على الأرض ، ثم جمع عفاريت الجنّ ومردة الشياطين وقال لهم : ماذا عندكم من القوّة ، فإني قد سلطت على مال أيوب وهي المصيبة الفادحة ، والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال ، فقال عفريت من الشياطين : أعطيت من القوة ما إذا شئت تحولت إعصاراً من نار ، وأحرقت كل شيء آتى عليه ؛ قال إبليس : فأت الإبل ورعاتها ، فأتى الإبل ، وقد وضعت رؤوسها ورعت في مراعيها ، فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت

الأرض إعصار من نار لا يدنو منها أحد إلا احترق ، فأحرق الإبل ورعاتها حتى أتى على آخرها .

(284/516)

ثم جاء عدو الله إبليس في صورة قبيحة على قعود إلى أيوب ، فوجده قائماً يصلي فقال : يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت إبلك ، فأحرقتها ومن فيها غيري ، فقال أيوب : الحمد لله الذي أعطانيها ، وهو أخذها وإنها مال الله أعارنيها ، وهو أولى بها إذا شاء تركها ، وإذا شاء نزعها ، وقديماً كنت وطنت نفسي ومالي على الفناء ؛ قال إبليس : فإن الله ربك أرسل عليها ناراً من السماء ، فاحترقت ، فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها ؛ منهم من يقول : ما كان أيوب يعبد شيئاً وما كان أيوب إلا في غرور ، ومنهم من يقول : لو كان إله أيوب يقدر على أن يصنع شيئاً لمنع وليه ، ومنهم من يقول : بل هو الذي فعل ليشمت به عدوّه ويفجع صديقه ، فقال أيوب : الحمد لله حين أعطاني ، وحين نزع مني عرياناً خرجت من بطن أمي ، وعرياناً أعود في التراب ، وعرياناً أحشر إلى الله عز وجل ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعطاك الله وتجزع حين قبض الله على عاريته الله أولى بك وبما أعطاك ، ولو علم الله تعالى فيك أيها العبد خيراً لنقل روحك مع تلك الأرواح ، وصرت شهيداً ، ولكنه علم

منك شرّاً ، فأخرجك فرجع إبليس إلى أصحابه خاسئاً ذليلاً ، فقال لهم : ماذا عندكم من القوّة فإني لم أكلم قلبه ؟ قال عفريت : عندي من القوّة ما إذا شئت صحت صيحة لا يسمعها ذو روح إلا خرجت روحه ؛ قال إبليس : فأت الغنم ورعاتها ، فانطلق حتى توسطها ، ثم صاح صيحة فتجثمت أمواتاً من عند آخرها ، وماتت رعاتها .

ثم جاء إبليس متمثلاً بقهرمان الرعاة إلى أيوب وهو يصلي فقال له مثل القول الأول ، فردّ عليه أيوب مثل الردّ الأوّل ، ثم رجع إبليس إلى أصحابه فقال : ماذا عندكم من القوّة ، فإني لم أكلم قلب أيوب ، فقال عفريت : عندي من القوّة ما إذا شئت تحولت ريحاً عاصفاً تنسف كل شيء تأتي عليه ، قال : فأتِ الفدادين والحرث ، فانطلق حين شرع الفدادون في الحرث والزرع ، فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنسفت كل شيء من ذلك حتى كأنه لم يكن .

(285/516)

ثم جاء إبليس متمثلاً بقهرمان الحرث إلى أيوب وهو قائم يصلي ، فقال له مثل قوله الأوّل ، فردّ عليه أيوب مثل ردّه الأوّل ، وجعل إبليس يهلك أمواله مالاً مالاً حتى مرّ على آخره كلما انتهى إليه هلاك مال من أمواله حمد الله تعالى ، وأحسن الثناء عليه ورضي عنه بالقضاء ،

ووطن نفسه بالصبر على البلاء حتى لم يبق له مال ، فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينجح منه بشيء صعد سريعاً حتى وقف في الموقف الذي يقف فيه وقال : إلهي إنّ أيوب يرى أنك ما متعته بولده ، فأنت تعطيه المال ، فهل أنت مسلطي على ولده ، فإنها المصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال .

قال الله تعالى : انطلق فقد سلطتك على ولده ، فانقض عدوّ الله إبليس حتى جاء بني أيوب وهم في قصرهم ، فلم يزل يزلزله بهم حتى تداعى من قواعده وجعل جدره يضرب بعضها بعضاً ، ويرميهم بالخشب والحجارة حتى مثل بهم كل مثلة ورفع القصر فقلبه ، فصاروا منكبين وانطلق إلى أيوب متمثلاً بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة وهو جريح مشدوخ الوجه يسيل دمه ودماغه ، فأخبره وقال : لو رأيت بنيك كيف عذبوا وقلبوا فكانوا منكبين على رؤوسهم تسيل دماؤهم ، ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لقطع قلبك ، فلم يزل يقول : هذا أو نحوه حتى رق قلب أيوب وبكى ، وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال : ليت أمّي لم تلدني ، فاغتنم إبليس ذلك ، فصعد سريعاً بالذي كان من جزع أيوب مسروراً به ، ثم لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر واستغفر ، فصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته ، فسبقت توبته إلى الله عزّ وجلّ ، وهو أعلم ، فوقف إبليس خاسئاً ذليلاً .

وقال : إلهي إنما هوّن على أيوب المال والولد إنه يرى أنك ما متعته بنفسه ، فإنك تعيد له المال والولد ، فهل أنت مسلطي على جسده ، فقال الله عزّ وجلّ : انطلق فقد سلطتك على جسده ، ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه ولا على عقله ، وكان الله عز وجل أعلم به لم يسلطه عليه إلا رحمة لأيوب ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعالمين في كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به في الصبر ورجاء الثواب ، فانقض عدوّ الله سريعاً فوجد أيوب في مصلاه ساجداً ، فعجل قبل أن يرفع رأسه فأتاه من قبل وجهه ، فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها سائر جسده ، فخرج من قرنه إلى قدمه ثآليل مثل أليات الغنم ، ووقعت فيه حكة ، فحك بأظفاره حتى سقطت كلها ، ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ، ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة ، فلم يزل يحكها حتى بقل لحمه ، وتقطع وتغير وأنتن ، وأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة ، وجعلوا له عريشاً فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته ، وهي رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ، فكانت تختلف إليه بما يصلحه وتلزمه ، ولما رأى الثلاثة من أصحابه وهم اليفن وبلدد وصابر ما ابتلاه الله تعالى به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه ، فلما طال به البلاء انطلقوا إليه ، فبكتوه ولاموه ، وقالوا له : تب إلى الله تعالى من الذنب الذي عوقبت عليه ، قال وحضره معهم فتى حديث السنّ قد آمن به وصدّقه فقال لهم : إنكم تكلمتم أيها

الكهول ، وأنتم أحق بالكلام مني لأسنانكم ، ولكنكم تركتم من القول أحسن من الذي قلتم ، ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم ، ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم ، وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذي وصفتم ، فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ، ومن الرجل الذي عبتم واتهمتم ؛ ألم تعلموا أنه أيوب نبي الله وخيرته وصفوته من أهل الأرض إلى يومكم هذا ، ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على أنه قد

(287/516)

سخط شيئاً من أمره منذ ما آتاه الله ما آتاه إلى يومكم هذا ولا أنه نزع شيئاً منه من الكرامة التي أكرمه بها ، ولا أنّ أيوب قال على الله غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا ، فإن كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم ووضعه في أنفسكم فقد علمتم أن الله تعالى يبتلي المؤمنين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وليس بلاؤه لأولئك على سخطه عليهم ، ولا لهوانه لهم ، ولكنها كرامة وخبرة لهم ، ولو كان أيوب ليس من الله بهذه المنزلة إلا أنه أخ آخيتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحكيم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ، ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ، ولكنه يرحمه ويبكي معه ، ويستغفر له ، ويحزن لحزنه ويدله على أرشد أمره ، وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا ، فالله الله

أيها الكهول ، فقد كان في عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ، ويكسر قلوبكم ، ألم تعلموا أنّ لله عباداً أسكتتهم خشيته من غير عيّ ، ولا بكم ، وإنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الألباء العالمون بالله ، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم ، واقشعرّت جلودهم ، وانكسرت قلوبهم ، وطاشت عقولهم إعظاماً لله وإجلالاً له ، فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية يعدّون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين ، وإنهم لأبرار براء ، ومع المقصرين المفرطين ، وإنهم لأكياس أقوياء .

(288/516)

فقال أيوب : إنّ الله سبحانه وتعالى يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير ، فمتى ثبتت في القلب يظهرها الله تعالى على اللسان ، وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ، ولا طول التجربة ، وإذا جعل الله العبد حكيماً في الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء ، وهم يرون عليه من الله تعالى نور الكرامة ، ثم أعرض عنهم أيوب عليه السلام يعني الثلاثة وقال : أتيتموني غضاباً رهبتم قبل أن تسترهبوا ، وبكيتم قبل أن تضربوا ، فكيف بي لو قلت تصدقوا عليَّ بأموالكم لعل الله أن يخلصني ، أو قربوا قرباناً لعل الله أن يتقبله ويرضى عني ، وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم ، وظننتم أنكم عوضتم بإحسانكم ،

ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ، ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوباً قد سترها الله تعالى بالعافية التي ألبسكم ، وقد كنتم فيما خلا توقرونني وأنا مسموع كلامي معروف حقي منتصف من خصمي ، فأصبحت اليوم وليس لي رأي ولا كلام ، وأنتم كنتم أشد عليّ من مصيبتي ، ثم أعرض عنهم أيوب وأقبل على ربه مستعيناً به مستغفراً متضرّعاً إليه .

(289/516)

فقال : يا رب لأيّ شيء خلقتني ليتني إذ كرهتني لم تخلقني يا ليتني عرفت الذنب الذي أذنبت والعمل الذي عملت ، فصرفت وجهك الكريم عني لو كنت أمتني ، فألحقتني بآبائي ، فالموت كان أجمل بي ؛ ألم أكن للغريب داراً وللمسلمين قراراً ، ولليتيم ولياً ، وللأرملة قيماً ؛ إلهي أنا عبدك إن أحسنت إليّ فالمنّ لك ، وإن أسأت فبيدك عقوبتي ؛ جعلتني للبلاء غرضاً وللفتنة نصباً ، وقد وقع بي بلاء لو سلطته على جبل ضعف عن حمله ، فكيف يحمله ضعفي ، فإن قضاءك هو الذي أذلني ، وإنّ سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي ، ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فمي ، فأدلي بعذري ، وأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي ،

ولكنه ألقاني وتعالى عني ، فهو يراني ولا أراه ، ويسمعني ولا أسمعه ، فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظنّ أصحابه أنه عذاب .

(290/516)

ثم نودي : يا أيوب إنّ الله تعالى يقول : ها أنا قد دنوت منك ولم أزل منك قريباً ، قم فأدل بعذرك وتكلم بحجتك ، وخاصم عن نفسك ، واشدد أزرك ، وقم مقام جبار يخاصم جباراً إن استطعت ، فإنه لا ينبغي أن يخاصمني إلا جبار مثلي ؛ لقد منتك نفسك يا أيوب أمراً ما بلغ مثله قوتك أين أنت مني يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها ؟ هل كنت معي تمدّ بأطرافها ؟ هل أنت علمت بأي مقدار قدرتها أم على أي : شيء وضعت أكنافها ؟ أبطاعتك حمل الماء الأرض أم بحكمتك كانت الأرض للماء غطاء ؟ أين كنت مني يوم رفعت السماء سقفاً في الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ، ولا يقلها دعم من تحتها ؟ هل تبلغ من حكمتك أن تجري نورها أو تسير نجومها ، أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها ؟ أين أنت مني يوم أنبعت الأنهار ، وسكرت البحار ؟ أبسلطانك حبست أمواج البحار على حدودها أم قدرتك فتحت الأرحام حتى بلغت مدتها ؟ أين أنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال ؟ هل تدري على أيّ شيء أرسيتها ، أم بأيّ مثقال

وزنتها ؟ أم هل لك من ذراع تطيق حملها ؟ أم هل تدري أين الماء الذي أنزلت من السماء ؟ أم هل تدري من أيّ شيء أنشىء السحاب ؟ أم هل تدري أين خزانة الثلج ؟ أم أين جبال البرد ؟ أم أين خزانة الليل بالنهار ، وخزانة النهار بالليل ؟ وأين خزانة الريح ؟ وبأي لغة تتكلم الأشجار ؟ من جعل العقول في أجواف الرجال ؟ ومن شق الأسماع والأبصار ؟ ومن دانت الملائكة لملكه ، وقهر الجبارين بجبروته ، وقسم الأرزاق بحكمته ؟ في كلام كثير يدل على كمال قدرته ذكرها لأيوب .

(291/516)

فقال أيوب عليه الصلاة والسلام : كلّ شأنيّ وكلّ لساني وكل عقلي ورأيي وضعفت قوّتي عن هذا الأمر الذي تعرض لي يا إلهي ، قد علمت أن كل الذي ذكرت صنع يدك ، وتدبير حكمتك ، وأعظم من ذلك وأعجب لو شئت عملت ، لا يعجز عنك شيء ، ولا تخفى عليك خافية ؛ أذلني البلاء يا إلهي ، فتكلمت فكان البلاء هو الذي أنطقني ، فليت الأرض انشقت بي فذهبت فيها ، ولم أتكلم بشيء يسخط ربي وليتني مت بغمي في أشدّ بلائي قبل ذلك ، إنما تكلمت حين تكلمت لتعذرني وسكت حين سكت لترحمني كلمة زلت مني فلم أعد قد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني ، وألصقت بالتراب خدي

أعوذ بك اليوم منك وأستجير بك من جهد البلاء ، فأجرني ، وأستغيث بك من عقابك فأغثني ، وأستعين بك على أمري فأعني ، وأتوكل عليك فاكفني ، وأعتصم بك فاعصمني ، وأستغفرك فاغفر لي فلن أعود لشيء تكرهه مني .

قال الله تعالى : يا أيوب نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي ، فقد غفرت لك .

(292/516)

فقال أيوب : ﴿ أني ﴾ قد ﴿ مسّني الضّرّ ﴾ بتسليطك الشيطان عليَّ في بدني وأهلي ومالي ، وقد طمع الآن في ديني وذلك أنه زين لامرأة أيوب أن تأمره أن يذبح لصنم فإنه يبرأ ثم يتوب ، ففطن لذلك ، وحلف ليضربنها إن برأ مائة جلدة ، وقال وهب : لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين ، وروي عن أنس يرفعه "أنّ أيوب لبث ببلائه ثمان عشرة سنة" ، وقال كعب سبع سنين ، وقال الحسن : مكث أيوب مطروحاً على كناسة لبني إسرائيل سبع سنين وشهراً يختلفون في الدواء ولا يقربه أحد غير امرأته رحمة صبرت معه تحمد الله معه إذا حمد وأيوب مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله تعالى والصبر على بلائه ، فلما غلب أيوب إبليس ولم يستطع منه شيئاً اعترض امرأته في هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء وكمال ، فقال لها : أنت صاحبة أيوب

هذا الرجل المبتلى ؛ قالت : نعم ، قال : هل تعرفيني قالت : لا فقال لها أنا إله الأرض ، وأنا الذي صنعت بصاحبك لأنه أطاع إله السماء ، وتركني فأغضبني ، ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان من مال وولد ، وأراها إياهم ببطن الوادي الذي لقيها فيه ؛ قال وهب : وقد سمعت أنه إنما قال لها : لو أن صاحبك أكل طعاماً ولم يسم عليه لعوفي مما به من البلاء ، وفي بعض الكتب أن إبليس قال لها : اسجدي لي سجدة حتى أرد عليك المال والأولاد وأعافي زوجك فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها ، وما أراها قال : لقد أتاك عدوّ الله ليفتنك عن دينك ، ثم أقسم أن الله عافاه ليضربنها مائة جلدة ، وعند ذلك قال : مسني الضرّ من طمع إبليس في سجود حرمتي ودعائه إياها وإياي إلى الكفر ﴿ وأنت ﴾ أي : والحال أنت ﴿ أرحم الراحمين ﴾ فافعل بي ما يفعل الرحمن بالمضرور ، وهذا تعريض بسؤال الرحمة حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ، ولم يصرّح فكان ذلك ألطف في السؤال ، فهو أجدر بالنوال .

(293/516)

ويحكى أنّ عجوزاً تعرّضت لسليمان بن عبد الملك فقالت : يا أمير المؤمنين مشت جرذان بيتي على العصا ، فقال لها : ألطفت في السؤال لا جرم لأردّنها تثب وثب الفهود ، وملأ بيتها

حباً ، ثم إنّ الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عليها ، وأراد أن يبر يمين أيوب فأمره أن يأخذ ضغثاً يشتمل على مائة عود صغار ، فيضربها به ضربة واحدة كما قال الله تعالى في آية أخرى : ﴿ وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ﴾ (ص ،)

وروي أنّ إبليس اتخذ تابوتاً وجعل فيه أدوية وجلس على طريق امرأة أيوب يداوي الناس فمرت به امرأة أيوب ، فقالت : إنّ لي مريضاً أفتداويه قال : نعم ولا أريد شيئاً إلا أن يقول إذا شفيته : أنت شفيتني ، فذكرت ذلك لأيوب فقال : هو إبليس قد خدعك وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة ، وقال وهب وغيره : كانت امرأة أيوب تعمل للناس وتجيئه بقوته ، فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلا يستعملها أحد ، فالتمست له يوماً من الأيام ما تطعمه فما وجدت شيئاً ، فجزت قرناً من رأسها فباعته برغيف فأتته به ، فقال لها : أين قرنك ، فأخبرته فحينئذٍ قال : مسني الضرّ ، وقال قوم : إنما قال ذلك حين قصد الدود إلى قلبه ولسانه ، فخشي أن يمتنع عن الذكر والفكر ، وقال حبيب بن أبي ثابت : لم يدع الله تعالى بالكشف حتى ظهرت له ثلاثة أشياء .

أحدها : قدم عليه صديقان حين بلغهما خبره ، فجاءا إليه ولم تبق إلا عيناه ، ورأيا أمراً عظيماً فقالا : لو كان عند الله لك منزلة ما أصابك هذا .

والثاني : أنّ امرأته طلبت طعاماً .

فلم تجد ما تطعمه ، فباعت ذؤابتها ، وحملت إليه طعاماً .

(294/516)

والثالث : قول إبليس إني أداويه على أن يقول : أنت شفيتني ، وقيل : إن إبليس وسوس إليه أن امرأته زنت ، فقطعت ذؤابتها فحينئذٍ عيل صبره ، وحلف ليضربنها مائة جلدة ، وقيل معناه مسني الضرّ من شماتة الأعداء ، وقيل : قال ذلك حين وقعت دودة من فخذه فردّها إلى موضعها ، وقال : كلي جعلني الله طعامك ، فعضته عضة زاد ألمها على جميع ما قاسى من عض الديدان فإن قيل : إن الله تعالى سماه صابراً ، وقد أظهر الشكوى والجزع بقوله : أني مسني الضرّ ، ومسني الشيطان بنصب ؟

أجيب : بأن هذا ليس بشكاية إنما هو دعاء بدليل قوله تعالى:

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾

﴿ فاستجبنا له ﴾ والجزع إنما هو الشكوى إلى الخلق ، وأما الشكوى إلى الله تعالى ، فلا

يكون جزعاً ، ولا ترك صبر ، كما قال يعقوب عليه السلام : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ (يوسف ،)

وقال سفيان بن عيينة من أظهر الشكوى إلى الناس وهو راض بقضاء الله تعالى لا يكون ذلك جزعاً ، كما روي "أن جبريل عليه السلام دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : كيف تجدك ، قال : أجدني مغموماً أجدني مكروباً" ، وقال صلى الله عليه وسلم "لعائشة رضي الله تعالى عنها حين قالت : وارأساه ، بل أنا وارأساه" وروي أن امرأة أيوب قالت له يوماً : لو دعوت الله فقال لها : كم كانت مدّة الرخاء ، فقالت : ثمانين سنة ، فقال : أستحي من الله أن أدعوه وما بلغت مدّة بلائي مدّة رخائي ، ثم تسبب عن الإجابة قوله تعالى : ﴿ فكشفنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ ما به من ضرّ ﴾ بأن أمرناه أن يركض برجله فتنبع له عين من ماء كما قال تعالى : ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ (ص ،)

(295/516)

فركض برجله ، فانفجرت له عين ماء فدخل فيها فاغتسل ، فأذهب الله تعالى كل ما كان به من البلاء بظاهره ، ثم مشى أربعين خطوة ، فأمره أن يضرب برجله الأرض مرّة أخرى ،

ففعل ، فنبع عين ماء بارد ، فأمره فشرب منها فذهب كل داء كان بباطنه ، فصار كأصح ما يكون من الرجال وأجملهم ، فأقبلت امرأته تلتمسه في مضجعه ، فلم تجده ، فقامت كالوالهة ، ثم جاءت إليه وهي لا تعرفه ، فقالت : يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان ههنا ؟ قال : نعم وما لي لا أعرفه ، فتبسم وقال : أنا هو ، فعرفته بضحكه ، فاعتنقته قال ابن عباس : فوالذي نفس عبد الله بيده ما فارقته من عناقه حتى ردّ لهما كل ما كان لهما كما قال تعالى : ﴿ وآتيناه أهله ﴾ أي : أولاده الذكور والإناث بأن أحيوا له وكل من الصنفين ثلاث أو سبع ﴿ ومثلهم معهم ﴾ أي : من زوجته رحمة ، وزيد في شبابها هذا ما دل عليه أكثر المفسرين ، وقيل : آتاه الله تعالى المثل من نسل ماله وولده الذي رده إليه ، أي : فولد له من ولده نوافل ، وقال : وهب كان له سبع بنات ، وثلاثة بنين ، وروى الضحاك عن ابن عباس رد إلى امرأته شبابها ، فولدت له ستة وعشرين ذكراً ، وقال قوم : آتى الله تعالى أيوب في الدنيا مثل أهله الذين هلكوا ، فأمّا الذين هلكوا فإنهم لم يردّوا عليه في الدنيا ، وقال عكرمة : قيل لأيوب : إنّ أهلك لك في الآخرة ، وإن شئت عجلناهم لك في الدنيا ، وإن شئت كانوا لك في الآخرة ، وآتيناك مثلهم في الدنيا ، فعلى هذا يكون معنى الآية : وآتيناه أهله في الآخرة ومثلهم معهم في الدنيا ، فقال : يكونون لي في الآخرة ، وأوتي مثلهم في الدنيا ، وروي عن أنس يرفعه "كان لأيوب أندران ؛ أندر للقمح ، وأندر للشعير ، فبعث الله تعالى سحابتين ، فأفرغت إحداهما على أندر القمح الذهب ، وأفرغت

الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض" وروي أن الله تعالى بعث إليه ملكاً فقال : إن ربك يقرئك السلام بصبرك فاخرج إلى أندرك فخرج إليه فأرسل عليه جراداً من ذهب قيل

(296/516)

: إنه لما اغتسل

وخرج الدود منه جعل الله تعالى لها أجنحة ، فطارت فجعلها الله تعالى جراداً من ذهب ، وأمطرت عليه ، فطارت واحدة فاتبعها وردّها إلى أندره ، فقال له الملك : أما يكفيك ما في أندرك ، فقال : هذا بركة من بركات ربي ، ولا أشبع من بركته ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "بينما أيوب يغتسل عرياناً خرَّ عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب يحثي في ثوبه فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك" ، وقوله تعالى : ﴿ رحمة ﴾ مفعول له : أي : نعمة عظيمة وفخمها بقوله تعالى : ﴿ من عندنا ﴾ بحيث لا يشك من ينظر ذلك أنا ما فعلناه إلا رحمة منا له ، وإنّ غيرنا لا يقدر على ذلك ﴿ وذكرى ﴾ أي : عظمة عظيمة ﴿ للعابدين ﴾ أي : كلهم ليتأسوا به ، فيصبروا إذا ابتلوا ولا يظنوا أنّ ذلك إنما نزل بهم لهوانهم ، ويشكروا فيثابوا كما أثيب ، وقيل : لرحمتنا العابدين فإنا نذكرهم بالإحسان ولا

ننساهم .ا

القصة السابعة : قصة إسماعيل وإدريس وذي الكفل المذكورة في قوله تعالى:

﴿ وإسماعيل ﴾ أي : واذكر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام الذي سخرنا له من الماء بواسطة الروح الأمين ما عاش به صغيراً بعد ما كان هالكاً لا محالة ، ثم جعلناه طعام طعم وشفاء سقم دائماً وصناه وهو كبير من الذبح حين رأى أبوه في المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء وحي ، ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ (الصافات ،)

(297/516)

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إدريس ﴾ أي : ابن شيث بن آدم عليهم السلام الذي أحييناه بعد موته ورفعناه مكاناً عليا وهو أوّل نبيّ بعث من بني آدم عليهم السلام وتقدّمت قصته في سورة مريم ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ ذا الكفل ﴾ سمي بذلك قال عطاء : لأن نبياً من أنبياء بني إسرائيل أوحى الله تعالى إليه أني أريد أن أقبض روحك ، فاعرض ملكك على بني إسرائيل ، فمن تكفل لك أن يصلي بالليل لا يفتر ويصوم بالنهار لا يفطر ، ويقضي بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك إليه ، ففعل ذلك ، فقام شاب فقال : أنا أتكفل لك بهذا ، فتكفل ووفى به ، فشكر الله له ، ونبأه فسمي ذا الكفل ، وقال مجاهد لما كبر إليسع قال : لو أني استخلفت

رجلاً من الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل قال : فجمع الناس ، فقال : من يقبل مني ثلاثاً أستخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب ، فقام رجل فقال : أنا ، فاستخلفه ، فأتاه إبليس في صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة ، وكان لا ينام بالليل والنهار إلا تلك النومة ، فدق الباب فقال : من هذا ؟ فقال : شيخ كبير مظلوم ، فقام ففتح الباب فقال : إنّ بيني وبين قومي خصومة ، وإنهم ظلموني ، وفعلوا ما فعلوا ، وجعل يطوّل حتى ذهبت القائلة ، فقال : إذا رحت فأتني فإني آخذ حقك ، فانطلق وراح فكان في مجلسه ينظر هل يرى الشيخ ، فلم يره فقام يتبعه فلم يجده ، فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينظره ، فلم يره .

(298/516)

فلما رجع إلى القائلة ، وأخذ مضجعه أتاه ، فدق الباب ، فقال من أنت ؟ فقال : الشيخ المظلوم ، ففتح له وقال : ألم أقل لك إذا قعدت فأتني ، فقال : إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا : نحن نعطيك حقك ، وإذا قمت جحدوني قال : فانطلق فإذا جلست فأتني وفاتته القائلة ، فلما جلس جعل ينظر فلا يراه ، وشق عليه النعاس فلما كان اليوم الثالث قال لبعض أهله : لا تدعوا هذا الرجل يقرب من هذا الباب حتى أنام ، فإنه قد شق عليّ

النعاس ، فلما كانت تلك الساعة جاء ، فلم يأذن له الرجل فلما أعياه نظر ، فرأى كوّة في البيت فتسور منها فإذا هو في البيت يدق عليه الباب من داخل فاستيقظ فقال : يا فلان ألم آمرك قال : أما من قبلي فلم توّت فانظر من أين أتيت فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه وإذا بالرجل معه في البيت ، فقال : أتنام والخصوم ببابك ، فقال : أعدوّ الله قال : نعم أعييتني ففعلت ما ترى لأغضبك ، فعصمك الله تعالى ، فسمي ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به ، وقيل إن إبليس جاءه وقال : إن لي غريماً يظلمني ، فأحب أن تقوم معي وتستوفي حقي منه ، فانطلق معه حتى إذا كان في السوق خلاه وذهب وروي أنه اعتذر إليه وقال صاحبي هرب وقيل : إن ذا الكفل رجل كفل أن يصلي كل ليلة مائة ركعة إلى أن يقبضه الله تعالى ، فوفى به واختلفوا في أنه هل كان نبياً ؟ فقال الحسن : كان نبياً ، وعن ابن عباس أنه إلياس ، وقيل : هو زكريا ، وقيل : هو يوشع بن نون ، وقال أبو موسى : لم يكن نبياً ، ولكن كان عبداً صالحاً ، ولما قرن الله تعالى بين هؤلاء الثلاثة استأنف مدحهم بقوله تعالى ﴿ كلٌّ ﴾ أي : كل واحد منهم ﴿ من الصابرين ﴾ على ما ابتليناه به فآتيناهم ثواب الصابرين

(299/516)

﴿ وأدخلناهم في رحمتنا ﴾ أي : فعلنا بهم من الإحسان ما يفعله الراحم بمن يرحمه على وجه عمهم من جميع جهاتهم ، فكان ظرفاً لهم ، ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ إنهم من الصالحين ﴾ أي : لكل ما يرضاه تعالى منهم يعني أنهم جبلوا جبلة خير ، فعملوا على مقتضى ذلك فكانوا من الكاملين في الصلاح وهم الأنبياء لأنّ صلاحهم معصوم عن كدر الفساد .

القصة الثامنة : قصة يونس عليه الصلاة والسلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ وذا النون ﴾ أي : واذكر صاحب الحوت وهو يونس بن متى ويبدل منه ﴿ إذ ذهب مغاضباً ﴾ واختلفوا في معنى ذلك ، فقال الضحاك : مغاضباً لقومه ، وهو رواية العوفي وغيره عن ابن عباس قال : كان قوم يونس يسكنون فلسطين ، فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقي سبطان ونصف ، فأوحى الله تعالى إلى شعيب النبيّ عليه السلام أن سر إلى حزقيل الملك وقل له يوجه نبياً قوياً إلى هؤلاء فإني ألقي في قلوبهم الرعب حتى يرسلوا معه بني إسرائيل فقال له الملك فمن ترى ؟ وكان في مملكته خمسة أنبياء فقال يونس : فإنه قويّ أمين ، فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال يونس : هل أمرك الله بإخراجي قال : لا قال : فهل سماني لك ، قال : لا ، قال : فههنا أنبياء غيري أقوياء فألحوا عليه ، فخرج من بينهم مغاضباً للنبيّ والملك ولقومه ، فأتى بحر الروم فركبه ، وقال عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وجماعة ذهب عن قومه مغاضباً لربه إذا كشف عن قومه العذاب

بعد ما وعدهم به وكره أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما وعدهم واستحيا منهم ، ولم يعلم السبب الذي رفع به العذاب عنهم ، وكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده وأن يسمى كذاباً لا كراهية الحكم لله تعالى .

وفي بعض الأخبار أنه كان من عادة قومه أن يقتلوا من جرب عليه الكذب ، فخشي أن يقتلوه لما لم يأتهم العذاب للميعاد ، فغضب والمغاضبة ههنا من المفاعلة التي تكون من واحد كالمنافرة والمعاقبة ، فمعنى قوله مغاضباً أي : غضباناً .

(300/516)

وقال الحسن : إنما غاضب ربه من أجل أنه أمره بالمسير إلى قوم لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه ، فسأل ربه أن ينظره ليذهب ، فقيل له : إن الأمر أسرع من ذلك حتى سأله أن ينظره إلى أن يأخذ نعلاً يلبسها ، فلم ينظره ، وكان في خلقه ضيق ، فذهب مغاضباً ، وعن ابن عباس قال : أتى جبريل يونس فقال : انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم ، قال التمس دابة قال : الأمر أعجل من ذلك ، فغضب فانطلق إلى السفينة وقال وهب : إنّ يونس كان عبداً صالحاً ، وكان في خلقه ضيق ، فلما حمل عليه أثقال النبوّة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل ، فقذفها بين يديه وخرج هارباً ، فلذلك أخرجه الله تعالى من أولي العزم ، فقال

تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ (الأحقاف ،) ، وقال : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ (القلم ،)

﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ أي : لن نقضي عليه بالعقوبة قاله مجاهد وقتادة والضحاك ، وقال عطاء وكثير من العلماء معناه ، فظن أن لن نضيق عليه الحبس من قوله تعالى : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ﴾ (الرعد ،)

وعن ابن عباس أنه دخل على معاوية فقال : لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها ، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك ، قال : وما هي يا معاوية ؟ فقرأ هذه الآية فقال : أويظن نبيّ الله أن لن يقدر عليه ، قال هذا من القدر الذي معناه الضيق لا من القدرة ، وقال ابن زيد : هو استفهام معناه أفظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه ﴿ فنادى ﴾ أي : فاقتضت حكمتنا أن عاتبناه حتى يستسلم ، فألقى نفسه في البحر ، فالتقمه الحوت ، فمكث فيه أربعين من بين يوم وليلة ، وقال عطاء : سبعة أيام .

(301/516)

وقيل : إن الحوت ذهب به مسيرة ستة آلاف سنة ، وقيل : بلغ به تخوم الأرض السابعة ، ومنعناه أن يكون له طعاماً ، فنادى ﴿ في الظلمات ﴾ ظلمة الليل وظلمة البحر ، وظلمة

بطن الحوت وقيل : في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت كقوله تعالى : ﴿ ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات ﴾ (البقرة ،)

وقوله : ﴿ يخرجهم من النور إلى الظلمات ﴾ (البقرة ،) ، وقيل : ابتلع حوته حوت أكبر منه فجعل في ظلمتي بطن الحوتين ، وظلمة البحر ﴿ أن لا إله إلا أنت ﴾ ولما نزهه عن الشريك عمم فقال تعالى : ﴿ سبحانك ﴾ أي : تنزهت عن كل نقص فلا يقدر على الإنجاء مما أنا فيه إلا أنت ، ثم أفصح بطلب الخلاص بقوله ناسباً إلى نفسه من النقص ما نزه الله عن مثله ﴿ إني كنت من الظالمين ﴾ أي : في خروجي من بين قومي قبل الإذن فاعف عني كما هي سيرة القادرين . روي عن أبي هريرة مرفوعاً "أوحى الله تعالى إلى الحوت أن خذه ، ولا تخدش له لحماً ، ولا تكسر له عظماً ، فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه في البحر ، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه : ما هذا ، فأوحى الله تعالى إليه أنّ هذا تسبيح دواب البحر ؛ قال : فسبح هو في بطن الحوت فسمع الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة ، وفي رواية صوتاً معروفاً من مكان مجهول ، فقال ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت ، فقالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا فيه عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال تعالى فنبذناه بالعراء وهو سقيم" فذلك قوله تعالى:

﴿ فاستجبنا له ﴾ أي : أجبناه ﴿ ونجيناه من الغم ﴾ أي : من تلك الظلمات بتلك

الكلمات ﴿ وكذلك ﴾ أي : وكما نجيناه ﴿ ننجي المؤمنين ﴾ من كربهم إذا استغاثوا بنا داعين قال الرازي في اللوامع : وشرط كل من يلتجىء إلى الله أن يبدأ بالتوحيد ثم بعده بالتسبيح والثناء ، ثم بالاعتراف والاستغفار والاعتذار ، وهذا شرط كل داع . ه .

(302/516)

وعن النبي صلى الله عليه وسلم "ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له" ، وعن الحسن ما نجاه والله إلا إقراره على نفسه بالظلم ، وقرأ ابن عامر وأبو بكر بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم على أنّ أصله ننجي ، فحذفت النون الثانية كما حذفت التاء الثانية في تظاهرون ، وهي إن كانت فاء فحذفها أوقع من حذف حرف المضارعة الذي لمعنى وقيل : هو ماض مجهول أسند إلى ضمير المصدر وهو النجاء ، وقرأ الباقون بنونين الثانية مخفاة عند الجيم .

تنبيه : اختلفوا في متى كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس كانت بعد أن أخرجه الله تعالى من بطن الحوت بدليل قوله تعالى في سورة والصافات : ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ (الصافات ،) ، ثم ذكر بعده : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ (الصافات ،) ، وقال آخرون : إنها كانت من قبل بدليل قوله تعالى :

﴿ وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ (الصافات ،)

القصة التاسعة : قصة زكريا عليه الصلاة والسلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ وزكريا ﴾ أي : واذكر زكريا ويبدل منه ﴿ إذ نادى ربه ﴾ نداء الحبيب القريب فقال : ﴿ رب ﴾ بإسقاط أداة البعد ﴿ لا تذرني فرداً ﴾ أي : وحيداً من غير ولد ذكر يرث ما آتيتني من الحكمة ﴿ وأنت ﴾ أي : والحال أنك ﴿ خير الوارثين ﴾ أي : الباقي بعد فناء خلقك ، وكثيراً ما تمنح إرث بعض عبيدك عبيداً آخرين ، فأنت الحقيق بأن تفعل في إرثي من العلم والحكمة ما أحب ، فتهبني ولداً تمنّ عليَّ به

(303/516)

﴿ فاستجبنا له ﴾ بعظمتنا وإن كان في حدّ من السن لا حراك به معه ، وزوجه في حال من العقم لا يرجى معه حبلها فكيف وقد جاوزت سن اليأس ، ولذلك عبر بما يدل على العظمة ، فقال تعالى : ﴿ ووهبنا له يحيى ﴾ ولداً وارثاً نبياً حكيماً عظيماً ﴿ وأصلحنا له ﴾ خاصة من بين أهل ذلك الزمان ﴿ زوجه ﴾ أي : جعلناها صالحة لكل خير خالصة

له ، فأصلحناها للولادة بعد عقمها ، وأصلحناها لزكريا بعد أن كانت سريعة الغضب سيئة الخلق ، فأصلحناها له ورزقناها حسن الخلق ﴿ إنهم ﴾ أي : الأنبياء الذين سماهم في هذه السورة وقيل : زكريا وزوجه ويحيى ﴿ كانوا ﴾ أي : جبلة وطبعاً ﴿ يسارعون في الخيرات ﴾ أي : الطاعات يبالغون في الإسراع بها مبالغة من يسابق آخر ، ودل على عظيم أفعالهم بقوله تعالى : ﴿ ويدعوننا ﴾ مستحضرين لجلالنا وعظمتنا وكمالنا ﴿ رغباً ﴾ أي : طمعاً في رحمتنا ﴿ ورهباً ﴾ أي : خوفاً من عذابنا ﴿ وكانوا ﴾ أي : جبلة وطبعاً ﴿ لنا ﴾ خاصة ﴿ خاشعين ﴾ أي : خائفين خوفاً عظيماً يحملهم على الخضوع والانكسار ، قال مجاهد : الخشوع هو الخوف اللازم للقلب ، وقيل : متواضعين ، وسئل الأعمش عن هذه الآية فقال : أما إني سألت إبراهيم فقال : ألا تدري ؟ قلت : أفدني ، قال : بينه وبين الله إذا أرخى ستره عليه وأغلق بابه فليرا الله منه خيراً لعلك ترى أنه يأكل خشناً ويلبس خشناً ويطأطىء رأسه .

القصة العاشرة : قصة مريم وابنها عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ والتي ﴾ أي : واذكر مريم التي ﴿ أحصنت فرجها ﴾ أي : حفظته من الحلال والحرام حفظاً يحق له أن يذكر ويتحدّث به كما قال تعالى حكاية عنها ، ﴿ ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً ﴾ (مريم ،)

؛ لأنّ ذلك غاية في العفة والصيانة والتخلي عن الملاذ إلى الانقطاع إلى الله تعالى بالعبادة مع ما جمعت مع ذلك من الأمانة والاجتهاد في متانة الديانة والصحيح أنها ليست بنبية

﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ أي : أمرنا جبريل حتى نفخ في جيب درعها فأحدثنا بذلك النفخ المسيح في بطنها ، وأضاف الروح إليه تعالى تشريفاً لعيسى عليه السلام كبيت الله وناقة الله .

ثم بيّن تعالى ما خص مريم وعيسى من الآيات فقال تعالى : ﴿ وجعلناها وابنها ﴾ أي : قصتهما أو حالهما ، ولذلك وحد قوله تعالى : ﴿ آية للعالمين ﴾ من الجنّ والإنس والملائكة ، وإنّ تأمّل حالهما تحقق كمال قدرة الله تعالى فإن قيل : هلا قال تعالى آيتين كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ﴾ (الإسراء ،)

أجيب : بما تقدّم وبأن الآية كانت فيهما واحدة وهي أنها أتت به من غير فحل .

وههنا آخر القصص . ولما دل ما مضى من قصص هؤلاء الأنبياء عليهم السلام أنهم كلهم متفقون على التوحيد الذي هو أصل الدين قال تعالى:

﴿ إن هذه ﴾ أي : ملة الإسلام ﴿ أمّتكم ﴾ أي : دينكم أيها المخاطبون أي : يجب أن تكونوا عليها حال كونها ﴿ أمة ﴾ قال البغوي وأصل الأمّة الجماعة التي هي على مقصد واحداً . ه فجعل الشريعة أمّة لاجتماع أهلها على مقصد واحداً . ه ثم أكد سبحانه

وتعالى هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿ واحدة ﴾ فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان ﴿ وأنا ربكم ﴾ أي : المحسن إليكم لا غيري في كل زمان فإني لا أتغير على طول الدهر ، ولا يشغلني شأن عن شأن ﴿ فاعبدون ﴾ دون غيري فإنه لا كفء لي ، ثم إنّ بعضهم خالف الأمر بالاجتماع كما أخبر الله تعالى

﴿ وتقطعوا ﴾ أي : بعض المخاطبين ﴿ أمرهم بينهم ﴾ أي : تفرقوا أمر دينهم متخالفين فيه وهم طوائف اليهود والنصارى ؛ قال الكلبي : فرّقوا دينهم بينهم يلعن بعضهم بعضاً ويتبرأ بعضهم من بعض .

(305/516)

تنبيه : الأصل وتقطعتم إلا أنّ الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ، ويقبح عليهم فعلهم عندهم ، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى ، والمعنى : جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما يتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه بينهم ، فيصير لهذا نصيب ، ولذاك نصيب تمثيلاً لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى ، ثم توعدهم بقوله تعالى : ﴿ كلٌّ ﴾ أي : من هذه الفرق وإن بالغ في التمرّد ﴿ إلينا ﴾ يوم القيامة ﴿ راجعون ﴾ فنحكم بينهم فيتسبب عن

ذلك أنّا نجازيهم إقامة للعدل ، فنعطي كلاً من المحق التابع لأصفيائنا والمبطل المائل إلى الشياطين أعدائنا ما يستحقه ، وذلك هو معنى قوله تعالى فارقاً بين المحسن والمسيء تحقيقاً للعدل وتشويقاً إلى الفضل

﴿ فمن يعمل ﴾ أي : منهم الآن ﴿ من الصالحات وهو ﴾ أي : والحال أنه ﴿ مؤمن ﴾ أي : يأتي بعمله على الأساس الصحيح ﴿ فلا كفران ﴾ أي : لا جحود ﴿ لسعيه ﴾ بل يشكر ويثاب عليه .

تنبيه : قوله تعالى : فلا كفران نفى الجنس ليكون أبلغ من أن يقول : فلا نكفر سعيه ﴿ وإنّا له ﴾ أي : لسعيه ﴿ كاتبون ﴾ أي : مثبتون في صحيفة عمله وما أثبتناه فهو غير ضائع فلا يفقد منه شيئاً قل أو جل ، ومن المعلوم أنّ قسيمه وهو من يعمل من السيئات وهو كافر ، فلا نقيم له وزناً ، ومن يعمل منها وهو مؤمن فهو تحت مشيئتنا قال البقاعيّ : ولعله حذف هذين القسمين ترغيباً في الإيمان ، ولما كان هذا غير صريح في أنَّ هذا الرجوع بعد الموت بيّنه بقوله تعالى:

﴿ وحرام ﴾ أي : ممنوع ﴿ على قرية ﴾ أي : أهلها ﴿ أهلكناها ﴾ أي : بالموت ﴿ أنهم لا يرجعون ﴾ أي : إلينا بأن يذهبوا تحت التراب باطلاً من غير إحباس بل إلينا بموتهم راجعون فحبسناهم في البرزخ منعمين أو معذبين نعيماً أو عذاباً دون النعيم والعذاب الأكبر .

تنبيه : ما قدّرناه في الآية هو ما جرى عليه البقاعيّ والذي قدّره الزمخشري أنَّ معنى أهلكناها عزمنا على إهلاكها ، أو قدّرنا إهلاكها ، ومعنى الرجوع الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة ، فتكون لا مزيدة والذي قدّره الجلال المحلي أنّ لا زائدة أي : يمتنع رجوعهم إلى الدنيا فيكون الإهلاك بالموت ، وهذا قريب مما قاله ابن عباس فإنه قال : وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك ، فجعل لا زائدة قال البغويّ وقال آخرون : الحرام بمعنى الواجب ، فعلى هذا يكون لا ثابتاً ومعناه واجب على أهل قرية أهلكناهم أي : حكمنا بهلاكهم أن لا تتقبل أعمالهم لأنهم لا يرجعون أي : لا يتوبون والدليل على هذا المعنى أنه تعالى قال في الآية التي قبلها : ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ﴾ أي : يتقبل عمله ، ثم ذكر هذه الآية عقبه وبين أنّ الكافر لا يتقبل عمله انتهى والذي قدّره البيضاوي قريب مما قدّره الزمخشري وكل هذه التقادير صحيحة ؛ لكن الأوّل أظهر ، وقرأ شعبة وحمزة والكسائي بكسر الحاء وسكون الراء والباقون بفتح الحاء والراء وألف بعد الراء قال البغوي : وهما لغتان مثل حل وحلال ، وقوله تعالى:

﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ متعلق كما قال الزمخشري بحرام وحتى غاية له ؛ لأن امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة وهي حتى التي يحكى بعدها الكلام أي : فهي الابتدائية لا الجارّة ولا العاطفة والمحكي هو الجملة الشرطية ، وقرأ ابن عامر بتشديد التاء بعد الفاء والباقون بالتخفيف ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان اسم لقبيلتين من جنس الإنس ويقدر قبله مضاف أي : سدّهما ، وذلك قرب الساعة يقال الناس عشرة أجزاء ؛ تسعة منها يأجوج ومأجوج ، وقرأهما عاصم بهمزة ساكنة والباقون بالألف ، ثم عبّر عن كثرتهم التي لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى بقوله تعالى : ﴿ وهم ﴾ أي : والحال أنهم ﴿ من كل حدب ﴾ أي : نشز عال من الأرض ﴿ ينسلون ﴾ أي : يسرعون من النسلان ، وهو تقارب الخطا مع السرعة كمشي الذئب ، وفي العبارة إيماء إلى أنّ الأرض كرة ، وقيل : الضمير راجع إلى الناس المسوقين إلى المحشر . روي عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : "اطلع النبيّ صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر الساعة فقال صلى الله عليه وسلم ما تتذاكرون ؟ قلنا : نتذاكر الساعة ، قال : إنها لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر الدجال والدخان والدابة وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى

محشرهم"

﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ أي : يوم القيامة ؛ قال حذيفة : لو أنّ رجلاً اقتنى فلواً بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة ﴿ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ قال الكلبيّ : شخصت أبصار الكفار فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم .

(308/516)

تنبيه : فإذا هي إذا للمفاجأة وهي تقع في المجازاة سادّة مسدّ الفاء كقوله تعالى : ﴿ إذا هم يقنطون ﴾ (الروم ،) ، فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط ، فيتأكد ، ولو قيل : إذا هي شاخصة أو فهي شاخصة كان سديداً ، قال سيبويه : والضمير للقصة بمعنى فإذا القصة شاخصة يعني القصة أنّ أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك ، وقال الزمخشري : هي ضمير مبهم توضحه الأبصار ، وتفسره كما فسر الذين ظلموا وأسروا النجوى وقولهم : ﴿ يا ويلنا ﴾ أي : هلاكنا متعلق بمحذوف تقديره : يقولون يا ويلنا ، ويقولون في موضع الحال من الذين كفروا ويا للتنبيه ﴿ قد كنا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ في غفلة من هذا ﴾ أي : اليوم حيث كذبنا وقلنا : إنه غير كائن ، ثم أضربوا عن الغفلة فقالوا : ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ أنفسنا بعدم اعتقاده واضعين الشيء في غير موضعه حيث أعرضنا

عن تأمّل دلائله ، والنظر في مخايله ، وكذبنا الرسل وعبدنا الأوثان ، وقوله تعالى:

d

﴿ إنكم ﴾ خطاب لأهل مكة ، وأكده لإنكارهم مضمون الخبر ﴿ وما تعبدون من دون الله ﴾ أي : غيره من الأوثان ﴿ حصب جهنم ﴾ أي : وقودها ، وهو ما يرمى به إليها وتهيج به من حصبه يحصبه إذا رماه بالحصب والحصب في لغة أهل اليمن الحطب ، وقال عكرمة : هو الحطب بالحبشية قال الضحاك : يعني يرمون بهم في النار كما يرمى بالحصب ، وقوله تعالى : ﴿ أنتم لها واردون ﴾ أي : داخلون استئناف أو بدل من حصب جهنم ، واللام معوضة من على للاختصاص والدلالة على أنّ ورودهم لأجلها

﴿ لو كان هؤلاء ﴾ أي : الأوثان ﴿ آلهة ﴾ أي : كما زعمتم ﴿ ما وردوها ﴾ أي : ما دخل الأوثان وعابدوها النار ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بإبدال الهمزة الثانية ياءً خالصة في الوصل بعد تحقيق الأولى ، والباقون بتحقيقهما ﴿ وكل ﴾ أي : من العابدين والمعبودين ﴿ فيها ﴾ أي : في جهنم ﴿ خالدون ﴾ لا انفكاك لهم عنها بل يحمى بكل منهم فيها على الآخر فإن قيل : لم قرنوا بآلهتهم ؟

أجيب : بأنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة حيث أصابهم ما أصابهم بسببهم والنظر إلى وجه العدوّ باب من العذاب ؛ لأنهم قدروا أنهم يستشفعون في الآخرة وينتفعون بشفاعتهم ، فإذا صادفوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شيء أبغض إليهم منهم .

فإن قيل : إذا عنيت بما تعبدون الأوثان فما معنى قوله تعالى:

﴿ لهم فيها زفير ﴾ أي : تنفس عظيم على غاية من الشدّة والمد تكاد تخرج معه النفس ؟

أجيب : بأنهم إذا كانوا هم وأوثانهم في قرن واحد جاز أن يقال لهم : زفير ، وإن لم يكن الزافرون إلا هم دون الأوثان للتغليب ولعدم الإلباس ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ شيئاً لشدّة غليانها ، وقال ابن مسعود في هذه الآية : إذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار ، ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخرى عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيئاً ، ولا يرى أحد منهم أنّ أحداً يعذب في النار غيره ، وروي "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجلس إليهم ، فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا عليهم إنكم وما تعبدون من دون الله الآية ، فأقبل عبد الله بن الزبعري السلمي ، فرآهم يتهامسون فقال : فيم خوضكم ، فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله : أما والله لو وجدته لخصمته ، فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن الزبعري : أأنت قلت ذلك ؟ قال : نعم ، قال :

قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى عبدوا المسيح ، وبنو مليح عبدوا الملائكة ، فقال صلى الله عليه وسلم بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك ، فأنزل الله تعالى:

(310/516)

﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ أي : الحكم بالموعدة البالغة في الحسن في الأزل ، ومنهم من ذكر سواء أضل بأحد منهم الكفار فأطروه أم لا ﴿ أولئك ﴾ أي : العالو الرتبة ﴿ عنها ﴾ أي : جهنم ﴿ مبعدون ﴾ برحمة الله تعالى لأنهم أحسنوا في العبادة واتقوا ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، وفي رواية ابن عباس "أن ابن الزبعرى لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم ذلك سكت ولم يجب ، فضحك القوم ، فنزل قوله تعالى : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدّون وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾ ، ونزل في عيسى والملائكة أن الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية ، وقد أسلم ابن الزبعري بعد ذلك رضي الله تعالى عنه ، ومدح النبي صلى الله عليه وسلم وادّعى جماعة أنّ المراد من الآية الأصنام ؛ لأنّ الله تعالى قال : وما تعبدون من دون الله ، ولو أراد الملائكة والناس لقال : ومن تعبدون ، يروى أن علياً رضي الله تعالى عنه قرأ

هذه الآية ثم قال : أنا منهم ، وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابن الجراح ، ثم أقيمت الصلاة فقام يجرّ رداءه وهو يقول:

﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ أي : حركتها البالغة وصوتها الشديد ، فكيف بما دونه ؛ لأنّ الحس مطلق الصوت أو الصوت الخفي كما قاله البغوي ، فإذا زادت حروفه زاد معناه ، فذكر ذلك بدلاً من مبعدون أو حال من ضميره للمبالغة في إبعادهم عنها ﴿ وهم ﴾ أي : الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴿ في ما اشتهت أنفسهم ﴾ في الجنة كما قال تعالى :

﴿ وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴾ (الزخرف ،)

والشهوة طلب النفس اللذة ﴿ خالدون ﴾ أي : دائماً أبداً في غاية التنعم وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به .

فائدة : في هنا مقطوعة من ما ولما كان معنى ذلك أن سرورهم ليس له زوال أكده بقوله تعالى:

(311/516)

﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ قال الحسن : هو حين يؤمر بالعبد إلى النار ، وقال ابن عباس : هو النفخة الأخيرة لقوله تعالى : ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في

الأرض ﴾ (النمل ،) ، وقال ابن جريج : هو حين يذبح الموت وينادى : يا أهل النار خلود بلا موت ، وقال سعيد بن جبير هو أن تنطبق جهنم ، وذلك بعد أن يخرج الله تعالى منها من يريد أن يخرجه ﴿ وتتلقاهم ﴾ أي : تستقبلهم ﴿ الملائكة ﴾ قال البغوي : على أبواب الجنة يهنونهم ، وقال الجلال المحلي : عند خروجهم من القبور ، ولا مانع أنها تستقبلهم في الحالين ويقولون لهم : ﴿ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ أي : هذا وقت ثوابكم الذي وعدكم ربكم به في الدنيا فأبشروا فيه بجميع ما يسركم ، ولما كانت هذه الأفعال على غاية من الأهوال تتشوّف بها النفس إلى معرفة اليوم الذي تكون فيه قال تعالى:

﴿ يوم ﴾ أي : تكون هذه الأشياء يوم ﴿ نطوي السماء ﴾ طياً ، فتكون كأنها لم تكن ثم صوّر طيها بما يعرفونه ، فقال مشبهاً للمصدر الذي دل عليه الفعل ﴿ كطيّ السجلّ ﴾ ، واختلف في السجلّ فقال بعضهم : هو الكاتب الذي له العلوّ والقدرة على مكتوبه ﴿ للكتاب ﴾ أي : القرطاس الذي يكتبه ويرسله إلى أحد ، وقال السدّي : هو ملك يكتب أعمال العباد ، وقيل : كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم والكتاب على هذه الأقوال اسم للصحيفة المكتوب فيها ، وقال ابن عباس ومجاهد والأكثرون : السجل الصحيفة والمعنى كطيّ الصحيفة على مكتوبها ، والطي هو الدرج ، وهو ضدّ النشر ، وإنما وقع هذا الاختلاف ؛ لأن السجل يطلق على الكتاب وعلى الكاتب قاله في القاموس ، وقرأ حفص وحمزة والكسائي بضم الكاف والتاء على الجمع ، والباقون بكسر الكاف

وفتح التاء ، وبين الكاف والتاء ألف على الإفراد ، فقراءة الإفراد لمقابلة لفظ السماء والجمع للدلالة على أن المراد الجنس ، فجميع السموات تطوى .

(312/516)

روي عن ابن عباس أنه قال : يطوي الله تعالى السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة يطوي ذلك كله بيمينه أي بقدرته ، حتى يكون ذلك بمنزلة خردلة ، وروي عن ابن عباس أنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : "أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً أي : غير مختونين" ﴿كما بدأنا أوّل خلق نعيده﴾ أي : كما بدأناهم في بطون أمهاتهم عراة غرلاً غير مختونين نعيدهم يوم القيامة ؛ نظيره قوله تعالى : ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرّة﴾ (الأنعام ،)

﴿وعداً﴾ وأكد ذلك بقوله تعالى ﴿علينا﴾ وزاده بقوله تعالى : ﴿إنّا كنّا﴾ أي : أزلاً وأبداً على حالة لا تحول ﴿فاعلين﴾ أي : شأننا أن نفعل ما نريد لا كلفة علينا في شيء من ذلك ، ثم إنه تعالى حقق ذلك بقوله تعالى:

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾ قال سعيد بن جبير ومجاهد الزبور جميع كتب الله تعالى المنزلة والذكر أمّ الكتاب الذي عنده ، ومعناه من بعد ما كتب ذكره في اللوح المحفوظ ،

وقال ابن عباس والضحاك : الزبور والتوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد التوراة ، وقال الشعبي : الزبور كتاب داود الذكر التوراة ، وقيل : الزبور كتاب داود عليه السلام ، والذكر القرآن ، وبعد بمعنى قبل كقوله تعالى : ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ (الكهف ،)

أي : أمامهم ، وقوله تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ (النازعات ،)

(313/516)

أي : قبله ، وقرأ حمزة بضم الزاي والباقون بفتحها ﴿ أن الأرض ﴾ أي : أرض الجنة ﴿ يرثها عبادي ﴾ وحقق ذلك ما أفادته إضافتهم إليه بقوله تعالى : ﴿ الصالحون ﴾ أي : المتحققون بأخلاق أهل الذكر ، المقبلون على ربهم الموحدون له ، المشفقون من الساعة ، الراهبون من سطوته ، الراغبون في رحمته ، الخاشعون له ، فهذا عام في كل صالح ، وقال مجاهد : يعني أمّة محمد صلى الله عليه وسلم دليله قوله تعالى : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء ﴾ (الزمر ،)

وقال ابن عباس : أراد أنّ أراضي الكفار يفتحها المسلمون ، وهذا حكم من الله تعالى بإظهار الدين وإعزاز المسلمين ، وقيل : أراد بالأرض الأرض المقدسة ، وقيل : أراد جنس الأرض الشامل لبقاع أرض الدنيا كلها ولأرض المحشر والجنة وغير ذلك مما يعلمه الله تعالى ،

وجرى على هذا البقاعي في تفسيره ، وقرأ حمزة بسكون الياء ، والباقون بفتحها ﴿ إنّ في هذا ﴾ أي : القرآن كما قاله البغوي ﴿ لبلاغاً ﴾ أي : وصولاً إلى البغية ، فإن من اتبع القرآن وعمل به وصل إلى ما يرجو من الثواب ، وقيل : بلاغاً أي : كفاية يقال في هذا الشيء بلاغ وبلغة أي : كفاية ، والقرآن زاد الجنة كبلاغ المسافر ، وقال الرازي : هذا إشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة ﴿ لقوم عابدين ﴾ أي : عاملين به ، وقال ابن عباس : عالمين ، قال الرازي : والأولى أنهم الجامعون بين أمرين ؛ لأن العلم كالشجرة ، والعمل كالثمر والشجر بدون الثمر غير مفيد ، والثمر بدون الشجر غير كائن ، وقال كعب الأحبار هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم أهل الصلوات الخمس ، وشهر رمضان ، ولما كان هذا مشيراً إلى إرشادهم فكان التقدير فما أرسلناك إلا لإسعادهم عطف عليه قوله تعالى:

(314/516)

﴿ وما أرسلناك ﴾ أي : على حالة من الأحوال ﴿ إلا ﴾ على حال كونك ﴿ رحمة للعالمين ﴾ كلهم أهل السموات وأهل الأرض من الجنّ والإنس وغيرهم طائعهم بالثواب وعاصيهم بتأخير العقاب الذي كنا نستأصل الأمم به ، فنحن نمهلهم ونترفق بهم إظهاراً

لشرفك ، وإعلاء لقدرك ، ثم نردّ كثيراً منهم إلى دينك ونجعلهم من أكابر أنصارك وأعاظم أعوانك بعد طول ارتكابهم الضلال ، وارتباكهم في إشراك المحال ، ومن أعظم ما يظهر فيه هذا الشرف في عموم الرحمة وقت الشفاعة العظمى يوم يجمع الله تعالى الأوّلين والآخرين ، وتقوم الملائكة صفوفاً والثقلان وسطهم ، ويموج بعضهم في بعض من شدّة ما هم فيه يطلبون من يشفع لهم فيقصدون أكابر الأنبياء نبياً نبياً عليهم الصلاة والسلام ، فيحيل بعضهم على بعض وكل منهم يقول : لست لها حتى يأتوه صلى الله عليه وسلم فيقول : "أنا لها" ، ويقوم معه لواء الحمد ، فيشفعه الله تعالى ، وهو المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ، فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق أجمعين ، ولما أورد تعالى على الكفار الحجج في أن لا إله سواه وبيّن أنه أرسل رسوله رحمة للعالمين أتبع ذلك بأمره صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

(315/516)

﴿ قل إنما يوحي إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ أي : ما يوحى إلي في أمر الإله إلا وحدانيته وما إلهكم إلا إله واحد لم يوح إلي فيما تدّعون من الشركة غير ذلك فالأوّل من قصر الصفة على الموصوف ، والثاني : من قصر الموصوف على الصفة والمخاطب بهما من يعتقد الشركة

فهو قصر قلب ، وقال الزمخشري : إنما لقصر الحكم على شيء أو لقصر الشيء على حكم كقولك : إنما زيد قائم ، وإنما يقوم زيد ، وقد اجتمع المثالان في هذه الآية ؛ لأن إنما يوحي إلي مع فاعله بمنزلة إنما يقوم زيد وإنما إلهكم إله واحد بمنزلة إنما زيد قائم ، وفائدة اجتماعهما الدلالة على أنّ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله تعالى بالوحدانية انتهى . ولما كان الوحي الوارد على هذه السنن موجباً أن يخلصوا التوحيد لله تعالى قال صلى الله عليه وسلم ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أي : منقادون لما يوحى إلي من وحدانية الإله ، والاستفهام بمعنى الأمر أي : أسلموا

﴿ فإن تولوا ﴾ أي : لم يقبلوا ما دعوتهم إليه ﴿ فقل ﴾ أي : لهم ﴿ آذنتكم ﴾ أي : أعلمتكم بالحرب كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحس منهم بغدرة ، فنبذ إليهم العهد وأشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعاً بذلك ، وقوله : ﴿ على سواء ﴾ حال من الفاعل والمفعول أي : مستوين في الإعلام به لم أطوه عن أحد منكم ولا أستبدّ به دونكم لتتأهبوا ﴿ وإن ﴾ أي : وما ﴿ أدري أقريب ﴾ جدّاً بحيث يكون قربه على ما يتعارفونه ﴿ أم بعيد ما توعدون ﴾ من غلب المسلمين عليكم أو عذاب الله أو القيامة المشتملة عليه ، وإنّ ذلك كائن لا محالة ولا بدّ أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار ، وإن كنت لا أدري متى يكون ذلك ؛ لأنّ الله تعالى لم يعلمني علمه ، ولم يطلعني عليه ، وإنما يعلمه الله تعالى

﴿ إنه ﴾ تعالى ﴿ يعلم الجهر من القول ﴾ أي : مما يجهرون به من العظائم وغير ذلك ، ونبه تعالى على ذلك فإنّ من أحوال الجهر أن ترتفع الأصوات جداً بحيث تختلط ولا يميز بينها ولا يعرف كثير من حاضريها ما قاله أكثر القائلين ، فأعلم سبحانه وتعالى أنه لا يشغله صوت عن آخر ، ولا يفوته شيء من ذلك ولو كثر ﴿ ويعلم ما تكتمون ﴾ مما تضمرونه في صدوركم من الأحقاد للمسلمين ، ونظير ذلك قوله تعالى في أول السورة : ﴿ قل ربي يعلم القول في السماء والأرض ﴾ (الأنبياء ،)

ومن لازم ذلك من المجازاة عليه بما يحق لكم من تعجيل وتأجيل فستعلمون كيف تخيب ظنونكم ويتحقق ما أقول فتنطقون حينئذٍ بأني صادق ولست بساحر ولا شاعر ولا كاهن ، فهو من أبلغ التهديد ، فإنه لا أبلغ من التهديد بالعلم ، ولما كان الإمهال قد يكون نعمة وقد يكون نقمة قال:

﴿ وإن ﴾ أي : وما ﴿ أدري ﴾ أن يكون تأخير عذابكم نعمة لكم كما تظنون أم لا ﴿ لعله ﴾ أي : تأخير العذاب ﴿ فتنة ﴾ أي : اختبار ﴿ لكم ﴾ ليظهر ما يعلمه منكم من السر لغيره لأنّ حالكم حال من يتوقع منه ذلك ﴿ ومتاع ﴾ لكم تتمتعون به ﴿ إلى حين ﴾ أي : بلوغ مدّة آجالكم التي ضربها لكم في الأزل ، ثم يأخذكم بغتة وأنتم لا تشعرون ، ولما كان لله أن يفعل ما يشاء من عدل وفضل ، وكان من العدل جواز تعذيب الله تعالى

الطائع وتنعيم المؤمن العاصي ، وكان صلى الله عليه وسلم قد بلغ الغاية في البيان لهم ، وهم قد بلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه أمر الله تعالى أن يفوّض الأمر إليه تسلية له بقوله تعالى: ﴿ قل رب ﴾ أيها المحسن إليّ ﴿ احكم ﴾ أي : أنجز الحكم بيني وبين قومي ﴿ بالحق ﴾ أي : بالأمر الذي يحق لكل منا من نصر وخذلان ، وقرأ حفص بفتح القاف وألف بعدها ، وفتح اللام بصيغة الماضي على حكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم والباقون بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر فإن قيل : كيف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احكم بالحق والله تعالى لا يحكم إلا بالحق ؟

(317/516)

أجيب : بأن الحق ههنا بمعنى العذاب ، فكأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر ، نظيره قوله : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ (الأعراف ،) ، وقال أهل المعاني : معناه رب احكم بحكمك الحق فحذف الحكم وأقيم الحق مقامه ، والله تعالى يحكم بالحق طلب أم لم يطلب ، ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب في حكمه الحق ﴿ وربنا ﴾ أي : المحسن إلينا أجمعين ﴿ الرحمن ﴾ أي : العام الرحمة لنا ولكم بإدرارها علينا ، ولولا عموم رحمته لأهلكنا أجمعين ، وإن كنا نحن أطعناه لأنّا لا نقدره حقّ قدره ، ﴿ ولو يؤاخذ الله

الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ (فاطر ،)

﴿ المستعان ﴾ أي : المطلوب منه العون ﴿ على ما تصفون ﴾ من كذبكم على الله تعالى في قولكم : اتخذ الله ولداً ، وعليّ في قولكم ساحر ، وعلى القرآن في قولكم شعر قال الرازي : روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول ذلك في حروبه ، ولم يذكر له سنداً ، وأما ما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ اقترب حاسبه الله حساباً يسيراً ، وصافحه وسلم عليه كل نبيّ ذكر اسمه في القرآن" ، فحديث موضوع والله تعالى أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 249. 273 ﴾

(318/516)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93) ﴾

هذا الشوط الأخير في السورة بعد عرض سنن الله الكونية ، الشاهدة بوحدة الخالق ؛ وسنن الله في إرسال الرسل بالدعوات الشاهدة بوحدة الأمة ووحدة العقيدة . . يعرض السياق فيه مشهداً للساعة وأشراطها ، يتبين فيه مصير المشركين بالله ومصير الشركاء ؛

ويتفرد الله ذو الجلال بالتصريف فيه والتدبير .

ثم يقرر سنة الله في وراثة الأرض ، ورحمة الله للعالمين المتمثلة في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

وعندئذ يؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينفض يده منهم ، وأن يدعهم لمصيرهم ، فيترك الحكم لله فيهم ؛ ويستعين به على شركهم وتكذيبهم واستهزائهم ، وانصرافهم إلى اللعب واللهو ، ويوم الحساب قريب .

﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون . فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون . وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ . .

إن أمة الرسل واحدة تقوم على عقيدة واحدة وملة واحدة ، أساسها التوحيد الذي تشهد به نواميس الوجود ؛ والذي دعت إليه الرسل منذ أولى الرسالات إلى أخراها دون تبديل ولا تغيير في هذا الأصل الكبير .

إنما كانت التفصيلات والزيادات في مناهج الحياة القائمة على عقيدة التوحيد ، بقدر استعداد كل أمة ، وتطور كل جيل ؛ وبقدر نمو مدارك البشرية ونمو تجاربها ، واستعدادها لأنماط من التكاليف ومن التشريعات ؛ وبقدر حاجاتها الجديدة التي نشأت من التجارب ، ومن نمو الحياة ووسائلها وارتباطاتها جيلاً بعد جيل .

ومع وحدة أمة الرسل ، ووحدة القاعدة التي تقوم عليها الرسالات . . فقد تقطع أتباعها

أمرهم بينهم ، كأنما اقتطع كل منهم قطعة وذهب بها . وثار بينهم الجدل ، وكثر بينهم الخلاف ، وهاجت بينهم العداوة والبغضاء . . وقع ذلك بين اتباع الرسول الواحد حتى ليقتل بعضهم بعضاً باسم العقيدة . والعقيدة واحدة ، وأمة الرسل كلها واحدة .

(319/516)

لقد تقطعوا أمرهم بينهم في الدنيا . ولكنهم جميعاً سيرجعون إلى الله . في الآخرة : ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ فالمرجع إليه وحده ، وهو الذي يتولى حسابهم ويعلم ما كانوا عليه من هدى أو ضلال :

﴿ فمن يعمل الصالحات وهو مؤمن ، فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون ﴾ . .

هذا هو قانون العمل والجزاء . . لا جحود ولا كفران للعمل الصالح متى قام على قاعدة الأيمان . . وهو مكتوب عند الله لا يضيع منه شيء ولا يغيب .

ولا بد من الأيمان لتكون للعمل الصالح قيمته ، بل ليثبت للعمل الصالح وجوده . ولا بد من العمل الصالح لتكون للإيمان ثمرته ، بل لتثبت للإيمان حقيقته .

إن الإيمان هو قاعدة الحياة ، لأنه الصلة الحقيقية بين الإنسان وهذا الوجود ، والرابطة التي تشد الوجود بما فيه ومن فيه إلى خالقه الواحد ، وترده إلى الناموس الواحد الذي ارتضاه ،

ولا بد من القاعدة ليقوم البناء .

والعمل الصالح هو هذا البناء . فهو منهار من أساسه ما لم يقم على قاعدته .

والعمل الصالح هو ثمرة الإيمان التي تثبت وجوده وحيويته في الضمير . والإسلام بالذات عقيدة متحركة متى تم وجودها في الضمير تحولت إلى عمل صالح هو الصورة الظاهرة للإيمان المضمر . . والثمرة اليانعة للجذور الممتدة في الأعماق .

ومن ثم يقرن القرآن دائماً بين الإيمان والعمل الصالح كلما ذكر العمل والجزاء . فلا جزاء على إيمان عاطل خامد لا يعمل ولا يثمر . ولا على عمل منقطع لا يقوم على الإيمان .

(320/516)

والعمل الطيب الذي لا يصدر عن إيمان إنما هو مصادفة عابرة ، لأنه غير مرتبط بمنهج مرسوم ، ولا موصول بناموس مطرد . وإن هو إلا شهوة أو نزوة غير موصولة بالباعث الأصيل للعمل الصالح في هذا الوجود . وهو الإيمان بإله يرضى عن العمل الصالح ، لأنه وسيلة البناء في هذا الكون ، ووسيلة الكمال الذي قدره الله لهذه الحياة . فهو حركة ذات غاية مرتبطة بغاية الحياة ومصيرها ، لا فلتة عابرة ، ولا نزوة عارضة ، ولا رمية بغير هدف ، ولا اتجاهاً معزولاً عن اتجاه الكون وناموسه الكبير .

والجزاء على العمل يتم في الآخرة حتى ولو قدم منه قسط في الدنيا . فالقرى التي هلكت بعذاب الاستئصال ستعود كذلك حتماً لتنال جزاءها الأخير ، وعدم عودتها ممتنعة ، فهي راجعة بكل تأكيد .

﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ . .

إنما يفرد السياق هذه القرى بالذكر بعد أن قال : ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ لأنه قد يخطر للذهن أن هلاكها في الدنيا كان نهاية أمرها ، ونهاية حسابها وجزائها . فهو يؤكد رجعتها إلى الله ، وينفي عدم الرجعة نفياً قاطعاً في صورة التحريم لوقوعه . وهو تعبير فيه شيء من الغرابة ، مما جعل المفسرين يؤولونه فيقدرون أن ﴿ لا ﴾ زائدة . وأن المعنى هي نفي رجعة القرى إلى الحياة بعد إهلاكها . أو نفي رجوعهم عن غيهم إلى قيام الساعة . وكلاهما تأويل لا داعي له . وتفسير النص على ظاهره أولى ، لأن له وجهه في السياق على النحو الذي ذكرنا .

ثم يعرض مشهداً من مشاهد القيامة يبدؤه بالعلامة التي تدل على قرب الموعد . وهو فتح يأجوج ومأجوج :

﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق ، فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا . يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا ، بل كنا ظالمين . إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ، وكل فيها خالدون . لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون . إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون . يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ . .

وقد قلنا من قبل عند الكلام على يأجوج ومأجوج في قصة ذي القرنين في سورة الكهف : اقتراب الوعد الحق الذي يقرنه السياق بفتح يأجوج مأجوج ، ربما يكون قد وقع بانسياح التتار وتدفقهم شرقاً وغرباً ، وتحطيم المماليك والعروش . . لأن القرآن قد قال منذ أيام الرسول صلى الله عليه السلام – ﴿ اقتربت الساعة ﴾ غير أن اقتراب الوعد الحق لا يحدد زماناً معيناً للساعة . فحساب الزمن في تقدير الله غيره في تقدير البشر ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ إنما المقصود هنا هو وصف ذلك اليوم حين يجيء ، والتقديم له بصورة مصغرة من مشاهد الأرض ، هي تدفق يأجوج ومأجوج من كل حدب في سرعة واضطراب . على طريقة القرآن الكريم في الاستعانة بمشاهدات البشر والترقي

بهم من تصوراتهم الأرضية إلى المشاهد الأخروية .

وفي المشهد المعروض هنا يبرز عنصر المفاجأة التي تبهت المفجوئين !

﴿ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ . .

لا تطرف من الهول الذين فوجئوا به . ويقدم في التعبير كلمة ﴿ شاخصة ﴾ لترسم المشهد وتبرزه !

ثم يميل السياق عن حكاية حالهم إلى إبرازهم يتكلمون ، وبذلك يحيي المشهد ويستحضره :

﴿ يا ويلنا ! قد كنا في غفلة من هذا . بل كنا ظالمين ﴾ . .

(322/516)

وهو تفجع المفجوء الذي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة ؛ فيذهل ويشخص بصره فلا يطرف ، ويدعو بالويل والهلاك ، ويعترف ويندم ، ولكن بعد فوات الأوان !

وحين يصدر هذا الاعتراف في ذهول المفاجأة يصدر الحكم القاطع الذي لا مرد له :

﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ . .

وكأنما هم اللحظة في ساحة العرض ، يردون جهنم هم وآلهتهم المدعاة ؛ وكأنما هم يقذفون

فيها قذفاً بلا رفق ولا أناة ؛ وكأنما تحصب بهم حصباً كما تحصب بالنواة ! وعندئذ يوجه إليهم البرهان على كذب ما يدعون لها من كونها آلهة . يوجه إليهم من هذا الواقع المشهود :

﴿ لو كان هؤلاء ما وردوها ﴾ . .

وهو برهان وجداني ينتزع من هذا المشهد المعروض عليهم في الدنيا ، وكأنما هو واقع في الآخرة . . ثم يستمر السياق على أنهم قد وردوا جهنم فعلاً ، فيصف مقامهم فيها ، ويصور حالهم هناك ؛ وهي حال المكروب المذهوب بإدراكه من هول ما هو فيه :

﴿ وكل فيها خالدون . لهم فيها زفير ، وهم فيها لا يسمعون ﴾ .

وندع هؤلاء لنجد المؤمنين في نجوة من هذا كله ، قد سبقت لهم الحسنى من الله ، وقدر لهم الفوز والنجاة :

﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ . .

ولفظة ﴿ حسيسها ﴾ من الألفاظ المصورة بجرسها لمعناها .

فهو تنقل صوت النار وهي تسري وتحرق ، وتحدث ذلك الصوت المفزع . وإنه لصوت يتفزع له الجلد ويقشعر . ولذلك نجي الذين سبقت لهم الحسنى من سماعه فضلاً على معاناته نجوا من الفزع الأكبر الذي يذهل المشركين . وعاشوا فيما تشتهي أنفسهم من أمن ونعيم .

وتتولى الملائكة استقبالهم بالترحيب ، ومصاحبتهم لتطمئن قلوبهم في جو الفزع المرهوب :

﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة . هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ . .

(323/516)

ويختم المشهد بمنظر الكون الذي آل إليه . وهو يشارك في تصوير الهول الآخذ بزمام القلوب ، وبزمام الكائنات كلها في ذلك اليوم العصيب :

﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ . .

فإذا السماء مطوية كما يطوي خازن الصحائف صحائفه ؛ وقد قضي الأمر ، وانتهى العرض ، وطوي الكون الذي كان يألفه الإنسان . . وإذا عالم جديد وكون جديد :

﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ . . ﴿ وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ . .

ومن هذا المشهد المصور لنهاية الكون والأحياء في الآخرة يعود السياق لبيان سنة الله في وراثة الأرض ، وصيرورتها للصالحين من عبادة في الحياة . وبين المشهدين مناسبة وارتباط :

﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ . .

والزبور إما أن يكون كتاباً بعينه هو الذي أوتيه داود عليه السلام . ويكون الذكر إذن هو

التوراة التي سبقت الزبور . وإما أن يكون وصفاً لكل كتاب بمعنى قطعة من الكتاب الأصيل الذي هو الذكر وهو اللوح المحفوظ ، الذي يمثل المنهج الكلي ، والمرجع الكامل ، لكل نواميس الله في الوجود .

وعلى أية حال فالمقصود بقوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر . . . ﴾ هو بيان سنة الله المقررة في وراثة الأرض : ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ . .

فما هي هذه الوراثة ؟ ومن هم عباد الله الصالحون ؟

لقد استخلف الله آدم في الأرض لعمارتها وإصلاحها ، وتنميتها وتحويرها ، واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها ، واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة ، والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها في علم الله .

ولقد وضع الله للبشر منهجاً كاملاً متكاملاً للعمل على وفقه في هذه الأرض . منهجاً يقوم على الإيمان والعمل الصالح . وفي الرسالة الأخيرة للبشر فصل هذا المنهج ، وشرع له القوانين التي تقيمه وتحرسه ؛ وتكفل التناسق والتوازن بين خطواته .

(324/516)

في هذا المنهج ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع بطاقاتها هو وحده المقصود . ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان ، ليبلغ الإنسان كماله المقدر له في هذه الحياة . فلا ينتكس حيواناً في وسط الحضارة المادية الزاهرة ؛ ولا يهبط إلى الدرك بإنسانيته وهو يرتفع إلى الأوج في استغلال موارد الثروة الظاهرة والمخبوءة .

وفي الطريق لبلوغ ذلك التوازن والتناسق تشيل كفة وترجح كفة . وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة . وقد يغلب عليها همج ومتبربرون وغزاة .

وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالاً مادياً . . ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق . والوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين ، الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح . فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم . وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ . ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح . وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الأخذ بها من يتظاهرون بالإيمان ، وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح ، وإلى عمارة الأرض ، والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان .

وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم ، وهو العمل الصالح ، والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله ، وتجري سنته : ﴿ إن الأرض يرثها عبادي الصالحون

﴾ . . فالمؤمنون العاملون هم العباد الصالحون . .

وفي النهاية يجيء إيقاع الختام في السورة مشابهاً لإيقاع الافتتاح !

(325/516)

﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين . وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . قل : إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ؟ فإن تولوا فقل : آذنتكم على سواء ، وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون . إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون . وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين . . قال : رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ . .

﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ . . إن في هذا القرآن وما يكشفه من سنن في الكون والحياة . ومن مصائر الناس في الدنيا والآخرة . ومن قواعد العمل والجزاء . . إن في هذا لبلاغاً وكفاية للمستعدين لاستقبال هدى الله . ويسميهم ﴿ عابدين ﴾ لأن العابد خاشع القلب طائع متهيئ للتلقي والتدبر والانتفاع .

ولقد أرسل الله رسوله رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى الهدى ، وما يهتدي إلا أولئك المتهيئون المستعدون . وإن كانت الرحمة تتحقق للمؤمنين ولغير المؤمنين . .

إن المنهج الذي جاء مع محمد صلى الله عليه وسلم منهج يسعد البشرية كلها ويقودها إلى

الكمال المقدر لها في هذه الحياة.

ولقد جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلي: جاءت كتاباً مفتوحاً للعقول في مقبل الأجيال، شاملاً لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل، مستعداً لتلبية الحاجات المتجددة التي يعلمها خالق البشر، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

ولقد وضع هذا الكتاب أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة. وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها ارتباطات حياتها النامية المتجددة، واستنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب ظروف الحياة وملابساتها، دون اصطدام بأصول المنهج الدائم.

وكفل للعقل البشري حرية العمل، بكفالة حقه في التفكير، وبكفالة مجتمع يسمح لهذا العقل بالتفكير. ثم ترك له الحرية في دائرة الأصول المنهجية التي وضعها لحياة البشر، كيما تنمو وترقى وتصل إلى الكمال المقدر لحياة الناس في هذه الأرض.

(326/516)

ولقد دلت تجارب البشرية حتى اللحظة على أن ذلك المنهج كان وما يزال سابقاً لخطوات البشرية في عمومه. قابلاً لأن تنمو الحياة في ظلاله بكل ارتباطاتها نمواً مطرداً. وهو يقودها

دائماً ، ولا يتخلف عنها ، ولا يقعد بها ، ولا يشدها إلى الخلف ، لأنه سابق دائماً على خطواتها متسع دائماً لكامل خطواتها .

وهو في تلبيته لرغبة البشرية في النمو والتقدم لا يكبت طاقاتها في صورة من صور الكبت الفردي أو الجماعي ، ولا يحرمها الاستمتاع بثمرات جهدها وطيبات الحياة التي تحققها . وقيمة هذا المنهج أنه متوازن متناسق . لا يعذب الجسد ليسمو بالروح ، ولا يهمل الروح ليستمتع الجسد . ولا يقيد طاقات الفرد ورغائبه الفطرية السليمة ليحقق مصلحة الجماعة أو الدولة . ولا يطلق للفرد نزواته وشهواته الطاغية المنحرفة لتؤذي حياة الجماعة ، أو تسخرها لإمتاع فرد أو أفراد .

وكافة التكاليف التي يضعها ذلك المنهج على كاهل الإنسان ملحوظ فيها أنها في حدود طاقته ، ولمصلحته ؛ وقد زود بالاستعدادات والمقدرات التي تعينه على أداء تلك التكاليف ، وتجعلها محببة لديه مهما لقي من أجلها الآلام أحياناً لأنها تلبي رغيبة من رغائبه ، أو تصرف طاقة من طاقاته .

ولقد كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لقومه ورحمة للبشرية كلها من بعده والمبادئ التي جاء بها كانت غريبة في أول الأمر على ضمير البشرية ، لبعد ما كان بينها وبين واقع الحياة الواقعية والروحية من مسافة . ولكن البشرية أخذت من يومها تقرب شيئاً

فشيئاً من آفاق هذه المبادئ. فتزول غرابتها في حسها ، وتتبناها وتنفذها ولو تحت عنوانات أخرى.

(327/516)

لقد جاء الإسلام لينادي بإنسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية الجغرافية. لتلتقي في عقيدة واحدة ونظام اجتماعي واحد . . وكان هذا غريباً على ضمير البشرية وتفكيرها وواقعها يومذاك. والأشراف يعدون أنفسهم من طينة غير طينة العبيد . . ولكن ها هي ذي البشرية في خلال نيف وثلاثة عشر قرناً تحاول أن تقفو خطى الإسلام ، فتتعثر في الطريق ، لأنها لا تهتدي بنور الإسلام الكامل. ولكنها تصل إلى شيء من ذلك المنهج ولو في الدعاوى والأقوال وإن كانت ما تزال أمم في أوربا وأمريكا تتمسك بالعنصرية البغيضة التي حاربها الإسلام منذ نيف وثلاث مائة وألف عام.

ولقد جاء الإسلام ليسوي بين جميع الناس أمام القضاء والقانون. في الوقت الذي كانت البشرية تفرق الناس طبقات ، وتجعل لكل طبقة قانوناً . بل تجعل إرادة السيد هي القانون في عهدي الرق والإقطاع. . فكان غريباً على ضمير البشرية يومذاك أن ينادي ذلك المنهج السابق المتقدم بمبدأ المساواة المطلقة أمام القضاء.

. ولكن ها هي ذي شيئاً فشيئاً تحاول أن تصل ولو نظرياً إلى شيء مما طبقة الإسلام عملياً منذ نيف وثلاث مائة وألف عام .

وغير هذا وذلك كثير يشهد بأن الرسالة المحمدية كانت رحمة للبشرية وأن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما أرسل رحمة للعالمين . من آمن به ومن لم يؤمن به على السواء . فالبشرية كلها قد تأثرت بالمنهج الذي جاء به طائعة أو كارهة ، شاعرة أو غير شاعرة ؛ وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة ، لمن يريد أن يستظل بها ، ويستروح فيها نسائم السماء الرخية ، في هجير الأرض المحرق وبخاصة في هذه الأيام .

وإن البشرية اليوم لفي أشد الحاجة إلى حس هذه الرحمة ونداها . وهي قلقة حائرة ، شاردة في متاهات المادية ، وجحيم الحروب ، وجفاف الأرواح والقلوب . .

وبعد إبراز معنى الرحمة وتقريره يؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يواجه المكذبين المستهزئين ، بخلاصة رسالته التي تنبع منها الرحمة للعالمين :

(328/516)

﴿ قل إنما يوحى إليَّ أنَّما إلهكم إله واحد . فهل أنتم مسلمون ؟ ﴾ .

فهذا هو عنصر الرحمة الأصيل في تلك الرسالة . عنصر التوحيد المطلق الذي ينقذ

البشرية من أوهام الجاهلية ، ومن أثقال الوثنية ، ومن ضغط الوهم والخرافة . والذي يقيم الحياة على قاعدتها الركينة ، فيربطها بالوجود كله ، وفق نواميس واضحة وسنن ثابتة ، لا وفق أهواء ونزوات وشهوات . والذي يكفل لكل إنسان أن يقف مرفوع الرأس فلا تنحني الرؤوس إلا لله الواحد القهار .

هذا هو طريق الرحمة . . ﴿ فهل أنتم مسلمون ؟ ﴾ .

وهذا هو السؤال الواحد الذي يكلف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقيه على المكذبين المستهزئين .

﴿ فإن تولوا فقل : آذنتكم على سواء ﴾ . .

أي كشفت لكم ما عندي فأنا وأنتم على علم سواء . والإيذان يكون في الحرب لإنهاء فترة السلم ، وإعلام الفريق الآخر أنها حرب لا سلام . . أما هنا والسورة مكية ولم يكن القتال قد فرض بعد فالمقصود هو أن يعلنهم بأنه قد نفض يده منهم ، وتركهم عالمين بمصيرهم ، وأنذرهم عاقبة أمرهم . فلم يعد لهم بعد ذلك عذر ، فليذوقوا وبال أمرهم وهم عالمون . .

﴿ وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ . .

آذنتكم على سواء . ولست أدري متى يحل بكم ما توعدون . فهو غيب من غيب الله . لا يعلمه إلا الله . وهو وحده يعلم متى يأخذكم بعذابه في الدنيا أو في الآخرة سواء . وهو يعلم

سركم وجهركم ، فما يخفى عليه منكم خافية :

﴿ إنه يعلم الجهر من القول ، ويعلم ما تكتمون ﴾ . .

فأمركم كله مكشوف له ، وحين يعذبكم يعذبكم بما يعلم من أمركم ظاهره وخافيه . وإذا أخر عنكم العذاب فحكمة تأخيره عند الله :

﴿ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ .

(329/516)

وما أدري ما يريد الله بهذا التأخير . فلعله يريد أن يكون فتنة لكم وابتلاء , فيمتعكم إلى أجل , ثم يأخذكم أخذ عزيز مقتدر .

وبهذا التجهيل يلمس قلوبهم لمسة قوية , ويدعهم يتوقعون كل احتمال , ويتوجسون خيفة من المفاجأة التي تأخذهم بغتة . وتوقظ قلوبهم من غفلة المتاع فلعل وراءه الفتنة والبلاء .

وتوقع العذاب على غير موعد مضروب كفيل بأن يترك النفس متوجسة , والأعصاب متوفزة , ترتقب في كل لحظة أن يرفع الستار المسدل , عن الغيب المخبوء .

وإن القلب البشري ليغفل عما ينتظره من غيب الله , وإن المتاع ليخدع , فينسى الإنسان أن وراء الستار المسدل ما وراءه مما لا يدريه ولا يكشف عنه إلا الله في موعده المغيب المجهول

.

فهذا الإنذار يرد القلوب إلى اليقظة , ويعذر إليها بين يدي الله قبل فوات الأوان .

الدرس السادس:112 الحكم والفصل بيد الله والإستعانة به

وهنا يتوجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى ربه . وقد أدى الأمانة , وبلغ الرسالة . وآذنهم على سواء , وحذرهم بغتة البلاء . . يتوجه إلى ربه الرحمن يطلب حكمه الحق بينه وبين المستهزئين الغافلين , ويستعينه على كيدهم وتكذيبهم . وهو وحده المستعان: (قال:رب احكم بالحق , وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) . .

وصفة الرحمة الكبيرة هنا ذات مدلول . فهو الذي أرسله رحمة للعالمين , فكذب به المكذبون واستهزأ به المستهزئون . وهو الكفيل بأن يرحم رسوله ويعينه على ما يصفون . وبهذا المقطع القوي تختم السورة كما بدأت بذلك المطلع القوي . فيتقابل طرفاها في إيقاع نافذ قوي مثير عميق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2395 . 2403 ﴾

(330/516)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ إن هذه أمتكم ﴾ فيه إشارة إلى أن السالك إذا عبر المقامات التي ذكرنا تصير متفرقات شمله مجتمعة في الفناء بالله والبقاء به ، فيكون أمة واحدة في ذاته كما أن إبراهيم كان أمة فيعرفه الله نفسه ويقول ﴿ أنا ربكم ﴾ الذي بلغتكم هذه الرتبة ﴿ فاعبدون ﴾ أي فاعرفون ﴿ وتقطعوا أمرهم ﴾ فمنهم من سكن إلى الدنيا ، ومنهم من سكن إلى الجنة ، ومنهم من فر إلى الله ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ أما طالب الدنيا فيرجع إلى صورة قهرنا وهي جهنم ، وأما طالب الآخرة فيرجع إلى صورة رحمتنا وهي الجنة ، وأما الذي يطلبنا فإنه يرجع إلينا بالحقيقة ﴿ وإنا له كاتبون ﴾ في الأزل من أهل السعادة ﴿ حتى إذا فتح ﴾ سد ﴿ يأجوج ﴾ النفس و ﴿ مأجوج ﴾ الهوى ، والسد أحكام الشريعة وفتحها مخالفاتها وموافقات الطبع وهم أعني دواعي النفس من كل معدن شهوة من الحواس الظاهرة والباطنة ﴿ ينسلون ﴾ فيفسدون ما يمرون عليه من القلب والسر والروح ﴿ واقترب الوعد ﴾ إهلاك القلوب الغافلة ﴿ فإذا هي شاخصة ابصار ﴾ بصائرها بالنهماك في الأهواء ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ العناية الأزلية ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ أعني مقالات أهل البدع والأهواء ﴿ وهم فيما اشتهت أنفسهم ﴾ المطمئنة المجذوبة بجذبة ﴿ ارجعي ﴾ في مقامات السير في الله ﴿ خالدون ﴾ الفزع الأكبر قوله في الأزل " هؤلاء في النار ولا أبالي " ﴿ يوم نطوي ﴾ سماء وجود الإنسان بتجلي صفات الجلال في إفناء مراتب الوجود من الانتهاء إلى الابتداء وذلك قوله ﴿ كما

بدأنا أول خلق نعيده ﴾ يعني أن الرجوع يكون بالتدريج كما أن البدء كان بالتدريج خلق النطفة علقة ثم خلق العلقة مضغة ثم خلق المضغة عظاماً ثم كسا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر .

(331/516)

ففي الإعادة يجب أن يمر السالك من الإحساس على الحيوانية ثم النباتية ثم المعدنية ثم البسائط العنصرية ثم الملكوتية ثم الروحانية ثم إلى صفات الربوبية بجذبة ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ [الفجر : 28] ﴿ ولقد كتبنا في الزبور ﴾ أي في أم الكتاب ﴿ من بعد الذكر ﴾ أي بعد أن قلنا للقلم أكتب نظيره ﴿ كن فيكون ﴾ [يس : 82] أن أرض جنة الوجود الحقيقي ﴿ يرثها عبادي الصالحون ﴾ وهم الذين طويت سماء وجودهم المجازي . فالوجود المجازي لكونه غير ثابت ولا مستقر كالسماء ، ولوجود الحقيقي لكونه ثابتاً ومستقراً على حالة واحدة كالأرض ﴿ لقوم عابدين ﴾ عارفين . ﴿ وما أرسلناك ﴾ من كتم العدم ﴿ إلا رحمة للعالمين ﴾ فلولاك لما خلقت الأفلاك " أول ما خلق الله روحي " ولولا الأزل لم تنته الهوية إلى الآخر والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 59.60 ﴾

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنبياء : 51] قيل ذلك الرشد إيثار الحق جل شأنه على ما سواه سبحانه ، وسئل الجنيد متى أتاه ذلك ؟ فقال : حين لا متى ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ ﴾ [الأنبياء : 66] فيه إشارة إلى أن طلب المحتاج من المحتاج سفه في رأيه وضلة في عقله .

وقال حمدون القصار : استعانة الخلق بالخلق كاستعانة المسجون بالمسجون

﴿ قُلْنَا يانار كُونِى بَرْداً وسلاما على إبراهيم ﴾ [الأنبياء : 69] قال ابن عطاء : كان ذلك لسلامة قلب إبراهيم عليه السلام وخلوه من الالتفات إلى الأسباب وصحة توكله على الله تعالى ، ولذا قال عليه السلام حين قال له جبريل عليه السلام : ألك حاجة ؟ أما إليك فلا ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ فيه إشارة إلى أن الفضل بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء ولا تعلق له بالصغر والكبر فكم من صغير أفضل من كبير بكثير ﴿ وَكُلاًّ ءاتَيْنَا حُكْماً ﴾ قيل معرفة بأحكم الربيوبية ﴿ وَعِلْماً ﴾ معرفة بأحكام العبودية ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودُ الجبال يُسَبِّحْنَ ﴾ [الأنبياء : 79] قيل كان عليه السلام يخلو في الكهوف لذكره تعالى

وتسبيحه فيشاركه في ذلك الجبال ويسبحن معه ، وذكر بعضهم أن الجبال لكونها خالية عن صنع الخلق حالية بأنوار قدرة الحق يحب العاشقون الخلوة فيها ، ولذا نحنث صلى الله عليه وسلم في غار حاراء .

(333/516)

واختار كثير من الصالحين الانقطاع للعبادة فيها ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ [الأنبياء : 83] ذكر أنه عليه السلام قال ذلك حين قصدت دودة قلبه ودودة لسانه فخاف أن يشغل موضع فكره وموضع ذكره ، وقال جعفر : كان ذلك منه عليه السلام استدعاء للجواب من الحق سبحانه ليسكن إليه ولم يكن شكوى وكيف يشكو المحب حبيبه وكل ما فعل المحبوب محبوب وقد حفظ عليه السلام آداب الخطاب ﴿ وَذَا النون إِذ ذَّهَبَ مغاضبا فَظَنَّ أَن لَّن قُدِرَ ﴾ قيل ان ذلك رشحة من دن خمر الدلال ، وذكروا أن مقام الدل دون مقام العبودية المحضة لعدم فناء الإرادة فيه ولذا نادى عليه السلام ﴿ أَن لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سبحانك إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] أي حيث اختلج في سري أن أريد غيره ما أردت ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ [الأنبياء : 89] قيل إنه عليه السلام أراد ولدا يصلح ون

يكون محلا لافشاء الأسرار الإلهية إليه فإن العارف متى كان فرداً غير واجد من يفشي إليه السر ضاق ذرعه ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ قيل أي رغبة فينا ورهبة عما سوانا أو رغبة في لقائنا ورهبة من الاحتجاب عنا ﴿ وَكَانُواْ لَنَا خاشعين ﴾ [الأنبياء : 90].

قال أبو يزيد : الخشوع خمود القلب عن الدعاوي ، وقيل الفناء تحت أذيال العظمة ورداء الكبرياء ﴿ وَمَا أرسلناكَ إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] أكثر الصوفية قدست أسرارهم على أن المراد من العالمين جميع الخلق وهو صلى الله عليه وسلم رحمة لكل منهم إلا أن الحظوظ متفاوتة ويشترك الجميع في أنه عليه الصلاة والسلام سبب لوجودهم بل قالوا : إن العالم كله مخلوق من نوره صلى الله عليه وسلم ، وقد صرح بذ ذلك الشيخ عبد الغني النابلسي قدس سره في قوله وقد تقدم غيره مرة

: طه النبي تكونت من نوره . . .

(334/516)

كل الخليقة ثم لو ترك القطا

وأشار بقوله لو ترك القطا إلى أن الجميع من نوره عليه الصلاة والسلام وجه الانقسام إلى

المؤمن والكافر بعد تكونه فتأمل ، وهذا ونسأل الله تعالى أن يجعل حظنا من رحمته الحظ الوافر وأن ييسر لنا أمور الدنيا والآخرة بلطفه المتواتر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(335/516)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 51 إلى 52]

وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ (51) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ (52)

الإعراب :

(ولقد . . رشده) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق بـ (آتينا) ، (الواو) عاطفة (به) متعلّق بـ (عالمين) والضمير يعود على إبراهيم .

جملة : " آتينا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة : " كنّا به عالمين " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم " 2 " والجملة فيها معنى

التعليل .

---

(1) في الآية (48) من هذه السورة .

(2) يجوز أن تكون الجملة حاليّة بتقدير (قد) أو من غير تقدير .

(336/516)

(إذ) ظرف مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (آتينا) أو بـ (عالمين) " 1 " ، (لأبيه) متعلّق بـ (قال) ، (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ خبره (هذه) ، (التماثيل) بدل من اسم الإشارة - أو عطف بيان - مرفوع (التي) اسم موصول في محلّ رفع نعت للتماثيل (لها) متعلّق بـ (عاكفون) .

وجملة : " قال . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ما هذه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنتم لها عاكفون " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

الصرف :

(التماثيل) ، جمع تمثال ، اسم لما يصنع شبيها بخلق اللّه ، وزنه تفعال بكسر فسكون ، تماثيل وزنه تفاعيل .

[سورة الأنبياء (21) : آية 53]

قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ (53)

الإعراب :

(لها) متعلّق بـ (عابدين) وهو مفعول به ثان عامله وجدنا منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " وجدنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

[سورة الأنبياء (21) : آية 54]

قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (54)

الإعراب :

(لقد كنتم) مثل لقد آتينا " 2 " ، وهو فعل ناقص (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع توكيد لاسم كان (آباؤكم) معطوف على الضمير المتّصل اسم كان (في ضلال) متعلّق بمحذوف خبر كنتم .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) يجوز أن يكون اسما ظرفيّا في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر .

(2) في الآية (48) من هذه السورة .

وجملة : "كنتم . . . في ضلال . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . .

وجملة القسم المقدّرة في محلّ نصب مقول القول .

[سورة الأنبياء (21) : آية 55]

قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (55)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (بالحقّ) متعلّق بـ (جئتنا) " 1 " ، (أم) المتّصلة حرف عطف (من اللاعبين) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ أنت .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أجئتنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنت من اللاعبين . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة جئتنا .

الفوائد

- أم العاطفة :

هي على نوعين : متصلة ومنفصلة .

أ- المتصلة : هي التي يكون ما بعدها متصلا بما قبلها ، ومشاركا له في الحكم . وهي التي تقع بعد همزة الاستفهام أو همزة التسوية :

مثال همزة الاستفهام : أعليّ في الدار أم خالد ؟

ومثال همزة التسوية : " سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ " وقد سمّيت متصلة لأن ما قبلها وما بعدها لا يستغنى بأحدهما عن الآخر .

ب - المنقطعة : هي التي تكون لقطع الكلام الأول واستئناف ما بعده ، ومعناها الإضراب ، كقوله تعالى : " هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ " .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من فاعل جئت .

ملاحظة : قد تتضمن " أم " المنقطعة معنى الاستفهام الإنكاري إلى جانب الإضراب نحو " أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ " !

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 56 إلى 57]

قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56)

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57)

الإعراب :

(بل) للإضراب الإبطاليّ (الذي) موصول في محلّ رفع نعت لربّ السموات (الواو) عاطفة (على ذلكم) متعلّق بـ (الشاهدين) " 1 " ، (من الشاهدين) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ أنا .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " ربّكم ربّ السموات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " فطرهنّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " أنا . . . من الشاهدين " لا محلّ لها معطوفة على جملة ربّكم رب . . .

(الواو) عاطفة (التاء) للقسم (اللّه) لفظ الجلالة مقسم به مجرور ، والجارّ والمجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (اللام) لام القسم (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (أكيدنّ) ، (مدبرين) حال منصوبة من فاعل تولّوا .

والمصدر المؤوّل (أن تولّوا . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " (أقسم) باللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ربّكم رب السموات . . .

---

(1) قال العكبريّ : " لا يجوز أن يتعلّق بـ (الشاهدين) لما يلزم من تقديم الصلة على الموصول . . . " فـ (ال) اسم موصول و(على ذلكم) متعلّق بالصفة المشتقّة فهو جزء من الصلة . .

ولكن ثمّة رأي آخر تؤيّده الشواهد القرآنية يجيز تقديم الصلة على الموصول عند أمن اللبس كالآية الكريمة أعلاه ، وكقوله تعالى : " وكانوا فيه من الزاهدين " فالظرف (فيه) متعلّق بالزاهدين .

وانظر الآية (20) من سورة يوسف في هذا الكتاب .

(2) مقول القول محذوف والتقدير : قال ليس ما قلتموه صحيحا بل . .

(339/516)

وجملة : " أكيدنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " تولّوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

الفوائد

- أحرف القسم :

أحرف القسم ثلاثة ، الياء والواو والتاء .

وإذا حذفت حرف القسم نصبت المحلوف به ، فتقول : " اللّه لأفعلن " . وكذلك كل خافض ، إذا حذفته نصبت الاسم بعده على حذف حرف الجرّ ، أو على نزع الخافض ، يختلف التعبير والمعنى واحد . وسوف نعرّج على بحث أحرف القسم مرة أخرى إن شاء

اللّه .

[سورة الأنبياء (21) : آية 58]

فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (جذاذا) مفعول به ثان منصوب (إلّا) أداة استثناء (كبيرا) مستثنى بإلّا منصوب " 1 " (لهم) متعلّق بنعت لـ (كبيرا) ، (إليه) متعلّق بـ (يرجعون) .

جملة : " جعلهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " وجملة : " لعلّهم . . يرجعون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يرجعون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(جذاذا) ، قيل هو مصدر بلفظ المفرد ، وقيل هو اسم للشيء المكسور كالحطام ، وقيل هو جمع جذاذة كزجاج وزجاجة ، وزنه فعال بضمّ الفاء .

---

(1) هو في الأصل نعت لمنعوت محذوف أي : إلّا صنما كبيرا .

(2) يجوز أن تكون معطوفة على مقدّر مستأنف يقتضيه مجرى القصّة أي : فرجع إبراهيم إلى بيت الأصنام فوجد عندها طعاما فقال ألا تأكلون فلم يجيبوه فجعلها جذاذا .

[. . . . .]

[سورة الأنبياء (21) : آية 59]

قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59)

الإعراب :

(من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (بآلهتنا) متعلّق بـ (فعل) ، (اللام) المزحلقة للتوكيد (من الظالمين) متعلّق بمحذوف خبر إنّ .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " من فعل . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " فعل هذا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " إنّه لمن الظالمين " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

[سورة الأنبياء (21) : آية 60]

قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ (60)

الإعراب :

(فتى) مفعول به " 2 " منصوب ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (له) متعلّق بـ

(يقال) ، (إبراهيم) في إعرابه أوجه : الأول ، هو نائب الفاعل بتضمين يقال معنى يسمّى . . أو يقصد الاسم لا المسمّى .

الثاني : هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، أو هذا . . والجملة مقول القول أي نائب الفاعل .

الثالث : هو مبتدأ خبره محذوف تقديره : إبراهيم فاعل ذلك . . والجملة محكيّة " 3 " .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سمعنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) يجوز أن يكون اسما موصولا مبتدأ خبره جملة إنّه لمن الظالمين ، وجملة فعل صلة .

(2) على حذف مضاف أي : كلام فتى

(3) وأجازوا في إعرابه وجها رابعا هو كونه منادى ، وهو بعيد .

الجدول ج 17 ، ص : 45

وجملة : " يذكرهم . . . " في محلّ نصب نعت لفتى .

وجملة : " يقال . . . " في محلّ نصب نعت ثان لفتى " 1 " .

[سورة الأنبياء (21) : آية 61]

قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (به) متعلّق بـ (ائتوا) ، (على أعين) متعلّق بحال من الضمير في (به) أي ظاهرا أو مكشوفا .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ائتوا به . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كان هو فأتوا به . . .

وجملة الشرط وجوابه في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لعلّهم يشهدون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يشهدون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

[سورة الأنبياء (21) : آية 62]

قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (62)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام " 2 " ، (بآلهتنا) متعلّق بـ (فعلت) .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنت فعلت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " فعلت هذا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنت) .

وجملة : " يا إبراهيم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة بين الحوار القائم .

البلاغة

تجاهل العارف :

في قوله تعالى " أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ " فن طريف من فنونهم ، يسمى

---

(1) يجوز أن تكون حالا من فتى لأنّه وصف . . هذا ويجوز أن تكون استئنافا بيانيّا فلا محلّ لها .

(2) قد يكون حقيقيّا فهم لم يعلموا أنه الفاعل ، وقد يكون تقريريّا إذ علموا أنّه الفاعل . .

(341/516)

تجاهل العارف . وهو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة ، تجاهلا منه ، ليخرج الكلام مخرج المدح أو الذم ، أو ليدل على شدة الوله في الحب ، أو لقصد التعجب أو التوبيخ أو التقرير . وهو على قسمين : موجب ومنفي . والآية التي نحن بصددها من التجاهل الموجب الجاري مجرى التقرير .

[سورة الأنبياء (21) : آية 63]

قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (63)

الإعراب :

(بل) للإضراب الانتقاليّ (هذا) بدل من كبيرهم - أو نعت - (الفاء) رابطة لجواب شرط

مقدّر (كانوا) ماض ناقص مبنيّ على الضمّ في محلّ جزم فعل الشرط . . و(الواو) اسم كان .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . ومقول القول محذوف أي : ما أنت فعلت ذلك ، أو أي جواب آخر .

(342/516)

وجملة : " فعله كبيرهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة في حيّز القول .

وجملة : " اسألوهم . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كانوا ينطقون فاسألوهم .

وجملة : " إن كانوا ينطقون (المذكورة) لا محلّ لها تفسير للشرط السابق المقدّر – أو هي استئنافيّة . . وجملة الجواب محذوفة دلّ عليها ما قبلها .

وجملة : " ينطقون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

البلاغة

التعريض :

في قوله تعالى " قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ " هذا من معارض

الكلام . والقول فيه أنّ قصد إبراهيم صلوات اللّه عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته لها ، على

أسلوب تعريضي ، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك ، وقد كتبت كتابا بخط رشيق ، وأنت شهير بحسن الخط : أأنت كتب هذا ؟ وصاحبك أمّي لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خربشة فاسدة ، فقلت له : بل كتبته أنت ، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك ، مع الاستهزاء به ، لا نفية عنك وإثباته للأميّ أو المخربش

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 64 إلى 65]

فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (65)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (إلى أنفسهم) متعلّق بـ (رجعوا) ، (الفاء) عاطفة (أنتم) ضمير منفصل مستعار لمحلّ النصب توكيد للضمير المتّصل اسم إنّ " 1 " ، (الظالمون) خبر إنّ مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

جملة : " رجعوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " إنّكم . . الظالمون " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) يجوز أن يكون مبتدأ خبره (الظالمون) ، والجملة الاسميّة خبر إنّ .

(على رؤوسهم) متعلّق بحال من الواو في (نكسوا) ، (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (ما) نافية عاملة عمل ليس - أو مهملة - (هؤلاء) اسم ما في محلّ رفع - أو مبتدأ - وجملة : " نكسوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا .

وجملة : " علمت . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم وجوابه في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر هو في موضع الحال من نائب الفاعل أي قائلين والله لقد علمت . . .

وجملة : " ما هؤلاء ينطقون " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي علمت المعلّق بـ (ما) عن العمل .

وجملة : " ينطقون . . . " في محلّ نصب - أو رفع - خبر (ما) أو هؤلاء .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 66 إلى 67]

قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ

دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (67)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة (من دون) متعلّق بحال من ما (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (شيئًا) مفعول مطلق منصوب نائب عن المصدر أي نفعا ما لا قليلا ولا كثيرا (الواو) عاطفة.

جملة: "قال . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "تعبدون . . . "في محلّ نصب معطوفة على مقدّر هو مقول القول أي: أ تعرفون ذلك فتعبدون . .

وجملة: "لا ينفعكم . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "لا يضرّكم . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

(344/516)

(أفّ) اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا " 1 "، (لكم) متعلّق بـ (أفّ)، (الواو) عاطفة (لما) متعلّق بـ (أفّ) فهو معطوف على (لكم)، (من دون) متعلّق بحال من مفعول تعبدون المقدّر أي تعبدونه كائنا من دون اللّه (الهمزة) للاستفهام

الإنكاريّ و(الفاء) عاطفة (لا) نافية .

وجملة : " أفّ لكم . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

---

(1) هو مصدر في رأي السيوطي بمعنى نتنا وقبحا .

(345/516)

وجملة : " تعبدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تعقلون . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي أجهلتم فلا تعقلون .

الفوائد

- أسماء الأفعال :

أ - اسم الفعل : هو ما ناب عن الفعل بالعمل ، ولم يتأثر بالعوامل . وهو نوعان : مرتجل ومنقول .

ب - اسم الفعل المرتجل :

هو ما كان من الأصل كما وصلنا ، ولم يكن له استعمال آخر ، مثل " أوّه ، وأفّ ووي بمعنى أتوجّع وأتضجّر وأعجب .

ج - اسم الفعل المنقول :

هو ما نقل عن غيره ، وبعبارة أوضح ، هو ما كان له استعمال سابق ، ثم نقل إلى استعمال لاحق ، فيه معنى الفعل ، نحو : دونك ومكانك .

ونحو عليك وإليك ورويدا وبله وحذار ونزال : فهو ينقل عن الظرف - وعن الجار والمجرور ، وعن المصدر ، ويكون قياسيا على وزن فعال .

[سورة الأنبياء (21) : آية 68]

قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (68)

الإعراب :

(كنتم) فعل ماض ناقص - ناسخ - مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " حرّقوه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " انصروا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة حرّقوه .

وجملة : " كنتم فاعلين " لا محلّ لها استئنافيّة وجواب الشرط محذوف دلّ عليها الكلام المتقدّم أي إن كنتم ناصرين لها فانصروها .

[سورة الأنبياء (21) : آية 69]

قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ (69)

الإعراب :

(نار) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (كوني) فعل أمر ناقص مبنيّ على حذف النون . . و(الياء) ضمير في محلّ رفع اسم كن (على إبراهيم) متعلّق بـ (سلاما) " 1 " ، وعلامة الجرّ الفتحة للعلميّة والعجمة .

جملة : " قلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " النداء وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كوني بردا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

الصرف :

(بردا) ، مصدر سماعيّ لفعل برد يبرد باب نصر ، وزنه فعل بفتح فسكون " 2 " .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 70 إلى 73]

وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ (71) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ (72) وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ (73)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (به) متعلّق بحال من (كيدا) ، (الفاء) عاطفة (الأخسرين) مفعول به ثان منصوب .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف نعت لـ (سلاما) .

(2) ويكونه مصدرا يقدّر محذوف أي : كوني ذات برد .

(347/516)

جملة : " أرادوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعلناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(الواو) عاطفة في الموضعين (لوطا) معطوف على ضمير الغائب في (نجّيناه) ، (إلى الأرض) متعلّق بفعل نجّيناه بتضمينه معنى أوصلناه (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ نعت للأرض (فيها) متعلّق بـ (باركنا) " 1 " ، (للعالمين) متعلّق بـ (باركنا) ، وعلامة الجرّ الياء ، فهو ملحق بجمع المذكّر السالم .

وجملة : " نجّيناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أرادوا أو جملة جعلناهم .

وجملة : " باركنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

(الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (له) متعلّق بـ (وهبنا) ، (نافلة) حال منصوبة من يعقوب

(كلا) مفعول به مقدّم منصوب (صالحين) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة : " وهبنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أرادوا أو جعلناهم .

وجملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أرادوا أو جعلناهم .

(الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (أئمّة) مفعول به ثان منصوب (بأمرنا) متعلّق بـ (يهدون)

بتضمينه معنى يدعون (إليهم) متعلّق بـ (أوحينا) ، (لنا) متعلّق بـ (عابدين) خبر كانوا .

وجملة : " جعلناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلناهم الأولى .

وجملة : " يهدون . . . " في محلّ نصب نعت لأئمّة .

وجملة : " أوحينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلناهم .

---

(1) أو متعلّق بحال من العالمين .

الجدول ج 17 ، ص : 52

وجملة : " كانوا لنا عابدين " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلناهم .

الصرف :

(فعل) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ فعل باب فتح ، وزنه فعل على لفظه بكسر فسكون .

الفوائد

- الأرض التي باركنا فيها :

هي بيت المقدس والقرى حوله. هي جزء من فلسطين. وقيل: كورة من أرض الشام.

وفي كلمة فلسطين قولان: إما ملحقة بجمع المذكر السالم، فتعرب إعرابه، وإما ممنوعة من الصرف، فتجر بالفتحة نيابة عن الكسرة.

[سورة الأنبياء (21): الآيات 74 إلى 75]

وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75)

الإعراب:

(348/516)

(الواو) استئنافيّة (لوطا) مفعول به لفعل محذوف يفسّره المذكور بعده (حكما) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة في الموضعين (من القرية) متعلّق بـ (نجّيناه)، (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ نعت للقرية (فاسقين) خبر ثان لـ (كانوا)، منصوب " 1 "، وعلامة النصب الياء.

جملة: " (آتينا) لوطا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " آتيناه . . . " لا محلّ لها تفسيريّة.

وجملة : " نجّيناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " كانت تعمل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي)

---

(1) أو هو نعت لقوم ، أو حال منه منصوب .

وجملة : " تعمل الخبائث . . . " في محلّ نصب خبر كانت .

وجملة : " إنّهم كانوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - وجملة : " كانوا قوم سوء . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(الواو) عاطفة (في رحمتنا) متعلّق بـ (أدخلناه) ، (من الصالحين) متعلّق بخبر إنّ .

وجملة : " أدخلناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (آتينا) لوطا .

وجملة : " إنّه من الصالحين " لا محلّ لها تعليليّة .

البلاغة

1 - المجاز : في قوله تعالى " وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ " القرية مجاز عن أهلها .

2 - المجاز في قوله تعالى " وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا " : أي في أهل رحمتنا ، أي جعلناه في

جملتهم وعدادهم ، فالظرفية مجازية ، أو في جنتنا فالظرفية حقيقية ، والرحمة مجاز ، ويجوز أن تكون الرحمة مجازا عن النبوة ، وتكون الظرفية مجازية أيضا .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 76 إلى 77]

وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (77)

الإعراب :

(350/516)

(الواو) استئنافيّة (نوحا) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر " 1 " ، وهو على حذف مضاف أي اذكر خبر نوح (إذ) ظرف للزمن الماضي متعلّق بالمضاف المقدّر خبر نوح " 2 " ، (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ

---

(1) يجوز أن يكون معطوفا على (لوطا) أي آتينا لوطا ونوحا حكما . . وكذلك الأمر في ألفاظ الأنبياء داود وسليمان .

(2) يجوز أن يكون بدل اشتمال إذا أعرب (نوحا) معطوفا على (لوطا) .

جرّ متعلّق بـ(نادى) ، (الفاء) عاطفة في الموضعين (له) متعلّق بـ(استجبنا) ، (أهله) معطوف على ضمير الغائب المفعول في (نجّيناه) ، (من الكرب) متعلّق بـ(نجّيناه) .

جملة : " (اذكر) نوحا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نادى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " استجبنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نادى .

وجملة : " نجّيناه . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة استجبنا .

(الواو) عاطفة (من القوم) متعلّق بـ(نصرناه) بتضمينه معنى منعناه (الذين) اسم موصول نعت للقوم (بآياتنا) متعلّق بـ(كذّبوا) ، (الفاء) عاطفة (أجمعين) حال منصوبة من ضمير الغائب في (أغرقناهم) " 1 " .

وجملة : " نصرناه . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نجّيناه .

وجملة : " كذّبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " إنّهم كانوا . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة - أو استئناف بيانيّ - وجملة : " كانوا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة: "أغرقناهم . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول.

[سورة الأنبياء (21): الآيات 78 إلى 82]

---

(1) أو توكيد للضمير الغائب الذي هو في محلّ نصب. [. . . . .]

وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (80) وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ (81) وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ (82)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (داود) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر وهو على حذف مضاف أي اذكر خبر داود وسليمان " 1 " ، (الواو) عاطفة (إذ) ظرف زمان للماضي متعلّق بالمضاف المقدّر (خبر) ، (في الحرث) متعلّق بـ (يحكمان) ، (إذ) ظرف متعلّق بـ

(يحكمان) ، (فيه) متعلّق بـ (نفشت) ، (الواو) حاليّة (لحكمهم) متعلّق بالخبر (شاهدين) " 2 " .

جملة : " (اذكر) داود . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يحكمان . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " نفشت . . . غنم " في محلّ جر بإضافة (إذ) الثاني إليها .

وجملة : " كنّا . . شاهدين " في محلّ نصب حال " 3 " .

(الفاء) عاطفة (سليمان) مفعول به ثان منصوب ، وامتنع من التنوين للعلميّة وزيادة ألف نون (كلا . . علما) مرّ إعراب نظيرها " 4 " ، (الواو) عاطفة (مع) ظرف منصوب متعلّق بـ (يسبّحن) ، ومنع داود من الصرف للعلميّة والعجمة (يسبّحن) مضارع مبنيّ على السكون . . و(النون) فاعل (الطير)

---

(1) انظر الحاشية رقم (2) في الصفحة (53)

(2) يجوز أن تكون اللام زائدة للتقوية فـ (حكم) منصوب محلّا مفعول شاهدين .

(3) أو لا محلّ لها اعتراضيّة بين المعطوف والمعطوف عليه .

(4) في الآية (72) من هذه السورة .

معطوف على الجبال بالواو منصوب " 1 " ، (الواو) للعطف .

وجملة : " فهّمناها . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يحكمان " 2 " .

وجملة : " آتينا . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " سخّرنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة فهّمناها .

وجملة : " يسبّحن . . . " في محلّ نصب حال من الجبال .

وجملة : " كنّا فاعلين . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة سخّرنا " 3 " .

(الواو) عاطفة (لكم) متعلّق بنعت للبوس " 4 " ، (اللام) لام التعليل (تحصنكم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (من بأسكم) متعلّق بـ (تحصنكم) .

والمصدر المؤوّل (أن تحصنكم) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (علّمناه) .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (هل) حرف الاستفهام . . والاستفهام بمعنى الأمر .

وجملة : " علّمناه . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة سخّرنا .

وجملة : " تحصنكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " أنتم شاكرون . . . " جواب شرط مقدّر أي إن فعلنا لكم ذلك فهل أنتم شاكرون .

الصرف :

(صنعة) ، مصدر صنع الثلاثيّ ، أو مصدر المرّة منه ، وزنه فعلة بفتح فسكون .

---

(1) يجوز أن تكون الواو واو المعيّة ، والطّير مفعولا معه .

(2) الضمير الغائب في (فهّمناها) يعود على الحكمة .

(3) أو في محلّ نصب حال من فاعل سخّرنا ، بتقدير (قد) .

(4) أو متعلّق بـ (صنعة) . . ويجوز أن يكون متعلّقا بـ (علّمناه) ، وحينئذ يكون المصدر المؤوّل بدلا من الكاف في لكم بإعادة الجارّ .

(354/516)

(لبوس) ، جمع لبس – بكسر فسكون – اسم للشيء الملبوس ، ووزن لبوس فعول بفتح الفاء .

(الواو) عاطفة (لسليمان) متعلّق بفعل محذوف تقديره سخّرنا (الريح) مفعول به للفعل المقدّر منصوب (عاصفة) حال منصوبة من الريح (بأمره) متعلّق بـ (تجري) " 1 " ، (الى الأرض) متعلّق بـ (تجري) ، (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ نعت للأرض (فيها) متعلّق بـ (باركنا) ، (الواو) عاطفة (بكلّ) متعلّق بخبر كنّا وهو (عالمين) .

وجملة : " (سخّرنا) لسليمان . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة علّمناه .

وجملة : " تجري . . . " في محلّ نصب حال ثانية من الريح .

وجملة : " باركنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : "كنّا . . . عالمين " في محلّ جرّ معطوفة على جملة (سخّرنا) .

(الواو) عاطفة (من الشياطين) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم " 2 " ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (له) متعلّق بـ (يغوصون) ، (عملا) مفعول به منصوب (دون) ظرف منصوب متعلّق بنعت لـ (عملا) ، (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بالخبر حافظين " 3 "

.

وجملة : " من الشياطين من يغوصون " في محلّ جرّ معطوفة على جملة (سخّرنا) " 4 " .

وجملة : " يغوصون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يعملون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

---

(1) أو متعلّق بحال من فاعل تجري .

(2) يجوز أن يتعلّق بالفعل المقدّر سخّرنا في الآية السابقة ، فيكون الموصول بعده في محلّ نصب معطوف على الريح .

(3) الضمير في (لهم) هو مفعول اسم الفاعل حافظين ، اللام جاءت للتقوية .

(4) ما دام الكلام في سياق الحديث عن داود وسليمان فلا مانع يمنع من عطف الجملة الاسميّة على الجملة الفعليّة سخّرنا ويجوز أن تكون الجملة استئنافيّة في معرض قصّة

سليمان .

الجدول ج 17 ، ص : 58

وجملة : "كنّا . . حافظين " في محلّ جرّ معطوفة على جملة من الشياطين من يغوصون

. . .

الصرف :

(عاصفة) ، مؤنث عاصف ، اسم فاعل من عصف الثلاثيّ ، وزنه فاعل . . وانظر الآية (22) من سورة يونس .

(355/516)

البلاغة

فن جمع المختلف والمؤتلف :

في قوله تعالى " وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إلخ " وهذا الفن هو عبارة عن أن يريد المتكلم التسوية بين ممدوحين ، فيأتي بمعان مؤتلفة في مدحهما ، ثم يروم بعد ذلك ترجيح أحدهما على الآخر ، بزيادة فضل لا ينقص مدح الآخر ، فيأتي لأجل ذلك الترجيح بمعان تخالف معاني التسوية .

ففي الآية ، ساوى أول الآية بين داود وسليمان عليهما السلام ، في أهلية الحكم ، ثم رجح آخرها سليمان ، حيث يقول " فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ " ، وحصل الالتفات ، فأتى بما يقوم مقام تلك الزيادة التي يرجح بها سليمان ، لترشد إلى المساواة في الفضل ، لتكون فضيلة السن وما يستتبعها من وفرة التجارب وحنكة الحياة قائمة مقام الزيادة التي رجح بها سليمان في الحكم .

الفوائد

1 – قصة حكم سليمان وداود في الحرث :

روى التاريخ ، أن رجلين دخلا على داود عليه السلام ، أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : إن هذا قد انفلتت غنمه ، فوقعت في حرثي ، فلم تبق منه شيئا . فحكم له داود برقاب الغنم ، مقابل الحرث . فخرجا ، فمرا على سليمان ، فأخبراه بحكم أبيه ، فقال : لو ولّيت أمركما لحكمت بغير هذا . فعلم داود بمقالة سليمان ، فدعاه وأقسم عليه إلا أخبره بما كان سيحكم به . فقال : أدفع الغنم لصاحب الحرث ، ينتفع بلبنها وأوبارها ، وأدفع الحرث لصاحب الغنم ، يغرسه ويرعاه ، حتى يعود كما كان ، ثم أعيد كلا لصاحبه . فأقر داود قضاء سليمان وأنفذه . .

2 – من عجائب حكم سليمان :

روى مسلم ، من حديث أبي هريرة ، قال :

" بينا امرأتان معهما ابناهما ، إذ جاء الذئب ، فذهب بأحدهما ، فقالت هذه : إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك ، فاختصمتا إلى داود عليه السلام ، فقضى به للكبرى ، فمرتا على سليمان ، فأخبرتاه ، فقال : ايتياني بسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى : لا ويرحمك اللّه ، فقضى به لها . .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 83 إلى 84]

وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ (84)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (أيوب إذ نادى) مثل نوحا إذ نادى " 1 " ، (الواو) حاليّة .

جملة : " (اذكر) أيوب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نادى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " مسّني الضرّ . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّي مسّني الضرّ) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف هو الباء أي : بأنّي مسّني

الضرّ ، متعلّق بـ (نادى) .

وجملة : " أنت أرحم . . . " في محلّ نصب حال والرابط مقدّر أي بي .

(الفاء) عاطفة (له) متعلّق بـ (استجبنا) ، (به) متعلّق بمحذوف صلة الموصول ما (من ضرّ) متعلّق بحال من الضمير في (به) ، (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (أهله) مفعول به ثان منصوب (مثلهم) معطوف على أهله

---

(1) في الآية (76) من هذه السورة .

منصوب (معهم) ظرف منصوب متعلّق بحال من مثلهم (رحمة) مفعول لأجله منصوب " 1 " ، (من عندنا) متعلّق بنعت لـ (رحمة) ، (للعابدين) متعلّق بنعت لـ (ذكرى) " 2 " .

وجملة : " استجبنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نادى .

وجملة : " كشفنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة استجبنا .

وجملة : " آتيناه . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة استجبنا .

الفوائد

1 - قصة أيوب :

ورد في الأخبار ، أن أيوب كان رجلا روميا ، من ولد إسحاق بن يعقوب ، وقد اتخذه اللّه نبيا ، وبسط له الدنيا ، وكثر أهله حتى كان له سبعة بنين وسبع بنات ، وله أصناف من البهائم ، وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ونخيل ، فابتلاه اللّه بذهاب ولده ، وبذهاب ماله ، وبالمرض في بدنه ، ثماني عشرة سنة . فقالت له امرأته يوما : لو دعوت اللّه ، علّه يرفع عنك الضرّ ، فقال : أستحي من اللّه أن أدعوه ولم تبلغ مدة بلائي مدة رخائي وهي ثمانين سنة . وقد كشف اللّه عنه الضر ورزق من الأموال والأولاد الكثير الكثير 2 - ذهب علماء اللغة ، إلى أن الضّرّ هو الضرر بكل شيء ، أما الضّرّ بضم الضاد فهو الضرر بالنفس ، من هزال ومرض واضطراب .

3 - ذو النون : لقب يونس بن متى أي صاحب الحوت ، والفرق بين صاحب وذو أن صاحب تستعمل للأدنى نحو الأعلى ، نحو : صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم . وأما ذو فعلى العكس ، تستعمل للأعلى نحو الأدنى ، نحو : ذو الجلال ، وذو النون ، وذو الوزارتين .

---

(1) أو مفعول مطلق لفعل محذوف أي رحمناه رحمة . [. . . . .]

(2) أو متعلّق بالمصدر ذكرى .

وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إسماعيل) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (ذا) معطوف على إسماعيل بالواو منصوب وعلامة النصب الألف (كلّ) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (من الصابرين) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ .

جملة : " (اذكر) إسماعيل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كلّ من الصابرين . . . " في محلّ نصب حال من أسماء الأنبياء المتعاطفة .

(الواو) عاطفة (في رحمتنا) متعلّق بـ (أدخلناهم) ، (من الصالحين) متعلّق بخبر إنّ .

---

(1) على نية الإضافة ، أو دالّ على عموم .

وجملة : " أدخلناهم " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أعطيناهم ثواب الصابرين وأدخلناهم . . .

وجملة : " إنّهم من الصالحين . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(ذو الكفل) ، لقب ابن أيوب ، واسمه بشر بعث بعد أبيه ، ولقّب بذلك لأنّه تكفّل بصيام جميع نهاره وقيام جميع ليله وأن يقضي بين الناس ولا يغضب . . أو أنّ له ضعف الأجر والثواب . والكفل اسم للنصيب والحظّ .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 87 إلى 88]

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88)

(359/516)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ذا النون إذ ذهب) مثل نوحا إذ نادى " 1 " ، وعلامة النصب في (ذا) الألف (مغاضبا) حال منصوبة من فاعل ذهب " 2 " ، (الفاء) عاطفة في الموضعين (أن) مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير مستتر والتقدير : أنّنا (عليه) متعلّق بـ (نقدر) .

والمصدر المؤوّل (أنّنا لن نقدر . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظنّ .

(في الظلمات) متعلّق بحال من فاعل نادى (أن) مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، خبرها جملة : (لا إله إلّا أنت) " 3 " ، (سبحانك) مفعول مطلق لفعل محذوف ، منصوب (من الظالمين) متعلّق بخبر كنت .

جملة : " (اذكر) ذا النون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ذهب . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ظنّ . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ذهب .

وجملة : " لن نقدر . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة .

وجملة : " نادى . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ظنّ .

وجملة : " لا اله إلّا أنت . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة .

وجملة : " سبحانك بفعلها المقدّر " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " إنّي كنت . . . " لا محلّ لها في حكم التعليل لما سبق .

وجملة : " كنت من الظالمين " في محلّ رفع خبر إنّ .

(الفاء) عاطفة (له) متعلّق بـ (استجبنا) ، (من الغمّ) متعلّق بـ (نجّيناه) ، (الواو) الثانية استئنافيّة (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق

---

(1) في الآية (76) من هذه السورة .

(2) وقد غضب من قومه لما قاسى منهم ، وذهابه من غير إذن ربّه .

(3) يجوز أن تكون (أن) تفسيريّة ، جاءت بعد فعل نادى وهو بمعنى القول دون حروفه

. .

وجملة : لا إله إلّا أنت مرّ إعراب نظيرها في الآية (25) من السورة .

(360/516)

عامله ننجي " 1 " .

وجملة : " استجبنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نادى وجملة : " نجّيناه . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة استجبنا .

وجملة : " ننجي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(ذا النون) ، لقب يونس بن متّى . والنون هو الحوت اسم جامد جمعه أنوان ونينان .

(مغاضبا) ، اسم فاعل من الرباعيّ غاضب ، وزنه مفاعل بضمّ الميم وكسر العين .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 89 إلى 90]

وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا

لَنا خاشِعِينَ (90)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (زكريّا إذ نادى) مثل نوحا إذ نادى " 2 " ، (ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف . . و(الياء) المحذوفة مضاف إليه (لا) ناهية جازمة و(النون) للوقاية في (تذرني) ، (فردا) حال منصوبة من ضمير المتكلّم " 3 " ، (الواو) عاطفة . .

---

(1) أي ننجي المؤمنين إنجاء كالإنجاء الذي تمّ ليونس . . هذا ويجوز أن تكون الكاف اسما بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته . .

(2) في الآية (76) من هذه السورة .

(3) أو مفعول به ثان إذا جعل فعل تذر من أفعال التحويل .

جملة : " (اذكر) زكريّا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نادى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " النداء وجوابه . . . " لا محلّ لها تفسير لفعل النداء " 1 " .

وجملة : " لا تذرني . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أنت خير . . . " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر أي : وارزقني وارثا وأنت خير . . .

(الفاء) عاطفة (له) متعلّق بـ (استجبنا) ، و(له) الثاني متعلّق بـ (وهبنا) ، و(له) الثالث متعلّق بـ (أصلحنا) (في الخيرات) متعلّق بـ (يسارعون) ، (رغبا) مصدر في موضع الحال " 2 " منصوب أي راغبين (لنا) متعلّق بـ (خاشعين) .

وجملة : " استجبنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نادى .

وجملة : " وهبنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة استجبنا .

وجملة : " أصلحنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة استجبنا .

وجملة : " إنّهم كانوا . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كانوا يسارعون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يسارعون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

وجملة : " يدعوننا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يسارعون .

وجملة : " كانوا لنا خاشعين " في محلّ رفع معطوفة على جملة كانوا يسارعون .

الصرف :

(رغبا) ، مصدر سماعيّ لفعل رغب يرغب إليه باب فرح

---

(1) أو في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي قائلا .

(2) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر يلاقي فعله في المعنى أي يرغبون فينا رغبا ويرهبوننا رهبا . . أو مفعول لأجله .

(362/516)

بمعنى ابتهل ، وزنه فعل بفتحتين ، وثمّة مصادر أخرى للفعل هي رغبى بفتح الراء وضمها وسكون الغين ، ورغبة بفتح الراء وضمّها وسكون الغين ، ورغبوت بفتحتين ، ورغبان بفتحتين ، ورغباء بفتح فسكون .

(رهبا) ، مصدر سماعيّ لفعل رهب يرهب باب فرح وزنه فعل بفتحتين ، وثمّة مصادر أخرى للفعل هي : رهبة بفتح الراء وسكون الهاء ، ورهب بضمّ الراء وفتحها وسكون الهاء ، ورهبان بضمّ فسكون وبفتحتين .

[سورة الأنبياء (21) : آية 91]

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (91)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره

اذكر " 1 " . (الفاء) عاطفة (فيها) متعلّق بـ (نفخنا) بحذف مضافين أي في جيب درعها (من روحنا) متعلّق بـ (نفخنا) ، (ابنها) معطوف على الضمير في (جعلناها) بالواو ، منصوب (آية) مفعول به ثان منصوب (للعالمين) متعلّق بمحذوف نعت لـ (آية) .

جملة : " (اذكر) التي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أحصنت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " نفخنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " جعلناها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

الصرف :

(فرجها) ، الفرج من الثوب هو الفتق ، ومن الإنسان عورته ، اسم جامد وزنه فعل بفتح فسكون .

---

(1) يجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف ، والتقدير : في ما يتلى عليكم التي . . ويجوز أن يكون معطوفا على زكريّا (89) .

[سورة الأنبياء (21) : آية 92]

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92)

الإعراب :

(أمّة) حال منصوبة من أمّتكم " 1 " ، (الواو) عاطفة (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر و(النون) نون الوقاية و(الياء) المحذوفة مفعول به .

جملة : " إنّ هذه أمّتكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنا ربّكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " اعبدون " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن آمنتم بي فاعبدوني .

[سورة الأنبياء (21) : آية 93]

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (93)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (أمرهم) مفعول به منصوب بتضمين الفعل معنى قطعوا " 2 " ، (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (تقطّعوا) ، (كلّ) مبتدأ مرفوع " 3 " ، (إلينا) متعلّق بـ (راجعون)

جملة : " تقطّعوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كلّ . . راجعون " لا محلّ لها استئنافيّة .

البلاغة

- الالتفات في قوله تعالى وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ . أصل الكلام : وتقطعتم أمركم بينكم ، على الخطاب ، فالتفت إلى الغيبة ، لينعى عليهم ما فعلوا ، من التفرق في الدين ، وجعله

---

(1) العامل في الحال معنى التوكيد في إنّ ، وجاءت الحال من الجامد لأنّه وصف .

(2) يجوز أن يكون منصوبا على نزع الخافض أي تفرّقوا في أمرهم . . وهو في كلا الوجهين على حذف مضاف أي أمر دينهم .

(3) على نيّة الإضافة . [. . . . .]

الجدول ج 17 ، ص : 67

قطعا موزعة ، وينهي ذلك إلى الآخرين ، كأنه قيل : ألا ترون إلى عظم ما ارتكب هؤلاء في دين اللّه تعالى الذي أجمعت عليه كافة الأنبياء عليهم السلام . وفي ذلك ذم للاختلاف في الأصول .

[سورة الأنبياء (21) : آية 94]

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ (94)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، خبره جملة الشرط (من الصالحات) متعلّق بـ (يعمل) ومن تبعيضيّة (الواو) حالية (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية للجنس (كفران) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (لسعيه) متعلّق بمحذوف خبر لا (الواو) عاطفة (له) متعلّق بـ (كاتبون) بحذف مضاف أي لأعماله ، وقد يعود الضمير على السعي فلا تقدير .

جملة : " من يعمل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كلّ إلينا راجعون " 1 " .

وجملة : " يعمل من الصالحات " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " هو مؤمن . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يعمل .

وجملة : " لا كفران لسعيه . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " إنّا له كاتبون " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا كفران لسعيه .

الصرف :

(كفران) ، مصدر سماعيّ لفعل كفر الثلاثيّ مثل الكفر ، وزنه فعلان بضمّ فسكون .

---

(1) في الآية السابقة (93) .

(كاتبون) ، جمع كاتب ، اسم فاعل من كتب الثلاثيّ ، وزنه فاعل والجمع فاعلون .

الفوائد

- فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ :

1 - " لا الحجازية " وهي التي تعمل عمل ليس قليلا عند الحجازيين . ولا تعمل مطلقا عند التميميين .

2 - وقد تنفي الوحدة ، وقد تنفي الجنس .

3 - ويشترط في إعمالها ما يشترط في إعمال " ما " . وسنفصل ذلك في موطن آخر بعونه تعالى .

4 - الغالب في خبرها أن يكون محذوفا ، كما في هذه الآية " فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ " والتقدير :

- لا كفران كائن لسعيه - ونحو قول سعد بن مالك ، جدّ طرفة بن العبد .

من صدّ عن نيرانها فأنا ابن قيس لا براح

وقد يذكر الخبر صريحا ، نحو قول الشاعر :

تعزّ فلا شيء على الأرض باقيا ولا وزر مما قضى اللّه واقيا

[سورة الأنبياء (21) : آية 95]

وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (95)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (حرام) خبر مقدّم مرفوع للمصدر المؤوّل (على قرية) متعلّق بـ (حرام) بحذف مضاف أي على أهل قرية (لا) زائدة – أو نافية – . .

والمصدر المؤوّل (أنّهم لا يرجعون) في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر أي : رجوع أهل القرية إلى الدنيا حرام – بزيادة لا – . . أو عدم رجوعهم إلى الآخرة ممتنع " 1 " .

---

(1) يجيز الأخفش الابتداء بحرام من غير اعتماد على النفي أو الاستفهام ، و(أنّ) المصدر المؤوّل فاعل للمصدر (حرام) سدّ مسدّ الخبر .

جملة : " حرام . . أنّهم لا يرجعون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أهلكناها . . . " في محلّ جرّ نعت لقرية .

وجملة : " لا يرجعون . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

البلاغة

الاستعارة في قوله تعالى " وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ " أي على أهل قرية ، فالكلام على تقدير مضاف ، أو القرية : مجاز عن أهلها . والحرام مستعار للممتنع وجوده ، بجامع أن كل واحد منهما غير مرجو الحصول .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 96 إلى 97]

حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ (97)

الإعراب :

(حتّى) حرف ابتداء لا عمل له (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط متعلّق بمضمون الجواب أي فاجأهم شخوص أبصار الذين كفروا (يأجوج) نائب الفاعل لفعل فتحت بحذف مضاف أي فتحت مخارج يأجوج ومأجوج (الواو) واو الحال (من كلّ) متعلّق بـ (ينسلون) .

جملة : " فتحت يأجوج . . . " في محلّ جرّ مضاف اليه .

وجملة : " هم . . ينسلون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " ينسلون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(الواو) عاطفة (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إذا) فجائيّة لتأكيد ربط الجواب (هي) ضمير الشأن مبتدأ مرفوع (شاخصة) خبر مقدّم مرفوع (أبصار) مبتدأ مؤخّر مرفوع (يا) للتنبيه (ويلنا) مفعول مطلق لفعل محذوف – غير مستعمل في اللغة – (قد) حرف تحقيق (في غفلة) متعلّق بمحذوف خبر كنّا (من هذا) متعلّق بـ (غفلة) ، (بل) للإضراب الانتقاليّ .

وجملة : " اقترب الوعد . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة فتحت يأجوج .

وجملة : " هي شاخصة أبصار . . . " لا محلّ لها جواب الشرط (إذا) " 1 " .

وجملة : " شاخصة أبصار . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هي) .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يا ويلنا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي :

يقولون يا ويلنا . . . وجملة القول – أو القول المقدّر – حال من فاعل كفروا .

وجملة : " قد كنّا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليليّة – وجملة : " كنّا ظالمين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(حدب) ، اسم للمرتفع من الأرض ، وزنه فعل بفتحتين .

(شاخصة) ، مؤنّث شاخص ، اسم فاعل لفعل شخص الثلاثيّ ، وزنه فاعل والمؤنّث فاعلة .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 98 إلى 100]

إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (98) لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ (99) لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ (100)

الإعراب :

(ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب معطوف على ضمير

---

(1) يجوز أن تكون الجملة معطوفة على مقدّر هو جواب الشرط ، والتقدير بعثوا ، أو قالوا يا ويلنا .

(369/516)

الخطاب اسم إنّ (من دون) متعلّق بحال من مفعول تعبدون المقدّر (حصب) خبر إنّ مرفوع (لها) متعلّق بـ (واردون) " 1 " .

جملة : " إنّكم . . . حصب " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعبدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " أنتم لها واردون " في محلّ رفع بدل من حصب جهنّم " 2 " .

الإشارة في (هؤلاء) إلى الأوثان (كلّ) مبتدأ مرفوع " 3 " (فيها) متعلّق بـ (خالدون) الخبر .

وجملة : " كان هؤلاء آلهة . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز الخطاب السابق .

وجملة : " ما وردوها . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (لو) .

وجملة : " كلّ فيها خالدون " لا محلّ لها معطوفة على جملة لو كان هؤلاء .

(لهم) متعلّق بخبر مقدّم (فيها) متعلّق بالخبر المحذوف ، (زفير) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الواو) عاطفة (فيها) الثاني متعلّق بـ (يسمعون) ، ومفعول يسمعون محذوف أي لا يسمعون شيئًا . . " 4 "

وجملة : " لهم فيها زفير . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هم فيها لا يسمعون " لا محلّ لها معطوفة على جملة لهم فيها زفير .

وجملة : " لا يسمعون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف :

(حصب) ، اسم لما يرمى في النار أي كأنّها تحصب به ، وزنه فعل بفتحتين .

---

(1) الضمير في (لها) هو مفعول اسم الفاعل واردون ، فاللام على هذا للتقوية .

(2) يجوز أن تكون حالا من جهنّم وهو جائز لأنّ المضاف في حكم الجزء من المضاف إليه ، فجهنّم تشتمل على الحصب فهو جزء منها .

(3) على نيّة الإضافة أي كلّ فئة من العابدين والمعبودين.

(4) يجوز أن يتعلّق بالفعل سبقت.

(370/516)

(واردون) ، جمع وارد ، اسم فاعل من ورد الثلاثيّ . . وانظر الآية (19) من سورة يوسف.

وجملة: "لهم فيها زفير . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "هم فيها لا يسمعون "لا محلّ لها معطوفة على جملة لهم فيها زفير.

وجملة: "لا يسمعون "في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم).

[سورة الأنبياء (21): الآيات 101 إلى 104]

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ (101) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ (102) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103) يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (104)

الإعراب:

(لهم) متعلّق بـ(سبقت) ، (منّا) متعلّق بحال من الحسنى " 1 " ، و(الحسنى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدّرة على الألف ، وهو نعت لمنعوت محذوف أي المنزلة الحسنى (عنها) متعلّق بالخبر (مبعدون) .

جملة : "إنّ الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سبقت . . الحسنى " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أولئك عنها مبعدون " في محلّ رفع خبر إنّ .

(لا) نافية (الواو) واو الحال (في ما) متعلّق بـ(خالدون) خبر المبتدأ هم .

---

(1) يجوز أن يتعلّق بالفعل سبقت .

وجملة : " لا يسمعون . . . " في محلّ رفع خبر ثان للحرف إنّ " 1 " .

وجملة : " هم . . خالدون " في محلّ نصب حال من فاعل لا يسمعون " 2 " .

وجملة : " اشتهت أنفسهم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع نعت ليومكم ، والعائد محذوف أي توعدونه

(توعدون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . و(الواو) نائب الفاعل .

وجملة : " لا يحزنهم الفزع . . . " في محلّ رفع خبر ثالث للحرف إنّ " 3 " .

وجملة : " تتلقّاهم الملائكة . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا يحزنهم .

وجملة : " هذا يومكم . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي :

يقولون . . . وجملة القول في محلّ نصب حال من الملائكة .

وجملة : كنتم توعدون لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " توعدون . . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

(يوم) بدل من العائد المقدّر في (توعدون) " 4 " منصوب (كطيّ) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نطوي (للكتب) متعلّق بالمصدر طيّ .

والمصدر المؤوّل (ما بدأنا . .) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نعيده أي : نعيده إعادة كبدئنا أول خلق " 5 " ، (أوّل) مفعول

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من الضمير في مبعدون أو في محلّ رفع بدل من (مبعدون) .

(2) يجوز أن تكون استئنافيّة لا محلّ لها .

(3) أو في محلّ نصب حال من ضمير (خالدون) ، ويعطف عليها جملة تتلقّاهم الملائكة .

(4) أو متعلّق بفعل لا يحزنهم . . أو هو مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر .

(5) أو عامله نطوي أي نطويها طيّا كبدئنا أول خلق . . ويجوز أن يتعلّق بحال من ضمير

نعيده أي نعيده حال كونه مماثلا أول خلق . .

الجدول ج 17 ، ص : 74

به منصوب عامله بدأنا " 1 " ، (وعدا) مفعول مطلق منصوب لفعل محذوف (علينا)

متعلّق بنعت لـ (وعدا) . .

وجملة : " نطوي . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " بدأنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " نعيده " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " (وعدنا) وعدا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إنّا كنّا فاعلين " لا محلّ لها استئناف مؤكّد لمعنى ما سبق .

وجملة : " كنّا فاعلين " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(مبعدون) ، جمع مبعد ، اسم مفعول من أبعد الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين .

(حسيس) ، مصدر سماعيّ - خاضع لضابط تقريبيّ - لفعل حسّ الثلاثيّ ، وزنه فعيل

. . وكذا يأتي وزن المصدر للفعل الدالّ على صوت ، كما يأتي على وزن فعال بضمّ الفاء

كصراخ .

(اشتهت) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة التقاء الساكنين حذفت الألف الساكنة قبل التاء

الساكنة وزنه افتعت .

(الفزع) ، مصدر سماعيّ لفعل فزع باب فرح ، وزنه فعل بفتحتين .

(طيّ) ، مصدر طوى الثلاثيّ ، وزنه فعل بفتح فسكون ، وفيه إعلال بالقلب أصله طوي – بواو ساكنة وياء بعدها – فلمّا اجتمعت الواو والياء والأولى منهما ساكنة قلبت الواو إلى ياء وأدغمت مع الياء الأخرى .

(السجلّ) ، اسم للقرطاس الذي يكتب عليه ، وزنه فعلل بكسر الفاء ، وقد نقلت كسرة اللام الأولى إلى العين لمناسبة الإدغام .

---

(1) أو حال من الهاء في (نعيده) . [. . . . .]

(372/516)

البلاغة

1 – المبالغة :

في قوله تعالى " لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا " فن المبالغة ، أي لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزلوا منازلهم في الجنة ، فالجملة مسوقة للمبالغة في إنقاذهم منها .

2 – التشبيه :

في قوله تعالى "كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ" تشبيه للإعادة بالابتداء ، في تناول القدرة لهما على السواء ، قال الزمخشري : فإن قلت : وما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه ؟ قلت : أوله إيجاده من العدم ، فكما أوجده أولا من عدم ، يعيده ثانيا في عدم .

فإن قلت : ما بال خلق منكّرا ؟ قلت : هو كقولك : هو أول رجل جاءني ، تريد أول الرجال ، ولكنك وحدته ونكرته ، إرادة تفصيلهم رجلا رجلا ، فكذلك معنى (أوّل خلق) أول الخلق ، بمعنى أول الخلائق ، لأن الخلق مصدر لا يجمع .

الفوائد

- لا النافية :

إذا وقعت على فعل نفته مستقبلا ، وقد تنفي الماضي ، فإذا نفته وجب تكرارها ، نحو : " لا أكلت ولا شربت " . أما إذا كان نفيها للمستقبل ، فيجوز التكرار وعدمه ، فمن التكرار قولك : " زيد لا يقرأ ولا يكتب " .

(373/516)

ملاحظة : قد تعترض " لا " النافية بين الخافض ومخفوضة ، نحو " حضر الطالب بلا كتاب " . وحولها ملاحظات أخرى ، تجاوزناها خشية الإطالة .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 105 إلى 107]

وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ (106) وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (107)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) للتحقيق (في الزبور) متعلّق بـ (كتبنا) وكذلك (من بعد) .

والمصدر المؤوّل (أنّ الأرض يرثها . .) في محلّ نصب مفعول به .

جملة : "كتبنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " يرثها عبادي . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

(في هذا) متعلّق بخبر إنّ ، والإشارة إلى القرآن (اللام) للتوكيد (بلاغا) اسم إنّ منصوب (لقوم) متعلّق بـ (بلاغا) .

وجملة : " إنّ في هذا لبلاغا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(الواو) عاطفة (ما) نافية (إلّا) للحصر (رحمة) مفعول لأجله منصوب " 1 " ، (للعالمين) متعلّق بـ (رحمة) " 2 " .

وجملة : " ما أرسلناك . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الصرف :

(الزبور) ، هنا بمعنى الكتاب و(ال) جنسيّة أي كتبنا في الكتب المنزلة ، وزنه فعول .

(الذكر) ، هنا بمعنى أمّ الكتاب وهو اللوح ، وزنه فعل بكسر فسكون .

[سورة الأنبياء (21) : آية 108]

قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108)

الإعراب :

(إنّما) كافّة ومكفوفة (إليّ) متعلّق بـ (يوحى) ، (أنّما) كافّة ومكفوفة . .

---

(1) يجوز أن يكون حالا من الكاف على حذف مضاف أي : ذا رحمة .

(2) أو متعلّق بنعت لرحمة .

و المصدر المؤوّل (أنّما إلهك إله . .) في محلّ رفع نائب الفاعل لفعل يوحى " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (هل) حرف استفهام وجاء بمعنى الأمر أي أسلموا .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يوحى إليّ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هل أنتم مسلمون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن جاءكم علم

ذلك فهل أنتم . . .

البلاغة

القصر :

في قوله تعالى قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ أي ما يوحى إليّ إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد ، لأنه المقصود الأصلي من البعثة . وأما ما عداه فمن الأحكام المتفرعة عليه ، فإنما الأولى لقصر الحكم على الشيء ، كقولك إنما يقوم زيد أي ما يقوم إلا زيد ، والثانية لقصر الشيء على الحكم ، كقولك إنما زيد قائم أي ليس له إلا صفة القيام .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 109 إلى 111]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ (109) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ (110) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (111)

الإعراب :

(الفاء) الأولى استئنافيّة (تولّوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ

---

(1) أي يوحى إليّ وحدانيّة إلهكم . . والمعنى ما يوحى إليّ إلّا اختصاص الإله بالوحدانية .

والملاحظ أنّ ما الكافّة لم تجرّد (أنّ) من المصدريّة ، فالمصدر المنسبك منها ومن الجملة بعدها نائب الفاعل .

المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل جزم فعل الشرط . .

و(الواو) فاعل (الفاء) الثانية رابطة لجواب . الشرط (على سواء) متعلّق بحال من الفاعل والمفعول أي مستوين في علمه (الواو) عاطفة (إن) . نافية و(الهمزة) للاستفهام (قريب) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (أم) هي المتصلة عاطفة (ما) حرف مصدريّ " 2 " ، (توعدون) مضارع مبنيّ للمجهول . . و(الواو) نائب الفاعل .

والمصدر المؤوّل (ما توعدون . .) في محلّ رفع فاعل الصفة المشبّهة قريب سدّ مسدّ الخبر .

جملة : " إن تولّوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قل . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " آذنتكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إن أدري . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " أ قريب . . ما توعدون " في محلّ نصب مفعول به لفعل أدري المعلّق بالاستفهام .

وجملة : " توعدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

(من القول) متعلّق بحال من الجهر و(ما) حرف مصدريّ " 3 " .

والمصدر المؤوّل (ما تكتمون) في محلّ نصب مفعول به عامله يعلم .

وجملة : " إنّه يعلم . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يعلم (الثانية " في محلّ رفع معطوفة على جملة يعلم (الأولى) .

وجملة : " تكتمون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما)

---

(1) يجوز أن يكون خبرا مقدّما والمصدر المؤوّل مبتدأ مؤخّر .

(2 ، 3) أو اسم موصول والعائد محذوف .

الجدول ج 17 ، ص : 79

(الواو) عاطفة (إن أدري) مثل الأولى (لكم) متعلّق بنعت لـ (فتنة) (متاع) خبر لمبتدأ محذوف " 1 " تقديره هو أو هذا (إلى حين) متعلّق بنعت لـ (متاع) .

وجملة : " إن أدري . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة إن أدري السابقة .

وجملة : لعلّه فتنة . . . " في محلّ نصب مفعول به عاملها أدري المعلّق بالترجّي " 2 " .

البلاغة

الاستعارة التمثيلية :

في قوله تعالى (فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ " حيث شبه بمن بينه وبين أعدائه هدنة فأحس

بغدرهم ، فنبذ إليهم العهد ، وشهر النبذ وأشاعه ، وآذنهم جميعا بذلك " عَلى سَواءٍ " أي مستوين في الاعلام به .

[سورة الأنبياء (21) : آية 112]

قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (112)

الإعراب :

(ربّ) مرّ إعرابه " 3 " ، (بالحقّ) متعلّق بـ (احكم) وقد أقيمت الصفة مكان الموصوف أي احكم بحكمك الحقّ (الواو) واو العطف (الرحمن) خبر المبتدأ مرفوع (المستعان) خبر ثان مرفوع (ما) حرف مصدريّ " 4 " .

---

(1) وإذا تسلّط الترجّي على متاع كان معطوفا على فتنة .

(2) النحويّون لا يعدّون الترجّي من جملة المعلقات ولكنّ ابن هشام والكوفيّين يعدّونه من تلك أخذا من أبي عليّ في التذكرة .

(3) في الآية (89) من هذه السورة .

(4) أو اسم موصول والعائد محذوف ، والجملة بعده صلة له .

والمصدر المؤوّل (ما تصفون . .) في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق بـ (المستعان) .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ربّ احكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " احكم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " ربّنا الرحمن . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

الفوائد

- التعليق عن العمل :

وهو إبطال عمل الأفعال التي تنصب مفعولين لفظا لا محلا . ومن المعلقات :

1 - لام الابتداء : نحو " لقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق " .

2 - لام القسم : كقول لبيد :

ولقد علمت لتأتينّ منيتي إن المنايا لا تطيش سهامها

3 - ما النافية : نحو " لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ " .

4 - لا وإن النافيتان .

5 - الاستفهام : نحو : الآية (وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ) إلخ وكذلك :

ما كنت أدري قبل عزّة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 17 صـ 39. 80 ﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ) الواو عاطفة واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وآتينا فعل وفاعل وابراهيم مفعول به أول ورشده مفعول به ثان ومن قبل حال أي من قبل موسى وهارون وكنا الواو عاطفة وكان واسمها وبه متعلقان بعالمين وعالمين خبر كنا . (إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ ؟) الظرف متعلق بفعل محذوف أي اذكر ولك أن تعلقه بعالمين وعلقه الزمخشري بآتينا أو برشده أيضا وليس ثمة ما يمنع من ذلك وجملة قال مضاف إليها الظرف ولأبيه متعلقان بقال وقومه عطف على لأبيه ، وما اسم استفهام مبتدأ وهذه خبر والتماثيل بدل من اسم الاشارة والتي صفة وجملة أنتم لها عاكفون صلة الموصول وأنتم مبتدأ وعاكفون خبر ولها متعلقان بعاكفون وسيأتي السر في عدوله عن القول عليها عاكفون إلى لها عاكفون في باب البلاغة . (قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ) قالوا فعل وفاعل ووجدنا فعل وفاعل والجملة مقول القول وآباءنا مفعول وجدنا الأول ولها متعلقان بعابدين وعابدين مفعول وجدنا الثاني . (قالَ : لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) اللام جواب للقسم المحذوف وقد

حرف تحقيق وكنتم كان واسمها وأنتم تأكيد للتاء وآباؤكم عطف على التاء وفي ضلال خبر كنتم ومبين صفة لضلال . (قالُوا : أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ) الهمزة للاستفهام وجئتنا فعل وفاعل ومفعول به وبالحق متعلقان بجئتنا وأم حرف عطف معادل للهمزة وأنت مبتدأ ومن اللاعبين خبره .

البلاغة :

(378/516)

1- العدول عن الفعلية إلى الاسمية : في قوله تعالى : " وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ " عدول عن الخطاب بالجملة الفعلية كما هو مقتضى السياق إلى الخطاب بالجملة الاسمية وانما يعدل عن أحد الخطابين وإن كان السياق يقتضيه لضرب من التأكيد والمبالغة وقد جيء بها هنا تنويها بالخاص بعد العام فالخشية من اللّه ملازمة لهم ولكنها من الساعة أكثر ملازمة وأشد امتلاكا لقلوبهم وأسرا لجوارحهم ، ما يريمون عن تذكرها ، وتفادي كل ذنب خشية مواجهتها بما هم فيه ، وأمر ثان هو الديمومة والاستمرار اللذان تفيدهما الجملة الاسمية أكثر مما تفيدهما الجملة الفعلية التي تتوزع على الأزمنة .

2- في قوله تعالى : " ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ " عدول عن " على " التي يتعدى

فعل العكوف بها ولكنه أم يقصد التعدية ولو قصد التعدية لقال عليها ولكنه عدل عنها إلى اللام لأنه قصد من العكوف معنى العبادة ليجيبوه بقولهم " وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ " وانهم لا ينفكون عن التقليد الأعمى وفي ذلك ما فيه من التنديد بالتقليد والقول بغير برهان والانجرار إلى ما عليه آباؤهم ولو بالأرسان ، وكفى أهل التقليد سبة أن عبدة الأوثان والأصنام منهم وقيل إن اللام بمعنى على وقد نص النحاة على مجيئها بمعنى على ولكن تفوت بذلك النكتة التي ألمعنا إليها فالأولى بقاؤها على بابها من الاختصاص الذي هو معنى رئيسي للام .

3- خولف بين الجملتين في الآية " قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ " لملاحظة تجدد في إحداهما فبرزت في صورة الفعلية وثبات

في الأخرى فبرزت في صورة الاسمية والمعنى : أحدثت عندنا الإتيان بالحق وهو التوحيد فيما نسمعه منك أم أنت على ما كنت عليه من اللعب منذ أيام الصبا وأرادوا بالتجدد في الجملة الاولى أن التوحيد أمر محدث مخترع وبالثبات في الثانية أنه على عادتهم المستمرة من اللعب تحقيرا له ، وما أقبح ضلالهم في تقليد آبائهم في عبادة جماد هو دونهم في الرتبة حيث

ينحتونها بأيديهم ثم يعفرون وجوههم وجباههم دونها .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 56 إلى 61]

قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56)
وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ (58) قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ
يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ (60)
قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61)

اللغة :

(جُذاذاً) : في القاموس الجذاذ بتثليث الجيم : ما تكسر من الشيء وفعله جذّ يجذّ من باب نصر وقد تقدمت الخصائص لاجتماع الجيم والذال فاء وعينا للكلمة .

الاعراب :

)

قالَ : بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلى ذِلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) بل حرف إضراب وربكم مبتدأ ورب السموات والأرض خبر والذي صفة لرب وجملة فطرهن صلة والضمير يعود على السموات والأرض أو على التماثيل ورجح الزمخشري الثاني لكونه " أدخل في تضليلهم وأثبت للاحتجاج عليهم " ويدل على ذلك أيضا قوله " وَأَنَا عَلى ذِلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ " كأنه قال وسأبين لكم ذلك وأبرهن عليه ، وأنا مبتدأ خبره من الشاهدين وعلى ذلك متعلقان بالشاهدين . (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) وهذا شروع في تأكيد الطريقة الفعلية أو الدليل العملي كما يقال فالواو عاطفة والتاء تاء القسم وسيرد بحث هام عن حروف القسم الجارة في باب الفوائد والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم واللام جواب القسم وأكيدن فعل مضارع مبني على الفتح لوجوب توكيده بنون التوكيد الثقيلة وفاعله ضمير مستتر تقديره أنا وأصنامكم مفعول به وبعد ظرف متعلق بأكيدن وأن وما في حيزها مصدر مؤول مضاف إلى الظروف ومدبرين حال أي تعودوا إلى مجتمعاتكم . (فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) الفاء عاطفة على محذوف تقديره فولوا وعادوا إلى مجتمعاتهم وذهب معهم ابراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه وقال إني سقيم أشتكي رجلي فتركوه ومضوا فرجع إبراهيم إلى بيت الأصنام وقبالة الباب صنم عظيم والى جنبه أصغر منه وهكذا دواليك

فقال لهم إبراهيم ألا تأكلون فلم ينبس أحد فانهال عليهم تكسيرا فجعلهم . . . والقصة بكاملها مروية في الخازن وغيره .

(381/516)

و جعلهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول وجذاذا مفعول به ثان وإلا أداة استثناء لأن الكلام تام موجب وكبيرا مستثنى من الهاء أي لم يكسره وتركه لحبك النكتة واستكمال الهزء بهم ، ولعل واسمها واليه متعلقان بيرجعون وجملة يرجعون خبر لعل وفي هذا من التهكم ما فيه .

(قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) قالوا فعل وفاعل ومن اسم استفهام قصد به الإنكار مبتدأ وجملة فعل خبر وهذا مفعول فعل وبآلهتنا متعلقان بفعل ولم يشيروا إليها بهؤلاء وهي أمامهم لوضع الظاهر موضع المضمر وقد تقدم بحثه وجملة إنه لمن الظالمين مستأنفة مسوقة لتقرير ما تقدم وتأكيد استنكارهم لما حدث وان واسمها واللام المزحلقة ومن الظالمين خبران . (قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ) جملة سمعنا مقول القول وفتى مفعول سمعنا وجملة يذكرهم مفعول به ثان وستأتي خاصة فعل سمع في باب الفوائد وجملة يقال صفة لفتى وله متعلقان بيقال وابراهيم : في رفعه عدة أوجه متساوية الرجحان

أولها انه نائب فاعل ، يقال أي يقال له هذا اللفظ قال الزمخشري : وهو الصحيح لأن المراد الاسم لا المسمى وثانيها أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو ابراهيم أو هذا ابراهيم وثالثها أنه مبتدأ محذوف الخبر أي ابراهيم فاعل ذلك ورابعها انه منادى وحرف النداء محذوف أي يا ابراهيم . (قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) فأتوا الفاء الفصيحة وأتوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وبه متعلقان بقوله فأتوا ، وعلى أعين الناس في محل نصب على الحال من الضمير المجرور بالباء أي ائتوا به حال كونه معاينا مشاهدا وسيأتي سر الاستعلاء في هذا التعبير ولعلهم لعل واسمها وجملة يشهدون خبرها أي يشهدون عليه انه الفاعل .

الفوائد :

في هذه الآيات فوائد كثيرة نورد أهمها فيما يلي :

1 - حروف القسم :

أصل حروف القسم الباء والواو مبدلة منها وانما قلنا ذلك لأنها حرف الجر الذي يضاف به فعل الحلف إلى المحلوف وذلك الفعل أحلف أو أقسم أو نحوهما ولكنه لما كان الفعل غير

متعد وصلوه بالباء المعدية فصار أحلف باللّه أو أقسم باللّه ، قال اللّه تعالى : " وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ " وقال الشاعر :

أقسم باللّه وآلائه والمرء عما قال مسئول

وقال زهير بن أبي سلمى :

فأقست بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

وانما خص الباء بذلك دون غيرها من حروف الجر لأمور :

آ- انه يجوز ذكر فعل القسم معها كما رأيت في الشواهد المتقدمة ولا يجوز ذلك في الواو والتاء فلا تقول أقسم واللّه ولا أقسم تاللّه .

ب- جواز دخولها على الضمير دون غيرها من الحروف تقول :

بك لأفعلن ولا تقول تك ولا وك ، ومعروف أن الضمير يرد الشيء إلى أصله .

ج- استعمالها في القسم الاستعطافي وذلك أن القسم جملة انشائية يقصد بها تأكيد جملة أخرى فإن كانت هذه الجملة الاخرى انشائية أيضا فذلك هو القسم الاستعطافي نحو باللّه هل قام زيد أي أسألك باللّه مستحلفا . ومن القسم الاستعطافي بالباء قول المجنون :

بربك هل ضممت إليك ليلى قبيل الصبح أو قبلت فاها

د- اختصاص الباء دون الواو والتاء بمجيئها لغير القسم وهو ظاهر .

ولما كثر استعمال ذلك في الحلف آثروا التخفيف فحذفوا

(383/516)

ب وفعله كبيرهم فعل ومفعول به وفاعل مؤخر وهذا نعت لكبيرهم أو بدل منه والفاء الفصيحة واسألوهم فعل أمر وفاعل ومفعول به وإن شرطية وكانوا فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والواو اسمها وجملة ينطقون خبرها وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فاسألوهم . (فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ) الفاء عاطفة ورجعوا فعل ماض وفاعل والى أنفسهم متعلقان برجعوا فقالوا عطف على فرجعوا وإنكم ان واسمها وجملة أنتم الظالمون خبرها ولك أن تجعل أنتم ضمير فصل والظالمون خبر إن . (ثُمَّ نُكِسُوا عَلى

رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ)

(384/516)

ثم حرف عطف للتراخي وسيأتي معنى التنكيس في باب البلاغة ونكسوا فعل ونائب فاعل وعلى رءوسهم حال أي كائنين على رءوسهم ولك أن تعلقه بنفس الفعل ومعنى

التنكيس القلب يقال نكس رأسه ونكسه مخففا ومشددا أي طأطأه حتى صار أعلاه أسفله واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وعلمت فعل وفاعل والخطاب لابراهيم والجملة معمول لقول محذوف في موضع الحال وما نافية حجازية وهؤلاء اسمها وجملة ينطقون خبرها وجملة ما هؤلاء ينطقون في موضع المفعولين لعلمت أو في موضع المفعول الواحد إن كانت علمت بمعنى عرفت . (قالَ : أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ) الهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة على محذوف وتعبدون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل ومن دون اللّه حال وما مفعول به وجملة لا ينفعكم صلة وشيئا مفعول مطلق ولا يضركم عطف على لا ينفعكم . (أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) أف اسم فعل مضارع وقد تقدمت اللغات فيها ومعناه أتضجر ولكم متعلقان بمحذوف حال لأن اللام للبيان بالنسبة للمتأفف ولما تعبدون عطف على لكم وجملة تعبدون صلة ومن دون اللّه حال أفلا الهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة على محذوف ولا نافية وتعقلون فعل مضارع والواو فاعل . (قالُوا : حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ) حرقوه فعل أمر وفاعل ومفعول به والجملة مقول القول وانصروا فعل أمر وفاعل وآلهتكم مفعول به وإن شرطية وكنتم فعل الشرط والتاء اسم كان وفاعلين خبرها وجواب ان محذوف دل عليه ما قبله أي فحرقوه وانصروا آلهتكم . (

قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ) لا بد من تقدير جمل محذوفة أي فأزمعوا أمرهم على حرقه فجمعوا الحطب الكثير وأضرموا النار وأوثقوا ابراهيم وجعلوه

(385/516)

في منجنيق ورموه في النار ، وقلنا فعل وفاعل ويا حرف نداء ونار منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب وكوني فعل أمر ناقص والياء اسمها وبردا خبرها وسلاما عطف على بردا وعلى ابراهيم صفة سلاما . (وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ) الواو حرف عطف وأرادوا فعل ماض وفاعل وبه متعلقان بأرادوا وكيدا مفعول به ، فجعلناهم الفاء حرف عطف وجعلناهم عطف على أرادوا والأخسرين مفعول به ثان .

البلاغة :

1- تجاهل العارف : في قوله : " أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ " فن طريف من فنونهم يسمى تجاهل العارف وهو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلا منه ليخرج الكلام مخرج المدح أو الذم أو ليدل على شدة الوله في الحب أو لقصد التعجب أو التوبيخ أو التقرير وهو على قسمين موجب ومنفي والآية التي نحن بصددها من التجاهل الموجب الجاري مجرى التقرير .

2- التعريض : في قوله " فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ " فن التعريض ، وقد تقدمت الاشارة اليه أكثر من مرة ، أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة ولا يصح في العقل أن يطلق عليه أنه إله ، فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة لانهم إذا قالوا لا ينطقون قال لهم : فكيف تعبدون من يعجز عن النطق ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه ، فهذا الكلام من فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق فإن ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 71 إلى 75]

(386/516)

وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ (71) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ (72) وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ (73) وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75)

الإعراب :

(وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ) الواو عاطفة ونجيناه فعل وفاعل ومفعول به ولوطا معطوف على الهاء أو مفعول معه والواو واو المعية وهو ابن أخيه فنقلناه من أرض نمروذ بالعراق ، إلى الأرض متعلقان بنجيناه أو بمحذوف حال والتي صفة للأرض وجملة باركنا فيها للعالمين صلة وفيها حال وللعالمين متعلقان بباركنا وهي قرى بيت المقدس بفلسطين وسيأتي بحث هام عن فلسطين لغة في باب الفوائد (وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ) الواو حرف عطف ووهبنا فعل وفاعل وله متعلقان بوهبنا واسحق مفعول به ويعقوب عطف على اسحق ونافلة حال من يعقوب أي أعطي يعقوب زيادة من غير سؤال وإذا جعلت معنى نافلة عطية فيكون انتصابها على المفعولية

المطلقة من معنى العامل وهو وهبنا لأن الهبة والعطية متقاربان في المعنى وكلّا مفعول أول لجعلنا مقدم وجعلنا فعل وفاعل وصالحين مفعول به ثان . (وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا) وجعلناهم فعل وفاعل ومفعول به وأئمة مفعول به ثان وجملة يهدون بأمرنا صفة لأئمة وبأمرنا حال أي يهدون إلى ديننا ملتبسين بأمرنا . (وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ

الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) وأوحينا عطف على ما تقدم وإليهم متعلقان بأوحينا وفعل الخيرات مفعول به وإقام الصلاة عطف على فعل الخيرات وكذلك إيتاء الزكاة ، وكانوا الواو عاطفة وكانوا كان واسمها وعابدين خبرها ولنا متعلقان بعابدين . (وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً) ولوطا منصوب بفعل محذوف يفسره ما بعده أي آتينا لوطا فهو من باب الاشتغال وجملة آتيناه مفسرة لا محل لها وحكما مفعول ثان لآتيناه وعلما معطوف على حكما .

(وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ) ونجيناه فعل وفاعل ومفعول به ومن القرية متعلقان بنجيناه والتي صفة للقرية وجملة كانت صلة واسم كانت ضمير مستتر تقديره هي وجملة تعمل الخبائث خبر كانت وجملة انهم تعليلية لا محل لها وان اسمها وجملة كانوا خبرها وقوم خبر كانوا وسوء مضاف لقوم وفاسقين صفة لقوم .

(وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) في رحمتنا متعلقان بأدخلناه وجملة انه من الصالحين تعليلية وان واسمها والجار والمجرور خبرها .

البلاغة :

في هذه الآيات مجازان الأول في قوله " وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ " والمراد أهلها لأنهم كانوا يمارسون الخبائث أي

الأعمال القبيحة من اللواط والرمي بالبندق واللعب بالطيور وغيرها .

والثاني في قوله " وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا " أي في جنتنا لأنها مكان الرحمة فهو مجاز مرسل علاقته المحلية .

الفوائد :

1- فلسطين :

فلسطين بفتح الفاء وكسرها مع فتح اللام لا غير قرى بيت المقدس وفي القاموس : " فلسطون وفلسطين وقد تفتح فاؤهما : كورة بالشام وقرية بالعراق تقول في حال الرفع بالواو وفي حال النصب والجر بالياء أو تلزمها الياء في كل حال والنسبة فلسطي " هذا ويجوز في هذا النوع أي المسمى بجمع المذكر السالم أن يعرب بالحركات الثلاثة ظاهرة على النون حال كونه لم يكن أعجميا وإن كان أعجميا أعرب إعراب ما لا ينصرف أي لا ينون ويجر بالفتحة ويجوز فيه أن يعرب اعراب جمع المذكر السالم .

2- إقام الصلاة وإيتاء الزكاة :

(إِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ) القاعدة في مصدر الفعل الرباعي على وزن أفعل أن يأتي على إفعال إن كان صحيح العين نحو أكرم إكراما وأوجد إيجادا فان اعتلت عينه نحو اقام وأعان

وأبان جاء مصدره على إفالة كإقامة وإعانة وابانة حذفت عين المصدر وعوض منها تاء التأنيث والأصل أقوام وإعوان وإبيان فنقلت حركة الواو والياء وهي الفتحة إلى الحرف الساكن قبلهما ثم حذفتا فرارا من اجتماع الساكنين وعوض

منهما التاء وقد تحذف هذه التاء من المصدر إذا أضيف كقوله تعالى " وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ " وما كان منه معتلّ اللام مثل أعطى وأهدى وأولى قلبت لامه في المصدر همزة مثل إعطاء وإهداء وإيلاء والأصل إعطاو وإهداي وايلاي قال في شرح القاموس " العرب تهمز الواو والياء إذا جاءتا بعد ألف لأن الهمزة أحمل للحركة منهما ولأنهم يستثقلون الوقف على الواو وكذلك الياء مثل الرداء أصله رداي " هذا ويرجع في هذا إلى بحث الابدال في كتب النحو المطولة .

]

سورة الأنبياء (21) : الآيات 76 إلى 82]

(389/516)

وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (77) وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ

يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (80) وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ (81) وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ (82)

اللغة :

(الْحَرْثِ) : الزرع وبابه نصر أو كتب كما في المختار وفي القاموس :

الحرث مصدر والأرض التي تستنبت بالبذر والنوى والغرس قال ابن عباس وأكثر المفسرين إن الحرث كان كرما قد تدلت عناقيده وقيل كان زرعا .

(نَفَشَتْ) : تفرقت وانتشرت فيه فرعته وأفسدته وفي المختار :

" نفشت الغنم والإبل أي رعت ليلا بلا راع من باب جلس . . . والنفش بفتحتين اسم منه ومنه قوله تعالى " إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ " ولا يكون النفش إلا بالليل " ونفش الصوف والقطن من باب نصر والنفش تشعيب الشيء بأصابعك حتى ينتشر .

(

لَبُوسٍ) : اللبوس اللباس قال : " البس لكل حال لبوسها " والمراد الدرع ، قال قتادة : كانت صفائح فأول من سردها وخلقها داود فجمعت الخفة والتحصين وهي المسماة بالدرع

والدرع كما في المختار مؤنثة ، وقال أبو عبيدة تؤنث وتذكر .

الاعراب :

(390/516)

(وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) ونوحا عطف على لوطا فيكون مشتركا معه في عامله الذي هو آتينا المفسر بآتينا الظاهر وكذلك داود وسليمان والتقدير ونوحا آتيناه حكما وداود وسليمان آتيناهما حكما فإذ بدل اشتمال من نوحا وداود وسليمان ولك أن تعربه مفعولا به لفعل محذوف أي واذكر

نوحا وداود وسليمان أي اذكر خبرهم وقصتهم فتكون إذ منصوبة بنفس المضاف المقدر أي خبرهم الواقع في وقت كذا ، وجملة نادى مضاف إليها ومن قبل متعلقان بنادى

فاستجبنا عطف على نادى وله متعلقان باستجبنا ، فنجيناه عطف على استجبنا ومن الكرب متعلقان بنجيناه والعظيم صفة . (وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ) ونصرناه فعل وفاعل ومفعول به ومن القوم متعلقان بنصرناه والذين صفة للقوم وجملة كذبوا بآياتنا صلة وان واسمها وجملة كانوا خبرها وجملة انهم تعليلية لا محل لها وقوم سوء خبر كانوا فأغرقناهم عطف على ما تقدم وأجمعين تأكيد

للهاء .

)

(391/516)

وَ داوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ)

وداود وسليمان تقدم اعرابهما وإذ ظرف بدل من المضاف المحذوف أي اذكر قصة داود وسليمان وجملة يحكمان مضافة إليها وفي الحرث متعلقان بيحكمان وإذ ظرف متعلق بدل من المضاف المحذوف وجملة نفشت مضاف إليها وفيه جار ومجرور متعلقان بنفشت وغنم القوم فاعل وستأتي خلاصة القصة في باب الفوائد ، وكنا الواو عاطفة وكان واسمها وشاهدين خبرها ولحكمهم متعلقان بشاهدين وجمع الضمير لأنه أرادهما والمتحاكمين إليهما ، أو انه ضمير يراد به المثنى وانما وقع الجمع مقام التثنية مجازا أو لأن التثنية جمع وأقل الجمع اثنان ، ويدل على أن المراد التثنية قراءة ابن عباس لحكمهما بصيغة التثنية .

(فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً) ففهمناها عطف على يحكمان لأنه بمعنى الماضي أي فهمناه الصواب فيها وفهمناها فعل وفاعل ومفعول به وسليمان مفعول به ثان

وكلّا مفعول أول مقدم لآتينا وحكما وعلما مفعول به ثان لآتينا . (وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ) وسخرنا فعل وفاعل ومع ظرف مكان

(392/516)

متعلق بسخرنا وداود مضاف اليه والجبال مفعول به وجملة يسبحن حالية من الجبال أي مسبحة ويجوز أن تكون مستأنفة والطير عطف على الجبال أو مفعول معه وكنا الواو عاطفة وكان واسمها وفاعلين خبرها . (وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ) وعلمناه عطف على ما تقدم وعلمناه فعل وفاعل ومفعول به وصنعة مفعول ثان لعلمناه ولبوس مضاف ولكم يجوز أن تتعلق بمحذوف صفة للبوس فاللام للتمليك ويجوز أن تتعلق بعلمناه فتكون اللام للتعليل وعلى هذا يكون قوله لتحصنكم بدلا باعادة اللام أي لكم ولإحصانكم ، وعلى الوجه الأول يتعلق قوله لتحصنكم بعلمنا ، ولتحصنكم اللام للتعليل وتحصنكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر تقديره هي والكاف مفعول به ومن بأسكم متعلقان بتحصنكم والفاء استئنافية وأنتم مبتدأ وشاكرون خبر .

)

وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها) الواو عاطفة ولسليمان متعلقان بفعل محذوف تقديره سخرنا والريح مفعول به للفعل المحذوف المفهوم من قوله تعالى " وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ " وعاصفة حال وجملة تجري بأمره حال ثانية والى الأرض متعلقان بتجري والتي صفة وجملة باركنا فيها صلة . (وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ) الواو عاطفة ، وكنا : كان واسمها وبكل شيء متعلقان بعالمين وعالمين خبرها . (وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ) ومن الشياطين خبر مقدم ومن يجوز أن تكون موصولة أو موصوفة مبتدأ مؤخر ولك أن تعطفها نسقا على الريح وجملة يغوصون صلة أو صفة وجمع الضمير حملا على معنى من وحسّن ذلك تقدم جمع ما قبله وله متعلقان بيغوصون . (وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ) ويعملون عطف على يغوصون وعملا مفعول به أو مفعول مطلق ودون ظرف

(393/516)

متعلق بمحذوف صفة وذلك مضاف اليه وكنا كان واسمها وحافظين خبرها ولهم متعلقان بحافظين .

البلاغة :

في قوله تعالى : " وَدَاوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ " الخ فن جمع المختلف والمؤتلف ، وهو عبارة عن أن يريد المتكلم التسوية بين ممدوحين فيأتي بمعان مؤتلفة في مدحهما ثم يروم بعد ذلك ترجيح أحدهما على الآخر بزيادة فضل لا ينقص مدح الآخر فيأتي لأجل ذلك الترجيح بمعان تخالف معاني التسوية ، وقبل أن نتحدث عن الآية نورد أبياتا للخنساء توضح هذا الفن بجلاء نظمتها في أخيها صخر وقد أرادت مساواته في الفضل بأبيها مع مراعاة حق الوالد بزيادة فضل لا ينقص بها مدح الولد فقالت :

جارى أباه فأقبلا وهما يتعاوران ملاءة الحضر

وهما وقد برزا كأنهما صقران قد حطّا إلى وكر

حتى إذا نزت القلوب وقد لزت هناك العذر بالعذر

وعلا هتاف الناس أيهما قال المجيب هناك : لا أدري

برقت صحيفة وجه والده ومضى على غلوائه يجري

أولى فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكبر

فلنتكم الآن على الآية والأبيات معا لتتضح لك حقيقة هذا الفن العجيب : ففي الآية ساوى أول الآية بين داود وسليمان عليهما السلام في أهلية الحكم ثم رجح آخرها سليمان حيث يقول " فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ " وحصل الالتفات إلى مراعاة فأتى بما يقوم مقام تلك الزيادة التي يرجح بها سليمان لترشد إلى المساواة في

الفضل لتكون فضيلة السن وما يستتبعها من وفرة التجارب وحنكة الحياة قائمة مقام الزيادة التي رجح بها سليمان في الحكم أما معنى شعر الخنساء فإنها بعد قولها في المساواة :

وهما وقد برزا كأنهما صقران قد حطا إلى وكر

وبعد قولها فيها أيضا :

حتى إذا نزت القلوب وقد لزت هناك العذر بالعذر

تريد أن عذر اللجم لز بعضها بعضا والعذر جميع عذار وهو السير الذي يكون على خد الدابة من اللجام وهذا يدل على المساواة في العدو ثم قالت في ترجيح الوالد :

(394/516)

برقت صحيفة وجه والده ومضى على غلوائه يجري

تعني أنه خرج وجهه من الغبار دون وجه رسيله سبقا .

ثم قالت في الحاق الولد بالوالد في الفضل :

أولى فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكبر

تريد أن الولد كان قادرا على مساواة الوالد لولا ما التزمه من الأدب مع برّ أبيه ، ومعرفته بحقه ، فغض من عنانه وخفض جناح فضله ليؤثر أباه بالفضل على نفسه .

والآية الكريمة ساوت بين داود وسليمان في التأهل للحكم وشركت بينهما فيه حيث قالت : " إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ " وأخبرت ان اللّه سبحانه فهم سليمان إصابة الحكم ففضل أباه بذلك بعد المساواة ثم التفت سبحانه ، إلى مراعاة حق الوالد فقال : " وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً " فرجعا بذلك إلى المساواة بعد ترجيح سليمان ليعلم الولد بذلك بر الوالد ويعرفه ما له عليه من الحق حتى إذا فكر الناظر في هذا الكلام وقال : من أين جاءت المساواة في الحكم والعلم بعد الاخبار بأن سليمان فهم من الحكم ما لم يفهمه أبوه ؟ علم أن حق الأبوة قام مقام تلك الفضيلة فحصلت المساواة وحصل في هذا الكلام من الزيادة على معنى الخنساء بعد اشتراكهما في جمع المختلف والمؤتلف ضرب آخر من المحاسن يقال له الالتفات وذلك في قوله تعالى فيها " وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ " وأدمج في هذا الالتفات ضربا آخر من المحاسن يقال له " التنكيت " فإن النكتة التي من أجلها جمع الضمير الذي كان من حقه أن يكون مثنى هي الاشارة إلى أن هذا الحكم متبع يجب الاقتداء به لأنه عين الحق ونفس العدل وكيف لا يكون كذلك وقد أخبر سبحانه أنه شاهد له أي هو مراعى بعينه عز وجل ويجوز أن يكون جمع الضمير الذي أضيف اليه الحكم من أجل أن الحكم يستلزم حاكما ومحكوما له ومحكوما عليه فجمع الضمير لأجل ذلك .

هذا ومن طريف ما قيل في جمع المؤتلف والمختلف قول الخبز أرزي واسمه نصر اللّه بن أحمد البصري وكان أميا يخبز خبز الأرز في البصرة وينشد أشعار الغزل فقد قال :

رأيت الهلال ووجه الحبيب فكانا هلالين عند النظر

فلم أدر من حيرتي فيهما هلال السما من هلال البشر

ولولا التورد في الوجنتين وما لاح لي من خلال ا

لشعر لكنت أظن الهلال الحبيب وكنت أظن الحبيب القمر

فقد سوى بينهما أولا ثم رجع ففضل الحبيب على الهلال .

الفوائد :

قصة حكم داود وسليمان في الحرث :

سنلخص قصة حكومة داود وسليمان في الحرث لما انطوت عليه من طرافة لتكون حافزا لأقلام كتاب القصة على ترجمتها على غرار قصة أهل الكهف فقد روى التاريخ : أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الحرث ان هذا انفلتت غنمه فوقعت في حرثي فأفسدته فلم تبق منه شيئا فأعطاه داود رقاب الغنم في الحرث فخرجا فمرا على سليمان وهو ابن احدى عشرة سنة فقال : كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه فقال سليمان لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا

وروي انه قال : غير هذا أرفق بالفريقين فأخبر بذلك داود فدعاه فقال : كيف تقضي ، ويروى أنه قال بحق النبوة والأبوة إلا ما أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين ، قال : أدفع الغنم إلى صاحب الزرع ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه فإذا صار الحرث كهيئته دفع إلى أهله وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود : القضاء ما قضيت كما قال تعالى : " فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ " أي علمناه القضية ويروى قال سليمان أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها والحرث إلى أرباب الشاء يقومون عليه حتى يعود كهيئته يوم أفسد ثم يتراد ان فقال : القضاء ما قضيت وامضى الحكم بذلك .

الحكم بالشريعة الاسلامية :

(396/516)

أما حكم هذه القضية في الشريعة الاسلامية فقد تساءل عنه الزمخشري في كشافه فقال : " فإن قلت : فلو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا ما حكمها ؟ قلت : أبو حنيفة وأصحابه رضي اللّه عنهم لا يرون فيه ضمانا بالليل أو بالنهار إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد ، والشافعي رضي اللّه عنه يوجب الضمان بالليل " .

بقي هنا سؤال وهو لما ذا استعمل ضمير الجمع لاثنين في قوله تعالى : " وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ " .

وفي الجواب قولان أولهما أن المراد المثنى ولو وقع الضمير جمعا لأن التثنية أقل الجمع والثاني أن المصدر المضاف انما هو مضاف للحاكمين وهما داود وسليمان والمحكوم عليه ، فهؤلاء جماعة ولكن فيه على هذا اضافة المصدر إلى فاعله ومفعوله دفعة واحدة وهما انما يضاف إلى أحدهما فقط وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز فان الحقيقة اضافة المصدر إلى فاعله والمجاز إضافته إلى مفعوله " .

ومن عجائب حكم سليمان ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : (بينا امرأتان معهما ابناهما إذ جاء الذئب فذهب بأحدهما فقالت هذه : إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك فاختصمتا إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى فمرتا على سليمان فأخبرتاه فقال : ائتياني بسكين أشقه بينكما

فقالت الصغرى : لا ويرحمك اللّه فقضى به للصغرى . قال أبو هريرة :

واللّه إن كنت سمعت

متعة التي أحب أن ترجع اليها في ديوانه :

ما تزالين نظرة منك موت لي مميت ونظرة تخليد

نتلاقى فلحظة منك وعد بوصال ولحظة تهديد

وهو في الشعر كثير نجتزى منه بهذا المثال.

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 83 إلى 88]

(397/516)

وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ (84)

وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86) وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)

فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88)

الاعراب:

(وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وأيوب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر وهو على حذف مضاف أي اذكر خبر أيوب، وإذ بدل من خبر أي من المضاف المقدر وجملة نادى ربه مضاف اليه، وربه مفعول نادى، وأني أن وما في حيزها

نصب بنزع الخافض أي بأني وان واسمها وجملة مسني الضر خبر أن وأنت الواو حالية وأنت مبتدأ وأرحم خبر والراحمين مضاف إليه وستأتي في باب الفوائد . (فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ) الفاء عاطفة واستجبنا فعل وفاعل وله متعلقان باستجبنا ، فكشفنا عطف على فاستجبنا وما مفعول به وبه صلة ما ومن ضر حال . (وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ) وآتيناه فعل وفاعل ومفعول به وأهله مفعول به ثان ومثلهم عطف على أهله أو مفعول معه ومعهم ظرف مكان متعلق بمحذوف حال أي كائنين معهم ورحمة مفعول من أجله ويجوز أن يكون مصدرا لفعل مقدر أي رحمناه رحمة والأول أرجح ومن عندنا صفة لرحمة وذكرى عطف على رحمة وللعابدين

(398/516)

متعلقان بذكرى . (وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ) وإسماعيل مفعول به لفعل محذوف أي واذكر ويجوز أن يعطف نسقا على من تقدم من الأنبياء وإدريس عطف على إسماعيل وذا الكفل عطف أيضا وسيأتي سبب تسميته بذلك في باب الفوائد وكل مبتدأ ومن الصابرين خبره . (وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) الجملة معطوفة وان واسمها ومن الصالحين خبرها . (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)

وذا النون مفعول به لفعل محذوف أو معطوف نسقا على من تقدم وسيأتي بحثه في باب الفوائد ، وإذ بدل من المضاف المحذوف كما تقدم وجملة ذهب مضاف إليها ومغاضبا حال أي لقومه لا لربه أي انه غضب عليهم لما كابده منهم ، فظن الفاء عاطفة وظن معطوف على ذهب أي تركهم وذهب دون أن يؤذن له وفاعل ظن مستتر تقديره هو وأن مخففة من الثقلية واسمها ضمير الشأن وجملة لن نقدر عليه خبر وسيأتي معنى لن في باب الفوائد كما ستأتي خلاصة قصته . (فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فنادى عطف على ظن وفي الظلمات متعلقان بمحذوف حال وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وجملة لا إله إلا أنت هي الخبر ويجوز أن تكون مفسرة لأن النداء فيه معنى القول دون حروفه وسبحانك مفعول مطلق لفعل محذوف والجملة حالية واني ان واسمها والجملة تعليلية وجملة كنت من الظالمين خبر إني ومن الظالمين خبر كنت . (فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) فاستجبنا عطف على ما تقدم وله متعلقان باستجبنا ونجيناه فعل وفاعل ومفعول به ومن الغم متعلقان بنجيناه ، وكذلك الكاف نعت لمصدر محذوف وننجي المؤمنين فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به .

(399/516)

الفوائد :

1- خلاصة قصة أيوب :

روى التاريخ أن أيوب كان رجلا روميا من ولد اسحق بن يعقوب وقد استنبأه اللّه وبسط عليه الدنيا وكثر أهله وماله وكان له سبعة بنين وسبع بنات وله أصناف البهائم وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ونخيل فابتلاه اللّه بذهاب ولده انهدم عليهم البيت فهلكوا وبذهاب ماله وبالمرض في بدنه ثماني عشرة سنة وقيل ثلاث عشرة سنة وقالت له امرأته يوما : لو دعوت اللّه فقال لها كم كانت مدة الرخاء ؟ فقالت : ثمانين سنة فقال : أنا أستحيي من اللّه أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي فلما كشف اللّه عنه أحيا ولده ورزقه مثلهم ونوافل منهم ، وقصة أيوب حافلة بالصور الشعرية الملهمة وهي ديوان حافل عن الصبر على البلاء وعدم البطر في الرخاء .

2- الفرق بين الضّر والضّر :

يقال ضر بفتح الضاد وضر بضمها والفرق بينهما أن الضر بالفتح هو الضرر بكل شيء والضر بالضم هو الضرر في النفس من هزال ومرض وفرق بين البناءين لافتراق المعنيين وقد نظم بعضهم الفرق بينهما كما أورد معاني أخرى لهما قال :

وضدّ نفع قيل فيه ضرّ وجود ضرّة لعرس ضرّ

وسوء حال المرء ذاك ضرّ كذا هزال مرض أو كبر

3- التلطف في السؤال :

وقد تلطف أيوب في السؤال وألمح إلى ما يعانيه من بلاء دون أن يصرح بمطلوبه حيث اكتفى بذكر المس في الضر وأدخل أل الجنسية على الضر لتشمل أنواعه المتقدمة ووصف ربه بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها فكان درسا بليغا لكل من تتعاوره الأرزاء وتنتابه اللأواء ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت يا أمير المؤمنين مشت جرذان بيتي على العصي فقال لها : ألطفت في السؤال لا جرم لأردنّها تثب وثب الفهود وملأ بيتها حبا . وقد تعلق أبو الطيب المتنبي بأذيال هذه البلاغة عند ما خاطب كافورا بما كان يرجوه منه وهو أن يعطيه ولاية وإن كان قصده المواربة :

(400/516)

أرى لي بقربي منك عينا قريرة وإن كان قربا بالبعاد يشاب

وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا ودون الذي أملت منك حجاب

أقلّ سلامي حبّ ما خف عنكم وأسكت كيما لا يكون جواب

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب

وفي البيت الثالث نكتة نحوية وهي انتصاب حبّ وذلك انه نصبه

على أنه مفعول له وهو مصدر كأنه يقول الحب ما خف أي لإيثاري التخفيف وقد تلطف حبيب بن أوس أبو تمام وأجمل أغراضه كلها في بيت واحد وهو قوله :

وإذا الجود كان عوني على المرء تقاضيته بترك التقاضي

أما أبو بكر الخوارزمي فقال راسما خطة الطلب :

وإذا طلبت إلى كريم حاجة فلقاؤه يكفيك والتسليم

فإذا رآك مسلما عرف الذي حملته فكأنه ملزوم

وسبقهم جميعا أمية بن أبي الصلت بقوله المشهور :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء

4- ذو الكفل :

هذا لقبه والكفل هو النصيب واسمه بشير وقيل الياس وقيل زكريا كأنه سمي بذلك لأنه المجدور وذو النصيب الأوفى من الحظ ، وقيل ذو الكفل اسمه وقد كان له اسمان ولم يكن لقبا .

5- ذو النون :

في المختار : " ذو النون الحوت وجمعه أنوان ونينان وذو النون لقب يونس بن متى على وزن شتى اسم والده على ما ذكر في القاموس أو اسم لأمه على ما قاله ابن الأثير في النهاية ،

وقيل ذا النون لأنه رأى

صبيا مليحا فقال دسموا نونته لئلا تصيبه العين ، وحكى ثعلب أن نونة الصبي هي الثقبة التي تكون في ذقن الصبي الصغير ، ومعنى دسموا :

(401/516)

سودوا ، وذو بمعنى صاحب ، قال السهيلي في كتاب الأعلام في قوله تعالى " وذا " النون هو يونس بن متى أضاف ذا إلى النون وهو الحوت فقال سبحانه " وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ " وبينهما فرق وذلك انه حين ذكر في معرض الثناء عليه قيل ذا النون ولم يقل صاحب النون والاضافة بذا أشرف من الاضافة بصاحب لأن قولك ذو يضاف إلى التابع وصاحب يضاف إلى المتبوع تقول : أبو هريرة صاحب النبي ولا تقول : النبي صاحب أبي هريرة إلا على وجه ما وأما ذو فانك تقول فيها ذو الملك وذو الجلال وذو العرش وذو القرنين فتجد الاسم الاول متبوعا غير تابع ولذلك سميت أقيال حمير أذواء منهم ذو جدن وذو يزن وذو رعين وذو كلاع وفي الإسلام ذو الشهادتين وذو الشمالين وذو اليدين وذلك كله تفخيم للمسمى بهذا وليس ذلك في لفظ صاحب وانما فيه تعريف لا يقترن به شيء من هذا المعنى " وستأتي قصته وابتلاع الحوت له في الصافات .

6- معنى لن نقدر عليه :

أما معنى قوله " فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ " لن نقضي عليه بما قضينا من حبسه في بطن الحوت أو نضيق عليه بذلك فهي من القدر . لا من القدرة كما في قوله تعالى " اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ " وعن ابن عباس أنه دخل على معاوية فقال : لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسي خلاصا إلا بك ، قال وما هي يا معاوية ؟ فقرأ عليه هذه الآية وقال : أو يظن نبي اللّه أن لا يقدر عليه ، قال : هذا من القدر لا من القدرة على أن الزمخشري بعد أن ذكر الوجه

الذي أوردناه أجاز أن يفسر بالقدرة على معنى أن لن نعمل فيه قدرتنا وأن يكون من باب التمثيل بمعنى " فكانت حاله ممثلة بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمر اللّه " .

وذهب جمهور من العلماء أن معناها فظنّ أن لن نضيق عليه من قدر عليه رزقه أي ضيق وقتر .

(402/516)

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 89 إلى 93]

وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ (90) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (91) إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (93)

اللغة :

(زَكَرِيَّا) : بالمد علم نبي وألفه للتأنيث فلذلك منع من الصرف وهو أيضا غير مصروف للعجمة والتعريف وقيل هو عربي مشتق من زكر أي امتلأ أو تزكر .

الاعراب :

)

(403/516)

وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ) تقدم القول في اعراب وزكريا إذ نادى ربه ، ورب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة ولا ناهية للدعاء وتذرني فعل

مضارع مجزوم بلا والنون للوقاية والفاعل مستتر تقديره أنت والياء مفعول به وفردا حال وأنت الواو عاطفة على محذوف أي فارزقني وارثا وأنت مبتدأ وخير الوارثين خبر .

(فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ) الفاء عاطفة واستجبنا فعل وفاعل وله متعلقان باستجبنا واستجبنا فعل وفاعل والمفعول محذوف أي نداءه وأصلحنا فعل وفاعل وله متعلقان بأصلحنا وزوجه مفعول به والمراد بإصلاحها جعلها صالحة للولادة بعد عقرها وعقمها والعقم انسداد الرحم كما في المختار . (إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ) الجملة تعليل للاصلاح وان واسمها وجملة كانوا كانوا خبرها وكان واسمها وجملة يسارعون في الخيرات خبر كان وعبر بفي دون إلى للاشعار بديمومتهم على المسارعة كأنهم استقروا فيها (وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ) ويدعوننا عطف على يسارعون ويدعوننا فعل وفاعل ومفعول به ورغبا ورهبا مصدران منتصبان على الحال أو على المصدرية الملاقية لعاملها في المعنى دون اللفظ أو على المفعول له وكانوا كان واسمها وخاشعين خبرها ولنا متعلقان بخاشعين . (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ) والتي أي واذكر مريم التي ، وجملة أحصنت فرجها صلة فنفخنا عطف على أحصنت وفيها متعلقان بنفخنا ومن روحنا متعلقان بنفخنا أيضا ولك أن تعرب التي مبتدأ والخبر محذوف أي فيما يتلى عليهم وجعلناها فعل وفاعل ومفعول به وابنها

عطف على الهاء أو مفعول معه وآية مفعول به ثان وانما لم يطابق المفعول الاول فيثنى لأن كلّا من مريم وابنها آية بانضمامه للآخر فصار آية واحدة أو تقول انه حذف من أحدهما لدلالة الثاني عليه أي وجعلنا مريم آية وابنها كذلك أو بالعكس وللعالمين صفة لآية . (إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) إن واسمها وخبرها وأمة حال لازمة وقيل بدل من هذه وواحدة صفة وأنا الواو عاطفة وأنا مبتدأ وربكم خبر والفاء الفصيحة واعبدوني فعل أمر وفاعل وياء المتكلم المحذوفة لرسم المصحف مفعول به . (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ) الواو عاطفة وتقطعوا فعل ماض وفاعله والأصل وتقطعتم إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات كما سيأتي في باب البلاغة ، وأمرهم في نصبه وجوه أرجحها أنه منصوب بنزع الخافض أي تفرقوا في أمرهم ويجوز أن يكون تقطعوا معناه قطعوا فيكون أمرهم مفعولا به ورأى أبو البقاء أن يكون تمييزا ولا أدري كيف استقام ذلك معه .

البلاغة :

1 - الالتفات : في قوله تعالى " إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ، وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ " الالتفات ، الأصل في تقطعوا تقطعتم على الأول إلا أنه

صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه ويقبح عندهم ما فعلوه ويقول لهم ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين اللّه فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا وذلك تمثيل لاختلافهم فيه وتباينهم ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون فيجازيهم على ما فعلوا .

(405/516)

2- معنى النفخ في مريم : ظاهر الكلام يوهم أن مريم هي التي أحييت لأن معنى النفخ الاحياء ولكن اللّه تعالى نزل نفخ الروح في عيسى لكونه في جوف مريم منزلة نفخ الروح في مريم ونحو ذلك أن يقول الزمار : نفخت في بيت فلان أي نفخت في المزمار في بيته .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 94 إلى 100]

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ (94) وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (95) حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ (97) إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (98)

لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ (99) لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ (100)

اللغة :

(كُفْرانَ) : الكفران مصدر الكفر قال في القاموس : "كفر يكفر من باب نصر كفرا وكفرا وكفورا وكفرانا ضد آمن وكفر بالخالق نفاه وعطّل وكفر كفرا وكفورا وكفرانا بنعم اللّه جحدها وتناساها .

(حَدَبٍ) : بفتحتين مرتفع من الأرض ومنه الحدب في الظهر وكل كدية أو أكمة فهي حدبة .

(يَنْسِلُونَ) : يسرعون والنسلان مقاربة الخطا مع الاسراع ، وفي المصباح : نسل في مشيه نسلانا : أسرع وبابه ضرب وفي القاموس هو من باب ضرب وقتل .

(حَصَبُ جَهَنَّمَ) : الحصب المحصوب به أي يحصب بهم في النار والحصب الرمي وفي المختار : " والحصب بفتحتين ما تحصب به النار أي ترمى وكل ما ألقيته في النار فقد حصبتها به وبابه ضرب ومثله في القاموس .

الاعراب :

)

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ) الفاء استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويعمل فعل الشرط ومن الصالحات صفة لمفعول به محذوف أي عملا من الصالحات والواو حالية وهو مبتدأ ومؤمن خبر والفاء رابطة ولا نافية للجنس وكفران اسمها ولسعيه خبر والواو استئنافية أو حالية وان واسمها وكاتبون خبرها وله متعلقان بكاتبون . (وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ) الواو عاطفة من عطف الجمل أو استئنافية وحرام خبر مقدم وعلى قرية متعلقان بحرام وجملة أهلكناها صفة لقرية وان وما في حيزها مبتدأ مؤخر وان واسمها وجملة لا يرجعون خبرها ، وقيل لا زائدة وهو قول أبي عبيدة كقوله ما منعك أن لا تسجد ، أي يرجعون إلى الايمان والمعنى وممتنع على أهل القرية قدرنا عليهم

إهلاكهم لكفرهم رجوعهم في الدنيا إلى الايمان إلى أن تقوم القيامة فحينئذ يرجعون ويصح أن تكون نافية على بابها والتقدير لأنهم لا يرجعون وقال الزجاج : وحرام على قرية أهلكناها حكمنا بإهلاكها أن نتقبل أعمالهم لأنهم لا يرجعون أي لا يتوبون ودلّ على هذا المعنى قوله قبل " فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ " أي يتقبل عمله ثم ذكر هذا عقيبه وبين أن الكافر لا يتقبل عمله .

وعبارة ابن هشام في المغني " وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون " فقيل لا زائدة والمعنى ممتنع على أهل قرية قدرنا إهلاكهم لكفرهم انهم يرجعون عن الكفر إلى قيام الساعة وعلى هذا فحرام خبر مقدم وجوبا لأن المخبر عنه أن وصلتها ومثله وآية لهم أنا حملنا ذريتهم لا مبتدأ وان وصلتها فاعل أغنى عن الخبر كما جوز أبو البقاء لأنه ليس بوصف صريح ولأنه لم يعتمد على نفي ولا استفهام وقيل لا نافية والاعراب إما على ما تقدم والمعنى ممتنع عليهم انهم لا يرجعون إلى الآخرة وإما على ان حرام مبتدأ حذف خبره أي قبول أعمالهم وابتدئ بالنكرة لتقييدها بالمعمول واما على انه خبر لمبتدأ محذوف أي والعمل الصالح حرام عليهم وعلى الوجهين فانهم لا يرجعون تعليل على إضمار اللام والمعنى لا يرجعون أعمالهم فيه ودليل المحذوف ما تقدم من قوله تعالى : " فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ " (حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) حتى حرف غاية وجر وهي غاية لامتناع الرجوع فهي متعلقة بحرام على انها حرف غاية وجر ويجوز أن تكون ابتدائية وهي التي يحكى بعدها الكلام والكلام المحكي هنا جملة الشرط والجزاء وإذا ظرف لما

يستقبل من الزمن والجواب الذي تتعلق به إذا محذوف وتقديره قالوا يا ويلنا واختار الزمخشري وغيره أن يكون الجواب هو الفاء الداخلة على إذا الفجائية فإذا جاءت الفاء معها تساندتا وتعاونتا على وصل الجواب بالشرط فيتأكد ولو قيل إذا هي شاخصة أو فهي شاخصة كان سديدا . هذا وقد اختار أبو حيان أن تكون حتى جارة متعلقة بتقطعوا على ما فيه من بعد قال : " وكون حتى جارة متعلقة بتقطعوا فيه من حيث كثرة الفصل لكنه من حيث المعنى جيد وهو انهم لا يزالون مختلفين على دين الحق إلى قرب مجيء الساعة فإذا جاءت الساعة انقطع ذلك " وفتحت فعل ماض مبني للمجهول ويأجوج ومأجوج نائب فاعل ولا بد من تقدير مضاف وهو سدهما والواو للحال وهم مبتدأ وخبره جملة ينسلون ومن كل حدب متعلقان بينسلون . (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) الواو عاطفة واقترب الوعد فعل وفاعل والحق صفة للوعد والفاء رابطة وإذا الفجائية وقد تقدم بحثها وهي مبتدأ وشاخصة خبر وأبصار الذين كفروا فاعل شاخصة . (يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ) النداء متعلق بقول محذوف في محل نصب على الحال أي يقولون يا ويلنا احضر فهذا أوانك وقد حرف تحقيق

وكان واسمها وفي غفلة خبرها ومن هذا متعلقان بغفلة ، بل حرف إضراب وكان واسمها وخبرها وهذه الجمل كلها مقول قولهم المحذوف .

)

إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ) ان واسمها والجملة ابتدائية وما عطف على الكاف وجملة تعبدون صلة ومن دون اللّه حال وحصب جهنم خبر انكم وجملة أنتم لها واردون جملة اسمية من مبتدأ وخبر في محل نصب على الحال من جهنم وفيه أن مجيء الحال من المضاف اليه لم يرد في كلامهم إلا مشروطا ويجوز أن تكون بدلا من حصب جهنم ويجوز أن تكون خبرا ثانيا لإن وأجاز

(409/516)

آخرون أن تكون مستأنفة . (لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ) لو شرطية امتناعية وكان فعل ماض ناقص وهؤلاء اسمها وآلهة خبرها وجملة ما وردوها لا محل لها لأنها جواب لو والواو للحال وكل مبتدأ وفيها متعلقان بخالدون وخالدون خبر . (لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ) لهم خبر مقدم وفيها حال وزفير مبتدأ مؤخر والواو عاطفة وهم مبتدأ وفيها متعلقان بيسمعون وجملة لا يسمعون خبرهم .

البلاغة :

المذهب الكلامي : في قوله تعالى : " إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ " المذهب الكلامي وقد تقدمت الاشارة إليه ، وسنزيده بسطا هنا فنقول :

إذا تقرر أن المذهب الكلامي هو احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له على طريقة أرباب الكلام أو استنتاج النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة كما سيأتي في سورة الحج فإن الآية التي نحن بصددها يترتب عليها ان هؤلاء الأصنام والأوثان ليسوا بآلهة فلو كانوا آلهة فهم حصب جهنم كما تقدم ان ملزوم قوله تعالى " لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا " هو ما تقديره لكنهما ما فسدتا فليس فيهما آلهة إلا الله ومن النوع الثاني تقدم الكلام في سورة الأعراف على قوله تعالى :

" وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ " فوجه استنتاج النتيجة في هذه الجملة من المقدمتين أن يقال إن الكفار لا يدخلون الجنة أبدا حتى يلج الجمل في خرم الابرة ، والجمل لا يدخل في خرم الابرة أبدا فهم لا يدخلون الجنة أبدا لأن تعليق الشرط على مستحيل يلزم منه استحالة وقوع المشروط .

و من المذهب الكلامي قوله صلى اللّه عليه وسلم : " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا " وتمام الدليل أن يقال : لكنكم ضحكتم كثيرا وبكيتم قليلا فلم تعلموا ما أعلم ، ومثله قوله مالك بن المرجل الأندلسي :

لو يكون الحب وصلا كله لم تكن غايته إلا الملل

أو يكون الحب هجرا كله لم تكن غايته إلا الأجل

إنما الوصل كمثل الماء لا يستطاب الماء إلا بالغلل

فالبيتان الأولان قياس شرطي والثالث قياس فقهي فإنه قاس الوصل على الماء فكما أن الماء لا يستطاب إلا بعد العطش فالوصل مثله لا يستطاب إلا بعد حرارة الهجر ، وأما الأقيسة الحملية فقد استنبطوها على صور

لست أعرفه وإنما هو لفظ أنت معناه

وكم ذكرت مسمّى لا اكتراث به حتى يجر إلى ذكراك ذكراه

أتيه فيك على العشاق كلهم قد عز من أنت ، يا مولاي ، مولاه

كادت عيونهم بالبغض تنطق لي حتى كأن عيون الناس أفواه

]

سورة الأنبياء (21) : الآيات 101 إلى 105]

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ (101) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ (102) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103) يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (104) وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ (105)

اللغة :

(السِّجِلِّ) : كتاب العهود وكتاب الاحكام ، وكتاب يكتب فيه القاضي صورة الدعاوى والحكم فيها وصكوك المبايعات ونحوها

(411/516)

لنبقى محفوظة عنده والجمع سجلات ويقال سجّل الرجل : كتب السجل وسجل الأوراق قيدها في المحاكم وسجل القاضي عليه حكم وسجل عليه بكذا شهره به ووسمه وسجل له بماله قرره وأثبته له .

الاعراب :

(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ) إن واسمها وجملة سبقت صلة

ولهم متعلقان بسبقت ومنّا حال والحسنى فاعل وأولئك مبتدأ وعنها متعلقان بمبعدون ومبعدون خبر أولئك وجملة أولئك عنها مبعدون خبر إن وجملة إن إلخ ابتدائية .

)

لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ) جملة لا يسمعون حسيسها تحتمل وجوها منها أن تكون بدلا من مبعدون لأنها تحل محله فتغني عنه ومنها أن تكون خبرا ثانيا لأولئك ويجوز أن تكون حالا من ضمير مبعدون ولا نافية ويسمعون حسيسها فعل مضارع مرفوع وفاعل ومفعول به والواو للحال أو استئنافية وهم مبتدأ وفيما متعلقان بخالدون وجملة اشتهت أنفسهم صلة وخالدون خبرهم . (لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) الجملة حالية أو بدل من الجملة السابقة ولا نافية ويحزنهم فعل ومفعول به والفزع فاعل والأكبر صفة للفزع وتتلقاهم الملائكة فعل ومفعول به وفاعل ، وجملة هذا يومكم مقول قول محذوف واقع موقع الحال أي قائلين : هذا يومكم ، وهذا مبتدأ ويومكم خبر والذي صفة ليومكم وجملة كنتم صلة وكان واسمها وجملة توعدون خبر كنتم . (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ) الظرف متعلق

بمحذوف تقديره اذكر ولك أن تعلقه بلا يحزنهم أو بالفزع أو تتلقاهم الملائكة وجملة نطوي في محل جر بإضافة الظرف إليها والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن والسماء مفعول به وكطي الكاف نعت لمصدر محذوف أي كما يطوي الرجل صحيفته ليكتب فيها فالطي مصدر مضاف للمفعول والحذف للفاعل مع المصدر مطرد باستمرار وللكتب متعلقان بطي فهي لتقوية التعدية أي للمكتوبات جميعها أي لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة . (كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ) الكاف نعت لمصدر محذوف وما مصدرية وبدأنا فعل وفاعل وأول خلق مفعول بدأنا أي نعيد أول خلق إعادة مثل بدئنا له والزمخشري يجعل ما كافة للكاف دائما ووعدا مصدر منصوب بوعدنا مقدرا قبله وهو مفعول مطلق مؤكد لمضمون ما قبله ، وعلينا متعلقان بوعدا وان واسمها وجملة كنا خبر إنا وكان واسمها وفاعلين خبرها وجملة إنا تعليلية بمثابة التأكيد للقدرة على فعل ذلك وقدرها أبو حيان في البحر " أي نحن قادرون على أن نفعل ذلك " واختار العمادي أن تكون حالية وقدرها " أي محققين هذا الوعد فاستعدوا لذلك " وستأتي فوائد هامة حول هذه الآية في بابي الفوائد والبلاغة . (وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير أن الأرض للصالحين لها ولاستغلال مواردها وطاقاتها المكنوزة فيها واللام جواب لقسم محذوف وقد حرف تحقيق وكتبنا فعل وفاعل وفي الزبور متعلقان بكتبنا ومن بعد متعلقان بمحذوف حال من

الزبور وأن وما في حيزها مفعول كتبنا ، أي كتبنا وراثة الأرض ، وان واسمها وجملة يرثها خبر وعبادي فاعل والصالحون صفة .

البلاغة :

(413/516)

1- المبالغة : في قوله تعالى : " لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا " فن المبالغة ذلك لأن لقائل أن يقول : إذا نزل أهل الجنة منازلهم فيها فأي بشارة لهم في أنهم لا يسمعون حسيسها ؟ والجواب انه تأكيد للمبالغة وانها لن تقرب منهم أبدا لأن الذي يكون عن كثب منها يسمع ، ولا شك ، حسيسها ، لأن أهل النار دركات جاءت وفق عدد سكانها وعدد داخليها ووفق عدة معبوداتهم ولذلك قال تعالى في آية أخرى " لَهَا سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ " وسيأتي تفصيل ذلك في سورة الحجر ويروى أن عليا رضي اللّه عنه قرأ هذه الآية وهي " إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ " ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه وهو يقول : " لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا " .

2- التشبيه : في قوله تعالى " كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ " تشبيه للاعادة بالابتداء في تناول

القدرة لهما على السواء قال الزمخشري :

" فإن قلت : وما أول الخلق حتى يعيده كما بدأه ؟ قلت : أوله إيجاده من العدم فكما أوجده أولا من عدم يعيده ثانيا من عدم فإن قلت :

ما بال خلق منكرا ؟ قلت : هو كقولك هو أول رجل جاءني تريد أول الرجال ولكنك وحدته ونكرته ارادة تفصيلهم رجلا رجلا فكذلك معنى أول خلق ، أول الخلق بمعنى أول الخلائق لأن الخلق مصدر لا يجمع ووجه آخر وهو أن ينتصب الكاف بفعل مضمر يفسره نعيده وما موصولة أي نعيد مثل الذي بدأناه نعيده وأول خلق ظرف لبدأناه أي أول ما خلق أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ الثابت في المعنى " .

[سورة الأنبياء (21) : الآيات 106 إلى 112]

(414/516)

إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ (106) وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (107) قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ (109) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ (110)

وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (111) قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (112)

الإعراب :

(إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ) ان حرف مشبه بالفعل وفي هذا خبرها المقدم واللام المزحلقة ولقوم صفة لبلاغا وعابدين صفة .

(وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ) الواو حرف عطف وما نافية وأرسلناك فعل وفاعل ومفعول به وإلا أداة حصر ورحمة مفعول من أجله أو حال مبالغة في أن جعله نفس الرحمة أو على حذف مضاف أي ذا رحمة وللعالمين صفة لرحمة أو يتعلق بنفس الرحمة . (قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) إنما كافة ومكفوفة ويوحى فعل مضارع مبني للمجهول وإلي متعلقان بيوحى وان وما في حيزها نائب فاعل يوحى وإلهكم . مبتدأ وإله خبر وواحد صفة والفاء الفصيحة أي ان علمتم هذا وهل حرف حرف استفهام وأنتم مبتدأ ومسلمون خبر وسيأتي مبحث القصر بنوعيه في هذه الآية في باب البلاغة .

(فَإِنْ تَوَلَّوْا

فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ)

الفاء استئنافية وان شرطية وتولوا فعل ماض وهو فعل الشرط والواو فاعل والفاء رابطة لجواب الشرط وقل فعل أمر وآذنتكم فعل وفاعل ومفعول به والجملة في محل جزم جواب الشرط وعلى سواء متعلقان بمحذوف حال من التاء أي الفاعل أو من الكاف أي المفعول أي مستوين في العلم بالحرب وسيأتي تفصيل هذا الإيجاز في باب البلاغة . (وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ) الواو للحال وإن نافية وأدري فعل مضارع مرفوع والفاعل مستتر تقديره أنا والهمزة للاستفهام وقريب خبر مقدم وأم حرف عطف وبعيد عطف عليه وما مبتدأ مؤخر وجملة توعدون صلة وجوز أبو البقاء أن يرتفع ما توعدون فاعلا بقريب سد مسد خبره وقريب مبتدأ قال لأنه اعتمد على الهمزة أو ببعيد لأنه أقرب اليه فتكون المسألة من باب التنازع وجملة أقريب أم بعيد ما توعدون في محل نصب مفعول أدري المعلقة عن العمل . (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ) ان واسمها وجملة يعلم خبرها وفاعل يعلم ضمير مستتر تقديره هو يعود على اللّه تعالى والجهر مفعول به ومن القول حال من الجهر ويعلم عطف على يعلم الأولى وما مفعول به وجملة تكتمون صلة . (وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ) الواو عاطفة وإن نافية وأدري فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا ولعل واسمها وفتنة خبرها ولكم صفة ومتاع عطف على فتنة وإلى حين متعلقان بمحذوف صفة لمتاع أو يتعلق به وجملة لعله فتنة في محل نصب بأدري والكوفيون

يجرون الترجي مجرى الاستفهام في التعليق عن العمل ولكن النحاة لم يذكروا لعل من المعلقات ولكنها وردت كثيرا في القرآن كقوله في هذه الآية وكقوله : " وما يدريك لعل الساعة قريب ، وما يدريك لعله يزكى ، وقيل ان قوله ومتاع ليس داخلا في حيز الترجي لأنه محقق فلا يصح عطفه على فتنة لأنه حيث

(416/516)

كان معطوفا على خبرها كان معمولا لها وداخلا في حيزها وفي نطاق الترجي الذي تدل عليه فالأولى اذن أن يقال ان قوله ومتاع خبر لمبتدأ محذوف وتقديره وهذا متاع إلى حين أي وتأخير عذابكم متاع لكم وتكون الجملة مستأنفة وليس هذا ببعيد . (قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ) رب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة واحكم فعل دعاء وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت وبالحق حال وربنا الواو استئنافية وربنا مبتدأ والرحمن يجوز أن يكون خبرا والمستعان خبرا ثانيا ويجوز أن يكون صفة لربنا والمستعان خبر لأنه المحدث به وعلى ما متعلقان بالمستعان وجملة تصفون صلة والعائد محذوف أي تصفونه مخالفا للواقع .

البلاغة :

1- القصر :

في قوله تعالى " قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ " وقد تقدم بحث القصر مفصلا ونقول ان في هذه الآية قصرين الاول قصر الصفة على الموصوف وذلك في قصر الوحي على الوحدانية والمعنى لا يوحى إليّ إلا اختصاص الإله بالوحدانية لا لأنه لم يوح اليه بشيء غيرها ولكنها الأصل الرئيسي في كل عبادة وعمل وهي المطلوبة أولا وقبل كل شيء حتى كأن ما عداها غير منظور اليه أو غير جدير بالذكر والثاني قصر الموصوف على الصفة وذلك في قصر اللّه على الوحدانية وهو ظاهر .

2- الإيجاز :

وذلك في قوله تعالى " فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ " تقدم القول في الإيجاز كثيرا وفي هذه الآية إيجاز قصر لأنه تحدث بثلاث كلمات وهي " آذنتكم على سواء " عن كلام طويل أي إن تولوا بعد هذه الآيات والشواهد وأعرضوا وطووا كشحا فقل لهم لقد أعلمناكم على بيان أنا وإياكم في حرب لا مهادنة فيها ولا صلح بيننا ولكنني لا أدري متى يأذن اللّه . وآذنتكم منقول من اذن إذا علم قال الحارث ابن حلزة :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

و قد سما الزمخشري في شرح هذا الإيجاز وهذه نبذة من كلامه :

" والمعنى اني بعد توليكم واعراضكم عن قبول ما عرض عليكم من وجوب توحيد اللّه وتنزيهه عن الأنداد والشركاء كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحسّ منهم بغدرة فنبذ إليهم العهد وشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعا بذلك " على سواء " أي مستوين في الاعلام به لم يطوه عن أحد منهم وكاشف كلهم وقشر العصا عن لحائه " .

3- التوليد :

في قوله : " قل رب احكم بالحق " فن التوليد وسماه ابن منقذ فن التلطيف وهو على ضربين : من الألفاظ ومن المعاني :

1- التوليد من الألفاظ على ضربين أيضا :

آ- توليد المتكلم من لفظه ولفظ غيره صورة من الكلام .

ب- توليد المتكلم صورة من موضعين من لفظ نفسه .

والأول هو أن يزوج لفظة من لفظة للفظة من لفظ غيره فيتولد

بينهما كلام مناقض غرض صاحب اللفظة الأجنبية وذلك في الألفاظ المفردة دون الجمل المؤتلفة ومثاله ما حكي عن مصعب بن الزبير انه كان قد وسم خيله بلفظ " عدّة " وهو يريد عدة الحرب فلما قتل وصارت خيله عند الحجاج ورأى ذلك الوسم أمر أن يوسم إلى

جانب عدة بلفظة " الفرار " فتولد بين اللفظين معنى غير ما أراده مصعب وانقلب المدح قدحا .

2- التوليد من المعاني وستأتي أمثلته ، أما الآية التي نحن بصددها فقد زوج فنا من فنون البديع لفن آخر فيه فتولد فن ثالث غيرهما وذلك انه يتوجه على ظاهر إشكال وهو أن يقال : ما الحكمة في كونه سبحانه أمر نبيه أن يسأله الحكم بالحق وهو عز وجل يعلم أن نبيه متيقن انه سبحانه لا يحكم إلا بالحق فلو اقتصر على قوله احكم فقط كان ذلك كافيا فلم عدل عن الأوجز الموفي بالمعنى المراد مع سلامة الظاهر من الإشكال إلى الأطول الموجب للإشكال ، والجواب :

ان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يدعون على من خالفهم حتى يؤذن لهم في ذلك لأنهم بعثوا مؤلفين لا منفرين وهم لا يعلمون من الغيب إلا ما أعلمهم به اللّه فإذا أعلمهم بمن لا يمكن إيمانه من قومهم ساغ لهم الدعاء على ذلك ، ألا ترى أن نوحا عليه السلام لم يتجرأ أن يقول : " رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً " إلا بعد قوله تعالى له : " أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ " ولذلك احترس في الدعاء بقوله : على الأرض فإن من آمن معه كان في

السفينة ولم يبق على الأرض إلا من حق عليه العذاب ولما علم سبحانه ان الذين عادوا نبيه محمدا صلى اللّه عليه وسلم لا يرجى فلاحهم أمره بالدعاء عليهم بيد أنه علمه كيف يدعو عليهم دعاء غير منفر لغيرهم فأراد سبحانه أن

يقول : قل رب أهلك الظالمين فعدل عن هذا اللفظ الخاص لما فيه من التنفير إلى لفظ الإرداف فقال : " قل رب احكم بالحق " فانه سبحانه إذا حكم بالحق وهو العدل عاقب من يستحق العقاب وأما قول مورد الاشكال : لم عدل عن الأوجز إلى الأطول ؟ ولو قال رب احكم لكان كافيا ، فليس الأمر كما زعم لأن للحاكم المختار الذي لا شريك له أن يحكم بالفضل فينزل عن حق نفسه وله أن يحكم بالعدل ستوفي حقه وحق غيره وطلب مطلق الحكم لا يوفي بذلك فلهذا عدل من الأوجز إلى الأطول ليوفي بالمعنى المراد .

وقد تنخّل عن هذا الجواب أربعة عشر ضربا من البديع اتفقت في هذه الألفاظ الثلاثة وهي :

1- الإرداف الذي قدمنا ذكره .

2- الإيضاح لأن إيضاح الإشكال الوارد على ظاهر الكلام جاء مدمجا في الإرداف .

3- التتميم إذ لو وقع الاقتصار على قوله : رب احكم لكان المعنى المراد ناقصا لأن مطلق الحكم لا يوفي بالمقصود كما بينا .

4- المقارنة لأن الادماج والإيضاح اقترنا في التتميم .

---

5 و6- الافتنان لجمع هذه اللفظات الثلاث بين فنين من الفنون التي يقصدها المتكلمون وهما :

آ- فن الأدب في تعليم الحق سبحانه نبيه صلى اللّه عليه وسلم كيف يدعو على من خالفه دعاء غير منفّر عنه .

ب- فن الهجاء لأن عدل اللّه سبحانه يأبى أن يأمر نبيه بالدعاء إلا على من علم تصميمه على العصيان وبراءته من الايمان ومن كان كذلك كان مستحقا للذم فأدمج سبحانه في أمر الرسول بالدعاء عليهم هجاءهم بمقتضى ما تضمنه الكلام من استحقاق الملام .

7- الإيجاز عن المعنى المراد بأقل ما يمكن من الحروف .

8- السهولة فقد تركبت الكلمات تركيبا سليما من سوء الجوار ، سهلة المخارج ولأن الكلمات جاءت في مقارها فلا تتقدم كلمة عن كلمة ولا تتأخر .

9- التهذيب في كون تركيب الجملة وضع على أصح ترتيب وأسهل تهذيب إذ تقدم فيها ذكر المدعو وثنى بالطلب وثلث بالمطلوب .

10- حسن البيان لأن الذهن يسابق إلى فهم معنى الكلام من غير توقف بمجرد سماعه

أول وهلة لعدم التعقيد في اللفظ وخلوه من أسباب اللبس من التقديم والتأخير وسلوك الطريق الأبعد وإيقاع المشترك .

11- التمزيج لامتزاج الفنون بمعاني البديع فإن فني الأدب والهجاء امتزجا بمعنى الإرداف والتتميم ولم يظهر في اللفظ لكل معنيين سوى صورة واحدة فظهر فن الأدب وأدمج فيه فن الهجاء وظهر الإرداف وأدمج فيه التتميم .

12- الإبداع لما تتضمن كل لفظة من الجملة الضرب والضربين فصاعدا من البديع .

13- التمثيل : لأن قوة البلاغة ورونق الفصاحة أخرجت هذه اللفظات مخرج المثل السائر الذي يصلح لأن يتمثل به في كل واقعة تشبه واقعته .

(420/516)

14- التوليد : لأن الإرداف لما زوج بالتتميم تولد منهما الإيضاح وتولد من الإيضاح والارداف الادماج ولما ظهرت فائدة الإتيان بالجار والمجرور وثبت التتميم وظهرت العلة في العدول عن لفظ الدعاء الخاص إلى لفظ الارداف وتولد من ذلك فن الأدب ومن فن الأدب فن الهجاء ولما ثبت الائتلاف والتهذيب وما وقع في النظم من حسن الترتيب تولد من ذلك المثل السائر ولذلك غلب التوليد على جميع ما فيها من الضروب الثلاثة عشر وأثبتت في

بابه دون أبوابها .

التوليد في الشعر :

أما في الشعر فلا يستحسن إلا التوليد في المعاني أما التوليد في الألفاظ فيأتي دونه في المرتبة بل ربما غالى بعضهم فجعله غير مقبول لشبهه بالسرقة وذلك أن يستعذب الشاعر لفظه في شعر غيره فيأخذها ويضمنها معنى غير معناها الأول كقول أبي تمام :

لها منظر قيد الأوابد لم يزل يروح ويغدو في خفارته الحب

أخذ لفظة قيد الأوابد من بيت امرئ القيس في وصف فرس ونقلها إلى الغزل وبيت امرئ القيس هو :

وقد اغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

على أنه قد يكون عذبا كما فعل علي بن زريق البغدادي في قوله :

استودع اللّه في بغداد لي قمرا بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

فقد أخذ الأزرار من قول عبد اللّه بن المعتز :

يا حسن أحمد إذ بدا متشمرا في قرطق يسعى بكأس عقاره

والغصن في أثوابه والدر في فمه وجيد الظبي في أزراره

ولقد عابوا على عمارة اليمني بيته يمدح الخليفة المصري الفاطمي عند قدومه عليه من اليمن وهو :

فهل درى البيت أني بعد فرقته ما سرت من حرم إلا إلى حرم

لأنه مأخوذ بلفظه من شعر أبي تمام مادحا :

يا من رأى حرما يسري إلى حرم طوبى لمستلم يأتي وملتزم

وهنا يحار الناقد في كثرة وقوع الشعراء الكبار بهذه المزالق ، قال ابن الأثير : " ومما كنت أستحسنه من شعر أبي نواس قوله من قصيدته التي أولها :

(421/516)

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

دارت على فتية ذل الزمان لهم فما يصيبهم إلا بما شاءوا

وهذا من عالي الشعر ثم وقفت في كتاب الأغاني لأبي الفرج على هذا البيت في أصوات معبد وهو :

لهفي على فتية ذل الزمان لهم فما أصابهم إلا بما شاءوا

وما أعلم كيف هذا " .

أما توليد المعاني فهو مستحسن على إطلاقه كقول أبي الطيب المتنبي :

همام إذا ما فارق الغمد سيفه وعاينته لم تدر أيهما النصل

أخذه من قول أبي تمام :

يمدون بالبيض القواطع أيديا فهن سواء والسيوف القواطع

وقال المتنبي أيضا :

وما هي إلا لحظة بعد لحظة إذا نزلت في قلبه رحل العقل

أخذه من قول أبي نواس في وصف الخمرة :

إذا ما أتت دون اللهاة من الفتى دعا همه من صدره برحيل

وجميل أخذ المتنبي من أبي تمام قوله :

ومن الخير بطء سيبك عني أسرع السحب في المسير الجهام

وبيت أبي تمام :

هو الصنع إن تعجل فخير وإن ترث فللريث في بعض المواضع أنفع

وبيت المتنبي أجمل وأرشق وفيه زيادة ضرب المثل :

وولد أحد الشعراء المولدين بيتا فارسيا فقال :

كأن عذاره في الخد لام ومبسمه الشهيّ العذب صاد

وطرة شعره ليل بهيم فلا عجب إذا سرق الرقاد

فقد ولد هذا الشاعر من تشبيه العذار باللام وتشبيه الفم بالصاد لفظة لص وولد من معناها ومعنى تشبيه الطرة بالليل ذكر سرقة النجوم فحصل في البيت توليد وإغراب

وادماج.

وقد أطلنا عنان القول ولكن الحسن غير مملول .

الفوائد :

التعليق :

للأفعال التي تنصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر أحكام عديدة منها التعليق وهو إبطال العمل لفظا لا محلا لمجيء ما له صدر الكلام بعده والمعلقات عن العمل هي :

(422/516)

1- لام الابتداء نحو " لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ " فمن مبتدأ وهو موصول اسمي وجملة اشتراه صلة من وعائدها فاعل اشتراه المستتر فيه وما نافية وله وفي متعلقان بالاستقرار خبر خلاق ومن زائدة وجملة ماله في الآخرة من خلاق خبر من والرابط بينهما الضمير المجرور باللام وجملة من وخبره في محل نصب معلق عنها العامل بلام الابتداء لأن لها الصدارة فلا يتخطاها عامل وانما تخطاها

في باب إن فرفع الخبر لأنها مؤخرة من تقديم لاصلاح اللفظ وأصلها التقديم على إن .

2- لام القسم كقول لبيد :

ولقد علمت لتأتين منيتي إن المنايا لا تطيش سهامها

فاللام في لتأتين لام القسم وتسمى جواب القسم ، والقسم وجوابه في محل نصب معلق عنها العامل بلام القسم لا جملة الجواب فقط ، فسقط ما قيل ان جملة جواب القسم لا محل لها وان الجملة المعلق عنها العامل لها محل فيتنافيان ولهذا قال أبو حيان " أكثر أصحابنا لا يذكرون لام القسم في المعلقات وفي العزة ، ولام القسم لا تعلق كقوله :

لقد علمت أسد أننا لهم يوم نصر لنعم النصير

بفتح أن فهذه لام القسم ولم تعلق وتقول علمت أن زيدا ليقومن بفتح أن " ا ه وفي المغني أن أفعال القلوب لإفادتها التحقيق تجاب بما يجاب به القسم كقوله :

ولقد علمت لتأتين منيتي إلخ " ا ه .

فأخرج لام لتأتين عن كونها للقسم .

3- ما النافية نحو " لقد علمت ما هؤلاء ينطقون " فما نافية وهؤلاء مبتدأ وجملة ينطقون خبره والجملة الاسمية في موضع نصب بعلمت وهي معلق عنها العامل في اللفظ بما النافية .

4- لا وإن النافيتان الواقعتان في جواب قسم ملفوظ به أو

مقدر فالملفوظ به نحو علمت واللّه لا زيد في الدار ولا عمرو وعلمت واللّه أن زيد في الدار والمقدر نحو علمت لا زيد في الدار ولا عمرو .

5- الاستفهام كالآية التي نحن بصددها وهي " وإن أدري أقريب إلخ " وقول كثير :

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت

فعطف موجعات بالنصب على الكسرة على محل قوله : ما البكا الذي علق عن العمل فيه قوله أدري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 6 صـ 326.384 ﴾

(424/516)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع عشر بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/517)

الجزء السابع عشر بعد الخمسمائة

(سورة الحج)

(4/517)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الحج)

(5/517)

" فصل فى فضل السّورة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

ذكر المفسّرون فيه أَحاديث واهية .

منها : من قرأَ من سورة الحجّ أَعْطَى من الأَجر كحَجّة حَجَّها ، وعمرة اعتمرها ، بعدَد مَن حجّ واعتمر ، مَنْ مضى منهم ومن بَقى ، ويُكتب له بعدد كلّ واحد منهم حجَّة وعمرة وله بكلِّ آية قرأَها مثلُ ثواب مَنْ حَجّ عن أَبويه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 328 ﴾

(6/517)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

مقصودها الحث على التقوى المعلية عن دركة الاستحقاق للحكم بالعدل إلى درجة استئال الإنعام بالفضل ، في يوم الجمع للفصل ، وأنسب ما فيها لذلك الحج وهو ظاهر (بسم الله) الذي اقتضت عظمته خضوع كل شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 129 ﴾

فصل في نزولها

قال ابن الجوزى :

روى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية كلُّها ، غير آيتين نزلتا بالمدينة : قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ والتي تليها [الحج : 13 ، 12] .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنها مدنية إِلا أربع آيات نزلت بمكة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول . . .

﴾ إِلى آخر الأربع [الحج : 53 - 57] .

وقال عطاء بن يسار : نزلت بمكة إِلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة : ﴿ هذان خصمان ﴾ واللتان بعدها [الحج : 20 - 22] .

وقال أبو سليمان الدمشقي : أولها مدني إِلى قوله تعالى : ﴿ وبشر المحسنين ﴾ [الحج : 38] وسائرها مكي .

وقال الثعلبي : هي مكية غير ست آيات نزلت بالمدينة ، وهي قوله تعالى : ﴿ هذان خصمان ﴾ [الحج : 20] إِلى قوله تعالى : ﴿ الحميد ﴾ [الحج : 25] .

وقال هبة الله بن سلامة : هي من أعاجيب سور القرآن ، لأن فيها مكياً ، ومدنياً ، وحضرياً ، وسفرياً ، وحربياً ، وسلمياً ، وليلياً ، ونهارياً ، وناسخاً ، ومنسوخاً .

فأما المكي ، فمن رأس الثلاثين منها إلى آخرها .

وأما المدني ، فمن رأس خمس وعشرين إلى رأس ثلاثين .

وأما الليليُّ ، فمن أولها إلى آخر خمس آيات .

وأما النهاريُّ ، فمن رأس خمس [آيات] إلى رأس تسع .

وأما السفري ، فمن رأس تسع إلى اثنتي عشرة .

وأما الحضري ، فإلى رأس العشرين [منها] ، نسب إلى المدينة ، لقرب مدَّته . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(8/517)

فصل

قال القرطبى :

سورة الحج

مقدمة السورة

وهي مكية ، سوى ثلاث آيات : قوله تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ ﴾ [الحج : 19] إلى تمام ثلاث آيات ، قاله ابن عباس ومجاهد . وعن ابن عباس أيضا "أنهن أربع آيات" ، إلى قوله ﴿ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج : 22] وقال الضحاك وابن عباس أيضا : "هي مدنية" – وقاله قتادة – إلا أربع آيات : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [الحج : 52] إلى ﴿ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج : 55] فهن مكيات . وعد النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات . وقال الجمهور : السورة مختلطة ، منها مكي ومنها مدني . وهذا هو الأصح ؛ لأن الآيات تقتضي ذلك ، لأن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ مكي ، و ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مدني .

الغزنوي : وهي من أعاجيب السور ، نزلت ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، مكيا ومدنيا ، سلميا وحربيا ، ناسخا ومنسوخا ، محكما ومتشابها ؛ مختلف العدد .

قلت : وجاء في فضلها ما رواه الترمذي وأبو داود والدارقطني عن عقبة بن عامر قال قلت : يا رسول الله ، فضلت سورة الحج بأن فيها سجدتين ؟ قال : "نعم ، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما" . لفظ الترمذي . وقال : هذا حديث حسن ليس إسناده بالقوي .

واختلف أهل العلم في هذا ؛ فروي عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وابن عمر أنهما قالا : "فضلت سورة الحج بأن فيها سجدتين" . وبه يقول ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق . ورأى بعضهم أن فيها سجدة واحدة ؛ وهو قول سفيان الثوري . روى

الدارقطني عن عبد الله بن ثعلبة قال : رأيت عمر بن الخطاب سجد في الحج سجدتين ؛ قلت في الصبح ؟ قال في الصبح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ 1 ﴾

(9/517)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . يا أيها الناس اتقوا ربكم)

السّورة مكِّيّة بالاتّفاق ، سوى ستّ آياتٍ منها ، فهى مَدَنِيَّة : ﴿ هذانِ خَصْمَانِ ﴾ إلى قوله : ﴿ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ .

وعدد آياتها ثمانٍ وسبعون فى عدّ الكوفيِّين ، وسبع للمدَنيين ، وخمس للبصريِّين ، وأَربع للشاميِّين .

وكلماتها ألفان ومائتان وإِحدى وتسعون كلمة .

وحروفها خمسة آلاف وخمسة وسبعون .

والآيات المختلف فيها خمس : الحميم ، الجلود ، وعاد وثمود ، ﴿ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ ، ﴿ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

مجموع فواصل آياتها (انتظم زبرجد قطّ) على الهمزة منها ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ .

سمّيت : سورة الحج ؛ لاشتمالها على مناسك الحجّ ، وتعظيم الشّعائر ، وتأذين إبراهيم للنّاس بالحج .

مقصود السورة على طريق الإجمال : الوصيّة بالتّقوى ، والطّاعة ، وبيان هَوْل السّاعة ، وزلزلة القيامة ، (والحجّة) على إثبات الحشر والنشر ، وجدال أَهل الباطل مع أَهل الحقّ ، والشكاية من أَهل النفاق بعد الثبات ، وعَيْب الأَوثان وعبادتها ، وذكر نُصْرة الرّسول صَلّى الله عليه وسلَّم ، وإقامة البرهان والحُجَّة ، وخصومة المؤمن والكافر فى دين التوحيد ، وتأذين إبراهيم على المسلمين بالحجّ ، وتعظيم الحُرُمات والشعائر ، وتفضيل القرآن فى الموسم ، والمِنَّة على العباد بدفع فساد أَهل الفساد ، وحديث البئر المعطَّلة ، وذكر نسيان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهوه حال تلاوة القرآن ، وأَنواع الحجّة على إثبات القيامة ، وعجز الأَصنام وعُبَّادها ، واختيار الرّسول من الملائكة والإنس ، وأَمر المؤمنين بأَنواع العبادة والإحسان ، والمِنَّة عليهم باسم المسلمين ،

والاعتصام بحفظ الله وحِياطته فى قوله ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

المنسوخ فيها آيتان : ﴿ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ م ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى ﴾ ن ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ م آية السيف ن .

والنَّاسخ فى هذه السّورة ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 323.324 ﴾

(11/517)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الحج

282 - مسألة :

قوله تعالى : (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ) ثم قال : (وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى) الآية ؟ .

جوابه :

أن الزلزلة عامة في وقت واحد فيدركها الكل إدراكا واحدا

فقال : (تَرَوْنَهَا)

ورؤية السكارى مختصة بكل إنسان بنفسه فيراهم هذا في وقت وهذا في وقت فقال :

وترى أيها الرائى .

283- مسألة :

قوله تعالى : (تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا) إن كان المراد بالزلزلة نفس البعث والساعة فلا حمل حينئذ ولا رضاع . وإن كان غير الساعة فما هو ؟

.

جوابه :

اختلف في ذلك ، فقيل : هو رجفة عظيمة عند نفخة الصعق ، وقيل : عند طلوع الشمس من مغربها ، وهذا

جواب ظاهر .

وقيل : هو نفس قيام الساعة ، والمراد : التمثيل بأن الحال

كذلك لو كان حمل أو إرضاع .

284 - مسألة :

قوله تعالى : (وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى) ؟ .

جوابه :

أنهم سكارى من الدهش لتلك الأهوال ، وما هم بسكارى من الشراب .

285 - مسألة :

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) ثم قال : (وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) وقد دخلوا فيمن في الأرض ؟ .

جوابه :

أن السجود المذكور أولا : سجود الخضوع والانقياد لأمره

وتصرفه ، وهو من الناس سجود العبادة المعهود .

286 - مسألة :

قوله تعالى : (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا) ؟ .

وفى السجدة (أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا)

جوابه :

لما تقدم تفاصيل أنواع العذاب ناسب قوله : (مِنْ غَمٍّ) أي

من الغموم المذكورة وهي ثبات أهل النار ، وصب الحميم في

رؤوسهم إلى آخره .

ولم يذكر في السجدة سوى (مَأْوَاهُمُ النَّارُ) فناسب سقوط

(مِنْ غَمٍّ) واقتصر على (منها) ولذلك وصف أنواع نعيم

الجنة لمقابلة ذكر أنواع عذاب النار واقتصر فى السجدة فيه كما يقتصر فيها على مقابله .

287 – مسألة :

قوله تعالى : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ)

وقال في آخر السورة : (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا) بغير واو ؟ .

جوابه :

أن الأولى : تقدمها ما هو من جنسها وهو ذكر الحج

والمناسك فحسن فيه العطف عليه ، بخلاف الثانية : فإنه لم

يتقدمها ما يناسبها فجاءت ابتدائية ، وبيان ذلك قوله تعالى :

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ) الآية ، ثم قال :

((وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ) الآية .

288 – مسألة :

قوله تعالى : (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) وقال تعالى :

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا) الآية . وقال تعالى : (وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) وأشباه ذلك كوقعة أحد وحنين وبئر معونة .

جوابه :

أن ناصر دين الله منصور بإحدى الحسنيين ، أو أنه النصر في

العاقبة ، أو هو عام مخصوص كغيره من العمومات

المخصوصة ، والله أعلم .

289 - مسألة :

قوله تعالى : (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) بالفاء وقال تعالى : (أَهْلَكْنَاهَا) ، ثم قال : (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا) بالواو ؟ .

جوابه :

أن "الفاء" في الأولى : بدل من قوله تعالى : (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) فهو كالتفسير للنكرة .

و "الواو" في الثانية : عطف على الجمل قبلها .

ولما قال قبل الأولى : فأمليت للكافرين ، ثم أغنى ذكر الإملاء

فيما بعد ، ولأن الإهلاك إنما هو كان بعد الإملاء المذكور .

ولما تقدم في الثانية : (ويستعجلونك) ناسب (أَمْلَيْتُ لَهَا) أي لم أعجل عليهم عند

استعجالهم العذاب .

290 - مسألة :

قوله تعالى : (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50)) وقال تعالى

بعده : (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56)) وكلاهما للذين آمنوا

وعملوا الصالحات ؟ .

جوابه :

لما تقدم ذكر الإنذار في الأولى وهو في الدنيا ، ذكر جزاء

إجابته في الدنيا وهي مغفرة ورزق كريم .

ولما تقدم في الثانية ذكر العقاب بقوله تعالى : (عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)

وهو يوم القيامة ، ناسب ذلك : (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56))

أي يوم القيامة .

291 – مسألة :

قوله تعالى : (وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) وفى

لقمان بحذف (هُوَ) ؟ .

جوابه :

أن آية الحج تقدمها جمل عدة مؤكدات باللام والنون والهاء والواو فناسب توكيد هذه

الجملة كأخواتها تبعا لهن .

ولم يتقدم في لقمان مثل ذلك ، ولذلك جاء في الحج بعدها : (وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ

(64)) وفى لقمان : (إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ) . (1) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 265.259 ﴾

---

(1) هذه الآية سابقة على الآية المقارن بها فى سورة لقمان .

(14/517)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ وبعده ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾ محمول على : أَيُّها المخاطب كما سبق فى قوله ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ ﴾ .

قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [فى هذه السورة ، وفى لقمان : ﴿ وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾] لأَنَّ ما فى هذه السّورة وافق ما قبلها [من الآيات ، وهى : نذير ، القبور ، وكذلك فى لقمان وافق ما قبلها] وما بعدها وهى الحمير والسّعير والأُمور .

قوله : ﴿ من بعد علم ﴾ بزيادة (مِن) لقوله ﴿ من تراب ثم من نطفة ﴾ الآيه وقد سبق في النحل .

قوله : ﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ وفى غيرها ﴿ أَيْدِيكُمْ ﴾ لأَنَّ هذه الآية نزلت فى نضر بن الحارث وقيل [فى] أَبى جهل [فوحده ، وفى غيرها] نزلت فى الجماعة الَّذين تقدم ذكرهم .

قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ "وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى" ﴾ (قدّم الصابئين لتقدم زمانهم .

وقد سبق فى البقرة .

قوله : ﴿ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴾ سبق فى الرّعد .

قوله : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ وفى السّجدة ﴿ مِنْهَا أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ لأَنَّ المراد بالغمّ [الكرب] والأَخذ بالنَّفْس حتى لا يجد صاحبه مُتنفَّسًا ، وما قبله من الآيات يقتضى ذلك ، وهو ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ إلى قوله ﴿ مِنْ حَدِيْدٍ ﴾ فمَنْ كان فى ثياب من نار فوق رأسه جهنم يذوب من حَرّه أَحشاءُ بطنه ، حتى يذوب ظاهرُ جلده ، وعليه موكَّلون يضربونه بمقامع من حديد ، كيف يجد سروراً ومُتنفَّسًا من تلك الكُرَب التى عليه وليس فى السّجدة من هذا ذِكر ، وإنما قبلها ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ .

(15/517)

قوله : ﴿ وَذُوقُواْ ﴾ ، وفى السَّجدة : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ ﴾ القول ها هنا مضمر .

وخُصّ بالإِضمار لطُول الكلام بوصف العذاب .

وخصّت سورة السّجدة بالإِظهار ، موافقة للقول قبله فى مواضع منها ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ ﴿ وَقَالُواْ أَءِذَا ضَلَلْنَا ﴾ ، و ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم ﴾ و ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ ﴾ وليس ف الحجّ منه شىء .

قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ مكرَّرة .

وموجب التكرار قوله : ﴿ هذانِ خَصْمَانِ ﴾ ، لأَنَّه لمّا ذكر أَحدَ الخَصْمين وهو ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ لم يكن بُدّ من ذِكر الخَصْم الآخر فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ .

قوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ ﴾ وفى البقرة ﴿ وَالْعَاكِفِينَ ﴾ وحَقَّه أَن يذكر هناك لأَنَّ ذكر العاكف ههنا سبق فى قوله ﴿ سَوَآءً العَاكِفُ فِيهِ وَالبَاد ﴾ ومعنى ﴿ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ المُصَلُّون .

وقيل : (القائمين) بمعنى المقيمين .

وهم العاكفون [لكن] لمَّا تقدّم ذكرهم عُبِّر عنهم بعبارة أُخرى .

قوله : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ كرّر ؛ لأَنَّ الأَوّل متَّصل بكلام إبراهيم وهو اعتراض ثم أَعاده مع قوله ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ ﴾ .

قوله : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ وبعده ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ خصّ الأَوّل بذكر الإهلاك ؛ لاتّصاله بقوله :

﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أَى أَهلكتهم ، والثانى بالإملاءِ ؛ لأَنَّ قوله :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ دلّ على أَنَّه لم يأتهم فى الوقت ، فحسُن ذكر الإملاءِ .

(16/517)

قوله : ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ هنا وفى لقمان ﴿ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ لأَنَّ هنا وقع بين عشر آيات كلُّ آية مؤكَّدة مرّةً أَو مرَّتَيْن ، ولهذا أَيضاً زيدَ فى هذه السّورة اللَّام فى قوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ وفى لقمان : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ إذ لم يكن سورة لقمان بهذه الصّفة .

وإن شئت قلت : لمّا تقدّم فى هذه السّورة ذِكْرُ الله سبحانه وتعالى وذكرُ الشيطان أَكّدهما ؛ فإِنَّه خبر [وقع] بين خبرين .

ولم يتقدّم فى لقمان ذِكرُ الشيطان ، فأَكد ذكر الله ، وأَهمل ذكر الشَّيطان .

وهذه دقيقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 324. 327 ﴾

(17/517)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة الحج

315 – قوله تعالى يوم ترونها 2 وبعده وترى الناس سكارى 2 محول على أيها المخاطب كما سبق في قوله وترى الفلك 16 14

316 – قوله ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير 8 في هذه السورة وفي لقمان ولا هدى ولا كتاب منير 20 لأن ما في هذه السورة وافق ما قبلها من الآيات وهي قدير 6 القبور 7 وكذلك في لقمان وافق ما قبلها وما بعدها وهي الحمير 19 السعير 21 الأمور 22

317 – قوله من بعد علم شيئا 5 بزيادة من لقوله تعالى من تراب ثم من نطفة 5 الآية وقد سبق في النحل

318 – قوله ذلك بما قدمت يداك 10 وفي غيرها أيديكم 30 182 لأن هذه الآية

نزلت في النضر بن الحارث وقيل في أبي جهل فوحده وفي غيرها نزلت في الجماعة التي تقدم ذكرهم

319 – قوله إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى 17 قدم الصابئين لتقدم زمانهم وقد تقدم في البقرة

320 – قوله يسجد له من في السموات 18 سبق في الرعد

321 – قوله كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها 22 وفي السجدة منها أعيدوا فيها 20 لأن المراد بالغم الكرب والأخذ بالنفس حتى لا يجد صاحبه متنفسا وما قبله من الآيات يقتضي ذلك وهو قطعت لهم ثياب من نار 19 إلى قوله من حديد 21 فمن كان في ثياب من نار وفوق رأسه حميم يذوب من حره أحشاء بطنه حتى يذوب ظاهر جلده وعليه موكلون يضربونه بمقامع من حديد كيف يجد سرورا أو يجد متنفسا من تلك الكرب التي عليه وليس في السجدة من هذا ذكر وإنما قبلها فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها

322 – قوله وذوقوا 22 وفي السجدة وقيل لهم ذوقوا 20 القول ههنا مضمر وخص بالإضمار لطول الكلام بوصف العذاب وخصت السجدة بالإظهار موافقة للقول قبله في مواضع منها أم يقولون افتراه 3 وقالوا أئذا ضللنا 10 وقل يتوفاكم 11 وحق القول 13 وليس في الحج شيء منه

---

323 - قوله إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها النهار

14 23 مكررة وموجب هذا التكرار قوله هذان خصمان 9 لأنه لما ذكر أحد الخصمين

وهو فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار 19 لم يكن بد من ذكر الخصم الآخر فقال إن الله

يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات 23 الآية

324 - قوله وطهر بيتي للطائفين والقائمين 26 وفي البقرة

للطائفين والعاكفين 125 وحقه أن يذكر هناك لأن ذكر العاكف ههنا سبق في قوله سواء

العاكف فيه والباد 25 ومعنى والقائمين والركع السجود المصلون وقيل القائمون بمعنى

المقيمين وهم العاكفون لكن لما تقدم ذكرهم عبر عنهم بعبارة أخرى

325 - قوله فكلوا منها وأطعموا المانع والمقتر 36 كرر لأن الأول متصل بكلام إبراهيم

وهو اعتراض ثم أعاده مع قوله والبدن جعلناها لكم 36

326 - قوله فكأين من قرية أهلكناها 45 وبعده وكأين من قرية أمليت لها 48 خص

الأول بذكر الإهلاك لاتصاله بقوله فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم 44 أي أهلكتهم

والثاني بالإملاء لأن قبله ويستعجلونك بالعذاب 47 فحسن ذكر الإملاء

327 – قوله وأن ما يدعون من دونه هو الباطل 62 وفي سورة لقمان من دونه الباطل 30 لأن في هذه السورة وقع بعد عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين ولهذا أيضا زيد في السورة اللام في قوله وإن الله لهو الغني الحميد 64

وفي لقمان إن الله هو الغني الحميد 26 إذ لم تكن سورة لقمان بهذه الصفة

وإن شئت قلت لما تقدم في هذه السورة ذكر الله سبحانه وذكر الشيطان أكدهما فإنه خبر وقع بين خبرين ولم يتقدم في لقمان ذكر الشيطان فأكد ذكر الله تعالى وأهمل ذكر شيطان وهذه دقيقة. انتهى انتهى. اهـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 144. 147﴾

(19/517)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة:

سورة الحج

مدنية إلا الآيات 52، 53، 54. 55، وعدد آياتها ثمان وسبعون آية، وسميت الحج فى عرف القراء؟ لأن مناسك الحج كثيرة فيها.

وقد ابتدأت السورة بذكر يوم القيامة: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ

عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3)

وأشار سبحانه إلى أن من يتولاه الشيطان فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ، وذكر سبحانه من ينكرون البعث وقال : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) .

ويشير إلى أن ذلك التطور التكوينى يثبت أن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، ويذكر الذين يجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا سلطان مبين ، ويتولون معرضين ويضلون عن سبيل الله ، وأن عقابهم فى الآخرة عذاب الحريق ، وفى الدنيا خزى .

(20/517)

وبعد أن ذكر سبحانه الأشرار الخالصين للشر ، ذكر من يترددون ، فيعبدون الله على حرف إن أصابهم خير اطمأنوا إليه ، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . وإن هؤلاء وأولاء

يدعون ما لا يضر ولا ينفع ، ومن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ، ولبئس العشير .

بعد ذلك ذكر سبحانه الذين يعملون الصالحات وجزاءهم ، وأبطل سبحانه أوهام الذين يظنون أنه لا ينصرهم الله فقال : مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15) ، ثم أشار سبحانه إلى آيات الله البينات وأن الله يهدى من يريد ، وأشار سبحانه إلى اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والهندوس والذين أشركوا ، وأن الله سيفصل بينهم يوم القيامة .

ولقد أشار سبحانه إلى حال الفريقين المهتدى والضال ، (. . . فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22) .

وبين بعد ذلك جزاء المؤ@جن فقال : (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24) .

وذكر سبحانه بعض أعمال المشركين من الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام (. . . الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25) .

ويشير سبحانه إلى نبأ إبراهيم وتطهير البيت للطائفين والعاكفين ، والركع السجود ، ثم دعوة إبراهيم إلى الحج : (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28) ،

ثم يشير سبحانه إلى بعض مناسك الحج ، ويدعو سبحانه إلى تعظيم حرمات الله تعالى ، ويبين أنه أحلت بهيمة الأنعام إلا ما جاء النص بتحريمه ، ويدعو سبحانه إلى اجتناب قول الزور ، والرجس من الأوثان ، وأن يكونوا حنفاء لله غير مشركين به ، ويبين سبحانه أن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب ، ويبين أن منسك أهل الحق والإيمان الحج إلى بيت الله الحرام ، ثم يذكر سبحانه أن الإبل والبقر وهى البدن من شعائر الله تعالى : (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ

جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36) لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37) .

(22/517)

ثم بين سبحانه شرعية الجهاد بعد هذه الإشارات إلى الحج ، وهو من الجهاد ، (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) ،

ثم صرح سبحانه وتعالى بالإذن بالقتال : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) ،

وقد بين الله تعالى فضل المتقين فى إقامتهم الصلاة ، وإيتائهم الزكاة وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . وأشار سبحانه إلى المشركين ، وأنهم لم يعتبروا بهلاك من سبقوهم إلى الشرك ، واضطهاد أهل الإيمان ومعاندة الرسل ، فأشار سبحانه إلى قوم عاد وثمود ، وقوم إبراهيم وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وكذب موسى ثم قال : (. . . فأمليت للكافرين ثم أخذتهم

فكيف كان نكير .

ثم أشار سبحانه إلى هلاك القرى التى أهلكها سبحانه وهى ظالمة (. . . فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ، ودعا الله المشركين إلى أن يسيروا فى الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، (. . . فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

ثم ذكر سبحانه حال المشركين ، فى استعجالهم العذاب ، بدل أن يعملوا للثواب ، وبين أنه يملى لهم ثم يأخذ الآثم بإثمه ، (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48) .

(23/517)

وذكر بعد ذلك أن عمل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الإنذار ، والناس بعد ذلك أشقياء أو سعداء (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51) .

ثم بين سبحانه أن الأنبياء بشر كسائر البشر ، ولكن الله يعصمهم ، فإذا وسوس الشيطان

فى صدورهم نسخ ما يلقى الشيطان : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52)

ومما يلقيه الشيطان ولكن يكون فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد .

ثم أشار إلى أن القرآن من عند الله يعلم أهل العلم أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فإنهم فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ، وإن الملك لله يوم القيامة هو الذى يحكم ، فالذين كفروا لهم عذاب مهين ، (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60) .

ثم بين سبحانه آياته فى الليل والنهار ، وهذا يدل على أن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير .

(24/517)

بعد هذا بين سبحانه وتعالى نعمه فى أنه ينزل المطر فتصبح الأرض مخضرة ، وأنه (سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (66)

وإن مناسك الناس مختلفة ، ولكل أمة جعلنا منسكا فلا ينازعنك فى الأمر ، ويخاطب نبيه فيقول : (. . . وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم .

ولا تجادلهم بعد أن تبين لهم الحق ، والله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ، وإن الله تعالى لا يخفى عليه شىء ، (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير .

ثم ذكر عبدة الأوثان وهم مشركو مكة ، فقال : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72) ،

وقد ضرب الله تعالى مثلا بالذباب فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا

يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74) .

(25/517)

ثم بين سبحانه أن خلق الله تعالى بالنسبة له على سواء ، ولكنه يصطفى من الملائكة رسلا يكونون لخلقه ، واصطفى من الناس رسلا يكونون دعاة للحق ، والإخبار عن الله تعالى بينهم ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وإليه ترجع الأمور ، ثم أشار سبحانه أن رسالة (صلى الله عليه وسلم) امتداد لرسالة إبراهيم ، فقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78) .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 4932 . 4936 ﴾

(26/517)

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الحج

سميت هذه السورة الحج في زمن النبي صلى الله عليه وسلم .

أخرج أبو داود ، والترمذي عن عقبة بن عامر قال : " قلت : يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال : نعم " وأخرج أبو داود ، وابن ماجه عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل ، وفي سورة الحج سجدتان .

وليس لهذه السورة اسم غير هذا .

ووجه تسميتها سورة الحج أن الله ذكر فيها كيف أمر إبراهيم عليه السلام بالدعوة إلى حج البيت الحرام ، وذكر ما شرع للناس يومئذ من النسك تنويها بالحج وما فيه من فضائل ومنافع ، وتقريعا للذين يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام وإن كان نزولها قبل أن يفرض الحج على المسلمين بالاتفاق ، وإنما فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة وفي سورة آل عمران .

واختلف في هذه السورة هل هي مكية أو مدنية .

أو كثير منها مكي وكثير منها مدني .

فعن ابن عباس ومجاهد وعطاء : هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ ﴾ إلى ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ .

قال ابن عطية : وعد النقاش ما نزل منها بالمدينة عشر آيات .

وعن ابن عباس أيضا والضحاك وقتادة والحسن : هي مدنية إلا آيات ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ فهن مكيات .

(27/517)

وعن مجاهد ، عن ابن الزبير : أنها مدنية .

ورواه العوفي عن ابن عباس .

وقال الجمهور هذه السورة بعضها مكي وبعضها مدني وهي مختلطة ، أي لا يعرف المكي بعينه ، والمدني بعينه .

قال ابن عطية : وهو الأصح .

وأقول : ليس هذا القول مثل ما يكثر أن يقولوه في بضع آيات من عدة سور : إنها نزلت في غير البلد الذي نزل فيه أكثر السورة المستثنى منها ، بل أرادوا أن كثيرا منها مكي وأن مثله أو يقاربه مدني ، وأنه لا يتعين ما هو مكي منها وما هو مدني ولذلك عبروا بقولهم : هي

مختلطة .

قال ابن عطية : روي عن أنس ابن مالك أنه قال : " نزل أول السورة في السفر فنادى رسول الله بها فاجتمع إليه الناس " وساق الحديث الذي سيأتي .

يريد ابن عطية أن نزولها في السفر يقتضي أنها نزلت بعد الهجرة .

ويشبه أن يكون أولها نزل بمكة فإن افتتاحها بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ جار على سنن فواتح السور المكية .

وفي أساليب نظم كثير من آياتها ما يلائم أسلوب القرآن النازل بمكة .

ومع هذا فليس الافتتاح بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ بمعين أن تكون مكية ، وإنما قال ابن عباس ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يراد به المشركون .

ولذا فيجوز أن يوجه الخطاب به إلى المشركين في المدينة في أول مدة حلول النبي صلى الله عليه وسلم بها ، فإن قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يناسب أنه نزل بالمدينة حيث صد المشركون النبي والمؤمنين عن البقاء معهم بمكة .

وكذلك قوله : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فإنه صريح في أنه نزل في شان الهجرة .

روى الترمذي بسنده عن ابن عباس قال : لما أخرج النبي من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكن فأنزل الله ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ ، وكذلك قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ ففيه ذكر الهجرة وذكر من يقتل من المهاجرين وذلك مؤذن بجهاد متوقع كما سيجيء هنالك .

وأحسب أنه لم تتعين طائفة منها متوالية نزلت بمكة ونزل ما بعدها بالمدينة بل نزلت آياتها متفرقة .

ولعل ترتيبها كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم ومثل ذلك كثير .

(29/517)

وقد قيل في قوله تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ إنه نزل في وقعة بدر ، لما في الصحيح عن علي وأبي ذر : أنها نزلت في مبارزة حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث مع شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر وكان أبو ذر يقسم على ذلك .

ولذلك فأنا أحسب هذه السورة نازلا بعضها آخر مدة مقام النبي صلى الله عليه وسلم

بمكة كما يقتضيه افتتاحها بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فقد تقرر أن ذلك الغالب في أساليب القرآن المكي ، وأن بقيتها نزلت في مدة مقام النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

وروى الترمذي وحسنه وصححه عن ابن أبي عمر ، عن سفيان عن ابن جدعان ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين أنه لما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله : ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ .

قال : أنزلت عليه هذه وهو في سفر ؟ فقال : " أتدرون . . .

" وساق حديثا طويلا .

فاقتضى قوله : أنزلت عليه وهو في سفر ؟ أن هذه السورة أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة فإن أسفاره كانت في الغزوات ونحوها بعد الهجرة .

وفي رواية عنه أن ذلك السفر في غزوة بني المصطلق من خزاعة وتلك الغزوة في سنة أربع أو خمس ، فالظاهر من قوله " أنزلت وهو في سفر " أن عمران بن حصين لم يسمع الآية إلا يومئذ فظنتها أنزلت يومئذ فإن عمران بن حصين ما أسلم إلا عام خيبر وهو عام سبعة ، أو أن أحد رواة الحديث أدرج كلمة أنزلت عليه وهو في سفر في كلام عمران بن حصين ولم يقله عمران .

ولذلك لا يوجد هذا اللفظ فيما ما روى الترمذي وحسنه وصححه أيضا عن محمد ابن بشار ، عن يحيى بن سعيد عن هشام بن أبي عبد الله عن قتادة ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين قال : كنا مع النبي في سفر فرفع صوته بهاتين الآيتين ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ إلى آخره .

فرواية قتادة عن الحسن أثبت من رواية ابن جدعان عن الحسن ، لأن ابن جدعان واسمه علي بن زيد قال فيه أحمد وأبو زرعة : ليس بالقوي .

وقال فيه ابن خزيمة : سيء الحفظ ، وقد كان اختلط فينبغي عدم اعتماد ما انفرد به من الزيادة .

وروى ابن عطية عن أنس بن مالك أنه قال : أنزل أول هذه السورة على رسول الله في سفر .

ولم يسنده ابن عطية .

وذكر القرطبي عن الغزنوي أنه قال : سورة الحج من أعاجيب السور نزلت ليلا

ونهارا ، سفرا وحضرا ، مكيا ومدنيا ، سلميا وحربيا ، ناسخا ومنسوخا ، محكما ومتشابها .

وقد عدت السورة الخامسة والمائة في عداد نزول سورة القرآن في رواية جابر بن زيد ، عن ابن عباس قال : نزلت بعد سورة النور وقبل سورة المنافقين .

وهذا يقتضي أنها عنده مدنية كلها لأن سورة النور وسورة المنافقين مدنيتان فينبغي أن يتوقف في اعتماد هذا فيها .

وعدت آياتها عند أهل المدينة ومكة : سبعا وسبعين .

وعدها أهل الشام : أربعا وسبعين .

وعدها أهل البصرة : خمسا وسبعين : وعدها أهل الكوفة : ثمانا وسبعين .

ومن أغراض هذه السورة :

- خطاب الناس بأمرهم أن يتقوا الله ويخشوا يوم الجزاء وأهواله .

- والاستدلال على نفي الشرك وخطاب المشركين بأن يقلعوا عن المكابرة في الاعتراف بانفراد الله تعالى بالإلهية وعن المجادلة في ذلك اتباعا لوساوس الشياطين ، وأن الشياطين لا تغني عنهم شيئا ولا ينصرونهم في الدنيا وفي والآخرة .

- وتفظيع جدال المشركين في الوحدانية بأنهم لا يستندون إلى علم وأنهم يعرضون عن الحجة ليضلوا الناس .

- وأنهم يرتابون في البعث وهو ثابت لا ريبة فيه وكيف يرتابون فيه بعلة استحالة الإحياء بعد الإماتة ولا ينظرون أن الله أوجد الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم طوره أطوارا .

وأن الله ينزل الماء على الأرض الهامدة فتحيا وتخرج من أصناف النبات ، فالله هو القادر على كل ذلك .

فهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير .

وأن مجادلتهم بإنكار البعث صادرة عن جهالة وتكبر عن الامتثال لقول الرسول صلى الله عليه وسلم .

- ووصف المشركين بأنهم في تردد من أمرهم في اتباع دين الإسلام .

- والتعريض بالمشركين بتكبرهم عن سنة إبراهيم عليه السلام الذي ينتمون إليه ويحسبون أنهم حماة دينه وأمناء بيته وهم يخالفونه في أصل الدين .

وتذكير لهم بما من الله عليهم في مشروعية الحج من المنافع فكفروا نعمته .

(32/517)

- وتنظيرهم في تلقي دعوة الإسلام بالأمم البائدة الذين تلقوا دعوة الرسل بالإعراض والكفر فحل بهم العذاب .

- وأنه يوشك أن يحل بهؤلاء مثله فلا يغرهم تأخير العذاب فإنه إملاء من الله لهم كما أملى للأمم من قبلهم .

وفي ذلك تأنيس للرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا ، وبشارة لهم بعاقبة النصر على الذين فتنوهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حق .

- وأن اختلاف الأمم بين أهل هدى وأهل ضلال أمر به افترق الناس إلى ملل كثيرة .

- وأن يوم القيامة هو يوم الفصل بينهم لمشاهدة جزاء أهل الهدى وجزاء أهل الضلال .

- وأن المهتدين والضالين خصمان اختصموا في أمر الله فكان لكل فريق جزاؤه .

- وسلى الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن الشيطان يفسد في قلوب أهل الضلالة آثار دعوة الرسل ولكن الله يحكم دينه ويبطل ما يلقي الشيطان فلذلك ترى الكافرين يعرضون وينكرون آيات القرآن .

- وفيها التنويه بالقرآن والمتلقين له بخشية وصبر .

ووصف المفار بكراهيتهم القرآن وبغض المرسل به .

والثناء على المؤمنين وأن الله يسر لهم أتباع الحنيفية وسماهم المسلمين .

- والإذن للمسلمين بالقتال وضمان النصر والتمكين في الأرض لهم .

- وختمت السورة بتذكير الناس بنعم الله عليهم وأن الله اصطفى خلقا من الملائكة ومن

الناس فأقبل على المؤمنين بالإرشاد إلى ما يقربهم إلى الله زلفى وأن الله هو مولاهم وناصرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ 131.135 ﴾

(33/517)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة الحج هذه السورة مشتركة بين مكية ومدنية كما يبدو من دلالة آياتها .

وعلى الأخص آيات الأذن بالقتال . وآيات العقاب بالمثل , فهي مدنية قطعا . فالمسلمون لم يؤذن لهم في القتال والقصاص إلا بعد الهجرة . وبعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة . أما قبل ذلك فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين بايعه أهل يثرب , وعرضوا عليه أن يميلوا على أهل منى من الكفار فيقتلوهم " إني لم أومر بهذا " . حتى إذا صارت المدينة دار إسلام شرع الله القتال لرد أذى المشركين عن المسلمين والدفاع عن حرية العقيدة , وحرية العبادة للمؤمنين .

والذي يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية , وجو السور المكية .

فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة , وإثبات البعث , وإنكار الشرك . ومشاهد القيامة , وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون . . بارزة في السورة وإلى جوارها

الموضوعات المدنية من الإذن بالقتال , وحماية الشعائر , والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يرد العدوان , والأمر بالجهاد في سبيل الله .

والظلال الواضحة في جو السورة كلها هي ظلال القوة والشدة والعنف والرهبة . والتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والاستسلام .

تبدو هذه الظلال في المشاهد والأمثال . .

فمشهد البعث مزلزل عنيف رهيب: (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت , وتضع كل ذات حمل حملها , وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) . .

وكذلك مشهد العذاب: (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار , يصب من فوق رؤوسهم الحميم , يصهر به ما في بطونهم والجلود , ولهم مقامع من حديد , كلما أرادوا أن يخرجوا منها - من غم - أعيدوا فيها , وذوقوا عذاب الحريق) . .

ومثل الذي يشرك بالله: (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) . .

(34/517)

وحركة من ييأس من نصر الله: (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء , ثم ليقطع , فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) . .

ومشهد القرى المدمرة بظلمها : (فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة , فهي خاوية على عروشها , وبئر معطلة وقصر مشيد) . .

تجتمع هذه المشاهد العنيفة المرهوبة إلى قوة الأوامر والتكاليف , وتبرير الدفع بالقوة , وتأكيد الوعد بالنصر والتمكين . إلى عرض الحديث عن قوة الله وضعف الشركاء المزعومين . .

ففي الأولى: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا , وإن الله على نصرهم لقدير , الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة , وآتوا الزكاة , وأمروا بالمعروف , ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور) . .

وفي الثانية: (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له , وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز) . .

ووراء هذا وذلك , الدعوة إلى التقوى والوجل واستجاشة مشاعر الرهبة والاستسلام .

تبدأ بها السورة وتتناثر في ثناياها :(يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم) . .(ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) . . (فإلهكم إله واحد , فله أسلموا وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) . . (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) . .

ذلك إلى استعراض مشاهد الكون , ومشاهد القيامة , ومصارع الغابرين . والأمثلة والعبر والصور والتأملات لاستجاشة مشاعر الإيمان والتقوى والإخبات والاستسلام . . وهذا هو الظل الشائع في جو السورة كلها , والذي يطبعها ويميزها .

(35/517)

ويجري سياق السورة في أربعة أشواط:

يبدأ الشوط الأول بالنداء العام . نداء نداء الناس جميعا إلى تقوى الله , وتخويفهم من زلزلة الساعة , ووصف الهول المصاحب لها , وهو هول عنيف مرهوب . ويعقب في ظل هذا الهول باستنكار الجدل في الله بغير علم , واتباع كل شيطان محتوم على من يتبعه الضلال . ثم يعرض دلائل البعث من أطوار الحياة في جنين الإنسان , وحياة النبات ; مسجلا تلك القربى بين أبناء الحياة , ويربط بين تلك الأطوار المطردة الثابتة وبين أن الله هو الحق وأنه

يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير , وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور . . وكلها سنن مطردة وحقائق ثابتة متصلة بناموس الوجود . . ثم يعود إلى استنكار الجدل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير بعد هذه الدلائل المستقرة في صلب الكون وفي نظام الوجود . وإلى استنكار بناء العقيدة على حساب الربح والخسارة , والانحراف عن الاتجاه إلى الله عند وقوع الضراء , والالتجاء إلى غير حماه ; واليأس من نصرة الله وعقباه . وينتهي هذا الشوط بتقرير أن الهدى والضلال بيد الله , وأنه سيحكم بين أصحاب العقائد المختلفة يوم الحساب . . وهنا يعرض ذلك المشهد العنيف من مشاهد العذاب للكافرين , وإلى جواره مشهد النعيم للمؤمنين .

(36/517)

ويتصل الشوط الثاني بنهاية الشوط الأول بالحديث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام . ويستنكر هذا الصد عن المسجد الحرام الذي جعله الله للناس جميعا . يستوي في ذلك المقيمون به والطارئون عليه . . وبهذه المناسبة يذكر طرفا من قصة بناء البيت , وتكليف إبراهيم – عليه السلام – أن يقيمه على التوحيد , وأن يطهره من رجس الشرك . ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة مشاعر

التقوى في القلوب , وهي الهدف المقصود . وينتهي هذا الشوط بالإذن للمؤمنين بالقتال لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذي يقع على المؤمنين ولا جريرة لهم إلا أن يقولوا : ربنا الله !

والشوط الثالث يتضمن عرض نماذج من تكذيب المكذبين من قبل , ومن مصارع المكذبين ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين . وذلك لبيان سنة الله في الدعوات , وتسلية الرسول (صلى الله عليه وسلم) عما يلقاه من صد وإعراض , وتطمين المسلمين , بالعاقبة التي لا بد أن تكون . كذلك يتضمن عرض طرف من كيد الشيطان للرسل والنبيين في دعوتهم , وتثبيت الله لدعوته , وإحكامه لآياته , حتى يستيقن بها المؤمنون , ويفتن بها الضعاف والمستكبرون !

أما الشوط الأخير فيتضمن وعد الله بنصرة من يقع عليه البغي وهو يدفع عنه العدوان ويتبع هذا الوعد بعرض دلائل القدرة في صفحات الكون , وإلى جوارها يعرض صورة زرية لضعف الآلهة التي يركن إليها المشركون . . وينتهي الشوط وتنتهي السورة معه بنداء الذين آمنوا ليعبدوا ربهم , ويجاهدوا في الله حق جهاده ,ويعتصموا بالله وحده , وهم ينهضون بتكاليف عقيدتهم العريقة منذ أيام إبراهيم الخليل . .

وهكذا تتساوق موضوعات السورة وتتعاقب في مثل هذا التناسق . . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الظلال حـ 4 صـ 2405 . 2408 ﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سوره الحج

مدنية وآياتها ثمان وسبعون آية

بين يدي السورة

* سورة الحج مدنية وهي تتناول جوانب التشريع ، شأنها شأن سائر السور المدنية التي تعني بأمور التشريع ، ومع أن السورة مدنية إلا أنه يغلب عليها جو السور المكية ، فموضوع الإيمان ، والتوحيد ، والإنذار ، والتخويف ، وموضوع البعث والجزاء ، ومشاهد القيامة وأهوالها ، هو البارز في السورة الكريمة ، حتى ليكاد يخيل للقارىء ، أنها من السور المكية ، هذا إلى جانب الموضوعات التشريعية ، من الإذن بالقتال ، وأحكام الحج والهدي ، والأمر بالجهاد في سبيل الله ، وغير ذلك من المواضيع التي هي من خصائص السور المدنية ، حتى لقد عدها بعض العلماء ، من السور المشتركة بين المدني والمكي .

*ابتدأت السورة الكريمة بمطلع عنيف مخيف ، ترتجف له القلوبُ ، وتطيش لهوله العقول ، ذلكم هو الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة ، ويزيد في الهول على خيال الإنسان ،

لأنه لا يدك الدور والقصور فحسب ، بل يصل هوله إلي المرضعات الذاهلات عن أطفالهن ، والحوامل المسقطات حملهن ، والناس الذين يترنحون كأنهم سكارى من الخمر ، وما بهم شيء من السكر والشراب ، ولكنه الموقف المرهوب ، الذي تتزلزل له القلوب [يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . .] الآيات .

*ومن أهوال الساعة إلى أدلة (البعث والنشور) تنتقل السورة لتقيم الأدلة والبراهين على البعث بعد الفناء ، ثم الإنتقال إلى دار الجزاء ، لينال الإنسان جزاءه إن خيرا فخير ، وإن شراً فشر .

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة ، حيث يكون الأبرار في دار النعيم والفجار في دار الجحيم .

(38/517)

---

* ثم انتقلت للحديث عن الحكمة من الإذن بقتال الكفار ، وتناولت الحديث عن القرى المدمرة بسبب ظلمها وطغيانها ، وذلك لبيان سنة الله في الدعوات ، وتطمينا للمسلمين بالعاقبة التي تنتظر الصابرين . " وفي ختام السورة ضربت مثلا لعبادة المشركين للأصنام ، وبينت أن هذه المعبودات أعجز وأحقر من أن تخلق ذبابة ، فضلا عن أن تخلق إنسانا

سميعاً بصيرا ، ودعت إلى اتباع ملة الخليل (إبراهيم) كهف الإيمان ، وركن التوحيد ، وهكذا بدأت السورة بعقيدة البعث ، وختمت بالتوحيد . التسميه : سميت " سورة الحج " تخليدا لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام ، حين إنتهى من بناء البيت العتيق ونادى الناس لحج بيت الله الحرام ، فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وإسمع نداؤه من في الأصلاب والأرحام ، وأجابوا النداء " لبيك اللهم لبيك " ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 279 . 280 ﴾

(39/517)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الحج

التقوى : التباعد عن كل ما يكسب الإثم من فعل أو ترك ، والزلزلة : الحركة الشديدة بحيث تزيل الأشياء من أماكنها ، والذهول : الدهش الناشئ عن الهمّ والغم الكثير ، والمرضعة : الأنثى حال الإرضاع ، والمرضع ما من شأنها أن ترضع ولو لم ترضع حال وصفها به

الريب : الشك ، وأصل النطفة : الماء العذب ويراد بها هنا ماء الرجل ، والعلقة :

القطعة الجامدة من الدم ، والمضغة : القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ ، والأجل المسمى : هو حين الوضع ، والطفل : يكون للواحد والجمع ، والأشد : القوة ، وأرذل العمر : أدنؤه وأردؤه ، هامدة : أي ميتة يابسة من قولهم همدت الأرض إذا يبست ودرست ، وهمد الثوب : بلى ، واهتزت : أي اهتز نباتها وتحرك ، وربت : ازدادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات ، زوج : أي صنف ، بهيج : أي حسن سارّ للناظرين ، والحق : هو الثابت الذي يحق ثبوته .

الهدى : الاستدلال والنظر الصحيح الموصل إلى المعرفة ، والكتاب المنير : الوحى المظهر للحق ، ثانى عطفه : أي لاويا جانبه متكبرا مختالا ، ونحوه تصعير الخد ولىّ الجيد .

والخزي : الهوان والذل ، عذاب الحريق : أي عذاب النار التي تحرق داخليها . .

على حرف : أي على طرف ، خير : أي سعة فى المال وكثرة فى الولد ، فتنة : أي بلاء ومحنة فى نفسه أو أهله أو ماله ، على وجهه : أي جهته ويراد بذلك أنه ارتد ورجع إلى الكفر ، خسر الدنيا والآخرة : أي ضيّعهما ، إذ فاته فيهما ما يسره ، يدعو الأولى يراد بها يعبد ويدعو الثانية يراد بها يقول – والمولى : الناصر ، والعشير : الصاحب والمعاشر بسبب : أي بحبل ، إلى السماء : أي إلى سقف بيته ، ليقطع : أي ليختنق ، فلينظر : أي فليقدر فى نفسه النظر ، كيده : أي فعله ، ما يغيظ : أي غيظه .

الذين هادوا : هم اليهود ، والصابئين : قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون إلى القبلة ويقرءون الزبور ، وفى كتاب الملل والنحل للشّهرستانى : إن الصابئة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام ، ويقال لمقابليهم الحنفاء ، وعمدة مذهبهم تعظيم النجوم ثوابتها وسياراتها ، والمجوس – على ما قاله قتادة – قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران ، والذين أشركوا : هم عبّاد الأوثان ، فالأديان ستة : خمسة للشيطان ، وواحد للرحمن ، يفصل :

أي يقضى بإظهار الحقّ من المبطل ، شهيد : أي عالم بكل الأشياء ومراقب لها .

ألم تر : أي ألم تعلم ، والسجود : لغة التطامن والتذلل ، ثم أطلق على التذلل للّه وعبادته ، وهو ضربان : سجود بالاختيار ، وهو خاص بالإنسان وبه يستحق الثواب .

وسجود بالتسخير والانقياد لإرادته سبحانه ، وهو دالّ على الذلة والافتقار إلى عظمته ، جلّت قدرته ، من فى السموات : هم الملائكة ، ومن فى الأرض : هم الإنس والجن ، وحق ، أي ثبت وتقرر .

خصمان : واحدهما خصم ، وهو من له رأى غير رأيك فى موضوع ما ، وكل منهما يحاجّ صاحبه فيه ، قطعت لهم : أي قدّرت ، والحميم : الماء الذي بلغت حرارته أقصى الغاية ، يصهر به : أي يذاب ، ومقامع : واحدها مقمعة ، وهى السوط ، والغم : الحزن الشديد ، والطيّب من القول : ما يقع فى محاورة أهل الجنة بعضهم بعضا ، وصراط الحميد :

أي الطريق المحمود فى آداب المعاشرة والاجتماع .

المراد بالمسجد الحرام : مكة ، وعبر به عنها لأنه المقصود المهم منها ، العاكف : المقيم ، والبادي : الطارئ القادم عليها ، والإلحاد : العدول عن الاستقامة ، بظلم : أي بغير حق . يقال بوأه منزلا : أي أنزله فيه وأصل البيت مأوى الإنسان بالليل ثم أطلق على كل مأوى متخذ من حجر أو مدر أو صوف أو وبر ، والمراد به هنا الكعبة ، وقد بنيت عدة مرات فى أوقات مختلفة ، وأذن : أي ناد بالحج : أي بالدعوة إليه ، رجالا :

(41/517)

أي مشاة ، والضامر : البعير الهزيل الذي أتعبته كثرة الأسفار ، ويطلق على الذكر والأنثى ، والفج : الطريق ، والعميق : البعيد ، ويذكروا اسم اللّه : أي يحمدوه ويشكروه ، والأيام المعلومات : هى أيام النحر وهى ثلاثة أيام يوم العيد ويومان بعده ، والمراد ببهيمة الأنعام : الإبل والبقر والضأن ، والبائس : الذي أصابه البؤس والشدة ، وليقضوا : أي ليزيلوا ، والتفث : الوسخ ، ويراد به هنا قص الشعور وتقليم الأظفار ، والنذور : ما ينذر من أعمال البر في الحج ، والعتيق : القديم لأنه أول بيت وضع للناس .

ذلك : أي الأمر هكذا ، ويقع للفصل بين كلامين أو بين وجهى كلام واحد كقوله تعالى " هذا

وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ " ، والحرمات : التكاليف الدينية من مناسك الحج وغيرها ، وتعظيمها : العلم بوجوبها والعمل على موجب ذلك ،

والزور : الكذب ، وحنفاء واحدهم حنيف : وهو المائل عن كل دين زائغ إلى الدين الحق ، وخر : سقط ، والخطف : الاختلاس بسرعة ، تهوى : أي تسقط ، سحيق :

أي بعيد ، والشعائر واحدها شعيرة : وهى العلامة والمراد بها البدن الهدايا ، وتعظيمها أن تختار حسانا سمانا غالية الأثمان ، والأجل المسمى : هو أن تنحر وتذبح ، ومحلّها مكان نحرها ، والمراد بالبيت العتيق : ما يليه ويقرب منه وهو الحرم .

المنسك (بكسر السين وفتحها) والنسك فى الأصل : العبادة مطلقا ، وشاع استعماله فى أعمال الحج ، والمراد به هنا الذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى ، أسلموا : أي انقادوا له ، المخبتين : أي المتواضعين الخاشعين ، من أخبت الرجل : إذا سار فى الخبت وهو المطمئن من الأرض ، وجلت : أي خافت .

(42/517)

البدن : واحدها بدنة ، وهى الناقة أو البقرة التي تنحر بمكة ، وتطلق على الذكر والأنثى ، وشعائر اللّه : أعلام دينه التي شرعها لعباده ، صوافّ : أي قائمات قد صفت أيديهن

وأرجلهن ، واحدها صافة ، وجبت جنوبها : أي سقطت جنوبها على الأرض ويراد بذلك زهقت أرواحها وفقدت الحركة ، القانع : أي الراضي بما عنده وبما يعطى من غير مسألة ، قال لبيد :

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقىّ بالمعيشة قانع

والمعترّ :

أي المتعرض للسؤال ، المحسنين : أي المخلصين فى كل ما يأتون وما يذرون في أمور دينهم .

أذن : أي رخّص ، الصوامع : واحدها صومعة ، وهى معبد الرهبان فى الصحراء – الدير – والبيع : واحدها بيعة وهى معبد النصارى ، والصلوات : واحدها صلاة معرّب صلوثا بالعبرية معبد اليهود ، ومساجد : واحدها مسجد ، وهو معبد المسلمين .

أمليت : أي أمهلت ، أخذتهم : أي أهلكتهم ، فكيف استفهام يراد به التعجب ، والنكير والإنكار على الشيء : أن تفعل فعلا به يزجر المنكر عليه على ما فعل ، خاوية : ساقطة ، وعروشها : أي سقوفها ، معطلة : أي عطلت من منافعها ، مشيد : أي مبنى بالشيد ، وهو الجصّ (الجير) .

الإنذار : التخويف ، وأصل السعى : الإسراع فى المشي ، ثم استعمل فى الإصلاح والإفساد ، يقال سعى فى أمر فلان : إذا أصلحه أو أفسده بسعيه فيه ، معاجزين : أي مسابقين المؤمنين ومعارضين لهم ، فكلما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله ، وأصله

من قولهم : عاجزه فأعجزه ، إذا سابقه فسبقه .

الرسول : من جاء بشرع جديد ، والنبي يشمل هذا ويشمل من جاء لتقرير شرع سابق كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام ، والتمني والأمنية : القراءة كما قال تعالى : " وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ " أي إلا قراءة ، وقال حسان فى عثمان حين قتل :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

(43/517)

وينسخ : أي يزيل ويبطل ، يحكم : أي يجعلها محكمة مثبتة لا تقبل الرد بحال ، فتنة : أي ابتلاء واختبارا ، مرض : أي شك ونفاق ، القاسية قلوبهم : هم الكفار المجاهرون بالكفر ، شقاق بعيد : أي عداوة شديدة ، فتخبت : أي تذل وتخضع ، مرية : أي شك ، بغتة : أي فجأة ، الساعة : الموت ، يوم عقيم : أي منفرد عن سائر

128

الأيام لا مثيل له فى شدته والمراد به الحرب الضروس ، الملك : أي التصرف والسلطان ، يحكم بينهم : أي يقضى بين فريقى الكافرين والمؤمنين ، مهين : أي مذل جزاء استكبارهم

عن الحق .

المنسك : الشريعة والمنهاج ، ناسكوه : أي عاملون به ، والهدى : الطريق الموصل إلى الحق ، مستقيم : أي سوىّ لا عوج فيه .

سلطانا : أي حجة وبرهانا ، نصير : أي ناصر ومعين ، يسطون : أي يبطشون بهم من فرط الغيظ .

ضرب : أي جعل ، والمثل والمثل : الشبه ، لا يستنقذوه : أي لا يقدروا على استنقاذه ، ما قدروا اللّه : أي ما عظّموه ، عزيز : أي غالب على جميع الأشياء ، يصطفى :

أي يختار .

فى اللّه : أي فى سبيله ، والجهاد كما قال الراغب : هو استفراغ الوسع فى مجاهدة العدو ، وهو ثلاثة أضرب :

(ا) مجاهدة العدو الظاهر كالكفار .

(ب) مجاهدة الشيطان .

(ج) مجاهدة النفس والهوى ، وهذه أعظمها فقد أخرج البيهقي وغيره عن جابر قال : " قدم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قوم غزاة فقال : قدمتم خير مقدم ، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل وما الجهاد الأكبر ؟ قال : مجاهدة العبد هواه " .

والمراد بالجهاد هنا ما يشمل الأنواع الثلاثة ، كما يؤيده ما روى عن الحسن أنه قرأ الآية وقال

: " إن الرجل ليجاهد فى اللّه تعالى وما ضرب بسيف " .

واجتباكم : أي اختاركم ، حرج : أي ضيق بتكليفكم ما يشق عليكم ، واعتصموا باللّه أي استعينوا به وتوكلوا عليه ، مولاكم : أي ناصركم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 17 صـ 84.148 ﴾ . باختصار .

(44/517)

قال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عونك يا رب

سورة الحج

وهي مدنية

قال أبو عمرو بن العلاء عن مجاهد سألت ابن عباس فقال سورة الحج نزلت بمكة سوى ثلاث آيات منها فإنهن نزلن بالمدينة في ستة نفر من قريش ثلاثة منهم مؤمنون وثلاثة كافرون فأما المؤمنون فهم حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم دعاهم للبراز عتبة وشيبه ابنا ربيعة والوليد بن عتبة فأنزل الله جل وعز ثلاث آيات

مدنيات وهن قوله تعالى هذان خصمان اختصموا في ربهم إلى تمام الآيات الثلاث من ذلك

1 - قوله جل وعز يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم

روى سفيان عن منصور عن إبراهيم عن علقمة قال هذا قبل يوم القيامة

2 - ثم قال جل وعز يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت أي تسلو عنه وتتركه وتحير لصعوبة ما هي فيه وبين الله جل وعز ذلك على لسان نبيه صلى الله عيه وسلم في أي موطن يكون هذا يوم القيامة حدثنا احمد بن عبد الخالق قال حدثنا عمر بن محمد بن الحسن الأسدي قال حدثني أبي قال حدثنا عصام بن طليق عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق عن

عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم في حجري فقطرت دموعي على خده فاستيقظ صلى الله عليه وسلم فقلت ذكرت القيامة وهولها فهل تذكرون أهاليكم يا رسول الله فقال يا عائشة ثلاثة لا يذكر فيها أحد إلا نفسه أ عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل ب وعند الصحف حتى يعلم ما في صحيفته ج وعند الصراط حتى يجاوزه

3 - وقوله جل وعز وترى الناس سكارى وما هم بسكارى أي وترى الناس سكارى من العذاب والخوف وما هم بسكارى من الشراب وقرأ أبو هريرة وأبو زرعة بن عمرو بن جرير وترى

الناس أي تظنهم لشدة ما هم فيه حدثنا أحمد بن محمد بن نافع قال حدثنا سلمة قال حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة وأبان عن أنس بن مالك قال نزلت يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم إلى قوله ولكن عذاب الله شديد قال نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في ميسر له سعيد فرفع بها صوته حتى ثاب إليه أصحابه فقال أتدرون أي يوم هذا هذا يوم يقول الله عز وجل لادم يا ادم قم فابعث بعث أهل النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحدا إلى الجنة فكبر ذلك على المسلمين فقال النبي صلى الله عليه وسلم سددوا وقاربوا وأبشروا فوالذي نفسي بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة وإن معكم لخليقتين ما كانتا مع شئ إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ومن هلك من كثرة الجن والإنس

4 – قال ابن جريج في قوله تعالى ومن الناس من يجادل في الله بغير علم هو النضر بن الحارث وقال غيره يجادل يخاصم في الله بزعمه أن الله تعالى جل وعز غير قادر على إحياء من قد بلي وعاد ترابا بغير علم

5 – وقوله جل وعز ويتبع كل شيطان مريد ايه أي ويتبع قوله ذلك وجداله كل شيطان مريد كتب عليه قال قتادة أي على الشيطان المريد الممتد في الشر المتجاوز فيه ومنه قوله تعالى قال إنه صرح ممرد من قوارير

قيل مطول وقيل مملس 6 - وقوله عز وجل كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ايه قال مجاهد وقتادة أنه من تولى الشيطان أي تبعه قال أبو جعفر والمعنى قضي على الشيطان أنه يضل من أتبعه 7 - وقوله عز وجل يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ايه أي ان كنتم في شك من أنكم تبعثون فتدبروا في أول خلقكم وابتدائكم فإنكم لا تجدون فرقا بين الإبتداء والإعادة 8 - ثم قال عز وجل فإنا خلقناكم من تراب ايه يعني ادم صلى الله عليه وسلم ثم من نطفة ثم من علقة

(46/517)

قال الخليل العلق الدم قبل أن ييبس الواحدة علقة وهكذا تصير النطفة قال أبو عبيد العلق بكر من الدم ما اشتدت حمرته

9 - ثم من مضغة وهي لحمة صغيرة بقدر ما يمضغ مخلقة وغير مخلقة روى معمر عن قتادة قال تامة وغير تامة قال الشعبي النطفة والعلقة والمضغة فإذا نكست في الخلق الرابع كانت مخلقة وإذا قذفتها قبل ذلك فهي غير مخلقة قال أبو العالية غير مخلقة السقط قال أبو جعفر مخلقة مصورة ويبين ذلك هذا الحديث المرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو مروي من طرق شتى فمن طرقه ما رواه سلمة بن كهيل عن زيد بن وهب

قال سمعت ابن مسعود يقول سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو الصادق المصدوق يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة أربعين يوما ثم يكون مضغة أربعين يوما ثم يبعث الله جل وعز إليه ملكا فيقول اكتب عمله وأجله ورزقه واكتبه شقيا أو سعيدا قال عبد الله والذي نفسي بيده إن الرجل ليعمل بعمل أهل السعادة فيعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع ثم يدركه الشقاء فيعمل بعمل أهل النار أو الشقاء فيدخل النار وروى عبيد الله بن أبي بكر عن أنس بن مالك جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل قد وكل بالرحم ملكا

فيقول أي رب أنطفة قد أي رب أعلقة وفي أي رب أمضغة كل فإذا أراد الله جل وعز أن يقضي خلقها قال يقول الملك أذكر أم أنثى

(47/517)

أشقي أم سعيد فما الأجل فما الرزق فيكتب ذلك في بطن أمه قال علقمة إذا وقعت النطفة في الرحم قال الملك مخلقة أو غير مخلقة فإن قال غير مخلقة مجت الرحم دما وإن قال مخلقة قال أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد فيقول اكتبها من اللوح المحفوظ فيجد صفتها فيستنسخه فلا يزال العبد يعمل عليه حتى يموت 10 - وقوله جل وعز لنبين لكم ايه أي ذكرنا أحوال

الخلق لنبين لكم ويجوز أن يكون المعنى خلقنا هذا الخلق لنبين لكم 11 - ثم قال جل وعز ونقر في الأرحام ما نشاء ايه أي ونحن نقر في الأرحام ما نشاء ثم قال ومنكم من يتوفى ايه 5 وحكى أبو حاتم أن بعضهم قرأ ومنكم من يتوفى ومعناه يستوفي أجله 12 - وقوله عز وجل لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ايه 5

قال الفراء لكيلا يعقل من بعد ما عقل شيئا

13 - وقوله وجل عز وترى الأرض هامدة ايه 5 روى سعيد عن قتادة قال أي غبراء متهشمة قال أبو جعفر يقال همدت النار إذا طفئت وذهب لهبها وأرض هامدة أي جافة عليها تراب 14 - ثم قال جل وعز فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ايه 5

أي تحركت وربت أي زادت وقرأ يزيد بن القعقاع وخالد بن إلياس وربأت أي ارتفعت حتى صارت بمنزلة الربيئة وهو الذي يحفظ القوم على شئ مشرف فهو رابئ * وربئة فلا على المبالغة 15 - ثم قال عز وجل وأنبتت من كل زوج بهيج ايه 5 أي من كل صنف من النبات وروى سعيد عن قتادة قال بهيج حسن قال أبو جعفر يقال بهج فهو بهج إذا حسن وأبهجني أعجبني لحسنه 16 - ثم قال جل وعز ذلك بأن الله هو الحق ايه 6 أي الأمر ذلك والأمر ما وصف لكم وبين

ثم قال جل وعز وأنه يحيي الموتى أي كما أحيا الأرض بقدرته 17 - وقوله جل وعز ثاني عطفه ايه 9 قال مجاهد أي رقبته

وقال قتادة أي عنقه قال أبو العباس العطف ما انثنى من العنق ويقال للأردية منه العطف لأنها تقع على ذلك الموقع وقال غيره يوصف بهذا المتكبر المعرض تجبرا 18 - قوله جل وعز ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ايه 10

(48/517)

والمعنى يقال له هذا العذاب بما قدمت يداك وبأن الله ليس بظلام للعبيد 19 - ثم قال جل وعز ومن الناس من يعبد الله على حرف ايه 11 روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال على شك قال أبو جعفر وحقيقته في اللغة على حرف طريقة الدين أي ليس داخلا فيه بكليته وبين هذا بقوله جل وعز فإن أصابه خير اطمأن به قال استقر وإن أصابته فتنة قال عذاب أو مصيبة انقلب على وجهه قال ارتد كافرا 20 - ثم قال جل وعز خسر الدنيا والاخرة ايه 11 وقرأ مجاهد وحميد خاسر الدنيا والاخرة

21 - وقوله جل وعز يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ايه 12 ثم قال بعد يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى

فيقال كيف يكون له ضر وقد قال ما لا يضره فالجواب أن المعنى يدعو لمن ضر عبادته فإن قيل كيف قال أقرب من نفعه ولا نفع له فالجواب أن العرب تقول لما لا يكون البتة هذا بعيد

مثل قوله تعالى ذلك رجع بعيد وفي الاية أجوبة من أجل اللام فأكثر النحويين يذهب إلى أنها في غير موضعها وأن المعنى يدعو من لضرة أقرب من نفعه وقال أبو العباس في الكلام حذف أي يدعو لمن ضره أقرب من نفعه إلها

وقيل يدعو ههنا بمعنى يقول كما قال عنترة * يدعون عنتر والرماح كأنها * أشطان بئر في لبان الأدهم * وقال أبو إسحق يجوز أن يكون يدعو في موضع الحال وفيه هاء محذوفة ويكون خبر من لبئس المولى ولبئس العشير

قال الفراء يجوز أن يكون يدعو خبر من ويكون لبئس المولى ولبئس العشير مكررة على ما قبلها ولأبي إسحق قول اخر وزعم أن النحويين أجازوه قال يكون ذلك بمعنى الذي أي الذي هو الضلال البعيد يدعو لمن ضره كما قال تعالى وما تلك بيمينك موسى

(49/517)

وأنشد * عدس ما لعباد عليك إمارة * أمنت وهذا تحملين طليق * وحكى الفراء أنه يجوز في هذا شئ لم يتقدم به أثر وهو يدعو لمن ضره بكسر اللام بمعنى يدعو إلى من ضره كما قال سبحانه الحمد لله الذي هدانا لهذا أي إلى هذا قال أبو جعفر والاية مشكلة لدخول اللام وإن الحذاق من النحويين يمنعون أن ينوى بها تقديم أو تأخير لأنها لا تصرف

وأن يكون يدعو بمعنى يقول حسن والخبر محذوف أي يقول لمن ضره أقرب من نفعه له 22

- ثم قال جل وعز لبئس المولى ايه 13 أي الولي كما قال الشاعر * فعدت كلا الفرجين

تحسب أنه * مولى المخافة خلفها وأمامها *

ولبئس العشير أي الصاحب والخليل قال مجاهد يعني الوثن 23 - وقوله جل وعز من كان

يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والاخرة ايه 15 قال أبو جعفر هذه الاية مشكلة وفيها قولان

أروى سفيان عن أبي إسحاق عن التميمي عن ابن عباس قال

من كان يظن أن لن ينصره الله يعني محمدا صلى الله عليه وسلم فليمدد بسبب أي بحبل إلى

السماء أي سقف بيته ثم ليقطع أي ليختنق قال أبو جعفر وهذا قول أكثر أهل التفسير منهم

الضحاك ومعناه من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا عليه السلام

ويظهر دينه على الدين كله فليجهد جهده فلينظر هل ينفعه ذلك شيئا ب والقول الاخر أن

طلحة بن عمرو قال سمعت عطاء يقول في قوله تعالى من كان يظن أن لن ينصره الله أن لن

يرزقه الله فليمدد بسبب إلى السماء أي إلى سماء بيته فلينظر هل ينفعه ذلك أو يأتيه برزق

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد من كان يظن أن لن ينصره الله قال أي أن لن يرزقه الله قال أبو

جعفر وهذا القول أيضا معروف في اللغة وهو قول أبي عبيدة وحكى أهل اللغة أنه يقال

أرض منصورة أي ممطورة وروى عن ابن عباس من كان يظن أن لن ينصر الله

محمدا أي يرزقه في الدنيا وقال غيره الأولى أن تكون الهاء تعود على النبي صلى الله عليه وسلم لأن

(50/517)

الله جل وعز ذكر قوما يعبدونه على حرف ثم أتبع ذلك هذه الاية في قوم يظنون أن الله لا يوسع على محمد وأمته ولا يرزقهم في الاخرة من سني عطاياه فليمدد بحبل إلى سماء فوقه إما سقف بيته أو غيره إذا اغتاظ لاستعجال ذلك 24 - قال أبو جعفر وقد ذكرنا القول في قوله عز وجل إن الذين امنوا والذين هادوا في سورة البقرة 25 - وقوله تعالى ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض ايه 17 قيل السجود ههنا الطاعة والانقياد ومعنى قوله تعالى وكثير حق عليه العذاب وكثير أبى 26 - ثم قال جل وعز ومن يهن الله فما له من مكرم ايه 18

قال الفراء وقد يقرأ فما له من مكرم أي إكرام 270 ثم قال جل وعز هذان خصمان اختصموا في ربهم ايه 19 قد ذكرنا فيمن نزلت هذه القصة في أول هذه السورة 28 - ثم قال جل وعز فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ايه 19 قيل هذا لأحد الخصمين وهي الفرقة الكافرة 29 - ثم قال جل وعز يصهر به ما في بطونهم ايه 20 قال مجاهد أي يذاب

قال أبو جعفر وحكى أهل اللغة صهرت الشحم أي أذبته والصهارة ما أذيب من الألية

30 - وقوله جل وعز إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ايه 25 خبر إن محذوف

والمعنى إن الذين كفروا هلكوا كما قال إن محلا وإن مرتحلا 31 - ثم قال جل وعز

والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ايه 25 وحكى أبو حاتم أن

بعضهم قرأ سواء بالنصب العاكف فيه والبادئ بالخفض والمعنى الذي جعلناه للناس

العاكف والبادي

قال مجاهد العاكف النازل والبادي الجائي وقال الحسن وعطاء العاكف من كان من أهل

مكة والبادي من كان من غير أهلها قال مجاهد أي هما في تعظمهما : وحرمتهما سواء وقال

عطاء أي ليس أحد أحق به من أحد وتأول عمر بن عبد العزيز الاية على أنه لا يكرى بيوت

مكة وروي عن عمر بن الخطاب أنه كان ينهي أن تغلق دور مكة في زمن الحج وأن الناس

كانوا ينزلون منها حيث وجدوه فارغا

(51/517)

وظاهر القران يدل على أن المراد المسجد كما قال جل

وعز وهم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام لأنهم كانوا يمنعون منه ويدعون أنهم

أربا به إنما ذكر المسجد ولم يذكر دور الناس ومنازلهم وقيل هما في إقامة المناسك سواء وقيل ليس لأحدهما فضل على صاحبه 32 - ثم قال جل وعز ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ايه 25 روى مرة عن عبد الله بن مسعود قال لو أن رجلا هم بخطيئة لم تكتب عليه ولو هم بقتل رجل بمكة وهو ب عدن أبين لعذبه الله جل وعز ثم قرأ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم

غير نذقه من عذاب أليم وروى هشيم عن الحجاج عن عطاء ومن يرد فيه بإلحاد قال من عبد غير الله جل وعز وقال مجاهد من عمل بسيئة وقال حبيب بن أبي ثابت هم المحتكرو أحمد الطعام بمكة وأبين ما قيل فيه أن معنى بإلحاد بظلم لكل معصية لأن الاية عامة قال أبو جعفر أصل الإلحاد في اللغة الميل عن القصد ومنه سمي اللحد ولو كان مستويا لقيل ضريح ومنه قوله سبحانه وذروا الذين يلحدون في أسمائه يقال لحد وألحد بمعنى واحد هذا قول أهل اللغة إلا الأحمر فإنه حكى أنه يقال

ألحد إذا جادل ولحد إذا عدل ومال

قال سعيد بن مسعدة الباء زائدة والمعنى ومن يرد فيه إلحاد بظلم وهذا عند أبي العباس خطأ لأنه لا يزاد شئ لغير معنى والقول عنده أن يريد ما يدل على الإرادة فالمعنى ومن إرادته بأن يلحد بظلم كما قال الشاعر * أريد لأنسى ذكرها فكأنما * تمثل لي ليلى بكل سبيل * وحكى الفراء عن بعض القراء ومن يرد فيه بإلحاد من الورود وهذا بعيد لأنه إنما

يقال وردته ولا يكاد يقال وردت فيه 33 - وقوله جل وعز وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ايه 26

(52/517)

يقال لم جئ ههنا باللام وقد قال في موضع اخر ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق فالفرق بينهما أن أهل التفسير قالوا المعنى جعلنا لإبراهيم مكان البيت مبوأ أي منزلا قال أبو جعفر ويبين لك معناه حديث حدثناه أبو عبيد القاضي عن الزعفراني قال حدثنا سعيد بن منصور قال حدثنا سفيان عن بشر بن عاصم عن سعيد بن المسيب قال سمعت كعب الأحبار يقول كان البيت غثاءة على الماء قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين سنة ومنه دحيت الأرض قال سعيد حدثنا علي بن أبي طالب أن إبراهيم نبي الله صلى الله عليه وسلم أقبل من أرمينية ومعه السكينة تدله على البيت حتى تبوأ البيت تبوأ كما تتبوأ العنكبوت بيتا فكان يحمل الحجر من الحجارة الحجر يطيقه أو لا يطيقه ثلاثون رجلا قال فقلت لسعيد يا أبا محمد إن الله جل وعز يقول وإذ يرفع إبراهيم

القواعد من البيت وإسماعيل قال إنما كان هذا بعد ذلك 34 - ثم قال جل وعز وطهر بيتي للطائفين والقائمين ايه 26 روى هشيم عن عبد الملك قال القائمون المصلون قال قتادة

والركع السجود أهل الصلاة 35 - ثم قال عز وجل وأذن في الناس بالحج ايه 28 وقرأ الحسن واذن في الناس بالحج مخففة ممدودة يقال اذنته بعد بالصلاة وبكذا أي أعلمته وأذنت على التكثير وقرأ ابن أبي إسحق بالحج بكسر الحاء في جميع القران قال مجاهد فقال إبراهيم صلى الله عليه وسلم يا رب كيف أقول قال قل يا أيها الناس أجيبوا ربكم وفوقرت يقول في قلب كل مؤمن فأجابوا

ب لبيك اللهم لبيك أي فأجاب من يحج

(53/517)

---

36 - ثم قال جل وعز يأتوك رجالا ايه 28 قال ابن عباس أي رجالة وقرأ مجاهد يأتوك رجالا وروى عن عكرمة يأتوك رجالا قال أبو جعفر يقال في جمع راجل خمسة أوجه راجل ورجال مثل راكب وركاب وهذا الذي روي عن عكرمة وراجل ورجال مثل قائم وقيام ويقال راجل ورجله ورجل ورجاله فهذه خمسة والذي روي عن مجاهد غير معروف والأشبه به أن يكون غير منون مثل كسالى وسكارى ولو نون لكان على فعال وفعال في الجميع قليل

37 ثم قال جل وعز وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق وقرأ أصحاب عبد الله يأتون

من كل فج عميق قال عطاء ومجاهد والضحاك من كل طريق بعيد قال أبو جعفر العمق في اللغة البعد ومنه بئر عميقة أي بعيدة القعر ومنه وقاتم الأعماق خاوي المخترق 38 - ثم قال جل وعز ليشهدوا منافع لهم روى عاصم عن أبي رزين عن ابن عباس قال الأسواق وروى سفيان عن جابر عن أبي جعفر ليشهدوا منافع لهم قال المغفرة

وقال عطاء ما يرضى الله من أمر الدنيا والآخرة

قال أبو جعفر قول جابر في هذا أحسن أي وأذن في الناس بالحج ليأتوا لعمل الحج الذي دعوا له وهو سبب للمغفرة وليس يأتون من كل فج عميق ولا وأذن فيهم ليتجروا الذي هذا بعيد جدا 39 - ثم قال جل وعز ويذكروا اسم الله في أيام معلومات في الأيام المعلومات اختلاف ولا نعلم في المعدودات اختلافا روى ابن ليلى عن المنهال بن عمرو عن زر بن حبيش عن علي بن أبي طالب قال الأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده إذبح في أيها شئت وأفضلها وأولها وهذا المعروف من قول ابن عمر وهو قول أهل المدينة وروى هشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال

الأيام المعلومات العشر يوم النحر منها والأيام المعدودات أيام التشريق إلى آخر النفر وقال بهذا القول عطاء ومجاهد وإبراهيم والضحاك وهو قول أهل الكوفة 40 – وقوله جل وعز فكلو منها وأطعموا البائس الفقير قال عطاء ومجاهد إن شئت فكل وإن شئت فلا تأكل قال أبو جعفر وهذا عند أهل اللغة على الإباحة كما قال

سبحانه وإذا حللتم فاصطادوا فإن قيل الإباحة لا تكون إلا بعد حظر فكيف يكون ههنا إباحة وليس في الكلام حظر فالجواب أنهم كانوا في الجاهلية يحظرون أكل لحوم الضحايا فأعلمهم الله جل وعز أن ذلك مباح لهم قال مجاهد البائس الذي إذا إذا سألك مد يده قال أبو جعفر البائس في اللغة الذي به البؤس وهو شدة الفقر 41 – وقوله جل وعز ثم ليقضوا تفثهم حدثنا أحمد بن محمد بن منصور الحاسب قال حدثنا الحكم بن موسى قال حدثنا عيسى بن يونس قال حدثنا عبد الملك بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس قال التفث الحلق والتقصير والرمي والذبح والأخذ من الشارب واللحية ونتف الإبط وقص الإظفار وكذلك هو عند جميع اهل التفسير أي الخروج من الإحرام إلى الحل لا يعرفه أهل اللغة إلا من التفسير 42 – وقوله جل وعز وليوفوا نذورهم قال مجاهد الحج والهدي وكل ما يلزم الإنسان من أمر الحج

قال أبو جعفر الذي قاله مجاهد معروف يقال لكل ما وجب على الإنسان نذر

فالمعنى وليوفوا ما وجب عليهم من أمر الحج 43 – ثم قال سبحانه وليطوفوا بالبيت

العتيق قال مجاهد والضحاك هو الطواف الواجب يوم النحر وروى روح بن عبادة عن صالح بن أبي الأخضر عن الزهري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنما سمي البيت العتيق لأن الله جل وعز أعتقه من الجبابرة فلم يغلب عليه جبار قط ورواه أبو داود الطيالسي عن صالح عن الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة غير مرفوع وقال الحسن سمي العتيق لقدمه

(55/517)

وحجته قوله تعالى إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة 44 - وقوله جل وعز ذلك من يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه قال مجاهد الحج والعمرة وقال عطاء المعاصي قال أبو جعفر القولان يرجعان إلى شئ واحد إلا أن حرمات الله جل وعز ما فرضه وأمر به ونهى عنه فلا ينبغي أن يتجاوز كأنه الذي يحرم تركه 45 - وقوله جل وعز وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم قيل الصيد للمحرم

وروى معمر عن قتادة قال الميتة وما لم يذكر اسم الله عليه وقال غيره هو ما يتلى في سورة المائدة من قوله جل وعز حرمت عليكم الميتة الدم ولحم الخنزير إلى قوله وما أكل السبع إلا ما ذكيتم قال أبو جعفر وقول قتادة جامع لهذا لأن هذه المحرمات أصناف الميتة 46 - ثم قال

تعالى فاجتنبوا الرجس من الأوثان الرجس النتن ومن ههنا لبيان الجنس أي الذي هو وثن

47 - ثم قال جل وعز واجتنبوا قول الزور قال عبد الله بن مسعود عدل الله عز وجل

شهادة الزور بالشرك ثم تلا هذه الآية وقال مجاهد الزور الكذب وقيل الشرك

والمعاني متقاربة وكل كذب زور وأعظم ذلك الشرك والذي يوجب حقيقة المعنى لا تحرموا

ما كان أهل الأوثان يحرمونه من قولهم ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على

أزواجنا ومن تحريم السائبة وما أشبه ذلك من الزور كما قال تعالى افتراء على الله 48 -

ثم قال جل وعز حنفاء لله غير مشركين به

قال مجاهد أي متبعين 49 - ثم قال جل وعز ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء

فتخطفه الطير أي هو في البعد من الحق كذي

(56/517)

يقال خطفه يخطفه واختطفه لأن يختطفه إذا أخذه بسرعة 50 - ثم قال جل وعز أو

تهوي به الريح في مكان سحيق قال مجاهد أي بعيد 51 - وقوله جل وعز ذلك من يعظم

شعائر الله قال مجاهد عن ابن عباس هو تسمين البدن وتعظيمها وتحسينها وقال غيره

شعائر الله رمي الجمار وما أشبه ذلك من مناسك الحج قال أبو جعفر وهذا لا يمتنع وهو

مذهب مالك بن أنس أن المنفعة بعرفة إلى أن يطلع الفجر من يوم النحر وفي المشعر الحرام إلى أن تطلع الشمس وفي رمي الجمار إلى انقضاء أيام منى وهذه كلها شعائر والمنفعة فيها إلى وقت معلوم ثم محلها كلها إلى البيت العتيق فإذا طاف الحاج بعد هذه المشاعر بالبيت العتيق فقد حل

وواحد الشعائر شعيرة لأنها أشعرت أي جعلت فيها علامة تدل على أنها هدي

ثم قال تعالى فإنها من تقوى القلوب أي فإن الفعلة 52 - وقوله جل وعز لكم فيها منافع إلى أجل مسمى قال أبو جعفر في هذا قولان غير قول مالك أحدهما أن عروة قال في البدن المقلدة يركبها ويشرب من ألبانها والثاني قال مجاهد هي البدن من قبل أن تقلد ينتفع بركوبها وأوبارها وألبانها وإذا صارت هديا لم يكن له أن يركبها إلا من ضرورة قال أبو جعفر وقول مجاهد عند قوم أولى لأن الأجل

المسمى عنده أن تجعل هديا وتقلد والأجل المسمى ليس موجودا في قول عروة وقد احتج من قال بقول عروة بقول النبي صلى الله عليه وسلم اركبها ويلك واحتج عليه بأنه لم يقل له وهل يحرم ركوب البدن ولعل ذلك من ضرورة ويبين هذا حديث ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم اركبوا الهدي بالمعروف حتى تجدوا ظهرا 53 - وقوله جل وعز ولكل أمة جعلنا منسكا روى سفيان عن أبيه عن عكرمة قال مذبحا

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول عيدا

قال أبو إسحاق المنسك موضع الذبح والمنسك المصدر

(57/517)

---

54 - ثم قال تعالى وبشر المخبتين روى سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال المخبتون المطمئنون بأمر الله جل وعز وقال عمرو بن أوس المخبتون الذين لا يظلمون وإذا ظلموا وقد لم ينتصروا قال أبو جعفر وأصل هذا من الخبت وهو ما اطمأن من الأرض 55 - وقوله جل وعز والبدن جعلناها لكم من شعائر الله

وقرأ ابن أبي إسحق والبدن والمعنى واحد قال مجاهد قيل لها بدن للبدانة قال أبو جعفر البدانة السمن يقال بدن إذا سمن وبدن إذا أسن فقيل لها بدن لأنه تسمن 56 - وقوله جل وعز لكم فيا خير قال إبراهيم يركب إذا احتاج ويشرب من اللبن وقيل خير في الآخرة وذا أولى لأنه لو كان للدنيا كان ألا يجعلها بدنة خيرا له 57 - وقوله جل وعز فاذكروا اسم الله عليها صواف وقرأ عبد الله بن مسعود صوافن

وقرأ الحسن وزيد بن أسلم والأعرج صوافي روى نافع عن ابن عمر فاذكروا اسم الله عليها صواف قال قياما مصفوفة وروى أبو ظبيان عن ابن عباس فاذكروا اسم الله عليها قال

بسم الله والله أكبر اللهم منك ولك قال وصوافن قائمة على ثلاث قال قتادة معقولة اليد اليمنى قال الحسن وزيد بن أسلم صوافي أي خالصة لله من الشرك قال أبو جعفر صواف جمع صافة وصافة مصفوفة ومصطفة علي بمعنى واحد وصوافن جمع صافنة يقال للقائم صافن ويستعمل لما قام على ثلاث

وصوافي جمع صاف وهو الخالص أي لا تذكروا عليها غير اسم الله جل وعز حتى تكون التسمية خالصة الله جل وعز 58 - ثم قال جل وعز فإذا وجبت جنوبها قال مجاهد أي خرت إلى الأرض 59 - ثم قال جل وعز فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر قال أبو جعفر أحسن ما قيل في هذا وهو الصحيح في اللغة أن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن قالوا القانع الذي يسأل والمعتر الذي يتعرض ولا يسأل وقال مالك بن أنس أحسن ما سمعت أن القانع هو الفقير وأن المعتر هو الزائر

(58/517)

وقال أبو جعفر يقال قنع الرجل يقنع قنوعا فهو قانع إذا سأل وأنشد أهل اللغة * لمال المرء يصلحه فيغني * مفاقرة حتى أعف من القنوع * وروي عن أبي رجاء أنه قرأ وأطعموا القنع ومعنى هذا مخالف للأول يقال قنع الرجل إذا رضي فهو قنع وروى عن الحسن أنه قرأ

والمعتري معناه كمعنى المعتر يقال اعتره واعتراه وعراه إذا تعرض لما عنده أو طلبه 60 –

وقوله جل وعز لن ينال الله لحومها ولا دماؤها

يروى عن ابن عباس أنهم كانوا في الجاهلية ينضحون بدماء البدن ما حول البيت فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فأنزل الله جل وعز هذه الآية قال إبراهيم في قوله ولكن يناله التقوى منكم قال التقوى ما أريد به وجه الله عز وجل

61 – وقوله جل وعز إن الله يدافع عن الذين آمنوا وعدهم جل وعز النصر ثم أخبرهم أنه لا يحب من ذكر غير اسمه على الذبيحة فقال إن الله لا يحب كل خوان كفور وخوان فعال من الخيانة

62 – ثم قال جل وعز أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا في الكلام حذف والمعنى أذن للذين يقاتلون أن يقاتلوا وروى الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير أنه قرأ أذن بفتح الهمزة يقاتلون بكسر التاء وقال هي أول آية نزلت في القتال لما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة 63 – وقوله جل وعز الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق روى علي بن الحكم عن الضحاك قال هو النبي صلى الله عليه وسلم ومن خرج معه من مكة

64 – ثم قال جل وعز إلا أن يقولوا ربنا الله هذا عند سيبويه استثناء ليس من الأول وقال غيره المعنى إلا بأن يقولوا ربنا الله على البدل 65 – ثم قال جل وعز ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا

حدثنا سعيد بن موسى ب (قرقيسياء) قال حدثنا مخلد بن مالك عن محمد بن سلمة عن خصيف قال أما الصوامع فصوامع تعالى الرهبان وأما البيع فكنائس النصارى

(59/517)

وأما الصلوات فكنائس اليهود وأما المساجد فمساجد فإن المسلمين قال أبو جعفر والمعنى على هذا لولا أن الله جل وعز يدفع بعض الناس ببعض لهدم في وقت كل نبي المصليات التي يصلي فيها وقيل يذكر فيها اسم الله كثيرا راجع إلى المساجد خاصة هذا قول قتادة فأما قوله وصلوات والصلوات لا تهدم ففيه ثلاثة أقوال قال الحسن هدمها تركها قال الأخفش هو على إضمار أي وتركت صلوات

وقال أبو حاتم هو إن شاء الله بمعنى موضع صلوت وروي عن عاصم الجحدري أنه قرأ وصلوب بالباء المعجمة من تحت وروي عنه أنه قرأ وصلوت بضم الصاد والتاء معجمة بنقطتين وقال هي للنصارى وروي عن الضحاك أنه قرأ وصلوث بالثاء عمر معجمة ولا أدري أفتح الصاد أم ضمها إلا أن الحسن قال وصلوات هم كنائس اليهود وهي بالعبرانية صلوثا

66 - وقوله جل وعز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة آية 41 قال

الحسن هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم

وقال ابن أبي نجيح هم الولاة قال أبو جعفر الذين بدل من من والمعنى ولينصرن الله الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة 67 - وقوله جل وعز فكأين قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها آية 45 قال أهل التفسير المعنى فكم وهي عند النحويين أي دخلت عليها كاف التشبيه فصار التقدير كالعدد الكثير والمعنى معنى كم 68 - وقوله جل وعز فهي خاوية على عروشها آية 45 وروي معمر عن قتادة قال خالية ليس فيها أحد قال أبو جعفر يقال خوت الدار تخوي خواء إذا خلت وخوى الرجل يخوي خوى إذا جاع والعروش السقوف 69 - ثم قال جل وعز وبئر معطلة

قال الضحاك أي لا أهل لها وقصر مشيد قال عكرمة أي مجصص قال ابن أبي نجيح أي بالقصة وهي الجص وروي علي بن الحكم عن الضحاك وقصر مشيد قال طويل

والقول الأول أولى لأنه يقال شاده يشيده إذا بناه بالشيد وهو الجص كما قال عدي بن زيد

* شاده مرمرا وجلله كلسا فللطين النبي في ذاره وإن وكور *

(60/517)

فأما إذا طوله ورفعه فإنما يقال فيه شيده وأشاده ومنه أشاد فلان بذكر فلان 70 - وقوله جل وعز فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وفي قراءة عبد الله فإنه لا تعمى والمعنى واحد قال أبو جعفر التذكير على الخبر والتأنيث على القصة قال قتادة البصر الناظر جعل بلغة ومنفعة والبصر النافع في القلب 71 - ثم قال جل وعز

ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون

روي إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال يوم من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض كألف سنة مما تعدون وروى شعبة عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال يوم من أيام الآخرة كألف سنة مما تعدون قال ويوم كان مقداره خمسين ألف سنة يوم القيامة

قال أبو جعفر والقول الثاني حسن جدا لأنه عليه يتصل بالكلام الأول لأنهم استعجلوا بالعذاب فقال ولن يخلف الله وعده أي في عذابهم وإن يوما من أيام عذابهم في الآخرة كألف سنة مما تعدون في الدنيا

فصار المعنى إن الله لن يخلف وعده في عذابهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة أشد قال أبو جعفر وفي معناه قول آخر بين وهو أنهم استعجلوا بالعذاب فأعلمهم الله جل وعز أنه لا يفوته شئ وإن يوما عنده وألف سنة واحد إذ كان ذلك غير فائته 72 - وقوله جل وعز والذين سعوا في آياتنا معاجزين آية 51 قال عبد الله بن الزبير إنما هي معجزين أي مثبطين عن

الإيمان قال ابن عباس معاجزين كما أي مشاقين قال الفراء معاندين وروى معمر عن قتادة في قوله تعالى معاجزين قال كذبوا بآيات الله عزوجل وظنوا أنهم يعجزون الله ولن يعجزوه قال أبو جعفر وهذا قول بين والمعنى عليه والذين سعوا في آياتنا ظانين أنهم يعجزوننا لأنهم لا يقرون ببعث ولا بجنة ولا نار أولئك أصحاب الجحيم 73 - وقوله جل عز وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي

(61/517)

إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته آية 52 قال بن أبي نجيح تمنى أي قال وقال أهل اللغة تمنى أي تلا والمعنى واحد 74 - ثم قال جل وعز فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته آية 52 روى الليث عن يونس عن الزهري قال أخبرني أبو بكر ابن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بمكة والنجم إذا هوى فلما بلغ إلى ى قوله تعالى أمرأيتم هو اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى سها فقال فإن شفاعتهم ترتجى فلقيه المشركون والذين في قلوبهم مرض فسلموا عليه

فقال إن ذلك من الشيطان فأنزل الله جل وعز وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته إلى آخر الآية قال قتادة قرأ النبي صلى الله عليه وسلم فاغفى

ونعس فقال أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فإنها ترتجى وإنها الغرانيق العلى فوقرت في قلوب المشركين فسجدوا معه أجمعون وأنزل الله

جل وعز وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في امنيته إلى آخر الآية 75 - وقوله جل وعز ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض آية 53

فتنة أي اختبار وامتحانا والله جل وعز يمتحن بما يشاء 76 - وقوله جل وعز وإن الظالمين لفي شقاق بعيد الشقاق أشد العداوة 77 - ثم أخبر تعالى أن هؤلاء لا يتوبون ولا يزالون في شك فقال جل وعز ولا يزال الذين كفروا في مرية منه أي في شك حتى تأتيهم الساعة بغتة أي فجأة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم آية 55 قيل هو يوم القيامة وأهل التفسير على أنه يوم بدر قال ذلك سعيد بن جبير وقتادة وقال قتادة وبلغني عن أبي بن كعب أنه قال أربع آيات نزلت في يوم بدر عذاب يوم عقيم يوم بدر

(62/517)

واللزام القتال في يوم بدر ويوم نبطش البطشة الكبرى يوم بدر ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر يوم بدر قال أبو جعفر أصل العقم في اللغة الامتناع ومنه قولهم امرأة عقيم

رجل عقيم إذا منعا الولد وريح عقيم لا يأتي بسحاب فيه مطر أي فيه العذاب

ويوم عقيم لا خير فيه لقوم فيوم القيامة ويوم بدر قد عقم فيهما الخير والفرح عن الكفار

78 – وقوله جل وعز ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به آية 60 والأول ليس بعقوبة

فسمي الأول باسم الثاني لأنهما من جنس واحد على الازدواج كما يسمى الثاني باسم

الأول 79 – وقوله جل وعز ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة آية

63 قال سيبويه سألت الخليل عن قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح

الأرض مخضرة فقال هذا واجب وهو تنبيه والمعنى انتبه أنزل الله من السماء ماء فكان

كذا وكذا وقال الفراء هو خبر

ويقرأ فتصبح الأرض مخضرة أي ذات خضر كما يقول مبقلة ومسبعة أي ذات بقل وسباع

80 – وقوله جل وعز ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه آية 65 والمعنى

كراهية أن تقع 81 – وقوله جل وعز فلا ينازعنك في الأمر آية 67

أي فلا يجادلنك ود على هذا وان جادلوك ويقال قد نازعوه فكيف قال فلا ينازعنك

فالجواب أي المعنى فلا تنازعهم ولا يجوز هذا إلا فيما لا يكون إلا من اثنين نحو المنازعة

والمخاصمة وما أشبهها ولو قلت لا يضربنك تريد لا تضربهم لم يجز ويقرأ فلا ينزعنك في

الأمر قرأ به أبو مجلز أي فلا يغلبنك وحكى أهل اللغة نازعني فنزعته 82 – وقوله جل وعز

يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا آية 72 قال محمد بن كعب أي يقعون بهم وقال

الضحاك أي يأخذونهم أخذا باليد وحكى أهل اللغة سطا به يسطو إذا بطش به كان ذلك بضرب أو بشتم 83 - وقوله جل وعز يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له آية 73

(63/517)

قال الأخفش إن قيل فأين المثل فالجواب أنه ليس ثم مثل والمعنى إن الله جل وعز قال ضربوا لي مثلا على قولهم وقال القتبي يا أيها الناس مثلكم مثل من عبد آلهة لم

تستطع أن تخلق ذبابا وسلبها الذباب شيئا فلم تستطع أن تستنقذه منه فذهب إلى أن في الكلام ما دل على المثل من قوله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له إلى آخر الآية ومذهب

الأخفش أن الكفار ضربوا لله جل وعز مثلا أي جعلوا لله مثلا بعبادتهم غيره كما يعبد هو جل وعز كما قال أين شركائي

والذباب عند أهل اللغة واحد وجمعه أذبة وذبان 84 - وقوله جل وعز ضعف الطالب والمطلوب آية 73 الطالب الآلهة والمطلوب الذباب 85 - ثم قال جل وعز ما قدروا الله حق قدره آية 74 أي ما عظموه حق عظمته ولما خبر بضعف ما يعبدون أخبر بقوته فقال جل وعز إن الله قوي عزيز 86 - وقوله جل وعز يا أيها الناس اركعوا واسجدوا آية 77 فلا يكون ركوع إلا بسجود ثم قال تعالى واعبدوا ربكم أي أخلصوا عبادتكم لله وحده

87 - ثم قال جل وعز وافعلوا الخير آية 77 أي كل ما أمر الله به ثم قال جل وعز لعلكم تفلحون أي لتكونوا على

رجاء من الفلاح 88 - ثم قال جل وعز وجاهدوا في الله حق جهاده آية 78 قيل هذا منسوخ وهو مثل قوله اتقوا الله حق تقاته نسخه فاتقوا الله ما استطعتم 89 - ثم قال جل وعز هو اجتباكم أي اختاركم ثم قال وما جعل عليكم في الدين من حرج آية 78 قال أبو هريرة الاصر الذي كان على بني إسرائيل وضع عنكم روى يونس عن الزهري قال سأل عبد الملك بن مروان علي

(64/517)

ابن عبد الله ابن عباس عن قوله تعالى وما جعل عليكم في الدين من حرج فقال هو الضيق جعل لكفارات الأيمان مخرجا سمعت ابن عباس يقول ذلك قال أبو جعفر أصل الحرج في اللغة أشد الضيق وقد قيل إن المعنى أنه جعل للمسافر الإفطار وقصر الصلاة ولمن لم يقدر أن يصلي قائما الصلاة قاعدا وإن لم يقدر أوما فلم يضيق جل وعز وروى معمر عن قتادة قال أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم يعطها إلا نبي أكان يقال للنبي اذهب فلا حرج عليك وقيل لهذه الأمة وما جعل عليكم في الدين من حرج ب والنبي صلى الله عليه وسلم شهيد على

أمته وقيل لهذه الأمة

وتكونوا شهداء على الناس

ج ويقال للنبي سل تعطه وقيل لهذه الأمة وقال ربكم ادعوني استجب لكم وقال كعب الأحبار نحو هذا وقال عكرمة أحل النساء مثنى وثلاث ورباع وروى عن ابن عباس جعل التوبة مقبولة 90 - وقوله جل وعز ملة أبيكم إبراهيم آية 78 أي وسع عليكم كما وسع عليه صلى الله عليه وسلم وقيل افعلوا الخير فعل أبيكم إبراهيم 91 - ثم قال تعالى هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا آية 78 روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال يقول الله جل وعز سماكم

قال مجاهد من قبل أي في الكتب والذكر قال أبو جعفر وفي هذا يعني القرآن 92 - ثم قال جل وعز ليكون الرسول شهيدا عليكم آية 78 قال سفيان أي بأعمالكم وتكونوا شهداء على الناس بأن الرسل قد بلغتهم 93 - وقوله جل وعز فنعم المولى أي الولي ونعم النصير أي الناصر كما يقول قدير وقادر ورحيم وراحم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 4 صـ 371. 437 ﴾

(65/517)

وقال الفراء :

ومن سورة الحج

قوله : تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ

[2] رفعت القراء (كُلُّ مُرْضِعَةٍ)

لأنّهم جعلوا الفعل لهما .

ولو قيل : تذهل كلّ مرضعة وأنت تريد الساعة أنها تذهل أهلها كان وجها . ولم أسمع «1» أحدا قرأ به والمرضعة : الأمّ . والمرضع : التي معها صبّى ترضعه . ولو قيل «2» فى الأمّ : مرضع لأنّ الرضاع لا يكون إلا من الإناث فيكون مثل قولك : طامث «3» وحائض . ولو قيل فى التي معها صبى : مرضعة كان صوابا .

وقوله : (وترى الناس سكرى وما هم بسكرى) اجتمع الناس والقراء على (سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى)

حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنى هشيم عن مغيرة عن إبراهيم عن عبد اللّه بن مسعود أنه قرأ «4» (وترى الناس سكرى وما هم بسكرى) وهو وجه

---

(1) قرأ به ابن أبى عبلة واليماني كما فى البحر 6/ 350 .

(2) الجواب محذوف أي جاز . وقوله : «لأن الرضاع لا يكون إلا من الإناث» دليل عليه .

(3) الطامث : الحائض .

(4) هى قراءة حمزة والكسائي وخلف ، وافقهم الأعمش . [. . . . .]

(66/517)

جيّد فى العربية : (لأنه بمنزلة الهلكى والجرحى ، وليس بمذهب النشوان والنّشاوى «1» . والعرب تذهب بفاعل وفعيل وفعل إذا كان صاحبه كالمريض أو الصريع أو الجريح فيجمعونه على الفعلى فجعلوا الفعلى علامة لجمع كل ذى زمانة وضرر وهلاك . ولا يبالون أكان واحده فاعلا أم «2» فعيلا أم «3» فعلان فاختير سكرى بطرح الألف من هول ذلك اليوم وفزعه . ولو قيل (سكرى) على أن الجمع يقع عليه «4» التأنيث فيكون كالواحدة كان وجها ، كما قال اللّه : (وَلِلَّهِ «5» الْأَسْماءُ الْحُسْنى) (والْقُرُونِ «6» الْأُولى) والناس . جماعة فجائز أن يقع ذلك عليهم . وقد قالت العرب : قد جاءتك الناس :

وأنشدنى بعضهم :

أضحت بنو عامر غضبى أنوفهم أتى عفوت فلا عار ولا بأس

فقال : غضبى للأنوف على ما فسّرت لك .

وقد ذكر أن بعض القراء قرأ (وَتَرَى النَّاسَ)

وهو وجه جيد يريد : مثل قولك رئيت «7» أنك قائم ورئيتك قائما فتجعل (سُكارى)

فى موضع نصب لأن (ترى) تحتاج إلى شيئين تنصبهما .

كما يحتاج الظنّ .

وقوله : كُتِبَ عَلَيْهِ [4] الهاء للشيطان المريد فى (عليه) وفى (أنّه يضلّه) ومعناه قضى

عليه أنه يضلّ من اتّبعه .

وقوله : مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ [5] يقول : تماما «8» وسقطا . ويجوز 119 ب مخلّقة وغير

مخلّقة على الحال :

---

(1) ا : «النشوي» .

(2) ش ، ب : «أو» .

(3) ش ، ب : «أو» .

(4) ش ، ب : «على» .

(5) الآية 180 سورة الأعراف .

(6) الآية 43 سورة القصص .

(7) كذا . وكأن الصواب : أريت . وكذا قوله بعد : «رئيتك قائما» كأن الصواب : أريتك

قائما .

(8) ضبط فى ا بكسر التاء وفيها الفتح أيضا . يقال ولد ته لتمام بالوجهين .

(67/517)

والحال تنصب فى معرفة الأسماء ونكرتها . كما تقول : هل من رجل يضرب مجرّدا . فهذا حال وليس بنعت .

وقوله : (لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ) استأنف (وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ) ولم يردها على (لنبيّن) ولو قرئت (ليبيّن) يريد اللّه ليبيّن لكم كان صوابا ولم أسمعها «1» .

وقوله : (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ) : إلى أسفل العمر (لِكَيْلا يَعْلَمَ) يقول لكيلا يعقل من بعد عقله الأوّل (شَيْئاً) .

قوله : (وَرَبَتْ) قرأ «2» القراء (وربت) من تربو . حدثنا أبو العبّاس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدّثنى أبو عبد اللّه التميمي عن أبى جعفر المدني أنه قرأ (اهتزّت وربأت) مهموزة فإن كان ذهب إلى الرّبيئة الذي يحرس القوم فهذا مذهب ، أي ارتفعت حتى صارت كالموضع للربيئة .

فإن لم يكن أراد (من «3» هذا) هذا فهو من غلط قد تغلطه العرب فتقول : حلأت «4»

السّويق ، ولبّأت «5» بالحجّ ، ورثأت «6» الميّت . وهو كما قرأ الحسن (ولأدرأتكم «7» به) يهمز . وهو ممّا يرفض من القراءة .

وقوله : ثانِيَ عِطْفِهِ [9] منصوب على : يجادل ثانيا عطفه : معرضا عن الذكر .

وقوله : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ [11] نزلت فى أعاريب من بنى أشد انتقلوا إلى المدينة بذراريّهم ، فامتنّوا بذلك على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقالوا : إنما يسلم الرجل (بعد «8» الرجل) من القبيلة . وقد أتيناك بذراريّنا . وكانوا إذا أعطوا من الصّدقة وسلمت مواشيهم وخيلهم قالوا : نعم الدين هذا . وإن لم يعطوا من الصّدقة ولم تسلم مواشيهم انقلبوا عن الإسلام . فذلك قوله

---

(1) هى قراءة ابن أبى عبلة كما فى البحر .

(2) ا : «قرأت»

(3) سقط في ا .

(4) أي حليت السويق وليست بالحج ورثيت الميت . والسويق طعام يتخذ من الحنطة والشعير .

(5) أي حليت السويق وليست بالحج ورثيت الميت . والسويق طعام يتخذ من الحنطة والشعير .

(6) أي حليت السويق وليست بالحج ورثيت الميت . والسويق طعام يتخذ من الحنطة

والشعير. [. . . . . .]

(7) الآية 16 سورة يونس

(8) سقط فى ا.

(68/517)

(يعبد اللّه على حرف فإن أصابه خير اطمأنّ به) يقول: أقام عليه (وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ) «1» ورجع.

وقوله: (خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ) غبنهما. وذكر عن حميد الأعرج وحده أنه قرأ (خاسر الدنيا والآخرة) وكلّ صواب: والمعنى واحد.

وقوله: يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ [12] يعنى الأصنام.

ثم قال: يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ [13] فجاء التفسير: يدعو من ضرّه أقرب من نفعه. وقد حالت اللام بينهما. وكذلك هى فى قراءة عبد اللّه (يدعو من ضرّه) ولم نجد العرب تقول ضربت لأخاك ولا رأيت لزيدا أفضل منك. وقد اجتمعت القراء على ذلك. فترى أن جواز ذلك لأن (من) حرف لا يتبيّن فيه الاعراب، فأجيز «2» ب: فاستجيز الاعتراض باللام دون الاسم إذ لم يتبيّن فيه الإعراب.

وذكر عن العرب أنهم قالوا : عندى لما غيره خير منه ، فحالوا باللام دون الرافع . وموقع اللام كان ينبغى أن يكون فى (ضرّه) وفى قولك «3» : عندى ما لغيره خير منه . فهذا وجه القراءة للاتّباع . وقد يكون قوله : (ذِلكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ يَدْعُوا) فتجعل (يَدْعُوا) من صلة (الضَّلالُ الْبَعِيدُ) وتضمر فى (يَدْعُوا) الهاء ، ثم تستأنف الكلام باللام ، فتقول لمن ضرّه أقرب من نفعه لبئس المولي) كقولك فى مذهب الجزاء لما فعلت لهو خير لك . وهو وجه قويّ فى العربيّة .

ووجه آخر لم يقرأ به . وذلك أن تكسر اللام فى (لمن) وتريد يدعو إلى من 120 ا ضرّه أقرب من نفعه ، فتكون اللام بمنزلة إلى ، كما قال (الْحَمْدُ «4» لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا) وإلى هذا وأنت قائل فى الكلام : دعوت إلى فلان ودعوت لفلان بمعنى واحد . ولولا كراهية خلاف الآثار والاجتماع

---

(1) سقط فى ا

(2) ا : «فاستجيز»

(3) ا : «قوله»

(4) الآية 43 سورة الأعراف

لكان وجها جيّدا من القراءة. ويكون «1» قوله (يَدْعُوا) التي بعد (الْبَعِيدُ) مكرورة على قوله (يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ) يدعو مكرّرة، كما تقول: يدعو يدعو دائبا، فهذا قوّه لمن نصب اللام ولم يوقع (يدعو) على (من) والضّلال البعيد الطويل.

وقوله: مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ [15] جزاء جوابه فى قوله (فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ) والهاء فى (قوله «2») (يَنْصُرَهُ اللَّهُ) للنبىّ صلّى اللّه عليه وسلم. أي من كان منكم يظنّ أن اللّه لن ينصر محمدا بالغلبة حتى يظهر دين اللّه فليجعل فى سماء بيته حبلا ثم ليختنق به «3» فذلك «4» قوله (ثُمَّ لْيَقْطَعْ) اختناقا وفى قراءة عبد اللّه (ثم ليقطعه) يعنى السّبب وهو الحبل: يقول (فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ) إذا فعل ذلك غيظه. و(ما يَغِيظُ) فى موضع نصب:

وقوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا [17] إلى قوله (وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) ثم قال (إِنَّ اللَّهَ) فجعل فى خبرهم (إنّ) وفى أوّل الكلام (إنّ) وأنت لا تقول فى الكلام: إن أخاك إنّه ذاهب، فجاز ذلك لأنّ المعنى كالجزاء، أي من كان مؤمنا أو على شىء من هذه الأديان ففصل بينهم وحسابهم على اللّه. وربما قالت العرب: إنّ أخاك إن الدّين عليه لكثير، فيجعلون (إنّ) فى خبره إذا كان إنما يرفع باسم مضاف إلى ذكره «5» كقول الشّاعر «6»:

إنّ الخليفة إن اللّه سربله سربال ملك به ترجى الخواتيم

ومن قال «7» هذا لم يقل : إنك إنك قائم ، ولا يقول : إنّ أباك إنه قائم لأن الأسمين قد اختلفا فحسن رفض الأول ، وجعل الثاني كأنه هو المبتدأ فحسن للاختلاف وقبح للاتّفاق .

---

(1) هذا الوجه غير ما قبله .

(2) ا : «أن لن ينصره» .

(3) سقط في ا .

(4) ش ، ب : «كذلك» .

(5) أي الضمير العائد عليه .

(6) هو جرير من قصيدة يمدح بها بنى مروان والرواية فى الديوان 431 (طبع بيروت) :

يكفى الخليفة أن اللّه سربله

(7) ا : «ذلك» .

(70/517)

وقوله : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ [18] يريد : أهل السموات (وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) يعنى كلّ خلق من الجبال ومن الجنّ وأشباه ذلك (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) من أهل الطاعة (وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ)

فيقال. كيف رفع الكثير وهو لم يسجد؟ فالجواب فى ذلك أنّ قوله (حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ) يدلّ على أنه: وكثير أبى السّجود، لأنه لا يحقّ عليه العذاب إلّا بترك «1» السجود والطاعة. فترفعه بما عاد من ذكره فى قوله (حَقَّ عَلَيْهِ) فتكون (حَقَّ عَلَيْهِ) بمنزلة أبى. ولو نصبت: وكثيرا حقّ العذاب كان وجها بمنزلة قوله (فَرِيقاً هَدى «2» وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ) ينصب «3» إذا كان فى الحرف واو وعاد ذكره بفعل قد وقع عليه. ويكون فيه الرفع لعودة ذكره كما قال اللّه (وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ) «4» وكما قال (وَأَمَّا ثَمُودُ «5» فَهَدَيْناهُمْ).

وقوله (وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ) يقول: ومن يشقه اللّه فما له من مسعد. وقد تقرأ «6» (فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ) يريد: من إكرام.

وقوله: هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ [19] فريقين «7» أهل دينين. فأحد الخصمين المسلمون، والآخر اليهود والنصارى.

وقوله (اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) فى دين ربّهم. فقال اليهود والنصارى للمسلمين: ديننا خير من دينكم لأنّا سبقناكم. فقال المسلمون: بل ديننا خير من دينكم. لأنّا آمنّا بنبيّنا والقرآن، وآمنّا بأنبيائكم وكتبكم، وكفرتم بنبيّنا وكتابنا. فعلاهم المسلمون بالحجّة وأنزل اللّه هذه الآية.

---

(1) ا: «بتركه». [. . . . .]

(2) الآية 30 سورة الأعراف.

(3) ا: «فينصب».

(4) الآية 224، سورة الشعراء.

(5) الآية 17 سورة فصلت.

(6) هى قراءة ابن أبى عبلة كما فى البحر 6/ 359.

(7) هو حال من الضمير فى «اختصموا».

(71/517)

وقوله: (اخْتَصَمُوا) ولم يقل: اختصما لأنهما جمعان ليسا برجلين، ولو قيل: اختصما كان صوابا. ومثله (وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) يذهب إلى الجمع. ولو قيل «1» اقتتلتا لجاز، يذهب إلى الطائفتين.

وقوله: يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ: [20] يذاب به. تقول: صهرت الشحم بالنار.

وقوله: وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ [21] ذكر أنهم يطمعون (فى الخروج) «2» من النار حتى إذا همّوا بذلك ضربت الخزنة رءوسهم بالمقامع «3» فتخسف رءوسهم فيصبّ فى أدمغتهم الحميم فيصهر شحوم بطونهم، فذلك قوله فى إبراهيم (وَيُسْقى «4» مِنْ ماءٍ

صَدِيدٍ) ممّا يذوب من بطونهم وجلودهم.

وقوله: (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ) يكره عليه.

وقوله: وَلُؤْلُؤاً [23] قرأ «5» أهل المدينة هذه والتي فى الملائكة «6» (وَلُؤْلُؤاً) بالألف «7» وقرأ الأعمش «8» كلتيهما بالخفض. ورأيتها فى مصاحف عبد اللّه والتي فى الحج خاصّة (ولؤلأ) (ولا تهجّأه). «9»

وذلك أن مصاحفه قد أجرى الهمز فيها بالألف فى كل حال إن كان ما قبلها مكسورا أو مفتوحا أو غير ذلك. والتي فى الملائكة كتبت فى مصاحفنا (ولؤلؤ) بغير ألف والتي فى الحج (وَلُؤْلُؤاً) بالألف فخفضهما ونصبهما جائز. ونصب التي فى الحج أمكن - لمكان الألف - من التي فى الملائكة.

وقوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [25] ردّ يفعلون «10» على فعلوا «11» لأن

---

(1) ا: «قال».

(2) ا: «بالخروج».

(3) سقط فى ا.

(4) الآيتان، 16، 17 من سورة إبراهيم.

(5) ش: «قرأها».

(6) أي سورة فاطر .

(7) وهى قراءة نافع وعاصم وأبى جعفر ، وقراءة يعقوب هنا .

(8) وهى قراءة غير من ذكر . [. . . . .]

(9) سقط فى ا . أي لا تراع فى النطق هجاء هذه الحروف فتقول : لو لا بالألف من غير همز .

(10) يريد بيفعلون المضارع ويفعلوا الماضي .

(11) يريد بيفعلون المضارع ويفعلوا الماضي .

(72/517)

معناهما كالواحد فى الذي «1» وغير الذي . ولو «2» قيل : إن الذين كفروا وصدّوا لم يكن فيها ما يسأل عنه . وردّك يفعلون على «3» فعلوا لأنك أردت إن الذين كفروا يصدّون بكفرهم .

وإدخالك الواو كقوله (وَلِيَرْضَوْهُ «4» وَلِيَقْتَرِفُوا) أضمرت فعلا «5» فى الواو مع الصدّ كما أضمرته ها هنا «6» . وإن شئت قلت : الصدّ منهم كالدائم فاختير لهم يفعلون كأنك قلت : إن الذين كفروا ومن شأنهم الصدّ . ومثله (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ «7» بِآيَاتِ اللَّهِ

وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ) وفى قراءة عبد اللّه (وقاتلوا الذين يأمرون «8» بالقسط) وقال (الَّذِينَ آمَنُوا «9» وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ) مثل ذلك. ومثله فى الأحزاب فى قراءة عبد اللّه (الذين «10» بلّغوا رسالات اللّه ويخشونه) فلا بأس أن تردّ فعل على يفعل كما قال (وقاتلوا الذين يأمرون)، وأن تردّ يفعل على فعل، كما قال (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ).

وقوله: (سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ) فالعاكف من كان من أهل مكّة. والباد من نزع إليه بحجّ أو عمرة. وقد اجتمع «11» القراء على رفع (سَوَاءً) هاهنا. وأما قوله 121 ا فى الشريعة «12»:

---

(1) ش: «الذين».

(2) ش: «فلو».

(3) ش، ب: «إلى».

(4) الآية 113 سورة الأنعام. والأولى أن يذكر صدر الآية: «ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه»:

(5) كأنه يريد أن التقدير: إن الذين كفروا يخالفون ويصدون «وهذا جواب غير السابق».

(6) أي فى قوله «وليرضوه» والأصل: «ليغروهم ولتصغى . . . وليرضوه».

(7) الآية 21 سورة آل عمران.

(8) والآية في قراءة الجمهور : «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ» .

(9) الآية 28 سورة الرعد .

(10) الآية 39 من سورة الأحزاب وقراءة الجمهور : «الذين يبلغون» .

(11) خالف فى هذا حفص فقرأه بالنصب . [. . . . .]

(12) ا : «الجاثية» وهما واحد .

(73/517)

(سَواءً مَحْياهُمْ «1» مَماتُهُمْ) فقد نصبها الأعمش وحده ، ورفعها سائر القراء . فمن نصب «2» أوقع عليه (جَعَلْناهُ) ومن رفع جعل الفعل واقعا على الهاء واللام التي فى الناس ، ثم استأنف فقال :

(سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ) ومن شأن العرب أن يستأنفوا بسواء إذا جاءت بعد حرف قد تمّ به الكلام فيقولون : مررت برجل سواء عنده الخير والشرّ . والخفض جائز . وإنما اختاروا الرفع لأن (سَواءً) فى مذهب واحد ، كأنك قلت : مررت على رجل واحد عنده الخير والشرّ . ومن خفض أراد : معتدل عنده الخير الشرّ . ولا يقولون : مررت على

رجل معتدل عنده الخير والشر لأنّ (معتدل) فعل مصرّح، وسواء فى مذهب مصدر.

فإخراجهم «3» إيّاه إلى الفعل كإخراجهم مررت برجل حسبك من رجل إلى الفعل.

وقوله: (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ) دخلت الباء فى (إلحاد) لأن تأويله: ومن يرد بأن يلحد فيه بظلم. ودخول الباء فى (أن) أسهل منه فى الإلحاد وما أشبهه لأن (أن) تضمر الخوافض معها كثيرا، وتكون كالشرط فاحتملت دخول الخافض وخروجه لأن الإعراب لا يتبيّن فيها، وقلّ فى المصادر لتبيّن الرفع والخفض فيها «4». أنشدنى أبو الجرّاح:

فلمّا رجت بالشّرب هزلها العصا شحيح له عند الإزاء نهيم «5»

(قال الفراء «6»: نهيم من الصّوت). وقال امرؤ القيس:

ألا هل أتاها والحوادث جمّة بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا «7»

---

(1) الآية 21 سورة الجاثية.

(2) أي سواء هنا، وقد علمت أنه حفص.

(3) ا: «وإخراجهم».

(4) سقط فى ا.

(5) الإزاء: مصب الحوض. والنهيم: صوت توعد وزجر.

(6) سقط فى ا.

(7) بيقر: هاجر من أرض إلى أرض، وبيقر: خرج إلى حيث لا بدري، وبيقر: نزل

الحضر وأقام هناك وترك قومه بالبادية وخص بعضهم به العراق وكلام امرئ القيس يحتمل جميع ذلك كما فى اللسان .

(74/517)

فأدخل الباء على (أنّ) وهى فى موضع رفع كما أدخلها على (بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ) وهو فى موضع نصب . وقد أدخلوها على (ما) إذا أرادوا بها المصدر ، يعنى الباء . وقال قيس بن زهير :

ألم يأتيك والأنباء تنمى بما لاقت لبون بنى زياد «1»

وهو فى (ما) أقل منه فى (أن) لأنّ (أن) أفل شبها بالأسماء من (ما) . وسمعت أعرابيّا من ربيعة وسألته عن شىء فقال : أرجو بذاك ، يريد : أرجو ذاك . وقد قرأ بعض القراء (ومن ترد فيه بإلحاد) من الورود ، كأنه أراد : من ورده أو تورّده . ولست أشتهيها ، لأنّ (وردت) يطلب الاسم ، ألّا ترى أنك تقول : وردنا مكّة ولا تقول : وردنا فى مكّة . وهو جائز تريد النزول «2» . وقد تجوز فى لغة الطائيّين لأنهم يقولون : رغبت «3» فيك ، يريدون : رغبت بك .

وأنشدنى بعضهم فى بنت له :

وأرغب فيها عن لقيط ورهطه ولكننى عن سنبس لست أرغب «4»

(يعنى «5» بنته) .

وقوله : وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ [26] ولم يقل : بوّأنا إبراهيم . ولو كان بمنزلة قوله (وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي «6» إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ) فإن شئت أنزلت (بَوَّأْنا) بمنزلة جعلنا . وكذلك سمعت فى التفسير .

وإن شئت كان بمنزلة قوله (قُلْ عَسى «7» أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ) معناه : ردفكم . وكلّ صواب .

---

(1) سبق البيت .

(2) ش ، ب : «أردنا النزول» .

(3) أي يقولون : رغبت فيك عن فلان أي رغبت بك عنه أي رأيت لك فضلا على فلان فزهدت فى فلان ولم أرده .

(4) سنبس أبو حي من طيئ .

(5) سقط فى ا كما سقط فى ش ، ب : «فى بنت لم» .

(6) الآية 93 سورة يونس . [. . . . .]

(7) الآية 72 سورة النمل .

وقوله : يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ [27] (يأتين) فعل النوق وقد / 121 ب قرئت (يأتون) يذهب إلى الركبان . ولو قال : وعلى كل ضامر تأتى تجعله فعلا موحّدا لأن (كلّ) أضيفت «1» إلى واحدة ، وقليل فى كلام العرب أن يقولوا : مررت على كل رجل قائمين وهو صواب . وأشدّ منه فى الجواز قوله (فَما مِنْكُمْ مِنْ «2» أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ) وإنما جاز الجمع فى أحد ، وفى كلّ رجل لأن تأويلهما قد يكون فى النية موحّدا وجمعا . فإذا كان (أحدا) وكل متفرقة من اثنين لم يجز إلّا توحيد فعلهما من ذلك أن تقول : كلّ رجل منكما قائم . وخطأ أن تقول قائمون أو قائمان لأن المعنى قد ردّه إلى الواحد . وكذلك ما منكما أحد قائمون أو قائمان ، خطأ لتلك «3» العلة .

وقوله : ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ [29] (اللام ساكنة) «4» (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا) اللامات سواكن . سكّنهن أهل المدينة وعاصم والأعمش ، وكسرهن أبو عبد الرحمن السلمى والحسن فى الواو وغير الواو . وتسكينهم إيّاها تخفيف كما تقول : وهو قال ذلك ، وهي قالت ذاك ، تسكّن الهاء إذا وصلت بالواو . وكذلك ما كان من لام أمر وصلت بواو أو فاء ، فأكثر كلام العرب تسكينها . وقد كسر بعضهم (ثُمَّ لِيَقْضُوا) وذلك لأنّ الوقوف على (ثمّ)

يحسن ولا يحسن فى الفاء ولا الواو : وهو وجه ، إلّا أن أكثر القراءة على تسكين اللام فى ثمّ

:

وأمّا التّفث فنحر البدن وغيرها من البقر والغنم وحلق الرأس ، وتقليم الأظافر «5»

وأشباهه .

وقوله : وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ [30] فى سورة المائدة . من المنخنقة

والموقوذة والمتردّية والنطيحة إلى آخر الآية .

---

(1) ا : «أضيف» .

(2) الآية 47 سورة الحاقة .

(3) ا : «بتلك» .

(4) سقط فى ا .

(5) فى الطبري أن هذه قراءة أبى عمرو .

(76/517)

وقوله : فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ [31] ممّا ردّ من يفعل على فعل . ولو نصبتها فقلت «1» :

فتخطفه الطير كان وجها . والعرب قد تجيب بكأنّما . وذلك أنها فى مذهب يخيّل إلىّ

وأظنّ فكأنها مردودة على تأويل (أنّ) ألا ترى أنك تقول : يخيّل إلىّ أن تذهب فأذهب معك . وإن شئت جعلت فى (كأنما) تأويل جحد كأنك قلت : كأنك عربىّ فتكرم ، والتأويل : لست بعربىّ فتكرم :

وقوله : فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ [32] يريد : فإن الفعلة كما قال (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «2») ومن بعده جائز . ولو قيل : فإنه من تقوى القلوب كان جائزا .

وقوله : لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى [33] يعنى البدن . يقول : لكم أن تنتفعوا بألبانها وركوبها إلى أن تسمّى «3» أو تشعر «4» فذلك الأجل المسمّي .

وقوله : (ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) ما كان من هدى للعمرة أو للنذر «5» فإذا بلغ البيت نحر . وما كان للحجّ نحر بمنى . جعل ذلك بمنى لتطهر مكّة .

وقوله : (الْعَتِيقِ) أعتق من الجبابرة . حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال : حدّثنى حبّان عن الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عبّاس قال : العتيق : أعتق من الجبابرة .

ويقال : من الغرق زمن نوح .

وقوله : وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ [35] خفضت (الصَّلَاةِ) لمّا حذفت النون وهى فى قراءة عبد اللّه (والمقيمين الصلاة) ولو نصبت (الصلاة) وقد حذفت النون كان «6» صوابا .

أنشدنى بعضهم :

---

(1) فى الطبري أن هذه قراءة أبى عمرو .

(2) الآية 153 سورة الأعراف .

(3) أي تعين للهدى .

(4) أي يحز سنامها حتى يسيل منه الدم فيعلم أنها شعيرة .

(5) ش : «لنذر» .

(6) ا : «لكان» .

أسيّد ذو خريّطة نهارا من المتلقّطى قرد القمام «1»

(وقرد «2»

) وإنما 122 ا جاز النصب مع حذف النون لأن العرب لا تقول فى الواحد إلّا بالنصب . فيقولون : هو الآخذ حقّه فينصبون «3» الحقّ ، لا يقولون إلّا ذلك والنون مفقودة ، فبنوا الاثنين والجميع على الواحد ، فنصبوا بحذف النون . والوجه فى الاثنين والجمع الخفض لأن نونهما قد تظهر إذا شئت ، وتحذف إذا شئت ، وهى فى الواحد لا تظهر . فلذلك نصبوا . ولو خفض فى الواحد لجاز ذلك . ولم أسمعه إلا فى قولهم : هو الضارب الرجل ،

فإنهم يخفضون الرجل وينصبونه فمن خفضه شبّهه بمذهب قولهم : مررت بالحسن الوجه فإذا أضافوه «4» إلى مكنىّ قالوا : أنت الضاربه وأنتما الضارباه ، وأنتم الضاربوه . والهاء فى القضاء عليها خفض فى الواحد والاثنين والجمع . ولو نويت بها النصب كان وجها ، وذلك أنّ المكنى لا يتبيّن فيه الإعراب . فاغتنموا الإضافة لأنها تتّصل بالمخفوض أشدّ ممّا تتصل بالمنصوب ، فأخذوا بأقوى الوجهين فى الاتّصال . وكان ينبغى لمن نصب أن يقول : هو الضارب إيّاه ، ولم أسمع ذلك .

وقوله : صَوافَّ [36] : معقولة وهى فى قراءة عبد اللّه (صوافن) وهى القائمات . وقرأ الحسن (صوافى) يقول : خوالص للّه .

وقوله : (الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) القانع : الذي يسألك (فما أعطيته من شىء «5») قبله . والمعترّ : ساكت يتعرّض لك عند الذبيحة ، ولا يسألك .

---

(1) من قصيدة للفرزدق يمدح فيها هشام بن عبد الملك . وقبله :

سيبلغهن وحي القول عنى ويدخل رأسه تحت القرام

فقوله : «أسيد» فاعل «سيبلغهن» وهو تصغير أسود ويريد الرسول بينه وبين حبائبه وعنى به امرأة فقوله : أسيد أي شخص أسود . والخريطة : وعاء من أدم أو غيره يشد على ما فيه . والقرد : ما نلبد من الوبر والصوف . والقمام الكناسة وانظر اللسان (قرد) والديوان . 835

(2) سقط فى ا . يريد أنه روى بنصب (قرد) وكسره . [. . . . .]

(3) ا : «ينصبون» .

(4) ش : «أضافوا» .

(5) ا «فإذا أعطيته شيئا» .

(78/517)

وقوله : لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها [37] اجتمعوا على الياء . ولو قيل (تنال) كان صوابا . ومعنى ذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروها نضحوا الدماء حول البيت . فلمّا حجّ المسلمون أرادوا مثل ذلك فأنزل اللّه عز وجل لن ينال اللّه لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم :

الإخلاص إليه .

وقوله : إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ [38] و(يدفع «1») وأكثر القراء على (يُدافِعُ) وبه أقرأ . وقرأ أبو عبد الرحمن السّلمى (يدافع) ، (ولولا دفاع اللّه) وكلّ صواب .

وقوله : أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ [39] (يُقاتَلُونَ «2») ومعناه : أذن اللّه للذين يقاتلون أن يقاتلوا . هذا إذا أنزلت (فَاقْتُلُوا»

الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) وقرئت (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) والمعنى أذن لهم أن يقاتلوا وكلّ صواب.

وقوله: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ [40] يقول لم يخرجوا إلّا بقولهم: لا إله إلا اللّه. فإن شئت جعلت قوله: (إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) فى موضع خفض تردّه على الباء فى (بِغَيْرِ حَقٍّ) وإن شئت جعلت (أن) مستثناة كما قال (إِلَّا ابْتِغاءَ «4» وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى).

وقوله: لهدّمت صوامع وبيع وهى مصلّى النصارى والصوامع للرهبان وأما الصلوات فهى كنائس اليهود والمساجد (مساجد «5» الإسلام) ومعنى التهديم أن اللّه قال قبل ذلك (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ) يدفع بأمره وأتباعه عن دين كل نبىّ إلى أن بعث اللّه محمّدا صلّى اللّه عليه وسلم.

---

(1) هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو وعاصم وأبى جعفر ويعقوب. ووافقهم ابن محيصن واليزيدي. والباقون قرءوا: «يدافع».

(2) فتح التاء لنافع وابن عامر وحفص وأبى جعفر وكسرها للباقين. أما (أذن) فقد ضم الهمزة نافع وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر ويعقوب، وفى رواية عن خلف، وفتحها الباقون.

(3) الآية 5 من سورة التوبة.

(4) الآية 20 سورة الليل.

(5) ا: «مساجدنا».

(79/517)

وقوله: فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ [45] البئر والقصر يخفضان على العطف على العروش وإذا نظرت فى معناها وجدتها ليست تحسن فيها «1» (على) لأن العروش أعالى البيوت، والبئر فى الأرض وكذلك القصر، لأن القرية لم تخو على القصر. ولكنه أتبع «2» بعضه بعضا، كما قال (وَحُورٌ «3» عِينٌ كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ) ولو «4» خفضت البئر 122 ب والقصر - إذا نويت أنهما ليسا من القرية - بمن كأنك قلت: كم من قرية أهلكت، وكم من بئر ومن قصر. والأول أحبّ إلىّ.

وقوله: وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ [47]. ويقال يوم من أيّام عذابهم فى الآخرة كألف سنة ممّا تعدون فى الدنيا.

وقوله: فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ [46] الهاء (هاء عماد «5») توفّى «6» (بها) إنّ. يجوز مكانها (إنّه) وكذلك هى قراءة عبد اللّه (فانه لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصّدور) والقلب لا يكون إلا فى الصدر، وهو توكيد ممّا تزيده العرب على المعنى المعلوم

كما «7» قيل (فَصِيامُ «8» ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ) والثلاثة والسّبعة معلوم أنهما عشرة. ومثل ذلك نظرت إليك بعيني. ومثله قول اللّه (يَقُولُونَ «9» بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) وفى قراءة «10» عبد اللّه (إِنَّ «11» هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ أُنْثى) فهذا أيضا من التوكيد وإن

---

(1) فى الطبري: «فيهما».

(2) أي اتباعا فى اللفظ من غير أن يكون اتباعا فى المعنى كما فى قول الشاعر:

علفتها تبنا وماء باردا

ويخرج النحويون هذا على إضمار عامل مناسب للمعطوف.

(3) الآيتان 22، 23 سورة الواقعة. وهو يريد قراءة خفض (حور) عطفا على قوله. «بأكواب وأباريق» فهذا عطف فى اللفظ لا فى المعنى لأن المعنى أن يطاف عليهم بالأكواب وبالحور، وهذا لا يليق بالحور.

(4) جواب الشرط محذوف أي لجاز.

(5) ش، ب: «الهاء عماد».

(6) أي تكف عن أن تطلب غيرها. وهى عند البصريين ضمير الشأن. [.....]

(7) ا: «كما».

(8) الآية 196 سورة البقرة.

(9) الآية 167 سورة آل عمران.

(10) ا: «حرف».

(11) الآية 23 سورة ص. وقراءة الجمهور: «نعجة واحدة» وقراءة (أنثى) من الشواذ المخالفة لرسم المصحف.

(80/517)

قال قائل. كيف انصرف من العذاب إلى أن قال: (وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ) فالجواب في ذلك أنهم استعجلوا العذاب فى الدنيا فأنزل اللّه على نبيّه (وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) أي فى أن ينزل بهم العذاب فى الدنيا. فقوله (وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ) من عذابهم أيضا. فهو متّفق: أنهم يعذّبون فى الدنيا والآخرة أشدّ.

وقوله: مُعاجِزِينَ [51] قراءة العوامّ (معاجزين) ومعنى معاجزين معاندين ودخول (فى) كما تقول: سعيت فى أمرك وأنت تريد: أردت بك خيرا أو شرا. وقرأ مجاهد «1» وعبد اللّه بن الزبير (معجّزين) يقول: مثبّطين.

وقوله: وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا [52] فالرسول النبىّ المرسل، والنبي: المحدّث «2» الذي لم يرسل.

وقوله (إِلَّا إِذا تَمَنَّى) التمنّى : التلاوة ، وحديث النفس أيضا .

وقوله : فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً [63] رفعت (فَتُصْبِحُ) لأنّ المعنى فى (أَلَمْ تَرَ) معناه خبر كأنك قلت فى الكلام : اعلم أنّ اللّه ينزل من السّماء ماء فتصبح الأرض . وهو مثل قول الشاعر «3» :

ألم تسأل الربع القديم فينطق فهل تخبرنك اليوم بيداء سملق

أي قد سألته فنطق . ولو جعلته استفهاما وجعلت الفاء شرطا لنصبت : كما قال الآخر :

ألم تسأل فتخبرك الديارا عن الحىّ المضلّل حيث سارا «4»

والجزم فى هذا البيت جائز كما قال :

فقلت له صوّب ولا تجهدنّه فيذرك من أخرى العطاة فتزلق «5»

---

(1) هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو .

(2) المحدث . الملهم الذي يلقى فى نفسه الشيء فيخبر به .

(3) هو جميل وفى ا : «وهل يخبرنك» . والسملق القاع الأملس لا شجر فيه .

(4) ا : «حيث صارا» .

(5) سبق فيما سبق .

فجعل الجواب بالفاء كالمنسوق على ما قبله .

وقوله (مَنْسَكاً) «1» و(منسكا) [67] قد قرئ بهما «2» جميعا . والمنسك لأهل الحجاز والمنسك لبنى أسد ، والمنسك فى كلام العرب : الموضع الذي تعتاده وتألفه ويقال : إن لفلان منسكا يعتاده فى خير كان أو غيره . والمناسك بذلك «3» سميت - والله أعلم - لترداد الناس عليها بالحجّ والعمرة .

وقوله : يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا [72] يعنى مشركى أهل مكّة ، كانوا إذا سمعوا الرجل 213 ا من المسلمين يتلو القرآن كادوا يبطشون به .

وقوله (النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ) ترفعها لأنها معرفة فسّرت الشرّ وهو نكرة . كما تقول : مررت برجلين أبوك وأخوك . ولو نصبتها بما عاد من ذكرها ونويت بها الاتّصال بما قبلها كان وجها . ولو خفضتها على الباء «4» (فأنبئكم) «5» بشرّ من ذلكم بالنار كان صوابا . والوجه الرفع .

وقوله : الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ [73] الطالب الآلهة والمطلوب الذباب . وفيه معنى المثل .

وقوله : ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ [74] أي ما عظّموا اللّه حقّ تعظيمه . وهو كما تقول فى الكلام : ما عرفت لفلان قدره أي «6» عظمته وقصّر به «7» صاحبه .

وقوله : اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا [75] اصطفى منهم جبريل وميكائيل وملك الموت

وأشباههم. ويصطفى من الناس الأنبياء.

---

(1) ا: «المنسك والمنسك».

(2) الكسر لحمزة والكسائي وخلف ووافقهم الأعمش. والفتح للباقين.

(3). 2: «لذلك».

(4) يريد أن تكون بدلا من شر. [.....]

(5) ا: «أنبئكم».

(6) ب: «إذا».

(7) كأن هذه جملة حالية أي وقد قصر به صاحبه وفى ش، ب: «صاحبك».

(82/517)

وقوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا [77] كان الناس يسجدون بلا ركوع، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع قبل السجود.

وقوله: فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ [78] من ضيق.

وقوله: (مِلَّةَ أَبِيكُمْ) نصبتها على: وسّع عليكم كملّة أبيكم إبراهيم لأن قوله (وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) يقول: وسّعه وسمّحه كملّة إبراهيم، فإذا ألقيت الكاف

نصبت . وقد تنصب (ملة إبراهيم) على الأمر بها لأن أول الكلام أمر كأنّه قال : اركعوا والزموا ملّة إبراهيم .

وقوله : (مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا) يعنى القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 231.214 ﴾

(83/517)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الحج

(كل مرضعة) [2] إذا أريد فعل الإرضاع فهي مرضعة ، وإذا أريدت الصفة فمرضع ، مثل: شاة مقرب ، وامرأة طالق . (كتب عليه) [4] على الشيطان . (أنه من تولاه) اتبعه . (فأنه) فأن الشيطان (يضله) . (مخلقة) [5]

مخلوقة تامة التصوير . (لنبين لكم) [5] أي: بدء خلقكم وترتيب إنشائكم . (ثم نخرجكم طفلاً) [5] الطفل اسم الجنس ، يتناول الواحد والكثير . (هامدة) غبراء يابسة . قال الأعشى: 790- قالت قتيلة ما لجسمك شاحباً وأرى [ثيابك] باليات همدا .

(اهتزت) استبشرت وتحركت بنباتها . (وربت) انتفخت . وقيل: تضاعفت . وقيل:

ارتفعت/وطالت . كما قال الفرزدق: 791 - لجارية بين السليل عروقها وبين أبي الصهباء من آل خالد 792 - أحق بإغلاء المهور من التي ربت وهي [تنزو] في حجور الولائد . (من كل زوج)

من كل نوع . وقيل: لون . (بهيج) يبهج [من رآه] . (ثاني عطفه) [9] لاوي عنقه ، ومعناه التكبر . كما قال الشماخ: 793 - نبئت أن ربيعاً أن رعى إبلاً يهدي إلى خناه ثاني الجيد 794 - فإن كرهت هجائي فاجتنب سخطي لا يعلقنك إفراعي وتصعيد .

(ليس بظالم) [10] إنما جاء على بناء المبالغة ، وهو لا يظلم مثقال ذرة ، لأن أقل قليل الظلم منه مع علمه بقبحه واستغنائه عنه كأكثر الكثير منا . سبب النزول: أنهم لم يعرفوا وجوه [الثواب] ، وأقدار الأعراض في الآخرة ، ولا ما في الدنيا من ائتلاف المصالح باختلاف الأحوال ، فعدوا شدائد الدنيا وضنك معيشة البعض ظلماً . (على حرف) [11] شك . وقيل: على ضعف [ر]أي في العبادة ، مثل [ضعف] القائم على حرف . وما يلي الآية أحسن تفسير للعبادة على حرف . (يدعوا لمن ضره) [13]

تقديره: تأخير "يدعو" ليصح موضع اللام ، [أي] لمن ضره أقرب من نفعه يدعو . قال:

795- خالي لأنت ومن جرير خاله ينل العلاء ويكرم الأخوالا . أي: لأنت خالي فأخر لام الابتداء . وقيل: إن "يدعو" موصول بقوله: (هو الضلال البعيد) ، يدعو[ه] ، [و] (لمن ضره) مبتدأ ، وخبره: (لبئس المولى) . (أن لن ينصره الله) [15] أي: محمداً ، فليتسبب أن يقطع عنه النصر من السماء .

وقيل: هذا كما يقال للحاسد المغيظ: اختنق . وقال أبو عبيدة: إن النصر المطر ، من قولهم: "أرض منصورة"/وسياق الآية ، وقوله: (في الدنيا والآخرة) يمنع من هذا القول . (وكذلك أنزلناه) [16] أي: هذا الأسلوب الواضح ، والنظم المعجز ، أو كما بينا لكم الآيات في خلقكم ، وأحيينا الأرض لأرزاقكم ، فكذلك هدينا كم بما أنزلناه . (إن الذين ءامنوا) [17] خبره . (إن الله يفصل بينكم) . قال: 796- إن الخليفة إن الله سربله سربال مجد به [ترجى] الخواتيم . (هذان خصمان) [19]

أهل القرآن وأهل الكتاب . وعن أبي ذر: أنها نزلت في مبارزي بدر . (قطعت لهم ثياب من نار) أي: تحيط بهم النار ، إحاطة الثياب . (يصهر) [20] يذاب . وقيل: ينضج . (كلما أرادوا أن يخرجوا) [22]

قيل: إن النار ترميهم إلى أعلاها حتى [يكادوا] يخرجوا منها فيقمعهم الزبانية بالمقامع إلى قعرها . (إن الذين كفروا ويصدون) [25] عطف المستقبل على الماضي ، لأنه تقدير:

"وهم يصدون" ، بمعنى من شأنهم الصد ، كقوله: (الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم) . (سواء العاكف فيه) [25] "سواء" رفع بالابتداء ، والعاكف خبره . قال الشيخ عبد الحميد – رحمة الله عليه– إنما صلح مع تنكيره الابتداء ، لأنه كالجنس في إفادته العموم ، الذي هو أخو العهد ، فكان في معنى المعرفة .

(85/517)

ويجوز أن يكون "سواء" خبراً مقدماً على المبتدأ وهو العاكف ، أي: العاكف والبادي فيه سواء . والعاكف: المقيم . والبادي: الطارئ . ولهذه الآية لم يجوز بيع دور مكة . (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم) [25] أي: ومن يرد صداً ، (بإلحاد) ميل عن الحق ، ثم فسر الإلحاد (بظلم) ، إذ يكون إلحاد وميل بغير ظلم ، [فلذلك] تكررت الباء . (وإذ بوأنا) [26] قررنا . وقيل: عرفنا .

قال السدي: /كان ذلك ريح هفافة كنست مكان البيت ، يقال [لها]: [الخجوج] . وقيل: سحابة بيضاء أظلت على مقدار البيت . (رجالاً) [27] جمع [الراجل] . (يأتين) ذهب به إلى معنى الركاب ، أو قوله: (كل ضامر) [تضمن]

معنى الجماعة . والفج: الطريق بين الجبلين . والعميق: [البعيد] . (أيام معلومات) [28]

أيام العشر عن ابن عباس . والنحر ويومان بعده ، عن ابن عمر . (ثم ليقضوا تفثهم) [29] حاجتهم من مناسك الحج عن مجاهد .

وحقيقته: قشف الإحرام ، لأن التفث في اللغة: الوسخ ، وقضاؤه: بالتنظف بعده ، من الأخذ [من] الأشعار وتقليم الأظفار . (بالبيت العتيق) من الطوفان . وقيل: من استيلاء الجبابرة .

وإنما أسكنت (ثم ليقضوا) (وليوفوا) ، لأن حروف العطف كأنها من نفس ما دخلت عليه ، فاستثقل توالي الحركات في كلمة ، كما سكن بعد [ألف] الوصل في قولك: ثم امرؤ وامرؤ . (الرجس من الأوثان) [30] من [لتبيين] الجنس لا التبعيض . (ومن يشرك بالله) [31] شبه انقطاع عصمه وذممه كلها بحال من خر من السماء فمزقته الطيور ، وهوت به الرياح . (ومن [يعظم] شعائر الله) [32] مناسك الحج .

وقيل: يعظم البدن المشعرة ، أي: يسمنها ويكبرها . (إلى أجل مسمى) [33] إلى أن يقلد . وقيل: ينحر . (ولكل أمة جعلنا منسكاً) [34] عيداً وذبائح . وقيل: حجاً . (وبشر المخبتين) [34] المطمئنين بذكر الله . و(الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) [35]

الوجل: إنما يكون عند خوف الزيغ ، والذهاب عن أداء حقوقه . والطمأنينة: تكون عن أصح اليقين ، وشرح/الصدر بمعرفته: وكل واحدة من الحالين غير الأخرى ، فلذلك حسن الجمع بينهما ، مع تضادهما في الظاهر ، ومثله قوله تعالى: (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) . (والبدن) [36] الإبل المبدنة بالسمن ، بدنت الناقة سمنتها . ثم قيل: لكل إبل وبقر: بدنة . (من شعائر الله) [36] معالم دينه . (صواف) مصطفة [معقولة] . (وجبت)

سقطت . قال الشماخ: 797 – حلفت يميناً بالذي وجبت له جنوب المطايا والجباه [السواجد] . (وأطعموا القانع والمعتر) القانع: الذي ينتظر الهدية ولا يسألها . والمعتر: الذي يأتيك سائلاً ، كما قيل: 798 – سلي الطارق المعتريا أم مالك إذا ما اعترى لي بين قدري ومجزر 799 – أأبدل بشري إنه أول القرى وأجعل معروفي له دون منكري

وقيل: على العكس من ذلك ، وأن القانع من القنوع ، والقنوع السؤال ، والقناعة: الرضى . قال الشماخ: 800 – لمآل المرء يصلحه فيغني مفاقره أعف من القنوع 801 – يسد به نوائب تعتريه من الأيام كالنهل الشروع .

(أذن للذين يقاتلون) [39] أول آية نزلت في القتال . (وبيع) [40] كنائس النصارى . (وصلوات) كنائس اليهود . وكانت صلوتاً ، فعربت بالصلاة ، وأنشد الأنباري: 802 – فاتق الله والصلاة فدعها إن في الصوم والصلاة فسادا . فالصلاة: بيعة اليهود ، والصوم:

[ذرق] النعام . /

(وبئر معطلة وقصر مشيد) [45] أي: أهلكنا الحاضرة والبادية ، فخلت القصور من أربابها ، والآبار من ورادها . والمشيد : المجصص . والشيد : الجص . وقيل: هي المبني بالحجارة ، كما قال عدي بن زيد : فجعل المشيد بالمرمر مجللاً بالكلس ، -والجص: ليس إلا طين مكلس- قال وهو في معنى الآية: 803- وأخو [الحضر] إذ بناه وإذ دجلة يجبى إليه والخابور 804- شاده [مرمراً] وجلله كلساً وللطير في ذراه وكور 805- تفكر رب الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدى تفكير

(87/517)

806- [سره] ملكه وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير 807- فارعوى قلبه وقال ما غبطة حي إلى [الممات] يصير 808- وبنو الأصفر الكرام ملوك الدهر لم يبق منهم مذكور 809- ثم أضحوا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور . (ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) [46] بيان أن محل العلم القلب ، ولئلا يقال: إن القلب يعني به غير هذا العضو ، على قولهم: القلب لب كل شيء . (كألف سنة) [47] أن يجمع له عذاب ألف سنة فيما شاء الله من مقدار يوم [أ] وأقل من ذلك ، أو أكثر ، وكذلك نعيم أهل

الجنة .

(معاجزين) [51] طالبين للعجز ، كقولك غالبته ، وقاتلته ، إذ[ا] طلبت غلبته ، وقتله .

وقيل: مسابقين ، كأن المعاجز يجعل صاحبه في ناحية العجز منه [كالمسابق] . (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) [52] الرسول يعم البشر والملائكة ، والنبي يخص البشر . وقيل: الرسول الشارع ابتداءً ، والنبي الحافظ شريعة غيره . (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان/في أمنيته) [52] قال جعفر بن محمد : كل نبي يتمنى إيمان قومه ، فيلقي الشيطان في أمنيته بما يوسوس إلى قومه (ثم يحكم الله ءاياته) .

وقيل: على هذا القول: إن وسوسة الشيطان يجوز أن يكون للنبي ، بما يلقي في أمنيته من اعتراض الهموم والخطرات المزعجة ، عند تباطئ القوم عن الإيمان ، وتسارعهم إلى الرد والعدوان ، أو عند تأخر نصر الله له على قومه . وإن حملت الأمنية على التلاوة ، فيجوز أن يكون الشيطان الملقي في التلاوة من شياطين الإنس ، فإن كان من المشركين من يلغو في القرآن . (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) [52] ويبين إبطاله ، ويحكم آياته عن أن يجوز فيها تمويه أو تلبيس ، وما روي في سبب النزول: أن النبي عليه السلام [وصل] (ومناة الثالثة الأخرى) [بـ] "تلك الغرانقة الأُلى ، وإن شفاعتهن لترتجى" ، إن ثبت –وما ينبغي أن [يثبت]– لم يكن فيه ثناء على أصنامهم ، لأن مخرج الكلام على زعم

المخالف روايةً ، لا على التحقيق والتسليم ، وهو في القرآن ، وفي مذهب العرب شائع ذائع ، كقوله: (يأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون) ، أي: نزل عليه الذكر على زعمه ، وعند من آمن به ، [و]لو كان عند [القائل] لما كان عنده مجنوناً . وقوله: (ذق إنك أنت العزيز الكريم) أي: عند نفسك وفي قولك ، وكما قال بعض شعراء اليمن في هجائه جريراً :

811- أبلغ كليباً وأبلغ عنك شاعرها أني الأغر وأني زهرة اليمن

[فأجابه جرير]: 812- ألم يكن في [وسوم] قد وسمت بها من حان موعظة يا زهرة اليمن/أي: على زعمك . (يوم عقيم) [55] شديد لا رحمة فيه . وقيل: فرد لا يوم مثله . وقيل: هو بدر . (فلا ينازعنك) [67]

نهي لهم عن منازعته ، وكانت منازعتهم أن قالوا في الذبائح: أتأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتله الله . (وإن يسلبهم الذباب) [73] بإفساده [لطعامهم] وثمارهم . وقيل: كانوا يلطخون أصنامهم بالعسل ، فيقع عليه الذبان . (ما بين أيديهم) [76] أول أعمالهم (وما خلفهم) آخرها .

[تمت سورة الحج] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 940.965 ﴾

وقال الأخفش :

سورة (الحج)

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

قال ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ وذلك انه أراد – والله أعلم – الفعل ولو أراد الصفة فيما نرى لقال: "مُرْضِع" . وكذلك كلّ "مُفْعِل" و"فَاعِل" يكون للانثى ولا يكون للذكر فهو بغير هاء نحو "مُقْرِب" و"مُوقِر" : نَخْلَةٌ مُوقِرٌ و"مُشْدِن": معها شَادِن و"حامِل" و"حائِض" و"فادك" و"طامِث" و"طالِق" .

﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾

وقال ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ فـ﴿ يَدْعُو ﴾ بمنزلة "يَقُول" . و﴿ مَنْ ﴾ رفع واضمر الخبر كأنه: يَدْعو لمَنْ ضُرُّهُ أَقْرَبُ من نَفْعِهِ إلَهُ . يقول: لَمَن ضُرُّهُ أَقْرَبُ من نَفْعِهِ إلَهُ .

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾

وقال ﴿ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ فحذف الهاء من ﴿ يَغِيظُ ﴾ لأنها صلة الذي لأنه اذا صار جميعاً اسما واحدا كان الحذف أخف .

﴿ هَاذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾

وقال ﴿ هَاذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ ﴾ لأنهما كانا حيين. و"الخَصْمُ" يكون واحدا وجماعة.

(90/517)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

وقال ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ﴾ معناه: ومن يُرِدْ إِلْحاداً. وزاد الباء كما تزاد في قوله ﴿ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ وقال الشاعر: [من الطويل وهو الشاهد الثاني والخمسون بعد المئتين]:

[153] أَلَيْسَ أَمِيرِي فِي الأُمورِ بِأَنْتُمَا * بِمَا لَسْتُمَا أَهْلَ الخِيانَةِ والغَدْرِ

﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ ﴾

وقال ﴿ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ وكُلُّها رِجْسٌ، والمعنى: فَاجْتَنِبُوا الرِجْسَ الذي

يكونُ مِنْها أيْ: عبادَتَها .

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وقال ﴿ صَوَآفَّ ﴾ وواحدتها: "الصافَّة" .

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

(91/517)

وقال ﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ ﴾ فالصَّلَواتُ لا تهدم ولكن حمله على فعل آخر كأنه قال "وَتُرِكَتْ صَلَواتٌ" وقال بعضهم: "إنّما يعني مواضع الصلوات" وقال رجل من رواة الحسن ﴿ صُلُوتٌ ﴾ وقال: "هي كنائس اليهود تدعى* بالعبرانية "صُلُوثا" فهذا معنى الصلوات فيما فسروا" .

وقال ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ لأَنَّ ﴿ بَعْضَهُم ﴾ بدل من ﴿ الناس ﴾ .

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾

وقال ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ حمله على ﴿ كَأَيِّنْ ﴾ والمَشِيد هو المفعول من "شِدتُه" فـ"أَنَا أَشِيدُهُ" مثل "عِنْتُه" فـ"أَنَا أَعِينُه" فـ"هو مَعِين" .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

وقال ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ يقول: "هو في الثِقَل ومما يُخَافُ مِنْهُ كألفِ سَنَة" .

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَالِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

وقال ﴿ بِشَرٍّ مِّن ذَالِكُمُ النَّارُ ﴾ رفع على التفسير أي: هيَ النارُ . ولو جر على البدل كان جيدا .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾

وقال ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ ﴾ فان قيل: "فأَيْنَ المثل" قلت: ليس ها هنا مثل لانه تبارك وتعالى قال: "ضُرِبَ لِي مَثَلٌ فَجُعِلَ مَثَلاً عندهم لي فاستمعوا لهذا المثل الذي جعلوه مثلي في قولهم واتخاذهم الالهة وانهم لن يقدروا على خلق ذباب ولو اجتمعوا له وهم اضعف لو سلبهم الذباب شيئاً فاجتمعوا جميعاً ليستنقذوه منه لم يقدروا [153 ب] على ذلك . فكيف تضرب هذه الآلهة مثلا لربها وهو رب كل شيء الواحد الذي ليس كمثله شيء وهو مع كل شيء وأقرب من كل شيء وليس له شبه ولا مثل ولا كفء وهو العلي العظيم الواحد الرب الذي لم يزل ولا يزال" .

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

وقال ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ نصب على الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 450 . 453 ﴾

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الحج

مكية كلها إلا ثلاث آيات «1»

2 - تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ

أي تسلو عن ولدها وتتركه .

4 - كُتِبَ عَلَيْهِ أي على شيطانه أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ .

5 - مُخَلَّقَةٍ : تامّة .

وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ : غير تامّة . يعني السقط .

لِنُبَيِّنَ لَكُمْ كيف نخلقكم فِي الْأَرْحامِ .

وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى يعني قبل بلوغ الهرم .

وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ أي الخرف والهرم .

وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً أي ميّتة يابسة . ومثل ذلك همود النار : إذا طفئت فذهبت .

اهْتَزَّتْ بالنبات .

وَرَبَتْ : انتفخت

---

(1) قيل أربع آيات منها هي 52/ 53/ 54/ 55 فبين مكة والمدينة .

(94/517)

وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ أي من كل جنس حسن ، يبهج ، أي يشرح . وهو فعيل في معنى فاعل . يقال : امرأة ذات خلق باهج .

9 - ثانِيَ عِطْفِهِ أي متكبر معرض .

11 - وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ على وجه واحد ومذهب واحد .

فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ . وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ أي ارتد .

13 - لَبِئْسَ الْمَوْلى أي الوليّ .

وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ أي الصاحب والخليل .

15 - مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ أي لن يرزقه اللّه . وهو قول أبي عبيدة ، يقال : مطر ناصر ، وأرض منصورة . أي ممطورة . وقال المفسرون : من كان يظن أن لن ينصر اللّه محمدا .

فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ أي بحبل إلى سقف البيت .

ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ أي حيلته غيظة ليجهد جهده ، وقد ذكرت ذلك في تأويل المشكل بأكثر من هذا التفسير .

19 - يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ أي الماء الحار .

20 - يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ أي يذاب . يقال : صهرت النار الشّحمة . والصّهارة : ما أذيب من الألية .

25 - سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ المقيم فيه والبادي ، وهو الطارئ من البدو ، سواء فيه : ليس المقيم فيه بأولى من النازح إليه .

وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ أي من يرد فيه إلحادا . وهو الظلم والميل عن

الحق . فزيدت الباء ، كما قال : تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ [سورة المؤمنون آية : 20] ، وكما قال الآخر :

سود المحاجر لا يقرأن بالسّور أي لا يقرأن السّور . وقال الآخر :

نضرب بالسيف ونرجو بالفرج «1»

26 - وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أي جعلنا له بيتا .

27 - يَأْتُوكَ رِجالًا أي رجّالة ، جمع راجل ، مثل له صاحب .

وصحاب .

وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ أي ركبانا على ضمر من طول السفر .

مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ أي بعيد غامض .

28 - لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ يقال : التجارة .

وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ يوم التّروية ، ويوم عرفة ، ويوم النحر . ويقال : أيام العشر كلها .

29 - ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ والتّفث : الأخذ من الشارب والأظفار ، ونتف الإبطين ، وحلق العانة .

بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ سمي بذلك لأنه عتيق من التّجبّر ، فلا يتكبر عنده جبار .

30 - وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ يعني رمي الجمار ، والوقوف بجمع وأشباه ذلك . وهي شعائر اللّه .

---

(1) البيت للنابغة الجعدي :

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج نضرب بالسيف ونرجو الفرج

وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ يعني في سورة المائدة من الميتة والموقوذة والمتردّية والنّطيحة «1» .

31 - وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ هذا مثل ضربه اللّه لمن أشرك به ، في هلاكه وبعده من الهدى .

(السحيق) البعيد . ومنه يقال : بعدا وسحقا ، وأسحقه اللّه .

36 - صَوافَّ أي قد صفّت أيديها . وذلك إذا قرنت أيديها عند الذبح «2» .

فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها أي سقطت . ومنه يقال : وجبت الشمس : إذا غابت .

الْقانِعَ السائل . يقال : قنع يقنع قنوعا ، ومن الرّضا قنع يقنع قناعة .

الْمُعْتَرَّ الذي يعتريك : أي يلمّ بك لتعطيه ولا يسأل . يقال :

اعترّني وعرّني ، وعراني واعتراني .

37 - لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها كانوا في الجاهلية : إذا نحروا البدن نضحوا دماءها حول الكعبة ، فأراد المسلمون ان يصنعوا ذلك ، فأنزل اللّه تبارك وتعالى : لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها .

40 - لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ للصّابئين .

وَبِيَعٌ للنّصارى .

وَصَلَواتٌ يريد بيوت صلوات ، يعني كنائس اليهود .

(1 - 2) يقال : وقذه : ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت وبابه وعد وشاة موقوذة :

قتلت بالخشب .

(97/517)

وَمَساجِدُ للمسلمين . هذا قول قتادة وقال : الأديان ستة : خمسة للشيطان ، وواحد للرحمن ، فالصابئون : قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون للقبلة ويقرأون الزّبور . والمجوس : يعبدون الشمس والقمر ، والذين أشركوا : يعبدون الأوثان . واليهود ، والنصارى .

45 - وَقَصْرٍ مَشِيدٍ يقال : هو المبني بالشّيد . وهو الجصّ .

والمشيد : المطوّل . ويقال : المشيد المشيّد سواء في معنى المطول ، وقال عدي ابن زيد :

شاده مرمرا وجلّله كل سا فللطير في ذراه وكور

51 - مُعاجِزِينَ مسابقين .

52 - إِلَّا إِذا تَمَنَّى أي تلا القرآن .

أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ في تلاوته .

54 - فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ أي تخضع وتذلّ .

55 - عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ كأنه عقم عن أن يكون فيه خير او فرج للكافرين .

67 - جَعَلْنا مَنْسَكاً أي عيدا .

71 - ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً أي برهانا ولا حجّة .

72 - يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا أي يتناولونهم بالمكروه من الشتم والضرب .

78 - هُوَ اجْتَباكُمْ أي اختاركم .

وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ أي ضيق .

هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا يعن القرآن .

(98/517)

لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ أي قد بلغكم .

وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ بأن الرسل قد بلغتهم .

فَنِعْمَ الْمَوْلى أي الولي .

وَنِعْمَ النَّصِيرُ أي الناصر. مثل قدير وقادر، وسميع وسامع. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 247.252 ﴾

(99/517)

وقال الغزنوى:

ومن سورة الحج

«الزّلزلة» «1»: شدّة الحركة على الحال الهائلة «2»، من: «زلّت قدمه» ثمّ ضوعف لفظه ليتضاعف/ معناه «3».

3 شَيْطانٍ مَرِيدٍ: أي: «مارد» «4»، وهو المتجرد للفساد.

4 كُتِبَ عَلَيْهِ: الشّيطان، أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ: اتبعه.

فَأَنَّهُ: فإنّ الشّيطان، يُضِلُّهُ «5». وفتح «أن» عطفا على الأولى للتوكيد «6»، أو التقدير: فلأنه يضله.

5 مُخَلَّقَةٍ: مخلوقة تامّة التصوير «7».

لِنُبَيِّنَ لَكُمْ: بدء خلقكم وترتيب إنشائكم «8».

---

(1) من قوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ [آية: 1].

(2) ينظر تهذيب اللغة: 13/ 165، والكشاف: 3/ 3، وتفسير البغوي: 3/ 273.

(3) المفردات للراغب: 214، وتفسير القرطبي: 12/ 3، واللسان: 11/ 308 (زلل).

(4) معاني القرآن للزجاج: 3/ 410.

(5) معاني القرآن للفراء: 2/ 215، وتفسير الطبري: 17/ 116، وتفسير البغوي: 3/ 275.

(6) عن معاني القرآن للزجاج: 3/ 411.

وانظر إعراب القرآن للنحاس: 3/ 86، ومشكل إعراب القرآن: 2/ 486، والبيان لابن الأنباري: 2/ 168.

(7) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 290، وتفسير الطبري: 17/ 117، وتفسير الماوردي:

3/ 67.

(8) ينظر هذا المعنى في تفسير الطبري: 17/ 118، وتفسير الماوردي: 3/ 67.

هامِدَةً : غبراء يابسة «1» ، همدت النّار «2» ، وهمد الثّوب : بلي «3» .

اهْتَزَّتْ : استبشرت وتحركت ببنائها ، والاهتزاز شدّة الحركة في الجهات «4» ، وَرَبَتْ : انتفخت فطالت «5» .

مِنْ كُلِّ زَوْجٍ : نوع أو لون ، بَهِيجٍ : يبهج من رآه «6» .

6 هُوَ الْحَقُّ : المستحق لصفات التعظيم .

9 ثانِيَ عِطْفِهِ : لاوى عنقه تكبّرا «7» .

10 ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ : ذلِكَ مبتدأ ، والخبر بِما قَدَّمَتْ ، وموضع «أنّ» خفض على العطف على «ما» «8» .

لَيْسَ بِظَلَّامٍ : على بناء المبالغة ، وهو لا يظلم مثقال ذرة ، إذ أقلّ قليل الظّلم - مع علمه بقبحه واستغنائه - كأكثر الكثير منّا .

وسبب النزول أنهم لم يعرفوا وجوه الثواب وأقدار الأعواض في الآخرة ، ولا ما في الدنيا من ائتلاف المصالح باختلاف الأحوال فعدّوا شدائد الدنيا ظلما .

---

(1) عن تفسير الماوردي : 3/ 68 .

وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 290 ، والمفردات للراغب : 545 .

(2) أي : طفئت .

المفردات : 545 ، واللسان : 3/ 436 (همد) .

(3) اللسان : 3/ 437 (همد) .

(4) عن المبرد في تفسير القرطبي : 12/ 13 ، وانظر اللسان : 5/ 424 (هزز) .

[. . . . .]

(5) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 68 ، وقال : «فعلى هذا الوجه يكون مقدما ومؤخرا ، وتقديره : فإذا أنزلنا عليها الماء ربت واهتزت ، وهذا قول الحسن ، وأبي عبيدة» .

وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 290 ، وتفسير القرطبي : 12/ 13 ، واللسان : 14/ 305 (ربا) .

(6) ينظر هذا المعنى في تفسير القرطبي : 12/ 14 .

(7) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 45 ، وغريب القرآن لليزيدي : 259 ، وتفسير الطبري : 17/ 121 .

(8) معاني القرآن للزجاج : 3/ 414 ، وإعراب القرآن للنحاس : 3/ 88 .

11 عَلى حَرْفٍ : ضعف رأي في العبادة مثل ضعف القائم على حرف «1» ، وباقي الآية أحسن تفسير للعبادة على حرف .

13 يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ : تقديره : تأخير «يدعو» ليصحّ موضع اللام «2» ، أي : لمن ضرّه أقرب من نفعه يدعو ، أو يَدْعُوا موصول بقوله : هو الضّلال البعيد يدعوه ، ولَمَنْ ضَرُّهُ مبتدأ وخبره «3» لَبِئْسَ الْمَوْلى .

15 أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ : أي : محمدا «4» ، فليتسبب أن يقطع عنه النّصر من السماء . وقيل «5» : المعنى المعونة بالرزق ، أي : من يسخط ما أعطى وظنّ أنّ اللّه لا يرزقه فليمدد بحبل في سماء بيته من حلقه ثم ليقطع الحبل حتى يموت مختنقا .

---

(1) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 69 عن علي بن عيسى .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 411 ، وقال : «وبيان هذا أن القائم على حرف الشيء غير متمكن منه» .

(2) قال العكبري في التبيان : 2/ 934 : «هذا موضع اختلف فيه آراء النحاة ، وسبب ذلك أن اللام تعلّق الفعل الذي قبلها عن العمل إذا كان من أفعال القلوب ، و«يدعو» ليس منها . . .» اه ، وأورد وجوه الإعراب التي قيلت في هذه الآية .

(3) عن معاني القرآن للزجاج: (3/ 415، 416).

وانظر مشكل إعراب القرآن لمكي: 2/ 488، والبيان لابن الأنباري: 2/ 170،

والتبيان:

2/ 935.

(4) ومعنى هذا القول كما في تفسير الطبري: 17/ 125 أن من كان يحسب أن لن ينصر اللّه محمدا في الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إليّ، وهو «السبب» إلى سماء بيته، وهو سقفه ثم ليقطع الحبل . . .».

وقد أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: (17/ 125 - 127) عن ابن عباس، وقتادة، وابن زيد.

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 17/ 137 عن مجاهد، وهو معنى قول أبي عبيدة في مجاز القرآن: 2/ 46.

وانظر تفسير الماوردي: 3/ 70، وتفسير البغوي: 3/ 278، وتفسير الفخر الرازي: 23/ 18.

17 إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا : خبره إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ .

19 هذانِ خَصْمانِ : أهل القرآن وأهل الكتاب «1» .

وقيل «2» : الفريقان من المؤمنين والكافرين يوم بدر .

[64/ب] قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ : أي : يحيط بهم/ النّار إحاطة الثياب «3» .

20 يُصْهَرُ : يذاب .

22 كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا : النّار ترميهم إلى أعلاها حتى يكادوا يخرجوا فتقمعهم الزّبانية إلى قعرها .

25 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ : عطف المستقبل على الماضي لأنّه على تقدير : وهم يصدّون ، أي : من شأنهم الصد «4» كقوله «5» : الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ .

سَواءً «6» الْعاكِفُ فِيهِ : سَواءً رفع بالابتداء . والْعاكِفُ

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 17/ 132 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

ونقله الواحدي في أسباب النزول : 357 عن ابن عباس ، وقتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 20 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة .

(2) ثبت هذا القول في أثر عن أبي ذر رضي اللّه تعالى عنه أخرجه الإمام البخاري في صحيحه :

5/ 242 ، كتاب التفسير ، باب قوله : هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .

وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه : 4/ 2323 ، كتاب التفسير ، باب في قوله تعالى : هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .

وانظر تفسير الطبري : (17/ 131 ، 132) ، وأسباب النزول للواحدي : 356 ، وتفسير ابن كثير : 5/ 401 .

(3) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 72 ، والبغوي في تفسيره : 3/ 280 .

(4) ينظر معاني القرآن للفراء : (2/ 220 ، 221) ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 420 ، وإعراب القرآن للنحاس : (3/ 92 ، 93) ، والتبيان للعكبري : 2/ 938 .

(5) سورة الرعد : آية : 28 . [. . . . .]

(6) بالرفع والتنوين ، وهي قراءة السبعة إلا عاصما في رواية حفص ، فإنه قرأ «سواء» بالنصب والتنوين .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 435 ، وحجة القراءات : 475 ، والتبصرة لمكي : 266 .

(103/517)

خبره وصلح مع تنكيره للابتداء لأنّه كالجنس في إفادة العموم الذي هو أخو العهد فكان في معنى المعرفة «1» .

والْعاكِفُ : المقيم «2» ، ووَالْبادِ «3» : الطارئ ، ولهذه الآية لم نجوّز بيع دور مكة «4» .

وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ : أي : من يرد فيه صدا ، بِإِلْحادٍ : ميل عن الحق «5» ، ثم فسّر الإلحاد بظلم إذ يكون إلحاد وميل بغير ظلم .

وقال الزّجّاج «6» : المعنى من إرادته فيه بأن يلحد بظلم .

26 وَإِذْ بَوَّأْنا : قرّرنا وبيّنا «7» .

---

(1) هذا قول الزجاج في معانيه : 3/ 420 .

وذكره النحاس في إعراب القرآن : 3/ 93 ، وذكر وجهين آخرين هما : «أن ترفع «سواء» على خبر «العاكف» ، وتنوي به التأخير ، أي : العاكف فيه والبادي سواء ، والوجه الثالث :

أن تكون الهاء التي في «جعلناه» مفعولا أول و«سواء العاكف فيه والبادي في موضع المفعول الثاني . . .» .

وقال أبو حيان في البحر المحيط : (6/ 362 ، 363) : «والأحسن أن يكون «العاكف والبادي» هو المبتدأ ، و«سواء» الخبر ، وقد أجيز العكس .

(2) معاني القرآن للفراء : 2/ 221 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 48 ، وغريب القرآن لليزيدي : 260 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 291 .

(3) البادي - بالياء - قراءة ابن كثير وقفا ووصلا ، وقرأ بها أبو عمرو ونافع في رواية ورش في حالة الوصل فقط .

السبعة لابن مجاهد : 436 ، والتبصرة لمكي : 268 ، والتيسير للداني : 158 .

(4) مذهب الإمام أبي حنيفة في ذلك الكراهة ، وذهب الإمام مالك إلى أن دور مكة لا تباع ولا تكرى ، ومذهب الشافعية والجمهور على جواز ذلك .

ينظر أحكام القرآن للجصاص : (3/ 229 ، 230) ، وأحكام القرآن للكيا الهراس : 4/ 236 ، وأحكام القرآن لابن العربي : 3/ 1274 ، وتفسير القرطبي : (12/ 32 ، 33) .

(5) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 291 ، وتفسير الماوردي : 3/ 74 .

(6) معاني القرآن : 3/ 421 .

(7) اللسان : 1/ 38 (بوأ) .

.

قال السّدي «1» : كان ذلك بريح هفافة كنست مكان البيت يقال له :

الخجوج.

وقيل «2» : بسحابة بيضاء أظلّت على مقدار البيت.

27 وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ : قام إبراهيم في المقام فنادى : يا أيها النّاس إنّ اللّه دعاكم إلى الحج. فأجابوا ب «لبّيك اللّهم لبيك» «3».

رِجالًا : جمع «راجل».

يَأْتِينَ : على معنى الركاب، أو كُلِّ ضامِرٍ : تضمّن معنى الجماعة.

و«الفجّ» : الطريق بين الجبلين «4»، و«العميق» : البعيد الغائر «5».

28 أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ : أيام العشر. عن ابن عبّاس «6»، والنّحر ويومان

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره : 17/ 143.

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 31، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم عن السدي.

(2) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 74 عن قطرب، والبغوي في تفسيره : 3/ 283 عن الكلبي.

(3) أخرج - نحوه - ابن أبي شيبة في المصنف : 11/ 521، كتاب الفضائل حديث

رقم (11875) عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، وكذا الطبري في تفسيره : (17/ 144 ، 145) عن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير .

وأخرجه الحاكم في المستدرك : (2/ 388 ، 389) ، كتاب التفسير عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى : 5/ 176 ، كتاب الحج ، باب «دخول مكة بغير إرادة حج ولا عمرة» .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 32 ، وزاد نسبته إلى ابن منيع ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(4) المفردات للراغب : 373 ، واللسان : 2/ 338 (فجج) .

(5) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 49 ، وغريب القرآن لليزيدي : 261 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 292 ، والمفردات للراغب : 348 .

(6) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 76 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، وزاد نسبته إلى الحسن رحمه اللّه تعالى .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 37 ، وعزا إخراجه إلى أبي بكر المروزي في كتاب «العيدين» عن ابن عباس رضي اللّه عنهما . [. . . . .]

بعده عن ابن عمر «1» .

29 ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ : حاجتهم من مناسك الحجّ «2» من الوقوف ، والطواف ، والسّعي ، والرّمي ، والحلق بعد الإحرام من الميقات .

وقيل «3» : هو تقشّف الإحرام لأن «التفث» الوسخ «4» ، وقضاؤه : التنظف بعده من الأخذ عن الأشعار وتقليم الأظفار «5» .

وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ : من الطّوفان «6» .

---

(1) أورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 38 وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم ، وابن المنذر عن ابن عمر رضي اللّه عنهما . وأورد الحافظ ابن كثير رواية ابن أبي حاتم عن ابن عمر وصحح إسناده .

ينظر تفسيره : 5/ 412 .

(2) ذكر المؤلف - رحمه اللّه - هذا القول في كتابه وضح البرهان : 2/ 86 عن مجاهد ، وأخرج نحوه الطبري في تفسيره : (17/ 149 ، 150) عن ابن عمر رضي اللّه تعالى عنهما .

(3) في النهاية : 4/ 66 : «القشف : يبس العيش . وقد قشف يقشف ورجل متقشّف

، أي : تارك للنظافة والترفّد » .

وانظر اللسان : 9/ 282 (قشف) .

(4) الكشاف : 3/ 11 ، وزاد المسير : 5/ . 427

وفي تفسير القرطبي : 12/ 50 عن قطرب قال : «تفث الرجل إذا كثر وسخه» .

(5) أخرجه الطبري في تفسيره : 17/ 149 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 77 عن الحسن .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 40 ، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما . ورجح ابن الجوزي هذا القول في زاد المسير : 5/ 427 .

وانظر معاني القرآن للفراء : 2/ 224 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 50 ، وغريب القرآن لليزيدي : 261 .

(6) ذكره الزجاج في معانيه : 3/ 424 بصيغة التمريض فقال : «وقيل : إن البيت العتيق الذي عتق من الغرق أيام الطوفان ، ودليل هذا القول : وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ ، فهذا دليل أن البيت رفع وبقي مكانه» .

وأورد السيوطي في الدر المنثور : 6/ 41 القول الذي ذكره المؤلف ، وعزا إخراجه إلى ابن

المنذر ، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير .

ونقله ابن كثير في تفسيره : 5/ 414 عن عكرمة .

(106/517)

أو من استيلاء الجبابرة «1» .

أو «العتيق» : القديم «2» ، وهو أول بيت وضع للنّاس «3» ، بناه آدم ثم [65/أ]

جدّده إبراهيم عليهما السّلام «4» . / وهذا طواف الزيارة الواجب «5» .

30 إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ : أي : من الصّيد «6» .

---

(1) يدل على هذا القول ما أخرجه الإمام البخاري في تاريخه : 1/ 201 عن عبد اللّه بن الزبير رضي اللّه عنهما عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «إنما سمى اللّه البيت العتيق لأنه أعتقه من الجبابرة» .

وأخرج - نحوه - الترمذي في سننه : 5/ 324 ، كتاب تفسير القرآن ، باب «ومن سورة الحج» عن عبد اللّه بن الزبير ، وقال : «هذا حديث حسن صحيح وقد روي هذا الحديث عن الزهري عن النبي صلى اللّه عليه وسلم مرسلا» .

وأخرجه الحاكم في المستدرك : 2/ 389 ، كتاب التفسير ، وقال : «هذا حديث

صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه» .

وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة : 1/ 125 ، والطبري في تفسيره : 17/ 151 .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 41 ، وزاد نسبته إلى ابن مردويه ، والطبراني عن ابن الزبير أيضا .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 17/ 151 عن ابن زيد ، وعزاه الزجاج في معاني القرآن : 3/ 424 إلى الحسن . ورجحه الطبري ، وكذا القرطبي في تفسيره : 12/ 52 .

وانظر أخبار مكة للأزرقي : 1/ 280 ، والعقد الثمين : 1/ 35 ، وشفاء الغرام : 1/ 48 .

(3) قال تعالى : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ [آل عمران : 96] .

(4) ينظر تفسير القرطبي : 2/ 120 ، وتفسير ابن كثير : 1/ 259 ، والدر المنثور : 1/ 308 .

(5) وهو طواف الإفاضة .

قال الطبري – رحمه اللّه – في تفسيره : 17/ 152 : «عني بالطواف الذي أمر جل ثناؤه حاجّ بيته العتيق به في هذه الآية طواف الإفاضة الذي يطاف به بعد التعريف ، إما يوم النحر

، وإما بعده ، لا خلاف بين أهل التأويل في ذلك» .

وانظر أحكام القرآن لابن العربي : 3/ 1284 ، وزاد المسير : 5/ 427 ، وتفسير القرطبي :

12/ 50 .

(6) لعله يريد : أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ .

وقد ذكر هذا القول الماوردي في تفسيره : 3/ 78 ، وابن الجوزي في زاد المسير :

5/ 428 ، والقرطبي في تفسيره : 12/ 54 .

وجمهور المفسرين على أن المراد : «إلا ما يتلى عليكم من : المنخنقة والموقودة والمتردية

. . . » .

ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 224 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 292 ،

وتفسير الطبري : 17/ 153 ، ومعاني الزجاج : 3/ 424 ، وتفسير الماوردي : 3/

78 ، وزاد المسير :

5/ 428 ، وتفسير القرطبي : 12/ 54 .

مِنَ الْأَوْثانِ : «من» لتلخيص الجنس ، أي : اجتنبوا الرجس الذي هو وثن «1» .

31 حُنَفاءَ لِلَّهِ : مستقيمي الطريقة على أمر اللّه «2» .

32 وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ : مناسك الحج «3» ، أو يعظّم البدن المشعرة ويسمّنها ويكبّرها «4» .

33 إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى : إلى أن تقلد أو تنحر «5» .

34 جَعَلْنا مَنْسَكاً : حجا «6» . وقيل «7» : عيدا وذبائح .

وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ : المطمئنين بذكر اللّه .

---

(1) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 3/ 425 ، وذكره النحاس في إعراب القرآن :

3/ 96 ، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 428 عن الزجاج .

(2) تفسير الماوردي : 3/ 78 ، والمفردات للراغب : 133 ، وتفسير القرطبي : 12/ 55 . [. . . . .]

(3) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : 17/ 156 عن ابن زيد .

وانظر تفسير الماوردي : 3/ 79 ، والمفردات للراغب : 262 ، وزاد المسير : 5/ 430 .

(4) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : 17/ 156 عن ابن عباس ، ومجاهد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 56 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(5) ينظر تفسير الطبري : 17/ 158 ، وتفسير الماوردي : 3/ 79 ، وتفسير البغوي : 3/ 287 .

(6) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 80 عن قتادة ، وكذا القرطبي في تفسيره : 12/ 58 .

(7) ذكره الزجاج في معانيه : 3/ 426 ، والماوردي في تفسيره : 3/ 80 ، ورجحه القرطبي في تفسيره : 12/ 58 .

(108/517)

---

35 الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ : الوجل يكون عند خوف الزّيغ والتقصير في حقوقه ، والطمأنينة عن ثلج اليقين وشرح الصّدور بمعرفته ، فهما حالان ، فلهذا جمع بينهما مع تضادّهما .

36 وَالْبُدْنَ : الإبل المبدّنة بالسّمن ، بدّنت النّاقة : سمّنتها «1» .

مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ : معالم دينه «2» .

صَوافَّ : مصطفة معقولة «3» ، وصوافي «4» : خالصة للّه .

وصوافن «5» : معقّلة في قيامها بأزمّتها .

وَجَبَتْ : سقطت لنحرها «6» .

وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ : الْقانِعَ الذي ينتظر الهدية ، وَالْمُعْتَرَّ من يأتيك سائلا «7» ،

. . . . .

---

(1) ينظر الصحاح : 5/ 2077 ، واللسان : 13/ 48 (بدن) .

(2) تفسير القرطبي : 12/ 56 ، واللسان : 4/ 414 (شعر) .

(3) ورد هذا المعنى على قراءة الجمهور كما في معاني القرآن للفراء : 2/ 226 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 50 .

(4) بكسر الفاء وبعدها ياء ، ونسبت هذه القراءة إلى الحسن ، وأبي موسى الأشعري ، ومجاهد ، وزيد بن أسلم ، والأعرج ، وسليمان التيمي ، وهي من شواذ القراءات .

ينظر تفسير الطبري : 17/ 165 ، وإعراب القرآن للنحاس : 3/ 99 ، والمحتسب : 2/ 81 ، والبحر المحيط : 6/ 369 .

(5) نسبت هذه القراءة إلى ابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، وعطاء ، والضحاك .

ينظر تفسير الطبري : 17/ 162 ، والمحتسب : 2/ 81 ، والبحر المحيط : 6/ 369

، وإتحاف فضلاء البشر : 2/ 275 .

(6) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 51 ، وغريب القرآن لليزيدي : 262 ، وتفسير الطبري :

17/ 166 ، والمفردات للراغب : 512 .

(7) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 51 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : (17/ 167 ، 168) عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 82 عن قتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 54 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم عن عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنهما .

(109/517)

وقيل «1» على العكس .

وفي الحديث «2» : «لا تجوز شهادة القانع مع أهل البيت لهم» ، وهو كالتابع والخادم .

37 لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها : لن يتقبل اللّه اللّحم والدماء ولكن يتقبّل التقوى .

39 أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ : أول آية في القتال «3» .

---

(1) أي أن القانع هو الذي يسأل ، والمعتر الذي لا يتعرض للناس .

وهو قول الفراء في معانيه : 2/ 226 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 293 .

وأخرجه الطبري في تفسيره : 17/ 168 عن الحسن ، وسعيد بن جبير .

ورجح الطبري هذا القول .

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : 2/ 204 عن عبد اللّه بن عمرو مرفوعا ، وصحح الشيخ أحمد شاكر رحمه اللّه إسناده في شرح المسند : 11/ 122 .

وأخرجه الترمذي في سننه : 4/ 545 ، كتاب الشهادات ، باب «ما جاء فيمن لا تجوز شهادته» .

وأخرج – نحوه – أبو داود في سننه : 4/ 24 ، كتاب الأقضية ، باب «من ترد شهادته» .

وفي معالم السنن للخطابي : «و معنى رد هذه الشهادة : التهمة في جر النفع إلى نفسه ، لأن التابع لأهل البيت ينتفع بما يصير إليهم من نفع ، وكل من جر إلى نفسه بشهادته نفعا فهي مردودة . . . » .

وانظر النهاية لابن الأثير : 4/ 114 . [. . . . .]

(3) ثبت ذلك في أثر أخرجه الإمام أحمد في مسنده : 1/ 216 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده في شرح المسند : 3/ 261 .

وأخرجه – أيضا – عبد الرزاق في تفسيره : 325 ، والنسائي في تفسيره : 6/ 2 ، كتاب

الجهاد ، باب «وجوب الجهاد» ، والطبري في تفسيره : 17/ 172 ، والحاكم في المستدرك :

2/ 903 ، كتاب التفسير ، وقال : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى : 9/ 11 ، كتاب السير ، باب «مبتدأ الإذن بالقتال» .

وانظر أسباب النزول للواحدي : 357 ، وتفسير ابن كثير : 6/ 430 ، والدر المنثور : 6/ 57 .

(110/517)

---

40 وَبِيَعٌ : كنائس النّصارى «1» ، وَصَلَواتٌ : كنائس اليهود «2» ، وكانت «صلوتا» : فعرّبت «3» . والمراد من ذلك في أيام شريعتهم .

وقيل «4» : وَصَلَواتٌ مواضع صلوات المسلمين .

45 وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ : أي : أهلكنا البادية والحاضرة ، فخلت القصور من أربابها والآبار من واردها «5» .

والمشيد : المبنيّ بالشّيد «6» .

46 وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ : لبيان أنّ محلّ العلم القلب ، ولئلا يقال إنّ القلب يعنى به غير هذا العضو على قولهم : القلب لبّ كل شيء .

والهاء في فَإِنَّها للعماية ، وهو الإضمار على شريطة التفسير «7» .

51 مُعاجِزِينَ : طالبين للعجز كقوله : غالبته «8» ، أو مسابقين «9» كأن المعاجز يجعل صاحبه في ناحية العجز منه كالمسابق .

---

(1) ذكره الفراء في معاني القرآن : 2/ 227 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 293 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 17/ 176 عن قتادة .

(2) معاني القرآن للفراء : 2/ 227 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 293 ، وتفسير الطبري :

17/ 176 ، ومعاني الزجاج : 3/ . 430

(3) ينظر المعرّب للجواليقي : 259 ، والمهذّب للسيوطي : 107 .

(4) أخرج نحوه الطبري في تفسيره : 17/ 177 عن ابن زيد .

(5) تفسير الطبري : 17/ 180 .

(6) وهو الجصّ كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 53 ، وغريب القرآن لليزيدي : 262 ، ومعاني الزجاج : 3/ 432 ، واللسان : 3/ 244 (شيد) .

(7) تفسير القرطبي : 12/ 77 ، والبحر المحيط : 6/ 378 .

(8) ذكره البغوي في تفسيره : 3/ 292 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 10/ 302 .

(9) هذا قول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 294 ، ونقله القرطبي في تفسيره : 12/ 79 عن الأخفش .

وذكر الزمخشري في الكشاف : 3/ 18 ، وقال : «وعاجزه : سابقه ، لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به ، فإذا سبقه قيل : أعجزه وعجزه» .

(111/517)

---

52 وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ : الرسول الشّارع ، والنّبيّ : الحافظ شريعة/ غيره «1» ، والرسول يعمّ البشر والملك «2» .

إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ : كلّ نبيّ يتمنى إيمان قومه فيلقي الشّيطان في أمنيته بما يوسوس إلى قومه ثم يحكم اللّه آياته «3» ، أو يوسوس إلى النبي بالخطرات المزعجة عند تباطئ القوم عن الإيمان ، أو تأخر نصر اللّه .

وإن حملت الأمنية على التلاوة فيكون الشّيطان الملقي فيها من شياطين الإنس ، فإنّه كان من المشركين من يلغوا في القرآن «4» ، فينسخ اللّه ذلك فيبطله ويحكم آياته .

وما يروى في سبب النزول أنّه – عليه السّلام – وصل وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى «5» ب «تلك الغرانقة الأولى «6» ، وإنّ شفاعتهن لترتجى» . إن

---

(1) ذكر الماوردي نحو هذا القول في تفسيره : 3/ 87 عن الجاحظ .

وأورد الفخر الرازي – رحمه اللّه – عدة فروق بين الرسول والنبي ، فقال :

«أحدها : أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه ، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب ، وإنما أمر أن يدعو إلى كتاب من قبله .

والثاني : أن من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرسول ، ومن لم يكن مستجمعا لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول .

والثالث : أن من جاءه الملك ظاهرا وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول ، ومن لم يكن كذلك بل رأى في النوم كونه رسولا ، أو أخبره أحد من الرسل بأنه رسول اللّه فهو النبي الذي لا يكون رسولا . وهذا هو الأولى» اه .

ينظر تفسيره : 23/ 50 .

(2) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 86 دون عزو .

(3) ذكر المؤلف – رحمه اللّه – هذا القول في كتابه وضح البرهان : 2/ 91 ، وعزاه إلى جعفر بن محمد .

(4) واستدل قائلو هذا القول بقوله تعالى : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا

فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ [فصلت : 26] . [. . . . .]

(5) سورة النجم : آية : 20 .

(6) في «ك» : «تلك الغرانيق العلى» .

وقال ابن عطية في المحرر الوجيز : 10/ 307 : «و اختلفت الروايات في الألفاظ ففي بعضها : «تلك الغرانقة» ، وفي بعضها : «تلك الغرانيق» ، وفي بعضها : «و إن شفاعتهم» ، وفي بعضها : «فإن شفاعتهن . . .» .

(112/517)

ثبت «1» لم يكن ثناء على أصنامهم إذ مخرج الكلام على زعمهم ، كقولهم «2» : يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ، أي : نزل عليه الذكر على زعمه وعند من آمن به ، ولو كان عند القائل لما كان عنده مجنونا .

55 يَوْمٍ عَقِيمٍ : شديد لا رحمة فيه «3» ، أو فرد لا يوم مثله «4» .

68 وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ : أي : جادلوك مراء وتعنتا كما يفعله السّفهاء فلا تجادلهم وادفعهم بهذا القول ، وينبغي أن يتأدّب بهذا كلّ أحد .

---

(1) لكنه لم يثبت ، وقد رد الأئمة العلماء هذه الرواية من أساسها ، وأوردوا الأدلة على

بطلانها نقلا وعقلا .

قال القاضي عياض رحمه اللّه في الشفا : 2/ 750 : «يكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ، وإنما أولع به ويمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم» اه .

ثم أورد القاضي عياض طرق الحديث وكشف ضعفها وبطلانها ، ثم قال : «أما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته صلى اللّه عليه وسلم ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة ، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير اللّه ، وهو كفر ، أو أن يتسور عليه الشيطان ، ويشبّه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبي صلى اللّه عليه وسلم أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل عليه السلام ، وذلك كله ممتنع في حقه صلى اللّه عليه وسلم ، أو يقول ذلك النبي صلى اللّه عليه وسلم من قبل نفسه عمدا ، وذلك كفر ، أو سهوا ، وهو معصوم من هذا كله . . . » .

وأشار الحافظ ابن كثير في تفسيره : 5/ 438 إلى الروايات التي وردت في سياق هذه القصة ثم قال : «ولم أرها مسندة من وجه صحيح» .

وممن رد هذه الرواية ابن العربي في أحكام القرآن : (3/ 1300 - 1303) ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 10/ 305 ، والفخر الرازي في تفسيره : 23/ 51 ، والقرطبي في تفسيره :

.80/12

(2) سورة الحجر : آية : 6 .

(3) نقل – نحوه – الماوردي في تفسيره : 3/ 88 عن الحسن رحمه اللّه تعالى .

(4) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 88 ، والبغوي في تفسيره : 3/ 295 .

(113/517)

---

73 وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ : بإفساده لطعامهم وثمارهم «1» .

76 ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ : أول أعمالهم ، وَما خَلْفَهُمْ : آخرها «2» .

78 مِلَّةَ أَبِيكُمْ : أي : حرمة إبراهيم – عليه السلام – على المسلمين كحرمة الوالد على الولد ، وإلّا فليس يرجع جميعهم إلى ولادة إبراهيم .

لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ : بالطاعة والمعصية في تبليغه .

وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ : بأعمالهم فيما بلّغتموهم من كتاب ربّهم وسنّة نبيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 569. 583 ﴾

---

(1) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 3/ 89 .

وذكره القرطبي في تفسيره : 12/ 97 ، وقال : «وخص الذباب لأربعة أمور تخصه :

لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته» .

(2) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : (3/ 89 ، 90) عن الحسن رحمه اللّه ، وكذا البغوي في تفسيره : 3/ 299 .

(114/517)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الحج

عدد 17 - 103 - 52

نزلت بمكة بعد سورة النّور .

وهي ثمان وسبعون آية والف ومئتان وإحدى وسبعون كلمة وخمسة آلاف وخمس وسبعون حرفا .

ومنها الآيات من 52 إلى 55 نزلن بين مكة والمدينة ومثلها في عدد الآي سورة الرّحمن .

وتقدمت السّور المبدوءة بما بدئت فيه سورة النّساء ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ" واحذروا مخالفته "إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ" التي أمرها بيده "شَيْءٌ عَظِيمٌ" (1) جدا ولا أعظم بمن وصفه اللّه بالعظمة .

ثم ذكر من أهوالها ما أوجب وصفها بالعظمة بقوله جل قوله "يَوْمَ تَرَوْنَهَا"

أي الزلزلة وهي حركة الأرض بشدة هائلة واضطرابها بقوة فظيعة ، عند اذن اللّه تعالى بخراب الأرض وانقراض هذا الكون ، وحينذاك "تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ" فتنساه كأنه ما كان لما يلحقها من الدّهشة المزعجة "وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا" من كبير الفزع وجليل الخوف على فرض وقوع هذه الزلزلة في الدّنيا فإن المرضعة المعلّق قلبها عند رضيعها تغفل عنه وتتركه بل تنساه ولا يخطر ببالها وإن الحاصل لعظيم ما ترى تسقط ما في بطنها وهي لا تشعر به قبل تمام مدته ، وهو لا يسقط بذلك إلّا بأسباب باهظة وعمليات متعبة منهكة .

"وَتَرَى النَّاسَ"

أيها النّاظر إليهم إذ ذاك إذا تأتي منك النّظر "سُكَارَى"

بلا شراب حياري لهول ما يشاهدون من الخوف القاطع للقلوب "وَمَا هُمْ بِسُكَارَى" حقيقة ، ولكنهم على هيئة وصورة الثمل الغافل الحائر مما يشاهد ما يحل به وبغيره في ذلك الموقف العظيم ، إذ تتفتت فيه الأكباد ، وترتعد فيه الفرائض ، وتتلجلج فيه القلوب ، فتبلغ

الحناجر لأن ما هم قادمون عليه ليس بملك ظالم ولا سلطان غاشم يؤمل الخلاص منهما "وَلَكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ"

(115/517)

---

(2) لا مخلص منه ، لذلك قد أرهقهم خوف لحوقة بهم وأذهب عقولهم رؤياه ، فأفقدهم رشدهم ، وأضاع تمييزهم ، وأزال معرفتهم حالهم ، وأشغل كلا بنفسه .

مطلب في أهوال القيامية وكيفية الخلق وترتيبه وما قاله صاحب الجمل :

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول اللّه تعالى يوم القيامة يا آدم ، فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك ، فينادى بصوت إن اللّه يأمرك أن تخرج بعث النّار ، قال يا رب وما بعث النّار ؟ قال في كلّ الف تسعمائة وتسع وتسعون ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد ، وترى النّاس سكارى الآية ، فشق ذلك على النّاس حتى تغيرت وجوههم ، قالوا يا رسول اللّه أينا ذلك الرّجل ؟ فقال صلّى اللّه عليه وسلم من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسع وتسعون ، ومنكم واحد ، ثم أنتم في النّاس كالشعرة السّوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وفي رواية كالرقمة في ذراع الحمار (الرقمة معروفة وهي كالفلس في ذراع الحمار والبغل

أيضا) (وإني لأرجو أن تكونوا رباع أهل الجنّة ، فكبرنا ، ثم قال ثلاث أهل الجنّة ، فكبرنا ، ثم قال شطر أهل الجنّة ، فكبرنا .

قال تعالى "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ" لشدة جهله "وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ" (3) متشيطن مضلّ عات في جداله .

واعلم أنه لا يوقف على مريد لأن ما بعده صفة له ، ولذلك

(116/517)

ينبغي للقارىء وصلها بما بعدها ولا يغتر بعلامة الوقف في المصاحف ويظن الوقف عليها لازم ، لأن الوقف يكون على تمام المعنى ، لأن كثيرا من الآيات يجب وصلها بما بعدها ، أما علامات الوقف التي وضعها القراء على كلمات القرآن مثل م وط ج وغيرها فهي المعتبر مراعاتها ، وعلى القارئ أن يتقيد بها فيعرف الواجب واللازم والجائز والممتنع ، واتقن هذه الإشارات الموضوعة على الكلمات في المصاحف المصرية التي طبعها فؤاد الأوّل ملك مصر رحمه اللّه "كُتِبَ عَلَيْهِ" أي ذلك الشيطان "أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ" أي تبعه من النّاس فأطاعه انقيادا لوساوسه "فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ" عن الحق ويرمه في الباطل ويوقعه في دسائسه "وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ" (4) إذ ما بعد الحق إلّا الضّلال ، ولا مرجع للضال إلّا جهنم المتسعرة بأهلها

، كما لا مصير إلى المحق إلّا الجنّة النّاعمة بأهلها "يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ" بعد الموت ، ولكم شكّ في الحياة الآخرة ، وإنكم تستعظمون وجودها ، "فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ" راجع الآيتين 64 و67 من سورة المؤمن في ج 2 تجد تفصيل مراتب الخلق وعددها هناك .

واعلم أن العطف بثم في هذه الآية يفيد أن بين كلّ حالة وأخرى من البعد ما لا يخفى أما عطف ثم الأخير فهو لتباعد ما بين الخلقين كما يشير إليه قوله (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) راجع الآية 14 من سورة المؤمنين والآية 54 من سورة الرّوم في ج 2 تقف على ما تريده من هذا البحث .

"مُخَلَّقَةٍ" صفة للمضغة أي تامة لا نقصان فيها ولا عيب "وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ" أي قد تكون ناقصة معيبة في بعض الحواس والجوارح والتخطيط ، راجع الآية 9 من سورة الرّعد المارة .

(117/517)

قال صاحب الجمل على الجلالين هذا تقسيم على سبيل التسمح فإن كلّ مضغة تكون أولا غير مخلقة ثم تصير مخلقة ولو جاء النظم هكذا ثم من نطفة غير مخلقة ثم من نطفة مخلقة لكان أوضح .

ثم قال وكان مقتضى الترتيب السّابق المبني على التدريج من المبادئ البعيدة على القريبة أي تقديم غير المخلقة على المخلقة .

وهذه جرأة عظيمة منه وهفوة كبيرة كما وقع مثل هذا وأعظم من الخطيب الشّربيني في تفسير الآية 65 من سورة يونس في ج 2 عفا اللّه

عنهما وبصرنا بعيوبنا "لِنُبَيِّنَ لَكُمْ" أيها النّاس كمال قدرتنا وبالغ حكمتنا ولتعلموا أن من يقدر على هذا الخلق ابتداء يقدر على الاعادة لا محالة "وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ" من هذه النّطفة المخلقة فنبقيها فيه ونحفظها ونربيها "إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى" عندنا فنسقط منها ما نشاء حسبما اقتضته حكمتنا قبل تمام خلقه ونبقي منها ما نريد بمقتضى إرادتنا "ثُمَّ" تقضي قدرتنا الأزلية باكماله وبعد تمام الأجل المقدر له من علمنا "نُخْرِجُكُمْ" من بطون أمهاتكم بواسطة وبغير واسطة "طِفْلًا" ولا تزالون برعايتنا حتى تشبّوا "ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ" من كمال العقل والقوة والتميز وأنتم بأعيننا "وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى" قبل ذلك "وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ" وهو حالة الهرم والخوف ، ومنكم من يعمر كثيرا وهو مالك لحواسه كافة ، عالم ما علمه ، كالأنبياء وبعض العلماء والعارفين ، لأنهم لا يتناولهم النقص

،

أما غيرهم فقد يرجعون لحالة الطّفولة "لِكَيْلا يَعْلَمَ" شيئا "مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ" كان يعلمه قبل الكبر "شَيْئاً" أبدا لأنه ينساه ولا يخطر بباله حيث يفقد العقل والتمييز ، راجع نظير هذه الآية

الآية 71 من سورة النحل في ج 2 ونظيرتها الآية 68 من سورة يس في ج 1 تجد ما به الكفاية في هذا الشّأن .

(118/517)

وهذا دليل حسي على البعث بعد الموت ، وفي الدّلائل الحسية أيضا "وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً" ميتة يابسة لا شيء فيها ونظيرتها آية فصلت 40 خاشعة راجعها في ج 2 أي ذليلة وهما من حيث المعنى سواء "فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ" بالنبات والأزهار "وَرَبَتْ" انتفخت وارتفعت لتغلغل الري فيها وخروج النّبات منها "وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ" (5) يسر الناظر حسنه واستواؤه وجماله راجع الآية 67 من سورة المؤمن في ج 2 تجد ما يتعلق بهذا البحث بصورة واضحة "ذلِكَ" الذي ذكر من كيفية بدء الخلق وإحياء الأرض والنّبات لتعلموا أيها النّاس "بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ" لا ريب فيه في ذاته وأفعاله وأوامره لا من غيره "وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (6) لا يعجزه شيء وإن إعادة من خلقه هي أهون عليه من خلقه ابتداعا "وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ"

(119/517)

(7) أحياء كما كانوا في الدّنيا قص اللّه في هذه الآية على أهل المدينة حالة النضر بن الحارث الذي كان يكثر الجدل بانكار البعث ويقول إن الملائكة بنات اللّه وقد أنزل اللّه في مكة بحقه الآيات الكثيرة ليعلموا حال المنكرين أمثاله كأبي ابن خلف وأضرابه العريقين في الشّرك والمخاصمة ، كما أنه جل شأنه قصّ حال أبي جهل واضرابه كعيقة بن معيط الّذين أنزل اللّه تعالى فيهم الآيات الكثيرة الحاكية بغضهم وعنادهم وكفرهم وعداوتهم لحضرة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم في مكة أيضا في هذه السّورة المدنية على شأنهم ، فقال جل قوله "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ" (8) بل جهلا وضلالا وعتوا وعناد "ثانِيَ عِطْفِهِ" لاوي عنقه وجنبه عن حضرة الرّسول متبختر متكبر آنفا معرضا عن اللّه "لِيُضِلَّ" بعمله هذا النّاس "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" وعن الإيمان وكتبه ورسله فمثل هذا الخبيث الصّادر عن ذلك "لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ" من أنواع الهوان والذل والمهانة والرّذالة ، وقد قتل في بدر صبرا تحقيرا له "وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ" (9) الذي لا تطيقه القوى البشرية ويقال له "ذلِكَ" الذي لاقيته من خزي الدّنيا وعذاب الآخرة أصابك "بِما قَدَّمَتْ يَداكَ" من تكذيب محمد والتكبر عن دينه والاستهزاء به واختيارك الشّرك على التوحيد وإنكارك هذا اليوم والحياة فيه .

وما وقع عليك من هذا ليس بظلم لك ، بل جزاء عملك باختيارك واقترافك القبائح "وَأَنَّ

اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ " (10) بل يجازي المسيء بحسب إساءته ويكافيء المحسن بأحسن من إحسانه .

(120/517)

هذا ، وما قاله بعض المفسرين من أن هذه الآيات نزلت في النّضر وأبي جهل أراد أن شبهها نزل فيها في مكة ، وإن هذه الآيات نزلت في المدينة تبعا لسورتها حكاية عن تلك الآيات المكيات وقد تلاها حضرة الرّسول على أهل المدينة بيانا لحال أولئك الكفرة لا إنها نزلت فيها ثانيا ، لأنهم قتلوا قبل نزولها ، ولأن شيئا من القرآن لم ينزل مرتين كما ذكرناه غير مرة وأوضحناه في سورة الفاتحة ج 1 ، ولهذا قال بعضهم إنها مكيات .

قال تعالى

"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ" وطرف من الدّين لا في وسطه وقلبه ، لأن الإيمان إذا لم يتغلغل في القلب ولم يذق صاحبه

حلاوته ولم تخالط بشاشته الفؤاد كان دخوله فيه من غير عقيدة راسخة ولا رغبة كاملة ومحبة صادقة ، وكان شاكا مترددا دخله على طريق التجربة "فَإِنْ أَصابَهُ" حال تلبسه فيه "خَيْرٌ" من سعة وصحة وولد وجاه "اطْمَأَنَّ بِهِ" بسبب الخير الذي رآه بدخوله فيه "وَإِنْ

أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ" من فقر أو مرض أو عقر أو حقارة "انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ" القهقرى وارتد كافرا تشاؤما منه ، ولهذا جعل اللّه مثله مثل المتحيّر المضطرب ، ومن كان هذا شأنه في الدّين "خَسِرَ الدُّنْيا" ففاته عزّها وكرامتها وأهين بالجلاء والأسر والسّبي والقتل أو بالجزية والمذلة "وَالْآخِرَةَ" خسرها أيضا لأنه لم يعدّ لها شيئا من الأعمال الصّالحة والأقوال والنّيات الحسنة "ذلِكَ" خسران الدّارين "هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ" (11) الذي لا يخفى على أحد لشدة ظهوره فقيه النّدامة الفارغة والحسرة المحرقة والأسف العقيم .

وقرئ خسر بالفتح على الحال ، وقرئ خاصر بالضم على الفاعلية ، ومثل هذه القراءة التي لا زيادة فيها ولا نقص جائزة إذ لا شيء فيها سوى مد الخاء ، وأن المد والقصر والإدغام والفك جائز ، والمد قد يستعاض عنه بالفتحة القائمة كما في رسم بعض المصاحف ، تدبر .

(121/517)

وهذا المرتد الخامس .

مطلب ظهور غبن الكفرة وأهل الأديان السّتة والسّجود للّه تعالى وضرب المثل به :

"يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ" إن عصاه "وَما لا يَنْفَعُهُ" إن أطاعه "ذلِكَ" دعاؤه من دون

اللّه "هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ" (12) ، عن الصواب لأن هذا الخاسر الضّال "يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ" في طاعته وعبادته "أَقْرَبُ" له "مِنْ نَفْعِهِ" الذي كان يتوخاه منه في الدّنيا ويتوقع نفعه في الآخرة من الشفاعة وغيرها ، أي أنه يدعو لمن ضره بكونه معبودا أقرب من نفعه بكونه شفيعا ، ويقال له في ذلك اليوم أن المولى الذي تدعوه "لَبِئْسَ الْمَوْلى " أي الناصر الذي ترجو معونته فيها "وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ" (13) المصاحب والخليل المرافق هذا وقد ظن بعضهم أن هنا تناقضا ، وهو أنه تعالى قال في الآية الأولى (يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ) إذ نفى النّفع والضّر عن الأصنام ، وقد

أثبتها لها في هذه الآية إذ قال (يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ) وهذا ظن باطل ناشيء عن عدم قديره في كنه كلام اللّه المبرأ من كلّ ظن وشك وزعم ووهم وريب وشبهة ، فضلا عما يزعمه من التناقض ، لأن من أدرك المعنى وعرف المغزى زال عنه ما توهمه من إثبات النّفع والضّر في هذه الآية ونفيهما في الأولى لأن اللّه تعالى صفة الكافر على عبادته في الدّنيا جمادا ، لا يملك ضرا ولا نفعا ، وهو يعتقد فيه جهلا وضلالا أنه ينتفع فيه حين يستشفع به ، ثم قال يقول هذا الكافر يوم القيامة بدعاء وصراخ حين يرى استقراره بسبب الأصنام وإدخاله النّار بعبادتها ولا يرى أثرا للشفاعة التي ادعاها له في الدّنيا لمن ضره إلخ تدبر .

(122/517)

واعلم أن هذه اللام الدّاخلة على من ليست بزائدة كما ذكره بعض المفسرين إذ لا زائد في كتاب اللّه كما أشرنا إليه غير مرة ، وما قيل إن ابن مسعود قرأ بدون اللام لا يستدل به على زيادتها ، وأحسن الأقوال فيها أنها موطئة للقسم أي يدعو واللّه لمن ضره أقرب من نفعه إلخ .

هذا ويتجه انطباق الآيتين على رؤساء الكفرة الّذين كانوا يفزعون إليهم ، لأنهم قد يضرون وينفعون ، وذلك لأن اللّه تعالى بين في الآية الأولى أن الأوثان لا تضر ولا تنفع ، والآية الثانية تقضي كون المذكور فيها ضرا نافعا ، فلو كان المذكور في هذه الأوثان لزم التناقض ، فثبت أنهم الرّؤساء بدليل قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ إلخ) وهذا الاتجاه كما ترى والأوّل أولى وأسلم ، واللّه أعلم .

واعلم أن هذه الآيات الثلاث نزلت في أعراب المشركين الّذين كانوا يأتون المدينة من البادية فيدخلون بالإسلام ويقطنون فيها ، فإذا رأوا صحة بأجسادهم ونتاجا في مواشيهم ونسائهم وزيادة في أرزاقهم قالوا دين حسن فيركنوا إليه ، وإذا كان على العكس قالوا لم يصبنا من هذا الدّين إلّا الشّر ، فيتركون المدينة ويرجعون إلى باديتهم مرتدين ، وذلك لأن دخولهم في الإسلام لم يكن لمرضاة اللّه ولا لابتغاء وجهه ولا لأنه دين الحق ، بل لمطامع دنيويّة يزول بزوالها ، إذ لو كان إيمانهم عن رغبة صادقة ونية خالصة وحب قلبي طلبا لما عند اللّه

في الآخرة لما ارتدوا مهما أصابهم من البلاء ونابهم من العناء وذاقوا من الفتن ، فلم يثنهم عنه شيء حتى القتل ولم يزدهم الامتحان فيه إلّا تمسكا به وشوقا بلقاء اللّه ، أملا

(123/517)

بإنالة وعده للصادقين بقوله "إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ" (14) لأوليائه في الكرامة كما يفعل ما يشاء لأهل معصيته من الهوان ، هذا ولما دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قوما من أسد وغطفان إلى الإسلام وكان بينهم وبين يهود المدينة حلف ، وقالوا تخاف ان أسلمنا أن لا تنصر ولا يظهر أمرك على اليهود ، فتنقطع المحالفة بيننا وبينهم ، فيقطعون عنا الميرة ولا يؤوننا ان نزلنا عليهم ، أنزل اللّه تعالى انزاله "مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ" أيضا ليس في الدّنيا فقط كما ظن هؤلاء "فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ" حبل "إِلَى السَّماءِ" أي يعلق حبلا لجهة العلو كالسقف وغيره ، لأن كلّ ما علاك فأظلك هو سماء ، فيجعله في عنقه ويخنق نفسه خير له من هذا الظّن الفاسد في ربه .

وهنا عدل عن الحقيقة ، إذ صرف لفظ السّماء عن حقيقته الظّاهرة إلى المجاز وهو السّقف الذي يطلق عليه لفظ السّماء مجازا لاستحالة تعلق الحبل بالسماء الحقيقة لئلا

يتعطل اللّفظ تأمل "ثُمَّ لْيَقْطَعْ" ذلك

الحبل أي يخنق نفسه فيه وسمى الإخناق قطعا ، لأن المختنق يقطع نفسه يحبس مجاريه

وبعد ذلك "فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ" ذلك بنفسه "ما يَغِيظُ" (15) أي الذي يغيظه وهو

نصر اللّه له كلا لا يرد من خنقه شيئا بل يبقى كيده في نحره ، وفيه قيل :

ان لم تكوني بهذا الحال راضية فدونك اليوم هذا الحبل فانشنقي

(124/517)

و هذه الآية عامة في معناها لكل من ظن هذا الظّن السّيء بربه ، وتفيد أن اللّه تعالى ناصر

نبيه في الدّنيا والآخرة على رغم حسّاده وأعاديه ، وناصر أنصاره وأتباعه إلى يوم القيامة

إذا صدقوا وداوموا على سنته "وَكَذلِكَ" كما أنزلنا على من قبلك من الرّسل كتبا

وصحفا "أَنْزَلْناهُ" أي هذا الكتاب الحاوي على معنى كلّ ما نزل قبل عليهم .

عليك يا سيد الرّسل وجعلناه "آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي" به إلى دينه "مَنْ يُرِيدُ" (16)

من عباده الّذين سبقت لهم السّعادة في علمه الأزلي "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا

وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ" لم تذكر هذه الكلمة في القرآن كله إلّا هنا "وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا"

وهؤلاء أصحاب الأديان السّتة الموجودون على وجه الأرض عند نزول القرآن لا غيرهم ،

أما الفرق الأخرى الموجودون الآن فقد افترقوا بعد وانشقوا بعضهم على بعض وتشعبوا من هذه الأديان السّتة كما أخبر حضرة الرّسول ، وقد ذكرهم صاحب المواقف في أواخر الجزء الثالث على وجه التفصيل فمن أراد الاطلاع عليهم ومعرفة أديانهم وأهلها والوقوف على كنههم فليراجعه .

(125/517)

فهؤلاء ومن كان على شاكلتهم من المختلفين في أمر الدين المنزل عليك يا أكمل الرّسل لا تعبا بهم الآن "إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ" وبينك وأتباعك ومن اقتفى أثرك ومشى على طريقك "يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" (17) تقدم تفسير مثله في الآية 62 من سورة البقرة المارة وسيأتي ما يقاربها في الآية 77 في المائدة عدا كلمة المجوس قال تعالى "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ" كل بما يناسبه بما أراده اللّه منه ، وبما أن من النّاس من يسجد قولا وفعلا ، قال جل قوله "وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ" لأن بعضهم يتركه ظاهرا وتكبرا وتمردا وهو في الحقيقة ساجد خاضع منقاد للّه تعالى بكليته .

سئل الحجاج هل قتلت أحدا بحق ؟

قال بلى ، قتلت ثلاثة وإني لأرجو أن أدخل الجنّة بسبب قتلهم ، وعدّ منهم رجلا أمره بالصلاة فقال ما يمنعني منها إلّا سجودها وركوعها لما يبدو من ذلك من تمثل العورة ، أي أنه يأنف من ذلك ولو كان أمام اللّه ، فقتله لذلك وما ذلك على اللّه بعزيز إذا حسنت نية الحجاج "وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ" لكفرهم وابائهم عن السّجود مثل هذا الذي ذكره الحجاج لأن من يستكبر أن يسجد للّه فهو كافر "وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ" بالشقاوة الواقعة منه عن رغبة واختيار "فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ" بالسعادة التي أعرض عن أسبابها فسببت له الذل ، ومن يذلّه اللّه لا يكرمه النّاس ولا يصيرونه مكرما عندهم ، لأنه مهان عند ربه "إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ" (18) من إكرام أناس وإهانة آخرين بمقتضى أعمالهم ومنهم يسجد قولا ويأنف فعلا كالمار ذكره ، ومنهم من لا يسجد قولا ولا فعلا كالكفرة ، أما الطّيور والحيوانات والكواكب والجبال والأشجار والنّبات فتسجد

(126/517)

بحسبها كما أنها تسبحه بحسبها ، راجع الآية 45 من سورة الاسراء في ج 1 .

ثم أشار تعالى لأهل الأديان السّتة المار ذكرهم بقوله "هذانِ خَصْمانِ" بلفظ التشبه لأنهم في الحقيقة صنفان أهل كتاب ومشركون ، وبما أن أهل الكتاب لم يعملوا به ولم يؤمنوا بمحمد

فيكون الصّنفان مؤمنين وكافرين ، لأن الأصناف الخمسة متساوون بمعنى الكفر ، فهم بمثابة واحدة فيكونون صنفا والمؤمنون صنف ، وقد جمع الضّمير بقوله "اخْتَصَمُوا" كل منهم "فِي رَبِّهِمْ" في الدّنيا أي اختلفوا في دينه الذي شرعه لهم على لسان أنبيائه المرسلين إليهم راجع الآية 26 من سورة النّور المارة .

وقد بين اللّه كيفية الفصل بينهم فيما تقدم من الآيات وفي قوله تعالى "فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ" (19) الماء الشّديد الغليان المتناهي في الحرارة .

ثم بين مبالغة تأثيره فيهم بقوله "يُصْهَرُ" يذاب "بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ" من الشّحوم والأحشاء والأمعاء "وَالْجُلُودُ" (20) يذيبها أيضا

"وَلَهُمْ" عذاب آخر وهو "مَقامِعُ" سياط "مِنْ حَدِيدٍ" (21) يضربون بها "كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ" من غمومها الكثيرة وحاولوا الهرب للتخلص من كربها وصعوبة بلائها "أُعِيدُوا فِيها" أعادتهم ملائكة العذاب إليها عنفا وقسرا بالضرب والكبح ويقولون توبيخا لهم وتقريعا حال ضربهم وردهم إليها "وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ" (22) وهذا حكم اللّه

تعالى يوم القيامة على فريق الكافرين أهل النّار ، أما حكمه على المؤمنين أهل الجنّة فهو ما ذكره بقوله "إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ" (23) ويسميه العراقيون إبريسم ، وهو المفتول منه عرفا "وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ" وهو ما ذكره اللّه تعالى (وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) الآية 25 من سورة فاطر ج 1 وبقوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ) الآية 75 من سورة الزمر ج 2 "وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ" (24) الطريق المحمود الموصل إلى جنته بسلام .

هذا ومن قال إن هذه الآية نزلت في

(128/517)

علي كرم اللّه وجهه وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث حين بارزوا عتبة وشيبة بنى ربيعة والوليد بن عتبة في بدر فغير وجيه ، لأن هذا الاختصام المشار إليه في هذه الآية تفريع عما جاء في الآية السّابقة التي أشرقا إليها وهو اختصام في الدّين لا في الحرب ، وهي متأخرة في قصة بدر ولم تأت بسباق قصة حكاية الحال حتى يصبح القول بما ذكر ، كما أن ما قيل إن هذا الاختصام بين الجنّة والنّار قول واه أيضا ، وإن ما رواه البخاري عن علي كرم

اللّه وجهه أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الرّحمن يوم القيامة لا يقصد منه هذه الخصومة ، وقد يراد بها – واللّه أعلم – ما وقع بينه وبين معاوية مع ابنه الحسن وبين الحسين ويزيد إلا أن وقوع هذا بعد وفاته يبعده عن الواقع ، تدبر .

وكذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلم قال تحاجت الجنّة والنّار فقالت النّار اوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنّة فما لي لا يدخلني إلّا ضعفاء النّاس وسقطهم – الحديث – لا ينطبق علي هذه الآية وجوب حمل معناها على غير ظاهرها دون موجب أو صارف وهو غير جائز وما رواه قيس بن عبادة من أن أبا ذر أقسم أن هذه الآية نزلت في الّذين برزوا يوم بدر لا يصلح للاستدلال ، لأنه خبر واحد وأخبار الآحاد لا تكون حجة لدحض مثل هذا ، وإنما المراد في هذه الخصومة واللّه أعلم ما وقع من الاختلاف في أمر الدّين بين أهله المذكورين في هذه الدّنيا ، وأنه يجاء بهم يوم القيامة بين يدي اللّه عز وجل فيفصل بينهم على الوجه المذكور فيها ، كما ينبيء عنه ظاهر التنزيل .

(129/517)

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا" بما جاء به محمد "وَيَصُدُّونَ" الناس مع كفرهم "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" فيمنعونهم من الدّخول في الإسلام "وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ" فيمنعونهم من دخوله وهو "الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ" عامة لا يختص به واحد دون آخر ، فهو قبلة ونسك وتعبّد إلى جميع الخلق "سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ" المقيم القاطن "وَالْبَادِ" الذي يأتيه من البادية ، فلا يجوز لأحد أن يمنع أحدا من دخوله والطّواف به .

وخبر إن هذه محذوف تقديره (نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) بدلالة خبر "وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ" أي أي مراد كان في أنواع الكفر والظّلم بدلالة التنوين والتنكير

نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" (25) في الآخرة فضلا عما يصيبه من الهوان في الدّنيا أخرج الترمذي وأبو داود والنّسائي عن جبير بن مطعم أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلم قال يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحدا طاف بهذا البيت وصلّى أي ساعة شاء من ليل أو نهار .

هذا ومن قال إن المراد بالمسجد جميع الحرم يترتب عليه عدم جواز بيع بيوت مكة وإن النّاس فيها سواء ، وهذا ينافيه قوله تعالى (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ) الآية 41 الآتية إذ أضاف الدّيار إلى مالكيها .

وقوله صلّى اللّه عليه وسلم يوم فتح مكة من أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

إذ نسب الدّيار إليهم نسبة ملك ، فلو كانت من الحرم لما نسبت إليهم ، وشراء السّيد عمر

بن الخطاب رضي اللّه عنه دار السّجن بأربعة آلاف درهم يدل على جواز بيعها ، فلو كانت من

(130/517)

الحرم لما جاز له ذلك ولم يقروه عليه ، أما ما قاله عبد الرّحمن بن سابط من أن الحجاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهلها بأحق في منزلة منهم ، وما روي عن عمر بن الخطاب وابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة في المعنى الذي ذكره عبد الرّحمن ، لا يدل على أنها من جملة الحرم الذي يشترك فيه النّاس أجمع وإنما يدل على كرم أخلاق أهل مكة وحسن قراهم للضيف ، ومساواتهم له بأنفسهم وجعلهم الضّيف كأحد في منازلهم ، وهو على حد قوله :

يا ضيفنا لو جئتنا لوجدتنا نحن الضّيوف وأنت رب المنزل

مطلب إظهار قواعد البيت ، وعمارته ، والحج إليه ، وفوائد الحج ، والدّبائح وما يتعلق فيها المادية والمعنوية :

قال تعالى "وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ" أي واذكر يا سيد لرسل لقومك زمن إظهار البيت لجدك ابراهيم وجعلنا إياه له متوأ ومسكنا يسكن به ومأوى يرجع إليه ، وذلك حين

أمره اللّه ببنائه بعد الطّوفان ، وكان لم يدر مكانه الذي كان فيه قبل الطّوفان لاندثاره ، قالوا بعث اللّه ريحا خجوجا (1) هي لشديدة الحر أو المتلوية في هبوبها .

ومعنى الحج الدفع والشّق والالتواء والجماع ، وله معان أخر غير هذه ، فكنست ما حوله حتى ظهر وبرز أساسه ، فعمره على النّحو الذي ذكر في سورة البقرة في الآية 136 المارة ، وقلنا له "أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا"

---

(1) الخجوج للريح الشديد ، المراد الملتوية في هبوبها كالخجوجات . ا ه قاموس .

(131/517)

من الأشياء سماويا أو أرضيا "وَطَهِّرْ بَيْتِيَ" من أقذار الأوثان وأوساخ الكفر ليكون نظيفا طاهرا من الأرجاس والأنجاس كما كان من قبل حين بنته الملائكة وآدم من بعدهم ، وأبحه "لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ" فيه "وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ" (26) لجلالي وعظمتي "وَأَذِّنْ" أعلم وناد "فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ" قالوا فقال يا رب وما يبلغ صوتي في وسيع ملكك ، فقال تعالى عليك الأذان وعلينا الإسماع والإبلاغ ، فقام عليه السّلام على المقام المعروف اليوم وأدخل أصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا ، وقال بأعلى صوته أيها النّاس ألا إن ربكم قد بنى بيتا وكتب عليكم الحج إليه ، فأجيبوا ربكم ، فأجابه كلّ من يحج إلى يوم القيامة من

الموجودين على ظهر الأرض إذ ذاك ، ومن أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ممن كتب اللّه له الحج ، قائلا لبيك اللّهم لبيك .

ولا يقال في هذا لأن المستمع هو الذي خاطب خلقه في عالم الذرّ بقوله (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) كما تقدم في الآيتين 172 و173 من سورة الأعراف المارة في ج 1 .

وإياك أن تستعبد هذا الإسماع أيها الإنسان أو تشك فيه فإذا كان الرّاد المحدث الآن يسمع أهل المشرق والمغرب بآن واحد بثانية واحد ، وإن اهتف يخاطب به كذلك وهو من صنع خلقه ، فكيف بخالق هذا الخلق أيعجزه ذلك ، كلا ثم كلا ، وهو القادر على كلّ شيء .

وإذا ناديتهم يا خليلي ستراهم "يَأْتُوكَ رِجالًا" مشاة "وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ" ركبانا والضّامر البعير المهزول من نصب السّير وتعب الثقل وقلة الأكل والشّرب .

(132/517)

ومما يدل على بعد الشّقة قوله "يَأْتِينَ" تلك الإبل الضّوار بركابها "مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ" (27) طريق بعيد والفج الطّريق في الجل وغلب على غيره وعمقه بنسبة علو الجبل المنشق منه عن يمينه وشماله ، وهؤلاء المدعون يأتون لهذا البيت "لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ" دينية ودنيوية مختصة في هذا البيت لا يشهدونها في غيره ولا توجد إلّا به ، راجع الآيتين 158 و96 من

سورة البقرة والآية 97 من آل عمران المارات "وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ" على ما سينحرونه من الهدى "فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ" ويكبرون عليها إذا أريد ذبحها يوم النّحر وأيّام التشريق بدليل قوله تعالى "عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ"

أضحية وهديا ، وإذا فعلتم هذا أيها النّاس امتثالا لأمري "فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ" (28) الذي لا شيء عنده .

كانت العرب في الجاهلية لا تأكل لحوم ضحاياها وهداياهم ، فأمر اللّه تعالى بمخالفتهم وأباح لعباده الأكل منها ، أخرج مسلم عن جابر بن عبد اللّه في قصة حجة الوداع قال وقدم علي كرم اللّه وجهه ببدن من اليمن وساق رسول اللّه مئه بدنة فنحر منها ثلاثا وستين بيده الشريفة صلّى اللّه عليه وسلم ، ونحر عليّ ما نحر أي ما بقي ، وأشركه في بدنه ، وفي عدد ما نحره صلّى اللّه عليه وسلم إشارة إلى مدة حياته إذ توفي في الثالثة والسّتين من عمره ، وفي هذا يعلم أن حضرة الرّسول قد أعطى من القوة ما لم يعطها غيره قط ، لأن أحدا لا يقدر على نحر عشر من الإبل دفعة واحدة ، فهو أكمل الخلق مادة ومعنى وخلقا وخلقا وقلبا وقالبا وروحا وجسما .

ثم أمر من كلّ بدنة ببضعة أي قطعة فجعلت في قدر وطبخت ، فأكل منها وشرب من مرقها ، مما يدل على جواز الأكل من لحوم الأضحية دون قيد أو شرط .

وقد اختلفت الأئمة في ذلك فمنهم من جوز الأكل من الهدايا الواجبة كدم التمتع والقرآن وما جبر بإفساد شيء من واجبات الحج وجزاء العيد ، واتفقوا على جواز الأكل من جميع هدايا التطوع والأضحية إذا لم تكن منذورة

،

وإذا أريد بالأيام عشر ذي الحجة يراد بالذكر مطلقه وما يتلى غالبا في أيام الحج .

قال تعالى "ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ" أي لينتهوا من إزالة أدرانهم وأوساخهم ويقصوا شعورهم وأظفارهم ويستحدوا (يحلقوا عانتهم) وينتفوا آباطهم ويغيروا ما أحرموا به بالثياب النّقية ، لأن الحاج مادام محرما أشعث أغبر "وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ" التي التزموها وأوجبوها على أنفسهم .

وهذه الآية عامة في الحاج وغيره وإن ورودها في معرض الحج لا يقيدها بالحاج ، وهذا الأمر للوجوب وقدمنا ما يتعلق بهذا في الآية 7 من سورة الإنسان والآية 170 من البقرة المارتين "وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ" (29) يكثروا الطّواف فيه بدليل تضعيف الفعل وسمي عتيقا لأنه أول بيت وضع للناس كما مر في الآية 97 من آل عمران المارة والمراد بهذا الطّواف طواف الإفاضة وأول وقته يوم النّحر بعد الرّمي والحلق ، ويسمى طواف الزيارة وهو أحد فرائض الحج الثلاثة وأولها الإحرام وثانيها

الوقوف بعرفة ، أما طواف القدوم وهو أول وصوله إلى مكة فهو سنة ، وطواف الوداع وهو عند قرب خروجه منها واجب "ذِلِكَ" شهود المنافع وذكر الإله والأكل من لحوم الهدي وإطعام الفقراء منهما وقضاء التفث وإيفاء النّذور والطّواف بالبيت كلها من تعظيم حرمات اللّه "وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ" بالاجتناب لكل ما لا يحل هتكه وإثبات جميع ما كلف اللّه به الحاج من مناسك وغيرها "فَهُوَ" أي ذلك التعظيم "خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ" عظيم نفعه لا يقدر قدر خيره إلّا هو .

(134/517)

ومما يدل على عظمة تفكيره "وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ" الإبل والبقر والغنم وغيرها - أكلا وذبحا واقتناء - فمن الأنعام ما يركب ويؤكل وهي الإبل ، ومنها يؤكل ولا يركب كالأغنام وشبهها .

واعلم أن الخيل والبغال لا تدخل في معنى الأنعام ولا يشملها لفظها .

ثم لستثنى جل جلاله من عموم ذلك فقال "إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ" تحريمه مما يأتي ذكره وتفصيله في الآية 4 فما بعدها من سورة المائدة بصورة أوضح مما تقدم في الآية 149 فما بعدها من الأنعام إن شاء اللّه ، فهذا المستثنى حرام نجس "فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ" كما

تجتنبون ما حرّم عليكم أكلهم لاشتراكها في الرّجسية ، بل عبادة الأوثان أعظم وزرا وتلويثا للانسان من تلويث النّجاسة ، لأن فيها الإشراك باللّه وهو كفر محض وليس في أكل المحرم إلّا الحرمة التي يفسق فاعلها إذا لم يستحله ، وأعظم أنواع الكفر الشّرك .

جاء في الإصحاح 15 من إنجيل متى ليس ما يدخل في الفم ينجّس الإنسان بل ما يخرج من الفم .

وقال في الإصحاح 13 من فضلة القلب يتكلم الفم "وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ" (30) الافتراء والكذب والبهتان وشهادة الزور ومأخوذة من الزور وهو الانحراف وكفى به إثما إنها عدلت الإشراك باللّه راجع الآية 72 من سورة الفرقان ج 1

فاتركوا هذا أيها المؤمنون وكونوا مخلصين "حُنَفاءَ لِلَّهِ" عادلين عن غيره مائلين له "غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ" أحدا ولا شيئا "وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ" غيره من صنم أو وثن "فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ" فسقط على الأرض "فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ" بسرعة وتذهب به "أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ" فتميل به وتطرحه في "مَكانٍ سَحِيقٍ" (31) بعيد فيصير

مسحوقا مكسرا ولم تكرر هذه الكلمة في القرآن ، والمعنى أن المشرك باللّه يهلك نفسه إهلاكا ما بعده إهلاك ويدمّر نفسه تدميرا فظيعا شنيعا "ذِلكَ" الذي يجتنب الرّجس ويخلص للّه فقد عظم شعائر اللّه "وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها" خصلة التعظيم ما تكون في الإنسان إلا "مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ" (32) التي هي مراكز التقوى وملاك القوى .

والشّعائر جمع شعيرة وهي العلامة من الأشعار الذي هو الأعلام وكلّ ما هو من معالم الحج يسمى شعيرة ، ومنها الهدايا والضّحايا وتعظيمها استحسانها واستسمانها "لَكُمْ فِيها" أي الهدايا المشعرة وذلك أنهم كانوا يطعنونها في سنامها من أيمنه أو أيسره حتى يسيل منها الدّم فيعلم من يراها أنها هدي فلا يتعرض لها "مَنافِعُ" في نسلها ودرعا وصوفها ووبرها وركوبها وبيع أولادها ما زالت عندكم تنتفعون بها "إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى" هو وقت نحرها إذا سماها هديا أو أوجبها ضحية وبعد التسمية لا حق له بشيء منها ولا بمنافعها ، إلا أنه يجوز ركوبها فقط لما روي عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة فقال اركبها ، فقال يا رسول اللّه إنها بدنة ، فقال اركبها ويلك – أخرجاه في الصّحيحين – فيظهر من هذا أن جعلها هديا لا يمنع من ركوبها "ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ" (33) وأن منفعتها العظمى بعد تلك المنافع تكون عند منحرها بالحرم المنتهية إليه إذ تذبح هناك وينال صاحبها منفعتها الكبرى الدائمة عند اللّه تعالى في يوم يكون صاحبها أحوج منه إلى غيره .

أما منفعتها الدنيوية ففانية ، والمراد بالبيت هنا ما يشمل الحرم كله على حد قوله تعالى (هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ) الآية 98 من سورة المائدة الآتية وهي كلها منحر .

(136/517)

قال تعالى "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ" من الأمم "جَعَلْنا مَنْسَكاً" بفتح السّين لإراقة الدّم وذبح القرابين خصصنا موضعا "لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ" عليها عند ذبحها شكرا لجلاله "عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ" التي يتقرب بها إليه دون غيرها ولذلك أضاف لها الأنعام لأن البهيمة مبهمة في كلّ ذات أربع في البر والبحر مما يؤكل ومالا "فَإِلهُكُمْ" أيها الحاضرون وإله الّذين من قبلكم ومن بعدكم إلى يوم القيامة وبعدها "إِلهٌ واحِدٌ" عالم قدير خالق رازق محيي مميت منعم معذب

"فَلَهُ أَسْلِمُوا" وانقادوا أيها النّاس لعظمته وأخلصوا لكبريائه والهجوا بذكره وحده على الذبح وغيره ، ولا تذكروا شيئا سواه أبدا "وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ" (34) له الخاشعين لهيبته الخاضعين لعبادته "الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ" أمامهم وبمسمعهم "وَجِلَتْ" خافت أشد الخوف "قُلُوبُهُمْ" ورجفت لعظمته فيها وهيبته عليها فبشر هؤلاء يا سيد الرسل "وَالصَّابِرِينَ" بشرهم "عَلى ما أَصابَهُمْ" من البلاء والمحن الواقعة عليهم من اللّه ومن خلقه ، لانهم يعلمون

أنها بقضائه وقدره "وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ" بأوقاتها الموفين بأركانها وواجباتها وسننها بشرهم أيضا "وَ" بشر الّذين "مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" (35) على المستحقين وخاصة الّذين يؤثرون الفقراء على أنفسهم بشرهم برضوان اللّه ورحمته.

(137/517)

قال تعالى "وَالْبُدْنَ" جمع بدنة تطلق على الإبل والبقر فقط لبدانتهما "جَعَلْنَاهَا لَكُمْ" أيها النّاس ملكا، وجعلنا ذبحها في الحرم للحاج وغيرهم أضحية تذبحونها فيه ليتنا ولها أهله المحتاجون "مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ" واعلام دينه "لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ" في الدّنيا بالذكر الحسن وفي الآخرة بالثواب العظيم إذا هديتموها وذبحتموها وتصدقتم بها على أهل اللّه وعياله، وإذا أردتم ذبحها "فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ" بالفتح دون تنوين، وقرئت منوّنة على لغة من يصرف مالا ينصرف، قال الرّاجز

والصّرف والجمع أتى كثيرا حتى ادعى قوم به التخييرا

"وَالْمُعْتَرَّ" الملحف بالسؤال "كَذَلِكَ" مثل ما سخّرناها لكم بأن تذبح وهي قائمة "سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ" للركوب والحمل وذللناها لكم حتى صارت تنقاد للطفل لكمل استفادتكم منها، ولولا هذا التسخير لما استفدتم منها شيئا من ركوب وحمل وحليب

رجزّ وبر وغيرها لأنها أقوى منكم ،

وقد فعلنا هذا لكم "لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (36) نعمة ربكم على

واعلموا أيها النّاس أن هداياكم وضحاياك المدن والقرى حتى اليوم ، وذلك أنهم عند ما يذبحون نذرا أو خيرا أو عند إرادتهم البناء تبركا أو عند إكماله شكرا بزعمهم يلطخون باب الدّار والجدران بدم ما يذبحونه تقليدا على فعل الجاهلية بالكعبة المعظمة ، فرد اللّه عليهم بأن هذا العمل ليس من القربة المراد بها وجه اللّه والتي يثاب العبد على فعلها ، لأن اللّحوم والدّماء لن ترفع إلى اللّه تعالى بل يرفع ثوابها إذا كانت على وجه شرعي "وَلَكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ" أي يرفع إليه العمل الصّالح والإخلاص فيه المعبر عنه بالتقوى التي يجب ان تنحلوا بها فهي التي يراد بها وجه اللّه ويثاب عليها .

(138/517)

قال تعالى (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) الآية 40 من سورة فاطر ج 1

"كَذلِكَ" مثل هذا التسخير البديع "سَخَّرَها" أي البدن "لَكُمْ" أيها النّاس للاستعمال والذبح "لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ" عند ذبحها على ما هداكم لمعالم دينه وأرشدكم إليها "وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ" (37) بالثواب العظيم عند اللّه تعالى إذا فعلوا ما أمروا به واجتنبوا ما نهوا

عنه في هذه المناسك التي سماها اللّه تعالى منافع .

هذا وليعلم أن الحج من العوامل القوية على تآلف المسلمين واتحادهم على توثيق عرى المحبّة والعون على إجراء الحق بينهم وتوحيد كلمتهم .

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) الآية العاشرة من سورة الحجرات الآتية ويدعو إلى تعاضدهم وتآزرهم بما يتعلق بجميع شؤنهم وإصلاح كيانهم وإعلاء شأنهم حتى تكون العزّة لهم .

قال تعالى (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) الآية 138 من سورة النّساء المارة وهو العامل الأقوى على لمّ شعثهم وتقويم اعوجاجهم حتى يكونوا الأمة الكريمة التي عناها اللّه بقوله (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) الآية 130 من آل عمران المارة .

وإنما فرضه اللّه تعالى على المستطيع من عباده ليرى حكمته البالغة ، ويقدر فوائده العظمى التي تعود على المسلمين بالخير الوافر والنّعم

الجزيلة ، إذا قدره حق قدره ، وعرف المغزى من فرضه ، واستغل ما وضع له وحاول جني ثماره ، لأن هذا الرّكن العظيم من أركان الإسلام يرمي إلى الاتحاد والتوثيق حتى يشعر بأن النّاس كلهم روح واحدة على ما هم عليه من بعد الشّقة ، ونفس واحدة على ما هم عليه من الاختلاف باللغة واللّون والسّعادة والسّكن .

قال تعالى (ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ) الآية 28 من سورة لقمان في ج 2 وإن الفطن ليلمس هذا القصد فى دعوة النّاس إلى الاجتماع في صعيد واحد متجهين لقبلة واحدة بزيّ واحد وغرض واحد ، فإذا فقه المسلمون وتيقظوا لهذا وانتهزوا الفرصة بزيارة هذا البيت ، وعرفوا ضالتهم المنشودة ومطلبهم السّامي منه ، فتعاونوا بعضهم مع بعض وتعرّف بعضهم إلى حوائج البعض ، وعرفوا كيفية الوصول إلى سبيل التعاون إذا ألم بهم حادث أو طرات عليهم مصيبة كيف ينقذون أنفسهم منها ، فيذرقون حلاوة هذا الاجتماع ولا يكونون كمن ذمهم اللّه في قوله (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى" الآية 19 من سورة الحشر الآتية أجارنا اللّه من ذلك .

ثم أنهم إذا رأوا الأسود والأبيض والأحمر والأسمر متساوين في الخشوع لرب ذلك البيت ، لا فضل لعجمي على عربي ، ولا لغني على ؟ ؟ لا لشريف على حقير ، وشاهدوا الملك والمملوك والجهلة والعلماء ، والرّعية والأمراء سواسية ، وقفوا هناك على كلمة قوله تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ) الآية 13 من سورة الحجرات الآتية لأنهم كلهم متساوون في تركهم بلادهم ، وفراق أهلهم وأولادهم ، وإجابة دعوة ربهم إلى بيته المطهر ، قال تعالى (أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) الآية 136 من البقرة المارة ونظيرتها الآية 27 المارة إذ لم يفرق اللّه تعالى بدعوته بين واحد دون آخر ، ولم يكلف الفقير رحمة بحاله

ليس إلا ، فإذا تجشم ذلك فله ما للغني من الثواب ، وقد يزيده ربه إذا حسنت نيته ، وإذا كان كذلك علم كلّ منهم أن هذا المؤتمر الإسلامي الجامع إنما عقد للخضوع إلى اللّه تعالى وللتّعاون في مصالح الدّين والدّنيا ، وتيقن إن هذا الدّين لا يدعو إلّا إلى خير واحسان .

قال تعالى (ذِلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) الآية

(140/517)

---

30 من سورة الروم في ج 2 .

فمن أجاب دعوة اللّه كان هو المتمسك بعروته

الوثقى ومن حزب اللّه (أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الآية 22 من سورة المجادلة الآتية ، ولا شك أنهم هم الفائزون بقوله تعالى (فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ) الآية 159 من المائدة الآتية .

أما المتقاعسون عنه مع القدرة ، فهم الّذين (اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ) الآية 19 من المجادلة الآتية .

هذا من جملة منافع الحج المعنوية أما منافعه المادية المحسوسة فمنها مشاهدة تلك البقاع المباركة التي ظهر فيها حضرة الرسول الكريم ومواقف الأنبياء قبله ، ذلك المرسل إلى النّاس

كافة (شاهِداً وَمُبَشّراً وَنَذِيراً .

وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً) الآيتين 44 و45 من سورة الأحزاب المارة بدليل قوله جل قوله (قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) الآية 158 من الأعراف ج 1 ، وفيها ما يرشدك إلى ما يتعلق فيها التي لبث فيها ثلاثة عشر عاما يدعو النّاس إلى توحيد اللّه وتنزيهه عن الشّرك ، وكان يعاملهم بالرفق واللّين والرّحمة مع ما هم عليه من الجفاء والغلظة والشّدة تبعا لقوله تعالى (ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) الآية 125 من سورة النّحل ج 2 ، ويشاهد مواقع مكة المكرمة فيعتبر بما وقع فيها لسيدنا ابراهيم وابنه إسماعيل عليهما السّلام والأنبياء من قبلهما وبعدهما وما تركوه من آثار للاتعاظ والاعتبار ، فيعمل ويخشع .

(141/517)

قال تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) الآية 16 من سورة الحديد المارة ، فرؤية هذه المواقع المقدسة تعين القلب وتذكر الرّوح بما كان فيها من إعطاء العهد لربها في الآيتين 171 و172 من الأعراف في ج 1 فتجهد نفسها للوفاء به وتستمد من غيرها

المعاونة على العمل الصّالح للدنيا والآخرة وتعتبر بمصير من نكث عهده مع اللّه ونقض ميثاقه كيف حل بهم عذابه في الدّنيا وما أوعدهم به من العذاب الأخروي ومن منافع الحج المغفرة الواسعة الشّاملة لأشياء لا يمحوها إلا الحج ، قال صلّى اللّه عليه وسلم الحج مبرور ليس له جزاء إلّا الجنّة وجاء أن من الذنوب ما يكفرها إلّا الحج ، وقال عليه الصّلاة والسّلام من حجّ ولم يرفث ولم يفسق

رجع كيوم ولدته أمه .

وقد ضمن له الرّسول عن ربه عز وجل أن يرجعه سالما أو يدخله الجنّة .

قال تعالى (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) الآية 100 من سورة النّساء المارة وذلك لأنه لم يخرج إلّا للّه ، والأعمال بالنيات .

ومن منافعه أنه وسيلة للتوبة لأن من لم يتب في مثل ذلك المكان ولم يخلص فيه الملك الدّيان يخسر الدّنيا والآخرة .

(142/517)

ووسيلة إلى الانتهاء عن المعاصي جميعها ، قال تعالى (فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ) الآية 297 من البقرة المارة ، لأنه إذا كان ينهى عن ملامسة الزوجات الحلال فلأن

ينهى عن غيرهن من باب أولى ، وذلك أو الحاج زمن الإحرام منهي حتى عن ملاذ اللّباس وزخارف الحياة ، وما ذاك لتجنب الفتنة بجميع أنواعها ، وهناك لا يشغل الغني جاهه ووجاهته ، ولا تفتن الفقير حاجته وفاقته ، فلا هو يحسد الأغنياء ، ولا هم يمتهنون الفقراء ، والكل أمام ان سواء حاسبين حساب المال ، تائبين بطبيعة الحال ، لا يعتبرون أنفسهم إلّا عبيد آبقين ، قد آبوا إلى مولاهم مخلصين ، راجين القبول والعفو عما مضى وإنه تعالى لا يخيب عبيده ، ومن كمال رأفته بهم لا يسعه ردهم ، وقد يتجلى عليهم بصفت الرحمانية وفضله الوافر ، وهو المنان عليهم ، فيبدل شرهم خيرا ، وعسرهم يسرا قال تعالى (إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ) الآية 70 من سورة الفرقان ج 1 .

اللهم مهد لعبيدك أسباب الوصول إلى رحمتك وافتح لهم أبواب القبول ، ويسر لهم القيام بخدمتك (رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ) الآية 38 من سورة إبراهيم عليه السّلام .

مطلب المدافعة عن المؤمنين من قبل اللّه وأول آية نزلت في الجهاد :

قال تعالى : "إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا" فلا يمكّن أعداءهم منهم إذا كانوا مؤمنين حقا ، لأنه جل شأنه وعد بذلك فقال كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

الآية 48 من سورة الرّوم وقال تعالى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا) الآية 51 من سورة المؤمن وقال تعالى (إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ .

وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ) الآية 172 من سورة الصّافات ج 2 راجع هذه الآيات تعلم كما أنت

(143/517)

عالم من قبل أن وعده منجز إن اللّه لا يخلف الميعاد الآية 9 من آل عمران المارة وقال عز قوله (وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ) وقال جل قوله (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً) (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) الآيات الآية 112 من سورة التوبة الآتية والآيتين 112 و152 من سورة النّساء المارة ، كلا لا أحد أوفى وأصدق البتة ، وحاشاه من الخلف ، وإنما يقع منا نحن المسلمين المؤمنين اسما لا فعلا ، فلو كنا مؤمنين حقيقة إيمانا صحيحا كما أراده اللّه منا لكانت كلمتنا هي العليا دائما ولكنا أعزاء بعزة اللّه تعالى ورسوله المنوه بهما بالآيتين آنفا ، ولكنا تركنا فتركنا ونسينا فأهملنا ، قال تعالى (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) الآية 68 من سورة التوبة الآتية وقال تعالى محذرا ومنذرا (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ) الآية 19 من سورة الحشر المارة ، فإنا للّه وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ) راجع هذه الآية 54 من سورة الأنفال المارة ونظيرتها الآية 11 من سورة الرّعد المارة أيضا وإنا واللّه قد غيرنا وبدلنا وخنا أنفسنا

وإخواننا لأنا لم نساعدهم عند ما يتجاوز عليهم إذا كنا بأمن مما يصيبهم ، وهذه هي الخيانة العظمى ، لذلك تبع اللّه هذه الجملة بقوله "إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ" (38) لحقوقه ومن حقوقه نصرة المؤمنين ومعونتهم بعضهم لبعض ، لأن المؤمن أخو المؤمن لا يخذله ولا يظلمه ولا يسلمه ولا يحقره ولا يتخلى عنه إذا وقع في شدة أو أحاطت به الأعداء ، بل يجب عليه نصرته مالا وبدنا ، المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، فإذا لم يساعد بعضهم بعضا تفرقوا وانهاروا كما يتهار البناء غير المتقن أساسه ، هذه فلسطين ينتابها العدو فيخذل

(144/517)

أهلها ، ويسلب مالهم وملكهم ، ويقتل رجالهم ، ونحن نسمع ونرى ونقعد عنهم ونعد أنفسنا مؤمنين ، بل نحن القاعدون كالّذين أشار اللّه إليهم في الآية 82 من سورة التوبة الآتية المتخلفون عن مساعدة إخواننا ولا نتأذى لأذيتهم ، والمؤمنون الصّادقون كالجسم الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالسهر والحمى ، فإذا تناصر المؤمنون فتعاونوا وتشاركوا بالضر والنّفع وأخلصوا لربهم دافع عنهم ونصرهم ورفع كلمتهم وأعلى شأنهم ، كيف واللّه يقول (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)

الآية من آخر سورة المجادلة ، وإنه تعالى يوفي لهم وعده المشار إليه في الآيات المارة ، ومتى ما تخاذلوا وتقاطعوا ولم يبال بعضهم ببعض أهينو كلهم ، واسترقوا وهلكوا أو ندموا من حيث لا ينفعهم النّدم ، راجع الآية 102 من آل عمران فما بعدها ، قال تعالى "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ" من قبل أعدائهم بأن يقاتلوهم بالمقابلة ، وإنما أذن اللّه لهذا الصّنف بقتال أعدائهم "بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا" من قبلهم وتوالت عليهم تعدياتهم القولية والفعلية وكانوا يشكون أمرهم لحضرة الرّسول فيأمرهم بالصبر إذ لم يؤذن لهم بالقتال حتى خرج قوم من هذا الصنف مهاجرين بدينهم من مكة إلى المدينة قاصدين الالتحاق بحضرة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم فاعترضهم قوم من مشركي مكة فاعتدوا عليهم فأنزل اللّه هذه الآية وهي أول آية نزلت بالقتال بعد أن نهى عنه رسوله في نيف وسبعين آية أخرج ابن جرير عن أبي العالية أن أول آية نزلت (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ) الآية 197 هذه من سورة البقرة المارة ، وإنما رجح في الآية بأنها أول آية نزلت في القتال لأن نزولها قبل هذه الآية التي نحن بصددها ، ولأنها مقيدة بقتال من قاتل ، والآية التي نحن بصددها أكثر إطلاقا منها ، فمن هذه الحيثية يقال إنها أول آية نزلت في القتال على الإطلاق ، راجع الآية 54 من سورة النّساء المارة ،

لأن الّذين نزلت هذه الآية بحقهم هم من ذلك القبيل : أما ما جاء في الإكليل للحاكم من أن أول آية نزلت في القتال (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) فلا يصح ، لأن هذه الآية 113 من سورة

(146/517)

التوبة التي لم تنزل بعد لأنها متأخرة في في النّزول عن ذلك كله ، وهي نزلت جملة واحدة تأمل "وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ" (39) تشير هذه الجملة إلى الوعد لهم بالنصر دون معونتكم لهم ولكن اللّه تعالى يريد أن تتناصروا على العدو ليزداد التآلف بينكم ولتكونوا يدا واحدة على الأعداء لتهابكم وتعظموا بأعينهم فلا يجرأوا على إيقاع شيء فيكم .
ثم وصفهم اللّه بقوله "الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ" وما كان سبب إخراجهم "إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ" لا غير ، وهذا يوجب إبقاءهم فيها وإكرامهم وصيانتهم واحترامهم ، لا إخراجهم وإهانتهم "وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ"

(147/517)

و تسليط أولياءه على أعدائه لاستولى المشركون على الموحدين الأقدمين من أمم الأنبياء الأوّل فضلا عنكم أيها المؤمنون المخاطبون ومن بعدكم ، ومنعوهم عن عبادة اللّه المفهومة من قوله عز قوله "لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ" هي معابد الرهبان في الوادي ، وتطلق على معابد الصّابئين أيضا "وَبِيَعٌ" هي معابد النّصارى التي يطلقون عليها الآن لفظ كنائس "وَصَلَوَاتٌ" اسم العبراني معناه كنائس وهي معابد اليهود ، ويسمونها الآن بيعا ، وهو عربي "وَمَساجِدُ" هي معابد المسلمين وتطلق على الجوامع التي لا تقام بها الجمع وتختص الجوامع بما تقام فيها ، وإنما خص اللّه تعالى هذه المواطن المقدسة لأنها "يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً" أي لولا ذلك لهدم في زمن كلّ نبي مكان عبادته ، ولكن اللّه تعالى أبى ذلك إذ سلط الرّسل وأتباعه على المشركين فمنعوهم منه إدامة لذكر اللّه الذي أوجب بقاءه في أزله إلى خراب هذا العالم "وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ" من الرّسل وأتباعهم ليعظم لهم الأجر ، وإلّا فهو غني عن نصرة أحد منهم "إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ" 40 منيع لا يغلبه غالب ولا يدركه طالب ولا يفلت من قبضته هارب .

ثم وصف اللّه تعالى ناصريه بقوله "الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ" وثبتناهم فيها وجعلنا لهم فيها السلطان على أهلها "أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ" (41) ومرجعها إليه ، وفي هذه الآية توكيد لما وعد به أولياءه من الظهور على أعدائهم .

قال تعالى "وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ" يا حبيبي بعد ما تبين لهم من الحق الذي أنت عليه ، فما هو بمستبعد منهم "فَقَدْ كَذَّبَتْ" الرسل "قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ، وَكُذِّبَ مُوسَى " أيضا مع وضوح ما جاء به من الدّلائل الحسية ، وإذا كان كذلك فلا يحزنك تكذيبهم ، وإني ممهلهم حتى إذا علم النّاس أن الامهال لم ينجح بهم وأصروا على استكبارهم أهلكتهم شأن الّذين قبلهم "فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ" السالفين مثل ما أمليت لهؤلاء "ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ" على الصّورة المارة كما يؤاخذ هؤلاء إن لم يرجعوا إلي ويفردوني بالعبادة ، فآخذهم بأنواع

العذاب والنّكال وأهلكهم إهلاك استئصال ، وإذ ذاك يقول القائل متعجبا من عظيم صنعي بهم ومبتهرا من كبير تعذيبي لهم ومتحيّرا من كيفية أخذه "فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ" (44) عليهم ، إذ أبدلت نعمهم نقما ، وراحتهم محنة وحياتهم موتا ، وعمارتهم خرابا ، وجنايتهم خربا .

وفي هذه الآية تخويف عظيم لأمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم السّابقين واللاحقين بأنهم إذا لم يخلصوا لربهم يكون مصيرهم مصير أولئك قال تعالى "فَكَأَيِّنْ" راجع الآية 60 من سورة

العنكبوت وما ترشد إليه في معناها وتركيبها "مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ" أي زمن تلبسها بالظلم حال ظلم أهلها "فَهِيَ خَاوِيَةٌ" في هذه الآية حذف كلمتين أخالية من السّكان ساقطة "عَلَى عُرُوشِهَا" أي سقوفها "وَ"كم من "بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ" متروكة هلاك مستعمليها من أهل البوادي .

والقرى عطف على قر "وَ"كم من "قَصْرٍ مَشِيدٍ" (45) أخليناه بتدمير أهله من المدن والحواض والعواصم معطوفة أيضا على قرية .

تفيد هذه الآية أن أهل البوادي والمدن ؟

أصروا على كفرهم وتكذيب رسلهم أهلكهم اللّه إهلاك استئصال ودمرته ومساكنهم وما يأوون إليه في البوادي .

(149/517)

مطلب في قصة قوم صالح عليه السّلام وأسباب إهلاك بعض الأمم وتسمية بعض البلاد بما وقع فيها والآيات المكيات :

قالوا إن أربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح عليه السّلام لما نجوا من العذاب جاء إلى بئر من أرض اليمن في سفح جبل عليه قصور .

ولما حضروا فيها مات صا ؟

عليه السّلام فسميت تلك البلدة (حضرموت) وكذلك لما قلبت المؤتفكة ومن أهلها مئة نسمة سميت (سلمية) وكذلك لما حل نوح عليه السّلام ومن معه أرض الجزيرة قرب الجودي وكانوا ثمانين نسمة بنوا قرية هناك فسميت قرية الثمانين ولما هاجر من العرب مئة نسمة إلى أراضي ماردين أنزلوهم بمحل سموه (محلمية وأطلق عليهم هذا الاسم حتى الآن ، أما بعلبك فسميت باسم الصّنم (بعل) وصاحبه (بك) ثم انهم بعد موت صالح بنوا بلدة هناك سموها حاضوراء فاقاموا ؟

وغنوا وكثروا ، ثم بغوا وعبدوا الأصنام ، فأرسل اللّه إليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه ، فأهلكهم وعطل بئرهم وقصورهم ولم يبق منهم أحدا كما ذكر اللّه القائل "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ" هؤلاء الّذين لا يؤمنون بك يا محمد فينظروا إلى آثار الأمم المهلكة قبلهم بسبب تكذيبهم أنبيائهم "فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها" كيفية إهلاكهم وسببه "أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها" ما كان منهم وما وقع من أفعالهم وما كانوا يعاملون به أنبياءهم من الجفاء والإهانة فيتذكرون ويتعظون ويعتبرون ، ولكن لو فعلوا ذلك لم ينفعهم لأنهم لم يوفقوا للخير لسابق شقائهم "فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ" عن الرّؤية لتلك الآثار ولو عميت فإن عماها لا يضر في الدّين ولا يمنع التفكر والتذكر "وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" (46) فهي التي عماها يضرّ في ذلك ويمنع من الاعتبار ولهذا فلا تنفعهم الذكرى .

تشير هذه الآية الجليلة إلى أن هؤلاء عمي القلوب ويقال عمه القلوب بالهاء لا ينتفعون بشيء من الآيات لأن ما تراكم عليها من صدأ الكفر وظلمته حال دون النّظر إليها والتفكر بها من الأبصار التي في الرّأس لأنها لا تفيد بلا بصيرة قال تعالى "وَيَسْتَعْجِلُونَكَ" يا سيد الرّسل "بِالْعَذابِ" الذي تعدهم به وتهددهم بعظمه فقل لهم إنه لآت لا محالة ، لأنه مما وعد اللّه "وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ" لأنه مقدر عنده إلى يوم وأيام اللّه طويلة ليست كأيامكم "وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ" (47) وأيام العذاب من هذا القبيل ترى طويلة لشدة ما يقاسيه العذاب ، فلا تستعجلوا بطلبه وكيف تريدون أن ينزل بكم وأنتم تعلمون أن أيام الشّدة في الدّنيا طويلة على ما تعلمون من قصرها وانتهائها ، فكيف بأيام الآخرة التي لا غاية لها معلومة ، فانتظروا ولا تغتروا بالإمهال "وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ" فأدررت عليها الرّزق والولد والجاه لتستدرج لما هي عليه من الشّر لأنها خلقت شريرة لا ينفعها النصح ، فاغترت وتمادت بالعصيان ، حتى ظنت الإهمال لطول الإمهال ، وإنها لم تؤخذ "ثُمَّ أَخَذْتُها" على غرّة "وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ" (48) لا إلى غيري مهما طال أمدهم وأمهلهم ، ترمي هذه الآية إلى تحذير الأمة من التمادي في المعاصي ، وعدم الاغترار بما يملي لهم .

وهم ما هم على ما هم عليه ، وإنها إذا لم ترجع إلى الحق

يكون مصيرهم مصير من قبلهم .

ألا فليقلع الظّالم عن ظلمه ويتيقن أنه مهما طال أجر وإمهاله فإنه لا يمهل ويؤخذ على غفلة فيخسر الدّنيا والآخرة ، لأنّ عمله في الدّنيا لم يقصد به وجه اللّه ، ولم يطلب به مرضاته ، ولم يتصرف بما من اللّه عليه بما يرضيه .

(151/517)

فيا أكمل الرّسل "قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ" (50) ما أرسلت به إليكم ومبلغ لا مسيطر ولا جبار ولا مكره "فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" منكم في هذه الدّنيا "لَهُمْ مَغْفِرَةٌ" لذنوب السابقة "وَرِزْقٌ كَرِيمٌ" (50) في الجنّة بالآخرة جزاء أعمالهم الطّيبة "وَالَّذِينَ سَعَوْا" أفسدوا "فِي آياتِنا" المنزلة على رسولنا "مُعاجِزِينَ" مثبطين النّاس عن الإيمان بها ، ما نعيهم عن سماعها ، مشاقين لها ، معاندين لقدرتنا ، ظانين لا نطيق صدهم في الدّنيا وتعذيبهم في الآخرة "أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ" (51) فليفعلوا ما يشاؤون في هذه الدّار الفانية ، ومرجعهم إلينا في الآخرة الباقية ، وهي أول الآيات المكيات في هذه السّورة ، قال تعالى "وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى" قرأوا عليه قوله :

تمنى كتاب اللّه أو ليلة تمنى داود الزبور على رسل

وقال تعالى (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ) أي قراءة راجع الآية 78 من سورة البقرة المارة فلا ينظرون المعنى وإنما سميت القراءة أمنية لأن القارئ إذا انتهى إلى آية رحمة تمني حصولها له ، وإذ انتهى إلى آية عذاب :

عفوه منها .

والتمني نهاية التقدير ، ومنه المنية وهي الموت باليوم المقدر والأمنية الصورة الحاصلة بالنفس من التمني ، وتكون بمعنى حديث النّفس أي خطر وتمنى بقلبه وهو المراد هنا واللّه أعلم .

(152/517)

ومما يؤيد هذا المعنى قوله جل قوله "أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ" أي مخيلته النّفسية مما يخطر بباله "فَيَنْسَخُ اللَّهُ" يمحو ويزيل ويعدم وينسى "ما يُلْقِي الشَّيْطانُ" من تلك التمنيّات الحاصلة في الصّورة النفسية بأن يبطلها ويذهبها حتى لا يبقى لها أثرا في تلك التصوّرات "يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ" يثبتها ويحفظها من الإلقاءات الشّيطانية والتسويلات النّفسية ، فلا يلتحق

بها ما ليس منها لسابق عهده تعالى بحفظ القرآن من غيره ، راجع الآية 9 من سورة الحجر المارة في ج 2 وما ترشدك إليه من المواقع "وَاللَّهُ عَلِيمٌ" بما أوحاه لرسوله يحميه من خلط الشّيطان "حَكِيمٌ" 52 في تمكين آياته وصونها من غيرها وفي امتحان عباده بها .

(153/517)

واعلم أن ذلك الإلقاء والنّسخ والإلهام ما هو إلا "لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً" محنة وبلاء واختبارا وامتحانا "لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ" شك وريبة فتأخذهم أهواءهم غير مأخذ لخبثها "وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ" عطف على الّذين في قلوبهم مرض يريد بهم المشركين الجافية قلوبهم عن قبول الحق ليزدادوا شبهة ومرية فيه وشكا وريبا فيمن أنزل عليه وكفرا وجحودا بمن أنزله "وَإِنَّ الظَّالِمِينَ" من هؤلاء الكفرة "لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ" (53) عن الحق "وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ" بالله ورسوله وما أنزل عليه "أَنَّهُ الْحَقُّ" الصريح والصّدق البالغ منزل عليك يا سيد الرّسل "مِنْ رَبِّكَ" الذي رباك وشرفك في هذه الرّسالة وهذا القرآن العظيم ، ذلك الإله الذي أحكم آياته وصانها عن غيرها وهذه الجملة معطوفة على جملة ليجعل ، ثم فرّع عنها قوله "فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ" تطمئن وتسكن وتخضع وتخشع "لَهُ قُلُوبُهُمْ" فيذعنوا له ويعلموا أنه الحق فيهتدوا به "وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ"

(54) عدل سوي لا يميلون إلى غيره ولا ينحرفون عنه ولا يشكون فيه "وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ" .

وشك فيمن جاءهم به وريب من إنزاله ومنزله "حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ" التي يموتون بها "بَغْتَةً" لا تمهلهم طرفة عين ليتمكنوا من الرّجوع عن كفرهم وشكهم "أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ"

(55) لا ليلة بعده ولا له مثل وهو يوم القيامة .

ولا وجه لمن قال أن في جعل اليوم يوم القيامة تكرارا لأن المراد بالساعة هو يوم القيامة ، ولأن السّاعة وقت يوم كلّ أحد ، ولأن اليوم الذي ذكر فيه العذاب ، ولأن السّاعة من مقدمات القيامة واليوم يومها ، ويؤيد هذا قوله تعالى بعد (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) هذا واللّه أعلم .

(154/517)

مطلب قصة الغرانيق وإثبات وضعها وما جاء فيها بالكتاب والسّنة والإجماع والقياس والعقل :

وقد نزلت هذه الآيات الأربع بمكة بعد سورة والنّجم كما أوضحناه بآخرها في ج 1 وسبب نزولها هو تسلية الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم عما أشاعه قومه من ذكر أصنامهم وتذكيره له بأن السّعي لإبطال آيات الأنبياء أمر معهود من قبل لوقوعه مع الأنبياء السالفين ،

وانه سيء مردود وهباء لا بقاء له ولا أثر ، واعلام بأن الأنبياء هو ومن قبله عليهم الصّلاة والسّلام إذا قرأوا شيئا من آيات اللّه ألقى الشّيطان بحسب طبعه وجبلّته الشّبه والتخيلات فيما يقرؤونه على اتباعه الخبثاء النّفوس مثله ليجادلوا به بالباطل ، ويردوا ما جاء به الرّسل قال تعالى (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ) الآية 121 من سورة الأنعام وقال (وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً) الآية 141 منها أيضا ج 2 وقال تعالى (وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) الآية 32 من الفرقان ج 1 ومن ذلك قولهم عند سماعهم قول اللّه تعالى بتحريم الميتة انظروا كيف يحرم ذبيحة اللّه لأنه هو أماتها ، فكأنه ذبحها ويحل ذبيحة لنفسه وغيره .

وعند سماعهم قوله جل قوله (إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) الآية 99 من الأنبياء المارة في ج 2 يلقون في قلوب أوليائهم أن عيسى وعزيرا والملائكة عبدوا من دون اللّه ، وان محمدا يعدّهم من حصب جهنم ، راجع تفسير هذه الآية واخساء ابن الزبعري فيها .

(155/517)

وعلى هذا يحرز أنه صلّى اللّه عليه وسلم عند ما قرأ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الآية 19 من سورة النّجم المذكورة آنفا وكان صلّى اللّه عليه وسلم يرتل القراءة ويفصل بين الوقفات بسكتة قصيرة فترصد الرّصاد الملعون تلك الفواصل ، قدسّ الكلمات المشهورة المبينة هناك بين سكتاته محاكيا صوته عليه السّلام وألقاها في أذن أوليائه الكافرين فطبعت في قلوبهم الميّالة لها ، فظنوها من قراءته صلّى اللّه عليه وسلم فراقت لهم ، ولذلك لما سجد صلّى اللّه عليه وسلم سجدوا كلهم معه تبعا لأصحابه عند قراءة آية السّجدة من السّورة المذكورة ، ولم يقدح هذا السّجود بالمسلمين لأنهم لم يسمعوا ما سمعه الكفار ، وإنما سمعوا السّجدة فسجدوا كعادتهم

وكانوا عارفين ما يتلى عليهم لأنهم يصغون لكلامه بكليتهم ليحفظوه عنه ، وهم يعرفون كراهية الأصنام من حال الرّسول وذمّه لها وتحقيرها وأهلها ، فلا تخطر ببالهم ، وهذا أحسن ما قيل في هذا الباب وأصدقه وأحقه .

وما قيل إنه صلّى اللّه عليه وسلم نطق بتلك الكلمات سهوا أو خطأ أو نسيانا أو أنه تمنى أن ينزل عليه مدح آلهتهم فممتنع قطعا وحاشاه من ذلك ، وساحته براء مما هنالك ، ولا يوجد دليل أو أمّارة يميل إليها الفطن أو برهان أو إشارة ينحاز إليهما الفكر ، لأنه عليه الصّلاة والسّلام معصوم ومنزه عن أن يقول أو يخطر بباله أو يتصور بخياله شيئا من ذلك ولا يتقول بهذا القول ويزعم وقوعه منه إلّا منافق زنديق كافر ، ولا ينقل هذه الترهات إلّا من لا نصيب

له من الهداية ، ولا يصغي إلى هذه الخزعبلات إلّا أهل الشكوك الّذين في قلوبهم مرض ، إذ لم يرد نقل أو خبر أو سند صحيح أو ضعيف أو غريب بذلك ليطمئن أو يركن إليها أو رواية يمكن أن يستند لها أصلا ، ويدلك على اختلافها اختلاف الرّوايات .

(156/517)

ومباينة الأقوال ومناقضة الأخبار وضعف ناقليها واضطراب رواتها وانقطاع أسنادها وتضارب عباراتها وتلفيق ألفاظها بصورة لا تقبل التأويل ولا التأليف أبدا ، وهذا كاف لردّها وإنكارها .

هذا وما قاله بعض العلماء بأن هذه الآيات الأربع نزلت بين مكة والمدينة بعيد عن الثبوت إذ لا مناسبة بينهما وبين ما وقع في الطّريق أثناء الهجرة ، وكذلك لا يصح القول بأنها نزلت يوم بدر لأنه لا يجوز أن يقول اللّه تعالى (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ) الآية المارة ، لأنه من المعلوم أنهم في مرية بعد يوم بدر كما أن ما جاء في تفسير بعض المفسرين بأن هذه السّورة مكية عدا الآيات الخمس 12 و13 و40 و41 و78 والآيات من 20 إلى 25 غير سديد لأن الحج لم يفرض بمكة والحوادث المشيرة إليها بعض الآيات منها لم تقع في مكة ، ومن المعلوم أن كل ما نزل بعد الهجرة يسمى مدنيا ، كما أن كلّ ما نزل قبلها يسمى مكيا .

واعلم أن السّبب الدّاعي لعدّها مكية بدؤها

بيا أيها النّاس ، وتكرار هذه اللّفظة بها أربع مرات ، وإن هذه من مميزات المكي على المدني على أننا أشرنا في المقدمة بان المكي لا يوجد فيه يا أيها الّذين آمنوا البتة ، والمدني لا يخلو من لفظ يا أيها النّاس ،

وإشارة بعض الآيات إلى أحوال أهل مكة ، وإلّا في الحقيقة هي مدنية عدا الآيات الأربع التي نحن بصددها ، وأنهن على القول نزلن بعد سورة النّجم كما أشرنا إليه آنفا في هذه السّورة وفي سورة النّجم أيضا ، كما هو الواقع والله أعلم .

(157/517)

قال تعالى "الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ" في ذلك اليوم العقيم الذي لا ليل بعده ولا يوم من أيام الدّنيا "لِلَّهِ" وحده ، وهو قبل ذلك اليوم كله للّه أيضا ، إلا أن ملوك الدّنيا تدعيه مجازا في الدّنيا ، أما في الآخرة فلا يدعيه أحد سواه ، إذ يكونون الدّنيا تدعيه مجازا في الدّنيا ، أما في الآخرة فلا يدعيه أحد سواه ، إذ يكونون مملوكين فيه للّه هم وما ملكوا كما كانوا في الدّنيا في الحقيقة هكذا مملوكين للّه الذي "يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ" في ذلك اليوم العظيم .

(158/517)

ثم بين نتيجة هذا الحكم بقوله عز قوله "فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ" (57) هذا وقد أشبعنا هذا البحث في سورة النّجم ، وأثبتنا أن القول بغير ما ذكرناه باطل موضوع فراجعه تعلم ان القرآن والسّنة والإجماع والقياس والعقل يأبونه ، أما القرآن فلقوله تعالى (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ) الآيتين 44 و45 من سورة الحاقه في ج2 وقوله تعالى (قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ) الآية 5 من سورة يونس ج2 أيضا وقوله تعالى (وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى) الآيتين 4 و5 من سورة النّجم في ج1 فلو قرأ صلّى اللّه عليه وسلم تلك الكلمات لظهر الكذب في الحال ، وهذا لا يقوله مسلم وقوله تعالى (وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ) الآية 174 وقوله (وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا) الآية 75 من سورة الاسراء وكلمة كاد عند البعض بمعنى قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنه لم يحصل ، وكلمة لولا تفيد انتفاء الشّيء لانتفاء غيره فدل على أن ذلك الرّكون لم يحصل أيضا ، وقوله تعالى (كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ) الآية 32 من سورة الفرقان في ج1 وقوله (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى) الآية السّابعة من سورة الأعلى ج2 ، فكيف بعد هذا يتصور منه النّسيان في تبليغ

الوحي ، وقد نفاه اللّه عنه وأخبر بتثبيت فؤاده بما يوحيه إليه .

وأما السّنّة

(159/517)

فمنها ما روي عن محمد بن اسحق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال هذا وضع من الزنادقة وصنف فيه كتابا وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النّقل وأن رواتها مطعون فيهم .

وقد روى البخاري في صحيحه أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلم قرأ سورة والنّجم وسجد فيها وسجد المسلمون والمشركون والإنس والجن وليس فيه حديث الغرانيق ، وهذا الحديث مروي من طرق كثيرة والإنس والجن وليس فيه حديث الغرانيق ، وهذا الحديث مروي من طرق كثيرة وليس فيها حديث الغرانيق البتة .

وأما العقل فمن المعلوم ضرورة أنه صلّى اللّه عليه وسلم كان أعظم سعيه في تبكيت الأصنام والأوثان وأن نسبة ما ذكر إليه صلّى اللّه عليه وسلم يوجب تعظيمها ومن جوز عليه تعظيمها فقد كفر ، لأنه بعث لرفعها من على وجه الأرض وقتل من يعبدها إذ لو جوز ذلك عليه صلّى اللّه عليه وسلم لارتفع الأمن عن شريعته ، ويجوز أن يكون مثل ذلك في

جميع الأحكام والشّرائع وهو باطل لا يجوز في شيء منها وحينئذ يبطل حكم قوله تعالى (يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) الآية 70 من سورة المائدة الآتية إذ لا فرق عقلا بين نقصان الوحي والزيادة فيه ، وإن الإجماع فقد أجمع على هذا الأولون والآخرون والقياس يأبى عدمه .

فبهذا وبما ذكرناه في الصّفحتين المارتين وما أثبتناه في سورة والنّجم يثبت وضع هذه القصة التي ذكرها بعض المفسرين بناء على خبر الواحد الذي لا يعارض هذه الدّلائل النّقلية والعقلية المتواترة هذا والله أسأل ونبيه أتوسل أن ينقي قلوب هذه الأمة المحمدية من كلّ ما يضرها في الدين والدّنيا والآخرة ، ويثبت عقيدتها في دينها القويم انه على كلّ شيء قدير وبالإجابة جدير .

(160/517)

لما قال بعض أصحاب رسول اللّه قد علمنا ما اعطى اللّه الشّهداء ونحن نجاهد معك ، فإذا لم نقتل ومتنا حتف أنفسنا فمالنا عند اللّه غير سعادة الدنيا أنزل اللّه قوله "وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً" في الآخرة "وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ" (58) لأن رزق النّاس بعضهم بعضا ورزق السّلطان

أعوانه وجنوده له نهاية ، ورزق اللّه عباده دائم لا من فيه .

ورزق هؤلاء بعضهم بعضا على طريق المجاز لأن الرّازق الحقيقي هو اللّه الذي سخر بعضهم لبعض .

ثم أقسم جل قسمه

(161/517)

"لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ" ويسرون منه ، إذ لم يروا مثله ولا ينالهم فيه مكروه ولا يحتاجون لاحد يتوسط لهم به ، ولا كلفة بتناوله "وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ" بنيات هؤلاء المجاهدين المهاجرين الذي سيعطيهم هذا الجزاء الجزيل "حَلِيمٌ" 59 بإمهال من قاتلهم عنادا على ما هم عليه من الحق "ذلِكَ" الأمر الذي قصصناه عليك يا سد الرّسل هو الحق الذي لا مرية فيه "وَمَنْ عاقَبَ" غيره "بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ" بأن أوقع على من ظلمه بمثل ما وقع منه "ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ" بعد ذلك الاقتصاص الذي لا جناح عليه بفعله بمقتضى قوله تعالى (فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ) الآية 195 من البقرة المارة وقوله جل قوله (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ) الآية 43 من سورة الشّورى ج 2 "لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ" لأنه مظلوم حق على اللّه نصرته "إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ" عما فعل بمن اعتدى عليه

على طريق المقابلة ، لأن ذلك حقه قد رخص اللّه له استيفاءه منه "غَفُورٌ" 60 لأمثاله المؤمنين لأخذه بالرخصة التي منحه اللّه إياها ، وعدم أخذه بالعزيمة ، وجنوحه للأخذ بالرخصة فعل لا مؤاخذة عليه ولا عتاب .

"ذِلِكَ" نصر اللّه للبغي عليه "بِأَنَّ اللَّهَ" الذي "يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ" قادر على نصرته مهما كان ضعيفا وخصمه قويا .

(162/517)

والإيلاج إدخال الشّيء بالآخر مع اضمحلال المدخول فيه ، لأن الليل إذا دخل على النّهار صار ضياءه ظلاما وكذلك النّهار إذا دخل على اللّيل صيّر ظلامه ضياء ، بحيث لا يبقى للمدخول عليه أثر ، ويحصل من هذا الإيلاج الزيادة والنّقص فيهما ، وهذا لا يقدر عليه إلّا اللّه "وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ" بكل ما يقع في كونه "بَصِيرٌ" (61) بجميع المبصرات ومن جملتها قول المعاقب وفعله "ذِلِكَ" الإيلاج البديع بذلك أيها المفكر المعتبر المتعظ "بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ" المستحق للعبادة وحده لا شريك له الواجب الوجود الممتنع النّظير "وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ" من الأوثان "هُوَ الْباطِلُ" المفترى من اختلاق قليلي العقول "وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ" (62) في سلطانه وبرهانه ونظير هذه الآية الآية 30 من سورة لقمان ج 2 .

مطلب تعجيب اللّه رسوله وخلقه في بعض أفعاله وضرب الأمثال وكون شريعة محمد ناسخة لكل الشّرائع وعجز الأوثان وسجود التلاوة .

(163/517)

قال تعالى "أَلَمْ تَرَ" أيها الإنسان العاقل "أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً" بالنبات من بعد ما كانت يابسة قاحلة من غير فعل أحد في بذره وحرثه ومناظرته "إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ" بإخراجه وجعله رزقا لمخلوقاته "خَبِيرٌ" 63 بالنافع منه للإنسان والحيوان والضّار منه لهما وحاجتهما إليه "لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ" ملكا وعبيدا يتصرف فيهما وبما فيهما كيف يشاء وكلهم محتاج إليه "وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ" عنهم "الْحَمِيدُ" 64 بإنعامه على عباده ومخلوقاته كلها ، المستحق لأنواع الحمد بآلائه المتواترة عليهم ، ولا غنى لهم عنه "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ" أيها النّاس (ما فِي الْأَرْضِ) من الدّواب والمعادن وغيرهما "وَالْفُلْكَ" سخرها لكم "تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ" على الماء بالرياح وسخر لكم ما في بطنه من الأسماك والجواهر "وَيُمْسِكُ السَّماءَ" بقدرته البالغة من "أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا" إذا أراد وقوعها فإنها تقع "بِإِذْنِهِ" عند خراب هذا الكون بالوقت المعين له عنده ، راجع أول سورة الانفطار المارة في ج 2 "إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ" (65) بالغ الرّحمة

بعباده .

وفي هذه الآية ردّ على من يقول إن السّماء متمسكة بنفسها أي بذاتها لأنها كسائر الأجرام بالجسمية فتكون قابلة للميل الهابط كقبول غيرها وليس كما زعم بل هي ممسكة بامساك اللّه إياها ، راجع الآية 42 من سورة فاطر في ج 1 وهي نظير هذه الآية في المعنى ، واللّه أصدق القائلين وهو أعلم بما يقول .

وما يقوله الغير في هذا الهيكل العلوي وما فيه من الكواكب ما هو إلا عن ظن وتخمين لا عن حقيقة راهنة .

(164/517)

قال تعالى "وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ" في أرحام أمهاتكم بعد أن لم تكونوا شيئا "ثُمَّ يُمِيتُكُمْ" عند انقضاء آجالكم في الدّنيا "ثُمَّ يُحْيِيكُمْ" ثانيا يوم القيامة بعد انقضاء أمد وجودكم في البرزخ "إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ" 66 لهذه النّعم كثير الجحود لها وما ينبغي له ذلك قال تعالى "لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً" مذهبا وطريقة وشريعة "هُمْ"

أهل هذا المنسك المخصّص لهم لا بد "ناسِكُوهُ" مقتفون أثره وعاملون به ومقيدون بما فيه دون الأمم الأخرى ، لأنه تعالى شرع لعباده شرائع على لسان رسله ليتعبّدوا بها لا ليجادلوا

ويخاصموا من أجلها ، فالأمم التي قبل موسى منكم صحف إبراهيم ومن قبله ، ومن موسى إلى عيسى منسكهم التوراة ، ومن عيسى إلى محمد التوراة والإنجيل المعدل لبعض أحكامها ، ومن بعثة محمد صلّى اللّه عليهم أجمعين وسلم إلى يوم القيامة منسكهم القرآن يعملون به دون غيره .

قال تعالى (لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً) الآية 52 من المائدة الآتية "فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ" يا سيد الرّسل أهل الكتابين الموجودين في زمنك بأن شريعتهم ما كان عليه آباؤهم لأن كلّ شريعة تنتهي بإنزال ما بعدها من الشّرائع السّماوية على لسان رسل اللّه ، بنقض العمل بها عند ما تحل محلها شريعة إلهية أخرى ، فشريعتهم لمن كان قبل بعثتك وقد نسخت بشريعتك التي نسخت كلّ الشّرائع المخالفة لها سواء بالذبائح المعبر عنها بالنسك أو غيرها ، وقد جاءت جامعة لأصول وفروع جميع الشّرائع ، حاوية لأحسنها .

(165/517)

قال تعالى (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها) الآية 107 من البقرة المارة "وَادْعُ" يا سيد الرّسل جميع النّاس إلى شريعتك هذه ، لأنا أرسلناك إليهم كافة ، راجع الآية 39 من سورة سبأ ج 2 وما ترشدك إليه من المواقع وأمر النّاس كافة بالإخلاص "إِلى رَبِّكَ"

بان يطيعوك ويعملوا بما أنزل عليك وعزتي وجلالي "إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ" (67) وهم على ضلال معوج في نزاعك "وَإِنْ جادَلُوكَ" بعد ما تبين لهم هداك وأصروا على منازعتك في أمر الدّين "فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ" (68) من مخالفتي مع علمكم أني على الحق ، وإذا أصروا على جدالهم فأعرض عنهم ، وقل "اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ" وبيننا وبين الخلق أجمع "يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" (69) وإذ ذاك يظهر المحق من المبطل .

ولا نسخ في هذه الآية لأن اللّه تعالى لم يأمر نبيه بقسر أهل الكتابين على قبول دينه ، بل بالاكتفاء بأخذ الجزية منهم وقد ضربها عليهم ولم تزل تؤخذ منهم إلى يوم القيامة ، لأن الأتراك المسلمين لا يزالون يتقاضونها منهم ، وهكذا بعض ملوك المسلمين ، أما ما يقع في تنفسات الزمن من إعفاء بعضهم من ذلك وحمايتهم من قبل الغير فلما انقضاء عند ما يعود المسلمون إلى التمسك بدينهم وينبذون التقاليد الأجنبية ويوحدون كلمتهم .

قال تعالى "أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ" كلية

وجزئية جلية وخفية "إِنَّ ذلِكَ" العلم مثبت "فِي كِتابٍ" عظيم عند اللّه تعالى هو الوجه المكنون الحاوي على ما كان وسيكون قبل كونه "إِنَّ ذلِكَ" العلم العظيم جميعه "عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" (7) سهل كعلم شيء واحد

"وَيَعْبُدُونَ" بعض خلقه مع علمهم بأن شيئا لا يستحق العبادة غيره وأن لا ربّ على الحقيقة سواه "مِنْ دُونِ اللَّهِ" الجليل الذي خلقهم وسواهم وعلمهم "ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً" عليهم من حجة أو برهان أو دليل أو أمارة "وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ" أن يعبد بل جهل مركب ، لأنهم يزعمون ما يعبدونه من الأوثان يشفع لهم عند اللّه يوم القيامة وينصرهم في الدّنيا من النّاس "وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ" (71) ينصرهم من عذابه إذا حل بهم في الدّنيا والآخرة .

وإنما سماهم ظالمين لظلمهم أنفسهم بذلك الاعتقاد فيما تعمله أيديهم من الأصنام .

(167/517)

قال تعالى "وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ" عند سماع تلاوتها أي تظهر على وجوههم علائم الكراهة فتراها عابسة مكفهرّة "يَكادُونَ يَسْطُونَ" يثبون ويبطشون "بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا" أي بمحمد وأصحابه من شدة الغيظ والحنق عليهم ، وهذه حكاية حال من أحوال بعض الكفرة المشركين وكفرة أهل الكتابين القائلين بنبوة عزير وعيسى وآلهتهما والملائكة وكونه ثالث ثلاثة "قُلْ" لهم يا سيد الرّسل "أَ فَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ" لكم "مِنْ ذلِكُمُ" الخير الذي تكرهونه الآن وتعرضون عن سماعه هو "النَّارُ وَعَدَهَا

اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا" أمثالكم فهي مصيركم ومصيرهم "وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" (72) هي لمن يصير إليها "يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ" حال مستغربة جديرة بأن تسمى مثلا تشبها ببعض الأمثال السّائرة "فَاسْتَمِعُوا لَهُ" وأصغوا إليه وتدبروه واعقلوه ، وهو أن المشركين جعلوا لي شبيبة إليه إذ قد "ضَعُفَ الطَّالِبُ" الذباب السّالب "وَالْمَطْلُوبُ" 73 المسلوب منه وهي أوثانهم لأن منها ما هو جماد وهو أضعف من الذباب بدرجات كثيرة وعابدوها أجهل من كلّ جاهل داخل من كلّ مثال ، لأن الذي لا يحمي نفسه من الذباب كيف تطلب منه الحماية ، وكيف يعبد ، وكيف يرجى منه جلب نفع أو دفع ضر ؟ وإن كان حيوانا فهو كذلك أيضا بل أكثر شرا لاحتياجه للأكل والشّرب والحراسة ، وإن كان إنسانا فكذلك ، لأنه لا يقدر أن يحرس نفسه من أقدار اللّه ولا يتحرك إلّا بإذن اللّه وإرادته ، وهو متبرئ من عبادتهم ، وان اللّه خالقهم وخالق كلّ شيء ، أفلا يعبدونه مع كمال عظمته وبالغ قدرته ويركنون إليه عند حاجتهم في الشّدة والرّخاء ، ولهذا فاتركهم يا سيد الرّسل فإنهم جهال "ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ" ولا عرفوه حق معرفته ولا مجدوه حق تمجيده وما علموا

(168/517)

غاية قبح فعلهم إذ أشركوا به وسموا باسم ما هو أبعد الأشياء عنه ، تقدم مثل هذه الجملة في الآية 68 من سورة الزمر والآية 91 من الأنعام ج 2 ولفظ الذباب لم يكرر في القرآن "إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ" على خلق الممكنات بأسرها وإفناء الموجودات كلها "عَزِيزٌ" 74 غالب قاهر لجميع الأشياء وهذه الجملة تعليل لما قبلها من نفي معرفتهم له تعالى .

قال ابن عباس كانوا يطلبون الأصنام طيبا فيقع الذباب عليها فيسلبها طيبها فلا تقدر على منعه ولا يقدر الكفرة حراسها على استرداد ما سلبه منها فكيف يقدرون على خلقه ، ثم ساق حكاية أخرى من أحوال الكفرة من قولهم (لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا) الآية 22 من سورة الفرقان ج 1 وقولهم (ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا) الآية 31 من سورة المؤمنين ج 2 وهي مكررة كثيرا في القرآن ، فأخبرهم اللّه بمعرض الرّد عليهم بأنه يجتبي من هؤلاء وهؤلاء ما يشاء بقوله "اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا" كجبريل وإخوانه "وَمِنَ النَّاسِ" رسلا أيضا كمحمد وإخوانه عليهم الصّلاة والسّلام ومن قبلهم ممن شاء وخصته السّعادة ولهذا لا يعبا بأقوالهم التافهة "إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ" لها وعالم بوقوعها منهم قبل خلقهم "بَصِيرٌ" بمن يختصه للملكية والرّسالة .

قال تعالى (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ) الآية 135 من الأنعام ج 2 وهو

"يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ" وجميع ما هو كائن وما سيكون من رسل الفريقين والمرسل إليهم أجمع "وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ" (73) كلها ويحاسب أهلها عليها قال تعالى "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ" بجميع أنواعه وأصنافه وأجناسه قولا وفعلا ونية "لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (77) فتفوزون بأنواع الخير عند اللّه في الدّنيا والآخرة.

واعلم أن الخير كله مجموع في أربعة: النظر والحركة والنّطق والصّمت، فكل نطق لا يكون في عبرة فهو غفلة، وكلّ حركة لا تكون في عبادة فهي فترة، وكلّ نطق لا يكون في ذكر فهو لغو، وكلّ صمت لا يكون في فكر فهو سهو.

هذا وتقدم البحث فيما يتعلق بالسجود في الآية 15 من سورة الرّعد المارة، وفيها ما يرشدك لبحثه في غيرها.

واعلم أن السّجدات المتفق عليها في القرآن العظيم أربع عشرة ليس منها هذه، والسّجود فيها واجب وقال بعض الأئمة بسنية السّجود عند تلاوة هذه الآية مستدلا بما أخرجه الترمذي وأبو داود عن عتبة بن عامر قال قلت يا رسول اللّه أفي الحج سجدتان؟ قال نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما.

وأخرج مالك في الموطأ عن عمر بن الخطاب أنه قرأ الحج فسجد فيها سجدتين، وقال ان

هذه السّورة ، فقلت بسجدتين وناهيك به قدوة ، وقد أخذ بهذا الشّافعي رحمه اللّه وقال أبو حنيفة ومالك والحسن وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وسفيان الثوري إنها سجدة صلاة بدليل اقترانها بالركوع ، ولو كانت سجدة تلاوة لما اقترنت به كسائر سجدات القرآن ، وقد مرت السّجدة الأولى في الآية 16 منها قال تعالى "وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ" بأن تستفرغوا جهدكم تبذلوا طاقتكم ووسعكم فيه .

(170/517)

ومن الجهاد أن لا يخاف الرّجل في قول الحق لومة لائم وتقدم بيان فضله في الآية 191 من سورة البقرة "هُوَ اجْتَباكُمْ" أيها النّاس واختاركم لدينه وخدمته ، والاجتباء رتبة عظيمة ومنقبة كريمة خصنا اللّه بها ، فهي سعادة ما فوقها سعادة ، قال الأبوصيري :

بشرى لنا معشر الإسلام إن لنا من العناية ركنا غير منهدم

وهذا الاختيار من عناية اللّه تعالى بهذه الأمة ومن عنايته اختيار محمد صلّى اللّه عليه وسلم رسولا لنا واختيارنا لشريعته ، ولهذا قال (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) الآية 110 من آل عمران والحمد للّه على أفضاله وعلى هذه المزية الكريمة والمنحة المثلى ،

وعلى قوله جل قوله "وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ" لأنها ميزة جليلة لنا أيضا إذ لم يضيق ويشدد علينا فيما عرضه ، بل رخص وسهل ، ويسر عليكم أيها المؤمنون في صومكم وصلاتكم وحجكم وزكاتكم وتوبتكم وطهارتكم وجعل ملّتكم "مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ" سمحة نقية وهذا الخليل جدكم "هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ" (78) لقوله تعالى حكاية عنه وعن ابنه إسماعيل عليهما الصّلاة والسّلام .

(171/517)

(رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً) الآية 138 من البقرة وهذه التسمية ثابتة لكم "مِنْ قَبْلُ" في الكتب المتقدمة "وَفِي هذا" القرآن لأنها مذكورة في اللّوح المحفوظ ، ولهذا فضلكم على سائر الأمم وجعل دينكم الإسلام وسماكم المسلمين "لِيَكُونَ الرَّسُولُ" محمد صلّى اللّه عليه وسلم "شَهِيداً عَلَيْكُمْ" يوم القيامة بأنه بلغكم رسالته "وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ" بأن الرّسل بلغوا أممهم رسالات ربهم بناء على أخبار نبيكم لكم في كتابكم واخباره حق أكثر من المشاهدة وأقوى ، لأن العين قد تخطئ المبصر فلا تعرفه حقيقة ، والرّسول لا يخطى في التبليغ البتة لعصمته من قبل اللّه تعالى ، وهذا من المخصوص ، لأن الشّهادة لا تكون إلّا في هذا عن الغيب ، وقد تكون على السّماع في أمور مخصصة

أيضا كما أشرنا إليها في الآية 143 من سورة البقرة المارة "فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ" في كلّ أموركم وثقوا بما وعدكم به على لسان رسولكم "هُوَ مَوْلاكُمْ" وناصركم وحافظكم لا مولى لكم غيره "فَنِعْمَ الْمَوْلى" هو لمن يتولى أموره "وَنِعْمَ النَّصِيرُ" (79) لمن يفوض أمره إليه، فإنه ينصره ويسدد أموره ويسبغ عليه رحمة ويمده من فضله ويوفقه لما به صلاحه ونجاحه.

ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به.

هذا والله أعلم، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين. انتهى انتهى. اهـ ﴿بيان المعاني حـ 6 صـ 156.195﴾

(172/517)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن عشر بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/518)

الجزء الثامن عشر بعد الخمسمائة

فصل فى الوقف والابتداء

(4/518)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الحج

مكية إل اقوله " ومن الناس من يعبد الله على حرف " الآيتين وقيل إلا " هذان حصمان "

فدني

اتقوا ربكم كاف شيء عظيم أكفى منه شديد تام مريد حسن السعير تام لنبين لكم حسن

لمن قرأ ونقر بالرفع وليس بوقف لمن قرأه بالنصب أشدكم حسن شيأ تام بهيجكاف في

القبور تام عب سبيل الله حسن له في الدنيا خزي وكذا الحريق للعبيد تام حرف صالح وكذا

اطمأن به وعلى وجهه والوقف عليه أصلحها الدنيا والآخرة كاف الخسران المبين حسن

وما لا ينفعه كاف البعيد حسن وكذا أقرب من نفعه واللدم في لمن ضره لام اليمين أو زائدة

ومن محل نصب أي يدعو والله من ضره أقرب من نفعه ولبئس العشير تام من تحتها الأنهار

حسن ما يريد تام ما يغيظ حسن من يريد تام يوم القيامة حسن شهيد تام وكذا وكثير من

الناس إن جعل ما بعده مبتدأ وخبرا وليس بوقف إن جعل معطوفا عليه حق عليه العذاب

حسن وكذا من مكرم ما يشاء تام في ربهم كاف وكذا والجلود ومن حديد وأعيدوا فيها

عذاب الحريق تام الأنهار كاف وكذا من ذهب لمن قرأ ولؤلؤا بالنصب أي ويحلون لؤلؤا

وليس بوقف لمن قرأه بالجر قاله أبو حاتم وأنا لا أحب الوقف عليه بحال فان وقف عليه كان

جائزا لمن قرأ بالنصب وقبيحا لمن قرأه بالجر ولؤلؤا حسن حرير كاف الحميد تام الذي جعلناه للناي تام إن جعل جعلناه بمعنى نصبناه لاكتفائه بمفعول واحد والا فليس بوقف سواء قرئ بالنصب مفعولا ثانيا وما بعده مرفوع به أم بالرفع خبر الما بعده والجملة مفعول ثان وخبر ان الذين كفروا محذوف أي هلكوا والباد حسن أليم تام الركع السجود كاف عميق صالح بهيمة الانعام حسن البائس الفقير صالح بالبيت العتيق حسن ذلك زعم بعضهم انه وقف بجعله مبتدأ حذف خبره وخبره المبتدأ محذوف أي ذلك لازم لكم أو الأمر ذلك أو مفعولا لمحذف أي افعلوا ذلك واحفظوا عند ربه صالح وكذا ما يتلى عليكم وقول الزور مشركين به كاف وكذا سحيق ذلك تقدم نظرة آنفا فإنها من تقوى القلوب كاف أجل مسمى جائز العتيق حس من بهيمة الانعام كاف اله واحد جائز فله أسلموا حسن ينفقون حسن لكم فيها أخير صالح

(5/518)

وكذا صواف والمعتر كاف تشكرون حسن منكم كاف وكذا هذا كم المحسنين تام الذين آمنوا حسن كفور تام وكذا ظلموا والقدير إن جعل ما بعده في محل رفع بانه خبر مبتدأ محذوف فان جعل نعتا للذين يقاتلون كان الوقف على ظلموا حسنا وعلى لقدير صالحا

ربنا لله حسن كثيرا تام من ينصره حسن عزيز تام إن جعل ما بعده مبتدأ لخبر محذوف أو
عكسه وحسن إن جعل مجرور أبدلا عامر لطول الكلام ونهوا عن المنكر حسن عاقبة
الامور تام وأصحاب مدين حسن وقال أبو عمرو كاف وكذب موسى كاف وكذا ثم
أخذتهم ونكير وقصر مشيدا تام يسمعون بها صالح في الصدور حسن وقال أبو عمرو
كاف وعده كاف تعدون حسن كذا ثم أخذتها وقال أبو عمرو في الأول تام المصير تام مبين
كاف وكذا كريم أصحاب الجحيم تام في أمنيته مفهوم ثم يحكم الله آياته صالح وكذا حكيم
والقاسية قلوبهم تام فتخبت له قلوبهم أتم منه مستقيم أتم منهما فان وقف على شقاق بعيد
جاز لانه رأس آية يوم عقيم حسن يحكم بينهم كاف كذا في جنات النعيم عذاب مهين تام
رزقا حسنا حسن وكذا خير الرازقين يرضونه كاف لعيم حليم حسن وكذا لينصرنه الله
وغفور وسميع بصير العلي الكبير تام مخضرة حسن لطيف خبير تام وما في الأرض حسن
الحميد تام في البحر بأمر جائز إلا بأذنه حسن وقال أبو عمرو فيهما تام رحيم تام ثم يحييكم
حسن لكفور تام ناسكوه كاف مستقيم تام وكذا تعملون وتختلفون والأرض كاف وكذا في
كتاب على الله يسير تام به علم كاف من نصير تام المنكر صالح عليهم آياتنا حسن وكذا من
ذلكم وقال أبو عمرو فيهما كاف الذين كفروا صالح المصير تام وكذا فاستمعوا له ولو
اجتمعوا له حسن لا يستنفذوه منه تام واعبدوا ربكم حسن وكذا تفلحون حق جهاد
كاف وكذا اجتباكم من حرج حسن وقال أبو عمرو كاف وهذا إن نصب مله أبيكم

إبراهيم بالاغراء أي ألزموها فان نصب بنزع الخافض فليس ذلك بوقف ملة أبيكم إبراهيم

حسن شهداء على الناس كاف وآتوا الزكاة صالح وكذا واعتصموا بالله هو

مولاكم جائز آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ 510.523 ﴾

(6/518)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الحج

مكية إلاَّ قوله ومن الناس من يعبد الله الآيتين وقيل إلى خصمان فمدني وهي سبعون وأربع

آيات وكلمها ألف ومائتان إحدى وتسعون كلمة وحروفها خمسة آلاف ومائة وخمسة

وسبعون حرفاً وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع ثلاثة مواضع

لهم ثياب من نار

فأمليت للكافرين

في آياتنا معجزين

اتقوا ربكم (كاف)

عظيم (تام) إن نصب يوم بفعل مضمر وليس بوقف إن نصب بما قبله

حملها (حسن) ومثله سكارى الأول دون الثاني لأنَّ لكن لابد أن تقع بين متنافيين وهما

الحالتان حالة هينة وهي الذهول وعذاب الله وهو ليس بهين

شديد (تام)

مريد (كاف)

من تولاه ليس بوقف لأنَّ قوله فإنَّه يضله موضع أنَّ الثانية كموضع الأولى والأولى نائب الفاعل

والثانية عطف عليها

السعير (تام) ولا وقف من قوله يا أيها الناس إلى لنبين لكم فلا يوقف على من تراب ولا على

غير مخلقة

لنبين لكم (حسن) لمن قرأ ونقر بالرفع والواو ليست للعطف بل استئنافية وبرفعها قرأ العامة

وليس بوقف لمن قرأ ونقر ونخرجكم بالنصب فيهما وبها قرأ عاصم ويعقوب تعليل

معطوف على تعليل

مسمى (حسن) ومثله أشدكم وكذا من يتوفى

إلى أرذل العمر ليس بوقف لأنَّ لام التعليل متصلة بما قبلها

شيأً (تام)

هامدة (حسن) للابتداء بالشرط

وربت (جائز)

بهيج (كاف) ولا وقف من قوله ذلك بأنَّ الله هو الحق إلى من في القبور فلا يوقف على الحق

لأنَّ أنَّ الثانية معطوفة على أنَّ الأولى ولا على الموتى ولا على قدير ولا على ريب فيها

للعطف لأنَّه صيرها كالشيء الواحد ومن حيث أنَّ قديراً رأس آية يجوز

من في القبور (تام)

منير ليس بوقف لأنَّ قوله ثاني عطفه حال من الضمير المستكن في يجادل أي معرضاً وقيل

لاوياً عنقه

عن سبيل الله (حسن)

له في الدنيا خزي (كاف) ومثله عذاب الحريق على استئناف ما بعده

(7/518)

ذلك بما قدمت يداك ليس بوقف لأنَّ قوله وأنَّ الله ليس بظلام موضع أن جر عطفاً على ما

في قوله بما قدمت يداك المعنى وبأنَّ الله ليس بظلام وإن جعلت أن في موضع رفع خبر مبتدأ

محذوف أي والأمر أن الخ حسن الوقف على يداك ومثله على قراءة من قرأ في الشاذ وإن

الله بكسر الهمزة على الابتداء

للعبيد (تام)

على حرف (جائز) وفيه الفصل بين المفسر والمفسر لأنَّ قوله فإن أصابه الخ تفسير للحرف

اطمأنَّ به (تام) عند نافع

على وجهه (حسن)

والآخرة (كاف) ومثله المبين على استئناف ما بعده واختلف في إعراب يدعو الثانية

وحاصله أنَّ فيه وجوهاً عشرة ذكرها أبو حيان والذي يخصنا منها ثلاثة وذلك أنَّ يدعوا

إما أن تجعل مسلطة على الجملة من قوله لمن ضره أقرب من نفعه أولا فإن جعلت مسلطة

عليها وأنَّ يدعو بمعنى يقول واللام للابتداء ومن اسم موصول مبتدأ وضره مبتدأ وأقرب

خبر الثاني وخبر من محذوف تقديره يقول للذي ضره أقرب من نفعه إلهي كما قال الشاعر:

يدعو عنيتر والرماح كأنَّها أشطان بين في لبان الأدهم

(8/518)

أراد يقول يا عنيتر فالجملة في محل نصب بيدعو لأنَّها مسلطة عليها فلا يوقف على يدعو

لتعلق ما بعدها بما قبلها ولبئس المولى مستأنف ونسب هذا لأبي علي الفارسي وإن لم

تجعل يدعو مسلطة على الجملة وأن يدعو الثانية توكيد ليدعو الأولى ولا معمول لها وفي

تكريرها إيذان بأنَّه مقيم على الضلال فكأنَّه قيل يدعو من دون الله الذي لا يضره ولا ينفعه

فتكون الجملة معترضة بين المؤكد والمؤكد فلا تقتضي مفعولاً ثانياً وعلى هذا يحسن الوقف على يدعو وقوله لمن ضره مستأنف واللام للابتداء ومن مبتدأ وضره مبتدأ ثان وأقرب خبر الثاني والجملة خبر الأول أو الخبر محذوف دل عليه لبئس المولى والتقدير لمن ضره أقرب من نفعه إلهه والجملة صلة ويجوز أن يكون يدعو من متعلق الضلال وإن ذلك اسم موصول بمعنى الذي عند الكوفيين إذ يجيزون في أسماء الإشارة كلها أن تكون موصولة والبصريون لا يكون عندهم من أسماء الإشارة موصول إلاَّ ذا بشرط أن يتقدم عليها ما أو من الاستفهاميتان فهو مبتدأ والضلال خبره والجملة صلة والموصول وصلته في محل نصب مفعول يدعو والمعنى يدعو الذي هو الضلال البعيد وهذا تكلف إذ لو كان كذلك لانتصب الضلال وقوله هو عماد لا يمنع الإعراب كقوله تجدوه عند الله هو خيراً فخيراً مفعول ثان لتجدوه وعلى هذا يوقف على يدعو والكلام على بقية الوجوه يستدعي طولاً إذ لو أراد الإنسان استقصاء الكلام لاستفرغ عمره ولم يحكم أمره وهذا الوقف جدير بأن يخص بتأليف وفيما ذكر كفاية ولله الحمد

ولبئس العشير (تام)

الأنهار (حسن) وقيل كاف

ما يريد (تام)

والآخرة ليس بوقف لأنَّ جواب الشرط لم يأت بعد وهو فليمدد وهكذا لا وقف إلى ما

يغيظ فلا يوقف على السماء ولا على فلينظر لأنَّ الجملة وإن كانت في اللفظ منفصلة فهي

في المعنى متصلة

ما يغيظ (كاف)

(9/518)

بينات ليس بوقف لأنَّ موضع إن نصب بما قبلها عطفاً على مفعول أنزلناه أي وأنزلنا أنَّ الله

يهدي أو على حذف حرف الجر أي ولأنَّ الله يهدي من يريد أنزلناه وليس بوقف أيضاً إن

جعلت أنَّ الله خبر أن الأولى كقول الشاعر:

إنَّ الخليفة إنَّ الله سربله سربال ملك به ترجى الخواتيم

وإن جعلت أن في محل رفع خبر مبتدأ محذوف تقديره والأمر أنَّ الله يهدي حسن الوقف

على بينات

من يريد (تام) ولا وقف من قوله إنَّ الذين آمنوا إلى يوم القيامة لاتصال الكلام بعضه ببعض

في المعنى فلا يوقف على والنصارى ولا على والمجوس ولا على أشركوا لأنَّ أنَّ الثانية خبر

أن الأولى كما تقدم في البيت

يوم القيامة (حسن)

شهيد (تام) ولا وقف من قوله ألم تر إلى الدواب فلا يوقف على والجبال

وكثير من الناس (أحسن) مما قبله على أن ما بعده مبتدأ وخبره حق أو فاعل لفعل محذوف

أي وسجد كثير من الناس وأبى كثير فحق عليه العذاب وليس بوقف إن عطف على ما

قبله وجعل داخلاً في جملة الساجدين أي وكثير من الكفار يسجدون وهم اليهود

والنصارى ومع ذلك فالعذاب عليهم

العذاب (حسن)

من مكرم (كاف)

ما يشاء (تام)

في ربهم (حسن) ومثله من نار

الحميم (جائز) لأن يصهر يصلح مستأنفاً وحالاً

ما في بطونهم ليس بوقف لأنَّ ما بعده معطوف على ما قبله

والجلود (جائز) ورأس آية في الكوفي

من حديد (كاف)

أعيدوا فيها (حسن)

عذاب الحريق (تام) للابتداء بإن

الأنهار (حسن) ومثله من ذهب لمن قرأ ولؤلؤاً بالنصب أي ويؤتون لؤلؤاً وليس بوقف لمن

قرأه بالجر عطفاً على محل من ذهب

ولؤلؤاً (حسن)

حرير (كاف)

الحميد (تام) لأنَّه آخر القصة

(10/518)

الذي جعلناه للناس (حسن) إن رفع سواء مبتدأ وما بعده جملة في محل رفع خبر وكذا إن جعل خبراً مقدماً والعاكف مبتدأ مؤخراً وبالرفع قرأ العامة وليس بوقف لمن نصب سواء مفعولاً ثانياً لجعلناه وهو حفص أو بالرفع على جعل الجملة مفعولاً ثانياً لجعلنا لاتصاله بما قبله فلا يقطع منه وخبر إن الذين كفروا محذوف أي هلكوا

والباد (تام) في الوجوه كلها

بظلم ليس بوقف لأنَّ جواب الشرط لم يأت بعد

أليم (تام)

مكان البيت ليس بوقف لأنَّ ما بعده منصوب بما قبله بناءً على أنَّ الخطاب في قوله أن لا تشرك بي شيأً لإبراهيم عليه السلام وعلى أنَّه خطاب لنبينا عليه الصلاة والسلام يكون

الوقف على البيت تاماً

شيأً (حسن) على استئناف الأمر

السجود (كاف) وقرأ الحسن وابن محيصن آذن بالمد والتخفيف بمعنى أعلم وليس بوقف على أن الخطاب لإبراهيم وعليه فلا يوقف من قوله وإذ بؤأنا لإبراهيم إلى عميق فلا يوقف على شيأً ولا على السجود لأنَّ العطف يصيرهما كالشيء الواحد ولا يوقف على الحجج لأنَّ يأتوك جواب الأمر

عميق (جائز) وقيل لا يجوز لأنَّ ما بعد اللام سبب في إيجاب ما قبلها

منافع لهم ليس بوقف لأنَّ ما بعده معطوف على ما قبله

من بهيمة الأنعام (جائز) ومثله البائس الفقير وكذا بالبيت العتيق وقيل الوقف على ذلك بجعل ذلك مبتدأ حذف خبره أو خبر مبتدأ محذوف أي وذلك لازم لكم أو الأمر ذلك أو ألزموا ذلك الأمر الذي وصفناه ثم تبتدئ ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه

وعند ربه (جائز) ومثله يتلى عليكم وكذا الأوثان وكذا قول الزور وفيه الفصل بين الحال وذيها لأنَّ قوله حنفاء حال من فاعل اجتنبوا والأولى وصله ومثله الوقف على لله لأنَّ غير مشركين به حال مؤكدة إذ يلزم من كونهم حنفاء عدم الإشراك

غير مشركين به (تام) للابتداء بالشرط

من السماء ليس بوقف لأنَّ قوله فتخطفه الطير بيان لما قبله ولا يوقف على الطير لأنَّ أو تهوى عطف على تخطفه

(11/518)

سحيق (جائز) وقيل الوقف على ذلك إشارة إلى اجتناب الرجس والزور

شعائر الله ليس بوقف لأنَّ جواب الشرط لم يأت بعد

القلوب (كاف)

أجل مسمى (جائز)

العتيق (تام)

بهيمة الأنعام (حسن)

إله واحد (جائز)

فله اسلموا (حسن)

المخبتين في محل الذين الحركات الثلاث الرفع والنصب والجر فالرفع من وجهين والنصب من وجه والجر من ثلاثة فإن رفعت الذين خبر مبتدأ محذوف كان الوقف على المخبتين تاماً وكذا إن رفع مبتدأ والخبر محذوف أو جعل في محل نصب بتقدير أعني وليس بوقف إن

جعل نعتاً أو بدلاً أو بياناً لما قبله

على ما أصابهم ليس بوقف لأنَّ قوله والمقيمي الصلاة عطف على الصابرين

ينفقون (تام) ورسموا والمقيمي بياء كما ترى وانتصب والبدن على الاشتغال فكأنَّه قال

وجعلنا البدن جعلناها كما قال الشاعر:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا

والذئب أخشاه إن مررت به وحدي وأخشى الرياح والمطرا

من شعائر الله (حسن) ومثله لكم فيها خير ومثله صواف وتقرأ صواف على ثلاثة أوجه

صواف بتشديد الفاء أي مصطفة لأنَّها تصف ثم تنحر وصوافي بالياء جمع صافية أي

خوالص لله وبها قرأ الحسن وصوافن بالنون واحدتها صافنة أي أنَّ البدن تنحر قائمة

وتشد واحدة من قوائمها فتبقى قائمة على ثلاثة وبها قرأ ابن عباس فعند الحسن يوقف

على الياء وعند ابن عباس يوقف على النون والباقون يقفون على الفاء مشددة

جنوبها ليس بوقف لأنَّ ما بعد الفاء جواب إذا وكذا فكلوا منها لأنَّ وأطعموا القانع والمعتر

معطوف على فكلوا ومثله سخرناها لكم لأنَّ قوله لعلكم تشكرون معناه لتشكروا فإنَّما

وقع التسخير للشكر

والمعتر (حسن)

تشكرون (تام)

منكم (حسن)

على ما هداكم (جائز)

المحسنين (تام)

عن الذين آمنوا (كاف)

كفوراً (تام)

بأنهم ظلموا (حسن)

(12/518)

لقدير في محل الذين الحركات الثلاث الرفع والنصب والجر فالرفع من وجهين والنصب من وجه والجر من ثلاثة فإن رفع خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين أو رفع بالابتداء والخبر محذوف أو نصب بتقدير أعني كان تاماً وليس بوقف إن جعل بدلاً من الذين الأول أو نعتاً للذين يقاتلون فلا يفصل بين البدل والمبدل منه ولا بين النعت والمنعوت بالوقف

بغير حق ليس بوقف لأنَّ قوله إلاَّ أن يقولوا موضعه جر صفة لحق فلا يقطع عنه كأنّه قال ما أخرجوا من ديارهم إلاَّ بقولهم ربنا الله

ببعض ليس بوقف لأنَّ قوله لهدمت جواب لو

وصلوات (جائز) ثم تبتدئ ومساجد بإضمار خبر أي ومساجد كذلك أو بإعادة الفعل للتخصيص أي لهدمت لأنَّ الله خص المساجد بذكر الله أو لأنَّ الضمير بعد يعود عليها خاصة كما عاد على الصلاة في قوله واستعينوا بالصبر والصلاة وإنَّها ومن جعل الضمير عائداً على جميعها أراد لهدمت كنائس زمن موسى وصوامع وبيع زمن عيسى ومساجد زمن نبينا وكان الوقف كثيراً

من ينصره (حسن)

عزيز (تام) إن رفع الذين بالابتداء والخبر محذوف أو عكسه وحسن إن جر بدلاً أو نعتاً لما قبله

المنكر (حسن)

الأمور (تام)

وأصحاب مدين (حسن)

وكذب موسى (كاف)

ثم أخذتهم (حسن) للابتداء بالتهديد والتوبيخ

نكير (كاف)

وهي ظالمة (جائز)

على عروشها ليس بوقف لأنَّ قوله وبئر معطلة مجرور عطفاً على من قرية ولا يوقف على

معطلة لأنَّ قوله وقصر مجرور عطفاً على بئر

وقصر مشيد (كاف) وقيل تام

يسمعون بها (جائز) وقيل كاف للابتداء بإن مع الفاء

الأبصار ليس بوقف لأنَّ لكن لابد أن تقع بين متباينين وهنا ما بعدها مباين لما قبلها

في الصدور (تام)

بالعذاب (جائز)

وعده (حسن)

مما تعدون (تام)

ثم أخذتها (حسن)

المصير (تام) ومثله مبين وكذا كريم

معجزين أي مثبطين ليس بوقف وهكذا إلى الجحيم وهو (تام) لتناهي خبر الذين

ولا نبي ليس بوقف لأنَّ حرف الاستثناء بعده وهو الذي به يصح معنى الكلام

في أمنيته (حسن)

(13/518)

ثم يحكم الله آياته (كاف) ومثله حكيم إن علقت اللام بعده بمحذوف وليس بوقف إن علقت بيحكم وحينئذ لا يوقف على آياته ولا على حكيم ولا على مرض لارتباط الكلام بما بعده لأنَّ قوله والقاسية مجرور عطفاً على للذين في قلوبهم مرض

والقاسية قلوبهم (تام)

بعيد (جائز) لكونه رأس آية

فيؤمنوا به ليس بوقف لأنَّ قوله فتخبت منصوب عطفاً على ما قبله

فتخبت له قلوبهم (حسن) وقال العماني لا يوقف من قوله الجحيم إلى فتخبت له قلوبهم إلاَّ على سبيل التسامح لارتباط الكلام بعضه ببعض وذلك أنَّ اللام في ليجعل ما يلقي الشيطان لام كي وهي متعلقة بما قبلها واللام في وليعلم لام كي أيضاً معطوفة على اللام الأولى والمعنى أنَّ الله قد أحكم آياته وأبطل وسوسة الشيبطان بما ألقاه على لسان نبيه ليجعل رجوع النبي عما ألقاه الشيطان محنة واختبار للمنافقين والقاسية قلوبهم وليعلم المؤمنون أن القرآن حق لا يمازجه شيء

إلى صراط مستقيم (تام) ومثله عقيم على استئناف ما بعده

يحكم بينهم (حسن) وإن كان ما بعده متصلاً بما قبله في المعنى لكونه بياناً للحكم

في جنات النعيم (تام)

بآياتنا ليس بوقف لأنَّ ما بعد الفاء خبر لما قبلها وإنَّما دخلت الفاء في خبر الذين لما تضمن

المبتدأ معنى الشرط كما في قوله إن الموت الذي تفرون منه فإنَّه ملاقيكم أراد من فر من

الموت لقيه كقوله :

ومن هاب أسباب المنية يلقها ولو رام أن يرقى السماء بسلم

مهين (تام)

أو ماتوا ليس بوقف لأنَّ ما بعده خبر الذين وإن كان معه قسم محذوف

رزقاً حسناً (حسن)

خير الرازقين (كاف)

يرضونه (حسن)

حليم (تام) وقيل الوقف على ذلك أي ذلك لهم

ثم بغي عليه ليس بوقف لأنَّ الذي بعده قد قام مقام جواب الشرط

لينصرنه الله (كاف)

غفوراً (تام) ولا وقف إلى بصير فلا يوقف على ويولج النهار في الليل لأنَّ أن في موضعها جر

بالعطف على ما قبلها

بصير (تام)

الحق ليس بوقف وكذا لا يوقف على الباطل لأنَّ وإن الله موضعها جر بالعطف على ما قبلها

الكبير (تام)

ماء (حسن) لأنَّ قوله فتصبح ليس في جواب الاستفهام في قوله ألم تر أنَّ الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة لا يتسبب عما دخل عليه الاستفهام وهي رؤية المطر وإنَّما تسبب ذلك عن نزول المطر نفسه فلو كانت العبارة أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة ثم دخل الاستفهام لصح النصب انتهى شذوراً وأنَّ المستقبل لا يعطف على الماضي وهو ألم تر بل فتصبح مستأنف ولو كان جواباً لكان منصوباً بأن كقول جميل بن معمر العدوي الشاعر صاحب بثينة :

ألم تسأل الربع القواء فينطلق وهل يخبرنك اليوم بيداء سملق

برفع ينطق أي فهو ينطق

مخضرة (كاف)

خبير (تام)

وما في الأرض (حسن)

الحميد (تام) وكذا سخر لكم ما في الأرض على قراءة عبد الرحمن بن هرمز والفلك بالرفع

والإجماع على خلافها وليس بوقف على قراءة العامة والفلك بالنصب عطفاً على ما قبله

بأمره (جائز)

إلاَّ بإذنه (حسن)

رحيم (تام)

أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم في الثلاث (جائز) لأنّ كل جملة من الثلاث مستأنفة لأنَّ ثم

لترتيب الأخبار لا لترتيب الفعل كقوله الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم

فوصل هذه أجود

لكفور (تام)

هم ناسكوه (جائز) ومثله في الأمر

وادع إلى ربك (كاف)

مستقيم (تام) ومثله تعملون وكذا تختلفون

والأرض (كاف) وكذا في كتاب

يسير (تام)

به سلطاناً ليس بوقف لأنَّ قوله وما ليس لهم به علم موضعه نصب بالعطف على ما الأولى

به علم (حسن)

من نصير (تام)

بينات ليس بوقف لأنَّ ما بعده جواب إذا

المنكر (جائز) وقيل كاف على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل جملة مفسرة لما

قبلها

عليهم آياتنا (كاف)

(15/518)

من ذلكم (تام) إن رفعت النار بالابتداء وما بعدها خبراً وعكسه أي هي النار أو بنصبها

بتقدير أعني وبها قرأ الضحاك أو نصبت على اشتغال الفعل عن المفعول وليس بوقف على

قراءتها بالجر بدلاً من قوله بشرّ لأنَّه لا يفصل بين البدل والمبدل منه بالوقف

كفروا (حسن)

المصير (تام)

فاستمعوا له (كاف) وليس بوقف إن جعل ما بعده تفسيراً للمثل إلى قوله يستنقذوه منه

ولو اجتمعوا له (حسن)

لا يستنقذوه منه (تام) لأنه آخر المثل ومثله المطلوب

حق قدره (كاف)

عزيز (تام)

ومن الناس (حسن) ومثله بصير وقيل كاف لأنَّ ما بعده يصلح مستأنفاً وصفة

وما خلفهم (حسن)

الأمور (تام)

اعبدوا ربكم (حسن)

وافعلوا الخير ليس بوقف لأنَّ لعل في التعلق كلام كي

تفلحون (كاف)

حق جهاده (كاف) ومثله اجتباكم

(16/518)

من حرج (كاف) إن نصب ملة بالإغراء أي الزموا ملة أبيكم وليس بوقف إن نصب بنزع الخافض أو نصب ملة بدلاً من الخير وقال الفراء لا يوقف على من حرج لأنَّ التقدير عنده كملة أبيكم ثم حذفت الكاف لأنَّ معنى وما جعل عليكم في الدين من حرج وسع الله عليكم الدين كملة أبيكم فلما حذفت الكاف انتصبت ملة لاتصالها بما قبلها والقول بأنَّ ملة منصوبة على الإغراء أولى لأنَّ حذف الكاف لا يوجب النصب وقد أجمع النحويون أنَّه

إذا قيل زيد كالأسد ثم حذفت الكاف لم يجز النصب وأيضاً فإن قبله اركعوا واسجدوا فالظاهر أن يكون هذا على الأمر أي اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم فإلى الأوّل ذهب ابن عباس ومجاهد قالا قوله هو سماكم أي الله سماكم المسلمين من قبل أي من قبل هذا القرآن في الكتب كلها وفي الذكر وفي هذا القرآن وقال الحسن هو أي إبراهيم سماكم المسلمين من قبل يريد في قوله ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فإذا هو صلى الله عليه وسلم سأل الله لهم هذا الاسم فعلى الأول الوقف على ما هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا تام وعلى الثاني الوقف على هو سماكم المسلمين من قبل كاف وعلى الأول تكون اللام في ليكون الرسول متعلقة بمحذوف وهو المختار من وجهين أحدهما أن قوله ربنا واجعلنا مسلمين لك الآية ليس تسمية وإنَّما هو دعاء والثاني ورود الخبر أن الله سمانا المسلمين كما روي أنَّه صلى الله عليه وسلم قال تداعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله وليس بوقف أي على الأول إن علقت اللام بما قبلها انظر النكزاوي وفي كون إبراهيم دعا الله فاستجاب له وسمانا المسلمين ضعف ، إذ قوله وفي هذا عطف على من قبل وهذا إشارة إلى القرآن فيلزم أنَّ إبراهيم سمانا المسلمين في القرآن وهو غير واضح لأنَّ القرآن نزل بعد إبراهيم بمدد فبذلك ضعف رجوع الضمير إلى إبراهيم والمختار رجوعه إلى الله تعالى ويدل له قراءة أبيّ سماكم المسلمين بصريح الجلالة أي

سماكم في الكتب السابقة وفي هذا القرآن أيضاً وهذا غاية في بيان هذا الوقف ولله الحمد .

الناس (كاف) وقيل تام

وآتوا الزكاة (جائز) ومثله هو مولاكم وقيل كاف

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 510.523 ﴾

(18/518)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الحج :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ومن ذلك قراءة الأعرج والحسن ، بخلاف : "وَتَرَى النَّاسَ سُكُرَى وَمَا هُمْ بِسُكُرَى" 1 .

ورُوِّينا عن أبي زرعة أنه قرأها أيضا : "سُكْرى"

بضم السين والكاف ساكنة . كما رواه ابن مجاهد عن الحسن والأعرج .

قال أبو الفتح : يقال رجل سَكْرَان وامرأة سَكْرَى ، كغَضْبَان وغَضْبَى . وقد قال بعضهم :

سَكْرَانة ، كما قال بعضهم : غَضْبَانة ، والأول أقوى وأفصح . فأما في الجميع2 فيقال : سَكَارَى بفتح السين ، وسُكَارَى بضمها ، وسَكْرَى كصَرْعَى وجَرْحَى . وذلك لأن السُكْرَ علةٌ لَحِقَت عقولهم ، كما أن الصرع علة لحقت أجسامهم . وفَعْلَى في التكسير مما يختص به المبتلون ، كالمرضى ، والسقمى ، والموتى ، والهلكى . وبكل قد قرأ الناس3

[104و]

فأما "سَكارَى" ، بفتح السين فتكسير لا محالة وكأنه منحرف به عن سَكارِين ، كما قالوا : ندمان وندامى ، وكان أصله نَدامِين ، وكما قالوا في الاسم : حومانة4 وحَوَامِين ، ثم إنهم أبدلوا النون ياء . فصارت في التقدير سَكَارِيّ ، كما قالوا إنسان وأَنَاسِيّ ، وأصله أناسِين ، فأبدلوا النون ياء ، وأدغموا فيها ياء فعالِيل . فلما صار "سكاريّ" حذفوا إحدى الياءين تخفيفا فصار "سَكارِي" ، ثم أبدلوا من الكسرة فتحة ومن الياء ألفا ؛ فصار "سَكارَى" ، كما قالوا في مدار5 وصحار ومعاي6 : مَدارَى وصَحارَى ومَعايا .

---

1 سورة الحج : 2 .

2 أي الجمع .

3 ضم السين قراءة الجمهور ، وفتحها قراءة أبي هريرة وأبي نهيك ، كما في البحر : 6 : 350 .

4 الحومانة : المكان الغليظ المنقاد .

5 والمدارى : جمع المدرى ، وهي المشط .

6 المعايا : الإبل المعيبة .

(19/518)

ويدل على أنه قد كان في الأصل أن يقال في تكسير سكران : سَكارِين بالنون ما أنشده الفراء :

إنْ يهبطِ الضبُّ أرضَ النونِ ينصُرُهُ يهلِكْ ويعْلُ عليْهِ الماءُ والطينُ

أو يهبطِ النونُ أرضَ الضبِّ ينصُرُهُ يهلِكْ ويأكُلُهُ قومٌ غَراثِينُ

فهذا تكسير غَرْثَان 1 ، ومؤنثه غَرْثَى . أخبرنا أبو علي عن الفراء يقول الشاعر :

مَمْكُورَةٌ غَرْثَى الوشاحِ السالِسِ تضحَكُ عنْ ذِي أُشُرٍ عُضَارِس 2

وأما "سُكارى" بالضم في السين فظاهره أن يكون اسما مفردا غير مكسّر كَجُمادَى وحُمَادَى 3 وسُمانَى 4 وسُلَامَى 5 .

وقد يجوز أن يكون مكسّرًا مما جاء على فُعَال : كالظُّؤار 6 ، والعُرَاق 7 ، والرُّخال 8 ، والثُّناء 9 ، والتُّؤام 10 ، والرباب 11 ، إلا أنه أَنَّثَ بالألف كما أَنَّثَ بالهاء في قولهم : النُّقاوة 12 . قال أبو علي : وهو جمع نقْوَة ، وأَنَّثَ كما أَنَّثَ فِعَال في نحو : حِجَارة ، وذِكَارَة

وعِيَارَة13 .

---

1 الغرثان : الجائع ، غرث كفرح .

2 الممكورة : المستديرة الساقين ، أو المدمجة الخلق ، الشديدة البضعة . والوشاح : أديم عريض يرصع بالجواهر ، تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها . وغرثى الوشاح : جائلة الوشاح لدقة خصرها . وأشر الأسنان : تحزيز أطرافها . وذي أشر : ثغر في أسنانه أشر . والعضارس : الماء العذب البارد . والبيت في اللسان "سلس ، وعضرس" .

3 الحمادى : الغاية . وفي ك : كحمادى وجمادى .

4 السمانى : طائر للواحد والجمع . أو الواحد سماناة .

5 السلامى : عظم في فرسن البعير ، وعظام صغار طول أصبع أو أقل من اليد والرجل .

6 الظؤار : جمع ظئر ، وهي العاطفة على غير ولدها .

7 العُراق : جمع عَرْق ، كسَهْل ، وهو العظم أكل لحمه .

8 والرخال : جمع رِخْل - بكسر فسكون : الأنثى من ولد الضان .

9 الثناء : جمع ثِنْي ، بكسر فسكون ؛ وهي الناقة ولدت اثنين .

10 والتؤام : جمع توءم ، ذكره ابن جني في المحتسب : 1 : 286 .

11 والرباب : جمع ربى ، ومن معانيها : الإحسان ، والحاجة .

12 النقاوة : أصل ما انتقيت من الشيء .

13 لعلها جمع عير ، والذي في المعاجم المتداولة أن من جموعه العيار ، بغير تاء .

(20/518)

وأما "سُكْرَى" ، بضم السين فاسم مفرد على فُعْلى ، كالحُبْلَى : والبُشْرَى . وبهذا أفتاني أبو علي ، وقد سألته عن هذا .

ومن ذلك قراءة أبي جعفر : "وَرَبَأَتْ" بالهمز ، ورويت عن أبي عمرو بن العلاء .

قال أبو الفتح : المسموع في هذا المعنى رَبَتْ ؛ لأنه من ربا يربو : إذا ذهب في جهاته زائدا ، وهذه حال الأرض إذا ربت . وأما الهمز فمن : رَبَأْتُ القوم : إذا أشرفتَ مكانا عاليا لتنظر لهم وتحفظهم . وهذا إنما فيه الشخوص والانتصاب ، وليس له دلالة على الوفور والانبساط ، إلا أنه يجوز أن يكون ذهبه2 إلى علوّ الأرض ، لما فيه من إفراط الربو ، فإذا وصف علوَّها دل على أن الزيادة قد شاعت في جميع جهاتها ؛ فلذلك همز ، وأخذه من : ربأتُ القوم ، أي : كنت لهم طليعة . وهذا مما يذكر أحد أوصافه ، فيدل على بقية ذلك وما يصحبه . ألا ترى إلى قوله :

كأنَّ أيديهِنَّ بالمَوْمَاةِ أيدِي جوارٍ بِتْنَ ناعِمَاتِ3 ؟

ولم يرد الشاعر أن أيدي الإبل ناعمة ، وكيف يريد ذلك وإنما المعتاد المألوف في ذلك وصف الأيدي بالشدة والسلاطة ؟ ألا ترى إلى قوله :

تَرْمِي الأماعِيزَ بِمُجمراتِ بأرجُلٍ رُوحٍ مُحنَّباتِ4 ؟

وقوله :

تَرْمِي الحَصا بمناسِمٍ صُمٍّ صَلادِمَةٍ صِلَابِ5 ؟

---

1 سورة الحج : 5 .

2 كذا في نسختي الأصل ، فضمير ذهبه راجع إلى الذهاب المفهوم من قوله قبلا : إذا ذهب في جهاته زائدا .

3 انظر الصفحة 125 من الجزء الأول .

4 الأماعيز : جمع أمعز ، وهو ما غلظ من الأرض ، زاد الياء لإقامة وزن البيت . بمجمرات : بأخفاف مجمرات ، أي : صلبة . وأرجل روح : أرجل فيها انبساط واتساع ، جمع روحاء . وفي ك : روع ، وهو تحريف, ومحنبات : فيها انحناء وتوتير . ويروى مجنبات بالجيم ، وهي بمعنى محنبات بالحاء وانظر الخصائص : 1 : 34 .

5 المناسم : جمع منسم ، كمجلس ، وهو : خف البعير . صم : غليظة ، من قولهم : أرض صماء . والصلادم : جمع صلدم ، كزبرج ، وهو الصلب .

والأمر في ذلك أشهر ، وإنما [104ظ] أراد أن أيديها اختضبن بالدم فاحمررن ، فذكر نَعْمة اليد ، لأنها مما يصحبها الخضاب .

وعليه قال الآخر :

كأنَّ أيديهِنَّ بالقاعِ القَرِقْ أيدِي عَذارٍ يَتَعاطَينَ الوَرِقْ1

فذكر العذارى ؛ لأنهن مما يصحبهن الخضاب ، فأراد انخضاب أيدي الإبل بالدم . وهذا ونحوه من لمحات العرب وإيماءاتها التي تكتفي بأيسرها مما وراءه . ألا ترى إلى قول الهذلي :

أمِنْكِ البرقُ أُرقبُهُ فَهاجَا فَبِتُّ أَظُنُّه دُهْمًا خِلاجا2 ؟

أي : فإذا اختَلَجَتْ عنها أولادَها حنَّت إليها ، فشبه حنينهنَّ بصوتِ الرعد ، فقدَّم ذكر البرق ، وأودع الكلام ذكر حَدث صوت الرعد ؛ لأنه مما يصحبه وهو كثير ، فكذلك قراءته : "وَرَبَأَتْ" ، دل بذكر الشخوص والانتصاب على الوفور والانبساط الذي في قراءة الجماعة : "وَرَبَتْ" .

ومن ذلك قراءة مجاهد وحميد بن قيس : "خَاسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ"3 .

قال أبو الفتح : هذا منصوب على الحال ، أي : انقلب على وجهه خاسرا ، وقراءة4

الجماعة : ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴾ تكون هذه الجملة بدلا من قوله : ﴿ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ ، فكأنه قال : وإن أصابته فتنة خسر الدنيا والآخرة ، ومثله من الجمل التي تقع وهي من فِعْلٍ وفاعِلٍ بدلا من جواب الشرط قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ ﴾ 5 ؛ وذلك لأن مضاعفة العذاب هي لِقِيّ الأثام ، وعليه قول الآخر :

إنْ يَجْبُنُوا أو يَغْدِرُوا أَوْ يَبْخَلُوا لَا يَحْفِلُوا

---

1 انظر الصفحة 126 من الجزء الأول . وفي ك : تتعاطين ، وهو تحريف .

2 البيت لأبي ذؤيب . ويروى أخاله مكان أظنه . والدهم : السود ، يريد بها هنا النوق ، جمع دهماء . والخلاج : جمع خلوج ، وهي الناقة يجذب عنها ولدها بذبح أو موت ، فتحن إليه . يقول : أمن ناحيتك هذا البرق يتجاوب الرعد معه كأنه نوق خلاج ؟ انظر ديوان الهذليين : 1 : 164 ، واللسان "خلج" .

3 سورة الحج : 11 ، وقبل هذا الجزء من الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ .

4 في ك : فقراءة .

5 سورة الفرقان : 68 ، 69 .

يغْدُوا عليكَ مُرَجِّلِيـنَ كأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا 1

فقوله : يغْدُوا عليكَ مُرَجِّلِينَ بدلٌ من قوله : لا يحْفِلُوا .

ومن ذلك قراءة الزهري : "والدَّوَابُ"2 ، خفيفة الياء . ولا أعلم أحدًا خففها سواه .

قال أبو الفتح : لعمري إن تخفيفها قليل ضعيف قياسا وسماعا .

أما القياس فلأن3 المدة الزائدة في الألف عوض من اجتماع الساكنين حتى كأن الألف حرف متحرك4 ، وإذا كان كذلك5 فكأنه لم يلتق ساكنان . ويدل على أن زيادة المد في الألف جار مجرى تحريكها أنك لو أظهرت التضعيف فقلت : دوابِب ، لقصرت الألف وإذا أدغمت أتممت صدى الألف فقلت دوابّ ؛ فصارت تلك الزيادة في الصوت عوضا من تحريك الألف .

وأما السماع فإنه لا يعرف فيه التخفيف ، لكن له من بعد ذلك ضرب من العذر ، وذلك أنهم إذا كرهوا تضعيف الحرف فقد يحذفون أحدهما ، من ذلك قولهم : ظَلْت ، ومَسْت ، وأَحَسْت . يريدون : ظَلِلْت ، ومَسِسْت ، وأَحسست ، قال أبو زبيد :

خَلَا أنَّ العِتَاقَ من المَطايا أَحَسْنَ بِهِ فَهُنَّ إليهِ شُوسُ6

وقال :

قَدْ كُنْتُ عِنْدَكَ حَوْلًا لا تُرَوِّعُنِي فِيهِ رَوَائِعُ من إنس ولا جَانِ7

---

1 لشاعر جاهلي قديم . وروي البيت الأول :

أن يغدروا أو يكذبوا أو يختروا لا يحفلوا

ومع هذين البيتين بيت ثالث ، وهو :

كأبي براقش كل لون لونه يتحول

ويختروا : من ختر كضرب : غدر وخدع . وأبو براقش : دويبة مثل العظاية ، تراها مرة خضراء ؛ ومرة حمراء ، ومرة صفراء في وقت واحد . انظر ذيل الأمالي : 84 ، والكتاب : 1 : 446 ، وشرح أدب الكاتب : 242 ، 243 .

2 في الآية 18 من سورة الحج .

3 في ك : فإن .

4 في ك : لمتحرك ، وهو تحريف .

5 في ك : لذلك ، وهو تحريف .

6 انظر المحتسب : 1 : 269 .

7 لعمران بن حطان ، رواه اللسان "جن" ، وفيه "جاني" بياء ، ثم قال : أراد من إنس ولا جان ، فأبدل النون الثانية ياء .

يريد : جانٌّ ، فحذف إحدى النونين . وأنشدنا أبو علي :

حتَّى إذا مَا لَمْ أجِدْ غيْرَ الشَّرِ كُنْتُ امرأً من مَالِكِ بنِ جَعْفَرِ [105و]

أراد : غير الشرّ ، فحذف الراء الثانية . وإذا كانوا قد حذفوا بعض الكلمة من غير

تضعيف فحذف ذلك مع التضعيف أحرى . ألا ترى إلى قول لبيد :

دَرَسَ المنا بِمُتَالِعٍ فَأَبَانِ1 ؟

وقال علقمة بن عبدة :

كأنَّ إبريقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ مُقَدَّمٌ بِسَبَا الكَتَّانِ مَلْثُومُ2

أراد بسبائب الكتَّان .

وقد ذكرنا نحو ذلك ، إلا أن هذا باب إنما يحمله الشعر ، غير أن فيه لتخفيف "الدوابّ"

عذرا ما ، هو أولى من أن يتلقى بالرد وقد وجدت له وجها .

ومن ذلك قراءة ابن عباس : "يَحْلَوْنَ"3 ، بفتح الياء وتخفيف اللام ، من حَلِيَ يَحْلَى .

قال أبو الفتح : هذا4 من قولهم : لم أحْلَ منه بطائل ، أي : لم أظفر5 منه بطائل ؛ فيجعل ما

يُحَلَّوْن به هناك أمرا ظفِروا به ، وأُوصلوا إليه . والحلية6 راجعة المعنى إليه ، وذلك أن

النفس تعدّها مظفورا به7 موصلا إليه . وليست الحلية من لفظ : حَلِيَ الشيءُ بِعَيْنِي ؛ لأن الحلية من الحَلْي ، فهي من الياء . وحلي بعيني من الواو ، لقولهم : حَلِيَ بعيني يَحْلَى حلاوة ، فهي كشَقِيَ يشْقَى شَقَاوةً ، وغَبِيَ يغْبَى غَباوةً . ولكن قولهم : امرأةٌ حالية أي : ذات حَلْي من الياء ، فحالية إذاً من قوله : ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ على هذه القراءة وهما من الياء ، فكأنه أقوى عندهم من قولهم ما حليْتُ من بطائل ؛ لأن ذلك لا يستعمل إلا في غير الواجب . لا يقولون : حليت منه ،

---

1 انظر المحتسب : 1 : 80 .

2 انظر المحتسب : 1 : 81 .

3 سورة الحج : 23 .

4 في ك : هو .

5 في ك : أظهر ، وهو تحريف .

6 سقط في ك من قوله : والحلية راجعة إلى قوله : موصلا إليه .

7 وإذاً تكون "من" في قوله تعالى : ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ بدلا من الباء ، كما في البحر : 6 : 361 .

ولا حليت بكذا . فأما المثل وهو قولهم : حَلَأَتْ حالِئَة عن كُوعها 1 فهو مهموز ، وأمره ظاهر .

ومن ذلك قراءة الحسن والجحدري وسلام ويعقوب : "وَلُؤْلُؤا" ، بالنصب .

قال أبو الفتح : هو محمول على فِعْل يدل عليه قوله : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ ، أي ويؤتون لؤلؤا ، ويلبسون لؤلؤا .

ومثله قراءة أبي : "وحورًا عينًا" 3 أي ويؤتون حورا عينا ، ويُزَوَّجون حورا عينا .

ومثله مما نصب على إضمار فعل يدل عليه ما قبله قوله :

جِئْنِي بِمِثْلِ بني بَدْرٍ لِقَوْمِهِمُ أو مِثْلَ أسرة مَنْظُورِ بنِ سيَّارِ 4

فكأنه قال : أو هاتِ مثلَ أسرة . وعليه قول الآخر :

بَيْنَا نَحْنُ نَرْقُبُه أَتانَا مُعَلِّق وَفْضَةٍ وزنادَ راعٍ 5

فكأنه قال : وحاملا زناد راع ، ومعلقا زناد راع ، وهو كثير .

ومن ذلك قراءة الحسن وابن محيص : "وَأَذِنَ فِي النَّاسِ" 6 ، بالتخفيف .

قال أبو الفتح : "أَذِنَ" معطوف على "بَوَّأْنَا" ، فكأنه قال : وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ، وأذن ، فأما قوله على هذا : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ فإنه انجزم لأنه جواب قوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ﴾ ، وهو على قراءة الجماعة جواب قوله : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ .

1 حلأ الجلد : قشر تحلئه ، وهو قشوره ووسخه . والمرأة الصناع ربما استعجلت فحلأت عن كوعها . و"عن" من صلة المعنى ، كأنه قال : قشرت عن كوعها . يضرب لمن يتعاطى ما لا يحسنه ، ولمن يرفق بنفسه شفقة عليها . وانظر الأمثال للميداني : 1 : 201 ، وأورده اللسان "حلأ" ، وروى له تفسيرا آخر عن ابن الأعرابي .

2 سورة الحج : 23 .

3 سورة الواقعة : 22 .

4 البيت لجرير ، والخطاب للفرزدق ، يفخر عليه بسادات قيس أخواله ، وبنو بدر من فزارة ، وفيهم شرف قيس عيلان . وبنو سيار من سادات فزارة ، من ذبيان ، ومن قيس . وانظر الديوان : 312 ، والكتاب : 1 : 48 ، 86 .

5 لرجل من قيس عيلان . والوفضة : الكنانة . وانظر الكتاب : 1 : 87 .

6 سورة الحج : 27 .

(25/518)

ومن ذلك قراءة ابن عباس وأبي مِجْلَز ومجاهد وعكرمة والحسن وأبي عبد الله جعفر بن محمد : "رُجَّالًا" 1 .

وقرأ : "رُجَالًا" ، بضم الراء ، وتخفيف الجيم منونة – عكرمة وابن أبي إسحاق وأبو مجلز والحسن البصري والزهري .

وقرأ : "رُجَال" ، على فُعَال مخففة – عكرمة .

قال أبو الفتح : أما [105ظ] "رُجَّالًا" فجمع راجل ، ككَاتِب وكُتَّاب ، وعالِم وعُلَّام ، وعامِل وعُمَّال .

وأما "رُجَالًا" ، مضمومة الراء ، خفيفة الجيم ، منونة – فغريب . وهو مما ذكرناه مما جاء من الجمع على فُعَال : كظُؤار ، وعُراق ، ورُخال2 .

وأما "رُجَالَى" فمثل : حُبارَى ، وسُكارَى . ويقال : أراجِل ، وأراجِيل ، ورَجَالَى ، ورُجَالَى ، ورُجْلَان . قال كثير :

لَهُ بجنوبِ القادِسِيَّة فَالشَّبا مَوَاطِنُ لا يَمْشِي بِهِنَّ الأراجِلُ3

وقال أبو الأسود :

كأنَّ مَصامَاتِ الأُسُودِ بِبَطْنِه مَرَاغٌ وآثارَ الملاعِيبِ مَلْعَبُ4

وأنشد الأصمعي :

وَمَرْكَبٍ يَخْلِطُنِي بالرُّكْبَانْ يَقِي بِهِ اللهُ أَذَاةَ الرُّجْلَانْ5

ورُوِّينا عن ابن الأعرابي : رَجُل رَجْلَان6 ، ورَجَل أي : رَاجِل .

وقراءة الكافة : ﴿ رِجَالًا ﴾ جَمْع رَاجِل أيضا ، كصائِم وصِيام ، وصَاحِب وصِحَاب .

1 سورة الحج : . 27

2 انظر الصفحة 73 من هذا الجزء .

3 الجنوب : جمع جَنْب ، ويراد به الناحية . ورواه اللسان "رجل" ، وفيه الجبوب مكان الجنوب .

والجبوب : وجه الأرض ومتنها من سهل أو حزن . الشبا : واد بالأثيل لبني جعفر بن إبراهيم ، من بني جعفر بن أبي طالب .

4 بهامش نسخة الأصل ، والديوان : 11 ، وباللسان "رجل" الأراجيل مكان الملاعيب . والمصامات : جمع المصامة ، وهي الموقف . والمراغ : المتمرغ .

6 رجل رجلان : ليس له ظهر في سفر بركبه .

(26/518)

ومن ذلك قراءة ابن أبي إسحاق ، ورويت عن أبي عمرو : "وَالْمُقِيمِي الصَّلاةَ" 1 ، بالنصب .

قال أبو الفتح : أراد "المقيمين" ، فحذف النون تخفيفا ، لا لِتُعَاقِبَها الإضافة ، وشبه ذلك باللذين والذين في قوله :

فإنَّ الذِي حانَتْ بفلجٍ دماؤهُم هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ 2

حذف النون من الذين تخفيفا لطول الاسم ، فأما الإضافة فساقطة هنا ، وعليه قول الأخطل :

أَبَنِي كُلَيبٍ إنَّ عَمّيَّ اللَّذا قَتَلا الملوكَ وفَكَّكَا الأغلالا3

حذف نون "اللذان" لما ذكرنا ، لكنّ الغريبَ من ذلك ما حكاه أبو زيد عن أبي السمال أو غيره أنه قرأ : "غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهَ"3 ، بالنصب . فهذا يكاد يكون لحنا ؛ لأنه ليست مع لام التعريف المشابهة للذي ونحوه ، غير أنه شبه "معجزي" بالمعجزي ، وسوغ له ذلك علمه بأن "معجزي" هذه لا تتعرف بإضافتها إلى اسم الله "تعالى" ، كما لا يتعرف بها ما فيه الألف واللام ، وهو "الْمُقِيمِي الصَّلاةَ" فكما جاز النصب في "الْمُقِيمِي الصَّلاةَ" كذلك شبه به "غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهَ" . ونحو "الْمُقِيمِي الصَّلاةَ"

بيت الكتاب :

الحافِظُو عَوْرَةَ العشِيرَةَ لَا يأْتِيهِمُ مِنْ وَرَائِهِمْ نَطَفُ4

بنصب "العورةَ" على ما ذكرتُ لك . وقال آخر :

قَتَلْنَا ناجيًا بقتِيلِ عَمْرٍو وَخَيْرُ الطَّالِبِي التِّرَةَ الغَشُومُ5

ومثل قراءة من قرأ : "غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهَ" ، بالنصب قول سويد :

ومَسَامِيحُ بِمَا ضَنَّ بِهِ حَابِسُو الأَنْفُسَ عَنْ سُوءِ الطَّمَعْ6

---

1 سورة الحج : 35 .

2 انظر المحتسب : 1 : 185 .

3 سورة التوبة : 3 .

4 لقيس بن الخطيم ، أو عمرو بن امرئ القيس الخزرجي ، جاهلي . . وروي من ورائنا مكان ورائهم . ووكف مكان نطف . والعورة : كل مخوف ، وعورة الرجل في الحرب : ظهره . والنطف : العيب ، ومثله الوكف . وانظر الكتاب : 1 : 95 ، والخزانة : 2 : 188 والدرر واللوامع : 1 : 23 .

5 رواه اللسان "غشم" ، ولم ينسبه . وفيه "جر" مكان خير ، وهو تحريف .

6 مساميح : معطوف عن "بسط الأيدي : في بيت سابق . ويروى "حاسرو" مكان "حابسو" ، وحاسروا الأنفس : كاشفوها ، مبعدوها . المفضليات : 194 ، وفي ك : مسابيح ، وهو تحريف .

(27/518)

وقرأ بعض الأعراب : "إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابَ الْأَلِيمَ" 1 ، بالنصب .

وأخبرنا أبو علي عن أبي بكر عن أبي العباس ، قال : سمعت عمارة يقرأ : "وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ

النَّهَارَ" ، فقلت له : ما أردت ؟ فقال3 : أردت : سابقٌ النهارَ ، فقلت له : فهلا قلته . فقال : لو قلته لكان أوزن ، يريد : أقوى وأقيس . وقد ذكرنا هذا ونحوه في كتابنا الخصائص4 وغيره من كتبنا .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وإبراهيم وأبي جعفر محمد بن علي والأعمش ، واختلف عنهما ، وعطاء بن أبي رباح5 [106و] والضحاك والكلبي : "صَوَافِنَ"6 .

وقرأ : "صَوَافِيَ" أبو موسى الأشعري والحسن وشفيق7 وزيد بن أسلم8 وسليمان التيمي ، ورويت عن الأعرج.

قال أبو الفتح : هي "الصافنات" في قول الله تعالى : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَاد ﴾9 ، إلا أنها استعملت هنا في الإبل . والصافن : الرافع إحدى رجليه ، واعتماده منها على سنبكها . قال عمرو بن كلثوم :

تَرَكْنَا الْخَيْلَ عاكِفَةً عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَهَا صُفُونَا10

---

1 سورة الصافات : 38 .

2 سورة يس : 40 .

3 في ك : قال .

4 الخصائص : 1 : 125 .

5 هو عطاء بن أبي رباح بن أسلم أبو محمد القرشي مولاهم المكي ، أحد الأعلام . وردت عنه الرواية في حروف القرآن ، وروى القراءة عن أبي هريرة ، وعرض عليه أبو عمرو . عاش مائة سنة ، وقيل : أنه مات سنة 115 ، أو سنة 114 ، وله ثمان وثمانون سنة . طبقات ابن الجزري : 1 : 513 .

6 سورة الحج : 36 .

7 هو شفيق بن سلمة أبو وائل الكوفي الأسدي ، إمام كبير . أدرك زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – ولم يره . وقد ذكره ابن الأثير وغيره في الصحابة ، وحفظ القرآن في شهرين . عرض على ابن مسعود ، وروى عنه الأعمش ومنصور . وتوفي زمن الحجاج سنة اثنتين وثمانين ، وقيل : توفي أيام عمر بن عبد العزيز والأول هو المحفوظ. طبقات ابن الجزري : 1 : 328 .

8 هو زيد بن أسلم أبو أسامة المدني مولى عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه . وردت عنه الرواية في حروف القرآن ، أخذ عنه القراءة شيبة بن نصاح . مات سنة 136 . طبقات ابن الجزري : 1 : 296 .

10 من معلقة عمرو بن كلثوم . وصفون : جمع صافن . شرح المعلقات السبع للزوزني : 125 .

و "صَوَافِيَ" أي : خوالص لوجهه وطاعته . وقال العجاج :

حتَّى إذا ما آضَ ذا أعرافِ كالْكَوْدَنِ المَشْدُودِ بالْوِكَافِ

قالَ الذِي عِنْدَكَ لِي صَوَافِي 1

ومن ذلك قراءة أبي رجاء : "القِنعَ" 2 .

قال أبو الفتح : يريد "القانع" ، وهي قراءة العامة ، إلا أنه حذف الألف تخفيفا وهو يريدها

وقد ذكرنا ذلك فيما مضى ، وأنشدنا فيه قوله :

أصبحَ قَلْبِي صَرِدَا لا يشْتَهِي أنْ يَرِدَا

إلا عِرَادًا عِرَادَا وصِلِّيَانًا بَرِدَا

وَعَنْكَثًا مُلْتَبِدَا 3

يريد عارِدًا وبارِدًا . ونحوه ما رويناه عن قطرب من قول الشاعر :

أَلَا لَا بارَكَ اللهُ في سُهَيْلٍ إذا مَا اللهُ بارَكَ في الرِّجالِ 4

أراد : لا بارَكَ اللهُ 5 ، فحذف الألف تخفيفًا . وعليه قول الآخر :

مثل النَّقا لبده ضرب الطَّلَلْ 6

يريد الطَّلال ، كما قال القحيف العقيلي :

ديارُ الْحَيِّ تضرِبُها الطِّلالُ بِها أهلٌ مِنَ الخافي ومالُ 6

ومن ذلك قراءة أبي رجاء وعمرو بن عبيد : "والْمُعْتَرِي"7 خفيفة ، من اعتريت .

---

1 يروى الأكاف مكان الوكاف ، وجمعت مكان عندك . وآض : صار . والأعراف : جمع عرف ، وهو الشعر النابت فوق محدودب رقبة الفرس ، والكودن ، البرذون الهجين . ووكاف الحمار وأكافه : برذعته . وانظر الديوان : 40 .

2 سورة الحج : 36 .

3 المحتسب : 1 : 171 .

4 المحتسب : 1 : 181 ، وكتب في الأصل كلمة "قصر" فوق لفظ الجلالة .

5 كتب في ك كلمة "مد" فوق لفظ الجلالة .

6 المحتسب : 1 : 181 .

7 سورة الحج : 36 .

(29/518)

قال أبو الفتح : يقال : عَرَاهُ يَعْرُوهُ عَرْوًا فهو عَارٍ ، والمفعول مَعْرُوّ . واعتراه يعتريه اعتراء فهو مُعتَرٍ . والمفعول مُعترًى . وعرَّه يَعَرُّه عرًّا فهو عَارٌّ . والمفعول معرور . واعتره يعتره اعترارًا فهو معتَرٌّ ، والمفعول مُعْتَرٌّ أيضا . لفظ الفاعل والمفعول به سواء . وكله : أتاه وقصده .

والقانع : السائل ، والمعتر : المتعرض لك من غير مسألة . قال ابن أحمر :

ثُمّ تَعُرُّ الماءَ فِيمَنْ يَعُر 1

قال طرفة :

في جِفَانٍ تَعتَرِي نَادِيَنَا وسَدِيف حِينَ هَاجَ الصّنَّبِرْ 2

ومن ذلك قراءة الجحدري بخلاف : "وصُلُوتٌ" 3 بضم الصاد واللام ، وإسكان الواو ، والتاء .

وروى عنه : "وصِلْواتٌ" . بكسر الصاد ، وجزم اللام بعد الواو . بالتاء .

وقرأ : "وصُلُوتٌ" أبو العالية – بخلاف – والحجاج بن يوسف – بخلاف – والكلبي .

وقرأ : "وصُلُوتٌ" الحجاج . ورويت عن الجحدري .

وقرأ : "وَصُلُوَتٌ" جعفر بن محمد .

وقرأ : "وصُلُوتًا" مجاهد .

وقرأ : "وصلَوَاتٌ" الجحدري والكلبي بخلاف .

وقرأ : "وصِلْوِيتًا" عكرمة .

قال أبو الفتح : اعلم أن أقوى القراءات في هذا الحرف هو ما عليه العامة ، وهو :

﴿ صَلَوَاتٌ ﴾

---

1 صدره :

ترعى القطاة الخمس قفورها

وروي البقل مكان الخمس . والخِمس بالكسر : من أظماء الإبل ، وهي أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع . والقفور : نبت ترعاه القطا ، ولم يسمع في كلام العرب إلا في شعر ابن أحمر . وانظر اللسان "عر ، وقفر" .

2 روي بجفان مكان في جفان . و"من سديف" مكان "وسديف" . السديف : شحم السنام . والصنبر : أشد البرد . يريد أنهم يطعمون أطيب الطعام وقت الشدة . وفي ك : الضبر مكان الصنبر ، وهو تحريف . وانظر ديوان الشاعر : 80 .

3 سورة الحج : 40 .

(30/518)

ويلي ذلك "صُلُواتٌ" و "صُلَوَات" 1 و "صِلْوَاتٌ" . فأما بقية القراءات فيه فتحريف وتشبث باللغة السريانية واليهودية .

وذلك أن الصلاة عندنا من الواو ، يدلك على ذلك ما كان رآه أبو علي فيها ، وذلك أنها من الصَّلَوَيْن [106ظ] وهما مكتنِفا ذنَب الفرس وغيره مما يجري مجرى ذلك ، قال :

واشتقاقه منه أن تحريك الصَّلَوَيْنِ أول ما يظهر من أفعال الصلاة ، فأما الاستفتاح ونحوه من

القراءة والقيام فأمر لا يظهر ، ولا يخص ما ظهر منه الصلاة ، لكن الركوع أول ما يظهر من أفعال المصلي . وقولهم أيضا في الجمع : صلواتٌ ، قاطع بكون اللام واوا ، وإنما ذكرنا وجه اشتقاقها من الصَّلَوَيْن2 . فصلوات جمع صلاة ، كقنوات من قناة .

وأما "صُلُوَات" و"صُلَوَات" فجمع صُلْوَة ، وإن كانت غير مستعملة . ونظيرها حُجْرَة وحُجُرَات وحُجَرَات . وأما "صِلْوَات" فكأنه جمع صِلْوَة كرِشْوَة ورِشْوَات ، وهي أيضا مقدرة وغير مستعملة ، كتقدير "صُلْوَة" . وقد تكون "صُلَوَات" بفتح اللام أيضا جمع صُلاة كطُلاة3 وطُلَيَات . وإنما بدأنا بقولنا إنها جمع صُلْوَة كحُجُرات جمع حُجْرَة ، ولم تقدم ذكر صلاة المتقدرة ليقل تقدير ما لم يخرج إلى الاستعمال .

ومعنى "صَلَوات" هنا : المساجد ، وهي على حذف المضاف ، أي : مواضع "الصَّلَوَات" ، ومنه قولهم : صلى المسجد ، أي : أهله . وأذن المسجد ، أي : مؤذنه . وقال :

نُبِّئْتُ أنّ النارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يا كُلَيْبُ الْمَجْلِسُ4

قال أبو حاتم : ضاقت صدورهم لما سمعوا ﴿ هُدِّمَتْ صَلَوَاتٌ ﴾ ، فعدلوا إلى بقية القراءات ، وقال الكلبي : "صُلُواتٌ" : مساجد اليهود ، وقال الجحدري : "صُلُواتٌ" : مساجد النصارى . وعندنا من خارج باب الموصل بيوت يدفن فيها النصارى تعرف بالباصَلُوث ، بثاء منقوطة

---

1 في الأصل "صلوات" بضم فسكون : وهو تحريف ، بدليل تخريجاته الآتية لبعض قراءات

هذه الكلمة ، ومنها القراءة المذكورة بعد تصحيحها . وقد ذكرها في البحر "6 : 375" منسوبة كما هنا إلى الجحدري .

2 يبدو أن في العبارة سقطًا .

3 الطلاة : العنق .

4 البيت لمهلهل . واستب القوم : تسابوا . يريد أنه كان لا توقد مع ناره نار لعظم ناره وعمومه بالإطعام ، وأنه كان لهيبته لا يتساب الناس في مجلسه .

"الأمالي : 1 : 95 ، والسمط : 298 ، 299 .

(31/518)

بثلاث ، وقال قطرب : صُلُوث بالثاء : بعض بيوت النصارى ، قال : والصُّلُوثُ : الصوامع الصغار لم يسمع لها بواحد ، قال : وقال ابن عباس : "صَلَوَات" : كنائس اليهود ، وصوامع الرهبان ، وبِيَع النصارى .

وقال أبو حاتم : قال الحسن : تهديمها : تعطيلها ، وقول الله سبحانه : ﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَلا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ 1 ، فهذا يدل على أن المراد : لا تقربوا المسجد ، فقال : "الصلاة" .

ومن ذلك قراءة الجحدري : "وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ" ، ساكنة العين .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون ذلك على عَطَلَتْ أو أَعْطَلَتْ أو عَطِلَتْ فهي عَاطِل ، وأَعْطَلْتُها فهي مُعْطَلة ، فيكون منقولا من ثلاثي على فَعَلْتُ أو فَعِلْتُ ، والفتح أولى بالعين فيه من الكسر ؛ لأن عَطِلَ يقال للمرأة إذا عَطِلَتْ من الحَلْي ، كما قال في ضِده : حَلِيَت فهي حالِيَة ، وقالوا : امرأة عاطل بلا هاء ، كأخواتها من طاهر وطامث .

ومن ذلك قراءة لاحق بن حميد 3 : "فَلا يُنَزِعُنَّكَ" 4 .

قال أبو الفتح : ظاهر هذا فلا يستخِفُّنَّك عن دينك إلى أديانهم ، فيكون بصورة المنزوع عن شيء إلى غيره . ومنه قول الله : ﴿ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ 5 ، ونحوه قول يونس 6 في قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴾ 7 ، ألا تراه كيف

---

1 سورة النساء : 43 .

2 سورة الحج : 45 .

3 هو لاحق بن حميد السدوسي أبو مجلز ، كان ثقة ، وله أحاديث . توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، قبل وفاة الحسن البصري . طبقات ابن سعد : 7 : 216 .

4 سورة الحج : 67 .

5 سورة الروم : 60 .

6 هو يونس بن حبيب أبو عبد الرحمن الضبي مولاهم ، البصري النحوي . روى القراءة عرضا عن أبان بن يزيد العطار وأبي عمرو بن العلاء ، وأخذ العربية عنه وعن حماد بن سلمة . وروى القراءة عنه ابنه حرمي بن يونس وغيره . يقال أنه توفي سنة 185 . طبقات ابن الجزري : 2 : 406 .

7 سورة مريم : 69 ، و"عُتِيًّا" بضم العين قراءة غير الكسائي وحمزة والأعمش وحفص ، كما في إتحاف الفضلاء : 181 .

(32/518)

ذهب إلى تعليق ينزع في هذا الموضع ؟ ولو كان بمنزلة نزع الرَّجُلِ الرِّجْلَ من الخف أو المسمار من الجذع ونحوه [107و] لما جاز تعليقه .

قال أبو علي : فإنما هو إذاً كقولك : لنميزنهم بالاعتقاد والعلم فنخصهم باستحقاق الذم بما يجب اعتقاده في مثلهم . هذا محصول ما كان يقوله أبو علي فيه وإن لم يحضرني الآن صورة لفظه . فكذلك إذاً قوله : "لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يَنْزِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ" أي : فاثبت على دينك ولا يمل بك هواك إلى اعتقاد دين غيرك .

وأما قراءة العامة : ﴿ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ﴾ أي : فاثبت على يقينك في صحة دينك ولا تلتفت إلى فساد أقوالهم ، حتى إذا رأوك كذلك أمسكوا عنك ولم ينازعوك ، فلفظ النهي لهم ومعناه له ، صلى الله عليه وسلم . ومثله قولهم : لا أرينك ههنا ، ألا ترى أن معناه : لا تكن هنا فأراك ؟ فالنهي في اللفظ لنفسه ، ومحصول معناه للمخاطب . ومثله قول النابغة :

لا أَعْرَفَا رَبْرَبًا حُورًا مَدَامِعُها كأَنَّ أَبْكَارَها نِعَاجُ دُوَّار 1

أي لا تَدْن مني كذلك فأعرفها ، وكلام للعرب كثير الانحرافات ولطيف المقاصد والجهات ، وأعذب ما فيه تلفته وتثنيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 71 . 85 ﴾

---

1 روي : لأعرفا ، وروي : الشطر الثاني :

كأنهن نعاج حول دوار

والربرب : قطيع بقر الوحش ، وكنى به عن النساء . وأبكارها : صغارها ؛ ويريد بها الجواري من النساء . والنعاج : جمع نعجة ، وهي البقرة الوحشية . والدوار : ما استدار من الرمل . يخاطب بني فزارة بن ذبيان ، يخوفهم النعمان بن الحارث الغساني ، وكانوا قد نزلوا مرجا محميا لا يقربه أحد . انظر ديوان الشاعر : 42 ، وشرح المعلقات السبع للزوزني : 174 ، والكتاب : 2 : 150 .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الحج

مكية إلا هذان خصمان إلى ثلاث آيات وقيل أربع وقيل مدنية قيل إلا وما أرسلنا من قبلك) إلى (عقيم) وقال الجمهور منها مكي ومنها مدني وآيها سبعون وأربع شامي وخمس حمصي وست مدني وسبع مكي وثمان كوفي خلافها خمس الجحيم والخلود كوفي عاد وثمود تركها شامي وقوم لوط حجازي وكوفي سماكم المسلمين مكي شبه الفاصلة أربعة ثياب من نار والنار فأمليت للكافرين معجزين وعكسه ما يشاء من حديد تقوى القلوب القراآت أمال (وترى الناس) وصلا السوسي بخلف عنه

واختلف في ( ) سكارى وما هم بسكارى ( ) الآية 2 فحمزة والكسائي وخلف بفتح السين وإسكان الكاف مع حذف الألف والإمالة جمع سكران وهو مطرد لكل ذي عاهة في بدنه كمرضى أو عقله كحمقى وقيل جمع سكر كزمن وزمنى وافقهم الأعمش والباقون بضم السين وفتح الكاف مع الألف على وزن كسالى فهو جمع سكران أيضا وقيل اسم جمع وأمالها أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري وقللهما الأزرق وعن المطوعي إنه من تولاه

فإنه بكسر الهمزة فيهما على إضمار قبل أو على أن كتب بمعنى قيل والجمهور بالفتح فيهما فالأولى في موضع نائب الفاعل والفاء جواب من إن جعلت شرطية أو الداخلة في حيز من إن كانت موصولة وفإنه على تقدير فشأنه إضلاله أو فله إضلاله وعن الحسن البعث بفتح العين لغة فيه كالجلب في الجلب

وقرأ (ما نشاء إلى) بتسهيل الثانية كالياء وبإبدالها واوا مكسورة نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس ويمتنع جعلها كالواو كما مر

وأمال (يتوفى) حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

وأمال (وترى الأرض) وصلا السوسي بخلفه

واختلف في (وربت) الآية 5 هنا وحم السجدة فأبو جعفر بهمزة مفتوحة بعد

(34/518)

الموحدة فيهما أي ارتفعت وأشرفت يقال فلأن يربأ بنفسه عن كذا أي يرتفع والباقون بحذف الهمزة فيهما أي زادت من ربا يربو ومد لا ريب فيه حمزة مدا متوسطا بخلف عنه وعن الحسن ثاني عطفه بفتح العين مصدر بمعنى التعطف

وقرأ (ليضل) الآية 9 بفتح الياء ابن كثير وأبو عمرو ورويس أي ليضل هو في نفسه والباقون

بضمها والمفعول محذوف أي ليضل غيره ومر بإبراهيم وسهل همزة اطمأن الأصبهاني كما سبق في الهمز المفرد وانفرد ابن مهران عن روح بإثبات ألف في خاسر على وزن فاعل اسم منصوب على الحال والآخرة بالجر عطفا على الدنيا المجرورة بالإضافة ولم يعرج عليها في الطيبة على طريقته وهي مروية عن الجحدري وغيره والجمهور بحذف الألف فعلا ماضيا ونصب الآخرة عطفا على الدنيا المنصوبة على المفعولية

واختلف في (ثم ليقطع) الآية 15 و(ثم ليقضوا) الآية 29 فورش وأبو عمرو وابن عامر ورويس بكسر اللام فيهما على الأصل في لام الأمر فرقا بينهما وبين لام التأكيد وافقهم اليزيدي فيهما وقرأ قنبل كذلك في (ليقضوا) فقط جمعا بين اللغتين مع الأثر وافقه ابن محيصن من المفردة والباقون بالسكون للتخفيف وقرأ الصابئين بحذف الهمزة نافع وأبو جعفر

وأمال (والنصارى) أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري وحمزة والكسائي وخلف وزاد الدوري عن الكسائي من طريق الضرير فأمال الألف بعد الصاد لأجل إمالة الألف الأخيرة كما مر فهي إمالة لإمالة وقرأ (هذان) بتشديد النون ابن كثير كما في النساء وعن الحسن يصهر بفتح الصاد وتشديد الهاء مبالغة والصهر الإذابة وسمى الصهر صهرا لامتزاجه بإصهاره

واختلف في (ولؤلؤا) الآية 23 هنا وفاطر الآية 33 فنافع وعاصم وأبو جعفر بالنصب عطفا على محل من أساور أي يحلون أساور ولؤلؤا بتقدير فعل أي ويؤتون لؤلؤا وقرأ يعقوب كذلك ههنا فقط والباقون بالجر فيهما عطفا على أساور وأبدل همزته الأولى واوا ساكنة أبو عمرو بخلفه وأبو بكر وأبو جعفر ولم يبدله ورش من طريقيه ويوقف عليه لحمزة بإبدال الهمزة الأولى وأما الثانية فأبدلها واوا ساكنة لسكونها بعد ضم على القياس وأبدلها واوا مكسورة على مذهب الأخفش فإذا سكنت للوقف اتحد مع الأول وإذا وقف بالروم فيصير وجهين ويجوز تسهيلها كالياء على مذهب سيبويه فهي ثلاثة وأما تسهيلها كالواو فهو المعضل وهشام بخلفه كذلك في الثانية وقرأ صراط بالسين قنبل من طريق ابن مجاهد ورويس وأشم الصاد زايا خلف عن حمزة

واختلف في ( ) سواء العاكف فيه ( ) الآية 25 فحفص بنصب (سواء) على أنه مفعول ثان لجعل إن عدي لمفعولين أو على الحل من هاء جعلناه إن عدي لمفعول وعليهما فالعاكف مرفوع به على الفاعلية لأنه مصدر وصف به فهو في قوة اسم الفاعل المشتق تقديره جعلناه مستويا فيه العاكف والباد والباقون بالرفع على أنه خبر مقدم والعاكف والباد مبتدأ ووحد الخبر لكونه في الأصل مصدرا وصف به وأما سواء محياهم بالجاثية فيأتي في محله إن شاء الله تعالى وأثبت ياء والباد وصلا ورش وأبو عمرو وأبو جعفر وفي الحالين ابن كثير ويعقوب

وفتح ياء الإضافة من (بيتي للطائفين) نافع وهشام وحفص وأبو جعفر وعن ابن محيصن من المفردة ( ) وأذن في الناس ( ) بتخفيف الذال فعل ماض وعن الحسن (بالحج) بكسر الحاء

واختلف في ( ) وليوفوا ( ) وليطوفوا ( ) الآية 29 فابن ذكوان بكسر اللام فيهما على الأصل والباقون بالسكون فيهما على التخفيف وقرأ أبو بكر وليوفوا بفتح الواو وتشديد الفاء مضارع وفي مضعف القصد التكثير والباقون بالإسكان والتخفيف مضارع أوفى لغة في وفى

(36/518)

واختلف في (فتخطفه) الآية 31 فنافع وابو جعفر بفتح الخاء والطاء مشددة مضارع تخطفه والأصل فتخطفه حذفت إحدى التاءين على حد تكلم أو مضارع اختطفه وأصله فتختطفه نقلت فتحة تاء الأفعال إلى الخاء ثم أدغمت في الطاء وفتحت لثقل التضعيف وعن الحسن كسر الخاء والطاء وتشديدها وعن المطوعي فتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها والباقون بسكون الخاء وفتح الطاء مخففة مضارع خطف وكلهم رفع الفاء إلا المطوعي فنصبها

وأمال (تقوى القلوب) وقفا حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق وأبو عمرو بخلفهما

وقرأ الريح بالجمع أبو جعفر بخلف عنه

واختلف في (منسكا) الآية 34 هنا وآخر السورة فحمزة والكسائي وخلف بكسر

السين فيهما وافقهم الأعمش والباقون بفتحها فيهما قبل هما بمعنى واحد والمراد به مكان

النسك أو المصدر وقيل المكسور مكان المفتوح مصدر وعن ابن محيصن بخلفه والمقيمين

بإثبات النون الصلاة بالنصب على الأصل وعن الحسن (والبدن) بضم الدال وهي الأصل

والجمهور بسكونها تخفيفا من الضم أو كل منهما أصل وعن الحسن (صواف) الآية 36

بكسر الفاء مخففة وبعدها ياء مفتوحة جمع صافية أي خوالص

لوجه الله تعالى ورويت عن جماعة والجمهور بفتح الفاء وتشديدها ومد الألف قبلها من

غير ياء نصبها على الحال أي مصطفه وتقدم في المد وسورة الحجر حكم الوقف عليها من

حيث المد لاجتماع ثلاث سواكن وأدغم تاء وجبت جنوبها أبو عمرو وهشام بخلف عنه

وحمزة والكسائي وخلف والباقون بالإظهار ومنهم ابن ذكوان وحكاية الشاطبي رحمه الله

الخلاف فيها عنه تعقبها في النشر كما مر

واختلف في ( ) لن ينال الله ( ) ولكن يناله ( ) الآية 37 فيعقوب بالتاء من فوق على التأنيث

فيهما اعتبارا باللفظ ورويت عن الزهري والأعرج وغيرهما والباقون بالياء من تحت فيهما

على التذكير لأن التأنيث مجازي

واختلف في ﴿ إن الله يدفع) ﴾ الآية 38 فابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الياء والفاء وإسكان الدال بلا ألف كيسأل أسند إلى ضمير اسم الله تعالى لأنه الدافع وحده وافقهم ابن محيصن واليزيدي والباقون بضم الياء وفتح الدال وألف بعدها مع كسر الفاء كيقاتل إسنادا إليه تعالى على جهة المفاعلة مبالغه أي يبالغ في الدفع عنهم

واختلف في (أذن) الآية 39 فنافع وأبو عمرو وعاصم وابو جعفر ويعقوب وإدريس من طريق الشاطبي عن خلف بضم الهمزة مبنيا للمفعول وإسناده إلى الجار والمجرور وافقهم الحسن واليزيدي والباقون بفتحها مبنيا للفاعل مسندا لضمير اسم الله تعالى

واختلف في (يقاتلون بأنهم) الآية 39 فنافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح التاء مبنيا للمفعول لأن المشركين قاتلوهم والباقون بكسرها مبنيا للفاعل أي يقاتلون المشركين والمأذون فيه وهو القتال محذوف لدلالة يقاتلون عليه

وقرأ (دفع) الآية 40 بكسر الدال وفتح الفاء وألف بعدها نافع وأبو جعفر ويعقوب وافقهم الحسن ومر بالبقرة

واختلف في (لهدمت صوامع) الآية 40 فنافع وابن كثير وأبو جعفر بتخفيف الدال

وافقهم ابن محيصن والشنبوذي والباقون بالتشديد للتكثير وأدغم التاء من لهدمت في الصاد أبو عمرو وابن عامر بخلف عن الحلواني عن هشام وحمزة والكسائي وخلف وأظهرها الباقون

وأمال (للكافرين) أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه والدوري عن الكسائي ورويس وقلله الأزرق وأظهر ذال أخذتهم ابن كثير وحفص ورويس بخلفه وأثبت ياء نكير ورش وصلا وفي الحالين يعقوب

وقرأ (فكأين) الآية 45 48 معا هنا على وزن فاعل ابن كثير وأبو جعفر لكنه يسهل الهمزة مع المد والقصر والباقون بهمزة مفتوحة وياء مكسورة مشددة بلا ألف على الأصل ووقف على الياء منها أبو عمرو ويعقوب والباقون على النون

(38/518)

واختلف في ﴿ أهلكتها ﴾ الآية 45 فأبو عمرو ويعقوب بالتاء من فوق مضمومة بلا ألف لقوله فأمليت وأخذتها وافقهما اليزيدي والحسن والباقون بنون العظمة مفتوحة وبعدها ألف على حد أهلكناها فجاءها وأبدل همز بئر ورش من طريقيه وابو عمرو بخلفه وابو جعفر كوقف حمزة

واختلف في (تعدون) الآية 47 هنا فابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بالياء تحت لقوله ويستعجلونك وافقهم ابن محيصن والأعمش والباقون بالتاء من فوق على الخطاب لعموم المسلمين وغيرهم وخرج بهنا موضع ألم السجدة المتفق على الخطاب فيه وأظهر ذال أخذتها ابن كثير وحفص ورويس بخلفه

واختلف في ﴿ معجزين ﴾ الآية 51 هنا وموضعي سبأ الآية 5 38 فابن كثير وأبو عمرو بالقصر وتشديد الجيم في الثلاثة اسم فاعل من عجزه معدى عجز أي قاصدين التعجيز بالإبطال مشطين قاله الجعبري وافقهما اليزيدي وعن ابن محيصن كذلك هنا وثاني سبأ وهو أحد الوجهين من المفردة وعنه منها كذلك الأول من سبأ والباقون بالمد والتخفيف في الثلاثة اسم فاعل من عاجزه فأعجزه وعجزه إذا سابقه فسبقه لأن كلا من الفريقين يطلب إبطال حجج خصمه

وأمال تمنى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

وقرأ أبو جعفر (في أمنيته) الآية 52 بتخفيف الياء والباقون بتشديدها والأمنية القراءة ويوقف لحمزة على نحو يحكم الله آياته بالتحقيق وبإبدال الهمزة واو مفتوحة وهو متوسط بغير المنفصل ووقف يعقوب على لهاد الذين بالياء

وقرأ (قتلوا) الآية 58 بتشديد التاء ابن عامر ومر بآل عمران وقرأ (مدخلا) بفتح الميم نافع وأبو جعفر ومر بالنساء

واختلف في ( ) وأن ما يدعون ( ) الآية 62 هنا ولقمان الآية 30 فأبو عمرو وحفص والكسائي ويعقوب وخلف بالياء من تحت على الغيب وافقهم اليزيدي والحسن والأعمش والباقون بالتاء من فوق على الخطاب للمشركين الحاضرين

(39/518)

وقرأ ( ) السماء أن تقع ( ) الآية 65 بإسقاط الأولى قالون والبزي وأبو عمرو وقنبل بخلفه ورويس من طريق أبي الطيب وقرأ ورش وقنبل في الثاني عنه وأبو جعفر ورويس من غير طريق أبي الطيب بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية بين بين وللأزرق أيضا وقنبل إبدال الثانية ألفا مع المد للساكنين وتقدم في البقرة عند هؤلاء أن حكم مد السماء مع المنفصل بعده أعني ( ) بإذنه إن ( ) لأبي عمرو ومن معه إذا جمع فراجعه وقصر همز لرؤوف أبو عمرو وابو بكر وحمزة ويعقوب وخلف

وأمال ( ) وهو الذي أحياكم ( ) الآية 66 الكسائي وحده وقلله الأزرق بخلفه ومر منسكا قريبا

وقرأ ( ) ما لم ينزل ( ) الآية 71 بسكون النون وتخفيف الزاي ابن كثير وابو عمرو ويعقوب

واختلف في ﴿ إن الذين يدعون ﴾ الآية 73 فيعقوب بالياء من تحت على الغيب

والباقون بالتاء من فوق على الخطاب وأما ( ) إن الله يعلم ما يدعون ( ) بالعنكبوت فيأتي إن شاء الله تعالى في محله ولا خلاف في موضع الرعد أنه بالغيب وضم يعقوب الهاء من بين أيديهم

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف ( ) ترجع الأمور ( ) الآية 76 ببنائه للفاعل

وأمال (سماكم) حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وكذا مواليكم والمولى المرسوم سكرى معا بحذف الألف ولولوا بألف متطرفة في الكل من غير خلف واختلف في ولولو بفاطر معجزين معا بحذف الألف يقتلون بأنهم بحذف الألف تخفيفا لأنه متفق المد وكتبوا إن الله يدفع في بعض المصاحف بالألف وفي بعضها بغير ألف وأجمعوا على الألف في من تولاه

المقطوع والموصول اتفقوا على قطع أن عن لا من قوله تعالى أن لا نشرك وعلى قطع أن ما تدعون من دونه هو الباطل وموضع لقمان وعلى وصل كي بلا في لكيلا يعلم من بعد فيها ياء الإضافة ( ) بيتي للطائفين ( ) الآية 26 فقط وزائد تان (والباد) (نكير) الآية 25 44 .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ 396 . 401 ﴾

(40/518)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الحج "

" سكارى ، بسكارى " قرأ الأخوان وخلف بفتح السين وإسكان الكاف من غير ألف والباقون بضم السين وفتح الكاف وبعدها ألف فيهما .

" عليه ، تولاه " ويهديه ، ونقر ، نشاء إلى ، بظلام ، خير ، خسر ، لبئس معا ، وكثير ، كله جلي .

" وربت " قرأ أبو جعفر بهمزة مفتوحة بعد الباء الموحدة وغيره بحذف الهمزة .

" ليضل " قرأ المكي والبصري ورويس بفتح الياء وغيرهم بضمها .

" ليقطع " كسر اللام ورش وأبو عمرو وابن عامر ورويس وأسكنها غيرهم .

" والصابئين " قرأ المدنيان بحذف الهمزة ، والباقون بإثباتها ، ولحمزة في الوقف عليه الحذف والتسهيل .

" يشاء " آخر الربع .

الممال

" وترى الناس ، وترى الأرض " عند الوقف يميلهما البصري والأخوان وخلف وعند الوصل يميلهما السوسي بخلاف عنه . سكارى ، وبسكارى والنصارى بالإمالة

للأصحاب والبصري والتقليل لورش . الموتى والدنيا الثلاثة بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . الناس الأربعة لدوري البصري . تولاه ومسمى لدى الوقف ويتوفى ، وهدى لدى الوقف . والمولى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه ، ولا تقليل فيه للبصري لأنه مفعل .

المدغم

" الكبير " الساعة شيء الناس سكارى ، لنبين لكم ، الأرحام ما ، العمر لكيلا ، يعلم من ، الله هو ، والآخرة ذلك . الصالحات جنات .

" هذان " شدد المكي النون ومد الألف قبلها مدا مشبعا للساكن فالمد عنده من قبيل اللازم وخففها الباقون .

" رءوسهم الحميم " مثل : بهم الأسباب .

" من غم " أساور إلى صراط ، جعلناه ، فيه ، نذقه بوأنا ، فهو ، خير معا ، الطير ، شعائر ، ذكر ، الصلاة ، لتكبروا ، جلي .

" ولؤلؤا " قرأ المدنيان وعاصم ويعقوب بنصب الهمزة الثانية ، وغيرهم بخفضها ، وأبدل الهمزة الأولى واوا ساكنة مدية وصلا ووقفا شعبة والسوسي وأبو جعفر ، وفي الوقف حمزة .

وأما الثانية فلحمزة وهشام فيها الإبدال واوا ساكنة مدية ، وتسهيلها بين بين مع الروم وهذان الوجهان قياسيان ، ويجوز إبدالها واوا خالصة إتباعا للرسم ، وحينئذ يجوز الوقف عليها بالسكون المحض فيتحد هذا الوجه مع الوجه الأول ويجوز الوقف عليها بالروم فيكون فيها عند الوقف أربعة أوجه تقديرا وثلاثة تحقيقا وعملا .

" سواء " قرأ حفص بنصب الهمزة ، وغيره برفعها .

" والباد " قرأ ورش وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات ياء بعد الدال وصلا ، والمكي ويعقوب بإثباتها في الحالين ، والباقون بحذفها كذلك .

" بيتي " فتح الياء المدنيان وهشام وحفص ، وأسكنها الباقون .

" ليقضوا " قرأ ورش وقنبل وأبو عمرو وابن عامر ورويس بكسر اللام ، وغيرهم بإسكانها .

" وليوفوا وليطوفوا " قرأ ابن ذكوان بكسر اللام فيهما ، والباقون بالإسكان . وقرأ شعبة بفتح الواو وتشديد الفاء من وليوفوا ، والباقون بسكون الواو وتخفيف الفاء .

" فهو " خير معا ؛ الطير ، شعائر ، ذكر ، الصلاة ، لتكبروا . جلي .

" فتخطفه " قرأ المدنيان بفتح الخاء وتشديد الطاء ، والباقون بإسكان الخاء وتخفيف الطاء .

" منسكا " كسر السين والأخوان وخلف ، وفتحها سواهم .

" لن ينال الله ، ولكن يناله " قرأ يعقوب بتاء التأنيث فيهما ، وغيره بياء التذكير فيهما ،

" المحسنين " آخر الربع .

الممال

نار للبصري والدوري بالإمالة ، ولورش بالتقليل ، الناس وللناس بالإمالة لدوري البصري

يتلى ، ومسمى لدى الوقف ، وهداكم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ،

تقوى لدى الوقف ، والتقوى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري ، وورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " وجبت جنوبها للبصري والأخوين وخلف ، وليس لابن ذكوان إلا الإظهار وقد

أشار الشاطبي إلى ضعف الخلاف عنه بقوله: يفتلا .

" الكبير " الصالحات جنات ، للناس سواء ، العاكف فيه ، لإبراهيم مكان .

(42/518)

" يدافع " قرأ المكي والبصريان بفتح الياء وسكون الدال وفتح الفاء من غير ألف ، والباقون

بضم الياء وفتح الدال وألف بعدها مع كسر الفاء .

" أذن " قرأ المدنيان والبصريان وعاصم بضم الهمزة ، وغيرهم بفتحها .

" يقاتلون " فتح التاء المدنيان والشامي وحفص ، وكسرها سواهم .

" دفع الله " قرأ المدنيان ويعقوب بكسر الدال وفتح الفاء وألف بعدها ، والباقون بفتح الدال وإسكان الفاء من غير ألف .

" لهدمت " خفف الدال المدنيان والمكي ، وشددها غيرهم .

" وصلوات "كثيرا ، الصلاة ، وهي ، فهي ، لهو ، معطلة ، يسيروا ، نبي ، صراط خير ، كله ظاهر .

" نكير " أثبت الياء وصلا ورش ، وفي الحالين يعقوب .

" فكأين ، وكأين " قرأ ابن كثير وأبو جعفر بألف بعد الكاف وبعد الألف همزة مكسورة محققة للمكي ومسهلة لأبي جعفر ، والباقون بهمزة مفتوحة بعد الكاف وبعدها ياء مكسورة مشددة ، ووقف البصريان على الياء ، والباقون على النون .

" أهلكناها " قرأ البصريان بتاء مثناة مضمومة بعد الكاف من غير ألف ، وغيرهما بنون مفتوحة بعد الكاف وبعدها ألف .

" وبئر " أبدل الهمز مطلقا ورش السوسي وأبو جعفر ، وفي الوقف حمزة .

" تعدون " قرأ المكي والأخوان وخلف بياء الغيبة ، وغيرهم بتاء الخطاب .

" معاجزين " قرأ المكي والبصري بحذف الألف وتشديد الجيم ، وغيرهم بألف بعد العين

وتخفيف الجيم .

" أمنيته " خفف أبو جعفر الياء ، وشددها غيره

" لهاد " أثبت يعقوب الياء وقفا ، وحذفها الباقون ولا خلاف في حذفها وصلا .

" قتلوا " شدد التاء الشامي ، وخففها غيره .

" مدخلا " فتح الميم ، وضمها سواهما .

" حليم " آخر الربع .

الممال

" ديارهم " بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش . للكافرين مثله غير أن رويسا يميله مع المميلين . موسى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري ، وورش بخلف عنه ، تعمى معا وألقى لدى الوقف عليها ، وتمنى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

(43/518)

" الصغير " لهدمت صوامع للبصري وابن ذكوان والأخوين وخلف ، أخذتم ، وأخذتها لغير المكي وحفص ورويس .

" الكبير " يدفع عن الذين ، أذن للذين ، كان نكير ، ربك كألف ، يحكم بينهم .

عليه . لعفو غفور ، لطيف خبير ، ناسكوه ، فيه ، عليهم ، أيديهم ، الخير ، الصلاة ، كله لا يخفى .

" وأن ما يدعون " قرأ البصريان وحفص والأخوان وخلف بالياء التحتية ، والباقون بالتاء الفوقية .

" السماء أن " أسقط الأولى قالون البصري والبزي مع القصر والمد ، وإذا ركبت السماء أن مع المد المنفصل وهو بإذنه إن الله . يكون للبزي والسوسي وجهان في السماء أن مع قصر المنفصل ويكنون لقالون والدوري ثلاثة أوجه مد السماء أن مع المد والقصر في المنفصل ثم قصر السماء أن من قصر المنفصل ، وسبق توجيه ذلك في البقرة وغيرها . وسهل الثانية ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس ولورش وقنبل إبدالها ألفا مع المد الطويل للساكنين .

" لرءوف " قصر الهمزة البصريان والأخوان وخلف وشعبة ، ومدها الباقون ، ولورش ثلاثة البدل ، ولحمزة وقفا التسهيل فقط .

" منسكا " تقدم قريبا .

" ينزل " خففه المكي والبصريان وشدده غيرهم .

" قل أفأنبئكم " لحمزة في الهمزة الثانية التحقيق والتسهيل وفي الثالثة التسهيل والإبدال ياء فتكون الأوجه أربعة ، وإذا ضربت في أوجه الأولى الثلاثة ، وهي النقل والتحقيق

بالسكت وعدمه تكون اثني عشر وجها لا يمتنع منها شيء .

" إن الذين تدعون " قرأ يعقوب بالياء التحتية ، وغيره بالتاء الفوقية .

" ترجع الأمور " قرأ الشامي والأخوان وخلف ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم وغيرهم بضم التاء وفتح الجيم .

" النصير " آخر السورة ، وآخر الربع .

الممال

النهار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، بالناس والناس معا لدوري البصري ، أحياكم بالإمالة للكسائي والتقليل لورش بخلف عنه ، هدى لدى الوقف ، وتتلى واجتباكم وسماكم ، ومولاكم ، والمولى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

(44/518)

" الكبير " عاقب بمثل ، عوقب به ، بأن الله هو ، من دونه هو ، وأن الله هو ، سخر لكم ، تقع على ، أعلم بما ، يحكم بينكم ، يعلم ما معا ، تعرف في ، جهاده هو ، بالله هو ، ولا

إدغام في الإنسان لكفور لسكون ما قبل النون ، ولا في الخير لعلكم لفتح الراء بعد ساكن .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 217.222 ﴾

(45/518)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

سورة الحج

قوله تعالى ﴿ قال رب احكم بالحق ﴾ يقرأ بإثبات الألف على الخبر وبطرحها على الأمر

فإن قيل ما وجه قوله بالحق فقل يريد احكم بحكمك الحق ثم سمى الحكم حقا

قوله تعالى ﴿ عما يصفون ﴾ يقرأ بالياء والتاء وقد تقدمت العلة في ذلك من الغيبة

والخطاب فاعرفه إن شاء الله ومن سورة الحج

قوله تعالى ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ﴾ يقرآن بضم السين وإثبات الألف

وبفتحها وطرح الألف وهما جمعان لسكران وسكرانة فالحجة لمن ضم السين وأثبت

الألف أنه لما كان السكر يضعف حركة الإنسان شبه بكسلان وكسالى والحجة لمن فتح

وحذف الألف أنه لما كان السكر آفة داخلة على الإنسان شبه بمرضى وهلكى

فإن قيل فما وجه النفي بعد الإيجاب فقل وجهه أنهم سكارى خوفا من العذاب وهول المطلع وما هم بسكارى كما كانوا يعهدون من الشراب في دار الدنيا

قوله تعالى ﴿ ولؤلؤا ﴾ يقرأ بالخفض والنصب وبهمزتين وبهمزة واحدة فالحجة لمن خفض أنه رده بالواو على أول الكلام لأن الاسم يعطف على الاسم والحجة لمن نصب أنه أضمر فعلا كالأول معناه ويحلون لؤلؤا وسهل ذلك عليه كتابها في السواد ها هنا وفي الملائكة بألف والحجة لمن همز همزتين أنه أتى بالكلمة على أصلها ولمن قرأه بهمزة واحدة أنه ثقل عليه الجمع بينهما فخفف الكلمة بحذف إحداهما وقد اختلف عنه في الحذف فقيل الأولى وهي أثبت وقيل الثانية وهي أضعف

قوله تعالى ﴿ ثم ليقضوا ﴾ يقرأ بكسر اللام وإسكانها مع ثم والواو والفاء والكسر مع ثم أكثر فالحجة لمن كسر أنه أتى باللام على أصل ما وجب لها قبل دخول الحرف عليها والحجة لمن أسكن أنه أراد التخفيف لثقل الكسر وإنما كان الاختيار مع ثم الكسر ومع الواو والفاء الإسكان أن ثم حرف منفصل يوقف عليه والواو والفاء لا ينفصلان ولا يوقف عليهما وكل من كلام العرب

(46/518)

قوله تعالى ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ يقرأ بالرفع والنصب فالحجة لمن رفع أنه أراد الابتداء والعاكف الخبر والحجة لمن نصب أنه أراد مفعولا ثانيا لقوله جعلناه ورفع العاكف بفعل يريد به استوى العاكف فيه والبادي

قوله تعالى ﴿ هذان ﴾ يقرأ بتشديد النون وتخفيفها وقد ذكرت علله آنفا

قوله تعالى ﴿ والباد ﴾ يقرأ بإثبات الياء وحذفها وقد ذكرت الحجة فيه

قوله تعالى ﴿ وليوفوا ﴾ يقرأ بتشديد الفاء وتخفيفها فالحجة لمن شدد أنه استدل بقوله ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ والحجة لمن خفف أنه استدل بقوله ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ وقد ذكرت علته آنفا

قوله تعالى ﴿ فتخطفه ﴾ يقرأ بفتح الخاء وتشديد الطاء وبإسكان الخاء وتخفيف الطاء فالحجة لمن شدد أنه أراد فتختطفه فنقل فتحة التاء إلى الخاء وأدغم التاء في الطاء فشدد لذلك والحجة لمن خفف أنه أخذه من قوله تعالى ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ وهما لغتان فصيحتان

قوله تعالى ﴿ منسكا ﴾ يقرأ بفتح السين وكسرها فالحجة لمن فتح أنه أتى بالكلمة على أصلها وما أوجبه القياس لها لأن وجه فعل يفعل بضم العين أن يأتي المصدر منه والموضع مفعلا بالفتح كقولك مدخلا ومخرجا ومنسكا وما كان مفتوح العين اتى المصدر منه بالفتح والاسم بالكسر كقولك ضربت مضربا وهذا مضربي

والحجة لمن كسر السين أنه أخذه من الموضع الذي تذبح فيه النسيكة وهي الشاة الموجبة لله

قوله تعالى ﴿ لهدمت ﴾ يقرأ بتشديد الدال وتخفيفها فالحجة لمن شدد أنه أراد تكرير الفعل والحجة لمن خفف أنه أراد المرة الواحدة من الفعل وهما لغتان فاشيتان

قوله تعالى ﴿ ولولا دفع الله ﴾ و ﴿ إن الله يدافع ﴾ يقرآن بفتح الدال من غير ألف وبكسرها وإثبات الألف وقد ذكرت علته في البقرة

قوله تعالى ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ يقرأ بضم الهمزة وفتحها فالحجة لمن ضم أنه دل بذلك على بناء الفعل لما لم يسم فاعله والحجة لمن فتح أنه جعل الفعل لله عز وجل

(47/518)

قوله تعالى ﴿ يقاتلون بأنهم ﴾ يقرا بفتح التاء وكسرها على لما قدمناه من بناء الفعل لفاعله بالكسر ولما لم يسم فاعله بالفتح

قوله تعالى ﴿ أهلكناها ﴾ يقرأ بالتاء وبالنون والألف فالدليل لمن قرأ بالتاء قوله ﴿ فكيف كان نكير ﴾ ولم يقل نكيرنا والحجة لمن قرأ بالنون والألف أنه اعتبر ذلك بقوله تعالى ﴿ قسمنا بينهم ﴾ وهو المتولي لذلك

قوله تعالى ﴿ وبئر معطلة ﴾ يقرأ بالهمز على الأصل وبتركه تخفيفا

قوله تعالى ﴿ مما تعدون ﴾ يقرأ بالياء والتاء على ما قدمنا القول في أمثاله

قوله تعالى ﴿ معجزين ﴾ يقرأ بتشديد الجيم من غير ألف وبتخفيفها وإثبات الألف فالحجة لمن قرأه بالتشديد أنه أراد مبطئين مثبطين والحجة لمن قرأه بالتخفيف أنه أراد معاندين فالتثبيط والتعجيز خاص لأنه في نوع واحد وهو الإبطاء عن الرسول عليه السلام والعناد عام لأنه يدخل فيه الكفر والمشاقة على أن معناهما قريب عند النظر لأن من أبطا عن الرسول فقد عانده وشاقه

فأما قوله تعالى ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين ﴾ لأنه يصير بمعنى لم يكونوا معاندين وهذا خطأ ومعنى معجزين سابقين فائتين ومنه أعجزني الشيء

قوله تعالى ﴿ ثم قتلوا ﴾ يقرأ بتشديد التاء وتخفيفها وقد ذكر وقوله ﴿ مدخلا يرضونه ﴾ يقرأ بضم الميم وفتحها وقد تقدم ذكره

قوله تعالى ﴿ وأن ما يدعون ﴾ يقرأ بالتاء والياء ها هنا وفي لقمان وفي العنكبوت والمؤمن وقد ذكرت الأدلة فيه مقدمة فيما سلف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 252. 255 ﴾

(48/518)

وقال ابن زنجلة :

سورة الحج

وترى الناس سكارى وما هم بسكارى 2

قرأ حمزة الكسائي وترى الناس سكرى وما هم بسكرى وحجتهما أن فعلى جمع كل ذي ضرر مثل مريض ومرضى وجريح وجرحى والعرب تذهب ب فاعل وفعيل وفعل إذا كان صاحبه كالمريض أو الصريع فيجمعونه على فعلى وجعلوا ذلك علامة لجمع كل ذي زمانة وضرر وهلاك لا يبالون إن كان واحده فاعلا أو فعيلا أو فعلا واعلم أن السكرى داخل على الإنسان كالمرض والهلاك فقالوا سكرى مثل هلكى قال الفراء فكأن واحدهم سكر مثل زمن وزمنى أو ساكر مثل هالك وهلكى

وقرأ الباقون سكارى بالألف فيهما وهو جمع سكران وحجتهم أن باب فعلان يجمع على فعالى لإجماعهم على قوله قاموا كسالى جمع كسلان وكذلك سكران جمعه سكارى ويقوي هذا إجماعهم على قوله وأنتم سكارى فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى

ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله 9

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل عن سبيل الله بفتح الياء أي ليضل هو

وقرأ الباقون ليضل بضم الياء أي ليضل غيره وقد ذكرناه في سورة الأنعام

ثم ليقطع ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق 15 و30

قرأ أبو عمرو وورش عن نافع وابن عامر ثم ليقطع ثم ليقضوا بكسر اللام فيهما دخل القواس معهم في قوله ثم ليقضوا وحجتهم أن أصل هذه اللام الكسر إذا كانت مبتدأة فلما جاءت بعد كلمة يمكن السكوت عليها والابتداء بما بعدها كانت اللام كالمبتدأ فأتوا بها على أصلها لذلك وزاد ابن عامر وليوفوا وليطوفوا

(49/518)

وقرأ الباقون ثم ليقطع ثم ليقضوا بسكون اللام وحجتهم أن أصلها السكون وإنما تكسر إذا وقعت ابتداء فإذا كان قبلها حرف متصل بها رجعت اللام على الأصل وأصلها السكون ويقوي هذا إجماع الجميع على إسكان قوله فليعمل عملا صالحا وليضربن بخمرهن فإن قيل لم فصل أبو عمرو بين ثم والواو فكسر عند ثم ولم يكسر عند الواو قيل إنما فصل بينهما لأن ثم تنفصل من اللام وأصل لام الأمر الكسر إذا ابتدئ بها وسكن إذا كان ما قبلها ما لا ينفصل منها وهو الواو والفاء أما ثم فإنك تقف عليها إذا شئت وتستأنف بعدها فلذلك فرق

أبو عمرو بينهما ومثل هذا ثم هو يوم القيامة بالتثقيل وهو فهو بالتخفيف

هذان خصمان اختصموا في ربهم 19

قرأ ابن كثير هذان بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف وقد ذكرت الحجة في سورة النساء

وطه

يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا 23

قرأ نافع وعاصم ولؤلؤا بالألف أي يحلون فيها من أساور ويحلون لؤلؤا ويجوز أن يكون عطفا

على موضع الجار والمجرور لأن المعنى في يحلون فيها من أساور يحلون أساور وفي الشواذ

قراءة ابن عباس ويحلون بفتح الياء وتخفيف اللام قال ابن جني ويحلون من حلي يحلى يقال لم

أحل منه بطائل أي لم أظفر ويجوز أن يكون من قولهم امرأة حالية أي ذات حلي

وقرأ الباقون ولؤلؤ أي يحلون فيها من أساور من ذهب ومن لؤلؤ قال الزجاج وجائز أن يكون

أساور من ذهب ولؤلؤ يكون ذلك فيما خلط خلطا من الصنفين

ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلنه للناس سواء العكف فيه والباد 25

قرأ حفص سواء العاكف فيه نصبا جعله مفعولا ثانيا من قوله جعلناه للناس سواء أي

مستويا كما قال إنا جعلناه قرآنا عربيا والعاكف يرتفع بفعله في هذه القراءة أي استوى

العاكف فيه والباد

وقرأ الباقون سواء بالرفع على الابتداء والعاكف خبره

قرأ ابن كثير والبادي بالياء في الوصل والوقف على أصل الكلمة لأنك تقول بدا يبدو إذا دخل البادية فهو باد مثل راع والراعي والأصل البادو فصارت الواو ياء لانكسار ما قبلها فصارت والبادي

قرأ أبو عمرو وإسماعيل وورش والبادي بالياء في الوصل وبالحذف في الوقف وهو الاختيار ليكونوا قد تبعوا الأصل تارة والمصحف أخرى

وقرأ الباقون بغير ياء اتباعا للمصحف واجتزاء بالكسرة عن الياء لأن الكسرة تدل على الياء

وليوفوا نذورهم 19

قرأ عاصم وليوفوا نذورهم بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف وهما لغتان تقول وفي يوفى توفية إذا أكمل وحجتهم

وإبراهيم الذي وفى والتخفيف من أوفى يوفي وحجتهم قوله وأوفوا بعهد الل

فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير 31

قرأ نافع فتخطفه بفتح التاء وتشديد الطاء والأصل فتختطفه فأدغم التاء في الطاء وألقى حركة التاء على الخاء ففتحها

وقرأ الباقون فتخطفه مخففا من خطف يخطف وهو الاختيار وحجتهم قوله تعالى إلا من

خطف الخطفة ولم يقل اختطف وهما لغتان تقول العرب خطف يخطف واختطف يختطف

ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام 34

قرأ حمزة والكسائي ولكل أمة جعلنا منسكا بكسر السين

وهو المكان الذي ينحر فيه كما يقال مجلس لمكان الجلوس قال الفراء هو المكان المألوف الذي يقصده الناس وقتا بعد وقت والمناسك سميت بذلك

(51/518)

وقرأ الباقون منسكا بالفتح والمنسك بمعنى المصدر وحجتهم ما روي عن مجاهد في قوله منسكا قال ذبحا تقول نسكت الشاة أي ذبحتها المعنى جعلنا لكل أمة أن تتقرب بأن تذبح الذبائح لله ويدل على ذلك قول ليذكروا اسم الله على ما رزقهم أي عند ذبحها إياها ويقوي المصدر قوله لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فصار فعلا وقال بعض النحويين من قال نسك ينسك قال منسكا بالفتح كما تقول دخل يدخل مدخلا ومن قال نسك ينسك قال منسكا بالكسر فعلى هذا القول الفتح أولى لأنه لا يخلو من أن يكون مصدرا أو مكانا وكلاهما مفتوح العين وإذا كان الفعل منه على فعل يفعل فالمصدر منه واسم المكان على

مفعل نحو قتل يقتل مقتلا وهذا مقتلنا ودخل يدخل مدخلا وهذا مدخلنا وكل ما كان على فعل يفعل مثل جلس يجلس فالاسم منه بالكسر والمصدر مفعل بالفتح والمكان مفعل بالكسر مثل مغرس اسما ومغرس مصدرا فلهذا قلنا الفتح أولى لأنه يدل على المصدر والمكان والكسر يدل على المكان فحسب

إن الله يدفع عن الذين ءامنوا 38

قرأ ابن كثير وأبو عمرو إن الله يدفع عن الذين آمنوا بغير ألف من دفع يدفع دفعا وحجتهما أن الله جل وعز لا يدافعه

شيء وهو يدفع عن الناس فالفعل وحده له لا لغيره

وقرأ الباقون إن الله يدافع بالألف وحجتهم أن يدافع عن مرات متواليات لأن قول القائل دافعت عن زيد يجوز أن يراد به دفعت عنه مرة بعد مرة وليس ينحى به نحو قاتلت زيدا بل ينحى به نحو قوله قاتلهم الله والفعل له لا لغيره ونحو هذا طارقت النعل وسافرت

أذن للذين يقتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير 39

قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم أذن للذين يقاتلون بضم الألف أي اذن الله للذين يقاتلون ثم رد إلى ما لم يسم فاعله

وقرأ الباقون أذن بفتح الألف وحجتهم أنه قرب من قوله قبلها إن الله لا يحب كل خوان كفور فأسندوا الفعل إلى الله لتقدم اسمه وأن الفعل قرب منه وأخرى وهي أن الكلام عقيبه جرى بتسمية الله وهو قوله وإن الله على نصرهم لقدير فكان الأولى أن يكون ما بينهما في سياق الكلام بلفظهما ليأتلف الكلام على نظام واحد عن مجاهد في قوله أذن للذين يقاتلون قال ناس مؤمنون خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة وكانوا يمنعون فأدركهم الكفار فأذن للمؤمنين بقتال الكفار فقاتلوهم قال مجاهد هو أول قتال أذن به للمؤمنين

قرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح التاء على ما لم يسم فاعله أي

يقاتلهم الكفار ويقوي هذا قوله بأنهم ظلموا أن الفعل بعده مسند إلى المفعول به قال عاصم لو كانت يقاتلون بكسر التاء ففيم اذن لهم فكأنهم ذهبوا إلى أن المشركين قد كانوا بدؤوهم بالقتال فأذن الله لهم حين قاتلوا أن يقاتلوا من قاتلهم وهو وجه حسن لأن المشركين قد كانوا يقتلون أصحاب النبي صلى الله عليه وكان المؤمنون ممسكين عن القتال لأنهم لم يؤمروا به فأذن الله لهم أن يقاتلوا من قاتلهم

وقرأ الباقون بكسر التاء لأنهم فاعلون المعنى يقاتلون عدوهم الظالمين لهم بإخراجهم من ديارهم وحجتهم في حرف أبي أذن للذين قاتلوا

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع 40

قرا نافع ولولا دفاع الله الناس بالألف وقرأ الباقون ولولا دفع الله وقد بينت في سورة البقرة

قرأ نافع وابن كثير لهدمت بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد وهما لغتان غير أن التشديد

للتكثير هدمت شيئا بعد شيء مثل ذبحت وذبحت

فكأين من قرية أهلكنها وهي ظالمة 45

قرأ أبو عمرو أهلكتها بالتاء وحجته ما تقدم وما تأخر فأما ما تقدم فقوله فكذب موسى

فأمليت للكافرين ثم أخذتهم

44 - وما تأخر قوله وكم من قرية أمليت لها 48 فكان الأولى ما يكون بينهما في لفظهما

ليأتلف الكلام على نظام واحد

(53/518)

وقرأ الباقون أهلكناها بالنون وحجتهم إجماع الجميع على قوله وكم أهلكنا من قرية وكم من

قرية أهلكناها ألم نهلك الأولين ولم يأت شيء من ذكر الإهلاك بلفظ الواحد بل كله أتى بلفظ

الجمع فكان إلحاق هذا الحرف بنظائره أولى

وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون 47

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي مما يعدون بالياء وحجتهم أن قبله ويستعجلونك بالعذاب

فكذلك يعدون إخبار عنهم

وقرأ الباقون تعدون بالتاء وحجتهم أن التاء أعم لأنه عنى الناس كلهم فكأنه قال كألف سنة مما تعدون أنتم وهم ويقوي التاء قوله تعالى وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعده أنت يا محمد ومن استعجلك بعذابي

والذين سعوا في آيتنا معجزين أولئك أصحب الجحيم 51

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والذين سعوا في آيانا معجزين بغير ألف أي ينسبون من تبع النبي صلى الله عليه إلى العجز وهذا كقولهم جهلته نسبته إلى الجهل وفسقته نسبته إلى الفسق وقال مجاهد معجزين أي مثبطين ومبطئين أي يثبطون الناس عن النبي صلى الله عليه وعن أتباع الحق

وقرأ الباقون معاجزين بالألف أي ظانين أنهم يعجزوننا لأنهم ظنوا أنهم لا يبعثون وأنه لا جنة ولا نار

قال قتادة ظنوا أنهم يعجزون الله وقال ابن عباس معاجزين مسابقين وقال الفراء معاجزين أي معاندين وأما قوله أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض فأجمع القراء على ذلك ولا يجوز معاجزين ها هنا لأنه يصير إلى معنى أولئك لم يكونوا معاندين وذلك خطأ لأنهم قد عاندوا رسول الله صلى الله عليه ومعنى معجزين أي سابقين يقال أعجزني أي سابقني وفاتني

والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا 58

قرأ ابن عامر ثم قتلوا بالتشديد مرة بعد مرة وهو حسن لأنهم قد أكثروا القتل فيهم

وقرأ الباقون قتلوا بالتخفيف وحجتهم أن التخفيف يصلح للكثير والقليل

ليدخلنهم مدخلا يرضونه 59

قرأ نافع ليدخلنهم مدخلا بفتح الميم جعله مصدرا واسم مكان تقول دخل يدخل مدخلا

وهذا مدخلنا وكل ما كان

(54/518)

على فعل يفعل فالمصدر واسم المكان على مفعل ودل قوله تعالى ليدخلنهم على المصدر

لأنهم إذا أدخحلوا دخولا فكأنه قال ليدخلنهم فيدخلون مدخلا

وقرأ الباقون مدخلا وحجتهم قوله تعالى ليدخلنهم تقول أدخل يدخل إدخالا ومدخلا كما

قال وقل رب أدخلني مدخل صدق

ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل 62

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر وإن ما تدعون بالتاء ها هنا وفي لقمان أي قل يا محمد

لهؤلاء الكفرة إن الذين تدعون من دون الله هو الباطل لأنه لا يعقل ولا يسمع ولا ينفع ولا يضر

وقرأ الباقون يدعون بالياء إخبار عن غيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 482.472 ﴾

(55/518)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الحج

مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة في الذين تبارزوا يوم بدر وهم ثلاثة مؤمنون علي وحمزة وعبيدة بن الحارث وهن قوله تعالى (﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾) إلى قوله تعالى (﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾) هذا قول ابن عباس وعطاء بن يسار إلا أن ابن عباس لم يذكر إلى أين ينتهين وذكره عطاء وقيل عن ابن عباس إنهن ينتهين إلى قوله تعالى (﴿ الحريق ﴾) فكأنه عد (﴿ الحميم ﴾) و(﴿ والجلود ﴾) ولم يعدهما عطاء

وقال مجاهد هي مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة (﴿ هذان خصمان ﴾) تمام ثلاث آيات ولم يذكر منتهاهن وروي ذلك أيضا عن ابن عباس

وقال قتادة الحج مدنية إلا أربع آيات منها نزلت بمكة وهن قوله تعالى (﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾) إلى قوله تعالى (﴿ عذاب يوم عقيم ﴾)

وقد ذكر نظيرتها في المدنيين ونظيرتها في المكي الفرقان والرحمن وفي الكوفي الرحمن فقط ولا نظير لها في البصري والشامي

وكلمها ألف ومئتان وإحدى وتسعون كلمة

وحروفها خمسة آلاف ومئة وخمسة وسبعون حرفا

وهي سبعون وأربع آيات في الشامي وخمس في البصري وست في المدنيين وسبع في المكي وثمان في الكوفي

اختلافها خمس آيات (﴿ من فوق رؤوسهم الحميم ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ والجلود ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ وعاد وثمود ﴾)

(56/518)

لم يعدها الشامي وعدها الباقون (﴿ وقوم لوط ﴾) لم يعدها البصري والشامي وعدها الباقون (﴿ هو سماكم المسلمين ﴾) عدها المكي ولم يعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع ثلاثة مواضع (﴿ لهم ثياب من نار ﴾

فأمليت للكافرين) (﴿ في آياتنا معاجزين ﴾) ورؤوس الآي

عظيم

1 شديد

2 مريد

3 السعير

4 بهيج

5 قدير

6 في القبور

7 منير

8 الحريق

9 للعبيد

10 المبين

11 البعيد

12 العشير

13 ما يريد

14 ما يغيظ

15 من يريد

16 شهيد

17 ما يشاء

18 من حديد

22 الحريق

22 حرير

23 الحميد

24 أليم

25 السجود

26 عميق

27 الفقير

28 العتيق

29 الزور

30 سحيق

31 القلوب

32 العتيق

33 المخبتين

34 ينفقون

35 تشكرون

36 المحسنين

37 كفور

38 لقدير

39 عزيز

40 الأمور

41 وثمود

42 قوم لوط

43 نكير

44 مشيد

45 الصدور

46 تعدون

47 المصير

48 مبين

49 كريم

50 الجحيم

51 حكيم

52 بعيد

53 مستقيم

54 عقيم

55 النعيم

56 مهين

57 الرازقين

58 حليم

59 غفور

60 بصير

61 الكبير

62 خبير

63 الحميد

64 رحيم

65 لكفور

66 مستقيم

67 تعملون

68 تختلفون

69 يسير

70 نصير

71 المصير

72 والمطلوب

73 عزيز

74 بصير

75 الأمور

76 تفلحون

77 النصير

78 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 189 . 190﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (إن زلزلة الساعة) الزلزلة مصدر يجوز أن يكون من الفعل اللازم أي تزلزل الساعة شئ ، وأن يكون متعديا : أي أن زلزال الساعة الناس ، فيكون المصدر مضافا إلى الفاعل في الوجهين ، ويجوز أن يكون المصدر مضافا إلى الظرف ، قوله تعالى (يوم ترونها) هو منصوب ب (تذهل) ويجوز أن يكون بدلا من الساعة على قول من بناه ، أو ظرف لعظيم ، أو على إضمار اذكر ، فعلى هذه الوجوه يكون تذهل حالا من ضمير المفعول ، والعائد محذوف: أي تذهل فيها ، ولايجوز

أن يكون ظرفا للزلزلة لأنه مصدر قد أخبر عنه ، والمرضعة جاء على الفعل ، ولو على النسب لقال مرضع ، " وما " بمعنى من ، ويجوز أن تكون مصدرية (وترى الناس) الجمهور على الخطاب وتسمية الفاعل ، ويقرأ بضم التاء : أي وترى أنت أيها المخاطب ، أو يا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقرأ كذلك إلا أنه يرفع الناس ، والتأنيث على معنى الجماعة ، ويقرأ بالياء : أي ويرى الناس: أي يبصرون ، و(سكارى) حال على الاوجه كلها ، والضم

والفتح فيه لغتان قد قرئ بهما ، وسكرى مثل مرضى الواحد سكران أو سكر مثل زمن وزمنى ، ويقرأ سكرى مثل حبلى ، قيل هو محذوف من سكارى ، وقيل هو واحد مثل حبلى كأنه قال: ترى الأمة سكرى .

قوله تعالى (من يجادل) هي نكرة موصوفة ، و(بغير علم) في موضع المفعول أو حال .

قوله تعالى (إنه) هي وما عملت فيه في موضع رفع بكتب ، ويقرأ كتب بالفتح أي كتب الله ، فيكون في موضع نصب ، و(من تولاه) في موضع رفع بالابتداء و" من " شرط ، وجوابه (فإنه) يجوز أن يكون بمعنى الذى ، وفإنه الخبر ، ودخلت فيه الفاء لما في الذى من معنى المجازاة ، وفتحت أن الثانية لأن التقدير : فشأنه أنه ، أو فله أنه ، وفيه كلام آخر قد ذكرنا مثله في أنه من يحادد الله ، وقرئ للكسر فيها حملا على معنى قيل له .

(58/518)

قوله تعالى (من البعث) في موضع جر صفة لريب ، أو متعلق بريب ، وقرأ الحسن البعث بفتح العين وهى لغة (ونقر) الجمهور على الضم على الاستئناف ،

إذ ليس المعنى خلقناكم لنقر ، وقرئ بالنصب على أن يكون معطوفا في اللفظ ، والمعنى مختلف لأن اللام في لنبين للتعليل ، واللام المقدرة مع نقر للصيرورة ، وقرئ

بفتح النون وضم القاف والراء ، أي نسكن ، و(طفلا) حال وهو واحد في معنى الجمع ، وقيل التقدير: نخرج كل واحد منكم طفلا كما قال تعالى " فاجلدوهم ثمانين " أي كل واحد منهم ، وقيل هو مصدر في الأصل ، فلذلك لم يجمع (من بعد علم شيئا) قد ذكر في النحل (وربت) بغير همز من ربا يربوا إذا زاد ، وقرئ بالهمز وهو من ربأ للقوم وهو الربيئة إذا ارتفع على موضع عال لينظر لهم ، فالمعنى ارتفعت (وأنبتت) أي أشياء ، أو ألوانا أو من كل زوج بهيج زوجا فالمفعول محذوف ، وعند الأخفش من زائدة .

قوله تعالى (ذلك) مبتدأ ، و(بأن الله) الخبر ، وقيل المبتدأ محذوف: أي الأمر ذلك ، وقيل في موضع نصب: أي فعلنا ذلك .

قوله تعالى (بغير علم) حال من الفاعل في يجادل ، و(ثانى عطفه) حال أيضا ، والإضافة غير محضة: أي معرضا (ليضل) يجوز أن يتعلق بثاني ، وبيجادل (له في الدنيا) يجوز أن تكون حالا مقدرة ، وأن تكون مقارنة: أي مستحقا ، ويجوز أن يكون مستأنفا .

قوله تعالى (على حرف) هو حال: أي مضطربا متزلزلا (خسر الدنيا) هو حال: أي انقلب قد خسر ، ويجوز أن يكون مستأنفا ، ويقرأ خاسر الدنيا ، وخسر الدنيا على أنه اسم ، وهو حال أيضا (والآخرة) على هذا بالجر .

قوله تعالى (يدعو لمن ضره) هذا موضع اختلف فيه آراء النحاة ، وسبب ذلك أن اللام تعلق الفعل الذى قبلها عن العمل إذا كان من أفعال القلوب ، ويدعو ليس منها .

وهم في ذلك على طريقين: أحدهما أن يكون يدعو غير عامل فيما بعده لا لفظا ولا تقديرا ، وفيه على هذا ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون تكريرا ليدعوا الأولى فلا يكون له معمول .

(59/518)

والثانى أن يكون ذلك بمعنى الذى في موضع نصب بيدعو: أي يدعو الذى هو الضلال ، ولكنه قدم المفعول ، وهذا على قول من جعل ذا مع

غير الاستفهام بمعنى الذى .

والثالث أن يكون التقدير: ذلك هو الضلال البعيد يدعوه فذلك مبتدأ وهو مبتدأ ثان ، أو بدل أو عماد ، والضلال خبر المبتدأ ، ويدعوه حال والتقدير: مدعوا وفيه ضعف ، وعلى هذه الأوجه الكلام بعده مستأنف ، ومن مبتدأ والخبر (لبئس المولى) والطريق الثاني أن يدعو متصل بما بعده ، وفيه على هذا

ثلاثة أوجه: أحدها أن: يدعو يشبه أفعال القلوب لأن معناه يسمى من ضره أقرب من نفعه إلها ، ولا يصدر ذلك إلا عن اعتقاد فكأنه قال يظن ، والأحسن أن تقديره يزعم ، لأن يزعم قول مع اعتقاد .

والثانى أن يكون يدعو بمعنى يقول ، ومن مبتدأ ، وضره مبتدأ ثان ، وأقرب خبره والجملة

صلة " من " وخبر من محذوف تقديره: إله أو إلهى ، وموضع الجملة نصب بالقول ، ولبئس مستأنف لأنه لا يصح دخوله في الحكاية لأن الكفار لا يقولون عن أصنامهم لبئس المولى .

والوجه الثالث قول الفراء وهو أن التقدير يدعو من لضره ، ثم قدم اللام على موضعها ، وهذا بعيد لأن " ما " في صلة الذى لا يتقدم عليها .

قوله تعالى (من كان) هو شرط ، والجواب فليمدد ، و(هل يذهبن) في موضع نصب بينظر ، والجمهور على كسر اللام في ليقطع ، وقرئ بإسكانها على تشبيه ثم بالواو والفاء لكون الجميع عواطف .

قوله تعالى (وأن الله يهدى) أي وأنزلنا أن الله يهدى ، والتقدير: ذكر أن الله ، ويجوز أن يكون التقدير: ولأن الله يهدى بالآيات من يشاء أنزلناها .

قوله تعالى (إن الذين آمنوا) خبر " إن " إن الثانية واسمها وخبرها ، وهو قوله " إن الله يفصل بينهم " .

وقيل " إن " الثانية تكرير للأولى ، وقيل الخبر محذوف تقديره: مفترقون يوم القيامة أو نحو ذلك ، والمذكور تفسير له .

قوله تعالى (والدواب) يقرأ بتخفيف الباء وهو بعيد لأنه من الدبيب ، ووجهها

أنه حذف الباء الأولى كراهية التضعيف والجمع بين الساكنين (وكثير) مبتدأ ، و(من الناس) صفة له ، والخبر محذوف تقديره مطيعون أو مثابون أو نحو ذلك ، ويدل على ذلك قوله (وكثير حق عليه العذاب) والتقدير : وكثير منهم ، ولا يكون معطوفا على قوله " من في السموات " لأن الناس داخلون فيه ، وقيل هو معطوف عليه ، وكرر للتفصيل (من مكرم) بكسر الراء ، ويقرأ بفتح الراء ، وهو مصدر بمعنى الإكرام .

قوله تعالى (خصمان) هو في الأصل مصدر ، وقد وصف به ، وأكثر الاستعمال توحيده ، فمن ثناه وجمعه على الصفات والأسماء و(اختصموا) إنما جمع حملا على المعنى ، لأن كل خصم فريق فيه أشخاص .

قوله تعالى (يصب) جملة مستأنفة ، ويجوز أن تكون خبر ثانيا ، وأن تكون حالا من الضمير في لهم (يصهر) بالتخفيف ، وقرئ بالتشديد للتكثير ، والجملة حال من الحميم .

قوله تعالى (كلما) العامل فيها (أعيدا) و" من غم " بدل بإعادة الخافض بدل الاشتمال ، وقيل الأولى لابتداء الغاية ، والثانية بمعنى من أجل (وذوقوا) أي وقيل لهم فحذف القول .

قوله تعالى (يحلون) يقرأ بالتشديد من التحلية بالحلى ، ويقرأ بالتخفيف من قولك أحلى ألبس الحلى ، وهو بمعنى المشدد ، ويقرأ بفتح الباء والتخفيف ، وهو من حليت المرأة

تحلى إذا لبست الحلى ، ويجوز أن يكون من حلى بعينى كذا إذا حسن ، وتكون " من " زائدة ، أو يكون المفعول محذوفا ، و(من أساور) نعت له ، وقيل هو من حليت بكذا إذا ظفرت به ، و(من ذهب) نعت لأساور (ولؤلؤا) معطوف على أساور لا على ذهب ، لأن السوار لا يكون من لؤلؤ في العادة ، ويصح

أن يكون حليا ، ويقرأ بالنصب عطفا على موضع من أساور وقيل هو منصوب بفعل محذوف تقديره: ويعطون لؤلؤا ، والهمز أو تركه لغتان قد قرئ بهما .

قوله تعالى (من القول) هو حال من الطيب أو من الضمير فيه .

(61/518)

قوله تعالى (ويصدون) حال من الفاعل في كفروا ، وقيل هو معطوف على المعنى ، إذ التقدير: يكفرون ويصدون ، أو كفروا وصدوا ، والخبر على هذين محذوف تقديره: معذبون: دل عليه آخر الآية ، وقيل الواو زائدة وهو الخبر ، و(جعلناه) يتعدى إلى مفعولين ، فالضمير هو الأول ، وفي الثاني ثلاثة أوجه: أحدها (للناس) فيكون (سواء) خبرا مقدما ، وما بعده المبتدأ ، والجملة حال إما من الضمير الذى هو الهاء ، أو من الضمير في الجار .

والوجه الثاني أن يكون للناس حالا ، والجملة بعده في موضع المفعول الثاني .

والثالث أن يكون المفعول الثاني سواء على قراءة من نصب ، و(العاكف) فاعل سواء ، ويجوز أن يكون جعل متعديا إلى مفعول واحد ، وللناس حال ، أو مفعول تعدى إليه بحرف الجر ، وقرئ " العاكف " بالجر على أن يكون بدلا من الناس ، وسواء على هذا نصب لاغير (ومن يرد) الجمهور على ضم الياء من الإرادة ، ويقرأ شاذا بفتحها من الورود ، فعلى هذا يكون (بإلحاد) حالا: أي ملتبسا بإلحاد ، وعلى الأول تكون الباء زائدة وقيل المفعول محذوف: أي تعديا بإلحاد ، و(بظلم) بدل بإعادة الجار ، وقيل هو حال أيضا : أي إلحادا ظالما ، وقيل التقدير: إلحادا بسبب الظلم .

قوله تعالى (وإذ بوأنا) أي اذكر ، و(مكان البيت) ظرف ، واللام

في لإبراهيم زائدة ، أي أنزلناه مكان البيت ، والدليل عليه قوله تعالى " ولقد بوأنا بنى إسرائيل " وقيل اللام غير زائدة .

والمعنى هيأنا (ألا تشرك) تقديره: قائلين له لا تشرك ، فأن مفسرة للقول المقدر ، وقيل هي مصدرية: أي فعلنا ذلك لئلا

تشرك ، وجعل النهى صلة لها ، وقوى ذلك قراءة من قرأ بالياء (والقائمين) أي المقيمين ، وقيل أراد المصلين .

قوله تعالى (وأذن) يقرأ بالتشديد والتخفيف والمد : أي أعلم الناس بالحج (رجالا) حال ، وهو جمع راجل ، ويقرأ بضم الراء مع التخفيف ، وهو قليل في الجمع ، ويقرأ بالضم والتشديد مثل صائم وصوام ، ويقرأ رجالى مثل عجالى (وعلى كل ضامر) في موضع الحال أيضا : أي وركبانا ، وضامر بغير هاء للمذكر والمؤنث ، و(يأتين) محمول على المعنى ، والمعنى ، وركبانا على ضوامر يأتين ، فهو صفة لضامر ، وقرئ شاذا " يأتون " أي يأتون على كل ضامر ، وقيل يأتون مستأنف ، و(من كل فج) يتعلق به .

قوله تعالى (ليشهدوا) يجوز أن تتعلق اللام بإذن ، وأن تتعلق بيأتوك والله أعلم .

قوله تعالى (ذلك) أي الأمر ذلك (فهو خير) هو ضمير التعظيم الذى دل عليه يعظم (إلا ما يتلى) يجوز أن يكون الاستثناء منقطعا ، لأن بهيمة الأنعام ليس فيها محرم ، ويجوز أن يكون متصلا ويصرف إلى ما حرم منها بسبب عارض كالموت ونحوه (من الأوثان) من لبيان الجنس : أي اجتنبوا الرجس من هذا القبيل ، وهو بمعنى ابتداء الغاية هنا .

قوله تعالى (حنفاء) هو حال (غير مشركين) كذلك (فكأنما خر) أي يخر ، ولذلك عطف عليه .

قوله تعالى (تخطفه) ويجوز أن يكون التقدير : فهو يخطفه ، فيكون عطف الجملة على الجملة الأولى ، وفيها قراءات قد ذكرت في أول البقرة .

قوله تعالى (فإنها من تقوى القلوب) في الضمير المؤنث وجهان: أحدهما هو ضمير الشعائر ، والمضاف محذوف تقديره: فإن تعظيمها ، والعائد على " من "

محذوف: أي فإن تعظيمها منه أو من تقوى القلوب منهم ، ويخرج على قول الكوفيين أن يكون التقدير: من تقوى قلوبهم ، والألف واللام بدل من الضمير .

والوجه الثاني

أن يكون ضمير مصدر مؤنث تقديره: فإن العظمة أو الحرمة أو الخصلة ، وتقديره العائد على ما تقدم .

قوله تعالى (لكم فيها) الضمير لبهيمة الأنعام .

والمنسك يقرأ بفتح السين وكسرها وهما لغتان ، وقيل الفتح للمصدر والكسر للمكان .

(63/518)

قوله تعالى (الذين إذا ذكر الله) يجوز أن يكون نصبا على الصفة أو البدل أو على إضمار أعنى ، وأن يكون رفعا على تقديرهم (والمقيمي الصلاة) الجمهور على الجر بالإضافة ، وقرأ الحسن بالنصب ، والتقدير: والمقيمين ، فحذف النون تخفيفا لا للإضافة .

قوله تعالى (والبدن) هو جمع بدن ، وواحدته بدنة مثل خشب وخشب ، ويقال هو جمع

بدنة مثل ثمرة وثمر ، ويقرأ بضم الدال مثل ثمر ، والجمهور على النصب بفعل محذوف ، أي وجعلنا البدن ، ويقرأ بالرفع على الابتداء ، و(لكم) أي من أجلكم فيتعلق بالفعل ، و(من شعائر) المفعول الثاني (لكم فيها خير) الجملة حال (صواف) حال من الهاء : أي بعضها إلى جنب بعض ، ويقرأ " صوافن " واحد صافن وهو الذى يقوم على ثلاث ، وعلى سنبك الرابعة ، وذلك يكون إذا عقلت البدنة ، ويقرأ " صوافي " أي خوالص لله تعالى ، ويقرأ بتسكين الياء ، وهو مما سكن في موضع النصب من المنقوص (القانع) بالألف من قولك قنع به إذا رضى بالشئ اليسير ، ويقرأ بغير ألف من قولك قنع قنوعا إذا سال (والمعتر) المعترض ، ويقرأ المعترى ، بفتح الياء ، وهو في معناه ، يقال عرهم وأعرهم وعراهم واعتراهم إذا تعرض بهم للطلب (كذلك) الكاف نعت لمصدر محذوف تقديره: سخرناهم تسخيرا مثل ما ذكرنا .

قوله تعالى (لن ينال الله) الجمهور على الياء ، لأن اللحوم والدماء جمع تكسير ، فتأنيثه غير حقيقي ، والفصل بينهما حاصل ، ويقرأ بالتاء ، وكذلك (يناله التقوى منكم) .

قوله تعالى (إن الله يدافع) يقرأ بغير ألف وبالألف وهما سواء ، ويقال إن الألف تدل على أن المدافعة تكون بين الله تعالى وبين من يقصد أذى المؤمنين .

قوله تعالى (أذن) يقرأ على تسمية الفاعل وعلى ترك تسميته ، وكذلك (يقاتلون) والتقدير:

أذن لهم في القتال بسبب توجيه الظلم إليهم .

قوله تعالى (الذين أخرجوا) هو نعت للذين الأول ، أو بدل منه ،

(64/518)

أو في موضع نصب بأعنى ، أو في موضع رفع على إضمارهم (إلا أن يقولوا) هذا استثناء منقطع تقديره إلا بقولهم ربنا الله ، و(دفع الله) ودفاعه قد ذكر في البقرة ، (صلوات) أي ومواضع صلوات ، ويقرأ بسكون اللام مع فتح الصاد وكسرها ، يقرأ بضم الصاد واللام ، وبضم الصاد وفتح اللام ، وبسكون اللام كما جاء في " حجرة " اللغات الثلاث ، ويقرأ صلوت بضم الصاد واللام وإسكان الواو مثل صلب وصلوب ، ويقرأ " صلويثا " بفتح الصاد وإسكان اللام وياء بعد الواو وثاء معجمة بثلاث ، ويقرأ " صلوتا " بفتح الصاد وضم اللام وهو اسم عربي ، والضمير في (فيها) يعود على المواضع المذكورة .

قوله تعالى (الذين إن مكناهم) هو مثل " الذين أخرجوا " (نكير) مصدر في موضع الإنكار .

قوله تعالى (وكأين) يجوز أن يكون في موضع نصب بما دل عليه أهلكناها ، وأن يكون في موضع رفع بالابتداء ، (أهلكناها) وأهلكتها سواء في المعنى

(وبئر) معطوفة على قرية .

قوله تعالى (فإنها) الضمير للقصة ، والجملة بعدها مفسرة لها ، و(التى في الصدور) صفة مؤكدة .

قوله تعالى (معجزين) حال ويقرأ " معاجزين " بالألف والتخفيف ، وهو في معنى المشدد مثل عاهد وعهد ، وقيل عاجز سابق وعجز سبق .

قوله تعالى (إلا إذا تمنى) قيل هو استثناء من غير الجنس ، وقيل الكلام كله في موضع صفة لنبى ، و(القاسية) الألف واللام بمعنى الذى ، والضمير في (قلوبهم) العائد عليها ، وقلوبهم مرفوع باسم الفاعل ، وأنث لأنه لو كان موضعه الفعل للحقته تاء التأنيث ، وهو معطوف على الذين .

قوله تعالى (فيؤمنوا) هو معطوف على ليعلم وكذلك (فتخبت) (لهادي الذين) الجمهور على الإضافة ، ويقرأ لهاد بالتنوين ، والذين نصب به (في مرية) بالكسر والضم وهما لغتان .

قوله تعالى (يومئذ) منصوب بقوله (لله) ولله الخبر ، و(يحكم) مستأنف ، ويجوز أن يكون حالا من اسم الله تعالى ، والعامل فيه الجار .

قوله تعالى (فأولئك) الجملة خبر الذين ، ودخلت الفاء لمعنى الجزاء ، و(قتلوا)

بالتخفيف والتشديد ، (وليرزقنهم) الخبر ، و(رزقا) مفعول ثان ، ويحتمل أن يكون مصدرا مؤكدا .

قوله تعالى (ليدخلنهم) يجوز أن يكون بدلا من ليرزقنهم ، ويجوز أن يكون مستأنفا ، و(مدخلا) بالضم والفتح ، وقد ذكر في النساء .

قوله تعالى (ذلك) أي الأمر ذلك وما بعده مستأنف (بمثل ما عوقب به) الباء فيها بمعنى السبب لا بمعنى الآلة ، و(لينصرنه) خبر من .

قوله تعالى (هو الحق) يجوز أن يكون هو توكيدا وفصلا ومبتدأ ، و(يدعون) بالياء والتاء والمعنى ظاهر .

قوله تعالى (فتصبح الأرض) إنما رفع الفعل هنا وإن كان قبله لفظ الاستفهام لأمرين:

أحدهما أنه استفهام بمعنى الخبر: أي قد رأيت فلا يكون له جواب .

والثاني أن ما بعد الفاء ينتصب إذا كان المستفهم عنه سببا له ، ورؤيته لإنزال الماء لا يوجب اخضرار الأرض ، وإنما يجب عن الماء ، فهي ، أي القصة ، وتصبح الخبر ، ويجوز أن يكون فتصبح بمعنى أصبحت ، وهو معطوف على أنزل فلا موضع له إذا (مخضرة) حال وهو اسم فاعل ، وقرئ شاذا بفتح الميم وتخفيف الضاد مثل مبقلة ومجزرة: أي ذات خضرة .

قوله تعالى (والفلك) في نصبه وجهان: أحدهما هو منصوب بسخر معطوف على ما .

والثانى هو معطوف على اسم إن ، و(تجرى) حال على الوجه الأول ، وخبر على الثاني ، ويقرأ بالرفع ، وتجرى الخبر (أن تقع) مفعول له: أي كراهة أن تقع ، ويجوز أن يكون في موضع جر: أي من أن تقع ، وقيل في موضع نصب على بدل الاشتمال: أي ويمسك وقوع السماء : أي يمنعه .

قوله تعالى (فلا ينازعنك) ويقرأ " ينزعنك " بفتح الياء وكسر الزاى وإسكان النون: أي لا يخرجنك .

قوله تعالى (يكادون) الجملة حال من الذين ، أو من الوجوه لأنه يعبر بالوجوه عن أصحابها كما قال تعالى " وجوه يومئذ عليها غبرة " ثم قال: أولئك هم .

قوله تعالى (النار) يقرأ بالرفع .

وفيه وجهان: أحدهما هو مبتدأ ، و(وعدها) الخبر .

(66/518)

والثانى هو خبر مبتدأ محذوف: أي هو النار: أي الشر ، ووعدها على هذا مستأنف إذ ليس في الجملة ما يصلح أن يعمل في الحال ، ويقرأ بالنصب على تقدير أعنى ، أو بوعد الذى

دل عليه وعدها ، ويقرأ بالجر على البدل من شر .

قوله تعالى (يسلبهم) يتعدى إلى مفعولين ، و(شيئا) هو الثاني .

قوله تعالى (ومن الناس) أي ومن الناس رسلا .

قوله تعالى (حق جهاده) هو منصوب على المصدر ، ويجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف: أي جهادا حق جهاده (ملة أبيكم) أي اتبعوا ملة أبيكم ، وقيل تقديره: مثل ملة ، لأن المعنى سهل عليكم الدين مثل ملة إبراهيم ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه (هو سماكم) قيل الضمير لإبراهيم ، فعلى هذا الوجه يكون قوله (وفى هذا) أي وفي هذا القرآن سماكم: أي بسببه سميتم ، وقيل الضمير لله تعالى (ليكون الرسول) يتعلق بسماكم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 139. 174 ﴾

(67/518)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الحج

[سورة الحج (22) : الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)

"يا" للنداء "أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب مفعول به لأدعو المقدرة وها للتنبيه "النَّاسُ" بدل أو عطف بيان وجملة النداء ابتدائية "اتَّقُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعل "رَبَّكُمْ" مفعول به والكاف مضاف إليه والجملة لا محل لها لأنها ابتدائية "إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ" إن واسمها وخبرها والساعة مضاف إليه "عَظِيمٌ" صفة شيء والجملة تعليلية لا محل لها "يَوْمَ"

ظرف زمان متعلق بتذهل "تَرَوْنَهَا"

مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والها مفعول به والجملة مضاف إليه "تَذْهَلُ كُلُّ"

مضارع وفاعله "مُرْضِعَةٍ"

مضاف إليه والجملة مستأنفة "عَمَّا"

عن حرف جر وما موصولية متعلقان بتذهل "أَرْضَعَتْ"

ماض وفاعل والجملة معطوفة "وَتَضَعُ كُلُّ"

مضارع وفاعله والجملة معطوفة على تذهل "ذَاتِ"

مضاف إليه "حَمْلٍ"

مضاف إليه "حَمْلَها"

مفعول به والها مضاف إليه "وَتَرَى"

مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر فاعله مستتر "النَّاسَ"

مفعول به "سُكارى"

حال منصوبة والجملة معطوفة على ما سبق "وَما"

الواو حالية وما نافية تعمل عمل ليس "هُمْ"

اسم ما في محل رفع "بِسُكارى"

الباء زائدة وسكارى خبر مجرور لفظا منصوب محلا والجملة في محل نصب على الحال

"وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ"

لكن واسمها وخبرها ولفظ الجلالة مضاف إليه والجملة معطوفة على جملة الحال وهي في محل نصب مثلها

[سورة الحج (22) : الآيات 3 الى 7]

(68/518)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (4) يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7)

"وَمِنَ النَّاسِ" الواو استئنافية ومتعلقان بخبر محذوف مقدم "مِنَ" اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "يُجادِلُ" مضارع فاعله مستتر "فِي اللَّهِ" متعلقان بيجادل "بِغَيْرِ" متعلقان بحال

(69/518)

محذوفة تقديره جاهلا "عِلْمٍ" مضاف إليه "وَيَتَّبِعُ" الواو عاطفة ومضارع فاعله مستتر "كُلَّ" مفعول به والجملة معطوفة "شَيْطانٍ" مضاف إليه "مَرِيدٍ" صفة "كُتِبَ" ماض مبني

للمجهول "عَلَيْهِ" متعلقان بكتب "أَنَّهُ" أن واسمها في تأويل مصدر في محل رفع نائب فاعل لكتب "مَنْ" اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ أو اسم موصول مبتدأ "تَوَلَّاهُ" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر فاعله مستتر والهاء مفعول به . "فَأَنَّهُ" الفاء واقعة في جواب الشرط وأن واسمها والجملة في محل جزم جواب الشرط "يُضِلُّهُ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر أن "وَيَهْدِيهِ" الجملة معطوفة على يضله "إِلى عَذابِ" متعلقان بيهديه "السَّعِيرِ" مضاف إليه وجملة فعل الشرط وجوابه خبر المبتدأ من "يا" للنداء "أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة في محل نصب مفعول به لأدعو المقدرة والها للتنبيه "النَّاسُ" بدل أو عطف بيان "إِنْ" حرف شرط جازم "كُنْتُمْ" كان واسمها "فِي رَيْبٍ" متعلقان بخبر كان "مِنَ الْبَعْثِ" متعلقان بمحذوف صفة لريب "فَإِنَّا" الفاء رابطة للجواب وإن ونا اسمها "خَلَقْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر إن والجملة في محل جزم جواب الشرط "مِنْ تُرابٍ" متعلقان بخلقناكم "ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ" عطف على ما سبق "مُخَلَّقَةٍ" صفة لمضغة "وَغَيْرِ" معطوف على مخلقة "مُخَلَّقَةٍ" مضاف إليه "لِنُبَيِّنَ لَكُمْ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل فاعله مستتر وأن وما بعدها في تعويل مصدر متعلقان بخلقناكم "وَنُقِرُّ" الواو استئنافية ومضارع فاعله مستتر "فِي الْأَرْحامِ" متعلقان بنقر والجملة استئنافية "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به "نَشاءُ" مضارع فاعله

مستتر والجملة صلة "إِلى أَجَلٍ" متعلقان بنقر "مُسَمًّى" صفة لأجل "ثُمَّ" عاطفة "نُخْرِجُكُمْ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة

(70/518)

معطوفة "طِفْلًا" حال أو تمييز "ثُمَّ" عاطفة "لِتَبْلُغُوا" اللام للتعليل والمضارع منصوب بأن المضمرة بعدها بحذف النون والواو فاعل واللام وما بعدها في تأويل مصدر متعلقان بفعل محذوف تقديره نعمركم "أَشُدَّكُمْ" مفعول به والكاف مضاف إليه "وَمِنْكُمْ" الواو مستأنفة ومتعلقان بمحذوف خبر مقدم "مِنَ" موصولية في محل رفع مبتدأ والجملة استئنافية "يُتَوَفَّى" مضارع مبني للمجهول و

نائب الفاعل مستتر والجملة صلة "وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ" انظر إعراب ما قبله "إِلى أَرْذَلِ" متعلقان بيرد "الْعُمُرِ" مضاف إليه "لِكَيْلا" اللام حرف جر كي حرف ناصب ولا نافية "يَعْلَمَ" مضارع منصوب بكي وفاعله مستتر والمضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام ومتعلقان بيرد "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بيعلم "عِلْمٍ" مضاف إليه "شَيْئاً" مفعول به "وَتَرَى الْأَرْضَ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة فاعله مستتر والأرض مفعوله والجملة مستأنفة ، "هامِدَةً" حال منصوبة "فَإِذا" الفاء عاطفة وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان "أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ" ماض

وفاعله ومفعوله وعليها متعلقان بأنزلنا والجملة مضاف إليه "اهْتَزَّتْ" ماض فاعله مستتر والتاء للتأنيث والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَرَبَتْ" معطوفة على اهتزت مثلها "وَأَنْبَتَتْ" الجملة معطوفة على ما سبق "مِنْ كُلِّ" متعلقان

(71/518)

بأنبتت "زَوْجٍ" مضاف إليه "بَهِيجٍ" صفة مجرورة "ذَلِكَ" اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "بِأَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها وجملتها المؤولة بالمصدر في محل جر متعلقان بمحذوف تقديره شاهد "هُوَ" مبتدأ "الْحَقُّ" خبر والجملة الاسمية في محل رفع خبر أن "وَأَنَّهُ" الواو عاطفة وأن واسمها والجملة معطوفة "يُحْيِ" مضارع مرفوع والفاعل مستتر "الْمَوْتَى" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر والجملة خبر أن "وَأَنَّهُ" إعرابها كسابقتها والجملة معطوفة مثلها على ما سبق "عَلَى كُلِّ" متعلقان بقدير "شَيْءٍ" مضاف إليه "قَدِيرٌ" خبر أن المرفوع "وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ" الواو عاطفة وأن واسمها وخبرها والجملة معطوفة "لا رَيْبَ" لا نافية للجنس وريب اسمها "فِيهَا" متعلقان بالخبر والجملة حالية من الضمير المستتر في آتية "وَأَنَّ اللَّهَ" الواو عاطفة وأن ولفظ الجلالة اسمها والجملة معطوفة "يَبْعَثُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة في محل

رفع خبر أن "مَنْ" موصولية في محل نصب مفعول به "فِي الْقُبُورِ" متعلقان بصلة محذوفة

[سورة الحج (22) : الآيات 8 الى 10]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (8) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ (9) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (10)

(72/518)

"وَمِنَ النَّاسِ" الواو حرف استئناف ومتعلقان بخبر مقدم محذوف "مِنَ" اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "يُجادِلُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "فِي اللَّهِ" متعلقان بيجادل "بِغَيْرِ" متعلقان بمحذوف حال "عِلْمٍ" مضاف إليه "وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ" معطوف بحروف العطف "مُنِيرٍ" صفة كتاب مجرور مثله "ثانِيَ" حال منصوبة "عِطْفِهِ" مضاف إليه "لِيُضِلَّ" اللام للتعليل ويضل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وفاعله هو والجملة في تأويل مصدر في محل جر ومتعلقان بيجادل "عَنْ سَبِيلِ" متعلقان بيضل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "لَهُ" متعلقان بخبر مقدم "فِي الدُّنْيا" الدنيا اسم مجرور بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر ومتعلقان بالخبر المقدم "خِزْيٌ" مبتدأ مؤخر والجملة

استئنافية "وَنُذِيقُهُ" مضارع ومفعوله الأول "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بنذيقه. "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "عَذابَ" مفعول به ثان "الْحَرِيقِ" مضاف إليه والجملة معطوفة "ذِلكَ" اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "بِما" ما موصولية ومتعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "قَدَّمَتْ" ماض والتاء للتأنيث "يداكَ" فاعل مرفوع بالألف لأنه مثنى والكاف مضاف إليه وجملة ذلك في محل نصب مقول القول لفعل محذوف "وَأَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها والجملة معطوفة "لَيْسَ" فعل ماض ناقص واسمه محذوف "بِظَلَّامٍ" الباء زائدة وظلام خبر ليس مجرور لفظا منصوب محلا وجملة ليس واسمها وخبرها في محل رفع خبر أن "لِلْعَبِيدِ" متعلقان بظلام.

[سورة الحج (22) : الآيات 11 الى 13]

(73/518)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13)

"وَمِنَ النَّاسِ" الواو استئنافية ومتعلقان بخبر مقدم "مِنَ" موصولية في محل رفع مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "يَعْبُدُ اللَّهَ" مضارع ومفعوله لفظ الجلالة والفاعل مستتر والجملة صلة لا محل لها "عَلى حَرْفٍ" متعلقان بمحذوف حال من فاعل يعبد "فَإِنْ" الفاء استئنافية وإن شرطية "أَصابَهُ خَيْرٌ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر "اطْمَأَنَّ" ماض فاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم تقترن بالفاء ولا بإذا الفجائية به متعلقان بالفعل "وَ إِنْ" الواو عاطفة وإن شرطية "أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ" ماض ومفعوله وفاعله المؤخر والتاء للتأنيث والجملة معطوفة على إن الأولى إلخ "انْقَلَبَ" ماض فاعله مستتر "عَلى وَجْهِهِ" متعلقان بحال محذوفة والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم تقترن بالفاء ولا بإذا الفجائية "خَسِرَ" ماض فاعله مستتر "الدُّنْيا" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر "وَ الْآخِرَةَ" معطوف على الدنيا مثلها والجملة مستأنفة أو حالية من فاعل انقلب "و ذلك" الواو استئنافية وذا اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "هُوَ" ضمير فصل أو مبتدأ ثان "الْخُسْرانُ" خبر المبتدأ الثاني وجملة هو الخسران خبر المبتدأ الأول "الْمُبِينُ" صفة للخسران مرفوع مثلها "يَدْعُوا" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل فاعله

مستتر "مِنْ دُونِ" متعلقان بحال محذوفة والجملة مستأنفة "ما" موصولية في محل نصب مفعول به "لا يَضُرُّهُ" لا نافية ومضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "وَما لا يَنْفَعُهُ" إعرابها كسابقتها وهي معطوفة "ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ" إعرابها مثل ذلك هو الخسران المبين "يَدْعُوا" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل وفاعله مستتر "لَمَنْ" اللام للابتداء أو موطئة للقسم "مِنْ" اسم موصول مبتدأ "ضَرُّهُ" مبتدأ ثان والهاء مضاف إليه "أَقْرَبُ"

(75/518)

خبر ضره والجملة صلة الموصول "مِنْ نَفْعِهِ" متعلقان بأقرب "لَبِئْسَ" اللام لام الابتداء أو واقعة في جواب قسم محذوف وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم "الْمَوْلى" فاعل بئس المرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة خبر من "وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ" إعرابها مثل سابقتها.

[سورة الحج (22) : الآيات 14 الى 15]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (14) مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ

لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (15)

"إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة مستأنفة "يُدْخِلُ" مضارع فاعله مستتر "الَّذِينَ" اسم موصول مبني

(76/518)

على الفتح في محل نصب مفعول به أول والجملة خبر "آمَنُوا" ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة والواو فاعل والجملة صلة "وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" ماض وفاعله والمفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "جَنَّاتٍ" مفعول به ثان منصوب بالكسرة "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والأنهار فاعله ومن تحتها متعلقان بتجري والجملة صفة لجنات في محل نصب "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة مستأنفة "يَفْعَلُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر إن "ما" موصولية في محل نصب مفعول به "يُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة لا محل لها "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "كانَ" فعل ماض ناقص واسمها محذوف تقديره هو "يَظُنُّ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر كان "أَنْ" مخففة من أن الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف "لَنْ" حرف ناصب "يَنْصُرَهُ اللَّهُ" مضارع منصوب ومفعوله المقدم ولفظ الجلالة فاعله المؤخر والجملة خبر أن

وأن وما بعدها في تأويل مصدر سدت مسد مفعولي يظن "فِي الدُّنْيا" متعلقان بينصره "وَ الْآخِرَةِ" معطوفة على الدنيا مجرورة مثلها "فَلْيَمْدُدْ" الفاء رابطة للجواب واللام لام الأمر والمضارع مجزوم بلام الأمر والفاعل مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملة الشرط والجواب في محل رفع خبر من "بِسَبَبٍ" وهو الحبل والسماء هنا السقف أي من يئس من رحمة اللّه فليشنق نفسه فيرى هل يجده ذلك نفعا وهما متعلقان بيمدد "إِلَى السَّماءِ" متعلقان بيمدد "ثُمَّ" عاطفة "لْيَقْطَعْ" إعرابه مثل ليمدد والجملة معطوفة "فَلْيَنْظُرْ" إعرابه مثل سابقه "هَلْ" حرف استفهام "يُذْهِبَنَّ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة "كَيْدُهُ" فاعل والهاء مضاف إليه "ما" موصولية في محل نصب مفعول به والجملة مفعول به لينظر "يَغِيظُ" مضارع فاعله مستتر و

الجملة صلة لا محل لها من الإعراب

(77/518)

[سورة الحج (22) : الآيات 16 الى 17]

وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى

كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17)

"وَكَذَلِكَ" الواو استئنافية والكاف للتشبيه وذا اسم إشارة في محل جر بالكاف متعلقان بصفة لمصدر محذوف "أَنْزَلْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "آياتٍ" حال منصوبة بالكسرة لأنها جمع مؤنث سالم "بَيِّناتٍ" صفة مجرورة مثل موصوفها "وَأَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها وجملتها معطوفة على الهاء في أنزلناه "يَهْدِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل "مَنْ" اسم موصول في محل نصب مفعول به والجملة خبر أن "يُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة لا محل لها "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" اسم موصول اسم إن "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَالَّذِينَ" معطوفة على الذين قبلها "هادُوا" معطوف على ما سبق وإعرابه مثله "وَالصَّابِئِينَ" هم عبدة الكواكب معطوف على

(78/518)

اسم إن منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "وَالنَّصارى" معطوف على الذين وهو منصوب مثله بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر "وَالْمَجُوسَ" معطوف على ما قبله "وَالَّذِينَ" اسم موصول محله النصب مثل ما عطف عليه "أَشْرَكُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِنَّ اللَّهَ"

إن ولفظ الجلالة اسمها "يَفْصِلُ" مضارع مرفوع والفاعل مستتر والجملة خبر "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق بيفصل والهاء مضاف إليه "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بيفصل "الْقِيامَةِ" مضاف إليه وجملة إن اللّه إلخ في محل رفع خبر إن الأولى "إِنَّ اللَّهَ" لفظ الجلالة اسم إن "عَلى كُلِّ" متعلقان بالخبر "شَيْءٍ" مضاف إليه "شَهِيدٌ" خبر إن المرفوع والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الحج (22) : آية 18]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (18)

(79/518)

"أَلَمْ" الهمزة للاستفهام ولم حرف نفي وجزم وقلب "تَرَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة فاعله مستتر تقديره أنت والجملة مستأنفة "أَنَّ اللَّهَ" لفظ الجلالة اسم أن وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي تر "يَسْجُدُ" مضارع مرفوع "لَهُ" متعلقان بيسجد "مَنْ" اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعل ليسجد "فِي السَّماواتِ" متعلقان بصلة محذوفة

"وَمَنْ فِي الْأَرْضِ" معطوف على ما سبق "وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ" عطف على من الأولى "مِنَ النَّاسِ" متعلقان بكثير "وَكَثِيرٌ" الواو استئنافية وكثير مبتدأ "حَقَّ" ماض "عَلَيْهِ" متعلقان بحق "الْعَذابُ" فاعل والجملة خبر كثير وجملة المبتدأ وخبره استئنافية "وَمَنْ" الواو استئنافية من اسم شرط جازم في محل نصب مفعول به مقدم "يُهِنِ" مضارع مجزوم بمن وهو فعل الشرط وحرك بالكسر لالتقاء الساكنين "اللَّهَ" لفظ الجلالة فاعل "فَما" الفاء رابطة للجواب وما نافية "لَهُ" متعلقان بخبر مقدم "مَنْ" حرف جر زائد "مُكْرِمٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ مؤخر والجملة في محل جزم جواب الشرط لاقترانها بالفاء "أَنَّ اللَّهَ" لفظ الجلالة اسم إن المنصوب والجملة مستأنفة "يَفْعَلُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر تقديره هو "ما" موصولية في محل نصب مفعول به والجملة خبر إن "يَشاءُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة صلة.

[سورة الحج (22) : الآيات 19 الى 21]

هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21)

"هذانِ" الها للتنبيه وذان اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ "خَصْمانِ" خبر مرفوع بالألف لأنه مثنى والجملة مستأنفة "اخْتَصَمُوا" ماض وفاعله والجملة في محل رفع صفة لخصمان "فِي رَبِّهِمْ" متعلقان باختصموا والهاء مضاف إليه "فَالَّذِينَ" الفاء عاطفة والذين اسم موصول في محل رفع مبتدأ

"كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها من الإعراب "قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ" ماض مبني للمجهول والتاء للتأنيث وثياب نائب فاعل ولهم متعلقان بقطعت والجملة خبر المبتدأ "مِنْ نارٍ" متعلقان بصفة محذوفة لثياب "يُصَبُّ" مضارع مبني للمجهول "مِنْ فَوْقِ" متعلقان بيصب "رُؤُسِهِمُ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "الْحَمِيمُ" نائب فاعل والجملة استئنافية أو حالية من الضمير في لهم "يُصْهَرُ" مضارع مبني للمجهول "بِهِ" متعلقان بيصهر "ما" اسم موصول في محل رفع نائب فاعل "فِي بُطُونِهِمْ" متعلقان بصلة محذوفة والهاء مضاف إليه "وَالْجُلُودُ" الواو عاطفة الجلود معطوف على ما وهو مرفوع مثله "وَلَهُمْ" الواو استئنافية ولهم متعلقان بالخبر المحذوف "مَقامِعُ" مبتدأ مؤخر والجملة استئنافية "مِنْ حَدِيدٍ" متعلقان محذوف صفة لمقامع.

[سورة الحج (22) : الآيات 22 الى 24]

كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (22) إِنَّ اللَّهَ

يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (23) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ (24)

(81/518)

"كُلَّما" ظرف يتضمن معنى الشرط "أَرادُوا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "أَنْ" ناصبة "يَخْرُجُوا" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والجملة في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لأرادوا "مِنْها" متعلقان بيخرجوا "مِنْ غَمٍّ" متعلقان بيخرجوا "أُعِيدُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب كلما "فِيها" متعلقان بأعيدوا "وَذُوقُوا" الواو عاطفة وذوقوا أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة في محل نصب مفعول به لفعل قيل المحذوف "عَذابَ" مفعول به "الْحَرِيقِ" مضاف إليه "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "يُدْخِلُ" مضارع مرفوع بالضمة والفاعل مستتر تقديره هو والجملة خبر إن "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب مفعول به "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الموصول لا محل لها "وَعَمِلُوا" معطوف عليه وإعرابه مثله "الصَّالِحاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "جَنَّاتٍ" مفعول به ثان

منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم "تَجْرِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بتجري "الْأَنْهارُ" فاعل والجملة في محل نصب صفة لجنات "يُحَلَّوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل "فِيها" متعلقان بالفعل "مِنْ أَساوِرَ" من زائدة وأساور مفعول به مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف منصوب محلا "مِنْ ذَهَبٍ" متعلقان بمحذوف صفة أساور "وَلُؤْلُؤاً" عطف على محل من أساور أو مفعول به لفعل محذوف تقديره ويؤتون "وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ" الواو استئنافية ومبتدأ وخبر والجملة استئنافية وفيها متعلقان بمحذوف حال "وَهُدُوا" الواو استئنافية وهدوا ماض مبني للمجهول مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة والواو ضمير متصل مبني

(82/518)

على السكون في محل رفع نائب فاعل والجملة مستأنفة "إِلَى الطَّيِّبِ" متعلقان بهدوا "مِنَ الْقَوْلِ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من الطيب "وَهُدُوا" الواو عاطفة وهدوا ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل "إِلى صِراطِ" متعلقان بهدوا "الْحَمِيدِ" مضاف إليه مجرور والجملة معطوفة على سابقتها .

[سورة الحج (22) : الآيات 25 الى 26]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً
الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ
مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26)

(83/518)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب اسم إن والجملة مستأنفة "كَفَرُوا" ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة والواو فاعل والجملة صلة لا محل لها "وَيَصُدُّونَ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة على كفروا "عَنْ سَبِيلِ" متعلقان بيصدون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَالْمَسْجِدِ" معطوف على سبيل "الْحَرَامِ" صفة "الَّذِي" اسم موصول في محل جر صفة أو بدل من المسجد "جَعَلْنَاهُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة صلة "لِلنَّاسِ" متعلقان بمحذوف حال "سَوَاءً" مفعول به ثان أو حال إذا كان الفعل غير متعد لمفعولين "الْعَاكِفُ" فاعل لسواء "فِيهِ" متعلقان بالعاكف "وَالْبَادِ" الواو عاطفة والباد معطوف على العاكف "وَمَنْ" الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ والجملة مستأنفة "يُرِدْ" مضارع فاعله مستتر "فِيهِ" متعلقان بيرد "بِإِلْحَادٍ" الباء زائدة وإلحاد مجرور لفظا منصوب محلا على أنه

مفعول به "بِظُلْمٍ" متعلقان بمحذوف صفة لإلحاد "نُذِقْهُ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط فاعله مستتر تقديره نحن والهاء مفعول به وجملتا الشرط والجواب في محل رفع خبر من "مِنْ عَذابٍ" متعلقان بنذقه "أَلِيمٍ" صفة لعذاب مجرورة مثلها "وَإِذْ" الواو استئنافية وإذ ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "بَوَّأْنا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "لِإِبْراهِيمَ" متعلقان ببوأنا "مَكانَ" مفعول به "الْبَيْتِ" مضاف إليه "أَلا" أن المدغمة بلا وهي تفسيرية "لا" ناهية "تُشْرِكْ" مضارع مجزوم بلا فاعله مستتر تقديره أنت "بِي" متعلقان بتشرك "شَيْئاً" مفعول به منصوب والجملة لا محل لها لأنها تفسيرية "وَطَهِّرْ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر تقديره أنت والجملة معطوفة "بَيْتِيَ" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها

(84/518)

اشتغال المحل بالحركة المناسبة والياء مضاف إليه "لِلطَّائِفِينَ" متعلقان بطهر "وَالْقائِمِينَ" الواو عاطفة والقائمين اسم معطوف وهو مجرور مثله بالياء لأنه جمع مذكر سالم "وَالرُّكَّعِ" معطوف على ما سبق "السُّجُودِ" صفة مجرورة بالكسرة.

[سورة الحج (22) : الآيات 27 الى 29]

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27)
لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا
مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ
الْعَتِيقِ (29)

(85/518)

"وَأَذِّنْ" الواو عاطفة أذن أمر فاعله مستتر تقديره أنت والجملة معطوفة على ما سبق "فِي النَّاسِ" "بِالْحَجِّ" كلاهما متعلق بأذن "يَأْتُوكَ" مضارع مجزوم بحذف النون لأنه جواب الطلب والواو فاعل والكاف مفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب الطلب "رِجالًا" حال والمعنى ماشين "وَعَلى كُلِّ" متعلقان بمحذوف حال تقديره وركبانا على كل وهو معطوف على ما قبله "ضامِرٍ" مضاف إليه "يَأْتِينَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والياء فاعل والجملة في محل جر صفة لضامر "مِنْ كُلِّ" متعلقان بيأتين "فَجٍّ" مضاف إليه ومعناه طريق "عَمِيقٍ" صفة ومعناهما بعيد . "لِيَشْهَدُوا" اللام لام التعليل والمضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل بحذف النون والواو فاعل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر متعلقان بأذن "مَنافِعَ" مفعول به "لَهُمْ" متعلقان بمنافع "وَيَذْكُرُوا" الجملة معطوفة على يشهدوا وإعرابها

مثلها "اسْمَ" مفعول به "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "فِي أَيَّامٍ" متعلقان بيذكروا "معدودات" صفة لأيام مجرور بالكسرة "عَلى" حرف جر "ما" موصولية متعلقان بيذكروا "رَزَقَهُمْ" ماض فاعله مستتر والهاء مفعوله والميم للجماعة والجملة صلة "مِنْ بَهِيمَةِ" متعلقان برزقهم "الْأَنْعامِ" مضاف إليه "فَكُلُوا" الفاء الفصيحة وأمر فاعله والجملة لا محل لها لأنها وقعت جواب شرط غير جازم "مِنْها" متعلقان بكلوا "وَأَطْعِمُوا" الجملة معطوفة وإعرابها مثلها "الْبائِسَ" مفعول به "الْفَقِيرَ" صفة منصوبة "ثُمَّ" عاطفة "لْيَقْضُوا" اللام لام الأمر والمضارع مجزوم بلام الأمر بحذف النون والواو فاعل والجملة معطوفة "تَفَثَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "وَلْيُوفُوا" إعرابها مثل ليقضوا ومعطوفة عليها "نُذُورَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "وَلْيَطَّوَّفُوا" مثل وليوفوا معطوفة "بِالْبَيْتِ" متعلقان بيطوفوا "الْعَتِيقِ" صفة

(86/518)

[سورة الحج (22) : الآيات 30 الى 31]

ذِلكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ

يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (31)

"ذِلِكَ" ذا اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر ذلك واللام للبعد والكاف للخطاب والجملة ابتدائية "وَمَنْ" الواو استئنافية "مَنْ" اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ والجملة مستأنفة "يُعَظِّمْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وفاعله مستتر "حُرُماتِ" مفعول به منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "فَهُوَ خَيْرٌ" الفاء رابطة للجواب وهو مبتدأ

(87/518)

وخير خبر وجملتا الشرط والجواب في محل رفع خبر من "لَهُ" متعلقان بخير "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بخير "رَبِّهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "وَ" استئنافية "أُحِلَّتْ" ماض مبني للمجهول والتاء تاء التأنيث "لَكُمُ" متعلقان بأحلت "الْأَنْعامُ" نائب فاعل والجملة مستأنفة "إِلَّا" أداة استثناء "ما" موصولية في محل نصب على الاستثناء "يُتْلى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل محذوف ، "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول "فَاجْتَنِبُوا" الفاء عاطفة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة

معطوفة على ما سبق "الرِّجْسَ" مفعول به "مِنَ الْأَوْثانِ" متعلقان بحال محذوفة "وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ" أمر وفاعله ومفعوله، "الزُّورِ" مضاف إليه والجملة عطف على ما سبق "حُنَفاءَ" حال منصوبة "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بحنفاء "غَيْرَ" حال منصوبة "مُشْرِكِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم "بِهِ" متعلقان بمشركين "وَمَنْ" الواو عاطفة ومن شرطية مبتدأ "يُشْرِكْ" مضارع مجزوم فعل الشرط والفاعل هو "بِاللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بالباء متعلقان بيشرك "فَكَأَنَّما" الفاء رابطة للجواب وكأنما كافة ومكفوفة "خَرَّ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بخر "فَتَخْطَفُهُ" الفاء عاطفة ومضارع ومفعوله "الطَّيْرُ" فاعل مؤخر والجملة معطوفة "أَوْ" حرف عطف "تَهْوِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل "بِهِ" متعلقان بتهوي "الرِّيحُ" فاعل والجملة معطوفة "فِي مَكانٍ" متعلقان بتهوي "سَحِيقٍ" صفة.

[سورة الحج (22) : الآيات 32 الى 33]

ذِلكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33)

"ذا" اسم إشارة خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر ذلك والجملة مستأنفة واللام للبعد والكاف للخطاب "وَمَنْ" الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ "يُعَظِّمْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وفاعله مستتر "شَعائِرَ" مفعول به منصوب "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "فَإِنَّها" الفاء رابطة للجواب وإن واسمها "مِنْ تَقْوَى" من جارة وتقوى مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر متعلقان بالخبر المحذوف "الْقُلُوبِ" مضاف إليه وجملة فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر من "لَكُمْ" متعلقان بالخبر المقدم المحذوف "فِيها" متعلقان بالخبر المحذوف "مَنافِعُ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "ثُمَّ" عاطفة "مَحِلُّها" مبتدأ والهاء مضاف إليه "إِلَى الْبَيْتِ" متعلقان بالخبر "الْعَتِيقِ" صفة والجملة معطوفة على الجملة السابقة ومعنى عتيق أي لأنه أول بيت وضع للناس وقيل لأنه لم يملكه أحد والعتيق في اللغة الخيار من كل شيء .

[سورة الحج (22) : الآيات 34 الى 35]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (35)

"وَلِكُلِّ" الواو مستأنفة واللام جارة وكل اسم مجرور وهما متعلقان بمفعول به ثان مقدم محذوف لجعلنا "أُمَّةٍ" مضاف إليه "جَعَلْنا مَنْسَكاً" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة مستأنفة "لِيَذْكُرُوا" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل واللام وما بعدها في تأويل مصدر متعلقان بجعلنا "اسْمَ" مفعول به "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "عَلى ما" متعلقان بيذكروا "رَزَقَهُمْ" ماض فاعله مستتر والهاء في محل نصب مفعول به والميم علامة جمع للذكور والجملة لا محل لها لأنها صلة لاسم موصول "مِنْ بَهِيمَةِ" متعلقان برزقهم "الْأَنْعامِ" مضاف إليه مجرور "فَإِلهُكُمْ إِلهٌ" الفاء استئنافية ومبتدأ وخبره "واحِدٌ" صفة مرفوعة والجملة لا محل لها لأنها مستأنفة "فَلَهُ" الفاء عاطفة وجار ومجرور متعلقان بأسلموا "أَسْلِمُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة معطوفة "وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ" الواو عاطفة أو استئنافية وبشر فعل أمر فاعله مستتر ومفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة معطوفة أو مستأنفة "الَّذِينَ" اسم موصول بدل أو صفة للمخبتين "إِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط "ذُكِرَ اللَّهُ" ماض مبني للمجهول ولفظ الجلالة نائب فاعل والجملة في محل جر مضاف إليه "وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ" ماض وفاعله والهاء

مضاف إليه والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَالصَّابِرِينَ" الواو عاطفة والصابرين معطوف على الذين وهو منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "عَلى" جارة "ما" اسم موصول في محل جر بعلى وهما متعلقان بالصابرين "أَصابَهُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "وَالْمُقِيمِي" معطوف على الذين "الصَّلاةِ" مضاف إليه مجرور "وَمِمَّا" الواو عاطفة ومن حرف جر وما موصولية وهما متعلقان برزقناهم "رَزَقْناهُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر و

(90/518)

الجملة صلة "يُنْفِقُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة أيضا

[سورة الحج (22) : آية 36]

وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36)

"وَالْبُدْنَ" الواو استئنافية والبدن مفعول به لفعل محذوف تقديره جعلنا والجملة مستأنفة وقرئ البدن بالرفع مبتدأ "جَعَلْناها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مفسرة أو خبر على

الوجه الثاني "لَكُمْ" متعلقان بجعلناها "مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ" متعلقان بجعلناها ولفظ الجلالة مضاف إليه "لَكُمْ" متعلقان بخبر مقدم "فِيها" متعلقان بالخبر المقدم "خَيْرٌ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "فَاذْكُرُوا اسْمَ" الفاء الفصيحة أفصحت عن شرط محذوف وفعل أمر وفاعله ومفعوله "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "عَلَيْها" متعلقان باذكروا "صَوافَّ" أي بعضها إلى بعض قائمة معقولة إحدى القوائم وهي حال غير مصروف لأنه على صيغة منتهى الجموع وقرئ صوافن أي على رجل واحدة وصواف وصافى أي خالصة للّه تعالى. "فَإِذا" الفاء حرف عطف وظرف شرطي "وَجَبَتْ" ماض والتاء للتأنيث "جُنُوبُها" فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "فَكُلُوا" الفاء واقعة في جواب إذا وأمر وفاعله "مِنْها" متعلقان بكلوا والجملة جواب إذا لا

(91/518)

محل لها "وَأَطْعِمُوا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "الْقانِعَ" مفعول به ومعناها المتعفف "وَالْمُعْتَرَّ" معطوف على القانع "كَذلِكَ" الكاف جارة وذا مجرور ومتعلقان بصفة لمصدر محذوف "سَخَّرْناها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة حال أي حال كونها مسخرة "لَكُمْ" متعلقان بسخرناها "لَعَلَّكُمْ" لعل حرف مشبه بالفعل والكاف اسمها والميم للجمع

"تَشْكُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر لعل وجملة لعلكم إلخ في محل نصب حال من لكم أو تعليلية لا محل لها .

[سورة الحج (22) : آية 37]

لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)

"لَنْ" ناصبة "يَنالَ" مضارع منصوب بلن "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به مقدم "لُحُومُها" فاعل مؤخر والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَلا" الواو عاطفة ولا معطوفة "دِماؤُها" معطوف على لحومها بالضم والهاء مضاف إليه "وَلكِنْ" الواو حرف عطف ولكن حرف استدراك "يَنالُهُ" مضارع والهاء مفعول به "التَّقْوى" فاعل مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "مِنْكُمْ" متعلقان بحال من التقوى "كَذلِكَ" الكاف صفة لمصدر محذوف وذا اسم إشارة في محل جر واللام للبعد والكاف للخطاب "سَخَّرَها" ماض ومفعوله "لَكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة حال "لِتُكَبِّرُوا" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل وحرف الجر وما بعده متعلقان بما قبله "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "عَلى" حرف جر "ما" موصولية وهما متعلقان بتكبروا "هَداكُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ" الواو مستأنفة وأمر ومفعوله

والفاعل مستتر والجملة مستأنفة.

[سورة الحج (22) : الآيات 38 الى 39]

(92/518)

إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39)

"إِنَّ اللَّهَ" إن حرف مشبه بالفعل ولفظ الجلالة اسمها والجملة ابتدائية "يُدافِعُ" مضارع مرفوع والجملة خبر "عَنِ" حرف جر "الَّذِينَ" موصول في محل جر متعلقان بيدافع "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة مستأنفة "لا" نافية "يُحِبُّ كُلَّ" مضارع مرفوع فاعله مستتر ومفعوله المنصوب "مختال" مضاف إليه "فخور" صفة والجملة خبر إن "أُذِنَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل محذوف "لِلَّذِينَ" اللام جارة واسم موصول في محل جر متعلقان بأذن والجملة مستأنفة "يُقاتَلُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة الموصول "بِأَنَّهُمْ" الباء جارة وأن حرف مشبه بالفعل والهاء اسمها والميم للجماعة والمصدر المؤول مجرور بالباء متعلقان بأذن "ظُلِمُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر أن "وَإِنَّ اللَّهَ" الواو استئنافية وإن حرف مشبه

بالفعل ولفظ الجلالة اسمها "عَلى نَصْرِهِمْ" متعلقان بالخبر المؤخر "لَقَدِيرٌ" اللام المزحلقة وقدير خبر والجملة مستأنفة.

[سورة الحج (22) : آية 40]

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)

(93/518)

"الَّذِينَ" بدل من الذين السابقة "أُخْرِجُوا" ماض مبني للمجهول مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة والواو نائب فاعل والجملة صلة "مِنْ دِيارِهِمْ" متعلقان بأخرجوا والهاء مضاف إليه "بِغَيْرِ" متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة. "حَقٍّ" مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "أَنْ" ناصبة "يَقُولُوا" مضارع منصوب بحذف النون والواو فاعل والمصدر المؤول بدل من حق "رَبُّنَا اللَّهُ" مبتدأ ولفظ الجلالة خبر ونا مضاف إليه والجملة في محل نصب مقول القول "وَلَوْلا" الواو استئنافية ولولا حرف شرط غير جازم "دَفْعُ" مبتدأ "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والخبر محذوف وجوبا "النَّاسَ" مفعول به لدفع من إضافة المصدر إلى فاعله

"بَعْضَهُمْ" بدل من الناس منصوب والهاء مضاف إليه "بِبَعْضٍ" متعلقان بدفع والجملة استئنافية "لَهُدِّمَتْ" اللام واقعة في جواب الشرط و"لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ" فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل والتاء للتأنيث والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَبِيَعٌ" معطوف على صوامع "وَصَلَواتٌ" معطوف على صوامع "وَمَساجِدُ" معطوف أيضا وهو ممنوع من الصرف لأنه على وزن مفاعل "يُذْكَرُ" مضارع مبني للمجهول "فِيهَا" متعلقان بيذكر "اسْمُ" نائب فاعل "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "كَثِيراً" صفة لمفعول مطلق محذوف تقديره ذكرا كثيرا "وَلَيَنْصُرَنَّ" الواو استئنافية واللام موطئة للقسم وينصرن مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل مرفوع "مِنْ" اسم موصول في محل نصب مفعول به والجملة مستأنفة "يَنْصُرُهُ" مضارع فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة صلة لا محل لها "إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ" إن واسمها وخبرها واللام المزحلقة "عَزِيزٌ" خبر ثان مرفوع والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الحج (22) : الآيات 41 الى 44]

(94/518)

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44)

"الَّذِينَ" خبر لمبتدأ محذوف أو بدل من الذين السابقة "إِنْ" حرف شرط جازم "مَكَّنَّاهُمْ" فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بنا الدالة على الفاعلين المدغمة ونا فاعل والهاء مفعول به والميم للجماعة والفعل في محل جزم فعل الشرط "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمكناهم "أَقَامُوا" ماض والواو فاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم يقترن بالفاء ولا بإذا الفجائية "الصَّلَاةَ" مفعول به "وَآتَوُا الزَّكَاةَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "وَأَمَرُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة بالواو "بِالْمَعْرُوفِ" متعلقان بأمروا "وَنَهَوْا" الجملة معطوفة "عَنِ الْمُنْكَرِ" متعلقان بنهوا "وَلِلَّهِ" الواو استئنافية واللام حرف جر ولفظ

(95/518)

الجلالة مجرور بحرف الجر متعلقان بمحذوف خبر مقدم "عَاقِبَةُ" مبتدأ مؤخر "الْأُمُورِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَإِنْ" الواو استئنافية إن شرطية جازمة "يُكَذِّبُوكَ" مضارع

مجزوم بحذف النون والواو فاعل والكاف مفعول به وهو فعل الشرط "فَقَدْ" الفاء رابطة للجواب وقد حرف تحقيق "كَذَّبَتْ" ماض والتاء للتأنيث "قَبْلَهُمْ" ظرف زمان والهاء مضاف إليه "قَوْمُ" فاعل "نُوحٍ" مضاف إليه "وَعادٌ" معطوف "وَثَمُودُ" معطوف على نوح والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَقَوْمُ" معطوف على ما قبله "إِبْراهِيمَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "وَقَوْمُ" معطوف على ما سبق "لُوطٍ" مضاف إليه "وَأَصْحابُ" معطوف على ما سبق "مَدْيَنَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة "وَكُذِّبَ مُوسى" ماض مبني للمجهول وموسى نائب فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة معطوفة على ما سبق "فَأَمْلَيْتُ" الفاء عاطفة وفعل ماض والتاء فاعله والجملة معطوفة "لِلْكافِرِينَ" اللام حرف جر والكافرين مجرور باللام وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم وهما متعلقان بأمليت "ثُمَّ" حرف عطف للترتيب مع التراخي "أَخَذْتُهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والميم للجماعة والجملة معطوفة على ما سبق "فَكَيْفَ" الفاء عاطفة وكيف اسم استفهام في محل رفع خبر كان المقدم "كانَ" فعل ماض ناقص "نَكِيرِ" اسم كان المرفوع والجملة معطوفة.

[سورة الحج (22) : الآيات 45 الى 46]

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ

(45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

(96/518)

"فَكَأَيِّنْ" الفاء استئنافية كأين مبتدأ في محل رفع "مِنْ" حرف جر زائد "قَرْيَةٍ" تمييز كأين مجرور والجملة استئنافية "أَهْلَكْناها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر المبتدأ "وَهِيَ ظالِمَةٌ" مبتدأ وخبر والواو حالية والجملة في محل نصب على الحال "فَهِيَ خاوِيَةٌ" الفاء عاطفة ومبتدأ وخبر والجملة معطوفة على ما قبلها "عَلى عُرُوشِها" متعلقان بخاوية والهاء مضاف إليه "وَبِئْرٍ" الواو عاطفة وبئر معطوفة على قرية "مُعَطَّلَةٍ" صفة مجرورة "وَقَصْرٍ مَشِيدٍ" الواو عاطفة وقصر اسم معطوف ومشيد صفة له "أَفَلَمْ" الهمزة للاستفهام ولم حرف نفي وجزم وقلب "يَسِيرُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة استئنافية "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بيسيروا "فَتَكُونَ" مضارع ناقص منصوب بأن المضمرة بعد الفاء السببية والجملة معطوفة على ما سبق "لَهُمْ" متعلقان بالخبر المحذوف "قُلُوبٌ" اسمها المؤخر "يَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة لقلوب "بِها" متعلقان بيعقلون "أَوْ" حرف عطف "آذانٌ" معطوف على قلوب "يَسْمَعُونَ" مضارع مرفوع

بثبوت النون والواو فاعل . "بِها" متعلقان بالفعل والجملة صفة لآذان "فَإِنَّها" الفاء تعليلية وإن واسمها والجملة للتعليل لا محل لها "لا" نافية "تَعْمَى" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف

للتعذر والجملة خبر "الْأَبْصارُ" فاعل "وَلكِنْ" الواو عاطفة ولكن حرف استدراك "تَعْمَى" مضارع مرفوع "الْقُلُوبُ" فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "الَّتِي" اسم موصول في محل رفع صفة للقلوب "فِي الصُّدُورِ" متعلقان بمحذوف صلة لاسم الموصول .

[سورة الحج (22) : الآيات 47 الى 48]

(97/518)

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48)

"وَيَسْتَعْجِلُونَكَ" الواو استئنافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والكاف مفعول به والجملة استئنافية لا محل لها "بِالْعَذابِ" متعلقان بيستعجلونك "وَلَنْ" الواو حرف عطف ولن ناصبة "يُخْلِفَ" مضارع منصوب "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "وَعْدَهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها "وَإِنَّ" الواو استئنافية وإن حرف مشبه

بالفعل "يَوْماً" اسمها "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صفة ليوم. "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه، والجملة معطوفة "كَأَلْفِ" متعلقان بخبر إن "سَنَةٍ" مضاف إليه "مِمَّا" من حرف جر وما موصولية في محل جر وهما متعلقان بصفة محذوفة لسنة "تَعُدُّونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة لا محل لها "وَكَأَيِّنْ" الواو عاطفة وكأين مبتدأ في محل رفع "مِنْ" حرف جر زائد "قَرْيَةٍ" اسم مجرور تمييز كأين والجملة معطوفة "أَمْلَيْتُ" ماض مبني على السكون والتاء فاعل والجملة خبر كأين "لَها" متعلقان بأمليت "وَهِيَ ظالِمَةٌ" الواو حالية ومبتدأ وخبر والجملة حالية "ثُمَّ" عاطفة "أَخَذْتُها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "وَإِلَيَّ" الواو عاطفة أو حالية أو استئنافية والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم "الْمَصِيرُ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة أو حالية أو استئنافية.

[سورة الحج (22) : الآيات 49 الى 51]

(98/518)

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (51)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر وجوبا والجملة مستأنفة "يا" حرف نداء "أَيُّهَا" أي منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب على النداء والهاء للتنبيه "النَّاسُ" بدل من أي "إِنَّما" كافة ومكفوفة "أَنَا" مبتدأ "لَكُمْ" متعلقان بالخبر المؤخر "نَذِيرٌ" خبر المبتدأ "مُبِينٌ" صفة والجملة في محل نصب مقول القول "فَالَّذِينَ" الفاء استئنافية واسم الموصول مبتدأ والجملة مستأنفة "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة بالواو "الصَّالِحاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم "مَغْفِرَةٌ" مبتدأ مؤخر والجملة خبر الذين "وَرِزْقٌ" معطوف على مغفرة "كَرِيمٌ" صفة "وَالَّذِينَ" الواو استئنافية واسم الموصول في محل رفع مبتدأ والجملة استئنافية "سَعَوْا" ماض وفاعله والجملة صلة "فِي آياتِنا" متعلقان بسعوا ونا مضاف إليه "مُعاجِزِينَ" حال منصوبة بالياء لأنه جمع مذكر سالم "أُولئِكَ" أولاء اسم إشارة في محل رفع مبتدأ "أَصْحابُ" خبر المبتدأ "الْجَحِيمِ" مضاف إليه والجملة خبر الذين.

[سورة الحج (22) : الآيات 52 الى 53]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (53)

"وَما" الواو استئنافية وما نافية "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مِنْ" حرف جر "قَبْلِكَ" متعلقان بالفعل أرسلنا "مِنْ" حرف جر زائد "رَسُولٍ" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد "وَلا" الواو عاطفة ولا زائدة "نَبِيٍّ" معطوف على رسول على اللفظ "إِلَّا" أداة حصر "إِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط "تَمَنَّى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر وفاعله مستتر والجملة في محل جر مضاف إليه لإذا "أَلْقَى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر "الشَّيْطانُ" فاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "فِي أُمْنِيَّتِهِ" متعلقان بألقى والهاء مضاف إليه "فَيَنْسَخُ" الفاء استئنافية ومضارع مرفوع "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل والجملة مستأنفة "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به "يُلْقِي الشَّيْطانُ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله والجملة صلة لا محل لها "ثُمَّ" حرف عطف "يُحْكِمُ اللَّهُ" مضارع ولفظ الجلالة فاعله "آياتِهِ" مفعول به منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" الواو استئنافية ومبتدأ وخبراه والجملة مستأنفة "لِيَجْعَلَ" الله اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل ولفظ الجلالة فاعل والمصدر المؤول في محل جر ومتعلقان بيحكم "ما" موصولية في محل نصب مفعول به أول ليجعل "يُلْقِي الشَّيْطانُ"

مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله والجملة صلة لا محل لها "فِتْنَةً" مفعول به ثان "لِلَّذِينَ" اللام حرف جر واسم الموصول في محل جر متعلقان بمحذوف صفة لفتنة "فِي قُلُوبِهِمْ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "مَرَضٌ" مبتدأ مؤخر والجملة صلة "وَالْقاسِيَةِ" الواو عاطفة والقاسية معطوفة على الذين "قُلُوبِهِمْ" فاعل لاسم الفاعل قاسية

(100/518)

"وَإِنَّ" الواو استئنافية وإن حرف مشبه بالفعل "الظَّالِمِينَ" اسمها "لَفِي شِقاقٍ" اللام المزحلقة ومتعلقان بخبر إن "بَعِيدٍ" صفة شقاق والجملة استئنافية.

[سورة الحج (22) : الآيات 54 الى 55]

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (54) وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)

"وَلِيَعْلَمَ" اللام لام التعليل والمضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وهو معطوف على ليجعل "الَّذِينَ" فاعل "أُوتُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة لا محل لها لأنها صلة

الموصول "الْعِلْمَ" مفعول به ثان "أَنَّهُ الْحَقُّ" أن واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي يعلم "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بمحذوف حال والكاف مضاف إليه "فَيُؤْمِنُوا" الفاء عاطفة ومضارع معطوف على ليعلم منصوب مثله والواو فاعله "بِهِ" متعلقان بيؤمنوا "فَتُخْبِتَ" الفاء عاطفة والمضارع معطوف على ما قبله منصوب مثله والجملة معطوفة "لَهُ" متعلقان بتخبت "قُلُوبُهُمْ" فاعل والهاء مضاف إليه والميم للجمع "وَإِنَّ اللَّهَ" الواو استئنافية وإن ولفظ الجلالة اسمها والجملة مستأنفة "لَهَادِ" اللام لام المزحلقة وهاد خبر إن المرفوع بالضمة المقدرة على الياء المحذوفة وقرئ بإثبات الياء "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب مفعول به لاسم الفاعل هاد "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها "إِلى صِراطٍ" متعلقان بهاد "مُسْتَقِيمٍ" صفة "وَلا يَزالُ" الواو استئنافية ولا يزال مضارع ناقص "الَّذِينَ" اسم لا يزال في محل رفع "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "فِي مِرْيَةٍ" متعلقان بخبر لا يزال "مِنْهُ" متعلقان بصفة مرية "حَتَّى" حرف غاية وجر "تَأْتِيَهُمُ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد حتى والهاء مفعول به "السَّاعَةُ" فاعل مرفوع وأن وما بعدها في محل جر بحتى متعلقان بالخبر المحذوف "بَغْتَةً" حال "أَوْ" حرف عطف "يَأْتِيَهُمْ" مضارع معطوف على تأتيهم

السابقة منصوب مثله والهاء مفعول به والجملة معطوفة "عَذابُ" فاعل "يَوْمٍ" مضاف إليه "عَقِيمٍ" صفة يوم

[سورة الحج (22) : الآيات 56 الى 58]

(102/518)

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (57) وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58)

"الْمُلْكُ" مبتدأ "يَوْمَئِذٍ" ظرف مضاف إلى مثله "لِلَّهِ" اللام حرف جر ولفظ الجلالة مجرور ومتعلقان بالخبر المحذوف "يَحْكُمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مستأنفة "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق بيحكم "فَالَّذِينَ" الفاء استئنافية واسم الموصول مبتدأ "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "الصَّالِحاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة "فِي جَنَّاتِ" متعلقان بالخبر المحذوف "النَّعِيمِ" مضاف إليه "وَالَّذِينَ" الواو عاطفة والذين مبتدأ والجملة معطوفة "كَفَرُوا" فعل ماض وفاعله والجملة صلة "وَكَذَّبُوا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "بِآياتِنا" متعلقان بكذبوا ونا

مضاف إليه "فَأُولَئِكَ" الفاء زائدة "أولئك" اسم إشارة مبتدأ والكاف للخطاب "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ "مُهِينٌ" صفة وجملة أولئك لهم عذاب مهين خبر الذين وجملة لهم عذاب خبر أولئك "وَالَّذِينَ" الواو عاطفة والذين مبتدأ "هاجَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وجاهدوا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "فِي سَبِيلِ" متعلقان بهاجروا "اللَّهِ" لفظ

(103/518)

الجلالة مضاف إليه "ثُمَّ" عاطفة "قُتِلُوا" ماض مبني للمجهول ونائب وفاعله والجملة معطوفة "أَوْ" عاطفة "ماتُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "لَيَرْزُقَنَّهُمُ" اللام موطئة للقسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء مفعول به "اللَّهِ" لفظ الجلالة فاعل "رِزْقاً" مفعول مطلق "حَسَناً" صفة وجملة القسم لا محل لها والقسم وجوابه في محل رفع خبر الذين "وَإِنَّ اللَّهَ" الواو عاطفة وإن ولفظ الجلالة اسمها والجملة معطوفة "لَهُوَ" اللام المزحلقة وهو مبتدأ "خَيْرُ" خبر والجملة خبر إن "الرَّازِقِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

[سورة الحج (22) : الآيات 59 الى 61]

لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61)

(104/518)

"لَيُدْخِلَنَّهُمْ" اللام الموطئة للقسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء مفعول به والميم للجمع والجملة مستأنفة "مُدْخَلًا" مفعول مطلق "يَرْضَوْنَهُ" مضارع مرفوع بثبوت النون وفاعله والهاء مفعوله والجملة صفة مدخلا "وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ" إن ولفظ الجلالة اسمها وعليم وحكيم خبراها واللام المزحلقة والجملة مستأنفة "ذَلِكَ" ذا اسم إشارة خبر لمبتدأ محذوف واللام للبعد والكاف للخطاب "وَمَنْ" الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم مبتدأ "عَاقَبَ" ماض فاعله مستتر وهو في محل جزم فعل الشرط "بِمِثْلِ" متعلقان بعاقب "ما" اسم موصول في محل جر مضاف إليه "عُوقِبَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بعوقب "ثُمَّ" عاطفة "بُغِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر والجملة معطوفة "عَلَيْهِ" متعلقان ببغي "لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ" اللام الموطئة للقسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء

مفعول به ولفظ الجلالة فاعل والجملة خبر من "إن الله لغفور رحيم" إن ولفظ الجلالة اسمها وغفور ورحيم خبراها واللام المزحلقة والجملة مستأنفة "ذِلكَ" اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "بِأَنَّ اللَّهَ" أن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر والجار والمجرور متعلقان بخبر المبتدأ "يُولِجُ" مضارع والفاعل ضمير مستتر "اللَّيْلَ" مفعول به "فِي النَّهارِ" متعلقان بيولج "وَيُولِجُ النَّهارَ" مضارع والفاعل مستتر والنهار مفعول به والجملة معطوفة "فِي اللَّيْلِ" متعلقان بيولج "وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ" أن واسمها وخبراها والجملة مستأنفة

[سورة الحج (22) : الآيات 62 الى 64]

(105/518)

ذِلكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64)

(106/518)

"ذَلِكَ" ذا اسم إشارة في محل رفع مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب والجملة مستأنفة "بِأَنَّ اللَّهَ" الباء جارة وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف "هُوَ الْحَقُّ" مبتدأ وخبر والجملة خبر أن "وَأَنَّ" الواو عاطفة وأن حرف مشبه بالفعل و"ما" موصولية في محل نصب اسم أن "يَدْعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بمحذوف حال "هُوَ الْباطِلُ" مبتدأ وخبر والجملة خبر أن "وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ" أن واسمها وجملة هو العلي خبر أن والكبير خبر ثان والجملة مستأنفة "أَلَمْ" الهمزة للاستفهام والتقرير ولم حرف نفي وجزم وقلب "تَرَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والفاعل ضمير مستتر والجملة استئنافية "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها "أَنْزَلَ" ماض فاعله مستتر والجملة خبر "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بأنزل وأن واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي تر "ماءً" مفعول به "فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً" الفاء عاطفة ومضارع ناقص واسمه وخبره والجملة معطوفة "إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ" إن واسمها وخبراها والجملة مستأنفة "لَهُ" متعلقان بخبر مقدم "ما" موصولية مبتدأ "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة ما "وَما فِي الْأَرْضِ" ما موصولية مبتدأ وفي الأرض متعلقان بالخبر والجملة معطوفة "وَإِنَّ اللَّهَ" إن واسمها والجملة مستأنفة "لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ" اللام المزحلقة

ومبتدأ وخبراه والجملة خبر إن .

[سورة الحج (22) : الآيات 65 الى 66]

(107/518)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (66)

"أَلَمْ" الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وجزم وقلب "تَرَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها وقد سدت مسد مفعولي تر "سَخَّرَ" ماض فاعله مستتر والجملة خبر أن "لَكُمْ" متعلقان بسخر "ما" موصولية في محل نصب مفعول به "فِي الْأَرْضِ" صفة ما "وَالْفُلْكَ" معطوف على ما "تَجْرِي" مضارع مرفوع بالضمة مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والجملة في محل نصب حال "فِي الْبَحْرِ" متعلقان بتجري "بِأَمْرِهِ" متعلقان بحال محذوفة والهاء مضاف إليه "وَيُمْسِكُ" الواو استئنافية ومضارع مرفوع فاعله مستتر "السَّماءَ" مفعول به والجملة مستأنفة "أَنْ تَقَعَ" أن ناصبة ومضارع منصوب فاعله مستتر "عَلَى الْأَرْضِ" متعلقان بتقع

والمصدر المؤول في محل نصب مفعول لأجله "إِلَّا" أداة حصر "بِإِذْنِهِ" متعلقان بحال محذوفة والهاء مضاف إليه "أَنَّ اللَّهَ" إن واسمها "بِالنَّاسِ" متعلقان بالخبر "لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ" اللام المزحلقة وخبران لإن والجملة مستأنفة "وَهُوَ" الواو استئنافية وهو مبتدأ "الَّذِي" اسم موصول خبر "أَحْيَاكُمْ" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر والكاف مفعول به والميم للجمع والفاعل مستتر والجملة صلة "ثُمَّ" عاطفة "يُمِيتُكُمْ" مضارع

(108/518)

و مفعوله "ثُمَّ" حرف عطف "يُحْيِيكُمْ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر والكاف مفعول به والميم للجمع والجملة معطوفة "إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ" إن واسمها وخبرها واللام المزحلقة والجملة مستأنفة.

[سورة الحج (22) : الآيات 67 الى 69]

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (67) وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69)

(109/518)

"لِكُلِّ أُمَّةٍ" متعلقان بجعلنا وهما سدا مسد مفعوله الثاني "جَعَلْنا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مَنْسَكاً" مفعول به أول "هُمْ" مبتدأ "ناسِكُوهُ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والهاء مضاف إليه وحذفت النون للإضافة والجملة صفة لمنسكا "فَلا" الفاء الفصيحة ولا ناهية "يُنازِعُنَّكَ" مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل وحذفت لالتقاء الساكنين والنون نون التوكيد الثقيلة ولم تعمل هنا لأنها لم تباشر الفعل المضارع والجملة جواب الشرط المقدر لا محل لها "فِي الْأَمْرِ" متعلقان بينازعنك "وَادْعُ" الواو عاطفة وفعل أمر فاعله مستتر "إِلى رَبِّكَ" متعلقان بادع والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة "إِنَّكَ" إن واسمها "لَعَلى هُدىً" متعلقان بالخبر المحذوف واللام المزحلقة "مُسْتَقِيمٍ" صفة هدى والجملة مستأنفة "وَإِنْ" الواو استئنافية وإن شرطية جازمة "جادَلُوكَ" ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة والواو الفاعل وهو في محل جزم فعل الشرط والجملة مستأنفة "فَقُلِ" الفاء رابطة للجواب وأمر فاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط "اللَّهُ أَعْلَمُ" لفظ الجلالة مبتدأ وأعلم خبره والجملة مقول القول "بِما" الباء حرف جر وما موصولية متعلقان بأعلم "تَعْمَلُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة صلة "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "يَحْكُمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر وجملة اللّه يحكم ابتدائية "بَيْنَكُمْ" ظرف مكان متعلق بيحكم والكاف مضاف إليه "يَوْمَ" ظرف زمان

"الْقِيامَةِ" مضاف إليه "فِيما" في حرف جر وما الموصولية متعلقان بيحكم "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة صلة "فِيهِ" متعلقان بتختلفون "تَخْتَلِفُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كنتم.

[سورة الحج (22) : الآيات 70 الى 71]

(110/518)

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71)

"أَلَمْ" الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وجزم وقلب "تَعْلَمْ" مضارع مجزوم بلم "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها في تأويل مصدر سد مسد مفعولي تعلم "يَعْلَمُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة خبر أن "ما" موصولية مفعول به "فِي السَّماءِ" متعلقان بصلة ما "وَالْأَرْضِ" معطوفة على السماء "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "ذلِكَ" ذا اسم إشارة في محل نصب اسم إن واللام للبعد والكاف للخطاب

"فِي كِتابٍ" متعلقان بالخبر المحذوف "إِنَّ ذلِكَ" سبق إعرابها "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بيسير

"يَسِيرٌ" خبر إن والجملتان تعليليتان لا محل لهما من الإعراب "وَيَعْبُدُونَ" الواو استئنافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة مستأنفة "مِنْ دُونِ" متعلقان بيعبدون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "ما" موصولية مفعول به "لَمْ" حرف نفي وقلب وجزم "يُنَزِّلْ" مضارع مجزوم والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بينزل "سُلْطاناً" مفعول به "وَما" الواو عاطفة "ما" موصولية معطوفة على ما السابقة "لَيْسَ" فعل ماض ناقص "لَهُمْ" اللام حرف جر والهاء في محل جر متعلقان بالخبر المحذوف "بِهِ" متعلقان بالخبر المحذوف "عِلْمٌ" اسم ليس المؤخر وجملة ليس صلة ما "وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "لِلظَّالِمِينَ" متعلقان بخبر مقدم "مِنْ" حرف جر زائد "نَصِيرٍ" مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد . والجملة مستأنفة

[سورة الحج (22) : آية 72]

(111/518)

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72)

"وَإِذا" الواو عاطفة وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "تُتْلى" مضارع مبني للمجهول والجملة مضاف إليه "عَلَيْهِمْ" متعلقان بتتلى "آياتُنا" نائب فاعل ونا مضاف إليه "بَيِّناتٍ" حال من آياتنا منصوبة بالكسرة لأنها جمع مؤنث سالم "تَعْرِفُ" مضارع فاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "فِي وُجُوهِ" متعلقان بتعرف "الَّذِينَ" اسم موصول في محل جر مضاف إليه "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "الْمُنْكَرَ" مفعول به "يَكادُونَ" مضارع ناقص والواو اسمها والجملة حالية "يَسْطُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر يكادون "بِالَّذِينَ" الذين اسم موصول متعلقان بيسطون "يَتْلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "عَلَيْهِمْ" متعلقان بيتلون "آياتُنا" مفعول به ونا مضاف إليه "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة استئنافية "أَفَأُنَبِّئُكُمْ" الهمزة حرف استفهام ومضارع ومفعول به والميم للجمع وفاعله مستتر والجملة مقول القول "بِشَرٍّ" متعلقان بأنبئكم "مِنْ ذلِكُمُ" متعلقان بشر وذا اسم إشارة واللام للبعد والكاف للخطاب والميم للجمع "النَّارُ" مبتدأ "وَعَدَهَا" ماض ومفعول به أول "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل مؤخر والجملة خبر "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب مفعول به ثان "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَبِئْسَ" الواو استئنافية وبئس ماض لإنشاء الذم "الْمَصِيرُ" فاعل والجملة مستأنفة.

[سورة الحج (22) : الآيات 73 الى 74]

(112/518)

يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74)

(113/518)

"يا" أداة نداء "أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة في محل نصب مفعول به لأدعو المقدرة والها حرف تنبيه لا محل لها "النَّاسُ" بدل أو عطف بيان والجملة مستأنفة "ضُرِبَ مَثَلٌ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة ابتدائية "فَاسْتَمِعُوا" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله "لَهُ" متعلقان باستمعوا والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" موصول في محل نصب اسم إن وجملة إن الذين تفسيرية لا محل لها "تَدْعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "مِنْ دُونِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "لَنْ يَخْلُقُوا" مضارع منصوب

بلن وعلامة نصبه حذف النون "ذُباباً" مفعول به والجملة خبر إن "وَلَوِ" الواو عاطفة ولو حرف شرط غير جازم "اجْتَمَعُوا" ماض وفاعله "لَهُ" متعلقان باجتمعوا والجملة معطوفة وجملة اجتمعوا جملة الشرط ابتدائية لا محل لها وجواب لو محذوف تقديره لا يقدرون "وَإِنْ" الواو استئنافية وإن شرطية "يَسْلُبْهُمُ" مضارع مجزوم فعل الشرط والهاء مفعول به "الذُّبابُ" فاعل "شَيْئاً" مفعول به ثان والجملة ابتدائية لا محل لها "لا يَسْتَنْقِذُوهُ" لا نافية ومضارع مجزوم لأنه جواب الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والهاء مفعول به "مِنْهُ" متعلقان بالفعل قبله والجملة لا محل لها لأنها لم تقترن بالفاء الرابطة "ضَعُفَ الطَّالِبُ" ماض وفاعله "وَالْمَطْلُوبُ" معطوف على الطالب والجملة مستأنفة "ما" نافية "قَدَرُوا" ماض وفاعله "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "حَقَّ" مفعول مطلق "قَدْرِهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه والجملة استئنافية "إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ" إن واسمها وخبراها واللام المزحلقة والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الحج (22) : الآيات 75 الى 77]

(114/518)

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77)

"اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "يَصْطَفِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة للثقل والجملة خبر "مِنَ الْمَلائِكَةِ" متعلقان بيصطفي أو بحال محذوفة وجملة الله يصطفي ابتدائية لا محل لها "رُسُلًا" مفعول به "وَمِنَ النَّاسِ" معطوف على من الملائكة "إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ" إن واسمها وخبراها والجملة مستأنفة "يَعْلَمُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة مستأنفة "ما" موصولية مفعول به "بَيْنَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة "أَيْدِيهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "وَما" موصولية معطوفة على ما السابقة "خَلْفَهُمْ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة والهاء مضاف إليه "وَإِلَى اللَّهِ" الواو عاطفة ومتعلقان بترجع "تُرْجَعُ" مضارع مبني للمجهول "الْأُمُورُ" نائب فاعل والجملة معطوفة "يا" أداة نداء "أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة في محل نصب على النداء والها للتنبيه "الَّذِينَ" اسم موصول بدل أو عطف بيان "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "ارْكَعُوا" أمر وفاعله "وَاسْجُدُوا" أمر وفاعله والجملة معطوفة. "وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "وَافْعَلُوا الْخَيْرَ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها والميم للجمع "تُفْلِحُونَ" مضارع

مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر لعل .

[سورة الحج (22) : آية 78]

(115/518)

وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)

(116/518)

"وَجاهِدُوا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "فِي اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بفي متعلقان بجاهدوا "حَقَّ" نائب مفعول مطلق "جِهادِهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "هُوَ" مبتدأ "اجْتَباكُمْ" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر والكاف مفعول به والميم للجمع وفاعله مستتر والجملة خبر "وَما" الواو عاطفة وما نافية "جَعَلَ" ماض فاعله

مستتر "عَلَيْكُمْ" متعلقان بجعل والجملة معطوفة "فِي الدِّينِ" متعلقان بجعل "مِنْ" حرف جر زائد "حَرَجٍ" مفعول به منصوب محلّا مجرور لفظا بحركة حرف الجر الزائد "مِلَّةَ" منصوب على الاختصاص أي أخص ملة "أَبِيكُمْ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه من الأسماء الخمسة والكاف مضاف إليه "إِبْراهِيمَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة "هُوَ" مبتدأ والجملة ابتدائية "سَمَّاكُمُ" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر والكاف مفعول به أول والميم للجمع والجملة خبر "الْمُسْلِمِينَ" مفعول به ثان منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بسماكم وبني قبل على الضم لأنه قطع عن الإضافة لفظا لا معنى "وَفِي هذا" ذا اسم إشارة في محل جر بحرف الجر متعلقان بفعل محذوف دل عليه ما قبله وهو معطوف على من قبل "لِيَكُونَ" اللام للتعليل ويكون مضارع ناقص "الرَّسُولُ" اسم كان "شَهِيداً" خبر. "عَلَيْكُمْ" متعلقان بشهيدا وأن واللام وما بعدها في تأويل مصدر متعلقان بسماكم "وَتَكُونُوا" مضارع ناقص معطوف على ما قبله منصوب بحذف النون والواو اسمها "شُهَداءَ" خبر "عَلَى النَّاسِ" متعلقان بمحذوف صفة "فَأَقِيمُوا" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله "الصَّلاةَ" مفعول به والجملة معطوفة "وَآتُوا" الواو عاطفة وآتوا أمر مبني على حذف النون والواو فاعله "الزَّكاةَ" مفعول به والجملة معطوفة "وَاعْتَصِمُوا" الواو عاطفة وأمر مبني على حذف النون والواو

فاعله "بِاللَّهِ" متعلقان باعتصموا "هُوَ" مبتدأ "مَوْلاكُمْ" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والكاف مضاف إليه والميم للجمع والجملة في محل نصب على الحال "فَنِعْمَ الْمَوْلى" الفاء استئنافية ونعم ماض لإنشاء المدح والمولى فاعله مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة مستأنفة "وَنِعْمَ النَّصِيرُ" ماض جاء لإنشاء المدح والنصير فاعله والجملة معطوفة على ما سبق وهي مثلها لا محل لها من الإعراب. انتهى انتهى. اهـ

﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 301. 323﴾

(118/518)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَةُ الْحَج

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة عشر حَدِيثا

809 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن هَاتين الْآيَتَيْنِ يَا أَيهَا النَّاس اتَّقوا ربكُم . . . نزلتا لَيْلًا فِي غَزْوَة بني المصطلق

فَقَرَأَهُمَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَلم ير أَكثر بكاء من تِلْكَ اللَّيْلَة فَلَمَّا أَصْبحُوا لم يَحُطُّوا السُّرُوج عَن الدَّوَابّ وَلم يضْربُوا الْخيام وَقت النُّزُول وَلم يَطْبُخُوا قدرا وَكَانُوا من بَين حَزِين وَبَاكٍ وَمُفَكِّرٌ

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَيقرب مِنْهُ مَا رَوَى التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ من حَدِيث الْحسن عَن عمرَان بن حُصَيْن أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ وَهُوَ فِي بعض أَسْفَاره وَقد تقَارب من أَصْحَاب السّير رفع بِهَا تَيْن الْآيَتَيْن صَوته يَا أَيهَا النَّاس اتَّقوا ربكُم . . . إِلَى قَوْله وَلَكِن عَذَاب الله شَدِيد فَلَمَّا سمع أَصْحَابه بذلك حثوا الْمطِي وَعرفُوا أَنه عِنْد قَول يَقُوله فَلَمَّا تَأَشَّبُوا حوله قَالَ أَتَدْرُونَ أَي يَوْم ذَاك ذَاك يَوْم يُنَادِي آدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فينادي بِهِ ربه عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُول يَا آدم ابْعَثْ بعثا إِلَى النَّار فَيَقُول يَا رب وَمَا بعث النَّار فَيَقُول من كل ألف تِسْعمائَة وَتِسْعَة وَتسْعُونَ

(119/518)

فِي النَّار وَوَاحِد فِي الْجنَّة قَالَ فَأَبْلس أَصْحَابه حَتَّى مَا أوضحُوا بضَاحِكَةٍ فَلَمَّا رَأَى ذَلِك قَالَ أَبْشِرُوا وَاعْمَلُوا فوالذي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ إِنَّكُم لمع خَلِيقَتَيْن مَا كَانَتَا مَعَ شَيْء إِلَّا كَثَّرَتَاهُ يَأْجُوج وَمَأْجُوج وَمن هلك من بني آدَم وَبني إِبْلِيس) قَالَ فَسرّي عَنهُ ثمَّ قَالَ اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا

فوالذي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ مَا أَنْتُم فِي النَّاس إِلَّا كَالشَّامَةِ فِي جنب الْبَعِير أَو الرَّقْمَة فِي ذِرَاع الدَّابَّة)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الْإِيمَان قَالَ وَعِنْدِي أَنَّهُمَا لم يخرجاهُ خشيَة الْإِرْسَال وَقد سمع الْحسن من عمرَان بن حُصَيْن ثمَّ أَعَادَهُ فِي كتاب الْقرَاءَات وَقَالَ حَدِيث صَحِيح وَأَكْثر أَئِمَّتنَا الْمُتَقَدِّمين عَلَى أَن الْحسن سمع من عمرَان بن حُصَيْن وَأَعَادَهُ أَيْضا فِي كتاب الْأَهْوَال وَنقل عَن الْبُخَارِيّ وَمُسلم أَنَّهُمَا قَالَا لم يسمع الْحسن من عمرَان بن حُصَيْن قَالَ وَعِنْدِي أَنه سمع مِنْهُ

انْتَهَى

وَقَالَ الثَّعْلَبِيّ ثمَّ الْبَغَوِيّ فِي تفسيريهما وَرَوَى عمرَان بن حُصَيْن وَأَبُو سعيد الْخُدْرِيّ وَغَيرهمَا أَن هَاتين الْآيَتَيْنِ نزلتا لَيْلًا فِي غَزْوَة بني المصطلق . . . إِلَى آخر لفظ الْمُصَنّف

(120/518)

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث مُحَمَّد بن إِسْحَاق حَدثنَا مُحَمَّد بن السَّائِب الْكَلْبِيّ عَن أبي صَالح عَن ابْن عَبَّاس قَالَ بَيْنَمَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي مسيره

فِي غَزْوَة بني المصطلق إِذْ أنزل الله عَلَيْهِ يَا أَيهَا النَّاس اتَّقوا ربكُم إِن زلْزَلَة السَّاعَة شَيْء عَظِيم إِلَى قَوْله وَلَكِن عَذَاب الله شَدِيد فَوقف رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى نَاقَته وَرفع بهَا صَوته . . . إِلَى آخر لفظ السّنَن

810 - الْحَدِيث الثَّانِي

عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ أَن رجلا من الْيَهُود أسلم فأصابته مصائب فتشاءم بِالْإِسْلَامِ فَأَتَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ لَهُ أَقلنِي فَقَالَ (إِن الْإِسْلَام لَا يُقَال وَمن النَّاس من يعبد الله عَلَى حرف

قلت رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا عبد الله بن مُحَمَّد حَدثنَا الحكم بن معبد الْخُزَاعِيّ حَدثنَا عَلِي بن الْحَارِث حَدثنَا مُحَمَّد بن فُضَيْل حَدثنَا مُحَمَّد بن عبيد الله عَن عَطِيَّة عَن أبي سعيد قَالَ أسلم رجل من الْيَهُود فَذهب مَاله وَولده فتشاءم بِالْإِسْلَامِ فَأَتَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ لَهُ أَقلنِي فَقَالَ (إِن الْإِسْلَام لَا يُقَال) فَقَالَ إِنِّي لم أصب من هَذَا الدّين خيرا ذهب بَصرِي وَمَالِي وَوَلَدي فَقَالَ يَا يَهُودِيّ الْإِسْلَام يسبك الرِّجَال كَمَا يسبك النَّار خبث الْحَدِيد وَالْفِضَّة وَالذَّهَب) فَنزلت وَمن النَّاس من يعبد الله عَلَى حرف الْآيَة

انْتَهَى

(121/518)

وَقَالَ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول وَرَوَى عَطِيَّة عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ أَن رجلا من الْيَهُود أسلم إِلَى آخر لفظ الْمُصَنّف غَرِيب عَن الْخُدْرِيّ وَهُوَ فِي كتاب الْعقيلِيّ عَن جَابر فَقَالَ حَدثنَا عَلّي بن الْعَبَّاس الْبَزَّار حَدثنَا مُحَمَّد بن عمر بن هياج الْأَزْدِيّ حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن صبيح حَدثنَا عَنْبَسَة بن سعيد اخو أبي الرّبيع السمان عَن أبي الزُّبَيْر عَن جَابر أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَتَاهُ يَهُودِيّ فَأسلم عَلَى يَدَيْهِ ثمَّ رَجَعَ إِلَى منزله فأصيب فِي عينه وَأُصِيب فِي وَلَده فَرجع إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ أَقلنِي فَقَالَ (إِن الْإِسْلَام لَا يُقَال إِنَّك إِن رجعت عَن الْإِسْلَام ضربت عُنُقك إِن الْإِسْلَام سبك الرِّجَال يخرج خبثهمْ كَمَا يخرج الْكِير خبث الذَّهَب وَالْفِضَّة وَالْحَدِيد إِذا أُلقِي فِيهِ)

انْتَهَى وَأعله بعَنْبَسَة بن سعيد وَضَعفه عَن جمَاعَة من غير تَوْثِيق

811 - الْحَدِيث الثَّالِث

فِي الْحَدِيث (لَو وضعت مقمعة مِنْهَا فِي الْأَرْض فَاجْتمع عَلَيْهَا الثَّقَلَان مَا أَقلوهَا)

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْأَهْوَال من حَدِيث عبد الله بن وهب أَخْبرنِي عَمْرو بن الْحَارِث عَن دراج عَن أبي الْهَيْثَم عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَو أَن مِقْمَعًا من حَدِيد وضع فِي الْأَرْض فَاجْتمع عَلَيْهِ الثَّقَلَان مَا أَقلوهُ من الْأَرْض)

انْتَهَى وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

انْتَهَى

(122/518)

وَرَوَاهُ أَحْمد وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مسنديهما وَالْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْبَعْث والنشور من حَدِيث ابْن لَهِيعَة حَدثنَا دراج بِهِ سندا ومتنا قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله تَعَالَى وَلَهُم مَقَامِع من حَدِيد لَو وضع مقْمَع مِنْهَا فِي الأَرْض . . . إِلَى آخِره

وَبِالسَّنَدَيْنِ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره وَبِالسَّنَدِ الثَّانِي رَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره

812 - قَوْله عَن عبد الله بن عمر أَنه كَانَ لَهُ فُسْطَاطَان أَحدهمَا فِي الْحل وَالْآخر فِي الْحرم فَإِذا أَرَادَ أَن يُعَاتب أَهله عَاتَبَهُمْ فِي الْحل فَقيل لَهُ فَقَالَ كُنَّا نُحدث أَن من الْإِلْحَاد فِيهِ أَن يَقُول الرجل لَا وَالله وبلى وَالله

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره أخبرنَا مُحَمَّد بن الْمثنى حَدثنَا مُحَمَّد بن جَعْفَر حَدثنَا شُعْبَة عَن مَنْصُور عَن مُجَاهِد قَالَ كَانَ لعبد الله بن عَمْرو بن الْعَاص فُسْطَاطَان . . . إِلَى آخِره سَوَاء

وَرَوَاهُ أَبُو الْوَلِيد الْأَزْرَقِيّ فِي تَارِيخ مَكَّة حَدثنَا عَمْرو بن حكام الْبَصْرِيّ عَن شُعْبَة عَن

مَنْصُور عَن مُجَاهِد قَال كَانَ لعبد الله بن عَمْرو بن الْعَاص فُسْطَاطَان أَحدهمَا فِي الْحل وَالْآخر فِي الْحرم فَإِذا أَرَادَ أَن يُصَلِّي صَلَّى فِي الْحرم وَإِذا أَرَادَ أَن يُعَاتب أَهله عَاتَبَهُمْ فِي الْحل فَقيل لَهُ فِي ذَلِك فَقَال لِي . . . آخِره سَوَاء

وَفِي نسخ الْكَشَّاف عبد الله بن عمر هَكَذَا وجدته وَإِنَّمَا هُوَ عبد الله بن عَمْرو

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره عَن أَشْعَث بن عبد الله عَن شُعْبَة بِهِ

813 - الْحَدِيث الرَّابِع

(123/518)

عَن الْحسن قَال أَمر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَن يَقُول ذَلِك فِي حجَّة الْوَدَاع يَعْنِي النداء بِالْحَجِّ لقَوْله تَعَالَى وَأذن فِي النَّاس بِالْحَجِّ

وَرُوِيَ أَن الْخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَام صعد أَبَا قبيس وَقَال يَا أَيهَا النَّاس حجُّوا بَيت ربكُم

قلت الأول ذكره الثَّعْلَبِيّ عَن الْحسن وَسَنَده إِلَيْهِ مَذْكُور فِي أول كِتَابه

وَالثَّانِي رَوَاهُ الطَّبَرِيّ عَن ابْن عَبَّاس لم يقل فِيهِ صعد أَبَا قبيس وَإِنَّمَا قَال قَام عِنْد الْحجر

وَفِي لفظ قَام عِنْد مقَامه وَقَال يَا أَيهَا النَّاس حجُّوا بَيت ربكُم فَأَجَابُوهُ لبيْك اللَّهُمَّ لبيْك

814 - قَوْله وَعَن ابْن مَسْعُود أَنه بعث بِهَدي وَقَال فِيهِ إِذا نَحرته فَكل وَتصدق وَابعث

مِنْهُ إِلَى عتبَة يَعْنِي ابْنه

قلت رَوَى الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه حَدثنَا عَلّي بن عبد الْعَزِيز حَدثنَا أَبو نعيم حَدثنَا سُفْيَان عَن حبيب بن أبي ثَابت عَن إِبْرَاهِيم عَن عَلْقَمَة أَن عبد الله بعث مَعَه بهَدي فَقَال كل أَنْت وَأَصْحَابك ثلثا وَتصدق بِثلث وَابعث إِلَى أخي عتبَة بِثلث قيل لِسُفْيَان تطوع قَال نعم انْتَهَى

وَعتبَة بن مَسْعُود وَهُوَ أَخُو عبد الله بن مَسْعُود صَحَابِيّ أَيْضا وَله رِوَايَة

815 - الْحَدِيث الْخَامِس

فِي الْحَدِيث كلوا وَادخرُوا وَائْتَجِرُوا)

قلت رُوِيَ من حَدِيث نُبَيْشَة وَمن حَدِيث الْخُدْرِيّ

(124/518)

فَحَدِيث نُبَيْشَة رَوَاهُ أَبو دَاوُد فِي سننه سننه فِي الْأَضَاحِي حَدثنَا مُسَدّد حَدثنَا يزِيد ابْن زُرَيْع حَدثنَا خَالِد الْحذاء عَن أبي الْمليح عَن نُبَيْشَة قَال قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِنَّا كُنَّا نَهَيْنَاكُمْ عَن لُحُوم الْأَضَاحِي أَن تَأْكُلُوهَا فَوق ثَلَاث لكَي تَسَعكُمْ جَاءَ الله بِالسَّعَةِ وكلوا وَادخرُوا وَائْتَجِرُوا أَلَا وَإِن هَذِه الْأَيَّام أَيَّام أكل وَشرب وَذكر الله عَزَّ وَجَلَّ)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسنديهما عَن خَالِد الْحذاء بِهِ

والْحَدِيث فِي مُسلم وَالنَّسَائِيّ وَابْن ماجة وَلَيْسَ فِيهِ وَاتَّجرُوا

وَقَول الْمُنْذِرِيّ فِي مُخْتَصره وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ بتَمَامِهِ فِيهِ نظر فَإِن النَّسَائِيّ رَوَاهُ فِي كتاب الْفَرْع وَالْعَتِيرَة من حَدِيث نُبَيْشَة لَيْسَ فِيهِ وَائْتَجِرُوا

وَرَوَاهُ فِي الضَّحَايَا كلوا وَادخرُوا وتصدقوا وَلكنه من حَدِيث عَائِشَة فَكَلَامه غير مُحَرر وَكَأَنَّهُ قلد أَصْحَاب الْأَطْرَاف وَالله أعلم

(125/518)

وَأما حَدِيث الْخُدْرِيّ فَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده حَدثنَا حجاج عَن ابْن جريج قَالَ قَالَ سُلَيْمَان بن مُوسَى أَخْبرنِي زبيد أَن أَبَا سعيد الْخُدْرِيّ أَتَى أَهله فَوجدَ قَصْعَة من قديد الْأَضَاحِي فَأَبَى أَن يَأْكُلهُ فَأَتَى قَتَادَة بن النُّعْمَان فَأَخْبرهُ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَامَ فَقَالَ (إِنِّي كنت أَمرتكُم أَلا تَأْكُلُوا الْأَضَاحِي فَوق ثَلَاثَة أَيَّام وَإِنِّي أحله لكم فَكُلُوا مِنْهُ مَا شِئْتُم وَلَا تَبِيعُوا لُحُوم الْهَدْي وَالْأَضَاحِي وكلوا وتصدقوا وَاسْتَمْتِعُوا بجُلُودِهَا وَلَا تَبِيعُوهَا وَإِن أطعمْتُم من لَحمهَا فَكُلُوا إِن شِئْتُم) وَقَالَ فِي هَذَا الْحَدِيث عَن أبي سعيد عَن النَّبِي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَالْآن كلوا وَائْتَجِرُوا وَادخرُوا)

انْتَهَى

وَفِي النِّهَايَة وَائْتَجِرُوا بِالْهَمْزَةِ أَي تصدقوا طَالِبِينَ لِلْأَجرِ وَلَا يجوز فِيهِ اتَّجرُوا بِالْإِدْغَامِ لِأَن الْهمزَة لَا تُدْغَم فِي التَّاء لِأَنَّهُ من الْأَجر لَا من التِّجَارَة وَقد أَجَاز الْهَرَوِيّ الْإِدْغَام وَاسْتدل عَلَيْهِ بِالْحَدِيثِ أَن رجلا دخل الْمَسْجِد وَقد قَضَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلَاته فَقَالَ (من يتجر مَعَ هَذَا فَيصَلي مَعَه) وَهَذِه الرِّوَايَة تكون من التِّجَارَة لَا

من الْأَجر

انْتَهَى كَلَامه

(126/518)

وَوَقع هَذَا اللَّفْظ فِي حَدِيث آخر رَوَاهُ أَبو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ فِي الزَّكَاة عَن بهز بن حَكِيم عَن جده مُعَاوِيَة بن حيدة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (كل سَائِمَة إبل فِي أَرْبَعِينَ بنت لبون وَلَا تفرق إبل عَن حِسَابهَا من أَعْطَاهَا مُؤْتَجِرًا بهَا فَلهُ أجرهَا وَمن منعهَا إِنَّا آخِذُوهَا وَشطر مَاله عَزمَة من عَزمَات رَبنَا لَيْسَ لآل مُحَمَّد مِنْهَا شَيْء)

انْتَهَى قَالَ الْمُنْذِرِيّ فِي مُخْتَصره مُؤْتَجِرًا أَي طَالبا لِلْأَجرِ

816 - الحَدِيث السَّادِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه صَلَّى الصُّبْح فَلَمَّا سلم قَامَ قَائِما واستقبل النَّاس بِوَجْهِهِ وَقَالَ (عدلت شَهَادَة الزُّور الْإِشْرَاك بِاللَّه) وتلا هَذِه الْآيَة

قلت رُوِيَ من حَدِيث خُزَيْمٌ بن فاتك وَمن حَدِيث أَيمن بن خُزَيْمٌ

فَحَدِيث خُزَيْمٌ بن فاتك رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب الْأَقْضِيَة وَابْن ماجة فِي الْأَحْكَام من حَدِيث سُفْيَان بن زِيَاد الْعُصْفُرِي عَن أَبِيه عَن حبيب ابْن النُّعْمَان الْأَسدي عَن خُزَيْمٌ بن فاتك أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم صَلَّى صَلَاة الصُّبْح فَلَمَّا انْصَرف قَامَ قَائِما فَقَالَ (عدلت شَهَادَة الزُّور الْإِشْرَاك بِاللَّه) ثَلَاث مَرَّات ثمَّ قَرَأَ فَاجْتَنبُوا الرجس من الْأَوْثَان وَاجْتَنبُوا قَول الزُّور

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد وَابْن أبي شيبَة وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسانيدهم

وَمن طَرِيق ابْن رَاهَوَيْه رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّالِث وَالثَّلَاثِينَ

(127/518)

وَعَزاهُ الْمُنْذِرِيّ فِي مُخْتَصره للتِّرْمِذِي وَلم أَجِده وَلَا عزاهُ ابْن عَسَاكِر فِي الْأَطْرَاف إِلَيْهِ بل عزاهُ لأبي دَاوُد وَابْن ماجة فَقَط

قَالَ ابْن الْقطَّان فِي كِتَابه الْوَهم وَالْإِيهَام حَدِيث خُزَيْمٌ بن فاتك لَا يَصح لِأَنَّهُ من رِوَايَة زِيَاد الْعُصْفُرِي وَهُوَ مَجْهُول عَن حبيب بن النُّعْمَان الْأَسدي وَلَا يعرف بِغَيْر هَذَا وَلَا يعرف حَاله

انْتَهَى

وَأما حَدِيث أَيمن بن خُزَيْمٌ فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كتاب الشَّهَادَات من حَدِيث سُفْيَان بن زِيَاد الْعُصْفُرِي عَن فاتك بن فضَالة عَن أَيمن بن خُزَيْمٌ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَامَ خَطِيبًا فَقَالَ يَا أَيهَا النَّاس عدلت شَهَادَة الزُّور الْإِشْرَاك بالله) إِلَى آخِره سَوَاء ثمَّ قَالَ هَذَا حَدِيث إِنَّمَا نعرفه من حَدِيث سُفْيَان بن زِيَاد وَقد اخْتلفُوا فِي رِوَايَة هَذَا الْحَدِيث عَن سُفْيَان بن زِيَاد وَلَا نَعْرِف لِابْنِ خُزَيْمٌ سَمَاعا من النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

انْتَهَى

وَرَوَى الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره الْحَدِيثين بِسَنَدَيْهِمَا ومتنيهما وَكَذَلِكَ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره

817 - حَدِيث

رَوَى ابْن عمر عَن أَبِيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما أَنه أَهْدَى بُخْتِيَّة طلبت مِنْهُ بثلاثمائة دِينَار فَسَأَلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَن يَبِيعهَا وَيَشْتَرِي بِثمنِهَا بدنا فَنَهَاهُ عَن ذَلِك وَقَالَ بل

أهدها)

قلت تقدم أَوَائِل الْبَقَرَة فِي الحَدِيث الثَّانِي وَالثَّلَاثِينَ

818 - الحَدِيث السَّابِع

وَأهْدَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مائَة بَدَنَة فِيهَا جمل لأبي جهل فِي أَنفه برة من ذهب

(128/518)

قلت وَقع فِي رِوَايَة لأبي دَاوُد وَرَوَاهُ غَيره قَالَ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب الْحَج حَدثنَا مُحَمَّد بن منهال حَدثنَا يزِيد بن زُرَيْع عَن ابْن إِسْحَاق بِهِ ح وَحدثنَا النُّفَيْلِي حَدثنَا مُحَمَّد بن سَلمَة حَدثنَا مُحَمَّد بن إِسْحَاق قَالَ قَالَ عبد الله بن أبي نجيح

حَدثنِي مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس قَالَ أهْدَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي هداياه جملا كَانَ لأبي جهل فِي رَأسه برة فضَّة قَالَ ابْن منهال برة من ذهب زَاد النُّفَيْلِي يغِيظ بِهِ الْمُشْركين

انْتَهَى

وَرَوَى الْبَزَّار فِي مُسْنده حَدثنَا نصر بن عَلّي حَدثنَا أَبُو بَحر عبد الرَّحْمَن بن عُثْمَان

حَدثنَا إِسْرَائِيل عَن عبد الْكَرِيم الْجَزرِي عَن مُجَاهِد عَن عبد الرَّحْمَن بن أبي لَيْلَى عَن عَلّي أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَهْدَى فِي حجَّته مائَة بدَنَة فِيهَا جمل لأبي جهل فِي أَنفَة برة من ذهب

انْتَهَى

وَقَال لَا نعلم رَوَاهُ عَن عبد الْكَرِيم إِلَّا إِسْرَائِيل

انْتَهَى

وَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده حَدثنَا النَّضر بن شُمَيْل حَدثنَا إِسْرَائِيل بِهِ وَقَال برة من فضَّة

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ إِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ فِي غَرِيب الحَدِيث بِسَنَد ابْن رَاهَوَيْه وَمَتنه وَنقل عَن الْأَصْمَعِي أَنه قَال الْبرة الْحلقَة تجْعَل فِي أنف الْبَعِير

انْتَهَى

وَحَدِيث ابْن عَبَّاس رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه من طَرِيق ابْن إِسْحَاق حَدثنِي عبد الله بن أبي نجيح عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس قَال أَهْدَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَام الْحُدَيْبِيَة جملا لأبي جهل فِي رَأسه برة من فضَّة ليغيظ الْمُشْركين بذلك

انْتَهَى وَقَال صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

انْتَهَى لم يذكر فِيهِ رِوَايَة الذَّهَب

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ أَبو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهْدَى عَام الْحُدَيْبِيَة فِي هَدِيَّة جمل أبي جهل الَّذِي اسْتَلَبَ يَوْم بدر فِي أَنفه برة من فضَّة انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه بِهَذَا الْإِسْنَاد وَقَالَ فِيهِ عَلَيْهِ خشَاش من ذهب وَهُوَ الزِّمَام وَحَدِيث الْبرة من فضَّة رُوِيَ أَيْضا من حَدِيث جَابر وَسَلَمَة بن الْأَكْوَع

فَحَدِيث جَابر رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الْمَغَازِي من حَدِيث زيد بن الْحباب عَن سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن جَعْفَر بن مُحَمَّد عَن أَبِيه عَن جَابر أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حج قبل أَن يُهَاجر حججًا وَحج بَعْدمَا هَاجر الْوَدَاع وَكَانَ جَمِيع مَا جَاءَ بِهِ مائَة بدَنَة فِيهَا جمل فِي أَنفه برة من فضَّة فنحر بِيَدِهِ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ وَنحر عَلِي مِنْهَا مَا غبر انْتَهَى وَسكت عَنهُ

رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَمن طَرِيق الطَّبَرَانِيّ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي بَاب حج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ تفرد بِهِ زيد بن الْحباب وَبَلغنِي عَن الْبُخَارِيّ أَنه قَالَ هَذَا خطأ وَإِنَّمَا رُوِيَ عَن الثَّوْرِيّ عَن أبي إِسْحَاق عَن مُجَاهِد عَن النَّبِي مُرْسلا انْتَهَى كَلَامه

وَحَدِيث سَلمَة رَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده من حَدِيث مُوسَى بن عُبَيْدَة الربذي عَن إِيَاس بن سَلمَة عَن أَبِيه قَالَ أهْدَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي الْبدن عَام الْحُدَيْبِيَة جملا كَانَ تَحت أبي جهل يَوْم بدر فِي رَأسه برة من فضَّة

انْتَهَى

وَمن طَرِيق أَحْمد رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه بِسَنَدِهِ وَمَتنه

(130/518)

---

819 - قَوْله وَكَانَ ابْن عمر يَسُوق الْبدن مُجَللَة بِالْقبَاطِيِّ فَيتَصَدَّق بِلُحُومِهَا وجللها

قلت رَوَاهُ مَالك فِي موطئِهِ فِي كتاب الْحَج عَن نَافِع أَن عبد الله بن عمر كَانَ يُجَلل بدنه الْقبَاطِي وَالْأَنْمَاط وَالْحلَل ثمَّ يبْعَث بهَا إِلَى الْكَعْبَة يَكْسُوهَا إِيَّاهَا

انْتَهَى

قَالَ وَسَأَلت عبد الله بن دِينَار مَا كَانَ عبد الله بن عمر يصنع بِجلَال بدنه حِين كُسِيت الْكَعْبَة هَذِه الْكسْوَة قَالَ كَانَ يتَصَدَّق بهَا

انْتَهَى

وَرَوَى ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي الْمَنَاسِك حَدثنَا سُرَيج بن النُّعْمَان حَدثنَا فليح عَن

نَافِع قَالَ كَانَ ابْن عمر يُجَلل بدنه قبل أَن تُكْسَى الْكَعْبَة الحلل وَالْأَنْمَاط وَالْقبَاطِي ثمَّ ينْزعهَا قبل أَن ينْحَرهَا فَيُرْسل بهَا إِلَى خزَنَة الْكَعْبَة كسْوَة للكعبة فَلَمَّا كُسِيت الْكَعْبَة ترك ذَلِك انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبُو الْوَلِيد الْأَزْرَقِيّ فِي تَارِيخ مَكَّة حَدثنِي جدي أَحْمد بن مُحَمَّد بن الْوَلِيد الْأَزْرَقِيّ عَن سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن إِسْمَاعِيل بن أُمَيَّة عَن نَافِع . . . بِلَفْظ ابْن أبي شيبَة

حَدثنِي مُحَمَّد بن يَحْيَى عَن الْوَاقِدِيّ عَن عبد الله بن عمر عَن نَافِع . . . فَذكر نَحوه

820 - الْحَدِيث الثَّامِن

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (الْبَدنَة عَن سَبْعَة وَالْبَقَرَة عَن سَبْعَة)

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَالْمُصَنّف احْتج بِهِ عَلَى أَن اسْم الْبَدنَة تخْتَص بِالْإِبِلِ

وَبِمَعْنَاهُ مَا رَوَاهُ الْجَمَاعَة إِلَّا البُخَارِيّ من حَدِيث مَالك عَن أبي الزُّبَيْر عَن جَابر قَالَ نحرنا مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِالْحُدَيْبِية الْبَدنَة عَن سَبْعَة وَالْبَقَرَة عَن سَبْعَة انْتَهَى

(131/518)

وَرَوَى أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي الْأُضْحِية عَن جَابر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(الْبَقَرَة عَن سَبْعَة وَالْجزُور عَن سَبْعَة)

انْتَهَى

وَرَوَى الدَّارَقُطْنِيّ فِي سننه فِي الْحَج عَن مجَالد عَن الشّعبيّ عَن جَابر مَرْفُوعا

وَرَوَى الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه عَن حَفْص بن جَمِيع عَن مُغيرَة عَن إِبْرَاهِيم عَن عَلْقَمَة عَن ابْن

مَسْعُود مَرْفُوعا نَحوه سَوَاء

821 - الْحَدِيث التَّاسِع

رُوِيَ أَن مُشْركي مَكَّة كَانُوا يُؤْذونَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابه أَذَى شَدِيدا

وَكَانُوا يأْتونَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بَين مَضْرُوب ومشجوج ويتظلمون إِلَيْهِ

فَيَقُول (اصْبِرُوا فَإِنِّي لم أومر بِقتَال) حَتَّى هَاجر

فأنزلت هَذِه الْآيَة أذن للَّذين يقاتلونك بَعْدمَا نهي عَن الْقِتَال فِي نَيف وَسبعين آيَة

قلت غَرِيب جدا وَعَزاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط للْمُفَسّرِينَ

822 - الْحَدِيث الْعَاشِر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه سُئِلَ عَن الْأَنْبِيَاء فَقَالَ (مائَة أَلف وَأَرْبَعَة وَعِشْرُونَ أَلفا

قيل فكم الرُّسُل مِنْهُم قَالَ ثَلَاثمِائَة وَثَلَاثَة عشر جما غفيرا)

قلت رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّالِث من الْقسم الأول من حَدِيث إِبْرَاهِيم بن هِشَام بن يَحْيَى الغساني حَدثنَا أبي عَن جدي يَحْيَى الغساني عَن أبي إِدْرِيس الْخولَانِيّ عَائِذ بِاللَّه عَن أبي ذر قَالَ دخلت الْمَسْجِد فَإِذا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم جَالس وَحده فَقَالَ يَا أَبَا ذر إِن لِلْمَسْجِدِ تَحِيَّة وَإِن تحيته رَكْعَتَان فَقُمْ فَارْكَعْهُمَا) قَالَ فَرَكَعْتهمَا ثمَّ عدت فَجَلَست فَقلت يَا رَسُول الله إِنَّك أَمرتنِي بِالصَّلَاةِ فَمَا الصَّلَاة قَالَ خير مَوْضُوع فَاسْتَكْثر أَو اسْتَقل) قلت يَا رَسُول الله أَي الْعَمَل أفضل قَالَ إِيمَان بِاللَّه وَجِهَاد فِي سَبِيله) قلت يَا رَسُول الله

(133/518)

فَأَي الْمُؤمنِينَ أكمل إِيمَانًا قَالَ أَحْسنهم أَخْلَاقًا) قلت يَا رَسُول الله فَأَي الْمُسلمين أسلم قَالَ من سلم النَّاس من لِسَانه وَيَده) قلت يَا رَسُول الله فَأَي الصَّلَاة أفضل قَالَ طول الْقُنُوت) قلت يَا رَسُول الله فَأَي الْهِجْرَة أفضل قَالَ من هجر السَّيِّئَات) قلت يَا رَسُول الله فَمَا الصّيام قَالَ فرض مَجْزِي وَعند الله أَضْعَاف كَثِيرَة) قلت يَا رَسُول الله فَأَي الْجِهَاد أفضل قَالَ من عقر جَوَاده وَأُهْرِيقَ دَمه) قلت يَا رَسُول الله فَأَي الصَّدَقَة أفضل قَالَ جهد الْمقل) قلت يَا

رَسُول الله فأيما أنزل الله عَلَيْك أعظم قَال آيَة الْكُرْسِيّ) ثمَّ قَال يَا أَبَا ذَر مَا السَّمَوَات السَّبع مَعَ الْكُرْسِيّ إِلَّا كحلقة ملقاة فِي فلاة وَفضل الْعَرْش عَلَى الْكُرْسِيّ كفضل الفلاة عَلَى الْحلقَة) قلت يَا رَسُول الله كم الْأَنْبِيَاء قَال مائَة ألف وَعِشْرُونَ ألفا) قلت يَا رَسُول الله كم الرُّسُل من ذَلِك قَال ثَلَاثمِائَة وَثَلَاثَة عشر جما غفيرا) قلت يَا رَسُول الله من كَانَ أَوَّلهمْ قَال آدم) قلت يَا رَسُول الله أَنبِي مُرْسل قَال نعم خلقه الله بِيَدِهِ وَنفخ فِيهِ من روحه) قلت يَا رَسُول الله كم أنزل الله من كتاب قَال مائَة كتاب وَأَرْبَعَة كتب أنزل عَلَى شِيث خَمْسُونَ صحيفَة وَأنزل عَلَى أَخْنُوخ ثَلَاثُونَ صحيفَة وَأنزل عَلَى إِبْرَاهِيم عشر صَحَائِف وَأنزل عَلَى مُوسَى قبل التَّوْرَاة عشر صَحَائِف وَأنزل التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل وَالزَّبُور وَالْفرْقَان) قَال قلت يَا رَسُول الله مَا كَانَت صحيفَة إِبْرَاهِيم قَال كَانَت أَمْثَالًا مِنْهَا أَيهَا الْملك الْمُسَلط الْمُبْتَلَى الْمَغْرُور إِنِّي لم أَبْعَثك لتجمع الدُّنْيَا بَعْضهَا إِلَى بعض وَلَكِنِّي بَعَثْتُك لترد عني دَعْوَة الْمَظْلُوم فَإِنِّي لَا أردهَا وَلَو كَانَت

(134/518)

من كَافِر وَعَلَى الْعَاقِل مَا لم يكن مَغْلُوبًا عَلَى عقله أَن يكون لَهُ سَاعَات سَاعَة يُنَاجِي فِيهَا ربه وَسَاعَة يُحَاسب فِيهَا نَفسه وَسَاعَة يتفكر فِيهَا فِي صنع الله وَسَاعَة يَخْلُو فِيهَا

لِحَاجَتِهِ من الْمطعم وَالْمشْرَب وَنَحْوه وَعَلَى الْعَاقِل أَلا يكون ظَاعِنًا إِلَّا لثلاث تزَود لِمَعَاد وَمَرَمَّة لِمَعَاش وَلَذَّة فِي غير محرم وَعَلَى الْعَاقِل أَن يكون بَصيرًا بِزَمَانِهِ مُقبلا عَلَى شَأْنه حَافِظًا

(135/518)

لِلسَانِهِ وَمن حسب كَلَامه من عمله قل كَلَامه إِلَّا فِيمَا يعنيه) قلت يَا رَسُول الله فَمَا كَانَت صحف مُوسَى قَالَ كَانَت عبرا كلهَا عجبت لمن أَيقَن بِالْمَوْتِ كَيفَ يفرح وَعَجبت لمن أَيقَن بالنَّار ثمَّ هُوَ يضْحك وَعَجبت لمن أَيقَن بِالْقدر ثمَّ هُوَ ينصب وَعَجبت لمن رَأَى الدُّنْيَا وَتَقَلُّبهَا بِأَهْلِهَا ثمَّ اطْمَأَن إِلَيْهَا وَعَجبت لمن أَيقَن بِالْحِسَاب غَدا ثمَّ لَا يعْمل قلت يَا رَسُول الله زِدْنِي قَالَ عَلَيْك بِتِلَاوَة الْقُرْآن وَذكر الله فَإِنَّهُ نور لَك فِي الأَرْض وَذخر لَك فِي السَّمَاء) قلت يَا رَسُول الله زِدْنِي قَالَ إِيَّاك وَكَثْرَة الضحك فَإِنَّهُ يُمِيت الْقلب وَيذْهب بنور الْوَجْه) قلت يَا رَسُول الله زِدْنِي قَالَ عَلَيْك بِالصَّمْتِ إِلَّا من خير فَإِنَّهُ مطردَة للشَّيْطَان عَنْك وَعون لَك عَلَى أَمر دينك) قلت يَا رَسُول الله زِدْنِي قَالَ عَلَيْك بِالْجِهَادِ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّة أمتِي) قلت يَا رَسُول الله زِدْنِي قَالَ أحب الْمَسَاكِين وَجَالسهمْ) قلت يَا رَسُول الله زِدْنِي قَالَ انْظُر إِلَى من تَحْتك وَلَا تنظر إِلَى من فَوْقك فَإِنَّهُ أَجْدَر أَلا تزْدَرُوا نعْمَة الله) قلت يَا رَسُول الله زِدْنِي

قَالَ قل الْحق وَإِن كَانَ مرا) قلت يَا رَسُول الله زِدْنِي قَالَ ليردك عَن النَّاس مَا تعرف من نَفسك وَكَفَى بك عَيْبا أَن تعرف من النَّاس مَا تجْهَل من نَفسك أَو تَجِد عَلَيْهِم فِيمَا تَأْتِي) ثمَّ ضرب بِيَدِهِ فِي صَدْرِي وَقَالَ يَا أَبَا ذَر لَا عقل كالتدبير وَلَا ورع كَالْكَفِّ وَلَا حسب كحسن الْخلق)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الْفَضَائِل عَن يَحْيَى بن سعيد السَّعْدِيّ عَن ابْن جريج عَن عَطاء عَن عبيد بن عُمَيْر عَن أبي ذَر . . . فَذكره بِلَفْظ ابْن حبَان سَوَاء وَسكت عَنهُ

(136/518)

وَبِهَذَا السَّنَد رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي أول شعب الْإِيمَان وَقَالَ إِن يَحْيَى السَّعْدِيّ ضَعِيف

انْتَهَى

وَله طَرِيق آخر رَوَاهُ أَحْمد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسنديهما من حَدِيث معَان بن رِفَاعَة السلَامِي عَن عَلّي بن يزِيد الدّمَشْقِي عَن الْقَاسِم بن عبد الرَّحْمَن

وَهُوَ مولَى يزِيد بن مُعَاوِيَة السَّامِي عَن أبي أُمَامَة أَن أَبَا ذَر سَأَلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّم كَم الْأَنْبِيَاء فَقَال مائة ألف وَأَرْبَعَة وَعِشْرُونَ ألفا فَقَال كَم الْمُرْسَلُونَ مِنْهُم فَقَال ثَلَاثَمِائَة وَخَمْسَة عشر جما غفيرا)

انْتَهَى وَمَعَان وَعلي بن يزِيد وَالقَاسِم ثَلَاثَتهمْ ضعفاء

وَقد خَالف ابْن حبَان فِي هَذَا الحَدِيث أَبُو الْفرج بن الْجَوْزِيّ فَأورده فِي كِتَابه الموضوعات واتهم بِهِ إِبْرَاهِيم بن هِشَام وَلَا شكّ أَنه تكلم فِيهِ أَئِمَّة الْجرْح وَالتَّعْدِيل من أجل هَذَا الحَدِيث

823 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

حَدِيث تِلْكَ الغرانيق العلى)

(137/518)

قلت رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده حَدثنَا يُوسُف بن حَمَّاد حَدثنَا أُمَيَّة بن خَالِد حَدثنَا شُعْبَة عَن أبي بشر عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس فِيمَا أَحسب أَشك فِي الحَدِيث أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ بِمَكَّة فَقَرَأَ سُورَة النَّجْم حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْله تَعَالَى أَفَرَأَيْتُم اللات والعزى وَمَنَاة الثَّالِثَة الْأُخْرَى فَجَرَى عَلَى لِسَانه تِلْكَ الغرانيق العلى الشَّفَاعَة مِنْهَا تُرْتَجَى قَال فَسمع ذَلِك مُشْرِكُوا مَكَّة فسروا بذلك فَاشْتَدَّ عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأنْزل الله تَعَالَى وَمَا أرسلنَا من قبلك من رَسُول وَلَا نَبِي إِلَّا إِذا تمنى أَلْقَى الشَّيْطَان فِي أُمْنِيته

فَينْسَخ الله مَا يلقى الشَّيْطَان ثمَّ يحكم الله آيَاته

انْتَهَى ثمَّ قَالَ هَذَا حَدِيث لَا نعلمهُ يرْوَى عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِإِسْنَاد مُتَّصِل يجوز ذكره إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَاد وَلَا نعلم أحدا أسْند هَذَا الحَدِيث عَن شُعْبَة عَن أبي بشر عَن سعيد عَن ابْن عَبَّاس إِلَّا أُمَيَّة وَلم نَسْمَعهُ نَحن إِلَّا

من يُوسُف بن حَمَّاد وَكَانَ ثِقَة وَغير أُمَيَّة يحدث بِهِ عَن أبي بشر عَن سعيد ابْن جُبَير مُرْسلا وَإِنَّمَا يعرف هَذَا الحَدِيث عَن الْكَلْبِيّ عَن أبي صَالح عَن ابْن عَبَّاس وَأُمَيَّة ثِقَة مَشْهُور

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَلَفظه عَن سعيد بن جُبَير لَا أعلمهُ إِلَّا عَن ابْن عَبَّاس أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره عَن سعيد بن جُبَير مُرْسلا لم يذكر فِيهِ ابْن عَبَّاس وَكَذَلِكَ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول

(138/518)

وَأخرجه الطَّبَرِيّ عَن مُحَمَّد بن كَعْب الْقرظِيّ وَعَن قَتَادَة وَعَن أبي الْعَالِيَة

وَأخرجه أَيْضا عَن ابْن عَبَّاس وَلَكِن فِيهِ عدَّة مَجَاهِيل عينا وَحَالا

وَقد أَطَالَ النَّاس الْكَلَام عَلَى هَذَا الحَدِيث وَفِي الطعْن فِيهِ وَممَّنْ أَجَاد فِي ذَلِك القَاضِي عِيَاض فِي كتَاب الشّفَاء وَمُلَخَّص كَلَامه قَالَ وَقد توجه لبَعض الْمُلْحِدِينَ سُؤَالَات وَذكر مِنْهَا أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لما قَرَأَ سُورَة النَّجْم قَالَ أَفَرَأَيْتُم اللات والعزى وَمَنَاة الثَّالِثَة الْأُخْرَى قَالَ تِلْكَ الغرانيق العلى وَإِن شَفَاعَتهَا لترتجى وَيروَى ترْتَضِي فَلَمَّا ختم السُّورَة سجد وَسجد مَعَه الْمُسلمُونَ وَالْكفَّار لما سَمِعُوهُ أَثْنَى عَلَى آلِهَتهم وَفِي رِوَايَة إِن الشَّيْطَان أَلْقَاهَا عَلَى لسَانه وَأَنه عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ تمنى ألو نزل عَلَيْهِ شَيْء يُقَارب بَينه وَبَين قومه وَفِي رِوَايَة أَلا ينزل عَلَيْهِ شَيْء ينفرهُمْ عَنهُ وَذكر هَذِه الْقِصَّة وَأَن جبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام جَاءَهُ فعرض عَلَيْهِ السُّورَة فَلَمَّا بلغ الْكَلِمَتَيْن فَقَالَ مَا جئْتُك بهاتين الْكَلِمَتَيْن

فَحزن لذَلِك النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَنْزل الله تَسْلِيَة لَهُ وَمَا أرسلنَا من قبلك من رَسُول وَلَا نَبِي الْآيَة وَقَوله وَإِن كَادُوا ليَفْتِنُونَك الْآيَة ثمَّ قَالَ وَيَكْفِيك فِي توهين هَذَا الحَدِيث أَنه حَدِيث لم يُخرجهُ أحد من أهل الصِّحَّة وَلَا رَوَاهُ ثِقَة بِسَنَد سليم مُتَّصِل وَإِنَّمَا

(139/518)

أولع بِهِ وبمثله الْمُفَسّرُونَ والمؤرخون المولعون بكُل غَرِيب الْمُتَلَقّفُونَ من الصُّحُف كل صَحِيح وَسَقِيم وَصدق القَاضِي بكر بن الْعَلَاء الْمَالِكِي حَيْثُ قَالَ لقد بلي النَّاس ببَعْض أهل الْأَهْوَاء وَالتَّفْسِير وَتعلق بذلك الْمُلْحِدُونَ مَعَ ضعف نقلته واضطراب روايا ته وَانْقِطَاع إِسْنَاده وَاخْتِلَاف كِلمَا ته فَقَائِل يَقُول إِنَّه فِي الصَّلَاة وَآخر يَقُول قَالَهَا فِي نَادِي قومه حِين أنزلت عَلَيْهِ السُّورَة وَأخر يَقُول قَالَهَا وَقد أَصَابَته سنة وَآخر يَقُول بل حدث نَفسه فَسَهَا وَآخر يَقُول إِن الشَّيْطَان قَالَهَا عَلَى لِسَانه وَأَنه عَلَيْهِ السَّلَام لما عرضهَا عَلَى جبْرِيل قَالَ مَا هَكَذَا أقرأتك وَأخر يَقُول بل علمهمْ الشَّيْطَان أَنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَرَأَهَا فَلَمَّا بلغ النَّبِي ذَلِك قَالَ وَالله مَا هَكَذَا أنزلت) إِلَى غير ذَلِك من اخْتِلَاف الرواة وَمن حكيت عَنهُ هَذِه الْحِكَايَة من الْمُفَسّرين وَغَيرهم لم يسندها أحد مِنْهُم وَلَا رَفعهَا إِلَى صَاحب وَأَكْثر الطّرق عَنْهُم ضَعِيفَة وَالْمَرْفُوع فِيهَا حَدِيث الْبَزَّار وَقد بَين الْبَزَّار أَنه لَا يعرف من طَرِيق يجوز ذكره سُوَى مَا ذكر وَفِيه من الضعْف مَا فِيهِ عَلَيْهِ مَعَ وُقُوع الشَّك وَحَدِيث الْكَلْبِيّ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ لَا تجوز رِوَايَته لكذبه وَقُوَّة ضعفه

وَالَّذِي مِنْهُ فِي الصَّحِيح أَنه عَلَيْهِ السَّلَام قَرَأَ والنجم وَهُوَ بِمَكَّة فَسجدَ وَسجد مَعَه الْمُسلمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنّ وَالْإِنْس

انْتَهَى

هَذَا توهينه من جِهَة النَّقْل ثمَّ ذكر توهينه من جِهَة الْمَعْنى بِوُجُوه كَثِيرَة يطول ذكرهَا

(140/518)

رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث يُوسُف بن حَمَّاد بِهِ عَن سعيد بن جُبَير قَالَ لَا أعلمهُ إِلَّا عَن ابْن عَبَّاس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ بِمَكَّة فَقَرَأَ سُورَة النَّجْم حَتَّى بلغ أَفَرَأَيْتُم اللات والعزى وَمَنَاة الثَّالِثَة الْأُخْرَى فَأَلْقَى الشَّيْطَان عَلَى لسَانه تِلْكَ الغرانيق العلى وَإِن شَفَاعَتهَا لترتجى فَلَمَّا بلغ آخرهَا سجد وَسجد مَعَه الْمُسلمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَأنزل الله وَمَا أرسلنَا من قبلك من رَسُول وَلَا نَبِي . . . الْآيَة

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَيْضا حَدثنَا أَحْمد بن كَامِل حَدثنَا مُحَمَّد بن سعد الْعَوْفِيّ حَدثنَا أبي حَدثنَا عمي حَدثنَا أبي عَن أَبِيه عَن ابْن عَبَّاس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بَينا هُوَ يُصَلِّي فَقَرَأَ سُورَة النَّجْم حَتَّى بلغ . . . فَذكر نَحوه

وَرَوَاهُ أَيْضا من حَدِيث يَحْيَى بن كثير حَدثنَا الْكَلْبِيّ عَن أبي صَالح وَأَبُو بكر الْهُذلِيّ وَأَيوب عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس . . . فَذكر نَحوه

(141/518)

وَرَوَاهُ فِي سُورَة النَّجْم حَدثنِي إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد حَدثنِي أَبو بكر مُحَمَّد بن عَلّي الْمُقْرِئ الْبَغْدَادِيّ حَدثنَا جَعْفَر بن مُحَمَّد الطَّيَالِسِيّ حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد بن عرْعرة حَدثنَا أَبو عَاصِم النَّبِيل حَدثنَا عُثْمَان بن الْأَسود عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَرَأَ أَفَرَأَيْتُم اللات والعزى وَمَنَاة الثَّالِثَة الْأُخْرَى تِلْكَ الغرانيق العلى وَشَفَاعَتهنَّ تُرْتَجَى ففرح الْمُشْرِكُونَ بذلك وَقَالُوا قد ذكر آلِهَتنَا فَجَاءَهُ جِبْرِيل فَقَالَ اقْرَأ عَلّي مَا جِئْتُك بِهِ فَقَرَأَ لَهُ كَذَلِك فَقَالَ مَا أَتَيْتُك بِهَذَا وَإِن هَذَا لمن الشَّيْطَان فَأَنْزل الله وَمَا أرسلنَا من قبلك من رَسُول . . .

الْآيَة

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات أخبرنَا مُحَمَّد بن عمر الْوَاقِدِيّ حَدثنِي يُونُس ابْن مُحَمَّد بن فضَالة الظَّفْرِيُّ عَن أَبيه قَالَ وحَدثني كثير بن زيد عَن الْمطلب ابْن عبد الله بن حنْطَب قَالَا جلس رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْمًا مَجْلِسا فِي نَاد من تِلْكَ الأندية حول الْكَعْبَة فَقَرَأَ عَلَى قومه والنجم إِذا هوى . . . إِلَى آخر الْمَتْن الَّذِي قبله

824 - الحَدِيث الثَّانِي عشر

عَن عقبَة بن عَامر قلت يَا رَسُول الله أَفِي الْحَج سَجْدَتَانِ قَالَ نعم إِن لم تسجدها فَلَا تقرأهما)

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ فِي الصَّلَاة من حَدِيث عبد الله بن لَهِيعَة عَن مشرح بن هاعان عَن عقبَة بن عَامر قَالَ قلت يَا رَسُول الله أَفِي الْحَج سَجْدَتَانِ قَالَ نعم وَمن لم يسجدهما فَلَا يقرأهما)

انْتَهَى

(142/518)

وَرَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ ثمَّ الْبَيْهَقِيّ فِي سننَيْهِمَا وَأحمد فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَلم يُصَحّحهُ وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا حَدِيث لم نَكْتُبهُ مُسْندًا إِلَّا من هَذَا الْوَجْه وَعبد الله بن لَهِيعَة أحد الْأَئِمَّة وَإِنَّمَا نقم عَلَيْهِ اخْتِلَاطه فِي آخر عمره

انْتَهَى وَكَذَلِكَ التِّرْمِذِيّ قَالَ لَيْسَ إِسْنَاده بِالْقَوِيّ

انْتَهَى

825 - الْحَدِيث الثَّالِث عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه رَجَعَ من بعض غَزَوَاته فَقَالَ (رَجَعْنَا من الْجِهَاد الْأَصْغَر إِلَى الْجِهَاد الْأَكْبَر)

قلت غَرِيب جدا وَذكره الثَّعْلَبِيّ هَكَذَا من غير سَنَد

وَرَوَى الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الزّهْد وَهُوَ مُجَلد لطيف أخبرنَا عَلّي بن أَحْمد بن عَبْدَانِ حَدثنَا أَحْمد بن عبيد حَدثنَا تمْتَام حَدثنَا عِيسَى بن إِبْرَاهِيم حَدثنَا يَحْيَى بن يعلي عَن لَيْث عَن عَطاء عَن جَابر قَالَ قدم عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قوم غزَاة فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام قدمتم خير مقدم من الْجِهَاد الْأَصْغَر إِلَى الْجِهَاد الْأَكْبَر) قيل وَمَا الْجِهَاد الْأَكْبَر قَالَ مجاهدة العَبْد هَوَاهُ)

انْتَهَى قَالَ الْبَيْهَقِيّ هَذَا إِسْنَاد فِيهِ ضعف

انْتَهَى

وَرَوَى النَّسَائِيّ فِي كتاب الكنى أَخْبرنِي حَدثنَا أَبُو مَسْعُود مُحَمَّد بن زِيَاد الْمَقْدِسِي سَمِعت إِبْرَاهِيم بن أبي عبلة يَقُول لِأُنَاس جَاءُوا من الْغَزْو وَقد جئْتُمْ من الْجِهَاد الْأَصْغَر فَمَا فَعلْتُمْ فِي الْجِهَاد الْأَكْبَر قَالُوا يَا أَبَا إِسْمَاعِيل وَمَا الْجِهَاد الْأَكْبَر قَالَ جِهَاد الْقلب

انْتَهَى

826 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

(143/518)

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْحَج أعطي من الْأَجر كحجة حَجهَا وَعمرَة اعْتَمَرَهَا بِعَدَد من حج وَاعْتمر فِيمَا مَضَى وَفِيمَا بَقِي)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي حَدثنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمَذْكُور فِي سُورَة يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 2 صـ 377.396 ﴾

(144/518)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الحج

قوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ

مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) ، الآية/ 5 .

قوله : (مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ) ، يقتضي أن لا تكون المضغة إنسانا كما اقتضى ذلك في العلقة والنطفة والتراب ، وإنما نبهنا اللّه تعالى على كمال قدرته ، بأن خلق الإنسان من غير إنسان ، وهي المضغة والنطفة التي لا تخطيط فيها ولا تركيب ، وإذا لم يكن إنسانا يجوز أن يقال إنه ليس يحمل مثل النطفة «1» .

ويحتمل أن يقال : إنه أصل الإنسان الذي ينعقد ويشتمل عليه الرحم وصار حملا ، وليس كالنطفة المجردة التي لا ندري ما يكون منها .

وزعم إسماعيل بن اسحق أن قوما ذهبوا إلى أن السقط لا تنقضي به العدة ، ولا تصير به أم ولد ، وزعم أن هذا غلط ، لأن اللّه تعالى أعلمنا

---

(1) انظر أحكام القرآن للجصاص .

أن المضغة التي هي غير مخلقة قد دخل فيما ذكر من خلق الناس كما ذكرت المخلقة ، ودل على أن كل ما يكون من ذلك إلى خروج الولد من بطن أم فهو حمل ، وقد قال تعالى :

(وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) «1» .

وهذا لا حجة فيه ، فإن اللّه تعالى لم يذكر أنه حمل ، وإنما نبه على قدرته بأن خلقنا من المضغة والعلقة والتراب والنطفة ، وليس الولد نطفة ولا مضغة ، بل خلق منه الولد ، وما دخلت العلقة في اسم الإنسان ، ولا النطفة ولا المضغة التي ليست مخلقة .

وقوله تعالى : (وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) ، فالمراد به ما يسمى ولدا .

واستدل إسماعيل بن إسحاق أنه يرث بهذا وهو غلط «2» ، فإنه يرث عند الولادة حيا مستندا إلى حالة كونه نطفة ، ولا كلام فيه حتى لو طلقها من أربع سنين وأتت بولد ، يعلم أنه في تلك الحالة كان نطفة يرث أيضا ، ولو انفصل ميتا وقد تكامل خلقه لم يرث ، وانقضت به العدة ، فهما بابان متباينان .

قوله تعالى : (وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ) ، الآية/ 25 :

احتج به قوم على منع بيع دور مكة ، فإنها مخلاة للساكنين ، لا يتخصص سكانها بها ، وهذا في غاية البعد ، ولا شك أن أبنيتها لملاكها لا يزاحمون فيها دون إذنهم ، إلا ما كان وقفا على الصادر والوارد ، وأكثر

---

(1) سورة الطلاق آية 4 .

(2) انظر أحكام القرآن للجصاص

دور مكة كذلك «1» .

وقوله تعالى : (سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ) ، الآية/ 25 .

يظهر حمله على المسجد الذي لا يتخصص به قوم عن قوم ، وأنه يشترك في الانتفاع به قعودا وصلاة كافة الناس .

وذكر إسماعيل بن إسحاق عن علقمة بن فضلة قال : توفي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وأبو بكر وعمر ، وما تدعى رباع مكة إلا السوائب ، من احتاج سكن ، ومن لم يحتج لم يسكن «2» .

وروي أن عمر كان يمنع أن تغلق دور مكة في زمن الحج ، وكانوا ينزلون حيث وجدوا ، حتى كانوا يضربون الفسطاط في جوف الدور «3» .

ونهى عمر أهل مكة أن يجعلوا لبيوتهم أبوابا «4» .

وروي عن عمر أنه اشترى دارا بأربعة آلاف .

وبينا بعد قول من يقول لا اختصاص لأهل مكة بدورهم المعروفة بهم ، الموروثة عن آبائهم وأسلافهم ، وأن من شاء أزعجهم ، وما زالوا يتصرفون فيها هدما وبناء وبيعا وإجارة

وإعارة من غير نكير ، ولعل عمر إنما فعل ذلك عند ازدحام الناس وضيق المنازل ، فأباح ذلك لا أنه أزال ملك الرباع ، وإلا فقد روي عنه أنه اشترى بها دارا بأربعة آلاف ، ولا يمكن الجمع بينهما إلا على هذا الوجه .

---

(1) انظر توضيح المسألة في أحكام القرآن للجصاص - 5 ص 57 ، 58 ، 59 .

(2) رواه ابن أبي شيبة وابن ماجة عن علقمة بن نضلة .

(3) أخرجه عبد بن حميد .

(4) رواه عبد الرزاق وفيه : لينزل البادي حيث شاء .

(147/518)

قوله تعالى : (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ) ، الآية : معنى الإلحاد من المتعارف : الميل إلى الكفر ، والظلم لفظ عام .

أبان اللّه تعالى أن الظلم فيه أعظم من الظلم فيما سواه .

قوله تعالى : (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ) ، الآية/ 27 :

ظاهره أنه خطاب لإبراهيم ، لأنه مسوق على مخاطبته ، بقوله تعالى :

(وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ) ، الآية/ 26 .

وروي عن ابن عباس في ذلك ، أن ابراهيم عند هذا الأمر نادى :

يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتا وقد أمركم أن تحجوه ، فلم يبق إنس ولا جن إلا قالوا :

لبيك اللهم لبيك «1» .

وعن علي نضر اللّه وجهه مثل ذلك .

وعلى هذا يقولون إن رسول اللّه كان قد حج قبل الهجرة مرتين ، فسقط الفرض عنه

بذلك .

وهذا بعيد ، فإنه إذا ورد في شرعه :

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) «2» ، فلا بد من وجوب عليه ، بحكم الخطاب في شرعه .

ولئن قيل : إنما خاطب من لم يحج ، كان تحكما وتخصيصا بلا دليل ، ويلزم عليه أن لا يجب

بهذا الخطاب على من يحج على دين إبراهيم ، وهذا في غاية البعد .

وقد أبان اللّه تعالى أنهم يأتون ركبانا ومشاة لا لنفس السفر ، بل ليشهدوا منافع الدين

والدنيا أيضا من التجارة وغيرها .

---

(1) انظر تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور .

(2) سورة آل عمران آية 97 .

والمقصود أن الاتعاب لغرض جائز .

قوله تعالى : (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ) ، الآية/ 28 .

ذكرنا من قبل معنى المعلومات والمعدودات والاختلاف فيه .

قوله تعالى : (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) ، الآية/ 28 .

وذلك في دماء النسك ، وليس الأكل واجبا بالاتفاق ، وإنما يؤكل من دماء النسك ، وأما دماء الجنايات ، فلا خلاف أن الناسك لا يأكل منها ، ودم المتعة والقرآن دم جبر عند الشافعي ، فلا يأكل منه ، ويأكل منها عند أبي حنيفة ، لأنه رأى الدين دم نسك ، فليقع الكلام في ذلك الأصل .

قوله تعالى : (لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) ، الآية/ 29 .

معناه : أنهم عند النحر ينتفون ويحلقون ويقلمون الأظافر ، لأن الإحرام إذا منع من ذلك فعل عند التحلل ، ويزيل ما به من التفث .

قوله تعالى : (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا) :

يدل على أنه لا يجوز بيع جميعه ، ولا التصدق بجميعه .

قوله : (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) : يدل على وجوب إخراج النذر ، وإن كان دما أو هديا أو عمرة ، ويدل على ذلك أن النذر لا يجوز أن يؤكل منه وفاء بالنذر .

وقد رتبه اللّه تعالى هذا الترتيب ، فبين حكم النحر ، ثم عطف عليه بأمور ثلاثة منها :

قضاء التفث ، والوفاء بالنذر ، والطواف ، فيجب حمل الطواف على ما يفعل بعد النحر ، وهو طواف الزيارة ، فإذا أتى به مع ما تقدم حل له النساء والطيب .

(149/518)

ثم عظم الأمر في قول الزور ، ومنه أن قرنه بقوله تعالى :

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) ، الآية/ 30 .

قوله تعالى : (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) ، الآية/ 32 .

فيه إشارة لطيفة ، وذلك أن أصل شراء البدن ربما يحمل على فعل ما لا بد منه ، فلا يدل على الإخلاص ، فإن عظمهما مع حصول الإجزاء بما دونه فلا يظهر له محمل إلا تعظيم الشرع ، وهو من تقوى القلوب .

وقوله تعالى : (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) ، الآية/ 33 .

قال ابن عباس وابن عمر : لكم فيها منافع من ألبانها وأصوافها وظهورها ، إلى أن تسمى بدنا ، ثم محلها إلى البيت العتيق .

قوله تعالى : (وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) ، الآية/ 36 :

القانع : هو الراضي بما رزق ، والمعتر : هو الذي يسأل .

ويمكن أن يفهم منه تجزئة المذبوح ثلاثة أجزاء : للأكل ، وإطعام القانع ، والمعتر .

قوله تعالى : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) ، الآية/ 39 :

أبان اللّه تعالى أن الغرض من قتالهم دفع ظلمهم ، وأنهم إن مكنوا في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر .

(150/518)

والخلفاء الراشدون كانوا بهذه المثابة ، ففيه دلالة على صحة إمامتهم .

قوله : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) ، الآية/ 52 .

ذكروا أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم سبق لفظه ، إلى تلك الغرانيق العلا ، وبينا فساد ذلك ، وبينا وجه الرواية الصحيحة في الأصول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 277. 283﴾

(151/518)

وقال العلامة القنوجى :

سورة الحج

وآياتها ثمان وسبعون آية

هي مكيّة ، أو مدنيّة . والجمهور على أنها مختلطة : منها مكيّة ، ومنها مدنيّة .

قال الجمهور : إن السورة مختلطة : منها مكي ومنها مدني .

قال القرطبي «1» : وهذا هو الصحيح .

قال العزرمي : وهي من أعاجيب السور نزلت ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، مكيا ومدنيا ، سلميا وحربيا ، ناسخا ومنسوخا ، محكما ومتشابها .

وقد وردت في فضلها الأحاديث «2» .

[الآية الأولى]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) .

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ : أي الإعادة بعد الموت فانظروا في مبدإ خلقكم .

---

(1) في «تفسيره» (1/12) .

(2) انظر هذه الأحاديث في : «ضعيف أبي داود (303) ، (1402) ، وكذلك الترمذي (89/ 583) ، وضعيف الجامع الصغير» (3982) ، (3983) ، والمشكاة (1030) للألباني .

(152/518)

فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ : في ضمن خلق أبيكم آدم عليه السلام .

مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ : أي من مني ، سمي نطفة لقلته . والنطفة : القليل من الماء قد يقع على الكثير منه ، والنطفة : القطرة .

ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ : هي الدّم الجامد «1» .

والعلق الدم العبيط ، أي الطري المتجمد .

وقيل : الشديد الحمرة . والمراد الدم المتكون من المني .

ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ : هي القطعة من اللحم قدر ما يمضغ الماضغ ، تتكون من العلقة .

مُخَلَّقَةٍ بالجر صفة لمضغة ، أي مستبينة الخلق ظاهرة التصوير .

وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ : أي لم يتبين خلقها ولا ظهر تصويرها .

قال ابن الأعرابي : مخلقة يريد قد بدا خلقها وغير مخلقة لم تصور .

قال الأكثر : ما أكمل خلقه بنفخ الروح فهو المخلقة وهو الذي ولد لتمام ، وما سقط كان غير مخلقة ، أي غير حي بإكمال خلقته بالروح .

قال الفراء : مخلقة تامة الخلق ، وغير مخلقة السقط . ومنه قول الشاعر :

أفي غير المخلقة البكاء فأين الحزم ويحك والحياء ؟

والمعنى إنا خلقناكم على هذا النمط البديع «2» .

لِنُبَيِّنَ لَكُمْ كمال قدرتنا على ما أردنا كإحياء الأموات وبعثهم ، فآمنوا بذلك وتيقنوا ، والآية من شواهد البعث بعد الموت .

---

(1) قال الخليل : العلق : الدّم قبل أن ييبس ، الواحدة علقة ، وهكذا تصير النطفة .

وقال أبو عبيد : العلق من الدم ما اشتدت حمرته .

وقال الأزهري : العلقة : الدم الجامد الغليظ ، ومنه قيل للدابة التي تكون في الماء : علقة ، لأنها حمراء كالدّم ، وكل دم غليظ علق . وانظر : تهذيب اللغة (1/ 243) ، ومعاني النحاس (4/ 377) .

(2) انظر : الطبري (17/ 117) ، والدر (4/ 345) ، والزجاج (3/ 412) ، والفراء (2/ 215) ، وابن كثير (5/ 391) .

الآية الثانية

هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) .

هذانِ خَصْمانِ : أحدهما : أنجس الفرق اليهود والنصارى والصابئون والمجوس والذين أشركوا .

والخصم الآخر : المسلمون ، فهما فريقان مختصمان . قاله الفراء وغيره .

وقيل : المراد بالخصمين الجنة والنار : قالت الجنة : خلقني لرحمة ، وقالت النار : خلقني لعقوبة .

وقيل : المراد بالخصمين هم الذين برزوا يوم بدر : فمن المؤمنين حمزة وعلي وعبيدة ، ومن الكافرين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة . وقد كان أبو ذر يقسم أن هذه الآية نزلت في هؤلاء المتبارزين وقال بمثل هذا جماعة من الصحابة وهم أعرف من غيرهم بأسباب النزول «1» .

وقد ثبت في «الصحيح» أيضا عن عليّ عليه السلام أنه قال : فينا نزلت هذه الآية «2» .

وقال سبحانه : اخْتَصَمُوا ولم يقل اختصما ؟

قال الفراء : لأنهم جمع ولو قال اختصما لجاز .

ومعنى فِي رَبِّهِمْ : أي في شأن ربهم ، أي في دينه ، أو في ذاته ، أو في صفاته ، أو في شريعته لعباده أو في جميع ذلك .

---

(1) انظر : معاني النحاس (4/ 371) ، والطبري (17/ 109) ، والقرطبي (12/ 26) .

وحديث النزول رواه البخاري (13/ 434) ومسلم (18/ 166 ، 167) عن قيس بن عباد عن أبي ذر فذكره .

(2) حديث صحيح : رواه البخاري (7/ 297) .

(154/518)

[الآية الثالثة]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25) .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ : المراد بالصد هنا الاستمرار ، لا مجرد الاستقبال فصح بذلك

عطفه على الماضي . ويجوز أن تكون الواو في : وَيَصُدُّونَ ، واو الحال أي كفروا والحال أنهم يصدون .

والمراد بالصد المنع .

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي دينه .

فالمعنى يمنعون من أراد الدخول في دين اللّه .

وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ : معطوف على سبيل اللّه .

قيل : المراد به المسجد نفسه كما هو الظاهر من هذا النظم القرآني .

وقيل : الحرم كله لأن المشركين صدوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وأصحابه عنه يوم الحديبية . وقيل : المراد به مكة ، بدليل قوله :

الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً : أي جعلناه للناس على العموم يصلون فيه ويطوفون به ، مستويا فيه «1» .

الْعاكِفُ : هو المقيم فيه الملازم له .

وَالْبادِ أي الواصل من البادية ، والمراد به الطارئ عليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية ، أو من غيرهم .

قال القرطبي «2» : وأجمع الناس على الاستواء في المسجد الحرام نفسه ، واختلفوا في مكة .

فذهب مجاهد ومالك إلى أن دور مكة ومنازلها يستوي فيها المقيم والطارئ.

وذهب عمر بن الخطاب وابن عباس وجماعة إلى أن للقادم أن ينزل حيث وجد

---

(1) حكى أبو حاتم أن بعضهم قرأ سَواءً بالنصب، و«العاكف فيه والبادي» بالخفض . . والمعنى:

الذي جعلناه للناس، العاكف والبادي: معاني النحاس (4/ 391)، والنشر (2/ 326)، ومعاني الفراء (2/ 222).

(2) انظره في «تفسيره» (12/ 32).

(155/518)

وعلى رب المنزل أن يؤويه شاء أم أبى.

وذهب الجمهور إلى أن دور مكة ومنازلها ليست كالمسجد الحرام ولأهلها منع الطارئ من النزول فيها.

والحاصل أن الكلام في هذا راجع إلى أصلين:

الأول: ما في هذه الآية هل المراد بالمسجد نفسه؟ أو جميع الحرم؟ أو مكة على الخصوص.

والثاني: هل كان فتح مكة صلحا؟ أو عنوة؟ وعلى فرض أن فتحها كان عنوة، فهل أقرها النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم في أيدي أهلها على الخصوص؟ أو جعلها لمن نزل بها على العموم؟

وقد أوضح الشوكاني رحمه اللّه هذا في شرحه «نيل الأوطار على منتقى الأخبار» «1» بما لا يحتاج الناظر فيه إلى زيادة.

[الآية الرابعة]

وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36).

وَالْبُدْنَ: قرأ ابن أبي إسحاق بضم الباء والدال، وقرأ الباقون بإسكان الدال وهما لغتان.

وهذا الاسم خاص بالإبل وسمّيت بدنة لأنها تبدن.

والبدانة: السمن «2».

وقال أبو حنيفة ومالك: إنه يطلق على غير الإبل.

والأول للأوصاف التي هي ظاهرة في الإبل ولما تفيده كتب اللغة من اختصاص هذا الاسم بالإبل. وقال ابن كثير في «تفسيره» «3»: واختلفوا في صحة إطلاق البدن على

---

(1) انظر: نيل الأوطار (8/ 164، 175). [.....]

(2) انظر : تفسير القرطبي (12/ 60) .

(3) انظر في تفسيره : (3/ 232) .

(156/518)

البقرة على قولين ، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعا كما صح في الحديث «1» .

جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ : أي أعلام دينه .

لَكُمْ فِيها خَيْرٌ : أي منافع دينية ودنيوية .

اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ : أي على نحرها .

ومعنى صَوافَّ : أنها قائمة قد صفنت قوائمها لأنها تنحر قائمة معقولة .

وأصل هذا الوصف في الخيل ، يقال : صفن الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وثنى الرابعة .

وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعري : صوافي : أي خوالص للّه لا يشركون به في التسمية على نحرها أحدا «2» .

وواحد صواف صافة وهي قراءة الجمهور ، وواحد صوافي صافية .

وقرأ ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وأبو جعفر محمد بن علي ، صوافن بالنون جمع

صافنة : وهي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب ومنه قوله تعالى :

الصَّافِناتُ الْجِيادُ (31) .

فَإِذا وَجَبَتْ : الوجوب السقوط ، أي فإذا سقطت بعد نحرها .

جُنُوبُها : وذلك عند خروج روحها .

فَكُلُوا مِنْها : ذهب الجمهور إلى أن هذا الأمر للندب . وكذا قوله : وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ .

وبه قال مجاهد والنخعي وابن جرير وابن شريح «3» .

وقال الشافعي وجماعة : هو للوجوب .

واختلف في القانع من هو ؟ فقيل : هو السائل . وقيل : هو المتعفف عن السؤال المستغني

ببلغة . ذكر معناه الخليل ، وبالأول قال زيد بن أسلم وابنه وسعيد بن جبير والحسن ،

وروي عن ابن عباس . وبالثاني قال عكرمة وقتادة .

---

(1) الذي رواه مسلم (9/ 67 ، 68) .

(2) وهذه قراءة شاذة كما في «المحتسب» (2/ 81) ، والقرطبي (12/ 61) ،

والألوسي (17/ 156) .

وقرأ ابن مسعود أيضا : صوافن وهي قراءة شاذة أيضا ، جمع : صافنة ، وهي التي غطت

إحدى قوائمها ووقفت على ثلاث ، وانظر : المحتسب (2/ 81) ، والألوسي (17/

156) .

(3) انظر هذه الآثار في : الطبري (17/ 167) ، والدر المنثور (4/ 363) .

(157/518)

وأما المعتر فقال محمد بن كعب القرظي ومجاهد وإبراهيم والكلبي والحسن :

إنه الذي يتعرض من غير سؤال وقيل : هو الذي يعتريك ويسألك .

وقال مالك : أحسن ما سمعت أن القانع الفقير ، والمعتر الزائر .

وروي عن ابن عباس أن كلاهما الذي لا يسأل ولكن القانع الذي يرضى بما عنده ولا يسأل والمعتر الذي يعترض لك ولا يسألك .

كَذَلِكَ : التسخير البديع .

سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ : فصارت تنقاد لكم إلى موضع نحرها فتنحرونها وتنتفعون بها ، بعد أن كانت مسخرة للحمل عليها والركوب على ظهورها والحلب لها ونحو ذلك .

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36) : هذه النعمة التي أنعم اللّه بها عليكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نيل المرام صـ 378.384 ﴾

(158/518)

وقال السايس :

من سورة الحج

قال اللّه تعالى : وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)

ينبغي قبل تفسير هذه الآيات أن نبيّن حكمة الحجّ ، وتاريخ مشروعيته فنقول :

أ- حكمة الحج : لعلّك تكون في حاجة إلى إطالة القول في بيان الحكمة في شرح الحج ، والسرّ الذي من أجله كتب اللّه هذه الفريضة على المسلمين ، بعد ما عملته في دراساتك السابقة في هذا الشأن ، وإذا فيكون تعرّضنا هنا لشيء من هذا البيان إنما نقصد به التذكير على وجه الإجمال ، بما سبق لك من التفصيل .

شرع اللّه الحج إلى بيته الكريم لمنافع عظيمة تعود على المسلمين في دينهم ودنياهم :

1 - فمناسك الحج من أعظم مظاهر الخشية والإخلاص للّه في الذكر والدعاء والعبادة .

2 - وهي كذلك دلائل على التجرّد من زينة الدنيا ، وبواعث على عدم التعلق بشهواتها وزخرفها .

3 – وهي بواعث على الرحمة والإحسان ، والعدل والمساواة ، إذ يكون الناس هناك في مستوى واحد ، لا فرق بين أمير ومأمور ، ولا بين غني وفقير .

4 – هذا إلى ما يعود على سكان مكة ، وجزيرة العرب ، والناس جميعا من المنافع المعيشية والتجارية ، وما يتهيأ لهم هناك من الاجتماع والتعارف ، والاتفاق على ما ينهض بالمسلمين في جميع بقاع الأرض .

ب – تاريخ مشروعية الحج : أما تاريخ مشروعيته فأنت تعلم أنّه كان مفروضا في زمن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والآيات التي معنا من أقوى الدلائل على ذلك .

(159/518)

فإذا قلنا : إن فرضيته باقية لم تنسخ في عهد نبي بعده كانت الأوامر الواردة به في شريعتنا تأكيدا لهذه الفرضية ، وإذا علمت أن نبينا محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم قد حجّ حجتين قبل الهجرة ، وحج بعد الهجرة حجة الوداع في السنة العاشرة ، علمت أنّ أولى هذه الحجات وقعت عن فريضة الإسلام .

وإن قلنا : إن فرضيته قد نسخت بعد سيدنا إبراهيم ، كان وجوبه علينا ثابتا بقوله تعالى : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا [آل عمران : 97] إذ هي الآية الصريحة

في هذا الوجوب .

وأما قوله تعالى : وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ [البقرة : 196] عام الوفود على الراجح ، وهذا العام هو الذي قدم فيه وفد نجران على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وصالحهم فيه على الجزية ، ومعلوم أنّ مبدأ مشروعية الجزية كان عام غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة ، وعلى هذا يكون مبدأ فرضية الحج في السنة التاسعة ، وتكون الحجتان اللتان فعلهما النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قبل ذلك نافلتين ، تطوّع بهما على دين سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

ولقائل أن يقول : فلما ذا لم يبادر النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم بأداء الحج في تلك السنة ، وهو أفضل الخلق ، وأسبقهم إلى الخيرات ، وأسرعهم إلى تأدية فرائض اللّه ، وكيف يرسل أبا بكر ليحج بالناس ، ويؤخر هو حجته إلى السنة التي بعدها ؟

والجواب على ذلك أنه رؤي أن الوقت الذي خرج فيه أبو بكر ليحج بالناس كان زمن النسيء ، ولم يكن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات والأرض حتى تعود عشر ذي الحجة إلى مركزها الحقيقي من السنة ، وكان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يعلم أنها ستعود إلى مركزها الحقيقي ، وينضبط نظام السنين القمرية في السنة العاشرة فتأخر النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم إلى السنة العاشرة كان لحكمة عظيمة ، كي يقع حجّة الذي سيكون منهاجا للناس جميعا في الوقت الحقيقي الذي فرض اللّه على الناس أن يقوموا فيه بتلك الشعيرة ،

وليس على أبي بكر ولا على غيره ممن كانوا معه من حرج في حجهم في ذلك الوقت ما دام أمر الزمان لم يتقرر بعد .

ونعود إلى التفسير :

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ الأذان والتأذين الإعلام برفع الصوت على نحو ما يكون للصلاة .

والمراد هنا النداء في الناس بأنّ اللّه قد كتب عليهم الحجّ ، ودعاهم إلى أدائه .

رِجالًا جمع راجل ، كقيام جمع قائم ، أي ماشين .

وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ الضامر النحيف الهزيل ، والمراد به هنا الهزيل من مشقة السفر يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ يأتين صفة لضامر ، لأنه لما دخلت عليه أداة العموم صيّرته بمعنى ضوامر .

والمعنى : وعلى ضوامر يأتين .

(160/518)

والفج أصله الطريق بين الجبلين ، ثم استعمل في الطريق الواسع مطلقا . وتوسّع فيه حتى صار يستعمل في طريق .

والعميق أصله البعيد أسفل ، أي بعيد القاع ، فاستعمل في البعيد مطلقا ، لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ المراد بالمنافع ما يصيبون من خير الدنيا والآخرة :

فخير الدنيا ما يصيبون من لحوم الذبائح ، وأنواع التجارات ، وما تكون في ذلك الاجتماع العظيم من التعارف ، وأما خير الآخرة فهو ما يؤدون من تلك الشعائر التي هي سبب رضوان اللّه عليهم ، وشهودها حضورها ونيلها .

فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ قيل : هي عشر ذي الحجة . وقيل : هي العاشر واليومان بعده ، وقيل : والثلاثة بعده .

وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ قيل : المراد بذكر اسم اللّه حمده وشكره والثناء عليه ، و(على) حينئذ للتعليل .

واختار الزمخشري «1» أنّ ذكر اسم اللّه على البهيمة كناية عن ذبحها ، و(على) حينئذ للاستعلاء ، والبهيمة في الأصل اسم لكل ما له أربع قوائم ، والمراد بها هنا ما يكون من الإبل والبقر والغنم .

الْبائِسَ الْفَقِيرَ البائس من أصابه بؤس وشدة . والفقير المحتاج ، سواء أكان له بلغة من العيش أم لا .

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ التفث القذر والوسخ ، وقضاؤه إنهاؤه وإزالته ، والمراد ما ينشأ عنه التفث من طول الشعر والأظفار .

وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ النذر : ما التزمه الإنسان من أعمال البر .

وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ العتيق الكريم ، ومنه عتاق الإبل والخيل كرائمها ، أو هو القديم ،

لأنّه أول بيت وضع للناس ، أو هو العتيق بمعنى المعتق المتحرر من تسلط الجبارين واستيلائهم ، فلا يريده أحد بعدوان إلا رده اللّه عنه ، وجعل عاقبة بيته السلامة والحفظ .

المعنى : يأمر اللّه تعالى نبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد ما فرغ من بناء البيت بأن ينادي في الناس ، ليعلمهم أنّ اللّه قد كتب عليهم الحج إلى هذا البيت العتيق ، ليدركوا فيه منافع وخيرات كثيرة ، تعود عليهم في دينهم ودنياهم ، ويؤدّوا شعائر اللّه ، ويذكروا اسمه الكريم على الذبائح التي يذبحونها شكرا للّه على توفيقه إياهم وإرشادهم إلى ما يصلحهم ، وأنه لا حرج على أصحاب تلك الذبائح أن يأكلوا

---

(1) في تفسيره : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (3/ 153) .

(161/518)

منها ، بل ينبغي لهم أن يواسوا الفقراء والبائسين ، وأن يشاركوهم في الأكل منها ، ولا يترفّعوا عليهم ، وأنه يجب عليهم أن يتحلّلوا من قيود الإحرام متى فرغوا من المناسك الواقعة قبل الطواف ، وأنه يجب عليهم أيضا أن يوفوا بما التزموه بالنذر من ذبح وغيره . وأن يطوفوا بالبيت طواف الإفاضة ، أو طواف الوداع على ما قيل .

قد يقال : إنه لم يكن حول الكعبة حينذاك أحد يسمع نداء سيدنا إبراهيم ، فكيف يؤمر بهذا النداء الذي يذهب في الفضاء ؟

والجواب أن اللّه سبحانه وتعالى قد أيدّ رسله بالمعجزات الخارجة عن مجرى العادات ، فهو سبحانه قادر على أن يوصل صوت إبراهيم إلى من يشاء في تلك النواحي البعيدة ، والأصقاع المترامية .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس « 1 » قال : لما فرغ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من بناء البيت قال : ربّ قد فرغت ، فقال : أذّن في الناس بالحج . قال : يا رب وما يبلغ صوتي ؟ قال تعالى : أذّن وعليّ البلاغ . قال : رب كيف أقول ، قال : قل يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق ، فسمعه أهل السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيبون من أقصى البلاد ، يلبون .

على أنا نشاهد اليوم آلات الإذاعة تنشر الأصوات في جميع بقاع الأرض ، فلا تحجزها جبال ، ولا تضعفها بحار ولا قفار ، فمن يشاهد هذه الحقائق التي يستطيعها كل من يزاول علومها ، لا يمكنه أن يكابر في معجزات الأنبياء .

هذا ، وقيل إنّ المخاطب بالتأذين والدعوة إلى الحج هو نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأنه أمر بذلك حينما عزم على الحج في السنة العاشرة من الهجرة ، وأن نظم الآية مع التي

قبلها لا يأباه ، إذ المخاطب في قوله تعالى قبل هذه الآية : وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ هو النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ويكون المعنى حينئذ : واذكر يا محمد إذ بوأنا لإبراهيم ، وأذن في الناس بالحج ، ولكنك ترى أنّ في الآية الأولى أوامر ونواهي كلها متوجهة إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فالظاهر أنّ الأمر بالتأذين أيضا لإبراهيم ، إذ الغرض من تطهير البيت إعداده للطائفين والقائمين والركع السجود ، فيكون دعاؤه الناس بعد ذلك للحج متناسبا غاية التناسب مع إعداد البيت وتطهيره .

وبعض العلماء ردّ احتمال توجيه الخطاب إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بأن سورة الحج مكية ، فنزولها قبل حجة الوداع بالضرورة ، فلا يستقيم أن يكون المأمور بالدعاء هو النبي صلّى اللّه عليه وسلّم .

---

(1) انظر ما رواه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (4/ 355) .

ولكن هذا الردّ ينهار متى علمت أنّ الراجح هو أن سورة الحج مدنية ، ما عدا آية وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى وثلاث آيات بعدها ، كما هو مروي عن قتادة ، وفي رواية ، عن ابن عباس أنّ السورة كلها مدنية ، وهو قول الضحاك أيضا .

ما في الآيات من الأسرار :

إذا كان الغرض من دعاء الناس للحج أن يأتوا إلى البيت الحرام ، فالسرّ في العدول عن ذلك إلى التعبير بالإتيان إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه هو الداعي ، والقدوة لهم فيما يكون بعد .

وقوله تعالى : وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ كلمة (كل) فيه للتكثير لا للإحاطة ، على حد قوله تعالى : وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ [النمل : 23] والسر في ذلك إفادة أن الركبان الآتين من الأماكن البعيدة يكونون كثيرين جدا ، حتى كأنّهم يمتطون جميع الضوامر .

لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ نكّرت المنافع لإفادة عظمتها وكثرتها ، أو التنكير فيها للتنويع .

وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ اختير هذا الأسلوب مع أنّ الذبح هو المعدود من مناسك الحج ، كالذبح للمتعة والقرآن ، ليفيد أن ذكر اللّه وحده خالصا من شوائب الشرك هو المقصود الأعظم ، وتوسيط الرزق لبعثهم على الشكر والتقرب بتلك القربة ، والتهوين عليهم في الإنفاق ، وفي قوله تعالى : فَكُلُوا إلخ التفات إليهم بالخطاب ، ليؤكّد لهم إباحة الأكل من تلك الذبائح ، فلا يتحرّجوا من ذلك ، وليبعثهم على مشاركة البائسين والفقراء ومواساتهم .

ما في الآيات من الأحكام

: 1 - قوله تعالى : يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ فيه دليل على جواز كلّ من المشي

والركوب في الحج .

2 - استدل بعض المالكية على أنّ المشي في الحج أفضل من الركوب ، بتقديمه عليه في الآية . وإلى هذا ذهب ابن عباس ، فقد أخرج ابن سعد ، وابن أبي شيبة ، والبيهقي ، وجماعة عنه أنه قال : ما آسى على شيء فاتني إلا أني لم أحج ماشيا حتى أدركني الكبر : أسمع اللّه تعالى يقول : يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ فبدأ بالرجال قبل الركبان .

ولكنّك ترى أنّ مجرد التقديم لا يدل على الأفضلية ، لجواز أن يكون تقديم الرجال على الركبان للإشارة إلى مسارعة الناس في الامتثال ، حتى إن الماشي ليكاد يسبق الراكب ، فإذا كان المشي أفضل ، فإنما هو لأدلة أخرى . من ذلك ما

أخرجه ابن سعد وابن مردويه وغيرهما عن ابن عباس أنه قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : «إن

للحاج الراكب بكل خطوة تخطوها راحلته سبعين حسنة ، وللماشي بكل قدم سبعمائة حسنة من حسنات الحرم» قيل : يا رسول اللّه وما حسنات الحرم . قال : «الحسنة مئة ألف حسنة» «1» .

3 – وفي قوله جل ذكره : لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ دلالة على جواز التجارة في الحج ، روي عن مجاهد أنه قال : المنافع التجارة ، وما يرضي اللّه من أمر الدنيا والآخرة . وروي مثل ذلك عن ابن عباس ، وقد نص الفقهاء على أنّ التجارة جائزة للحاج من غير كراهة ، إذا لم تكن هي المقصودة من السفر .

4 – استدلّ المالكية بقوله تعالى : وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ على أنّ ذبح الهدي لا يجوز ليلا ، لأنّ اللّه جعل ظرف النحر هو الأيام لا الليالي ، وأنت تعلم أنّ اليوم كما يطلق على النهار يطلق على مجموع النهار والليل ، وغير المالكية يرى كراهة الذبح ليلا ، لاحتمال الخطأ فيه بسبب الظلمة .

وقد اختلف العلماء في المراد بالأيام المعلومات ، فذهب الإمام مالك وأبو يوسف ومحمد إلى أنها أيام النحر ، وهي العاشر من ذي الحجة ، واليومان بعده ، وهو مروي عن علي وابن عمر .

وقال الإمامان أبو حنيفة والشافعي : الأيام المعلومات هي عشر ذي الحجة ، وهي معلومات لأنّ شأن المسلمين أن يحرصوا على معرفتها ، ويتحرّوا هلال ذي الحجة لما يقع في ذلك من المناسك العظيمة ، ولعلهم يقولون : إنّ المراد بالذكر ما يشمل التسمية على الذبائح وغيرها من الحمد والشكر والتكبير ، وعلى هذا ينبغي أن تكون (على) في قوله جلّ شأنه عَلى ما رَزَقَهُمْ للتعليل كما في قوله تعالى : وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ [البقرة : 185] .

ثم اختلف في أيام النحر ، فالحنفية والإمام مالك قالوا :

إنها ثلاثة أيام : العاشر وما بعده ، وهو مروي عن جمع من الصحابة ، منهم : عمر وعلي ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأبو هريرة ، وأنس ، وكثير من التابعين .

وقال الشافعي : إنها أربعة العاشر وما بعده . وقيل : إلى هلال المحرم ، ولعل المذهب الأول أرجح ، لأنّ بقية الأقوال لم ينقل ما يؤيّدها عمن يسامي أولئك الصحابة والتابعين .

وقد احتج لمذهب الشافعي بما

روى البيهقي عن جبير بن مطعم أنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال في حديث : «وكلّ أيام التشريق ذبح»

ولا شك أنّ أيام التشريق ثلاثة بعد يوم

---

(1) انظر ما رواه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (4/ 355) .

(164/518)

النحر ، ولكنّ هذا الحديث ضعيف قال فيه الإمام أحمد : لم يسمعه ابن أبي حسين من جبير بن مطعم ، وأكثر روايته عن سهو .

وقال البيهقي إنه من رواية سليمان بن موسى الأسدي فقيه أهل الشام ، عن جبير ، ولم

يدركه ، ورواه من طرق ضعيفة متصلا .

5 – ظاهر قوله تعالى : فَكُلُوا مِنْها وجوب الأكل من الهدايا ، لكنّ هذا الظاهر غير مراد ، فإنّ السلف متفقون على أنه لا يجب الأكل من شيء من الهدايا ، إذ غاية ما أفاده هذا الأمر أنه رفع ما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج عن الأكل من الهدايا ، فأباح الأكل منها ، أو ندب إليه ، لقصد مواساة الفقراء ، ومواساتهم في الأكل . فالأمر إما للإباحة أو للندب .

ثم إنّ جواز الأكل من الهدايا ليس عاما في كل هدي ، فإنّ دم الجزاء لا يجوز الأكل منه اتفاقا ، ودم التطوع يجوز الأكل منه اتفاقا أيضا . أما دم القران والتمتع فقال الشافعية : إنه دم جبر ، فلا يجوز الأكل منه ، والحنفية يقولون : إنه دم شكر ، فأباحوا الأكل منه ، والظاهر يشهد لهم ، فإنّ الآية فيها ترتيب قضاء التفث على الذبح والطواف ، ولا دم تترتب عليه هذه الأفعال إلا دم المتعة والقرآن فإن سائر الدماء يجوز ذبحها قبل هذه الأفعال وبعدها ، فثبت أنّ المراد في الآية دم المتعة والقران . هذا وقد ثبت أنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أكل من البدن التي ساقها في حجة الوداع ، وقد كان قارنا على ما هو الراجح .

ونصّ الفقهاء على أنه يلحق بالأكل الانتفاع بجلودها وأصوافها ، كما أنّه يجوز إطعام الأغنياء منها ، فإنّ الآية أباحت لصاحب الذبيحة أن يأكل منها ، ولو كان غنيا ، ومتى جاز له أن يأكل وهو غني جاز أن يؤكل غنيا .

6 – ظاهر قوله تعالى : وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ وجوب إطعام الفقراء من الهدايا ، وبهذا

الظاهر أخذ الشافعيّ ، فأوجبوا إطعام الفقراء منها . وقال أبو حنيفة : إنه مندوب ، لأنها دماء نسك ، فتتحقق القربة فيها بإراقة الدم ، أما إطعام الفقراء فهو باق على حكمه العام .

7 - في الاقتصار على الأكل والإطعام دلالة على أنّه لا يجوز بيع شيء من الهدايا ، ويشهد لذلك ما

روى البخاري ومسلم عن علي رضي اللّه عنه قال : أمرني النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن أقوم على بدنه فقال اقسم جلودها وجلالها ، ولا تعط الجازر منها شيئًا «1» .

---

(1) ما رواه مسلم في الصحيح (2/ 954) ، 15 - كتاب الحج ، 61 - باب الصدقة حديث رقم (348/ 1317) ، والبخاري في الصحيح (2/ 226) ، 25 - كتاب الحج ، 120 - باب لا يعطي الجزار من الهدي حديث رقم (1716) .

فإذا لم يجز إعطاء الجازر أجرته منها فأولى إلا يجوز بيع شيء منها .

8 - في قوله تعالى : ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ دلالة على وجوب التحلل الأصغر ، وذلك بالحلق أو التقصير .

9 - وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ فيه دلالة على وجوب الوفاء بالنذر ، وأداء ما التزمه الإنسان من

أعمال البر ، سواء أكان من جنسه واجب أم لا .

10 – وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ فيه دلالة على لزوم هذا الطواف ، والمراد به طواف الإفاضة ، كما هو مروي عن ابن عباس وجماعة من التابعين ، وبهذا قال فقهاء الأمصار .

وقيل : الطواف في الآية هو طواف الصدر . وهو بعيد ، لأنّ الطواف الذي يلي قضاء التفث إنما هو طواف الإفاضة الذي اتّفق على أنّه ركن ، فمن البعيد جدا أن تتعرض الآية لطواف الوداع الذي اختلف في عدّه من المناسك ، وتترك ما هو أهم منه وأعظم .

هذا والحكم بأنّ وقت هذا الطواف أيام النحر كلها أو اليوم الأول فقط لا يؤخذ من هذه الآية ، كما أنه لا يؤخذ منها اشتراط الطهارة وستر العورة فيه ، لأنّ اسم الطواف يقع على الدوران حول الكعبة ، فعلى أي حالة حصل هذا الدوران فقد حصل مسمى الطواف ، ومن اشترط شيئا وراء ذلك فإنما طريقه السنة وعمل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه رضوان اللّه عليهم أجمعين .

قال اللّه تعالى : ذِلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (31) اسم الإشارة في مثل هذا الموطن يؤتى به للفصل بين كلامين ، كما في قول زهير وقد تقدم له وصف هرم بالشجاعة والكرم :

هذا وليس كمن يعيا بخطبته وسط الندى إذا ما ناطق نطقا

وكما في قوله تعالى : هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) [ص : 55] ويقدر له ما يتم به الكلام ، أي الأمر ذلك ، أو امتثلوا ذلك .

وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ الحرمات جمع حرمة ، قيل : هي بمعنى ما حرّمه اللّه من كلّ منهي عنه ، أو من المنهيات في باب الحج فقط ، كما روي عن ابن عباس أنّها فسوق ، وجدال ، وجماع ، وصيد . وتعظيمها يكون باجتنابها .

وقيل : الحرمات الأشياء التي جعل اللّه لها احتراما في الحج وغيره ، وهي جميع التكاليف

وقيل : وهي مناسك الحج خاصّة .

(166/518)

وقيل : إنها حرمات خمس : المشعر الحرام ، والمسجد الحرام ، والبيت الحرام ، والشهر الحرام ، والمحرم حتى يحل ، وتعظيم هذه الأشياء ظاهر .

فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ الضمير الأول راجع إلى التعظيم المأخوذ من يُعَظِّمْ أي أن تعظيم هذه الأشياء ينال به الإنسان مثوبة قد ضمنها اللّه سبحانه وتعالى له ، وعلى هذا لا يكون خَيْرٌ أفعل تفضيل . أو نقول : إنه للتفضيل والمفاضلة على سبيل التنزل ، وإرخاء العنان ، أي

على فرض أن ترك التعظيم فيه شيء من الخير ، فالتعظيم أفضل منه .

وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ المراد حلّ ذبحها وأكلها ، ثم إنه ليس المقصود بما يتلى (ما ينزل في المستقبل) ما يعطيه ظاهر الفعل المضارع ، بل المراد ما سبق نزوله ، مما يدل على حرمة الميتة ، وما أهل به لغير اللّه أو ما يدل على حرمة الصيد في الحرم أو حالة الإحرام .

وعلى هذا يكون السر في التعبير بالمضارع التنبيه إلى أن ذلك المتلو ينبغي استحضاره والالتفات إليه ، والاستثناء متصل إن أريد من المستثنى ما يكون محرما من خصوص الأنعام . وإن أريد به ما يشمل الدم ولحم الخنزير كان منقطعا . والظاهر الأول ، والجملة معترضة لدفع ما عساه يقع في الوهم من أنّ تعظيم حرمات اللّه في الحج قد يقضي باجتناب الأنعام ، كما قضى باجتناب الصيد .

فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ ، الرجس : القذر ، وقوله : مِنَ الْأَوْثانِ بيان له .

والأوثان : الأصنام ، وسمّاها اللّه رجسا تقبيحا لها ، وتنفيرا منها .

والمراد باجتنابها اجتناب عبادتها وتعظيمها . ولتأكيد ذلك أوقع الاجتناب على ذاتها ، وهذه الجملة مرتبطة بما قبل الاعتراض ، مترتبة على حكمه ، أي إذا كان تعظيم حرمات اللّه فيه الخير وفيه رضا اللّه تعالى وكان من تعظيم هذه الحرمات اجتناب ما نهى اللّه عنه ، فاجتنبوا الأوثان ، ولا تعظموها ، ولا تذبحوا لها كما كان يفعل أهل الجاهلية .

وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ .

الزور الكذب والباطل ، وسمي زورا لميله عن وجه الحق ، من الزور بفتح الواو وهو الميل والانحراف ، وإضافة القول إليه بيانية .

قيل : المراد بقوله : الزُّورِ خلط أهل الجاهلية في تلبيتهم ، وقولهم فيها :

لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ، وهو ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل .

وقيل المراد به قولهم في البحائر والسوائب إنّها حرام ، وأن تحريمها من اللّه .

والأحسن التعميم في قول الزور حتى يشمل الشهادة الباطلة ،

فقد أخرج أحمد

(167/518)

وأبو داود وغيرهما عن ابن مسعود « 1 » أنه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «عدلت شهادة الزور الإشراك باللّه» ثلاثا ، وتلا هذه الآية .

حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ الحنيف المائل عن الديانات الباطلة إلى الدين الحق ، مأخوذ من الحنف بالتحريك وهو الميل ، وقد اشتهر عند العرب إطلاق الحنيف على كل متمسك

بدين إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

والمعنى : اجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور حال كونكم ثابتين على الدين الحق ، مخلصين للّه في العبادة ، من غير أن تجعلوا لغيره معه شركة فيها . فهما حالان مؤكّدتان لما قبلهما من الاجتناب .

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ .

خَرَّ . معناه سقط من علو .

فَتَخْطَفُهُ تختلسه بسرعة وقوة .

وهذه الجملة مستأنفة مقرّرة لوجوب اجتناب الشرك .

والمعنى : أن من جعل للّه شريكا فقد حق عليه الخسار والبوار ، وهو في شركه شبيه به إذا سقط من جو السماء ، فاجتمعت عليه الطيور الجارحة ، فمزقته ، وذهب كل منها بقطعة منه ، فتمّ بذلك هلاكه .

وظاهر على هذا أن التشبيه من باب تشبيه التمثيل ، ويصح أن يكون تشبيها مفرقا .

أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ ، هوى يهوي سقط من علو . وهوى به أسقطه .

والسحيق : البعيد ، ماضيه سحق كبعد .

هذا تشبيه ثان لمن أشرك باللّه ، والعطف فيه إما على قوله : خَرَّ مِنَ السَّماءِ أو على فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ والمعنى أنّ حال المشرك في شركه ، وما يؤدي إليه من سوء العاقبة ، شبيهة

بحاله إذا أخذته ريح عاصفة ، فقذفت به في مهوى عميق ، لا يكون له منه خلاص ولا نجاة ، أو أنّ حاله في ذلك شبيهة بحاله إذا خرّ من السماء ، فعصفت به الريح ، وهوت به في مكان سحيق .

والتشبيه على هذين الوجهين تشبيه تمثيل ، ويصح أن يكون تشبيها مفرقا أيضا ، فيشبه الشيطان الذي يضله ويغويه بالريح التي تهوي به وترديه ، ويشبه الشرك بالوادي

---

(1) رواه أبو داود في السنن (3/ 298) ، كتاب الأقضية ، باب في شهادة الزور حديث رقم (3599) ، وأحمد في المسند (4/ 321) ، والترمذي في الجامع الصحيح (4/ 475) ، كتاب الشهادات ، باب في شهادة الزور حديث رقم (2300) وابن ماجه في السنن (2/ 794) 13 - كتاب الأحكام ، 32 - باب شهادة الزور حديث رقم (2372) .

(168/518)

العميق الذي لا ينجو من قذف فيه . ونتيجة هذه التشبيهات واحدة ، والغرض من ذلك كله تقبيح حال الشرك ، والتنفير منه .

ولا يخفى عليك ما يؤخذ من هذه الآية من الأحكام فيما يتعلق بحرمات اللّه ، والانتفاع

بالأنعام ، والإشراك بالله ، وشهادة الزور .

وليس في قوله تعالى : وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ما يدل على تعزير شاهد الزور ، فإنّ غاية ما أفاده تحريم شهادة الزور ، وما روي عن عمر رضي الله عنه من أنه كان يعزّر شاهد الزور ، ويأمر فينادى عليه بالأسواق . وإليه ذهب أبو يوسف ومحمد ، فإنما ذلك شيء يرجع إلى السياسات الشرعية ، فللحاكم أن يفعل من ذلك ما يراه أحفظ لحقوق العامة ، وأردع لأهل الفساد .

قال الله تعالى : ذِلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) الشعائر : العلامات التي تعرف بها الأشياء ، فهي تشعر بها وتدل عليها ، وقد اختلف في المراد بها هنا : فقيل : إنها الدين كله أوامره ونواهيه ، فهي شعائر الله ، لأنّ امتثالها والوقوف عند حدودها يدل على الطاعة لله تعالى ، والإخلاص له . وقد اضطر من يقول بهذا أن يفسّر البيت العتيق في قوله جلّ شأنه : ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ بالجنة ، وهو كما ترى بعيد .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما والإمام مالك والحسن : إنها عرفة ، ومنى والصفا والمروة ، والبيت الحرام ، وغيرها من مواضع الحج ، وهو لا يخلو من شيء ، فإن الله تعالى قال في شأنها : ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ والمحلّ في الحج قد اشتهر في المكان الذي تذبح فيه الهدايا كما سيأتي . فالظاهر أنّ المراد بالشعائر الأنعام التي تساق هديا للكعبة ، كما روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما وسميت بذلك لأنّها تدل على الحج ، أو على طاعة

سائقيها للّه تعالى ، وتعظيمها يكون بأن تختار سمينة حسنة غالية الأثمان .

والتقوى هي الخشية التي تبعث على اتباع الأوامر واجتناب المناهي . ولا يخفى عليك أنّ الضمير في كلمة فَإِنَّها عائد على الشعائر ، وهي لا تصلح أن تكون بعضا من التقوى إذا كانت (من) للتبعيض ، ولا أن تكون ناشئة من التقوى إذا كانت (من) للابتداء ، فلا بد من تقدير يصلح لذلك . كما أنك تعلم أنه لا بد من رابط في قوله :

فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ يعود على المبتدأ ، وهو (من) فيكون مآل الكلام هكذا : ذلك ومن يعظّم شعائر اللّه فإنّ تعظيمه إياها من تقوى القلوب .

هذا ويصحّ في ضمير (فإنها) أن يكون راجعا إلى حالة المعظّم التي يدل عليها الفعل السابق في الآية ، وعلى هذا فلا يحتاج إلا إلى الرابط فقط ، والمعنى أنّ من

(169/518)

يعظّم الأنعام التي يسوقها للحرم ، فيختارها سمانا حسانا ، فإن تعظيمه إياها لا محالة ناشئ من التقوى الحقيقية ، ودليل على أنه يخشى اللّه خشية تمكّنت من قلبه ، فهو بتعظيمها قد جمع بين مظهر الخشية وحقيقتها ، فعمله هذا هو عمل المخلصين ، وليس كعمل المنافقين ، الذين يأتون بصور الأعمال من غير أن يكون في قلوبهم شيء من الإخلاص . يدل على هذا

إضافة التقوى إلى القلوب .

ولا شك أن الإخلاص والتقوى والخشية هي غاية ما يتمنى الإنسان أن يدركه في هذه الدنيا ، ليصل به إلى سعادة الآخرة .

وإخبار اللّه تعالى بثبوت التقوى لمن عظّم تلك الشعائر من شأنه أن يحرك الناس ، ويبعثهم على الاهتمام بأمرها ، والعناية بتخيرها ، والفرح بسوقها .

ويؤكد هذا المعنى إضافة هذه الشعائر إليه تعالى .

روي أنه صلّى اللّه عليه وسلّم أهدى مئة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب أي حلقة من ذهب .

وروي أن عمر رضي اللّه عنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار . وكان قد سأل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك ، وقال : بل أهدها ، وكان ابن عمر رضي اللّه عنهما يسوق البدن مجلّلة بالقباطي ، فيتصدق بلحومها وجلالها .

قال اللّه تعالى : لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33) مَنافِعُ الظاهر أنّ المراد بها المنافع الدنيوية من الركوب والدّر والصوف والوبر ، ليكون قوله تعالى : وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ مفيدا معنى جديدا . فإنّ الخير ظاهر في ثواب الآخرة ، فيكون في الأنعام التي تساق هديا إلى الكعبة منافع دنيوية ومنافع أخروية .

أما الأجل المسمى فقد اختلف في معناه ، فقال الإمام الشافعي : إنّه وقت نحرها ، وهو مروي عن عطاء .

وقال الحنفية : إنه وقت تعيينها وتسميتها هديا ، كما روي عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد ، وقتادة .

والمحل بالكسر من حلّ الشيء يحلّ بالكسر حلولا إذا وجب ، أو انتهى أجله ، وفي الحديث : «حلّت له شفاعتي» «1»

وجبت . ويقال : حل الدين : انتهى أجله ، فالمحل في الآية مكان الحلول ، أي المكان الذي ينتهي فيه أجل تلك الأنعام ، أو المكان الذي يجب ذبحها فيه .

---

(1) رواه البخاري في الصحيح (1/ 171) ، 10 - كتاب الأذان ، 8 - باب الدعاء حديث رقم (614) . [. . . . .]

(170/518)

ومعنى أن محلها إلى البيت العتيق أنّ المكان الذي تذبح فيه الهدايا منته إلى البيت العتيق ، ومتصل به ، إذ هو الحرم ، ولا شك أن الأمر كذلك ، فإنّه ليس نفي البيت ، ولا ما حوله من المسجد ، إذ لا يحل الذبح فيهما ، والمحل بهذا المعنى هو المراد في الآيات الأخرى ، منها

قوله تعالى : وَلا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ [البقرة : 196] وقوله جلّ شأنه : وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ [الفتح : 25] وهو المعين في قوله عزّ اسمه : هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ [المائدة : 95] وعلى هذا يكون المعطوف بثم في الآية كلاما تاما أريد به بيان المكان الذي تذبح فيه الهدايا ، بعد ما بين حكم تعظيمها والانتفاع بها إلى الأجل المعين ، وقيل : إنّ المراد بالمحل نفس الحلول بمعنى الذبح ، وقيل أيضا :

إنّ المحل زمان الحلول . وعلى هذين القولين يكون محلها معطوفا على منافع ، ويكون قوله تعالى : إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ حالا من الضمير في محلها . والتقدير لكم فيها منافع دنيوية إلى أجل مسمى وبعده لكم منفعة دينية مقتضية للثواب الأخروي ، وهو وجوب نحرها ، أو وقت نحرها ، وفي ذلك مبالغة ، حيث جعل وقت النحر نفسه منفعة ، والظاهر الأول .

ما في الآية من الأحكام وأقوال العلماء في ذلك

: قد علمت أنّ الشافعية فسّروا الأجل المسمى في الآية بوقت نحر الهدي ، وعلى هذا قالوا بجواز الانتفاع بالشعائر بعد سوقها حتى تنحر ، وقالوا أيضا : إنما يجوز الانتفاع إذا كانت هناك حاجة تدعو إليه ، ولو لم تصل لدرجة الاضطرار :

أما الانتفاع بغير حاجة فلا يجوز ، فلو احتاج لشيء من لبنها ولو لم يصل إلى درجة المخمصة فله أن يشرب منه ، وكذلك إذا كان يعلم أنّ صوفها أو وبرها يضرها ، فله أن يجزّه وينتفع به ، وليس عليه قيمته للفقراء ، قالوا : والأولى أن يتصدق به عليهم . هذا هو المشهور من

مذهبهم ، وعندهم رواية أخرى عن الإمام الشافعي أنه لا يجوز الانتفاع إلا للمضطر .

أما الحنفية فإنهم يفسّرون الأجل المسمى في الآية بوقت سوقها . فلا يجيزون الانتفاع بها بعد السوق إلا في حالة الاضطرار .

وقال بعضهم : إنه يجوز الانتفاع بها مطلقا في حالتي الاختيار والاضطرار .

ونقل ابن عبد البر عن بعض أهل الظاهر القول بوجوب الركوب .

ولمن أجاز مطلقا حجج :

1 – قد أثبتت الآية منافع في الشعائر ، وأباحت الانتفاع بها ، وهي لا تكون شعائر إلا بعد سوقها هدايا ، وتعيينها لذلك ، فيلزم أن يكون الانتفاع بها بعد السوق أيضا .

2 – ثمّ إنّ الآية لم تقيّد جواز الانتفاع بحالة دون أخرى ، فالتقييد بحالة الاضطرار

(171/518)

كما يقول الحنفية ، أو بالحاجة كما هو مشهور مذهب الشافعية زيادة ليست في الآية .

3 – ثم إنّ الأحاديث الواردة في ذلك مطلقة أيضا ،

فقد روي عن أنس رضي اللّه عنه أنه قال : رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم رجلا يسوق بدنة ، فقال : «اركبها» قال : إنّها بدنة .

قال : «اركبها» قال : إنّها بدنة قال : «اركبها» ثلاثا . متفق عليه «1» .

وروي عن جابر رضي اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول – في البدنة – : «اركبها بالمعروف» «2»

فالحديثان مطلقان كالآية فيجوز الانتفاع بالبدنة على كل حال ، وإذا فلا يكون فرق بين البدنة والناقة التي لم يسقها ، فليس عليه فيما ينتفع به من ذلك ضمان .

حجة الشافعية : استدلّ الشافعية بما أورده المجيزون في دليلهم الأول ، وبأنّ إطلاق الآية يجب أن يقيّد بما ورد من الأحاديث التي تفيد أنّ الإباحة تثبت للحاجة : من ذلك : ما رواه أحمد والنسائي عن أنس أنه عليه الصلاة والسلام رأى رجلا يسوق بدنة ، وقد أجهده المشي فقال : «اركبها» قال : إنّها بدنة . قال : «اركبها ، ولو كانت بدنة» «3» .

وروي عن جابر أنه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «اركبوا الهدي بالمعروف حتى تجدوا ظهرا» «4»

فهذان الحديثان يدلان على أنّ الإباحة إنما كانت لمسيس الحاجة إلى الانتفاع . قالوا : وعلى هذا يجب أن تحمل الآية والأحاديث المطلقة جمعا بين الأدلة .

ثم إنه ليس في كل ذلك دليل على وجوب ضمان شيء من منافع الهدي ، فلا يضمن المنتفع شيئا منها للفقراء ، نعم إذا كان الركوب ينقص قيمتها نقصا بينا فعليه ضمان هذا النقص .

حجة الحنفية : قال الحنفية ينبغي أن تحمّل الشعائر في الآية على الأنعام التي يراد سوقها

للكعبة ، لا على البدن التي سيقت بالفعل ، فهي مجاز بقرينة إيقاع التعظيم عليها ، فإنّ الآية ندبت إلى تعظيمها . ولا شك أنّ من تعظيمها تخيّرها سمينة حسنة ، وذلك إنما يكون قبل سوقها وتعيينها هديا وهذه الأنعام التي تكون هديا بالسوق هي التي أباح اللّه الانتفاع بها إلى الأجل المسمى .

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (2/ 960) ، 15 - كتاب الحج ، 65 - باب جواز ركوب البدنة حديث رقم (373/ 1323) ، والبخاري في الصحيح (3/ 219) 25 - كتاب الحج ، 103 - باب ركوب البدن حديث رقم (1690) .

(2) رواه مسلم في الصحيح (2/ 961) ، 15 - كتاب الحج ، 65 - باب ركوب البدنة حديث رقم (375/ 1324) .

(3) رواه النسائي في السنن (5 - 6/ 195 كتاب المناسك ، باب ركوب البدنة حديث رقم (2801) .

(4) رواه مسلم في الصحيح كتاب الحج حديث رقم (1324) ، وأبو داود في السنن (2/ 81) ، باب ركوب البدن حديث رقم (1761) ، وأحمد في المسند (3/ 348) ، والنسائي (5 - 6/ 194) ، كتاب المناسك باب ركوب البدنة حديث رقم (2801) .

ثم إنه ينبغي تفسير الأجل المسمى بوقت سوقها لا وقت نحرها ، لأنّ صاحبها قد جعلها بالسوق خالصة للّه تعالى ، فقد خرجت عن ملكه بذلك فلا يجوز له حينئذ أن ينتفع بشيء منها إلا عند الضرورة ، وما انتفع به كان حقا للفقراء يجب أن يعوضهم منه مقدار قيمته .

يشهد لهذا ما ورد من الأحاديث التي قيّدت جواز الانتفاع بحالة الضرورة ، فيجب أن يحمل غيرها عليها جمعا بين الأدلة . من ذلك ما

رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن جابر «1» : أنه سئل عن ركوب الهدي فقال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : «اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهرا»

فمن هذا يعلم أن الجواز خاصّ بحالة الضرورة ، فإنّ الإلجاء إلى ركوبها هو الاضطرار إليه .

وقالوا أيضا : إن ركوبها ينافي تعظيمها ، إذ في الركوب امتهان واستهانة ظاهرة ، مع أنّ تعظيمها مطلوب بنفس الآية ، وإذا فلا يركبها إلا إذا ألجئ .

حجة القائلين بالوجوب : استدل القائلون بالوجوب بظاهر الأمر بالركوب فيما سبق من الأحاديث . وقالوا أيضا : إنّ في ركوبه مخالفة لما كان يصنعه أهل الجاهلية من مجانبة البحيرة

والسائبة والوصيلة . وهو مردود بأنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لم يركب هديه ، ولم يركبه غيره ، ولم يأمر الناس جميعا بركوب هداياهم ، إلا ذلك المضطر ، كما تقدم ، فدل ذلك على عدم الوجوب .

أما المالكية فالمشهور من مذهبهم أنه يكره الانتفاع بالبدن بركوبها ووبرها ولبنها ، ولو كان لبنها فاضلا عن حاجة أولادها ، والوجه فيه ظاهر ، ومذهبهم على هذا قريب من مذهب الحنفية .

وقال النووي من الشافعية والزيلعي من الحنفية : إنّ الإمام مالكا يقول بجواز ركوب البدن ، ولو من غير حاجة ، فلو صحّ هذا فالحجج المتقدمة ناطقة بخلافه .

هذا والظاهر من قوله تعالى : ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ أنّ جميع الهدايا يجب أن تذبح في هذا المحل ، سواء في ذلك ما تعلّق وجوبه بالإحرام ، كما في جزاء الصيد والفدية ودم التمتع ودم الإحصار ، وما التزمه الإنسان كما في الدم الذي يتطوّع به إلى الحرم ، أو ينذره كذلك .

قال اللّه تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) المنسك : بفتح السين وكسرها : مفعل من النسك ، بمعنى العبادة ، فيصح أن

---

(1) سبق تخريجه .

يراد به النسك نفسه ، ويصح أن يراد به مكان النسك أو زمانه ، وعلى كل حال فالظاهر أنّ المراد بالنسك هنا عبادة خاصة ، وهي الذبح تقرّبا إلى اللّه تعالى .

فَلَهُ أَسْلِمُوا الإسلام للّه الإخلاص له في الطاعة ، وامتثال أوامره ونواهيه .

وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الإخبات الخشوع ، وقيل : التواضع . وقيل : الاطمئنان : مأخوذ من الخبت وهو المطمئن من الأرض ، وهي معان متقاربة ويصحّ أن يكون ما ذكر في الآية بعده تفسيرا له .

ولا يخفى عليك أنّ قوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً معطوف على قوله سبحانه : لَكُمْ فِيها مَنافِعُ وأنّ تقديم المفعول فيه لإفادة الحصر .

والمعنى : أنّ اللّه جلّ شأنه قد شرع نسك الذبح لجميع الأمم التي خلت من قبل ، يتقربون به إليه تعالى ، ويذكرون اسمه الكريم عند الشروع فيه ، وأن ذلك ليس خاصّا بأمة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولا ببعض الأمم الأولى دون البعض ، أو المعنى أنه تعالى قد خصص لكل أمة من الأمم مكانا أو زمنا يذبحون فيه ، ولعل سرّ الإخبار بشرع هذا النسك لجميع الأمم من قبل هو تحريك النفوس ، وبعثها إلى المسارعة إلى هذا النوع من البر ، والاهتمام

بهذه القربة ، حيث إنّها قربة قد وردت بها الشرائع الأولى ، وتتابعت عليها .

وفي هذا الإخبار أيضا إشعار بأنّ أهل الجاهلية الذين كانوا يذبحون لأصنامهم ، والذين كانوا يخلطون في التسمية على ذبائحهم – إنما كانوا يفعلون ذلك من عند أنفسهم ، واتباعا لمحض شهواتهم وأهوائهم ، فإنّ شرائع اللّه كلها قد أجمعت على أنّ التقرب بالذبح إنما يكون للّه وحده ، وأنّ الشروع في ذلك إنما يكون باسمه وحده ، إذ ليس للناس إلا إله واحد ، وهو الذي رزقهم ، وشرع لهم ، وكلّفهم ، فليس لهم أن يميلوا بالعبادة إلى غيره ، فقوله تعالى : فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ بمثابة العلة لما قبله من تخصيص اسمه الكريم بالذكر ، لأنّ تفرده تعالى بالألوهية يقتضي أن لا يذكر على الذبائح غير اسمه ، وإنما قيل : فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ولم يقل فإلهكم واحد لإفادة أنه تعالى واحد في ذاته ، كما أنه واحد في ألوهيته .

وقوله تعالى : فَلَهُ أَسْلِمُوا مرتّب بالفاء على الحكم بوحدانية الإله ، فإنّه متى كان الإله واحدا فقد وجب تخصيصه بالعبادة والإذعان له في جميع الأحكام ، وإفادة التخصيص ظاهرة من تقديم المعمول .

وقوله تعالى : وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ فيه توجيه الخطاب إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعد ما كان متوجها إلى الناس ، فاللّه سبحانه يأمر نبيّه أن يبلغ الناس أنّ من أذعن منهم للّه ، وأخلص له العمل والاعتقاد ، فإنه يكون له أحسن الجزاء .

والسرّ في تحويل الخطاب للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم هو أنّ مقام الأمر والنهي يناسبه أن يتجلّى الإله على العباد بعظمة الألوهية وقهرها وسلطانها ، فيوجه أوامره إليهم كأنه يخاطبهم من غير وسيط ، ليكون ذلك أدخل للهيبة في قلوبهم ، وأبعث على خشوعهم وانقيادهم .

فلما انتهى أمر التكليف عطف الخطاب إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فأمره أن يبلّغهم وعد اللّه للعاملين المخلصين ، إذ إنّ عملهم بذلك يكفي فيه أن يحدثهم به النبيّ المعصوم الذي هو الواسطة بينهم وبين خالقهم .

ويؤخذ من هذه الآية : وجوب الذكر على الذبيحة حيث كان هو المقصود من الذبح الذي هو واجب ، ووجوب اعتقاد أنّ اللّه واحد ، ووجوب الإسلام بمعنى الإخلاص للّه في العمل .

قال اللّه تعالى : الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (35) وصف اللّه في هذه الآية المخبتين بأربع صفات تجد بعضها مرتبا على بعض أحسن ترتيب :

الأولى : الخوف والخشوع عند ذكر اللّه .

والثانية : الصبر على الآلام والمشقات .

والثالثة : إقامة الصلاة .

والرابعة : الإنفاق مما رزقهم اللّه .

فهؤلاء المخبتون إذا سمعوا ذكر اللّه تحرّكت قلوبهم ، وخفقت لما وقع فيها من الهيبة والخوف من عقاب اللّه وانتقامه ، ولا شك أنّ هذا الخوف يحملهم على الرضا بقضاء اللّه تعالى ، والصبر على ما يريده لهم من الآلام والشدائد ، سواء في ذلك ما يكون في التكاليف وأنواع التعبدات ، وما يلاقون من المشقات في أسفارهم لطاعة اللّه كما في الحج ، وكل ما يصابون به في أنفسهم وأموالهم ، ويحملهم كذلك على إحسان الأعمال ، والقيام بما كلفهم اللّه إياه حقّ القيام .

والإنفاق : قيل : إنّ المراد به الزكاة المفروضة ، وقيل : إنه صدقة التطوع ، وقيل : هو عام يشمل النوعين جميعا ، وقد سبق لك شيء من هذا في أكثر من موضع ، كما أنّه سبق لك في مثل هذه الآية بيان السر في تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر من بين سائر التكاليف ، وأنّ الصلاة أهمّ التكاليف البدنية ، كما أنّ الزكاة أهمّ التكاليف المالية : لما يترتب عليهما من صلاح النفوس واعتدالها ، وسد حاجات الأمة وتقويم فقرائها وضعفائها .

وينبغي أن تعلم أنّ قوله تعالى : وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ معطوف على المقيمي الصلاة باعتبار معناه ، أي والذين يقيمون الصلاة ، وينفقون مما رزقناهم .

قد يقال : إنّ وصف المخبتين في هذه الآية بأنّهم الذين يجلون عند ذكر اللّه يخالف ما وصفوا به في قوله عزّ اسمه : الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ [الرعد : 28] فما هذا ، وكيف يكون التوفيق بين آيتين إحداهما تثبت أنّ ذكر اللّه موجب للخوف والوجل ، والأخرى تصرّح بأن ذكر اللّه يوجب سكون القلوب واطمئنانها ، وزوال ما قد يعتريها من خوف وفزع أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [الرعد : 28] .

والجواب أن الاطمئنان والوجل أمران يجدهما المؤمن المتقي ، ويشعر بهما في قلبه في حالتين متمايزتين ، ولسببين مختلفين ، فهو إذا استحضر وعيد اللّه امتلأت نفسه هيبة ، واقشعر جلده ، ووجف قلبه ، وخاف عذاب الآخرة ، ثم إذا لمح جانب الوعد الكريم ، واستحضر رحمة اللّه وسعة عفوه اطمأن قلبه ، وسكن روعه ، وصدق قول اللّه تعالى : أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ فالحالة الثانية حالة الوعد والأولى حالة الوعيد ، وأيضا فإنّ المؤمن كثيرا ما تصادفه في هذا الدنيا عقبات وشدائد ، إذا عرضت لضعيف الإيمان واهن العزيمة اضطرب لها قلبه ، وانشعب منها فؤاده ، واستولى عليه الفزع والهلع . أما المؤمن الصادق فإنه يرجع بها إلى اللّه ، ويستعين عليها بذكر اللّه ، فيرتاح لكل ما يجري به قضاؤه وقدره ، فهذه حالة السكون والاطمئنان إلى ذكر اللّه .

أما خوفه ووجله فهو لكون تقصيره فيما عليه من موجبات العبودية للواحد القهار ، وهذا

الخوف تلتهب له نفسه ، ويرتجف له جنانه .

يؤخذ من الآية : أن التقوى ، والخشية ، والصبر على المكاره ، والمحافظة على الصلاة ، والرحمة بالفقراء ، والإحسان إليهم ، من أعظم ما ينال به العبد رضا اللّه تعالى ، لما لها من الشأن العظيم ، إذ عليها يقوم صلاح العباد والبلاد .

قال اللّه تعالى : وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36) (البدن) جمع بدنة ، وهي اسم للواحد من الإبل ذكرا أو أنثى ، سميت بذلك لعظم بدنها . وقد اشتهر إطلاقها في الشرع على البعير يهدى إلى الكعبة ، وقد تطلق البدنة على البقرة أيضا لما أنها تجزئ في الهدي والأضحية عن سبعة كالبعير .

قال الحنفية : إن البدنة صارت من قبل المشترك في المعنيين ، فمن نذر بدنة أجزأته بقرة .

وبذلك قال عطاء وسعيد بن المسيب .

روى مسلم «1» عن جابر رضي اللّه عنه أنه قال : كنّا ننحر البدنة عن سبعة :

فقيل : والبقرة ؟ قال : وهل هي إلا من البدن .

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (2/ 955) ، 15 - كتاب الحج ، 62 - باب الاشتراك حديث رقم (353/ 1318) .

قد يقال : أنّ وصف المخبتين في هذه الآية بأنّهم الذين يجلون عند ذكر اللّه يخالف ما وصفوا به في قوله عزّ اسمه : الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ [الرعد : 28] فما هذا ، وكيف يكون التوفيق بين آيتين إحداهما تثبت أنّ ذكر اللّه موجب للخوف والوجل ، والأخرى تصرّح بأن ذكر اللّه يوجب سكون القلوب واطمئنانها ، وزوال ما قد يعتريها من خوف وفزع أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [الرعد : 28] .

والجواب أن الاطمئنان والوجل أمران يجدهما المؤمن المتقي ، ويشعر بهما في قلبه في حالتين متمايزتين ، ولسببين مختلفين ، فهو إذا استحضر وعيد اللّه امتلأت نفسه هيبة ، واقشعر جلده ، ووجف قلبه ، وخاف عذاب الآخرة ، ثم إذا لمح جانب الوعد الكريم ، واستحضر رحمة اللّه وسعة عفوه اطمأن قلبه ، وسكن روعه ، وصدق قول اللّه تعالى : أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ فالحالة الثانية حالة الوعد والأولى حالة الوعيد ، وأيضا فإنّ المؤمن كثيرا ما تصادفه في هذا الدنيا عقبات وشدائد ، إذا عرضت لضعيف الإيمان واهن العزيمة اضطرب لها قلبه ، وانشعب منها فؤاده ، واستولى عليه الفزع والهلع . أما المؤمن الصادق فإنه يرجع بها إلى اللّه ، ويستعين عليها بذكر اللّه ، فيرتاح لكل ما يجري به

قضاؤه وقدره ، فهذه حالة السكون والاطمئنان إلى ذكر اللّه .

أما خوفه ووجله فهو لكون تقصيره فيما عليه من موجبات العبودية للواحد القهار ، وهذا الخوف تلتهب له نفسه ، ويرتجف له جنانه .

يؤخذ من الآية : أن التقوى ، والخشية ، والصبر على المكاره ، والمحافظة على الصلاة ، والرحمة بالفقراء ، والإحسان إليهم ، من أعظم ما ينال به العبد رضا اللّه تعالى ، لما لها من الشأن العظيم ، إذ عليها يقوم صلاح العباد والبلاد .

قال اللّه تعالى : وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36) (البدن) جمع بدنة ، وهي اسم للواحد من الإبل ذكرا أو أنثى ، سميت بذلك لعظم بدنها . وقد اشتهر إطلاقها في الشرع على البعير يهدى إلى الكعبة ، وقد تطلق البدنة على البقرة أيضا لما أنها تجزئ في الهدي والأضحية عن سبعة كالبعير .

قال الحنفية : إن البدنة صارت من قبل المشترك في المعنيين ، فمن نذر بدنة أجزأته بقرة .

وبذلك قال عطاء وسعيد بن المسيب .

روى مسلم «1» عن جابر رضي اللّه عنه أنه قال : كنّا ننحر البدنة عن سبعة :

فقيل : والبقرة ؟ قال : وهل هي إلا من البدن .

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (2/ 955) ، 15 - كتاب الحج ، 62 - باب الاشتراك حديث رقم (353/ 1318) .

(177/518)

وعن ابن عمر رضي اللّه عنهما أنّه قال : لا نعلم البدن إلا من الإبل والبقر .

أما الشافعية فقالوا : لا تطلق البدن بالحقيقة إلا على الإبل ، وإطلاقها على البقر إنما يكون بضرب من التجوّز ، فلو نذر بدنة لا تجزئه بقرة ، وبهذا قال مجاهد ، ويشهد له ما رواه أبو داود «1» عن جابر رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة»

فإنّ العطف يقتضي المغايرة ، والظاهر أنّ اسم البدنة حقيقة فيما يكون من الإبل ، وأن إطلاقها على البقرة لم يصل إلى مرتبة الحقيقة .

فأمّا قول جابر : وهل هي إلا من البدن ، وقول ابن عمر : لا نعلم البدن إلا من الإبل والبقر ، فقد يحمل على أنهما أرادا اتحاد الحكم فيهما ، وهذا شيء غير اشتراك اللفظ بينهما ، وعلى كلّ حال فالمراد من البدن في الآية الإبل ، وقوله تعالى :

صَوافَّ وَوَجَبَتْ جُنُوبُها يدل على ذلك ، إذ نحر الحيوان قائما لم يعهد إلا في الإبل خاصّة .

ولا يؤخذ من هذا أنّ الهدي خاص بالإبل . بل تخصيصها بالذكر لأنّها الأفضل من غيرها في الهدايا .

صَوافَّ جمع صافة ، وهي ما صفت قوائمها وسوقها واقفة ، وقرئ صوافن جمع صافنة ، قيل : إنها بمعنى صافة ، وقيل : بل بمعنى أنّها قائمة على ثلاث قوائم ، والرابعة مرفوعة ، وهكذا يفعل بالإبل عند نحرها ، مأخوذ من صفن الفرس إذا وقفت على ثلاث وطرف سنبك الرابعة ، وقرئ صوافي جمع صافية بمعنى خالصة للّه تعالى .

وَجَبَتْ جُنُوبُها من معاني الوجوب السقوط ، وجب الجدار سقط ، ووجبت الشمس غربت ، فوجبت جنوبها سقطت على الأرض ، والجنوب : جمع جنب ، وهو الشق ، وسقوط جنوبها كناية عن موتها .

الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ : القانع الراضي بما قدّر اللّه له من الفقر والبؤس ، فلا يتعرّض لسؤال الناس ، مأخوذ من قنع يقنع كرضي يرضى وزنا ومعنى .

المعتر المعترض لسؤال الناس ، فإنّ المعترّ كالمعتري هو من يعتري الأغنياء ، ويذهب إليهم المرّة بعد المرّة ، وقيل بعكس هذا : القانع : السائل ، من قنع يقنع بالفتح فيهما . والمعترّ : الذي لا يسأل ، كأنّه يدفع عار السؤال بترك السؤال .

معنى الآية : أن اللّه سبحانه وتعالى يمتنّ على عباده بأن جعل لهم في البدن يسوقونها إلى مكة قربة عظيمة ، حيث جعلها شعيرة من شعائره ، وعلما من أعلام

(1) رواه أبو داود في السنن (3/ 11) ، كتاب الضحايا ، باب في البقر والجزور حديث رقم (2808) .

(178/518)

دينه ، ودليلا على طاعته ، ففي سوقها للحرم ، ونحرها هناك ، خير عظيم وثواب كبير ، يناله أصحابها في الآخرة .

وهكذا ترى أننا قد حملنا الخير هنا على الثواب الأخروي . والمنافع فيما تقدم على حظ الدنيا ، ليكون الكلام كما قلنا مفيدا فائدة جديدة ، وقد رتّب اللّه سبحانه وتعالى الأمر بذبحها ، أو الأمر بذكر اسمه الكريم عند الذبح على ما قبله من جعلها شعائر . أو على قوله : لَكُمْ فِيها خَيْرٌ وأنه تعالى يمتنّ أيضا على عباده في هذه البدن ، فأباح لهم إذا نحروها أن يأكلوا منها ، وأن يتصدقوا على الفقراء ، السائل منهم وغير السائل .

ثم ختم اللّه سبحانه وتعالى الآية بقوله : كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ومعناه سخرنا هذه البدن ، وذللناها لكم ، وأخضعناها لتصريفكم مع ضخامتها وقوتها التي بها ، كان يمكن أن تتأبّى عليكم فلا تعطيكم قيادها ، أو تندّ منكم فتتأبد تأبد الوحوش .

فاللّه جلت قدرته قد سخّرها لكم ذلك التسخير العجيب ، وسهل لكم أن تقفوها

صواف ، وأن تعقلوها ، وتضربوا في لباتها ، فتقع على جنوبها صريعة ، وعلى هذا تكون الكاف صلة في قوله : كَذِلِكَ ، ويكون مآل القول سخرناها لكم ذلك التسخير البديع .

ويصحّ أن تبقى الكاف على معناها مفيدة للتشبيه ، ويكون ذلك من تشبيه الشيء بنفسه مبالغة ، كأن ذلك التسخير بلغ في عظمه وغرابته مبلغا فاق به كلّ عجيب ، حتى إذا أريد تشبيهه بشيء كان لا بدّ أن يردّ إلى نفسه فيشبه بها .

وقيل : إنّ المشبه به هو تسخيرها ، حين تكون صواف معقولة إحدى القوائم ، والمشبه هو تسخيرها من قبل في ركوبها والحمل عليها ، وغير ذلك من سائر وجوه الانتفاع .

وجملة القول : إنّها نعمة جليلة ، ومنّة عظيمة تستوجب من العباد أن يشكروا اللّه عليها ، ويصرفوا ما أنعم به عليهم في الوجوه التي رسمها لهم الدين الحنيف .

فقوله تعالى : لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ تعليل لما قبله . وكلمة (لعل) فيه ليست للرجاء الذي هو توقع الأمر المحبوب ، لأنّه مستحيل على اللّه تعالى من حيث أنه ينبئ عن الجهل بعواقب الأمور .

قال ابن الأنباري « 1 » : إنّ لعلّ ترد بمعنى كي في لسان العرب ، واستشهد على ذلك بقول من يراه حجة :

فقلتم لنا كفّوا الحروب لعلّنا نكفّ ووثقتم لنا كلّ موثق

فإنّ توثيق العهد بإنهاء الحرب لا يستقيم معه أن يكون معنى (لعلنا) الرجاء وتوقع الكف ، إنما الذي يصلح له ذلك أن تكون لعلّ بمعنى كي .

---

(1) عبد الرحمن بن محمد ، أبو البركات ، مؤرخ ، وأديب ولغوي كان زاهدا عفيفا ، خشن العيش والملبس سكن بغداد وتوفي فيها سنة (577) انظر الأعلام للزركلي (3/ 327) .

(179/518)

هذا ويؤخذ من الاقتصار في الآية على البدن مع ورود الشرع بجواز الهدي من بهيمة الأنعام أنّ البدن في الهدايا أفضل من غيرها من البقر والغنم .

ويؤخذ من الآية أيضا : الندب إلى نحر الإبل وهي قائمة معقولة إحدى القوائم ، وأنه لا يجوز أن يؤكل منها بعد نحرها حتى تفارقها الحياة .

ومقتضى الأمر في قوله جلّ شأنه : فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ وجوب ذكر اسم اللّه حينئذ ، وهو يؤيّد بظاهره قول من يرى من الأئمة وجوب التسمية على الذبيحة . ومن يرى ندب التسمية يؤوّل الأمر على الندب ، أو يؤول ذكر اسم اللّه على الشكر والثناء .

أما حكم الأكل منها وإطعام الفقراء فقد سبق لك القول فيه .

قال اللّه تعالى : لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37) النيل : الإدراك والإصابة .

والتكبير في الآية : قيل : إنه ما يكون عند الذبح : بسم اللّه ، اللّه أكبر ، والأحسن أن يفسّر بالتعظيم والتقديس والشكر .

والإحسان : هو إتقان العمل ، والإتيان به على الوجه المطلوب ، ومنه قوله صلّى اللّه عليه وسلّم لما سئل عن الإحسان : «أن تعبد اللّه كأنّك تراه» «1» .

المعنى : بأنّ من يريد رضا اللّه تعالى فلا يظن أنه يدرك ذلك باللحوم والدماء من حيث إنها لحوم ودماء ، وإنما ينال ذلك بالتقوى والإخلاص ، في العمل ، فإنّ الأعمال دون التقوى والإخلاص كصور أجسام لا روح فيها ولا حياة .

وللآية وجه آخر من التفسير – إن صح ما قيل في سبب نزولها – ذلك أنّه روي عن ابن عباس ومجاهد أنّ جماعة من المسلمين كانوا هموا أن يفعلوا في ذبائحهم فعل أهل الجاهلية ، يقطعون لحومها ، وينشرونها حول الكعبة ، وينضحون عليها من دمائها ، فنزلت الآية تزجرهم عن هذا الفعل ، وترشدهم إلى ما هو الأجدر بهم والأليق بإيمانهم أن يفعلوه في ذبائحهم ، حتى يدركوا رضا اللّه تعالى .

وعلى هذا يكون المعنى : أن من يريد رضا اللّه تعالى ، ويرجو أن ينال منه المثوبة بما يقرّب من هدي ، فلا يظن أنّه ينال ذلك باللحم يقطعه وينثره ، ولا بالدم يلطخ به الكعبة الطاهرة فعل أهل الشرك من الجاهلية ، وإنما ينال ذلك بتقوى اللّه ، والبعد عن مثل تلك الأعمال التي تجانب روح الإسلام وطهارته ، والتي ليس فيها شيء من الإخلاص للّه .

(1) رواه مسلم في الصحيح كتاب الإيمان حديث رقم (37) .

(180/518)

فقوله تعالى : لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها هو كما علمت على تقدير الرضا ، أو ما في معناه ، أي لن ينال رضا اللّه لحومها ولا دماؤها ، ولكن ينال رضاه التقوى منكم .

وأنت ترى أنّ الآية قد نفت عن اللحوم والدماء أن تنال رضوان اللّه ، مع أنه ليس من شأنها أن يقال فيها : تنال أو لا تنال ، ولكن قصد المبالغة في الأخبار بأنّ أصحابها لا ينالون الرضا والثواب بها وحدها إذا لم يكن معها التقوى والإخلاص هو الذي قضى أن يكون نظم الآية على هذا النحو البديع ، كأنه قيل : إذا كان يتصور أن تنال الدماء واللحوم نفسها أجر اللّه ورحمته صحّ أن يدرك أصحابها بها وحدها شيئا من ذلك ، ففي الآية نوع من التجوز .

وترى أيضا أنه قد أعيد في الآية حديث تسخير الأنعام ، وتذليلها للناس ، لأن في الإعادة تذكيرا بالنعمة يبعث على شكرها والثناء على اللّه من أجلها ، والقيام له بما يجب لعظمته وكبريائه ، لأنّه تعالى سخر لهم تلك البهائم ، وأخضعها لتصريفهم ، وأراهم ما يصنعون فيها ، وكيف يتقرّبون بها .

ومن هذا تعلم أن (على) في الآية الكريمة للتعليل ، وأنّ (ما) مصدرية ، ويصح أن تكون

(ما) نكرة موصوفة ، أو اسما موصولا مع مراعاة أن العائد محذوف ، وفي صرف الخطاب للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأمره بتبشير المحسنين أعمالهم الآتين بها على الوجه المطلوب ، ووعدهم بأنّ لهم من اللّه الجزاء الطيب على فعلهم ما علمته آنفا .

هذا وفي الآية دلالة على أنّ التقوى وشكر اللّه تعالى والإحسان في العمل له جلّ شأنه من أهمّ المطالب الشرعية التي لا يجوز لأحد إغفالها أو التهاون فيها .

قال اللّه تعالى : إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) يصحّ أن يكون هذا كلاما متصلا بقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ وما وقع في البيت - من ذكر مناسك الحج وشعائره ، وما فيها من منافع الدنيا والآخرة - استطراد لمزيد تعظيم شأن البيت الحرام الذي جعله اللّه مثابة للناس وأمنا ، وتسجيل قبح صدهم للمسلمين عنه ، وإخراج أهله منه ظلما وعدوانا ، وتفويت هذه المنافع عليهم ، لأنّ الجناية يعظم أمرها بعظم ما يترتب عليها من تفويت المنافع والإيقاع في الأضرار . ولأن خطورة الجناية تدلّ على خطر المجني عليه ، وناهيك بجناية تقع على البيت الحرام ، مع ما له من قداسة وحرمة ، وتفوت على الناس منافع الحج مع ما فيها من خيري الدنيا والآخرة ، ويكون قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا رجوعا إلى موضوع السياق ، لبيان عاقبة هؤلاء الصادّين عن سبيل

اللّه والمسجد الحرام ، من قهرهم ، وخذلانهم ، وكسر شوكتهم ، ونصر المسلمين عليهم ، وإزالة صدهم ، وتمكين المسلمين من البيت بعد تمكينهم منهم

(181/518)

«إنّ اللّه ليملي للظالم حتّى إذا أخذه لم يفلته» «1» .

ويصحّ أن يكون متصلا بما قبله مباشرة ، وذلك أنه تعالى لما بيّن مناسك الحج ، وما فيه من المنافع ، وكان في ذلك مزيد إلهاب وتشويق لنفوس المسلمين إلى البيت الحرام ، والوقوف بالمشاعر العظام ، ولكن أنّى لهم ذلك ، وقد صدّهم المشركون ، ووقفوا سدا منيعا دون إرواء هذه النفوس المتعطشة إلى رؤية هذا الحرم المقدس ، الذي عاشوا طوال حياتهم في ظلّه وتحت حمايته ، والذي عزّ عليهم فراقه ، ولم ينقطع حنينهم إليه ، والذي كان قلب الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه معلّقا به ، حتى إنه نظر إليه حين خروجه من مكة وقال : «و اللّه إنّك لأحبّ أرض اللّه إليّ ، وإنك لأحبّ أرض اللّه إلى اللّه ، ولولا أنّ أهلك أخرجوني منك ما خرجت» «2»

وإذا ذاك توجهت قلوبهم إلى ربّ هذا البيت ، واستشرفت نفوسهم إلى عون اللّه ونصره وحماية بيته من عدوان المعتدين ، وتخليصه من أيدي الجبابرة الظالمين ، وذلك قوله تعالى :

إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا توطينا لنفوسهم ، وتقوية لعزائمهم ، وإعدادا لهم للجهاد والقتال الذي سيكون به تحقيق آمالهم ، وتحرير أوطانهم وعقائدهم .

وعلى كلّ فهو وعد من اللّه عزّ وجلّ ، وبشارة للمؤمنين بنصر اللّه لهم ، وتمكينهم من عدوهم ، وكف بوائقه عنهم ، وفي ضمنه وعيد شديد ، وتهديد للمشركين بقهرهم وخذلانهم وكسر شوكتهم وزوال دولتهم ، وفيه تمهيد وتوطئة لمشروعية الجهاد .

هذا وصيغة المفاعلة في قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ إما للمبالغة في الدفع ، أو للدلالة على تكرره فقط ، لأنّ صيغة المفاعلة تدلّ على تكرر الفعل وحصوله من الجانبين ، وقد تجرّد عن معنى حصوله من الجانبين ، فتبقى دلالتها على التكرر من جانب واحد كالممارسة ، أي أنه تعالى يبالغ في دفع غائلة المشركين وبأسهم مبالغة لا تدع لهم غائلة من غوائلهم ، أو أنه تعالى يدفع بأسهم وغوائلهم مرة بعد مرة حسبما يتجدد ذلك منهم ، كقوله تعالى : كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ [المائدة : 64] .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ نفي المحبة كناية عن البغض ، وأوثر (لا يحب) على (يبغض) تنبيها على مكان التعريض ، وأن المؤمنين هم أحباء اللّه وأولياؤه .

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (4/ 1997) ، 45 - كتاب البر ، 15 - باب تحريم الظلم حديث رقم (59/ 2583) ، والبخاري في الصحيح (5/ 255) ، 65 - كتاب التفسير ، 5 - باب وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ حديث رقم (4686) .

(2) انظر مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي حديث رقم (5499) وقال روى الترمذي بعضه ، ورواه أبو يعلى ورجاله ثقات .

(182/518)

ومعنى خَوَّانٍ كَفُورٍ أي خوان في أماناته تعالى ، وهي أوامره ونواهيه ، أو جميع الأمانات ، ونظيره قوله تعالى : لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمانَاتِكُمْ [الأنفال : 27] وكفور ، أي لنعمه عزّ وجلّ .

قيل : إنه تعليل لما في ضمن الوعد الكريم من الوعيد للمشركين في الجملة الأولى ، وقيل : تعليل للوعد الكريم نفسه ، وضعّف هذا بأنّ قول القائل : دفعت زيدا عن بكر لبغض زيد ليس فيه كثير عناية ببكر ، وهذا لا يناسب المقام .

وهناك وجه آخر في ربط الجملة الثانية بالأولى ، وحاصله أنك عرفت أنّ الجملة الأولى مشتملة على وعد صراحة ووعيد ضمنا ، وإذا نظرت إلى الجملة الثانية وجدت أنها مشتملة على ثبوت البغض للمشركين صراحة ، وهو يناسب الوعيد الضمني في الجملة الأولى ، فيكون علة له ، وعلى ثبوت المحبة للمؤمنين ضمنا كما هو قضية إيثار (لا يحب) على (يبغض) وهو يناسب الوعد المصرّح به في الجملة الأولى ، فيكون علة له ، وعلى هذا

يكون منطوق الجملة الثانية علة لمفهوم الجملة الأولى ، ومفهومها علة لمنطوقها ، ويصير المعنى هكذا : إن اللّه يدافع عن الذين آمنوا لحبه إياهم ، ويخذل المشركين ويقهرهم لبغضه إياهم ، وعلى كلّ فإنّ ربط نفي الحب بالخوان الكفور يدلّ على أنّ علّة النفي هي الخيانة والكفر ، ويدل بمفهومه على أنّ علة ثبوت المحبة في مقابله هي الأمانة والشكر ، اللذان هما من خواص المؤمن .

وهنا أمران جديران بالالتفات :

الأول : أن صيغة المبالغة في قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ لبيان الواقع ، وأنهم كانوا كذلك ، لا لتقيد البغض بغاية الخيانة والكفر المشعر بمحبة اللّه تعالى للخائن الكافر ، وكثيرا ما تذكر القيود لبيان الواقع ، حتى قيل : إنّه الأصل في استعمالها ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً [آل عمران : 130] ولا شكّ أنك إذا نظرت إلى هؤلاء المشركين ، وما وقع منهم من الأفاعيل المنكرة ، عرفت أنهم حقيقة بلغوا الغاية في الخيانة والكفر .

الأمر الثاني : أنّ المراد نفي الحب عن كل فرد من الخونة الكفرة ، فالمراد عموم السلب وشموله لجميع الأفراد ، لا سلب العموم ، وقول البيانيين : إنّ تقديم النفي على أداة العموم يفيد سلب العموم فالحق أنه حكم أكثري لا كلي ، بدليل قوله تعالى : وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ [البقرة : 276] وقوله : وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) [القلم : 10] وقوله :

إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ [لقمان : 18] وكذلك ما معناه ، فالمعتبر إذا في الحقيقة هو القرائن ، فمتى دلّت على عموم السلب كان الكلام لعموم السلب ، تقدّم النفي أو تأخّر .

ونقل بعضهم عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وجها آخر بناء على أنّ

(183/518)

الحكم كلي ، وحاصله أنه قد يعدل بحسب الظاهر عما يدل على عموم السلب إلى ما يفيد سلب العموم ظاهرا ، وإن كان السلب عاما بحسب الحقيقة تعريضا بأنّ المخاطبين شرّ هذا النوع ، كما جاء في الآية الكريمة : إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ تعريضا بما نزلت فيهم من الأعداء بأنّ محبة اللّه تعالى لا تنالهم بأي وجه من الوجوه ، وأنّه لو تعلّقت محبة اللّه بخائن كافر فإنّها لا تتعلق بأولئك ، لأنهم شر هذا النوع ، ولا يخفى عليك أن بناء الحكم على أبعد الفروض والاحتمالات أبلغ وأقوى ، لأن بناءه على تلك الصورة يجعل السامع لا يتطرق إليه أي احتمال آخر في خلاف الحكم .

قال اللّه تعالى : أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الإذن معناه الترخيص ، فهو للإباحة بعد الحظر ، وقرئ كلّ من أُذِنَ ويُقَاتَلُونَ بالبناء للمفعول وبالبناء للفاعل .

هذه هي أول آية نزلت في القتال بعد ما نهي عنه في نيف وسبعين آية ، على ما روى الحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وأخرجه عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهري وكذا النسائي بإسناد صحيح عنه موقوفا عن عائشة رضي اللّه عنها .

وأخرج أحمد والترمذي وحسّنه والنسائي وابن سعد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : لما خرج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكنّ ، فنزلت :

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا . قال ابن عباس : فهي أول آية نزلت في القتال «1» .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية : أول آية نزلت فيه وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ [البقرة : 190] .

وفي «الإكليل» للحاكم أنّ أوّل آية نزلت فيه : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ .

والظاهر الأول ، وبه قال كثير من السلف كابن عباس ومجاهد ، والضحاك وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل وقتادة وغيرهم ، ويؤيده أيضا ذكرها بعد الوعد بالمدافعة والنصر .

المفردات : أُذِنَ المقصود به إباحة القتال ومشروعيته على القول الأول ، وحكاية الإذن الحاصل من قبل توطئة لبيان أسباب المشروعية وغايتها على القول الثاني .

---

(1) رواه الترمذي في الجامع الصحيح (5/ 305) ، كتاب التفسير حديث رقم

(3171) ، والنسائي في السنن (5 - 6/ 309) ، كتاب الجهاد ، باب وجوب الجهاد حديث رقم (3085) ، وأحمد في المسند (1/ 216) ، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (2/ 52) .

(184/518)

لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ المراد بهم المهاجرون ، كما يدلّ عليه وصفهم بالإخراج من الديار بغير حق ، لأنّ هذا الوصف لا ينطبق إذ ذاك إلا عليهم .

والمأذون فيه هو القتال ، وحذف لدلالة المقام عليه .

ووصفهم بالقتال الواقع عليهم على قراءة المبني للمفعول على حقيقته ، سواء قلنا : إنها أول آية نزلت في القتال أم لا ، لأنّ قتال المشركين واضطهادهم لهم كان حاصلا على كل حال .

وأما وصفهم بالقتال الواقع منهم على قراءة المبني للفاعل فعلى أنها ليست أول آية نزلت في القتال يكون على حقيقته أيضا ، وعلى أنها أول آية نزلت فيه يكون وصفهم عند بدء الإذن بالقتال إما على تقدير الإرادة والحرص ، أي يريدون أن يقاتلوا المشركين ، ويحرصون على ذلك ، وإما على إرادة استحضار ما يكون منهم في المستقبل ، وحقيقة قد كانوا حريصين كل الحرص على هذا القتال ، فإنّ الدفاع عن النفس والعقيدة والوطن أمر محبب إلى النفوس

، لا سيما إذا كانت تعتقد أنها على الحق ، وأن خصمها على الباطل .

المعنى : لما وعد اللّه عزّ وجلّ في الآية السابقة المؤمنين بالدفاع وكفّ غوائل المشركين عنهم ، وأوعد في ضمن هذا الوعد الكافرين بالقهر والخذلان ، أتبع ذلك ببيان مشروعية الجهاد والإذن لهم في قتال أعدائهم ، مع بيان أسبابه وغايته ، للإيذان بأنّ طريق الدفاع الموعود به عن الأولياء وسبيل القهر والخذلان الموعود به للأعداء هو إذنه تعالى للمؤمنين في القتال ، كما يدل على ذلك قوله تعالى في الآية التالية : وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لأن القتال في سبيل اللّه من أعظم المواطن التي تتجلى فيها رعاية اللّه وعنايته بالمؤمنين بما يفاض عليهم في تلك المواقف الرهيبة من النصر والتأييد ، وتثبيت قلوبهم ، وإمدادهم بالأسباب الحسية والمعنوية على ما عرف وتواتر من نفحات اللّه لهم في مواطن الحرب وميادين القتال .

ثم بيّن اللّه تعالى سبب الإذن في القتال على سبيل الإجمال بقوله : بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا فاللّه تعالى أذن للمسلمين في قتال عدوهم وندبهم للجهاد في سبيله ، لا حبا في إراقة الدماء وإزهاق الأرواح ، ولا لمجرد البطش والقهر ، كما يزعم خصوم الإسلام ، فإنّ الإسلام دين أمن وسلام ، وبشير رحمة وطمأنينة ، ولكنه تعالى أذن لهم لأجل أن يدفعوا ذلك الظلم الذي وقع عليهم من جانب المشركين والذي أصابهم في أوطانهم وأنفسهم ودينهم ، فإنه صلّى اللّه عليه وسلّم ما كاد يصدع بالأمر ، ويجهر بالدعوة ، حتى هاج هائج قريش ، وتذمرت على

المسلمين ، وأعلنوا عليهم حربا شعواء ، وأعملوا فيهم يد الانتقام الوحشي ، لا يألون في مؤمن إلّا ولا ذمة ، وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ

(185/518)

الْحَمِيدِ (8)

[البروج : 8] ، ونالوا منهم أشد ما يناله عدوّ من عدوه ، طمعا في ارتدادهم عن دينهم ، والحيلولة بينهم وبين الالتفات حول الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه ، وقد غاب عنهم أن الدين الحق متى خالطت بشاشته القلوب ، واستقر في أعماق النفوس ، كان التعذيب والتقتيل والتنكيل أهون عليها من انتزاع الدين منها .

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أيّ جنب كان في اللّه مصرعي

فكانوا أمام هذه العواصف الهوجاء والمواقف الرهيبة والفتن التي كانت كقطع الليل المظلم أثبت على حبهم لرسولهم صلّى اللّه عليه وسلّم من الجبال الرواسي ، فما استطاعوا فتنة مسلم عن دينه ، ولا تحويل قلبه عن حب اللّه وحب رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم .

لم يقف ظلم هؤلاء الظالمين عند حد الأتباع والأنصار ، بل آذوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بأشد أنواع الإيذاء ، رموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، وحثوا على رأسه

التراب ، ووضعوا بين كتفيه وهو ساجد بين يدي ربه سلا «1» جزور وهم يتضاحكون ، وأغرت ثقيف سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويرمون عراقيبه بالحجارة حتى اختضب نعلاه بالدماء ، وهذا قليل من كثير مما فعلوه معه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو صابر على أذيّتهم ، محتسب عند اللّه ما يناله معهم .

فعلوا كل هذا وأكثر منه بالمسلمين حتى ألجئوهم على الخروج من أوطانهم وترك أموالهم وأهليهم فرارا بدينهم .

فأيّ ظلم أقبح وأشنع من هذا الظلم الذي لم يرتكبوه إلا انتصارا للباطل ، واضطهادا للحق ، وإيثارا لعبادة الأوثان على عبادة اللّه الواحد القهار ، والذي لم يتعفف أهله عن الإسفاف في الخصومة والفجور في الإيذاء .

قال تعالى : وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ذهب كثير من المفسرين إلى أنه وعد بالنصر ، وتأكيد لما مرّ من الوعد بالدفاع عن المؤمنين ، وتصريح بأنّ المراد بالوعد السابق ليس مجرد تخليصهم من أيدي عدوهم ، بل إظهارهم عليهم ، وتمكينهم في الأرض ، وهو إخبار وارد على سبيل العزة والكبرياء ، كما يقول الملك : إن أطعتني فأنا قادر على مجازاتك . لا يريد بذلك حقيقة الإخبار بالقدرة على ذلك ، بل يريد أنه سيفعل على سبيل التأكيد .

وذهب ابن كثير إلى أن المعنى : أنه تعالى قادر على نصر المؤمنين من غير قتال وجهاد ، ولكنه أذن لهم في القتال ، وندبهم إلى الجهاد ، لأنه يريد من عباده بذل جهدهم في طاعته ،

كما قال تعالى :

---

(1) سلا الجزور : هو اللفافة التي يكون بها الجنين عند الولادة ، وهو من الآدمية المستيمة .

(186/518)

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ [محمد : 4] .

وقال : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ [التوبة : 16] وقال : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ (31) [محمد : 31] .

وقال : أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (2) [العنكبوت : 2] .

أقول : وعلى هذا القول يكون المقصود هو تنبيه المسلمين إلى أنّ الدنيا دار ابتلاء واختبار ، وأنّ الحياة ميدان تسابق وتنافس ، وأن مدار هذا الدين على الإرادة والاختبار ، لا على الإكراه والاضطرار ، وأنّ الجزاء من جنس العمل فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8) [الزلزلة : 7 ، 8] ولا يكون ذلك كله إلا بفتح أبواب العمل أمام العاملين ، ودعوة الناس إلى الجهاد والكفاح ، وابتلائهم بمواقع الشدائد والمحن ، لكي يتبين

المجاهدون من القاعدين ، والمخلصون من المنافقين . ومن آمن حبا في اللّه ورسوله ممن آمن حبا في الإبقاء على نفسه وماله وجاهه ، وإلا فلو كان النصر حليف المسلمين من غير قتال وجهاد ، وكان المؤمن معافى في نفسه وماله وولده ، متقلبا في أحضان النعيم من مهده إلى لحده ، لما كانت الدنيا دار ابتلاء واختبار ولما كان إيمان المؤمن اختيارا وترجيحا للإيمان على الكفر ، وإيثارا لمرضاة اللّه ومحابّه على مرضاة نفسه وشهواته ، ولبطلت التكاليف المبنية على الإرادة والاختيار ومحاربة النفس والهوى ، ولما كان الجزاء ثمرة للعمل ، ونتيجة لازمة للكد والتعب ، فعليهم أن يلتزموا هذه السنن ، وأن يعملوا على مقتضاها ، وفي ذلك بلوغ المأمول وإنجاز الموعود .

قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77)

قيل : إن الأمر في هذه الآية بالركوع والسجود والعبادة وفعل الخير متوجه إلى الناس جميعا ، إذ إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، غير أن الخطاب فيها خصّ به المؤمنون لمزيد الاعتناء بهم وتشريفهم ، ولأنهم هم الذين ينتفعون بهذا التكليف .

وقيل : إن هذه الأوامر خاصة بالمؤمنين ، كما أنّ الخطاب متوجه إليهم وحدهم . أما الكفار فإنّهم لما أعرضوا عن قبول دين اللّه ، ولم يستجيبوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأبوا من قبل أن يمتثلوا لهذه الأوامر ، أعرض اللّه عنهم ، وصرف خطابه وأوامره إلى أهل

طاعته الذين يعرفون حقه ، ويمتثلون أحكامه . أما أولئك الكفار فإنّهم لا ينفع فيها إرشاد ، ولا يرجى منهم قبول ولا امتثال ، فهم جديرون بالترك والإهدار . وهذا المعنى أحسن وأوجه ، وهو سائر حتى مع القول بتكليف الكفار بالفروع ، وهو الذي

(187/518)

يناسبه ما ورد في الآية الآتية من اجتباء المخاطبين ، وتسميتهم بالمسلمين ، وإعلاء شأنهم بقبول شهادتهم على الأمم يوم القيامة .

وقد اختلف في المراد بالركوع والسجود في الآية . فقال الحنفية : إن المراد بهما معا الصلاة ، فالأمر بهما أمر بالصلاة ، وإنما عبّر عن الصلاة بهما لأنهما أهم أركانها وأفضلها . وقيل : إنهما كنايتان عن الذلة والخضوع . وقيل : المراد معناهما الشرعي المعروف . وقد أمر بهما لأنّ الناس في أول الإسلام كانوا يصلون تارة بغير ركوع ، وتارة بغير سجود ، فاللّه أمرهم بإتمام الصلاة والإتيان فيها بالركوع والسجود .

وقال الشافعية إنّ الركوع مجاز عن الصلاة لاختصاصه بها . أما السجود فالمراد به سجود التلاوة . والعبادة : هي كل فعل تتجلى فيه الذلة والاستكانة تحت قهر الإله وسلطانه ، وعلى هذا قيل : إن المراد بها التكاليف التي تربط العبد بربه ، فهي أعمّ مما قبلها .

أما فعل الخيرات فهو عام للتكاليف جميعها ، يشمل ما يصلح علاقة العبد بالرب ، وما يصلح علاقات الناس بعضهم مع بعض ، فأنت تجد هذه الأوامر مرتبة ، بدئ فيها بعبادة خاصة : وهي الصلاة ، ثم ثنّي بما هو أعم منها : وهو جميع العبادات ، ثم أتبع ذلك بما هو أعم من الكل : وهو فعل الخيرات الشامل للعبادات وللإحسان في المعاملات ، وبعضهم حمل العبادة على الفرائض ، وفعل الخير على النوافل .

والفلاح : هو الفوز بنيل البغية ، ولا شكّ أن بغية كل عابد سائر على نهج الشريعة إنما هي السعادة الدائمة في الآخرة ، وهناءة العيش في الدنيا ، وقد علمت آنفا ما ينبغي أن يقال في كلمة (لعل) الواردة في كلام اللّه تعالى . ويصحّ أن يراد منها هنا أيضا الرجاء الحقيقي .

ولكن على تقدير صدوره من العباد فيكون المعنى عليه : يا أيها الذين آمنوا صلوا ، وأدوا للّه كل ما تعبدكم به ، وافعلوا كلّ ما كلّفكم مما فيه الخير لكم ولأمتكم حالة كونكم راجين الفلاح ، ومتوقعين الفوز ودرك الرغائب ، فاللّه سبحانه يرشد المؤمنين إلى أنّه ليس من شأن العبد الذليل الذي يشعر قلبه الخشية من اللّه والخوف من جبروته أن يقطع بنتيجة في عمل من الأعمال التي كلّفها ، بل ينبغي أن تكون حاله بعد أن يحسن عمله حالة الرجاء ، وتوقع ما يؤمّل من نتيجة صالحة ، إذ إن العواقب مجهولة ، وقد يكون مقصّرا بعض التقصير في أعماله ، فلم يأت بها على الوجه الذي يحبه اللّه ويرضاه .

ظاهر من الآية أنها قد جمعت أنواع التكاليف ، وأحاطت بفروع الشريعة ، فلم يفلت منها فرض ولا ما دون الفرض ، وظاهر أيضا أنها قصدت إلى الصلاة التي هي

(188/518)

عماد الدين ، فأمرت بها مستقلا ، ولم تقتصر على طلبها في عموم العبادات ، ولا شكّ أن ذلك يدلّ على تأكّدها وفرضيتها على الناس جميعا .

غير أن الشافعية قالوا : إنّ الآية آية سجدة ، وأخذوا من الأمر بالسجود فيها سجود التلاوة مطلوب لها كغيرها من بقية آيات السجود ، مستندين في هذا إلى ما يأتي :

1 - إنّ السجود حقيقة في المعنى المعروف : وهو وضع الجبهة على الأرض ، فمتى أمكن حمل اللفظ عليه فلا يصح العدول عنه إلا لموجب ، وهو غير موجود في الآية .

2 - وقالوا : أيضا : قد ورد في السنة ما يؤيّد هذا المعنى ، ويكشف عن المراد بالسجود في الآية ، فقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن مردويه والبيهقي في «سننه» عن عقبة بن عامر رضي اللّه عنه قال : قلت : يا رسول اللّه أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين ؟ قال : «نعم فمن لم يسجدهما ، فلا يقرأهما» «1» .

وأخرج أبو داود وابن ماجه والدار قطني والحاكم عن عمرو بن العاص أنّ رسول اللّه صلّى

اللّه عليه وسلّم أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن ، منها ثلاث في المفصّل ، وفي الحج سجدتان «2» .

وكان يقول بهذا علي ، وعمر ، وابنه عبد اللّه ، وعثمان ، وأبو الدرداء ، وابن عباس في إحدى الروايتين عنه ، وبه أخذ أيضا الإمام أحمد ، واللّيث وابن وهب ، وابن حبيب من المالكية رضي اللّه عنهم جميعا .

وقال أبو حنيفة «3» ، ومالك ، والحسن ، وابن المسيب ، وابن جبير ، وسفيان الثوري رضي اللّه عنهم : إنّ هذه الآية ليست آية سجدة ، واستدلوا بما يأتي :

1 - إنّ اقتران السجود بالركوع دليل أنّ المراد به سجود الصلاة ، كما في قوله تعالى : وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ [آل عمران : 43] فإذا لم يكن هذا الاقتران موجبا لحمل السجود على سجود الصلاة ، وأنه عبر عن الصلاة بمجموع الأمرين ، فلا أقلّ من أن يكون مرجحا ، لذلك فلا يصح أن يؤخذ من الآية أنّ السجود فيها سجود التلاوة .

2 - ما

روي عن أبي رضي اللّه عنه أنه عدّ السجدات التي سمعها من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وعدّ في الحج سجدة واحدة «4» .

---

(1) رواه الترمذي في الجامع الصحيح (2/ 470) ، كتاب الصلاة ، باب السجدة حديث رقم (578) ، وأبو داود في السنن (1/ 521) ، كتاب الصلاة حديث رقم

(1402) ، وأحمد في المسند (4/ 151) . [. . . . .]

(2) رواه أبو داود في السنن (1/ 521) ، كتاب الصلاة ، باب تفريع أبواب السجود حديث رقم (401) ، وابن ماجه في السنن (1/ 335) ، 5 - كتاب إقامة الصلاة ، 70 - باب عدد سجدات القرآن حديث رقم (1057) .

(3) انظر الهداية شرح بداية المبتدي للمرغيناني (1 - 2/ 85) .

(4) رواه الإمام أحمد في المسند (4/ 305) .

(189/518)

وما روي عن ابن عباس وعبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما أنهما قالا : سجدة التلاوة في الحج هي الأولى ، والثانية سجدة الصلاة .

قالوا : وهذا المروي عن ابن عباس وابن عمر هو تأويل ما روي عن عقبة بن عامر على فرض صحته ، مع أنّ فيه مقالا ، وكذا في حديث عمرو بن العاص ، وإليك ما قيل فيهما :

أما حديث عقبة فقال الترمذي وأبو داود وغيرهما : إن إسناده ليس بالقوي ، قالوا : لأنّ فيه عبد اللّه بن لهيعة ، وقال الحاكم : إن عبد اللّه بن لهيعة أحد الأئمة ، وإنما نقم اختلاطه في آخر عمره .

وأما حديث عمرو بن العاص فقيل فيه : إنّه ضعيف أيضا ، لأنّ في سنده عبد اللّه بن منين الذي قال فيه عبد الحق : إنّه لا يحتج به ، وقال ابن القطان : إنه مجهول ، لا يعرف له حال .

وقالا أيضا : إنّ الراوي عن ابن منين هو الحارث بن سعيد العتقي المصري وهو لا يعرف أيضا اه .

قال اللّه تعالى : وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78) الجهاد : هو بذل الطاقة ، واستفراغ الوسع في مدافعة العدو ، وهو قسمان عظيمان ، تحت كل منهما أنواع ، فالقسم الأول جهاد العدو الباطن ، وتحته نوعان :

1 - جهاد النفس .

2 - جهاد الشيطان .

والقسم الثاني : جهاد العدو الظاهر ، وتحته ثلاثة أنواع :

1 - جهاد الكفار .

2 - جهاد المنافقين .

3 - جهاد أهل الظلم والبدع والضلالات الاعتقادية والعملية .

فالجهاد في القسم الأول يكون بمخالفة هوى النفس ، ومدافعة وساوس الشيطان . وهذا هو أصل الجهاد ، وأشدّ أنواعه ، وهو الجهاد الأكبر ، كما

روي أنّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم لما عاد من غزوة تبوك قال : «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» «1»

ولهذا كان فرض عين على كل فرد ، لا يغني فيه أحد عن أحد شيئا ، وفرضيته ثابتة من مبدأ الإسلام .

---

(1) حديث ضعيف ، انظر الأسرار المرفوعة للملا علي القاري حديث رقم (211) .

(190/518)

وكذلك جهاد أهل الظلم والبدع ، فهو فريضة على كل مكلف على حسب استعداده ، وبقدر استطاعته ، كما

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان» «1» .

أما جهاد الكفار والمنافقين ، فإنّه يكون بالحجة والبيان ، كما يكون جهاد الكفار أيضا بالسيف والسنان . فجهادهم بالحجة واجب أيضا من مبدأ البعثة ، كما في الأنواع السابقة

، يشهد لذلك قوله تعالى في سورة الفرقان : وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (51) فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً (52) [الفرقان : 51 ، 52] فالمجاهدة بالقرآن لا شك أنها من نوع الجهاد بالحجة والبرهان ، وهذا النوع فرض كفاية على الأمة ، يتصدى له أهل القدرة عليه من العلماء الواقفين على أسرار الشريعة ، العارفين بمسالك القول وطرائق الإقناع .

أما الجهاد بالسيف وغيره من آلات القتال فهذا هو الذي لم يشرع إلا بعد هجرة النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، وهو فرض كفاية على المسلمين ، يجزئ فيه أن يقوم به بعضهم متى كانوا قادرين على أن يصدوا غارات العدو ، وأن يدفعوه عن بقية المسلمين وبلادهم ، وإلا فعلى حسب ما يرى الإمام ، حتى لو أعلن النفير العام كان فرض عين على كلّ واحد من القادرين على القتال .

وبعد فقد اختلف العلماء في المراد بالجهاد في قوله تعالى : وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ فعن ابن عباس أنّ المراد به قتال الكفار والمشركين ، وهو مرويّ عن الضحاك أيضا . وعن عبد اللّه بن المبارك : أنه مخالفة النفس والهوى ، والأولى أن يحمل على المعنى العام الذي يشمل هذا وذاك .

وقد علمت فيما سبق أنّ الراجح في سورة الحج أنها مدنية ما عدا آيات ليست هذه الآية منها ، فلا يكون حينئذ مانع من حمل الجهاد على ما يشمل قتال الكفار وغيره ، أما على

اعتبار أنها مكية فيتعين تفسير الجهاد بجهاد النفس والشيطان على ما هو معروف ، إذ إن القتال لم يفرض إلا بعد الهجرة .

والجهاد في اللّه معناه الجهاد في سبيله ، ومن أجل دينه ، وحقّ الجهاد في اللّه أن يكون بقوة وعزيمة صادقة ، وأن يكون خالصا لإعلاء دين اللّه وتأييد شريعته ، فلا ينبغي للمسلم أن يخشى في الانتصار للحق لومة لائم ، كما لا يجوز له في جهاد الكفار أن يقاتل من أجل غنيمة أو غيرها من الشهوات الدنيوية .

وعلى تفسير حق الجهاد بذلك تكون الآية محكمة غير منسوخة بقوله تعالى :

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (1/ 69) ، 1 - كتاب الإيمان ، 2 - باب كون النهي عن المنكر حديث رقم (49) .

(191/518)

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ كما يقول مجاهد والكلبي ، فإنّهما يقولان : إنّ حقّ الجهاد غاية لا يستطيعها عامّة المكلفين ، فإنّها قد تتجاوز الوسع وحد الاستطاعة ، ولكنك قد علمت الصواب في ذلك .

وإضافة (حق) إلى (جهاد) في قوله تعالى : حَقَّ جِهادِهِ من إضافة الصفة للموصوف : كما

يقال : حق يقين ، وشبيه به قولهم فلان حق عالم ، وهو جد ذكي ، أما إضافة جهاد للضمير في قوله : جِهادِهِ فهي لأدنى ملابسة . وذلك لأنّ هذا الجهاد لما كان مطلوبا للّه ومن أجل دينه كان خاصّا به سبحانه وتعالى ، فصحّ أن تقع فيه هذه الإضافة التي تفيد اختصاص المضاف بالمضاف إليه وأصله : وجاهدوا في اللّه حق جهادكم فيه ، فحذف المضاف إليه ، والجار للضمير فاتصل الضمير بالمضاف .

هُوَ اجْتَباكُمْ الاجتباء : الاصطفاء والاختيار . وهذه الجملة واقعة في مقام التعليل للأمر بالجهاد ، فاللّه وفّق المسلمين لقبول الإسلام ، واختارهم لدينه ، وشرّفهم بأن يكونوا خدام شريعته ، يقيمونها ، ويحفظونها ممن يريدها بتحريف أو عدوان ، فجدير بمن اختارهم اللّه لهذا الأمر العظيم أن يبذلوا كل ما عندهم من استطاعة في حماية دينه ، وألا يهملوا رعايته ، أو يهنوا في حراسته ، ولا شكّ أنّ الحكم بأنه سبحانه قد اجتبى المسلمين لذلك ، من خير ما يبعثهم على أن يجاهدوا في اللّه حق الجهاد .

وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ الحرج : الضيق كما فسره بذلك ابن عباس ومجاهد . أكد اللّه بهذا وجوب الجهاد على الناس ، ولزوم محافظتهم على الدين الذي اختارهم لحمايته ، فإنّه نفى أن يكون في أحكامه شيء من العسر والشدة التي تضيق بها صدورهم ، ولا تتسع لها قدرهم ، وإذا كان الأمر كذلك فلا يكون هناك مانع يمنعهم من مراعاتها ، كما لا يكون لهم عذر إذا تهاونوا فيها ، ولم يقوموا بخدمتها حق القيام ، ما دام قد تحقّق المقتضى

للجهاد ، وهو اجتباؤهم ، وانتفى المانع ، وهو الحرج في التكاليف ، وأنت خبير بأن هناك فرقا كبيرا بين المشقة في الأحكام الشرعية وبين الحرج والعسر فيها ، فإنّ الأولى حاصلة ، قلما تخلو عنها التكاليف ، فإنّ التكليف هو إلزام ما فيه كلفة ومشقة .

أما المشقة الزائدة التي تصل إلى حد الحرج فهي المرفوعة عن المكلفين فقد فرض اللّه الصلاة على المكلف في اليوم خمس مرات ، وأوجب عليه أن يؤديها من قيام ، وهذا شيء لا حرج فيه ، ثم هو إذا لم يستطع الصلاة من قيام فله رخصة أن يصلي من قعود ، أو بالإيماء .

وكذلك شريعة الصيام لا تصل فيها المشقة إلى درجة العسر ، إذ إن المفروض على الناس صيام شهر في كل عام ، ومع ذلك فقد رخّص اللّه

(192/518)

للمكلّف في حالات تعظم فيها المشقة عليه أن يفطر ، فأباح الفطر لكلّ من المسافر والمريض والهرم والحامل والمرضع ، وهكذا تجد جميع التكاليف في ابتدائها ودوامها مراعى فيها التخفيف والتيسير على العباد ، كما يشهد بذلك قوله تعالى : وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ [الأعراف : 157] وقوله تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ [البقرة : 185] وغير ذلك في هذا المعنى كثير .

مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ الملة والدين والشريعة شيء واحد ، وكلمة مِلَّةَ منصوبة على المصدرية بفعل يدلّ عليه قوله تعالى : وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ فإنه يفيد معنى التوسعة ، أي وسع عليكم في دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم ، فحذف المصدر المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، ويصحّ أن تكون منصوبة على الاختصاص بفعل تقديره : أعني ملة أبيكم إبراهيم ، وقيل : إنها منصوبة على الإغراء أي الزموا ملة أبيكم إبراهيم وظاهر أنه على الإعراب الأول لا يكون في الكلام دلالة على أنّ شريعتنا هي شريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وحينئذ فلا مانع من تفسير الملة بالأحكام الشرعية كلها الاعتقادية والعملية ، أما الإعرابان الآخران فإنّهما يدلان على اتحاد الشريعتين ، وعلى هذا ينبغي قصر الملة على الأحكام الأصلية المتعلقة بالاعتقاد ، إذ لا شك أنها واحدة في شريعتنا وشريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، بل هي واحدة في جميع الشرائع لم تتغير بتغير الأزمان والأقوام ، اقرأ قوله تعالى : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ [الشورى : 13] وقوله تعالى : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25) [الأنبياء : 25] وقول النبي صلّى الله عليه وسلّم : «الأنبياء أولاد علّات» «1»

يريد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة ، وعلى هذا يكون تخصيص إبراهيم عليه الصلاة

والسلام بالذكر ليقويّ تمسك المؤمنين من أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم بشريعته إذ إنّ أكثرهم من نسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فهم يحبونه حب الأبناء للآباء ، ولا شكّ أنّ هذا الحب يقوّي فيهم روح الاستمساك بشريعة نبيهم محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، إذ كانت هي شريعة أبيهم إبراهيم من قبل . وقد تبين لك من هذا معنى أبوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام للمؤمنين من هذه الأمة .

ويصحّ أن يقال : إنه عليه الصلاة والسلام أب لنبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، ومحمد صلّى اللّه عليه وسلّم كالأب لأمته من حيث إنه سبب لحياتهم السعيدة في الآخرة .

---

(1) رواه مسلم في الصحيح (4/ 1837) ، 43 - كتاب الفضائل ، 40 - باب فضائل عيسى حديث رقم (143/ 2365) ، والبخاري في الصحيح (4/ 171) ، 60 - كتاب الأنبياء ، 48 - باب (واذكر في الكتاب) حديث رقم (3442) .

(193/518)

هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وفي هذا اختلف العلماء في مرجع الضمير من قوله : هُوَ سَمَّاكُمُ فعن ابن زيد والحسن : أن الضمير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، سمانا المسلمين قبل نزول القرآن ، وذلك ظاهر ، وسمانا المسلمين في القرآن لأنه تسبب في هذه التسمية

بقوله : رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ [البقرة : 128] فلما استجاب اللّه دعاءه ، وجعلنا أمة مسلمة من ذريته ، كان إبراهيم كأنّه سمانا مسلمين .

وذهب ابن عباس ومجاهد والضحاك إلى أن المسمّي هو اللّه جل شأنه ، ويؤيد هذا الرأي قراءة أبي بن كعب (اللّه سماكم المسلمين) وابقاء الإسناد على ظاهره خير من التأويل فيه ، وجعله مستعملا في حقيقته ومجازه .

واللام في قوله تعالى : لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ إما لام العاقبة ، وهي متعلقة بسماكم على الوجهين في ضميره ، وشهادة الرسول على أمته معناها الإخبار بأنّه قد بلّغهم رسالة ربه ، وإما لام التعليل .

وعلى في قوله : عَلَيْكُمْ بمعنى اللام ، على حد قوله تعالى : وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ [المائدة : 3] ومعنى شهادة الرسول لهم أن يزكيهم عند اللّه يوم القيامة ، ويشهد بعدالتهم إذا شهدوا على الأمم السابقين ويكون التعبير بعلى لما في الشهيد من معنى الرقيب والمهيمن .

وقد تبين لك أنّه لا بد على هذين الوجهين من التأويل في قوله تعالى : لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ إما في (اللام) وإما في كلمة (على) والسبب في ذلك هو أنه لم يظهر للقائلين بهما الوجه في أن يعلل تعديل هذه الأمة وتسميتها مسلمة بشهادة الرسول عليها ، إذ المستقيم إنما هو تعليل ذلك بقبول شهادتها على غيرها .

والحق أنه لا حاجة لذلك التأويل ، ولا مانع من بقاء كل من : على واللام على أصل معناه ،

ويكون قول شهادة الرسول صلّى الله عليه وسلّم على الأمة علة في الحكم بعدالة ذلك الحكم الذي دلّت عليه تسميته مسلما ، إذ لا شك أنه صلّى الله عليه وسلّم مسلم للّه ، وأنه سيد المسلمين ، فهو داخل في قوله تعالى : هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ دخولا أوليا ، ويكون قبول الشهادة من أمته على الأمم الأخرى علة في تسميتها مسلمة كذلك . ويكون في الكلام تفصيل في الشهادة بعد إجمال في التسمية بالمسلمين ، وهذا وجه وجيه لا خفاء فيه .

قد يقال : إنه بعد هذا كله لا يظهر التعليل إلا إذا كانت التسمية بالمسلمين واقعة من اللّه تعالى ، كما هو أحد الرأيين ، فإنّه واضح جدا أن يقال : سماهم اللّه مسلمين هذه التسمية الدالّة على حكمه بعدالتهم ، ليقبل شهادتهم على غيرهم ، أما إذا كانت

(194/518)

التسمية من إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما هو الرأي الآخر ، فلا يظهر ذلك التعليل ، إذ يكون معنى الكلام عليه : سماهم إبراهيم هذه التسمية التي تضمّنت حكمه بعدالتهم ، ليقبل اللّه شهادتهم على الناس يوم القيامة وفيه ما ترى .

والجواب : أنّ تسمية سيدنا إبراهيم إياهم بالمسلمين قد أقرّها اللّه تعالى ، فكأنّ الحكم بعدالتهم صادر منه جل شأنه ، فيكون اللّه هو الذي عدّلهم ليقبل شهادتهم ، وهذا الجواب

مستقيم ولا غبار عليه .

وبعد . . . فشهادة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وشهادة أمته يوم القيامة يثبت بها شرف عظيم له عليه الصلاة والسلام ولهذه الأمة ، فإنّ اللّه تعالى يصدّق قوله يوم القيامة على أمته في دعوى تبليغه إياها ، لكن سائر المرسلين مع عصمتهم سوف يحتاجون لإثبات ما يدّعون على أقوامهم إلى من يشهد لهم بين يدي اللّه عزّ وجلّ .

وكذلك هذه الأمة شرّفها اللّه بأن جعلها أهلا للشهادة على سائر الأمم ، فهي تشهد على الناس جميعا ، ولا يشهد عليها أحد منهم ، إنما الذي يشهد عليها هو نبيّها الذي هو أشرف الخلق أجمعين . وفي هذا فضل كبير .

وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ورد أنه يؤتى بالأمم وأنبيائهم فيقال للأنبياء : هل بلغتم أممكم ، فيقولون : نعم بلغناهم ، فينكرون فيؤتى بهذه الأمة فيشهدون أنّهم قد بلغوا ، فتقول الأمم لهم : من أين عرفتم ، فيقولون : عرفنا ذلك بإخبار اللّه تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق .

فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ قد سبق لك معنى إقامة الصلاة . أما الاعتصام فمعناه اتخاذ العصمة ، وهي ما يعصم الشيء ويمنعه مما يضره . فالاعتصام باللّه هو الثقة به ، والالتجاء إليه ، والاستعانة بقوته العظمى على دفع كلّ مكروه ، وقيل : إن الاعتصام باللّه هو الاستمساك بدينه والتزام شريعته .

وهذه الجملة مرتبة بالفاء على ما قبلها ، من اجتباء المخاطبين ، وتسميتهم مسلمين ، وتشريفهم بقبول شهادتهم على الأمم .

وقد ختم اللّه الأوامر في هاتين الآيتين بالأمر بإقام الصلاة مع سبق الأمر بها في قوله تعالى : ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا على ما علمت ، ثم عطف عليه الأمر بإيتاء الزكاة لما تقدم لك كثيرا من أنهما أصل الخير وأسّ الفلاح ، ثم أتبعهما الأمر بالاعتصام به سبحانه وتعالى ، فإن هذا الاعتصام هو مبعث القوة ، وهو سبيل الفوز ، فمن استنصر باللّه نصره ، ومن لاذ بحماه أمّنه ، ومن استعان بقوته يسّر له أمره ، وأمكنه مما يريد .

هُوَ المولى يطلق على معان : منها المالك ، والناصر ، والمعتق ، والجار ، وابن العم ، والحليف . وأولاها الأول ، وفي هذه الجملة هُوَ مَوْلاكُمْ عدة جميلة ،

(195/518)

تشدّ العزم ، وتقوّي القلب ، وتوجب الاطمئنان وحسن الاعتماد على اللّه ، وهي في منزلة العلة لما قبلها من الأمر بالاعتصام ، فلذلك فصلت عنه .

والمعنى : ثقوا باللّه ، والجؤوا إليه ، واحتموا بحمايته ، لأنّه هو مالككم وخالقكم ، يغار عليكم ، ويحفظكم ، ويدفع المكروه عنكم .

فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ النصير العظيم النصرة ، الكامل المعونة .

والمخصوص بالمدح ضمير يرجع إلى اللّه تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 492. 528 ﴾

(196/518)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الحجّ» (22)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ «الحج» يكسر أوله ويفتح . .

«يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ»

(2) أي تسلو وتنسى ، قال كثيّر عزّة :

صحا قلبه يا عزّ أو كاد يذهل «1»

«2» [589] أي يصحو ويسلو . .

«مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ» (5) أي مخلوقة . .

«ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا» (5) مجازه أنه فى موضع أطفال والعرب تضع لفظ الواحد فى معنى

الجميع قال «3» :

فى حلقكم عظم وقد شجينا

(99) وقال عبّاس بن مرداس :

فقلنا أسلموا إنا أخوكم فقد برئت من الإحن الصدور

(100)

---

(1) . - 4 - 6 «أي . . . يذهل» : رواه ابن حجر عنه فى فتح الباري 8/ 325 .

(2) . - 589 : صدر بيت تمامه :

وأضحى يريد الصرم أو يتدلل

فى ديوانه 2/ 28 ، والكامل للمبرد ص 418 والطبري 17/ 80 .

(3) . - 10 «قال» : القائل مسيب بن زيد بن مناة الغنوي

(197/518)

وفى آية أخرى «وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ» (4/66) أي ظهراء وقال :

إن العواذل ليس لى بأمير

«1» [590] أراد أمراء : .

«أَرْذَلِ الْعُمُرِ» (5) مجازه أن يذهب العقل ويخرف . .

«وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً» (5) أي يابسة لا نبات فيها ويقال :

ويقال رماد هامد إذا كان يدرس . .

«زَوْجٍ بَهِيجٍ» (5) أي حسن قشيب جديد ويقال أيضا بهج . .

«وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ» (7) أي يجيء . .

«ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ» (9) يقال جاءني فلان ثاني عطفه أي يتبختر من التكبر «2» «3»

، قال الشّمّاخ :

---

(1) . - 590 : عجز بيت مع صدره في القرطبي 12/ 11 وشواهد المغني ص

191 من غير عزو

(2) . - 10 - 11 «يقال . . . التكبر» : انظر هذا الكلام في الطبري 17/ 84 .

(3) . - 592 : البيت من كلمة في الأغاني 15/ 111 وهو مروي هكذا :

ماذا عليك من الوقوف بهامد وإنك غير صاغر .

نبّئت أن ربيعا أن رعى إبلا يهدى إلىّ خناه ثانى الجيد

«1» [593] قال أبو زبيد :

فجاءهم يستنّ ثانى عطفه له غيب كأنما بات يمكر

«2» [594] .

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ» (11) كل شاك فى شىء فهو على حرف لا يثبت ولا يدوم «3» وتقول : إنما أنت لى على حرف ، أي لا أثق بك .

«لَبِئْسَ الْمَوْلى » (13) مجازه ها هنا ابن العم ، «وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ» (13) الخليط المعاشر

. .

«مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ» (15) مجازه أن لن يرزقه اللّه وأن لن يعطيه اللّه ، قال وقف علينا سائل من بنى بكر على حلقة فى المسجد الجامع فقال : من ينصرنى نصره اللّه أي من يعطينى أعطاه اللّه «4» ويقال نصر المطر أرض كذا ، أي جادها وأحياها ، قال وبيت الراعي :

وانصرى أرض عامر

«5» [595]

---

(1) . - 593 : ديوانه ص 22 والكامل للمبرد ص 8 والسمط ص 214 .

[. . . . .]

(2) . - 594 : فى شعراء النصرانية 2/ 72 .

(3) . - 3 - 4 «كل . . . يدوم» : روى ابن حجر هذا الكلام عنه فى فتح الباري 8/ 336 .

(4) . - 8 - 9 «قال . . . أعطاه اللّه» : قال فى الجمهرة (2/ 360 : قال الأصمعى وأبو زيد وقف علينا أعرابى فقال انصروني نصركم اللّه أي أعطونى .

(5) . - 595 : قطعة بيت تمامه :

إذا أدبر الشهر الحرام فودعى بلاد تميم وانصرى أرض عامر

فى الجمهرة 2/ 359 واللسان والتاج (نصر) .

(199/518)

أي تعمدى ، وقال الراعي :

أبوك الذي أجدى علىّ بنصره فانصت عنى بعده كلّ قائل

«1» [596] أي بعطيّته وقال :

وإنك لا تعطى امرأ فوق حظه ولا تملك الشقّ الذي الغيث ناصره

«2» [597] .

«فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ» (15) أي بحبل . .

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ» (17) مجازه : اللّه يفصل بينهم ، و«إن» من حروف الزوائد والمجوس من العجم «وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا» من العرب ، وقال آخرون : قد تبدأ العرب بالشيء ثم تحوّل الخبر إلى غيره إذا كان من سببه كقول الشاعر :

فمن يك سائلا عنى فإنى وجروة لا ترود ولا تعار

(276) بدأ بنفسه ثم خبرّ عن فرسه وقال الأعشى :

وإن إمراء أهدى إليك ودونه من الأرض موماة وبيداء سملق (277)

لحقوقة أن تستجيبى لصوته وأن تعلمى أن المعان موقّف

بدأ بالمهدي ثم حوّل الخبر إلى الناقة : .

«يُصْهَرُ بِهِ» (20) يذاب به ، قال الشاعر :

شكّ السّفافيد الشّواء المصطهر

«3» [598]

---

(1) . - 596 : فى الجمهرة 2/ 360 من عزو .

(2) . - 597 : نسب البيت فى الطبري (17/ 87) والقرطبي 12/ 22 للفقعسى .

(3) . - 598 : الشطر فى ديوان المجاج ص 19 والطبري (17/ 92) واللسان والتاج (صهر) .

(200/518)

ومنه قولهم : صهارة الألية «1» وقال ابن أحمر :

تروى لقى ألقى فى صفصف تصهره الشمس فما ينصهر

«2» [599] تروى : تصيّر له راوية لفراخها كما يروى راوية القوم عليهم وهو البعير والحمار . .

«وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ» (23) مجازه لبوسهم ، قال أبو كبير الهدلىّ :

ومعى لبوس للبئيس كأنه روق بجبهة ذى نعاج مجفل

(585) أي مسرع ، ذو نعاج يعنى الثور . .

«سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ» (25) أي المقيم فيه «وَالْبادِ» : الذي لا يقيم فيه .

«وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ» (25) مجازه ومن يرد فيه إلحادا والباء من حروف الزوائد وهو الزيغ والجور والعدل عن الحق وفى آية أخرى «مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ» (23/ 20) مجازه تنبت الدهن والعرب قد تفعل ذلك قال الشاعر

بواد يمان ينبت الشّثّ صدره وأسفله بالمرخ والشّبهان

«3» [600]

---

(1) . - 1 «صهارة الألية» : يقال لما أذيب من الشحم : الصهارة والجميل وما أذيب من الأولية فهو حم إذا لم يبق فيه الودك (اللسان)

(2) . - 599 : فى الطبري 17/ 92 والقرطبي 12/ 27 واللسان والتاج (صهر) .

(3) . - 600 : البيت فى الطبري 17/ 94 والجمهرة 1/ 45 ، 3/ 414 واللسان (شت ، شبه) والاقتضاب ص 457 والقرطبي 12/ 36 . قال ابن دريد : قال الشاعر امرؤ القيس وذكر الاصبهانى أنه ليعلى الأحول - كما هو مذكور فى الاقتضاب ، وقال فى اللسان : قال رجل من عبد القيس قال ابن برى قال أبو عبيدة للأحول اليشكري واسمه يعلى قال وتقديره وينبت أسفله المرخ على أن تكون الباء زائدة . . إلخ .

(201/518)

المعنى : وأسفله ينبت المرخ قال :

حوءبة تنقض بالضّلوع

«1» (601) أي تنقض الضلوع والحوأبة الدلو العظيم ، يقال إنه لحوب البطن أي عظيمة

قال الأعشى :

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا ملء المراجل والصريح الأجردا

«2» (602) أي ضمنت رزق عيالنا أرماحنا والباء من حروف الزوائد . .

«وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ» (26) مجازه من قوله :

ليتنى كنت قبله قد بوّأت مضجعا

(603) ويقال للرجل : هل تبوّأت بعدنا أي هل تزوجت . .

«وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ» (27) قوم يفتحون أول الحجّ وقوم يكسرونه وواحد الرجال راجل بمنزلة صاحب والجميع صحاب وتاجر والجميع تجار والقائم والجميع قيام يأتوك مشاة وعلى كل ضامر أي ركبانا «يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ»

(27) أي بعيد قال :

يقطعن بعد النازح العميق

«3» (604) .

«فَجٍّ» أي مسلك وناحية

---

(1) . - 601 : الجمهرة 1/ 231 واللسان والتاج (حوب) .

(2) . - 602 : ديوانه ص 154 والطبري 17/ 94 واللسان والتاج (جرد) وشرح أدب الكاتب للجواليقى ص 380 .

(3) . - 605 : فى الكامل للمبرد ص 65 ، 224 والطبري 18/ 10 والاقتضاب ص 458 والقرطبي 12/ 35 والخزانة 4/ 160 .

(202/518)

«مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ» (28) خرجت مخرج «يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا» (22/ 5) والهائم : الأنعام والدواب . .

«ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ «1»» (29) وهو الأخذ من الشارب وقصّ الأظفار ونتف الإبط والاستحداد وحلق العانة . .

«الزُّورِ» (30) الكذب . .

«سَحِيقٍ» (31) والسحيق البعيد وهو من قولهم أبعده اللّه وأسحقه وسحقته الرّيح ، ومنه نخلة سحوق أي طويلة ويقال : بعد وسحق وقال ابن قيس الرقيّات :

كانت لنا جارة فأزعجها قاذورة يسحق النّوى قدما

«2» [606] وقالوا يسحق ، والقاذورة : المتقذر الذي لا يخالط الناس لا تراه إلّا معتزلا من الناس والنوى : من السفر . .

«فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ» (36) أي مصطفّة وتصفّ بين أيديها «3» وهو من

المضاعف ، وبعضهم يجعلها من باب الياء فيقول صواف يتركون الياء من الكتاب كما يقول : هذا قاض ، وواحدتها صافية للّه .

---

(1) . - 3 «التفث» نقل القرطبي (12/ 29 ، 50) عن ابن العربي فى تفسير هذه الكلمة أنه قال : وهذه اللفظة غريبة لم يجد أهل العربية فيها شعرا ولا أحاطوا بها خبرا خيرا لكنى تتبعت «التفث» لغة فرأيت أبا عبيدة معمر بن المثنى قال إنه قص الأظفار . . . إلخ .

وروى ابن دريد تفسيره هذا عنه فى الجمهرة 2/ 2 . [. . . . .]

(2) . - 606 : فى الطبري 17/ 109 واللسان والتاج (سحق) .

(3) . - 12 «مصطفة . . أيديها» : انظر الكلام فى الطبري 17/ 109 .

(203/518)

«فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها» (36) أي سقطت ، ومنها وجوب الشمس إذا سقطت لتغيب ، وقال أوس بن حجر :

ألم تكسف الشمس والبدر وال كواكب للجبل الواجب

«1» [608] أي الواقع : .

«وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ» (36) مجازه السائل الذي قنع إليكم تقدير فعله: ذهب يذهب ومعناه سأل وخضع «2» ومصدره القنوع، قال الشّمّاخ:

لمال المرء يصلحه فيغنى مفاقره أعفّ من القنوع

«3» [609] أي من الفقر والمسألة والخضوع. والمعترّ الذي يعتريك يأتيك لتعطيه تقول: اعترّني وعرّني واعتريته واعتقيته إذا ألممت به قال حسّان:

---

(1). - 608: ديوانه رقم 3 وهو فى الطبري 17/ 108 والسمط ص 466 والقرطبي 12/ 63.

(2). - 1 «وكل . . . فزع» الذي ورد فى الفروق: رواه ابن دريد عن أبى عبيدة فى الجمهرة 1/ 215.

(3). - 609: ديوانه ص 56 والطبري 17/ 110 والجمهرة 3/ 132 والقرطبي 12/ 64 واللسان (قنع).

لعمرك ما المعترّ يأتى بلادنا لنمنعه بالضائع المتهضّم

«1» [612] وقال لبيد فى القنوع:

وإعطائى ال مولى على حين فقره إذا قال أبصر خلّتى وقنوعى

«2» [613] وأما القانع فى معنى الراضي فإنه من قنعت به قناعة وقناعا وقنعا ، تقديره علمت ، يقال من القنوع : قنع يقنع قنوعا ، والقانع قنع يقنع قناعة وقنعانا وقنعا وهو القانع الراضي . .

«الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ» (40) مجازه مجاز المختصر الذي فيه ضمير كقولك : إلا أنهم يقولون الحق . .

«لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ» (40) مجازها مصلّيات «3» . .

«كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ» (42) قوم ، يذكّر ويؤنّث . .

«فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ» (45) الياء من فكأين مثقلة وهى قراءة الستة ويخففها آخرون قال ذو الرمّة :

---

(1) . - 612 : ديوانه ص 395 .

(2) . - 613 : ديوانه 1/ 50 .

(3) . - 10 «بيوت . . . أسفارهم» الذي ورد فى الفروق : رواه القرطبي (12/ 71) عن أبى عبيدة .

وكائن تخطّت ناقتى من مفازة وهلباجة لا يطلع الهمّ رامك

«1» [614] أي يطلب ومعناها وكم من قرية . .

«وَقَصْرٍ مَشِيدٍ» (45) مجازه مجاز مفعول من «شدت نشيد» أي زيّنته بالشّيد وهو الجصّ والجيّار والملاط «2» الجيار الصاروج وهو الكلس وقال عدى ابن زيد العبادىّ .

شاده مرمرا وجلّله كلسا فللطير فى ذراه وكور

«3» [615] وهو الكلس وقال :

كحيّة الماء بين الطّىّ والشّيد

«4» [616] .

«لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا» (59) الميم مضمومة لأنها من «أدخلت» والخاء مفتوحة وإذا كان من دخلت فالميم والخاء مفتوحتان .

---

(1) . - 614 : ديوانه ص 424 . - الهلباجة : الأهوج الفاجر : الدامك : مقيم الذي لا يبرح (شرح الديوان) .

(2) . - 4 «الملاط» : الطين الذي يجعل بين صافى البناء ويملط به الحائط (اللسان) .

(3) . - 615 : من كلمة فى الأغانى 2/ 17 - 40 وشعراء النصرانية 1/ 456

وهو فى الكامل للمبرد ص 58 والطبري 17/ 116 والقرطبي 12/ 74 واللسان والتاج (شيد) .

(4) . - 616 : البيت للشماخ فى ديوانه ص 25 والجمهرة 2/ 271 واللسان والتاج (غمر) .

(206/518)

«يَكادُونَ يَسْطُونَ» (72) أي يفرطون عليه ومنه السطوة . .

«بِشَرٍّ مِنْ ذِلِكُمُ النَّارُ» (72) مرفوعة على القطع من شركة الباء ولكنه مستأنف خبّر عنه ولم تعمل الباء فيه وقال :

«و بلد بآله مؤزّر إذا استقلوا من مناخ شمّروا

«1» «2» «3» [617] وإن بدت أعلام أرض كبّروا مؤزر مرفوع على ذلك القطع . .

«ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» (74) مجازه ما عرفوا اللّه حق معرفته ، ولا وصفوه مبلغ صفته . .

«فَنِعْمَ الْمَوْلى» (78) أي الرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 44.

﴿ 54

---

(1) . - 617 : نسبت الاشطار فى حاشية لرؤية ولم أجدها فى مظانها .

(2) . - 619 : فى اللسان (منى) . [. . . . .]

(3) . - 620 : فى اللسان (منى) .

(207/518)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الحج»

[سورة الحج (22) : الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)

قوله تعالى : يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ [1] .

وهذه استعارة . لأن حقيقة الزلزلة هى حركة الأرض على الحال المفزعة . ومثل ذلك

قولهم :

زلزل اللّه قدمه . وكان الأصل : أزلّ اللّه قدمه . بمعنى أزالها عن ثباتها واستقامتها ، وأسرع تعثرها وتهافتها . ثم ضوعف «1» ذلك ، فقيل : زلزل اللّه قدمه . كما قيل : دكّه اللّه ، ودكدكه . فالمراد بزلزلة الساعة- واللّه أعلم- رجفان القلوب من خوف . . . «2» وزلات الأقدام من روعة موقعها . ويشهد بذلك قوله سبحانه : وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى

«3» [2] يريد تعالى من شدة الخوف والوجل ، والذهول والوهل .

[سورة الحج (22) : آية 5]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)

وقوله سبحانه : وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً ، فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [5] وهذه استعارة . لأن المراد هاهنا باهتزاز الأرض- واللّه أعلم- تشبيهها بالحيوان الذي همد بعد حراكه ، وخشع بعد تطالّه وإشرافه ، لعلّة «4» طرأت عليه ،

فأصارته إلى ذلك ، ثم أفاق من تلك الغمرة ، وصحا من تلك السّكرة ، فتحرك بعد همود ه ، واستهب «5» بعد ركوده . وكذلك حال الأرض إذا أماتها الجدب ، وأهمدها المحل ثم حالها إذا نضحها الغيث بسجاله ، وبلّها القطر ببلاله ،

---

(1) التضعيف فى تصريف الأفعال معروف مثل : زلزل فى زل ، وصلصل فى صل .

(2) هنا بياض بالأصل .

(3) سورة الحج . الآية رقم 2 .

(4) في الأصل : (لعله) وهو تحريف .

(5) كذا بالأصل .

(208/518)

واهتزت بالنبات ناضرة ، ورطبت بعد الجفوف متزيلة «1» ذلك تقدير العزيز العليم .

[سورة الحج (22) : آية 9]

ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ (9)

وقوله سبحانه : ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [9] وهذه استعارة .

والمراد بها - واللّه أعلم - الصفة بالإعراض عن سماع الرشد ، ولىّ العنق عن اتباع الحق .

لأن المستقبل لسماع الشيء الذي لا يلائمه فى الأكثر يصرف دونه بصره ، ويثنى عنه عنقه .

والعطف : جانب القميص ، وبه سمى شق الإنسان عطفا ، لأن منه يكون ابتداء انعطافه ، وأول انحرافه . ومثل ذلك قوله سبحانه : وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ «2» .

[سورة الحج (22) : آية 11]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (11)

وقوله سبحانه : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ [11] وهذه استعارة . والمراد بها - والله أعلم - صفة الإنسان المضطرب الدين ، الضعيف اليقين ، الذي لم تثبت «3» فى الحق قدمه ، ولا استمرت عليه مريرته ، فأوهى شبهة تعرض له ينقاد معها ، ويفارق دينه لها ، تشبيها بالقائم على حرف مهواة . فأدنى عارض يزلقه ، وأضعف دافع يطرحه .

[سورة الحج (22) : الآيات 18 الى 19]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ

مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (18) هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (19)

وقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ [18] الآية.

وهذه استعارة.

والمراد - والله أعلم - بسجود الشمس والقمر والنجوم والشجر وما ليس بحيوان مميز ما يظهر فيه من آثار الخضوع لله سبحانه، وعلامات التدبير، ودلائل التصريف

---

(1) هكذا بالأصل. ولم أدر وجه الصواب فيه. [.....]

(2) سورة الإسراء. الآية رقم 83 وسورة فصلت. الآية رقم 51.

(3) فى الأصل: (لم يثبت) وهو تحريف من الناسخ. فالقدم مؤنثة.

والتسخير، فيحسن لذلك أن يسمّى ساجدا على أصل السجود فى اللغة، لأنه الخضوع والاستكانة. أو يكون ذلك على معنى آخر، وهو أن الذي يظهر فى الأشياء التي عدّدها، من دلائل الصنعة، وأعلام القدرة، يدعو العارفين الموقنين إلى السجود، ويبعثهم على

الخضوع، اعترافا له سبحانه بالاقتدار، وإخباتا له بالإقرار. وذلك كما تقدّم من قولنا فى تسبيح الطير والجبال.

وقوله سبحانه: فَالَّذِينَ «1» كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ [19] وهذه استعارة.

والمراد بها أن النار- نعوذ باللّه منها- تشتمل عليهم اشتمال الملابس على الأبدان، حتى لا يسلم منها عضو من أعضائهم، ولا يغيب عنها شىء من أجسادهم.

وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك- واللّه أعلم- أن سرابيل القطران التي ذكرها سبحانه، فقال سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ «2» إذا لبسوها واشتعلت النار فيها صارت كأنها ثياب من نار، لإحاطتها بهم واشتمالها عليهم.

[سورة الحج (22): آية 46]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

وقوله سبحانه: فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ، وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [46]

وهذه استعارة. لأن المراد بها ذهول القلوب عن التفكر فى الأدلة التي تؤدى إلى العلم.

وذلك فى مقابلة قوله تعالى: ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى «3» فإذا وصف القلب عند تبيين الأشياء بالرؤية «4» والإبصار، جاز أن يوصف عند الغفلة والذهول

---

(1) فى الأصل: «والذين» بالواو، وهو تحريف من الناسخ.

(2) سورة إبراهيم . الآية رقم 50 .

(3) سورة النجم الآية رقم 11 .

(4) فى الأصل : «بالروية بدون همز الواو . وهو تحريف يضيع المعنى .

(210/518)

بالعمى والضلال . وإنما جعلت القلوب ها هنا بمنزلة العيون ، لأن بالقلوب يوصل إلى المعلومات ، كما أن بالعيون يوصل إلى المرئيات . ولأن الرؤية «1» ترد فى كلامهم بمعنى العلم .

ألا تراهم يقولون : هذا الشيء منى بمرأى ومسمع . أي بحيث أعرفه وأعلمه ، ولا يريدون بذلك نظر العين ، ولا سمع الأذن .

وفى قوله سبحانه : فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ معنى عجيب ، وسر لطيف . وذلك أن سبحانه لم يرد نفى العمى عن الأبصار جملة . وكيف يكون ذلك وما يعرض من عمى كثير منها أشهر من أن نومئ «2» إليه ، وندل «3» عليه ؟ وإنما المراد - والله أعلم - أن الأبصار إذا كانت معها آلة الرؤية من سلامة الأحداق ، واتصال الشعاعات لم يجز أن لا ترى ما لا مانع لها من رؤيته . والقلوب بخلاف هذه الصفة بها ، قد يكون فيها آلة التفكر والنظر

من سلامة البنية ، وصحة الروية وزوال الموانع العارضة ، ثم هى مع ذلك لاهية عن النظر ، ومتشاغلة عن التفكر . فلذلك أفردها اللّه سبحانه بصفة العمى عن الأبصار على الوجه الذي بيّناه مع الفائدة .

فأما الفائدة فى قوله سبحانه : وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [46] والقلب لا يكون إلا فى الصدر ، فإن هذا الاسم الذي هو القلب لما كان فيه اشتراك بين مسمّيات كقلب الإنسان ، وقلب النخلة ، والقلب الذي هو الصميم والصريح . من قولهم هو عربىّ «4» قلبا ، والقلب الذي هو مصدر قلبت الشيء أقلبه قلبا ، حسن أن يزال اللّبس بقوله تعالى : الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ احترازا من تجويز الاشتراك .

---

(1) فى الأصل : «الروية» وهو تحريف سبق فى رقم 3 .

(2) فى الأصل «يومى» بدون نقط .

(3) فى الأصل : «ويدل» بدون نقط .

(4) فى الأصل «عرى» وهو تحريف من الناسخ . وفى «الأساس» للزمخشرى : هو أعرابى قلب . أي محض واسط فى قومه .

[سورة الحج (22) : آية 55]

وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)

وقوله سبحانه : حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ، أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ [55] . وهذا من أحسن الاستعارات . لأن العقيم المرأة التي لا تلد ، فكأنه سبحانه وصف ذلك اليوم بأنه لا ليل بعده ولا نهار ، لأن الزمان قد مضى ، والتكليف قد انقضى . فجعلت الأيام بمنزلة الولدان للّيالى ، وجعل ذلك اليوم من بينها عقيما ، لأنه لا ينتج ليلا بعده ، ولا يستخلف بدلا له . وقد يجوز أيضا أن يكون المراد - واللّه أعلم - أن ذلك اليوم لا خير بعده لمستحقى العقاب الذين قال اللّه سبحانه فى ذكرهم : وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً الآية ، فوصفه بالعقم لأنه لا ينتج لهم خيرا ، ولا ينتج لهم فرحا .

[سورة الحج (22) : آية 72]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72)

وقوله سبحانه : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ [72] . وهذه استعارة . والمراد بها - واللّه أعلم - أن الكفار عند مرور الآيات بأسماعهم يظهر فى وجوههم من النكرة لسماعها والإعراض عن تأملها ، ما لا يخفى على المخالط لهم ،

والناظر إليهم . وذلك كقول القائل : عرفت فى وجه فلان الشرّ . أي استدللت منه على اعتقاد المكروه ، وإرادة فعل القبيح .

ويحتمل قوله تعالى : «المنكر» هاهنا وجهين : أحدهما أن يكون المنكر ما ينكره الغير من أمرهم . والآخر أن يكون ما ينكرونهم هم من الهجوم عليهم ، بتلاوة القرآن . وصوادع البيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 236 . 240 ﴾

(212/518)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الحج

بدأت سورة الحج بنداء عاطفى مثير للذعر ، لأنه يحمل فى أطوائه بعض أهوال القيامة ! " يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى . . . " . وقد جاء فى السنة أن الزلازل تهيج قبيل قيام الساعة ، ومعها براكين تلفظ ما فى باطن الأرض من معادن ! يلتقطها الناس وهم فيها زاهدون . كأن هذه الحركة صحوة الموت ، أو

انتفاضة الوداع الأخير . . . ! وبعد هذا الوصف نداء عقلى يوقظ العقل الخامل ، أو يقتل الريبة المخامرة: " يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم . . . " . الريبة فى البعث أساسها الغفلة الشديدة عن قصة الحياة والأحياء ، وظن الجهال أن البعث عمل مستقبلى لا يشهد له ماض أو حاضر . ! فى كل يوم ، بل فى كل طرفة عين بعث ! ! يتولاه الله وحده ، فلماذا نستبعد عليه البعث الأخير ؟ . هذه الأجنة التى تقذف بها الأرحام فى كل لحظة بعث لا أثر فيه لقدرة بشر ! . من خالق الحيوان المنوى ؟ من الذى يحوله فى أطواره المتتابعة حتى يكون جنينا مكتمل الحواس ، ومن الذى يخرجه من بطن أمه بعدئذ . لتتعامل رئتاه مع هواء الدنيا ، ولتتعامل عيناه مع الأشعة والأضواء ؟ ؟ . من الذى زوده بالخصائص الوراثية المذهلة ؟ . إن القصة لا تعنى حياة جنين واحد زار الدنيا فى ساعة من ليل أو نهار ، إنها ألوف من الأجنة تستبقى الحياة البشرية موصولة التيار فى بحرها الموار . . وندع الحديث عن الأحياء البشرية وغير البشرية التى تغمر البر والبحر إلى حديث آخر " وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج " .

(213/518)

كيف ينشق الثرى عن الحبوب والفواكه ؟ لماذا نصدق هذا البعث ونستبعد البعث الآخر ؟ من هذا التراب الميت الذى تدوسه أقدامنا تخرج سنابل الآرز والقمح حاملة أغذيتنا التى نعيش بها ، حاملة عناصر الحياة المختلفة من نشا وسكر ودهن وزلال وأملاح ومعادن وفيتامينات ! . هذا واقع لايمكن إنكاره ، فمن النتن الممجوج والحمأ المسنون تخرج حلوى وورود وأزهار حلوة الطعوم والروائح ! ! . من صانع هذا كله ؟ ولماذا نستنكر على صاحب البعث الأول ! ، أن يعيد هذا البعث بعد حصاد الدنيا وانتهاء أجلها ؟ . ومن هنا يذكر القرآن النتائج التى لابد منها ، بعد النداءين العاطفى والعقلى: " ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور " . وكثير من الناس يثق من هذه النتائج تمشيا مع منطق العقل ونداء الفطرة ، ولكن آخرين يرفضون الإيمان ويرون حياتهم وليدة مصادفة عمياء ، ومصيرهم إلى مجهول أو إلى هباء ! . ومن الخطأ احترام نظرة هؤلاء ، وقد راجت شائعة بأن كثيرا من المفكرين ملاحدة ! وهذا كذب ، وقد أثبت الأستاذ العقاد فى كتابه " عقائد المفكرين " أن جمهرتهم من المؤمنين . إن الكفر بالله موجود بيد أنه لا يستند إلى أساس علمى أبدا ، ويغلب أن يرجع إلى غباء مستحكم ، أو خطأ فى الحساب ، أو شهوة غالبة ، أو غرور أعمى . إن إبليس كان يعلم أن الله حق عندما رفع راية التمرد عليه ، وانطلق فى الأرض عدوا له ! ! . وقد بدأت الآيات تشرح أنواع الكفر من قوله تعالى: " ومن

الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله . . . " إن الكافر يغدر بميثاق الفطرة المركوزة فى كيانه ، وبآيات الوحى المسوقة إليه ليتذكر ويرعوى ! ! ولست أرى أحقر من هذا الموقف ! . وهناك صنف آخر يربط إيمانه بما يصيبه من نفع ، فإن كان ناعم البال فهو مؤمن ، وإلا أعلن تمرده وعصيانه ! " ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير

(214/518)

اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين " . والمفروض أن فترة الحياة الموهوبة للإنسان فى هذه الدنيا هى فترة اختبار وتحميص ، يتقلب فيها بين ما يحب وما يكره ، إن أصابته سراء شكر ، وإن أصابته ضراء صبر ! ! أما أن يصف ما يصيبه بأنه " قدر أحمق الخطا " - كما يقول البعض - فهذا كفر محض . إن الإسلام انقياد لله ورضا بحكمه فيما يسر أو يسوء من عرف الله أزال التهمة وقال: كل فعله بالحكمة " إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور " . ويقول الشاعر: يود المرء أن يلقى مناة ويأبى الله إلا ما يشاء ! فمن استسلم لأقدار الله نجا ، وإلا فلينتحر إذا لم يعجبه القضاء " من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم

ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ " . وعلى أية حال فالمصير إلى الله ، وسينقلب إليه البشر كلهم ، وليس من أوصافه الظلم " إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد " . بعد هذه المقدمة الطويلة فى سورة الحج شرع القرآن الكريم يصف الصراع القائم فى الدنيا بين الإيمان والكفر ، بين الذين يحملون راية الحق والذين يحملون راية الباطل . وهذا الصراع جزء ضخم من الابتلاء الذى قامت عليه الحياة ، وامتاز به المجرمون والصالحون . لن ينشأ ود بين مؤمن بالله ومنكر له ، ولن يلتقيا فى نهج أو سيرة ! فهل يعنى ذلك أن تندلع الحرب بينهما حتما ؟ لا ، إن المؤمنين مكلفون بدعوة الجاحدين وبيان طريق الحق أمامهم ، ولا يجوز أن يتجاوزوا الحكمة والموعظة الحسنة ، فإن الله اختبر كلا الفريقين بالآخر ، ولا يسوغ أن نسقط فى هذا الاختبار ! . علينا أن نشرح الحق ونبسط أدلته ، ونجعل وجهة نظرنا ساطعة كالشمس ، فإن أبوا الدخول فيها اليوم تركناهم لأيام مقبلة ، وكنا فى معاملتهم منصفين أبدا . . ! ! . تلك كانت سيرة نبينا حتى نصره الله

(215/518)

على عدوه . إن هذا العدو لا يملك حجة لباطله ، ولكنه يستغل القوة المتاحة له فى إيذاء خصمه ، وقديما قيل للمرسلين: اسكتوا أو نخرسكم ! " وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم . . " . تلك هى طبيعة الخصومة القائمة بين أهل الإيمان ، وأهل الكفر ، والتى عبرت عنها السورة هنا بهذه الآية " هذان خصمان اختصموا في ربهم " والمروى فى السنة أنها نزلت فى معركة بدر ،

(216/518)

فى أول قتال بين فرسان الحق ، وفرسان الضلال ، وهو قتال ! وقع بعد خمسة عشر عاما من الملاينة والمحاسنة وتحفل المسلمين للأذى والضر . وقد شرحت ذلك الآيات التى جاءت بعدُ مبينة أن الأنبياء على مر العصور مروا بتلك المحنة ، وأن البيوت التى بنوها لعبادة الله ما ثبتت إلا بعد جهاد مرير تحمل أعباءه جند الحق " إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور * أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا " . إن

الأنبياء وأتباعهم لا يعرفون حرب العدوان التى يشنها البطر ، ولا يرتضون أن تسفح قطرة دم ظلما ، إنهم يقمعون البغى وحسب . وإنما يكتب الله النصر لهم لأنه نصر للمبادئ التى يمثلونها ، وليس دعما لأشخاصهم ! . وما هذه المبادئ التى يحملونها ؟ " الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور " . إن أتباع المرسلين لا يبحثون عن مال أو جاه وإنما هدفهم الأساسى أن تعرف القافلة البشرية ربها ، وتهتف باسمه ، وتعنو لمجده . ونلحظ أنه بين الآيات التى تحدثت عن القتال جاءت القضية التى نزلت السورة باسمها : قضية الحج ، فذكرت المناسك والشعائر ويظهر أن إيرادها لإفهام المشركين أنهم منحرفون عن دين إبراهيم الذى يزعمون الولاء له ، فهم مشركون ، وهو يدعو للتوحيد ، فأنى لهم علاقة به ؟ . إنهم خونة لميراثه وإن ادعوا حراسته ! ! ثم هم يصدون الموحدين عن البيت العتيق ، فيضمون إلى غمط الحق ظلم أتباعه " إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم " . فمقاتلة أولئك المعتدين خصومة شريفة لا نلام عليها ولا نحمل تبعاتها . والمتأمل فى أفعال الحج يلحظ فيها

كلها أنها تظاهرة كبرى اختار القدر زمانها ومكانها لدعم التوحيد وغرسه فى القلوب ، وجمع الناس فى المشارق والمغارب على معانيه . وقد بدأ بذلك إبراهيم من قرون سحيقة " وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا . . . " وقد سمعت بعض الناس يقول فى المناسك: إن الله اختبرنا بما نعقل فآمنا ! فشاء أن يختبرنا بما لا نعقل ! ! .

وهذا خطأ كبير ، فليس فى أفعال الحج ما يناقض العقل ! ! هل فى مطالبة العباد بتقدير البيت الأول على ظهر الأرض ما ينافى العقل ؟ . قد تقول: فما معنى الطواف به ؟ ونجيب بأن الطواف صلاة تجب له الطهارة ، ويمتلىء بالتسبيح والتحميد والابتهال ! إن هناك فارقا بين ما يتواضع الناس على فعله إبرارا لمعنى معين ، أو التزاما بمبدأ معين ، وبين ما ينافى العقل ويحكم برفضه ! . فنحن نكتب من اليمين إلى اليسار ، والأوربيون يكتبون من اليسار إلى اليمين ، والصينيون يكتبون من فوق إلى تحت ، فما صلة العقل بهذا الخلاف ؟ . ونحن وكثير من الناس نلتزم اليمين فى السير ، والإنجليز يلتزمون اليسار فى السير ، ولا صلة للعقل بهذا الخلاف . إن ما نتواضع عليه ونجعله مقرونا بدلالة خاصة لا يحكم العقل فيه بوفاق أو خلاف ، وأفعال الحج من هذا القبيل ، فنحن نزور أول بيت بنى حصنا للتوحيد . فلماذا تنكر قيمة الأولية هنا ؟ ولماذا لا ترتبط المساجد فى القارات الخمس به ؟ " وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس

الفقير" . ومن الممكن بالوسائل الحديثة إطعام " الملايين " المحتاجين إلى اللحوم ، من أهل مكة أو من سائر المدن والقرى " والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر . . . " . إن المناسك التى شرحتها هذه السورة توكيد إنسانى قوى لمعنى التوحيد ،

(218/518)

وحشد للجماهير تحت رايته " فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور * حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق " . وفى بناء الأمم صاحبة الرسالة لابد من اختلاط تاريخها بعبادتها ، وذكرياتها بسيرتها ، وعواطفها بفكرها " ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب" . البلاء المقرون بالحياة البشرية منذ نشأتها بلاء معقد صعب: فإنه ما قام داع للحق والخير إلا انتصب أمامه دعاة للباطل والشر يريدون إبطال سعيه ، وتعويق خطوه ، وتظل الحرب بينهما أمدا يستفرغ الجهد

(219/518)

وقد يأذن القدر فى هذه الحرب بهزيمة الحق – لحكمة عليا – فترى مساجد تحولت إلى متاحف أو مخازن أو اصطبلات ! ! . وفى عصرنا هذا هدم الهنادك مسجد " بابرى " بالهند ! قالوا : إنه موضع ولادة إله لهم اسمه "مايا " ويبدو أنه إله حديث الولادة ! ! . وقد قتل مسلمون كثيرون وهم يدافعون عن المسجد ليبقى نداء التوحيد يعلو قبابه ومحاريبه ، لقد ذهبوا شهداء ، ولا تزال المعركة محتدمة ! . والمستقبل غيب ولكن على المسلمين أن يثابروا ويصابروا ، فإن الكلمة الأخيرة لهم وليسمعوا مواساة الله لنبيه " وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير " ؟ . ثم تمتد المواساة لتكشف أن للزمن حسابا آخر عند الله ، فقد يشهد جيل الهزيمة ، ثم بعد أعصار يشهد جيل آخر النصر " ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون " . إن العبء الملقى على الرسول أن يبلغ البلاغ الواضح الذى يقطع المعذرة ، حتى لا تبقى لأحد الكافرين حجة " قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين * فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم * والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم " . ثم يبين الله لنبيه ولنا أن المرسلين يبذلون جهدهم لنصرة الحق ، حتى ليكاد عباد الأصنام أن تنشرح به صدورهم ، ولكن سرعان ما تعترضهم الشياطين

بوساوسها ، فينكسون على رءوسهم ويقولون تعليقا على جهد الرسول معهم : " إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها . . . " لقد كادوا يسلمون ! ! . لولا أن شياطين الجن والإنس أدركوهم وثنوا زمامهم ! ! " وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا " وهذا الزخرف من القول الذى يضل به الغاوون سمى هنا إلقاء الشيطان " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم

(220/518)

يحكم الله آياته والله عليم حكيم " . وإلقاء الشيطان قد يكون الشغب على الحقيقة ومحاولة طمسها من المدافعين عن الباطل ، وقد

رأينا من إعلام المرجفين وكلمات المبطلين ما يهد الجبال ، ولكن الله يبطل كيدهم ويكشف زورهم ، ويجعل الحق يخرج من المعركة سليما منزها . . وقد يكون إلقاء الشيطان فى رسالات الله ما ينضم إليها من بدع وأهواء وانحرافات جاءت من الدهماء أو من السلاطين ، فشوهت حقيقة الدين وجعلت البعض ينصرف عنه ويسيء الظن به ! ! . وأيا ما كان الأمر فإن هذا الإلقاء فقاعات توشك أن تتلاشى ، ويبقى الحق وضئ الوجه ، ويبقى

أصحابه بيدهم الأمر والنهى ! ! . ولا نذكر هنا خرافة الغرانيق ، فهى أكذوبة ينخدع بها الأغبياء ، كما سنبين - إن شاء الله - عند بلوغ سورة النجم . . . مما يعين على حسن الدعوة وصدق الجهاد أن نعرف قدر من ندعو إليه ونجاهد فى سبيله ، فإن الساعى لإعلاء كلمة الله شخص آخر غير الساعى لمآرب الدنيا ، ونزوات الحياة ! . لذلك حث الله نبيه على المضى فى طريق البلاغ " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير * له ما في السماوات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد " ومضت الآيات تتحدث عن عظمة الله وبدائع قدرته ، وعن استحقاقه وحده لأن يعبد فى الكون الكبير ! ! من يعبد من دونه ؟ بشر عاجز ؟ أو حجر أصم ؟ " ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير " . ثم يقول الله لنبيه : " لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم " . عندما نزل الأمر بالحج قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - للناس : " خذوا عنى مناسككم " فشرح لهم شعائرهم وأعمالهم كاشفا أن الحج - كما قلنا - تظاهرة كبرى يهتف فيها لله وحده ، ويتحول التوحيد من شعور يخامر الفؤاد إلى جؤار يملأ الأودية ، ويدوى فى الآفاق . ويذكر اسم الله على الذبائح التى يتقرب بها إليه ، " لن

ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم " . ورفض الرسول ـ صلوات الله عليه ـ أن يكون لقريش طريق تفيض منها وحدها ، كما رفض أن يكون دخول البيوت بعد العودة من ظهورها لا من أبوابها . . إن الحج إعلان رائع عن دولة الإيمان ، وإسقاط مخز لدولة الشرك ، ولذلك يقول الله هنا :

" لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم * وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون" . ويبلغ أمر التوحيد أوجه الأعلى ، وأمر الشرك دركه الأسفل فى قوله تعالى: " يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب " . وتختم سورة الحج ببيان الرسالة التى تضطلع بها الأمة الإسلامية ، أو بالكشف عن الوظيفة التى تقوم بها ، ورايتها التى ترفعها . إن الرسول ! تعلم من الله ، وهى تعلمت منه – عليه الصلاة والسلام – وعلى هذه الأمة أن تبلغ العالمين ما استفادت من رسولها الذى بلغها . فهو شاهد عليها ، وهى شهيدة على الناس ، إن الدول فى الحضارة الحديثة تعمل على رفع مستوى المعيشة ، أو تقاتل عصبية لجنسها ، أو تشغل نفسها بما يعلى شأنها على هذا التراب ! ! . أما الأمة الإسلامية فلها شأن آخر ، إنها تعبد الله وتدعو إلى عبادته ، وإذا كانت الطواغيت قد استذلت الناس قرونا فإن أمتنا مكلفة

بمجاهدة الطواغيت حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله " اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون * وجاهدوا في الله حق جهاده . . . " ثم يقول: "وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس . . " هل وعى المسلمون هذه الرسالة؟ ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 259.266 ﴾

(222/518)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع عشر بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/519)

الجزء التاسع عشر بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الحج

وحتى الآية ﴿ 5 ﴾ من نفس السورة

(4/519)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/519)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الحج

أقول: وجه اتصالها بسورة الأنبياء: أنه ختمها بوصف الساعة في قوله: (واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) وافتتح هذه بذلك ، فقال: (إنَّ زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كُلُ مُرضِعَةٍ عما أَرضعت وتضعُ كُلَ ذاتِ حملٍ حملها وترى الناسَ سُكارى وما هُم بسكارى) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 117 118.﴾

(6/519)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي اقتضت عظمته خضوع كل شيء (الرحمن) الذي عم برحمته وعدله كل موجود (الرحيم) الذي خص بفضله من شاء من ذوي عدله .

لما ختمت التي قبلها بالترهيب من الفزع الأكبر ، وطيّ السماء وإتيان ما يوعدون ، والدينونة بما يستحقون ، وكان أعظم ذلك يوم الدين ، افتتحت هذه بالأمر بالتقوى المنجية من هول ذلك اليوم فقال : (يا أيها الناس)

أي الذين تقدم أول تلك أنه اقترب لهم حسابهم ﴿ اتقوا ربكم ﴾ أي احذروا عقاب المحسن إليكم بأنواع الإحسان بأن تجعلوا بينكم وبينه وقاية الطاعات .

(7/519)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما افتتحت سورة الأنبياء بقوله تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ وكان وارداً في معرض التهديد ، وتكرر في مواضع منها كقوله تعالى : ﴿ إلينا ترجعون ﴾ [الأنبياء : 35] ﴿ سأوريكم آياتي فلا تستعجلون ويقولون متى هذا الوعد ﴾ [الأنبياء : 37] ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين يكفون عن وجوههم النار ﴾ [الأنبياء : 39] ﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ﴾ [الأنبياء : 46] ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ [الأنبياء : 47] ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ [

الأنبياء : 49] ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ [الأنبياء : 93] ﴿ واقترب وعد الحق ﴾ [الأنبياء : 97] ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ [الأنبياء : 98] ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب ﴾ [الأنبياء : 104] إلى ما تخلل هذه الآي من التهديد ، وشديد الوعيد ، حتى لا تكاد تجد أمثال هذه الآي في الوعيد والإنذار بما في الساعة وما بعدها وما بين يديها في نظائر هذه السورة ، وقد ختمت من ذلك بمثل ما به ابتدئت ، اتصل بذلك ما يناسبه من الإعلام بهول الساعة وعظيم أمرها ، فقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ﴾ - إلى قوله : ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ ثم اتبع ببسط الدلالات على البعث الأخير وإقامة البرهان ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ﴾ الآيات ، ثم قال ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي اطرد هذا الحكم العجيب ووضح من تقلبكم من حالة إلى حالة في الأرحام وبعد خروجكم إلى الدنيا وأنتم تعلمون ذلك من أنفسكم ، وتشاهدون الأرض على صفة من الهمود والموت إلى حين نزول الماء فنحيي ونخرج أنواع النبات وضروب الثمرات ﴿ يسقى بماء واحد ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى ﴾ كما أحياكم أولاً وأخرجكم من العدم إلى الوجود وأحيا الأرض بعد موتها وهمودها ، كذلك تأتي الساعة من غير ريب ولا شك ، ويبعثكم لما وعدكم من حسابكم وجزائكم ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ انتهى .

(8/519)

ولما أمرهم بالتقوى : علل ذلك مرهباً لهم بقوله : ﴿ إن زلزلة الساعة ﴾ أي التي تقدم التحذير منها في الأنبياء بدأ وختماً وما بين ذلك ، أي شدة اضطرابها وتحركها العنيف المزيل للأشياء عن مقارها إزالة عظيمة ، بما يحصل فيهما من الأصوات المختلفة ، والحركات المزعجة المتصلة ، من النفخ في الصور ، وبعثرة القبور ، وما يتسبب عن ذلك من عجائب المقدور ، وقت القيام ، واشتداد الزحام ، وذلك لأن " زلزل " مضاعف زل – إذا زال عن مقره بسرعة ، ضوعف لفظه لتضاعف معناه ؛ قال البغوي : الزلزلة والزلزال : شدة الحركة على الحال الهائلة – انتهى .

وهو من إضافة المصدر إلى الفاعل أو المفعول فيه ﴿ شيء عظيم ﴾ أي لا تحتمل العقول وصفه ؛ قال ابن كثير : أي أمر كبير ، وخطب جليل وطارق مفظع ، وحادث هائل ، وكائن عجيب – انتهى .

وهذا للزلزلة نفسها ، فكيف بجميع ما يحدث في ذلك اليوم الذي لا بد لكم من الحشر فيه إلى الله ليجازيكم على ما كان منكم ، لا ينسى منه نقير ولا قطمير ، ولا يخفى قليل ولا كثير ، مما تطير له القلوب ، ولا تثبت له النفوس ، فاعتدوا وجاهدوا أعداءكم من الأهواء والشياطين .

ولما كان المراد بالساعة القيام وما والاه ، جعل مظروفاً لذلك اليوم الذي هو من ذلك الوقت إلى افتراق الفريقين إلى داري الإبعاد والإسعاد ، والهوان والغفران ، فقال تعالى : ﴿ يوم ترونها ﴾ أي الزلزلة أو كل مرضعة ، أضمرها قبل الذكر ، تهويلاً للأمر وترويعاً للنفس ﴿ تذهل ﴾ أي تنسى وتغفل حائرة مدهوشة ، وهو العامل في " يوم " ويجوز أن يكون عامله معنى الكلام ، أي تستعظمون جداً ذلك اليوم عند المعاينة وإن كنتم الآن تكذبون ، ويكون ما بعده استئنافاً ودل بالسور على عموم تأثيره لشدة عظمته فقال : ﴿ كل مرضعة ﴾ أي بالفعل ﴿ عما أرضعت ﴾ من ولدها وغيره ، وهي من ماتت مع أبنها رضيعاً ، قال البغوي : يقال : مرضع ، بلا هاء - إذا أريد به الصفة مثل حائض وحامل ، فإذا أرادوا الفعل أدخلوا الهاء - يعني : فيدل حينئذ أنها ملتبسة به ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أي تسقطه قبل التمام رعباً وفزعاً ، وهي من ماتت حاملاً - والله أعلم ، فإن كل أحد يقوم على ما مات عليه ، قال الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام ، وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام - انتهى .

ويؤيد أن هذه الزلزلة تكون بعد البعث ما في الصحيحين وغيرهما : مسلم في الإيمان وهذا لفظه ، والبخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي سعيد الخدري ـ رضى الله عنهم ـ رفعه : " يقول الله عز وجل : يا آدم ! فيقول : لبيك وسعديك ! والخير في يديك ، قال : يقول : أخرج بعث النار ، قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، فذلك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها " الحديث والأحاديث في ذلك كثيرة ، ومعارضها ضعيف ، والمناسب أيضاً لما في آخر تلك من قوله ﴿ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ [الأنبياء : 97] وما تبعه أن هذه الزلزلة بعد القيام من القبور ﴿ يوم نطوي السماء ﴾ [الأنبياء : 104] ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : 1] إلى قوله : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ [الانفطار : 5] ويمكن أن يكون المراد هذا وما قبله لأن يوم الساعة طويل ، فنسبة الكل إليها على حد سواء .

ولما كان الناس كلهم يرون الزلزلة ، ولا يرى الإنسان السكر – إلا من غيره قال في الزلزلة ﴿ ترونها ﴾ وقال في ﴿ السكر ﴾ : ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ أي لما هم فيه من الدهش والحيرة والبهت لما شاهدوا من حجاب العز وسلطان الجبروت وسرادق الكبرياء ، ثم دل على أن ذلك ليس على حقيقته بقوله ، نافياً لما يظن إثباته بالجملة الأولى : ﴿ وما هم بسكارى ﴾ أي من الخمر .

ولما نفى أن يكونوا سكارى من الخمر ، أثبت ما أوجب لهم تلك الحالة فقال : ﴿ ولكن عذاب الله ﴾ ذي العز والجبروت ﴿ شديد ﴾ فهو الذي وجب أن يظن بهم السكر ، لأنه أذهب خوفه حولهم ، وطير هوله عقولهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 132.129 ﴾

(11/519)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ سكرى ﴾ في الحرفين على تأويل الجماعة : حمزة وعلي وخلف ﴿ ونقر ﴾ ﴿ ثم نخرجكم ﴾ بالنصب فيهما : المفضل ﴿ وربأت ﴾ بالهمزة حيث كان . يزيد ﴿ ليضن ﴾ بفتح الياء : ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿ خاسر الدنيا ﴾ اسم فاعل منصوباً على الحالية . روح وزيد ﴿ ثم ليقطع ﴾ ﴿ ثم ليقضوا ﴾ بكسر اللام فيهما : ابو عمرو وسهل ويعقوب وابن عامر وورش وافق القواس في ﴿ ليقضوا ﴾ وزاد ابن عامر ﴿ وليوفوا ﴾ ﴿ وليطوفوا ﴾ وقرأ الأعشى ﴿ وليوفوا ﴾ بالتشديد ، وقرأ أبو بكر

وحماد ﴿ وليوفوا ﴾ بالتشديد وسكون اللام. الباقون بالتخفيف والسكون ﴿ هذان ﴾ بتشديد النون: ابن كثير.

(12/519)

الوقوف: ﴿ ربكم ﴾ ج على تقدير فإن ﴿ عظيم ﴾ 5 ﴿ شديد ﴾ 5 ﴿ مريد ﴾ 5 لا لأن ما بعده صفة ﴿ السعير ﴾ 5 ﴿ لنبين لكم ﴾ ط لأن التقدير ونحن نقر ومن قرأ بالنصب لم يقف ﴿ اشدكم ﴾ ج لانقطاع النظم في اتحاد المعنى ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ بهيج ﴾ 5 ﴿ قدير ﴾ 5 لا للعطف ﴿ فيها ﴾ لا ﴿ القبور ﴾ 5 ﴿ منير ﴾ 5 لا لأن ما بعده حال ﴿ عن سبيل الله ﴾ ط ﴿ الحريق ﴾ 5 ﴿ للعبيد ﴾ 5 ﴿ حرف ﴾ ج للشرط مع الفاء ﴿ به ﴾ لا للعطف مع الفاء مع الاستقلال ﴿ على وجهه ﴾ ق إلا لمن قرأ ﴿ خاسر الدنيا ﴾ ط ﴿ والآخرة ﴾ ط ﴿ المبين ﴾ 5 ﴿ من ينفعه ﴾ ط ﴿ البعيد ﴾ 5 ﴿ من ينفعه ﴾ ط ﴿ العشير ﴾ 5 ﴿ الأنهار ﴾ ط ﴿ ما يريد ﴾ 5 ﴿ ما يغيظ ﴾ 5 ﴿ بينات ﴾ ط ﴿ من يريد ﴾ 5 ﴿ يوم القيامة ﴾ ط ﴿ شهيد ﴾ 5 ﴿ من الناس ﴾ ط وقيل: ﴿ يوصل ﴾ ويوقف على ﴿ العذاب ﴾ ط ﴿ مكرم ﴾ ط ﴿ ما يشاء ﴾ 5 ﴿ في ربهم ﴾ ز لعطف الجملتين المتفقتين مع أن ما بعده

ابتداء بيان حال الفريقين أحدهما ﴿ فالذين كفروا ﴾ والثاني ﴿ أن الله يدخل ﴾ ﴿ من نار ﴾ ج5 ﴿ الحميم ﴾ ج5 لأن ما بعده يصلح استئنافاً وحالاً أو وصفاً على أن اللام للجنس كما في قوله : ولقد أمر على اللئيم يسبني . ﴿ والجلود ﴾ 5ط ﴿ حديد ﴾ 5 ﴿ الحريق ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 62.63 ﴾

(13/519)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) ﴾

اعلم أنه تعالى أمر الناس بالتقوى فدخل فيه أن يتقي كل محرم ويتقي ترك كل واجب وإنما دخل فيه الأمران ، لأن المتقي إنما يتقي ما يخافه من عذاب الله تعالى فيدع لأجله المحرم ويفعل لأجله الواجب ، ولا يكاد يدخل فيه النوافل لأن المكلف لا يخاف بتركها العذاب ، وإنما يرجو بفعلها الثواب فإذا قال : ﴿ اتقوا رَبَّكُمُ ﴾ فالمراد اتقوا عذاب ربكم .

أما قوله : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

الزلزلة شدة حركة الشيء ، قال صاحب الكشاف ولا تخلو الساعة من أن تكون على تقدير الفاعلة لها كأنها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي فتكون الزلزلة مصدراً مضافاً إلى فاعله أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف وإجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ﴾ [سبأ : 33] وهي الزلزلة المذكورة في قوله : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 1] .

المسألة الثانية :

اختلفوا في وقتها فعن علقمة والشعبي أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا وهي التي يكون معها طلوع الشمس من مغربها .

وقيل هي التي تكون معها الساعة .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الصور " إنه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، ونفخة الصعقة ، ونفخة القيام لرب العالمين ، وإن عند نفخة الفزع يسير الله الجبال وترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة ، وتكون الأرض كالسفينة تضربها الأمواج أو كالقنديل المعلق ترجرجه الرياح " وقال مقاتل وابن زيد هذا في أول يوم من أيام الآخرة .

واعلم أنه ليس في اللفظ دلالة على شيء من هذه الأقسام ، لأن هذه الإضافة تصح وإن كانت الزلزلة قبلها ، وتكون من أماراتها وأشراطها ، وتصح إذا كانت فيها ومعها ، كقولنا آيات الساعة وأمارات الساعة .

المسألة الثالثة :

روى " أن هاتين الآيتين نزلتا بالليل والناس يسيرون فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمع الناس حوله فقرأهما عليهم ، فلم ير باكياً أكثر من تلك الليلة ، فلما أصبحوا لم يحطوا السرج ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا القدور ، والناس بين باك وجالس حزين متفكر .

(15/519)

فقال عليه السلام : "أتدرون أي ذلك اليوم هو ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال ذلك يوم يقول الله لآدم عليه السلام قم فابعث بعث النار من ولدك ، فيقول آدم وما بعث النار ؟ يعني من كم كم ؟ فيقول الله عز وجل من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، فعند ذلك يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، فكبر ذلك على المؤمنين وبكوا ، وقالوا فمن ينجو يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام

أبشروا وسددوا وقاربوا فإن معكم خليقتين ما كانا في قوم إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ، ثم قال إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ، ثم قال إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا وحمدوا الله ، ثم قال إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة ، إن أهل الجنة مائة وعشرون صفاً ثمانون منها أمتي وما المسلمون في الكفار إلا كالشامة في جنب البعير أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ، ثم قال ويدخل من أمتي سبعون ألفاً إلى الجنة بغير حساب ، فقال عمر سبعون ألفاً ؟ قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفاً ، فقام عكاشة بن محصن فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال أنت منهم ، فقام رجل من الأنصار فقال مثل قوله ، فقال سبقك بها عكاشة" فخاض الناس في السبعين ألفاً فقال بعضهم هم الذين ولدوا على الإسلام ، وقال بعضهم هم الذين آمنوا وجاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا فقال : "هم الذين لا يكتوون ولا يكوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون "

المسألة الرابعة :

أنه سبحانه أمر الناس بالتقوى ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة ، والمعنى أن التقوى تقتضي دفع مثل هذا الضرر العظيم عن النفس ، ودفع الضرر عن النفس معلوم الوجوب ، فيلزم أن تكون التقوى واجبة .

المسألة الخامسة :

احتجت المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ وصفها بأنها شيء مع أنها معدومة ، واحتجوا أيضاً بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : 20] فالشيء الذي قدر الله عليه إما أن يكون موجوداً أو معدوماً ، والأول محال وإلا لزم كون القادر قادراً على إيجاد الموجود ، وإذا بطل هذا ثبت أن الشيء الذي قدر الله عليه معدوم فالمعدوم شيء .

واحتجوا أيضاً بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ [الكهف : 23] أطلق اسم الشيء في الحال على ما يصير مفعولاً غداً ، والذي يصير مفعولاً غداً يكون معدوماً في الحال ، فالمعدوم شيء والله أعلم والجواب : عن الأول أن الزلزلة عبارة عن الأجسام المتحركة وهي جواهر قامت بها أعراض وتحقق ذلك في المعدوم محال ، فالزلزلة يستحيل أن تكون شيئاً حال عدمها ، فلا بد من التأويل بالاتفاق .

ويكون المعنى أنها إذا وجدت صارت شيئاً ، وهذا هو الجواب عن البواقي .

المسألة السادسة :

وصف الله تعالى الزلزلة بالعظيم ولا عظيم أعظم مما عظمه الله تعالى .

أما قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ فهو منصوب بتذهل أي تذهل في ذلك اليوم والضمير في ترونها يحتمل أن يرجع إلى الزلزلة وأن يرجع إلى الساعة لتقدم ذكرهما ، والأقرب رجوعه إلى الزلزلة لأن مشاهدتها هي التي توجب الخوف الشديد .

(17/519)

واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر من أهوال ذلك اليوم أموراً ثلاثة أحدها : قوله : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ أي تذهلها الزلزلة والذهول الذهاب عن الأمر مع دهشة ، فإن قيل : لم قال مرضعة دون مرضع ؟ قلت المرضعة هي التي في حال الإرضاع وهي ملقمة ثديها الصبي والمرضع شأنها أن ترضع ، وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به ، فقيل مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة ، وقوله : ﴿ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ أي عن إرضاعها أو عن الذي أرضعته وهو الطفل فتكون ما بمعنى من على هذا التأويل .

وثانيها : قوله : ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ والمعنى أنها تسقط ولدها لتمام أو لغير تمام من هول ذلك اليوم وهذا يدل على أن هذه الزلزلة إنما تكون قبل البعث ، قال الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وألقت الحوامل ما في بطونها لغير تمام ، وقال القفال :

يحتمل أن يقال من ماتت حاملاً أو مرضعة تبعث حاملاً أو مرضعة تضع حملها من الفزع ، ويحتمل أن يكون المراد من ذهول المرضعة ووضع الحمل على جهة المثل كما قد تأول قوله : ﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ [المزمل : 17] ، وثالثها : قوله : ﴿ وَتَرَى الناس سكارى ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء (وتري) بالضم تقول أريتك قائماً أو رأيتك قائماً والناس بالنصب والرفع ، أما النصب فظاهر ، وأما الرفع فلأنه جعل الناس اسم ما لم يسم فاعله وأنثه على تأويل الجماعة ، وقرىء (سكرى) و(سكارى) ، وهو نظير جوعى وعطشى في جوعان وعطشان ، سكارى وسكارى نحو كسالى وعجالى ، وعن الأعمش : سكرى وسكرى بالضم وهو غريب .

المسألة الثانية :

(18/519)

المعنى وتراهم سكارى على التشبيه ﴿ وَمَا هُم بسكارى ﴾ على التحقيق ، ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله تعالى هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم ، وقال ابن عباس

والحسن ونراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب ، فإن قلت لم قيل أولا (ترون) ثم قيل (ترى) على الإفراد ؟ قلنا لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة ، فجعل الناس جميعاً رائين لها ، وهي معلقة آخراً بكون الناس على حال من السكر ، فلا بد وأن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم .

المسألة الثالثة :

إن قيل أتقولون إن شدة ذلك اليوم تحصل لكل أحد أو لأهل النار خاصة ؟ قلنا قال قوم إن الفزع الأكبر وغيره يختص بأهل النار ، وإن أهل الجنة يحشرون وهم آمنون .

وقيل بل يحصل للكل لأنه سبحانه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله ، وليس لأحد عليه حق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 6.3 ﴾

(19/519)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾

في زلزلتها قولان :

أحدهما : أنها في الدنيا ، وهي أشراط ظهورها ، وآيات مجيئها .

والثاني : أنها في القيامة .

وفيها قولان :

أحدهما : أنها نفخ الصور للبعث .

والثاني : أنها عند القضاء بين الخلق .

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ يعني زلزلة الساعة

. ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ وفيه أربعة أوجه

: أحدها : تسلو كل مرضعة عن ولدها ، قاله الأخفش .

والثاني : تشتغل عنه ، قاله قطرب ، ومنه قول عبد الله بن رواحة :

ضرباً يزيل الهام عن مقيله . . . ويذهل الخليل عن خليله

والثالث : تلهو عنه ، قاله الكلبي ، ومنه قول امرىء القيس

:

أذاهِلٌ أنت عن سَلْماك لا برحت . . . أم لست ناسيها ما حنّت النيبُ

والرابع : تنساه ، قاله اليزيدي ، قال الشاعر :

تطاولت الأيام حتى نسيتها . . . كأنك عن يوم القيامة ذاهل

﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ قال الحسن : تذهل الأم عن ولدها لغير فطام ، وتلقي الحامل ما في بطنها لغير تمام .

﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى ﴾ قال ابن جريج : هم سكارى من الخوف ، وما هم بسكارى من الشراب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(20/519)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) ﴾

صدر الآية تحذير بجميع العالم ثم أوجب الخبر وأكده بأمر ﴿ زلزلة ﴾ القيامة وهي إحدى شرائطها وسماها " شيئاً " إما لأنها حاصلة متيقن وقوعها فيستسهل لذلك أن تسمى شيئاً .

وهي معدومة إذا اليقين بها يشبهها بالموجودات وأما على المآل أي هي أذا وقعت شيء عظيم فكأنه لم يطلق الاسم الآن بل المعنى أنها كانت فهي حينئذ شيء عظيم ، والزلزلة التحريك العنيف وذلك مع نفخة الفزع ومع نفحة الصعق حسبما تضمن حديث أبي هريرة من ثلاث نفخات ومن لفظ الزلزلة قول الشاعر : [الخفيف]

يعرف الجاهل المضلل أن . . . الدهر فيه النكراء والزلزال

(21/519)

فيحتمل أن تكون " الزلزلة " في الآية عبارة عن أهوال يوم القيامة كما قال تعالى ﴿ مستهم البأساء والضراء وزلزوا ﴾ [البقرة : 214] وكما قال عليه السلام " اللهم اهزمهم وزلزلهم " ، والجمهور على أن ﴿ زلزلة الساعة ﴾ هي كالمعهودة في الدنيا إلا أنها في غاية الشدة ، واختلف المفسرون في " الزلزلة " المذكورة هل هي في الدنيا على القوم الذين تقوم عليهم القيامة ، أم هي في يوم القيامة على جميع العالم ؟ فقال الجمهور هي في الدنيا والضمير في ﴿ ترونها ﴾ عائد عندهم على الزلزلة وقوى قولهم إن الرضاع والحمل إنما هو في الدنيا ، وقالت فرقة " الزلزلة " في القيامة واحتجت بحديث أنس المذكور آنفاً إذ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية ثم قال " إنه اليوم الذي يقول الله تعالى فيه لآدم أخرج بعث النار " ع وهذا الحديث لا حجة فيه لأنه يحتمل أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الآية المتضمنة ابتداء أمر الساعة ثم قصد في تذكيره وتخويفه إلى فصل من فصول يوم القيامة فنص ذكره وهذا من الفصاحة ، والضمير عند هذه الفرقة عائد على ﴿ الساعة ﴾ أي يوم يرون ابتداءها في الدنيا ، فيصح لهم بهذا التأويل أن لا يلزمهم وجود الرضاع والحمل في يوم القيامة ولو أعادوه على الزلزلة فسد قولهم بما يلزمهم ، على أن النقاش ذكر أن المراد ب ﴿ كل ذات حمل ﴾ من مات من الإناث وولدها في جوفها . ع وهذا ضعيف و " الذهول " الغفلة عن الشيء بطريان ما يشغل عنه من هم أو وجع أو غيره وقال ابن زيد المعنى تترك ولدها

للكرب الذي نزل بها ، وقرأ ابن أبي عبلة " تُذهِل " بضم التاء وكسر الهاء ونصب " كلَّ " وألحق الهاء في " مرضع " لأنه أراد فاعلات ذلك في ذلك اليوم فأجراه على الفعل وأما إذا أخبرت عن المرأة بأن لها طفلاً ترضعه فإنما تقول مرضع مثل حامل قال علي بن سليمان هذه الهاء في ﴿ مرضعة ﴾ ترد على الكوفيين قولهم إن الهاء لا تكون فيما لا تلبس له بالرجال ، وحكى الطبري أن بعض

(22/519)

نحويي الكوفة قال أم الصبي مرضعة ، ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ تشبيه لهم ، أي من الهم ، ثم نفى عنهم السكر الحقيقي الذي هو من الخمر قال الحسن وغيره ، وقرأ جمهور القراء " سُكارى " بضم السين وثبوت الألف وكذلك في الثاني وهذا هو الباب فمرة جعله سيبويه جمعاً ومرة جعله اسم جمع ، وقرأ أبو هريرة بفتح السين فيهما وهذا أيضاً قد يجيء في هذه الجموع قال أبو الفتح هو تكسير ، وقال أبو حاتم هي لغة تميم ، وقرأ حمزة والكسائي " سكرى " في الموضعين ، ورواه عمران بن حصين وأبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي قراءة ابن مسعود وحذيفة وأصحاب عبد الله ، قال سيبويه وقوم يقولون " سكرى " جعلوه مثل مرضى لأنهما شيئان يدخلان على الإنسان ، ثم جعلوا روبى مثل

سكرى وهو المستثقلون نوماً من شرب الرائب ، قال أبو علي ويصح أن يكون " سكرى " جمع سكر كزمن وزمنى وقد حكى سيبويه رجل سكر بمعنى سكران فتجيء " سكرى " حينئذ لتأنيث الجمع كعلامة في طائفة لتأنيث الجمع ، وقرأ سعيد بن جبير " وترى الناس سكرى وما هم بسُكارى " بالضم والألف ، وحكى المهدوي عن الحسن أنه قرأ الناس " سكارى وما هم بسكرى " ، وقرأ الحسن والأعرج وأبو زرعة بن عمرو بن جرير في الموضعين " سُكرى " بضم السين ، قال أبو الفتح هو اسم مفرد كالبشرى وبهذا أفتاني أبو علي وقد سألته عن هذا ، وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير وأبو هريرة وأبو نهيك " وتُرى " بضم التاء " الناسَ " بالنصب قال وإنما هي محسبة ، ورويت هذه القراءة " تُرى الناسُ " بضم التاء والسين أي ترى جماعة الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(23/519)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ اتقوا ربكم ﴾

أي : احذروا عقابه ﴿ إِنَّ زلزلة الساعة ﴾ الزلزلة : الحركة على الحالة الهائلة .

وفي وقت هذه الزلزلة قولان .

أحدهما : أنها يوم القيامة بعد النشور .

" روى عمران بن حصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأ : "إِن زلزلة الساعة شيء عظيم" وقال : تدرون أي يوم ذلك ؟ فإنه يوم ينادي الرَّبُّ عز وجل آدم عليه السلام : ابعث بعثاً إِلى النار " ، فذكر الحديث .

وروى أبو سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تعالى يوم القيامة لآدم : قم ، فابعث بعث النار ، فيقول : يا رب ، وما بعث النار ؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إِلى النار ، فحينئذ يشيب المولود ، وتضع كل ذات حمل حملها " ، وقرأ الآية .

وقال ابن عباس : زَلْزَلَةُ الساعة : قِيَامُها ، يعني أنها تُقارِب قيام الساعة ، وتكون معها .

وقال الحسن ، والسدي : هذه الزلزلة تكون يوم القيامة .

والثاني : أنها تكون في الدنيا قبل القيامة ، وهي من أشراط الساعة ، قاله علقمة ، والشعبي ، وابن جريج .

وروى أبو العالية عن أُبَيِّ بن كعب ، قال ست آيات قبل القيامة ، بينما الناس في أسواقهم إِذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إِذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إِذ وقعت الجبال على وجه الأرض ، فتحركت ، واضطربت ، ففزع الجن إِلى الإِنس ، والإِنس إِلى الجن ، واختلطت الدواب ، والطير ، والوحش ، فماج بعضهم في بعض ، فقالت الجن

للإنس : نحن نأتيكم بالخبر ، فانطلقوا إلى البحور ، فإذا هي نار تَأَجَّج ، فبينما هم كذلك إذ تصدَّعت الأرض إلى الأرض السابعة ، والسماء إلى السماء السابعة ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فماتوا .

وقال مقاتل : هذه الزلزلة قبل النفخة الأولى ، وذلك أن منادياً ينادي من السماء : يا أيها الناس أتى أمر الله ، فيفزعون فزعاً شديداً فيشيب الصغير ، وتضع الحوامل .

(24/519)

قوله تعالى : ﴿ شيء عظيم ﴾ أي : لا يوصف لِعظَمه .

قوله تعالى : ﴿ يوم ترونها ﴾ يعني : الزلزلة ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ فيه قولان .

أحدهما : تسلو عن ولدها ، وتتركه ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : تُشْغَل عنه ، قاله قطرب ، ومنه قول ابن رواحة :

ويذهل الخليل عن خليله . . .

وقرأ أبو عمران الجوني ، وابن أبي عبلة : "تُذهِل" برفع التاء وكسر الهاء "كلَّ" بنصب اللام .

قال الأخفش : وإنما قال : "مرضعة" ، لأنه أراد والله أعلم الفعل ، ولو أراد الصفة فيما نرى ، لقال : "مرضع" .

قال الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام ، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام ، وهذا يدل على أن الزلزلة تكون في الدنيا ، لأن بعد البعث لا تكون حبلى .

قوله تعالى : ﴿ وتَرى الناس سُكارى ﴾ وقرأ عكرمة ، والضحاك ، وابن يعمر ، "وتُرى" بضم التاء .

ومعنى "سكارى" : من شدة الخوف ﴿ وما هم بسُكارى ﴾ من الشراب ، والمعنى : ترى الناس كأنهم سكارى من ذهول عقولهم ، لشدة ما يمرُّ بهم ، يضطربون اضطراب السكران من الشراب .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : "سَكْرى وما هم بسَكْرى" وهي قراءة ابن مسعود .

قال الفراء : وهو وجه جيد ، لأنه بمنزلة الهَلْكى والجَرْحى .

وقرأ عكرمة ، والضحاك ، وابن السميفع : "سَكارى وما هم بسَكارى" بفتح السين والراء وإثبات الألف ، ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ فيه دليل على أن سكرهم من خوف عذابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(25/519)

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) ﴾

روى الترمذِيّ عن عِمْرَان بنِ حُصين " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما نزلت : ﴿ يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ قال : أنزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال : "أتدرون أيَّ يوم ذلك" ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : "ذاك يوم يقول الله لآدم ابْعَثْ بَعْثَ النار قال : يا ربّ وما بعثُ النار قال : تِسعمائةٍ وتسعةٌ وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة" .

فأنشأ المسلمون يبكون ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قَارِبُوا وسَدِّدوا فإنه لم تكن نُبُوَّةٌ قطُّ إلا كان بين يديها جاهلية قال فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تَمّت وإلا كَمُلت من المنافقين وما مَثَلُكم والأُمَمَ إلا كمَثَل الرَّقْمة في ذراع الدابة أو كالشامَة في جنب البعير ثم قال إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبّروا ؛ ثم قال إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبّروا ؛ ثم قال إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة" فكبروا .

قال : لا أدري قال الثلثين أم لا .

قال : هذا حديث حسن صحيح ، قد روي من غير وجه عن الحسن عن عِمران بن حُصين .

وفيه : فيئِس القوم حتى ما أبْدَوْا بضاحكة ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اعملوا وأبشروا فوالذي نفسي بيده إنكم لمع خلِيقتين ما كانتا مع شيء إلا كثّرتاه يأجوج ومأجوج ومن مات من بني آدم وبني إبليس" قال : فَسُرِّيَ عن القوم بعضُ الذي يجدون ؛ فقال : "اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشّامَة في جنب البعير أو كالرَّقْمة في ذراع الدابة" " قال : هذا حديث حسن صحيح .

(26/519)

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخُدْرِيّ (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تعالى يا آدم فيقول لَبّيْكَ وسَعْدَيك والخيرُ في يديك قال يقول : أخْرِج بَعْثَ النار قال : وما بعث النار قال : من كل ألفٍ تِسعمَائةٍ وتسعةً وتسعين قال : فذاك حين يَشيبُ الصغير وتَضَع كلُّ ذات حمل حملها وترى الناس سُكارَى وما هم بسكارَى ولكن عذاب الله شديد " .

قال : فاشتدّ ذلك عليهم ؛ قالوا : يا رسول الله ، أيُّنَا ذلك الرجل ؟ فقال : "أبشِروا فإن من يأجوجَ ومأجوجَ ألفاً ومنكم رجل " وذكر الحديث بنحو ما تقدّم في حديث عمران بن حصين .

وذكر أبو جعفر النحاس قال : حدّثنا أحمد ابن محمد بن نافع قال : حدّثنا سلمة قال : حدّثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : " يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم إلى ولكن عذابَ الله شديد " قال : نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو في مَسِير له ، فرفع بها صوته حتى ثاب إليه أصحابه فقال : "أتدرون أيَّ يوم هذا هذا يوم يقول الله عز وجل لآدم صلى الله عليه وسلم يا آدم قم فابعث بَعْثَ أهل النار من كل ألفِ تِسعمائةٍ وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة" .

فكَبُر ذلك على المسلمين ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "سَدِّدُوا وقارِبوا وأبشروا فوالذي نفسي بيده ما أنتم في الناس إلا كالشّامَة في جنب البعير أو كالرَّقْمة في ذراع الحمار وإن معكم لخليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثّرتاه يأجوج ومأجوج ومن هلك من كفرة الجن والإنس " .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربَّكُمْ ﴾ المراد بهذا النداء المكلَّفون ؛ أي اخشوه في أوامره أن تتركوها ، ونَواهِيه أن تُقدِموا عليها .

والاتقاء .

الاحتراس من المكروه ؛ وقد تقدّم في أوّل "البقرة" القولُ فيه مستوفًى ، فلا معنى لإعادته .

والمعنى : احترسوا بطاعته عن عقوبته .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ الزلزلة شدّة الحركة ؛ ومنه ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ ﴾ [البقرة : 214] .

وأصل الكلمة من زَلّ عن الموضع ؛ أي زال عنه وتحرّك .

وزلزل الله قَدَمه ؛ أي حركها .

وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء .

وقيل : هي الزلزلة المعروفة التي هي إحدى شرائط الساعة ، التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة ؛ هذا قول الجمهور .

وقد قيل : إن هذه الزلزلة تكون في النصف من شهر رمضان ، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها ؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ الهاء في ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ عائدة عند الجمهور على الزلزلة ؛ ويقوّي هذا قولُه عز وجل : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ .

والرضاع والحمل إنما هو في الدنيا .

وقالت فرقة : الزلزلة في يوم القيامة ؛ واحتجوا بحديث عِمران بن حُصين الذي ذكرناه ،

وفيه : "أتدرون أيّ يوم ذلك . . .

" الحديث .

وهو الذي يقتضيه سياق مُسْلم في حديث أبي سعيد الخُدْريّ .

قوله : ﴿ تَذْهَلُ ﴾ أي تشتغل ؛ قاله قُطْرُب .

وأنشد :

ضَرْباً يُزيل الهام عن مَقِيلِهِ . . .

ويُذهِل الخَليلَ عن خَليلِهِ

وقيل : تنسى .

وقيل تلهو .

وقيل تسلو ؛ والمعنى متقارب .

﴿ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ قال المبرّد : "ما" بمعنى المصدر ؛ أي تذهل عن الإرضاع .

قال : وهذا يدل على أن هذه الزلزلة في الدنيا ؛ إذ ليس بعد البعث حَمْل وإرضاع .

إلا أن يقال : من ماتت حاملاً تُبعث حاملاً فتضع حملها للهَوْل .

ومن ماتت مُرضعة بُعثت كذلك .

ويقال : هذا كما قال الله عز وجل : ﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ [المزمل : 17] .

وقيل : تكون مع النفخة الأولى .

وقيل : تكون مع قيام الساعة ، حتى يتحرّك الناس من قبورهم في النفخة الثانية .

(28/519)

ويحتمل أن تكون الزلزلة في الآية عبارةً عن أهوال يوم القيامة ؛ كما قال تعالى : ﴿ مَّسَّتْهُمُ البأسآء والضرآء وَزُلْزِلُواْ ﴾ [البقرة : 214] وكما قال عليه السلام : " اللهم اهزمهم وزلزلهم " وفائدة ذكر هَوْل ذلك اليوم التحريضُ على التأهب له والاستعداد بالعمل الصالح .

وتسمية الزلزلة ب"شيء" إما لأنها حاصلة متيقَّن وقوعها ، فيستسهل لذلك أن تسمَّى شيئاً وهي معدومة ؛ إذ اليقين يشبه الموجودات .

وإما على المآل ؛ أي هي إذا وقعت شيء عظيم .

وكأنه لم يطلق الاسم الآن ، بل المعنى أنها إذا كانت فهي إذاً شيء عظيم ، ولذلك تذهل المراضع وتسكر الناس ؛ كما قال : ﴿ وَتَرَى الناس سكارى ﴾ أي من هولها ومما يدركهم من الخوف والفزع .

﴿ وَمَا هُم بسكارى ﴾ من الخمر .

وقال أهل المعاني : وترى الناس كأنهم سكارى .

يدلّ عليه قراءة أبي زُرْعة هَرِم بن عمرو بن جرير بن عبد الله "وتُرَى الناس" بضم التاء ؛ أي تظن ويخيّل إليك .

وقرأ حمزة والكسائِيّ "سَكْرَى" بغير ألف .

الباقون "سُكارى" وهما لغتان لجمع سكران ؛ مثل كُسْلى وكُسَالى .

والزلزلة : التحريك العنيف .

والذهول : الغفلة عن الشيء بطروء ما يشغَل عنه من همّ أو وجع أو غيره .

قال ابن زيد : المعنى تترك ولدها للكرب الذي نزل بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(29/519)

وقال أبو حيان :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) ﴾

هذه السورة مكية إلا ﴿ هذان خصمان ﴾ إلى تمام ثلاث آيات قاله ابن عباس ومجاهد ، وعن ابن عباس أيضاً إنهن أربع آيات إلى قوله ﴿ عذاب الحريق ﴾ وقال الضحاك : هي

مدنية .

وقال قتادة : إلاّ من قوله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ﴾ - إلى قوله - ﴿ عذاب مقيم ﴾ وقال الجمهور : منها مكي ومنها مدني .

ومناسبة أول هذه السورة لما قبلها أنه ذكر تعالى حال الأشقياء والسعداء وذكر الفزع الأكبر وهو ما يقول يوم القيامة ، وكان مشركو مكة قد أنكروا المعاد وكذبوه بسبب تأخر العذاب عنهم .

نزلت هذه السورة تحذيراً لهم وتخويفاً لما انطوت عليه من ذكر زلزلة الساعة وشدّة هولها ، وذكر ما أعد لمنكرها وتنبيههم على البعث بتطويرهم في خلقهم ، وبهمود الأرض واهتزازها بعد بالنبات ، والظاهر أن قوله ﴿ يا أيها الناس ﴾ عام .

وقيل : المراد أهل مكة ، ونبه تعالى على سبب اتقائه وهو ما يؤول إليه من أهوال الساعة وهو على حذف مضاف أي ﴿ اتقوا ﴾ عذاب ﴿ ربكم ﴾ ، والزلزلة الحركة المزعجة وهي عند النفخة الأولى .

وقيل : عند الثانية .

وقيل : عند قول الله يا آدم ابعث بعث النار .

وقال الجمهور : في الدنيا آخر الزمان ويتبعها طلوع الشمس من مغربها .

وعن الحسن : يوم القيامة .

وعن علقمة والشعبي : عند طلوع الشمس من مغربها ، وأضيفت إلى الساعة لأنها من أشراطها ، والمصدر مضاف للفاعل فالمفعول المحذوف وهو الأرض يدل عليه ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ والناس ونسبة الزلزلة إلى ﴿ الساعة ﴾ مجاز ، ويجوز أن يضاف إلى المفعول به على طريقة الاتساع في الظرف ، فتكون ﴿ الساعة ﴾ مفعولاً بها وعلى هذه التقادير يكون ثم ﴿ زلزلة ﴾ حقيقة .

وقال الحسن : أشد الزلزال ما يكون مع قيام الساعة .

(30/519)

وقيل : الزلزلة استعارة ، والمراد أشد الساعة وأهوال يوم القيامة و ﴿ شيء ﴾ هنا يدل على إطلاقه على المعدوم لأن الزلزلة لم تقع بعد ، ومن منع إيقاعه على المعدوم قال : جعل الزلزلة شيئاً لتيقن وقوعها وصيرورتها إلى الوجود .

وذكر تعالى أهول الصفات في قوله ﴿ ترونها ﴾ الآية لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوروها بعقولهم ليكون ذلك حاملاً على تقواه تعالى إذ لا نجاة من تلك الشدائد إلاّ بالتقوى .

وروي أن هاتين الآيتين نزلتا ليلاً في غزوة بني المصطلق فقرأهما رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) ، فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة ، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدراً ، وكانوا من بين حزين باك ومفكر .

والناصب ليوم ﴿ تذهل ﴾ والظاهر أن الضمير المنصوب في ﴿ ترونها ﴾ عائداً على الزلزلة لأنها المحدث عنها ، ويدل على ذلك وجود ذهول المرضعة ووضع الحمل هذا إذا أريد الحقيقة وهي الأصل ، ويكون ذلك في الدنيا .

وعن الحسن ﴿ تذهل ﴾ المرضعة عن ولدها لغير فطام ﴿ وتضع ﴾ الحامل ما في بطنها لغير تمام .

وقالت فرقة : الضمير يعود على ﴿ الساعة ﴾ فيكون الذهول والوضع عبارة عن شدة الهول في ذلك اليوم ، ولا ذهول ولا وضع هناك كقولهم : يوم يشيب فيه الوليد .

وجاء لفظ ﴿ مرضعة ﴾ دون مرضع لأنه أريد به الفعل لا النسب ، بمعنى ذات رضاع .

وكما قال الشاعر :

كمرضعة أولاد أخرى وضيعت . . .

بني بطنها هذا الضلال عن القصد ، والظاهر أن ما في قوله ﴿ عما أرضعت ﴾ بمعنى الذي ، والعائد محذوف أي أرضعته ، ويقويه تعدي وضع إلى المفعول به في قوله ﴿ حملها ﴾ لا إلى المصدر .

وقيل : ما مصدرية أي عن إرضاعها .

وقال الزمخشري : المرضعة هي التي في حال الإرضاع تلقم ثديها الصبي ، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به .

(31/519)

فقيل ﴿ مرضعة ﴾ ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة ، وخص بعض نحاة الكوفة أم الصبيّ بمرضعة والمستأجرة بمرضع وهذا باطل بقول الشاعر :

كمرضعة أولاد أخرى وضيعت . . .

البيت فهذه ﴿ مرضعة ﴾ بالتاء وليست أمًّا للذي ترضع .

وقول الكوفيين إن الوصف الذي يختص بالمؤنث لا يحتاج فيه إلى التاء لأنها إنما جيء بها للفرق مردود بقول العرب مرضعة وحائضة وطالقة .

وقرأ الجمهور ﴿ تذهل كل ﴾ بفتح التاء والهاء ورفع كل ، وابن أبي عبلة واليماني بضم التاء وكسر الهاء أي ﴿ تذهل ﴾ الزلزلة أو الساعة كل بالنصب ، والحمل بالفتح ما كان في بطن أو على رأس شجرة .

وقرأ الجمهور ﴿ وترى ﴾ بالتاء مفتوحة خطاب المفرد وزيد بن علي بضم التاء وكسر

الراء أي وترى الزلزلة أو الساعة .

وقرأ الزعفراني وعباس في اختياره بضم التاء وفتح الراء ، ورفع ﴿ الناس ﴾ وأنث على تأويل الجماعة .

وقرأ أبو هريرة وأبو زرعة بن عمرو بن جرير وأبو نهيك كذلك إلا أنهم نصبوا ﴿ الناس ﴾ عدّى ﴿ ترى ﴾ إلى مفاعيل ثلاثة أحدها الضمير المستكن في ﴿ ترى ﴾ وهو ضمير المخاطب مفعول لم يسم فاعله ، والثاني والثالث ﴿ الناس سكارى ﴾ أثبت أنهم ﴿ سكارى ﴾ على طريق التشبيه ثم نفى عنهم الحقيقة وهي السكر من الخمر ، وذلك لما هم فيه من الحيرة وتخليط العقل .

وقرأ الجمهور ﴿ سُكارى ﴾ فيهما على وزن فعالى وتقدم ذكر الخلاف في فعالى بضم الفاء أهو جمع أو اسم جمع .

وقرأ أبو هريرة وأبو نهيك وعيسى بفتح السين فيهما وهو جمع تكسير واحده سكران .

وقال أبو حاتم : هي لغة تميم .

وقرأ الأخوان وابن سعدان ومسعود بن صالح سُكرى فيهما ، ورويت عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) رواها عمران بن حصين وأبو سعيد الخدري وهي قراءة عبد الله وأصحابه وحذيفة .

وقال سيبويه : وقوم يقولون سكرى جعلوه مثل مرضى لأنهما شيئان يدخلان على الإنسان ، ثم جعلوا روبى مثل سكرى وهم المستثقلون نوماً من شرب الرائب .

قال أبو علي الفارسي : ويصح أن يكون جمع سكر كزمنى وزمن ، وقد حكى سيبويه : رجل سكر بمعنى سكران فيجيء سكرى حينئذ لتأنيث الجمع .

وقرأ الحسن والأعرج وأبو زرعة وابن جبير والأعمش سُكرى بضم السين فيهما .

قال أبو الفتح : هو اسم مفرد كالبشرى وبهذا أفتاني أبو عليّ انتهى .

وقال الزمخشري : هو غريب .

وقال أبو الفضل الرازي : فعلى بضم الفاء من صفة الواحدة من الإناث لكنها لما جعلت من صفات الناس وهم جماعة أجريت الجماعة بمنزلة المؤنث الموحد انتهى .

وعن أبي زرعة أيضاً سُكرى بفتح السين بسُكرى بضمها .

وعن ابن جبير أيضاً سكرى بالفتح من غير ألف ﴿ بسكارى ﴾ بالضم والألف .

وعن الحسن أيضاً ﴿ سكارى ﴾ بسكرى .

وقال أو لا ترونها على خطاب الجمع جعلوا جميعاً رائيين لها .

ثم قال ﴿ وترى ﴾ على خطاب الواحد لأن الرؤية معلقة بكون الناس على حال السكر ، فجعل كل واحد رائياً لسائرهم غشيهم من خوف عذاب الله ما أذهب عقولهم وردهم في

حال من يذهب السكر عقله وتمييزه ، وجاء هذا الاستدراك بالإخبار عن ﴿ عذاب الله ﴾ أنه ﴿ شديد ﴾ لما تقدم ما هو بالنسبة إلى العذاب كالحالة اللينة وهو الذهول والوضع ورؤية الناس أشباه السكارى ، وكأنه قيل : وهذه أحوال هينة ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ وليس بهين ولا لين لأن لكن لا بد أن تقع بين متنافيين بوجه ما وتقدم الكلام فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(33/519)

وقال أبو السعود :

﴿ يَا أَيُّهَا الناس اتقوا رَبَّكُمُ ﴾

خطابٌ يعمُّ حُكمُه المكلفين عند النُّزولِ ومَن سينتظم في سلكهم بعدُ من الموجودين القاصرين عن رتبةِ التكليفِ والحادثين بعدَ ذلك إلى يومِ القيامةِ وإنْ كان خطابُ المشافهةِ مختصًّا بالفريق الأولِ على الوجه الذي مرَّ تقريرُه في مطلعِ سورةِ النساءِ . ولفظُ النَّاسِ ينتظمُ الذكورَ والإناثَ حقيقةً وأما صيغةُ جمعِ المذكورِ فواردةٌ على نهجِ التغليبِ لعدمِ تناولِها للإناثِ حقيقةً إلا عندَ الحنابلةِ . والمأمورُ به مطلقُ التَّقوى الذي هو التجنبُ عن كلِّ ما يُؤثِّمُ من فعلٍ وتركٍ ، ويندرجُ فيه الإيمانُ بالله واليومِ الآخرِ حسبما وردَ به الشرعُ اندراجاً أولياً .

والتعرضُ لعنوانِ الربوبيةِ المنبئةِ عن المالكيةِ والتربيةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطبينَ لتأييدِ الأمرِ وتأكيدِ إيجابِ الامتثالِ به ترهيباً وترغيباً . أي احذَرُوا عقوبةَ مالكِ أمورِكم ومُربّيكم . وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ تعليلٌ لموجبِ الأمرِ بذكرِ بعضِ عقوباتِه الهائلةِ فإنَّ ملاحظةَ عِظَمِها وهولِها وفظاعةِ ما هيَ من مباديهِ ومقدماتِه من الأحوالِ والأهوالِ التي لا مَلْجأَ منها سوى التَّدرعِ بلباسِ التَّقوى مما يوجبُ مزيدَ الاعتناءِ بملابستِه وملازمتِه لا محالةَ . والزلزلةُ التحريكُ الشديدُ والإزعاجُ العنيفُ بطريقِ التكريرِ بحيث يزيلُ الأشياءَ من مقارّها ويُخرجُها عن مراكزِها . وإضافتُها إلى الساعةِ إمَّا إضافةُ المصدرِ إلى فاعِله ، على المجازِ الحكميِّ . كأنَّها هي التي تزلزلُ الأشياءَ ، أو إضافتُه إلى الظَّرفِ إمَّا بإجرائه مُجرى المفعولِ به اتساعاً ، أو بتقديرِ في كما في قولِه تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ﴾ وهي الزَّلزلةُ المذكورةُ في قولِه تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا ﴾ عن الحسنِ أنَّها تكونُ يومَ القيامةِ . وعن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا : زلزلةُ السَّاعةِ قيامُها ، وعن

(34/519)

علقمةَ والشَّعبيِّ : أنَّها قبلَ طلوعِ الشَّمسِ من مغربِها ، فإضافتُها إلى الساعةِ حينئذٍ لكونِها من أشراطِها ، وفي التعبيرِ عنها بالشيءِ إيذانٌ بأنَّ العقولَ قاصِرةٌ عنْ إدراكِ كُنهِها والعبارةُ ضيقةٌ لا تحيطُ بها إلاَّ على وجهِ الإبهامِ .

وقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ منتصبٌ بما بعدَهُ قُدِّمَ عليهِ اهتماماً بهِ . والضميرُ للزَّلزلةِ أي وقتَ رؤيتِكم إيَّاها ومشاهدتِكم لهولِ مطلعِها ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ أي مباشرةٍ للإرضاعِ . ﴿ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ أي تغفلُ وتذهلُ مع دهشةٍ عمَّا هيَ بصددِ إرضاعِه من طفلِها الذي ألقمتْهُ ثديَها . والتعبيرُ عنه بمَا دونِ مَنْ لتأكيدِ الذهولِ وكونِه بحيثُ لا يخطرُ ببالِها أنَّه ماذا لا أنها تعرف شيئيته لكن لا تدري من هو بخصوصه ، وقيل : مَا مصدريةٌ أي تذهلُ عنْ إرضاعِها . والأولُ أدلُّ على شدةِ الهولِ وكمالِ الانزعاجِ . وقُرِئَ تُذهَل من الإذهالِ مبنياً للمفعولِ أو مبنياً للفاعلِ مع نصبِ كلٍّ ، أي تُذهلها الزلزلةُ . ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ أي تُلقي جنينَها لغيرِ تمامٍ ، كما أنَّ المرضعةَ تذهلُ عن ولدِها لغيرِ فطامٍ .

(35/519)

وهذا ظاهرٌ على قولِ علقمةَ والشَّعبيِّ وأمَّا على ما رُوي عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا فقدْ قيلَ إنَّه تمثيلٌ لتهويلِ الأمرِ ، وفيه أنَّ الأمرَ حينئذٍ أشدُّ من ذلكَ وأعظمُ وأهولُ ممَّا وُصفَ وأطمُّ . وقيلَ : إنَّ ذلكَ يكونُ عند النفخةِ الثَّانيةِ ، فإنَّهم يقومونَ على ما صُعقوا في النفخةِ الأولى فتقومُ المرضعةُ على إرضاعِها والحاملُ على حملِها . ولا ريبَ في أنَّ قيامَ الناسِ من قبورِهم بعد النَّفخةِ الثَّانيةِ لا قبلَها حتى يتصورَ ما ذُكر . ﴿ وَتَرَى الناس ﴾ بفتحِ التَّاءِ والرَّاءِ على خطابِ كلِّ واحدٍ من المُخاطبينَ برؤيةِ الزَّلزلةِ . والاختلافُ بالجمعيةِ والإفرادِ لِمَا أنَّ المرئيَّ في الأولِ هي الزلزلةُ التي يشاهدُهَا الجميعُ وفي الثَّاني حالُ مَن عدَا المخاطبِ منهم فلا بدَّ من إفرادِ المخاطبِ على وجهٍ يعمُّ كلَّ واحدٍ منهم لكلٍّ من غيرِ اعتبارِ اتِّصافِه بتلكَ الحالةِ فإنَّ المرادَ بيانُ تأثيرِ الزَّلزلةِ في المرئيِّ لا في الرَّائي باختلافِ مشاعرِه لأنَّ مدارَه حيثيةُ رؤيتِه للزلزلةِ لا لغيرِها كأنَّه قيلَ : ويصيرُ النَّاسُ سُكارى الخ ، وإنما أوترَ عليهِ ما في التنزيلِ للإيذانِ بكمالِ ظهورِ تلك الحالةِ فيهم وبلوغِها من الجلاءِ إلى حدَ لا يكادُ يخفى على أحدٍ أي يراهم كلُّ أحدٍ ﴿ سكارى ﴾ أي كأنَّهم سُكارى ﴿ وَمَا هُم بسكارى ﴾ حقيقةً ﴿ ولكن عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾ فيُرهقهم هولُه ويطيرُ عقولَهم ويَسلُبُ تمييزَهُم فهو الذي جعلَهم كما وُصفوا وقُرِئَ تُرَى بضمِّ التَّاءِ وفتحِ الرَّاءِ مُسنداً إلى المخاطبِ منْ رأيتَكَ قائماً أو رُؤيتَكَ قائماً والنَّاسُ منصوبٌ أي تظنُّهم سُكارى . وقُرِئَ برفعِ النَّاسَ على إسنادِ الفعلِ المجهولِ إليهِ ، والتأنيثُ على تأويلِ الجماعةِ وقُرِئَ تُرِي بضمِّ

التَّاءِ وكسرِ الرَّاءِ أي تُرِي الزلزلةُ الخلقَ جميعَ الناسِ سُكارى وقُرِىءَ سَكْرى وسَكْرى كعطْشى وجَوْعى إجراءً للسُّكرِ مجرَى العللِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(36/519)

وقال الآلوسى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾

يعم حكمه المكلفين عند النزول ومن سينتظم في سلكهم بعد من الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة لكن لا بطريق الحقيقة عندنا بل بطريق التغليب أو تعميم الحكم بدليل خارجي فإن خطاب المشافهة لا يتناول من لم يكلف بعد وهو خاص بالمكلفين الموجودين عند النزول خلافاً للحنابلة وطائفة من السلفيين والفقهاء حيث ذهبوا إلى تناوله الجمع حقيقة ، ولا خلاف في دخول الاناث كما قال الآمدي في نحو الناس مما يدل على الجمع ولم يظهر فيه علامة تذكير ولا تأنيث وإنما الخلاف في دخولهن في نحو ضمير ﴿ اتقوا ﴾ والمسلمين فذهبت الشافعية .

والأشاعرة .

والجمع الكثير من الحنفية .

والمعتزلة إلى نفيه ، وذهبت الحنابلة .

وابن داود .

وشذوذ من الناس إلى إثباته ، والدخول هنا عندنا بطريق التغليب .

وزعم بعضهم أن الخطاب خاص بأهل مكة وليس بذاك ، والمأمور به مطلق التقوى الذي هو التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك ويندرج فيه الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر حسبما ورد به الشرع اندراجاً أولياً لكن على وجه يعم الإيجاد والدوام ، والمناسب لتخصيص الخطاب بأهل مكة أن يراد بالتقوى المرتبة الأولى منها وهي التوقي عن الشرك ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به ترهيباً وترغيباً أي احذروا عقوبة مالك أمركم ومربيكم ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ تعليل لموجب الأمر بذكر أمر هائل فإن ملاحظة عظم ذلك وهوله وفظاعة ما هو من مباديه ومقدماته من الأحوال والأهوال التي لا ملجأ منها سوى التدرع بلباس التقوى مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالة .

(37/519)

والزلزلة التحريك الشديد والازعاج العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء من مقارها ويخرجها عن مراكزها ، وإضافتها إلى الساعة إما من إضافة المصدر إلى فاعله لكن على سبيل المجاز في النسبة كما قيل في قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ﴾ [سبأ : 33] لأن المحرك حقيقة هو الله تعالى والمفعول الأرض أو الناس أو من إضافته إلى المفعول لكن على أجرائه مجرى المفعول به اتساعاً كما في قوله

: يا سارق الليلة أهل الدار . . .

وجوز أن تكون الإضافة على معنى في وقد أثبتها بعضهم وقال بها في الآية السابقة ، وهي عند بعض المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 1] وتكون على ما قيل عند النفخة الثانية وقيام الساعة بل روي عن ابن عباس أن زلزلة الساعة قيامها .

وأخرج أحمد .

وسعيد بن منصور .

وعبد بن حميد .

والنسائي والترمذي .

والحاكم وصححاه عن عمران ابن حصين قال : لما نزلت

﴿ سكارى وَمَا هُم بسكارى ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ [الحج : 1 ، 2] كان صلى الله عليه وسلم في سفر فقال : أتدرون أي يوم ذلك ؟ قالوا : الله تعالى ورسوله أعلم .

(38/519)

قال : ذلك يوم يقول الله تعالى لآدم عليه السلام ابعث بعث النار قال : يا رب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحداً إلى الجنة فانشأ المسلمون يبكون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قاربوا وسددوا وأبشروا فانها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية فتؤخذ العدة من الجاهلية فإن تمت وإلا كملت من المنافقين وما مثلكم في الأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير ثم قال : إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا ثم قال : إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا ثم قال : إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا قال : ولا أدري قال الثلثين أم لا ، وحديث البعث مذكور في الصحيحين وغيرهما لكن بلفظ آخر وفيه كالمذكور ما يؤيد كون هذه الزلزلة في يوم القيامة وهو المروى عن الحسن .

وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن علقمة .

والشعبي وعبيد بن عمير أنها تكون قبل طلوع الشمس من مغربها ، وإضافتها إلى الساعة على هذا لكونها من أماراتها ، وقد وردت آثار كثيرة في حدوث زلزلة عظيمة قبل قيام الساعة هي من أشراطها إلا أن في كون تلك الزلزلة هي المراد هنا نظراً إذ لا يناسب ذلك كون الجملة تعليلاً لموجب أمر جميع الناس بالتقوى ، ثم أنها على هذا القول على معناها الحقيقي وهو حركة الأرض العنيفة ، وتحدث هذه الحركة بتحريك ملك بناء على ما روي أن في الأرض عروقاً تنتهي إلى جبل قاف وهي بيد ملك هناك فإذا أراد الله عز وجل أمراً أمره أن يحرك عرقاً فإذا حركه زلزلت الأرض .

(39/519)

وعند الفلاسفة أن البحار إذا احتبس في الأرض وغلظ بحيث لا ينفذ في مجاريها لشدة استحصافها وتكاثفها اجتمع طالباً للخروج ولم يمكنه فزلزلت الأرض ، وربما اشتدت الزلزلة فخسفت الأرض فيخرج نار لشدة الحركة الموجبة لاشتعال البخار والدخان لا سيما إذا امتزجا امتزاجاً مقرباً إلى الدهنية ، وربما قويت المادة على شق الأرض فتحدث أصوات هائلة ، وربما حدثت الزلزلة من تساقط عوالي وهدات في باطن الأرض فيتموج بها الهواء المحتقن فتتزلزل به الأرض ، وقليلاً ما تتزلزل بسقوط قلل الجبال عليها لعض

الأسباب .

وما يستأنس به للقول بأن سببها احتباس البخار الغليظ وطلبه للخروج وعدم تيسره له كثرة الزلازل في الأرض الصلبة وشدتها بالنسبة إلى الأرض الرخوة ، ولا يخفي أنه إذا صح حديث في بيان سبب الزلة لا ينبغي العدول عنه وإلا فلا بأس بالقول برأي الفلاسفة في ذلك وهو لا ينافي القول بالفاعل المختار كما ظن بعضهم ، وهي على القول بأنها يوم القيامة قال بعضهم : على حقيقتها أيضاً ، وقال آخرون : هي مجاز عن الأهوال والشدائد التي تكون في ذلك اليوم ، وفي التعبير عنها بالشيء إيذان بأن العقول قاصره عن إدراك كنهها والعبارة ضيقة لا تحيط بها إلا على وجه الإبهام .

وفي البحر أن إطلاق الشيء عليها مع أنه لم توجد بعد يدل على أنه يطلق على المعدوم ، ومن منع ذلك قال : إن اطلاقه عليها لتيقن وقوعها وصيرورتها إلى الوجود لا محالة .

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾

(40/519)

الظاهر أن الضمير المنصوب في ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ للزلزلة لأنها المحدث عنها ، وقيل هو للساعة وهو كما ترى ، و ﴿ يَوْمٍ ﴾ منتصب بتذهل قدم عليه للاهتمام ، وقيل بعظيم ، وقيل

باضمار اذكر ؛ وقيل هو بدل من ﴿ الساعة ﴾ [الحج : 1] وفتح لبنائه كما قيل في قوله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ يَنفَعُ ﴾ [المائدة : 119] على قراءة يوم بالفتح ، وقيل بدل من ﴿ زَلْزَلَةَ ﴾ [الحج : 1] أو منصوب به إن اغتفر الفصل بين المصدر ومعموله الظرفي بالخبر ، وجملة ﴿ تَذْهَلُ ﴾ على هذه الأوجه في موضع الحال من ضمير المفعول والعائد محذوف أي تذهل فيها ، والذهول شغل يورث حزناً ونسياناف ، والمرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها وهي بخلاف المرضع بلا هاء فإنها التي من شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به ، وخص بعض نحاة الكوفة أم الصبي بمرضعة بالهاء والمستأجرة بمرضع ويرده قول الشاعر

: كمرضعة أولاد أخرى وضيعت . . .

بني بطنها هذا الضلال عن القصد

(41/519)

والتعبير به هنا ليدل على شدة الأمر وتفاقم الهول ، والظاهر أن ما موصولة والعائد محذوف أي عن الذي أرضعته ، والتعبير بما لتأكيد الذهول وكون الطفل الرضيع بحيث لا يخطر ببالها أنه ماذا لأنها تعرف شيئيته لكن لا تدري من هو بخصوصه ، وقيل مصدرية أي

تذهل عن إرضاعها ، والأول دل على شدة الهول وكمال الإنزعاج ، والكلام على طريق التمثيل وأنه لو كان هناك مرضعة ورضيع لذهلت المرضعة عن رضيعها في حال إرضاعها إياه لشدة الهول وكذا ما بعد ، وهذا ظاهر إذا كانت الزلزلة عند النفخة الثانية أو في يوم القيامة حين أمر آدم عليه السلام ببعث بعث النار وبعث الجنة ان لم نقل بأن كل أحد يحشر على حاله التي فارق فيها الدنيا فتحشر المرضعة مرضعة والحامل حاملة كما ورد في بعض الآثار ، وأما إذا قلنا بذلك أو بكون الزلزلة في الدنيا فيجوز أن يكون الكلام على حقيقته ، ولا يضر في كونه تمثيلاً أن الأمر إذ ذاك أشد وأعظم وأهول مما وصف واطم لشيوع ما ذكر في التهويل كما لا يخفي على المنصف النبيل .

وقرىء ﴿ تَذْهَلُ ﴾ من الاذهال مبنياً للمفعول ، وقرأ ابن أبي عبلة .

واليماني ﴿ تَذْهَلُ ﴾ منه مبنياً للفاعل و"كل" بالنصب أي يوم تذهل الزلزلة ، وقيل : الساعة كل مرضعة ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ أي تلقى ذات جنين جنينها لغير تمام ، وإنما لم يقل وتضع كل حاملة ما حملت على وزان ما تقدم لما أن ذلك ليس نصا في المراد وهو وضع الجنين بخلاف ما في النظم الجليل فإنه نص فيه لأن الحمل بالفتح ما يحمل في البطن من الولد ، وإطلاقه على نحو الثمرة في الشجرة للتشبيه بحمل المرأة ، وللتنصيص على ذلك من أول الأمر لم يقل وتضع كل حاملة حملها كذا قيل .

وتعقب بأن في دعوى تخصيص الحمل بما يحمل في البطن من الولد وان اطلاقه على نحو

الثمرة في الشجرة للتشبيه بحثاً ففي البحر الحمل بالفتح ما كان في بطن أو على رأس شجرة .

(42/519)

وفي القاموس الحمل ما يحمل في البطن من الولد جمعه حمال وأحمال وحملت المرأة تحمل علقت ولا يقال حملت به أو قليل وهو حامل وحاملة ، والحمل ثمر الشجر ويكسر أو الفتح لما بطن من ثمره والكسر لما ظهر أو الفتح لما كان في بطن أو على رأس شجرة والكسر لما على ظهر أو رأس أو ثمر الشجر بالكسر ما لم يكبر فإذا كبر فبالفتح جمعه احمال وحمول وحمال اه ، وقيل : المتبادر وضع الجنين بأي عبارة كان التعبير إلا أن ذات حمل أبلغ في التهويل .

من حامل أو حاملة لاشعاره بالصحبة المشعرة بالملازمة فيشعر الكلام بأن الحامل تضع إذ ذاك الجنين المستقر في بطنها المتمكن فيه هذا مع ما في الجمع بين ما يشعر بالمصاحبة وما يشعر بالمفارقة وهو الوضع من اللطف فتأمل فلمسلك الذهن اتساع .

﴿ وَتَرَى الناس ﴾ بفتح التاء والراء على خطاب كل واحد من المخاطبين برئية الزلزلة والاختلاف بالجمعية والإفراد لما أن المرئي في الأول هي الزلزلة التي يشاهدها الجميع وفي

الثاني حال من عدا المخاطب منهم فلا بد من إفراد المخاطب على وجه يعم كل واحد منهم لكن من غير اعتبار اتصافه بتلك الحالة فإن المراد بيان تأثير الزلزلة في المرئي لا في الرائي باختلاف مشاعره لأن مداره حيثية رؤيته للزلزلة لا لغيرها كأنه قيل وتصير الناس سكارى الخ ، وإنما أوثر عليه ما في التنزيل للإيذان بكمال ظهور تلك الحال فيهم وبلوغها من الجلاء إلى حد لا يكاد يخفى على أحد قاله غير واحد .

وجوز بعضهم كون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والأول أبلغ في التهويل ، والرؤية بصرية و﴿ الناس ﴾ مفعولها ، وقوله تعالى : ﴿ سكارى ﴾ حال منه أي يراهم كل واحد مشابهين للسكارى ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بسكارى ﴾ أي حقيقة حال أيضاً لكنها مؤكدة والحال المؤكد تقترن بالواو لا سيما إذا كانت جملة اسمية .

(43/519)

فلا يقال : إنه إذا كان معنى قوله تعالى : ﴿ تَرَى الناس سكارى ﴾ على التشبيه يكون ﴿ وَمَا هُم بسكارى ﴾ بالمعنى المذكور مستغنى عنه ، ولا وجه لجعله حالاً مؤكدة لمكان الواو ، وجوز أن يكون ﴿ تَرَى ﴾ بمعنى تظن فسكارى مفعول ثان ، وحينئذٍ يجوز أن يكون الكلام على التشبيه والجملة الاسمية في موضع الحال المؤكدة ؛ ويجوز أن يكون على

الحقيقة فلا تأكيد هنا ، وأمر إفراد الخطاب وما فيه من المبالغة بحاله ، وأياً ما كان فالمراد في قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بسكارى ﴾ استمرار النفي ، وأكد بزيادة الباء للتنبيه على أن ما هم فيه ليس من المعهود في شيء وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله ، وأشير إلى سببه بقوله تعالى : ﴿ ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ أي إن شدة عذابه تعالى تجعلهم كما ترى ، وهو استدراك على ما في الانتصاف راجع إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بسكارى ﴾ وزعم أبو حيان أنه استدراك عن مقدر كأنه قيل هذه أي الذهول والوضع ورؤية الناس سكارى أحوال هينة ولكن عذاب الله شديد وليس بهين وهو خلاف الظاهر جداً .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ تَرَى ﴾ بضم التاء وكسر الراء أي ترى الزلزلة الخلق جميع الناس سكارى .

وقرأ الزعفراني ﴿ تَرَى ﴾ بضم التاء وفتح الراء ﴿ الناس ﴾ بالرفع على إسناد الفعل المجهول إليه ، والتأنيث على تأويل الجماعة .

وقرأ أبو هريرة .

وأبو زرعة .

وابن جرير .

وأبو نهيك كذلك إلا أنهم نصبوا ﴿ الناس ﴾ وترى على هذا متعد إلى ثلاثة مفاعيل كما في "البحر" ؛ الأول : الضمير المستتر وهو نائب الفاعل ، والثاني : ﴿ الناس ﴾ والثالث :

﴿ سكارى ﴾ وقرأ أبو هريرة .

وابن نهيك ﴿ سكارى ﴾ بفتح السين في الموضعين وهو جمع تكسير .

واحده سكران ، وقال أبو حاتم : هي لغة تميم ، وأخرج الطبراني .

وغيره عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ سكارى ﴾

كعطشى في الموضعين ، وكذلك روى أبو سعيد الخدري وهي قراءة عبد الله .

وأصحابه .

(44/519)

وحذيفة وبها قرأ الأخوان .

وابن سعدان .

ومسعود بن صالح ، وتجمع الصفة على فعلى إذا كانت من الآفات والأمراض كقتلى وموتى

وحمقى ، ولكون السكر جارياً مجرى ذلك لما فيه من تعطيل القوى والمشاعر جمع هذا

الجمع فهو جمع سكران ، وقال أبو علي الفارسي : يصح أن يكون جمع سكر كزمنى وزمن ،

وقد حكى سيبويه رجل سكر بمعنى سكران .

وقرأ الحسن والأعرج .

وأبو زرعة .

وابن جبير والأعمش ﴿ سكارى ﴾ بضم السين فيهما ، قال الزمخشري : وهو غريب ، وقال أبو الفتح : هو اسم مفرد كالبشرى وبهذا أفتاني أبو علي وقد سألته عنه انتهى .

وإلى كونه اسماً مفرداً ذهب أبو الفضل الرازي فقال : فعلى بضم الفاء من صفة الواحدة من الإناث لكنها لما جعلت من صفات الناس وهم جماعة أجريت الجماعة بمنزلة المؤنث الموحد ، وعن أبي زرعة ﴿ سكارى ﴾ بفتح السين ﴿ بسكارى ﴾ بضمها ، وعن ابن جبير ﴿ سكارى ﴾ بفتح السين من غير ألف ﴿ بسكارى ﴾ بالضم والألف كما في قراءة الجمهور ، والخلاف في فعالى أهو جمع أو اسم جمع مشهور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(45/519)

وقال القاسمى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾

يأمر تعالى عباده بِتَقْوَاهُ التي هي من جوامع الكلم ، في فعل المأمورات واجتناب المنهيات .

قال المهايمي : أي : احفظوا تربيته عليكم ، بصرف نعمه إلى ما خلقها لأجله ، لئلا تقعوا في

الكفران الموجب لانقلاب التربية عليكم ، بالانتقام منكم . انتهى .

أي فالتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية ، مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين ، لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به ترغيباً وترهيباً . أي : احذروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ تعليل لموجب الأمر ، بذكر بعض عقوباته الهائلة . فإن ملاحظة عظمها وهولها ، وفظاعة ما هي من مبادئه ومقدماته ، من الأحوال والأهوال ، التي لا ملجأ منها سوى التدرع بلباس التقوى ، مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالة . والزلزلة التحريك الشديد والإزعاج العنيف ، بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء من مقارّها ويخرجها عن مراكزها .

وإضافتُها للساعة ، من إضافة المصدر إلى فاعله مجازاً ، كأنها هي التي تزلزل . أو إلى ظرفه ، وهي الزلزلة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 1] ، وفي التعبير عنها بالشيء ، إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها ، والعبارة لا تحيط بها إلا على وجه الإبهام . أفاده أبو السعود .

وقد وصف عظمها في كثير من السور والآيات . كسورة التكوير وسورة الانفطار وسورة الانشقاق وسورة الزلزال وغيرها . وقد أشير إلى شيء من بليغ هولها بقوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ أي : عن إرضاعها . أو عن الذي أرضعته وهو الطفل : ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ أي : ما في بطنها لغير تمام : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾ أي : كأنهم سكارى : ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾ أي : على التحقيق : ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ أي : ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله ، هو الذي أذهب عقولهم ، وطيّر تمييزهم ، وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه . قاله الزمخشريّ .

لطيفة :

قال الناصر في " الانتصاف " : العلماءُ يقولون : إن من أدلة المجاز صدق نقيضه ، كقولك : زيد حمار , إذا وصفته بالبلادة . ثم يصدق أن تقول : ومَا هُو بحمار , فتنفي عنه الحقيقة . فكذلك الآية . بعد أن أثبت السكر المجازيّ نفي الحقيقيّ أبلغ نفي مؤكّد بالباء . والسر في تأييده التنبيه على أن هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة ، ليس من المعهود في شيء ، وإنما هو أمر لهم يعهدوا قبله مثله . والاستدراك بقوله : ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ﴾ كأنه تعليل لإثبات السكر المجازيّ . كأنه قيل إذا لم يكونوا سكارى من الخمر ، وهو السكر المعهود ، فما هذا السكر الغريب وما سببه ؟

فقال : سببه شدة عذاب الله تعالى . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 245.244 ﴾

(47/519)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

سورة الحجّ

نزولها : اختلف فيها ، فقال بعضهم : إنها مكية إلّا آيات ، وقال آخرون : إنها مدنية إلّا آيات . . ونحن نغلّب الرأى القائل بأنها مدنية إلا بعض آيات منها فمكية . . ويكفى أن تسمّى سورة الحجّ ، والحجّ إنما فرض بعد الهجرة .

عدد آياتها : ثمان وسبعون آية .

عدد كلماته : ألفان ومائتان ، وإحدى وتسعون كلمة .

عدد حروفها : خمسة آلاف وخمسة وسبعون حرفا .

مناسبتها للسورة التي قبلها

كانت سورة الأنبياء - السابقة على هذه السورة - حديثا متصلا عن أنبياء اللّه ورسله ، وما ابتلاهم اللّه سبحانه وتعالى به من ضرّاء وسرّاء ، ثم كانت عاقبتهم جميعا إلى العافية فى

الدنيا ، وإلى رضا اللّه ورضوانه فى الآخرة . .

وقد بدئت هذه السورة - سورة الأنبياء - بهذا الخبر المثير : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ » ثم ختمت السورة بهذا البلاغ المبين ، الذي جاء به قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ » ثم تلتها الآيات التي تحدث عن النبىّ - صلوات اللّه وسلامه عليه - وأنه المبعوث رحمة للعالمين ، وأنه لا يحمل الناس حملا على الهدى الذي بين يديه ، فمن تولّى ، فما على النبىّ من أمره شىء . .

والموعد الآخرة ، حيث يفصل اللّه بين العباد . .

وقد جاءت سورة الحج فبدأت بهذا الإعلان ، أو هذا النذير الصارخ :

« يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها . . وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » .

وواضح ما بين بدء هذه السورة ، وبدء سورة الأنبياء وخاتمتها ، وما بين بدئها وختامها من تلاق وتلاحم . . بحيث يمكن أن تقرأ سورة الحج فى أعقاب سورة الأنبياء ، من غير فاصل بالبسملة ، وكأنها بعض منها ، وتعقيب على مقرراتها .

التفسير :

« يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ . . . »

بهذا الإعلام الصارخ المدوى تبدأ السورة الكريمة ، منذرة الناس بهذا اليوم العظيم ، يوم القيامة ، منبهة لهم من غفلتهم ، ملفتة لهم إلى ما هنالك من أهوال تشيب منها الولدان . . والإعلان عام للناس جميعا ، مؤمنهم وكافرهم ، المنتبه لهذا اليوم ، والمعدّ نفسه له ، ومن أنكره وكفر به ، أو كان فى غفلة عنه . .

وذلك التعميم الذي يشمل الناس جميعا ، إنما هو لأن أهوال هذا اليوم لا يكاد يتصورها أحد ، لأنها تخرج عن دائرة التصور البشرى ، وتجىء على صورة لم تقع للناس فى حياتهم الأولى ، على رغم ما وقع لهم من أهوال ، وما نزل بهم من بلاء . . ومن هنا كان الذين يؤمنون بالآخرة ، ولا يعملون لها ، مطالبون بأن ينتبهوا ، وأن يعملوا أكثر مما عملوا . . فإنهم - على يقظتهم ، وعلى خوفهم من لقاء ربّهم ، وعلى إعدادهم ليوم اللقاء - إنهم مع هذا كله أشبه بالغافلين . . فإن الهول شديد ، وأن الموقف لا يمكن تصوره . . ومن هنا أيضا كان المؤمن فى حاجة دائمة إلى تذكر هذا اليوم ، وإلى الحياة معه ، وإلى العمل له ، وإنه مهما أكثر من عمل ، فإنه قليل إلى المطلوب منه لهذا اليوم ، لو علم هوله ، وتصور صورته .

وقوله تعالى : « إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » هو عرض لهذا اليوم العظيم ، وما يقع فيه

من أهوال ، وما يطلع به على الناس من مفزعات . . والزلزلة ، الهزّة والرّعدة ، وهى الإرهاصات التي تقوم بين يدى هذا اليوم .

(49/519)

قوله تعالى : « يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » .

هو « لقطات » من مشاهد هذا اليوم . . فمجرد رؤية ما يطلع فى هذا اليوم ، يأخذ على الناس عقولهم ، وأسماعهم وأبصارهم . . فتذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت ، وتضع كلّ ذات حمل حملها . . حيث لا يملك أحد ـ مع هذا البلاء ـ شيئا من نفسه ، فتتعطل فيه الأجهزة « العاملة » الإرادية منها وغير الإرادية . .

ويصبح مجرد شبح يتحرك كما تتحرك الأشباح ! والصورة هنا مجازية ، فليس هناك مرضع حتى تذهل عن رضيعها ، ولا حامل حتى تلقى بما فى رحمها . . والمراد أنه لو طلعت الساعة على الناس فى دنياهم ، وأرتهم زلزلة منها ، لذهلت كل مرضعة عما أرضعت ، ولألقت كل ذات حمل حملها . . ويجوز أن يكون المراد بوضع الحمل العموم والشمول ، أي كل شىء يحمل ، سواء أكان ما فى الأرحام من أجنة ، أو ما مع الناس من أمور يشغلون بها

، ويحرصون عليها . . وبهذا يكون المراد بذات الحمل : النفس .

ويمكن أن تكون هذه الصورة حقيقية ، وأن من يشهد من الناس إرهاصات الساعة ، ونذرها ، قبل أن تقع ، يقع لهم هذا . . فكيف بالساعة نفسها ، حين ينكشف أمرها كله ؟ .

وقوله تعالى : « وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ »

.

هو عرض لصورة من صور الساعة بين يدى نذرها . . فهذه النذر تقلب أوضاع الحياة ، وتطلع على الناس بما لم يروه فى حياتهم من مذهلات . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا . . يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا . . بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ » (97 : الأنبياء) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 9 صـ 970. 973 ﴾

(50/519)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) ﴾

نداء للناس كلهم من المؤمنين وأهل الكتاب والمشركين الذين يسمعون هذه الآية من الموجودين يومَ نزولها ومن يأتون بعدهم إلى يوم القيامة ، ليتلقوا الأمر بتقوى الله وخشيته ، أي خشية مخالفة ما يأمرهم به على لسان رسوله ، فتقوى كل فريق بحسب حالهم من التلبس بما نهى الله عنه والتفريط فيما أمر به ، ليستبدلوا ذلك بضده .

وأول فريق من الناس دخولاً في خطاب ﴿ يا أيها الناس ﴾ هم المشركون من أهل مكة حتى قيل إن الخطاب بذلك خاص بهم .

وهذا يشمل مشركي أهل المدينة قبل صفائها منهم .

وفي التعبير عن الذات العلية بصفة الرب مضافاً إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى استحقاقه أن يُتَّقَى لعظمته بالخالقية ، وإلى جدارة الناس بأن يتقوه لأنه بصفة تدبير الربوبية لا يأمر ولا ينهى إلا لمرعي مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم .

وكلا الأمرين لا يفيده غير وصف الرب دون نحو الخالق والسيّد .

وتعليق التقوى بذات الرب يقتضي بدلالة الاقتضاء معنى اتقاء مخالفته أو عقابه أو نحو ذلك لأن التقوى لا تتعلق بالذات بل بشأنٍ لها مناسبٍ للمقام .

وأول تقواه هو تنزيهه عن النقائص ، وفي مقدمة ذلك تنزيهه عن الشركاء باعتقاد وحدانيته في الإلهية .

وجملة ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ في موضع العلة للأمر بالتقوى كما يفيده حرف

التوكيد الواقع في مقام خطابٍ لا تردد للسامع فيه .

والتعليل يقتضي أن لزلزلة الساعة أثراً في الأمر بالتقوى وهو أنه وقت لحصول الجزاء على التقوى وعلى العصيان وذلك على وجه الإجمال المفصل بما بعده في قوله : ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ [الحج : 2] .

والزلزلة حقيقتها : تحرك عنيف في جهة من سطح الأرض من أثر ضغط مجاري الهواء الكائن في طبقات الأرض القريبة من ظاهر الأرض .

(51/519)

وهي من الظواهر الأرضية المرعبة ينشأ عنها تساقط البناء وقد ينشأ عنها خسف الأشياء في باطن الأرض .

والساعة : عَلَم بالغلبة في اصطلاح القرآن على وقت فناء الدنيا والخلوص إلى عالم الحشر الأخروي ، قال تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها إلى قوله : يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ﴾ [الزلزلة : 16] .

وإضافة ﴿ زلزلة ﴾ إلى ﴿ الساعة ﴾ على معنى (في) ، أي الزلزلة التي تحدث وقت حلول الساعة .

فيجوز أن تكون الزلزلة في الدنيا أو في وقت الحشر .

والظاهر حمل الزلزلة على الحقيقة ، وهي حاصلة عند إشراف العالم الدنيوي على الفناء وفساد نظامه فإضافتها إلى الساعة إضافة حقيقية فيكون في معنى قوله تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ [الزلزلة : 1] الآية .

ويجوز أن تكون الزلزلة مجازاً عن الأهوال والمفزعات التي تحصل يوم القيامة فإن ذلك تستعار له الزلزلة ، قال تعالى : ﴿ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ [البقرة : 214] أي أصيبوا بالكوارث والأضرار لقوله قبله : ﴿ مستهم البأساء والضراء ﴾ [البقرة : 214] .

وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على الأحزاب : " اللهم اهزمهم وزلزلهم " .

والإتيان بلفظ ﴿ شيء ﴾ للتهويل بتوغله في التنكير ، أي زلزلة الساعة لا يعرّف كنهها إلاّ بأنها شيء عظيم ، وهذا من المواقع التي يحسن فيها موقع كلمة ﴿ شيء ﴾ وهي التي نبّه عليها الشيخ عبد القاهر في "دلائل الإعجاز" في فصل في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة وقد ذكرناه عند قوله تعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ﴾ في [سورة البقرة : 229] .

والعظيم : الضخم ، وهو هنا استعارة للقوي الشديد ، والمقام يفيد أنه شديد في الشرّ .

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾

جملة ﴿ يوم ترونها تذهل ﴾ الخ . . .

(52/519)

بيان لجملة ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ [الحج : 1] لأن ما ذكر في هذه الجملة يبيّن معنى كونها شيئاً عظيماً وهو أنه عظيم في الشرّ والرعب .

ويتعلق ﴿ يوم ترونها ﴾ بفعل ﴿ تذهل .

﴾ وتقديمُه على عامله للاهتمام بالتوقيت بذلك اليوم وتوقع رؤيته لكل مخاطب من الناس .

وأصل نظم الجملة : تذهل كل مرضعة عما أرضعت يوم تَرون زلَزلة الساعة .

فالخطاب لكلّ من تتأتّى منه رُؤية تلك الزَلزلة بالإمكان .

وضمير النصب في ﴿ ترونها ﴾ يجوز أن يعود على ﴿ زلزلة ﴾ [الحج : 1] وأطلقت الرؤية على إدراكها الواضح الذي هو كرؤية المرئيات لأنّ الزلزلة تُسمع ولا ترى .

ويجوز أن يعود إلى الساعة .

ورؤيتُها : رؤيةُ ما يحدث فيها من المرئيات من حضور الناس للحشر وما يتبعه ومشاهدة

أهوال العذاب .

وقرينة ذلك قوله ﴿ تذهل كل مرضعة ﴾ الخ .

والذهول : نسيان ما من شأنه أن لا يُنسى لوجود مقتضى تذكره ؛ إما لأنه حاضر أو لأن علمه جديد وإنما ينسى لشاغل عظيم عنه ، فذكر لفظ الذهول هنا دون النسيان لأنه أدل على شدّة التشاغل .

قاله شيخنا الجدّ الوزير قال : وشفقة الأم على الابن أشد من شفقة الأب ، فشفقتها على الرضيع أشد من شفقتها على غيره .

وكلّ ذلك يدل بدلالة الأَوْلى على ذهول غيرها من النساء والرجال .

وقد حصل من هذه الكناية دلالة على جميع لوازم شدّة الهول وليس يلزم في الكناية أن يصرح بجميع اللوازم لأن دلالة الكناية عقليّة وليست لفظية .

والتحقت هاء التأنيث بوصف ﴿ مرضعة ﴾ للدلالة على تقريب الوصف من معنى الفعل ، فإن الفعل الذي لا يوصف بحدثه غير المرأة تَلحقه علامة التأنيث ليفاد بهذا التقريب أنها في حالة التلبّس بالإرضاع ، كما يقال : هي ترضع .

.

ولولا هذه النكتة لكان مقتضى الظاهر أن يقال : كلّ مرضع ، لأن هذا الوصف من

خصائص الأنثى فلا يحتاج معه إلى الهاء التي أصل وضعها للفرق بين المؤنث والمذكر خيفة اللبس .

(53/519)

وهذا من دقائق مسائل نحاة الكوفة وقد تلقاها الجميع بالقبول ونظمها ابن مالك في أرجوزته "الكافية" بقوله:

وما من الصفات بالأنثى يخص . . .

عن تاء استغنى لأنّ اللفظ نص

وحيث معنى الفعل تنوي التاء زد . . .

كذي غدت مُرضعة طِفلاً وُلِد

والمراد : أن ذلك يحصل لكلّ مرضعة موجودة في آخر أيام الدنيا .

فالمعنى الحقيقي مراد ، فلم يقتض أن يكون الإرضاع واقعاً ، فأطلق ذهول المرضع وذات الحمل وأريد ذهول كل ذي علق نفيس عن عِلقه على طريقة الكناية .

وزيادة كلمة (كلّ) للدلالة على أن هذا الذهول يعتري كل مرضع وليس هو لبعض المراضع باحتمال ضعف في ذاكرتها .

ثمّ تقتضي هذه الكناية كناية عن تعميم هذا الهول لكل الناس لأن خصوصية هذا المعنى بهذا المقام أنه أظهر في تصوير حالة الفزع والهلع بحيث يذهل فيه من هو في حال شدّة التيقظ لوفرة دواعي اليقظة .

وذلك أن المرأة لشدّة شفقتها كثيرة الاستحضار لما تشفق عليه ، وأن المرضع أشد النساء شفقة على رضيعها ، وأنها في حال ملابسة الإرضاع أبعد شيء عن الذهول فإذا ذهلت عن رضيعها في هذه الأحوال دلّ ذلك على أن الهول العارض لها هول خارق للعادة .

وهذا من بديع الكناية عن شدة ذلك الهول لأن استلزام ذهول المرضع عن رضيعها لشدّة الهول يستلزم شدّة الهول لغيرها بطريق الأوْلى ، فهو لزوم بدرجة ثانية ، وهذا النوع من الكناية يسمى الإيماء .

و(مَا) في ﴿ عما أرضعت ﴾ موصولة ما صْدقُها الطفل الرضيع .

والعائد محذوف لأنه ضمير متصل منصوب بفعل ، وحذفُ مثله كثير .

والإتيان بالموصول وصلته في تعريف المذهول عنه دون أن يقول عن ابنها للدلالة على أنها تذهل عن شيء هو نصب عينها وهي في عمل متعلّق به وهو الإرضاع زيادة في التكني عن شدة الهول .

وقوله ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ هو كناية أيضاً كقوله ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ .

ووضع الحمل لا يكون إلا لشدة اضطراب نفس الحامل من فرط الفزع والخوف لأنّ الحمل في قرار مكين .

(54/519)

والحمل : مصدر بمعنى المفعول ، بقرينة تعلقه بفعل ﴿ تضعُ ﴾ أي تضع جنينها .

والتعبير بـ ﴿ ذات حمل ﴾ دون التعبير : بحامل ، لأنه الجاري في الاستعمال في الأكثر . فلا يقال : امرأة حامل ، بل يقال : ذات حمل قال تعالى : ﴿ وأُولاتُ الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ [الطلاق : 4] ، مع ما في هذه الإضافة من التنبيه على شدة اتصال الحمل بالحامل فيدل على أن وضعها إياه لسبب مفظع .

والقول في حمله على الحقيقة أو على معنى الكناية كالقول في ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ .

والخطاب في ﴿ ترى الناس ﴾ لغير معيّن ، وهو كل من تتأتى منه الرؤية من الناس ، فهو مساو في المعنى للخطاب الذي في قوله ﴿ يوم ترونها ﴾ ، وإنما أوثر الإفرادُ هنا للتفنن كراهية إعادة الجمع .

وعدل عن فعل المضي إلى المضارع في قوله ﴿ وترى لاستحضار الحالة والتعجيب منها

كقوله فتثير سحاباً ﴾ [الروم : 48] وقوله ﴿ ويصنع الفلك ﴾ [هود : 38] .

وقرأ الجمهور ﴿ سُكارى ﴾ بضم السين المهملة وبألف بعد الكاف .

ووصف الناس بذلك على طريقة التشبيه البليغ .

وقوله بعده ﴿ وما هم بسكارى ﴾ قرينة على قصد التشبيه وليبنى عليه قوله بعده ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

وقرأه حمزة والكسائي ﴿ سَكرى ﴾ بوزن عَطشى في الموضعين .

وسُكارى وسَكرى جمع سكران .

وهو الذي اختل شعور عقله من أثر شرب الخمر ، وقياس جمعه سكارى .

وأما سَكرَى فهو محمول على نَوْكى لما في السكر من اضطراب العقل .

وله نظير وهو جمع كسلان على كُسالى وكَسلى .

وجملة ﴿ وما هم بسكارى ﴾ في موضع الحال من الناس .

و ﴿ عذاب الله ﴾ صادق بعذابه في الدنيا وهو عذاب الفزع والوجَع ، وعذاب الرعب في الآخرة بالإحساس بلفح النار وزبْن ملائكة العذاب .

وجملة ﴿ وما هم بسكارى ﴾ في موضع الحال من النّاس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(55/519)

وقال الشيخ الشنقيطى :

بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ

سورة الحج

أمر جل وعلا في أول هذه السورة الكريمة : الناس بتقواه جل وعلا ، بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، وبين لهم أن زلزلة الساعة شيء عظيم ، تذهل بسببه المراضع عن أولادها ، وتضع بسببه الحوامل أحمالها ، من شدة الهول والفزع ، وأن الناس يرون فيه كأنهم سكارى من شدة الخوف ، وما هم بسكارى من شرب الخمر ، ولكن عذابه شديد .

وما ذكره تعالى هنا من الأمر بالتقوى ، وذكره في مواضع كثيرة جداص من كتابه ، كقوله في أول سورة النساء ﴿ يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [النساء : 1] إلى قوله ﴿ واتقوا الله الذي تَسَآءَلُونَ بِهِ والأرحام ﴾ [النساء : 1] الآية والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً .

وما بينه هنا من شدة أهوال الساعة ، وعظم زلزلتها ، بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [الزلزلة : 1-4] وقوله تعالى ﴿ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة : 14] وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة تَتْبَعُهَا الرادفة قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ

وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ [النازعات : 6-9] وقوله تعالى ﴿ ثَقُلَتْ فِي السماوات والأرض لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ﴾ [الأعراف : 187] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عظم هول الساعة .

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ اتقوا رَبَّكُمْ ﴾ قد أوضحنا فيما مضى معنى التقوى بشواهده العربية ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا . والزلزلة : شدة التحريك والإزعاج ، ومضاعفة زليل الشيء عن مقره ومركزه : أي تكرير انحرافه وتزحزحه عن موضعه ، لأن الأرض إذا حركت حركة شديدة تزلزل كل شيء عليها زلزلة قوية .

(56/519)

وقوله ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ منصوب بتذهل ، والضمير عائد إلى الزلزلة . والرؤية : بصرية ، لأنهم يرون زلزلة الأشياء بأبصارهم ، وهذا هو الظاهر ، وقيل : إنها من رأى العلمية .

وقوله ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ أي بسبب تلك الزلزلة ، والذهول : الذهاب عن الأمر مع دهشة ، ومنه قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه :

ضرباً يزيل الهام عن مقيله . . . ويذهل الخليلَ عن خليله

وقال قطرب : ذهل عن الأمر : اشتغل عنه . وقيل : ذهل عن الأمر : غفل عنه لطرو

شاغل ، من أهم أو مرض ، أو نحو ذلك ، والمعنى واحد ، وبقية الأقوال راجعة إلى ما ذكرنا .

وقوله ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ أي كل أنثى ترضع ولدها ، ووجه قوله : مرضعة ، ولم يقل : مرضع : هو ما تقرر في علم العربية ، من أن الأوصاف المختصة بالإناث إن أريد بها الفعل لحقها التاء ، وإن أريد بها النسب جردت من التاء ، فإن قلت : هي مرضع تريد : أنها ذات رضاع ، جردته من التاء كقول امرئ القيس :

فمثلكِ حُبلى قد طرقت ومرضعا . . . فألهيتها عن ذي تمائِمَ مغيل

وإن قلت : هي مرضعة بمعنى ، أنها تفعل الرضاع : أي تلقم الولد الثدي ، قلت : هي مرضعة بالتاء ومنه قوله :

كمرضعة أولاد أُخرى وضيعت . . . بني بطنها هذا الضلال عن القصد

كما أشار له بقوله :

وما من الصفات بالأنثى يخص . . . عن تاء استغنى لأن اللفظ نص

وحيث معنى الفعل يعني التاء زد . . . كذي غدت مرضعة طفلاً ولَد

(57/519)

وما زعمه بعض النحاة الكوفيين : من أن أم الصبي مرضعة بالتاء والمستأجرة للإرضاع : مرضع بلا هاء باطل ، قاله أبو حيان في البحر . واستدل عليه بقوله : كمرضعة أولاد أخرى البيت : فقد أثبت التاء لغير الأم ، وقول الكوفيين أيضاً : إن الوصف المختص بالأنثى لا يحتاج فيه إلى التاء ، لأن المراد منها الفرق بين الذكر والأنثى : والوصف المختص بالأنثى لا يحتاج إلى فرق لعدم مشاركة الذكر لها فيه مردود أيضاً ، قاله أبو حيان في البحر أيضاً مستدلاً بقول العرب : مرضعة ، وحائضة ، وطالقة : والأظهر في ذلك هو ما قدمنا ، من أنه إن أريد الفعل جيء بالتاء ، وإن أريد النسبة جرد من التاء ، ومن مجيء التاء للمعنى المذكور قول الأعشى :

أجارتنا بيني فإنك طالقه . . . كذاك أمور الناس غادٍ وطارقه

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة : فإن قلت : لم قيل : مرضعة دون مرضع ؟ قلت : المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي . والمرضع : التي شأنها أن ترضع ، وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به ، فقيل : مرضعة ، ليلد على أن ذلك الهول ، إذا فوجئت به هذه ، وقد ألقمت الرضيع ثديها : نزعته عن فيه ، لما يلحقها من الدهشة .

وقوله تعالى ﴿ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ الظاهر أن ما : موصولة ، والعائد محذوف : أي أرضعته على حد قوله في الخلاصة :

والحذف عندهم كثير منجلي . . . في عائدٍ مُتَّصل إن انتصب . . . بفعلٍ أو وصفٍ كمن نرجو يهب

وقال بعض العلماء : هي مصدرية : أي تذهل كل مرضعة عن إرضاعها .

قال أبو حيان في البحر : ويقوي كونها موصولة تعدي وضع إلى المفعول به في قوله : حملها لا إلى المصدر .

(58/519)

وقوله ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ أي كل صاحبة حمل تضع جنينها ، من شدة الفزع ، والهول ، والحمل بالفتح : ما كان في بطن من جنين ، أو على رأس شجرة من ثمر ﴿ وَتَرَى الناس سكارى ﴾ جمع سكران : أي يشبههم من رآهم بالسكارى ، من شدة الفزع ﴿ وَمَا هُم بسكارى ﴾ من الشراب ﴿ ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ والخوف منه هو الذي صيَّر من رآهم يشبههم بالسكارى ، لذهاب عقولهم ، من شدة الخوف ، كما يذهب عقل السكران من الشراب . وقرأ حمزة والكسائي ﴿ وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ﴾ بفتح السين ، وسكون الكاف في الحرفين على وزن فعلى بفتح فسكون . وقرأه الباقون ﴿ سكارى ﴾ بضم السين ، وفتح الكاف بعدها ألف في الحرفين أيضاً ،

وكلاهما جمع سكران على التحقيق . وقيل : إن سكرى بفتح فسكون : جمع سكر بفتح فكسر بمعنى : السكران ، كما يجمع الزمن على الزمنى ، قاله أبو علي الفارسي ، كما نقله عنه أبو حيان في البحر .

وقيل : إن سكرى مفرد ، وهو غير صواب .

واستدلال المعتزلة بهذه الآية الكريمة على أن المعدوم يسمى شيئاً ، لأنه وصف زلزلة الساعة ، بأنها شيء في حال عدمها قبل وجودها . قد بينا وجه رده في سورة مريم ، فأغنى عن إعادته هنا .

مسألة

اختلف العلماء في وقت هذه الزلزلة المذكورة هنا ، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة ، أو هي عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من القبور ؟ فقالت جماعة من أهل العلم : هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا ، وأول أحوال الساعة ، وممن قال بهذا القول : علقمة ، والشعبي ، وإبراهيم ، وعبيد بن عمير ، وابن جريج . وهذا القول من حيث المعنى له وجه من النظر ، ولكنه لم يثبت ما يؤيده من النقل ، بل الثابت من النقل يؤيد خلافه . وهو القول الآخر .

وحجة من قال بهذا القول حديث مرفوع ، جاء بذلك ، إلا أنه ضعيف لا يجوز الاحتجاج به .

قال ابن جرير الطبري في تفسيره مبيناً دليل من قال : إن الزلزلة المذكورة في آخر الدنيا قبل يوم القيامة : حدثنا أبو كريب قال : حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي ، عن إسماعيل بن رافع المدني ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن رجل من الأنصار ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن رجل من الأنصار ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما فرغ الله من خلق السمواتِ والأرضِ خلق الصُّور فأعطى إسرافيلَ فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى السماء ينظر متى يؤمر " قال أبو هريرة : يا رسول الله ، وما الصُّور ؟ قال : " قرن " ، قال : وكيف هو ؟ قال : " قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات ، الأولى : نفخة الفزع ، والثانية : نفخة الصعق : والثالثة : نفخة القيام لرب العالمين " ، يأمر الله عزوجل إسرافيل بالنَّفخة الأولى : انفخ نفخة الفزع فتفزع أهل السموات والأرضِ إلا من شاء الله ويأمره الله فيديمها ويطولها فلا يفتر ، وهي التي يقول الله ﴿ وَمَا يَنظُرُ هؤلاءآء إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [ص : 15] فيسير الله الجبال فتكون سراباً ، وترج الأرض بأهلها رجّاً ، وهي التي يقول الله ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة تَتْبَعُهَا الرادفة قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [النازعات : 6-8] فتكون الأرض كالسفينة الموبقة في البحر ، تضربها

الأمواج تكفأ بأهلها ، أو كالقنديل المعلق بالعرش ، ترجحه الأرواح ، فتميد الناس على ظهرها ، فتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، وتشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار ، فتلقاها الملائكة ، فتضرب وجوهها ، ويولي الناس مدبرين ، ينادي بعضهم بعضاً ، وهو الذي يقول الله ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر : 32-33] فبينما هم على ذلك ، إذ تصدعت الأرض من قطر إلى قطر فرأوا أمراً عظيماً ،

(60/519)

وأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به ، ثم نظروا إلى السماء ، فإذا هي كالمُهل ، ثم خسفت شمسها ، وخسف قمرها ، وانتثرت نجومها ، ثم كشطت عنهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك " فقال أبو هريرة : فمن استثنى الله حين يقول : ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ [النمل : 87] قال : " أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء ، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ، وقاهم الله فزع ذلك اليوم ، وأمنهم ، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه " ، وهو الذي يقول ﴿ يا أيها

الناس اتقوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : 1-2] انتهى منه . ولا يخفى ضعف الإسناد المذكور كما ترى . وابن جرير رحمه الله قبل أن يسوق الإسناد المذكور قال ما نصه : وقد روي عن النَّبي صلى الله عليه وسلم بنحو ما قال هؤلاء خبر في إسناده نظر ، وذلك ما حدثنا أبو كريب إلى آخر الإسناد ، كما سقناه عنه آنفاً .

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مستند من قال ذلك في حديث الصور ، من رواية إسماعيل بن رافع ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن رجل من الأنصار ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن رجل ، عن أبي هريرة : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ساق الحديث نحو ما ذكرناه بطلوه ، ثم قال : هذا الحديث قد رواه الطبراني وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وغير واحد مطولاً جداً .

والغرض منه : أنه دلَّ على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم القيامة أضيفت إلى الساعة لقربها منها ، كما يقال : أشراط الساعة ، ونحو ذلك والله أعلم . انتهى منه . وقد علمت ضعف الإسناد المذكور .

(61/519)

وأما حجة أهل القول الآخر القائلين : بأن الزلزلة المذكورة كائنة يوم القيامة بعد البعث من القبور ، فهي ما ثبت في الصحيح عن النَّبي صلى الله عليه وسلم من تصريحه بذلك .

وبذلك تعلم أن هذا القول هو الصواب كما لا يخفى .

قال البخاري رحمه الله في صحيحه في التفسير في باب قوله ﴿ وَتَرَى الناس سكارى ﴾ حدثنا عمر بن حفص ، حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش ، حدثنا أبو صالح ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا آدمُ ، فيقول : لبيك ربَّنا وسعديك ، فَيُنادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال : يا رب ، وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف أراه ، قال تسعمائه وتسعة وتسعين ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد . فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم ، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم : من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ، ومنكم واحد ، وأنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبرنا ثم قال : ثلث أهل الجنة ، فكبرنا ثم قال : شطر أهل الجنة ، فكبرنا " .

وقال أبو أسامة ، عن الأعمش : ﴿ وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ﴾ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين : وقال جرير ، وعيسى بن يونس ، وأبو معاوية ﴿

سكارى وَمَا هُم بسكارى ﴾ انتهى من صحيح البخاري .

وفيه تصريح النَّبي صلى الله عليه وسلم بأن الوقت الذي تضع فيه الحامل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى : هو يوم القيامة لا آخر الدنيا .

(62/519)

وقال البخاري في صحيحه أيضاً في كتاب : الرقاق في باب : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ : حدثني يوسف بن موسى ، حدثنا جرير عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد قال " يقول الله يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك والخير في يديك ، قال يقول : أخرج بعث النار قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فذلك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى . ولكن عذاب الله شديد . فاشتد ذلك عليهم فقالوا : يا رسول الله أينا ذلك الرجل : قال : " أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ، ومنكم رجل ، ثم قال : والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، فحمدنا الله وكبرنا ، ثم قال : والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة ، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، أو كالرقمة في ذراع الحمار " انتهى منه . ودلالته على المقصود ظاهرة .

وقال البخاري أيضاً في صحيحه في كتاب : بدء الخلق في أحاديث الأنبياء في باب قول الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين ﴾ [الكهف : 83] إلى قوله : ﴿ سَبَباً ﴾ [الكهف : 84] حدثنا إسحاق بن نصر ، حدثنا أبو أسامة ، عن الأعمش ، حدثنا أبو صالح ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله تعالى : يا آدم ، فيقول : لبيك ، وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : أخرج بعث النار ، قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فعنده يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد " إلى آخر الحديث نحو ما تقدم .

(63/519)

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : في آخر كتاب الإيمان بكسر الهمزة في باب : بيان كون هذه الأمة : نصف أهل الجنة : حدثنا عثمان بن أبي شيبة العبسي ، حدثنا جرير عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله عز وجل : يا آدم ، فيقول : لبيك ، وسعديك ، والخير في يديك ، قال : يقول : أخرج بعث النار ، قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائرة وتسعة

وتسعين ، قال : فذلك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد "

إلى آخر الحديث نحو ما تقدم .

فحديث أبي سعيد هذا الذي اتفق عليه الشيخان كما رأيت ، فيه التصريح من النَّبي صلى الله عليه وسلم بأن الوقت الذي تضع فيه كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم سكارى ، بعد القيام من القبور كما ترى ، وذلك نص صحيح صريح في محل النزاع .

فإن قيل : هذا النص فيه إشكال ، لأنه بعد القيام من القبور لا تحمل الإناث ، حتى تضع حملها من الفزع ، ولا ترضع ، حتى تذهل عما أرضعت .

فالجواب عن ذلك من وجهين :

الأول : هو ما ذكره بعض أهل العلم ، من أن من ماتت حاملاً تبعث حاملاً ، فتضع حملها من شدة الهول والفزع ، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك ، ولكن هذا يحتاج إلى دليل .

الوجه الثاني : أن ذلك كناية عن شدة الهول كقوله تعالى ﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ [المزمل : 17] ومثل ذلك من أسباب اللغة العربية المعروفة .

تنبيه

اعلم أن هذا الذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة التي ذكرنا بعضها يرد عليه سؤال ، وهو أن يقال : إذا كانت الزلزلة المذكورة بعد القيام من القبور ، فما معناها ؟

(64/519)

والجواب : أن معناها : شدة الخوف ، والهول ، والفزع ، لأن ذلك يسمى زلزالاً ، بدليل قوله تعالى فيما وقع بالمسلمين يوم الأحزاب من الخوف ﴿ إِذْ جَآءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبصار وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر وَتَظُنُّونَ بالله الظنونا هُنَالِكَ ابتلي المؤمنون وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ [الأحزاب : 10-11] أي وهو زلزال فزع وخوف ، لا زلزال حركة الأرض ، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ اتقوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ يدل على أن عظم الهول يوم القيامة موجب واضح للاستعداد لذلك الهول . بالعمل الصالح ، في دار الدنيا ، قبل تعذر الإمكان لما قدمنا مراراً من أن إن المشددة المكسورة تدل على التعليل ، كما تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه ، ومسلك النص الظاهر : أي اتقوا الله ، لأن أمامكم أهوالاً عظيمة ، لا نجاة منها إلا بتقواه جل وعلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(65/519)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) ﴾

الخطاب هنا عام للناس جميعاً ، وعادةً ما يأتي الخطاب الذي يطلب الإيمان عاماً لكل الناس ، إنما ساعة يطلب تنفيذ حكم شرعي يقول : يا أيها الذين آمنوا .

لذلك يقول هنا : ﴿ يا أَيُّهَا الناس اتقوا رَبَّكُمْ . . ﴾ [الحج : 1] يريد أنْ يلفتهم إلى قوة الإيمان . وكلمة ﴿ اتقوا رَبَّكُمْ . . ﴾ [الحج : 1] التقوى : أنْ تجعل بينك وبين ما أحدِّثك عنه وقايةً ، أي : شيئاً يقيك العذاب الذي لا طاقةَ لك به .

ونلحظ أن الله تعالى يقول مرة : ﴿ واتقوا الله . . ﴾ [البقرة : 194] ومرة يقول : ﴿ فاتقوا النار . . ﴾ [البقرة : 24] نعم ، لأن المعنى ينتهي إلى شيء واحد . معنى : ﴿ فاتقوا النار . . ﴾ [البقرة : 24] أي : اجعل بينك وبينها وقاية تحميك منها ، ويكون هذا بِفِعْل الأمر وتَرْك النهي .

وقوله : ﴿ واتقوا الله . . ﴾ [البقرة : 194] لأن الله تعالى صفات جمال ، وصفات جلال ، صفات الجمال كالرحمن ، والرحيم ، والباسط ، والستار ، وصفات الجلال كالقهار والجبار وغيرها مما نخاف منه .

فاجعل بينك وبين صفات الجلال وقايةً ، فليستْ بك طاقة لقاهريته ، وبطشه سبحانه ،

والنار من جنود الله ، ومن مظاهر قَهْره . فكما نقول : اتقِ الله نقول : اتقِ النار .

واختار في هذا الأمر صفة الربوبية ، فقال : ﴿ اتقوا ربَّكُمْ . . ﴾ [الحج : 1] ولم يقُلْ : اتقوا الله ؛ لأن الرب هو المتولِّي للرعاية وللتربية ، فالذي يُحذّرك هو الذي يُحبك ويُعطيك ، وهو الذي خلقك وربَّاك ورعاك .

فالربوبية عطاء : إيجاد من عَدم وإمداد من عُدم ، فأولى بك أن تتقيه ، لأنه قدَّم لك الجميل .

أما صفة الألوهية فتعني التكاليف والعبادة بافْعل ولا تفعل ، الله معبود ومُطَاع فيما أمر وفيما نَهَى .

(66/519)

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : 1] الزلزلة : هي الحركة العنيفة الشديدة التي تُخرِج الأشياء عن ثباتها ، كما لو أردتَ أنْ تخلعَ وتداً من الأرض ، فعليك أولاً أنْ تهزّه وتخلخله من مكانه ، حتى تجعل له مجالاً في الأرض يخرج منه ، إنما لو حاولت جذْبه بدايةً فسوف تجد مجهوداً ومشقة في خَلْعه ، وكذلك يفعل الطبيب في خلع الضِّرس .

فمعنى الزلزلة : الحركة الشديدة التي تزيل الأشياء عن أماكنها ، والحق سبحانه وتعالى تكلم عن هذه الحركة كثيراً فقال : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرض رَجّاً * وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً ﴾ [الواقعة : 4 – 6]

ويقول : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرض زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرض أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنسان مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 1 – 5] .

فالزلزال هنا ليس زلزالاً كالذي نراه من هزّات أرضية تهدم بعض البيوت ، أو حتى تبتلع بعض القرى ، فهذه مجرد آيات كونية تثبت صدْق البلاغ عن الله ، وتنبهك إلى الزلزال الكبير في الآخرة ، إنه صورة مصغرة لما سيحدث في الآخرة ، حتى لا نغتر بسيادتنا في الدنيا فإن السيادة هبة لنا من الله .

وعندما حدث زلزال " أغادير " لاحظوا أن الحيوانات ثارتْ وهاجتْ قبل الزلزال بدقائق ، ومنها ما خرج إلى الخلاء ، فأيُّ إعلام هذا ؟ وأيُّ استشعار لديها وهي بهائم في نظرنا لا تفهم ولا تعي ؟

إن في ذلك إشارة للإنسان الذي يعتبر نفسه سيد هذا الكون : تنّبه ، فلولا أن الله سَيَّدَكَ لوكزتْكَ هذه البهائم فقضت عليك .

نقول : ليس هذا زلزالاً عاماً ، إنما هو زلزال مخصوص منسوب إلى الأرض بوحي من الله ، وبأمر منه سبحانه أن تتزلزل .

لذلك وُصِف هذا الزلزال بأنه شيء عظيم : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : 1] فحين تقول أنت أيها الإنسان : هذا شيء عظيم فهو عظيم بمقياسك أنت ، أما العظيم هنا فعظيم بمقاييس الحق سبحانه ، فلكَ أن تتصوَّر فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم .

لقد افتُتِحَتْ هذه السورة بزلزلة القيامة ؛ لأن الحق سبحانه سبق أنْ قال : ﴿ واقترب الوعد الحق . . ﴾ [الأنبياء : 97] فلا بُدَّ أنْ يعطينا هنا صورة لهذا الوعد ، ونُبْذة عما سيحدث فيه ، وصورة مُصغَّرة تدل على قدرته تعالى على زلزال الآخرة ، وأن الأرض ليس لها قوام بذاتها ، إنما قوامها بأمر الله وقدرته ، فإذا أراد لها أنْ تزول زالتْ . وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 2] .

فَمَا نراه من البراكين ومن الثروات في باطن الأرض وعجائب يقع تحت هذه الآية ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثرى ﴾ [طه : 6] .

ما دام الحق سبحانه يمتنُّ بملكية ما تحت الثَّرى فلا بُدَّ أن تحت الثرى ثروات وأشياءَ نفيسة

، ونحن الآن نُخرِج معظم الثروات من باطن الأرض ، ومعظم الأمم الغنية تعتمد على الثروات المدفونة من بترول ومعادن ومناجم وذهب . . إلخ .

وسبق أن ذكرنا أن الحق – سبحانه وتعالى – بعثَر الخيرات في كونه ، وجعل لكل منها وقته المناسب ، فالرزق له ميلاد يظهر فيه : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : 21] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا . . ﴾ .

(68/519)

والرؤية : قلنا قد تكون رؤية علمية أو رؤية بصرية ، والشيء الذي نعلمه إما : علمَ اليقين ، وإما عين اليقين ، وإما حقيقة اليقين . علم اليقين : أنْ يخبر مَنْ تثق به بشيء ، كما تواترت الأخبار عن الرحالة بوجود قارة أسموها فيما بعد أمريكا ، وبها كذا وكذا ، فهذا نسميه " علم يقين " ، فإذا ركبت الطائرة إلى أمريكا فرأيتها وشاهدت ما بها فهذا " عين اليقين " فإذا نزلتَ بها وتجولتَ بين شوارعها ومبانيها فهذا نسميه " حقيقة اليقين " .

لذلك ؛ حين يخبر الله تعالى الكافرين بأن هناك عذاباً في النار فهذا الإخبار صادق من الله فعِلْمنا به " علم يقين " ، فإذا رأيناها فهذا " عين اليقين " كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا

عَيْنَ اليقين ﴾ [التكاثر : 7]

فإذا ما باشرها أهلها ، وذاقوا حرّها ولظاها – وهذا مقصور على أهل النار – فقد علموها حَقَّ اليقين ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضآلين * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين * فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ [الواقعة : 90 – 96] ومعنى : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ . . ﴾ [الحج : 2] الذهول : هو انصراف حاجة عن مهمتها الحقيقية لهوْل رأْته فتنشغل بما رأته عن تأديةِ وظيفتها ، كما يذهل الخادم حين يرى شخصاً مهيباً أو عظيماً ، فيسقط ما بيده مثلاً ، فالذهول – إذن – سلوك لا إرادي قد يكون ذهولاً عن شيء تفرضه العاطفة ، أو عن شيء تفرضه الغريزة .

(69/519)

العاطفة كالأم التي تذهَلُ عن ولدها ، وعاطفة الأمومة تتناسب مع حاجة الولد ، ففي مرحلة الحمل مثلاً تجد الأم تحتاط في مشيتها ، وفي حركاتها ، خوفاً على الجنين في بطنها ، وهذه العاطفة من الله جعلها في قلب الأم للحفاظ على الوليد ، وإلاَّ تعرض لما يؤذيه أو يُودِي بحياته .

لذلك ، لما سألوا المرأة العربية عن أحب أبنائها ، قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يُشْفَى ، فحسب الحاجة يعطي الله العاطفة ، فالحامل عاطفتها نحو ولدها قوية ، وهي كذلك في مرحلة الرضاعة .

فانظر إلى المرضعة ، وكيف تذهل عن رضيعها وتنصرف عنه ، وأيُّ هول هذا الذي يشغلها ، ويُعطِّل عندها عاطفة الأمومة والحنان ويُعطِّل حتى الغريزة .

وقد أعطانا القرآن صورة أخرى في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ ﴾ [عبس : 34 – 36] .

ومن عظمة الأسلوب القرآني أن يذكر هنا الأخ قبل الأب والأم ، قالوا : لأن الوالدين قد يُوجدان في وقت لا يرى أنهما في حاجة إليه ، ولا هو في حاجة إليهما لأنه كبر ، أمَّا الأخ ففيه طمع المعونة والمساعدة .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ . . ﴾ [الحج : 2]

والمرضعة تأتي بفتح الضاد وكَسْرها : مُرضَعة بالفتح هي التي من شأنها أن ترضع وصالحة لهذه العملية ، أما مُرضِعة بالكسر فهي التي تُرضع فعلاً ، وتضع الآن ثديها في فَم ولدها ، فهي مرضِعة فانظر – إذن – إلى مدى الذهول والانشغال في مثل هذه الحالة .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا . . ﴾ [الحج : 2] بعد أنْ تكلَّم عن المرضع رقَّى المسألة إلى الحامل ، ومعلوم أن الاستمساك بالحمل غريزة قوية لدى الأم حتى في تكوينها الجسماني ، فالرحم بمجرد أنْ تصل إليه البويضة المخصبة ينغلق عليها ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَنُقِرُّ فِي الأرحام مَا نَشَآءُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . ﴾ [الحج : 5] . فإذا ما جاء وقت الميلاد انفتح له بقدرة الله ، فهذه – إذن – مسألة غريزية فوق قدرة الأم ودون إرادتها . إذن : وَضْع هذا الحمل دليل هَوْل كبير وأمر عظيم يحدث .

والحَمْل نوعان : ثقَل تحمله وهو غيرك ، وثقل تحمله في ذاتك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ﴾ [طه : 101] والحِمْل (بكسر الحاء) : هو الشيء الثقيل الذي لا يُطيقه ظهرك ، أمّا الحَمْل بالفتح فهو : الشيء اليسير تحمله في نفسك . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

لَيْسَ بِحِمْلٍ مَا أَطَاقَ الظَّهْرُ . . . مَا الحِمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْر

أي : أن الشيء الذي تطيق حَمْله ويَقْوى عليه ظهرك ليس بحمل ، إنما الحمل هو الهمّ الذي يحتويه الصدر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ [الحج : 2] سكارى : أي يتمايلون مضطربين ، مثل السكارى حين تلعب بهم الخمر ، (

وتطوحهم) يميناً وشمالاً ، وتُلقِي بهم على الأرض ، وكلما زاد سُكْرهم وخروجهم عن طبيعتهم كان النوع شديداً ! !

وهكذا سيكون الحال في موقف القيامة لا من سُكْرٍ ولكن من خوف وهَوْل وفزع ﴿ وَمَا هُم بسكارى ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ [الحج : 2] .

لكن ، من أين يأتي اضطراب الحركة هذا ؟

(71/519)

قالوا : لأن الله تعالى خلق الجوارح ، وخلق في كل جارحة غريزة الانضباط والتوازن ، وعلماء التشريح يُحدِّدون في الجسم أعضاء ومناطق معينة مسئولة عن حِفْظ التوازن للجسم ، فإذا ما تأثرتْ هذه الغدد والأعضاء يشعر الإنسان بالدُّوار ، ويفقد توازنه ، كأنْ تنظر من مكان مرتفع ، أو تسافر في البحر مثلاً .

فهذا الاضطراب لا من سُكْر ، ولكن من هَوْل ما يرونه ، فيُحدث لديهم تغييراً في الغُدد والخلايا المسئولة عن التوازن ، فيتمايلون ، كمن اغتالتْه الخمر .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ [الحج : 2] إنهم لم يَرَوْا العذاب بَعْد ، إنها مجرد قيام الساعة وأهوالها أفقدتهم توازنهم ؛ لأن الذي يَصْدُق في أن القيامة تقوم بهذه

الصورة يَصْدُق في أن بعدها عذاباً في جهنم ، إذن : انتهت المسألة وما كنا نكذب به ، ها هو ماثل أمام أعيننا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(72/519)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾

المرضع من لها ولد ترضعه والمرضعة من ألقمت الثدي للرضيع وعلى هذا فقوله تعالى يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت أبلغ من مرضع في هذا المقام فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعة لم تذهل عنه إلا لأمر أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع

وتأمل رحمك الله تعالى السر البديع في عدوله سبحانه عن كل حامل إلى قوله ذات حمل فإن الحامل قد تطلق على المهيأة للحمل وعلى من هي في أول حملها ومبادئه فإذا قيل ذات حمل لم يكن إلا لمن ظهر حملها وصلح للوضع كاملا أو سقطا كما يقال ذات ولد فأتي في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة دون التهيؤ لها وأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود

الحمل وقبوله للوضع والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بدائع الفوائد حـ 4 صـ 21 . 22 ﴾

(73/519)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) ﴾

أخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه ، والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه من طرق ، عن الحسن وغيره ، عن عمران بن حصين قال : " لما نزلت ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ إلى قوله : ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ أنزلت عليه هذه وهو في سفر فقال : " أتدرون أي يوم ذلك " ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ! قال : " ذلك يوم يقول الله لآدم : ابعث بعث النار . قال : يا رب ، وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار ، وواحداً إلى الجنة " فانشأ المسلمون يبكون . فقال رسول الله : - صلى الله عليه وسلم - " قاربوا وسددوا فإنها لم تكن نبوّة قط ، إلا كان بين يديها جاهلية ،

فتؤخذ العدة من الجاهلية ، فإن تمت ، وإلا أكملت من المنافقين ، وما مثلكم : إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة ، أو كالشامة في جنب البعير " ثم قال : " إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة " فكبروا ! ثم قال : " إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة " فكبروا ! ثم قال : " إني لأرجوا أن تكونوا نصف أهل الجنة " فكبروا ! قال : فلا أدري قال الثلثين أم لا " .

(74/519)

وأخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن مردويه ، عن عمران بن حصين قال : " كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فتفاوت بين اصحابه في السير ، فرفع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صوته بهاتين الآيتين ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ إلى قوله ﴿ إن عذاب الله شديد ﴾ فلما سمع ذلك أصحابه حثوا المطي ، وعرفوا أنه عند قول يقوله ، فقال : " هل تدرون أي يوم ذلك ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " ذلك يوم ينادي الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول : يا آدم ابعث بعث النار ، فيقول أي رب ، وما بعث النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائه وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد في الجنة " فتعبس القوم حتى ما أبدوا بضاحكة ! فلما رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي بأصحابه قال : " اعملوا وابشروا ، فوالذي نفس محمد بيده ، أنكم لمع

خليقتين ما كانتا مع شيء إلا أكثرتاه ؛ يأجوج ومأجوج ومن مات من بني آدم ومن بني إبليس " فسري عن القوم بعض الذي يجدون قال " اعملوا وابشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة " " .

وأخرج ابن جرير " عن الحسن قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قفل عن غزوة العسرة ومعه أصحابه بعد ما شارف المدينة ، قرأ ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ فذكر نحوه ، إلا أنه زاد فيه : " لم يكن رسولان إلا أن كان بينهما فترة من الجاهلية فهم أهل النار ، وإنكم بين ظهراني خليقتين لا يعادهما أحد من أهل الأرض إلا كثرتاه ، وهم يأجوج ومأجوج وهم أهل النار ، وتكمل العدة من المنافقين " " .

(75/519)

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن أنس قال : " نزلت ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ إلى قوله ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسير له ، فرفع بها صوته حتى ثاب إليه أصحابه فقال : أتدرون أي يوم هذا ؟ هذا يوم يقول الله لآدم : " يا آدم ، قم فابعث بعث النار من كل ألف تسعمائة

وتسعة وتسعين ، فكَبُر ذلك على المسلمين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم سددوا وقاربوا وابشروا ، فوالذي نفس محمد بيده ، ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير ، أو كالرقمة في ذراع الدابة ، وإن معكم لخليقتين ما كانتا في شيء قط إلا أكثرتاه : يأجوج ومأجوج ومن هلك من كفرة الإنس والجن " " .

وأخرج البزار وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية – وأصحابه عنده – ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ فقال : " هل تدرون أي يوم ذاك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذاك يوم يقول الله يا آدم ، قم فابعث بعث النار . فيقول : يا رب ، من كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحداً إلى الجنة . فشق ذلك على القوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة ، ثم قال : اعملوا وأبشروا ، فإنكم بين خليقتين لم تكونا مع أحد إلا أكثرتاه : يأجوج ومأجوج ، وإنما أنتم في الأمم كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة ، وإنما أمتي جزء من ألف جزء " " .

(76/519)

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسيره في غزوة بني المصطلق ، إذ أنزل الله ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ﴾ إلى قوله ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ فلما أنزلت عليه وقف على ناقته ثم رفع بها صوته فتلاها على أصحابه ، ثم قال لهم : أتدرون أي يوم ذاك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذاك يوم يقول الله لآدم : يا آدم ، ابعث بعث النار من ولدك . فيقول : يا رب ، من كل كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحداً إلى الجنة . فبكى المسلمون بكاء شديداً ودخل عليهم أمر شديد . فقال : والذي نفس محمد بيده ، ما أنتم في الأمم إلا كالشعرة البيضاء في الشاة السوداء ، وإني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة ، بل أرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي موسى قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير له . . . فذكر نحوه .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " يقول الله يوم القيامة : يا آدم ، ابعث بعث النار . فيقول : يا رب ، وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون . فعند ذلك يشيب الوليد ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ قال : فشق ذلك على

الناس فقالوا : يا رسول الله ، من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ويبقى الواحد ! فأينا ذلك الواحد ؟ فقال : من يأجوج ومأجوج ألف ، ومنكم واحد . . . وهل أنتم في الأمم كالشعرة السوداء في الثور الأبيض ؟ أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ؟ " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن علقمة في قوله ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ قال : الزلزلة ، قبل الساعة .

(77/519)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الشعبي ، أنه قرأ ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ﴾ إلى قوله ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ قال : هذا في الدنيا من آيات الساعة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عبيد بن عمير في الآية . قال : هذه أشياء تكون في الدنيا قبل يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : زلزلتها شرطها .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ قال : هذا بدء يوم القيامة . وفي قوله ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ قال : تترك ولدها للكرب الذي نزل بها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله ﴿ يوم ترونها تذهل ﴾ قال : تغفل .

وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ قال : ذهلت عن أولادها لغير فطام ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ قال : ألقت الحوامل ما في بطونها لغير تمام ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ قال : من الخوف ﴿ وما هم بسكارى ﴾ قال : من الشراب .

وأخرج الطبراني والحاكم وابن مردويه وأبو الحسن أحمد بن يزيد الحلواني في كتاب الحروب ، عن عمران بن حصين أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ﴾ .

وأخرج ابن مردويه وأبو الحسن الحلواني والحافظ عبد الغني بن سعيد في إيضاح الأشكال ، عن أبي سعيد قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ﴾ قال الأعمش : وهي قراءتنا .

وأخرج سعيد بن منصور عن حذيفة ، أنه كان يقرأ ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه كان يقرأ كذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي نهيك ، أنه قرأ ﴿ وترى الناس ﴾ يعني تحسب الناس . قال : لو كانت منصوبة كانوا سكارى ، ولكنها ﴿ ترى ﴾ تحسب .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الربيع ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ قال : ذلك عند الساعة ، يسكر الكبير ويشيب الصغير وتضع الحوامل ما في بطونها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج ﴿ وما هم بسكارى ﴾ قال : من الشراب .

والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(78/519)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة ﴾ يجوزُ في هذا المصدرِ وجهان ، أحدهما : أَنْ يكونَ مضافاً لفاعله وذلك على تقديرين . أحدُ التقديرَيْن : أَنْ يكونَ مِنْ زلزل اللازمِ بمعنى تزَلْزَلَ فالتقدير : إنَّ تزَلْزُلَ الساعةِ . والتقديرُ الثاني : أَنْ يكونَ مِنْ زلْزَلَ المتعدّي ، ويكون المفعولُ محذوفاً تقديرُه : إنَّ زِلْزالَ الساعةِ الناسَ . كذا قَدَّره أبو البقاء . وأحسنُ مِنْ هذا أن يُقَدَّرَ : إنَّ زِلْزالَ الساعةِ للأرض . يَدُلُّ عليه قولُه : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض ﴾ [الزلزلة : 1] ونسبة التَّزَلْزُلِ أو الزلزال إلى الساعة على سبيل المجاز .

الوجه الثاني : أن يكونَ المصدرُ مضافاً الى المفعولِ به ، على طريقةِ الاتّساع في الظرف

كقوله :

3368 طَبَّاخِ ساعاتِ الكرى زادَ الكَسِلْ . . . وقد أوضح الزمخشريُّ ذلك بقولِه : " ولا تَخْلو الساعةُ من أَنْ تكونَ على تقديرِ الفاعلةِ لها ، كأنها هي التي تُزَلْزِلُ الأشياءَ ، على المجازِ الحُكْمي ، فتكونُ الزلزلة مصدراً مضافاً إلى فاعِله ، أو على تقديرِ / المفعولِ فيها على طريقةِ الاتِّساعِ في الظرفِ ، وإجرائه مجرى المفعولِ به ، كقولِه تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ اليل والنهار ﴾ [سبأ : 33] .

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)

(79/519)

قوله : ﴿ يَوْمَ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أَنْ يَنْتَصِبَ ب " تَذْهَلُ " ولم يذكرِ الزمخشريُّ غيره . الثاني : أنه منصوبٌ ب " عظيم " . الثالث : أنه منصوبٌ بإضمار اذكر . الرابع : أنه بدلٌ من الساعة . وإنما فُتح لأنه مبنيٌّ لإضافتِه إلى الفعلِ . وهذا إنما يتمشى على قولِ الأخفش ، وقد تَقَدَّمَ تحقيقُه آخرَ المائدة . الخامس : أنه بدلٌ من " زلزلة " بدلُ اشتمالٍ ؛ لأنَّ كلاً من الحدثِ والزمانِ يَصْدُقُ أنه مشتملٌ على الآخر ، ولا يجوز أَنْ ينتصِبَ ب " زلزلة " لِمَا يَلْزَمُ

من الفصلِ بين المصدرِ ومعمولِه بالخبر .

قوله : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ في هذا الضميرِ قولان ، أظهرهما : أنه ضميرُ الزلزلةِ لأَنها المحدَّثُ عنها ، ويؤيِّدُه أيضاً قولُه ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ . والثاني : أنه ضميرُ الساعةِ . فعلى الأولِ يكونُ الذُّهولُ والوَضْعُ حقيقةً لأنه في الدنيا ، وعلى الثاني يكونُ على سبيلِ التعظيم والتهويل ، وأنها بهذه الحيثيةِ ، إذ المرادُ بالساعةِ القيامةُ ، وهو كقولِه : ﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ [المزمل : 17] .

قوله : ﴿ تَذْهَلُ ﴾ في محلِّ نصب على الحال من " ها " في " تَرَوْنَها " فإنَّ الرؤيَةَ هنا بَصَريةٌ ، وهذا إنما يَجِيْءُ على غيرِ الوجهِ الأول . وأمَّا الوجهُ الأولُ وهو أنَّ " تَذْهَلُ " ناصِبٌ لـ " يومَ تَرَوْنَها " فلا محلَّ للجملةِ من الإعرابِ لأنها مستأنفةٌ ، أو يكونُ محلُّها النصبَ على الحال من الزلزلة ، أو من الضمير في " عظيم " ، وإنْ كان مذكراً ، لأنَّه هو الزَّلْزَلَةُ في المعنى ، أو من الساعة ، وإن كانت مضافاً إليها ، لأنها : إمَّا فاعلٌ أو مفعولٌ كما تقدَّم . وإذا جَعَلْناها حالاً فلابُدَّ من ضميرٍ محذوفٍ تقديرُه : تَذْهَلُ فيها .

(80/519)

وقرأ العامة " تَذْهَلُ " بفتح التاءِ والهاءِ ، مِنْ ذَهِل عن كذا يَذْهَلُ . وقرأ ابن أبي عبلة واليماني بضم التاء وكسرِ الهاءِ ونصبِ "كل " على المفعولية ، مِنْ أَذْهَلَه عن كذا يُذْهِله عَدَّاه بالهمزة ، والذُّهولُ : الاشتغالُ عن الشيءِ . وقيل : إذا كان مع دَهْشَة . وقيل : إذا كان ذلك لطَرَآنِ شاغِلٍ مِنْ هَمٍّ ومَرَضٍ ونحوِهما . وذُهْل بنُ شَيْبان أصلُه من هذا .

والمُرْضِعَةُ : مَنْ تَلَبَّسَتْ بالفعل ، والمُرْضِعُ : مَنْ شَأْنُها أَنْ تُرْضِعَ كحائض ، فإذا أريد التلبُّسُ قيل : حائِضة .

قال الزمخشري : " فإن قلتَ : لِمَ قيل مُرْضِعَة دون مُرْضع ؟ قلت : المُرْضِعَةُ التي هي في حال الإِرضاعِ ملقمةٌ ثديَها الصبيَّ ، والمرضعُ التي مِنْ شأنِها أَنْ تُرْضِعَ وإن لم تباشِرْ الإِرضاعَ في حالِ وَصْفِها به " والمعنى : إنَّ مِنْ شِدَّةِ الهَوْلِ تَذْهَلُ هذه عن ولدِها فكيف بغيرِها ؟

وقال بعضُ الكوفيين : المُرْضِعَةُ تقال للأمِّ ، والمُرْضِعُ تقال للمستأجَرَةِ غيرِ الأمِّ ، وهذا مردودٌ بقولِ الشاعر :

3369 كمُرْضِعَةٍ أولادَ أخرى وضَيَّعَتْ . . . بني بطنِها هذا الضلالُ عن القصدِ

فأَطْلَقَ المُرْضِعَةَ بالتاء على غير الأمِّ .

وقولُ العرب مُرْضِعَة يَرُدُّ أيضاً قولَ الكوفيين : إنَّ الصفاتِ المختصةَ بالمؤنثِ لا يلحقها تاءُ التأنيثِ نحو : حائِض وطالق . فالذي يُقال : إنْ قُصِد النَّسَبُ فالأمرُ على ما ذَكَروا ، وإنْ قُصِد الدلالةُ على التلبُّسِ بالفعلِ وَجَبَتِ التاءُ فيقال : حائضة وطالقة وطامِثة .

قوله : ﴿ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ يجوزُ في " ما " أَنْ تكونَ مصدريةً أي : عن إرْضاعِها . ولا حاجةَ إلى تقديرِ حَذْفٍ على هذا . ويجوزُ أَنْ تكونَ بمعنى الذي فلا بُدَّ من حَذْفِ عائدٍ أي : أَرْضَعَتْه . ويُقَوِّيه تعدّي " تَضَعُ " إلى مفعولٍ دونَ مصدرٍ . والحَمْلُ بالفتحِ : ما كان في بَطْنٍ أو على رأسِ شجرة ، وبالكسرِ ما كان على ظَهْرٍ .

قوله : ﴿ وَتَرَى الناس سكارى ﴾ العامَّةُ على فتحِ التاءِ من " ترى " على خطابِ الواحد . وقرأ زيدُ بن علي بضمِّ التاءِ وكسرِ الراءِ ، على أنَّ الفاعلَ ضميرُ الزلزلةِ أو الساعةِ . وعلى هذه القراءةِ فلا بُدَّ من مفعولٍ أولَ محذوفٍ ليَتِمَّ المعنى به أي : وتُرِي الزلزلةُ أو الساعةُ الخَلْقَ الناسَ سكارى . ويؤيِّد هذا قراءةُ أبي هريرة وأبي زرعة وأبي نهيك " ترى الناس سكارى " . بضمِّ التاء وفتح الراء على ما لم يُسَمَّ فاعله ، ونصب " الناسَ " ، بَنَوْه من المتعدّي لثلاثةٍ : فالأولُ قام مَقامَ الفاعلِ ، وهو ضميرُ الخطابِ ، و " الناسَ سُكارى " هما الأولُ والثاني . ويجوز أن يكونَ متعدّياً لاثنين فقط على معنى : وتُرِي الزلزلةُ أو الساعةُ / [الناسَ] قوماً سكارى . فالناسَ هو الأول و " سكارى " هو الثاني .

وقرأ الزعفرانيُّ وعباسٌ في اختياره " وترى " كقراءة أبي هريرة إلاَّ أنهما رفعاً " الناسُ " على أنه مفعول لم يُسَمَّ فاعلُه . والتأنيثُ في الفعلِ على تأويلهم بالجماعة .

(82/519)

وقرأ الأخَوان " سكرى " " وما هم بسكرى " على وزنِ وَصْفِ المؤنثةِ بذلك . واخْتُلف في ذلك : هل هو صيغةُ جمعٍ على فَعْلَى كمَرْضى وقَتْلى ، أو صفةٌ مفردةٌ اسْتُغني بها في وصفِ الجماعة ؟ خلافٌ مشهورٌ تقدَّمَ الكلامُ عليه في قوله : " أسرى " . وظاهرُ كلامِ سيبويه أنه جمعُ تكسيرٍ فإنه قال : " وقومٌ يقولون : سكرى ، جَعَلوه مثلَ مرضى لأنهما شيئان يَدْخلان على الإنسان ، ثم جَعَلوا " روبى " مثلَ سكرى وهم المُسْتَثْقلون نَوْماً من شربِ الرائب . وقال الفارسي : " ويَصِحُّ أن يكونَ جمعَ " سَكِر " كزَمِن وزمنى . وقد حُكي " رجلٌ سَكِر " بمعنى سَكْران فيجيءُ سكرى حينئذٍ لتأنيث الجمع " . قلت : ومِنْ ورودِ " سَكِر " بمعنى سَكْران قولُه :

3370 وقد جَعَلْتُ إذا ما قُمْتُ يُثْقِلُني . . . ثَوْبي فأنهضُ نَهْضَ الشاربِ السَّكِرِ

وكنتُ أَمْشي على رِجْلين مُعْتَدِلاً . . . فصِرْتُ أَمْشِي على أخرى من الشَّجر

ويُروى البيتُ الأول " الشاربِ الثَّمِلِ " ، والأول أَصَحُّ لدلالةِ البيت الثاني عليه .

وقرأ الباقون " سكارى " بضمِّ السين .

وقد تَقَدَّم لنا في البقرة خلافٌ : هل هذه الصيغةُ جمعُ تكسيرٍ أو اسمُ جمع ؟

وقرأ أبو هريرةَ وأبو نهيك وعيسى بفتح السين فيهما ، وهو جمع تكسير ، واحدُه سَكْران .

قال أبو حاتم : " وهي لغةُ تميم " .

(83/519)

وقرأ الحسنُ والأعرج وأبو زرعة والأعمش " سكرى " " بسكرى " بضمِّ السين فيهما .

فقال ابن جني : " هي اسمٌ مفردٌ كالبُشْرَى . بهذا أفتاني أبو علي " . وقال أبو الفضل : " فُعْلَى بضمِّ الفاءِ مِنْ صفةِ الواحدةِ من الإناثِ ، لكنها لَمَّا جُعِلَتْ من صفاتِ الناس وهم جماعة ، أُجْرِيَتْ الجماعة بمنزلة المؤنثِ الموحَّدِ " . وقال الزمخشري : " هو غريبٌ " .

قلت : ولا غرابةَ ؛ فإنَّ فعلى بضم الفاء كَثُر مجيئُها في أوصافِ المؤنثة نحو الربى والحبلى وجَوَّز أبو البقاء فيه أن يكونَ محذوفاً مِنْ سكارى . وكان مِنْ حَقِّ هذا القارىء أَنْ يُحَرِّكَ الكافَ بالفتح إبقاءً لها على ما كانَتْ عليه . وقد رواها بعضُهم كذلك عن الحسن .

وقُرِىء " ويرى الناسُ " بالياء من تحت ورفع " الناسُ " .

وقرأ أبو زرعة في روايةٍ " سَكْرى " بالفتح ، " بسُكْرى " بالضم . وعن ابن جبير كذلك ،

إلاَّ أنه حَذَفَ الألفَ من الأول دون الثاني .

وإثباتُ السُّكْرِ وعَدَمُه بمعنى الحقيقة والمجاز أي : وترى الناس سكرى على التشبيه ، وما هم بسَكْرى على التحقيق . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : لِمَ قيل أولاً : تَرَوْن ، ثم قيل : " ترى " على الإفراد ؟ قلت : لأنَّ الرؤيةَ أولاً عُلِّقَتْ بالزلزلة ، فَجُعِل الناسُ جميعاً رائِيْنَ لها ، وهي معلَّقَةٌ أخيراً بكونِ الناسِ على حالِ السُّكر ، فلا بُدَّ أن يُجْعَلَ كلُّ واحدٍ منهم رائياً لسائرِهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 221 . 227 ﴾

(84/519)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

بسم الله الرحمن الرحيم .

سماع " بسم الله " يوجب الهيبة والغيبة وذلك وقت محوهم .

وسماع " الرحمن الرحيم " يوجب الأنس والقربة .

وذلك وقت صحوهم ، فعند سماع هذه الآية انتظم لهم المحو والصحو في سلك واحد .

سماع " بسم الله " انزعاج القلوب وعنده يحصل داء جنونهم (1) ، وسماع " الرحمن الرحيم

" يوجب ابتهاج القلوب وبه يحصل شفاء فتونهم ، فعودة فتونهم في لطف جماله كما أن موجب جنونهم في كشف جلاله .

قوله جل ذكره : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ نداء علامة ، ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [البقرة : 104] نداء كرامة ، وبكلِّ واحدٍ من القسمين يفتتح الحقُّ خطابه في السُّوَر ، وذلك لانقسام خطابه إلى صفة التحذير مرةً ، وصفة التبصير أخرى .

والتقوى هي التحرز والاتقاء وتجنب المحظورات . وتجنب المحظورات فَرْضٌ ، وتجنب الفضلات والشواغل – وإن كان من جملة المباحات – نَفْلٌ ، فثوابُ الأول أكثر ولكنه مؤجَّل ، وثوابُ النَّفْلِ أقلُّ ولكنه مُعَجَّل .

ويقال خوَّفهم بقوله : ﴿ اتَّقُوا ﴾ ثم سكَّن ما بهم من الخوف بقوله : ﴿ رَبَّكُمْ ﴾ فإنَّ سماعَ الربوبية يوجب الاستدامة وجميل الكفاية .

قوله : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ : وتسمية المعدوم " شيئاً " توَسُّعٌ ، بدليل أنه ليس في العدم زلزلة بالاتفاق وإن كان مُطْلَقُ اللفظِ يقتضيه ، وكذلك القول في تسميته " شيئاً " هو توسُّع .

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)

---

(1) ليس الجنون والفتون هنا مرتبطين بفساد العقل كما قد يتبادر للذهن إنما يرتبطان بذهاب العقل والوله فى المحبوب ، وهذه هى المرة الأولى التي تصادف فيها هاتين اللفظتين فى مثل هذا السياق ، وقد اعتدنا أن نسمع بدلا من (مجنون ومفتون) كلمات أخرى مثل (مهيم ومتيم) [انظر التحبير فى التذكير ص 62] .

(85/519)

لكلٍ ذل اليومَ شُغْلٌ يستوفيه ويستغرقه ، وترى الناس سكارى أي من هَوْلِ ذلك اليوم عقولهم ذاهبة ، والأحوال في القيامة وأهوالها غالبة . وكأنهم سكارى وما هم في الحقيقة بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ، ولشِدَّته يحيرهم ولا يبقيهم على أحوالهم وهم يتفقون في تشابههم بأنهم سُكَارَى ، ولكنَّ موجِبَ ذلك يختلف ؛ فمنهم مَنْ سُكْرُهُ لِمَا يُصِيبه من الأهوال ، ومنهم من سُكْرُه لاستهلاكه في عين الوصال .

كذلك فَسُكْرُهم اليومَ مختلفٌ ؛ فمنهم من سكره سكر الشراب ، ومنهم من سكره سكر المحاب . وشتَّان بين سُكْرٍ وسُكْر ؛ سُكْرٌ هو سُكْرُ أهلِ الغفلة ، وسُكْرٌ هو سُكْرُ أهل الوصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 527 . 529 ﴾

(86/519)

قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أفهم العطف الآتي أن الناس قسمان ، وأن التقدير : فإن منكم من يؤمن فيتقي فينجو من شر ذلك اليوم الذي اقتضت الحكمة إظهار العظمة فيه ليزداد حزب الله فرحاً ، وحزب الشيطان غماً وترحاً ، عطف عليه قوله : ﴿ ومن الناس ﴾ أي المذبذبين المضطربين ﴿ من ﴾ لا يسعى في إعلاء نفسه وتهذيبها فيكذب فيوبق بسوء أعماله ، لأنه ﴿ يجادل في الله ﴾ أي في قدرة الملك الأعظم على ذلك اليوم وفي غير ذلك من شؤونه بعد أن جاءه العلم بها اجتراء على سلطانه العظيم ﴿ بغير علم ﴾ بل بالباطل الذي هو جهل صرف ، فيترك اتباع الهداة النصحاء ﴿ ويتبع ﴾ بغاية جهده في جداله ﴿ كل شيطان ﴾ أي محترق بالشر مبعد باللعن .

ولما كان السياق لذم متبعه ، أشار إلى أنه لا قصد له في اتباعه إلا الشر ، لأنه لا لبس في أمره بصيغة المبالغة كما مضى في النساء ويأتي في الصافات ، فقال : ﴿ مريد ﴾ أي متجرد للفساد لا شغل له غيره ، فهو في غاية الضراوة عليه ، قال البيضاوي : وأصله العرى

﴿كتب﴾ أي قضى وقدر على سبيل الحتم الذي لا بد منه ، تعبير باللازم عن الملزوم ﴿عليه﴾ أي على ذلك الشيطان ﴿أنه من تولاه﴾ أي فعل معه فعل الولي مع وليه ، باتباعه والإقبال على ما يزينه ﴿فأنه يضله﴾ بما يبغض إليه من الطاعات فيخطىء سبيل الخير .

ولما نفّر عن توليه بإضلاله لأن الضلال مكروه إلى كل أحد ، بين أنه إضلال لا هدى معه أصلاً فقال : ﴿ويهديه﴾ أي بما يزين له من الشهوات ، الحاملة على الزلات ، إعلاماً بأنه إن كان له هدى إلى شيء فهو ﴿إلى عذاب السعير﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 5 صـ 132﴾

(87/519)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في كيفية النظم وجهان : الأول : أخبر تعالى فيما تقدم عن أهوال يوم القيامة وشدتها ، ودعا الناس إلى تقوى الله .

ثم بين في هذه الآية قوماً من الناس الذين ذكروا في الأول .

وأخبر عن مجادلتهم الثاني : أنه تعالى بين أنه مع هذا التحذير الشديد بذكر زلزلة الساعة وشدائدها ، فإن من الناس من يجادل في الله بغير علم ، ثم في قوله : ﴿ وَمِنَ الناس ﴾ وجهان : الأول : أنهم الذين ينكرون البعث ، ويدل عليه قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خلقناه مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [يس : 77] إلى آخر الآية .

وأيضاً فإن ما قبل هذه الآية وصف البعث وما بعدها في الدلالة على البعث ، فوجب أن يكون المراد من هذه المجادلة هو المجادلة في البعث والثاني : أنها نزلت في النضر بن الحرث ، كان يكذب بالقرآن ويزعم أنه أساطير الأولين ، ويقول ما يأتيكم به محمد كما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما .

المسألة الثانية :

هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة ، لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة ، فالمجادلة الباطلة هي المراد من قوله : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ [الزخرف : 58] والمجادلة الحقة هي المراد من قوله : ﴿ وجادلهم بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] .

المسألة الثالثة :

في قوله : ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شيطان مَّرِيدٍ ﴾ قولان : أحدهما : يجوز أن يريد شياطين الإنس وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم إلى الكفر والثاني : أن يكون المراد بذلك إبليس وجنوده ، قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الأملس ، يقال صخرة مرداء أي ملساء ، ويجوز أن يستعمل في غير الشيطان إذا جاوز حد مثله .

(88/519)

أما قوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ ففيه وجهان : أحدهما : أن الكتبة عليه مثل أي كأنما كتب إضلال من عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله والثاني : كتب عليه في أم الكتاب ، واعلم أن هذه الهاء بعد ذكر من يجادل وبعد ذكر الشيطان ، يحتمل أن يكون راجعاً إلى كل واحد منهما ، فإن رجع إلى من / يجادل فإنه يرجع إلى لفظه الذي هو موحد ، فكأنه قال كتب على من يتبع الشيطان أنه من تولى الشيطان أضله عن الجنة وهداه إلى النار .

وذلك زجر منه تعالى فكأنه تعالى قال كتب على من هذا حاله أنه يصير أهلاً لهذا الوعيد ، فإن رجع إلى الشيطان كان المعنى ويتبع كل شيطان مريد قد كتب عليه أنه من يقبل منه فهو في ضلال .

وعلى هذا الوجه أيضاً يكون زجراً عن اتباعه ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال القاضي عبد الجبار إذا قيل المراد بقوله : ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قضى عليه فلا جائز أن يرد إلا إلى من يتبع الشيطان ، لأنه تعالى لا يجوز أن يقضي على الشيطان أنه يضل ، ويجوز أن يقضي على من يقبله بقوله ، قد أضله عن الجنة وهداه إلى النار .

قال أصحابنا رحمهم الله لما كتب ذلك عليه فلو لم يقع لانقلب خبر الله الصدق كذباً ، وذلك محال ومستلزم المحال محال ، فكان لا وقوعه محالاً .

المسألة الثانية :

دلت الآية على أن المجادل في الله إن كان لا يعرف الحق فهو مذموم معاقب ، فيدل على أن المعارف ليست ضرورية .

المسألة الثالثة :

قال القاضي فيه دلالة على أن المجادلة في الله ليست من خلق الله تعالى وبإرادته ، وإلا لما كانت مضافة إلى اتباع الشيطان ، وكان لا يصح القول بأن الشيطان يضله بل كان الله تعالى قد أضله والجواب : المعارضة بمسألة العلم وبمسألة الداعي .

المسألة الرابعة :

قرىء (أنه) بالفتح والكسر فمن فتح فلأن الأول فاعل كتب والثاني عطف عليه ، ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو كأنما كتب عليه هذا الكلام ، كما يقول كتبت أن الله هو الغني الحميد ، أو على تقدير قيل أو على أن كتب فيه معنى القول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 6 . 7 ﴾

(90/519)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

فيه قولان

: أحدهما : أن يخاصم في الدين بالهوى ، قاله سهل بن عبد الله .

والثاني : أن يرد النص بالقياس ، قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(91/519)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ ومن الناس ﴾ الآية ،

قال ابن جريج نزلت في النضر بن الحارث وأبي بن خلف وقيل في أبي جهل بن هشام ثم هي بعد تتناول كل من اتصف بهذه الصفة ، و" المجادلة " المحاجة والموادة مؤخوذة من الجدل وهو الفتل والمعنى في قدرة الله تعالى وصفاته ، وكان سبب الآية كلام من ذكر وغيرهم في أن الله تعالى لا يبعث الموتى ولايقيم الأجساد من القبور ، و" الشيطان " هنا هو مغويهم من الجن ويحتمل أن يكون الشيطان من الإنس والإنحاء على متبعيه و" المريد " المتجرد من الخير للشر ومنه الأمرد ، وشجرة مردى أي عارية من الورق ، وصرح ممرد أي مملس من زجاج ، وصخرة مرداء أي ملساء . والضمير في ﴿ عليه ﴾ عائد على الشيطان قاله قتادة ويحتمل أن يعود على المجادل و ﴿ أنه ﴾ في موضع رفع على المفعول الذي لم يسم فاعله و ﴿ أنه ﴾ الثانية عطف على الأولى مؤكدة مثلها وقيل هي مكررة للتأكيد فقط وهذا معترض بأن الشيء لا يؤكد إلا بعد تمامه وتمام " أن " الأولى إنما هو بصلتها في قوله ﴿ السعير ﴾ وكذلك لا يعطف ولسيبويه في مثل هذا ﴿ أنه ﴾ بدل ، وقيل ﴿ أنه ﴾ خبر ابتداء محذوف تقديره فشأنه أنه يضله وقدره أبو علي فله أن يضله .

قال القاضي أبو محمد : ويظهر لي أن الضمير في ﴿ أنه ﴾ الأولى للشيطان وفي الثانية لمن

الذي هو المتولي ، وقوله ﴿ يهديه ﴾ بمعنى يدله على طريق ذلك وليست بمعنى الإرشاد على الإطلاق ، وقرأ أبو عمرو " إنه من تولاه فإنه يضله " بالكسر فيهما . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(92/519)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله ﴾

قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحارث .

وفيما جادل فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان كلَّما نزل شيء من القرآن كذَّب به ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه زعم أن الملائكة بنات الله ، قاله مقاتل .

والثالث : أنه قال : لا يقدر الله على إحياء الموتى ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ بغير علم ﴾ أي : إنما يقوله بإغواءِ الشيطان ، لا بعلم ﴿ ويتَّبع ﴾ ما يسوِّل له ﴿ كلَّ شيطانٍ مَريدٍ ﴾ وقد ذكرنا معنى "المريد" في سورة [النساء : 117] .

قوله تعالى : ﴿ كُتب عليه أنَّه من تولاه ﴾ "كُتب" بمعنى : قُضي والهاء في "عليه" وفي

"تولاه" كناية عن الشيطان .

ومعنى الآية : قضي على الشيطان أَنَّه يُضِلُّ مَن اتَّبعه .

وقرأ أبو عمران الجوني : "كَتَب" بفتح الكاف "أنه" بفتح الهمزة ["فإنه" بكسر الهمزة] .

وقرأ أبو مجلز ، وأبو العالية ، وابن أبي ليلى ، والضحاك ، وابن يعمر : "إِنه" "فإِنه" بكسر الهمزة فيهما .

وقد بيَّنَّا معنى "السعير" في سورة [النساء : 10] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(93/519)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قيل : المراد النضر بن الحارث ، قال : إن الله عز وجل غيرُ قادر على إحياء من قد بَلِيَ وعاد تراباً .

﴿ وَيَتَّبِعُ ﴾ أي في قوله ذلك .

﴿ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ متمرّد .

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ قال قتادة ومجاهد : أي من تولّى الشيطان .

﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبي حـ 12 صـ ﴾

(94/519)

وقال أبو حيان :

﴿ ومن الناس من يجادل في الله ﴾

أي في قدرته وصفاته .

قيل : نزلت في أبي جهل .

وقيل : في أُبيّ بن خلف والنضر بن الحارث .

وقيل : في النضر وكان جدلاً يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين ، ولا يقدر الله على إحياء من بَلي وصار تراباً والآية في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال ، ولا يرفع إلى علم ولا برهان ولا نصفة .

والظاهر أن قوله ﴿ كل شيطان مريد ﴾ هو من الجن كقوله ﴿ وإن يدعون إلاّ شيطاناً مريداً ﴾ وقيل : يحتمل أن يكون من الإنس كقوله ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ لما ذكر تعالى أهوال يوم القيامة ذكر من غفل عن الجزاء في ذلك اليوم وكذب به .

وقرأ زيد بن عليّ ﴿ ويتبع ﴾ خفيفاً ، والظاهر أن الضمير في ﴿ عليه ﴾ عائد على ﴿ من ﴾ لأنه المحدث عنه ، وفي ﴿ أنه ﴾ و ﴿ تولاه ﴾ وفي ﴿ فإنه ﴾ عائد عليه أيضاً ، والفاعل يتولى ضمير ﴿ من ﴾ وكذلك الهاء في ﴿ يضله ﴾ ويجوز أن تكون الهاء في هذا الوجه أنه ضمير الشأن ، والمعنى أن هذا المجادل لكثرة جداله بالباطل واتباعه الشيطان صار إماماً في الضلال لمن يتولاه ، فشأنه أن يضل من يتولاه .

وقيل : الضمير في ﴿ عليه ﴾ عائد على ﴿ كل شيطان مريد ﴾ قاله قتادة ولم يذكر الزمخشري غيره ، وأورد ابن عطية القول الأول احتمالاً .

وقال ابن عطية : ويظهر لي أن الضمير في ﴿ أنه ﴾ الأولى للشيطان والثانية لمن الذي هو للمتولي .

قال الزمخشري : والكتبة عليه مثل أي إنما ﴿ كتب ﴾ إضلال من يتولاه ﴿ عليه ﴾ ورقم به لظهور ذلك في حاله .

وقرأ الجمهور ﴿ كُتِبَ ﴾ مبنياً للمفعول .

وقرىء ﴿ كَتَبَ ﴾ مبنياً للفاعل أي كتب الله .

وقرأ الجمهور : ﴿ أنه ﴾ بفتح الهمزة في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله ، ﴿ فأنه ﴾ بفتحها أيضاً ، والفاء جواب ﴿ من ﴾ الشرطية أو الداخلة في خبر ﴿ من ﴾ إن كانت

موصولة .

و﴿ فأنه ﴾ على تقدير فشأنه أنه ﴿ يضله ﴾ أي إضلاله أو فله أن يضله .

(95/519)

وقال الزمخشري : فمن فتح فلأن الأول فاعل ﴿ كتب ﴾ بعني به مفعولاً لم يسم فاعله ، قال : والثاني عطف عليه انتهى .

وهذا لا يجوز لأنك إذا جعلت ﴿ فأنه ﴾ عطفاً على ﴿ أنه ﴾ بقيت بلا استيفاء خبر لأن ﴿ من تولاه ﴾ ﴿ من ﴾ فيه مبتدأة ، فإن قدرتها موصولة فلا خبر لها حتى يستقل خبراً لأنه وإن جعلتها شرطية فلا جواب لها إذ جعلت ﴿ فأنه ﴾ عطفاً على ﴿ أنه ﴾ ومثل قول الزمخشري قال ابن عطية قال ﴿ وأنه ﴾ في موضع رفع على المفعول الذي لم يسم فاعله ، وأنه الثانية عطف على الأولى مؤكدة مثلها ، وخطا خطأ لما بيناه .

وقرأ الأعمش والجعفي عن أبي عمرو ﴿ إنه ﴾ ﴿ فإنه ﴾ بكسر الهمزتين .

وقال ابن عطية : وقرأ أبو عمرو ﴿ إنه من تولاه فإنه يضله ﴾ بالكسر فيهما انتهى ، وليس مشهوراً عن أبي عمرو .

والظاهر أن ذلك من إسناد ﴿ كتب ﴾ إلى الجملة إسناداً لفظياً أي ﴿ كتب ﴾ عليه

هذا الكلام كما تقول : كتب أن الله يأمر بالعدل .

وقال الزمخشري : أو عن تقدير قبل أو على المفعول الذي لم يسم فاعله الكتب ، والجملة من ﴿ أنه من تولاه ﴾ في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله لقيل المقدرة ، وهذا لا يجوز عند البصريين لأن الفاعل عندهم لا يكون جملة فلا يكون ذلك مفعولاً لم يسم فاعله ، وأما الثاني فلا يجوز أيضاً على مذهب البصريين لأنه لا تكسر أن بعد ما هو بمعنى القول ، بل بعد القول صريحة ، ومعنى ﴿ ويهديه ﴾ ويسوقه وعبر بلفظ الهداية على سبيل التهكم .

ولما ذكر تعالى من يجادل في قدرة الله بغير علم وكان جدالهم في الحشر والمعاد ذكر دليلين واضحين على ذلك أحدهما في نفس الإنسان وابتداء خلقه ، وتطوره في مراتب سبع وهي التراب ، والنطفة ، والعلقة ، والمضغة ، والإخراج طفلاً ، وبلوغ الأشدّ ، والتوفي أو الرد إلى الهرم .

(96/519)

والثاني في الأرض التي تشاهدون تنقلها من حال إلى حال فإذا اعتبر العاقل ذلك ثبت عنده جوازه عقلاً فإذا ورد خبر الشرع بوقوعه وجب التصديق به وأنه واقع لا محالة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَمِنَ الناس ﴾ كلامٌ مبتدأٌ جيءَ به إثرَ بيانِ عظمِ شأنِ السَّاعةِ المُنبئةِ عن البعثِ بياناً لحالِ بعضِ المُنكرينَ لها . ومحلُّ الجارِّ الرَّفعُ على الابتداءِ إمَّا بحملِه على المعنى أو بتقديرِ ما يتعلَّقُ به كما مرَّ مراراً ، أي وبعضُ النَّاسِ أو وبعضٌ كائنٌ من النَّاس ﴿ مَن يجادل فِى الله ﴾ أي في شأنِه تعالى ويقولُ فيه ما لا خيرَ فيه من الأباطيلِ وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ حالٌ من ضميرِ يجادلُ موضحة لما يشعرُ بها المجادلة من الجهلِ أي مُلابساً بغيرِ علمٍ . رُوي أنَّها نزلتْ في النَّضرِ بنِ الحارثِ وكان جَدَلاً يقولُ : الملائكةُ بناتُ الله والقرآنُ أساطيرُ الأولينَ ولا بعثَ بعد الموتِ وهي عامَّة له ولأضرابه من العُتاةِ المُتمرِّدين ﴿ وَيَتَّبِعْ ﴾ أي فيما يتعاطاهُ من المُجادلةِ أو في كلِّ ما يأتي وما يذرُ من الأمورِ الباطلةِ التي من جُملتِها ذلك ﴿ كُلَّ شيطان مَّرِيدٍ ﴾ عاتٍ متمرِّدٍ متجرِّدٍ للفسادِ . وأصلُه العريُ المنبئُ عن التمحضِ له كالتَّشمرِ ولعله مأخوذٌ من تجرُّدِ المصارعينَ عند المُصارعة قال الزَّجَّاجُ : المريدُ والماردُ المرتفعُ الأملسُ ، والمرادُ إمَّا رُؤساءُ الكَفَرةِ الذين يَدْعُون مَن دونَهُم إلى الكفرِ وإمَّا إبليسُ وجنودُه .

وقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ أي على الشَّيطانِ صفة أخرى له وقوله تعالى : ﴿ أَنَّهُ ﴾ فاعل كُتبَ والضَّميرُ للشَّأنِ أي رُقم به لظهور ذلك من حاله أنَّ الشَّأنَ ﴿ مَن تَوَلاَّهُ ﴾ أي اتَّخذهُ وليًّا وتبعه ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾ بالفتح على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، أو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ والجملة جوابُ الشرطِ إنْ جُعلت مَن شرطيةً وخبرٌ لها إنْ جُعلتْ موصولةً متضمنة لمعنى الشَّرطِ أي من تولاَّه فشأنُه أنْ يُضلَّه عن طريق الجنَّةِ أو طريق الحقّ أو فحقٌّ أنَّه يُضلُّه قطعاً ، وقيل : فإنَّه معطوفٌ على أنَّه وفيه من التَّعسفِ ما لا يخفى . وقيل وقيل ممَّا لا يخلُو عن التَّمحلِ والتأويلِ . وقُرىء فإنَّه بالكسرِ على أنَّه خبرٌ لمَن أو جوابٌ لها . وقُرىء بالكسرِ فيهما على حكايةِ المكتوبِ كما هو مثل ما في قولِك : كتبتُ إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ أو على إضمارِ القولِ أو تضمينِ الكتبِ معناهُ على رأيِ مَن يراهُ ﴿ وَيَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السعير ﴾ بحملِه على مباشرةِ ما يُؤدّي إليه من السَّيِّئاتِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

نزلت كما أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله تعالى عنه في النضر بن الحرث وكان جدلاً يقول الملائكة عليهم السلام بنات الله سبحانه والقرآن أساطير الأولين ولا يقدر الله تعالى شأنه على إحياء من بلى وصار تراباً ، وقيل في أبي جهل ، وقيل في أبي بن خلف وهي عامة في كل من تعاطى الجدل فيما يجوز وما لا يجوز على الله سبحانه من الصفات والأفعال ولا يرجع إلى علم ولا برهان ولا نصفة ، وخصوص السبب لا يخرجها عن العموم ، وكان ذكرها أثر بيان عظم شأن الساعة المنبئة عن البعث لبيان حال بعض المنكرين لها ؛ ومحل الجار الرفع على الابتداء إما بجمله على المعنى أو بتقدير ما يتعلق به ، و﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ يجادل ﴾ لإيضاح ما تشعر به المجادلة من الجهل أي وبعض الناس أو بعض كائن من الناس من ينازع في شأن الله عز وجل ويقول ما لا خير فيه من الأباطيل ملابساً الجهل ﴿ وَيَتَّبِعْ ﴾ فيما يتعاطاه من المجادلة أو في كل ما يأتي وما يذر من الأمور الباطلة التي من جملتها ذلك ﴿ كُلَّ شيطان مَّرِيدٍ ﴾ متجرد للفساد معرى من الخير من قولهم : شجرة مرداء لا ورق لها ، ومنه قيل : رملة مرداء إذا لم تنبت شيئاً ، ومنه الأمرد لتجرده عن الشعر ، وقال الزجاج : أصل المريد والمارد المرتفع الأملس وفيه معنى التجرد والتعري ، والمراد به إما إبليس وجنوده وإما رؤساء الكفرة الذين يدعون من دونهم

إلى الكفر .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ وَيَتَّبِعْ ﴾ خفيفاً .

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السعير ﴾

ضمير ﴿ عَلَيْهِ ﴾ للشيطان وكذا الضمير المنصوب في ﴿ تَوَلاَّهُ ﴾ والضمير في ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ والضميران المستتران في ﴿ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ ﴾ وضمير ﴿ أَنَّهُ ﴾ للشأن وباقي الضمائر لمن .

(100/519)

واختلف في إعراب الآية فقيل إن ﴿ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ ﴾ الخ نائب فاعل ﴿ كتاب ﴾ والجملة في موضع الصفة الثانية لشيطان و ﴿ مِنْ ﴾ جزائية وجزاؤها محذوف و ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾ الخ عطف على ﴿ أَنَّهُ ﴾ مع ما في حيزها وما يتصل بها أي كتب على الشيطان أن الشأن من تولاه أي اتخذه ولياً وتبعه يهلكه فإنه يضله عن طريق الجنة وثوابها ويهديه إلى طريق السعير وعذابها ، والفاء لتفصيل الإهلاك كما في قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 54] وعلى ذلك حمل الطيبي كلام الكشاف وهو وجه حسن إلا أن في كونه مراد الزمخشري خفاء ، وقيل ﴿ مِنْ ﴾ موصولة مبتدأ وجملة ﴿

تَوَلَّاهُ ﴾ صلته والضمير المستتر عائده و ﴿ أَنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾ في تأويل مصدر خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف والجملة خبر الموصول ، ودخول الفاء في خبره على التشبيه بالشرط أي كتب عليه أن الشأن من تولاه فشأنه أو فحق أنه يضله الخ .

ويجوز أن تكون من شرطية والفاء جوابية وما بعدها مع المقدر جواب الشرط .

وقيل ضمير ﴿ أَنَّهُ ﴾ للشيطان وهو اسم ان و ﴿ مِنْ ﴾ موصولة أو موصوفة والأول أظهر خبرها والضمير المستتر في ﴿ تَوَلَّاهُ ﴾ لبعض الناس والضمير البارز لمن والجملة صلة أو صفة ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾ عطف على ﴿ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ والمعنى ويتبع كل شيطان كتب عليه أنه هو الذي اتخذه بعد الناس ولياً وأنه يضل من اتخذه ولياً فالأول كأنه توطئة للثاني أي يتبع شيطاناً مختصاً به مكتوباً عليه أنه وليه وأنه مضله فهو لا يألو جهداً في إضلاله ، وهذا المعنى أبلغ من المعنى السابق على احتمال كون من جزائية لدلالته على أن لكل واحد من المجادلين واحداً من مردة الشياطين ، وارتضى هذا في "الكشف" وحمل عليه مراد صاحب الكشاف .

(101/519)

وعن بعض الفضلاء أن الضمير في ﴿ أَنَّهُ ﴾ للمجادل أي كتب على الشيطان أن المجادل من تولاه وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ الخ عطف على ﴿ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ واعترض بأن اتصاف الشيطان بتولي المجادل إياه مقتضى المقام لا العكس وأنه لو جعلت من في ﴿ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ موصولة كما هو الظاهر لزم أن لا يتولاه غير المجادل وهذا الحصر يفوت المبالغة .

وفي "البحر" الظاهر أن الضمير في ﴿ عَلَيْهِ ﴾ عائد على من لأنه المحدث عنه ، وفي أنه وتولاه وفي فإنه عائد عليه أيضاً والفاعل بتولي ضمير من وكذا الهاء في يضله ، ويجوز أن يكون الهاء في أنه على هذا الوجه ضمير الشأن والمعنى أن هذا المجادل لكثرة جداله بالباطل واتباعه الشيطان صار إماماً في الضلال لمن يتولاه فشأنه أن يضل من يتولاه انتهى ، وعليه تكون جملة كتب الخ مستأنفة لا صفة لشيطان ، والأظهر جعل ضمير ﴿ عَلَيْهِ ﴾ عائداً على الشيطان وهو المروى عن قتادة ، وأياً ما كان فكتب بمعنى مضى وقدر ويجوز أن يكون على ظاهره ، وفي "الكشاف" أن الكتبة عليه مثل أي كأنما كتب عليه ذلك لظهوره في حاله ، ولا يخفى ما في ﴿ يَهْدِيهِ ﴾ من الاستعارة المثيلية التهكمية .

وقرىء ﴿ كتاب ﴾ مبنياً للفاعل أي كتب الله .

وقرىء ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ بكسر الهمزة فالجملة خبر من أو جواب لها ، وقرأ الأعمش .

والجعفي عن أبي عمرو ﴿ أَنَّهُ فَإِنَّهُ ﴾ بكسر الهمزة فيهما ووجهه الكسر في الثانية ظاهر ، وأما وجهه في الأولى فهو كما استظهر أبو حيان إسناد ﴿ كتاب ﴾ إلى الجملة إسناداً

لفظياً أي كتب عليه هذا الكلام كما تقول كتبت إن الله تعالى يأمر بالعدل والإحسان أو تقدير قول وجعل الجملة معمولة له أو تضمين الفعل معنى ذلك أي كتب عليه مقولاً في شأنه أنه من تولاه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(102/519)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3) ﴾

عطف على جملة ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ﴾ [الحج : 1] ، أي الناس فريقان : فريق يمتثل الأمر فيتقي الله ويخشى عذابه ، وفريق يعرض عن ذلك ويعارضه بالجدل الباطِل في شأن الله تعالى من وحدانيته وصفاته ورسالته .

وهذا الفريق هم أئمة الشرك وزعماء الكفر لأنهم الذين يتصدّون للمجادلة بما لهم من أغاليط وسفسطة وما لهم من فصاحة وتمويه .

والاقتصارُ على ذكرهم إيماء إلى أنهم لولا تضليلهم قومَهم وصدهم إياهم عن متابعة الدين لاتّبع عامة المشركين الإسلام لظهور حجته وقبولها في الفطرة .

وقيل : أريد بـ ﴿ من يجادل في الله ﴾ النضر بن الحارث أو غيره كما سيأتي ، فتكون (مَن

) الموصولة صادقة على متعدد عامة لكل مَن تصدق عليه الصلة .

والمجادلة : المخاصمة والمحاجّة .

والظرفية مجازية ، أي يجادل جدلاً واقعاً في شأن الله .

ووصف الجدل بأنه بغير علم ، أي جدلاً ملتبساً بمغايرة العلم ، وغير العلم هو الجهل ، أي جدلاً ناشئاً عن سوء نظر وسوء تفكير فلا يعلم ما تقتضيه الألوهية من الصفات كالوحدانية والعلم وفعل ما يشاء .

واتباع الشيطان : الانقياد إلى وسوسته التي يجدها في نفسه والتي تلقاها بمعتاده والعمل بذلك دون تردد ولا عَرض على نظر واستدلال .

وكلمة (كل) في قوله ﴿ كل شيطان ﴾ مستعملة في معنى الكثرة .

كما سيأتي قريباً عند قوله تعالى : ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ [الحج : 27] في هذه السورة .

وتقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ﴾ في [سورة البقرة : 145] .

والمَرِيد : صفة مُشبهة مِن مَرُد بضم الراء على عمل ، إذا عتا فيه وبلغ الغاية التي تتجاوز ما يكون عليه أصحاب ذلك العمل ، وكأنه مُحول مِن مَرَد بفتح الراء بمعنى مَرَن إلى ضم الراء للدلالة على أن الوصف صار له سجية ، فالمريد صفة مشبهة ، أي العاتي في الشيطنة .

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (4) ﴾

جملة ﴿ كتب عليه أنه من تولاه ﴾ إلى آخرها صفة ثانية ل ﴿ شيطان مريد ﴾ [الحج : 3] ، فالضمير المجرور عائد إلى ﴿ شيطان .

وكذلك الضمائر في أنه من تولاه فأنه ﴾ .

وأما الضميران البارزان في قوله ﴿ يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ فعائدان إلى (مَن) الموصولة ، أي يضل الشيطان مُتَولِيه عن الحق ويهدي متوليه إلى عذاب السعير .

واتفقت القراءات العشر على قراءة ﴿ كُتب ﴾ بضم الكاف على أنه مبني للنائب .

واتفقت أيضاً على فتح الهمزتين من قوله تعالى : أنه من تولاه فأنه يضله ﴾ .

والكتابة مستعارة للثبوت واللزوم ، أي لزمه إضلال متوليه ودلالته على عذاب السعير ، فأطلق على لزوم ذلك فعل ﴿ كتب عليه ﴾ أي وجب عليه ، فقد شاع أن العقد إذا أريد تحقيق العمل به وعدم الإخلال به كتب في صحيفة .

قال الحارث بن حِلّزة:

وهل يَنْقُضُ ما في المهارق الأَهْوَاءُ . . .

والضمير في ﴿ أنه ﴾ عائد إلى ﴿ شيطان ﴾ [الحج : 3] وليس ضمير شأن لأن جعله ضمير شأن لا يناسب كون الجملة في موقع نائب فاعل ﴿ كُتب ، ﴾ إذ هي حينئذ في تأويل مصدر وضمير الشأن يتطلب بعده جملة ، والمصدران المنسبكان من قوله ﴿ أنه من تولاه ﴾ وقوله ﴿ فأنه يضله ﴾ نائب فعل ﴿ كتب ﴾ ومفرع عليه بفاء الجَزاء ، أي كتب عليه إضلال من تولاه .

والتولي : اتّخاذ ولي ، أي نصير ، أي من استنصر به .

و(مَن) موصولة وليست شرطية لأن المعنى على الإخبار الثابِت لا على التعليق بالشرط .

(104/519)

وهي مبتدأ ثان ، والضمير المستتر في قوله ﴿ تولاه ﴾ عائد إلى (مَن) الموصولة .

والضمير المنصوب البارز عائد إلى ﴿ شيطان ﴾ [الحج : 3] ، أي أن الذي يتخذ الشيطان ولياً فذلك الشيطان يضله .

والفاء في قوله ﴿ فأنه يضله ﴾ داخلة على الجملة الواقعة خبراً عن (من) الموصولة تشبيهاً لجملة الخبر عن الموصول بجملة الجزاء لشَبَه الموصول بالشرط قصداً لتقوية

الإخبار .

والمصدر المنسبك من قوله ﴿ فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ في تقدير مبتدأ هو صدر للجملة الواقعة خبراً عن (مَن) الموصولة .

والتقدير : فإضلاله إياه ودلالته إياه إلى عذاب السعير .

وخبر هذا المبتدأ مقدر لأنه حاصل من معنى إسناد فعلَي الإضلال والهداية إلى ضمير المبتدأ .

والتقدير : ثابتان .

ويجوز أن تجعل الفاء في قوله ﴿ فأنه يضله ﴾ فاء تفريع ويجعلَ ما بعدها معطوفاً على ﴿ من تولاه ﴾ ويكون المعطوف هو المقصود من الإخبار كما هو مقتضى التفريع .

والتقدير : كتب عليه ترتب الإضلال منه لمتوّليه وترتب إيصاله متوليَه إلى عذاب السعير .

هذان هما الوجهان في نظم الآية وما عداهما تكلفات .

واعلم أن ما نظمت به الآية هنا لا يجري على نظم قوله تعالى في [سورة براءة : 63] ﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها ﴾ لأن مقتضى فعل العلم غيرُ مَقتضى فعل (كُتب) .

فلذلك كانت (مَن) في قوله من يحادِدِ ﴾ شرطية لا محالة وكان الكلام جارياً على اعتبار الشرطية وكان الضمير هنالك في قوله ﴿ أنه ﴾ ضمير شأن .

ولما كان الضلال مشتهراً في معنى البعد عن الخير والصلاح لم يحتج في هذه الآية إلى ذكر متعلق فعل ﴿ يضله ﴾ لظهور المعنى .

وذُكِر متعلق فعل ﴿ يهديه ﴾ وهو ﴿ إلى عذاب السعير ﴾ لأن تعلقه به غريب إذ الشأن أن يكون الهَدْي إلى ما ينفع لا إلى ما يضر ويعذب .

وفي الجمع بين ﴿ يضله ويهديه ﴾ محسن الطِباق بالمضادة .

(105/519)

وقد عدّ من هذا الفريق الشامل له قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ النضر بن الحارث .

وقيل نزلت فيه ؛ كان كثير الجدل يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، والله غير قادر على إحياء أجساد بليت وصارت تراباً .

وعُد منهم أيضاً أبو جهل ، وأبيُّ بن خَلف .

ومن قال : إن المقصود بقوله ﴿ من يجادل ﴾ معيناً خص الآية به ، ولا وجه للتخصيص وما هو إلا تخصيص بالسبب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(106/519)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن من الناس بعضاً يجادل في الله بغير علم : أن يخاصم في الله بأن ينسب إليه ما لا يليق بجلاله وكماله ، كالذي يَدَّعي له الأولاد والشركاء ، ويقول إن القرآ ، أساطير الأولين ، ويقول : لا يمكن أن يحيي الله العظام الرميم ، كالنضر بن الحارث ، والعاص بن وائل ، وأبي جهل بن هشام وأمثالهم من كفار مكة الذين جادلوا في الله ذلك الجدال الباطل بغير مستند ، من علم عقلي ، ولا نقلي ، ومع جدالهم في الله ذلك الجدال الباطل يتبعون كل شيطان مريد : أي عاتٍ طاغٍ من شياطين الإنس والجن ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ أي كتب الله عليه كتابه قدر وقضاء ﴿ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ أي كل من صار ولياً له : أي للشيطان المريد المذكور ، فإنه يضله عن طريق الجنة إلى النار ، وعن طريق الإيمان إلى الكفر ، ويهديه إلى عذاب السعير : أي النار الشديدة الوقود .

(107/519)

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن بعض الجهال كالكفار يجادل في الله بغير علم : أي يخاصم فيه بغير مستند من علم بينه في غير هذا الموضع كقوله في هذه السورة الكريمة ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج : 8] ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الحج : 9] الآية وقوله تعالى في لقمان ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [لقمان : 20-21] فقوله في آية لقمان هذه : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ ، كقوله في الحج ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الحج : 4] وهذه الآية الكريمة التي هي قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج : 8] الآية يدخل فيما تضمنته من الوعيد والدم : أهل البدع والضلال ، المعرضين عن الحق ، المتبعين للباطل ، يتركون ما أنزل الله على رسوله من الحق المبين ، ويتبعون أقوال رؤساء الضلالة الدعاة إلى البدع والأهواء والآراء ، بقدر ما فعلوا من ذلك ، لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب .

(108/519)

ومن الآيات الدالة على مجادلة الكفار في الله بغير علم قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 77-78] وقوله في أول النحل ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 4] وقوله تعالى ﴿ وَيُجَادِلُ الذين كَفَرُواْ بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ [الكهف : 56] الآية . وقوله تعالى : ﴿ والذين يُحَآجُّونَ فِي الله مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورى : 16] وقوله تعالى : ﴿ أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف : 58] وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حتى إِذَا جَآءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الذين كفروا إِنْ هاذا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [الأنعام : 25]

والآيات بمثل ذلك كثيرة ، وما ذكره الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، من أنه قدر وقضى أن من تولى الشيطان ، فإن الشيطان يضله ويهديه إلى عذاب السعير ، بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السعير ﴾ [فاطر : 6] وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السعير ﴾ [لقمان : 21] وقوله تعالى عن نبيه وخليله إبراهيم : ﴿ ياأبت إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ [مريم : 45] وقوله تعالى :

﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشيطان فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بالفحشآء والمنكر ﴾ [النور : 21] إلى غير ذلك من الآيات .

(109/519)

واعلم أنه يفهم من دليل خطاب هذه الآية الكريمة ، أعني مفهوم مخالفتها : أنه من يجادل بعلم على ضوء هدى كتاب منير ، كهذا القرآن العظيم ، ليحق الحق ، ويبطل الباطل بتلك المجادلة الحسنة أن ذلك سائغ محمود لأن مفهوم قوله ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الحج : 8] أنه إن كان بعلم ، فالأمر بخلاف ذلك ، وليس في ذلك اتباع للشيطان ، ويدل لهذا المفهوم المذكور قوله تعالى ﴿ ادعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] وقوله تعالى ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : 46] .

وقال الفخر الرازي في تفسيره : هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة ، لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل ، يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة ، فالمجادلة الباطلة : هي المراد من قوله ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ [الزخرف : 58] والمجادلة الحقة هي المراد من قوله ﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] ا ه . منه .

وقوله تعالى في هذه الآية ﴿ عَذَابِ السعير ﴾ يعني عذاب النار ، فالسعير النار أعاذنا الله ، وإخواننا المسلمين منها . والظاهر أن أصل السعير : فعيل ، بمعنى : مفعول من قول العرب : سعر النار ، يسعرها كمنع يمنع إذا أوقدها ، وكذلك سعرها بالتضعيف ، وعلى لغة التضعيف والتخفيف القراءتان السبعيتان في قوله ﴿ وَإِذَا الجحيم سُعِّرَتْ ﴾ [التكوير : 12] فقد قرأه من السبعة نافع وابن عامر في رواية ابن ذكوان ، وعاصم في رواية حفص : سعرت بتشديد العين وقرأه الباقون بتخفيف العين ، ومما جرى من كلام العرب على نحو قراءة نافع ، وابن ذكوان ، وحفص قول بعض شعراء الحماسة :

قالت له عرسهُ يوماً لتُسْمعني . . . مهلاً فإنَّ لنا في أمّنا أربا

ولو رأتني في نار مُسعَّرة . . . ثم استطاعت لزادَت فوقها حَطبا

(110/519)

إذ لا يخفى أن قوله : مسعرة : اسم مفعول سعرت بالتضعيف ، وبما ذكرنا يظهر أن أصل السعير : فعيل بمعنى اسم المفعول : أي النار المسعرة : أي الموقدة إيقاداً شديداً لأنها بشدة الإيقاد يزداد حرها عياذاً بالله منها ، ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل ، وفي ذلك لغة ثالثة ، إلا أنها ليست في القرآن : وهي أسعر النار بصيغة أفعل ، بمعنى : أوقدها .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السعير ﴾ يدل على أن الهدى كما أنه يستعمل في الإرشاد والدلالة على الخير ، يستعمل أيضاً في الدلالة على الشر ، لأنه قال : ﴿ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السعير ﴾ ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى ﴿ فاهدوهم إِلَى صِرَاطِ الجحيم ﴾ [الصافات : 23] وقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ [القصص : 41] الآية لأن الإمام هو من يقتدى به في هديه وإرشاده .

وإطلاق الهدى في الضلال كما ذكرنا أسلوب عربي معروف وكلام البلاغيين في مثل ذلك ، بأن فيه استعارة عنادية ، وتقسيمهم العنادية إلى تهكمية وتمليحية ، معروف كما أشرنا إليه سابقاً وقوله تعالى ﴿ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ قد أوضحنا معنى الشيطان في سورة الحجر ، والمريد والمارد في اللغة العربية : العاتي ، تقول : مرد الرجل بالضم يمرد ، فهو مارد ، ومَريد إذا كان عاتياً . والظاهر أن الشيطان في هذه الآية ، يشمل كل عات يدعو إلى عذاب السعير ، ويضل عن الهدى ، سواء كان من شياطين الجن أو الإنس ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(111/519)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3) ﴾

الجدل : هو المحاورة بين اثنين ، يريد كل منهما أنْ يؤيد رأيه ويدحضَ رأْيَ الآخر ، ومنه : جَدْل الخوص أو الحبل أي : فَتْله واحدة على الأخرى .

ولو تأملتَ عملية غَزْل الصوف أو القطن لوجدته عبارة عن شعيرات قصيرة لا تتجاوز عدة سنتيمترات ، ومع ذلك يصنعون منه حَبْلاً طويلاً ، لأنهم يداخلون هذه الشعيرات بعضها في بعض ، بحيث يكون طرف الشعرة في منتصف الأخرى ، وهكذا يتم فَتْله وغَزْله ، فإذا أردتَ تقوية هذه الفَتْلة تجدِلُها مع فتلة أخرى ، وهكذا يكون الجدل في الأفكار ، فكل صاحب فكرة يحاول انْ يُقوّي رأيه وحجته ؛ ليدحض حجة الآخرين .

فقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله . . ﴾ [الحج : 3] فكيف يكون الجدل في الله تعالى ؟

يكون الجدل في الله وجوداً ، كالملحد الذي لا يعترف بوجود إله ، أو يكون الجدل في الوحدانية ، كمن يشرك بالله إلهاً آخر ، أو يكون الجدل في إعلام الله بشيء غيبي ، كأمر الساعة الذي ينكره البعض ولا يُصدّقون به ، هذا كله جدل في الله .

وقوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . ﴾ [الحج : 3] إذن : فالجدل في ذاته مُبَاح مشروع ، شريطة أن يصدر عن علم وفقه ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . ﴾ [

النحل : 125] .

فالحق سبحانه لا يمنع الجدل ، لكن يريده بالطريقة الحسنة والأسلوب اللين ، وكما يقولون : النصح ثقيل ، فلا تجعله جَدَلاً ، ولا ترسله جبلاً ، ولا تُخرِج الإنسان مما يألف بما يكره ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ ادعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة . . ﴾ [النحل : 125] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . ﴾ [العنكبوت : 46] .

(112/519)

لذلك ؛ فالقرآن الكريم يعلم الرسول صلى الله عليه وسلم لَوْناً من الجدل في قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : 25] .

فانظر إلى هذا الجدَل الراقي والأسلوب العالي : ففي خطابهم يقول : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا . . ﴾ [سبأ : 25] وينسب الإجرام إلى نفسه ، وحين يتكلم عن نفسه يقول : ﴿ وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : 25] ولم يقُلْ هنا : تجرمون لتكون مقابلة بين الحالين . وفي هذا الأسلوب ما فيه من جذب القلوب وتحنينها لتقبُّل الحق .

ولما اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنون ردَّ عليهم القرآن بالعقل وبالمنطق ،

فسألهم : ما الجنون ؟ الجنون أنْ تصدر الأفعال الحركية عن غير بدائل اختيارية من المخ ،

فهل جرَّبْتُم على محمد شيئاً من هذا ؟ وما هو الخُلق ؟ الخُلق : استقامة المنهج والسلوك

على طريق الكمال والخير ، فهل رأيتُم على محمد خلاف هذا ؟

لذلك يقول تعالى في الرد عليهم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ . . ﴾ [سبأ : 46] .

وكيف يكون صاحب هذا الخُلق القويم والسلوك المنضبط في الخير مجنوناً ؟

ولما قالوا : كذاب ، جادلهم القرآن :

﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 16] .

لقد أتتْه الرسالة بعد الأربعين ، فهل سمعتم عنه خطيباً أو شاعراً ؟ فهل قال خطبة أو

قصيدة تحتفظون بها كما تحتفظون بقصائد شعرائكم ؟

وقالوا : إنها عبقرية كانت عند محمد ، فأيُّ عبقرية هذه التي تتفجَّر بعد الأربعين ، ومَنْ

يضمن له الحياة وهو يرى الناس يتساقطون من حوله : أبوه مات قبل أنْ يُولد ، وأمه ماتت

وهو رضيع ، وجدُّه مات وهو ما يزال صغيراً .

وهكذا ، يعطينا القرآن مثالاً للجدل بالحكمة والموعظة الحسنة ، للجدل الصادر عن عِلْم بما تقول ، وإدراك لحقائق الأمور .

لذلك ؛ لما ذهب الشَّعْبي لملك الروم قال له الملك : عندكم في الإسلام أمور لا يُصدّقها العقل ، فقال الشَّعْبيّ : ما الذي في الإسلام يخالف العقل ؟ قال : تقولون إن في الجنة طعاماً لا ينفد أبداً ، ونحن نعلم أن كل ما أُخذ منه مرة بعد مرة لأبدَّ أنْ ينفد . انظر إلى الجدل في هذه المسألة كيف يكون .

قال الشَّعْبي : أرأيتَ لو أن عندك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها فقبستْ من ضوئه ، أينقص من ضوء المصباح شيء ؟ هذا – إذن – جدل راقٍ وعلى أعلى مستوى .

ويستمر ملك الروم فيقول : كيف نأكل في الجنة كُلَّ ما نشتهي دون أوْ نتغوّط أو تكون لنا فضلات ؟ نقول : أرأيتم الجنين في بطن الأم : أينمو أم لا ؟ إنه ينمو يوماً بعد يوم ، وهذا دليل على أنه يتغذَّى ، فهل له فضلات ؟ لو كان للجنين فضلات ولو تغوَّط في مشيمته لمات ، إذن : يتغذى الجنين غذاءً على قَدْر حاجة نموه ، بحيث لا يتبقى من غذائه شيء .

ثم قال : أين تذهب الأرواح بعد أنْ تفارق الأجساد ؟ أجاب الرجل إجمالاً : تذهب حيث كانت قبل أنْ تحلَّ فيك ، وأمامك المصباح وفيه ضوء ، ثم نفخ المصباح فانطفأ ، فقال له : أين ذهب الضوء ؟

ومن الجدل الذي جاء عن عِلْم ودراية ما حدث من الإمام علي رضي الله عنه ، حيث قتلَ أصحابُ معاوية عمارَ بن ياسر ، فغضب الصحابة في صفوف معاوية وتذكَّروا " قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمار : " تقتله الفئة الباغية " " وأخذوا يتركون جيش معاوية واحداً بعد الآخر ، فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال : لقد فشَتْ في الجيش فاشية ، إنْ هي استمرتْ فلن يبقى معنا رجل واحد ، فقال معاوية : وما هي ؟ قال : يقولون : إننا قتلنا عماراً والنبي صلى الله عليه وسلم قال عنه : " تقتله الفئة الباغية " .

(114/519)

فاحتار معاوية ثم قال : قُلْ لهم قتله مَنْ أخرجه للقتال – يعني : علي بن أبي طالب ، فلما بلغ الكلامُ سيدنا علياً ، قال : قولوا لهم : فمَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب ؟ أي : إن كان الأمر كما تقولون فالنبي صلى الله عليه وسلم هو قاتل حمزة ؛ لأنه هو الذي أخرجه للقتال .

هذا هو الجدل عن علم ، والعلم قد يكون علماً بدهياً وهو العلم الذي تؤمن به ولا تستطيع أن تدلل عليه . أو علماً عقلياً استدلالياً ، وقد يكون العلم بالوحي من الله لا دَخْلَ لأحد فيه ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً للبدهيات بالولد الصغير حينما يرى أخاه يجلس بجوار أبيه

على المقعد مثلاً ، فيأتي الصغير يريد أنْ يجلس هو بجوار الأب ، فيحاول أولاً أنْ يقيم أخاه من المكان فيشدُّه ويجذبه ليخلى له المكان .

وهنا نتساءل : كيف عرف الطفل الصغير أن الحيّز لا يسع اثنين ؟ ولا يمكن أنْ يحلَّ بالمكان شيء إلا إذا خرج ما فيه أولاً ؟

هذه أمور لم نعلمها إلا في دراستنا الثانوية ، فعرفنا معنى الحيِّز وعدم تداخل الأشياء ، هذه المسألة يعرفها الطفل بديهة .

ولو تأملتَ النظريات الهندسية لوجدتَ أن كل نظرية تُبنَى على نظرية سابقة ، فلو أردت أنْ تبرهن على النظرية المائة تستخدم النظرية تسعين مثلاً ، وهكذا إلى أنْ تصلَ إلى نظرية بدهية لا برهانَ عليها .

وهكذا تستطيع أن تقول : إن كل شيء علمي في الكون مبنيٌّ على البدهيات التي لا تحتاج إلى برهان ، ولا تستطيع أن تضع لها تعريفاً ، فالسماء مثلاً ، يقولون هي كل ما علاك فأظَّلك ، فالسقف سماء ، والغيم سماء ، والسحاب سماء ، والسماء سماء ، مع أن السماء لا تحتاج إلى مثل هذا التعريف ؛ لأنك حين تسمع هذه الكلمة (السماء) تعرف معناها بديهة دون تعريف .

وهذه الأمور البدهية لا جدلَ فيها ؛ لأنها واضحة ، فلو قلتَ لهذا الطفل : اجلس على أخيك ، فهذا ليس جدلاً ؛ لأنه لا يصح .

أما العلم الاستدلالي فأنْ تستدل بشيء على شيء ، كأنْ تدخل بيتك فتجد (عقب سيجارة) مثلاً في (طفاية السجائر) فتسأل : مَنْ جاءكم اليوم ؟ ومثل الرجل العربي حين سار في الصحراء ، فوجد على الأرض آثاراً لخفِّ البعير وبَعْره ، فقال : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير .

أما عِلْم الوحي فيأتي من أعلى ، يلقيه الله سبحانه على مَنْ يشاء من عباده .

فعلى المجادل أن يستخدم واحداً من هذه الثلاثة ليجادل به ، فإن جادل بغير علم فهي سفسطة لا طائل من ورائها .

وقد نزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ . . ﴾ [الحج : 3] في النضر بن الحارث ، وكان يجادل عن غير علم في الوجود ، وفي الوحدانية ، وفي البعث . . إلخ .

والآية لا تخص النضر وحده ، وإنما تخص كل مَنْ فعل فِعْله ، ولَفَّ لَفَّه من الجدل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج : 3] أي : أن هذا الجدل قد يكون ذاتياً من عنده ، أو بوسوسة الشيطان له بما يخالف منهج الله ، سواء أكان شيطانَ الإنس

أو شيطانَ الجن .

إذن : فالسيئات والانحرافات والخروج عن منهج الله لا يكون بوسوسة ، إما من النفس التي لا تنتهي عن مخالفة ، وإما من الشيطان الذي يُلِحُّ عليك إلى أنْ يوقِع بك في شِرَاكه .

لكن ، لا نجعل الشيطان (شماعة) نعلق عليها كل سيئاتنا وخطايانا ، فليست كل الذنوب من الشيطان ، فمن الذنوب ما يكون من النفس ذاتها ، وسبق أنْ قُلْنا : إذا كان الشيطان هو الذي يوسوس بالشر ، فمَنِ الذي وسوس له أولاً ؟ وكما قال الشاعر :

(116/519)

إِبْليسُ لَمَّا غَوَى مَنْ كَانَ إبليسُه ؟ . . . وفَرْق بين المعصية من طريق النفس ، والمعصية من طريق الشيطان ، الشيطان يريدك عاصياً على أيِّ وجه من الوجوه ، أمّا النفس فتريدك عاصياً من وجه واحد لا تحيد عنه ، فإذا صرفتَها إلى غيره لا تنصرف وتأبى عليك ، إلاَّ أنْ تُوقعك في هذا الشيء بالذات .

وهذا بخلاف الشيطان إذا تأبيْتَ عليه ولم تُطِعْهُ في معصية صرفكَ إلى معصية أخرى ، أياً كانت ، المهم أن تعصي ، وهكذا يمكنك أنْ تُفرِّق بين المعصية من نفسك ، أو من الشيطان

.

ولما سُئل أحد العلماء : كيف أعرف : أأنا من أهل الدنيا أمْ من أهل الآخرة ؟ قال : هذه مسألة ليستْ عند العلماء إنما عندك أنت ، قال : كيف ؟ قال : انظر في نفسك ، فإنْ كان الذي يأخذ منك الصدقة أحبّ إليك ممَّنْ يعطيك هدية ، فاعلم أنك من أهل الآخرة ، وإنْ كانت الهدية أحبَّ إليك من الصدقة فأنت من أهل الدنيا .

ذلك لأن الإنسان يحب من عمَّر له ما يحب ، فالذي يعطيك يعمر لك الدنيا التي تحبها فأنت تحبه ، وكذلك الذي يأخذ منك يعمر لك الآخرة التي تحبها فأنت تحبه . فهذه مسألة لا دَخْل للشيطان فيها .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان : 20] فهذه الآية تُجمل أنواع العلم الثلاثة التي تحدثنا عنها : فالعلم يُرَاد به البدهيات ، والهدى أي : الاستدلال ، والكتاب المنير يُراد به ما جاء وَحيْاً من الله ، وبهذه الثلاثة يجب أن يكون الجدال وبالتي هي أحسن .

ومعنى : ﴿ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج : 3] من مَرَدَ أو مَرُدَ يمرد كنثر ينثُر ، والمرود : العُتوُّ وبلوغ الغاية من الفساد ، ومنها مارد ومريد ومتمرد ، والمارد : هو المستعلى أعلى منك .

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (4) ﴾

أي : كتب الله على هذا الشيطان المريد ، وحكم عليه حُكماً ظاهراً ، هكذا (عيني عينك) كما يقال ﴿ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ . . . ﴾ [الحج : 4] أي : تابعه وسار خلفه ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السعير ﴾ [الحج : 4] يضله ويهديه ضِدّان ، فكيف نجمع بينهما ؟

المراد : يُضِلُّه عن طريق الحق والخير ، ويهديه أي : للشر ؛ لأن معنى الهداية : الدلالة مُطْلقاً ، فإن دللْتَ على خير فهي هداية ، وإن دللتَ على شر فهي أيضاً هداية .

واقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ الله فاهدوهم إلى صِرَاطِ الجحيم ﴾ [الصافات : 22 – 23] .

أي : دُلُّوهم وخُذوا بأيديهم إلى جهنم .

ويقول تعالى في آية أخرى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ . . ﴾ [النساء : 168 – 169] .

والسَّعير : هي النار المتوهّجة التي لا تخمد ولا تنطفئ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ قال : نزلت في النضر بن الحارث .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جرير مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ويتبع كل شيطان مريد ﴾ قال : تمرد على معاصي الله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ كتب عليه ﴾ قال : كتب على الشيطان .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ كتب عليه ﴾ قال : على الشيطان ﴿ أنه من تولاه ﴾ قال : اتبعه . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3) ﴾

و " مَنْ " في ﴿ مَن يُجَادِلُ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ نكرةً موصوفةً ، وأن تكونَ موصولةً . و ﴿ فِي الله ﴾ أي في صفاتِه . و ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ مفعولٌ أو حالٌ مِنْ فاعلِ "يُجادل" . وقرأ زيد بن علي " وَتْبَعُ " .

قوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ ﴾ : قرأ العامَّةُ "كُتِبَ" مبنياً للمفعولِ وفتحَ " أنَّ " في الموضعين . وفي ذلك وجهان ، أحدُهما : أنَّ الضميرَ وما في حَيِّزه في محلِّ رفعٍ لقيامِه مقامَ الفاعل . فالهاءُ في " عليه " وفي " أنه " يعودان على " مَنْ " المتقدمةِ . و " مَنْ " الثانية يجوز أن تكونَ شرطيةً والفاءُ جوابُها ، وأن تكونَ موصولةً ، والفاءُ زائدةٌ في الخبرِ لشَبَهِ المبتدأ بالشرط . وفُتِحَتْ " أنَّ " الثانيةُ لأنها وما في حَيِّزها في محلِّ رفعٍ خبراً لمبتدأ محذوفٍ ، تقديره : فشأنُهُ وحالُه أنه يُضِلُّه . أو يُقَدَّر " فَأَنَّه " مبتدأ ، والخبر محذوفٌ أي : فله أَنَّه يَضِلُّه .

الثاني : قال الزمخشري : " ومَنْ فَتَحَ فلأنَّ الأولَ فاعلُ "كُتِب" ، والثاني عَطْفٌ عليه " .

قال الشيخ : " وهذا لا يجوزُ ؛ لأنَّك إذا جَعَلْتَ " فأَنَّه " عطفاً على " أَنَّه " بقيت " أَنَّه " بلا استيفاءِ خبرٍ ، لأنَّ " مَنْ تَوَلَّاه " " مَنْ " فيه مبتدأةٌ . فإنْ قَدَّرْتَها موصولةً فلا خبرَ لها حتى

تَسْتقلَّ خبراً ل "أنه" . وإنْ جَعَلْتَها شرطيةً فلا جوابَ لها ؛ إذ جُعِلَتْ "فأَنَّه" عَطْفاً على "أنه" .

قلت : وقد ذَهبَ ابنُ عطية رحمه الله إلى مثلِ قولِ الزمخشري فإنه قال : "وأَنَّه" في موضعِ رفعٍ على المفعولِ الذي : لم يُسَمَّ فاعلُه و "أَنَّه" الثانيةُ عطفٌ على الأولى مؤكدةً مثلَها " . وهذا رَدٌّ واضحٌ .

(120/519)

وقُرِىء "كَتَبَ" مبنياً للفاعلِ أي : كَتَبَ اللهُ . ف "أنَّ" وما في حَيِّزها في محل نصب على المفعول به ، وباقي الآية على ما تقدم .

وقرأ الأعمش والجعفي عن أبي عمرو "إنه" "فإنه" بكسر الهمزتين . وقال ابن عطية : " وقرأ أبو عمرو "إنَّه" "فإنه" بالكسر فيهما " ، وهذا يُوْهم أَنَّه مشهورٌ عنه وليس كذلك .

وفي تخريجِ هذه القراءةِ/ ثلاثةُ أوجهٍ ذكرها الزمخشري وهي : أَنْ تكونَ على حكايةِ المكتوبِ كما هو ، كأنه قيل : كُتِب عليه هذا اللفظُ ، كما تقول : كُتِبَ عليه : إنَّ اللهَ هو الغني الحميد . الثاني أن يكونَ على إضمار "قيل" . الثالث : أنَّ "كُتِبَ" فيه معنى قيل . قال الشيخ : أمَّا تقديرُ "قيل" يعني فيكون "عليه" في موضعِ مفعولِ ما لم يُسَمَّ فاعلُه و "

أنه مَنْ تولاَّه " الجملةُ مفعولٌ لم يُسَمَّ فاعلُه قبل المضمرة . وهذا ليس مذهبَ البصريين فإن الجملة عندهم لا تكون فاعلاً ولا تكون مفعولَ ما لم يُسَمَّ فاعلُه " وكأنَّ الشيخَ قد اختارَ ما بدأ به الزمخشريُّ أولاً ، وفيه ما فرَّ منه : وهو أنه أسندَ الفعلَ إلى الجملةِ فاللازمُ مُشْتَرَكٌ .

وقد تقدَّم تقريرُ مثلِ هذا في أول البقرة . ثم قال : " وأمَّا الثاني يعني أنه ضُمِّنَ "كُتِب" معنى القول فليس مذهبَ البصريين لأنَّه لا تُكْسَرُ " إنَّ " عندهم إلاَّ بعد القول الصريح لا ما هو بمعناه " .

(121/519)

والضميران في " عليه " و " أنه " عائدان على " مَنْ " الأولى كما تقدَّم ، وكذلك الضمائرُ في " تَوَلاَّه " و " فأنه " ، والمرفوعُ في "يُضِلُّه" و "يَهْديه" ؛ لأنَّ " مَنْ " الأول هو المحدَّثُ عنه . والضميرُ المرفوعُ في " تَوَلاَّه " والمنصوبُ في "يُضِلُّه" و "يَهْدِيه" عائدٌ على " مَنْ " الثانيةِ . وقيل : الضميرُ في " عليه " لكلِّ شيطانٍ . والضميرُ في " فأنَّه " للشأن . وقال ابن عطية : " الذي يَظْهَرُ لي أنَّ الضميرَ الأولَ في " أنَّه " يعودُ على كل شيطان ، وفي " فأنَّه " يعودُ على " مَنْ " الذي هو المُتَوَلِّي " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 227 . 230 ﴾

(122/519)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3) ﴾

المجادلة لله – مع أعداء الحق وجاحدي الدِّين – من موجبات القربة ، والمجادلة في الله – والمماراة مع أوليائه ، والإصرارُ على الباطل بعد ظهور الدلائل من أمارات الشقوة ، وما كان لوساوس الشيطان ونزعاته فقصاراه النار .

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (4)

مَنْ وافق الشيطان بمتابعة دواعيه لا يهديه إلاَّ إلى الضلال ، ثم إنه في الآخرة يتبرأ من موافقته ويلعن جملة مُتَّبِعيه . فنعوذ بالله من الشيطان ونزغاته ، ومن درك الشقاء وشؤم مفاجآته .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 529 ﴾

(123/519)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ

مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما حذر الناس من ذلك اليوم ، وأخبر أن منهم من يكذب ، وعرف بمآله ، فأفهم ذلك أن منهم من يصدق به فيكون له ضد حاله ، وكان كثير من المصدقين يعملون عمل المكذبين ، أقبل عليهم سبحانه إقبالاً ثانياً رحمة لهم ، منبهاً على أنه ينبغي أن لا يكون عندهم نوع من الشك في ذلك اليوم لما عليه من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم ، فقال دالاً عليه بالأمرين : ﴿ يا أيها الناس ﴾ أي كافة ، ويجوز أن يراد المنكر فقط ، وعبر بالناس الذي هو من أسفل الأوصاف لذلك ، وإشارة إلى أن المنكر والعامل عمله – وإن كان مصدقاً – هم أكثر الناس ، وعبر بأداة الشك إشارة إلى أن الذي يقتضيه الحال جزمهم به فقال : ﴿ إن ﴾ وبين أنه ما عبر به إلا للتوبيخ ، لا للشك في أمرهم ، بجعل الشرط ماضياً ، ودل ب "كان" وبالظرف على ما تمكن الريب منهم فقال : ﴿ كنتم في ريب ﴾ أي شك وتهمة وحاجة إلى البيان ﴿ من البعث ﴾ وهو قيام الأجسام بأرواحها كما كانت قبل مماتها سواء ، استعظاماً لأن نقدر عليه ﴿ فإنا خلقناكم ﴾ بقدرتنا التي لا يتعاظمها شيء ﴿ من

تراب ﴾ لم يسبق له اتصاف بالحياة ﴿ ثم من نطفة ﴾ حالها أبعد شيء عن حال التراب ، فإنها بيضاء سائلة لزجة صافية كما قال

(124/519)

﴿ من ماء دافق ﴾ [الطارق : 6] وأصلها الماء القليل – قاله البغوي .

وأصل النطف الصب – قاله البيضاوي .

﴿ ثم من علقة ﴾ أي قطعة دم حمراء جامدة ، ليس فيها أهلية للسيلان ﴿ ثم من مضغة ﴾ أي قطعة لحم صغيرة جداً تطورت إليها النطفة ﴿ مخلقة ﴾ بخلقة الآدمي التمام ﴿ وغير مخلقة ﴾ أي أنشأناكم من تراب يكون هذا شأنه ، وهو أنا ننقله في هذه الأطوار إلى أن يصير مضغة ، فتارة يخلقها ويكون منها آدمياً ، وتارة لا يخلقها بل يخرجها من الرحم فاسدة ، أو تحرقها حرارته ، أو غير مخلقة تخليقاً تاماً بل ناقصاً مع وجود الروح كشق الذي كان شق آدمي ، وسطيح الذي كان علواً بلا سفل ونحوهما ﴿ لنبين لكم ﴾ كمال قدرتنا ، وتمام حكمتنا ، وأن ذلك ليس كائناً عن الطبيعة ، لأنه لو كان عنها لم يختلف ، فدل اختلافه على أنه عن فاعل مختار ، قادر قهار ، وحذف المفعول إشارة إلى أنه يدخل فيه كل ما يمكن أن يحيط به العقول .

ولما كان التقدير : فنجهض منه ما لا نشاء إتمامه ، عطف عليه قوله : ﴿ ونقر في الأرحام ﴾ أي من ذلك الذي خلقناه ﴿ ما نشاء ﴾ إتمامه ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ قدرناه لإتمامه ما بين ستة أشهر إلى ما نريد من الزيادة على ذلك ، بحسب قوة الأرحام وضعفها ، وقوة المخلقات وضعفها وكثرة ما تغتذيه من الدماء وقلته ، وزكائه وخبثه ، إلى غير ذلك من أحوال وشؤون لا يعلمها إلا بارئها ، جلت قدرته ، وتعالت عظمته ، وأما ما لم نشأ إتمامه فإن الأرحام تمجه بقدرتنا وتلقيه دون التمام أو تحرقه فيضمحل ﴿ ثم نخرجكم ﴾ بعد ذلك ﴿ طفلاً ﴾ أي في حال الطفولة من صغر الجثة وضعف البدن والسمع والبصر وجميع الحواس ، لئلا تهلكوا أمهاتكم بكبر أجرامكم ، وعظم أجسامكم ، وهو يقع على جميع ، وعبر به دونه للتساوي في ضعف الظاهر والباطن .

(125/519)

ولما ذكر أضعف الضعف ذكر أقوى القوة عاطفاً له عليه لما بينهما من المهلة بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم ﴾ أي نمد أجلكم ﴿ لتبلغوا ﴾ بالانتقال في أسنان الأجسام فيما بين الرضاع ، إلى حال اليفاع ، إلى زمان الاحتلام ، وقوة الشباب والتمام ﴿ أشدكم ﴾ أي نهاية كل شدة قدرناها لكل واحد منكم ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ قبل ما بعد ذلك من سن

الشيخوخة ﴿ ومنكم من يرد ﴾ بالشيخوخة ، وبناه للمجهول إشارة إلى سهولته عليه مع استبعاده لولا تكرر المشاهدة عند الناظر لتلك القوة والنشاط وحسن التواصل بين أعضائه والارتباط ﴿ إلى أرذل العمر ﴾ وهو سن الهرم فينقص جميع قواه ﴿ لكيلا يعلم ﴾ .

ولما كان السياق للقدرة على البعث الذي هو التحويل من حال الجمادية إلى ضده بغاية السرعة ، أثبت " من " الابتدائية للدلالة على قرب زمن الجهل من زمن العلم ، فربما بات الإنسان في غاية الاستحضار لما يعلم والحذق فيه فعاد في صبيحة ليلته أو بعد أيام يسيرة جداً من غير كبير تدريج لا يعلم شيئاً ، وأفهم إسقاط حرف الانتهاء أنه ربما عاد إليه علمه ، وربما اتصل جهله بالموت بخلاف ما مضى في النحل فقال : ﴿ من بعد علم ﴾ كان أوتيه ﴿ شيئاً ﴾ بل يصير كما كان طفلاً في ضعف الجواهر والأعراض ، لتعلموا أن ذلك كله فعل الإله الواحد المختار ، وأنه لو كان فعل الطبيعة لازداد بطول البقاء نمواً في جميع ذلك ، وقد علم – بعود الإنسان في ذهاب العلم وصغر الجسم إلى نحو ما كان عليه في ابتداء الخلق – قطعاً أن الذي أعاده إلى ذلك قادر على إعادته بعد الممات ، والكون على حال الرفات .

(126/519)

ولما تم هذا الدليل على الساعة محكم المقدمات واضح النتائج ، وكان أول الإيجاد فيه غير مشاهد فعبر عنه بما يليق به ، أتبعه دليلاً آخر محسوساً ، وعطفه على ما أرشد إليه التقدير من نحو قوله : تجدون أيها الناس ما ذكرناه في أنفسكم ، فقال : ﴿ وترى ﴾ فعبر بالرؤية ﴿ الأرض ﴾ ولما كان في سياق البعث ، عبر بما هو أقرب إلى الموت فقال : ﴿ هامدة ﴾ أي يابسة مطمئنة ساكنة سكون الميت ليس بها شيء من نبت ، ولعله أفرد الضمير توجيهاً إلى كل من يصلح أن يخاطب بذلك ﴿ فإذا ﴾ أي فننزل عليها ماء من مكان لا يوجد فيه ثم ينزل منه إلا بقدرة عظيمة وقهر باهر ، فإذا ﴿ أنزلنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ عليها الماء اهتزت ﴾ أي تحركت بنجوم النبات اهتزاز الحي ، وتأهلت لإخراجه ؛ قال الرازي : والاهتزاز : شدة الحركة في الجهات المختلفة .

﴿ وربت ﴾ أي انتفخت ، وذلك أول ما يظهر منها للعين وزادت ونمت بما يخرج منها من النبات الناشىء عن التراب والماء ﴿ وأنبتت ﴾ بتقديرنا ﴿ من كل زوج ﴾ أي صنف عادلناه بصنف آخر جعلناه تمام نفعه به ﴿ بهيج ﴾ أي مؤنق من أشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها ، وروائحها وأشكالها ، ومنافعها ومقاديرها رائقة المناظر ، لائقة في العيون والبصائر ، قال الرازي : فكما أن النبات يتوجه من نقص إلى كمال ، فكذلك الآدمي يترقى من نقص إلى كمال ، ففي المعاد يصل إلى كماله الذي أعد له من البقاء والغنى

والعلم والصفاء والخلود ، أي السعيد منه في دار السلام مبراً عن عوارض هذا العالم –

انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 132.135 ﴾

(127/519)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾

القراءة قرأ الحسن ﴿ مّنَ البعث ﴾ بالتحريك ونظيره الحلب والطرد في الحلب وفي الطرد ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ بجر التاء والراء ، وقرأ ابن أبي عبلة بنصبهما القراءة المعروفة بالنون في قوله : ﴿ لّنُبَيّنَ ﴾ وفي قوله : ﴿ وَنُقِرُّ ﴾ وفي قوله : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ ابن أبي عبلة بالياء في هذه الثلاثة ، أما القراءة بالنون ففيها وجوه : أحدها : القراءة المشهورة وثانيها : روى السيرافي عن داود عن يعقوب ونقر بفتح النون وضم القاف والراء وهو من قر الماء إذا صبه ، وفي رواية أخرى عنه كذلك إلا أنه بنصب الراء وثالثها : ونقر ونخرجكم بنصب الراء والجيم أما القراءة بالياء ففيها وجوه : أحدها : يقر ويخرجكم بفتح القاف والراء والجيم وثانيها : يقر ويخرجكم بضم القاف والراء والجيم وثالثها : بفتح الياء وكسر

القاف وضم الراء أبو حاتم ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى ﴾ بفتح الياء أي يتوفاه الله تعالى ابن عمرة والأعمش ﴿ العمر ﴾ بإسكان الميم القراءة المعروفة ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العمر ﴾ وفي حرف عبد الله ومنكم من يتوفى ومنكم من يكون شيوخاً بغير القراءة المعروفة وربت أبو جعفر وربأت أي ارتفعت ، وروى العمري عنه بتليين الهمزة وقرىء وأنه باعث .

(128/519)

المعاني : اعلم أنه سبحانه لما حكى عنهم الجدال بغير العلم في إثبات الحشر والنشر وذمهم عليه فهو سبحانه أورد الدلالة على صحة ذلك من وجهين : أحدهما : الاستدلال بخلقة الحيوان أولاً وهو موافق لما أجمله في قوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس : 79] وقوله : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء : 51] فكأنه سبحانه وتعالى قال : إن كنتم في ريب مما وعدناكم من البعث ، فتذكروا في خلقتكم الأولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولاً قادر على خلقكم ثانياً ، ثم إنه سبحانه ذكر من مراتب الخلقة الأولى أموراً سبعة : المرتبة الأولى : قوله : ﴿ فَإِنَّا خلقناكم مّن تُرَابٍ ﴾ وفيه وجهان : أحدهما : إنا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه السلام من تراب ، لقوله : ﴿ كَمَثَلِ

ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] وقوله : ﴿ مِنْهَا خلقناكم ﴾ [طه : 55] ، والثاني : أن خلقة الإنسان من المني ودم الطمث وهما إنما يتولدان من الأغذية ، والأغذية إما حيوان أو نبات وغذاء الحيوان ينتهي قطعاً للتسلسل إلى النبات ، والنبات إنما يتولد من الأرض والماء ، فصح قوله : ﴿ إِنَّا خلقناكم مّن تُرَابٍ ﴾ المرتبة الثانية : قوله : ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ والنطفة اسم للماء القليل أي ماء كان ، وهو ههنا ماء الفحل فكأنه سبحانه يقول : أنا الذي قلبت ذلك التراب اليابس ماء لطيفاً ، مع أنه لا مناسبة بينهما ألبتة المرتبة الثالثة : قوله : ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ العلقة قطعة الدم الجامدة ، ولا شك أن بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة المرتبة الرابعة : قوله : ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الأَرحام مَا نَشَاءُ ﴾ فالمضغة اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ ، والمخلقة المسواة الملساء السالمة من النقصان والعيب ، يقال خلق السواك والعود إذا سواه

(129/519)

وملسه ، من قولهم صخرة خلقاء إذا كانت ملساء .

ثم للمفسرين فيه أقوال : أحدها : أن يكون المراد من تمت فيه أحوال الخلق ومن لم تتم ، كأنه سبحانه قسم المضغة إلى قسمين : أحدهما : تامة الصور والحواس والتخاطيط وثانيهما :

الناقصة في هذه الأمور فبين أن بعد أن صيره مضغة منها ما خلقه إنساناً تاماً بلا نقص ومنها ما ليس كذلك وهذا قول قتادة والضحاك ، فكأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فتبع ذلك التفاوت ، تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم وثانيها : المخلقة الولد الذي يخرج حياً وغير المخلقة السقط وهو قول مجاهد وثالثها : المخلقة المصورة وغير المخلقة أي غير المصورة وهو الذي يبقى لحماً من غير تخطيط وتشكيل واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله قال : "إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً وقال يا رب مخلقة أو غير مخلقة ، فإن قال غير مخلقة مجتها الأرحام دماً ، وإن قال مخلقة ، قال يا رب فما صفتها ، أذكر أم أنثى ، ما رزقها ، ما أجلها ، أشقى ، أم سعيد ؟ فيقول الله سبحانه انطلق إلى أم الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة ، فينطلق الملك فينسخها ، فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفتها" ورابعها : قال القفال : التخليق مأخوذ من الخلق فما تتابع عليه الأطوار وتوارد عليه الخلق بعد الخلق فذاك هو المخلق لتتابع الخلق عليه ، قالوا فما تم فهو المخلق وما لم يتم فهو غير المخلق ، لأنه لم يتوارد عليه التخليقات .

(130/519)

والقول الأول أقرب لأنه تعالى قال في أول الآية : ﴿ فَإِنَّا خلقناكم ﴾ وأشار إلى الناس فيجب أن تحمل مخلقة وغير مخلقة على من سيصير إنساناً وذلك يبعد في السقط لأنه قد يكون سقطاً ولم يتكامل فيه الخلقة فإن قيل هلا حملتم ذلك على السقط لأجل قوله : ﴿ وَنُقِرُّ فِى الأرحام مَا نَشَاء ﴾ وذلك كالدلالة على أن فيه مالا يقره في الرحم وهو السقط ، قلنا إن ذلك لا يمنع من صحة ما ذكرنا في كون المضغة مخلقة وغير مخلقة ، لأنه بعد أن تمم خلقة البعض ونقص خلقة البعض لا يجب أن يتكامل ذلك بل فيه ما يقره الله في الرحم وفيه مالا يقره وإن كان قد أظهر فيه خلقة الإنسان فيكون من هذا الوجه قد دخل فيه السقط .

أما قوله تعالى : ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ ففيه وجهان : أحدهما : لنبين لكم أن تغيير المضغة إلى المخلقة هو باختيار الفاعل المختار ، ولولاه لما صار بعضه مخلقاً وبعضه غير مخلق وثانيهما : التقدير إن كنتم في ريب من البعث فإنا أخبرناكم أنا خلقناكم من كذا وكذا لنبين لكم ما يزيل عنكم ذلك الريب في أمر بعثكم ، فإن القادر على هذه الأشياء كيف يكون عاجزاً عن الإعادة .

(131/519)

أما قوله تعالى : ﴿ وَنُقِرُّ فِي الأَرحام مَا نَشَاءُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فالمراد منه من يبلغه الله تعالى حد الولادة ، والأجل المسمى هو الوقت المضروب للولادة وهو آخر ستة أشهر ، أو تسعة ، أو أربع سنين أو كما شاء وقدر الله تعالى فإن كتب ذلك صار أجلاً مسمى المرتبة الخامسة : قوله : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ وإنما وحد الطفل لأن الغرض الدلالة على الجنس ويحتمل أن يخرج كل واحد منكم طفلاً كقوله : ﴿ وَالْمَلَئِكَةُ بَعْدَ ذلك ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : 4] المرتبة السادسة : قوله : ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ والأشد كمال القوة والعقل والتمييز وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد وكأنها شدة في غير شيء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع ، والمراد والله أعلم ثم سهل في تربيتكم وأغذيتكم أموراً لتبلغوا أشدكم فنبه بذلك على الأحوال التي بين خروج الطفل من بطن أمه وبين بلوغ الأشد ويكون بين الحالتين وسائط ، وذكر بعضهم أنه ليس بين حال الطفولية وبين ابتداء حال بلوغ الأشد واسطة حتى جوز أن يبلغ في السن ويكون طفلاً كما يكون غلاماً ثم يدخل في الأشد المرتبة السابعة : قوله : ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العمر لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ والمعنى أن منكم من يتوفى على قوته وكماله ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر وهو الهرم والخرف ، فيصير كما كان في أول طفوليته ضعيف البنية ، سخيف العقل ، قليل الفهم .

فإن قيل كيف قال : ﴿ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ مع أنه يعلم بعض الأشياء كالطفل

؟ قلنا المراد أنه يزول عقله فيصير كأنه لا يعلم شيئاً لأن مثل ذلك قد يذكر في النفي لأجل المبالغة ، ومن الناس من قال هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين * إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ وهو ضعيف .

(132/519)

لأن معنى قوله : ﴿ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين ﴾ [التين : 5] هو دلالة على الذم فالمراد به ما يجري مجرى العقوبة ولذلك قال : ﴿ إِلاَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين : 6] فهذا تمام الاستدلال بحال خلقة الحيوان على صحة البعث الوجه الثاني : الاستدلال بحال خلقة النبات على ذلك وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَرَى الأرض هَامِدَةً ﴾ وهمودها يبسها وخلوها عن النبات والخضرة ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء اهتزت وَرَبَتْ ﴾ والاهتزاز الحركة على سرور فلا يكاد يقال اهتز فلان لكيت وكيت إلا إذا كان الأمر من المحاسن والمنافع فقوله : ﴿ اهتزت وَرَبَتْ ﴾ أي تحركت بالنبات وانتفخت .

أما قوله : ﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ فهو مجاز لأن الأرض ينبت منها والله تعالى هو المنبت لذلك ، لكنه يضاف إليها توسعاً ، ومعنى ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ من كل نوع من

أنواع النبات من زرع وغرس ، والبهجة حسن الشيء ونضارته ، والبهيج بمعنى المبهج قال المبرد وهو الشيء المشرق الجميل ، ثم إنه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة وذكر أموراً خمسة أحدها : قوله ذلك : ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 7.10 ﴾

(133/519)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾

قَالَ قَتَادَةُ : " تَامَّةِ الْخَلْقِ وَغَيْرِ تَامَّةِ الْخَلْقِ " .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " مُصَوَّرَةٍ وَغَيْرِ مُصَوَّرَةٍ " .

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : " إذَا وَقَعَتْ النُّطْفَةُ فِي الرَّحِمِ أَخَذَهَا مَلَكٌ بِكَفِّهِ فَقَالَ : يَا رَبِّ مُخَلَّقَةٌ أَوْ غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ ؟ فَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ مُخَلَّقَةٍ قَذَفَتْهَا الْأَرْحَامُ دَمًا وَإِنْ كَانَتْ مُخَلَّقَةً كُتِبَ رِزْقُهُ وَأَجَلُهُ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ " .

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : " غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ السَّقَطُ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ ﴾ ظَاهِرُهُ يَقْتَضِي أَنْ لَا تَكُونَ الْمُضْغَةُ

إنْسَانًا كَمَا اقْتَضَى ذَلِكَ فِي الْعَلَقَةِ وَالنُّطْفَةِ وَالتُّرَابِ ، وَإِنَّمَا نَبَّهَنَا بِذَلِكَ عَلَى تَمَامِ قُدْرَتِهِ وَنَفَاذِ مَشِيئَتِهِ حِينَ خَلَقَ إنْسَانًا سَوِيًّا مُعَدَّلًا بِأَحْسَنِ التَّعْدِيلِ مِنْ غَيْرِ إنْسَانٍ ، وَهِيَ الْمُضْغَةُ وَالْعَلَقَةُ وَالنُّطْفَةُ الَّتِي لَا تَخْطِيطَ فِيهَا وَلَا تَرْكِيبَ وَلَا تَعْدِيلَ الْأَعْضَاءِ ، فَاقْتَضَى أَنْ لَا تَكُونَ الْمُضْغَةُ إنْسَانًا كَمَا أَنَّ النُّطْفَةَ وَالْعَلَقَةَ لَيْسَتَا بِإِنْسَانٍ ، وَإِذَا لَمْ تَكُنْ إنْسَانًا لَمْ تَكُنْ حَمْلًا فَلَا تَنْقَضِي بِهَا الْعِدَّةُ ؛ إذْ لَمْ تَظْهَرْ فِيهَا الصُّورَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَتَكُونُ حِينَئِذٍ بِمَنْزِلَةِ النُّطْفَةِ وَالْعَلَقَةِ ؛ إذْ هُمَا لَيْسَتَا بِحَمْلٍ وَلَا تَنْقَضِي بِهِمَا الْعِدَّةُ بِخُرُوجِهِمَا مِنْ الرَّحِمِ .

(134/519)

وَقَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ الَّذِي قَدَّمْنَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : " إذَا وَقَعَتْ النُّطْفَةُ فِي الرَّحِمِ أَخَذَهَا مَلَكٌ بِكَفِّهِ فَقَالَ : يَا رَبِّ مُخَلَّقَةٌ أَوْ غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ ؟ فَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ مُخَلَّقَةٍ قَذَفَتْهَا الْأَرْحَامُ دَمًا " ، فَأَخْبَرَ أَنَّ الدَّمَ الَّذِي تَقْذِفُهُ الرَّحِمُ لَيْسَ بِحَمْلٍ ، وَلَمْ يُفَرِّقْ مِنْهُ بَيْنَ مَا كَانَ مُجْتَمِعًا عَلَقَةً أَوْ سَائِلًا ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَا لَمْ يَظْهَرْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ فَلَيْسَ بِحَمْلٍ

وَأَنَّ الْعِدَّةَ لَا تَنْقَضِي بِهِ ؛ إذْ لَيْسَ هُوَ بِوَلَدٍ ، كَمَا أَنَّ الْعَلَقَةَ وَالنُّطْفَةَ لَمَّا لَمْ تَكُونَا وَلَدًا لَمْ تَنْقَضِ بِهِمَا الْعِدَّةُ .

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ الْأَعْمَشِ قَالَ : حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ قَالَ : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ : ﴿ إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيُكْتَبُ رِزْقُهُ وَأَجَلُهُ وَعَمَلُهُ ثُمَّ يُكْتَبُ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ ﴾ .

(135/519)

فَأَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يَكُونُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَقَةً وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا مُضْغَةً ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا لَوْ أَلْقَتْهُ عَلَقَةً لَمْ يُعْتَدَّ بِهِ وَلَمْ تَنْقَضِ بِهِ الْعِدَّةُ وَإِنْ كَانَتْ الْعَلَقَةُ مُسْتَحِيلَةً مِنْ النُّطْفَةِ ؛ إذْ لَمْ تَكُنْ لَهُ صُورَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَكَذَلِكَ الْمُضْغَةُ إذَا لَمْ تَكُنْ لَهَا صُورَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ فَلَا اعْتِبَارَ بِهَا وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الْعَلَقَةِ وَالنُّطْفَةِ .

وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي بِهِ يَتَبَيَّنُ الْإِنْسَانُ مِنْ الْحِمَارِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانِ وُجُودُهُ عَلَى هَذَا الضَّرْبِ مِنْ الْبِنْيَةِ وَالشَّكْلِ وَالتَّصْوِيرِ ، فَمَتَى لَمْ يَكُنْ لِلسِّقْطِ شَيْءٌ مِنْ صُورَةِ الْإِنْسَانِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِوَلَدٍ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْعَلَقَةِ وَالنُّطْفَةِ سَوَاءٌ فَلَا تَنْقَضِي بِهِ الْعِدَّةُ لِعَدَمِ كَوْنِهِ

وَلَدًا .

وَأَيْضًا فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَا أَسْقَطَتْهُ مِمَّا لَا تَتَبَيَّنُ لَهُ صُورَةُ الْإِنْسَانِ دَمًا مُجْتَمِعًا أَوْ دَاءً أَوْ مُدَّةً .

فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ نَجْعَلَهُ وَلَدًا تَنْقَضِي بِهِ الْعِدَّةُ ، وَأَكْثَرُ أَحْوَالِهِ احْتِمَالُهُ لِأَنْ يَكُونَ مِمَّا كَانَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَلَدًا وَيَجُوزُ أَنْ لَا يَكُونَ وَلَدًا .

(136/519)

فَلَا نَجْعَلُهَا مُنْقَضِيَةَ الْعِدَّةِ بِهِ بِالشَّكِّ ، وَعَلَى أَنَّ اعْتِبَارَ مَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ وَلَدًا أَوْ لَا يَكُونُ مِنْهُ وَلَدًا سَاقِطٌ لَا مَعْنَى لَهُ ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ وَلَدًا بِنَفْسِهِ فِي الْحَالِ ؛ لِأَنَّ الْعَلَقَةَ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْهَا وَلَدٌ وَكَذَلِكَ النُّطْفَةُ وَقَدْ تَشْتَمِلُ الرَّحِمُ عَلَيْهِمَا وَتَضُمُّهُمَا ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ : ﴿ النُّطْفَةُ تَمْكُثُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ثُمَّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَقَةً ﴾ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَعْتَبِرْ أَحَدٌ الْعَلَقَةَ فِي انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ .

وَزَعَمَ إسْمَاعِيلُ بْنُ إسْحَاقَ أَنَّ قَوْمًا ذَهَبُوا إلَى أَنَّ السِّقْطَ لَا تَنْقَضِي بِهِ الْعِدَّةُ وَلَا تَعْتِقُ بِهِ أُمُّ الْوَلَدِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ يَدًا أَوْ رِجْلًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَزَعَمَ أَنَّ هَذَا غَلَطٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَعْلَمَنَا أَنَّ الْمُضْغَةَ الَّتِي هِيَ غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ قَدْ دَخَلَتْ فِيمَا ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ كَمَا ذَكَرَ

الْمُخَلَّقَةَ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَكُونُ مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْوَلَدُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ فَهُوَ حَمْلٌ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ وَالَّذِي ذَكَرَهُ إِسْمَاعِيلُ إغْفَالٌ مِنْهُ لِمُقْتَضَى الْآيَةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُخْبِرْ أَنَّ الْعَلَقَةَ وَالْمُضْغَةَ وَلَدٌ وَلَا حَمْلٌ وَإِنَّمَا ذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَنَا مِنْ الْمُضْغَةِ وَالْعَلَقَةِ كَمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَنَا مِنْ النُّطْفَةِ وَمِنْ التُّرَابِ .

(137/519)

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ حِينَ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ خَلَقَنَا مِنْ الْمُضْغَةِ وَالْعَلَقَةِ فَقَدْ اقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ لَا يَكُونَ الْوَلَدُ نُطْفَةً وَلَا عَلَقَةً وَلَا مُضْغَةً ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ الْعَلَقَةُ وَالْمُضْغَةُ وَالنُّطْفَةُ وَلَدًا لَمَا كَانَ الْوَلَدُ مَخْلُوقًا مِنْهَا ؛ إذْ مَا قَدْ حَصَلَ وَلَدًا لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ قَدْ خُلِقَ مِنْهُ وَلَدٌ وَهُوَ نَفْسُهُ ذَلِكَ الْوَلَدُ ، فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ الْمُضْغَةَ الَّتِي لَمْ يَسْتَبِنْ فِيهَا خَلْقُ الْإِنْسَانِ لَيْسَ بِوَلَدٍ .

وَقَوْلُهُ : " إنَّ اللَّهَ أَعْلَمَنَا أَنَّ الْمُضْغَةَ الَّتِي هِيَ غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ قَدْ دَخَلَتْ فِيمَا ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ كَمَا ذَكَرَ الْمُخَلَّقَةَ " فَإِنَّهُ إنْ كَانَ هَذَا اسْتِدْلَالًا صَحِيحًا فَإِنَّهُ يَلْزَمُهُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَهُ فِي النُّطْفَةِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ ذَكَرَهَا فِيمَا ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ كَمَا ذَكَرَ الْمُضْغَةَ ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ النُّطْفَةُ حَمْلًا وَوَلَدًا لِذِكْرِ اللَّهِ لَهَا فِيمَا خَلَقَ النَّاسَ مِنْهُ .

فَإِنْ قِيلَ : قَدْ ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّهُ خَلَقَنَا مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ وَالْمُخَلَّقَةُ هِيَ الْمُصَوَّرَةُ وَغَيْرُ الْمُخَلَّقَةِ غَيْرُ الْمُصَوَّرَةِ ، فَإِذَا جَازَ أَنْ يَقُولَ خَلَقَكُمْ مِنْ مُضْغَةٍ مُصَوَّرَةٍ مَعَ كَوْنِ الْمُصَوَّرَةِ وَلَدًا لَمْ يَمْتَنِعْ أَنْ يَكُونَ غَيْرُ الْمُصَوَّرَةِ وَلَدًا مَعَ قَوْلِهِ : " خَلَقَكُمْ مِنْ مُضْغَةٍ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ " .

(138/519)

قِيلَ لَهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْمُخَلَّقَةِ مَا ظَهَرَ فِيهِ بَعْضُ صُورَةِ الْإِنْسَانِ فَأَرَادَ بِقَوْلِهِ : " خَلَقَكُمْ مِنْهَا " تَمَامَ الْخَلْقِ وَتَكْمِيلِهِ ، فَأَمَّا مَا لَيْسَ بِمُخَلَّقَةٍ فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النُّطْفَةِ لِعَدَمِ الصُّورَةِ فِيهَا ، فَيَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ : " خَلَقَكُمْ مِنْهَا " أَنَّهُ أَنْشَأَ الْوَلَدَ مِنْهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَلَدًا قَبْلَ ذَلِكَ . هَذَا هُوَ حَقِيقَةُ اللَّفْظِ وَظَاهِرُهُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ مُرَادَهُ وَضْعُ الْوَلَدِ ، فَمَا لَيْسَ بِوَلَدٍ فَلَيْسَ بِمُرَادٍ ، وَهَذَا لَا يُشْكِلُ عَلَى أَحَدٍ لَهُ أَدْنَى تَأَمُّلٍ .

وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ أَيْضًا : لَا تَخْلُو هَذِهِ الْمُضْغَةُ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ الْعَلَقَةِ مِنْ أَنْ تَكُونَ وَلَدًا أَوْ غَيْرَ وَلَدٍ ، فَإِنْ كَانَتْ وَلَدًا قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ فَحُكْمُهَا قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ وَبَعْدَهَا وَاحِدٌ وَإِنْ كَانَتْ لَيْسَتْ بِوَلَدٍ إِلَى أَنْ يُخْلَقَ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَرِثَ الْوَلَدُ أَبَاهُ إِذَا مَاتَ حِينَ تَحْمِلُ بِهِ أُمُّهُ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذَا إغْفَالٌ ثَانٍ وَكَلَامٌ مُنْتَقَضٌ بِإِجْمَاعِ الْفُقَهَاءِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّهُ إذَا مَاتَ عَنْ امْرَأَتِهِ وَجَاءَتْ بِوَلَدٍ لِسَنَتَيْنِ عَلَى قَوْلِ مَنْ يَجْعَلُ أَكْثَرَ مُدَّةِ الْحَمْلِ سَنَتَيْنِ أَوْ لِأَرْبَعِ سِنِينَ عَلَى قَوْلِ مَنْ يَجْعَلُ أَكْثَرَ الْحَمْلِ أَرْبَعَ سِنِينَ أَنَّ الْوَلَدَ يَرِثُهُ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ إنَّمَا كَانَ نُطْفَةً وَقْتَ وَفَاةِ الْأَبِ وَقَدْ وَرِثَهُ .

(139/519)

وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا خِلَافَ أَنَّ النُّطْفَةَ لَيْسَتْ بِحَمْلٍ وَلَا وَلَدٍ وَأَنَّهُ لَا تَنْقَضِي بِهَا الْعِدَّةُ وَلَا تَعْتِقُ بِهَا أُمُّ الْوَلَدِ ، فَبَانَ بِذَلِكَ فَسَادُ اعْتِلَالِ وَانْتِقَاضُ قَوْلِهِ ، وَلَيْسَتْ عِلَّةُ الْمِيرَاثِ كَوْنَهُ وَلَدًا ؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ الْمَيِّتَ هُوَ وَلَدٌ تَنْقَضِي بِهِ الْعِدَّةُ وَيَثْبُتُ بِهِ الِاسْتِيلَادُ فِي الْأُمِّ ، وَقَدْ لَا يَكُونُ مِنْ مَائِهِ فَيَرِثُهُ إذَا كَانَ مَنْسُوبًا إلَيْهِ بِالْفِرَاشِ ، أَلَا تَرَى أَنَّهَا لَوْ جَاءَتْ بِوَلَدٍ مِنْ الزِّنَا لَمْ يَلْحَقْ نَسَبُهُ بِالزَّانِي وَكَانَ ابْنًا لِصَاحِبِ الْفِرَاشِ ؟ فَالْمِيرَاثُ إنَّمَا يَتَعَلَّقُ حُكْمُهُ بِثُبُوتِ النَّسَبِ مِنْهُ لَا بِأَنَّهُ مِنْ مَائِهِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ وَلَدَ الزِّنَا لَا يَرِثُ الزَّانِيَ لِعَدَمِ ثُبُوتِ النَّسَبِ وَإِنْ كَانَ مِنْ مَائِهِ ؟ فَعَلِمْنَا بِذَلِكَ أَنَّ ثُبُوتَ الْمِيرَاثِ لَيْسَ بِمُتَعَلِّقٍ بِكَوْنِهِ وَلَدًا مِنْ مَائِهِ دُونَ حُصُولِ النِّسْبَةِ إلَيْهِ مِنْ الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا .

قَالَ إسْمَاعِيلُ : فَإِنْ قِيلَ إنَّمَا وَرِثَ أَبَاهُ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْأَصْلِ حِينَ صَارَ حَيًّا يَرِثُ وَيُورَثُ .

قِيلَ لَهُ : فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَنْقَضِيَ بِهِ الْعِدَّةُ وَإِنْ تَمَّ خَلْقُهُ حَتَّى يَخْرُجَ حَيًّا .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذَا تَخْلِيطٌ وَكَلَامٌ فِي الْمَسْأَلَةِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ خَصْمَهُ لَمْ يَجْعَلْ وُجُوبَ الْمِيرَاثِ عِلَّةً لِانْقِضَاءِ

(140/519)

الْعِدَّةِ وَكَوْنِ الْأُمِّ بِهِ أُمَّ وَلَدٍ ، وَهَذَا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ الْمَيِّتَ عِنْدَهُمْ جَمِيعًا تَنْقَضِي بِهِ الْعِدَّةُ وَلَا يَرِثُ ، وَقَدْ يَرِثُ الْوَلَدُ وَلَا تَنْقَضِي بِهِ الْعِدَّةُ : إذَا كَانَ فِي بَطْنِهَا وَلَدَانِ فَوَضَعَتْ أَحَدَهُمَا وَرِثَ هَذَا الْوَلَدُ مِنْ أَبِيهِ وَلَا تَنْقَضِي بِهِ الْعِدَّةُ حَتَّى تَضَعَ الْوَلَدَ الْآخَرَ .

فَإِنْ وَضَعَتْهُ مَيِّتًا لَمْ يَرِثْهُ وَانْقَضَتْ الْعِدَّةُ بِهِ ، فَلَمَّا كَانَ الْمِيرَاثُ قَدْ يَثْبُتُ لِلْوَلَدِ وَلَا تَنْقَضِي الْعِدَّةُ بِوَضْعِهِ وَقَدْ تَنْقَضِي بِهِ الْعِدَّةُ وَلَا يَرِثُ عَلِمْنَا أَنَّ أَحَدَهُمَا لَيْسَ بِأَصْلٍ لِلْآخَرِ وَلَا يَصِحُّ اعْتِبَارُهُ بِهِ .

(141/519)

ثُمَّ قَالَ إِسْمَاعِيلُ : فَإِنْ قِيلَ إِنَّهُ حَمْلٌ وَلَكِنَّا لَا نَعْلَمُ ذَلِكَ ، قِيلَ لَهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُتَعَبَّدَ اللَّهُ بِحُكْمٍ لَا سَبِيلَ إِلَى عِلْمِهِ ، وَالنِّسَاءُ يَعْرِفْنَ ذَلِكَ وَيُفَرِّقْنَ بَيْنَ لَحْمٍ أَوْ دَمٍ سَقَطَ مِنْ بَدَنِهَا أَوْ رَحِمِهَا وَبَيْنَ الْعَلَقَةِ الَّتِي يَكُونُ مِنْهَا الْوَلَدُ ، وَلَا يَلْتَبِسُ عَلَى جَمِيعِ النِّسَاءِ لَحْمُ الْمَرْأَةِ وَدَمُهَا مِنْ الْعَلَقَةِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِنَّ مَنْ يَعْرِفُ ، فَإِذَا شَهِدَتْ امْرَأَتَانِ أَنَّهَا عَلَقَةٌ قُبِلَتْ شَهَادَتُهُمَا ، وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ أَيْضًا إِنَّهَا إِذَا أَسْقَطَتْ عَلَقَةً أَوْ مُضْغَةً لَمْ يَسْتَبِنْ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ فَإِنَّهُ يُرَى النِّسَاءَ ، فَإِنْ قُلْنَ كَانَ يَجِيءُ مِنْهَا الْوَلَدُ لَوْ بَقِيَتْ انْقَضَتْ بِهِ الْعِدَّةُ وَيَثْبُتُ بِهَا الِاسْتِيلَادُ ، وَإِنْ قُلْنَ لَا يَجِيءُ مِنْ مِثْلِهَا وَلَدٌ لَمْ تَنْقَضِ بِهِ الْعِدَّةُ وَلَمْ يَثْبُتْ بِهِ الِاسْتِيلَادُ .

وَعَسَى أَنْ يَكُونَ إِسْمَاعِيلُ إِنَّمَا أَخَذَ مَا قَالَ مِنْ ذَلِكَ عَنْ الشَّافِعِيِّ ، وَهُوَ مِنْ أَظْهَرِ الْكَلَامِ اسْتِحَالَةً وَفَسَادًا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ الْفَرْقَ بَيْنَ الْعَلَقَةِ الَّتِي يَكُونُ مِنْهَا الْوَلَدُ وَبَيْنَ مَا لَا يَكُونُ مِنْهَا الْوَلَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ شَاهَدَ عَلَقًا كَانَ مِنْهُ الْوَلَدُ

(142/519)

وَعَلَقًا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ الْوَلَدُ فَيُعْرَفُ بِالْعَادَةِ الْفَرْقُ بَيْنَ مَا كَانَ مِنْهُ وَلَدٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ وَلَدٌ بِعَلَامَةٍ تُوجَدُ فِي أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ فِي مَجْرَى الْعَادَةِ وَأَكْثَرِ الظَّنِّ ، كَمَا يَعْرِفُ كَثِيرٌ مِنْ الْأَعْرَابِ السَّحَابَةَ الَّتِي يَكُونُ مِنْهَا الْمَطَرُ وَالسَّحَابَةَ الَّتِي لَا يَكُونُ مِنْهَا الْمَطَرُ وَذَلِكَ بِمَا قَدْ عَرَفُوهُ مِنْ

الْعَلَامَاتِ الَّتِي لَا تَكَادُ تُخْلِفُ فِي الْأَعَمِّ الْأَكْثَرِ ، فَأَمَّا الْعَلَقَةُ الَّتِي كَانَ مِنْهَا الْوَلَدُ فَمُسْتَحِيلٌ أَنْ يُشَاهِدَهَا إنْسَانٌ قَبْلَ كَوْنِ الْوَلَدِ مِنْهَا مُتَمَيِّزَةً مِنْ الْعَلَقَةِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ مِنْهَا وَلَدٌ ، وَذَلِكَ شَيْءٌ قَدْ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ إلَّا مَنْ أَطْلَعَ عَلَيْهِ مِنْ مَلَائِكَتِهِ حِينَ يَأْمُرُهُ بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ جَلَّ وَتَعَالَى ، وَلَكِنَّهُ خَصَّ نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ بِالْأَرْحَامِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ إعْلَامًا لَنَا أَنَّ أَحَدًا غَيْرَهُ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ وَأَنَّهُ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ وَمَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(143/519)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ يَعْنِي آدَمَ ، ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ يَعْنِي وَلَدَهُ ، وَهُوَ الْمَنِيُّ سُمِّيَ نُطْفَةً لِقِلَّتِهِ ، وَهُوَ الْقَلِيلُ مِنْ الْمَاءِ ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ يَعْنِي قِطْعَةً صَغِيرَةً مِنْ دَمٍ .

﴿ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ﴾ يَعْنِي ثُمَّ مِنْ جُزْءٍ مُخَثَّرٍ يُشْبِهُ اللُّقْمَةَ الَّتِي مُضِغَتْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مُخَلَّقَةٍ ﴾ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : صَارَتْ خَلْقًا ، وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ مَا قَذَفَتْهُ الرَّحِمُ نُطْفَةً ؛ قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ .

الثَّانِي : تَامَّةُ الْخَلْقِ ، وَغَيْرُ تَامَّةِ الْخَلْقِ قَالَ قَتَادَةُ .

الثَّالِثُ : مَعْنَاهُ مُصَوَّرَةٌ وَغَيْرُ مُصَوَّرَةٍ كَالسَّقْطِ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

الرَّابِعُ : يُرِيدُ تَامَّةَ الشُّهُورِ ، وَغَيْرَ تَامَّةٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَدْ قَدَّمْنَا شَيْئًا مِنْ الْقَوْلِ فِي هَذَا الْغَرَضِ ، وَنَحْنُ الْآنَ نُفِيضُ فِيهِ بِمَا إذَا اتَّصَلَ بِمَا فِي سُورَةِ الرَّعْدِ كَانَ بَيَانًا لِلْمَسْأَلَةِ وَعِرْفَانًا ، فَنَقُولُ : فِي ذَلِكَ رِوَايَاتٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَقْوَالٌ عَنْ السَّلَفِ : فَأَمَّا الرِّوَايَاتُ فَقَدْ قَدَّمْنَا بَعْضَهَا وَنُعِيدُ مِنْهَا هَاهُنَا الرِّوَايَةَ الْأُولَى : رَوَى يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ ، حَدَّثَنَا دَاوُد عَنْ عَامِرٍ عَنْ

عَلْقَمَةَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ نَحْوه ، وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النُّطْفَةَ إِذَا اسْتَقَرَّتْ فِي الرَّحِمِ أَخَذَهَا مَلَكٌ بِكَفِّهِ ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ ؟ ذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ مَا الْأَجَلُ ؟ مَا الْأَثَرُ ؟ وَبِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ؟ قَالَ دَاوُد : وَشُكِّكْتُ فِي الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ ، فَيُقَالُ لَهُ : انْطَلِقْ إِلَى أُمِّ الْكِتَابِ ، فَإِنَّك تَجِدُ فِيهَا قِصَّةَ هَذِهِ النُّطْفَةِ ، فَيَنْطَلِقُ فَيَجِدُ قِصَّتَهَا فِي أُمِّ الْكِتَابِ تَتَخَلَّقُ فَتَأْكُلُ رِزْقَهَا ، وَتَطَأُ أَثَرَهَا ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهَا قُبِضَتْ فَدُفِنَتْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي قُدِّرَ لَهَا ، ثُمَّ قَرَأَ عَامِرٌ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ .

الثَّانِيَةُ : مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَدِيٍّ عَنْ دَاوُد بِمِثْلِهِ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : إِذَا اسْتَقَرَّتْ النُّطْفَةُ فِي الرَّحِمِ أَدَارَهَا مَلَكٌ بِكَفِّهِ ، وَقَالَ : أَيْ رَبِّ ، مُخَلَّقَةٌ أَوْ غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ ؟ قَالَ : فَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ مُخَلَّقَةٍ قَذَفَتْهَا الْأَرْحَامُ دَمًا ، وَإِنْ كَانَتْ مُخَلَّقَةً قَالَ : أَيْ رَبِّ ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ مَا الرِّزْقُ ؟ مَا الْأَثَرُ ؟ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ؟ وَآثَارُ السَّلَفِ أَرْبَعَةٌ : الْأَوَّلُ : قَالَ عَامِرٌ فِي النُّطْفَةِ وَالْعَلَقَةِ وَالْمُضْغَةِ : فَإِذَا انْتَكَسَتْ فِي الْخَلْقِ الرَّابِعِ كَانَتْ نَسَمَةً مُخَلَّقَةً ، وَإِذَا قَذَفَتْهَا قَبْلَ ذَلِكَ فَهِيَ غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ .

(145/519)

الثَّانِي : قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ : السَّقْطُ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ .

الثَّالِثُ : قَالَ قَتَادَةُ : تَامَّةٌ وَغَيْرُ تَامَّةٍ .

الرَّابِعُ : قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : الْمُخَلَّقَةُ الَّتِي خَلَقَ فِيهَا الرَّأْسَ وَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ .

وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ فِيهَا شَيْئًا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ : إنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِالصَّلَاةِ عَلَى السَّقْطِ ، وَيَقُولُ : سَمُّوهُمْ وَاغْسِلُوهُمْ ، وَكَفِّنُوهُمْ وَحَنِّطُوهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَكْرَمَ بِالْإِسْلَامِ صَغِيرَكُمْ وَكَبِيرَكُمْ ، وَيَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ ، لَمْ يَسْتَتِمَّ سَائِرُ خَلْقِهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَلْقًا تَامًّا .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : إذَا رَجَعْنَا إلَى أَصْلِ الِاشْتِقَاقِ فَإِنَّ النُّطْفَةَ وَالْعَلَقَةَ وَالْمُضْغَةَ مُخَلَّقَةٌ ؛ لِأَنَّ الْكُلَّ خَلْقُ اللَّهِ ، وَإِذَا رَجَعْنَا إلَى التَّصْوِيرِ الَّذِي هُوَ مُنْتَهَى الْخِلْقَةِ كَمَا قَالَ : ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَذَلِكَ مَا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : إنَّهَا الَّتِي صُوِّرَتْ بِرَأْسٍ وَيَدَيْنِ وَرِجْلَيْنِ ، وَبَيْنَهَا حَالَاتٌ .

فَأَمَّا النُّطْفَةُ فَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ يَقِينًا ، وَأَمَّا إنْ تَلَوَّنَتْ فَقَدْ تَخَلَّقَتْ فِي رَحِمِ الْأُمِّ بِالتَّلْوِينِ ، وَتَخَلَّقَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِالتَّخْثِيرِ ؛ فَإِنَّهُ إنْشَاءٌ بَعْدَ إنْشَاءٍ .

وَيَزْعُمُ قَوْمٌ أَنَّ مَعَ التَّخْثِيرِ يَظْهَرُ التَّخْطِيطُ وَمِثَالُ التَّصْوِيرِ ، فَلِذَلِكَ شَكَّ مَالِكٌ فِيهِ ، وَقَالَ : وَمِنْ رَأْيِي مَنْ يُعْرَفُ أَنَّهُ سَقْطٌ فَهُوَ الَّذِي تَكُونُ بِهِ أُمُّ وَلَدٍ .

وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَاهُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ ، وَشَرْحُ الْحَدِيثِ فِي كِتَابِ الْحَيْضِ فَلْيُنْظَرْ هُنَالِكَ .

وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ مَا جَاءَ مِنْ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ عَلَى الْمُخَلَّقِ وَغَيْرِ الْمُخَلَّقِ ، وَعَلَى التَّامِّ وَالنَّاقِصِ .

وَلَعَلَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ أَرَادَ السَّقْطَ مَا تَبَيَّنَ خَلْقُهُ فَهُوَ الَّذِي يُسَمَّى ، وَمَا لَمْ يَتَبَيَّنْ خَلْقُهُ فَلَا وُجُودَ لَهُ ، وَالِاسْمُ فِيهِ دُونَ مَوْجُودٍ يُسَمَّى وَبِمَاذَا تَكُونُ الْوَلَدُ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ هُنَالِكَ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ ، وَاللَّهُ يَنْفَعُنَا بِعِزَّتِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَإِنَّ عِدَّةَ الْمَرْأَةِ تَنْقَضِي بِالسَّقْطِ الْمَوْضُوعِ ، ذَكَرَهُ إِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ حَمْلٌ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ، وَكَذَلِكَ قَالَ : لَا تَكُونُ بِهِ أُمُّ وَلَدٍ ، وَلَا يَرْتَبِطُ شَيْءٌ مِنْ الْأَحْكَامِ بِهِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُخَلَّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ ، فَيُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ خَلْقٌ ، كَمَا أَنَّهُ حَمْلٌ .

وَاعْتَرَضَ عَلَيْهِ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ بِأَنَّ الْوَلَدَ لَيْسَ بِمُضْغَةٍ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَنْبِيهًا عَلَى الْقُدْرَةِ .

قُلْنَا : فَأَيْنَ الْمَقْدُورُ الَّذِي تَعَلَّقَتْ بِهِ الْقُدْرَةُ ؟ هَلْ هُوَ تَصْرِيفُ الْوَلَدِ بَيْنَ الْأَحْوَالِ ، وَنَقْلِهِ مِنْ صِفَةٍ إلَى صِفَةٍ ؟ فَذَكَرَ أَنَّ أَصْلَهُ النُّطْفَةُ ، ثُمَّ تَتَدَاوَلُهُ الصِّفَاتُ ، فَيَكُونُ خَلْقًا وَحَمْلًا .

قَالَ الْمُعْتَرِضُ : وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ ﴾ مَا يُسَمَّى وَلَدًا .

قُلْنَا : بَلْ الْمُرَادُ بِهِ مَا يُسَمَّى حَمْلًا وَخَلْقًا لِشَغْلِ الرَّحِمِ ؛ فَإِذَا سَقَطَ بَرِئَتْ الرَّحِمُ مِنْ شُغْلِهَا .

قَالَ الْقَاضِي إسْمَاعِيلُ : وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ أَنَّهُ يَرِثُ أَبَاهُ ، فَدَلَّ عَلَى وُجُودِهِ خَلْقًا ، وَكَوْنِهِ وَلَدًا وَحَمْلًا .

قَالَ الْمُعْتَرِضُ : لَا حُجَّةَ فِي الْمِيرَاثِ ؛ لِأَنَّهُ جَاءَ مُسْتَنِدًا إلَى حَالِ كَوْنِهِ نُطْفَةً .

قُلْنَا لَوْ لَمْ يَكُنْ خَلْقًا مَوْجُودًا ، وَلَا وَلَدًا مَحْسُوسًا مَا أُسْنِدَ مِيرَاثُهُ إلَى حَالٍ وَلَا قُضِيَ لَهُ بِهِ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾

يعني آدم .

﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ يعني ولده

. ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ يعني أن النطفة تصير في الرحم علقة

. ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ يعني أن العلقة تصير مضغة ، وذلك مقدار ما يمضع من اللحم .

﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ فيه أربعه تأويلات

: أحدها : أن المخلقة ما صار خلقاً ، وغير مخلقة ما دفعته الأرحام من النطف فلم يصير خلقاً ، وهو قول ابن مسعود .

والثاني : معناه تامة الخلق وغير تامة الخلق ، وهذا قول قتادة .

والثالث : معناه مصورة وغير مصورة كالسقط ، وهذا قول مجاهد .

والرابع : يعني التام في شهوره ، وغير التام ، قاله الضحاك ، قال الشاعر :

أفي غير المخلقة البكاءُ . . . فأين العزم ويحك والحَياءُ

﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ يعني في القرآن بدء خلقكم وتنقل أحوالكم

. ﴿ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال مجاهد : إلى التمام

. ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ وقد ذكرنا عدد الأشُدّ

. ﴿ وَمِنْكُم مَّن يُتَوَفَّى ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : يعني قبل أن تبلغ إلى أرذل العمر .

والثاني : قبل بلوغ الأَشُدّ .

﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : الهرم ، وهو قول يحيى بن سلام .

والثاني : إلى مثل حاله عند خروجه من بطن أمّه ، حكاه النقاش .

والثالث : ذهاب العقل ، قاله اليزيدي .

﴿ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لا يستفيد علماً ما كان به عالماً .

الثاني : لا يعقل بعد عقله الأول شيئاً .

ويحتمل عندي وجهاً ثالثاً : أنه لا يعمل بعد علمه شيئاً ، فعبر عن العمل بالعلم [لافتقاره إليه لأن تأثير الكبر في العمل أبلغ من تأثيره في العلم] .

(149/519)

﴿ وتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : غبراء ، وهذا قول قتادة .

والثاني : يابسة لا تنبت شيئاً ، وهذا قول ابن جريج .

والثالث : أنها الدراسة ، والهمود : الدروس ، ومنه قول الأعشى :

قالت قتيلة ما لجسمك شاحباً . . . وأرى ثيابك باليات همَّدا

﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ وفي ﴿ اهْتَزَّتْ ﴾ وجهان

: أحدهما : معناه أنبتت ، وهو قول الكلبي .

والثاني : معناه اهتز نباتها واهتزازه شدة حركته ، كما قال الشاعر :

تثني إذا قامت وتهتز إن مشت . . . كما اهتز غُصْن البان في ورق خضرِ

﴿ وَرَبَتْ ﴾ وجهان

: أحدهما : معناه أضعف نباتها .

والثاني : معناه انتفخت لظهور نباتها ، فعلى هذا الوجه يكون مقدماً ومؤخراً وتقديره : فإذا أنزلنا عليها الماء رَبتْ واهتزت ، وهذا قول الحسن وأبي عبيدة ، وعلى الوجه الأول لا يكون فيه تقديم ولا تأخير .

﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : يعني من كل نوع ، وهو قول ابن شجرة .

والثاني : من كل لون لاختلاف ألوان النبات بالخضرة والحمرة والصفرة .

﴿ بَهِيجٍ ﴾ يعني حسن الصورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(150/519)

وقال ابن عطية :

(151/519)

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ﴾ الآية هذه احتجاج على العالم بالبداءة الأولى وضرب الله تعالى في هذه الآية مثلين إذا اعتبرهما الناظر جوز في العقل البعثة من القبور ، ثم ورد خبر الشرع بوجوب ذلك ووقوعه ، و" الريب " الشك ، وقوله تعالى : ﴿ إن كنتم ﴾ شرط مضمنه التوفيق ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " البعَث " بفتح العين وهي لغة في البعث عند البصريين وهي عند الكوفيين تخفيف بعث وقوله تعالى : ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ يريد آدم ثم سلط الفعل عليهم من حيث هم من ذريته ، وقوله تعالى : ﴿ ثم من نطفة ﴾ يريد المنى الذي يكون من البشر ، و" النطفة " تقع على قليل الماء وكثيره

، وقال النقاش المراد ﴿ نطفة ﴾ آدم ، وقوله تعالى : ﴿ ثم من علقة ﴾ ، يريد من الدم تعود النطفة إليه في الرحم أو المقارن للنطفة ، والعلق ، الدم العبيط وقيل العلق ، الشديد الحمرة فسمي الدم لذلك ، وقوله تعالى : ﴿ ثم من مضغة ﴾ يريد بضعة لحم على قدر ما يمضغ ، وقوله تعالى : ﴿ مخلقة ﴾ معناه متممة البنية ، ﴿ وغير مخلقة ﴾ غير متممة أي التي تستسقط قاله مجاهد وقتادة والشعبي وأبو العالية فاللفظة بناء مبالغة من خلق ولما كان الإنسان فيه أعضاء متباينة وكل واحد منها مختص بخلق حسن في جملته تضعيف الفعل لأن فيه خلقاً كثيرة ، وقرأ ابن أبي عبلة " مخلقةً " بالنصب " وغيرَ " بالنصب في الراء ويتصل بهذا الموضوع من الفقه أن العلماء اختلفوا في أم الولد اذا أسقطت مضغة لم تصور هل تكون أم ولد بذلك فقال مالك والأوزاعي وغيرهما : هي أم ولد بالمضغة إذا علم أنها مضغة الولد ، وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا حتى يتبين فيه خلق ولو عضو واحد ، وقوله تعالى : ﴿ لنبين ﴾ قالت فرقة معناه لنبين أمر البعث فهو اعتراض بين الكلامين ، وقرأت هذه الفرقة بالرفع في " نقرُّ " ، المعنى ونحن نقر وهي قراءة الجمهور ، وقالت فرقة ﴿ لنبين ﴾ معناه بكون المضغة غير مخلقة وطرح

النساء إياها كذلك نبين للناس أن المناقل في الرحم هي هكذا ، وقرأت هذه الفرقة " ونقرَّ " بالنصب وكذلك قرأت " ونخرجَكم " بالنصب وهي رواية المفضل عن عاصم ، وحكى أبو عمرو الداني أن رواية المفضل هذه هي بالياء في " يقر " وفي " يخرجكم " والرفع على هذا التأويل سائغ ولا يجوز النصب على التأويل الأول ، وقرأ ابن وثاب " ما نِشاء " بكسر النون ، و" الأجل المسمى " هو مختلف بحسب جنين جنين فثم من يسقط وثم من يكمل أمره ويخرج حياً ، وقوله تعالى : ﴿ طفلاً ﴾ اسم الجنس أي أطفالاً ، واختلف الناس في " الأشد " من ثمانية عشر إلى ثلاثين ، إلى اثنين وثلاثين ، إلى ستة وثلاثين ، إلى أربعين ، إلى خمسة وأربعين ، واللفظ تقال بإشتراك ، فأشد الانسان على العموم غير أشد اليتيم الذي هو الاحتلام ، و" الأشد " في هذه الآية يحتمل المعنيين ، والرد إلى أرذل العمر هو حصول الإنسان في زمانه واختلال قوة حتى لا يقدر على إقامة الطاعات واختلال عقل حتى لا يقدر على إقامة ما يلزمه من المعتقدات ، وهذا أبداً يلحق مع الكبر وقد يكون ﴿ أرذل العمر ﴾ في قليل من السن بحسب شخص ما لحقته زمانة وقد ذكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿ أرذل العمر ﴾ خمسة وسبعون وهذا فيه نظر وإن صح عن علي رضي الله عنه فلا يتوجه إلا أن يريد على الأكثر فقد نرى كثيراً أبناء ثمانين سنة ليسوا في أرذل العمر ، وقرأ الجمهور " العمر " مشبعة وقرأ نافع " العمر " مخففة الميم واختلف عنه ، وقوله تعالى : ﴿ لكيلا يعلم ﴾ أي لينسى معارفه وعلمه الذي كان معه فلا يعلم من ذلك

شيئاً فهذا مثال واحد يقضي للمعتبر به أن القادر على هذه المناقل المتقن لها قادر على إعادة تلك الأجساد التي أوجدها بهذه المناقل إلى حالها الأولى .

(153/519)

﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

هذا هو المثال الثاني الذي يعطي للمعتبر فيه جواز بعد الإجساد وذلك أن إحياء الأرض بعد موتها بين فكذلك الأجساد ، و﴿ هامدة ﴾ معناه ساكنة دارسة بالية ومنه قيل همد الثوب إذا بلي ، قال الأعشى : [الكامل]

قالت قتيلة ما لجسمك شاحباً . . . وأرى ثيابك باليات همدا

واهتزاز الأرض هو حركتها بالنبات وغير ذلك مما يعتريها بالماء ، ﴿ وربت ﴾ معناه نشزت وارتفعت ومنه الربوة وهو المكان المرتفع ، وقرأ جعفر بن القعقاع " وربأت " بالهمز ،

ورويت عن أبي عمرو وقرأها عبد الله بن جعفر وخالد بن إلياس وهي غير وجيهة ووجهها أن تكون من ربأت القوم إذا علوت شرفاً من الأرض طليعة فكأن الأرض بالماء تتطاول وتعلو ، و" الزوج " النوع ، و" البهيج " فعيل من البهجة وهي الحسن قاله وقتادة وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(154/519)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ﴾ يعني : أهل مكة ﴿ إِن كنتم في ريب من البعث ﴾ أي : في شك من القيامة ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ يعني : خَلْقَ آدم ﴿ ثم من نطفة ﴾ يعني : خَلْقَ ولده ، والمعنى : إِن شككتم في بعثكم فتدبَّروا أمر خلقكم وابتدائكم ، فإنكم لا تجدون في القدرة فرقاً بين الابتداء والاعادة .

فأما النطفة ، فهي المني .

والعلقة : دم عبيط جامد .

وقيل سميت علقة لرطوبتها وتعلُّقها بما تمرُّ به ، فإذا جفَّت فليست علقةً .

والمضغة : لحمة صغيرة .

قال ابن قتيبة : وسميت بذلك ، لأنه بقدر ما يُمضغ ، كما قيل : غرفة لقدر ما يُغرَف .

قوله تعالى : ﴿ مخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقةٍ ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : أن المخلَّقة : ما خُلق سويّاً ، وغير المخلَّقة : ما ألقته الأرحام من النطف ، وهو دم قبل أن يكون خَلْقاً ، قاله ابن مسعود .

والثاني : أن المخلَّقة : ما أُكمل خَلْقه بنفخ الروح فيه ، وهو الذي يولَد حيّاً لتمامٍ ، وغير المخلَّقة : ما سقط غير حيٍّ لم يكمل خَلْقُه بنفح الروح فيه ، هذا معنى قول ابن عباس .

والثالث : أن المخلَّقة : المصوَّرة ، وغير المخلَّقة : غير مصوَّرة ، قاله الحسن .

والرابع : أن المخلَّقة وغير المخلَّقة : السقط ، تارة يسقط نطفة وعلقة ، وتارة قد صُوِّر بعضه ، وتارة قد صُوِّر كلُّه ، قاله السدي .

والخامس : أن المخلَّقة : التامة ، وغير المخلَّقة : السقط ، قاله الفراء ، وابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ لنبيِّنَ لكم ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : خلقناكم لنبيِّن لكم ما تأتون وما تذَرون .

والثاني : لنبيِّن لكم في القرآن بُدُوَّ خَلْقِكم ، وتنقُّلَ أحوالكم .

والثالث : لنبيِّن لكم كمال حكمتنا وقدرتنا في تقليب أحوال خلقكم .

والرابع : لنبيِّن لكم أن البعث حق .

وقرأ أبو عمران الجوني ، وابن أبي عبلة : "ليبيِّن لكم" لكم بالياء .

قوله تعالى : ﴿ ونقرُّ في الأرحام ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وأبو رجاء : "ويُقَرُّ" بياء مرفوعة وفتح القاف ورفع الراء .

وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو إسحاق السَّبيعي : "ويُقِرَّ" بياء مرفوعة وبكسر القاف ونصب الراء .

والذي يُقَرُّ في الأرحام ، هو الذي لا يكون سقطاً ، ﴿ إلى أجلٍ مسمى ﴾ وهو أجل الولادة ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ قال أبو عبيدة : هو في موضع "أطفال" ، والعرب قد تضع لفظ الواحد في معنى الجميع ، قال الله تعالى : ﴿ والملائكةُ بعد ذلك ظهير ﴾ [التحريم : 4] أي : ظهراء ، وأنشد :

فَقُلْنا أسلِموا إنَّا أَخوكم . . .

فقد بَرِئتْ من الإِحَنِ الصدورُ

وأنشد أيضاً :

في حَلْقكم عظمٌ وقد شَجينا . . .

وقال غيره : إنما قال : "طفلاً" فوحَّد ، لأن الميم في قوله تعالى : ﴿ نخرجكم ﴾ قد دلَّت

على الجميع ، فلم يحتج إلى أن يقول : أطفالاً .

قوله تعالى : ﴿ ثم لتبلغوا ﴾ فيه إضمار ، تقديره : ثم نعمّركم لتبلغوا أشدكم ، وقد سبق معنى "الأشُد" [الأنعام : 153] ، ﴿ ومنكم من يُتَوفَّى ﴾ من قبل بلوغ الأشُدّ ﴿ ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العُمُر ﴾ وقد شرحناه في [النحل : 70] .

ثم إن الله تعالى دلَّهم على إحيائه الموتى باحيائه الأرض ، فقال تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ قال ابن قتيبة : أي : ميتة يابسة ، ومثله : همدت النار : إذا طفئت فذهبت .

قوله تعالى : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء ﴾ يعني : المطر ﴿ اهتزّت ﴾ أي : تحرّكت للنبات ، وذلك أنها ترتفع عن النبات إذا ظهر ، فهو معنى قوله تعالى : ﴿ وربت ﴾ أي : ارتفعت وزادت .

وقال المبرّد : أراد : اهتزّ نباتها وربا ، فحذف المضاف .

قال الفراء : وقرأ أبو جعفر المدني : "وربأَت" بهمزة مفتوحة بعد الباء .

فإن كان ذهب إلى الرَّبيئة الذي يحرس القوم ، أي : أنه يرتفع ، وإلا ، فهو غلط .

(156/519)

قوله تعالى : ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ قال ابن قتيبة : من كل جنس حَسَنٍ يبهج ، أي : يسرُّ ، وهو فعيل في معنى فاعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(157/519)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث ﴾ إلى قوله ﴿ مُّسَمًّى ﴾ فيه اثنتا عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث ﴾ هذا احتجاج على العالم بالبداءة الأولى .

وقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ متضمّنة التوقيف .

وقرأ الحسن بن أبي الحسن "البَعَث" بفتح العين ؛ وهي لغة في "البَعْث" عند البصريين .

وهي عند الكوفيين بتخفيف "بَعَث" .

والمعنى : يا أيها الناس إن كنتم في شك من الإعادة .

﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أي خلقنا أباكم الذي هو أصل البشر ؛ يعني آدم عليه السلام ﴿ مِّن تُرَابٍ ﴾ .

﴿ ثُمَّ ﴾ خلقنا ذريته ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ وهو المِنيّ ؛ سُمِّيَ نطفة لقلّته ، وهو القليل من الماء ، وقد يقع على الكثير منه ؛ ومنه الحديث : " حتى يسير الراكب بين النُّطفتين لا يخشى جَوْراً " أراد بحر المشرق وبحر المغرب .

والنَّطْف : القَطْر .

نَطَفَ يَنْطِفُ وينطُف .

وليلة نَطوفة دائمة القطر .

﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ وهو الدّم الجامد .

والعَلَق الدّم العَبِيط ؛ أي الطَّرِيّ .

وقيل : الشديد الحمرة .

﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ وهي لحمة قليلة قدرُ ما يمضغ ؛ ومنه الحديث : " ألاَ وإنّ في الجسد مُضْغة " وهذه الأطوار أربعة أشهر .

قال ابن عباس : وفي العشر بعد الأشهر الأربعة يُنفخ فيه الروح ، فذلك عدّة المتوفَّى عنها زوجها ، أربعة أشهرٍ وعشر .

الثانية : روى يحيى بن زكرياء بن أبي زائدة حدّثنا داود عن عامر عن علقمة عن ابن مسعود وعن ابن عمر أن النطفة إذا استقرّت في الرّحم أخذها مَلَك بكفه فقال : "يا ربّ ،

ذكر أم أنثى ، شقيّ أم سعيد ، ما الأجل والأَثر ، بأي أرض تموت ؟ فيقال له انطلق إلى أمّ الكتاب فإنك تجد فيها قصة هذه النطفة .

(158/519)

فينطلق فيجد قصتها في أم الكتاب ، فتخلق فتأكل رزقها وتطأ أثرها فإذا جاء أجلها قُبضت فدفنت في المكان الذي قُدّر لها ؛ ثم قرأ عامر : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ .

وفي الصحيح عن أنس بن مالك ورفع الحديث قال : " إن الله قد وَكّل بالرحم مَلَكاً فيقول أيْ ربِّ نطفةٌ .

أيْ رَبّ عَلَقة .

أيْ رَبّ مُضْغَة .

فإذا أراد الله أن يقضي خلقاً قال – قال – الملك أيْ رَبّ ذَكَرَ أو أنثى شقيّ أو سعيد .

فما الرزق فما الأجل .

فيكتب كذلك في بطن أمه " وفي الصحيح أيضاً عن حُذيفة بن أَسِيد الغِفاريّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا مَرّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها

مَلَكاً فصوّرها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم يقول أيْ ربّ أذكر أم أنثى . . .

" وذكر الحديث .

وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق " إنّ أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علَقة مثلَ ذلك ثم يكون مُضْغة مثلَ ذلك ثم يُرسَل المَلَك فينفخ فيه الروحَ ويُؤمر بأربع كلمات بكَتْب رزقه وأجله وعمله وشقِيٌّ أو سعيد . . .

" الحديث .

فهذا الحديث مفسِّر للأحاديث الأول ؛ فإن فيه : "يُجمع خلق أحدِكم في بطن أمّه أربعين يوماً نطفة ثم أربعين يوماً علقة ثم أربعين يوماً مضغة ثم يُبعث الملك فينفخ فيه الروح" فهذه أربعة أشهر وفي العشر ينفخ الملك الروح ، وهذه عدّة المتوفَّى (عنها زوجها) كما قال ابن عباس .

(159/519)

وقوله : "إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمّه" قد فسّره ابن مسعود ، سئل الأعمش : ما يجمع في بطن أمّه ؟ فقال حدّثنا خَيْثمة قال : قال عبد الله : إذا وقعت النطفة في الرحم فأراد الله أن يخلق منها بشراً طارت في بشرة المرأة تحت كل ظفر وشعر ثم تمكث أربعين يوماً ثم تصير دماً في الرّحم ، فذلك جمعها ، وهذا وقت كونها علقة .

الثالثة : نسبة الخلق والتصوير للمَلَك نسبة مجازية لا حقيقية ، وأن ما صدر عنه فعل ما في المضغة كان عند التصوير والتشكيل بقدرة الله وخلقه واختراعه ؛ ألا تراه سبحانه قد أضاف إليه الخَلْقة الحقيقية ، وقطع عنها نسب جميع الخليقة فقال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ [الأعراف : 11] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12 13] .

وقال : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن : 2] .

ثم قال : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر : 64] .

وقال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] .

وقال : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : 2] .

إلى غير ذلك من الآيات ، مع ما دلّت عليه قاطعات البراهين أن لا خالق لشيء من المخلوقات إلا ربّ العالمين .

وهكذا القول في قوله : "ثم يُرسَل الملك فينفخ فيه الروح" أي أنّ النفخ سببُ خلق الله فيها الروح والحياة .

وكذلك القول في سائر الأسباب المعتادة ؛ فإنه بإحداث الله تعالى لا بغيره .

فتأمّل هذا الأصل وتمسك به ، ففيه النجاة من مذاهب أهل الضلال الطبعيين وغيرهم .

(160/519)

الرابعة : لم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوماً ، وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس ؛ كما بيناه بالأحاديث .

وعليه يعوّل فيما يحتاج إليه من الأحكام في الاستلحاق عند التنازع ، وفي وجوب النفقات على حمل المطلقات ؛ وذلك لتيقّنه بحركة الجنين في الجوف .

وقد قيل : إنه الحكمة في عِدّة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر ، وهذا الدخول في الخامس يحقق براءة الرَّحِم ببلوغ هذه المدّة إذا لم يظهر حمل .

الخامسة : النطفة ليست بشيء يقيناً ، ولا يتعلّق بها حكم إذا ألقتها المرأة إذا لم تجتمع في

الرحم ، فهي كما لو كانت في صلب الرجل ؛ فإذا طرحته علقة فقد تحققنا أن النطفة قد استقرّت واجتمعت واستحالت إلى أوّل أحوال ما يُتحقق به أنه ولد .

وعلى هذا فيكون وضع العلقة فما فوقها من المضغة وضع حمل ، تبرأ به الرّحم ، وتنقضي به العدّة ، ويثبت به لها حكم أم الولد .

وهذا مذهب مالك رضي الله عنه وأصحابِه .

وقال الشافعيّ رضي الله عنه : لا اعتبار بإسقاط العَلَقة ، وإنما الاعتبار بظهور الصورة والتخطيط ؛ فإن خَفِيَ التخطيط وكان لحماً فقولان بالنقل والتخريج ، والمنصوص أنه تنقضي به العدّة ولا تكون أمّ ولد .

قالوا : لأن العدّة تنقضي بالدّم الجاري ، فبغيره أوْلى .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ قال الفرّاء : "مخلقة" تامّة الخَلْق ، "وغيرِ مخلقة" السّقط .

وقال ابن الأعرابيّ : "مخلّقة" قد بدأ خلقها ، "وغير مخلقة" لم تصوّر بعد .

ابن زيد : المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين ، وغير مخلقة التي لم يخلق فيها شيء .

قال ابن العربي : إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإن النطفة والعلقة والمضغة مخلّقة ؛ لأن

الكلّ خلقُ الله تعالى ، وإن رجعنا إلى التصوير الذي هو منتهى الخلقة كما قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ [المؤمنون : 14] فذلك ما قال ابن زيد .

(161/519)

قلت : التخليق من الخلق ، وفيه معنى الكثرة ، فما تتابع عليه الأطوار فقد خُلق خلقاً بعد خلق ، وإذا كان نطفة فهو مخلوق ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ [المؤمنون : 14] والله أعلم .

وقد قيل : إن قوله : ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ يرجع إلى الولد بعينه لا إلى السقط ؛ أي منهم من يتم الربّ سبحانه مضغته فيخلق له الأعضاء أجمع ، ومنهم من يكون خَدِيجا ناقصاً غير تمام .

وقيل : المخلقة أن تلد المرأة لتمام الوقت .

ابن عباس : المخلقة ما كان حيًّا ، وغير المخلقة السقط .

قال :

أفي غير المخلقة البكاء . . .

فأين الحزم ويحك والحياء

السابعة : أجمع العلماء على أن الأَمَة تكون أمّ ولد بما تسقطه من ولدٍ تامّ الخلق .

وعند مالك والأوزاعيّ وغيرهما بالمضغة كانت مخلقةً أو غير مخلقة .

قال مالك : إذا علم أنها مضغة .

وقال الشافعي وأبو حنيفة : إن كان قد تبيّن له شيء من خلق بني آدم أصبع أو عين أو غير ذلك فهي له أمّ ولد .

وأجمعوا على أن المولود إذا استهلّ صارخاً يصلَّى عليه ؛ فإن لم يستَهِل صارخاً لم يصلّ عليه عند مالك وأبي حنيفة والشافعي وغيرهما .

وروي عن ابن عمر أنه يصلى عليه ؛ وقاله ابن المسيّب وابن سِيرين وغيرهما .

وروي عن المغيرة بن شعبة أنه كان يأمر بالصلاة على السقط ، ويقول سموهم واغسلوهم وكفّنوهم وحنّطوهم ؛ فإن الله أكرم بالإسلام كبيركم وصغيركم ، ويتلو هذه الآية "فإنا خلقناكم من تراب إلى وغيرِ مخلقةٍ" .

قال ابن العربي : لعل المغيرة بن شعبة أراد بالسقط ما تبيّن خلقه فهو الذي يسمَّى ، وما لم يتبين خلقه فلا وجود له .

وقال بعض السلف : يصلى عليه متى نفخ فيه الروح وتمت له أربعة أشهر .

وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا استهَلّ المولود ورِث " الاستهلال : رفع الصوت ؛ فكل مولود كان ذلك منه أو حركةٌ أو عطاس أو تنفُّس فإنه يورَّث لوجود ما فيه من دلالة الحياة .

وإلى هذا ذهب سفيان الثوري والأوزاعي والشافعي .

قال الخطابي : وأحسنه قول أصحاب الرأي .

وقال مالك : لا ميراث له وإن تحرك أو عَطَس ما لم يستهِلّ صارخاً .

وروي عن محمد بن سيرين والشَّعْبِي والزهري وقتادة .

الثامنة : قال مالك رضي الله عنه : ما طرحته المرأة من مضغة أو علقة أو ما يعلم أنه ولد إذا ضرب بطنها ففيه الغُرّة .

وقال الشافعي : لا شيء فيه حتى يتبيّن من خلقه شيء .

قال مالك : إذا سقط الجنين فلم يستهِلّ صارخاً ففيه الغُرّة .

وسواء تحرّك أو عطس فيه الغرّة أبداً ، حتى يستهِل صارخاً ففيه الدية كاملة .

وقال الشافعي رضي الله عنه وسائر فقهاء الأمصار : إذا عُلمت حياته بحركة أو بعطاس أو باستهلال أو بغير ذلك ما تستيقن به حياته ففيه الدية .

التاسعة : ذكر القاضي إسماعيل أن عدّة المرأة تنقضي بالسّقط الموضوع ، واحتج عليه

بأنه حمل ، وقال قال الله تعالى : ﴿ وَأُوْلاَتُ الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 4] .

قال القاضي إسماعيل : والدليل على ذلك أنه يرث أباه ، فدل على وجوده خلقاً وكونه ولداً وحملاً .

قال ابن العربي : ولا يرتبط به شيء من هذه الأحكام إلا أن يكون مخلقاً .

قلت : ما ذكرناه من الاشتقاق وقوله عليه الصلاة والسلام : "إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه" يدل على صحة ما قلناه ، ولأن مُسقطة العلقة والمضغة يصدق على المرأة إذا ألقته أنها كانت حاملاً وضعت ما استقر في رحمها ، فيشملها قوله تعالى : ﴿ وَأُوْلاَتُ الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 4] .

ولأنها وضعت مبدأ الولد عن نطفة متجسّداً كالمخطط ، وهذا بيّن .

(163/519)

العاشرة : روى ابن ماجه حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدّثنا خالد بن مخلد حدّثنا يزيد عن عبد الملك النّوفليّ عن يزيد بن رُومان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لسقط أقدّمه بين يدي أحبّ إليّ من فارس أخلّفه (خلفي) " وأخرجه

الحاكم في معرفة علوم الحديث له عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة فقال : " أحبّ إلي من ألف فارس أخلّفه ورائي " .

الحادية عشرة : ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ يريد : كمال قدرتنا بتصريفنا أطوارَ خَلْقكم .

﴿ وَنُقِرُّ فِي الأرحام ﴾ قرىء بنصب "نقِر" و"نخرج" ، رواه أبو حاتم عن أبي يزيد عن المفضّل عن عاصم قال : قال أبو حاتم : النصب على العطف .

وقال الزجاج : "نقر" بالرفع لا غير ؛ لأنه ليس المعنى : فعلنا ذلك لنقرَّ في الأرحام ما نشاء ، وإنما خلقهم عز وجل ليدلّهم على الرشد والصلاح وقيل : المعنى لنبيّن لهم أمر البعث ؛ فهو اعتراض بين الكلامين .

وقرأت هذه الفرقة بالرفع "ونقرُّ" ؛ المعنى : ونحن نقر .

وهي قراءة الجمهور .

وقرىء : "ويقر" و"يخرجكم" بالياء ، والرفع على هذا سائغ .

وقرأ ابن وَثّاب "ما نِشاء" بكسر النون .

والأجل المسمى يختلف بحسب جَنِين جنين ؛ فثَمّ من يسقط وثَمّ من يكمل أمره ويخرج حَيًّا .

وقال "ما نشاء" ولم يقل من نشاء لأنه يرجع إلى الحمل ؛ أي نقرّ في الأرحام ما نشاء من الحمل ومن المغضة وهي جماد فكنّى عنها بلفظ ما .

الثانية عشرة : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أي أطفالاً ؛ فهو اسم جنس .

وأيضاً فإن العرب قد تسمّي الجمع باسم الواحد ؛ قال الشاعر :

يَلحينني في حبّها ويَلُمْنِني . . .

إن العواذل ليس لي بأمير

ولم يقل أمراء .

وقال المبرد : وهو اسم يستعمل مصدراً كالرضا والعَدْل ، فيقع على الواحد والجمع ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء ﴾ [النور : 31] .

(164/519)

وقال الطبري : وهو نصب على التمييز ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً ﴾ [النساء : 4] .

وقيل : المعنى ثم نخرج كل واحد منكم طفلاً .

والطفل يطلق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ .

وولَدُ كلِّ وَحْشِيَّة أيضاً طفل .

ويقال : جارِية طِفْلٌ ، وجاريتان طِفْل وجَوارٍ طِفْلٌ ، وغلامٌ طفلٌ ، وغلمان طفل .

ويقال أيضاً : طِفْلٌ وطِفْلة وطِفْلان وطِفْلتان وأطفال .

ولا يقال : طِفْلات .

وأطفلت المرأة صارت ذات طفل .

والمُطْفِلة : الظبية معها طفلها ، وهي قريبة عهد بالنّتاج .

وكذلك الناقة ، (والجمع) مَطافلُ ومطافيل .

والطَّفْل (بالفتح في الطاء) الناعم ؛ يقال : جارية طَفْلة أي ناعمة ، وبنان طَفْل .

وقد طَفَّل الليل إذا أقبل ظلامه .

والطَّفَل (بالتحريك) : بعد العصر إذا طَفَلت الشمس للغروب .

والطَّفَل (أيضاً) : مطر ؛ قال :

لِوَهْدٍ جاده طَفَلُ الثُّرّيا . . .

﴿ ثُمَّ لتبلغوا أَشُدَّكُمْ ﴾ قيل : إن "ثم" زائدة كالواو في قوله : ﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : 73] ؛ لأن ثم من حروف النّسَق كالواو .

"أشُدَّكم" كمال عقولكم ونهايةَ قُواكم .

وقد مضى في "الأنعام" بيانه .

﴿ وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر ﴾ أي أخسّه وأدْوَنه وهو الهَرَم والخَرَف حتى لا يعقِل ؛ ولهذا قال : ﴿ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ .

كما قال في سورة يس : ﴿ وَمَن نّعَمّرْهُ نُنَكّسْهُ فِي الخلق ﴾ [يس : 68] .

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول : " اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من البُخْل وأعوذ بك من الجُبْن وأعوذ بك أن أرَدّ إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر " أخرجه النَّسائيّ عن سعد ، وقال : وكان يعلمهنّ بَنِيه كما يعلّم المُكْتِبُ الغلمان .

وقد مضى في النحل هذا المعنى .

(165/519)

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الأرض هَامِدَةً ﴾ ذكر دلالة أقوى على البعث فقال في الأوّل : "فإنا خلقناكم مِن تراب" فخاطب جمعاً .

وقال في الثاني : "وَتَرَى الأَرْضَ" فخاطب واحداً ، فانفصل اللفظ عن اللفظ ، ولكن المعنى متصل من حيث الاحتجاج على منكري البعث .

﴿ هَامِدَةً ﴾ يابسة لا تنبت شيئاً ؛ قاله ابن جُرَيج .

وقيل : دارسة .

والهمود الدروس .

قال الأعشى :

قالت قُتَيلَةُ ما لجسمك شاحِباً . . .

وأرى ثيابَك بالياتٍ هُمّدَا

الهَرَوِيّ : "هامدة" أي جافة ذات تراب .

وقال شَمِر : يقال : هَمَد شجر الأرض إذا بَلِيَ وذهب .

وهمدت أصواتهم إذا سكنت .

وهمود الأرض ألا يكون فيها حياة ولا نبت ولا عود ولم يصبها مطر .

وفي الحديث : " حتى كاد يَهْمُد من الجوع " أي يهلك .

يقال : هَمَد الثوب يَهْمُد إذا بَلِيَ .

وهَمَدت النار تَهْمُد .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت ﴾ أي تحركت .

والاهتزاز : شدّة الحركة ؛ يقال : هَزَزْت الشيء فاهتز ؛ أي حركته فتحرك .

وهَزّ الحادِي الإبل هزيزاً فاهتزت هي إذا تحركت في سيرها بجُدائه .

واهتز الكوكب في انقضاضه .

وكوكب هازّ .

فالأرض تهتز بالنبات ؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة خفية ؛

فسماه اهتزازاً مجازاً .

وقيل : اهتز نباتها ، فحذف المضاف ؛ قاله المبرّد .

واهتزازه شدّة حركته ، كما قال الشاعر :

تَثَنَّى إذا قامت وتهتزّ إن مشت . . .

كما اهتز غصن البان في ورق خُضْر

والاهتزاز في النبات أظهر منه في الأرض .

﴿ وَرَبَتْ ﴾ أي ارتفعت وزادت .

وقيل : انتفخت ؛ والمعنى واحد ، وأصله الزيادة .

ربَا الشيء يَرْبُو رُبُوًّا أي زاد ؛ ومنه الربا والرّبوة .

وقرأ يزيد بن القَعْقَاع وخالد بن الياس "وَرَبأَتْ" أي ارتفعت حتى صارت بمنزلة الربيئة ،

وهو الذي يحفظ القوم على شيء مُشْرِف ؛ فهو رابىء وربِيئة على المبالغة .

قال امرؤ القيس :

بَعثْنَا رَبِيئاً قبل ذاك مُخَمّلاً . . .

كذئب الغَضَا يمشي الضَّرَاء ويَتّقِي

﴿ وَأَنبَتَتْ ﴾ أي أخرجت .

﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي لَون .

﴿ بَهِيجٍ ﴾ أي حسن ؛ عن قتادة .

أي يُبهج من يراه .

والبَهْجة الحُسْن ؛ يقال : رجل ذو بَهجة .

وقد بَهُج (بالضم) بَهاجة وبَهْجة فهو بهيج .

وأبهجني أعجبني بحسنه .

ولما وصف الأرض بالإنبات دلّ على أن قوله : "اهتزت وربت" يرجع إلى الأرض لا إلى النبات .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(167/519)

وقال أبو حيان :

﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مّنَ البعث ﴾

وقرأ الحسن ﴿ من البَعث ﴾ بفتح العين وهي لغة فيه كالحلب والطرد في الحلب والطرد ، والكوفيون إسكان العين عندهم تخفيف يقيسونه فيما وسطه حرف حلق كالنهر والنهر والشعر والشعر ، والبصريون لا يقيسونه وما ورد من ذلك هو عندهم مما جاء فيه لغتان .

والمعنى إن ارتبتم في البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم ﴿ من تراب ﴾ أي أصلكم آدم وسلط الفعل عليهم من حيث هم من ذريته ، أو باعتبار وسائط التولد لأن المني ودم الطمث يتولدان من الأغذية والأغذية حيوان ونبات ، والحيوان يعود إلى النبات ، والنبات من الأرض والماء والنطفة المني .

وقيل ﴿ نطفة ﴾ آدم قاله النقاش .

والعلقة قطعة الدم الجامدة ومعنى ﴿ وغير مخلقة ﴾ أي ليست كاملة ولا ملساء فالمضغ متفاوتة لذلك تفاوتوا طولاً وقصراً وتماماً ونقصاناً .

وقال مجاهد ﴿ غير مخلقة ﴾ هي التي تستسقط وقاله قتادة والشعبي وأبو العالية .

ولما كان الإنسان فيه أعضاء متباينة وكل واحد منها مختص بخلق حسن تضعيف الفعل لأن فيه خلقاً كثيرة .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ مخلقة ﴾ بالنصب وغير بالنصب أيضاً نصباً على الحال من النكرة المتقدمة ، وهو قليل وقاسه سيبويه .

قال الزمخشري : و ﴿ لنبين لكم ﴾ بهذا التدريج قدرتنا وإن من قدر على خلق البشر ﴾

من تراب ﴾ أولاً ﴿ ثم من نطفة ﴾ ثانياً ولا تناسب بين التراب والماء ، وقدر على أن يجعل النطفة ﴿ علقة ﴾ وبينهما تباين ظاهر ثم يجعل العلقة ﴿ مضغة ﴾ والمضغة عظاماً قدر على إعادة ما أبداه ، بل هذا أدخل في القدرة وأهون في القياس وورود الفعل غير معدي إلى المبين إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنهه الفكر ولا يحيط به الوصف انتهى .

و ﴿ لنبين ﴾ متعلق بخلقناكم .

وقيل ﴿ لنبين ﴾ لكم أمر البعث .

قال ابن عطية : وهو اعتراض بين الكلامين .

وقال الكرماني : يعني رشدكم وضلالكم .

(168/519)

وقيل ﴿ لنبين لكم ﴾ أن التخليق هو اختيار من الفاعل المختار ، ولولاه ما صار بعضه غير مخلق .

وقرأ ابن أبي عبلة ليبين لكم ويقر بالياء .

وقرأ يعقوب وعاصم في رواية ﴿ ونقر ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ لنبين ﴾ .

وعن عاصم أيضاً ثم يخرجكم بنصب الجيم عطفاً على ﴿ ونقر ﴾ إذا نصب .

وعن يعقوب ﴿ ونقر ﴾ بفتح النون وضم القاف والراء من قر الماء صبه .

وقرأ أبو زيد النحوي ويقر بفتح الياء والراء وكسر القاف وفي الكلام لابن حبار ﴿ لنبين ﴾ ﴿ ونقر ﴾ ﴿ ونخرجكم ﴾ بالنصب فيهن .

المفضل وبالياء فيهما مع النصب ، أبو حاتم وبالياء والرفع عمر بن شبة انتهى .

قال الزمخشري : والقراءة بالرفع إخبار بأنه تعالى يقر في الأرحام ما يشاء أن يقره من ذلك .

﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو وقت الوضع وما لم يشأ إقراره مجته الأرحام أو أسقطته .

والقراءة بالنصب تعليل معطوف على تعليل والمعنى ﴿ خلقناكم ﴾ مدرجين هذا التدريج لغرضين أحدهما : أن نبين قدرتنا والثاني أن ﴿ نقر في الأرحام ﴾ من نقر حتى يولدوا وينشؤوا ويبلغوا حد التكليف فأكلفهم .

ويعضد هذه القراءة قوله ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ انتهى .

وقرأ يحيى بن وثاب ﴿ ما نشاء ﴾ بكسر النون والأجل المسمى مختلف فيه بحسب جنين جنين فساقط وكامل أمره خارج حياً ووحد ﴿ طفلاً ﴾ لأنه مصدر في الأصل قاله المبرد والطبري ، أو لأن الغرض الدلالة على الجنس ، أو لأن معنى يخرجكم كل واحد كقولك : الرجال يشبعهم رغيف أي يشبع كل واحد .

وقال الزمخشري : الأشد كمال القوة والعقل والتمييز ، وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل

لها واحد كالأشدة والقيود وغير ذلك وكأنها مشدة في غير شيء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع انتهى .

وتقدم الكلام في الأشد ومقداره من الزمان .

(169/519)

وإن من الناس من قال إنه جمع شدة كأنعم جمع نعمة وأما القيود : فعن أبي عمرو الشيباني إن واحدة قيد ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ وقرىء ﴿ يتوفى ﴾ بفتح الياء أي يُسْتَوْفَى أجله ، والجمهور بالضم أي بعد الأشد وقبل الهرم ، وهو ﴿ أرذل العمر ﴾ والخرف ، فيصير إلى حالة الطفولية ضعيف البنية سخيف العقل ، ولا زمان لذلك محدود بل ذلك بحسب ما يقع في الناس وقد نرى من علت سنه وقارب المائة أو بلغها في غاية جودة الذهن والإدراك مع قوة ونشاط ، ونرى من هو في سن الاكتهال وقد ضعفت بنيته أوضح تعالى أنه قادر على إنهائه إلى حالة الخرف كما أنه كان قادراً على تدريجه إلى حالة التمام ، فكذلك هو قادر على إعادة الأجساد التي درجها في هذه المناقل وإنشائها النشأة الثانية .

و ﴿ لكيلا ﴾ يتعلق بقوله ﴿ يرد ﴾ قال الكلبي ﴿ لكيلا ﴾ يعقل من بعد عقله الأول شيئاً .

وقيل ﴿ لكيلا ﴾ يستفيد علماً وينسى ما علمه .

وقال الزمخشري : أي ليصير نسَّاءً بحيث إذا كسب علماً في شيء لم ينشب أن ينساه ويزل عنه علمه حتى يسأل عنه من ساعته ، يقول لك من هذا ؟ فتقول : فلان فما يلبث لحظة إلا سألك عنه .

وروى عن أبي عمرو ونافع تسكين ميم ﴿ العمر ﴾ .

﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ هذا هو الدليل الثاني الذي تضمنته ، والدليل الأول الآية ، ولما كان الدليل الأول بعض مراتب الخلقة فيه غير مرتبين قال ﴿ إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم ﴾ فلم يحل في جميع رتبه على الرؤية ، ولما كان هذا الدليل الثاني مشاهداً للأبصار أحال ذلك على الرؤية فقال ﴿ وترى ﴾ أيها السامع أو المجادل ﴿ الأرض هامدة ﴾ ولظهوره تكرر هذا الدليل في القرآن و ﴿ الماء ﴾ ماء المطر والأنهار والعيون والسواني واهتزازها تخلخلها واضطراب بعض أجسامها لأجل خروج النبات ﴿ وربت ﴾ أي زادت وانتفخت .

(170/519)

وقرأ أبو جعفر وعبد الله بن جعفر وخالد بن إلياس وأبو عمرو في رواية وربأت بالهمز هنا وفي فصلت أي ارتفعت وأشرفت ، يقال : فلان يربأ بنفسه عن كذا : أي يرتفع بها عنه .

قال ابن عطية : ووجهها أن يكون من ربأت القوم إذا علوت شرفاً من الأرض طليعة فكان الأرض بالماء تتطاول وتعلو انتهى .

ويقال ربيء وربيئة .

وقال الشاعر :

بعثنا ربيئاً قبل ذلك مخملاً . . .

كذئب الغضا يمشي الضراء ويتقى

ذلك الذي ذكرنا من خلق بني آدم وتطورهم في تلك المراتب ، ومن إحياء الأرض حاصل بهذا وهو حقيقته تعالى فه الثابت الموجود القادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور وقد وعد بالبعث وهو قادر عليه فلا بد من كيانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 6 صـ

﴾

(171/519)

وقال أبو السعود :

﴿ يا أَيُّهَا الناس ﴾ إثرَ ما حكى أحوالَ المُجادلين بغير علمٍ وأُشير إلى ما يؤول إليه أمرُهم أقيمتْ الحجَّةُ الدَّالَّةُ على تحقُّقِ ما جادلوا فيه من البعثِ ﴿ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ البعث ﴾ من إمكانِه وكونه مقدُوراً له تعالى أو من وقوعِه . وقُرِىء من البَعَثِ بالتَّحريكِ كالجَلَبِ في الجَلْب . والتَّعبيرُ عن اعتقادِهم في حقِّه بالرَّيبِ مع التَّنكيرِ المنبىءِ عن القلَّةِ مع أنَّهم جازمون باستحالتِه وإيرادِ كلمة الشَّكِّ مع تقررِ حالِهم في ذلك وإيثارِ ما عليه النَّظمُ الكريمُ على أنْ يقالَ إنِ ارتبتُم في البعثِ فقد مرَّ تحقيقُه في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا ﴾ ﴿ فَإِنَّا خلقناكم ﴾ أي فانظُروا إلى مبدأ خلقِكم ليزولَ ريبُكم ، فإنَّا خلقناكُم أي خلقنا كلَّ فردٍ منكُم ﴿ مِّن تُرَابٍ ﴾ في ضمنِ خلقِ آدمَ منه خلقاً إجماليًّا فإن خلق كلِّ فردٍ من أفرادِ البشرِ له حظٌّ من خلقِه عليه السَّلامُ إذ لم تكن فطرتُه الشَّريفةُ مقصورةً على نفسه بل كانتْ أُنموذجاً منطوياً على فطرة سائرِ أفراد الجنسِ انطواءً إجماليًّا مستتبعاً لجريانِ آثارِها على الكلِّ فكان خَلقُه عليه السَّلامُ من التُّرابِ خلقاً للكلِّ منه كما مرَّ تحقيقُه مراراً ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي ثمَّ خلقناكُم خلقاً تفصيلياً من نُطفةٍ أي من منيَ من النَّطفِ الذي هو الصَّبُّ ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ أي قطعةٍ من الدَّمِ جامدةٍ متكوِّنةٍ من المنيِّ ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ أي قطعةٍ من اللَّحمِ متكوِّنةٍ من العَلَقةِ وهي في الأصلِ مقدارُ ما يُمضغ ﴿

مُّخَلَّقَةٍ ﴾ بالجرّ صفةُ مضغةٍ أي مستبينة الخلقِ مصوَّرةٍ ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ أي لم يستبنْ خلقُها وصورتُها بعد .

(172/519)

والمرادُ تفصيلُ حالِ المضغةِ وكونُها أَوَّلاً قطعةً لم يظهرْ فيها شيءٌ من الأعضاءِ ثمَّ ظهرتْ بعد ذلك شَيئاً فشَيئاً وكان مُقتضى التَّرتيبِ السَّابقِ المبنيِّ على التَّدرجِ من المبادىءِ البعيدةِ إلى القريبةِ أنْ يقدّمَ غيرَ المخلَّقةِ على المخلَّقةِ وإنَّما أُخّرتْ عنها لأنَّها عدمُ المَلَكةِ . هذا وقد فُسّرتَا بالمُسوَّاةِ وغيرِ المُسوَّاةِ وبالتَّامةِ والسَّاقطةِ وليس بذاكَ وفي جعلِ كلِّ واحدةٍ من هذه المراتبِ مبدأً لخلقِهم لا لخلقِ ما بعدَها من المراتبِ كما في قولِه تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً ﴾ الآيةَ ، مزيدُ دلالة على عظيمِ قُدرتِه تعالى وكسرٍ لسَورةِ استبعادِهم .

(173/519)

﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ متعلّقٌ بخلقنا وتركُ المفعولِ لتفخيمِه كمًّا وكيفاً أي خلقناكُم على هذا النَّمطِ البديعِ ليبين لكُم بذلك ما لا تحصرُه العبارةُ من الحقائقِ والدّقائقِ التي من جُملتها سرُّ البعثِ فإنَّ مَن تأمَّل فيما ذُكر من الخلقِ التدريجيّ تأمُّلاً حقيقيًّا جزمَ جزْماً ضروريًّا بأنَّ مَن قدرَ على خلقِ البشرِ أوّلاً من ترابٍ لم يشمَّ رائحةَ الحياةِ قطُّ وإنشائِه على وجهٍ مصحّحٌ لتوليدِ مثلِه مرّةً بعد أُخرى بتصريفِه في أطوارِ الخلقةِ وتحويلِه من حالٍ إلى حالٍ مع ما بينَ تلك الأطوارِ والأحوالِ من المُخالفةِ والتَّباينِ فهو قادرٌ على إعادتِه بل هو أهونُ في القياسِ نظراً إلى الفاعلِ والقابلِ . وقُرِئ ليبيّن بطريقِ الالتفاتِ وقولُه تعالى : ﴿ وَنُقِرُّ فِى الأَرحامِ مَا نَشَاءُ ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ حالِهم بعد تمامِ خلقِهم . وعدمُ نظمِ هذا وما عُطف عليه في سلكِ الخلقِ المعلَّل بالتَّبيين مع كونِهما من متمماتِه ومن مبادي التَّبيين أيضاً لما أنَّ دلالةَ الأوّلِ على كمالِ قُدرته تعالى على جميعِ المقدُورات التي من جُملتها البعثُ المبحوثُ عنه أجلى وأظهرُ أي ونحنُ نقرُّ في الأرحامِ بعد ذلك ما نشاءُ أن نقرَّه فيها .

(174/519)

﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو وقتُ الوضعِ وأدناهُ ستَّةُ أشهرٍ ، وأقصاهُ سنتانِ وقيل : أربعُ سنين وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بعضَ ما في الأرحامِ لا يشاءُ اللهُ تعالى إقرارَه فيها بعد تكاملِ خلقِه

فتسقطه . والتَّعرضُ للإزلاقِ لا يُناسبُ المقامَ لأنَّ الكلامَ فيما جرى عليه أطوارُ الخلقِ وهذا صريحٌ في أنَّ المرادَ بغيرِ المخلَّقةِ ليس من وُلدَ ناقصاً أو مَعيباً وأنَّ ما فُصِّل إلى هنا هي الأطوارُ المتواردةُ على المولودِ قبلَ الولادةِ . وقُرِىءَ يُقرُّ بالياءِ ونقُرُّ ويقُرُّ بضمِّ القافِ من قَررتَ الماءَ إذا صببتَه . ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ ﴾ أي من بطونِ أمَّهاتِكم بعد إقرارِكم فيها عند تمامِ الأجلِ المُسمَّى ﴿ طِفْلاً ﴾ أي حالَ كونِكم أطفالاً . والإفرادُ باعتبارِ كلِّ واحدٍ منهم أو بإرادةِ الجنسِ المنتظمِ للواحدِ والمتعدِّدِ . وقُرِىءَ يُخرجكم بالياءِ . وقولُه تعالى : ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ علَّةٌ لنخرجكم معطوفةٌ على علَّةٍ أُخرى له مناسبةٍ لها كأنَّه قيل : ثمَّ نُخرجكم لتكبرُوا شَيئاً فشَيئاً ثم لتبلغُوا كمالَكم في القوَّةِ والعقلِ والتَّمييزِ ، وقيل : التَّقديرُ ثم نُمهلكم لتبلغُوا الخ ، وما قيل إنَّه معطوفٌ على نبين مخلٌّ بجزالةِ النَّظمِ الكريمِ هذا وقد قُرِىءَ ما قبله من الفِعلينِ بالنَّصبِ حكايةً وغَيْبةً .

(175/519)

فهو حينئذٍ عطفٌ على نبين مثلهما والمعنى خلقناكُم على التَّدريجِ المذكورِ لغايتينِ مترتبتينِ عليه إحداهُما أنْ نبيِّن شؤونَنا والثَّانيةُ أنْ نُقرَّكم في الأرحامِ ثم نُخرجَكم صغاراً ثم لتبلغُوا أشدَّكم . وتقديمُ التَّبيينِ على ما بعدَهُ مع أنَّ حصولَه بالفعلِ بعد الكلِّ للإيذانِ بأنَّه غايةُ

الغاياتِ ومقصودٌ بالذَّاتِ . وإعادةُ اللامِ هاهنا مع تجريدِ الأَوَّلينِ عنها للإشعارِ بأصالتِه في الغرضيَّةِ بالنَّسبةِ إليهما إذْ عليه يدورُ التَّكليفُ المُؤدّي إلى السَّعادةِ والشَّقاوةِ . وإيثارُ البلوغِ مُسنداً إلى المخاطبينَ على التَّبليغِ مُسنداً إليه تعالى كالأفعالِ السَّابقةِ لأنَّه المناسبُ لبيانِ حالِ اتِّصافِهم بالكمالِ واستقلالِهم بمبدئيةِ الآثارِ والأفعالِ . والأشُدُّ من ألفاظِ الجموعِ التي لم يُستعملْ لها واحدٌ كالأُسُدةِ والقَتُودِ وكأنَّها حين كانتْ شدَّةً في غيرِ شيءٍ بُنيتْ على لفظِ الجمعِ . ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى ﴾ أي بعد بلوغِ الأشُدِّ أو قبلَه . وقُرِىءَ يَتوفَّى مبنيًّا للفاعلِ أي يتوفَّاه اللهُ تعالى ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر ﴾ وهو الهَرَمُ والخَرَفُ . وقُرِىءَ بسكونِ الميمِ . وإيرادُ الردِّ والتَّوفِّي على صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ للجَرْيِ على سَنَنِ الكبرياءِ لتعينِ الفاعلِ ﴿ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ ﴾ أي علمٍ كثيرٍ ﴿ شَيْئاً ﴾ أي شيئاً من الأشياءِ أو شيئاً من العلمِ مبالغةً في انتقاصِ علمِه ويُنكرَ ما عرفَهُ ويعجزُ عمَّا قدرَ عليه . وفيهِ من التَّنبيهِ على صحَّةِ البعثِ ما لا يخفَى .

(176/519)

﴿ وَتَرَى الأرض هَامِدَةً ﴾ حجَّةٌ أُخرى على صحَّةِ البعثِ ، والخطابُ لكلِّ أحدٍ ممَّن يتأتَّى منه الرُّؤيةُ . وصيغةُ المضارعِ للدِّلالةِ على التَّجددِ والاستمرارِ وهي بصريةٌ .

وهامدةً حالٌ من الأرضِ ، أي ميّتةً يابسةً ، من همدتِ النّارُ إذا صارتْ رَمَاداً ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء ﴾ أي المطرَ ﴿ اهتزت ﴾ تحرّكتْ بالنّباتِ ﴿ وَرَبَتْ ﴾ انتفختْ وازدادتْ ، وقُرِىء ربأتْ أي ارتفعتْ ﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلّ زَوْجٍ ﴾ أي صنفٍ ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسنٍ رائقٍ يسرُّ ناظرَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(177/519)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مّنَ البعث ﴾ الخ

إقامة للحجة التي تلقم المجادلين في البعث حجراً إثر الإشارة إلى ما يؤل إليه أمرهم ، واستظهر أن المراد بالناس هنا الكفرة المجادلون المنكرون للبعث ، والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب أي الشك مع أنهم جازمون بعدم إمكانه إما للإيذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم وإن كانوا في غاية ما يكون من المكابرة والعناد هو الارتياب في شأنه ، وأما الجزم بعدم الإمكان فخارج من دائرة الاحتمال كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأن حقه أن يكون ضعيفاً مشكوك الوقوع ، وإما للتنبيه على أن جرمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإمكان ونهاية قوتها .

وإنما لم يقل وإن ارتبتم في البعث للمبالغة في تنزيه أمره عن شائبة وقوع الريب والإشعار بأن ذلك إن وقع فمن جهتهم لا من جهته ، واعتبار استقرارهم فيه وإحاطته بهم لا ينافي اعتبار ضعفه وقلته لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به لا قوته وكثرته ، ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة للريب ، واستظهر أن المراد في ريب من إمكان البعث لأنه الذي يقتضيه ما بعد ، وجوز أن يكون المراد من وقوع البعث ، واعترض بأن الدليل المشار إليه فيما بعد إنما يدل على الإمكان مع ما يلزم من التكرار مع قوله تعالى الآتي : ﴿ إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِى القبور ﴾ [الحج : 7] وفيه تأمل فتأمل ، وقرأ الحسن ﴿ مّنَ البعث ﴾ بفتح العين وهي لغة فيه كالجلب والطرد في الجلب والطرد عند البصريين ، وعند الكوفيين إسكان العين تخفيف وهو قياسي في كل ما وسطه حرف حلق كالنهر والنهر والشعر والشعر .

(178/519)

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا خلقناكم مّن تُرَابٍ ﴾ دليل جواب الشرط أو هو الجواب بتأويل أي وإن كنتم في ريب من البعث فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم فإنا خلقناكم الخ ، وقيل : التقدير فأخبركم وأعلمكم أنا خلقناكم الخ وليس بذاك ، وخلقهم من تراب في ضمن خلق آدم عليه السلام منه أو بخلق الأغذية التي يتكون منها المني منه وهي وإن تكونت من سائر

العناصر معه إلا أنه أعظم الأجزاء على ما قيل فلذلك خصه بالذكر من بينها ، واختير الأول وجعل المعنى خلقناكم خلقاً إجمالياً من تراب ﴿ ثُمَّ ﴾ خلقناكم خلقاً تفصيلياً ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي منى من النطف بمعنى التقاطر ، وقال الراغب : النطفة الماء الصافي ويعبر بها عن ماء الرجل ، قيل والتخصيص على هذا مع أن الخلق من ماءين لأن معظم أجزاء الإنسان مخلوق من ماء الرجل ، والحق أن النطفة كما يعبر بها عن منى الرجل يعبر بها عن المنى مطلقاً وكلام الراغب ليس نصاً في نفي ذلك ، والظاهر أن المراد النطفة التي يخلق منها كل واحد بلا واسطة ، وقيل : المراد نطفة آدم عليه السلام وحكى ذلك عن النقاش وهو من البعد في غايته .

﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ أي قطعة من الدم جامدة متكونة من المنى ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ أي قطعة من اللحم متكونة من العلقة وأصلها قطعة لحم بقدر ما يمضغ ﴿ مُّخَلَّقَةٍ ﴾ بالجر صفة ﴿ مُضْغَةً ﴾ وكذا قوله تعالى : ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ .

(179/519)

وقرأ ابن أبي عبلة بالنصب فيهما على الحال من النكرة المتقدمة وهو قليل وقاسه سيبويه ، والمشهور المتبادر أن المخلقة المستبينة الخلق أي مضغة مستبينة الخلق مصورة ومضغة لم

يستبن خلقها وصورتها بعد ، والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولاً قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً وكان مقتضى الترتيب المبني على التدرج من المبادىء البعيدة إلى القريبة أن يقدم غير المخلقة وإنما أخرت لكونها عدم ملكة ، وصيغة التفعيل لكثرة الأعضاء المختص كل منها بخلق وصورة ، وقيل : المخلقة المسواة الملساء من النقصان والعيب يقال خلق السواك والعود سواه وملسه وصخرة خلقاء أي ملساء وجبل أخلق أي أملس ؛ فالمعنى من نطفة مسواة لا نقص فيها ولا عيب في ابتداء خلقها ونطفة غير مسواة فيها عيب فالنطف التي يخلق منها الإنسان متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم ، وعن مجاهد .

وقتادة .

والشعبي .

وأبي العالية .

وعكرمة أن المخلقة التي تم لها مدة الحمل وتوارد عليها خلق بعد خلق وغير المخلقة التي لم يتم لها ذلك وسقطت ، واستدل له بما أخرجه الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك الأرحام بكفه فقال : يا رب مخلقة أم غير مخلقة ؟ فإن قيل : غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفها الرحم دماً وإن قيل : مخلقة قال : يا رب ذكر أم أنثى شقي أم سعيد ما الأجل وما الأثر وما الرزق وبأي أرض تموت ؟ الخبر وهو في حكم المرفوع ، والمراد أنهم خلقوا من جنس هذه النطفة الموصوفة بالتامة والساقطة لا أنهم خلقوا من نطفة تامة ومن نطفة ساقطة إذ لا يتصور الخلق من النطفة الساقطة وهو ظاهر ، وكان التعرض على هذا لوصفها بما ذكر لتعظيم شأن القدرة وفي جعل كل واحدة من هذه المراتب مبدأ لخلقهم لا لخلق ما بعدها من المراتب كما في قوله تعالى ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ﴾ [المؤمنون : 14] الآية مزيد دلالة على عظم قدرته تعالى : ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ متعلق بخلقنا ، وترك المفعول لتفخيمه كماً وكيفاً أي خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم ما لا يحصره العبارة من الحقائق والدقائق التي من جملتها أمر البعث فإن من تأمل فيما ذكر من الخلق التدريجي جزم بأن من قدر على خلق البشر أولاً من تراب لم يذق ماء الحياة قط وإنشائه على وجه مصحح لتوليد مثله مرة بعد أخرى بتصريفه في أطوار الخلقة وتحويله من حال إلى حال مع ما بين تلك الأطوار والأحوال من المخالفة والتباين فهو قادر على إعادته بل هي أهون في القياس ، وقدر بعضهم المفعول خاصاً أي لنبين لكم أمر البعث وليس بذاك .

وأبعد جداً من زعم أن المعنى لنبين لكم أن التخليق اختيار من الفاعل المختار ولولا ذلك ما صار بعض أفراد المضغة غير مخلق ، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ لِيُبَيِّنَ ﴾ بالياء على طريق الالتفات وكذا قرأ قوله تعالى :

(181/519)

﴿ وَنُقِرُّ فِى الارحام مَا نَشَاء ﴾ وقرأ الجمهور بالنون ، والجملة استئناف مسوق لبيان حالهم بعد تمام خلقهم وتوارد الأطوار عليهم أي ونقر في الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقره فيها ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو وقت الوضع وأدناه ستة أشهر وأقصاه عندنا سنتان وعند الشافعي عليه الرحمة أربع سنين ، وعن يعقوب أنه قرأ ﴿ وَنُقِرُّ ﴾ بفتح النون وضم القاف من قررت الماء إذا صببته ، وقرأ يحيى بن وثاب ما نشاء بكسر النون .

﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ ﴾ أي من الأرحام بعد إقراركم فيها عند تمام الأجل المسمى ﴿ طِفْلاً ﴾ حال من ضمير المخاطبين ، والإفراد إما باعتبار كل واحد منهم أو بإرادة الجنس الصادق على الكثير أو لأنه مصدر فيستوي فيه الواحد وغيره كما قال المبرد أو لأن المراد طفلاً طفلاً فاختصر كما نقله الجلال السيوطي في الأشباه النحوية .

وقرأ عمر بن ﴿ شبة ﴾ يخرجكم بالياء ﴿ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ أي كمالكم في

القوة والعقل والتمييز ، وفي "القاموس" حتى يبلغ أشده ويضم أوله أي قوته وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين واحد جاء على بناء الجمع كأنك ولا نظير لهما أو جمع لا واحد له من لفظه أو واحده شدة بالكسر مع أن فعلة لا تجمع على أفعل أي قياساً فلا يرد نعمة وأنعم أو شد ككلب وأكلب أو شد كذئب وأذؤب وما هما بمسموعين بل قياس و ﴿ لِتَبْلُغُواْ ﴾ ، قال العلامة : أبو السعود : علة لنخرجكم معطوف على علة أخرى مناسبة لها كأنه قيل ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا الخ ، وقيل علة لمحذوف والتقدير ثم نمهلكم لتبلغوا الخ .

وجوز العلامة الطيبي أن يكون التقدير ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ كان ذلك الإقرار والإخراج ؛ وقيل إنه عطف على نبين ، وتعقبه العلامة بأنه مخل بجزالة النظم الكريم وجعله كغيره عطفاً عليه على قراءة ﴿ نُقِرَ ﴾ .

ونخرج بالنصب وهي قراءة المفضل .

(182/519)

وأبي حاتم إلا أن الأول قرأ بالنون والثاني قرأ بالياء ، وكذا جعل الفعلين عطفاً عليه وقال : المعنى خلقناكم على التدريج المذكور لأمرين ، أحدهما : أن نبين شؤوننا ، والثاني : أن

نقركم في الأرحام ثم نخرجكم صغاراً ثم لتبلغوا أشدكم ، وتقديم التبيين على ما بعده مع أن حصوله بالفعل بعد الكل للإيذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات ، وإعادة اللام في ﴿ لِتَبْلُغُواْ ﴾ مع تجريد نقر ﴿ وَنُخْرِجُ ﴾ عنها للإشعار بأصالة البلوغ بالنسبة إلى الإقرار والإخراج إذ عليه يدور التكليف المؤدي إلى السعادة والشقاوة ، وإيثار البلوغ مسنداً إلى المخاطبين على التبليغ مسنداً إليه تعالى كالأفعال السابقة لأنه المناسب لبيان حال اتصافهم بالكمال واستقلالهم بمبدئية الآثار والأفعال اه .

وما ذكره من عطف ﴿ نُقِرَ ﴾ ونخرج .

بالنصب على ﴿ نُبَيِّنُ ﴾ لم يرتضه الشيخ ابن الحاجب ، قال في "شرح المفصل" : أنه مما يتعذر فيه النصب إذ لو نصب عطفاً على ﴿ نُبَيِّنُ ﴾ ضعف المعنى إذ اللام في لنبين للتعليل لما تقدم والمقدم سبب للتبيين فلو عطف ﴿ وَنُقِرُّ ﴾ عليه لكان داخلاً في مسببية ﴿ إِنَّا خلقناكم ﴾ الخ وخلقهم من تراب ثم ما تلاه لا يصلح سبباً للإقرار في الأرحام ، وقال الزجاج : لا يجوز في ﴿ وَنُقِرُّ ﴾ إلا الرفع ولا يجوز أن يكون معناه فعلنا ذلك لنقر في الأرحام لأن الله تعالى لم يخلق الأنام ليقرهم في الأرحام وإنما خلقهم ليدلهم على رشدهم ولاصحهم وهو قول بعدم جواز عطفه على نبين .

(183/519)

وأجيب بأن الغرض في الحقيقة هو بلوغ الأشد والصلوح للتكليف لكن لما كان الإقرار وما تلاه من مقدماته صح إدخاله في التعليل ، وما ذكره من أن العطف على نبين على قراءة الرفع مخل بجزالة النظم الكريم فالظاهر أنه تعريض بالزمخشري حيث جعل العطف على ذلك ، وقال فإن قلت : كيف يصح عطف ﴿ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ على ﴿ لِّنُبَيِّنَ ﴾ ولا طباق قلت : الطباق حاصل لأن قوله تعالى : ﴿ وَنُقِرُّ ﴾ قرين للتعليل ومقارنته له والتباسه به ينزلانه منزلة نفسه فهو راجع من هذه الجهة إلى متانة القراءة بالنصب اه .

وفيه ما يومىء إلى أن قراءة النصب أوضح كما أنها أمتن ، ولم يرتض ذلك المحققون ففي "الكشف" أن القراءة بالرفع هي المشهورة الثابتة في السبع وهي الأولى وقد أصيب بتركيبها هكذا شاكلة الرمي حتى لم يجعل الإقرار في الأرحام علة بل جعل الغرض منه بلوغ الأشد وهو حال الاستكمال علماً وعملاً وحيث لم يعطف على ﴿ لِّنُبَيِّنَ ﴾ إلا بعد أن قدم عليه ﴿ وَنُقِرُّ ﴾ ثم نخرج مجعولاً ﴿ نُقِرَ ﴾ عطفاً على ﴿ إِنَّا خلقناكم ﴾ والعدول إلى المضارع لتصوير الحال والدلالة على زيادة الاختصاص فالطباق حاصل لفظاً ومعنى مع أن في الفصل بين العلتين من النكتة ما لا يخفى على ذي لب حسن موقعها بعد التأمل ، وكذلك في الإتيان بثم في قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ ﴾ دلالة على أنه الغرض الأصيل الذي خلق الإنسان له

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] ولما كانت الأوائل في الدلالة على البعث أظهر قدم قوله تعالى : ﴿ لِّنُبَيِّنَ ﴾ على الإقرار والإخراج اه .

(184/519)

ويعلم منه ما في قول العلامة : إن عطف ﴿ لِتَبْلُغُواْ ﴾ الخ على ﴿ لِّنُبَيِّنَ ﴾ مخل بجزالة النظم الكريم وأنه لا يتعين الاستئناف في ﴿ وَنُقِرُّ ﴾ وفيه أيضاً أن قوله تعالى : ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى ﴾ الخ استئناف لبيان أقسام الإخراج من الرحم كما استوفى أقسام الأول وفيه تبيين تفصيل حال بلوغ الأشد وأنها الحقيق بأن تكون مقصودة من الإنشاء لكن منهم من لا يصل إليها فيحتضر ومنهم من يجاوزها فيحتقر أي منكم من يموت قبل بلوغ الأشد ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر ﴾ أي أرداه وأدناه ، والمراد يرد إلى مثل زمن الطفولية ﴿ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ ﴾ أي علم كثير ﴿ شَيْئاً ﴾ أي شيئاً من الأشياء أو شيئاً من العلم ، واللام متعلقة بيرد وهي لام العاقبة والمراد المبالغة في انتقاص علمه وانتكاس حاله وليس لزمان ذلك الرد حد محدود بل هو مختلف باختلاف الأمزجة على ما في "البحر" وإيراد الرد والتوفي على صيغة المبني للمفعول للجري على سنن الكبرياء لتعين الفاعل كما في

إرشاد العقل السليم ، وفي "شرح الكشاف" للطيبي بعد تجويز أن يكون ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ ﴾ بتقدير ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ ﴾ كان ذلك الإقرار والإخراج أن فائدة ذلك الإيذان بأن بلوغ الأشد أفضل الأحوال والإخراج أبدعها والرد إلى أرذل العمر أسوؤها وتغيير العبارة لذلك ومن ثم نسب الإخراج إلى ذاته تعالى المقدسة وحذف المعلل في الثاني ولم ينسب الثالث إلى فاعله وسلب فيه ما أثبت للإنسان في تلك الحالة من اتصافه بالعلم والقدرة المومىء إليه بالأشد كأنه قيل ثم يخرجكم من تلك الأطوار الخسيسة طفلاً إنشاء غريباً كما قال سبحانه : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] ثم لتبلغوا أشدكم دبر ذلك التدبير العجيب لأنه أوان رسوخ العلم والمعرفة والتمكن من العمل المقصودين من الإنشاء ثم يميتكم أو يردكم إلى أرذل العمر الذي يسلب فيه العلم والقدرة على

(185/519)

العمل اه .

ويفهم منه جواز أن يكون المراد ومنكم من يتوفى بعد بلوغ الأشد ، ومن الناس من جوز أن يكون المراد ومنكم من يتوفى عند البلوغ ، وقيل : إن ذلك بجعل الجملة حالية ومن صيغة المضارع وهو كما ترى .

وقرىء ﴿ يَتَوَفَّى ﴾ على صيغة المعلوم وفاعله ضمير الله تعالى أي من يتوفاه الله تعالى ، وجوز أن يكون ضمير من أي ﴿ مِنْ ﴾ يستوفي مدة عمره ، وروي عن أبي عمرو . ونافع تسكين ميم العمر .

هذا ثم لا يخفى ما في اختلاف أحوال الإنسان بعد الإخراج من الرحم من التنبيه على صحة البعث كما في اختلافها قبل فتأمل جميع ما ذكر ولله تعالى در التنزيل ما أكثر احتمالاته ﴿ وَتَرَى الأرض هَامِدَةً ﴾ حجة أخرى على صحة البعث معطوفة على ﴿ إِنَّا خلقناكم ﴾ وهي حجة آفاقية وما تقدم حجة أنفسية والخطاب لكل أحد من تتأتى منه الرؤية ، وقيل : للمجادل ، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وهي بصرية لا علمية كما قيل ، و ﴿ هَامِدَةً ﴾ حال من ﴿ الأرض ﴾ أي ميتة يابسة يقال همدت الأرض إذا يبست ودرست وهمد الثوب إذا بلى ؛ وقال الأعشى

: قالت قتيلة ما لجسمك شاحبا . . .

وأرى ثيابك باليات همدا

وأصله من همدت النار إذا صارت رماداً ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء ﴾ أي ماء المطر ، وقيل : ما يعمه وماء العيون والأنهار وظاهر الإنزال يقتضي الأول ﴿ اهتزت ﴾ تحرك نباتها فالإسناد مجازي أو تخلخلت وانفصل بعض أجزائها عن بعض لأجل خروج النبات وحمل الاهتزاز على الحركة في الكيف بعيد ﴿ وَرَبَتْ ﴾ ازدادت وانتفخت لما يتداخلها

من الماء والنبات .

وقرأ أبو جعفر .

وعبد الله بن جعفر .

وخالد بن الياس .

(186/519)

وأبو عمرو في رواية ﴿ وربأت ﴾ بالهمز أي ارتفعت يقال فلأن يربأ بنفسه عن كذا أي يرتفع بها عنه ، وقال ابن عطية : هو من ربأت القوم إذا علوت شرفاً من الأرض طليعة عليهم فكأن الأرض بالماء تتطاول وتعلو ﴿ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي صنف ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسن سار للناظر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(187/519)

وقال القاسمى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ ﴾

أي : من إمكانه وكونه مقدوراً له تعالى . أو من وقوعه : ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أي : خلقنا أول آبائكم ، أو أول موادّكم ، وهو المنيّ , من تراب . إذ خلق من أغذية متولدة منه . وغاية أمر البعث أنه خلق من التراب : ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أي : تولدت من الأغذية الترابية : ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ أي : قطعة من الدم جامدة : ﴿ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ﴾ أي : قطعة من اللحم بقدر ما يمضغ : ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ أي مصورة وغير مصورة والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولاً قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء . ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً : ﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ أي : بهذا التدريج ، قدرتنا وحكمتنا ، وأن ما قَبِلَ التغير والفساد والتكوّن مرة ، قَبِلَهَا أخرى . وأن من قدر على تغييره وتصويره أولاً ، قدر على ذلك ثانياً ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وهو وقت الوضع .

(188/519)

قال أبو السعود : استئناف مسوق لبيان حالهم ، بعد تمام خلقهم . وعدم نظم هذا وما عطف عليه في سلك الخلق المعلل بالتبيين ، مع كونهما من متمماته ، ومن مبادئ التبيين أيضاً . لما أن دلالة الأول على كمال قدرته تعالى على جميع المقدورات ، التي من جملتها البعث المبحوث عنه ، أجلى وأظهر . أي : ونحن نقر في الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقره

فيها إلى أجل مسمى .

﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ أي : كمال قوتكم وعقلكم . قال أبو السعود علة لـ : ﴿ نُخْرِجُكُمْ ﴾ معطوفة على علة أخرى مناصبة لها . كأنه قيل : ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً . ثم لتبلغوا كمالكم في القوة والتمييز : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ﴾ أي : بعد بلوغ الأشد أو قبله : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ وهو الهرم والخرف . والأرذل الأردأ : ﴿ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ أي : من بعد علم كثير ، شيئاً من الأشياء ، أو شيئاً من العلم ، مبالغة في انتقاص علمه وانتكاس حاله واللام لام العاقبة .

قال البيضاويّ : والآية – يعني : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ ﴾ الخ – استدلال ثان على إمكان البعث ، بما يعتري الإنسان في أسنانه من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة . فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره .

ثم أشار تعالى إلى حجة أخرى على صحة البعث ، بقوله : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ أي : ميتة يابسة : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ ﴾ أي : المطر : ﴿ اهْتَزَّتْ ﴾ أي : تحركت بالنبات : ﴿ وَرَبَتْ ﴾ أي : انتفخت وعلت ، لما يتداخلها من الماء ويعلو من نباتها : ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي : صنف : ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أي : حسن رائق يسر ناظره وهذه الحجة الثالثة ، لظهورها وكونها مشاهدة معاينة ، يكررها الله تعالى في كتابه الكريم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 246 . 247 ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ » .

أكثر ما يكون الجدل فى قضية الإيمان يدور حول « البعث » حتى إن كثيرا من الذين يعترفون بوجود الإله الخالق ، الذي بيده ملكوت السموات والأرض ، يكذبون ، أو يشكّون فى إمكان البعث ووقوعه . وهذا ناشىء عن فساد فى العقيدة ، وعن قصور فى إدراك بعض ما للّه سبحانه وتعالى من كمال مطلق ، فى ذاته وصفاته . . وأن قدرته سبحانه مطلقة من كل حد وقيد . .

وإذا كان للشك فى البعث ما يبرره عند الذين ينكرون اللّه ، ولا يؤمنون بوجوده ، فإنه ليس له وجه يقبل عليه من الذين يقولون إنهم يؤمنون بإله واحد ! ! وهذا شان اليهود ، فإنهم مع إيمانهم باللّه ، فإن تصورهم المريض لجلال الألوهية وعظمتها ، جعلهم ينظرون إلى اللّه ، وكأنه كائن مادىّ محدود ، لا يقدر على إعادة الأجسام بعد البلى والدثور . . ثم كان حبهم للحياة ، وتعلقهم بها مباعدا بينهم وبين ذكر الموت ، وتصوره ، وتصوّر ما بعده . .

فإنّ ذكر البعث لا يجىء إلا بعد الإيمان بالموت كحقيقة واقعة ، ثم استحضاره والإعداد له

ولما بعده . .

فهم كما وصفهم اللّه سبحانه وتعالى فى قوله : « وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ » (96 : البقرة) . .

فهم ومشركو العرب على سواء ، فى تصورهم للبعث ، فقد كان مشركو الجاهلية يؤمنون باللّه ، ولكنه إيمان باهت مختلط بكثير من الضلالات ، الأمر الذي جعلهم ينكرون البعث ويقولون : « ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ » (24 : الجاثية) .

وهذه الآية الكريمة تشرح قضية البعث ، وتعرضها هذا العرض المحسوس الواضح ، الذي تكاد تمسك به اليد ، ومن هنا كان العرض عاما ، يدعى إليه الناس جميعا ، مؤمنهم وكافرهم ، عالمهم وجاهلهم :

(190/519)

- « يا أَيُّهَا النَّاسُ » . . اسمعوا هذا النداء ، واشهدوا هذا العرض . . ثم احكموا بما ترون . .

- « إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ » . . فانظروا أولا فى هذه الصورة ، وتابعوا سيرها ، خطوة خطوة ، لتروا كيف بدأت ، وكيف انتهت ، ثم كيف كان البدء . . وكيف كانت

النهاية :

ـ « فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ » . . هكذا . .

ـ « مِنْ تُرابٍ . . » حيث كنتم بعض هذا التراب الذي ترون . لا وجود لكم ولا أثر يدلّ عليكم . .

« ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ . . » أي ومن هذا التراب نبتت شجرة إنسانية ، هى الإنسان الأول . . ثم كان تناسلكم وتوالدكم ، كما تتوالد ، وتتناسل الكائنات الحية . . حيث يبدأ التناسل والتوالد بالنطفة ، وهى ماء التناسل فى الكائن الحىّ . .

« ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ » . . وهى صورة أولى من صور النطفة ، حيث تنعقد النطفة .

« ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ » هى صورة أولى من صور العلقة ، حيث تتحول إلى قطعة من اللّحم ، أشبه بلقمة مضغت حتى أصبحت أشبه بقطعة من العجين . . وهذه المضغة قد تكون مهيأة لاستقبال الحياة ، فتعلق بالرحم ، وتستقر فيه ، حتى تستوفى مراحل نموّها ، وتصبح جنينا ، ثم وليدا يخرج إلى الحياة ، وقد تكون غير مهيأة للحياة ، فيلفظها الرحم . .

ـ « لِنُبَيِّنَ لَكُمْ . . » أي هذه المراحل التي تحول بها التراب ، إلى مادة تأكلونها ، ثم تخلّق من هذا المادّة « النطفة » التي هى بذرة الحياة ، ثم تحولت النطفة إلى علقة ، والعلقة إلى مضغة . . وهذه المضغة تقف على عتبة الحياة ، وتطرق بابها . . فإما أن يؤذن لها بالدخول ،

فتأخذ طريقها حتى تخرج من الباب الآخر كائنا حيّا ، وإما أن تردّ ، وتعود إلى عالم التراب ، الذي جاءت منه . هذه المراحل الأولى هى إعداد للحياة ، وتمهيد للأرض التي تنبت فيها . .

تماما كالبذرة من الحبّ ، تمهدّ لها الأرض ، ثم تودع فى التراب ، ثم يساق إليها الماء . .

(191/519)

وإلى هنا تكون كل وسائل الإنبات مستكملة مستوفاة فى ظاهر الأمر . .

وهذا هو المطلوب من الإنسان أن يعمله ، وأن يستكمل أسبابه حتى يجىء المسبّب . . !

ولكن بين الأسباب والمسبب ، نظر لناظر ، وعبرة لمعتبر !

فإذا كان الإنسان يملك أن يهيئ الأرض ، ويبذر البذر ، ويسوق إليه الماء . . فهل له يد يمكن أن يمدّها إلى تلك الأسباب المهيأة ، والتي هى كلها أدوات لم يكن من صنعه شىء منها ، بل كل سبب منها مسبب عن أسباب . .

وكل سبب من هذه الأسباب ، مسبب عن أسباب أخرى . . وهكذا . نقول :

هل له يد يمكن أن يمدّها إلى تلك الأسباب ، فيخرج منها النبات الذي بذر بذرته ، وانتظر ثمرته ؟

وإذا كان الإنسان يملك أن يجد فى كيانه النطفة ، ثم يهيئ المكان الذي يقذفها فيه ، ثم يقذف بالنطفة فى هذا المكان المهيأ لها . فهل له مجال هنا فى أن يزحزح تلك النطفة التي نزلت بمكانها المهيأ لها ، ثم جهدت جهدها ، فكانت علقة ، ثم كانت العلقة مضغة . نقول : هل له مجال هنا فى أن يزحزح تلك النطفة . وقد أصبحت مضغة . إلى أبعد من هذا ، وأن ينفخ فيها نفخة الحياة ، وأن يمسك بها فى الرّحم ؟

جواب واحد ، ينطق به الحال ، ويشهد له الواقع ، وهو : « لا » ! إنه لا حول للإنسان ولا طول له ، فى هذا الأمر أو ذاك ، وإنه ليس إلا العجز ، والتسليم ، ليد قادرة ، خالقة ، مبدعة . . لا حدود لقدرتها ، ولا نهاية لإبداعها .

واستمع إلى قوله تعالى :

« أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ ؟ » (58 . 59 : الواقعة) .

هذا ، عن النطفة ، وعن آيات القدرة القادرة ، وآثارها فيها . .

« أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » (63 . 67 : الواقعة) . .

وهذا عن النبات ، وعن قدرة القادر ، وصنعة الصّانع ، فى أمر هو أقرب إلى الإنسان .

وأيسر - فيما يبدو له - من عملية الخلق المعقدة ، فى عالم الحيوان . .

فهل له فى هذا أو ذاك يدان ؟

وإلى هنا ونحن ما زلنا بعد على شاطىء الحياة ، بعيدا عن أعماقها وأغوارها . !

فإذا غرق الإنسان وهو ما زال على اليبس ، فكيف به إذا خاض الماء ، أو غاص فى أعماقه ؟

إنه لأسلم للإنسان إذن أن يقف حيث هو ، وأن يظلّ على الشاطئ ، يشهد ببصره ، أو ببصيرته ما يرى من آيات اللّه ، وآثار قدرته ورحمته فى تلك « المضغة » ! .

وأية مضغة ؟ إنها المضغة ، المخلّقة ، التي نفخ فيها الخالق النفخة الأولى للحياة . .

أمّا المضغة غير المخلقة ، فقد وقفت عند الشاطئ . . ترابا مع هذا التراب .

فلنبدأ إذن فى متابعة هذه النطفة « المخلقة » ، ولنرصد مسيرتها . .

مرحلة مرحلة . .

« وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ » . .

فها هى ذى النطفة الآن فى سفينة الحياة . . وها هى ذى السفينة تتحرك رويدا على صدر هذا المحيط العظيم . .

« ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » . .

وها هى ذى السّفينة تضرب فى ثبج المحيط ، وتختفى رويدا رويدا عن الأنظار . . ثم ها هى ذى تعود بحملها ، وقد ثقلت ، وكادت تتقطع أنفاسها ، وتسقط فى اليمّ بما حملت !

ولكن يد القدرة القادرة تمسك بها ، حتى تبلغ الشاطئ ، وتلقى بما حملت ! وما هذا الحمل الذي ألقت به على شاطىء الحياة ؟ ومن أين جاءت به ؟

إنه تلك النطفة ، أو المضغة التي أقلعت بها من الشاطئ . . ثم دارت بها تلك الدورة الطويلة ، فتخلّق من هذه المضغة هذا « الطفل » الذي هو صورة كاملة مصغرة من هذا الإنسان الذي دفع به إلى السفينة نطفة ، ثم ها هو ذا يستقبله إنسانا ! وما أبعد ما بين النطفة والإنسان ، فيما ترى العين ، ويشهد العقل . . وما أقرب ما بين النطفة والإنسان فى يد الخالق ، المبدع ، المصوّر ! .

ثم ما هذا الطفل ، أو ذلك الإنسان المصغر ؟

(193/519)

إنه كائن لا يملك من أمره شيئا . .

ولكن مهلا ، فإن يد القدرة ممسكة بيده . . فانظر كيف تجعل من هذا الطفل رجلا ، كما

جعلت من النطفة طفلا ! « ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ » .

فها هو ذا الطفل فى يد القدرة القادرة ، تمدّه بأسباب النّماء والقوة ، يوما بعد يوم وحالا بعد حال . . وإذا هذه الكومة من اللحم المتحركة فى كيانها المحدود ، تحبو ، ثم تقفز كما تقفز الضفدع ، ثم تمشى على أربع كما تمشى الدواب ، ثم تقوم منتصبة القامة ، تمشى على رجلين . . ثم . . وثم ، وثم . . حتى يبلغ أشده ويصير رجلا . .

وهذا هو الإنسان فى أتمّ صورة وأكملها . . لقد كمل جسمه ، وعقله . .

وبلغ أشدّه .

واللام فى قوله تعالى : « لِتَبْلُغُوا » هى لام العاقبة والغاية . . أي غاية النضج الإنسانى . .

وهنا تبدأ لهذا الكائن مسيرة أخرى . .

« وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً » .

وإذ يبلغ الإنسان - مرحلة الشيخوخة - من العمر ، يقف وقفة على عتبة الموت ، أشبه بتلك الوقفة ، التي وقفتها المضغة ، على باب الحياة ! فكما كانت المضغة هناك مخلّقة أو غير مخلّقة ، يكون « الشيخ » هنا مخلّقا من حصاد الموت ، أو غير مخلّف . .

وهذا يعنى . .

أولا : أن حدود الحياة الإنسانية ، تنتهى غالبا عند مرحلة الشيخوخة . .

حيث يستوفى الإنسان غايته ، ويعطى الحياة كلّ ما عنده ، ويأخذ منها كلّ ما هو قادر

على أخذه منها .

وثانيا : أن هذا لا يمنع من أن يسقط على هذا الطريق كثير من الناس ، قبل أن يبلغوا هذه المرحلة . . من أجنّة ، وأطفال ، وصبيان ، وغلمان ، وشباب . . تماما كما تتساقط بعض ثمار الفاكهة ، زهرا ، أو حصرما ، أو رطبا .

(194/519)

كما لا يمنع أيضا من أن يجاوز الإنسان مرحلة الشيخوخة ، فيكون من مخلفات الحياة . . تماما كمخلفات الثمر ، الذي يجفّ ، وهو لا يزال ممسكا بغصن الشجرة . .

وثالثا : إمساك الحياة ببعض « الشيوخ » حتى يبلغوا أرذل العمر ، هو وجه مقابل لحياة الطفولة فى الإنسان . . حيث ينحدر الإنسان شيئا فشيئا ، ويتدلّى قليلا قليلا حتى يقع على الأرض ، فيصبح كومة من اللحم ، يضرب برأسه على الأرض لتفتح له رحمها ، وتهيئ له مكانا فيه . . تماما كالجنين ، حين تفتّح له رحم أمه . . فخرج منه . .

إنها دورة فى نصف دائرة . . أشبه بالشمس فى شروقها وغروبها . .

ثم لا بد أن تتم هذه الدورة لتكون دائرة كاملة ، فهذا هو نظام الكون فى أفلاكه جميعا ، إنها تدور فى دائرة كاملة . . والإنسان ما هو إلا كون من هذه الأكوان . . يشرق ، ثمّ يغرب ،

وبذلك يتم نصف دورته . . أما النصف الآخر فيقطعه وراء هذا العالم - عالم الظاهر - ثم يعود ليطلع من جديد فى عالم الظهور ! .

وفى التعبير القرآنى عن امتداد العمر إلى ما بعد الشيخوخة بقوله تعالى :

« أَرْذَلِ الْعُمُرِ » إشارة إلى أن هذه النهاية التي ينتهى إليها الإنسان فى مسيرة حياته ، هى أرذل مرحلة ، وأخسّها ، وأسوؤها فى حياته . . إذ بها يتحول الإنسان إلى كائن هو مسخ لهذا الإنسان . . حيث تأخذ منه الحياة كل يوم شيئًا ، وتستردّ شيئًا فشيئًا ممّا كانت قد أعطته . .

لقد استقبلته الحياة وليدا ، فأرضعته من ثديها ، النّماء ، والقوة ، والإدراك ، والعلم ، والمعرفة . . وما يزال هذا دأبها به حتى يبلغ غايته ، ويستوفى كل ما يمكن أن تعطيه طبيعته . . وهنا تدعه الحياة ينفق مما أخذ منها ، وفى كل يوم ينقص رصيده الذي ادخره ، من النماء والقوة والإدراك والعلم والمعرفة . . وهكذا يتقلّص

(195/519)

ظل هذا الرصيد شيئًا فشيئًا حتى يصبح ظلالا باهتة . . ثم يختفى ، ويذوب ، كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس . .

وشتّان بين بدء الحياة وختامها . . بين وهج الطفولة وتوقدها ، وخمود الشيخوخة وبرودتها . . بين إقبال الحياة وإدبارها . . بين الشروق والغروب ، بين رحلة الحياة ورحلة الموت ! ! . وفى قوله تعالى : « لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً » هو عرض لصورة الحياة والموت معا ، فى هذا الإنسان الذي ردّ إلى أرذل العمر ، ونكّس فى الخلق . .

هو حىّ ميت ، أو ميت حىّ . . إنه يعود من حيث بدأ ، فقد جاء إلى الحياة لا يعلم شيئا ، كما يقول سبحانه : « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً . . » (78 : النحل) وها هو ذا يعود طفلا « لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً » . .

والتعليل بقوله تعالى : « لِكَيْلا يَعْلَمَ » لا يتوّجه به إلى إنسان بعينه ، وإنما هو موجّه إلى الناس عامة ، وإلى منكرى البعث خاصة ، ليروا فى هذا الإنسان ، الشاهد الحىّ ، الذي ينطق بأن الحياة والموت وجهان متقابلان ، وأنه كما يموت الحىّ ، يحيا الميّت . .

وفى نظرة مشرقة صافية يمكن أن تتجلّى فى قوله تعالى : « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ » (95 : الأنعام) صورة من صور إخراج الحىّ من الميت ، وإخراج الميت من الحىّ ، فى مسيرة الإنسان على طريق الحياة ، من مولده إلى مماته . . أي من طفولته إلى أرذل عمره وتنكيسه فى الخلق . .

فهو فى بدء طفولته . . ميت حىّ . . وهو فى أرذل عمره حىّ ميت ! وما أدقّ وأبرع قول المعرّى :

وكالنّار الحياة . . فمن رماد أواخرها وأولها دخان

فالحياة ـ كما يصورها المعرى ـ جذوة من نار ، تبدأ دخانا ، وهو أول ما يكون من النار ، ثم تنتهى إلى رماد ، وهو آخر ما يكون منها . .

(196/519)

وفى قوله تعالى : « وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » . .

عرض لصورة من صور الإحياء ، والبعث ، يراها أولو الأبصار ، حالا بعد حال ، فيما يسفر عنه وجه الأرض ، من حياة متجددة عليها ، ومن أثواب تلبسها ، وحلى تتحلى بها ، بعد أن كانت أرضا مواتا ، لا معلم من معالم الحياة فيها . .

فهذه الأرض الجديب القفر ، يأخذها الإنسان بنظره اليوم ، فإذا هى ـ كما يرى ـ موات فى موات ، وصمت موحش رهيب ، كصمت القبور . . ثم إذا أصابها الماء ، وغاثها الغيث ، « اهْتَزَّتْ » هزّة الحياة ، ونبضت عروقها ، وسرت الروح فى أوصالها . . « وَرَبَتْ » ونمت كما ينمو الطفل . . « وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » فإذا كرّ الناظر إليها بصره كرّة أخرى ، رأى هذا الموات قد أصبح حياة مزهرة مثمرة ، تملأ العين بهجة ومسرّة .

فماذا إذن ينكره المنكرون من بعث الموتى ؟ وهل هذه القبور وما ضمّت عليه من جثث وأشلاء ورفات ، تتراءى فيها صور الآدميين الذين عمروها ـ هل هذه القبور أبعد من بعث الحياة فيها ، وإخراج خبئها ـ من الأرض الجديب الميتة ، التي أحياها اللّه ، فاهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ؟ ذلك ما لا يقبله عقل ، ولا يرضاه منطق ! .

تلك هى « قضية البعث » . . وهذه هى حيثياتها ، يجدها الإنسان فى نفسه هو ، من مولده إلى مماته . . فإن أعياه النظر إلى نفسه ، وجدها فى الأرض التي يمشى عليها . . فإن عمى عن هذا وذاك ، فهيهات أن يرى وجه الحقّ أبدا .

فإن ذلك العمى من عمى القلب ، الذي ليس لمصاب به شفاء ، واللّه سبحانه وتعالى يقول : « فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » (46 : الحج) . .

وهنا نحبّ أن نقف وقفة مع عملية « الخلق » وبعث الحياة فى المخلوقات .

(197/519)

فهذه العملية ، عملية « الخلق » ، هى مما استأثر اللّه سبحانه وتعالى به ، ليس لأحد من مخلوقاته أن يكون له معه شركة فيه . . وفى هذا يقول اللّه تعالى :

« أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » (54 : الأعراف) . . هكذا على سبيل القصر . .

فللّه وجه - بلا مشاركة - « الْخَلْقُ » وهو الإيجاد ، والتصوير ، وبعث الحياة فى الموجودات والمصوّرات . . « وَالْأَمْرُ » وهو التقدير ، لخلق ما يخلق وتصوير ما يصور . . « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » .

هذا ، وتتطلع الإنسانية دائما إلى كشف هذا السرّ - سرّ الحياة - ويحاول العلماء والباحثون أن يصلوا إلى تلك الحقيقة ، وأن يضبطوا قوانينها ، وأن يضعوا أيديهم عليها ، حتى يكون لهم أن يخلقوا ما يشاءون من مخلوقات ، وأن يتحكموا فيما يخلقون . . من إناث أو ذكور ، على اختلاف الألوان والصور ! .

وقد أجرى كثير من العلماء تجارب عديدة فى هذا المجال ، وزرعوا واستنبتوا فى مخابرهم خمائر للحياة . . ولكن ذلك كلّه لم يصل بهم إلى شىء مما أرادوا ، وكلّ ما أمسكوا به فى أيديهم ، هو صور باهتة ، إن دلّت على شىء ، فإنما تدلّ على تأكيد هذه الحقيقة ، وهى أن « الخلق » للّه وحده ، وأن غاية العلم ، لا تتجاوز أبدا أكثر من هذه الوقفة على شاطىء الحياة ، بعيدا عن لمس بحرها العميق . .

إن كلّ ما يجريه العلماء من بحوث ، وما يضعونه من موادّ فى مخابيرهم وأنابيبهم ، هو من عناصر الحياة نفسها ، التي خلقها الخالق جلّ وعلا . . وأن هذه الأطياف من الحياة التي تطلّ على العلماء من مخابيرهم وأنابيبهم ، إنما هى من بذور الحياة التي أوجدها الخالق ،

وقدّر لها سبلا تسلكها ، لتثمر ثمر الحياة ، فغيّر العلماء سبيلها ، وعدلوا بها عن طريقها المرسوم ، الذي خطّته لها القدرة الإلهية . . !

(198/519)

فإذا نجح العلم فى هذا التدبير ، واستطاع أن يصل إلى شىء من صور الخلق - وهيهات - فإن ذلك لا يعدو أن يكون نبتة من نبات تلك البذرة التي أوجدها الخالق ، وكل ما كان من العلم والعلماء ، هو أشبه بنقل نبات من تربة غير تربته ، واستنبات نوع من النبات فى غير موطنه .

والذي نحبّ أن ننبه إليه هنا ، هو أن الإسلام - شريعة وعقيدة - لا ينظر إلى تلك المحاولات التي يحاولها العلم فى حقل الحياة - نظرة متكرهة أو معادية ، بل إنه يزكّى هذا البحث العلمي ، ويطلق للإنسان العنان فى البحث والدرس ، وإجراء ما يشاء من التجارب فى عملية الخلق ، فهذا كله قراءة فى كتاب الكون ، وتأمل وتدبّر فى آيات اللّه . . وما يصل إليه الإنسان من كشوف علمية ، وحقائق كونية ، هو منظور إليه من جانب الإسلام على أنّه رسالة العلم ، فى الكشف عن قدرة اللّه ، وعلمه ، وحكمته . . الأمر الذي يفتح للناس الطريق إلى الإيمان باللّه ، ويجلّى عن عقولهم وقلوبهم غياهب الشك والشرك والإلحاد . .

وهنا يمكن أن يقوم العلم فى الدعوة إلى اللّه ، مقام الرسل والأنبياء ! . .

ومن جهة أخرى ، فإن العلماء الذين يبلغ بهم علمهم هذا المدى الذي يطلعون منه على الناس بهذه الآيات المعجزة - هؤلاء العلماء هم فى الواقع آية من آيات اللّه . . فما هم إلا صنعة الخالق ، الذي خلق فسوّى ، فجعل من ابن الماء والطين ، هذه القوة القادرة على أن تجىء بهذا الإعجاز العظيم . .

فمرحى بالعلم ، ومزيدا من آياته ومعجزاته . . فحصاد هذا كلّه ، وثمر هذا كله ، عائد إلى الإنسان ، فى حياته المادية والعقلية والروحية . . وما كان لدين - أي دين - أن يعطل ملكات الإنسان ، أو يقيد يديه عن العمل فى كل مجال يستطيع العمل فيه - سواء أخطأ أم أصاب ، مادام يطلب الخير ، ويلقى إليه ، بشباكه فى الأرض أو فى السماء . . !

(199/519)

على أن هناك حقيقة ، نودّ أن نضعها بين يدى العلماء ، دون أن نقطع الطريق عليهم فيما هم سائرون إليه ، نحو البحث عن الحياة ، واستيلاد الأحياء ، أو خلقهم ، ودون أن ندخل اليأس عليهم ، ونوصد فى وجههم هذا الباب . .

فنحن وإن كنا على يقين بأن العلم - فى عالم البشر - لن يخلق الحياة أبدا ، فإننا ندعو إلى مزيد

من البحث والانطلاق فى هذا المجال إلى أبعد غاية ، فإن هذا البحث - فى الواقع - لن يضيع هباء ، بل إنه سينمّى معارف الإنسان ، ويزيده علما إلى علم . .

ومن يدرى ؟ فلعل العلماء إذا أخطأهم الوصول إلى « الحياة » وفاتهم الحصول على سرّها ، لعلهم يجدون فى طريقهم أسرارا أخرى ، هى أجدى على الإنسانية وأنفع لها ، فيما يدفع عن هذه « الحياة » ما يعانيه الناس من غوائل الأوبئة والأمراض . .

أما الحقيقة التي أريد أن أصارح العلماء بها ، فهى ما صرّح به القرآن الكريم فى الجزء الأخير من هذه السورة ، وهو قوله تعالى : « يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ . . إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ . . وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ . . ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » .

فهذه آية متحدّية ، للناس ، ولما يعبد الناس من مخلوقين يرونهم آلهة ، بما فى أيديهم من سلطان مادى أو روحى . .

فالناس ، فردا فردا ، وجماعة جماعة . . « لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً » . . وهو أضأل المخلوقات وأضعفها . . « وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ » . . واحتشدوا له من أقطار الأرض كلها ، وجاءوا بكل ما معهم من علم . .

والذباب لا يعدو أن يكون دودة متخلّقة من مخلقات المواد القذرة والمتعفنة ، فهو - بهذه الصورة - أدنى مراتب الحياة ، وأنزل منازلها . . ومع هذا فإن الناس كلهم لن يخرج من أيديهم بكل ما معهم من علم ، أن يخلقوا ذبابة واحدة ! وأكثر من هذا ، فإن هذا الذباب الذي عجزوا عن خلقه ، هو - فى حال من أحواله - أقوى منهم ، وأقدر على الكيد لهم . . وأنه إذا سلبهم سيئا لا يستنقذونه منه ، ولا يستطيعون له ردّا . .

والذباب أنواع كثيرة . . منه الذباب المعروف ، ومنه ذباب الفاكهة ، ومنه الزنابير وغيرها . .

فهب أن طائفة من هذه الطوائف ، خلت بطعام فالتهمته ، أو وقعت على شجرة من أشجار الفاكهة فأتت عليها - أيكون فى مستطاع أحد أن يستردّ ما أكل الذباب ؟ ذلك محال . .

(201/519)

وفى التعبير عن أكل الذباب « بالسلب » إشارة إلى أن ما أكله لم يكن عن رضى من أصحاب هذا المأكول . . فهو أشبه بالسلب والغصب ، وفى هذا إظهار لضعف الإنسان

، ووقوعه تحت بأس هذا المخلوق الضعيف ، الذي يعدّ أضعف ما خلق اللّه ، فى عالم الأحياء ! وفى قوله تعالى : « ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » تعريض بالإنسان ، وبغروره الذي يخيّل إليه أنه يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولا . . إنه والذباب على سواء ، كلاهما عاجز ضعيف . . وإن كان الذباب - فى بعض الأحوال - أقوى منه ، وأقدر على الكيد له ! وليس هذا التصوير لضعف الإنسان ، استخفافا به ، وإطفاء لجذوة الطموح المتّقدة فى كيانه ، وإنما هو استشفاء للإنسان من داء الغرور ، الذي كثيرا ما يستبدّ به ، ويفسد عليه وجوده ، فإذا هو - وقد استوى على ظهر الغرور - قوة غاشمة ، وإعصار مجنون ، وعاصفة هوجاء ، تهلك الحرث والنسل ، حتى إذا انطلقت إلى غايتها دارت حول نفسها دورة ، ثم هوت كما تهوى الصاعقة فى الوحل والطين ! إن الإسلام ليستقبل كل ما يفتح به العلم للناس من أسرار الوجود ، فى حفاوة وإعزاز ، إذ كان ذلك - كما قلنا - هو الطريق المستقيم إلى اللّه ، وهو الذي يقيم العقول والقلوب على الإيمان باللّه ، إيمانا مصفّى من كل ريب ، مبرأ من كل ضعف . . فهذا الكون هو كتاب مفتوح لكل ناظر ، وآيات اللّه المبثوثة فى هذا الوجود ، هى مراد لأنظار العلماء ، ومسبح لخواطرهم ومداركهم . .

(202/519)

وليس على أحد حرج فى أن ينظر فى الكون كيف يشاء ، ويسبح فى الوجود حيث يريد . . بل إن هذا الوجود لا يحسن التعامل معه ، ولا يقطف من جنى ثمره الطيب ، إلا أهل العلم والمعرفة ، وأنه على قدر ما يبلغ الإنسان من العلم يكون حظه من التلقي والانتفاع بهذا الخير المخبوء فى صدر الكون . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » (43 : العنكبوت) .

ومرة أخرى . . مرحّى بالعلم ، ومزيدا من جهاد العلماء ، ومن فتوحاتهم فى آفاق هذا الوجود ، الذي على الرغم من هذا السعى الجادّ لكشف أسراره ، وعلى الرغم مما يبذل العلماء فى كل عصر ، وفى كل أمة من جهود مضنية وتضحيات سخية فى هذا المجال . فإن الإنسانية ما زالت على الشاطئ بعد ، لم تكد تبتلّ أقدمها من بحر المعرفة . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » (85 : الاسراء) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 9 صـ 975 . 990 ﴾

(203/519)

وقال ابن عاشور :

﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خلقناكم مِّن تُرَابٍ ﴾

أعاد خطاب الناس بعد أن أنذرهم بزلزلة الساعة ، وذكر أن منهم من يجادل في الله بغير علم ، فأعاد خطابهم بالاستدلال على إمكان البعث وتنظيره بما هو أعظم منه .

وهو الخلق الأول .

قال تعالى : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ [ق : 15] .

فالذي خلق الإنسان من عدم وأخرجه من تراب ، ثم كونه من ماء .

ثم خلقه أطواراً عجيبة ، إلى أن يتوفاه في أحوال جسمه وفي أحوال عقله وإدراكه ، قادر على إعادة خلقه بعد فنائه .

ودخول المشركين بادىء ذي بدء في هذا الخطاب أظهر من دخولهم في الخطاب السابق لأنهم الذين أنكروا البعث ، فالمقصود الاستدلال عليهم ولذلك قيل إن الخطاب هنا خاص بهم .

وجُعل ريْبهم في البعث مفروضاً بـ (إن) الشرطية مع أن ريبهم محقق للدلالة على أن المقام لما حف به من الأدلة المبطلة لريبهم ينزل منزلة مقام من لا يتحقق ريبُه كما في قوله تعالى : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أنّ كنتم قوماً مسرفين ﴾ [الزخرف : 5] .

والظرفية المفادة بـ (في) مجازية .

شبهت ملابسة الريب إياهم بإحاطة الظرف بالمظروف .

وجملة ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ واقعة موقع جواب الشرط ولكنها لا يصلح لفظها لأن يكون جواباً لهذا الشرط بل هي دليل الجواب ، والتقدير : فاعلموا أو فنعلمكم بأنه ممكن كما خلقناكم من تراب مثل الرُّفات الذي تصير إليه الأجساد بعد الموت ، أو التقدير : فانظروا في بدء خلقكم فإنا خلقناكم من تراب .

والذي خُلق من تراب هو أصل النوع ، وهو آدم عليه السلام وحواء ، ثم كونت في آدم وزوجه قوة التناسل ، فصار الخلق من النطفة فلذلك عطفت بـ (ثم) .

والنطفة : اسم لمنّي الرجل ، وهو بوزن فُعلة بمعنى مفعول ، أي منطوف ، والنَطْف : القطر والصب .

والعلقة : القطعة من الدم الجامد اللين .

(204/519)

والمضغة : القطعة من اللحم بقدر ما يُمضغ مثله ، وهي فعلة بمعنى مَفعولة بتأويل : مقدار ممضوغة .

و(ثم) التي عطف بها ﴿ ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ﴾ عاطفة مفردات فهي

للتراخي الحقيقي .

و(مِن) المكررة أربع مرات هنا ابتدائية وتكريرها توكيد .

وكون الإنسان مخلوقاً من النطفة لأنه قد تقرر في علم الطب أن في رحم المرأة مُدة الحيض جزءاً هو مقر الأجرام التي أعدت لأن يتكون منها الجنين ، وهذا الجُزء من الرحم يسمى في الاصطلاح الطبي (المَبِيض) بفتح الميم وكسر الموحدة على وزن اسم المكان لأنه مقر بَيضات دقيقة هي حُبيبات دقيقة جداً وهي من المرأة بمنزلة البيضة من الدجاجة أو بمنزلة حبوب بيض الحوت ، مودعة في كرة دقيقة كالغِلاف لها يقال لها (الحُويصلة) بضم الحاء بصيغة تصغير حَوصلة تشتمل على سائل تسبح فيه البيضة فإذا حاضت المرأة ازدادت كمية ذلك السائل الذي تسبح فيه البيضة فأوجب ذلك انفجار غلاف الحُويصلة ، فيأخذ ذلك السائل في الانحدار يَحمل البيضة السابحة فيه إلى قناة دقيقة تسمى (بوق فلوبيوس) لشبهه بالبُوق ، وأضيف إلى (فلوبيوس) اسم مكتشفه وهو البزرخ بين المَبِيض والرحم ، فإذا نزل فيه ماء الرجل وهو النطفة بعد انتهاء سيلان دم الحيض لقحت فيه البيضة واختلطت أجزاؤها بأجزاء النطفة المشتملة على جرثومات ذات حياة وتمكث مع البيضة متحركة مقدار سبعة أيام تكون البيضة في أثنائها تتطور بالشكل بشِبه تقسيم من أثر ضغط طبيعي .

وفي نهاية تلك المدة تصل البيضة إلى الرحم وهنالك تأخذ في التشكل ، وبعد أربعين يوماً

تصير البيضة عَلَقة في حجم نملة كبيرة طولها من 12 إلى 14 مليمتر ، ثم يزداد تشكلها فتصير قطعة صغيرة من لَحم هي المسماة (مُضغة) طولها ثلاثة سنتيمتر تلوح فيها تشكلات الوجه والأنف خفيّة جداً كالخطوط ، ثم يزداد التشكل يوماً فيوماً إلى أن يستكمل الجنين مدته فيندفعَ للخروج وهو الولادة .

(205/519)

فقوله تعالى : ﴿ مخلقة وغير مخلقة ﴾ صفة ﴿ مضغة ﴾ .

وذلك تطور من تطورات المضغة .

أشار إلى أطوار تشكل تلك المضغة فإنها في أول أمرها تكون غير مخلّقة ، أي غير ظاهر فيها شَكل الخِلقة ، ثم تكون مخلّقة ، والمراد تشكيل الوجه ثم الأطراف ، ولذلك لم يُذكر مثل هذين الوصفين عند ذكر النطفة والعلقة ، إذ ليس لهما مثل هذين الوصفين بخلاف المضغة .

وإذْ قد جعلت المضغة من مبادىء الخلق تعيّن أن كلا الوصفين لازِمان للمضغة ، فلا يستقيم تفسير من فسّر غير المخلقة بأنها التي لم يكمل خلقها فسقطت .

والتخليق : صيغة تدل على تكرير الفعل ، أي خلقاً بعد خلق ، أي شكلاً بعد شكل .

وقُدم ذكر المخلقة على ذكر غير المخلقة على خلاف الترتيب في الوجود لأن المخلقة أدخل في الاستدلال ، وذُكر بعده غير المخلقة لأنه إكمال للدليل وتنبيه على أن تخليقها نشأ عن عدم .

فكلا الحالين دليل على القدرة على الإنشاء وهو المقصود من الكلام .

ولذلك عقب بقوله تعالى ﴿ لنبين لكم ﴾ ، أي لنظهر لكم إذا تأملتم دليلاً واضحاً على إمكان الإحياء بعد الموت .

واللام للتعليل متعلقة بما في تضمينه جواب الشرط المقدرُ من فعل ونحوه تدل عليه جملة ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ الخ ، وهو فعل : فاعلموا ، أو فنُعلمكم ، أو فانظروا .

وحذف مفعول ﴿ لِنُبيّن ﴾ لتذهب النفس في تقديره كل مذهب مما يرجع إلى بيان ما في هذه التصرفات من القدرة والحكمة ، أي لنبيّن لكم قدرتنا وحكمتنا .

وجملة ﴿ ونقرّ ﴾ عطف على جملة ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ .

وعدل عن فعل المضي إلى الفعل المضارع للدلالة على استحضار تلك الحالة لما فيها من مشابهة استقرار الأجساد في الأجداث ثم إخراجها منها بالبعث كما يخرج الطفل من قرارة الرحم ، مع تفاوت القرار .

فمن الأجنة ما يبقى ستة أشهر ، ومنها ما يزيد على ذلك ، وهو الذي أفاده إجمال قوله تعالى : ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ .

والاستدلال في هذا كله بأنه إيجاد بعد العدم وإعدام بعد الوجود لتبيين إمكان البعث بالنظير وبالضد .

والأجل : الأمد المجعول لإتمام عمل ما ، والمراد هنا مدة الحمل .

والمسمّى : اسم مفعول من سَماه ، إذا جعل له اسماً ، ويستعار المسمّى للمعيّن المضبوط تشبيهاً لضبط الأمور غيرِ المشخصة بعدد معيّن أو وقت محسوب ، بتسمية الشخص بوجه شبه يُميزه عما شابهه .

ومنه قول الفقهاء : المهر المسمّى ، أي المعيّن من نقد معدود أو عَرض موصوف ، وقول الموثقين : وسمّى لها من الصداق كذا وكذا .

ولكل مولود مدة معينة عند الله لبقائه في رحم أمه قبلَ وضعه .

والأكثر استكمال تسعة أشهر وتسعة أيام ، وقد يكون الوضع أسرع من تلك المدة لعارض ، وكلٌّ معين في علم الله تعالى .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ في [سورة البقرة : 282] .

وعطف جملة ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ بحرف (ثم) للدلالة على التراخي الرتبي فإن

إخراج الجنين هو المقصود .

وقوله ﴿ طفلاً ﴾ حال من ضمير ﴿ نخرجكم ، ﴾ أي حال كونكم أطفالاً .

وإنما أفرد ﴿ طفلاً ﴾ لأن المقصود به الجنس فهو بمنزلة الجمع .

وجملة ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ مرتبطة بجملة ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ ارتباط العلّة بالمعلول ، واللام للتعليل .

والمعلّل فعل ﴿ نخرجكم طفلاً ﴾ .

وإذ قد كانت بين حال الطفل وحال بلوغ الأشد أطوار كثيرة عُلم أن بلوغ الأشد هو العلّة الكاملة لحكمة إخراج الطفل .

وقد أشير إلى ما قبل بلوغ الأشد وما بعده بقوله ﴿ ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ .

وحرف (ثم) في قوله : ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ تأكيد لمثله في قوله ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ .

هذا ما ظهر لي في اتّصال هذه الجملة بما قبلها وللمفسرين توجيهات غير سالمة من التعقب ذكرها الألوسي .

وإنما جُعل بلوغ الأشد علّة لأنه أقوى أطوار الإنسان وأجلى مظاهر مواهبه في الجسم والعقل وهو الجانب الأهم كما أوماً إلى ذلك قوله بعد هذا ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ فجعل "الأشد" كأنه الغاية المقصودة من تطويره .

والأشُدّ : سن الفتوة واستجماع القوى .

وقد تقدم في [سورة يوسف : 22] ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ ووقع في [سورة المؤمن : 67] ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ﴾ فعطف طور الشيخوخة على طور الأشُد باعتبار أن الشيخوخة مقصد للأحياء لحبهم التعمير ، وتلك الآية وردت مورد الامتنان فذكر فيها الطور الذي يتملى المرء فيه بالحياة ، ولم يذكر في آية سورة الحج لأنها وردت مورد الاستدلال على الإحياء بعد العدم فلم يذكر فيها من الأطوار إلا ما فيه ازدياد القوة ونماء الحياة دون الشيخوخة القريبة من الاضمحلال ، ولأن المخاطبين بها فريق معيّن من المشركين كانوا في طور الأشد ، وقد نبهوا عقب ذلك إلى أن منهم نفراً يُردون إلى أرذل العمر ، وهو طور الشيخوخة بقوله : ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ .

وجيء بقوله ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ على وجه الاعتراض استقراء لأحوال الأطوار الدالة على عظيم القدرة والحكمة الإلهية مع التنبيه على تخلل الوجود والعدم أطوار الإنسان بدءاً ونهاية كما يقتضيه مقام الاستدلال على البعث .

والمعنى : ومنكم من يتوفى قبل بلوغ بعض الأطوار .

وأما أصل الوفاة فهي لاحقة لكل إنسان لا لبعضهم ، وقد صرح بهذا في سورة المؤمن (67) : ﴿ ومنكم من يتوفى من قبل ﴾ وقوله ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ هو عديل قوله تعالى : ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ .

وسكت عن ذكر الموت بعد أرذل العمر لأنه معلوم بطريقة لحسن الخطاب .

(208/519)

وجُعل انتفاء علم الإنسان عند أرذل العمر علة لردّه إلى أرذل العمر باعتبار أنه علّة غائية لذلك لأنه مما اقتضته حكمة الله في نظام الخلق فكان حصوله مقصوداً عند ردّ الإنسان إلى أرذل العمر ، فإن ضعف القوى الجسمية يستتبع ضعف القوى العقلية .

قال تعالى : ﴿ ومن نعمره ننكسه في الخلق ﴾ [يس : 68] فالخلق يشمل كل ما هو من الخلقة ولا يختص بالجسم .

وقوله ﴿ من بعد علم ﴾ أي بعد ما كان علمه فيما قبل أرذل العمر .

و(مِن) الداخلة على (بعد) هنا مزيدة للتأكيد على رأي الأخفش وابن مالك من عدم انحصار زيادة (مِن) في خصوص جرّ النكرة بعد نفي وشبهه ، أو هي للابتداء عند

الجمهور وهو ابتداء صُوري يساوي معنى التأكيد ولذلك لم يؤت بـ (من) في قوله تعالى : ﴿ لكي لا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ في [سورة النحل : 70] .

والآيتان بمعنى واحد فذكر (مِن) هنا تفنّن في سياق العبرتين .

و ﴿ شيئاً ﴾ واقع في سياق النفي يعم كل معلوم ، أي لا يستفيد معلوماً جديداً .

ولذلك مراتب في ضعف العقل بحسب توغله في أرذل العمر تبلغ إلى مرتبة انعدام قبوله لعلم جديد ، وقبلها مراتب من الضعف متفاوتة كمرتبة نسيان الأشياء ومرتبة الاختلاط بين المعلومات وغير ذلك .

﴿ وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ .

عطف على جملة ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ ، والخطاب لغير معيّن فيعم كل من يسمع هذا الكلام .

وهذا ارتقاء في الاستدلال على الإحياء بعد الموت بقياس التمثيل لأنه استدلال بحالةٍ مشاهدَة فلذلك افتتح بفعل الرؤية ، بخلاف الاستدلال بخلق الإنسان فإن مبدأه غيرُ مشاهَد فقيل في شأنه ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ الآية .

ومحل الاستدلال من قوله تعالى : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ﴾ ، فهو مناسبُ قولِه في الاستدلال الأول ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ ، فهمود الأرض بمنزلة موت الإنسان واهتزازُها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت .

والهمود : قريب من الخمود ، فهمود الأرض جَفافها وزوال نبتها ، وهمود النار خمودها .

والاهتزاز : التحرك إلى أعلى ، فاهتزاز الأرض تمثيل لحال ارتفاع ترابها بالماء وحال ارتفاع وجهها بما عليه من العشب بحال الذي يهتز ويتحرك إلى أعلى .

وربت : حصل لها رُبوّ بضمّ الراء وضم الموحدة وهو ازدياد الشيء يقال : ربَا يربو رُبوا ، وفسر هنا بانتفاخ الأرض من تفتق النبت والشجر .

وقرأ أبو جعفر ﴿ وربأت بهمزة مفتوحة بعد الموحدة ، أي ارتفعت .

ومنه قولهم : ربَأ بنفسه عن كذا ، أي ارتفع مجازاً ، وهو فعل مشتق من اسم الربيئة وهو الذي يعلو رُبوة من الأرض لينظر هل من عدوّ يسير إليهم .

والزوج : الصنف من الأشياء .

أطلق عليه اسم الزوج تشبيهاً له بالزوج من الحيوان وهو صنف الذكر وصنف الأنثى ، لأن كل فرد من أحد الصنفين يقترن بالفرد من الصنف الآخر فيصير زوجاً فيسمى كلّ واحد منهما زوجاً بهذا المعنى ، ثم شاع إطلاقه على أحد الصنفين ، ثم أطلق على كلّ نوع

وصنف وإن لم يكن ذكراً ولا أنثى ، فأطلق هنا على أنواع النبات .

والبهيج : الحسن المنظر السَارّ للناظر ، وقد سِيق هذا الوصف إدماجاً للامتنان في أثناء الاستدلال امتناناً بجمال صورة الأرض المنبتة ، لأن كونه بهيجاً لا دخل له في الاستدلال ، فهو امتنان محض كقوله تعالى : ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ [النحل : 6] وقوله تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ [الملك : 5] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(210/519)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ 5)

هذه الآية الكريمة والآيات التي بعدها ، تدل على أن جدال الكفار المذكور في قوله ﴿ وَمِنَ النَاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان : 20] يدخل فيه جدالهم في إنكار البعث ، زاعمين أنه جل وعلا يقدر أن يحي العظام الرميم ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، كما قال تعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] وكقوله تعالى عنهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [

الأنعام : 29] ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ [الدخان : 35] ونحو ذلك من الآيات كما قدمنا الإشارة إليه قريباً .

(211/519)

ولأجل ذلك أقام تعالى البراهين العظيمة على بعث الناس من قبورهم أحياء إلى عرصات القيامة للحساب ، والجزاء فقال جل وعلا ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ فمن أوجدكم الإيجاد الأول ، وخلقكم من التراب لا شك أنه قادر على إيجادكم ، وخلقكم مرة ثانية ، بعد أن بليت عظامكم ، واختلطت بالتراب ، لأن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من ابتداء الفعل ، وهذا البرهان القاطع على القدرة على البعث : الذي هو خلقه تعالى للخلائق المرة الأولى المذكورة هنا ، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] الآية وقوله ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 79] وقوله تعالى ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : 104] وقوله ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء : 51] وقوله تعالى ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق : 15] وقوله تعالى ﴿

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الواقعة : 62] وقوله ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ﴾ [القيامة : 37] إلى قوله ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ [القيامة : 40] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً ، وقد أوضحنا ذلك في مواضع متعددة من هذا الكتاب بين جل وعلا أن من أنكر البعث فهو ناس للإيجاد الأول كقوله ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ [يس : 78] الآية ، إذ لو تذكر الإيجاد الأول ، على الحقيقة ، لما أمكنه إنكار الإيجاد الثاني ، وكقوله ﴿ وَيَقُولُ الإنسان أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً

(212/519)

أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 66-67] إذ لو تذكر ذلك تذكراً حقيقياً لما أنكر الخلق الثاني ، وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث ﴾ أي في شك من أن الله يبعث الأموات ، فالريب في القرآن يراد به الشك ، وقوله تعالى في هذه الآية الكرمية ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ قد قدمنا في سورة طه : أن التحقيق في معنى خلقه للناس من تراب ، أنه خلق أباهم آدم منها ، ثم خلق منه زوجه ، ثم خلقهم منهما عن طريق التناسل ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] الآية ، فلما كان أصلهم الأول من تراب ، أطلق

عليهم أنه خلقهم من تراب .

لأن الفروع تبع للأصل .

وقد بينا في طه أيضاً أن قول من زعم أن معنى خلقه إياهم من تراب : أنه خلقهم من النطف ، والنطف من الأغذية ، والأغذية راجعة إلى التراب غير صحيح ، وقد بينا هناك الآيات الدالة على بطلان هذا القول .

وقد ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أطوار خلق الإنسان ، فبين أن ابتداء خلقه من تراب كما أوضحنا آنفاً ، فالتراب هو الطول الأول .

والطور الثاني هو النطفة ، والنطفة في اللغة : الماء القليل ، ومنه قول الشاعر وهو رجل من بني كلاب :

وما عليكِ إذا أخبرتني دنفا . . . وغاب بعْلكِ يوماً أن تَعودِيني

وتجعلي نطفةً في العقْب باردةً . . . وتغمسي فاكِ فيها ثم تسقيني

فقوله : وتجعلي نطفة : أي ماء قليلاً في القعب ، والمراد بالنطفة في هذه الآية الكريمة : نطفة المني ، وقد قدمنا في سورة النحل : أن النطفة مختلطة من ماء الرجل ، وماء المرأة ، خلافاً لمن زعم : أنها من ماء الرجل وحده .

الطور الثالث : العلقة : وهي القطعة من العلق ، وهو الدم الجامد فقوله ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ أَي قطعة دم جامدة ، ومن إطلاق العلق على الدم المكذور قول زهير :

إليك أعملتها فتلا مرافقها . . . شهرين يجْهُض من أرحامها العَلَق

الطور الرابع : المضغة : وهي القطعة الصغيرة من اللحم ، على قدر ما يمضغه الآكل ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله " الحديث .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ صفة للنطفة وأن المخلقة : هي ما كان خلقاً سوياً ، وغير المخلقة : هي ما دفعته الأرماح من النطف ، وألقته قبل أن يكون خلقاً ، وممن روي عنه هذا القول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه نقله عنه ابن جرير وغيره ، ولا يخفى بعد هذا القول ، لأن المخلقة وغير المخلقة من صفة المضغة ، كما هو ظاهر .

ومنها : أن معنى مخلقة : تامة ، وغير مخلقة : أي غير تامة ، والمراد بهذا القول عند قائله : أن الله جل وعلا يخلق المضغ متفاوتة ، منها : ما هو كامل الخلقة ، سالم من العيوب ، ومنها : ما هو على عكس ذلك ، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس ، في خلقهم ، وصورهم ، وطولهم . وقصرهم ، وتمامهم ، ونقصانهم .

وممن روي عنه هذا القول : قتادة كما نقله عنه ابن جرير وغيره ، وعزاه الرازي لقتادة

والضحاك . ومنها : أن معنى مخلقة مصورة إنساناً ، وغير مخلقة : أي غير مصورة إنساناً كالسقط الذي هو مضغة ، ولم يجعل له تخطيط وتشكيل ، وممن نقل عنه هذا القول ، مجاهد ، والشعبي ، وأبو العالية كما نقله عنهم ابن جرير الطبري . ومنها : أن المخلقة : هي ما ولد حياً ، وغير المخلقة : هي ما كان من سقط .

وممن روي عنه هذا القول : ابن عباس رضي الله عنهما . وقال صاحب الدر المنثور : إنه أخرجه عنه ابن أبي حاتم وصححه ونقله عنه القرطبي وأنشد لذلك قول الشاعر :

أفي غير المخلَّقة البكاءُ . . . فأين الحزمُ ويْحك والحَياءُ

(214/519)

وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ، قول من قال : المخلقة : المصورة خلقاً تاماً . وغير المخلقة : السقط قبل تمام خلقه ، لأن المخلقة ، وغير المخلقة من نعت المضغة ، والنطفة بعد مصيرها مضغة لم يبق لها حتى تصير خلقاً سوياً إلا التصوير . وذلك هو المراد بقوله ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ خلقاً سوياً ، وغير مخلقة : بأن تلقيه الأم مضغة ولا تصوير ، ولا ينفخ الروح . انتهى منه .

وهذا القول الذي اختاره ابن جرير : اختاره أيضاً غير واحد من أهل العلم .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : هذا القول الذي اختاره الإمام الجليل الطبري رحمه الله تعالى ، لا يظهر صوابه ، وفي نفس الآية الكريمة قرينة تدل على ذلك وهي قوله جل وعلا في أول الآية ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ لأنه على القول المذكور الذي اختاره الطبري يصير المعنى : ثم خلقناكم من مضغة مخلقة ، وخلقناكم من مضغة غير مخلقة . وخطاب الناس بأن الله خلق بعضهم من مضغة غير مصورة ، فيه من التناقض ، كما ترى فافهم .

فإن قيل : في نفس الآية الكريمة قرينة تدل على أن المراد بغير المخلقة : السقط ، لأن قوله ﴿ وَنُقِرُّ فِي الأَرحام مَا نَشَآءُ إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يفهم منه أن هناك قسماً آخر لا يقره الله في الأرحام ، إلى ذلك الأجل المسمى ، وهو السقط .

فالجواب : أنه لا يتعين فهم السقط من الآية ، لأن الله يقر في الأرحام ما يشاء أن يقره إلى أجل مسمى ، فقد يقره ستة أشهر ، وقد يقره تسعة ، وقد يقره أكثر من ذلك كيف شاء .

(215/519)

أما السقط : فقد دلت الآية على أنه غير مراد بدليل قوله ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ الآية ، لأن السقط الذي تلقيه أمه ميتاً ، ولو بعد التشكيل والتخطيط ، لم يخلق الله منه إنساناً واحداً من المخاطبين بقوله ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ الآية . فظاهر القرآن يقتضي أن كلاً من

المخلقة ، وغير المخلقة : يخلق منه بعض المخاطبين في قوله ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ الآية .

وبذلك تعلم أن أولى الأقوال في الآية ، هو القول الذي لا تناقض فيه ، لأن القرآن أنزل ليصدق بعضه بعضاً ، لا ليتناقض بعضه مع بعض ، وذلك هو القول الذي قدمنا عن قتادة والضحاك ، وقد اقتصر عليه الزمخشري في الكشاف ولم يحك غيره : وهو أن المخلقة : هي التامة ، وغير المخلقة : هي غير التامة .

قال الزمخشري في الكشاف : والمخلقة المسواة الملساء من النقصان والعيب ، يقال : خلق السواك والعود : إذا سواه وملسه . من قولهم صخرة خلقاء ، إذا كانت ملساء ، كأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة .

منها : ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب . ومنها : ما هو على عكس ذلك ، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم . انتهى منه .

وهذا المعنى الذي ذكره الزمخشري معروف في كلام العرب ، تقول العرب : حجر أخلق : أي أملس مصمت لا يؤثر فيه شيء ، وصخرة خلقاء بينة الخلق : أي ليس فيها وصم ، ولا كسر ، ومنه قول الأعشى :

قد يترك في خلقاء راسية . . . وَهيْياً وينزل منها الأعصم الصدعا

والدهر في البيت : فاعل يترك ، والمفعول به : وهياً . يعني : أن صرف الدهر قد يؤثر في الحجارة الصم السالمة من الكسر والوصم ، فيكسرها ، ويوهيها ، ويؤثر في العصم من الأوعال برؤوس الجبال ، فينزلها من معاقلها ، ومن ذلك أيضاً قول ابن أحمر يصف فرساً ، وقد أنشده صاحب اللسان للمعنى المذكور :

(216/519)

بمقلص درك الطريدة متنهُ . . . كصفا الخليقة بالفضاء الملبَّد

فقوله : كصفا الخليقة ، يعني : أن متن الفرس المذكور كالصخرة الملساء التي لا كسر فيها ، ولا وصم ، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته . والسهم المخلق : هو الأملس المستوي .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : وهذا القول هو أولى الأقوال بالصواب فيما يظهر لي لجريانه على اللغة التي نزل بها القرآن وسلامته من التناقض ، والله جل وعلا أعلم .

وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ : أي لنبين لكم بهذا النقل من طور إلى طور ، كمال قدرتنا على البعث بعد الموت ، وعلى كل شيء ، لأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً ، ثم من نطفة ثانياً ، مع ما بين النطفة والتراب من المنافاة والمغايرة وقدر على أن يجعل النطفة علقة ، مع ما بينهما من التباين والتغاير ، وقدر على أن يجعل العلقة

مضغة ، والمضغة عظاماً ، فهو قادر بلا شك على إعادة ما بدأ من الخلق ، كما هو واضح وقوله ﴿ لِّنُبَيِّنَ ﴾ الظاهر أنه متعلق بخلقناكم ، في قوله ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ الآية : أي خلقناكم خلقاً من بعد خلق على التدريج المذكور : لنبين لكم قدرتنا على البعث وغيره .

وقال الزمخشري مبيناً نكتة حذف مفعول : لنبين لكم ما نصه : وورود الفعل غير معدى إلى المبين إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنهه بالذكر ، ولا يحيط به الوصف . انتهى منه .

(217/519)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَنُقِرُّ فِي الأرحام مَا نَشَآءُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي نقر في أرحام الأمهات ما نشاء إقراره فيها ، من الأحمال ، والأجنة إلى أَجل مسمى : أي معلوم معين في علمنا ، وهو الوقت الذي قدره الله لوضع الجنين ، والأجنة تختلف في ذلك حسبما يشاؤه الله جل وعلا ، فتارة تضعه أمه لستة أشهر ، وتارة لتسعة ، وتارة لأكثر من ذلك .

وما لم يشأ الله إقراره من الحمل مجته الأرحام وأسقطته ، ووجه رفعه : ونقر أن المعنى : ونحن نقر في الأرحام ، ولم يعطف على قوله ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ لأنه ليس علة لما قبله ، فليس

المراد : خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، لنقر في الأرحام ما نشاء ، وبذلك يظهر لك رفعه ، وعدم نصبه ، وقراءة من قرأ : ونقر بالنصب عطفاً على : لنبين ، على المعنى الذي نفيناه على قراءة الرفع ، ويؤيد معنى قراءة النصب قوله بعده ﴿ ثُمَّ لِتَبلغوا أَشُدَّكُمْ ﴾ وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أي وذلك بعد أن يخلق الله المضغة عظاماً ، ثم يكسو العظام لحماً ، ثم ينشئ ذلك الجنين خلقاً آخر ، فيخرجه من بطن أمه في الوقت المعين لوضعه في حال كونه طفلاً : أي ولداً بشراً سوياً .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ ثُمَّ لِتَبلغوا أَشُدَّكُمْ ﴾ أي لتبلغوا كمال قوتكم ، وعقلكم ، وتمييزكم بعد إخراجكم من بطون أمهاتكم في غاية الضعف وعدم علم شيء .

وقد قدمنا أقوال العلماء في المراد بالأشد ، وهل هو جمع أو مفرد مع بعض الشواهد العربية في سورة الأنعام ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وقوله تعالى في هذه الآية ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى ﴾ أي ومنكم أيها الناس من يتوفى من قبل : أي من قبل بلوغه أشده ، ومنكم من ينسأ له في أجله ، فيعمر حتى يهرم فيرد من بعد شبابه وبلوغه غاية أشده إلى أرذل العمر ، وهو الهرم ، حتى يعود كهيئته في حال صباه من الضعف ، وعدم العلم .

وقد أوضحنا كلام العلماء في أرذل العمر ومعنى ﴿ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ في سورة النحل ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وهذا الذي ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من الاستدلال على كمال قدرته ، على بعث الناس بعد الموت ، وعلى كل شيء ينقله الإنسان من طور إلى طور ، من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة إلى آخر الأطوار المذكورة ، ذكره جل وعلا في مواضع من كتابه مبيناً أنه من البراهين القطعية على قدرته ، على البعث وغيره .

فمن الآيات الذي ذكر فيها ذلك من غير تفصيل لتلك الأطوار قوله تعالى ﴿ كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [المعارج : 39] قوله تعالى ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ [نوح : 13-14] أي طوراً بعد طور كما بينا قوله تعالى ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأَنعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الملك لا إله إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر : 6] وقوله في آية الزمر هذه في ظلمات ثلاث : أي ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة . فقد ركب تعالى عظام الإنسان بعضها ببعض وكساها اللحم ، وجعل فيها العروق والعصب ، وفتح مجاري البول والغائط ، وفتح العيون والآذان

والأفواه وفرق الأصابع وشد رؤسوها بالأظفار إلى غير ذلك من غرائب صنعه ، وعجائبه ، وكل هذا في تلك الظلمات الثلاث ، لم يحتج إلى شق بطن أمه وإزالة تلك الظلمات .

(219/519)

سبحانه جل وعلا ما أعظم شأنه وما أكمل قدرته هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، ولأجل هذه الغرائب والعجائب من صنعه تعالى قال بعد التنبيه عليها ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الملك لا إله إِلاَّ هُوَ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ ومن الآيات التي أوضح فيها تلك الأطوار على التفصيل قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : 12-16] وقد ذكر تعالى تلك الأطوار مع حذف بعضها في قوله في سورة المؤمن ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لتبلغوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً وَمِنكُمْ مَّن يتوفى مِن قَبْلُ ولتبلغوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر : 67] وقوله تعالى في الكهف ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ

سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ [الكهف : 37] وقوله تعالى ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 4] وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : 77] وقوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان : 2] الآية وقوله تعالى ﴿ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : 2] وقوله تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ [طه : 55] إلى غير ذلك من الآيات وقد

(220/519)

بينت السنة الصحيحة القدر الذي تمكثه النطفة قبل أن تصير علقة ، والقدر الذي تمكثه العلقة ، قبل أن تصير مضغة ، والقدر الذي تمكثه المضغة مضغة .

قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية ووكيع ح ، وحدثنا محمد بن عبد الله بن نمير الهمداني واللفظ له ، حدثنا أبي وأبو معاوية ، ووكيع قالوا : حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق " إن أحدكم يُجمع خلقُه في بطن أُمِّه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقةً مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروحَ ويُؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد "

الحديث . ففي هذا الحديث الصحيح تصريحه صلى الله عليه وسلم بأن الجنين يمكث أربعين يوماً نطفة ، ثم يصير علقة ، ويمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم يصير مضغة ويمكث كذلك أربعين يوماً ثم ينفخ فيه الروح ، فنفخ الروح إذاً في أول الشهر الخامس من أشهر الحمل .

وقال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك حدثنا شعبة ، أنبأني سليمان الأعمش ، قال : سمعت زيد بن وهب ، عن عبد الله قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال

" إن أحدكم يجمع في بطن أمهِ أربعين يوماً ثم علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغةً مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأَربعٍ : برزقه وأجله وشقي أو سعيد " الحديث ، وهذه الرواية في البخاري ينقص منها ذكر العمل ، وهو مذكور في روايات أُخر صحيحة معروفة . وقد قدمنا وجه الدلالة المقصودة من الحديث المذكور والله أعلم .

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف : وهو أن يقال : ما وجه الإفراد في قوله ﴿ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ مع أن المعنى نخرجكم أطفالاً . وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة .

(221/519)

منها ما ذكره ابن جرير الطبري قال : ووحد الطفل وهو صفة للجمع ، لأنه مصدر مثل عدل وزور وتبعه غيره في ذلك .

ومنها قول من قال ﴿ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أي نخرج كل واحد منكم طفلاً ، ولا يخفى عدم اتجاه هذين الجوابين .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي من استقراء اللغة العربية التي نزل بها القرآن ، هو أن من أساليبها أن المفرد إذا كان اسم جنس يكثر إطلاقه مراداً به الجمع مع تنكيره كما في هذه الآية ، وتعريفه بالألف واللام ، وبالإضافة فمن أمثلته في القرآن مع التنكير قوله تعالى ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [القمر : 54] أي وأنهار بدليل قوله تعالى ﴿ فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ [محمد : 15] الآية وقوله ﴿ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ [الفرقان : 74] أي أئمة وقوله تعالى ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً ﴾ [النساء : 4] الآية أي أنفساً وقوله تعالى ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون : 67] أي سامرين قووله تعالى ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ [آل عمران : 84] أي بينهم وقوله تعالى ﴿ وَحَسُنَ أولئك رَفِيقاً ﴾ [النساء : 69] أي رفقاء وقوله تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فاطهروا ﴾ [المائدة : 6] أي مجنبين أو أجناباً وقوله تعالى ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : 4] أي مظاهرون ومن أمثلة ذلك مع التنكير في كلام العرب قول عقيل بن علفة المري :

وكان بنو فزارة شرّ عم . . . وكنتُ لهم كشر بني الأَخينا

يعني شر أَعمام : وقول قعنب ابن أم صاحب :

ما بال قوم صديق ثم ليس لهم . . . دين وليس لهم عقل إذا ائتمنوا

يعني ما بال قوم أصدقاء : وقول جرير :

نصبن الهوى ثم ارتمين قلوبنا . . . بأعين أعداء وهن صديق

يعني صديقات : وقول الآخر :

(222/519)

لعمري لئن كنتم على النأي والنوى . . . بكم مثل ما بي إنكم لصديق

وقول الآخر :

يا عاذلاتي لا تزدن ملامة . . . إن العواذل ليس لي بأمير

أي لسن لي بأمراء .

ومن أمثلته في القرآن واللفظ مضاف قوله تعالى ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ [النور : 61] أي أصدقائكم : وقوله ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ [النور : 63] أي أوامره : وقوله ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] أَي نعم

الله : وقوله ﴿ إِنَّ هَؤُلَآءِ ضَيْفِي ﴾ [الحجر : 68] الآية : أي أضيافي ، ونظير ذلك من كلام العرب قول علقمة بن عبدة التميمي :

بها جيف الحسرى فأما عظامها . . . فبيض وأما جلدها فصليب

أي وأما جلودها فصليبة : وقول الآخر :

كلوا في بعض بطنكم تعفوا . . . فإن زمانكم زمن خميص

أي بطونكم . وهذا البيت والذي قبله أنشدهما سيبويه في كتابه مستشهداً بهما لما ذكرنا .

ومن أمثلة ذلك قول العباس بن مرادس السلمي :

فقلنا أسلموا إنا أخوكم . . . وقد سلمت من الإحسن الصدور

أي إنا إخوانكم : وقول جرير :

إذا آباؤنا وأبوك عدواً . . . أبان المقرفات من العراب

أي إذا آباؤنا وآباؤك عدواً ، وهذا البيت ، والذي قبله يحتمل أن يراد بهما جمع التصحيح للأب وللأخ ، فيكون الأصل : أبون وأخون فحذفت النون للإضافة ، فصار كلفظ المفرد .

ومن أمثلته جمع التصحيح في جمع الأخ بيت عقيل بن علفة المذكور آنفاً ، حيث قال فيه :

كشر بني الأخينا . ومن أمثلة تصحيح جمع الأب قول الآخر :

فلما تبين أصواتنا . . . بكين وفدينا بالأبينا

ومن أمثلة ذلك في القرآن : واللفظ معرف بالألف واللام قوله تعالى : ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بالكتاب كُلِّهِ ﴾ [آل عمران : 119] أي بالكتب كلها ، بدليل قوله ﴿ كُلٌّ آمَنَ بالله وملائكته وَكُتُبِهِ ﴾ [البقرة : 285] الآية ، وقوله ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ الله مِن كِتَابٍ ﴾ [الشورى : 15] وقوله تعالى ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الفرقان : 75] أي الغرف بدليل قوله ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ [الزمر : 20] وقوله ﴿ وَهُمْ فِي الغرفات آمِنُونَ ﴾ [سبأ : 37] : وقوله تعالى ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً ﴾ [الفجر : 22] : أي الملائكة بدليل قوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام والملائكة ﴾ [البقرة : 210] : وقوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] : أي الأدبار بدليل قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأدبار ﴾ [الأنفال : 15] وقوله تعالى : ﴿ أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء ﴾ [النور : 31] : أي الأطفال : وقوله تعالى ﴿ هُمُ العدو فاحذرهم ﴾ [المنافقون : 4] أي الأعداء ، ونحو هذا كثير في القرآن ، وفي كلام العرب : وهو في النعت بالمصدر مطرد ، كما تقدم مراراً .

ومن أمثلة ذلك قول زهير :

متى يَشْتَجِر قومٌ يقل سرواتهم . . . هم بيننا هم رضى وهم عدل

أي عدول مرضيون .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى : إذا مجت الرحم النطفة في طورها الأول ، قبل أن تكون علقة ، فلا يترتب على ذلك حكم من أحكام إسقاط الحمل ، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء .

المسألة الثانية : إذا سقطت النطفة في طورها الثاني ، أعني في حال كونها علقة : أي قطعة جامدة من الدم ، فلا خلاف بين العلماء في أن تلك العلقة لا يصلى عليها ولا تغسل ولا تكفن ولا ترث .

ولكن اختلف في أحكام أخر متعددة من احكامها :

(224/519)

منها : ما إذا كان سقوطها بسبب ضرب إنسان بطن المرأة التي ألقتها ، هل تجب فيها غرة أو لا ؟

فذهب مالك رحمه الله : إلى أن من ضرب بطن حامل ، فألقت حملها علقة فهو ضامن دية العلقة ضمان الجنين ، فتلزمه غرة ، أو عشر دية الأم .

وفي المدونة : الجنين ما علم أنه حمل ، وإن كان مضغة أو علقة أو مصوراً .

وذهب جمهور أهل العلم : إلى أن الجنين لا ضمان فيه حتى تظهر فيه صورة الآدمي .

وممن قال به الأئمة الثلاثة : أبو حنيفة ، والشافعي ، وأحمد رحمهم الله . وظهور بعض الصورة كظهور كلها في الأظهر ، واحتجوا بأنه لا يتحقق أنه حمل حتى يصور ، والمالكية قالوا : الحمل تمكن معرفته في حال العلقة فما بعدها ، فاختلافهم هذا من قبيل الاختلاف في تحقيق المناط .

ومنها : ما إذا كانت المرأة معتدة من طلاق ، أو وفاة وكانت حاملاً ، فألقت حملها علقة ، هل تنقضي بذلك عدتها أو لا ؟

فمذهب مالك رحمه الله : أنها تنقضي عدتها بإسقاط العلقة المذكورة . واحتج المالكية : بأن العلقة المذكورة يصدق عليها أنها حمل ، فتدخل في عموم قوله تعالى ﴿ وَأُوْلاَتُ الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 4] وقال ابن العربي المالكي : لا يرتبط بالجنين شيء من هذه الأحكام إلا أن يكون مخلقاً يعني مصوراً ، وذهب جمهور أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة وغيرهم : إلى أن وضع العلقة لا تنقضي به العدة ، قالوا : لأنها دم جامد ولا يتحقق كونه جنيناً .

ومنها : ما إذا ألقت العلقة المكذورة أمة هي سرية لسيدها ، هل تكون أم ولد بوضع تلك العلقة أو لا ؟

فذهب مالك رحمه الله وأصحابه : إلى أنها تصير أم ولد بوضع تلك العلقة ، لأن العلقة مبدأ جنين ، ولأن النطفة لما صارت علقة صدق عليها أنها خلقت علقة ، بعد أن كانت نطفة ، فدخلت في قوله تعالى ﴿ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ [الزمر : 6] فيصدق عليها أنها وضعت جنيناً من سيدها ، فتكون به أم ولد ، وهذا رواية عن أحمد وبه قال إبراهيم النخعي .

وذهب جمهور أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة : إلى أنها لا تكون أم ولد بوضعها العلقة المذكورة . وقد قدمنا توجيههم لذلك .

المسألة الثالثة : إذا أسقطت المرأة النطفة في طورها الثالث : أعني كونها مضغة : أي قطعة من لحم ، فلذلك أربع حالات :

الأولى : أن يكون ظهر في تلك المضغة شيء من صورة الإنسان ، كاليد والرجل ، والرأس ونحو ذلك ، فهذا تنقضي به العدة ، وتلزم فيه الغرة ، وتصير به أم ولد ، وهذا لا خلاف فيه بين من يعتد به من أهل العلم .

الحالة الثانية : أن تكون المضغة المذكورة لم يتبين فيها شيء من خلق الإنسان ، ولكن شهدت ثقات من القوابل أنهن اطلعن فيها على تخطيط ، وتصوير خفي ، والأظهر في هذه الحالة : أن حكمها كحكم التي قبلها لأنه قد تبين بشهادة أهل المعرفة ، أن تلك المضغة جنين

لما اطلعوا عليه فيها من الصورة الخفية .

الحالة الثالثة : هي أن تكون تلك المضغة المذكورة ، ليس فيها تخطيط ، ولا تصوير ظاهر ، ولا خفي ، ولكن شهدت ثقات من القوابل أنه مبدأ خلق آدمي .

وهذه الصورة فيها للعلماء خلاف . فقال بعض أهل العلم : لا تنقضي عدتها بها ، ولا تصير أم ولد ، ولا يجب على الضارب المسقط لها الغرة .

قال ابن قدامة في المغني : وهذا ظاهر كلام الخرقي والشافعي ، وظاهر ما نقله الأثرم عن الإمام أحمد رحمه الله ، وظاهر كلام الحسن والشعبي ، وسائر من اشترط أن يتبين فيه شيء من خلق الإنسان ، لأنه لم يتبين فيه شيء من خلق الآدمي ، فأشبه النطفة والعلقة .

(226/519)

وقال بعض أهل العلم : تنقضي عدتها بوضع المضغة المذكورة ، وتصير به أم ولد ، وتجب فيها الغرة ، وهو رواية عن الإمام أحمد .

وقال بعض أهل العلم : لا تنقضي بها العدة ، وتصير به أم ولد .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له ، الذي يظهر لي والله تعالى أعلم : أنه إذا شهد ثقات من القوابل العارفات ، بأن تلك المضغة مبدأ جنين ، وأنها لو بقيت لتخلقت إنساناً ، أنها

تنقضي بها العدة ، وتصير بها الأمة أم ولد ، وتجب بها الغرة على الجاني . والله تعالى أعلم .

الحالة الرابعة : أن تكون تلك المضغة ، ليس فيها تصوير ظاهر ، ولا خفي ، ولم تشهد القوابل بأنها مبدأ إنسان ، فحكم هذه كحكم العلقة : وقد قدمناه قريباً مستوفى .

المسألة الرابعة : إذا أسقطت المرأة جنينها ميتاً بعد أن كملت فيه صورة الآدمي ، فلا خلاف بين أهل العلم في انقضاء العدة بوضعه ، وكونها أم ولد ، ووجوب الغرة فيه ، ولكن العلماء اختلفوا في الصلاة عليه ، وغسله وتكفينه . فذهب مالك رحمه الله : إلى أنه لا يصلى عليه ، ولا يغسل ، ولا يحنط ، ولا يسمى ، ولا يورث ، ولا يرث حتى يستهل صارخاً ، ولا عبرة بعطاسه ، ورضاعه ، وبوله فلو عطس ، أو رضع ، أو بال لم يكن ذلك موجباً للصلاة عليه في قول مالك ، وعليه جمهور أصحابه . قوال المازري : رضاعه تتحقق به حياته فتجب به الصلاة عليه ، وغيرها من الأحكام .

(227/519)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الظاهر أن الصواب في هذه المسألة أنه إن علمت حياته ، ولو بسبب آخر غير أن يستهل صارخاً ، فإنه يصلى عليه . وقد علمت أن مشهور مذهب

الإمام مالك أن المدار على أن يستهل صارخاً ، فإن لم يستهل صارخاً غسل دمه ، ولف بخرقة ، وَوُوري ، ومذهب الشافعي : أنه إن استهل صارخاً أو تحرك حركة تدل على الحياة ثم مات صلي عليه ، وَوُرِّث وورث وإن لم يستهل ، ولم يتحرك ، فإن لم يكن له أربعة أشهر ، لم يصل عليه ، ولكنه يلف بخرقة ، ويدفن ، وإن كان له أربعة أشهر فقولان : قال في القديم : يصلى عليه ، وقال في الأم : لا يصلى عليه ، وهو الأصح ، وحكى ابن المنذر عن أبي حنيفة ، وأصحابه وجابر بن زيد التابعي ، والحكم وحماد ، والأوزاعي ومالك : أنه إذا لم يستهل صارخاً لا يصلى عليه . وعن ابن عمر : أنه يصلى عليه ، وإن لم يستهل . وبه قال ابن سيرين وابن المسيب وإسحاق . انتهى بواسطة نقل النووي في شرح المهذب ، ومذهب الإمام أحمد رحمه الله : أنه إذا لم يستهل صارخاً ، ولم يتحرك ، فإن كان له أربعة أشهر : غسل ، وصلي عليه ، وإلا فلا ، أما إن استهل صارخاً ، فلا خلاف بينهم في الصلاة عليه .

(228/519)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : اعلم أن اختلاف الأئمة في هذه المسألة من قبيل الاختلاف في تحقيق المناط ، لأن مناط الأمر بالصلاة عليه ، هو أن يعلم أنه تقدمت له

حياة . ومناط عدم الصلاة عليه : هو أن يعلم أنه لم تتقدم له حياة ، فمالك ومن وافقه رأوا أنه إن استهل صارخاً ، أو طالت مدته حياً علم بذلك أنه مات بعد حياة ، فيغسل ويصلى لعيه ، وقالوا : إن مطلق الحركة لا يدل على الحياة ، لأن المذبوح قد يتحرك حركة قوية ، وقالوا : إنه إن رضع لم يدل ذلك على حياته . قالوا : قد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما طعنه عدو الله معدوداً في الأموات لو مات له مورث في ذلك الوقت ما ورثه ، وهو قول ابن القاسم . ولو قتل رجل عمر في ذلك الوقت لما قتل به ، لأنه في حكم الميت ، وإن كان عمر في ذلك الوقت يتكلم ويعهد .

والذين خالفوا هؤلاء قالوا : لا نسلم ذلك فكل حركة قوية تدل على الحياة ، وعمر ما دام قادراً على الحركة القوية الدالة على الحياة ، فهو حي تجري عليه أحكام الحياة .

والذين قالوا : يغسل إن سقط بعد أربعة أشهر ، استندوا في ذلك إلى حديث ابن مسعود المتفق عليه الذي قدمناه في هذا المبحث نحو ما ساقه البخاري ومسلم ، فإنه يدل على أنه بعد الأربعين الثالثة . ينفخ فيه الروح ، وانتهاء الأربعين الثالثة : هو انتهاء أربعة أشهر ، فقد دل الحديث على نفخ الروح فيه بعد انتهاء الأشهر الأربعة ، ونفخ الروح فيه في ذلك الحين مشعر بأنه مات بعد حياة والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الأَرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ .

هذا برهان قاطع آخر على البعث : وقوله ﴿ وَتَرَى ﴾ أي يا نبي الله . وقيلك وترى أيها الإنسان المخاطب : وهي رؤية بصرية تتعدى إلى مفعول واحد . فقوله ﴿ هَامِدَةً ﴾ حال من الأرض ، لا مفعول ثان لترى . وقوله : هامدة أي يابسة قاحلة لا نبات فيها .

(229/519)

وقال بعض أهل العلم ، هامدة : أي دارسة الآثار من النبات ، والزرع . قالوا : وأصل الهمود الدروس والدثور . ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس :

قالت قتيلةُ ما لجسمك شاحِباً . . . وأرى ثيابك باليات هُمدا

أَي وأرى ثيابك باليات دارسات ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء ﴾ أي سواء كان من المطر ، أو الأنهار أو العيون أو السواني : ﴿ اهتزت ﴾ : أي تحركت بالنبات . ولما كان النبات نباتاً فيها متصلاً بها ، كان اهتزازه كأنه اهتزازها فأطلق عليها بهذا الاعتبار ، أنها اهتزت بالنبات . وهذا أسلوب عربي معروف .

وقال أبو حيان في البحر المحيط : واهتزازها تخلخلها واضطراب بعض أجسامها لأجل خروج النبات ، وقوله : ﴿ وَرَبَتْ ﴾ أي زادت وارتفعت : وقال بعض أهل العلم : وربت : انتفخت ، لأجل خروج النبات ، وقال ابن جرير الطبري : وربت : أي أضعفت النبات

بمجيء الغيث .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أصل المادة التي منها ربت : الزيادة ، والظاهر أن معنى الزيادة الحاصلة في الأرض : هي أن النبات لما كان نابتاً متصلاً بها صار كأنه زيادة حصلت في نفس الأرض .

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة : والاهتزاز : الحركة على سرور ، فلا يكاد يقال : اهتز فلان لكيت وكيت ، إلا إذا كان الأمر من المحاسن والمنافع ا ه منه .

والاهتزاز أصله : شدة الحركة : ومنه قوله :

تَثنى إذا قامتْ وتهتزُّ إن مشتْ . . . كما اهتزَّ غصْنُ البانِ في وَرَقٍ خُضْر

(230/519)

وقوله : ﴿ وَأَنبَتَتْ ﴾ أي أنبت الله فيها ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أي صنف من أصناف النبات ، والزرع ، والثمار : ﴿ بَهِيجٍ ﴾ أي حسن ، والبهجة : الحسن . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ [النحل : 60] تقول : بهج بالضم بهاجة فهو بهيج ، إذا كان حسناً ، وقرأ عامة السبعة : وربت ، وهو من قولهم : ربا يربو إذا نما وزاد ، وقرأ من الثلاثة أبو جعفر يزيد بن القعقاع : وربأت بهمزة مفتوحة بعد الباء : أي ارتفعت ، كأنه

من الربيئة أو الربيئي ، وهو الرقيب الذي يعلو على شيء مشرف يحرس القوم ويحفظهم .

ومنه قول امرئ القيس :

بَعثنا ربيئاً قبل ذاك مخمَّلا . . . كذئبِ الغضَا يمشي الضَّراء ويتقي

(231/519)

وما أشار إليه جل وعلا في هذه الآية الكريمة : من أن إحياء الأرض بعد موتها ، برهان قاطع على قدرة من فعل ذلك على إحياء الناس بعد موتهم . لأن الجميع أحياء بعد موت ، وإيجاد بعد عدم بينه في آيات كثيرة ، وقد قدمنا في سورة البقرة والنحل ، كثرة الاستدلال بهذا البرهان في القرآن على البعث ، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأرض خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ إِنَّ الذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الموتى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت : 39] وقوله تعالى ﴿ وَيُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : 19] أي من قبوركم أحياء ، بعد الموت : وقوله تعالى ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الخروج ﴾ [ق : 11] أي خروجكم من القبور أحياء بعد الموت وقوله تعالى ﴿ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المآء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 57]

وقوله ﴿ فانظر إلى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الموتى وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم : 50] وقوله تعالى ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النشور ﴾ [فاطر : 9] وقوله تعالى ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الزخرف : 11] ومن ذلك قوله هنا ﴿ وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ ﴾ بدليل قوله بعده :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(232/519)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث . . ﴾ [الحج : 5] .

الريب : الشك . فالمعنى : إنْ كنتم شاكِّين في مسألة البعث ، فإليكم الدليل على صِدْقه ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ . . ﴾ [الحج : 5] أي : الخَلْق الأول ، وهو آدم عليه السلام ، أما جمهرة الناس بعد آدم فخُلِقوا من (نطفة) حية من إنسان حي .

والمتتبع لآيات القرآن يجد الحق – سبحانه وتعالى – يقول مرة في خَلْق الإنسان : ﴿ مِّن

تُرَابٍ . . ﴾ [الحج : 5] ، ومرة ﴿ مِن مَّآءٍ . . ﴾ [الطارق : 6] ، و﴿ مِّن طِينٍ . . ﴾ [الأنعام : 2] ، و﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . . ﴾ [الحجر : 26] ، و﴿ مِن صَلْصَالٍ كالفخار . . ﴾ [الرحمن : 14] وهذه التي دعتْ المستشرقين إلى الاعتراض على أسلوب القرآن ، يقولون : من أيِّ هذه الأشياء خُلِقْتم ؟

وهذا الاعتراض ناشيء من عدم فَهْم لغة القرآن ، فالتراب والماء والطين والحمأ والمسنون والصلصال ، كلها مراحل متعددة للشيء الواحد ، فإذا وضعتَ الماء على التراب صار طيناً ، فإنْ تركتَ الطين حتى يتخمّر ، ويتداخل بعضه في بعض حتى لا تستطيع أنْ تُميّز عنصراً فيه عن الآخر . وهذا عندما يعطَنُ وتتغير رائحته يكون هو الحمأ المسنون ، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، ومنه خلق اللهُ الإنسان وصوَّره ، ونفخ فيه من روحه ، إذن : هذه مراحل للشيء الواحد ، ومرور الشيء بمراحل مختلفة لا يُغيّره .

ثم تكلم سبحانه عن الخَلْق الثاني بعد آدم عليه السلام ، وهم ذريته ، فقال : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ . . ﴾ [الحج : 5] والنطفة في الأصل هي قطرة الماء العَذْب ، كما جاء في قول الشاعر :

بَقَايَا نِطَافٍ أودعَ الغيمُ صَفْوَهَا . . . مُثَقَّلَةُ الأرجَاء زُرْقُ الجَوانبِ

(233/519)

ولا تظهر زُرْقة الماء إلا إذا كان صافياً لا يشوبه شيء ، وكذلك النطفة هي خلاصة الخلاصة ، لأن جسم الإنسان تحدث فيه عملية الاحتراق ، وعملية الأيض أي : الهدم والبناء بصفة مستمرة ينتج عنها خروج الفضلات المختلفة من الجسم : فالبول ، والغائط ، والعرق ، والدموع ، وصَمْغ الأذن ، كلها فضلات ناتجة عن احتراق الطعام بداخل الجسم حيث يمتص الجسم خلاصة الغذاء ، وينقلها إلى الدم .

ومن هذه الخلاصة يُستخلص منيُّ الإنسان الذي تؤخذ منه النطفة ، فهو – إذن – خلاصة الخلاصة في الإنسان ، ومنه يحدث الحمل ، ويتكَّون الجنين ، وكأن الخالق – عز وجل – قد صَفَّاها هذه التصفية ونقَّاها كل هذا النقاء ؛ لأنها ستكون أصْلاً لأكرم مخلوقاته ، وهو الإنسان .

وهذه النطفة لا تنزل من الإنسان إلا في عملية الجماع ، وهي ألذُّ متعة في وجود الإنسان الحيِّ ، لماذا ؟ لو تأملتَ متعة الإنسان ولذاته الأخرى مثل : لذة الذَّوْق ، أو الشم ، أو الملمس ، فهي لذَّاتٌ معروفة محددة بحاسَّة معينة من حواس الإنسان ، أمّا هذه اللذة المصاحبة لنزول المنيِّ أثناء هذه العملية الجنسية فهي لذة شاملة يهتز لها الجسم كله ، ولا تستطيع أنْ تُحدِّد فيها منطقة الإحساس ، بل كل ذرة من ذرات الجسم تحسها .

لذلك أمرنا ربنا – عز وجل – أن نغتسل بعد هذه العملية ؛ لأنها شغلتْ كل ذرة من ذرات

تكوينك ، وربما – عند العارفين بالله – لا تغفل عن الله تعالى إلا في هذه اللحظة ؛ لذلك كان الأمر بالاغتسال بعدها ، هو قول العلماء .

(234/519)

أما أهل المعرفة عن الله وأهل الشطح وأهل الفيوضات فيقولون : إن الله خلق آدم من طين ، وجعل نَسْله من هذه النطفة الحية التي وضعها في حواء ، ثم أتى منها كل الخَلْق بعده ، فكأن في كل واحد منا ذرة من أبيه آدم ؛ لأنه لو طرأ على هذه الذرة موت ما كان نَسْلٌ بعد آدم ، فهذه الذرة موجودة فيك في النطفة التي تلقيها ويأتي منها ولدك ، وهي أصْفى شيء فيك ؛ لأنها الذرة التي شهدتْ الخَلْق الأول خَلْق أبيك آدم عليه السلام .

وقد قرّبنا هذه المسألة وقلنا : لو أنك أخذت سنتيمتراً من مادة ملونة ، ووضعته في قارورة ماء ، ثم أخذتَ تَرجُّ القارورة حتى اختلط الماء بالمادة الملونة فإن كل قطرة من الماء بها ذرة من هذه المادة ، وهكذا لو ألقيتَ القارورة في برميل . . الخ .

إذن : فكل إنسان مِنّا فيه ذرة من أبيه آدم عليه السلام ، هذه الذرة شهدتْ خَلْق آدم ، وشهدتْ العهد الأول الذي أخذه الله على عباده في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ . . ﴾ [الأعراف :

172] .

لذلك ؛ يُسمّي الله تعالى إرسال الرسل بَعْثاً فيقول : ﴿ بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ﴾ [الفرقان : 41] بعثه : كأنه كان موجوداً وله أَصْل في رسالة مباشرة من الله حين أخذ العهد على عبادة ، وهم في ظَهْر آدم عليه السلام ، كما يخاطب الرسول بقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية : 21] أي : مُذكِّر بالعهد القديم الذي أخذناه على أنفسنا .

لذلك اقرأ الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ . . ﴾ [الأعراف : 172] .

(235/519)

هذا في مرحلة الذرّ قبل أنْ يأتي الهوى في النفوس ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ * أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون ﴾ [الأعراف : 172 - 173]

إذن : بعث الله الرسل لتُذكِّر بالعهد الأول ، حتى لا تحدث الغفلة ، وحتى تقيم على الناس الحجة .

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ . . ﴾ [الحج : 5] سمّيت النطفة علقة ؛ لأنها تعلَقُ

بالرحم ، يقول تعالى في آية أخرى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى ﴾ [القيامة : 37 – 38] .

فالمنيُّ هو السائل الذي يحمل النطفة ، وهي الخلاصة التي يتكوَّن منها الجنين ، والعَلَقة هنا هي البُوْيْضَة المخصَّبة ، فبعد أنْ كان للبويضة تعلُّق بالأم ، وللحيوان المنوي (النطفة) تعلُّق بالأب ، اجتمعا في تعلُّق جديد والتقيَا ليتشبَّثا بجدار الرحم ، وكأن فيها ذاتية تجعلها تعلَق بنفسها ، يُسمُّونها (زيجوت) .

ومنها قولهم : فلان هذا مثل العلقة إذ كان ملازماً لك .

بعد ذلك تتحول العلقة إلى مضغة ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ . . ﴾ [الحج : 5] والمضغة : هي قطعة لحم صغيرة قَدْر ما يُمضغ من الطعام ، وهو خليط من عِدَّة أشياء ، كما لو أكلتَ مثلاً قطعة لحم مع ملعقة خضار مع ملعقة أرز ، وبالمضغ يتحوّل هذا إلى خليط ، ذلك لأن جسم الإنسان لا يتكَّون من عنصر واحد ، بل من ستة عشر عنصراً .

هذه المضغة ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ . . ﴾ [الحج : 5] معنى مخلقة يعني : يظهر عليها هيكل الجسم ، وتتشكَّل على صورته ، فهذه للرأس ، وهذه للذراع ، وهذه للرِّجْل وهكذا ، يعني تخلَّقتْ على هيئة الأنسان .

أما غير المخلَّقة ، فقد عرفنا مؤخراً أنها الخلايا التي تُعوِّض الجسم وتُرقِّعه إذا أصابه عَطَب فهي بمثابة (احتياطي) لإعادة تركيب ما تلف من أنسجة الجسم وترميمها ، كما يحدث مثلاً في حالة الجُرْح فإنْ تركتَه لطبيعة الجسم يندمل شيئاً فشيئاً ، دون أنْ يترك أثراً .

نرى هذا في أولاد الفلاحين ، حين يُجرح الواحد منهم ، أو تظهر عنده بعض الدمامل ، فيتركونها لمقاومة الجسم الطبيعية ، وبعد فترة تتلاشى هذه الدمامل دون أنْ تترك أثراً على الإطلاق ؛ لأنهم تركوا الجسم للصيدلية الربانية .

أما إذا تدخَّلنا في الجُرْح بمواد كيماوية إو خياطة أو خلافه فلا بُدَّ أن يترك أثراً ، فترى مكانه لامعاً ؛ لأن هذه المواد أتلفت مسام الجسم ؛ لذلك نجد مثل هذه الأماكن من الجسم قد تغيرتْ ، ويميل الإنسان إلى حَكِّها (وهرشها) ؛ لأن هذه المسام كانت تُخرِج بعض فضلات الجسم على هيئة عرق ، فلما انسدت هذه المسام سببت هذه الظاهرة . هذا كله لأننا تدخَّلْنا في الطبيعة التي خلقها الله .

إذن : فمعنى ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ . . ﴾ [الحج : 5] هي الصيدلية التي تُعوِّض وتُعيد بناء ما تلف من جسم الإنسان .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرحام مَا نَشَآءُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . ﴾ [الحج : 5] أي : نُوضِّح لكم كل ما يتعلَّق بهذه المسألة ﴿ وَنُقِرُّ فِي الأَرحام مَا نَشَآءُ . . ﴾ [

الحج : 5] وهي المضْغة التي قُدِّر لها أنْ تكون جنيناً يكتمل إلى أنْ يولد ؛ لذلك قال : ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . ﴾ [الحج : 5] أو نسقطه ميتاً قبل ولادته .

فإنْ قلتَ : وما الحكمة من خَلْقه وتصويره ، إنْ كان قد قُدِّر له أنْ يموت جنيناً ؟ نقول : لنعرف أن الموت أمر مُطْلق لا رابطَ له ولا سِنّ ، فالموت يكون للشيخ كما يكون للجنين في بطن أمه ، ففي أيِّ وقت ينتهي الأجل .

(237/519)

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً . . ﴾ [الحج : 5] قال : ﴿ نُخْرِجُكُمْ . . ﴾ [الحج : 5] بصيغة الجمع ولم يقُلْ : أطفالاً إنما ﴿ طِفْلاً . . ﴾ [الحج : 5] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ قالوا : في اللغة ألفاظ يستوي فيها المفرد والجمع ، فطفل هنا بمعنى أطفال ، وقد وردتْ أطفال في موضع آخر في قوله سبحانه :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ الحلم . . ﴾ [النور : 59] .

وكما تقول هذا رجل عَدْل ، ورجال عَدْل . وفي قصة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – يتكلم عن الأصنام فيقول : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي . . ﴾ [الشعراء : 77] ولم يقُلْ : أعداء . وحينما تكلم عن ضَيْفه قال : ﴿ هَؤُلآءِ ضَيْفِي . . ﴾ [الحجر : 68] ولم يقل :

ضيوفي ، إذن : المفرد هنا يُؤدّي معنى الجمع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ لِتبلغوا أَشُدَّكُمْ . . ﴾ [الحج : 5] وهكذا ، وسبق أنْ تحدَّثنا عن مراحل عمر الإنسان ، وأنه يمر بمرحلة الرُّشْد : رُشْد البنية حين يصبح قادراً على إنجاب مثله ، ورُشْد العقل حين يصبح قادراً على التصرّف السليم ، ويُحسن الاختيار بين البدائل .

ثم تأتي مرحلة الأشد : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ . . ﴾ [الأحقاف : 15] يعني : نضج نُضْجاً من حوادث الحياة أيضاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر . . ﴾ [الحج : 5] وأرذل العمر يعني رديئه ، حين تظهر على الإنسان علامات الخَوَر والضعف ﴿ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً . . ﴾ [الحج : 5] لأنه ينسى ، وعندها يعرف أن صحته وقوته وسلطانه ليست ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله .

وإذا بلغ الرجل أرذلَ العمر يعود من جديد إلى مرحلة الطفولة تدريجياً ، فيحتاج لمَنْ يأخذ بيده ليقوم أو ليمشي ، كما تأخذ بيد الطفل الصغير ، فإذا تكلّم يتهته ويتلعثم كالطفل الذي يتعلم الكلام . . وهكذا في جميع شئونه .

لذلك يقولون : الزواج المبكر أقرب طريق لإنجاب (والد) يعولُك في طفولة شيخوختك ، ولم يقُلْ : ولداً ؛ لأنه سيقوم معك فيما بعد بدوْر الوالد ، يقولون : لحق والده يعني سنُّهما متقارب .

لكن ، لماذا يُرَدُّ بعضنا إلى أرذل العمر دون بعض ؟ الحق سبحانه جعلها نماذج حتى لا نقول : يا ليت أعمارنا تطول ؛ لأن أعمار الجميع لو طالتْ إلى أرذَلِ العمر لأصبح الأمر صعباً علينا ، فمن رحمة الله بنا أنْ خلق الموت .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَتَرَى الأَرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5]

أي : كما كان خَلْق الإنسان من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مُضْغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ، ثم أخرجه طفلاً ، وبلغ أَشُدَّهُ ، ومنهم مَنْ مات ، ومنهم مَنْ يُرَدُّ إلى أرذَل العمر ، كذلك الحال في الأرض : ﴿ وَتَرَى الأَرض هَامِدَةً . . ﴾ [الحج : 5] .

هامدة : ساكنة ، ومنه قولنا للولد كثير الحركة : اهمد ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت . . ﴾ [الحج : 5] أي : تحركتْ ذراتُها بالنبات بعد سكونها .

والاهتزاز : تحرُّك ما كنت تظنه ثابتاً ، وليس ما كان ثابتاً في الواقع ؛ لأن لكل كائن حركة في ذاته ، حتى قطعة الحديد الجامدة لها حركة بين ذراتها ، لكن ليس لديْك من وسائل

الإدراك ما تدرك به هذه الحركة . ولو تأملت المغناطيس لأدركتَ هذه الحركة بين ذراته ، فحين تُدلِّك القضيب الممغنط وتُمرِّره على قضيب آخر غير مُمغنط في اتجاه واحد ، فإنه يكتسب منه المغناطيسية ، وتمرير المغناطيس في اتجاه واحد معناه تعديل للذرات لتحمل شحنة واحدة سالبة أو موجبة ، فإن اختلف اتجاه الدَّلْك فإن الذرات أيضاً تختلف .

إذن : في الحديد – رمز الصلابة والجمود – حركة وحياة تناسبه ، وإنْ خُيِّل إليك أنه أصمُّ جامد في ظاهرة .

(239/519)

لذلك نقول ﴿ هَامِدَةً . . ﴾ [الحج : 5] يعني : ساكنة في رَأْي العلم ، حيث لا نباتَ فيها ثم ﴿ اهتزت . . ﴾ [الحج : 5] يعني : زادتْ وربَتْ وتحركتْ لإخراج النبات ، إنما هي في الحقيقة لم تكُنْ ساكنة مُطْلقاً ؛ لأن فيها حركة ذاتية بين ذراتها .

ومعنى : ﴿ وَرَبَتْ . . ﴾ [الحج : 5] أي : زادت عن حجمها ، كما تزيد حبة الفول مثلاً حين تُوضَع في الماء ، وتأخذ حظها من الرطوبة ، وكذلك في جميع البقول ، وهذه الزيادة في حجم الحبة هي التي تفلقها إلى فلقتين في عملية الإنبات ، ويخرج منها زبان يتجه إلى أعلى فيكون الساق الذي يبحث عن الهواء ، وإلى أسفل فيكون الجذر الذي يبحث

عن الماء . وتظل هاتان الفلقتان مصدرَ غذاءٍ للنبتة حتى تقوى ، وتستطيع أنْ تمتصَّ غذاءها من التربة ، فإذا أدَّتْ هاتان الفلقتان مهمتهما في تغذية النبتة تحوَّلتَا إلى ورقتين ، وهما أول ورقتين في تكوين النبتة .

كذلك ، نلاحظ في تغذية النبات أنه لا يأخذ كُلَّ غذائه من التربة ، إنما يتغذى بنسبة ربما 90 بالمائة من غذائه من الهواء ، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة إذا نظرتَ إلى إصيص به زرع ، فسوف تجد ما نقص من التربة كمية لا تُذكَر بالنسبة لحجم النبات الذي خرج منها .

وحين تتأمل جذر النبات تجد فيه آية من آيات الله ، فالجذر يمتد إلى أن يصل إلى الرطوبة أو الماء ، حتى إذا وصل إلى مصدر غذائه توقَّف ، ولك أن تنظر مثلاً إلى (كوز الحلبة) فسوف تجد الجذور غير متساوية في الطول ، بحسب بُعد الحبة عن مصدر الرطوبة .

﴿ وَرَبَتْ . . ﴾ [الحج : 5] أي : زادت وانتفشتْ ، كما يحدث في العجين حين تضع فيه الخميرة ﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5] .

(240/519)

هذه صورة حيَّة واقعية نلاحظها جميعاً عياناً : الأرض تكون جرداء ساكنة ، لا حركةَ فيها ، فإذا ما نزل عليها الماء تغيرتْ وتحركتْ ذراتها وتشققتْ عن النبات ، ولو حتى بالمطر الصناعي ، كما نرى في عرفة مثلاً ينزل عليها المطر الصناعي فيخضرُّ الوادي ، لكن حينما ينقطع الماء يعود كما كان لعدم موالاة الماء ، ولو واليتَ عليها بالماء لصارت غابات وأحراشاً وبساتين كالتي نراها في أوروبا .

والمطر لا يحتاج أنْ تُسوَّى له الأرض ؛ لأنه يسْقِي المرتفع والمنخفض على السواء ، على خلاف الأرض التي تسقيها أنت لا بُدَّ أن تُسوِّيها للماء حتى يصل إليها جميعاً .

فإذا أنزل الله تعالى المطر على الأرض الجدباء الجرداء تراها تتفتق بالنبات ، فمن أين جاءت هذه البذور ؟ وكيف لم يُصِبْها العطب ، وهي في الأرض طوال هذه الفترات ؟

الأرض هي التي تحفظها من العطب إلى أن تجد البيئة المناسبة للإنبات ، وهذا النبات الذي يخرج من الأرض دون تدخُّل الإنسان يسمونه (عِذْى) .

أما عن نَقْل هذه البذور في الصحراء وفي الوديان ، فهي تنتقل بواسطة الريح ، أو في رَوَث الحيوانات .

ومعنى : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5] الزوج : البعض يظن الزوج يعني الاثنين ، إنما الزوج كلمة مفردة تدل على واحد مفرد معه مِثْله من جنسه ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [النجم : 45] فكل منهما زوج ، وكما نقول : زوج

أحذية يعني فردة حذاء معها فردة أخرى مثلها ، ومثلها كلمة توأم يعني مولود معه مثله فكل واحد منهما يسمى (توأم) وهما معاً (توأمان) ولا نقول : هما توأم .

(241/519)

وهنا مظهر من مظاهر دِقَّة الأداء القرآني : ﴿ كُلِّ زَوْجٍ . . ﴾ [الحج : 5] لأن كل المخلوقات ، سواء أكانت جماداً أو نباتاً أو حيواناً ، لا بُدَّ فيه من ذكر وأنثى ، هذه الزوجية قال الله فيها : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ . . ﴾ [الذاريات : 49] حتى في الجماد الذي نظنه جماداً لا حركة فيه ، يتكَّون من زوجين : سالب وموجب في الكهرباء ، وفي الذرة ، وفي المغناطيس ، فكلُّ شيء يعطي أعلى منه ، فلا بُدَّ فيه من زوجيْن .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى حينما عالج هذه المسألة عالجها برصيد احتياطي في القرآن ، يقول سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : 36] .

فقوله سبحانه : ﴿ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : 36] رصيد عالٍ لما سيأتي به العلم من اكتشافات تثبت صِدْق القرآن على مَرِّ الأيام ، ففي الماضي عرفنا الكهرباء ، وأنها سالب وموجب فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وفي الماضي القريب عرفنا الذرة فقلنا : هذه مما لا نعلم ،

وفي الماضي القريب عرفنا الذرة فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم .

إذن : خُذْها قضية عامة : كل شيء يتكاثر إلى أعلى منه ، فلا بُدَّ ان فيه زوجية .

فقوله تعالى : ﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5] فالزوج من النبات مفرد معه مثله ، وهذا واضح في لقاح الذكر والأنثى ، هذا اللقاح قد يكون في الذكر وحده ، أو في الأنثى وحدها كما في النخل مثلاً ، وقد يكون العنصران معاً في النبات الواحد كما في سنبلة القمح أو كوز الذرة .

(242/519)

ولو تأملت نبات الذرة لوجدتَ له في أعلاه (شوشة) بها حبيبات دقيقة تحمل لقاح الذكورة ، وفي منتصف العود يخرج الكوز ، وبه شعيرات تصل كل شعرة منها إلى حبة من حبات الذرة المصطفة على الكوز ، وهذه تحمل لقاح الأنوثة ، فإذا هبَّتْ الريح هزَّتْ أعلى العود فتساقطت لقاحات الذكورة على هذه الشعيرات فلقحتها ؛ لذلك نرى الحبة التي لا يخرج منها شعرة إلى خارج الغلاف تضمر وتموت ؛ لأنها لم تأخذ حظها من اللقاح .

ومعنى : ﴿ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5] من البهجة ، فالمراد : الشيء حسن المنظر والجميل

الذي يجذب الأنظار إليه ، وبهجة النظر إلى النبات شائعة لا تقتصر على مَنْ يملكه بخلاف الأكل منه ، فحين تمر ببستان أو حديقة تتمتع بمنظرها وجمال ألوانها وتُسَرُّ برائحتها .

وفي النفس الإنسانية ملكات تتغذى على هذه الخضرة ، وعلى هذه الألوان وتنبسط لهذا الجمال ، ولو لم تكُنْ تمتلكه .

لذلك الحق – سبحانه وتعالى – ينبهنا إلى هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ . . ﴾ [الأنعام : 99] أي : أن النظر مشاع للجميع ، ثم بعد ذلك اتركوا الخصوصيات لأصحابها ، تمتَّعوا بما خلق الله ، ففي النفس ملكَات أخرى غير الطعام .

واقرأ أيضاً قوله تعالى في الخيل : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل : 6] فليست الخيل لحمل الأثقال وفقط ، وإنما فيها جمال وأُبَّهة ، تُرضِي شيئاً في نفوسكم ، وتُشْبِع ملكَة من ملكاتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(243/519)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

(244/519)

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ . . .) (الحج : 5) ، وفي سورة المؤمن : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (غافر : 67) ، ففي الأولى : (ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) ولم يقع التعريف بهذه الأحوال من الانتقال عن العلقة ، وهو الدم المتعقد المتغير عن النطفة ، وهو هنا المني المنفصل يصير (هنا) دماً جامداً ، ثم يصير مضغة ، والمضغة قطعة لحم قدر ما يمضغ مثله ، ثم قد يتم سبحانه خلق تلك النطفة وتخطيطها وتصويرها على ما يشاء من هيئة وصورة ولونية كما قال تعالى : (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ) (آل عمران : 6) ، وقد لا يتم ، فينقص من خلقها ما يشاء من الأعضاء والحواشي ، وإلى هاتين الحالتين الإشارة ، والله أعلم ، بقوله : (مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) ، أي تامة الخلق وغير تامة ، فأشار تضعيف لفظ مخلقة إلى هذا فقيل مخلقة وغير مخلقة ، أما السقط المولود لغير التمام فحصل من مفهوم قوله تعالى بعد : (وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) (الحج :

5) ، إذ مفهوم هذه – والله أعلم – أن بعض ذلك لا يقره تعالى وهو السقط ، هذا – والله أعلم – إلى ما قدمنا ، قوله : (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) أي الأجل الذي يشاء تعالى إبراز الموجود فيه وولادته ، فهذه الانتقالات والأحوال قد اختصت بها هذه الآية ، ولم ترد في آية سورة المؤمن مع البادي في اتحاد المقصود في الموضوعين ، فلسائل أن يسأل عن وجه ما ورد في الآيتين ؟

والجواب ، والله أعلم : أن آية سورة الحج مقصود فيها إقامة البرهان على البعث الأخراوي وبسط الدلالات على كيفية وإرغام منكرية ، ألا ترى أن هذه الأحوال

والانتقالات على ما وضح من التدريج لا تكون إلا من فاعل قادر مختار عليم حكيم ، وقد فسر مقصود هذه الآية وزاده إيضاحاً قوله تعالى : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ . . . .) (يس : 78) ، وقال تعالى : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ . . . .) (الأنبياء : 104) ، ويزيد هذا المقصود أيضاً بياناً تعقيب آية الحج بقوله : (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (الحج : 5) ، فهذا إحياء بعد الموت ، ثم قال تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الحج :

6) ، فتأمل هذا التعقيب وافتتاح الآية بقوله : (إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ) (الحج : 5) ، واعتبر ما انطوت عليه هذه الآي يلح لك ما تقدم من مقصودها .

(246/519)

أما آية سورة المؤمن فلم تتجرد لهذا الغرض وإن تضمنت ذلك بالإيجاز ، وإنما بناؤها على تذكير الخلق وتنبيههم على وحدانيته سبحانه وانفراده بالخلق والأمر وتنزيهه عن الشركاء والأنداد ونفي ما عبد من دونه تعالى ، وتأمل ما تقدم من لدن قوله تعالى : (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) (غافر : 57) الآية المذكورة وما بعدها يبن لك ما قصد بهذه الآية ، وإنما اختصت عن آية سورة الحج بما ذكرنا ، واختصت تلك بما تقدم ، فلذلك زيد فيها من التفصيل ما تقدم ، ولم يكن العكس ليناسب ، والله أعلم بما أراد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 357 . 358 ﴾

(247/519)

بحوث فى مراحل حياة الإنسان السبع

ذكرها صاحب الأمثل :

الآيات السابقة شرحت حركة الإنسان في مسيرة ذات مراحل سبع ، لتبيّن البعث وتثبت إمكانه:

المرحلة الأُولى: عندما كان الإنسان تراباً ، وقد يراد به التراب الذي خلق منه آدم (عليه السلام) . كما قد يكون إشارة إلى أنّ جميع البشر ـ من تراب ، لأنّ جميع المواد الغذائية التي تكوّن النطفة وغذاءها ـ من بعد ـ من تراب . ولا شكّ في أنّ الماء يشكّل جزءاً ملحوظاً من جسم الإنسان ، والجزء الآخر من الأوكسجين والكاربون ، وليس من التراب ، إلاّ أنّ العنصر الأساس الذي تتشكّل منه أعضاء الجسم مصدره التراب . إذن عبارة خلق الإنسان من تراب صحيحة حتماً .

المرحلة الثّانية: (النطفة) : يتحوّل التراب ، هذا الموجود البسيط المهمل العديم الحسّ والحركة ، يتحوّل إلى نطفة تتألّف من أحياء مجهولة مثيرة تسمّى عند الرجل "أسپر" أو الحيمن وعند المرأة "أوول" أو البويضة وهي غاية في الصغر حتّى أنّها تبلغ الملايين في نطفة الرجل !

والمثير أنّ الإنسان يواصل عقب ولادته حركة تدريجيّة هادئة ، تأخذ في الغالب شكل "التكامل الكمّي" في الوقت الذي كانت حركته في الرحم "كيفيّة" ترافقها طفرات سريعة

مغيّرة . والتغيّرات المتعاقبة للجنين في الرحم مدهشة إلى درجة يمكن تشبيهها بحشرة صغيرة بسيطة تتطوّر بعد أشهر قليلة إلى طائرة نفّاثة !

وقد تطوّرت وتوسّعت الدراسات عن "علم الأجنة" اليوم بحيث تمكّن علماؤه من دراسة الجنين في مراحله المختلفة ، وكشفوا عن أسرار هذه الظاهرة العجيبة في عالم الوجود .

وعرضوا النتائج الباهرة التي توصّلوا إليها في دراساتهم عن الجنين .

وفي المرحلة الثّالثة يصبح الجنين علقة ، وتكون خلاياه كحبّات التوت ، بشكل قطعة دم خاثر متلاصقة ، يطلق عليها علميّاً "مورولا" . وبعد مضي مدّة قصيرة تظهر أخاديد التقسيم الصغيرة كبداية لتقسيم أجزاء الجنين ، ويطلق على الجنين في هذه المرحلة اسم "لاستولا" .

(248/519)

وفي المرحلة الرّابعة يتّخذ الجنين شكل قطعة لحم ممضوغ ، دون أن تتّضح معالم الأعضاء فيه . وفجأةً تحدث تغييرات في قشرة "الجنين" وتتّخذ شكلا يلائم العمل المطلوب منه القيام به ، فتظهر أعضاء الجسم تدريجيّاً ، ويسقط كلّ جنين

لا يمكنه المرور بهذه المرحلة ، ويمكن أن تكون عبارة (مخلّقة وغير مخلّقة) إشارة إلى هذه

المرحلة ، أي أنّ الجنين يكون "كامل الخلقة" أو "ناقص الخلقة" .

ومن المثير أنّ القرآن المجيد ذكر عبارة (لنبيّن لكم) بعد ذكر هذه المراحل الأربع ، مؤكّداً أنّ هذه التغييرات السريعة المدهشة التي تغيّر قطرة ماء صغيرة إلى إنسان كامل ، لدليل واضح على أنّ الله قادر على كلّ شيء .

ثمّ أشار القرآن الكريم إلى مرحلة الجنين الخامسة والسّادسة والسّابعة ، التي تلي الولادة أي "الطفولة" و "البلوغ" و "الشّيخوخة" (1) .

والجدير بالذكر أنّ ولادة الإنسان ـ من التراب ـ كائناً حيّاً ، قفزة كبيرة ، ومراحل الجنين المختلفة قفزات متعاقبة ، وولادة الإنسان من بطن اُمّه قفزة مهمّة جدّاً ، وهكذا البلوغ والشيخوخة .

وتعبير القرآن عن يوم القيامة بالبعث ، قد يكون إشارةً إلى مفهوم القفزة ذاتها التي تحدث يوم البعث أيضاً . وما أجدرنا بالإنتباه إلى أنّ القرآن تحدّث عن مراحل تكوّن الجنين قبل أن يظهر علم الأجنّة ، وحديثه عنها في ذلك الزمن دليل حيّ على أنّ هذا الكتاب العظيم إنّما هو وحي يُوحى من قُدرة قادرة هي التي أبدعت الطبيعة وما وراءها .

2 ـ المعاد الجسماني

ممّا لا شكّ فيه أنّ القرآن الكريم أينما تحدث عن البعث قصد بعث الإنسان جسماً وروحاً في العالم الاُخروي ، والذين حصروا البعث في الروح وقالوا ببقائها هي وحدها لم يفقهوا آيات

القرآن قطّ .

---

1 ـ الذي يثير الإنتباه أنّ تعبير القرآن (ثمّ نخرجكم طفلا) عن ولادة الإنسان لم يرد بصيغة الجمع (أطفال) وفقاً للقاعدة ، إلاّ أنّ هذا التعبير (طفلا) يمكن أن يكون مصدراً يتساوى فيه المفرد والجمع ، أو أن يكون الهدف بيان النوع . وليس خصائص الأطفال ، فالفروق بين البشر في هذه المرحلة مخفية تبرز في المراحل اللاحقة .

(249/519)

فهذه الآيات المباركة كالآية السابقة تصرّح بالمعاد الجسماني . وإلاّ فما هو وجه التشابه بين المعاد الروحي ، ومراحل الجنين وإحياء الأرض الموات بنمو النباتات ؟ ويؤكّد ذلك ختام الآيات التي نحن بصددها إذ تقول: (وإنّ الله يبعث من في القبور) والقبر موضع جسم الإنسان وليس روحه .

وأساساً فانّ تعجّب المشركين إنّما هو من البعث الجسماني ، فهم يقولون: كيف يمكن للإنسان أن يعود للحياة ثانية بعد ما صار تراباً ؟ وبقاء الروح لم يكن شيئاً عجباً ، لأنّه كان موضع قبول ورضى الأقوام الجاهلية .

3 ـ ما هو "أرذل العمر" ؟

"الأرذل" مشتقّة من "رذل" أي المنحطّ وغير المرغوب فيه . ويقصد بـ "أرذل العمر" تلك المرحلة من عمر الإنسان التي هي أكثر إنحطاطاً وغير مرغوب فيها لما يفقده فيها الإنسان من القوّة والذاكرة ، ولما يغلبه فيها من الضعف والإنفعال ، حتّى تراه يغتاظ من أدنى شيء ، ويرضى ويفرح لا يسر شيء ، ويفقد سعة صدره وصبره ، وربّما قام بحركات طفولية . مع فارق بينه وبين الطفل وهو أنّ الناس لا يتوقّعون منه ذلك ، لأنّه ليس طفلا ، مضافاً إلى أنّ الطفل يؤمل في أن يكبر وينضج جسديّاً ونفسيّاً وتزول عنه هذه الحركات الصبيانية ، لهذا يتركوا أحراراً في ممارستها ، وليس كذلك في الفرد المسنّ ، أي أنّ الطفل ليس لديه شيء ليفقده ، ولكن المسنّ يفقد رأس مال حياته بذلك . وعلى هذا فإنّ وضع الشيوخ المعمّرين يثير الشفقة والأسى عند مقارنته بوضع الأطفال .

(250/519)

وجاء في بعض الأحاديث أنّ أرذل العمر هو الذي يبلغ مئة عام وأكثر وقد تعني هذه العبارة نوع الأشخاص ، وإلاّ فهناك من يبلغ هذه الحالة وسنّهم أقل من مائة عام . كما أنّ هناك أشخاصاً تجاوزت أعمارهم مئة عام وهم بكامل وعيهم وذكائهم . وتندر مشاهدة من يصابون بهذه الحالة بين العلماء الذين شغلتهم المعارف والبحوث .

وما أولانا بدعاء الله تعالى أن يحفظنا من هذه الحالة ! وما أجدرنا أن ننهي غرورنا وغفلتنا بمجرد الفكر بهذه العاقبة ! علينا أن نفكّر ماذا كنّا وعلى ماذا أصبحنا وماذا سنكون ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الأمثل حـ 10 صـ 287 . 290 ﴾

(251/519)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾

أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان ، عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات ، بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد . فوالذي لا إله إلا غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما

يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها " .

وأخرج أحمد وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن النطفة تكون في الرحم أربعين يوماً على حالها لا تتغير ، فإذا مضت الأربعون صارت علقة ، ثم مضغة كذلك ، ثم عظاماً كذلك ، فإذا أراد أن يسوي خلقه بعث إليه ملكاً فيقول : يا رب ، أذكر أم أنثى ؟ أشقي أم سعيد ؟ أقصير أم طويل ؟ أناقص أم زائد ؟ قوته أجله ، أصحيح أم سقيم ؟ فيكتب ذلك كله " .

(252/519)

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم ، عن ابن مسعود قال : النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك من الأرحام بكفه فقال : يا رب ، مخلقة أم غير مخلقة ؟ فإن قيل غير مخلقة ، لم تكن نسمة وقذفتها الرحم دماً ؛ وإن قيل مخلقة قال : يا رب ، أذكر أم أنثى ؟ أشقي أم سعيد ؟ ما الأجل وما الأثر وما الرزق ؟ وبأي أرض تموت ؟ فيقال للنطفة : من ربك ؟ فتقول : الله . فيقال : من رازقك ؟ فتقول : الله . فيقال له : اذهب إلى أمّ الكتاب ، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة . قال : فتخلق فتعيش في أجلها وتأكل في رزقها وتطأ في أثرها ، حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في ذلك المكان " .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : إذا وقعت النطفة في الرحم ، بعث الله ملكاً فقال : يا رب ، مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قال غير مخلقة مجها الرحم دماً ؛ وإن قال مخلقة قال : يا رب ، فما صفة هذه النطفة . . . أذكر أم أنثى ؟ وما رزقها ؟ وما أجلها ؟ أشقي أم سعيد ؟ فيقال له : انطلق إلى أم الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة . فينطلق فينسخها ، فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفتها .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" إن الله تبارك وتعالى وكل بالرحم ملكاً قال : أي رب ، نطفة أي رب ، علقة أي رب ، مضغة ؟ فإذا قضى الله تعالى خلقها قال : أي رب ، شقى أو سعيد ؟ ذكر أو أنثى ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه " .

وأخرج أحمد ومسلم والبيهقي في الاسماء والصفات ، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذني هاتين يقول : " إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة " .

(253/519)

وفي لفظ : " إذا مر بالنطفة إثنتان وأربعون ليلة ، بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ، ثم قال : يا رب ، أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك ، ثم يقول : يا رب ، أجله ؟ فيقول ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يقول : يا رب ، رزقه ؟ ويقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك ، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على أمره ولا ينقص " .

وفي لفظ : " يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة ، فيقول : يا رب ، أشقي أو سعيد ؟ فيُكْتَبان فيقول : أي رب ، أذكر أو أنثى ؟ فيكْتبان . فيكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص " .

وأخرج ابن أبي حاتم وصححه عن ابن عباس في قوله ﴿ مخلقة وغير مخلقة ﴾ قال : المخلقة ، ما كان حياً ﴿ وغير مخلقة ﴾ ما كان من سقط .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عكرمة قال : العلقة الدم ، والمضغة اللحم والمخلقة ، التي تم خلقها ﴿ وغير مخلقة ﴾ السقط .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ مخلقة وغير مخلقة ﴾ قال : تامة وغير تامة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي العالية قال ﴿ غير مخلقة ﴾ السقط .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الشعبي قال : إذا دخل في الخلق الرابع كانت نسمة

مخلقة ، وإذا قدم فيها قبل ذلك فهي غير مخلقة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ﴿ مخلقة وغير مخلقة ﴾ قال : السقط مخلوق وغير مخلوق ﴿ ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ قال : التمام .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ قال : إقامته في الرحم حتى يخرج .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ قال : هذا ما كان من ولد يولد تاماً ليس بسقط .

(254/519)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ لنبين لكم ﴾ قال : إنكم كنتم في بطون أمهاتكم كذلك .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في قوله ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ قال : لا نبات فيها .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ أي غبراء متهشمة ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت

وربت ﴾ يقول : نفرق الغيث في سبحتها وربوها ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أي حسن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ زوج بهيج ﴾ قال : حسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(255/519)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾

قوله : ﴿ مِّنَ البعث ﴾ : يجوز أن يتعلَّق ب " ريب " ، ويجوز أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه صفةٌ ل ريب . وقرأ الحسن " البَعَث " بفتح العينِ . وهي لغة كالطَّرَدِ والجَلَب في الطَّرْد والجَلْب بالسكون . قال الشيخ : " والكوفيون إسكانُ العينِ عندهم تخفيفٌ [يقيسونه] فيما وسطَه حرفُ حلقٍ كالنَّهْرِ والنَّهَر والشَّعْرِ والشَّعَر ، والبَصْريون لا يقيسونه ، وما وَرَدَ من ذلك هو عندهم مِمَّا جاء فيه لغتان " قلت : فهذا يُوْهِمُ ظاهرُه أنَّ الأصلَ البَعَث بالفتح ، وإنما خُفِّف ، وليس الأمرُ كذلك ، وإنما مَحَلُّ النزاع إذا سُمِع الحلقيُّ مفتوحَ العين : هل يجوزُ

تسكينُه أم لا ؟ لا أنه كلُّ ما جاء ساكنَ العينِ من الحَلْقِيّها يُدَّعى أن أصلَها الفتحُ كما هو ظاهرُ عبارتِه .

قوله : ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ العامَّةُ على الجرِّ في " مُخَلَّقةٍ " ، وفي " غير " ، على النعت . وقرأ ابن أبي عبلة بنصبِهما على الحالِ من النكرةِ ، وهو قليلٌ جداً وإن كان سيبويه قاسه .

والعَلَقَةُ : القطعةُ من الدم الجامدة . وعن بعضهم وقد سُئِل عن أصعبِ الأشياءِ فقال : " وَقْعَ الزَّلَقِ على العَلَق " أي : على دمِ القتلى في المعركة . والمُضْغَةُ : القطعةُ من اللحمِ قَدْرَ ما تُمضَغُ نحو : الغُرفة والأُكْلة بمعنى : المغروفة والمأكولة . والمُخَلَّقَةُ : المَلْساء التي لا عَيْبَ فيها مِنْ قولهم : صخرةٌ خَلْقاءُ أي : مَلْساء . وخَلَقْتُ السِّواكَ : سَوَّيْتُه ومَلَسْتُه . وقيل : التضعيفُ في " مُخَلَّقَة " دلالةٌ على تكثيرِ الخَلْق لأنَّ الإنسانَ ذو أعضاءٍ متباينةٍ وخُلُقٍ متفاوتةٍ . قاله الشعبي وقتادة وأبو العالية . وهو معنى حسنٌ .

(256/519)

قوله : ﴿ وَنُقِرُّ ﴾ العامَّةُ على رفع " ونُقِرُّ " لأنه مستأنفٌ ، وليس علةً لما قبلَه فينتصبَ نَسَقاً على ما تقدَّمه . وقرأ يعقوب وعاصم في روايةٍ بنصبه . قال أبو البقاء : " على أَنْ

يكونَ معطوفاً في اللفظ ، والمعنى مختلف ؛ لأنَّ اللامَ في " لنُبيِّنَ " للتعليل ، واللامَ المقدرةَ من " نُقِرُّ " للصيرورة " وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ قولَه " معطوفاً في اللفظ " يَدْفعه قولُه : " واللامُ المقدرة " فإنَّ تقديرَ اللام يقتضي النصبَ بإضمارِ " أَنْ " بعدها لا بالعطفِ على ما قبله .

وعن عاصم أيضاً " ثم نُخْرِجَكم " بنصب الجيم . وقرأ ابن أبي عبلة " ليبيِّنَ ويَقِرُّ " بالياء من تحتُ فيهما ، والفاعلُ هو اللهُ تعالى كما في قراءة النون . وقرأ يعقوب في رواية " ونَقُرُّ " بفتح النون وضم القاف ورفع الراء ، مِنْ قَرَّ الماءَ يَقُرُّه أي : صَبَّه . وقرأ أبو زيد النحوي " ويَقِرَّ " بفتح الياءِ من تحتُ وكسرِ القاف ونصبِ الراء أي : ويَقِرَّ اللهُ . وهو مِنْ قرَّ الماء إذا صبَّه . وفي " الكامل " لابن جبارة " لِنُبَيِّن ونُقِرَّ ثم نُخْرِجَكم " بالنصبِ فيهنَّ يعني وبالنون في الجميع المفضل .

بالياء فيهما مع النصب : أبو حاتم ، وبالياء والرفع عمر بن شبة " انتهى .

وقال الزمخشري : / " والقراءةُ بالرفع إخبارٌ بأنه تعالى يُقِرُّ في الأرحامِ ما يشاءُ أَنْ يُقِرَّه " . ثم قال : " والقراءةُ بالنصب تعليلٌ ، معطوفٌ على تعليلٍ . معناه : خلقناكم مُدَرَّجين ، هذا التدريجُ لغرضين ، أحدهما : أن نبيِّنَ قدرتنا . والثاني : أَنْ نُقِرَّ في الأرحام مَنْ نُقِرُّ ، ثم يُوْلَدوا ويَنْشَؤوا ويَبْلُغوا حَدَّ التكليفِ فأُكَلِّفَهم . ويَعْضُد هذه القراءةَ قولُه ﴿ ثُمَّ لتبلغوا أَشُدَّكُمْ ﴾ .

قلت : تسميةُ مثلِ هذه الأفعالِ المسندة إلى الله تعالى غَرَضاً لا يجوز .

وقرأ ابن وثاب "نِشاء" بكسر النون، وهو كسرُ حرفِ المضارعة، وقد تقدَّم ذلك في أولِ هذا الموضوعِ.

قوله: ﴿ طِفْلاً ﴾ حالٌ مِنْ مفعول "نُخْرِجكم"، وإنما وُحِّد لأنَّه في الأصل مصدرٌ كالرِّضا والعَدْل، فيَلْزَمُ الإفرادُ والتذكيرُ، قاله المبرد: إمَّا لأنه مرادٌ به الجنسُ، وإمَّا لأن المعنى: يُخْرِجُ كلَّ واحدٍ منكم نحو: القومُ يُشْبعهم رغيفٌ أي: كلُّ واحدٍ منهم. وقد يطابِقُ به ما يُراد به، فيقال: طفلان وأطفال. وفي الحديث: "سئل عن أطفال المشركين" والطِّفْلُ يُطْلَقُ على الولدِ مِنْ حين الانفصالِ إلى البلوغ. وأمَّا الطَفْل بالفتح فهو الناعم، والمرأة طَفْلة قال:

3371 ولقد لَهَوْتُ بِطَفْلةٍ مَيَّالَةٍ . . . بَلْهاءَ تُطْلِعُني على أَسْرارِها

أمَّا الطَّفَل بفتح الطاءِ والفاءِ فوقتُ ما بعد العصر، مِنْ قولِهم: طَفَلَت الشمسُ إذا مالَتْ للغُروب. وأطفلتِ المرأةُ أي: صارت ذاتَ طِفْلٍ.

وقرأت فِرْقَةٌ "يَتَوَفَّى" بفتح الياء. وفيه تخريجان، أحدهما: أنَّ الفاعلَ ضميرُ الباري تعالى أي: يَتَوَفَّاهُ اللهُ تعالى، كذا قدَّره الزمخشري. والثاني: أن الفاعلَ ضميرُ "مَنْ" أي:

يتوفى أجلَه . وهذا القراءةُ كالتي في البقرة ﴿ والذين يَتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ ﴾ [الآية : 234]

أي : مدتهم .

ورُوي عن أبي عمروٍ ونافع أنهما قرآ " العُمْر " بسكون العينِ وهو تخفيفٌ قياسيٌّ نحوة " عُنْق " في " عُنُق " .

قوله : ﴿ لِكَيْلاَ ﴾ متعلقٌ ب "يُرَدُّ" . وتقدَّم نظيره في النحل .

و" هامدةً " نصب على الحال لأن الرؤيةَ بصريةٌ . والهُمُود : السكونُ والخُشُوع . وهَمَدَت الأرضُ : يَبِست ودَرَسَتْ . وهَمَدَ الثوبُ : بَلِي . قال الأعشى :

3372 قالَتْ قُتَيْلَةُ ما لجِسْمِكَ شاحباً . . . وأرى ثيابَكَ بالِياتٍ هُمَّدا

(258/519)

والاهتزازُ : التحرُّكُ ، وتُجُوِّز به هنا عن إنباتِ الأرض نباتَها بالماء . والجمهورُ على " رَبَتْ " أي : زادَت ، مِنْ رَبا يَرْبُو . وقرأ أبو جعفر وعبد الله ابن جعفر وأبو عمروٍ في رواية " وَرَبَأَت " بالهمزِ أي ارتفَعَتْ . يقال : رَبَأَ بنفسه عن كذا أي : ارتفعَ عنه . ومنه الرَّبِيئَةُ وهو مَنْ يَطْلُعُ على موضعٍ عالٍ لينظر للقوم ما يأتيهم . ويقال له " رَبِيْءٌ " أيضاً قال الشاعر :

3373 بَعَثْنا رَبِيْئاً قبلَ ذلك مُخْمِلاً . . . كذئب الغضى يمشي الضَّراء ويَتَّقي

قوله : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنه صفةٌ للمفعولِ المحذوفِ تقديره : وأنبتَتْ ألواناً أو أزواجاً من كلِّ زَوْج . والثاني : أنَّ " مِنْ " زائدة أي : أنبتَتْ كلَّ زوج . وهذا ماشٍ عند الكوفيين والأخفش .

والبهيجُ : الحَسَن الذي يُسِرُّ ناظرَه . وقد بَهُجَ بالضم بَهاجَةً وبَهْجَةً أي : حَسُن . وأبهجني كذا أي : سرَّني بحُسْنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 230.235 ﴾

(259/519)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ .

التبس عليهم جواز بعثه الخَلْق واستبعدوه غاية الاستبعاد ، فلم ينكر الحق عليهم إلا بإعراضهم عن تأمل البرهان ، واحتجَّ عليهم في ذلك بما قطع حجتهم ، فَمَنْ تَبِعَ هُداه رَشِدَ ، ومَنْ أصرَّ على غَيِّه تَرَدَّى في مهواة هلاكه .

واحتجَّ عليهم في جواز البعث بما أقروا به في الابتداء أن الله خَلَقَهم وأنه ينقلهم من حال إلى حال أخرى ؛ فبدأهم من نطفة إلى علقة ومنها ومنها . . . إلى أَنْ نَقَلَهم من حال شبابهم إلى زمان شَيْبهم ، ومن ذلك الزمان إلى حين وفاتهم .

واحتجَّ أيضاً عليهم بما أشهدهم كيف أنه يحيي الأرض – في حال الربيع – بعد موتها ، فتعود إلى ما كانت عليه في الربيع من الخضرة والحياة . والذي يَقْدِرُ على هذه الأشياء يقدر على خَلْق الحياة في الرِّمة البالية والعظام النخرة .

قوله : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ [الحج : 5] : زمان الفترة بعد المجاهدة ، وحال الحجبة عقب المشاهدة .

ويقال أرذل العمر السعي للحظوظ بعد القيام بالحقوق .

ويقال أرذل العمر الزلة في زمان المشيب .

ويقال أرذل العمر الإقامة في منازل العصيان .

ويقال أرذل العمر التعريج في أوطان المذلة .

ويقال أرذل العمر العِشْرَةُ مع الاضداد .

ويقال أرذل العمر عَيْشُ المرءِ بحيث لا يُعْرَفُ قَدْرُه .

ويقال أرذل العمر بأن يُوكَل إلى نَفْسِه .

ويقال أرذل العمر التطوح في أودية الحسبان أن شيئاً بغير الله .

ويقال أرذل العمر الإخلاد إلى تدبير النَّفْس ، والعَمَى عن شهود تقدير الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 530 ﴾

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

.36.. . وتري الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذه الحقيقة الكونية جاء ذكرها بهذا النص القرآني الكريم في ختام الآية الخامسة من سورة الحج , وهي سورة مدنية , مجموع آياتها ثمان وسبعون , وهي السورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي جمعت بين سجدتين من سجدات التلاوة , وقد سميت باسم هذه الشعيرة الإسلامية الكبري الحج لورود الإشارة فيها إلي الأمر الإلهي بالأذان في الناس بالحج إلي أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) .

ويدور محور السورة حول العديد من التشريعات الاسلامية بأحكام الحج , والطعام , والإذن بالقتال والجهاد في سبيل الله دفاعا عن النفس , وعن الدين , وشعائره , ومقدساته

, وعن أعراض , وأموال , وممتلكات , وأراضي المسلمين , ودفعا لظلم الظالمين , ولبغي الباغين المتجبرين في الأرض بغير الحق . . . ! ! !

ويصحب هذه التكاليف الوعد القاطع من الله (تعالي) بنصر المجاهدين في سبيله وبالتمكين للمؤمنين به الذين ينهضون في غير تردد لرد كل عدوان باغ علي المسلمين أو حتي علي غيرهم من البشر المسالمين . . ! ! ! مع تأكيد قوة الله البالغة , وضعف الشركاء المزعومين , والاشارة إلي مصارع الغابرين من الكفار والمشركين والظالمين , وإلي سنن الله في ذلك , وهي سنن لا تتوقف ولا تتبدل ولا تتخلف .

ومن الأمور المسلم بها أن التشريع لم يؤمر به إلا بعد قيام الدولة الاسلامية في المدينة المنورة , ومن هنا كان الاستنتاج الصحيح بأن السورة مدنية .

وعلي الرغم من ذلك فإن سورة الحج قد ابتدأت بالتحذير الإلهي للناس كافة من هول الساعة , وبالتأكيد علي

حقيقة البعث , وبالتركيز علي توحيد الله , وإنكار الشرك , وبذكر الدمار الذي لحق بالمكذبين من الأمم السابقة , وتفيض السورة بوصف مشاهد الآخرة , وأهوال البعث

والحساب , وجزاء المؤمنين وعقاب الكافرين وهي من قضايا القرآن المكي , وإن كان لا ينفرد بها وحده .

وتكثر السورة من الأدلة الكونية المثبتة لطلاقة القدرة الإلهية في الخلق , وفي الافناء والبعث , وفي الحساب والجزاء .

وقد استهلت السورة الكريمة بالأمر بتقوي الله , وبالتحذير الشديد من أهوال ما سمته زلزلة الساعة , وفيها يدمر كل شيء في الكون في آخر عمر الدنيا , وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالي) : يا أَيُّهَا الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم , يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وتري الناس سكاري وما هم بسكاري ولكن عذاب الله شديد .

(الحج : 2,1)

وتنتقل السورة بسرعة إلي الحديث عمن يضلهم الشيطان فيجادلون في الله (تعالي) بغير علم , ولا هدي , ولا كتاب منير , أي بالجهل والباطل , وهؤلاء لهم في الدنيا خزي , وفي الآخرة عذاب شديد , لأن مهمة الشيطان في الدنيا هي محاولة إضلال الناس حتي يقود من يطيعه إلي الجحيم . . . ! ! !

وتضرب سورة الحج برهانا علي حتمية البعث من حقيقة خلق الإنسان من تراب , مرورا بمراحل الجنين المتعاقبة , حتي يخرج إلي الحياة طفلا ناميا حتي يبلغ أشده فيحيا في هذه

الدنيا كما أراد له الله , وليس له من بعد هذه الحياة إلا الموت , طال أجله أم قصر . . ! !

وشبهت السورة خلق الانسان بخلق النبات وذلك بإنزال الماء علي الأرض الهامدة فتهتز وتربو إلي أعلي حتي تنشق لتفسح طريقا سهلا للنبتة الطيبة المنبثقة - بقدرة الله - من خلالها في زوجية بهيجة , وسوف يتم إحياء الموتي بنفس الطريقة التي يحيي بها الله (تعالي) الأرض الهامدة .

وتشير السورة الكريمة إلي ظاهرة من ظواهر النفس الإنسانية مؤداها أن

من الناس من يعبد الله (تعالي) طمعا في عظيم عطائه فقط , فإن أصابه خير اطمأن به , وإن أصابته فتنة انقلب علي وجهه فخسر الدنيا والآخرة , وهو الخسران المبين , وحذرت السورة من رجس الوثنية , ومن قول الزور , ومن الشرك بالله , وعرضت لشيء من أوضاع المشركين الذين يعبدون من دون الله (تعالي) شركاء لم ينزل بهم سلطانا . والله منزه عن الشريك والشبيه والمنازع . وتنكر هذه الشراكة المفتراة , وتؤكد عجز هؤلاء الشركاء عن نفع أو ضر من أشركوا بهم , ... إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . (الحج

(73:

كما تعرض سورة الحج لشيء من ثواب المؤمنين , ولعذاب الكافرين , وللفصل بين أصحاب الملل والنحل المختلفة , وتؤكد أن جميع ما في هذا الوجود يسجد لله (تعالي) في عبودية كاملة , وأن هذا الخضوع بالعبودية لله الخالق هو قمة التكريم للمخلوقات , ومن يعرض عن ذلك الخضوع لله من أصحاب الإرادة الحرة فليس له من مكرم , وأشارت سورة الحج إلي أن من ألوان الكفر بالله الصد عن سبيله . . . , وعن المسجد الحرام , والإلحاد والظلم فيه , وأشارت إلي هداية إبراهيم (عليه السلام) إلي مكان البيت الحرام , وأمره برفع قواعده , وإعادة بنائه هو وولده اسماعيل (عليه السلام) , وتطهيره للطائفين والقائمين والركع السجود , وشرعت لفريضة الحج ومافيها من تعظيم لشعائر الله , مما يؤكد أن هذا النسك الاسلامي قد شرع للأمم من قبل بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) حتي يشكروا الله (تعالي) علي فضله .

وتكرر سورة الحج تأكيد وحدانية الله , وطلاقة قدرته , والأمر بالخضوع الكامل لجلاله بالاسلام له , وتبشر الذين تخشع قلوبهم بذكره والصابرين علي قضائه والذين يقيمون الصلاة , وينفقون مما رزقهم الله بخيري الدنيا

والآخرة , وتؤكد دفاع الله (تعالي) عن المؤمنين به , وأنه (تعالي) لا يحب كل خوان كفور

.

ويتكرر الإذن بالقتال الدفاعي للذين ظلموا من الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله (كإخواننا أهل فلسطين المظلومين في زماننا الذين أخرجهم حثالات الأمم ونفايات الشعوب من المستعمرين الغربيين الصهاينة من أرضهم وممتلكاتهم ومساكنهم) وتؤكد السورة الكريمة أن الله (تعالي) علي نصرهم لقدير , وتشجع علي مناصرتهم بالتأكيد علي أن الله (سبحانه) ناصر من ينصره , وتتحدث السورة الكريمة في أكثر من موضع منها عن جزاء المهاجرين في سبيل الله , والشهداء في ميادين الجهاد من أجل إعلاء دينه وإقامة عدله في الأرض , وتكرر تعهد الله (تعالي) بنصرة المظلومين , وتقارن بين جزاء المؤمنين بآيات الله وعقاب المكذبين بها والساعين في محاولة يائسة لاطفاء نور الله في الأرض بإلقائهم في جهنم وبئس المصير . وتصف المؤمنين بالله بأنهم إن مكنوا في الأرض أقاموا الصلاة , وآتوا الزكاة , وأمروا بالمعروف , ونهوا عن المنكر , وأن لله عاقبة الأمور . وتخاطب السورة الكريمة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) مواسية إياه : بأن تكذيب الكافرين لنبوته ولرسالته ليس أمرا جديدا في طبائع البشر , فقد كذبت الأمم الكافرة من قبل كل أنبياء الله ورسله : قوم نوح , وعاد , وثمود , وقوم ابراهيم , وقوم لوط ,

وأصحاب مدين , وقوم موسي وغيرهم , وكان عقاب المكذبين الدمار الذي تشهد به آثارهم من القصور المهجورة والآبار المعطلة , وتتساءل السورة الكريمة : أفلم يتحرك الناس في الأرض فيدركوا هذه الحقائق حتي تكون عبرة لهم ؟ وتؤكد أنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور . . . ! !

ويتعجب سياق السورة الكريمة من استعجال الكافرين لعذاب الله , وتؤكد أن الله (تعالي) لن يخلف وعده , وإن استبعد

(264/519)

الكافرون ذلك لطول آماد الله فاليوم عنده (سبحانه) بألف سنة مما يعد أهل الأرض .

وتأمر السورة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) أن يبلغ الناس كافة بأنه نذير من الله مبين . .

وتختتم سورة الحج بتقرير أن الله (تعالي) يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس , وتأمر بعبادة الله (تعالي) ركوعا وسجودا وذكرا بما أمر , كما تأمر بفعل الخيرات , وبالجهاد في سبيل الله حق الجهاد , حتي يفلح العباد . وتؤكد أنه ما في دين الإسلام من حرج , وأنه رسالة السماء إلي الأرض علي فترة من الرسل . . ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين

من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء علي الناس . . . ولكي نكون جديرين بهذه الشهادة علي الناس تختتم السورة الكريمة بأمرنا بإقام الصلاة , وإيتاء الزكاة , وبالاعتصام بالله (تعالي) هو مولانا ومولي كل موجود , وهو (سبحانه) نعم المولي ونعم النصير .

ومن الأدلة الكونية التي ساقتها سورة الحج تصديقا لما جاء بها من أمور الغيب وأوامر الله مايلي :

(1) خلق الإنسان من تراب , ودقة مراحل الجنين المتتالية التي يمر بها حتي يخرج للحياة طفلا , يحيا ماشاء له الله (تعالي) أن يحيا ثم يتوفاه الله عند نهاية أجله المحدد .

(2) اهتزاز الأرض , وارتفاعها , واخضرارها , وإنباتها من كل زوج بهيج بمجرد إنزال الماء عليها , وشبه ذلك مع خلق الإنسان من تراب .

(3) التأكيد علي سجود كل من في السماوات ومن في الأرض لله (تعالي) طوعا أو كرها .

(4) قوله (تعالي) :000000 وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (الحج :47)

(5) التعبير عن دوران الأرض حول محورها بإيلاج كل من الليل والنهار في الآخر .

(6) تسخير كل مافي الأرض , وجري الفلك في البحر بأمر الله .

(7) إمساك السماء أن تقع علي الأرض إلا بإذن الله .

(8) إحياء الإنسان أي خلقه من

العدم , ثم إماتته , ثم إحياؤه مرة أخري (أي بعثه)

(265/519)

---

(9) عجز المخلوقين عن الخلق , وعن استنقاذ ما يسلبهم الذباب .

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلي معالجة مستقلة , ولذا فسوف أقتصر هنا علي

النقطة الثانية فقط ألا وهي التي يصفها الحق (تبارك وتعالي) بقوله (عز من قائل) :

. . . وتري الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج

. . (الحج :5)

وقبل ذلك لابد من استعراض لدلالات الألفاظ الغريبة في الآية الكريمة ولأقوال المفسرين

فيها .

الدلالة اللغوية

من الألفاظ الغريبة في هذا النص القرآني الكريم مايلي :

(1) هامدة : يقال في اللغة (همدت) النار أي خمدت وطفئت جذوتها وذهبت البتة ;

ومنه أرض (هامدة) أي لا نبات فيها , ونبات (هامد) أي يابس , و (الاهماد) هو

الإقامة بالمكان كأنه صار (ذا همد) , وقيل (الإهماد) السرعة وهي عكس الخمود والخمول , وإن كان ذلك صحيحا فتصبح الكلمة من الأضداد كالإشكاء في كونه تارة لإزالة الشكوي , وتارة لإثباتها , ومعني قوله (تعالي) : وتري الأرض هامدة أي جافة , قاحلة لا نبات فيها , يقال (همدت) الأرض (تهمد) (همودا) أي يبست ودرست , و (همد) الثوب أي بلي .

وقد وردت الصفة (هامدة) مرة واحدة في القرآن الكريم , وجاءت بنفس المعني بالتعبير (خاشعة) في قول الحق (تبارك وتعالي) :

ومن آياته أنك تري الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتي إنه علي كل شيء قدير

(فصلت :39)

(2) اهتزت : هذا الفعل بهذه الصياغة وفي نفس المعني جاء في كتاب الله مرتين (فصلت :39, والحج :5), كما جاء بصيغة الأمر (هزي) مرة واحدة (مريم :25), وفي صيغة المضارع (تهتز) مرتين (النمل :10, القصص :31) .

ومعني اهتزت هنا : انتفضت وتحركت في رأي العين , يقال :(هز) الشيء (فاهتز) أي حركه فتحرك بشدة , لأن (الهز) هو التحريك الشديد , و (الهزة) الأرضية هي الزلزلة , وهي أيضا النشاط والارتياح .

---

(3) و (ربت) : أي زاد حجمها فانتفخت وعلت , يقال في اللغة : (ربا) الشيء (يربو) (ربوا) أي زاد ونما , و (الربوة) و (الرابية) ما ارتفع من الأرض , وكذلك (الرباوة) , و (الربا) الزيادة في كل من المال والسلع بغير مقابل , يقال : (أربيت) إذا أخذت أكثر مما أعطيت , ويقال : (أربي) عليه بمعني ارتفع عنه فأشرف عليه , و (الربو) هو مرض النفس العالي , ويقال : (ربا) إذا أخذه مرض (الربو) , ويقال (رباه) (تربية) و (ترباه) أي تعهده بالرعاية والعناية حتي (نما) وهذا لكل ما (ينمي) كالولد , والزرع , ونحوه .

أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالي) :

. . . وتري الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) مانصه : (وتري الأرض هامدة) هذا دليل آخر علي قدرته تعالي علي إحياء الموتي , كما يحيي الأرض الميتة الهامدة وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء وقال قتادة : غبراء متهشمة , وقال السدي : ميتة , (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) : أي فإذا أنزل الله عليها المطر (اهتزت) أي تحركت

بالنبات وحييت بعد موتها ,(وربت) أي ارتفعت لما سكن فيها الثري , ثم أنبتت مافيها من ثمار وزروع , وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها , وروائحها وأشكالها ومنافعها , ولهذا قال تعالي :(وأنبتت من كل زوج بهيج) أي حسن المنظر طيب الريح . . .

وجاء في تفسير الجلالين مانصه :(وتري الأرض هامدة) أي يابسة (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت) تحركت (وربت) ارتفعت وزادت (وانبتت),(من) زائدة (كل زوج) صنف (بهيج) حسن . وذكر

(267/519)

صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه : والهمود درجة بين الحياة والموت . وهكذا تكون الأرض قبل الماء , وهو العنصر الأصيل في الحياة والأحياء . فإذا نزل عليها الماء (اهتزت وربت) وهي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام , فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تتشرب الماء وتنتفخ فتربو ثم تتفتح بالحياة عن النبات من كل زوج بهيج وهل أبهج من الحياة وهي تتفتح بعد الكمون , وتنتفض بعد الهمود , وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين

أبناء الحياة جميعا , فيسلكهم في آية واحدة من آياته . وإنها للفتة عجيبة إلي هذه القرابة الوثيقة وإنها لدليل علي وحدة عنصر الحياة , وعلي وحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك , في الأرض والنبات والحيوان والإنسان .

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (علي كاتبه من الله الرضوان) مانصه :(وتري الأرض هامدة) يابسة لا نبات فيها , يقال : همدت الأرض تهمد همودا , يبست ودرست , وهمد الثوب بلي . (اهتزت) تحركت في رأي العين بسبب حركة النبات , يقال : هز الشيء ـ من باب رد ـ فاهتز , حركه فتحرك . (وربت) زادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات . يقال : ربا الشيء يربو ربوا , زاد ونما , ومنه الربا والربوة .

(بهيج) نضر حسن المنظر , من بهج ـ كظرف ـ بهاجة وبهجة أي حسن .

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيرا) ما نصه : . . . وأمر آخر يدلك علي قدرة الله علي البعث أنك تري الأرض قاحلة يابسة , فإذا أنزلنا عليها الماء دبت فيها الحياة وتحركت وزادت , وارتفع سطحها بما تخلله من الماء والهواء , وأظهرت من أصناف النباتات مايروق منظره , ويبهر حسنه , وتبتهج لمرآه .

وجاء في صفوة التفاسير (جزي الله كاتبه خير الجزاء) ما نصه : (وتري الأرض هامدة) هذه هي الحجة الثانية

علي إمكان البعث , أي وتري أيها المخاطب أو أيها المجادل الأرض يابسة ميتة لانبات فيها (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) أي فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وانتفخت وزادت وحييت بعد موتها (وأنبتت من كل زوج بهيج) أي وأخرجت من كل صنف عجيب ماسر الناظر ببهائه ورونقه . . .

الدلالة العلمية لقول الحق (تبارك وتعالي) :

. . . وتري الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . (الحج :5)

ترد لفظة الأرض في القرآن الكريم بثلاثة معان محددة تفهم من سياق الآية القرآنية وهي إما الكوكب ككل , أو الغلاف الصخري المكون لكتل القارات التي نحيا عليها , أو قطاع التربة الذي يغطي صخور ذلك الغلاف الصخري للأرض .

وواضح الأمر هنا أن المقصود بالأرض في النص القرآني الذي نتعامل معه هو قطاع التربة الذي يحمل الكساء الخضري للأرض والذي يهتز ويربو بسقوط الماء عليه .

قطاع التربة الأرضية :

تتكون تربة الأرض بواسطة التحلل الكيميائي والحيوي لصخورها , كما تتكون نتيجة تفكك تلك الصخور بواسطة عوامل التعرية المختلفة التي تؤدي في النهاية إلي تكون غطاء

رقيق لصخور الغلاف الصخري للأرض من فتات وبسيس الصخور علي هيئة حطام مفروط يعرف باسم عادم الصخور .

وعلي ذلك فإن تربة الأرض تمثل الطبقة الرقيقة من عادم الصخور الناتج عن تحلل أجزاء من الغلاف الصخري للأرض , والذي يغطي صخور ذلك الغلاف في كثير من الأحوال , سواء كان ناتجا عن تحللها مباشرة , أو منقولا إليها ليغطيها . والتربة بذلك تمثل الحلقة الوسطي بين الغلاف الصخري للأرض وكلا من غلافيها الهوائي والمائي , ولذلك فهي خليط من المعادن التي تفككت من صخور الأرض بفعل عوامل التعرية المختلفة , ومن المركبات العضوية وغير العضوية الناتجة عن التفاعل والصراع بين تلك النطق الثلاث من نطق الأرض , أو المتبقية عن الكائنات الحية التي تعمر قطاع

التربة , وهي كثيرة من مثل البكتيريا , والطحالب , والفطريات , والنباتات بمختلف هيئاتها ومراتبها , فالتربة هي مصدر كل الغذاء والماء لحياة النباتات الأرضية لأنها وسط تتراكم فيه بقايا كل من العمليات الأرضية , والسلاسل الغذائية , والتي تتحلل بواسطة الكائنات الدقيقة التي تزخر بها التربة والتي تجهز بنشاطاتها كل العناصر اللازمة لنمو

النباتات الأرضية .

وتتكون التربة الأرضية أساسا من معادن الصلصال , والرمال , وأكاسيد الحديد , وكربونات كل من الكالسيوم والمغنسيوم . وبالاضافة إلي التركيب الكيميائي والمعدني لتربة الأرض فإن حجم حبيباتها ونسيجها الداخلي له دور مهم في تصنيفها إلي أنواع عديدة , وتقسم التربة حسب حجم حبيباتها إلي التربة الصلصالية , والطميية , والرملية , والحصوية , وأكثر أنواع التربة انتشارا هي خليط من تلك الأحجام .

ويقسم قطاع التربة من سطح الأرض إلي الداخل إلي النطق الأربع التالية :

(1) نطاق السطح الأرضي أو (نطاق O) وهو غني بالمواد العضوية من مثل أوراق الأشجار وفتات زهورها , وثمارها , وأخشابها , وتزداد فيها نسبة المواد الدبالية (Humus) أي العضوية المتحللة من أعلي إلي أسفل .

(2) نطاق التربة العليا (أو نطاق A-) وتتكون أساسا من فتات المعادن الخشن نسبيا , ولكنها تزخر بالنشاط العضوي مما يزيد من محتواها في المواد الدبالية والتي تصل إلي 30% من مكوناتها في بعض الحالات .

(3) نطاق ما تحت التربة العليا (أو نطاق B-) وهو نطاق يتجمع فيه كثير من العناصر والمركبات التي تحملها المياه الهابطة من السطح إلي أسفل من النطاقين العلويين , ولذا يعرف باسم نطاق التجمع ومع كثرة هبوط حبيبات الصلصال الدقيقة من النطاقين العلويين إلي

نطاق ما تحت التربة أو نطاق التجمع هذا , فإنه يحتفظ بالماء الهابط إليه من سطح الأرض

.

وتمثل النطق الثلاثة (O+A+B) ما يسمي

(270/519)

التربة الحقيقية وهي التي تزخر بالعمليات الحيوية , وبكل صور الحياة التي تشتهر بها تربة الأرض وتمتد إليها جذور النباتات من فوق سطحها .

(4) نطاق الغلاف الصخري للأرض متأثرا ببعض عمليات التجوية , وهذه النطق لا تتمايز بهذا الوضوح إلا بعد تمام نضج قطاع التربة , فكثيرا ما تتكدس في نطاق واحد .

وتمثل مجموعة النباتات الدقيقة من مثل البكتيريا , والفطريات , والطحالب أهم أنواع الحياة في تربة الأرض , وتشكل البكتيريا أغلبها (نحو 90%) . وتنقسم بكتيريا التربة إلي ذاتية التغذية , وغير ذاتية التغذية , ومن الصنف الأول بكتيريا العقد الجذرية وقد أعطاها الله (تعالي) القدرة علي تثبيت غاز النيتروجين وتحويله إلي مركبات نيتروجينية مهمة في التربة ولذا تعرف باسم بكتيريا النيتروجين , وهناك بكتيريا الإيدروجين , وبكتيريا الكبريت , وبكتيريا الحديد وغيرها وهي تلعب دورا مهما في تزويد التربة بالأغذية المناسبة للنباتات

الأرضية , واستكمالا لهذا الدور المهم , فإن البكتيريا غير ذاتية التغذية تقوم بتكسير المواد العضوية المعقدة من مثل المواد السيليولوزية والكربوهيدراتية , والبروتينية والدهنية وتحويلها إلي مواد يستطيع النبات الاستفادة بها .

كيف تربو هذه التربة الأرضية بإنزال الماء عليها ؟

يتكون جزئ الماء من اتحاد ذرة أكسجين واحدة مع ذرتي أيدروجين برابطة قوية لايسهل فكها , وتربط هذه الذرات مع بعضها البعض بشكل زاو , له قطبية كهربية واضحة لأن كلا من ذرتي الإيدروجين يحمل شحنة موجبة نسبية , وذرة الأكسجين تحمل شحنة سالبة نسبية , مما يجعل جزئ الماء غير تام التعادل كهربيا , وإلي هذه القطبية الكهربية تعود صفات الماء المميزة له من مثل قدرته الفائقة علي الإذابة , وعلي التوتر السطحي , وشدة تلاصق جزئياته مما يجعل له القدرة علي التسلق (الخاصية الشعرية) , وعلي التكور في هيئة قطرات , وعدم امتزاج

(271/519)

محاليله امتزاجا كاملا . والماء بهذه الصفات الطبيعية المميزة إذا نزل علي تربة الأرض أدي إلي إثارتها كهربيا مما يجعلها تهتز وتتنفس ويزداد حجمها فتربو وتزداد , وذلك لأن تربة

الأرض تتكون في غالبيتها من المعادن الصلصالية التي يؤدي تميؤها الي اهتزاز مكونات التربة , وزيادة حجمها , وارتفاعها الي أعلي حتي ترق رقة شديدة فتنشق مفسحة طريقا سهلا آمنا لسويقة (ريشة) النبتة الطرية الندية المنبثقة من داخل البذرة النابتة المدفونة بالتربة .

ومن أسباب اهتزاز التربة وانتفاشها وربوها مايلي :

(1) تتكون التربة أساسا من المعادن الصلصالية , ومن صفات تلك المعادن انها تتشبع بالتميؤ أي بامتصاص الماء مما يؤدي الي زيادة حجمها زيادة ملحوظة فيؤدي ذلك الي اهتزازها بشدة وانتفاضها فتؤدي الي اهتزاز التربة بمجرد نزول الماء عليها .

(2) تتكون المعادن الصلصالية من رقائق من أكاسيد السيليكون والألومنيوم تفصلها مسافات بينية مملوءة بجزيئات الماء والغازات , وعند التسخين تطرد هذه الجزيئات , فتنكمش تلك الرقائق بطرد هذه الجزيئات البينية , وعند إضافة الماء اليها تنتفض , وتهتز وتربو نتيجة لملء المسافات البينية الفاصلة لرقائق المعدن بالمياه .

(3) نظرا لدقة حجم الحبيبات الصلصالية (والتي لايتعدي قطرها واحد علي 256 من الملليمتر أي اقل من 0.004 .من الملليمتر) وهي المكون الرئيسي لتربة الأرض , فان اختلاط الماء بتلك التربة يحولها الي الحالة الفردية وهي حالة تتدافع فيها جسيمات المادة بقوة , وبأقدار غير متساوية في كل الاتجاهات , وعلي كل المستويات في حركة دائبة تعرف باسم الحركة البراونية نسبة الي مكتشفها , وهي من عوامل اهتزاز التربة بشدة وانتفاضها

, وكلما كان الماء المختلط بالتربة وفيرا باعد لمسافات اكبر بين حبيبات التربة , وزاد من سرعة حركتها .

(4) تتكون المعادن الصلصالية أساسا من سيليكات

(272/519)

الألومنيوم المميأة , وهذا المركب الكيميائي له قدرة علي احلال بعض ذرات الألومنيوم بذرات قواعد اخري مثل المغنيسيوم والكالسيوم , وكنتيجة لاحلال ذرات الألومنيوم بذرات غيرها من العناصر ترتبط بعض الأيونات الموجبة الشحنة مثل الصوديوم والكالسيوم علي حواف وأسطح راقات الصلصال لمعادلة الشحنات السالبة الناتجة عن احلال ذرة الألومنيوم الثلاثية التكافؤ بذرة الكالسيوم أو المغنيسيوم الثنائية التكافؤ .

والأيونات الموجبة مثل ايونات الصوديوم والكالسيوم سهلة الاحلال بقواعد اخري مما يحدث اهتزازا عنيفا في مكونات رقائق الصلصال في وجود جزئ الماء القطبي الكهربية .

(5) ان العمليات المعقدة التي كونت تربة الأرض عبر ملايين السنين أثرتها بالعديد من العناصر والمركبات الكيميائية اللازمة لحياة النباتات الأرضية , كما ان الكائنات الحية الدقيقة والكبيرة التي أسكنها الله (تعالي) تربة الأرض لعبت ولاتزال تلعب دورا هاما في

إثرائها بالمركبات العضوية وغير العضوية , وعند نزول جزيئات الماء ذات القطبية الكهربية , واذابتها لمكونات التربة فان ذلك يؤدي الي تأين تلك المكونات , والي تنافر الشحنات المتشابهة علي أسطح رقائق الصلصال وفي محاليل المياه مما يؤدي الي انتفاض تلك الرقائق واهتزازها بشدة .

(6) تحمل الرياح , والطيور , والحشرات , والكائنات الدقيقة الي التربة بذور العديد من النباتات خاصة مما يسمي بالبذور المجنحة والأبواغ والجراثيم وحبوب اللقاح التي تحملها الرياح لمسافات بعيدة , وعندما ينزل الماء علي التربة الأرضية وتستقي منه تلك البقايا النباتية القابلة للإنبات مثل البذور فتنشط اجنتها , وتتغذي علي المواد المذابة في مياه التربة فانها تنمو , وتندفع جذورها الي أسفل مكونة المجموعات الجذرية لتلك النابتات , وتندفع سويقاتها (ريشتها) الي أعلي مسببة اهتزازات عنيفة لمكونات التربة .

(7) مع ازدياد

هطول الماء علي التربة تنتعش كل صور الحياة فيها من البكتريا , والفطريات , والطحالب , وغيرها , كما تغلظ المجموعات الجذرية للنباتات القائمة علي سطح الأرض , ويؤدي

النشاط الحيوي لكل من هذه الكائنات الي زيادة حجم التربة , والي زيادة الأنشطة الكيميائية والفيزيائية فيها مما يؤدي الي انتفاض مكوناتها واهتزازها , وربوها , وكثرة الإنبات فيها , وقد صورت هذه المراحل بالتصوير البطئ واثبتت الصور صدق القرآن الكريم , في كل ما أشار اليه في هذه القضية .

وهذه حقائق لم يدركها الانسان إلا في العقود القليلة الماضية , وورودها في كتاب الله المنزل من قبل الف وأربعمائة سنة بهذه الدقة العلمية , والتسلسل التطبيقي , المنطقي : . . . . .

وتري الأرض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج

(الحج :5)

وتكرار المعني في مقام آخر من كتاب الله حيث يقول (عز من قائل) :

ومن آياته أنك تري الأرض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي احياها لمحيي الموتي انه علي كل شئ قدير

(فصلت :39)

ان هذا كله لمن أبلغ الدلائل علي أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق , وان هذا النبي الخاتم الذي تلقاه كان موصولا بوحي السماء , ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض فالحمد لله الذي انزل القرآن بعلمه , علي خاتم انبيائه ورسله , وتعهد بحفظه فحفظه علي مدي اربعة عشر قرنا أو يزيد , وانزل فيه قوله الحق مخاطبا نبيه الخاتم ورسوله الخاتم فيقول (

عز من قائل) : لكن الله يشهد بما أنزل اليك انزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفي بالله شهيدا

(النساء :166)

(274/519)

وصلي الله وسلم وبارك علي سيدنا محمد , سيد الأولين والآخرين , وامام النبيين والمرسلين , وهادي الخلق اجمعين الي الدين القويم , من لدن بعثته الشريفة والي يوم الدين وعلي آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته في الأولين والآخرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴾

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(275/519)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء العشرون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/520)

الجزء العشرون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 6 ﴾ من سورة الحج

وحتى الآية ﴿ 18 ﴾ من نفس السورة

(4/520)

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (9) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قرر سبحانه هذين الدليلين ، رتب عليهما ما هو مطلوب والنتيجة فقال على طريق التعليل : ﴿ ذلك ﴾ أي الذي تقدم من الأمر بالتقوى ، والترهيب من جلال الله بالحشر ، والاستدلال عليه بالتصرف في تطوير الإنسان والنبات إلى ما في تضاعيفه من أنواع الحكم وأصناف اللطائف ﴿ بأن ﴾ أي بسبب أن تعلموا أن ﴿ الله ﴾ أي الجامع لأوصاف الكمال ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الحق ﴾ أي الثابت أتم الثبات ، بحيث يقتضي ذلك أنه يكون كل ما يريد ، فإنه لا ثبات مع العجز ﴿ وأنه يحيي الموتى ﴾ أي القادر على ذلك بأنه – كما سيأتي – هو العلي الكبير ﴿ وأنه على كل شيء ﴾ من الخلق وغيره ﴿ قدير ﴾ ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : 82] ﴿ وأن الساعة ﴾ التي

تقدم التحذير منها ، وهي وقت حشر الخلائق كلهم ﴿ آتية لا ريب فيها ﴾ بوجه من الوجوه لما دل عليها مما لا سبيل إلى إنكاره بقول من لا مرد لقوله ، وهو حكيم فلا يخلف ميعاده ، ولا يسوغ بوجه أن يترك عباده بغير حساب ﴿ وأن الله ﴾ لما له من الجلال والحكم ﴿ يبعث ﴾ بالإحياء ﴿ من في القبور ﴾ لحضوره والفصل بينهم فيها في كل ما اختلفوا فيه لأن ذلك من العدل الذي أمر به ، وبه يظهر كثير من صفاته سبحانه أتم الظهور ، والحاصل أن المراد أنه سبحانه قال ما تقدم وفعل ما ذكر من إيجاد الإنسان والنبات في هذه الأطوار ليعلم أنه قادر على هذه الأمور وعلى كل شيء ﴿ ومن ﴾ أي فمن الناس الذين كانوا قد وقفوا عن الإيمان قبل هذا البيان من آمن عند سماع هذه القواطع ، ومن ﴿ الناس ﴾ وهم ممن اشتد تكاثف طبعه ﴿ من يجادل ﴾ أي بغاية جهده ﴿ في الله ﴾ أي في قدرته وما يجمعه هذا الاسم الشريف من صفاته بعد هذا البيان الذي لا مثل له ولا خفاء فيه ﴿ بغير علم ﴾ أتاه عن الله على لسان أحد من أصفيائه أعم من أن يكون كتاباً أو غيره ﴿ ولا هدى ﴾ أرشده إليه من عقله أعم من كونه بضرورة أو استدلال ﴿ ولا كتاب منير ﴾ صح لديه أنه من عند الله ، ومن المعلوم أنه بانتفاء هذه

(5/520)

الثلاثة لا يكون جداله إلا بالباطل ﴿ ثاني عطفه ﴾ أي رخي البال معرضاً متكبراً متماثلاً لاوياً عنقه لذلك كما قال تعالى ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً ﴾ [لقمان : 7] والعطف في الأصل الجانب وموضع الميل .

ولما دل السياق على أنه أكثف الأقسام طبعاً ، عبر عن قصده بقوله : ﴿ ليضل ﴾ أي غيره ﴿ عن سبيل الله ﴾ إفهاماً لذلك ، لأن هذا لا يقصده عاقل ، فالقسم الأول تابع ضال ، وهذا داع لأهل الضلال ، هذا على قراءة الضم للجمهور ، وعلى قراءة الفتح لابن كثير وأبي عمرو ورويس عن يعقوب بخلاف عنه من ضل ، تكون من باب التهكم كما تقدم غير مرة ، أي إنه من الحذق بحيث لا يذهب عليه أن هذا ضلال ، فما وصل إليه إلا بقصده له .

ولما ذكر فعله وثمرته ، ذكر ما أعد له عليه فقال : ﴿ له في الدنيا خزي ﴾ اي إهانة وذل وإن طال زمن استدراجه بتنعيمه " حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه " ﴿ ونذيقه ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ يوم القيامة ﴾ الذي يجمع فيه الخلائق بالإحياء بعد الموت ﴿ عذاب الحريق ﴾ أي بجعله يحس بألم العذاب بالحريق كما يحس الذائق بالشيء كما أحرق قلوب المهتدين بجداله بالباطل ، ويقال حقيقة أو مجازاً : ﴿ ذلك ﴾ أي العذاب العظيم ﴿ بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ قدمت يداك ﴾ أي بعملك ، ولكنه جرت عادة العرب أن تضيف الأعمال إلى اليد لأنها آلة أكثر العمل ، وإضافة ما يؤدي إليهما أنكأ ﴿ وأن ﴾ أي وبسبب أن ﴿ الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ ليس بظلام ﴾ أي بذي ظلم ما

﴿ للعبيد ﴾ ولو تركهم بغير ذلك لكان في مجاري عاداتكم ظلماً أولاً بتسوية المحسن بالمسيء ، وثانياً بترك الانتصار للذين عادوك فيه وأذيتهم من أجله ، ويجوز أن تكون الصيغة للمبالغة لتفهم أنه لو تركه لكان الظلم ، وذلك في غاية البعد عن حكمته . . . ونفي أصل الظلم من آياته الباهرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 135 . 136 ﴾

(6/520)

فصل

قال الفخر :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾

والحق هو الموجود الثابت فكأنه سبحانه بين أن هذه الوجوه دالة على وجود الصانع وحاصلها راجع إلى أن حدوث هذه الأمراض المتنافية وتواردها على الأجسام يدل على وجود الصانع وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وأنه يحيي الموتى ﴾ فهذا تنبيه على أنه لما لم يستبعد من الإله إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات وثالثها : قوله : ﴿ وَأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يعني أن الذي يصح منه إيجاد هذه الأشياء لا بد وأن يكون واجب

الإنصاف لذاته بالقدرة ومن كان كذلك كان قادراً على جميع الممكنات ومن كان كذلك فإنه لا بد وأن يكون قادراً على الإعادة ورابعها : قوله : ﴿ وَأَنَّ الساعة ءَاتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي القبور ﴾ والمعنى أنه لما أقام الدلائل على أن الإعادة في نفسها ممكنة وأنه سبحانه وتعالى قادر على كل الممكنات وجب القطع بكونه قادراً على الإعادة في نفسها ، وإذا ثبت الإمكان والصادق أخبر عن وقوعه فلا بد من القطع بوقوعه ، واعلم أن تحرير هذه الدلالة على الوجه النظري أن يقال الإعادة في نفسها ممكنة والصادق أخبر عن وقوعها فلا بد من القطع بوقوعها ، أما بيان الإمكان فالدليل عليه أن هذه الأجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات التي كانت قائمة بها حال كونها حية عاقلة والباريء سبحانه عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات الممكنة وذلك يقتضي القطع بإمكان الإعادة لما قلنا إن تلك الإجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات لأنها لو لم تكن قابلة لها في وقت لما كانت قابلة لها في شيء من الأوقات لأن الأمور الذاتية لا تزول ، ولو لم تكن قابلة لها في شيء من الأوقات لما كانت حية عاقلة في شيء من الأوقات ، لكنها كانت حية عاقلة فوجب أن تكون قابلة أبداً لهذه الصفات .

(7/520)

وأما أن البارىء سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن فلأنه سبحانه عالم بكل المعلومات فيكون عالماً بأجزاء كل واحد من المكلفين على التعيين وقادراً على كل الممكنات ، فيكون قادراً على إيجاد تلك الصفات في تلك الذوات .

فثبت أن الإعادة في نفسها ممكنة وأنه سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن .

فثبت أن الإعادة ممكنة في نفسها .

فإذا أخبر الصادق عن وقوعها فلا بد من القطع بوقوعها ، فهذا هو الكلام في تقرير هذا الأصل .

فإن قيل فأي منفعة لذكر مراتب خلقة الحيوانات وخلقة النبات في هذه الدلالة ؟ قلنا إنها تدل على أنه سبحانه قادر على كل الممكنات وعالم بكل المعلومات ، ومتى صح ذلك فقد صح كون الإعادة ممكنة فإن الخصم لا ينكر المعاد إلا بناء على إنكار أحد هذين الأصلين ، ولذلك فإن الله تعالى حيث أقام الدلالة على البعث في كتابه ذكر معه كونه قادراً عالماً كقوله :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 79] فقوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا ﴾ بيان للقدرة وقوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ بيان للعلم والله أعلم .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8) ﴾

القراءة : ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ بكسر العين الحسن وحده بفتح العين ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ قرىء بضم الياء وفتحها القراءة المعروفة ﴿ وَنُذِيقُهُ ﴾ بالنون وقرأ زيد بن علي أذيقه ، المعاني في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(8/520)

اختلفوا في أن المراد بقوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شيطان مَّرِيدٍ ﴾ [الحج : 3] من هم ؟ على وجوه : أحدها : قال أبو مسلم الآية الأولى وهي قوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ويتبع كل شيطان مريد واردة في الأتباع المقلدين وهذه الآية واردة في المتبوعين المقلدين ، فإن كلا المجادلين جادل بغير علم وإن كان أحدهما تبعاً والآخر متبوعاً وبين ذلك قوله : ﴿ وَلاَ هُدًى وَلاَ كتاب مُّنِيرٍ ﴾ فإن مثل ذلك لا يقال في المقلد ، وإنما يقال فيمن يخاصم بناء على شبهة ، فإن قيل : كيف يصح ما قلتم والمقلد لا يكون مجادلاً ؟ قلنا قد يجادل تصويباً لتقليده وقد يورد الشبهة الظاهرة إذا تمكن منها وإن كان معتمده الأصلي هو التقليد وثانيها : أن الآية الأولى نزلت في النضر بن الحرث ، وهذه الآية في أبي جهل وثالثها : أن هذه الآية نزلت أيضاً في النضر وهو قول ابن عباس

رضي الله عنهما وفائدة التكرير المبالغة في الذم وأيضاً ذكر في الآية الأولى اتباعه للشيطان تقليداً بغير حجة ، وفي الثانية مجادلته في الدين وإضلاله غيره بغير حجة والوجه الأول أقرب لما تقدم .

المسألة الثانية :

الآية دالة على أن الجدال مع العلم والهدى والكتاب المنير حق حسن على ما مر تقريره .

المسألة الثالثة :

(9/520)

المراد بالعلم العلم الضروري ، وبالهدى الاستدلال والنظر لأنه يهدي إلى المعرفة وبالكتاب المنير الوحي ، والمعنى أنه يجادل من غير مقدمة ضرورية ولا نظرية ولا سمعية وهو كقوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الحج : 71] وقوله : ﴿ ائتونى بكتاب مّن قَبْلِ هذا ﴾ [الأحقاف : 4] أما قوله : ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله ﴾ فاعلم أن ثنى العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصعير الخد ولي الجيد وقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله ﴾ فأما القراءة بضم الياء فدلالة على أن هذا المجادل فعل الجدال وأظهر التكبر لكي يتبعه غيره فيضله عن طريق الحق فجمع بين الضلال والكفر

وإضلال الغير .

وأما القراءة بفتح الياء فالمعنى أنه لما أدى جداله إلى الضلال جعل كأنه غرضه ، ثم إنه سبحانه وتعالى شرح حاله في الدنيا والآخرة .

أما في الدنيا فيوم بدر روينا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهما نزلت في النضر بن الحرث وأنه قتل يوم بدر ، وأما الذين لم يخصصوا هذه الآية بواحد معين قالوا المراد بالخزي في الدنيا ما أمر المؤمنون بذمه ولعنه ومجاهدته وأما في الآخرة فقوله : ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القيامة عَذَابَ الحريق ﴾ ثم بين تعالى أن هذا الخزي المعجل وذلك العقاب المؤجل لأجل ما قدمت يداه ، قالت المعتزلة هذه الآية تدل على مطالب :

الأول : دلت الآية على أنه إنما وقع في ذلك العقاب بسبب عمله وفعله فلو كان فعله خلقاً لله تعالى لكان حينما خلقه الله سبحانه وتعالى استحال منه أن ينفك عنه ، وحينما لا يخلقه الله تعالى استحال منه أن يتصف به ، فلا يكون ذلك العقاب بسبب فعله فإذا عاقبه عليه كان ذلك محض الظلم وذلك على خلاف النص .

(10/520)

الثاني : أن قوله بعد ذلك ﴿ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بظلام لِّلْعَبِيدِ ﴾ دليل على أنه سبحانه إنما لم يكن ظالماً بفعل ذلك العذاب لأجل أن المكلف فعل فعلاً استحق به ذلك العقاب وذلك يدل على أنه لو عاقبه لا بسبب فعل يصدر من جهته لكان ظالماً ، وهذا يدل على أنه لا يجوز تعذيب الأطفال بكفر آبائهم .

الثالث : أنه سبحانه تمدح بأنه لا يفعل الظلم فوجب أن يكون قادراً عليه خلاف ما يقوله النظام ، وأن يصح ذلك منه خلاف ما يقوله أهل السنة .

الرابع : وهو أن لا يجوز الاستدلال بهذه الآية على أنه تعالى لا يظلم لأن عندهم صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم موقوفة على نفي الظلم فلو أثبتنا ذلك بالدليل السمعي لزم الدور والجواب : عن الكل المعارضة بالعلم والداعي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 10.12 ﴾

(11/520)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لاَوِي عنقه إعراضاً عن الله ورسوله ، وهذا قول مجاهد ، وقتادة .

الثاني : معناه لاَوِي عنقه كِبْرا عن الإِجابة ، وهذا قول ابن عباس .

قال المفضل : والعِطف الجانب ، ومنه قولهم فلان ينظر في أعطافه أي في جوانبه . قال الكلبي : نزلت في النضر بن الحارث .

﴿ لِيضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : تكذيبه للرسول وإعراضه عن أقواله .

والثاني : فإذا أراد أحد من قومه الدخول في الإسلام أحضره وأقامه وشرط له وعاتبه وقال : هذا خير لك مما يدعوك إليه محمد ، حكاه الضحاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(12/520)

وقال ابن عطية :

(13/520)

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى كون ما تقدم ذكر ف ﴿ ذلك ﴾ ابتداء ، وخبره ﴿ بأن ﴾ أي هو ﴿ بأن الله ﴾ تعالى ﴿ حق ﴾ محيي قادر وقوله ﴿ وأن الساعة آتية ﴾ ليس بسبب لما ذكر لكن المعنى أن الأمر مرتبط بعضه ببعض أو على تقدير : والأمر أن الساعة ، وقوله تعالى : ﴿ ومن الناس ﴾ الآية ، الإشارة بقوله ﴿ ومن الناس ﴾ إلى القوم المتقدم ذكرهم ، وحكى النقاش عن محمد بن كعب أنه قال نزلت الآية في الأخنس بن شريق وكرر هذه على جهة التوبيخ فكأنه يقول فهذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ﴿ ومن الناس ﴾ مع ذلك ﴿ من يجادل ﴾ فكأن الواو واو الحال والآية المتقدمة الواو فيها واو عطف جملة الكلام على ما قبلها ، والآية على معنى الإخبار وهي ها هنا مكررة للتوبيخ ، و ﴿ ثاني ﴾ حال من ضمير في ﴿ يجادل ﴾ ولا يجوز أن تكون من ﴿ من ﴾ لأنها ابتداء والابتداء إنما عمله الرفع لا النصب وإضافة ﴿ ثاني ﴾ غير معتد بها لأنها في معنى الانفصال إذ تقديرها ثانياً عطفه ، وقوله ﴿ ثاني عطفه ﴾ عبارة عن المتكبر المعرض قاله ابن عباس وغيره ، ع : وذلك أن صاحب الكبر يرد وجهه عما يتكبر عنه فهو يرد وجهه يصعر خده ويولي صفحته ويلوي عنقه ويثني عطفه وهذه هي عبارات المفسرين ، والعطف الجانب وقرأ الحسن " عَطفه " بفتح العين والعطف السيف لأن صاحبه يتعطفه أي يصله بجنبه ، وقرأ الجمهور " لِيُضل " بضم الياء ، وقرأ مجاهد وأهل مكة بفتح الياء ، وكذلك قرأ أبو عمرو ، و " الخزي " الذي توعد به النضر بن الحارث في أسره يوم بدر وقتله

بالصفراء ، و" الحريق " طبقة من طبقات جهنم ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ بمعنى قال له ونسب التقديم إلى اليدين إذ هما آلتا الاكتساب واختلف في الوقف على قوله ﴿ يداك ﴾ فقيل لا يجوز لأن التقدير : وبأن الله أي ﴿ وأن الله ﴾ هو العدل فيك بجرائمك وقيل يجوز بمعنى والأمر أن الله تعالى ﴿ ليس بظلام ﴾ و" العبيد " هنا ذكروا في معنى مكسنتهم وقلة قدرتهم

فلذلك جاءت هذه الصيغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(14/520)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾

قال الزجاج : المعنى : الأمر ذلك كما وصف لكم ، والأجود أن يكون موضع "ذلك" رفعاً ، ويجوز أن يكون نصباً على معنى : فعل الله ذلك بأنه هو الحق .

قوله تعالى : ﴿ وأن الساعة ﴾ أي : ولتعلموا أن الساعة ﴿ آتية ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل ﴾ قد سبق بيانه .

وهذا مما نزل في النضر أيضاً .

والهدى : البيان والبرهان .

قوله تعالى : ﴿ ثانيَ عِطفه ﴾ العِطف : الجانب .

وعِطفا الرجل : جانباه عن يمين وشمال ، وهو الموضع الذي يعطفه الإِنسان ويلويه عند إِعراضه عن المشي .

قال الزجاج : "ثانيَ" منصوب على الحال ، ومعناه : التنوين ، معناه : ثانياً عِطفه .

وجاء في التفسير : أن معناه : لاوياً عنقه ، وهذا يوصف به المتكبّر ، والمعنى : ومن الناس من يجادل بغير علم متكبّراً .

قوله تعالى : ﴿ ليُضلَّ ﴾ أي : ليصير أمره إِلى الضلال ، فكأَنَّه وإِن لم يقدَّر أنه يضل ، فإِن أمره يصير إِلى ذلك ، ﴿ له في الدنيا خزي ﴾ وهو ما أصابه يوم بدر ، وذلك أنه قُتل .

وما بعد هذا قد سبق تفسيره [يونس : 70] إِلى قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ وفي سبب نزول هذه الآية قولان .

أحدهما : أن ناساً من العرب كان يأتون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : نحن على دينك ، فإِن أصابوا معيشةً ، ونُتِجَتْ خَيْلُهم ، وَوَلَدَتْ نساؤُهم الغلمانَ اطمأَنُّوا وقالوا : هذا دينُ حقٍّ ، وإِنْ لم يَجْرِ الأمر على ذلك قالوا : هذا دين سوءٍ ، فينقلبون عن دينهم ، فنزلت هذه الآية ، هذا معنى قول ابن عباس ، وبه قال الأكثرون .

والثاني : " أن رجلاً من اليهود أسلم فذهب بصره وماله وولده ، فتشاءم بالإِسلام ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : أقلني ، فقال : "إِن الإِسلام لا يقال" .

(15/520)

فقال : إِني لم أُصِب في ديني هذا خيراً ، أذهب بصري ومالي وولدي ، فقال : "يا يهودي : إِن الإِسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب" " ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطية عن أبي سعيد الخدري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(16/520)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ لما ذكر افتقار الموجودات إليه وتسخيرها على وَفْق اقتداره واختياره في قوله : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث إلى قوله بَهِيجٍ ﴾ .

قال بعد ذلك : ﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق وَأَنَّهُ يُحْيِي الموتى وَأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ الساعة آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِي القبور ﴾ .

فنبّه سبحانه وتعالى بهذا على أن كل ما سواه وإن كان موجوداً حقاً فإنه لا حقيقة له من نفسه ؛ لأنه مسخَّر مصرّف .

والحق الحقيقيّ : هو الموجود المطلق الغنيّ المطلق ؛ وأن وجود كلّ ذي وجود عن وجوب وجوده ؛ ولهذا قال في آخر السورة : ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الباطل ﴾ [الحج : 62] .

والحق الموجود الثابت الذي لا يتغيّر ولا يزول ، وهو الله تعالى .

وقيل : ذو الحق على عباده .

وقيل : الحق بمعنى في أفعاله .

وقال الزجاج : "ذِلك" في موضع رفع ؛ أي الأمر ما وُصف لكم وبُيّن .

﴿ بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ أي لأن الله هو الحق .

قال : ويجوز أن يكون "ذلك" نصباً ؛ أي فعل الله ذلك بأنه هو الحق .

﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِي الموتى ﴾ أي بأنه ﴿ وَأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي وبأنه قادر على ما أراد .

﴿ وَأَنَّ الساعة آتِيَةٌ ﴾ عطف على قوله : "ذِلك بِأن الله هو الحق" من حيث اللفظ ،

وليس عطفاً في المعنى ؛ إذ لا يقال فعل الله ما ذكر بأن الساعة آتية ، بل لابد من إضمار فعل يتضمنه ؛ أي وليعلموا أن الساعة آتية ﴿ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي لا شك .

﴿ وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي القبور ﴾ يريد للثواب والعقاب .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ أي نيّر بيّن الحجة .

نزلت في النضر بن الحارث .

وقيل : في أبي جهل بن هشام ؛ قاله ابن عباس .

(17/520)

والمُعْظم على أنها نزلت في النضر بن الحارث كالآية الأولى ، فهما في فريق واحد ، والتكرير للمبالغة في الذم ؛ كما تقول للرجل تذمّه وتوبّخه : أنت فعلت هذا ! أنت فعلت هذا !

ويجوز أن يكون التكرير لأنه وصفه في كل آية بزيادة ؛ فكأنه قال : إن النضر بن الحارث يجادل في الله بغير علم ويتّبع كلّ شيطان مريد ، والنضر بن الحارث يجادل في الله من غير علم ومن غير هُدًى وكتاب منير ؛ لِيُضل عن سبيل الله .

وهو كقولك : زيد يشتمني وزيد يضربني ؛ وهو تكرار مفيد ؛ قاله القشيريّ .

وقد قيل : نزلت فيه بضعَ عشرة آية .

فالمراد بالآية الأولى إنكاره البعث ، وبالثانية إنكاره النبوّة ، وأن القرآن منزل من جهة الله .

وقد قيل : كان من قول النضر بن الحارث أن الملائكة بنات الله ، وهذا جِدال في الله تعالى .

"مَنْ" في موضع رفع بالابتداء .

والخبر في قوله : "ومِنَ الناسِ" .

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ نصب على الحال .

ويتأوّل على معنيين : أحدهما : روي عن ابن عباس أنه قال : هو النضر بن الحارث ، لَوَى عنقه مَرَحاً وتعظُّماً .

والمعنى الآخر : وهو قول الفراء أن التقدير : ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ثاني عِطْفه ، أي مُعْرِضاً عن الذّكر ؛ ذكره النحاس .

وقال مجاهد وقتادة : لاوِياً عنقه كفراً .

ابن عباس : مُعْرِضاً عما يُدْعَى إليه كفراً .

والمعنى واحد .

وروى الأوزاعيّ عن مَخْلد بن حسين عن هشام بن حسان عن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ قال : هو صاحب البدعة .

المبرّد : العِطْف ما انثنى من العنق .

وقال المفضّل : والعطف الجانب ؛ ومنه قولهم : فلان ينظر في أعطافه ، أي في جوانبه .

وعِطْفَا الرجل من لَدُنْ رأسه إلى وَرِكَيْه .

وكذلك عِطْفَا كلّ شيء جانباه .

ويقال : ثَنَى فلان عني عِطفه إذا أعرض عنك .

(18/520)

فالمعنى : أي هو معرض عن الحق في جِدَاله ومُوَلٍّ عن النظر في كلامه ؛ وهو كقوله تعالى :

﴿ ولى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [لقمان : 7] .

وقوله تعالى : ﴿ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ ﴾ [المنافقون : 5] .

وقوله : ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ [الإسراء : 83] .

وقوله : ﴿ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يتمطى ﴾ [القيامة : 33] .

﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي عن طاعة الله تعالى .

وقرىء "لِيَضِل" بفتح الياء .

واللام لام العاقبة ؛ أي يجادل فيضل ؛ كقوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 28] أي فكان لهم كذلك .

ونظيره ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُواْ ﴾ [النحل : 54 55] .

﴿ لَهُ فِي الدنيا خِزْيٌ ﴾ أي هوان وذلّ بما يجري له من الذكر القبيح على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة ؛ كما قال : ﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴾ [القلم : 10] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : 1] .

وقيل : الخزي ها هنا القتل ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قتل النضر بن الحارث يوم بدر صَبْراً ؛ كما تقدّم في آخر الأنفال .

﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القيامة عَذَابَ الحريق ﴾ أي نار جهنم .

﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أي يقال له في الآخرة إذا دخل النار : ذلك العذاب بما قدمت يداك من المعاصي والكفر .

وعبّر باليد عن الجملة ؛ لأن اليد التي تفعل وتبطِش للجملة .

و"ذِلك" بمعنى هذا ، كما تقدّم في أوّل البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(19/520)

وقال أبو حيان :

وقوله ﴿ وأن الساعة ﴾ إلى آخره توكيد لقوله ﴿ وأنه يحيي الموتى ﴾ والظاهر أن قوله ﴿ وأن الساعة آتية ﴾ ليس داخلاً في سبب ما تقدم ذكره ، فليس معطوفاً على أنه الذي يليه ، فيكون على تقدير .

والأمر ﴿ أن الساعة ﴾ وذلك مبتدأ وبأن الخبر .

وقيل ذلك منصوب بمضمر أي فعلنا ذلك .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8) ﴾

الظاهر أن المجادل في هذه الآية غير المجادل في الآية قبلها ، فعن محمد بن كعب أنها نزلت في الأخنس بن شريق .

وعن ابن عباس في أبي جهل .

وقيل : الأولى في المقلدين وهذه في المقلدين ، والجمهور على أنها والتي قبلها في النضر كررت مبالغة في الذم ، ولكون كل واحدة اشتملت على زيادة ليست في الأخرى .

وقد قيل فيه : إنه نزلت فيه بضع عشرة آية .

وقال ابن عطية : وكرر هذه على وجه التوبيخ ، فكأنه يقول : هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ﴿ ومن الناس ﴾ مع ذلك ﴿ من يجادل ﴾ فكان الواو واو الحال ، والآية المتقدمة الواو فيها واو العطف عطفت جملة الكلام على ما قبلها ، والآية على معنى

الإخبار وهي ههنا مكررة للتوبيخ انتهى .

ولا يتخيل أن الواو في ﴿ ومن الناس من يجادل ﴾ واو حال ، وعلى تقدير الجملة التي قدّرها قبله لو كان مصرحاً بها لم يتقدّر بإذ فلا تكون للحال ، وإنما هي للعطف قسم المخذولين إلى مجادل ﴿ في الله بغير علم ﴾ متبع لشيطان مريد ، ومجادل ﴿ بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ إلى آخره ، وعابد ربه على حرف والمراد بالعلم العلم الضروري ، وبالهدى الاستدلال والنظر لأنه يهدي إلى المعرفة ، وبالكتاب المنير الوحي أي ﴿ يجادل ﴾ بغير واحد من هذه الثلاثة .

(20/520)

وانتصب ﴿ ثاني عطفه ﴾ على الحال من الضمير المستكن في ﴿ يجادل ﴾ قال ابن عباس : متكبراً ، ومجاهد : لاوياً عنقه بقبح ، والضحاك : شامخاً بأنفه وابن جريج : مجاهد وأهل مكة وأبو عمرو في رواية ﴿ ليَضل ﴾ بفتح الياء أي ﴿ ليضل ﴾ في نفسه والجمهور بضمها أي ﴿ ليُضل ﴾ غيره ، وهو يترتب على إضلاله كثرة العذاب ، إذ عليه وزر من عمل به .

ولما كان مآل جداله إلى الإضلال كان كأنه علة له ، وكذلك لما كان معرضاً عن الهدى مقبلاً

على الجدال بالباطل كان كالخارج من الهدى إلى الضلال .

والخزي في الدنيا ما لحقه يوم بدر من الأسر والقتل والهزيمة ، وقد أسر النضر .

وقيل : يوم بدر بالصفراء .

و﴿ الحريق ﴾ قيل طبقة من طباق جهنم ، وقد يكون من إضافة الموصوف إلى صفته أي العذاب الحريق أي المحرق كالسميع بمعنى المسمع .

وقرأ زيد بن عليّ فأذيقه بهمزة المتكلم ذلك إشارة إلى الخزي والإذاقة ، وجوزوا في إعراب ذلك هذا ما جوزوا في إعراب ذلك بأن الله هو الحق .

وتقدم المراد في ﴿ بما قدمت يداك ﴾ أي باجترامك وبعدل الله فيك إذ عصيته ، ويحتمل أن يكون وأن الله مقتطعاً ليس ذلك في السبب والتقدير والأمر أن الله .

قال ابن عطية : والعبيد هنا ذكروا في معنى مسكنتهم وقلة قدرتهم ، فلذلك جاءت هذه الصيغة انتهى .

وهو يفرق بين العبيد والعباد وقد رددنا عليه تفرقته في أواخر آل عمران في قوله ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ وشرحنا هنا قوله ﴿ بظلام ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(21/520)

وقال أبو السعود :

﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ كلامٌ مستأنفٌ جيء به إثرَ تحقيقِ حقّيةِ البعث وإقامةِ البُرهان عليه من العالَمينِ الإنسانيّ والنباتيّ لبيانِ أنَّ ذلك من آثارِ أُلوهيتِه تعالى وأحكامِ شؤونِه الذَّاتيةِ والوصفيةِ والفعليةِ وأنَّ ما ينكرون وجودَه بل إمكانه من إتيانِ السَّاعةِ والبعثِ من أسبابِ تلك الآثارِ العجيبةِ التي يُشاهدونها في الأنفس والآفاقِ ومبادي صدورِها عنه تعالى . وفيه من الإيذان بقوّةِ الدّليلِ وأصالةِ المدلُولِ في التَّحقُّقِ وإظهارِ بُطلان إنكارِه ما لا يخفى فإنَّ إنكارَ تحقُّقِ السَّببِ مع الجزمِ بتحقُّقِ المُسبَّبِ ممَّا يقضي ببُطلانِه بديهةَ العقولِ . والمرادُ بالحقِّ هو الثَّابتُ الذي يحقُّ ثبوتُه لا محالة لكونِه لذاتِه لا الثَّابتُ مطلقاً و (ذلك) إشارةٌ إلى ما ذُكر من خلقِ الإنسانِ على أطوارٍ مختلفةٍ وتصريفِه في أحوالٍ مُتباينةٍ وإحياءِ الأرضِ بعد موتِها ، وما فيه من معنى البُعد للإيذان ببُعدِ منزلتِه في الكمالِ وهو مبتدأٌ خبرُه الجارُّ والمجرورُ أي ذلك الصُّنعُ البديع حاصلٌ بسببِ أنَّه تعالى هو الحقُّ وحده في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه المحقّقُ لما سواه من الأشياءِ ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِ الموتى ﴾ أي شأنُه وعادته إحياؤُها وحاصلُه أنَّه تعالى قادرٌ على إحيائها بَدْءاً وإعادةً وإلاَّ لما أحيا النُّطفةَ والأرضَ الميتةَ مراراً بعد مرارٍ . وما تُفيده صيغةُ المضارعِ من التَّجددِ إنَّما هو باعتبارِ تعلُّقِ القُدرةِ ومتعلقها لا باعتبارِ نفسِها . ﴿ وَأَنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي مبالغٌ

في القدرة وإلاَّ لما أوجد هذه الموجوداتِ الفائتةَ للحصرِ التي من جُملتها ما ذُكر . وأمَّا الاستدلالُ على ذلك بأنَّ قدرته تعالى لذاتِه الذي نسبتُه إلى الكلِّ سواءٌ فلمَّا دلَّتِ المشاهدةُ على قدرتِه على إحياءِ بعض الأمواتِ لزم اقتدارُه على إحياءِ كلِّها فمنشؤُه الغفولُ عما سيقَ له

(22/520)

النَّظمُ الكريمُ من بيانِ كونِ الآثارِ الخاصَّةِ المذكورةِ من فروعِ القُدرةِ العامةِ التَّامةِ ومسبَّباتِها ، وتخصيصُ إحياءِ الموتى بالذِّكرِ مع كونِه من جُملةِ الأشياءِ المقدُورِ عليها للتَّصريحِ بما فيه النِّزاعُ والدَّفعُ في نحو المنكرينَ وتقديمُه لإبرازِ الاعتناءِ به .

(23/520)

﴿ وَأَنَّ الساعة ءاتِيَةٌ ﴾ أي فيما سيأتي . وإيثارُ صيغةِ الفاعلِ على الفعلِ للدّلالةَ على تحقُّقِ إتيانِها وتقرره ألبتةَ لاقتضاءِ الحكمةِ إيَّاه لا محالةَ وتعليله بأنَّ التَّغيُّرَ من مقدمات الانصرامِ وطلائعِه مبنيٌّ على ما ذُكر من الغفولِ . وقولُه تعالَى : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ إمَّا خبرٌ

ثانٍ لأنَّ أو حالٌ من ضميرِ السَّاعةِ في الخبرِ ومعنى نفيِ الرَّيبِ عنها أنَّها في ظهور أمرِها وضوح دلائِلها التَّكوينيَّةِ والتَّنزيليَّةِ بحيثُ ليس فيها مظنَّةُ أنْ يُرتابَ في إتيانِها حسبما مرَّ في مطلعِ سورةِ البقرةِ. والجملةُ عطفٌ على المجرورِ بالباء كما قبلها من الجُملتينِ داخلةٌ مثلهما في حيِّزِ السَّببيةِ وكذا قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِى القبور ﴾ لكنْ لا من حيثُ أن إتيانَ السَّاعةِ وبعثَ الموتى مؤثّرانِ فيما ذُكر من أفاعيلِه تعالى تأثيرَ القُدرة فيها بل من حيثُ إنَّ كُلاًّ منهما سببٌ داعٍ له عزَّ وجلَّ بموجبِ رأفتِه بالعبادِ المبنيَّةِ على الحكمِ البالغةِ إلى ما ذُكرَ من خلقِهم ومن إحياءِ الأرضِ الميتة على نمطٍ بديعٍ صالحٍ للاستشهادِ به على مكانِهما ليتأمَّلوا في ذلكَ ويستدلُّوا به على وقوعِهما لا محالة ويصدقوا بمَا ينطق بهما من الوحيِ المُبينِ وينالُوا به السَّعادةَ الأبديَّةَ ولولا ذلكَ لما فعل تعالى ما فعل بل لما خلق العالم رأساً وهذا كما ترَى من أحكام حقّيته تعالى في صفاتِه وكونها في غايةِ الكمالِ وقد جُعل إتيانُ السَّاعةِ وبعث مَنْ في القبورِ لكونهما من روادفِ الحكمةِ كناية عن كونِه تعالى حكيماً كأنَّه قيل ذلك بسببِ أنَّه تعالى قادرٌ على إحياءِ المَوْتى وعلى كلِّ مقدورٍ وأنَّه حكيمٌ لا يُخلف ميعادَه وقد وُعد بالسَّاعةِ والبعث فلابُدَّ أنْ يفي بما وعد ، وأنتَ خبيرٌ بأن مآله الاستدلالُ بحكمته تعالى على إتيان السَّاعة والبعثِ وليس الكلامُ في ذلكَ بل

إنَّما هُو في سببيتهما لما مرَّ من خلقِ الإنسانِ وإحياء الأرضِ فتأمَّل وكُن على الحقِّ المبين .

وقيل : قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الساعة ءاتِيَةٌ ﴾ ليس معطُوفاً على المجرورِ بالباء ، ولا داخلاً في حيّز السببية بل هو خبرٌ والمبتدأ محذوفٌ لفهم المَعْنى . والتَّقديرُ والأمرُ أنَّ السَّاعة آتيةٌ وأنَّ الثَّانيةَ معطوفةٌ على الأُولى ، وقيل : المَعْنى ذلك لتعلمُوا بأنَّ الله هو الحقُّ الآيتين .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله ﴾ هو أبو جهلِ بنُ هشامٍ حسبَما رُوي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهُما ، وقيل : هُو من يتصدَّى لإضلالِ النَّاسِ وإغوائِهم كائناً مَن كان كما أنَّ الأولَ من يُقلدهم على أنَّ الشَّيطانَ عبارةٌ عن المضلِّ المُغوي على الإطلاقِ ﴿ بغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ متعلّق بمحذوفٍ وقعَ حالاً من ضميرِ يجادل أي كائناً بغيرِ علمٍ والمرادُ العلمُ الضَّروريُّ كما أنَّ المرادَ بالهُدى في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ هُدًى ﴾ هو الاستدلالُ والنَّظرُ الصَّحيحُ الهادي إلى المعرفةِ ﴿ وَلاَ كتاب مُّنِيرٍ ﴾ وحي مظهرٍ للحقِّ أي يجادل في شأنِه تعالى من غير تمسُّكٍ بمقدّمةٍ ضروريةٍ ولا بحجَّةٍ نظريةٍ ولا ببرهانٍ سمعيَ كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ وأما ما قيلَ من أنَّ المرادَ به المجادلُ الأوَّلُ والتَّكريرُ للتَّأكيدِ والتَّمهيدِ لما بعدَهُ من بيانِ أنَّه لا سندَ له من استدلالٍ أو وحيٍ فلا يُساعدُه النَّظمُ الكريمُ ، كيفَ لا وإنَّ وصفَه باتّباعِ كلِّ شيطانٍ موصوفٍ بما ذُكر يُغني عن وصفِه بالعراءِ عن الدَّليلِ العقليِّ والسّمعيِّ .

﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِ ﴾ حالٌ أُخرى من فاعلِ يُجادل أي عاطفاً لجانبه وطاوياً كَشْحَه مُعرضاً متكبّراً فإنَّ ثَنْيَ العطفِ كنايةٌ عن التَّكبُّرِ . وقُرىء بفتحِ العينِ أي مانعاً لتعطُّفِه .

(25/520)

﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله ﴾ متعلّقٌ بيجادلُ فإنَّ غرضَه الإضلالُ عنه وإن لم يعترفْ بأنَّه إضلالٌ . والمرادُ به إمَّا الإخراجُ من الهُدى إلى الضَّلالِ فالمفعولُ مَن يُجادلُه من المؤمنينَ أو النَّاس جميعاً بتغليب المؤمنين على غيرِهم وإمَّا التَّثبيتُ على الضَّلالِ أو الزِّيادةُ عليه مجازاً فالمفعولُ هم الكفرةُ خاصَّةً . وقُرىء بفتح الياءِ وجُعل ضلالُه غايةً لجدالِه من حيثُ إنَّ المرادَ به الضَّلالُ المبينُ الذي لا هدايةَ له بعدَهُ مع تمكُّنِه منها قبلَ ذلك ﴿ لَهُ فِى الدنيا خِزْىٌ ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مسُوقةٌ لبيانِ نتيجةِ ما سلكَه من الطَّريقةِ أي يثبُت له في الدُّنيا بسببِ ما فعله خزيٌ وهُو ما أصابَه يومَ بدرٍ من القتلِ والصَّغارِ ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القيامة عَذَابَ الحريق ﴾ أي النَّارِ المُحرقةَ .

﴿ ذلك ﴾ أي ما ذُكر من العذابِ الدنيويِّ والأُخرويِّ ، وما فيهِ من مَعْنى البُعد للإيذانِ بكونِه في الغايةِ القاصيةِ من الهَولِ والفظاعةِ . وهو مبتدأٌ خبرُه قولُه تعالى : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أي بسببِ ما اقترفتَهُ من الكفرِ والمعاصِي . وإسنادُه إلى يديهِ لما أنَّ الاكتسابَ

عادةً يكونُ بالأيدي . والالتفاتُ لتأكيدِ الوعيدِ وتشديدِ التَّهديدِ . ومحلُّ أنَّ في قوله عزَّ وعلا : ﴿ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بظلامٍ للْعَبيدِ ﴾ الرَّفعُ على أنَّه خبرُ مبتدإٍ أي والأمرُ أنَّه تعالى ليس بمعذِّبٍ لعبيدِه بغيرِ ذنبٍ من قِبلَهم . والتَّعبيرُ عن ذلك بنفيِ الظُّلمِ مع أنَّ تعذيبَهم بغيرِ ذنبٍ ليس بظُلمٍ قطعاً على ما تقرَّرَ من قاعدةِ أهلِ السُنَّةِ فضلاً عن كونِه ظُلماً بالغاً قد مرَّ تحقيقُه في سورةِ آلِ عمرانَ والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلها وأمَّا ما قيلَ من أنَّ محلَّ أنَّ هُو الجرُّ بالعطفِ على ما قدمتْ فقد عرفتَ حالَه في سورة الأنفال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(26/520)

وقال الآلوسى :

﴿ ذلك بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق ﴾

كلام مستأنف جىء به أثر تحقيق حقية البعث وإقامة البرهان عليه على أتم وجه لبيان أن ما ذكر من خلق الإنسان على أطوار مختلفة وتصريفه في أحوال متباينة وإحياء الأرض بعد موتها الكاشف عن حقية ذلك من آثار ألوهيته تعالى وأحكام شؤونه الذاتية والوصفية والفعلية وأن ما ينكرونه من إتيان الساعة والبعث من أسباب تلك الآثار العجيبة المعلومة

لهم ومبادىء صدورها عنه تعالى ، وفيه من الإيذان بقوة الدليل وأصالة المدلول في التحقق وإظهار بطلان إنكاره ما لا يخفى فإن إنكار تحقق السبب مع الجزم بتحقق المسبب مما يقضي ببطلانه بديهة العقول فذلك إشارة إلى خلق الإنسان على إطوار مختلفة وما معه الإفراد باعتبار المذكور وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الكمال وهو مبتدأ خبره الجار والمجرور ، والمراد بالحق هو الثابت الذي يحق ثبوته لا محالة لكونه لذاته لا الثابت مطلقاً فوجه الحصر ظاهر أي ما ذكر من الصنع البديع حاصل بسبب أنه تعالى هو الحق وحده في ذاته وصفاته وأفعاله المحقق لما سواه من الأشياء ﴿ ذلك بِأَنَّ الله ﴾ أي شأنه وعادته تعالى شأنه إحياء الموتى ، وحاصله أنه تعالى قادر على إحيائها بدءاً وإعادة وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة مرة بعد مرة وما تفيده صيغة المضارع من التجدد إنما هو باعتبار تعلق القدرة ومتعلقها لا باعتبار نفسها لأن القدم الشخصي ينافي ذلك .

﴿ وَأَنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي مبالغ في القدرة وإلا لما أوجد هذه الموجودات الفائتة للحصر التي من جملتها ما ذكر ، وتخصيص إحياء الموتى بالذكر مع كونه من جملة الأشياء المقدور عليها للتصريح بما فيه النزاع والدفع في نحو المنكرين ، وتقديمه لإبراز الاعتناء به .

(27/520)

﴿ وَأَنَّ الساعة ءَاتِيَةٌ ﴾ أي فيما سيأتي ، والتعبير بذلك دون الفعل للدلالة على تحقق إتيانها وتقرره البتة لاقتضاء الحكمة إياه لا محالة ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ إما خبر ثان لأن أو حال من ضمير ﴿ الساعة ﴾ في الخبر ، ومعنى نفي الريب عنها أنها في ظهور أمرها ووضوح دلائلها بحيث ليس فيها مظنة أن يرتاب في إتيانها .

وأن وما بعدها في تأويل مصدر عطف على المصدر المجرور بباء السببية داخل معه في حيزها كالمصدرين الحاصلين من قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِىَ الموتى ﴾ [الحج : 6] وقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُ على كُلِّ قَدِيرٌ ﴾ [الحج : 6] وكذا قوله عز وجل : ﴿ وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِى القبور ﴾ لكن لا من حيث أن إتيان الساعة وبعث من في القبور مؤثر إن فيما ذكر من أفاعيله تعالى تأثير القدرة فيها بل من حيث أن كلاً منهما بسبب داع له عز وجل بموجب رأفته بالعباد المبنية على الحكم البالغة إلى ما ذكر من خلقهم ومن إحياء الأرض الميتة على نمط بديع صالح للاستشهاد به على إمكانهما ليتأملوا في ذلك ويستدلوا به عليه أو على وقوعهما ويصدقوا بذلك لينالوا السعادة الأبدية ولولا ذلك لما فعل بل لما خلق العالم رأساً ، وهذا كما ترى من أحكام حقيته تعالى في أفعاله وابتنائها على الحكم الباهرة كما أن ما قبله من أحكام حقيته تعالى في صفاته وكونها في غاية الكمال ، هذا ما اختاره العلامة أبو السعود في تفسير ذلك وهو مما يميل إليه الطبع السليم ، وجعل صاحب الكشاف الإشارة إلى ما ذكر أيضاً إلا أنه بحسب الظاهر جعل إتيان الساعة وبعث من في القبور

حيث إن ذلك من روادف الحكمة كناية عنها فكأن الأصل ذلك حاصل بسبب أن الله تعالى هو الحق الثابت الموجود وأنه قادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور وأنه حكيم فاكتفى بمقتضى الحكمة عن الوصف بالحكمة لما في الكناية من النكتة خصوصاً والكلام مع منكري البعث للدفع في نحورهم .

(28/520)

ولا يخلو عن بعد ، ونقل النيسابوري عبارة الكشف واعترضها بما لا يخفى رده وأبدى وجهاً في الآية ذكر أنه مما لم يخطر لغيره ورجا أن يكون صواباً وهو مع اقتضائه حمل الباء على ما يعم السببية الفاعلية والسببية الغائية مما لا يخفى ما فيه ، وقيل : ذلك إشارة إلى ما ذكر إلا أن قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الساعة ءاتِيَةٌ ﴾ الخ ليس معطوفاً على المجرور بالباء ولا داخلاً في حيز السببية بل هو خبر والمبتدأ محذوف لفهم المعنى والتقدير والأمر أن الساعة آتية الخ ، وعليه اقتصر أبو حيان وفيه قطع للكلام عن الانتظام ، وقيل : ذلك إشارة إلى ما ذكر إلا أن الباء صلة لكون خاص وليست سببية أي مشعر بأن الله هو الحق الخ ، وفيه أنه لا قرينة على هذا الكون الخاص وقيل : المعنى ذلك ليعلموا أن الله هو الحق الخ ، وفيه تلويح ما إلى معنى الحديث القدسي المشهور على الألسنة وفي كتب الصوفية وإم لم يثبت عند المحدثين

وهو "كنت كنزاً مخفياً فأحببت أنا أعرف فخلقت الخلق لأعرف" وهو كما ترى ، وقيل : الإشارة إلى البعث المستدل عليه بما سبق واستظهره بعضهم ، ولا يخفى عليك ما يحتاج إليه من التكلف ، ونقل في البحر أن ذلك منصوب بفعل مضمر أي فعلنا ذلك بأن الخ .

(29/520)

وأبو علي اقتصر على القول بأنه مرفوع على الإبتداء والجار والمجرور خبره ؛ وقال : لا يجوز غيره ذلك وكأنه عنى بالغير ما ذكر ، وما نقله العكبري من أنه خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلك والحق الجواز إلا أنه خلاف الظاهر جداً ، ثم أن المراد من الساعة قيل يوم القيامة المشتمل على النشر والحشر وغيرهما ، وقال سعدى جلبي : المراد بها هنا فناء العالم بالكلية لئلا تتكرر مع البعث ، وقول الطيبي : إن سبيل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ من قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى الْقُبُورِ ﴾ سبيل قوله جل وعلا ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج : 6] من قوله عز وجل : ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِى الْمَوْتَىٰ ﴾ [الحج : 6] لكن قدم وأخر لرعاية الفواصل ظاهر في الأول .

هذا وفي الاتقان للجلال السيوطي أن الإسلاميين من أهل المنطق ذكروا أن في أول سورة الحج إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى الْقُبُورِ ﴾ خمس نتائج تستنتج من عشر

مقدمات ثم بين ذلك بما يقضي منه العجب ويدل على قصور باعه في ذلك العلم ، وقد يقال في بيان ذلك : إن النتائج الخمس هي الجمل المتعاطفة الداخلة في حيز الباء ، واستنتاج الأولى بأنه لو لم يكن الله سبحانه هو الحق أي الواجب الوجود لذاته لما شوهد بعض الممكنات من الإنسان والنبات وغيرها والتالي باطل ضرورة فالله تعالى هو الحق ، ودليل الملازمة برهان التمانع ، واستنتاج الثانية بأنه لو لم يكن سبحانه قادراً على إحياء الموتى لما طور الإنسان في أطوار مختلفة حتى جعله حياً وأنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها والتالي باطل ضرورة أن الخصم لا ينكر أنه تعالى أحيا الإنسان وأحيا الأرض فالله تعالى قادر على إحياء الموتى ووجه الملازمة ظاهر .

(30/520)

واستنتاج الثالثة بأنه إذا كان الله تعالى قادراً على إحياء الموتى فهو سبحانه على كل شيء قدير لكنه تعالى قادر على إحياء الموتى فهو على كل شيء قدير ، ووجه الملازمة أن المراد من الشيء الممكن وإحياء الموتى ممكن والقدرة على بعض الممكنات دون بعض تنافي وجوب وجوده تعالى الذاتي ؛ وأيضاً إحياء الموتى أصعب الأمور عند الخصم المجادل

حتى زعم أنه من الممتنعات فإذا ثبت أنه سبحانه قادر عليه بما سبق ثبت أنه تعالى قادر على سائر الممكنات بالطريق الأولى .

(31/520)

واستنتاج الرابعة بأن الساعة أمر ممكن وعد الصادق بإتيانه وكل أمر ممكن وعد الصادق بإتيانه فهو آت فالساعة آتية أما أن الساعة أمر ممكن فلأنه لا يلزم من فرض وقوعها محال وأما أنها وعد الصادق بإتيانها فللآيات القرآنية المتحدى بها وأما أن كل أمر ممكن وعد الصادق بإتيانه فهو آت فلاستحالة الكذب ، واستنتاج الخامسة بنحو ذلك ولا يتعين استنتاج كل ما ذكر بل يمكن بغير ذلك واختياره لتسارعه إلى الذهن ، وربما يقتصر على ثلاث من هذه الخمس بناء على ما علمت بين قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِيَ الموتى ﴾ [الحج : 6] وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج : 6] وكذا بين قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ الساعة ءاتِيَةٌ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِى القبور ﴾ ويعد من الخمس قوله تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : 1] واستنتاجها بأن يقال : زلزلة الساعة تذهل كل مرضعة عما أرضعت وكل ما هذا شأنه فهو شيء عظيم فزلزلة الساعة شيء عظيم ، والتقوى واجبة عليكم المدلول عليه بقوله تعالى : ﴿ اتقوا

رَبَّكُمُ ﴾ [الحج : 1] واستنتاجه بأن يقال : التقوى يندفع بها ضرر الساعة وكل ما يندفع به الضرر عليكم فالتقوى واجبة عليكم ، ولا يخفى أن ما ذكر أولاً أولى إلا أنه لو كان مرادهم لكان الظاهر أن يقولوا : إن في قوله تعالى : ﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِى القبور ﴾ [الحج : 6 ، 7] خمس نتائج دون أن يقولوا : إن في أول سورة الحج إلى آخره ويناسب هذا القول ما ذكر ثانياً إلا أنه يرد عليه أن المتبادر من كلامهم كون كل من النتائج مذكوراً صريحاً ، ولا شك أن التقوى واجبة عليكم ليس مذكوراً كذلك وإنما المذكور ما يدل عليه في الجملة وهو أيضاً ليس بقضية كما لا يخفى ، وقد تكلف بعض الناس لبيان ذلك غير ما ذكرنا رأينا ترك ذكره أولى فتأمل .

(32/520)

﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ نزلت على ما روى عن محمد بن كعب في الأخنس بن شريق ؛ وعلى ما روى عن ابن عباس في أبي جهل ، وعلى ما ذهب إليه جمع في النضر كالآية السابقة فإذا اتحد المجادل في الآيتين فالتكرار مبالغة في الذم أو لكون كل من الآيتين مشتملة على زيادة ليست في الأخرى ، وقال ابن عطية : كررت الآية على جهة التوبيخ فكأنه قيل هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ومن الناس مع ذلك من يجادل إلى

آخره فالواو هنا واو الحال وفي الآية المتقدمة واو العطف عطفت جملة الكلام على ما قبلها على معنى الأخبار لا للتوبيخ انتهى ، وهو كما ترى .

وفي "الكشف" أن الأظهر في النظم والأوفق للمقام كون هذه الآية في المقلدين بفتح اللام وتلك في المقلدين بكسر اللام فالواو للعطف على الآية الأولى ، والمراد بالعلم العلم الضروري كما أن المراد بالهدى في قوله تعالى : ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ الاستدلال والنظر الصحيح الهادي إلى المعرفة ﴿ وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ وحي مظهر للحق أي يجادل في شأنه تعالى شأنه من غير تمسك بمقدمة ضرورية ولا بحجة ولا ببرهان سمعي .

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ حال من ضمير ﴿ يجادل ﴾ [الحج : 8] كالجار والمجرور السابق أي لاوياً لجانبه وهو كناية عن عدم قبوله ، وهو مراد ابن عباس بقوله متكبراً والضحاك بقوله شامخاً بأنفه وابن جريج بقوله معرضاً عن الحق .

وقرأ الحسن ﴿ عِطْفِهِ ﴾ بفتح العين أي مانعاً لتعطفه وترحمه ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ متعلق بيجادل علة له فإن غرضه من الجدال الإضلال عن سبيله تعالى وإن لم يعترف بأنه إضلال ، وجوز أبو البقاء تعلقه بثاني وليس بذاك ، والمراد بالإضلال إما الإخراج من الهدى إلى الضلال فالمفعول من يجادل من المؤمنين أو الناس جميعاً بتغليب المؤمنين على غيرهم وأما التثبيت على الضلال أو الزيادة عليه مجازاً فالمفعول هم الكفرة خاصة .

وقرأ مجاهد .

وأهل مكة .

(33/520)

وأبو عمرو في رواية ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ بفتح الياء أي ليضل في نفسه ؛ والتعبير بصيغة المضارع مع أنه لم يكن مهتدياً لجعل تمكنه من الهدى كالهدى لكونه هدى بالقوة ، ويجوز أن يراد ليستمر على الضلال أو ليزيد ضلاله ، وقيل : إن ذلك لجعل ضلاله الأول كالاضلال ، وأياماً كان فاللام للعاقبة ﴿ لَهُ فِى الدنيا خِزْىٌ ﴾ جملة مستأنفة لبيان نتيجة ما سلكه من الطريق ، وجوز أبو البقاء أن تكون حالاً مقدرة أو مقارنة على معنى استحقاق ذلك والأول أظهر أي ثابت له في الدنيا بسبب ما فعله ذل وهوان ، والمراد به عند القائلين بأن هذا المجادل النضر أو أبو جهل ما أصابه يوم بدر ، ومن عمم وهو الأولى حمله على ذم المؤمنين إياه وإفحامهم له عند البحث وعدم إدلائه بحجة أصلاً أو على هذا مع ما يناله من النكال كالقتل لكن بالنسبة إلى بعض الأفراد .

﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القيامة عَذَابَ الحريق ﴾ أي النار البالغة في الإحراق ، والإضافة على ما قيل من إضافة المسبب إلى السبب ، وفسر الحريق أيضاً بطبقة من طباق جهنم ، وجوز

أن تكون الإضافة من إضافة الموصوف إلى الصفة والمراد العذاب الحريق أي المحرق جداً ، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنه ﴿ وأذيقه ﴾ بهمزة المتكلم .

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (10) ﴾

(34/520)

﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من ثبوت الخزي له في الدنيا وإذاقة عذاب الحريق في الأخرى ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بكونه في الغاية القاصية من الهول والفظاعة ، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أي بسبب ما اكتسبته من الكفر والمعاصي ، وإسناده إلى يديه لما أن الاكتساب عادة يكون بالأيدي ، وجوز أن يكون ذلك خبراً لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلك وأن يكون مفعولاً لفعل محذوف أي فعلنا ذلك الخ وهو خلاف الظاهر ، والجملة استئناف لا محل لها من الإعراب ، وجوز أن تكون في محل نصب مفعولة لقول محذوف وقع حالاً أي قائلين أو مقولاً له ذلك الخ ، وعلى الأول يكون في الكلام التفات لتأكيد الوعيد وتشهيد التهديد ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ الظاهر أنه عطف على ما وبه قال بعضم ، وفائدته الدلالة على أن سببية ما اقترفوه من الذنوب لعذابهم مقيدة بانضمام انتفاء ظلمه تعالى إليه إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ما اقترفوا لا أن لا يعذبهم بما

اقترفوا ، وحاصله أن تعذيب العصاة يحتمل أن يكون لذنوبهم ويحتمل أن يكون لمجرد إرادة عذابهم من غير ذنب فجيء بهذا لرفع الاحتمال الثاني وتعيين الأول للسببية لا لرفع احتمال أن لا يعذبهم بذنوبهم لأنه جائز بل بعض الآيات تدل على وقوعه في حق بعض العصاة ، ومرجع ذلك في الآخرة إلى تقريع الكفر وتبكيتهم بأنه لا سبب للعذاب إلى من قبلهم كأنه قيل : إن ذلك العذاب إنما نشأ من ذنوبكم التي اكتسبتموها لا من شيء آخر .

(35/520)

واختار العلامة أبو السعود أن محل أن وما بعدها الرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف أي والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده من غير ذنب من قبلهم ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها ، وقال في العطف : للدلالة على أن سببية الخ أنه ليس بسديد لما أن إمكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعه لا ينافي كون تعذيب هؤلاء الكفرة المعينة بسبب ذنوبهم حتى يحتاج إلى اعتبار عدمه معه ، نعم لو كان المدعى كون جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذبين لاحتيج إلى ذلك انتهى .

وتعقب قوله : إن إمكان الخ بأن الكلام ليس في منافاة ذينك الأمرين بحسب ذاتهما بل في منافاة احتمال التعذيب بلا ذنب لتعين سببية الذنوب له وقوله نعم لو كان المدعى الخ بأن

الاحتياج إلى ذلك القيد في كل من الصورتين إنما هو لتقريع المذنبين بأنه لا سبب لتعذيبهم إلا من قبلهم فالقول بالاحتياج في صورة الجميع وبعدمه في صورة الخصوصية ركيك جداً ، وتعقب أيضاً بغير ذلك ، والقول بالاعتراض وإن كان لا يخلو عن بعد أبعد عن الاعتراض ، والتعبير عن نفي تعذيبه تعالى لعبيده من غير ذنب بنفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في صورة المبالغة في الظلم ، وقيل : هي لرعاية جمعية العبيد فتكون للمبالغة كما لا كيفا .

(36/520)

واعترض بأن نفي المبالغة كيفما كانت توهم المحال ، وقيل : يجوز أن تعتبر المبالغة بعد النفي فيكون ذلك مبالغة في النفي لا نفياً للمبالغة ، واعترض بأن ذلك ليس مثل القيد المنفصل الذي يجوز اعتبار تأخره وتقدمه كما قالوه في القيود الواقعة مع النفي ، وجعله قيداً في التقدير لأنه بمعنى ليس بذي لم عظيم أو كثير تكلف لا نظير له ، وقيل : إن ظلاماً للنسبة أي ليس بذلك ظلم ولا يختص ذلك بصيغة فاعل فقد جاء

: وليست بذي رمح ولست بنبال . . .

وقيل غير ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(37/520)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

لما انجرّ الكلام في خاتمة السورة المتقدمة إلى ذكر الإعادة وما قبلها وما بعدها ، بدأ سبحانه في هذه السورة بذكر القيامة وأهوالها ، حثاً على التقوى التي هي أنفع زاد فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ أي احذروا عقابه بفعل ما أمركم به من الواجبات وترك ما نهاكم عنه من المحرمات ، ولفظ الناس يشمل جميع المكلفين من الموجودين ومن سيوجد على ما تقرر في موضعه ، وقد قدّمنا طرفاً من تحقيق ذلك في سورة البقرة ، وجملة : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ تعليل لما قبلها من الأمر بالتقوى ، والزلزلة : شدّة الحركة ، وأصلها من زلّ عن الموضع ، أي زال عنه وتحرّك ، وزلزل الله قدمه ، أي : حركها ، وتكرير الحرف يدل على تأكيد المعنى ، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله ، وهي على هذا ، الزلزلة التي هي أحد أشراط الساعة التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة ، هذا قول الجمهور .

وقيل : إنها تكون في النصف من شهر رمضان ، ومن بعدها طلوع الشمس من مغربها .

وقيل : إن المصدر هنا مضاف إلى الظرف ، وهو الساعة ، إجراء له مجرى المفعول ، أو بتقدير " في " كما في قوله : ﴿ بَلْ مَكْرُ اليل والنهار ﴾ [سبأ : 33] .

وهي المذكورة في قوله : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرض زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 1] .

قيل : وفي التعبير عنها بالشيء إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها .

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ انتصاب الظرف بما بعده ، والضمير يرجع إلى الزلزلة ، أي وقت رؤيتكم لها ، تذهل : كل ذات رضاع عن رضيعها وتغفل عنه .

قال قطرب : تذهل تشتغل ، وأنشد قول الشاعر :

ضرب يزيل الهام عن مقيله . . . ويذهل الخليل عن خليله

وقيل : تنسى .

وقيل : تلهو .

وقيل : تسلو ، وهذه معانيها متقاربة .

(38/520)

قال المبرّد : إن "ما" فيما أرضعت بمعنى المصدر أي تذهل عن الإرضاع ، قال : وهذا يدل على أن هذه الزلزلة في الدنيا ، إذ ليس بعد القيامة حمل وإرضاع ، إلا أن يقال : من ماتت

حاملاً فتضع حملها للهول ، ومن ماتت مرضعة بعثت كذلك ، ويقال : هذا مثل كما يقال : ﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ [المزمل : 17] .

وقيل : يكون مع النفخة الأولى ، قال : ويحتمل أن تكون الساعة عبارة عن أهوال يوم القيامة ، كما في قوله : ﴿ مَّسَّتْهُمُ البأساء والضراء وَزُلْزِلُواْ ﴾ [البقرة : 214] .

ومعنى ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ : أنها تلقي جنينها لغير تمام من شدّة الهول ، كما أن المرضعة تترك ولدها بغير رضاع لذلك ﴿ وَتَرَى الناس سكارى ﴾ قرأ الجمهور بفتح التاء والراء خطاب لكل واحد ، أي يراهم الرائي كأنهم سكارى ﴿ وَمَا هُم بسكارى ﴾ حقيقة ، قرأ حمزة والكسائي : " سكرى " بغير ألف ، وقرأ الباقون بإثباتها وهما لغتان يجمع بهما سكران ، مثل كسلى وكسالى ، ولما نفى سبحانه عنهم السكر أوضح السبب الذي لأجله شابهوا السكارى فقال : ﴿ ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ فبسبب هذه الشدة والهول العظيم طاشت عقولهم ، واضطربت أفهامهم فصاروا كالسكارى ، بجامع سلب كمال التمييز وصحة الإدراك .

وقرىء : " وترى " بضم التاء وفتح الراء مسنداً إلى المخاطب من أرأيتك أي : تظنهم سكارى .

قال الفراء : ولهذه القراءة وجه جيد في العربية .

ثم لما أراد سبحانه أن يحتجّ على منكري البعث قدّم قبل ذلك مقدّمة تشمل أهل الجدال

كلهم فقال : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وقد تقدّم إعراب مثل هذا التركيب في قوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَقُولُ ﴾ [البقرة : 8] .

ومعنى ﴿ فِي الله ﴾ : في شأن الله وقدرته ، ومحل ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ النصب على الحال .

(39/520)

والمعنى : أنه يخاصم في قدرة الله ، فيزعم أنه غير قادر على البعث بغير علم يعلمه ، ولا حجة يدلي بها ﴿ وَيَتَّبِعْ ﴾ فيما يقوله ويتعاطاه ويحتجّ به ويجادل عنه ﴿ كُلَّ شيطان مَّرِيدٍ ﴾ أي متمرّد على الله وهو العاتي ، سمي بذلك لخلّوه عن كل خير ، والمراد : إبليس وجنوده ، أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياعهم إلى الكفر .

وقال الواحدي : قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحارث وكان كثير الجدال ، وكان ينكر أن الله يقدر على إحياء الأموات .

وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة .

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ ﴾ أي كتب على الشيطان ؛ وفاعل كتب : أنه من تولاه ، والضمير للشأن ، أي من اتخذه ولياً ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾ أي : فشأن الشيطان أن يضله عن طريق الحقّ ، فقوله أنه يضله جواب الشرط إن جعلت من شرطية أو خبر الموصول إن

جعلت موصولة ، فقد وصف الشيطان بوصفين : الأوّل أنه مريد ، والثاني ما أفاده جملة كتب عليه إلخ ، وجملة ﴿ وَيَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السعير ﴾ معطوفة على جملة يضله أي : يحمله على مباشرة ما يصير به في عذاب السعير .

ثم ذكر سبحانه ما هو المقصود من الاحتجاج على الكفار بعد فراغه من تلك المقدّمة ، فقال : ﴿ يا أَيُّهَا الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مّنَ البعث ﴾ قرأ الحسن : " البعث " بفتح العين وهي لغة ، وقرأ الجمهور بالسكون ، وشكهم يحتمل أن يكون في وقوعه أو في إمكانه .

والمعنى : إن كنتم في شكّ من الإعادة فانظروا في مبدأ خلقكم ، أي خلق أبيكم آدم ، ليزول عنكم الريب ، ويرتفع الشكّ وتدحض الشبهة الباطلة ﴿ فَإِنَّا خلقناكم مّن تُرَابٍ ﴾ في ضمن خلق أبيكم آدم " ثُمَّ " خلقناكم ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي من منيّ ، سمي نطفة لقلته ، والنطفة : القليل من الماء .

وقد يقع على الكثير منه ، والنطفة : القطرة ، يقال : نطف ينطف ، أي قطر .

(40/520)

وليلة نطوف ، أي دائمة القطر ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ والعلقة : الدم الجامد ، والعلق : الدم العبيط ، أي الطريّ أو المتجمد ، وقيل : الشديد الحمرة .

والمراد : الدم الجامد المتكوّن من المنيّ ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ وهي القطعة من اللحم ، قدر ما يمضغ الماضغ تتكوّن من العلقة ﴿ مُّخَلَّقَةٍ ﴾ بالجرّ صفة لمضغة ، أي مستبينة الخلق ظاهرة التصوير ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ أي : لم يستبن خلقها ولا ظهر تصويرها .

قال ابن الأعرابي : مخلقة يريد قد بدأ خلقه ، وغير مخلقة : لم تصوّر .

قال الأكثر : ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه فهو المخلقة وهو الذي ولد لتمام ، وما سقط ؛ كان غير مخلقة أي غير حيّ بإكمال خلقته بالروح .

قال الفراء : مخلقة : تامّ الخلق ، وغير مخلقة : السقط ، ومنه قول الشاعر :

أفي غير المخلقة البكاء . . . فأين الحزم ويحك والحياء

واللام في ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ متعلق بخلقنا ، أي خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم كمال قدرتنا بتصريفنا أطوار خلقكم ﴿ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ ﴾ روى أبو حاتم عن أبي زيد عن المفضل عن عاصم أنه قرأ بنصب نقرّ عطفاً على نبين ، وقرأ الجمهور : " نقر " بالرفع على الاستئناف ، أي ونحن نقرّ .

قال الزجاج : نقرّ بالرفع لا غير ، لأنه ليس المعنى فعلنا ذلك لنقرّ في الأرحام ما نشاء .

ومعنى الآية : ونثبت في الأرحام ما نشاء فلا يكون سقطاً ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو وقت الولادة ، وقال ما نشاء ، ولم يقل : من نشاء ، لأنه يرجع إلى الحمل وهو جماد قبل أن ينفخ فيه الروح ، وقرىء " ليبين " " ويقرّ " و" يخرجكم " بالتحتية في الأفعال الثلاثة ، وقرأ

ابن أبي وثاب : " ما نشاء " بكسر النون ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أي نخرجكم من بطون أمهاتكم طفلاً ، أي أطفالاً ، وإنما أفرده إرادة للجنس الشامل للواحد والمتعدد .

(41/520)

قال الزجاج : طفلاً في معنى أطفالاً ، ودلّ عليه ذكر الجماعة : يعني في : نخرجكم ، والعرب كثيراً ما تطلق اسم الواحد على الجماعة ، ومنه قول الشاعر :

يلحينني من حبها ويلمنني . . . إن العواذل لسن لي بأمير

وقال المبرد : هو اسم يستعمل مصدراً كالرضا والعدل ، فيقع على الواحد والجمع ، قال الله سبحانه : ﴿ أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ ﴾ [النور : 31] .

قال ابن جرير : هو منصوب على التمييز كقوله : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً ﴾ [النساء : 4] .

وفيه بعد ، والظاهر انتصابه على الحال بالتأويل المذكور ، والطفل يطلق على الصغير من وقت انفصاله إلى البلوغ ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ قيل : هو علة لنخرجكم معطوف على علة أخرى مناسبة له ، كأنه قيل : نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا إلى الأشدّ .

وقيل : إن ثم زائدة والتقدير : لتبلغوا وقيل : إنه معطوف على نبين .

والأشدّ هو : كمال العقل وكمال القوّة والتمييز .

قيل : وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين .

وقد تقدم الكلام في هذا مستوفى في الأنعام ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى ﴾ يعني : قبل بلوغ الأشدّ ، وقرىء " يتوفّى " مبنياً للفاعل .

وقرأ الجمهور : " يتوفى " مبنياً للمفعول ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر ﴾ أي أخسه وأدونه ، وهو الهرم والخرف حتى لا يعقل ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ أي شيئاً من الأشياء ، أو شيئاً من العلم ، والمعنى : أنه يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها ، لا علم له ولا فهم ، ومثله قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين ﴾ [التين : 4 ، 5] ، وقوله : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الخلق ﴾ [ياس : 68] .

(42/520)

﴿ وَتَرَى الأرض هَامِدَةً ﴾ هذه حجة أخرى على البعث ، فإنه سبحانه احتج بإحياء الأرض بإنزال الماء على إحياء الأموات ، والهامدة : اليابسة التي لا تنبت شيئاً ، قال ابن قتيبة : أي ميتة يابسة كالنار إذا طفئت .

وقيل : دارسة ، والهمود : الدروس ، ومنه قول الأعشى :

قالت قتيلة ما لجسمك شاحباً . . . وأرى ثيابك باليات همودا

وقيل : هي التي ذهب عنها الندى .

وقيل : هالكة ، ومعاني هذه الأقوال متقاربة ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء اهتزت وَرَبَتْ ﴾

المراد بالماء هنا : المطر ، ومعنى : اهتزّت : تحركت .

والاهتزاز : شدّة الحركة ، يقال : هززت الشيء فاهتزّ ، أي حركته فتحرك ، والمعنى :

تحركت بالنبات ؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة حقيقة ، فسماه

اهتزازاً مجازاً .

وقال المبرد : المعنى : اهتزّ نباتها فحذف المضاف .

واهتزازه شدة حركته ، والاهتزاز في النبات أظهر منه في الأرض .

ومعنى ربت : ارتفعت ، وقيل : انتفخت .

والمعنى واحد ، وأصله : الزيادة ، يقال : ربا الشيء يربو ربواً : إذا زاد ، ومنه الربا

والربوة .

وقرأ يزيد بن القعقاع وخالد بن إلياس : " وربأت " أي ارتفعت حتى صارت بمنزلة الرابية ،

وهو الذي يحفظ القوم على مكان مشرف يقال له : رابىء ورابئة وربيئة ﴿ وَأَنبَتَتْ ﴾

أي أخرجت ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ أي من كلّ صنف حسن ولون مستحسن ، والبهجة

: الحسن .

وجملة : ﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ مستأنفة ، لما ذكر افتقار الموجودات إليه سبحانه وتسخيرها على وفق إرادته واقتداره .

(43/520)

قال بعد ذلك هذه المقالات ، وهي إثبات أنه سبحانه الحق ، وأنه المتفرد بإحياء الموتى ، وأنه قادر على كل شيء من الأشياء ، والمعنى : أنه المتفرد بهذه الأمور ، وأنها من شأنه لا يدّعي غيره أنه يقدر على شيء منها ، فدلّ سبحانه بهذا على أنه الحق الحقيقي الغني المطلق ؛ وأن وجود كل موجود مستفاد منه ، والحق هو الموجود الذي لا يتغير ولا يزول .

وقيل : ذو الحقّ على عباده .

وقيل : الحقّ في أفعاله .

قال الزجاج : ﴿ ذلك ﴾ في موضع رفع ، أي الأمر ما وصفه لكم وبيّن بأن الله هو الحق .

قال : ويجوز أن يكون ﴿ ذلك ﴾ نصباً .

ثم أخبر سبحانه بأن ﴿ الساعة ءَاتِيَةٌ ﴾ أي في مستقبل الزمان ، قيل : لا بدّ من إضمار فعل ، أي ولتعلموا أن الساعة آتية ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي لا شك فيها ولا تردّد ، وجملة :

﴿ لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ خبر ثانٍ للساعة ، أو في محل نصب على الحال .

ثم أخبر سبحانه عن البعث فقال : ﴿ وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي القبور ﴾ فيجازيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ ، وأن ذلك كائن لا محالة .

(44/520)

وقد أخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طرق عن الحسن وغيره عن عمران بن حصين قال : لما نزلت ﴿ يا أَيُّهَا الناس اتقوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ أنزلت عليه هذه وهو في سفر ، فقال : " أتدرون أيّ يوم ذلك ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : " ذلك يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار ، قال : يا ربّ وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار ، وواحداً إلى الجنة " ، فأنشأ المسلمون يبكون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قاربوا وسدّدوا وأبشروا ، فإنها لم تكن نبوّة قط إلا كان بين يديها جاهلية فتؤخذ العدّة من الجاهلية ، فإن تمت وإلا كملت من المنافقين ، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة ، أو كالشامة في جنب البعير " ، ثم قال : " إني لأرجو أن

تكونوا ربع أهل الجنة " فكبّروا ، ثم قال : " إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة " فكبّروا ، ثم قال : " إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة " فكبّروا ، قال : " ولا أدري قال الثلثين أم لا " وأخرج الترمذي وصححه ، وابن جرير وابن المنذر عن عمران بن حصين مرفوعاً نحوه ، وقال في آخره : " اعملوا وأبشروا ، فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج ، ومن مات من بني آدم ومن بني إبليس " ، فسري عن القوم بعض الذي يجدون ، قال : " اعملوا وأبشروا ، فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير ، أو كالرقمة في ذراع الدابة " وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وابن حبان والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس مرفوعاً نحوه .

(45/520)

وأخرج البزار وابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً .

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه ، وفي آخره فقال : " من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد ، وهل أنتم في الأمم

إلا كالشعرة السوداء في الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود "

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ قال : كتب على الشيطان .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد مثله : ﴿ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ قال : اتبعه .

وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود قال : حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها " والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً .

وأخرج ابن أبي حاتم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ قال : المخلقة ما كان حياً ، وغير المخلقة ما كان سقطاً .

وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ قال : حسن .

(46/520)

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن معاذ بن جبل قال : من علم أن الله عزّ وجلّ حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ؛ دخل الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(47/520)

وقال القاسمي :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾

أي : ذلك الذي ذكر من خلق الإنسان على أطوار مختلفة ، وتصريفه في أحوال متباينة ، وإحياء الأرض بعد موتها ، حاصل بسبب أن الله هو الحق وحده في ذاته وصفاته وأفعاله . المحقق لما سواه من الأشياء ، فهي من آثار ألوهيته وشؤونه الذاتية وحده ؛ وما سواه مما

يبعد باطل ، لا يقدر على شيء من ذلك : ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أي : يقدر على إحيائها ، إذ أحيى النطفة والأرض الميتة : ﴿ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فإن القدرة التي جعل بها هذه الأشياء العجيبة ، لا يمتنع عليها شيء : ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي : لاقتضاء الحكمة إياها . فهي في وضوح دلائلها التكوينية ، بحيث ليس فيها مظنة أن يرتاب في إتيانها : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ أي : من الأموات ، أحياء إلى موقف الحساب .

(48/520)

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ أي : يجادل في شأنه تعالى من غير تمسك بعلم ضروريّ ولا باستدلال ونظر صحيح ، يهدي إلى المعرفة . ولا بوحي مظهر للحق . أي : بل بمجرد الرأي والهوى ، وهذه الآية في حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر المقلدين - بفتح اللام - كما أن ما قبلها في حال الضُّلّال الجهال المقلدين - بكسر اللام - فلا تكرار أو أنهما في الدعاة المضلين واعتبر تغاير أوصافهم فيها ، فلا تكرار أيضاً .

قال في " الكشف " : والأول أظهر وأوفق بالمقام . وكذا اختاره أبو مسلم فيما نقله عنه

الرازيّ ، ثم قال : فإن قيل كيف يصح ما قلتم ، والمقلد لا يكون مجادلاً ؟ قلنا : قد يجادل تصويباً لتقليده وقد يورد الشبهة الظاهرة إذا تمكن منها ، وإن كان معتمده الأصليّ هو التقليد .

وقوله : ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ حال من فاعل يجادل أي : عاطفاً لجانبه إعراضاً واستكباراً عن الحق ، إذا دعي إليه .

قال الزمخشريّ : ثنى العطف عبارة عن الكبر والخيلاء . كتصعير الخدّ وليّ الجيد . وقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : ليصد عن دينه وشَرعه ، متعلق بيجادل علة له : ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ أي : إهانة ومذلة ، كما أصابه يوم بدر من الصغار والفشل : ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أي : النار المحرقة : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ على الالتفات ، أو إرادة القول . أي : يقال له يوم القيامة : ذلك الخزي والتعذيب بسبب ما اقترفته من الكفر والضلال والإضلال . وإسنادُه إلى يديه ، لما أن الاكتساب عادة يكون بالأيدي ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ أي : بل هو العدل في معاقبة الفجار ، وإثابة الصالحين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 247. 249 ﴾

(49/520)

وقال ابن عاشور :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾

فذلكة لما تقدم ، فالجملة تذييل .

والإشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدم من أطوار خلق الإنسان وفنائه ، ومن إحياء الأرض بعد موتها وانبثاق النبت منها .

وإفراد حرف الخطاب المقترن باسم الإشارة لإرادة مخاطب غير معيّن على نسق قوله ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ [الحج : 5] على أن اتصال اسم الإشارة بكاف خطاب الواحد هو الأصل .

والمجرور خبر عن اسم الإشارة ، أي ذلك حصل بسبب أن الله هو الحق الخ . . .

والباء للسببية فالمعنى : تَكوّن ذلك الخلق من تراب وتطَور ، وتكوّن إنزال الماء على الأرض الهامدة والنبات البهيج بسبب أنّ الله هو الإله الحق دون غيره .

ويجوز أن تكون الباء للملابسة ، أي كان ذلك الخلق وذلك الإنبات البهيج ملابساً لحقيّة إلهيّة الله .

وهذه الملابسة ملابسة الدليل لمدلوله ، وهذا أرشق من حمل الباء على معنى السببية وهو أجمع لوجوه الاستدلال .

والحق : الثابت الذي لا مراء فيه ، أي هو الموجود .

والقصر إضافي ، أي دون غيره من معبوداتكم فإنها لا وجود لها ، قال تعالى : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ [الحج : 23] وهذا الاستدلال هو أصل بقية الأدلة لأنه نقضٌ للشرك الذي هو الأصل لجميع ضلالات أهله كما قال تعالى : ﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر ﴾ [التوبة : 37] .

وأما بقية الأمور المذكورة بعد قوله ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ ، فهي لبيان إمكان البعث .

ووجه كون هذه الأمور الخمسة المعدودة في هذه الآية ملابسة لأحوال خلق الإنسان وأحوال إحياء الأرض أن تلك الأحوال دالة على هذه الأمور الخمسة : إما بدلالة المسبب على السبب بالنسبة إلى وجود الله وإلى ثبوت قدرته على كل شيء ، وإما بدلالة التمثيل على الممثَّل والواقعِ على إمكان نظيره الذي لم يقع بالنسبة إلى إحياء الله الموتى ، ومجيء الساعة ، والبعثِ .

(50/520)

وإذا تبين إمكان ذلك حق التصديق بوقوعه لأنهم لم يكن بينهم وبين التصديق به حائل إلا ظنهم استحالته ، فالذي قدر على خلق الإنسان عن عدم سابق قادر على إعادته بعد

اضمحلاله الطارىء على وجوده الأحْرَى ، بطريقة .

والذي خلق الأحياء بعد أن لم تكن فيها حياةٌ يمكنه فعل الحياة فيها أو في بقيّة آثارها أو خلق أجسام مماثلة لها وإيداع أرواحها فيها بالأولى .

وإذا كان كذلك علم أن ساعة فناء هذا العالم واقعة قياساً على انعدام المخلوقات بعد تكوينها ، وعُلم أن الله يعيدها قياساً على إيجاد النسل وانعدام أصله الحاصل للمشركين في وقوع الساعة منزّل منزلة العدم لانتفاء استناده إلى دليل .

وصيغة نفي الجنس على سبيل التنصيص صيغة تأكيد ، لأن (لاَ) النافية للجنس في مقام النفي بمنزلة (إنّ) في مقام الإثبات ولذلك حملت عليها في العمل .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8) ﴾

عطف على جملة ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث ﴾ [الحج : 5] كما عطفت جملة ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ على جملة ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ﴾ [الحج : 1] .

والمعنى : إن كنتم في ريب من وقوع البعث فإنا نزيل ريبكم بهذه الأدلة الساطعة ، فالناسُ بعد ذلك فريقان : فريق يوقن بهذه الدلالة فلا يبقى في ريب ، وفريق من الناس يجادل في الله بغير علم وهؤلاء هم أئمة الشرك وزعماء الباطل .

وجملة ﴿ لا ريب فيها ﴾ [الحج : 7] معترضة بين المتعاطفات ، أي ليس الشأن أن يُرتاب فيها ، فلذلك نفي جنس الريب فيها ، أي فالريب .

(51/520)

المعنيُّ بهذه الآية هو المعنيُّ بقوله فيما مضى ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ [الحج : 3] ، فيكون المراد فريق المعاندين المكابرين الذين يجادلون في الله بغير علم بعد أن بلغهم الإنذار من زلزلة الساعة ، فهم كذلك يجادلون في الله بغير علم بعد أن وضحت لهم الأدلة على وقوع البعث .

ودافِعُهم إلى الجدال في الله عند سماع الإنذار بالساعة عدمُ علمهم ما يجادلون فيه واتباعهم وسواس الشياطين .

ودافعهم إلى الجدال في الله عند وضوح الأدلة على البعث علم علمهم ما يجادلون فيه ، وانتفاء الهُدى ، وانتفاء تلقي شريعة من قبل ، والتكبر عن الاعتراف بالحجة ، ومحبةُ إضلال الناس عن سبيل الله .

فيؤول إلى معنى أن أحوال هؤلاء مختلفة وأصحابها فريق واحد هو فريق أهل الشرك والضلالة .

ومن أساطين هذا الفريق من عدّوا في تفسير الآية الأولى مثلُ : النضْر بن الحارث ، وأبي جهل ، وأُبيّ بن خلف .

وقيل : المراد من هذه الآية بمن يجادل في الله : النضر بن الحارث .

كُرر الحديث عنه تبييناً لحالتي جداله ، وقيل المراد بمن يجادل في هذه الآية أبو جهل ، كما قيل : إن المراد في الآية الماضية النضر بن الحارث فجعلت الآية خاصة بسبب نزولها في نظر هذا القائل .

وروي ذلك عن ابن عباس .

وقيل : هو الأخنَس بن شَريق .

وتقدم معنى قوله ﴿ بغير علم ﴾ في نظير هذه الآية .

وقيل المراد بـ ﴿ من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ [الحج : 3] المقلدون بكسر اللام من المشركين الذين يتّبعون ما تمليه عليهم سادة الكفر ، والمراد بـ ﴿ من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ﴾ المقلّدون بفتح اللام أئمة الكفر .

والهدى مصدر في معنى المضاف إلى مفعوله ، أي ولا هُدى هو مَهدِي به .

وتلك مجادلة المقلّد إذا كان مقلداً هادياً للحق مثل أتباع الرسل ، فهذا دون مرتبَة من يجادل في الله بعلم ، ولذلك لم يستغن بذكر السابِق عن ذكر هذا .

والكتاب المُنير : كُتب الشرائع مثل : التوراة والإنجيل ، وهذا كما يجادل أُهلُ الكتاب قبل مجيء الإسلام المشركين والدهريين فهو جدال بكتاب منير .

والمنير : المبين للحق .

شبه بالمصباح المضيء في الليل .

ويجيء في وصف ﴿ كتاب ﴾ بصفة ﴿ مُنير ﴾ تعريض بالنضر بن الحارث إذ كان يجادل في شأن الإسلام بالموازنة بين كتاب الله المنير وبين كتاب أخبار رُستم ، وكتاب أخبار أسفنديار المظلمة الباطلة .

والثّنْيُ : لَيُّ الشيء .

يقال : ثنى عنان فرسه ، إذا لواه ليدير رأس فرسه إلى الجهة التي يريد أن يوجهه إليها .

ويطلق أيضاً الثّني على الإمالة .

والعِطف : المنكب والجانب .

و ﴿ ثاني عطفه ﴾ تمثيل للتكبر والخيلاء .

ويقال : لوى جيدَه ، إذا أعرض تكبراً .

وهذه الصفة تنطبق على حالة أبي جهل فلذلك قيل إنه المراد هنا .

واللام في قوله ﴿ ليُضل ﴾ لتعليل المجادلة ، فهو متعلّق بـ ﴿ يجادل ﴾ أي غرضه من

المجادلة الإضلال .

وسبيل الله : الدّين الحق .

وقوله ﴿ ليُضل ﴾ بضم الياء أي ليُضلل الناسَ بجداله .

فهذا المجادل يريد بجدله أن يوهم العامة بطلان الإسلام كيلا يتبعوه .

وإفراد الضمير في قوله ﴿ عطفه ﴾ وما ذكر بعده مراعاةٌ للفظ (مَن) وإنْ كان معنى تلك الضمائر الجمع .

وخزي الدنيا : الإهانة ، وهو ما أصابهم من القتل يوم بَدر ومن القتل والأسر بعد ذلك .

وهؤلاء هم الذين لم يسلموا بعدُ .

وينطبق الخزي على ما حصل لأبي جهل يوم بدر من قتله بيد غلامين من شباب الأنصار وهما ابنا عفراء .

وباعتلاء عبد الله بن مسعود على صدره وذبحه وكان في عظمته لا يخطر أمثال هؤلاء الثلاثة بخاطره .

وينطبق الخزيُ أيضاً على ما حلّ بالنضر بن الحارث من الأسر يوم بدر وقتله صبراً في موضع يقال له : الأُثَيْل قرب المدينة عقب وقعة بدر كما وصفته أخته قتيلة في رثائه من قصيدة:

صبْراً يقاد إلى المنية متعَبا . . .

صبرَ المقيّد وهو عَانٍ مُوثق

وإذ كانت هذه الآية ونظيرتها التي سبقت مما نزل بمكة لا محالة كان قوله تعالى : ﴿ له في الدنيا خزي ﴾ من الإخبار بالغيب وهو من معجزات القرآن .

وإذاقة العذاب تخييل للمكنيّة .

وجملة ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ مقول قول محذوف تدل عليه صيغة الكلام وهي جملة مستأنفة ، أو في موضع الحال من ضمير النصب في قوله تعالى ﴿ ونذيقه ﴾ .

و ﴿ قدّمتْ ﴾ بمعنى : أسلفت .

جعل كفره كالشيء الذي بعث به إلى دار الجزاء قبل أن يصِل هو إليها فوجده يوم القيامة حاضراً ينتظره قال تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ [الكهف : 49] .

والإشارة إلى العذاب والباءُ سببية .

و(ما) موصولة .

وعطف على (ما) الموصولة قوله تعالى : ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ لأنه في تأويل مصدر ، أي وبانتفاءِ ظلم الله العبيد ، أي ذلك العذاب مسبب لهذين الأمرين فصاحبه حقيق به لأنه جزاء فساده ولأنه أثر عدل الله تعالى وأنه لم يظلمه فيما أذاقه .

وصيغة المبالغة تقتضي بظاهرها نفي الظلم الشديد ، والمقصود أن الظلم من حيث هو ظلم أمر شديد فيصغت له زنة المبالغة ، وكذلك التزمت في ذكره حيثما وقع في القرآن ، وقد اعتاد جمع من المتأخرين أن يجعلوا المبالغة راجعة للنفي لا للمنفي وهو بعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(54/520)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8) ﴾

قال بعض أهل العلم : أن الآية التي هي ﴿ وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج : 3] نازلة في الأتباع الجهلة الذين يجادلون بغير علم ، اتباعاً لرؤسائهم ، من شياطين الإنس والجن ، وهذه الآية الأخيرة في الرؤساء الدعاة إلى الضلال المتبوعين في ذلك ، ويدل لهذا أنه قال في الأولى ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ ﴾ وقال في هذه ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله ﴾ فتبين بذلك أنه مضل لغيره ، متبوع في الكفر والضلال ، على قراءة الجمهور بضم ياء يضل . وأما على قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو : بفتح الياء ،

فليس في الآية دليل على ذلك ، وقد قدمنا معنى جدال الكفرة في الله بغير علم ، فأغنى عن إعادته هنا .

(55/520)

وقال بعض العلماء في قوله في هذه الآية الكريمة ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي بدون علم ضروري ، حاصل لهم بما يجادلون به ﴿ وَلاَ هُدًى ﴾ أي استدلال ، ونظر عقلي ، يهتدي به العقل للصواب ﴿ وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ أي وَحْي نير واضح ، يعلم به ما يجادل به ، فليس عنده علم ضروري ولا علم مكتسب بالنظر الصحيح العقلي ، ولا علم من وَحْي ، فهو جاهل محض من جميع الجهات ، وقوله ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ حال من ضمير الفاعل المستكن في : يجادل : أي يخاصم بالباطل في حال كونه ثاني عطفه : أي لاوي عنقه عن قبول الحق استكباراً وإعراضاً . فقوله : ثاني اسم فاعل ثَنْى الشيء إذا لواه ، وأصل العطف الجانب ، وعطفا الرجل : جانباه من لدن رأسه إلى وركيه ، تقول العرب : ثنى فلان عنك عطفه : تعني أعرض عنك . وإنما عبر العلماء هنا بالعنق فقالوا : ثاني عطفه : لاوي عنقه : مع أن العطف يشمل العنق وغيرها ، لأن أول ما يظهر فيه الصدود عنق الإنسان ، يلويها ، ويصرف وجهه عن الشيء بليها . والمفسرون يقولون : إن اللام في قوله ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ

الله ﴾ ونحوها من الآيات مما لم تظهر فيه العلة الغائية ، كقوله ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] الآية . ونحو ذلك لام العاقبة ، والبلاغيون يزعمون أن في ذلك استعارة تبعية ، في معنى الحرف . وقد وعدنا بإيضاح ذلك في سورة القصص .

ونقول هنا : إن الظاهر في ذلك : أن الصواب فيه غير ما ذكروا ، وأن اللام في الجميع لام التعليل ، والمعنى واضح لا إشكال فيه كما نبه عليه الحافظ ابن كثير رحمه الله في مواضع من تفسيره .

(56/520)

وإيضاح ذلك : أن الله هو الذي قدر على الكافر في أزله أن يجادل في الله بغير علم في حال كونه لاوي عنقه إعراضاً عن الحق ، واستكباراً . وقد قدر عليه ذلك ليجعله ضالاً مضلاً . وله الحكمة البالغة في ذلك ، كقوله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الكهف : 57] أي لئلا يفقهوه . وكذلك

﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ [القصص : 8] الآية : أي قدر الله عليهم أن يلتقطوه ، لأجل أن يجعله لهم عدواً وحزناً . وهذا واضح لا إشكال فيه كما ترى .

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية : من إعراض بعض الكفار عن الحق واستكبارهم

أوضحه في آيات أخر من كتاب الله ، كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ولى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [لقمان : 7] وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المنافقون : 5] وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرسول رَأَيْتَ المنافقين يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودا ﴾ [النساء : 61] وقوله تعالى عن لقمان في وصيته لابنه ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ [لقمان : 18] الآية أي لا تمل وجهك عنهم ، استكباراً عليهم . وقوله تعالى عن فرعون ﴿ وَفِي موسى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فتولى بِرُكْنِهِ ﴾ [الذاريات : 38-39] فقوله ﴿ فتولى بِرُكْنِهِ ﴾ بمعنى : ثنى عطفه . وقوله تعالى ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ [فصلت : 51] الآية إلى غير ذلك من الآيات : وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ لَهُ فِي الدنيا خِزْيٌ ﴾ أي ذل وإهانة . وقد أذل الله الذين جادلوا في الله بغير علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منير : كأبي جهل بن هشام ، والنضر بن الحارث بالقتل يوم بدر .

(57/520)

ويفهم من هذه الآية الكريمة أن من ثنى عطفه استكباراً عن الحق وإعراضاً عنه عامله الله بنقيض قصده فأذله وأهانه. وذلك الذل والإهانة نقيض ما كان يؤمله من الكبر والعظمة.

وهذا المفهوم من هذه الآية دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيه ﴾ [غافر: 56] وقوله في إبليس لما استكبر ﴿ فاهبط مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فاخرج إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾ [الأعراف: 13] والصغار: الذل والهوان، عياذاً بالله من ذلك، كما قدمنا إيضاحه. وقوله ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القيامة عَذَابَ الحريق ﴾ أين حرقه بالنار، ونذيقه ألم حرها يوم القيامة: وسمى يوم القيامة: لأن الناس يقومون فيه له جل وعلا، كما قال تعالى ﴿ أَلا يَظُنُّ أولئك أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ الناس لِرَبِّ العالمين ﴾ [المطففين: 4-6].

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (10)

المعنى: أن الكافر إذا أذيق يوم القيامة عذاب الحريق، يقال له ذلك: أي هذا العذاب الذي نذيقكه بسبب ما قدمت يداك: أي قدمته في الدنيا من الكفر ولا معاصي: ﴿ وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلعَبِيدِ ﴾ فلا يظلم أحداً مثقال ذرة. ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء: 40] والظاهر أن المصدر المنسبك من أن وصلتها في قوله ﴿ وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلعَبِيدِ ﴾ في محل خفض عطفاً على ما المجرورة بالباء.

والمعنى: هذا العذاب الذي يذيقكه الله حصل لك بسببين، وهما ما قدمته يداك، من

عمل اسوء من الكفر والمعاصي وعدالة من جازاك ، ذلك الجزاء الوفاق ، وعدم ظلمه .

وقد أوضحنا فيما مضى إزالة الإشكال المعروف في نفي صيغة المبالغة ، في قوله ﴿ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ ﴾ فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

(58/520)

وفي هذه الآية الكريمة ثلاثة أسئلة :

الأول : هو ما ذكرنا آنفاً أنا أوضحنا الجواب عنه سابقاً ، وهو : أن المعروف في علم العربية ، أن النفي إذا دخل على صيغة المبالغة ، لم يقتض نفي أصل الفعل .

فلو قلت : ليس زيد بظلام للناس ، فمعناه المعروف : أنه غير مبالغ في الظلم ، ولا ينافي ذلك حصول مطلق الظلم منه . وقد قدما إيضاح هذا .

والسؤال الثاني : أنه أسند كل ما قدم إلى يديه في قوله ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ وكفره الذي هو أعظم ذنوبه ، ليس من فعل اليد ، وإنما هو من فعل القلب واللسان ، وإن كان بعض أنواع البطش باليد ، يدل على الكفر ، فهو في اللسان والقلب أظهر منه في اليد . وزناه لم يفعله بيده ، بل بفرجه ، ونحو ذلك من المعاصي التي تزاول بغير اليد .

والجواب عن هذا ظاهر : وهو أن من أساليب اللغة العربية ، التي نزل بها القرآن إسناد

جميع الأعمال إلى اليد ، نظراً إلى أنها الجارحة التي يزاول بها أكثر الأعمال فغلبت على غيرها ، ولا إشكال في ذلك .

والسؤال الثالث : هو أن يقال : ما وجه إشارة البعد في قوله ﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ مع أن العذاب المشار إليه قريب منه حاضر ؟ .

والجواب عن هذا : أن من أساليب اللغة العربية : وضع إشارة البعد موضع إشارة القرب .

وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا : [دفع إيهام الاضطراب . عن آيات الكتاب] في الكلام على قوله تعالى في أول سورة البقرة : ﴿ الم ذَلِكَ الكتاب ﴾ [البقرة : 1-2] الآية : أي هذا الكتاب .

ومن شواهد ذلك في اللغة العربية قول خفاف بن ندبة السلمي :

فإن تك خيلي قد أصيب صميمها . . . فعمداً على عيني تيممت مالكا

أقول له والرمح يأطر متنه . . . تأمل خفافاً إنني أنا ذلكما

(59/520)

يعني أن هذا ، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة : من أن الكافر يقال له يوم القيامة ﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ الآية لا يخفى أنه توبيخ ، وتقريع ، وإهانة له ، وأمثال ذلك القول في

القرآن كثيرة : كقوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فاعتلوه إلى سَوَآءِ الجحيم ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحميم ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم إِنَّ هذا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان : 47-50] وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هذه النار التي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ اصلوها فاصبروا أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : 13-16] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(60/520)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾

أي : أن ما حدث في خَلْق الإنسان تكويناً ، وما حدث في إنبات الزرع تكويناً ونماءً ، يردُّ هذا كله إلى أن الله تعالى ﴿ هُوَ الحق . . ﴾ [الحج : 6] فلماذا أتى بالحق ولم يقُلْ الخالق ؟ قالوا : لأن الخالق قد يخلق شيئاً ثم يتخلى عنه ، أمّا الله – سبحانه وتعالى – فهو الخالق الحق ، ومعنى الحق أي : الثابت الذي لا يتغير ، كذلك عطاؤه لا يتغير ، فسوف يظل سبحانه خالقاً يعطيك كل يوم ؛ لأن عطاءه سبحانه دائم لا ينفد .

وإذا نظرتَ إلى الوجود كله لوجدته دروة مكررة ، فالله عز وجل قد خلق الأرض وقدَّر فيها أقواتها ، فمثلاً كمية الماء التي خلقها الله في الكون هي هي لم تَزِدْ ولم تنقص ؛ لأن للماء دورة في الحياة ، فالماء الذي تشربه طوال حياتك لا يُنقص في كمية الماء الموجود ؛ لأنه سيخرج منك على صورة فضلات ليعود في دورة الماء في الكون من جديد .

وهكذا في الطعام الذي تأكله ، وفي الوردة الجميلة الطرية التي نقطفها ، كل ما في الوجود له دورة يدور فيها ، وهذا معنى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . ﴾ [فصلت : 10]

فمعنى : ﴿ الحق . . ﴾ [الحج : 6] هنا الثابت الذي لا يتغير في الخَلْق وفي العطاء .

فلا تظن أن عطاء الله لك شيء جديد ، إنما هو عطاء قديم يتكرر لك ولغيرك .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِي الموتى . . ﴾ [الحج : 6] كما قُلْنا في الآية السابقة : ﴿ وَتَرَى الأرض هَامِدَةً . . ﴾ [الحج : 5] أي : ساكنة لا حياةَ فيها ، والله وحده القادر على إحيائها ؛ لذلك نجد علماء الفقه يُسمُّون الأرض التي نصلحها للزراعة (إحياء الموات) فالله تعالى هو القادر وحده على إحياء كل ميت ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ وَأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج : 6]

(61/520)

وما دام الأمر كذلك وما دُمْتم تشاهدون آية إحياء الموات في الأرض المتية فلا تنكروا البعث وإعادتكم بعد الموت . فيقول تعالى : ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا . . ﴾ .

وقد سبق أن أنكروا البعث بعد الموت وقالوا : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الأولون ﴾ [الصافات : 16 - 17] .

فيردُّ عليهم الحق سبحانه : نعم ، سنعيدكم بعد الموت ، والذي خلقكم من لا شيءَ قادرٌ على إعادتكم من باب أَوْلَى ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ . . ﴾ [الروم : 27] والحق سبحانه هنا يخاطبنا على قَدْر عقولنا ؛ لأننا نفهم أن الخَلْق من موجود أهون من الخَلْق من عدم ، أما بالنسبة للخالق - عز وجل - فليس هناك سَهْل وأسهل ، ولا هَيِّن وأهْون .

فقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا . . ﴾ [الحج : 7] كأن عملية إحياء الموتى ليست مُنْتهى قدرة الله ، إنما في قدرته تعالى كثير من الآيات والعجائب ، ومعنى : ﴿ لاَّ رَيْبَ فِيهَا . . ﴾ [الحج : 7] أي : لا شَكَّ فيها . والساعة : أي : زمن القيامة وموعدها ، لكن القيامة ستكون للحساب وللفَصْل بين الناس ، فلا بُدَّ من بَعْثهم من القبور ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِي القبور ﴾ [الحج : 7] .

فكُلُّ ما تقدم ناشيء من أنه سبحانه هو الحق ؛ ولأنه سبحانه الحق ؛ فهو يُحيي الموتي ،

وهو على كل شيء قدير ، والساعة آتية لا رَيْبَ فيها ، وهو سبحانه يبعث مَنْ في القبور .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ومِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله . . ﴾

(62/520)

تكلمنا في أول السورة عن الجدل بالعلم والموعظة الحسنة وقلنا : العلم إما علم بَدْهي أو علم استدلالي عقليّ ، أو علم بالوحي من الله سبحانه ، أما هؤلاء الذين يجادلون في الله بغير علم بدهي ﴿ وَلاَ هُدًى . . ﴾ [الحج : 8] يعني : علم استدلالي عقلي ، ﴿ وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج : 8] يعني : وحي من الله ، فهؤلاء أهل سفسطة وجدل عقيم لا فائدة منه ، وعلى العاقل حين يصادف مثل هذا النوع من الجدال أن لا يجاريه في سفسطته ؛ لأنه لن يصل معه إلى مفيد ، إنما عليه أنْ ينقله إلى مجال لا يحتمل السفسطة .

ولنا في هذه المسألة مَثَلٌ وقُدْوة بسيدنا إبراهيم – عليه السلام – حينما جادل النمرود ، اقرأ قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ الله الملك إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب فَبُهِتَ الذي كَفَرَ . . ﴾ [البقرة : 258]

لقد اتبع النمرودُ أسلوب السَّفْسَطة حين قال ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ . . ﴾ [البقرة :

258] لأنه ما فعل حقيقةَ الموت ، ولا حقيقة الحياة ، فأراد إبراهيم أن يُلجئه إلى مجال لا سفسطة فيه ؛ لينهي هذا الموقف ويسدّ على خَصْمه باب اللدد والتهريج ، فقال : ﴿ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب . . ﴾ [البقرة : 258] وكانت النتيجة أنْ حَارَ عدو الله جواباً ﴿ فَبُهِتَ الذي كَفَرَ . . ﴾ [البقرة : 258] أي : دُهِش وتحيَّر .

﴿ اِنِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(63/520)

﴿ ثَانِيَ . . ﴾ [الحج : 9] ثَنَى الشيء يعني : لَواه ، وعِطْفه : يعني جَنْبه ، والإنسان في تكوينه العام له رأس ورقبة وكتفان ، وله جانبان وظَهْر ، وهذه الأعضاء تُؤدّي دَوْراً في حياته وحركته ، وتدلّ على تصرفاته ، فالذي يجادل في الله عن غير علم ولا هدى ولا كتاب منير يَثْني عنك جانبه ، ويَلْوي رأسه ؛ لأن الكلام لا يعجبه ؛ ليس لأن كلامك باطل ، إنما لا يعجبه لأنه أفلس وليست لديه الحجة التي يواجهك بها ، فلا يملك إلا هذه الحركة . لذلك يُسمَّى هذا الجدل " مراءً " ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ على مَا يرى ﴾ [النجم : 12] يعني : أتجادلون رسول الله في أمر رآه ؟ والمراء : هو الجَدل العنيف ، مأخوذ من (

مَرْى الضرع) يعني : حَلْب ما فيه من لبن إلى آخر قطرة فيه ، وأهل الريف يقولون عن هذه العملية (قرقر البقرة) يعني : أخذ كل لبنها ولم يَبْقَ في ضرعها شيء .

كذلك المجادل بالباطل ، أو المجادل بلا علم ولا حجة تراه يكابر ليأخذ آخر ما عند خَصْمه ، ولو كان عنده علم وحجة لأنهى الموقف دون لجج أو مكابرة .

والقرآن الكريم يعطينا صورة لهذا الجدل والإعراض عن الحق ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المنافقون : 5] .

والقرآن يعطينا التدرج الطبيعي للإعراض عن الحق الذي يبدأ بلَيِّ الرأس ، ثم الجانب ، ثم يعطيك دُبُره وعَرْض أكتافه ، هذه كلها ملاحظ للفرار من الجدل ، حين لا يقوى على الإقناع .

(64/520)

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ . . ﴾ [الحج : 9] هذه عِلَّة ثَنْي جانبه ، لأنه يريد أنْ يُضل مَنِ اهتدى ، فلو وقف يستمع لخَصْمه وما يلقيه من حجج ودلائل لانهزم ولم يتمكّن من إضلال الناس ؛ لذلك يَثْني عِطْفه هَرَباً من هذا الموقف الذي لا يَقْدر

على مواجهته والتصدي له .

فما جزاء هذا الصنف ؟ يقول تعالى : ﴿ لَهُ فِي الدنيا خِزْيٌ . . ﴾ [الحج : 9] والخِزْي : الهوان والذِّلة ، هذا جزاء الدنيا قبل جزاء الآخرة ، ألم يحدث للكفار هذا الخزي يوم بدر ؟ ألم يُمسِك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقضيب في يده قبل المعركة ويشير به : " هذا مَصرع فلان ، وهذا مصرع فلان " ويسمي صناديد الكفر ورؤوس الضلال في قريش ؟ وبعد انتهاء المعركة كان الأمر كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصُرِع كلُّ هؤلاء الصناديد في نفس الأماكن التي أشار إليها رسول الله .

ولما قُتِل في هذه المعركة أبو جهل عَلاَهُ سيدنا عبد الله بن مسعود ، سبحان الله ، عبد الله بن مسعود راعي الغنم يعتلي ظهر سيد قريش ، عندها قال أبو جهل – وكان فيه رَمَق حياة : لقد ارتقيتَ مُرْتقىً صَعْباً يا رُوَيْعيَّ الغنم ، يعني : ركبتني يا ابن الإيه ! ! فأيُّ خِزْي بعد هذا ؟ !

وأبو سفيان بعد أن شفع له العباس رضي الله عنه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأى موكب النبي يوم الفتح ، وحوله رايات الأنصار في موكب رهيب مهيب ، لم يملك نفسه ولم يستطع أنْ يُخفي ما في صدره ، فقال للعباس رضي الله : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك قوياً ، فقال له : إنها النبوة يا أبا سفيان يعني : المسألة ليست مُلْكاً ، إنما هي النبوة المؤَيَّدة من الله .

وسيدنا أبو بكر – رضي الله عنه – حينما استأذن عليه القوم في الدخول ، فأذِنَ للسابقين إلى الإسلام من العبيد والموالي ، وترك بعض صناديد قريش على الباب ، (فورِمَتْ) أنوفهم من هذا الأمر وأغتاظوا ، وكان فيهم أبو سيدنا أبي بكر فقال له : أتأذن لهؤلاء وتتركنا ؟ فقال له : إنه الإسلام الذي قدمهم عليكم . وقد شاهد عمر هذا الموقف فقال لهم : ما لكم ورِمَتْ أنوفكم ؟ وما بالكم إذا أُذِن لهم على ربهم وتأخرتم أنتم .

فالغضب الحقيقي سيكون في الآخرة حين يُنَادى بهؤلاء إلى الجنة ، وتتأخرون أنتم في هَوْل الموقف .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ والسابقون السابقون * أولئك المقربون ﴾ [الواقعة : 10 – 11]

.

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القيامة عَذَابَ الحريق ﴾ [الحج : 9] فهذا الخِزْيُ الذي رَأَوْه في الدنيا لن يُفلتهم من خِزْي وعذاب الآخرة ، ومعنى ﴿ عَذَابَ الحريق ﴾ [الحج : 9] الحريق : هو الذي يحرق غيره من شِدّته ، كالنار التي أوقدوها لإبراهيم – عليه السلام – وكانت تشوي الطير الذي يمرُّ بها في السماء فيقع مشوياً . ثم يقول الحق سبحانه : ﴿

ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ . . ﴾

﴿ ذلك . . ﴾ [الحج : 10] يعني خِزْيي الدنيا وعذاب الحريق في الآخرة بما قدَّمتْ ، وبما اقترفت يداك ، لا ظُلْماً منّا ولا اعتداء ، فأنت الذي ظلمتَ نفسك ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : 118]

وهل أخذناهم دون إنذار ، ودون أن نُجرِّم هذا الفعل ؟ لأنك لا تعاقب شخصاً على ذنب إلا إذا كنتَ قد نبَّهته إليه ، وعرَّفته بعقوبته ، فإنْ عاقبته دون علمه بأن هذا ذنب وهذه جريمة فقد ظلمتَه ؛ لذلك فأهل القانون يقولون : لا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ .

(66/520)

وقد جاءكم النص الذي يُبيِّن لكم ويُجرِّم هذا الفعل ، وقد أبلغتُكم الرسل ، وسبق إليكم الإنذار ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15]

.

﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ . . ﴾ [الحج : 10] فهل الذنوب كلها تقديمُ اليد فقط ؟

الذنوب : إما أقوال ، وإما أفعال ، وإما عمل من أعمال القلب ، كالحقد مثلاً أو النفاق . . إلخ لكن في الغالب ما تُزَاول الذنوب بالأيدي .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلعَبِيدِ ﴾ [الحج : 10] ظلاَّم : صيغة مبالغة من الظلم ، تقول : ظالم . فإنْ أردتَ المبالغة تقول : ظلاَّم ، كما تقول : فلان آكل وفلان أُكُول ، فالفعل واحد ، لكن ما ينشأ عنه مختلف ، والمبالغة في الفعل قد تكون في الفعل نفسه أو في تكراره ، فمثلاً قد تأكل في الوجبة الواحدة رغيفاً واحداً ، وقد تأكل خمسة أرغفة هذه مبالغة في الوجبة الواحدة ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، لكن تبالغ في الوجبة الواحدة ، وقد تكون المبالغة في عدد الوجبات فتأكل في الوجبة رغيفاً واحداً ، لكن تأكل خمس وجبات بدلاً من ثلاث . فهذه مبالغة بتكرار الحدث .

وصيغة المبالغة لها معنى في الإثبات ولها معنى في النفي : إذا قُلْتَ : فلان أكول وأثبتَّ له المبالغة فقد أثبتَّ له أصل الفعل من باب أَوْلَى فهو آكل ، وإذا نفيتَ المبالغة فنَفْي المبالغة لا ينفي الأصل ، تقول : فلان ليس أكولاً ، فهذا لا ينفي أنه آكل . فإذا طبَّقنا هذه القاعدة على قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلعَبِيدِ ﴾ [الحج : 10] فهذا يعني أنه سبحانه وتعالى (ظالم) حاشا لله ، وهنا نقول : هناك آيات أخرى تنفي الفعل ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف : 49] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كَانُواْ هُمُ الظالمين ﴾ [الزخرف : 76] .

كما أن صيغة المبالغة هنا جاءت مضافة للعبيد ، فعلى فرض المبالغة تكون مبالغة في تكرار الحدث ﴿ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [الحج : 10] ظلم هذا ، وظلم هذا ، فالمظلوم عبيد ، وليس عبداً واحداً .

والظلم في حقيقته أن يأخذ القويُّ حَقَّ الضعيف ، ويكون الظلم على قَدْر قوة الظالم وقدرته ، وعلى هذا إنْ جاء الظلم من الله تعالى وعلى قَدْر قوته وقدرته فلا شكَّ أنه سيكون ظُلْماً شديداً لا يتحمله أحد ، فلا نقول – إذن – ظالم بل ظلام ، وهكذا يتمشى المعنى مع صيغة المبالغة .

فالحق سبحانه ليس بظلام للعبيد ؛ لأنه بيَّن الحلال والحرام ، وبيَّن الجريمة ووضع لها العقوبة ، وقد بلَّغَتْ الرسل من بداية الأمر فلا حُجَّةَ لأحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(68/520)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) ﴾

أخرج عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، عن معاذ بن جبل قال : من علم أن الله عز وجل حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، دخل الجنة .

وأخرج الخطيب وابن عساكر عن عائشة عن أبي بكر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا صلى الصبح مرحباً بالنهار الجديد والكاتب والشهيد ، اكتبا : بسم الله الرحمن الرحيم . . أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأشهد أن الدين كما وصف ، والكتاب كما أنزل ، وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور " .

وأخرج الحاكم في تاريخه عن أنس رفعه : " من قال في كل يوم أربع مرات : أشهد أن الله هو الحق المبين ، وأنه يحيي ويميت ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، صرف الله عنه السوء " .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ قال : يضاعف الشيء وهو واحد .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه

في قوله ﴿ ثاني عطفه ﴾ قال : هو المعرض من العظمة ، إنما ينظر في جانب واحد .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ ثاني عطفه ﴾ قال : لاوي رأسه معرضاً مولياً لا يريد أن يسمع ما قيل له .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم . عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ثاني عطفه ﴾ قال : لاوي عنقه .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ ثاني عطفه ﴾ قال : يعرض عن الحق ﴿ له في الدنيا خزي ﴾ قال : قتل يوم بدر .

(69/520)

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ثاني عطفه ﴾ أنزلت في النضر بن الحارث .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ثاني عطفه ﴾ قال : هو رجل من بني عبد الدار . قلت : شيبة ؟ قال : لا .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ثاني عطفه ﴾ يقول : يعرض عن ذكري .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ثاني عطفه ﴾ قال : متكبراً في نفسه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال : بلغني أن أحدهم يُحْرَق في اليوم سبعين ألف مرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(70/520)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) ﴾

قوله : ﴿ ذلك ﴾ : فيه ثلاثة أوجهٍ ، أحدُها : أنَّه مبتدأ ، والخبرُ الجارُّ بعدَه . والمُشارُ إليه ما تقدَّم مِنْ خَلْقِ بني آدمَ وتطويرهم . والتقدير : ذلك الذي ذكَرْنا من خلقِ بني آدم وتطويرهم حاصلٌ بأنَّ اللهَ هو الحق وأنه ، إلى آخره . والثاني : أنَّ " ذلك " خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : الأمرُ ذلك . الثالث : أنَّ " ذلك " منصوبٌ بفعلٍ مقدرٍ أي : فَعَلْنا ذلك بسببِ أنَّ الله هو الحق . فالباء على الأولِ مرفوعةُ المحلِّ ، وعلى الثاني والثالث منصوبَتُه .

قوله : ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّه عطفٌ على المجرورِ بالباء أي

: ذلك بأنَّ الساعةَ . والثاني : أنه ليس معطوفاً عليه ولا داخلاً في حَيِّزِ السببية . وإنما هو خبرٌ . والمبتدأ محذوفٌ لفَهْمِ المعنى ، والتقدير : والأمرُ أنَّ الساعةَ . و " لا ريبَ فيها " يُحتمل أَنْ تكونَ هذه الجملةُ خبراً ثانياً وأن تكونَ حالاً .

قوله : ﴿ ومِنَ الناس ﴾ : جعل ابنُ عطية هذه الواوَ للحال فقال : " وكأنه يقولُ : هذه الأمثالُ في غاية الوضوحِ ، ومن الناس مع ذلك مَنْ يجادِلُ ، فكأن الواوَ واوُ الحال ، والآية المتقدمةُ الواوُ فيها واوُ عطف " . قال الشيخ : " ولا يُتَخَيَّلُ أنَّ الواوَ في ﴿ ومِنَ الناس مَن يُجَادِلُ ﴾ واوُ حال ، وعلى تقديرِ الجملة التي قَدَّرها قبله لو كان مُصَرَّحاً بها فلا تتقدر ب " إذ " ، فلا تكونُ للحالِ وإنما هي للعطف " . قلت : ومَنْعُه مِنْ تقديرها ب " إذ " فيه نظرٌ ، إذ لو قُدِّر لم يلزَمْ/ منه محذورٌ .

قوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يجوز أن يتعلَق ب "يُجادِلُ" ، وأَنْ يتعلَّق بمحذوفٍ على أَنَّه حالٌ مِنْ فاعل "يجادل" أي : يجادِلُ ملتبساً بغيرِ عِلْمٍ أي : جاهلاً .

(71/520)

قوله : ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ : حالٌ مِنْ فاعلِ "يُجادل" أي : معترضاً . وهي إضافةٌ لفظيةٌ نحو ﴿ مُّمْطِرُنَا ﴾ . والعامَّةُ على كسرِ العين وهو الجانُب ، كنى به عن التكبُّر . والحسن

بفتح العين ، وهو مصدرٌ بمعنى التعطُّف ، وصفة بالقسوةِ .

قوله : ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ متعلقٌ : إمَّا ب "يُجادِلُ" ، وإمَّا ب "ثانيَ عِطْفِهِ" . وقرأ العامَّة بضم الياء مِنْ "يُضِلُّ" والمفعولُ محذوفٌ أي : ليُضِلَّ غيرَه . وقرأ مجاهد وأبو عمرو في روايةٍ فتحها أي : ليَضِلَّ هو في نفسه .

قوله : ﴿ لَهُ فِي الدنيا خِزْيٌ ﴾ هذه الجملةُ يجوز أن تكونَ حالاً مقارِنَةً أي : مُسْتحقاً ذلك ، وأن تكونَ حالاً مقدرةً ، وأن تكونَ مستأنفةً . وقرأ زيد بن علي "وأُذِيْقُه" بهمزة المتكلم . "وعذابَ الحريق" يجوز أَنْ يكون من باب إضافة الموصوف لصفتِه ، إذ الأصلُ : العذاب الحريق أي : المُحْرِق كالسَّميع بمعنى المُسْمِع .

قوله : ﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ ﴾ : كقوله : ﴿ ذلك بِأَنَّ الله ﴾ [الآية : 6] . وكذا قولُه : ﴿ وَأَنَّ الله ﴾ يجوز عطفُه على السبب . ويجوز أن يكونَ التقديرُ : والأمرُ أنَّ الله ، فيكون منقطعاً عما قبله .

وقوله : "ظَلاَّمٍ" مثالُ مبالغةٍ . وأنت إذا قلت : "ليس زيدٌ بظلاَّمٍ" لا يلزمُ منه نفيُ أصلِ الظلمِ ؛ فإنَّ نَفْيَ الأخصِّ لا يَسْتلزم نَفْيَ الأعمِّ . والجواب : أن المبالغةَ إنما جِيْءَ بها لتكثيرِ مَحَالِّها فإن العبيدَ جمعٌ . وأحسنُ منه أنَّ فعَّالاً هنا للنسَبِ أي : [ليس] بذي ظلم لا للمبالغة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 235 . 237 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) ﴾

الله هو الحقُّ ، والحق المطلق الوجود (1) ، وهو الحق أي ذو الحق .

﴿ وَأَنَّهُ يُحِي الْمَوْتَى ﴾ أي الأرض التي أصابتها وَحْشَةُ الشتاء يحييها وقتَ الربيع .

ويقال يحيي النفوسَ بتوفيق العبادات ، ويحيي القلوبَ بأنوار المشاهدات .

ويقال يحيي أحوال المريدين بحسن إقباله عليهم .

ويقال حياة الأوقات بموافقة الأمر ، ثم بجميلِ الرضا وسكونِ الجأش عند جريان التقدير .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8) ﴾

دليل الخطاب يقتضي جواز المجادلة في الله إذا كان صاحب المجادلة على علم بالدليل والحجة ليستطيع المناضلة عن دينه ، قال سبحانه لنبيّه : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] ومَنْ لم يُحْسِنْ مذهبَ الخَصْمِ وما يتعلق به من الشُبَهِ لم يمكنه الانفصال عن شُبْهَتِهِ ، وإذا لم تكن له قوة الانفصال فلا يُسْتَحَبُّ له أن يجادل الأقوياء منهم ، وهذا يدل على وجوب تعلُّم علم الأصول (2) ، وفي هذا ردٌّ على مَنْ جَحَدَ ذلك .

ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (9)

يريد أنه متكبِّر عن قبول الحق ، زاهِدٌ في التحصيل ، غيرُ واضعٍ نظره موضعه ؛ إذ لو فعل ذلك لهان عليه التخلُّص من شُبْهتِهِ .

ثم قال : ﴿ لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ أي مذلة وهوان ، وفي الآخرة عذاب الحريق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 531.532 ﴾

---

(1) (الحق المطلق الوجود) هذه عبارة لم تصادفنا من قبل فى أي مصنف للقشيري ، ونحن نعطيها أهمية خاصة إذا تذكرنا أن هذا اصطلاح لأرباب وحدة الوجود ، فهم يعتبرون الوجود المطلق للحق وما عدا فوجوده نسبى متكثر متعدد ، وهذا لا بأس به ، ولكن النتائج التي رتبوها عليه خطيرة . ونظن أنها (الموجود) بدل (الوجود) بدليل ما سبق ذكره عند تفسير الآية «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ» من سورة طه وكنا قد أيدنا ذلك بما ذكره فى كتابه «التحبير في التذكير» . [. . . . .]

(2) فى هذا وفيما بعده رد على من يتهمون الصوفية بمجافاتهم للعلم ، وعدم احترامهم للعقل ، كما أن فيه ردا على قضية أثارها بعض المتكلمين حول وجوب أو عدم وجوب تعلم المسلم أصول التوحيد كى يصح إيمانه ، ومدى ما يكون عليه إيمان العامة الذين لا تتاح لهم فرصة هذا التعلم .

قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين قسمي المصارحين بالكفر الكثيف والأكثف صريحاً .

وأفهم المؤمن المخلص ، عطف على ذلك المذبذب فقال : ﴿ ومن الناس ﴾ ولذلك عبر بالناس الذي مدلولة الاضطراب والتردد دون أن يضمر ﴿ من يعبد الله ﴾ أي يعمل على سبيل الاستمرار والتجدد بما أمر به الإله الأعظم من طاعته ﴿ على حرف ﴾ فهو مزلزل كزلزلة من يكون على حرف شفير أو جبل أو غيره ، لا استقرار له ، وكالذي على طرف من العسكر ، فإن رأى غنيمة قر ، وإن توهم خوفاً طار وفر ، وذلك معنى قوله : ﴿ فإن أصابه خير ﴾ أي من الدنيا ﴿ اطمأن به ﴾ أي بسببه ، وثبت على ما هو عليه ﴿ وإن أصابته فتنة ﴾ أي مصيبة ولو قلت - بما يشير إليه التأنيث - في جسده أو معيشته يختبر بها ويظهر خبأة للناس ﴿ انقلب على وجهه ﴾ لتهيئه للانقلاب بكونه على شفا جرف

فسقط عن ذلك الطرف من الدين سقوطاً لا رجوع له بعد إليه ولا حركة له معه ، فإن الإنسان مطبوع على المدافعة بكل عضو من أعضائه عن وجهه فلا يمكن منه إلا بعد نهاية العجز ، والمعنى أنه رجع إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر أو الشك رجوعاً متمكناً ، وهذا بخلاف الراسخ في إيمانه ، فإنه إن أصابته سراء شكر ، وإن أصابته ضراء حمد وصبر ، فكل قضاء الله له خير .

(74/520)

ولما كان انقلاب هذا مفسداً لآخرته بما ناله من الوزر ، وغير نافع له في استدراك ما فاته من الدنيا ، كانت فذلكة ذلك قوله : ﴿ خسر الدنيا ﴾ أي بسبب أن ذلك لا يرد ما فاته منها ويكون سبب التقتير عليه وذهاب بركته ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ [المائدة : 66] " إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه " ﴿ والآخرة ﴾ بفوات أجر الصبر وحصول إثم الجزع : ثم عظم مصيبته بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم ﴿ هو ﴾ أي لا غير ﴿ الخسران المبين ﴾ وروى البخاري في التفسير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ في هذه الآية قال : كان الرجل يقدم المدينة ، فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم

تنتج خيله قال : هذا دين سوء ثم بين هذا الخسران الذي رده إلى ما كان فيه قبل الإيمان الحرفي بقوله : ﴿ يدعوا ﴾ أي يعبد حقيقة أو مجازاً مع التجدد والاستمرار بالاعتماد على غير الله ومنابذة ﴿ وإياك نستعين ﴾ [الفاتحة : 5] .

ولما كان كل ما سوى الله دونه ، نبه على ذلك بقوله : ﴿ من دون الله ﴾ أي عن أدنى رتبة من رتب المستجمع لصفات الكمال .

ولما كان المتضي للعبادة إنما هو الفعل بالاختيار ، وأما الفعل الذي يقتضيه الطبع والقسر عليه فلا عبرة به في ذلك ، فإنه لا قدرة على الانفكاك عنه فلا حمد لفاعله ، نبه على ذلك بقوله : ﴿ ما لا يضره ﴾ أي بوجه من الوجوه حتى ولا بقطع النفع إن كان يتصور منه .

(75/520)

ولما قدم الضر لأنه من الأعذار المقبوله في ارتكاب الخطأ ، أتبعه النفع قطعاً لكل مقال فقال : ﴿ وما لا ينفعه ﴾ بوجه من الوجوه ولا بترك الضر إن وجد منه ، ولو أسقطت " ما " من الثاني لظن أن الذم يشترط فيه انتفاء الضر والنفع معاً حتى أن من ادعى ما انتفى عنه أحدهما لم يذم ﴿ ذلك ﴾ أي الفعل الدال على أعظم السفه وهو دعاء شيء انتفى عنه القدرة على النفع ، أو شيء انتفى عنه القدرة على الضر ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الضلال

البعيد ﴾ عن الحق والرشاد الذي أوصل إلى فياف مجاهل لا يتأتى الرجوع منها ، وذلك لأن الأول لو ترك عبادته ما قدر على منع إحسانه ، والثاني لو تقاداه ما وصل إلى نفعه ولا يترك ضره ، فعبادتهما عبث ، لأنه استوى فعلها وتركها .

ولما كان الإحسان جالباً للانسان ، من غير نظر إلى مورده ، لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها ، بين أن ما قيل في جانب النفع إنما هو على سبيل الفرض فقال :

﴿ يدعوا ﴾ ولما كان ما فرض أولاً فيما عبر عنه ب " ما " قد يكون غير عاقل ، فيكون ما صدر منه لعدمه العقل ، أزال هذا الإبهام بقوله : ﴿ لمن ﴾ أي زاعماً أن من ﴿ ضره ﴾ ولو بعبادته الموجبة لأعظم الشقاء ﴿ أقرب من نفعه ﴾ الذي يتوقع منه – إله .

ولما كانت الولاية الكاملة لا تنبغي إلا لمن يكون توقع النفع منه والضر على حد سواء ، لقدرته على كل منهما باختياره ، وكان العشير لا يصلح إلا إن كان مأمون العاقبة ، وكان هذا المدعو إن نظر إليه في جانب الضر وجد غير قادر عليه ، أو في جانب النفع فكذلك ، وإن فرض توقع نفعه أو ضره كان خوف ضره أقرب من رجاء نفعه ، استحق غاية الذم فلذلك استأنف تعالى وصفه بقوله معبراً في ذمه بالأداة الموضوعة لجامع الذم : ﴿ لبئس المولى ﴾ لكونه ليس مرجو النفع كما هو مخشي الضر ﴿ ولبئس العشير ﴾ لكونه ليس مأمون الضر فهو غير صالح لولاية ولا لعشرة بوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 136.138 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾

القراءة : قرىء ﴿ فِى الدنيا والآخرة ﴾ بالنصب والرفع فالنصب على الحال والرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وفي حرف عبد الله ﴿ مِنْ ضَرُّهُ ﴾ بغير لام ، واعلم أنه تعالى لما بين حال المظهرين للشرك المجادلين فيه على ما ذكرنا عقبه بذكر المنافقين فقال : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾ وفي تفسير الحرف وجهان : الأول : ما قاله الحسن وهو أن المرء في باب الدين معتمدة القلب واللسان فهما حرفا الدين ، فإذا وافق أحدهما الآخر فقد تكامل في الدين وإذا أظهر بلسانه الدين لبعض الأغراض وفي قلبه النفاق جاز أن يقال فيه على وجه الذم يعبد الله على حرف الثاني : قوله : ﴿ على حَرْفٍ ﴾ أي على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه ، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون طمأنينة كالذي يكون على طرف من العسكر فإن أحس بغنيمة قر واطمأن وإلا فر وطار على وجهه .

وهذا هو المراد ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ لأن الثبات في الدين إنما يكون لو كان الغرض منه إصابة الحق وطاعة الله والخوف من عقابه فأما إذا كان غرضه الخير المعجل فإنه يظهر الدين عند السراء ويرجع عنه عند الضراء فلا يكون إلا منافقاً مذموماً وهو مثل قوله تعالى : ﴿ مذبذبين بَيْنَ ذلك ﴾ [النساء : 143] وكقوله : ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ الله قَالُواْ أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ ﴾ [النساء : 141] .

المسألة الثانية :

(77/520)

قال الكلبي : نزلت هذه الآية في أعراب كانوا يقدمون على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا صح بها جسمه ونتجت فرسه مهراً حسناً وولدت امرأته غلاماً وكثر ماله وماشيته رضي به واطمأن إليه وإن أصابه وجع وولدت امرأته جارية أو أجهضت رماكه (1) وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان وقال له ما جاءتك هذه الشرور إلا بسبب هذا الدين فينقلب عن دينه .

وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والحسن ومجاهدة وقتادة وثانيها : وهو قول الضحاك نزلت في المؤلفة قلوبهم ، منهم عيينة بن بدر والأقرع بن حابس والعباس

بن مرداس قال بعضهم لبعض ندخل في دين محمد فإن أصبنا خيراً عرفنا أنه حق ، وإن أصبنا غير ذلك عرفنا أنه باطل وثالثها : قال أبو سعيد الخدري : "أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فقال يا رسول الله أقلني فإني لم أصب من ديني هذا خيراً ، ذهب بصري وولدي ومالي .

فقال صلى الله عليه وسلم : " إن الإسلام لا يقال ، إن الإسلام ليسبك كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة "

فنزلت هذه الآية .

وأما قوله : ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ ففيه سؤالات : الأول : كيف قال : ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ والخير أيضاً فتنة لأنه امتحان وقال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : 35] ، والجواب : مثل هذا كثير في اللغة لأن النعمة بلاء وابتلاء لقوله : ﴿ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ [الفجر : 15] ولكن إنما يطلق اسم البلاء على ما يثقل على الطبع ، والمنافق ليس عنده الخير إلا الخير الدنيوي ، وليس عنده الشر إلا الشر الدنيوي ، لأنه لا دين له .

فلذلك وردت الآية على ما يعتقدونه ، وإن كان الخير كله فتنة ، لكن أكثر ما يستعمل فيما يشتد ويثقل .

---

(1) الرماك جمع رمكة وهي الفرس أنثى الحصان ، أو البرذونة أنثى الحمار ، تتخذ للنسل والنتاج ، وتجمع ما أرماك أيضا .

(78/520)

السؤال الثاني : إذا كانت الآية في المنافق فما معنى قوله : ﴿ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ وهو في الحقيقة لم يسلم حتى ينقلب ويرتد ؟ والجواب : المراد أنه أظهر بلسانه خلاف ما كان أظهره فصار يذم الدين عند الشدة وكان من قبل يمدحه وذلك انقلاب في الحقيقة .

السؤال الثالث : قال مقاتل : الخير هو ضد الشر فلما قال : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ ﴾ كان يجب أن يقول : وإن أصابه شر انقلب على وجهه الجواب : لما كانت الشدة ليست بقبيحة لم يقل تعالى وإن أصابه شر بل وصفه بما لا يفيد فيه القبح .

أما قوله تعالى : ﴿ خَسِرَ الدنيا والآخرة ﴾ فذلك لأنه يخسر في الدنيا العزة والكرامة وإصابة الغنيمة وأهلية الشهادة والإمامة والقضاء ولا يبقى ماله ودمه مصوناً ، وأما في الآخرة فيفوته الثواب الدائم ويحصل له العقاب الدائم ﴿ وذلك هُوَ الخسران المبين ﴾ .

أما قوله : ﴿ يَدْعُو مِن دون الله مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ﴾ فالأقرب أنه المشرك الذي يعبد الأوثان وهذا كالدلالة على أن الآية لم ترد في اليهودي لأنه ليس ممن يدعو من دون الله

الأصنام ، والأقرب أنها واردة في المشركين الذين انقطعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه النفاق وبين تعالى أن : ﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ ، وأراد به عظم ضلالهم وكفرهم ، ويحتمل أن يعني بذلك بعد ضلالهم عن الصواب لأن جميعه وإن كان يشترك في أنه خطأ فبعضه أبعد من الحق من البعض ، واستعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد في التيه ضالاً وطالت وبعدت مسافة ضلاله .

أما قوله تعالى : ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(79/520)

اختلفوا في تفسيره على وجهين : أحدهما : أن المراد رؤساؤهم الذين كانوا يفزعون إليهم لأنه يصح منهم أن يضروا ، وحجة هذا القول أن الله تعالى بين في الآية الأولى أن الأوثان لا تضرهم ولا تنفعهم ، وهذه الآية تقتضي كون المذكور فيها ضاراً نافعاً ، فلو كان المذكور في هذه الآية هو الأوثان لزم التناقض .

القول الثاني : أن المراد الوثن وأجابوا عن التناقض بأمور : أحدها : أنها لا تضر ولا تنفع بأنفسها ولكن عبادتها سبب الضرر وذلك يكفي في إضافة الضرر إليها ، كقوله تعالى :

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم : 36] فأضاف الإضلال إليهم من حيث كانوا سبباً للضلال ، فكذا ههنا نفي الضرر عنهم في الآية الأولى بمعنى كونها فاعلة وأضاف الضرر إليهم في هذه الآية بمعنى أن عبادتها سبب الضرر .

وثانيها : كأنه سبحانه وتعالى بين في الآية الأولى أنها في الحقيقة لا تضر ولا تنفع ، ثم قال في الآية الثانية : لو سلمنا كونها ضارة نافعة لكن ضررها أكثر من نفعها .

وثالثها : كان الكفار إذا أنصفوا علموا أنه لا يحصل منها نفع ولا ضرر في الدنيا ، ثم إنهم في الآخرة يشاهدون العذاب العظيم بسبب عبادتها ، فكأنهم يقولون لها في الآخرة : إن ضرركم أعظم من نفعكم .

المسألة الثانية :

اختلف النحويون في إعراب قوله : ﴿ لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ ﴾ .

أما قوله : ﴿ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ فالمولى هو الولي والناصر ، والعشير الصاحب والمعاشر ، واعلم أن هذا الوصف بالرؤساء أليق لأن ذلك لا يكاد يستعمل في الأوثان ، فبين تعالى أنهم يعدلون عن عبادة الله تعالى الذي يجمع خير الدنيا والآخرة إلى عبادة الأصنام وإلى طاعة الرؤساء ، ثم ذم الرؤساء بقوله : ﴿ لَبِئْسَ الْمَوْلَى ﴾ والمراد ذم من انتصر بهم والتجأ إليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 12 . 14 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني على وشك وهو قول مجاهد ، لكونه منحرفاً بين الإيمان والكفر .

والثاني : على شرط ، وهو قول ابن كامل .

والثالث : على ضعف في العبادة كالقيام على حرف ، وهو قول علي بن عيسى .

ويحتمل عندي تأويلاً رابعاً : أن حرف الشي بعضه ، فكأنه يعبد الله بلسانه ويعصيه بقلبه .

﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ وهذا قول الحسن .

الثاني : أن ذلك نزل في بعض قبائل العرب وفيمن حول المدينة من أهل القرى ، كانوا يقولون : نأتي محمداً فإن صادفنا خيراً اتبعناه ، وإلا لحقنا بأهلنا ، وهذا قول ابن جريج ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ .

ويحتمل وجهين آخرين :

أحدهما : اطمأن بالخير إلى إيمانه .

الثاني : اطمأنت نفسه إلى مقامه .

﴿ وَإِن أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أي محنة في نفسه أو ولده أو ماله

. ﴿ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ يحتمل عندي وجهين

: أحدهما : رجع عن دينه مرتداً .

الثاني : رجع إلى قومه فزعاً .

﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا والآخرة ﴾ خسر الدنيا بفراقه ، وخسر الآخرة بنفاقه

. ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ أي البيّن لفساد عاجله وذَهَاب آجله

. قوله عز وجل : ﴿ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ يعني الصنم ، وفيه وجهان :

أحدهما : أن المولى الناصر ، والعشير الصاحب ، وهذا قول ابن زيد .

والثاني : المولى المعبود ، والعشير الخليط ، ومنه قيل للزوج عشير لخلطته مأخوذ من المعاشرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(81/520)

وقال ابن عطية :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾

(82/520)

هذه الآية نزلت في أعراب وقوم لا يقين لهم كان أحدهم اذا أسلم فاتفق له اتفاقات حسان من نمو ماله وولد ذكر يرزقه وغير ذلك قال هذا دين جيد وتمسك به لهذه المعاني ، وإن كان الأمر بخلاف ، تشاءم به وارتد كما صنع العرنيون وغيرهم ، قال هذا المعنى ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، وقوله تعالى : ﴿ على حرف ﴾ معناه على انحراف منه عن العقيدة البيضاء او على شفى منها معدى للزهوق ، و" الفتنة " : الاختبار ، وقوله تعالى : ﴿ انقلب على وجهه ﴾ عبارة للمولي عن الأمور وخسارته ﴿ الدنيا والآخرة ﴾ ، أما ﴿ الدنيا ﴾ فبالمقادير التي جرت عليه ، وأما ﴿ الآخرة ﴾ فبارتداده وسوء معتقده ، وقرأ مجاهد وحميد والأعرج " خاسراً الدنيا والآخرة " نصباً على الحال ، وقوله تعالى : ﴿ ما لا يضره ﴾ يريد الأوثان ، ومعنى ﴿ يدعو ﴾ يعبد ، ويدعو أيضاً في ملماته ، واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿ يدعو لمن ضره ﴾ فقالت فرقة من الكوفيين اللام مقدمة على موضعها وإنما التقدير " يدعو من لضره " ، ويؤيد هذا التأويل أن عبد الله بن مسعود قرأ " يدعو من ضره " وقال الأخفش ﴿ يدعو ﴾ بمعنى يقول ، و ﴿ من ﴾ مبتدأ و ﴿ ضره ﴾ مبتدأ ، و ﴿ أقرب ﴾ خبره ، والجملة صلة ، وخبر ﴿ من ﴾ محذوف والتقدير يقول لمن ضره أقرب منه نفعه إله وشبه هذا ، يقول عنترة : " يدعون عنتر والرماح كأنها " ع وهذا القول فيه نظر فتأمل إفساده للمعنى إذ لم يعتقد الكافر قط أن ضر الأوثان

أقرب من نفعها واعتذار أبي علي هنا مموه ، وأيضاً فهو لا يشبه البيت الذي استشهد به ، وقيل المعنى في ﴿ يدعو ﴾ يسمى ، وهذا كالقول الذي قبله ، إلا أن المحذوف آخراً مفعول تقديره إلهاً ، وقال الزجاج يجوز أن يكون ﴿ يدعو ﴾ في موضع الحال وفيه هاء محذوفة والتقدير ذلك هو الضلال البعيد يدعو أو يدعوه ، فيوقف على هذا ، قال أبو علي ويحسن أن يكون ذلك بمعنى الذي ، أي الذي هو الضلال البعيد ﴿ يدعو ﴾ فيكون قوله ذلك موصلاً بقوله ﴿ ذلك

(83/520)

هو الضلال البعيد ﴾ ويكون ﴿ يدعو ﴾ عاملاً في قوله ﴿ ذلك ﴾ ع كون ﴿ ذلك ﴾ بمعنى الذي غير سهل وشبهه المهدوي بقوله تعالى : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ [طه : 17] وقد يظهر في الآية أن يكون قوله ﴿ يدعو ﴾ متصلاً بما قبله ، ويكون فيه معنى التوبيخ كأنه قال ﴿ يدعو ﴾ من لا يضر ولا ينفع . ثم كرر ﴿ يدعو ﴾ على جهة التوبيخ غير معدى إذ عدي أول الكلام ثم ابتدأ الإخبار بقوله ﴿ لمن ضره ﴾ واللام مؤذنة بمجيء القسم والثانية التي في ﴿ لبئس ﴾ لام القسم وإن كان أبو علي مال إلى أنها لام الابتداء والثانية لام اليمين ، ويظهر أيضاً في الآية أن يكون المراد يدعو من ضره ثم علق الفعل

باللام وصح أن يقدر هذا الفعل من الأفعال التي تعلق وهي أفعال النفس كظننت وخشيت ، وأشار أبو علي إلى هذا ورد عليه ، و﴿ العشير ﴾ القريب المعاشر في الأمور ، وذهب الطبري إلى أن المراد بالمولى والعشير هو الإنسان الذي يعبد الله على حرف ويدعو الأصنام ، والظاهر أن المراد ب ﴿ المولى ﴾ و﴿ العشير ﴾ هو الوثن الذي ضره أقرب من نفعه ، وهو قول مجاهد والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(84/520)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ على حرف ﴾

قال مجاهد ، وقتادة : "على شكٍّ" ، قال أبو عبيدة : كل شاكٍّ في شيء فهو على حرف لا يثبت ولا يدوم .

وبيان هذا أن القائم على حرف الشيء غير متمكِّن منه ، فشبِّه به الشاكُّ ، لأنه قِلِقٌ في دينه على غير ثبات ، ويوضحه قوله تعالى : ﴿ فإن أصابه خير ﴾ أي : رخاءٌ وعافية ﴿ اطمأنَّ به ﴾ على عبادة الله ﴿ وإن أصابته فتنة ﴾ اختبار بجدب وقلّة مال ﴿ انقلب على وجهه ﴾ أي : رجع عن دينه إلى الكفر .

والمعنى : انصرف إلى وجهه الذي توجه منه ، وهو الكفر ، ﴿ خسر الدنيا ﴾ حيث لم يظفر بما أراد منها ، ﴿ و ﴾ خسر ﴿ الآخرة ﴾ بارتداده عن الدين .

وقرأ أبو رزين العقيلي ، وأبو مجلز ، ومجاهد ، وطلحة بن مصرف ، وابن أبي عبلة ، وزيد عن يعقوب : "خاسِرَ الدنيا" بألف قبل السين ، وبنصب الراء "والآخرةِ" بخفض التاء .

﴿ يدعو ﴾ هذا المرتد ، أي : يعبد ﴿ مالا يضره ﴾ إن لم يعبده ﴿ ولا ينفعه ﴾ إن أطاعه ﴿ ذلك ﴾ الذي فعل ﴿ هو الضلال البعيد ﴾ عن الحق ﴿ يدعو لَمَن ضَرُّه ﴾

قال بعضهم : اللام صلة ، والمعنى : يدعو مَن ضره .

وحكى الزجاج عن البصريين والكوفيين أن اللام معناها التأخير ، والمعنى : يدعو مَنْ لضرِّه ﴿ أقربُ من نفعه ﴾ ، قال : وشرح هذا أن اللام لليمين والتوكيد ، فحقُّها أن تكون أول الكلام ، فقدِّمت لتجعل في حقِّها .

قال السدي : ضره في الآخرة بعبادته إياه أقربُ من نفعه .

فإن قيل : فهل للنفع من عبادة الصنم وجه ؟

فالجواب : أنه لا نفع من قِبَله أصلاً ، غير أنه جاء على لغة العرب ، وهم يقولون في الشيء الذي لا يكون : هذا بعيد .

قوله تعالى : ﴿ لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ قال ابن قتيبة : المولى : الولي ، والعشير : الصاحب ، والخليل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾

"من" في موضع رفع بالابتداء ، والتمام "انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ" على قراءة الجمهور "خَسِر" .

وهذه الآية خبر عن المنافقين .

قال ابن عباس : يريد شيبة بن ربيعة كان قد أسلم قبل أن يظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما أوحي إليه ارتدّ شيبة بن ربيعة .

وقال أبو سعيد الخُدْرِيّ : " أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله ؛ فتشاءم بالإسلام فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : أَقِلْني ! فقال : "إن الإسلام لا يُقال" فقال : إني لم أصب في ديني هذا خيرا ذهب بصري ومالي وولدي ! فقال : "يا يهوديّ إن الإسلام يَسْبِك الرجال كما تَسْبِك النارُ خَبَث الحديد والفضة والذهب" ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾ " وروى إسرائيل عن أبي حُصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : "ومن الناس من يعبد الله على حَرْف" قال : كان الرجل يَقْدَم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ونُتِجت خيله قال هذا دين صالح ؛ فإن لم تلد امرأته ولم تُنْتَج خيله قال

هذا دِين سَوْء .

وقال المفسرون : نزلت في أعراب كانوا يَقْدَمون على النبيّ صلى الله عليه وسلم فيُسلِمون ؛ فإن نالوا رخاء أقاموا ، وإن نالتهم شدّة ارتدّوا .

وقيل : نزلت في النضر بن الحارث .

وقال ابن زيد وغيره : نزلت في المنافقين .

ومعنى ﴿ على حَرْفٍ ﴾ على شكّ ؛ قاله مجاهد وغيره .

وحقيقته أنه على ضعف في عبادته ، كضعف القائم على حرف مضطرب فيه .

وحرفُ كل شيء طَرَفه وشَفِيره وحدّه ؛ ومنه حرف الجبل ، وهو أعلاه المحدّد .

وقيل : "على حرف" أي على وجه واحد ، وهو أن يعبده على السرّاء دون الضرّاء ؛ ولو عبدوا الله على الشكر في السراء والصبر على الضراء لما عبدوا الله على حرف .

(86/520)

وقيل : "على حرف" على شرط ؛ وذلك أن شيبة بن ربيعة قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر أمره : ادع لي ربّك أن يرزقني مالاً وإبلاً وخيلاً وولداً حتى أومِن بك وأعدِل إلى دينك ؛ فدعا له فرزقه الله عز وجل ما تمنّى ؛ ثم أراد الله عز وجل فتنته واختباره وهو

أعلم به فأخذ منه ما كان رَزَقه به بعد أن أسلم فارتد عن الإسلام فأنزل الله تبارك وتعالى فيه : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾ يريد شرط .

وقال الحسن : هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه .

وبالجملة فهذا الذي يعبد الله على حَرْف ليس داخلاً بكلّيته ؛ وبيّن هذا بقوله : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ﴾ صحةُ جسم ورَخاء معيشة رَضي وأقام على دينه .

﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أي خلاف ذلك مما يختبر به ﴿ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ أي ارتدّ فرجع إلى وجهه الذي كان عليه من الكفر .

﴿ خَسِرَ الدنيا والآخرة ذلك هُوَ الخسران المبين ﴾ قرأ مجاهد وحميد بن قيس والأعرج والزهريّ وابن أبي إسحاق وروي عن يعقوب "خاسِرَ الدنيا" بألف ، نصباً على الحال ، وعليه فلا يوقف على "وجهه" .

وخسرانه الدنيا بأن لا حظّ له في غنيمة ولا ثناء ، والآخرة بأن لا ثواب له فيها .

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ الله ﴾ أي هذا الذي يرجع إلى الكفر يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر .

﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ قال الفرّاء : الطويل .

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ أي هذا الذي انقلب على وجهه يدعو مَن ضرّه أدنى من نفعه ؛ أي في الآخرة لأنه بعبادته دخل النار ، ولم ير منه نفعاً أصلاً ، ولكنه

قال : ضره أقرب من نفعه ترفيعاً للكلام ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] .

(87/520)

وقيل : يعبدونهم تَوَهُّمَ أنهم يشفعون لهم غداً كما قال الله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] .

وقال تعالى : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] .

وقال الفرّاء والكسائي والزجاج : معنى الكلام القسم والتأخير ؛ أي يدعو واللَّهِ لمن ضره أقرب من نفعه .

فاللام مقدّمة في غير موضعها .

و "مَن" في موضع نصب ب "يدعو" واللام جواب القَسَم .

و "ضَرُّه" مبتدأ .

و "أقْرَبُ" خبره .

وضعّف النحاس تأخير اللام وقال : وليس للاّم من التصرّف ما يوجب أن يكون فيها تقديم ولا تأخير .

قلت : حق اللام التقديم وقد تؤخّر ؛ قال الشاعر :

خالِي لأنت ومَن جَرِيرٌ خالُه . . .

ينلِ العَلاَء ويُكرِمِ الأخوالا

أي لخالي أنت ؛ وقد تقدم .

النحاس : وحكى لنا عليّ بن سليمان عن محمد بن يزيد قال : في الكلام حذف ؛ والمعنى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه إلها .

قال النحاس : وأحسِب هذا القول غلطاً على محمد بن يزيد ؛ لأنه لا معنى له ، لأن ما بعد اللام مبتدأ فلا يجوز نصب إله ، وما أحسِب مذهب محمد بن يزيد إلا قول الأخفش ، وهو أحسن ما قيل في الآية عندي ، والله أعلم ، قال : "يدعو" بمعنى يقول .

و"من" مبتدأ خبره محذوف ، والمعنى يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلهه .

قلت : وذكر هذا القول القشيريّ رحمه الله عن الزجاج والمهدوِيّ عن الأخفش ، وكمّل إعرابه فقال : "يدعو" بمعنى يقول ، و"من" مبتدأ ، و"ضره" مبتدأ ثانٍ ، و"أقرب" خبره ، والجملة صلة "مَن" ، وخبر "مَن" محذوف ، والتقدير يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلهه ؛ ومثله قول عنترة :

يدعون عَنْتَرُ والرّماحُ كأنها . . .

أشْطَانُ بئرٍ في لَبان الأدْهَمِ

قال القشيري : والكافر الذي يقول الصنم معبودي لا يقول ضَرُّه أقربُ من نفعه ؛ ولكن المعنى يقول الكافر لمن ضره أقرب من نفعه في قول المسلمين معبودي وإلهي .

وهو كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الساحر ادعُ لَنَا ربَّك ﴾ [الزخرف : 49] ؛ أي يا أيها الساحر عند أولئك الذين يدعونك ساحراً .

وقال الزجاج : يجوز أن يكون "يدعو" في موضع الحال ، وفيه هاء محذوفة ؛ أي ذلك هو الضلال البعيد يدعوه ، أي في حال دعائه إياه ؛ ففي "يدعو" هاء مضمرة ، ويوقف على هذا على "يدعو" .

وقوله : "لَمَنْ ضَرُّهُ أقربُ مِن نفعِهِ" كلام مستأنف مرفوع بالابتداء ، وخبره "لَبِئْسَ الْمَوْلَى" ، وهذا لأن اللام لليَمين والتوكيد فجعلها أوّل الكلام .

قال الزجاج : ويجوز أن يكون "ذلك" بمعنى الذي ، ويكون في محل النصب بوقوع "يدعو" عليه ؛ أي الذي هو في الضلال البعيد يدعو ؛ كما قال :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ [طه : 17] أي ما الذي .

ثم قوله : "لَمَنْ ضَرُّه" كلام مبتدأ ، و"لَبِئْسَ الْمَوْلَى" خبر المبتدأ ؛ وتقدير الآية على هذا :

يدعو الذي هو الضلال البعيد ؛ قدّم المفعول وهو الذي ؛ كما تقول : زيداً يضرب ؛

واستحسنه أبو عليّ .

وزعم الزجاج أن النحويين أغفلوا هذا القول ؛ وأنشد :

عَدَسْ ما لعبّادٍ عليك إمارةٌ . . .

نَجَوْتِ وهذا تَحْمِلِين طَلِيق

أي والذي .

وقال الزجاج أيضاً والفَرّاء : يجوز أن يكون "يدعو" مكررّة على ما قبلها ، على جهة تكثير هذا الفعل الذي هو الدعاء ، ولا تُعدّيه إذ قد عدّيته أوّلاً ؛ أي يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره يدعو ؛ مثل ضربت زيداً ضربت ، ثم حذفت يدعو الآخرة اكتفاء بالأولى .

قال الفرّاء : يجوز "لِمَنْ ضَرُّهُ" بكسر اللام ؛ أي يدعو إلى مَن ضره أقرب من نفعه ، قال الله عز وجل : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 5] أي إليها .

(89/520)

وقال الفراء أيضاً والقَفّال : اللام صلة ؛ أي يدعو من ضره أقرب من نفعه ؛ أي يعبده .

وكذلك هو في قراءة عبد الله بن مسعود .

﴿ لَبِئْسَ المولى ﴾ أي في التناصر ﴿ وَلَبِئْسَ العشير ﴾ أي المعاشر والصاحب والخليل.

مجاهد: يعني الوثن. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(90/520)

وقال أبو السعود:

﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾

شروعٌ في بيانِ حالِ المُذبذبين إثرَ بيانِ حالِ المُجاهرين أي ومنهُم من يعبدُه سبحانه وتعالى على طَرَفٍ من الدّين لا ثباتَ له فيه كالَّذي ينحرفُ إلى طَرَفِ الجيشِ فإنْ أحسَّ بظَفَرٍ قرَّ وإلا فرَّ ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ﴾ أي دنيويٌّ من الصَّحَّةِ والسَّعةِ ﴿ اطمأن بِهِ ﴾ أي ثبتَ على ما كانَ عليهِ ظاهراً لا أنَّه اطمأنَّ به اطمئنانَ المُؤمنينَ الذينَ لا يلويهم عنه صارفٌ ولا يثنيهم عاطفٌ. ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أي شيءٌ يُفتتنُ به من مكروهٍ يعتريهِ في نفسِه أو أهلِه أو مالِه. ﴿ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ رُوي أنَّها نزلتْ في أعاريبَ قدمُوا المدينةَ وكانَ أحدُهم إذا صحَّ بدنُه ونُتجتْ فرسُه مُهراً سَرِيًّا وولدتِ امرأتُه ولداً سَوِيًّا وكثُر مالُه وماشيتُه قال: ما أصبتُ منذُ دخلتُ في ديني هذا إلاَّ خَيْراً واطمأنَّ وإن كانَ الأمرُ بخلافِه

قال : ما أصبتُ إلاَّ شرًّا وانقلبَ . وعن أبي سعيدٍ الخُدريّ رضي الله عنه : أنَّ يهُوديًّا أسلمَ فأصابتْهُ مصائبُ فتشاءَم بالإسلامِ فأتَى النبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فقالَ : أقِلْني ، فقال عليه السَّلامُ : " إنَّ الإسلامَ لا يُقال " . فنزلت . وقيل : نزلتْ في المؤلَّفةِ قلوبُهم .

﴿ خَسِرَ الدنيا والأخرة ﴾ فقدَهُما وضيَّعهما بذهابِ عصمتِه وحبوطِ عملِه بالارتدادِ . وقُرِىء خاسرَ بالنَّصبِ على الحالِ ، والرَّفعُ على الفاعليةِ . ووضعُ الظَّاهرِ موضعَ الضَّميرِ تنصيصاً على خُسرانِه أو على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذُكر من الخُسران وما فيه من معنى البُعد للإيذانِ بكونه في غايةِ ما يكونُ ﴿ هُوَ الخسران المبين ﴾ الواضحُ كونُه خُسراناً إذ لا خُسرانَ مثله .

(91/520)

﴿ يَدْعُو مِن دُونِ الله ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لِعظم الخُسرانِ أي يعبد مُتجاوزاً عبادةَ الله تعالى ﴿ مَا لاَ يَضُرُّهُ ﴾ إذا لم يعبدْهُ ﴿ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ﴾ إنْ عبدَهُ أي جماداً ليسَ من شأنِه النَّفعُ كما يُلوِّحُ به تكريرُ كلمةِ ما ﴿ ذلك ﴾ الدُّعاءُ ﴿ هُوَ الضلال البعيد ﴾ عن الحقِّ والهُدى مستعارٌ من ضلالِ مَن أبعدَ في التِّيهِ ضالاًّ عن الطَّريقِ ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ استئنافٌ مسوق لبيانِ مآلِ دُعائِه المذكورِ وتقريرِ كونِه ضلالاً بعيداً مع إزاحةِ ما عسى

يُتوَّهم من نفيِ الضَّررِ عن معبودِه بطريقِ المباشرةِ نفيه عنه بطريق التَّسبيبِ أيضاً فالدُّعاءُ بمعنى القول واللاَّمُ داخلةٌ على الجملة الواقعةِ مقولاً له ومَن مبتدأٌ وضرُّه مبتدأٌ ثانٍ خبرُه أقربُ والجملة صلة للمبتدأ الأوَّلِ وقوله تعالى : ﴿ لَبِئْسَ المولى وَلَبِئْسَ العشير ﴾ جوابٌ لقسم مقدَّرٍ هو جوابه خبرٌ للمبتدأ الأولِ ، وإيثارُ مَن على مَا مع كون معبودِه جماداً وإيرادُ صيغة التَّفضيل مع خلوِّه عن النَّفع بالمرَّةِ للمبالغة في تقبيح حاله والإمعانِ في ذمِّه أي يقول ذلك الكافرُ يوم القيامةِ بدعاء وصُراخٍ حين يرى تضرُّرَه بمعبوده ودخولَه النَّارَ بسببه ولا يرى منه أثرَ النَّفعِ أصلاً لمن ضرُّه أقربُ من نفعِه ، والله لبئسَ النَّاصرُ هو ولبئسَ الصَّاحبُ هو فكيف بما هو ضررٌ محضٌ عارٍ عن النَّفعِ بالكلِّيةِ ، ويجوزُ أن يكون يدعُو الثَّاني إعادةً للأولِ لا تأكيداً له فقط بل وتمهيداً لما بعده من بيانِ سوءِ حالِ معبودِه إثرَ بيانِ سوءِ حال عبادِته بقوله تعالى : ﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ كأنَّه قيل من جهته تعالى بعد ذكر عبادِته لما لا يضرُّه ولا ينفعُه يدعو ذلك ثم قيل لَمَن ضُرُّه أقربُ من نفعِه : والله لبئسَ المَوْلى ولبئس العَشيرُ ، فكلمة مَن وصيغةُ التَّفضيلِ للتهكُّمِ به وقيل : اللاَّمُ

(92/520)

زائدةٌ ومَنْ مفعول يدعُو ، ويؤيِّدُه القراءةُ بغير لامٍ أي يعبد من ضره أقربُ من نفعه وإيراد كلمةِ مَن وصيغة التَّفضيلِ تهكُّمٌ به أيضاً والجملة القسمية مُستأنفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(93/520)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾

شروع في حال المذبذبين أي ومنهم من يعبده تعالى كائناً على طرف من الدين لا ثبات له فيه كالذي يكون في طرف الجيش فإن أحس بظفر قر وإلا فر ففي الكلام استعارة تمثيلية ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ﴾ الخ تفسير لذلك وبيان لوجه الشبه ، والمراد من الخير الخير الدنيوي كالرخاء والعافية والولد أي إن أصابه ما يشتهي ﴿ اطمأن بِهِ ﴾ أي ثبت على ما كان عليه ظاهراً لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين الذين لا يزحزحهم عاصف ولا يثنيهم عاطف ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أي شيء يفتن به من مكروه يعتريه في نفسه أو أهله أو ماله ﴿ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ أي مستولياً على الجهة التي يواجهها غير ملتفت يميناً وشمالاً ولا مبال بما يستقبله من حرار وجبال ، وهو معنى قوله في "الكشاف" : طار على

وجهه وجعله في "الكشف" كناية عن الهزيمة ، وقيل هو ههنا عبارة عن القلق لأنه في مقابلة اطمأن ، وأياً ما كان فالمراد ارتد ورجع عن دينه إلى الكفر .

أخرج البخاري .

وابن أبي حاتم .

(94/520)

وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : كان الرجل يقدم المدينة فإذا ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال : هذا دين صالح وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء ، وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم من الإسلام فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أقلني فقال عليه الصلاة والسلام : إن الإسلام لا يقال فقال : لم أصب من ديني هذا خيراً ذهب بصري ومالي ومات ولدي فقال صلى الله عليه وسلم : يا يهودي الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة فنزلت هذه الآية ، وضعف هذا ابن حجر ، وقيل : نزلت في شيبة بن ربيعة أسلم قبل ظهوره عليه الصلاة والسلام وارتد بعد ظهوره وروى ذلك عن ابن عباس ، وعن الحسن أنها نزلت في المنافقين ﴿ خَسِرَ الدنيا والاخرة ﴾ جملة مستأنفة أو

بدل من ﴿ انقلب ﴾ كما قال أبو الفضل الرازي أو حال من فاعله بتقدير قد أو بدونها كما هو رأي أبي حيان ، والمعنى فقد الدنيا والآخرة وضيعهما حيث فاته ما يسره فيهما .

وقرأ مجاهد : وحميد .

والأعرج.

وابن محيصن من طريق الزعفراني .

وقعنب .

والجحدري .

وابن مقسم ﴿ خاسر ﴾ بزنة فاعل منصوباً على الحال لأن إضافته لفظية ، وقرىء ﴿ خاسر ﴾ بالرفع على أنه فاعل ﴿ فِتْنَةٌ انقلب ﴾ وفيه وضع الظاهر موضع المضمر ليفيد تعليل انقلابه بخسرانه ، وقيل : إنه من التجريد ففيه مبالغة ، وجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هو خاسر ، والجملة واردة على الذم والشتم ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من الخسران ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بكونه في غاية ما يكون ، وقيل أن أداة البعد لكون المشار إليه غير مذكور صريحاً ﴿ هُوَ الخسران المبين ﴾ أي الواضح كونه خسراناً لا غير .

﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ اللّهِ ﴾ قيل استئناف ناع عليه بعض قبائحه ، وقيل استئناف مبين لعظم الخسران ، ويجوز أن يكون حالاً من فاعل ﴿ انقلب ﴾ وما تقدمه اعتراض ، وأياً كان فهو يبعد كون الآية في أحد من اليهود لأنهم لا يدعون الأصنام وإن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله .

والظاهر أن المدعو الأصنام لمكان ما في قوله تعالى : ﴿ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ﴾ والمراد بالدعاء العبادة أي يعبد متجاوزاً عبادة الله تعالى ما لا يضره إن لم يعبده وما لا ينفعه إذا عبده ، وجوز أن يراد بالدعاء النداء أي ينادي لأجل تخليصه مما أصابه من الفتنة جماداً ليس من شأنه الضر والنفع ، ويلوح بكون المراد جماداً كذلك كما في إرشاد العقل السليم تكرير كلمة ما ﴿ ذلك ﴾ أي الدعاء ﴿ هُوَ الضلال البعيد ﴾ عن الحق والهدى مستعار من ضلال من أبعد في التيه ضالاً عن الطريق .

﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ استئناف يبين مآل دعائه وعبادته غير الله تعالى ويقرر كون ذلك ضلالاً بعيداً من إزاحة ما عسى أن يتوهم من نفي الضرر عن معبوده بطريق المباشرة نفيه عنه بطريق التسبب أيضاً فالدعاء هنا بمعنى القول كما في قول عنترة : يدعون عنترة الرماح كأنها . . .

أشطان بئر في لبان الأدهم

واللام داخلة في الجملة الواقعة مقولاً له وهي لام الابتداء ومن مبتدأ و ﴿ ضَرُّهُ أَقْرَبُ ﴾ مبتدأ وخبر والجملة صلة له ، وقوله تعالى : ﴿ لَبِئْسَ المولى وَلَبِئْسَ العشير ﴾ جواب قسم مقدر واللام فيه جوابية وجملة القسم وجوابه خبر ﴿ مِنْ ﴾ أي يقول الكافر يوم القيامة يرفع صوت وصراخ حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه ولا يرى منه أثراً مما كان يتوقعه منه من النفع لمن ضره أقرب تحققاً من نفعه : والله لبئس الذي يتخذ ناصراً ولبئس الذي يعاشر ويخالط فكيف بما هو ضرر محض عار عن النفع بالكلية ، وفي هذا من المبالغة في تقبيح حال الصنم والإمعان في ذمه ما لا يخفى ، وهو سر إيثار من على ما وإيراد صيغة التفضيل ، وهذ الوجه من الإعراب اختاره السجاوندي والمعنى عليه مما لا إشكال فيه .

وقد ذهب إليه أيضاً جار الله ، وجوز أن يكون ﴿ يَدْعُو ﴾ هنا إعادة ليدعو السابق تأكيد له وتمهيداً لما بعد من بيان سوء حال معبوده إثر معبوده إثر بيان سوء حال عبادته بقوله تعالى : ﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ [الحج : 12] كأنه قيل من جهته سبحانه بعد ذكر عبادة الكافر ما لا يضره ولا ينفعه يدعو ذلك ثم قيل لمن ضره بكونه معبوداً أقرب من نفعه بكونه شفعياً والله لبئس المولى الخ ، ولا تناقض عليه أيضاً إذ الضر المنفي ما يكون

بطريق المباشرة والمثبت ما يكون بطريق التسبب ، وكذا النفع المنفي هو الواقعي والمثبت هو التوقعي ، قيل ولهذا الإثبات عبر بمن فإن الضر والنفع من شأنهما أن يصدرا عن العقلاء ، وفي إرشاد العقل السليم أن يراد كلمة من وصيغة التفضيل على تقدير أن يكون ذلك إخباراً من جهته سبحانه عن سوء حال معبود الكفرة للتهكم به .

ولا مانع عندي أن يكون ذلك كما في التقدير الأول للمبالغة في قبيح حال الصنم والإمعان في ذمه .

(97/520)

واعترض ابن هشام على هذا الوجه بأن فيه دعوى خلاف الأصل مرتين إذ الأصل عدم التوكيد والأصل أن لا يفصل المؤكد عن توكيده ولا سيما في التوكيد اللفظي ، وقال الأخفش : إن ﴿ يَدْعُو ﴾ بمعنى يقول واللام للابتداء ومن موصول مبتدأ صلته الجملة بعده وخبره محذوف تقديره إله أو إلهي ، والجملة محية بالقول .

واعترض بأنه فاسد المعنى لأن هذا القول من الكافر إنما يكون في الدنيا وهو لا يعتقد فيها أن الأوثان ضرها أقرب من نفعها .

وأجيب بأن المراد إنكار قولهم بألوهية الأوثان إلا أن الله تعالى عبر عنها بما ذكر للتهكم .

نعم الأولى أن يقدر الخبر مولى لأن قوله تعالى : ﴿ لَبِئْسَ المولى وَلَبِئْسَ العشير ﴾ أدل عليه ، ومع هذا لا يخفى بعد هذا الوجه ، وقيل : ﴿ يَدْعُو ﴾ مضمن معنى يزعم وهي ملحقة بأفعال القلوب لكون الزعم قولاً مع اعتقاد .

واللام ابتدائية معلقة للفعل ومن مبتدأ وخبرها محذوف كما في الوجه السابق ، والجملة في محل نصب بيدعو ، وإلى هذا الوجه أشار الفارسي ولا يخفى عليك ما فيه .

وقال الفراء : إن الام دخلت في غير موضعها والتقدير يدعو من لضره أقرب من نفعه فمن في محل نصب بيدعو .

(98/520)

وتعقبه أبو حيان وغيره بأنه بعيد لأن ما في صلة الموصول لا يتقدم على الموصول ، وقال ابن الحاجب : قيل اللام زائدة للتوكيد ومن مفعول يدعو وليس بشيء لأن اللام المفتوحة لا تزاد بين الفعل ومفعوله لكن قوي القول بالزيادة هنا بقراءة عبد الله ﴿ يَدْعُو ﴾ من ضره بإسقاط اللام ، وقيل : ﴿ يَدْعُو ﴾ بمعنى يسمى ﴿ وَمَنْ ﴾ مفعوله الأول ومفعوله الثاني محذوف أي إلهاً ، ولا يخف عليك ما فيه ، وقيل : إن يدعو ليست عاملة فيما بعدها وإنما هي عاملة في ذلك قبلها وهو موصول بمعنى الذي ، ونقل هذا عن الفارسي أيضاً ، وهو

على بعده لا يصح إلا على قول الكوفيين إذ يجيزون في اسم الإشارة مطلقاً أن يكون موصولاً ، وأما البصريون فلا يجيزون إلا في ذا بشرط أن يتقدمها الاستفهام بما أومن ، وقيل هي عاملة في ضمير محذوف راجع إلى ذلك أي يدعوه ، والجملة في موضع الحال والتقدير ﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ مدعواً وفيه مع بعده أن ﴿ يَدْعُو ﴾ لا يقدر بمدعوا وإنما يقدر بداعياً والذي يقدر بمدعوا إنما هو يدعى المبني للمفعول ، وقيل : ﴿ يَدْعُو ﴾ عطف على ﴿ يدعو ﴾ [الحج : 12] الأول وأسقط حرف العطف لقصد تعداد أحوال ذلك المذبذب واللام زائدة و ﴿ مِنْ ﴾ مفعول ﴿ يَدْعُو ﴾ وهي واقعة على العاقل والدعاء في الموضعين إما بمعنى العبادة وإما بمعنى النداء ، والمراد إما بيان حال طائفة منهم على معنى أنهم تارة يدعون ما لا يضر ولا ينفع وتارة يدعون من ضره أقرب من نفعه ، وأما بيان حال الجنس باعتبار ما تحته على معنى أن منهم من يدعو ما لا يضر ولا ينفع ومنهم من يدعو من ضره أقرب من نفعه وهو كما ترى ، وبالجملة أحسن الوجوه أولها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(99/520)

وقال القاسمي :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾

شروع في حال المذبذبين ، إثر بيان حال المهاجرين . أي : ومنهم من يعبده تعالى على طرف من الدين ، لا في وسطه وقلبه . وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم ، لا على سكون وطمأنينة . كالذي ينحرف إلى طرف الجيش . فإن أحسّ بظفر وغنيمة قرّ وإلّا فرَّ : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ﴾ أي : دنيويّ من صحة وسعة : ﴿ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ أي : ثبت على ما كان عليه ظاهراً : ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أي : ما يفتتن به من مكروه ينزل به : ﴿ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أي : رجع إلى ما كان عليه من الكفر : ﴿ خَسِرَ ﴾ أي : بهذا الانقلاب : ﴿ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴾ أي : ضيّعهما بذهاب عصمته ، وحبوط عمله ، بالارتداد : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ أي : الواضح الذي لا يخفى على ذي بصيرة .

تنبيه :

قال ابن جرير : يعني جل ذكره بقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ الخ أعراباً كانوا يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مهاجرين من باديتهم . فإن نالوا رخاء ، من عيش بعد الهجرة ، والدخول في الإسلام ، أقاموا على الإسلام . وإلا ارتدوا على أعقابهم . وبنحو الذي قلنا قال أهل التأويل . ثم أسنده من طرق .

وهذا مما يؤيد أن السورة مدنية كما قاله جمع . وتقدم ذلك . وقوله تعالى :

(100/520)

﴿ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ﴾ أي : حال ثابتة من فاعل انقلب والأولى خسر ولذلك قرئ خاسر أي : ارتد عن دين الله يدعو من دونه آلهة لا تضره ، إن لم يعبدها في الدنيا ، ولا تنفعه في الآخرة إن عبدها – وقال أبو السعود : يدعو استئناف مبين لعظيم الخسران : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾ أي : عن الحق والهدى .

(101/520)

﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ [13] .

﴿ يَدْعُو ﴾ أي : هذا المنقلب على وجهه ، إذا أصابته فتنة : ﴿ لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ أي : وثناً أو صنماً ، ضره في الدنيا بالذل والخزي وفي الآخرة بالعذاب ، أسرع إليه من نفعه الذي يتوقعه بعبادته ، وهو الشفاعة والتوسل به إلى الله تعالى . فاللام زائدة في المفعول به ، وهو مَنْ كما زيدت في قوله تعالى : ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ [النمل : 72] ، في وجه . وذكر أن ابن مسعود كان يقرؤه : ﴿ يَدْعُو مَنْ ضَرُّهُ ﴾ بغير لام . وهي مؤيدة للزيادة .

وضره مبتدأ ، وأقرب خبر . وفي الآية وجوه كثيرة هذا أظهرها . وإثبات الضرر له هنا ، باعتبار معبوديته . ونفيُه قبل باعتبار نفسه . والآية بمثابة الاستدراك أو الإضراب عما قبلها ، بإثبات ضر محقق لاحق لعابده ، تسفيهاً وتجهيلاً لاعتقاده فيه أنه يستنفع به حين يستشفع به وإيراد صيغة التفضيل ، مع خلوه عن النفع بالمرة ، للمبالغة في تقبيح حاله ، والإمعان في ذمه : ﴿ لَبِئْسَ الْمَوْلَى ﴾ أي : الناصر له : ﴿ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ أي : المصاحب له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 249.250 ﴾

(102/520)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾

هذا وصف فريق آخر من الذين يقابلون الأمر بالتقوى والإنذار بالساعة مقابلة غير المطمئن بصدق دعوة الإسلام ولا المُعرض عنها إعراضاً تاماً ولكنهم يضعون أنفسهم في معرض الموازنة بين دينهم القديم ودين الإسلام .

فهم يقبلون دعوة الإسلام ويدخلون في عداد متبعيه ويرقبون ما ينتابهم بعد الدخول في الإسلام فإن أصابهم الخَير عقب ذلك عَلموا أن دينهم القديم ليس بحق وأنّ آلهتهم لا تقدر

على شيء لأنها لو قدرت لانتقمت منهم على نبذ عبادتها وظنوا أن الإسلام حق ، وإن أصابهم شرّ من شرور الدنيا العارضة في الحياة المسببة عن أسباب عادية سخطوا على الإسلام وانخلعوا عنه .

وتوهموا أن آلهتهم أصابتهم بسوء غضباً من مفارقتهم عبادتها كما حكى الله عن عَاد إذ قالوا لرسولهم ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ [هود : 54] .

فالعبادة في قوله تعالى ﴿ من يعبد الله على حرف ﴾ مراد بها عبادة الله وحده بدليل قوله تعالى : ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ﴾ [الحج : 12] .

والظاهر أن هذه الآية نزلت بالمدينة ، ففي "صحيح البخاري" عن ابن عباس في قوله : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ قال : كان الرجل يقدم المدينة فإن وَلدت امرأته غلاماً ونُتجت خيله قال : هذا دينٌ صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال : هذا دينُ سُوءٍ .

وفي رواية الحسن : أنها نزلت في المنافقين يعني المنافقين من الذين كانوا مشركين مثل : عبد الله بن أبي بن سلول ، وهذا بعيد لأنّ أولئك كانوا مبطنين الكفر فلا ينطبق عليهم قوله ﴿ فإن أصابه خير اطمأن به ﴾ .

وممن يصلح مثالاً لهذا الفريق العرنيُّون الذين أسلموا وهاجروا فاجتووا المدينة ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن يلحقوا براعي إبل الصدقة خارج المدينة فيشربوا من ألبانها وأبوالها حتى يصحوا فلمّا صحوا قتلوا الراعي واستاقوا الذّود وفَروا ، فألحق بهم النبي صلى الله عليه وسلم الطلبَ في أثرهم حتى لحقوا بهم فأمر بهم فقتلوا .

وفي حديث "الموطأ" : أن أعرابياً أسلم وبايع النبي صلى الله عليه وسلم فأصابه وعكٌ بالمدينة ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستقيله بَيعته فأبى أن يقيله ، فخرج من المدينة فقال النبي صلى الله عليه وسلم " المدينة كالكير تنفي خبَثها وينصَع طيبها " فجعله خبثاً لأنه لم يكن مؤمناً ثابتاً .

وذكر الفخر عن مقاتل أن نفراً من أسد وغَطفان قالوا : نخاف أن لا ينصر الله محمداً فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا فنزل فيهم قوله تعالى : ﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله ﴾ [الحج : 15] الآيات .

وعن الضحاك : أن الآية نزلت في المؤلفة قلوبهم ، منهم : عيينة بن حِصن والأقرع بن حَابِس والعبّاس بن مِرداس قالوا : ندخل في دين محمد فإن أصبْنا خيراً عرفنا أنه حق ، وإن أصبنا غير ذلك عرفنا أنه باطل .

وهذا كله ناشىء عن الجهل وتخليط الأسباب الدنيوية بالأسباب الأخروية ، وجعل

المقارنات الاتفاقية كالمعلومات اللزومية .

وهذا أصل كبير من أصول الضلالة في أمور الدين وأمور الدنيا .

ولنعم المعبّر عن ذلك قوله تعالى ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ إذ لا يهتدي إلى تطلب المسببات من أسبابها .

وحَرف الشيء طَرفه وجَانبه سواء كان مرتفعاً كحرف الجبل والوادي أم كان مستوياً كحرف الطريق .

ويطلق الحرف على طرف الجيش ويجمع على طِرَف بوزن عِنب قال في "القاموس" : ولا نظير له سوى طَلَلٍ وطِلَل .

(104/520)

وقوله تعالى : ﴿ يعبد الله على حرف ﴾ تمثيل لحال المتردد في عمله ، يريد تجربة عاقبته بحال من يمشي على حرف جَبَل أو حرف وادٍ فهو متهيّىء لأن يزِل عنه إلى أسفله فينقلب ، أي ينكَب .

ومعنى اطمأن : استقر وسكن في مكانه .

ومصدره الاطمئنان واسم المصدر الطُمَأنينة .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ في [سورة البقرة : 260] .

والمعنى : استمر على التوحيد فرحاً بالخير الذي أصابه ، واستقرار مثل هذا على الإيمان يصيره مؤمناً إذا زال عنه التردد .

وحال هؤلاء قريب من حال المؤلّفة قلوبهم .

والانقلاب : مطاوع قلبه إذا كبّه ، أي ألقاه على عكس ما كان عليه بأن جعل ما كان أعلاه أسفله كما يُقلب القالب بفتح اللام .

فالانقلاب مستعمل في حقيقته ، والكلام تمثيل .

وتفسيرنا الانقلاب هنا بهذا المعنى هو المناسب لقوله ﴿ على وجهه ﴾ أي سقط وانكب عليه ، كقول امرىء القيس:

يكب على الأذقان دوح الكنهبل . . .

وكقول النبي صلى الله عليه وسلم " إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا كبّهُ الله على وجهه " .

وحرف الاستعلاء ظاهر وهو أيضاً الملائم لتمثيل أول حاله بحال من هو على حرف .

ويطلق الانقلاب كثيراً على الانصراف من الجهة التي أتاها إلى الجهة التي جاء منها ، وهو مجاز شائع وبه فسر المفسرون .

ولا يناسب اعتباره هنا لأن مثله يقال فيه : انقلب على عقبيه لا على وجهه ، كما قال

تعالى : ﴿ إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ [البقرة : 143] إذ الرجوع إنما يكون إلى جهة غير جهة الوجه .

والفتنة : اضطراب الحال وقلق البال من حدوث شر لا مدفع له ، وهي مقابل الخير .

وجملة ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ انقلب على وجهه ﴾ .

وجملة ﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾ معترضة بين جملة ﴿ انقلب على وجهه ﴾ وجملة ﴿ يدعو من دون الله ﴾ [الحج : 12] التي هي في موضع الحال من ضمير ﴿ انقلب ﴾ أي أسقط في الشرك .

(105/520)

والخسران : تلف جزء من أصل مال التجارة ، فشبه نفع الدنيا ونفع الآخرة بمال التاجر الساعي في توفيره لأن الناس يرغبون تحصيله ، وثني على ذلك إثبات الخسران لصاحبه الذي هو من مرادفات مال التجارة المشبه به ، فشبه فوات النفع المطلوب بخسارة المال .

وتعليق الخسران بالدنيا والآخرة على حذف مضاف .

والتقدير خسر خير الدنيا وخير الآخرة .

فخسارة الدنيا بسبب ما أصابه فيها من الفتنة ، وخسارة الآخرة بسبب عدم الانتفاع

بثوابها المرجوّله .

والمبين : الذي فيه ما يبين للناس أنه خسران بأدنى تأمل .

والمراد أنه خسران شديد لا يخفى .

والإتيان باسم الإشارة لزيادة تمييز المسند إليه أتم تمييز لتقرير مدلوله في الأذهان .

وضمير ﴿ هو ﴾ ضمير فصل ، والقصر المستفاد من تعريف المسند قصر ادعائي .

ادعي أن ماهية الخسران المبين انحصرت في خسرانهم ، والمقصود من القصر الادعائي تحقيق الخبر ونفي الشك في وقوعه .

وضمير الفصل أكد معنى القصر فأفاد تقوية الخبر المقصور .

﴿ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ﴾

جملة ﴿ يدعو من دون الله ﴾ الخ حال من ضمير ﴿ انقلب ﴾ [الحج : 11] .

وقدم الضر على النفع في قوله ﴿ ما لا يضره ﴾ إيماء إلى أنه تملص من الإسلام تجنباً للضر لتوهمه أن ما لحقه من الضر بسبب الإسلام وبسبب غضب الأصنام عليه ، فعاد إلى عبادة الأصنام حاسباً أنها لا تضره .

وفي هذا الإيماء تهكم به يظهر بتعقيبه بقوله تعالى : ﴿ وما لا ينفعه ﴾ أي فهو مخطىء في دعائه الأصنام لتزيل عنه الضر فينتفع بفعلها .

والمعنى : أنها لا تفعل ما يجلب ضرّاً ولا ما يجلب نفعاً .

والإشارة في قوله ﴿ ذلك هو الضلال ﴾ إلى الدعاء المستفاد من ﴿ يدعو ﴾ .

والقول في اسم الإشارة وضمير الفصل والقصر مثل ما تقدّم في قوله ﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾ [الحج : 11] .

(106/520)

والبعيد : المتجاوز الحد المعروف في مدى الضلال ، أي هو الضلال الذي لا يماثله ضلال لأنه يعبد ما لا غناء له .

﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾

جملة في موضع حال ثانية ، ومضمونها ارتقاء في تضليل عابدي الأصنام .

فبعد أن بيّن لهم أنهم يعبدون ما لا غناء لهم فيه زاد فبين أنهم يعبدون ما فيه ضر .

فموضع الارتقاء هو مضمون جملة ﴿ ما لا يضره ﴾ [الحج : 12] كأنه قيل : ما لا يضره بل ما ينجر له منه ضرّ .

وذلك أن عبادة الأصنام تضرّه في الدنيا بالتوجه عند الاضطرار إليها فيضيع زمنه في تطلب ما لا يحصل وتضره في الآخرة بالإلقاء في النار .

ولما كان الضر الحاصل من الأصنام ليس ضراً ناشئاً عن فعلها بل هو ضر ملابس لها أثبت

الضر بطريق الإضافة للضمير دون طريق الإسناد إذ قال تعالى : ﴿ لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ ولم يقل : لمن يضر ولا ينفع ، لأن الإضافة أوسع من الإسناد فلم يحصل تناف بين قوله ﴿ ما لا يضره ﴾ [الحج : 12] وقوله ﴿ لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ .

وكونه أقرب من النفع كناية عن تمحّضه للضرّ وانتفاء النفع منه لأن الشيء الأقرب حاصل قبل البعيد فيقتضي أن لا يحصل معه إلاّ الضر .

واللام في قوله ﴿ لَمن ﴾ لام الابتداء ، وهي تفيد تأكيد مضمون الجملة الواقعة بعدها ، فلام الابتداء تفيد مفاد (إنّ) من التأكيد .

وقدمت من تأخير إذ حقها أن تدخل على صلة (من الموصولة .

والأصل : يدعو من لضَره أقرب من نفعه) .

ويجوز أن تعتبر اللام داخلة على (من) الموصولة ويكون فعل ﴿ يدعو معلقاً عن العمل لدخول لام الابتداء بناء على الحق من عدم اختصاص التعليق بأفعال القلوب .

(107/520)

وجملة لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ إنشاء ذم للأصنام التي يدعونها بأنها شر الموالي وشر العشراء لأن شأن المولى جلب النفع لمولاه ، وشأن العشير جلب الخير لعشيره فإذا تخلف

ذلك منهما نادراً كان مذمة وغضاضة ، فأما أن يكون ذلك منه مطرداً فذلك شر الموالي .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(108/520)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ﴾

ضمير الفاعل في قوله ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ ﴾ راجع إلى الكافر المشار إليه في قوله ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ خَسِرَ الدنيا والآخرة ذلك هُوَ الخسران المبين ﴾ [الحج : 11] أي يدعو ذلك الكافر المذكور من دون الله ، ما لا يضره ، إن ترك عبادته ، وكفر به ، وما لا ينفعه ، إن عبده وزعم أنه يشفع له .

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن الأوثان ، لا تضر من كفر بها ، ولا تنفع من عبدها بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السماوات وَلاَ فِي الأَرض سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : 18] وقوله تعالى عن نبيه إبراهيم ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَا آبَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ

﴾ [الشعراء : 72-74] .

إذ المعنى : أنهم اعترفوا بأنهم لا يسمعون ، ولا ينفعون ولا يضرون ، ولكنهم عبدوهم تقليداً لآبائهم . والآيات بمثل ذلك كثيرة .

تنبيه

فإن قيل : ما وجه الجمع بين نفيه تعالى النفع والضر معاً ، عن ذلك المعبود من دون الله في قوله ﴿ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ﴾ مع إثباتهما في قوله :

﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ [الحج : 13] .

لأن صيغة التفضيل في قوله : أقرب دلت على أن هناك نفعاً ، وضراً ، ولكن الضر أقرب من النفع .

فالجواب : أن للعلماء أجوبة عن ذلك .

منها : ما ذكره الزمخشري : قال : فإن قلت : الضر والنفع منفيان عن الأصنام ، مثبتان لها في الآيتين ، وهذا تناقض .

(109/520)

قلت : إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم . وذلك أن الله تعالى سفَّه الكافر ، بأنه يعبد جماداً لا يملك ضراً ، ولا نفعاً ، وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله ، أنه يستنفع به ، حين يستشفع به ، ثم قال يوم القيامة : يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها ، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها لها : ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ المولى وَلَبِئْسَ العشير ﴾ [الحج : 13] وكرر يدعو كأنه قال : يدعو يدعو من دون الله ما لا يضره ، وما لا ينفعه . ثم قال لمن ضره بكونه معبوداً : أقرب من نفعه ، بكونه شفيعاً : لبئس المولى ، ولبئس العشير ا ه منه .

ولا يخفى أن جواب الزمخشري هذا غير مقنع ، لأن المعبود من دون الله ، ليس فيه نفع ألبتة ، حتى يقال فيه : إن ضره أقرب من نفعه وقد بين أبو حيان عدم اتجاه جوابه المذكور .

ومنها : ما أجاب به أبو حيان في البحر .

وحاصله : أن الآية الأولى في الذين يعبدون الأصنام ، فالأصنام . لا تنفع من عبدها ، ولا تضر من كفر بها : ولذا قال فيها : ما لا يضره وما لا ينفعه : والقرينة على أن المراد بذلك الأصنام ، هي التعبير بلفظة " ما " في قوله ﴿ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ﴾ لأن لفظة " ما " تأتي لما لا يعقل ، والأصنام لا تعقل .

أما الآية الأخرى فهي فيمن عبد بعض الطغاة المعبودين من دون الله ، كفرعون القائل ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] ، ﴿ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾ [الشعراء : 29] ، ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] فإن فرعون ونحوه من الطغاة المعبودين قد يغدقون نعم الدنيا على عابديهم : ولذا قال له القوم الذين كانوا سحرة ﴿ أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ المقربين ﴾ [الشعراء : 41-42] فهذا النفع الدنيوي بالنسبة إلى ما سيلاقونه ، من العذاب ، والخلود في النار كلا شيء ، فضر هذا المعبود بخلود عباده في النار ، أقرب من نفعه . بعرض قليل زائل من حطام الدنيا ، والقرينة على أن المعبود في هذه الآية الأخيرة : بعض الطغاة الذين هم من جنس العقلاء : هي التعبير بمن التي تأتي لمن يعقل في قوله ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ هذا هو خلاصة جواب أبي حيان وله اتجاه ، والله تعالى أعلم .

واعلم أن اللام في ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ [الحج : 13] فيها إشكال معروف . وللعلماء عن ذلك أجوبة .

ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله منها ثلاثة :

أحدها : أن اللام متزحلقة عن محلها الأصلي ، وأن ذلك من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن ، والأصل : يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ، وعلى هذا فمن الموصولة في محل

نصب مفعول به ليدعوا ، واللام موطئة للقسم ، داخلة على المبتدأ ، الذي هو وخبره صلة الموصول ، وتأكيد المبتدأ في جملة الصلة باللام ، وغيرها لا إشكال فيه .

قال ابن جرير وحكي عن العرب سماعاً : منها عندي لما غيره خير منه : أي عندي ما لغيره خير منه ، وأعطيتك لما غيره خير منه : أي ما لغيره خير منه .

(111/520)

والثاني : منها : أن قوله : يدعو تأكيد ليدعوا في الآية التي قبلها : وعليه فقوله ﴿ لَمَنْ ضَرُّهُ ﴾ في محل رفع بالابتداء ، وجملة ﴿ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ صلة الموصول الذي هو من والخبر هو جملة ﴿ لَبِئْسَ المولى ﴾ الآية . وهذا المعنى كقول العرب : لما فعلت لهو خير لك .

قال ابن جرير : لما ذكر هذا الوجه : واللام الثانية في ﴿ لَبِئْسَ المولى ﴾ جواب اللام الأولى : قال : وهذا القول على مذهب أهل العربية أصح ، والأول إلى مذهب أهل التأويل أقربا ه .

والثالث : منها : أن ﴿ مَنْ ﴾ في موضع نصب بيدعوا ، وأن اللام دخلت على المفعول به ، وقد عزا هذا لبعض البصريين مع نقله عمن عزاه إليه أنه شاذ . وأقربها عندي الأول .

وقال القرطبي رحمه الله : ولم ير منه نفعاً أصلاً ، ولكنه قال ﴿ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ ترفيعاً للكلام : كقوله ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24]

وباقي الأقوال في اللام المذكورة تركناه ، لعدم اتجاهه في نظرنا ، والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ لَبِئْسَ المولى ﴾ .

المولى : هو كل ما انعقد بينك وبينه سبب ، يواليك به . والعشير : هو المعاشر ، وهو الصاحب والخليل .

والتحقيق : أن المراد بالمولى والعشير المذموم في هذه الآية الكريمة ، هو المعبود الذي كانوا يدعونه من دون الله ، كما هو الظاهر المتبادر من السياق .

وقوله ﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ أي البعيد عن الحق والصواب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(112/520)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ . . ﴾ [الحج : 11]

العبادة : أنْ تطيع الله فيما أمر فتنفذه ، وتطيعه فيما نهى فتجتنبه ، بعض الناس يعبد الله

هذه العبادة طالما هو في خير دائم وسرور مستمر ، فإذا أصابه شَرٌّ أو وقع به مكروه ينقلب على وجهه ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ . . ﴾ [الحج : 11]

والحق سبحانه يريد من عبده أنْ يُقبل على عبادته في ثبات إيمان ، لا تزعزعه الأحداث ، ولا تهز إيمانه فيتراجع ، ربك يريدك عبداً له في الخير وفي الشر ، في السراء وفي الضراء ، فكلاهما فتنة واختبار ، وما آمنتَ بالله إلا لأنك علمتَ أنه إله حكيم عادل قادر ، ولا بد أنْ تأخذ ما يجري عليك من أحداث في ضوء هذه الصفات .

فإنْ أثقلتْك الحياة فاعلم أن وراء هذه حكمة إنْ لم تكن لك فلأولادك من بعدك ، فلعلهم إنْ وجدوك في سعة وفي خير طَمِعُوا وفسدوا وطَغَوْا ، ولعل حياة الضيق وقِلَّة الرزق وتعبك لتوفر متطلبات الحياة يكون دافعاً لهم .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6 - 7]

وقوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : 35] .

لا بُدَّ أنْ تعرف هذه الحقائق ، وأنْ تؤمن بحكمة ربك في كل ما يُجريه عليك ، سواء أكان نعيماً أو بُؤْساً ، فإنْ أصابك مرض أقعدك في بيتك فَقُلْ : ماذا حدث خارج البيت ، أبعدني الله عنه وعافاني منه ؟ فلعل الخير فيما تظنه شراً ، كما قال تعالى : ﴿ وعسى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . ﴾ [البقرة : 216] .

وقد أجرى علماء الإحصاء إحصاءات على بعض بيوتنا ، فوجدوا الإخوة في البيت الواحد ، وفي ظروف بيئية واحدة وأب واحد ، وأم واحدة ، حتى التعليم في المدرس على مستوى واحد ، ومع ذلك تجد أحد الأبناء مستقيماً ملتزماً ، وتجد الآخر على النقيض ، فلمَّا بحثوا في سبب هذه الظاهرة وجدوا أن الولد المستقيم كانت فترة تربيته وطفولته في وقت كان والده مريضاً ويلازم بيته لمدة ست سنوات ، فأخذ هذا الولد أكبر قِسْط من الرعاية والتربية ، ولم يجد الفرصة للخروج من البيت أو الاختلاط برفاق السوء .

وفي نموذج آخر لأحد الأبناء المنحرفين وجدوا أن سبب انحرافه أن والده في فترة تربيته وتنشئته كان تاجراً ، وكان كثير الأسفار ، ومع ذلك كان يُغْدِق على أسرته ، فتربَّى الولد في سَعَة من العيش ، بدون مراقبة الأب .

وفي نموذج آخر وجدوا أخوين : أحدهما متفوق ، والآخر فاشل ، ولما بحثوا أسباب ذلك رغم أنهما يعيشان ظروفاً واحدة وجدوا أن الابن المتفوق صحته ضعيفة ، فمال إلى البيت والقراءة والاطلاع ، وكان الآخر صحيحاً وسيماً ، فمال إلى حياة الترف ، وقضى معظم وقته خارج البيت .

والأمثلة في هذا المجال كثيرة .

إذن : فالابتلاءات لها مغانم ، ومن ورائها حِكَم ؛ لأنها ناشئة وجارية عليك بحكمة ربك وخالقك ، وليست من سَعْيك ولا من عمل يدك ، وما دامت كذلك فارْضَ بها ، واعبد الله بإخلاص وإيمان ثابت في الخير وفي الشر .

ومعنى : ﴿ يَعْبُدُ اللهَ على حَرْفٍ . . ﴾ [الحج : 11] والحرف : هو طرف الشيء ، كأن تدخل فتجد الغرفة ممتلئة فتجلس على طرف في آخر الجالسين ، وهذا عادةً لا يكون معه تمكُّن واطمئنان ، كذلك مَنْ يعبد الله على حرف يعني : لم يتمكَّن الإيمان من قلبه ، وسرعان ما يُخرِجه الابتلاء عن الإيمان ، لأنه عبد الله عبادةً غير متمكنة باليقين الذي يصدر عن المؤمن بإله حكيم فيما يُجريه على عبده .

(114/520)

والآية لم تترك شيئاً من هواجس النفس البشرية سواء في الخير أو في الشر .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ . . ﴾ [الحج : 11] وكذلك : ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ . . ﴾ [الحج : 11] فأنت لا تقول : أصبتُ الخيرَ ، إنما الخير هو الذي أصابك وأتاك إلى بابك ، فأنت لا تبحث عن رزقك بقدر ما يبحث هو عنك ؛ لذلك يقول

تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ . . ﴾ [الطلاق : 2 – 3] .

ويقول أهل المعرفة : رِزْقك أعلم بمكانك منك بمكانه ، يعني يعرف عنوانك أما أنت فلا تعرف عنوانه ، بدليل أنك قد تطلب الرزق في مكان فلا تُرزَق منه بشيء ، وقد ترى الزرع في الحقول زاهياً تأمل فيه المحصول الوفير ، وتبني عليه الآمال ، فإذا بعاصفة أو آفة تأتي عليه ، فلا تُرزَق منه حتى بما يسدُّ الرَّمَق .

ولنا عبرة ومثَلٌ في ابن أُذَيْنة حين ضاقت به الحال في المدينة ، فقالوا له : إن لك صحبة بهشام بن عبد الملك الخليفة الأموي فاذهب إليه ينالك من خير الخلافة ، وفعلاً سافر ابن أذينة إلى صديقه ، وضرب إليه أكباد الإبل حتى الشام ، واستأذن فأَذن له ، واستقبله صاحبه ، وسأله عن حالة فقال : في ضيق وفي شدة . وكان في مجلس الخليفة علماء فقال له : يا عروة ألست القائل – وكان ابن أُذَيْنَة شاعراً :

لَقَد عَلِمت ومَا الإسْرَافُ مِنْ خُلُقِي . . . أَنَّ الذي هُوَ رِزْقي سَوْفَ يأْتِينِي ؟

وهنا أحسَّ عروة أن الخليفة كسر خاطره ، وخَيَّب أمله فيه ، فقال له : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد ذكَّرت مني ناسياً ، ونبَّهْتَ مني غافلاً ، ثم انصرف .

فلما خرج ابن أُذَيْنة من مجلس الخليفة ، وفكَّر الخليفة في الموقف وأَنَّب نفسه على تصرُّفه مع صاحبه الذي قصد خَيْره ، وكيف أنه رَدَّه بهذه الصورة ، فأراد أنْ يُصلِح هذا الخطأ ، فأرسل إليه رسولاً يحمل الهدايا الكثيرة ، إلا أن رسول الخليفة كلما تبع ابن أُذَيْنة في مكان وجده قد غادره إلى مكان آخر ، إلى أنْ وصل إلى بيته ، فطرق الباب ، وأخبره أن أمير المؤمنين قد ندم على ما كان منه ، وهذه عطاياه وهداياه .

وهنا أكمل ابن أُذَيْنة بيته الأول ، فقال :

أسْعَى لَهُ فَيُعَنِّيني تطلُّبه . . . وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانِي لاَ يُعنِّيني

كذلك نلحظ في هذه الآية : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ . . ﴾ [الحج : 11] ولم يقابل الخير بالشر ، إنما سماها (فتْنَة) أي : اختبار وابتلاء ؛ لأنه قد ينجح في هذا الاختبار فلا يكون شراً في حَقِّه .

ومعنى : ﴿ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ [الحج : 11] يعني : عكس الأمر ، فبعد أنْ كان عابداً طائعاً انقلب إلى الضِّدِّ فصار عاصياً ﴿ خَسِرَ الدنيا والأخرة . . ﴾ [الحج : 11] وخسْران الإنسان لعبادته خسران كبيرٌ لا يُجْبَر ولا يُعوِّضه شيء ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ ذلك هُوَ الخسران المبين ﴾ [الحج : 11] فهل هناك خُسْران مبين ، وخسران غير مبين ؟

نعم : الخسران هو الخسارة التي تُعوَّض ، أما الخسارة التي لا عِوضَ لها فهذه هي الخسران المبين الذي يلازم الإنسان ولا ينفكُّ عنه ، وهو خُسْران لا يقتصر على الدنيا فقط فيمكن أنْ تُعوِّضه أو تصبر عليه ، إنما يمتد للآخرة حيث لا عِوضَ لخسارتها ولا صَبْر على شِدَّتها . فالخسران المبين أي : المحيط الذي يُطوِّق صاحبه .

(116/520)

لذلك نقول لمن فقد عزيزاً عليه ، كالمرأة التي فقدت وحيدها مثلاً : إنْ كان الفقيد حبيباً وغالياً فبيعوه غالياً وادخلوا به الجنة ، ذلك حين تصبرون على فَقْده وتحتسبونه عند الله ، وإنْ كنتم خسرتم به الدنيا فلا تخسروا به الآخرة ، فإنْ لطَمْنا الخدود وشَقَقْنَا الجيوب ، واعترضنا على قَدَر الله فيه فقد خسرنَا به الدنيا والآخرة .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : " عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإنْ أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن " .

والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء مرتبة من مراتب الإيمان ، ومرحلة من مراحل اليقين في نفس المؤمن ، وهي بداية وعَتَبة يتلوها مراحل أخرى ومراقٍ ، حَسْب قوة الإيمان

.

اسمع إلى هذا الحوار الذي دار بين أهل المعرفة من الزُّهَّاد ، وكيف كانوا يتبارونَ في الوصول إلى هذه المراقي الإيمانية ، ويتنافسون فيها ، لا عن مُبَاهاة ومفاخرة ، إنما عن نية خالصة في الرُّقي الإيماني .

يسأل أحد هؤلاء المتمكِّنين صاحبه : كيف حال الزهاد في بلادكم ؟ فقال : إن أصابنا خير شكرنا ، وإن أصابنا شَرٌّ صبرنا ، فضحك الشيخ وقال : وما في ذلك ؟ ! إنه حال الكلاب في بَلْخ . أما عندنا : فإنْ أصابنا خير آثرنا ، وإنْ أصابنا شَرٌّ شكرنا .

وهذه ليست مباهاة إنما تنافس ، فكلاً الرجلين زاهد سالك لطريق الله ، يرى نفسه محسوباً على هذا الطَريق ، فيحاول أنْ يرتقيَ فيه إلى أعلى مراتبه ، فإياك أنْ تظن أن الغاية عند الصبر على البلاء والشُّكْر على العطاء ، فهذه البداية وبعدها منازل أعْلَى ومَراقٍ أسمى لمن طلبَ العُلاَ ، وشمَّر عن ساعد الجد في عبادة ربه .

(117/520)

انظر إلى أحد هؤلاء الزُّهَّاد يقول لصاحبة : أَلاَ تشتاق إلى الله ؟ قال : لا ، قال مُتعجباً : وكيف ذلك ؟ قال : إنما يُشتاق لغائب ، ومتى غاب عني حتى أشتاق إليه ؟ وهكذا تكون

درجات الإيمان وشفافية العلاقة بين العبد وربه عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه عن هذا الذي يعبد الله على حرف : ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ . . ﴾ .

معنى : ﴿ مَا لاَ يَضُرُّهُ . . ﴾ [الحج : 12] هل الصنم الذي يعبده الكافر من دون الله يمكن أن يضره ؟ لا ، الصنم لا يضر ، إنما الذي يضره حقيقة مَنْ عانده وانصرف عن عبادته ، تضره الربوبية التي يعاندها والمجَازي الذي يجازيه بعمله ، إذن : فما معنى : ﴿ يَضُرُّهُ . . ﴾ [الحج : 12] هنا ؟

المعنى : لا يضره إن انصرف عنه ولم يعبده ، ولا ينفعه إنْ عبده : ﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ [الحج : 12] نعم ضلال : لأن الإنسان يعبد ويطيع مَنْ يرجو نفعه في أيِّ شيء ، أو يخشى ضره في أيِّ شيء .

وقد ذكرنا سابقاً قول بعض العارفين : (واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه) ، ولو قلنا هذه المقولة لأبنائنا في الكتب الدراسية ، واهتمَّ بها القائمون على التربية لما أغرى الأولاد بعضهم بعضاً بالفساد ، ولوقفَ الولد يفكر مرة وألف مرة في توجيهات ربه ، ونصائح أبيه وأمه ، وكيف أنه سيترك توجيهات مَنْ يحبونه ويخافون عليه ويرجُون له الخير إلى إغراء صديق لا يعرف عنه وعن أخلاقه شيئاً .

لا بُدَّ أنْ نُطعِّم أبناءنا مبادئ الإسلام ، ليعرف الولد منذ صِغَره مَنْ يحبه ومَنْ يكرهه ، ومَنْ هو أَوْلَى بطاعته .

(118/520)

وتلحظ في الآية أن الضر سابق للنفع : ﴿ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ . . ﴾ [الحج : 12] لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ؛ لأن المفسدة خروج الشيء عن استقامة تكوينه ، والنفع يزيدك ويضيف إليك ، أما الضر فينقصك ، لذلك خَيْر لك أنْ تظل كما أنت لا تنقص ولا تزيد ، فإذا وقفتَ أمام أمرين : أحدهما يجلب خيراً ، والآخر يدفع شراً ، فلا شَكَّ أنك ستختار دَفْع الشر أولاً ، وتشتغل بدَرْءِ المفسدة قبل جَلْب المصلحة .

وضربنا لذلك مثلاً : هَبْ أن إنساناً سيرمي لك بتفاحة ، وآخر سيرميك بحجر في نفس الوقت ، فماذا تفعل ؟ تأخذ التفاحة ، أو تتقي أَذى الحجر ؟ هذا هو معنى " دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة " .

يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13)

الأية السابقة تثبت أنه يدعو مَا لا يضُرُّه ومَا لا ينفعه ، وهذه الآية تُثبت أنه يدعو مَنْ ضَرُّه أقرب من نَفْعه .

صيغة أفعل التفضيل (أقرب) تدل على أن شيئين اشتركا في صفة واحدة ، إلا أن أحدهما زاد عن الآخر في هذه الصفة ، فلو قُلْتَ : فلان أحسن من فلان . فهذا يعني أن كلاهما حَسَن ، لكن زاد أحدهما عن الآخر في الحُسْن .

فقوله تعالى : ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ . . ﴾ [الحج : 13]

إذن : هناك نَفْع وهو قريب ، لكن الضر أقرب منه ، فهذه الآية في ظاهرها تُناقِض الآية السابقة ، والحقيقة ليس هناك تناقض ، ولا بُدَّ أنْ نفهمَ هذه المسألة في ضوء قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾ [النساء : 82] .

(119/520)

فالأوثان التي كانوا يعبدونها كان لها سَدَنَة يتحكَّمون فيها وفي عابديها ، فإذا أرادوا من الآلهة شيئاً قالوا للسدنة : ادعوا الآلهة لنا بكذا وكذا ، إذن : كان لهم نفوذ وسُلْطة زمنية ، وكانوا هم الواسطة بين الأوثان وعُبَّادها ، هذه الواسطة كانت تُدِرُّ عليهم كثيراً من الخيرات وتعطيهم كثيراً من المنافع ، فكانوا يأخذون كل ما يُهْدَى للأوثان .

فالأوثان – إذن – سبب في نَفْع سدنتها ، لكن هذا النفع قصاراه في الدنيا ، ثم يتركونه بالموت ، فمدة النفع قصيرة ، وربما أتاه الموت قبل أنْ يستفيد بما أخذه ، وإنْ جاء الموت فلا

إيمانَ ولا عملَ ولا توبةَ ، وهذا معنى ﴿ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ . . ﴾ [الحج : 13] .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ لَبِئْسَ المولى وَلَبِئْسَ العشير ﴾ [الحج : 13] كلمة (بئس) تُقَال للذم وهي بمعنى : ساء وقَبُح ، والمولَى : الذي يليك ويقرُب منك ، ويُراد به النافع لك ؛ لأنك لا تقرِّب إلا النافع لك ، إما لأنه يعينك وقت الشدة ، ويساعدك وقت الضيق ، وينصرك إذا احتجتَ لِنُصْرته ، وهذا هو الوليُّ .

وإما أنْ تُقرِّبه منك ؛ لأنه يُسليك ويجالسك وتأنس به ، لكنه ضعيف لا يقوى على نُصْرتك ، وهذا هو العشير .

والأصنام التي يعبدونها بئست المولى ؛ لأنها لا تنصرهم وقت الشدة ، وبئست العشير ؛ لأنها لا تُسليهم ، ولا يأنسون بها في غير الشدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(120/520)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾ [11] قال : المؤمن وجه بلا قفا

، كرّار غير فرّار ، تراه يجاهد في دين الله وطاعته ، من إقامة توحيده واقتدائه بنبيه ، وإدامة التضرع ، واللجأ إلى الله رجاء الاتصال به من موضع الاقتداء ، كما روى زيد بن أسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ما من أمتي إلا دخل الجنة إلا من أبى ، قلنا : ومن الذي يأبى ذلك ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى أن يدخل الجنة » .

قوله : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ ﴾ [11] يعني الذي يتبع الهوى إن رضي قلبه وفرحت نفسه بعاجل حظها اطمأن به ، وإلا رجع إلى ما يدعوه الهوى من الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 106 ﴾

(121/520)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾

أخرج البخاري وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ قال : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال : هذا دين صالح ؛ وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله ، قال : هذا دين

سوء .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند صحيح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسلمون ، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ، قالوا : إن ديننا هذا صالح فتمسكوا به ؛ وإن وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط ، قالوا : ما في ديننا هذا خير . فأنزل الله ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال : كان أحدهم إذا قدم المدينة – وهي أرض وبيئة – فإن صح بها جسمه ونتجت فرسه مهراً حسناً وولدت امرأته غلاماً ، رضي به واطمأن اليه وقال : ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً ؛ وإن رجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة ، أتاه الشيطان فقال : والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً . وذلك الفتنة .

وأخرج ابن مردويه من طريق عطية ، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : " أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالإسلام ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " أقلني . فقال : إن الإسلام لا يقال . فقال : لم أصب في ديني هذا خيراً . ذهب بصري ومالي ومات ولدي . . . ! فقال : يا يهودي ، الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة " ونزلت : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ قال : على شك . وفي قوله ﴿ فإن أصابه خير ﴾ قال : رخاء وعافية ﴿ اطمأن به ﴾ قال : استقر ﴿ وإن أصابته فتنة ﴾ قال : عذاب ومصيبة ﴿ انقلب على وجهه ﴾ قال : ارتد على وجهه كافراً .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ قال : كان الرجل يأتي المدينة مهاجراً ، فإن صح جسمه وتتابعت عليه الصدقة وولدت امرأته غلاماً وأنتجت فرسه مهراً ، قال : والله لنعم الدين وجدت دين محمد صلى الله عليه وسلم هذا ، ما زلت أعرف الزيادة في جسدي وولدي ؛ وإن سقم بها جسمه واحتبست عليه الصدقة وأزلقت فرسه وأصابته الحاجة وولدت امرأته الجارية ، قال : والله لبئس الدين دين محمد هذا ، والله ما زلت أعرف النقصان في جسدي وأهلي وولدي ومالي .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في

قوله ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ قال : على شك ﴿ فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ﴾ يقول : إن أصاب خصباً وسلوة من عيش وما يشتهي ، اطمأن إليه وقال : أنا على حق وأنا أعرف الذي أنا عليه ﴿ وإن أصابته فتنة ﴾ أي بلاء ﴿ انقلب على وجهه ﴾ يقول : ترك ما كان عليه من الحق فأنكر معرفته ، خسر الدنيا والآخرة . يقول : خسر دنياه التي كان لها يحزن وبها يفرح ولها يسخط ولها يرضى ، وهي همه وسدمه وطلبته ونيته ، ثم أفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها خيراً ﴿ فذلك هو الخسران المبين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره ﴾ إن عصاه في الدنيا ﴿ وما لا ينفعه ﴾ إن أطاعه وهو الصنم ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ يقول : ضره في الآخرة من أجل عبادته إياه في الدنيا ﴿ لبئس المولى ﴾ يقول : الصنم .

(123/520)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ﴿ لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ قال : الصاحب .

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ

فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15) ﴾

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله ﴾ قال : من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﴿ في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب ﴾ قال : فليربط حبلاً ﴿ إلى السماء ﴾ قال : إلى سماء بيته السقف ﴿ ثم ليقطع ﴾ قال : ثم يختنق به حتى يموت .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله ﴾ يقول : أن لن يرزقه الله ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ فليأخذ حبلاً فليربطه في سماء بيته فليختنق به ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ قال : فلينظر هل ينفعه ذلك أو يأتيه برزق ؟

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله ﴾ قال : أن لن يرزقه الله ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ قال : بحبل بيته ﴿ ثم ليقطع ﴾ ثم ليختنق ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ﴾ ذلك ﴿ ما يغيظ ﴾ قال : ذلك خيفة أن لا يرزق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في الآية قال : من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ويكابد هذا الأمر ليقطعه عنه ، فليقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه ، فإن أصله في

السماء ﴿ ثم ليقطع ﴾ أي عن النبي الوحي الذي يأتيه من الله إن قدر .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه في الآية قال : من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ، فليجعل حبلاً في سماء بيته فليختنق به ، فلينظر هل يغيظ ذلك إلا نفسه ؟ . . .

(124/520)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله ﴾ يقول : من كان يظن أن الله غير ناصر دينه ﴿ فليمدد بحبل إلى السماء ﴾ سماء البيت فليختنق ﴿ فلينظر ﴾ ما يرد ذلك في يده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(125/520)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾

قوله : ﴿ على حَرْفٍ ﴾ : حالٌ من فاعل "يَعْبُدُ" أي : مُتَزَلْزِلاً . ومعنى "على حرف" أي : على شك أو على انحرافٍ ، أو على طرفِ الدين لا في وسطه ، كالذي يكونُ في طرف العَسْكَر : إنْ رأى خيراً ثبت وإلاَّ فرَّ .

قوله : ﴿ خَسِرَ ﴾ قرأ العامَّةُ "خَسِرَ" فعلاً ماضياً . وهو يحتملُ ثلاثةَ أوجهٍ : الاستئنافَ ، والحاليةَ مِنْ فاعلِ ، "انقلبَ" ، ولا حاجةَ إلى إضمارِ "قد" على الصحيحِ ، والبدليةُ مِنْ قولِه "انقلَبَ" ، كما أبدل المضارعَ مِنْ مِثله في قوله : ﴿ يَلْقَ أَثَاماً يُضَاعَفْ ﴾ [الفرقان : 69] .

وقرأ مجاهدٌ والأعرجُ وابنُ محيصن والجحدري في آخرين "خاسِرَ" بصيغة اسم فاعلٍ منصوبٍ على الحال ، وهي تؤيدُ كونَ الماضي في قراءةِ العامَّةِ حالاً . وقُرِىء برفعهِ . وفيه وجهان ، أحدُهما : أَنْ يكونَ فاعِلاً ب "انقلبَ" ويكونُ مِنْ وَضْعِ الظاهرِ مَوْضِعَ المضمرِ أي : انقلب خاسرُ الدنيا . والأصلُ : انقلبَ هو . والثاني : أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي : هو خاسرُ . وهذه القراءةُ تُؤَيِّدُ الاستئنافَ في قراءةِ المُضِيِّ على التخريج الثاني . وحَقُّ مَنْ قَرَأَ "خاسر" رفعاً ونصباً أَنْ يَجُرَّ "الآخرةِ" لعطفِها على "الدنيا" المجرورِ بالإضافةِ . ويجوز أن يبقى النصبُ فيها ؛ إذ يجوز أَنْ تكونَ "الدنيا" منصوبةً . وإنما حُذِفَ التنوينُ من "خاسر" لالتقاءِ الساكنين نحو قولِه :

3374 . . . . . ولا ذاكرَ اللهَ إلاَّ

قليلا

(126/520)

قوله : ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ : فيه عشرةُ أوجه ، وذلك أنَّه : إمَّا بجَعْلِ " يَدْعُو " متسلِّطاً على الجملة مِنْ قولِه : ﴿ لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ أو لا . فإنْ جَعَلْنَاه مُتَسَلِّطاً عليها كان في سبعةُ أوجه ، أحدها : أنَّ "يَدْعُو " بمعنى يَقُوْل ، واللامُ للابتداء ، و " مَنْ " موصولةٌ في محلِّ رفعٍ بالابتدء . و " ضَرُّه " مبتدأ ثانٍ و " أقربُ " خبرُه . وهذه الجملةُ صلةٌ للموصول ، وخبرُ الموصولِ محذوفٌ تقديرُه : يقول للَّذي ضَرُّه أقربُ من نَفْعِه إلهٌ أو إلهي أو نحوُ ذلك . والجملةُ كلُّها في محلِّ نصبٍ ب "يَدْعُو " لأنَّه بمعنى يَقُول ، فهي محكيَّةٌ به . وهذا قولُ أبي الحسنِ . وعلى هذا فيكون قولُه : ﴿ لَبِئْسَ المولى ﴾ مستأنفاً ليس داخلاً في المَحْكيِّ قبلَه ؛ لأنَّ الكفار لا يقولون في أصنامِهم ذلك . وقد رَدَّ بعضُهم هذا القولَ بأنه فاسدُ المعنى ، والكافرُ لا يَعتقد في الأصنامِ أنَّ ضَرَّها أقربُ مِنْ نفعِها البتةَ .

الثاني : أنَّ "يَدْعُو " مُشَبَّهٌ بأفعالِ القلوب ؛ لأنَّ الدعاءَ لا يَصْدُرُ إلاَّ عن اعتقادٍ ، وأفعال القلوب تُعَلَّق ، ف "يَدْعُو " مُعَلَّقٌ أيضاً باللام . و " مَنْ " مبتدأٌ موصولٌ . والجملةُ بعده

صلةٌ ، وخبرُه محذوفٌ على ما مَرَّ في الوجهِ قبلَه .

والجملة في محلِّ نصب ، كما تكون كذلك بعد أفعالِ القلوب . الثالث : أَنْ يُضَمَّن يَدْعُو معنى يزعم ، فيُعَلَّق كما يُعَلَّقُ ، والكلامُ فيه كالكلامِ في الوجهِ الذي قبله . الرابع : أن الأفعالَ كلَّها يجوز أَنْ تُعَلَّق قلبيةً كانت أو غيرَها فاللامُ معلِّقةٌ لـ "يَدْعوا" ، وهو مذهبُ يونسَ . فالجملةُ بعده الكلامُ فيها كما تقدَّم .

(127/520)

الخامس : أنَّ "يَدْعُوا" بمعنى يُسَمِّي ، فتكونَ اللامُ مزيدةً في المفعولِ الأولِ وهو الموصولُ وصلتُه ، ويكون المفعولُ الثاني محذوفاً تقديرُه : يُسَمِّي الذي ضَرُّه أقربُ مِنْ نفعِه إلهاً ومعبوداً ونحو ذلك . السادس : أنَّ اللامَ مُزالةٌ/ مِنْ موضِعها . والأصلُ : يَدْعُو مَنْ لَضَرُّه أقربُ . فقُدِّمَتْ مِنْ تأخيرٍ . وهذا قولُ الفراء . وقد رَدُّوا هذا بأنَّ ما في صلةِ الموصولِ لا يتقدَّمُ على الموصولِ . السابع : أنَّ اللامَ زائدةٌ في المفعول به وهو "مَنْ" . والتقديرُ : يَدْعُو مَنْ ضَرُّه أقرب . ف "مَنْ" موصولٌ ، والجملةُ بعدَها صلتُها ، والموصولُ هو المفعولُ بـ "يَدْعُو" زِيْدتْ فيه اللامُ كزيادتِها في قولِه ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ [النمل : 72] في أحدِ القولين . وقد رُدَّ هذا بأنَّ زيادةَ اللام إنما تكونُ إذا كان العاملُ فَرْعاً ، أو بتقديم المعمول . وقرأ عبد

الله "يَدْعُو مَنْ ضَرُّه" بعيرِ لامِ ابتداءٍ ، وهي مؤيدةٌ لهذا الوجهِ .

وإنْ لم تجعَلْه متسلّطاً على الجملةِ بعدَه كان فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أظهرُها : أنَّ "يَدْعُو" الثاني توكيدٌ ل "يَدْعو" الأولِ فلا معمولَ له ، كأنه قيل : يَدْعو يَدْعو مِنْ دونِ الله الذي لا يَضُرُّه ولا ينفعه .

وعلى هذا فتكونُ الجملةُ مِنْ قولِه ﴿ ذلك هُوَ الضلال ﴾ معترضةً بين المؤكَّدِ والتوكيدِ ؛ لأنَّ فيها تَسْديداً وتأكيداً للكلام ، ويكون قولُه ﴿ لَمَنْ ضَرُّهُ ﴾ كلاماً مستأنفاً . فتكونُ اللامُ للابتداء و "مَنْ" موصولةٌ ، و "ضَرُّه" مبتدأ و "أقربُ" خبرُه . والجملةُ صلةٌ ، و "لَبِئْسَ" جوابُ قسمٍ مقدر . وهذا القسمُ المقدرُ وجوابُه خبرُ المبتدأ الذي هو الموصول .

(128/520)

الثاني : أن يُجْعَلَ "ذلك" موصولاً بمعنى الذي . و "هو" مبتدأ ، و "الضلالُ" خبره والجملةُ صلةٌ . وهذا الموصولُ مع صلتِه في محلِّ نصبٍ مفعولاً ب "يَدْعو" أي : يدعو الذي هو الضلالُ . وهذا منقولٌ عن أبي علي الفارسي ، وليس هذا بماشٍ على رأي البصريين ؛ إذ لا يكونُ عندهم من أسماءِ الإشارةِ موصولٌ إلاَّ "ذا" بشروطٍ ذكرْتُها فيما تقدَّم . وأمَّا الكوفيون فيُجيزون في أسماءِ الإشارة مطلقاً أن تكونَ موصولةً ، وعلى هذا فيكونُ "لَمَنْ

ضَرُّه أَقْرَبُ " مستأنفاً ، على ما تقدَّم تقريرُه .

والثالث : أن يُجْعَلَ " ذلك " مبتدأ . و " هو " : جوَّزوا فيه أن يكونَ بدلاً أو فَصْلاً أو مبتدأً ، و " الضلالُ " خبرُ " ذلك " أو خبرُ " هو " على حَسَبِ الخلافِ في " هو " و " يَدْعُو " حالٌ ، والعائدُ منه محذوفٌ تقديرُه : يَدْعوه ، وقدَّروا هذا الفعلَ الواقعَ موقعَ الحال ب " مَدْعُوَّاً " قال أبو البقاء : " وهو ضعيفٌ " ، ولم يُبَيِّنْ وجه ضَعْفِه . وكأنَّ وجهَه أنَّ " يَدْعُو " مبنيٌّ للفاعلِ فلا يناسِبُ أن تُقَدَّرَ الحالُ الواقعةُ موقعَه اسمَ مفعولٍ ، بل المناسِبُ أن تُقَدَّرَ اسمَ فاعل ، فكان ينبغي أَنْ يُقَدِّروه : داعياً ولو كان التركيبُ " يدعى " مبنياً للمفعول لَحَسُن تقديرُهم مَدْعُوَّاً . ألا ترى أنَّك إذا قلتَ : " جاء زيدٌ يضربُ " كيف تُقَدِّره ب " ضارب " لا ب مَضْروب .

والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ ، وتقديرُه : لبِئْسَ المولى ولبئس العشيرُ ذلك المَدْعُوُّ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 237 . 241 ﴾

(129/520)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ضر)

ضرّه وضَرَرًا وضرًّا ، وضَرُورة وَضرُوراء ، وضاروراء ، وهو سُوءُ الحال ، إمّا فى نفسه ؛ كقلّة العلم والفضل والعفّة ، وإمّا فى بدنه ، كعدم جارحة ونقص ، وإمّا فى حالة ظاهرة من قلّة مال وجاه .

والمُضِرّ بمعناه .

وقد ورد فى القرآن واللغة على وجوه :

1- بمعنى البلاء والشدّة : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَآءِ والضَّرَّاءِ ﴾ ، ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ ﴾ .

2- بمعنى الفقر و الفاقة : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾ ، ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ ، أَى ما قدّر من الفقر .

3- بمعنى القحط والجَدْب ، وضِيق المعيشة : ﴿ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَآءُ وَالضَّرَّآءُ ﴾ ﴿ مِّن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ ﴾ ، أَراد به قحط المطر .

4- بمعنى اختلاف الرّياح والأَمواج وخوف الهلاك/ : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ﴾ .

5- بمعنى المرض والوجع والعِلّة : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ ﴾ ، أَى العلَّة ، ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ ، أَى من عِلَّة .

6- بمعنى [نقص] القَدْر والمنزلة : ﴿ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً ﴾ أَى لن ينقصوه ، ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ : ما ينقصونك .

7- بمعنى الإيذاء وإيصال المِحَن ، فى معارضة المنفعة والراحة : ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ ، ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ .

8- بمعنى الجوع والعُرْى : ﴿ يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ .

وله نظائر .

وقوله تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى ﴾ تنبيه على قلّة ما ينالهم من جهتهم ، وتأمين من ضرر يلحقهم ، نحو : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ .

(130/520)

وقوله : ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ ، فالأَول يَعنى به الضرّ والنفع اللذين بالقصد والإِدارة ؛ تنبيهًا أَنَّه لا يقصد فى ذلك ضرًّا ولا نفعًا لكونه جمادًا .

وفى الثَّانى يريد ما يتولّد من الاستعانة به وعبادته ، لا ما يكون منه بقصد .

والضَرَّاءُ تُقابَل بالسّراءِ والنَّعماءِ ، والضَرّ بالنَّفع .

ورجل ضَرِير : كناية عن فاقد البصر .

والضَّرير : المضارّ .

﴿ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ ﴾ ، يجوز أَن يكون مسندًا إلى الفاعل ، كأَنَّه قال : لا يضارِرْ ، وأَن يكون مسندًا إلى المفعول ، أَى لا يضارَرْ بأَن يُشغل عن صنعته ومعاشه باستدعاءِ شهادته .

وقوله : ﴿ لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ﴾ ، فإِذا قرىء بالرَّفع فلفظه خبرٌ ومَعناه أَمر ، وإِذا فُتح فأَمرٌ .

والاضطرار : حَمْلُ الإِنسان على ما يُضرّ .

وهو فى التعارف : حملٌ على أَمر يكرهه ، وذلك على ضربين : أَحدهما اضطرار بسبب خارج كمن يُضرَب أَو يهدَّد حتى ينقاد ، أَو يؤخذ قهرًا فيُحمل على ذلك ؛ كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ ﴾ .

والثانى بسبب داخل ، وذلك إِمّا بقهر قوّة لا يناله بدفعها هلاك ؛ كم غَلَب عليه شهوة خمر أَو قِمار ، وإِمّا بقهر قوّة يناله بدفعها الهلاك ؛ كمن اشتدّ به الجوع فاضطُرّ إِلى أَكل مَيتة ، وعلى هذا : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ هو عامّ فى كلّ ذلك . انتهى انتهى . اهـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 468 . 471 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾

يعني يكون على جانب ، غير مخلص . . . لا له استجابة توجب الوفاق ، ولا جَحْداً يبين الشقاق ؛ فإنْ أصابه أَمْنٌ وخير ولِينٌ اطمأن به وسَكَنَ إليه ، وإن أصابته فتنةٌ أو نالته محنة ارتدَّ على عقبيه ناكساً ، وصار لِمَا أظهر من وفاقه عاكساً . ومَنْ كانت هذه صفته فقد خسر في الدارين ، وأخفق في المنزلتين .

يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13)

أي يعبد مَنْ المضرَّةُ في عِبادتِه أكثرُ من النَّفْع منه ، بل ليس في عبادته النفع بحالٍ ، فالضُّرُّ المُتَيَقَّنُ في عِبادتهم الأصنام هو بيانُ رَكاكة عقولِهم ، ورؤيةُ الناسِ خطأَ فِعْلِهم . والنفع الذي يتوهمونه في هذه العبادة ليس له تحصيل ولا حقيقة .

ثم قال : ﴿ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ : أي لبئس الناصرُ الصَّنَمُ لهم ، ولبئس القومُ

هم للصنم ، ولِمَ لا ؟ ولأجْلِه وقعوا في عقوبة الأبد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 532.533 ﴾

(132/520)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (14) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أفهم ما تقدم أن هذا الإله المدعو إليه قادر على كل من النفع والضر بالاختبار ، وأن تجويز الوقوع لكل منهما منه على حد سواء ، نبه على ذلك بقوله مستأنفاً : ﴿ إن الله ﴾ أي الحائز لجميع صفات الكمال المنزه عن جميع شوائب النقص ﴿ يدخل الذين آمنوا ﴾ برسله وما دعت إليه من شأنه ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ الخالصة الشاهدة بثباتهم في الإيمان بعد ما ضرهم في الدنيا بأنواع المعايب ، تطهيراً لهم مما اقترفوه من

الزلات ، وأهوتهم إليه الهفوات ﴿ جنات تجري من تحتها ﴾ أي من أيّ مكان أردت من أرضها ﴿ الأنهار ﴾ ولما كان هذا أمراً باهراً دل على سهولته بقوله : تصريحاً بما أفهمه السياق من وصف الاختيار : ﴿ إن الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ يفعل ما يريد ﴾ من كل نفع وضر .

(133/520)

ولما أتم الدليل على خسران هذا المنقلب وربح الثابت ، وكان هذا مفهماً لأن من رجاه لما وعد به بادر الإقبال عليه ولم ينفع إلا نفسه ، ومن لا يرج ذلك أعرض عن الله سبحانه منقلباً على جهه فلم يضر إلا نفسه ، ترجم عن حال هذا الثاني العابد على حرف بقوله : ﴿ من كان يظن ﴾ أي ممن أصابته فتنة ﴿ أن لن ينصره الله ﴾ ذو الجلال والإكرام في حال من أحواله ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ فأعرض عنه انقلاباً على وجهه فإنه لا يضر إلا نفسه وإن ظن أنه لا يضرها ﴿ فليمدد بسبب ﴾ أي حبل أو شيء من الأشياء الموصلة له ﴿ إلى السماء ﴾ التي يريدها من سقف أو سحاب أو غيرهما .

ولما كان مده ذلك متعسراً أو متعذراً ، عبر عما يتفرع عليه بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم ليقطع ﴾ أي ليوجد منه وصل وقطع ، أي ليبذل جهده في دفع القضاء والقدر عنه ، وهي

لام أمر عند من حركها بالكسر إفهاماً لشدة الحركة في المزاولة للذهاب إلى السفل الدال على عدم العقل ، وهم أبو عمرو وابن عامر وورش عن نافع ورويس عن يعقوب ، أو أسكنها وهم الباقون ﴿ فلينظر ﴾ ببصره وبصيرته ﴿ هل يذهبن ﴾ وإن اجتهد ﴿ كيده ما يغيظ ﴾ أي شيئاً يحصل له منه غيظ ، أو يكون المعنى : فليفعل ما يفعله من بلغ منه الغيظ بأن يربط حبلاً بسقف بيته ثم ليربطه في عنقه ثم ليقطع ما بين رجليه وبين الأرض ليختنق ، وهذا كما يقال لمن أدبر عنه أمر فجزع : اضرب برأسك الجدار إن لم ترض هذا ، مت غيظاً - ونحو ذلك ، والحاصل أنه إن لم يصبر على المصائب لله طوعاً صبر عليها كرهاً مع ما ناله من أسباب الشقاء .

ولما بين سبحانه هذه الآيات المرئية ، في هذه الأساليب العلية ، هذا البيان الشافي الهادي بإعجاز حكمه ، بين أنه معجز أيضاً بنظمه ، فقال : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ما بينا هذه الآيات المرئية التي أنزلنا كلامنا لبيان حكمها وإظهار أسرارها ﴿ أنزلناه ﴾ أي الكلام كله بما لنا من العظمة الباهرة ﴿ آيات بينات ﴾ معجزاً نظمها ، كما كان معجزاً حكمها .

(134/520)

ولما كان الكلام بيناً في أن التقدير : ليعلم إذا ضل ضال مع هذا البيان أن الله يضل من يريد ، عطف عليه قوله : ﴿ وأن ﴾ أي وليعلم أن ﴿ الله ﴾ أي الموصوف بالإكرام ، كما هو موصوف بالانتقام ﴿ يهدي ﴾ أي بآياته ﴿ من يريد ﴾ أي لتبين قدرته واختياره إزاحة لغم من يقول : إذا كانت الآيات المرئية والمسموعة في هذا الحد من البيان فما لأكثر الناس على ضلالهم يتخلف فيهم المسببات عن أسبابها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 140.138 ﴾

(135/520)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

اعلم أنه سبحانه لما بين في الآية السابقة حال عبادة المنافقين وحال معبودهم ، بن في هذه الآية صفة عبادة المؤمنين وصفة معبودهم ، أما عبادتهم فقد كانت على الطريق الذي لا يمكن صوابه ، وأما معبودهم فلا يضر ولا ينفع .

وأما المؤمنون فعبادتهم حقيقية ومعبودهم يعطيهم أعظم المنافع وهو الجنة ، ثم بين كمال

الجنة التي تجمع بين الزرع والشجر وأن تجري من تحتها الأنهار وبين تعالى أنه يفعل ما يريد بهم من أنواع الفضل والإحسان زيادة على أجورهم كما قال تعالى : ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : 173] واحتج أصحابنا في خلق الأفعال بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ قالوا : أجمعنا على أنه سبحانه يريد الإيمان ولفظة (ما) للعموم فوجب أن يكون فاعلاً للإيمان لقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ أجاب الكعبي عنه بأن الله تعالى يفعل ما يريد أن يفعله لا ما يريد أن يفعله غيره .

والجواب : أن قوله ﴿ ما يريد ﴾ أعم من قولنا ما يريد أن يفعله ومن قولنا ما يريد أن يفعله غيره فالتقييد خلاف النص .

(136/520)

أما قوله : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدنيا والآخرة ﴾ فالهاء إلى ماذا يرجع ؟ فيه وجهان : الأول : وهو قول ابن عباس والكلبي ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدي ، واختيار الفراء والزجاج أنه يرجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم يريد أن من ظن أن لن ينصر الله محمداً صلى الله عليه وسلم في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه ، وفي الآخرة بإعلاء درجته والانتقام ممن كذبه والرسول صلى الله عليه وسلم وإن لم يجر له ذكر في

الآية ففيها ما يدل عليه وهو ذكر الإيمان في قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ ﴾ والإيمان لا يتم إلا بالله ورسوله فيجب البحث ههنا عن أمرين : أحدهما : أنه من الذي كان يظن أن الله تعالى لا ينصر محمدًا صلى الله عليه وسلم ؟ والثاني : أنه ما معنى قوله : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السماء ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ ؟ .

أما البحث الأول : فذكروا فيه وجوهاً : أحدها : كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر فنزلت هذه الآية .

وثانيها : قال مقاتل : نزلت في نفر من أسد وغطفان قالوا نخاف أن الله لا ينصر محمداً فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا .

وثالثها : أن حساده وأعداءه كانوا يتوقعون أن لا ينصره الله وأن لا يعليه على أعدائه ، فمتى شاهدوا أن الله نصره غاظهم ذلك .

وأما البحث الثاني : فاعلم أن في لفظ السبب قولين : أحدهما : أنه الحبل وهؤلاء اختلفوا في السماء فمنهم من قال هو سماء البيت ، ومنهم من قال هو السماء في الحقيقة ، فقالوا المعنى : من كان يظن أن لن ينصره الله ، ثم يغيظه أنه لا يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه في إزالة ما يغيظه بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مد حبلاً إلى سماء بيته فاختنق ، فلينظر أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه .

وعلى هذا القول اختلفوا في القطع فقال بعضهم : سمى الاختناق قطعاً لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه ، وسمى فعله كيداً لأنه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره ، أو على سبيل الاستهزاء إلا أنه لم يكد به محسوده وإنما كاد به نفسه ، والمراد ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظ .

وهذا قول الكلبي ومقاتل وقال ابن عباس رضي الله عنه : يشد الحبل في عنقه وفي سقف البيت ، ثم ليقطع الحبل حتى يختنق ويهلك ، هذا كله إذا حملنا السماء على سقف البيت وهو قول كثير من المفسرين .

وقال آخرون : المراد منه نفس السماء فإنه يمكن حمل الكلام على نفس السماء فهو أولى من حمله على سماء البيت ، لأن ذلك لا يفهم منه إلا مقيداً ، ولأن الغرض ليس الأمر بأن يفعل ذلك ، بل الغرض أن يكون ذلك صارفاً له عن الغيظ إلى طاعة الله تعالى ، وإذا كان كذلك فكل ما كان المذكور أبعد من الإمكان كان أولى بأن يكون هو المراد ومعلوم أن مد الحبل إلى سماء الدنيا والاختناق به أبعد في الإمكان من مده إلى سقف البيت ، لأن ذلك ممكن .

أما الذين قالوا السبب ليس هو الحبل فقد ذكروا وجهين : الأول : كأنه قال فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع بذلك السبب المسافة ، ثم لينظر فإنه يعلم أن مع تحمل المشقة فيما ظنه خاسر الصفقة كأن لم يفعل شيئاً وهو قول أبي مسلم .

والثاني : كأنه قال فليطلب سبباً يصل به إلى السماء فليقطع نصر الله لنبيه ، ولينظر هل يتهيأ له الوصول إلى السماء بحيلة ، وهل يتهيأ له أن يقطع بذلك نصر الله عن رسوله ، فإذا كان ذلك ممتنعاً كان غيظه عديم الفائدة ، واعلم أن المقصد على كل هذه الوجوه معلوم فإنه زجر للكفار عن الغيظ فيما لا فائدة فيه ، وهو في معنى قوله :

(138/520)

﴿ فَإِنِ استطعت أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأرض أَوْ سُلَّماً فِي السماء ﴾ [الأنعام : 35] مبيناً بذلك أنه لا حيلة له في الآيات التي اقترحوها القول الثاني : أن الهاء في قوله : ﴿ لَّن يَنصُرَهُ الله ﴾ راجع إلى من في أول الآية لأنه المذكور ومن حق الكناية أن ترجع إلى مذكور إذا أمكن ذلك ومن قال بذلك حمل النصرة على الرزق .

وقال أبو عبيدة وقف علينا سائل من بني بكر فقال : من ينصرني نصره الله .

أي من يعطيني أعطاه الله ، فكأنه قال من كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة ، فلهذا الظن يعدل عن التمسك بدين محمد صلى الله عليه وسلم كما وصفه تعالى في قوله :

﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ [الحج : 11] فيبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فإن ذلك لا يغلب التسمية ويجعله مرزوقاً .

أما قوله : ﴿ وكذلك أنزلناه ءايات بينات ﴾ فمعناه ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله آيات بينات .

أما قوله : ﴿ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ فقد احتج أصحابنا به فقالوا : المراد من الهداية ، إما وضع الأدلة أو خلق المعرفة والأول غير جائز لأنه تعالى فعل ذلك في حق كل المكلفين ولأن قوله : ﴿ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ دليل على أن الهداية غير واجبة عليه بل هي معلقة بمشيئته سبحانه ووضع الأدلة عند الخصم واجب فبقي أن المراد منه خلق المعرفة قال القاضي عبد الجبار في الاعتذار هذا يحتمل وجوهاً : أحدها : يكلف من يريد لأن من كلف أحداً شيئاً فقد وصفه له وبينه له .

وثانيها : أن يكون المراد يهدي إلى الجنة والإثابة من يريد ممن آمن وعمل صالحاً .

(139/520)

وثالثها : أن يكون المراد أن الله تعالى يلطف بمن يريد ممن علم أنه إذا زاده هدى ثبت على إيمانه كقوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد : 17] وهذا الوجه هو الذي أشار الحسن إليه بقوله : إن الله يهدي من قبل لا من لم يقبل ، والوجهان الأولان ذكرهما أبو علي والجواب : عن الأول أن الله تعالى ذكر ذلك بعد بيان الأدلة والجواب عن الشبهات

فلا يجوز حمله على محض التكليف ، وأما الوجهان الأخيران فمدفوعان لأنهما عندك واجبان على الله تعالى وقوله : ﴿ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ يقتضي عدم الوجوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 16.14 ﴾

(140/520)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ ﴾

فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : أن يرزقه الله ، وهو قول مجاهد ، والنصر الرزق ، ومنه قول الأعشى .

أبوك الذي أجرى عليّ بنصره . . . فأنصب عني بعده كل قابل

والثالث : معناه أن لن يمطر أرضه ، ومنه قول رؤبة :

إني وأسطار سطران سطرا . . . لقائل يا نصرَ نصرٍ نصرا

إني عبيدة : يقال للأرض الممطرة أرض منصورة .

﴿ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ والنصر في الدنيا بالغلبة ، وفي الآخرة بظهور الحجة .

ويحتمل وجهاً آخر أن يكون النصر في الدنيا علو الكلمة ، وفي الآخرة علو المنزلة .

﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : فليمدد بحبل إلى سماء الدنيا ليقطع الوحي عن محمد ثم لينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ أي يذهب الكيد منه ما يغيظه من نزول الوحي عليه ، وهذا قول ابن زيد .

والثاني : فليمدد بحبل إلى سماء بيته وهو سقفه ، ثم ليخْنقَ به نفسه فلينظر هل يذهب ذلك بغيظه من ألا يرزقه الله تعالى ، وهذا قول السدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(141/520)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حالة من يعبده ﴿ على حرف ﴾ [الحج : 11] وسفه رأيهم وتوعدهم بخسارة الآخرة عقب ذلك بذكر مخالفيهم من أهل الإيمان وذكر ما وعدهم به من إدخاله إياهم الجنة ، ثم أخذت الآية في توبيخ أولئك الأولين وإسلامهم إلى رأيهم ، وإحالتهم على ما فيه عنتهم وليس فيه راحتهم كأنه يقول هؤلاء العابدون على حرف صحبهم القلق وظنوا أن الله تبارك وتعالى لن ينصر محمداً وأتباعه ونحن إنما أمرناهم بالصبر وانتظار

وعدنا فمن ظن غير ذلك ، ﴿ فليمدد بسبب ﴾ وليختنق ولينظر هل يذهب بذلك غيظه ، قال هذا المعنى قتادة وهذا على جهة المثل السائر قولهم دونك الحبل فاختنق ، يقال ذلك للذي يريد من الأمر ما لا يمكنه ، و" السبب " الحبل ، و" النصر " معروف ، إلا أن أبا عبيدة ذهب به إلى معنى الرزق كما قالوا أرض منصورة أي ممطورة وكما قال الشاعر : [الطويل]

وإنك لا تعطي امرأً فوق حقه . . . ولا تملك الشق الذي الغيث ناصره

وقال : وقف بنا سائل من بني أبي بكر فقال من ينصرني ينصره الله ، و﴿ السماء ﴾ على هذه الأقوال الهواء علواً فكأنه أراد سقفاً أو شجرة أو نحوه وقال ابن يزيد ﴿ السماء ﴾ هي المعروفة ، وذهب إلى معنى آخر كأنه قيل لمن يظن أن الله تعالى لا ينصر محمداً إن كنت تظن ذلك فامدد ﴿ بسبب إلى السماء ﴾ واقطعه إن كنت تقدر على ذلك فإن عجزت فكذلك لا تقدر على قطع سبب محمد صلى الله عليه وسلم إذ نصرته من هنالك والوحي الذي يأتيه .

(142/520)

قال القاضي أبو محمد : و" القطع " على هذا التأويل ليس بالاختناق بل هو جزم السبب ، وفي مصحف ابن مسعود " ثم ليقطعه " بهاء ، والجمهور على أن القطع هنا هو الاختناق ، وقال الخليل : وقطع الرجل إذا اختنق بحبل أو نحوه ثم ذكر الآية ، وتحتمل الآية معنى آخر وهو أن يراد به الكفار وكل من يغتاظ بأن ينصره الله ويطمع أن لا ينصر قيل له من ظن أن هذا لا ينصر فليمت كمداً هو منصور لا محالة فليختنق هذا الظان غيظاً وكمداً ويؤيد هذا أن الطبري والنقاش قالا : ويقال نزلت في نفر من بني أسد وغطفان قالوا نخاف أن ينصر محمد فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من يهود من المنافع ، والمعنى الأول الذي قيل فيه للعابدين ﴿ على حرف ﴾ [الحج : 11] ليس بهذا ولكنه بمعنى من قلق واستبطأ النصر وظن أن محمداً لا ينصر فليختنق سفاهة إذ تعدى الأمر الذي حد له في الصبر وانتظار صنع الله ، وقال مجاهد : الضمير في ﴿ ينصره ﴾ عائد على ﴿ من ﴾ والمعنى من كان من المتقلقين من المؤمنين .

(143/520)

والضمير في التأويل الذي ذكرناه في أن يراد الكفار لا يعود إلا على النبي صلى الله عليه وسلم فقط ، وقالت فرقة : الضمير عائد على الدين والقرآن ، وقرأ أبو عمرو وابن عامر " لِيقطع

فِلينظر " بكسر اللام فيهما على الأصل وهي قراءة الجمهور ، وقرأ عاصم والحمزة والكسائي بسكون اللام فيهما في لام الأمر في كل القرآن مع الواو والفاء و" ثم " ، واختلف عن نافع وهي قراءة الحسن وأبي عمرو وعيسى ، ع أما الواو والفاء إذا دخلا على الأمر فحكى سيبويه أنهم يرونها كأنها من الكلمة ، فسكون اللام تخفيف وهو أفصح من تحريكها ، وأما " ثم " فهي كلمة مستقلة فالوجه تحريك اللام بعدها ع وقد رأى بعض النحويين الميم من " ثم " بمنزلة الواو والفاء ، وقوله تعالى : ﴿ ما يغيظ ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي ، وفي ﴿ يغيظ ﴾ عائد عليها ، ويحتمل أن تكون مصدرية حرفاً فلا عائد عليها ، و" الكيد " هو مده السبب ع وأبين وجوه هذه الآية أن تكون مثلاً ويكون " النصر " المعروف و" القطع " الاختناق و﴿ السماء ﴾ الارتفاع في الهواء بسقف أو شجرة ونحوه فتأمله ، وقوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ إلى ﴿ شهيد ﴾ المعنى وكما وعدنا بالنصر وأمرنا بالصبر كذلك أنزلنا القرآن آية بينة لمن نظر واهتدى لا ليقترح معها ويستعجل القدر ، وقال الطبري : المعنى وكما بينت حجتي على من جحد قدرتي على إحياء الموتى ﴿ كذلك أنزلناه ﴾ والضمير في ﴿ أنزلناه ﴾ عائد على القرآن ، وجاءت هذه الضمائر هكذا لم يتقدم ذكر لشهرة المشار إليه نحو قوله تعالى : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص : 32] وغيره ، وقوله تعالى : ﴿ وأن ﴾ في موضع خبر الابتداء والتقدير والأمر أن الله

يهدي من يريد ، وهداية الله تعالى هي خلقه الرشاد والإيمان في نفس الإنسان . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(144/520)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ﴾

قال مقاتل : نزلت في نفر من أسد ، وغطفان ، قالوا : إِنا نخاف أن لا يُنْصَرَ محمدٌ ، فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود ، وإِلى نحو هذا ذهب أبو حمزة الثمالي ، والسدي .

وحكى أبو سليمان الدمشقي أن الإِشارة بهذه الآية إِلى الذين انصرفوا عن الإِسلام ، لأن أرزاقهم ما اتَّسعت ، وقد شرحنا القصة في قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ .

وفي هاء "ينصره" قولان .

أحدهما : أنها ترجع على "مَن" ، والنصر : بمعنى الرزق ، هذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء ، وبه قال مجاهد .

قال أبو عبيدة : وقف علينا سائل من بني بكر ، فقال : مَنْ ينصرني نصره الله ، أي : من

يعطيني أعطاه الله ، ويقال : نصر المطر أرض كذا ، أي : جادها ، وأحياها ، قال الراعي :

[إِذا أدبر الشهر الحرام فودعي . . .

بلاد تميم] وانْصُرِي أَرْضَ عَامِرِ

والثاني : أنها ترجع إِلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالمعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ، رواه التميمي عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ، وقتادة .

قال ابن قتيبة : وهذه كناية عن غير مذكور ، وكان قوم من المسلمين لشدة حنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر ، وآخرون من المشركين ، يريدون اتِّباعه ، ويخشَوْن أن لا يتم أمره ، فقال هذه الآية للفريقين .

ثم في معنى [هذا] النصر قولان .

أحدهما : أنه الغلبة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، والجمهور .

والثاني : أنه الرزق ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ فليمدد بسبب إِلى السماء ﴾ في المراد بالسماء قولان .

أحدهما : سقف بيته ، والمعنى : فليشدد حبلاً في سقف بيته ، فليختنق به ﴿ ثم ليقطع ﴾ الحبل ليموت مختنقاً ، هذا قول الأكثرين .

ومعنى الآية : ليصور هذا الأمر في نفسه لا أنه يفعله ، لأنه إِذا اختنق لا يمكنه النظر والعلم .

والثاني : أنها السماء المعروفة ، والمعنى : فليقطع الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إِن قدر ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ ثم لْيقطع ﴾ قرأ أبو عمرو ، وابن عامر : "ثم لِيقطع" "ثم لِيقضوا" [الحج : 29] بكسر اللام .

زاد ابن عامر "ولِيوفوا" [الحج : 29] "ولِيطوفوا" [الحج : 29] بكسر اللام أيضاً .

وكسر ابن كثير لام "ثم لِيقضوا" فحسب .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : بسكون هذه اللامات ، وكذلك في كل القرآن إِذا كان قبلها واوٌ أو فاءٌ [أو] ثم ، قال الفراء : من سكَّن فقد خفف ، وكل لام أمر وصلت بواو أو فاء ، فأكثر كلام العرب تسكينها ، وقد كسرها بعضهم .

قال أبو علي : الأصل الكسر ، لأنك إِذا ابتدأت قلت : ليقم زيد .

قوله تعالى : ﴿ هل يذهبن كيدُه ﴾ قال ابن قتيبة : المعنى : هل تُذهبن حيلتُه غيظَه ، والمعنى : ليجهد جهده .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك ﴾ أي : ومثل ذلك الذي تقدم من آيات القرآن ﴿ أنزلناه ﴾ يعني : القرآن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين والشياطين ذكر حال المؤمنين في الآخرة أيضاً .

﴿ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ أي يثيب من يشاء ويعذب من يشاء ؛ فللمؤمنين الجنة بحكم وعده الصدق وبفضله ، وللكافرين النار بما سبق من عدله ؛ لا أن فعل الرب معلل بفعل العبيد .

قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدنيا والآخرة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السمآء ﴾ قال أبو جعفر النحاس : من أحسن ما قيل فيها أن المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أوتيه .

﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السمآء ﴾ أي فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء .

﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ أي ثم ليقطع النصر إن تهيّأ له .

﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ﴾ وحيلته ما يغيظه من نصر النبيّ صلى الله عليه وسلم .

والفائدة في الكلام أنه إذا لم يتهيأ له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هذا لم يصل إلى قطع النصر .

وكذا قال ابن عباس : إن الكناية في "ينصره الله" ترجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو وإن لم يجر ذكره فجميع الكلام دال عليه ؛ لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، والانقلاب عن الدين انقلاب عن الدّين الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي من كان يظن ممن يعادي محمداً صلى الله عليه وسلم ومَن يعبد الله على حَرْف أنا لا ننصر محمداً فليفعل كذا وكذا .

وعن ابن عباس أيضاً أن الهاء تعود على "من" والمعنى : من كان يظن أن الله لا يرزقه فليختنق ، فليقتل نفسه ؛ إذ لا خير في حياة تخلو من عَوْن الله .

والنصر على هذا القول الرزق ؛ تقول العرب : من ينصرني نصره الله ؛ أي من أعطاني أعطاه الله .

ومن ذلك قول العرب : أرض منصورة ؛ أي ممطورة .

(147/520)

قال الفقعسيّ :

وأنك لا تعطي امرءاً فوق حقه . . .

ولا تملك الشق الذي الغيث ناصره

وكذا روى ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال : "من كان يظن أن لن ينصره الله" أي لن يرزقه .

وهو قول أبي عبيدة .

وقيل : إن الهاء تعود على الدّين ؛ والمعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله دينه .

﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾ أي بحبل .

والسبب ما يتوصل به إلى الشيء .

﴿ إِلَى السمآء ﴾ إلى سقف البيت .

ابن زيد : هي السماء المعروفة .

وقرأ الكوفيون "ثم ليقطع" بإسكان اللام .

قال النحاس : وهذا بعيد في العربية ؛ لأن "ثم" ليست مثل الواو والفاء ، لأنها يوقف عليها وتنفرد .

وفي قراءة عبد الله "فليقطعه ثم لينظر هل يُذهبن كيدُه ما يغيظ" .

قيل : "ما" بمعنى الذي ؛ أي هل يذهبن كيده الذي يغيظه ، فحذف الهاء ليكون أخف .

وقيل : "ما" بمعنى المصدر ؛ أي هل يذهبن كيدُه غيظَه .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ يعني القرآن .

﴿ وَأَنَّ الله ﴾ أي وكذلك أن الله ﴿ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ ، علّق وجود الهداية بإرادته ؛ فهو الهادي لا هادِي سواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾

من ﴿ يعبد الله ﴾ نزلت في أعراب من أسلم وغطفان تباطؤوا عن الإسلام وقالوا : نخاف أن لا ينصر محمد فينقطع ما بيننا وبين حلفائنا من يهود فلا يقرونا ولا يؤونا .

وقيل : في أعراب لا يقين لهم يسلم أحدهم فيتفق تثمير ماله وولادة ذكر وغير ذلك من الخير ، فيقول : هذا دين جيد أو ينعكس حاله فيتشاءم ويرتد كما جرى للعرنيين قال معناه ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .

وعن ابن عباس : في شيبة بن ربيعة أسلم قبل ظهور الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فلما أوحى إليه ارتد .

وقيل : " في يهودي أسلم فأصيب فتشاءم بالإسلام ، وسأل الرسول إلا قاله فقال : "إن الإسلام لا يقال" " فنزلت .

وعن الحس : هو المنافق يعبده بلسانه دون قلبه .

وقال ابن عيسى : على ضعف يقين .

وقال أبو عبيد ﴿ على حرف ﴾ على شك .

وقال ابن عطية ﴿ حرف ﴾ على انحراف منه عن العقيدة البيضاء ، أو على شفا منها معداً للزهوق .

وقال الزمخشري ﴿ على حرف ﴾ على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه ، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون وطمأنينة كالذي يكون على طرف من العسكر ، فإن أحسن بظفر وغنيمة قرّ واطمأنّ وإلاّ فرّ وطار على وجهه انتهى .

وخسرانه الدنيا إصابته فيها بما يسوؤه من ذهاب ماله وفقد أحبائه فلم يسلم للقضاء .

وخسران الآخرة حيث حرم ثواب من صبر فارتد عن الإسلام .

وقرأ مجاهد وحميد والأعرج وابن محيصن من طريق الزعفراني وقعنب والجحدري وابن مقسم خاسر الدنيا اسم فاعل نصباً على الحل .

وقرىء خاسر اسم فاعل مرفوعاً على تقدير وهو خاسر .

وقال الزمخشري : والرفع على الفاعلية ووضع الظاهر موضع الضمير وهو وجه حسن انتهى .

(149/520)

وقرأ الجمهور : ﴿ خسر ﴾ فعلاً ماضياً وهو استئناف إخبار ، ويجوز أن يكون في موضع الحال ولا يحتاج إلى إضمار قد لأنه كثر وقوع الماضي حالاً في لسان العرب بغير قد فساغ القياس عليه ، وأجاز أبو الفضل الرازي أن يكون بدلاً من قوله ﴿ انقلب على وجهه ﴾ كما كان يضاعف بدلاً من يلق .

وتقدم تفسير ﴿ الضلال البعيد ﴾ في قوله ﴿ ضلالاً بعيداً ﴾ ونفى هنا الضر والنفع وأثبتهما في قوله ﴿ لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ وذلك لاختلاف المتعلق ، وذلك أن قوله ﴿ ما لا ينفعه ﴾ هو الأصنام والأوثان ، ولذلك أتى التعبير عنها بما التي لا تكون لآحاد من يعقل .

وقوله ﴿ يدعو لمن ضره ﴾ هو من عبد باقتضاء ، وطلب من عابديه من المدعين الإلهية كفرعون وغيره من ملوك بني عبيد الذين كانوا بالمغرب ثم ملكوا مصر ، فإنهم كانوا يدعون الإلهية ويطاف بقصرهم في مصر وينادون بما ينادي به رب العالمين من التسبيح والتقديس ، فهؤلاء وإن كان منهم نفع مّا لعابديهم في دار الدنيا فضررهم أعظم وأقرب من نفعهم ، إذ هم في الدنيا مملوكون للكفار وعابدون لغير الله ، وفي الآخرة معذبون العذاب الدائم ولهذا كان التعبير هنا بمن التي هي لمن يعقل ، وعلى هذا فتكون الجملتان من إخبار الله تعالى عمن يدعو إلهاً غير الله .

وقال الزمخشري : فإن قلت : الضر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين وهذا تناقض قلت : إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم ، وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضراً ولا نفعاً وهو يعتقد فيه بجهله وضلالته أن سينتفع به ، ثم قال يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها ، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها لها ﴿ لمن ضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ وكرر يدعوا كأنه قال ﴿ يدعو ﴾ ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ﴾ ثم قال ﴿ لمن ضره ﴾ بكونه معبوداً ﴿ أقرب من نفعه ﴾ بكونه شفيعاً ﴿ لبئس المولى ﴾ انتهى .

فجعل الزمخشري المدعو في الآيتين الأصنام وأزال التعارض باختلاف القائلين بالجملة الأولى من قول الله تعالى إخباراً عن حال الأصنام .

والجملة الثانية من كلام عباد الأصنام يقولون ذلك في الآخرة ، وحكى الله عنهم ذلك وأنهم أثبتوا ضراً بكونهم عبدوه ، وأثبتوا نفعاً بكونهم اعتقدوه شفيعاً .

فالنافي هناك غير المثبت هنا ، فزال التعارض على زعمه والذي أقول إن الصنم ليس له نفع ألبتة حتى يقال ﴿ ضره أقرب من نفعه ﴾ .

وأجاب بعضهم عن زعم من زعم أن الظاهر الآيتين يقتضي التعارض بأنها لا تضر ولا تنفع

بأنفسها ولكن عبادتها نسب الضرر إليها كقوله ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ أضاف الإضلال إليهم إذ كانوا سبب الضلال ، فكذا هنا نفي الضرر عنهم لكونها ليست فاعلة ثم أضافه إليها لكونها سبب الضرر .

وقال آخرون : هي في الحقيقة لا تضر ولا تنفع بين ذلك في الآية الأولى ثم أثبت لها الضر والنفع في الثانية على طريق التسليم ، أي ولو سلمنا كونها ضارة نافعة لكان ضرها أكثر من نفعها ، وتكلف المعربون وجوهاً فقالوا ﴿ يدعو ﴾ إما أن يكون لها تعلق بقوله ﴿ لمن ضره ﴾ أولاً إن لم يكن لها تعلق فوجوه .

(151/520)

أحدها : أن يكون توكيداً لفظياً ليدعو الأولى ، فلا يكون لها معمول .

الثاني : أن تكون عاملة في ذلك من قوله ﴿ ذلك هو الضلال ﴾ وقدم المفعول الذي هو ﴿ ذلك ﴾ وجعل موصولاً بمعنى الذي قاله أبو علي الفارسي ، وهذا لا يصح إلا على قول الكوفيين إذ يجيزون في اسم الإشارة أن يكون موصولاً ، والبصريون لا يجيزون ذلك إلاّ في ذا بشرط أن يتقدمها الاستفهام بما أو من .

الثالث : أن يكون ﴿ يدعو ﴾ في موضع الحال ، ﴿ وذلك ﴾ مبتدأ وهو فصل أو مبتدأ

وحذف الضمير من ﴿ يدعو ﴾ أي يدعوه وقدره مدعواً وهذا ضعيف ، لأن يدعوه لا يقدر مدعواً إنما يقدر داعياً ، فلو كان يدعى مبنياً للمفعول لكان تقديره مدعواً جارياً على القياس .

وقال نحوه الزجاج وإن كان له تعلق بقوله ﴿ لمن ضره ﴾ فوجوه .

أحدها : ما قاله الأخفش وهو أن ﴿ يدعو ﴾ بمعنى يقول و ﴿ من ﴾ مبتدأ موصول صلته الجملة بعده .

وهي ﴿ ضره أقرب من نفعه ﴾ وخبر المبتدأ محذوف ، تقديره إله وإلهي .

والجملة في موضع نصب محكية بيدعو التي هي بمعنى يقول ، قيل : هو فاسد المعنى لأن الكافر لم يعتقد قط أن الأوثان ضرها أقرب من نفعها .

وقيل : في هذا القول يكون ﴿ لبئس ﴾ مستأنفاً لأنه لا يصح دخوله في الحكاية لأن الكفار لا يقولون عن أصنامهم ﴿ لبئس المولى ﴾ .

الثاني : أن ﴿ يدعو ﴾ بمعنى يسمي ، والمحذوف آخراً هو المفعول الثاني ليسمى تقديره إلهاً وهذا لا يتم إلاّ بتقدير زيادة اللام أي يدعو من ضره .

الثالث : أن يدعو شبه بأفعال القلوب لأن الدعاء لا يصدر إلاّ عن اعتقاد ، والأحسن أن يضمن معنى يزعم ويقدر لمن خبره ، والجملة في موضع نصب ليدعو أشار إلى هذا الوجه الفارسي .

الرابع : ما قاله الفراء وهو أن اللام دخلت في غير موضعها والتقدير ﴿ يدعو ﴾ من لضره أقرب من نفعه ، وهذا بعيد لأن ما كان في صلة الموصول لا يتقدم على الموصول .

(152/520)

الخامس : أن تكون اللام زائدة للتوكيد ، و ﴿ من ﴾ مفعول بيدعو وهو ضعيف لأنه ليس من مواضع زيادة اللام ، لكن يقويه قراءة عبد الله يدعو من ضره بإسقاط اللام ، وأقرب التوجيهات أن يكون ﴿ يدعو ﴾ توكيداً ليدعو الأول ؛ واللام في ﴿ لمن ﴾ لام الابتداء ، والخبر الجملة التي هي قسم محذوف ، وجوابه ﴿ لبئس المولى ﴾ والظاهر أن ﴿ يدعو ﴾ يراد به النداء والاستغاثة .

وقيل : معناه بعيد ، و ﴿ المولى ﴾ هنا الناصر والعشير الصاحب المخالط .

ولما ذكر تعالى حالة من يعبده على حرف وسفه رأيه وتوعده بخسرانه في الآخرة عقبة بذكر حال مخالفيهم من أهل الإيمان وما وعدهم به من الوعد الحسن ، ثم أخذ في توبيخ أولئك الأولين كأنه يقول هؤلاء العابدون على حرف صحبهم القلق وظنوا أن الله لن ينصر محمداً (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه ، ونحن إنما أمرناهم بالصبر وانتظار وعدنا ، فمن ظن غير ذلك فليمدد بسبب ويختلق وينظر هل يذهب بذلك غيظه ، قال هذا المعنى

قتادة ، وهذا على جهة المثل السائر قولهم : دونك الحبل فاختنق ، يقال ذلك للذي يريد من الأمر ما لا يمكنه ، فعلى هذا تكون الهاء في ﴿ ينصره ﴾ للرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو قول ابن عباس والكلبي ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدّي ، واختاره الفراء والزجاج فالمعنى إن لن ينصر الله محمداً في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه ، وفي الآخرة بإعلاء درجته والانتقام ممن كذبه ، والرسول وإن لم يجر له ذكر في الآية ففيها ما يدل عليه وهو ذكر الإيمان في قوله ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا ﴾ وظانّ ذلك قوم من المسلمين لشدة غيظهم على المشركين ، يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر أو أعراب استبطؤوا ظهور الرسول (صلى الله عليه وسلم) فتباطؤوا عن الإسلام .

والظاهر أن الضمير في ﴿ ينصره ﴾ عائد على ﴿ من ﴾ لأنه المذكور ، وحق الضمير أن يعود على المذكور وهو قول مجاهد .

(153/520)

وحمل بعض قائلي هذا القول النصر هنا على الرزق كما قالوا : أرض منصورة أي ممطورة .

وقال الشاعر :

وإنك لا تعطي امرأً فوق حقه . . .

ولا تملك الشق الذي أنت ناصره

أي معطيه .

وقال : وقف علينا سائل من بني بكر فقال : من ينصرني نصره الله ، فالمعنى من كان يظن أن لن يرزقه الله فيعدل عن دين محمد لهذا الظن كما وصف في قوله ﴿ وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ﴾ فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق ، فإن ذلك لا يبلغه إلاّ ما قدر له ولا يجعله مرزوقاً أكثر مما قسم له ، ويحتمل على هذا القول أن يكون النصر على بابه أي من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فيغتاظ لانتفاء نصره فليمدد ، ويدل على قوله فيغتاظ قوله ﴿ هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ ويكون معنى قوله ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع ﴾ فليتحيل بأعظم الحيل في نصرة الله إياه ثم ليقطع الحبل ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ﴾ وتحيله في إيصال النصر إليه الشيء الذي يغيظه من انتفاء نصره بتسلط أعدائه عليه .

وقال الزمخشري : هذا كلام دخله اختصار والمعنى : أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة ، فمن كان يظن من حاسديه وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه ويغيظه أنه لا يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مدّ حبلاً إلى سماء بيته فاختنق ، ﴿ فلينظر ﴾ وليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه ، وسمي الاختناق قطعاً لأن

المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه ، ومنه قيل للبهر القطع وسمى فعله كيداً لأنه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره أو على سبيل الاستهزاء لأنه لم يكد به محسوده ، إنما كاد به نفسه ، والمراد ليس في يده إلاّ ما ليس بمذهب لما يغيظه .

وقيل ﴿ فليمدد ﴾ بحبل ﴿ إلى السماء ﴾ المظلة وليصعد عليه فليقطع الوحي أن ينزل عليه وهذا قول ابن زيد .

وقيل : الضمير في ﴿ ينصره ﴾ عائد على الدين والإسلام .

(154/520)

قال ابن عطية : وأبين وجوه هذه الآية أن يكون مثلاً ويكون النصر المعروف والقطع الاختناق والسماء الارتفاع في الهواء سقف أو شجرة أو نحوه فتأمله ، وما في ﴿ ما يغيظ ﴾ بمعنى الذي ، والعائد محذوف أو مصدرية .

وكذلك أي ومثل ذلك الإنزال ﴿ أنزلنا ﴾ القرآن كله ﴿ آيات بينات ﴾ أي لا تفاوت في إنزال بعضه ولا إنزال كله والهاء في ﴿ أنزلناه ﴾ للقرآن أضمر للدّلالة عليه كقوله ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ والتقدير والأمر ﴿ إن الله يهدي من يريد ﴾ أي يخلق الهداية في قلبك يريد هدايته لا خالق للهداية إلاّ هو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(155/520)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات ﴾

استئنافٌ جيء به لبيان كمال حسنِ حالِ المؤمنينَ العابدينَ له تعالى وأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يتفضَّل عليهم بما لا غايةَ وراءه من أجلِّ المنافعِ وأعظمِ الخيراتِ إثرَ بيانِ غايةِ سوءِ حالِ الكفرةِ ومآلِهم من فريقَيْ المجاهرينَ والمذبذبينَ وأنَّ معبودَهم لا يُجديهم شيئاً من النَّفع بل يضرُّهم مضرَّةً عظيمةً وأنَّهم يعترفون بسوءِ ولايتِه وعشرتِه ويذمُّونه مذمَّةً تامَّةً وقوله تعالى :

﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ صفة لجنَّاتٍ فإن أُريد بها الأشجارُ المتكاثفةُ السَّاترةُ لما تحتها فجريانُ الأنهارِ من تحتها ظاهرٌ ، وإنْ أُريد بها الأرضُ فلا بُدَّ من تقديرِ مضافٍ أي من تحت أشجارِها ، وإن جُعلت عبارةً عن مجموعِ الأرضِ والأشجارِ فاعتبارُ التَّحتيَّةِ بالنَّظرِ إلى الجزءِ الظَّاهرِ المصحِّحِ لإطلاقِ اسمِ الجنَّةِ على الكلِّ كما مرَّ تفصيلُه في أوائلِ سورةِ البقرةِ .

(156/520)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ تعليلٌ لما قبلَه وتقريرٌ له بطريقِ التَّحقيقِ أي يفعلُ البتّة كلَّ ما يريدُه من الأفعالِ المتقنةِ اللائقةِ المبنيَّةِ على الحكمِ الرَّائقةِ التي من جُملتها إثابةُ مَن آمنَ به وصدَّقَ رسولَه صلى الله عليه وسلم وعقابُ مَن أشركَ به وكذَّب برسولِه عليه السَّلامُ ولمَّا كانَ هذا من آثارِ نُصرته تعالى له عليه السَّلامُ عُقِّب بقولِه عزَّ وعلا : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِى الدنيا والأخرة ﴾ تحقيقاً لها وتقريراً لثبوتها على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه . وفيه إيجازٌ بارعٌ واختصارٌ رائعٌ والمعنى : أنَّه تعالى ناصرٌ لرسوله في الدُّنيا والآخرةِ لا محالةَ من غيرِ صارفٍ يَلويه ولا عاطفٍ يَثنيه فمن كانَ يغيظُه ذلك من أعاديهِ وحُسَّادِه ويظنُّ أنْ لَنْ يفعله تعالى بسببِ مدافعتِه ببعضِ الأمورِ ومباشرةِ ما يردُّه من المكايد فليبالغْ في استفراغِ المجهودِ وليجاوزْ في الجدِّ كلَّ حدَ معهودٍ فقُصارى أمرِه وعاقبةِ مكرِه أنْ يختنقَ حنقاً ممَّا يرى من ضلالِ مساعيهِ وعدمِ إنتاجِ مقدّماتِه ومباديهِ ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السماء ﴾ فليمدُدْ حبلاً إلى سقفِ بيتِه ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ أي ليختنقْ ، من قطعَ إذا اختنقَ لأنَّه يقطع نفَسَه بحبسِ مجاريهِ وقيل : ليقطعِ الحبلَ بعد الاختناقِ على أنَّ المرادَ به فرضُ القطعِ وتقديرُه ، كما أنَّ المرادَ بالنَّظرِ في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ تقديرُ النَّظرِ وتصويرُه أي فليصوّرْ في نفسِه النَّظرَ هل يُذهبنَّ كيدُه ذلك الذي هو أقصى ما انتهتْ إليه قدرتُه في بابِ المُضادَّةِ والمُضارَّةِ ما يغيظه من النُّصرةِ كلا ، ويجوز أنْ يُراد

فلينظر الآنَ أنَّه إنْ فعلَ ذلك هَلْ يُذهب ما يغيظُه ، وقيل : المعنى فليمدُدْ حبلاً إلى السَّماءِ المُظِلَّةِ وليصعدْ عليه ثم ليقطعْ

(157/520)

الوحيَ ، وقيل : ليقطعَ المسافةَ حتَّى يبلغَ عنانَها فيجتهدَ في دفعِ نصرِه ويأباهُ أنَّ مساقَ النَّظمِ الكريمِ بيانُ أنَّ الأمورَ المفروضةَ على تقديرِ وقوعِها وتحقُّقِها بمعزلٍ من إذهابِ ما يغيظُ ومن البيِّنِ أنْ لا معنى لفرضِ وقوعِ الأمورِ الممتنعةِ وترتيبِ الأمرِ بالنَّظرِ عليه لا سيَّما قطعُ الوحيِ فإنَّ فرضَ وقوعِه مخلٌّ بالمرامِ قطعاً ، وقيل : كانَ قومٌ من المسلمينَ لشدَّةِ غيظِهم وحنقِهم على المُشركينَ يستبطئونَ ما وعد اللهُ رسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من النَّصرِ وآخرون من المشركينَ يُريدون اتباعَه عليه السَّلامُ ويخشَون أنْ لا يثبت أمرُه فنزلتْ وقد فسِّر النَّصرُ بالرِّزقِ فالمعنى أنَّ الأرزاقَ بيدِ اللهِ تعالى لا تُنال إلاَّ بمشيئتِه تعالى فلا بُدَّ للعبدِ من الرِّضا بقسمتِه فمن ظنَّ أنَّ اللهَ تعالى غيرُ رازقِه ولم يصبرْ ولم يستسلمْ فليبلغ غايةَ الجزعِ وهو الاختناقُ فإنَّ ذلكَ لا يغلبُ القسمةَ ولا يردُّه مرزوقاً .

﴿ وكذلك ﴾ أي مثلَ ذلك الإنزالِ البديعِ المنطوي على الحكمِ البالغةِ ﴿ أنزلناه ﴾ أي القرآنَ الكريمَ كلَّه وقوله تعالى : ﴿ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي واضحاتِ الدِّلالةِ على معانيها

الرَّائقةِ حالٌ من الضَّميرِ المنصوبِ مبينةٍ لما أُشير إليه بذلك ﴿ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِى ﴾ به ابتداءً أو يثبِّت على الهُدى أو يزيدُ فيه ﴿ مَن يُرِيدُ ﴾ هدايتَه أو تثبيتَه أو زيادتَه فيها ومحلُّ الجملةِ إمَّا الجرُّ على حذف الجارِّ أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ مؤخَّرٍ أي ولأنَّ اللهَ يهدي من يريدُ أنزلَه كذلك أو الرَّفعُ على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي والأمرُ أنَّ اللهَ يهدي مَن يُريد هدايتَه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(158/520)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾

استئناف لبيان كمال حسن حال المؤمنين العابدين له تعالى وإنه تعالى يتفضل عليهم بالنعيم الدائم إثر بيان غاية سوء حال الكفرة .

وجملة ﴿ تَجْرِى ﴾ الخ صفة لجنات فإن أريد بها الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها فجريان الأنهار من تحتها ظاهرة ، وإن أريد بها الأرض فلا بد من تقدير مضاف أي من تحت أشجارها وإن جعلت عبارة عن مجموع الأرض والأشجار فاعتبار التحتية بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحح لإطلاق اسم الجنة على الكل كما في إرشاد العقل السليم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ تعليل لما قبله وتقرير بطريق التحقيق أي هو تعالى يفعله البتة كل ما يريده من الأفعال المتقنة اللائقة المبنية على الحكم الرائقة التي من جملتها إثابة من آمن به وصدق برسوله صلى الله عليه وسلم وعقاب من كفر به وكذب برسوله عليه الصلاة والسلام .

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15)

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِى الدنيا والاخرة ﴾ الضمير في ﴿ يَنصُرَهُ ﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما روى عن ابن عباس .

والكلبي .

ومقاتل .

والضحاك .

وقتادة .

وابن زيد .

والسدي .

واختاره الفراء .

والزجاج كأنه لما ذكر المجادل بالباطل وخذلانه في الدنيا لأنه يدلى بحجة ما ضرورية أو نظرية ضرورية أو نظرية أو سمعية ولما يؤل إليه أمره من النكال ، وفي الآخرة بما هو أطم وأطم ثم ذكر سبحانه مشايعيه وعمم خسارهم في الدارين ذكر في مقابلهم المؤمنين وأتبعه ذكر المجادل عنهم وعن دين الله تعالى بالتي هي أحسن وهو رسوله عليه الصلاة والسلام ، وبالغ في كونه منصوراً بما لا مزيد عليه ، واختصر الكلام دلالة على أنه صلى الله عليه وسلم العلم الذي لا يشتبه وأن الكلام فيه وله ومعه وأن ذكر غيره بتبعية ذكره ، فالمعنى أنه تعالى ناصر لرسوله صلى الله عليه وسلم في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه وفي الآخرة بإعلاء دجرته وإدخال من صدقه جنات تجري من تحتها الأنهار والانتقام ممن كذبه وإذاقته عذاب الحريق لا يصرفه سبحانه عن ذلك صارف ولا يعطفه عنه عاطف فمن كان يغيظه ذلك من أعاديه وحساده ويظن أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور ومباشرة ما يرده من المكايد فليبالغ في استفراغ المجهود وليتجاوز في الجهد كل حد معهود فقصارى أمره خيبة مساعيه وعقم مقدماته ومباديه وبقاء ما يغيظ على حاله ودوام شجوه وبلباله ، وقد وضع مقام هذا الجزاء .

قوله سبحانه : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾ الخ أي فليمدد حبلاً ﴿ إِلَى السماء ﴾ أي إلى سقف بيته كما أخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر عن الضحاك ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ أي ليختنق كما فسره بذلك ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من قطع إذا اختنق كان أصله قطع نفسه بفتحتين أو أجله ثم ترك المفعول نسياً منسياً فصار بمعنى اختنق لازم خنق ، وذكروا أن قطع النفس كناية عن الاختناق ، وقيل المعنى ليقطع الحبل بعد الاختناق على أن المراد به فرض القطع وتقديره كما أن المراد بالنظر في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ تقدير النظر وتصويره والا فبعد الاختناق لا يتأتى منه ذلك أي فليقدر في نفسه النظر هل يذهبن كيده غيظه أو الذي يغيظه من النصر ، ويجوز أن يراد فلينظر الآن أنه إن فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه ، وجوز أن يكون المأمور بالنظر غير المأمور الأول ممن يصح منه النظر ، وأن يكون الكلام خارجاً مخرج التهكم كما قيل إن تسمية فعله ذلك كيداً خارجة هذا المخرج ، وقال جمع : إن إطلاق الكيد على ذلك لشبهه به فإن الكائد إذا كاد أتى بغاية ما يقدر عليه وذلك الفعل غاية ما يقدر عليه ذلك العدو الحسود ، ونقل عن ابن زيد أن المعنى فليمدد حبلاً إلى السماء المظلة وليصعد عليه ثم ليقطع الوحي عنه صلى الله عليه وسلم ، وقيل : ليقطع المسافة حتى يبلغ عنان السماء فيجهد في دفع نصره عليه الصلاة والسلام النازل من

جهتها .

وتعقبه المولى أبو السعود بأنه يأباه مساق النظم الكريم بيان أن الأمور المفروضة على تقدير وقوعها وتحققها بمعزل من إذهاب ما يغيظ ، ومن البين أن لا معنى لفرض وقوع الأمور الممتنعة وترتيب الأمر بالنظر عليه لا سيما قطع الوحي فإن فرض وقوعه مخل بالمرام قطعاً ، ونوقش في ذلك بما لا يخفى على الناظر نعم المعنى السابق هو الأولى ، وأياً كان فمن يظن ذلك هم الكفرة الحاسدون له صلى الله عليه وسلم ، وقيل : أعراب من أسلم .

(161/520)

وغطفان تباطؤ عن الإسلام وقالوا : نخاف أن لا ينصر محمد عليه الصلاة والسلام فينقطع ما بيننا وبين حلفائنا من يهود فلا يقرونا ولا يؤونا ، وقيل : قوم من المسلمين كانوا لشدة غيظهم من المشركين يستبطئون ما وعد الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم من النصر ؛ والمعنى عليه وكذا على سابقه إن قيل إن أولئك الأعراب كانوا يستبطئون النصر أيضاً من استبطا نصر الله تعالى وطلبه عاجلاً فليقتل نفسه لأن له وقتاً اقتضت الحكمة وقوعه فيه فلا يقع في غيره ، وأنت تعلم بعد هذين القولين وإن ثانيهما أبعد .

واستظهر أبو حيان كون ضمير ينصره عائداً على من لأنه المذكور وحق الضمير أن يعود

على مذكور ، وهو قول مجاهد وإليه ذهب بعضهم وفسر النصر بالرزق ، قال أبو عبيدة :

وقف علينا سائل من بني بكر فقال : من ينصرني نصره الله تعالى وقالوا : أرض منصورة أي ممطورة ، وقال الفقعسي

: وإنك لا تعطي أمرأ فوق حقه . . .

ولا تملك الشيء الذي أنت ناصره

أي معطيه وكأنه مستعار من النصر بمعنى العون .

فالمعنى أن الارزاق بيد الله تعالى لا تنال إلا بمشيئته فلا بد للعبد من الرضا بقسمته فمن ظن أن الله تعالى غير رازقه ولم يصبر ولم يستسلم فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يرده مرزوقاً .

والغرض الحث على الرضا بما قسم الله تعالى لا كمن يعبده على حرف وكأنه سبحانه لما ذكر المؤمنين عقيبهم على ما مر حذرهم عن مثل حالهم لطفاً في شأنهم .

ولا يخلو عن بعد وإن كان ربط الآية بما قبلها عليه قريباً ، وقيل : الضمير لمن والنصر على المتبادر منه والمعنى من كان يظن أن لن ينصره الله تعالى فيغتاظ لانتفاء نصره فليحتل بأعظم حيلة في نصر الله تعالى إياه وليستفرغ جهده في إيصال النصر إليه فلينظر هل يذهبن ذلك ما يغيظه من انتفاء النصر .

ولا يخفى ما في وجه الربط على هذا من الخفاء .

ومن كما أشرنا إليه شرطية ، وجوز أن تكون موصولة والفاء في خبرها لتضمنها معنى الشرط وهل يذهبن في محل نصب بينظر ، وذكر أنه على إسقاط الخافض ، وقرأ البصريون .

وابن عامر وورش ثم ليقطع بكسر لام الأمر والباقون بسكونها على تشبيه ثم بالواو والفاء لأن الجميع عواطف .

﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك تلإنزال البديع المنطوي على الحكم البالغة ﴿ أنزلناه ﴾ أي القرآن الكريم كله ﴿ ءايات بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات الدلالة على معانيها الرائقة فالمشار إليه الإنزال المذكور بعد اسم الإشارة ، ويجوز أن يكون المراد إنزال الآيات السابقة .

وأياً كان ففيه أن القرآن الكريم في جميع أبوابه كامل البيان لا في أمر البعث وحده .

ونصب ﴿ ءايات ﴾ على الحال من الضمير المنصور ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ بتقدير اللام وهو متعلق بمحذوف يقدر مؤخراً إمفادة للحصر ازضافي أي ولأن الله تعالى يهدي به ابتداء أو يثبت على الهدي أو يزيد فيه من يريد هدايته أو ثباته أو زيادته فيها أنزله كذلك أو في تأويل مصدر مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي والأمر أن الله يهدي

الخ.

وجوز أن يكون معطوفاً على محل مفعول ﴿ أنزلناه ﴾ أي وأنزلنا أن الله يهدي الخ. انتهى

انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(163/520)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِي الله ﴾

أي في شأن الله ، كقول من قال : إن الملائكة بنات الله ، والمسيح ابن الله ، وعزير ابن الله .

قيل : نزلت في النضر بن الحارث .

وقيل : في أبي جهل .

وقيل : هي عامة لكل من يتصدى لإضلال الناس وإغوائهم ، وعلى كل حال فالاعتبار بما يدلّ عليه اللفظ وإن كان السبب خاصاً .

ومعنى اللفظ : ومن الناس فريق يجادل في الله ، فيدخل في ذلك كل مجادل في ذات الله ، أو صفاته أو شرائعه الواضحة ، و﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي كائناً بغير علم .

قيل : والمراد بالعلم هو : العلم الضروري ، وبالهدى هو العلم النظري الاستدلالي .

والأولى حمل العلم على العموم ، وحمل الهدى على معناه اللغوي ، وهو : الإرشاد .

والمراد بالكتاب المنير هو : القرآن ، والمنير : النير البين الحجة الواضح البرهان ، وهو وإن دخل تحت قوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فإفراده بالذكر كإفراد جبريل بالذكر عند ذكر الملائكة ، وذلك لكونه الفرد الكامل الفائق على غيره من أفراد العلم .

وأما من حمل العلم على الضروري والهدى على الاستدلالي ، فقد حمل الكتاب هنا على الدليل السمعي ، فتكون الآية متضمنة لنفي الدليل العقلي ضرورياً كان أو استدلالياً ، ومتضمنة لنفي الدليل النقلي بأقسامه ، وما ذكرناه أولى .

قيل : والمراد بهذا المجادل في هذه الآية هو المجادل في الآية الأولى ، أعني قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج : 3] وبذلك قال كثير من المفسرين .

(164/520)

والتكرير للمبالغة في الذمّ كما تقول للرجل تذمه وتوبخه : أنت فعلت هذا أنت فعلت هذا ؟

ويجوز أن يكون التكرير لكونه وصفه في كل آية بزيادة على ما وصفه به في الآية الأخرى ،

فكأنه قال : ومن الناس من يجادل في الله ويتبع كلّ شيطان مريد بغير علم وَلاَ هُدًى وَلاَ كتاب مُّنِيرٍ ليضل عن سبيل الله .

وقيل : الآية الأولى في المقلدين اسم فاعل .

والثانية في المقلدين اسم مفعول .

ولا وجه لهذا كما أنه لا وجه لقول من قال : إن الآية الأولى خاصة بإضلال المتبوعين لتابعيهم ، والثانية عامة في كلّ إضلال وجدال .

وانتصاب ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ على الحال من فاعل يجادل ، والعطف : الجانب ، وعطفا الرجل : جانباه من يمين وشمال ، وفي تفسيره وجهان : الأوّل : أن المراد به من يلوي عنقه مرحاً وتكبراً ، ذكر معناه الزجاج .

قال : وهذا يوصف به المتكبر .

والمعنى : ومن الناس من يجادل في الله متكبراً .

قال المبرد : العطف ما انثنى من العنق .

والوجه الثاني : أن المراد بقوله : ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ : الإعراض ، أي معرضاً عن الذكر ، كذا قال الفراء والمفضل وغيرهما كقوله تعالى : ﴿ ولى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [لقمان : 7] ، وقوله :

﴿ لَوَّوْاْ رُؤُوسَهُمْ ﴾ [المنافقون : 5] ، وقوله : ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ [الإسراء :

83] ، واللام في ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ متعلق ب ﴿ يجادل ﴾ أي إن غرضه هو الإضلال عن السبيل وإن لم يعترف بذلك .

وقرىء : " ليضلّ " بفتح الياء على أن تكون اللام هي لام العاقبة كأنه جعل ضلاله غاية لجداله ، وجملة : ﴿ لَهُ فِي الدنيا خِزْيٌ ﴾ مستأنفة مبينة لما يحصل له بسبب جداله من العقوبة .

والخزي : الذل ، وذلك بما يناله من العقوبة في الدنيا من العذاب المعجل وسوء الذكر على ألسن الناس .

(165/520)

وقيل : الخزي الدنيوي هو : القتل ، كما وقع في يوم بدر ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القيامة عَذَابَ الحريق ﴾ أي عذاب النار المحرقة .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم من العذاب الدنيوي والأخروي ، وهو مبتدأ خبره : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ ، والباء للسببية ، أي ذلك العذاب النازل بك بسبب ما قدّمته يداك من الكفر والمعاصي ، وعبر باليد عن جملة البدن لكون مباشرة المعاصي تكون بها في الغالب ، ومحل أن وما بعدها في قوله : ﴿ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بظلام لِّلْعَبِيدِ ﴾ الرفع

على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أي والأمر أنه سبحانه لا يعذب عباده بغير ذنب .

وقد مرّ الكلام على هذه الآية في آخر آل عمران فلا نعيده .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾ هذا بيان لشقاق أهل الشقاق .

قال الواحدي : قال أكثر المفسرين : الحرف : الشك ، وأصله من حرف الشيء وهو طرفه ، مثل حرف الجبل والحائط ، فإن القائم عليه غير مستقرّ ، والذي يعبد الله على حرف قلق في دينه على غير ثبات وطمأنينة كالذي هو على حرف الجبل ونحوه يضطرب اضطراباً ويضعف قيامه فقيل للشاكّ في دينه : إنه يعبد الله على حرف ؛ لأنه على غير يقين من وعده ووعيده ، بخلاف المؤمن ؛ لأنه يعبده على يقين وبصيرة فلم يكن على حرف .

(166/520)

وقيل : الحرف : الشرط ، أي ومن الناس من يعبد الله على شرط ، والشرط هو قوله : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ ﴾ أي خير دنيوي من رخاء وعافية وخصب وكثرة مال ، ومعنى ﴿ اطمأنّ به ﴾ : ثبت على دينه واستمرّ على عبادته ، أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذي أصابه ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أي شيء يفتتن به من مكروه يصيبه في أهله أو ماله أو نفسه ﴿ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ أي ارتدّ ورجع إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر

، ثم بيّن حاله بعد انقلابه على وجهه فقال : ﴿ خَسِرَ الدنيا والآخرة ﴾ أي ذهبا منه وفقدهما ، فلا حظ له في الدنيا من الغنيمة والثناء الحسن ، ولا في الآخرة من الأجر وما أعدّه الله للصالحين من عباده .

وقرأ مجاهد ، وحميد بن قيس ، والأعرج ، والزهري ، وابن أبي إسحاق : " خاسرا الدنيا والآخرة " على صيغة اسم الفاعل منصوباً على الحال .

وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى خسران الدنيا والآخرة وهو مبتدأ وخبره ﴿ هُوَ الخسران المبين ﴾ أي الواضح الظاهر الذي لا خسران مثله ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ﴾ أي هذا الذي انقلب على وجهه ورجع إلى الكفر ﴿ يدعو من دون الله ﴾ أي يعبد متجاوزاً عبادة الله إلى عبادة الأصنام ﴿ ما لا يضرّه ﴾ إن ترك عبادته ، ﴿ ولا ينفعه ﴾ إن عبده لكون ذلك المعبود جماداً لا يقدر على ضرّ ولا نفع ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الدعاء المفهوم من الفعل وهو يدعو ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره : ﴿ هُوَ الضلال البعيد ﴾ أي عن الحق والرشد ، مستعار من ضلال من سلك غير الطريق فصار بضلاله بعيداً عنها .

قال الفراء : البعيد : الطويل .

﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ يدعو بمعنى : يقول ، والجملة مقرّرة لما قبلها من كون ذلك الدعاء ضلالاً بعيداً .

(167/520)

والأصنام لا نفع فيها بحال من الأحوال ، بل هي ضرر بحت لمن يعبدها ؛ لأنه دخل النار بسبب عبادتها .

وإيراد صيغة التفضيل مع عدم النفع بالمرّة للمبالغة في تقبيح حال ذلك الداعي ، أو ذلك من باب ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضلال مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] واللام هي : الموطئة للقسم ، ومن موصولة أو موصوفة ، و ﴿ ضرّه ﴾ مبتدأ خبره أقرب ، والجملة صلة الموصول .

وجملة : ﴿ لَبِئْسَ المولى وَلَبِئْسَ العشير ﴾ جواب القسم .

والمعنى : أنه يقول ذلك الكافر يوم القيامة لمعبوده الذي ضرّه أقرب من نفعه : لبئس المولى ولبئس العشير .

والمولى الناصر ، والعشير : الصاحب ، ومثل ما في هذه الآية قول عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنها . . . أشطان بئر في لبان الأدهم

وقال الزجاج: يجوز أن يكون ﴿ يدعو ﴾ في موضع الحال، وفيه هاء محذوفة، أي ذلك هو الضلال البعيد يدعوه، وعلى هذا يوقف على ﴿ يدعو ﴾، ويكون قوله: ﴿ لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ كلاماً مستأنفاً مرفوعاً بالابتداء، وخبره ﴿ لبئس المولى ﴾.

قال: وهذا لأن اللام لليمين والتوكيد فجعلها أوّل الكلام.

وقال الزجاج والفراء: يجوز أن يكون ﴿ يدعو ﴾ مكررة على ما قبلها على جهة تكثير هذا الفعل الذي هو الدعاء، أي يدعو ما لا يضرّه ولا ينفعه يدعو، مثل ضربت زيداً ضربت.

وقال الفراء والكسائي والزجاج: معنى الكلام القسم، واللام مقدّمة على موضعها، والتقدير: يدعو من لضرّه أقرب من نفعه، فمن في موضع نصب ب ﴿ يدعو ﴾، واللام جواب القسم و ﴿ ضرّه ﴾ مبتدأ، و ﴿ أقرب ﴾ خبره، ومن التصرف في اللام بالتقديم والتأخير قول الشاعر:

خالي لأنت ومن جرير خاله . . . ينل العلاء ويكرم الأخوالا

أي لخالي أنت.

قال النحاس: وحكى لنا علي بن سليمان عن محمد بن يزيد قال: في الكلام حذف، والمعنى: يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه إلها.

قال النحاس : وأحسب هذا القول غلطاً عن محمد بن يزيد ، ولعل وجهه أن ما قبل اللام هذه لا يعمل فيما بعدها .

وقال الفراء أيضاً والقفال اللام صلة ، أي زائدة ، والمعنى : يدعو من ضرّه أقرب من نفعه ، أي يعبده ، وهكذا في قراءة عبد الله بن مسعود بحذف اللام ، وتكون اللام في : ﴿ لبئس المولى ﴾ وفي : ﴿ لبئس العشير ﴾ على هذا موطئة للقسم .

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ لما فرغ من ذكر حال المشركين ، ومن يعبد الله على حرف ذكر حال المؤمنين في الآخرة ، وأخبر أنه يدخلهم هذه الجنات المتصفة بهذه الصفة ، وقد تقدّم الكلام في جري الأنهار من تحت الجنات ، وبيّنا أنه إن أريد بها الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها ، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ؛ وإن أريد بها الأرض فلا بدّ من تقدير مضاف ، أي من تحت أشجارها ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها ، أي يفعل ما يريده من الأفعال ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ .

فيثيب من يشاء ويعذب من يشاء .

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِى الدنيا والآخرة ﴾ قال النحاس : من أحسن ما قيل في هذه الآية أن المعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنه يتهيأ

له أن يقطع النصر الذي أوتيه ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السماء ﴾ أي فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ أي ثم ليقطع النصر إن تهيأ له ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ﴾ وحيلته ﴿ مَا يَغِيظُ ﴾ من نصر النبيّ صلى الله عليه وسلم.

(169/520)

وقيل: المعنى: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً صلى الله عليه وسلم حتى يظهره على الدين كله فليمت غيظاً، ثم فسره بقوله: ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السماء ﴾ أي فليشدد حبلاً في سقف بيته ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ أي ثم ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً، والمعنى: فليختنق غيظاً حتى يموت، فإن الله ناصره ومظهره، ولا ينفعه غيظه، ومعنى ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ﴾ أي صنيعه وحيلته ما يغيظ، أي غيظه، و"ما" مصدرية.

وقيل: إن الضمير في: ﴿ ينصره ﴾ يعود إلى من، والمعنى: من كان يظنّ أن الله لا يرزقه فليقتل نفسه، وبه قال أبو عبيدة.

وقيل: إن الضمير يعود إلى الدين، أي من كان يظنّ أن لن ينصر الله دينه.

وقرأ الكوفيون بإسكان اللام في "ثم ليقطع".

قال النحاس: وهذه القراءة بعيدة من العربية.

﴿ وكذلك أنزلناه ءايات بينات ﴾ أي : مثل ذلك الإنزال البديع أنزلناه آيات واضحات ظاهرة الدلالة على مدلولاتها ﴿ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ هدايته ابتداء أو زيادة فيها لمن كان مهدياً من قبل .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ قال : لاوي عنقه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس والسديّ وابن يزيد وابن جريج أنه المعرض .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله : ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ قال : أنزلت في النضر بن الحارث .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : هو رجل من بني عبد الدار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ قال : مستكبراً في نفسه .

وأخرج البخاري وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾ قال : كان الرجل يقدم المدينة ، فإن ولدت امرأته غلاماً وأنتجت خيله قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه بسند صحيح قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبيّ صلى الله عليه وسلم يسلمون ، فإذا رجعوا إلى بلادهم ، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا : إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به ، وإن وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط ، قالوا : ما في ديننا هذا خير ، فأنزل الله : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضاً نحوه ، وفي إسناده العوفي .

وأخرج ابن مردويه أيضاً من طريقه أيضاً عن أبي سعيد قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالإسلام ، فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : أقلني أقلني ، قال : " إن الإسلام لا يقال " ، فقال : لم أصب من ديني هذا خيراً ، ذهب بصري ومالي ومات ولدي ، فقال : " يا يهوديّ ، الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة " ، فنزلت ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله ﴾ قال : من كان يظنّ أن لن ينصر الله محمداً في الدنيا والآخرة ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾ قال : فليربط بحبل ﴿ إِلَى السماء ﴾ قال : إلى سماء بيته السقف ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ قال : ثم يختنق به حتى

يموت .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه قال : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله ﴾ يقول : أن لن يرزقه الله ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السماء ﴾ فليأخذ حبلاً فليربطه في سماء بيته فليختنق به ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾

قال : فلينظر هل ينفعه ذلك أو يأتيه برزق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(171/520)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

هذا مقابل قوله ﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ [الحج : 9] وقوله : ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ [الحج : 11] .

فالجملة معترضة ، وقد اقتصر على ذكر ما للمؤمنين من ثواب الآخرة دون ذكر حالهم في الدنيا لعدم أهمية ذلك لديهم ولا في نظر الدين .

وجملة ﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ تذييل للكلام المتقدم من قوله ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ [الحج : 8] إلى هنا ، وهو اعتراض بين الجمل الملتئم منها الغرض .

وفيها معنى التعليل الإجمالي لاختلاف أحوال الناس في الدنيا والآخرة .

وفعْلُ الله ما يريد هو إيجاد أسباب أفعال العباد في سُنة نظام هذا العالم ، وتبيينه الخير والشرّ ، وترتيبه الثواب والعقاب ، وذلك لا يحيط بتفاصيله إلا الله تعالى .

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾

موقع هذه الآية غامض ، ومُفادها كذلك .

ولنبدأ ببيان موقعها ثم نتبعه ببيان معناها فإن بين موقعها ومعناها اتصالاً .

فيحتمل أن يكون موقعها استئنافاً ابتدائياً أريد به ذكر فريق ثالث غير الفريقين المتقدمين في قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ [الحج : 8] الآية ، وقوله : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ [الحج : 11] .

وهذا الفريق الثالث جماعة أسلموا واستبطأوا نصْر المسلمين فأيسوا منه وغاظهم تعجُّلهم للدخول في الإسلام وأن لم يتريثوا في ذلك وهؤلاء هم المنافقون .

(172/520)

ويحتمل أن يكون موقعها تذييلاً لقوله : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ [الحج : 11] الآية بعد أن اعتُرض بين تلك الجملة وبين هاته بجمل أخرى فيكون المراد : أن الفريق

الذين يعبدون الله على حرف والمخبر عنهم بقوله : ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ [الحج : 11] هم قوم يظنون أن الله لا ينصرهم في الدنيا ولا في الآخرة إنْ بقُوا على الإسلام .

فأما ظنهم انتفاء النصر في الدنيا فلأنهم قد أيسوا من النصر استبطاءً ، وأما في الآخرة فلأنهم لا يؤمنون بالبعث ومن أجل هذا علق فعل ﴿ لن ينصره ﴾ بالمجرور بقوله ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ إيماء إلى كونه متعلق الخسران في قوله ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ [الحج : 11] .

فإن عدم النصر خسران في الدنيا بحصول ضده ، وفي الآخرة باستحالة وقوع الجزاء في الآخرة حسب اعتقاد كفرهم ، وهؤلاء مشركون مترددون .

ويترجح هذا الاحتمالُ بتغيير أسلوب الكلام ، فلم يعطف بالواو كما عطف قوله ﴿ ومن الناس من يعبد الله ﴾ [الحج : 11] ولم تورد فيه جملة ﴿ ومن الناس ﴾ كما أوردت في ذكر الفريقين السابقين ويكون المقصود من الآية تهديد هذا الفريق .

فيكون التعبير عن هذا الفريق بقوله ﴿ من كان يظن ﴾ الخ إظهاراً في مقام الإضمار ؛ فإن مقتضى الظاهر أن يؤتَى بضمير ذلك الفريق فيقالَ بعد قوله : ﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ [الحج : 14] ، ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ الخ . . .

عائداً الضميرُ المستتر في قوله ﴿ فليمدد ﴾ على ﴿ مَن يعبد الله على حرف ﴾ [الحج : 11] .

والعدول عن الإضمار إلى الإظهار لوجهين ، أحدهما : بُعد معاد الضمير ، وثانيهما : التنبيه على أنّ عبادته الله على حرف ناشئة عن ظنه أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة إن صمم على الاستمرار في اتباع الإسلام لأنه غير واثق بوعد النصر للمسلمين .

وضمير النصب في ﴿ ينصره ﴾ عائد إلى ﴿ من يعبد الله على حرف ﴾ [الحج : 11] على كلا الاحتمالين .

(173/520)

واسم ﴿ السماء ﴾ مرادٌ به المعنى المشهور على كلا الاحتمالين أيضاً أخذاً بما رواه القرطبي عن ابن زيد (يعني عبد الرحمان بن زيد بن أسلم) أنه قال في قوله تعالى : ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ قال : هي السماء المعروفة ، يعني المُظِلة .

فالمعنى : فليَنُط حبلاً بالسماء مربوطاً به ثم يقطعه فيسقط من السماء فيتمزق كل ممزق فلا يغني عنه فعله شيئاً من إزالة غيظه .

ومفعول ﴿ يقطع ﴾ محذوف لدلالة المقام عليه .

والتقدير : ثم ليقطعه ، أي ليقطع السبب .

والأمر في قوله ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ للتعجيز ، فيعلم أن تعليق الجواب على

حصول شرطٍ لا يقع كقوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ﴾ [الرحمن : 33] .

وأما استخراج معنى الآية من نظمها فإنها نُسجت على إيجاز بديع ، شُبهت حالة استبطان هذا الفريق الكفر وإظهارِهم الإسلام على حنَق ، أو حالةُ تردّدهم بين البقاء في المسلمين وبين الرجوع إلى الكفار بحالة المغتاظ مما صنع فقيل لهم : عليكم أن تفعلوا ما يفعله أمثالكم ممن ملأهم الغيظ وضاقت عليهم سُبل الانفراج ، فامدُدوا حبلاً بأقصى ما يُمَدّ إليه حبلٌ ، وتعلّقوا به في أعلى مكان ثم قطعوه تخرّوا إلى الأرض ، وذلك تهكم بهم في أنهم لا يجدون غنى في شيء من أفعالهم ، وإنذار باستمرار فتنتهم في الدنيا مع الخسران في الآخرة .

ويحتمل أن تكون الآية مشيرة إلى فريق آخر أسلموا في مدة ضعف الإسلام واستبطأوا النصر فضاقت صدورهم فخطرت لهم خواطر شيطانية أن يتركوا الإسلام ويرجعوا إلى الكفر فزجرهم الله وهددهم بأنهم إن كانوا آيسين من النصر في الدنيا ومُرتابين في نَيل ثواب الآخرة فإن ارتدادهم عن الإسلام لا يضرّ الله ولا رسوله ولا يكيد الدينَ وإن شاءوا فليختنقوا فينظروا هل يزيل الاختناق غيظهم ، ولعلّ هؤلاء من المنافقين .

فموقع الآية على هذا الوجه موقع الاستئناف الابتدائي لذكر فريق آخر يشبه من يعبد الله على حرف ، والمناسبة ظاهرة .

ويجيء على هذا الوجه أن يكون ضمير ﴿ ينصره الله ﴾ عائداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا مروي عن ابن عباس واختاره الفرّاء والزجاج .

ويستتبع ذلك في كل الوجوه تعريضاً بالتنبيه لخلص المؤمنين أن لا ييأسوا من نصر الله في الدنيا والآخرة أو في الآخرة فقط .

قال تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ﴾ [الأحزاب : 2324] الآية .

والسبب : الحبل .

وتقدم في قوله ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ في [سورة البقرة : 166] .

والقطع : قيل يطلق على الاختناق لأنه يقطع الأنفاس .

و(مَا) مصدرية ، أي غيظَهُ .

والاستفهام بـ ﴿ هل ﴾ إنكاري ، وهو معلق فعلَ ﴿ فلينظر ﴾ عن العمل ، والنظر قلبي ، وسمي الفعل كُيداً لأنه يشبه الكيد في أنه فعله لأن يكيد المسلمين على وجه الاستعارة

التهكمية فإنه لا يكيد به المسلمين بل يضر به نفسه .

وقرأ الجمهور ﴿ ثم لْيَقطع ﴾ بسكون لام ليقطع وهو لام الأمر .

فإذا كان في أول الكلمة كان مكسوراً ، وإذا وقع بعد عاطف غير (ثُمّ) كان ساكناً مثل ﴿ ولْتَكُنْ منكم أمّة ﴾ [آل عمران : 104] .

فإذا وقع بعد (ثُم) جاز فيه الوجهان .

وقرأه ابن عامر ، وأبو عمرو وورش عن نافع ، وأبو جعفر ورويس عن يعقوب بكسر اللام .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16) ﴾

لما تضمنت هذه الآيات تبيين أحوال الناس تجاه دعوة الإسلام بما لا يبقى بعده التباس عقبت بالتنويه بتبيينها ، بأن شُبه ذلك التبيينُ بنفسه كناية عن بلوغه الغاية في جنسه بحيث لا يلحق بأوضح منه ، أي مثلَ هذا الإنزال أنزلنا القرآن آيات بيّنات .

فالجملة معطوفة على الجُمل التي قبلها عطف غرض على غرض .

(175/520)

والمناسبة ظاهرة ، فهي استئناف ابتدائي .

وعطف على التنويه تعليل إنزاله كذلك بأن الله يهدي من يريد هديه أي بالقرآن .

فلام التعليل محذوفة ، وحذف حرف الجر مع (أن) مطّرد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(176/520)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾

في هذه الآية الكريمة أوجه من التفسير معروفة عند العلماء ، وبعضها يشهد لمعناه قرآن .

الأول : أن المعنى : من كان من الكفرة الحسدة له صلى الله عليه وسلم ، يظن أن لن ينصره الله : أي أن لن ينصر الله نبيه محمداً صلى الله عليه ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾ أي بحبل إلى السماء : أي سماء بيته ، والمراد به السقف : لأن العرب تسمي كل ما علاك سماء كما قال :

وقد يسمى سماء كل مرتفع . . . وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

كما أوضحناه في سورة الحجر .

والمعنى : فليعقد رأس الحبل في خشبة السقف ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ أي ليختنق بالحبل ، فيشده في عنقه ، ويتدلى مع الحبل المعلق في السقف حتى يموت ، وإنما أطلق القطع على

الاختناق ، لأن الاختناق يقطع النفس بسبب حبس مجاريه ، ولذا قيل للبهر وهو تتابع النفس : قطع ، فلينظر إذا اختنق ﴿ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ﴾ أي هل يذهب فعله ذلك ما يغيظه من نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، في الدنيا والآخرة .

والمعنى : لا يذهب ذلك الذي فعله ذلك الكافر الحاسد ما يغيظه ويغضبه من نصر الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

قال الزمخشري : وسمي فعله كيداً ، لأن وضعه موضع الكيد ، حيث لم يقدر على غيره ، أو على سبيل الاستهزاء لأنه لم يكد به محسوده ، إنما كاد به نفسه ، والمراد : ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه اهـ منه .

وحاصل هذا القول : أن الله يقول لحاسديه صلى الله عليه وسلم ، الذين يتربصون به الدوائر ، ويظنون أن ربه لن ينصره : موتوا بغيظكم ، فهو ناصره لا محالة على رغم أنوفكم ، وممن قال بهذا القول : مجاهد ، وقتادة ، وعكرمة ، وعطاء ، وأبو الجوزاء ، وغيرهم . كما نقله عنهم ابن كثير ، وهو أظهرها عندي .

(177/520)

ومما يشهد لهذا المعنى من القرآن : قوله تعالى . ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغيظ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ [آل عمران : 119] .

الوجه الثاني : أن المعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة ، والحال أن النصر يأتيه صلى الله عليه وسلم من السماء ، فليمدد بسبب إلى السماء فيرتقي بذلك السبب ، حتى يصعد إلى السماء ، فيقطع نزول الوحي من السماء ، فيمنع النصر عنه صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : أنه وإن غاظه نصر الله لنبيه . فليس له حيلة ، ولا قدرة على منع النصر ، لأنه لا يستطيع الارتقاء إلى السماء ومنع نزول النصر منها عليه صلى الله عليه وسلم : وعلى هذا القول : فصيغة الأمر في قوله ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ وقوله ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ للتعجيز ﴿ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ ﴾ ذلك الحاسد العاجز عن قطع النصر عنه صلى الله عليه وسلم : هل يذهب كيده إذا بلغ غاية جهده في كيد النَّبي صلى الله عليه وسلم ، ما يغيظه من نصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : أنه إن أعمل كل ما في وسعه ، من كيد النَّبي صلى الله عليه وسلم ليمنع عنه نصر الله ، فإنه لا يقدر على ذلك ، ولا يذهب كيده ما يغيظه من نصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم .

ومما يشهد لهذا القول من القرآن قوله تعالى ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا

فَلْيَرْتَقُوا فِي الأسباب جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّن الأحزاب ﴾ [ص : 10-11] وقد أوضحنا معنى هذه الآية في سورة الحجر .

(178/520)

ولبعض أهل العلم قول ثالث في معنى الآية الكريمة : وهو أن الضمير في ﴿ لَّن يَنصُرَهُ ﴾ عائد إلى من في قوله تعالى ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ ﴾ وأن النصر هنا بمعنى الرزق ، وأن المعنى : من كان يظن أن لن ينصره الله أي لن يرزقه ، فليختنق ، وليقتل نفسه ، إذ لا خير في حياة ليس فيها رزق الله وعونه ، أو فليختنق ، وليمت غيظاً وغماً ، فإن ذلك لا يغير شيئاً مما قضاه الله وقدره ، والذين قالوا هذا القول قالوا : إن العرب تسمي الرزق نصراً ، وعن أبي عبيدة قال : وقف علينا سائل من بني بكر ، فقال : من ينصرني نصره الله ، يعني : من يعطيني أعطاه الله ، قالوا : ومن ذلك قول العرب : أرض منصورة : أي ممطورة ، ومنه قول رجل من بني فقعس :

وإنك لا تُعطي امرأً فوق حقِّه . . . ولا تملك الشّق الذي ألغيت ناصره

أي معطيه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : وهذا القول الأخير ظاهر السقوط ، كما ترى ، والذين

قالوا : إن الضمير في قوله ﴿ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله ﴾ راجع إلى الدين ، أو الكتاب ، لا يخالف قولهم قول من قال : إن الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم ، لأن نصر الدين ، والكتاب هو نصره صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى ، ونصر الله له صلى الله عليه وسلم في الدنيا ، بإعلائه كلمته ، وقهره أعداءه ، وإظهار دينه ، وفي الآخرة بإعلاء درجته ، والانتقام ممن كذبه ، ونحو ذلك كما قال تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ﴾ [غافر : 51] فإن قيل : قررتم أن الضمير في ينصره ، عائد إليه صلى الله عليه وسلم ، وهو لم يجر له ذكر ، فكيف قررتم رجوع الضمير إلى غير مذكور .

(179/520)

فالجواب : هو ما قاله غير واحد : من أنه صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يجر له ذكر فالكلام دال عليه ، لأن الإيمان في قوله في الآية التي قبلها تليها ﴿ إِنَّ الله يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [الحج : 14] الآية . هو الإيمان بالله ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، والانقلاب عن الدين المذكور في قوله ﴿ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ [الحج : 11] انقلاب عما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ قرأه أبو عمرو ، وابن عامر ، وورش ، عن

نافع بكسر اللام على الأصل في لام الأمر ، وقرأه الباقون بإسكان اللام تخفيفاً . انتهى

انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(180/520)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

بعد أن تكلَّم الحق – سبحانه وتعالى – عن الكفار وأهل النار ومَنْ يعبدون الله على حَرْف ، كان لا بُدَّ أنْ يأتيَ بالمقابل ؛ لأن النفس عندها استعداد للمقارنة والتأمل في أسباب دخول النار ، وفي أسباب دخول الجنة ، وهذا أَجْدى في إيقاع الحجة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : 13 – 14] وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً . . ﴾ [التوبة : 82]

فذِكْر النعمة وحدها دون أنْ تقابلها النِّقْمة لا تُؤتي الأثر المطلوب ، لكن حينما تقابل النعمة بالنقمة وَسَلْب الضّر بإيجاب النفع فإنّ كلاهما يُظهر الآخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ . . ﴾ [آل عمران : 185] فإنْ آمنتَ لا تُزَحْزح

عن النار فقط – مع أن هذه في حَدِّ ذاتها نعمة – لكن تُزَحْزِح عن النار وتدخل الجنة .

والإيمان : عمل قلبي ومواجيد تطمئن بها النفس ، لكن الإيمان له مطلوب : فأنت آمنتَ بالله ، واطمأنَّ قلبك إلى أن الله هو الخالق الرازق واجب الوجود . . إلخ ، فما مطلوب هذا الإيمان ؟

مطلوب الإيمان أنْ تستمع لأوامره ، لأنه حكيم ، وتثق في قدرته لأنه قادر ، وتخاف من بطشه لأنه جبار ، ولا تيأس من بَسْطه لأنه باسط ، ولا تأمن قبضه لأنه قابض .

لقد آمنتَ بكل هذه القضايا ، فحين يأمرك بأمر فعليك أنْ تستحضر حيثيات هذا الأمر ، وأنت واثق أن ربك عز وجل لم يأمرك ولم يَنْهَكَ من فراغ ، إنما من خلال صفات الكمال فيه سبحانه ، أو صفات الجلال والجبروت ، فاستحضر في كُلِّ أعمالك وفي كُلِّ ما تأتي أو تدع هذه الصفات .

(181/520)

لذلك ، جمعت الآية بين الإيمان والعمل الصالح : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَاتٍ . . ﴾ [الحج : 14]

وفي سورة العصر : ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ

الصالحات . . ﴾ [العصر : 1 – 3] ليس ذلك وفقط إنما أيضاً : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [العصر : 3] .

فالتواصي بالحق والصبر على الشدائد من الاستجابة لداعي الإيمان وثمرة من ثماره ؛ لأن المؤمن سيتعرَّض في رحلة الحياة لِفِتَن كثيرة قد تزلزله ، وسيواجه سُخْرية واستهزاءً ، وربما تعرَّض لألوان العذاب .

فعليه إذن – أنْ يتمسَّك بالحق ويتواصى به مع أخيه ، وعليه أن يصبر ، وأنْ يتواصى بالصبر مع إخوانه ، ذلك لأن الإنسان قد تعرض له فترات ضَعف وخَوَر ، فعلى القوي في وقت الفتنة أنْ ينصحَ الضعيف .

وربما تبدَّل هذا الحال في موقف آخر وأمام فتنة أخرى ، فَمنْ أوصيْتَه اليوم بالصبر ربما يوصيك غداً ، وهكذا يُثمِر في المجتمع الإيماني التواصي بالحق والتواصي بالصبر .

إذن : تواصَوْا ؛ لأنكم ستتعرضون لِهزَّات ليست هزَّات شاملة جامعة ، إنما هزَّات يتعرض لها البعض دون الآخر ، فإنْ ضعُفْتَ وجدتَ من إخوانك مَنْ يُواسيك : اصبر ، تجلَّد ، احتسب .

وإياك أنْ تُزحزحك الفتنة عن الحق ، أو تخرج عن الصبر ، وهذه عناصر النجاة التي ينبغي للمؤمنين التمسك بها : إيمان ، وعمل صالح ، وتواصٍ بالحق ، وتواصٍ بالصبر .

وقوله سبحانه : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار . . ﴾ [الحج : 14] .

الجنات : هي الحدائق والبساتين المليئة بأنواع المتَّع : الزرع ، والخضرة ، والنضارة ، والزهور ، والرائحة الطيبة ، وهذه كلها بنت الماء ؛ لذلك قال ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار . . ﴾ [الحج : 14] ومعنى : ﴿ مِن تَحْتِهَا . . ﴾ [الحج : 14] أن الماء ذاتيٌّ فيها ، لا يأتيها من مكان آخر ربما ينقطع عنها ، كما جاء في آية أخرى : ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار . . ﴾ [التوبة : 100] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . . ﴾ [الحج : 14] لأنه سبحانه لا يُعْجِزه شيء ، ولا يعالج أفعاله كما يعالج البشر أفعالهم ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] ولو تأملتَ هذه الآية لوجدتَ الشيء الذي يريده الله ويأمر بكونه موجوداً في الحقيقة ، بدليل أن الله تعالى يخاطبه ﴿ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] فهو – إذن – كائن فعلاً ، وموجود حقيقةً ، والأمر هنا إنما هو لإظهاره في عالم المشاهدة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدنيا والآخرة فَلْيَمْدُدْ . . ﴾ (يظنُّ) تفيد عِلْماً غير يقيني وغير مُتأكد ، وسبق أنْ تكلَّمنا في نسبة القضايا ، فهناك حكم محكوم به ومحكوم عليه ، تقول : زيد مجتهد ، فأنت تعتقد في نِسْبة الاجتهاد لزيد ،

فإنْ كان اعتقادك صحيحاً فتستطيع أنْ تُقدِّم الدَليل على صحته فتقول : بدليل أنه ينجح كل عام بتفوق .

أما إذا اعتقد هذه القضية ولم يُقدِّم عليها دليلاً كأنْ سمع الناسَ يقولون : زيد مجتهد . فقال مثلهم ، لكن لا دليلَ عنده على صِدْق هذه المقولة ، كالطفل الذي نُلقّنه ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] هذه قضية واقعية يعتقدها الولد ، لكن لا يستطيع أنْ يُقدِّم الدليل عليها إلا عندما يكبُر ويستوي تفكيره .

(183/520)

فمن أين أخذ الطفل هذه القضية واعتقدها ؟ أخذها من المأمون عليه : من أبيه أو أستاذه ثم قلَّده . إذن : إنْ كانت القضية واقعة ، لكِنْ لا تستطيع أنْ تقيم الدليل عليها فهي تقليد ، فإنِ اعتقدتَ قضية واقعة ، وأقمْتَ الدليل عليها ، فهذا أسْمى مراتب العلم ، فإنِ اعتقدتَ قضيةً غير واقعيةٍ ، فهذا جهل .

فالجاهل : مَنْ يعتقد شيئاً غير واقع ، وهذا الذي يُتعِب الدنيا كلها ، ويُشقي من حوله ، لأن الجاهل الأميَّ الذي لا يعلم شيئاً ، وليست لديه فكرة يعتقدها صفحة بيضاء ، تستطيع أنْ تقنعه بالحقيقة ويقبلها منك ؛ لأنه خالي الذهن ولا يعارضك .

فإنْ تشككْتَ في النسبة بحيث استوت عندك نسبة الخطأ مع نسبة الصواب ، فهذا هو الشّكُّ ، فلا تستطيع أنْ تجزم باجتهاد زيد ، ولا بعدم اجتهاده ، فإنْ غلب الاجتهاد فهو ظَنٌّ ، فإنْ غلب عدم الاجتهاد فهو وَهْم .

إذن : نسبة القضايا إما علم تعتقده : وهو واقع وتستطيع أنْ تقيمَ الدليل عليه ، أو تقليد : وهو ما تعتقده وهو واقع ، لكن لا تقدر على إقامة الدليل عليه ، أو جهل : حين تعتقد شيئاً غير واقع ، أو شك : حين لا تجزم بالشيء ويستوي عندك النفي والإثبات ، أو ظن : حين تُرجِّح الإثبات ، أو وهم : حين تُرجِّح النفي .

فالظن في قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ . . ﴾ [الحج : 15] أي : يمرُّ بخاطره مجرد مرور أن الله لن ينصر محمداً ، أو يتوهم ذلك – ولا يتوهم ذلك إلا الكفار – لأنهم يأملون ذلك في معركة الإيمان والكفر – مَنْ ظَنَّ هذا الظنَّ فعليه أنْ ينتهيَ عنه ؛ لأنه أمر بعيد ، لن يحدث ولن يكون .

وقد ظَنَّ الكفار هذا الظن حين رَأَوْا بوادر نصر الإيمان وعلامات فوزه ، فاغتاظوا لذلك ، ولم يجدوا شيئاً يريح خاطرهم إلا هذا الظن .

(184/520)

لذلك ؛ يردُّ الله غيظهم عليهم ، فيقول لهم : ستظلون بغيظكم ؛ لأن النصر للإيمان ولجنوده مستمر ، فليس أمامك إلا أنْ تجعل حبلاً في السماء وتربط عنقك به ، تشنق نفسك حتى تقع ، فإنْ كان هذا الكيد لنفسك يُنجيك من الغيظ فافعل : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السمآء ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج : 15] .

لكن ما الغيظ ؟ الغيظ : نوع من الغضب مصحوب ومشُوب بحزن وأَسَىً وحَسْرة حينما ترى واقعاً يحدث أمام عينيك ولا يرضيك ، وفي الوقت نفسه لا تستطيع أن تفعل شيئاً تمنع به مَا لا يُرضيك .

وهذه المادة (غيظ) موجودة في مواضع أخرى من كتاب الله ، وقد استُعْملَتْ حتى للجمادات التي لا تُحسُّ ، اقرأ قول الله تعالى عن النار : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ . . ﴾ [الملك : 8] وقال : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ [الفرقان : 12] فكأن النار مغتاظة من هؤلاء ، تتأهب لهم وتنتظرهم .

والغَيْظ يقع للمؤمن والكافر ، فحين نرى عناد الكفار وسُخريتهم واستهزاءهم بالإيمان نغتاظ ، لكن يُذهب الله غيْظ قلوبنا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ . . ﴾ [التوبة : 15] .

أما غيْظ الكفار من نصْر الإيمان فسوف يَبْقى في قلوبهم ، فربُّنا – سبحانه وتعالى – يقول لهم : ثقُوا تماماً أن الله لم يرسل رسولاً إلا وهو ضامن أنْ ينصره ، فإنْ خطر ببالكم خلافُ

ذلك فلن يُريحكم ويَشْفي غيظكم إلاّ أنْ تشنقوا أنفسكم ؛ لذلك خاطبهم الحق سبحانه في آية أخرى فقال : ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ . . ﴾ [آل عمران : 119] .

(185/520)

ومعنى : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السمآء . . ﴾ [الحج : 15] ﴿ فَلْيَمْدُدْ . . ﴾ [الحج : 15] : من مدَّ الشيء يعني : أطاله بعد أنْ كان مجتمعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ والأرض مَدَدْنَاهَا . . ﴾ [الحجر : 19] فكلما تسير تجد أرضاً ممتدة ليس لها نهاية حافَّة .

والسبب : الحبل ، يُخرجون به الماء من البئر ، لكن هل يستطيع أحد أنْ يربط حبلاً في السماء ؟ إذن : علَّق المسألة على محال ، وكأنه يقول لهم : حتى إنْ أردتم شَنْق أنفسكم فلن تستطيعوا ، وسوف تظلُّون هكذا بغيظكم .

أو : يكون المعنى : ﴿ إِلَى السمآء . . ﴾ [الحج : 15] يعني : سماء البيت وسقفه ، كمَنْ يشنق نفسه في سَقْف البيت .

ويمكن أن نفهم (السبب) على أنه أيّ شيء يُوصّلك إلى السماء ، وأيّ وسيلة للصعود ، فيكون المعنى : خذوا أيّ طريقة تُوصّلكم إلى السماء لتمنعوا عن محمد أسباب النصر ؛

لأن نَصْر محمد يأتي من السماء فامنعوه ، وهذه أيضاً لا يقدرون عليها ، وسيظل غيظهم في قلوبهم .

وتلحظ أننا نتكلم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، مع أن الآية لم تذكر شيئاً عنه ، وكل ما جاء في الآية ضمير الغائب المفرد في قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله . . ﴾ [الحج : 15] والحديث مُوجَّه للكفار المغتاظين من بوادر النصر لركْب الإيمان ، فقوله : ﴿ يَنصُرَهُ . . ﴾ [الحج : 15] ينصر مَنْ ؟ لا بُدَّ أنه محمد ، لماذا ؟

قالوا : لأن الأسماء حينما تُطلَق تدلُّ على مَعَانٍ ، فعندما تقول " سماء " نفهم المراد ، وعندما تقول " قلب " نفهم ، " نور " نعرف المراد . والأسماء إما اسم ظاهر مثل : محمد وعلي وعمر وأرض وسماء ، والأسماء إما اسم ظاهر مثل : أنا ، أنت ، هو ، هم .

(186/520)

والضمير مُبْهم لا يُعيّنه إلا التكلُّم ، فأنت تقول : أنا وكذلك غيرك يقول أنا أو نحن ، فالذي يُعيِّن الضمير المتكلّم به حال الخطاب ، فعُمدةُ الفهم في الضمائر ذات المتكلم وذات المخاطب . فإن لم يكن متكلّماً ولا مخاطباً فهو غائب ، فمن أين تأتي بقرينة التعريف للغائب ؟

حين تقول : هو ، هي ، هم . مَن المراد بهذه الضمائر ؟ كيف تُعيِّنها ؟ إنْ عيَّنْتَ المتكلم بكلامه ، والمخاطب بمخاطبته ، كيف تُعيِّن الغائب ؟ قالوا : لا بُدَّ أنْ يسبقه شيء يدل عليه ، كأن تقول : جاءني رجل فأكرمتُه ، أكرمت مَنْ ؟ أكرمت الرجل الذي تحدثتُ عنه ، جاءتني امرأة فأكرمتُها ، جاء قوم فلان فأكرمتهم . إذن : فمرجع الضمير هو الذي يدلُّ عليه .

لكن لم يسبق ذِكْر لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الضمير ليُعيِّنه ويدلُّ عليه ، نعم لم يسبق ذِكْر لرسول الله ، لكن تأمَّل المعنى : الكلام هنا عن النصر بين فريق الإيمان وعلى رأسه محمد صلى الله عليه وسلم ، وفريق الكفر وعلى رأسه هؤلاء المعاندون ، فالمقام مُتعيِّن أنه لا يعود الضمير إلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ . . ﴾ [القدر : 1] .

فالضمير هنا مُتعيِّن ، ولا ينصرف إلا إلى القرآن ، ولا يتعين الضمير إلا إذا كان الخاطر لا ينصرف إلى غيره في مقامه .

اقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] تلحظ أن الضمير سابق على الاسم الظاهر ، فالمرجع متأخر ، ومع ذلك لا ينصرف الضمير إلا إلى الله ، فإذا قِيلَ : هو هكذا على انفراد لا يمكن أن ينصرف إلا لله عز وجل .

كذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [النحل : 61] . على ظَهْر أيِّ شيء ؟ الذِّهْن لا ينصرف في هذا المقام إلا إلى الأرض .

(187/520)

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج : 15] الاستفهام هنا مِمَّنْ يعلم ، فهو استفهام للتقرير ، ليقِرُّوا هم بأنفسهم أن غَيْظهم سيظلُّ كما هو ، لا يشفيه شيء ، وأنهم سيموتون بغيظهم ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ . . ﴾ [آل عمران : 119] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . ﴾ .

قوله ﴿ أَنزَلْنَاهُ . . ﴾ [الحج : 16] أي : القرآن ؛ لأن الضمير هنا كما ذكرنا مرجعه مُتَعيِّن ، وما دام مرجعه مُتعيناً فلا يحتاج لذكر سابق . والإنزال يحمل معنى العلو ، فإنْ رأيتَ في هذا التشريع الذي جاءك في القرآن ما يشقُّ عليك أو يحولُ بينك وبين ما تشتهيه نفسك ، فاعلم أنه من أَعْلى منك ، من الله ، وليس من مُسَاوٍ لك ، يمكن أنْ تستدرك عليه أو تناقشه : لماذا هذا الأمر ؟ ولماذا هذا النهي ؟ فطالما أن الأمر يأتيك من الله فلا بُدَّ أن تسمع وتطيع ولا تناقش .

ولنا أُسْوة في هذا التسليم بسيدنا أبي بكر لما قالوا له : إن صاحبك يقول : إنه أُسْرِي به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، ثم عُرِج به إلى السماء ، فما كان من الصِّدّيق إلا أنْ قال : إنْ كان قال فقد صدق ، هكذا دون مناقشة ، فالأمر من أعلى ، من الله .

وقلنا : إنك لو عُدْتَ مريضاً فوجدتَ بجواره كثيراً من الأدوية فسألته : لماذا كل هذا الدواء ؟ قال : لقد وصفه الطبيب ، فأخذت تعترض على هذا الدواء ، وتذكر من تفاعلاته وأضراره وعناصره ، وأقحمت نفسك في مسألة لا دَخْلَ لك بها .

هذا قياس مع الفارق ومع الاعتراف بأخطاء الأطباء في وصف الدواء ، لكن لتوضيح المسألة ولله المثل الأعلى ، وصدق القائل :

سُبْحانَ مَنْ يَرِثُ الطَّبِيبَ وطِبَّهُ . . . ويُرِي المريض مَصَارِعَ الآسِينا

إذن : حجة كل أمر ليس أن نعلم حكمته ، إنما يكفي أنْ نعلم الآمر به .

(188/520)

ومعنى ﴿ آيَاتٍ . . ﴾ [الحج : 16] أي : عجائب ﴿ بَيِّنَاتٍ . . ﴾ [الحج : 16] واضحات . وسبق أنْ ذكرنا أنْ كلمة الآيات تُطلَق على معَانٍ ثلاثة : الآيات الكونية التي تُثبِت قدرة الله ، وبها يستقر الإيمان في النفوس ، ومنها الليل والنهار والشمس والقمر ،

والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة للرسل لإثبات صِدْق بلاغهم عن الله ، والآيات التي يتكوَّن منها القرآن ، وتُسمَّى " حاملة الأحكام " .

فالمعنى هنا ﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . ﴾ [الحج : 16] تحمل كلمة الآيات كُلَّ هذه المعاني ، فآيات القرآن فيها الآيات الكونية ، وفيها المعجزة ، وهي ذاتها آيات الأحكام .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ . . ﴾ [الحج : 16] وهذه من المسائل التي وقف الناس حولها طويلاً : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ . . ﴾ [النحل : 93] وأمثالها تمسَّك بها مَنْ ليس لهم حَظٌّ من الهداية ، يقولون : لمَ يُرِدِ الله لنا الهداية ، فماذا نفعل ؟ وما ذنبنا ؟

وهذه وقفة عقلية خاطئة ؛ لأن الوَقْفة العقلية تقتضي أنْ تذكر الشيء ومقابله ، أما هؤلاء فقد نبَّهوا العقل للتناقض في واحدة وتركوا الأخرى ، فهي – إذن – وَقْفة تبريرية ، فالضال الذي يقول : لقد كتب الله عليَّ الضلال ، فما ذنبي ؟ لماذا لمْ يَقُلْ : الطائع الذي كتب الله له الهداية ، لماذا يثيبه ؟ !

فلماذا تركتم الخير وناقشتم في الشر ؟

والمتأمل في الآيات التي تتحدث عن مشيئة الله في الإضلال والهداية يجد أنه سبحانه قد بيّن مَنْ شاء أنْ يُضلّه ، وبين مَنْ شاء أنْ يهديه ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القوم

الكافرين ﴾ [المائدة : 67] إذن : كُفْره سابق لعدم هدايته وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ [المنافقون : 6] وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ [القصص : 50] .

(189/520)

إنما يهدي مَنْ آمن به ، أما هؤلاء الذين اختاروا الكفر واطمأنوا إليه وركنوا ، فإن الله تعالى يختم على قلوبهم ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، لأنهم أحبُّوه فزادهم منه كما زاد المؤمنين إيماناً : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى . . ﴾ [محمد : 17] .

والهداية هنا بمعنى الدلالة على الخير ، وسبق أنْ ضربنا لها مثلاً ، ولله تعالى المثَل الأعلى : هَبْ أنك تسلك طريقاً لا تعرفه ، فتوقفتَ عند جندي المرور وسألته عن وجهتك فدلَّكَ عليها ، ووصف لك الطريق الموصِّل إليها . لكن ، هل دلالته لك تُلزمك أنْ تسلك الطريق الذي وُصِف لك ؟

بالطبع أنت حُرٌّ تسير فيه أو في غيره . فإذا ما حفظتَ لرجل المرور جميلَهُ وشكرته عليه ، ولمس هو فيك الخير ، فإنه يُعينك بنفسه على عقبات الطريق ، وربما ركب معك ليجتاز بك منطقة خطرة يخاف عليك منها . هذا معنى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى

وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17] .

أما لو تعاليتَ على هذا الرجل ، أو اتهمته بعدم المعرفة بمسالك الطرق ، فإنه يدعُكَ وشأنك ، ويضِنُّ عليك بمجرد النصيحة .

وهكذا . . الحق – سبحانه وتعالى – دَلَّ المؤمن ودَلَّ الكافر على الخير ، المؤمن رضي بالله وقَبِل أمره ونَهْيه ، وحمد الله على هذه النعمة ، فزاده إيماناً وأعانه على مشقة العبادة ، وجعل له نوراً يسير على هَدْيه ، أما الكافر فقد تركه يتخبّط في ظلمات كفره ، ويتردد في متاهات العمى والضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(190/520)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾

قوله : ﴿ مَن كَانَ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ شرطيةً ، وهو الظاهرُ ، وأَنْ تكونَ موصولةً . وقوله : ﴿ فَلْيَمْدُدْ ﴾ إمَّا جزاءٌ للشرط أو خبرٌ للموصول ، والفاءُ للتشبيه بالشرطِ .

والجمهورُ على كسرِ اللامِ مِنْ " لِيَقْطَعْ " وسَكَّنها بعضُهم ، كما سَكَّنها بعد الفاءِ والواوِ

لكونِهنَّ عواطفَ . وكذلك أَجْرَوْا " ثم " مُجْراهما في تَسكينِ هاء " هو " و " هي " بعدها ، وهي قراءةُ الكسائي ونافعٍ في رواية قالون عنه .

قوله : ﴿ هَلْ يُذْهِبَنَّ ﴾ الجملةُ الاستفهاميةُ في محلِّ نصبٍ على إسقاطِ الخافض ؛ لأنَّ النظرَ يُعَلَّقُ بالاستفهام ، وإذا كان بمعنى الفكر تَعَدَّى ب في . وقوله : ﴿ مَا يَغِيظُ ﴾ " ما " موصولةٌ بمعنى الذي ، والعائدُ هو الضميرُ المستتر . و " ما " وصلتُها مفعولٌ بقوله " يُذْهِبَنَّ " أي : هل يُذْهِبَنَّ كيدُه الشيءَ الذي يَغِيْظُه . فالمرفوعُ في يَغيظه عائدٌ على الذي ، والمنصوبُ على مَنْ كان يظن .

وقال الشيخ : " وما في " ما يَغيظ " بمعنى الذي ، والعائدُ محذوفٌ أو مصدريةٌ " . قلت : كلا هذين القولينِ لا يَصِحُّ . أمَّا قولُه : " العائدُ محذوفٌ " فليس كذلك ، بل هو مضمرٌ مستترٌ في حكم الموجودِ كما تقدَّم تقريرُه قبلَ ذلك وإنما يُقال محذوفٌ فيما كان منصوبَ المحلِّ أو مجرورَه . وأمَّا قولُه : " أو مصدريةٌ " فليس كذلك أيضاً ؛ إذ لو كانت مصدريةً لكانت حَرْفاً على الصحيح ، وإذا كانَتْ حرفاً لم يَعُدْ عليها ضميرٌ ، وإذا لم يَعُدْ عليها ضميرٌ بقي الفعل بلا فاعلٍ . فإن قلتَ : أُضْمِرُ في " يَغيظ " ضميراً فاعلاً يعود على مَنْ كان يظنُّ . فالجواب : أنَّ مَنْ كان يظنُّ ، في المعنى مَغِيظٌ لا غائظٌ ، وهذا بحثٌ حسنٌ فتأمَّله/

.

والضمير في "يَنْصُرَه" الظاهرُ عَوْدُه على "مَنْ" وفُسِّر النصرُ بالرزقِ . وقيل : يعودُ على الدينِ والإِسلامِ فالنصرُ على بابه .

قوله : ﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ ﴾ : الكافُ : إمَّا حالٌ من ضميرِ المصدرِ المقدر ، وإمَّا نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ على حَسَبِ ما تقدَّم من الخلاف أي : ومثلَ ذلك الإِنزالِ أَنْزَلْنا القرآنَ كلَّه آياتٍ بيناتٍ . ف "آياتٍ" حالٌ .

قوله : ﴿ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي ﴾ يجوز في "أنَّ" ثلاثةُ أوجهٍ أحدُها : أنَّها منصوبةٌ المحلِّ عَطْفاً على مفعولِ "أَنْزَلْناه" أي : وأنزَلْنا أنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يريد . أي : أَنْزَلْنا هدايةَ اللهِ لمن يريدُ هدايتَه . الثاني : أنها على حَذْفِ حرفِ الجر ، وذلك الحرفُ متعلقٌ بمحذوفٍ . والتقديرُ : ولأنَّ اللهَ يهدِي مَنْ يريدُ أَنْزَلناه ، فيجيءُ في موضعها القولان المشهوران : أفي محلِّ نَصْبٍ هي أم جر . وإلى هذا ذهب الزمخشريُّ وقال في تقديره : " ولأنَّ اللهَ يهديْ به الذي يعلمُ أنهم يؤمنونَ أنزله كذلك مبيَّناً " . الثالث : أنها في محلِّ رفعٍ خبراً لمبتدأ مضمر ، تقديرُه : والأمرُ أنَّ اللهَ يهدِي مَنْ يريد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 241 .

243 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (14) ﴾

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ : أي صَدَّقُوا ثم حقَّقُوا ؛ فالإيمانُ ظاهِرُه التصديق وباطنه التحقيق ، ولا يصل العبد إليهما إلا بالتوفيق .

ويقال الإيمان انتسام الحق في السِّرِّ .

ويقال الإيمان ما يوجب الأمان ، ففي الحال يجب الإيمان وفي المآل يوجب الأمان ، فمُعَجَّلُ الإيمان من (. . .) المسلمين ، مؤجَّلُه الخلاصُ من صحبة الكافرين الفاسقين .

قوله : ﴿ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ : العمل الصالح ما يصلح للقبول ، ويصلح للثواب ، وهو أن يكون على الوجه الذي تعلَّق به الإيمان .

والجنان التي يدخل المؤمنين فيها مؤجلة ومعجلة ، فالمُؤَجَّلَة ثواب وتوبة ، والمعَجَّلَةُ احوالٌ وقربة ، قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] .

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15)

أي أنَّ الحقَّ – سبحانه – يرغم اعداءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَمَنْ لم تَطبْ نفْسُه بشهود تخصيص الله سبحانه بما أفرده به فليقتل نَفْسَه من الغيظ خَنْقاً ، ثم لا ينفعه ذلك كما قيل :

إنْ كنتَ لا ترضى بما قد ترى . . . فدونَكَ الحَبْلَ به فاخْنق

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16)

(193/520)

﴿ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ : أي دلالات وعلامات نَصبَهَا الحقُّ سبحانه لعباده ، فمن الآيات ماهو قضية العقل ، ومنها ما هو قضية الخبر والنقل ، ومنها ماهو تعريفات في أوقات المعاملات فما يجده العبد في حالاته من انغلاقٍ ، واشتداد قبضٍ ، وحصول خسران ، ووجوه امتحان . . لا شكَّ ولا مرية إذا أَخَلَّ بواجبٍ أو أَلَمَّ بمحظور . أو تكون زيادة بَسْطٍ أو حلاوة طاعة ، او تيسير عسيرٍ من الأمور ، أو تجدد إنعامٍ عند حصول شيءٍ من طاعاته .

ثم قد يكون آيات في الاسرار ، هي خطابُ الحقِّ ومحادثةٌ معه ، كما في الخبر :

" لقد كان في الأمم مُحَدَّثون فإن يك في أمتي فعمر " .

ثم يقال الآيات ظاهرةٌ ، والحجج زاهرة ، ولكن الشأن فيمن يستبصر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 533.534 ﴾

(194/520)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ذلك موجباً للسؤال ، عن حال الفريقين : المهدي والضال ، أجاب عن ذلك ببيان جميع فرق الضلال ، لأن لهذه السورة أتم نظر إلى يوم الجمع الذي هو مقصود السورة التي قبلها ، فقصد إلى استيعاب الفرق تصويراً لذلك اليوم بأليق صورة ، وقرن بكل من فريقي أهل الكتاب موافقة في معناه فقال : ﴿ إن الذين ءامنوا ﴾ أي من أيّ فرقة كانوا ، وعبر بالفعل ليشمل الإقرار باللسان ، الذي هو أدنى وجوه الإيمان ﴿ والذين هادوا ﴾ أي انتحلوا اليهودية ، على أيّ حال كانوا من إيمان أو كفران .

ولما كان اليهود عبدوا الأصنام متقربين بها إلى النجوم كما مضى في المائدة ، أتبعهم من

شابهوه فقال : ﴿ والصابئين ﴾ ثم تلا بثاني فريقي أهل الكتاب فقال : ﴿ والنصارى ﴾ ثم أتبعهم من أشبهه بعض فرقهم في قولهم بإلهين اثنين فقال : ﴿ والمجوس ﴾ وهم عبدة النار ؛ ثم ختم بأعم الكل في الضلال كما فتح بأعمهم في الهدى فقال : ﴿ والذين أشركوا ﴾ لشموله كل شرك حتى الأصغر من الربا وغيره ﴿ إن الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الملك كله وهو أحكم الحاكمين ﴿ يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ فيجازي كلاًّ بعمله على ما يقتضيه في مجاري عاداتكم ، ويقتص لبعضهم من بعض ، ويميز الخبيث منهم من الطيب ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الجامع لجميع صفات الكمال ﴿ على كل شيء ﴾ من الأشياء كلها ﴿ شهيد ﴾ فلا شيء إلا وهو به عليم ، فهو لذلك على كل شيء قدير ، كما مضى بيانه في ﴿ وسع كل شيء علماً ﴾ [طه : 98] في طه ، وقال الحرالي في شرح الأسماء الحسنى : الشهادة رؤية خبرة بطية الشيء ودخلته ممن له غنى في أمره ، فلا شهادة إلا بخبرة وغنى ممن له اعتدال في نفسه بأن لا يحيف على غيره ، فيكون ميزان عدل بينه وبين غيره ، فيحق له أن يكون ميزاناً بين كل متداعيين ممن يحيط بخبرة أمرهما ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ [البقرة : 143] وبحسب إحاطة علم الشهيد ترهب شهادته ، ولذلك أرهب شهادة شهادة الله على خلقه ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله ﴾ [الأنعام : 19] ولما كان أيما

الإحاطة والخبرة والرقبة لله كان بالحقيقة لا شهيد إلا هو - انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 140 ﴾

(195/520)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى ﴾

القراءة : قرى ﴿ حَقّ ﴾ بالضم وقرىء (حقاً) أي حق عليه العذاب حقاً وقرىء ﴿ مُّكْرِمٍ ﴾ بفتح الراء بمعنى الإكرام ، واعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ [الحج : 16] أتبعه في هذه الآية ببيان من يهديه ومن لا يهديه ، واعلم أن المسلم لا يخالفه في المسائل الأصولية إلا طبقات ثلاثة : أحدها : الطبقة المشاركة له في نبوة نبيه كالخلاف بين الجبرية والقدرية في خلق الأفعال البشرية والخلاف بين مثبتي الصفات والرؤية ونفاتها .

وثانيها : الذين يخالفونه في النبوة ولكن يشاركونه في الاعتراف بالفاعل المختار كالخلاف بين المسلمين واليهود والنصارى في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى وموسى عليهما

السلام .

وثالثها : الذين يخالفونه في الإله وهؤلاء هم السوفسطائية المتوقفون في الحقائق ، والدهرية الذين لا يعترفون بوجود مؤثر في العالم ، والفلاسفة الذين يثبتون مؤثراً موجباً لا مختاراً .

فإذا كانت الاختلافات الواقعة في أصول الأديان محصورة في هذه الأقسام الثلاثة ، ثم لا يشك أن أعظم جهات الخلاف هو من جهة القسم الأخير منها .

(196/520)

وهذا القسم الأخير بأقسامه الثلاثة لا يوجدون في العالم المتظاهرين بعقائدهم ومذاهبهم بكل يكونون مستترين ، أما القسم الثاني وهو الاختلاف الحاصل بسبب الأنبياء عليهم السلام ، فتقسيمه أن يقال القائلون بالفاعل المختار ، إما أن يكونوا معترفين بوجود الأنبياء ، أو لا يكونوا معترفين بذلك ، فإما أن يكونوا أتباعاً لمن كان نبياً في الحقيقة أو لمن كان متنبئاً ، أما أتباع الأنبياء عليهم السلام فهم المسلمون واليهود والنصارى ، وفرقة أخرى بين اليهود والنصارى وهم الصابئون ، وأما أتباع المتنبىء فهم المجوس ، وأما المنكرون للأنبياء على الإطلاق فهم عبدة الأصنام والأوثان ، وهم المسمون بالمشركين ، ويدخل فيهم البراهمة على اختلاف طبقاتهم .

فثبت أن الأديان الحاصلة بسبب الاختلافات في الأنبياء عليهم السلام هي هذه الستة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية ، قال قتادة ومقاتل الأديان ستة واحدة لله تعالى وهو الإسلام وخمسة للشيطان ، وتمام الكلام في هذه الآية قد تقدم في سورة البقرة .

أما قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال الزجاج هذا خبر لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين ءَامَنُواْ ﴾ كما تقول إن أخاك ، إن الدين عليه لكثير .

قال جرير :

إن الخليفة إن الله سربله . . سربال ملك به ترجى الخواتيم

المسألة الثانية :

الفصل مطلق فيحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعاً فلا يجازيهم جزاء واحداً بغير تفاوت ولا يجمعهم في موطن واحد وقيل يفصل بينهم يقضي بينهم .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فالمراد أنه يفصل بينهم وهو عالم بما يستحقه كل منهم فلا يجري في ذلك الفصل ظلم ولا حيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 17 ﴾

وقال ابن عطية :

ثم أخبر الله تعالى عن فعله بالفرق المذكورين وهم المؤمنون بمحمد عليه السلام وغيره ، واليهود والصابئون وهم قوم يعبدون الملائكة ويستقبلون القبلة ويوحدون الله ويقرؤون الزبور قاله قتادة ﴿ والنصارى والمجوس ﴾ وهم عبدة النار والشمس والقمر ، والمشركون وهم عبدة الأوثان ، قال قتادة الأديان ستة ، خمسة للشيطان وواحد للرحمن وخبر ﴿ إن ﴾ قوله تعالى الله ﴿ يفصل بينهم ﴾ ، ثم دخلت ﴿ إن ﴾ على الخبر مؤكدة وحسن ذلك لطول الكلام فهي وما بعدها خبر ﴿ إن ﴾ الأولى ، وقرن الزجاج هذه الآية . بقول الشاعر : [البسيط]

إن الخليفة ان الله سربله . . . سربال ملك به ترجى الخواتيم

نقله من الطبري ع وليس هذا البيت كالآية لأن الخبر في البيت في قوله ترجى الخواتيم وإن الثانية وجملتها معترضة بين الكلامين ، ثم تم الكلام كله في قوله تعالى : ﴿ القيامة ﴾ واستأنف الخبر عن ﴿ إن الله على كل شيء شهيد ﴾ عالم به وهذا خبر مستأنف للفصل بين الفرق وفصل الله تعالى بين هذه الفرق هو إدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ ﴾ أي بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ والذين هَادُواْ ﴾ اليهود ، وهم المنتسبون إلى ملة موسى عليه السلام .

﴿ والصابئين ﴾ هم قوم يعبدون النجوم .

﴿ والنصارى ﴾ هم المنتسبون إلى ملّة عيسى .

﴿ والمجوس ﴾ هم عَبَدة النيران القائلين أن للعالم أصلين : نور وظلمة .

قال قتادة : الأديان خمسة ، أربعة للشيطان وواحد للرحمن .

وقيل : المجوس في الأصل النجوس لتديّنهم باستعمال النجاسات ؛ والميم والنون يتعاقبان كالغيم والغين ، والأيم والأين .

وقد مضى في البقرة هذا كله مستوفًى .

﴿ والذين أشركوا ﴾ هم العرب عبدة الأوثان .

﴿ إِنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ أي يقضي ويحكم ؛ فللكافرين النار ، وللمؤمنين الجنة .

وقيل : هذا الفصل بأن يعرّفهم المحقَّ من المبطل بمعرفة ضرورية ، واليوم يتميز المحق عن المبطل بالنظر والاستدلال .

﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي من أعمال خلقه وحركاتهم وأقوالهم ، فلا يَعْزُب عنه شيء منها ، سبحانه ! ، وقوله : "إن الله يفصل بينهم" خبر "إن" في قوله : "إن الذين آمنوا" ؛ كما تقول : إن زيداً إنّ الخير عنده .

وقال الفراء : ولا يجوز في الكلام إن زيداً إن أخاه منطلق ؛ وزعم أنه إنما جاز في الآية لأن في الكلام معنى المجازاة ؛ أي من آمن ومن تهوّد أو تنصّر أو صبأ يفصِل بينهم ، وحسابُهم على الله عز وجل .

وردّ أبو إسحاق على الفراء هذا القول ، واستقبح قوله : لا يجوز إن زيداً إن أخاه منطلق ؛ قال : لأنه لا فرق بين زيد وبين الذين ، و"إن" تدخل على كل مبتدأ فتقول إن زيداً هو منطلق ، ثم تأتي بإن فتقول : إن زيداً إنه منطلق .

وقال الشاعر :

إن الخليفة إن الله سَرْبله . . .

سِربال عِزّ به تُرْجَى الخواتيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(199/520)

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى ﴾

لما ذكر قبل ﴿ أن الله يهدي من يريد ﴾ عقب ببيان من يهديه ومن لا يهديه ، لأن ما قبله يقتضي أن من لا يريد هدايته لا يهديه يدل إثبات الهداية لمن يريد على نفيها عمن لا يريد ، والذين أشركوا هم عبدة الأوثان والأصنام ، ومن عبد غير الله .

قال الزمخشري : ودخلت ﴿ إن ﴾ على كل واحد جزأي الجملة لزيادة التأكيد ، ونحوه قول جرير :

إنَّ الخليفة إنْ الله سربله . . .

سربال ملك به ترجى الخواتيم

وظاهر هذا أنه شبه البيت بالآية ، وكذلك قرنه الزجاج بالآية ولا يتعين أن يكون البيت كالآية لأن البيت يحتمل أن يكون خبر إن الخليفة قوله : به ترجى الخواتيم ، ويكون إن الله سربله سربال ملك جملة اعتراضية بين اسم إن وخبرها بخلاف الآية فإنه يتعين قوله ﴿ إن الله يفصل ﴾ وحسن دخول ﴿ إن ﴾ على الجملة الواقعة خبراً طول الفصل بينهما بالمعاطيف ، والظاهر أن الفصل بينهم يوم القيامة هو بصيرورة المؤمنين إلى الجنة والكافرين إلى النار ، وناسب الختم بقوله ﴿ شهيداً ﴾ الفصل بين الفرق .

وقال الزمخشري : الفصل مطلق يحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعاً فلا يجازيهم جزاءً واحداً بغير تفاوت ، ولا يجمعهم في موطن واحد .

وقيل ﴿ يفصل بينهم ﴾ يقضي بين المؤمنين والكافرين ، والظاهر أن السجود هنا عبارة عن طواعية ما ذكر تعالى والانقياد لما يريده تعالى ، وهذا معنى شمل من يعقل وما لا يعقل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(200/520)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ أي بما ذُكر من الآياتِ البيّناتِ بهدايةِ الله تعالى أو بكلِّ ما يجبُ أنْ يُؤمن به فيدخلُ فيه ما ذُكر دخولاً أولِيًّا ﴿ والذين هَادُواْ والصابئين والنصارى والمجوس ﴾ قيل : هم قوم يعبدون النَّارَ ، وقيل : الشَّمسَ والقمرَ ، وقيل : هم قوم من النَّصارى اعتزلُوا عنهم ولبسوا المُسوح ، وقيل : أخذُوا من دين النَّصارى شيئاً ومن دين اليَهودِ شيئاً وهم القائلون بأنَّ للعالم أصلينِ نوراً وظلمة . ﴿ والذين أَشْرَكُواْ ﴾ هم عَبَدة الأصنامِ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ في حيّز الرّفعِ على أنَّه خبرٌ لإنَّ السَّابقةِ ، وتصدير طرفَيْ الجملتين بحرفِ التَّحقيق لزيادة التَّقديرِ والتَّأكيدِ ، أي يقضي بين المؤمنينَ

وبين الفرقِ الخمسِ المتَّفقةِ على ملَّةِ الكُفرِ بإظهار المحقّ من المبطل وتوفيةِ كلَ منهما حقَّهُ من الجزاء بإثابة الأوّلِ وعقاب الثَّاني بحسب استحقاقِ أفراد كلَ منهما وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ تعليل لما قبله من الفصل أي عالمٌ بكلِّ شيءٍ من الأشياء ومراقبٌ لأحواله ومن قضيَّتِه الإحاطةُ بتفاصيل ما صدرَ عن كلِّ فردٍ من أفراد الفرق المذكورةِ وإجراءُ جزائه اللاَّئقِ به عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(201/520)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾

أي بما ذكر من المنزل بهداية الله تعالى أو بكل ما يجب أن يؤمن به ويدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً ﴿ والذين هَادُواْ والصابئين ﴾ هم على ما أخرج ابن جرير .

وغيره عن قتادة قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى البقلة ويقرؤون الزبور ، وفي "القاموس" هم قوم يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام وقبلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار ، وفي كتاب الملل والنحل للشهرستاني أن الصابئة كانوا على عهد إبراهيم عليه

السلام ويقال لمقابليهم الحنفاء وكانوا يقولون : إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأمره وأحكامه جل شأنه إلى متوسط روحاني لا جسماني .

ومدار مذاهبهم على التعصب للروحانيات وكانوا يعظمونها غاية التعظيم ويتقربون إليها ولما لم يتيسر لهم التقرب إلى أعيانها والتلقي منها بذواتها فزعت جماعة إلى هياكلها وهي السبع السيارات وبعض الثوابت ، فصابئة الروم مفزعها السيارات وصابئة الهند مفزعها الثواب ، وربما نزلوا عن الهياكل إلى الأشخاص التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئاً ، والفرقة الأولى هم عبدة الكوكب ، والثانية هم عبدة الأصنام .

وقد أفحم إبراهيم عليه السلام كلتا الفرقتين وألزمهم الحجة .

وذكر في موضع آخر أن ظهورهم كان في أول سنة من ملك طهمورث من ملوك الفرس ، ولفظ الصابئة عربي من صبا كمنع وكرم صباً وصبواً خرج من دين إلى آخر ﴿ والنصارى والمجوس ﴾ هم على ما روي عن قتادة أيضاً قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران ، واقتصر بعضهم على وصفهم بعبادة الشمس والقمر ، وآخرون على وصفهم بعبادة النيران .

وقيل : هم قوم اعتزلوا النصارى ولبسوا المسوح .

وقيل : قوم أخذوا من دين النصارى شيئاً ومن دين اليهود شيئاً وهم قائلون بأن للعالم أصلين نوراً وظلمة .

وفي كتاب الملل والنحل ما يدل على أنهم طوائف وأنهم كانوا قبل اليهود والنصارى وأنهم يقولون بالشرائع على خلاف الصابئة وأن لهم شبهة كتاب وأنهم يعظمون النار ، وفيه أن بيوت النيران للمجوس كثيرة فأول بيت بناه افريدون بيت نار بطوس ، وآخر بمدينة بخارى هو بردسون ، واتخذ بهمن بيتاً بسجستان يدعى كركو ، ولهم بيت نار ببخارى أيضاً يدعى قبادان .

وبيت نار يسمى كونشه بين فارس وأصفهان بناه كيخسرد .

وآخر بقومش يسمى جرير .

وبيت نار كيكدر بناه في مشرق الصين ، وآخر بارجان من فارس اتخذه أرجان جد كشتاسف ، وكل هذه البيوت كانت قبل زرادشت .

ثم جدد زرادشت بيت نار بنيسا بعد كشتاسف أن تطلب النار التي كان يعظمها جم فوجدوها بمدينة خوارزم فنقلها إلى دار ابجرد والمجوس يعظمونها أكثر من غيرها وكيخسرد ، ولما غزا افراسياب عظمها وسجد لها .

ويقال : إن أنوشروان هو الذي نقلها إلى كارشان فتركوا بعضها هناك وحملوا بعضها إلى

نسا .

وفي بلاد الروم على باب قسطنطينية بيت نار اتخذه شابور بن ازدشير فلم تزل كذلك إلى أيام المهدي .

وبيت نار باسفيثا على قرب مدينة السلام لبوران بنت كسرى .

وفي الهند والصين بيوت نيران أيضاً .

والمجوس إنما يعظمون النار لمعان .

منها أنها جوهر شريف علوي يظنون أن ذلك ينجيهم من عذاب نار يوم القيامة ولم يدروا أن ذلك السبب الأعظم لعذابهم اه .

وفيه ما لا يخفى على من راجع التواريخ .

وفي "القاموس" مجوس كصبور رجل صغير الأذنين وضع ديناً ودعا إليه معرب ميخ كوش .

وفي "الصحاح" المجوسية نحلة والمجوسي نسبة إليها والجمع المجوس .

قال أبو علي النحوي : المجوس واليهود إنما عرفا على حد يهودي ويهود ومجوسي ومجوس فجمع على قياس شعيرة وشعير ثم عرف الجمع بالألف واللام ولولا ذلك لم يجز دخول الألف واللام عليهما لأنها معرفتان مؤنثان فجريا في كلامهم مجرى القبيلتين ولم يجعلا كالحيين في باب الصرف .

وأنشد

: أحار أريك برقا هب وهنا . . .

(203/520)

كنار مجوس يستعر استعارا

انتهى .

وذكر بعضهم أن مجوس معرب موكوش وأطلق على أولئك القوم لأنهم كانوا يرسلون شعور رؤوسهم إلى آذانهم .

ونقل في "البحر" أن الميم بدل من النون ، وأطلق ذلك عليهم لاستعمالهم النجاسات وهو قول لا يعول عليه ﴿ والذين أَشْرَكُواْ ﴾ المشهور أنهم عبدة الأوثان ، وقيل ما يعمهم وسائر من عبد مع الله تعالى إلها آخر من ملك وكوكب وغيرهما ممن لم يشتهر باسم خاص كالصابئة والمجوس ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ في حيز الرفع على أنه خبر لأن السابقة وأدخلت إن على كل واحد من جزئي الجملة لزيادة التأكيد كما في قول جرير

: إن الخليفة إن الله سربله . . .

سربال ملك به تزجى الخواتيم

وقيل : خبر إن الأولى محذوف أي مفترقون يوم القيامة أو نحو ذلك مما يدل عليه قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ الخ فإن قولك : إن زيداً إن عمراً يضربه ردىء ، والبيت لا يتعين فيه جعل الجملة المقترنة بأن خبراً بل يجوز أن تكون معترضة والخبر جملة به تزجى الخواتيم ، ولا يخفى عليك بعد تسليم الرداءة أن الآية ليست كالمثال المذكور لطول الفاصل فيها ، قال في "البحر" : وحسن دخول إن في الجملة الواقعة خبراً في الآية طول الفصل بالمعاطيف ، وقال الزجاج : زعم قوم أن قولك : إن زيداً أنه قائم ردىء وأن هذه الآية إنما صلحت بتقدم الموصول ولا فرق بين الموصول وغيره في باب إن وليس بين البصريين خلاف في أن إن تدخل على كل مبتدأ وخبر فعلي هذا لا ينبغي العدول على الوجه المتبادر ، والمراد بالفصل القضاء أي إنه تعالى يقضي بين المؤمنين والفرق الخمس المتفقة على الكفر بإظهار المحق من المبطل وتوفية كل منهما حقه من الجزاء بإثابة المؤمنين وعقاب الفرق الآخرين بحسب استحقاق أفراد كل منهما ، وقيل : المراد أنه تعالى يفصل بين الفرق الست في الأحوال والأماكن جميعاً فلا يجازيهم جزاءً واحداً بلا تفاوت بل يجزي المؤمنين بما يليق واليهود بما يليق بهم وهكذا ولا يجمعهم في موطن واحد بل يجعل المؤمنين في الجنة وكلاً من

الفرق الكافرة في طبقة من طبقات النار ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ تعليل لما قبله من الفصل أي أنه تعالى عالم بكل شيء من الأشياء ومراقب لأحواله ومن قضيته الإحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد من أفراد الفرق المذكورة وإجراء جزائه اللائق به عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(205/520)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى ﴾

فذلكة لما تقدم ، لأنه لما اشتملت الآيات السابقة على بيان أحوال المترددين في قبول الإسلام كان ذلك مثاراً لأن يتساءل عن أحوال الفرق بعضهم مع بعض في مختلف الأديان ، وأن يسأل عن الدين الحق لأن كل أمة تدَّعي أنها على الحق وغيرها على الباطل وتجادل في ذلك .

فبينت هذه الآية أن الفصل بين أهل الأديان فيما اختصموا فيه يكون يوم القيامة ، إذ لم تفدهم الحجج في الدنيا .

وهذا الكلام بما فيه من إجمال هو جار مجرى التفويض ، ومثله يكون كناية عن تصويب

المتكلم طريقته وتخطئته طريقة خصمه ، لأن مثل ذلك التفويض لله لا يكون إلا من الواثق بأنه على الحق وهو كقوله تعالى : ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ [الشورى : 15] وذلك من قبيل الكناية التعريضية .

وذِكر المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين تقدم في آية البقرة وآية العقود .

وزاد في هذه الآية ذكر المجوس والمشركين ، لأن الآيتين المتقدمتين كانتا في مساق بيان فضل التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر في كل زمان وفي كل أمة .

وزيد في هذه السورة ذكر المجوس والمشركين لأن هذه الآية مسوقة لبيان التفويض إلى الله في الحكم بين أهل المِلل ، فالمجوس والمشركون ليسوا من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر .

فأما المجوس فهم أهل دين يثبت إلهين : إلهاً للخير ، وإلهاً للشرّ ، وهم أهل فارس .

ثم هي تتشعب شعباً تأوي إلى هذين الأصلين .

وأقدم النِحَل المجوسية أسسها (كيومرث) الذي هو أول ملك بفارس في أزمنة قديمة يظن أنها قبل زمن إبراهيم عليه السلام ، ولذلك يلقب أيضاً بلقب (جل شاه) تفسيره : ملك الأرض .

غير أن ذلك ليس مضبوطاً بوجه علمي وكان عصرُ (كيومرث) يلقب (زروان) أي الأزل ، فكان أصل المجوسية هم أهل الديانة المسماة : الزروانية وهي تثبت إلهين هما (يَزدَان) و(أهْرُمُن) .

قالوا : كان يَزذان منفرداً بالوجود الأزلي ، وأنه كان نُورانياً ، وأنه بقي كذلك تسعة آلاف وتسعين سنة ثم حدث له خاطر في نفسه : أنه لو حَدَث له منازع كيف يكون الأمر فنشأ من هذا الخاطر موجود جديد ظلماني سمي (أهْرُمُن) وهو إله الظلمة مطبوعاً على الشرّ والضرّ .

وإلى هذا أشار أبو العلاء المعرّي بقوله في لزومياته:

قال أناسٌ باطل زعمهُم . . .

فراقِبُوا الله ولاَ تَزعُمُنْ

فكّرَ يَزدانُ على غِرّة . . .

فصيغ من تفكيره أهْرُمُن

فحدث بين (أهْرُمن) وبين (يزدان) خلاف ومحاربة إلى الأبد .

ثمّ نشأت على هذا الدّين نحل خُصّت بألقاب وهي متقاربة التعاليم أشهرها نحلة (زَرَادَشْت) الذي ظهر في القرن السادس قبل ميلاد المسيح ، وبه اشتهرت المجوسية .

وقد سمي إله الخير (أهُورَا مَزْدَا) أو (أرمزد) أو (هرمز) ، وسمي إله الشرّ (أهْرُمن) ،

وجعل إله الخير نوراً ، وإله الشر ظلمة .

ثم دعا الناس إلى عبادة النار على أنها مظهر إله الخير وهو النّور .

ووسّع شريعة المجوسية ، ووضع لها كتاباً سمّاه "زَندافستا" .

ومن أصول شريعته تجنّب عبادة التماثيل .

ثم ظهرت في المجوس نِحلة "المَانوية" ، وهي المنسوبة إلى (مَاني) الذي ظهر في زمن سابور بن أردشير ملك الفرس بين سنة 238 وسنة 271م .

وظهرت في المجوس نحلة (المزدكية) ، وهي منسوبة إلى (مَزدك) الذي ظهر في زمن قُباذ بين سنة 487 وسنة 523م .

وهي نحلة قريبة من (المانوية) ، وهي آخر نحلة ظهرت في تطور المجوسيّة قبل الفتح الإسلامي لبلاد الفرس .

وللمجوسية شبه في الأصل بالإشراك إلا أنها تخالفه بمنع عبادة الأحجار ، وبأن لها كتاباً ، فأشبهوا بذلك أهل الكتاب .

(207/520)

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهم : " سُنوا بهم سنة أهل الكتاب " أي في الاكتفاء بأخذ الجزية منهم دون الإكراه على الإسلام كما يُكره المشركون على الدخول في الإسلام .

وقد تقدم شيء من هذا عند قوله تعالى : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ في [سورة النحل : 51] .

وأعيدت (إنّ) في صدر الجملة الواقعة خبراً عن اسم (إنّ) الأولى توكيداً لفظياً للخبر لطول الفصل بين اسم (إن) وخبرها .

وكون خبرها جملة وهو توكيد حسن بسبب طول الفصل .

وتقدم منه قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ في [سورة الكهف : 30] .

وإذا لم يطل الفصل فالتوكيد بإعادة (إن) أقل حُسناً كقول جرير :

إنّ الخليفة أنّ الله سربلَه . . .

سِربال مُلك به تُزْجَى الخواتيم

ولا يحسن إذا كان مبتدأ الجملة الواقعة خبراً ضميرَ اسم (إنّ) الأولى كما تقول : إن زيداً إنه قائم ، بل لا بد من الاختلاف ليكون المؤكد الثاني غير الأول فتقبل إعادة المؤكد وإن كان المؤكّد الأول كافياً .

والفصل : الحكم ، أي يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من تصحيح الديانة .

وجملة ﴿ إن الله على كل شيء شهيد ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً للإعلام بإحاطة علم الله بأحوالهم واختلافهم والصحيح من أقوالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(208/520)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى ﴾

هذه فئات ست أخبر الله عنها بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة . . ﴾ [الحج : 17] ومعنى الفصل بينهم أن بينهم خلافاً ومعركة ، ولو تتبعتَ الآيات التي ذكرت هذه الفئات تجد أن هناك آيتين في البقرة وفي المائدة .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ والنصارى والصابئين مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 62] .

وفي المائدة يُقدِّم الصابئين على النصارى ، وفي هذا الموضع تأتي بالرفع بالواو ، يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ والصابئون والنصارى مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وعَمِلَ

صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة : 69] .

﴿ الذين آمَنُواْ . . ﴾ [الحج : 17] أي : بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ﴿ والذين هَادُواْ . . ﴾ [الحج : 17] أي : اليهود ، ثم النصارى وهما قبل الإسلام ، أما الصابئون : فهؤلاء جماعة كانوا على دين إبراهيم عليه السلام ، ثم عبدوا الكواكب فَسُمُّوا الصابئة لخروجهم عن الدين الحق . أما المجوس : فهم عبدة النار ، والذين أشركوا : هم المشركون عَبَدة الأصنام والأوثان .

أما التقديم والتأخير بين النصارى والصابئين ، قالوا : لأن النصارى فرقة كبيرة معروفة ولهم نبي ، أما الصابئة فكانوا جماعة خرجوا على نبيهم وخالفوه وأَتَوْا بعقيدة غير عقيدته ، فهم قلَّة ، لكن سبقوا النصارى في الترتيب الزمني ؛ لذلك حين يراعي السَّبْقَ الزمني يقول : ﴿ والصابئين والنصارى . . ﴾ [الحج : 17] وحين يراعي الكثرة والشهرة ، يقول : ﴿ والنصارى والصابئين . . ﴾ [البقرة : 62] فكلٌّ من التقديم أو التأخير مُراد لمعنى مُعيَّن .

(209/520)

أما قوله : ﴿ والصابئون . . ﴾ [المائدة : 69] بالرفع على خلاف القاعدة في العطف ، حيث عطفت على منصوب ، والمعطوف تابع للمعطوف عليه في إعرابه ، فلماذا وسَّط مرفوعاً بين منصوبات ؟

قالوا : لا يتم الرفع بين المنصوبات إلا بعد تمام الجملة ، فكأنه قال : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ، والصابئون كذلك ، فعطف هنا جملة تامة ، فهي مُؤخَّرة في المعنى ، مُقدَّمة في اللفظ ، وهكذا تشمل الآية التقديم والتأخير السابق .

لكن ، كيف ينشأ الخلاف بين الأديان ؟

ينشأ الخلاف من أن قوماً يؤمنون بإله ويؤمنون بالنبي المبلِّغ عن هذا الإله ، لكنهم يختلفون على أشياء فيما بينهم ، كما نرى الخلاف مثلاً بين المعتزلة وأهل السنة ، أو الجبرية والقدرية ، فجماعة تثبت الصفات ، وآخرون يُنكرونها ، جماعة يقولون : الإنسان مُجْبَر في تصرفاته ، وآخرون يقولون : بل هو مختار .

وقد ينشأ الخلاف بين الأديان للاختلاف في النبوات ، فأهل الديانات يؤمنون بالإله الفاعل المختار ، لكن يختلفون في الأنبياء موسى وعيسى ومحمد مع أنهم جميعاً حَقٌّ . وقد ينشأ الخلاف من الادعاء ، كالذين يدَّعُون النبوة كهؤلاء الذين يعبدون النار ، أو يعبدون بوذا مثلاً .

فهذه ست طوائف مختلفة ذكرتهم الآية ، فما حكم هؤلاء جميعاً بعد بعثة محمد صلى الله

عليه وسلم ؟

نقول : أما المشركون الذين عبدوا الأصنام ، وكذلك الذين عبدوا النبوة المدّعاة ، فهؤلاء كفار ضائعون .

أما اليهود والنصارى الذين يؤمنون بإله فاعل مختار ، ويؤمنون بنبوة صادقة ، فشأنهم بعد ظهور الإسلام ، أن الله تعالى أقام لنا تصفية آخر الأمر لهذه الديانات ، فمَنْ كان يهودياً قبل الإسلام ، ومن كان نصرانياً قبل الإسلام ، فإن الله أجْرى لهم تصفية عقدية هي الإسلام ، فإنْ كانوا مؤمنين الإيمان الأول بالله تعالى فعليهم أنْ يبدأوا من جديد مؤمنين مسلمين .

(210/520)

لذلك قال بعدها : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 62] .

فبعد ظهور الإسلام بدأت لهؤلاء جميعاً – اليهود والنصارى والمجوس والمشركين – حياة جديدة ، وفُتِحَتْ لهم صفحة جديدة هم فيها أولاد اليوم ، حيث لزمهم جميعاً الإيمان بالله تعالى والإيمان بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وكأن الإسلام تصفية (وأوكازيون إيماني) يجُبُّ ما قبله ، وعفا الله عما سلف .

والحق – سبحانه – حينما تكلم عن الأجيال السابقة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النبيين لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي قالوا أَقْرَرْنَا قَالَ فاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين ﴾ [آل عمران : 81] لذلك نبَّه كُلٌّ من موسى وعيسى – عليهما السلام – بوجود محمد صلى الله عليه وسلم وبشَّروا به ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ . . ﴾ [البقرة : 89] والمراد اليهود والنصارى .

وقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، وجامعاً للأديان كلها في الإسلام الذي زاد عليها ما زاد مما تقتضيه أمور الحياة وتطورات العصر ، إلى أن تقوم الساعة .

جاء الإسلام تصفية لهؤلاء ، استأنفوها بإيمان ، واستأنفوها بعمل صالح ، فكان لهم أجرهم كاملاً عند ربهم لا يطعن فيهم دينهم السابق ، ولا عقائدهم الفاسدة الكافرة .

(211/520)

أما إنْ حدث خلاف حول النبوات كما تذكر الآية التي نحن بصددها : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : 17] والفَصْل أن نعرف مِنَ

المحقُّ ومَنِ المبطل ، وهكذا جمعتْ الآيات بين حالة الاتفاق وحالة الاختلاف وبيَّنَتْ جزاء كل منهما .

فالفصل إما فصل أماكن ، وإما فصل جزاءات ، قالوا : بالطبع فالحكم بينهم : هذا مُحِقٌّ وهذا مُبطِل سيؤدي إلى اختلاف الأماكن واختلاف الجزاءات .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : 17] لأن الله تعالى هو الحكَم الذي يفصل بين عباده ، والحكم يحتاج إما إلى بينة أو شهود ، والشهود لا بُدَّ أن يكونوا عُدولاً ، ولا يتحقق العدل في الشهادة إلا بدين يمنع الإنسان أنْ يميل عن الحق ، فإن كان الحكم هو الله فلا حاجة لبيِّنة ، ولا حاجةَ لشهود ؛ لأنه سبحانه يحيط علمه بكل شيء ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض .

ومن العجيب أن الحُكْم والفَصْل من الحق سبحانه يشمل كل السلطات : التشريعية والقضائية والتنفيذية ، فحُكْمه سبحانه لا يُؤجَّل ولا يُتحّايل عليه ، ولا تضيع فيه الحقوق كما تضيع في سراديب وأدراج المحاكم .

أما حُكْم البشر فينفصل فيه التشريع عن القضاء عن التنفيذ ، فربما صدر الحكم وتعطَّل تنفيذه ، أما حكم الله فنافذ لا يُؤجِّله شيء .

إذن : المسألة لن تمرَّ هكذا ، بل هي محسوبة لك أو عليك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ ﴾

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الآية . قال : الصابئون قوم يعبدون الملائكة ويصلون القبلة ويقرأون الزبور ﴿ والمجوس ﴾ عبدة الشمس والقمر والنيران وأما ﴿ الذين أشركوا ﴾ فهم عبدة الأوثان ﴿ إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ قال : الأديان ستة : فخمسة للشيطان ودين لله عز وجل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ إن الله يفصل بينهم ﴾ قال : فصل قضاءه بينهم فجعل الجنة مشتركة وجعل هذه الأمة واحدة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه قال : قالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله . وقالت الصابئة : نحن نعبد الملائكة من دون الله . وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر من دون الله . وقالت المشركون : نحن نعبد الأوثان من

دون الله . فأوحى الله إلى نبيه ليكذِّبَ قولهم : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الصمد : 1] إلى آخرها ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﴾ [الإسراء : 111] وأنزل الله ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس . . . ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال : ﴿ الذين هادوا ﴾ اليهود ، والصابئون ، ليس لهم كتاب ﴿ والمجوس ﴾ أصحاب الأصنام والمشركون ، نصارى العرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(213/520)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ ﴾ : الآية فيها ثلاثة أُوجه ، أحدُها : أنَّ " إنَّ " الثانيةَ واسمَها وخبرَها في محلِّ رفع خبراً ل " إنَّ " الأولى . قال الزمخشري : " وأُدْخِلَتْ " إنَّ " على كلِّ واحدٍ من جُزْأَي الجملةِ لزيادةِ التأكيدِ . ونحوُه قولُ جريرٍ :

3375 إنَّ الخليفةَ إنَّ اللهَ سَرْبَلَه . . . سِرْبالَ مُلْكٍ به تُرْجَى الخواتيمُ

قال الشيخ : " وظاهرُ هذا أنه شَبَّه البيتَ بالآيةِ ، وكذلك قرنه الزَّجَّاج بالآية ، ولا يتعيَّنُ أن

يكونَ البيتُ كالآية ؛ لأنَّ البيتَ يَحْتمل أَنْ يكونَ " الخليفةَ " خبرُه " به ترجى الخواتيمُ " ، ويكونَ " إنَّ اللهَ سَرْبُله " جملةَ اعتراضٍ بين اسمِ " إنَّ " وخبرِها ، بخلافِ الآيةِ ، فإنه يتعيَّنُ قولُه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ ﴾ . وحَسَّنَ دخولَ " إنَّ " على الجملةِ الواقعةِ خبراً طولُ الفَصْلِ بينهما بالمعاطيف " .

قلت : قوله : " فإنَّه يتعيَّنُ قولُه إن اللهَ يَفْصِل " يعني أن يكونَ خبراً . ليس كذلك لأنَّ الآيةَ محتمِلةٌ لوجهين آخرين ذكرهما الناسُ . الأول : أن يكونَ الخبرُ محذوفاً تقديرُه : يفترقون يومَ القيامة ونحُوه ، والمذكورُ تفسيرٌ له . كذا ذكره أبو البقاء . والثاني : أنَّ " إنَّ " الثانيةَ تكريرٌ للأولى على سبيلِ التوكيدِ . وهذا ماشٍ على القاعدة : وهو أنَّ الحرفَ إذا كُرِّرَ توكيداً أُعِيْدَ معه ما اتَّصل به أو ضميرُ ما اتَّصل به ، وهذا قد أُعِيدَ معه ما أَتَّصل به أولاً : وهي الجلالةُ المعظمةُ ، فلم يتعيَّنْ أَنْ يكونَ قولُه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ ﴾ خبراً ل " إنَّ " الأَوْلى كما ذُكر .

(214/520)

وقد تقدَّم تفسيرُ ألفاظِ هذه الآيةِ ، إلاَّ المجوسَ . وهم قومٌ اختلف أهلُ العلمِ فيهم فقيل : قومٌ يعبدون النارَ . وقيل : الشمسَ والقمرَ . وقيل : اعتزلوا النصارى ولَبِسوا المُسُوْح . وقيل

: أَخَذوا من دين النصارى شيئاً ، ومن دينِ اليهودِ شيئاً ، وهم القائلونَ بأنَّ للعالم أصلين : نورٌ وظلمةٌ . وقيل : هم قومٌ يستعملون النجاساتِ ، والأصل : نَجوس بالنونِ فأُبْدِلَتْ ميماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 243.245 ﴾

(215/520)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

أصناف الناس على اختلاف مراتبهم : الوليُّ والعدوُّ ، والموحّد والجاحد يُجْمَعُون يومَ الحشر ، ثم الحقُّ – سبحانه – يعامِل كلاًّ بما وَعَدَه ؛ إما بوصالٍ بلا مَدَى ، أو بأحوالٍ بلا منتهى . الوقتُ واحد ؛ وكلٌّ واحدٍ لما أُعِدَّ له وافد ، وعلى ما خُلِقَ له وارد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 534.535 ﴾

(216/520)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان جميع ما تقدم في هذه السورة دالاً على أنه على كل شيء قدير ، وأنه يفعل ما يريد ، وختم ذلك بأنه بكل شيء عليم لم يغب ولا يغيب شيء عنه ، فاقتضى ذلك قيوميته ، وكان بحيث يستعظم لكثرة الخلائق فكيف بأحوالهم ، قرر ذلك في جواب من كأنه سأل فهي في معنى العلة ، فقال : ﴿ ألم تر أن الله ﴾ أي الحائز لجميع الكمال المبرأ عن كل نقص ﴿ يسجد له ﴾ أي يخضع منقاداً لأمره مسخراً لما يريد منه تسخير من هو في غاية الاجتهاد في العبادة والإخلاص فيها ﴿ من في السماوات ﴾ .

ولما كان في السياق مقتضياً للإبلاغ في صفة القيومية بشهادة ذكر الفصل بين جميع الفرق ، أكد بإعادة الموصول فقال : ﴿ ومن في الأرض ﴾ إن أخلت غير العاقل فبالتغليب ، وإن خصصت فبالعاقل أفهم خضوع غيره من باب الأولى .

ولما ذكر ما يعم العاقل وغيره ، أتبعه بأشرف ما ذكر مما لا يعقل لأن كلاً منهما عبد من دون

الله أو عبد شيء منه فقال : ﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ من الأجرام العلوية فعبد الشمس حمير ، والقمر كنانة ، والدبران تميم ، والشعرى لخم ، والثريا طيىء وعطارداً أسداً ، والمرزم ربيعة – قاله أبو حيان .

ثم أتبع ذلك أعلام الذوات السفلية فقال : ﴿ والجبال ﴾ أي التي تنحت منها الأصنام ﴿ والشجر ﴾ التي عبد بعضها ﴿ والدواب ﴾ التي عبد منها البقر ، كل هذه الأشياء تنقاد لأمر الله ، ومن المعلوم لكون هذه لا تعقل – أن أمره لها هو مراده منها .

(217/520)

ولما كان العقلاء من المكلفين قد دخلوا في قوله ﴿ ومن في الأرض ﴾ دخولاً أولياً ، وكان السجود الممدوحون عليه إنما هو الموافق للأمر ، لا الموافق للإرادة المجردة عن الأمر ، قال دالاً على إرادته هنا بتكريرهم وتقسيمهم بعد إدخالهم في السجود الإدارة وتعميمهم : ﴿ وكثير من الناس ﴾ أي يسجد سجوداً هو منه عبادة شرعية فحق له الثواب ﴿ وكثير ﴾ أي منهم ﴿ حق عليه العذاب ﴾ بقيام الحجة عليه بكون لم يسجد ، فجحد الأمر الذي من جحده كان كافراً وإن كان ساجداً عابداً بالمعنى اللغوي الذي هو الجري مع المراد ، وعلى القول بأن هذا في تقدير عامل من لفظ الأول بغير معناه هو قريب من

الاستخدام الذي يعلو فيه ضمير على لفظ مراد منه معنى آخر ، والآية من الاحتباك : إثبات السجود في الأول دليل على انتفائه في الثاني ، وذكر العذاب في الثاني دليل على حذف الثواب في الأول .

(218/520)

ولما علم بهذا أن الكل جارون مع الإرادة منقادون أتم انقياد تحت طوع المشيئة ، وأنه إنما جعل الأمر والنهي للمكلفين سبباً لإسعاد السعيد منهم وإشقاء الشقي ، لإقامة الحجة عليهم على ما يتعارفونه من أحوالهم فيما بينهم ، كان المعنى : فمن يكرم الله بتوفيقه لامتثال أمره فما له من مهين ، فعطف عليه : ﴿ ومن يهن الله ﴾ أي الذي له الأمر كله بمنابذة أمره ﴿ فما له من مكرم ﴾ لأنه لا قدرة لغيره أصلاً ، ولعله إنما ذكره وطوى الأول لأن السياق لإظهار القدرة ، وإظهارها في الإهانة أتم ، مع أن أصل السياق للتهديد ؛ ثم علل أن الفعل له لا لغيره بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ يفعل ما يشاء ﴾ أي كله ، فلو جاز أن يمانعه غيره ولو في لحظة لم يكن فاعلاً لما يشاء ، فصح أنه لا فعل لغيره ، قال ابن كثير : قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن شيبان الرملي ن القداح عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي - رضى الله عنهم - أنه قيل له : إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة ، فقال له علي : يا عبد الله

خلقك الله كما شاء أو كما شئت ؟ قال : بل كما شاء ، قال : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء ؟ قال : بل حيث يشاء ، قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف ، وقد مر في سورة يوسف عند ﴿ إن الحكم إلا لله عليه توكلت ﴾ [يوسف : 67] ما ينفع هنا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 142.141 ﴾

(219/520)

فصل

قال الفخر :

أما قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ ﴾ ففيه أسئلة :

السؤال الأول : ما الرؤية ههنا الجواب : أنها العلم أي ألم تعلم أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض وإنما عرف ذلك بخبر الله لا أنه رآه .

السؤال الثاني : ما السجود ههنا قلنا فيه وجوه : أحدها : قال الزجاج أجود الوجوه في سجود هذه الأمور أنها تسجد مطيعة لله تعالى وهو كقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السماء

وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] ، ﴿ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] ، ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ [البقرة : 74] ، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] ، ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ ﴾ [الأنبياء : 79] والمعنى أن هذه الأجسام لما كانت قابلة لجميع الأعراض التي يحدثها الله تعالى فيها من غير امتناع ألبتة أشبهت الطاعة والانقياد وهو السجود فإن قيل هذا التأويل يبطله قوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ فإن السجود بالمعنى الذي ذكرته عام في كل الناس فإسناده إلى كثير منهم يكون تخصيصاً من غير فائدة والجواب من وجوه : أحدها : أن السجود بالمعنى الذي ذكرناه وإن كان عاماً في حق الكل إلا أن بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود في الظاهر ، فهذا الشخص وإن كان ساجداً بذاته لكنه متمرد بظاهره ، أما المؤمن فإنه ساجد بذاته وبظاهره فلأجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر .

(220/520)

وثانيها : أن نقطع قوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ عما قبله ثم فيه ثلاثة أوجه : الأول : أن نقول تقدير الآية : ولله يسجد من في السموات ومن في الأرض ويسجد له كثير من الناس فيكون

السجود الأول بمعنى الانقياد والثاني بمعنى الطاعة والعبادة ، وإنما فعلنا ذلك لأنه قامت الدلالة على أنه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك في معنييه جميعاً .

الثاني : أن يكون قوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ مبتدأ وخبره محذوف وهو مثاب لأن خبر مقابله يدل عليه وهو قوله : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ ، والثالث : أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحق عليهم العذاب كأنه قيل وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب وثالثها : أن من يجوز استعمال اللفظ المشترك في مفهوميه جميعاً يقول : المراد بالسجود في حق الأحياء العقلاء العبادة وفي حق الجمادات الانقياد ، ومن ينكر ذلك يقول إن الله تعالى تكلم بهذه اللفظة مرتين ، فعنى بها في حق العقلاء ، الطاعة وفي حق الجمادات الانقياد .

السؤال الثالث : قوله : ﴿ أَنَّ اللَّهِ يَسْجُدُ لهُ مَن فِي السموات الأرض ﴾ لفظه لفظ العموم فيدخل فيه الناس فلم قال مرة أخرى ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ الجواب : لو اقتصر على ما تقدم لأوهم أن كل الناس يسجدون كما أن كل الملائكة يسجدون فبين أن كثيراً منهم يسجدون طوعاً دون كثير منهم فإنه يمتنع عن ذلك وهم الذين حق عليهم العذاب .

القول الثاني : في تفسير السجود أن كل ما سوى الله تعالى فهو ممكن لذاته والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه إلا عند الانتهاء إلى الواجب لذاته كما قال :

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ [النجم : 42] وكما أن الإمكان لازم للممكن حال حدوثه وبقائه فافتقاره إلى الواجب حاصل حال حدوثه وحال بقائه ، وهذا الافتقار الذاتي اللازم للماهية أدل على الخضوع والتواضع من وضع الجبهة على الأرض فإن ذلك علامة وضعية للافتقار الذاتي ، وقد يتطرق إليها الصدق والكذب ، أما نفس الافتقار الذاتي فإنه ممتنع التغير والتبدل ، فجميع الممكنات ساجدة بهذا المعنى لله تعالى أي خاضعة متذللة معترفة بالفاقة إليه والحاجة إلى تخليقه وتكوينه ، وعلى هذا تأولوا قوله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] وهذا قول القفال رحمه الله .

القول الثالث : أن سجود هذه الأشياء سجود ظلها كقوله تعالى : ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل : 48] وهو قول مجاهد .

وأما قوله : ﴿ كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ فقال ابن عباس في رواية عطاء (وكثير من الناس) يوحده (وكثير حق عليه العذاب) ممن لا يوحده ، وروى عنه أيضاً أنه قال (وكثير من الناس) في الجنة .

وهذه الرواية تؤكد ما ذكرنا أن قوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ مبتدأ وخبره محذوف ، وقال آخرون : الوقف على قوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ ثم استأنف فقال : ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ أي وجب بإبائه وامتناعه من السجود .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ فالمعنى أن الذين حق عليهم العذاب ليس لهم أحد يقدر على إزالة ذلك الهوان عنهم فيكون مكرماً لهم ، ثم بين بقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ أنه الذي يصح منه الإكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 18 . 19 ﴾

(222/520)

وقال الجصاص :

لَمْ يَخْتَلِفْ السَّلَفُ وَفُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ فِي السَّجْدَةِ الْأُولَى مِنْ الْحَجِّ أَنَّهَا مَوْضِعُ سُجُودٍ وَاخْتَلَفُوا فِي الثَّانِيَةِ مِنْهَا وَفِي الْمُفَصَّلِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا : " سُجُودُ الْقُرْآنِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَجْدَةً ، مِنْهَا الْأُولَى مِنْ الْحَجِّ وَسُجُودُ الْمُفَصَّلِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ " وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ .

وَقَالَ مَالِكٌ : " أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى أَنَّ عَزَائِمَ سُجُودِ الْقُرْآنِ إحْدَى عَشْرَةَ سَجْدَةً لَيْسَ فِي الْمُفَصَّلِ مِنْهَا شَيْءٌ " .

وَقَالَ اللَّيْثُ : " أَسْتَحِبُّ أَنْ يُسْجَدَ فِي سُجُودِ الْقُرْآنِ كُلِّهِ وَسُجُودِ الْمُفَصَّلِ وَمَوْضِعِ السُّجُودِ مِنْ حم : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : " سُجُودُ الْقُرْآنِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَجْدَةً سِوَى سَجْدَةِ ص فَإِنَّهَا سَجْدَةُ شُكْرٍ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَاعْتُدَّ بِآخِرِ الْحَجِّ سُجُودًا .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ سَجَدَ فِي ص ﴾ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي سَجْدَةِ حم : السَّجْدَةُ بِآخِرِ الْآيَتَيْنِ ، كَمَا قَالَ أَصْحَابُنَا .

وَرَوَى زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَمْ يَسْجُدْ فِي النَّجْمِ ﴾ .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﴿ : سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّجْمِ ﴾ .

(223/520)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَيْسَ فِيمَا رَوَى زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنْ تَرْكِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّجْمِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ وَاجِبٍ فِيهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ لَا يَكُونَ سَجَدَ ؛ لِأَنَّهُ صَادَفَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ الْمَنْهِيِّ عَنْ السُّجُودِ فِيهَا فَأَخَّرَهُ إلَى وَقْتٍ يَجُوزُ فِعْلُهُ فِيهِ ، وَجَائِزٌ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ عِنْدَ التِّلَاوَةِ عَلَى غَيْرِ طَهَارَةٍ فَأَخَّرَهُ لِيَسْجُدَ وَهُوَ طَاهِرٌ .

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ : ﴿ سَجَدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي : ﴿ إذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ وَ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ .

﴿ وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي الثَّانِيَةِ مِنْ الْحَجِّ ، فَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وَعَمَّارٍ وَأَبِي مُوسَى أَنَّهُمْ قَالُوا : " فِي الْحَجِّ سَجْدَتَانِ " وَقَالُوا : " إنَّ هَذِهِ السُّورَةَ

فُضِّلَتْ عَلَى غَيْرِهَا مِنْ السُّوَرِ بِسَجْدَتَيْنِ " .

وَرَوَى خَارِجَةُ بْنُ مُصْعَبٍ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " فِي الْحَجِّ سَجْدَةٌ " .

وَرَوَى سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ الْأُولَى عَزْمَةٌ وَالْآخِرَةُ تَعْلِيمٌ " .

وَرَوَى مَنْصُورٌ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " فِي الْحَجِّ سَجْدَةٌ وَاحِدَةٌ " .

وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ وَإِبْرَاهِيمَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَجَابِرِ بْنِ زَيْدٍ : " أَنَّ فِي الْحَجِّ سَجْدَةً وَاحِدَةً " .

(224/520)

وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّ فِي الْحَجِّ سَجْدَتَيْنِ ، وَبَيَّنَ فِي حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ الْأُولَى عَزْمَةٌ وَالثَّانِيَةَ تَعْلِيمٌ ، وَالْمَعْنَى فِيهِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْأُولَى هِيَ السَّجْدَةُ الَّتِي يَجِبُ فِعْلُهَا عِنْدَ التِّلَاوَةِ وَأَنَّ الثَّانِيَةَ وَإِنْ كَانَ فِيهَا ذِكْرُ السُّجُودِ فَإِنَّمَا هُوَ تَعْلِيمُ الصَّلَاةِ الَّتِي فِيهَا الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ ، وَهُوَ مِثْلُ مَا رَوَى سُفْيَانُ عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : السَّجْدَةُ الَّتِي فِي آخِرِ الْحَجِّ إنَّمَا هِيَ مَوْعِظَةٌ وَلَيْسَتْ بِسَجْدَةٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ فَنَحْنُ نَرْكَعُ وَنَسْجُدُ .

فَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ هُوَ عَلَى مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ ، وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مَنْ رُوِيَ عَنْهُ مِنْ السَّلَفِ أَنَّ فِي الْحَجِّ سَجْدَتَيْنِ إنَّمَا أَرَادُوا أَنَّ فِيهِ ذِكْرَ السُّجُودِ فِي مَوْضِعَيْنِ وَأَنَّ الْوَاجِبَةَ هِيَ الْأُولَى دُونَ الثَّانِيَةِ عَلَى مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِمَوْضِعِ سُجُودٍ أَنَّهُ ذَكَرَ مَعَهُ الرُّكُوعَ ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ مَخْصُوصٌ

(225/520)

بِهِ الصَّلَاةُ ، فَهُوَ إذَا أَمَرَ بِالصَّلَاةِ وَالْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ مَعَ انْتِظَامِهَا لِلسُّجُودِ لَيْسَ بِمَوْضِعِ سُجُودٍ ، أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ لَيْسَ بِمَوْضِعٍ لِلسُّجُودِ ؟ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ وَلَيْسَ ذَلِكَ سَجْدَةً ؟ وَقَالَ : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ ﴾ وَلَيْسَ بِمَوْضِعِ سُجُودٍ ؛ لِأَنَّهُ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ ؟ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(226/520)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكرِمٍ ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : ومن يهن الله فيدخله النار فما له من مكرم فيدخله الجنة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ من ثواب وعقاب ، وهذا قول يحيى بن سلام

. والثاني : ومن يهن الله بالشقوة فما له من مكرم بالسعادة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءَ ﴾ من شقوة ، وهذا قول الفراء وعلي بن عيسى

. ويحتمل عندي وجهاً ثالثاً : ومن يهن الله بالإنتقام فما له من مكرم بالإنعام ، إن الله يفعل ما يشاء من إنعام وانتقام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(227/520)

وقال ابن عطية :

﴿ ألم تر ﴾ تنبيه رؤية القلب ، وهذه آية إعلام بتسليم المخلوقات جمع لله وخضوعها ، وذكر في الآية كل ما عبد الناس إذ في المخلوقات أعظم مما قد ذكر كالرياح والهواء ف ﴿ من

في السماوات ﴾ الملائكة ، ﴿ ومن في الأرض ﴾ من عبد من الشر ، ﴿ والشمس ﴾ كانت تعبدها حمير وهو قوم بلقيس ، والقمر كانت كنانة تعبده قاله ابن عباس ، وكانت تميم تعبد الدبران ، وكانت لخم تعبد المشتري ، وكانت طيِّىء تعبد الثريا وكانت قريش تعبد الشعري ، وكانت أسد تعبد عطارد ، وكانت ربيعة تعبد المرزم ، ﴿ والجبال والشجر ﴾ منها النار وأصنام الحجارة والخشب ، ﴿ والدواب ﴾ فيها البقر وغير ذلك مما عبد من الحيوان كالديك ونحوه ، و" السجود " في هذه الآية هو بالخضوع والانقياد للأمر قال الشاعر " ترى الأكم فيه سجداً للحوافر " . وهذا مما يتعذر فيه السجود والمتعارف ، وقال مجاهد : سجود هذه الأشياء هو بظلالها ، وقال بعضهم سجودها هو بظهور الصنعة فيها . ع : هذا وهو وإنما خلط هذه الآية بآية التسبيح وهناك يحتمل أن يقال هي بآثار الصنعة ، وقوله تعالى : ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على ما تقدم ، أي ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ يسجد ، أي كراهية وعلى رغمه إما بظله وإما بخضوعه عند المكارة ونحو ذلك ، قاله مجاهد ، وقال : سجوده بظله ويحتمل أن يكون رفعاً بالابتداء مقطوعاً مما قبله وكأن الجملة معادلة لقوله ﴿ وكثير من الناس ﴾ لأن المعنى أنهم مرحومون بسجودهم ويؤيد هذا قوله تعالى بعد ذلك ﴿ ومن يهن الله ﴾ الآية وقرأ جمهور الناس " من مكرِم " بكسر الراء ، وقرأ ابن أبي عبلة بفتح الراء على معنى من موضع كرامة أو على أنه مصدر كمدخل ، وقرأ الجمهور " والدوابّ " مشددة الباء ، وقرأ الزهري

وحده بتخفيف الباء وهي قليلة ضعيفة وهي تخفيف على غير قياس كما قالوا ظلت وأحست وكما قال علقمة : [البسيط]

(228/520)

كأن إبريقهم ظبي على شرف . . . مفدم بسبا الكتان ملثوم

أراد بسبائب الكتان وأنشد أبو علي في مثله : [الكامل]

حتى إذا ما لم أجد غير الشر . . . كنت أمرأً من مالك بن جعفر

وهذا باب إنما يستعمل في الشعر فلذلك ضعفت هذه القراءة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(229/520)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ﴾

أي : ألم تعلم .

وقد بيَّنَّا في سورة [النحل : 49] معنى السجود في حق من يعقل ، ومن لا يعقل .

قوله تعالى : ﴿ وكثير من الناس ﴾ يعني : الموحدين الذين يسجدون لله .

وفي قوله تعالى : ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ قولان .

أحدهما : أنهم الكفار ، وهم يسجدون ، وسجودهم سجود ظلّهم ، قاله مقاتل .

والثاني : أنهم لا يسجدون ؛ والمعنى : وكثير من الناس أبى السجود ، فحق عليه العذاب ، لتركه السجود ، هذا قول الفراء .

قوله تعالى : ﴿ ومن يُهن اللهُ ﴾ أي : من يُشْقِه الله فما له من مُسْعِدٍ ، ﴿ إِن الله يفعل ما يشاء ﴾ في خلقه من الكرامة والإِهانة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(230/520)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض ﴾

هذه رؤية القلب ؛ أي ألم تر بقلبك وعقلك .

وتقدّم معنى السجود في "البقرة" ، وسجود الجماد في "النحل" .

﴿ والشمس ﴾ معطوفة على "مَن" .

وكذا ﴿ والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب وكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ .

ثم قال : ﴿ وكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ وهذا مشكل في الإعراب ، كيف لم ينصب ليعطف ما عمل فيه الفعل على ما عمل فيه الفعل ؛ مثل ﴿ والظالمين أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [الإنسان : 31] ؟ فزعم الكسائي والفرّاء أنه لو نصب لكان حسناً ، ولكن اختِير الرفع لأن المعنى وكثير أبى السجود ؛ فيكون ابتداء وخبراً ، وتم الكلام عند قوله "وكثير من الناس" .

ويجوز أن يكون معطوفاً ، على أن يكون السجود التذلُّلَ والانقيادَ لتدبير الله عز وجل من ضعف وقوّة وصحة وسقم وحسن وقبح ، وهذا يدخل فيه كل شيء .

ويجوز أن ينتصب على تقدير : وأهان كثيراً حق عليه العذاب ، ونحوه .

وقيل : تم الكلام عند قوله : "والدّوابُّ" ثم ابتدأ فقال : "وكثير من الناس" في الجنة "وكثير حق عليه العذاب" .

وكذا روي عن ابن عباس أنه قال : المعنى وكثير من الناس في الجنة وكثير حق عليه العذاب ؛ ذكره ابن الأنباري .

وقال أبو العالية : ما في السموات نجم ولا قمر ولا شمس إلا يقع ساجداً لله حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيرجع من مطلعه .

قال القُشَيري : وورد هذا في خبر مسند في حق الشمس ؛ فهذا سجود حقيقي ، ومن ضرورته تركيب الحياة والعقل في هذا الساجد .

قلت : الحديث المسند الذي أشار إليه خرجه مسلم ، وسيأتي في سورة "ياس" عند قوله تعالى : ﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ [ياس : 38] .

وقد تقدم في البقرة معنى السجود لغة ومعنًى .

(231/520)

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ أي من أهانه بالشقاء والكفر لا يقدر أحد على دفع الهوان عنه .

وقال ابن عباس : إن من تهاون بعبادة الله صار إلى النار .

﴿ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ يريد أن مصيرهم إلى النار فلا اعتراض لأحد عليه .

وحكى الأخفش والكسائي والفراء "وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فما له من مُكْرِمٍ" أي إكرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(232/520)

وقال أبو حيان :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السموات وَمَن فِي الأرض ﴾

ومن ﴿ يسجد ﴾ سجود التكليف ومن لا يسجده ، وعطف على ما من عبد من دون الله ففي ﴿ السموات ﴾ الملائكة كانت تعبدها و ﴿ الشمس ﴾ عبدتها حمير .

وعبد ﴿ القمر ﴾ كنانة قاله ابن عباس .

والدبران تميم .

والشعرى لخم وقريش .

والثريا طيىء وعطارداً أسد .

والمرزم ربيعة .

و ﴿ في الأرض ﴾ من عبد من البشر والأصنام المنحوتة من ﴿ الجبال والشجر ﴾ والبقر وما عبد من الحيوان .

وقرأ الزهري ﴿ والدواب ﴾ بتخفيف الباء .

قال أبو الفضل الرازي ولا وجه لذلك إلاّ أن يكون فراراً من التضعيف مثل ظلت وقرن ولا تعارض بين قوله ﴿ ومن في الأرض ﴾ لعمومه وبين قوله ﴿ وكثير من الناس ﴾ لخصوصه لأنه لا يتعين عطف ﴿ وكثير ﴾ على ما قبله من المفردات المعطوفة الداخلة تحت يسجد

إذ يجوز إضمار ﴿ يسجد له ﴾ كثير من الناس سجود عبادة دل عليه المعنى لا أنه يفسره ﴿ يسجد ﴾ الأول لاختلاف الاستعمالين ، ومن يرى الجمع بين المشركين وبين الحقيقة والمجاز يجيز عطف ﴿ وكثير من الناس ﴾ على المفردات قبله ، وإن اختلف السجود عنده بنسبته لما لا يعقل ولمن يعقل ويجوز أن يرتفع على الابتداء ، والخبر محذوف يدل على مقابلة الذين في الجملة بعده أي ﴿ وكثير من الناس ﴾ مثاب .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ﴿ من الناس ﴾ خبراً له أي ﴿ من الناس ﴾ الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون ، ويجوز أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب فعطفت كثير على كثير ثم ، عبر عنهم بحق عليهم العذاب كأنه قال ﴿ وكثير ﴾ ﴿ وكثير من الناس حق ﴾ عليهم ﴿ العذاب ﴾ انتهى .

وهذان التخريجان ضعيفان .

وقرأ جناح بن حبيش وكبير حق بالباء .

(233/520)

وقال ابن عطية ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على ما تقدم أي ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ يسجد أي كراهية وعلى رغمه إما بظله وإما بخضوعه

عند المكاره ، ونحو ذلك قاله مجاهد وقال سجوده بظله .

وقرىء ﴿ وكثير ﴾ حقاً أي ﴿ حق عليهم العذاب ﴾ حقاً .

وقرىء ﴿ حق ﴾ بضم الحاء ومن مفعول مقدم بيهن .

وقرأ الجمهور ﴿ من مكرم ﴾ اسم فاعل .

وقرأ ابن أبي عبلة بفتح الراء على المصدر أي من إكرام .

قال الزمخشري : ومن أهانه الله كتب عليه الشقاوة لما سبق في علمه من كفره أو فسقه ، فقد بقي مهاناً لمن يجد له مكرماً أنه يفعل ما يشاء من الإكرام والإهانة ، ولا يشاء من ذلك إلاّ ما يقتضيه عمل العاملين واعتقاد المعتقدين انتهى .

وفيه دسيسة الاعتزال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(234/520)

وقال أبو السعود :

وقولُه تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى * السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ الخ ، بيان لما يُوجب الفصلَ المذكور من أعمال الفرقِ المذكورةِ مع الإشارةِ إلى كيفيَّتِه وكونه بطريقِ التَّعذيبِ والإثابة والإكرام والإهانة إثرَ بيان ما يُوجبه من كونِه تعالى شهيداً على جميع

الأشياء التي من جُملتها أحوالُهم وأفعالُهم والمراد بالرُّؤيةِ العلم عبَّر عنه بها إشعاراً بظهورِ المعلوم والخطاب لكلِّ أحدٍ ممَّن يتأتَّى منه الرُّؤيةُ بناء على أنَّه من الجلاءِ بحيث لا يخفى على أحدٍ . والمرادُ بالسُّجودِ هو الانقيادُ التَّامُّ لتدبيره تعالى بطريق الاستعارةِ المبنيَّةِ على تشبيهه بأكمل أفعالِ المكلَّفِ في باب الطَّاعةِ إيذاناً بكونه في أقصى مراتب التَّسخُّرِ والتَّذلُّلِ لا سجودُ الطَّاعةِ الخاصَّةِ بالعُقلاءِ سواءٌ جُعلتْ كلمةُ من عامةً لغيرهم أيضاً وهو الأنسبُ بالمقام لإفادته شمولَ الحكم لكلِّ ما فيهما بطريقِ القرارِ فيهما أو بطريق الجُزئيَّةِ منهما فيكون قوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾ إفراداً لها بالذِّكرِ لشُهرتها واستبعادِ ذلك منها عادةً ، أو جُعلت خاصَّةً بالعقلاء لعدم شمول سجود الطَّاعةِ لكلِّهم حسبما يُنبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ فإنَّه مرتفعٌ بفعل مضمرٍ يدلُّ عليه المذكور أي ويسجدُ له كثيرٌ من النَّاسِ سجود طاعةٍ وعبادةٍ ومن قضيَّته انتفاءُ ذلك عن بعضِهم ، وقيل : هو مرفوعٌ على الابتداء حُذف خبرُه ثقةً بدلالة خبر قسميهِ عليه نحو حقَّ له الثَّوابُ ، والأوَّلُ هو الأَولى لما فيه من التَّرغيبِ في السُّجودِ والطَّاعةِ . وقد جُوِّز أنْ يكونَ من النَّاسِ خبراً له أي من النَّاسِ الذين هم النَّاسُ على الحقيقةِ وهم الصَّالحون والمتَّقون وأنْ يكون قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ ﴾ معطوفاً على كثيرٌ الأول للإيذانِ بغاية الكثرةِ ثم يخبر عنهم باستحقاقِ العذابِ كأنَّه قيل : وكثيرٌ من النَّاسِ ﴿ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ أي بكفرِه واستعصائِه

(235/520)

وقُرِىء حُقَّ بالضمِّ وحقًّا أي حقَّ عليه العذابُ حقًّا ﴿ وَمَن يُهِنِ الله ﴾ بأن كتبَ عليه الشَّقاوةَ حسبما علمه من صرفِ اختياره إلى الشرِّ ﴿ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ يُكرمه بالسَّعادةِ.

وقُرِىء بفتح الرَّاءِ على أنَّه مصدرٌ ميميٌّ ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء ﴾ من الأشياء التي من جُملتها الإكرامُ والإهانةُ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(236/520)

وقال الآلوسى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ الخ

بيان لما يوجب الفصل المذكور من أعمال الفرق مع الإشارة إلى كيفيته وكونه بطريق التعذيب والإثابة والإكرام والإهانة، وجوز أن يكون تنويراً لكونه تعالى شهيداً على كل شيء، وقيل: هو تقريع على اختلاف الكفرة واستبعاد له لوجوب الصارف، والمراد

بالرؤية العلم والخطاب لكل من يتأتى منه ذلك .

والمراد بالسجود دخول الأشياء تحت تسخيره تعالى وإرادته سبحانه وقابليتها لما يحدث فيها عز وجل ، وظاهر كلام الآمدي أنه معنى حقيقي للسجود .

وفي مفردات الراغب السجود في الأصل التطامن والتذلل وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله تعالى وعبادته وهو عام في الإنسان والحيوان والجماد .

وذلك ضربان سجود باختيار يكون للإنسان وبه يستحق الثواب وسجود بتسخير يكون للإنسان وغيره من الحيوانات والنباتات .

وخص في الشريعة بالركن المعروف من الصلاة وما جرى مجراه من سجود التلاوة وسجود الشكر انتهى .

وذكر بعضهم أنه كما خص في الشريعة بذلك خص في عرف اللغة به .

وقال ابن كمال : إن حقيقته على ما نص عليه في المجمل وضع الرأس ، وقال العلامة الثاني : حقيقته وضع الجبهة لا الرأس حتى لو وضع الرأس من جانب القفا لم يكن ساجداً ، وعلى هذين القولين على علاتهما قيل السجود هنا مجاز عن الدخول تحت تسخيره تعالى والانقياد لإرادته سبحانه .

وجوز أن يكون مجازاً عن دلالة لسان حال الأشياء بذلتها وافتقارها على صانعها وعظمته جلت عظمته ، ووجه التنوير على هذا ظاهر وكذا التقريع على الاختلاف .

و﴿ مِنْ ﴾ إما خاصة بالعقلاء وإما عامة لهم ولغيرهم بطريق التغليب وهو الأولى لأنه الأنسب بالمقام لإفادته شمول الحكم لكل ما فيها بطريق القرار فيهما أو بطريق الجزئية منهما ، ويكون قوله تعالى :

(237/520)

﴿ والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾ أفراداً لها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها بحسب الظاهر في بادىء النظر القاصر كما قيل أو لأنها قد عبدت من دون الله تعالى إما باعتبار شخصها أو جنسها .

فالشمس عبدتها حمير .

والقمر عبدته كنانة .

وعبد الدبران من النجوم تميم .

والشعري لخم .

وقريش ، والثريا طىء ، وعطارداً أسد .

والمرزم ربيعة ، وعبد أكثر العرب الأصنام المنحوتة من الجبال .

وعبدت غطفان العزى وهي سمرة واحدة السمر شجر معروف ، ومن الناس من عبد

البقر .

وقرأ الزهري .

وابن وثاب ﴿ الدواب ﴾ بتخفيف الباء .

وخص ابن جني في المحتسب هذه القراءة بالزهري ، وقال : لا أعلم من خففها سواه وهو قليل ضعيف قياساً وسماعاً لأن التقاء الساكنين على حده وعذره كراهة التضعيف ولذا قالوا في ظللت ظلت وقالوا جان بالتخفيف وذكر له نظائر كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ قيل مرفوع بفعل مضمر يدل عليه المذكور أي ويسجد له كثير من الناس يجود الطاعة المعروف .

واعترض بأنه صرح في "المغني" بأن شرط الدليل اللفظي على المحذوف أن يكون طبقه لفظاً ومعنى أو معنى لا لفظاً فقط فلا يجوز زيد ضارب وعمرو على أن خبر عمرو محذوف وهو ضارب من الضرب في الأرض أي مسافر والمذكور بمعناه المعروف .

وأجاب الخفاجي بأن ما ذكر غير مسلم لما ذكره النحاة من أن المقدرة قد يكون لازماً للمذكور نحو زيداً ضربت غلامه أي أهنت زيداً ولا يكون مشتركاً كالمثال المذكور إلا أن يكون بينهما ملاءمة فيصح إذا اتحدا لفظاً وكان من المشترك وبينهما ملازمة تدل على المقدر ولذا لم يصح المثال المذكور انتهى ، وعتطفه بعضهم على المذكورات قبله وجعل

السجود بالنسبة إليه بمعنى السجود المعروف وفيما تقدم بمعنى الدخول تحت التسخير أو الدلالة على عظمة الصانع جل شأنه .

(238/520)

واستدل بذلك على جواز استعمال المشترك في معنييه أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ، والجواب ما علمت ، ولا يجوز العطف وجعل السجود في الجميع بمعنى الدخول تحت التسخير أو الدلالة على العظمة لأن ذلك عام لجميع الناس فلا يليق حينئذٍ ذكر ﴿ كَثِيرٍ ﴾ وغير العام إنما هو السجود بالمعنى المعروف فيفيد ذكر ﴿ كَثِيرٍ ﴾ إذا أريد أن منهم من لم يتصف بذلك وهو كذلك ، وما قيل : إنه يجوز أن يكون تخصيص الكثير على إرادة السجود العام للدلالة على شرفهم والتنويه بهم ليس بشيء إذ كيف يتأتى التنويه وقد قرن بهم غير العقلاء كالدواب ، وقال ابن كمال : تمسك من جوز حمل المشترك في استعمال واحد على أكثر من معنى بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ الآية بناءً على أن المراد بالسجود المنسوب إلى غير العقلاء الانقياد لتعذر السجود المعهود في حقه ومن المنسوب إليهم ما هو المعهود دون الانقياد لأنه شامل للكل غير مخصوص بالكثير ولا متمسك لهم في ذلك لأن كلاً من التعليلين في معرض المنع ، أما

الأول فلأن حقيقة السجود وضع الرأس ولا تعذر في نسبته إلى غير العقلاء ولا حاجة إلى إثبات حقيقة الرأس في الكل لأن التغليب سائغ شائع ، وأما الثاني فلأن الكفار لا سيما المتكبرين منهم لا حظ لهم من الانقياد لأن المراد منه الإطاعة بما ورد في حقه من الأمر تكليفياً كان أو تكوينياً على وجه ورد به الأمر وتقدير فعل آخر في هذا المقام من ضيق العطن كما لا يخفى على أرباب الفطن انتهى .

(239/520)

وفيه القول بجواز العطف على كلا معنى السجود وضع الرأس والانقياد وبيان فائدة تخصيص الكثير على الثاني ، ولا يخفى أن المتبادر من معتبرات كتب اللغة أن السجود حقيقة لغوية في الخضوع مطلقاً وأن ما ذكره من حديث التغليب خلاف الظاهر وكذا حمل الانقياد على ما ذكره ، وقد أخذ رحمه الله تعالى كلا المعنيين من التوضيح وقد أسقط مما فيه ما عنه غنى ، وما زعم أنه من ضيق العطن هو الذي ذهب إليه أكثر القوم وعليه يكون ﴿ مِنَ الناس ﴾ صفة ﴿ كَثِيرٍ ﴾ وأورد أنه حينئذٍ يرد أن سجود الطاعة المعروف لا يختص بكثير من الناس فإن كثيراً من الجن متصف به أيضاً ، وكونهم غير مكلفين خلاف القول الأصح .

نعم يمكن أن يقال : إنهم لم يكونوا مأمورين بالسجود عند نزول الآية وعلى مدعيه البيان ، والقول بأنه يجوز أن يراد بالناس ما يعم الجن فإنه يطلق عليهم حسب إطلاق النفر والرجال عليهم ليس بشيء .

ومن الناس من أجاب عن ذلك بأن يسجد المقدر داخل في الرؤية وقد قالوا : المراد بها العلم والتعبير بها عنه للإشعار بظهور المعلوم وظهور السجود بمعنى الدخول تحت التسخير في الأشياء المنسوب هو إليها مما لا سترة عليها وكذا ظهوره بمعنى السجود المعروف في كثير من الناس ، وأما في الجن فليس كذلك فلذا وصف الكثير بكونه من الناس .

وتعقب بأن الخطاب في ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ لمن يتأتى منه ذلك ولا سترة في ظهور أمر السجود مطلقاً بالنسبة إليه .

ورد بأن مراد المجيب أن سجود الجن ليس بظاهر في نفس الأمر ومع قطع النظر عن المخاطب كائناً من كان ظهور دخول الأشياء المذكورة أولاً تحت التسخير بخلاف سجود كثير من الناس فإنه ظاهر ظهور ذلك في نفس الأمر فخص الكثير بكونه من الناس ليكون الداخل في حيز الرؤية من صقع واحد من الظهور في نفس الأمر .

(240/520)

وقيل المقام يقتضي تكثير الرائين لما يذكر في حيز الرؤية والتخصيص أوفق بذلك فلذا خص الكثير بكونهم من الناس والكل كما ترى ، والأولى أن يقال : تخصيص الكثير من الناس بنسبة السجود بالمعنى المعروف إليهم على القول بأن كثيراً من الجن كذلك للتنويه بهم ، ولا يرد عليه ما مر لأنه لم يقرن بهم في هذا السجود غير العقلاء فتأمل ، وقيل : إن ﴿ كَثِيرٌ ﴾ مرفوع على الابتداء حذف خبره ثقة بدلالة خبر قسيمه عليه نحو حق له الثواب ويفيد الكلام كثرة الفريقين ؛ والأول أولى لما فيه من الترغيب في السجود والطاعة للحق المعبود ، وجوز أن يكون ﴿ كَثِيرٌ ﴾ مبتدأ و ﴿ مِنَ الناس ﴾ خبره والتعريف فيه للحقيقة والجنس أي وكثير من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون المتقون ، وقال الراغب : قد يذكر الناس ويراد به الفضلاء دون من يتناوله اسم الناس تجوزاً ، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانية وهو وجود العقل والذكر وسائر القوى المختصة به فإن كل شيء عدم فعله المختص به لا يكاد يستحق اسمه والمخصص للمبتدأ النكرة أنه صفة محذوف بالحقيقة على أن المعادلة من المخصصات إذا قلت رجال مكرمون ورجال مهانون لأنه تفصيل مجمل فهو موصوف تقديراً ولأن كلاً من المقابلين موصوف بمغايرة الآخر فهذا داخل في الوصف المعنوي ، وأن يكون ﴿ كَثِيرٌ ﴾ مبتدأ و ﴿ مِنَ الناس ﴾ صفته وقوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ ﴾ معطوف عليه وقوله سبحانه : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ أي ثبت وتقرر خبر ، ويكون الكلام على حد قولك : عندي ألف وألف أي ألوف كثيرة ومثله شائع في

كلامهم فيفيد كثرة من حق عليه العذاب من الناس ، وهذان الوجهان بعيدان ، وقال في "البحر" : ضعيفان .

(241/520)

والظاهر أن ﴿ كَثِيرٍ ﴾ الثاني مبتدأ والجملة بعده خبره وقد أقيمت مقام لا يسجد فكأنه قيل ويسجد كثير من الناس ولا يسجد كثير منهم ، ولا يخفى ما في تلك الإقامة من الترهيب عن ترك السجود والطاعة ، ولا يخفى ما في عدم التصريح بتقييد الكثير بكونه من الناس مما يقوى دعوى أن التقييد فيما تقدم للتنويه ، وحمل عدم التقييد ليعم الكثير من الجن خلاف الظاهر جداً .

وجوز أن يكون معطوفاً على من والسجود بأحد المعنيين السابقين وجملة ﴿ حَقّ ﴾ الخ صفته ويقدر وصف لكثير الأول بقرينة مقابله أي حق له الثواب و ﴿ مِنَ الناس ﴾ صفة له أيضاً ، ولا يخفى ما فيه ، وقرىء ﴿ حَقّ ﴾ بضم الحاء و ﴿ حَقّاً ﴾ أي حق عليه العذاب حقاً فهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة ﴿ وَمَن يُهِنِ الله ﴾ بأن كتب الله تعالى عليه الشقاء حسبما استعدت له ذاته من الشر ، ومن مفعول مقدر ليهن ﴿ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ يكرمه بالسعادة .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ مُّكْرِمٍ ﴾ بفتح الراء على أنه مصدر ميمي كما في "القاموس" أي مما له إكرام ، وقيل اسم مفعول بمعنى المصدر ولا حاجة إلى التزامه ، وقيل يجوز أن يكون باقياً على ما هو الشائع في هذه الصيغة من كونه اسم مفعول ، والمعنى ما له من يكرم ويشفع فيه ليخلص من الإهانة .

ولا يخفى بعده ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإكرام والإهانة ، وهذا أولى من تخصيص ما بقرينة السياق بهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(242/520)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾

جملة مستأنفة لابتداء استدلال على انفراد الله تعالى بالإلهية .

وهي مرتبطة بمعنى قوله ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه إلى قوله : لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ [الحج : 12 ، 13] ارتباط الدليل بالمطلوب فإنّ دلائل أحوال المخلوقات كلها عاقِلها وجمادها شاهدة بتفرد الله بالإلهية .

وفي تلك الدلالة شهادة على بطلان دعوة من يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه .

وما وقع بين هاتين الجملتين استطرادٌ واعتراضٌ .

والرؤية : علمية .

والخطاب لغير معين .

والاستفهام إنكاريّ .

أنكر على المخاطبين عدم علمهم بدلالة أحوال المخلوقات على تفرد الله بالإلهية .

ويجوز أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والاستفهام تقريرياً ، لأنّ حصول علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك متقرّر من سورة الرعد وسورة النحل .

وقد تقدم الكلام على معنى هذا السجود في السورتين المذكورتين .

وقد استعمل السجود في حقيقته ومجازه ، وهو حسن وإن أباه الزمخشري ، وقد حققناه في المقدمة التاسعة ، لأن السجود المثبت لكثير من الناس هو السجود الحقيقي ، ولولا إرادة ذلك لما احترس بإثباته لكثير من الناس لا لجميعهم .

ووجه هذا التفكيك أن سجود الموجودات غير الإنسانية ليس إلا دلالة تلك الموجودات على أنها مسخرة بخلق الله ، فاستعير السجود لحالة التسخير والانطياع .

وأما دلالة حال الإنسان على عبوديته لله تعالى فلما خالطها إعراض كثير من الناس عن السجود لله تعالى ، وتلبّسهم بالسجود للأصنام كما هو حال المشركين غطّى سجودهم

الحقيقي على السجود المجازي الدال على عبوديتهم لله لأن المشاهدة أقوى من دلالة الحال فلم يثبت لهم السجود الذي أثبت لبقيّة الموجودات وإن كان حاصلاً في حالهم كحال المخلوقات الأخرى .

وجملة ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ معترضة بالواو .

(243/520)

وجملة ﴿ حق عليه العذاب ﴾ مكنّى بها عن ترك السجود لله ، أي حق عليهم العذاب لأنهم لم يسجدوا لله ، وقد قضى الله في حكمه استحقاق المشرك لعذاب النار .

فالذين أشركوا بالله وأعرضوا عن إفراده بالعبادة قد حق عليهم العذاب بما قضى الله به وأنذرهم به .

وجملة ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ اعتراض ثان بالواو .

والمعنى : أن الله أهانهم باستحقاق العذاب فلا يجدون من يكرمهم بالنصر أو بالشفاعة .

وجملة ﴿ إن الله يفعل ما يشاء ﴾ في محل العلة للجملتين المعترضتين لأن وجود حرف التوكيد في أول الجملة مع عدم المنكر يمحّض حرفَ التوكيد إلى إفادة الاهتمام فنشأ من ذلك معنى السببية والتعليل ، فتغني (أنّ) غناء حرف التعليل أو السببية .

وهذا موضع سجود من سجود القرآن باتفاق الفقهاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(244/520)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ . . ﴾ [الحج : 18] يعني : ألم تعلم ؛ لأن السُجود من هذه الأشياء سجود على حقيقته كما نعلمه في السجود من أنفسنا ، ولكل جنس من أجناس الكون سجود يناسبه .

وسبق أن تحدثنا عن أجناس الكون وهي أربعة : أدناها الجماد ، ثم يليه النبات ، حيث يزيد عليه خاصية النمو وخاصية الحركة ، ثم يليه الحيوان الذي يزيد خاصية الإحساس ، ثم يليه الإنسان ويزيد عليه خاصية الفكر والاختيار بين البدائل .

وكل جنس من هذه الأجناس يخدم ما هو أعلى منه ، حيث تنتهي هذه الدائرة بأن كل مَا في كون الله مُسخَّر لخدمة الإنسان ، وفي الخبر : " يا ابن آدم خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُكَ من أجلي ، فلا تشتغل بما هو لك عَمَّنْ أنت له " .

فكان على الإنسان أن يفكر في هذه المِيْزة التي منحه ربه إياها ، ويعلم أن كل شيء في

الوجود مهما صَغُر فله مهمة يؤديها ، ودَوْر يقوم به . فأَوْلَى بك أيها الإنسان وأنت سيد هذا الكون أن يكون لك مهمة ، وأن يكون لك دور في الحياة فلستَ بأقلَّ من هذه المخلوقات التي سخَّرها الله لك ، وإلاَّ صِرْتَ أقلّ منها وأدنى .

إن كانت مهمة جميع المخلوقات أنْ تخدمك لأنك أعلى منها ، فانظر إلى مهمتك لمَنْ هو أعلى منك ، فإذا جاءك رسول من أعلى منك ليُنبّهك إلى هذه المهمة كان عليك أن تشكره ؛ لأنه نبَّهك إلى ما ينبغي لك أن تشتغل به ، وإلى مَنْ يجب عليك الاتصال به دائماً لذلك فالرسول لا يصح أن تنصرف عنه أبداً ؛ لأنه يُوضِّح لك مسائل كثيرة هي مَحَلٌّ للبحث العقلي .

(245/520)

وكان على العقل البشري أن يفكر في كل هذه الأجناس التي تخدمه : ألك قدرة عليها ؟ لقد خدمتْكَ منذ صِغَرِك قبل أنْ تُوجّه إليها أمراً ، وقبل أنْ توجدَ عندك القدرة لتأمر أو لتتناول هذه الأشياء ، كان عليك أنْ تتنبه إلى القوة الأعلى منك ومن هذه المخلوقات ، القوة التي سخَّرَتْ الكون كله لخدمتك ، وهذا بَحْث طبيعي لا بُدَّ أن يكون .

هذه الأشياء في خدمتها لك لم تتأبَّ عليك ، ولم تتخلف يوماً عن خدمتك ، انظر إلى

الشمس والقمر وغيرهما : أقالت الشمس يوماً : إن هؤلاء القوم لا يستحقون المعروف ، فلن أطلع عليهم اليوم ؟ !

الأرض : هل ضنَّتْ في يوم على زراعها ؟ الريح : هل توقفتْ عن الهبوب . وكلها مخلوقات أقوى منك ، ولا قدرةَ لك عليها ، ولا تستطيع تسخيرها ، إنما هي في قبضة الله – عز وجل – ومُسخَّرة لك بأمره سبحانه ، ولأنها مُسخَّرة فلا تتخلف أبداً عن أداء مهمتها .

أما الإنسان فيأتي منه الفساد ، ويأتي منه الخروج عن الطاعة لما منحه الله من منطقة الاختيار .

البعض يقول عن سجود هذه المخلوقات أنه سجود دلالة ، لا سجوداً على حقيقته ، لكن هذا القول يعارضه قول الله تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . ﴾ [النور : 41] .

فلكل مخلوق مهما صَغُر صلاة وتسبيح وسجود ، يتناسب وطبيعته ، إنك لو تأملت سجود الإنسان بجبهته على الأرض لوجدتَ اختلافاً بين الناس باختلاف الأحوال ، وهم نوع واحد ، فسجود الصحيح غير سجود المريض الذي يسجد وهو على الفراش ، أو جالس على مقعد ، وربما يشير بعينه ، أو أصبعه للدلالة على السجود ، فإن لم يستطع أجرى السجود على خاطره .

فإذا كان السجود يختلف بهذه الصورة في الجنس الواحد حَسْب حالة وقدرته وطاقته ، فلماذا نستبعد أن يكون لكل جنس سجوده الخاص به ، والذي يتناسب مع طبيعته ؟

(246/520)

وإذا كان هذا حال السجود في الإنسان ، فهل ننتظر مثلاً أن نرى سجود الشمس أو سجود القمر ؟ ! ما دام الحق – سبحانه وتعالى – قال إنها تسجد ، فلا بُدَّ أن نؤمن بسجودها ، لكن على هيئة لا يعلمها إلا خالقها عز وجل .

بالله ، لو جلس مريض يصلي على مقعد أو على الفراش ، أتعرف وهو أمامك أنه يسجد ؟

إذن : كيف نطمع في معرفة كيفية سجود هذه المخلوقات ؟

ومن معاني السجود : الخضوع والطاعة ، فمَنْ يستبعد أن يكون سجود هذه المخلوقات سجوداً على الحقيقة ، فليعتبر السجود هنا للخضوع والانقياد والطاعة ، كما تقول على إنسان متكبر : جاء ساجداً يعني : خاضعاً ذليلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] .

إذن : لك أن تفهم السجود على أيِّ هذه المعاني تحب ، فلن تخرج عن مراده سبحانه ، ومن

رحمة الله أنْ جعل هذه المخلوقات خاضعة لإرادته ، لا تنحلّ عنها أبداً ولا تتخلف ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] .

ونحن نتناقل الآن ، ونروي بعض حوارات السالكين وأهل المعرفة وأصحاب الفيوضات الذين فَهِموا عن الله وتذوَّقوا لذَّة قُرْبه ، وكانوا يتحاورون ويتنافسون لا للمباهاة والافتخار ، إنما للترقي في القرب من الله .

جلس اثنان من هؤلاء العارفين وفي فَمِ أحدهم نَخْمة يريد أنْ يبصقها ، وبدتْ عليه الحيرة ، وهو ينظر هنا وهناك فقال له صاحبه : أَلْقِها واسترحِ ، فقال : كيف وكلما أردتُ أنْ أبصقها سمعت الأرض تُسبّح فاستحيْتُ أنْ أُلقيها على مُسبّح ، فقال الآخر – ويبدو أنه كان في منزلة أعلى منه – وقد افتعل البَصْق وقال : مُسبِّح في مُسبّح .

(247/520)

إذن : فأهل الكشف والعارفون بالله يدركون هذا التسبيح ، ويعترفون به ، وعلى قدر ما لديك من معرفة بالله ، وما لديك من فَهْم وإدراك يكون تلقِّيك وتقبُّلك لمثل هذه الأمور الإيمانية .

والحق – سبحانه وتعالى – حين قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض .

. ﴾ [الحج : 18] معلوم أن مَنْ في السموات هم الملائكة ولسنْا منهم ، لكن نحن من أهل الأرض ويشملنا حكم السجود وندخل في مدلولة ، فلماذا قال بعدها : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . ﴾ [الحج : 18] .

كلمة : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . ﴾ [الحج : 18] تُبيّن أن لنا قهريةً وتسخيراً وسجوداً كباقي أجناس الكون ، ولنا أيضاً نطقة اختيار . فالكافر الذي يتعوَّد التمرُّد على خالقه : يأمره بالإيمان فيكفر ، ويأمره بالطاعة فيعصي ، فلماذا لا يتمرد على طول الخط ؟ لماذا لا يرفض المرض إنْ أمرضه الله ؟ ولماذا لا يرفض الموت إنْ حَلَّ به ؟

إذن : الإنسان مُؤتمِر بأمر الله مثل الشجر والحجر والحيوان ، ومنطقة الاختيار هي التي نشأ عنها هذا الانقسام : كثير آمن ، وكثير حَقَّ عليه العذاب .

لكن ، لماذا لم يجعل الله – سبحانه وتعالى – الخَلْق جميعاً مُسخَّرين ؟

قالوا : لأن صفة التسخير وعدم الخروج عن مرادات الله تثبت لله تعالى صفة القدرة على الكل ، إنما لا تُثبت لله المحبوبية ، المحبوبية لا تكون إلا مع الاختيار : أن تكون حُرًّا مختاراً في أنْ تؤمنَ أو تكفر فتختار الإيمان ، وأنْ تكون حُراً وقادراً على المعصية ، لكنك تطيع .

وضربنا لذلك مثلاً – ولله المثل الأعلى – : هَبْ أن عندك عبدين ، تربط أحدهما إليك

في سلسلة مثلاً ، وتترك الآخر حُراً ، فإن ناديتَ عليهما أجاباك ، فأيهما يكون أطْوعَ لك : المقهور المجبر ، أم الحر الطليق ؟ .

(248/520)

إذن : التسخير والقهر يُثبت القدرة ، والاختيار يُثبت المحبة .

والخلاف الذي حدث من الناس ، فكثير منهم آمن ، وكثير منهم حَقَّ عليه العذاب ، من أين هذا الاختلاف يا رب ؟ مما خلقتُه فيك من اختيار ، فمَنْ شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، فكأن كفر الكافر واختياره ؛ لأن الله سَخَّره للاختيار ، فهو حتى في اختياره مُسخَّر .

أما قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس . . ﴾ [الحج : 18] يعني : باختياراتهم ، وكان المفروض أن يقول في مقابلها : وقليل ، لكن هؤلاء كثير ، وهؤلاء كثير أيضاً .

ومعنى : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . ﴾ [الحج : 18] حقَّ : يعني ثبتَ ، فهذا أمر لا بُدَّ منه ، حتى لا يستوي المؤمن والكافر : ﴿ أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين ﴾ [القلم : 35]

إذن : لا بُدَّ أنْ يعاقب هؤلاء ، والحق يقتضي ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُهِنِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج : 18]

لأن أحقيَّة العذاب من مُساوٍ لك . قد يأتي مَنْ هو أقوى منه فيمنعه ، أو يأتي شافع يشفع له

، وكأن الحق – سبحانه وتعالى – يُيَّئِسُ هؤلاء من النجاة من عذابه ، فلن يمنعهم أحد .

فمَنْ أراد الله إهانته فلن يُكرمه أحد ، لا بنُصْرته ولا بالشفاعة له ، فالمعنى : ﴿ وَمَن يُهِنِ اللهُ . . ﴾ [الحج : 18] أي : بالعذاب الذي حَقَّ عليه وثبت ﴿ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ . . ﴾ [الحج : 18] يعني : يكرمه ويُخلِّصه من هذا العذاب ، كذلك لا يوجد مَنْ يُعِزه ؛ لأن عِزَّته لا تكون إلا قَهْراً عن الله ، وهذا مُحَال ، أو يكون بشافع يشفع له عند الله ، ولا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه سبحانه .

لذلك ، نقول : إن الحق سبحانه يُجير على خَلْقه ولا يُجَار عليه ، يعني : لا أحد يقول لله : هذا في جواري ؛ لذلك ذَيَّلَ الآية بقوله تعالى : ﴿ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج : 18] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(249/520)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ :

فيه أوجهٌ أحدُها : أنه مرفوعٌ بفعلٍ مضمرٍ تقديرُه : ويَسْجُدُ له كثيرٌ من الناس . وهذا عند

مَنْ يمنعُ استعمالَ المشتركِ في معَنْيِيه ، أو الجمعَ بين الحقيقة والمجازِ ، في كلمةٍ واحدةٍ ؛ وذلك أنَّ السجودَ المسندَ لغيرِ العقلاءِ غيرُ السجود المسندِ للعقلاءِ ، فلا يُعْطَفُ "كثيرٌ من الناس" على ما قبلَه لاختلافِ الفعلِ المسندِ إليهما في المعنى . ألا ترى أنَّ سجودَ غيرِ العقلاءِ هو الطَّواعيةُ والإذعانُ لأمرِه ، وسجودَ العقلاءِ هو هذه الكيفيةُ المخصوصةُ .

الثاني : أنَّه معطوفٌ على ما تقدَّمه . وفي ذلك ثلاثةُ تأويلاتٍ أحدُها : أنَّ المرادَ بالسجودِ القَدْرُ المشتركُ بين الكلِّ العقلاءِ وغيرِهم وهو الخضوعُ والطواعيةُ ، وهو من بابِ الاشتراكِ المعنويِّ . والتأويلُ الثاني : أنه مشتركٌ اشتراكاً لفظياً ، ويجوز استعمالُ المشتركِ في معنييه . والتأويلُ الثالث : أنَّ السجودَ المسندَ للعقلاءِ حقيقةٌ ولغيرِهم مجازٌ . ويجوز الجمعُ بين الحقيقةِ والمجازِ . وهذه الأشياءُ فيها خلافٌ ، لتقريرِه موضوعٌ هو أليقُ به من هذا .

الثالثُ من الأوجه المتقدمة : أن يكونَ "كثيرٌ" مرفوعاً بالابتداء . وخبرُه محذوفٌ وهو "مُثابٌ" لدلالة خبرِ مقابِله عليه ، وهو قولُه : ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ كذا قَدَّره الزمخشريُّ . وقَدَّره أبو البقاء : "مُطيعون أو مُثابون أو نحوُ ذلك" .

الرابع : أَنْ يرتفعَ "كثيرٌ" على الابتداءِ أيضاً ، ويكون خبرُه "من الناس" أي : من الناس الذين هم الناسُ على الحقيقةِ ، وهم الصالحون والمتَّقون .

والخامسُ : أن يرتفعَ بالابتداءِ أيضاً . ويُبالَغَ في تكثيرِ المحقوقينِ بالعذاب ، فيُعطفَ "كثيرٌ" على "كثير" ثم يُخْبَرَ عنهم ب ﴿ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ ذكر ذلك الزمخشري . قال الشيخ : بعد أن حكى عن الزمخشريِّ الوجهين الآخرين قال : " وهذان التخريجان ضعيفان " ولم يُبَيِّنْ وجهَ ضعفِهما .

قلت : أمَّا أوَّلُهما فلا شكَّ في ضعفِه ؛ إذ لا فائدةَ طائلةٌ في الإخبارِ بذلك . / وأمَّا الثاني فقد يظهر : وذلك أنَّ التكريرَ يفيد التكثيرَ ، وهو قريبٌ مِنْ قولِهم : " عندي ألفٌ وألفٌ " ، وقوله :

3376 لو عُدَّ قبرٌ وقبرٌ كنتَ أَكْرَمَهم . . . . . .

. . . . . .

وقرأ الزهري " والدَّوابُ " مخففَ الباءِ . قال أبو البقاء : " ووجهُها : أنه حَذَفَ الباءَ الأولى كراهيةَ التضعيفِ والجمعِ بين ساكنين " . وقرأ جناح بن حبيش و "كبيرٌ" بالباء الموحدة . وقرىء " وكثيرٌ حقَّاً " بالنصب .

وناصبُه محذوفٌ وهو الخبرُ ، تقديرُه : وكثير حَقَّ عليه العذابُ حقاً . " والعذابُ " مرفوع بالفاعلية . وقُرِىء " حُقَّ " مبنياً للمفعولِ .

وقال ابن عطية : ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ يحتمل أن يكونَ معطوفاً على ما تقدَّم أي

: وكثير حَقَّ عليه العذابُ يسجد أي كراهيةً وعلى رَغْمِه : إما بظِلّه ، وإمَّا بخضوعِه عند المكاره " . قلت : فقولُه : " معطوفٌ على ما تقدَّم " يعني عطفَ الجملِ لا أنه هو وحدَه عطفٌ على ما قبله ، بدليلِ أنه قَدَّره مبتدأً . وخبرُه قوله : "يَسْجد " .

قوله : ﴿ وَمَن يُهِنِ اللهُ ﴾ "مَنْ" مفعولٌ مقدمٌ ، وهي شرطيةٌ . جوابُها الفاءُ مع ما بعدها . والعامَّةُ على "مُكْرِمٍ" بكسرِ الراء اسمَ فاعل . وقرأ ابن أبي عبلة بفتحِها ، وهو اسمُ مصدرٍ أي : فما له مِنْ إكرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 245 .

247 ﴾

(251/520)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾

أهل العرفان يسجدون له سجودَ عبادة ، وأربابُ الجحود كُلٌّ جزءٍ منهم يسجد له سجودَ دلالة وشهادة .

وفي كل شيءٍ له آيةٌ . . . تَدُلُّ على أنه واحدُ ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 535 ﴾

(252/520)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾

يقول : أطيعوا ربكم ؛ ويقال : اخشوا ربكم .

، يقول : أطيعوا ربكم ؛ ويقال : اخشوا ربكم .

﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَىْءٌ ﴾ ، يعني : قيام الساعة ﴿ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ؛ يقول : هولها عظيم .

والزلزلة والزلزال شدة الحركة على الحال الهائلة من قولهم : زلت قدمه ، إذا زالت عن الجهة سرعة .

ثم وصف ذلك اليوم فقال : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ ، يعني : تشغل كل مرضعة ﴿ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ ، يعني : كل ذات ولد رضيع ؛ ويقال : تحَير كل والدة عن ولدها .

﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ ، أي تسقط ولدها من هول ذلك اليوم .

وروى منصور ، عن إبراهيم ، عن عَلْقَمَة ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ قال : هذا بين يدي الساعة ؛ وقال مقاتل : وذلك قبل النفخة الأولى ، ينادي ملك من السماء : يا أيها الناس أتى أمر الله .

فيسمع الصوت أهل الأرض جميعاً ، فيفزعون فزعاً شديداً ، ويموج بعضهم في بعض ، فيشيب فيه الصغير ، ويسكر فيه الكبير ، وتضع الحوامل ما في بطونها ؛ وتزلزلت الأرض ، وطارت القلوب .

وعن سعيد بن جبير أنه قال : إنما هو عند النفخة الأولى التي هي الفزع الأكبر ؛ ويقال : هو يوم القيامة .

وقال : حدّثنا الخليل بن أحمد قال : حدّثنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم قال : حدّثنا الدبيلي قال : حدّثنا أبو عبد الله قال : حدّثنا سفيان ، عن علي بن زيد بن جدعان قال : سمعت الحسن يقول : حدّثنا عمران بن الحسين قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير ، فنزلت عليه هذه ﴿ تَصِفُونَ يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، " " أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذلكَ ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : ذلك يَوْمَ يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ لآدمَ .

قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ أَهْلِ الجَنَّةِ .

قالَ : فيقول آدَمْ : وَمَا بَعْثُ أَهْلُ الجَنَّةِ ؟ يقولُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ فِي النَّارِ ، وَوَاحِدٌ فِي الجَنَّةِ .

قال : فَأَنْشَأَ القَوْمُ يبكون " " .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " " إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَطَّ ، إِلاَّ كَانَتْ قَبْلَهُ جَاهِلِيَّةٌ ، فَيُؤْخَذُ العَدَدُ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ .

فإِنْ لَمْ يَكُنْ كملَ العددُ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ ، أخذَ من المنافقينَ .

وَمَا مَثَلُكُمْ فِي الأُمَمِ ، إِلاَّ كَمَثَلِ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعٍ ، وَكَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ البَعِيرِ " " .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : " "إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ" " فكبروا ، ثم قال : " "إِنَّ مَعَكُمْ لَخَلِيقَتَيْنِ ما كانتا في شَيْءٍ إِلاَّ كَثَّرَتَاهُ : يأجوجُ ومأجوجُ ومن مات من كفرةِ الجَنَّةِ وَالإِنْسِ " " .

وروى أبو سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لآدَمَ : قُمْ فَابْعَثْ أَهْلَ النَّارِ .

فقالَ : يا رَبِّ وَمَا بَعْثُ أَهْلِ النَّارِ ؟ فيقولُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وتسعةٌ وتسعون .

فَعِنْدَ ذلكَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ ، وَتَضَعُ الحَامِلُ ما فِي بَطْنِها " "

ويقال : هذا على وجه المثل ، لأن يوم القيامة لا يكون فيه حامل ولا صغير ، ولكنه بيَّن هول ذلك اليوم ، أنه لو كان فيه حاملاً ، لوضعت حملها من شدة ذلك اليوم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ﴾ ، يعني : ترى الناس سكارى من الهول ، أي كالسكارى وما هم بسكارى من الشراب .

﴿ ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ ؛ قرأ حمزة والكسائي ﴿ وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ﴾ بغير ألف ؛ وقرأ الباقون كلاهما بالألف .

(254/520)

وروي عن ابن مسعود وحذيفة أنهما قرآ ﴿ سكارى ﴾ وهو اختيار أبي عبيدة ؛ وروي عن أبي زرعة أنه قرأ على الربيع بن خثيم ﴿ وَتَرَى ﴾ بضم التاء ؛ وقراءة العامة بالنصب .

<<p

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله ﴾ ، يعني : يخاصم في الله ، يعني : في

وحدانية الله ؛ ويقال : في دين الله .

﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ، يعني : بغير حجة ؛ ويقال : بغير علم يعلمه ، وهو النضر بن الحارث وأصحابه .

﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شيطان مَّرِيدٍ ﴾ ، يعني : يطيع ويعمل بأمر كل شيطان متمرد في معصية الله عز وجل ؛ ويقال : معناه ويتبع ما سول له الشيطان .

والمريد : الفاسد ، يقال : مرد الشيء إذا بلغ في الشر غايته ؛ ويقال : مرد الشيء إذا جاوز حد مثله .

ثم قال عز وجل : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ ، يعني : قضي عليه ، يعني : الشيطان .

﴿ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ ، يعني : من يتبع الشيطان ؛ ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾ عن الهدى ، ﴿ وَيَهْدِيهِ ﴾ ؛ يعني : يدعوه ﴿ إِلَى عَذَابِ السعير ﴾ ، يعني : إلى عمل عذاب النار .

قوله عز وجل : ﴿ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس ﴾ ، يعني : يا كفار مكة .

﴿ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ ﴾ ، يعني : في شك ﴿ مِّنَ البعث ﴾ بعد الموت ، فانظروا إلى بدء خلقكم .

﴿ فَإِنَّا خلقناكم مِّن تُرَابٍ ﴾ يعني : من آدم عليه السلام من تراب .

﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ ، وهي الدم العبيط الجامد وجمعها علق .

﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ ، وهي اللحمة القليلة قدر ما يمضغ مثل قطعة كبد .

﴿ مُّخَلَّقَةٍ ﴾ ، أي تامة ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ ، يعني : غير تامة ، وهو السقط ؛ ويقال : مصورة وغير مصورة .

﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ بدء خلقكم ؛ ويقال : يخرج السقط من بطن أمه مصوراً أو غير مصور لنبين لكم بدء خلقكم كيف نخلقكم في بطون أمهاتكم ؛ ويقال : لنبين لكم في القرآن أنكم كنتم كذلك .

﴿ وَنُقِرُّ فِى الارحام مَا نَشَاء ﴾ فلا يكون سقطاً .

(255/520)

﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، يعني : إلى وقت خروجه من بطن أمه ؛ ويقال : إلى وقت معلوم لتسعة أشهر .

﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ من بطون أمهاتكم أطفالاً صغاراً ؛ وقال القتبي : لم يقل أطفالاً ، لأنهم لم يخرجوا من أم واحدة ، ولكنه أخرجهم من أمهات شتى ، فكأنه قال : يخرجكم طفلاً طفلاً .

﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ ، يعني : ثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة ، ويقال : إلى ست وثلاثين سنة .

والأشد هو الكمال في القوة والخير.

﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى ﴾ مِنْ قَبْل أن يبلغ أشده، ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر ﴾، أي أضعف العمر وهو الهرم؛ ويقال: يعني: يرجع إلى أسفل العمر، يعني: يذهب عقله.

﴿ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾، يعني: لكيلا يعقل بعد عقله الأول.

ثم دلهم على إحياء الموتى بإحيائه الأرض، فقال تعالى: ﴿ وَتَرَى الأرض هَامِدَةً ﴾، يعني: ميتة يابسة جافة ذات تراب.

﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء ﴾، يعني: المطر، ﴿ اهتزت ﴾؛ يعني: تحركت بالنبات.

كقوله عز وجل: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا موسى لاَ تَخَفْ إِنِّى لاَ يَخَافُ لَدَىَّ المرسلون ﴾ [النمل: 10] يعني: تتحرك؛ ويقال: اهتزت، يعني: استبشرت.

﴿ وَرَبَتْ ﴾، يعني: انتفخت للنبات.

وأصلهُ من ربا يربو، وهو الزيادة.

﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾، يعني: من كل صنف من ألوان النبات.

﴿ بَهِيجٍ ﴾، يعني: حسناً حتى يُبْهَجَ به، فدلهم للبعث بعد إحياء الأرض، ليعتبروا ويعلموا بأن الله هو الحق، وعبادته هي الحق، وغيره من الآلهة باطل.

﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق وَأَنَّهُ يُحْيِ الموتى ﴾ ؛ أي يعلم أنه يحيي الموتى .

﴿ وَأَنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، أي قادر على كل شيء من البعث وغيره .

(256/520)

قوله عز وجل : ﴿ وَأَنَّ الساعة ﴾ ، يعني : يَعْلَمُوا أَنَّ السّاعَة ﴿ ءاتِيَةٌ ﴾ ، أي كائنة أي جاثية .

﴿ لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ ، أي لا شك فيها عند المؤمنين ، وعند كل من كان له عقل وذهن .

﴿ وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِى القبور ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله ﴾ ، يعني : يخاصم في دين الله عز وجل ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ، أي بلا بيان وحجة ، ﴿ وَلاَ هُدًى ﴾ ؛ يعني : ولا دليل واضح من المعقول ، ﴿ وَلاَ كتاب مُّنِيرٍ ﴾ يعني : ولا كتاب منزل مضيء فيه حجة .

﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِ ﴾ ، يعني : لاوي عنقه عن الإيمان ، وهو على وجه الكِنَايَةِ ، ومعناه يجادل في الله بغير علم متكبراً ؛ ويقال ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِ ﴾ ، أي معرضاً عنه .

﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله ﴾ ؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو : ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ بنصب الياء ، يعني : ليعرض عن دين الله عز وجل ، والباقون بالضم ، يعني : ليصرف الناس عن دين الإسلام .

قال الله تعالى : ﴿ لَهُ فِي الدنيا خِزْيٌ ﴾ ، يعني : النضر بن الحارث قتل يوم بدر صبراً ، ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القيامة عَذَابَ الحريق ﴾ ؛ يعني : عذاب النار فأخبر الله تعالى أن ما أصابه في الدنيا من الخزي ، لم يكن كفارة لذنوبه .

ثم قال عز وجل : ﴿ ذلك ﴾ ، يعني : ذلك العذاب ، يعني : يقال له يوم القيامة : هذا العَذَابُ ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ ، يعني : بما عملت يداك .

وذكر اليدين كناية ، يعني : ذلك العذاب بكفرك وتكذيبك .

﴿ وَأَنَّ الله لَيْسَ بظلام لِّلْعَبِيدِ ﴾ ، يعني : لا يعذب أحداً بغير ذنب .

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾ ، يعني : على شك ، وعلى وجه الرياء ، ولا يريد به وجه الله تعالى ؛ ويقال : على شك .

والعرب تقول : أنت على حرف ، أي على شك ؛ ويقال : على حرف بلسانه دون قلبه .

(257/520)

وروي عن الحسن أنه قال : ﴿ يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾ أي على إيمان ظاهر وكفر باطن ؛ ويقال : ﴿ على حَرْفٍ ﴾ ، أي على انتظار الرزق .

وهذه الآية مدنية ، نزلت في أناس من بني أسد أصابتهم شدة شديدة فاحتملوا العيال ،

حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأغلوا الأسعار بالمدينة .

﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ ﴾ ، يعني : إن أصابه سعة وغنية وخصب اطمأن به ؛ وقال : نعم الدين دين محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ ، أي بلية وضيق في المعيشة ، ﴿ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ ؛ أي رجع إلى كفره الأول ؛ وقال : بئس الدين دين محمد .

﴿ خَسِرَ الدنيا والآخرة ﴾ ، أي غبن الدنيا والآخرة ؛ في الدنيا بذهاب ماله ، وفي الآخرة بذهاب ثوابه ؛ ويقال : خسر الدنيا والآخرة ، لأنه لم يدرك ما طلب من المال ، وفي الآخرة بذهاب الجنة .

وروي عن حميد أنه كان يقرأ ﴿ خَاسِرَ ﴾ بالألف ، وقراءة العامة ﴿ لَفِى خُسْرٍ ﴾ بغير ألف .

﴿ ذلك هُوَ الخسران المبين ﴾ ، يعني : الظاهر البين .

قوله عز وجل : ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ الله ﴾ ، يعني : يعبد من دون الله ﴿ مَا لاَ يَضُرُّهُ ﴾ ، إن لم يعبده ، يعني : الصنم ، ﴿ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ﴾ إن عبده .

﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ ، يعني : الخطأ البين ؛ ويقال : في خطأ طويل بعيد عن الحق .

﴿ يَدْعُواْ لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ ، يعني : يعبد لمن إثمه وعقوبته أكثر من ثوابه ومنفعته ؛ ويقال : ضره في الآخرة أكثر من نفعه في الدنيا ؛ فإن قيل : لم يكن في عبادته نفع

البتة ، فكيف يقال : من نفعه ولا نفع له ؟ قيل له : إنما قال هذا على عاداتهم ؛ وهم يقولون لشيء لا منفعة فيه : ضره أكثر من نفعه ، كما يقولون لشيء لا يكون هَنَا بَعِيدٌ ، كما قالوا ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : 3] .

(258/520)

ثم قال تعالى : ﴿ لَبِئْسَ المولى ﴾ ، يعني : بئس الصاحب ، ﴿ وَلَبِئْسَ العشير ﴾ ؛ يعني : بئس الخليط ؛ ويقال : معناه من كانت عبادته عقوبة عليه ، فبئس المعبود هو .

ثم ذكر ما أعد الله تعالى لأهل الصلاح والإيمان ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ ، يعني : يحكم في خلقه ما يشاء من السعادة والشقاوة .

قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله ﴾ ، الهاء كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ويجوز في اللغة الإضمار في الكناية وإن لم تكن مذكورة إذا كان الأمر ظاهراً ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ الله كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾ [فاطر : 45] ، يعني : على ظهر الأرض ، وكقوله عز وجل : ﴿ فَقَالَ إِنى أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِى حتى

تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ [ص : 32] يعني : الشمس .

ومعناه من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالغلبة والحجة .

﴿ فِى الدنيا والآخرة ﴾ الشفاعة في ﴿ الآخرة ﴾ .

قوله : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السماء ﴾ ، يعني : فليربط بحبل من سقف البيت ، لأن كل ما علاك فهو سماء .

﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ ، يعني : ليختنق ، ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ﴾ ، يعني : اخْتِنَاقُه .

﴿ مَا يَغِيظُ ﴾ ، معناه هل ينفعه ذلك .

(259/520)

قال ابن عباس : نزلت الآية في نفر من أسد وغطفان ، فقالوا : نخافُ أن لن ينصر الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فيقطع ما بيننا وبين حلفائنا من المودة يعني : اليهود وقال القتبي : كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم على المشركين ، يستبطئون ما وعد لهم من النصرة ، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يتم لهم أمره ، فنزل ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله ﴾ ، يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم بعد ما سمعوا منه النصرة والإظهار .

ولكن كلام العرب على وجه الاختصار ، يعني : إن لم تثق بما أقول لك ، فاذهب واختنق أو

اجتهد جهدك .

قال : وفيه وجه آخر ، وهو أن يكون ها هنا السماء بعينها لا السقف ، فكأنه قال ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السماء ﴾ أي بحبل وليرتق فيه ، ثم ليقطع ، يعني : الحبل ، حتى يخر فيهلك ، فلينظر هل ينفعه ، كقوله عز وجل : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِن استطعت أَن تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِى الأرض أَوْ سُلَّماً فِى السمآء فَتَأْتِيَهُمْ بِأَايَةٍ وَلَوْ شَآءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ [الأنعام : 35] وقال أبو عبيدة : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله فِى الدنيا والآخرة ﴾ يعني : أن لن يرزقه الله .

وذهب إلى قول العرب : أرض منصورة ، أي ممطورة ؛ فكأنه قال : من كان قانطاً من رزق الله ورحمته ، فليفعل ذلك ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ﴾ ، أي حيلته ما يغيظ ، أي غيظه لتأخير الرزق عنه ؛ وقال الزجاج : من كان يظن أن لن ينصره الله ، يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ، حتى يظهره الله على الدين كله فليمت غيظاً .

ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ ، يعني : جبريل عليه السلام بالقرآن ﴿ بَيِّنَاتٍ فاسأل ﴾ ، يعني : واضحات بالحلال والحرام .

(260/520)

﴿ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ ، يعني : يرشد إلى دينه من كان أهلاً لذلك ، فيوفقه لذلك ؛ وهذا كقوله : ﴿ واللهُ يدعوا إلى دَارِ السلام ويَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس : 25] .

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ ، يعني : أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ومن كان مثل حالهم ، ﴿ والذين هَادُواْ ﴾ ؛ يعني : مالوا عن الإسلام يعني : اليهود ﴿ والصابئين ﴾ ؛ وقد ذكرناه من قبل ، ﴿ والنصارى والمجوس ﴾ ، يعني : عبدة النيران ، ﴿ والذين أَشْرَكُواْ ﴾ ؛ يعني : عبدة الأوثان والأديان ستة : فواحد لله تعالى ، والخمسة للشيطان .

﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، يعني : يقضي ويحكم بينهم ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ ، يعني : بين هذه الأديان الستة ؛ وقال بعضهم : إن الفاء مضمرة في الكلام ومعناه : فإن الله يفصل بينهم على معنى جواب الشرط ؛ ويقال : جوابه في قوله : ﴿ فالذين كَفَرُواْ ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، من أعمالهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ، يعني : ألم تعلم ؟ ويقال : ألست تعلم ، ويقال : ألم تخبر في الكتاب ؟ ﴿ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السموات ﴾ من الملائكة ، ﴿ وَمَن فِى الأرض ﴾ من الخلق ، ﴿ والشمس والقمر والنجوم والجبال ﴾ .

قال مقاتل : سجود هؤلاء حين تغرب الشمس تحت العرش ؛ ويقال : سجودها دورانها ﴿ وَ ﴾ سجود ﴿ الشجر والدواب ﴾ ، إذا تحول ظل كل شيء فهو سجوده .

قوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ ، أي المؤمنين .

﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ أي : بترك سجودهم في الدنيا ويقال ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ بعدم الطاعة ؛ ويقال : سجود الشجر ، أي هو سجود ظلّها ، ويقال : يسجد أي يخضع .

وفيه آية الخلق ، فهو سجودهم .

﴿ وَمَن يُهِنِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ ، يعني : من قضى الله عز وجل عليه بالشقاوة ، فما له من مسعد .

﴿ إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يَشَاء ﴾ ، يعني : يحكم ما يشاء في خلقه من الإهانة والإكرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 447.453 ﴾

(261/520)

وقال الثعلبى :

﴿ يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾

الزلزلة والزلزال : شدّة الحركة على الحال الهائلة ، من قوله : زلّت قدمه إذا زالت عن الجهة بسرعة ، ثم ضوعف .

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ يعني الساعة ﴿ تَذْهَلُ ﴾ أي تشغل ، عن ابن عباس ، وقال الضحّاك تسلو ، ابن حيان : تنسى ، يقال : ذهلت عن كذا أي تركته واشتغلت بغيره أذهل ذهولاً ، وأذهلني الشيء إذهالاً . قال الشاعر :

صحا قلبه ياعزُّ أو كاد يذهل . . . ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ يعني ذات ولد رضيع ، والمرضع المرأة التي لها صبي ترضعه لغيرها ، هذا قول أهل الكوفة ، وقال أهل البصرة : يقال : امرأة مرضع إذا أُريد به الصفة مثل مقرب ومشرق وحامل وحائض ، فإذا أرادوا الفعل أدخلوا الهاء فقيل : مرضعة ، التي ترضع وَلَدَها .

﴿ وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ أي تسقط ولدها من هول ذلك اليوم .

﴿ وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ﴾ .

قال الحسن : معناه : وترى الناس سكارى من الخوف ، ما هم بسكارى من الشراب .

وقال أهل المعاني : مجازه : وترى الناس كأنّهم سكارى ، تدل عليه قراءة أبي زرعة بن عمرو بن جرير : وتُرى الناس بضم التاء أي تظن .

وقرأ أهل الكوفة إلاّ عاصماً : سكرى وما هم سكرى بغير ألف فيهما ، وهما لغتان لجمع السكران مثل كسلى وكسالى ﴿ ولكن عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾ .

روى عمران بن حصين وأبو سعيد الخدري وغيرهما : إنَّ هاتين الآيتين نزلتا ليلاً في غزوة بني المصطلق وهم حيّ من خزاعة والناس يسيرون ، فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثوا المطيّ حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأهما عليهم فلم يُر أكثر باكياً من تلك الليلة ، فلمّا أصبحوا لم يحطّوا السُرُج عن الدواب ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا قدراً والناس من بين باك أو حاسر حزين متفكّر ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " أبشروا وسدّدوا وقاربوا ، فإن معكم خليقتين ما كانتا في قوم إلاّ كثّرتاه يأجوج ومأجوج " .

ثمَّ قال : إنّي لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبّروا وحمدوا الله ، ثمَّ قال : " إنّي لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، فكبّروا وحمدوا الله ، ثمَّ قال : اني لأرجوا أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبّروا وحمدوا الله ، ثمَّ قال : إنّي لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنّة وإنّ أهل الجنة ، مائة وعشرون صفاً ، ثمانون منها أُمّتي وما المسلمون في الكفّار إلاّ كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة ، بل كالشعرة السوداء في الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ، ثمَّ قال : ويدخل من أُمتي سبعون ألفاً الجنة بغير حساب ، فقال عمر : سبعون ألفاً ؟ فقال : نعم ومع كلّ واحد سبعون ألفاً ، فقام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ادع الله أنْ يجعلني منهم ، قال : أنت منهم ، فقام رجل من الأنصار فقال : ادع

الله أن يجعلني منهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبقك بها عكاشة " " .

﴿ ومِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ نزلت في النضر بن الحرث ، كان كثير الجدال فكان يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ويزعم أنّ الله غير قادر على إحياء من قد بلي وعاد تراباً .

(263/520)

قال الله سبحانه ﴿ وَيَتَّبِعُ ﴾ في قيله ذلك وجداله في الله بغير علم ﴿ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ قضي عليه ، على الشيطان ﴿ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ ﴾ اتّبعه ﴿ فَأَنَّهُ ﴾ يعني الشيطان ﴿ يُضِلُّهُ ﴾ يعني يضلّ من تولاه ﴿ وَيَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السعير ﴾ وتأويل الآية : قضي على الشيطان أنّه يضلّ أتباعه ويدعوهم إلى النار .

ثمّ ألزم الحجّة منكري البعث فقال عزّ من قائل ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ يعني أباكم آدم الذي هو أصل النسل ووالد البشر ﴿ مِّن تُرَابٍ ﴾ ثم ذرّيته ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ وهو المنيّ وأصلها الماء القليل وجمعها نطاف ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ وهي الدم العبيط الجامد وجمعها علق ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ وهي لحمة قليلة قدر ما تمضغ ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ .

قال ابن عباس وقتادة : تامّة الخلق وغير تامة .

وقال مجاهد : مصوّرة وغير مصوّرة يعني السقط .

قال عبد الله بن مسعود : إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله عزّ وجلّ مَلَكاً فقال : يا رب مخلّقة أو غير مخلقة ؟ فإن قال : غير مخلّقة مجّتها الأرحام دماً وإن قال : مخلّقة قال : يا ربّ فما صفة هذه النطفة ؟ أذكر أم أُنثى ؟ ما رزقها ؟ ما أجلها ؟ أشقي أم سعيد ؟ فيقال له : انطلق إلى أُمّ الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة ، فينطلق الملك فينسخها فلا تزال معه حتى يأتي على آخر صفتها .

﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ كمال قدرتنا وحكمتنا في تصريفنا أطوار خلقكم .

﴿ وَنُقِرُّ ﴾ روي عن عاصم بفتح الراء على النسق ، غيره : بالرفع على معنى ونحن نقرُ (في الأرحام) ﴿ مَا نَشَآءُ ﴾ فلا تمجّه ولا تسقطه ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وقت خروجها من الرحم تامّ الخلق والمدّة ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ ﴾ من بطون أُمهاتكم ﴿ طِفْلاً ﴾ صغاراً ولم يقل أطفالاً لأنّ العرب تسمّي الجمع باسم الواحد .

(264/520)

قال الشاعر : إنّ العواذل ليس لي بأمير

ولم يقل أُمَراء .

وقال ابن جريج : تشبيهاً باسم المصدر مثل : عدل وزور ، وقيل : تشبيهاً بالخصم والضيف .

﴿ ثُمَّ لتبلغوا أَشُدَّكُمْ ﴾ كمال عقولكم ونهاية قواكم .

﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى ﴾ قبل بلوغ الأشدّ ﴿ وَمِنكُمْ مَّن ﴾ يعمّر حتى ﴿ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر ﴾ وهو الهرم والخرف ﴿ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ .

ثمَّ بيَّن دلالة أُخرى للبعث فقال تعالى ﴿ وَتَرَى الأرض هَامِدَةً ﴾ يابسة دارسة الأثر من الزرع والنبات كهمود النار .

﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء ﴾ المطر ﴿ اهتزت ﴾ تحرّكت بالنبات ﴿ وَرَبَتْ ﴾ أي زادت وأضعفت النبات بمجيء الغيث ، وقرأ أبو جعفر : ربأت بالهمز ، ومثله في حم السجدة أي ارتفعت وعلت وانتفخت ، من قول العرب : ربا الرجل إذا صعد مكاناً مشرفاً ، ومنه قيل للطليعة ربئة .

﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ صنف حسن ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكرت لتعلموا ﴿ بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ والحق هو الكائن الثابت ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِي الموتى وَأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الساعة آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِي القبور ﴾ .

﴿ ومِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بغَيْرِ عِلْمٍ ولاَ هُدًى ﴾ بيان وبرهان ﴿ ولاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ نزلت في النضر بن الحرث ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ نصب على الحال.

قال ابن عباس: مستكبراً في نفسه، تقول العرب: جاء فلان ثاني عطفه أي متجبّراً لتكبّره وتجبّره، والعطف: الجانب.

الضحّاك: شامخاً بأنفه، مجاهد وقتادة: لاوياً عنقه، عطيّة وابن زيد: معرضاً عمّا يُدعى إليه من الكبر.

ابن جريج: أي يعرض عن الحقّ نظيرها قوله سبحانه ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ولى مُسْتَكْبِراً ﴾ [لقمان: 7] الآية.

(265/520)

وقوله ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ الله لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ [المنافقون: 5] الآية.

﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله لَهُ فِي الدنيا خِزْيٌ ﴾ عذاب وهوان وهو القتل ببدر.

﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القيامة عَذَابَ الحريق ﴾ فيقال له يومئذ ﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ وهذا وأضرابه مبالغة في إضافة الجرم إليه.

﴿ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلعَبِيدِ ﴾ فيعذّبهم بغير ذنب وهو سبحانه على أي وجه تصرّف في عبده فإنّه غير ظالم ، بل الظالم : المتعدّي المتحكّم في غير ملكه .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ اللهَ على حَرْفٍ ﴾ الآية .

نزلت في أعراب كانوا يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا قدم المدينة ، فإن صحّ بها جسمه ونتجت فرسه مهراً حسناً وولدت امرأته غلاماً وكثر ماله وماشيته رضي به واطمأنَّ إليه وقال : ما أصبت مذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً ، وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وأجهضت رماكه وذهب ماله وتأخرّت عنه الصدقة ، أتاه الشيطان فقال : والله ما أصبت مذ كنت على دينك هذا إلاّ شرّاً ، فينقلب عن دينه ، وذلك الفتنة ، فأنزل الله سبحانه ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ اللهَ على حَرْفٍ ﴾ أي طرف واحد وجانب في الدين لا يدخل فيها على الثبات والتمكين ، والحرف : منتهى الجسم ، وقال مجاهد : على شكّ .

وقال بعض أهل المعاني : يريد على ضعف في العبادة كضعف القائم على حرف مضطرباً فيه .

وقال بعضهم : أراد على لون واحد في الأحوال كلّها يتّبع مراده ، ولو عبدوا الله في الشكر على السرّاء والصبر على الضرّاء لما عبدوا الله على حرف .

وقال الحسن : هو المنافق يعبده بلسانه دون قلبه .

﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ﴾ صحة في جسمه وسعة في معيشته ﴿ اطمأن بِهِ ﴾ أي رضي واطمأن إليه وأقام عليه .

(266/520)

﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ بلاء في جسمه وضيق في معاشه وتعذّر المشتهى من حاله ﴿ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ ارتدّ فرجع إلى وجهه الذي كان عليه من الكفر ﴿ خَسِرَ الدنيا والأخرة ﴾ وقرأ حميد الأعرج ويعقوب : خاسر الدنيا بالألف على مثال فاعل ، والآخرة خفضاً ، على الحال .

﴿ ذلك هُوَ الخسران المبين ﴾ الضرر الظاهر ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُ ﴾ إن عصاه ﴿ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ﴾ إن أطاعه بعد إسلامه راجعاً إلى كفره ﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ ذهب عن الحق ذهاباً بعيداً .

﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ اختلف النحاة في وجه هذه اللام فقال بعضهم : هي صلة مجازُها : يدعو من ضرّه أقرب من نفعه ، وهكذا قرأها ابن مسعود ، وزعم الفّراء والزجّاج أنّ اللام معناها التأخير تقديرها : يدعو والله لمن ضرّه أقرب من نفعه .

وقال بعضهم : هذا على التأكيد معناه : يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه يدعو ثم حذفت

يدعو الأخيرة اجتزاء بالأُولى ، ولو قلت : تضرب لمن خيره أكثر من شرّه تضرب ، ثمّ يحذف الأخير جاز .

وحكي عن العرب سماعاً : أعطيتك لما غيره خير منه ، وعنده لما غيره خير منه .

وقيل : (يدعو لَمَنْ ضرّه) من قوله ﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ ، وموضع ﴿ ذلك ﴾ نصب ب (يدعو) كأنّه قال : الذي هو الضلال البعيد يدعو ، ثم استأنف فقال : لَمَن ضرّه أقرب من نفعه ، وتكون من في محل الرفع بالابتداء وخبره ﴿ لَبِئْسَ المولى وَلَبِئْسَ العشير ﴾ .

وقيل : يدعو بمعنى يقول ، والخبر محذوف تقديره : لمن ضرّه أقرب من نفعه إلهه لبئس المولى الناصر ، ولبئس العشير المعاشر ، والصاحب والخليط يعني الوثن .

(267/520)

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (*) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدنيا والآخرة ﴾ اختلفوا في المعنى بالهاء التي في قوله ينصره ، فقال أكثر المفسّرين : عنى بها نبيّه صلى الله عليه وسلم قال قتادة : يقول : من كان يظنّ أن لن ينصر الله نبيّه ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾ بحبل ﴿ إِلَى السمآء ﴾

إلى سقف البيت فليختنق به حتى يموت ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ الحبل بعد الاختناق ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ﴾ صنيعه وحيلته ﴿ مَا يَغِيظُ ﴾ هذا قول أكثر أهل التأويل ، وإنّما معنى الآية : فليصوّر هذا الأمر في نفسه وليس يختم لأنّه إذا اختنق ومات لا يمكنه القطع والنظر .

قال الحسين بن الفضل : هذا كما تقول في الكلام للحاسد أو المعاند : إن لم ترض هذا فاختنق .

وقال ابن زيد : السماء في هذه الآية هي السماء المعروفة بعينها ، وقال : معنى الكلام : من كان يظن أن لن ينصر الله نبيّه ويكايده في دينه وأمره ليقطعه عنه ، فليقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه فإنّ أصله في السماء ، فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع عن النبي صلى الله عليه وسلم الوحي الذي يأتيه من الله ، فإنه لا يكايده حتى يقطع أصله عنه ، فلينظر هل يقدر على إذهاب غيظه بهذا العمل .

وذُكر أنّ هذه الآية نزلت في قوم من أسد وغطفان تباطؤوا عن الإسلام وقالوا : نخاف أن لا يُنصَرَ محمد فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا ولا يؤوننا ، فقال الله لهم : من استعجل من الله نصر محمد فليختنق ، فلينظر استعجاله بذلك في نفسه هل هو مذهب غيظه ، فكذلك استعجاله من الله نصر محمد غير مقدم نصره قبل حينه .

وقال مجاهد : الهاء في ينصره راجعة إلى من ، ومعنى الكلام : من كان يظن أن لن يرزقه اللّه في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى سماء البيت فليختنق ، فلينظر هل يذهبن فعله ذلك ما يغيظ وهو خنقه أن لا يرزق ، والنصر على هذا القول : الرزق ، كقول العرب : من ينصرني نصره الله أي من يعطني أعطاه الله .

قال أبو عبيد : تقول العرب : " أرض منصورة " أي ممطورة كأن الله سبحانه أعطاها المطر .

وقال الفقعسي :

وإنّك لا تعطي أمرءاً فوق حقّه . . . ولا تملك الشقّ الذي الغيث ناصر

وفي قوله " ما يغيظ " لأهل العربيّة قولان : أحدهما : أنّها بمعنى الذي مجازه هل يذهبن كيده الذي يغيظه فحذف الهاء ليكون أخفّ .

والثاني : أنّها مصدر ، مجازه : هل يذهبن كيده غيظه .

﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ (*) إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ﴾ يعني عبدة الأوثان ، وقال قتادة : الأديان خمسة : أربعة للشيطان وواحد للرحمن . ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ ﴾ يحكم ﴿ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ قال النحاة : " إن الله " خبر لقوله " إنّ الذين " كما تقول : إنّ زيداً ان الخير عنده لكثير ، كقول الشاعر :

إنّ الخليفة إن الله سربله . . . سربال ملك به ترجى الخواتيم

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بقلبك وعقلك ﴿ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب ﴾ .

قال مجاهد : سجودها : تحوّل ظلالها ، وقال أبو العالية : ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلاّ يقع لله ساجداً حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حين يرجع إلى مطلعه .

وقال أهل الحقائق : سجود الجماد وما لا يعقل ما فيها من ذلّة الخضوع والتسخير وآثار الصنعة والتصوير الذي يدعو العاقلين إلى السجود لله سبحانه ، كما قال الشاعر :

(269/520)

وفي كلّ شيء له آية . . . تدلّ على أنّه واحد

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ بكفره وهو مع ذلك يسجد لله ظلّه ، قال مجاهد :

وقيل : يسجد لله أي يخضع له ويقرّ له بما يقتضيه عقله ويضطره إليه ، وإن كفر بغير ذلك من الأمور .

قالوا : وفي قوله ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ واو العطف .

وقال بعضهم : هو واو الاستئناف ، معناه : وكثير حق عليه العذاب بكفره وإبائه السجود .

حكى لي أبو القاسم بن حبيب عن أبي بكر بن عياش أنّه قال : في الآية إضمار مجازها : وسجد كثير من الناس ، وأبى كثير حقّ عليه العذاب .

﴿ وَمَن يُهِنِ الله ﴾ أي يهنه الله ﴿ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ قرأه العامة بكسر الراء ، وقرأ إبراهيم بن أبي عيلة : فماله من مكرَم بفتح الراء أي إكرام كقوله سبحانه ﴿ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء : 80] ﴿ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً ﴾ [المؤمنون : 29] أي إدخالاً وإنزالاً .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 5.13 ﴾

(270/520)

وقال الزمخشري :

سورة الحج

مكية ، غير ست آيات ، وهي : هذان خصمان . . . إلى قوله . . . إلى صراط الحميد

وهي ثمان وسبعون آية بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحج (22) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1)

الزلزلة : شدّة التحريك والإزعاج ، وأن يضاعف زليل الأشياء «1» عن مقارّها ومراكزها ولا تخلو السَّاعَةِ من أن تكون على تقدير الفاعلة لها ، كأنها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي ، فتكون الزلزلة مصدرا مضافا إلى فاعله . أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف وإجرائه مجرى المفعول به ، كقوله تعالى بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وهي الزلزلة المذكورة في قوله إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها واختلف في وقتها ، فعن الحسن أنها تكون يوم القيامة وعن علقمة والشعبي : عند طلوع الشمس من مغربها . أمر بنى آدم بالتقوى ، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة ، لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوّروها بعقولهم ، حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم ، بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردي بلباس التقوى ، الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يتردوا به . وروى أنّ هاتين الآيتين نزلتا ليلا في غزوة بنى المصطلق ، فقرأهما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة ، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ، ولم يضربوا الخيام وقت النزول ، ولم يطبخوا قدرا ، وكانوا من بين

حزين وباك ومفكر «2»

---

(1) . قوله «وأن يضاعف زليل الأشياء» أي يكرر انحراف الأشياء وتزحزحها عن مواضعها . وفي الصحاح :

تقول زللت يا فلان – بالفتح – تزل زليلا : إذا زل في طين أو منطق . (ع) [. . . . .]

(2) . هكذا ذكره الثعلبي والبغوي . قالا : روى عن عمران بن حصين وأبى سعيد الخدري وغيرهما أن هاتين الآيتين نزلتا ليلا في غزوة بنى المصطلق إلى آخره» قلت : وهو ملفق من حديثيه المذكورين . وثالثهما ابن عباس فيما رواه ابن إسحاق عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال «بينما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في مسيره في غزوة بنى المصطلق إذ نزل عليه يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ – إلى – شَدِيدٌ

فوقف على ناقته ، ورفع صوته – الحديث ، ورواه الترمذي والنسائي والحاكم من طريق الحسن عن عمران بن حصين «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو في بعض أسفاره وقد تقارب من أصحابه السير ورفع بهاتين صوته يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ – إلى قوله : وَلَكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطىّ وعرفوا أنه عنده قول يقوله ، فلما التفوا حوله قال : أتدرون أي يوم ذلك ؟ يوم ينادى آدم – الحديث . وفيه : فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة . فلما رأى ذلك قال : اعلموا وأبشروا – الحديث» وأما آخره فلم أره .

[سورة الحج (22) : آية 2]

يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)

يَوْمَ تَرَوْنَها

منصوب بتذهل . والضمير للزلزلة . وقرئ : تذهل كل مرضعة ، على البناء للمفعول : وتذهل كل مرضعة أى : تذهلها الزلزلة . والذهول : الذهاب عن الأمر مع دهشة . فإن قلت : لم قيل مُرْضِعَةٍ

دون مرضع ؟ قلت : المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى . والمرضع : التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به « 1 » فقيل : مرضعة ، ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة عَمَّا أَرْضَعَتْ

عن إرضاعها ، أو عن الذي أرضعته وهو الطفل وعن الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام ، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام . قرئ وَتَرَى

بالضم من أريتك قائما . أو رؤيتك قائما »

. والنَّاسَ

منصوب ومرفوع ، والنصب ظاهر . ومن رفع جعل الناس اسم ترى ، وأنثه على تأويل الجماعة . وقرئ : سكرى .

وبسكرى ، وهو نظير : جوعى وعطشى ، في جوعان وعطشان . وسكارى وبسكارى ، نحو كسالى وعجالى . وعن الأعمش : سكرى ، وبسكرى ، بالضم ، وهو غريب .

والمعنى : وتراهم سكارى على التشبيه ، وما هم بسكارى على التحقيق «3» ولكن ما رهقهم من خوف عذاب اللّه هو الذي أذهب _____

(1) . قال محمود : «يقال مرضع على النسب ومرضعة على أصل اسم الفاعل» قال أحمد : والفرق بينهما أن وروده على النسب لا يلاحظ فيه حدوث الصفة المشتق منها ، ولكن مقتضاه أنه موصوف بها ، وعلى غير النسب يلاحظ حدوث الفعل وخروج الصفة عليه ، وكذلك هو في الآية لقوله عَمَّا أَرْضَعَتْ فأخرج الصفة على الفعل ، وألحقه التاء .

(2) . قوله «أو رؤيتك قائما» لعله : أو رؤيت قائما . (ع)

(3) . قال محمود : «و قوله وترى الناس سكارى وما هم بسكارى : أثبت لهم أولا السكر المجازى ، ثم نفى عنهم السكر الحقيقي» قال أحمد : والعلماء يقولون : إن من أدلة المجاز صدق نقيضه ، كقولك : زيد حمار ، إذا وصفته بالبلادة ، ثم يصدق أن تقول : وما

هو بحمار ، فتنفى عنه الحقيقة ، فكذلك الآية بعد أن أثبت السكر المجازى نفى الحقيقة أبلغ نفى مؤكد بالباء . والسر في تأكيده : التنبيه على أن هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة ليس من المعهود في شيء ، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله ، والاستدراك بقوله وَلَكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ راجع إلى قوله وَما هُمْ بِسُكارى

وكأنه تعليل لاثبات السكر المجازى ، كأنه قيل : إذا لم يكونوا سكارى من الخمر وهو السكر المعهود ، فما هذا السكر الغريب وما سببه ؟ فقال : سببه شدة عذاب اللّه تعالى ، ونقل عن جعفر بن محمد الصادق رضى اللّه عنه أنه قال : هو الوقت الذي يقول كل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيه «نفسي نفسي» .

(272/520)

عقولهم وطير تمييزهم وردّهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه . وقيل وتراهم سكارى من الخوف ، وما هم بسكارى من الشراب . فإن قلت : لم قيل أوّلا : ترون ، ثم قيل : ترى ، على الإفراد ؟ قلت : لأنّ الرؤية أوّلا علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعا رائين لها ، وهي معلقة أخيرا بكون الناس على حال السكر ، فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائيا لسائرهم .

[سورة الحج (22) : الآيات 3 إلى 4]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (4)

قيل : نزلت في النضر بن الحرث ، وكان جدلا يقول : الملائكة بنات اللّه ، والقرآن أساطير الأولين ، واللّه غير قادر على إحياء من بلى وصار ترابا . وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على اللّه وما لا يجوز من الصفات والأفعال ، ولا يرجع إلى علم ولا يعضّ فيه بضرس قاطع ، وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة ، فهو يخبط خبط عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل وَيَتَّبِعُ في ذلك خطوات كُلَّ شَيْطانٍ عات ، علم من حاله وظهر وتبين أنه من جعله وليا له لم تثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار . وما أرى رؤساء أهل الأهواء «1» والبدع والحشوية المتلقبين بالإمامة في دين اللّه إلا داخلين تحت كل هذا دخولا أوليا ، بل هم أشدّ الشياطين إضلالا وأقطعهم لطريق الحق ، حيث دوّنوا الضلال تدوينا ولقنوه أشياعهم تلقينا ، وكأنهم ساطوه بلحومهم «2» ودمائهم ، وإياهم عنى من قال :

ويا ربّ مقفوّ الخطا بين قومه طريق نجاة عندهم مستو نهج

ولو قرءوا في اللّوح ما خطّ فيه من بيان اعوجاج في طريقته عجّوا «3»

اللهم ثبتنا على المعتقد الصحيح الذي رضيته لملائكتك في سمواتك ، وأنبيائك في أرضك ،

وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين . والكتبة عليه مثل ، أى : كأنما كتب إضلال من يتولاه عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله . وقرئ : أنه ، فأنه بالفتح والكسر ، فمن فتح فلأن الأول فاعل كتب ، والثاني

---

(1) . قوله «رؤساء أهل الأهواء» إن كان مراده أهل السنة كما هو عادته في الكتابة من التشنيع عليهم ، فينبغي مطالبته بالفرق بينهم وبين المعتزلة ، حتى استحقوا التشنيع دونهم . (ع)

(2) . قوله «وكأنهم ساطوه بلحومهم» أى خلطوه . (ع)

(3) . يا : للتنبيه أو للنداء . والمنادى محذوف . والمقفو : المتبوع . والخطا : جمع خطوة ، مستعارة للأفعال يجامع التبعية في كل ، وكذلك الطريق مستعار للقفو من حيث اتباعه فيها ودوامه عليها . مستو : مستقيم . والنهج والمنهج والمنهاج : الطريق الواضح . والاعوجاج مستعار للبس وللكذب . وعجوا : ضجوا وصاحوا .

(273/520)

عطف عليه . ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو ، كأنما «1» كتب عليه هذا الكلام ، كما تقول : كتبت : إنّ اللّه هو الغنى الحميد . أو على تقدير : قيل . أو على أن

كتب فيه معنى القول .

[سورة الحج (22) : آية 5]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)

قرأ الحسن مِنَ الْبَعْثِ بالتحريك . ونظيره : الجلب والطرد ، في الجلب والطرد ، كأنه قيل : إن ارتبتم في البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم . والعلقة : قطعة الدم الجامدة . والمضغة : اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ . والمخلقة : المسواة الملساء من النقصان والعيب . يقال :

خلق السواك والعود ، إذا سواه وملسه ، من قولهم : صخرة خلقاء ، وإذا كانت ملساة ، كأنّ اللّه تعالى يخلق المضغ متفاوتة : منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ، ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم ، وتمامهم ونقصانهم .

وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة لِنُبَيِّنَ لَكُمْ بهذا التدريج قدرتنا

وحكمتنا وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا ، ثم من نطفة ثانيا ولا تناسب بين الماء والتراب وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاما : قدر على إعادة ما أبدأه ، بل هذا أدخل في القدرة من تلك ، وأهون في القياس . وورود الفعل غير معدى إلى المبين : إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنهه الذكر ولا يحيط به الوصف وقرأ ابن أبى عبلة : ليبين لكم . ويقرّ ، بالياء . وقرئ : ونقرّ . ونخرجكم ، بالنون والنصب . ويقرّ ، ويخرجكم ، ويقرّ ، ويخرجكم : بالنصب والرفع . وعن يعقوب : نقرّ ، بالنون وضم القاف ، من قرّ الماء إذا صبه ، فالقراءة بالرفع إخبار بأنه يقرّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ أن يقرّه من ذلك إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وهو وقت الوضع آخر ستة أشهر ، أو تسعة ، أو سنتين ، أو أربع ، أو كما شاء وقدّر . وما لم يشأ إقراره محته الأرحام أو أسقطته . والقراءة بالنصب : تعليل معطوف على تعليل .

---

(1) . قوله «هو كأنما» لعله : أى كأنما . (ع)

ومعناه : خلقناكم مدرجين هذا التدريج لغرضين ، أحدهما : أن نبين قدرتنا . والثاني : أن نقر في الأرحام من نقرّ ، حتى يولدوا وينشؤا ويبلغوا حد التكليف فأكلفهم . ويعضد هذه القراءة قوله ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وحده لأن الغرض الدلالة على الجنس . ويحتمل : نخرج كل واحد منكم طفلا . الأشد : كمال القوة والعقل والتمييز ، وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدّة «1» والقتود والأباطيل وغير ذلك ، وكأنها شدّة في غير شيء واحد ، فبنيت لذلك على لفظ الجمع . وقرئ : ومنكم من يتوفى ، أي يتوفاه اللّه أَرْذَلِ الْعُمُرِ الهرم والخرف ، حتى يعود كهيئته الأولى في أوان طفولته : ضعيف البنية ، سخيف العقل ، قليل الفهم . بين أنه كما قدر على أن يرقيه في درجات الزيادة حتى يبلغه حد التمام ، فهو قادر على أن يحطه حتى ينتهي به إلى الحالة السفلى لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً أي : ليصير نساء بحيث إذا كسب علما في شيء لم ينشب أن ينساه ويزل عنه علمه حتى يسأل عنه من ساعته ، يقول لك : من هذا ؟ فتقول :

فلان ، فما يلبث لحظة إلا سألك عنه . وقرأ أبو عمرو : العمر ، بسكون الميم . الهامدة : الميتة اليابسة . وهذه دلالة ثانية على البعث ، ولظهورها وكونها مشاهدة معاينة ، كررها اللّه في كتابه اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ تحرّكت بالنبات وانتفخت ، وقرئ : ربأت ، أي ارتفعت .

البهيج :

الحسن السارّ للناظر إليه .

[سورة الحج (22) : الآيات 6 إلى 7]

ذِلكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7)

أى : ذلك الذي ذكرنا من خلق بنى آدم وإحياء الأرض ، مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم واللطائف ، حاصل بهذا وهو السبب في حصوله ، ولولاه لم يتصور كونه ، وهو بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ أى الثابت الموجود ، وأنه قادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور ، وأنه حكيم لا يخلف ميعاده ، وقد وعد الساعة والبعث ، فلا بدّ أن يفي بما وعد .

[سورة الحج (22) : الآيات 8 إلى 10]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (8) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ (9) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (10)

---

(1) . قوله «من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدة والقتود والأباطيل» الذي في الصحاح «السدّ» بالفتح : واحد الأسدة وهي العيوب اه وهي مثل العمى والصمم والبكم على غير قياس ، وكان قياسه : سدود .

والقتد : خشب الرحل ، وجمعه : قتود وأقتاد . والباطل : ضد الحق ، والجمع أباطيل على غير قياس كأنهم جمعوا إبطيلا . وفيه أيضا قوله تعالى حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ أى قوته وهو

واحد جاء على بناء الجمع ، مثل «آنك» وهو الأسربّ ، ولا نظير لهما ، ويقال له : جمع لا واحد له من لفظه ، مثل : أبابيل ، وعباديد ، ومذاكير . (ع)

(275/520)

عن ابن عباس أنه أبو جهل بن هشام . وقيل : كرر كما كررت سائر الأقاصيص . وقيل : الأوّل في المقلدين ، وهذا في المقلدين . والمراد بالعلم : العلم الضروري . وبالهدى : الاستدلال والنظر ، لأنه يهدى إلى المعرفة . وبالكتاب المنير : الوحى ، أى يجادل بظن وتخمين ، لا بأحد هذه الثلاثة . وثنى العطف : عبارة عن الكبر والخيلاء ، كتصعير الخدّ ولىّ الجيد . وقيل : عن الإعراض عن الذكر . وعن الحسن : ثانى عطفه ، بفتح العين ، أى : مانع تعطفه لِيُضِلَّ تعليل للمجادلة . قرئ بضم الياء وفتحها . فإن قلت : ما كان غرضه من جداله الضلال عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فكيف علل به ؟ وما كان أيضا مهتديا حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال ؟ قلت : لما أدّى جداله إلى الضلال ، جعل كأنه غرضه ، ولما كان الهدى معرضا له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال بالباطل ، جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال . وخزيه :

ما أصابه يوم بدر من الصغار والقتل ، والسبب فيما منى به من خزى الدنيا وعذاب

الآخرة: هو ما قدمت يداه، وعدل اللّه في معاقبته الفجار وإثابته الصالحين.

[سورة الحج (22): الآيات 11 إلى 13]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13)

عَلى حَرْفٍ على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه. وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة، كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحسّ بظفر وغنيمه قرّ واطمأن، وإلا فرّ وطار على وجهه. قالوا: نزلت في أعاريب قدموا المدينة، وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهرا سريا، وولدت امرأته غلاما سويا، وكثر ماله وماشيته قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيرا، واطمأن. وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شرا، وانقلب. وعن أبي سعيد الخدري أن رجلا من اليهود أسلم فأصابته مصائب، فتشاءم بالإسلام، فأتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال: أقلني، فقال «إنّ الإسلام لا يقال» «1» فنزلت. المصاب بالمحنة بترك التسليم لقضاء اللّه والخروج إلى ما يسخط اللّه:

---

(1). هكذا ذكره الواحدي في الأسباب، لكن بغير إسناد. فقال: روى عطية عن أبي

سعيد ، فذكره سواه وأخرجه ابن مردويه من رواية عطية عن أبى سعيد قال «أسلم رجل من اليهود فذهب ماله وولده ، وتشاءم بالإسلام - الحديث نحوه» وإسناده ضعيف

وأخرج العقيلي من رواية عنبسة بن سعيد عن أبى الزبير عن جابر قال :

«أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم يهودى فأسلم على يديه ، ثم رجع إلى منزله فأصيب في عينه وفي ولده فرجع إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم . فقال : أقلنى - الحديث» ولم يذكر فيه نزول الآية . وعنبسة ضعيف جدا .

(276/520)

جامع على نفسه محنتين ، إحداهما : ذهاب ما أصيب به . والثانية : ذهاب ثواب الصابرين ، فهو خسران الدارين . وقرئ : خاسر الدنيا والآخرة بالنصب والرفع ، فالنصب على الحال ، والرفع على الفاعلية . ووضع الظاهر موضع الضمير ، وهو وجه حسن . أو على أنه خبر مبتدإ محذوف . استعير الضَّلال الْبَعِيدُ من ضلال من أبعد في التيه ضالا ، فطالت وبعدت مسافة ضلالته . فإن قلت : الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين ، وهذا تناقض .

قلت : إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم ، وذلك أن اللّه تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جمادا

لا يملك ضرا ولا نفعا ، وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه يستنفع به حين يستشفع به ، ثم قال : يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ ، حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها ، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها لها لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ أو كرّر يدعو ، كأنه قال : يدعو يدعو من دون اللّه ما لا يضره وما لا ينفعه ، ثم قال : لمن ضره بكونه معبودا أقرب من نفعه بكونه شفيعا لبئس المولى . وفي حرف عبد اللّه : من ضره ، بغير لام . المولى : الناصر . والعشير : الصاحب ، كقوله فَبِئْسَ الْقَرِينُ .

[سورة الحج (22) : الآيات 14 إلى 15]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (14) مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (15)

هذا كلام قد دخله اختصار . والمعنى . إن اللّه ناصر رسوله في الدنيا والاخرة ، فمن كان يظنّ من حاسديه وأعاديه أن اللّه يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه ، ويغيظه أنه يظفر بمطلوبه ، فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه ، بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مدّ حبلا إلى سماء بيته فاختنق ، فلينظر وليصوّر في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر اللّه الذي يغيظه ؟ وسمى الاختناق قطعا لأنّ المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه .

ومنه قيل للبهر : القطع «1» . وسمى فعله كيدا لأنه وضعه موضع الكيد ، حيث لم يقدر على

(1) . قوله «و منه قيل للبهر القطع» أى تتابع النفس . أفاده الصحاح . (ع)

(277/520)

غيره . أو على سبيل الاستهزاء لأنه لم يكد به محسوده إنما كاد به نفسه . والمراد : ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه . وقيل : فليمدد بحبل إلى السماء المظلة . وليصعد عليه فليقطع الوحى أو ينزل عليه . وقيل : كان قوم من المسلمين لشدّة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد اللّه رسوله من النصر ، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يثبت أمره . فنزلت . وقد فسر النصر : بالرزق ، وقيل : معناه أن الأرزاق بيد اللّه لا تنال إلا بمشيئته ولا بد للعبد من الرضا بقسمته ، فمن ظنّ أن اللّه غير رازقه وليس به صبر واستسلام ، فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق ، فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يردّه مرزوقا .

[سورة الحج (22) : آية 16]

وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰاهُ آيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ وَأَنَّ اللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16)

أى : ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله آياتٍ بَيِّناتٍ وَل أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي به الذين يعلم أنهم يؤمنون . أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى ، أنزله كذلك مبينا

[سورة الحج (22) : آية 17]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17)

الفصل مطلق يحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعا ، فلا يجازيهم جزاء واحدا بغير تفاوت ، ولا يجمعهم في موطن واحد . وقيل : الأديان خمسة : أربعة للشيطان وواحد للرحمن . جعل الصابئون مع النصارى لأنهم نوع منهم . وقيل يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يقضى بينهم ، أى بين المؤمنين والكافرين . وأدخلت إِنَّ على كل واحد من جزأى الجملة لزيادة التوكيد . ونحوه قول جرير :

إنّ الخليفة إنّ اللّه سربله سربال ملك به ترجى الخواتيم «1»

[سورة الحج (22) : آية 18]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (18)

---

(1) . لجرير . وقوله «إن اللّه سربله» خبر إن الأولى ، وكررها لتوكيد التوكيد . وسربله :

كساه بالملك الشبيه بالسربال . ويروى : سربال ملك به ، أى : بذلك اللباس أو الملك ، تزجى : أى تساق الخواتيم : جمع خاتم - بالفتح والكسر - والأصل : خواتم ، فزيدت الياء . والمراد بها : عواقب الأمور الحميدة . وقال أبو حيان : يحتمل أن خبر إن قوله «به تزجى» وجملة «إن اللّه سربله» اعتراضية . ويروى : «به ترجى» بالراء ، وليحرر .

(278/520)

سميت مطاوعتها له فيما يحدث فيها من أفعاله ويجريها عليه من تدبيره وتسخيره لها : سجودا له ، تشبيها لمطاوعتها بإدخال أفعال المكلف في باب الطاعة والانقياد ، وهو السجود الذي كل خضوع دونه ، فإن قلت : فما تصنع بقوله وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وبما فيه من الاعتراضين ، أحدهما :

أنّ السجود على المعنى الذي فسرته به ، لا يسجده بعض الناس دون بعض . والثاني : أنّ السجود قد أسند على سبيل العموم إلى من في الأرض من الإنس والجن أولا ، فإسناده إلى كثير منهم آخرا مناقضة ؟ قلت : لا أنظم كثيرا في المفردات المتناسقة الداخلة تحت حكم الفعل ، وإنما أرفعه بفعل مضمر يدل عليه قوله يَسْجُدُ أى ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة .

ولم أقل : أفسر يسجد الذي هو ظاهر بمعنى الطاعة والعبادة في حق هؤلاء ، لأنّ اللفظ الواحد لا يصحّ استعماله في حالة واحدة على معنيين مختلفين ، أو أرفعه على الابتداء والخبر محذوف وهو مثاب ، لأنّ خبر مقابله يدل عليه ، وهو قوله حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ ويجوز أن يجعل مِنَ النَّاسِ خبرا له ، أى : من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون . ويجوز أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب ، فيعطف كثير على كثير ، ثم يخبر عنهم بحقّ عليهم العذاب ، كأنه قيل : وكثير وكثير من الناس حق عليهم العذاب ، وقرئ : حق ، بالضم . وقرئ : حقا ، أى حقّ عليهم العذاب حقا . ومن أهانه اللّه - بأن كتب عليه الشقاوة لما سبق في علمه من كفره أو فسقه - فقد بقي مهانا «1» ، لن تجد له مكرما . وقرئ : مكرم ، بفتح الراء بمعنى الإكرام .

إنه يَفْعَلُ ما يَشاءُ من الإكرام والإهانة ، ولا يشاء من ذلك إلا ما يقتضيه عمل العاملين واعتقاد المعتقدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 141.149﴾

---

(1) . قوله «من كفره أو فسقه فقد بقي مهانا» مبنى على أن الفاسق واسطة بين المؤمن والكافر ، وأنه يخلد في النار كالكافر ، وهو مذهب المعتزلة . والحق عند أهل السنة أنه مؤمن ، وإن دخل النار مخرج منها بالشفاعة أو بمجرد فضله تعالى . (ع)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ﴾

يعني احذروا عقابة واعملوا بطاعته ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ الزلزلة شدة الحركة على الحال الهائلة ووصفها بالعظم ولا شيء أعظم مما عظمه الله تعالى .

قيل : هي من أشراط الساعة قبل قيامها .

وقال ابن عباس : زلزلة الساعة قيامها فتكون معها ﴿ يوم ترونها ﴾ أي الساعة وقيل الزلزلة ﴿ تذهل ﴾ قال ابن عباس تشغل وقيل تنسي ﴿ كل مرضعة عما أرضعت ﴾ أي كل امرأة معها ولد ترضعه ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أي تسقط من هول ذلك اليوم كل حامل حملها قال الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام .

فعلى هذا القول تكون الزلزلة في الدنيا لأن بعد البعث لا يكون حبل ومن قال تكون الزلزلة في القيامة قال هذا على وجه تعظيم الأمر وتهويله على حقيقته كما تقول أصابنا أمر يشيب فيه الوليد تريد به شدته ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ على التشبيه ﴿ وما هم بسكارى ﴾ على التحقيق ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وأزال تمييزهم وقيل سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب ﴿ ولكن عذاب

شديد ﴾ (ق) عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " يقول الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك " .

(280/520)

زاد في رواية " والخير في يديك فينادى بصوت إن الله تعالى يأمرك أن تخرج من ذريتك بعث النار قال رب وما بعث النار قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذٍ تضع الحوامل ، ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم " زاد في رواية قالوا يا رسول الله أينا ذلك الرجل فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود وفي رواية كالرقمة في ذراع الحمار وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة .

فكبّرنا ثم قال : ثلث أهل الجنة فكبّرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبّرنا " لفظ البخاري .

وفي حديث عمران بن حصين وغيره أن هاتين الآيتين نزلتا في غزوة بني المصطلق ليلاً فنادى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فحثوا المطى حتى كانوا حول رسول الله صلّى الله عليه

وسلم فقرأ عليهم فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة ، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا والناس من بين باكٍ وجالس متفكر .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أي يوم ذلك قالوا : الله ورسوله أعلم قال : ذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث من ذريتك بعث النار " وذكر نحو حديث أبي سعيد وزاد فيه ثم قال " يدخل من أمتي سبعون ألفاً الجنة بغير حساب فقال عمر : سبعون ألفاً ؟ قال : نعم قال ومع كل واحد سبعون ألفاً " .

(281/520)

قوله عزّ وجلّ : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ نزلت في النضر بن الحارث كان كثير الجدل وكان يقول للملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين وكان ينكر البعث وإحياء من صار تراباً ﴿ ويتبع ﴾ يعني في جداله في الله بغير علم ﴿ كل شيطان مريد ﴾ يعني المتمرد والمستمر في الشر وفيه جهان أحدهما : أنهم شياطين الإنس وهم رؤساء الكفر الذين يدعون من دونهم إلى الكفر والثاني أنه إبليس وجنوده ﴿ كتب عليه ﴾ يعني قضى على الشيطان ﴿ أنه من تولاه ﴾ يعني اتبعه ﴿ فإنه ﴾ يعني الشيطان ﴿ يضله ﴾ يعني يضل من تولاه عن طريق الجنة ﴿ ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ وفي الآية زجر عن اتباعه

والمعنى كتب عليه أنه من يقبل منه فهو في ضلال ثم ألزم الحجة منكري البعث فقال ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب ﴾ يعني شك ﴿ من البعث ﴾ يعني بعد الموت ﴿ فإنّا خلقناكم من تراب ﴾ يعني أباكم آدم الذي هو أصل النسل ﴿ ثم من نطفة ﴾ يعني ذريته من المني وأصلها الماء القليل ﴿ ثم من علقة ﴾ يعني من دم جامد غليظ وذلك أنّ النطفة تصير دماً غليظاً ﴿ ثم من مضغة ﴾ وهو لحمة قليلة قدر ما يمضغ ﴿ مخلقة وغير مخلقة ﴾ .

قال ابن عباس : أي تامة الخلق وغير تامة الخلق وقيل مصورة وغير مصورة وهو السقط . وقيل : المخلقة الولد الذي تأتي به المرأة لوقته وغير المخلقة السقط فكأنه سبحانه وتعالى قسم المضغة إلى قسمين أحدهما تام الصورة والحواس والتخطيط ، والقسم الثاني هو الناقص عن هذه الأحوال كلها .

(282/520)

وروي عن علقمة عن ابن مسعود موقوفاً عليه قال : إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك بكفه وقال : أي رب مخلقة أو غير مخلقة فإن قال غير مخلقة قذفها في الرحم دماً ولم تكن نسمة وإن قال مخلقة قال الملك : إي رب أذكر أم أنثى شقي أم سعيد ما الأجل

ما العمل ما الرزق بأي أرض يموت ؟ فيقال له : اذهب إلى أم الكتاب فإنك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها في أم الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفته والذي أخرجاه في الصحيحين عنه قال حدّثنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو الصادق المصدوق " إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فوَالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل عمل أهل الجنة ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه بعمل أهل الجنة فيدخلها "

(283/520)

وقوله تعالى ﴿ لنبين لكم ﴾ أي كمال قدرتنا وحكمتنا في تصريف خلقكم ولتستدلوا بقدرته في ابتداء الخلق على قدرته على الإعادة وقيل : لنبين لكم ما تأتون وما تذرون وما تحتاجون إليه في العبادة وقيل لنبين لكم أنّ تغير المضغة إلى الخلقة هو اختيار الفاعل المختار فإنّ القادر على هذه الأشياء كيف يكون عاجزاً عن الإعادة ﴿ ونقر في الأرحام ما نشاء ﴾ أي لا تسقطه ولا تمجه ﴿ إلى أجل مسمّى ﴾ أي وقت خروجه من الرحم تام الخلق

﴿ ثم نخرجكم ﴾ أي وقت الولادة من بطون أمهاتكم ﴿ طفلاً ﴾ أي صغاراً وإنّما وحد الطفل لأن الغرض الدلالة على الجنس ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ أي كمال القوة والعقل والتمييز ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أي قبل بلوغ الكبر ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ أي الهرم والخوف ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ أي يبلغ من السن ما يتغير به عقله فلا يعقل شيئاً فصير كما كان في أول طفوليته ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم ثم ذكر دليلاً آخر على البعث فقال تعالى ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ أي يابسة لا نبات فيها ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء ﴾ يعني المطر ﴿ اهتزت ﴾ أي تحركت بالنبات ﴿ وربت ﴾ أي ارتفعت وذلك أنّ الأرض ترتفع بالنبات ﴿ وأنبتت ﴾ هو مجاز لأن الله تعالى هو المنبت وأضيف إلى الأرض توسعاً ﴿ من كل زوج بهيج ﴾ أي من كل صنف حسن نضير والبهيج هو المبهج وهو الشيء المشرق الجميل ثم إنّ الله تعالى لمّا ذكر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب .

(284/520)

فقال تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي ذكرنا ذلك لتعلموا ﴿ بأن الله هو الحق ﴾ وإن هذه الأشياء دالة على وجود الصانع ﴿ وأنّه يحيي الموتى ﴾ أي إنه إذا لم يستبعد منه إيجاد هذه

الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات ﴿ وأنه على كل شيء قدير ﴾ أي من كان كذلك كان قادراً على جميع الممكنات ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور ﴾ أي ما ذكر من الدلائل لتعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها وأنّها حق وأنّ البعث بعد الموت حق قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ يعني النضر بن الحرث ﴿ ولا هدى ﴾ اي ليس معه من الله بيان ولا رشاد ﴿ ولا كتاب منير ﴾ أي ولا كتاب من الله له نور ﴿ ثاني عطفه ﴾ أي لاوي جنبه وعنقه متبختراً لتكبّره معرضاً عما يدعى إليه من الحق تكبّراً ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ أي عن دين الله ﴿ له في الدنيا خزي ﴾ أي عذاب وهوان وهو أنه قتل يوم بدر صبراً هو وعقبة بن أبي معيط ﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك ﴾ أي يقال له ذلك ﴿ بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ أي فيعذبهم بغير ذنب والله تعالى على أي وجه أراد يتصرف في عبده فحكمه عدل وهو غير ظالم.

قوله عزّ وجلّ ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ الآية نزلت في قوم من الأعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه مهراً وولدت امرأته غلاماً وكثر ماله ، قال هذا دين حسن وقد أصبت فيه خيراً واطمأن له وإن صابه مرض وولدت امرأته جارية ولم تلد فرسه وقل ماله قال ما أصبت منذ دخلت في هذا الدين إلاّ شراً فينقلب عن دينه وذلك هو الفتنة فأنزل الله تعالى

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ أي على شك وأصله من حرف الشيء وهو طرفه نحو حرف الجبل والحائط الذي غير مستقر فقيل للشاك في الدين أنه يعبد الله على حرف لأنه لم يدخل فيه على الثبات والتمكن .

(285/520)

وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم على سكينة وطمأنينة ولو عبدوا الله بالشكر على السراء والصبر على الضراء لم يكونوا على حرف وقيل هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قبل ﴿ فإن أصابه خير ﴾ أي صحة في جسمه وسعة في معيشته ﴿ اطمأن به ﴾ أي رضي به وسكن إليه ﴿ وإن أصابته فتنة ﴾ أي بلاء في جسمه وضيق في معيشته ﴿ انقلب على وجهه ﴾ أي ارتد ورجع على عقبه إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ أي خسر في الدنيا العز والكرامة ولا يبقى دمه وماله مصوناً .

وقيل خسر في الدنيا ما كان يؤمل والآخرة بذهاب الدين والخلود في النار ﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾ أي الظاهر ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره ﴾ إن عصاه ولم يعبده ﴿ وما لا ينفعه ﴾ أي إن أطاعه وعبده ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ أي عن الحق والرشد

﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ فإن قلت قد قال الله تعالى الآية الأولى ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ﴾ وقال في هذه الآية ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ وهذا تناقض فكيف الجمع بينهما .

قلت إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم وذلك أنّ الله تعالى قال في الآية الأولى : ما لا يضره أي لا يضره ترك عبادته وقوله لمن ضره أي ضر عبادته وقيل : إنها لا تضر ولا تنفع بأنفسها ولكن عبادتها سبب الضرر وذلك يكفي في إضافة الضرر إليها وقيل : إن الله تعالى سفه الكافر حيث عبد جماداً لا يضر ولا ينفع وهو يعتقد بجهله وضلاله أنه ينتفع به حين يستشفع وقيل الآية في الرؤساء وهم الذين كانوا يفزعون إليهم لأنه يصح منهم أن يضروا وينفعوا وحجة هذا القول أن الله تعالى بين في الآية الأولى أنّ الأوثان لا تضر ولا تنفع وهذه الآية تقتضي كون المذكور فيها ضاراً نافعاً ، فلو كان المذكور في هذه الأوثان لزم التناقض فثبت أنهم الرؤساء بدليل قوله ﴿ لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ أي الناصر والمصاحب المعاشر .

(286/520)

قوله عزّ وجلّ : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إنّ الله يفعل ما يريد ﴾ أي بأوليائه وأهل طاعته من الكرامة وبأهل معصيته من الهوان قوله تعالى ﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله ﴾ يعني نبيه محمداً (صلى الله عليه وسلم) ﴿ في الدنيا ﴾ أي بإعلاء كلمته وإظهار دينه ﴿ والآخرة ﴾ أي وفي الآخرة بإعلاء درجته والانتقام ممن كذبه ﴿ فليمدد بسبب ﴾ أي بحبل ﴿ إلى السماء ﴾ أي سقف البيت على قول الأكثرين والمعنى ليشدّد حبلاً من سقف بيته فليختنق به حتى يموت ﴿ ثم ليقطع ﴾ أي الحبل بعد الاختناق وقيل ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ﴾ أي صنيعه وحيلته ﴿ ما يغيظ ﴾ أي فليختنق غيظاً .

وليس هذا على سبيل الحتم لأنه لا يمكنه القطع والنظر بعد الاختناق ولكنه كما يقال للحاسد مت غيظاً وقيل المراد بالسماء السماء المعروفة والمعنى من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ويكيد في أمره ليقطعه عنه فليقطعه من أصله فإنّ أصله في السماء فليطلب سبباً يصل به إلى السماء ، ثم ليقطع عن النبي صلى الله علي وسلم الوحي الذي يأتيه فينظر هل يتهيّأ له الوصول إلى السماء بحيلة وهل يقدر على إذهاب غيظه بهذا الفعل فإذا كان ذلك ممتنعاً كان غيظه عديم الفائدة .

وفي الآية زجر للكافر عن الغيظ فيما لا فائدة فيه .

روي أنّ الآية نزلت في قوم من أسد وغطفان دعاهم النبيّ (صلى الله عليه وسلم) إلى

الإسلام وكان بينهم وبين اليهود محالفة فقالوا : لا يمكننا أن نسلم لأنّا نخاف أن لا ينصر محمد ولا يظهر أمره فتنقطع المحالفة بيننا وبين اليهود فلا يميرونا ولا يؤوونا وقيل النصر معناه الرزق .

(287/520)

ومعنى الآية من كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فإنّ ذلك لا يجعله مرزوقاً تقول العرب من ينصرني نصره الله أي من يعطني أعطاه الله ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ يعني القرآن ﴿ آيات بينات وأن الله يهدي من يريد إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ﴾ يعني عبدة الأوثان وقيل الأديان ستة واحد لله وهو الإسلام وخمسة للشيطان وهو ما عدا الإسلام ﴿ إن الله يفصل بينهم ﴾ أي يحكم بينهم ﴿ يوم القيامة ﴾ وقيل يفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعاً فلا يجازيهم جزاء واحداً بغير تفاوت ولا يجمعهم في موطن واحد ﴿ إنّ الله على كل شيء شهيد ﴾ أي إنه علم بما يستحقه كل واحد منهم فلا يجزي في ذلك الفصل ظلم ولا حيف وقد تقدّم بسط الكلام على معنى هذه الآية في تفسير سورة البقرة .

قوله عزّ وجلّ ﴿ ألم ترَ ﴾ أي لم تعلم وقيل ألم تر بقلبك ﴿ إنّ الله يسجد له من في السموات

ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب ﴾ قيل سجود هذه الأشياء تحول ظلالهما وقيل ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجداً حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه وقيل معنى سجودها الطاعة فإنه ما من جماد إلاّ وهو مطيع لله تعالى خاشع ومسبح له كما وصفهم بالخشية والتسبيح : وهذا مذهب أهل السنة وهو أنّ هذه الأجسام لما كانت قابلة لجميع الأعراض التي خلقها الله تعالى فيها من غير امتناع البتة أشبهت بمطاوعتها أفعال المكلف وهو السجود الذي كل خضوع دونه .

فإن قلت هذا التأويل يبطله قوله ﴿ وكثير من الناس ﴾ فإن السجود بالمعنى الذي ذكر عام في الناس كلهم فإسناده إلى كثير من الناس يكون تخصيصاً من غير فائدة .

(288/520)

قلت المعنى الذي ذكرته وإن كان عاماً في حق الكل إلاّ أن بعضهم تمرد وتكبّر وترك السجود في الظاهر فهذا وإن كان ساجداً بذاته لكنه متمرد بظاهره وأمّا المؤمن فإنه ساجد بذاته وبظاهره أيضاً فلأجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر وقيل معنى الآية ﴿ ولله يسجد من في السموات ومن في الأرض ﴾ ويسجد له كثير من الناس فيكون

السجود الأول : بمعنى الانقياد والثاني بمعنى الطاعة والعبادة .

فإن قلت قوله من في السموات ومن في الأرض لفظ عموم فيدخل فيه الناس فلم قال وكثير من الناس .

قلت لو اقتصر على ما تقدّم لأوهم أن كل الناس يسجدون طوعاً دون بعض وهم الذين قال فيهم ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ وهم الكفار أي حق عليهم العذاب بكفرهم وتركهم السجود ومع كفرهم وامتناعهم عن السجود تسجد ظلالهم لله عزّ وجلّ ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ أي من يذله الله فلا يكرمه أحد ﴿ إنّ الله يفعل ما يشاء ﴾ أي يكرم الله بالسعادة من يشاء ويهين بالشقاوة من يشاء وقيل هو الذي يصح منه الإكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب .

(فصل)

هذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند تلاوتها أو سماع تلاوتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 2 . 8 ﴾

(289/520)

وقال النسفى :

﴿ يَا أَيُّهَا الناس اتقوا رَبَّكُمُ ﴾

أمر بني آدم بالتقوى ، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة بقوله ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردي بلباس التقوى الذي يؤمنهم من تلك الأفزاع .

والزلزلة شدة التحريك والإزعاج ، وإضافة الزلزلة إلى الساعة إضافة المصدر إلى فاعله كأنها هي التي تزلزل الأرض على المجاز الحكمي ، أو إلى الظرف لأنها تكون فيها كقوله ﴿ بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ﴾ [سبأ : 33] ووقتها يكون يوم القيامة أو عند طلوع الشمس من مغربها ، ولا حجة فيها للمعتزلة في تسمية المعدوم شيئاً فإن هذا اسم لها حال وجودها وانتصب ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ أي الزلزلة أو الساعة بقوله ﴿ تَذْهَلُ ﴾ تغفل .

والذهول : الغفلة ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ عن إرضاعها أو عن الذي أرضعته وهو الطفل .

وقيل ﴿ مرضعة ﴾ ليدل على أن ذلك الهول إذا حدث وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة إذ المرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي ، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ

حَمْلٍ ﴾ أي حبلى ﴿ حِمْلِهَا ﴾ ولدها قبل تمامه .

عن الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام ﴿ وَتَرَى الناس ﴾ أيها الناظر ﴿ سكارى ﴾ على التشبيه لما شاهدوا بساط العزة وسلطنة الجبروت وسرادق الكبرياء حتى قال كل نبي : نفسي نفسي ﴿ وَمَا هُم بسكارى ﴾ على التحقيق ﴿ ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ فخوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه .

وعن الحسن : وترى الناس سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب .

(290/520)

﴿ سكرى ﴾ فيهما بالإمالة : حمزة وعلي وهو كعطشى في عطشان .

رُوي أنه نزلت الآيتان ليلاً في غزوة بني المصطلق فقرأهما النبي عليه السلام فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله ﴾ في دين الله ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ حال .

نزلت في النضر بن الحرث وكان جدلاً يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن : أساطير الأولين ، والله غير قادر على إحياء من بلي ، أو هي عامة في كل من يخاصم في الدين بالهوى ﴿

وَيَتَّبِعْ ﴾ في ذلك ﴿ كُلَّ شيطان مَّرِيدٍ ﴾ عاتٍ مستمر في الشر .

ولا وقف على ﴿ مريد ﴾ لأن ما بعده صفته ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ قضي على الشيطان ﴿ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ تبعه أي تبع الشيطان ﴿ فأَنَّه ﴾ فأن الشيطان ﴿ يُضِلُّهُ ﴾ عن سواء السبيل ﴿ وَيَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السعير ﴾ النار .

قال الزجاج : الفاء في فأنه للعطف و"أن" مكررة للتأكيد .

ورد عليه أبو علي وقال : إن "من" إن كان للشرط فالفاء دخل لجزاء الشرط ، وإن كان بمعنى الذي فالفاء دخل على خبر المبتدأ والتقدير : فالأمر أنه يضله .

قال : والعطف والتأكيد يكون بعد تمام الأول ، والمعنى كتب على الشيطان إضلال من تولاه وهدايته إلى النار .

ثم ألزم الحجة على منكري البعث فقال

(291/520)

﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مّنَ البعث ﴾ يعني إن ارتبتم في البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم وقد كنتم في الابتداء تراباً وماء ، وليس سبب إنكاركم البعث إلا هذا وهو صيرورة الخلق تراباً وماء ﴿ فَإِنَّا خلقناكم ﴾ أي أباكم ﴿ مّن تُرَابٍ ثُمَّ ﴾

خلقتم ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ أي قطعة دم جامدة ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ أي لحمة صغيرة قدر ما يمضغ ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ المخلقة المسواة الملساء من النقصان والعيب كأن الله عز وجل يخلق المضغة متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ، ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم .

وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ بهذا التدريج كمال قدرتنا وحكمتنا ، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً ثم من نطفة ثانياً ولا مناسبة بين التراب والماء وقدر أن يجعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاماً قادر على إعادة ما بدأه ﴿ وَنُقِرُّ ﴾ بالرفع عند غير المفضل مستأنف بعد وقف .

أي نحن نثبت ﴿ فِى الأرحام مَا نَشَاء ﴾ ثبوته ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي وقت الولادة وما لم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ ﴾ من الرحم ﴿ طِفْلاً ﴾ حال وأريد به الجنس فلذا لم يجمع ، أو أريد به ثم نخرج كل واحد منكم طفلاً ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ ﴾ ثم نربيكم لتبلغوا ﴿ أَشُدَّكُمْ ﴾ كمال عقلكم وقوتكم وهو من ألفاظ الجموع التي لا يستعمل لها واحد ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى ﴾ عند بلوغ الأشد أو قبله أو بعده ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العمر ﴾ أخسه يعني الهرم والخرف ﴿ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ أي لكيلا يعلم شيئاً من بعد ما كان يعلمه أو لكيلا يستفيد علماً وينسى ما كان عالماً به .

ثم ذكر دليلاً آخر على البعث فقال ﴿ وَتَرَى الأرض هَامِدَةً ﴾ ميتة يابسة ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء اهتزت ﴾ تحركت بالنبات ﴿ وَرَبَتْ ﴾ وانتفخت .

﴿ وربأت ﴾ حيث كان : يزيد ارتفعت ﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صنف ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسن صار للناظرين إليه .

﴿ ذلك ﴾ مبتدأ خبره ﴿ بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ أي ذلك الذي ذكرنا من خلق بني آدم وإحياء الأرض مع ما في تضاعيف ذلك من أصناف الحكم حاصل بهذا وهو أن الله هو الحق أي الثابت الوجود ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِ الموتى ﴾ كما أحيا الأرض ﴿ وَأَنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قادر ﴿ وَأَنَّ الساعة ءاتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَن فِى القبور ﴾ أي أنه حكيم لا يخلف الميعاد وقد وعد الساعة والبعث فلا بد أن يفي بما وعد ﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله ﴾ في صفاته فيصفه بغير ما هو له .

نزلت في أبي جهل ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ضروري ﴿ وَلاَ هُدًى ﴾ أي استدلال لأنه يهدي إلى المعرفة ﴿ وَلاَ كتاب مُّنِيرٍ ﴾ أي وحي والعلم للإنسان من أحد هذه الوجوه الثلاثة ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِ ﴾ حال أي لاوياً عنقه عن طاعة الله كبراً وخيلاء .

وعن الحسن : ﴿ ثاني عطفه ﴾ بفتح العين أي مانع تعطفه إلى غيره ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ تعليل للمجادلة .

﴿ ليضل ﴾ مكي وأبو عمرو ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ دينه ﴿ لَهُ فِى الدنيا خِزْىٌ ﴾ أي القتل يوم بدر ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القيامة عَذَابَ الحريق ﴾ أي جمع له عذاب الدارين ﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أي السبب في عذاب الدارين هو ما قدمت نفسه من الكفر والتكذيب ، وكنى عنها باليد لأن اليد آلة الكسب ﴿ وَأَنَّ الله لَيْسَ بظلام لِّلْعَبِيدِ ﴾ فلا يأخذ أحداً بغير ذنب ولا بذنب غيره وهو عطف على ﴿ بما ﴾ أي وبأن الله .

وذكر الظلام بلفظ المبالغة لاقترانه بلفظ الجمع وهو العبيد ، ولأن قليل الظلم منه مع علمه بقبحه واستغنائه كالكثير منا .

(293/520)

﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾ على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون وطمأنينة وهو حال أي مضطرباً ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ﴾ صحة في جسمه وسعة في معيشته ﴿ اطمأن ﴾ سكن واستقر ﴿ بِهِ ﴾ بالخير الذي أصابه أو بالدين فعبد الله ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ شر وبلاء في

جسده وضيق في معيشته ﴿ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ جهته أي ارتد ورجع إلى الكفر كالذي يكون على طرف من العسكر ، فإن أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن وإلا فر وطار على وجهه .

قالوا : نزلت في أعاريب قدموا المدينة مهاجرين وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهراً سوياً وولدت امرأته غلاماً سوياً وكثر ماله وماشيته قال : ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً واطمأن ، وإن كان الأمر بخلافه قال : ما أصبت إلا شراً وانقلب عن دينه ﴿ خَسِرَ الدنيا والآخرة ﴾ حال "وقد" مقدرة دليله قراءة روح وزيد ﴿ خاسر الدنيا والآخرة ﴾ والخسران في الدنيا بالقتل فيها وفي الآخرة بالخلود في النار ﴿ ذلك ﴾ أي خسران الدارين ﴿ هُوَ الخسران المبين ﴾ الظاهر الذي لا يخفى على أحد .

﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ الله ﴾ يعني الصنم فإنه بعد الردة يفعل كذلك ﴿ مَا لاَ يَضُرُّهُ ﴾ إن لم يعبده ﴿ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ﴾ إن عبده ﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ عن الصواب .

﴿ يَدْعُواْ لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ والإشكال أنه تعالى نفى الضر والنفع عن الأصنام قبل هذه الآية وأثبتهما لها هنا .

والجواب أن المعنى إذا فهم ذهب هذا الوهم ، وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضراً ولا نفعاً وهو يعتقد فيه أنه ينفعه ثم قال يوم القيامة : يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام ولا يرى لها أثر الشفاعة لمن ضره أقرب من نفعه ﴿ لَبِئْسَ المولى ﴾ أي الناصر الصاحب ﴿ وَلَبِئْسَ العشير ﴾ المصاحب وكرر يدعوا كأنه قال : يدعو يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ثم قال لمن ضره بكونه معبوداً أقرب من نفعه بكونه شفيعاً .

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ هذا وعد لمن عبد الله بكل حال لا لمن عبد الله على حرف ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِى الدنيا والآخرة ﴾ المعنى أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة فمن ظن من أعاديه غير ذلك ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾ بحبل ﴿ إِلَى السماء ﴾ إلى سماء بيته ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ ثم ليختنق به ، وسمي الاختناق قطعاً لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه .

وبكسر اللام بصري وشامي ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ أي الذي يغيظه أو "ما" مصدرية أي غيظه ، والمعنى فليصور في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه .

وسمي فعله كيداً على سبيل الاستهزاء لأنه لم يكد به محسوده إنما كاد به نفسه والمراد ليس

في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظ ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ ومثل ذلك الإنزال أنزل القرآن كله ﴿ ءايات بينات ﴾ واضحات ﴿ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ أي ولأن الله يهدي به الذين يعلم أنهم يؤمنون ، أو يثبت الذي آمنوا ويزيدهم هدى أنزله كذلك مبيّناً .

(295/520)

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ والذين هَادُواْ والصابئين والنصارى والمجوس والذين أَشْرَكُواْ ﴾ قيل : الأديان خمسة : أربعة للشيطان وواحد للرحمن ، والصابئون نوع من النصارى فلا تكون ستة ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ في الأحوال والأماكن فلا يجازيهم جزاء واحداً ولا يجمعهم في موطن واحد .

وخبر ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ ﴿ إن الله يفصل بينهم ﴾ كما تقول "إن زيداً إن أباه قائم" ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ عالم به حافظ له فلينظر كل امرىء معتقده ، وقوله وفعله وهو أبلغ وعيد

﴿ أَلَم تَرَ ﴾ ألم تعلم يا محمد علماً يقوم مقام العيان ﴿ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السماوات وَمَن فِى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾ قيل : إن الكل يسجد له ولكنا لا نقف عليه كما لا نقف على تسبيحها قال الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ

إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] وقيل : سمي مطاوعة غير المكلف له فيما يحدث فيه من أفعاله وتسخيره له سجوداً له تشبيهاً لمطاوعته بسجود المكلف الذي كل خضوع دونه ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ، أو هو مرفوع على الابتداء ﴿ ومن الناس ﴾ صفة له والخبر محذوف وهو مثاب ويدل عليه قوله ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ أي وكثير منهم حق عليه العذاب بكفره وإبائه السجود ﴿ وَمَن يُهِنِ الله ﴾ بالشقاوة ﴿ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ بالسعادة ﴿ إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يَشَاء ﴾ من الإكرام والإهانة وغير ذلك ، وظاهر هذه الآية والتي قبلها ينقض على المعتزلة قولهم لأنهم يقولون شاء أشياء ولم يفعل وهو يقول يفعل ما يشاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 92.96 ﴾

(296/520)

وقال البيضاوى :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة ﴾

تحريكها للأشياء على الإِسناد المجازي ، أو تحريك الأشياء فيها فأضيفت إليها إضافة

معنوية بتقدير في أو إضافة المصدر إلى الظرف على إجرائه مجرى المفعول به . وقيل هي زلزلة تكون قبيل طلوع الشمس من مغربها وإضافتها إلى الساعة لأنها من أشراطها . ﴿ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ هائل علل أمرهم بالتقوى بفظاعة الساعة ليتصوروها بعقولهم ويعلموا أنه لا يؤمنهم منها سوى التدرع بلباس التقوى فيبقوا على أنفسهم ويتقوها بملازمة التقوى .

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ تصوير لهولها والضمير لل ﴿ زَلْزَلَةَ ﴾ ، و ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب ب ﴿ تَذْهَلُ ﴾ ، وقرىء ﴿ تَذْهَلُ ﴾ و ﴿ تَذْهَلُ ﴾ مجهولاً ومعروفاً أي تذهلها الزلزلة ، والذهول الذهاب عن الأمر بدهشة ، والمقصود الدلالة على أن هولها بحيث إذا دهشت التي ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه وذهلت عنه ، و ﴿ مَا ﴾ موصولة أو مصدرية . ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ جنينها . ﴿ وَتَرَى الناس سكارى ﴾ كأنهم سكارى . ﴿ وَمَا هُم بسكارى ﴾ على الحقيقة . ﴿ ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ فأرهقهم هوله بحيث طير عقولهم وأذهب تمييزهم ، وقرىء ﴿ تَرَى ﴾ من أريتك قائماً أو رؤيت قائما بنصب الناس ورفعه على أنه نائب مناب الفاعل ، وتأنيثه على تأويل الجماعة وإفراده بعد جمعه لأن الزلزلة يراها الجميع ، وأثر السكر إنما يراه كل أحد على غيره وقرأ حمزة والكسائي "سكرى" كعطشى إجراء للسكر مجرى العلل .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ نزلت في النضر بن الحارث وكان جدلاً يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين ولا بعث بعد الموت هي تعمه وأضرابه . ﴿

وَيَتَّبِعْ ﴾ في المجادلة أو في عامة أحواله . ﴿ كُلَّ شيطان مَّرِيدٍ ﴾ متجرد للفساد وأصله العري .

(297/520)

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ على الشيطان . ﴿ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ ﴾ تبعه والضمير للشأن . ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾ خبر لمن أو جواب له ، والمعنى كتب عليه إضلال من يتولاه لأنه جبل عليه ، وقرىء بالفتح على تقدير فشأنه أنه يضله لا على العطف فإنه يكون بعد تمام الكلام . وقرىء بالكسر في الموضعين على حكاية المكتوب أو إضمار القول أو تضمين الكتب معناه . ﴿ وَيَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السعير ﴾ بالحمل على ما يؤدي إليه .

(298/520)

﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ البعث ﴾ من إمكانه وكونه مقدوراً ، وقرىء ﴿ مِّنَ البعث ﴾ بالتحريك كالجلب . ﴿ فَإِنَّا خلقناكم ﴾ أي فانظروا في بدء خلقكم فإنه يزيح ريبكم فإنا خلقناكم . ﴿ مِّن تُرَابٍ ﴾ بخلق آدم منه ، أو الأغذية التي يتكون منها المني .

﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ مني من النطف وهو الصب . ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ قطعة من الدم جامدة . ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ قطعة من اللحم وهي في الأصل قدر مما يمضغ . ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ مسواة لا نقص فيها ولا عيب وغير مسواة أو تامة وساقطة أو مصورة وغير مصورة . ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وأن ما قبل التغير والفساد والتكون مرة قبلها أخرى ، وأن من قدر على تغييره وتصويره أولاً قدر على ذلك ثانياً ، وحذف المفعول إيماء إلى أن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وحكمته ما لا يحيط به الذكر . ﴿ وَنُقِرُّ فِي الأَرحامِ مَا نَشَاء ﴾ أن نقره . ﴿ إِلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو وقت الوضع وأدناه بعد ستة أشهر وأقصاه أربع سنين ، وقرىء "ونقره" بالنصب وكذا قوله : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ عطفاً على "نبيّن" كأن خلقهم مدرجاً لغرضين تبيين القدرة وتقريرهم في الأرحام حتى يولدوا وينشؤوا ويبلغوا حد التكليف ، وقرئا بالياء رفعاً ونصباً ويقر بالياء ﴿ وَنُقِرُّ ﴾ من قررت الماء إذا صببته ، و ﴿ طِفْلاً ﴾ حال أجريت على تأويل كل واحد أو للدلالة على الجنس أو لأنه في الأصل مصدر . ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ كمالكم في القوة والعقل جمع شدة كالأنعم جمع نعمة كأنها شدة في الأمور . ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى ﴾ عند بلوغ الأشد أو قبله . وقرىء ﴿ يَتَوَفَّى ﴾ أو يتوفاه الله تعالى . ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ العمر ﴾ وهو الهرم والخرف ، وقرىء بسكون الميم . ﴿ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ ليعود كهيئته الأولى في أوان الطفولية

من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما عمله وينكر ما عرفه ، والآية استدلال ثان على إمكان البعث بما يعتري الإنسان في أسنانه من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة ، فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره . ﴿ وَتَرَى الأَرض هَامِدَةً ﴾ ميتة يابسة من همدت النار إذا صارت رماداً . ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء اهتزت ﴾ تحركت بالنبات . ﴿ وَرَبَتْ ﴾ وانتفخت ، وقرىء "وربأت" أي ارتفعت . ﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ من كل صنف ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسن رائق ، وهذه دلالة ثالثة كررها الله تعالى في كتابه لظهورها وكونها مشاهدة .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة وتحويله على أحوال متضادة ، وإحياء الأرض بعد موتها وهو مبتدأ خبره : ﴿ بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ أي بسبب أنه الثابت في نفسه الذي به تتحقق الأشياء . ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى ﴾ وأنه يقدر على إحيائها وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة . ﴿ وَأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لأن قدرته لذاته الذي نسبته إلى الكل على سواء ، فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على إحياء كلها .

﴿ وَأَنَّ الساعة ءاتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ﴾ فإن التغير من مقدمات الانصرام وطلائعه . ﴿ وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِى القبور ﴾ بمقتضى وعده الذي لا يقبل الخلف .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ تكرير للتأكيد ولما نيط به من الدلالة بقوله : ﴿ وَلاَ هُدًى وَلاَ كتاب مُّنِيرٍ ﴾ على أنه لا سند له عن استدلال أو وحي ، أو الأول في المقلدين وهذا في المقلدين ، والمراد بالعلم العلم الفطري ليصح عطف ال ﴿ هُدًى ﴾ وال ﴿ كتاب عليه ﴾ .

(300/520)

﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِ ﴾ متكبراً وثني العطف كناية عن التكبر كليّ الجيد ، أو معرضاً عن الحق استخفافاً به . وقرىء بفتح العين أي مانع تعطفه . ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله ﴾ علة للجدال ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء على أن إعراضه عن الهدى المتمكن منه بالإقبال على الجدال الباطل خروج من الهدى إلى الضلال ، وأنه من حيث مؤداه كالغرض له . ﴿ لَهُ فِى الدنيا خِزْىٌ ﴾ وهو ما أصابه يوم بدر . ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القيامة عَذَابَ الحريق ﴾ المحروق وهو النار .

﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ على الالتفات ، أو إرادة القول أي يقال له يوم القيامة ذلك

الخزي والتعذيب بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي . ﴿ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بظلام للْعَبِيدِ ﴾ وإنما هو مجاز لهم على أعمالهم المبالغة لكثرة العبيد .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾ على طرف من الدين لا ثَبَاتَ له فيه كالذي يكون على طرف الجيش ، فإن أحس بظفر قر وإلا فر . ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ روي أنها نزلت في أعاريب قدموا المدينة ، فكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهراً سوياً وولدت امرأته غلاماً سوياً وكثر ماله وماشيته قال : ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً واطمأن ، وإن كان الأمر بخلافه قال ما أصبت إلا شراً وانقلب . وعن أبي سعيد أن يهودياً أسلم فأصابته مصائب فتشاءم بالإسلام ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أقلني فقال " إن الإسلام لا يقال " فنزلت . ﴿ خَسِرَ الدنيا والأخرة ﴾ بذهاب عصمته وحبوط عمله بالارتداد ، وقرىء "خاسراً" بالنصب على الحال والرفع على الفاعلية ووضع الظاهر موضع الضمير تنصيصاً على خسرانه أو على أنه خبر محذوف . ﴿ ذلك هُوَ الخسران المبين ﴾ إذ لا خسران مثله .

(301/520)

﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ﴾ يعبد جماداً لا يضر بنفسه ولا ينفع . ﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ عن المقصد مستعار من ضلال من أبعد في التيه ضالاً .

﴿ يَدْعُواْ لَمَنْ ضَرُّهُ ﴾ بكونه معبوداً لأنه يوجب القتل في الدنيا والعذاب في الآخرة . ﴿ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ الذي يتوقع بعبادته وهو الشفاعة والتوسل بها إلى الله تعالى ، واللام معلقة ل ﴿ يَدْعُو ﴾ من حيث إنه بمعنى يزعم والزعم قول من اعتقاد ، أو داخلة على الجملة الواقعة مقولاً إجراء له مجرى قول : أي يقول الكافر ذلك بدعاء وصراخ حين يرى استضراره به ، أو مستأنفة على أن يدعو تكرير للأول ومن مبتدأ خبره ﴿ لَبِئْسَ المولى ﴾ الناصر . ﴿ وَلَبِئْسَ العشير ﴾ الصاحب .

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ من إثابة الموحد الصالح وعقاب المشرك الطالح لا دافع له ولا مانع .

(302/520)

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِى الدنيا والأخرة ﴾ كلام فيه اختصار والمعنى : أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة ، فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه . وقيل المراد بالنصر الرزق والضمير لمن . ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السماء ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ فليستقص في

إزالة غيظه أو جزعه بأن يفعل كل ما يفعله الممتلىء غيظاً ، أو المبالغ جزعاً حتى يمد حبلاً إلى سماء بيته فيختنق من قطع إذا اختنق ، فإن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه . وقيل فليمدد حبلاً إلى سماء الدنيا ثم ليقطع به المسافة حتى يبلغ عنانها فيجتهد في دفع نصره أو تحصيل رزقه . وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر ﴿ لِيَقْطَعَ ﴾ بكسر اللام . ﴿ فَلْيَنظُرْ ﴾ فليتصور في نفسه . ﴿ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ﴾ فعله ذلك وسماه على الأول كيداً لأنه منتهى ما يقدر عليه . ﴿ مَا يَغِيظُ ﴾ غيظه أو الذي يغيظه من نصر الله . وقيل نزلت في قوم مسلمين استبطأوا نصر الله لاستعجالهم وشدة غيظهم على المشركين .

﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك الإنزال . ﴿ أنزلناه ﴾ أنزلنا القرآن كله . ﴿ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات . ﴿ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِى ﴾ ولأن الله يهدي به أو يثبت على الهدى . ﴿ مَن يُرِيدُ ﴾ هدايته أو إثباته أنزله كذلك مبيناً .

﴿ إِنَّ الذين ءَامَنُواْ والذين هَادُواْ والصابئين والنصارى والمجوس والذين أَشْرَكُواْ إِنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ بالحكومة بينهم وإظهار المحق منهم على المبطل ، أو الجزاء فيجازي كلا ما يليق به ويدخله المحل المعد له ، وإنما أدخلت إن على كل واحد من طرفي الجملة لمزيد التأكيد . ﴿ إِنَّ الله على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ عالم به مراقب لأحواله .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ يتسخر لقدرته ولا يتأتى عن تدبيره ، أو يدل بذلته على عظمة مدبره ، ومن يجوز أن يعم أولي العقل وغيرهم على التغليب فيكون قوله : ﴿ والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾ إفراداً لها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها . وقرىء ﴿ والدواب ﴾ بالتخفيف كراهة التضعيف أو الجمع بين الساكنين . ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ عطف عليها إن جوز إعمال اللفظ الواحد في كل واحد من مفهوميه ، وإسناده باعتبار أحدهما إلى أمر وباعتبار الآخر إلى آخر ، فإن تخصيص الكثير يدل على خصوص المعنى المسند إليهم ، أو مبتدأ خبره محذوف يدل عليه خبر قسيمه نحو حق له الثواب ، أو فاعل فعل مضمر أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة . ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ بكفره وإبائه عن الطاعة ، ويجوز أن يجعل "وكثيراً" تكريراً للأول مبالغة في تكثير المحقوقين بالعذاب أن يعطف به على الساجدين بالمعنى العام موصوفاً بما بعده . وقرىء ﴿ حَقّ ﴾ بالضم و"حقاً" بإضمار فعله . ﴿ وَمَن يُهِنِ الله ﴾ بالشقاوة ﴿ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ يكرمه بالسعادة ، وقرىء بالفتح بمعنى الإكرام . ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء ﴾ من الإكرام والإهانة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 113 . 120 ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ اتقوا رَبَّكُمْ ﴾ تكلمنا على التقوى في أول البقرة ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة ﴾ أي شدّتها وهولها كقوله : ﴿ وَزُلْزِلُواْ ﴾ [البقرة : 214 ، الأحزاب : 11] ، أو تحريك الأرض حينئذ كقوله : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 1] ، والجملة تعليل للأمر بالتقوى ، واختلف هل الزلزلة والشدائد المذكورة بعد ذلك في الدنيا بين يدي القيامة ، أو بعد أن تقوم القيامة ، والأرجح أن ذلك قبل القيامة ، لأن في ذلك الوقت يكون ذهول المرضعة ، ووضع الحامل لا بعد القيامة .

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ العامل في الظرف تذهل ، والضمير للزلزلة ، وقيل : الساعة ، وذلك ضعيف لما ذكرنا ؛ إلا أن يريد ابتداء أمرها ﴿ تَذْهَلُ ﴾ الذهول هو الذهاب عن الشيء ثديها مع دهشة ﴿ مُرْضِعَةٍ ﴾ إنما لم يقل مرضع ، لأن المرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها للصبي ، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به ، فقال : مرضعة ليكون ذلك أعظم في الذهول ، إذ تنزع ثديها من فم الصبي حينئذ ﴿ وَتَرَى الناس سكارى ﴾ تشبيه بالسكارى من شدّة الغمّ ﴿ وَمَا هُم بسكارى ﴾ نفي

لحقيقة السكر ، وقرأ سَكْرى والمعنى متفق .

﴿ وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله ﴾ نزلت في النضر بن الحارث ، وقيل في أبي جهل ، وهي تتناول كل من اتصف بذلك ﴿ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ أي شديد الإغواء ، ويحتمل أن يريد شيطان الجن أو الإنس .

﴿ كُتِبَ ﴾ تمثيل لثبوت الأمر كأنه مكتوب ، ويحتمل أن يكون بمعنى قضى ، كقولك : كتب الله أنه في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله ، وفي أنه عطف عليه وقيل : تأكيد ﴿ مَن تَوَلاَّهُ ﴾ أي تبعه أو اتخذ ولياً ، والضمير في عليه ، وفي أنه في الموضعين ، وفي تولاه ، للشيطان ، وفي يضله ، ويهديه ، للمتولي له ، ويحتمل أن تكون تلك الضمائر أولاً لمن يجادل .

(305/520)

﴿ يا أَيُّهَا الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث ﴾ الآية : معناها إن شككتم في البعث الأخروي فزوال ذلك الشك أن تنظروا في ابتداء خلقتكم ؛ فتعلموا أن الذي قدر على أن خلقكم أول مرة : قادر على أن يعيدكم ثاني مرة ، وأن الذي قدر على إخراج النبات من الأرض بعد موتها : قادر على أن يخرجكم من قبوركم ﴿ خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ إشارة إلى خلق آدم ، وأسند ذلك إلى الناس لأنهم من ذريته وهو أصلهم ﴿ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ العلقة قطعة

من دم جامدة ﴿ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ أي قطعة من لحم ﴿ مُّخَلَّقَةٍ ﴾ المخلقة التامة الخلقة ، وغير المخلقة الغير التامة : كالسقط ، وقيل : المخلقة المسوّاة السالمة من النقصان ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ اللام تتعلق بمحذوف تقديره : ذكرنا ذلك ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ قدرتنا على البعث ﴿ وَنُقِرُّ ﴾ فعل مستأنف ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني وقت وضع الحمل وهو مختلف وأقله ستة أشهر إلى ما فوق ذلك ﴿ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أفرده لأنه أراد الجنس ، أو أراد نخرج كل واحد منكم طفلاً ﴿ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ هو كمال القوّة والعقل والتمييز . وقد اختلف فيه من ثماني عشرة سنة إلى خمس وأربعين ﴿ أَرْذَلِ العمر ﴾ ذكر في [النحل : 70] ﴿ هَامِدَةً ﴾ يعني لا نبات فيها ﴿ اهتزت ﴾ تحركت بالنبات وتخلخلت أجزاؤها لما دخلها الماء ﴿ وَرَبَتْ ﴾ انتفخت ﴿ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ أي صنف عجيب .

(306/520)

﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ أي ذلك المذكور من أمر الإنسان ، والنبات حاصل ، بأن الله هو الحق ، هكذا قدره الزمخشري ، والباء على هذا سببية ، وبهذا المعنى أيضاً فسّره ابن عطية ، ويلزم على هذا أن لا يكون قوله : ﴿ وَأَنَّ الساعة آتِيَةٌ ﴾ : معطوفاً على ذلك ، لأنه ليس بسبب لما ذكر ، فقال ابن عطية قوله : أن الساعة ليس بسبب لما ذكر ولكن

المعنى أن الأمر مرتبط بعضه ببعض ، أو على تقدير : والأمر أن الساعة وهذان الجوابان اللذان ذكر ابن عطية ضيعفان : أما قوله إن الأمر مرتبط بعضه ببعض ، فالارتباط هنا إنما يكون بالعطف والعطف لا يصح ، وأما قوله على تقدير الأمر : أن الساعة ، فذلك استئناف وقطع الكلام الأول ، ولا شك أن المقصود من الكلام الأول : هو إثبات الساعة فكيف يجعل ذكرها مقطوعاً مما قبله ، والذي يظهر لي أن الباء ليست بسببية ، وإنما يقدر لها فعل تتعلق به ويقتضيه المعنى ؛ وذلك أن يكون التقدير ؛ ذلك الذي تقدم من خلقة الإنسان والنبات شاهد بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وبأن الساعة أتية ، فيصح عطف : ﴿ وَأَنَّ الساعة ﴾ على ما قبله بهذا التقدير ، وتكون هذه الأشياء المذكورة بعد قوله : ﴿ ذلك ﴾ مما استدل عليها بخلقة الإنسان والنبات .

﴿ ومِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ نزلت فيمن نزلت فيه الأولى وقيل الأخنس بن شريق .

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ كناية عن المتكبر المعرض ﴿ لَهُ فِي الدنيا خِزْيٌ ﴾ إن كانت في النضر بن الحارث : فالخزي أسره ثم قتله ، وكذلك قتل أبي جهل .

﴿ ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أي يقال له : ذلك بما فعلت ويعدل الله ، لأنه لا يظلم العباد .

﴿ مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾ نزلت في قوم من الإعراب ، كان أحدهم إذا أسلم فاتفق له ما يعجبه في ماله وولده قال : هذا دين حسن ، وإن اتفق له خلاف ذلك تشاءم به وارتدّ عن الإسلام ، فالحرف هنا كناية عن المقصد ، وأصله من الانحراف عن الشيء ، أو من الحرف بمعنى الطرف أي أنه في طرف من الدين لا في وسطه ﴿ خَسِرَ الدنيا والأخرة ﴾ خسارة الدنيا بما جرى عليه فيها ، وخسارة الآخرين بارتداده وسوء اعتقاده ﴿ مَا لاَ يَضُرُّهُ ﴾ يعني الأصنام ، ﴿ يَدْعُو ﴾ بمعنى يعبد في الموضعين .

﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ فيها إشكالان : الأول في المعنى وهو كونه وصف الأصنام بأنها لا تضر ولا تنفع ، ثم وصفها بأن ضرّها أقر من نفعها ، فنفى الضرّ ثم أثبته ، فالجواب : أن الضر المنفي أولاً يراد به ما يكون من فعلها وهي لا تفعل شيئاً ، والضر الثاني : يراد به ما يكون بسببها من العذاب وغيره ، والاشكال الثاني : دخول اللام على ﴿ مِن ﴾ وهي في الظاهرة مفعول ، واللام لا تدخل على المفعول ، وأجاب الناس عن ذلك بثلاثة أوجه : أحدها أن اللام مقدّمة على موضعها ، كأن الأصل أن يقال : يدعو من لضره أقر من نفعه ، فموضعها الدخول على المبتدأ ، والثاني : أن ﴿ يَدْعُو ﴾ هنا كرر تأكيداً ليدعو الأول وتم الكلام عنده ، ثم ابتدأ قوله : ﴿ لَمَنْ ضَرُّهُ ﴾ ، فمن مبتدأ وخبره ﴿ لَبِئْسَ المولى ﴾ ، وثالثها : أن معنى ﴿ يَدْعُو ﴾ : يقول يوم القيامة هذا كلام إذا رأى مضرة

الأصنام ، فدخلت اللام على مبتدأ في أول الكلام ﴿ المولى ﴾ هنا بمعنى الولي ﴿ العشير ﴾ الصاحب فهو من العشيرة .

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ الآية : لما ذكر أن الأصنام لا تنفع من عبدها ، قابل ذلك بأن الله ينفع من عبده بأعظم النفع ، وهو دخول الجنة .

(308/520)

﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السمآء ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ السبب هنا الحبل ، والسماء هنا سقف البيت وشبهه من الأشياء ، التي تعلق منها الحبال ، والقطع هنا يراد به : الاختناق بالحبل ، يقال : قطع الرجل إذا اختنق ، ويحتمل أن يراد به قطع الرجل من الأرض بعد ربط الحبل في العنق ، وربطه في السقف ، والمراد بالاختناق هنا ما يفعله من اشتد غيظه وحسرته ، أو طمع فيما لا يصل إليه ، كقوله للحسود : مت كمداً ، أو اختنق ؛ فإنك لا تقدر على غير ذلك ، وفي معنى الآية قولان : الأول أن الضمير في ينصره لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى على هذا : من كان من الكفار يظنّ أن لن ينصر الله محمداً فليختنق بحبل ، فإن الله ناصره ولا بد على غيظ الكفار ، فموجب الاختناق هو الغيظ من نصرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والقول الثاني أن الضمير في ﴿ يَنصُرَهُ ﴾ عائد الى ﴿ مَن

﴾ ، والمعنى على هذا من ظنّ بسبب ضيق صدره وكثرة غمه أن لن ينصره الله : فليختنق وليمت بغيظه ، فإنه لا يقدر على غير ذلك ، فموجب الاختناق على هذا القنوط والسخط من القضاء ، وسوء الظنّ بالله حتى ييأس من نصره ، ولذلك فسر بعضهم أن لن ﴿ يَنصُرَهُ الله ﴾ بمعنى أن (لن يرزقه) ، وهذا القول أرجح من الأول لوجهين : أحدهما أن هذا القول مناسب لمن يعبد الله على حرف ، لأنه إذا أصابته فتنة انقلب وقنط ، حتى ظنّ أن الله لن ينصره ، فيكون هذا الكلام متصلاً بما قبله : ويدل على ذلك قوله قبل هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [الحج : 14] : أي الأمور بيد الله ، فلا ينبغي لأحد أن يتسخط من قضاء الله ، ولا ينقلب إذا أصابته فتنة ، والوجه الثاني ، أن الضمير في ينصره على هذا القول يعود على ما تقدّمه ، وأما على القول الأول فلا يعود على مذكور قبله ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يذكر قبل ذلك بحيث يعود الضمير عليه ، ولا يدل سياق الكلام عليه دلالة ظاهرة ﴾

(309/520)

فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ الكيد هنا يراد به اختناقه ، وسُمي كيداً لأنه وضعه موضع الكيد ، إذ هو غاية حيلته ، والمعنى إذا خنق نفسه فلينظر هل يذهب ذلك ما

يغيظه من الأمر ، أي ليس يذهبه .

﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ ﴾ الضمير للقرآن ، أي مثل هذا أنزلنا القرآن كله ﴿ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ قال ابن عطية : أن في موضع خبر الابتداء والتقدير الأمر أن الله ، وهذا ضعيف . لأن فيه تكلف إضمار وقطع للكلام عن المعنى الذي قبله ، وقال الزمخشري : التقدير : لأن الله يهدي من يريد أنزلناه كذلك آيات بينات ، فجعل أن تعليلاً للإنزال ، وهذا ضعيف ؛ للفصل بينهما بالواو . والصحيح عندي : أن قوله : ﴿ وَأَنَّ اللهَ ﴾ معطوف على آيات بينات ع ، لأنه مقدر بالمصدر ، فالتقدير أنزلناه آيات بينات وهدى لمن أراد الله أن يهديه .

﴿ والصابئين ﴾ ذكر في [البقرة : 62] وكذلك الذين هادوا ﴿ والمجوس ﴾ هم الذين يعبدون النار ، ويقولون : إن الخير من النور والشر من الظلمة ﴿ والذين أشركوا ﴾ هم الذين يعبدون الأصنام من العرب وغيرهم ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ هذه الجملة هي خبر ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ ﴾ الآية ، وكررت مع الخبر للتأكيد ، وفصل الله بينهم بأن يبين لهم أن الإيمان هو الحق ، وسائر الأديان باطلة ، وبأن يدخل الذين آمنوا الجنة ويدخل غيرهم النار .

(310/520)

﴿ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض ﴾ دخل في هذا من في السموات من الملائكة ، ومن في الأرض من الملائكة ، والجنّ ولم يدخل الناس في ذلك ؛ لأنه ذكرهم في آخر الآية ، إلا أن يكون ذكرهم في آخرها على وجه التجريد ، وليس المراد بالسجود هنا السجود المعروف ، لأنه لا يصح في حق الشمس والقمر وما ذكر بعدهما ، وإنما المراد به الانقياد ثم إن الانقياد يكون على وجهين : أحدهما الانقياد لطاعة الله طوعاً ، والآخر الانقياد لما يجري الله على المخلوقات في أفعاله وتدبيره شاؤوا أو أبوا ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ إن جعلنا السجود بمعنى الانقياد لطاعة الله ، فيكون كثير من الناس معطوفاً على ما قبله من الأشياء التي تسجد ويكون قوله : ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ مستأنفاً يراد به من لا ينقاد للطاعة ، ويوقف على قوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ ، وهذا القول هو الصحيح ؛ وإن جعلنا السجود بمعنى الانقياد لقضاء الله وتدبيره ؛ فلا يصح تفضيل الناس على ذلك إلى من يسجد ومن لا يسجد لأن جميعهم يسجد بذلك المعنى ، وقيل : إن قوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ معطوف على ما قبله ثم عطف عليه وكثير ﴿ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ فالجميع على هذا يسجد وهذا ضعيف لأن قوله : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ يقتضي ظاهرة أنه إنما حق عليه العذاب بتركه للسجود ، وتأوله الزمخشري على هذا المعنى ، بأن إعراب ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ فاعل بفعل مضمر تقديره يسجد سجود طاعة أو مرفوع

بالابتداء وخبره محذوف تقديره مثاب وهذا تكلف بعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 3 صـ 34.38﴾

(311/520)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الحج مكية

إلا ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ الآيتين وإلا ﴿هذان خصمان﴾ الست آيات فمدنيات ، وهي ثمان ، وقيل : خمس أو ست أو سبع وسبعون آية .

﴿بسم الله﴾ أي : الذي اقتضت عظمته خضوع كل شيء ﴿الرحمن﴾ الذي عمّ برحمته كل موجود ﴿الرحيم﴾ الذي خص بفضله من شاء من عباده . ولما ختمت السورة التي قبل هذه بالترهيب من الفزع الأكبر وطي السماء وإتيان ما يوعدون ، وكان أعظم ذلك يوم الدين افتتحت هذه السورة بالأمر بالتقوى المنجية من هول ذلك اليوم بقوله تعالى:

﴿يا أيها الناس﴾ أي : الذين تقدّم أوّل تلك أنه اقترب لهم حسابهم إن أريد أنّ ذلك عام وإلا فهم وغيرهم ﴿اتقوا﴾ أي : احذروا عقاب ﴿ربكم﴾ أي : المحسن إليكم بأنواع

الإحسان بأن تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية الطاعات ، ولما أمرهم بالتقوى علل ذلك مرهباً لهم بقوله تعالى : ﴿ إنّ زلزلة الساعة ﴾ أي : حركتها الشديدة للأشياء على الإسناد المجازي ، فتكون الزلزلة مصدراً مضافاً إلى فاعله ، ويصح أن يكون إلى المفعول فيه على طريق الاتساع في الظرف وإجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى : ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ (سبأ ،) ، وهي الزلزلة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ (الزلزلة ،)

واختلف في وقتها ، فعن الحسن أنها تكون يوم القيامة ، وعن علقمة والشعبي عند طلوع الشمس من مغربها الذي هو أقرب للساعة ﴿ شيء عظيم ﴾ أي : أمر كبير وخطر جليل وحادث هائل لا تحتمل العقول وصفه وهذا للزلزلة نفسها ، فكيف بجميع ما يحدث في ذلك اليوم الذي لا بدّ لكم من الحشر فيه إلى الله تعالى ليجازيكم على ما كان منكم لا ينسى منه نقير ولا قطمير

﴿ يوم ترونها ﴾ أي : الزلزلة أو الساعة ، أو كل مرضعة أضمرها قبل الذكر تهويلاً للأمر ، وترويعاً للنفس ﴿ تذهل ﴾ بسبب ذلك ﴿ كل مرضعة ﴾ أي : بالفعل أي : تنسى وتغفل حائرة مدهوشة ، والعامل في يوم تذهل .

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿ مرضعة ﴾ ، ولم يقل : مرضع ؟

أجيب : بأن المرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها للطفل والمرضع التي شأنها أن ترضع ، وإن لم تباشر الإرضاع في حال وضعها ، فقال : مرضعة ليدل على أنّ ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت ثديها تنزعه من فيه لما يلحقها من الدهشة ﴿ عما أرضعت ﴾ عن إرضاعها أو عن الذي أرضعته ، وهو الطفل ، فما إمّا مصدرية أو موصولة ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أي : تسقطه قبل التمام رعباً وفزعاً .

تنبيه : هذا ظاهر على القول الثاني وهو قول علقمة والشعبيّ على أنّ ذلك يكون عند طلوع الشمس من مغربها ، وأمّا على القول الأوّل وهو قول الحسن على أنّ ذلك يوم القيامة كيف يكون ذلك ؟ فقيل : هو تصوير لهولها ، قاله البيضاوي ، وقال البقاعي في المرضعة : هي من ماتت مع ابنها رضيعاً ، وفي ذات الحمل : من ماتت حاملاً ، فإنّ كل أحد يقوم على ما مات عليه ، وهذا أولى فإني في حال كتابتي في هذا المحل حضر عندي سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني نفعنا الله تعالى ببركته ، فذكرت له هذين القولين ، فانشرح صدره لترجيح هذا الثاني ، وذلك يوم تاسوعاء من شهر الله المحرّم سنة ست وخمسين وتسعمائة ، وعن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام ، وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام .

ويؤيد أنّ هذه الزلزلة تكون بعد البعث ما روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك. زاد في رواية والخير في يديك. فينادى بصوت إنّ الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ؛ قال : يا رب ، وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، فحينئذٍ تضع الحوامل حملها ، ويشيب الوليد وساق بقية الآية" ، وهي ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ أي : لما هم فيه من الدهشة والحيرة ، ثم بيّن الله تعالى أنّ ذلك ليس بسكر حقيقة بقوله تعالى : ﴿ وما هم بسكارى ﴾ أي : من الشراب ، ولما نفى أن يكونوا سكارى من الشراب أثبت ما أوجب لهم تلك الحالة بقوله : ﴿ ولكنّ عذاب الله ﴾ ذي العزة والجبروت ﴿ شديد ﴾ فهو الذي أوجب أن يظن بهم السكر ؛ لأنّ هوله أذهب عقولهم وطيّر تمييزهم ، تم الحديث عند آخر الآية ، "فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم زاد في رواية قالوا : يا رسول الله أينا ذلك الواحد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ، ومنكم واحد ، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ، وفي رواية كالرقمة في ذراع الحمار ، وإني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبّرنا ، ثم قال : ثلث أهل الجنة ، فكبّرنا ، ثم قال : شطر أهل الجنة فكبّرنا" ، وفي رواية : "إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة" .

روى عمران بن حصين رضي الله عنه أن هاتين الآيتين نزلتا في غزوة بني المصطلق ليلاً ، فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثوا المطيّ حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فلم نرَ أكثر باكياً من تلك الليلة ، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ، ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدراً ، وكانوا ما بين حزين وباك ومفكر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيّ يوم ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال ذلك يوم يقول الله لآدم : قم فابعث بعث النار ـ وذلك نحو حديث أبي سعيد وزاد فيه ـ ثم قال : "يدخل من أمّتي سبعون ألفاً الجنة بغير حساب" قال عمر : سبعون ألفاً ؟ قال : "نعم ومع كل واحد سبعون ألفاً" .

وقرأ حمزة والكسائي بفتح السين وسكون الكاف فيهما ، والباقون بضم السين وفتح الكاف وبعد الكاف ألف ، وأمال الألف بعد الراء أبو عمرو وحمزة والكسائي محضة ، وورش بين بين ، والباقون بالفتح . ونزل في النضر بن الحرث ، وكان كثير الجدل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، وكان ينكر البعث وإحياء من صار تراباً

﴿ ومن الناس ﴾ أي : المذبذبين ﴿ من ﴾ لا يسعى في إعلاء نفسه وتهذيبها ، فيكذب فيؤبق بسوء عمله ؛ لأنه ﴿ يجادل في الله ﴾ أي : في قدرته على ذلك اليوم ، وفي غير ذلك بعد أن جاءه العلم بها اجتراء على سلطانه العظيم ﴿ بغير علم ﴾ بل بالباطل الذي هو جهل صرف فيترك اتباع الهداة ﴿ ويتبع ﴾ بغاية جهده في جداله ﴿ كل شيطان ﴾ محترق بالسوء مبعد باللعن ﴿ مريد ﴾ أي : متجرّد للفساد ولا شغل له غيره ؛ قال البيضاوي : وأصله العري أي : عن الساتر

(315/520)

﴿ كتب ﴾ أي : قدّر وقضي على سبيل الحتم الذي لا بدّ منه تعبيراً باللازم عن الملزوم ﴿ عليه ﴾ أي : على ذلك الشيطان ﴿ أنه ﴾ أي : الشأن ﴿ من تولاه ﴾ أي : فعل معه فعل الولي مع وليه باتباعه والإقبال على ما يزينه ﴿ فإنه يضله ﴾ بما يبغض إليه من الطاعات ، فيخطىء سبيل الخير ﴿ ويهديه ﴾ أي : بما يزين له من الشهوات الحاملة على الزلات ﴿ إلى عذاب السعير ﴾ أي : النار ، ثم ألزم الحجة منكري البعث بقوله تعالى:

﴿ يا أيها الناس ﴾ أي : كافة ويجوز أن يراد به المنكر فقط ﴿ إن كنتم في ريب ﴾ أي : شك وتهمة وحاجة إلى البيان ﴿ من البعث ﴾ وهو قيام الأجسام بأرواحها كما كانت

قبل مماتها فتفكروا في خلقتكم الأولى لتعلموا أنّ القادر على خلقكم أوّلاً قادر على خلقكم ثانياً ، ثم إنه سبحانه وتعالى ذكر مراتب الخلقة الأولى أموراً سبعة:

المرتبة الأولى : قوله تعالى : ﴿ فإنّا خلقناكم ﴾ بقدرتنا التي لا يتعاظمها شيء ﴿ من تراب ﴾ لم يسبق له اتصاف بالحياة ، وفي الخلق من تراب وجهان ؛ أحدهما : أنا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه الصلاة والسلام من تراب كما قال تعالى : ﴿ كمثل آدم خلقه من تراب ﴾ (آل عمران ،) ، الثاني : من الأغذية والأغذية إمّا حيوانية وإما نباتية وغذاء الحيوان ينتهي إلى النبات قطعاً للتسلسل والنبات إنما يتولد من الأرض والماء ، فصح قوله تعالى : ﴿ إنا خلقناكم من تراب ﴾ .

المرتبة الثانية : قوله تعالى : ﴿ ثم من نطفة ﴾ وحالها أبعد شيء عن حال التراب فإنها بيضاء سائلة لزجة صافية كما قال تعالى : ﴿ من ماء دافق ﴾ وأصلها الماء القليل ؛ قاله البغوي ، وأصل النطف الصب ؛ قاله البيضاوي .

المرتبة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ ثم من علقة ﴾ أي : قطعة دم حمراء جامدة ليس فيها أهلية للسيلان ، ولا شك أن بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة .

(316/520)

المرتبة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ ثم من مضغة ﴾ أي : قطعة لحم صغيرة وهي في الأصل قدر ما يمضغ ﴿ مخلقة ﴾ أي : مسوّاة لا نقص فيها ولا عيب يقال : خلق السواك والعود سوّاه وملسه من قولهم صخرة خلقاء إذا كانت ملساء ﴿ وغير مخلقة ﴾ أي : وغير مسوّاة ، فكأنّ الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة وأملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم ، هذا قول قتادة والضحاك ، وقال مجاهد : المخلقة الولد الذي يخرج حياً وغير المخلقة السقط ، وقال قوم : المخلقة المصوّرة وغير المخلقة غير المصوّرة ، وهو الذي يبقى لحماً من غير تخطيط وتشكيل ، واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله بن مسعود موقوفاً عليه قال : إن النطفة إذا استقرّت في الرحم أخذها ملك بكفه ، وقال : أي رب مخلقة أو غير مخلقة ، فإن قال : غير مخلقة قذفها في الرحم دماً ، ولم تكن نسمة ، وإن قال : مخلقة قال الملك : أي رب ذكر أم أنثى ، وشقيّ أم سعيد ، ما الأجل ما العمل ما الرزق بأي أرض تموت ؟ فيقال له : اذهب إلى أمّ الكتاب فإنك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها في أمّ الكتاب فينسخها ، فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفتها ، والذي أخرجاه في الصحيحين عنه قال : حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : "إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمّه أربعين يوماً نطفه ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكاً يكتب رزقه وأجله وعمله وشقيّ أو سعيد ،

ثم ينفخ فيه الروح ، فوالذي لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها " فكأنه تعالى يقول : إنما نقلناكم من حال إلى حال ، ومن خلقه إلى خلقة ﴿ لنبيّن

(317/520)

لكم ﴾ بهذا التدريج

قدرتنا وحكمتنا ، وإنّ من قدر على خلق البشر من التراب والماء أوّلاً ، ثم من نطفة ثانياً ، ولا تناسب بين التراب والماء وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر ، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاماً قدر على إعادة ما أبدأه بل هو أدخل في القدرة من تلك وأهون في القياس ، وورود الفعل غير معدّى إلى المبين إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يحيط به الوصف ولا يكتنهه الذكر ﴿ ونقرّ في الأرحام ﴾ أي : من ذلك الذي خلقناه ﴿ ما نشاء ﴾ إتمامه ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ هو وقت الوضع وأدناه بعد ستة أشهر وأقصاه آخر أربع سنين بحسب قوّة الأرحام وضعفها ، وقوّة المخلقات وضعفها

وكثرة تغذيه من الدماء ، وقلته إلى غير ذلك من أحوال وشؤون لا يعلمها إلا باريها جلت قدرته وتعالت عظمته ، وما لم نشأ إقراره مجته الأرحام وأسقطته دون التمام ، أو تحرقه فيضمحل .

المرتبة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ وهو معطوف على نبين ، ومعناه خلقناكم مدرّجين هذا التدريج لغرضين أحدهما : أن نبين قدرتنا ، والثاني : أن نقرّ في الأرحام من نقرّ حتى تولدوا في حال الطفولية من صغر الجثة وضعف البدن والسمع والبصر ، وجميع الحواس لئلا تهلكوا أمهاتكم بكبر أجرامكم وعظم أجسامكم .

المرتبة السادسة : قوله تعالى : ﴿ ثم ﴾ أي : نمدّ أجلكم ﴿ لتبلغوا ﴾ بهذا الانتقال في أسنان الأجسام من الرضاع إلى المراهقة إلى البلوغ إلى الكهولة ﴿ أشدكم ﴾ أي : الكمال والقوّة ، وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين جمع شدّة كالأنعم جمع نعمة كأنه شدّة في الأمور .

(318/520)

المرتبة السابعة : قوله تعالى : ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أي : عند بلوغ الأشدّ أو قبله ﴿ ومنكم من يردّ ﴾ بالشيخوخة وبناه للمجهول إشارة إلى سهولته عليه لاستبعاده لولا تكرار المشاهدة عند الناظر لتلك القوّة والنشاط وحسن التواصل بين أعضائه والارتباط

﴿ إلى أرذل ﴾ أي : أخس ﴿ العمر ﴾ وهو سنّ الهرم فتنقص جميع قواه ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم ﴾ كان أوتيه ﴿ شيئاً ﴾ أي : ليعود كهيئته الأولى في أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما علمه وينكر من عرفه حتى يسأل عنه من ساعته يقول لك : من هذا ؟ فتقول : فلان فما يلبث لحظة إلا سألك عنه .

(319/520)

فإن قيل : هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أجيب : بأن معنى قوله تعالى : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ هو دلالة على الذمّ ، فالمراد به ما يجري مجرى العقوبة ، ولذلك قال تعالى : إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لكن قال عكرمة : من قرأ القرآن لم يصر إلى هذه الحالة ، وقد علم بعود الإنسان في ذهاب العلم وصغر الجسم إلى نحو ما كان عليه في ابتداء الخلق قطعاً أن الذي أعاده إلى ذلك قادر على إعادته بعد الممات ، ولما تم هذا الدليل على الساعة بحكم المقدّمات وأصح النتائج ، وكان أوّل الإيجاد فيه غير مشاهد ذكر الله تعالى دليلاً آخر على البعث مشاهداً بقوله : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ أي : يابسة ساكنة سكون الميت ﴿ فإذا أنزلنا ﴾ أي : بما لنا من القدرة ﴿ عليها الماء اهتزت ﴾ أي : تحركت وتأهلت

لإخراج النبات ﴿ وربت ﴾ أي : ارتفعت ، وذلك أوّل ما يظهر منها للعين ، وزادت ونمت بما يخرج منها من النبات الناشىء عن التراب والماء ، وقوله تعالى : ﴿ وأنبتت ﴾ مجاز ؛ لأنّ الله تعالى هو المنبت وأضيف إلى الأرض توسعاً أي : أنبتت بتقديرنا لا أنها المنبتة ﴿ من كل زوج ﴾ أي : صنف ﴿ بهيج ﴾ أي : حسن نضير من أشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ومقاديرها ، قال الجلال المحلي : من زائدة ، ولم أرَ من ذكر ذلك من المفسرين .

تنبيه : في الآية إشارة إلى أنّ النبات كما يتوجه من نقص إلى كمال ، فكذلك الإنسان المؤمن يترقى من نقص إلى كمال ، ففي المعاد يصل إلى كماله الذي أعدّ له من البقاء والغنى والعلم والصفاء والخلود في دار السلام مبرأ عن عوارض هذا العالم ، ولما قرّر سبحانه هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة ، وذكر أموراً خمسة أحدها قوله تعالى:

(320/520)

﴿ ذلك ﴾ أي : المذكور من بدء الخلق إلى آخر إحياء الأرض ﴿ بأنّ ﴾ أي : بسبب أن تعلموا أنّ ﴿ الله ﴾ أي : الجامع لأوصاف الكمال ﴿ هو ﴾ أي : وحده ﴿ الحق ﴾ أي : الثابت الدائم وما سواه فان ، ثانيها قوله تعالى : ﴿ وأنه يحيي الموتى ﴾ أي : قادر على

ذلك وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة ، ثالثها : قوله تعالى : ﴿ وأنه على كل شيء ﴾ من الخلق وغيره ﴿ قدير ﴾ ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ (يس ،) ، رابعها : قوله تعالى : ﴿ وأن الساعة ﴾ التي تقدّم ذكرها وتقدّم التحذير منها وهي حشر الخلائق كلهم ﴿ آتية لا ريب ﴾ أي : لا شك ﴿ فيها ﴾ أي : بوجه من الوجوه مما دلّ عليها مما لا سبيل إلى إنكاره بقول من لا مرد لقوله ، وهو حكيم لا يخلف ميعاده ، ولا يسوغ بوجه أن يترك عباده بغير حساب ، خامسها : قوله تعالى : ﴿ وأنّ الله يبعث ﴾ بالإحياء ﴿ من في القبور ﴾ بمقتضى وعده الذي لا يقبل الخلف ، وقد وعد الساعة والبعث ، فلا بدّ أن يفي بما وعد ونزل في أبي جهل بن هشام كما قاله ابن عباس:

﴿ ومن الناس من يجادل ﴾ أي : بغاية جهده ﴿ في الله ﴾ أي : في قدرته وما يجمعه هذا الاسم الشريف من صفاته بعد هذا البيان الذي لا مثل له ولا خفاء فيه ﴿ بغير علم ﴾ أتاه عن الله تعالى على لسان أحد من أصفيائه أعمّ من أن يكون كتاباً أو غيره ﴿ ولا هدى ﴾ أرشده إليه أعمّ من كونه بضرورة أو استدلال ﴿ ولا كتاب منير ﴾ له نور منه صح لديه أنه من الله تعالى ، ومن المعلوم أنه بانتفاء هذه الثلاثة لا يكون جداله إلا بالباطل ، وقيل : قوله تعالى : ﴿ ومن الناس ﴾ كرّر كما كرّرت سائر الأقاصيص ، وقيل : الأوّل في المقلدين ، وهذا في المقلدين ، وقوله تعالى:

﴿ ثاني عطفة ﴾ حال أي : لاوي عنقه تكبراً عن الإيمان كما قال تعالى : ﴿ وإذا تتلى

عليه آياتنا ولى مستكبراً ﴾ (لقمان ،)

والعطف في الأصل الجانب عن يمين أو شمال ، وقوله تعالى : ﴿ ليضلّ عن سبيل الله ﴾ علة للجدال ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بضمها .

(321/520)

فإن قيل : على قراءة الضمّ ما كان غرضه في جداله الضلال لغيره عن سبيل الله ، فكيف علل به وما كان على قراءة الفتح مهتدياً حتى إذا جادل خرج بالجدال عن الهدى إلى الضلال ؟

أجيب عن الأوّل : بأن جداله لما أدّى إلى الضلال جعل كأنه غرضه ، وعن الثاني : بأنّ الهدى لما كان معرّضاً له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال الباطل جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال . ولما ذكر فعله وثمرته ذكر ما أعدّ له عليه في الدنيا بقوله تعالى : ﴿ له في الدنيا خزي ﴾ أي : إهانة وذل وإن طال زمن استدراجه بتنعيمه حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه ، وما أعدّ له عليه في الآخرة بقوله تعالى : ﴿ ونذيقه يوم القيامة ﴾ الذي يجمع فيه الخلائق بالإحياء بعد الموت ﴿ عذاب الحريق ﴾ أي : الإحراق بالنار ، وعن الحسن قال : بلغني أن أحدهم يحرق في اليوم سبعين ألف مرّة ويقال له حقيقة

أو مجازاً .

﴿ ذلك ﴾ أي : العذاب العظيم ﴿ بما قدمت يداك ﴾ أي : بعملك ، ولكن جرت عادة العرب أن تضيف الأعمال إلى اليد ؛ لأنها آلة أكثر العمل وإضافة ما يؤدي إليهما أنكى ﴿ وأنّ ﴾ أي : وبسبب أنّ ﴿ الله ليس بظلام ﴾ أي : بذي ظلم ما ﴿ للعبيد ﴾ وإنما هو مجاز لهم على أعمالهم أو أن المبالغة لكثرة العبيد . ونزل في قوم من الأعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم ، فكان أحدهم إذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه مهراً وولدت امرأته غلاماً وكثر ماله قال هذا دين حسن وقد أصبت به خيراً ، واطمأن به ، وإن كان الأمر بخلافه قال : ما أصبت إلا شرّاً ، فينقلب عن دينه

(322/520)

﴿ ومن الناس من يعبد الله ﴾ أي : يعمل على سبيل الاستمرار والتجدّد بما أمر الله به من طاعته ﴿ على حرف ﴾ فهو مزلزل كزلزلة من يكون على حرف شفير أو جبل أو غيره لا استقرار له ، وكالذي على طرف من العسكر ، فإن رأى غنيمة استمرّ ، وإن توهم خوفاً طار وفرّ ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ فإن أصابه خير ﴾ أي : من الدنيا ﴿ اطمأنّ به ﴾ أي : بسببه وثبت على ما هو عليه ﴿ وإن أصابته فتنة ﴾ أي : محنة وسقم في نفسه وماله

﴿ انقلب على وجهه ﴾ أي : رجع إلى الكفر ، وعن أبي سعيد الخدريّ : "أن رجلاً من اليهود أسلم فأصابته مصائب فتشاءم بالإسلام ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أقلني ، فقال : إن الإسلام لا يقال ، فنزلت" ولما كان انقلابه هذا مفسدة لدنياه ولآخرته قال تعالى : ﴿ خسر الدنيا ﴾ بفوات ما أمّله منها ويكون ذلك سبب التقتير عليه قال تعالى : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، وروي إنّ الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيب ﴾ .

﴿ والآخرة ﴾ بالكفر ، ثم عظم مصيبته بقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم ﴿ هو ﴾ أي : لا غيره . ﴿ الخسران المبين ﴾ أي : البين إذ لا خسران مثله ثم بين هذا الخسران الذي ردّه إلى ما كان فيه قبل الإيمان الحرفيّ بقوله تعالى:

﴿ يدعو ﴾ أي : يعبد حقيقة أو مجازاً ﴿ من دون اللَّه ﴾ أي : غير من الصنم ﴿ ما لا يضرّه ﴾ إن لم يعبده ﴿ وما لا ينفعه ﴾ إن عبده ﴿ ذلك ﴾ أي : الدعاء ﴿ هو الضلال البعيد ﴾ عن الحق والرشاد استعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد في التيه ضالاً فطالت وبعدت مسافة ضلاله .

ولما كان الإحسان جالباً للإنسان لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها بَيَّن أن ما قيل في جلب النفع إنما هو على سبيل الفرض ، فقال تعالى : ﴿ يدعو لمن ﴾ أي : من

﴿ ضرّه ﴾ بكونه معبوداً ، لأنه يوجب القتل والخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿ أقر من نفعه ﴾ الذي يتوقع منه بعبادته ، وهو الشفاعة والتوسل بها إلى الله تعالى .

(323/520)

تنبيه : علم مما تقرّر أنّ اللام في لمن مزيدة كما قال الجلال المحلي ، ﴿ فإن قيل ﴾ : الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين وهذا متناقض .

(أجيب) بأنّ المعنى إذا حصل ذهب هذا الوهم وذلك أنّ الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضرّاً ولا نفعاً فيه بجهله وضلاله أنه ينتفع به حين يستشفع به ثم يوم القيامة يقوم هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله الرؤساء وهم الذين كانوا يفزعون إليهم بدليل قوله تعالى : ﴿ لبئس المولى ﴾ أي : الناصر هو ﴿ ولبئس العشير ﴾ أي : الصاحب هو قال الرازيّ وهذا الوصف بالرؤساء أليق لأنّ ذلك لا يكاد يستعمل في الأوثان فبين تعالى أنهم يعدلون عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام وإلى طاعة الرؤساء .

ولما بين سبحانه وتعالى حال الكفار عقبه بحال المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ إنّ الله ﴾ أي : الجامع لجميع صفات الكمال المنزه عن جميع شوائب النقص ﴿ يُدخل الذين آمنوا ﴾ بالله

ورسله ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ من الفروض والنوافل الخالصة الشاهدة بثباتهم في الإيمان ﴿ جنات تجري من تحتها ﴾ أي : في أيّ مكان من أرضها ﴿ الأنهار ﴾ .

(324/520)

ولما بين سبحانه وتعالى حال الفريقين قال تعالى ﴿ إن الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ يفعل ما يريد ﴾ من إكرام من يطيعه وإهانة من يعصيه لا دافع له ولا مانع وقوله تعالى : ﴿ من كان يظنّ أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ﴾ فيه اختصار والمعنى أنّ الله ناصر رسوله في الدنيا والآخر فمن كان يظنّ خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه فالضمير راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإن قيل لم يجر له ذكر في هذه الآية ﴿ أجيب ﴾ بأنّ فيها ما يدل عليه وهو ذكر الإيمان في قوله تعالى : ﴿ إن الله يُدخل الذين آمنوا ﴾ والإيمان لا يتم إلا بالله ورسوله ، وقيل : الضمير راجع إلى من في أوّل الآية لأنه المذكور ومن حق الكناية أن ترجع إلى المذكور إذا أمكن ذلك ، وعلى هذا المراد بالنصر الرزق . قال أبو عبيدة : وقف علينا سائل من بني بكر فقال : من ينصرني نصره الله ؟ أي : من يعطني أعطاه الله فكأنه قال من كان يظنّ أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة ﴿ فليمدد بسبب ﴾ أي : بحبل ﴿ إلى

السماء ﴾ أي : سقف بيته يشدّ بينه وبين عنقه ﴿ ثم ليقطع ﴾ أي : ليختنق به بأن يقطع نفسه من الأرض كما في الصحاح. وقيل : فليمدد حبلاً إلى سماء الدنيا ثم ليصعد عليه فيجتهد في دفع نصر النبي صلى الله عليه وسلم على الأوّل ، أو يحصل رزقه على الثاني ، وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام والباقون بسكونها ﴿ فلينظر ﴾ ببصره وبصيرته ﴿ هل يُذهبنّ ﴾ وإن اجتهد ﴿ كيده ﴾ في عدم نصرة النبي صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته أو أنّ ذلك لا يغلب القسمة فإنّ الأرزاق بيد الله لا تنال إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى وهذا كما يقال لمن أدبر عنه أمر فجزع : اضرب برأسك الجدار إن لم ترض هذا ، مت غيظاً ونحو ذلك ، والحاصل : إن لم يصبر طوعاً صبر كرهاً واختلف في سبب نزول هذه الآية على القول الأوّل فذكروا فيها وجوهاً .

أحدها : كان قوم من المسلمين لشدّة غيظهم على الكفار يستبطؤن ما وعد الله رسوله من النصر فنزلت .

(325/520)

ثانيها : قال مقاتل : نزلت في نفر من أسد وغطفان قالوا : نخاف أنّ الله لا ينصر محمداً فينقطع الذي بيننا وبين حلفائهنا من اليهود فلا يميروننا .

ثالثها : أنّ حساده وأعداءه كثيرة وكانوا يتوقعون أن لا ينصره وأن لا يعينه على أعدائه فمتى شاهدوا أن الله نصره غاظهم ذلك ﴿ وكذلك ﴾ أي : ومثل ما أنزلنا هذه الآيات لبيان حكمها وإظهار أسرارها ﴿ أنزلناه ﴾ أي : القرآن الباقي وقوله تعالى : ﴿ آيات بينات ﴾ أي : معجزاً نظمها كما كان معجزاً حكمها حال وقوله تعالى : ﴿ وأنّ الله ﴾ أي : الموصوف بالإكرام كما هو موصوف على محل أنزلناه .

(326/520)

ولما قال تعالى : ﴿ وأنّ الله يهدي من يريد ﴾ أنبعه ببيان من يهديه ومن لا يهديه ، وبدأ بالقسم الأوّل بقوله : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ بالله ورسوله وعبر بالفعل ليشمل الإقرار باللسان الذي هو أدنى وجوه الإيمان ثم شرع في القسم الثاني بقوله تعالى : ﴿ والذين هادوا ﴾ أي : انتحلوا دين اليهودية ﴿ والصابئين ﴾ وهم فرقة من النصارى سميت بذلك قيل : لنسبتها إلى صابي عم نوح عليه السلام ، وقيل : لخروجهم عن دين إلى دين لآخر ، وإطلاق الصابئة على هذا هو المشهور وتارة يوافقونهم في أصول دينهم فتحل مناكحتهم وتارة يخالفونهم فلا تحل مناكحتهم وتطلق أيضاً على قوم أقدم من النصارى يعبدون الكواكب السبعة ويضيفون الآثار إليها وينفون الصانع المختار فهؤلاء لا تحل مناكحتهم وقد أفتى الإصطخري

والمحاملي بقتلهم لما استفتى القاهر الفقهاء فيهم فبذلوا له أموالاً كثيرة فتركهم والبلاء قديم وقرأ نافع بالياء التحتية بعد الباء والباقون بهمزة مكسورة بعد الباء الموحدة

﴿ والنصارى ﴾ أي : الذين انتحلوا دين النصرانية ﴿ والمجوس ﴾ قال قتادة : هم عبدة الشمس والقمر والنيران قال : ﴿ والذين اشركوا ﴾ هم عبدة الأوثان قال مقاتل : الأديان كلها ستة واحد للرحمن وهو الإسلام ، وخمسة للشيطان وقيل : خمسة ، أربعة للشيطان ، وواحد للرحمن بجعل الصابئين مع النصارى لأنهم فرع منهم كما مر على المشهور وقد تقدّم الكلام على هذه الآية في سورة البقرة ﴿ إنّ الله ﴾ الذي هو أحكم الحاكمين ﴿ يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ بإدخال المؤمنين الجنة وغيرهم النار وأدخلت إنَّ على كل واحد من جزأى الجملة لزيادة التأكيد ونحوه قول جرير :

u

*إنّ الخليفة إنّ اللَّه سربله

**سربال ملك به ترجى الخواتيم

(327/520)

ثم ذلك بقوله تعالى : ﴿ إن الله ﴾ أي : الجامع لجميع صفات الكمال ﴿ على كل شيء ﴾ من الأشياء كلها ﴿ شهيد ﴾ أي : عالم به علم مشاهدة ﴿ ألم تر ﴾ أي تعلم ﴿ أن الله يسجد له ﴾ أي : يخضع منقاداً لأمره سبحانه مسخراً لما يريد منه تسخير من هو في غاية الإجتهاد في العبادة والإخلاص فيها ﴿ من في السموات ومَنْ في الأرض ﴾ إن خصصت بذلك العاقل أفهم خضوع غيره من باب أولى وإن أدخلت غير العاقل فبالتغليب ثم أتبعه بأشرف ما ذكر مما لا يعقل لأنّ كلاً منهما عبد من دون الله أو عبد شيء منه فقال تعالى : ﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ من الأجرام العلوية فعبد الشمس حمير ، والقمر كنانة ، والدبران تميم ، والشعري لخم ، والثريا طيىء ، وعطارد أسد ، قاله أبو حيان ، روى عن عمرو بن دينار قال : سمعت رجلاً يطوف بالبيت ويبكي فإذا هو طاووس فقال أعجبت من بكائي ؟ قلت : نعم . قال : ورب الكعبة إن هذا القمر ليبكي من خشية الله ولا ذنب له .

(328/520)

ثم أتبع ذلك أعلى الذوات السفلية فقال ﴿ والجبال ﴾ أي : التي قد نحتت منها الأصنام ﴿ والشجر ﴾ أي : التي عبد بعضها ﴿ والدوابّ ﴾ أي : التي عبد منها البقر ، كل هذه

الأشياء تنقاد لأمر الله ولا تأبى عن تدبيره ﴿ وكثير من الناس ﴾ وهم المؤمنون بزيادة الخضوع سجد سجوداً هو منه عبادة مشروعة فحق له الثواب ﴿ وكثير ﴾ أي : من الناس ﴿ حق عليه العذاب ﴾ وهم الكافرون ؛ لأنهم أَبَو ، السجود المتوقف على الإيمان ﴿ ومَن يُهن الله ﴾ أي : يُشْقِهِ ﴿ فما له من مكرم ﴾ أي : مسعد ، لأنه لا قدرة لغيره أصلاً ﴿ إنّ الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ يفعل ما يشاء ﴾ من الإكرام والإهانة ، لا مانع له من ذلك ، نقل عن عليّ رضي الله تعالى عنه أنه قيل له : إنّ رجلاً يتكلم في المشيئة فقال له عليّ يا عبد الله خلقك الله لما يشاء أو لما شئت ؟ قال بل لما يشاء . قال : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء . قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء . قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء ؟ قال : بل حيث يشاء قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 286.274 ﴾

(329/520)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والعشرون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/521)

الجزء الحادى والعشرون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 19 ﴾ من سورة الحج

وحتى الآية ﴿ 25 ﴾ من نفس السورة

(4/521)

قوله تعالى ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قسم الناس إلى مخالف ومؤالف ، أتبعه جزاءهم بما يرغب المؤالف ويرهب المخالف على وجه موجب للأمر بالمعروف الذي من جملته الجهاد لوجهه خالصاً فقال :

﴿ هذان ﴾ أي الساجد والجاحد من جميع الفرق ﴿ خصمان ﴾ لا يمكن منهما المسالمة الكاملة إذ كل منهما في طرف .

ولما أشار بالتثنية إلى كل فرقة منهم صارت – مع كثرتها وانتشارها باتحاد الكلمة في العقيدة – كالجسد الواحد ، صرح بكثرتهم بالتعبير بالجمع فقال : ﴿ اختصموا ﴾ أي أوقعوا الخصومة بغاية الجهد ، ولما كانت الفرق المذكورة كلها مثبتة وقد جحد أكثرهم النعمة ، قال : ﴿ في ربهم ﴾ أي الذي هم بإحسانه إليهم معترفون ، لم يختصموا بسبب غيره أصلاً ، وحمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله وعبيدة بن الحارث وعلي بن

أبي طالب – الذين هم أول من برز للمخاصمة بحضرة رسول الله – صلى الله عليه ورضي عنهم – للكفرة من بني عمهم : عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ، في غزوة بدر – أولى الناس بهذه الآية لما روي في الصحيح عن أبي ذر ـ رضى الله عنهم ـ " أنه كان يقسم أنها نزلت فيهم ، ولذلك قال ـ رضى الله عنهم ـ : أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن عز وجل يوم القيامة للخصومة " أخرجه البخاري في صحيحه ، ولعله ـ رضى الله عنهم ـ أول الثلاثة ، قام لمنابذتهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه كان أشبّهم .

(5/521)

ولما ذكر خصومتهم وشرطها ، ذكر جزاءهم عليها في فصل الأمر الذي قدم ذكره ، وبدأ بالترهيب لأن الإنسان إليه أحوج فقال : ﴿ فالذين كفروا ﴾ منابذين لأمر ربهم ﴿ قطعت ﴾ تقطيعاً لا يعلم كثرته إلا الله ، بأيسر أمر ممن لا أمر لغيره ﴿ لهم ﴾ الآن وهيئت وإن وافقوا مراد ربهم بمخالفتهم أمره ﴿ ثياب من نار ﴾ تحيط بهم وهي على مقاديرهم سابغة عليهم كما كانوا يسلبون الثياب في الدنيا تعاظماً وتكبراً حال كونهم ﴿ يصب ﴾ إذا دخلوها ﴿ من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ أي الماء الحار حرارة لا يدري مقدارها إلا بالذوق – أعاذنا الله منه ، واستأنف الإخبار عنه بقوله : ﴿ يصهر ﴾ أي

يذاب ، وأصله المخالطة الشديدة ﴿ به ﴾ من شدة حرارته ﴿ ما في بطونهم ﴾ من شحم وغيره ﴿ والجلود ﴾ فيكون أثره في البطن والظاهر سواء ﴿ ولهم مقامع ﴾ جمع مقمعة بكسر ثم فتح ، وهي عمود حديد يضرب به الرأس والوجه ليرد المضروب عن مراده رداً عنيفاً ، ثم نفى المجاز بقوله : ﴿ من حديد ﴾ أي يقمعون بها ﴿ كلما أرادوا ﴾ أي كلهم فالبعض بطريق الأولى ﴿ أن يخرجوا منها ﴾ أي من تلك الثياب أو من النار .

ولما كان السياق لخصومة أولياء الله المتصفين بما هو مقصود السورة من التقوى للكفار ، المنابذين لها بكل اعتبار ، اقتضى ذلك بشارة للأولياء ونذارة للأعداء – قوله زيادة على ما في السجدة : ﴿ من غم ﴾ عظيم لا يعلم قدر عظمه إلا الله ﴿ أعيدوا ﴾ ، كل من ﴿ فيها ﴾ كأنهم يضربون بلهيب النار فيرفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً – قاله الحسن ، أو أنهم يضطربون في تلك الثياب المقطعة من النار إلى أن يكادوا أن ينفصلوا منها وهم في النار ثم يردون كما كانوا ، وذلك أشد في العذاب ، مقولاً لهم : ارجعوا صاغرين مقاسين لغمومها ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ أي العذاب البالغ في الإحراق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 142 . 143 ﴾

(6/521)

فصل

قال الفخر :

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾

القراءة : روي عن الكسائي ﴿ خَصْمَانِ ﴾ بكسر الخاء ، وقرىء ﴿ قُطِّعَتْ ﴾ بالتخفيف كان الله يقدر لهم نيراناً على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة ، قرأ الأعمش : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ رُدُّواْ فِيهَا ﴾ الحسن ﴿ يُصْهَرُ ﴾ بتشديد الهاء للمبالغة ، وقرىء ﴿ وَلُؤْلُؤاً ﴾ بالنصب على تقدير ويؤتون لؤلؤاً كقوله وحوراً عيناً ولؤلؤاً بقلب الهمزة الثانية واواً ، واعلم أنه سبحانه لما بين أن الناس قسمان منهم من يسجد لله ومنهم من حق عليه العذاب ذكر ههنا كيفية اختصامهم ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

احتج من قال أقل الجمع اثنان بقوله : ﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا ﴾ ، والجواب : الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق فكأنه قيل : هذان فوجان أو فريقان يختصمان ، فقوله : ﴿ هذان ﴾ للفظ واختصموا للمعنى كقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ ﴾ [محمد : 16] .

المسألة الثانية :

ذكروا في تفسير الخصمين وجوهاً : أحدها : المراد طائفة المؤمنين وجماعتهم وطائفة الكفار وجماعتهم وأن كل الكفار يدخلون في ذلك ، قال ابن عباس رضي الله عنهما يرجع إلى أهل الأديان الستة ﴿ فِى رَبِّهِمْ ﴾ أي في ذاته وصفاته وثانيها : روي أن أهل الكتاب قالوا نحن أحق بالله وأقدم منكم كتاباً ونبينا قبل نبيكم ، وقال المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً ، فهذه خصومتهم في ربهم وثالثها : روى قيس ابن عبادة عن أبي ذر الغفاري رحمه الله أنه كان يحلف بالله أن هذه الآية نزلت في ستة نفر من قريش تبارزوا يوم بدر : حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، وقال علي عليه السلام أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله تعالى يوم القيامة .

ورابعها : قال عكرمة : هما الجنة والنار قالت النار خلقني الله لعقوبته .

وقالت الجنة خلقني الله لرحمته فقص الله من خبرهما على محمد صلى الله عليه وسلم ذلك ، والأقرب هو الأول لأن السبب وإن كان خاصاً فالواجب حمل الكلام على ظاهره قوله : ﴿ هذان ﴾ كالإشارة إلى من تقدم ذكره وهم أهل الأديان الستة ، وأيضاً ذكر صنفين أهل

طاعته وأهل معصيته ممن حق عليه العذاب ، فوجب أن يكون رجوع ذلك إليهما ، فمن خص به مشركي العرب أو اليهود من حيث قالوا في كتابهم ونبيهم ما حكيناه فقد أخطأ ، وهذا هو الذي يدل عليه قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الحج : 17] أراد به الحكم لأن ذكر التخاصم يقتضي الواقع بعده يكون حكماً فبين الله تعالى حكمه في الكفار ، وذكر من أحوالهم أموراً ثلاثة : أحدها : قوله : ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ والمراد بالثياب إحاطة النار بهم كقوله :

(8/521)

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : 41] عن أنس ، وقال سعيد بن جبير من نحاس أذيب بالنار أخذاً من قوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ [إبراهيم : 5] وأخرج الكلام بلفظ الماضي كقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور ﴾ [الكهف : 99] ، ﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : 21] لأن ما كان من أمر الآخرة فهو كالواقع .

وثانيها : قوله : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الحميم ﴾ يصهر به ما في بطونهم والجلود ، الحميم الماء الحار ، قال ابن عباس رضي الله عنهما لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا

لأذابتها ، (يصهر) أي يذاب أي إذا صب الحميم على رؤوسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله : ﴿ وَسُقُواْ مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ [محمد : 15] .

وثالثها : قوله : ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ المقامع السياط وفي الحديث " لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها " وأما قوله : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ فاعلم أن الإعادة لا تكون إلا بعد الخروج والمعنى كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها ، ومعنى الخروج ما يروى عن الحسن أن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقاطع فهووا فيها سبعين خريفاً وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق ، والحريق الغليظ من النار العظيم الإهلاك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 19 . 20 ﴾

(9/521)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ هذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ﴾

والخصمان ها هنا فريقان ، وفيهما أربعة أقاويل :

أحدها : أنهما المسلمون والمشركون حين اقتتلوا في بدر ، وهذا قول أبي ذر ، وقال محمد بن سيرين : نزلت في الثلاثة الذين بارزوا يوم بدر ثلاثة من المشركين فقتلوهم .

والثاني : أنهم أهل الكتاب قالوا : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم .

ونحن خير منكم ، فقال المسلمون كتابنا يقضي على كتابكم ، ونبينا خاتم الأنبياء .

ونحن أولى بالله منكم ، وهذا قول قتادة .

والثالث : أنهم أهل الإِيمان والشرك في اختلافهم في البعث والجزاء ، وهذا قول مجاهد ، والحسن ، وعطاء .

والرابع : هما الجنة والنار اختصمتا ، فقالت النار : خلقني الله لنقمته ، وقالت الجنة : خلقني الله لرحمته ، وهذا قول عكرمة .

﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ معناه أن النار قد أحاطت بها كإحاطة الثياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم ، فصارت من هذا الوجه ثياباً ، لأنها بالإِحاطة كالثياب .

﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ ها هنا هو الماء الحار ، قال الشاعر :

كأن الحميم على متنها . . . إذا اغترفته بأطساسها

جُمان يحل على وجنةٍ . . . علته حدائد دوّاسها

وضم الحميم إلى النار وإن كانت أشد منه لأنه ينضج لحومهم ، والنار بانفرادها تحرقها ،

فيختلف به العذاب فيتنوع ، فيكون أبلغ في النكال .

وقيل إنها نزلت في ثلاثة من المسلمين قتلوا ثلاثة من المشركين يوم بدر حمزة بن عبد المطلب قتل عتبة بن ربيعة ، وعليّ بن أبي طالب قتل الوليد بن عتبة ، وعبيدة بن الحارث قتل شيبة بن ربيعة .

قوله تعالى : ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : يحرق به وهو قول يحيى بن سلام .

والثاني : يقطع به ، وهو قول الحسن .

والثالث : ينضج به ، وهو قول الكلبي ومنه قول العجاج :

(10/521)

شك السفافيد الشواء المصطهرْ . . . والرابع : يذاب به ، وهو قول مجاهد ، مأخوذ من قولهم : صهرت الألية إذا أذبتها ، ومنه قول ابن أحمر :

تروي لقى ألقى في صفصفٍ . . . تصهره الشمس فما ينْصهِر

﴿ وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ والمقامع : جمع مقمعة ، والمقمعة ما يضرب به الرأس لا يعي فينكب أو ينحط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(11/521)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ هذان خصمان ﴾ الآية ،

(12/521)

اختلف الناس في المشار إليه بقوله ﴿ هذان ﴾ فقال قيس بن عباد وهلال بن يساف : نزلت هذه الآية في المتبارزين يوم بدر وهو ستة : حمزة ، وعلي ، وعبيدة بن الحارث ، برزوا لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال : أنا أول من يجثو يوم القيامة للخصومة بين يدي الله تعالى ، وأقسم أبو ذر على هذا القول ع ووقع أن الآية فيهم في صحيح البخاري ، وقال ابن عباس : الإشارة إلى المؤمنين وأهل الكتاب وذلك أنه وقع بينهم تخاصم فقالت اليهود نحن أقوم ديناً منكم ونحو هذا ، فنزلت الآية ، وقال عكرمة : المخاصمة بين الجنة والنار ، وقال مجاهد وعطاء بن أبي رباح والحسن بن أبي الحسن وعاصم والكلبي : الإشارة إلى المؤمنين والكفار على العموم ع وهذا قول

تعضده الآية ، وذلك أنه تقدم قوله ﴿ وكثير من الناس ﴾ المعنى هم مؤمنون ساجدون ، ثم قال ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ ثم أشار الى هذين الصنفين بقوله ﴿ هذان خصمان ﴾ والمعنى أن الإيمان وأهله والكفر وأهله خصمان مذ كانا إلى قيام الساعة بالعدواة والجدال والحرب ، وقوله تعالى : ﴿ خصمان ﴾ يريد طائفتين لأن لفظة خصم هي مصدر يوصف به الجمع والواحد ويدل على أنه أراد الجمع قوله ﴿ اختصموا ﴾ فإنها قراءة الجمهور ، وقرأ ابن أبي عبلة " اختصما في ربهم " وقوله ﴿ في ربهم ﴾ معناه في شأن ربهم وصفاته وتوحيده ، ويحتمل أن يريد في رضاء ربهم وفي ذاته ، ثم بين حكمي الفريقين فتوعد تعالى الكفار بعذاب جهنم ، و ﴿ قطعت ﴾ معناه جعلت لهم بتقدير ، كما يفصل الثوب ، وروي أنها من نحاس وقيل ليس شيء من الحجارة والفلز أحر منه إذا حمي ، وروي في صب ﴿ الحميم ﴾ وهو الماء المغلي أنه تضرب رؤوسهم ب " المقامع " فتنكشف أدمغتهم فيصب ﴿ الحميم ﴾ حينئذ ، وقيل بل يصب أولاً فيفعل ما وصف ، ثم تضرب ب " المقامع " بعد ذلك ، و ﴿ الحميم ﴾ الماء المغلي ، و ﴿ يصهر ﴾ معناه يذاب ، وقيل معناه يعصر وهذه العبارة

قلقة ، وقيل معناه ينضج ومنه قول الشاعر " تصهره الشمس ولا ينصهر " وإنما يشبه فيمن قال يعصر .

أنه أراد الحميم يهبط كل ما يلقى في الجوف ويكشطه ويسلته ، وقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يسلته ويبلغ به قدميه ويذيبه ، ثم يعاد كما كان ، وقرأ الجمهور " يصهر " وقرأت فرقة " يصَهّر " بفتح الضاد وشد الهاء ، و" المِقمعة " بكسر الميم مقرعة من حديد يقمع بها المضروب ، وقوله : ﴿ أرادوا ﴾ روي فيه أن لهب النار إذا ارتفع رفعهم فيصلون إلى أبواب النار فيريدون الخروج فيضربون ب " المقامع " وتردهم الزبانية و" من " في قوله ﴿ منها ﴾ الابتداء الغاية ، وفي قوله ﴿ من غم ﴾ يحتمل أن تكون لبيان الجنس ويحتمل أن تكون لابتداء غاية أيضاً وهي بدل من الأولى . وقوله : ﴿ وذوقوا ﴾ هنا محذوف تقديره ويقال لهم : ﴿ ذوقوا ﴾ و ﴿ الحريق ﴾ فعيل بمعنى مفعل أي محرق ، وقرأ الجمهور " هذان " بتخفيض النون وقرأ ابن كثير وحده " هذانّ " بتشديد النون ، وقرأها شبل وهي لغة لبعض العرب في المبهمات ، كاللذان ، وهذان وقد ذكر ذلك أبو علي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(14/521)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ هذان خصمان ﴾

اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في النفر الذين تبارزوا للقتال يوم بدر ، حمزة ، وعلي ، وعبيدة بن الحارث ، وعتبة وشيبة ابنَي ربيعة ، والوليد ابن عتبة ، هذا قول أبي ذر .

والثاني : أنها نزلت في أهل الكتاب ، قالوا للمؤمنين : نحن أولى بالله ، وأقدم منكم كتاباً ، ونبيُّنا قبل نبيكم ، وقال المؤمنون : نحن أحق بالله ، آمنا بمحمد ، وآمنا بنبيِّكم وبما أنزل الله من كتاب ، وأنتم تعرفون نبيَّنا ، ثم كفرتم به حسداً ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

والثالث : أنها في جميع المؤمنين ، والكفار ، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن ، وعطاء ، ومجاهد .

والرابع : أنها نزلت في اختصام الجنة والنار ، فقالت النار : خلقني الله لعقوبته ، وقالت الجنة : خلقني الله لرحمته ، قاله عكرمة .

فأما قوله تعالى : ﴿ هذان ﴾ وقرأ ابن عباس ، وابن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن كثير : "هاذانّ" بتشديد النون "خصمان" ، فمعناه : جمعان ، وليسا برجلين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ اختصموا ﴾ ولم يقل : اختصما ؛ على أنه قرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة :

"اختصما" .

وفي خصومتهم ثلاثة أقوال .

أحدها : في دين ربِّهم ، وهذا على القولين الأوليين .

والثاني : في البعث ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه خصام مفاخرة ، على قول عكرمة .

قوله تعالى : ﴿ قطِّعت لهم ثياب ﴾ أي : سُوِّيت وجُعلت لباساً .

قال ابن عباس : قُمُص من نار .

وقال سعيد بن جبير : المراد بالنار هاهنا : النحاس .

فأما "الحميم" فهو الماء الحارُّ ﴿ يُصهر به ﴾ قال الفراء : يذاب به ، يقال : صهرت الشحم بالنار .

قال المفسرون : يذاب بالماء الحارِّ ﴿ ما في بطونهم ﴾ من شحم أو مِعىً حتى يخرج من أدبارهم ، وتنضج الجلود فتتسقاط من حرِّه ، ﴿ ولهم مقامع ﴾ قال الضحاك : هي المطارق .

(15/521)

وقال الحسن : إن النار ترميهم بلهبها ، حتى إذا كانوا في أعلاها ، ضُربوا بمقامع فَهَوَوْا فيها سبعين خريفاً ، فإذا انتهوا إلى أسفلها ، ضربهم زفير لهبها ، فلا يستقرُّون ساعة .

قال مقاتل : إذا جاشت جهنم ، ألقتهم في أعلاها ، فيريدون الخروج ، فتتلقَّاهم خزنة جهنم بالمقامع ، فيضربونهم ، فيهوي أحدهم من تلك الضربة إلى قعرها .

وقال غيره : إذا دفعتهم النار ، ظنوا أنها ستقذفهم خارجاً منها ، فتعيدهم الزبانية بمقامع الحديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(16/521)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا فِي رَبِّهِمْ ﴾ خرّج مسلم عن قيس بن عُبَاد قال : سمعت أبا ذَرٍّ يُقسم قَسَماً إنّ "هذان خصمان اختصموا في ربهم" إنها نزلت في الذين بَرَزُوا يوم بدر : حمزةُ وعليٌّ وعبيدةُ بن الحارث رضي الله عنهم وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة والوليد بن عتبة .

وبهذا الحديث ختم مسلم رحمه الله كتابه .

وقال ابن عباس : نزلت هذه الآيات الثلاث على النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة في ثلاثة

نفر من المؤمنين وثلاثة نفر كافرين ؛ وسمّاهم ، كما ذكر أبو ذر .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : إني لأوّل من يجثو للخصومة بين يدي الله يوم القيامة ؛ يريد قصته في مبارزته هو وصاحباه ؛ ذكره البخاري .

وإلى هذا القول ذهب هلال بن يَساف وعطاء بن يَسار وغيرهما .

وقال عكرمة : المراد بالخصمين الجنة والنار ؛ اختصمتا فقالت النار : خلقني لعقوبته . وقالت الجنة خلقني لرحمته .

قلت : وقد ورد بتخاصم الجنة والنار حديثٌ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اِحتجت الجنة والنار فقالت هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله تعالى لهذه : أنت عذابي أعذب بِك من أشاء وقال لهذه : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها " خرّجه البخاري ومسلم والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وقال ابن عباس أيضاً : هم أهل الكتاب قالوا للمؤمنين نحن أولى بالله منكم ، وأقدم منكم كتاباً ، ونبيُّنا قبل نبيّكم .

وقال المؤمنون : نحن أحق بالله منكم ، آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل إليه من كتاب ، وأنتم تعرفون نبينا وتركتموه وكفرتم به حسداً ؛ فكانت هذه خصومتَهم ، وأنزلت فيهم هذه الآية .

وهذا قول قتادة ، والقول الأوّل أصح رواه البخاري عن حَجّاج بن مِنْهال عن هُشيم عن أبي هاشم عن أبي مِجْلَز عن قيس بن عُباد عن أبي ذر ، ومسلمٌ عن عمرو بن زُرَارة عن هُشيم ، ورواه سليمان التيميّ عن أبي مِجْلَز عن قيس بن عُباد عن عليّ قال : فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يوم بدر "هذان خصمان اختصموا في ربهم إلى قوله عذاب الحريق" .

وقرأ ابن كثير "هذانّ خصمان" بتشديد النون من "هذان" .

وتأوّل الفرّاء الخصْمَين على أنهما فريقان أهل دينين ، وزعم أن الخصم الواحد المسلمون والآخر اليهود والنصارى ، اختصموا في دين ربهم ؛ قال : فقال : "اختصموا" لأنهم جمع ، قال : ولو قال "اختصما" لجاز .

قال النحاس : وهذا تأويل من لا دراية له بالحديث ولا بكتب أهل التفسير ؛ لأن الحديث في هذه الآية مشهور ، رواه سفيان الثَّوْري وغيره عن أبي هاشم عن أبي مِجْلَز عن قيس بن عُباد قال : سمعت أبا ذرٍّ يُقسم قَسَماً إن هذه الآية نزلت في حمزة وعليّ وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة .

وهكذا روى أبو عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس .

وفيه قول رابع أنهم المؤمنون كلهم والكافرون كلهم من أي ملة كانوا ؛ قاله مجاهد والحسن وعطاء بن أبي رَبَاح وعاصم بن أبي النَّجُود والكلبي .

وهذا القول بالعموم يجمع المنزل فيهم وغيرهم .

وقيل : نزلت في الخصومة في البعث والجزاء ؛ إذ قال به قوم وأنكره قوم .

﴿ فالذين كَفَرُواْ ﴾ يعني من الفِرق الذين تقدم ذكرهم .

﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ أي خِيطت وسُوِّيت ؛ وشبّهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب .

(18/521)

وقوله : ﴿ قُطِّعَتْ ﴾ أي تقطع لهم في الآخرة ثياب من نار ؛ وذُكر بلفظ الماضي لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعود منه كالواقع المحقَّق ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللّهُ يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة : 116] أي يقول الله تعالى .

ويحتمل أن يقال قد أعدّت الآن تلك الثياب لهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار .

وقال سعيد بن جبير : "من نار" من نحاس ؛ فتلك الثياب من نحاس قد أذيبت وهي

السرابيل المذكورة في "قطران" وليس في الآنية شيء إذا حَمِي يكون أشدّ حَرًّا منه .

وقيل : المعنى أن النار قد أحاطت بهم كإحاطة الثياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم ؛ فصارت من هذا الوجه ثياباً لأنها بالإحاطة كالثياب ؛ مثل ﴿ وَجَعَلْنَا الليلَ لِبَاساً ﴾ [النبأ : 10] .

﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم ﴾ أي الماء الحار المُغَلَّى بنار جهنم .

وروى الترمذيّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الحميم لَيُصَبّ على رؤوسهم فينفذ الحِمِيم حتى يَخْلُص إلى جوفه فيَسْلِت ما في جوفه حتى يَمْرُق من قدميه وهو الصَّهْر ثم يعاد كما كان " قال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

﴿ يُصْهَرُ ﴾ يذاب .

﴿ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ والصَّهر إذابة الشحم .

والصُّهارة ما ذاب منه ؛ يقال : صَهَرْت الشيء فانصهر ؛ أي أذبته فذاب ، فهو صهير .

قال ابن أحمر يصف فرخ قَطاة :

تَرْوِي لَقًى أُلْقِيَ في صَفْصفٍ . . .

تَصْهره الشمسُ فما يَنْصَهِرْ

أي تذيبه الشمس فيصبر على ذلك .

﴿ والجلود ﴾ أي وتُحرق الجلود ، أو تُشوى الجلود ؛ فإن الجلود لا تذاب ، ولكن يُضَمّ في

كل شيء ما يليق به ؛ فهو كما تقول : أتيته فأطعمني ثريداً ، إي والله ولبنا قارصاً ؛ أي وسقاني لبناً .

وقال الشاعر :

عَلَفتها تبناً وماء باردا . . .

(19/521)

﴿ وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ أي يُضربون بها ويدفعون ؛ الواحدة مِقْمَعة ، ومِقْمَع أيضاً كالمِحْجَن ، يضرب به على رأس الفيل .

وقد قَمَعته إذا ضربته بها .

وقمعته وأقمعته بمعنًى ؛ أي قهرته وأذللته فانقمع .

قال ابن السِّكيت : أقمعت الرجلَ عنّي إقماعاً إذا طلع عليك فرددته عنك .

وقيل : المقَامع المطارق ، وهي المرازب أيضاً .

وفي الحديث : " بيد كل مَلَك من خَزنة جهنم مِرْزَبَة لها شُعبتان فيضرب الضربة فيهوي بها سبعين ألفاً " وقيل : المقامع سياط من نار ، وسُمّيت بذلك لأنها تقمع المضروب ؛ أي تذلّله .

قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَآ أرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾ أي من النار .

﴿ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ بالضرب بالمقامع .

وقال أبو ظبيان : ذُكر لنا أنهم يحاولون الخروج من النار حين تجيش بهم وتفور فتُلْقي من فيها إلى أعلى أبوابها فيريدون الخروج فتعيدهم الخزان إليها بالمقامع .

وقيل : إذا اشتدّ غمهم فيها فرُّوا ؛ فمن خَلَص منهم إلى شَفِيرها أعادتهم الملائكة فيها بالمقامع ، ويقولون لهم ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق ﴾ أي المُحْرِق ؛ مثل الأليم والوجيع .

وقيل : الحريق الاسم من الاحتراق .

تحرّق الشيء بالنار واحترق ، والاسم الحُرْقة والحريق .

والذّوْق : مماسّةٌ يحصل معها إدراك الطعم ؛ وهو هنا توسّع ، والمراد به إدراكهم الألم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(20/521)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تعالى أهل السعادة وأهل الشقاوة ذكر ما دار بينهم من الخصومة في دينه ، فقال ﴿ هذان ﴾ قال قيس بن عباد وهلال بن يساف ، نزلت في المتبارزين يوم بدر حمزة وعليّ

وعبيدة بن الحارث برز والعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة .

وعن عليّ : أنا أول من يجثو يوم القيامة للخصومة بين يديّ الله تعالى ، وأقسم أبو ذر على هذا ووقع في صحيح البخاري أن الآية فيهم .

وقال ابن عباس : الإشارة إلى المؤمنين وأهل الكتاب وقع بينهم تخاصم ، قالت اليهود : نحن أقدم ديناً منكم فنزلت .

وقال مجاهد وعطاء بن أبي رباح والحسن وعاصم والكلبي الإشارة إلى المؤمنين والكفار على العموم ، وخصم مصدر وأريد به هنا الفريق ، فلذلك جاء ﴿ اختصموا ﴾ مراعاة للمعنى إذ تحت كل خصم أفراد ، وفي رواية عن الكسائي ﴿ خِصمان ﴾ بكسر الخاء ومعنى ﴿ في ربهم ﴾ في دين ربهم .

وقرأ ابن أبي عبلة اختصما ، راعى لفظ التثنية ثم ذكر تعالى ما أعدّ للكفار .

وقرأ الزعفراني في اختياره : ﴿ قطعت ﴾ بتخفيف الطاء كأنه تعالى يقدر لهم نيراناً على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة ، والظاهر أن هذا المقطع لهم يكون من النار .

وقال سعيد بن جبير ﴿ ثياب ﴾ من نحاس مذاب وليس شيء إذا حمي أشد حرارة منه ، فالتقدير من نحاس محمى بالنار .

وقيل : الثياب من النار استعارة عن إحاطة النار بهم كما يحيط الثوب بلابسه .

وقال وهب : يكسى أهل النار والعري خير لهم ، ويحيون والموت خير لهم .

ولما ذكر ما يصب على رؤوسهم إذ يظهر في المعروف أن الثوب إنما يغطى به الجسد دون الرأس فذكر ما يصيب الرأس من العذاب .

(21/521)

وعن ابن عباس : لو سقطت من الحميم نقطة على جبال الدنيا لأذابتها ولما ذكر ما يعذب به الجسد ظاهره وما يصب على الرأس ذكر ما يصل إلى باطن المعذب وهو الحميم الذي يذيب ما في البطن من الحشا ويصل ذلك الذوب إلى الظاهر وهو الجلد فيؤثر في الظاهر تأثيره في الباطن كما قال تعالى ﴿ فقطع أمعاءهم ﴾ وقرأ الحسن وفرقة ﴿ يصهر ﴾ بفتح الصاد وتشديد الهاء .

وفي الحديث : " إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلب ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان " والظاهر عطف ﴿ والجلود ﴾ على ﴿ ما ﴾ من قوله ﴿ يصهر به ما في بطونهم ﴾ وأن ﴿ الجلود ﴾ تذاب كما تذاب الأحشاء .

وقيل : التقدير وتخرق ﴿ الجلود ﴾ لأن الجلود لا تذاب إنما تجتمع على النار وتنكمش

وهذا كقوله :

علفتها تبناً وماء بارداً . . .

أي وسقيتها ماء .

والظاهر أن الضمير في ﴿ ولهم ﴾ عائد على الكفار ، واللام للاستحقاق .

وقيل : بمعنى على أي وعليهم كقوله ﴿ ولهم اللعنة ﴾ أي وعليهم .

وقيل : الضمير يعود على ما يفسره المعنى وهو الزبانية .

وقال قوم منهم الضحاك : المقامع المطارق .

وقيل : سياط من نار وفي الحديث : " لو وضع مقمع منها في الأرض مث اجتمع عليه الثقلان ما أقلوه من الأرض " و ﴿ من غم ﴾ بدل من منها بدل اشتمال ، أعيد معه الجار وحذف الضمير لفهم المعنى أي من غمها ، ويحتمل أن تكون من للسبب أي لأجل الغم الذي يلحقهم ، والظاهر تعليق الإعادة على الإرادة للخروج فلا بد من محذوف يصح به المعنى ، أي من أماكنهم المعدة لتعذيبهم ﴿ أعيدوا فيها ﴾ أي في تلك الأماكن .

وقيل ﴿ أعيدوا فيها ﴾ بضرب الزبانية إياهم بالمقامع ﴿ وذوقوا ﴾ أي ويقال لهم ذوقوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(22/521)

وقال أبو السعود :

﴿ هذان ﴾ تعيينٌ لطرفَيْ الخصامِ وإزاحةٌ لمل عسى يتبادرُ إلى الوهمِ من كونِه بين كل واحدةٍ من الفرقِ الستِّ وبين البواقي وتحريرٌ لمحلِّه أي فريق المؤمنينَ وفريقُ الكفرةِ المنقسمُ إلى الفرقِ الخمسِ ﴿ خَصْمَانِ ﴾ أي فريقانِ مختصمانِ وإنما قيل : ﴿ اختصموا فِى رَبِّهِمْ ﴾ حملاً على المعنى أي اختصمُوا في شأنِه عزَّ وجلَّ ، وقيل في دينه ، وقيل ذاته وصفاته والكلّ من شؤونه تعالى فإنَّ اعتقادَ كلَ من الفريقينِ بحقيَّةِ ما هُو عليه وبُطلانِ ما عليه صاحبُه وبناءَ أقوالِه وأفعالِه عليه خصومةٌ للفريقِ الآخرِ وإنْ لم يجرِ بينهما التَّحاورُ والخصامُ ، وقيل : تخاصمتِ اليَهودُ والمؤمنونَ فقالتِ اليَهودُ : نحنُ أحقُّ باللهِ وأقدمُ منكم كتاباً ونبيُّنا قبل نبيِّكم ، وقال المؤمنون : نحنُ أحقُّ باللهِ منكُم آمنَّا بمحمَّدٍ وبنبيِّكم وبما أُنزل اللهُ من كتابٍ وأنتمُ تعرفون كتابَنا ونبيَّنا ثم كفرتُم به حسداً فنزلت ﴿ فالذين كَفَرُواْ ﴾ تفصيل لما أُجمل في قوله تعالى : ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ﴾ أي قُدِّرت على مقاديرِ جُثثهم ، وقُرِىء بالتَّخفيفِ ﴿ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ أي نيرانٍ هائلةٍ تحيطُ بهم إحاطةَ الثِّيابِ بلابسِها ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الحميم ﴾ أي الماءُ الحارُّ الذي انتهتْ حرارتُه ، قال ابن عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما : لو قطرت قطرةٌ منها على جبال الدُّنيا لأذابتَها .

والجملةُ مستأنفةٌ أو خبرٌ ثانٍ للموصولِ أو حالٌ من ضميرِ لهم ﴿ يُصْهَرُ بِهِ ﴾ أي يُذاب ﴿

مَا فِى بُطُونِهِمْ ﴾ من الأمعاءِ والأحشاءِ ، وقُرِىءَ يُصهَّر بالتَّشديدِ ﴿ والجلود ﴾ عطف على مَا وتأخيرُه عنه إمَّا لمراعاة الفواصلِ أو للإشعارِ بغاية شدَّةِ الحرارةِ بإيهامِ أنَّ تأثيرَها في الباطنِ أقدمُ من تأثيرِها في الظَّاهرِ مع أنَّ ملابستَها على العكسِ والجملةُ حالٌ من الحميمُ .

(23/521)

﴿ وَلَهُمْ ﴾ للكفرةِ أي لتعذيبهم وأجلِهم ﴿ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ جمع مِقْمعةٍ وهي آلةُ القمعِ .

﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾ أي أشرفُوا على الخروجِ من النَّار ودَنَوا منه حسبما يُروى أنَّها تضربُهم بلهيبها فترفعُهم حتَّى إذا كانُوا في أعلاها ضُربوا بالمقامعِ فهوَوا فيها سبعينَ خريفاً ﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾ أي من غمَ شديدٍ من غمومِها وهو بدلُ اشتمالٍ من الهاء بإعادة الجارّ والرابط محذوفٌ كما أُشير إليه أو مفعولٌ له للخروج ﴿ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ أي في قعرِها بأنْ رُدُّوا من أعاليها إلى أسافِلها من غيرِ أنْ يُخرجوا منها ﴿ وَذُوقُواْ ﴾ على تقدير قولٍ معطوفٍ على أعيدوا أي وقيل لهم : ﴿ عَذَابَ الحريق ﴾ أي الغليظَ من النَّارِ المنتشر العظيم الإهلاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(24/521)

وقال الآلوسى :

﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا فِى رَبِّهِمْ ﴾

تعيين لطرفي الخصام وتحرير لمحله فالمراد بهذان فريق المؤمنين وفريق الكفرة المنقسم إلى الفرق الخمس .

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

ومجاهد .

وعطاء بن أبي رباح .

والحسن .

وعاصم .

والكلبي ما يؤيد ذلك وبه يتعين كون الفصل السابق بين المؤمنين ومجموع من عطف عليهم ، ولما كان كل خصم فريقاً يجمع طائفة جاء ﴿ اختصموا ﴾ بصيغة الجمع .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ اختصما ﴾ مراعاة للفظ ﴿ هذان خَصْمَانِ ﴾ وهو تثنية خصم ؛ وذكروا أنه في الأصل مصدر يستوي فيه الواحد المذكر وغيره ، قال أبو البقاء : وأكثر الاستعمال توحيده فمن ثناه وجمعه حمله على الصفات والأسماء ، وعن الكسائي أنه قرأ ﴿ خَصْمَانِ ﴾ بكسر الخاء ، ومعنى اختصامهم في ربهم اختصامهم في شأنه عز شأنه ،

وقيل في دينه ، وقيل في ذاته وصفاته والكل من شؤونه تعالى واعتقاد كل من الفريقين حقية ما هو عليه وبطلان ما عليه صاحبه وبناء أفواله وأفعاله عليه يكفي في تحقق خصومته للفريق الآخر ولا يتوقف عن التحاور .

وأخرج ابن جرير .

وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : تخاصمت المؤمنون واليهود فقالت اليهود : نحن أولى بالله تعالى وأقدم منكم كتاباً ونبياً قبل نبيكم ، وقال المؤمنون : نحن أحق بالله تعالى آمناً بمحمد صلى الله عليه وسلم وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله تعالى من كتاب وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً فنزلت .

وأخرج جماعة عن قتادة نحو ذلك .

واعترض بأن الخصام على هذا ليس في الله تعالى بل في أيهما أقرب منه عز شأنه ، وأجيب بأنه يستلزم ذلك وهو كما ترى .

وقيل عليه أيضاً : أن تخصيص اليهود خلاف مساق الكلام في هذا المقام .

وفي "الكشف" قالوا : إن هذا لا ينافي ما روي عن ابن عباس من أن الآية ترجع إلى أهل الأديان الستة في التحقيق لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وأخرج البخاري .

ومسلم .

والترمذي .

وابن ماجه .

(25/521)

والطبراني .

وغيرهم عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿ هذان خَصْمَانِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [الحج : 14] نزلت في الثلاثة والثلاثة الذين بارزوا يوم بدر هم حمزة بن عبد المطلب .

وعبيدة بن الحرث .

وعلي بن أبي طالب .

وعتبة .

وشيبة ابنا ربيعة .

والوليد بن عتبة ، وأنت تعلم أن هذا الاختصام ليس اختصاماً في الله تعالى بل منشؤه ذلك فتأمل ولا تغفل .

وأما ما قيل من أن المراد بهذين الخصمين الجنة والنار فلا ينبغي أن يختلف في عدم قبوله

خصمان أو ينتطح فيه كبشان ، وفي الكلام كما قال غير واحد تقسيم وجمع وتفريق فالتقسيم ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ إلى قَوْلُهُ تَعَالَى والذين أَشْرَكُواْ ﴾ والجمع ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ إلى قوله تعالى :

﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج : 17 19] والتفريق في قوله سبحانه : ﴿ فالذين كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ الخ أعد أعد لهم ذلك ، وكأنه شبه أعداد النار المحيطة بهم بتقطيع ثياب وتفصيلها لهم على قدر جثتهم ففي الكلام استعارة تمثيلية تهكمية وليس هناك تقطيع ولا ثياب حقيقة ، وكأن جمع الثياب للإيذان بتراكم النار المحيطة بهم وكون بعضها فوق بعض .

وجوز أن يكون ذلك لمقابلة الجمع بالجمع والأول أبلغ ، وعبر بالماضي لأن الإعداد قد وقع فليس من التعبير بالماضي لتحققه كما في ﴿ نُفِخَ فِى الصور ﴾ [الكهف : 99] .

وأخرج جماعة عن سعيد بن جبير أن هذه الثياب من نحاس مذاب وليس شيء حمي في النار أشد حرارة منه فليست الثياب من نفس النار بل من شيء يشبهها وتكون هذه الثياب كسوة لهم وما أقبحها كسوة .

ولذا قال وهب : يكسى أهل النار والعرى خير لهم .

وقرأ الزعفراني في اختياره ﴿ قُطِّعَتْ ﴾ بالتخفيف والتشديد أبلغ .

﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءوسِهِمُ الحميم ﴾ أي الماء الحار الذي انتهت حرارته ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لو سقط من الحميم نقطة على جبال الدنيا لإذابتها ، وفسره ابن جبير بالنحاس المذاب ، والمشهور التفسير السابق ، ولعله إنما جيء بمن ليؤذن بشدة الوقوع ؛ والجملة مستأنفة أو خبر ثان للموصول أو في موضع الحال المقدرة من ضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ .

﴿ يُصْهَرُ بِهِ ﴾ أي يذاب ﴿ مَا فِى بُطُونِهِمْ ﴾ من الأمعاء والأحشاء .

وأخرج عبد بن حميد .

والترمذي وصححه .

وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد .

وجماعة عن أبي هريرة أنه تلا هذه الآية فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق إلى قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان " .

وقرأ الحسن .

وفرقة ﴿ يُصْهَرُ ﴾ بفتح الصاد وتشديد الهاء ، والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ والجلود ﴾ عطف على ﴿ مَا ﴾ وتأخيره عنه قيل إما لمراعاة الفواصل أو للإشعار بغاية شدة

الحرارة بإيهام أن تأثيرها في الباطن أقدم من تأثيرها في الظاهر مع أن ملابستها على العكس ، وقيل إن التأثير في الظاهر غني عن البيان وإنما ذكر للإشارة إلى تساويهما ولذا قدم الباطن لأن المقصود الأهم ، وقيل التقدير ويحرق الجلود لأن الجلود لا تذاب وإنما تجتمع على النار وتنكمش ، وفي "البحر" أن هذا من باب

: علفتها تبناً وماءً بارداً . . .

وقال بعضهم : لا حاجة إلى التزام ذلك فإن أحوال تلك النشأة أمر آخر ، وقيل ﴿ يُصْهَرُ ﴾ بمعنى ينضج ، وأنشد

: تصهره الشمس ولا ينهصر . . .

وحينئذٍ لا كلام في نسبته إلى الجلود ، والجملة حال من ﴿ الحميم ﴾ أو مستأنفة .

﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) ﴾

(27/521)

﴿ وَلَهُمْ ﴾ أي للكفرة ، وكون الضمير للزبانية بعيد ، واللام للاستحقاق أو للفائدة تهكماً بهم ، وقيل للأجل ، والكلام على حذف مضاف أي لتعذيبهم ، وقيل بمعنى على كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمُ اللعنة ﴾ [غافر : 52] أي وعليهم .

﴿ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ جمع مقمعة وحقيقتها ما يقمع به أي يكف بعنف .

وفي "مجمع البيان" هي مدقة الرأس من قمعه قمعاً إذا ردعه ، وفسرها الضحاك .

وجماعة بالمطارق ، وبعضهم بالسياط .

وفي الحديث " لو وضع مقمع منها في الأرض ثم اجتمع عليه الثقلان ما أقلوه من الأرض " .

(28/521)

﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾ أي أشرفوا على الخروج من النار ودنوا منه حسبما يروى أنها تضربهم بلهبها فترفعهم فإذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً ، فالإرادة مجاز عن الإشراف والقرب كما في قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [الكهف : 77] وجعل بعضهم ضمير ﴿ مِنْهَا ﴾ للثياب وهو ركيك ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ غَمّ ﴾ بدل اشتمال من ضمير ﴿ مِنْهَا ﴾ بإعادة الجار والرابط محذوف والتنكير للتفخيم ، والمراد من غم عظيم من غمومها أو مفعول له للخروج أي كلما أرادوا الخروج منها لأجل غم عظيم يلحقهم من عذابها ، والغم أخو الهم وهو معروف ، وقال بعضهم : هو هنا مصدر غممت الشيء أي غطيته أي كلما أرادوا أن يخرجوا من تغطية العذاب لهم أو مما يغطيهم من العذاب ﴿ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ أي في قعرها بأن ردوا من أعاليها إلى أسافلها من

غير أن يخرجوا منها إذ لا خروج لهم كما هو المشهور من حالهم ، واستدل له بقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بخارجين ﴾ [البقرة : 167] وفي اختيار ﴿ فِيهَا ﴾ دون إليها إشعار بذلك ، وقيل الإعادة مجاز عن الإبقاء ، وقيل التقدير كلما أرادوا أن يخرجوا منها فخرجوا أعيدوا فيها فالإعادة معلقة على الخروج وحذف للإشعار بسرعة تعلق الإرادة بالإعادة ويجوز أن يحصل لهم ، والمراد من قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بخارجين ﴾ [البقرة : 167] نفي الاستمرار أي لا يستمرون على الخروج لا استمرار النفي ، وكثيراً ما يعدى العود بفي لمجرد الدلالة على التمكن والاستقرار ، وقال بعضهم : إن الخروج ليس من النار وإنما هو من الأماكن المعدة لتعذيبهم فيها ، والمعنى كلما أراد أحدهم أن يخرج من مكانه المعد له في النار إلى مكان آخر منها فخرج منه أعيد فيه وهو كما ترى ، وهذه الإعادة على ما قيل بضرب الزبانية إياهم بالمقامع ، وقوله تعالى : ﴿ وَذُوقُواْ ﴾ على تقدير قول معطوف على ﴿ أُعِيدُواْ ﴾ أي وقيل

لهم ذوقوا ﴿ عَذَابَ الحريق ﴾ قد مر الكلام فيه ، والأمر للإهانة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(29/521)

وقال ابن عاشور :

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾

مقتضى سياق السورة واتصال آي السورة وتتابعها في النزول أن تكون هذه الآيات متصلة النزول بالآيات التي قبلها فيكون موقع جملة ﴿ هذان خصمان ﴾ موقع الاستئناف البياني .

لأن قوله ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ [الحج : 18] يثير سؤال من يسأل عن بعض تفصيل صفة العذاب الذي حقّ على كثير من الناس الذين لم يسجدوا لله تعالى ، فجاءت هذه الجملة لتفصيل ذلك ، فهي استئناف بياني .

فاسم الإشارة المثنى مشير إلى ما يفيده قوله تعالى : ﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ [الحج : 18] من انقسام المذكورين إلى فريقين أهل توحيد وأهل شرك كما يقتضيه قوله : ﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ [الحج : 18] من كون أولئك فريقين : فريق يسجد لله تعالى ، وفريق يسجد لغيره .

فالإشارة إلى ما يستفاد من الكلام بتنزيله منزلة ما يشاهد بالعين ، ومثلها كثير في الكلام .

والاختصام : افتعال من الخصومة ، وهي الجدل والاختلاف بالقول يقال : خاصمه واختصما ، وهو من الأفعال المقتضية جَانبين فلذلك لم يسمع منه فعل مجرد إلا إذا أريد منه معنى الغلب في الخصومة لأنه بذلك يصير فاعله واحداً .

وتقدم قوله تعالى : ﴿ ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ في [سورة النساء : 105] .

واختصام فريقي المؤمنين وغيرهم معلوم عند السامعين قد ملأ الفضاءَ جلبتُه ، فالإخبار عن الفريقين بأنهما خصمان مسوق لغير إفادة الخبر بل تمهيداً للتفصيل في قوله ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ .

فالمراد من هذه الآية ما يعمّ جميع المؤمنين وجميع مخالفيهم في الدّين .

ووقع في "الصحيحين" عن أبي ذرّ : أنه كان يُقسِم أنَّ هذه الآية ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه عليّ بن أبي طالب وعتبةَ بن الحارث الذين بارزوا يوم بدر شَيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، والوليدَ بن عتبة .

(30/521)

وفي "صحيح البخاري" عن علي بن أبي طالب قال : أنا أول من يجثو بين يدي الرحمان للخصومة يوم القيامة .

قال قيس بن عُبادة : وفيهم نزلت ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ .

قال : هم الذين بارزوا يوم بدر : علي ، وحمزة ، وعبيدة ، وشيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة .

وليس في كلام عليّ أنّ الآية نزلت في يوم بدر ولكن ذلك مدرج من كلام قيس بن عُبادة ، وعليه فهذه الآية مدنيّة فتكون ﴿ هذان ﴾ إشارة إلى فريقين حاضرين في أذهان المخاطبين فنُزّل حضورُ قصتهما العجيبة في الأذهان منزلة المشاهدة حتى أعيد عليها اسم الإشارة الموضوع للمشاهد ، وهو استعمال في كلام البُلغاء ، ومنه قول الأحنف بن قيس : "خرجتُ لأنصر هذا الرجل" يريد عليّ بن أبي طالب في قصة صفّين .

والأظهر أن أبا ذر عنى بنزول الآية في هؤلاء أن أولئك النفر الستة هم أبرز مثال وأشهر فرد في هذا العموم ، فعبر بالنزول وهو يريد أنهم ممن يقصد من معنى الآية .

ومثل هذا كثير في كلام المتقدمين .

والاختصام على الوجه الأول حقيقي وعلى الوجه الثاني أطلق الاختصام على المبارزة مجازاً مرسلاً لأن الاختصام في الدين هو سبب تلك المبارزة .

واسم الخصم يطلق على الواحد وعلى الجماعة إذا اتحدت خصومتهم كما في قوله تعالى : ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذا تسوروا المحراب ﴾ [ص : 21] فلمراعاة تثنية اللفظ أتي باسم الإشارة الموضوع للمثنى ولمراعاة العدد أتي بضمير الجماعة في قوله تعالى : ﴿ اختصموا في ربهم ﴾ .

ومعنى ﴿ في ربهم ﴾ في شأنه وصفاته ، فالكلام على حذف مضاف ظاهر .

وقرأ الجمهور ﴿ هاذان ﴾ بتخفيف النون .

وقرأه ابن كثير بتشديد النون وهما لغتان .

والتقطيع : مبالغة القطع ، وهو فصل بعض أجزاء شيء عن بقيته .

والمراد : قطع شُقّة الثوب .

(31/521)

وذلك أنّ الذي يريد اتخاذ قميص أو نحوه يقطع من شقة الثوب ما يكفي كما يريده ، فصيغت صيغة الشدة في القطع للإشارة إلى السرعة في إعداد ذلك لهم فيجعل لهم ثياب من نار .

والثياب من النار ثياب محرقة للجلود وذلك من شؤون الآخرة .

والحميم : الماء الشديد الحرارة .

والإصهار : الإذابة بالنار أو بحرارة الشمس ، يقال : أصْهره وصهّره .

وما في بطونهم : أمعاؤهم ، أي هو شديد في النفاذ إلى باطنهم .

والمقامع : جمع مِقمعة بكسر الميم بصِيغة اسم آلة القَمع .

والقمع : الكف عن شيء بعنف .

والمقمعة : السوط ، أي يُضربون بسياط من حديد .

ومعنى ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ أنهم لشدة ما يغمهم ، أي يمنعهم من التنفس ، يحاولون الخروج فيُعَادون فيها فيحصل لهم ألم الخيبة ، ويقال لهم : ذوقوا عذاب الحريق .

والحريق : النار الضخمة المنتشرة .

وهذا القول إهانة لهم فإنهم قد علموا أنهم يذوقونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(32/521)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ فالذين كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ والجلود وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ .

ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، من أنواع عذاب أهل النار ، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منها ، ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل ، وجاء مبيناً في آيات أخر من كتاب الله ، فقوله هنا ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ أي قطع الله لهم من النار ثياباً ، وألبسهم إياها تنقد عليهم كقوله فيهم ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ [إبراهيم : 50] والسرابيل :

هي الثياب التي هي القمص ، كما قدمنا إيضاحه ، وكقوله ﴿ ﴾ [الأعراف : 41] والغواشي : جمع غاشية : وهي غطاء كاللحاف ، وذلك هو معنى قوله هنا ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ وقوله تعالى هنا ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم ﴾ ذكره أيضاً في غير هذا الموضع كقوله ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحميم ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 48-49] والحميم : الماء البالغ شدة الحرارة ، وكقوله تعالى ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه ﴾ [الكهف : 29] الآية . وقوله هنا ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ أي يذاب بذلك الحميم ، إذا سقوه فوصل إلى بطونهم ، كل ما في بطونهم من الشحم والأمعاء وغير ذلك ، كقوله تعالى ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد : 15] والعرب تقول : صهرت الشيء فانصهر ، فهو صهير : أي أذبته فذاب ، ومنه قول ابن أحمر يصف تغذية قطاة لفرخها في فلاة من الأرض :

تروي لقي أُلْقى في صَفْصَفٍ . . . تَصْهره الشَّمْس فما يَنْصَهِرْ

(33/521)

أي تذيبه الشمس ، فيصبر على ذلك ، ولا يذوب ، وقوله : والجلود الظاهر أنه معطوف على " ما " من قوله ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ التي هي نائب فاعل يصهر ، وعلى هذا

الظاهر المتبادر من الآية ، فذلك الحميم يذيب جلودهم ، كما يذيب ما في بطونهم . لشدة حرارته .

إذ المعنى : يصهر به ما في بطونهم ، وتصهر به الجلود . أي جلودهم ، فالألف واللام قامتا مقام الإضافة ، وقال بعض أهل العلم : والجلود مرفوع بفعل محذوف معطوف على تصهر ، وتقديره : وتحرق به الجلود ، ونظير ذلك في تقدير العامل المحذوف الرافع الباقي معموله مرفوعاً بعد الواو قول لبيد في معلقته :

فعلا فروعُ الأَيهقَانِ وأطفَلت . . . بالْجَلهَتَيْنِ ظباؤُهَا ونَعامُهَا

يعني : وباض نعامها ، لأن النعامة لا تلد الطفل ، وإنما تبيض ، بخلاف الظبية فهي تلد الطفل ، ومثاله في المنصوب قول الآخر :

إذا ما الغانياتُ برزْنَ يوماً . . . وزجَّجْنَ الحواجبَ والعُيونا

ترى منَّا الأيور إذا رأَوْهَا . . . قِياماً راكِعينَ وساجِدينا

يعني زججن الحواجب ، وأكحلن العيون وقوله :

ورأَيت زوجَك في الوَغَى . . . متقلّداً سيفاً ورمْحاً

أي وحاملاً رمحاً ، لأن الرمح لا يتقلد ، وقول الآخر :

تراه كأن الله يدعُ أنفَه . . . وعينيه إنْ مولاه ثَابَ له وفْر

يعني : ويفقأ عينيه ، ومن شواهده المشهورة قول الراجز .

عَلَفْتها تِبناً وماءً بارداً . . . حتى شتت همالةً عيناها

يعني : وسقيتها ماء بارداً ، ومن أمثلة ذلك في القرآن قوله تعالى ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان ﴾ [الحشر : 9] الآية : أي وأخلصوا الإيمان ، أو ألفوا الإيمان ، ومثال ذلك في المخفوض قولهم : ما كل بيضاء شحمة ، ولا سوداء تمرة : أي ولا كل سوداء تمرة ، وإلى هذه المسألة أشار في الخلاصة بقوله :

وهي انفردت . . . بعطف عامل مُزال قَدْ بَقي . . . معمولُه دفعاً لوهْمٍ اتُّقى

(34/521)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ المقامع : جمع مقمعة بكسر الميم الأولى ، وفتح الميم الأخيرة ، ويقال : مقمع بلا هاء ، وهو في اللغة : حديدة كالمحجن يضرب بها على رأس الفيل : وهي في الآية مرزاب عظيمة من حديد تضرب بها خزنة النار رؤوس أهل النار ، وقال بعض أهل العلم : المقامع : سياط من نار ، ولا شك أن المقامع المذكورة في الآية من الحديد لتصريحه تعالى بذلك ، وقوله تعالى ﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا فِي رَبِّهِمْ فالذين كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّار ﴾ [الحج : 19] الآية نزل في المبارزين يوم بدر ، وهم : حمزة بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبيدة بن الحارث

بن المطلب ، وفي أقرانهم المبارزين من الكفار وهم : عتبة بن ربيعة ، وابنه الوليد بن عتبة ، وأخوه شيبة بن ربيعة ، كما ثبت في الصحيحين ، وغيرهما .

﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22) ﴾

ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة : من أن أهل النار كلما أرادوا الخروج منها ، لما يصيبهم من الغم فيها عياذاً بالله منها ، أعيدوا فيها ، ومنعوا من الخروج منها بينه في غير هذا الموضع ، كقوله في المائدة ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القيامة مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النار وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة : 36-37] وقوله في السجدة ﴿ كُلَّمَآ أرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [السجدة : 20] الآية ، وقوله في آية الحج هذه ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق ﴾ حذف فيه القول .

(35/521)

والمعنى : أعيدوا فيها ، وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق ، وهذا القول المحذوف في الحج صرح به في السجدة في قوله تعالى ﴿ كُلَّمَآ أرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة : 20] والمفسرون يقولون : إن

لهب النار يرفعهم ، حتى يكاد يرميهم خارجها ، فتضربهم خزنة النار بمقامع الحديد ، فتردهم في قعرها ، نعوذ بالله منها ، ومن كل ما يقرب إليها من قول وعمل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(36/521)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾

كلمة خَصْم من الألفاظ التي يستوي فيها المفرد والمثنى والجمع ، وكذلك المذكر والمؤنث كما في قوله تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ [ص : 21] .

ويقول تعالى : ﴿ خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ . . ﴾ [ص : 22] .

والمراد بقوله : ﴿ خَصْمَانِ . . ﴾ [الحج : 19] قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . ﴾ [الحج : 18] والخصومة تحتاج إلى فَصْل بين المتخاصمين ، والفَصْل يحتاج إلى شهود ، لكن إنْ جاء الفَصْل من الله تعالى فلن يحتاج إلى شهود ﴿ وكفى بالله شَهِيداً . . ﴾ [النساء : 79]

وإنْ جاء عليهم بشهود من أنفسهم ، فإنما لإقامة الحجة ولتقريعهم ، يقول تعالى : ﴿ وَقَالُواْ

لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . ﴾ [فصلت : 21]

.

فإنْ قلتَ : كيف تشهد الجوارح على صاحبها يوم القيامة وهي التي فعلت ؟

نقول : هناك فَرْق بين عمل أريده وعمل أؤديه ، وأنا أبغضه وضربنا لذلك مثلاً – ولله المثل الأعلى – بالقائد الذي يأمر جنوده ، وعليهم أنْ يُطيعوه حتى إنْ كانت الأوامر خاطئة ، فإنْ رجعوا إلى القائد الأعلى حكَوْا له مَا كان من قائدهم ؛ ذلك لأن القائد الأعلى جعل له ولاية عليهم ، وألزمهم طاعته والائتمار بأمره .

فالخالق – عز وجل – جعل لإرادة الإنسان ولاية على جوارحه ، فالفعل – إذن – للإرادة ، وما الجوارح إلا أداة للتنفيذ . فحينما تريد مثلاً أنْ تقوم ، مجرد أن تريد ذلك تجد نفسك قائماً دون أنْ تفكر في حركة القيام أو العضلات التي تحركتْ لتؤدي هذا العمل ، مع أنها عملية مُعقَّدة تتضافر فيها الإرادة والعقل والأعصاب والأعضاء ، وأنت نفسك لا تشعر بشيء من هذا كله ، وهل في قيامك أمرتَ الجوارح أنْ تتحرَّك فتحركتْ ؟

(37/521)

فإذا كانت جوارحك تنفعل لك وتطاوعك لمجرد الإرادة ، أفلا يكون أوْلى من هذا أنْ ينفعل خَلْق الله لإرادة الله ؟

إذن : العمدة في الأفعال ليستْ الجوارح وإنما الإرادة ، بدليل أن الله تعالى إذا أراد أنْ يُعطِّل جارحة من الجوارح عطّل الإرادة الآمرة ، وقطعها عن الجارحة ، فإذا هي مشلولة لا حركةَ فيها ، فإنْ أراد الإنسان تحريكها بعد ذلك فلن يستطيع ، لماذا ؟

لأنه لا يعلم الأبعاض التي تُحرِّك هذه الجارحة ، ولو سألتَ أعلم الناس في علم الحركة والذين صنعوا الإنسان الآلي : ما الحركة الآلية التي تتم في جسم الإنسان كي يقوم من نومه أو من جِلْسته ؟ ولن يستطيع أحد أنْ يصفَ لك ما يتم بداخل الجسم في هذه المسألة .

أما لو نظرتَ مثلاً إلى الحفَّار ، وهو يُؤدِّي حركات أشبه بحركات الجسم البشري لوجدتَ صبياً يشغله باستخدام بعض الأزرار ، ويستطيع أنْ يصِفَ لك كل حركة فيه ، وما الآلات التي تشترك في كل حركة . فَقُلْ لي بالله : ما الزر الذي تضغط عليه لتحرك يدك أو ذراعك ؟ ما الزر الذي تُحرِّك به عينيك ، أو لسانك ، أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة منك فينفعل لك ما تريد ؛ لأن الله تعالى خلقك ، وجعل لإرادتك السيطرة الكاملة على جوارحك ، فلا تستبعد أنْ تنفعل المخلوقات لله – عز وجل – إنْ أراد منها أنْ تفعلَ .

حتى العذاب في الآخرة ليس لهذه الجوارح والأبعاض ، إنما العذاب للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان إذا تعرَّض لألم شديد لا يستريح منه لا أنْ ينام ، فإذا استيقظ عاوده الألم ، إذن :

فالنفس هي التي تألم وتتعذَّب لا الجوارح .

والحق سبحانه هو الذي يفصل بين هذيْن الخصميْن ، كما قال سبحانه في آية أخرى ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة . . ﴾ [الحج : 17] .

(38/521)

لذلك يقول الإمام علي رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه : أنا أول مَنْ يجثو بين يدي الله يوم القيامة للفصل ومعي عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب . هؤلاء في جانب وفي الجانب المقابل : عتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة .

لماذا ؟ لأن بين هؤلاء كانت أول معركة في الإسلام ، وهذه أول خصومة وقعتْ فيه ، ذلك لأنهم في معركة بدر أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً للمبارزة ، وكانت عادتهم في الحروب أنْ يخرج أقوياء القوم وأبطالهم للمبارزة بدل أنْ يُعذِّبوا القوم ويشركوا الجميع في القتال ، ويعرِّضوا أرواح الناس جميعاً للخطر .

ومن ذلك ما حدث بين علي ومعاوية – رضي الله عنهما – في موقعة صِفِّين حيث قال علي لمعاوية : ابرز إليَّ يا معاويةُ ، فإنْ غلبتني فالأمر لك ، وإنْ غلبتُك فاجعل الأمر لي ، فقال عمرو بن العاص وكان في صفوف معاوية : والله ، يا معاوية لقد أنصفك الرجل ، وفي

هذا حَقْنٌ لدماء المسلمين في الجانبين .

فنظر معاوية إلى عمرو وقال : والله يا عمرو ما أردْتَ إلا إن أبرز له فيقتلني ، ويكون لك الأمر من بعدي ، وما دُمْتَ قد قلتَ ما قلتَ فلا يبارزه غيرك فاخرج إليه .

فقام عمرو لمبارزة علي ، لكن أين عمرو من شجاعة علي وقوته ؟ وحمل عليٌّ على عمرو حملة قوية ، فلما أحسَّ عمرو أن علياً سيضربه ضربة تميته لجأ إلى حيلة ، واستعمل دهاءه في صَرْف عليٍّ عنه ، فكشف عمرو عن عورته ، وهو يعلم تماماً أن علياً يتورع عن النظر إلى العورة ، وفعلاً تركه علي وانصرف عنه ، ونجا عمرو بحيلته هذه .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا الموقف فقال :

وَلاَخَيْرَ فِي رَدِّ الرَّدَى بِدَنِيَّةٍ . . . كَما رَدَّهَا يَوْماً بِسَوْأَتِهِ عَمْرُو

ويقول الشريف الرضي – وهو من آل البيت – في القصيدة التي مطلعها :

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْر . . . أَما لِلْهَوَى نَهْيٌ عليْكَ ولاَ أَمْر

(39/521)

بَلَى أَنَا مُشْتَاقٌ وعِنْدي لَوْعَةٌ . . . وَلَكِنْ مِثْلي لاَ يُذَاعُ لَهُ سِرُّ

وفيها يقول :

وَإِنَّا أُنَاسٌ لاَ تَوسُّطَ بَيْنَنَا . . . لَنَا الصَّدْرُ دُونَ العَالَمِينَ أو القَبْرُ

نعود إلى بدر ، حيث اعترض الكفار حينما أخرج لهم رسول الله بعض رجال الأنصار فقالوا : هؤلاء نكرات من الأنصار ، نريد أن تُخرِج لنا أَكْفَاءنا من رجال قريش ، فأخرج لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وحمزة وعبيد بن الحارث بن عبد المطلب ، وأخرجوا هم عتبة وشيبة والوليد ، وكان ما كان من نُصْرة المسلمين وهزيمة المشركين .

وهذا هو اليوم الذي قال الله فيه : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فاتقوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران : 123] .

إذن : فبدر كانت فَصْلاً دنيوياً بين هذيْ الخصْمين ، ويبقى فَصْل الآخرة الذي قال فيه الإمام علي : " أنا أول مَنْ يجثو بين يدي الله يوم القيامة للفصل " .

ومعنى : ﴿ اختصموا فِي رَبِّهِمْ . . ﴾ [الحج : 19] أي : بسبب اختلافهم في ربهم ، ففريقٌ يؤمن بوجود إله ، وفريقٌ يُنكره ، فريق يُثبت له الصفات ، وفريق ينفي عنه هذه الصفات ، يعني : انقسموا بين إيمان وكفر .

ثم يُفصِّل القول : ﴿ فالذين كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم ﴾ [الحج : 19] .

﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ . . ﴾ [الحج : 19] كأن النار تفصيل على قَدْر جسومهم إحكاماً للعذاب ، ومبالغةً فيه ، فليس فيها اتساع يمكن أنْ يُقلِّل من شِدَّتها ، وليست

فضفاضة عليهم .

ثم ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم ﴾ [الحج : 19] والحميم : الماء الذي بلغ منتهى الحرارة ، حتى صار هو نفسه مُحْرِقاً من شِدَّة حَرّه ، ولكَ أنْ تتصور ماءً يَغليه ربنا عز وجل ! !

(40/521)

وهكذا يجمع الله عليهم ألوان العذاب ؛ لأن الثياب يرتديها الإنسان لتستر عورته ، وتقيه الحر والبرد ، ففيها شمول لمنفعة الجسم ، يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : 112] .

فالإذاقة ليستْ في اللباس ، إنما بشيء آخر ، واللباس يعطي الإحاطة والشمول ، لتعم الإذاقة كُلَّ أطراف البدن ، وتحكم عليه مبالغةً في العذاب .

يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20)

قلنا : إن هذا الماء بلغ من الحرارة منتهاها ، فلم يغْلِ عند درجة الحرارة التي نعرفها ، إنما يُغلِيه ربه الذي لا يُطيق عذابَه أحدٌ . وأنت إذا صببتَ الماء المغلي على جسم إنسان فإنه

يشوي جسمه من الخارج ، إنما لا يصل إلى داخله ، أمّا هذا الماء حين يُصَبُّ عليهم فإنه يصهر ما في بطونهم أولاً ، ثم جلودهم بعد ذلك ، فاللهم قِنَا عذابك يوم تبعث عبادك .

وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21)

المقامع : هي السياط التي تقمع بها الدابة ، وتَرْدعها لتطاوعك ، أو الإنسان حين تعاقبه ، لكنها سياط من حديد ، ففيها دلالة على الذِّلة والانكسار ، فضلاً عن العذاب .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه مهمة هذه المقامع ، فيقول : ﴿ كُلَّمَآ أَرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا . . ﴾

.

الحق – سبحانه وتعالى – يُصوّر حال أهل النار وما هم فيه من العذاب ومن اليأس في أن يُخفف عنهم ، فإذا ما حاولوا الخروج من غَمِّ العذاب جاءتهم هذه السياط فأعادتهم حيث كانوا ، والإنسان قد يتعود على نوع من العذاب فيهون عليه الأمر ، كالمسجون مثلاً الذي يُضْرب بالسياط على ظهره ، فبعد عدة ضربات يفقد الإحساس ولا يؤثر فيه ضَرْب بعد ذلك .

وقد أجاد المتنبي في وصف هذا المعنى حين قال :

رَمَاني الدَّهْرُ بالأَرْزَاءِ حتّى . . . كَأَنِّي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ

فكنتُ إذا أَصَابتْني سِهَامٌ . . . تكسَّرتْ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ

لكن أنَّى يُخفَّف عن أهل النار ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب . . ﴾ [النساء : 56] .

ففي إعادتهم تيئيس لهم بعد أنْ طمِعوا في النجاة ، وما أشدّ اليأس بعد الطمع على النفس ؛ لذلك يقولون : لا أفجعَ من يأسٍ مقمع ، بعد أمل مُقْمِع . كما يقول تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ . . ﴾ [الكهف : 29] ساعة يسمعون الإغاثة يأملون ويستبشرون ، فيأتيهم اليأس في ﴿ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه . . ﴾ [الكهف : 29] .

وقوله تعالى : ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق ﴾ [الحج : 22] الحريق : الشيء الذي يحرق غيره لشدته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(42/521)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

(الحج : 22) ، وفي سورة السجدة : (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) (السجدة : 20) ، هنا سؤالان : الأول قوله في آية الحج : (منغم) ولم يرد ذلك في سورة السجدة ؟ والثاني ما أعقبت به كل من الآيتين ؟

الجواب عن الأول : أن زيادة قوله : (من غم) في الآية الأولى مناسب لما ورد قبله وبعده من تفصيل الجزاء في الطرفين بعد ذكر الحالين من نعيم أو عذاب لما قال تعالى : (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ) (الحج : 19) إلى قوله تعالى : (وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ) (الحج : 21) ، وقال في الطرف الآخر : (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . . .) (الحج : 23) إلى قوله : (وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) (الحج : 23) ، ففصل حال هؤلاء ، فناسب هذا زيادة : (من غم) ، ونظير هذا التفصيل قوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(43/521)

(النساء : 57) إلى قوله : (ظِلًّا ظَلِيلًا) (النساء : 57) ، والإطناب يناسب الإطناب ، ولما قال في سورة السجدة : (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (19) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) (السجدة : 19 – 20) ، فلم يقع

تفصيل في الطرفين ، وأوجز الكلام ناسبة الإيجاز ، فلم يرد هنا قوله : (منغم) ، ونظير هذا في إيجاز الجزاء قوله تعالى جزاء من الطرفين : (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) (النازعات : 41) ، فلم يقع وصف الجزاء ولا تفصيل هذه كآية السجدة من غير فرق ، وللإطناب في التفصيل زيد في آية الحج ما حذف للإيجاز في آية السجدة ، وورد كل على ما يجب ويناسب ، ولم يكن عكس الوارد ليناسب على ما تمهد .

(44/521)

والجواب عن الثاني : أن آية السجدة لما قيل فيها : (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا) ، والفسق الخروج ، وقد يكون إلى معصية دون الكفر ، ويكون إلى الكفر حين كذبوا بالوعد والوعيد الاخراوي ، فقيل لهم : (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) (السجدة : 20) ، أما آية الحج فتقدم قبل ذكر الإفصاح بكفرهم في قوله : (فَالَّذِينَ كَفَرُوا) (الحج : 19) ، فلم يحتج إلى التعريف الوارد في سورة السجدة ، فجاء كل على ما يجب ويناسب ، ونظير الواقع في آية السجدة وصف النار واتباعها بصفة المعذب بها قوله تعالى في سورة سبأ : (فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) (سبأ : 42) ، لما تنزل عذابهم على الظلم ، والظلم يقع على الكفر وعلى ما دونه ، فاتبع

الوعيد بما يبين أن المراد ظلم التكذيب والكفر لا ظلم معصية دون الكفر ، كما بين في سورة السجدة أن المراد بالفسق الكفر لا فسق معصية دونه ، فوضح ما قلته . والحمد لله .

فأما ما وقع في هاتين الآيتين من التذكير والتأنيث في الموصول والضمير في قوله : (الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) (السجدة : 20) ، وقوله في الآية الأخرى : (الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) (سبأ : 42) ، مع التساوي فيما جرى عليه الوصف ، فإن ذلك لرجوع الوصف في آية السجدة إلى العذاب وهو مذكر ، ورجوعه في آية سبأ إلى النار وهي مؤنثة ، ويذكر وجه التخصيص في سورة سجدة لقمان إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 358 . 359 ﴾

(45/521)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ هذان خَصْمَانِ ﴾ :

الخَصْم في الأصل : مصدرٌ ؛ ولذلك يُوحَّدُ ويذكَّرُ غالباً ، وعليه قولُه تعالى : ﴿ نَبَأُ الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ ﴾ [ص : 21] . ويجوز أنْ يُثَنَى ويجمعَ ويؤنَّثَ ، وعليه هذه الآيةُ . ولمَّا كان

كلُّ خَصْمٍ فريقاً يَجْمَعُ طائفةً قال : " اختصَمُوا " بصيغةِ الجمع كقولِه : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات : 9] فالجمعُ مراعاةً للمعنى .

وقرأ ابن أبي عبلة " اختصما " مراعاةً للفظِه وهي مخالفةٌ للسَّواد . وقال أبو البقاء : وأكثرُ الاستعمالِ توحيدُه فَمَنْ ثنَّاه وجَمَعه حَمَله الصفات والأسماء ، و " اختصموا " إنما جُمِعَ حملاً على المعنى لأنَّ كلَّ خصمٍ [فريقٌ] تحته أشخاصٌ " . وقال الزمخشري : " الخصم صفةٌ وُصِفَ بها الفوجُ أو الفريقُ فكأنه قيل : هذان فوجان أو فريقان مختصمان . وقوله : " هذان " للَّفظِ ، و " اختصموا " للمعنى كقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ ﴾ [محمد : 16] ولو قيل : هؤلاء خصمان أو اختصما جاز أن يُراد : المؤمنون والكافرون " . قلت : إنْ عنى بقوله : " إن " خَصْماً " صفةٌ " بطريقِ الاستعمال المجازي فمُسَلَّم ؛ لأنَّ المصدرَ يكثرُ الوصفُ به ، وإنْ أراد أنه صفةٌ حقيقةً فَخَطَؤُه ظاهرٌ لتصريحِهم بأن نحوَ " رجلٌ خصمٌ " مثل " رجلٌ عَدْل " وقوله : " هذان للفظِ " أي : إنما أُشير إليهم إشارةُ المثنى وإنْ كان في الحقيقة المرادُ الجمعَ ، باعتبار لفظِ الفوجَيْن والفريقين ونحوهما . وقوله كقولِهم : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ ﴾ إلى آخره فيه نظرٌ ؛ لأنَّ في تيك الآيةِ تقدَّمَ شيءٌ له لفظٌ ومعنىً ، وهو " مَنْ " ، وهنا لم يتقدَّمْ شيءٌ له لفظٌ ومعنىً . وقوله تعالى : ﴿ فِي رَبِّهِمْ ﴾ أي : في دين ربهم ، فلا بُدَّ من حذف مضاف .

وقرأ الكسائيُّ في روايةٍ عنه "خِصمان" بكسر الخاء . وقوله : ﴿ فالذين كَفَرُواْ ﴾ هذه الجملةُ تفصيلٌ وبيانٌ لفصلِ الخصومة المَعْنِيّ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الآية : 17] قال الزمخشري . وعلى هذا فيكونُ ﴿ هذان خَصْمَانِ ﴾ معترضاً . والجملة مِنْ "اختصموا" حاليةٌ ، وليست مؤكدةً ؛ لأنها أخصُّ مِنْ مطلقِ الخصومةِ المفهومةِ من "خصمان" .

وقرأ الزعفراني في اختياره "قُطِعَتْ" مخففَ الطاءِ . والقراءةُ المشهورةُ تفيدُ التكثيرَ ، وهذه تحتمله .

قوله : ﴿ يُصَبُّ ﴾ هذه الجملةُ تحتمل أَنْ تكون خبراً ثانياً للموصول ، وأن تكونَ حالاً من الضميرِ في "لهم" ، وأن تكونَ مستأنفةً .

يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20)

قوله : ﴿ يُصْهَرُ ﴾ جملةٌ حاليةٌ من الحميم . والصَّهْرُ : الإذابَةُ . يُقال : صَهَرْتُ الشحم أي : أَذَبْتُه والصُّهارة : الأَلْيَةُ المُذابة ، وصَهَرَتْهُ الشمسُ : أذابَتْه بحرارتها قال :

3377 . . . . . تَصْهَرُه

الشمسُ فما يَنْصَهِرْ

وسُمِّي الصِّهْرُ صِهْراً لامتزاجِه بأصهاره تخيُّلاً لشدةِ المخالطة . وقرأ الحسن في آخرين "

يُصَهَّرُ " بفتحِ الصادِ وتشديدِ الهاء مبالغةً وتكثيراً لذلك .

قوله : ﴿ والجلود ﴾ فيه وجهان ، أظهرُهما : عَطْفُه على " ما " الموصولة أي : يُذابُ الذي في بطونِهم من الأمعاءِ ، وتُذاب أيضاً الجلودُ أي : يُذاب ظاهرُهم وباطنُهم . والثاني : أنه مرفوعٌ بفعلٍ مقدَّرٍ أي : وتُحْرَقُ الجلودُ . قالوا : لأن الجلدَ لا يُذابُ ، إنما يَنْقَبِضُ وينكمشُ إذا صَلِي النارَ وهو في التقدير كقوله :

3378 عَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً . . . . . .

. . .

[وقوله] .

3379 . . . . . وزَجَّجْنَ الحواجبَ والعيونا

(47/521)

[وقولِه تعالى] : ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان ﴾ [الحشر : 9] . فإنه على تقديرِ : وسَقَيْتُها ماءً ، وكَحَّلْنَ العُيونا ، واعتقدوا الإيمانَ .

قوله : ﴿ وَلَهُمْ مَّقَامِعُ ﴾ : يجوزُ في هذا الضميرِ وجهان ، أظهرُهما : أنه يعودُ على الذين

كفروا ، وفي اللام حينئذٍ قولان ، أحدهما : أنها للاستحقاقِ . والثاني : أنها بمعنى " على " كقوله : و ﴿ لَهُمُ اللعنة ﴾ [الرعد : 25] وليس بشيءٍ . الوجه الثاني : أنَّ الضميرَ يعودُ على الزبانية أعوانِ جهَنَّم ودَلَّ عليهم سياقُ الكلامِ ، وفيه بُعْدٌ . و " مِنْ حديدٍ " صفةٌ لمقامِع وهي جمعُ " مِقْمَعَه " بكسرِ الميمِ لأنَّها آلةُ القمعِ . يقال : قَمَعَه يَقْمَعُه إذا ضَرَبه بشيءٍ يَزْجُرُه به ويُذِلُّه ، والمِقْمَعَةُ : المِطْرَقَةُ . وقيل : السَّوْطُ .

قوله : ﴿ كُلَّمَآ أرادوا ﴾ : كلَّ : نصبٌ على الظرفِ . وقد تقدَّم الكلامُ في تحقيقِها في البقرة . والعاملُ فيها هنا قوله : ﴿ أُعِيدُواْ ﴾ . و ﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾ فيه وجهان أحدُهما : أنه بدلٌ من الضميرِ في " منها " بإعادةِ العاملِ ، بدلُ اشتمالٍ كقوله : ﴿ لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ ﴾ [الزخرف : 33] . ولكن لا بُدَّ في بدلِ الاشتمال من رابطٍ ، ولا رابطَ ، فقالوا : هو مقدرٌ تقديره : مِنْ غَمِّها . والثاني : أنه مفعولٌ له ، ولمَّا نَقَصَ شرطٌ من شروطِ النصبِ جُرَّ بحرفِ السَّبب . وذلك الشرطُ : هو عدمُ اتحادِ الفاعلِ ؛ فإن فاعل الخروجِ غيرُ فاعلِ الغَمِّ ، فإنَّ الغَمَّ من النارِ والخروجَ من الكفار .

قوله : ﴿ وَذُوقُواْ ﴾ منصوبٌ بقولٍ مقدرٍ معطوفٍ على " أُعِيْدُوا " أي : وقيل لهم : ذُوْقوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 247 . 251 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾

أما الذين كفروا فلهم اليومَ لباسُ الشرْكِ وطِرازُه الحرمان ، ثم صدار الإفك وطرازه الخذلان . وفي الآخرة لباسهم القطران وطرازه الهجران ، قال تعالى : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] .

أمَّا أصحابُ الإيمانِ فلباسُهم اليومَ التقوى ، وتنقسم إلى اجتناب الشِّرْكِ ثم مجانبة المخالفة ، ثم مباينة الغفلة ، ثم مجانبة السكونِ إلى غير الله والاستبشار إلى ما سوى الله وفي الآخرة لباسُهم فيها حريرٌ ، وآخرون لباسهم صدار المحبة ، وآخرون لباسهم الانفراد به ، وآخرون هم أصحاب التجريد ؛ فلا حالَ ولا مقامَ ولا منزلةَ ولا محل وهم الغُرَبَاءُ ، وهم الطبقة العليا ، وهم أحرار من رِقِّ كل ما لَحِقهُ التكوين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 535 ﴾

(49/521)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) ﴾

التفسير : إنه قد أنجر الكلام من خاتمة السورة المتقدمة إلى حديث الإعادة وما قبلها أو بعدها كوراثة المؤمنين الأرض وما معها كطي السماء ، فلا جرم بدأ الله سبحانه في هذه السورة بذكر القيامة وأهوالها حثاً على التقوى التي هي خير زاد إلى المعاد ويدخل في التقوى فعل الواجبات وترك المنكرات ، ولا يكاد يدخل فيها النوافل لأن المكلف لا يخاف بتركها العذاب وإنما يرجو بفعلها الثواب . ويمكن أن يقال : إن ترك النوافل قد يفضي إلى إخلال بالواجب فلهذا لا يكاد المتقي يتركها . يروى أن هاتين الآيتين نزلتا ليلاً في غزوة بني المصطلق فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمع الناس حوله فقرأهما عليهم فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة ، فلما اصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام وقت النزول ، ولم يطبخوا قدراً وكانوا من بين حزين وباك ومتفكر وهذه الزلزلة وهي المذكورة في قوله

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ [الزلزلة : 1] ومعناها شدة التحريك ، وتضعيف الحروف دليل على تضعيف المعنى كأنه ضوعف زلل الاشياء عن مقارها ومراكزها . والإضافة إضافة المصدر إلى الفاعل على المجاز الحكمي العائد إلى الإسناد في قولك " زلزلت الساعة الأرض " أو إلى المفعول فيه على الاتساع فلا مجاز في الحكم لأن المراد حينئذ هو أن فاعلها الله في القيامة قاله الحسن . وعن الشعبي هي طلوع الشمس من مغربها فتكون الإضافة بمعنى اللام كقولك " اشراط الساعة " قالت المعتزلة : في الآية دلالة على أن المعدوم شيء لأن الله تعالى سمى زلزلة الساعة شيئاً مع أنها معدومة . أجابت الأشاعرة بأن المراد هو أنها إذا وجدت كانت شيئاً عظيماً . وانتصب ﴿ يوم ترونها ﴾ أي الزلزلة بقوله ﴿ تذهل ﴾ أي تغفل عن دهشة ﴿ كل مرضعة ﴾ وهي التي ترضع بالفعل مباشرة لإرضاع وإنما يقال لها المرضع من غيرها إذا أريد معنى أعم وهو أنه من شأنها الإرضاع بالقوة أو بالفعل كحائط وطالق . وفي هذا تصوير لهول الزلزلة كأنه بلغ مبلغاً لو القمت المرضعة الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الخوف . و" ما " في ﴿ عما ارضعت ﴾ مصدرية أو موصولة أي عن إرضاعها أو عن الذي أرضعته وهو الطفل . عن الحسن : تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام . وإنما قال ﴿ كل ذات حمل ﴾ دون كل حامل ليكون نصاً في موضع الجنين فإن الحمل بالفتح هو ما كان في بطن أو على رأس شجرة ، والثاني خارج بدليل العقل فبقي الأول . قال القفال :

ذهول المرضعة ووضع ذات الحمل حملها يحتمل أن يكون على جهة التمثيل كقوله ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ [المزمل : 17] ﴿ وترى الناس ﴾ أفرد بعد أن جمع لأن الزلزلة تراها الناس جميعاً ، وأما السكر الشامل للناس فإنه يراه من له أهلية الخطاب بالرؤية وقتئذ ولعله ليس إلا النبي صلى الله عليه وسلم قوله ﴿ سكارى وما هم بسكارى ﴾ أثبت السكر أولاً على وجه

(51/521)

التشبيه فإن الخوف مدهش كالمسكر ، ونفاه ثانياً على التحقيق إذ لم يشربوا خمراً وهذه أمارة كل مجاز . روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك . فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار . قال : يا رب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم فقالوا : يا رسول الله اينا ذلك الرجل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ، أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور

البيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود "

واختلفوا في أن شدة ذلك اليوم تحصل لكل واحد أو لأهل النار خاصة فقيل : إن الفزع الأكبر يعم وغيره يختص بأهل النار وإن أهل الجنة يحشرون وهم آمنون . وقيل : تحصل للكل ولا اعتراض لأحد على الله .

(52/521)

ثم اراد أن يحتج على منكري البعث فقدم لذلك مقدمة تشمل أهل الجدال كلهم فقال ﴿ ومن الناس من يجادل ﴾ نظيره ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ [البقرة : 8] وقد مر إعرابه في أول البقرة . ومعنى ﴿ في الله ﴾ في شأن الله وفيما يجوز عليه ومالا يجوز من الصفات والأفعال ويفهم من قوله ﴿ بغير علم ﴾ أن المعارف كلها ليست ضرورية وأن المذموم من الجدال هو هذا القسم ، وأما الجدال الصادر عن العلم والتحقيق فمحمود مأمور به في قوله ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [النحل : 125] والشيطان المريد العاتي سمي بذلك لخلوه عن كل خير وقد مر في قوله ﴿ مردوا على النفاق ﴾ [التوبة : 101] والمراد إبليس وجنوده أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياعهم إلى الكفر . عن ابن عباس نزلت في النضر بن الحرث وكان مجادلاً يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين والله غير

قادر على إحياء من بلي وصار تراباً . ومعنى ﴿ كتب عليه ﴾ قضي على ذلك الشيطان أو علم من حاله وظهر وتبين ، والأول يليق بأصول الأشاعرة ، والثاني بأصول الاعتزال . وقيل : المراد كتب على من يتبع الشيطان ، ولا يخلو عن تعسف أنه من تولى الشيطان اي جعله ولياً له اضله عن طريق الجنة وهداه إلى النار ، قال صاحب الكشاف إن الأول فاعل ﴿ كتب ﴾ والثاني عطف عليه . وفيه نظر لأن " من " يبقى بلا جواب إن جعلت شرطية وبلا خبر إن جعلت موصولة . والصحيح أن قوله ﴿ فأنه ﴾ مبتدأ أو خبر محذوف صاحبه والتقدير من تولاه فشأنه أن يضله أو أنه يضله ثابت اللهم إلا إذا جعلت " من " موصوفة تقديره كتب على من يتبع الشيطان أنه شخص تولى الشيطان فأنه كذا أي كتب عليه ذلك ، وحين نبه عموماً على فساد طريقه المجادلين بغير علم خصص المقصود من ذلك ، والمعنى إن ارتبتم في البعث فمعكم ما يزيل ريبكم وهو أن تنظروا في بدء خلقكم ، فبين التراب والنطفة والماء الصافي كماء الفحل لأنه ينطف نطفاناً أي يسيل سيلاً تاماً مباينة ، وكذا بين النطفة

(53/521)

والعلقة وهي قطعة الدم الجامد لأنها إذ ذاك تعلق بالرحم ، وكذا بين العلقة والمضغة وهي قدر ما يمضغ من اللحم ، ولا ريب أن القادر على تقليب الإنسان في هذه الأطوار المتباينة ابتداء قادر على إعادته إلى أحد هذه الأطوار بل هذه أدخل في القدرة وأهون في القياس .

(54/521)

قال الجوهري : المخلقة التامة الخلق . وقال قتادة والضحاك : أراد إنه يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ، ومنها ما هو على عكس ذلك فلذلك يتفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصهم . وقال مجاهد : المخلقة الولد يخرج حياً ، غير المخلقة السقط لأنه لم يتوارد عليها خلق بعد خلق وقيل : المخلقة المصورة وغير المخلقة ضدها وهو الذي يبقى لحماً من غير تخطيط وشكل ، ويناسبه ما روى علقمة عن عبد الله قال : إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال : يا رب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قال غير مخلقة مجتها الأرحام دماً ، وإن قال مخلقة قال : يا رب فما صفتها أذكر أو أنثى ما رزقها وأجلها أشقي أم سعيد ؟ فيقول سبحانه : انطلق إلى الكتاب فاستنسخ منه هذه النطفة فينطلق الملك فينسخها فلا يزال معه حتى يأتي آخر صفتها .

وقوله ﴿ لنبين لكم ﴾ غاية لقوله ﴿ خلقناكم ﴾ أي إنما نقلناكم من حال إلى حال ومن

طور غلى طور لنبين لكم بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا . وفي ورود الفعل غير معدي إلى المبين إشعار بأن ذلك المبين مما لا يكتنه كنهه ولا يحيط به الوصف ، وقيل : اراد إن كنتم في ريب من البعث فإنا نخبركم أنا خلقناكم من كذا وكذا لنبيّن لكم ما يزيل ريبكم في أمر بعثكم ، فإن القادر على هذه الأشياء كيف يعجز عن الإعادة ؟ ولما بين كيفية خلق الإنسان بالتدريج إلى أن تتكامل أعضاؤه أراد أن يبين أن من الأبدان ما تمجه الأرحام ، ومنها ما تنطوي هي عليه إلى كمال النضج والتربية ، فاسقط القسم الأول اكتفاء بالثاني فاستأنف قائلاً ﴿ ونقر في الأرحام ما نشاء ﴾ أن نقره من ذلك ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ هو كمال ستة اشهر إلى أربع سنين غايتها عرفت بالاستقراء ﴿ ثم نخرجكم ﴾ أي كل واحد منكم طفلاً ، أو الغرض الدلالة على الجنس فاكتفي بالواحد ، ﴿ ثم ﴾ نربيكم شيئاً بعد شئ ﴿ لتبلغوا اشدكم ﴾ ومن قرأ ﴿ ونقر ﴾ بالنصب فمعناه خلقناكم مدرجين هذا

(55/521)

التدريج لغايتين : إحداهما أن نبين قدرتنا ، والثانية أن نقر في الأرحام من نقر حتى تولدوا وتنسلوا وتبلغوا أحد التكليف . والأشد كمال القوة والتمييز كأنه شدة في غير شيء واحد فلذلك بني على لفظ الجمع قوله ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ وقد مر في "

النحل " شبيهه فليرجع إليه .

ثم أكد أمر البعث بالاستدلال من حال النبات أيضاً فقال ﴿ وترى ﴾ أي تشاهد أيها المستحق للخطأ ﴿ الأرض ﴾ حال كونها ﴿ هامدة ﴾ ميتة يابسة لا نبات بها ، والتركيب يدل على ذهاب ما به قوام الشيء ورواؤه من ذلك . همدت النار هموداً طفئت وذهبت بكليتها وهمد الثوب هموداً بلي ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ﴾ تحركت ولا يكاد يستعمل الاهتزاز إلا في حركة تصدر عن سرور ونشاط ﴿ وربت ﴾ انتفخت وزادت كما مر في قوله

(56/521)

﴿ زبداً رابياً ﴾ [الرعد : 17] وذلك في " الرعد " والمراد كمال تهيؤ الرض لظهور النبات منها . ومن قرأ بالهمزة فمعناه ارتفعت من قولهم " ربأ القوم " إذا كان لهم طليعة فوق شرف . ثم اشار إلى كمال حاله في الظهور بقوله ﴿ وأنبتت من كل زوج ﴾ أي بعضاً من كل صنف . ﴿ بهيج ﴾ والبهجة النضارة وحسن الحال ولهذا قال المبرد : هو الشيء المشرق الجميل . وإسناد الإنبات إلى الأرض مجاز لأن المنبت بالحقيقة هو الله ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكرنا من خلق بني آدم وإحياء الأرض مع ما في تضاعيف ذلك من عجائب الصنع

وغرائب الإبداع حاصل (ب) أمور خمسة : الأول ﴿ أن الله هو الحق ﴾ الثابت الذي لا يزول ملكه وملكه لاحق في الحقيقة إلا هو فما سواه يكون مستنداً إلى خلقه وتكوينه لا محالة . الثاني أنه من شأنه إحياء الموتى . الثالث ﴿ أنه على كل شيء قدير ﴾ وهذا كالبيان لما تقدمه فإن القادر على كل شيء ممكن قادر لا محالة على إحياء الموتى لأنه من جملة الممكنات وبيان إمكانه ظاهر . فإن كل ما جاز على شيء في وقت ما جاز عليه في سائر الأوقات إذ لو امتنع فإما لغيره فالأصل عدمه ، وإما لذاته وهذا يقتضي أن لا يتصف به أولاً فإن ما بالذات لا يزول بالغير . الرابع والخامس قوله ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ قال في الكشاف : معناه أنه حكيم لا يخلف ميعاده ، وقد وعد الساعة والبعث فلا بد أن يفي بما وعد . قلت : إن هذا التفسير غير وافٍ فلقائل أن يقول : فحاصل الآيات يرجع إلى قولنا ﴿ إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم ﴾ بالتدريج وأحيينا الأرض بسبب أنا وعدنا الساعة ووعدنا صادق . وهذا كلام غير منتظم في الظاهر كما ترى ، ولو صح هذا لاستغنى عن التطويل بأن يقال مثلاً : لا تشكوا في أمر البعث فإنه كائن لا محالة . والذي يسنح لي في تفسيره أنه سبحانه أزال الشك في أمر البعث بقوله ﴿ إن كنتم في ريب من البعث ﴾ فمزيل ريبكم هذان الاستدلالان ، ثم لما كان

لسائل أن يسال لم خلق الإنسان وما يترتب عليه معاشه ؟ فأجيب بأن لهذا الشأن وهو خلق الإنسان أسباباً فاعلية وأسباباً غائية ، أما الأولى فهي أنه تعالى واجب الوجود الحق وأنه قادر على كل مقدور لا سيما إحياء الموتى الذي استدللنا عليه لأنه أهون ، وأن قدرته لا تظهر إلا إذا تعلقت بالمقدور ، فكمال القدرة بالفعل هو أن يتعلق بكل مقدور يصح في القسمة العقلية ، وهذا النوع من المقدور كان ثابتاً في القسمة لأنه واسطة بين العالم العلوي والعالم السفلي وله تعلق بالطرفين وانجذاب إلى القبيلين فوجب في الحكمة والقدرة إيجاده ما يتوقف عليه بقاؤه واستكماله .

وأما علته الغائية فهي أن داره الأولى كانت دار تكليف وقد هيأنا له داراً أخرى لأجل الجزاء وذلك لا يحصل إلا بالبعث والنشور . ولعل هذا الموضع مما لم يفسره على هذا الوجه غيري أرجو أن يكون صواباً والله تعالى أعلم بمراده .

(58/521)

قوله ﴿ ومن الناس من يجادل ﴾ عن ابن عباس أنه أبو جهل . وقيل : هو النضر أيضاً وكرر للتأكيد كما كرر سائر الأقاصيص ، وقال أبو مسلم : الأول في المقلدين فإنهم قد يجادلون

تصويباً لتقليدهم . وهذا في المقلدين المتبوعين بدليل قوله ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ قال العلماء : أراد بالعلم العلم الضروري وبالهدي النظري من العلم لأنه يهدي إلى المعرفة وبالكتاب المنير العلم السمعي المتعلق بالوحي . قال بعض أهل اللغة : العطف المنكب . وقال الجوهري : عطفا الرجل جانباه من لدن راسه إلى وركه ويقال : " فلان ثنى عطفه عني " اي أعرض . وقيل : هو عبارة عن الكبر والخيلاء كلي الجيد . قال جار الله : لما أدى جداله إلى الضلال جعل كأنه غرضه ، ولما كان الهدى معرضاً له فتركه وأعرض عنه بالباطل جعل كالخارج بالجدال ، وفسر الخزي ههنا بما اصابه يوم بدر . ﴿ ذلك ﴾ الذي مني به شيء من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ﴿ بما قدمت يداك ﴾ وباقي مباحث الآية قد سلف في آخر " آل عمران " . ثم أخبر عن شقاق أهل النفاق بقوله ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ أي على طرف من الدين لا في وسطه فهذا مثل لكونه مضطرباً في أمر الدين غير ثابت القدم كالذي يكون على طرف العسكر ينهزم بأدنى سبب ، وباقي الآية تفصيل لهذا الإجمال . قال الكلبي : نزلت في أعاريب قدموا المدنية فكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهراً سرياً وولدت امرأته غلاماً وكثر ماله وماشيته قال : ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً واطمأن به وقر . وإن كان الأمر بخلافه قال : ما اصبت إلا شراً وانقلب عن دينه الذي أظهره بلسانه وفر . وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وقتادة . وقيل : نزلت في المؤلفة قلوبهم منهم الأقرع بن حابس والعباس بن

مرداس . وعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً من اليهود اسلم فأصابته مصائب كذهاب البصر والمال والولد فتشاءم بالإسلام فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أقلني . فقال : إن الإسلام

(59/521)

يسبك كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة والإسلام لا يقال ونزلت الاية . والفتنة ههنا مخصوصة بالابتداء بالشرور والآلام لوقوعها في مقابلة الخير وهذا على الاستعمال الغالب وإلا فالخير ايضاً قد يكون سبباً للابتلاء كقوله

(60/521)

﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ [الأنبياء : 35] ثم حكى حاله في الدارين بقوله ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ أما خسران الدنيا بعد أن أصابه ما أصاب ففقدان العزة والكرامة والغنيمة وأهلية الشهادة والإمامة والقضاء ، وكون عرضه وماله ودمه مصونة ، وأما الآخرة فحرمان الثواب وحصول العقاب ابد الآباد ، ولا خسران أبين من هذا نعوذ

بالله منه . وفي قوله ﴿ يدعو من دون الله ﴾ الآية . دلالة على أن المذكور قبلها إنما نزلت في أهل النفاق من المشركين لا من اليهود فإنهم لا يعبدون الصنام نعم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله . قوله ﴿ يدعو لمن ضره ﴾ الآية . فيه بحث لفظي وبحث معنوي . أما الأول فهو أن ﴿ يدعو ﴾ بمعنى "يقول" والجملة بعده محكية ، و" من " موصولة أو موصوفة وعلى التقديرين هو مع تمامه مبتدأ ما بعده وهو ﴿ لبئس المولى ﴾ خبره واللام الثانية في الخبر لتأكيد اللام الأولى ، وهذا حسن بخلاف قوله " أم الحليس لعجوز " فإنه أدخل لام الابتداء في الخبر على سبيل الاستقلال ويجوز أن يكون ﴿ يدعو ﴾ تكراراً للأول وما بعده جملة مستأنفة على الوجه المذكور . وفي حرف عبد الله ﴿ من ضره ﴾ بغير لام ووجهه ظاهر ، وعلى هذا يكون قوله ﴿ لبئس المولى ﴾ جملة مستقلة . والمولى الناصر ، والعشير المعاشر اي الصاحب . وأما البحث المعنوي فهو أنه نفى الضرر والنفع عن الأصنام أولاً ثم أثبتهما لها ثانياً حين قال ﴿ ضره أقرب من نفعه ﴾ فما وجه ذلك ؟ والجواب أن المقصود في الاية الثانية رؤساؤهم الذين كانوا يفزعون إليهم في الشدائد مستصوبين آراءهم ، لأن وصف المولى والعشير لا يليق إلا بالرؤساء . سلمنا أنه أراد في الموضعين الصنام إلا أنه أثبت الضر لها مجازاً لأنها سبب الضلال الذي هو سبب عذاب النار نظيره ﴿ رب أنهن اضللن كثيراً من الناس ﴾ [إبراهيم : 36] وأثبت لها النفع بناء على معتقدهم أنها شفعاؤهم عند الله . والمراد يقول : هذا الكافر بدعاء وصراخ حين

يرى استضراره بالأصنام ولا يرى أثر الشفاعة ﴿ لمن ضره اقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ ذلك ، أو أراد يدعو من دون الله مالا يضره وما لا ينفعه ، ثم قال : لمن ضره بكونه معبوداً أقرب من نفعه بكونه شفيعاً لبئس المولى .

ثم لما بين حال المنافقين والمشركين أتبعها حال المؤمنين الذين معبودهم قادر على إيصال كل المنافع فقال ﴿ إن الله يدخل ﴾ الآية . قالت الأشاعرة : في قوله ﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ دليل على أنه خالق الإيمان وفاعله لأنه يريد الإيمان من العبد بالاتفاق . أجاب الكعبي بأنه يفعل ما يريده لا ما يريد أن يفعله غيره ، ورد بأن ما يريد أعم من قولنا ما يريده من فعله وما يريد من فعل غيره . قوله سبحانه ﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله ﴾ في هذا الضمير وجهان : الأول وهو قول ابن عباس والكلبي ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدي واختيار الفراء والزجاج أنه يرجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم للعلم به لأن ذكر الإيمان يدل على الإيمان بالله ورسوله ، وعلى هذا فالظان من هو ؟ قيل : كذا قوم من المسلمين لشدة غيظهم على المشركين يستبطئون النصر فنزلت .

وعندي في هذا القول بعد . وعن مقاتل نزلت في نفر من أسد وغطفان قالوا : نخاف أن الله لا ينصر محمداً فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود والأولى العموم . وكان حساده وأعداؤه يتوقعون أن لا ينصره الله وأن الله لا يغلبه على أعدائه فمتى شاهدوا أن الله ينصره غاظهم ذلك ، والسبب الحبل ، والسماء سماء البيت ، والقطع الاختناق لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه ، والمراد من كان يظن من حاسديه أن الله تعالى يفعل خلاف النصر والظفر وكان يغيظه نصرة الله إياه فليستفرغ جهده في إزالة ما يغيظه ، وليس ذلك غلا بأن يمد حبلاً إلى سماء بيته ثم يشده في عنقه ويختنق في عنقه وليصور في نفسه أنه إن يفعل ذلك هل يذهبن كيده ما يغيظه ، سمى فعله كيداً حيث لم يقدر على غيره أو على سبيل الاستهزاء لأنه لم يكد به محسوده وإنما كاد به نفسه . والحاصل ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظ ، ومنهم من قال : السماء هي المظلة لأن الاختناق حينئذ أبعد عن الإمكان فيكون أصعب فيصرف الحاسد عن الغيظ إلى طاعة الله ورسوله . ومنهم من قال : مع ذلك أن القطع هو قطع المسافة أي فليصعد على الحبل إلى السماء ، والغرض تصوير مشقة من غير فائدة ، أو القطع قطع الوحي أو النصر أي فليصعد وليقطع الوحي أن ينزل عليه أو النصر أن يأتيه . الوجه الثاني أن الضمير عائد إلى " من " والنصر الرزق . قال أبو عبيدة : وقف علينا سائل من بني بكر فقال : من ينصرني نصره الله أي من يعطيني

أعطاه الله . ووجه النظم من كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة فلهذا الظن يعدل عن التمسك بدين محمد وينقلب على وجهه كما مر فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق أو غير ذلك مما عددنا ، فإن الله لا يقلبه مرزقاً . وحين بين الأحوال وضرب الأمثال أشار إلى هذا المذكور بلفظ البعيد إما للتعظيم وإما لأن كل ما دخل في حيز الذكر وحصل في حيز كان فهو في حكم البعيد فقال ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ أي ومثل ذلك الإنزال

(63/521)

أنزلنا القرآن كله ﴿ آيات بينات وأن الله ﴾ حرف التعليل وكذا معلله محذوف للعلم به اي ولأن الله ﴿ يهدي من يريد ﴾ أنزله كذلك مبيناً . قالت الأشاعرة : المراد بالهداية إما وضع الأدلة أو خلق المعرفة والأول غير جائز ، لأن الله تعالى فعل ذلك في حق كل المكلفين ، ولأن قوله ﴿ يهدي من يريد ﴾ يدل على أن الهداية غير واجبة عليه بل هي معلقة بمشيئته ، ووضع الأدلة واجب فتعين أن المراد خلق المعرفة .

أجاب القاضي عبد الجبار بأنه اراد تكليف من يريد لأن التكليف لا يخلو من وصف ما كلف به ومن بيانه ، أو أراد يهدي إلى الجنة ، والإثابة من يريد ممن آمن وعمل صالحاً ، أو يهدي به الذين يعلم منهم الإيمان أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى ، وإلى هذين الوجهين

أشار الحسن بقوله ﴿ إن الله يهدي ﴾ من قبل لا من لم يقبل . واعترض بأن الله سبحانه وتعالى ذكر هذا الكلام بعد بيان الأدلة والجواب عن الشبهات فلا يجوز حمله على محض التكليف ، وأما الوجوه الأخر فخلاف الظاهر مع أن ما ذكرتموه واجب عندكم على الله وقوله ﴿ من يريد ﴾ ينافي الوجوب .

(64/521)

ثم أراد أن يميز بين المهدي من الفرق وبين الضال منهم فقال ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الآية قال مقاتل : الأديان ستة : واحد لله تعالى وهو الإسلام وخمسة للشيطان قلت : فالمؤمنون واليهود والنصارى تشترك في القول بالإله والنبي وتفترق بالاعتراف بعموم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبعدم الاعتراف به ، والصابئون قد تجعل من جنس النصارى وقد تجعل من غيرهم ، والمجوس قولهم في البابين مضطرب لأن الإله عندهم اثنان وبنبيهم ليس بنبي في الحقيقة وإنما هو متنبئ ، والمشركون لا نبي لهم ولا كتاب . قال أهل البرهان : قدم النصارى على الصابئين في أوائل البقرة لأنهم أهل كتاب وعكس ههنا لأن الصابئين مقدمة عليهم بالزمان ، وفي المائدة يحتمل الأمران اي والصابئون كذلك أو هم والنصارى ﴿ إن الله يفصل بينهم ﴾ أي يقضي بين المؤمنين وغيرهم وتكرير إن في الخبر لزيادة التأكيد والفصل مطلق

يحتمل الفصل في الأحوال وفي المواطن أيضاً ﴿ إن الله على كل شيء شهيد ﴾ فلا يجري في قضائه ظلم ولا حيف ﴿ الم تر ﴾ أي تعلم بإخبار الله والمراد أن هذه الأجسام غير ممتنعة عما يريد الله إحداثه فيها من أنواع تصرفاته وتدبيراته وهذا بين ، قال العلماء : قوله ﴿ وكثير من الناس ﴾ ليس بمعطوف على ما قبله من المفردات لأن السجود بالمعنى المذكور يتناول كل الناس ولا يختص ببعضهم لدليل العقل ، ولأن قوله ﴿ ومن في الأرض ﴾ يتناول الثقلين جميعاً والعطف يوهم التخصيص بالبعض . ولا يمكن أن يكون السجود بالنسبة إلى كثير من الناس بمعنى وضع الجبهة وبالنسبة إلى غيرهم بمعنى نفوذ مشيئة الله فيها لأن اللفظ المشترك لا يصح استعماله في مفهوميه معاً ، فهو إذن مرفوع بفعل مضمر يدل عليه المذكور أي ويسجد له كثير من الناس بمعنى وضع الجبهة أيضا . وهو مبتدأ محذوف الخبر وهو مثاب لأن الخبر دليل عليه وهو قوله ﴿ حق عليه العذاب ﴾ أو هو مبتدأ وخبر أي وكثير من المكلفين من الناس الذي هم الناس على الحقيقة

(65/521)

فكأنه أخرج الذين وجب عليهم العذاب من جملة الناس لأنهم أشبه بالنسناس

(66/521)

﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ [الأعراف : 179] أو قوله ثانياً ﴿ وكثير ﴾ تكرار للأول لأجل المبالغة كأنه قيل : وكثير من الناس حق عليهم العذاب ، وباقي الآية دليل على أن الكل بقضائه وقدره والإكرام والإهانة من عنده وبسابق علمه وسابق مشيئته ، فمن أهانه في الأزل لم يكرمه أحد إلى الأبد . عن ابن عباس أن قوله ﴿ هذان خصمان ﴾ راجع أهل الأديان الستة أي هما فوجان أو فريقان خصمان والخصم صفة وصفة بها المحذوف . وإنما قيل ﴿ اختصموا ﴾ نظراً إلى المعنى . وقيل : إن أقل الجمع اثنان . ومعنى ﴿ في ربهم ﴾ أي في دينه وصفاته فقال المؤمنون في شأنه قولاً وقال الكافرون قولاً . وروي أن أهل الكتاب قالوا للمؤمنين نحن أحق بالله وأقدم منكم كتاباً ونبينا قبل نبيكم . وقال المؤمنون : نحن أحق بالله منكم آمنا بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبنبيكم وبجميع الكتب وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تتركونه حسداً فنزلت . وعن قيس بن عبادة عن أبي ذر الغفاري أنه كان يحلف بالله أنها نزل في ستة نفر من المسلمين : علي وحمزة وعبيدة بن الحرث ، ومن المشركين عتبة وشيبة والوليد بن عتبة . فقال علي رضي الله عنه : أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله تعالى يوم القيامة . وعن عكرمة هما الجنة والنار . قالت النار : خلقني الله لعقوبته . وقالت الجنة : خلقني الله لرحمته ، فقص الله من خبرهما على محمد صلى الله عليه وسلم والأقرب هو الأول . وقوله ﴿ فالذين كفروا ﴾

فصل الخصومة المعني بقوله ﴿ إن الله يفصل بينهم ﴾ وقوله ﴿ قطعت لهم ثياب ﴾ فيه أنه تعالى يقدر لهم نيراناً على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة ، أو المراد أن تلك النيران مظاهرة عليهم كالثياب المظاهرة على الملابس بعضها فوق بعض . وعن سعد بن جبير أن قوله ﴿ من نار ﴾ أي من نحاس أذيب بالنار كقوله ﴿ سرابيلهم من قطران ﴾ [إبراهيم : 50] والحميم الماء الحار . عن ابن عباس : لو سقطت منه نقطة على

(67/521)

الجبال الدنيا لأذابتها . ومعنى ﴿ يصهر ﴾ يذاب جلودهم وهو أبلغ من قوله ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ [محمد : 15] لأن تأثير الشيء من الظاهر في الباطن أبلغ من تأثيره في الباطن . قال في الكشاف : المقامع السياط وقال الجوهري : المقمعة واحدة المقامع ﴿ من حديد ﴾ كالمحجن يضرب على رأس الفيل . وفي الحديث " لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها " والإعادة لا تكون إلا بعد الخروج ففي الآية إضمار أي ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم ﴾ فخرجوا ﴿ أعيدوا فيها ﴾ أو المراد بالإرادة المداناة والمشارفة كقوله

﴿ يريد أن ينقض ﴾ [الكهف : 77] وهذا أقرب كقوله ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ [البقرة : 162] ويؤيده ما يروى عن الحسن أن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً . وإنما اختصت هذه السورة بقوله ﴿ من غم ﴾ وهو الأخذ بالنفس حتى لا يجد صاحبه مخلصاً لأنه بولغ ههنا في أهوال النار بخلاف ما في السجدة وإنما أضمر ههنا قبل قوله ﴿ وذوقوا ﴾ بخلاف " السجدة " . وقيل لهم ذوقوا لأنه وقع الاختصار ههنا على ﴿ عذاب الحريق ﴾ وهناك أطنب فقيل ﴿ ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ [السجدة : 20] وايضاً قد تقدم ذكر القول في تلك السورة كثيراً بخلافه هنا والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 63.72 ﴾

(68/521)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ إن زلزلة الساعة ﴾ هلاك الاستعداد الفطري ﴿ شيء عظيم ﴾ ﴿ وتذهب كل مرضعة ﴾ هي مواد الشياء فإن لكل شيء مادة ملكوتية ترضع رضيعها من

الملك وتربيه ﴿ وتضع كل ذات حمل ﴾ وهي الهيوليات ﴿ حملها ﴾ وهو الصور الكمالية التي خلقت الهوليات لأجلها ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ الغفلة والعصيان وحب الدنيا والجاه والرياسة وغيرها ﴿ وما هم بسكارى ﴾ العشق والمحبة والمعرفة ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ أي كنتم تراباً ميتاً فبعثنا التراب بأن خلقنا منه آدم ، ثم أمتنا منه النطفة ، ثم بعثناها بأن جعلناها علقة ثم مضغة ثم خلقاً آخر لنبين لكم أمر البعث والنشور ﴿ ونقر في الأرحام ﴾ أمهات العدم ﴿ ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ وهو وقت إيجاده بحسب تعلق الإرادة به ، وفيه دليل على أنه لا يبعد أن يكون الفاعل كاملاً في فاعليته ولكن لا تتعلق إرادته بالمقدور فيبقى في حيز العدم إلى حين تعلق الإرادة به ، ومنه يظهر حدوث العالم ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ من أطفال المكونات خارجاً من رحم العدم مستعداً للتربية والكمال . ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ عن الشهوات فيحيا بحصول الكمالات ﴿ ومنكم من يرد ﴾ إلى أسفل سافلين الطبيعة ﴿ وترى ﴾ أرض القالب ﴿ هامدة فإذا أنزلنا عليها ﴾ ماء حياة المعرفة والعلم ﴿ اهتزت ﴾ ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ في الإلهية ﴿ وإنه يحيي ﴾ القلوب الميتة ﴿ وأن الساعة ﴾ قيامة العشق والخدمة للطالبين الصادقين ﴿ آتية وأن الله يبعث ﴾ القلوب المحبوسة في قبور الصدور ﴿ عذاب الحريق ﴾ بنار الشهوات لكنه لا يحس بها في الدنيا لأنه نائم بنوم الغفلة فإذا مات انتبه ﴿ من كان يظن ﴾ فيه أن العبد يجب أن يكون حسن الظن بالله ﴿ ثم ليقطع ﴾ مادة

تقدريري في الأزل ونزول أحكامي في القدور ﴿ فلينظر هل ﴾ ينقطع أم لا ﴿ هذان خصمان ﴾ يعني النفس الكافرة والروح المؤمنة ﴿ قطعت لهم ثياب ﴾ بتقطيع خياط القضاء على قدرهم وهي ثياب نسجت من سدى مخالفات الشرع ولحمة موافقات الطبع . ﴿ يصب

(69/521)

من فوق رؤسهم ﴾ حميم الشهوات النفسانية . وفي لفظ الفوق دلالة على أنهم مغلوبون تحتها ، وفيه أن الخيالات الفاسدة تنصب من الدماغ إلى القلب . ﴿ يصهر به ما في بطونهم ﴾ من الأخلاق الحميدة الروحانية ﴿ والجلود ﴾ أي يفسد أحوالهم الباطنة والظاهرة بفساد تخيلاتهم ، ولا مخلص لهم عن دركات تلك الملكات لغاية رسوخها والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 72 . 73 ﴾

(70/521)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر ما لأحد الخصمين وهم الكافرون ، أتبعه ما للآخر وهم المؤمنون ، وغير السياق بالتأكيد لمن كأنه سأل عنه ، معظماً له بإثبات الاسم العلم الجامع إيذاناً بالاهتمام فقال : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ يدخل الذين آمنوا ﴾ عبر في الإيمان بالماضي ترغيباً في المبادرة إلى إيقاعه ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ تصديقاً لإيمانهم ، وعبر بالماضي إشارة إلى أن من عمل الصالح انكشف له ما كان محجوباً عنه من حسنه فأحبه ولم ينفك عنه ﴿ جنات تجري ﴾ أي دائماً ﴿ من تحتها الأنهار ﴾ أي المياه الواسعة ، أينما أردت من أرضها جرى لك نهر في مقابلة ما يجري من فوق رؤوس أهل النار ﴿ يحلون فيها ﴾ في مقابلة ما يزال من بواطن الكفرة وظواهرهم ﴿ من أساور ﴾ .

(71/521)

ولما كان مقصودها الحث على التقوى المعلية إلى الإنعام بالفضل ، شوّق إليه بأغلى ما نعرف من الحلية فقال : ﴿ من ذهب ولؤلؤاً ﴾ وقراءة نافع وعاصم بنصبه دليل على عطفه بالجر على " أساور " ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ في مقابلة ثياب الكفار كما كان لباس الكفار في الدنيا حريراً ، ولباس المؤمنين دون ذلك ، وقد رود في الصحيحين عن عبد الله بن الزبير عن عمر ـ رضى الله عنهم ـ م أن النبي صلى الله عليه السلام قال : " لا تلبسوا الحرير فإن من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة " قال ابن كثير : قال عبد الله بن الزبير " ومن لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة " قال تعالى : ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ انتهى " وذلك أن في الصحيحين وغيرهما عن عمر ـ رضى الله عنهم ـ أن النبي صلى الله قال : " إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة " " فيوشك لتشبهه بالكفار في لباسهم – أن يلحقه الله بهم فلا يموت مسلماً – والله الهادي ﴿ وهدوا ﴾ أي بأسهل أمر بهداية الله أعم من أن يكون السبب القريب لذلك العقل وحده أو مع الرسول أو الكتاب أو غير ذلك وهو حال من ﴿ الذين آمنوا ﴾ ، وما بعدها ختم به لئلا يطول الفصل بين الفعل ومفعوله ولتكون محاسنهم محيطة بذكر دخولهم الجنة إشارة إلى دوامها ﴿ إلى الطيب من القول ﴾ فلم يزالوا في حال حسن ﴿ وهدوا ﴾ وبنى الفعل أيضاً للمفعول إشارة إلى سهولة الهداية لهم وللأتقياء منهم ، ولذلك لم يذكر العزة ، واكتفى بذكر الحمد فقيل : ﴿ إلى صراط الحميد ﴾ الذي وفقهم لسلوك ما يحمدون عليه فيحمدون عاقبة ، فكان فعلهم حسناً كما كان قولهم حسناً ،

فدخلوا الجنة التي هي أشرف دار عند خير جار وحلوا فيها أشرف الحلي كما تحلوا في الدنيا بأشرف .

الطرائق ، هذا بعد أن حازوا أشرف الذكر في الدنيا عكس حال الكفار في اقتراف ما أدخلهم ما كلما أرادوا الخروج منه اعيدوا فيه ، مع ما نالهم من سوء الذكر ، بإقبالهم كالبهائم على الفاني مع خسته لحضوره ، وإعراضهم عن الباقي مع شرفه لغيابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 144 . 145 ﴾

(72/521)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ولؤلؤاً ﴾ بهمزتين منصوباً : نافع وحفص . مثله ولكن بتخفيف الأولى واواً ساكنة . أبو بكر وحماد وزيد وكذلك في سورة فاطر . وقرأ سهل ويعقوب والمفضل ههنا بالهمزة والنصب . وفي " فاطر " بالهمز والخفضض . الباقون بالهمز والخفض في السورتين ﴿ سواء ﴾ بالنصب : حفص وروح وزيد . الآخرون بالرفع . ﴿ والبادي ﴾ بالياء في الحالين : سهل ويعقوب وابن كثير وافق أبو عمرو وأبو جعفر ونافع غير قالون في الوصل . ﴿

بوأنا ﴾ مثل ﴿ أنشأنا ﴾ ﴿ بيتي ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وحفص وهشام . ﴿ فتخطفه ﴾ بتشديد الطاء : أبو جعفر ونافع ﴿ الرياح ﴾ يزيد طريق المفضل ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ بالنصب على تقدير النون : عباس ﴿ منسكاً ﴾ ونحو بكسر السين : حمزة وعلي وخلف ﴿ لن تنال الله ﴾ بتاء التأنيث : يعقوب ﴿ ولكن تناله ﴾ بالتأنيث أيضاً زيد ﴿ يدفع ﴾ من الدفع : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب الباقون ﴿ يدافع ﴾ من المدافعة ﴿ أذن ﴾ مبنياً للمفعول : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وسهل ويعقوب وعاصم ﴿ يقاتلون ﴾ مبنياً للمفعول أيضاً : أبو جعفر ونافع وابن عامر وحفص الآخرون مبنياً للفاعل فيهما . ﴿ دفاع ﴾ بألف : أبو جعفر ونافع وسهل ويعقوب ﴿ لهدمت ﴾ مخففاً : ابن كثير وأبو جعفر ونافع وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وسهل وحمزة وعلي وخلق مشدداً مدغماً الباقون مشدداً .

(73/521)

الوقوف : ﴿ ولؤلؤاً ﴾ ط ﴿ من القول ﴾ ج للعطف مع تكرار ﴿ وهدوا ﴾ ﴿ الحميد ﴾ 5 ﴿ والباد ﴾ 5 ط ﴿ أليم ﴾ 5 ﴿ السجود ﴾ 5 ﴿ عميق ﴾ 5 لا لتعلق اللام ﴿ الأنعام ﴾ ج للابتداء بالأمر مع الفاء ﴿ الفقير ﴾ 5 للعطف مع العدول

﴿ العتيق ﴾ 5 ﴿ ذلك ﴾ ق قد قيل : لأن المراد ذلك على ما ذكر أو الأمر والشأن ذلك ثم يبتدأ بالشرط ﴿ عند ربه ﴾ ط ﴿ الزور ﴾ 5 لا ﴿ مشركين به ﴾ ط ﴿ سحيق ﴾ 5 ﴿ ذلك ﴾ ق ﴿ القلوب ﴾ 5 ﴿ العتيق ﴾ 5 ﴿ الأنعام ﴾ ط ﴿ اسلموا ﴾ ط ﴿ المخبتين ﴾ 5 لا لاتصال الوصف ﴿ الصلاة ﴾ 5 ﴿ ينفقون ﴾ ج 5 ﴿ خير ﴾ ق والوصل أحسن للفاء ﴿ صواف ﴾ ج للشرط مع الفاء ﴿ والمعتر ﴾ ط ﴿ تشكرون ﴾ 5 ﴿ منكم ﴾ ط ﴿ هداكم ﴾ ط ﴿ المحسنين ﴾ 5 ﴿ آمنوا ﴾ ط ﴿ كفور ﴾ 5 ﴿ ظلموا ﴾ ط ﴿ لقدير ﴾ 5 لا بناء على أن ﴿ الذين ﴾ بدل من الضمير في ﴿ نصرهم ﴾ ﴿ ربنا الله ﴾ ط ﴿ كثيراً ﴾ 5 ﴿ ينصره ﴾ ط ﴿ عزيز ﴾ 5 ﴿ المنكر ﴾ ط ﴿ الأمور ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 74 ﴾

(74/521)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه سبحانه ذكر حكمه في المؤمنين من أربعة أوجه : أحدها : المسكن ، وهو قوله :

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ ، وثانيها : الحلية ، وهو قوله : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ فبين تعالى أنه موصلهم في الآخرة إلى ما حرمه عليهم في الدنيا من هذه الأمور وإن كان من أحله لهم أيضاً شاركهم فيه لأن المحلل للنساء في الدنيا يسير بالإضافة إلى ما سيحصل لهم في الآخرة .

وثالثها : الملبوس وهو قوله : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ، ورابعها : قوله : ﴿ وَهُدُواْ إِلَى الطيب مِنَ القول ﴾ وفيه وجوه : أحدها : أن شهادة لا إله إلا الله هو الطيب من القول لقوله : ﴿ وَمَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ [إبراهيم : 24] وقوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ [فاطر : 10] وهو صراط الحميد لقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : 52] ، وثانيها : قال السدي (وهدوا إلى الطيب من القول) هو القرآن .

وثالثها : قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء هو قولهم الحمد لله الذي صدقنا وعده .

ورابعها : أنهم إذا ساروا إلى الدار الآخرة هدوا إلى البشارات التي تأتيهم من قبل الله تعالى بدوام النعيم والسرور والسلام ، وهو معنى قوله : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مّن كُلّ بَابٍ * سلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ [الرعد : 23 ، 24] وعندي فيه وجه .

(75/521)

خامس : وهو أن العلاقة البدنية جارية مجرى الحجاب للأرواح البشرية في الاتصال بعالم القدس فإذا فارقت أبدانها انكشف الغطاء ولاحت الأنوار الإلهية ، وظهور تلك الأنوار هو المراد من قوله : ﴿ وَهُدُواْ إِلَى الطيب مِنَ القول وَهُدُواْ إلى صراط الحميد ﴾ والتعبير عنها هو المراد من قوله : ﴿ وَهُدُواْ إِلَى الطيب مِنَ القول ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 21 ﴾

(76/521)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَهُدُواْ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾

فيه أربعة تأويلات

: أحدها : أنه قول لا إله إلا الله ، وهو قول الكلبي .

والثاني : أنه الإِيمان ، وهو قول الحسن .

والثالث : القرآن ، وهو قول قطرب .

والرابع : هو الأمر بالمعروف .

ويحتمل عندي تأويلاً خامساً : أنه ما شكره عليه المخلوقون وأثاب عليه الخالق .

﴿ وَهُدُواْ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ فيه تأويلان

: أحدهما : الإِسلام ، وهو قول قطرب .

والثاني : الجنة .

ويحتمل عندي تأويلاً ثالثاً : أنه ما حمدت عواقبه وأمنت مغبته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(77/521)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

(78/521)

هذه الآية معادلة لقوله : ﴿ فالذين كفروا ﴾ [الحج : 19] وقرأ الجمهور "يُحلون" بضم الياء وشد اللام من الحلي ، وقرأ ابن عباس "يَحلَون" بفتح الياء واللام وتخفيفها ، يقال حلي الرجال وحليت المرأة إذا صارت ذات حلي وقيل هي من قولهم لم يحل فلان بطائل ، و﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من أساور ﴾ هي لبيان الجنس ويحتمل أن تكون للتبعيض ، و" الأساور " جمع سوار وإسوار بكسر الهمزة ، وقيل ﴿ أساور ﴾ جمع أسورة وأسورة جمع سوار ، وقرأ ابن عباس من " أسورة من ذهب " ، و" اللؤلؤ " الجوهر وقيل صغاره وقيل كباره والأشهر أنه اسم للجوهر ، وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر " ولؤلؤاً " بالنصب عطفاً على موضع الأساور لأن التقدير يحلون أساور ، وهي قراءة الحسن والجحدري وسلام ويعقوب والأعرج وأبي جعفر وعيسى بن عمر ، وحمل أبو الفتح نصبه على إضمار فعل ، وقرأ الباقون من السبعة و" لؤلؤٍ " بالخفض عطفاً إما على لفظ الأساور ويكون اللؤلؤ في غير الأساور ، وإما على الذهب لأن الأساور أيضاً تكون " من ذهب " و" لؤلؤ " قد جمع بعضه إلى بعض ، ورويت هذه القراءة عن الحسن بن أبي الحسن وطلحة وابن وثاب والأعمش وأهل مكة ، وثبتت في الإمام ألف بعد الواو قاله الجحدري ، وقال الأصمعي : ليس فيها ألف ، وروى يحيى عن أبي بكر عن عاصم همز الواو الثانية دون الأولى ، وروى المعلى بن منصور عن أبي عن عاصم ضد ذلك ، قال أبو علي : همزهما وتخفيفهما وهمز إحداهما دون الأخرى جائز كله ، وقرأ ابن عباس " ولئلئاً " بكسر اللامين ، وأخبر عنهم

بلباس الحرير لأنها من أكمل حالات الآخرة ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم " من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة " وقال ابن عباس : لا تشبه أمور الآخرة أمور الدنيا إلا في الأسماء فقط وإما الصفات فمتباينة ، و ﴿ الطيب من القول ﴾ لا إله إلاَّ الله وما جرى معها من ذكر الله تعالى وتسبيحه وتقديسه وسائر كلام أهل الجنة من محاورة

(79/521)

وحديث طيب فإنها لا تسمع فيها لاغية ، و ﴿ صراط الحميد ﴾ هو طريق الله تعالى الذي دعا عباده إليه ، ويحتمل أن يريد ب ﴿ الحميد ﴾ نفس الطريق فأضاف إليه على حد إضافته في قوله ﴿ دار الآخرة ﴾ [الأنعام : 32 ، يوسف 109 ، النحل : 30] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(80/521)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولؤلؤٍ ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : "ولؤلو"

بالخفض .

وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : "ولؤلؤاً" بالنصب .

قال أبو علي : من خفض ، فالمعنى : يحلَّون أساور من ذهب ومن لؤلؤٍ ؛ ومن نصب قال : ويحلَّوْن لؤلؤاً .

قوله تعالى : ﴿ وهُدُوا ﴾ أي : أُرْشِدوا في الدنيا ﴿ إِلى الطيِّب من القول ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه "لا إِله إِلا الله ، والحمد لله" قاله ابن عباس .

وزاد ابن زيد : "والله أكبر" .

والثاني : القرآن ، قاله السدي .

والثالث : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، حكاه الماوردي .

فأما "صراط الحميد" فقال ابن عباس : هو طريق الإِسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(81/521)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾

لّما ذكر أحد الخصمين وهو الكافر ذكر حال الخصم الآخر وهو المؤمن .

﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ "مِن" صِلة .

والأساور جمع أَسْوِرة ، وأسورة واحدها سِوار ؛ وفيه ثلاث لغات : ضم السين وكسرها وإسوار .

قال المفسرون : لما كانت الملوك تلبَس في الدنيا الأساور والتِّيجان جعل الله ذلك لأهل الجنة ، وليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة : سوار من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار من لؤلؤ .

قال هنا وفي فاطر : ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ﴾ [فاطر : 33] وقال في سورة الإنسان : ﴿ وحلوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان : 21] .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول : " تبلغ الحِلْية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء " وقيل : تُحَلَّى النساء بالذهب والرجال بالفضة .

وفيه نظر ، والقرآن يرده .

﴿ وَلُؤْلُؤاً ﴾ قرأ نافع وابن القَعْقاع وشيبة وعاصم هنا وفي سورة الملائكة "لؤلؤًا" بالنصب

، على معنى ويُحَلَّون لؤلؤاً ؛ واستدلوا بأنها مكتوبة في جميع المصاحف هنا بألف .

وكذلك قرأ يعقوب والجَحْدَرِيّ وعيسى بن عمر بالنصب هنا والخفض في "فاطر" اتباعاً للمصحف ، ولأنها كتبت ها هنا بألف وهناك بغير ألف .

الباقون بالخفض في الموضعين .

وكان أبو بكر لا يهمز "اللؤلؤ" في كل القرآن ؛ وهو ما يستخرج من البحر من جوف الصَّدَف .

قال القُشيرِيّ : والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ ؛ ولا يبعد أن يكون في الجنة سوار من لؤلؤ مُصْمَت .

قلت : وهو ظاهر القرآن بل نصّه .

وقال ابن الأنباري : من قرأ "لؤلؤٍ" بالخفض وقف عليه ولم يقف على الذهب .

وقال السِّجِستانِيّ : من نصب "اللؤلؤ" فالوقف الكافي "من ذهب" ؛ لأن المعنى ويحلون لؤلؤ .

(82/521)

قال ابن الأنباري : وليس كما قال ، لأنا إذا خفضنا "اللؤلؤ" نسقناه على لفظ الأساور ، وإذا نصبناه نسقناه على تأويل الأساور ؛ وكأنا قلنا : يحلون فيها أساور ولؤلؤاً ، فهو في

النصب بمنزلته في الخفض ، فلا معنى لقطعه من الأوّل .

قوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ أي وجميع ما يلبَسونه من فُرُشهم ولباسهم وستورهم حرير ، وهو أعلى مما في الدنيا بكثير .

وروى النَّسائيّ عن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من لبِس الحرير في الدنيا لم يلبَسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة ومن شرب في آنية الذهب والفضة لم يشرب فيها في الآخرة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لباسُ أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة " فإن قيل : قد سوّى النبيّ صلى الله عليه وسلم بين هذه الأشياء الثلاثة وأنه يُحْرمُها في الآخرة ؛ فهل يحرمها إذا دخل الجنة ؟ قلنا : نعم ! إذا لم يتب منها حُرِمها في الآخرة وإن دخل الجنة ؛ لاستعجاله ما حرم الله عليه في الدنيا .

لا يقال : إنما يُحْرَم ذلك في الوقت الذي يعذَّب في النار أو بطول مقامه في الموقف ، فأما إذا دخل الجنة فلا ؛ لأن حرمان شيء من لذّات الجنة لمن كان في الجنة نوع عقوبةٍ ومؤاخذةٍ ، والجنة ليست بدار عقوبة ، ولا مؤاخذةَ فيها بوجه .

فإنا نقول : ما ذكرتموه محتمل ، لولا ما جاء ما يدفع هذا الاحتمال ويردّه من ظاهر الحديث الذي ذكرناه .

وما رواه الأئمة من حديث ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حُرِمها في الآخرة " والأصل التمسك بالظاهر حتى يرد نصّ يدفعه ؛ بل قد ورد نصّ على صحة ما ذكرناه ، وهو ما رواه أبو داود الطيالسيّ في مسنده : حدّثنا هشام عن قتادة عن داود السرّاج عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو " وهذا نص صريح وإسناده صحيح .

فإن كان "وإن دخل الجنة لبسه أهلُ الجنة ولم يلبسه هو" من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فهو الغاية في البيان ، وإن كان من كلام الراوي على ما ذكر فهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال ، ومثله لا يقال بالرأي ، والله أعلم .

وكذلك "من شرب الخمر ولم يتب" .

و"من استعمل آنية الذهب والفضة" وكما لا يشتهي منزلة من هو أرفع منه ، وليس ذلك بعقوبة ، كذلك لا يشتهي خمر الجنة ولا حريرها ولا يكون ذلك عقوبة .

وقد ذكرنا هذا كله في كتاب التذكرة مستوفى ، والحمد لله ، وذكرنا فيها أن شجر الجنة وثمارَها يتّفتق عن ثياب الجنة ، وقد ذكرناه في سورة الكهف .

قوله تعالى : ﴿ وهدوا إِلَى الطيب مِنَ القول ﴾ أي أُرشِدوا إلى ذلك .

قال ابن عباس : يريد لا إله إلا الله والحمد لله .

وقيل : القرآن ، ثم قيل : هذا في الدنيا ، هُدُوا إلى الشهادة ، وقراءة القرآن .

﴿ وهدوا إلى صِرَاطِ الحميد ﴾ أي إلى صراط الله .

وصراط الله : دينه وهو الإسلام .

وقيل : هُدُوا في الآخرة إلى الطيّب من القول ، وهو الحمد لله ؛ لأنهم يقولون غداً الحمد لله الذي هدانا لهذا ، الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن ؛ فليس في الجنة لَغْوٌ ولا كذب فما يقولونه فهو طيب القول .

وقد هُدُوا في الجنة إلى صراط الله ، إذ ليس في الجنة شيء من مخالفة أمر الله .

وقيل : الطيب من القول ما يأتيهم من الله من البِشارات الحسنة ﴿ وهدوا إلى صِرَاطِ الحميد ﴾ أي إلى طريق الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(84/521)

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾

ولما ذكر تعالى ما أعد لأحد الخصمين من العذاب ذكر ما أعد من الثواب للخصم الآخر .

وقرأ الجمهور ﴿ يُحلونْ ﴾ بضم الياء وفتح الحاء وتشديد اللام .

وقرىء بضم الياء والتخفيف .

وهو بمعنى المشدد .

وقرأ ابن عباس ﴿ يحلون ﴾ بفتح الياء واللام وسكون الحاء من قولهم : حلى الرجل وحليت المرأة إذا صارت ذات حلي والمرأة ذات حلي والمرأة حال .

وقال أبو الفضل الرازي : يجوز أن يكون من حَلي يعيني يحلى إذا استحسنته ، قال فتكون ﴿ من ﴾ زائدة فيكون المعنى يستحسنون فيها الأساورة الملبوسة انتهى .

وهذا ليس بجيد لأنه جعل حلى فعلاً متعدياً ولذلك حكم بزيادة ﴿ من ﴾ في الواجب وليس مذهب البصريين ، وينبغي على هذا التقدير أن لا يجوز لأنه لا يحفظ لازماً فإن كان بهذا المعنى كانت ﴿ من ﴾ للسبب أي بلباس أساور الذهب يحلون بعين من يراهم أي يحلى بعضهم بعين بعض .

قال أبو الفضل الرازي : ويجوز أن تكون ﴿ من ﴾ حليت به إذا ظفرت به ، فيكون المعنى ﴿ يحلون فيها ﴾ بأساور فتكون ﴿ من ﴾ بدلاً من الباء ، والحلية من ذلك فإما إذا أخذته من حليت به فإنه الحلية ، وهو من الياء وإن أخذته من حلي بعيني فإنه من الحلاوة من الواو انتهى .

ومن معنى الظفر قولهم : لم يحل فلان بطائل ، أي لم يظفر .

والظاهر أن ﴿ من ﴾ في ﴿ من أساور ﴾ للتبعيض وفي ﴿ من ذهب ﴾ لابتداء الغاية أي أنشئت من ذهب .

وقال ابن عطية : ﴿ من ﴾ في ﴿ من أساور ﴾ لبيان الجنس ، ويحتمل أن تكون للتبيعض .

وتقدم الكلام على نظير هذه الجملة في الكهف .

وقرأ ابن عباس من أسور بفتح الراء من غير ألف ولا هاء ، وكان قياسه أن يصرفه لأنه نقص بناؤه فصار كجندل لكنه قدر المحذوف موجوداً فمنعه الصرف .

(85/521)

وقرأ عاصم ونافع والحسن والجحدري والأعرج وأبو جعفر وعيسى بن عمر وسلام ويعقوب ﴿ ولؤلؤاً ﴾ هنا وفي فاطر بالنصب وحمله أبو الفتح على إضمار فعل وقدره الزمخشري ويؤتون ﴿ لؤلؤاً ﴾ ومن جعل ﴿ من ﴾ في ﴿ من أساور ﴾ زائدة جاز أن يعطف ﴿ ولؤلؤاً ﴾ على موضع ﴿ أساور ﴾ وقيل يعطف على موضع ﴿ من أساور ﴾ لأنه يقدر و ﴿ يحلون ﴾ حلياً ﴿ من أساور ﴾ .

وقرأ باقي السبعة والحسن أيضاً وطلحة وابن وثاب والأعمش .

وأهل مكة ولؤلؤ بالخفض عطفاً على ﴿ أساور ﴾ أو على ﴿ ذهب ﴾ لأن السوار يكون من ذهب ولؤلؤ ، يجمع بعضه إلى بعض .

قال الجحدري : الألف ثابتة بعد الواو في الإمام .

وقال الأصمعي : ليس فيها ألف ، وروى يحيى عن أبي بكر همز الأخير وإبدال الأولى .

وروى المعلى بن منصور عنه ضد ذلك .

وقرأ الفياض : ولولياً قلب الهمزتين واواً صارت الثانية واواً قبلها ضمة ، عمل فيها ما عمل في أدل من قلب الواو ياء والضمة قبلها كسرة .

وقرأ ابن عباس وليلياً أبدل الهمزتين واوين ثم قلبهما ياءين اتبع الأولى للثانية .

وقرأ طلحة ولول مجروراً عطفاً على ما عطف عليه المهموز .

و ﴿ الطيب من القول ﴾ إن كانت الهداية في الدنيا فهو قول لا إله إلاّ الله ، والأقوال الطيبة من الأذكار وغيرها ، ويكون الصراط طريق الإسلام وإن كان إخباراً عما يقع منهم في الآخرة فهو قولهم : الحمد لله الذي صدقنا وعده وما أشبه ذلك من محاورة أهل الجنة ، ويكون الصراط الطريق إلى الجنة .

وعن ابن عباس : هو لا إله إلا الله والحمد لله زاد ابن زيد والله أكبر .

وعن السدّي القرآن .

وحكى الماوردي : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وعن ابن عباس : هو الحمد لله الذي صدقنا وعده ، والظاهر أن ﴿ الحميد ﴾ وصف لله تعالى .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يرد بالحميد نفس الطريق ، فأضاف إليه على حد إضافته في قوله : دار الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(86/521)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾

بيان لحسنِ حالِ المُؤمنين إثر بيان سوءِ حال الكَفرةِ وقد غُيِّر الأسلوبُ فيه بإسناد الإدخالِ إلى الله عزَّ وجلَّ . وتصديرُ الجملة بحرفِ التَّحقيقِ إيذاناً بكمال مباينةِ حالِهم لحالِ الكفرةِ وإظهاراً لمزيدِ العنايةِ بأمرِ المؤمنين ودلالة على تحقيقِ مضمونِ الكلام ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ على البناء للمفعولِ بالتَّشديدِ من التَّحليةِ وقرىء بالتَّخفيفِ من الإحلاءِ بمعنى الإلباسِ أي يُحلِّيهم الملائكةُ بأمرِه تعالى . وقُرىء يُحلَّون من حليةِ المرأةِ إذا لبستْ حِليتَها ومن في قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ إما للتبعيضِ أي بعضِ أساورَ وهي جمع أَسْوِرةٍ جمع سِوارٍ أو للبيانِ لما أنَّ ذكرَ التَّحليةِ ممَّا يُنبىء عن الحلى المبهمِ ، وقيل : زائدةٌ ، وقيل : نعتٌ لمفعولٍ

محذوفٍ ليحلون فإنَّه بمعنى يلبسون ﴿ مّن ذَهَبٍ ﴾ بيانٌ للأساورِ ﴿ وَلُؤْلُؤاً ﴾ عطفٌ على محلِّ من أساورَ أو على المفعولِ المحذوفِ أو منصوبٌ بفعل مضمرٍ يدلُّ عليه يحلون أي يُؤتون . وقُرِىء بالجرِّ عطفاً على أساورَ وقُرِىء لؤلؤاً بقلب الهمزة الثَّانيةِ واواً ولولياً بقلبها ياءً بعد قلبهما واواً وليليا بقلبهما ياءً ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ غيِّر الأسلوبُ حيثُ لم يقُلْ ويلبسون فيها حريراً لكن لا للدّلالةِ على أنَّ الحريرَ ثيابُهم المعتادة أو لمجرَّدِ المحافظةِ على هيئةِ الفواصلِ بل للإيذانِ بأن ثبوت اللباسِ لهم أمر محقَّقٌ غنيٌّ عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنْهُ وإنَّما المحتاجُ إلى البيانِ أنَّ لباسَهم ماذا بخلافِ الأساورِ واللؤلؤ فإنَّها ليستْ من اللَّوازمِ الضَّروريَّةِ فجعل بيان تحليتهم بها مقصوداً بالذَّاتِ ولعلَّ هذا هو الباعثُ إلى تقديمِ بيانِ التَّحليةِ على بيانِ حالِ اللّباس .

(87/521)

﴿ وَهُدُواْ إِلَى الطيب مِنَ القول ﴾ وهو قولُهم : ﴿ الحمد للَّهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة ﴾ الآيةَ ﴿ وَهُدُواْ إلى صراط الحميد ﴾ أي المحمودِ نفسُه أو عاقبتُه وهو الجنَّةُ ، ووجه التَّأخيرِ حينئذٍ أنَّ ذكرَ الحمد يستدعِي ذكرَ المحمودِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين إثر بيان سوء حال الكفرة ، وغير الأسلوب فيه بإسناد الإدخال إلى الاسم الجامع وتصدير الجملة بحرف التحقيق وفصلها للاستئناف إيذاناً بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة وإظهاراً لمزيد العناية بأمر المؤمنين ودلالة على تحقيق مضمون الكلام ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ بالبناء للمفعول والتشديد من التحلية بالحلى أي تحليهم الملائكة عليهم السلام بأمره تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ قيل متعلق بيحلون ، و ﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية والفعل متعد لواحد وهو النائب عن الفاعل ، وقيل : متعلق بمحذوف وقع صفة لمفعول محذوف ومن للبيان والفعل متعد لاثنين أحدهما النائب عن الفاعل والآخر الموصوف المحذوف أي يحلون حلياً أو شيئاً من أساور ، وعلى القول بتعدي هذا الفعل لاثنين جوز أن تكون من للتبعيض واقعة موقع المفعول ، وأن تكون زائدة على مذهب الأخفش من جواز زيادتها في الإيجاب و ﴿ أَسَاوِرَ ﴾ مفعول ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مّن ذَهَبٍ ﴾ صفة لأساور ، و ﴿ مِنْ ﴾ للبيان ، وقيل : لابتداء الغاية أي أنشئت من

ذهب ، وقيل : للتبعيض وتعلقه بيحلون لا يخفى حاله ، وقرىء ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ بضم الياء والتخفيف ، وهو على ما في "البحر" بمعنى المشدد ، ويشعر كلام بعض أنه متعد لواحد وهو النائب الفاعل فمن أساور متعلق به ومن ابتدائية .

وقرأ ابن عباس ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ بفتح الياء واللام وسكون الحاء من حليت المرأة إذا لبست حليها ، وقال أبو حيان : إذا صارت ذات حلى ، وقال أبو الفضل الرازي : يجوز أن يكون من حلى بعيني يحلى إذا استحسنته وهو في الأصل من الحلاوة وتكون من حينئذٍ زائدة ، والمعنى يستحسنون فيها الأساورة ، وقيل : هذا الفعل لازم ومن سببية ، والمعنى يحلى بعضهم بعين بعض بسبب لباس أساور الذهب .

(89/521)

وجوز أبو الفضل أن يكون من حليت به إذا ظفرت به ، ومنه قولهم : لم يحل فلان بطائل ، ومن حينئذٍ بمعنى الباء أي يظفرون فيها بأساور من ذهب .

وقرأ ابن عباس ﴿ مِنْ ﴾ بفتح الراء من غير ألف ولا هاء ، وكان قياسه أن يصرف لأنه نقص بناؤه فصار كجندل لكنه قدر المحذوف موجوداً فمنع الصرف ، وقد تقدم الكلام على نظير هذه الجملة في الكهف فتذكر ، وقوله تعالى : ﴿ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ﴾ عطف على

محل ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ أو على الموصوف المحذوف ، وحمله أبو الفتح على إضمار فعل أي ويؤتون لؤلؤاً أو نحو ذلك .

وقرأ أكثر السبعة .

والحسن في رواية .

وطلحة .

وابن وثاب .

والأعمش .

وأهل مكة ﴿ ولؤلؤ ﴾ بالخفض عطفاً على ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ أو على ﴿ ذَهَبَ ﴾ لأن السوار قد يكون من ذهب مرصع بلؤلؤ وقد يكون من لؤلؤ فقط كما رأيناه ويسمى في ديارنا خصراً وأكثر ما يكون من المرجان .

واختلفوا هل في الإمام ألف بعد الواو فقال الجحدري : نعم ، وقال الأصمعي : لا ، وروى يحيى عن أبي بكر همز الآخر وقلب الهمزة الأولى واواً ، وروى المعلى بن منصور عنه ضد ذلك .

وقرأ الفياض ﴿ لولياً ﴾ قلب الهمزتين واوين فصارت الثانية واواً قبلها ضمة وحيث لم يكن في كلامهم اسم متمكن آخره واوه قبلها ضمة قلب الواو ياء والضمة قبلها كسرة .

وقرأ ابن عباس ﴿ وليلياً ﴾ بقلب الهمزتين واوين ثم قلبهما ياءين ، أما قلب الثانية فلما

علمت وأما قلب الأولى فللاتباع .

وقرأ طلحة ﴿ ولول ﴾ كادل في جمع دلو قلبت الهمزتان واوين ثم قلبت ضمة اللام كسرة والواو ياء ثم أعل إعلال قاض ﴿ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ غير الأسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريراً للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غني عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنه وإنما المحتاج إلى البيان أن لباسهم ماذا بخلاف التحلية فإنها ليست من لوازمهم الضرورية فلذا جعل بيانها مقصوداً بالذات .

(90/521)

ولعل هذا هو السر في تقديم بيان التحلية على بيان حال اللباس قاله العلامة شيخ الإسلام ، ولم يرتض ما قيل : إن التغيير للدلالة على أن الحرير لباسهم المعتاد أو لمجرد المحافظة على هيئة الفواصل ، وظاهر كلامهم أن الجملة معطوفة على السابقة ، وجوز أن تكون في موضع الحال من ضمير ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ ثم إن الظاهر أن هذا الحكم عام في كل أهل الجنة ، وقيل هو باعتبار الأغلب لما أخرج النسائي .

وابن حبان .

وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من لبس

الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه " وحديث عدم لبس ذلك له في الآخرة مذكور في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً .

والظاهر أن حرمة استعمال الحرير للرجال في غير ما استثنى مجمع عليها وانه يكفر من استحل ذلك غير متأول ، ولعل خبر البيهقي في سننه .

وغيره عن ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً " من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ولم يدخل الجنة " إن صح محمول على ما إذا كان اللبس محرماً بالإجماع وقد استحله فاعله من غير تأول أو على أن المراد لم يدخل الجنة مع السابقين وإلا فعدم دخول اللابس مطلقاً الجنة مشكل .

﴿ وَهُدُواْ إِلَى الطيب مِنَ القول ﴾ وهو قولهم : ﴿ الحمد للَّهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة ﴾ [الزمر : 74] كما روي عن ابن عباس ، وقيل : ما يعمه وسائر ما يقع في محاورة أهل الجنة بعضاً لبعض ، وقيل : إن هذه الهداية في الدنيا فالطيب قول لا إله إلا الله ، وفي رواية عن ابن عباس ذلك مع زيادة والحمد لله ، وزاد ابن زيد والله أكبر ، وعن السدى هو القرآن ، وحكى الماوردي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقيل : ما يعم ذلك وسائر الأذكار ﴿ وَهُدُواْ إلى صراط الحميد ﴾ أي المحمود جداً ، وإضافة ﴿ صراط ﴾ إليه قيل بيانية .

والمراد به الإسلام فإنه صراط محمود من يسلكه أو محمود هو نفسه أو عاقبته ، وقيل : الجنة وإطلاق الصراط عليها باعتبار أنها طريق للفوز بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقيل : ﴿ الحميد ﴾ هو الجنة والإضافة على ظاهرها ، والمراد بصراطها الإسلام أو الطريق المحسوس الموصل إليها يوم القيامة ، واستظهر أن المراد من الحميد هو الله عز وجل المستحق لذاه لغاية الحمد .

والمراد بصراطه تعالى الإسلام فإنه طريق إلى رضوانه تعالى .

وقيل : الجنة فإنها طريق للفوز بما تقدم وأضيفت إليه تعالى للتشريف .

وحاصل ما قالوه هنا أن الهداية تحتمل أن تكون في الآخرة وأن تكون في الدنيا .

وأن المراد بالحميد إما الحق تعالى شأنه وإما الجنة وإما الصراط نفسه ، وبالصراط إما الإسلام وإما الجنة وإما الطريق المحسوس الموصل إليها يوم القيامة .

ووجهوا تأخير هذه الجملة عن الجملة الأولى تارة بانه لرعاية الفواصل .

وأخرى بأن ذكر الحمد الذي تضمنته الأولى يستدعي ذكر المحمود ولا يبعد أن يقال : إن الهداية في الجملتين في الآخرة بعد دخول الجنة وإن الإضافة هنا بيانية وإن المراد بالقول الطيب القول الذي تستلذه النفوس الواقع في محاورة أهل الجنة بعضهم لبعض .

وبالصراط الحميد ما يسلكه أهل الجنة في معاملة بعضهم بعضاً من الأفعال التي يحمدون

عليها أو مما هو أعم من ذلك .

فحاصل الجملة الأولى وصف أهل الجنة بحسن الأقوال .

وحاصل الثانية وصفهم بحسن الأفعال أو مما هو أعم منها ومن الأقوال .

وكأنه تعالى بعد أن ذكر حسن مسكنهم وحليهم ولباسهم ذيل ذلك بحسن معاملة بعضهم بعضاً في الأقوال والأفعال إيماءاً إلى أن ما هم فيه لا يخرجهم إلى خشونة المقال ورداءة الأفعال المشينتين لحسن ما هم فيه والمنغصتين للذة الاجتماع .

ووجه التقديم والتأخير على هذا غير خفي على الفطن .

(92/521)

والذي اختاره أن القول الطيب قولهم بعد دخول الجنة ﴿ الحمد للَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الذى أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر : 34 ، 35] لقوله تعالى : في سورة فاطر بعد قوله سبحانه : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ [فاطر : 33 ، 34] الخ والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

وأن المراد بالصراط الحميد ما يعم الأقوال والأفعال الجارية بين أهل الجنة مام يحمد سلوكه

في المعاشرة والاجتماع في هاتيك البقاع فراراً من شائبة التأكيد كما لا يخفى على ذي فكر سديد فتأمل هديت إلى صراط الحميد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(93/521)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ أي بالله وبرسوله ، أو بما ذكر من الآيات البينات ﴿ والذين هَادُواْ ﴾ هم اليهود المنتسبون إلى ملة موسى ﴿ والصابئين ﴾ قوم يعبدون النجوم .

وقيل : هم من جنس النصارى وليس ذلك بصحيح بل هم فرقة معروفة لا ترجع إلى ملة من الملل المنتسبة إلى الأنبياء ﴿ والنصارى ﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى ﴿ والمجوس ﴾ هم الذين يعبدون النار ، ويقولون : إن للعالم أصلين : النور والظلمة .

وقيل : هم قوم يعبدون الشمس والقمر ، وقيل : هم قوم يستعملون النجاسات .

وقيل : هم قوم من النصارى اعتزلوهم ولبسوا المسوح .

وقيل : إنهم أخذوا بعض دين اليهود وبعض دين النصارى ﴿ والذين أَشْرَكُواْ ﴾ الذين يعبدون الأصنام ، وقد مضى تحقيق هذا في البقرة ، ولكنه سبحانه قدّم هنالك النصارى

على الصابئين ، وأخّرهم عنهم هنا .

فقيل : وجه تقديم النصارى هنالك : أنهم أهل كتاب دون الصابئين ، ووجه تقديم الصابئين هنا : أن زمنهم متقدّم على زمن النصارى ، وجملة : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ في محل رفع على أنها خبر لإنّ المتقدّمة .

ومعنى الفصل : أنه سبحانه يقضي بينهم فيدخل المؤمنين منهم الجنة والكافرين منهم النار .

وقيل : الفصل هو أن يميز المحقّ من المبطل بعلامة يعرف بها كل واحد منهما ، وجملة : ﴿ إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ تعليل لما قبلها ، أي أنه سبحانه على كل شيء من أفعال خلقه وأقوالهم شهيد لا يعزب عنه شيء منها ، وأنكر الفراء أن تكون جملة ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ خبراً لإن المتقدّمة .

وقال لا يجوز في الكلام : إن زيداً إن أخاه منطلق ، وردّ الزجاج ما قاله الفراء ، وأنكره وأنكر ما جعله مماثلاً للآية ، ولا شك في جواز قولك : إن زيداً إن الخير عنده ، وإن زيداً إنه منطلق ، ونحو ذلك .

(94/521)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السموات وَمَن فِي الأرض ﴾ الرؤية هنا هي القلبية لا البصرية ، أي ألم تعلم .

والخطاب لكل من يصلح له ، وهو من تتأتى منه الرؤية ، والمراد بالسجود هنا هو : الانقياد الكامل ، لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء ، سواء جعلت كلمة من خاصة بالعقلاء ، أو عامة لهم ولغيرهم ، ولهذا عطف ﴿ الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ﴾ على من ، فإن ذلك يفيد أن السجود هو الانقياد لا الطاعة الخاصة بالعقلاء ، وإنما أفرد هذه الأمور بالذكر مع كونها داخلة تحت من ، على تقدير جعلها عامة لكون قيام السجود بها مستبعداً في العادة ، وارتفاع ﴿ كَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ بفعل مضمر يدل عليه المذكور ، أي ويسجد له كثير من الناس .

وقيل : مرتفع على الابتداء وخبره محذوف وتقديره : وكثير من الناس يستحق الثواب ، والأوّل أظهر .

وإنما لم يرتفع بالعطف على من ، لأن سجود هؤلاء الكثير من الناس هو سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء ، والمراد بالسجود المتقدّم هو : الانقياد ، فلو ارتفع بالعطف على من لكان في ذلك جمع بين معنيين مختلفين في لفظ واحد .

وأنت خبير بأنه لا ملجىء إلى هذا بعد حمل السجود على الانقياد ، ولا شك أنه يصح أن يراد من سجود كثير من الناس هو انقيادهم لا نفس السجود الخاص ، فارتفاعه على

العطف لا بأس به ، وإن أبى ذلك صاحب الكشاف ومتابعوه ، وأما قوله : ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ فقال الكسائي والفراء : إنه مرتفع بالابتداء وخبره ما بعده .

وقيل : هو معطوف على كثير الأوّل ، ويكون المعنى : وكثير من الناس يسجد وكثير منهم يأبى ذلك ، وقيل : المعنى وكثير من الناس في الجنة ، وكثير حق عليه العذاب هكذا حكاه ابن الأنباري ﴿ وَمَن يُهِنِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ أي من أهانه الله بأن جعله كافراً شقياً ، فما له من مكرم يكرمه فيصير سعيداً عزيزاً .

(95/521)

وحكى الأخفش والكسائي والفراء أن المعنى : ومن يهن الله فما له من مكرم ، أي إكرام ﴿ إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يَشَاء ﴾ من الأشياء التي من جملتها ما تقدّم ذكره من الشقاوة والسعادة والإكرام والإهانة .

﴿ هذان خَصْمَانِ ﴾ الخصمان أحدهما أنجس الفرق : اليهود والنصارى والصابئون والمجوس والذين أشركوا ، والخصم الآخر : المسلمون ، فهما فريقان مختصمان .

قاله الفراء وغيره .

وقيل : المراد بالخصمين الجنة والنار .

قالت الجنة : خلقني لرحمته ، وقالت النار : خلقني لعقوبته .

وقيل : المراد بالخصمين : هم الذين برزوا يوم بدر ، فمن المؤمنين حمزة وعليّ وعبيدة ، ومن الكافرين : عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة .

وقد كان أبو ذرّ رضي الله عنه يقسم أن هذه الآية نزلت في هؤلاء المتبارزين كما ثبت عنه في الصحيح ، وقال بمثل هذا جماعة من الصحابة ، وهم أعرف من غيرهم بأسباب النزول .

وقد ثبت في الصحيح أيضاً عن عليّ أنه قال : فينا نزلت هذه الآية .

وقرأ ابن كثير " هذان " بتشديد النون ، وقال سبحانه : ﴿ اختصموا ﴾ ولم يقل : اختصما .

قال الفراء : لأنهم جمع ، ولو قال اختصما لجاز ، ومعنى ﴿ فِي رَبِّهِمْ ﴾ في شأن ربهم ، أي في دينه ، أو في ذاته ، أو في صفاته ، أو في شريعته لعباده ، أو في جميع ذلك .

ثم فصل سبحانه ما أجمله في قوله : ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ فقال : ﴿ فالذين كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ قال الأزهري : أي سوّيت وجعلت لبوساً لهم ، شبهت النار بالثياب ؛ لأنها مشتملة عليهم كاشتمال الثياب ، وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيهاً على تحقق وقوعه .

وقيل : إن هذه الثياب من نحاس قد أذيب فصار كالنار ، وهي السرابيل المذكورة في آية

أخرى.

وقيل: المعنى في الآية: أحاطت النار بهم.

(96/521)

وقرىء: "قُطِّعَتْ" بالتخفيف، ثم قال سبحانه: ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم ﴾ والحميم هو: الماء الحار المغلي بنار جهنم، والجملة مستأنفة أو هي خبر ثانٍ للموصول ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ ﴾ الصهر: الإذابة، والصهارة: ما ذاب منه، يقال: صهرت الشيء فانصهر، أي أذبته فذاب فهو صهير، والمعنى: أنه يذاب بذلك الحميم ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء ﴿ والجلود ﴾ معطوفة على ما، أي ويصهر به الجلود والجملة في محل نصب على الحال.

وقيل: إن الجلود لا تذاب، بل تحرق، فيقدّر فعل يناسب ذلك، ويقال: وتحرق به الجلود كما في قول الشاعر:

علفتها تبناً وماءً بارداً . . . أي وسقيتها ماء، ولا يخفى أنه لا ملجىء لهذا، فإن الحميم إذا كان يذيب ما في البطون فإذابته للجلد الظاهر بالأولى.

﴿ وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾: المقامع جمع مقمعة ومقمع، قمعته: ضربته بالمقمعة، وهي

قطعة من حديد .

والمعنى : لهم مقامع من حديد يضربون بها ، أي للكفرة ، وسميت المقامع مقامع ؛ لأنها تقمع المضروب ، أي تذلله .

قال ابن السكيت : أقمعت الرجل عني إقماعاً : إذا اطلع عليك فرددته عنك ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾ أي من النار ﴿ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ أي في النار بالضرب بالمقامع ، و﴿ مِنْ غَمّ ﴾ بدل من الضمير في منها بإعادة الجارّ أو مفعول له ، أي لأجل غمّ شديد من غموم النار ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق ﴾ هو بتقدير القول ، أي أعيدوا فيها ؛ وقيل لهم : ذوقوا عذاب الحريق ، أي العذاب المحرق ، وأصل الحريق الاسم من الاحتراق ، تحرق الشيء بالنار واحترق حرقة واحتراقاً ، والذوق مماسة يحصل معها إدراك الطعم ، وهو هنا توسع ، والمراد به إدراك الألم .

قال الزجاج : وهذا لأحد الخصمين .

(97/521)

وقال في الخصم الآخر وهم المؤمنون : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ فبيّن سبحانه حال المؤمنين بعد بيانه لحال الكافرين .

ثم بيّن الله سبحانه بعض ما أعده لهم من النعيم بعد دخولهم الجنة فقال : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ قرأ الجمهور ﴿ يحلون ﴾ بالتشديد والبناء للمفعول ، وقرىء مخففاً ، أي يحليهم الله أو الملائكة بأمره .

و" من " في قوله : ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ للتبعيض ، أي يحلون بعض أساور ، أو للبيان ، أو زائدة ، و" من " في ﴿ مّن ذَهَبٍ ﴾ للبيان ، والأساور : جمع أسورة والأسورة : جمع سوار .

وفي السوار لغتان : كسر السين وضمها ، وفيه لغة ثالثة ، وهي أسوار .

قرأ نافع وابن كثير وعاصم وشيبة ﴿ ولؤلؤاً ﴾ بالنصب عطف على محل ﴿ أساور ﴾ أي ويحلون لؤلؤاً ، أو بفعل مقدّر ينصبه ، وهكذا قرأ بالنصب يعقوب والجحدري وعيسى بن عمر ، وهذه القراءة هي الموافقة لرسم المصحف فإن هذا الحرف مكتوب فيه بالألف ، وقرأ الباقون بالجرّ عطفاً على ﴿ أساور ﴾ أي يحلون من أساور ومن لؤلؤ ، واللؤلؤ : ما يستخرج من البحر من جوف الصدف .

قال القشيري : والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ ، ولا يبعد أن يكون في الجنة سوار من لؤلؤ مصمت كما أن فيها أساور من ذهب ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ أي جميع ما يلبسونه حرير كما تفيده هذه الإضافة ، ويجوز أن يراد أن هذا النوع من الملبوس الذي كان محرّماً عليهم في الدنيا حلال لهم في الآخرة ، وأنه من جملة ما يلبسونه فيها ، ففيها ما تشتهيه

الأنفس ، وكل واحد منهم يعطى ما تشتهيه نفسه وينال ما يريده .

﴿ وَهُدُواْ إِلَى الطيب مِنَ القول ﴾ أي أرشدوا إليه ، قيل : هو لا إله إلا الله .

وقيل : الحمد لله .

وقيل : القرآن .

وقيل : هو ما يأتيهم من الله سبحانه من البشارات .

(98/521)

وقد ورد في القرآن ما يدلّ على هذا القول المجمل هنا ، وهو قوله سبحانه : ﴿ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ [الزمر : 74] ، ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي هَدَانَا لهذا ﴾ [الأعراف : 43] ، ﴿ الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ [فاطر : 34] .

ومعنى ﴿ وَهُدُواْ إلى صراط الحميد ﴾ : أنهم أرشدوا إلى الصراط المحمود وهو طريق الجنة ، أو صراط الله الذي هو دينه القويم ، وهو الإسلام .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ والصابئين ﴾ قال : هم قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون القبلة ، ويقرؤون الزبور ﴿ والمجوس ﴾ عبدة الشمس والقمر والنيران ، ﴿ والذين أَشْرَكُواْ ﴾ عبدة الأوثان ﴿ إِنَّ الله يَفْصِلُ

بَيْنَهُمْ ﴾ قال : الأديان ستة ؛ فخمسة للشيطان ، ودين الله عزّ وجلّ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال : فصل قضاءه بينهم فجعل الخمسة مشتركة وجعل هذه الأمة واحدة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : الذين هادوا : اليهود ، والصابئون : ليس لهم كتاب ، والمجوس : أصحاب الأصنام ، والمشركون : نصارى العرب .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي ذرّ أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية : ﴿ هذان خَصْمَانِ ﴾ الآية نزلت في الثلاثة والثلاثة الذين بارزوا يوم بدر ، وهم : حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث وعليّ بن أبي طالب ، وعتبة ، وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، قال عليّ : وأنا أوّل من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة .

وأخرجه البخاري وغيره من حديث عليّ .

وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس بنحوه ، وهكذا روي عن جماعة من التابعين .

(99/521)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ قال : من نحاس ، وليس من الآنية شيء إذا حمي أشدّ حرّاً

منه ، وفي قوله : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم ﴾ قال : النحاس يذاب على رؤوسهم ، وقوله : ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ ﴾ قال : تسيل أمعاؤهم ﴿ والجلود ﴾ قال : تتناثر جلودهم .

وأخرج عبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن مردويه عن أبي هريرة ؛ أنه تلا هذه الآية : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم ﴾ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان " وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ قال : يمشون وأمعاءهم تتساقط وجلودهم .

وفي قوله : ﴿ وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ قال : يضربون بها ، فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالويل والثبور .

وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : يسقون ماء إذا دخل في بطونهم أذابها والجلود مع البطون .

وأخرج أحمد ، وأبو يعلى وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في

البعث والنشور عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن مقمعاً من حديد وضع في الأرض فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الأرض ، ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان " وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها ، ثم قرأ : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ .

(100/521)

وفي الصحيحين وغيرهما عن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة " وفي الباب أحاديث .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَهُدُواْ إِلَى الطيب مِنَ القول ﴾ قال : ألهموا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : هدوا إلى الطيب من القول في الخصومة إذ قالوا : الله مولانا ولا مولى لكم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن إسماعيل بن أبي خالد في الآية قال : القرآن ﴿

وَهُدُواْ إلى صراط الحميد ﴾ قال : الإسلام .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال : الإسلام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، والحمد لله الذي قال : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ [فاطر : 10] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(101/521)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ كان مقتضى الظاهر أن يكون هذا الكلام معطوفاً بالواو على جملة ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ [الحج : 19] لأنه قسيم تلك الجملة في تفصيل الإجمال الذي في قوله : ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ [الحج : 19] بأن يقال : والذين آمنوا وعملوا الصالحات يُدخلهم الله جنات . . .

إلى آخره .

فعدل عن ذلك الأسلوب إلى هذا النظم لاسترعاء الأسماع إلى هذا الكلام إذا جاء مبتدأ

به مستقلاً مفتتحاً بحرف التأكيد ومتوّجاً باسم الجلالة ، والبليغ لا تفوته معرفة أنّ هذا الكلام قسيم للذي قبله في تفصيل إجمال ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ [الحج : 19] لوصف حال المؤمنين المقابل لحال الذين كفروا في المكان واللباس وخطاب الكرامة .

فقوله : ﴿ يدخل الذين آمنوا ﴾ الخ مقابل قوله : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ [الحج : 22] .

وقوله : ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ يقابل قوله ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ [الحج : 19] .

وقوله : ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ مقابل قوله : ﴿ قطعت لهم ثياب من نار ﴾ [الحج : 19] .

وقوله : ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ﴾ مقابل قوله : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ [الحج : 22] فإنه من القول النكِد .

والتحليّة وضع الحَلْي على أعضاء الجسم .

حَلاّه : ألبسه الحَلي مثل جلبب .

والأساور : جمع أسورة الذي هو جمع سِوار .

أشير بجمع الجمع إلى التكثير كما تقدم في قوله : ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب

ويلبسون ثياباً خضراً ﴾ في [سورة الكهف : 31] .

و(مِن) في قوله ﴿ من أساور ﴾ زائدة للتوكيد .

(102/521)

ووجهه أنه لما لم يعهد تحلية الرجال بالأساور كان الخبر عنهم بأنهم يُحلّون أساور معرّضاً للتردد في إرادة الحقيقة فجيء بالمؤكد لإفادة المعنى الحقيقي ، ولذلك ف ﴿ أساور ﴾ في موضع المفعول الثاني ل ﴿ يُحلَّون ﴾ .

﴿ ولؤلؤاً ﴾ قرأه ناقع ، ويعقوب ، وعاصم بالنصب عطفاً على محل ﴿ أساور ﴾ أي يحلون لؤلؤاً أي عقوداً ونحوها .

وقرأه الباقون بالجرّ عطفاً على اللفظ والمعنى : أساور من ذهب وأساور من لُؤلؤ .

وهي مكتوبة في المصحف بألف بعد الواو الثانية في هذه السورة فكانت قراءة جر ﴿ لؤلؤ ﴾ مخالفة لمكتوب المصحف .

والقراءة نقل ورواية فليس اتباع الخط واجباً على من يروي بما يخالفه .

وكتب نظيره في سورة فاطر بدون ألف ، والذين قرأوه بالنصب خالفوا أيضاً خط المصحف واعتمدوا روايتهم .

وسريان معنى التأكيد على القراءتين واحد لأنّ التأكيد تعلّق بالجملة كلها لا بخصوص المعطوف عليه حتى يحتاج إلى إعادة المؤكد مع المعطوف .

واللؤلؤ : الدرّ .

ويقال له الجمان والجوهر .

وهو حبوب بيضاء وصفراء ذات بريق رقراق تُستخرج من أجواف حيوان مائي حَلزوني مستقرّ في غلاف ذي دفتين مغلقتين عليه يفتحهما بحركة حيوية منه لامتصاص الماء الذي يسبح فيه ويسمى غِلافه صَدفاً ، فتوجد في جوف الحيوان حبة ذات بريق وهي تتفاوت بالكبر والصغر وبصفاء اللون وبياضه .

وهذا الحيوان يوجد في عدّة بحار : كبحر العجم وهو المسمّى بالبحرين ، وبحر الجابون ، وشط جزيرة جربة من البلاد التونسية ، وأجوده وأحسنه الذي يوجد منه في البحرين حيث مصب نهري الدجلة والفرات ، ويستخرجه غَوّاصون مدَرّبون على التقاطه من قعر البحر بالغوص ، يغوص الغائص مُشدوداً بحبل بيد مَن يمسكه على السفينة وينتشله بعد لحظة تكفيه للالتقاط .

وقد جاء وصف ذلك في قول المسيب بن علَس أو الأعشى:

لَجمانة البحريّ جاء بها . . .

غَوّاصها من لُجّة البحر

نَصفَ النّهارَ الماء غامره . . .

ورفيقه بالغيب لا يدري

(103/521)

وقال أبو ذؤيب الهذلي يصف لؤلؤة:

فجَاءَ بِها ما شئتَ من لَطَمِيّة . . .

على وجهها ماء الفرات يموج

وقد أشارت إليه آية [سورة النحل : 14] ﴿ وهو الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ ولما كانت التحلية غير اللباس جيء باسم اللباس بعد يُحَلّون ﴾ بصيغة الاسم دون (يلبسون) لتحصيل الدلالة على الثّبات والاستمرار كما دلّت صيغة ﴿ يُحَلّون ﴾ على أن التحلية متجددة بأصناف وألوان مختلفة ، ومن عموم الصيغتين يفهم تحقق مثلها في الجانب الآخر فيكون في الكلام احتباك كأنه قيل : يحلّون بها وحليتهم من أساور من ذهب ولباسهم فيها حرير يلبسونه .

والحرير : يطلق على ما نسج من خيوط الحرير كما هنا .

وأصل اسم الحرير اسم لخيوط تفرزها من لعابها دودة مخصوصة تلفّها لَفّاً بعضها إلى بعض

مثل كُبّة تلتئم مشدودة كصورة الفول السوداني تحيط بالدودة كمثل الجوزة وتمكث فيه الدودة مدّة إلى أن تتحول الدودة إلى فراشة ذات جناحين فتثقب ذلك البيت وتخرج منه .

وإنما تحصّل الخيوط من ذلك البيت بوضعها في ماء حار في درجة الغليان حتى يزول تماسكها بسبب انحلال المادة الصمغية اللعابية التي تشدها فيُطلقونها خيطاً واحداً طويلاً .

ومن تلك الخيوط تنسج ثياب تكون بالغة في اللين واللمعان .

وثياب الحرير أجود الثياب في الدنيا قديماً وحديثاً ، وأقدم ظهورها في بلاد الصين منذ خمسة آلاف سنة تقريباً حيث يكثر شجر التوت ، لأن دود الحرير لا يفرز الحرير إلا إذا كان عَلَفُه ورقَ التُّوت ، والأكثر أنه يبني بيوته في أغصان التُّوت .

وكان غير أهل الصين لا يعرفون تربية دود الحرير فلا يحصّلون الحرير إلاّ من طريق بلاد الفرس يجلبه التجار فلذلك يباع بأثمان غالية .

وكانت الأثواب الحريرية تباع بوزنها من الذهب ، ثم نقل بَزر دود الحرير الذي يتولد منه الدود إلى القسطنطينية في زمن الأمبراطور (بوستنيانوس) بين سنة 527 وسنة 565م .

ومن أصناف ثياب الحرير السندس والإستبرق وقد تقدما في سورة الكهف .

وعُرفت الأثواب الحريرية في الرومان في حدود أوائل القرن الثالث المسيحي .

ومعنى ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ﴾ أن الله يرشدهم إلى أقوال ، أي يُلهمهم أقوالاً حسنة يقولونها بينهم ، وقد ذُكر بعضها في قوله تعالى : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ [يونس : 10] وفي قوله : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾

[الزمر : 74] .

ويجوز أن يكون المعنى : أنهم يرشدون إلى أماكن يسمعون فيها أقوالاً طيبة .

وهو معنى قوله تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ [الرعد : 24] .

وهذا أشد مناسبة بمقابلة مما يسمعه أهل النار في قوله : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ [الحج : 22] .

وجملة ﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ معترضة في آخر الكلام ، والواو للاعتراض ، هي كالتكملة لوصف حسن حالهم لمناسبة ذكر الهداية في قوله : ﴿ وهدوا إلى الطيب من

القول ﴾ ، ولم يسبق مقابل لمضمون هذه الجملة بالنسبة لأحوال الكافرين وسيجيء ذكر مقابلها في قوله : ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ﴾ إلى قوله : ﴿ نذقه من عذاب أليم ﴾ [الحج : 25] وذلك من أفانين المقابلة .

والمعنى : وقد هُدُوا إلى صراط الحميد في الدنيا ، وهو دين الإسلام ، شبه بالصراط لأنه موصل إلى رضى الله .

والحميد من أسماء الله تعالى ، أي المحمود كثيراً فهو فعيل بمعنى مفعول ، فإضافة ﴿ صراط ﴾ إلى اسم "الله" لتعريف أيّ صراط هو .

ويجوز أن يكون ﴿ الحميد ﴾ صفة ل ﴿ صراط ، ﴾ أي المحمود لسالكه .

فإضافة صراط إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة ، والصراط المحمود هو صراط دين الله .

وفي هذه الجملة إيماء إلى سبب استحقاق تلك النعم أنه الهداية السابقة إلى دين الله في الحياة الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(105/521)

وقال الشيخ الشعراوى :

وبعد أن تحدثتْ الآياتُ عن الكافرين ، وما حاق بهم من العذاب كان لا بُدَّ أنْ تتحدَّث عن المقابل ، عن المؤمنين ليُجري العقلُ مقارنةً بين هذا وذاك ، فيزداد المؤمن تشبُّثاً بالإيمان ونُفْرةً من الكفر ، وكذلك الكافر ينتبه لعاقبة كُفْره فيزهد فيه ويرجع إلى الإيمان ، وهكذا ينتفع الجميع بهذه المقابلة ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يعطينا في آيات القرآن وفي المقابلات وسائل النجاة والرحمة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23) ﴾

يُبيِّن الحق سبحانه وتعالى مَا أعدّه لعباده المؤمنين حيث السكن : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار . . ﴾ [الحج : 23] والزينة : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً . . ﴾ [الحج : 23] واللباس : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج : 23] فجمع لهم نعيم السَّكَن والزينة واللباس .

وفي الآخرة يُنعَّم الرجال بالحرير وبالذهب الذي حُرِّم عليهم في الدنيا ، وهنا قد يعترض النساء ، وما النعيم في شيء تنعّمنا به في الدنيا وهو الحرير والذهب ؟

نعم تتمتعْن بالحرير والذهب في الدنيا ، أمّا في الآخرة فهو نوع آخر ومتعة كاملة لا يُنغِّصها شيء ، فالحلي للمرأة خالصٌ من المكدِّرات ، وباقٍ معها لا يأخذه أحد ، ولا تحتاج إلى

تغييره أو بيعه ؛ لأنه يتجدّد في يدها كل يوم ، فتراه على صياغة جديدة وشكل جديد غير الذي كان عليه . كما قلنا سابقاً في قوله تعالى عن أهل الجنة : ﴿ قَالُواْ هذا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ . . ﴾ [البقرة : 25] .

(106/521)

فحسبوا أن طعام الجنة وفاكهتها كفاكهة الدنيا التي أكلوها من قبل ، فيُبيِّن لهم ربهم أنها ليستْ كفاكهة الدنيا ﴿ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً . . ﴾ [البقرة : 25] يعني : أنواعاً مختلفة للصنف الواحد .

ثم يقول الحق : ﴿ وهدوا إِلَى الطيب مِنَ القول . . ﴾ .

(هُدُوا) هداهم الله ، فالذي دلّهم على وسائل دخول الجنة والتمتّع فيها بالسكن والزينة واللباس كذلك يهديهم الآن في الجنة ويدلّهم على كيفية شُكر المنعم على هذه النعمة ، هذا معنى : ﴿ وهدوا إِلَى الطيب مِنَ القول . . ﴾ [الحج : 24] هذا القول الطيب لَخَّصته آيات أخرى ، ومنها قوله تعالى : ﴿ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ . . ﴾ [الزمر : 74] .

وقوله : ﴿ الحمد للَّهِ . . * الذي أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ . . ﴾ [فاطر : 34 -

35] .

وقوله : ﴿ الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن . . ﴾ [فاطر : 34]

فحين يدخل أهل الجنةِ الجنةَ ، ويباشرون النعيم المقيم لا يملكون إلا أنْ يقولوا : الحمد لله ، كما يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [يونس : 10] .

وقالوا : ﴿ الطيب مِنَ القول . . ﴾ [الحج : 24] هو كلمة التوحيد : لا إله إلا الله ، فهذه الكلمة هي المعشوقة التي أتتْ بنا إلى الجنة ، والمعنى يسَع كل كلام طيب ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السمآء ﴾ [إبراهيم : 24] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وهدوا إلى صِرَاطِ الحميد ﴾ [الحج : 24] أي : هداهم الله إلى طريق الجنة ، أو إلى الجنة ذاتها ، كما قال في آية الكافرين : ﴿ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ . . ﴾ [النساء : 168 - 169] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(107/521)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ﴾ الآية . قال : سجود ظل هذا كله ﴿ وكثير من الناس ﴾ قال : المؤمنون ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ قال : هذا الكافر سجود ظله وهو كاره .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال : سجود كل شيء فيئه ، وسجود الجبال فيئها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الثوب يسجد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن أبي العالية رضي الله عنه قال : ما في السماء من شمس ولا قمر ولا نجم ، إلا يقع ساجداً حتى يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى معلمه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه قال : إذا فاء الفيء لم يبق شيء من دابة ولا طائر إلا خر لله ساجداً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن دينار رضي الله عنه قال : سمعت رجلاً يطوف بالبيت

ويبكي ، فإذا هو طاوس ! فقال : عجبت من بكائي ؟ قلت : نعم . قال : ورب هذه البنية ، إن هذا القمر ليبكي من خشية الله ولا ذنب له .

وأخرج أحمد في الزهد عن ابن أبي مليكة رضي الله عنه قال : مر رجل على عبد الله بن عمرو وهو ساجد في الحجر وهو يبكي فقال : أتعجب أن أبكي من خشية الله وهذا القمر يبكي من خشية الله . . . ؟

وأخرج ابن أبي حاتم عن طاوس رضي الله عنه في الآية قال : لم يستثن من هؤلاء أحداً ، حتى إذا جاء ابن آدم استثناه فقال ﴿ وكثير من الناس ﴾ قال : والذي أحق بالشكر هو أكثرهم .

(108/521)

وأخرج ابن أبي حاتم واللالكائي في السنة والخلعي في فوائده ، عن علي أنه قيل له : إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة . فقال له علي : يا عبد الله ، خلقك الله لما يشاء أو لما شئت ؟ قال : بل لما يشاء . قال : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء . قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء . قال : فيدخلك الجنة حيث شاء أو حيث شئت ؟ قال : بل حيث شاء . قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك

بالسيف .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، عن أبي ذر رضي الله عنه أنه كان يقسم قسماً إن هذه الآية ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم . . . ﴾ إلى قوله ﴿ ان الله يفعل ما يريد ﴾ نزلت في الثلاثة والثلاثة الذين تبارزوا يوم بدر وهم : حمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وعليّ بن أبي طالب ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة .

قال علي رضي الله عنه : أنا أول من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري والنسائي وابن جرير والبيهقي من طريق قيس بن عبادة ، عن علي رضي الله عنه قال : أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة . قال قيس : فيهم نزلت ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ قال : هم الذين بارزوا يوم بدر : علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد ابن عتبة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما بارز علي وحمزة وعبيدة وعتبة وشيبة والوليد ، قالوا لهم : تكلموا نعرفكم . قال : أنا علي ، وهذا حمزة ، وهذا عبيدة . فقالوا : أكفاء كرام ! فقال علي : أدعوكم إلى الله وإلى رسوله . فقال عتبة : هلم للمبارزة . فبارز علي

شيبة فلم يلبث أن قتله ، وبارز حمزة عتبة فقتله ، وبارز عبيدة الوليد فصعب عليه فأتى علي فقتله . فأنزل الله ﴿ هذان خصمان . . . ﴾ .

(109/521)

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : لما التقوا يوم بدر قال لهم عتبة بن ربيعة : لا تقتلوا هذا الرجل ، فإنه إن يكن صادقاً فأنتم أسعد الناس بصدقه ، وإن يكن كاذباً فأنتم أحق من حقن دمه . فقا أبو جهل بن هشام : لقد امتلأت رعباً . فقال عتبة : ستعلم أينا الجبان المفسد لقومه . قال : فبرز عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ، فنادوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقالوا : " ابعث إلينا أكفاءنا نقاتلهم . فوثب غلمة من الأنصار من بني الخزرج ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اجلسوا . . . قوموا يا بني هاشم . فقام حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث فبرزوا لهم ، فقال عتبة : تكلموا نعرفكم أن تكونوا أكفاءنا قاتلناكم . قال حمزة : أنا حمزة بن عبد المطلب . . . أنا أسد الله وأسد رسوله . فقال عتبة : كفء كريم ! فقال علي : أنا علي بن أبي طالب . . . فقال : كفء كريم ! فقال عبيدة . أنا عبيدة بن الحارث . . . فقال عتبة : كفء كريم ! فأخذ حمزة شيبة بن ربيعة ، وأخذ علي بن أبي طالب عتبة بن ربيعة ،

وأخذ عبيدة الوليد . فأما حمزة ، فأجاز على شيبة ، وأما علي فاختلفا ضربتين [ ] ، فأقام فأجاز على عتبة ، وأما عبيدة فأصيبت رجله . قال : فرجع هؤلاء وقتل هؤلاء ، فنادى أبو جهل وأصحابه : لنا العزى ولا عزى لكم ، فنادى منادي النبي صلى الله عليه وسلم : قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار . فأنزل الله ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم . . . ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن لاحق بن حميد قال : نزلت هذه الآية يوم بدر ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ في عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة .

ونزلت ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ إلى قوله ﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ في علي بن أبي طالب وحمزة وعبيدة بن الحارث .

(110/521)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ قال : مثل المؤمن والكافر اختصامهما في البعث .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد وعطاء بن أبي رباح والحسن قال : هم الكافرون والمؤمنون

اختصموا في ربهم .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ قال : هم أهل الكتاب ، قالوا للمؤمنين نحن أولى بالله وأقدم منكم كتاباً ، ونبينا قبل نبيكم . وقال المؤمنون : نحن أحق بالله ، آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً ، فكان ذلك خصومتهم في ربهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة قال : اختصم المسلمون وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ، ونحن أولى بالله منكم وقال المسلمون : إن كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا خاتم الأنبياء ، فنحن أولى بالله منكم ، فأفلج الله أهل الإسلام على من ناوأهم فأنزل الله ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم . . . ﴾ إلى قوله ﴿ عذاب الحريق ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ قال : هما الجنة والنار اختصمتا فقالت النار : خلقني الله لعقوبته . وقالت الجنة : خلقني الله لرحمته .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ قال : الكافر قطعت له ثياب من نار ، والمؤمن يدخله الله جنات تجري من تحتها الأنهار .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ قطعت

لهم ثياب من نار ﴾ من نحاس ، وليس من الآنية شيء إذا حمي اشتد بأحر منه . وفي قوله ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ قال : النحاس يذاب على رؤوسهم . وفي قوله ﴿ يصهر به ما في بطونهم ﴾ قال : تسيل أمعاؤهم والجلود ، قال : تتناثر جلودهم حتى يقوم كل عضو بحياله .

(111/521)

وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي ، أنه قرأ قوله ﴿ قطعت لهم ثياب من نار ﴾ قال : سبحان من قطع من النار ثياباً .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن وهب بن منبه قال : كسي أهل النار والعري كان خيراً لهم ، وأعطوا الحياة والموت كان خيراً لهم .

وأخرج عبد بن حميد والترمذي وصححه ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه ، عن أبي هريرة أنه تلا هذه الآية فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة ، حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدمه وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : يأتيه الملك يحمل الإناء بكليتين من حرارته ، فإذا أدناه من وجهه يكرهه فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه فيفدغ دماغه ، ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه . فذلك قوله ﴿ يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية ، عن سعيد ابن جبير قال : إذا جاء أهل النار في النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فاختنست جلود وجوههم ، فلو أن ماراً يمر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم بها ، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ، وهو الذي قد سقطت عنه الجلود و ﴿ يصهر به ما في بطونهم ﴾ يمشون وأمعاؤهم تساقط وجلودهم ، ثم يضربون . بمقامع من حديد فيسقط كل عضو على حياله يدعون بالويل والثبور .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴾ قال : يمشون وأمعاؤهم تساقط وجلودهم . وفي قوله ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ قال : يضربون بها فيقع كل عضو على حياله .

(112/521)

وأخرج ابن الأنباري والطستي في مسائله ، عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ يصهر ﴾ قال : يذاب ﴿ ما في بطونهم ﴾ إذا شربوا الحميم . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول الشاعر :

سخنت صهارته فظل عثانه . . . في شيطل كعب به تتردد

وظل مرتثياً للشمس تصهره . . . حتى إذا الشمس قامت جانباً عدلاً

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴾ قال : يسقون ماء إذا دخل بطونهم أذابها والجلود مع البطون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ يصهر به ما في بطونهم ﴾ قال : يذاب إذابة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك مثله .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة ﴿ يصهر به ﴾ قال : يذاب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني في قوله ﴿ يصهر به ﴾ قال : يذاب كما يذاب الشحم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن الضحاك في قوله ﴿ ولهم مقامع ﴾ قال : مطارق .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال : كان عمر يقول : أكثروا ذكر النار ، فإن حرها

شديد وإن قعرها بعيد وإن مقامعها حديد .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في البعث ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" لو أن مقمعاً من حديد وضع في الأرض فاجتمع الثقلان ، ما أقلوه في الأرض ، ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان " .

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها . ثم قرأ ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ .

(113/521)

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر القاري ، أنه قرأ هذه الآية ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم ﴾ فبكى وقال : أخبرني زيد بن أسلم في هذه الآية ان أهل النار في النار لا يتنفسون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الفضيل بن عياض في الآية قال : والله ما طمعوا في الخروج ؛ لأن الأرجل مقيدة والأيدي موثقة ، ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها .

وأخرج البخاري ومسلم عن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة " .

وأخرج النسائي والحاكم عن أبي هريرة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة ، ومن شرب في آنية الذهب والفضة لم يشرب في الآخرة " .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لباس أهل الجنة وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه ، عن ابن الزبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة " قال ابن الزبير من قبل نفسه : ومن لم يلبسه في الآخرة لم يدخل الجنة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ .

وأخرج النسائي والحاكم وابن حبان عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه " .

﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ وهدوا إلى الطيب

﴿ قال : ألهموا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ﴾ قال : في الخصومة ، إذ قالوا : الله مولانا ولا مولى لكم .

(114/521)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن إسماعيل بن أبي خالد ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ﴾ قال : القرآن ﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ قال : الإسلام .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ﴾ قال : الإخلاص ﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ قال : الإسلام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ﴾ قال : لا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله ، الذي قال ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(115/521)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ : العامَّةُ على الياءِ وفتحِ اللامِ مشددةً ، مِنْ حَلاَّه يُحَلِّيه إذا ألبسَه الحُلِيَّ . وقُرِىءَ بسكونِ الحاءِ وفتحِ اللامِ مخففةً ، وهو بمعنى الأول ، كأَنَّهم عَدَّوْه تارةً بالتضعيف وتارةً بالهمزةِ . قال أبو البقاء : " مِنْ قولك : أحلى أي ألبسَ الحُلِيَّ ، وهو بمعنى المشدَّد " .

وقرأ ابنُ عباسٍ بفتحِ الياءِ وسكونِ الحاءِ وفتحِ اللامِ مخففةً . وفيها ثلاثةُ أوجهٍ . أحدُها : أَنَّه من حَلِيَتْ المرأةُ تَحْلَى فهي حالٍ . وكذلك حَلِيَ الرجلُ فهو حالٍ ، إذا لَبِسا الحُلِيَّ أو صارا دونَ حُلِيّ . الثاني : أَنَّه من حَلِيَ بعيني كذا يَحْلَى إذا اسْتَحْسَنْته . و " مِنْ " مزيدةٌ في قولِه ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ قال : " فيكونُ المعنى : يَسْتَحْسِنون فيها الأساور الملبوسة " .

ولما نقل الشيخ هذا الوجهَ عن أبي الفضل الرازي قال : " وهذا ليس بجيد لأنه جَعَلَ حَلِيَ فعلاً متعدياً ، ولذلك حَكَم بزيادةِ " مِنْ " في الواجبِ . وليس مذهبَ البصريين . وينبغي على هذا التقديرِ أَنْ لا يجوزَ ؛ لأنه لا يُحْفَظُ بهذا المعنى إلاَّ لازماً ، فإنْ كان بهذا المعنى كانَتْ " مِنْ " للسببِ أي : بلباسِ أساورِ الذهبِ يَحْلَوْن بعينِ مَنْ رآهم ، أي : يحلى بعضُهم بعينِ بعضٍ " .

قلت : وهذا الذي نقله عن أبي الفضلِ قاله أبو البقاء ، وجَوَّز في مفعولِ الفعلِ وجهاً آخرَ

فقال : " ويجوزُ أن يكونَ مِنْ حَلِيَ بعيني كذا إذا حَسُن ، وتكونُ " مِنْ " زائدةً أو يكونُ المفعولُ محذوفاً ، و " مِنْ أساورَ " نعتٌ له " . فقد حكمَ عليه بالتعدّي ليس إلاَّ ، وجوَّز في المفعول الوجهَيْن المذكورَيْن .

(116/521)

الثالث : أنَّه مِنْ حَلِيَ بكذا إذا ظَفِرَ به ، فيكونُ التقديرُ : يَحْلَوْن بأساورَ . ف " مِنْ " بمعنى الباء . ومِنْ مجيءِ حَلِيَ بمعنى ظَفِرَ قولُهم : لم يَحْلَ فلانٌ بطائلٍ أي : لم يظفرْ به . واعلم أنَّ حَلِي بمعنى لبس الحلية ، أو بمعنى ظَفِر من مادةِ الياءِ لأنهما مِن الحِلْيَةِ . وأمَّا حَلِيَ بعيني كذا فإنه من مادة الواو لأنه من الحلاوة ، وإنما قلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها .

قوله : ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ في " مِنْ " الأولى ثلاثةُ أوجه ، أحدُها : أنها زائدةٌ ، كما تقدَّم تقريره عن الرازي وأبي البقاء . وإن لم يكنْ مِنْ أصولِ البصريين . والثاني : أنَّها للتبعيضِ أي : بعض أساور . والثالث : أنها لبيانِ الجنسِ ، قاله ابن عطية ، وبه بدأ . وفيه نظرٌ إذ لم يتقدَّمْ شيءٌ مبهمٌ . وفي " مِنْ ذهب " لابتداءِ الغايةِ ، هي نعتٌ لأساورَ كما تقدَّم .

وقرأ ابن عباس " مِنْ أَسَوِرَ " دونَ ألفٍ ولا هاءٍ ، وهو محذوفٌ مِنْ " أساورِ " كما [في]

جَنَدِلٍ والأصل جَنادِل ، قال الشيخ : " وكان قياسه صَرْفَه ؛ لأنه نَقَصَ بناؤُه فصار كجَنَدِلٍ ، لكنه قَدَّر المحذوفَ موجوداً فمعنه الصرف " .

قلت : فقد جعل أنَّ التنوينَ في جَنَدِلٍ المقصور مِنْ " جنادل " تنوينُ صَرْفٍ . وقد نصَّ بعض النحاة على أنه تنوينُ عوضٍ كهو في جَوارٍ وغَواشٍ وبابِهما .

(117/521)

قوله : ﴿ وَلُؤْلُؤاً ﴾ قرأ نافعٌ وعاصمٌ بالنصبِ . والباقون بالخفضِ . فأمَّا النصبُ ففيه أربعةُ أوجهٍ ، أحدها : أنَّه منصوبٌ بإضمار فعلٍ تقديرُه : ويُؤْتَوْن لُؤْلُؤاً . ولم يذكر الزمخشريُّ غيرَه/ ، وكذا أبو الفتح حَمَله على إضمار فعلٍ . الثاني : أنَّه منصوبٌ نَسَقاً على موضع " مِنْ أساور " ، وهذا كتخريجهم " وأرجُلَكُمْ " بالنصب عطفاً على محلِّ ﴿ برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] ، ولأن ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ في قوة : " يَلْبَسون أساور " فَحُمِل هذا عليه . والثالث : أنه عطفٌ على " أساور " ؛ لأنَّ " مِنْ " مزيدةٌ فيها كما تقدَّم تقريرُه . الرابع : أنه معطوفٌ على ذلك المفعولِ المحذوفِ . التقديرُ : يُحَلَّوْن فيها الملبوسَ مِنْ أساور ولؤلؤاً . ف " لؤلؤاً " عطفٌ على الملبوس .

وأمَّا الجرُّ فعلى وجهَيْن ، أحدُهما : عطفُه على " أساور " . والثاني : عَطْفُه على " مِنْ

ذهبٍ " لأنَّ السِّوارَ يُتَّخَذُ من اللؤلؤ أيضاً ، يُنْظَمُ بعضُه إلى بعضٍ . وقد منع أبو البقاء العطفَ على " ذهب " قال : " لأنَّ السِّوار لا يكونَ مِنْ لؤلؤ في العادة ويَصِحُّ أن يكونَ حُلِيّاً " .

واختلف الناسُ في رَسْمِ هذه اللفظةِ في الإمام : فنقل الأصمعيُّ أنها في الإمام " لؤلؤ " بغير ألفٍ بعد الواو ، ونقل الجحدريُّ أنها ثابتةٌ في الإمامِ بعد الواو . وهذا الخلافُ بعينه قراءةً وتوجيهاً جارٍ في حَرْف فاطر أيضاً .

وقرأ أبو بكر في رواية المُعَلّى بن منصور عنه " لؤلوا " بهمزةٍ أولاً وواوٍ آخِراً . وفي روايةِ يحيى عنه عكسُ ذلك .

وقرأ الفياض " ولُؤْلِيا " بواوٍ أولاً وياءٍ أخيراً ، والأصل : لُؤْلُؤاً أبدل الهمزتينِ واوَيْن ، فبقي في آخرِ الاسم واوٌ بعد ضمةٍ . فَفُعِل فيها ما فُعِل بأَدْلٍ جمعَ دَلْو : بأنْ قُلِبَتْ الواوُ ياءً والضمةُ كسرةً .

(118/521)

وقرأ ابنُ عباس : " وَلِيْلِيا " بياءَيْنِ ، فَعَل ما فَعَل الفياض ، ثم أتبعَ الواوَ الأولى للثانيةِ في القلبِ . وقرأ طلحة " وَلُوْلٍ " بالجر عطفاً على المجرورِ قبلَه . وقد تقدم ، والأصل " ولُوْلُوٍ "

بواوين ، ثم أُعِلَّ إعلالَ أَدْلٍ .

واللُّؤْلُؤُ : قيل : كِبارُ الجوهر وقيل صغارُه .

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24)

قوله : ﴿ مِنَ القول ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ حالاً من " الطيّب " ، وأن يكونَ حالاً مِن الضميرِ المستكِنِّ فيه . و " مِنْ " للتبعيضِ أو للبيانِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 255.251 ﴾

(119/521)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

التحلية تحصينٌ لهم ، وسَتْرٌ لأحْوالهم ؛ فهم للجنة زينة ، وليس لهم بالجنة زينة :

وإذا الدُرُّ زَانَ حُسْنَ وجوهٍ . . . كان للدُّرِّ حُسْنُ وَجْهِكَ زَيْنَا

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ .

الطيبُ من القول ما صَدَرَ عن قلبٍ خالصٍ ، وسِرٍّ صافٍ مما يَرْضَى به علم التوحيد ، فهو

الذي لا اعتراض عليه للأصول .

ويقال الطيب من القول ما يكون وعظاً للمسترشدين ، ويقال الطيبُ من القول هو إرشاد المريدين إلى الله .

ويقال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويقال الدعاء للمسلمين .

ويقال كلمة حقٍ عند من يُخَافُ ويُرْجَى .

ويقال الشهادتان عن قلبٍ مخلص .

ويقال ما كان قائله فيه مغفوراً وهو مُسْتَنْطَقٌ .

ويقال هو بيان الاستغفار والعبد بريءٌ من الذنوب .

ويقال الإقرار بقوله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ ﴿ الأعراف : 23] .

ويقال أَنْ تَدْعُوَ للمسلمين بما لا يكون لَكَ فيه نصيب .

وأَمَّا ﴿ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ : فالإضافة فيه كالإضافة عند قولهم : مسجد الجامع أي المسجد الجامع والصراط الحميد : الطريق المرضي وهو ما شهدت له الشريعة بالصحة ، وليس للحقيقة عليه نكير .

ويقال الصراط الحميد : ما كان طريق الاتباع دون الابتداع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 536 . 537 ﴾

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) ﴾

مطلع عنيف رعيب ، ومشهد ترتجف لهوله القلوب . يبدأ بالنداء الشامل للناس جميعاً : ﴿ يا أيها الناس ﴾ يدعوهم إلى الخوف من الله : ﴿ اتقوا ربكم ﴾ ويخوفهم ذلك اليوم العصيب : ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ .

وهكذا يبدأ بالتهويل المجمل ، وبالتجهيل الذي يلقي ظل الهول يقصر عن تعريفه التعبير ، فيقال : إنه زلزلة . وإن الزلزلة ﴿ شيء عظيم ﴾ ، من غير تحديد ولا تعريف .

ثم يأخذ في التفصيل . فإذا هو أشد رهبة من التهويل . . إذا هو مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت تنظر ولا ترى ، وتتحرك ولا تعي . وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع ينتابها . . وبالناس سكارى وما هم بسكارى ، يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة ، وفي خطواتهم المترنحة . . مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج ، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة ، بينما الخيال يتملاه . والهول الشاخص يذهله ، فلا يكاد يبلغ أقصاه . وهو هول

حي لا يقاس بالحجم والضخامة ، ولكن يقاس بوقعه في النفوس الآدمية : في المرضعات الذاهلات عما أرضعن وما تذهل المرضعة عن طفلها وفي فمه ثديها إلا للهول الذي لا يدع بقية من وعي والحوامل الملقيات حملهن ، وبالناس سكارى وما هم بسكارى : ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ . .

إنه مطلع عنيف مرهوب تتزلزل له القلوب . .

في ظل هذا الهول المروع يذكر أن هنالك من يتطاول فيجادل في الله ، ولا يستشعر تقواه : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ .

.

(121/521)

والجدال في الله ، سواء في وجوده تعالى ، أو في وحدانيته ، أو في قدرته ، أو في علمه ، أو في صفة ما من صفاته . . الجدال في شيء من هذا في ظل ذلك الهول الذي ينتظر الناس جميعاً ، والذي لا نجاة منه إلا بتقوى الله وبرضاه . . ذلك الجدال يبدو عجيباً من ذي عقل وقلب ، لا يتقي شر ذلك الهول المزلزل المجتاح .

وياليته كان جدالاً عن علم ومعرفة ويقين . ولكنه جدال ﴿ بغير علم ﴾ جدال التطاول المجرد من الدليل . جدال الضلال الناشئ من اتباع الشيطان . فهذا الصنف من الناس يجادل في الله بالهوى : ﴿ ويتبع كل شيطان مريد ﴾ عات مخالف للحق متبجح ﴿ كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ . . فهو حتم مقدور أن يضل تابعه عن الهدى والصواب ، وأن يقوده إلى عذاب السعير . . ويتهكم التعبير فيسمي قيادته أتباعه إلى عذاب السعير هداية ! ﴿ ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ . . فيالها من هداية هي الضلال المهلك المبيد !

أم إن الناس في ريب من البعث ؟ وفي شك من زلزلة الساعة ؟ إن كانوا يشكون في إعادة الحياة فليتدبروا كيف تنشأ الحياة ، ولينظروا في أنفسهم ، وفي الأرض من حولهم ، حيث تنطق لهم الدلائل بأن الأمر مألوف ميسور ؛ ولكنهم هم الذين يمرون على الدلائل في أنفسهم وفي الأرض غافلين :

﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ؛ ثم نخرجكم طفلاً ؛ ثم لتبلغوا أشدكم ؛ ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ . .

إن البعث إعادة لحياة كانت ، فهو في تقدير البشر أيسر من إنشاء الحياة . وإن لم يكن بالقياس إلى قدرة الله شيء أيسر ولا شيء أصعب . فالبدء كالإعادة أثر لتوجه الإرادة : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ، ومنطقهم ، وإدراكهم ، فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم ، وهو يقع لهم كل لحظة ، ويمر بهم في كل برهة ؛ وهو من الخوارق لو تدبروه بالعين البصيرة ، والقلب المفتوح ، والحس المدرك . ولكنهم يمرون به أو يمر بهم دون وعي ولا انتباه .

فما هؤلاء الناس ؟ ما هم ؟ من أين جاءوا ؟ وكيف كانوا ؟ وفي أي الأطوار مروا ؟

﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ .

. والإنسان ابن هذه الأرض . ومن ترابها نشأ ، ومن ترابها تكوّن ، ومن ترابها عاش . وما في جسمه من عنصر إلا له نظيره في عناصر أمة الأرض . اللهم إلا ذلك السر اللطيف الذي أودعه الله إياه ونفخه فيه من روحه ؛ وبه افتراق عن عناصر ذلك التراب . ولكنه أصلاً من التراب عنصراً وهيكلاً وغذاء . وكل عناصره المحسوسة من ذلك التراب .

ولكن أين التراب وأين الإنسان ؟ أين تلك الذرات الأولية الساذجة من ذلك الخلق السوي

المركب ، الفاعل المستجيب ، المؤثر المتأثر ، الذي يضع قدميه على الأرض ويرف بقلبه إلى السماء ؛ ويخلق بفكره فيما وراء المادة كلها ومنها ذلك التراب . .

إنها نقلة ضخمة بعيدة الأغوار والآماد ، تشهد بالقدرة التي لا يعجزها البعث ، وهي أنشأت ذلك الخلق من تراب !

﴿ ثم من نطفة . ثم من علقة . ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً . . . ﴾ .

(123/521)

والمسافة بين عناصر التراب الأولية الساذجة والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية ، مسافة هائلة ، تضمر في طياتها السر الأعظم . سر الحياة . السر الذي لم يعرف البشر عنه شيئاً يذكر ، بعد ملايين الملايين من السنين ، وبعد ما لا يحصى من تحول العناصر الساذجة إلى خلايا حية في كل لحظة من لحظات تلك الملايين . والذي لا سبيل إلى أكثر من ملاحظته وتسجيله ، دون التطلع إلى خلقه وإنشائه ، مهما طمح الإنسان ، وتعلق بأهداب المحال !

ثم يبقى بعد ذلك سر تحول تلك النطفة إلى علقة ، وتحول العلقة إلى مضغة ، وتحول المضغة إلى إنسان ! فما تلك النطفة ؟ إنها ماء الرجل . والنقطة الواحدة من هذا الماء تحمل ألوف

الحيوانات المنوية . وحيوان واحد منها هو الذي يلقح البويضة من ماء المرأة في الرحم ، ويتحد بها فتعلق في جدار الرحم .

وفي هذه البويضة الملقحة بالحيوان المنوي . . في هذه النقطة الصغيرة العالقة بجدار الرحم بقدرة القادر وبالقوة المودعة بها من لدنه في هذه النقطة تكمن جميع خصائص الإنسان المقبل : صفاته الجسدية وسماته من طول وقصر ، وضخامة وضآلة ، وقبح ووسامة ، وآفة وصحة . . كما تكمن صفاته العصبية والعقلية والنفسية : من ميول ونزعات ، وطباع واتجاهات ، وانحرافات واستعدادات . .

فمن يتصور أو يصدق أن ذلك كله كامن في تلك النقطة العالقة ؟ وأن هذه النقطة الصغيرة الضئيلة هي هذا الإنسان المعقد المركب ، الذي يختلف كل فرد من جنسه عن الآخر ، فلا يتماثل اثنان في هذه الأرض في جميع الأزمان ؟ !

ومن العلقة إلى المضغة ، وهي قطعة من دم غليظ لا تحمل سمة ولا شكلاً . ثم تخلق فتتخذ شكلها بتحولها إلى هيكل عظمي يكسى باللحم ؛ أو يلفظها الرحم قبل ذلك إن لم يكن مقدراً لها التمام .

(124/521)

﴿ لنبين لكم ﴾ . . فهنا محطة بين المضغة والطفل ، يقف السياق عندها بهذه الجملة المعترضة : ﴿ لنبين لكم ﴾ . لنبين لكم دلائل القدرة بمناسبة تبين الملامح في المضغة . وذلك على طريقة التناسق الفني في القرآن .

ثم يمضي السياق مع أطوار الجنين : ﴿ ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ فما شاء الله أن يتم تمامه أقره في الأرحام حتى يحين أجل الوضع . ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ . . ويا للمسافة الهائلة بين الطور الأول والطور الأخير !

إنها في الزمان تعادل في العادة تسعة أشهر . ولكنها أبعد من ذلك جدًّا في اختلاف طبيعة النطفة وطبيعة الطفل . النطفة التي لا ترى بالعين المجردة وهذا المخلوق البشري المعقد المركب ، ذو الأعضاء والجوارح ، والسمات والملامح ، والصفات والاستعدادات ، والميول والنزعات . .

إلا أنها المسافة التي لا يعبرها الفكر الواعي إلا وقد وقف خاشعاً أمام آثار القدرة القادرة مرات ومرات . . ثم يمضي السياق مع أطوار ذلك الطفل بعد أن يرى النور ، ويفارق المكمن الذي تمت فيه تلك الخوارق الضخام ، في خفية عن الأنظار !

﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ . . فتستوفوا نموكم العضلي ، ونموكم العقلي ، ونموكم النفسي . . وكم بين الطفل الوليد والإنسان الشديد من مسافات في المميزات أبعد من مسافات الزمان ! ولكنها تتم بيد القدرة المبدعة التي أودعت الطفل الوليد كل خصائص الإنسان

الرشيد ، وكل الاستعدادات الكامنة التي تتبدى فيه وتتكشف في أوانها ، كما أودعت النقطة العالقة بالرحم كل خصائص الطفل ، وهي ماء مهين !

﴿ ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ . .

(125/521)

فأما من يتوفى فهو صائر إلى نهاية كل حي . وأما من يرد إلى أرذل العمر فهو صفحة مفتوحة للتدبر ما تزال . فبعد العلم ، وبعد الرشد ، وبعد الوعي ، وبعد الاكتمال . . إذا هو يرتد طفلاً . طفلاً في عواطفه وانفعالاته . طفلاً في وعيه ومعلوماته . طفلاً في تقديره وتدبيره . طفلاً أقل شيء يرضيه وأقل شيء يبكيه . طفلاً في حافظته فلا تمسك شيئاً ، وفي ذاكرته فلا تستحضر شيئاً . طفلاً في أخذه الأحداث والتجارب فرادى لا يربط بينها رابط ولا تؤدي في حسه ووعيه إلى نتيجة ، لأنه ينسى أولها قبل أن يأتي على آخرها : ﴿ لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ ولكي يفلت من عقله ووعيه ذلك العلم الذي ربما تخايل به وتطاول ، وجادل في الله وصفاته بالباطل !

ثم تستطرد الآية إلى عرض مشاهد الخلق والإحياء في الأرض والنبات ، بعد عرض مشاهد الخلق والإحياء في الإنسان .

﴿ وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ .

والهمود درجة بين الحياة والموت . وهكذا تكون الأرض قبل الماء ، وهو العنصر الأصيل في الحياة والأحياء .

فإذا نزل عليها الماء ﴿ اهتزت وربت ﴾ وهي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام ، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تتشرب الماء وتنتفخ فتربو ثم تتفتح بالحياة عن النبات ﴿ من كل زوج بهيج ﴾ . وهل أبهج من الحياة وهي تتفتح بعد الكمون ، وتنتفض بعد الهمود ؟

وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أبناء الحياة جميعاً ، فيسلكهم في آية واحدة من آياته . وإنها للفتة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة . وإنها لدليل على وحدة عنصر الحياة ، وعلى وحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك . في الأرض والنبات والحيوان والإنسان .

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ﴾ . .

(126/521)

ذلك . . أي إنشاء الإنسان من التراب وتطور الجنين في مراحل تكونه ، وتطور الطفل في مراحل حياته ، وانبعاث الحياة من الأرض بعد الهمود . ذلك متعلق بأن الله هو الخالق . فهو من السنن المطردة التي تنشأ من أن خالقها هو الحق الذي لا تختل سننه ولا تتخلف . وأن اتجاه الحياة هذا الاتجاه في هذه الأطوار ليدل على الإرادة التي تدفعها وتنسق خطاها وترتب مراحلها . فهناك ارتباط وثيق بين أن الله هو الحق ، وبين هذا الاطراد والثبات والاتجاه الذي لا يحيد . ﴿ وأنه يُحيي الموتى ﴾ فإحياء الموتى هو إعادة للحياة . والذي أنشأ الحياة الأولى هو الذي ينشئها للمرة الآخرة ﴿ وأن الله يبعث من في القبور ﴾ ليلاقوا ما يستحقونه من جزاء . فهذا البعث تقتضيه حكمه الخلق والتدبير .

وإن هذه الأطوار التي يمر بها الجنين ، يمر بها الطفل بعد أن يرى النور لتشير إلى أن الإرادة المدبرة لهذه الأطوار ستدفع بالإنسان إلى حيث يبلغ كماله الممكن في دار الكمال . إذ أن الإنسان لا يبلغ كماله في حياة الأرض ، فهو يقف ثم يتراجع ﴿ لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ فلا بد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان .

فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة . . فهي تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة ، وهي تدل على البعث لأن الإرادة المدبرة تكمل تطوير الإنسان في الدار الآخرة . . وهكذا تلتقي نواميس الخلق والإعادة ، ونواميس الحياة والبعث ، ونواميس الحساب والجزاء وتشهد كلها بوجود الخالق المدبر القادر الذي ليس في

وجوده جدال . .

ومع هذه الدلائل المتضافرة فهناك من يجادل في الله :

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله . له في الدنيا خزي ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ .

.

(127/521)

والجدال في الله بعد تلك الدلائل يبدو غريباً مستنكراً . فكيف إذا كان جدالاً بغير علم . لا يستند إلى دليل ، ولا يقوم على معرفة ، ولا يستمد من كتاب ينير القلب والعقل ، ويوضح الحق ، ويهدي إلى اليقين .

والتعبير يرسم صورة لهذا الصنف من الناس . صورة فيها الكبر المتعجرف : ﴿ ثاني عطفه ﴾ مائلاً مزوراً بجنبه . فهو لا يستند إلى حق فيعوض عن هذا بالعجرفة والكبر .

﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ فلا يكتفي بأن يضل ، إنما يحمل غيره على الضلال .

هذا الكبر الضال المضل لا بد أن يقمع ، ولا بد أن يحطم : ﴿ له في الدنيا خزي ﴾ فالخزي

هو المقابل للكبر . والله لا يدع المتكبرين المتعجرفين الضالين المضلين حتى يحطم تلك الكبرياء الزائفة وينكسها ولو بعد حين . إنما يمهلهم أحياناً ليكون الخزي أعظم ، والتحقير أوقع . أما عذاب الآخرة فهو أشد وأوجع : ﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ .

وفي لحظة ينقلب ذلك الوعيد المنظور إلى واقع مشهود ، بلفتة صغيرة في السياق ، من الحكاية إلى الخطاب :

﴿ ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ . .

وكأنما هو اللحظة يلقى التقريع والتبكيت ، مع العذاب والحريق .

ويمضي السياق إلى نموذج آخر من الناس إن كان يواجه الدعوة يومذاك فهو نموذج مكرور في كل جيل ذلك الذي يزن العقيدة بميزان الربح والخسارة ؛ ويظنها صفقة في سوق التجارة :

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة . ذلك هو الخسران المبين . يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه . ذلك هو الضلال البعيد . يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ . .

إن العقيدة هي الركيزة الثابتة في حياة المؤمن ، تضطرب الدنيا من حوله فيثبت هو على هذه الركيزة وتتجاذبه الأحداث والدوافع فيتشبث هو بالصخرة التي لا تتزعزع ؛ وتتهاوى من حوله الأسناد فيستند هو إلى القاعدة التي لا تحول ولا تزول .

هذه قيمة العقيدة في حياة المؤمن . ومن ثم يجب أن يستوي عليها ، متمكناً منها ، واثقاً بها ، لا يتلجلج فيها ، ولا ينتظر عليها جزاء ، فهي في ذاتها جزاء . ذلك أنها الحمى الذي يلجأ إليه ، والسند الذي يستند عليه . أجل هي في ذاتها جزاء على تفتح القلب للنور ، وطلبه للهدى . ومن ثم يهبه الله العقيدة ليأوي إليها ، ويطمئن بها . هي في ذاتها جزاء يدرك المؤمن قيمته حين يرى الحيارى الشاردين من حوله ، تتجاذبهم الرياح ، وتتقاذفهم الزوابع ، ويستبد بهم القلق . بينما هو بعقيدته مطمئن القلب ، ثابت القدم ، هادئ البال ، موصول بالله ، مطمئن بهذا الاتصال .

أما ذلك الصنف من الناس الذي يتحدث عنه السياق فيجعل العقيدة صفقة في سورة التجارة : ﴿ فإن أصابه خير اطمأن به ﴾ وقال : إن الإيمان خير .

فها هو ذا يجلب النفع ، ويدر الضرع ، وينمي الزرع ، ويربح التجارة ، ويكفل الرواج ﴿ وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ﴾ . . خسر الدنيا بالبلاء الذي أصابه فلم يصبر عليه ، ولم يتماسك له ، ولم يرجع إلى الله فيه . وخسر الآخرة بانقلابه على وجهه ، وانكفائه عن عقيدته ، وانتكاسه عن الهدى الذي كان ميسراً له .

والتعبير القرآني يصوره في عبادته لله ﴿ على حرف ﴾ غير متمكن من العقيدة ، ولا مثبت في العبادة . يصوره في حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند الدفعة الأولى . ومن ثم ينقلب على وجهه عند مس الفتنة ، ووقفته المتأرجحة تمهد من قبل لهذا الانقلاب !

إن حساب الربح والخسارة يصلح للتجارة ، ولكنه لا يصلح للعقيدة . فالعقيدة حق يعتنق لذاته ، بانفعال القلب المتلقي للنور والهدى الذي لا يملك إلا أن ينفعل بما يتلقى . والعقيدة تحمل جزاءها في ذاتها ، بما فيها من طمأنينة وراحة ورضى ، فهي لا تطلب جزاءها خارجاً عن ذاتها .

(129/521)

والمؤمن يعبد ربه شكراً له على هدايته إليه ، وعلى اطمئنانه للقرب منه والأنس به . فإن كان هنالك جزاء فهو فضل من الله ومنة . استحقاقاً على الإيمان أو العبادة !

والمؤمن لا يجرب إلهه . فهو قابل ابتداء لكل ما يقدره له ، مستسلم ابتداء لكل ما يجربه عليه راض ابتداء بكل ما يناله من السراء والضراء . وليست هي صفقة في السوق بين بائع وشار ، إنما هي إسلام المخلوق للخالق ، صاحب الأمر فيه ، ومصدر وجوده من

الأساس .

والذي ينقلب على وجهه عند مس الفتنة يخسر الخسارة التي لا شبهة فيها ولا ريب : ﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾ . . يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضى . إلى جوار خسارة المال أو الولد ، أو الصحة ، أو أعراض الحياة الأخرى التي يفتن الله بها عباده ، ويبتلي بها ثقتهم فيه ، وصبرهم على بلائه ، وإخلاصهم أنفسهم له ، واستعدادهم لقبول قضائه وقدره . . ويخسر الآخرة وما فيها من نعيم وقربى ورضوان . فيا له من خسران ! وإلى أين يتجه هذا الذي يعبد الله على حرف ؟ إلى أين يتجه بعيداً عن الله ؟ ﴿ إنه يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ﴾ . . يدعو صنماً أو وثناً على طريقة الجاهلية الأولى . ويدعو شخصاً أو جهة أو مصلحة على طريقة الجاهليات المتناثرة في كل زمان ومكان ، كلما انحرف الناس عن الاتجاه إلى الله وحده ، والسير على صراطه ونهجه . . فما هذا كله ؟ إنه الضلال عن المتجه الوحيد الذي يجدي فيه الدعاء . ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ المغرق في البعد عن الهدى والاهتداء . . ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ من وثن أو شيطان ، أو سند من بني الإنسان . . وهذا كله لا يملك ضراً ولا نفعاً ؛ وهو أقرب لأن ينشأ عنه الضر .

وضره أقرب من نفعه . ضره في عالم الضمير بتوزيع القلب ، وإثقاله بالوهم وإثقاله بالذل .

وضره في عالم الواقع وكفى بما يعقبه في الآخرة من ضلال وخسران ﴿ لبئس المولى ﴾ ذلك الضعيف لا سلطان له في ضر أو نفع ﴿ ولبئس العشير ﴾ ذلك الذي ينشأ عنه الخسران . يستوي في ذلك المولى والعشير من الأصنام والأوثان ، والمولى والعشير من بني الإنسان ، ممن يتخذهم بعض الناس آلهة أو اشباه آلهة في كل زمان ومكان !

والله يدخر للمؤمنين به ما هو خير من عرض الحياة الدنيا كله ، حتى لو خسروا ذلك العرض كله في الفتنة والابتلاء :

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار . إن الله يفعل ما يريد ﴾ . .

فمن مسه الضر في فتنة من الفتن ، وفي ابتلاء من الابتلاءات ، فليثبت ولا يتزعزع ، وليستبق ثقته برحمة الله وعونه ، وقدرته على كشف الضراء ، وعلى العوض والجزاء .

فأما من يفقد ثقته في نصر الله في الدنيا والآخرة ؛ ويقنط من عون الله له في المحنة حين تشتد المحنة . فدونه فليفعل بنفسه ما يشاء ؛ وليذهب بنفسه كل مذهب ، فما شيء من ذلك بمبدل ما به من البلاء :

﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع

، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ !

وهو مشهد متحرك لغيظ النفس ، وللحركات المصاحبة لذلك الغيظ ، يجسم هذه الحالة التي يبلغ فيها الضيق بالنفس أقصاه ، عندما ينزل بها الضر وهي على غير اتصال بالله .

والذي ييأس في الضر من عون الله يفقد كل نافذة مضيئة ، وكل نسمة رخية ، وكل رجاء في الفرج ، ويستبد به الضيق ، ويثقل على صدره الكرب ، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء .

فمن كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى السماء يتعلق به أو يختنق . ثم ليقطع الحبل فيسقط أو ليقطع النفس فيختنق . . ثم لينظر هل ينقذه تدبيره ذاك مما يغيظه !

(131/521)

ألا إنه لا سبيل إلى احتمال البلاء إلا بالرجاء في نصر الله . ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجه إلى الله . ولا سبيل إلى الاستعلاء على الضر ، والكفاح للخلاص إلا بالاستعانة بالله . وكل حركة يائسة لا ثمرة لها ولا نتيجة إلا زيادة الكرب ، ومضاعفة الشعور به ، والعجز عن دفعه بغير عون الله . . فليستبق المكروب تلك النافذة المضيئة التي تنسم عليه من روح

الله . .

بمثل هذا البيان لحالات الهدى والضلال ، ولنماذج الهدى والضلال ، أنزل الله هذا القرآن ليهتدي به من يفتح له قلبه ، فيقسم الله له الهداية :

﴿ وكذلك أنزلناه آيات بينات ، وأن الله يهدي من يريد ﴾ . .

وإرادة الله قد قررت سبق الهدى والضلال .

فمن طلب الهدى تحققت إرادة الله بهدايته ، وفق سنته ، وكذلك من طلب الضلال . إنما يفرد هنا حالة الهدى بالذكر ، بمناسبة ما في الآيات من بيان يقتضي الهدى في القلب المستقيم .

فأما الفرق المختلفة في الاعتقاد فأمرها إلى الله يوم القيامة ، وهو العليم بكل ما في عقائدها من حق أو باطل ، ومن هدى أو ضلال :

﴿ إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا . . إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد ﴾ . .

وقد سبق تعريف هذه الفرق . وهي تذكر هنا بمناسبة أن الله يهدي من يريد ، وهو أعلم بالمهتدين والضالين ، وعليه حساب الجميع ، والأمر إليه في النهاية ، وهو على كل شيء شهيد .

وإذا كان الناس بتفكيرهم ونزعاتهم وميولهم ، فإن الكون كله فيما عداهم يتجه بفطرته إلى

خالقه ، يخضع لناموسه ، ويسجد لوجهه :

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض ، والشمس والقمر والنجوم ، والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب . ومن يهن الله فما له من مكرم . إن الله يفعل ما يشاء ﴾ . .

(132/521)

ويتدبر القلب هذا النص ، فإذا حشد من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك . وإذا حشد من الأفلاك والأجرام . مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم . وإذا حشد من الجبال والشجر والدواب في هذه الأرض التي يعيش عليها الإنسان . . إذا بتلك الحشود كلها في موكب خاشع تسجد كلها لله ، وتتجه إليه وحده دون سواه . تتجه إليه وحده في وحدة واتساق . إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذي يتفرق : ﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ فيبدو هذا الإنسان عجيباً في ذلك الموكب المتناسق .

وهنا يقرر أن من يحق عليه العذاب فقد حق عليه الهوان : ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ . . فلا كرامة إلا بإكرام الله ، ولا عزة إلا بعزة الله . وقد ذل وهان من دان لغير الديان .

ثم مشهد من مشاهد القيامة يتجلى فيه الإكرام والهوان ، في صورة واقع يشهد كأنه

معروض للعيان :

﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم . فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ؛ ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها . وذوقوا عذاب الحريق . إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ .

إنه مشهد عنيف صاخب ، حافل بالحركة ، مطوّل بالتخييل الذي يبعثه في النفس نسق التعبير ، فلا يكاد الخيال ينتهي من تتبعه في تجدُّده . .

هذه ثياب من النار تقطع وتفصل ! وهذا حميم ساخن يصب من فوق الرؤوس ، يصهر به ما في البطون والجلود عند صبه على الرؤوس ! وهذه سياط من حديد أحمته النار .

(133/521)

وهذا هو العذاب يشتد ، ويتجاوز الطاقة ، فيهب «فَالَّذِينَ كَفَرُوا» من الوهج والحميم والضرب الأليم يهمون بالخروج من هذا «الغم» وها هم أولاء يردون بعنف ، ويسمعون التأنيب : «وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ» . .

ويظل الخيال يكرر هذه المشاهد من أولى حلقاتها إلى أخراها ، حتى يصل إلى حلقة محاولة الخروج والرد العنيف ، ليبدأ في العرض من جديد ! ولا يبارح الخيال هذا المشهد العنيف المتجدد إلا أن يلتفت إلى الجانب الآخر ، الذي يستطرد السياق إلى عرضه . فأصل الموضوع أن هناك خصمين اختصموا في ربهم . فأما الذين كفروا به فقد كنا نشهد مصيرهم المفجع منذ لحظة ! وأما الذين آمنوا فهم هنالك في الجنات تجري من تحتها الأنهار .

وملابسهم لم تقطع من النار ، إنما فصلت من الحرير . ولهم فوقها حلى من الذهب واللؤلؤ وقد هداهم اللّه إلى الطيب من القول ، وهداهم إلى صراط الحميد . فلا مشقة حتى في القول أو في الطريق . . والهداية إلى الطيب من القول ، والهداية إلى صراط الحميد نعمة تذكر في مشهد النعيم . نعمة الطمأنينة واليسر والتوفيق .

وتلك عاقبة الخصام في اللّه . فهذا فريق وذلك فريق . . فليتدبر تلك العاقبة من لا تكفيه الآيات البينات ، ومن يجادل في اللّه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 4 صـ 2408 . 2415 ﴾

(134/521)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين ما للفريقين ، وتضمن ما للفريق الثاني بيان أعمالهم الدالة على صدق إيمانهم ، كرر ذكر الفريق الأول لبيان ما يدل على استمرار كفرهم ، ويؤكد بيان جزائهم ، فقال : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي أوقعوا هذا الفعل الخبيث .

ولما مان المضارع قد لا يلحظ منه زمان معين من حال أو استقبال ، بل يكون المقصود منه الدلالة على مجرد الاستمرار كقولهم : فلان يعطي ويمنع ، قال عاطفاً له على الماضي : ﴿ ويصدون ﴾ أي ويديمون الصد ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي الملك الأعظم ، باقتسامهم طرق مكة ، وقول بعضهم لمن يمر به : خرج فينا ساحر ، وآخر يقول شاعر ، وآخر : كاهن ، فلا تسمعوا منه ، فإنه يريد أن يردكم عن دينكم ؛ قال بعض من أسلم : لم يزالوا بي حتى جعلت في أذني الكرسف مخافة أن أسمع شيئاً من كلامهم .

وكانوا يؤذون من أسلم – إلى غير ذلك من أعمالهم ، ولعله إنما عبر بالمضارع رحمة منه لهم ليكون كالشرط في الكفر فيدل على أن من ترك الصد زال عنه الكفر وإن طال ذلك منه ﴿ و ﴾ يصدون عن ﴿ المسجد الحرام ﴾ أن تقام شعائره من الطواف فيه بالبيت

والصلاة والحج والاعتمار ممن هو أهل ذلك من أوليائنا .

ثم وصفه بما يبين شديد ظلمهم في الصد عنه فقال : ﴿ الذي جعلناه ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ للناس ﴾ أي كلهم ؛ ثم بين جعله لهم بقوله : ﴿ سواء العاكف فيه ﴾ أي المقيم ﴿ والباد ﴾ أي الزائر له من البادية ؛ قال الرازي في اللوامع : ﴿ سواء ﴾ رفع بالابتداء ، و ﴿ العاكف ﴾ خبره ، وصلح من تنكيره للابتداء ، لأنه كالجنس في إفادة العموم الذي هو أحسن العهد .

(135/521)

ولما ذكر الكفار ودليل كفرهم بما استعطفهم ، وزاد في الاستعطاف بحذف الخبر عنهم ، ودل آخر الآية هلى أنه يذيقهم العذاب الأليم ، عطف عليه ما ينفر عن وصفهم فقال : ﴿ ومن يرد فيه ﴾ أي شيئاً من أفعال الكفار من الصد المذكور وغيره ، أي يقع منه إرادة لشيء من ذلك ﴿ بإلحاد ﴾ أي مصاحبة تلك الإرادة وملتبسة بجور عن الأمر المعروف وميل واعوجاج .

ولما كان ذلك يقع على مطلق هذا المعنى ، بين المراد بقوله : ﴿ بظلم ﴾ أي في غير موضعه ، وأما صد الكفار عنه فإنه بحق ، لأنهم نجس لا ينبغي قربانهم المحال المقدسة ، وكذا صد

الحائض والجنب والخائن ﴿ نذقه ﴾ ولما كان المشروط نوعاً من الإلحاد ، لا الإلحاد الكامل ، عبر بقوله ﴿ من عذاب أليم ﴾ ودل هذا الخبر عمن أراد شيئاً مما فعله الكفار أن الخبر عن الكفار الفاعلين لما رتب هذا الجزاء على إرادته ما قدرته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 145.146 ﴾

(136/521)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

اعلم أنه تعالى بعد أن فصل بين الكفار والمؤمنين ذكر عظم حرمه البيت وعظم كفر هؤلاء فقال : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله والمسجد الحرام ﴾ وذلك بالمنع من الهجرة والجهاد لأنهم كانوا يأبون ذلك . وفيه إشكال وهو أنه كيف عطف المستقبل وهو قوله : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ الماضي وهو قوله : ﴿ كَفَرُواْ ﴾ والجواب : عنه من وجهين : الأول : أنه يقال فلان يحسن إلى الفقراء ويعين الضعفاء لا يراد به حال ولا استقبال وإنما يراد استمرار وجود الإحسان

منه في جميع أزمنته وأوقاته ، فكأنه قيل إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله ، ونظيره قوله : ﴿ الذين ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله ﴾ [الرعد : 28] .

وثانيهما : قال أبو علي الفارسي التقدير إن الذين كفروا فيما مضى وهم الآن يصدون ويدخل فيه أنهم يفعلون ذلك في الحال والمستقبل ، أما قوله : ﴿ والمسجد الحرام ﴾ يعني ويصدوهم (1) أيضاً عن المسجد الحرام ، قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت الآية في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية عن المسجد الحرام عن أن يحجوا ويعتمروا وينحروا الهدي فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قتالهم وكان محرماً بعمرة ثم صالحوه على أن يعود في العام القابل .

---

(1) الصواب : ويصدونهم لأنه لا داعي لحذف النون لعدم وجود ناصب أو جازم .

(137/521)

أما قوله : ﴿ الذي جعلناهِ لِلنَّاسِ سَوَاء العاكف فِيهِ والباد ﴾

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال أبو علي الفارسي أي جعلناه للناس منسكاً ومتعبداً وقوله : ﴿ سَوَاء العاكف فِيهِ

والباد ﴾ رفع على أنه خبر مبتدأ مقدم أي العاكف والباد فيه سواء ، وتقدير الآية المسجد الحرام الذي جعلناه للناس منسكاً فالعاكف والبادي فيه سواء وقرأ عاصم ويعقوب (سواء) بالنصب بإيقاع الجعل عليه لأن الجعل يتعدى إلى مفعولين ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

العاكف المقيم به الحاضر .

والبادي الطارىء من البدو وهو النازع إليه من غربته ، وقال بعضهم يدخل في العاكف القريب إذا جاور ولزمه للتعبد وإن لم يكن من أهله .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في أنهما في أي شيء يستويان قال ابن عباس رضي الله عنهما في بعض الروايات إنهما يستويان في سكنى مكة والنزول بها فليس أحدهما أحق بالمنزل الذي يكون فيه من الآخر إلا أن يكون واحد سبق إلى المنزل وهو قول قتادة وسعيد بن جبير ومن مذهب هؤلاء أن كراء دور مكة وبيعها حرام واحتجوا عليه بالآية .

والخبر ، أما الآية فهي هذه قالوا إن أرض مكة لا تملك فإنها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادي ، فلما استويا ثبت أن سبيله سبيل المساجد ، وأما الخبر فقوله عليه السلام : " مكة مباح لمن سبق إليها " وهذا مذهب ابن عمر وعمر بن عبد العزيز ومذهب أبي حنيفة وإسحق الحنظلي رضي الله عنهم وعلى هذا المراد بالمسجد الحرام الحرم كله لأن

إطلاق لفظ المسجد الحرام والمراد منه البلد جائز بدليل قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مّنَ المسجد الحرام ﴾ [الإسراء : 1] وههنا قد دل الدليل وهو قوله : ﴿ العاكف ﴾ لأن المراد منه المقيم إقامة ، وإقامته لا تكون في المسجد بل في المنازل فيجب أن يقال ذكر المسجد وأراد مكة .

(138/521)

القول الثاني : المراد جعل الله الناس في العبادة في المسجد سواء ليس للمقيم أن يمنع البادي وبالعكس قال عليه السلام : " يا بني عبد مناف من ولي منكم من أمور الناس شيئاً فلا يمنعن أحداً طاف بهذا البيت أو صلى أية ساعة من ليل أو نهار " وهذا قول الحسن ومجاهد وقول من أجاز بيع دور مكة .

وقد جرت مناظرة بين الشافعي وإسحق الحنظلي بمكة وكان إسحق لا يرخص في كراء بيوت مكة ، واحتج الشافعي رحمه الله بقوله تعالى : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن ديارهم بِغَيْرِ حَقّ ﴾ [الحج : 40] فأضيفت الدار إلى مالكها وإلى غير مالكها ، وقال عليه السلام يوم فتح مكة : ﴿ من أغلق بابه فهو آمن ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : " هل ترك لنا عقيل من ربع " وقد اشترى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما دار السجن ، أترى أنه اشتراها من

مالكها أو من غير مالكها ؟ قال إسحق : فلما علمت أن الحجة قد لزمتني تركت قولي .

أما الذي قالوه من حمل لفظ المسجد على مكة بقرينة قوله العاكف ، فضعيف لأن العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام ، أو في الأكثر فلا يلزم ما ذكروه ، ويحتمل أن يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن في كل وقت من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات .

أما قوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء ﴿يُرِدْ﴾ بفتح الياء من الورود ، ومعناه من أتى فيه بإلحاد وعن الحسن ومن يرد إلحاده بظلم ، والمعنى ومن يرد إيقاع إلحاد فيه ، فالإضافة صحيحة على الاتساع في الظرف كمكر الليل والنهار ، ومعناه ومن يرد أن يلحد فيه ظالماً .

المسألة الثانية :

الإلحاد العدول عن القصد وأصله إلحاد الحافر ، وذكر المفسرون في تفسير الإلحاد وجوهاً : أحدها : أنه الشرك ، يعني من لجأ إلى حرم الله ليشرك به عذبه الله تعالى ، وهو إحدى الروايات عن ابن عباس وقول عطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل .

وثانيها : قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في عبد الله بن سعد حيث استسلمه النبي صلى الله عليه وسلم فارتد مشركاً ، وفي قيس بن ضبابة .

وقال مقاتل : نزلت في عبد الله بن خطل حين قتل الأنصاري وهرب إلى مكة كافراً ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله يوم الفتح كافراً .

وثالثها : قتل ما نهى الله تعالى عنه من الصيد .

ورابعها : دخول مكة بغير إحرام وارتكاب ما لا يحل للمحرم .

وخامسها : أنه الاحتكار عن مجاهد وسعيد بن جبير .

وسادسها : المنع من عمارته .

وسابعها : عن عطاء قول الرجل في المبايعة لا والله وبلى والله .

وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم ، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل ، فقيل له فقال : كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل لا والله وبلى والله .

وثامنها : وهو قول المحققين : أن الإلحاد بظلم عام في كل المعاصي ، لأن كل ذلك صغر أم كبر يكون هناك أعظم منه في سائر البقاع حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه : لو أن رجلاً بعدن هم بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً .

وقال مجاهد : تضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات ، فإن قيل كيف يقال ذلك مع أن قوله : ﴿ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ غير لائق بكل المعاصي قلنا لا نسلم ، فإن كل عذاب يكون أليماً ، إلا أنه تختلف مراتبه على حسب اختلاف المعصية .

المسألة الثالثة :

الباء في قوله : ﴿ بِإِلْحَادٍ ﴾ فيه قولاه : أحدهما : وهو الأولى وهو اختيار صاحب "الكشاف" أن قوله : ﴿ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مراداً ما عادلاً عن القصد ظالماً نذقه من عذاب أليم ، يعني أن الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده .

الثاني : قال أبو عبيدة : مجازه ومن يرد فيه إلحاداً والباء من حروف الزوائد .

المسألة الرابعة :

(140/521)

لما كان الإلحاد بمعنى الميل من أمر إلى أمر بين الله تعالى أن المراد بهذا الإلحاد ما يكون ميلاً إلى الظلم ، فلهذا قرن الظلم بالإلحاد لأنه لا معصية كبرت أم صغرت إلا وهو ظلم ، ولذلك

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] أما قوله تعالى : ﴿ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فهو بيان الوعيد وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

من قال الآية نزلت في ابن خطل قال : المراد بالعذاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله يوم الفتح ، ولا وجه للتخصيص إذا أمكن التعميم ، بل يجب أن يكون المراد العذاب في الآخرة لأنه من أعظم ما يتوعد به .

المسألة الثانية :

أن هذه الآية تدل على أن المرء يستحق العذاب بإرادته للظلم كما يستحقه على عمل جوارحه .

المسألة الثالثة :

ذكروا قولين في خبر إن المذكور في أول الآية : الأول : التقدير إن الذين كفروا ويصدون ومن يرد فيه بإلحاد نذقه من عذاب فهو عائد إلى كلتا الجملتين .

الثاني : أنه محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره : إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم .

وكل من ارتكب فيه ذنباً فهو كذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 21 ـ 24 ﴾.

وقال الجصاص :

بَابُ بَيْعِ أَرَاضِي مَكَّةَ وَإِجَارَةِ بُيُوتِهَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ ر

وَى إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُهَاجِرٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَكَّةُ مُنَاخٌ لَا تُبَاعُ رِبَاعُهَا وَلَا تُؤَاجَرُ بُيُوتُهَا ﴾ .

وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : "كَانُوا يَرَوْنَ الْحَرَمَ كُلَّهُ مَسْجِدًا سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي" .

وَرَوَى يَزِيدُ بْنُ أَبِي زِيَادٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ : ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ قَالَ : "مَنْ يَجِيءُ مِنْ الْحَاجِّ وَالْمُعْتَمِرِينَ سَوَاءٌ فِي الْمَنَازِلِ يَنْزِلُونَ حَيْثُ شَاءُوا غَيْرَ أَنْ لَا يُخْرِجَ مِنْ بَيْتِهِ سَاكِنَهُ" قَالَ : وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ قَالَ : ﴿ الْعَاكِفُ فِيهِ ﴾ : أَهْلُهُ ، ﴿ وَالْبَادِ ﴾ : مَنْ يَأْتِيهِ مِنْ أَرْضٍ أُخْرَى وَأَهْلُهُ فِي الْمَنْزِلِ سَوَاءٌ ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْ الْبَادِي إجَارَةَ الْمَنْزِلِ .

وَرَوَى جَعْفَرُ بْنُ عَوْنٍ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ إبْرَاهِيمَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

﴿ مَكَّةُ حَرَّمَهَا اللَّهُ لَا يَحِلُّ بَيْعُ رِبَاعِهَا وَلَا إِجَارَةُ بُيُوتِهَا ﴾ .

وَرَوَى أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَهُ .

(142/521)

وَرَوَى عِيسَى بْنُ يُونُسَ عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي حُسَيْنٍ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ نَضْلَةَ قَالَ : "كَانَتْ رِبَاعُ مَكَّةَ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَزَمَانِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ تُسَمَّى السَّوَائِبَ مَنْ احْتَاجَ سَكَنَ وَمَنْ اسْتَغْنَى سَكَنَ " .

وَرَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : قَالَ عُمَرُ : "يَا أَهْلَ مَكَّةَ لَا تَتَّخِذُوا لِدُورِكُمْ أَبْوَابًا لِيَنْزِلَ الْبَادِي حَيْثُ شَاءَ " .

وَرَوَى عُبَيْدُ اللَّهِ عَنْ

نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ : " أَنَّ عُمَرَ نَهَى أَهْلَ مَكَّةَ أَنْ يُغْلِقُوا أَبْوَابَ دُورِهِمْ دُونَ الْحَاجِّ " .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : " مَنْ أَكَلَ كِرَاءَ بُيُوتِ مَكَّةَ فَإِنَّمَا أَكَلَ نَارًا فِي بَطْنِهِ " .

وَرَوَى عُثْمَانُ بْنُ الْأَسْوَدِ عَنْ عَطَاءٍ قَالَ : "يُكْرَهُ بَيْعُ بُيُوتِ مَكَّةَ وَكِرَاؤُهَا " .

وَرَوَى لَيْثٌ عَنْ الْقَاسِمِ قَالَ : " مَنْ أَكَلَ كِرَاءَ بُيُوتِ مَكَّةَ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ نَارًا " .

وَرَوَى مَعْمَرٌ عَنْ لَيْثٍ عَنْ عَطَاءٍ وَطَاوُسٍ وَمُجَاهِدٍ : "كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَبِيعُوا شَيْئًا مِنْ رِبَاعِ مَكَّةَ" .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا ، وَرُوِيَ عَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَا وَصَفْنَا مِنْ كَرَاهَةِ بَيْعِ بُيُوتِ مَكَّةَ وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ فِيهَا سَوَاءٌ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَأْوِيلَهُمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ لِلْحَرَمِ كُلِّهِ .

(143/521)

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ قَوْمٍ إبَاحَةُ بَيْعِ بُيُوتِ مَكَّةَ وَكِرَاؤُهَا ، وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ حُجَيْرٍ قَالَ : كَانَ لِي بَيْتٌ بِمَكَّةَ فَكُنْتُ أُكْرِيهِ ، فَسَأَلْتُ طَاوُسًا فَأَمَرَنِي بِأَكْلِهِ .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ : ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ قَالَا : "سَوَاءٌ فِي تَعْظِيمِ الْبَلَدِ وَتَحْرِيمِهِ" وَرَوَى عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ فَرُّوخَ قَالَ : "اشْتَرَى نَافِعُ بْنُ عَبْدِ الْحَارِثِ دَارَ السِّجْنِ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مِنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ فَإِنْ رَضِيَ عُمَرُ فَالْبَيْعُ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَرْضَ عُمَرُ فَلِصَفْوَانَ أَرْبَعُمِائَةِ دِرْهَمٍ" زَادَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَنْ مَعْمَرٍ : "فَأَخَذَهَا عُمَرُ" .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : "لَا بَأْسَ بِبَيْعِ بِنَاءِ بُيُوتِ مَكَّةَ وَأَكْرَهُ بَيْعَ أَرَاضِيهَا" وَرَوَى سُلَيْمَانُ عَنْ

مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ قَالَ : " أَكْرَهُ إجَارَةَ بُيُوتِ مَكَّةَ فِي الْمَوْسِمِ وَفِي الرَّجُلِ يُقِيمُ ثُمَّ يَرْجِعُ ، فَأَمَّا الْمُقِيمُ وَالْمُجَاوِرُ فَلَا نَرَى بِأَخْذِ ذَلِكَ مِنْهُمْ بَأْسًا " .

وَرَوَى الْحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّ بَيْعَ دُورِ مَكَّةَ جَائِزٌ .

(144/521)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمْ يَتَأَوَّلْ هَؤُلَاءِ السَّلَفُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ عَلَى الْحَرَمِ كُلِّهِ إلَّا وَالِاسْمُ شَامِلٌ لَهُ مِنْ طَرِيقِ الشَّرْعِ ، إذْ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَتَأَوَّلَ الْآيَةَ عَلَى مَعْنًى لَا يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا وُقُوعَ اسْمِ الْمَسْجِدِ عَلَى الْحَرَمِ مِنْ طَرِيقِ التَّوْقِيفِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وَالْمُرَادُ فِيمَا رُوِيَ : الْحُدَيْبِيَةُ ، وَهِيَ بَعِيدَةٌ مِنْ الْمَسْجِدِ قَرِيبَةٌ مِنْ الْحَرَمِ ، وَرُوِيَ أَنَّهَا عَلَى شَفِيرِ الْحَرَمِ .

وَرَوَى الْمِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ : " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مَضْرِبُهُ فِي الْحِلِّ وَمُصَلَّاهُ فِي الْحَرَمِ " وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ هَهُنَا الْحَرَمَ كُلَّهُ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وَالْمُرَادُ إخْرَاجُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مَكَّةَ حِينَ هَاجَرُوا إلَى الْمَدِينَةِ ، فَجَعَلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ عِبَارَةً عَنْ الْحَرَمِ .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ جَمِيعُ الْحَرَمِ كُلِّهِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وَالْمُرَادُ بِهِ مَنْ انْتَهَكَ حُرْمَةَ الْحَرَمِ بِالظُّلْمِ فِيهِ .

(145/521)

وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ اقْتَضَى قَوْلُهُ : ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ تَسَاوِيَ النَّاسِ كُلِّهِمْ فِي سُكْنَاهُ وَالْمُقَامِ بِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : يُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ أَنَّهُمْ مُتَسَاوُونَ فِي وُجُوبِ اعْتِقَادِ تَعْظِيمِهِ وَحُرْمَتِهِ .

قِيلَ لَهُ : هُوَ عَلَى الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا مِنْ

اعْتِقَادِ تَعْظِيمِهِ وَحُرْمَتِهِ وَمِنْ تَسَاوِيهِمْ فِي سُكْنَاهُ وَالْمُقَامِ بِهِ ، وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ وَجَبَ أَنْ لَا يَجُوزَ بَيْعُهُ ؛ لِأَنَّ لِغَيْرِ الْمُشْتَرِي سُكْنَاهُ كَمَا لِلْمُشْتَرِي فَلَا يَصِحُّ لِلْمُشْتَرِي تَسَلُّمُهُ وَالِانْتِفَاعُ بِهِ حَسَبَ الِانْتِفَاعِ بِالْأَمْلَاكِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَمْلُوكٍ ، وَأَمَّا إجَارَةُ الْبُيُوتِ فَإِنَّمَا أَجَازَهَا أَبُو حَنِيفَةَ إذَا كَانَ الْبِنَاءُ مِلْكًا لِلْمُؤَاجِرِ فَيَأْخُذُ أُجْرَةَ مِلْكِهِ ، فَأَمَّا أُجْرَةُ الْأَرْضِ فَلَا تَجُوزُ ، وَهُوَ مِثْلُ بِنَاءِ الرَّجُلِ فِي أَرْضٍ لِآخَرَ يَكُونُ لِصَاحِبِ الْبِنَاءِ إجَارَةُ الْبِنَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ السَّلَفِ أَنَّ الْعَاكِفَ أَهْلُهُ وَالْبَادِيَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ فَإِنَّ الْإِلْحَادَ هُوَ الْمَيْلُ عَنْ الْحَقِّ إلَى الْبَاطِلِ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ اللَّحْدُ فِي الْقَبْرِ ؛ لِأَنَّهُ مَائِلٌ إلَى شِقِّ الْقَبْرِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ أَيْ لِسَانُ الَّذِي يُومِئُونَ إلَيْهِ .

(146/521)

وَ " الْبَاءُ " فِي قَوْلِهِ : ﴿ بِإِلْحَادٍ ﴾ زَائِدَةٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ أَيْ تُنْبِتُ الدُّهْنَ ، وقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ ظُلْمُ الْخَادِمِ فَمَا فَوْقَهُ بِمَكَّةَ إلْحَادٌ " .

وَقَالَ عُمَرُ احْتِكَارُ الطَّعَامِ بِمَكَّةَ إلْحَادٌ " .

وَقَالَ غَيْرُهُ : " الْإِلْحَادُ بِمَكَّةَ الذُّنُوبُ " .

وَقَالَ الْحَسَنُ : " أَرَادَ بِالْإِلْحَادِ الْإِشْرَاكَ بِاللَّهِ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْإِلْحَادُ مَذْمُومٌ ؛ لِأَنَّهُ اسْمٌ لِلْمَيْلِ عَنْ الْحَقِّ وَلَا يُطْلَقُ فِي الْمَيْلِ عَنْ الْبَاطِلِ إلَى الْحَقِّ ، فَالْإِلْحَادُ اسْمٌ مَذْمُومٌ ، وَخَصَّ اللَّهُ تَعَالَى الْحَرَمَ بِالْوَعِيدِ فِي الْمُلْحِدِ فِيهِ تَعْظِيمًا لِحُرْمَتِهِ .

وَلَمْ يَخْتَلِفْ الْمُتَأَوِّلُونَ لِلْآيَةِ أَنَّ الْوَعِيدَ فِي الْإِلْحَادِ مُرَادٌ بِهِ مَنْ أَلْحَدَ فِي الْحَرَمِ كُلِّهِ وَأَنَّهُ غَيْرُ مَخْصُوصٍ بِهِ الْمَسْجِدُ ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ قَدْ أُرِيدَ بِهِ الْحَرَمُ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ﴾ هَذِهِ الْهَاءُ كِنَايَةٌ عَنْ الْحَرَمِ وَلَيْسَ لِلْحَرَمِ ذِكْرٌ مُتَقَدِّمٌ إلَّا قَوْلَهُ : ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَسْجِدِ هَهُنَا الْحَرَمُ كُلُّهُ .

وَقَدْ رَوَى عُمَارَةُ بْنُ ثَوْبَانَ قَالَ : أَخْبَرَنِي مُوسَى بْنُ زِيَادٍ قَالَ : سَمِعْتُ يَعْلَى بْنَ أُمَيَّةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﴿ احْتِكَارُ الطَّعَامِ بِمَكَّةَ إلْحَادٌ ﴾ .

(147/521)

وَرَوَى عُثْمَانُ بْنُ الْأَسْوَدِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : " بَيْعُ الطَّعَامِ بِمَكَّةَ إلْحَادٌ ، وَلَيْسَ الْجَالِبُ كَالْمُقِيمِ " .

وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ الذُّنُوبِ مُرَادًا بِقَوْلِهِ : ﴿ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ فَيَكُونُ الِاحْتِكَارُ مِنْ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ الظُّلْمُ وَالشِّرْكُ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الذَّنْبَ فِي الْحَرَمِ أَعْظَمُ مِنْهُ فِي غَيْرِهِ .

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مَنْ كَرِهَ الْجِوَارَ بِمَكَّةَ ذَهَبَ إلَى أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ الذُّنُوبُ بِهَا تَتَضَاعَفُ عُقُوبَتُهَا آثَرُوا السَّلَامَةَ فِي تَرْكِ الْجِوَارِ بِهَا مَخَافَةَ مُوَاقَعَةِ الذُّنُوبِ الَّتِي تَتَضَاعَفُ عُقُوبَتُهَا .

وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يُلْحِدُ بِمَكَّةَ رَجُلٌ عَلَيْهِ مِثْلُ نِصْفِ عَذَابِ أَهْلِ الْأَرْضِ ﴾ وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَعْتَى النَّاسِ عَلَى اللَّهِ رَجُلٌ قَتَلَ فِي الْحَرَمِ وَرَجُلٌ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ وَرَجُلٌ قَتَلَ بِذُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(148/521)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رُوِيَ ﴿ أَنَّهَا نَزَلَتْ حِينَ خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَةِ عَامَ سِتٍّ ، فَصَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ عَنْ دُخُولِ الْبَيْتِ ، وَمَنَعُوهُ ، فَقَاضَاهُمْ عَلَى الْعَامِ الْمُسْتَقْبَلِ ، وَقَضَى عُمْرَتَهُ فِي مَكَانِهِ ، وَنَحَرَ هَدْيَهُ ، وَحَلَقَ رَأْسَهُ ، وَرَجَعَ إلَى الْمَدِينَةِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ الْمَسْجِدَ نَفْسَهُ ، دُونَ الْحَرَمِ ؛ وَهُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ ؛

لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ غَيْرَهُ .

الثَّانِي : أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ الْحَرَمَ كُلَّهُ ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ صَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ عَنْهُ ، فَنَزَلَ خَارِجًا مِنْهُ فِي الْحِلِّ ، وَعَيَّرَهُمْ اللَّهُ بِذَلِكَ ، وَدَلَّ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ : ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ، فَصِفَةُ الْحَرَامِ تَقْتَضِي الْحَرَمَ كُلَّهُ ، ؛ لِأَنَّهُ بِصِفَتِهِ فِي التَّحْرِيمِ ، وَآخِذٌ بِجَزَاءٍ عَظِيمٍ مِنْ التَّكْرِمَةِ وَالتَّعْظِيمِ بِإِجْمَاعٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ؛ أَلَا تَرَى إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ ﴾ ، وَكَانَ الْحَرَمُ مِثْلَهُ ؛ لِأَنَّهُ حَرِيمُهُ ، وَحَرِيمُ الدَّارِ مِنْ الدَّارِ .

(149/521)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ ﴾ يُرِيدُ خَلَقْنَاهُ لَهُمْ ، وَسَمَّيْنَاهُ ، وَوَضَعْنَاهُ شَرْعًا وَدِينًا ، وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى الْجَعْلِ وَتَصَرُّفَاتِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ ﴾ .

يَعْنِي الْمُقِيمَ ، وَكَذَلِكَ اسْمُهُ فِي اللُّغَةِ .

وَالْبَادِي : يُرِيدُ

الطَّارِئَ عَلَيْهِ .

وَقَدْ قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : سَأَلْت مَالِكًا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ : ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ فَقَالَ لِي مَالِكٌ : السَّعَةُ وَالْأَمْنُ وَالْحَقُّ .

قَالَ مَالِكٌ : وَقَدْ كَانَتْ الْفَسَاطِيطُ تُضْرَبُ فِي الدُّورِ يَنْزِلُهَا النَّاسُ .

وَالْبَادِي أَهْلُ الْبَادِيَةِ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ يَقْدُمُ عَلَيْهِمْ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ الْبَدْوِ ﴾ قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : وَسُئِلَ مَالِكٌ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : سَوَاءٌ فِي الْحَقِّ وَالسَّعَةِ ، وَالْبَادِي أَهْلُ الْبَادِيَةِ ، وَمَنْ يَقْدُمُ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ كَانَتْ تُضْرَبُ الْفَسَاطِيطُ فِي الدُّورِ ، وَلَقَدْ سَمِعْت أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يَنْزِعُ أَبْوَابَ مَكَّةَ إذَا قَدِمَ النَّاسُ .

قَالَ : وَالْحَجُّ كُلُّهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : فِي الْمَعْنَى الَّذِي فِيهِ التَّسْوِيَةُ : وَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : فِي دُورِهِ وَمَنَازِلِهِ ، لَيْسَ الْمُقِيمُ فِيهَا أَوْلَى بِهَا مِنْ الطَّارِئِ عَلَيْهَا .

هَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَمَالِكٍ كَمَا تَقَدَّمَ وَغَيْرِهِ .

الثَّانِي : أَنَّهُمَا فِي الْحَقِّ سَوَاءٌ وَالْحُرْمَةُ وَالنُّسُكُ .

(150/521)

وَالصَّحِيحُ عُمُومُ التَّسْوِيَةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، كَمَا قَالَ مَالِكٌ ، وَعَلَيْهِ حَمَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ فِي الْمَوْسِمِ بِقَلْعِ أَبْوَابِ دُورِ مَكَّةَ حَتَّى يَدْخُلَهَا الَّذِي يَقْدُمُ ، فَيَنْزِلُ حَيْثُ شَاءَ ، وَهَذَا يَنْبَنِي عَلَى أَصْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ دُورَ مَكَّةَ [هَلْ هِيَ] مِلْكٌ لِأَرْبَابِهَا أَمْ هِيَ لِلنَّاسِ ؟ الثَّانِي : يَنْبَنِي عَلَيْهِ هَذَا الْأَصْلُ ، وَهُوَ أَنَّ مَكَّةَ هَلْ افْتُتِحَتْ عَنْوَةً أَوْ صُلْحًا ؟ وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِيمَا تَقَدَّمَ .

وَقَدْ رَوَى عَلْقَمَةُ بْنُ نَضْلَةَ قَالَ : تُوُفِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَمَا نَرَى رِبَاعَ مَكَّةَ إلَّا السَّوَائِبَ ، مَنْ احْتَاجَ سَكَنَ ، وَمَنْ اسْتَغْنَى أَسْكَنَ .

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ الْقَوْلَ فِي رِبَاعِ مَكَّةَ .

وَالَّذِي عِنْدِي الْآنَ

فِيهَا ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ افْتَتَحَ مَكَّةَ عَنْوَةً ، لَكِنَّهُ مَنَّ عَلَيْهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ، فَسُمُّوا الطُّلَقَاءَ ، وَمَنَّ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ ، أَمَرَ مُنَادِيَهُ فَنَادَى : مَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَتَرَكَهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ عَلَى أَحْوَالِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وَلَكِنَّ النَّاسَ إذَا كَثُرُوا وَارِدِينَ عَلَيْهِمْ شَارَكُوهُمْ بِحُكْمِ الْحَاجَةِ إلَى ذَلِكَ .

وَقَدْ رَوَى نَافِعٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ كَانَ نَهَى أَنْ تُغْلَقَ مَكَّةُ زَمَنَ الْحَاجِّ ، وَأَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَنْزِلُونَ مِنْهَا حَيْثُ وَجَدُوا فَارِغًا ، حَتَّى كَانُوا يَضْرِبُونَ الْفَسَاطِيطَ فِي جَوْفِ الدُّورِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي دُخُولِ الْبَاءِ هَاهُنَا ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّهَا زَائِدَةٌ ، كَزِيَادَتِهَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ ، وَعَلَيْهِ حَمَلُوا قَوْلَ الشَّاعِرِ : نَحْنُ بَنُو جَعْدَةَ أَصْحَابُ الْفَلَجْ نَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَنَرْجُو بِالْفَرَجْ أَرَادَ وَنَرْجُو الْفَرَجَ .

وَهَذَا مِمَّا لَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ فِي سَبِيلِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ لِأَنَّ حَمْلَ الْمَعْنَى عَلَى الْفِعْلِ أَوْلَى مِنْ حَمْلِهِ عَلَى الْحَرْفِ .

فَيُقَالُ الْمَعْنَى : وَمَنْ يُهِمُّ فِيهِ بِمِيلٍ يَكُونُ ذَلِكَ الْمَيْلُ ظُلْمًا ؛ لِأَنَّ الْإِلْحَادَ هُوَ الْمَيْلُ فِي اللُّغَةِ ، إلَّا أَنَّهُ قَدْ صَارَ فِي عُرْفِ الشَّرِيعَةِ مَيْلًا مَذْمُومًا ، فَرَفَعَ اللَّهُ الْإِشْكَالَ ، وَبَيَّنَ أَنَّ الْمَيْلَ بِالظُّلْمِ هُوَ الْمُرَادُ هَاهُنَا ، وَالظُّلْمُ فِي الْحَقِيقَةِ لُغَةً وَشَرْعًا وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، وَذَلِكَ يَكُونُ بِالذُّنُوبِ الْمُطْلَقَةِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَنَفْسِهِ ، وَبِالذُّنُوبِ الْمُتَعَدِّيَةِ إلَى الْخَلْقِ ، وَهُوَ أَعْظَمُ .

(152/521)

وَلِذَلِكَ كَانَ ابْنُ عُمَرَ لَهُ فُسْطَاطَانِ : أَحَدُهُمَا فِي الْحِلِّ ، وَالْآخَرُ فِي الْحَرَمِ ؛ فَكَانَ إذَا أَرَادَ الصَّلَاةَ دَخَلَ فُسْطَاطَ الْحَرَمِ ، وَإِذَا أَرَادَ الْأَمْرَ لِبَعْضِ شَأْنِهِ دَخَلَ فُسْطَاطَ الْحِلِّ ، صِيَانَةً

لِلْحَرَمِ عَنْ قَوْلِهِمْ : كَلَّا وَاللَّهِ ، وَبَلَى وَاللَّهِ ، حِينَ عَظَّمَ اللَّهُ الذَّنْبَ فِيهِ ، وَبَيَّنَ أَنَّ الْجِنَايَاتِ تُعَظَّمُ عَلَى قَدْرِ عِظَمِ الزَّمَانِ ، كَالْأَشْهُرِ الْحُرُمِ ، وَعَلَى قَدْرِ عِظَمِ الْمَكَانِ ، كَالْبَلَدِ الْحَرَامِ ، فَتَكُونُ الْمَعْصِيَةُ مَعْصِيَتَيْنِ : إحْدَاهُمَا بِنَفْسِ الْمُخَالَفَةِ ، وَالثَّانِيَةُ بِإِسْقَاطِ حُرْمَةِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، أَوْ الْبَلَدِ الْحَرَامِ فَإِنْ أَشْرَكَ فِيهِ أَحَدٌ فَقَدْ أَعْظَمَ الذَّنْبَ ، وَمَنْ اسْتَحَلَّهُ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ أَعْظَمَ الذَّنْبَ ، وَمَنْ اسْتَحَلَّهُ مُتَأَوِّلًا فَقَدْ أَعْظَمَ الذَّنْبَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ فِيهَا بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُولُوا : إنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ ﴾ .

وَهَذَا نَصٌّ .

(153/521)

وَقَدْ قَالَ أَبُو شُرَيْحٍ الْعَدَوِيُّ لِعَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ الْعَاصِي ، وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إلَى مَكَّةَ : ﴿ ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ أُحَدِّثْك قَوْلًا قَامَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْغَدَ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ ، سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ ، وَوَعَاهُ قَلْبِي ، وَأَبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ ، حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ : حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : إنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ ، لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ

فِيهَا دَمًا ، أَوْ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُولُوا لَهُ : إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لَهُ فِيهِ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ﴾ .

فَقِيلَ لِأَبِي شُرَيْحٍ : مَا قَالَ لَك عَمْرٌو ؟ قَالَ : أَنَا أَعْلَمُ مِنْك بِذَلِكَ يَا أَبَا شُرَيْحٍ ، إنَّ الْحَرَمَ لَا يُعِيذُ عَاصِيًا ، وَلَا فَارًّا بِدَمٍ ، وَلَا فَارًّا بِخَرْبَةٍ .

وَهَذَا مِنْ احْتِجَاجِ عَمْرٍو بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ قَائِمًا بِالْحَقِّ ، عَادِلًا فِي الْحَرَمِ ، دَاعِيًا إلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(154/521)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنه أراد المسجد نفسه ، ومعنى قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ ﴾ أي قبلة لصلاتهم ومنسكاً لحجهم .

﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ ﴾ وهو المقيم ، ﴿ وَالْبَادِ ﴾ وهو الطارىء إليه ، وهذا قول ابن عباس .

والقول الثاني : أن المراد بالمسجد الحرام جميع الحرم ، وعلى هذا في قوله :

﴿ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ وجهان

: أحدهما : أنهم سواء في دوره ومنازله ، وليس العاكف المقيم أولى بها من البادي المسافر ، وهذا قول مجاهد ومَنْ منع بيع دور مكة كأبي حنيفة .

والثاني : أنهما سواء في أن من دخله كان آمناً ، وأنه لا يقتل بها صيداً ولا يعضد بها شجراً .

﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ والإلحاد : الميل عن الحق والباء في قوله : ﴿ بِإِلْحَادٍ ﴾ زائدة كزيادتها في قوله تعالى : ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ [المؤمنون : 20] ومثلها في قول الشاعر :

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج . . . نضرب بالسيف ونرجو بالفَرَجِ

أي نرجو الفرج ، فيكون تقدير الكلام : ومن يرد فيه إلحاداً بظلم

. وفي الإلحاد بالظلم أربعة تأويلات :

أحدها : أنه الشرك بالله بأن يعبد فيه غير الله ، وهذا قول مجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنه استحلال الحرام فيه ، وهذا قول ابن مسعود .

والثالث : استحلال الحرام متعمداً ، وهذا قول ابن عباس .

والرابع : أنه احتكار الطعام بمكة ، وهذا قول حسان بن ثابت .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمرته عام الحديبية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(155/521)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ويصدون ﴾ الآية ،

قوله ﴿ ويصدون ﴾ تقديره وهم يصدون وبهذا حسن عطف المستقبل على الماضي وقالت فرقة الواو زائدة ﴿ ويصدون ﴾ خبر ﴿ إن ﴾ وهذا مفسد للمعنى المقصود ، وإنما الخبر محذوف مقدر عند قوله ﴿ والبادي ﴾ تقديره خسروا أو هلكوا ، وجاء ﴿ يصدون ﴾ مستقبلاً إذ فعل يديمونه كما جاء قوله تعالى :

(156/521)

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم ﴾ [الرعد : 28] ونحوه ، وهذه الآية نزلت عام الحديبية حين صُدَّ رسولُ الله صلى عليه وسلم عن المسجد الحرام وذلك أنه لم يعلم لهم صد قبل ذلك الجميع إلا أن يراد صدهم لأفراد من الناس ، فقد وقع ذلك في صدر المبعث ، وقالت فرقة ﴿ المسجد الحرام ﴾ أرادوا به مكة كلها ع وهذا صحيح لكنه قصد بالذكر المهم المقصود من ذلك ، وقرأ جمهور الناس " سواء " بالرفع وهو على الابتداء و ﴿ العاكف ﴾ خبره ، وقيل الخبر ﴿ سواء ﴾ وهو مقدم وهو قول أبي علي والمعنى الذي جعلناه للناس قبلة أو متعبداً ، وقرأ حفص عن عاصم " سواء " بالنصب وهي قراءة الأعمش وذلك يحتمل وجهين أحدهما أن يكون مفعولاً ثانياً ل " جعل " ويرتفع " العاكفُ " به لأنه مصدر في معنى مستوٍ أُعْمِلَ عمل اسم الفاعل ، والوجه الثاني ان يكون حالاً من الضمير في ﴿ جعلنا ﴾ وقرأت فرقة " سواءً " بالنصب " العاكفِ " بالخفض عطفاً على الناس ، و ﴿ العاكف ﴾ ، المقيم في البلد ، و ﴿ البادي ﴾ ، القادم عليه من غيره ، وقرأ ابن كثير في الوصل والوقف " البادي " بالياء . ووقف أبو عمرو بغير ياء ، ووصل بالياء ، وقرأ نافع " البادِ " بغير ياء في الوصل والوقف في رواية المسيبي ، وأبي بكر وإسماعيل ابني أبي أويس ، وروى ورش الوصل بالياء ، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي بغير ياء وصلاً ووقفاً ، وهي في الإمام بغير ياء ، وأجمع الناس على الاستواء في نفس ﴿ المسجد الحرام ﴾

واختلفوا في مكة ، فذهب عمر بن الخطاب وابن عباس ومجاهد وجماعة معهم إلى الأمر كذلك في دور مكة وأن القادم له النزول حيث وجد ، وعلى رب المنزل أن يؤويه شاء أو أبى ، وقال : سفيان الثوري وغيره ، وكذلك كان الأمر في الصدر الأول ، قال ابن سابط : وكانت دورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة فاتخذ رجل باباً فأنكر عليه عمر وقال : أتغلق باباً في وجه حاج بيت الله ؟ فقال : إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة ، فتركه فاتخذ

(157/521)

الناس الأبواب ، وقال جمهور من الأمة منهم مالك : ليست الدور كالمسجد ولأهلها الأمتناع بها والاستبداد ، وعلى هذا هو العمل اليوم ، وهذا الاختلاف الأول متركب على الاختلاف في مكة هل هي عنوة كما روي عن مالك والأوزاعي ، أو صلح كما روي عن الشافعي ، فمن رآها صلحاً فإن الاستواء في المنازل عنده بعيد ، ومن رآها عنوة أمكنه أن يقول الاستواء فيها ، قرره الأئمة الذين لم يقطعوها أحداً وإنما سكنى من سكن من قبل نفسه .

قال القاضي أبو محمد : وظاهر قول النبي صلى الله عليه وسلم " وهل ترك لنا عقيل منزلاً "

يقتضي ان لا استواء وأنها متملكة ممنوعة على التأويلين في قوله تعالى عليه السلام لأنه تؤول بمعنى أنه ورث جميع منازل أبي طالب وغيره ، وتؤول بمعنى أنه باع منازل بني هاشم حين هاجروا ومن الحجة لتملك أهلها دورهم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشترى من صفوان بن أمية داراً للسجن بأربعة آلاف ، ويصح مع ذلك أن يكون الاستواء في وقت الموسم للضرورة والحاجة فيخرج الأمر حينئذ عن الاعتبار بالعنوة والصلح ، وقوله تعالى : ﴿ بإلحاد ﴾ قال أبو عبيدة الباء زائدة ومنه قول الشاعر :

بواد يمان ينبت الشث صدره . . . وأسلفه بالمرخ والشهبان

ومنه قول الأعشى :

(158/521)

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا . . . وهذا كثير ويجوز أن يكون التقدير ﴿ ومن يرد فيه ﴾ الناس ﴿ بإلحاد ﴾ و" الإلحاد " الميل ، وهذا الإلحاد والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر ، فلعظم حرمة المكان توعد الله تعالى على نية السيئة فيه ، ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب بذلك إلا في مكة ، هذا قول ابن مسعود وجماعة من الصحابة وغيرهم ، وقال ابن عباس : " الإلحاد " في هذه الآية الشرك ، وقال أيضاً : هو استحلال

الحرام وحرمته ، وقال مجاهد : هو العمل السيىء فيه ، وقال عبد الله بن عمرو : قول لا والله وبلى والله بمكة من الإلحاد ، وقال حبيب بن أبي ثابت : الحكرة بمكة من الإلحاد بالظلم . ع . والعموم يأتي على هذا كله ، وقرأت فرقة " ومن يرد " من الورود حكاه الفراء ، والأول أبين وأعم وأمدح للبقعة ، و ﴿ من ﴾ شرط جازمة للفعل وذلك منع من عطفها على ﴿ الذين ﴾ والله المستعان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(159/521)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ويصدُّون عن سبيل الله ﴾

أي : يمنعون الناس من الدخول في الإِسلام .

قال الزجاج : ولفظ "يصدون" لفظ مستقبل عطف به على لفظ الماضي ، لأن معنى "الذين كفروا" : الذين هم كافرون ، فكأنه قال : إِن الكافرين والصَّادِّين ؛ فأما خبر "إِنَّ" فمحذوف ، فيكون المعنى : إِن الذين هذه صفتهم هلكوا .

وفي "المسجد الحرام" قولان .

أحدهما : جميع الحرم .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : كانوا يرون الحرم كلَّه مسجداً .

والثاني : نفس المسجد ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ الذي جعلناه للناس ﴾ هذا وقف التمام .

وفي معناه قولان .

أحدهما : جعلناه للنَّاس كلِّهم ، لم نخصَّ به بعضهم دون بعض ، هذا على أنه جميع الحرم .

والثاني : جعلناه قبلةً لصلاتهم ، ومنسكاً لحجِّهم ، وهذا على أنه نفس المسجد .

وقرأ ابراهيم النخعي ، وابن أبي عبلة ، وحفص عن عاصم : "سواءً" بالنصب ، فيتوجه الوقف على "سواء" ، وقد وقف بعض القراء كذلك .

قال أبو علي الفارسي : أبدل العاكف والبادي من الناس من حيث كانا كالشامل لهم ، فصار المعنى : الذي جعلناه للعاكف والبادي سواء .

فأما العاكف : فهو المقيم ، والبادي : الذي يأتيه من غير أهله ، وهذا من قولهم : بدا القوم : إذا خرجوا من الحضر إلى الصحراء .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : "البادي" بالياء ، غير أن ابن كثير وقف بياء ، وأبو عمرو بغير ياء .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، والمسيّبي عن نافع بغير ياء في الحالتين .

ثم في معنى الكلام قولان .

أحدهما : أن العاكف والبادي يستويان في سكنى مكة والنزول بها ، فليس أحدهما أحقَّ بالمنزل من الآخر ، غير أنه لا يُخرَجَ أحدٌ من بيته ، هذا قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ؛ وإلى نحو هذا ذهب أبو حنيفة ، وأحمد ؛ ومذهب هؤلاء أن كراء دور مكة وبيعها حرام ، هذا على أن المسجد : الحرم كلّه .

(160/521)

والثاني : أنهما يستويان في تفضيله وحرمته وإقامة المناسك به ، هذا قول الحسن ، ومجاهد .

و[منهم] من أجاز بيع دور مكة ، وإليه يذهب الشافعي .

وعلى هذا يجوز أن يراد بالمسجد الحرم ، ويجوز أن يراد نفس المسجد .

قوله تعالى : ﴿ ومن يرد فيه بالحاد ﴾ الإلحاد في اللغة : العدول عن القصد ، والباء زائدة ، كقوله تعالى : ﴿ تنبت بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] ، وأنشدوا :

بِوَادٍ يَمَانٍ يُنْبِتُ الشَّثَّ صَدْرُهُ . . .

وأَسْفَلُهُ بالمَرْخِ والشَّبَهانِ

المعنى : وأسفله ينبت المرخ ؛ وقال آخر :

هُنَّ الحرائر لا ربَّاتُ أَخْمِرَةٍ . . .

سودُ المحاجرِ لا يَقْرأْنَ بالسُّوَرِ

وقال آخر :

نحن بَنو جَعْدة أربابُ الفَلَج . . .

نَضرِب بالسَّيف ونرجو بالفَرَج

هذا قول جمهور اللغويين .

قال ابن قتيبة : والباء قد تزاد في الكلام ، كهذه الآية ، وكقوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [العلق : 1] ﴿ وهزِّي إليك بجذع النخلة ﴾ [مريم : 24] ﴿ بأيِّكم المفتون ﴾ [القلم : 6] ﴿ تُلْقُون إليهم بالمودَّة ﴾ [الممتحنة : 1] ﴿ عيناً يشرب بها ﴾ [الانسان : 6] أي : يشربها ؛ وقد تزاد "من" ، كقوله تعالى :

﴿ ما أُريد منهم من رزق ﴾ [الذاريات : 57] ، وتزاد "اللام" كقوله تعالى : ﴿ الذين هم لربهم يرهبون ﴾ [الأعراف : 154] ، والكاف ، كقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : 11] ، و"عن" ، كقوله تعالى : ﴿ يخالِفون عن أمره ﴾ [النور : 63] ، و"إنَّ" ، كقوله تعالى : ﴿ فإنَّه ملاقيكم ﴾ [الجمعة : 8] ، و"إنْ" الخفيفة ، كقوله تعالى : ﴿ فيما إن مكنَّاكم فيه ﴾ [الأحقاف : 26] ، و"ما" ، كقوله تعالى : ﴿ عما قليل ليصبحنَّ نادمين ﴾ [المؤمنون : 40] ، و"الواو" كقوله تعالى : ﴿ وتلَّه للجبين ،

وناديناه ﴾ [الصافات : 103 ، 104] .

وفي المراد بهذا الإِلحاد خمسة أقوال .

أحدها : أنه الظلم ، رواه العوفي عن ابن عباس .

(161/521)

وقال مجاهد : هو عمل سيئة ؛ فعلى هذا تدخل فيه جميع المعاصي ، وقد روي عن عمر ابن الخطاب أنه قال : لا تحتكروا الطعام بمكة ، فإن احتكار الطعام بمكة إِلحاد بظلم .

والثاني : أنه الشرك ، رواه ابن ابي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة .

والثالث : الشرك والقتل ، قاله عطاء .

والرابع : أنه استحلال محظورات الإِحرام ، وهذا المعنى محكيٌّ عن عطاء أيضاً .

والخامس : استحلال الحرام تعمُّداً ، قاله ابن جريج .

فإن قيل : هل يؤاخذ الإِنسان إِن أراد الظلم بمكة ، ولم يفعله ؟

فالجواب من وجهين .

أحدهما : أنه إِذا همَّ بذلك في الحرم خاصَّة ، عوقب ، هذا مذهب ابن مسعود ، فإنه قال : لو أن رجلاً همَّ بخطيئة ، لم تكتب عليه ما لم يعملها ، ولو أن رجلاً همَّ بقتل مؤمن عند البيت

، وهو ب "عَدَنِ أَبْيَن" ، أذاقه الله في الدنيا من عذاب أليم .

وقال الضحاك : إن الرجل ليهمُّ بالخطيئة بمكة وهو بأرضٍ أخرى ، فتكتب عليه ولم يعملها .

وقال مجاهد : تضاعف السيئات بمكة ، كما تضاعف الحسنات .

وسئل الإمام أحمد : هل تكتب السيئة أكثر من واحدة ؟ فقال : لا ، إلا بمكة لتعظيم البلد .

وأحمد على هذا يرى فضيلة المجاورة بها ؛ وقد جاور جابر بن عبد الله ، وكان ابن عمر يقيم بها .

والثاني : أن معنى : "ومن يرد" : من يعمل .

قال أبو سليمان الدمشقي : هذا قول سائر من حفظنا عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(162/521)

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ ﴾ أعاد الكلام إلى مشركي العرب حين

صَدُّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة ، وذلك أنه لم يُعلم لهم صَدّ قبل ذلك الجمع ؛ إلا أن يريد صدّهم لأفرادٍ من الناس ، فقد وقع ذلك في صدر من المبعث .

والصد : المنع ؛ أي وهم يصدّون .

وبهذا حسن عطف المستقبل على الماضي .

وقيل : الواو زائدة "ويصدون" خبر "إنّ" .

وهذا مفسد للمعنى المقصود ، وإنما الخبر محذوف مقدّر عند قوله "والْبَادِي" تقديره : خسروا إذ هلكوا .

وجاء "ويصدون" مستقبلاً إذ هو فعل يُديمُونه ؛ كما جاء قوله تعالى : ﴿ الذين آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله ﴾ [الرعد : 28] ؛ فكأنه قال : إن الذين كفروا من شأنهم الصدّ .

ولو قال إن الذين كفروا وصدوا لجاز .

قال النحاس : وفي كتابي عن أبي إسحاق قال وجائز أن يكون وهو الوجه الخبر "نُذِقْه من عذاب أليم" .

قال أبو جعفر : وهذا غلط ، ولست أعرف ما الوجه فيه ؛ لأنه جاء بخبر "إنّ" جزماً ، وأيضاً فإنه جواب الشرط ، ولو كان خبر "إن" لبقي الشرط بلا جواب ، ولا سيما والفعل

الذي في الشرط مستقبل فلا بُدّ له من جواب .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ والمسجد الحرام ﴾ قيل : إنه المسجد نفسه ، وهو ظاهر القرآن ؛ لأنه لم يذكر غيره .

وقيل : الحرم كله ؛ لأن المشركين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابَه عنه عامَ الحديبية ، فنزل خارجاً عنه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام ﴾ [الفتح : 25] وقال : ﴿ سُبْحَانَ الذي أَسْرَى بعبده لَيْلاً من المسجد الحرام ﴾ [الإسراء : 1] .

وهذا صحيح ، لكنه قصد هنا بالذكر المهمّ المقصود من ذلك .

(163/521)

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ الذي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ ﴾ أي للصلاة والطواف والعبادة ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 96] .

﴿ سَوَآءً العاكف فِيهِ والباد ﴾ العاكف : المقيم الملازم .

والبادِي : أهل البادية ومن يَقْدَم عليهم .

يقول : سواء في تعظيم حرمته وقضاء النّسك فيه الحاضرُ والذي يأتيه من البلاد ؛ فليس

أهل مكة أحقّ من النازح إليه .

وقيل : إن المساواة إنما هي في دُوره ومنازله ، ليس المقيم فيها أولى من الطارىء عليها .

وهذا على أن المسجد الحرام الحَرَم كله ؛ وهذا قول مجاهد ومالك ، رواه عنه ابن القاسم .

ورُوي عن عمر وابن عباس وجماعة أن القادم له النزول حيث وُجِد ، وعلى رب المنزل أن يؤوِيَه شاء أو أبى .

وقال ذلك سفيان الثورِيّ وغيره .

وكذلك كان الأمر في الصدر الأوّل ، كانت دورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة ؛ فاتخذ رجل باباً فأنكر عليه عمر وقال : أتغلق باباً في وجه حاج بيت الله ؟ فقال : إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة ؛ فتركه فاتخذ الناس الأبواب .

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضاً أنه كان يأمر في الموسم بقلع أبواب دور مكة ، حتى يدخلها الذي يقدم فينزل حيث شاء ، وكانت الفساطيط تضرب في الدور .

وروي عن مالك أن الدور ليست كالمسجد ولأهلها الامتناع منها والاستبداد ؛ وهذا هو العمل اليوم .

وقال بهذا جمهور من الأمة .

وهذا الخلاف يُبْنَى على أصلين : أحدهما أن دور مكة هل هي ملك لأربابها أم للناس .

وللخلاف سببان : أحدهما هل فتح مكة كان عَنْوَة فتكون مغنومة ، لكن النبيّ صلى الله

عليه وسلم لم يقسمها وأقرها لأهلها ولمن جاء بعدهم ؛ كما فعل عمر رضي الله عنه بأرض السَّواد وعفا لهم عن الخراج كما عفا عن سَبْيِهم واسترقاقهم إحساناً إليهم دون سائر الكفار فتبقى على ذلك لا تُباع ولا تُكْرَى ، ومن سبق إلى موضع كان أولى به .

وبهذا قال مالك وأبو حنيفة والأوزاعيّ .

(164/521)

أو كان فتحها صلحاً وإليه ذهب الشافعيّ فتبقى ديارهم بأيديهم ، وفي أملاكهم يتصرفون كيف شاؤوا .

وروي عن عمر أنه اشترى دار صَفْوان بن أمية بأربعة آلاف وجعلها سجناً ، وهو أوّل من حبس في السجن في الإسلام ، على ما تقدّم بيانه في آية المحاربين من سورة "المائدة" .

وقد روي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم حَبس في تُهمة .

وكان طاوس يكره السجن بمكة ويقول : لا ينبغي لبيت عذابٍ أن يكون في بيت رحمة .

قلت : الصحيح ما قاله مالك ، وعليه تدل ظواهر الأخبار الثابتة بأنها فتحت عَنوة .

قال أبو عبيد : ولا نعلم مكة يشبهها شيء من البلاد .

وروى الدّارقُطْنِيّ عن علقمة بن نَضْلة قال : توفِّيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو

بكر وعمر رضي الله عنهما وما تُدْعَى رِباع مكة إلا السوائب ؛ من احتاج سَكَن ومن استغنى أسكن .

وزاد في رواية : وعثمان .

وروي أيضاً عن علقمة بن نَضْلة الكنانيّ قال : كانت تدعى بيوت مكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما السوائب ، لا تباع ؛ من احتاج سَكَن ومن استغنى أسكن .

وروي أيضاً عن عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تعالى حرم مكة فحرام بيع رباعها وأكل ثمنها وقال : من أكل من أجر بيوت مكة شيئاً فإنما يأكل ناراً " قال الدارقطني : كذا رواه أبو حنيفة مرفوعاً ووَهِم فيه ، ووهِم أيضاً في قوله عبيد الله بن أبي يزيد وإنما هو ابن أبي زياد القداح ، والصحيح أنه موقوف ، وأسند الدارقطنيّ أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مكة مُناخ لا تُباع رِباعها ولا تؤاجر بيوتها " وروى أبو داود " عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ، ألا أبني لك بمنًى بيتاً أو بناء يُظلك من الشمس ؟ فقال : "لا ، إنما هو مُناخ من سبق إليه" " وتمسك الشافعي رضي الله عنه بقوله تعالى : "الذِين أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِم" فأضافها إليهم .

وقال عليه السلام يوم الفتح : " من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن " .

الرابعة : قرأ جمهور الناس "سواء" بالرفع ، وهو على الابتداء ، و"العاكف" خبره .

وقيل : الخبر "سواء" وهو مقدّم ؛ أي العاكف فيه والبادي سواء ؛ وهو قول أبي عليّ ،

والمعنى : الذي جعلناه للناس قِبلة أو متعبَّداً العاكفُ فيه والبادِي سواء .

وقرأ حفص عن عاصم "سواءً" بالنصب ، وهي قراءة الأعمش .

وذلك يحتمل أيضاً وجهين : أحدهما : أن يكون مفعولاً ثانياً لجعل ، ويرتفع "العاكف" به لأنه مصدر ، فأعمِل عَمَل اسم الفاعل لأنه في معنى مستوٍ .

والوجه الثاني : أن يكون حالاً من الضمير في جعلناه .

وقرأت فرقة "سواء" بالنصب "العاكِف" بالخفض ، و"البادي" عطفاً على الناس ؛ التقدير : الذي جعلناه للناس العاكِف والبادي .

وقراءة ابن كَثير في الوقف والوصل بالياء ، ووقف أبو عمرو بغير ياء ووصل بالياء .

وقرأ نافع بغير ياء في الوصل والوقف .

وأجمع الناس على الاستواء في نفس المسجد الحرام ، واختلفوا في مكة ؛ وقد ذكرناه .

الخامسة : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ شرط ؛ وجوابه ﴿ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

والإلحاد في اللغة : الميل ؛ إلا أن الله تعالى بيّن أن الميل بالظلم هو المراد .

واختلف في الظلم ؛ فروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس "ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلم" قال : الشرك .

وقال عطاء : الشرك والقتل .

وقيل : معناه صَيْد حمامه ، وقطع شجره ، ودخوله غير محرِم .

وقال ابن عمر : كنا نتحدث أن الإلحاد فيه أن يقول الإنسان : لا والله ! وبلى والله ! وكلاّ والله ! ولذلك كان له فسطاطان ، أحدهما في الحلِ والآخر في الحَرَم ؛ فكان إذا أراد الصلاة دخل فسطاط الحَرَم ، وإذا أراد بعض شأنه دخل فسطاط الحِلّ ، صيانةً للحَرَم عن قولهم كلاّ والله وبلى والله ، حين عظّم الله الذنب فيه .

(166/521)

وكذلك كان لعبد الله بن عمرو بن العاص فسطاطان أحدهما في الحلِ والآخر في الحرم ، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحِلّ ، وإذا أراد أن يصلّي صلّى في الحرم ، فقيل له في ذلك فقال : إن كنا لنتحدّث أن من الإلحاد في الحرم أن نقول كلا والله وبلى والله ، والمعاصي تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات ، فتكون المعصية معصيتين ، إحداهما بنفس المخالفة والثانية بإسقاط حُرمة البلد الحرام ؛ وهكذا الأشهر الحُرُم سواء .

وقد تقدّم.

وروى أبو داود عن يَعْلَى بن أمية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "احتكار الطعام في الحَرم إلحاد فيه" وهو قول عمر بن الخطاب.

والعموم يأتي على هذا كله.

السادسة: ذهب قوم من أهل التأويل منهم الضحاك وابن زيد إلى أن هذه الآية تدل على أن الإنسان يعاقَب على ما ينوِيه من المعاصي بمكة وإن لم يعمله.

وقد رُوي نحو ذلك عن ابن مسعود وابن عمر قالوا: لو همّ رجل بقتل رجل بهذا البيت وهو بعَدَن أبْيَن لعذّبه الله.

قلت: هذا صحيح، وقد جاء هذا المعنى في سورة "نا والقلم" مبيَّناً، على ما يأتي بيانه هناك إن شاء الله تعالى.

السابعة: الباء في "بِإلحادٍ" زائدة كزيادتها في قوله تعالى: ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون: 20]؛ وعليه حملوا قول الشاعر:

نحن بنو جَعْدة أصحاب الفَلَج . . .

نضرب بالسيف ونرجو بالفَرَج

أراد: نرجو الفرج.

وقال الأعشى:

ضمنت برزق عيالنا أرماحُنا . . .

أي رزق .

وقال آخر :

ألم يأتِيك والأنباءُ تَنْمِي . . .

بما لاقت لَبُون بني زياد

أي ما لاقت ؛ والباء زائدة ، وهو كثير .

وقال الفراء : سمعت أعرابياً وسألته عن شيء فقال : أرجو بذاك ، أي أرجو ذاك .

وقال الشاعر :

بوادٍ يَمانٍ يُنبت الشثَّ صدرُه . . .

وأسفله بالمَرْخ والشَّبَهان

أي المرخ .

وهو قول الأخفش ، والمعنى عنده : ومن يرد فيه إلحاداً بظلم .

وقال الكوفيون : دخلت الباء لأن المعنى بأن يلحد ، والباء مع أن تدخل وتحذف .

(167/521)

ويجوز أن يكون التقدير : ومن يرد الناس فيه بإلحاد .

وهذا الإلحاد والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر ؛ فلعظم حرمة المكان توعّد الله تعالى على نية السيئة فيه .

ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسَب عليها إلا في مكة .

هذا قول ابن مسعود وجماعةٍ من الصحابة وغيرهم ، وقد ذكرناه آنفاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(168/521)

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

المضارع قد لا يلحظ فيه زمان معين من حال أو استقبال فيدل إذ ذاك على الاستمرار ، ومنه ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ كقوله ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ وقيل : هو مضارع أريد به الماضي عطفاً على ﴿ كفروا ﴾ وقيل : هو على إضمار مبتدأ أي وهم ﴿ يصدون ﴾ وخبر إن محذوف قدره ابن عطية بعد ﴿ والباد ﴾ خسروا أو هلكوا وقدره الزمخشري بعد قوله ﴿ الحرام ﴾ نذيقهم ﴿ من عذاب أليم ﴾ ولا يصح

تقديره بعده لأن الذي صفة ﴿ المسجد الحرام ﴾ فموضع التقدير هو بعد ﴿ والباد ﴾ لكن مقدر الزمخشري أحسن من مقدر ابن عطية لأنه يدل عليه الجملة الشرطية بعد من جهة اللفظ ، وابن عطية لحظ من جهة المعنى لأن من أذيق العذاب خسر وهلك .

وقيل : الواو في ﴿ ويصدون ﴾ زائدة وهو خبر إن تقديره إن الذين كفروا يصدون .

قال ابن عطية : وهذا مفسد للمعنى المقصود انتهى .

ولا يجيز البصريون زيادة الواو وإنما هو قول كوفي مرغوب عنه .

وهذه الآية نزلت عام الحديبية حين صدّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن المسجد الحرام وذلك أنه لم يعلم لهم صد قبل ذلك بجمع إلاّ أن يراد صدهم لأفراد من الناس فقد وقع ذلك في صدر المبعث ، والظاهر أنه نفس المسجد ومن صد عن الوصول إليه فقد صد عنه .

وقيل : الحرم كله لأنهم صدوه وأهله عليه السلام فنزلوا خارجاً عنه لكنه قصد بالذكر المهم المقصود من الحرم .

وقرأ الجمهور ﴿ سواء ﴾ بالرفع على أن الجملة من مبتدأ وخبر في موضع المفعول الثاني ، والأحسن أن يكون ﴿ العاكف والبادي ﴾ هو المبتدأ و ﴿ سواء ﴾ الخبر ، وقد أجيز العكس .

وقال ابن عطية : والمعنى ﴿ الذي جعلناه للناس ﴾ قبلة أو متعبداً انتهى .

ولا يحتاج إلى هذا التقدير إلاّ إن كان أراد تفسير المعنى لا الإعراب فيسوغ لأن الجملة في موضع المفعول الثاني ، فلا يحتاج إلى هذا التقدير .

(169/521)

وقرأ حفص والأعمش ﴿ سواء ﴾ بالنصب وارتفع به ﴿ العاكف ﴾ لأنه مصدر في معنى مستو اسم الفاعل .

ومن كلامهم : مررت برجل سواء هو والعدم ، فإن كانت جعل تتعدى إلى اثنين فسواء الثاني أو إلى واحد فسواء حال من الهاء .

وقرأت فرقة منهم الأعمش في رواية القطعي ﴿ سواء ﴾ بالنصب ﴿ العاكف فيه ﴾ بالجر .

قال ابن عطية : عطفاً على الناس انتهى .

وكأنه يريد عطف البيان الأولى أن يكون بدل تفصيل .

وقرىء ﴿ والبادي ﴾ وصلاً ووقفاً وبتركها فيهما ، وبإثباتها وصلاً وحذفها وقفاً ﴿ العاكف ﴾ المقيم فيه ﴿ والبادي ﴾ الطارىء عليه ، وأجمعوا على الاستواء في نفس المسجد الحرام واختلفوا في مكة ، فذهب عمر وابن عباس ومجاهد وجماعة إلى أن الأمر

كذلك في دوس مكة ، وأن القادم له النزول حيث وجد وعلى رب المنزل أن يؤويه شاء أو أبى ، وقال به الثوري وكذلك كان الأمر في الصدر الأول .

قال ابن سابط : وكانت دورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة ، فاتخذ رجل باباً فأنكر عليه عمر وقال : أتغلق باباً في وجه حاج بيت الله ؟ فقال : إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة فتركه ، فاتخذ الناس الأبواب وهذا الخلاف مترتب على الخلاف في فتح مكة أكان عنوة أو صلحاً ؟ وهي مسألة يبحث عنها في الفقه .

والإلحاد الميل عن القصد .

ومفعول ﴿ يرد ﴾ قال أبو عبيدة هو ﴿ بإلحاد ﴾ والباء زائدة في المفعول .

قال الأعشى :

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا . . .

أي رزق وكذا قراءة الحسن منصوباً قرأ ﴿ ومن يرد ﴾ إلحاده بظلم أي إلحاداً فيه فتوسع .

وقال ابن عطية : يجوز أن يكون التقدير ﴿ ومن يرد فيه ﴾ الناس ﴿ بإلحاد ﴾ .

وقال الزمخشري : ﴿ بإلحاد بظلم ﴾ حالان مترادفتان ومفعول ﴿ يرد ﴾ متروك ليتناول كل متناول ، كأنه قال ﴿ ومن يرد فيه ﴾ مراد إمّا عادلاً عن القصد ظالماً ﴿ نذقه من عذاب أليم ﴾ وقيل : الإلحاد في الحرم منع الناس عن عمارته .

وعن سعيد بن جبير : الاحتكار .

وعن عطاء : قول الرجل في المبايعة لا والله وبلى والله انتهى .

والأولى أن تضمن ﴿ يرد ﴾ معنى يتلبس فيتعدى بالباء .

وعلق الجزاء وهو ﴿ نذقه ﴾ على الإرادة ، فلو نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب بها إلاّ في مكة وهذا قول ابن مسعود وجماعة .

وقال ابن عباس : الإلحاد هنا الشرك .

وقال أيضاً : هو استحلال الحرام .

وقال مجاهد : هو العمل السيىء فيه .

وقال ابن عمر : لا والله وبلى والله من الإلحاد .

وقال حبيب بن أبي ثابت : الحكر بمكة من الإلحاد بالظلم ، والأولى حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على الحصر إذ الكلام يدل على العموم .

وقرأت فرقة ﴿ ومن يرد ﴾ بفتح الياء من الورود وحكاها الكسائي والفراء ومعناه ومن أتى به ﴿ بإلحاد ﴾ ظالماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾

ليس المرادُ به حالاً ولا استقبالاً وإنَّما هو استمرارُ الصَّدّ ولذلك حسُن عطفُه على الماضي كما في قوله تعالى : ﴿ الذين ءامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله ﴾ وقيل هو حالٌ من فاعل كفروا أي وهم يصدُّون وخبر إنَّ محذوفٌ لدلالة آخرِ الآية الكريمة عليه فإنَّ من ألحدَ في الحرمِ حيثُ عُوقب بالعذاب الأليم فلأنْ يُعاقبَ من جمعَ إليه الكفرَ والصَّدَّ عن سبيل الله بأشدَّ من ذلك أحقُّ وأولى ﴿ والمسجد الحرام ﴾ عطف على سبيلِ اللَّهِ قيل المرادُ به مكَّةُ بدليل وصفه بقوله تعالى : ﴿ الذى جعلناهُ للنَّاسِ ﴾ أي كائناً مَن كان من غير فرقٍ بين مكيَ وآفاقيَ ﴿ سَوَاء العاكف فِيهِ والباد ﴾ أي المقيمُ والطارئُ ، وسواء أي مستوياً مفعول ثانٍ لجعلناه .

والعاكفُ مرتفع به . واللاَّمُ متعلِّقٌ به ظرفٌ له . وفائدةُ وصفِ المسجدِ الحرامِ بذلك زيادةُ تشنيعِ الصَّادِّينَ عنه . وقُرِىء سواءٌ بالرَّفعِ على أنَّه خبر مقدَّمٌ . والعاكفُ مبتدأٌ والجملة مفعول ثانٍ للجعل . وقُرِىء العاكفِ بالجرّ على أنَّه بدلٌ من النَّاس . ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ ﴾ ترك مفعولُه ليتناولَ كلَّ متناول كأنَّه قيل ومَن يُرد فيه مراداً ما . ﴿ بِإِلْحَادٍ ﴾ بعدولٍ عن القصدِ ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ بغير حقَ وهما حالانِ مترادفانِ ، أو الثَّاني بدلٌ من الأوَّلِ بإعادة الجارّ

أو صلةٌ له أي ملحداً بسبب الظُّلمِ كالإشراك واقتراف الآثام ﴿ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ جواب لمن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(172/521)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله والمسجد الحرام ﴾

وعيد لصنف من الكفرة ، وحسن عطف المضارع على الماضي لما أنه لم يرد بالمضارع حال أو استقبال كما في قولهم : فلان يحسن إلى الفقراء فإن المراد به استمرار وجود الإحسان ، وقيل : ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ بمعنى صدوا إلا أنه عبر بالمضارع استحضاراً للصورة الماضية تهويلاً لأمر الصد ، وقيل لا عطف بل الجملة خبر مبتدأ محذوف والمجموع في موضع الحال من فاعل ﴿ كَفَرُواْ ﴾ أي وهم يصدون ، وجوز أن تكون الجملة حالا من غير تقدير مبتدأ لشبهها بالجملة الاسمية معنى وخبر إن محذوف لدلالة آخر الآية الكريمة عليه أي نذيقهم من عذاب اليم ، وقدره الزمخشري بعد ﴿ المسجد الحرام ﴾ وتعقبه أبو حيان بأنه لا يصح لما فيه من الفصل بين الصفة وهو ﴿ المسجد ﴾ والموصوف وهو ﴿ الذى ﴾ . وأجيب باحتمال أنه جعل ﴿ الذى ﴾ نعتاً مقطوعاً ، وقدره ابن عطية بعد ﴿ والباد

﴿ وهو أولى إلا أنه قدر خسروا أو هلكوا وتقدير نذيقهم الخ أولى منه ، وقيل الواو في ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ زائدة والجملة بعده خبران .

(173/521)

وتعقبه ابن عطية بأنه مفسد للمعنى المراد وغيره بأن البصريين لا يجيزون زيادة الواو والقول بجوزا زيادتها قول كوفي مرغوب عنه ، والظاهر أن دالمسجد ﴾ عطف على ﴿ ﴾ عطف على ﴿ سَبِيلٍ ﴾ وجوز أن يكون معطوفاً على الاسم الجليل ، والآية على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نزلت في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم عام الحديبية عن المسجد الحرام فكره عليه الصلاة والسلام أن يقاتلهم وكان حرماً بعمرة ثم صالحوه على أن يعود في العام القابل ، والمراد بالمسجد الحرام مكة وعبر به عنها لأنه المقصود المهم منها ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ الذى جعلناهِ لِلنَّاسِ ﴾ أن كائناً من كان من غير فرق بين مكي وآفاقي ﴿ سَوَاء العاكف فِيهِ والباد ﴾ أي المقيم فيه والطارىء فإن الإقامة لا تكون في المسجد نفسه بل في منازل مكة وفي وصفه بذلك زيادة التشنيع على الصادين عنه ، وقد استشهد بعض الأئمة بالآية على عدم جواز بيع دور مكة وإجارتها وإلا لما استوى

العاكف فيها والباد ، وقد ورد التصريح بذلك في بعض الأحاديث الصحيحة ، فروي من عدة طرق أنه عليه الصلاة والسلام قال : "مكة حرمها الله تعالى لا يحل بيع رباعها ولا إجارة بيوتها" وذكر ابن سابط أن دور أهل مكة كانت بغير أبواب حتى كثرت السرقة فاتخذ رجل بابا فانكر عليه عمر رضي الله تعالى عنه قال : أتغلق بابا في وجه حاج بيت الله تعالى ؟ فقال : إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة فتركه فاتخذ الناس الأبواب ، وأخرج ابن ماجه .

وابن أبي شيبة عن علقمة بن نضلة قال : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأبو بكر .

(174/521)

وعمر رضي الله تعالى عنهما وما تدعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى أسكن ، وقال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما : من أكل كراء بيوت مكة فإنما أكل ناراً في بطنه لأن الناس في الانتفاع بها سواء ، وجاء صدره من رواية الدارقطني مرفوعاً .

وفي النهاية لا بأس ببيع بناء مكة ويكره بيع أرضها وهذا عند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وقال : لا بأس ببيع أرضها وهو رواية عنه أيضاً وهو مذهب الشافعي عليه الرحمة

وعليه الفتوى .

وفي تنوير الأبصار وشرحه الدرر المختار وجاز بيع بناء بيوت مكة وأرضها بلا كراهة وبه قال الشافعي وبه يفتي عيني .

وفي البراهن في باب العشر ولا يكره بيع أرضها كبنائها وبه يعمل .

وفي مختارات النوازل لصاحب الهداية لا بأس ببيع بنائها واجارتها لكن في الزيلعي وغيره يكره إجارتها ، وفي آخر الفصل الخامس من التاتارخانية وإجارة الوهبانية قال أبو حنيفة : أكره إجارة بيوت مكة في أيام الموسم ؛ وكان يفتي لهم أن ينزلوا عليهم في دورهم لقوله تعالى : ﴿ سَوَاء العاكف فِيهِ والباد ﴾ ورخص فيها في غير أيام الموسم ؛ وكان يفتي لهم أن ينزلوا عليهم في دورهم لقوله تعالى : ﴿ سَوَاء العاكف فِيهِ والباد ﴾ ورخص فيها في غير أيام الموسى انتهى فليحفظ ، قلت : وبهذا يظهر الفرق والتوفيق انتهى .

والذي يفهم من غاية البيان أن القول بكراهة إجارة بيوتها أيام الموسم مما لم يتفرد به الإمام بل وافقه عليه صاحباه حيث نقل عن تقريب ازمام الكرخي ما نصه وروي هشام عن أبي يوسف عن أبي حنيفة أنه كره إجارة بيوت مكة في الموسم ورخص في غيره ، وكذا قال أبو يوسف ، وقال هشام : أخبرني محمد عن أبي حنيفة أنه يكره كراء بيوت مكة في الموسم ويقول لهم ان ينزلوا عليهم في دورهم إن كان فيها فضل وإن لم يكن فلا وهو قول محمد انتهى .

والذي تحرر مما رأيناه من أكثر معتبرات .

كتب ساداتنا الحنفية ان جواز بيع بناء البيوت متفق عليه لأنه ملك لمن بناه كمن بنى في أرض الوقف باذن المتولى ، ولا يقال : إنه بناء غاصب كمن بنى بيتاً في جامع لظهور الاذن هنا دونه ثمة ، وكذا كراهة الإجارة في أيام الموسم وأما بيع الأرض فعند الأمامين جائز بلا كراهة قولاً واحداً وعن الإمام روايتان الجواز وعدمه والمفتي به الجواز ، وسمتند من يجوز من الكتاب الجليل هذه الآية .

وأجاب أصحاب الشافعي عنها أن المسجد الحرام في المطاف والعاكف في المعتكف للعبادة المعدود من أهل المسجد لملازمته له أظهر ، وكذلك المساواة في أنه من شعائر الله تعالى المنصوبة لكل عاكف وباد أوضح وهو المقابل للموصوف بالصد عن سبيل الله تعالى والمسجد الحرام خاصة فما كانوا يصدون عن مكة ولا ان الصد عنها لغير مريد النسك معصية وأي مدخل لحديث التمليك وعدمه في هذا المساق .

والاستدراك بأن له مدخلاً على سبيل الادماج وإشارة النص كلام لا طائل تحته ، وقد فسر ﴿ سَوَآء ﴾ بما فسر كذا في الكشف ، وقد جرت مناظرة بمكة بين الشافعي . واسحق بن راهويه الحنظلي وكان اسحق لا يرخص في كراه دور مكة فاحتج الشافعي

بقوله تعالى : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن ديارهم بِغَيْرِ حَقّ ﴾ [الحج : 40] فاصيفت الديار إلى مالكيها وقوله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة " مكن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن " وبأنه قد اشترى عمر رضي الله تعالى عنه دارء السجن أترى أنه اشترى من مالكيها أو غير مالكيها قال اسحق : فلما علمت أن الحجة قد لزمتني تركت قولي ، وأجاب بعضهم أن الإضافة إلى مالكي منفعة السكنى وأن عمر رضي الله تعالى عنه اشترى البناء دون الأرض وأرضى بالثمن من أنفق ما لا فيه لحاجة العامة وللإمام من ذكل ما ليس لغيره .

(176/521)

وتعقب بأن الاستدلال بالظاهر والعدول عن الظاهر دون سند أقوى غير ملتفت إليه ، ولذا قال ابن راهويه : وهو أحد أركان المسلمين وعلم من أعلام الدين ما قال .

والظاهر أن الأخبار المصرحة بتحريم البيع والإجارة لم تصح عند الشافعي رضي الله تعالى عنه ، وعند من ثال بمثل قوله ؛ ونصب ﴿ سَوَآء ﴾ على أنه مفعول ثان لجعلنا ، والأول الضمير الغائب المتصل و﴿ العاكف ﴾ مرتفع به لأنه بمعنى مستو وإن كان في الأصل مصدراً ، ومن كلامهم مررت برجل سواء هو والعدم ، واللام ظرف لما عنده .

وجوز أن يكون ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ في موضع المفعول الثاني أي جعلناه مباحاً للناس أو معبداً لهم و ﴿ سَوَآء ﴾ حالا من الهاء وكذا يكون حالاً إذا لم يعد الجعل إلى مفعولين .

وقرأ الجمهور ﴿ سَوَآء ﴾ بالرفع على أنه خبر ﴿ والعاكف ﴾ مبتدأ ، وضعف العكس لما فيه من الأخبار بالمعرفة عن النكرة ، والجملة في موضع المفعول الثاني أو الحال ، وجوز أن تكون تفسيرية لجعله للناس ؛ وقرأت فرقة منهم الأعمش في رواية القطعي ﴿ فِيهِ سَوَآء ﴾ بالنصب ﴿ العاكف ﴾ فيه بالجر ، ووجه النصب ما تقدم ، ووجه جر ﴿ العاكف ﴾ أنه بدل تفصيل من الناس ، وقيل : هو عطف بيان .

وقرىء ﴿ والبادي ﴾ بإثبات الياء وصلا ووقفاً ، وقرىء بتركها فيهما وبإثباتها وصلا وحذفها وقفاً ﴿ والباد وَمَن يُرِدْ فِيهِ ﴾ مما ترك مفعوله ليتناول كل متناول أي ومن يرد فيه شيئاً ما أو مراداً ما ، وقدر ابن عطية المفعول الناس أي ومن يرد فيه الناس .

وقوله تعالى : ﴿ بِإِلْحَادٍ ﴾ أي عدول عن القصد أي الاستقامة المعنوية ، وأصله إلحاد الحافر ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ بغير حق حالان مترادفان أو الثاني بدل من الأول بإعادة الجار والباء فيهما للملابسة ، أو الأول حال والثاني متعلق به والباء فيه للسببية أي ملحداً بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام ، وقال أبو عبيدة : الباء زائدة و ﴿ إلحاد ﴾ مفعول ﴿ وَلَمْ يُرِدْ ﴾ وأنشد عليه قول الأعشى :

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا . . .

وأيد بقراءة الحسن ﴿ وَمَن يُرِدِ إيمانهم بِظُلْمٍ ﴾ وهي على معنى إلحاداً فيه إلا أنه توسع فقيل إلحاده ، وقال أبو حيان : الأولى أن يضمن "يرد" معنى يتلبس وتجعل الباء للتعدية .

وقرأت فرقة "يرد" بفتح الياء من الورود .

وحكاها الكسائي .

والفراء أي من أتى فيه بالحاد الخ ، وتفسير الإلحاد بما ذكر هو الظاهر فيشمل سائر الآثام لأن حاصل معناه الميل عن الحق إلى الباطل وهو محقق في جميع الآثام ، وكذا المراد بالظلم عند جمع وجمعهما على هذا للتأكيد ، وقيل : المراد بذلك الشرك ولم يرتضه ابن أبي مليكة ، فقد أخرج عبد بن حميد أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدِ ﴾ الخ فقال : ما كنا نشك أنها الذنوب حتى جاء أعلاج من أهل البصرة إلى أعلاج من أهل الكوفة فزعموا أنها الشرك .

وأخرج أبو داود وغيره عن يعلى بن أمية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه ، وهو من ذكر بعض الأفراد لاقتضاء الحال إياه ، وجعل بعضهم من ذلك دخوله من غير إحرام ، وروي عن عطاء تفسير الإلحاد به .

وأخرج ابن جرير .

وجماعة عن مجاهد قال : كان لعبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم فإذا أراد أن يصلي صلى في الذي في الحرم وإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الذي في الحل فقيل له فقال : نحدث أن من الإلحاد فيه لا والله بلى والله ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ جواب لمن الشرطية .

والظاهر أن الوعيد على إرادة ذلك مطلقاً فيفيد أن من أراد سيئة في مكة ولم يعملها يحاسب على مجرد الإرادة وهو قول ابن مسعود .

وعكرمة .

(178/521)

وأبي الحجاج ، وقال الخفاجي : الوعيد على الإرادة المقارنة للفعل لا على مجرد الإرادة لكن في التعبير بها إشارة إلى مضاعفة السيئات هناك والإرادة المصممة مما يؤاخذ عليها أيضاً وإن قيل إنها ليست كبيرة ، وقد روي عن مالك كراهة المجاورة بمكة انتهى ، وإلى مضاعفة السيئة في مكة ذهب مجاهد ، فقد أخرج عنه ابن المنذر وغيره أنه قال : تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات ، وقال رحمه الله تعالى : سألت ابن عمر وكان منزله في الحل ومسجده في الحرم لم تفعل هذا ؟ فقال : لأن العمل في الحرم أفضل

والخطيئة فيه أعظم فينبغي لمن كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد في جميع ما يهم به ويقصده .

والظاهر أن هذه الإذاقة في الآخرة ، وقيل كان قبل أن يستحله أهله تعجل العقوبة في الدنيا لمن قصده بسوء : وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رضي الله تعالى عنه أنه قال في الآية .

حدثنا رجل سمعه من عقب المهاجرين والأنصار أنهم أخبروه أن ايما أحد أراد به ما أراد أصحاب الفيل عجل لهم العقوبة في الدنيا وقال : إنما يوفي استحلاله من قبل أهله ، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً ما ينفعك في هذا المطلب ، وحد بعضهم الحرم بقوله :

وللحرم التحديد من أرض طيبة . . .

ثلاثة أميال إذا رمت اتقانه

وسبعة أميال عراق وطائف . . .

وجدة عشر ثم تسع جعرانه

ومن يمن سبع بتقديم سينه . . .

وقد كملت فاشكر لربك إحسانه

وأما المسجد الحرام فيطلق على الحرم كله عند عطاء فيكون حده ما ذكر .

وفي البحر العميق عن أبي هريرة قال : إنا لنجد في كتاب الله تعالى أن حد المسجد الحرام

إلى آخر المسعى ، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : أساس المسجد الحرام الذي وضعه إبراهيم عليه السلام من الحزوة إلى مخرج مسيل جياد ، وقد ذكروا أن طول المسجد اليوم أربعمائة ذراع وأربعة أذرع وعرضه ثلثمائة ذراع .

(179/521)

وحكى أنه لم يكن كذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن له جدار يحيط به فلما استخلف عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وسع المسجد واشترى دوراً فهدمها وأدخلها فيه ثم أحاط عليه جداراً قصيراً دون القامة وكانت المصابيح توضع عليه ، ثم لما استخلف عثمان اشترى دوراً أيضاً ووسع بها وبنى المسجد والأروقة ، ثم إن عبد الله بن الزبير زاد سنة بضع وستين في المسجد زيادة كثيرة في خلافته ، ومن ذلك بعض دار الأزرقي اشتراه بسبعة آلاف دينار ، ثم عمره بعد ذلك عبد الملك بن مروان ولم يزيد فيه لكن رفع جدار المسجد وحمل إليه أعمدة الحجارة والرخام ، ثم إن المنصور زاد في شقة الشامي وبناه وجعل فيه أعمدة من الرخام ، ثم زاد المهدي بعده مرتين وكانت الكعبة في جانب المسجد فأحب أن تكون في الوسط فاشترى دوراً وزاد في المسجد ووسطها كذا ذكره النووي .

وفي البحر العميق أن زيادة المهدي هي التي تلي دار الندوة خلف مقام الحنفي ، ثم لما انتهى الدولة إلى سلاطين آل عثمان أبقى الله تعالى دولتهم ما دام الدوران لم يألوا جهداً في خدمته والسعي في مرمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(180/521)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

هذا مقابل قوله ﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ [الحج : 24] بالنسبة إلى أحوال المشركين إذ لم يسبق لقوله ذلك مقابِل في الأحوال المذكورة في آية ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ [الحج : 19] كما تقدم .

فموقع هذه الجملة الاستئناف البياني .

والمعنى : كما كان سبب استحقاق المؤمنين ذلك النعيم اتّباعهم صراط الله كذلك كان سبَبُ استحقاق المشركين ذلك العذَاب كفرَهم وصدّهم عن سبيل الله .

وفيه مع هذه المناسبة لما قبله تخلّص بديع إلى ما بعده من بيان حقّ المسلمين في المسجد الحرام ، وتهويل أمر الإلحاد فيه ، والتنويهُ به وتنزيههُ عن أن يكون مأوى للشرك ورجس

الظلم والعُدوان .

وتأكيد الخبر بحرف التأكيد للاهتمام به .

وجاء ﴿ يصدّون ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك منهم وأنه دأبهم سواء فيه أهل مكة وغيرهم لأن البقية ظاهَرُوهم على ذلك الصد ووافقوهم .

أما صيغة الماضي في قوله : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ فلأنّ ذلك الفعل صار كاللقب لهم مثل قوله : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا ﴾ [الحج : 24] .

وسبيل الله : الإسلام ، فصدهم عنه هو الذي حقق لهم عذاب النار ، كما حقق اهتداءُ المؤمنين إليه لهم نعيمَ الجنّة .

والصدّ عن المسجد الحرام مما شمله الصدّ عن سبيل الله فخصّ بالذكر للاهتمام به ، ولينتقل منه إلى التنويه بالمسجد الحرام ، وذكر بنائه ، وشرع الحجّ له من عهد إبراهيم .

والمراد بصدّهم عن المسجد الحرام صدّ عرفه المسلمون يومئذ .

ولعله صدّهم المسلمين عن دخول المسجد الحرام والطواف بالبيت .

والمعروف من ذلك أنهم مَنَعُوا المسلمين بعد الهجرة من زيارة البيت فقد قال أبو جهل لسَعْد بن معاذ لما جاء إلى مكّة معتمراً وقال لصاحبه أميّة بن خلف : انتظر لي ساعة من النهار لعلّي أطوف بالبيت ، فبينما سعد يطوف إذ أتاه أبو جهل وعَرَفَهُ .

فقال له أبو جهل : أتطوف بالكعبة آمناً وقد أوتيتم الصُباة ؟ (يعني المسلمين) .

ومن ذلك مَا صنعوه يوم الحديبية .

وقد قيل : إنّ الآية نزلت في ذلك .

وأحسب أنّ الآية نزلت قبل ذلك سواء نزلت بمكة أم بالمدينة .

ووصف المسجد بقوله : ﴿ الذي جعلناه للناس ﴾ الآية للإيماء إلى علّة مؤاخذة المشركين بصدّهم عنه لأجل أنهم خالفوا ما أراد الله منه فإنه جعله للناس كلهم يستوي في أحقية التعبّد به العاكفُ فيه ، أي المستقرّ في المسجد ، والبادي ، أي البعيد عنه إذا دخله .

والمراد بالعاكف : الملازم له في أحوال كثيرة ، وهو كناية عن الساكن بمكة لأنّ الساكن بمكة يعكف كثيراً في المسجد الحرام ، بدليل مقابلته بالبادِي ، فأطلق العكوف في المسجد على سكنى مكة مجازاً بعلاقة اللزوم العرفي .

وفي ذكر العكوف تعريض بأنهم لا يستحقون بسكنى مكة مزية على غيرهم ، وبأنهم حين يمنعون الخارجين عن مكة من الدخول للكعبة قد ظلموهم باستئثارهم بمكة .

وقرأ الجمهور ﴿ سواءٌ ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ ﴿ والعاكف فيه ﴾ فاعل سدّ مسدّ الخبر ، والجملة مفعول ثان ل ﴿ جعلناه .

﴿ وقرأه حفص بالنصب على أنه المفعول الثاني ل ﴿ جعلناه .

والعكوف : الملازمة .

والبادي : ساكن البادية .

وقوله سواء ﴿ لم يبيّن الاستواء فيما ذا لظهور أنّ الاستواء فيه بصفة كونه مسجداً إنما هي في العبادة المقصودة منه ومن ملحقاته وهي : الطواف ، والسّعي ، ووقوف عرفة .

وكتب ﴿ والباد ﴾ في المصحف بدون ياء في آخره ، وقرأ ابن كثير ﴿ والبادِي ﴾ بإثبات الياء على القياس لأنه معرف ، والقياس إثبات ياء الاسم المنقوص إذا كان معرّفاً باللام ، ومحمل كتابته في المصحف بدون ياء عند أهل هذه القراءة أنّ الياء عوملت معاملة الحركات وألفات أواسط الأسماء فلم يكتبوها .

وقرأه نافع بغير ياء في الوقف وأثبتها في الوصل .

(182/521)

ومحمل كتابته على هذه القراءة بدون ياء أنه روعي فيه التخفيف في حالة الوقف لأن شأن الرسم أن يراعى فيه حالة الوقف .

وقرأه الباقون بدون ياء في الحالين الوصل والوقف .

والوجه فيه قصد التخفيف ومثله كثير .

وليس في هذه الآية حجة لحكم امتلاك دُور مكة إثباتاً ولا نفياً لأنّ سياقها خاص بالمسجد الحرام دون غيره .

ويلحق به ما هو من تمام مناسكه : كالمسعَى ، والموقف ، والمشعر الحرام ، والجمار .

وقد جرت عادة الفقهاء أن يذكروا مسألة امتلاك دور مكة عند ذكر هذه الآية على وجه الاستطراد .

ولا خلاف بين المسلمين في أنّ الناس سواء في أداء المناسك بالمسجد الحرام وما يتبعه إلاّ ما منعته الشريعة كطواف الحائض بالكعبة .

وأما مسألة امتلاك دور مكة فللفقهاء فيها ثلاثة أقوال : فكان عُمر بن الخطاب وابن عباس وغيرهما يقولون : إن القادم إلى مكة للحج له أن ينزل حيث شاء من ديارها وعلى رب المنزل أن يؤويه .

وكانت دور مكة تُدعى السوائب في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وقال مالك والشافعي : دور مكة مِلك لأهلها ، ولهم الامتناع عن إسكان غيرهم ، ولهم إكراؤها للناس ، وإنما تجب المواساة عند الضرورة ، وعلى ذلك حملوا ما كان يفعله عمر فهو من المواساة .

وقد اشترى عمر دار صفوان بن أمية وجعلها سجناً .

وقال أبو حنيفة : دور مكة لا تُملك وليس لأهلها أن يكروها .

وقد ظُنّ أن الخلاف في ذلك مبني على الاختلاف في أنّ مكة فتحت عنوة أو صلحاً .

والحق أنه لا بناء على ذلك لأنّ من القائلين بأنها فتحت عنوة قائلين بتملك دور مكة فهذا مالك بن أنس يراها فتحت عنوة ويرى صحة تملك دورها .

ووجه ذلك : أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرّ أهلها في منازلهم فيكون قد أقطعهم إياها كما مَنّ على أهلها بالإطلاق من الأسر ومن السبي .

ولم يزل أهل مكة يتبايعون دورهم ولا ينكر عليهم أحد من أهل العلم .

(183/521)

وخبر ﴿ إن الذين كفروا ﴾ محذوف تقديره : نذقهم من عذاب أليم ، دلّ عليه قوله في الجملة الآتية : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ .

وإذ كان الصد عن المسجد الحرام إلحاداً بظلم فإن جملة ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ تذييل للجملة السابقة لما في (مَن) الشرطية من العموم .

والإلحاد : الانحراف عن الاستقامة وسواء الأمور .

والظلم يطلق على الإشراك وعلى المعاصي لأنها ظلم النفس .

والباء في ﴿ بإلحاد ﴾ زائدة للتوكيد مثلها في ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] .

أي من يُرد إلحاداً وبعداً عن الحق والاستقامة وذلك صدهم عن زيارته .

والباء في ﴿ بظلم ﴾ للملابسة .

فالظلم : الإشراك ، لأنّ المقصود تهديد المشركين الذين حملهم الإشراك على مناوأة المسلمين ومنعهم من زيارة المسجد الحرام .

و(من) في قوله : ﴿ من عذاب أليم ﴾ مزيدة للتوكيد على رأي من لا يشترطون لزيادة (مِن) وقوعها بعد نفي أو نهي .

ولك أن تجعلها للتبعيض ، أي نذقه عذاباً من عذاب أليم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(184/521)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

اعلم أن خبر إن في قوله هنا ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُوا ﴾ محذوف كما ترى.

والذي تدل عليه الآية أن التقدير: إن الذين كفروا، ويصدون عن سبيل الله، نذيقهم من عذاب أليم. كما دل على هذا قوله في آخر الآية ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

فإن قيل: ما وجه عطف الفعل المضارع على الفعل الماضي، في قوله ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ ﴾.

فالجواب: من أربعة أوجه: واحد منها ظاهر السقوط.

الأول: هو ما ذكره بعض علماء العربية من أن المضارع، قد لا يلاحظ فيه زمان معين من حال، أو استقبال، فيدل إذ ذاك على الاستمرار، ومنه ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ وقوله ﴿ الذين آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلاَ بِذِكْرِ الله ﴾ [الرعد: 28] قاله أبو حيان وغيره.

الثاني: أن يصدون خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: إن الذين كفروا، وهم يصدون، وعليه فالجملة المعطوفة اسمية لا فعلية، وهذا القول استحسنه القرطبي.

الثالث: أن يصدون مضارع أريد به الماضي: أي كفروا، وصدوا وليس بظاهر.

الرابع : أن الواو زائدة ، وجملة يصدون خبر إن : أي إن الذين كفروا يصدون الآية . وهذا هو الذي قدمنا أنه ظاهر السقوط ، وهو كما ترى ، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية من أن من أعمال الكفار الصد عن سبيل الله ، وعن المسجد الحرام بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ والمسجد الحرام وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ ﴾ [البقرة : 217] الآية . وقوله تعالى ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدي مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ [الفتح : 25] وقوله تعالى ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام أَن تَعْتَدُواْ ﴾ [المائدة : 2] الآية إلى غير ذلك من الآيات ، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ سَوَآءً العاكف فِيهِ والباد ﴾ قرأه عامة السبعة غير حفص عن عاصم : سواء ، بضم الهمزة ، وفي إعرابه على قراءة الجمهور هذه برفع سواء وجهان .

الأول : أن قوله : العاكف : مبتدأ ، والباد : معطوف عليه ، وسواء خبر مقدم ، وهو مصدر أطلق وأريد به الوصف .

فالمعنى : العاكف والبادي سواء ، أي مستويان فيه ، وهذا الإعراب أظهر الوجه .

الثاني : أن سواء مبتدأ والعاكف فاعل سد مسد الخبر ، والظاهر أن مسوغ الابتداء بالنكرة التي هي سواء ، على هذا الوجه : هو عملها في المجرور الذي هو فيه ، إذ المعنى :

سواء فيه العاكف والبادي ، وجملة المبتدأ وخبره في محل المفعول الثاني : لجعلنا ، وقرأ حفص عن عاصم : سواء بالنصب ، وهو المفعول الثاني : لجعلنا التي بمعنى صيرنا .

والعاكف فاعل سواء : أي مستوياً فيه العاكف والبادي ، ومن كلام العرب : مررت برجل سواء هو والعدم ، ومن قال : إن " جعل " في الآية تتعدى إلى مفعول واحد قال : إن سواء احال من الهاء في جعلناه : أي وضعناه للناس في حال كونه سواء العاكف فيه والبادي كقوله

(186/521)

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 96] الآية وقال بعض أهل العلم : إن المراد بالمسجد الحرام في هذه الآية الكريمة : يشمل جميع الحرم . ولذلك أخذ بعض العلماء من هذه الآية ، أن رباع مكة لا تملك ، وقد قدمنا الكلام مستوفى في هذه المسألة ، وأقوال أهل العلم فيها ، ومناقشة أدلتهم في سورة الأنفال ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا ، والعاكف : هو المقيم في الحرم ، والبادي : الطارئ عليه من البادية ، وكذلك غيرها من أقطار الدنيا .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : والبادي قرأه أبو عمرو وورش ، عن نافع بإثبات الياء ، بعد الدال في الوصل ، وإسقاطها في الوقف ، وقرأه ابن كثير بإثباتها وصلاً ووقفاً ، وقرأه

باقي السبعة بإسقاطها ، وصلاً ووقفاً .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قد أوضحنا إزالة الإشكال عن دخول الباء على المفعول في قوله : بإلحاد ، ونظائره في القرآن ، وأكثرنا على ذلك من الشواهد العربية في الكلام على قوله تعالى ﴿ وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة ﴾ [مريم : 25] فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

والإلحاد في اللغة أصله : الميل ، والمراد بالإلحاد في الآية : أن يميل ، ويحيد عن دين الله الذي شرعه ، ويعم ذلك كل ميل وحيدة عن الدين ، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً الكفر بالله ، والشرك به في الحرم ، وفعل شيء مما حرمه وترك شيء مما أوجبه . ومن أعظم ذلك : انتهاك حرمات الحرم . وقال بعض أهل العلم : يدخل في ذلك احتكار الطعام بمكة ، وقال بعض أهل العلم : يدخل في ذلك قول الرجل : لا والله ، وبلى والله ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان له فسطاطان : أحدهما : في طرف الحرم ، والآخر : في طرف الحل ، فإذا أراد أن يعاتب أهله ، أو غلامه فعل ذلك في الفسطاط الذي ليس في الحرم ، يرى أن مثل ذلك يدخل في الإلحاد فيه بظلم .

(187/521)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر في هذه المسألة ، أن كل مخالفة بترك واجب ، أو فعل محرم تدخل في الظلم المذكور ، وأما الجائزات كعتاب الرجل امرأته ، أو عبده ، فليس من الإلحاد ، ولا من الظلم .

مسألة

قال بعض أهل العلم : من هم أن يعمل سيئة في مكة ، أذاقه الله العذاب الأليم بسبب همه بذلك ، وإن لم يفعلها ، بخلاف غير الحرم المكي من البقاع ، فلا يعاقب فيه بالهم . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : لو أن رجلاً أراد بإلحاد فيه بظلم وهو بِعَدَنٍ أَبْيَن ، لأذاقه الله من العذاب الأليم ، وهذا ثابت عن ابن مسعود ، ووقفه عليه أصح من رفعه ، والذين قالوا هذا القول : استدلوا له بظاهر قوله تعالى ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لأنه تعالى رتب إذاقة العذاب الأليم ، على إرادة الإلحاد بالظلم فيه ترتيب الجزاء على شرطه ، ويؤيد هذا قول بعض أهل العلم : إن الباء في قوله : بإلحاد ، لأجل أن الإرادة مضمنة معنى الهم : أي ومن يهمهم فيه بإلحاد ، وعلى هذا الذي قاله ابن مسعود وغيره .

فهذه الآية الكريمة مخصصة لعموم قوله صلى الله عليه وسلم " ومن هم بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة " الحديث ، وعليه فهذا التخصيص لشدة التغليظ في المخالفة في الحرم المكي ، ووجه هذا ظاهر .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ويحتمل أن يكون معنى الإرادة في قوله ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ﴾ العزم المصمم على ارتكاب الذنب فيه ، والعزم المصمم على الذنب ذنب يعاقب عليه في جميع بقاع الله مكة وغيرها .

(188/521)

والدليل على أن إرادة الذنب إذا كانت عزماً مصمماً عليه أنها كارتكابه حديث أبي بكرة الثابت في الصحيح إذا الْتقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : يا رسول الله ، قد عرفنا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : " إنه كان حريصاً على قتل صاحبه " فقولهم : ما بال المقتول : سؤال عن تشخيص عين الذنب الذي دخل بسببه النار مع أنه لم يفعل القتل ، فبين النَّبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " إنه كان حريصاً على قتل صاحبه " أن ذنبه الذي أدخله النار ، هو عزمه المصمم وحرصه على قتل صاحبه المسلم . وقد قدمنا مراراً أن إن المكسورة المشددة : تدل على التعليل كما تقرر في مسلك الإيماء والتنبيه .

ومثال المعاقبة على العزم المصمم على ارتكاب المحظور فيه ، ما وقع بأصحاب الفيل من الإهلاك المستأصل ، بسبب طير أبابيل ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الفيل : 4] لعزمهم على ارتكاب المناكر في الحرم ، فأهلكهم الله بذلك العزم قبل أن يفعلوا ما عزموا عليه

، والعلم عند الله تعالى . والظاهر أن الضمير في قوله ﴿ فِيهِ ﴾ راجع إلى المسجد الحرام ، ولكن حكم الحرم كله في تغليظ الذنب المذكور كذلك . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(189/521)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

انتقلتْ بنا الآيات إلى موضوع جديد : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ . . ﴾ [الحج : 25] بصيغة الماضي ، لأن الكفر وقع منهم فعلاً ﴿ وَيَصُدُّونَ . . ﴾ [الحج : 25] بصيغة المضارع ، والقياس أن نقول : كفروا وصَدُّوا ، لكن المسألة ليست قاعدة ولا هي عملية آلية ؛ لأن الصدَّ عن سبيل الله ناشيء عن الكفر وما يزال صدُّهم مستمراً .

ومعنى ﴿ عَن سَبِيلِ الله . . ﴾ [الحج : 25] أي : عن الجهاد ﴿ والمسجد الحرام . . ﴾ [الحج : 25] لأنهم منعوا المسلمين من دخوله ، وكان في قبضتهم وتحت سيطرتهم ، وهذا ما حدث فعلاً في الحديبية حينما اشتاق صحابة رسول الله إلى أداء العمرة والطواف بالبيت الذي طالت مدة حرمانهم منه ، فلما ذهبوا منعهم كفار مكة ،

وصدُّوهم عن دخوله .

﴿ والمسجد الحرام . . ﴾ [الحج : 25] كلمة حرام يُستفاد منها أنه مُحرَّم أنْ تفعل فيه خطأً ، أو تهينه ، أو تعتدي فيه . وكلمة (الحَرَام) وصف بها بعض المكان وبعض الزمان ، وهي خمسة أشياء : نقول : البيت الحرام وهو الكعبة ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، ثم المشعر الحرام . وهذه عبارة عن دوائر مركز الكعبة ، هذه أماكن ، ثم الخامس وهو زمن : الشهر الحرام الذي قال الله فيه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ . . ﴾ [الحج : 25]

وحُرْمة الزمان والمكان هنا لحكمة أرادها الخالق سبحانه ؛ لأنه رَبٌّ رحيم بخَلْقه يريد أن يجعل لهم فرصةِ لستْر كبريائهم ، والحدّ من غرورهم ، وكانت تنتشر بين القوم الحروب والصراعات التي كانت تُذْكي نارها عادات قبلية وسعار الحرب ، حتى أن كِلاَ الفريقين يريد أنْ يُفني الآخر ، وربما استمروا في الحرب وهم كارهون لها ، لكن يمنعهم كبرياؤهم من التراجع والانسحاب .

(190/521)

لذلك جعل الله سبحانه لهذه الأماكن والأزمنة حُرْمة لتكون ستاراً لهذا الكبرياء الزائف ، ولهذه العزة البغيضة . وكل حَدَث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فحرَّم الله القتال في الأشهر الحرم ، حتى إذا ما استعرت بينهم حرب جاء شهر حرام ، فأنقذ الضعيف من قبضة القوى دون أنْ يجرح كبرياءه ، وربما هَزّ رأسه قائلاً : لولا الشهر الحرام كنت فعلتُ بهم كذا وكذا . فهذه – إذن – رحمة من الله بعباده ، وستار يحميهم من شرور أنفسهم ونزواتها ويَحْقِن دماءهم .

وما أشبه كبرياءَ العرب في هذه المسألة بكبرياء زوجيْن تخاصما على مَضَض ، ويريد كل منهم أنْ يأتي صاحبه ، لكن يمنعه كبرياءه أن يتنازل ، فجلس الرجل في غرفته ، وأغلق الباب على نفسه ، فنظرتْ الزوجة ، فإذا به يرفع يديه يدعو الله أنْ تُصالحه زوجته ، فذهبتْ وتزيَّنَتْ له ، ثم دفعت الباب عليه وقالت – وكأن أحداً يُجبرها على الدخول – (مُودِّيَانِي فين يا أم هاشم)

وكذلك ، جعل في المكان محرماً ؛ لأن الزمن الحرام الذي حرم فيه قتال أربعة أشهر : ثلاثة سرد وواحد فرد ، الفرد هو رجب ، والسرد هي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم . فحرَّم أيضاً القتال في هذه الأماكن ليعصم دماء الخَلْق أنْ تُراقَ بسبب تناحر القبائل بالغِلِّ والحِقْد والكبرياء والغرور .

يقول تعالى في تحريم القتال في البيت الحرام : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المسجد الحرام حتى

يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فاقتلوهم كَذَلِكَ جَزَآءُ الكافرين ﴾ [البقرة : 191] .

فلعلَّهم حين تأتي شهور التحريم ، أو يأتي مكانه يستريحون من الحرب ، فيدركون لذة السلام وأهمية الصلح ، فيقضون على أسباب النزاع بينهم دون حرب ، فسُعَار الحرب يجُرُّ حرباً ، ولذة السلام وراحة الأمن والشعور بهدوء الحياة يَجُرُّ مَيْلاً للتصالح وفضّ مثل هذه المنازعات بالطرق السلمية .

(191/521)

والمتأمل في هذه الأماكن التي حرَّمها الله يجدها على مراتب ، وكأنها دوائر مركزها بيت الله الحرام وهو الكعبة ، ثم المسجد الحرام حولها ، ثم البلد الحرام وهي مكة ، ثم المشعر الحرام الذي يأخذ جزءاً من الزمن فقط في أيام الحج .

أما الكعبة فليست كما يظنُّ البعض أنها هذا البناء الذي نراه ، الكعبة هي المكان ، أما هذا البناء فهو المكين ، فلو نقضْتَ هذا البناء القائم الآن فمكان البناء هو البيت ، هذا مكانه إنْ نزلْتَ في أعماق الأرض أو صعدْتَ في طبقات السماء .

إذن : فبيت الله الحرام هو هذه البقعة من الأرض حتى السماء ، أَلَا ترى الناس يُصَلُّون في الأدوار العليا ، وهم أعلى من هذا البناء بكثير ؟ إنهم يواجهون جَوَّ الكعبة ، لا يواجهون

الكعبة ذاتها ، لماذا ؟ لأن الكعبة ممتدة في الجو إلى ما شاء الله .

ثم يلي البيت المسجد ، وهو قطعة أرض حُكرت على المسجدية ، لكن هناك مسجد بالمكان حين تقيمه أنت ، وتجعل له بناء مثل هذا البناء الذي نتحدث فيه الآن يسمى " مسجد " بالمكان ، أو مسجد بالمكين حين يضيق علينا هذا المسجد فنخرج نصلي في الشارع فهو في هذه الحالة مسجد ، قالوا : ولو امتد إلى صنعاء وتواصلتْ الصفوف فكلُّه مسجد .

نعود إلى " ما دار بين المسلمين والمشركين يوم الحديبية ، فقد صدَّ الكفار المسلمين عن بيت الله الحرام وهم على مَرْمى البصر منه ، فاغتاظ المسلمون لذلك ، ورأى بعضهم أن يدخل مكة عُنْوة ورَغْماً عنهم .

لكن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سِرٌّ بينه وبين ربه عز وجل ، فنزل على شروطهم ، وعقد معهم صُلْحاً هو " صلح الحديبية " الذي أثار حفيظة الصحابة ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، فقال لرسول الله : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " بلى " قال : أليسوا هم على باطل ؟ قال : فِلمَ نُعْطِي الدنيّة في ديننا ؟ " .

(192/521)

وكان من بنود هذا الصلح : إذا أسلم كافر ودخل في صفوف المسلمين يرده محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا ذهب مسلم إليهم لا يردونه إلى المسلمين .

وكان للسيدة أم المؤمنين أم سلمة – رضوان الله عليها – موقف عظيم في هذه الشدة ، ورَأْي سديد ردَّ آراء الرجال إلى الرُّشْد وإلى الصواب ، وهذا مما نفخر به للمرأة في الإسلام ، ونردّ به على المتشدّقِين بحقوق المرأة .

فلما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فُسْطاطه مُغْضباً فقال لأم سلمة : " هلك المسلمون يا أم سلمة ، لقد أمرتهم فلم يمتثلوا " يعني امرهم بالعودة دون أداء العمرة هذا العام .

فقالت السيدة أم المؤمنين : يا رسول الله ، إنهم مكروبون ، فقد مُنِعُوا عن بيت الله وهم على مَرْأىً منه ، لكن اذهب يا رسول الله إلى ما أمرك به ربك ، فافعل فإذا رأَوْك فعلْتَهُ علموا أن الأمر عزيمة – يعني لا رجعةَ فيه – وفعلاً أخذ رسول الله بهذه النصيحة ، فذهب فحلق ، وذبح هدية وفعل الناس مثله ، وانتهت هذه المسألة .

لكن قبل أنْ يعودوا إلى المدينة شاءتْ إرادة الله أنْ يخبرهم بالحكمة في قبول رسول الله لشروط المشركين مع أنها شروط ظالمة مُجْحفة :

أولاً : في هذا الصلح وهذه المعاهدة اعتراف منهم بمحمد ومكانته ومنزلته ، وأنه أصبح مساوياً لهم ، وهذا مكسب في حَدِّ ذاته .

ثانياً : اتفق الطرفان على وقف القتال بينهم لعدة سنوات ، وهذه الفترة أعطتْ المسلمين فرصة كي يتفرغوا لاستقبال الوفود ونَشْر دين الله .

ثالثاً : كان في إمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ يدخلهم مكة رَغْماً عن أهلها ، وكان في مقدوره أن يقتلهم جميعاً ، لكن ماذا سيكون موقف المؤمنين من أهل مكة والذين يسترون إيمانهم ولا يعرفهم أحد ؟ إنهم وسط هؤلاء الكفار ، وسينالهم ما ينال الكفار ، ولو تميَّز المؤمنون من الكفار أو خرجوا في جانب لأمكن تفاديهم .

(193/521)

اقرأ قوله تعالى : ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدي مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [الفتح : 25] .

ثم يقول تعالى عن المسجد الحرام : ﴿ الذي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ . . ﴾ [الحج : 25] أي : جميعاً ﴿ سَوَآءً العاكف فِيهِ والباد . . ﴾ [الحج : 25] العاكف فيه يعني : المقيم ، والباد : القادم إليه من خارج مكة ، ومعنى ﴿ سَوَآءً . . ﴾ [الحج : 25] يعني : هذان

النوعان متساويان تماماً .

لذلك نقول للذين يحجزون الأماكن لحسابهم في بيت الله الحرام خاصة ، وفي بيوت الله عامة : أريحوا أنفسكم ، فالمكان محجوز عند الله لمن سبق ، لا لمن وضع سجادته ، وشغل بها المكان .

وقد دَعَتْ هذه الآية : ﴿ سَوَآءً العاكف فِيهِ والباد . . ﴾ [الحج : 25] البعض لأنْ يقول : لا يجوز تأجير البيوت في مكة ، فمَنْ أراد أن ينزل في بيت ينزل فيه دون أجرة حتى يستوي المقيم والغريب .

وهذا الرأي مردود عليه بأن البيوت مكان ومكين ، وأرض مكة كانت للجميع حين كان المكان حُراً يبني فيه من أراد ، أمَّا بعد أن بنى بيتاً ، وسكنه أصبح مكيناً فيه ، لا يجوز لأحد دخوله إلا بإذنه وإرادته .

وقد دار حول هذه المسألة نقاش بين الحنظلي في مكة والإمام الشافعي ، حيث يرى الحنظلي أنه لا يجوز تأجير البيوت في مكة ؛ لأنها حسب هذه الآية للجميع ، فردَّ عليه الشافعي رضي الله عنه : لو كان الأمر كذلك لما قال سبحانه في المهاجرين : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ . . ﴾ [الحشر : 8] .

فنسب الديار إليهم . ولَمَا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل مكة : " وهل ترك لنا عقيل من دار أو من ربع ؟ " وكَوْنُ عقيل يبيع دُورهم بعد أن هاجروا ، فهذا دليل على ملكيتهم لها . لذلك رجع الحنظلي إلى رأي الشافعي .

هذا مع أن الآية تعني البيت فقط ، لا مكة كلها ، فما كان الخلاف ليصل إلى مكة كلها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : 25]

الإلحاد قد يكون في الحق الأعلى ، وهو الإلحاد في الله عز وجل ، أما هنا فيُراد بالإلحاد : الميْل عن طريق الحقِّ ، وقوله : ﴿ بِظُلْمٍ . . ﴾ [الحج : 25] الظلم في شيء لا يسمو إلى درجة الكفر ، والإلحاد بظلم إنْ حدث في بيت الله فهو أمر عظيم ؛ لأنك في بيت ربك (الكعبة) .

وكان يجب عليك أن تستحي من مجرد حديث النفس بمعصية ، مجرد الإرادة هنا تُعَدُّ ذنباً ؛ لأنك في مقام يجب أنْ تستشعر فيه الجلال والمهابة ، فكما أعطى الله لبيته مَيْزة في مضاعفة الحسنات ، كذلك عظَّم أمر المعصية وأنت في رحاب بيته ، فتنبَّه لهذه المسألة .

حتى في أمثال أهل الريف يقولون : (تيجي في بيت العالم وتسكر) يعني : السُّكْر يُتصوَّر في بيت أحد العصاة ، في بيت فاسق ، في خمارة ، لكن في بيت عالم ، فهذا شيء كبير ، وجرأة عظيمة . لماذا ؟

فللمكان حُرْمة بحُرمة صاحبة ، فإذا كان للمكان حُرْمة بحُرْمة صاحبه ، والبيت منسوب إلى الله ، فأنت تعصي ربك في عُقْر داره ، وأيْ جرأة أعظم من الجرأة على الله ؟

وهذه خاصية للمسجد الحرام ، فكُلُّ المساجد في أي مكان بيوت الله ، لكن هناك فَرْق بين بيت الله باختيار الله ، وبيت الله باختيار عباد الله ؛ لذلك جُعل بيتُ الله باختيار الله (البيت الحرام) هو القِبْلة التي تتجه إليها كل بيوت الله في الأرض .

(195/521)

فما عاقبة الإلحاد في بيت الله ؟ ﴿ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : 25] إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق دائماً وأبداً ، والإذاقة أشد الإدراكات تأثيراً ، وذلك هو العذاب المهين ، والذوق هو الإحساس بالمطعوم شراباً كان أو طعاماً ، إلا أنه تعدى كل مُحسٍّ به ، ولو لم يكن مطعوماً أو مشروباً ، ويقول ربنا عز وجل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] .

أي : ذق الإهانة والمذلة ، لا مما يُطعم أو مما يُشرب ، ولكن بالإحساس ، فالإذاقة تتعدى إلى كل البدن ، فالأنامل تذوق ، والرِّجْل تذوق ، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق . وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة في الدنيا لهؤلاء مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب الله .

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً ، والعذاب هو إيلام الحس . إذا أحببت أن تديم ألمه ، فأبْقِ فيه آلة الإحساس بالألم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(196/521)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

وأخرج عبد حميد عن ابن عباس قال : الحرم كله هو المسجد الحرام .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ قال : خلق الله فيه سواء .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ سواء ﴾ يعني شرعاً واحداً ﴿ العاكف فيه ﴾ قال : أهل مكة في مكة أيام الحج ﴿ والباد ﴾ قال : من كان في غير أهلها من يعتكف به من الآفاق ، قال : هم في منازل مكة ، سواء ، فينبغي لأهل مكة أن يوسعوا لهم حتى يقضوا مناسكهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال البادي وأهل مكة سواء في المنزل والحرم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد وعطاء ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ قال : سواء في تعظيم البلد وتحريمه .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي في شعب الإيمان ، عن قتادة في الآية قال : ﴿ سواء ﴾ في جواره وأمنه وحرمته ﴿ العاكف فيه ﴾ أهل مكة ﴿ والباد ﴾ من يعتكفه من أهل الآفاق .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن حصين قال : سألت سعيد بن جبير : أعتكف بمكة ؟ قال : لا . . . أنت معتكف ما أقمت . قال الله ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن مجاهد في الآية قال : الناس بمكة سواء ، ليس أحد أحق بالمنازل من أحد .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ، عن عبد الله بن عمرو قال : من أخذ من أجور بيوت مكة إنما يأكل في بطنه ناراً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن عطاء ، أنه كان يكره أن تباع بيوت مكة أو تكرى .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم أنه كان يكره إجارة بيوت مكة .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عمر ، أن عمر نهى أن تغلق أبواب دور مكة ، فإن الناس كانوا ينزلون منها حيث وجدوا ، حتى كانوا يضربون فساطيطهم في الدور .

(197/521)

وأخرج ابن سعد عن عمر بن الخطاب ، أن رجلاً قال له عند المروة : يا أمير المؤمنين ، أقطعني مكاناً لي ولعقبي . فأعرض عنه عمر وقال : هو حرم الله ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : بيوت مكة لا تحل إجارتها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن جريج قال : أنا قرأت كتاب عمر بن عبد العزيز على الناس بمكة ، فنهاهم عن كراء بيوت مكة ودورها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن القاسم قال : من أكل شيئاً من كراء مكة ، فإنما يأكل ناراً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء قال : كان عمر يمنع أهل مكة أن يجعلوا لها أبواباً حتى ينزل الحاج في عرصات الدور .

وأخرج ابن أبي شيبة عن جعفر عن أبيه قال : لم يكن للدور بمكة أبواب ، كان أهل مصر وأهل العراق يأتون فيدخلون دور مكة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن سابط في قوله ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ قال : البادي ، الذي يجيء من الحج والمقيمون سواء في المنازل ينزلون حيث شاؤوا ولا يخرج رجل من بيته .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند صحيح ، عن ابن عباس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ قال : " سواء المقيم والذي يرحل " " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ قال : ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مكة مباحة لا تؤجر بيوتها ولا تباع رباعها " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن ماجة عن علقمة بن نضلة قال : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر ، وما تدعى رباع مكة إلا السوائب ، من احتاج سكن ومن استغنى أسكن .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، عن عمر أنه قال : يا أهل مكة ، لا تتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث شاء .

وأخرج الدارقطني عن ابن عمرو ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً " .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن راهويه وأحمد وعبد بن حميد والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه ، عن ابن مسعود رفعه في قوله ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ قال : لو أن رجلاً هم فيه بإلحاد وهو بعدن أبين ، لأذاقه الله تعالى عذاباً أليماً .

وأخرج سعيد بن منصور والطبراني ، عن ابن مسعود في قوله ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ قال : من هم بخطيئة فلم يعملها في سوى البيت لم تكتب عليه حتى يعملها ، ومن هم بخطيئة في البيت لم يمته الله من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أنيس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه مع رجلين : أحدهما مهاجري والآخر من الأنصار ، فافتخروا في الأنساب فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة . فنزلت فيه ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ يعني من لجأ إلى الحرم ﴿ بإلحاد ﴾ يعني بميل عن الإسلام .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان ، عن قتادة في قوله ﴿ ومن يرد

فيه بإلحاد . . . ﴾ . قال : من لجأ إلى الحرم ليشرك فيه عذبه الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ قال : بشرك .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ قال : هو أن يعبد فيه غير الله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ يعني أن تستحل من الحرام ما حرم الله عليك من لسان أو قتل ، فتظلم من لا يظلمك وتقتل من لا يقتلك . فإذا فعل ذلك فقد وجب له عذاب أليم .

(199/521)

وأخرج ابن جرير عن حبيب بن أبي ثابت في قوله ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ قال : هم المحتكرون الطعام بمكة .

وأخرج البخاري في تاريخه وعبد بن حميد وأبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن يعلى بن أمية ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه " .

وأخرج سعيد بن منصور والبخاري في تاريخه وابن المنذر ، عن عمر بن الخطاب قال : احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن ابن عمر قال : بيع الطعام بمكة إلحاد .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " احتكار الطعام بمكة إلحاد " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن مجاهد قال : كان لعبد الله بن عمرو فسطاطان : أحدهما في الحل والآخر في الحرم ، فإذا أراد أن يصلي صلى في الذي في الحرم ، واذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الذي في الحل . فقيل له فقال : كنا نحدَّث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل : كلا والله وبلى والله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآيه قال : شتم الخادم في الحرم ظلم فما فوقه .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : تجارة الأمير بمكة إلحاد .

(200/521)

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : أقبل تبع بريد الكعبة ، حتى إذا كان بكراع الغميم بعث الله تعالى عليه ريحاً ، لا يكاد القائم يقوم إلا بمشقة . ويذهب القائم يقعد فيصرع ، وقامت عليه ولقوا منها عناء ، ودعا تبع حبريه فسألهما : ما هذا الذي بعث عليّ ؟ قالا : أو تؤمنا ؟ قال : أنتم آمنون . قالا : فإنك تريد بيتاً يمنعه الله ممن أراده ! قال : فما يذهب هذا عني ؟ قالا : تجرد في ثوبين ثم تقول : لبيك اللهم لبيك ، ثم تدخل فتطوف به فلا تهيج أحداً من أهله . قال : فإن أجمعت على هذا ، ذهبت هذه الريح عني ؟ قالا : نعم . فتجرد ثم لبى فأدبرت الريح كقطع الليل المظلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ قال : حدثنا شيخ من عقب المهاجرين والأنصار ، أنهم أخبروه أن أيما أحد أراد به ما أراد أصحاب الفيل ، عجل لهم العقوبة في الدنيا وقال : إنما يؤتي استحلاله من قبل أهله . فأخبرني عنهم أنه وجد سطران بمكة مكتوبان في المقام : أما أحدهما ، فكان كتابته : بسم الله والبركة ، وضعت بيتي بمكة طعام أهله اللحم والسمن والتمر ، ومن دخله كان آمناً لا يحله إلا أهله . قال : لولا أن أهله هم الذين فعلوا به ما قد علمت لعجل لهم في الدنيا العذاب . قال : ثم أخبرني أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قبل أن يستحل منه الذي يستحل قال : أجد مكتوباً في الكتاب الأول : عبد الله يستحل به الحرم ، وعنده عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير . فقال : عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد

الله بن عمر بن الخطاب ، قال كل واحد منهما : لست قارا ًبه إلا حاجا ًأو معتمرا ًأو حاجة لا بد منها . وسكت عبد الله بن الزبير فلم يقل شيئا ًفاستحل من بعد ذلك .

(201/521)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن مسعود قال : من هم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها . ولو أن رجلاً كان بعدن أبين حدث نفسه بأن يلحد في البيت ، والإلحاد فيه : أن يستحل فيه ما حرم الله عليه فمات قبل أن يصل إلى ذلك ، أذاقه الله من عذاب أليم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك في قوله ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد ﴾ قال : ان الرجل ليهم بالخطيئة بمكة وهو بأرض أخرى ، فتكتب عليه وما عملها .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد قال : تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن عطاء بن أبي رباح ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ قال : القتل والشرك .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن أبي مليكة ، أنه سئل عن قوله ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم

﴿ قال : ما كنا نشك أنها الذنوب حتى جاء إعلاج من أهل البصرة إلى إعلاج من أهل الكوفة ، فزعموا أنها الشرك .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : ما من عبد يهم بذنب فيؤاخذه الله بشيء حتى يعمله ، إلا من هم بالبيت العتيق شراً فإنه من هم به شراً عجل الله له .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي الحجاج في الآية قال : إن الرجل يحدث نفسه أن يعمل ذنباً بمكة فيكتبه الله عليه ذنباً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد قال : رأيت عبد الله بن عمرو بعرفة ، ومنزله في الحل ومسجده في الحرم فقلت له : لم تفعل هذا ؟ ؟ قال : لأن العلم فيه أفضل والخطيئة فيه أعظم . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(202/521)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجه ، أحدها : أنه معطوفٌ على ما قبلَه . وحينئذٍ ففي عطفِه على الماضي ثلاثةُ تأويلاتٍ . أحدُها : أنَّ المضارعَ قولاً يُقْصَدُ به الدلالةُ على

زمنٍ معينٍ من حالٍ ، أو استقبالٍ ، وإنما يُراد به مجردُ الاستمرارِ . ومثلُه ﴿ الذين آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ﴾ [الرعد : 28] . الثاني : أنه مؤولٌ بالماضي لعطفِه على الماضي . الثالث : أنه على بابِه ، وأنَّ الماضي قبلَه مُؤَوَّل بالمستقبل .

الوجه الثاني : أنَّه حالٌ من فاعل "كفروا " وبه بدأ أبو البقاء . وهو فاسدٌ ظاهراً ؛ لأنه مضارعٌ مثبتٌ ، وما كان كذلك لا تَدْخُل عليه الواو ، وما ورد منه على قِلَّته مؤولٌ فلا يُحْمل عليه القرآنُ ، وعلى هذين القولَيْنِ فالخبرُ محذوفٌ . واختلفوا في موضعِ تقديرِه : فقدَّره ابن عطية بعد قولِه " والبادِ " أي : إن الذين كفروا خَسِروا أو هلكوا ونحو ذلك . وقدَّره الزمخشري بعد قوله ﴿ والمسجد الحرام ﴾ أي : إنَّ الذين كفروا نُذِيْقُهم من عذاب أليم . وإنما قَدَّره كذلك لأن قوله : ﴿ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يَدُلُّ عليه .

إلاَّ أنَّ الشيخَ قال في تقدير الزمخشري بعد المسجد الحرام : " لا يصحُّ " ، قال : " لأنَّ " الذي " صفة للمسجد الحرام ، فموضعُ التقديرِ هو بعد " البادِ " يعني : أنه يلزمُ من تقديرِه الفصلُ بينَ الصفةِ والموصوفِ بأجنبيّ ، وهو خبرُ " إنّ " ، فيصيرُ التركيبُ هكذا : إنَّ الذين كفروا ويَصُدُّون عن سبيلِ اللهِ والمسجدِ الحرام نُذيقُهم مِنْ عذاب أليمٍ الذي جَعَلْناه للناس .

وللزمخشريِّ أنْ ينفصِلَ عن هذا الاعتراضِ بأن " الذي جَعَلْناه " لا نُسَلِّمُ أنَّه نعتٌ للمسجد حتى يَلْزَمَ ما ذَكَر ، بل نَجْعَلُه مقطوعاً عنه نَصْباً أو رفعاً .

ثم قال الشيخ : " لكنَّ مُقَدَّرَ الزمخشريِّ أحسنُ من مقدَّرِ ابنِ عطية ؛ لأنه يَدُلُّ عليه الجملةُ الشرطية بعدُ مِنْ جهة اللفظ ، وابنُ عطية لَحَظَ من جهةِ المعنى ؛ لأنَّ مَنْ أَذيق العذابَ خَسِر وهَلَكَ " .

الوجه الثالث : أنَّ الواوَ في " ويَصُدُّون " مزيدةٌ في خبر " إنَّ " تقديرُه : إنَّ الذين كفروا يَصُدُّون . وزيادةُ الواوِ مذهبٌ كوفي تقدَّم بُطلانُه ، وقال ابنُ عطية : " وهذا مُفْسِدٌ للمعنى المقصودِ " . قلت : ولا أَدْري فسادَ المعنى من أيِّ جهة ؟ ألا ترى أنه لو صُرِّح بقولِنا : إنَّ الذين كفروا يَصُدُّون لم يكنْ فيه فسادُ معنى . فالمانع إنما هو أمرٌ صناعيٌّ عند أهل البصرة لا معنويٌّ . اللهم إلاَّ أَنْ يريدَ معنىً خاصاً / يَفْسُدُ لهذا التقديرِ فيُحتاج إلى بيانه .

قوله : ﴿ الذي جَعَلْنَاهُ ﴾ يجوز جَرُّه على النعتِ أو البدلِ أو البيانِ ، والنصبُ بإضمار فعلٍ ، والرفعُ بإضمارِ مبتدأ . و " جَعَلَ " يجوز أن يتعدى لاثنين بمعنى صَيَّر ، وأَنْ يتعدَّى لواحدٍ .

(204/521)

والعامَّةُ على رفعِ "سواءٌ" وقرأه حفصٌ عن عاصم بالنصبِ هنا وفي الجاثية: ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ ﴾ [الآية: 21]. ووافق على الذي في الجاثيةِ الأخَوان، وسيأتي توجيهُه.

فأمَّا على قراءةِ الرفع فإن قلنا: إنَّ جَعَلَ بمعنى صَيَّر كان في المفعولِ الثاني أوجهٌ، أحدها: وهو الأظهرُ أنَّ الجملةَ مِنْ قولِه ﴿ سَوَآءٌ العاكفُ فِيهِ ﴾ هي المفعولُ الثاني، ثم الأحسنُ في رفع "سواءٌ" أن يكون خبراً مقدماً، والعاكفُ والبادي مبتدأ مؤخر. وإنما وُحّد الخبرُ وإن كان المبتدأُ اثنين؛ لأنَّ سواء في الأصل مصدرٌ وُصِفَ به. وقد تقدَّم هذا أولَ البقرة. وأجاز بعضُهم أن يكون "سواءٌ" مبتدأ، واما بعدَه الخبر. وفيه ضَعْفٌ أو مَنْعٌ من حيث الابتداءُ بالنكرة من غير مُسَوِّغٍ، ولأنه متى اجتمع معرفةٌ ونكرةٌ جُعِلت المعرفةُ المبتدأ.

وعلى هذا الوجهِ أعني كونَ الجملة مفعولاً ثانياً فقولُه "للناس" يجوز فيه وجهان، أحدُهما: أن يتعلق بالجَعْل أي: جَعَلْناه لأجلِ الناسِ كذا. والثاني: أنه متعلقٌ بمحذوفٍ، على أنَّه حالٌ مِنْ مفعول "جَعَلْناه" ولم يذكر أبو البقاء فيه على هذا الوجهِ غيرَ ذلك وليس معناه متضحاً.

الوجه الثاني: أنَّ "للناس" هو المفعولُ الثاني. والجملةُ مِنْ قوله ﴿ سَوَآءٌ العاكفُ ﴾ في محلِّ نصب على الحال: إمَّا من الموصول، وإمَّا مِنْ عائدِه. وبهذا الوجه بدأ أبو البقاء. وفيه نظرٌ؛ لأنه جعل هذه الجملةَ التي هي محطُّ الفائدةِ فَضْلةً.

الوجه الثالث : أنَّ المفعولَ الثاني محذوفٌ ، قال ابن عطية : " والمعنى : الذي جَعَلْناه للناس قِبْلةً ومتعبَّداً . فتقدير ابنِ عطية هذا مُرْشِدٌ لهذا الوجهِ . إلاَّ أن الشيخ " . قال " ولا يُحتاج إلى هذا التقديرِ ، إلاَّ إنْ كان أراد تفسيرَ المعنى لا الإعراب . فيَسُوغ لأنَّ الجملةَ في موضعِ المفعولِ الثاني ، فلا يُحتاج إلى هذا التقديرِ . وإنْ جَعَلْناها متعديةً لواحدٍ كان قولُه " للناس " متعلقاً بالجَعْلِ على العِلِّيَّة . وجَوَّزَ فيه أبو البقاء وجهين آخرين ، أحدهما : أنه حالٌ من مفعولِ " جَعَلْناه " . والثاني : أنه مفعولٌ تعدَّى إليه بحرف الجر . وهذا الثاني لا يُتَعَقَّل ، كيف يكون " للناس " مفعولاً عُدِّيَ إليه الفعلُ بالحرف ؟ هذا ما لا يعقلُ . فإن أراد أنه مفعولٌ مِنْ أجله فهي عبارةٌ بعيدةٌ من عبارة النحاة .

وأمَّا على قراءةِ حفصٍ : فإنْ قلنا : " جَعَلَ " يتعدى لاثنين كان " سواءً " مفعولاً ثانياً . وإنْ قُلْنا يتعدَّى لواحدٍ كان حالاً من هاءِ " جَعَلْناه " وعلى التقديرين : فالعاكفُ مرفوعٌ به على الفاعليةِ ؛ لأنه مصدرٌ وُصِفَ به فهو في قوةِ اسم الفاعل المشتقِّ تقديرُه : جَعَلْناه مُسْتوياً فيه العاكفُ . ويَدُلُّ عليه قولُهم : " مررتُ برجلٍ سواءٍ هو والعَدَمُ " . ف " هو " تأكيدٌ للضميرِ المستترِ فيه ، و " العَدَمُ " نسقٌ على الضميرِ المستترِ ولذلك ارتفعَ .

ويروى : " سواءٍ والعدمُ " بدونِ تأكيدٍ وهو شاذٌّ .

وقرأ الأعمش وجماعةٌ " سَواءً " نصباً ، " العاكفَ " جراً . وفيه وجهان ، أحدهما : أنه

بدلٌ من " الناس " بدلُ تفصيل . والثاني : أنه عطفُ بيانٍ . وهذا أراد ابنُ عطية بقولِه " عَطْفاً على الناس " ويمتنع في هذه القراءةِ رفعُ " سواء " لفسادِه صناعةً ومعنىً ؛ ولذلك قال أبو البقاء : " وسواءً على هذا نصبٌ لا غير " .

(206/521)

وأثبتَ ابنُ كثيرٍ ياءَ " والبادي " وصلاً ووقفاً ، وأثبتها أبو عمرو وورش وصلاً وحذفاها وقفاً . وحَذَفَها الباقون وَصْلاً ووَقْفاً وهي محذوفةٌ في الإمام .

قوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ﴾ فيه أربعةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنَّ مفعولَ " يُرِدْ " محذوفٌ ، وقولُه : " بإلحادٍ بظلم " حالان مترادفتان . والتقديرُ : ومَنْ يُرِدْ فيه مراداً ما ، عادِلاً عن القصدِ ظالماً ، نُذِقْه من عذابٍ أليم . وإنما حُذِفَ ليتناولَ كلَّ متناوَلٍ . قال معناه الزمخشريُّ . والثاني : أن المفعولَ أيضاً محذوفٌ تقديرُه : ومَنْ يُرِدْ فيه تَعَدّياً ، و " بإلحادٍ " حال أي : مُلْتَبِساً بإلحادٍ . و " بظُلْمٍ " بدلٌ بإعادةِ الجارّ . الثالث : أَنْ يكونَ " بظلمٍ " متعلقاً ب " يُرِدْ " ، والباءُ للسببيةِ أي بسببِ الظلم و " بإلحاد " مفعولٌ به . والباءُ مزيدةٌ فيه كقولِه : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [البقرة : 195] [وقولِه :]

3380 . . . . . .

. . . . . لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ

وإليه ذهب أبو عبيدة ، وأنشد للأعشى :

3381 ضَمِنَتْ برزقِ عيالِنا أرماحُنا . . . . . .

. . . . . .

أي : ضَمِنَتْ رزقَ . ويؤيِّده قراءة الحسن " ومَنْ يُرِدْ إلحادهُ بظُلْمٍ " . قال الزمخشري : أراد إلحاده فيه فأضافه على الاتّساعِ في الظرف كـ ﴿ مَكْرُ اليل ﴾ [سبأ : 33] ومعناه : ومَنْ يُرِدْ أن يُلْحِدَ فيه ظالماً . الرابع : أن يُضَمَّنَ "يُرِدْ" معنى يتلبَّس ، فلذلك تعدى بالباء أي : ومَنْ يتلَبَّسْ بإلحادٍ مُرِيْداً له .

والعامَّةُ على "يُرِدْ" بضم الياء من الإرادة . وحكى الكسائي والفراء أنه قُرِىء "يَرِدْ" بفتح الياء . وقال الزمخشري : " من الوُرُوْد ومعناه : مَنْ أتى فيه بإلحادٍ ظالماً " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 255 . 261 ﴾

(207/521)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

الصدُّ عن المسجد الحرام بإخافة السُّبُل ، وبِغَصْبِ المال الذي لو بقي في يد صاحبه لوصل به إلى المسجد الحرام .

قوله : ﴿ سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ وإنما يعتبر فيه السبق والتقدم .

ومشهد الكِرَام يستوي فيه الإقدام ، فَمَنْ وَصلَ إلى تلك العقوة فلا ترتيبَ ولا ردَّ ، وبعد الوصول فلا زَجْرَ ولا صدَّ ، أمَّا في الطريق فربما يعتبر التقدم والتأخر ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ ولكن في الوصول فلا تفاوتَ ولا تباين ، ثم إذا اجتمعت النفوسُ فالموضع الواحد يجمعهم ، ولكنْ لكلِّ حالٌ ينفرد بها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 537 ﴾

(208/521)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والعشرون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/522)

الجزء الثانى والعشرون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 26 ﴾ من سورة الحج

وحتى الآية ﴿ 29 ﴾ من نفس السورة

(4/522)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر الفريقين وجزاء كل وختمه بذكر البيت ، أتبعه التذكير به وبحجه ، لما فيه من التذكير بالقيامة الحاملة على التقوى التي هي مقصد السورة ، بما فيه من الوفادة على الله ، مع التجرد من المحيط ، والخضوع للرب ، والاجتماع في المشاعر موقفاً في أثر موقف ، ولما فيه من الحث على التسنن بأبيهم الأعظم إبراهيم عليه السلام فقال ، مقرعاً وموبخاً لمن أشرك في نفعه " أسست على التوحيد من أول يوم " عطفاً على قوله أول السورة ﴿ اتقوا ﴾ ﴿ وإذ ﴾ أي واذكروا إذ ﴿ بوأنا ﴾ بما لنا من العظمة ، ولما لم يجعله سبحانه سكنه بنفسه ، قصر الفعل عن التعدية إلى مفعوله الأول فقال : ﴿ لإبراهيم ﴾ أي قدرنا له ﴿ مكان البيت ﴾ أي الكعبة وجعلناه له مباءة ، أي منزلاً يبوء إليه أي يرجع ، لأنه – لما نودعه فيه من اللطائف – أهل لأن يرجع إليه من فارقه ويحن إليه ، ويشتاق من باعده

وينقطع إليه بعض ذريته ، من المباءة بمعنى المنزل ، وبوأه إياه وبوأه له ، أي أنزله ، قال في ترتيب المحكم : وقيل : هيأته ومكنت له فيه .

ويدل على أن إبراهيم عليه السلام أول بان للبيت ما في الصحيح " عن أبي ذر ـ رضى الله عنهم ـ قال : قلت : يا رسول الله ! أي مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أيّ ؟ قال : بيت المقدس ، قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة " ولما كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام نبياً ، كان من المعلوم أن نبوته له لأجل العبادة ، فكان المعنى : قلنا له : أنزل أهلك هاهنا وتردد إلى هذا المكان للعبادة ، فذلك فسره بقوله : ﴿ أن لا تشرك بي شيئاً ﴾ فابتدأ بأسّ العبادة ورأسها ، وعطف على النهي قوله : ﴿ وطهر بيتي ﴾ عن كل ما لا يليق به من قذر حسي ومعنوي من شرك ووثن وطواف عريان به ، كما كانت العرب تفعل ﴿ للطائفين ﴾ به .

ولما تقدم العكوف فاستغنى عن إعادته ، قال : ﴿ والقائمين ﴾ أي حوله تعظيماً لي كما يفعل حول عرشي ، أو في الصلاة ، ولأن العكوف بالقيام أقرب إلى مقصود السورة .

(5/522)

﴿ والركع ﴾ ولما كان كل من الطواف والقيام عبادة برأسه ، ولم يكن الركوع والسجود كذلك ، عطف ذاك ، واتبع هذا لما بينهما من كمال الاتصال ، إذ لا ينفك أحدهما عن الآخر في الصلاة فقال : ﴿ السجود ﴾ أي المصلين صلاة أهل الإسلام الأكمل ﴿ وأذن في الناس ﴾ أي أعلمهم وناد فيهم ﴿ بالحج ﴾ وهو قصد البيت على سبيل التكرار لعبادة المخصوصة بالمشاعر المنصوصة ﴿ يأتوك ﴾ أي يأتوا بيتك الذي بنيته لذلك ، مجيبين لصوتك بإذننا سامعين طائعين مخبتين خاشعين من أقطار الأرض كما يجيبون صوت الداعي من قبلنا إذا دعاهم بمثل ذلك بعد الموت ﴿ رجالاً ﴾ أي مشاة على أرجلهم ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ أي هزيل من طول السير من الإبل لبعد الشقة وعظم المشقة .

ولما كان الضامر يطلق على كل من الذكر والأنثى من الجمال ، وكانت الأنثى أضعف النوعين ، فكان الحكم عليها بالإتيان المذكور حكماً على الذكر الذي هو أشد بطريق الأولى ، أسند إلى ضميرها فقال معبراً بما يدل على التجدد والاستمرار ، واصفاً الضوامر التي أفهمتها "كل" ﴿ يأتين ﴾ أي الضوامر ﴿ من كل فج ﴾ أي طريق واسع بين جبلين ﴿ عميق ﴾ أي بعيد منخفض بالنسبة إلى علو جباله .

قال أبو حيان : أصله البعد سفلاً - انتهى .

(6/522)

حفاة عراة ، ينتقلون من مشعر من مشاعر الحج إلى معشر ، ومن مشهد إلى مشهد ، مجموعين بالدعوة ، خاشعين للهيبة ، خائفين من السطوة ، راجين للمغفرة ، ثم يتفرقون إلى مواطنهم ، ويتوجهون إلى مساكنهم ، كالسائرين إلى مواقف الحشر ، يوم البعث والنشر ، المتفرقين إلى داري النعيم والجحيم ، في أيها المصدقون بأن خليلنا إبراهيم عليه السلام نادى بالحج فأجابه بقدرتنا كرامة له من أراد الله حجة على بعد أقطارهم ، وتنائي ديارهم ، ممن كان موجوداً في ذلك الزمان ، وممن كان في ظهور الآباء الأقربين أو الأبعدين ! صدقوا أن الداعي من قبلنا بالنفخ في الصور يجيبه كل من كان على ظهرها ممن حفظنا له جسده ، أو سلطنا عليه الأرض فمزقناه حتى صار تراباً ، وما بين ذلك ، لأن الكل علينا يسير .

(7/522)

ولما كان الإنسان ميالاً إلى الفوائد ، مستشرقاً إلى جميل العوائد ، علل الإتيان بما يرغبه مبيحاً من فضله ما يقصده من أمر المعاش فقال : ﴿ ليشهدوا ﴾ أي يحضروا حضوراً تاماً ﴿ منافع لهم ﴾ أي لا للمعبود ، دينية ودنيوية ، فإنه كما جعل سبحانه تلك المواطن ماحية للذنوب ، جالبة للقلوب ، جعلها جالبة للفوائد ، جارية على أحسن العوائد ، سالمة للفقر

جابرة للكسر ، ولما كانت المنافع لا تطيب وتثمر إلا بالتقوى كان الحامل على التقوى لذكر قال : ﴿ ويذكروا اسم الله ﴾ أي الجامع لجميع الكمالات بالتكبير وغيره عند الذبح وغيره ، إعلاماً بأنه المقصود الذي يتبعه جميع المقاصد لأنه ما جمعهم على ما فيه من تلك الأرض الغراء والأماكن الغبراء إلا هو بقدرته الكاملة ، وقوته الشاملة ، لا اسم شيء من الأصنام كما كانت الجاهلية تفعل ﴿ في أيام معلومات ﴾ أي علم أنها أول عشر في ذي الحجة الذي يوافق اسمه مسماه ، لا ما سموه به ومسماه غيره على ما حكم به النسيء ، وفي هذا إشارة إلى أن المراد به الإكثار إذ مطلق الذكر مندوب إليه في كل وقت ، وفي التعبير بالعلم إشارة إلى وجوب استفراغ الجهد بعد القطع بأن الشهر ذو الحجة اسماً ومسمى في تحرير أوله ، وأما أيام التشريق فإنها لما كانت مبنية على العلم بأمر الشهر الذي أمر به هنا ، فأنتج العلم بيوم العيد ، لم يحتج في أمرها إلى غير العد فلذا عبر عنها به دون العلم .

(8/522)

ولما كانت النعم أجل أموالهم ، قال تعالى مرغباً لهم ومرهباً : ﴿ على ﴾ أي مبركين بذكره وحامدين على ﴿ ما رزقهم ﴾ ولو شاء محقه ﴿ من بهيمة ﴾ ولما كانت البهيمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر ، بينها بقوله : ﴿ الأنعام ﴾ من الإبل والبقر والغنم بالتكبير عند

رؤيته ، ثم عند ذبحه ، وفيه حث على التقرب بالضحايا ، والهدايا ، ولذلك التفت إلى الإقبال عليهم ، وتركيب " لهم " يدور على الاستعجام والخفاء والانغلاق وعدم التمييز ، وتركيب " نعم " على الرفاهية والخفض والدعة .

(9/522)

ولما ذكر سبحانه العبادة فخاطب بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، تنبيهاً على أنها لعظم المعبود لا يقوم بها على وجهها إلا الخلص ، أقبل على العابدين كلهم بالإذن في ما يسرهم من منحة التمتيع ، تنبيهاً على النعمة ، حثاً على الشكر ، فقال مبيناً عما اندرج في ذلك من الذبح : ﴿ فكلوا منها ﴾ أي إن شئتم إذا تطوعتم بها ولا تمتنعوا كأهل الجاهلية ، فالأكل من المتطوع به لا يخرجه عن كونه قرباناً في هذه الحنيفية السمحة منة على أهلها ، تشريفاً لنبيها ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والأكل من الواجب لا يجوز لمن وجب عليه ، لأنه إذا أكل منه ولم يكن مخرجاً لما وجب عليه بكماله ﴿ وأطعموا البائس ﴾ أي الذي اشتدت حاجته ، من بئس كسمع إذا ساءت حاله وافتقر ، وبين أنه من ذلك ، لا من بؤس – ككرم الذي معناه : اشتد في الحرب ، بقوله : ﴿ الفقير ﴾ وأكد هذا الحث ونفى عنه الريب بعوده إلى الأسلوب الأول في قوله : ﴿ ثم ليقضوا ﴾ أي يقطعوا وينهوا يوم النحر بعد طول الإحرام

﴿ تفثهم ﴾ أي شعثهم بالغسل وقص الأظفار والشارب وحلق العانة ونحو ذلك ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ أخذاً من الفراغ من الأمر والخروج من كل واجب ﴿ وليطوفوا ﴾ فيكون ذلك آخر أعمالهم ، وحث على الإكثار منه والاجتهاد فيه بصيغة التفعل ، وعلى الإخلاص بالإخفاء بحسب الطاقة بالإدغام ، واللام إن كسرت - كما هي قراءة أبي عمرو وابن عامر وورش عن نافع وقنبل عن ابن كثير ورويس عن يعقوب في ﴿ ليقضوا ﴾ وقراءة ابن ذكوان عن ابن عامر وحده في ﴿ ليوفوا . .

(10/522)

وليطوفوا ﴾ يصح أن تكون للعلة عطفاً على ﴿ ليشهدوا ﴾ ويكون عطفها بأداة التراخي لطول المدة على ما هو مفهومها مع الإشارة إلى التعظيم في الرتبة ، ويصح أن تكون للأمر كقراءة الباقين بالإسكان ، وقوله : ﴿ بالبيت ﴾ أي من ورائه ، لعلم الحجر ، ومتى نقص عن إكمال الدوران حوله أدنى جزء لم يصح لأنه لم يوقع مسمى الطواف ، فلا تعلق بالباء في التبعيض ووصفه بقوله : ﴿ العتيق ﴾ إشارة إلى استحقاقه للتعظيم بالقدم والعتق من كل سوء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 146 . 149 ﴾

(11/522)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا ﴾ أي واذكر حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة ، أي مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة .

وكان قد رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء ، فأعلم الله تعالى إبراهيم عليه السلام مكانه بريح أرسلها فكشفت ما حوله فبناه على وضعه الأول ، وقيل أمر إبراهيم بأن يأتي موضع البيت فيبنى ، فانطلق فخفي عليه مكانه فبعث الله تعالى على قدر البيت الحرام في العرض والطول غمامة وفيها رأس يتكلم وله لسان وعينان فقال يا إبراهيم ابن علي قدري وحيالي فأخذ في البناء وذهبت السحابة ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : لا شك أن (أن) هي المفسرة فكيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيراً للتبوئة الجواب : أنه سبحانه لما قال جعلنا البيت مرجعاً لإبراهيم ، فكأنه قيل ما معنى كون البيت مرجعاً له ، فأجيب عنه بأن معناه أن يكون بقلبه موحداً لرب البيت عن الشريك والنظير ، وبقالبه مشتغلاً بتنظيف البيت عن الأوثان والأصنام .

السؤال الثاني : أن إبراهيم لما لم يشرك بالله فكيف قال أن لا تشرك بي الجواب : المعنى لا

تجعل في العبادة لي شريكاً ، ولا تشرك بي غرضاً آخر في بناء البيت .

السؤال الثالث : البيت ما كان معموراً قبل ذلك فكيف قال وطهر بيتي الجواب : لعل ذلك المكان كان صحراء وكانوا يرمون إليها الأقذار ، فأمر إبراهيم ببناء البيت في ذلك المكان وتطهيره من الأقذار ، وكانت معمورة فكانوا قد وضعوا فيها أصناماً فأمره الله تعالى بتخريب ذلك البناء ووضع بناء جديد وذلك هو التطهير عن الأوثان ، أو يقال المراد أنك بعد أن تبنيه فطهره عما لا ينبغي من الشرك وقول الزور .

(12/522)

وأما قوله : ﴿ لِلطَّائِفِينَ والقائمين ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما للطائفين بالبيت من غير أهل مكة ﴿ والقائمين ﴾ أي المقيمين بها ﴿ والركع السجود ﴾ أي من المصلين من الكل ، وقال آخرون القائمون وهم المصلون ، لأن المصلي لا بد وأن يكون في صلاته جامعاً بين القيام والركوع والسجود ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِى الناس بالحج ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن محيصن ﴿ وآذِّن ﴾ بمعنى أعلم .

المسألة الثانية :

في المأمور قولان : أحدهما : وعليه أكثر المفسرين أنه هو إبراهيم عليه السلام قالوا لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قال سبحانه : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ قال يا رب وما يبلغ صوتي ؟ قال عليك الأذان وعلى البلاغ .

فصعد إبراهيم عليه السلام الصفا وفي رواية أخرى أبا قبيس ، وفي رواية أخرى على المقام قال إبراهيم كيف أقول ؟ قال جبريل عليه السلام : قل لبيك اللهم لبيك فهو أول من لبى ، وفي رواية أخرى أنه صعد الصفا فقال : يا أيها الناس إن الله كتب عليكم حج البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والأرض ، فما بقي شيء سمع صوته إلا أقبل يلبي يقول : لبيك اللهم لبيك ، وفي رواية أخرى إن الله يدعوكم إلى حج البيت الحرام ليثيبكم به الجنة ويخرجكم من النار ، فأجابه يومئذ من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، وكل من وصل إليه صوته من حجر أو شجر ومدر وأكمة أو تراب ، قال مجاهد : فما حج إنسان ولا يحج أحد حتى تقوم الساعة إلا وقد أسمعه ذلك النداء ، فمن أجاب مرة حج مرة ، ومن أجاب مرتين أو أكثر .

(13/522)

فالحج مرتين أو أكثر على ذلك المقدار ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أمر إبراهيم عليه السلام بالأذان تواضعت له الجبال وخفضت وارتفعت له القرى ، قال القاضي عبد الجبار : يبعد قولهم إنه أجابه الصخر والمدر ، لأن الإعلام لا يكون إلا لمن يؤمر بالحج دون الجماد ، فأما من يسمع من أهل المشرق والمغرب نداءه فلا يمتنع إذا قواه الله تعالى ورفع الموانع ومثل ذلك قد يجوز في زمان الأنبياء عليهم السلام .

القول الثاني : أن المأمور بقوله : ﴿ وَأَذِّن ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن واختيار أكثر المعتزلة واحتجوا عليه بأن ما جاء في القرآن وأمكن حمله على أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو المخاطب به فهو أولى وتقدم قوله : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ البيت ﴾ لا يوجب أن يكون قوله : ﴿ وَأَذِّن ﴾ يرجع إليه إذ قد بينا أن معنى قوله : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا ﴾ أي واذكر يا محمد ﴿ إِذْ بَوَّأْنَا ﴾ فهو في حكم المذكور ، فإذا قال تعالى : ﴿ وَأَذِّن ﴾ فإليه يرجع الخطاب وعلى هذا القول ذكروا في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّن ﴾ وجوهاً : أحدها : أن الله تعالى أمر محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يعلم الناس بالحج .

وثانيها : قال الجبائي أمره الله تعالى أن يعلن التلبية فيعلم الناس أنه حاج فيحجوا معه قال وفي قوله : ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ دلالة على أن المراد أن يحج فيقتدي به .

وثالثها : أنه ابتداء فرض الحج من الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم .

أما قوله : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

الرجال المشاة واحدهم راجل كنيام ونائم وقرىء رجال بضم الراء مخفف الجيم ومثقله ورجال كعجال عن ابن عباس رضي الله عنهما وقوله : ﴿ وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ أي ركباناً والضمور الهزال ضمر يضمر ضموراً ، والمعنى أن الناقة صارت ضامرة لطول سفرها .

(14/522)

وإنما قال : ﴿ يَأْتِينَ ﴾ أي جماعة الإبل وهي الضوامر لأن قوله : ﴿ وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ معناه على إبل ضامرة فجعل الفعل بمعنى كل ولو قال يأتي على اللفظ صح وقرىء يأتون صفة للرجال والركبان ، والفج الطريق بين الجبلين ، ثم يستعمل في سائر الطرق اتساعاً ، والعميق البعيد قرأ ابن مسعود معيق يقال بئر بعيدة العمق والمعق .

المسألة الثانية :

المعنى : وأذن ، ليأتوك رجالاً وعلى كل ضامر ، أي وأذن ، ليأتوك على هاتين الصفتين ، أو يكون المراد : وأذن فإنهم يأتوك على هاتين الصفتين .

المسألة الثالثة :

بدأ الله بذكر المشاة تشريفاً لهم ، وروى سعيد بن جبير بإسناده عن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه قال : " إن الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللماشي سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قيل يا رسول الله وما حسنات الحرم قال الحسنة بمائة ألف حسنة "

المسألة الرابعة :

إنما قال : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ لأنه هو المنادي فمن أتى بمكة حاجاً فكأنه أتى إبراهيم عليه السلام لأنه يجيب نداءه .

أما قوله : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ منافع لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسم الله فِى أَيَّامٍ معلومات ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى لما أمر بالحج في قوله : ﴿ وَأَذِّن فِي الناس بالحج ﴾ ذكر حكمة ذلك الأمر في قوله : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ منافع لَهُمْ ﴾ واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا .

وهي أن يتجروا في أيام الحج ، وبعضهم حملها على منافع الآخرة ، وهي العفو والمغفرة عن محمد الباقر عليه السلام ، وبعضهم حملها على الأمرين جميعاً ، وهو الأولى .

المسألة الثانية :

إنما نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات .

المسألة الثالثة :

كنى عن الذبح والنحر بذكر اسم الله تعالى لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا وذبحوا وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله تعالى أن يذكر اسم الله تعالى ، وأن يخالف المشركين في ذلك فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان قال مقاتل إذا ذبحت فقل بسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك وتستقبل القبلة ، وزاد الكلبي فقال إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، قال القفال : وكان المتقرب بها وبإراقة دمائها متصور بصورة من يفدى نفسه بما يعادلها فكأنه يبذل تلك الشاة بدل مهجته طلباً لمرضاة الله تعالى ، واعترافاً بأن تقصيره كاد يستحق مهجته .

المسألة الرابعة :

أكثر العلماء صاروا إلى أن الأيام المعلومات عشر ذي الحجة والمعدودات أيام التشريق ، وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والحسن ، ورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس واختيار الشافعي وأبي حنيفة رحمهم الله ، واحتجوا بأنها معلومة عند الناس لحرصهم على علمها من أجل أن وقت الحج في آخرها .

ثم للمنافع أوقات من العشر معروفة كيوم عرفة ، والمشعر الحرام وكذلك الذبائح لها وقت

منها وهو يوم النحر ، وقال ابن عباس في رواية عطاء إنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده وهو اختيار أبي مسلم قال لأنها كانت معروفة عند العرب بعدها وهي أيام النحر وهو قول أبي يوسف ومحمد رحمهما الله .

أما قوله : ﴿ بَهِيمَةُ الأنعام ﴾ فقال صاحب "الكشاف" : البهمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر ، فبينت بالأنعام وهي الإبل والبقر والضأن والمعز .

أما قوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ فمن الناس من قال إنه أمر وجوب لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون منها ترفعاً على الفقراء ، فأمر المسلمين بذلك لما فيه من مخالفة الكفار ومساواة الفقراء واستعمال التواضع ، وقال الأكثرون إنه ليس على الوجوب .

(16/522)

ثم قال العلماء من أهدى أو ضحى فحسن أن يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ البائس الفقير ﴾ ومنهم من قال يأكل الثلث ويدخر الثلث ويتصدق بالثلث ، ومذهب الشافعي رحمه الله أن الأكل مستحب والإطعام واجب فإن أطعم جميعها أجزأه وإن أكل جميعها لم يجزه ، هذا فيما كان تطوعاً ، فأما الواجبات كالنذور والكفارات والجبرانات لنقصان مثل دم القران ودم التمتع ودم الإساءة ودماء القلم

والحلق فلا يؤكل منها .

أما قوله : ﴿ وَأَطْعِمُواْ البائس الفقير ﴾ فلا شبهة في أنه أمر إيجاب ، والبائس الذي أصابه بؤس أي شدة والفقير الذي أضعفه الإعسار وهو مأخوذ من فقار الظهر .

قال ابن عباس البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه ، والفقير الذي لا يكون كذلك فتكون ثيابه نقية ووجهه وجه غني .

أما قوله : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ قال الزجاج : إن أهل اللغة لا يعرفون التفث إلا من التفسير ، وقال المبرد أصل التفث في كلام العرب كل قاذورة تلحق الإنسان فيجب عليه نقضها .

والمراد ههنا قص الشارب والأظفار ونتف الإبط وحلق العانة ، والمراد من القضاء إزالة التفث ، وقال القفال قال نفطويه : سألت أعرابياً فصيحاً ما معنى قوله : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ ؟ فقال ما أفسر القرآن ولكنا نقول للرجل ما أتفثك وما أدرنك ، ثم قال القفال وهذا أولى من قول الزجاج لأن القول قول المثبت لا قول النافي .

أما قوله : ﴿ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ فقرىء بتشديد الفاء ثم يحتمل ذلك ما أوجبه الدخول في الحج من أنواع المناسك ، ويحتمل أن يكون المراد ما أوجبوه بالنذر الذي هو القول ، وهذا القول هو الأقرب فإن الرجل إذا حج أو اعتمر فقد يوجب على نفسه من الهدي وغيره ما لولا إيجابه لم يكن الحج يقتضيه فأمر الله تعالى بالوفاء بذلك .

أما قوله : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق ﴾ فالمراد الطواف الواجب وهو طواف الإفاضة والزيارة ، أما كون هذا الطواف بعد الوقوف ورمي الجمار والحلق ، ثم هو في يوم النحر أو بعده ففيه تفصيل ، وسمي البيت العتيق لوجوه : أحدها : العتيق القديم لأنه أول بيت وضع للناس عن الحسن .

وثانيها : لأنه أعتق من الجبابرة فكم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى وهو قول ابن عباس وقول ابن الزبير ، ورووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما قصد أبرهة فعل به ما فعل ، فإن قيل فقد تسلط الحجاج عليه فالجواب : قلنا ما قصد التسلط على البيت وإنما تحصن به عبد الله بن الزبير فاحتال لإخراجه ثم بناه وثالثها : لم يملك قط عن ابن عيينة ورابعها : أعتق من الغرق عن مجاهد وخامسها : بيت كريم من قولهم عتاق الطير والخيل ، واعلم أن اللام في ليقضوا وليوفوا وليطوفوا لام الأمر ، وفي قراءة ابن كثير ونافع والأكثرين تخفيف هذه اللامات وفي قراءة أبي عمرو تحريكها بالكسر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 24 . 27 ﴾

(18/522)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾

رَوَى مُعْتَمِرٌ عَنْ لَيْثٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ قَالَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَكَيْفَ أُؤْذِنُهُمْ ؟ قَالَ : تَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَجِيبُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَجِيبُوا قَالَ : فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَجِيبُوا فَصَارَتْ التَّلْبِيَةُ لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ .

وَرَوَى عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : " لَمَّا ابْتَنَى إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْبَيْتَ قَالَ : أَوْحَى اللَّهُ إلَيْهِ أَنْ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ، فَقَالَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إنَّ رَبَّكُمْ قَدْ اتَّخَذَ بَيْتًا وَأَمَرَكُمْ أَنْ تَحُجُّوهُ ، فَاسْتَجَابَ لَهُ مَا سَمِعَهُ مِنْ صَخْرٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ أَكَمَةٍ أَوْ تُرَابٍ أَوْ شَيْءٍ لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ " .

وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ فَرْضَ الْحَجِّ كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ إبْرَاهِيمَ بِدُعَاءِ النَّاسِ إلَى الْحَجِّ وَأَمْرُهُ كَانَ عَلَى الْوُجُوبِ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ وُجُوبُ الْحَجِّ بَاقِيًا إلَى أَنْ بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ نُسِخَ عَلَى لِسَانِ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ ، إلَّا أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ حَجَّ قَبْلَ الْهِجْرَةِ حَجَّتَيْنِ وَحَجَّ بَعْدَ الْهِجْرَةِ حَجَّةَ الْوَدَاعِ ﴾ .

(19/522)

وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحُجُّونَ عَلَى تَخَالِيطَ وَأَشْيَاءَ قَدْ أَدْخَلُوهَا فِي الْحَجِّ وَيُلَبُّونَ تَلْبِيَةَ الشِّرْكِ ، فَإِنْ كَانَ فَرْضُ الْحَجِّ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ إبْرَاهِيمَ فِي زَمَنِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَاقِيًا حَتَّى بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ حَجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَجَّتَيْنِ بَعْدَمَا بَعَثَهُ قَبْلَ الْهِجْرَةِ وَالْأُولَى فِيهِمَا هِيَ الْفَرْضُ ، وَإِنْ كَانَ فَرْضُ الْحَجِّ مَنْسُوخًا عَلَى لِسَانِ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ فَرَضَهُ فِي

(20/522)

التَّنْزِيلِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ وَقِيلَ إنَّهَا نَزَلَتْ فِي سَنَةِ تِسْعٍ ، وَرُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي سَنَةِ عَشْرٍ ، وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي حَجَّ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَذَا أَشْبَهُ بِالصِّحَّةِ ؛ لِأَنَّا لَا نَظُنُّ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَأْخِيرَ الْحَجِّ الْمَفْرُوضِ عَنْ وَقْتِهِ الْمَأْمُورِ فِيهِ ؛ إذْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ مُسَارَعَةً إلَى أَمْرِ اللَّهِ وَأَسْبَقِهِمْ إلَى أَدَاءِ فُرُوضِهِ ، وَوَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَنْبِيَاءَ السَّالِفِينَ فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ بِمُسَابَقَتِهِمْ إلَى الْخَيْرَاتِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ فَلَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَتَخَلَّفَ

عَنْ مَنْزِلَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي الْمُسَابَقَةِ إلَى الْخَيْرَاتِ بَلْ كَانَ حَظُّهُ مِنْهَا أَوْفَى مِنْ حَظِّ كُلِّ أَحَدٍ لِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ فِي دَرَجَاتِ النُّبُوَّةِ ، فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يُظَنَّ بِهِ تَأْخِيرُ الْحَجِّ عَنْ وَقْتِ وُجُوبِهِ ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ أَمَرَ غَيْرَهُ بِتَعْجِيلِهِ فِيمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ ﴾ ، فَلَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَأْمُرَ غَيْرَهُ بِتَعْجِيلِ الْحَجِّ وَيُؤَخِّرَهُ عَنْ وَقْتِ وُجُوبِهِ ، فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(21/522)

لَمْ يُؤَخِّرْ الْحَجَّ عَنْ وَقْتِ وُجُوبِهِ .

فَإِنْ كَانَ فَرْضُ الْحَجِّ لَزِمَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْلُ تَارِيخُ نُزُولِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ أَوْ سَنَةِ عَشْرٍ ، فَإِنْ كَانَ نُزُولُهُ فِي سَنَةِ تِسْعٍ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّمَا أَخَّرَهُ لِعُذْرٍ وَهُوَ أَنَّ وَقْتَ الْحَجِّ

اتَّفَقَ عَلَى مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَحُجُّهُ مِنْ إدْخَالِ النَّسِيءِ فِيهِ فَلَمْ يَكُنْ وَاقِعًا فِي وَقْتِ الْحَجِّ الَّذِي فَرَضَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ ، فَلِذَلِكَ أَخَّرَ الْحَجَّ عَنْ تِلْكَ السَّنَةِ لِيَكُونَ حَجُّهُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ فِيهِ الْحَجَّ لِيَحْضُرَ النَّاسُ فَيَقْتَدُوا بِهِ .

وَإِنْ كَانَ نُزُولُهُ فِي سَنَةِ عَشْرٍ فَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي حَجَّ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ كَانَ فَرْضُ الْحَجِّ بَاقِيًا مُنْذُ زَمَنِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَى زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ الْحَجَّ الَّذِي فَعَلَهُ قَبْلَ الْهِجْرَةِ كَانَ هُوَ الْفَرْضُ وَمَا عَدَاهُ نَفْلٌ ، فَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْوَجْهَيْنِ جَمِيعًا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَّرَ الْحَجَّ بَعْدَ وُجُوبِهِ عَنْ أَوَّلِ أَحْوَالِ الْإِمْكَانِ .

(22/522)

بَابُ الْحَجِّ مَاشِيًا رَوَى مُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " مَا آسَى عَلَى شَيْءٍ إلَّا أَنِّي وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ حَجَجْتُ مَاشِيًا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ وَرَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ : " أَنَّ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ حَجَّا مَاشِيَيْنِ " .

وَرَوَى الْقَاسِمُ بْنُ الْحَكَمِ الْعُرَنِيُّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ الرُّصَافِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " مَا نَدِمْتُ عَلَى شَيْءٍ فَاتَنِي فِي شَيْبَتِي إلَّا أَنْ لَمْ أَحُجَّ رَاجِلًا ، وَلَقَدْ حَجَّ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ خَمْسًا وَعِشْرِينَ حَجَّةً مَاشِيًا مِنْ الْمَدِينَةِ إلَى مَكَّةَ وَإِنَّ النَّجَائِبَ لَتُقَادُ مَعَهُ ، وَلَقَدْ قَاسَمَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَالَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ إنَّهُ لَيُعْطِي النَّعْلَ وَيُمْسِكُ النَّعْلَ وَيُعْطِي الْخُفَّ وَيُمْسِكُ الْخُفَّ " .

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عَمْرِو بْنِ زِرٍّ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : "كَانُوا يَحُجُّونَ وَلَا يَرْكَبُونَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي الْعَلَاءُ قَالَ : سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ : "كَانَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَمْشِي وَتُقَادُ دَوَابُّهُ" .

(23/522)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ يَقْتَضِي إبَاحَةَ الْحَجِّ مَاشِيًا وَرَاكِبًا وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى الْأَفْضَلِ مِنْهُمَا ، وَمَا رَوَيْنَاهُ عَنْ السَّلَفِ فِي اخْتِيَارِهِمْ الْحَجَّ مَاشِيًا وَتَأْوِيلُ الْآيَةِ عَلَيْهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَجَّ مَاشِيًا أَفْضَلُ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يُفْصِحُ عَنْ ذَلِكَ وَهُوَ ﴿ أَنَّ أُمَّ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ نَذَرَتْ أَنْ تَمْشِيَ إلَى بَيْتِ اللَّهِ تَعَالَى فَأَمَرَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَرْكَبَ وَتُهْدِيَ ﴾ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَشْيَ قُرْبَةٌ قَدْ لَزِمَتْ بِالنَّذْرِ ، لَوْلَا ذَلِكَ لَمَا أَوْجَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهَا هَدْيًا عِنْدَ تَرْكِهَا الْمَشْيَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ رَوَى جُوَيْبِرٌ عَنْ الضَّحَّاكِ : ﴿ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ قَالَ : "بَلَدٌ بَعِيدٌ" .

وَقَالَ قَتَادَةُ : " مَكَانٌ بَعِيدٌ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْفَجُّ الطَّرِيقُ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : مِنْ طَرِيقٍ بَعِيدٍ .

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ : " الْعُمْقُ الذَّاهِبُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَالْعُمْقُ الذَّاهِبُ فِي الْأَرْضِ " .

قَالَ رُؤْبَةُ : وَقَاتِمِ الْأَعْمَاقِ خَاوِي الْمُخْتَرَقْ فَأَرَادَ بِالْعُمْقِ هَذَا الذَّاهِبَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، فَالْعَمِيقُ الْبَعِيدُ لِذَهَابِهِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، قَالَ الشَّاعِرُ : يَقْطَعْنَ نُورَ النَّازِحِ الْعَمِيقِ يَعْنِي الْبَعِيدَ .

(24/522)

وَقَدْ رَوَتْ أُمُّ حَكِيمٍ بِنْتُ أُمَيَّةَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ : ﴿ مَنْ أَهَلَّ بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بِعُمْرَةٍ أَوْ بِحَجَّةٍ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ﴾ .

وَرَوَى أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ الْأَسْوَدِ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ أَحْرَمَ مِنْ الْكُوفَةِ بِعُمْرَةٍ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ أَحْرَمَ مِنْ الشَّامِ فِي الشِّتَاءِ ، وَأَحْرَمَ ابْنُ عُمَرَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَعِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ أَحْرَمَ مِنْ الْبَصْرَةِ .

وَرَوَى عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ : سُئِلَ عَلِيٌّ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَتِمُّوا

الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ قَالَ : " أَنْ تُحْرِمَ بِهِمَا مِنْ دُوَيْرَةِ أَهْلِكَ " .

وَقَالَ عَلِيٌّ وَعُمَرُ : " مَا أَرَى أَنْ يَعْتَمِرَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ ابْتَدَأَ " وَرُوِيَ عَنْ مَكْحُولٍ قَالَ : قِيلَ لِابْنِ عُمَرَ : الرَّجُلُ يُحْرِمُ مِنْ سَمَرْقَنْدَ أَوْ مِنْ خُرَاسَانَ أَوْ الْبَصْرَةِ أَوْ الْكُوفَةِ ؟ فَقَالَ : " يَا لَيْتَنَا نَسْلَمُ مِنْ وَقْتِنَا الَّذِي وُقِّتَ لَنَا " ، فَكَأَنَّهُ كَرِهَهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ لِمَا يَخَافُ مِنْ مُوَاقَعَةِ مَا يَحْظُرُهُ الْإِحْرَامُ لَا لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ .

بَابُ التِّجَارَةِ فِي الْحَجِّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : " التِّجَارَةَ وَمَا يُرْضِي اللَّهَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ " .

وَرَوَى عَاصِمُ بْنُ أَبِي النَّجُودِ عَنْ أَبِي رَزِينٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " أَسْوَاقٌ كَانَتْ ، مَا ذَكَرَ الْمَنَافِعَ إِلَّا لِلدُّنْيَا " .

(25/522)

وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ : " الْمَغْفِرَةُ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : ظَاهِرُهُ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أُرِيدَ بِهِ مَنَافِعُ الدِّينِ وَإِنْ كَانَتْ التِّجَارَةُ جَائِزَةً أَنْ تُرَادَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ دُعُوا وَأُمِرُوا بِالْحَجِّ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ

، وَمُحَالٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مَنَافِعَ الدُّنْيَا خَاصَّةً ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ الدُّعَاءُ إلَى الْحَجِّ وَاقِعًا لِمَنَافِعِ الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا الْحَجُّ الطَّوَافُ وَالسَّعْيُ وَالْوُقُوفُ بِعَرَفَةَ وَالْمُزْدَلِفَةِ وَنَحْرُ الْهَدْيِ وَسَائِرُ مَنَاسِكِ الْحَجِّ ، وَيَدْخُلُ فِيهَا مَنَافِعُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ التَّبَعِ وَالرُّخْصَةِ فِيهَا دُونَ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْمَقْصُودَةَ بِالْحَجِّ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ فَجَعَلَ ذَلِكَ رُخْصَةً فِي التِّجَارَةِ فِي الْحَجِّ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا مَا رُوِيَ فِيهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

بَابُ الْأَيَّامِ الْمَعْلُومَاتِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ فَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عُمَرَ أَنَّ الْمَعْلُومَاتِ يَوْمُ النَّحْرِ وَيَوْمَانِ بَعْدَهُ وَاذْبَحْ فِي أَيِّهَا شِئْتَ ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ : " الْمَعْلُومَاتُ أَيَّامُ النَّحْرِ وَالْمَعْدُودَاتُ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ " .

(26/522)

وَذَكَرَ الطَّحَاوِيُّ عَنْ شَيْخِهِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ عَنْ بِشْرِ بْنِ الْوَلِيدِ الْكِنْدِيِّ الْقَاضِي قَالَ : كَتَبَ أَبُو الْعَبَّاسِ الطُّوسِيُّ إلَى أَبِي يُوسُفَ يَسْأَلُهُ عَنْ الْأَيَّامِ الْمَعْلُومَاتِ ، فَأَمْلَى عَلَيَّ أَبُو يُوسُفَ جَوَابَ كِتَابِهِ : اخْتَلَفَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا ، فَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عُمَرَ أَنَّهَا أَيَّامُ النَّحْرِ ، وَإِلَى ذَلِكَ أَذْهَبُ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ

الْأَنْعَامِ ﴾ وَذَلِكَ فِي أَيَّامِ النَّحْرِ ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَإِبْرَاهِيمَ أَنَّ الْمَعْلُومَاتِ أَيَّامُ الْعَشْرِ وَالْمَعْدُودَاتِ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ ، وَرَوَى مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي لَيْلَى عَنْ الْحَكَمِ عَنْ مِقْسَمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾ يَوْمُ النَّحْرِ وَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ بَعْدَهُ ، وَذَكَرَ أَبُو الْحَسَنِ الْكَرْخِيُّ أَنَّ أَحْمَدَ الْقَارِيَّ رَوَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّ الْمَعْلُومَاتِ الْعَشْرُ ، وَعَنْ مُحَمَّدٍ أَنَّهَا أَيَّامُ النَّحْرِ الثَّلَاثَةُ يَوْمُ الْأَضْحَى وَيَوْمَانِ بَعْدَهُ ، وَذَكَرَ الطَّحَاوِيُّ أَنَّ مِنْ قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ أَنَّ الْمَعْلُومَاتِ الْعَشْرُ وَالْمَعْدُودَاتِ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ ، وَالَّذِي رَوَاهُ أَبُو الْحَسَنِ عَنْهُمْ أَصَحُّ .

وَقَدْ قِيلَ إنَّهُ إنَّمَا قِيلَ لِلْأَيَّامِ التَّشْرِيقِ مَعْدُودَاتٌ ؛ لِأَنَّهَا قَلِيلَةٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ وَأَنَّهُ سَمَّاهَا مَعْدُودَةً لِقِلَّتِهَا .

وَقِيلَ

(27/522)

لِأَيَّامِ الْعَشْرِ مَعْلُومَاتٌ حَثًّا عَلَى عِلْمِهَا وَحِسَابِهَا مِنْ أَجْلِ أَنَّ وَقْتَ الْحَجِّ فِي آخِرِهَا ، فَكَأَنَّهُ أَمَرَنَا بِمَعْرِفَةِ أَوَّلِ الشَّهْرِ وَطَلَبِ الْهِلَالِ فِيهِ حَتَّى نَعُدَّ عَشَرَةً وَيَكُونَ آخِرُهُنَّ يَوْمَ النَّحْرِ .

وَيُحْتَجُّ لِأَبِي حَنِيفَةَ بِذَلِكَ فِي أَنَّ تَكْبِيرَ التَّشْرِيقِ مَقْصُورٌ عَلَى أَيَّامِ الْعَشْرِ مَفْعُولٌ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ

وَيَوْمِ النَّحْرِ وَهُمَا مِنْ أَيَّامِ الْعَشْرِ .

فَإِنْ قِيلَ : لَمَّا قَالَ : ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ أَيَّامُ النَّحْرِ كَمَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ .

قِيلَ لَهُ : يُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ لِمَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ وَمَعْنَاهُ : لِمَا هَدَاكُمْ ، وَكَمَا تَقُولُ : اشْكُرْ اللَّهَ عَلَى نِعَمِهِ ، وَمَعْنَاهُ : لِنِعَمِهِ .

وَأَيْضًا فَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ يَوْمَ النَّحْرِ وَيَكُونَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ ﴾ يُرِيدُ بِهِ يَوْمَ النَّحْرِ وَبِتَكْرَارِ السِّنِينَ عَلَيْهِ تَصِيرُ أَيَّامًا .

وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَبْحَ سَائِرِ الْهَدَايَا فِي أَيَّامِ النَّحْرِ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي غَيْرِهَا وَإِنْ كَانَتْ مِنْ تَطَوُّعٍ أَوْ جَزَاءِ صَيْدٍ أَوْ غَيْرِهِ .

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي أَيَّامِ النَّحْرِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالثَّوْرِيُّ : " هُوَ يَوْمُ النَّحْرِ وَيَوْمَانِ بَعْدَهُ " .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : " ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ بَعْدَهُ وَهِيَ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ " .

(28/522)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَرُوِيَ نَحْوُ قَوْلِنَا عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ .

وَرُوِيَ مِثْلُ قَوْلِ الشَّافِعِيِّ عَنْ الْحَسَنِ وَعَطَاءٍ .

وَرُوِيَ عَنْ إبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّ النَّحْرَ يَوْمَانِ .

وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ : " النَّحْرُ يَوْمٌ وَاحِدٌ " .

وَرَوَى يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ وَسُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ قَالَا : " الْأَضْحَى إلَى هِلَالِ الْمُحَرَّمِ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ ثَبَتَ عَمَّنْ ذَكَرْنَا مِنْ الصَّحَابَةِ أَنَّهَا ثَلَاثَةٌ وَاسْتَفَاضَ ذَلِكَ عَنْهُمْ ، وَغَيْرُ جَائِزٍ لِمَنْ بَعْدَهُمْ خِلَافُهُمْ ؛ إذْ لَمْ يُرْوَ عَنْ أَحَدٍ مِنْ نُظَرَائِهِمْ خِلَافُهُ فَثَبَتَتْ حُجَّتُهُ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ سَبِيلَ تَقْدِيرِ أَيَّامِ النَّحْرِ التَّوْقِيفُ أَوْ الِاتِّفَاقُ ؛ إذْ لَا سَبِيلَ إلَيْهَا مِنْ طَرِيقِ الْمَقَايِيسِ ، فَلَمَّا قَالَ مَنْ ذَكَرْنَا قَوْلَهُ مِنْ الصَّحَابَةِ بِالثَّلَاثَةِ صَارَ ذَلِكَ تَوْقِيفًا ، كَمَا قُلْنَا فِي مِقْدَارِ مُدَّةِ الْحَيْضِ وَتَقْدِيرِ الْمَهْرِ وَمِقْدَارِ التَّشَهُّدِ فِي إكْمَالِ فَرْضِ الصَّلَاةِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا مِنْ الْمَقَادِيرِ الَّتِي طَرِيقُ إثْبَاتِهَا التَّوْقِيفُ أَوْ الِاتِّفَاقُ إذَا قَالَ بِهِ قَائِلٌ مِنْ الصَّحَابَةِ ثَبَتَتْ حُجَّتُهُ وَكَانَ ذَلِكَ تَوْقِيفًا .

وَأَيْضًا قَدْ ثَبَتَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَيَّامِ النَّحْرِ وَأَيَّامِ التَّشْرِيقِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ أَيَّامُ النَّحْرِ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ لَمَا كَانَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ وَكَانَ ذِكْرُ أَحَدِ الْعَدَدَيْنِ يَنُوبُ عَنْ الْآخَرِ ، فَلَمَّا وَجَدْنَا الرَّمْيَ فِي يَوْمِ النَّحْرِ وَأَيَّامِ التَّشْرِيقِ وَوَجَدْنَا النَّحْرَ فِي يَوْمِ النَّحْرِ ، وَقَالَ قَائِلُونَ : إلَى آخِرِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ، وَقُلْنَا نَحْنُ : يَوْمَانِ بَعْدَهُ ، وَجَبَ أَنْ نُوجِبَ فَرْقًا بَيْنَهُمَا ، لِإِثْبَاتِ فَائِدَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ اللَّفْظَيْنِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ مَا لَيْسَ مِنْ أَيَّامِ النَّحْرِ وَهُوَ آخِرُ أَيَّامِهَا .

وَاحْتَجَّ مَنْ جَعَلَ النَّحْرَ إلَى آخِرِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ بِمَا رَوَى سُلَيْمَانُ بْنُ مُوسَى عَنْ ابْنِ أَبِي حُسَيْنٍ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ كُلُّ عَرَفَاتٍ مَوْقِفٌ وَارْتَفِعُوا عَنْ عُرَنَةَ ، وَكُلُّ مُزْدَلِفَةَ مَوْقِفٌ وَارْتَفِعُوا عَنْ مُحَسِّرٍ ، وَكُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ مَنْحَرٌ وَكُلُّ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ذَبْحٌ ﴾ ، وَهَذَا حَدِيثٌ قَدْ ذُكِرَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ فَقَالَ : لَمْ يَسْمَعْهُ ابْنُ أَبِي حُسَيْنٍ مِنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ وَأَكْثَرُ رِوَايَتِهِ عَنْ سَهْوٍ .

(30/522)

وَقَدْ قِيلَ إنَّ أَصْلَهُ مَا رَوَاهُ مَخْرَمَةُ بْنُ بُكَيْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَشَجِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَمِعْت أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي حُسَيْنٍ يُخْبِرُ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَعَطَاءٍ يَسْمَعُ قَالَ : سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ كُلُّ عَرَفَةَ مَوْقِفٌ وَكُلُّ مِنًى مَنْحَرٌ وَكُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ طَرِيقٌ وَمَنْحَرٌ ﴾ ، فَهَذَا أَصْلُ الْحَدِيثِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ : ﴿ وَكُلُّ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ذَبْحٌ ﴾ ، وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ الْحَدِيثُ الَّذِي ذُكِرَ فِيهِ هَذَا اللَّفْظُ إنَّمَا هُوَ مِنْ كَلَامِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَوْ مَنْ دُونَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْهُ .

وَأَيْضًا لَمَّا ثَبَتَ أَنَّ النَّحْرَ فِيمَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الْأَيَّامِ وَكَانَ أَقَلُّ مَا يَتَنَاوَلُهُ اسْمُ الْأَيَّامِ ثَلَاثَةً وَجَبَ أَنْ يَثْبُتَ الثَّلَاثَةُ ، وَمَا زَادَ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ الدَّلَالَةُ فَلَمْ يَثْبُتْ .

(31/522)

التَّسْمِيَةِ عَلَى الذَّبِيحَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهَذَا الذِّكْرِ التَّسْمِيَةَ عَلَى الذَّبِيحَةِ فَقَدْ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِطِ الذَّكَاةِ ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ تَقْتَضِي وُجُوبَهَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾ فَكَانَتْ الْمَنَافِعُ هِيَ أَفْعَالُ الْمَنَاسِكِ الَّتِي يَقْتَضِي الْإِحْرَامُ إيجَابَهَا ، فَوَجَبَ أَنْ تَكُونَ

التَّسْمِيَةُ وَاجِبَةً ؛ إذْ كَانَ الدُّعَاءُ إلَى الْحَجِّ وَقَعَ لَهَا كَوُقُوعِهَا لِسَائِرِ مَنَاسِكِ الْحَجِّ ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالتَّسْمِيَةِ هِيَ الذِّكْرُ الْمَفْعُولُ عِنْدَ رَمْيِ الْجِمَارِ أَوْ تَكْبِيرِ التَّشْرِيقِ فَقَدْ دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى وُجُوبِ هَذَا الذِّكْرِ ، وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ جَمِيعَ ذَلِكَ وَهُوَ التَّسْمِيَةُ عَلَى الْهَدَايَا الْمُوجَبَةِ بِالْإِحْرَامِ لِلْقِرَانِ أَوْ التَّمَتُّعِ وَمَا تَعَلَّقَ وُجُوبُهَا بِالْإِحْرَامِ وَيُرَادُ بِهَا تَكْبِيرُ التَّشْرِيقِ وَالذِّكْرُ الْمَفْعُولُ عِنْدَ رَمْيِ الْجِمَارِ ؛ إذْ لَمْ تَكُنْ إرَادَةُ جَمِيعِ ذَلِكَ مُمْتَنِعَةً بِالْآيَةِ .

وَرَوَى مَعْمَرٌ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ نَافِعٍ قَالَ : "كَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ حِينَ يَنْحَرُ : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَاَللَّهُ أَكْبَرُ" .

وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : "قُلْتُ : كَيْفَ تَقُولُ إذَا نَحَرْتَ ؟ قَالَ : أَقُولُ اللَّهُ أَكْبَرُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ" .

(32/522)

وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الزُّبَيْدِيِّ عَنْ عَاصِمِ بْنِ شَرِيفٍ : "أَنَّ عَلِيًّا ضَحَّى يَوْمَ النَّحْرِ بِكَبْشٍ فَقَالَ : بِسْمِ اللَّهِ وَاَللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُمَّ مِنْك وَلَك وَمِنْ عَلِيٍّ لَك .

(33/522)

بَابُ فِي أَكْلِ لُحُومِ الْهَدَايَا أَكْلُ لُحُومِ الْهَدَايَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾

(34/522)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : ظَاهِرُهُ يَقْتَضِي إِيجَابَ الْأَكْلِ ، إِلَّا أَنَّ السَّلَفَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْأَكْلَ مِنْهَا لَيْسَ عَلَى الْوُجُوبِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ الْأَضَاحِيّ وَهَدْيَ الْمُتْعَةِ وَالْقِرَانِ وَالتَّطَوُّعِ أَوْ الْهَدَايَا الَّتِي تَجِبُ مِنْ جِنَايَاتٍ تَقَعُ مِنْ الْمُحْرِمِ فِي الْإِحْرَامِ نَحْوَ جَزَاءِ الصَّيْدِ وَمَا يَجِبُ عَلَى اللَّابِسِ وَالْمُتَطَيِّبِ وَفِدْيَةِ الْأَذَى وَهَدْيِ الْإِحْصَارِ وَنَحْوِهَا ، فَأَمَّا دِمَاءُ الْجِنَايَاتِ فَمَحْظُورٌ عَلَيْهِ الْأَكْلُ مِنْهَا ، وَأَمَّا دَمُ الْقِرَانِ وَالْمُتْعَةِ وَالتَّطَوُّعِ فَلَا خِلَافَ أَيْضًا أَنَّ الْأَكْلَ مِنْهَا لَيْسَ بِوَاجِبٍ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ فِي دَمِ الْقِرَانِ وَالْمُتْعَةِ عَلَى قَوْلَيْنِ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُجِيزُ الْأَكْلَ مِنْهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يُبِيحُ الْأَكْلَ مِنْهُ وَلَا يُوجِبُهُ ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ السَّلَفِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ الْفُقَهَاءِ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ لَيْسَ عَلَى الْوُجُوبِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ وَالْحَسَنِ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُجَاهِدٍ قَالُوا : " إِنْ شَاءَ أَكَلَ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَأْكُلْ " قَالَ مُجَاهِدٌ : إِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ :

كَانَ الْمُشْرِكُونَ لَا يَأْكُلُونَ مِنْ الْبُدْنِ حَتَّى نَزَلَتْ : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ فَإِنْ شَاءَ أَكَلَ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَأْكُلْ .

(35/522)

وَرَوَى يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الْهُذَلِيِّ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : ﴿ كَانَ النَّاسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إذَا ذَبَحُوا لَطَّخُوا بِالدَّمِ وَجْهَ الْكَعْبَةِ وَشَرَّحُوا اللَّحْمَ وَوَضَعُوهُ عَلَى الْحِجَارَةِ وَقَالُوا لَا يَحِلُّ لَنَا أَنْ نَأْكُلَ شَيْئًا جَعَلْنَاهُ لِلَّهِ حَتَّى تَأْكُلَهُ السِّبَاعُ وَالطَّيْرُ ، فَلَمَّا

جَاءَ الْإِسْلَامُ جَاءَ النَّاسُ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا : شَيْئًا كُنَّا نَصْنَعُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَلَا نَصْنَعُهُ الْآنَ فَإِنَّمَا هُوَ لِلَّهِ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ﴾ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تَفْعَلُوا فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ لِلَّهِ ﴾ .

وَقَالَ الْحَسَنُ : فَلَمْ يَعْزِمْ عَلَيْهِمْ الْأَكْلَ فَإِنْ شِئْتَ فَكُلْ وَإِنْ شِئْتَ فَدَعْ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ أَكَلَ مِنْ لَحْمِ الْأُضْحِيَّةِ .

(36/522)

﴿ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْمَذْكُورُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ الَّتِي أُمِرْنَا بِالتَّسْمِيَةِ عَلَيْهَا هِيَ دَمُ الْقِرَانِ وَالْمُتْعَةِ ، وَأَقَلُّ أَحْوَالِهَا أَنْ تَكُونَ شَامِلَةً لِدَمِ الْقِرَانِ وَالْمُتْعَةِ وَسَائِرِ الدِّمَاءِ وَإِنْ كَانَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُهُ دَمَ الْمُتْعَةِ وَالْقِرَانِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي نَسَقِ التِّلَاوَةِ : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ وَلَا دَمَ تَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأَفْعَالُ إلَّا دَمَ الْمُتْعَةِ وَالْقِرَانِ ؛ إذْ كَانَ سَائِرُ الدِّمَاءِ جَائِزًا لَهُ فِعْلُهَا قَبْلَ هَذِهِ الْأَفْعَالِ وَبَعْدَهَا ، فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا دَمُ الْقِرَانِ وَالْمُتْعَةِ .

وَزَعَمَ الشَّافِعِيُّ أَنَّ دَمَ الْمُتْعَةِ وَالْقِرَانِ لَا يُؤْكَلُ مِنْهُمَا ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَقْتَضِي بُطْلَانَ قَوْلِهِ .

وَقَدْ رَوَى جَابِرٌ وَأَنَسٌ وَغَيْرُهُمَا : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ كَانَ قَارِنًا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ ﴾ .

وَرَوَى جَابِرٌ أَيْضًا وَابْنُ عَبَّاسٍ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَهْدَى فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِائَةَ بَدَنَةٍ نَحَرَ بِيَدِهِ مِنْهَا سِتِّينَ وَأَمَرَ بِبَقِيَّتِهَا فَنُحِرَتْ وَأَخَذَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بِضْعَةً فَجُمِعَتْ فِي قِدْرٍ وَطُبِخَتْ وَأَكَلَ مِنْهَا وَتَحَسَّى مِنْ الْمَرَقَةِ فَأَكَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ دَمِ الْقِرَانِ ﴾ .

(37/522)

وَأَيْضًا لَمَّا ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ قَارِنًا وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَخْتَارَ مِنْ الْأَعْمَالِ إلَّا أَفْضَلَهَا فَثَبَتَ أَنَّ الْقِرَانَ أَفْضَلُ مِنْ الْإِفْرَادِ وَأَنَّ الدَّمَ الْوَاجِبَ بِهِ إنَّمَا هُوَ نُسُكٌ وَلَيْسَ بِجُبْرَانٍ لِنَقْصٍ أَدْخَلَهُ فِي الْإِحْرَامِ ، وَلَمَّا كَانَ نُسُكًا جَازَ الْأَكْلُ مِنْهُ كَمَا يَأْكُلُ مِنْ الْأَضَاحِيِّ وَالتَّطَوُّعِ .

وَيَدُلُّ عَلَى ﴿ أَنَّهُ كَانَ قَارِنًا أَنَّ حَفْصَةَ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا بَالُ النَّاسِ حَلُّوا وَلَمْ تَحِلَّ أَنْتَ مِنْ عُمْرَتِكَ ؟ فَقَالَ : إنِّي سُقْتُ الْهَدْيَ فَلَا أَحِلُّ إلَّا يَوْمَ النَّحْرِ ، وَلَوْ اسْتَقْبَلْت مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْته مَا سُقْتُ الْهَدْيَ وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً ﴾ ، فَلَوْ كَانَ هَدْيُهُ تَطَوُّعًا لَمَا مَنَعَهُ الْإِحْلَالُ ؛ لِأَنَّ هَدْيَ التَّطَوُّعِ لَا يَمْنَعُ الْإِحْلَالَ .

فَإِنْ قِيلَ : إنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَارِنًا فَقَدْ كَانَ إحْرَامُ الْحَجِّ يَمْنَعُهُ الْإِحْلَالَ ، فَلَا تَأْثِيرَ لِلْهَدْيِ فِي ذَلِكَ .

قِيلَ لَهُ : لَمْ يَكُنْ إحْرَامُ الْحَجِّ مَانِعًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ الْإِحْلَالِ قَبْلَ يَوْمِ النَّحْرِ ؛ لِأَنَّ فَسْخَ الْحَجِّ كَانَ جَائِزًا ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ أَصْحَابَهُ الَّذِينَ أَحْرَمُوا بِالْحَجِّ أَنْ يَتَحَلَّلُوا بِعَمَلِ عُمْرَةٍ ، فَكَانُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بِمَنْزِلَةِ الْمُتَمَتِّعِ الَّذِي يُحْرِمُ بِالْعُمْرَةِ مُفْرِدًا بِهَا ، فَلَمْ

(38/522)

يَكُنْ يَمْتَنِعُ الْإِحْلَالُ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ إحْرَامِ الْحَجِّ إلَّا أَنْ يَسُوقَ الْهَدْيَ فَيَمْنَعَهُ ذَلِكَ مِنْ الْإِحْلَالِ ، وَهَذِهِ كَانَتْ حَالَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قِرَانِهِ وَكَانَ الْمَانِعُ لَهُ مِنْ الْإِحْلَالِ سَوْقَ الْهَدْيِ دُونَ إحْرَامِ الْحَجِّ ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَا مِنْ أَنَّ هَدْيَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ هَدْيَ الْقِرَانِ لَا التَّطَوُّعِ ؛ إذْ لَا تَأْثِيرَ لِهَدْيِ التَّطَوُّعِ فِي الْمَنْعِ مِنْ الْإِحْلَالِ بِحَالٍ .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَارِنًا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فِي هَذَا الْوَادِي الْمُبَارَكِ وَقَالَ قُلْ حَجَّةٌ وَعُمْرَةٌ ﴾ ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يُخَالِفَ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ .

(39/522)

وَرِوَايَةُ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْرَدَ الْحَجَّ لَا يُعَارِضُ رِوَايَةَ مَنْ رَوَى الْقِرَانَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ رَاوِيَ الْقِرَانِ قَدْ عَلِمَ زِيَادَةَ إحْرَامٍ لَمْ يَعْلَمْهُ الْآخَرُ فَهُوَ أَوْلَى ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ رَاوِي الْإِفْرَادِ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ﴾ وَلَمْ يَسْمَعْهُ يَذْكُرُ

الْعُمْرَةَ ، أَوْ سَمِعَهُ ذَكَرَ الْحَجَّ دُونَ الْعُمْرَةِ وَظَنَّ أَنَّهُ مُفْرِدٌ ، إذْ جَائِزٌ لِلْقَارِنِ أَنْ يَقُولَ لَبَّيْكَ بِحَجَّةٍ دُونَ الْعُمْرَةِ وَجَائِزٌ أَنْ يَقُولَ لَبَّيْكَ بِعُمْرَةٍ وَجَائِزٌ أَنْ يُلَبِّيَ بِهِمَا مَعًا ، فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ سَائِغًا وَسَمِعَهُ بَعْضُهُمْ يُلَبِّي بِالْحَجِّ وَبَعْضُهُمْ سَمِعَهُ يُلَبِّي بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ كَانَتْ رِوَايَةُ مَنْ رَوَى الزِّيَادَةَ أَوْلَى .

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِقَوْلِهِ أَفْرَدَ الْحَجَّ أَفْعَالَ الْحَجِّ ، وَأَفَادَ أَنَّهُ أَفْرَدَ أَفْعَالَ الْحَجِّ وَأَفْرَدَ أَفْعَالَ الْعُمْرَةِ وَلَمْ يَقْتَصِرْ لِلْإِحْرَامَيْنِ عَلَى فِعْلِ الْحَجِّ دُونَ الْعُمْرَةِ ، وَأَبْطَلَ بِذَلِكَ قَوْلَ مَنْ يُجِيزُ لَهُمَا طَوَافًا وَاحِدًا وَسَعْيًا وَاحِدًا .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ الْأَكْلُ مِنْ هَدْيِ الْقِرَانِ وَالْمُتْعَةِ .

وَرَوَى عَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " مِنْ كُلِّ الْهَدْيِ يُؤْكَلُ إلَّا مَا كَانَ مِنْ فِدَاءٍ أَوْ جَزَاءٍ أَوْ نَذْرٍ " .

وَرَوَى عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ قَالَ : " لَا يُؤْكَلُ مِنْ جَزَاءِ الصَّيْدِ وَالنَّذْرِ وَيُؤْكَلُ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ " .

(40/522)

وَرَوَى هِشَامٌ عَنْ الْحَسَنِ وَعَطَاءٍ قَالَا : " لَا يُؤْكَلُ مِنْ الْهَدْيِ كُلِّهِ إلَّا الْجَزَاءُ " .

فَهَؤُلَاءِ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ قَدْ أَجَازُوا الْأَكْلَ مِنْ دَمِ الْقِرَانِ وَالتَّمَتُّعِ ، وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ

السَّلَفِ حَظَرَهُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ رَوَى طَلْحَةُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ عَطَاءٍ : ﴿ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ قَالَ : " مَنْ سَأَلَكَ " .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : الْبَائِسُ الَّذِي يَسْأَلُ بِيَدِهِ إذَا سَأَلَ " .

وَإِنَّمَا سُمِّيَ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ بَائِسًا لِظُهُورِ أَثَرِ الْبُؤْسِ عَلَيْهِ بِأَنْ يَمُدَّ يَدَهُ لِلْمَسْأَلَةِ ، وَهَذَا عَلَى جِهَةِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْوَصْفِ لَهُ بِالْفَقْرِ ، وَهُوَ فِي مَعْنَى الْمِسْكِينِ ؛ لِأَنَّ الْمِسْكِينَ مَنْ هُوَ فِي نِهَايَةِ الْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ السُّكُونُ لِلْحَاجَةِ وَسُوءِ الْحَالِ ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَجِدُ شَيْئًا ، وَقِيلَ : هُوَ الَّذِي يَسْأَلُ .

وَهَذِهِ الْآيَةُ قَدْ انْتَظَمَتْ سَائِرَ الْهَدَايَا وَالْأَضَاحِيّ وَهِيَ مُقْتَضِيَةٌ لِإِبَاحَةِ الْأَكْلِ مِنْهَا وَالنَّدْبِ إلَى الصَّدَقَةِ بِبَعْضِهَا .

وَقَدَّرَ أَصْحَابُنَا فِيهِ الصَّدَقَةَ بِالثُّلُثِ ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لُحُومِ الْأَضَاحِيّ : ﴿ فَكُلُوا وَادَّخِرُوا ﴾ فَجَعَلُوا الثُّلُثَ لِلْأَكْلِ وَالثُّلُثَ لِلِادِّخَارِ وَالثُّلُثَ لِلْبَائِسِ الْفَقِيرِ .

(41/522)

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ دَلَالَةٌ عَلَى حَظْرِ بَيْعِهَا ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ فَكُلُوا وَادَّخِرُوا ﴾ وَفِي ذَلِكَ مَنْعُ الْبَيْعِ .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَى سُفْيَانُ عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجَزَرِيِّ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : أَمَرَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَقُومَ عَلَى بُدْنِهِ وَقَالَ : ﴿ اقْسِمْ جُلُودَهَا وَجِلَالَهَا وَلَا تُعْطِ الْجَازِرَ مِنْهَا شَيْئًا فَإِنَّا نُعْطِيهِ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ ، فَمَنَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُعْطَى مِنْهَا أُجْرَةُ الْجَازِرِ ، وَفِي ذَلِكَ مَنْعٌ مِنْ الْبَيْعِ ؛ لِأَنَّ إعْطَاءَ الْجَازِرِ ذَلِكَ مِنْ

أُجْرَتِهِ هُوَ عَلَى وَجْهِ الْبَيْعِ .

وَلَمَّا جَازَ الْأَكْلُ مِنْهَا دَلَّ عَلَى جَوَازِ الِانْتِفَاعِ بِجُلُودِهَا مِنْ .

غَيْرِ جِهَةِ الْبَيْعِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا : "يَجُوزُ الِانْتِفَاعُ بِجِلْدِ الْأُضْحِيَّةِ" وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ .

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : كَانَ مَسْرُوقٌ يَتَّخِذُ مَسْكَ أُضْحِيَّتِهِ مُصَلًّى فَيُصَلِّي عَلَيْهِ .

وَعَنْ إبْرَاهِيمَ وَعَطَاءٍ وَطَاوُسٍ وَالشَّعْبِيِّ : أَنَّهُ يُنْتَفَعُ بِهِ .

(42/522)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَلَمَّا مَنَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُعْطَى الْجَازِرُ مِنْ الْهَدْيِ شَيْئًا فِي جِزَارَتِهَا وَقَالَ : " إنَّا نُعْطِيهِ مِنْ عِنْدِنَا " دَلَّ ذَلِكَ عَلَى مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمَحْظُورَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُعْطِيَهُ مِنْهَا عَلَى وَجْهِ الْأُجْرَةِ ؛ لِأَنَّ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ حَدِيثِ عَلِيٍّ : " وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أُعْطِيَ أَجْرَ الْجَزَّارِ مِنْهَا " وَفِي بَعْضِهَا : " أَنْ لَا أُعْطِيَهُ فِي جِزَارَتِهَا مِنْهَا شَيْئًا " فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يُعْطِيَ الْجَزَّارَ مِنْ غَيْرِ أُجْرَتِهِ كَمَا يُعْطِي سَائِرَ النَّاسِ .

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْإِجَارَةِ عَلَى نَحْرِ الْبُدْنِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ نَحْنُ نُعْطِيهِ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ وَهُوَ أَصْلٌ فِي جَوَازِ الْإِجَارَةِ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ مَعْلُومٍ .

وَأَجَازَ أَصْحَابُنَا الْإِجَارَةَ عَلَى ذَبْحِ شَاةٍ ، وَمَنَعَ أَبُو حَنِيفَةَ الْإِجَارَةَ عَلَى قَتْلِ رَجُلٍ بِقِصَاصٍ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهَا أَنَّ الذَّبْحَ عَمَلٌ مَعْلُومٌ وَالْقَتْلُ مُبْهَمٌ غَيْرُ مَعْلُومٍ وَلَا يَدْرِي أَيَقْتُلُهُ بِضَرْبَةٍ أَوْ بِضَرْبَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ رَوَى عَبْدُ الْمَلِكِ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " التَّفَثُ الذَّبْحُ وَالْحَلْقُ وَالتَّقْصِيرُ وَقَصُّ الْأَظْفَارِ وَالشَّارِبِ وَنَتْفُ الْإِبِطِ " .

وَرَوَى عُثْمَانُ بْنُ الْأَسْوَدِ عَنْ مُجَاهِدٍ مِثْلَهُ ، وَكَذَلِكَ عَنْ الْحَسَنِ وَأَبِي عُبَيْدَةَ .

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ تَفَثَهُمْ ﴾ قَالَ : " الْمَنَاسِكُ " .

وَرَوَى أَشْعَثُ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : " نُسُكُهُمْ " .

وَرَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ قَيْسٍ عَنْ عَطَاءٍ : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ قَالَ : " الشَّعْرُ وَالْأَظْفَارُ " .

وَقِيلَ : " التَّفَثُ قَشَفُ الْإِحْرَامِ وَقَضَاؤُهُ بِحَلْقِ الرَّأْسِ وَالِاغْتِسَالِ وَنَحْوِهِ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمَّا تَأَوَّلَ السَّلَفُ قَضَاءَ التَّفَثِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مِنْ قَضَائِهِ حَلْقَ الرَّأْسِ ؛ لِأَنَّهُمْ تَأَوَّلُوهُ عَلَيْهِ ، وَلَوْلَا أَنَّ ذَلِكَ اسْمٌ لَهُ لَمَا تَأَوَّلُوهُ عَلَيْهِ ؛ إذْ لَا يُسَوَّغُ التَّأْوِيلُ عَلَى مَا لَيْسَ اللَّفْظُ عِبَارَةً عَنْهُ ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ الْحَلْقِ ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ عَلَى الْوُجُوبِ ، فَيَبْطُلُ قَوْلُ مَنْ قَالَ إنَّ الْحَلْقَ لَيْسَ بِنُسُكٍ فِي الْإِحْرَامِ .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ إطْلَاقٌ مِنْ حَظْرٍ ؛ إذْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ مَحْظُورَةً قَبْلَ الْإِحْلَالِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ؛ لِأَنَّ أَمْرَهُ بِقَضَاءِ التَّفَثِ قَدْ انْتَظَمَ سَائِرَ الْمَنَاسِكِ عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَمَنْ ذَكَرْنَا قَوْلَهُ مِنْ السَّلَفِ .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِعْلَ سَائِرِ الْمَنَاسِكِ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْإِبَاحَةِ بَلْ عَلَى وَجْهِ الْإِيجَابِ ، فَكَذَلِكَ الْحَلْقُ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ قَدْ أُرِيدَ بِالْأَمْرِ بِقَضَاءِ التَّفَثِ الْإِيجَابُ فِي غَيْرِ الْحَلْقِ ، فَكَذَلِكَ

الْحَلْقُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ نَحْرُ مَا نَذَرُوا مِنْ الْبُدْنِ " .

(44/522)

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : "كُلُّ مَا نُذِرَ فِي الْحَجِّ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : إنْ كَانَ التَّأْوِيلُ نَحْرَ الْبُدْنِ الْمَنْذُورَةِ فَإِنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ لَمْ يُرِدْ بِهِ مَا نُذِرَ نَحْرُهُ مِنْ الْبُدْنِ وَالْهَدَايَا ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مُرَادًا لَمَا ذَكَرَهُ بَعْدَ ذِكْرِهِ الذَّبْحَ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ وَأَمْرِهِ إيَّانَا بِالْأَكْلِ مِنْهَا ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ فِي غَيْرِ الْمَنْذُورِ بِهِ وَهُوَ دَمُ التَّطَوُّعِ وَالتَّمَتُّعِ وَالْقِرَانِ .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ الْهَدْيَ الْمَنْذُورَ أَنَّ دَمَ النَّذْرِ لَا يُؤْكَلُ مِنْهُ وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْأَكْلِ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ النَّذْرَ ، وَاسْتَأْنَفَ ذِكْرَ النَّذْرِ وَأَفَادَ بِهِ مَعَانٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ مِنْهُ ، وَالثَّانِي : أَنَّ ذَبْحَ النَّذْرِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي غَيْرِهَا ، وَالثَّالِثُ إيجَابُ الْوَفَاءِ بِنَفْسِ الْمَنْذُورِ دُونَ كَفَّارَةِ يَمِينٍ .

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ سَائِرَ النُّذُورِ فِي الْحَجِّ مِنْ صَدَقَةٍ أَوْ طَوَافٍ وَنَحْوِهِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ : " هُوَ كُلُّ نَذْرٍ إلَى أَجَلٍ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى لُزُومِ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ وَالْأَمْرُ عَلَى الْوُجُوبِ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ الشَّافِعِيِّ فِيمَنْ نَذَرَ حَجًّا أَوْ عُمْرَةً أَوْ بَدَنَةً أَوْ نَحْوَهَا أَنَّ عَلَيْهِ كَفَّارَةَ يَمِينٍ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَنَا بِالْوَفَاءِ بِنَفْسِ الْمَنْذُورِ .

بَابُ طَوَافِ الزِّيَارَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ فَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ : " ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا ﴾ طَوَافَ الزِّيَارَةِ " وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " الطَّوَافُ الْوَاجِبُ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : ظَاهِرُهُ يَقْتَضِي الْوُجُوبَ ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ وَالْأَوَامِرُ عَلَى الْوُجُوبِ .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ أَمَرَ بِهِ مَعْطُوفًا عَلَى الْأَمْرِ بِقَضَاءِ التَّفَثِ ، وَلَا طَوَافَ مَفْعُولٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَهُوَ يَوْمُ النَّحْرِ بَعْدَ الذَّبْحِ إلَّا طَوَافُ الزِّيَارَةِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ طَوَافَ الزِّيَارَةِ .

فَإِنْ قِيلَ : يُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ طَوَافَ الْقُدُومِ الَّذِي فَعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ حِينَ قَدِمُوا مَكَّةَ وَحَلُّوا بِهِ مِنْ إحْرَامِ الْحَجِّ وَجَعَلُوهُ عُمْرَةً إلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ سَاقَ الْهَدْيَ فَمَنَعَهُ ذَلِكَ مِنْ الْإِحْلَالِ وَمَضَى عَلَى حَجَّتِهِ .

قِيلَ لَهُ : لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ طَوَافَ الْقُدُومِ مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِهِ عَقِيبَ الذَّبْحِ ، وَذَبْحُ الْهَدْيِ إنَّمَا يَكُونُ يَوْمَ النَّحْرِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ وَحَقِيقَةُ " ثُمَّ " لِلتَّرْتِيبِ وَالتَّرَاخِي ، وَطَوَافُ الْقُدُومِ مَفْعُولٌ قَبْلَ يَوْمِ النَّحْرِ ، فَثَبَتَ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ طَوَافَ الْقُدُومِ .

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ هُوَ أَمْرٌ وَالْأَمْرُ عَلَى الْوُجُوبِ حَتَّى تَقُومَ دَلَالَةُ النَّدْبِ ، وَطَوَافُ الْقُدُومِ غَيْرُ وَاجِبٍ ، وَفِي صَرْفِ الْمَعْنَى إلَيْهِ صَرْفٌ لِلْكَلَامِ عَنْ حَقِيقَتِهِ .

وَالثَّالِثُ : أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ الطَّوَافَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَدِمُوا مَكَّةَ لَكَانَ مَنْسُوخًا ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الطَّوَافَ إنَّمَا أُمِرُوا بِهِ لِفَسْخِ الْحَجِّ وَذَلِكَ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ وَبِمَا رَوَى رَبِيعَةُ عَنْ الْحَارِثِ بْنِ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُزَنِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿ أَرَأَيْتَ فَسْخَ حَجَّتِنَا لَنَا خَاصَّةً أَمْ لِلنَّاسِ عَامَّةً ؟ قَالَ : بَلْ لَكُمْ خَاصَّةً ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَأَبِي ذَرٍّ وَغَيْرِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ .

(47/522)

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " لَا يَطُوفُ الْحَاجُّ لِلْقُدُومِ وَإِنَّهُ إِنْ طَافَ قَبْلَ عَرَفَةَ صَارَتْ حَجَّتُهُ عُمْرَةً " وَكَانَ يَحْتَجُّ بِقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ يَحِلُّ بِالطَّوَافِ قَبْلَهُ قَبْلَ عَرَفَةَ أَوْ بَعْدَهُ ، فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ بَاقٍ لَمْ يُنْسَخْ وَأَنَّ فَسْخَ الْحَجِّ قَبْلَ تَمَامِهِ جَائِزٌ بِأَنْ يَطُوفَ قَبْلَ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ فَيَصِيرَ حَجُّهُ عُمْرَةً .

وَقَدْ ثَبَتَ بِظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ نَسْخُهُ ، وَهَذَا مَعْنَى مَا أَرَادَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِقَوْلِهِ : " مُتْعَتَانِ كَانَتَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا أَنْهَى عَنْهُمَا وَأَضْرِبُ عَلَيْهِمَا : مُتْعَةُ النِّسَاءِ وَمُتْعَةُ الْحَجِّ " ، وَذَهَبَ فِيهِ إِلَى ظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ وَإِلَى مَا عَلِمَهُ مِنْ تَوْقِيفِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاهُمْ عَلَى أَنَّ فَسْخَ الْحَجِّ كَانَ لَهُمْ خَاصَّةً ، وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ ذَلِكَ مَنْسُوخٌ لَمْ يَجُزْ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ عَلَيْهِ ، فَثَبَتَ بِمَا وَصَفْنَا أَنَّ الْمُرَادَ طَوَافُ الزِّيَارَةِ .

(48/522)

وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى وُجُوبِ تَقْدِيمِهِ قَبْلَ مُضِيِّ أَيَّامِ النَّحْرِ ؛ إِذْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى الْفَوْرِ حَتَّى تَقُومَ الدَّلَالَةُ عَلَى جَوَازِ التَّأْخِيرِ ، وَلَا خِلَافَ فِي إِبَاحَةِ تَأْخِيرِهِ إِلَى آخِرِ أَيَّامِ النَّحْرِ ، وَقَدْ رَوَى

سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ أَفْلَحَ بْنِ حُمَيْدٍ عَنْ أَبِيهِ : " أَنَّهُ حَجَّ مَعَ نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ أَبُو أَيُّوبَ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ النَّحْرِ لَمْ يَزُرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ الْبَيْتَ إلَى يَوْمِ النَّفْرِ إلَّا رِجَالًا كَانَتْ مَعَهُمْ نِسَاءٌ فَتَعَجَّلُوا " ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ عِنْدَنَا النَّفْرَ الْأَوَّلَ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ ، فَلَوْ خُلِّينَا وَظَاهِرَ الْآيَةِ لَمَا جَازَ تَأْخِيرُ الطَّوَافِ عَنْ يَوْمِ النَّحْرِ ، إلَّا أَنَّهُ لَمَّا اتَّفَقَ السَّلَفُ وَفُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ عَلَى إبَاحَةِ تَأْخِيرِهِ إلَى الْيَوْمِ الثَّالِثِ مِنْ أَيَّامِ النَّحْرِ أَخَّرْنَاهُ وَلَمْ يَجُزْ تَأْخِيرُهُ إلَى آخِرِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : " مَنْ أَخَّرَهُ إلَى أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَعَلَيْهِ دَمٌ " وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ : " لَا شَيْءَ عَلَيْهِ " .

فَإِنْ قِيلَ : لَمَّا كَانَتْ " ثُمَّ " تَقْتَضِي التَّرَاخِي وَجَبَ جَوَازُ تَأْخِيرِهِ إلَى أَيِّ وَقْتٍ شَاءَ الطَّائِفُ .

(49/522)

قِيلَ لَهُ : لَا خِلَافَ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَاجِبٍ عَلَيْهِ التَّأْخِيرُ ، وَظَاهِرُ اللَّفْظِ يَقْتَضِي إيجَابَ تَأْخِيرِهِ إذَا حُمِلَ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ التَّأْخِيرُ وَاجِبًا وَكَانَ فِعْلُهُ وَاجِبًا لَا مَحَالَةَ اقْتَضَى ذَلِكَ لُزُومَ فِعْلِهِ يَوْمَ النَّحْرِ مِنْ غَيْرِ تَأْخِيرٍ وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي أُمِرَ فِيهِ بِقَضَاءِ التَّفَثِ ، فَاسْتَدْلَالُك بِظَاهِرِ اللَّفْظِ عَلَى جَوَازِ تَأْخِيرِهِ أَبَدًا غَيْرُ صَحِيحٍ مَعَ كَوْنِ " ثُمَّ " فِي هَذَا الْمَوْضِعِ غَيْرَ مُرَادٍ

بِهَا حَقِيقَةُ مَعْنَاهَا مِنْ وُجُوبِ فِعْلِهِ عَلَى التَّرَاخِي ، وَلِهَذَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ فِيمَنْ أَخَّرَ الْحَلْقَ إلَى آخِرِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ إنَّ

عَلَيْهِ دَمًا ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ قَدْ اقْتَضَى فِعْلَ الْحَلْقِ عَلَى الْفَوْرِ فِي يَوْمِ النَّحْرِ ، وَأَبَاحَ تَأْخِيرَهُ إلَى آخِرِ أَيَّامِ النَّحْرِ بِالِاتِّفَاقِ وَلَمْ يُبِحْهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ .

وَمِمَّا يُحْتَجُّ بِهِ لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَبَاحَ النَّفْرَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ وَهُوَ الثَّالِثُ مِنْ النَّحْرِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إثْمَ عَلَيْهِ ﴾ وَيَمْتَنِعُ إبَاحَةُ النَّفْرِ قَبْلَ تَقْدِيمِ طَوَافِ الزِّيَارَةِ ، فَثَبَتَ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِهِ قَبْلَ النَّفْرِ الْأَوَّلِ وَهُوَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ مِنْ النَّحْرِ ، فَإِذَا تَضَمَّنَ ذَلِكَ فَقَدْ تَمَّ الطَّوَافُ فَهُوَ لَا مَحَالَةَ مَنْهِيٌّ عَنْ تَأْخِيرِهِ ، فَإِذَا أَخَّرَهُ لَزِمَهُ جُبْرَانُهُ بِدَمٍ .

(50/522)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ لَمَّا كَانَ لَفْظًا ظَاهِرَ الْمَعْنَى بَيِّنَ الْمُرَادِ اقْتَضَى جَوَازَ الطَّوَافِ عَلَى أَيِّ وَجْهٍ أَوْقَعَهُ مِنْ حَدَثٍ أَوْ جَنَابَةٍ أَوْ عُرْيَانًا أَوْ مَنْكُوسًا أَوْ زَحْفًا ؛ إذْ لَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى كَوْنِ الطَّهَارَةِ وَمَا ذَكَرْنَا شَرْطًا فِيهِ ، وَلَوْ شَرَطْنَا فِيهِ الطَّهَارَةَ وَمَا ذَكَرْنَا كُنَّا زَائِدِينَ فِي النَّصِّ مَا لَيْسَ فِيهِ ، وَالزِّيَادَةُ فِي النَّصِّ غَيْرُ جَائِزَةٍ إلَّا بِمِثْلِ مَا يَجُوزُ

بِهِ النَّسْخُ فَقَدْ دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى وُقُوعِ الطَّوَافِ مَوْقِعَ الْجَوَازِ وَإِنَّ فِعْلَهُ .

عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ يَقْتَضِي جَوَازَ أَيِّ ذَلِكَ فَعَلَهُ مِنْ غَيْرِ تَرْتِيبٍ ؛ إذْ لَيْسَ فِي اللَّفْظِ دَلَالَةٌ عَلَى التَّرْتِيبِ ، فَإِنْ فَعَلَ الطَّوَافَ قَبْلَ قَضَاءِ التَّفَثِ أَوْ قَضَى التَّفَثَ ثُمَّ طَافَ فَإِنَّ مُقْتَضَى الْآيَةِ أَنْ يُجْزِئَ جَمِيعُ ذَلِكَ ؛ إذْ " الْوَاوُ " لَا تُوجِبُ التَّرْتِيبَ .

وَلَمْ يَخْتَلِفْ الْفُقَهَاءُ فِي إبَاحَةِ الْحَلْقِ وَاللُّبْسِ قَبْلَ طَوَافِ الزِّيَارَةِ ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا أَيْضًا فِي حَظْرِ الْجِمَاعِ قَبْلَهُ ، وَاخْتَلَفُوا فِي الطِّيبِ وَالصَّيْدِ ، فَقَالَ قَائِلُونَ : " هُمَا مُبَاحَانِ قَبْلَ الطَّوَافِ " وَهُوَ قَوْلُ أَصْحَابِنَا وَعَامَّةِ الْفُقَهَاءِ ، وَهُوَ قَوْلُ عَائِشَةَ فِي آخَرِينَ مِنْ السَّلَفِ .

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَابْنِ عُمَرَ : " لَا تَحِلُّ لَهُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَالصَّيْدُ حَتَّى يَطُوفَ لِلزِّيَارَةِ " .

(51/522)

وَقَالَ قَوْمٌ : " لَا تَحِلُّ لَهُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَالصَّيْدُ حَتَّى يَطُوفَ " وَرَوَى سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : ﴿ طَيَّبْتُ رَسُولَ اللَّهِ لِحُرْمِهِ حِينَ

أَحْرَمَ وَلِحِلِّهِ قَبْلَ أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ ﴾ .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ النَّظَرِ اتِّفَاقُ الْجَمِيعِ عَلَى إبَاحَةِ اللُّبْسِ وَالْحَلْقِ قَبْلَ الطَّوَافِ وَلَيْسَ لَهُمَا تَأْثِيرٌ فِي إفْسَادِ الْإِحْرَامِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الطِّيبُ وَالصَّيْدُ مِثْلَهُمَا .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ قَالَ مَعْمَرٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ : قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ : " إنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَعْتَقَهُ مِنْ الْجَبَابِرَةِ " .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " أُعْتِقَ مِنْ أَنْ يَمْلِكَهُ الْجَبَابِرَةُ " .

وَقِيلَ : " إنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ، بَنَاهُ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ وَلَدُهُ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُوَ أَقْدَمُ بَيْتٍ ، فَسُمِّيَ لِذَلِكَ عَتِيقًا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(52/522)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالُوا مَعْنَاهُ وَطَّأْنَا وَمَهَّدْنَا .

وَلَيْسَ كَمَا زَعَمُوا ؛ إنَّمَا الْمَبَاءَةُ الْمَنْزِلُ ، وَبَوَّأْنَا فَعَّلْنَا مِنْهُ فَالْمَعْنَى وَإِذْ نَزَّلْنَا بِتَشْدِيدِ الزَّايِ لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ، أَيْ عَرَّفْنَاهُ بِهِ مَنْزِلًا ، وَلِذَلِكَ دَخَلَتْ اللَّامُ فِيهِ ، فَخَفِيَ الْأَمْرُ عَلَى يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا حَتَّى قَالَ : إنَّ اللَّامَ هَاهُنَا زَائِدَةٌ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَالَ النَّاسُ : جَعَلَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَامَةً رِيحًا هَبَّتْ حَتَّى كَشَفَتْ أَسَاسَ آدَمَ فِي الْبَيْتِ .

وَقِيلَ : نَصَبَ لَهُ ظِلًّا عَلَى قَدْرِ الْبَيْتِ ، فَقَدَّرَهُ بِهِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خَطَّهُ لَهُ جِبْرِيلُ .

وَهَذِهِ الْجُمَلُ لَا تَتَخَصَّصُ إلَّا بِنَصٍّ صَرِيحٍ صَحِيحٍ .

وَقَدْ قَدَّمْنَا حَدِيثَ إبْرَاهِيمَ وَمَا كَانَ مِنْهُ مَعَ هَاجَرَ وَابْنِهَا ، وَكَيْفَ عَادَ ، وَكَيْفَ بَنَى ، وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرٌ لِذَلِكَ كُلِّهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : رَوَى أَبُو ذَرٍّ ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ قَالَ لَهُ : أَيُّ الْمَسْجِدِ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ الْأَوَّلَ ؟ قَالَ : الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ .

قُلْت : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى .

قُلْت : كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ : أَرْبَعُونَ سَنَةً .

ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْك الصَّلَاةُ فَصَلِّ ﴾ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ هَاهُنَا وَفِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِي ﴾ يَعْنِي لَا تَقْرَبْهُ بِمَعْصِيَةٍ وَلَا نَجَاسَةٍ وَلَا قَذَارَةٍ ، وَكَانَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى شَاءَ اللَّهُ فَعُبِدَ فِيهِ غَيْرُهُ ، وَأُشْرِكَ فِيهِ بِهِ ، وَلُطِّخَ بِالدِّمَاءِ النَّجِسَةِ ، وَمُلِئَ مِنْ الْأَقْذَارِ الْمُنْتِنَةِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

فِيهَا سَبْعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَذِّنْ ﴾ تَقَدَّمَ بَيَانُ ﴿ أَذِّنْ ﴾ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٍ ، وَأَوْضَحْنَا أَنَّ مَعْنَاهُ أَعْلِمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ نَبِيَّهُ إبْرَاهِيمَ أَنْ يُنَادِيَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ، وَذَلِكَ نَصُّ الْقُرْآنِ .

وَاخْتَلَفُوا فِي كَيْفِيَّةِ النِّدَاءِ كَيْف وَقَعَتْ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ أُمِرَ بِهِ فِي جُمْلَةِ شَرَائِعِ الدِّينِ ، الصَّلَاةُ ، وَالزَّكَاةُ ، وَالصِّيَامُ ، وَالْحَجُّ ، حَسْبَمَا تَمَهَّدَتْ بِهِ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ الَّتِي أَسَّسَهَا لِسَانُهُ ، وَأَوْضَحَهَا بِبَيَانِهِ ، وَخَتَمَهَا مُبَلَّغَةً تَامَّةً بِمُحَمَّدٍ فِي زَمَانِهِ .

الثَّانِي : أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ أَنْ يَرْقَى عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ وَيُنَادِي : أَيُّهَا النَّاسُ ، إنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا ، فَلَمْ تَبْقَ نَفْسٌ إلَّا أَبْلَغَ اللَّهُ نِدَاءَ إبْرَاهِيمَ إلَيْهَا ، فَمَنْ لَبَّى حِينَئِذٍ حَجَّ ، وَمَنْ سَكَتَ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ ، وَرَبُّنَا عَلَى ذَلِكَ مُقْتَدِرٌ ، فَإِنْ صَحَّ بِهِ الْأَثَرُ اسْتَمَرَّ عَقِيدَةً وَاسْتَقَرَّ ، وَإِلَّا فَالْأَوَّلُ يَكْفِي فِي الْمَعْنَى .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ قَالَ أَكْثَرُ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ : لَا يُفْتَرَضُ الْحَجُّ عَلَى مَنْ لَيْسَ لَهُ زَادٌ وَلَا رَاحِلَةٌ ، وَهِيَ الِاسْتِطَاعَةُ ، حَسْبَمَا تُفَسَّرُ فِي حَدِيثِ الْجَوْزِيِّ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي سُورَةِ آلِ عُمْرَانَ ، فَلَا وَجْهَ لِإِعَادَتِهِ ، بَيْدَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَصٌّ فِي أَنَّ حَالَ الْحَاجِّ فِي فَرْضِ الْإِجَابَةِ مُنْقَسِمَةٌ إلَى رَاجِلٍ وَرَاكِبٍ ، وَلَيْسَ عَنْ هَذَا لِأَحَدٍ مَذْهَبٌ ، وَلَا بَعْدَهُ فِي الدَّلِيلِ مَطْلَبٌ ، حَسْبَمَا هِيَ عَلَيْهِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمَذْهَبِ ، فَإِنَّ الِاسْتِطَاعَةَ عِنْدَنَا صِفَةُ الْمُسْتَطِيعِ ، وَهِيَ قَائِمَةٌ بِبَدَنِهِ ، فَإِذَا قَدَرَ يَمْشِي وَجَبَتْ عَلَيْهِ الْعِبَادَةُ ، وَإِذَا عَجَزَ وَوَجَدَ الزَّادَ وَالرَّاحِلَةَ وَجَبَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا ، وَتَحَقَّقَ الْوَعْدُ بِالْوَجْهَيْنِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ ﴾ يَعْنِي الَّتِي انْضَمَّ جَنْبَاهَا مِنْ الْهُزَالِ حَتَّى أَكَلَتْهَا الْفَيَافِي ، وَرَعَتْهَا الْمَفَازَاتُ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ مِنْهَا أَوَانَ انْفِصَالِهِ مِنْ بَلَدِهِ عَلَى بَدَنٍ ، فَإِنَّ حَرْبَ الْبَيْدَاءِ وَمُعَالَجَةَ الْأَعْدَاءِ رَدَّهَا هِلَالًا ، فَوَصَفَهَا اللَّهُ بِالْمَآلِ الَّذِي انْتَهَتْ عَلَيْهِ إلَى مَكَّةَ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ يَأْتِينَ ﴾ رَدَّ الضَّمِيرَ إلَى الْإِبِلِ تَكْرِمَةً لَهَا ؛ لِقَصْدِهَا الْحَجَّ مَعَ

أَرْبَابِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ فِي خَيْلِ الْجِهَادِ تَكْرِمَةً لَهَا حِينَ سَعَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

(55/522)

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ عَمِيقٍ ﴾ يَعْنِي بَعِيدٌ ، وَبِنَاءُ " عَمُقَ " لِلْبُعْدِ قَالَ الشَّاعِرُ يَصِفُ قَفْرًا : وَقَاتِمُ الْأَعْمَاقِ خَاوِي الْمُخْتَرَقِ يُرِيدُ بِالْأَعْمَاقِ الْأَبْعَادَ تَرَى عَلَيْهَا قَتَامًا يُخْتَرَقُ مِنْهَا جَوًّا خَاوِيًا ، وَتَمْشِي فِيهِ كَأَنَّك وَإِنْ كُنْت مُصْعِدًا هَاوٍ ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ بِئْرٌ عَمِيقَةٌ ، أَيْ بَعِيدَةُ الْقَعْرِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : رَوَى الدَّارَقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَجَّ قَبْلَ الْهِجْرَةِ حَجَّتَيْنِ ، وَحَجَّ حَجَّةَ الْوَدَاعِ ثَالِثَةً ﴾ ، وَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّ حَجَّهُ كَانَ عَلَى دِينِ إبْرَاهِيمَ وَدَعْوَتِهِ ، وَإِنَّمَا حَجَّ عَلَى دِينِهِ وَمِلَّتِهِ تَنَفُّلًا بِالْعِبَادَةِ ، وَاسْتِكْثَارًا مِنْ الطَّاعَةِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ فَرْضُ الْحَجِّ بَعْدَ تَمَلُّكِهِ لِمَكَّةَ وَارْتِفَاعِ الْعَوَائِقِ ، وَتَطْهِيرِ الْبَيْتِ ، وَتَقْدِيسِ الْحَرَمِ ، قَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ لِيُقِيمَ لِلنَّاسِ حَجَّهُمْ ، ثُمَّ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِي الْعَامِ الثَّانِي ، وَقَدْ قَدَّمْنَا وَجْهَ تَأْخِيرِهِ إلَى حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ قَبْلُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ : لَمَّا قَدَّمَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ رِجَالًا عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ

دَلَّ عَلَى أَنَّ حَجَّ الرَّاجِلِ أَفْضَلُ مِنْ حَجِّ الرَّاكِبِ .

وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّهَا لَحَوْجَاءُ فِي نَفْسِي أَنْ أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَحُجَّ مَاشِيًا ، لِأَنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ فَبَدَأَ بِأَهْلِ الرِّجْلَةِ .

(56/522)

وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَعِيسَى حَجَّا مَاشِيَيْنِ ، وَإِنَّمَا ﴿ حَجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاكِبًا وَلَمْ يَحُجَّ مَاشِيًا ﴾ ؛ لِأَنَّهُ إِنْ اقْتَدَى بِهِ أَهْلُ مِلَّتِهِ لَمْ يَقْدِرُوا ، وَإِنْ قَصَّرُوا عَنْهُ تَحَسَّرُوا ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفًا رَحِيمًا .

وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ طَافَ رَاكِبًا لِيَرَى النَّاسُ هَيْئَةَ الطَّوَافِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : هَذِهِ لَامُ الْمَقْصُودِ وَالْفَائِدَةُ الَّتِي يَنْسَاقُ الْحَدِيثُ لَهَا وَتُنَسَّقُ عَلَيْهِ ، وَأَجَلُّهَا قَوْلُهُ : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .

وَقَدْ تَتَّصِلُ بِالْفِعْلِ ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ ؛ وَتَتَّصِلُ بِالْحَرْفِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ .

وَقَدْ حَقَّقْنَا مَوْرِدَهَا فِي مَلْجَئَةِ الْمُتَفَقِّهِينَ إِلَى مَعْرِفَةِ غَوَامِضِ النَّحْوِيِّينَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ ﴿ مَنَافِعَ ﴾ فِيهَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : الْمَنَاسِكُ .

الثَّانِي : الْمَغْفِرَةُ .

الثَّالِثُ : التِّجَارَةُ .

الرَّابِعُ : مِنْ الْأَمْوَالِ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ .

وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ نُسُكٍ وَتِجَارَةٍ وَمَغْفِرَةٍ وَمَنْفَعَةٍ دُنْيَا وَآخِرَةٌ .

(57/522)

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ عُمُومُ قَوْلِ : ﴿ مَنَافِعَ ﴾ فَكُلُّ ذَلِكَ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ هَذَا الْقَوْلُ ، وَهَذَا يُعَضِّدُهُ مَا فِي الْبَقَرَةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وَذَلِكَ هُوَ التِّجَارَةُ بِإِجْمَاعٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾ فِيهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ .

الثَّانِي : أَنَّهَا أَيَّامُ التَّشْرِيقِ .

وَبِالْأَوَّلِ يَقُولُ الشَّافِعِيُّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْمَعْلُومَاتِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا يُغْنِي عَنْ إِعَادَتِهِ

هَاهُنَا .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ : الْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ أَيَّامُ النَّحْرِ ؛ يَوْمُ النَّحْرِ وَيَوْمَانِ بَعْدَهُ .

وَقَالَ : هُوَ النَّهَارُ دُونَ اللَّيْلِ .

وَمِثْلَهُ رَوَى أَشْهَبُ وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ عَنْ مَالِكٍ ، وَثَبَتَ يَقِينًا أَنَّ الْمُرَادَ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ هَاهُنَا الْكِنَايَةُ عَنْ النَّحْرِ ؛ لِأَنَّهُ شَرْطُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ فَكُلُوا ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْأَكْلِ مِنْ لَحْمِ الصَّيْدِ ، وَجَرَى فِيهِ شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ الْهَدْيِ ، وَحَقِيقَتُهُ تَأْتِي بَعْدُ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : ﴿ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ : فَأَمَّا الْفَقِيرُ فَهُوَ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ عَلَى نَعْتِ مَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٍ .

وَأَمَّا الْبَائِسُ فَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ عَلَيْهِ الْبُؤْسُ ، وَهُوَ ضَرَرُ الْمَرَضِ أَوْ ضَرَرُ الْحَاجَةِ .

(58/522)

: قَوْله تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ : فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي ذِكْرِ التَّفَثِ : قَالَ الْقَاضِي الْإِمَامُ : هَذِهِ لَفْظَةٌ غَرِيبَةٌ عَرَبِيَّةٌ لَمْ يَجِدْ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ فِيهَا شِعْرًا ، وَلَا أَحَاطُوا بِهَا خَبَرًا ، وَتَكَلَّمَ السَّلَفُ عَلَيْهَا عَلَى خَمْسَةِ

أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قَالَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ : التَّفَثُ حَلْقُ الشَّعْرِ ، وَلُبْسُ الثِّيَابِ ، وَمَا أَتْبَعَ ذَلِكَ مِمَّا يَحِلُّ بِهِ الْمُحْرِمُ .

الثَّانِي : أَنَّهُ مَنَاسِكُ الْحَجِّ ؛ رَوَاهُ ابْنُ عُمَرَ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ .

الثَّالِثُ : حَلْقُ الرَّأْسِ قَالَهُ قَتَادَةُ .

الرَّابِعُ : رَمْيُ الْجِمَارِ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

الْخَامِسُ : إزَالَةُ قَشَفِ الْإِحْرَامِ ، مِنْ تَقْلِيمِ أَظْفَارٍ ، وَأَخْذِ شَعْرٍ ، وَغُسْلٍ ، وَاسْتِعْمَالِ طِيبٍ قَالَهُ الْحَسَنُ ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ الْأَوَّلُ .

فَأَمَّا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ فَلَوْ صَحَّ عَنْهُمَا لَكَانَ حُجَّةً ، لِشَرَفِ الصُّحْبَةِ وَالْإِحَاطَةِ بِاللُّغَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُ قَتَادَةَ إنَّهُ حَلْقُ الرَّأْسِ فَمِنْ قَوْلِ مَالِكٍ .

وَأَمَّا قَوْلُ مُجَاهِدٍ إنَّهُ رَمْيُ الْجِمَارِ فَمِنْ قَوْلِ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ ، ثُمَّ تَتَبَّعْت التَّفَثَ لُغَةً فَرَأَيْت أَبَا عُبَيْدَةَ مَعْمَرَ بْنَ الْمُثَنَّى قَدْ قَالَ : إنَّهُ قَصُّ الْأَظْفَارِ ، وَأَخْذُ الشَّارِبِ ، وَكُلُّ مَا يَحْرُمُ عَلَى الْمُحْرِمِ ، إلَّا النِّكَاحُ ، وَلَمْ يَجِيءْ فِيهِ بِشِعْرٍ يُحْتَجُّ بِهِ .

(59/522)

وَقَالَ صَاحِبُ الْعَيْنِ : التَّفَثُ هُوَ الرَّمْيُ ، وَالْحَلْقُ ، وَالتَّقْصِيرُ ، وَالذَّبْحُ ، وَقَصُّ الْأَظْفَارِ وَالشَّارِبِ ، وَنَتْفُ الْإِبْطِ .

وَذَكَرَ الزَّجَّاجُ وَالْفَرَّاءُ نَحْوَهُ ، وَلَا أُرَاهُ أَخَذَهُ إلَّا مِنْ قَوْلِ الْعُلَمَاءِ .

وَقَالَ قُطْرُبٌ : تَفِثَ الرَّجُلُ إذَا كَثُرَ وَسَخُهُ ، وَقَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ : حَفُّوا رُءُوسَهُمْ لَمْ يَحْلِقُوا تَفَثًا وَلَمْ يَسُلُّوا لَهُمْ قَمْلًا وَصِئْبَانًا وَإِذَا انْتَهَيْتُمْ إلَى هَذَا الْمَقَامِ ظَهَرَ لَكُمْ أَنَّ مَا ذُكِرَ أَشَارَ إلَيْهِ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ ، وَمَا ذَكَرَهُ قُطْرُبٌ هُوَ الَّذِي قَالَهُ مَالِكٌ ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ فِي التَّفَثِ ، وَهَذِهِ صُورَةُ قَضَاءِ التَّفَثِ لُغَةً .

وَأَمَّا حَقِيقَتُهُ الشَّرْعِيَّةُ فَإِذَا نَحَرَ الْحَاجُّ أَوْ الْمُعْتَمِرُ هَدْيَهُ ، وَحَلَقَ رَأْسَهُ ، وَأَزَالَ وَسَخَهُ ، وَتَطَهَّرَ وَتَنَقَّى ، وَلَبِسَ الثِّيَابَ ، فَيَقْضِي تَفَثَهُ وَأَمَّا وَفَاءُ نَذْرِهِ ، وَهِيَ :

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فَإِنَّ النَّذْرَ كُلُّ مَا لَزِمَ الْإِنْسَانَ أَوْ الْتَزَمَهُ .

وَقَالَ مَالِكٌ فِي رِوَايَةِ ابْنِ وَهْبٍ وَابْنِ الْقَاسِمِ وَابْنِ بُكَيْرٍ : إنَّهُ رَمْيُ الْجِمَارِ ؛ لِأَنَّ النَّذْرَ هُوَ الْعَقْلُ ، فَهُوَ رَمْيُ الْجِمَارِ ، لِأَجَلِ النَّذْرِ يَعْنِي بِالْعَقْلِ الدِّيَةَ .

وَالْأَوَّلُ أَقْوَى : لِأَنَّهُ يَلْزَمُ الْوَفَاءُ بِرَمْيِ الْجِمَارِ ، وَبِنَحْرِ الْهَدْيِ ، وَيَجْتَنِبُ الْوَطْءَ وَالطِّيبَ ، حَتَّى تَقَعَ الزِّيَارَةُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ هَذَا هُوَ طَوَافُ الزِّيَارَةِ ، وَهُوَ طَوَافُ الْإِفَاضَةِ ، وَهُوَ رُكْنُ الْحَجِّ بِاتِّفَاقٍ ، وَبِهِ يَتِمُّ الْحَجُّ ؛ لِأَنَّهُ أَحَدُ أَعْمَالِهِ وَنِهَايَةُ أَرْكَانِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ : وَفِي تَسْمِيَتِهِ بِالْعَتِيقِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ مِنْ عَتُقَ أَيْ قَدُمَ ؛ إذْ هُوَ أَوَّلُ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ .

الثَّانِي : أَنَّهُ عَتَقَ ، أَيْ خَلُصَ مِنْ الْجَبَابِرَةِ عَنْ الْهَوَانِ إلَى انْقِضَاءِ الزَّمَانِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(61/522)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : معناه وطأنا له مكان البيت ، حكاه ابن عيسى .

والثاني : معناه عرفناه مكان البيت بعلامة يستدل بها .

وفي العلامة قولان :

أحدهما : قاله قطرب ، بعثت سحابة فتطوقت حيال الكعبة فبنى على ظلها .

الثاني : قاله السدي ، كانت العلامة ريحاً هبت وكنست حول البيت يقال لها الخجوج .

﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً ﴾ أي لا تعبد معي إلهاً غيري

. ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : من الشرك وعبادة الأوثان ، وهذا قول قتادة .

الثاني : من الأنجاس والفرث والدم الذي كان طرح حول البيت ، ذكره ابن عيسى .

والثالث : من قول الزور ، وهو قول يحيى بن سلام .

﴿ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ أما الطائفون فيعني بالبيت وفي ﴿ الْقَائِمِينَ ﴾ قولان

: أحدهما : يعني القائمين في الصلاة ، وهو قول عطاء .

والثاني : المقيمين بمكة ، وهو قول قتادة .

﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ يعني في الصلاة ، وفي هذا دليل على ثواب الصلاة في البيت .

وحكى الضحاك أن إبراهيم لما حضر أساس البيت وجد لَوْحاً ، عليه مكتوب : أنا الله ذو بكّة ، خلقت الخير والشر ، فطوبى لمن قَدَّرْتُ على يديه الخير ، وويلٌ لمن قدرت على يديه الشر .

وتأول بعض أصحاب الخواطر قوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ يعني القلوب .

﴿ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ يعني حجاج الله ، ﴿ وَالْقَآئِمِينَ ﴾ يعني الإيمان ، ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ يعني الخوف والرجاء .

قوله عز وجل : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ يعني أَعْلِمْهُم ونَادِ فيهم بالحق ، وفيه قولان :

(62/522)

أحدهما : أن هذا القول حكاية عن أمر الله سبحانه لنبيه إبراهيم ، فروي أن إبراهيم صعد جبل أبي قبيس فقال : عباد الله إن الله سبحانه وتعالى قد ابتنى بيتاً وأَمَرَكُمْ بحجه فَحُجُّوا ، فأجابه من في أصلاب الرجال وأرحام النساء : لبيك داعي ربنا لبيك . ولا يحجه إلى يوم القيامة إلا من أجاب دعوة إبراهيم ، وقيل إن أول من أجابه أهل اليمن ، فهم أكثر الناس حجاً له .

والثاني : أن هذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس بحج البيت .

﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ يعني مشاة على أقدامهم ، والرجال جمع راجل

. ﴿ وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ أي جمل ضامر ، وهو المهزول ، وإنما قال ﴿ ضَامِرٍ ﴾ لأنه ليس يصل إليه إلا وقد صار ضامراً .

﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ أي بعيد ، ومنه قول الشاعر :

تلعب لديهن بالحريق . . . مدى نياط بارح عميق

قوله عز وجل : ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾

فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : أنه شهود المواقف وقضاء المناسك .

والثاني : أنها المغفرة لذنوبهم ، قاله الضحاك .

والثالث : أنها التجارة في الدنيا والأجر في الآخرة ، وهذا قول مجاهد .

﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ فيها ثلاثة أقاويل

: أحدها : أنها عشر ذي الحجة آخرها يوم النحر ، وهذا قول ابن عباس ، والحسن ، وهو مذهب الشافعي .

والثاني : أنها أيام التشريق الثلاثة ، وهذا قول عطية العوفي .

والثالث : أنها يوم التروية ويوم عرفة ويوم النحر ، وهذا قول الضحاك .

﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾ يعني على نحر ما رزقهم نحره من بهيمة الأنعام ، وهي الأزواج الثمانية من الضحايا والهدايا .

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ في الأكل والإطعام ثلاثة أوجه

: أحدها : أن الأكل والإِطعام واجبان لا يجوز أن يخل بأحدهما ، وهذا قول أبي الطيب بن سلمة .

(63/522)

والثاني : أن الأكل والإطعام مستحبان ، وله الاقتصار على أيهما شاء وهذا قول أبي العباس بن سريج .

والثالث : أن الأكل مستحب والإطعام واجب ، وهذا قول الشافعي ، فإن أطعم جميعها أجزأه ، وإن أكل جميعها لم يُجْزه ، وهذا فيما كان تطوعاً ، وأما واجبات الدماء فلا يجوز أن نأكل منها .

وفي ﴿ الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ ﴾ خمسة أوجه :

أحدها : أن الفقير الذي به زمَانةٌ ، وهو قول مجاهد .

والثاني : الفقير الذي به ضر الجوع .

والثالث : أن الفقير الذي ظهر عليه أثر البؤس .

والرابع : أنه الذي يمد يده بالسؤال ويتكفف بالطلب .

والخامس : أنه الذي يؤنف عن مجالسته .

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : مناسك الحج ، وهو قول ابن عباس ، وابن عمر .

والثاني : حلق الرأس ، وهو قول قتادة ، قال أمية بن أبي الصلت .

حفوا رؤوسهم لم يحلقوا تفثاً . . . . . .

والثالث : رمي الجمار ، وهو قول مجاهد

. والرابع : إزالة قشف الإِحرام من تقليم ظفر وأخذ شعر وغسل واستعمال الطيب ، وهو قول الحسن .

وقيل لبعض الصلحاء : ما المعنى في شعث المحرم ؟ قال : ليشهد الله تعالى منك الإِعراض عن العناية بنفسك فيعلم صدقك في بذلها لطاعته .

وسئل الحسن عن التجرد في الحج فقال : جرّد قلبك من السهو ، ونفسك من اللهو ولسانك من اللغو ، ثم يجوز كيف شئت .

وقال الشاعر :

قضوا تفثاً ونحباً ثم ساروا . . . إلى نجدٍ وما انتظروا علياً

﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ وهو تأدية ما نذروه في حجهم من نحر أو غيره

. ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ يعني طواف الإِفاضة ، وهو الواجب في الحج والعمرة ، ولا يجوز في الحج إلا بعد عرفة ، وإن جاز السعي .

وفي تسمية البيت عتيقاً أربعة أوجه :

أحدها : أن الله أعتقه من الجبابرة ، وهو قول ابن عباس .

الثاني : لأنه عتيق لم يملكه أحد من الناس ، وهو قول مجاهد .

والثالث : لأنه أعتق من الغرق في الطوفان ، وهذا قول ابن زيد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(64/522)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾

المعنى واذكر ﴿ إذ بوأنا ﴾ ، و" بوأ " هي تعدية باء بالتضعيف ، و" باء " معناه رجع فكأن المبوِّىء يرد المبوأ إلى المكان ، واستعملت اللفظة بمعنى سكن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ [الزمر : 74] وقال الشاعر :

كم من أخ لي صالح . . . بوأته بيديَّ لحدا

(65/522)

واللام في قوله تعالى : ﴿ لإبراهيم ﴾ قالت فرقة هي زائدة ، وقالت فرقة ﴿ بوأنا ﴾ نازلة منزلة فعل يتعدى باللام كنحو جعلنا ع والأظهر أن يكون المفعول الأول ب ﴿ بوأنا ﴾ محذوفاً تقديره الناس أو العالمين ، ثم قال ﴿ لإبراهيم ﴾ بمعنى له كانت هذه الكرامة وعلى يديه بوؤا ، و ﴿ البيت ﴾ هو الكعبة ، وكان فيما روي قد جعله الله تعالى متعبداً لآدم عليه السلام ، ثم درس بالطوفان ، وغيره فلما جاءت مدة إبراهيم أمره الله تعالى ببنائه ، فجاء إلى موضعه وجعل يطلب أثراً ، فبعث الله ريحاً فكشف له عن أساس آدم ، فرفع قواعده عليه . وقوله ﴿ أن لا تشرك ﴾ هي مخاطبة لإبراهيم عليه السلام ، في قول الجمهور حكيت لنا بمعنى قيل له لا تشرك ، وقرأ عكرمة " ألا يشرك " بالياء على نقل معنى القول الذي قيل له ، قال أبو حاتم : ولا بد من نصب الكاف على هذه القراءة بمعنى لأن لا يشرك ع يحتمل أن تكون " أن " في قراءة الجمهور مفسرة ، ويحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة ، وفي الآية طعن على من أشرك من قطان البيت ، أي هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعد ، وأنتم لم تفوا بل أشركتم ، وقالت فرقة : الخطاب من قوله ﴿ أن لا تشرك ﴾ لمحمد صلى عليه وسلم وأمر بتطهير البيت والأذان بالحج ع والجمهور على أن ذلك إبراهيم وهو الأصح . وتطهير البيت عام في الكفر والبدع وجميع الأنجاس والدماء وغير ذلك ، و " القائمون " ، هم المصلون ، وذكر تعالى من أركان الصلاة : أعظمها . وهي القيام والركوع

والسجود ، وقرأ جمهور الناس " وأذّن " بشد الذال ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن وابن محيص " وآذن " بمدة وتخفيف الذال وتصحف هذا على ابن جني ، فإنه حكى عنها " وأذن " فعل ماض وأعرب عن ذلك بان جعله عطفاً على ﴿ بوأنا ﴾ ، وروي أن إبراهيم عليه السلام لما أمر بالأذان بالحج قال يا رب وإذا ناديت فمن يسمعني ؟ فقيل له نادِ يا إبراهيم فعليك النداء وعلينا البلاغ فصعد على أبي قبيس وقيل على حجر المقام ونادى :

(66/522)

أيها الناس ، إن الله قد أمركم بحج هذا البيت فحجوا واختلفت الروايات في ألفاظه عليه السلام واللازم أن يكون فيها ذكر البيت والحج ، وروي أنه يوم نادى أسمع كل من يحج إلى يوم القيامة في أصلاب الرجال وأجابه كل شيء في ذلك الوقت من جماد وغيره لبيك اللهم لبيك ، فجرت التلبية على ذلك ، قاله ابن عباس وابن جبير ، وقرأ جمهور الناس " بالحَج " بفتح الحاء ، وقرأ ابن أبي إسحاق في كل القرآن بكسرها ، و﴿ رجالاً ﴾ ، جمع راجل كتاجر وتجار ، وقرأ عكرمة وابن عباس وأبو مجلز وجعفر بن محمد " رُجّالاً " بضم الراء وشد الجيم ككاتب وكتاب ، وقرأ عكرمة أيضاً وابن أبي إسحاق " رُجالاً " بضم الراء وتخفيف الجيم ، وهو قليل في أبنية الجمع ورويت عن مجاهد ، وقرأ مجاهد " رُجالى " على وزن

فعالى فهو كمثل كسالى ، و" الضامر " ، قالت فرقة أراد بها الناقة ع وذلك أنه يقال ناقة ضامر .

ومنه قول الأعشى :

عهدي بها في الحي قد ذرعت . . . هيفاء مثل المهرة الضامر

(67/522)

فيجيء قوله ﴿ يأتين ﴾ مستقيماً على هذا التأويل ، وقالت فرقة " الضامر " هو كل ما اتصف بذلك من جمل أو ناقة وغير ذلك ع وهذا هو الأظهر يتضمن معنى الجماعات أو الرفاق فيحسن لذلك قوله ﴿ يأتين ﴾ وقرأ أصحاب ابن مسعود " يأتون " وهي قراءة ابن أبي عبلة والضحاك ، وفي تقديم ﴿ رجالاً ﴾ تفضيل للمشاة في الحج ، قال ابن عباس : ما آسى على شيء فاتني إلا أن أكون حججت ماشياً فإني سمعت الله تعالى يقول : ﴿ يأتونك رجالاً ﴾ وقال ابن أبي نجيح : حج إبراهيم وإسماعيل ماشين ، واستدل بعض العلماء بسقوط ذكر البحر من هذه الآية على أن فرض الحج بالبحر ساقط ع قال مالك في الموازية : لا أسمع للبحر ذكراً ع وهذا تأسيس لا أنه يلزم من سقوط ذكره سقوط الفرض فيه ، وذلك أن مكة ليست في ضفة بحر فيأتيها الناس بالسفن ولا بد لمن ركب البحر أن يصير

في إيتان مكة إما راجلاً وإما على ﴿ ضامر ﴾ فإنما ذكرت حالتا الوصول ، وإسقاط فرض الحج بمجرد البحر ليس بالكثير ولا القوي ، فأما إذا اقترن به عدو أو خوف أو هول شديد أو مرض يلحق شخصاً ما ، فمالك والشافعي وجمهور الناس على سقوط الوجوب بهذه الأعذار ، وأنه ليس بسبيل يستطاع ، وذكر صاحب الاستظهار في هذا المعنى كلاماً ظاهره أن الوجوب لا يسقطه شيء من هذه الأعذار ع وهذا ضعيف و" الفج " الطريق الواسعة ، و" العميق " معناه البعيد . وقال الشاعر : [الطويل]

إذا الخيل جاءت من فجاج عميقة . . . يمد بها في السير أشعث شاحب

(68/522)

و " المنافع " في هذه الآية التجارة في قول أكثر المتأولين ابن عباس وغيره ، وقال أبو جعفر محمد بن علي : أراد الأجر و ﴿ منافع ﴾ الآخرة ، وقال مجاهد بعموم الوجهين وقوله تعالى : ﴿ اسم الله ﴾ ، يصح أن يريد بالاسم ها هنا المسمى بمعنى ويذكروا الله على تجوز في هذه العبارة إلا أن يقصد ذكر القلوب ، ويحتمل أن يريد بالاسم التسميات وذكر الله تعالى إنما هو بذكر أسمائه ثم بذكر القلب السلطان والصفات ، وهذا كله على أن يكون الذكر بمعنى حمده وتقديسه شكراً على نعمته في الرزق ويؤيده قوله عليه السلام

" إنها أيام أكل وشرب وذكر الله تعالى " ، وذهب قوم إلى أن المراد ذكر اسم الله تعالى على النحو والذبح ، وقالوا إن في ذكر " الأيام " دليلاً على أن الذبح في الليل لا يجوز ، وهو مذهب مالك وأصحاب الرأي ، وقال ابن عباس " الأيام المعلومات " هي أيام العشر ويوم النحر وأيام التشريق ، وقال ابن سيرين : بل أيام العشر فقط ، وقالت فرقة : أيام التشريق ، ذكره القتبي ، وقالت فرقة فيها مالك وأصحابه : بل المعلومات يوم النحر ويومان بعده وأيام التشريق الثلاثة هي معدودات فيكون يوم النحر معلوماً لا معدوداً واليومان بعده معلومان معدودان والرابع معدود لا معلوم وحمل هؤلاء على هذا التفصيل أنهم أخذوا ذكر ﴿ اسم الله ﴾ هنا على الذبح للأضاحي والهدي وغيره ، فاليوم الرابع لا يضحى فيه عند مالك وجماعة وأخذوا التعجل والتأخر بالنفر في الأيام المعدودات فتأمل هذا ، يبين لك قصدهم ، ويظهر أن تكون المعدودات والمعلومات بمعنى أن تلك الأيام الفاضلة كلها ويبقى أمر الذبح وأمر الاستعجال لا يتعلق بمعدود ولا بمعلوم وتكون فائدة قوله ﴿ معلومات ﴾ و ﴿ معدودات ﴾ [البقرة : 184 ، آل عمران : 24] التحريض على هذه الأيام وعلى اغتنام فضلها أي ليست كغيرها فكأنه قال : هي مخصوصات فلتغتنم . وقوله ، ﴿ فكلوا ﴾ ندب ،

واستحب أهل العلم للرجل أن يأكل من هديه وأضحيته وأن يتصدق بأكثرها مع تجويزهم الصدقة بالكل وأكل الكل ، و﴿ البائس ﴾ الذي قد مسه ضر الفاقة وبؤسها ، يقال : بأس الرجل يبؤس وقد يستعمل فيمن نزلت به نازلة دهر وإن لم تكن فقراً ، ومنه قوله عليه السلام ، " لكن البائس سعد بن خولة " ، والمراد في هذه الآية أهل الحاجة .

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29) ﴾

(70/522)

اختلفت القراءة في سكون اللام في قوله تعالى : ﴿ ليقضوا وليوفوا وليطوفوا ﴾ وفي تحريك جميع ذلك بالكسر وفي تحريك " ليقضوا " وتسكين الاثنين وقد تقدم في قوله : ﴿ فليمدد ﴾ [الحج : 15 ، مريم : 75] بسبب توجيه جميع ذلك ، و" التفث " ما يصنعه المحرم عند حله من تقصير شعر وحلقه وإزالة شعث ونحوه من إقامة الخمس من الفطرة حسب الحديث وفي ضمن ذلك قضاء جميع مناسكه إذ لا يقضى التفث إلا بعد ذلك ، وقرأ عاصم وحده في رواية أبي بكر " وليوَفّوا " بفتح الواو وشد الفاء ، ووفى وأوفى لغتان مستعملتان في كتاب الله تعالى ، وأوفى أكثر . و" النذور " ما معهم من هدي وغيره ، والطواف المذكور في هذه الآية هو طواف الإفاضة الذي هو من واجبات الحج ، قال

الطبري لا خلاف بين المتأولين في ذلك ، قال مالك : هو واجب يرجع تاركه من وطنه إلا أن يطوف طواف وداع فإنه يجزئه منه .

(71/522)

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل بحسب الترتيب أن تكون الإشارة إلى طواف الوادع إذ المستحسن أن يكون ولا بد ، وقد أسند الطبري عن عمرو بن أبي سلمة قال : سألت زهيراً عن قوله تعالى : ﴿ وليطوفوا ﴾ بالبيت العتيق ﴾ فقال : هو طواف الوداع ، وقال مالك في الموطأ واختلف المتألون في وجه صفة البيت ب ﴿ العتيق ﴾ ، فقال مجاهد والحسن ﴿ العتيق ﴾ القديم يقال سيف عتيق وقد عتق الشيء ، قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا قول يعضده النظر إذ هو أول بيت وضع للناس إلا أن ابن الزبير قال : سمي عتيقاً لأن الله تعالى أعتقه من الجبابرة بمنعه إياه منهم وروي في هذا حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا نظر مع الحديث ، وقال فرقة : سمي عتيقاً لأنه لم يملك موضعه قط ، وقالت فرقة : سمي عتيقاً لأن الله تعالى يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب ، قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا يرد التصريف : وقيل : سمي عتيقاً لأنه أعتق من غرق الطوفان ، قاله ابن جبير ، ويحتمل أن يكون ﴿ العتيق ﴾ صفة مدح تقتضي جودة الشيء كما قال

عمر بن الخطاب رضي الله عنه " حملت على فرس عتيق " الحديث ونحوه قولهم كلام حر وطين حر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(72/522)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِذ بوَّأْنا لإِبراهيم ﴾ قال ابن عباس : جعلنا .

وقال مقاتل : دللناه عليه .

وقال ثعلب : وإِنما أدخل اللام ، على أنَّ "بوَّأْنا" في معنى : جعلنا ، فيكون بمعنى : ﴿ ردف لكم ﴾ [النمل : 72] أي : ردفكم .

وقد شرحنا كيفية بناء البيت في [البقرة : 129] .

قوله تعالى : ﴿ أن لا تشرك بي شيئاً ﴾ المعنى : وأوحينا إِليه ذلك ، ﴿ وطهر بيتيَ ﴾ حرَّك هذه الياء ، نافع وحفص عن عاصم .

وقد شرحنا الآية في [البقرة : 125] .

وفي المراد ب "القائمين" قولان .

أحدهما : القائمون في الصلاة ، قاله عطاء ، والجمهور .

والثاني : المقيمون بمكة ، حكي عن قتادة .

قوله تعالى : ﴿ وأذِّن في الناس بالحج ﴾ قال المفسرون : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت ، أمره الله تعالى أن يؤذِّن في الناس بالحج ، فقال إبراهيم : يا رب ، وما يبلغ صوتي ؟ قال أذِّن ، وعليَّ البلاغ ، فعلا على جبل أبي قبيس ، وقال يا أيها الناس : إن ربكم قد بنى بيتاً ، فحجُّوه ، فأسمع مَنْ في أصلاب الرجال وأرحام النساء ممن سبق في علم الله أن يحج ، فأجابوه : لبيك اللهم لبيك .

والأذان بمعنى النداء والإعلام ، والمأمور بهذا الأذان ، إبراهيم في قول الجمهور ، إلا ما روي عن الحسن أنه قال : المأمور به محمد صلى الله عليه وسلم .

والناس هاهنا : اسم يعم جميع بني آدم عند الجمهور ، إلا ما روى العوفي عن ابن عباس أنه قال : عنى بالناس أهل القبلة .

واعلم أن من أتى البيت الذي دعا إليه إبراهيم ، فكأنه قد أتى إبراهيم ، لأنه أجاب نداءه .

وواحد الرجال هاهنا : راجل ، مثل صاحب ، وصحاب ، والمعنى : يأتوك مشاةً .

وقد روي أن إبراهيم وإسماعيل حجّا ماشيين ، وحج الحسن بن علي خمساً وعشرين حجة ماشياً من المدينة إلى مكة ، والنجائب تُقَاد معه .

وحج الإمام أحمد ماشياً مرتين أو ثلاثاً .

قوله تعالى : ﴿ وعلى كل ضامرٍ ﴾ أي : ركباناً على ضُمَّر من طول السفر .

قال الفراء : و"يأتين" فعل للنوق .

وقال الزجاج : "يأتين" على معنى الإِبل .

وقرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة : "يأتون" بالواو .

قوله تعالى : ﴿ من كل فج عميق ﴾ أي : طريق بعيد .

وقد ذكرنا تفسير الفجِّ عند قوله تعالى : ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً ﴾ [الانبياء : 31] .

قوله تعالى : ﴿ ليشهدوا ﴾ أي : ليحضروا ﴿ منافع لهم ﴾ وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : التجارة ، قاله ابن عباس ، والسدي .

والثاني : منافع الآخرة ، قاله سعيد بن المسيب ، والزجاج في آخرين .

والثالث : منافع الدارين جميعاً ، قاله مجاهد .

وهو أصح ، لأنه لا يكون القصد للتجارة خاصة ، وإِنما الأصل قصدُ الحج ، والتجارة تَبَع .

وفي الأيام المعلومات ستة أقوال .

أحدها : أنها أيام العشر ، رواه مجاهد عن ابن عمر ، وسعيد بن جبير عن ابن عباس ،

وبه قال الحسن ، وعطاء ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، والشافعي .

والثاني : تسعة أيام من العشر ، قاله أبو موسى الأشعري .

والثالث : يوم الأضحى وثلاثة أيام بعده ، رواه نافع عن ابن عمر ، ومقسم عن ابن عباس .

والرابع : أنها أيام التشريق ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال عطاء الخراساني ، والنخعي ، والضحاك .

والخامس : أنها خمسة أيام ، أولها يوم التروية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والسادس : ثلاثة أيام ، أولها يوم عرفة ، قاله مالك بن أنس .

وقيل : إنما قال : "معلومات" ، ليحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحج في آخرها .

قال الزجاج : والذِّكْر هاهنا يدل على التسمية على ما يُنحَر ، لقوله تعالى : ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ ؛ قال القاضي أبو يعلى : ويحتمل أن يكون الذِّكر المذكور هاهنا : هو الذِّكر على الهدايا الواجبة ، كالدم الواجب لأجل التمتع والقران ، ويحتمل أن يكون الذِّكر المفعول عند رمي الجمار وتكبير التشريق ، لأن الآية عامَّة في ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فكلوا منها ﴾ يعني : الأنعام التي تُنحر ؛ وهذا أمر إباحة .

(74/522)

وكان أهل الجاهلية لا يستحلُّون أكل ذبائحهم ، فأعلم الله عز وجل أن ذلك جائز ، غير أن هذا إنما يكون في الهدي المتطوَّع به ، فأما دم التمتع والقران ، فعندنا أنه يجوز أن يأكل منه ، وقال الشافعي : لا يجوز ، وقد روى عطاء عن ابن عباس أنه قال : من كل الهدي يؤكل ، إلا ما كان من فداءٍ أو جزاءٍ أو نذر .

فأما "البائس" فهو ذو البؤس ، وهو شدة الفقر .

قوله تعالى : ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : حلق الرأس ، وأخذ الشارب ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وقص الأظفار ، والأخذ من العارضين ، ورمي الجمار ، والوقوف بعرفة ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : مناسك الحج ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وهو قول ابن عمر .

والثالث : حلق الرأس ، قاله مجاهد .

والرابع : الشعر ، والظفر ، قاله عكرمة .

والقول الأول أصح .

لأن التفث : الوسخ ، والقذارة : من طول الشعر والأظفار والشعث .

وقضاؤه : نقضه ، وإذهابه .

والحاج مغبَّر شعث لم يدَّهن ، ولم يستحدَّ ، فإذا قضى نسكه ، وخرج من إحرامه بالحلق ، والقلم ، وقص الأظفار ، ولبس الثياب ، ونحو ذلك ، فهذا قضاء تفثه .

قال الزجاج : وأهل اللغة لا يعرفون التفث إلا من التفسير ، وكأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال .

قوله تعالى : ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ وروى أبو بكر عن عاصم : "ولْيوفّوا" بتسكين اللام وتشديد الفاء .

قال ابن عباس : هو نحر ما نذروا من البُدن .

وقال غيره : ما نذروا من أعمال البرّ في أيام الحج ، فإن الإنسان ربما نذر أن يتصدق إن رزقه الله رؤية الكعبة ، وقد يكون عليه نذور مطلقة ، فالأفضل أن يؤدّيها بمكة .

قوله تعالى : ﴿ وليطوّفوا بالبيت العتيق ﴾ هذا هو الطواف الواجب ، لأنه أُمر به بعد الذبح ، والذبح إنما يكون في يوم النحر ، فدل على أنه الطواف المفروض .

وفي تسمية البيت عتيقاً أربعة أقوال .

أحدها : لأن الله تعالى أعتقه من الجبابرة .

(75/522)

روى عبد الله بن الزبير ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما سمى الله البيت : العتيق ، لأن الله أعتقه من الجبابرة ، فلم يظهر عليه جبّار قط " وهذا قول مجاهد ، وقتادة .

والثاني : أن معنى العتيق : القديم ، قاله الحسن ، وابن زيد .

والثالث : لأنه لم يملك قط ، قاله مجاهد في رواية ، وسفيان بن عيينة .

والرابع : لأنه أُعتق من الغرق زمان الطوفان ، قاله ابن السائب .

وقد تكلَّمنا في هذه السورة في "ليقضوا" "وليوفوا" "وليطوفوا" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(76/522)

وقال القرطبى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت ﴾ أي واذكر إذ بوّأنا لإبراهيم ؛ يقال : بوّأته منزلاً وبوّأت له .

كما يقال : مكّنتك ومكّنت لك ؛ فاللام في قوله : "لإبراهِيمَ" صلة للتأكيد ؛ كقوله : ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ [النمل : 72] ، وهذا قول الفراء .

وقيل : "بوّأنا لإبراهيم مكان البيت" أي أرَيناه أصله لِيَبْنِيَه ، وكان قد دَرَس بالطوفان

وغيره ، فلما جاءت مدّة إبراهيم عليه السلام أمره الله ببنيانه ، فجاء إلى موضعه وجعل يطلب أثراً ، فبعث الله ريحاً فكشفت عن أساس آدم عليه السلام ، فرتّب قواعده عليه ؛ حسبما تقدم بيانه في "البقرة" .

وقيل : "بوّأنا" نازلة منزلة فعل يتعدّى باللام ؛ كنحو جعلنا ، أي جعلنا لإبراهيم مكان البيت مُبَوَّأً .

وقال الشاعر :

كم من أخ لي ماجد . . .

بوّأته بيديّ لَحْداً

الثانية : ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ ﴾ هي مخاطبة لإبراهيم عليه السلام في قول الجمهور .

وقرأ عكرمة "أن لا يُشْرِك" بالياء ، على نقل معنى القول الذي قيل له .

قال أبو حاتم : ولا بدّ من نصب الكاف على هذه القراءة ، بمعنى لئلا يشرك .

وقيل : إن "أن" مخففة من الثقيلة .

وقيل مفسرة .

وقيل : زائدة ؛ مثل ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ البشير ﴾ [يوسف : 96] .

وفي الآية طعن على من أشرك من قُطّان البيت ؛ أي هذا كان الشرط على أبيكم فمَن بعده وأنتم ، فلم تَفُوا بل أشركتم .

وقالت فرقة : الخطاب من قوله : "أن لا تشرك" لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأمر بتطهير البيت والأذان بالحج .

والجمهور على أن ذلك لإبراهيم ؛ وهو الأصح .

وتطهير البيت عام في الكفر والبدع وجميع الأنجاس والدماء .

(77/522)

وقيل : عنى به التطهير عن الأوثان ؛ كما قال تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] ؛ وذلك أن جُرْهُماً والعمالقة كانت لهم أصنام في محل البيت وحوله قبل أن يبنيه إبراهيم عليه السلام .

وقيل : المعنى نزّه بيتي عن أن يعبد فيه صنم .

وهذا أمر بإظهار التوحيد فيه .

وقد مضى ما للعلماء في تنزيه المسجد الحرام وغيره من المساجد بما فيه كفاية في سورة "براءة" .

والقائمون هم المصلون .

وذكر تعالى من أركان الصلاة أعظمها ، وهو القيام والركوع والسجود .

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي الناس بالحج ﴾ قرأ جمهور الناس "وأذِّن" بتشديد الذال .

وقرأ الحسن بن أبي الحسن وابن مُحَيْصِن "وآذن" بتخفيف الذال ومدّ الألف .

ابن عطية : وتصحّف هذا عَلَى ابنِ جِنّي ، فإنه حكى عنهما "وأذن" على أنه فعل ماض ، وأعرب عَلَى ذلك بأن جعله عطفاً على "بوّأنا" .

والأذان الإعلام ، وقد تقدّم في "براءة" .

الثانية : لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت ، وقيل له : أذّن في الناس بالحج ، قال : يا رب وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذّن وعليّ الإبلاغ ؛ فصعِد إبراهيم خليل الله جبل أبي قُبيس وصاح : يا أيها الناس ! إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة ويجيركم من عذاب النار ، فحُجّوا ؛ فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء : لَبَّيْكَ اللَّهُمّ لَبَّيْك ! فمن أجاب يومئذٍ حج على قدر الإجابة ، إن أجاب مرّةً فمرّة ، وإن أجاب مرتين فمرّتين ؛ وجرت التلبية على ذلك ؛ قاله ابن عباس وابن جبير .

وروي عن أبي الطُّفيل قال : قال لي ابن عباس : أتدري ما كان أصل التلبية ؟ قلت : لا !

قال : لما أُمِر إبراهيم عليه السلام أن يؤذّن في الناس بالحج خفضت الجبال رؤوسها ورُفعت له القرى ؛ فنادى في الناس بالحج فأجابه كل شيء : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْك .

وقيل : إن الخطاب لإبراهيم عليه السلام تمّ عند قوله "السجود" ، ثم خاطب الله عز وجل محمداً عليه الصلاة والسلام فقال : "وأذّن في الناس بالحج" ؛ أي أعلمهم أن عليهم الحج .

وقول ثالث : إن الخطاب من قوله "أن لا تشرك" مخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

وهذا قول أهل النظر ؛ لأن القرآن أنزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فكل ما فيه من المخاطبة فهي له إلا أن يدل دليل قاطع على غير ذلك .

وها هنا دليل آخر يدل على أن المخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو "أن لا تشرك بي" بالتاء ، وهذا مخاطبة لمشاهد ، وإبراهيم عليه السلام غائب ؛ فالمعنى على هذا : وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت فجعلنا لك الدلائل على توحيد الله تعالى وعلى أن إبراهيم كان يعبد الله وحده .

وقرأ جمهور الناس "بالحج" بفتح الحاء .

وقرأ ابن أبي إسحاق في كل القرآن بكسرها .

وقيل : إن نداء إبراهيم من جملة ما أُمِر به من شرائع الدين .

والله أعلم .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ وعده إجابة الناس إلى حج البيت ما بين راجل وراكب ، وإنما قال : "يأتوك" وإن كانوا يأتون الكعبة لأن المنادَى إبراهيم ، فمن أتى الكعبة حاجاً فكأنما أتى إبراهيم ؛ لأنه أجاب نداءه ، وفيه تشريف إبراهيم .

ابن عطية : "رجالاً" جمع راجل مثل تاجر وتجار ، وصاحب وصحاب .

وقيل : الرجال جمع رَجْل ، والرَّجْل جمع راجل ؛ مثل تجار وتجر وتاجر ، وصحاب وصحب وصاحب .

وقد يقال في الجمع : رُجّال ، بالتشديد ؛ مثل كافر وكفار .

وقرأ ابن أبي إسحاق وعكرمة "رُجَالا" بضم الراء وتخفيف الجيم ، وهو قليل في أبنية الجمع ، ورويت عن مجاهد .

(79/522)

وقرأ مجاهد "رُجَالَى" على وزن فُعَالَى ؛ فهو مثل كسالى .

قال النحاس : في جمع راجل خمسة أوجه ، رُجّال مثل رُكّاب ، وهو الذي روى عن عكرمة ، ورجال مثل قيام ، ورَجْلة ، ورَجْل ، ورَجّالة .

والذي روي عن مجاهد رُجَالاً غير معروف ، والأشبه به أن يكون غير منون مثل كُسالى وسُكارى ، ولو نُوِّن لكان على فُعالٍ ، وفُعَالٌ في الجمع قليل .

وقدّم الرجال على الرُّكبان في الذكر لزيادة تعبهم في المشي .

﴿ وعلى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ ﴾ لأن معنى "ضامر" معنى ضوامر .

قال الفراء : ويجوز "يأتي" على اللفظ .

والضامر : البعير المهزول الذي أتعبه السفر ؛ يقال : ضَمَرَ يَضْمُرُ ضُمُوراً ؛ فوصفها الله تعالى بالمآل الذي انتهت عليه إلى مكة .

وذكر سبب الضمور فقال : ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ أي أثّر فيها طول السفر .

وردّ الضمير إلى الإبل تكرمة لها لقصدها الحج مع أربابها ؛ كما قال : ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ [العاديات : 1] في خيل الجهاد تكرمة لها حين سعت في سبيل الله .

الرابعة : قال بعضهم : إنما قال "رجالا" لأن الغالب خروج الرجال إلى الحج دون الإناث ؛ فقوله : "رِجَالا" من قولك : هذا رجل ؛ وهذا فيه بعد ؛ لقوله : "وعلى كل ضامر" يعني الركبان ، فدخل فيه الرجال والنساء .

ولما قال تعالى : "رجالا" وبدأ بهم دل ذلك على أن حج الراجل أفضل من حج الراكب .

قال ابن عباس : ما آسَى على شيء فاتني إلا أن لا أكون حججتُ ماشياً ، فإني سمعت الله عز وجل يقول : "يأتوك رجالا" وقال ابن أبي نجِيح : حج إبراهيم وإسماعيل عليهما

السلام ماشيين .

وقرأ أصحاب ابن مسعود "يأتون" وهي قراءة ابن أبي عَبْلة والضحاك ، والضمير للناس .

الخامسة : لا خلاف في جواز الركوب والمشي ، واختلفوا في الأفضل منهما ؛ فذهب مالك والشافعي في آخرِين إلى أن الركوب أفضل ، اقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولكثرة النفقة ولتعظيم شعائر الحج بأهبة الركوب .

(80/522)

وذهب غيرهم إلى أن المشي أفضل لما فيه من المشقّة على النفس ، ولحديث أبي سعيد قال : حجّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة ، وقال : " ارْبطوا أوساطكم بأزُركم " ومشَى خِلْط الهَرْولَة ؛ خرّجه ابن ماجه في سننه .

ولا خلاف في أن الركوب عند مالك في المناسك كلّها أفضل ؛ للاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

السادسة : استدلّ بعض العلماء بسقوط ذكر البحر من هذه الآية على أن فرض الحج بالبحر ساقط .

قال مالك في المَوّازِيّة : لا أسمع للبحر ذكراً ، وهذا تأنس ، لا أنه يلزم من سقوط ذكره سقوط

الفرض فيه ؛ وذلك أن مكة ليست في ضِفّة بحر فيأتيها الناس في السفن ، ولا بد لمن ركب البحر أن يصير في إتيان مكة إما راجلاً وإما على ضامر ، فإنما ذكرت حالتا الوصول ؛ وإسقاط فرض الحج بمجرد البحر ليس بالكثير ولا بالقويّ .

فأما إذا اقترن به عدوٌّ وخوفٌ أو هَوْل شديد أو مرض يلْحَق شخصاً ، فمالكٌ والشافعيّ وجمهور الناس على سقوط الوجوب بهذه الأعذار ، وأنه ليس بسبيل يستطاع .

قال ابن عطية : وذكر صاحب الاستظهار في هذا المعنى كلاماً ، ظاهره أن الوجوب لا يسقط بشيء من هذه الأعذار ؛ وهذا ضعيف .

قلت : وأضعف من ضعيف ، وقد مضى في "البقرة" بيانه .

والفَجّ : الطريق الواسعة ، والجمع فجاج .

وقد مضى في "الأنبياء" .

والعميق معناه البعيد .

وقراءة الجماعة "يأتِين" .

وقرأ أصحاب عبد الله "يأتون" وهذا للركبان و"يأتِين" للجمال ؛ كأنه قال : وعلى إبل ضامرة يأتين ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ أي بعيد ؛ ومنه بئر عميقة أي بعيدة القعر ؛ ومنه :

وقاتِم الأعْماق خاوِي المخترَق . . .

السابعة : واختلفوا في الواصل إلى البيت ، هل يرفع يديه عند رؤيته أم لا ؛ فروى أبو داود

قال : سئل جابر بن عبد الله عن الرجل يرى البيت ويرفع يديه فقال : ما كنت أرى أن أحداً يفعل هذا إلا اليهود ، وقد حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نكن نفعله .

(81/522)

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ترفع الأيدي في سبعة مواطن افتتاح الصلاة واستقبال البيت والصّفَا والْمَرْوَة والموقفين والجمرتين " وإلى حديث ابن عباس هذا ذهب الثوريّ وابن المبارك وأحمد وإسحاق وضعفوا حديث جابر ؛ لأن مهاجراً المكيّ راويه مجهول .

وكان ابن عمر يرفع يديه عند رؤية البيت .

وعن ابن عباس مثله ؟ .

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)

فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ ﴾ أي أذّن بالحج يأتوك رجالاً وركباناً ليشهدوا ؛ أي

ليحضروا .

والشهود الحضور .

﴿ مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ أي المناسك ؛ كعرفات والمَشْعَر الحرام .

وقيل المغفرة .

وقيل التجارة : وقيل هو عموم ؛ أي ليحضروا منافع لهم ، أي ما يرضي الله تعالى من أمر الدنيا والآخرة ؛ قاله مجاهد وعطاء واختاره ابن العربي ؛ فإنه يجمع ذلك كله من نسك وتجارة ومغفرة ومنفعة دنيا وأخرى .

ولا خلاف في أن المراد بقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : 198] التجارة .

الثانية : ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ قد مضى في "البقرة" الكلام في الأيام المعلومات والمعدودات .

والمراد بذكر اسم الله ذكر التسمية عند الذبح والنحر ؛ مثل قولك : باسم الله والله أكبر ، اللهم منك ولك .

ومثل قولك عند الذبح ﴿ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي ﴾ [الأنعام : 162] الآية .

وكان الكفار يذبحون على أسماء أصنامهم ، فبيّن الرب أن الواجب الذبح على اسم الله ؛ وقد مضى في "الأنعام" .

الثالثة : واختلف العلماء في وقت الذبح يوم النحر ؛ فقال مالك رضي الله عنه : بعد صلاة الإمام وذبحه ؛ إلا أن يؤخر تأخيراً يتعدّى فيه فيسقط الاقتداء به .

وراعى أبو حنيفة الفراغ من الصلاة دون ذبح .

والشافعيّ دخول وقت الصلاة ومقدار ما توقع فيه مع الخطبتين ؛ فاعتبر الوقت دون الصلاة .

هذه رواية المُزَنِيّ عنه ، وهو قول الطبريّ .

وذكر الربيع عن البُوَيْطِيّ قال : قال الشافعيّ : ولا يذبح أحد حتى يذبح الإمام إلا أن يكون ممن لا يذبح ، فإذا صلى وفرغ من الخطبة حلّ الذبح .

وهذا كقول مالك .

وقال أحمد : إذا انصرف الإِمام فاذبح .

وهو قول إبراهيم .

وأصح هذه الأقوال قول مالك ؛ لحديث جابر بن عبد الله قال : صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر بالمدينة ، فتقدّم رجال ونحروا وظنُّوا أن النبيّ صلى الله عليه

وسلم قد نحر ، فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم من كان نحر أن يعيد بنحرٍ آخر ، ولا ينحروا حتى ينحر النبيّ صلى الله عليه وسلم .

خرجه مسلم والترمذيّ وقال : وفي الباب عن جابر وجُنْدَب وأنس وعُوَيْمر بن أشقر وابن عمر وأبي زيد الأنصاريّ ، وهذا حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم ألا يضحَّى بالمصر حتى يضحّي الإمام .

وقد احتج أبو حنيفة بحديث البَرَاء ، وفيه : "ومن ذبح بعد الصلاة فقد تَمّ نُسُكُه وأصاب سنة المسلمين" .

خرجه مسلم أيضاً .

فعلّق الذبح على الصلاة ولم يذكر الذبح ، وحديث جابر يقيّده .

وكذلك حديث البراء أيضاً ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا "

الحديث .

وقال أبو عمر بن عبد البر : لا أعلم خلافاً بين العلماء في من ذبح قبل الصلاة وكان من أهل المصر أنه غير مُضَحٍّ ؛ لقوله عليه السلام : " من ذبح قبل الصلاة فتلك شاة لحمٍ " .

(83/522)

الرابعة : وأما أهل البوادي ومن لا إمام له فمشهور مذهب مالك يتحرّى وقت ذبح الإمام ، أو أقرب الأئمة إليه .

وقال ربيعة وعطاء فيمن لا إمام له : إن ذبح قبل طلوع الشمس لم يجزه ، ويجزيه إن ذبح بعده .

وقال أهل الرأي : يجزيهم من بعد الفجر .

وهو قول ابن المبارك ، ذكره عنه الترمذيّ .

وتمسكوا بقوله تعالى : ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ ، فأضاف النحر إلى اليوم .

وهل اليوم من طلوع الفجر أو من طلوع الشمس ، قولان .

ولا خلاف أنه لا يجزي ذبح الأضحيّة قبل طلوع الفجر من يوم النحر .

الخامسة : واختلفوا كم أيام النحر ؟ فقال مالك : ثلاثة ، يوم النحر ويومان بعده .

وبه قال أبو حنيفة والثوريّ وأحمد بن حنبل ، وروي ذلك عن أبي هريرة وأنس بن مالك من غير اختلاف عنهما .

وقال الشافعيّ : أربعة ، يوم النحر وثلاثة بعده .

وبه قال الأوزاعيّ ، وروي ذلك عن عليّ رضي الله عنه وابن عباس وابن عمر رضي الله

عنهم ، وروي عنهم أيضاً مثل قول مالك وأحمد .

وقيل : هو يوم النحر خاصة وهو العاشر من ذي الحجة ؛ وروي عن ابن سِيرين .

وعن سعيد بن جُبير وجابر بن زيد أنهما قالا : النحر في الأمصار يوم واحد وفي منًى ثلاثة أيام .

وعن الحسن البصريّ في ذلك ثلاث روايات : إحداها كما قال مالك ، والثانية كما قال الشافعيّ ، والثالثة إلى آخر يوم من ذي الحجة ؛ فإذا أهل هلال المحرم فلا أَضْحَى .

قلت : وهو قول سليمان بن يسار وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، ورويا حديثاً مرسلاً مرفوعاً خرجه الدّارَقُطْنِيّ : الضحايا إلى هلال ذي الحجة ؛ ولم يصح ، ودليلنا قوله تعالى : ﴿ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ الآية ، وهذا جمع قِلة ؛ لكن المتيقن منه الثلاثة ، وما بعد الثلاثة غير متيقن فلا يعمل به .

(84/522)

قال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على أن يوم النحر يوم أَضْحَى ، وأجمعوا أن لا أضحى بعد انسلاخ ذي الحجة ، ولا يصح عندي في هذا إلا قولان : أحدهما : قول مالك والكوفيين .

والآخر : قول الشافعيّ والشاميين ؛ وهذان القولان مرويان عن الصحابة فلا معنى للاشتغال بما خالفهما ؛ لأن ما خالفهما لا أصل له في السنة ولا في قول الصحابة ، وما خرج عن هذين فمتروك لهما .

وقد روي عن قتادة قول سادس ، وهو أن الأضحى يوم النحر وستة أيام بعده ؛ وهذا أيضاً خارج عن قول الصحابة فلا معنى له .

السادسة : واختلفوا في ليالي النحر هل تدخل مع الأيام فيجوز فيها الذبح أوّلا ؛ فروي عن مالك في المشهور أنها لا تدخل فلا يجوز الذبح بالليل .

وعليه جمهور أصحابه وأصحاب الرأي ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ ﴾ فذَكَرَ الأيامَ ، وذِكرُ الأيامِ دليل على أن الذبح في الليل لا يجوز .

وقال أبو حنيفة والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبو ثور : الليالي داخلة في الأيام ويجزي الذبح فيها .

وروي عن مالك وأشهب نحوه ، ولأشهب تفريق بين الهَدْي والضحِية ، فأجاز الهَدْيَ ليلاً ولم يُجزِ الضحية ليلاً .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ على مَا رَزَقَهُمْ ﴾ أي على ذبح ما رزقهم .

﴿ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ والأنعام هنا الإبل والبقر والغنم .

وبهيمة الأنعام هي الأنعام ؛ فهو كقولك صلاة الأولى ، ومسجد الجامع .

الثامنة : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ أمرٌ معناه الندب عند الجمهور .

ويستحب للرجل أن يأكل من هَدْيه وأضْحِيّته وأن يتصدق بالأكثر ، مع تجويزهم الصدقة بالكل وأكل الكل .

وشذّت طائفة فأوجبت الأكل والإطعام بظاهر الآية ، ولقوله عليه السلام : " فكلوا وادّخروا وتصدّقوا " قال الكِيَا : قوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ﴾ يدل على أنه لا يجوز بيع جميعه ولا التصدق بجميعه .

التاسعة : دماء الكفارات لا يأكل منها أصحابها .

(85/522)

ومشهور مذهب مالك رضي الله عنه أنه لا يأكل من ثلاث : جزاء الصيد ، ونذر المساكين وفِدْية الأذى ، ويأكل مما سوى ذلك إذا بلغ مَحِلّه ، واجباً كان أو تطوعاً .

ووافقه على ذلك جماعة من السلف وفقهاء الأمصار .

العاشرة : فإن أكل مما منع منه فهل يَغْرَم قدر ما أكل أو يغرم هَدْياً كاملاً ؛ قولان في مذهبنا ، وبالأول قال ابن الماجِشون .

قال ابن العربي : وهو الحق ، لا شيء عليه غيره .

وكذلك لو نذر هَدْياً للمساكين فيأكل منه بعد أن بلغ مَحِلّه لا يَغْرَم إلا ما أكل خلافاً للمدوّنة لأن النحر قد وقع ، والتعدّي إنما هو على اللحم ، فيغرم قدر ما تعدّى فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ يدل على وجوب إخراج النذر إن كان دَماً أو هَدْياً أو غيره ، ويدل ذلك على أن النذر لا يجوز أن يأكل منه وفاء بالنذر ، وكذلك جزاء الصيد وفِدية الأذى ؛ لأن المطلوب أن يأتي به كاملا من غير نقص لحم ولا غيره ، فإن أكل من ذلك كان عليه هَدْيٌ كامل .

والله أعلم .

الحادية عشرة : هل يَغْرَم قيمة اللحم أو يغرم طعاماً ؛ ففي كتاب محمد عن عبد الملك أنه يغرم طعاماً .

والأول أصح ؛ لأن الطعام إنما هو في مقابلة الهدْي كله عند تعذره عبادة ، وليس حكم التعدي حكم العبادة .

الثانية عشرة : فإن عَطِب من هذا الهَدْي المضمونِ الذي هو جزاء الصيد وفِدية الأَذَى ونذر المساكين شيء قبل مَحِلّه أكل منه صاحبه وأطعم منه الأغنياء والفقراء ومن أحب ، ولا يبيع من لحمه ولا جلده ولا من قلائده شيئاً .

قال إسماعيل بن إسحاق : لأن الهدي المضمون إذا عَطِب قبل أن يبلغ مَحلّه كان عليه بدله ، لذلك جاز أن يأكل منه صاحبه ويطعم .

فإذا عطِب الهدي التطوع قبل أن يبلغ محله لم يجز أن يأكل منه ولا يُطعِم ؛ لأنه لما لم يكن عليه بدله خيف أن يفعل ذلك بالهَدْي وينحر من غير أن يعطَب ، فاحتيط على الناس ، وبذلك مضى العمل .

(86/522)

وروى أبو داود " عن ناجية الأسلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معه بهَدْي وقال : "إن عطِب منها شيء فانحره ثم اصبغ نعله في دمه ثم خلّ بينه وبين الناس" " وبهذا الحديث قال مالك والشافعيّ في أحد قوليه ، وأحمد وإسحاق وأبو ثَوْر وأصحاب الرأي ومن اتبعهم في الهدي التطوع : لا يأكل منها سائقها شيئاً ، ويخلّي بينها وبين الناس يأكلونها . وفي صحيح مسلم : " ولا تأكل منها ولا أحد من أهل رفقتك " وبظاهر هذا النهي قال ابن عباس والشافعيّ في قوله الآخر ، واختاره ابن المنذر ، فقالا : لا يأكل منها سائقها ولا أحد من أهل رفقته .

قال أبو عمر : قوله عليه السلام : " ولا تأكل منها أنت ولا أحد من أهل رفقتك " لا يوجد إلا في حديث ابن عباس .

وليس ذلك في حديث هشام بن عروة عن أبيه عن ناجية .

وهو عندنا أصح من حديث ابن عباس ، وعليه العمل عند الفقهاء .

ويدخل في قوله عليه السلام : "خلّ بينها وبين الناس" أهلُ رفقته وغيرُهم .

وقال الشافعيّ وأبو ثور : ما كان من الهَدْي أصله واجباً فلا يأكل منه ، وما كان تطوعاً ونسكاً أكل منه وأهدى وادّخر وتصدّق .

والمتعة والقِران عنده نسك .

ونحوه مذهب الأوزاعيّ .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : يأكل من هَدْي المتعة والتطوّع ، ولا يأكل مما سوى ذلك مما وجب بحكم الإحرام .

وحكي عن مالك : لا يأكل من دم الفساد .

وعلى قياس هذا لا يأكل من دم الجبر ؛ كقول الشافعيّ والأوزاعيّ .

تمسّك مالك بأن جزاء الصيد جعله الله للمساكين بقوله تعالى : ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ﴾ [المائدة : 95] .

وقال في فِدْية الأذَى : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة : 196] .

(87/522)

وقال صلى الله عليه وسلم لكعب بن عُجْرة : " أطعم ستة مساكين مُدّين لكل مسكين أو صُمْ ثلاثة أيام أو انْسك شاة " ونذر المساكين مصرّح به ، وأما غير ذلك من الهدايا فهو باق على أصل قوله : ﴿ والبُدْنَ جعلناها لكم مِن شعائِرِ اللَّهِ إلى قوله فكلوا منها ﴾ .

وقد : أكل النبّي صلى الله عليه وسلم وعلّي رضي الله عنه من الهدي الذي جاء به وشَرِبا من مَرَقه ، وكان عليه السلام قارِناً في أصح الأقوال والروايات ؛ فكان هديه على هذا واجباً ، فما تعلق به أبو حنيفة غير صحيح .

والله أعلم .

وإنما أذن الله سبحانه من الأكل من الهدايا لأجل أن العرب كانت لا ترى أن تأكل من نسكها ، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بمخالفتهم ؛ فلا جَرَم كذلك شَرَع وبلّغ ، وكذلك فعل حين أهدى وأحرم صلى الله عليه وسلم .

الثالثة عشرة : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ قال بعض العلماء : قوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ ناسخ لفعلهم ؛ لأنهم كانوا يحرّمون لحوم الضحايا على أنفسهم ولا يأكلون منها كما قلناه في الهدايا فنسخ الله ذلك بقوله : "فكلوا مِنها" ، وبقول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من ضحّى فليأكل من أضحيّته " ولأنه عليه السلام أكل من أضحيّته وهديه .

وقال الزهريّ : من السنة أن تأكل أوّلاً من الكبِد .

الرابعة عشرة : ذهب أكثر العلماء إلى أنه يستحب أن يتصدّق بالثلث ويطعِم الثلث ويأكل

هو وأهله الثلث .

وقال ابن القاسم عن مالك : ليس عندنا في الضحايا قسم معلوم موصوف .

قال مالك في حديثه : وبلغني عن ابن مسعود ، وليس عليه العمل .

روى الصحيح وأبو داود قال : " ضحّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة ثم قال : "يا ثَوْبان ، أصلح لحم هذه الشاة"قال : فما زلت أطعمه منها حتى قدم المدينة " وهذا نص في الغرض .

واختلف قول الشافعيّ ؛ فمرّة قال : يأكل النصف ويتصدّق بالنصف لقوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ البآئس الفقير ﴾ فذكر شخصين .

(88/522)

وقال مرة : يأكل ثلثاً ويهدي ثلثاً ويطعم ثلثاً ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ القانع والمعتر ﴾ [الحج : 36] فذكر ثلاثة .

الخامسة عشرة : المسافر يخاطب بالأضحيّة كما يخاطب بها الحاضر ؛ إذ الأصل عموم الخطاب بها ، وهو قول كافة العلماء .

وخالف في ذلك أبو حنيفة والنَّخَعيّ ، وروي عن عليّ ؛ والحديث حجة عليهم .

واستثنى مالكٌ من المسافرين الحاج بمنًى ، فلم ير عليه أضحية ؛ وبه قال النخعِيّ .

وروي ذلك عن الخليفتين أبي بكر وعمر وجماعة من السلف رضي الله عنهم ؛ لأن الحاج إنما هو مخاطب في الأصل بالهَدْي ، فإذا أراد أن يضحي جعله هدياً ، والناس غير الحاج إنما أمروا بالأضحية ليتشبهوا بأهل منًى فيحصل لهم حظ من أجرهم .

السادسة عشرة : اختلف العلماء في الادخار على أربعة أقوال .

روي عن عليّ وابن عمر رضي الله عنهما من وجه صحيح أنه لا يدّخر من الضحايا بعد ثلاثٍ .

ورويا ه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وسيأتي .

وقالت جماعة : ما روي من النهي عن الادخار منسوخ ؛ فيدّخر إلى أي وقت أحبّ .

وبه قال أبو سعيد الخُدْري وبُريدة الأسلمي .

وقالت فرقة : يجوز الأكل منها مطلقاً .

وقالت طائفة : إن كانت بالناس حاجة إليها فلا يدّخر ؛ لأن النهي إنما كان لعلة وهي قوله عليه السلام : " إنما نهيتكم من أجل الدّافة التي دفّت " ولما ارتفعت ارتفع المنع المتقدّم لارتفاع موجِبه ، لا لأنه منسوخ .

وتنشأ هنا مسألة أصولية وهي :

السابعة عشرة : وهي الفرق بين رفع الحكم بالنسخ ورفعه لارتفاع علّته .

اعلم أن المرفوع بالنسخ لا يُحكم به أبداً ، والمرفوع لارتفاع علّته يعود الحكم لعَوْد العلة ؛ فلو قدم على أهل بلدة ناس محتاجون في زمان الأَضْحى ؛ ولم يكن عند أهل ذلك البلد سَعة يسدّون بها فاقتهم إلا الضحايا لتعيّن عليهم ألا يدّخروها فوق ثلاث كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(89/522)

الثامنة عشرة : الأحاديث الواردة في هذا الباب بالمنع والإباحة صحاح ثابتة .

وقد جاء المنع والإباحة معاً ؛ كما هو منصوص في حديث عائشة وسَلَمة بن الأَكْوَع وأبي سعيد الخُدْريّ رواها الصحيح .

وروى الصحيح عن أبي عبيد مَوْلَى ابن أزهر أنه شهد العيد مع عمر بن الخطاب قال : ثم صليت العيد مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ قال : فصلّى لنا قبل الخطبة ثم خطب الناس فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهاكم أن تأكلوا لحوم نسككم فوق ثلاث ليالٍ فلا تأكلوها .

وروي عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى أن تؤكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث .

قال سالم : فكان ابن عمر لا يأكل لحوم الأضاحي فوث ثلاث .

وروى أبو داود عن نُبيشة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنا كنا نهيناكم عن لحومها فوق ثلاث لكي تَسَعكم جاء الله بالسَّعة فكلوا وادّخروا وأْتَجِروا ألا وإن هذه الأيام أيامُ أكل وشرب وذكرٍ لله عز وجل " قال أبو جعفر النحاس : وهذا القول أحسن ما قيل في هذا حتى تتفق الأحاديث ولا تتضادّ ، ويكون قول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وعثمانُ محصور ؛ لأن الناس كانوا في شدّة محتاجين ، ففعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمت الدافّة .

والدليل على هذا ما حدّثنا إبراهيم بن شريك قال : حدّثنا أحمد قال : حدّثنا ليث قال : حدّثني الحارث بن يعقوب " عن يزيد بن أبي يزيد عن امرأته أنها سألت عائشة رضي الله عنها عن لحوم الأضاحي فقالت : قدم علينا عليّ بن أبي طالب من سفر فقدّمنا إليه منه ، فأبى أن يأكل حتى يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله فقال : "كُلْ من ذي الحجة إلى ذي الحجة" " وقال الشافعيّ : من قال بالنهي عن الادّخار بعد ثلاث لم يسمع الرخصة .

ومن قال بالرخصة مطلقاً لم يسمع النهي عن الادّخار .

ومن قال بالنهي والرخصة سمعهما جميعاً فعمِل بمقتضاهما .

والله أعلم .

وسيأتي في سورة "الكوثر" الاختلافُ في وجوب الأضحيّة وندبيّتها وأنها ناسخة لكل ذبح تقدّم، إن شاء الله تعالى.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿ وَأَطْعِمُواْ البَآئِسَ الفقير ﴾ "الفقِير" من صفة البائس، وهو الذي ناله البؤس وشدّة الفقر؛ يقال: بَئِس يبأس بأساً إذا افتقر؛ فهو بائس.

وقد يستعمل فيمن نزلت به نازلةُ دهرٍ وإن لم يكن فقيراً؛ ومنه قوله عليه السلام: "لكن البائس سعد بن خَوْلة" ويقال: رجل بَئِيسٌ أي شديد.

وقد بَأُسَ يبْؤس بأساً إذا اشتدّ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ [الأعراف: 165] أي شديد.

وكلما كان التصدق بلحم الأضحيّة أكثر كان الأجر أوْفر.

وفي القدر الذي يجوز أكله خلاف قد ذكرناه؛ فقيل النصف؛ لقوله: "فكُلُوا، وأطعِموا" وقيل الثلثان؛ لقوله: "ألاَ فكُلُوا وادّخروا وأْتَجِروا" أي اطلبوا الأجر بالإطعام.

واختلف في الأكل والإطعام؛ فقيل واجبان.

وقيل مستحبان.

وقيل بالفرق بين الأكل والإطعام؛ فالأكل مستحب والإطعام واجب؛ وهو قول الشافعيّ.

الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ أي ثم ليقضوا بعد نحر الضحايا والهدايا ما بقي عليهم من أمر الحج؛ كالحَلْق ورَمْي الجمار وإزالة شَعث ونحوه.

قال ابن عرفة: أي ليزيلوا عنهم أدرانهم.

وقال الأزهريّ: التَّفَث الأخذ من الشارب وقص الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة؛ وهذا عند الخروج من الإِحرام.

وقال النضر بن شُميل: التفث في كلام العرب إذهاب الشَّعَث، وسمعت الأزهري يقول: التفث في كلام العرب لا يعرف إلا من قول ابن عباس وأهل التفسير.

وقال الحسن: هو إزالة قشف الإحرام.

وقيل: التفث مناسك الحج كلّها؛ رواه ابن عمر وابن عباس.

(91/522)

قال ابن العربيّ: لو صح عنهما لكان حجة لشرف الصحبة والإِحاطة باللغة، قال: وهذه اللفظة غريبة لم يجد أهل العربية فيها شعراً ولا أحاطوا بها خبراً؛ لكني تتبعت التفث لغةً فرأيت أبا عبيدة مَعْمر بن المُثَنَّى قال: إنه قص الأظفار وأخذ الشارب وكل ما يَحْرُم على

المحرِم إلا النكاح.

قال: ولم يجيء فيه شعر يُحتج به.

وقال صاحب العين: التفث هو الرمي والحلق والتقصير والذبح وقص الأظفار والشارب والإِبط.

وذكر الزجاج والفرّاء نحوه، ولا أراه أخذوه إلا من قول العلماء.

وقال قُطْرُب: تفثَ الرجل إذا كثر وسخه.

قال أميّة بن أبي الصَّلْت:

حَفُّوا رؤوسهمُ لم يحلِقوا تَفَثاً . . .

ولم يَسُلُّوا لهم قَمْلاً وصِئْبانا

وما أشار إليه قُطْرب هو الذي قاله ابن وهب عن مالك، وهو الصحيح في التفث.

وهذه صورة إلقاء التفث لغة، وأما حقيقته الشرعية فإذا نحر الحاج أو المُعْتَمِر هَدْيه وحلق رأسه وأزال وسخه وتطهر وتنقَّى ولبس فقد أزال تفثه ووفَّى نذره؛ والنذر ما لزم الإنسان والتزمه.

قلت: ما حكاه عن قُطْرب وذكر من الشعر قد ذكره في تفسيره الماورديّ، وذكر بيتاً آخر فقال:

قَضَوْا تَفَثاً ونَحْباً ثم ساروا . . .

إلى نَجْدٍ وما انتظروا عِلِيّا

وقال الثعلبيّ : وأصل التفث في اللغة الوسخ ؛ تقول العرب للرجل تستقذره : ما أتفثك ؛ أي ما أوسخك وأقذرك .

قال أمية بن أبي الصلت :

ساخّين آباطهم لم يقذفوا تفثاً . . .

وينزعوا عنهمُ قَمْلاً وصِئْبانا

الماورديّ : قيل لبعض الصلحاء ما المعنِيّ في شعث المحرِم ؟ قال : ليشهد الله تعالى منك الإعراض عن العناية بنفسك فيعلم صدقك في بذلها لطاعته .

(92/522)

الحادية والعشرون : ﴿ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ أمِروا بوفاء النذر مطلقاً إلا ما كان معصية ؛ لقوله عليه السلام : " لا وفاء لنذر في معصية الله " ، وقوله : " من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه " ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق ﴾ الطواف المذكور في هذه الآية هو طواف الإفاضة الذي هو من واجبات الحج .

قال الطبريّ : لا خلاف بين المتأوّلين في ذلك .

الثانية والعشرون : للحج ثلاثة أطواف : طواف القُدوم ، وطواف الإفاضة ، وطواف الوَداع .

قال إسماعيل بن إسحاق : طواف القدوم سُنّة ، وهو ساقط عن المراهق وعن المكيّ وعن كل من يُحرِم بالحج من مكة .

قال : والطواف الواجب الذي لا يسقط بوجه من الوجوه ، وهو طواف الإفاضة الذي يكون بعد عَرَفة ؛ قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ .

قال : فهذا هو الطواف المفترض في كتاب الله عز وجل ، وهو الذي يحل به الحاج من إحرامه كله .

قال الحافظ أبو عمر : ما ذكره إسماعيل في طواف الإفاضة هو قول مالك عند أهل المدينة ، وهي رواية ابن وهب وابن نافع وأشهب عنه .

وهو قول جمهور أهل العلم من فقهاء أهل الحجاز والعراق .

وقد روى ابن القاسم وابن عبد الحكم عن مالك أن طواف القدوم واجب .

وقال ابن القاسم في غير موضع من المدوّنة ورواه أيضاً عن مالك : الطواف الواجب طواف القادم مكة .

وقال : من نسي الطواف في حين دخوله مكة أو نسي شوطاً منه ، أو نسي السّعْي أو شوطاً

منه حتى رجع إلى بلده ثم ذكره ، فإن لم يكن أصاب النساء رجع إلى مكة حتى يطوف بالبيت ويركع ويسعى بين الصفا والمروة ، ثم يُهْدِي .

وإن أصاب النساء رجع فطاف وسَعَى ، ثم اعتمر وأهدى .

وهذا كقوله فيمن نسي طواف الإفاضة سواء .

فعلى هذه الرواية الطوافان جميعاً واجبان ، والسّعْيُ أيضاً .

(93/522)

وأما طواف الصَّدَر وهو المسمى بطواف الوداع فروى ابن القاسم وغيره عن مالك فيمن طاف طواف الإفاضة على غير وضوء : أنه يرجع من بلده فيفيض إلا أن يكون تطوّع بعد ذلك .

وهذا مما أجمع عليه مالك وأصحابه ، وأنه يجزيه تطوعه عن الواجب المفترض عليه من طوافه .

وكذلك أجمعوا أن من فعل في حجه شيئاً تطوّع به من عمل الحج ، وذلك الشيء واجب في الحج قد جاز وقته ، فإن تطوُّعَه ذلك يصير للواجب لا للتطوع ؛ بخلاف الصلاة .

فإذا كان التطوّع ينوب عن الفرض في الحج كان الطواف لدخول مكة أحْرَى أن ينوب عن

طواف الإفاضة ، إلا ما كان من الطواف بعد رَمْي جمرة العَقَبة يوم النحر أو بعده للوداع .

ورواية ابن عبد الحكم عن مالك بخلاف ذلك ؛ لأن فيها أن طواف الدخول مع السعي ينوب عن طواف الإفاضة لمن رجع إلى بلده مع الهَدْي ، كما ينوب طواف الإفاضة مع السعي لمن لم يَطُف ولم يَسْعَ حين دخوله مكة مع الهدي أيضاً عن طواف القدوم .

ومن قال هذا قال : إنما قيل لطواف الدخول واجب ولطواف الإفاضة واجب لأن بعضهما ينوب عن بعض ، ولأنه قد روي عن مالك أنه يرجع من نسي أحدهما من بلده على ما ذكرنا ، ولأن الله عز وجل لم يفترض على الحاج إلا طوافاً واحداً بقوله : ﴿ وَأَذِّن فِي الناس بالحج ﴾ ، وقال في سياق الآية : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق ﴾ والواو عندهم في هذه الآية وغيرها لا توجب رتبة إلا بتوقيف .

وأسند الطبريّ عن عمرو بن أبي سلمة قال : سألت زهيراً عن قوله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق ﴾ فقال : هو طواف الوداع .

وهذا يدل على أنه واجب ، وهو أحد قولي الشافعيّ ؛ لأنه عليه السلام رخصّ للحائض أن تَنْفِر دون أن تطوفه ، ولا يرخَّص إلا في الواجب .

الثالثة والعشرون : اختلف المتأوّلون في وجه صفة البيت بالعتيق ؛ فقال مجاهد والحسن : العتيق القديم .

يقال : سيف عتيق ، وقد عَتُق أي قَدُم ؛ وهذا قول يَعْضُده النظر .

وفي الصحيح : " أنه أوّل مسجد وُضع في الأرض " وقيل عتيقاً لأن الله أعتقه من أن يتسلّط عليه جبار بالهوان إلى انقضاء الزمان ؛ قال معناه ابن الزبير ومجاهد .

وفي الترمذيّ عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما سُمِّيَ البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار " قال : هذا حديث حسن صحيح ، وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرسلاً .

فإن ذكر ذاكر الحجّاجَ بن يوسف ونَصبه المَنْجَنِيق على الكعبة حتى كسرها .

قيل له : إنما أعتقها عن كفار الجبابرة ؛ لأنهم إذا أَتَوْا بأنفسهم متمردين ولحرمة البيت غير معتقدين ، وقصدوا الكعبة بالسوء فعُصِمت منهم ولم تنلها أيديهم ، كان ذلك دلالة على أن الله عز وجل صرفهم عنها قسراً .

فأما المسلمون الذين اعتقدوا حرمتها فإنهم إن كَفُّوا عنها لم يكن في ذلك من الدلالة على منزلتها عند الله مثل ما يكون منها في كف الأعداء ؛ فقصر الله تعالى هذه الطائفة عن الكف بالنهي والوعيد ، ولم يتجاوزه إلى الصرف بالإلجاء والاضطرار ، وجعل الساعة موعدهم ، والساعة أدْهَى وأَمَرّ .

وقالت طائفة : سُمِّيَ عتيقاً لأنه لم يُمْلَك موضعه قطّ .

وقالت فرقة : سمي عتيقاً لأن الله عز وجل يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب .

وقيل : سمي عتيقاً لأنه أعتِق من غرق الطوفان ؛ قاله ابن جُبير .

وقيل : العتيق الكريم .

والعتق الكرم .

قال طَرَفَة يصف أذن الفرس :

مُؤَلَّلَتَان تَعْرِف العِتْقَ فيهما . . .

كسامِعَتَيْ مذعورة وسط رَبْرَبِ

وعِتْقُ الرقيقِ : الخروج من ذُلِّ الرق إلى كرم الحرية .

ويحتمل أن يكون العتيق صفة مدح تقتضي جودة الشيء ؛ كما قال عمر : حملت على فرس عتيق ؛ الحديث .

والقول الأول أصح للنظر والحديث الصحيح .

قال مجاهد : خلق الله البيت قبل الأرض بألفي عام ، وسمي عتيقاً لهذا ؛ والله أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(95/522)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تعالى حال الكفار وصدهم عن المسجد الحرام وتوعد فيه من أراد فيه بإلحاد ذكر حال أبيهم إبراهيم وتوبيخهم على سلوكهم غير طريقه من كفرهم باتخاذ الأصنام وامتنانه عليهم بإنفاد العالم إليهم .

﴿ وإذ بوّأنا ﴾ أي واذكر ﴿ إذ بوّأنا ﴾ أي جعلنا ﴿ لإبراهيم مكان البيت ﴾ مباءة أي مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة .

قيل : واللام زائدة أي بوّأنا إبراهيم مكان البيت أي جعلنا يبوء إليه كقوله ﴿ لنبوّأنهم من الجنة غرفاً ﴾ وقال الشاعر :

كم صاحب لي صالح . . .

بوّأته بيدي لحدا

وقيل : مفعول ﴿ بوّأنا ﴾ محذوف تقديره بوّأنا الناس ، واللام في ﴿ لإبراهيم ﴾ لام العلة أي لأجل إبراهيم كرامة له وعلى يديه .

والظاهر أن قوله ﴿ أن لا تشرك بي شيئاً ﴾ خطاب لإبراهيم وكذا ما بعده من الأمر .

وقيل : هو خطاب لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وأن ﴾ مخففة من الثقيلة قاله ابن عطية ، والأصل أن يليها فعل تحقيق أو ترجيح كحالها إذا كانت مشددة أو حرف

تفسير .

قاله الزمخشري وابن عطية وشرطها أن يتقدمها جملة في معنى القول و ﴿ بوّأنا ﴾ ليس فيه معنى القول ، والأولى عندي أن تكون ﴿ أن ﴾ الناصبة للمضارع إذ يليها الفعل المتصرف من ماض ومضارع وأمر النهي كالأمر .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيراً للتبوئة ؟ قلت : كانت التبوئة مقصودة من أجل العبادة ، فكأنه قيل تعبدنا إبراهيم قلنا له ﴿ لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي ﴾ من الأصنام والأوثان والأقذار أن تطرح حوله .

وقرأ عكرمة وأبو نهيك : أن لايشرك بالياء على معنى أن يقول معنى القول الذي قيل له .

قال أبو حاتم : ولا بد من نصب الكاف على هذه القراءة بمعنى أن ﴿ لا تشرك ﴾ .

والقائمون هم المصلون ذكر من أركانها أعظمها وهو القيام والركوع والسجود .

وقرأ الجمهور ﴿ وأذّن ﴾ بالتشديد أي ناد .

(96/522)

روي أنه صعد أبا قبيس فقال : يا أيها الناس حجوا بيت ربكم وتقدم قول من قال إنه خطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وقاله الحسن قال : أمر أن يفعل ذلك في حجة

الوداع .

وقرأ الحسن وابن محيصن وآذن بمدة وتخفيف الذال .

قال ابن عطية : وتصحف هذا على ابن جني فإنه حكى عنهما ﴿ وأذن ﴾ على فعل ماض ، وأعرب على ذلك بأن جعله عطفاً على ﴿ بوّأنا ﴾ انتهى .

وليس بتصحيف بل قد حكى أبو عبد الله الحسين بن خالويه في شواذ القراءات من جمعه .

وصاحب اللوامح أبو الفضل الرازي ذلك عن الحسن وأبن محيصن .

قال صاحب اللوامح : وهو عطف على ﴿ وإذ بوّأنا ﴾ فيصير في الكلام تقديم وتأخير ، ويصير ﴿ يأتوك ﴾ جزماً على جواب الأمر الذي هو ﴿ وطهر ﴾ انتهى .

وقرأ ابن أبي إسحاق ﴿ بالحج ﴾ بكسر الحاء حيث وقع الجمهور بفتحها .

وقرأ الجمهور ﴿ رجالاً ﴾ وابن أبي إسحاق بضم الراء والتخفيف ، وروي كذلك عن عكرمة والحسن وأبي مجلز ، وهو اسم جمع كظؤار وروي عنهم وعن ابن عباس ومجاهد وجعفر بن محمد بضم الراء وتشديد الجيم .

وعن عكرمة أيضاً رجالى على وزن النعامى بألف التأنيث المقصورة ، وكذلك مع تشديد الجيم عن ابن عباس وعطاء وابن حدير ، ورجال جمع راجل كتاجر وتجار .

وقرأ الجمهور ﴿ يأتين ﴾ فالظاهر عود الضمير ﴿ على كل ضامر ﴾ لأن الغالب أن البلاد الشاسعة لا يتوصل منها إلى مكة بالركوب ، وقد يجوز أن يكون الضمير يشمل ﴿

رجالاً ﴾ و﴿ كل ضامر ﴾ على معنى الجماعات والرفاق .

وقرأ عبد الله وأصحابه والضحاك وابن أبي عبلة يأتون غلب العقلاء الذكور في البداءة برجال تفضيلاً للمشاة إلى الحج .

(97/522)

وعن ابن عباس : ما آسى على شيء فاتني أن لا أكون حججت ماشياً ، والاستدلال بقوله ﴿ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر ﴾ على سقوط فرض الحج على من يركب البحر ولا طريق له سواه ، لكونه لم يذكر في هذه الآية ضعيف لأن مكة ليست على بحر ، وإنما يتوصل إليها على إحدى هاتين الحالتين مشي أو ركوب ، فذكر تعالى ما يتوصل به إليها .

وقرأ ابن مسعود فج معيق .

قال ابن عباس وغيره من المنافع التجارة .

وقال الباقر : الأجر .

وقال مجاهد وعطاء كلاهما ، واختاره ابن العربي .

قال الزمخشري : ونكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنياوية لا توجد في غيرها من العبادات .

وعن أبي حنيفة أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج ، فلما حج فضَّل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص ، وكنى عن النحر والذبح بذكر اسم الله لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا ، وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله أن يذكر اسمه وقد حسن الكلام تحسيناً بيِّناً أن جمع بين قوله ليذكروا اسم الله عليه .

وقوله ﴿ على ما رزقهم ﴾ ولو قيل لينحروا ﴿ في أيام معلومات ﴾ ﴿ بهيمة الأنعام ﴾ لم تر شيئاً من ذلك الحسن والروعة انتهى .

واستدل من قال أن المقصود بذكر اسم الله هو على الذبح والنحر على أن الذبح لا يكون بالليل ولا يجوز فيه لقوله ﴿ في أيام ﴾ وهو مذهب مالك وأصحاب الرأي .

وقيل : الذكر هنا حمده وتقديسه شكراً على نعمته في الرزق ويؤيده قوله عليه السلام : " أنها أيام أكل وشرب " وذكر اسم الله والأيام المعلومات أيام العشر قاله ابن عباس والحسن وإبراهيم وقتادة وأبو حنيفة ، والمعدودات أيام التشريق الثلاثة .

(98/522)

وقالت فرقة منهم مالك وأصحابه : المعلومات يوم النحر ويومان بعده ، والمعدودات أيام التشريق الثلاثة ، فيوم النحر معلوم لا معدود واليومان بعده معلومان معدودان ، والرابع معدود لا معلوم ويوم النحر ويومان بعده هي أيام النحر عند عليّ وابن عباس وابن عمر وأنس وأبي هريرة وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وأبي حنيفة والثوري ، وعند الحسن وعطاء والشافعي ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، وعند النخعي النحر يومان ، وعند ابن سيرين النحر يوم واحد ، وعن أبي سلمة وسليمان بن يسار الأضحى إلى هلال المحرم .

وقال ابن عطية : ويظهر أن تكون المعلومات والمعدودات بمعنى أن تلك الأيام الفاضلة كلها ، ويبقى أمر الذبح وأمر الاستعجال لا يتعلق بمعدود ولا معلوم ، ويكون فائدة قوله ﴿ معلومات ﴾ ومعدودات التحريض على هذه الأيام وعلى اغتنام فضلها أي ليست كغيرها فكأنه قال هي مخصوصات فلتغتنم انتهى .

والبهيمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر ، فبينت بالأنعام وهي الإبل والبقر والضأن والمعز وتقدم الخلاف في مدلول ﴿ بهيمة الأنعام ﴾ في أول المائدة ، والظاهر وجوب الأكل والإطعام .

وقيل : باستحبابهما .

وقيل : باستحباب الأكل ووجوب الإطعام .

و ﴿ البائس ﴾ الذي أصابه بؤس أي شدة .

والتفث : ما يصنعه المحرم عند حله من تقصير شعر وحلقه وإزالة شعثه ونحوه من إقامة الخمس من الفطرة حسب الحديث ، وفي ضمن ذلك قضاء جميع مناسكه إذ لا يقضي التفث إلاّ بعد ذلك .

وقال ابن عمر : التفث ما عليهم من الحج وعنه المناسك كلها ، والنذور هنا ما ينذرونه من أعمال البر في حجهم .

وقيل : المراد الخروج عما وجب عليهم نذروا أو لم ينذروا .

وقرأ شعبة عن عاصم ﴿ وليوفوا ﴾ مشدّداً والجمهور مخففاً ﴿ وليطوفوا ﴾ هو طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان الحج ، وبه تمام التحلل .

وقيل : هو طواف الصدر وهو طواف الوداع .

وقال الطبري : لا خلاف بين المتأولين أنه طواف الإفاضة .

(99/522)

قال ابن عطية : ويحتمل بحسب الترتيب أن يكون طواف الوداع انتهى .

و ﴿ العتيق ﴾ القديم قاله الحسن وابن زيد ، أو المعتق من الجبابرة قاله ابن الزبير وابن أبي نجيح وقتادة ، كم جبار سار إليه فأهلكه الله قصده تبع ليهدمه فأصابه الفالج ، فأشار

الأخيار عليه أن يكف عنه وقالوا له : رب يمنعه فتركه وكساه وهو أول من كساه ، وقصده أبرهة فأصابه ما أصابه وأما الحجاج فلم يقصد التسليط على البيت لكن تحصن به ابن الزبير فاحتال لإخراجه ثم بناه أو المحرر لم يملك موضعه قط قاله مجاهد ، أو المعتق من الطوفان قاله مجاهد أيضاً وابن جبير ، أو الجيد من قولهم : عتاق الخيل وعتاق الطير أو الذي يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب .

قال ابن عطية : وهذا يردّه التصريف انتهى .

ولا يرده التصريف لأنه فسره تفسير معنى ، وأما من حيث الإعراب فلأن ﴿ العتيق ﴾ فعيل بمعنى مفعل أي معتق رقاب المذنبين ، ونسب الإعتاق إليه مجازاً إذ بزيارته والطواف به يحصل الإعتاق ، وينشأ عن كونه معتقاً أن يقال فيه : يعتق فيه رقاب المذنبين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(100/522)

وقال الثعالبى :

قال * ص * : وقوله : ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ ﴾ : أَنْ : مفسِّرةٌ لقولٍ مُقَدَّرٍ ، أي : قائلين له ، أو موحين له : لا تشرك ، وفي التقدير الأول نَظَرٌ فانظره ، انتهى .

وقوله تعالى: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ والقائمين . . . ﴾ الآية: تطهيرُ البيت عامٌّ في الكُفْرِ، والبِدَعِ، وجميعِ الأَنْجَاسِ، والدماءِ، وغير ذلك، ﴿ والقائمين ﴾: هم المصلون، وخَصَّ سبحانه بالذكر من أركان الصلاة أعظَمَها، وهو القيامُ والركوعُ والسجودُ، ورُوِيَ: «أَنَّ إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لَمَّا أُمِرَ بالأذان بالحج قال: يا رب، وإذا أَذَّنْتُ، فَمَنْ يَسْمَعُنِي؟ فقيل له: نادِ يا إبراهيمُ، فعليك النداءُ وعلينا البلاغ؛ فصعد على أبي قُبَيْس، وقيل: على حجر المَقَام، ونادى: أَيُّها الناس، إنَّ الله تعالى قد أَمرهم بحجِّ هذا البيتِ؛ فَحِجُّوا، فَرُوِيَ أَنَّ يومَ نادى أسمع كُلَّ مَنْ يحج إلى يوم القيامة في أصلابِ الرجال، وأجابه كُل شَيءٍ في ذلك الوقْتِ: من جمادٍ، وغيرِهِ: لَبَّيكَ اللَّهُمَّ لبيك؛ فجرت التلبيةُ على ذلك» قاله ابن عباس، وابن جبير، ، و ﴿ رِجَالاً ﴾: جمع رَاجِل، وَال ﴿ ضَامِر ﴾: قالت فرقة: أراد بها الناقةَ؛ وذلك أَنه يقال: ناقة ضامرٌ، وقالت فرقة: لفظ «ضامر» يشمل كلَّ مَنِ اتصف بذلك من جمل، أو ناقة، وغيرِ ذلك.

قال *ع*: وهذا هو الأظهر، وفي تقديم ﴿ رِجَالاً ﴾ تفضيلٌ للمُشَاةِ في الحج؛ وإليه نحا ابن عباس.

قال ابن العربي في «أحكامه»: قوله تعالى: ﴿ يَأْتِينَ ﴾ رَدَّ الضمير إلى الإبل؛ تكرمةً لها لقصدها الحج مع أربابها؛ كما قال تعالى: ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ [العاديات: 1]. في خيل الجهاد؛ تكرمةً لها حين سَعَتْ في سبيل الله، انتهى.

والفَجُّ : الطريق الواسعة ، والعميق : معناه : البعيد ؛ قال الشاعر [الطويل] :

إِذَا الْخَيْلُ جَاءَتْ مِنْ فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ . . . يَمُدُّ بِهَا فِي السَّيْرِ أَشْعَثُ شَاحِبُ

وال ﴿ منافع ﴾ في هذه الآية التجارةُ في قول أكثر المتأولين ، ابنِ عباس وغيرِه ، وقال أبو جعفر محمد بن علي : أراد ذ الأَجْرَ ومنافع الآخرة ، وقال مجاهد بعموم الوجهين .

* ت * وأظهرها عندي قول أبي جعفر ؛ يظهر ذلك من مقصد الآية ، والله أعلم .

وقال ابن العربيّ : الصحيح : القولُ بالعموم ، انتهى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم اللهِ في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ ذهب قوم إلى : أَنَّ المراد ذكر اسم الله على النَّحْرِ والذبح ، وقالوا : إنَّ في ذكر الأيام دليلاً على أنَّ الذبح في الليل لا يجوزُ ، وهو مذهب مالكٍ وأصحابِ الرأي .

وقالت فرقة فيها مالك وأصحابُه : الأيام المعلوماتُ : يومُ النحر ويومانِ بعده .

وقوله : ﴿ فَكُلُواْ ﴾ ندبٌ ، واستحب أهل العلم أن يأكلَ الإنسانُ مِنْ هَدْيِه وأَضْحِيَّتِهِ ، وأنْ يتصدَّقَ بالأكثر ، والبائس : الذي قد مَسَّهُ ضُرُّ الفاقة وبؤسها ، والمراد أهل الحاجة ، والتفث : ما يصنعه المُحْرِمُ عند حِلِّهِ من تقصيرِ شعر وحلقه ، وإزالة شعث ونحوه ، ﴿

وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ : وهو ما معهم من هدي وغيره ، ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بالبيت العتيق ﴾ :

يعني : طوافَ الإفاضة الذي هو من واجبات الحج .

قال الطبري : ولا خلاف بين المتأوِّلينَ في ذلك .

(102/522)

قال مالك : هو واجب ، ويرجع تاركه من وطنه إلاَّ أَنْ يطوف طوافَ الوداع ؛ فإنَّهُ يجزيه عنه ، ويحتمل أَنْ تكونَ الإشارة بالآية إلى طواف الوداع ، وقد أَسْنَدَ الطبريُّ عن عمرو بن أبي سلمة قال : سألت زهيراً عن قوله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بالبيت العتيق ﴾ فقال : هو طواف الوداع ؛ وقاله مالك في الموطإِ ، واخْتُلِفَ في وجهِ وصف البيتِ بالعتيق ، فقال مجاهد وغيره : عتيق ، أي : قديم .

وقال ابن الزبير : لأَنَّ اللّه تعالى أعتقه من الجبابرة .

وقيل : أعتقه من غرق الطَّوفانِ ، وقيل غير هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(103/522)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا ﴾ يقال بوّأهُ منزلاً أي أنزلَه فيه . ولمَّا لزمه جعل الثَّاني مباءةً للأوّلِ وقيل : ﴿ لإبراهيم مَكَانَ البيت ﴾ وعليه مَبْنى قولِ ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهُما جعلناهُ أي اذكر وقتَ جعلنا مكانَ البيت مباءةً له عليه السَّلامُ أي مرجعاً يرجع إليه للعمارةِ والعبادةِ . وتوجيه الأمرِ بالذِّكرِ إلى الوقت مع أنَّ المقصود تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادث قد مرَّ بيانُه غير مرَّةٍ . وقيل اللاَّمُ زائدةٌ ومكانَ ظرفٌ كما في أصل الاستعمالِ أي أنزلناهُ فيه . قيل رُفع البيت إلى السَّماءِ أيَّامِ الطُّوفانِ وكان من ياقوتةٍ حمراءَ فأعلم اللَّهُ تعالى إبراهيمَ عليه السَّلامُ مكانَه بريحٍ أرسلها يقال لها الخجوجُ كنستْ ما حولَه فبناه على أُسِّهِ القديمِ . رُوي أنَّ الكعبةَ الكريمةَ بُنيت خمس مرَّاتٍ إحداها : بناءُ الملائكةِ وكانت من ياقوتةٍ حمراءَ ثمَّ رُفعت أيَّام الطُّوفانِ ، والثَّانيةُ : بناءُ إبراهيمَ عليه السلام ، والثَّالثة : بناءُ قُريشٍ في الجاهليةِ وقد حضر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هذا البناءَ ، والرَّابعةُ : بناءُ ابن الزُّبيرِ ، والخامسةُ : بناءُ الحجَّاجِ . وقد أوردنا ما في هذا الشَّأنِ من الأقاويل في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم القواعد مِنَ البيت ﴾ وأنَّ في قوله تعالى : ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئاً ﴾ مفسّرةٌ لبوَّأنا من حيث إنَّه متضمّنٌ لمعنى تعبدنا لأنَّ التَّبوئة للعبادة أو مصدريَّةٌ موصولة بالنَّهي ، وقد مرَّ تحقيقُه في أوائل سُورة هود . أي فعلنا ذلك لئلاَّ تشركَ بي في العبادة شيئاً

﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ والقائمين والركع السجود ﴾ أي وطهِّرْ بيتي من الأوثانِ والأقذارِ لمن يطوفُ به ويصلِّي فيه ولعلَّ التَّعبيرَ عن الصَّلاةِ بأركانِها للدّلالةِ على أنّ كلَّ واحدٍ منها مستقلٌّ باقتضاء ذلك فكيف وقد اجتمعتْ . وقرىء يُشرك بالياء .

(104/522)

﴿ وَأَذِّن فِى الناس ﴾ أي نادِ فيهم . وقُرىء آذِن ﴿ بالحج ﴾ بدعوة الحجِّ ، والأمر به . رُوي أنَّه عليه السلام صعد أبا قُبيسٍ فقال : يا أيُّها النَّاسُ حجُّوا بيت ربِّكم فأسمعه اللَّهُ تعالى من في أصلاب الرِّجالِ وأرحام النِّساءِ فيما بين المشرقِ والمغربِ ممَّن سبق في علمه تعالى أنْ يحجَّ . وقيل الخطابُ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، أُمر بذلك في حجَّةِ الوداع ويأباهُ كونُ السُّورةِ مكِّيةً ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ جوابٌ للأمر ﴿ رِجَالاً ﴾ أي مُشاةً جمع راجلٍ كقيامٍ جمع قائمٍ . وقُرىء بضمِّ الرَّاءِ وتخفيفِ الجيمِ وتشديدِه ، ورجالى كعجالى ﴿ وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ عطفٌ على رِجالاً أي رُكباناً على كلِّ بغيرٍ مهزولٍ أتعبه بعدُ الشُّقَّةِ فهزله أو زادَ هزالُه . ﴿ يَأْتِينَ ﴾ صفةٌ لضامرٍ محمولة على المعنى . وقُرىء يأتُون على أنَّه صفةٌ للرِّجالِ والرُّكبانِ أو استئنافٌ فيكون الضَّميرُ للنَّاسِ ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ ﴾ طريقٍ واسع ﴿

عَميقٍ ﴾ بعيد . وقُرِىء مُعيقٍ يقال بئرٌ بعيدة العُمقِ وبعيدةُ المُعقِ بمعنى ، كالجَذْبِ والجَبْذِ .

(105/522)

﴿ لّيَشْهَدُواْ ﴾ متعلّقٌ بيأتُوك ، لا بأذّنْ أي ليحضرُوا ﴿ منافع ﴾ عظيمةَ الخطرِ كثيرةَ العددِ أو نوعاً من المنافع الدّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ المختصَّةِ بهذه العبادة . واللاّمُ في قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ ﴾ متعلّقٌ بمحذوف هو صفة لمنافع أي منافع كائنةً لهم . ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله ﴾ عند إعداد الهَدَايا والضَّحايا وذبحها . وفي جعله غايةً للإتيان إيذانٌ بأنَّه الغاية القصوى دون غيرِه . وقيل هو كناية عن الذَّبحِ لأنَّه لا ينفكُّ عنه ﴿ فِى أَيَّامٍ معلومات ﴾ هي أيَّامُ النَّحرِ كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ على مَا رَزَقَهُمْ مّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ فإنَّ المراد بالذّكرِ ما وقع عند الذَّبحِ . وقيل هي عشرُ ذي الحجَّةِ قد علّق الفعلُ بالمرزوقِ وبُيّنَ بالبهيمة تحريضاً على التَّقرُّبِ وتنبيهاً على الذّكرِ ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ التفاتٌ إلى الخطاب . والفاءُ فصيحةٌ عاطفة لمدخولِها على مقدَّرٍ قد حُذف للإشعار بأنَّه أمرٌ محقَّقٌ غير مُحتاجٍ إلى التَّصريح به كما في قوله تعالى : ﴿ فانفجرت ﴾ أي فاذكرُوا اسمَ اللَّهِ على ضحاياكم فكلُوا من لحومِها . والأمرُ للإباحة وإزاحةِ ما كانت عليه أهلُ الجاهليَّةِ من التَّحرُّجِ فيه أو

للنَّدبِ إلى مواساة الفُقراء ومساواتِهم ﴿ وَأَطْعِمُواْ البائس ﴾ أي الذي أصابه بُؤسٌ وشدَّةٌ ﴿ الفقير ﴾ المُحتاجَ وهذا الأمرُ للوجوب . وقد قيل به في الأوَّلِ أيضاً .

(106/522)

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ أي ليؤدُّوا إزالة وَسَخِهم أو ليحكموها بقصِّ الشَّاربِ والأظفارِ ونتفِ الإبطِ والاستحدادِ عند الإحلال ﴿ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ ما ينذرون من البرِّ في حجِّهم وقيل مواجبُ الحجِّ . وقُرِىء بفتح الواو وتشديدِ الفاءِ ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ ﴾ طوافَ الرُّكنِ الذي به يتمُّ التَّحللُ فإنَّه قرينةُ قضاء التَّفثِ ، وقيل طواف الوداع . ﴿ بالبيت العتيق ﴾ أي القديمِ فإنَّه أوَّلُ بيت وُضع للنَّاسِ . أو المُعتَقِ من تسلُّطِ الجبابرةِ فكأيِّنْ من جبَّارٍ سار إليه ليهدِمه فقصَمه اللَّهُ عزَّ وجلَّ . وأما الحجَّاجُ الثَّقفي فإنَّما قصد إخراجَ ابنِ الزُّبيرِ رضي اللَّه عنهما منه لا التَّسلُّطَ عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(107/522)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ البيت ﴾

أي اذكر لهؤلاء الكفرة الذين يصدون عن سبيل الله تعالى والمسجد الحرام وقت جعلنا مكان البيت مباءة لجدهم إبراهيم عليه السلام أي مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة ويقال بوأه منزلاً إذا أنزله فيه ولما لزمه جعل الثاني مباءة للأول جيء باللام فهي للتعدية ، و ﴿ مَّكَانَ ﴾ مفعول به .

وقال الزجاج : المعنى بينا له مكان البيت ليبنيه ويكون مباءة له ولعقبه يرجعون إليه ويحجونه ، والأول مروى عن ابن عباس ، وقيل : اللام زائدة في المفعول به و ﴿ مَّكَانَ ﴾ ظرف لبوأنا .

واعترض بأن اللام إنما تزاد إذا قدم المعمول أو كان العامل فرعاً وشيء منهما غير متحقق هنا وأن ﴿ مَكَانَ البيت ﴾ ظرف معين فحقه أن يتعدى الفعل إليه بفي ، وفيه نظر كما يعلم من كتب العربية ، وقيل : مفعول ﴿ بَوَّأْنَا ﴾ محذوف أي بوأنا الناس واللام في دلإبراهيم ﴾ لام العلة أي لأجل إبراهيم أي كرامة له ، والمعول عليه ما قدمنا ، وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المراد تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر غير مرة ، والمكان المتعارف ما يستقر عليه الشيء ويمنعه من النزول وللعلماء فيه مذاهب وليس هذا مكان تحقيقها ، وأصل البيت مأوى الإنسان بالليل ثم قد يقال من غير اعتبار الليل فيه وجمعه

أبيات وبيوت لكن البيوت بالمسكن أخص والأبيات بالشعر أخص ، ويقع ذلك على المتخذ من حجر ومن مدر ومن صوف ووبر ، ويعبر عن مكان الشيء ببيته ، والمراد بالبيت بيت الله عز وجل الكعبة المكرمة ، وقد بنيت خمس مرات ، إحداها بناء الملائكة عليهم السلام قبل آدم وكانت من ياقوتة حمراء ثم رفع ذلك البناء إلى السماء أيام الطوفان ، والثانية بناء إبراهيم عليه السلام .

(108/522)

روي أنه تعالى لما أمره ببناء البيت لم يدر أين يبنى فأرسل الله تعالى له الريح الخجوج فكشفت عن أسه القديم فبنى عليه ، والثالثة بناء قريش في الجاهلية ، وقد حضره النبي صلى الله عليه وسلم وكان شابا فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه فأراد كل قبيلة أن يتولى رفعه ثم توافقوا على أن يحكم بينهم أول رجل يخرج من هذه السكة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من خرج فقضي بينهم أن يجعلوه في مرط ثم يرفعه جميع القبائل فرفعوه ثم ارتقى صلى الله عليه وسلم فرفعوه إليه فوضعه مكانه وكانوا يدعونه عليه السلام الأمين وكان ذلك قبل المبعث فيما قيل بخمس عشرة سنة ، والرابعة بناء عبد الله بن الزبير ، والخامسة بناء الحجاج وهو البناء الموجود اليوم وارتفاعها في السماء سبعة

وعشرون ذراعاً وربع ذراع والذراع أربع وعشرون أصبعاً والأصبع ست شعيرات والشعيرة ست شعرات من شعر البرذون : وأما طولها في الأرض فمن الركن اليماني إلى الركن الأسود خمسة وعشرون ذراعاً وكذا ما بين اليماني والغربي ، وأما عرضها فهو من الركن اليماني إلى الركن الأسود عشرون ذراعاً ، وطول الباب ستة أذرع وعشرة أصابه ، وعرضه أربعة أذرع والباب في جدارها الشرقي وهو من خشب الساج مضبب بالصفائح من الفضة ، وارتفاع ما تحت عتبة الباب من الأرض أربعة أذرع وثلاث أصابع ، والميزاب في وسط جدار الحجر .

وعرض الملتزم وهو ما بين الباب والحجر الأسود أربعة أذرع ، وارتفاع الحجر الأسود من الأرض ثلاثة أذرع الاسبعا ، وعرض القدر الذي بدر منه شبر وأربع أصابع مضمومة ، وعرض المستجاد وهو بين الركن اليماني إلى الباب المسدود في ظهر الكعبة مقابلاً للمتلزم أربعة أذرع وخمس أصابع ، وعرض الباب المسدود ثلاثة أذرع ونصف ذراع وطوله أكثر من خمسة أذرع ، وأما الحجر ويسمى الحطيم والحظيرة فعلى هيئة نصف دائرة من صوب الشام والشمال بين الركن العراقي والشامي .

(109/522)

وحده من جدار الكعبة الذي تحت الميزاب إلى جدار الحجر سبعة عشر ذراعاً وثماني أصابع منها سبعة أذرع أو ستة وشبر من أرض الكعبة ، والباقي كان زر بالغنم سيدنا اسماعيل عليه السلام فادخلوه في الحجر ، وما بين بابي الحجر عشرون ذراعاً ، وعرض جدار الحجر ذراعان ، وذرع تدوير جدار الحجر من داخله ثمانية وثلاثون ذراعاً ومن خارجه أربعون ذراعاً وست أصابع ، وارتفاع جدار الحجر ذراعان فذرع الطوق وحده حوالي الكعبة ، والحجر مائة ذراع وثلاثة وعشرون ذراعاً واثنتا عشرة أصبعاً ، وهذا على ما ذكره الإمام حسين بن محمد الآمدي في رسالة له في ذلك والعهدة عليه ، وأنا لنرجوا من رب البيت أن يوفقنا لزيارة بيته وتحقيق ذلك بلطفه وكرمه ، و ﴿ ﴾ لام العلة أي لأجل إبراهيم أي كرامة له ، والمعول عليه ما قدمنا ، وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المراد تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر غير مرة ، والمكان المتعارف ما يستقر عليه الشيء ويمنعه من النزول وللعلماء فيه مذاهب وليس هذا مكان تحقيقها ، وأصل البيت مأوى الإنسان بالليل ثم قد يقال من غير اعتبار الليل فيه وجمعه أبيات وبيوت لكن البيوت بالمسكن أخص والأبيات بالشعر أخص ، ويقع ذلك على المتخذ من حجر ومن مدر ومن صوف ووبر ، ويعبر عن مكان الشيء ببيته ، والمراد بالبيت بيت الله عز وجل الكعبة المكرمة ، وقد بنيت خمس مرات ، إحداها بناء الملائكة عليهم السلام قبل آدم وكانت من

ياقوتة حمراء ثم رفع ذلك البناء إلى السماء أيام الطوفان ، والثانية بناء إبراهيم عليه السلام .

(110/522)

روي أنه تعالى لما أمره ببناء البيت لم يدر أين يبنى فأرسل الله تعالى له الريح الخجوج فكشفت عن أسه القديم فبنى عليه ، والثالثة بناء قريش في الجاهلية ، وقد حضره النبي صلى الله عليه وسلم وكان شابا فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه فأراد كل قبيلة أن يتولى رفعه ثم توافقوا على أن يحكم بينهم أول رجل يخرج من هذه السكة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من خرج فقضي بينهم أن يجعلوه في مرط ثم يرفعه جميع القبائل فرفعوه ثم ارتقى صلى الله عليه وسلم فرفعوه إليه فوضعه مكانه وكانوا يدعونه عليه السلام الأمين وكان ذلك قبل المبعث فيما قيل بخمس عشرة سنة ، والرابعة بناء عبد الله بن الزبير ، والخامسة بناء الحجاج وهو البناء الموجود اليوم وارتفاعها في السماء سبعة وعشرون ذراعاً وربع ذراع والذراع أربع وعشرون أصبعاً والأصبع ست شعيرات والشعيرة ست شعرات من شعر البرذون : وأما طولها في الأرض فمن الركن اليماني إلى الركن الأسود خمسة وعشرون ذراعاً وكذا ما بين اليماني والغربي ، وأما عرضها فهو من

الركن اليماني إلى الركن الأسود عشرون ذراعاً ، وطول الباب ستة أذرع وعشرة أصابه ، وعرضه أربعة أذرع والباب في جدارها الشرقي وهو من خشب الساج مضبب بالصفائح من الفضة ، وارتفاع ما تحت عتبة الباب من الأرض أربعة أذرع وثلاث أصابع ، والميزاب في وسط جدار الحجر .

وعرض الملتزم وهو ما بين الباب والحجر الأسود أربعة أذرع ، وارتفاع الحجر الأسود من الأرض ثلاثة أذرع الاسبعا ، وعرض القدر الذي بدر منه شبر وأربع أصابع مضمومة ، وعرض المستجاد وهو بين الركن اليماني إلى الباب المسدود في ظهر الكعبة مقابلاً للمتلزم أربعة أذرع وخمس أصابع ، وعرض الباب المسدود ثلاثة أذرع ونصف ذراع وطوله أكثر من خمسة أذرع ، وأما الحجر ويسمى الحطيم والحظيرة فعلى هيئة نصف دائرة من صوب الشام والشمال بين الركن العراقي والشامي .

(111/522)

وحده من جدار الكعبة الذي تحت الميزاب إلى جدار الحجر سبعة عشر ذراعاً وثماني أصابع منها سبعة أذرع أو ستة وشبر من أرض الكعبة ، والباقي كان زر بالغنم سيدنا اسماعيل عليه السلام فادخلوه في الحجر ، وما بين بابي الحجر عشرون ذراعاً ، وعرض

جدار الحجر ذراعان ، وذرع تدوير جدار الحجر من داخله ثمانية وثلاثون ذراعاً ومن خارجه أربعون ذراعاً وست أصابع ، وارتفاع جدار الحجر ذراعان فذرع الطوق وحده حوالي الكعبة ، والحجر مائة ذراع وثلاثة وعشرون ذراعاً واثنتا عشرة أصبعاً ، وهذا على ما ذكره الإمام حسين بن محمد الآمدي في رسالة له في ذلك والعهدة عليه ، وأنا لنرجوا من رب البيت أن يوفقنا لزيارة بيته وتحقيق ذلك بلطفه وكرمه ، و ﴿ إن ﴾ في قوله تعالى ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئاً ﴾ قيل مفسرة ، والتفسير باعتبار أن التبوئة من أجل العبادة فكأنه قيل أمرنا إبراهيم عليه السلام بالعبادة وذلك فيه معنى القول دون حروفه أو لأن بوأناه بمعنى قلنا له تبوأ ، وقال ابن عطية : مخففة من الثقيلة وكأنه لتأويل بوأناه بأعلمناه ، فلا يرد عليه أنه لا بد أن يتقدمها فعل تحقيق أو ترجيح .

وقال أبو حيان : الأولى أن تكون الناصبة وكما توصل بالمضارع توصل بالماضي والأمر والنهي انتهى ، وحينئذ لا تنصب لفظاً ، وقول أبي حاتم : لا بد من نصب الكاف على هذا رده في الدر المصون أي فعلنا ذلك لئلا تشرك بي في العبادة شيئاً ، والظاهر أن الخطاب لإبراهيم عليه السلام ، ويؤيده قراءة عكرمة .

وأبى نهيك ﴿ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ ﴾ بالياء التحتية ؛ وقيل : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ والقائمين والركع السجود ﴾ المراد بالطهارة ما يشمل الحسية والمعنوية أي وطهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلى عنده ، ولعل التعبير عن الصلاة بأركانها من القيام والركوع والسجود للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء التطهير أو التبوئة على ما قيل : فكيف وقد اجتمعت أو للتنصيص على هذه الأمة المحمدية على نبيها أفضل الصلاة وأكمل التحية إذ اجتماع هذه الأركان ليس إلا في صلاتهم ، ولم يعطف السجود لأنه من جنس الركوع في الخضوع ، ويجوز أن يكون ﴿ القائمين ﴾ بمعنى المقيمين و ﴿ الطائفين ﴾ بعمنى الطارئين فيكون المراد بالركع السجود فقط المصلين إلا أن المتبادر من الطائفين ما ذكر أولاً .

﴿ وَأَذِّن فِي الناس ﴾ أي ناد فيهم ﴿ بالحج ﴾ بدعوة الحج والأمر به ، أخرج ابن أبي شيبة في المصنف .

وابن جرير .

وابن المنذر .

والحاكم وصححه .

والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : "لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قال : رب قد فرغت فقال : أذن في الناس بالحج قال : يا رب وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذن وعلي

البلاغ قال : رب كيف أقول ؟ قال : قل يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فسمعه أهل السماء والأرض ألا ترى أنهم يجيبون من أقصى البلاد يلبون" وجاء في رواية أخرى عنه أنه عليه السلام صعد أبا قبيس فوضع أصبعيه في أذنيه ثم نادى يا أيها الناس إن الله تعالى كتب عليكم الحج فأجيبوا ربكم أفجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، وأول من أجاب أهل اليمن فليس حاج يحج من يومئذ إلى أن تقوم الساعة إلا من أجاب يومئذ إبراهيم عليه السلام ، وفي رواية أنه قام على الحجر فنادى ، وعن مجاهد أنه عليه السلام قام على الصفا ، وفي رواية أخرى عنه أنه عليه السلام تطاول به المقام حتى كان كأطول جبل في الأرض فاذن بالحج ، ويمكن الجمع بتكرر النداء ، وأياً ما كان فالخطاب لإبراهيم عليه السلام .

(113/522)

وزعم بعضهم أنه لنبينا صلى الله عليه وسلم أمر بذلك في حجة الوداع وروي ذلك عن الحسن وهو خلاف الظاهر جداً ولا قرينة عليه ، وقيل : يأباه كون السورة مكية وقد علمت ما فيه أولها .

وقرأ الحسن .

وابن محيصن و﴿ أَذِنَ ﴾ بالمد والتخفيف أي أعلم كما قال البعض ، وقال آخرون : المراد به هنا أوقع الإيذان لأنه على الأول كان ينبغي أن يتعدى بنفسه لا بقي فهو كقوله : يجرح في عراقيها نصلي . . .

وقال ابن عطية : قد تصحفت هذه القراءة على ابن جنى فإنه حكى عنهما ﴿ وَأَذّن ﴾ فعلا ماضياً وجعله معطوفاً على ﴿ بَوَّأْنَا ﴾ وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بتصحيف بل قد حكى ذلك أبو عبد الله الحسين بن خالويه في شواذ القراءات من جمعه ، وقرأ ابن أبي إسحاق ﴿ بالحج ﴾ بكسر الحاء حيث وقع ، وقوله تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ جزم في جواب الأمر وهو دآذن ﴾ على القراءتين و﴿ ﴾ على القراءتين و﴿ طهر ﴾ على الثالثة كما قال صاحب اللوامح : وإيقاع الإتيان على ضميره عليه السلام لكون ذلك بندائه ، والمراد يأتوا بيتك ، وقوله سبحانه : ﴿ مِنْهُمَا رِجَالاً ﴾ في موضع الحال أي مشاة جمع راجل كقيام جمع قائم .

وقرأ ابن أبي اسحق ﴿ رِجَالاً ﴾ بضم الراء والتخفيف وروي ذلك عن عكرمة .

والحسن .

وأبي مجاز ، وهو اسم جمع لراجل كطؤار لطائر أو هو جمع نادر ، وروي عن هؤلاء .

وابن عباس .

ومحمد بن جعفر .

ومجاهد رضي الله تعالى عنهم ﴿ رِجَالاً ﴾ بالضم والتشديد على أنه جمع راجل كتاجر وتجار ، وعن عكرمة أنه قرأ ﴿ رجالى ﴾ كسكارى وهو جمع رجلان أو راجل ، وعن ابن عباس .

وعطاء .

وابن حدير مثل ذلك إلا أنه شددوا الجيم .

وقوله تعالى : ﴿ رِجَالاً وعلى كُلّ ضَامِرٍ ﴾ عطم على ﴿ رِجَالاً ﴾ أي وركبانا على كل بعير مهزول أتعبه بعد الشقة فهزله أو زاد هزاله ، والضامر يطلق على المذكر المؤنث ، وعدل عن ركباناً الأخصر للدلالة على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة .

(114/522)

وفي الآية دليل على جواز المشي والركوب في الحج ، قال ابن العربي : واستدل علماؤنا بتقديم ﴿ رِجَالاً ﴾ على أن المشي أفضل ، وروي ذلك عن ابن عباس فقد أخرج ابن سعد .

وابن أبي سيبة .

والبيهقي .

وجماعة أنه قال : ما آسى على شيء فاتني إلا أني لم أحج ماشياً حتى أدركني الكبر أسمع الله تعالى يقول : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ فبدأ بالرجال قبل الركبان ، وفي ذلك حديث مرفوع فقد أخرج ابن سعد .

وابن مردويه .

وغيرهما عنه أنه قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن للحاج الراكب بكل خطوة تخطوها راحلته سبعين حسنة وللماشي بكل قدم سبعمائة حسنة من حسنات الحرم قيل : يا رسول الله وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسنة مائة ألف حسنة "

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد أن إبراهيم .

واسمعيل عليهما السلام حجا وهما ماشيان .

وقال ابن الفرس : واستدل بعضهم بالآية على أنه لا يجب الحج على من في طريقه بحر ولا طريق له سواه لكونه لم يذكر في الآية .

وتعق بأنه استدلال ضعيف لأن مكة ليست على بحر وإنما يتوصل إليها على إحدى الحالين مشي أو ركوب ، وأيضا في دلالة عدم الذكر على عدم الوجوب نظر ، وقوله تعالى : ﴿ يَأْتِينَ ﴾ صفة لضامر أو لكل ، والجمع باعتبار المعنى كأنه قيل وركباناً على ضوامر يأتين ، و ﴿ كُلِّ ﴾ هنا للتكثير لا للإحاطة وما قيل من أنها إذا أضيفت لنكرة لم يراع معناها إلا قليلاً ردوه بهذه الآية ونظائرها ، وكذا ما قيل إنه يجوز إذا كانا في جملتين لأن هذه جملة واحدة .

وجوز أبو حيان أن يكون الضمير شاملاً لرجال و﴿ كُلّ ضَامِرٍ ﴾ والجملة صفة لذلك

على معنى الجماعات والرفاق .

وتعقب بأنه يلزمه تغليب غير العقلاء عليهم وقد صرحوا بمنعه .

نعم قرأ عبد الله .

وأصحابه .

والضحاك .

(115/522)

وابن أبي عبلة ﴿ يَأْتُونَ ﴾ واعتبار التغليب فيه على بابه ، والمشهور جعل الضمير لرجالا وركباناً فلا تغليب ، وجوز جعل الضمير للناس والجملة استئنافية ﴿ مِن كُلّ فَجّ ﴾ أي طريق كما روي عن ابن عباس ومجاهد .

وقتادة .

والضحاك : وأبي العالية ، وهو في الأصل شقة يكتنفها جبلان ويستعمل في الطريق الواسع وكأنهم جردوه عن معنى السعة لأنه لا يناسب هنا بل لا يخلو من خلل ﴿ عَمِيقٍ ﴾ أي بعيد وبه فسره الجماعة أيضاً ، وأصله البعيد سفلا وهو غير مناسب هنا .

وقرأ ابن مسعود دمعيق ﴾ قال الليث : يقال عميق ومعيق لتميم وأعمقت البئر وأمعقتها وقد عمقت ومعقت عماقة ومعاقة وهي بعيدة العمق والمعق .

﴿ لِّيَشْهَدُواْ ﴾ متعلق ب ﴿ يأتوك ﴾ [الحج : 27] ، وجوز أبو البقاء تعلقه ب ﴿ أذن ﴾ [الحج : 27] أي ليحضروا ﴿ منافع ﴾ عظيمة الخطر كثيرة العدد فتنكيرها وإن لم يكن فيها تنوين للتعظيم والتكثير .

ويجوز أن يكون للتنويع أي نوعاً من المنافع الدينية والدنيوية ، وتعميم المنافع بحيث تشمل النوعين مما ذهب إليه جمع وروى ذلك عن ابن عباس ، فقد أخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية : منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة فأما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البدن في ذلك اليوم والذبائح والتجارات ، وخص مجاهد منافع الدنيا بالتجارة فهي جائزة للحاج من غير كراهة إذا لم تكن هي المقصودة من السفر .

واعترض بأن نداءهم ودعوتهم لذلك مستبعد ، وفيه نظر ، على أنه إنما يتأتى على ما جوزه أبو البقاء ، وعن الباقر رضي الله تعالى عنه تخصيص المنافع بالأخروية ، وفي رواية عن ابن عباس تخصيصها بالدنيوية والتعميم أولى .

﴿ لَهُمْ ﴾ في موضع الصفة لمنافع أي منافع كائنة لهم ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله ﴾ عند النحر ﴿ فِى أَيَّامٍ معلومات ﴾ أي مخصوصات وهي أيام النحر كما ذهب إليه جماعة منهم أبو

يوسف .

ومحمد عليهما الرحمة .

(116/522)

وعدتها ثلاثة أيام يوم العيد ويومان بعده عندنا ، وعند الثوري .

وسعيد بن جبير .

وسعيد بن المسيب لما روى عن عمر .

وعلي .

وابن عمر وابن عباس .

وأنس .

وأبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنهم قالوا : أيام النحر ثلاثة أفضلها أولها ، وقد قالوه سماعاً لأن الرأي لا يهتدي إلى المقادير ، وفي الأخبار التي يعول عليها تعارض فأخذنا بالمتيقن وهو الأقل ، وقال الشافعي .

والحسن .

وعطاء : أربعة أيام يوم العيد وثلاثة بعده لقوله صلى الله عليه وسلم : " أيام التشريق كلها

أيام ذبح " وعند النخعي وقت النحر يومان ، وعند ابن سيرين يوم واحد ، وعند أبي سلمة .

وسلميان بن يسار الأضحى إلى هلال المحرم ولم نجد في ذلك مستنداً يعول عليه .

واستدل بذكر الأيام على أن الذبح لا يجوز ليلاً ، قال أبو حيان : وهو مذهب مالك وأصحاب الرأي انتهى .

والمذكور في كتب الأصحاب أنه يجوز الذبح ليلاً إلا أنه يكره لاحتمال الغلط في ظلمة الليل .

وأما الاستدلال على عدم الجواز بذكر الأيام فكما ترى ، وقيل الأيام المعلومات عشر ذي الحجة وإليه ذهب أبو حنيفة عليه الرحمة وروى عن ابن عباس .

والحسن .

وإبراهيم .

وقتادة ؛ ولعل المراد بذكر اسمه تعالى على هذا ما قيل حمده وشكره عز وجل ؛ وعلى الأول قول الذابح : بسم الله والله أكبر على ما روى عن قتادة ، وذكر أنه يقال مع ذلك : اللهم منك ولك عن فلان ، وسيأتي إن شاء الله تعالى قول آخر .

ورجح كونه بمعنى الشكر بأنه أوفق بقوله تعالى : ﴿ على مَا رَزَقَهُمْ مّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ .

واختار الزمخشري أن الذكر على بهيمة الأنعام أو مطلقاً على ما يقتضيه ظاهر كلام بعضهم كناية عن النحر ، وذكر أنه دل بذلك على المقصود الأصلي من النحر وما يميزه عن

العادات .

وأوماً فيه إلى أن الأعمال الحجية كلها شرعت للذكر .

(117/522)

وأنه قيل : ﴿ على مَا رَزَقَهُمْ ﴾ إلى آخره تشويقاً في التقرب ببهيمة الأنعام المراد بها الإبل والبقر والضأن والمعز إلى الرازق وتهويناً عليهم في الانفاق مع ما في ذلك من الإجمال والتفسير ، وظرفية الأيام المعلومات على القول بأنها عشر ذي الحجة للنحر باعتبار أن يوم النحر منها ، وقد يقال مثل ذلك على تقدير إبقاء الذكر على ما يتبادر منه ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ التفات إلى الخطاب والفاء فصيحة أي فاذكروا اسم الله تعالى على ضحاياكم فكلوا من لحومها ، والأمر للإباحة بناء على أن الأكل كان منهياً عنه شرعاً .

وقد قالوا : إن الأمر بعد المنع يقتضي الإباحة ، ويدل على سبق النهي قوله صلى الله عليه وسلم : "كنت نهيتكم عن أكل لحوم الأضاحي فكلوا منها وادخروا " وقيل لأن أهل الجاهلية كانوا يتحرجون فيه أو للندب على مواساة الفقراء ومساواتهم في الأكل منها ، وهذا على ما قال الخفاجي مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه .

﴿ وَأَطْعِمُواْ البائس ﴾ أي الذي أصابه بؤس أي شدة ، وعن مجاهد .

وعكرمة تفسيره بالذي يمد كفيه إلى النار يسأل ﴿ الفقير ﴾ أي المحتاج ، والأمر للندب عند الإمام على ما ذكره الخفاجي أيضاً ، ويستحب كما في الهداية أن لا ينقص ما يطعم عن الثلث لأن الجهات الأكل والإطعام الثابتان بالآية والادخار الثابت بالحديث فتقسم الأضحية عليها أثلاثاً ؛ وقال بعضهم : لا تحديد فيما يؤكل أو يطعم لإطلاق الآية ، وأوجب الشافعية الإطعام وذهب قوم إلى أن الأكل من الأضحية واجب أيضاً .

وتخصيص البائس الفقير بالإطعام لا ينفي جواز إطعام الغني ، وقد يستدل على الجواز بالأمر الأول لإفادته جواز أكل الذابح ومتى جاز أكله وهو غني جاز أن يؤكله غنياً .

(118/522)

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ هو في الأصل الوسخ والقذر ، وعن قطرب تفث الرجل كثر وسخه في سفره ، وقال أبو محمد البصري : التفث من التفت وهو وسخ الأظفار وقلبت الفاء ثاء كما في مغثور ، وفسره جمع هنا بالسعور والاظفار الزائدة ونحو ذلك ، والقضاء في الأصل القطع والفصل وأريد به الإزالة مجازاً أي ليزيلوا ذلك بتقليم الاظفار والأخذ من الشوارب والعارضين كما في رواية عن ابن عباس ونتف الإبط وحلق الرأس والعانة ، وقيل : القضاء مقابل الأداء والكلام على حذف مضاف أي ليقضوا إزالة تفثهم ، والتعبير بذلك

لأنه لمضي زمان إزالته عد الفعل قضاء لما فات .

وأخرج ابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهم أنه قال : التفث النسك كله من الوقوف بعرفة والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار ، والقضاء على هذا بمعنى الاداء كأنه قيل : ثم ليؤدوا نسكهم .

وكان التعبير عن النسك بالتفث لما أنه يستدعي حصوله فإن الحجاج ما لم يحلوا شعث غبر وهو كما ترى ، وقد يقال : إن المراد من إزالة التفث بالمعنى السابق قضاء المناسك كلها لأنها لا تكون إلا بعده فكأنه أراد أن قضاء التفث هو قضاء النسك كله بضرب من التجوز ويؤَده ما أخرجه جماعة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : قضاء التفث قضاء النسك كله .

﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ ما ينذرونه من أعمال البر في حجهم ، وعن ابن عباس تخصيص ذلك بما ينذرونه من نحر البدن .

وعن عكرمة هي مواجب الحج .

وعن مجاهد ما وجب من الحج والهدى وما نذره الإنسان من شيء يكون في الحج فالنذر

بمعنى الواجب مطلقاً مجازاً .

وقرأ شعبة عن عاصم ﴿ وَلْيُوفُواْ ﴾ مشدداً ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ ﴾ طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان الحج وبه تمام التحلل فإنه قرينة قضاء التفث بالمعنى السابق ، وروى ذلك عن ابن عباس .

ومجاهد .

والضحاك .

(119/522)

وجماعة بل قال الطبري وإن لم يسلم له : لا خلاف بين المتأولين في أنه طواف الإفاضة ويكون ذلك يوم النحر ، وقيل : طواف الصدر وهو طواف الوداع وفي عدة من المناسك خلاف ﴿ بالبيت العتيق ﴾ أخرج البخاري في "تاريخه" .

والترمذي وحسنه .

والحاكم وصححه .

وابن جرير .

والطبراني .

وغيرهم عن ابن الزبير قال : قال " رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما سمي الله البيت العتيق لأنه أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط " وإلى هذا ذهب ابن أبي نجيح . وقتادة ، وقد قصده تبع ليهدمه فأصابه الفالج فأشير عليه أن يكف عنه ، وقيل : له رب يمنعه فتركه وكساه وهو أول من كساه ، وقصده أبرهة فأصابه ما أصابه ، وأما الحجاج فلم يقصد التسلط على البيت لكن تحصن به ابن الزبير فاحتال لإخراجه ثم بناه ، ولعل ما وقع من القرامطة وإن أخذوا الحجر الأسود وبقي عندهم سنين من هذا القبيل ، ويقال فيما يكون آخر الزمان من هدم الحبشة إياه وإلقاء أحجاره في البحر إن صح : إن ذلك من أشراط الساعة التي لا ترد نقضاً على الأمور التي قيل باطرادها ، وقيل : في الجواب غير ذلك .

وعن مجاهد أنه إنما سمي بذلك لأنه لم يملك موضعه قط ، وفي رواية أخرى عنه أن ذلك لأنه أعتق من الغرق زمان الطوفان ، وعن ابن جبير أن العتيق بمعنى الجيد من قولهم : عتاق الخيل وعتاق الطير ، وقيل : فعيل بمعنى مفعل أي معتق رقاب المذنبين ونسبة الاعتاق إليه مجاز لأنه تعالى يعتق رقابهم بسبب الطواف به ، وقال الحسن .

وابن زيد : العتيق القديم فإنه أول بيت وضع للناس وهذا هو المتبادر إلا إنك تعلم أنه إذا صح الحديث لا يعدل عنه ، ثم إن حفظه من الجبابرة وبقاءه الدهر الطويل معظماً يؤتي من كل فج عميق بمحض إرادة الله تعالى المبنية على الحكم الباهرة .

(120/522)

وبعض الملحدين زعموا أنه بنى في شرف زحل والطالع الدلو أحد بيتيه وله مناظرات سعيدة فاقتضى ذلك حفظه من الجبابرة وبقاءه معظماً الدهر الطويل ويسمونه لذلك بيت زحل ، وقد ضلوا بذلك ضلالاً بعيداً ، وسنبين إن شاء الله تعالى خطأ من يقول بتأثير الطالع أتم بيان والله تعالى المستعان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(121/522)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾

عطف المضارع على الماضي ؛ لأن المراد بالمضارع ما مضى من الصدّ ، ومثل هذا قوله : ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [محمد : 1] ، أو المراد بالصدّ ها هنا الاستمرار لا مجرّد الاستقبال ، فصح بذلك عطفه على الماضي ، ويجوز أن تكون الواو في : ﴿ ويصدّون ﴾ واو الحال ، أي كفروا والحال أنهم يصدون .

وقيل : الواو زائدة والمضارع خبر إن والأولى أن يقدر خبر إن بعد قوله : ﴿ والباد ﴾ وذلك نحو خسروا أو هلكوا .

وقال الزجاج : إن الخبر ﴿ نذقه من عذاب أليم ﴾ وردّ بأنه لو كان خبراً لإن لم يجزم وأيضاً لو كان خبراً لإن لبقي الشرط وهو ﴿ وَمَن يُرِدِ ﴾ بغير جواب ، فالأولى أنه محذوف كما ذكرنا .

والمراد بالصدّ : المنع وبسبيل الله : دينه ، أي : يمنعون من أراد الدخول في دين الله و ﴿ المسجد الحرام ﴾ ، معطوف على ﴿ سبيل الله ﴾ قيل : المراد به : المسجد نفسه كما هو الظاهر من هذا النظم القرآني .

وقيل : الحرم كله ؛ لأن المشركين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عنه يوم الحديبية .

وقيل : المراد به : مكة بدليل قوله : ﴿ الذي جعلناهُ لِلنَّاسِ سَوَاء العاكف فِيهِ والباد ﴾ أي جعلناه للناس على العموم يصلون فيه ويطوفون به مستوياً فيه العاكف وهو المقيم فيه الملازم له ، والباد أي الواصل من البادية ، والمراد به : الطارىء عليه من غير فرق بين كونه من أهل البادية أو من غيرهم .

وانتصاب ﴿ سواء ﴾ على أنه المفعول الثاني لجعلناه ، وهو بمعنى مستوياً ، و ﴿ العاكف

﴿ مرتفع به ، وصف المسجد الحرام بذلك لزيادة التقريع والتوبيخ للصادّين عنه ، ويحتمل أن يكون انتصاب ﴿ سَوَآء ﴾ على الحال .

(122/522)

وهذا على قراءة النصب ، وبها قرأ حفص عن عاصم ، وهي قراءة الأعمش ، وقرأ الجمهور برفع ﴿ سواء ﴾ على أنه مبتدأ وخبره ﴿ العاكف ﴾ أو على أنه خبر مقدّم ، والمبتدأ ﴿ العاكف ﴾ أي العاكف فيه والبادي سواء ، وقرىء بنصب ﴿ سواء ﴾ وجرّ ﴿ العاكف ﴾ على أنه صفة للناس ، أي جعلناه للناس ، العاكف والبادي سواء ، وأثبت الياء في البادي ابن كثير وصلا ووقفا ، وحذفها أبو عمرو في الوقف ، وحذفها نافع في الوصل والوقف .

قال القرطبي : وأجمع الناس على الاستواء في المسجد الحرام نفسه .

واختلفوا في مكة فذهب مجاهد ومالك إلى أن دور مكة ومنازلها يستوي فيها المقيم والطارىء .

وذهب عمر بن الخطاب وابن عباس وجماعة إلى أن للقادم أن ينزل حيث وجد ، وعلى ربّ المنزل أن يؤويه شاء أم أبى .

وذهب الجمهور إلى أن دور مكة ومنازلها ليست كالمسجد الحرام ، ولأهلها منع الطارىء من النزول فيها .

والحاصل أن الكلام في هذا راجع إلى أصلين : الأصل الأوّل : ما في هذه الآية : هل المراد بالمسجد الحرام المسجد نفسه ، أو جميع الحرم ، أو مكة على الخصوص ؟ والثاني : هل كان فتح مكة صلحاً أو عنوة ؟ وعلى فرض أن فتحها كان عنوة هل أقرّها النبيّ صلى الله عليه وسلم في يد أهلها على الخصوص ؟ أو جعلها لمن نزل بها على العموم ؟ وقد أوضحنا هذا في شرحنا على المنتقى بما لا يحتاج الناظر فيه إلى زيادة .

﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مفعول يرد محذوف لقصد التعميم ، والتقدير : ومن يرد فيه مراداً ، أيّ مراد بإلحاد ، أي بعدول عن القصد .

والإلحاد في اللغة : الميل إلا أنه سبحانه بيّن هنا أنه الميل بظلم .

وقد اختلف في هذا الظلم ماذا هو ؟ فقيل : هو الشرك .

وقيل : الشرك والقتل ، وقيل : صيد حيواناته وقطع أشجاره ، وقيل : هو الحلف فيه بالأَيمان الفاجرة ، وقيل : المراد : المعاصي فيه على العموم .

(123/522)

وقيل : المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية في ذلك المكان .

وقد ذهب إلى هذا ابن مسعود وابن عمر والضحاك وابن زيد وغيرهم حتى قالوا : لو همّ الرجل في الحرم بقتل رجل بعدن لعذّبه الله .

والحاصل : أن هذه الآية دلت على أن من كان في البيت الحرام مأخوذ بمجرّد الإرادة للظلم ، فهي مخصصة لما ورد من أن الله غفر لهذه الأمة ما حدّثت به أنفسها ، إلا أن يقال : إن الإرادة فيها زيادة على مجرّد حديث النفس ، وبالجملة فالبحث عن هذا وتقرير الحق فيه على وجه يجمع بين الأدلة ويرفع الإشكال يطول جدّاً ، ومثل هذه الآية حديث : " إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار " قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : " إنه كان حريصاً على قتل صاحبه " فدخل النار هنا بسبب مجرّد حرصه على قتل صاحبه .

وقد أفردنا هذا البحث برسالة مستقلة ، والباء في قوله : ﴿ بِإِلْحَادٍ ﴾ إن كان مفعول ﴿ يرد ﴾ محذوفاً كما ذكرنا فليست بزائدة .

وقيل : إنها زائدة هنا كقول الشاعر :

نحن بنو جعدة أصحاب الفَلَج . . . نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

أي : نرجو الفرج ، ومثله :

ألم يأتيك والأنباء تنمى . . . بما لاقت لبون بني زياد

أي : ما لاقت ، ومن القائلين بأنها زائدة الأخفش ، والمعنى عنده : ومن يرد فيه إلحاداً بظلم .

وقال الكوفيون : دخلت الباء لأن المعنى : بأن يلحد ، والباء مع أن تدخل وتحذف ، ويجوز أن يكون التقدير : ومن يرد الناس بإلحاد .

وقيل : إن ﴿ يرد ﴾ مضمن معنى : يهمّ ، والمعنى : ومن يهمّ فيه بإلحاد .

وأما الباء في قوله : ﴿ بظلم ﴾ فهي للسببية ، والمعنى : ومن يرد فيه بإلحاد بسبب الظلم ، ويجوز أن يكون ﴿ بظلم ﴾ بدلاً من ﴿ بإلحاد ﴾ بإعادة الجارّ ، ويجوز أن يكونا حالين مترادفين .

﴿ وإذ بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ البيت ﴾ أي : واذكر وقت ذلك ، يقال : بوّأته منزلاً وبوّأت له ، كما يقال : مكنتك ومكنت لك .

(124/522)

قال الزجاج : معناه : جعلنا مكان البيت مبوأ لإبراهيم ، ومعنى ﴿ بوّأنا ﴾ : بيّنا له مكان البيت ، ومثله قول الشاعر :

كم من أخ لي ماجد . . . بوّأته بيديّ لحداً

وقال الفراء : إن اللام زائدة ومكان ظرف ، أي أنزلناه فيه ﴿ أن لا تشرك بِي شَيْئاً ﴾ قيل : إن هذه هي مفسرة لبوّأنا ، لتضمنه معنى تعبدنا ؛ لأن التبوئة هي للعبادة .

وقال أبو حاتم : هي مصدرية ، أي لأن لا تشرك بي .

وقيل : هي المخففة من الثقيلة ، وقيل : هي زائدة .

وقيل : معنى الآية : وأوحينا إليه أن لا تعبد غيري .

قال المبرد : كأنه قيل له : وحدني في هذا البيت ، لأن معنى لا تشرك : بي وحدني ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ من الشرك وعبادة الأوثان .

وفي الآية طعن على ما أشرك من قطان البيت أي : هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده وأنتم فلم تفوا بل أشركتم .

وقالت فرقة : الخطاب بقوله : ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا ﴾ لمحمد صلى الله عليه وسلم وهذا ضعيف جدّاً .

ومعنى ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ : تطهيره من الكفر والأوثان والدماء وسائر النجاسات ، وقيل : عنى به التطهير عن الأوثان فقط ، وذلك أن جرهما والعمالقة كانت لهم أصنام في محل البيت ، وقد مرّ في سورة براءة ما فيه كفاية في هذا المعنى .

والمراد بالقائمين هنا هم : المصلون وذكر ﴿ الركع السجود ﴾ بعده لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة ، وقرن الطواف بالصلاة ؛ لأنهما لا يشرعان إلا في البيت

فالطواف عنده والصلاة إليه .

﴿ وَأَذِّن فِي الناس بالحج ﴾ قرأ الحسن وابن محيصن : " وآذن " بتخفيف الذال والمدّ .

وقرأ الباقون بتشديد الذال ، والأذان الإعلام ، وقد تقدّم في براءة .

(125/522)

قال الواحدي : قال جماعة المفسرين : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت جاءه جبريل فأمره أن يؤذن في الناس بالحج ، فقال : يا ربّ ، من يبلغ صوتي ؟ فقال الله سبحانه : أذن وعليّ البلاغ ، فعلا المقام فأشرف به حتى صار كأعلى الجبال ، فأدخل أصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً وقال : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم ، فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء : لبيك اللّهم لبيك .

وقيل : إن الخطاب لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : أعلمهم يا محمد بوجوب الحجّ عليهم ، وعلى هذا فالخطاب لإبراهيم انتهى عند قوله : ﴿ والركع السجود ﴾ وقيل : إن خطابه انقضى عند قوله : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ البيت ﴾ وأن قوله : ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى ﴾ وما بعده خطاب لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقرأ الجمهور ﴿ بالحجّ ﴾ بفتح الحاء ، وقرأ ابن أبي إسحاق في كل القرآن

بكسرها ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ هذا جواب الأمر ، وعده الله إجابة الناس له إلى حجّ البيت ما بين راجل وراكب ، فمعنى ﴿ رجالاً ﴾ : مشاة ، جمع راجل .

وقيل : جمع رجل .

وقرأ ابن أبي إسحاق " رجالاً " بضم الراء وتخفيف الجيم .

وقرأ مجاهد : " رجالى " على وزن فعالى مثل كسالى .

وقدّم الرجال على الركبان في الذكر لزيادة تعبهم في المشي ، وقال : ﴿ يأتوك ﴾ وإن كانوا يأتون البيت ، لأن من أتى الكعبة حاجاً فقد أتى إبراهيم ، لأنه أجاب نداءه ﴿ وعلى كُلّ ضَامِرٍ ﴾ عطف على ﴿ رجالا ﴾ أي وركباناً على كل بعير .

والضامر : البعير المهزول الذي أتعبه السفر ، يقال : ضمر يضمر ضموراً ، ووصف الضامر بقوله : ﴿ يَأْتِينَ ﴾ باعتبار المعنى ؛ لأن ضامر في معنى ضوامر ، وقرأ أصحاب ابن مسعود وابن أبي عبلة والضحاك " يأتون " على أنه صفة ل ﴿ رجالاً ﴾ .

والفجّ : الطريق الواسع ، الجمع فجاج ، والعميق : البعيد .

(126/522)

واللام في ﴿ لِّيَشْهَدُواْ منافع لَهُمْ ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ ريأتوك ﴾ وقيل : بقوله : ﴿ وأذن ﴾ والشهود : الحضور ، والمنافع هي تعمّ منافع الدنيا والآخرة .

وقيل : المراد بها : المناسك .

وقيل : المغفرة ؛ وقيل : التجارة كما في قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : 198] .

﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله فِي أَيَّامٍ معلومات ﴾ أي يذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله .

وقيل : إن هذا الذكر كناية عن الذبح ؛ لأنه لا ينفك عنه .

والأيام المعلومات هي : أيام النحر ، كما يفيد ذلك قوله : ﴿ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ .

وقيل : عشر ذي الحجة .

وقد تقدّم الكلام في الأيام المعلومات والمعدودات في البقرة فلا نعيده ، والكلام في وقت ذبح الأضحية معروف في كتب الفقه وشروح الحديث .

ومعنى : ﴿ على ما رزقهم ﴾ : على ذبح ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، وهي الإبل والبقر والغنم ، وبهيمة الأنعام هي الأنعام ، فالإضافة في هذا كالإضافة في قولهم : مسجد الجامع وصلاة الأولى ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ الأمر هنا للندب عند الجمهور ، وذهبت طائفة إلى أن

الأمر للوجوب ، وهذا التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿ وَأَطْعِمُواْ البائس الفقير ﴾ البائس : ذو البؤس وهو شدة الفقر ، فذكر الفقير بعده ؛ لمزيد الإيضاح .

والأمر هنا للوجوب .

وقيل : للندب .

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ المراد بالقضاء هنا هو : التأدية ، أي ليؤدوا إزالة وسخهم ، لأن التفث هو : الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظفار ، وقد أجمع المفسرون ، كما حكاه النيسابوري ، على هذا .

قال الزجاج : إن أهل اللغة لا يعرفون التفث .

وقال أبو عبيدة : لم يأت في الشرع ما يحتجّ به في معنى التفث .

وقال المبرّد : أصل التفث في اللغة : كل قاذورة تلحق الإنسان .

(127/522)

وقيل : قضاؤه ادّهانه لأن الحاج مغبرّ شعث لم يدهن ولم يستحد ، فإذا قضى نسكه وخرج من إحرامه حلق شعره ولبس ثيابه ، فهذا هو قضاء التفث .

قال الزجاج : كأنه خروج من الإحرام إلى الإحلال ﴿ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ أي : ما ينذرون

به من البرّ في حجهم ، والأمر للوجوب .

وقيل : المراد بالنذور هنا أعمال الحج ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق ﴾ هذا الطواف هو طواف الإفاضة .

قال ابن جرير : لا خلاف في ذلك بين المتأوّلين ، والعتيق : القديم كما يفيده قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 96] الآية ، وقد سمي العتيق لأن الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبار .

وقيل : لأن الله يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب .

وقيل : لأنه أعتق من غرق الطوفان .

وقيل : العتيق الكريم .

وقد أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله : ﴿ والمسجد الحرام ﴾ قال : الحرم كله ، وهو المسجد الحرام ﴿ سَوَاء العاكف فِيهِ والباد ﴾ قال : خلق الله فيه سواء .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : هم في منازل مكة سواء ، فينبغي لأهل مكة أن يوسعوا لهم حتى يقضوا مناسكهم .

وقال البادي وأهل مكة سواء ، يعني : في المنزل والحرم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو قال : من أخذ من أجور بيوت مكة إنما يأكل في

بطونه ناراً .

وأخرج ابن سعد عن عمر بن الخطاب ، أن رجلاً قال له عند المروة : يا أمير المؤمنين ، أقطعني مكاناً لي ولعقبي ، فأعرض عنه عمر وقال : هو حرم الله ، سواء العاكف فيه والباد .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء قال : كان عمر يمنع أهل مكة أن يجعلوا لها أبواباً حتى ينزل الحاجّ في عرصات الدور .

(128/522)

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه قال السيوطي بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله : ﴿ سَوَاء العاكف فِيهِ والباد ﴾ قال : " سواء المقيم والذي يرحل " وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر ، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " مكة مباحة لا تؤجر بيوتها ولا تباع رباعها " وأخرج ابن أبي شيبة وابن ماجه عن علقمة بن نضلة قال : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب ، من احتاج سكن ومن استغنى أسكن .

رواه ابن ماجه ، عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عيسى بن يونس عن عمر بن سعيد بن أبي

حفرة عن عثمان بن أبي سليمان عن علقمة فذكره .

وأخرج الدارقطني عن ابن عمر مرفوعاً : " من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً " وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن راهويه وأحمد وعبد بن حميد والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن مسعود رفعه في قوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ قال : " لو أن رجلاً همّ فيه بإلحاد وهو بعدن أبين لأذاقه الله عذاباً أليماً " قال ابن كثير : هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري ، ووقفه أشبه من رفعه ، ولهذا صمم شعبة على وقفه .

وأخرج سعيد بن منصور والطبراني عن ابن مسعود في الآية قال : من همّ بخطيئة فلم يعملها في سوى البيت ، لم تكتب عليه حتى يعملها ، ومن همّ بخطيئة في البيت ؛ لم يمته الله من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم .

(129/522)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أنيس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه مع رجلين ، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار ، فافتخروا في الأنساب ، فغضب عبد الله بن أنيس ، فقتل الأنصاري ، ثم ارتدّ عن الإسلام وهرب إلى

مكة ، فنزلت فيه ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ يعني : من لجأ إلى الحرم بإلحاد ، يعني بميل عن الإسلام .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ قال : بشرك .

وأخرج عبد بن حميد ، والبخاري في تاريخه ، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن يعلى بن أمية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه " وأخرج سعيد بن منصور ، والبخاري في تاريخه ، وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال : احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : بيع الطعام بمكة إلحاد .

وأخرج البيهقي في الشعب عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " احتكار الطعام بمكة إلحاد " وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه عن عليّ قال : لما أمر إبراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر .

فلما قدم مكة رأى على رابية في موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس ، فكلمه فقال : يا إبراهيم ، ابْنِ على ظلي أو على قدري ولا تزد ولا تنقص ، فلما بنى خرج وخلف إسماعيل وهاجر ، وذلك حين يقول الله : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ البيت ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطاء ﴿ والقائمين ﴾

قال : المصلين عنده .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة معناه .

(130/522)

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في السنن عن ابن عباس قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : ربّ ، قد فرغت ، فقال : ﴿ أَذِنَ فِي الناس بالحج ﴾ قال : ربّ ، وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذن وعليّ البلاغ ، قال : ربّ كيف أقول ؟ قال : قل : يا أيها الناس كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق .

فسمعه من في السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون .

وفي الباب آثار عن جماعة من الصحابة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ لِّيَشْهَدُواْ منافع لَهُمْ ﴾ قال : أسواقاً كانت لهم ، ما ذكر الله منافع إلا الدنيا .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة ، فأما منافع الآخرة فرضوان الله ، وأما منافع الدنيا فمما يصيبون من لحوم البدن في ذلك اليوم والذبائح

والتجارات .

وأخرج أبو بكر المروزي في كتاب العيدين عنه أيضاً قال : الأيام المعلومات : أيام العشر .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : الأيام المعلومات : يوم النحر وثلاثة أيام بعده .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : أيام التشريق .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضاً في الأيام المعلومات قال : قبل يوم التروية بيوم ، ويوم التروية ويوم عرفة .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : البائس : الزمن .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عمر قال : التفث : المناسك كلها .

وأخرج هؤلاء عن ابن عباس نحوه .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : التفث حلق الرأس والأخذ من العارضين ونتف الإبط وحلق العانة والوقوف بعرفة والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار وقصّ الأظفار وقصّ الشارب والذبح .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق ﴾ هو طواف الزيارة يوم النحر ، وورد في وجه تسمية البيت بالعتيق آثار عن جماعة من الصحابة ، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً .

وورد في فضل الطواف أحاديث ليس هذا موضع ذكرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(132/522)

وقال القاسمي :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾

أي : واذكر إذ عيّناه وجعلناه له مباءة ، أي : منزلاً ومرجعاً لعبادته تعالى وحده فأنْ في قوله تعالى : ﴿ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً ﴾ مفسرة لـ : ﴿ بَوَّأْنَا ﴾ من حيث إنه متضمن لمعنى تعبدنا لأن التبوئة للعبادة . أي : فعلنا ذلك لئلا تشرك بي شيئاً : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ أي : من الأصنام والأوثان والأقذار : ﴿ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ أي : لمن يطوف

به ويقيم ويصلّي . أو المراد بالقائمين وما بعده : المصلين ، ويكون عبّر عن الصلاة بأركانها ، للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك ، فكيف وقد اجتمعت ؟ .

(133/522)

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ أي : نَادِ فيهم به ، قال الزمخشريّ : والنداء بالحج أن يقول : حجّوا ، أو عليكم بالحج : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ أي : مشاة ، جمع راجل : ﴿ وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ أي : ركباناً على كل بعير مهزول ، أتعبه بُعد الشقة فهزله . والعدول عن ركباناً الأخصر ، للدلالة على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة ، وقوله تعالى : ﴿ يَأْتِينَ ﴾ صفة لكل ضامر ، لأنه في معنى الجمع . وقرئ يأتون صفة للرجال والركبان . أو استئناف ، فيكون الضمير للناس : ﴿ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ أي : طريق واسع بعيد : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ أي : ليحضروا منافع لهم دينية ودنيوية : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ أي : على ما ملكهم منها ، وذلّلها لهم ، ليجعلوها هدياً وضحايا . قال الزمخشريّ : كنى عن النحر [في المطبوع : البحر] والذبح ، بذكر اسم الله . لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا . وفيه تنبيه على أن الغرض الأصليّ فيما يتقرب به إلى الله أن يذكر اسمه – زاد الرازيّ – وأن

يخالَف المشركون في ذلك . فإنهم كانوا يذبحونها للنصُب والأوثان ، قال القفال : وكأن المتقرب بها وبإراقة دمائها متصوّر بصورة من يفدي نفسه بما يعادلها . فكأنه يبذل تلك الشاة بدل مهجته ، طلباً لمرضاة الله تعالى ، واعترافاً بأن تقصيره كاد يستحق مهجته . والأيام المعلومات أيام العشر . أو يوم النحر وثلاثة أيام أو يومان بعده . أو يوم عرفة والنحر ويوم بعده . أقوال للأئمة .

قال ابن كثير : ويعضد الثاني والثالث قوله تعالى : ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ يعني به ذكر الله عند ذبحها . انتهى .

(134/522)

أقول : لا يبعد أن تكون على تعليلية ، والمعنى : ليذكروا اسم الله وحده في تلك الأيام بحمده وشكره وتسبيحه ، لأجل ما رزقهم من تلك البهم . فإنه هو الرزاق لها وحده والمتفضل عليهم بها : ولو شاء لحظرها عليهم ولجعلها أوابد متوحشة . وقد امتن عليهم بها في غير موضع من تنزيله الكريم . كقوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : 71 - 72] .

والسر في إفراده هذه النعمة ، والتذكير بها دون غيرها من نعمه وأياديه ، أن بها حياة العرب وقوام معاشهم . إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخباؤهم وركوبهم وجَمالهم . فلولا تفضله تعالى عليهم بتذليلها لهم ، لما قامت لهم قائمة . لأن أرضهم ليست بذات زرع وما هم بأهل صناعة مشهورة ، ولا جزيرتهم متحضرة متمدنة . ومن كانوا كذلك ، فيجدر بهم أن يذكروا المتفضل عليهم بما يبقيهم ، ويشكروه ويعرفوا له حقه . من عبادته وحده وتعظيم حرماته وشعائره . فالاعتبار بها من ذلك ، موجب للاستكانة لرازقها ، والخضوع له والخشية منه . نظير الآية – على ما ظهر لنا – قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 3 – 4] ، هذا أولاً . وثانياً : قد يقال : إنما أفردت لتتبع بما هو البر الأعظم والخير الأجزل . وهو مواساة البؤساء منها . فإن ذلك من أجلّ ما يرضيه تعالى ، ويثيب عليه . والله أعلم .

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أي : من لحومها . والأمر للندب . وإزاحة ما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه . وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نحر هديه ، أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ ، فأكل من لحمها ، وحسا من مرقها .

(135/522)

وعن إبراهيم قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم . فرخص للمسلمين فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل .

قال في " الإكليل " : والأمر للاستحباب حيث لم يكن الدم واجباً بإطعام الفقراء . وأباح مالك الأكل من الهدى الواجب ، إلا جزاء الصيد والأذى والنذر ، وأباحه أحمد ، إلا من جزاء الصيد والنذر . وأباح الحسن الأكل من الجميع تمسكاً بعموم الآية . وذهب قوم إلى أن الأكل من الأضحية واجب ، لظاهر الأمر . وقوم إلى أن التصدق منها ندب ، وحملوا الأمر عليه . ولا تحديد فيما يؤكل أو يتصدق به ، لإطلاق الآية . انتهى .

﴿ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ ﴾ أي : الذي أصابه بؤس : أي : شدة : ﴿ الْفَقِيرَ ﴾ أي : الذي أضعفه الإعسار ، والأمر هنا للوجوب . وقد قيل به في الأول أيضاً .

(136/522)

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ .

﴿ ثُمَّ ﴾ أي : بعد الذبح : ﴿ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ أي : ليؤدوا إزالة وسخهم من الإحرام ، بالحلق [في المطبوع : بالحق] والتقصير وقصّ الأظفار ولبس الثياب : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ أي : ما ينذرونه من أعمال البر في حجهم : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ أي : طواف

الإفاضة . وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان الحج . ويقع به تمام التحلل . والعتيق : القديم . لأنه أول بيت وضع للناس . أو المعتق من تسلط الجبابرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 254. 257 ﴾

(137/522)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾

عطف على جملة ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ [الحج : 25] عطف قصة على قصة .

ويعلم منها تعليل الجملة المعطوفة عليها بأن المُلحد في المسجد الحرام قد خالف بإلحاده فيه ما أراده الله من تطهيره حتى أمر ببنائه ، والتخلص من ذلك إلى إثبات ظلم المشركين وكفرانهم نعمة الله في إقامة المسجد الحرام وتشريع الحجّ .

و(إذ) اسم زمان مجرد عن الظرفية فهو منصوب بفعل مقدّر على ما هو متعارف في أمثاله .

والتقدير : واذكر إذْ بوّأنا ، أي اذكر زمان بوّأنا لإبراهيم فيه كقوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك

للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : 30] ، أي اذكر ذلك الوقت العظيم ، وعُرف معنى تعظيمه من إضافة اسم الزمان إلى الجملة الفعلية دون المصدر فصار بما يدلّ عليه الفعل من التجدد كأنه زمن حاضر .

والتبوِئَة : الإسكان .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها ﴾ [يوسف : 56] .

والمكان : الساحة من الأرض وموضع للكون فيه ، فهو فعل مشتق من الكون ، فتبوئته المكان : إذنُه بأن يتخذه مَباءة ، أي مقراً يبني فيه بيتاً ، فوقع بذكر ﴿ مكان ﴾ إيجاز في الكلام كأنه قيل : وإذْ أعطيناه مكاناً ليتخذ فيه بيتاً ، فقال : مكان البيت ، لأنّ هذا حكاية عن قصة معروفة لهم .

وسبق ذكرها فيما نزل قبل هذه الآية من القرآن .

واللام في ﴿ لإبراهيم ﴾ لام العلة لأنّ ﴿ إبراهيم ﴾ مفعول أول ل ﴿ بوّأنا ﴾ الذي هو من باب أعطى ، فاللام مثلها في قولهم : شكرت لك ، أي شكرتك لأجلك .

وفي ذكر اللام في مثله ضرب من العناية والتكرمة .

و ﴿ البيت ﴾ معروف معهود عند نزول القرآن فلذلك عرف بلام العهد ولولا هذه النكتة

لكان ذكر ﴿ مكان ﴾ حشواً .

والمقصود أن يكون مأوى للدين ، أي معهداً لإقامة شعائر الدين .

(138/522)

فكان يتضمن بوجه الإجمال أنه يترقب تعليماً بالدين فلذلك أعقب بحرف (أنْ) التفسيرية التي تقع بعد جملة فيها معنى القول دون حروفه .

وكان أصل الدين هو نفي الإشراك بالله فعلم أن البيت جعل مَعْلَماً للتوحيد بحيث يشترط على الداخل إليه أن لا يكون مشركاً ، فكانت الكعبة لذلك أول بيت وضع للناس ، لإعلان التوحيد كما بيناه عند قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ في [سورة آل عمران : 96] .

وقوله تعالى : ﴿ وطهر بيتي ﴾ مؤذن بكلام مقدّر دلّ عليه ﴿ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ .

والمعنى : وأمرناه ببناء البيت في ذلك المكان ، وبعد أن بناه قلنا لا تُشرك بي شيئاً وطهّر بيتي .

وإضافة البيت إلى ضمير الجلالة تشريف للبيت .

والتطهير : تنزيهه عن كل خبيث معنىً كالشرك والفواحش وظلم الناس وبثّ الخصال الذميمة ، وحسّاً من الأقذار ونحوها ، أي أعدده طاهراً للطائفين والقائمين فيه .

والطواف : المشي حول الكعبة ، وهو عبادة قديمة من زمن إبراهيم قررها الإسلام وقد كان أهل الجاهلية يطوفون حول أصنامهم كما يطوفون بالكعبة .

والمراد بالقائمين : الداعون تجاه الكعبة ، ومنه سمي مقام إبراهيم ، وهو مكان قيامه للدعاء فكان الملتزم موضعاً للدعاء .

قال زيد بن عَمرو بن نُفيل:

عُذتُ مما عاذ به إبراهيمُ . . .

مستقبلَ الكعبة وهو قائم

والركّع : جمع راكع ، ووزن فُعّل يكثر جمعاً لفاعل وصفاً إذا كان صحيح اللام نحو : عُذّل وسُجّد .

والسجود : جمع سَاجد مثل : الرقود ، والقعود ، وهو من جموع أصحاب الأوصاف المشابهة مَصادر أفعالها .

﴿ وأذّن ﴾ عطف على ﴿ وطهر بيتي ﴾ [الحج : 26] .

وفيه إشارة إلى أن من إكرام الزائر تنظيف المنزل وأنّ ذلك يكون قبل نزول الزائر بالمكان .

والتأذين : رفع الصوت بالإعلام بشيء .

وأصله مضاعف أذن إذا سمع ثم صار بمعنى بلغه الخبر فجاء منه آذن بمعنى أخبر .

(139/522)

وأذّن بما فيه من مضاعفة الحروف مشعر بتكرير الفعل ، أي أكثر الإخبار بالشيء .

والكثرة تحصل بالتكرار وبرفع الصوت القائم مقام التكرار .

ولكونه بمعنى الإخبار يُعدّى إلى المفعول الثاني بالباء .

والناس يعمّ كل البشر ، أي كل ما أمكنه أن يبلغ إليه ذلك .

والمراد بالحجّ : القصد إلى بيت الله .

وصار لفظ الحجّ علماً بالغلبة على الحضور بالمسجد الحرام لأداء المناسك .

ومن حكمة مشروعيته تلقي عقيدة توحيد الله بطريق المشاهدة للهيكل الذي أقيم لذلك حتى يرسخ معنى التوحيد في النفوس لأن للنفوس ميلاً إلى المحسوسات ليتقوى الإدراك العقلي بمشاهدة المحسوس .

فهذه أصل في سنّة المؤثرات لأهل المقصد النافع .

وفي تعليق فعل ﴿ يأتوك ﴾ بضمير خطاب إبراهيم دلالة على أنه كان يحضر موسم الحجّ

كل عام يبلّغ للناس التوحيد وقواعد الحنيفية .

روي أن إبراهيم لما أمره الله بذلك اعتلى جبل أبي قيس وجعل أصبعيه في أذنيه ونادى : "إن الله كتب عليكم الحجّ فْحُجُّوا" .

وذلك أقصى استطاعته في امتثال الأمر بالتأذين .

وقد كان إبراهيم رحّالة فلعله كان ينادي في الناس في كل مكان يحل فيه .

وجملة ﴿ يأتوك ﴾ جواب للأمر ، جعل التأذين سبباً للإتيان تحقيقاً لتيسير الله الحج على الناس .

فدل جواب الأمر على أنّ الله ضمن له استجابة ندائه .

وقوله ﴿ رجالاً ﴾ حال من ضمير الجمع في قوله ﴿ يأتوك ﴾ .

وعطف عليه و﴿ على كل ضامر ﴾ بواو التقسيم التي بمعنى (أو) كقوله تعالى : ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ [التحريم : 5] إذ معنى العطف هنا على اعتبار التوزيع بين راجل وراكب ، إذ الراكب لا يكون راجلاً ولا العكس .

والمقصود منه استيعاب أحوال الآتين تحقيقاً للوعد بتيسير الإتيان المشار إليه بجعل إتيانهم جواباً للأمر ، أي يأتيك من لهم رواحل ومن يمشون على أرجلهم .

ولكون هذه الحال أغرب قدّم قوله ﴿ رجالاً ﴾ ثم ذكر بعده ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ تكملة لتعميم الأحوال إذ إتيان الناس لا يعدو أحد هذين الوصفين .

و ﴿ رجالاً ﴾ : جمع راجل وهو ضد الراكب .

والضامر : قليل لحم البطن .

يقال : ضمر ضمُوراً فهو ضامر ، وناقة ضامر أيضاً .

والضمور من محاسن الرواحل والخيلِ لأنه يعينها على السير والحركة .

فالضامر هنا بمنزلة الاسم كأنه قال : وعلى كلّ راحلة .

وكلمة (كُلّ) من قوله ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ مستعملة في الكثرة ، أي وعلى رواحل كثيرة .

وكلمة (كلّ) أصلها الدلالة على استغراق جنس ما تضاف إليه ويكثر استعمالها في معنى كثير مما تضاف إليه كقوله تعالى : ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ [النمل : 23] أي من أكثر الأشياء التي يؤتاها أهل الملك ، وقول النابغة:

بها كلّ ذيّال وخنساء ترعوي . . .

إلى كلّ رجّاف من الرمل فارد

أي : بها وحش كثير في رمال كثيرة .

وتكرر هذا الإطلاق ثلاث مرات في قول عنترة:

جادت عليه كلّ بِكْرٍ حُرة . . .

فتركْنَ كلّ قرارة كالدرهم

سَحاً وتسكاباً فكلّ عشيةٍ . . .

يجري عليها الماء لم يتصرم

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ﴾ في [سورة البقرة : 145] .

ويأتي إن شاء الله في سورة النمل .

و﴿ يأتين ﴾ يجوز أن يكون صفة ل ﴿ كل ضامر ﴾ لأن لفظ (كل) صيره في معنى الجمع .

وإذ هو جمع لما لا يعقل فحقه التأنيث ، وإنما أسند الإتيان إلى الرواحل دون الناس فلم يقل : يأتون ، لأنّ الرواحل هي سبب إتيان الناس من بُعد لمن لا يستطيع السفر على رجليه .

ويجوز أن تُجعل جملة ﴿ يأتين ﴾ حالاً ثانية من ضمير الجمع في ﴿ يأتوك ﴾ لأنّ الحال الأولى تضمنت معنى التنويع والتصنيف ، فصار المعنى : يأتوك جماعات ، فلما تأوّل ذلك بمعنى الجماعات جرى عليهم الفعل بضمير التأنيث .

وهذا الوجه أظهر لأنه يتضمن زيادة التعجيب من تيسير الحج حتى على المشاة .

وقد تشاهد في طريق الحج جماعات بين مكة والمدينة يمشون رجالاً بأولادهم وأزوادهم وكذلك يقطعون المسافات بين مكة وبلادهم .

(141/522)

والفجّ : الشقّ بين جبلين تسير فيه الركاب ، فغلب الفجّ على الطريق لأن أكثر الطرق المؤدية إلى مكة تُسلك بين الجبال .

والعميق : البعيد إلى أسفل لأن العمق البعد في القعر ، فأطلق على البعيد مطلقاً بطريقة المجاز المرسل ، أو هو استعارة بتشبيه مكة بمكان مرتفع والناس مصعدون إليه .

وقد يطلق على السفر من موطن المسافر إلى مكان آخر إصعاد كما يطلق على الرجوع انحدار وهبوط ، فإسناد الإتيان إلى الرواحل تشريف لها بأن جعلها مشاركة للحجيج في الإتيان إلى البيت .

وقوله ﴿ ليشهدوا ﴾ يتعلق بقوله ﴿ يأتوك ﴾ فهو علّة لإتيانهم الذي هو مسبب على التأذين بالحجّ فآل إلى كونه علّة في التأذين بالحجّ .

ومعنى ﴿ لِيَشهدوا ﴾ ليحضروا منافع لهم ، أي ليحضروا فيحصّلوا منافع لهم إذ يحصّل كلّ واحد ما فيه نفعه .

وأهم المنافع ما وعدهم الله على لسان إبراهيم عليه السلام من الثواب .

فكُني بشهود المنافع عن نيلها .

ولا يعرف ما وعدهم الله على ذلك بالتعيين .

وأعظم ذلك اجتماع أهل التوحيد في صعيد واحد ليتلقى بعضهم عن بعض ما به كمال إيمانه .

وتنكير ﴿ منافع ﴾ للتعظيم المراد منه الكثرة وهي المصالح الدينية والدنيوية لأن في مجمع الحجّ فوائد جمّة للناس : لأفرادهم من الثواب والمغفرة لكل حاج ، ولمجتمعهم لأن في الاجتماع صلاحاً في الدنيا بالتعارف والتعامل .

وخُص من المنافع أن يذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام .

وذلك هو النحر والذبح للهدايا .

وهو مجمل في الواجبة والمتطوع بها .

وقد بيّنْته شريعة إبراهيم من قبل بما لم يبلغ إلينا ، وبيّنه الإسلام بما فيه شفاء .

وحرف ﴿ على ﴾ متعلّق بـ ﴿ يذكروا ، ﴾ وهو للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى الملابسة والمصاحبة ، أي على الأنعام .

وهو على تقدير مضاف ، أي عند نحر بهيمة الأنعام أو ذبحها .

و(ما) موصولة ، و﴿ من بهيمة الأنعام ﴾ بيان لمدلول (ما) .

والمعنى : ليذكروا اسم الله على بهيمة الأنعام .

(142/522)

وأدمج في هذا الحكم الامتنان بأنّ الله رزقهم تلك الأنعام ، وهذا تعريض بطلب الشكر على هذا الرزق بالإخلاص لله في العبادة وإطعام المحاويج من عباد الله من لحومها ، وفي ذلك سد لحاجة الفقراء بتزويدهم ما يكفيهم لعامهم ، ولذلك فرع عليه ﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ .

فالأمر بالأكل منها يحتمل أن يكون أمر وجوب في شريعة إبراهيم عليه السلام فيكون الخطاب في قوله ﴿ فكلوا ﴾ لإبراهيم ومن معه .

وقد عدل عن الغيبة الواقعة في ضمائر ﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ ، إلى الخطاب بذلك في قوله : ﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس ﴾ الخ .

على طريقة الالتفات أو على تقدير قول محذوف مأمورٍ به إبراهيم عليه السلام .

وفي حكاية هذا تعريض بالرد على أهل الجاهلية إذ كانوا يمنعون الأكل من الهدايا .

ثم عاد الأسلوب إلى الغيبة في قوله : ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ [الحج : 29] .

ويحتمل أن تكون جملة ﴿ فكلوا منها ﴾ الخ معترضة مفرّعة على خطاب إبراهيم ومن معه تفريعَ الخبر على الخبر تحذيراً من أن يُمنع الأكل من بعضها .

والأيام المعلومات أجملت هنا لعدم تعلّق الغرض ببيانها إذ غرض الكلام ذكر حجّ البيت وقد بينت عند التعرض لأعمال الحج عند قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ [البقرة : 203] .

والبائس : الذي أصابه البؤس ، وهو ضيق المال ، وهو الفقير ، هذا قول جمع من المفسرين .

وفي "الموطأ" : في باب ما يكره من أكل الدواب ، قال مالك : سمعت أن البائس هو الفقير أ هـ .

وقلت : من أجل ذلك لم يعطف أحد الوصفين على الآخر لأنه كالبيان له وإنما ذكر البائس مع أنّ الفقير مغن عنه لترقيق أفئدة الناس على الفقير بتذكيرهم أنه في بؤس لأن وصف فقير لشيوع تداوله على الألسن صار كاللقب غيرَ مشعر بمعنى الحاجة وقد حصل من ذكر الوصفين التأكيد .

وعن ابن عباس : البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه ، والفقير : الذي تكُون ثيابه نقيّة ووجهه وجه غني .

فعلى هذا التفسير يكون البائس هو المسكين ويكون ذكر الوصفين لقصد استيعاب أحوال المحتاجين والتنبيه إلى البحث عن موقع الامتناع .

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29) ﴾

هذا من جملة ما خاطب الله به إبراهيم عليه السلام .

وقرأ ورش عن نافع ، وقنبلٌ عن ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عَمرو بكسر لام ﴿ لِيَقْضوا ﴾ .

وقرأه الباقون بسكون اللام .

وهما لغتان في لام الأمر إذا وقعت بعد (ثم) ، كما تقدم آنفاً في قوله تعالى : ﴿ ثم ليقطع ﴾ [الحج : 15] .

و(ثم) هنا عطفت جملة على جملة فهي للتراخي الرتبي لا الزمني فتفيد أنّ المعطوف بها أهم في الغرض المسوق إليه الكلام من المعطوف عليه .

وذلك في الوفاء بالنذر والطواف بالبيت العتيق ظاهرٌ إذ هما نسكان أهم من نحرِ الهدايا ، وقضاء التّفث محول على أمر مهم كما سنبينه .

والتفث : كلمة وقعت في القرآن وتردّد المفسرون في المراد منها .

واضطرب علماء اللغة في معناها لعلّهم لم يعثروا عليها في كلام العرب المحتج به .

قال الزجاج : إن أهل اللغة لا يعلمون التفث إلاّ من التفسير ، أي من أقوال المفسرين .

فعَن ابن عُمر وابن عبّاس : التفث : مناسك الحجّ وأفعالُه كلها .

قال ابن العربي : لم صح عنهما لكان حجة الإحاطة باللغة .

قلت : رواه الطبري عنهما بأسانيد مقبولة .

ونسبة الجصّاص إلى سعيد .

وقال نفطويه وقطرب : التفث : هو الوسخ والدرَن .

ورواه ابن وهب عن مالك بن أنس ، واختاره أبو بكر بن العربي وأنشد قطرب لأمية بن أبي الصلت:

حفّوا رؤوسهم لم يَحلقوا تفثاً . . .

ولم يسلّموا لهم قَمْلاً وصِئْبانا

ويحتمل أن البيت مصنوع لأن أئمة اللّغة قالوا : لم يَجىء في معنى التفث شعر يحتج به .

(144/522)

قال نفطويه : سألت أعرابياً : ما معنى قوله ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ ، فقال : ما أفسّرُ القرآن ولكن نقول للرجل ما أتفثك ، أي ما أدرَنَك .

وعن أبي عبيدة : التّفَث : قصّ الأظفار والأخذُ من الشارب وكل ما يحرم على المُحرم ، ومثله قوله عكرمة ومجاهد وربما زاد مجاهد مع ذلك : رمي الجمار .

وعن صاحب "العين" والفراء والزجاج : التفث الرمي ، والذبح ، والحلق ، وقصّ الأظفار والشارب وشعر الإبط .

وهو قول الحسن ونسب إلى مالك بن أنس أيضاً .

وعندي : أن فعل ﴿ ليقضوا ﴾ ينادي على أن التفث عمل من أعمال الحج وليس وسَخاً ولا ظفراً ولا شعراً .

ويؤيده ما روي عن ابن عمر وابن عباس آنفاً .

وأن موقع (ثمّ) في عطف جملة الأمر على ما قبلها ينادي على معنى التراخي الرتبي فيقتضي أنّ المعطوف بـ (ثمّ) أهم مما ذكر قبلها فإن أعمال الحج هي المهم في الإتيان إلى مكة ، فلا جرم أن التفث هو من مناسك الحجّ وهذا الذي درج عليه الحريري في قوله في المقامة المكية : "فلمّا قضيت بعون الله التفث ، واستبحت الطيبَ والرفث ، صادف موسم الخَيف ، معمعان الصيف" .

وقوله : ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ أي إن كانوا نذوراً أعمالاً زائدة على ما تقتضيه فريضة

الحجّ مثل نذر طواف زائد أو اعتكاف في المسجد الحرام أو نسكاً أو إطعام فقير أو نحو ذلك .

والنذر : التزام قُربة لله تعالى لم تكن واجبة على ملتزِمها بتعليقٍ على حصول مرغوب أو بدون تعليق ، وبالنذر تصير القربة الملتزَمة واجبة على الناذر .

وأشهر صِيَغِه : لله عليّ . . .

وفي هذه الآية دليل على أن النذر كان مشروعاً في شريعة إبراهيم ، وقد نذر عُمر في الجاهلية اعتكاف ليلة بالمسجد الحرام ووفى به بعد إسلامه كما في الحديث .

وقرأ الجمهور ﴿ وليُوفوا ﴾ بضم التحتية وسكون الواو بعدها مضارع أوفى ، وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ وليوَفُّوا ﴾ بتشديد الفاء وهو بمعنى قراءة التخفيف لأن كلتا الصيغتين من فعل وفي المزيد فيه بالهمزة وبالتضعيف .

(145/522)

وختم خطاب إبراهيم بالأمر بالطواف بالبيت إيذاناً بأنّهم كانوا يجعلون آخر أعمال الحج الطواف بالبيت وهو المسمّى في الإسلام طواف الإفاضة .

والعتيق : المحرر غير المملوك للناس .

شبه بالعبد العتيق في أنه لا ملك لأحد عليه .

وفيه تعريض بالمشركين إذ كانوا يمنعون منه من يشاءون حتى جعلوا بابه مرتفعاً بدون درج لئلا يدخله إلاّ من شاءوا كما جاء في حديث عائشة أيام الفتح .

وأخرج الترمذي بسند حسن أن رسول الله قال : " إنما سمّى الله البيت العتيق لأنه أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبّار قطّ " .

واعلم أنّ هذه الآيات حكاية عما كان في عهد إبراهيم عليه السلام فلا تؤخذ منها أحكام الحجّ والهدايا في الإسلام .

وقرأ الجمهور ﴿ ثمّ لْيَقْضوا ولْيُوفُوا ولْيَطَوّفُوا ﴾ بإسكان لام الأمر في جميعها .

وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر : ﴿ وليوفوا ولِيطوّفوا ﴾ بكسر اللام فيهما .

وقرأ ابن هشام عن ابن عامر ، وأبو عمرو ، وورش عن نافع ، وقنبلٌ عن ابن كثير ، ورويس عن يعقوب : ﴿ ثمّ لِيقضوا ﴾ بكسر اللاّم .

وتقدّم توجيه الوجهين آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ ثم ليقطع ﴾ [الحج : 15] .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ ولْيُوفّوا ﴾ بفتح الواو وتشديد الفاء من وفّى المضاعف .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) ﴾

أي اذكر حين بوأنا ، تقول العرب : بوأت له منزلاً ، وبوأته منزلاً ، وبوأته في منزل بمعنى واحد كلها بمعنى : هيأته له ، ومكنت له فيه ، وأنزلته فيه ، فتبوأه : أي نزله ، وتبوأت له منزلاً أيضاً هيأته له ، وأنزلته فيه فبوأه المتعدي بنفسه ، كقوله تعالى ﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفاً ﴾ [العنكبوت : 58] الآية وقوله ﴿ والذين هَاجَرُواْ فِي الله مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدنيا حَسَنَةً ﴾ [النحل : 41] الآية ومنه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي :

كم من أخ لي ماجد . . . بوأته بيدي لحدا

أي هيأته له ، وأنزلته فيه ، وبوأت له كقوله هنا ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ ﴾ الآية ، وبوأته فيه كقول الشاعر :

وبوئت في صميم معشرها . . . وتم في قومها مبوؤها

أي نزلت من الكرم في صميم النسب ، وتبوأت له منزلاً كقوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً ﴾ [يونس : 87] وتبوأه كقوله ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض

نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ [الزمر : 74] الآية . وقوله تعالى ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ [يوسف : 56] وقوله تعالى ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان ﴾ [الحشر : 9] الآية . وأصل التبوء . من المباءة : وهي منزل القوم في كل موضع ، فقوله ﴿ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت ﴾ أي هيأناه له ، وعرفناه إياه ، ليبنيه بأمرنا على قواعده الأصلية المندرسة ، حين أمرنا ببنائه ، كما يهيأ المكان لمن يريد النزول فيه .

(147/522)

والمفسرون يقولون : بوأه له ، وأراه إياه بسبب ريح تسمى الخجوج كنست ما فوق الأساس ، حتى ظهر الأساس الأول الذي كان مندرساً ، فبناه إبراهيم وإسماعيل عليه . وقيل : أرسل له مزنة فاستقرت فوقه ، فكان ظلها على قدر مساحة البيت ، فحفرا عن الأساس ، فظهر لهما فبنياه عليه . وهم يقولون أيضاً : إنه كان مندرساً من زمن طوفان نوح ، وأن محله كان مربض غنم لرجل من جرهم ، والله تعالى أعلم .

وغاية ما دل عليه القرآن : أن الله بوأ مكانه لإبراهيم ، فهيأه له ، وعرفه إياه ليبنيه في محله ، وذهبت جماعة من أهل العلم إلى أن أول من بناه إبراهيم ولم يبن قبله . وظاهر قوله : حين

ترك إسماعيل ، وهاجر في مكة ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم ﴾ [إبراهيم : 37] يدل على أنه كان مبنياً ، واندرس ، كما يدل عليه قوله هنا ﴿ مَكَانَ البيت ﴾ لأنه يدل على أن له مكاناً سابقاً ، كان معروفاً . والله أعلم .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ الآية متعلق بمحذوف ، وقد دلت على تقدير المحذوف المذكور آية البقرة وهي قوله تعالى ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ [البقرة : 125] الآية فدلت آية البقرة المذكورة على أن معنى آية الحج هذه ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت ﴾ وعهدنا إليه : أي أوصيناه ، أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين ، وزادت آية البقرة : أن إسماعيل مأمور بذلك أيضاً مع أبيه إبراهيم ، وإذا عرفت أن المعنى : وعهدنا إلى إبراهيم ألا تشرك بي شيئاً ، وطهر بيتي .

الآية .

فاعلم أن في " أَنْ " وجهين :

أحدهما : أنها هي المفسرة ، وعليه فتطهير البيت من الشرك ، وغيره هو تفسير العهد إلى إبراهيم : أي والعهد هو إيصاؤه بالتطهير المذكور .

والثاني : أنها مصدرية بناء على دخلو " أن " المصدرية على الأفعال الطلبية .

فإنْ قيل : كيف تكون مفسرة للعهد إلى إبراهيم ، وهو غير مذكور هنا ؟

فالجواب : أنه مذكور في سورة البقرة في المسألة بعينها ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، فالمذكور هناك كأنه مذكور هنا ، لأن كلام الله يصدق بعضه بعضاً ، والتطهير هنا في قوله ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ يشمل التطهير المعنوي ، والحسي ، فيطهره الطهارة الحسية من الأقذار ، والمعنوية : من الشرك والمعاصي ، ولذا قال ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً ﴾ وكانت قبيلة جرهم تضع عنده الأصنام تعبدها من دون الله ، وقد قدمنا في سورة الإسراء الكلام مستوفى فيما كان عند الكعبة من الأصنام عام الفتح ، وطهرها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنجاس الأوثان وأقذارها . كما أمر الله بذلك إبراهيم هنا وقال لنبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [النحل : 123] الآية والمراد بالطائفين في هذه الآية : الذين يطوفون حول البيت ، والمراد بالقائمين والركع السجود : المصلون أي طهر بيتي للمتعبدين ، بطواف ، أو صلاة ، والركع : جمع راكع ، والسجود : جمع ساجد .

وقوله تعالى في هذه الآية ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً ﴾ لفظة " شَيْئاً " مفعول به : للا تشرك : أي لا تشرك بي شيئاً من الشركاء كائناً ما كان ، ويحتمل أن تكون ما ناب عن المطلق ، من

لا تشرك : أي لا تشرك بي شيئاً من الشرك ، لا قليلاً ، ولا كثيراً .

فالمعنى على هذا : لا تشرك بي شركاً قليلاً ، ولا كثيراً ، وقرأ نافع وعاصم في رواية حفص ، وابن عامر في رواية هشام . بيتي بفتح الياء ، وقرأ باقي السبعة بإسكانها .

(149/522)

واعلم أن المؤرخين لهم كلام كثير في قصة بناء إبراهيم ، وإسماعيل للبيت ، ومن جملة ما يزعمون ، أن البيت الحرام رفعه الله إلى السماء أيام الطوفان ، وأنه كان من ياقوتة حمراء ودرج على ذلك ناظم عمود النسب فقال :

ودلت إبراهيم مزنة عليه . . . فهي على قدر المساحة تريه

وقيل دلته خجوج كنست . . . ما حوله حتى بدا ما أسست

قبل الملائك من البناء . . . قبل ارتفاعه إلى السماء

ومعلوم أن هذا ونحوه شبيه بالاسرائيليات لا يصدق منه إلا ما قام دليل من كتاب ، أو سنة على صدقه ، ولذلك نقلل من ذكر مثل ذلك في الغالب .

مسألة

يؤخذ من هذه الآية الكريمة : أنه لا يجوز أن يترك عند بيت الله الحرام قذر من الأقذار ، ولا

نجس من الأنجاس المعنوية ، ولا الحسية ، فلا يترك فيه أحد يرتكب ما لا يرضي الله ، ولا أحد يلوثه بقذر من النجاسات .

ولا شك أن دخول المصورين في المسجد الحرام حول بيت الله الحرام بآلات التصوير يصورون بها الطائفين والقائمين والركع السجود : أن ذلك مناف لما أمر الله به من تطهير بيته الحرام للطائفين والقائمين والركع السجود ، فانتهاك حرمة بيت الله بارتكاب حرمة التصوير عنده لا يجوز . لأن تصوير الإنسان دلت الأحاديث الصحيحة على أنه حرام ، وظاهرها العموم في كل أنواع التصوير . ولا شك أن ارتكاب أي شيء حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من الأقذار ، والأنجاس المعنوية التي يلزم تطهير بيت الله منها . وكذلك ما يقع في المسجد من الكلام المخل بالدين والتوحيد لا يجوز إقرار شيء منه ، ولا تركه .

ونرجو الله لنا ولمن ولاه الله أمرنا ، ولإخواننا المسلمين التوفيق إلى ما يرضيه في حرمه ، وسائر بلاده ، إنه قريب مجيب .

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27)

(150/522)

الأذان في اللغة : الإعلام : ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾ [التوبة : 3] وقول الحرث بن حلزة :

آذنتنا ببينها أسماء . . . رب ثاوٍ يمل منه الثواء

والحج في اللغة : القصد ، وكثرة الاختلاف ، والتردد : تقول العرب : حج بنو فلان فلاناً : إذا قصدوه ، وأطالوا الاختلاف إليه ، والتردد عليه . ومنه قول المخبل السعدي :

ألم تعلمي يا أم أسعد أنما . . . تخاطأني ريب المنون لأكبرا

وأشهد من عوف حلولاً كثيرة . . . يحجون سب الزبرقان المزعفرا

قوله : يحجون يعني : يكثرون قصده ، والاختلاف إليه ، والتردد عليه . والسب بالكسر : العمامة . وعنى بكونهم يحجون عمامته : أنهم يحجونه ، فكنى عنه بالعمامة . والرجال في الآية : جمع راجل ، وهو الماشي على رجليه ، والضامر : البعير ونحوه . المهزول : الذي أتعبه السفر . وقوله "يَأْتِينَ" يعني : الضوامر المعبر عنها بلفظ كل ضامر ، لأنه في معنى : وعلى ضوامر يأتين من كل فج عميق ، لأن لفظة "كُلَّ" صيغة عموم ، يشمل ضوامر كثيرة : والفج : الطريق ، وجمعه : فجاج : ومنه قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء : 31] والعميق : البعيد ، ومنه قول الشاعر :

إذا الخيل جاءت من فجاجٍ عميقةٍ . . . يمد بها في السير أشعث شاحب

وأكثر ما يستعمل العمق في البعد سفلاً ، تقول : بئر عميقة : أي بعيدة القعر : والخطاب في

قوله ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ لإبراهيم كما هو ظاهر من السياق . وهو قول الجمهور ، خلافاً لمن زعم أن الخطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم ، وعلى إبراهيم وسلم ، وممن قال بذلك : الحسن ، ومال إليه القرطبي ، فقوله تعالى ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ أي وأمرنا إبراهيم أن أذن في الناس بالحج : أي أعلمهم ، وناد فيهم بالحج : أي بأن الله أوجب عليهم حج بيته الحرام .

(151/522)

وذكر المفسرون أنه لما أَمره ربه ، أن يؤذن في الناس بالحج قال : يا رب ، كيف أبلغ الناس ، وصوتي لا ينفذهم ، فقال : ناد وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه . وقيل : على الحجر . وقيل : على الصفا . وقيل : على أبي قبيس ، وقال : يا أيها الناس ، إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه ، فيقال : إن الجبال تواضعت ، حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع من في الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك .

قال ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر هذا الكلام : هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف والله أعلم ، وأوردها ابن

جرير وابن أبي حاتم مطولة . انتهى منه .

وقوله تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ مجزوم في جواب الطلب ، وهو عند علماء العربية مجزوم بشرط مقدر ، دل عليه الطلب على الأصح : أي إن تؤذن في الناس بالحج يأتوك .

وإنما قال "يَأْتُوكَ" لأن المدعو يتوجه نحو الداعي ، وإن كان إتيانهم في الحقيقة للحج ، لأن نداء إبراهيم للحج : أي يأتوك ملبين دعوتك ، حاجين بيت الله الحرام ، كما ناديتهم لذلك ، وعلى قول الحسن الذي ذكر عنه : أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

(152/522)

ففي هذه الآية دليل على وجوب الحج ، وعلى قول الجمهور ، فوجوب الحج بها على هذه الأمة ، مبني على أن شرع من قبلنا شرع لنا ، كما أوضحناه في سورة المائدة ، مع أنه دلت آيات أخر ، على أن الإيجاب المذكور على لسان إبراهيم وقع مثله أيضاً على لسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، كقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : 97] وقوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : 196] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ

عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 158].

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية. وقوله: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ الآية. قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء. إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً، لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم: وقال وكيع، عن أبي العميس، عن أبي حلحلة، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس قال: ما آسى على شيء إلا أني وددت أن يكنت حججت ماشياً، لأن الله يقول ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾.

والذي عليه الأكثرون: أن الحج راكباً أفضل اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه حج راكباً مع كمال قوته صلى الله عليه وسلم. انتهى منه.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: اعلم أنه قد تقرر في الأصول: أن منشأ الخلاف في هذه المسألة، التي هي: هل الركوب في الحج. أفضل، أو المشي؟ ونظائرها كون أفعال النَّبي صلى الله عليه وسلم بالنظر إلى الجبلة والتشريع ثلاثة أقسام:

(153/522)

القسم الأول: هو الفعل الجبلي المحض: أعني الفعل الذي تقتضيه الجبلة البشرية بطبيعتها، كالقيام، والقعود، والأكل، والشرب، فإن هذا لم يفعل التشريع والتأسي، فلا يقول أحد:

أنا أجلس وأقوم تقرباً لله ، واقتداء بنبيه صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان يقوم ويجلس لأنه لم يفعل ذلك التشريع والتأسي . وبعضهم يقول : فعله الجبلي يقتضي الجواز ، وبعضهم يقول : يقتضي الندب . والظاهر ما ذكرنا من أنه لم يفعل للتشريع ، ولكنه يدل على الجواز .

القسم الثاني : هو الفعل التشريعي المحض . وهو الذي فعل لأجل التأسي ، والتشريع كأفعال الصلاة ، وأفعال الحج مع قوله : " صلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي " وقوله : " خذوا عني مناسككم " .

القسم الثالث : وهو المقصود هنا هو الفعل المحتمل للجبلي والتشريعي .

وضابطه : أن تكون الجبلة البشرية تقتضيه بطبيعتها ، ولكنه وقع متعلقاً بعبادة بأن وقع فيها ، أو في وسيلتها كالركوب في الحج ، فإن ركوبه صلى الله عليه وسلم في حجه محتمل للبجلة ، لأن الجبلة البشرية تقتضي الركوب ، كما كان يركب صلى الله عليه وسلم في أسفاره غير متعبد بذلك الركوب ، بل لاقتضاء الجبلة إياه : ومحتمل للشرعي لأنه صلى الله عليه وسلم فعله في حال تلبسه بالحج وقال : " خذوا عني مناسككم " ومن فروع هذه المسألة : جلسة الاستراحة في الصلاة والرجوع من صلاة العيد في طريق أخرى غير الذي ذهب فيها إلى صلاة العيد . والضجعة على الشق الأيمن ، بين ركعتي الفجر ، وصلاة الصبح ، ودخول مكة من كداء بالفتح والمد ، والخروج من كدى بالضم والقصر . والنزول بالمحصب بعد النفر من مِنًى ونحو ذلك .

ففي كل هذه المسائل خلاف بين أهل العلم لاحتمالها للجبلي والتشريعي . وإلى هذه المسألة أشار في مراقي السعود بقوله :

وفعله المركوز في الجبلة . . . كالأكل والشرب فليس مله

من غير لمح الوصف والذي احتمل . . . شرعاً ففيه قل تردد حصل

فالحج راكباً عليه يجري . . . كضجعةٍ بعد صلاة الفجر

(154/522)

ومشهور مذهب مالك : أن الركوب في الحج أفضل ، إلا في الطواف والسعي ، فالمشي فيهما واجب .

وقال سند واللخمي من المالكية : إن المشي أفضل للمشقة ، وركوبه صلى الله عليه وسلم جبلي لا تشريعي .

وما ذكرنا عن مالك من أن الركوب في الحج أفضل من المشي ، هو قول أكثر أهل العلم ، وبه قال أبو حنيفة ، والشافعي وغيرهما .

قال النووي في شرح المهذب : قد ذكرنا أن الصحيح في مذهبنا أن الركوب أفضل . قال العبدري : وبه قال أكثر الفقهاء ، وقال داود : ماشياً أفضل ، واحتج بحديث عائشة : أن

النَّبي صلى الله عليه وسلم لعائشة : " ولكنَّها على قدر نفقتكِ أو نصبِك " رواه البخاري ومسلم ، وفي رواية صحيحة " على قدر عنائكِ ونصبك " وروى البيهقي بإسناده ، عن ابن عباس قال : ما آسى على شيء ما آسى أني لم أحج ماشياً ، وعن عبيد بن عمير قال ابن عباس : ما ندمت على شيء فاتني في شبابي ، إلا أني لم أحج ماشياً ، ولقد حج الحسن بن علي خمساً وعشرين حجة ماشياً . وإن النجائب لتقاد معه ، ولقد قاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات ، حتى كان يعطي الخف ، ويمسك النعل . انتهى محل الغرض منه ، والحديث المرفوع عن ابن عباس في فضل الحج ماشياً : ضعيف ، وحديث عائشة المتفق عليه الذي أشار إليه النووي يقوي حجة من قال : بأن المشي في الحج أفضل من الركوب ، لأنه أكثر نصباً وعناء . ولفظ البخاري " ولكنها على قدر نفقتك أو نصبك " ولفظ مسلم " ولكنها على قدر نصبك " أو قال " نفقتك " والنصب : التعب ، والمشقة .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى : قد دل الكتاب ، والسنة ، وإجماع المسلمين : على وجوب الحج مرة واحدة في العمر ، وهو إحدى الدعائم الخمس ، التي بني عليها الإسلام إجماعاً .

أما دليل وجوبه من كتاب الله : فقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : 97] .

وأما السنة فالأحاديث في ذلك كثيرة ، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ قال " خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا " ، فقال رجل : أكل عام يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو قلت : نعم لوجبت ولما استطعتم ، ثم قال : ذروني ما تَرَكْتُكُم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه " انتهى منه .

ومحل الشاهد من هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا " ، ونحوه أخرجه الإمام أحمد والنسائي ، واستدل بهذا الحديث على أن الأمر المجرد من القرائن ، لا يقتضي التكرار كما هو مقرر في الأصول .

والدليل على أنه إحدى الدعائم الخمس التي بني عليها الإسلام : حديث ابن عمر المتفق عليه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان " هذا لفظ البخاري .

وقد وردت في فضل الحج والترغيب فيه أحاديث كثيرة : فمن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الأعمال أفضل ؟ قال " إيمان بالله ورسوله قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، قيل ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور " متفق عليه . وعنه رضي الله عنه أيضاً قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه " متفق عليه أيضاً : وعنه أيضاً رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما : والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة " متفق عليه أيضاً ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد ؟ قال : " لكن أفضل من الجهاد : حج مبرور " رواه البخاري : وعنها أيضاً رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة ، فيقول : ما أراد هؤلاء "

أخرجه مسلم بهذا اللفظ . والأحاديث في الباب كثيرة . وفضل الحج وكونه من الدعائم الخمس معروف .

واعلم : أن وجوب الحج المذكور تشترط له شروط : وهي : العقل ، والبلوغ ، والإسلام ، والحرية ، والاستطاعة . ولا خلاف في ذلك بين أهل العلم ، أما العقل فكونه شرطاً في وجوب كل تكليف واضح ، لأن غير العاقل لا يصح تكليفه بحال . وأما اشتراط البلوغ فواضح ، لأن الصبي مرفوع عنه القلم ، حتى يحتلم ، فالبلوغ والعقل كلاهما : شرط وجوب وأما الإسلام : فالظاهر أنه على القول ، بأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، فهو شرط صحة لا شرط وجوب ، وعلى أنهم غير مخاطبين بها ، فهو شرط وجوب ، والأصح خطاب الكفار بفروع الشريعة أوضحنا أدلته في غير هذا الموضع ، فيكون الإسلام شرط صحة في حقهم ، ومعلوم أنه على أنه شرط وجوب ، فهو شرط صحة أيضاً ، لأن بعض شروط الوجوب ، يكون شرطاً في الصحة أيضاً : كالوقت للصلاة . فإنه شرط لوجوبها وصحتها أيضاً ، وقد يكون شرط الوجوب ليس شرطاً في الصحة كالبلوغ ، والحرية ، فإن الصبي لا يجب عليه الحج ، مع أنه يصح منه لو فعله ، وكذلك العبد إلا أنه لا يجزئ عن حجة الإسلام ، إلا إذا كان بعد البلوغ وبعد الحرية . وأما الحرية : فهي شرط وجوب ، فلا يجب الحج على العبد ، واستدل العلماء على عدم وجوب الحج على العبد بأمرين :

الأول : إجماع أهل العلم على ذلك . ولكنه إذا حج صح حجه ، ولم يجزئه عن حجة الإسلام ، فإن عتق بعد ذلك فعليه حجة الإسلام .

قال النووي في شرح المهذب : أجمعت الأمة على أن العبد لا يلزمه الحج ، لأن منافعه مستحقة لسيده ، فليس هو مستطيعاً . ويصح منه الحج بإذن سيده ، وبغير إذنه بلا خلاف عندنا . قال القاضي أبو الطيب : وبه قال الفقهاء كافة ، وقال داود : لا يصح بغير إذنه انتهى محل الغرض منه .

(158/522)

الأمر الثاني : حديث جاء عن النَّبي صلى الله عليه وسلم يدل على ذلك : وهو أنه صلى الله عليه وسلم جاء عنه من حديث ابن عباس أنه قال : " أيما صبي حج ثم بلغ فعليه حجة الإسلام ، وأيما عبد حج ثم عتق فعليه حجة الإسلام " قال ابن حجر في التلخيص في هذا الحديث : رواه ابن خزيمة ، والإسماعيلي في مسند الأعمش والحاكم ، والبيهقي ، وابن حزم ، وصححه ، والخطيب في التاريخ من حديث محمد بن المنهال ، عن يزيد بن زريع ، عن شعبة ، عن الأعمش عن أبي ظبيان عنه قال ابن خزيمة : الصحيح موقوف ، بل خرجه كذلك من رواية ابن أبي عدي عن شعبة ، وقال البيهقي : تفرد برفعه محمد بن

المنهال ، ورواه الثوري عن شعبة موقوفاً .

قلت : لكن هو عند الإسماعيلي ، والخطيب ، عن الحارث بن سريج ، عن يزيد بن زريع متابعة لمحمد بن المنهال .

ويؤيد صحة رفعه ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه : أنا أبو معاوية ، عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس قال : احفظوا عني ولا تقولوا : قال ابن عباس . فذكره ، وهذا ظاهر أنه أراد أنه مرفوع ، فلذا نهاهم عن نسبته إليه . وفي الباب عن جابر أخرجه ابن عدي بلفظ " لو حج صغير لكان عليه حجة أخرى " الحديث ، وسنده ضعيف ، وأخرجه أبو داود في المراسيل عن محمد بن كعب القرظي نحو حديث ابن عباس مرسلاً ، وفيه راو مبهم انتهى من التلخيص .

وقال البيهقي في سننه : وأخبرنا أبو الحسن المقري : ثنا الحسن بن محمد بن إسحاق : ثنا يوسف بن يعقوب : ثنا محمد بن المنهال : ثنا يزيد بن زريع بن زريع ثنا شعبة عن سليمان الأعمش ، عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيما صبي حج ثم بلغ الحنث فعليه أن يحج حجة أخرى ، وأيما أعرابي حج ثم هاجر فعليه حجة أخرى ، وأيما عبد حج ثم عتق فعليه حجة أخرى " ثم ساق الحديث بسند آخر موقوفاً على ابن عباس ، وسكت ولم يبين هل الموقوف أصح أو المرفوع ؟ وقال النووي في شرح المهذب في هذا الحديث :

رواه البيهقي في الباب الأول من كتاب الحج بإسناد جيد ؟ ورواه أيضاً موقوفاً ، ولا يقدح ذلك فيه . ورواية المرفوع قوية ، ولا يضر تفرد محمد بن المنهال بها ، فإنه ثقة مقبول ضابط . روى عن البخاري ومسلم في صحيحيهما ا ه .

وقد علمت من كلام ابن حجر : أن ابن المنهال تابعه على رفع الحديث المذكور الحارث بن سريج فقد زال التفرد . والظاهر : أن الحارث المذكور هو ابن سريج النقال ، ولا يحتج به لضعفه . وبما ذكرنا تعلم أن الحديث المذكور لا يقل عن دردة الاحتجاج ، ووجه الدلالة منه ، على أن الحرية شرط في وجوب الحج أنه لو حج وهو مملوك ثم أعتق بعد ذلك لزمته حجة الإسلام ، فلو كان واجباً عليه في حال كونه مملوكاً أجزأه حجه عن حجة الإسلام كما هو ظاهر ، والعلم عند الله تعالى .

وقال أبو عيسى الترمذي رحمه الله ما نصه : وقد أجمع أهل العلم : أن الصبي إذا حج قبل أن يدرك فعليه الحج ، إذا أدرك لا تجزئ عنه تلك الحجة عن حجة الإسلام ، وكذلك المملوك إذا حج في رقه ثم أعتق فعليه الحج إذا وجد إلى ذلك سبيلاً ، ولا يجزئ عنه ما حج في حال رقه ، وهو قول الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق .

وأما الاستطاعة : فقد نص تعالى على اشتراطها في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران : 97] ومعنى الاستطاعة في اللغة العربية معروف ، وتفسير الاستطاعة في الآية اختلف فيه العلماء .

فالاستطاعة في مشهور مذهب مالك الذي به الفتوى : هي إمكان الوصول ، بلا مشقة عظيمة زائدة على مشقة السفر العادية ، مع الأمن على النفس ، والمال . ولا يشترط عندهم الزاد والراحلة ، بل يجب الحج عندهم على القادر على المشي ، إن كانت له صنعة يحصل منها قوته في الطريق : كالجمال ، والخراز ، والنجار ، ومن أشبههم .

(160/522)

وقال الشيخ الحطاب في كلامه على قول خليل في مختصره : ووجب باستطاعة بإمكان الوصول ، بلا مشقة عظمت ، وأمن على نفس ، ومال ما نصه : وقال مالك في كتاب محمد ، وفي سماع أشهب لما سئل عن قوله تعالى ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ وزاد في كتاب محمد : وربَّ صغير أجلد من كبير ، ونقل في المقدمات كلام مالك ثم قال بعده : فمن قدر على الوصول إلى مكة ، إما راجلاً بغير كبير مشقة ، أو راكباً بشراء أو كراء . فقد وجب عليه الحج ، ونقله في التوضيح . انتهى من الحطاب .

واعلم : أن بعض المالكية يشترطون في الصنعة المذكورة ، ألا تكون مزرية به .

واعلم أن المالكية : اختلفوا في الفقير الذي عادته سؤال الناس في بلده ، وعادة الناس إعطاؤه ، وذلك السؤال هو الذي منه عيشته إذا علم أنه إذا علم أنه إن خرج حاجاً ، وسأل أعطاه الناس ما يعيش به ، كما كانوا يعطونه في بلده ، هل سؤاله الناس وإعطاؤهم إياه يكون بسببه مستطيعاً لقدرته على الزاد بذلك ، فيجب عليه الحج بذلك ، أو لا يجب عليه بذلك ؟

فذهب بعضهم : إلى أن ذلك لا يجب عليه به الحج ، ولا يعد استطاعة ، وبهذا القول جزم خليل بن إسحاق رحمه الله في مختصره الذي قال في ترجمته مبيناً لما به الفتوى ، وذلك في قوله : فيما لا تحصل به الاستطاعة لا بدين أو عطية أو سؤال مطلقاً .

(161/522)

ومعنى كلامه : أن من لم يمكنه الوصول إلى مكة ، إلا بتحمل دين في ذلك ، أو قبول عطية ممن أعطاه مالاً أو سؤال الناس مطلقاً ، أنه لا يعد بذكل مستطيعاً ، ولا يجب عليه الحج ، وقوله : أو سؤال مطلقاً يعني بالإطلاق ، سواء كان السؤال عادته في بلده أو لا وسواء كانت عادة الناس إعطاءه أو لا ، أما إذا كانت عادة الناس عدم إعطائه ، فالحج حرام عليه ، لأنه إلقاء

باليد إلى التهلكة ، سواء كان السؤال عادته في بلده أو لا ، وأما إن كانت عادة الناس إعطاءه ، ولم يكن السؤال عادته في بلده ، فلا خلاف في أنه لا يعد مستطيعاً ولا يجب عليه الحج ، وأما إن كانت عادته السؤال في بلده ، ومنه عيشته ، وعادة الناس إعطاؤه ، فهو محل الخلاف ، وقد ذكرنا آنفاً قول خليل في مختصره : أنه لا يجب عليه الحج ، ولا يعد مستطيعاً بسؤال الناس ، وذلك في قوله : أو بسؤال مطلقاً ، وقال الشيخ المواق في شرحه لقول خليل : وسؤال مطلقاً ، وقال خليل في منسكه : وظاهر المذهب أنه لا يجب على من عادته السؤال ، إذا كانت العادة إعطاءه ، ويكره له المسير ، فإن لم تكن عادته السؤال ، أو لم تكن العادة إعطاءه سقط الحج بالاتفاق ، وقال الشيخ الحطاب في كلامه على قول خليل : أو سؤال مطلقاً ما نصه : وأما الصورة الرابعة : ويه ، ما إذا كانت عادته في بلده السؤال ، ومنه عيشه والعادة إعطاؤه ، فقال المصنف في توضيحه ومنسكه : إن ظاهر المذهب أنه لا يجب عليه الحج ، ويكره له الخروج ، وجزم به هنا ، وقال في الشامل : إنه المشهور وأقر في شروحه كلام المؤلف على إطلاقه ، وكذلك البساطي والشيخ زروق ، ولم ينبه عليه ابن غازي .

انتهى محل الغرض منه ، وقال الحطاب أيضاً : وذكر ابن الحاجب القولين من غير ترجيح ، وقبلهما ابن عبد السلام ، والمصنف في التوضيح وابن فرحون ، وصاحب الشامل ، ومن

بعدهم ، ورجحوا القول بالسقوط ، وصرح بعضهم بتشهيره ، وكذلك شراح المختصر اه

محل الغرض منه .

(162/522)

ومعنى قوله : ورجحوا القول بالسقوط يعني : سقوط وجوب الحج عمن عادته السؤال والإعطاء .

القول الثاني : من قولي المالكية : أن الفقير الذي عادته السؤال في بلده وعادة الناس إعطاءه ، إذا كانت عادتهم إعطاءه في سفر الحج كما كانوا يعطونه في بلده ، أنه يعد بذلك مستطيعاً ، وأَن تحصيله زاده بذلك السؤال ، بعد استطاعة ، وعلى هذا القول أَكثر المالكية .

وقال الحطاب في كلامه على قول خليل في مختصره : أو سؤال مطلقاً بعد أن ذكر القول بأن ذلك السؤال والإعطاء ، لا يعد استطاعة ، ولا يجب به الحج ، بل يكره الخروج في تلك الحال ما نصه :

قلت : ونصوص أهل المذهب التي وقفت عليها مصرحة بخلاف ذلك ، وأن الحج واجب على من عادته السؤال ، إذا كانت العادة إعطاءه ، ثم سرد كثيراً من نقول علماء المالكية مصرحة بوجوب الحج عليه ، وأهل هذا القول من علماء المالكية ، وهم الأكثرون وجهوه

بأنه محمول على الفقير الذي يباح له السؤال لعدم قدرته على كسب ما يعيش به ، وأَن ذلك السؤال لما كان جائزاً له ، وصار عيشه منه في الحضر ، فهو بذلك السؤال والإعطاء قادر على الوصول إلى مكة . قالوا : ومن قدر على ذلك بوجه جائز لزمه الحج .

قال مقيده ، عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي رجحانه بالدليل من قولي المالكية في هذه المسألة : هو القول الأول ، وهو أن الحج لا يجب على من يعيش في طريقه بتكفف الناس ، وأن سؤال الناس لا يعد استطاعة .

ومن الأدلة الدالة على ذلك عموم قوله جل وعلا ﴿ وَلاَ على المرضى وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ [التوبة : 91] الآية . وقد قدمنا في هذا الكتاب المبارك مراراً : أن العبرة بعموم الألفاظ ، لا بخصوص الأسباب ، وبينا أدلة ذلك من السنة الصحيحة ، فقد صرح تعالى في هذه الآية الكريمة ، برفع الحرج عن الذين لا يجدون ما ينفقون .

(163/522)

ولا شك أن الذي يتكفف الناس لشدة فقره ، داخل في عموم الذين لا يجدون ما ينفقون .

وقد صرح تعالى بنفي الحرج عنهم ، فيلزم من ذلك نفي الحرج عنه في وجوب الحج ، وهو

واضح . وقد استدل الشيخ ابن القاسم رحمه الله بهذه الآية المذكورة على ما ذكرنا .

ولكن كثيراً من متأخري علماء المالكية حملوا قول ابن القاسم الذي احتج عليه بالآية المذكورة ، على من ليس عادته السؤال في بلده ، قالوا : فلم يتناول قوله محل النزاع .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ظاهر الآية الكريمة العموم في جميع الذين لا يجدون ما ينفقون ، فتخصيصها بمن ليس عادته السؤال ، بدون دليل من كتاب ، أو سنة لا يصح ولا يعول عليه . وقد تقرر في الأصول أنه لا يمكن تخصيص العام إلا بدليل يجب الرجوع إليه . سواء كان من المخصصات المتصلة ، أو المنفصلة .

ومما يؤيد هذا في الجملة ما ثبت في صحيح البخاري . حدثنا يحيى بن بشر ، حدثنا شبابة ، عن ورقاء ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان أهل اليمن يحجُّون ، ولا يتزودون ، ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا المدينة سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزاد التقوى ﴾ [البقرة : 197] ورواه ابن عيينة ، عن عكرمة مرسلاً . انتهى من صحيح البخاري .

وقال ابن حجر في الفتح في الكلام على هذا الحديث : قال المهلب : في هذا الحديث من الفقه : أن ترك السؤال من التقوى ، ويؤيده أن الله مدح من لم يسأل الناس إلحافاً ، فإن قوله ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزاد التقوى ﴾ أي تزودوا ، واتقوا أذى الناس بسؤالكم إياهم والإثم في ذلك . انتهى محل الغرض منه .

وفيه دليل ظاهر : على حرمة خروج الإنسان حاجاً ، بلا زاد ، ليسأل الناس وظاهرها العموم في كل حاج يسأل الناس فقيراً كان ، أو غنياً كانت عادته السؤال في بلده أو لا ، وحمل النصوص على ظواهرها واجب إلا بدليل يجب الرجوع إليه ، ومما يؤيد هذا أن الذين مدحهم الله في كتابه ، بتركهم سؤال الناس ، كانوا من أفقر الفقراء كما هو معلوم ، وقد صرح تعالى بأنهم فقراء وأشار لشدة فقرهم ، وذلك في قوله تعالى ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الذين أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ الله لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأرض يَحْسَبُهُمُ الجاهل أَغْنِيَآءَ مِنَ التعفف تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ الناس إِلْحَافاً ﴾ [البقرة : 273] الآية فصرح بأنهم فقراء وأثنى عليهم بالتعفف وعدم السؤال .

ووجه إشارة الآية ، إلى شدة فقرهم ، هو ما فسرها به بعض أهل العلم ، من أن معنى قوله ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي بظهور آثار الفقر والحاجة عليهم .

وقال ابن جرير في تفسيره ، بعد أن ذكر القول : بأن المراد بسيماهم : علامة فقرهم من ظهور آثار الجوع ، والفاقة عليهم ، والقول الآخر : أن المراد بسيماهم : علامتهم التي هي : التخشع ، والتواضع ما نصه :

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله عز وجل أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أنه يعرفهم بعلاماتهم ، وآثار الحاجة فيهم .

انتهى محل الغرض منه .

وقال صاحب الدر المنثور في التفسير بالمأثور : وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن الربيع ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ يقول : تعرف في وجوههم الجهد من الحاجة . وأخرج ابن جرير ، عن ابن زيد ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ قال : رثاثة ثيابهم . انتهى . ومثل هذا كثير في كلام المفسرين .

فالآية الكريمة : تدل بمنطوقها على الثناء على الفقير الصابر المتعفف عن مسألة الناس ، وتدل بمفهومها على ذم سؤال الناس ، والأحاديث الواردة في ذم السؤال مطلقاً كثيرة جداً .

(165/522)

وبذلك كله : تعلم أن سؤال الناس ليس استطاعة على ركن من أركان الإسلام ، وأن قول بعض المالكية : إنه لا يعد استطاعة هو الصواب . وهو قول جمهور أهل العلم . وممن ذهب إليه : الشافعي ، وأحمد ، وأبو حنيفة ، ونقله ابن المنذر عن الحسن البصري ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأحمد ، وإسحاق . وبه قال بعض أصحاب مالك . قال البغوي : وهو

قول العلماء ا ه .

قاله النووي . والاستطاعة عند أبي حنيفة . الزاد ، والراحلة . فلو كان يقدر على المشي ، وعادته سؤال الناس ، لم يجب عليه الحج عنده كما قدمناه قريباً .

(166/522)

والاستطاعة في مذهب الشافعي : الزاد والراحلة ، بشرط أن يجدهما بثمن المثل ، فإن لم يجدهما إلا بأكثر من المثل سقط عنه وجوب الحج . ويشترط عند الشافعية أيضاً : وجود الماء في أماكن النزول ، وهذا شرط لا ينبغي أن يختلف فيه ، لأنه إن لم يجد الماء هلك ، ويشترط عند الشافعية أيضاً : أن يكون صحيحاً لا مريضاً ، ولا ينبغي أن يختلف في أن المرض القوي الذي يشق معه السفر مشقة فادحة مسقط لوجوب الحج . ويشترط عند الشافعي أيضاً : أن يكون الطريق آمناً من غير خفارة . والخفارة مثلثة الخاء : هي المال الذي يؤخذ على الحاج . ويشترط عند الشافعي أيضاً : أن يكون عليه من الوقت ، ما يتمكن فيه من السير والأداء . وهذه الشروط في المستطيع بنفسه لا فيما يسمونه المستطيع بغيره ، فإن كان بينه ، وبين مكة مسافة تقصر فيها الصلاة وكان قادراً على المشي على رجليه ، ولم يجد راحلة ، أو وجدها بأكثر من ثمن المثل ، أو أجرة المثل . لم يجب عليه الحج

عندهم ، ولا يعد قدرته على المشي استطاعة عندهم ، لحديث : الزاد والراحلة في تفسير الاستطاعة ، وإن لم يجد ما يصرفه في الزاد والماء ، ولكنه كسوب ذو صنعة يكتسب بصنعته ما يكفيه ، ففي ذلك عند الشافعي تفصيل حكاه إمام الحرمين عن العراقيين من الشافعية ، وهو : أنه إن كان لا يكتسب في اليوم إلا كفاية يوم واحد . لم يجب عليه الحج : لأنه ينقطع عن الكسب في أيام الحج ، وإن كان يكتسب في اليوم كفاية أيام لزمه الحج .

قال الإمام : وفيه احتمال ، فإن القدرة على الكسب يوم العيد ، لا تجعل كملك الصاع في وجوب الفطرة ، هكذا ذكره الإمام وحكاه الرافعي ، وسكت عليه انتهى من النووي ، ومراده بالإمام : إمام الحرمين .

وقوله : وفيه احتمال يعني : أنه يحتمل عدم وجوب الحج بذلك مطلقاً .

(167/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : وهذا الذي ذكره مبني على القاعدة المعروفة المختلف فيها : وهي هل القدرة على التحصيل بمنزلة التحصيل أو لا ، والأظهر أن القدرة على التحصيل بمنزلة التحصيل بالفعل . والعلم عند الله تعالى .

والاستطاعة عند أحمد وأصحابه : هي الزاد والراحلة . قال ابن قدامة في المغني :

والاستطاعة المشترطة : ملك الزاد والراحلة ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، والشافعي ، وإسحاق . قال الترمذي : والعمل عليه عند أهل العلم . وقال عكرمة : هي الصحة . انتهى محل الغرض منه .

وإذا علمت أقوال أهل العلم في معنى الاستطاعة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران : 97] فهذه أدلتهم .

أما الأكثرون الذين فسروا الاستطاعة : بالزاد والراحلة ، فحجتهم الأحاديث الوادرة عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، بتفسير الاستطاعة في الآية : بالزاد والراحلة . وقد روي عنه ذلك من حديث ابن عمر ، ومن حديث ابن عباس ، ومن حديث أنس ، ومن حديث عائشة ، ومن حديث جابر ، ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، ومن حديث ابن مسعود ا ه .

أما حديث ابن عمر فقد أخرجه الترمذي ، وابن ماجه من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزي ، عن محمد بن عباد بن جعفر المخزومي ، عن ابن عمر وقال الترمذي بعد أن ساقه : هذا حديث حسن والعمل عليه عند أهل العلم : أن الرجل إذا ملك زاداً وراحلة وجب عليه الحج . وإبراهيم بن يزيد هو الخوزي المكي ، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه . انتهى من الترمذي .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : تحسين الترمذي رحمه الله لهذا الحديث لا وجه له . لأن إبراهيم الخوزي المذكور متروك لا يحتج بحديثه ، كما جزم به غير واحد . وقد نقل الزيلعي في نصب الراية عن الترمذي : أنه لما ساق الحديث المذكور ، قال فيه : حديث غريب ، لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن يزيد الخوزي . وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه ا ه .

(168/522)

ومقتضى ما نقل الزيلعي عنه أنه لم يحسنه ، وإنما وصفه بالغرابة ، وهذا الذي ذكره الزيلعي ذكره الترمذي في موضع آخر ، وقد علمت أن إبراهيم الخوزي لا يحتج به . فلا يكون حديث هو في إسناده حسناً .

قال صاحب نصب الراية : وله طريق آخر عند الدارقطني في سننه أخرجه محمد بن الحجاج المصفر ، ثنا جرير بن حازم ، عن محمد بن عباد بن جعفر ، عن ابن عمر مرفوعاً ، ومحمد بن الحجاج المصفر ضعيف ا ه .

وهو كما قال الزيلعي ضعيف . قال في الميزان فيه : روى عباس ، عن يحيى ليس بثقة . وقال أحمد : قد تركنا حديثه . وقال البخاري عن شعبة : سكتوا عنه ، وقال النسائي :

متروك . ثم ذكر بعض عجائبه وعلى كل حال فهو لا يحتج به .

واعلم : أن إبراهيم بن يزيد الخوزي كما تابعه في هذه الرواية جرير بن حازم من طريق محمد بن الحجاج المصفر الذي ذكرنا آنفاً ، أنه لا يحتج به ، فقد تابعه أيضاً فيها غيره من الضعفاء .

قال الزيلعي في نصب الراية بعد أن ذكر حديث إبراهيم الخوزي المذكور ، عند الترمذي ، وابن ماجه : ورواه الدارقطني ، ثم البيهقي في سننهما .

(169/522)

قال الدارقطني : وقد تابع إبراهيم بن يزيد عليه محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي ، فرواه عن محمد بن عباد ، عن ابن عمر عن النَّبي صلى الله عليه وسلم كذلك انتهى . وهذا الذي أشار إليه رواه ابن عدي في الكامل وأعله بمحمد بن عبد الله الليثي ، وأسند تضعيفه عن النسائي ، وابن معين ثم قال : والحديث معروف بإبراهيم بن يزيد الخوزي ، وهو من هذه الطريق غريب . ثم ذكر عن البيهقي تضعيف إبراهيم المذكور . قال : وروي من أوجه أخر كلها ضعيفة . وروي عن ابن عباس من قوله : وروبناه من أوجه صحيحة ، عن الحسن عن النَّبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً ، وفيه قوة لهذا السند انتهى . ثم قال الزيلعي بعد هذا الكلام الذي نقلناه عنه : قال الشيخ في الإمام قوله : فيه قوة فيه نظر . لأن المعروف

عندهم : أن الطريق إذا كان واحداً ، ورواه الثقات مرسلاً ، وانفرد ضعيف برفعه ، أن يعللوا المسند بالمرسل ، ويحملوا الغلط على رواية الضعيف . فإذا كان ذلك موجباً لضعف المسند ، فكيف يكون تقوية له ا ه . وهو كما قال : كما هو معروف في الأصول وعلم الحديث . ثم قال الزيلعي : قال : يعني الشيخ في الإمام : والذي أشار إليه من قول ابن عباس : رواه أبو بكر بن المنذر ، حدثنا علان بن المغيرة ، ثنا أبو صالح عبد الله بن صالح ، حدثني معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : والمرسل رواه سعيد بن منصور في سننه ، حدثنا هشام ، ثنا يونس : عن الحسن قال : لما نزلت ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ قال رجل : يا رسول الله ، وما السبيل ؟ قال صلى الله عليه وسلم " زاد وراحلة " انتهى .

حدثنا الهيثم ، ثنا المنصور ، عن الحسن مثله .

(170/522)

حدثنا خالد بن عبد الله عن يونس عن الحسن مثله . قال : وهذه أسانيد صحيحة إلا أنها مرسلة . وقال ابن المنذر : لا يثبت الحديث الذي فيه ذكر الزاد والراحلة مسنداً والصحيح : رواية الحسن ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً ، وأما المسند فإنما رواه

إبراهيم بن يزيد ، وهو متروك ضعفه ابن معين وغيره ا ه من نصب الراية .

وبهذا تعلم : أن حديث ابن عمر المذكور لم يسند من وجه صحيح ، ولم يثبت . لأن إبراهيم الخوزي متروك ، ومحمد بن الحجاج المصفر الذي ذكرنا أن إبراهيم تابعه عليه جرير بن حازم من طريقه لا يحتج به ، كما بيناه ، وقد بينا أن متابعة محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي ، لا تقويه ، لأنه ضعيف ، ضعفه النسائي وأعل الحديث به ابن عدي في الكامل . وقال الذهبي في الميزان : ضعفه ابن معين ، قوال البخاري : منكر الحديث . وقال النسائي : متروك . ا ه . منه .

وأما مرسل الحسن البصري المذكور ، وإن كان إسناده صحيحاً إلى الحسن ، فلا يحتج به ، لأن مراسيل الحسن رحمه الله لا يحتج بها .

قال ابن جرير في تهذيب التهذيب : وقال الدارقطني : مراسيل الحسن فيها ضعف . وقال في تهذيب التهذيب أيضاً : وقال محمد بن سعد : كان الحسن جامعاً عالماً رفيعاً فقيها ثقة ، مأموناً ، عابداً ، ناسكاً ، كثير العلم ، فصيحاً ، جميلاً ، وسيماً ، وكان ما أسند من حديثه . وروى عمن سمع منه ، فهو حجة ، وما أرسل فليس بحجة .

(171/522)

وقال صاحب تدريب الراوي ، في شرح تقريب النواوي : وقال أحمد بن حنبل : مرسلات سعيد بن المسيب أصح المرسلات ، ومرسلات إبراهيم النخعي لا بأس بها ، وليس في المرسلات أضعف من مرسلات الحسن ، وعطاء فإنهما كانا يأخذان عن كل واحد انتهى . ثم قال بعد هذا الكلام وقال العراقي : مراسيل الحسن عندهم شبه الريح ، وعدم الاحتجاج بمراسيل الحسن هو المشهور عند المحدثين . وقال بعض أهل العلم : هي صحاح إذا رواها عنه الثقات . قال ابن حجر في تهذيب التهذيب : وقال ابن المديني : مرسلات الحسن إذا رواها عنه الثقات صاحاح ، ما أقل ما يسقط منها . وقال أبو زرعة : كل شيء يقول الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم ، وجدت له أصلاً ثابتاً ما خلا أربعة أحاديث اه .

فهذا هو جملة الكلام في حديث ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم أنه فسر الاستطاعة : بالزاد والراحلة ، وقد علمت أنه لم يثبت من وجه صحيح ، بحسب صناعة علم الحديث ، وأما حديث ابن عباس ، فرواه ابن ماجه في سننه : حدثنا سويد بن سعيد ، ثنا هشام بن سليمان القرشي ، عن ابن جريج قال : وأخبرنيه أيضاً ، عن ابن عطاء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الزاد والراحلة " يعني قوله ﴿ مَنِ استطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران : 97] وهذا الإسناد فيه هشام بن سليمان بن عكرمة بن خالد بن العاص القرشي المخزومي قال فيه أبو حاتم :

مضطرب الحديث ، ومحله الصدق ، ما أرى به بأساً .

وقال العقيلي في حديثه عن غير ابن جريج : وهم ، وقال فيه ابن حجر في التقريب : مقبول ا

ه .

(172/522)

وقد أخرج له مسلم ، وقال البخاري في صحيحه في البيوع : وقال لي إبراهيم بن المنذر : أنبأنا هشام ، أخبرنا ابن جريج ، سمعت ابن أبي مليكة ، عن نافع مولى ابن عمر قال " أيما ثمرة بيعت ، ثم أبرت " وذكر الحديث من قوله : وهذا يدل على أنه أيضاً من رجال البخاري . وقال ابن حجر في تهذيب التهذيب بعد أن ذكر هذا الكلام الذي ذكرنا : وأما كون المتقدمين ، لم يذكروه في رجال البخاري ، فلأن البخاري لم يخرج له سوى هذا الموضع في المتابعات وأورده بألفاظ الشواهد . انتهى منه .

وبما ذكرنا : تعلم أن حديث ابن عباس هذا عن ابن ماجه لا يقل عن دردة الحسن ، مع أنه معتضد بما تقدم ، وبما سيأتي إن شاء الله تعالى .

وقال الزيلعي في نصب الراية : وأخرج حديث ابن عباس المذكور الدارقطني في سننه ، عن داود بن الزبرقان ، عن عبد الملك ، عن عطاء عن ابن عباس ، وأخرج أيضاً عن حصين بن

المخارق ، عن محمد بن خالد ، عن سماك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله الحج كل عام ؟ قال " لا بل حجة " ، قيل : " فما السبيل إليه ؟ قال : الزاد والراحلة " انتهى .

ثم قال : وداود وحصين وكلاهما ضعيفان ا ه . وداود بن الزبرقان المذكور قال فيه ابن حجر في التقريب : متروك ، وكذبه الأزدي ، وحصين بن مخارق المذكور قال فيه الذهبي في الميزان : قال الدارقطني : بضع الحديث ، ونقل ابن الجوزي أن ابن حبان قال : لا يجوز الاحتجاج به ا ه .

(173/522)

وهذا حاصل ما في حديث ابن عباس المذكورز وأما حديث أنس فقد أخرجه الحاكم في المستدرك : حدثنا أبو بكر محمد بن حازم الحافظ بالكوفة ، وأبو سعيد إسماعيل بن أحمد التاجر ، قالا : ثنا علي بن عباس بن الوليد البجلي ، ثنا علي بن سعيد بن مسروق الكندي ، ثنا ابن أبي زائدة ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن أنس رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم في قوله تبارك وتعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران : 97] قال قيل : يا رسول الله ما السبيل ؟ قال " الزاد

والراحلة " ثم قال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقد تابع حماد بن سلمة سعيداً على روايته ، قن قتادة : حدثناه أبو نصر أحمد بن سهل بن حمدويه الفقيه ببخارى ، ثنا صالح بن محمد بن حبيب الحافظ ، ثنا أبو أمية عمرو بن هشام الحراني ، ثنا أبو قتادة ، ثنا حماد بن سلمة ، عن قتادة ، عن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى لاله عليه وسلم سئل عن قول الله ﴿ مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ فقيل : ما السبيل ؟ قال " الزاد والراحلة " ثم قال هذا حديث صحيح على شرط مسلم . ولم يخرجاه انتهى من المستدرك . وأقره على تصحيح الطريقين المذكورتين : الحافظ الذهبي ، فحديث أنس هذا صحيح كما ترى ، وقال صاحب نصب الراية : ورواه الدارقطني في سننه بالإسنادين ا ه .

وأما حديث عائشة فقد قال صاحب نصب الراية : أخرجه الدارقطني في سننه عن عتاب بن أعين ، عن سفيان الثوري ، عن يونس بن عبيد ، عن الحسن ، عن أمه عن عائشة قالت : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران : 97] قال " السبيل : الزاد والراحلة " انتهى . رواه العقيلي في كتاب الضعفاء ، وأعله بعتاب وقال : إن في حديث وهماً . انتهى .

(174/522)

وقال البيهقي في كتاب المعرفة : وليس بمحفوظ ، ثم أخرجه البيهقي ، عن أبي داود الحفري ، عن سفيان ، عن يونس ، عن الحسن ، قال : سئل النَّبي صلى الله عليه وسلم عن السبيل ؟ فقال " الزاد والراحلة " ا ه .

وقد علمت مما ذكرنا : أن حديث عائشة المذكور أعله العقيلي بعتاب بن أعين ، وقال : إن في حديثه وهماً ، وأن البيهقي قال : ليس بمحفوظ . وقد قال الذهبي في الميزان في عتاب المذكور ، قال العقليلي في حديثه وهم . روى عنه هشام بن عبيد الله حديثاً خولف في سنده . انتهى منه .

وأما مرسل الحسن الذي أشار له ، فقد قدمنا الكلام عليه مستوفى قريباً .

وأما حديث جابر ، فقد قال صاحب نصب الراية : أخرجه الدارقطني ، عن محمد بن عبدالله بن عبيد بن عمير ، عن أبي الزبير أو عمرو بن دينار ، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما بلفظ : حديث عائشة ، ومحمد بن عبدالله بن عبيد الله الليثي تركوه ، وأجمعوا على ضعفه ، وقد تقدم وقد قدمنا أن محمداً المذكور لا يحتج به . وبهذا تعلم أن حديث جابر المذكور لا يصلح للاحتجاج .

وأما حديث ابن مسعود فقد قال صاحب نصب الراية : أخرجه الدارقطني ، عن بهلول بن عبيد ، عن حماد بن أبي سليمان ، عن إبراهيم ، عن علقمة عن عبدالله بن مسعود بنحوه . وبهلول بن عبيد ، قال أبو حاتم : ذاهب الحديث ا ه .

وقال الذهبي في الميزان : في بهلول المذكور ، قال أبو حاتم : ضعيف الحديث ذاهب . وقال أبو زرعة : ليس بشيء وقال ابن حبان : يسرق الحديث . انتهى منه .

(175/522)

وبما ذكر تعلم أن حديث ابن مسعود المذكور ، ليس بصالح للاحتجاج ، وأما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقد قال صاحب نصب الراية أيضاً : أخرجه الدارقطني أيضاً ، عن ابن لهيعة ، ومحمد بن عبيد الله العرزمي ، عن أبيه ، عن جده بنحوه . وابن لهيعة والعرزمي ضعيفان . قال الشيخ في الإمام : وقد أخرج الدارقطني هذا الحديث ، عن جابر ، وأنس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن مسعود ، وعائشة ، وليس فيها إسناد يحتج به انتهى منه .

هذا هو حاصل روايات الأحاديث الواردة بتفسير السبيل في الآية : بالزاد ، والراحلة .

وقال غير واحد : إن هذا الحديث لا يثبت مسنداً ، وأنه ليس له طريق صحيحة ، إلا الطريق التي أرسلها الحسن .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي والله تعالى أعلم : أن حديث الزاد والراحلة ، المذكور ثابت لا يقل عن درجة الاحتجاج ، لأن الطريقين اللتين أخرجهما به

الحاكم في المستدرك عن أنس قال : كلتاهما صحيحة الإسناد ، وأقر تصحيحهما الحافظ الذهبي ، ولم يتعقبه بشيء والدعوى على سعيد بن أبي عروبة وحماد بن سلمة في روايتهما الحديث ، عن أنس ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنها غلط ، وأن الصحيح عن قتادة عن الحسن مرسلاً دعوى لا مستند لها ، بل هي تغليط وتوهيم ، للعدول المشهورين من غير استناد إلى دليل .

والصحيح عند المحققين من الأصوليين والمحدثين : أن الحديث إذا جاء من طريق صحيحة ، وجاء من طرق أخرى غير صحيحة ، فلا تكون تلك الطرق علة في الصحيحة ، إذا كان رواتها لم يخالفوا جميع الحفاظ ، بل انفراد الثقة العدل بما لم يخالف فيه غيره مقبول عند المحققين .

(176/522)

فرواية سعيد بن أبي عروبة وحماد بن سلمة : الحديث المذكور عن قتادة عن أنس مرفوعاً لم يخالفوا فيها غيرهم ، بل حفظوا ما لم يحفظه غيرهم ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ، فادعاء الغلط عليهما بلا دليل غلط ، وقول النووي في شرح المهذب ، وروى الحالكم حديث أنس ، وقال : وهو صحيح ، ولكن الحاكم متساهل كما سبق بيانه مرات . والله

أعلم .

يجاب عنه : بأنا لو سلمنا أن الحاكم متساهل في التصحيح ، لا يلزم من ذلك أنه لا يقبل له تصحيح مطلقاً . ورب تصحيح للحاكم مطابق للواقع في نفس الأمر ، وتصحيحه لحديث أنس المذكور لم يتساهل فيه ، ولذا لم يبد النووي وجهاً لتساهله فيه ، ولم يتكلم في أحد رواته بل هو تصحيح مطابق .

فإن قيل : متابعة حماد بن سلمة لسعيد بن أبي عروبة المذكورة راويها عن حماد ، هو أبو قتادة عبد الله بن واقعد الحراني ، وهو متروك ، لا يحتج بحديثه ، كما جزم به غير واحد من العلماء بالرجال . وقال فيه ابن حجر في التقريب : متروك فقد تساهل الحاكم في قوله : إن هذه الطريق على شرط مسلم ، مع أن في إسنادها أبا قتادة المذكور .

فالجواب : أن أبا قتادة المذكور ، وإن ضعفه الأكثرون ، فقد وثقه الإمام أحمد وأثنى عليه ، وناهيك بتوثيق الإمام أحمد وثنائه ، وذكر ابن حجر والذهبي : أن عبد الله بن أحمد قال لأبيه : إن يعقوب بن إسماعيل بن صحبيح ذكر أن أبا قتادة المذكور كان يكذب ، فمعظم ذلك عنده جداً ، وأثنى عليه وقال : إنه يتحرى الصدق .

(177/522)

قال : ولقد رأيته يشبه أصحاب الحديث . وقال أحمد في موضع آخر : ما به بأس ، رجل صالح ، يشبه أهل النسك ربما أخطأ . وفي إحدى الروايتين عن ابن معين أنه قال : أبو قتادة الحراني ثقة . ذكرها عنه ابن حجر والذهبي ، وقول من قال : لعله كبر فاختلط تخمين وظن لا يثبت به اختلاطه ، ومعلوم أن المقرر في الأصول وعلوم الحديث : أن الصحيح أن التعديل يقبل مجملاً ، والتجريح لا يقبل إلا مفصلاً ، مع أن رواية سعيد بن أبي عروبة ، عن أنس ليس في أحد من رواتها كلام .

ومما يؤيد ذلك موافقة الحافظ النقادة الذهبي للحاكم على تصحيح متابعة حماد ، مع أن حديث أنس الصحيح المذكور معتضد بمرسل الحسن ، ولا سيما على قول من يقول : إن مراسيله صحاح ، إذا روتها عنه الثقات كابن المديني وغيره ، كما قدمناه .

ويؤيد ذلك أن مشهور مذهب مالك ، وأبي حنيفة ، وأحمد الاحتجاج بالمرسل كما قدماه مراراً ، ويؤيده أيضاً : الأحاديث المتعددة التي ذكرنا ، وإن كانت ضعافاً لأنها تقوي غيرها ، ولا سيما حديث ابن عباس ، فإنا قد ذكرنا سنده ، وبينا أنه لا يقل عن درجة الاحتجاج .

وقال الشوكاني في نيل الأوطار : ولا يخفى أن هذه الطرق يقوي بعضها بعضاً ، فتصلح للاحتجاج .

ومما يؤيد الحديث المذكور أن أكثر أهل العلم على العمل به ، كما قدمنا عن أبي عيسى

الترمذي أنه قال في حديث : الزاد والراحلة ، والعمل عليه عند أهل العلم ، وقد بينا أنه قول لأكثرين منهم الأئمة الثلاثة : أبو حنيفة ، والشافعي ، وأحمد .

فالحاصل : أن حديث : الزاد والراحلة ، لا يقل بمجموع طرقه عن دردة القبول والاحتجاج.

وأظهر قولي أهل العلم عندي أن المعتبر في ذلك ما يبلغه ذهاباً وإياباً .

(178/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي ولاله تعالى أعلم : أن حديث : الزاد والراحلة وإن كان صالحاً للاحتجاج لا يلزم منه أن القادر على المشي على رجليه بدون مشقة فادحة : لا يلزمه الحج ، إن كان عاجزاً عن تحصيل الراحلة بل يلزمه الحج لأنه يستطيع إليه سبيلاً ، كما أن صاحب الصنعة التي يحصل منها قوته في سفر الحج ، يجب عليه الحج ، لأن قدرته على تحصيل الزاد في طريقه كتحصيله بالفعل .

فإن قيل : كيف قلتم بوجوبه على القادر على المشي على رجليه ، دون الراحلة مع اعترافكم بقبول تفسير النَّبي صلى الله عليه وسلم السبيل : بالزاد ، والراحلة وذلك يدل على أن المشي على الرجلين ليس من السبيل المذكور في الآية .

فالجواب من وجهين :

الأول : أن الظاهر المتبادر أنه صلى الله عليه وسلم فسر الآية بأغلب حالات الاستطاعة ، لأن الغالب أن أكثر الحجاج آفاقيون ، قادمون من بلاد بعيدة ، والغالب عجز الإنسان عن المشي على رجليه في المسافات الطويلة وعدم إمكان سفره بلا زاد ، ففسر صلى الله عليه وسلم الآية بالأغلب ، والقاعدة المقررة في الأصول : أن النص إذا كان جارياً على الأمر الغالب ، لا يكون له مفهوم مخالفة ، ولأجل هذا منع جماهير العلماء تزويج الرجل ربيبته التي لم تكن في حجره قائلين : إن قوله تعالى

﴿ اللاتي فِي حُجُورِكُمْ ﴾ [النساء : 23] جرى على الغالب ، فلا مفهوم مخالفة له كما قدماه مراراً ، وإذا كان أغلب حالات الاستطاعة : الزاد والراحلة ، وجرى الحديث على ذلك فلا مفهوم مخالفة له فيجب الحج على القادر على المشي على رجليه ، إما لعدم طول المسافة ، وإما لقوة ذلك الشخص على المشي ، وكذلك يجب على ذي الصنعة التي يحصل منها قوته في سفره ، لأنه في حكم واجد الزاد في المعنى ، والعلم عند الله تعالى .

(179/522)

الوجه الثاني : أن الله جل وعلا سوى في كتابه بين الحاج الراكب ، والحاج الماشي على رجليه . وقدم الماشي على الراكب ، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

وقد قدمنا الكلام على هذه الآية الكريمة مستوفى ، هذا هو حاصل ما يتعلق بالمستطيع بنفسه .

وأما ما يسمونه المستطيع بغيره فهو نوعان :

الأول منهما : هو من لا يقدر على الحج بنفسه ، لكونه زمناً ، أو هرماً ونحو ذلك ، ولكنه لا مال يدفعه إلى من يحج عنه ، فهل يلزمه الحج نظراً إلى أنه مستطيع بغيره ، فيدخل في عموم ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران : 97] ؟ أو لا يجب عليه الحج ، لأنه عاجز غير مستطيع بالنظر إلى نفسه ، فلا يدخل في عموم الآية .

وبالقول الأول قال الشافعي وأصحابه . فيلزمه عندهم أجرة أجير يحج عنه بشرط : أن يجد ذلك بأجرة المثل . قال النووي : وبه قال جمهور العلماء ، منهم علي بن أبي طالب ، والحسن البصري ، والثوري ، وأبو حنيفة ، وأحمد ، وإسحاق ، وابن المنذر ، وداود .

وقال مالك : لا يجب عليه ذلك ، ولا يجب إلا أن يقدر على الحج بنفسه ، واحتج مالك بقوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم : 39] وبقوله تعالى ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران : 97] ، وهذا لا يستطيع بنفسه ، فيصدق عليه

اسم غير المستطيع وبأنها عبادة لا تصح فيها النيابة مع القدرة ، فكذلك مع العجز ، كالصلاة واحتج الأكثرون القائلون بوجوب الحج عليه بأحاديث رواها الجماعة .

(180/522)

منها : ما رواه البخاري في صحيحه : حدثنا أبو عاصم ، عن ابن جريج ، عن ابن شهاب ، عن سليمان بن يسار ، عن ابن عباس ، عن الفضل بن عباس رضي الله عنهم : أن امرأة ح ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة ، حدثنا ابن شهاب عن سليمان بن يسار ، عن ابن عباس رضي الله عنهما . قال : جاءت امرأة من خثعم عام حجة الوداع قالت : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فريضة الله أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على الراحلة ، فهل يقضي عنه أن أحج عنه ؟ قال : " نعم " وفي رواية في صحيح البخاري عن ابن عباس فقالت : إن فريضة الله أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : " نعم " وذلك في حجة الوداع . وفي لفظ في صحيح البخاري ، عن ابن عباس : إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة أفأحج عنه ؟ قال : " نعم " وذلك في حجة الوداع ا

.٥

وقال مسلم في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى ، قال : قرأت على مالك ، عن ابن شهاب ، عن سليمان بن يسار ، عن عبد الله بن عباس " أنه كان الفضل رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءت امرأة من خثعم تستفتيه ، فجعل الفضل ينظر إليها ، وتنظر إليه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر ، قالت : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه قال " نعم " وذلك في حجة الوداع .

وفي لفظ لمسلم قالت : يا رسول الله : إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج ، وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره . قال النَّبي صلى الله عليه وسلم " فحجي عنه " ا ه .

وهذا الحديث الذي اتفق عليه الشيخان أخرجه باقي الجماعة ، إلا أن بعضهم يرويه عن ابن عباس وهو عبد الله ، وبعضهم يرويه عن أخيه الفضل بن عباس ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم .

(181/522)

وقال أبو داود في سننه : حدثنا حفص بن عمر ، ومسلم بن إبراهيم بمعناه قالا : حدثنا شعبة ، عن النعمان بن سالم ، عن عمرو بن أوس ، عن أبي زرين قال حفص في حديثه

رجل من بني عام أنه قال . يا رسول الله : إن إبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ، ولا العمرة ، ولا الظعن ، قال " احجج عن أبيك واعتمر " وقال أبو عيسى الترمذي : حدثنا يوسف بن عيسى ، نوكيع عن شعبة ، عن النعمان بن سالم ، عن عمرو بن أوس ، عن أبي رزين العقيلي أنه أتى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : إن أبي شيخ كبير إلى آخر الحديث كلفظ أبي داود الذي ذكرنا ثم قال : قال أبو عيسى : هذا حدث حسن صحيح ، وإنما ذكرت العمرة عن النَّبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث : أن يعتمر الرجل عن غيره ، وأبو رزين العقيلي اسمه لقيط بن عامر . انتهى منه .

وحديث أبي رزين هذا أخرجه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ، وعن علي بن محمد قال : حدثنا وكيع ، عن شعبة به نحو ما تقدم .

وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وقال الترمذي بعد ذكره الحديث المتفق عليه في قصة استفتاء الخثعيمة : ما نصه : وقد صح عن النَّبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب غير حديثز والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم وبه يقول الثوري ، وابن المبارك ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق : يرون أن يحج عن الميت .

وقال مالك : إذا أوصى أن يحج عنه حج عنه ، وقد رخص بعضهم : أن يحج عن الحيِّ ،

إذا كان كبيراً أو بحال لا يقدر أن يحج ، وهو قول ابن المبارك والشافعي . انتهى من سنن الترمذي .

وقال النسائي في سننه : أخبرنا إسحاق بن إبراهيم ، قال : أنبأنا وكيع ، قال : حدثنا شعبة ، عن النعمان بن سالم إلى آخر السند والمتن كما ذكرناه آنفاً عند الترمذي ا ه .

(182/522)

وعن علي رضي الله عنه : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم جاءته امرأة شابة من خثعم فقالت : إن أبي كبير ، وقد أفند وأدركته فريضة الله في الحج ، ولا يستطيع أداءها فيجزئ عنه أن أؤديها عنه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " نعم " رواه أحمد والترمذي ، وصححه . انتهى منهما بواسطة نقل المجد في المنتقى والنووي في شرح المهذب .

وقال الشوكاني في نيل الأوطار : وحديث علي أخرجه أيضاً البيهقي ا ه . وقوله في هذا الحديث : وقد أفند : أي خرف وضعف عقله من الهرم .

وقال النسائي في سننه : أخبرنا إسحاق بن إبراهيم ، قال : أنبأنا جرير ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن يوسف بن الزبير ، عن عبد الله بن الزبير ، قال : جاء رجل من خثعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الركوب ، وأدركته

فريضة الله في الحج فهل يجزئ أن أحج عنه ؟ قال " أنت أكبر ولده ؟ " قال : نعم ، قال : " أرأيت لو كان عليه دين أكنت تقضيه ؟ " قال : نعم . قال : " فحج عنه ؟ " وفي لفظ للنسائي ، عن ابن عباس قال : قال رجل : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبي مات ولم يحج ، أفأحج عنه ؟ قال " أرأيت لو كان على أبيك دَيْن أكنت قاضيه ؟ " قال : نعم ، قال : " فدَيْن الله أحق " وفي لفظ عند النسائي ، عن ابن عباس : أن رجلاً سأل النَّبي صلى الله عليه وسلم : إن أبي أدركه الحج ، وهو شيخ كبير لا يثبت على راحلته ، فإن شددته خشيت أن يموت ، أفأحج عنه ؟ قال " أرأيت لو كان عليه دَيْن فقضيته ، أكان مجزئاً ؟ " قال : نعم . قال : " فحج عن أبيك " ا ه من سنن النسائي .

وحديث ابن الزبير الذي ذكرناه آنفاً عند النسائي قال المجد في المنتقى : رواه الإمام أحمد والنسائي بمعناه .

وقال الشوكاني : قال الحافظ : إن إسناده صالح . انتهى . والأحاديث بمثل هذا كثيرة .

(183/522)

وأما النوع الثاني من نوعي المستطيع بغيره ، فهو من لا يقدر على الحج بنفسه ، وليس له مال يدفعه لمن يحج عنه ، ولكن له ولد يطيعه إذا أمره بالحج والولد مستطيع . فهل يجب الحج

على الوالد ، ويلزمه أمر الولد بالحج عنه لأنه مستطيع بغيره ؟ فيه خلاف بين أهل العلم .

قال النووي في شرح المهذب : فرع في مذاهبهم في المعضوب إذا لم يجد ما لا يحج به غيره ، فوجد من يطيعه قد ذكرنا : أن مذهبنا : وجوب الحج عليه . وقال مالك ، وأبو حينفة وأحمد : لا يجب عليه ، وقد علمت أن مالكاً احتج في مسألة العاجز الذي له مالك بقوله تعالى ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ [النجم : 39] وبأنه عاجز بنفسه فهو غير مستطيع إلى الحج سبيلاً ، إلى آخر ما تقدم ، وبأن سعيد بن منصور وغيره رووا عن ابن عمر بإسناد صحيح : أنه لا يحج أحد عن أحد ، ونحوه عن الليث ومالك ، وأن الذين خالفوه احتجوا بالأحاديث التي ذكرنا وفيها ألفاظ ظاهرها الوجوب ، كتشبيهه بدين الآدمي وكقول السائل : يجزئ عنه أن أحج عنه . والإجزاء دليل المطالبة ، وفي بعض رواياتها أن السائل يقول : إن عليه فريضة الحج ، ويستأذن النَّبي في الحج عنه ، وهو صلى الله عليه وسلم لم يبين له أن الحج سقط عنه بزمانته وعجزه عن الثبوت على الراحلة ، وبقوله للولد " أنت أكبر ولده " وأمره بالحج عنه .

وأما الذين فرقوا بين وجود المعضوب مالاً فأوجبوا عليه الحج ، وبين وجوده ولداً يطيعه فلم يوجبوه عليه ، فلأن المال ملكه ، فعليه أن يستأجر به ، والود مكلف آخر ليس ملزماً بفرض على شخص آخر ، ولأنه وإن كان له ولد فليس بمستطيع ببدن ، ولا بزاد وراحلة ، ولو وجد إنساناً غير الولد يطيعه في الحج عنه ، فهل يكون حكمه حكم الولد ؟ فيه خلاف

معروف . وفي فروع الشافعية توجيه كل قول منها ، فانظره في النووي في شرح المهذب وأظهرها أنه كالولد .

تنبيه

(184/522)

إذا مات الشخص ، ولم يحج ، وكان الحج قد وجب عليه لاستطاعته بنفسه ، أو بغيره عند من يقول بذلك ، وكان قد ترك مالاً ، فهل يجب أن يحج ويعتمر عنه من ماله ؟ في ذلك خلاف بني أهل العلم ، فقال بعضهم : يجب أن يحج عنه ، ويعتمر عنه من تركته ، سواء مات مفرطاً أو غير مفرط لكون الموت عاجله عن الحج فوراً . وبهذا قال الشافعي وأحمد .

قال ابن قدامة في المغني : وبهذا قال الحسن ، وطاوس ، والشافعي . وقال أبو حنيفة ، ومالك : يسقط بالموت ، فإن أوصى بذلك ، فهو في الثلث بوهذا قال الشعبي والنخعي لأنه عبادة بدنية ، فتسقط بالموت كالصلاة ، واحتجوا أيضاً : بأن ظاهر القرآن كقوله ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ [النجم : 39] مقدم على ظاهر الأحاديث .

بل على صريحها : لأنه أصح منها . وأجاب المخالفون : بأن الأحاديث مخصصة لعموم

القرآن ، وبأن لمعضوب وجب عليه الحج بسعيه ، بتقديم المال ، وأجرة من يحج عنه . فهذا من سعيه ، وأجابوا عن قياسه على الصلاة ، بأنها لا تدخلها النيابة ، بخلاف الحج ، والذين قالوا : يجب أن يحج عنه ، من رأس ماله استدلوا بأحاديث جاءت في ذلك ، تقتضي أن من مات وقد وجب عليه الحج قبل موته ، أنه يحج عنه . منها : ما رواه البخاري في صحيحه : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بشر ، عن سيعد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن امرأة من جهينة جاءت إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج ، حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟ قال : " نعم حجي عنها ، أرأيت لو كان على أمك دَين أكنت قاضيته ، اقضوا الله فالله أحق بالوفاء " اهـ .

والحج في هذا الحديث وإن كان منذوراً فإيجاب الله له على عباده في كتابه ، أقوى من إيجابه بالنذر . واستدل بالحديث المذكور بعض أهل العلم على صحة نذر الحج ، ممن لم يحج .

(185/522)

قال ابن حجر في الفتح : فإذا حج أجزأه عن حجة الإسلام ، عند الجمهور ، وعليه الحج عن النذر . وقيل : يجزئ عن النذر ، ثم يحج حجة الإسلام . وقيل : يجزئ عنهما .

وقال البخاري أيضاً في كتاب : الأيمان والنذور : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سيعد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أتى رجل النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال له : إن أختي نذرت أن تحج ، وإنها ماتت ؟ فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم . " لو كان عليها دين أكنت قاضيه ؟ " قال : نعم ، " قال : فاقض الله فهو أحق بالقضاء " ا ه .

وقال المجد في المنتقى بعد أن أشار لحديث البخاري : هذا وهو يدل على صحة الحج ، عن الميت من الوارث وغيره ، حيث لم يستفصله أوارث هو أو لا ؟ وشبهه بالدين انتهى .

وقد تقرر في الأصول : أن عدم الاستفصال من النَّبي صلى الله عليه وسلم أي طلب التفصيل في أحوال الواقعة ، ينزل منزلة العموم القولي وإليه أشار في مراقي السعود بقوله :

ونزّلن تركَ الاستفصالِ . . . منزلةَ العمومِ في الأقْوَالِ

وخالف في هذا الأصل ، أبو حنيفة رحمه الله كما هو مقرر في الأصول ، مع بيان الخلاف في المسائل الفقهية ، تبعاً للخلاف في هذا الأصل المذكور .

ومنها : ما رواه النسائي في سننه ، أخبرنا محمد بن بشار قال : حدثنا محمد قال : حدثنا شعبة ، عن أبي بشر قال : سمعت سعيد بن جبير ، يحدث عن ابن عباس : أن امرأة نذرت

أن تحج فماتت ، فأتى أخوها النَّبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن ذلك ؟ فقال " أرأيت لو كان على أختك دَيْن أكنت قاضيه ؟ "

قال : نعم قال : " فاقضوا الله ، فهو أحق بالوفاء " انتهى .

وهذه الأحاديث ، التي ذكرنا في نذر الحج ، وقد بينا أن إيجاب الله فريضة الحج أعظم من إيجابها بالنذر ، مع أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أمر بقضائها وشبهها بِدَيْنِ الآدمي .

وسنذكر أيضاً إن شاء الله أحاديث ليس فيها نذر الحج .

(186/522)

قال النسائي في سننه : أخبرنا أبو عاصم خشيش بن أصرم النسائي ، عن عبد الرزاق ، قال : أنبأنا معمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قالك قال رجل : يا رسول الله إن أبي مات ولم يحج ، أفأحج عنه ؟ قال " أرأيت لو كان على أبيك دَين أكنت قاضيه ؟ " قال : نعم . " قال : فدين الله أحق " ا ه .

ورجال هذا الإسناد ثقات معروفون ، لا كلام في أحد منهم ، إلا الحكم بن أبان العدني .

وقد قال فيه ابن معين ، والنسائي : ثقة . وقال أبو زرعة : صالح . وقال العجلي : ثقة صاحب سنة . قال ابن عيينة : أتيت عدن ، فلم أر مثل الحكم بن أبان ، وعده ابن حبان

في الثقات . وقال : ربما أخطأ . وإنما وقع المناكير في روايته ، من رواية ابنه إبراهيم عنه ، وإبراهيم ضعيف . وحكى ابن خلفون : توثيقه عن ابن نمير ، وابن المديني وأحمد بن حنبل ا ه . وقال ابن عدي : فيه ضعف . وقال ابن خزيمة في صحيحه : تكلم أهل ا لمعرفة بالحديث في الاحتجاج بخبره وبما ذكر تعلم صحة الاحتجاج بالحديث المذكور ، وليس فيه نذر الحج .

وقال النسائي في سننه أيضاً : أخبرنا عمران بن موسى قال : حدثنا عبد الوارث قال : حدثنا أبو التَّيَّاحِ ، قال : حدثني موسى بن سلمة الهذلي ، أن ابن عباس قال : أَمَرَت امرأة سنان بن سلمة الجهني ، أن تسأَل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن أمها ماتت ، ولم تحج ، أفيجزئ عن أمها أن تحج عنها ؟ قال : " نعم لو كان على أمها دين فقضته عنها ألم يكن يجزئ عنها فلتحج عن أمها " وهذا الإسناد صحيح . وفي لفظ عند النسائي أيضاً ، عن ابن عباس ، بإِسناد آخر : أن امرأة سألت النَّبي صلى الله عليه وسلم ، عن أبيها ، مات ولم يحج . قال " حجي عن أبيك " وإسناده صحيح أيضاً . وأخرج ابن ماجه نحوه من حديث ابن عباس بإسناد آخر صحيح .

(187/522)

وقال المجد في المنتقى : وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أتى النَّبي صلى الله عليه وسلم رجل ، فقال : إن أبي مات ، وعليه حجة الإسلام ، أفأحج عنه ؟ قال " أرأيت لو أن أباك تركَ دَيْناً عليه أقضيته عنه ؟ " قال : نعم قال : " فاحجج عن أبيك " رواه الدارقطني . انتهى من المنتقى .

وقال الترمذي في سننه : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، ن عبد الرزاق ، عن سفيان الثوري ، عن عبد الله بن عطاء عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال : جاءت امرأة إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إن أمي ماتت ، ولم تحج ، أفأحج عنها ؟ قال " نعم حجي عنها " ا ه .

ثم قال : قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ا ه . وأخرج البيهقي نحوه بإسناد صحيح .

وقال الشافعي في مسنده : أخبرنا سعيد بن سالم ، عن حنظلة ، سمعت طاوساً يقول : أتت النَّبي صلى الله عليه وسلم امرأة ، فقالت : إن أمي ماتت ، وعليها حج قال " حجي عن أمك " ولا يخفى أن حديث الشافعي هذا مرسل ، ولكنه معتضد بما تقدم من الأحاديث وبما سيأتي إن شاء الله .

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : وحدثني علي بن حجر السعدي ، حدثنا علي بن مسهر أبو الحسن ، عن عبد الله بن عطاء ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه رضي

الله عنه ، قال : بينا أنا جالس ، عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ أتته امرأة فقالت : إني تصدقت على أمي بجارية ، وإنها ماتت قال : فقال " وجب أجرك وردها عليك الميراث ، قالت : يا رسول الله ، إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها ؟ قال : صومي عنها ، قالت : إنها لم تحج قط ، أفأحج عنها ؟ قال : حجي عنها " انتهى من صحيح مسلم .

(188/522)

فهذه الأحاديث وأمثالها : هي حجة من قال : إن من وجب عليه الحج في الحياة ، وترك مالاً وجب أن يحج عنه ، وليست كلها ظاهرة في ذلك . ولكن بعضها ظاهر فيه كتشبيهه بِدَيْن الآدمي ، ونحو ذلك مما تقدم . وأجاب المخالفون : بأن الحج أعمال بدنية ، وإن كانت تحتاج إلى مال . والأعمال البدنية : تسقط بالموت ، فلا وجوب لعمل بعد الموت ، والذي يحج عنه متطوع ، وفاعل خيراً قالوا : ووجه تشبيهه بالدِّين انتفاع كل منهما بذلك الفعل ، فالمدين ينتفع بقضاء الدين عنه ، والميت ينتفع بالحج عنه ، ولا يلزم من قضاء الدين عن أحد ، أن القضاء عنه واجب ، بل يجوز أن يكون قضاؤه عنه غير واجب عليه .

واحتجوا أيضاً بأن جميع الأحاديث الواردة بالحج عن الميت : واردة بعد الاستئذان في الحج عنه ، قالوا : والأمر بعد الاستئذان كالأمر بعد الحظر ، فهو للإباحة ، لأن الاستئذان

والحظر الأول كلاهما قرينة على صرف الأمر عن الوجوب إلى الإباحة .

قال ابن السبكي في جمع الجوامع في مبحث الأمر : فإن ورد حظر قال الإمام : أو استئذان فللإباحة . وقال أبو الطيب ، والشيرازي ، والسمعاني والإمام : للوجوب ، وتوقف إمام الحرمين انتهى منه . فتراه صدر بأن الأمر بعد الاستئذان للإباحة ، والخلاف في المسألة معروف ، وقد ذكرنا فيه أقوال أهل العلم ، في أبيات مراقي السعود في أول سورة المائدة .

ومن أمثلة كون الأمر بعد الاستئذان للإباحة : أن الصحابة رضي الله عنهم : لما سألوا النَّبي صلى الله عليه وسلم ، عما اصطادوه بالجوارح ، واستأذنوه في أكله ، نزل في ذلك قوله تعالى

﴿ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة : 4] فصار هذا الأمر بالأكل للإباحة لأنه وارد بعد سؤال ، واستئذان .

(189/522)

ومن أمثلته من السنة : حديث مسلم : أأُصَلِّي في مرابض الغنم ؟ قال " نعم " الحديث ، فإن معنى نعم هنا : صَلِّ فيها . وهذا الأمر بالصلاة فيها للإباحة لأنه بعد الاستئذان ، وخلاف أهل الأصول في مسألة الأمر بعد الحظر ، أو الاستئذان معروف .

هذا هو حاصل كلامهم في المستطيع بغيره ، ووجوب الحج عمن وجب عليه في الحياة ، ومات قبل أن يحج وترك مالاً ، وقد علمت أدلتهم ومناقشتها .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الأحاديث التي ذكرنا ، تدل قطعاً على مشروعية الحج عن المعضوب ، والميت .

وقد قدمنا أن الأظهر عندنا وجوب الحج فوراً ، وعليه فلو فرط ، وهو قادر على الحج ، حتى مات مفرطاً مع القدرة ، أنه يحج عنه من رأس ماله ، إن ترك مالاً ، لأن فريضة الحج ترتبت في ذمته ، فكانت دَيْناً عليه ، وقضاء دين الله صرح النَّبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث المذكورة بأحقيته حيث قال " فَدَيْنُ الله أحق أن يُقضى " .

أما من عاجله الموت قبل التمكن ، فمات غير مفرط ، فالظاهر لنا أنه لا إثم عليه ، ولا دَيْن لله عليه ، لأنه لم يتمكن من أداء الفعل حتى يترتب في ذمته ، ولن يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وقد دلت الأحاديث المذكورة على جواز حج الرجل عن المرأة ، وعكسه ، وعليه عامة العلماء ، ولم يخالف فيه إلا الحسن بن صالح بن حي .

والأحاديث المذكورة حجة عليه ، وقد قدمنا أن مالكاً رحمه الله ومن وافقوه ، لم يعملوا بظاهر هذه الأحاديث التي ذكرها مع كثرتها وصحتها ، لأنها مخالفة عندهم ، لظاهر القرآن في قوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ [النجم : 39] . وقوله ﴿ مَنِ

استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران : 97] والمعضوب والميت ، ليس واحد منهما بمستطيع ، لصدق قولك : إنه غير مستطيع بنفسه .

(190/522)

واعلم : أن ما اشتهر عن مالك من أنه يقول : لا يحج أحد عن أحد : معناه عنده : أن الصحيح القادر لا يصح الحج عنه في الفرض . والمغضوب عنده ليس بقادر ، وأحرى الميت فالحج عنهما من مالهما لا يلزم عنده إلا بوصية ، فإن أوصى به صح من الثلث وتطوع وليه بالحج عنه ، خلاف الأولى عنده بل مكروه .

والأفضل عنده أن يجعل ذلك المال الذي يحج به عنه في غير الحج ، كأن يتصدق به عنه أو يعتق به عنه ونحو ذلك ، فإن أحرم بالحج عنه انعقد إحرامه وصح حجه عنه .

والحاصل : أن النيابة عن الصحيح في الفرض عنده ممنوعة ، وفي غير الفرض مكروهة ، والعاجز عنده لا فرض عليه أصلاً للحج .

قال خليل بن إسحاق في مختصره : ومنع استنابة صحيح في فرض ، وإلا كره ا ه .

وقال شارحه الخطاب : ويدخل في قول المصنف : وإلا كره بحسب الظاهر ثلاث صور : استنابة الصحيح في النفل ، واستنابة العاجز في الفرض ، وفي النفل ، لكن في التحقيق ليس

هنا إلا صورتان ، لأن العاجز لا فريضة عليه ا ه .

واعلم : أن بعض المالكية حمل الكراهة المذكورة على التحريم ، والأحاديث التي ذكرنا حجة على مالك ، ومن وافقه ، والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

اعلم أن ما عليه جمهور العلماء من جواز الحج ، عن المعضوب ، والميت محله فيما إذا كان الذي يحج عنهما قد حج عن نفسه حجة الإسلام ، خلافاً لمن لم يشترط ذلك ، واحتج الجمهور القائلون : بأن النائب عن غيره في الحج ، لا بد أن يكون حج عن نفسه حجة الإسلام بحديث جاء في ذلك .

(191/522)

قال أبو داود في سننه : حدثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني ، وهناد بن السري : المعنى واحد ، قال إسحاق : ثنا عبدة بن سليمان ، عن أبن أبي عروبة ، عن قتادة عن عزرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقول : لبيك عن شُبْرمة قال " من شُبرمة ؟ " قال : أخ لي ، أو قريب لي ، قال : " حججت عن نفسك ؟ " قال : لا ، قال : " حج عن نفسك ، ثم عن شُبرمة " وقال ابن ماجه في سننه : حدثنا

محمد بن عبد الله بن نمير ، ثنا عَبْدَةُ بن سليمان ، عن سعيد ، عن قَتَادة ، عن عزرة ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقول : لبيك عن شُبْرمة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من شبرمة ؟ " قال : قريب لي ، قال : " هل حججت قط ؟ " قال : لا ، قال : " فاجعل هذه عن نفسك ، ثم حج عن شبرمة " وإسناد هذا الحديث عن أبي داود وابن ماجه ، رجاله كلهم ثقات ، معروفون ، إلا عزرة الذي رواه عنه قتدة ، وقتادة روى عن ثلاثة كلهم اسمه : عزرة ، وعزرة المذكور في إسناد هذا الحديث ، عند أبي داود ، وابن ماجه ذكراه غير منسوب ، وجزم البيهقي بأنه عزرة بن يحيى ، وعزرة بن يحيى لم يذكره البخاري في التاريخ ، ولا ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ، ولم يخصه ابن حجر في تهذيب التهذيب بترجمة ، ولم يذكره الذهبي في الميزان ، وقد ذكره ابن حجر في التقريب ، وقال فيه : مقبول ، وقد روى هذا الحديث أيضاً : الدارقطني ، وابن حبان في صحيحه وروى البيهقي من طريق عبدة بن سليمان الكلابي ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن عزرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : هذا إسناد صحيح ، ليس في هذا الباب أصح منه ، أخرجه أبو داود في السنن عن إسحاق بن إسماعيل ، وهناد بن السري ، عن عبدة وقال : يحيى بن معين ، أثبت الناس سماعاً ، عن سعيد عبدة بن سليمان ، ثم قال : قال

الشيخ وكذلك رواه أبو يوسف القاضي ، عن سعيد ، ثم ساق بإسناده رواية أبي يوسف ، وأورد متن الحديث كما سبق ، ثم قال : وكذلك روي عن محمد بن عبد الله الأنصاري ومحمد بن بشر ، عن ابن أبي عروبة ، ورواه عندر عن سعيد بن أبي عروبة موقوفاً على ابن عباس ، ومن رواه مرفوعاً حافظ ثقة ، فلا يضره خلاف من خالفه ، وعزرة هذا : هو عزرة بن يحيى ، أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال : سمعت أبا علي الحافظ يقول : ذلك ، وقد روى قتادة أيضاً عن عزرة بن تميم ، وعن عزرة بن عبد الرحمن ا ه من البيهقي ، وقد أورد روايات أخر عن ابن عباس تؤيد الحديث المذكور ، وذكره ابن حجر في التلخيص وأطال فيه الكلام ، وذكر كلام البيهقي في تصحيحه ، وكلام من لم يصححه وذكر طرقه ثم قال : ما نصه : فيجتمع من هذا صحة الحديث .

ا ه محل الغرض منه .

وقال النووي في شرح المهذب : وأما حديث ابن عباس في قصة شبمرة فرواه أبو داود ، والدارقطني ، والبيهقي ، وغيرهم بأسانيد صحيحة ، ثم ذكر لفظ أبي داود كما قدمنا ، ثم قال : وإسناده على شرط مسلم ، والظاهر أن النووي يظن أن عزرة المذكور في إسناده هو ابن عبد الرحمن ، وذلك من رجال مسلم والواقع خلاف ذلك ، وهو عزرة بن يحيى كما جزم به البيهقي ، ثم قال النووي : ورواه البيهقي بإسناد صحيح ، عن ابن عباس ، ثم ذكر

بعض ما ذكرنا سابقاً من تصحيح البيهقي للحديث ، وأن رفعه أصح من وقفه .

فتحصل من هذا كله : أن الحديث صالح للاحتجاج ، وفيه دليل على أن النائب في الحج ، لا بد أن يكون قد حج عن نفسه . وقاس العلماء : العمرة على الحج في ذلك ، وهو قياس ظاهر ، والعلم عند الله تعالى .

(193/522)

وخالف في ذلك بعض العلماء كأبي حنيفة ومن وافقه ، فقالوا : يصح حج النائب عن غيره ، وإن لم يحج عن نفسه ، واستدلوا بظواهر الأحاديث التي ذكرناها في الحج عن المعضوب والميت ، فإن النَّبي صلى الله عليه وسلم يقول فيها : " حج عن أبيك ، حج عن أمك " ، ونحو ذلك من العبارات ، ولم يسأل أحداً منهم هل حج عن نفسه أو لا . وترك الاستفصال ينزل منزلة العموم في الأقوال كما تقدم .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الأظهر تقديم الحديث الخاص الذي فيه قصة شُبْرمة ، لأنه لا يتعارض عام وخاص ، فلا يحج أحد عن أحد ، حتى يحج عن نفسه حجة الإسلام ، والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

قد علمت مما مر أن الحج واجب مرة في العمر ، وهل ذلك الوجوب على سبيل الفور أو التراخي ؟

اختلف أهل العلم في ذلك وسنبين هنا إن شاء الله أقوالهم ، وحججهم ، وما يرجحه الدليل عندنا من ذلك : فممن قال إن وجوبه على التراخي : الشافعي وأصحابه .

قال النووي : وبه قال الأوزاعي ، والثوري ، ومحمد بن الحسن ، ونقله الماوردي عن ابن عباس ، وأنس ، وجابر ، وعطاء ، وطاوس ، وممن قال إنه على الفور : الإمام أحمد ، وأبو يوسف ، وجمهور أصحاب أبي حنيفة والمزني . قال النووي : ولا نص في ذلك لأبي حنيفة وقال صاحب تبيين الحقائق في الفقه الحنفي : إن القول بأنه على الفور قول أبي يوسف ، وعن أبي حنيفة ما يدل عليه فإن ابن شجاع روى عنه أن الرجل إذا وجد ما يحج به وقد قصد التزوج ، قال : يحج ، ولا يتزوج ، لأن الحج فريضة أوجبها الله على عبده ، وهذا يدل على أنه على الفور انتهى .

وأما مذهب مالك فعنه في المسألة قولان مشهوران ، كلاهما شهره بعض علماء المالكية .

أحدهما : أنه على الفور ، والثاني : أنه على التراخي ، ومحل الخلاف المذكور ما لم يحسن الفوات بسبب من أسباب الفوات ، فإن خشيه وجب عندهم فوراً اتفاقاً .

قال خليل بن إسحاق في مختصره في الفقه المالكي : وفي فوريته وتراخيه لخوف الفوات خلاف . اهـ .

(194/522)

وقد ذكر في ترجمته أنه إن قال في مختصره : خلاف ، فهو يعني بذلك اختلافهم في تشهير القول .

وقال الشيخ المواق في كلامه على قول خليل المذكور ما نصه الجلاب : من لزمه فرض الحج لم يجز له تأخيره ، إلا من عذر وفرضه على الفور دون التراخي ، والتسويف ، وعن ابن عرفة هذا للعراقيين ، وعزا لابن محرز والمغاربة وابن العربي ، وابن رشد : أنه على التراخي ما لم يخف فواته . وإذا علمت أقوال أهل العلم في هذه المسألة فهذه حججهم .

أما الذين قالوا : إنه على التراخي فاحتجوا بأدلة .

(195/522)

منها : أنهم قالوا : إن الحج فرض عام ست من الهجرة ، ولا خلاف أن آية ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : 196] الآية نزلت عام ست من الهجرة في شأن ما وقع في الحديبية من إحصار المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهم محرمون

بعمرة ، وذلك في ذي القعدة من عام ست بلا خلاف ، ويدل عليه ما تقدم في حديث كعب بن عجرة الذي نزل فيه ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة : 196] وذلك متصل بقوله : ﴿ وَأَتِمُّواْ الحج والعمرة للَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا استيسر مِنَ الهدي وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً ﴾ الآية ، ولذا جزم الشافعي ، وغيره : بأن الحج فرض عام ست قالوا : وإذا كان الحج فرض عام ست ، وكان النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يحج إلا عام عشر ، فذلك دليل على أنه على التراخي ، إذ لو كان على الفور لما أخره عن أول وقت للحج ، بعد نزول الآية . قالوا ولا سيما أنه عام ثمان من الهجرة فتح مكة في رمضان ، واعتمر عمرة الجعرانة في ذي القعدة من عام ثمان ، ثم رجع إلى المدينة ، ولم يحج ، قالوا : واستخلف عتاب بن أسيد ، فأقام للناس الحج سنة ثمان ، بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مقيماً بالمدينة هو وأزواجه وعامة أصحابه ، ولم يحجوا ، قالوا : ثم غزا غزوة تبوك في عام تسع ، وانصرف عنها قبل الحج ، فبعث أبا بكر رضي الله تعالى عنه ، فأقام للناس الحج سنة تسع ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأزواجه وعامة أصحابه قادرون على الحج ، غير مشتغلين بقتال ، ولا غيره ، ولم يحجوا ثم حج صلى الله عليه وسلم هو وأزواجه كلهم سنة عشر حجة الوداع ، قالوا : فتأخيره الحج المذكور إلى سنة عشر ، دليل على أن الحج ليس وجوبه على الفور .

بل على التراخي .

واستدلوا لذلك أيضاً بما جاء في صحيح مسلم في قصة ضمام بن ثعلبة السعدي رضي الله عنه : حدثني عمرو بن محمد بن بكير الناقد ، حدثنا هاشم بن القاسم أبو النضر ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك قال : نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء ، فكان يعجبنا أن يجيء ، الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ، ونحن نسمع . فجاءه رجل من أهل البادية فقال : يا محمد صلى الله عليه وسلم أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك قال " صدق ، قال : فمن خلق السماء ؟ قال : الله ، قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : الله ، قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : الله ، قال : فبالذي خلق السماء ، وخلق الأرض ، ونصب هذه الجبال آلله أرسلك ؟ قال : نعم ، قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ، قال : صدق ، قال : فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ، قال : صدق ، قال : فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال : وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا ، قال : صدق قال : فبالذي أرسلك

آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، قال : صدق ، ثم ولى قال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ، ولا أنقص منهن ، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم : لئن صدق ، ليدخلن الجنة " انتهى من صحيح مسلم ، قالوا : هذا الحديث الصحيح جاء فيه وجوب الحج ، وقد زعم الواقدي وغيره : أن قدوم الرجل المذكور وهو ضمام بن ثعلبة كان عام خمس ، قالوا : وقد رواه شريك بن أبي نمر عن كريب فقال فيه : بعث بنو سعد ضماماً في رجب سنة خمس ، فدل ذلك على أن الحج كان مفروضاً عام خمس ، فتأخيره صلى الله عليه وسلم الحج غلى عام عشر دليل على أنه على التراخي ، لا على الفور .

(197/522)

ومن أدلتهم على أنه على التراخي : " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع أمر المحرمين بالحج أن يفسخوه في عمرة " فدل ذلك على جواز تأخير الحج ، وهو دليل على أنه على التراخي .

ومن أدلتهم أيضاً : أَنه إِن أَخر الحج من سنة إلى أخرى ، أَو إلى سنين ثم فعله فإنه يسمى مؤدياً للحج لا قاضياً له بالإجماع ، قالوا : ولو حرم تأخيره لكان قضاء لا أداء .

ومن أدلتهم على أنه على التراخي : ما هو مقرر في أصول الشافعية : وهو أن المختار عندهم أن الأمر المجرد عن القرائن ، لا يقتضي الفور ، وإنما المقصود منه الامتثال المجرد . فوجوب الفور يحتاج إلى دليل خاص زائد على مطلق الأمر .

ومن أدلتهم : أنهم قاسوا الحج على الصلاة الفائتة قالوا : فهي على التراخي ، ويقاس الحج عليها ، بجامع أن كلا منهما واجب ليس له وقت معين .

ومنها : أنهم قاسوه على قضاء رمضان في كونهما على التراخي ، بجامع أن كلبهما واجب ، ليس له وقت معين : قالوا : ولكن ثبتت آثار : أن قضاء رمضان غاية زمنه مدة السنة ، هذا هو حاصل أدلة القائلين : بأن وجوب الحج على التراخي لا على الفور . وأما الذين قالوا إنه على الفور فاحتجوا أيضاً بأدلة ، ومنعوا أدلة المخالفين .

فمن أدلتهم على أن وجوب الحج على الفور آيات من كتاب الله تعالى يفهم منها ذلك ، وهي على قسمين :

قسم منها : فيه الدلالة على وجوب المبادرة إلى امتثال أوامره جل وعلا ، والثناء على من فعل ذلك .

والقسم الثاني : يدل على توبيخ من لم يبادر ، وتخويفه من أن يدركه الموت قبل أن يمتثل ، لأنه قد يكون اقترب أجله ، وهو لا يدري .

أما آيات القسم الأول فكقوله ﴿ وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات والأرض أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 133] وقوله تعالى ﴿ سابقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السمآء والأرض ﴾ [الحديد : 21] الآية ، فقوله ﴿ وسارعوا ﴾ وقوله ﴿ سابقوا إلى مَغْفِرَةٍ ﴾ فيه الأمر بالمسارعة ، والمسابقة إلى مغفرته ، وجنته جل وعلا ، وذلك بالمبادرة ، والمسابقة إلى امتثال أوامره ، ولا شك أن المسارعة والمسابقة كلتاهما على الفور ، لا التراخي وكقوله ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ [البقرة : 148] الآية ، ويدخل فيه الاستباق إلى الامتثال وصيغ الأمر في قوله ﴿ وسارعوا ﴾ وقوله : ﴿ سابقوا ﴾ ، وقوله ﴿ فاستبقوا ﴾ تدل على الوجوب ، لأن الصحيح المقرر في الأصول : أن صيغة أفعل إذا تجردت عن القرائن ، اقتضت الوجوب ، وإليه أشار في المراقي بقوله :

وأفعل لدى الأكثر للوجوب الخ . . . وذلك لأن الله تعالى يقول ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : 63] وقال جل وعلا ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾

[الأحزاب : 36] فصرح جل وعلا ، بأن أمره قاطع للاختيار ، موجب للامتثال ، وقد سمى نبيه موسى عليه ، وعلى نبينا الصلاة والسلام مخالفة الأمر معصية ، وذلك في قوله ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [طه : 93] يعني قوله له : ﴿ اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : 142] وإنما قال موسى ذلك لأخيه هارون ، قبل أن يعلم حقيقة الحال ، فلما علمها قال : ﴿ رَبِّ اغفر لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾ [الأعراف : 151] ومما يدل على اقتضاء الأمر الوجوب : أن الله جل وعلا ، عنف إبليس ، لما خالف الأمر بالسجود ، وذلك في قوله ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف : 12] والنصوص بمثل هذا كثيرة ، وقد أجمع أهل اللسان العربي : أن السيد لو قال لعبده : اسقني ماء مثلاً ، فلم يمتثل أمره فأدبه على ذلك ، أن ذلك التأديب واقع موقعه ، لأنه عصاه بمخالفة أمره ، فلو قال العبد : ليس لك أن تؤدبني ، لأن أمرك لي بقولك : اسقني ماء لا يقتضي الوجوب لقال له أهل اللسان : كذبت ، بل الصيغة ألزمتك ، ولكنك عصيت سيدك ، فدل ما ذكر على أن الشرع واللغة ، دلا على اقتضاء الأمر المجرد الوجوب ، وذلك يدل على أن قوله : ﴿ سابقوا ﴾ [الحديد : 21] وقوله ﴿ وسارعوا ﴾ [آل عمران : 133] يدل على وجوب المبادرة إلى امتثال أوامر الله فوراً .

ومن الآيات التي فيها الثناء على المبادرين إلى امتثال أوامر ربهم قوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات ﴾ [الأنبياء : 90] الآية. وقوله تعالى ﴿ أولئك يُسَارِعُونَ فِي الخيرات وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون : 61].

(200/522)

وأما القسم الدال على التخويف من الموت، قبل الامتثال المتضمن الحث على الامتثال: فهو أن الله جل وعلا، أمر خلقه أن ينظروا في غرائب صنعه، وعجائبه كخلقه للسماوات والأرض، ونحو ذلك في الآيات من كتابه كقوله ﴿ قُلِ انظروا مَاذَا فِي السماوات والأرض ﴾ [يونس : 101] الآية. وقوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : 6] وقوله ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السمآء كَيْفَ رُفِعَتْ وإلى الجبال كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية : 17-20]. ثم ذكر في آية أخرى ما يدل على أن ذلك النظر مع لزومه يجب معه النظر في اقتراب الأجل، فقد يقترب أجله، ويضيع عليه أجر الامتثال بمعالجة الموت، وذلك في قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السماوات والأرض وَمَا خَلَقَ الله مِن شَيْءٍ وَأَنْ عسى أَن يَكُونَ قَدِ اقترب أَجَلُهُمْ ﴾ [الأعراف : 185] إذ المعنى: أو لم ينظروا في أنه

عسى أن يكون أجلهم قد اقترب ، فيضيع عليهم الأجر بعدم المبادرة قبل الموت ، وفي الآية دليل واضح ، على أن الإنسان يجب عليه أن يبادر إلى امتثال الأمر ، خشية أن يعاجله الموت قبل ذلك .

ومن أدلتهم على أن وجوب الحج على الفور ، أحاديث جاءت دالة على ذلك ، ولا يخلو شيء منها من مقال ، إلا أنها تعتضد بالآيات المذكورة ، وبما سنذكره إن شاء الله بعدها .

منها ما أخرجه أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا الثوري ، عن إسماعيل وهو أبو إسرائيل الملائي ، عن فضيل ، يعني : ابن عمرو ، عن سيعد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(201/522)

" تعجلوا إلى الحج " يعني الفريضة . فقوله في هذا الحديث : تعجلوا يدل على الفور ، وقد نقل حديث أحمد هذا المجد في المنتقى بحذف الإسناد على عادته ، فقال : عن ابن عباس ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال " تعجلوا إلى الحج " يعني الفريضة " فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له " رواه أحمد انتهى منه . وقد سكت على هذا الحديث ، وسكت عليه أيضاً شارحه الشوكاني في نيل الأوطار ، وظاهر سكوتهما عليه : أنه صالح للاحتجاج

عندهما ، والظاهر عدم صلاحية هذا الحديث بانفراده للاحتجاج ، لأن في سنده إسماعيل بن خليفة أبو إسرائيل الملائي ، وهو لا يحتج بحديثه ، لأنه ضعفه أكثر أهل العلم بالحديث ، وكان شيعياً من غلاتهم ، وكان ممن يكفر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، قوال فيه ابن حجر في التقريب : صدوق ، سيء الحفظ ، نسب إلى الغلو في التشيع .

والحاصل : أن أكثر أهل العلم لا يحتجون بحديثه ، وانظر إن شئت أقوال أهل العلم في تهذيب التهذيب ، والميزان وغيرهما .

(202/522)

ومن أدلتهم أيضاً على ذلك : ما رواه الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الحسن بن عمرو الفقيمي ، عن مهران أبي صفوان ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أراد الحج فليتعجل " ا ه . وقال الحاكم في المستدرك : حدثنا أبو بكر بن إسحاق ، أنبأنا أبو المثنى ، ثنا أبو معاوية محمد بن خازم ، عن الحسن بن عمرو الفقيمي ، عن أبي صفوان ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أراد الحج فليتعجل " ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وأبو صفوان هذا سماه

غيره مهران مولى لقريش ، ولا يعرف بالجرح انتهى منه . وأقره الحافظ الذهبي على تصحيحه لهذا الإسناد ، ولا يخلو هذا السند من مقال ، لأن فيه مهران أبا صفوان ، قال فيه بان حجر في التقريب : كوفي مجهول ، وقال صاحب الميزان ، لا يدري من هو . وقال فيه في تهذيب التهذيب . روي عن ابن عباس " من أراد الحج فليتعجل " وعنه الحسن بن عمرو الفقيمي ، قال أبو زرعة : لا أعرفه إلا في هذا الحديث وذكره ابن حبان في الثقات .

قلت : وقال الحاكم لما أخرج حديثه هذا في المستدرك لا يعرف بجرح انتهى منه . وهو دليل على أن حديث مهران المذكور معتبر به ، فيعتضد بما قبله ، وبما بعده ، مع أن ابن حبان عده في الثقات ، وصحح حديثه الحاكم وأقره الذهبي على ذلك ا ه .

وقال ابن ماجه في سننه : حدثنا علي بن محمد ، وعمرو بن عبد الله ، قالا : ثنا وكيع ثنا إسماعيل أبو إسرائيل ، عن فضيل بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن الفضل أو أحدهما عن الآخر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" من أراد الحج فليتعجل فإنه قد يمرض المريض وتضل الضالة وتعرض الحاجة " ا ه . وفي سنده : إسماعيل بن خليفة أبو إسرائيل الملائي ، وقد قدمنا قريباً : أن الأكثرين ضعفوه .

(203/522)

ومن أدلتهم على ذلك ما روي عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " من لم يحبسه مرض ، أو مشقة ظاهرة أو سلطان جائر فلم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً " قال ابن حجر في التلخيص : هذا الحديث ذكره ابن الجوزي في الموضوعات . وقال العقيلي ، والدارقطني : لا يصح فيه شيء .

قلت : وله طرق .

أحدها : أخرجه سعيد بن منصور في السنن : وأحمد ، وأبو يعلى ، والبيهقي من طرق عن شريك عن ليث بن أبي سليم ، عن ابن سابط ، عن أبي أمامة بلفظ " من لم يحبسه مرض أو حاجة ظاهرة أو سلطان جائر فلم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً " لفظ البيهقي ، ولفظ أحمد " من كان ذا يسار فمات ولم يحج " الحديث . وليث ضعيف ، وشريك سيئ الحفظ ، وقد خالفه سفيان الثوري ، فأرسله ورواه أحمد في كتاب : الإيمان له عن وكيع ، عن سفيان ، عن ليث ، عن ابن سابط قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من مات ولم يحج ولم يمنعه من ذلك مرض حابس أو سلطان ظالم أو حاجة ظاهرة " فذكره مرسلاً . وكذا ذكره ابن أبي شيبة ، عن أبي الأحوص ، عن ليث مرسلاً ، وأورده أبو يعلى من طريق أخرى ، عن شريك مخالفة للإسناد الأول ، وراويها عن شريك : عمار بن مطر ضعيف . وقال الذهبي في الميزان ، بعد أن ذكر طريق أبي يعلى : هذه في ترجمة عمار بن مطر الرهاوي المذكور الراوي ، عن شريك هذا منكر عن شريك .

الثاني : عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً " من ملك زاد وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً ، وذلك لأن الله تعالى قال في كتابه ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَاسِ حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران : 97] رواه الترمذي ، وقال : غريب ، وفي إسناده مقال ، والحارث يضعف ، وهلال بن عبد الله الراوي له عن أبي إسحاق مجهول ، وسئل إبراهيم الحربي عنه ؟ فقال : من هلال . وقال ابن عدي : يعرف بهذا الحديث ، وليس الحديث بمحفوظ . وقال العقيلي : لا يتابع عليه ، وذكر في الميزان حديث على هذا في ترجمة هلال بن عبد الله المذكور ، وقال : قال البخاري : منكر الحديث . وقال الترمذي : مجهول ، وقال العقيلي : لا يتابع على حديثه ا ه . وقال فيه في التقريب : متروك .

وقد روي عن علي موقوفاً ، ولم يرو مرفوعاً من طريق أحسن من هذا ، وقال المنذري : طريق أبي أمامة على ما فيها أصلح من هذه .

الثالث : عن أبي هريرة رفعه " من مات ولم يحج حجة الإسلام في غير وجع حابس أو حاجة ظاهرة أو سلطان جائر فليمت أَي الميتتين شاء . إما يهودياً أو نصرانياً " رواه ابن

عدي ، من طريق عبد الرحمن الغطفاني ، عن أبي المهزم ، وهما متروكان عن أبي هريرة ، وله طريق صحيحة إلا أنها موقوفة رواها سعيد بن منصور والبيهقي ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال " لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار فتنظر كل من كانت له جدة ولم يحج فيضربوا عليه الجزية ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين " لفظ سعيد ، ولفظ البيهقي أن عمر قال : ليمت يهودياً أو نصرانياً يقولها ثلاث مرات : رجل مات ولم يحج وجد لذلك سعة ، وخليت سبيله .

(205/522)

قلت : وإذا انضم هذا الموقوف إلى مرسل ابن سابط ، علم أن لهذا الحديث أصلاً ، ومحمله على من استحل الترك ، وتبين بذلك خطأ من ادعى أنه موضوع والله أعلم ا ه من التلخيص الحبير بلفظه . وقول ابن حجر ومحمله على من استحل الترك هو قول من قال من المفسرين : إن الكفر في قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : 97] يحمل على مستحل الترك ، ولا دليل عليه ، ووجه الدلالة من الأحاديث المذكورة على ما فيها من المقال أنها تصرح أنه لا يمنعه من الإثم إلا مانع يمنعه من المبادرة إلى الحج ، كالمرض ، أو الحاجة الظاهرة ، أو

السلطان الجائر . فلو كان تراخيه لغير العذر المذكور لكان قد مات ، وهو آثم بالتأخير .

فدل على أن وجوب الحج على الفور ، وأنه لا يجوز التراخي فيه إلا لعذر ، وقال الشوكاني في نيل الأوطار ، بعد أَن ساق الطرق التي ذكرناها عن صاحب التلخيص ، وهذه الطرق يقوي بعضها بعضاً ؟ وبذلك تتبين مجازفة ابن الجوزي في عده لهذا الحديث من الموضوعات ، فإن مجموع تلك الطرق لا يقصر عن كون الحديث حسناً لغيره ، وهو محتج به عند الجمهور ، ولا يقدح في ذلك . قول العقيلي والدارقطني ، لا يصح في الباب شيء ، لأن نفي الصحة لا يستلزم نفي الحسن ا ه . محل الغرض منه .

ومن أدلتهم أيضاً على أن وجوب الحج على الفور ما قدمناه في سورة البقرة ، من حديث الحجاج بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " من كسر أو عرج فقد حل وعليه الحج من قابل " قال عكرمة : سألت ابن عباس ، وأبا هريرة عن ذلك ؟ يعني : حديث الحجاج بن عمرو المذكور فقالا : صدق .

(206/522)

وقد قدمنا أن هذا الحديث ثابت من رواية الحجاج بن عمرو الأنصاري . وابن عباس وأبي هريرة ، وقد قدمنا أنه رواه الإمام أحمد ، وأصحاب السنن ، وابن خزيمة والحاكم ،

والبيهقي ، وقد قدمنا : أنه سكت عليه أبو داود والمنذري وحسنه الترمذي ، وأن النووي قال فيه : رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه والبيهقي ، وغيرهم بأسانيد صحيحة ، ومحل الشاهد من الحديث المذكور قوله صلى الله عليه وسلم في بعض روايات الحديث ، عند أبي داود ، وابن ماجه " فقد حل وعليه الحج من قابل " لأن قوله : من قابل دليل على أن الوجوب على الفور ، وقد قدمنا هناك ، ما يدل على أن ذلك القضاء الواجب على المحصر بمرض أو نحوه إنما هو في حجة الإسلام ، وأنه لا قضاء على المحصر في غيرها ، وبينا أدلة ذلك هناك في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ [البقرة : 196] والرواية التي ذكرنا هناك : فقد حل وعليه حجة أخرى ، وهذه الرواية قد بينتها رواية " وعليه الحج من قابل " وهي ثابتة : وهي دالة على الفور مفسرة للرواية التي ذكرنا هناك .

فهذه الأحاديث مع تعددها واختلاف طرقها ، تدل على أن وجوب الحج على الفور ، وتعتضد بالآيات القرآنية التي قدمناها ، وتعتضد بما سنذكره إن شاء الله من كلام أهل الأصول .

واعلم أن المخالفين قالوا : إن هذه الأحاديث لم يثبت منها شيء ، وأن حديث " من أراد أن يحج فليتعجل " مع ضعفه حجة لهم لا عليهم ، لأنه وكل الأمر إلى إرادته . فدل على أنه

ليس على الفور ، ولا يخفى أن الأحاديث التي ذكرنا لا يقل مجموعها عن درجة الاحتجاج ، على أن وجوب الحج على الفور .

(207/522)

ومن أدلتهم على أن وجوب الحج على الفور : هو أن الله أمر به ، وأن جماعة من أهل الأصول قالوا : إن الشرع واللغة والعقل كلها دال على اقتضاء الأمر الفور . أما الشرع فقد قدمنا الآيات القرآنية الدالة على المبادرة فوراً لامتثال أوامر الله قكوله ﴿ وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران : 133] الآية ، وكقوله ﴿ سابقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الحديد : 21] الآية ، وبينا دلالة تلك الآيات وأمثالها على اقتضاء الأمر الفور ، وأوضحنا ذلك .

وأما اللغة : فإن أهل اللسان العربي ، مطبقون على أن السيد لو قال لعبده : اسقني ماء ، فلم يفعل ، فأدبه ، فليس للعبد أن يقول له : صيغة أفعل في قولك : اسقني ماءن تدل على التراخي ، وكنت سأمتثل بعد زمن متراخ عن الأمر بل يقولون : إن الصيغة ألزمتك فوراً ، ولكنك عصيت أمر سيدك بالتواني والتراخي .

وأما العقل : فإنا لو قلنا : إن وجوب الحج على التراخي ، فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن

يكون ذلك التراخي له غاية معين ينتهي عندها ، وإما ألا والقسم الأول ممنوع ، لأن الحج لم يعين له زمن يتحتم فيه ، دون غيره من الأزمنة ، بل العمر كله تستوي أجزاؤه بالنسبة إليه .

إن قلنا : إنه ليس على الفور .

والحاصل : أنه ليس لأحد تعيين غاية له لم يعينها الشرع .

والقسم الثاني الذي هو : أن تراخيه ، ليس له غاية ، يقتضي عدم وجوبه ، لأن ما جاز تركه جوازاً ، لم تعين له غاية ينتهي إليها ، فإن تكره جائز إلى غير غاية ، وهذا يقتضي عدم وجوبه والمفروض وجوبه .

فإن قيل : غايته الوقت الذي يغلب على الظن بقاؤه إليه .

(208/522)

فالجواب : أن البقاء إلى زمن متأخر ، ليس لأحد أن يظنه ؟ لأن الموت يأتي بغتة ، فكم من إنسان يظن أنه يبقى سنين فيخترمه الموت فجأة ، وقد قدمنا قوله تعالى في ذلك ﴿ وَأَنْ عسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقترب أَجَلُهُمْ ﴾ [الأعراف : 185] ولا ينتهي إلى حالة يتيقن الموت فيها ، إلا عند عجزه عن العبادات ، ولا سيما العبادات الشاقة كالحج .

والإنسان طويل الأمل ، يهرم ، ويشب أمله وتحديد وجوبه بستين سنة تحديد لا دليل عليه .

فهذه جملة أدلة القائلين : بأن وجوب الحج على الفور ، ومنعوا أدلة المخالفين قالوا إن قولكم : إن الحج فرض سنة خمس بدليل قصة ضمام بن ثعلبة المتقدمة ، فإن قدومه سنة خمس ، وقد ذكر له النَّبي صلى الله عليه وسلم وجوب الحج ، وأن قوله تعالى ﴿ وَأَتِمُّواْ الحج والعمرة للَّهِ ﴾ [البقرة : 196] الآية . نزلت عام ست في عمرة الحديبية . فدلّت على أن الحج مفروض عام ست ، وأنه صلى الله عليه وسلم أخره بعد فرضه إلى عام عشر ، كل ذلك مردود ، بل الحج إنما فرض عام تسع ، قالوا : والصحيح أن قدوم ضمام بن ثعلبة السعدي كان سنة تسع .

وقال ابن حجر في الإصابة في ترجمة ضمام المذكور ما نصه : وزعم الواقدي أن قدومه كان في سنة خمس ، وفيه نظر . وذكر ابن هشام عن أبي عبيد : أن قدومه كان سنة تسع ، وهذا عندي أرجح ا ه . منه ، وانظر ترجيح ابن حجر لكون قدومه عام تسع .

وذكر ابن كثير : قدوم ضمام المذكور في حوادث سنة تسع ، مع أنه ذكر قول من قال : إن قدومه كان قبل عام خمس ، هذا وجه ردهم للاحتجاج بقصة ضمام ، وأما وجه ردهم للاحتجاج بآية ﴿ وَأَتِمُّواْ الحج والعمرة للَّهِ ﴾ ، فإنها وإن نزلت سنة ست عام الحديبية فليس فيها فرضية الحج ، وإنما فيها الأمر بإتمامه ، وإتمام العمرة بعد الشروع فيهما ، وذلك لا يقتضي وجوب الابتداء .

فإن قيل : فمن أين لكم تأخر نزول فرضه إلى التاسعة أو العاشرة .

قيل : لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود ، وفيه : قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم وصالحهم على أداء الجزية ، والجزية : إنما نزلت عام تبوك سنة تسع ، وفيها نزل صدر سورة آل عمران ، وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة ، ويدل عليه أن أهل مكة ، وجدوا في نفوسهم على ما فاتهم من التجارة من المشركين ، لما أنلز الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا ﴾ [التوبة : 28] فأعاضهم الله تعالى من ذلك الجزية ، ونزول هذه الآيات ، والمناداة بها إنما كان عام تسع ، وبعث الصديق رضي الله عنه بذلك في مكة في موسم الحج ، وأردفه بعلي رضي الله عنه ، وهذا الذي ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف والله أعلم . انتهى من زاد المعاد .

فتحصل : أن آية ﴿ وَأَتِمُّواْ الحج والعمرة للَّهِ ﴾ [البقرة : 196] ، لم تدل على وجوب الحج ابتداء ، وإنما دلت على وجوب إتمامه بعد الشروع فيه كما هو ظاهر اللفظ ، ولو كان

يتعين كونه يدل على ابتداء الوجوب لما حصل خلاف بين أهل العلم في وجوب العمرة ، والخلاف في وجوبها معروف ، وسيأتي إن شاء اله إيضاحه .

(210/522)

بل الذي أجمعوا عليه : هو وجوب إتمامها بعد الشروع فيها ، كما هو ظاهر الآية ، وأن قصة ضمام بن ثعلبة ، كانت عام تسع كما رجحه ابن حجر وغيره ، فظهر سقوط الاستدلال بها وبالآية الكريمة ، وأن الحج إنما فرض عام تسع كما أوضحه ابن القيم في كلامه المذكور آنفاً ، لأن آية ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران : 97] هي الآية التي فرض بها الحج : وهي من صدر سورة آل عمران ، وقد نزل عام الوفود وفيه قدم وفد نجران ، وصالحهم النَّبي صلى الله عليه وسلم على أداء الجزية ، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع كما تقدم قريباً ، وعلى كون الحج إنما فرض عام تسع غير واحد من العلماء ، وهو الصواب إن شاء الله تعالى .

وبه تعلم أنه لا حجة في تأخير النَّبي صلى الله عليه وسلم الحج عام فتح مكة ، لأنه انصرف من مكة والحج قريب ، ولم يحج . لأنه لم يفرض .

فإن قيل : سلمنا تسليماً جدلياً أن سبب تأخيره الحج عام فتح مكة ، مع تمكنه منه ،

وقدرته عليه أن الحج لم يكن مفروضاً في ذلك الوقت ، وقد اعترفتم بأن الحج فرض عام تسع ، وهو صلى الله عليه وسلم لم يحج عام تسع ، بل أخر حجه إلى عام عشر ، وهذا يكفينا في الدلالة على أن وجوبه على التراخي ، إذ لو كان على الفور لما أخره بعد فرضه إلى عام عشر .

(211/522)

فالجواب والله تعالى أعلم : أن عام تسع لم يتمكن فيه النَّبي ، وأصحابه من منع المشركين من الطواف بالبيت ، وهم عراة ، وقد بين الله تعالى في كتابه أن منعهم من قربان المسجد الحرام ، إنما هو بعد ذلك العام الذي هو عام تسع وذلك في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هاذ ﴾ [التوبة : 28] ، وعامهم هذا هو عام تسع ، فدل على أنه لم يمكن منعهم عام تسع ، ولذا أرسل علياً رضي الله عنه بعد أبي بكر ينادي ببراءة : وأن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا عريان ، فلو بادر صلى الله عليه وسلم إلى الحج عام تسع لأدى ذلك إلى رؤيته المشركين يطوفون بالبيت ، وهم عراة وهو لا يمكنه أن يحضر ذلك ، ولا سيما في حجة الوداع التي يريد أن يبين للناس فيها مناسك حجهم ، فأول وقت أمكنه فيه الحج صافياً من الموانع والعوائق بعد وجوبه عام عشر ، وقد

بادر بالحج فيه والعلم عند الله تعالى ، وأجابوا عن قولهم : كونه صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه الذين لم يسوقوا الهدين أن يفسخوا حجهم في عمرة ، دليل على تأخير الحج ، لأنهم بعد ما أحرموا فيه فسخوه في عمرة ، وحلوا منه بأن هذا ليس فيه تأخير الحج لعزمهم على أن يحجوا في تلك السنة بعينها ، وتأخير الحج : إنما هو بتأخيره من سنة إلى أخرى ، وذلك ليس بواقع هنا ، فلا تأخير للحج في الحقيقة ، لأنهم حجوا في عين الوقت الذي حج فيه من لم يفسخ حجه في عمرة ، فلا تأخير كما ترى ، وأجابوا عن قولهم : إنه لو أخره من سنة إلى أخرى ، أو إلى سنين ، ثم فعله بعد ذلك فإنه يسمى مؤدياً لا قاضياً بالإجماع ، ولو حرم التأخير ، لكان قضاء بأن القضاء لا يكون إلا في العبادة الموقتة بوقت معين .

(212/522)

ثم خرج ذلك الوقت المعين لها كما هو مقرر في الأصول ، والحج لم يوقت بزمن معين والعمر كله وقت له ، وذلك لا ينافي وجوب المبادرة خوفاً من طرو العوائق ، أو نزول الموت قبل الأداء كما تقدم إيضاحه .

وأجابوا عن قولهم : إن من تمكن من أداء الحج ، ثم أخره ، ثم فعله لا ترد شهادته فميا بين فعله وتأخيره . ولو كان التأخير حراماً لردت شهادته لارتكابه ما لا يجوز بأنه ما كل من

ارتكب ما لا يجوز ترد شهادته ، بل لا ترد إلا بما يؤدي إلى الفسق ، وهنا قد يمنع ن الحكم بتفسيقه مراعاة الخلاف ، وقول من قال : إنه لم يرتكب حراماً وشبهة الأدلة التي أقاموها على ذلك ، هذا هو حاصل أدلة الفريقين .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين عندي وأليقهما بعظمة خالق السموات والأرض هو : أن وجوب أوامره جل وعلا كالحج على الفور ، لا على التراخي ، لما قدمنا من النصوص الدالة على الامر بالمبادرة ، وللخوف من مباغتة الموت كقوله : ﴿ وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران : 133] الآية ، وما قدمنا معها من الآيات وكقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السماوات والأرض وَمَا خَلَقَ الله مِن شَيْءٍ وَأَنْ عسى أَن يَكُونَ قَدِ اقترب أَجَلُهُمْ ﴾ [الأعراف : 185] ، ولما قدمنا من أن الشرع واللغة والعقل كلها يدل على أن أوامر الله تجب على الفور ، وقد بينا أوجه الجواب عن كونه صلى الله عليه وسلم لم يحج حجة الإسلام إلا سنة عشر ، والعلم عند الله تعالى ، وأشار في مراقي السعود إلى أن مذهب مالك أن وجوب الأمر على الفور بقوله :

وكونه للفور أصل المذهب . . . وهو لدى القيد بتأخير أبى

المسألة الثانية : اعلم أن من أراد الحج له أن يحرم مفرداً الحج وله أن يحرم متمتعاً بالعمرة إلى الحج ، وله أن يحرم قارناً بين الحج والعمرة ، وإنما الخلاف بين العلماء ، فيما هو الأفضل من الثلاثة المذكورة .

والدليل على التخيير بين الثلاثة ما رواه الشيخان في صحيحهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع . فمنا من أهل بعمرة ، ومنا من أهل بحجة وعمرة ، ومنا من أهل بالحج الحديث . وهو نص صريح متفق عليه في جواز الثلاثة المذكورة . وقال النووي في شرح المهذب : وجواز الثلاثة قال به العلماء ، وكافة الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلا ما ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما : أنهما كان ينهيان عن التمتع . انتهى محل الغرض من كلامه .

وقال أيضاً في شرح مسلم : وقد أجمع العلماء على جواز الأنواع الثلاثة :

وقال ابن قدامة في المغني : وأجمع أهل العلم على جواز الإحرام ، بأي الأنساك الثلاثة شاء . واختلفوا في أفضلها .

وفي رواية في الصحيح عن عائشة قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " من أراد منكم أن يُهل بحج وعمرة فلْيفعلْ ، ومن أراد أن يُهل بحج فليهل ، ومن أراد أن يهل بعمرة فليهل ، قالت عائشة رضي الله عنها : فأهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحج

وأهل به ناس معه ، وأهل ناس بالعمرة والحج ، وأهل ناس بعمرة ، وكنت فيمن أهل بالعمرة " هذا لفظ مسلم في صحيحه : وهو صريح في جواز الثلاثة المذكورة .

وبه تعلم أن ادعاء بعض المعاصرين أن إفراد الحج ممنوع مخالف لما صح باتفاق مسلم والبخاري عن النَّبي صلى الله عليه وسلم . وأطبق عليه جماهير أهل العلم . وحكى غير واحد عليه الإجماع ، وسنذكر إن شاء الله كلام أهل العلم في التفضيل بينها مع مناقشة الأدلة .

المسألة الثالثة : اعلم أن ممن قال : إن الإفراد أفضل من التمتع والقرآن : مالك ، وأصحابه ، والشافعي في الصحيح من مذهبه وأصحابه .

(214/522)

قال النووي : في شرح المهذب : وبه قال عمر بن الخطاب ، وعثمان ، وعلي ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وجابر ، وعائشة ، ومالك ، والأوزاعي ، وأبو ثور ، وداود . واحتج من قال : بتفضيل إفراد للحج على غيره بأدلة متعددة .

الأول : أحاديث صحيحة جاءت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، بأنه أفرد في حجة الوداع من رواية جابر ، وابن عمرن وابن عباس ، وعائشة رضي الله عنهم وغيرهم . أما

حديث عائشة فقد ذكرناه آنفاً .

قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع ، فمنا من أهل بعمرة ، ومنا من أهل بحجة وعمرة ، ومنا من أهل بالحج ، وأهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحد الحديث . هذا لفظ البخاري ، ومسلم ، وهو صريح في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل بالحج . ولا يحتمل لفظ عائشة هذا غير إفراد الحج لأنها ذكرت معه التمتع والقران ، وأن بعض الناس تمتع وبعضهم قرن ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل بالحج فهو الحج المفرد ، ولا يحتمل غيره .

وفي رواية في الصحيح عنها رضي الله عنها قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " من أراد منكم أن يهل بحج وعمرة فليفعل ، ومن أراد أن يهل بحج فليهل . ومن أراد أن يهل بعمرة فليهل " قالت عائشة رضي الله عنها : " فأهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحج ، وأهل به ناس بالعمرة والحج ، وأهل ناس بعمرة ، وكنت فيمن أهل بالعمرة " هذا لفظ مسلم في صحيحه . وهو لا يحتمل غير الإفراد بحال ، لأنها ذكرت القران ، والتمتع ، والإفراد ، وصرحت بأنه صلى الله عليه وسلم أهل بالحج ، فدل على أنها لا تريد القران ولا غيره .

(215/522)

وفي رواية عنها في الصحيح قالت : خرجنا مع النَّبي صلى الله عليه وسلم ، ولا نرى إلا الحج ، وفي رواية عنها في الصحيح أيضاً ، ولا نذكر إلا الحج . وفي رواية عنها في الصحيح أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد الحج . وفي رواية عنها رضي الله عنها في الصحيح : ولا نرى إلا أنه الحج . كل هذه الألفاظ في صحيح مسلم . وبعضها في البخاري . وأما حديث جابر فقد روى عنه عطاء قال : حدثني جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أنه حج مع النَّبي صلى الله عليه وسلم يوم ساق البدن معه ، وقد أهلوا بالحج مفرداً الحديث : هذا لفظ البخاري ومسلم ، وفي رواية عنه رضي الله عنه في الصحيح : قدمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقول : لبيك اللهم لبيك بالحج . هذا لفظ البخاري ، ومسلم أيضاً وفي رواية في الصحيح عن عطاء : حدثني جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أهل وأصحابه بالحج الحديث . هذا لفظ البخاري في صحيحه . وفي حديثه أعني جابراً رضي الله عنه الطويل المشهور في صحيح مسلم الذي بين فيه حجة النَّبي صلى الله عليه وسلم أكمل بيان ، وساقها أحسن سياقة من أولها إلى آخرها . وقد دل ذلك على ضبطه لها ، وحفظه ، وإتقانه ما نصه : قال جابر رضي الله عنه : لسنا ننوي إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة الحديث ، وهو تصريح منه رضي الله عنه بالإفراد ، دون التمتع ، والقران لقوله : لسنا نعرف العمرة .

وفي رواية عنه في الصحيح قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلين بالحج الحديث .

وفي رواية عنه في الصحيح أيضاً قال : أهللنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالحج خالصاً وحده . وكلا الروايتين عنه بلفظ مسلم في الصحيح . وفي صحيح مسلم أيضاً عنه : قدمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلين بالحج . الحديث . وفي رواية في صحيح مسلم عنه أيضاً : أهللنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج .

(216/522)

وأما حديث ابن عمر : فقد قال مسلم في صحيحه : حدثنا يحيى بن أيوب ، وعبد الله بن عون الهلالي ، قالا : حدثنا عباد بن عباد المهلبي ، حدثنا عبيد الله بن عمر ، عن نافع عن ابن عمر في رواية يحيى قال : أهللنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج مفرداً . وفي رواية ابن عون : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل بالحج مفرداً ، وحدثنا سريج بن يونس ، حدثنا هشيم ، حدثنا حميد ، عن بكر ، عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت النَّبي صلى الله عليه وسلم يلبي بالحج والعمرة جميعاً : قال بكر : فحدثت بذلك ابن عمر ، فقال : لبى بالحج وحده ، فلقيت أنساً فحدثته بقول ابن عمر فقال أنس : ما تعودننا إلا

صبياناً ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لبيك عمرة وحجا " وحدثني أمية بن بسطام العيشي ، حدثنا يزيد يعني ابن زريع ، حدثنا حبيب بن الشهيد ، عن بكر بن عبد الله ، حدثنا أنس رضي الله عنه : أنه رأى النَّبي صلى الله عليه وسلم جمع بينهما بين الحج والعمرة ، قال : فسألت ابن عمر ؟ فقال : أهللنا بالحج ، فرجعت إلى أنس فأخبرته ما قال ابن عمر ، فقال : كأنما كنا صبياناً . انتهى منه .

وحديث ابن عمر هذا لا يحتمل غير إفراد الحج ، فلا يحتمل القران ولا التمتع بحال ، لأن فيه أن بكراً قال لابن عمر : إن أنساً يقول : إن النَّبي صلى الله عليه وسلم قرن بين الحج والعمرة ، فرد ابن عمر على أنس دعواه القران قائلاً : إن النبي صلى الله عليه وسلم أحرم بالحج وحده ، وهذا صريح في الإفراد كما ترى . وحديث ابن عمر المذكور أخرجه البخاري أيضاً اه .

(217/522)

وفي رواية : أن رجلاً أتى ابن عمر رضي الله عنهما فقال : بم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال ابن عمر : أهل بالحج ، فانصرف ثم أتاه من العام المقبل ، فقال : بم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : ألم تأتني عام أول ؟ قال : بلى ، ولكن أنس بن مالك يزعم

أنه قرن : قال ابن عمر رضي الله عنهما : إن أنس بن مالك كان يدخل على النساء ، وهن منكشفات الرؤوس ، وإني كنت تحت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسني لعابها أسمعه : يلبي بالحج .

رواه البيهقي بإسناده . وقال النووي في شرح المهذب : إن إسناده صحيح .

وأما حديث ابن عباس ، فهو ما رواه عنه البخاري ومسلم قال : كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض ، ويجعلون المحرم صفراً ويقولون : إذا برأ الدبر ، وعفا الأثر وانسلخ صفر ، حلت العمرة لمن اعتمر . فقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه صبيحة رابعة مهلين بالحج الحديث هذا لفظ البخاري ومسلم .

وفي رواية في الصحيح عنه رضي الله عنه : أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج : لفظ مسلم وفي رواية عنه في الصحيح : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نهل بالحج وفي رواية عنه رضي الله عنه في الصحيح : ثم ركب راحلته ، فلما استوت به على البيداء أهل بالحج . كل هذه الألفاظ في صحيح مسلم رحمه الله تعالى .

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما . قالت : قدمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلين بالحج . الحديث .

قالوا : فهذه الأحاديث الصحاح دالة على أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أحرم مفرداً ، ورواتها من أضبط الصحابة وأتقنهم ، قالوا : فمنهم : جابر الذي عرف ضبطه وحفظه وخصوصاً ضبطه لحجته صلى الله عليه وسلم . ومنهم : ابن عمر الذي رد على أنس ، وذكر أن لعاب ناقة النَّبي كان يمسه . ومنهم : عائشة رضي الله عنها وحفظها وضبطها واطلاعها على أحوال النَّبي صلى الله عليه وسلم كل ذلك معروف . ومنهم : ابن عباس رضي الله عنهما . ومكانته في العلم والحفظ معروفة .

الأمر الثاني من الأمور التي احتج بها القائلون : بأفضلية الإفراد على التمتع ، والقران : هو إجماع أهل العلم ، على أن المفرد إذا لم يفعل شيئاً من محظورات الإحرام ، ولم يخل بشيء من النسك ، أنه لا دم عليه ، وانتفاء الدم عنه مع لزومه في التمتع والقران : يدل على أنه أفضل منهما ، لأن الكامل بنفسه الذي لا يحتاج إلى الجبر بالدم أفضل من المحتاج إلى الجبر بالدم .

وأجاب المخالفون عن هذا : بأن دم التمتع والقران ، ليس دم جبر لنقص فيهما . وإنما هو دم نسك محض ألزم في ذلك النسك . واحتجوا على أنه دم نسك . بجواز أكل القارن ، والمتمتع من دم قرانه ، وتمتعه . قالوا : لو كان جبراً لما جاز الأكل منه كالكفارات ، وبأن الجبر في فعل ما لا يجوز والتمتع والقران جائزان ، فلا جبر في مباح .

ورد هذا من يخالف في ذلك قائلاً : إنه دم جبر لا دم نسك ، بدليل أن الصوم يقوم مقامه عند

العجز عنه . قالوا : والنسك المحض كالأضاحي والهدايا لا يكون الصوم بدلاً عنه عند العجز عنه ، فلا يكون الصوم بدلاً من دم ، إلا إذا كان دم جبر .

قالوا : ولا مانع من الأمر بعبادة مع ما يجبرها ويكملها ، ولا مانع من أن يرد دليل خاص على جواز الأكل من بعض دماء الجبر .

(219/522)

قالوا : والدليل على وقوع الجبر في المباح : لزوم فدية الأذى المنصوص في آية ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ ﴾ [البقرة : 196] الآية : ولا شك أنه جبر في فعل مباح . وكذلك من لبس لمرض أو حر ، أو برد شديدين ، أو أكل صيداً للضرورة المبيحة للميتة ، أو احتاج للتداوي بطيب .

قالوا : ومن الأدلة على أنه دم جبر لا نسك سقوطه عن أهل مكة المنصوص عليه في قوله ﴿ ذلكِ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 196] راجعة إلى التمتع بالعمرة إلى الحج ، وأن أهل مكة لا تمتع لهم ، لأنه على قول الجمهور لا فرق بين الآفاقي ، وحاضري المسجد الحرام موجباً لوجوب دم التمتع على الأول وسقوطه عن الثاني ، إلا أن الأول : تمتع بالترفه بسقوط أحد السفرين لأحد النسكين : ولذلك قال مالك ، وأصحابه ،

والشافعي وأصحابه ، وأحمد وأصحابه ، أبو حنيفة وأصحابه : إنه إن سافر بعد إحلاله من العمرة وأحرم للحج في سفر جديد أنه لا دم تمتع عليه لزوال العلة مع اختلافهم في قدر السفر المسقط للدم المذكور : فبعضهم يكتفي بسفر مسافة القصر ، وهو مذهب أحمد ، وهو مروي عن عطاء وإسحاق والمغيرة ، كما نقله عنهم ابن قدامة في المغني . وبعضهم : يكتفي بالرجوع إلى الميقات ، وهو مذهب الشافعي ، وبعضهم يشترط الرجوع إلى محله الذي جاء منه ، وعزاه في المغني لأبي حنيفة وأصحابه . وبعضهم : يشترط ذلك أو سفر مسافة بقدره : أعني قدر مسافة المحل الذي جاء منه وهو مذهب مالك وأصحابه .

وهذا يدل على أن دم التمتع دم جبر لنقص السفر المذكور ، بدليل أن السفر إن حصل عندهم سقط الدم لزوال علة وجوبه .

الأمر الثالث : من الأمور التي استدل بها القائلون : بأفضلية الإفراد بعض الأحاديث الواردة عن النَّبي صلى الله عليه وسلم بالنهي عن التمتع والقران .

(220/522)

قال البيهقي في السنن الكبرى : أخبرنا أبو علي الروذباري ، أنبأنا أبو بكر بن داسة ، ثنا أبو داود ، ثنا أحمد بن صالح ، ثنا ابن وهب ، أخبرني حيوة ، أخبرني أبو عيسى الخراساني ،

عن عبد الله بن القاسم الخراساني ، عن سعيد بن المسيب : أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى عمر بن الخطاب ، فشهد عنده : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي قبض فيه ينهى عن العمرة قبل الحج .

أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ، أنبأ عبد الله بن جعفر ، ثنا يونس بن حبيب ، ثنا أبو داود الطيالسي ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن أبي شيخ الهنائي واسمه خيوان بن خالد : أن معاوية قال لنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن صفف النمور ؟ قالوا : اللهم نعم .

قال : وأنا أشهد قال : أتعلمون أن النَّبي صلى الله عليه وسلم نهى عن لبس الذهب إلا مقطعاً ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : أتعلمون أن النَّبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يقرن بين الحج والعمرة ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : والله إنها لمعهن وكذلك رواه حماد بن سلمة والأشعث بن بزاز عن قتادة ، وحماد بن سلمة في حديثه ، ولكنكم نسيتم ورواه مطر الوراق ، عن أبي شيخ في متعة الحج انتهى من البيهقي .

وقد ذكر النووي في شرح المهذب ، عن البيهقي : أنه ذكر بإسناده الحديثين الذين سقناهما عنه آنفاً ، ثم قال في الأول منهما : ورواه أبو داود في سننه . وقد اختلفوا في سماع سعيد بن المسيب عن عمر ، لكنه لم يرو هنا عن عمر ، بل عن صحابي غير مسمى والصحابة كلهم

عدول .

ثم قال في الثاني منهما : رواه البيهقي بإسناد حسن انتهى .

(221/522)

وقال أبو داود رحمه الله في سننه : حدثنا أحمد بن صالح ، ثنا عبد الله بن وهب ، أخبرنا حيوة ، أخبرني أبو عيسى الخراساني ، عن عبد الله بن القاسم ، عن سعيد بن المسيب : أن رجلاً من أصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم أتى عمر بن الخطاب ، فشهد عنده : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي قبض فيه ينهى عن العمرة قبل الحج . حدثنا موسى أبو سلمة ثنا حماد ، عن قتادة عن أبي شيخ الهنائي خيوان بن خلدة ممن قرأ على أبي موسى الأشعري من أهل البصرة : أن معاوية بن أبي سفيان قال لأصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم : هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن كذا وكذا ، وعن ركوب جلود النمور ؟ قالوا : نعم ، قال : فتعلمون أنه نهى أن يقرن بين الحج والعمرة ؟ فقالوا : أما هذا فلا ، فقال : أما إنها معهن ، ولكنكم نسيتم . انتهى منه .

الأمر الرابع : من الأمور التي استدل بها القائلون : بأفضلية الإفراد على غيره ، أنه هو الذي كان الخلفاء الراشدون يفعلونه بعده صلى الله عليه وسلم ، وهم أفضل الناس وأتقاهم ،

وأشدهم اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد حج أبو بكر رضي الله عنه بالناس مفرداً ، وحج عمر بن الخطاب عشر سنين بالناس مفرداً ، وحج عثمان رضي الله عنه بهم مدة خلافته مفرداً قالوا : فمدة هؤلاء الخلفاء الراشدين الثلاثة حول أربع وعشرين سنة وهم يحجون بالناس مفردين ، ولو لم يكن الإفراد أفضل من غيره ، لما واظبوا عليه هذه المدة الطويلة .

قال النووي في شرح المهذب ، وشرح مسلم في أدلة من فضل الإفراد : ومنها : أن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم بعد النَّبي صلى الله عليه وسلم أفردوا الحج ، وواظبوا عليه ، كذلك فعل أبو بكر وعمر وعثمان .

(222/522)

واختلف فعل علي رضي الله عنهم أجمعين . وقد حج عمر بالناس عشر حجج مدة خلافته كلها مفرداً ، ولو لم يكن هذا هو الأفضل عندهم ، وعلموا أن النَّبي صلى الله عليه وسلم حج مفرداً لم يواظبوا على الإفراد مع أنهم الأئمة الأعلام ، وقادة الإسلام ويقتدى بهم في عصرهم وبعدهم ، وكيف يظن بهم المواظبة على خلاف فعل النَّبي صلى الله عليه وسلم ، أو أنهم خفي عليهم جميعهم فعله صلى الله عليه وسلم . وأما الخلاف عن علي

وغيره ، فإنما فعلوه لبيان الجواز ، وقد قدمنا عنهم ما يوضح هذا انتهى منه .

الأمر الخامس : من الأمور التي استدل بها القائلون . بأفضلية الإفراد : هو ما ذكره النووي في شرح المهذب قال : ومنها : أن الأمة أجمعت على جواز الإفراد من غير كراهة ، وكره عمر وعثمان وغيرهما ممن ذكرناه قبل هذا التمتع ، وبعضهم كره التمتع والقران وإن كانوا يجوزونه على ما سبق تأويله ، فكان ما أجمعوا على أنه لا كراهة فيه أفضل . انتهى منه .

وقال البيهقي في السنن الكبرى : فثبت بالسنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جواز التمتع والقران والإفراد ، وثبت بمضي النَّبي صلى الله عليه وسلم في حج مفرد ثم باختلاف الصدر الأول في كراهية التمتع والقران دون الإفراد كون إفراد الحج عن العمرة أفضل . والله أعلم . انتهى منه .

وقال البيهقي في السنن الكبرى أيضاً : أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي وأبو بكر بن الحارث الفقيه قالا : ثنا علي بن عمر الحافظ ، ثنا الحسين بن إسماعيل ، ثنا أبو هشام ، ثنا أبو بكر بن عياش ، ثنا أبو حصين عن عبد الرحمن بن الأسود ، عن أبيه قال : حججت مع أبي بكر رضي الله عنه فجرد ، ومع عمر رضي الله عنه فجرده ، ومع عثمان رضي الله عنه فجرد .

(223/522)

أخبرنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران ، أنبأ إسماعيل بن محمد الصفار ، ثنا عبد الكريم بن الهيثم ، ثنا أبو اليمان ، أخبرني شعيب ، أنبأ نافع : أن ابن عمر كان يقول : إن عمر رضي الله عنه كان يقول : أن تفصلوا بين الحج والعمرة ، وتجعلوا العمرة في غير أشهر الحج أتم لحج أحدكم ، وأتم لعمرته انتهى منه .

ثم ساق البيهقي بسنده عن عبد الله والحسن ابني محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم عن أبيهما عن علي أنه قال : يا بني أفرد الحج ، فإنه أفضل ا ه ، وساق بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : جردوا الحج . وفي رواية له عنه : أنه أمر بإفراد الحج قال فكان أحب أن يكون لكل واحد منهما شعث وسفر . انتهى من البيهقي .

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تاريخه ، قال الحافظ أبو الحسن الدارقطني ، ثنا الحسين بن إسماعيل ، ثنا أبو هشام ، ثنا أبو بكر بن عياش ، ثنا أبو حصين ، عن عبد الرحمن بن الأسود ، عن أبيه قال : حججت مع أبي بكر فجرد ، ومع عمر فجرد ، ومع عثمان فجرد .

تابعه الثوري ، عن أبي حصين ، وهذا إنما ذكرناه ها ههنا ، لأن الظاهر أن هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم : إنما يفعلونه هذا عن توقيف . والمراد بالتجريد ها هنا : الإفراد والله أعلم .

(224/522)

وقال الدارقطني : ثنا أبو عبيد الله القاسم بن إسماعيل ، ومحمد بن مخلد قالا : ثنا علي بن محمد بن معاوية الرزاز ، ثنا عبد الله بن نافع ، عن عبد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر : أن النّبي صلى الله عليه وسلم استعمل عتاب بن أسيد على الحج ، فأفرد ، ثم استعمل أبا بكر سنة تسع فأفرد الحج ، ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر فأفرد الحج ، ثم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر ، فبعث عمر فأفرد الحج ، ثم حج أبو بكر فأفرد الحج ، ثم توفي أبو بكر واستخلف عمر ، فبعث عبد الرحمن بن عوف فأفرد الحج . ثم حج فأفرد الحج ثم حج عمر سنيه كلها فأفرد الحج في إسناده عبد الله بن عمر العمري ، وهو ضعيف . لكن قال الحافظ البيهقي : له شاهد بإسناد صحيح . انتهى من البداية والنهاية لابن كثير .

(225/522)

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثني هارون بن سعيد الإيلي ، حدثنا أبو وهب ، أخبرني عمرو وهو ابن الحرث ، عن محمد بن عبد الرحمن : أن رجلاً من أهل العراق قال له : سل لي عروة بن الزبير ، عن رجل يهل بالحج ، فإذا طاف بالبيت أيحل أم لا ؟ فإن قال لك : لا يحل ، فقل له : إن رجلاً يقول ذلك ، قال : فسألته فقال : لا يحل من أهل بالحج إلا بالحج ، قلت : فإن رجلاً كان يقول ذلك . قال : بئسما قال فتصدّاني الرجل ، فسألني فحدثته فقال : فقل له فإن رجلاً كان يخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فعل ذلك وما شأن أسماء والزبير فعلا ذلك ؟ قال : فجئته ، فذكرت له ذلك فقال من هذا ؟ فقلت : لا أدري ، قال : فما باله لا يأتيني بنفسه ، يسألني ، أظنه عراقياً ؟ فقلت : لا أدري قال : فإنه قد كذب قد حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرتني عائشة رضي الله عنها : أن أول شيء بدأ به حين قدم مكة ، أنه توضأ ثم طاف بالبيت ، ثم حج أبو بكر ، فكان أول شيء بدأ به الطواف بالبيت ، ثم لم يكن غيره ، ثم عمر مثل ذلك ، ثم حج عثمان فرأيته أول شيء بدأ به : الطواف بالبيت ، ثم لم يكن غيره ، ثم معاوية ، وعبد الله بن عمر ، ثم حججت مع أبي الزبير بن العوام ، فكان أول شيء بدأ به .

(226/522)

الطواف بالبيت ثم لم يكن غيره ، ثم رأيت المهاجرين والأنصار يفعلون ذلك ، ثم لم يكن غيره ثم آخر من رأيت فعل ذلك ابن عمر ، ثم لم ينقضها بِعمرةٍ ، وهذا ابن عمر عندهم أفلا يسألونه ؟ ولا أحد ممن مضى كانوا يبدؤون بشيء حين يضعون أقدامهم أول منَ الطَّواف بالبيت ثم لا يحلون ، وقد رأيت أمي وخالتي حين تقدمان لا تبتدآن بشيء أول من البيت تطوفان به ثم لا تحلان ، وقد أخبرتني أمي أنها أقبلت هي وأختها والزبير وفلان وفلان بِعمرةٍ قطُّ ، فلما مسحوا الركن حلوا ، وقد كذب فيما ذكر من ذلك . انتهى من صحيح مسلم . وفيه التصريح من عروة بن الزبير رضي الله عنهما بأن الخلفاء الراشدين والمهاجرين ، والأنصار كانت عادتهم أن يأتوا مفردين بالحج ، ثم يتمونه كما رأيت .

وقال النووي في شرح الحديث المذكور وقوله : ثم لم يكن غيره وكذا قال فيما بعده ، ولم يكن غيره هكذا هو في جميع النسخ غيره بالغين المعجمة والياء ، قال القضاي عياض : كذا هو في جميع النسخ قال : وهو تصحيف وصوابه : ثم لم تكن عمرة بضم العين المهملة وبالميم ، وكان السائل لعروة إنما سأله عن فسخ الحج إلى العمرة على مذهب من رأى ذلك ، واحتج بأمر النَّبي صلى الله عليه وسلم لهم بذلك في حجة الوداع ، فأعلمه عروة : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك بنفسه ، ولا من جاء بعده . هذا كلام القاضي .

قلت : هذا الذي قاله من أن قول غيره تصحيف ليس كما قال ، بل هو صحيح في الرواية وصحيح في المعنى ، لأن قوله غيره يتناول العمرة وغيرها .

ويكون تقدير الكلام : ثم حج أبو بكر فكان أول شيء بدأ به الطواف بالبيت ثم لم يكن غيره : أي لم يغير الحج ، ولم ينقله ، ويفسخه إلى غيره لا عمرة ولا قران ، والله أعلم ، انتهى كلام النووي ، وهو صواب .

(227/522)

وقال البخاري في صحيحه : حدثنا أحمد بن عيسى ، حدثنا ابن وهب ، قال : أخبرني عمرو بن الحارث ، عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل القرشي : أنه سأل عروة بن الزبير ، فقال : قد حج النَّبي صلى الله عليه وسلم فأخبرتني عائشةُ رضي الله عنها : أنه أول شيء بدأ به حين قدم : أنَّه توضأ ، ثم طاف بالبيت ، ثم لم تكن عمرة ، ثم حج أبو بكر رضي الله عنه ، فكان أول شيء بدأ به : الطواف بالبيت ثم لم تكن عمرة ، ثم عمر رضي الله عنه مثل ذلك ، ثم حج عثمان رضي الله عنه ، فرأيته أول شيء بدأ به : الطواف بالبيت ، ثم لم تكن عمرةٌ ، ثم معاوية وعبد الله بن عمر ، ثم حججت مع أبي الزبير بن العوام ، فكان أول شيء بدأ به : الطواف بالبيت ، ثم لم تكن عمرة ، ثم رأيت المهاجرين والأنصار يفعلون ذلك ، ثم لم تكن عمرة ، ثم آخر من رأيت فعل ذلك ابن عمر ، ثم لم ينقضها عمرةً ، وهذا ابن عمر عندهم فلا يسألونه ولا أحد ممن مضى ، ما كانوا يبدأون بشيء ، حتى يضعوا أقدامهم من

الطواف بالبيت ، ثم لا يحلون .

وقد رأيت أمي وخالتي حين تقدمان لا تبتدئان بشيء أول من البيت تطوفان به ثم لا تحلان ، وقد أخبرتني أمِّي : أنها أهلت ، هي وأختها والزبير ، وفلان ، وفلان بعمرةٍ . فلما مسحوا الركن حلوا . انتهى منه .

وقال البخاري رحمه الله في صحيحه أيضاً : حدثنا أصبغ ، عن ابن وهب : أخبرني عمرو عن محمد بن عبد الرحمن ذكرت لعروَةَ قال : فأخبرتني عائشة رضي الله عنها : أن أول شيء بدأ به حين قدم النَّبي صلى الله عليه وسلم : أنه توضأ ، ثم طاف ، ثم لم تكن عمرة ، ثم حج أبو بكر ، وعمر رضي الله عنهما مثله ، ثم حججت مع أبي الزبير رضي الله عنه ، فأولُ شيء بدأ به الطواف ، ثم رأيت المهاجرين ، والأنصار يفعلونه ، وقد أخبرتني أمي : أنها أهلت هي وأختها والزبير وفلان وفلان بعمرة ، فلما مسحوا لاركن حلوا . انتهى منه .

(228/522)

قالوا : وجواب ابن عباس رضي الله عنهما عن حديث عروة المذكور لا يدفع احتجاج عروة بما ذكر ، وكذلك جواب ابن حزم ، وقد أجاب عروة ابن عباس فأسكته .

أما جواب ابن عباس الذي ذكروه ، فهو ما رواه الأعمش ، عن فضيل بن عمرو ، عن

سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عروة : نهى أبو بكر ، وعمر عن المتعة ، فقال ابن عباس : أراكم ستهلكون ، أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول : قال أبو بكر وعمرن وقال عبد الرزاق : حدثنا معمر ، عن أيوب قال : قال عروة لابن عباس : ألا تتقي الله ترخص في المتعة ، فقال ابن عباس : سل أمك يا عرية ، فقال عروة : أما أبو بكر وعمر فلم يفعلا . فقال ابن عباس : والله ما أراكم منهين حتى يعذبكم الله أحدثكم عن رسول الله ، وتحدثوننا عن أبي بكر وعمر ، فقال عروة : لهما أعلم بسنة الله صلى الله عليه وسلم . أتبع لها منك ا ه . قالوا : فترى عروة أجاب ابن عباس بجواب أسكته به .

ولا شك أن الخلفاء الراشدين أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، كانوا أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتبع لها لا يمكن ابن عباس أن ينكر ذلك .

وأما جواب ابن حزم فهو قوله : إن ابن عباس أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، وعمر من عروة ، وأنه يعني ابن بعاس خير من عروة وأولى منه بالنَّبي ، والخلفاء الراشدين ، ثم ساق آثاراً من طريق البزار وغيره عن ابن عباس ، يذكر فيها التمتع ، عن أبي بكر ، وعمر وأن أول من نهى عنه معاوية ، ولا يخفى سقوط كلام ابن حزم المذكور في رده على عروة بن الزبير رضي الله عنهما .

أما قوله : إن ابن عباس أعلم من عروة ، وأفضل فلا يرد رواية عروة بسند صحيح عن الخلفاء الراشدين : أنهم كانوا يفردون كما ثبت في صحيح مسلم . وابن عباس لم يعارض عروة : بأن فعلهما كان مخالفاً لما ذكره عروة من الإفراد ، وإنما احتج بأن أمر النَّبي أولى بالاتباع من أمرهما ، وقد أجابه عروة بأنهما ما فعلا إلا ما علما من النَّبي صلى الله عليه وسلم : أنه أكمل وأتبع لسنته صلى الله عليه وسلم . وأما الآثار التي رواها من طريق ليث وغيره بأنهما ما فعلا إلا ما علما من النَّبي صلى الله عليه وسلم : أنه أكمل وأتبع لسنته صلى الله عليه وسلم . وأما الآثار التي رواها من طريق ليث وغيره فلا يخفى أنها لا تعد شيئاً مع ما ثبت في الصحيحين عنهم من الروايات التي لا مطعن فيها أنهم كانوا يفضلون الإفراد .

ومن فهم كلامهم حق الفهم أعني الخلفاء الراشدين علم أنهم رضي الله عنهم يعلمون جواز التمتع والقران علماً لا يخالجه شك ، ولكنهم يرون أنه أتم للحج والعمرة أن يفصل بينهما كما لا يخفى والمعنى غير خاف ، بل هو ظاهر من سياق السؤال والجواب لمن تأمل ذلك ، ومما يدل على صحة ما ذكره عروة بن الزبير في حديث مسلم المذكور من أن الخلفاء كانوا يفردون ما ثبت في الصحيحين من نحو ذلك ، عن عمر ، وعثمان رضي الله عنهما .

(230/522)

قال البخاري في صحيحه : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب ، عن أبي موسى رضي الله عنه قال : بعثني النَّبي صلى الله عليه وسلم إلى قوم باليمن ، فجئت وهو بالبطحاء ، فقال : بما أهللت ؟ قلت : أهللت كإهلال النَّبي صلى الله عليه وسلم ، قال : هل معك من هدي ؟ قلت : لا ، فأمرني فطفت بالبيت ، وبالصفا والمروة ، ثم أمرني فأحللت فأتيت امرأة من قومي فمشطتني ، أو غسلت رأسي ، فقدم عمر رضي الله عنه فقال : إن نأخذ بكتاب الله ، فإنه يأمر بالتمام قال الله ﴿ وَأَتِمُّواْ الحج والعمرة ﴾ وإنْ نأخذ النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يحل حتى نَحرَ الهدي .

انتهى منه ونحوه أخرجه مسلم أيضاً .

وقال ابن حجر في فتح الباري في الكلام على الحديث المذكور : محصل جواب عمر في منعه الناس من التحلل بالعمرة ، أن كتاب الله دال على منع التحلل لأمره بالإتمام ، فيقتضي استمرار الإحرام إلى فراغ الحج ، وأن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً دالة على ذلك ، لأنه لم يحل ، حتى بلغ الهدي محله ، لكن الجواب عن ذلك : هو ما أجاب به هو صلى الله عليه وسلم حيث قال

" ولولا أن معي الهدي لأحللت " فدل على جواز الإحلال لمن لم يكن معه هدي ، وتبين من مجموع ما جاء عن عمر أنه منع منه سداً للذريعة ، وقال المازري : قيل : إن المتعة التي نهى

عنها عمر : فسخ الحج إلى العمرة ، وقيل : العمرة في أشهر الحج ، ثم الحج من عامه . وعلى الثاني : إنما نهى عنها ترغيباً في الإفراد الذي هو أفضل ، لا أنه يعتقد بطلانها وتحريمها . وقال عياض : الظاهر أنه نهى عن الفسخ ، ولهذا كان يضرب الناس عليه ، كما رواه مسلم بناء على معتقده : أن الفسخ كان خاصاً بتلك السنة .

(231/522)

قال النووي : والمختار أنه نهى عن المتعة المعروفة التي هي الاعتمار في أشهر الحج ثم الحج من عامه ، وهو على التنزيه للترغيب في الإفراد ، كما يظهر من كلامه ، ثم انعقد الإجماع على جواز التمتع من غير كراهة ، وبقي الاختلاف في الأفضل انتهى الغرض من كلام ابن حجر في الفتح وهو واضح في أن عمر رضي الله عنه ما كان يرى إلا تفضيل الإفراد على غيره ، وشاهد لصحة قول من قال : إنه حج بالناس عشر حجج مفرداً ، وقال مسلم بن الحجاج رحمه اله في صحيحه : حدثنا محمد بن المثنى ، وابن بشار ، قال ابن المثنى : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة قال : سمعت قتادة يحدث ، عن أبي نضرة قال : كان ابن عباس يأمر بالمتعة ، وكان ابن الزبير ينهى عنها قال : فذكرت ذلك لجابر بن عبد الله فقال : على يدي دار الحديث : تمتعنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام عمر قال : إن

الله كان يحل لرسوله ما شاء بما شاء ، وإن القرآن قد نزل منازِلَهُ . فأتموا الحج والعمرة لله كما أمركم الله وأبتوا نكاح هذه النساء ، فلن أوتى برجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمته بالحجارة ، وحدثنيه زهير بن حرب ، حدثنا عفان ، حدثنا هَمَّامٌ ، حدثنا قتادة بهذا الإسناد وقال في الحديث . فافصلوا حجكم من عمرتكم فإنه أتم لحجكم ، وأتم لعمرتكم ا ه منه .

وهو دليل على ما ذكرنا من أن عمر رضي الله عنه : يرى أن الإفراد أفضل ، ويدل على صدق من قال : إنه حج عشر حجج بالناس مفرداً كما تقدم .

وقال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غُندَرٌ ، حدثنا شُعبة ، عن الحَكم ، عن علي بن حُسين ، عن مروان بن الحَكم قال : شهدت عثمان ، وعلياً رضي الله عنهما ، وعثمان ينهى عن المتعة ، وأن يجمع بينهما الحديث . وفيه التصريح ، بأن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يرى أفضلية الإفراد على غيره لنهيه عن التمتع والقران الثابت في الصحيح كما رأيت .

(232/522)

وقال مسلم في صحيحه : حدثنا محمد بن المثنى وابن بشار قال ابن المثنى : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن قتادة قال : قال عبد الله بن شقيق : كان عثمان ينهى عن المتعة ، وكان علي يأمر بها الحديث .

وفيه التصريح بنهي عثمان رضي الله عنه ، عن التمتع ، وبما ذكرنا كله تعلم : أن أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم كلهم كانوا يرون الإفراد أفضل ، وكان هو الذي يفعلونه كما رأيت . الروايات الصحيحة بذلك ، وهو المعروف عنهم رضي الله عنهم فما ورد مما يخالف ذلك فهو مردود بما رأيت .

تنبيه

فإن قيل : هؤلاء الذين يفضلون الإفراد ، كمالك ، والشافعي ، وأصحابهما ، وكأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، ومن ذكرنا سابقاً ممن يقول : بأفضلية الإفراد على غيره ، من أنواع النسك بأي جواب يجيبون عن الأحاديث الصحيحة الواردة : بأن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان قارناً والأحاديث الصحيحة الواردة ، بأنه كان متمتعاً والأحاديث الصحيحة الواردة بأنه أمر كل من لم يسق هدياً من أصحابه ، بأن يتحلل من إحرامه بعمرة ، فالذين أحرموا بالإفراد أمرهم بفسخ الحج في عمرة ، والتحلل التام من تكل العمرة وتأسف هو صلى الله عليه وسلم على أنه ساق الهدي الذي صار سبباً لمنعه من التحلل بعمرة وقال " لو استقبلت من أَمري ما استدبرت لما سقت الهدْيَ ولجعلتها عمرة " مع أَنه صلى

الله عليه وسلم لا يتأسف على فوات العمرة ، إلا وهي أفضل من غيرها والقرآن الذي اختاره الله له لا يكون غيره أفضل منه ، لأن الله لا يختار لنبيه في نسكه إلا ما هو الأفضل .

فالجواب : أن المالكية والشافعية يقولون : إن التمتع الذي أمر به صلى الله عليه وسلم من كان مفرداً وذلك بفسخ الحج في العمرة ، لا شك أنه في ذلك الوقت ، وفي تلك السنة أفضل من غيره ، ولكن لا يلزم من أفضليته في ذلك الوقت ، أن يكون أفضل فيما سواه .

(233/522)

وإيضاح ذلك : أنه دلت أدلة سيأتي قريباً تفصيلها إن شاء الله ، على أن تحتم فسخ الحج المذكور في العمرة ، وأمر النَّبي صلى الله عليه وسلم أصحابه به خاص بذلك الركب وبتلك السنة ، وأنه ما أمر بذلك لأفضلية ذلك في حد ذاته ، ولكن لحكمة أخرى خارجة عن ذاته : وهي أن يبين للناس ، أن العمرة في أشهر الحج جائزة ، وما فعله صلى الله عليه وسلم ، أو أمر به للبيان والتشريع ، فهو قربة في حقه ، وإن كان مكروهاً ، أو مفضولاً ، فقد يكون الفعل بالنظر إلى ذاته مفضولاً أو مكروهاً ، ويفعله النَّبي صلى الله عليه وسلم ، أو يأمر به لبيان الجواز فيصير قربة في حقه ، وأفضل مما هو دونه بالنظر إلى ذاته كما هو مقرر في الأصول ، وإليه أشار صاحب مراقي السعود بقوله :

وربما يفعل للمكروه . . . مبيناً أنه للتنزيه

فصار في جانبه من القرب . . . كالنهي أن يشرب من فم القرب

وقال في نشر البنود في شرحه للبيتين المذكورين : يعني ، أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قد يفعل المكروه المنهي عنه ، مبيناً بذلك الفعل ، أن النهي للتنزيه لا للتحريم ، فصار ذلك الفعل في حقه قربة يثاب عليها لما فيه من البيان ، كنهيه عن الشرب من أفواه القرب ، وقد شرب منها انتهى منه .

وليس قصدنا أن التمتع والقران مكروهان ، بل لا كراهة في واحد منهما يقيناً ، ولكن المقصود بيان أن الفعل الذي فعله صلى الله عليه وسلم لبيان الجواز ، يكون بهذا الاعتبار أفضل من غيره ، وإن كان غيره أفضل منه ، بالنظر إلى ذاته وهذه هي الأدلة الدالة ، على أنه فعل ذلك لبيان الجواز ولذلك يختص بذلك الركب ، وتلك السنة .

(234/522)

الأول : منها حديث ابن عباس المتفق عليه ، الذي قدمناه قال : كانوا يرون العمرة في أشهر الحج ، من أفجر الفجور في الأرض ، ويجعلون المحرم صفراً ، ويقولون : إذا برأ الدبر ، وعفا الأثر ، وانسلخ صفر ، حلت العمرة لمن اعتمر ، فقدم النَّبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه

صبيحة رابعة مهلين بالحج ، فأمرهم أن يجعلوها عمرة ، فتعاظم ذلك عندهم فقالوا : يا رسول الله أي الحل ؟ قال " الحل كله " قالوا : فقوله في هذا الحديث المتفق عليه : كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض ، وترتيبه بالفاء على ذلك قوله : فأمرهم أن يجعلوها عمرة ظاهر كل الظهور في أن السبب الحامل له صلى الله عليه وسلم على أمرهم : أن يجعلوا حجهم عمرة ، هو أن يزيل من نفوسهم بذلك اعتقادهم أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض ، فالفسخ لبيان الجواز كما دل عليه هذا الحديث المتفق عليه ، لا لأن الفسخ في حد ذاته أفضل ، وقد تقرر في مسلك النص ، ومسلك الإيماء والتنبيه أن الفاء من حروف : التعليل ، كما قدمناه مراراً قالوا : فقول من زعم أن قوله في الحديث المذكور كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور ، لا ارتباط بينه ، وبين قوله : فأمرهم أن يجعلوها عمرة ظاهر السقوط كما ترى ، لأنه لو لم يقصد به ذلك ، لكان ذكره قليل الفائدة .

ومما يدل على ذلك ما رواه أبو داود في سننه : حدثنا هناد بن السري ، عن ابن أبي زائدة ، ثنا ابن جرير ، ومحمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : والله ما أعمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة في ذي الحجة إلا ليقطع بذلك أمر أهل الشرك ، فإن هذا الحي من قريش ، ومن دان دينهم ، كانوا يقولون : إذا عفا الوبر وبرأ الدبر

ودخل صفر ، فقد حلت العمرة لمن اعتمر . فكانوا يحرمون العمرة ، حتى ينسلخ ذو الحجة والمحرم ا ه .

(235/522)

وقد بين الحافظ البيهقي رحمه الله تعالى في السنن الكبرى : أن حديث ابن عباس المتفق عليه المذكور ، دال على ذلك ، ولا ينافي ذلك أن ابن عباس رضي الله عنهما يرى فسخ الحج في العمرة لازماً ، لأنه لا مانع من أن يكون يعلم أن الفسخ لبيان الجواز المذكور ، كما دل عليه حديثه ، وهو يرى بقاء حكمه ، ولو كان سببه الأول بيان الجواز ولكن غيره من الخلفاء الراشدين وغيرهم من المهاجرين والأنصار خالفوه في رأيه ذلك .

الدليل الثاني من أدلتهم : على أن فسخ الحج في العمرة المذكور لبيان الجواز ، وأنه خاص بذلك الركب ، وتلك السنة ، هو ما جاء من الأحاديث دالاً على ذلك ، قال أبو داود في سننه : حدثنا النفيلي ، ثنا عبد العزيز يعني ابن محمد ، أخبرني ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، عن الحارث بن بلال بن الحارث ، عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله فسخ الحج لنا خاصة أو لمن بعدنا ؟ قال : " بل لكم خاصة " ا ه .

وقال النسائي في سننه : أخبرنا إسحاق بن إبراهيم ، قال : أنبأنا عبد العزيز ، وهو

الدراوردي ، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، عن الحارث بن بلال ، عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله أفسخ الحج لنا خاصة ، أم للناس عامة ؟ قال " بل لنا خاصة " ا ه .

وقال ابن ماجه في سننه : حدثنا أبو مصعب ، ثنا عبد العزيزي بن محمد الدراوردي ، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، عن الحارث بن بلال بن الحارث ، عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله ، أرأيت فسخ الحج في العمرة لنا خاصة أم للناس عامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بل لنا خاصة " .

(236/522)

وقال مسلم بن الحجاج في صحيحه : وحدثنا سعيد بن منصور وأبو بكر بن أبي شيبة ، وأبو كريب قالوا : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه عن أبي ذر رضي الله عنه ، قال : كانت المتعة في الحج لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خاصة . وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان ، عن عياش العامري ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال : كانت لنا رخصة يعني : المتعة في الحج . وحدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن فضيل ، عن زبيد ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه قال : قال أبو ذر رضي الله عنه : لا تصلح المتعتان إلا

لنا خاصة ، يعني متعة النساء ، ومتعة الحج ، حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير ، عن بيان ، عن عبد الرحمن بن أبي الشعثاء ، قال : أتيت إبراهيم النخعي ، وإبراهيم التيمي فقلت : إني أهم أن أجمع العمرة والحج العام ، فقال إبراهيم النخعي : لكن أبوك لم يكن ليَهُمَّ بذلك ، قال قتيبة : حدثنا جرير ، عن بيان ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه : أنه مَرَّ بأبي ذر رضي الله عنه بالزبذة فذكر ذلك له فقال : إنما كانت لنا خاصة دونكم .

(237/522)

وقال البيهقي وغيره من الأئمة : مراد أبي ذر بالمتعة المذكورة : المتعة التي أمر النَّبي صلى الله عليه وسلم بها أصحابه رضي الله عنهم وهي فسخ الحج في العمرة . واستدلوا على أن الفسخ المذكور : هو مراد أبي ذر رضي الله عنه بما رواه أبو داود في سننه : حدثنا هناد ، يعني ابن السَّري ، عن ابن أبي زائدة : أخبرنا محمد بن إسحاق ، عن عبد الرحمن بن الأسود ، عن سلم بن الأسود : أن أبا ذر كان يقول فيمن حج ثم فسخها بعمرة : لم يكن ذلك إلا للرَّكب الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالوا : فهذه الرواية التي في سنن أبي داود فيها التصريح من أبي ذر رضي الله عنه ، بفسخ الحج في العمرة وهي تفسر مراده بالمتعة في رواية مسلم ، وضعفت رواية أبي داود هذه ، بأن ابن إسحاق المذكور فيها

مدلس . وقد قال عن عبد الرحمن بن الأسود : وعنعنة المدلس لا تقبل عند أهل الحديث ، حتى يصح السماع من طريق أخرى . ويجاب عن تضعيف هذه الرواية من جهتين :

الأولى : أن مشهور مذهب مالك ، وأحمد ، وأبي حنيفة رحمهم الله : صحة الاحتجاج بالمرسل ، ومعلوم أن من يحتج بالمرسل يحتج بعنعنة المدلس من باب أولى ، كما قدمناه مراراً .

والثانية : أن المقصود من رواية أبي داود المذكورة بيان المراد برواية مسلم ، والبيان يقع بكل ما يزيل الإبهام ولو قرينة أو غيرها ، كما هو مقرر في الأصول . وقد قدمناه مراراً أيضاً .

وما ذكره عن أبي ذر من الخصوصية المذكورة قاله عثمان بن عفان رضي الله عنه ورد المخالفون الاستدلال بالحديثين المذكورين من جهتين .

(238/522)

الأولى منهما : تضعيف الحديثين المذكورين ، قالوا : حديث بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه المذكور عن أبي داود ، والنسائي ، وابن ماجه فيه ابنه الحارث من بلال ، وهو مجهولن قالوا : وقال الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله في حديث بلال المذكور : هذا الحديث لا يثبت عندي ، ولا أقول به ، قال : وقد روي فسخ الحج في العمرة أحد

عشر صحابياً ، أين يقع الحارث بن بلال منهم ؟ قالوا : وحديث أبي ذر ، عند مسلم موقوف عليه ، وليس بمرفوع ، وإذا كان الأول في سنده مجهول ، والثاني موقوفاً تبين عدم صلاحيتهما للاحتجاج .

الجهة الثانية : من جهتي رد الحديثين المذكورين : هي أنهما معارضان بأقوى منهما ، وهو حديث جابر المتفق عليه : أن سراقة بن مالك بن جعشم ، سأل النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال في تمتعهم المذكور : يا رسول الله ، ألعامنا هذا أم للأبد ؟ فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم " بل للأبد " وفي رواية في الصحيح فشبك رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه واحدة في الأخرى ، وقال

(239/522)

" دخلت العمرة في الحج مرتين لا بل لأبد أبد " ورد المانعون تضعيف الحديثين المذكورين ، قالوا : حديث بلال المذكور سكت عليه أبو داود ، ومعلوم من عادته أنه لا يسكت إلا عن حديث صالح للاحتجاج ، قالوا : ولم يثبت في الحارث بن بلال جرح . وقد قال ابن حجر في التقريب فيه : هو مقبول ، قالوا : واعتضد حديثه بما رواه مسلم عن أبي ذر ، كما رأيته آنفاً قالوا : إن قلنا إن الخصوصية التي ذكرها أبو ذر بذلك الركب مما لا مجال للرأي فيه ، فهو

حديث صحيح له حكم الرفع ، وقائله اطلع على زيادة علم خفيت على غيره ، وإن قلنا إنه مما للرأي فيه مجال ، كما يدل عليه كلام عمران بن حصين الآتي . وحكمنا بأنه موقوف على أبي ذر فصدق لهجة أبي ذر المعروف وتقاه ، وبعده من الكذب يدلنا على أنه ما جزم بالخصوصية المذكورة ، إلا وهو عارف صحة ذلك ، وقد تابعه في ذلك عثمان رضي الله عنه قالوا : ويعتضد حديث الحرث بن بلال المذكور أيضاً بمواظبة الخلفاء الراشدين في زمن أبي بكر ، وعمر ، وعثمان على الإفراد ، ولو لم يعلموا أن فسخ الحج في العمرة خاص بذلك الركب لما عدلوا عنه إلى غيره ، لما هو معلوم من تقاهم ، وورعهم ، وحرصهم على اتباع النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فمواظبتهم على إفراد الحج نحو أربع وعشرين سنة يقوي حديث الحارث بن بلال المذكور . وقد رأيت الرواية عنهم بذلك في صحيح البخاري ومسلم ، وكذلك غيرهم من المهاجرين والأنصار ، كما أوضحه عروة بن الزبير رضي الله عنهما في حديثه المتقدم عند مسلم . قالوا : ورد حديث الحارث بن بلال بأنه مخالف لحديث جابر المتفق عليه في سؤال سراقة بن مالك بن جعشيم المدلجي النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وإجابته له بقوله : بل للأبد لا يستقيم ، لأنه لا معارضة بين الحديثين لإمكان الجمع بينهما ، والمقرر في علم الأصول ، وعلم الحديث : أنه إذا أمكن الجمع بين الحديثين وجب الجمع بينهما إجماعاً ، ولا يرد غير الأقوى منهما بالأقوى ،

لأنهما صادقان ، وليس بمتعارضين ، وإنما أجمع أهل العلم على وجوب الجمع بين الدليلين إن أمكن ، لأن إعمال الدليلين معاً أولى من إلغاء أحدهما كما لا يخفى ، ووجه الجمع بين الحديثين المذكورين : أن حديث بلال بن الحرث المزني ، وأبي ذر رضي الله عنهما محمولان على أن معنى الخصوصية المذكورة : التحتم والوجوب ، فتحتم فسخ الحج في العمرة ، ووجوبه خاص بذلك الركب ، لأمره صلى الله عليه وسلم لهم بذلك ، ولا ينافي ذلك بقاء جوازه ومشروعيته إلى أبد الأبد . وقوله في حديث جابر : بل للأبد ، محمول على الجواز ، وبقاء المشروعية إلى الأبد . فاتفق الحديثان .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لنا صوابه في حديث

" بل للأبد " وحديث الخصوصية بذلك الركب المذكورين : هو ما اختاره العلامة الشيخ تقي الدين أبو العباس بن تيمية رحمه الله تعالى : وهو الجمع المذكور بين الأحاديث بحمل الخصوصية المذكورة على الوجوب والتحتم ، وحمل التأبيد المذكور على المشروعية والجواز أو السنة ، ولا شك أن هذا هو مقتضى الصناعة الأصولية والمصطلحية ، كما لا يخفى .

واعلم : أن الشافعية والمالكية ، ومن وافقهم يقولون : إن قوله صلى الله عليه وسلم " بل للأبد " لا يراد به فسخ الحج في العمرة ، بل يراد به جواز العمرة في أشهر الحج ، وقال بعضهم :

المراد به دخول أفعالها في أفعال الحج في حالة القران .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : هذا المعنى الذي حملت عليه المالكية ، والشافعية قول النَّبي لسراقة " بل للأبد " ليس هو معناه ، بل معناه : بقاء مشروعية فسخ الحج في العمرة ، وبعض روايات الحديث ظاهرة في ذلك ظهوراً بيناً لا يجوز العدول عنه ، إلا بدليل يجب الرجوع إليه ، بل صريح في ذلك .

(241/522)

وسنمثل هنا لبعض تلك الروايات فنقول : ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه ما لفظه : فقال صلى الله عليه وسلم " لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ، وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل ، وليجعلها عمرة . " فقال سراقة بن مالك بن جعشم فقال : يا رسول الله ألعامنا هذا أم لأبد ؟ فشبك رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه واحدة في الأخرى وقال : " دخلت العمرة في الحج مرتين ، لا بل لأبد أبد " انتهى المراد منه . وهو صريح في أن سؤال سراقة عن الفسخ المذكور ، وجواب النَّبي له : يدل على تأييد مشروعيته كما ترى ، لأن الجواب مطابق للسؤال ، فقول المالكية ، والشافعية ، ومن وافقهم : بأن الفسخ ممنوع لغير أهل حجة الوداع ، لا يستقيم مع

هذا الحديث الصحيح المصرح ، بخلافه كما ترى .

ودعواهم أن المراد بقوله " بل لأبد أبد " جواز العمرة في أشهر الحج ، أو اندراج أعمالها فيه في حال القران بعيد من ظاهر اللفظ المذكور كما ترى ، وأبعد من ذلك دعوى من ادعى أن المعنى : أن العمرة اندرجت في الحج : أي اندرج وجوبها في وجوبه ، فلا تجب العمرة : وإنما تجب على المكلف حجة الإسلام دون العمرة ، وبعد هذا القول وظهور سقوطه كما ترى .

والصواب إن شاء الله : هو ما ذكرنا من الجمع بين الأدلة ، ووجهه ظاهر لا إشكال فيه .

وقال النووي في شرح المهذب في الجواب عن قول الإمام أحمد : أين يقع الحرث بن بلال من أحد عشر صحابياً رووا الفسخ عنه صلى الله عليه وسلم ما نصه قلت : لا معارضة بينهم ، وبينه ، حتى يقدموا عليه ، لأنهم أثبتوا الفسخ للصحابة ، ولم يذكروا حكم غيرهم ، وقد وافقهم الحارث في إثبات الفسخ للصحابة ، ولكنه زاد زيادة لا تخالفهم وهي اختصاص الفسخ بهم ا ه .

(242/522)

وإذا عرفت مما ذكرنا أدلة الذين ذهبوا إلى تفضيل الإفراد على غيره من أنواع النسك ، وعلمت أن جوابهم عن أمر النَّبي صلى الله عليه وسلم بفسخ الحج في العمرة ، أنه لإزالة ما

كان في نفوسهم من أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض ، وأن الفعل المفعول لبيان الجواز ، قد يكون أفضل بذلك الاعتبار من غيره ، وإن كان غيره أفضل منه بالنظر إلى ذاته .

(243/522)

فاعلم أنهم ادعوا الجمع بين الأحاديث الصحيحة المصرحة بأنه صلى الله عليه وسلم كان قارناً والأحاديث الصحيحة المصرحة بأنه صلى الله عليه وسلم كان متمتعاً وكلها ثابتة في الصحيحين ، وغيرهما في حجة الوداع مع الأحاديث المصرحة ، بأنه كان مفرداً التي هي معتمدهم في تفضيل الإفراد بأنه صلى الله عليه وسلم أحرم أولاً مفرداً ، ثم بعد ذلك أدخل العمرة على الحج ، فصار قارناً ، فأحاديث الإفراد يراد بها عندهم ، أنه هو الذي أحرم به أول إحرامه ، وأحاديث القران عندهم حق ، إلا أنه عندهم أدخل العمرة على الحج فصار قارناً وصيرورته قارناً في آخر الأمر هي معنى أحاديث القران ، فلا منافاة . أما الأحاديث الدالة على أنه كان متمتعاً ، فلا إشكال فيها ، لأن السلف يطلقون اسم التمتع على القران من حيث إن فيه عمرة في أشهر الحج من الحج ، وكذلك أمره لأصحابه بالتمتع وتمنيه له ، وتأسفه على فواته بسبب سوق الهدي في قوله : " لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما

سقت الهدي وجعلتها عمرة "كفعله له قالوا : وبهذا تتفق الأحاديث ، ويكون التمتع المذكور بفسخ الحج في العمرة لبيان الجواز ، وهو بهذا الاعتبار أفضل من غيره فلا ينافي أن الإفراد أفضل منه بالنظر إلى ذاته ، كما سار عليه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، قالوا : ولما أمرهم النَّبي صلى الله عليه وسلم بفسخ الحج في العمرة أسفوا ، لأنهم أحلوا وهو باقٍ على إحرامه ، فأدخل العمرة على الحج لتطيب نفوسهم ، بأنه صار معتمراً مع حجه لما أمرهم بالعمرة والمانع له من أن يحل كما أحلوا هو سوق الهدي ، قالوا فعمرتهم لبيان الجواز ، وعمرته التي بها صار قارناً لمواساتهم لما شق عليهم أنه خالفهم ، فصار تمتعهم وقرانه بهذا الاعتبار أولى من غيرهما ، ولا يلزم من ذلك أفضليتهما في كل الأحوال ، بعد زوال الموجب الحامل على ذلك .

(244/522)

قالوا : وهذا هو الذي لاحظه الخلفاء الراشدون : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان رضي الله عنهم ، فواظبوا على الإفراد نحو أربع وعشرين سنة ، كلهم يأخذ بسنة الخليفة الذي قبله في ذلك .

قالوا : وما قاله جماعة من أجلاَّء العلماء ، من أن بيان جواز العمرة في أشهر الحج عام حجة

الوداع لا داعي له ، لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم بين ذلك بياناً متكرراً في سنين متعددة : وذلك لأنه اعتمر عمرة الحديبية عام ست ، وعمرة القضاء عام سبع ، وعمرة الجعرانة عام ثمان وكل هذه العمر الثلاث في ذي القعدة من أشهر بالحج .

قالوا : وهذا البيان المتكرر سنة بعد سنة كافٍ غاية الكفاية ، فلا حاجة إلى بيان ذلك بأمر الصحابة بفسخ الحج في العمرة . وكذلك قوله " ومن شاء أن يهل بعمرة فليهل " المتقدم في حديث عائشة .

وإذا كان بيان ذلك لا حاجة إليه تعين أن الأمر بالفسخ المذكور لأفضلية التمتع على غيره لا بشيء آخر . لا شك في أنه ليس بصحيح ، وأن بيان ذلك محتاج إليه غاية الاحتياج في حجة الوداع ، ولشدة الاحتياج إلى ذلك البيان أمرهم صلى الله عليه وسلم بفسخ الحج في العمرة ، والدليل على ذلك : هو ما ثبت في حديث ابن عباس المتفق عليه ، وقد ذكرناه في أول هذا المبحث .

(245/522)

قال : كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض الحديث . وفيه : فقدم النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه صبيحة رابعة مهلين بالحج ، فأمرهم أن يجعلوها

عمرة ، فتعاظم ذلك عندهم فقالوا : يا رسول الله أي الحل ؟ قال " الحل كله " وفي البخاري قال " حله كله " فقول ابن عباس في هذا الحديث الصحيح : فتعاظم ذلك عندهم ، دليل على أنه في ذلك الوقت ، لم يزل عظيماً عندهم . ولو كانت العمر الثلاث المذكورة أزالت من نفوسهم ذلك إزالة كلية ، لما تعاظم الأمر عندهم ، فتعاظم ذلك الأمر عندهم المصرح به في حديث متفق عليه بعد صبح رابعة من ذي الحجة عام عشر ، دليل على أن العمرة عام ست ، وعام سبع ، وعام ثمان ما أزالت ما كان في نفوسهم لشدة استحكامه فيها . وكذلك : إذنه لمن شاء أن يهل بعمرة السابق في حديث عائشة . والنَّبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، مودع حريص على إتمام البيان ، وحجة الوداع اجتمع فيها جمع من المسلمين ، لم يجتمع مثله في موطن من المواطن في حياته صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن حجر في فتح الباري في الكلام على الحديث المذكور : فتعاظم عندهم : أي لما كانوا يعتقدونه أولاً ، وفي رواية إبراهيم بن الحجاج : فكبر ذلك عندهم انتهى منه .

قالوا : ولشدة عظمه عندهم ، لم يمتثلوا أمر النَّبي صلى الله عليه وسلم بفسخ الحج في العمرة أولاً ، حتى غضب عليهم بسبب ذلك . وبذلك كله يتضح لك أنما كان مستحكماً في نفوسهم ، من أن العمرة في أشهر الحج ، من أفجر الفجور في الأرض ، لم يزل بالكلية إلى صبح رابعة ذي الحجة سنة عشر .

قالوا : وبه تعلم أن بيان جواز ذلك في حجة الوداع بعمل كل الصحابة الذين لم يسوقوا هدياً

لأمر النَّبي صلى الله عليه وسلم ، واعتماره هو مع حجته ، أعني قرانه بينهما أمر محتاج إليه جداً للبيان المذكور .

(246/522)

ومما يدل من الأحاديث الصحيحة على أن ما كان في نفوسهم من ذلك لم ينزل بالكلية : ما ثبت في الصحيح من حديث جابر رضي الله عنه بلفظ " وأن النَّبي صلى الله عليه وسلم أذن لأصحابه أن يجعلوها عمرة يطوفوا بالبيت ثم يقصروا ويحلوا إلا من كان معه الهدي ، فقالوا : ننطلق إلى منًى وذكر أحدنا يقطر ؟ فبلغ النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال : " لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ولولا أن معي الهدي لأحللت " الحديث . هذا لفظ البخاري رحمه الله ، فقولهم في هذا الحديث الصحيح بعد أن أمرهم صلى الله عليه وسلم ، أن يحلوا ننطلق إلى منًى ، وذكر أحدنا يقطر : يدل على شدة نفرتهم من الإحلال بعمرة في زمن الحج كما ترى . وذلك يؤكد الاحتياج إلى تأكيد بيان الجواز . وهذا الحديث الصحيح يدفع الاحتمال الذي في حديث ابن عباس المتقدم : لأن قوله " فتعاظم ذلك عندهم " يحتمل أن يكون موجب التعاظم ، أنهم كانوا أولاً محرمين بحج ، ويدل لهذا الاحتمال حديث جابر الثابت في الصحيح : أنه حج مع النَّبي صلى الله عليه وسلم يوم

ساق البدن معه ، وقد أهلوا بالحج مفرداً ، فقال لهم : " أحلوا من إحرامكم بطواف البيت " الحديث . وفيه فقالوا : كيف نجعلها متعة ، وقد سمينا الحج إلى آخر الحديث ، فهذا الحديث يدل على أنهم إنما صعب عليهم الإحلال بالعمرة ، لأنهم قد سموا الحج ، لا لأن ما كان في نفوسهم من أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض ، لم يزل باقياً إلى ذلك الوقت ، لأن حديث جابر المذكور ، أعني قوله : فقالوا ننطلق إلى منى وذكر أحدنا يقطر ، لا يحتمل هذا الاحتمال ، بل معناه : أن تعاظم الإحلال بعمرة عندهم ، لأنه في وقت الحج كما بينا ، وهو يدل على أن ذلك هو المراد من هذا الحديث الأخير ، وأنه ليس المراد الاحتمال المذكور ، كما جزم به ابن حجر في الفتح في كلامه على الحديث الذي ذكرناه عنه آنفاً .

(247/522)

ويبين أيضاً : أن ذلك هو معنى حديث جابر عند مسلم ، حيث قال رحمه الله في صحيحه : حدثنا ابن نمير ، حدثني أبي ، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاءٍ ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال : أهللنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج ، فلما قدمنا مكة أمرنا أن نحل ونجعلها عمرة فكبر ذلك علينا ، وضاقت به صدورنا ، فبلغ ذلك

النَّبي صلى الله عليه وسلم فما ندري أشيء بلغه من السماء ، أم شيء من قبل الناس ؟ فقال

" أيها الناس أحلوا فلولا أن معي الهدي فعلت كما فعلتم " الحديث .

فقول جابر رضي الله عنه في هذا الحديث الصحيح : فكبر ذلك علينا ، وضاقت به صدورنا ، يدل على أن ما كان في نفوسهم من كراهة العمرة في أشهر الحج ، لم يزل ولولا ذلك لما كبر عليهم ، ولا ضاقت صدورهم بالإحلال بعمرة في أشهر الحج ، كما أوضحه حديثه المذكور أيضاً . وعلى هذا الذي ذكروه ، فالذي استدبره من أمره ، ولو استقبله لم يسق الهدي : هو ملاحظة البيان المذكور ، وإن كان قد بين ذلك سابقاً لاحتياجه إلى تأكيد الباين في مثل ذلك الجمع ، وهو مودع ، ولا ينافي ذلك أنه أمر القارنين بالفسخ المذكور مع أن العمرة المقرونة مع الحج فيها البيان المذكور ، لأن العمرة المفردة عن الحج أبلغ في البيان ، لأنها ليست مع الحج ، فهي مستقلة عنه فلا يحتمل أنها إنما جازت تبعاً له . وقد أوضحنا في هذا الكلام حجة من قال من أهل العلم : بتفضيل الإفراد على غيره ، من أنواع النسك ، وجوابهم عما جاء من الأحاديث دالاً على أفضلية القران أو التمتع ، ووجه جمعهم بين الأحاديث الصحيحة التي ظاهرها الاختلاف في حجة النَّبي صلى الله عليه وسلم .

المسألة الرابعة

ذهب جماعة من أهل العلم ، إلى أن القران هو أفضل أنواع النسك ، وممن قال بهذا : أبو حنيفة ، وأصحابه ، وسفيان الثوري ، وإسحاق بن راهويه ، والمزني ، وابن المنذر ، وأبو إسحاق المروزي ، كما نقله عنهم النووي في شرح المهذب ، واحتج أهل هذا القول بأحاديث كثيرة ، دالة على أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان قارناً في حجته .

منها : ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال " تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج ، وأهدى فساق معه الهدي من ذي الحليفة ، وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهل بالعمرة ، ثم أهل بالحجّ " الحديث أخرجاه بهذا اللفظ .

ومنها : ما أخرجه الشيخان متصلاً بحديث ابن عمر هذا من طريق عروة بن الزبير ، عن عائشة : أنها أخبرته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل حديث ابن عمر المذكور سواء .

ومنها : ما رواه مسلم والبخاري في صحيحيهما ، من حديث قتيبة ، عن الليث ، عن نافع ، عن ابن عمر " أنه قرن الحج إلى العمرة ، وطاف لهما طوافاً واحداً " ثم قال : هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنها : ما رواه الشيخان ، عن عمران بن حصين الخزاعي رضي الله عنهما ، قال : نزلت

آية المتعة في كتاب الله ، يعني متعة الحج ، وأمرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لم تنزل آية تنسخ آية متعة الحج ، ولم ينه عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات ، قال رجل برأيه ما شاء الحديث ، هكذا لفظ مسلم في صحيحه في بعض رواياته لهذا الحديث ، ولفظ البخاري قريب منه بمعناه في التفسير ، وفي الحج .

ومراد عمران بن حصين رضي الله عنهما بالتمتع المذكور : القران بدليل الروايات الصحيحة الثابتة في صحيح مسلم ، وغيره المصرحة بذلك .

(249/522)

قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : وحدثني عبد الله بن معاذٍ ، حدثنا أبي ، حدثنا شعبة ، عن حميْد بن هِلاَلٍ ، عن مطرفٍ قال : قال لي عِمْرَانُ بن حصين : أحدثك حديثاً عسى الله أن ينفعك به : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع بين حجة وعُمرة ، ثم لم ينه عنه ، حتى مات ، ولم ينزل فيه قُرآنٌ بحرمة ، وقد كان يسلم علي حتى اكتَوَيْتُ فتركتُ ، ثم تركتُ الكي فعادَ .

حدثناه محمد بن المثنَّى وابن بشار ، قالا : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شُعبةً ، عن حميد بن هِلاَلٍ ، قال : سمعت مطرفاً قال : قال لي عِمْران بن حصين : بمثل حديث معاذ .

وحدثنا محمدُ بن المثنَّى وابن بشار . قال ابن المثنى : حدثنا محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن مطرَف : قال : بعث إليّ عمران بن حصين في مَرضِهِ الذي توفى فيه ، فقال : إنني كنت محدثك بأحاديث لعل الله أن ينفعك بها بعدي ، فإن عشت فاكتم عني ، وإن مت فحدث بها إن شئت إنه قد سلم علي ، واعلم أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قد جمع بين حج وعُمرة ، ثم لم ينزل فيها كتاب الله ، ولم ينه عنها نبي الله صلى الله عليه وسلم ، قال رجل برأيه ما شاء .

وحدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عِيسى بن يونس ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير ، عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : اعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جمع بين حج وعمرة ، ثم لم ينزل فيها كتاب ، ولم ينهنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فيها رجل برأيه ما شاء . انتهى منه .

وهذه الروايات تبين أن مراده بالتمتع : القران ، ومعروف عن الصحابة رضي الله عنهم ، أنهم يطلقون اسم التمتع على القران ، لأن فيه عمرة في أشهر الحج مع الحج .

(250/522)

ومنها : ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم جمع بين حج وعمرة " ففي بعض روايات حديثه ، قال " صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن معه بالمدينة الظهر أربعاً ، والعصر بذي الحليفة ركعتين ، ثم بات بها حتى أصبح ، ثم ركب حتى استوت به على البيداء حمد الله وسبح وكبر ، ثم أهل بحج وعمرة ، وأهل الناس بهما " الحديث ، هذا لفظ البخاري في صحيحه ، وقد قدمنا بعض ألفاظ مسلم في حديث أنس في القران ، ومخالفة ابن عمر له في ذلك ، قائلاً : إنه أفرد ، وفي بعض روايات حديث أنس عند مسلم عن يحيى بن أبي إسحاق ، وعبد العزيز بن صهيب ، وحيمد ، أنهم سمعوا أنساً رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : أهل بهما جميعاً

" لبيك عُمرة وحجّاً ، لبَّيك عُمرة وحجّاً " ، وقد روي عن أنس رضي الله عنه حديث قران النَّبي هذا ستة عشر رجلاً ، كما بينه العلامة ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد ، وهم الحسن البصري وأبو قلابة ، وحميد بن هلال وحميد بن عبد الرحمن الطويل ، وقتادة ويحيى بن سعيد الأنصاري ، وثابت البناني ، وبكر بن عبد الله المزني ، وعبد العزيز بن صهيب ، وسليمان التيمي ، ويحيى بن أبي إسحاق ، وزيد بن أسلم ، ومصعب بن سليم ، وأبو أسماء وأبو قدامة عاصم بن حسين ، وأبو قزعة ، وهو سويد بن حجر الباهلي .

ومنها : ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما عن أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب

رضي الله عنها ، وعن أبيها ، قالت : يا رسول الله ، ما شأن الناس حلوا بعمرة ، ولم تحلل أنت من عمرتك ؟ قال " إني لبدت رأسي وقلدت هديي ، فلا أحل حتى أنحر " انتهى منهما بلفظه . وهذه العمرة المذكورة في هذا الحديث المتفق عليه عمرة مقرونة مع الحج بلا شك في ذلك ، كما جزم به النووي في شرح مسلم .

(251/522)

ومنها : ما رواه البخاري في صحيحه ، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت النَّبي صلى الله عليه وسلم بوادي العقيق ، يقول : " أتاني الليلة آتٍ من ربي فقال : صل في هذا الوادي المبارك وقل : عمرة في حجة " ا ه . وقوله في هذا الحديث وقل عمرة في حجة يدل على القران ، والمحتملات الأخر التي حمله علهيا بعض المالكية والشافعية وغيرهم لا تظهر كل الظهور : بل معناه القران كما ذكرنا . وجزم به غير واحد والله تعالى أعلم ، والأحاديث بمثل ما ذكرنا كثيرة .

وقد ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد : منها بضعة وعشرين حديثاً ، عن سبعة عشر صحابياً وهم جابر ، وعائشة ، وعبد الله بن عمرن وعبد الله بن عباس وعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعمران بن حصين ، والبراء بن عازب ، وحفصة أم

المؤمنين ، وأبو قتادة ، وابن أبي أوفى وأبو طلحة ، والهرماس بن زياد ، وأم سلمة ، وأنس بن مالك ، وسعد بن أبي وقاص ، وعثمان بن عفان رضي الله عنهم جميعاً وعده لعثمان رضي الله عنه في جملة من روى القران ، مع ما ثبت عنه من النهي عنه يعني به تقريره لعلي رضي الله عنه على القران .

وبالجملة : فثبوت كون النَّبي صلى الله عليه وسلم كان قارناً بالأحاديث الصحيحة ، التي ذكرنا طرفاً منها لا مطعن فيه ، وقد قدمنا أن القائلين بأفضلية الإفراد معترفون بقرانه صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، إلا أنهم جمعوا بين الأحاديث ، بأنه أحرم أولاً مفرداً ، ثم أدخل العمرة على الحج فصار قارناً .

والذين قالوا : بأفضلية القران جزموا بأنه صلى الله عليه وسلم أحرم قارناً في ابتداء إحرامه ، واستدلوا لذلك بأحاديث صحيحة .

(252/522)

منها : حديث ابن عمر المتفق عليه ، وقد قدمناه في هذا المبحث ، وفيه : وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهل بالعمرة ، ثم أهل بالحج وهو تصريح منه رضي الله عنه ، بأنه أهل بالعمرة قبل الحج ومنها : حديث عمر رضي الله عنه عند البخاري ، وقد قدمناه

أيضاً وفيه " وقل عمرة في حجة " وكان ذلك بالعقيق قبل إحرامه ، وأهل هذا القول جمعوا بين الأحاديث الواردة بالإفراد ، والأحاديث الواردة بالقران ، والأحاديث الواردة بالتمتع ، بغير الجمع الذي ذكرناه عن القائلين بأفضلية الإفراد ، وهو أن وجه الجمع أن المراد بالإفراد : إفراد أعمال الحج ، لأن القارن يفعل في أعمال الحج كما يفعله الحاج المفرد ، فيطوف لهما طوافاً واحداً ، ويسعى لهما سعياً واحداً ، على أصح الأقوال ، وأقواها دليلاً . وأما جوابهم عن أحاديث التمتع فواضح لأن الصحابة يطلقون التمتع على القران كما قدمنا في حديث عمران بن حصين ، وكما يدل له ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما ، عن سعيد بن المسيب قال : اجتمع عثمان وعلي رضي الله عنهما ، وكان عثمان ينهى عن المتعة فقال علي ما تريد إلى أمر فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم تنهى عنه فقال عثمان : دعنا منك فقال : إني لا أستطيع أن أدعك ، فلما رأى ذلك علي أهل بهما جميعاً . فهذا يبين : أن من جمع بينهما كان متمتعاً عندهم ، وأن هذا هو الذي فعله النبي صلى الله عليه وسلم ، وأقره عثمان ، على أن النَّبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك ، لكن الخلاف بينهما في الأفضل من ذلك .

ومما يدل على أن القارن متمتع عندهم حديث ابن عمر المتفق عليه الذي قدمناه في هذا المبحث فإن في لفظه عند الشيخين " تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج ، وأهدى ، فساق الهدي من ذي الحليفة ، وبدأ رسول الله صلى الله عليه

وسلم فأهل بالعمرة ، ثم أهل بالحج " فتراه صرح بأن مراده بالتمتع القران .

المسألة الخامسة

(253/522)

اعلم : أن حجة من قال بأن التمتع أفضل مطلقاً ، ومن قال : بأنه أفضل لمن لم يسق الهدى ، وكلاهما مروي عن الإمام أحمد هي : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أمر جميع أصحابه ، الذين لم يسوقوا هدياً أن يفسخوا حجهم في عمرة . كما هو ثابت عن جماعة من الصحابة بروايات صحيحة لا مطعن فيها ، وتأسف هو صلوات الله وسلامه عليه ، على سوقه للهدي الذي كان سبباً لعدم تحلله بالعمرة معهم .

قالوا : لو لم يكن التمتع هو أفضل الأنساك ، لما أمر به أصحابه ، ولما تأسف على أنه لم يفعله في قوله " لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة " .

تنبيهات

الأول : اعلم أن دعوى من ادعى أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان متمتعاً التمتع المعروف ، وأنه حل من عمرته ، ثم أحرم للحج باطلة بلا شك . وقد ثبت بالروايات الصحيحة التي لا مطعن فيها : أنه كان قارناً ، وأنه لم يحل حتى نحر هديه ، كما قدمناه في هذا المبحث في

حديث أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها ، وعن أبيها .

فإن لفظ النَّبي صلى الله عليه وسلم في حديثها المتفق عليه قال " إني لبدت رأسي ، وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر " والأحاديث بمثله كثيرة . وسبب غلط من ادعى الدعوى الباطلة المذكورة ، هو ما أخرجه مسلم في صحيحه :

(254/522)

حدثنا عمرو الناقد ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن هشام بن حجير ، عن طاوس قال : قال ابن عباس : قال معاوية : أعلمت أني قصرت من رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند المروة بمشقص قلت له : لا أعلم هذا إلا حجة عليك . وحدثني محمد بن حاتم ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن ابن جريج ، حدثني الحسن بن مسلم ، عن طاوس ، عن ابن عباس : أن معاوية بن أبي سفيان أخبره قال : قصرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشقص وهو على المروة ، أو رأيته يقصِّر عنه بمشقص ، وهو على المروة . انتهى منه

وأخرج البخاري هذا الحديث عن معاوية بلفظ : قال قصرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشقص ، فالاستدلال بهذا الحديث ، على أن النَّبي أحل بعمرة في حجة الوداع غلط فاحش مردود من وجهين :

الأول : أنه ليس في الحديث المتفق عليه ذكر حجة الوداع ، ولا شيء يدل على أن ذلك التقصير كان فيها .

(255/522)

الثاني : ورود الرواية الصحيحة التي لا مطعن فيها أنه لم يحل إلا بعد الرجوع من عرفات ، بعد أن نحر هديه . وقال النووي في كلامه على حديث معاوية هذا ، وهذا الحديث محمول على أنه قصر عن النَّبي صلى الله عليه وسلم في عمرة الجعرانة ، لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع كان قارناً كما سبق إيضاحه ، وثبت أنه صلى الله عليه وسلم حلق بمنى ، وفرق أبو طلحة رضي الله عنه شعره بين الناس فلا يجوز حمل تقصير معاوية على حجة الوداع ، ولا يصح حمله أيضاً على عمرة القضاء الواقعة سنة سبع من الهجرة ، لأن معاوية لم يكن يومئذ مسلماً ، إنما أسلم يوم الفتح سنة ثمان ، هذا هو الصحيح المشهور ، ولا يصح قول من حمله على حجة الوداع ، وزعم أنه صلى الله عليه وسلم كان متمتعاً ، لأن هذا غلط فاحش فقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة السابقة في مسلم وغيره : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قيل له : ما شأن الناس حلوا ولم تحل أنت ؟ قال " إني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر " وفي رواية " حتى أحل من الحج " والله تعالى أعلم انتهى

كلام النووي ولا شك أن حمل حديث معاوية على حجة الوداع ، لا يصح بحال والعلم عند الله تعالى .

التنبيه الثالث

(256/522)

اعلم أن دعوى من ادعى أنه لم يحل بعمرة من أصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، إلا من أحرم بالعمرة وحدها ، وأن من أهل بحج ، أو جمع الحج والعمرة لم يحل أحد منهم ، حتى كان يوم النحر دعوى باطلة أيضاً لأن الروايات الصحيحة التي لا مطعن فيها عن جماعة من أصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم متظاهرة ، بكل الوضوح والصراحة أن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، أمر كل من لم يكن معه هدي ، أن يحل بعمرة ، سواء كان مفرداً أو قارناً ، ومستند من ادعى تلك الدعوى الباطلة ، هو ما أخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى قال : قرأت على مالك ، عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل ، عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع ، فمنا من أهل بعمرة ، ومنا من أهل بحج وعمرة ، ومنا من أهل بالحج ، وأهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج . فأما من أهل بعمرة

فحل ، وأما من أهل بحج أو جمع الحج والعمرة فلم يحلوا ، حتى كان يوم النحر انتهى منه لأن الذين لم يحلوا من القارنين ، والمفردين في هذا الحديث ونحوه من الأحاديث يجب حملهم ، على أن معهم الهدي لأجل الروايات الصحيحة المصرحة بذلك وبأن من لم يكن معهم هدي فسخوا حجهم في عمرة بأمر النَّبي صلى الله عليه وسلم .

التنبيه الرابع

(257/522)

اعلم أن دعوى من قال : إن النَّبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، أحرم إحراماً مطلقاً ، ولم يعين نسكاً ، وأنه لم يزل ينتظر القضاء ، حتى جاءه القضاء بين الصفا والمروة أنها دعوى غير صحيحة ، وإن قال الإمام الشافعي : في اختلاف الحديث ، إن ذلك ثابت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، لأن الروايات المتواترة المصرحة ، بأنه صلى الله عليه وسلم عين ما أحرم به من ذي الحليفة ، من إفراد ، أو قران ، أو تمتع ، لا تمكن معارضتها لقوتها ، وتواترها ، واتفاق جميعها على تعيين الإحرام من ذي الحليفة ، وإن اختلف في نوعه ، ومستند من ادعى تلك الدعوى أحاديث جاءت يفهم من ظاهرها ذلك منها حديث عائشة قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا نذكر حجاً ، ولا عمرة .

وفي لفظ يُلَبِّي ، ولا يَذْكُر حجاً ولا عمرة ، ونحو ذلك من الأحاديث ، وهذا لا تعارض به تلك الروايات الصحيحة المتواترة . وقد أجاب العلامة ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد عن الأحاديث التي استدل بها من ادعى الدعوى المذكورة ، فأفاد وأجاد ، والعلم عند الله تعالى .

التنبيه الخامس

اعلم أن الأحاديث الواردة بأنه كان مفرداً والواردة بأنه كان قارناً والواردة بأنه كان متمتعاً لا يمكن الجمع ألبتة بينها إلا الواردة منها بالتمتع ، والواردة بالقران ، فالجمع بينهما واضح ، لأن الصحابة كانوا يطلقون اسم التمتع على القران ، كما هو معروف عنهم ، ولا ميكن النزاع فيه ، مع أن أمره صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتمتع ، قد يطلق عليه أنه تمتع لأن أمره بالشيء كفعله إياه أما الواردة بالإفراد فلا يمكن الجمع بينها بحال ، مع الأحاديث الواردة بالتمتع والقران فادعاء إمكان الجمع بينها غلط ، وإن قال به خلق لا يحصى من أجلاء العلماء .

(258/522)

واختلفوا في وجه الجمع على قولين كما أوضحناه ، فمنهم من جمع بأن أحاديث الإفراد ، يراد بها : أنه أحرم أولاً مفرداً ، وأحاديث القران يراد بها : أنه بعد إحرامه مفرداً أدخل

العمرة على الحج ، فصار قارناً فصدق هؤلاء باعتبار أول الأمر ، وصدق هؤلاء باعتبار آخره ، مع أن أكثرهم يقولون : إن إدخال العمرة على الحج خاص به صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز لغيره ، وهذا الجمع قال به أكثر المالكية ، والشافعية . وقال النووي : لا يجوز العدول عنه ، ومنه من جمع بأن أحاديث الإفراد يراد بها : إفراد أعمال الحج ، والقارن يعمل في سعيه وطوافه ، كعمل المفرد على أصح الأقوال وأقواها دليلاً وكلا الجمعين غلط ، مع كثرة وجلالة من قال به من العلماء . وإنما قلنا : إنهما كليهما غلط لأن المعروف في أصول الفقه ، وعلم الحديث أن الجمع لا يمكن بين نصين متناقضين تناقضاً صريحاً ، بل الواجب بينهما الترجيح ، وإنما يكون الجمع بين نصين ، لم يتناقضا تناقضاً صريحاً فيحمل كل منهما على محمل ، ليس في الآخر التصريح بنقيضه ، فيكونان صادقين ، ولأجل هذا فجميع العلماء يقولون : يجب الجمع إن أمكن ، ومفهوم قولهم : إن أمكن أنهما ، إن كانا متناقضين تناقضاً صريحاً ، لا يمكن الجمع بينهما ، بل يجب المصير إلى الترجيح . فإذا علمت هذا فاعلم أن أحاديث الإفراد صريحة في نفي القران ، والتمتع لا يمكن الجمع بينهما أبداً وبين أحاديثهما فابن عمر رضي الله عنهما في حديثه الصحيح المتقدم يكذب أنساً في دعواه القران تكذيباً صريحاً المرة بعد المرة ، كما رأيته سابقاً ، فكيف يمكن الجمع بين خبرين والمخبران بهما كل منهما يكذب الآخر تكذيباً صريحاً ، فالجمع في مثل هذا محال ومن ادعى إمكانه ، فقد غلط كائناً من كان ، بالغاً ما بلغ من العلم والجلالة .

وعائشة رضي الله عنها في حديثها الصحيح المتقدم تقول : فمنا من أهل بعمرة ، ومنا من أهل بحج وعمرة ، ومنا من أهل بحج ، وأهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحج فذكرها الأقسام الثلاثة وتصريحها بأن النَّبي صلى الله عليه وسلم أحرم بواحد معين منها ، لا يمكن الجمع بينه ، وبين خبر من قال : إنه أحرم بقسم من القسمين الآخرين كما ترى ، وفي بعض الروايات : أحرم بالحج خالصاً ، وفي بعضها : أحرم بالحج وحده ، وفي بعضها : لا نعرف العمرة الخ . وأحاديث القران فيها التصريح بأنه يقول : لبيك حجاً وعمرة فالجمع بينها لا يمكن بحال إلا على قول من قال : إنه كان قارناً يلبي بهما معاً ، وسمع بعضهم الحج والعمرة معاً وسمع بعضهم الحج دون العمرة ، وبعضهم العمرة دون الحج ، فروى كل ما سمع وعلى أن الجمع غير ممكن فالمصير إلى الترجيح واجب ، ولا شك عند من جمع بين العلم والإنصاف أن أحاديث القران أرجح من جهات متعددة ، منها كثرة من رواها من الصحابة ، وقد قدمنا عن ابن القيم أنها رواها سبعة عشر صحابياً ، وأحاديث الإفراد لم يروها إلا عدد قليل ، وهم : عائشة ، وابن عمر ، وجابر ، وابن عباس ، وأسماء ، وكثرة الرواة من المرجحات قال في مراقي السعود في مبحث الترجيح باعتبار حال المروي :

وكثرة الدليل والرواية . . . مرجح لدى ذوي الدراية

كما قدمناه في البقرة ومنها : أن من روى عنهم الإفراد ، روى عنهم القران أيضاً ، ويكفي في أرجحية أحاديث القران : أن الذين قالوا : بأفضلية الإفراد معترفون بأن من رووا القران صادقون في ذلك ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان قارناً باتفاق الطائفتين ، إلا أن بعضهم يقولون : إنه لم يكن قارناً في أول الأمر ، وإنما صار قارناً في آخره ، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد : أن أحاديث القران أرجح من خمسة عشر وجهاً فلينظره من أراد الوقوف عليها .

(260/522)

وقد علمت مما تقدم : أن القائلين بأفضلية الإفراد ، يقدحون في دلالة أحاديث القران على أفضليته على الإفراد بالقادح المعروف في الأصلو بالقول بالموجب ، فيقولون : سلمنا أنه كان قارناً مع بقاء نزاعنا في أفضلية القران على الإفراد ، لأن قرانه ، وأمره أصحابه بالتمتع ، لم يكن لأفضلية القران والتمتع في حد ذاتيهما على الإفراد ، بل هما في ذلك الوقت أفضل لسبب منفصل ، وإن كان الإفراد أفضل منهما في حد ذاته لما قدمنا من أن الفعل المفضول أو المكروه ، إذا كان لبيان الجواز كان أفضل بهذا الاعتبار من الفعل الذي هو أفضل منه في

حد ذاته كما قدمنا إيضاحه .

وقد قدمنا أدلة من قال بهذا كحديث بلال بن الحرث المزني في السنن ، وحديث أبي ذر في مسلم أن ذلك كان خالصاً بذلك الركب في حجة الوداع ، وعمل الخلفاء الراشدين نحو أربع وعشرين سنة ، وغيرهم من المهاجرين ، والأنصار من أفاضل الصحابة ، كما ثبت في الصحيحين عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما وثبت عن الخلفاء الراشدين : أبي بكر ، وعمر ، وعثمان في الصحيحين وغيرهما ذلك وقد قدمنا أن الآثار والأحاديث التي ذكرها ابن حزم عنهم مخالفة لذلك لا يلتفت إليها مع الروايات الثابتة في الصحيحين ، القاضية بخلافها ، فإن قيل سلمنا تسلمياً جدلياً أن القران مع النَّبي صلى الله عليه وسلم ، والتمتع الواقع من الصحابة بأمره في حجة الوداع ، كانا لأجل بيان الجواز فاللازم أن تكون مشروعية أفضليتهما باقية كالرمل في الطواف في الأشواط الثلاثة الأولى ، فإنه صلى الله عليه وسلم فعله ، وأمر به لسبب خاص ، وهو أن يرى المشركين قوة الصحابة ، وأنهم لم يضعفهم مرض ، ومع كون ذلك لهذا السبب فمشروعية سنيته باقية فليكن قرانه ، وتمتع أصحابه بأمره لذلك السبب كذلك .

(261/522)

فالجواب : أن الرمل المذكور لم يرد فيه دليل ، يدل على خصوصه بذلك الوقت ، بل ثبت ما يدل على بقاء مشروعيته ، وهو رمله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بعد زوال السبب ، والتمتع والقران المذكوران وردت فيهما أدلة تدل على خصوصهما بذلك الركب كحديث بلال بن الحرث المزني ، وحديث أبي ذر إلى آخر ما تقدم . وقد قدمنا مناقشة من ضعف الأول ، بأن الحارث بن بلال راوي الحديث ، عن أبيه مجهول ، وأن حديث أبي ذر موقوف .

وبالجملة : فإنه يبعد كل البعد أن أبا بكر ، وعمر ، وعثمان رضي الله عنهم يتواطؤون واحداً بعد واحد في نحو أربع وعشرين سنة على إفراد الحج متعمدين لمخالفة هدي النَّبي صلى الله عليه وسلم وجميع الصحابة حاضرون ، ولم ينكر منهم أحد ، فهذه دعوى باطلة ومقتضاها : أن الأمة جميعها ، وخلفاءها الراشدين مكثت هذا الزمن الطويل ، وهي على باطل ، فهذا باطل بلا شك .

واعلم أن قول عمران بن حصين رضي الله عنه في حديثه المتقدم ، معرضاً بعمر رضي الله عنه قال رجل برأيه ما شاء ، يعني به : نهى عمر عن التمتع أما إفراده الحج في زمن خلافته ، فلم ينكره هو ولا غيره . ومذهب ابن عباس رضي الله عنهما في أن من طاف حل بعمرة شاء أو أبى مذهب مهجور خالفه فيه الصحابة والتابعون ، فمن بعدهم فهو كقوله : بنفي العول وبأن الأم لا يحجبها من الثلث إلى السدس ، أقل من ثلاثة .

فإن قيل : مذهبه هذا ليس كذلك لأنه دلت عليه نصوص .

فالجواب : هو ما ذكرنا من حجج من خالفوه وهم عامة علماء الأمة والعلم عند الله تعالى .

قال مقيده عفا الله وغفر له : الأظهر عندي في هذه المسألة ، هو ما اختاره العلامة أبو العباس ابن تيمية رحمه الله في منسكه ، وهو : إفراد الحج بسفر ينشأ له مستقلاً ، وإنشاء سفر آخر مستقل للعمرة .

(262/522)

فقد قال رحمه الله في منسكه : إن عمر رضي الله عنه لم ينه عن المتعة ألبتة ، وإنما قال : إن أتم لحجكم ، وعمرتكم أن تفصلوا بينهما فاختار عمر لهم أفضل الأمور ، وهو إفراد كل واحد منهما بسفر ينشئه له من بلده ، وهذا أفضل من القران ، والتمتع الخاص بدون سفرة أخرى . وقد نص على ذلك أحمد ، وأبو حنيفة ، ومالك والشافعي وغيرهم وهذا هو الإفراد الذي فعله أبو بكر ، وعمر رضي الله عنهما وكان عمر يختاره للناس ، وكذلك علي ، وقال عمر وعلي في قوله تعالى ﴿ وَأَتِمُّواْ الحج والعمرة للَّهِ ﴾ [البقرة : 196] قالا : إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم لعائشة في عمرتها " أجرك على قدر نصبك " فإذا رجع الحاج إلى دويرة أهله ، فأنشأ العمرة منها ، واعتمر قبل

أشهر الحج ، وأقام حتى يحج أو اعتمر في أشهره ، ورجع إلى أهله ، ثم حج فها هنا قد أتى بكل واحد من النسكين من دويرة أهله . وهذا إتيان بهما على الكمال فهو أفضل من غيره انتهى منه بواسطة نقل تلميذه ابن القيم في الزاد فترى هذا العلامة المحقق صرح بأن إفراد كل منهما بسفر أفضل من التمتع والقران ، وأن الأئمة الأربعة متفقون على ذلك ، وأن عمر ، وعلياً يجريان ذلك عملاً بنص القرآن العظيم ، وبذلك تعلم أن قول بعض المتأخرين بمنع الإفراد مطلقاً مخالف للصواب كما ترى ، والعلم عند الله تعالى .

المسألة السادسة :

اعلم أن العلماء اختلفوا في طواف القارن والمتمتع إلى ثلاثة مذاهب .

الأول : أن على القارن طوافاً واحداً وسعياً واحداً ، وأن ذلك يكفيه لحجه ، وعمرته ، وأن على المتمتع طوافين وسعيين ، وهذا مذهب جمهور العلماء منهم مالك ، والشافعي ، وأحمد في أصح الروايات .

الثاني : أن على كل واحد منهما سعيين وطوافين وهذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه .

(263/522)

الثالث : أنهما معاً يكفيهما طواف واحد ، وسعي واحد وهو مروي عن الإمام أحمد . أما الجمهور المفرقون بين القارن والمتمتع القائلون : بأن القارن يكفيه لحجه وعمرته طواف زيارة واحد ، وهو طواف الإفاضة ، وسعي واحد فاحتجوا بأحاديث صحيحة ليس مع مخالفيهم ما يقاومها .

منها : ما ثبت في صحيح مسلم بن الحجاج رحمه الله : حدثني محمد بن حاتم ، حدثنا بَهْزٌ ، حدثنا وهب ، حدثنا عبد الله بن طاوُسٍ ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها : أنها أهلت بعمرة ، فقدمت ولم تطف بالبيت ، حتى حاضت ، فنسكت المناسك كلها ، وقد أهلَّت بالحج فقال لها النَّبي صلى الله عليه وسلم ، "يَسَعُك طوافُكِ لحجّكِ وعُمرتكِ" الحديث ففي هذا الحديث الصحيح التصريح بأنها كانت محرمة أولاً ، ومنعا الحيض من الطواف لم يمكنها أن تحل بعمرة فأهلت بالحج مع عمرتها الأولى فصارت قارنة ، وقد صرح النَّبي صلى الله عليه وسلم في الطواف فلم يمكنها أن تحل بعمرة فأهلت بالحج مع عمرتها الأولى فصارت قارنة ، وقد صرح النَّبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح . بأنها قارنة حيث قال " لحجك وعمرتك " ومع ذلك صرح ، بأنها يكفيها لهما طواف واحد .

وقال مسلم رحمه الله أيضاً في صحيحه : وحدثني حسنُ بن علي الحُلْوانيُّ ، حدثنا زيد بن الحُبَابِ ، حدثني إبراهيم بن نافع ، حدثني عبد الله بن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن عائشة

رضي الله عنها : أنها حاضت بِسَرِفَ فَتطهَّرت فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم "يجزِئُ عنك طوافك بالصَّفا والمروة عن حجّك وعُمرتكِ " ا ه منه .

فهذا الحديث الصحيح صريح في أن القارن يكفيه لحجه وعمرته طواف واحد وسعي واحد .

(264/522)

ومنها : حديث ابن عمر المتفق عليه الذي قدمناه ، قال البخاري رحمه الله في صحيحه في بعض رواياته لهذا الحديث : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عليلة ، عن أيوب عن نافع : أن ابن عمر رضي الله عنهما دخل ابنه عبيد الله بن عبد الله وظَهْرُهُ في الدار فقال : إنّي لا آمن أن يكُونَ العام بين الناس فقال : فيصدوك عن البيتِ ، فلو أَقَمت ؟ فقال : قد خرج رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فحال كُفَّار قريش بينه وبين البيت ، فإن حيلَ بيني وبينَهُ أفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] ثم قال : أُشهدكم أني أوجبتُ مع عُمرتي حجّاً ، قال : ثم قدِم فطاف لهما طوافاً واحداً .

(265/522)

حدثنا قتيبة ، حدثنا الليث ، عن نافع : أن ابن عمر رضي الله عنهما أراد الحاج عام نزل الحجاج بابن الزُّبَير فَقِيل له : إنَّ الناس كائِنٌ بينهم قِتالٌ ، وإنَّا نخاف أن يَصُدُّوك ؟ فقال : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] إذاً أصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أشهدكم أني قد أوجبت عمرة ، ثم خرج إذا كان بظاهرِ البيداء قال : ما شأن الحجِّ والعمرة إلا واحد ، أشهدكم أني قد أَوجبتُ حجاً من عُمرتي ، وأَهْدَى هدياً اشتراه بقُدَيْدٍ ، ولم يزد على ذلك فلم ينحر : ولم يحلَّ من شيءٍ حرمَ منه ، ولم يحلق ، ولم يقصِّر حتى كان يوم النَّحرِ فنَحرَ وحلَقَ ، ورأى أن قد قضى طواف الحج ، والعمرة بطوافِهِ الأولِ ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى منه . وفي هذا الحديث الصحيح التصريح من ابن عمر باكتفاء القارن بطواف واحد وأن النَّبي صلى الله عليه وسلم كذلك فعل . وبعض العلماء حمل الطواف المذكور ، على طواف الإفاضة ، وبعضهم حمله على الطواف بين الصفا والمروة . أما حلمه على طواف القدوم فباطل بلا شك ، لأن النَّبي لم يكتف بطواف القدوم ، بل طاف طواف الإفاضة الذي هو ركن الحج بإجماع المسلمين .

وقال الكرماني في شرح الحديث المذكور ، فإن قلت : ما المقصود من الطواف الأول إذ لا يجوز أن يراد به طواف القدوم ؟

قلت : يعني أنه لم يكرر الطواف للقران ، بل اكتفى بطواف واحد ، وقد أخرج حديث ابن عمر هذا مسلم في صحيحه من طرق متعددة ، وفي لفظ منها : أشهدكم أني قد أوجبت حجة مع عمرة ، فانطلق حتى ابتاع بِقُديدٍ هدياً ، ثم طافَ لهما طوافاً واحداً بالبيت ، وبين الصفا والمروة ، ثم لم يَحِلُّ منهما حتى حل منهما بحجة يوم النحر ا ه .

(266/522)

وقال النووي معناه : حتى حل منهما يوم النحر بعمل حجة مفردة . وفي بعض روايات مسلم لحديث ابن عمر هذا : أشهدكم أني أوجبت حجاً مع عمرتي ، وأهدى هديًا اشتراه بقديد ، ثم انطلق يهل بهما جميعاً حتى قدم مكة فطاف بالبيت وبالصفا والمروة ، ولم يزد على ذلك ، ولم ينحر ، ولم يحلق ، ولم يقصر ، ولم يحلل من شيء حرم منه حتى كان يوم النحر فنحر وحلق ورأى أنه قد قضى طواف الحج والعمرة بطوافه الأول . وقال ابن عمر : كذلك فعل رسول الله صلى الله لعيه وسلم انتهى منه ، وهو صريح في أن القارن يكفيه لحجه وعمرته طواف واحد .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي والله تعالى أعلم : أن مراد ابن عمر في قوله : ورأى أن قد قد قضى طواف الحج والعمرة بطوافه الأول ، في مسلم والبخاري ، هو

الطواف بين الصفا والمروة ، ويدل على ذلك أمران :

الأول منهما : هو ما قدمنا في بعض روايات مسلم في صحيحه مما لفظه : ثم طاف لهما طوافاً واحداً بالبيت ، وبين الصفا والمروة ، ثم لم يَحِلَّ منهما ، حتى حل منهما بحجة ، ومعلوم أن الحل بحجة لا يمكن بدون طواف الإفاضة . أما السعي في الحجة ، فيكفي فيه السعي الأول بعد طواف القدوم ، فيتعين أن الطواف الأول الذي رأى إجزاءه عن حجه وعمرته ، هو الطواف بين الصفا والمروة ، بدليل الرواية الصحيحة ، بأنه لم يحل منهما إلا بحجة يوم النحر ، وحجة يوم النحر أعظم أركانها طواف الإفاضة ، فبدونه لا تسمى حجة لأنه ركنها الأكبر المنصوص على الأمر به في كتاب الله في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق ﴾ [الحج : 29] .

(267/522)

الأمر الثاني : الدال على ذلك ، هو : أن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفعل النَّبي صلى الله عليه وسلم الثابت عنه في الروايات الصحيحة ، أنه اكتفى بسعيه بين الصفا والمروة ، بعد طواف القدوم لحجه وعمرته ، وأنه بعد إفاضته من عرفات ، طاف طواف الإفاضة يوم النحر عَلَى التحقيق ، فحديث ابن

عمر هذا نص صحيح متفق عليه ، على أن القارن يعلم كعمل المفرد ، وعلى هذا يحمل الطواف الواحد في حديث عائشة الآتي فيفسر بأنه الطواف بين الصفا والمروة ، لأن القارن لا يسعى لحجه وعمرته إلا مرة واحدة .

وقال ابن حجر في الفتح في كلامه على الروايتين اللتين أخرج بهما البخاري حديث ابن عمر المذكور أعني اللتين سقناهما آنفاً ما نصه : والحديثان ظاهران في أن القارن لا يجب عليه إلا طواف واحد كالمفرد ، وقد رواه سعيد بن منصور من وجه آخر عن نافع عن ابن عمر أصرح من سياق حديثي الباب في الرفع ، ولفظه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال " من جمع بين الحج والعمرة كفاه لهما طواف واحد وسعي واحد " وأعله الطحاوي بأن الدراوردي أخطأ فيه ، وأن الصواب أنه موقوف ، وتمسك في تخطئته بما رواه أيوب ، والليث ، وموسى بن عقبة وغير واحد عن نافع نحو سياق ما في الباب ، من أن ذلك وقع لابن عمر ، وأنه قال : إن النَّبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك ، لا أنه روى هذا اللفظ عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وهو إعلال مردود ، فالدراوردي صدوق ، وليس ما رواه مخالفاً لما رواه غيره ، فلا مانع من أن يكون الحديث عند نافع على الوجهين انتهى كلام ابن حجر في الفتح .

(268/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : هذا الحديث الذي نحن بصدده ليس بموقوف على كلا التقديرين ، لأن ابن عمر لما طاف لهما طوافاً واحداً ، أخبر بأن النَّبي صلى الله عليه وسلم فعل كذلك وهذا عين الرفع ، فلا وقف ألبتة كما ترى ، وحديث ابن عمر هذا الذي ذكر ابن حجر في الفتح : أن سعيد بن منصور أخرجه أصرح من حديثي الباب عند البخاري قال فيه المجد في المنتقى : رواه أحمد وابن ماجه ، وفي لفظ : من أَحرم بالحج والعمرة أجزأه طوافٌ واحد وسعيٌ واحد منهما حتى يَحِلَّ منهما جميعاً رواه الترمذي ، وقال : هذا حديث حسن غريب . وفيه دليل على وجوب السعي ، ووقوف التحلل عليه .

ومنها : ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، فأهللنا بعمرة ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من كان معه هدي فليهل بالحج مع العمرة ثم لا يحل حتى يحلّ منهما جميعاً " الحديث ، وفيه : وأما الذين جمعوا الحج والعمرة فإنما طافوا طوافاً واحداً انتهى . وهو نص صريح متفق عليه دال على اكتفاء القارن بطواف واحد لحجه وعمرته .

وقال بعض أهل العلم : إن المراد بالطواف في حديث عائشة ، هذا هو الطواف بين الصفا والمروة ، وله وجه من النظر ، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله تعالى .

ومنها : حديث جابر الذي قدمناه عند مسلم ، وفيه : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال " دخلت العمرة في الحج مرتين " وتصريحه صلى الله عليه وسلم بدخولها فيه ، يدل على دخول أعمالها في أعماله حالة القران ، وإن أوله جماعات من أهل العلم بتأويلات أخر متعددة .

(269/522)

والأحاديث الدالة على أن القارن يكفيه طواف واحد وسعي واحد كفعل المفرد كثيرة ، وفيما ذكرنا هنا من الأحاديث الصحيحة كفاية لمن يريد الحق وهذا الذي ذكرناه بعض أدلة القائلين بالفرق بين القران والتمتع ، وأن القارن يكفيه طواف واحد وسعي واحد لعمرته وحجه . وقد رأيت ما ذكر من أدلتهم على أن القارن يكفيه طواف واحد ، وسعي واحد .

أما أدلة هذه الطائفة على أن المتمتع لا بد له من طوافين وسعيين ، طواف وسعي لعمرته ، وطواف وسعي لحجه . فمنها : ما رواه البخاري في صحيحه قال : وقال أبو كامل فُضَيلُ بن حُسين البَصريُّ : حدثنا أبو معشر ، حدثنا عثمان بن غِيَاثٍ ، عن عِكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه سُئِل عن متعة الحج ؟ فقال : أَهلَّ المهاجرون ، والأنصار ،

وأزواج النَّبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، وأهللنا فلما قدمنا مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اجعلوا إهلالكم بالحجِّ عُمرة إلا من قلد الهدي " طفنا بالبيت وبالصَّفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب وقال " من قَلَّد الهدي فإنه لا يَحِلُّ له حتى يبلغ الهدي محله " ثم أمرَنا عَشِيَّةَ التَّرْوِية أن هل بالحج ، فإذا فرغنا من المناسك ، جئنا فَطَفنا بالبيت ، وبالصفا والمروة ، وقد تم حجنا وعلينا الهدي . الحديث .

فهذا الحديث الثابت في صحيح البخاري فيه الدلالة الواضحة على أن الذي تمتعوا ، وأَحلوا من عمرتهم طافوا وسعوا لعمرتهم ، وطافوا وسعوا مرة أخرى لحجهم ، وهو نص في محل النزاع .

(270/522)

واعلم أن دعوى من ادعى من العلماء أن رواية البخاري في هذا الإسناد ، عن أبي كامل فضيل بن حسين البصري بلفظ : وقال أبو كامل لها حكم التعليق غير مسلمة ، بل الذي عليه الجمهور من المتأخرين أنَّ الراوي إذا قال : قال فلان ، فحكم ذلك كحكم عن فلان ونحو ذلك ، فالرواية بذلك متصلة ، لا متعلقة إن كان الراوي غير مدلس ، وكان معاصراً لمن روى عنه بقال ونحوها ، ولذا غلطوا ابن حزم في حديث المعازف حيث قال : إن قول

البخاري في أول الإسناد : وقال هشام بن عمار تعليق وليس الحديث بمتصل ، فغلطوه وحكموا للحديث بالاتصال ، لأن هشام بن عمار من شيوخ البخاري والبخاري غير مدلس ، فقوله : عن شيخه ، قال فلان : كقوله عن فلان ، وكل ذلك موصول لا معلق .

واعلم أن قول ان حجر في تهذيب التهذيب : إن البخاري روى عن فضيل المذكور تعليقاً ، مخالف لمذهب الجمهور من المتأخرين ، لأن قوله : وقال أبو كامل في حكم ما لو قال : عن أبي كامل ، وكل ذلك يحكم بوصله عند المحققين ، فقول ابن حجر في الفتح أقرب إلى الصواب من قوله في التهذيب .

وقد قال في فتح الباري في كلامه على الحديث المذكور ، ويحتمل أن يكون البخاري أخذه عن أبي كامل نفسه ، فإنه أدركه وهو من الطبقة الوسطى من شيوخه ، ولم نجد له ذكراً في كتابه غير هذا الموضع انتهى منه .

ومعلوم أن أبا كامل مات سنة سبع وثلاثين ومائتين . وله أكثر من ثمانين سنة والبخاري مات سنة ست وخمسين ومائتين ، وله اثنان وستون سنة ، وبذلك تعلم معاصرتهما زمناً طويلاً ، وقد قال العراقي في ألفيته :

وإن يكن أول الإِسناد حذف . . . مع صيغة الجزم فتعليقاً ألف

ولو إلى آخره أما الذي . . . لشيخه عزا بقال فكذى

عنعنة كخبر المعازف . . . لا تصغ لابن حزم المخالف

وإذا علمت أنه في هذه الأبيات صرح بأن قوله : قال فلان : كقوله : عن فلان ، تبين لك أن كل ذلك من قبيل المتصل ، لا من قبيل المعلق ، وقد قال العراقي في ألفيته أيضاً :

(271/522)

وصححوا وصل معنعن سلم . . . من دلسه راويه واللقا علم

وبعضهم حكى بذا إجماعاً . . . ومسلم لم يشرط اجتماعا

لكن تعاصراً وقيل يشترط . . . طول صحابة وبعضهم شرط

معرفة الراوي بالأخذ عنه . . . وقيل كل ما أتانا منه

منقطع حتى يبين الوصل . . . وحكم أن حكم عن فالجل

سووا وللقطع نحا البرديجي . . . حتى يبين الوصل في التخريج

قال ومثله رأي ابن شيبه . . . كذا له ولم يصوب صوبه

قلت الصواب أن من أدرك ما . . . رواه بالشرط الذي تقدما

يحكم له بالوصل كيفما روى . . . بقال أو عن أو بأن فوا

وما حكي عن أحمد بن حنبل . . . وقول يعقوب على ذا نزل

وكثر استعمال عن في ذا الزمن . . . إجازة وهو بوصل ما قمن

انتهى منه .

فترى العراقي رحمه الله جزم في الأبيات المذكورة ، باستواء قال : فلان ، وعن فلان ، وأن فلاناً قال كذا : وأن الجميع من قبيل الوصل ، لا من قبيل العلق بالشروط المذكورة . وحكى مقابله بصيغة التمريض في قوله :

وقيل كل ما أتانا عنه منقطع الخ . . . وبه تعلم أن قول البخاري : وقال أبو كامل فضيل بن حسين الخ من قبيل المتصل لا من قبيل المعلق .

وقال صاحب تدريب الراوي : أما ما عزاه البخاري لبعض شيوخه بصيغة : قال فلان ، وزاد فلان ونحو ذلك ، فليس حكمه حكم التعليق عن شيوخ شيوخه ، ومن فوقهم ، بل حكمه حكم العنعنة من الاتصال بشرط اللقاء والسلامة من التدليس ، كذا جزم به ابن الصلاح ، قال : وبلغني عن بعض المتأخرين من المغاربة أنه جعله قسماً من التعليق ثانياً ، وأضاف إليه قول البخاري ، وقال فلان ، وزاد فلان فوسم كل ذلك بالتعليق ، قال العراقي : وما جزم به ابن الصلاح ها هنا هو الصواب ، وقد خالف ذلك في نوع الصحيح فجعل من أمثلة التعليق قال عفان .

(272/522)

كذا ، وقال القعنبي كذا ، وهما من شيوخ البخاري . والذي عليه عمل غير واحد من المتأخرين كابن دقيق العيد ، والمزي ، أن لذلك حكم العنعنة ، قال ابن الصلاح هنا : وقد قال أبو جعفر بن حمدان النيسابوري ، وهو أعرف بالبخاري : كل ما قال البخاري : قال لي فلان أو قال لنا فلان : فهو عرض ومناولة . انتهى محل الغرض منه . والنيسابوري المذكور هو المراد بالحيري في قول العراقي في ألفيته :

وفي البخاري قال لي فجعله . . . خيريهم للعرض والمناوله

واعلم أن البخاري رحمه الله تعالى قد يقول : قال فلان مع سماعه منه لغرض غير التعليق . قال ابن حجر في فتح الباري في شرح حديث المعازف المذكور ناقلاً عن ابن الصلاح ، ولا التفات إلى أبي محمد بن حزم الظاهري الحافظ في رد ما أخرجه البخاري من حديث أبي عامر ، أو أبي مالك الأشعري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف " من جهة أن البخاري أورده قائلاً : قال هشام بن عمار وساقه بإسناده ، فزعم ابن حزم أنه منقطع فيما بين البخاري وهشام ، وجعله جواباً عن الاحتجاج به على تحريم المعازف ، وأخطأ في ذلك من وجوه . والحديث صحيح معروف الاتصال ، بشرط الصحيح ، والبخاري قد يفعل مثل ذلك لكونه قد ذكر ذلك الحديث في موضع آخر من كتابه مسنداً متصلاً ، وقد يفعل ذلك لغير ذلك من الأسباب التي لا يصحبها خلل الانقطاع انتهى منه .

وكون البخاري رحمه الله يعبر بقال فلان لأسباب كثيرة غير التعليق ، يدل دلالة واضحة على أن الجزم في مثل ذلك بالتعليق بلا مستند ، دعوى لم يعضدها دليل .

(273/522)

وقال ابن حجر في الفتح أيضاً في شرح الحديث المذكور : وحكى ابن الصلاح في موضع آخر : أن الذي يقول البخاري فيه قال فلان ، يسمى شيخاً من شيوخه ، يكون من قبيل الإسناد المعنعن . وحكى عن بعض الحفاظ أنّه يفعل ذلك فيما تحمله عن شيخه مذاكرة . وعن بعضهم أنه فيما يرويه مناوله ا ه ، وهو صريح في أن قوله : قال فلان : لا يستلزم التعليق .

فإن قيل : توجد في صحيح البخاري أحاديث يرويها بعض شيوخه بصيغة : قال فلان ، ثم يوردها في موضع آخر بواسطة بينه ، وبين ذلك الشيخ .

فالجواب من وجهين :

الأول : أنه لا مانع عقلاً ولا عادة ، ولا شرعاً من أن يكون روى ذلك الحديث عن الشيخ مباشرة ورواه عنه أيضاً بواسطة مع كون روايته عنه مباشرة تشتمل على سبب من الأسباب المؤدية للتعبير بلفظة : قال المشار إليها آنفاً ، والرواية عن الواسطة سالمة من ذلك .

الوجه الثاني : أنا لو سلمنا تسليماً جدلياً أن الصيغة المذكورة تقتضي التعليق ، ولا تقتضي الاتصال ، فتعليق البخاري بصيغة الجزم ، حكمه عند علماء الحديث حكم الصحيح ، كما هو معروف .

وقد قال ابن حجر في الفتح في الكلام على حديث المعازف ما نصه : وقد تقرر عند الحفاظ أن الذي يأتي به البخاري من التعليق كلها بصيغة الجزم ، يكون صحيحاً إلى من علق عنه ، ولو لم يكن من شيوخه . انتهى محل الغرض منه .

فتبين بما ذكرنا أن حديث ابن عباس المذكور الدال على أن المتمتع يسعى ، ويطوف لحجه بعد الوقوف بعرفة ، ولا يكتفي بطواف العمرة السابق ، وسعيها نص صحيح على كل تقدير في محل النزاع .

(274/522)

ومنها : ما رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها مما يدل على أن المتمتع يطوف لحجه بعد رجوعه من منى ، قال البخاري في صحيحه : حدثنا عبد الله بن مسلمة ، حدثنا مالك ، عن ابن شهاب ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة رضي الله عنها زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم قالت : خرجنا مع النَّبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، فأهللنا

بعمرة ، ثم قال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " من كان معه هدي فليهل بالحج مع العمرة ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعاً " الحديث ، وفيه قالت : فطاف الذين كانوا أهلوا بالعمرة بالبيت ، وبين الصفا والمروة ، ثم حلوا ، ثم طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى ، وأما الذين جمعوا الحج والعمرة ، فإنما طافوا طوافاً واحداً . اهـ منه .

وقال مسلم بن الحجاج في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى التميمي ، قال : قرأت على مالك عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع . الحديث ، وفيه : فطاف الذين أهلوا بالعمرة بالبيت ، وبالصفا والمروة ، ثم حلوا ، ثم طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى لحجهم : وأما الذين كانوا جمعوا الحج والعمرة ، فإنما طافوا طوافاً واحداً . انتهى منه .

فهذا نص صريح متفق عليه ، يدل على الفرق بين القارن والمتمتع ، وأن القارن يفعل كفعل المفرد والمتمتع يطوف لعمرته ، ويطوف لحجه فلا وجه للنزاع في هذه المسألة بعد هذا الحديث ، وحديث ابن عباس المذكور قبله عند البخاري . وقول من قال : إن المراد بالطواف الواحد في حديث عائشة هذا السعي ، له وجه من النظر واختاره ابن القيم ، وهو وجيه عندي .

فهذه النصوص تدل على صحة هذا القول المفرق بين القارن والمتمتع ، وهو قول جمهور أهل العلم ، وهو الصواب إن شاء الله تعالى .

أما من قال : إن المتمتع كالقارن يكفيه طواف واحد وسعي واحد ، وهو رواية عن الإمام أحمد ، فقد استدل بما رواه مسلم في صحيحه ، قال : وحدثني محمد بن حاتم ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن ابن جُريج ، ح . وحدثنا عَبْدُ ابْنُ حُمَيْدٍ ، أخبرنا محمد بن بَكرٍ ، أخبرنا ابن جُريج قال : أخبرني أبو الزُّبير أنه سمع جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول : لم يطف النَّبي صلى الله عليه وسلم ، ولا أصحابه بين الصفا والمروة ، إلا طوافاً واحداً زاد في حديث محمد بن بكر طوافَهُ الأول .

انتهى منه .

قال : من تمسك بهذا الحديث ، هذا نص صحيح ، صرح فيه جابر بأن النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يطف هو ولا أصحابه إلا طوافاً واحداً ، ومعلوم أن أصحابه فيهم القارن ، وهو من كان معه الهدي ، وفيهم المتمتع ، وهو من لم يكن معه هدي ، وأذن ففي هذا الحديث الصحيح الدليل على استواء القارن والمتمتع في لزوم طواف واحد وسعي واحد .

وأجاب المخالفون عن هذا بأجوبة :

الأول : هو أن الجمع واجب إن أمكن ، قالوا : وهو هنا ممكن بحمل حديث جابر هذا على أن المراد بأصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم الذين لم يطوفوا إلا طوافاً واحداً للعمرة والحج ، خصوص القارنين منهم ، كالنَّبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان قارناً بلا شك ، وإن حمل حديث جابر على هذا كان موافقاً لحديث عائشة ، وحديث ابن عباس المتقدمين ، وهذا واضح كما ترى . قال في مراقي السعود :

والجمع واجب متى ما أمكنا . . . إلا فللأخير نسخ بينا

وإنما كان قول العلماء كافة : أن الجمع إن أمكن وجب المصير إليه لأن إعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما ، كما هو معروف في الأصول .

(276/522)

الجواب الثاني : أنا لو سلمنا أن الجمع غير ممكن هنا في حديث جابر المذكور مع حديث عائشة ، وحديث ابن عباس كما جاء في بعض الروايات ، عن جابر عند مسلم بلفظ ، لا يمكن فيه الجمع المذكور ، وذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه : حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا زهير ، حدثنا أبو الزبير ، عن جابر رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلين بالحج معنا النساء والولدان ، فلما قدمنا مكة طفنا بالبيت

وبالصفا والمروة ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم " من لم يكن معه هديٌ فَلْيَحلل ، قال : قلنا : أيُّ الحِلِّ ؟ قال : الحِلُّ كُلُّهُ . قال : فأتينا النساء ولبسنا الثياب ومسسنا الطِّيبَ ، فلما كان يوم التَّرْوِيَةِ أهللنا بالحج وكفانا الطواف الأول بين الصفا والمروة ، فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نشترك في الإبل والبقر ، كُلُّ سبعة منا في بَدَنَةٍ " انتهى .

ولفظ جابر في حديث مسلم هذا في هذه الرواية ، لا يمكن حمله على القارنين بحال ، لأنه صرح بأنهم حلوا الحل كله ، وأتوا النساء ولبسوا الثياب ومسوا الطيب ، وأنهم أهلوا يوم التروية بحج ، ومع هذا كله صرح بأنهم كفاهم طوافهم الأول بين الصفا والمروة ، فإن حديث جابر ينفي طواف المتمتع بعد رجوعه من منى ، وحديث عائشة وحديث ابن عباس يثبتانه .

وقد تقرر في الأصول وعلوم الحديث أن المثبت مقدم على النافي ، فيجب تقديم حديث ابن عباس وعائشة ، لأنهما مثبتان على حديث جابر النافي .

الجواب الثالث : أن عدم طواف المتمتع بعد رجوعه من منى الثابت في الصحيح رواه جابر وحده ، وطوافه بعد رجوعه من منى رواه في الصحيح ابن عباس ، وعائشة ، وما رواه اثنان أرجح مما رواه واحد .

قال في مراقي السعود ، في مبحث الترجيح باعتبار حال المروي :

وكثرة الدليل والرواية . . . مرجح لدى ذوي الدراية

وأما من قالوا : إن القارن والمتمتع يلزم كل واحد منهما طوافان وسعيان ، طواف وسعي للعمرة ، وطواف وسعي للحج كأبي حنيفة ومن وافقه ، فقد استدلوا لذلك بأحاديث ، ونحن نذكرها إن شاء الله هنا ، ونبين وجه رد المخالفين لها من وجهين .

فمن الأدلة التي استدلوا بها على أن القارن يسعى ويطوف طوافين لحجه وعمرته ، ما أخرجه النسائي في سننه الكبرى ، ومسند علي عن حماد بن عبد الرحمن الانصاري ، عن إبراهيم بن محمد ابن الحنفية قال : طفت مع أبي ، وقد جمع بين الحج والعمرة فطاف لهما طوافين ، وسعى لهما سعيين ، وحدثني أن علياً فعل ذلك ، وحدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك . انتهى بواسطة نقل صاحب نصب الراية ، ثم قال بعد أن ساق الحديث كما ذكرنا .

قال صاحب التنقيح : وحماد هذا ضعفه الأزدي ، وذكره ابن حبان في الثقات . قال بعض الحفاظ : هو مجهول ، والحديث من أجله لا يصح . انتهى .

ومن أدلتهم على الطوافين والسعيين للمتمتع والقارن معاً : ما أخرجه الدارقطني عن الحسن بن عمارة ، عن الحكم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر : أنه جمع بين عمرة وحج قال : فطاف

لهما طوافين ، وسعى سعيين . وقال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعت . انتهى وأخرجه عن الحسن بن عمارة ، عن الحكم عن ابن أبي ليلى ، عن علي قال : رأيت النَّبي صلى الله عليه وسلم قرن وطاف طوافين ، وسعى سعيين . انتهى منه بواسطة نقل صاحب نصب الراية . ثم قال بعد أن ساقهما كما ذكرنا .

قال الدارقطني : لم يرهما غير الحسن بن عمارة ، وهو متروك ثم هو قد روى عن ابن عباس ضد هذا ثم أخرجه عن الحسن بن عمارة ، عن سلمة بن كهيل ، عن طاوس قال : سمعت ابن عباس يقول : لا والله ما طاف لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا طوافاً واحداً ، فهاتوا من هذا الذي يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف لهما طوافين .

انتهى .

(278/522)

وبالسند الثاني رواه العقيلي في كتاب الضعفاء فقال : حدثنا عبد الله بن محمد بن صالح السمرقندي ، ثنا يحيى بن حكيم المقوم قال : قلت لأبي داود الطيالسي : إن محمد بن الحسن صاحب الرأي ، حدثنا عن الحسن بن عمارة ، عن الحكم عن ابن أبي ليلى ، عن علي قال : فذكره .

فقال : أبو داود من هذا كان شعبة يشق بطنه من الحسن بن عمارة ، وأطال العقيلي في تضعيف الحسن بن عمارة ، وأخرجه الدارقطني أيضاً عن حفص بن أبي داود عن ابن أبي ليلى ، عن الحكم ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن علي بنحوه ، قال : وحفص هذا ضعيف ، وابن أبي ليلى رديء الحفظ كثير الوهم . وأخرجه أيضاً عن عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي ، حدثني أبي ، عن أبيه عن جده ، عن علي : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان قارناً ، فطاف طوافين ، وسعى سعيين . انتهى . قال : وعيسى بن عبد الله ، يقال له : مبارك ، وهو متروك الحديث . انتهى من نصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعي رحمه الله .

ومن أدلتهم على ذلك : ما أخرجه الدارقطني عن أبي بردة عمرو بن يزيد ، عن حماد ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرته . وحجه ، طوافين وسعى سعيين ، وأبو بكر وعمر ، وعلي وابن مسعود . قال الدارقطني : وأبو بردة متروك ، ومن دونه في الإسناد ضعفاء .

(279/522)

ومن أدلتهم أيضاً : ما أخرجه الدارقطني أيضاً ، عن محمد بن يحيى الأزدي ، ثنا عبدالله بن داود ، عن شعبة ، عن حميد بن هلال ، عن مطرف عن عمران بن الحصين : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم طاف طوافين وسعى سعيين . انتهى . قال الدارقطني : يقال إن محمد بن يحيى حدث بهذا من حفظه ، فوهم في متنه ، والصواب بهذا الإسناد : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، قرن الحج ، والعمرة ، وليس فيه ذكر الطواف ولا السعي ، ويقال : إنه رجع عن ذكر الطواف والسعي ، وحدث به على الصواب . كما حدثنا به محمد بن إبراهيم بن نيروز ، ثنا محمد بن يحيى الأزدي به : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قرن . انتهى قال : وقد خالفه غيره فلم يذكر فيه الطواف ، ولا السعي ، كما حدثنا به أحمد بن عبدالله بن محمد بن الوكيل ، ومحمد بن مخلد قالا : ثنا القاسم بن محمد بن عباد المهلبي ، ثنا عبدالله بن داود ، عن شعبة بهذا الإسناد : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قرن ا ه . انتهى كله من نصب الراية .

وقد علمت منه أن جميع هذه الأحاديث الدالة على طوافين وسعيين للقارن ، ليس فيها حديث قائم كما رأيت .

وقال ابن حجر في فتح الباري : واحتج الحنفية بما روى عن علي : أنه جمع بين الحج والعمرة ، فطاف لهما طوافين ، وسعى لهما سعيين ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ، وطرقه عن علي عند عبدالرزاق ، والدارقطني ، وغيرهما ضعيفة ،

وكذا أخرج من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف نحوه ، وأخرج من حديث ابن عمر نحو ذلك ، وفيه الحسن بن عمارة ، وهو متروك ، والمخرج في الصحيحين ، وفي السنن عنه من طرق كثيرة الاكتفاء بطواف واحد .

وقال البيهقي : إن ثبتت الرواية أنه طاف طوافين ، فيحمل على طواف القدوم ، وطواف الإفاضة . وأما السعي مرتين فلم يثبت ، وقال ابن حزم : لا يصح عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد من أصحابه شيء في ذلك أصلاً . انتهى محل الغرض منه .

(280/522)

وقال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد : وأما من قال : إنه حج قارناً قراناً طاف له طوافين وسعى سعيين ، كما قاله كثير من فقهاء الكوفة ، فعذره ما رواه الدارقطني من حديث مجاهد ، عن ابن عمر : أنه جمع بين حج وعمرة معاً وقال : سبيلهما واحد ، قال : وطاف لهما طوافين ، وسعى لهما سعيين وقال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع ، كما صنعت . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنه جمع بينهما ، وطاف لهما طوافين ، وسعى لهما سعيين ، قوال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعت . وعن علي رضي الله عنه أيضاً : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان

قارناً ، فطاف طوافين ، وسعى سعيين ، وعن علقمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم لحجته وعمرته طوافين ، وسعى سعيين ، وأبو بكر وعمر وعلي وابن مسعود . وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم طاف طوافين ، وسعى سعيين ، وما أحسن هذا العذر لو كانت هذه الأحاديث صحيحة ، بل لا يصح منها حرف واحد . أما حديث ابن عمر ففيه الحسن بن عمارة ، وقال الدارقطني : لم يروه عن الحكم ، غير الحسن بن عمارة ، وهو متروك الحديث . وأما حديث علي الأول ففيه حفص بن أبي داود ، وقال أحمد ومسلم : حفص متروك الحديث . وقال ابن خراش : هو كذاب يضع الحديث ، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ضعيف . وأما حديثه الثاني : فيرويه عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي ، حدثني أبي ، عن أبيه ، عن جده قال الدارقطني : عيسى بن عبد الله يقال له مبارك ، وهو متروك الحديث . وأما حديث علقمة ، عن عبد الله فيرويه أبو بردة عمرو بن يزيد عن حماد عن إبراهيم ، عن علقمة . قال الدارقطني وأبو بردة ضعيف ، ومن دونه في الإسناد ضعفاء . انتهى . وفيه عبد العزيز بن أبان . قال يحيى : هو كذاب خبيث ، وقال الرازي والنسائي : متروك الحديث . وأما حديث عمران بن حصين :

فهو مما غلط فيه محمد بن يحيى الأزدي وحدث به من حفظه فوهم فيه ، وقد حدث به على الصواب مراراً ، ويقال : إنه رجع عن ذكر الطواف والسعي . انتهى محل الغرض من كلام ابن القيم .

فإذا عرفت أن أحاديث السعيين والطوافين ليس فيها شيء قائم كما رأيت ، فاعلم أن الذين قالوا : بأن القارن يطوف طوافاً ، ويسعى سعياً كفعل المفرد ، أجابوا عن الأحاديث المذكورة من وجهين .

الأول : ما بيناه الآن بواسطة نقل الزيلعي وابن حجر وابن القيم عن الدارقطني ، وغيره من أوجه ضعفها .

والثاني : أنا لو سلمنا تسلمياً جدلياً أن بعضها يصلح للاحتجاج وضعافها يقوي بعضها بعضاً ، فلا يقل مجموع طرقها عن درجة القبول فيه معارضة بما هو أقوى منها ، وأصح ، وأرجح ، وأولى بالقبول من الأحاديث الثابتة في الصحيح ، الدالة على أن النَّبي لم يفعل في قرانه . إلا كما يفعل المفرد كحديث عائشة المتفق عليه ، وحديث ابن عباس عند البخاري وكالحديث المتفق عليه أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة " يكفيك طوافك بالبيت وبالصفا والمروة لحجك وعمرتك " كما قدمناه واضحاً ، وقد اتضح من جمع ما كتبناه في هذه المسألة : أن التحقيق فيها أن القارن يفعل كفعل المفرد لاندراج أعمال

العمرة في أعمال الحج ، وأن المتمتع يطوف ، ويسعى لعمرته ، ثم يطوف ويسعى لحجته ، ومما يوضح من جهة المعنى : أنه يطوف ويسعى لحجه بعد رجوعه من مِنًى أنه يهل بالحج بالإجماع ، والحج يدخل في معناه دخولاً مجزوماً به الطواف والسعي ، فلو كان يكفيه طواف العمرة التي حل منها ، وسعيها ، لكان إهلاكه بالحج إهلالاً بحج ، لا طواف فيه ولا سعي ، وهذا ليس بحج في العرف ولا في الشرع ، والعلم عند الله تعالى .

فروع تتعلق بهذه المسألة

(282/522)

الفرع الأول : اعلم أن صفة الطواف بالبيت هي أن يبتدئ طوافه من الركن الذي فيه الحجر الأسود ، فيستقبله ، ويستلمه ، ويقبله إن لم يؤذ الناس بالمزاحمة ، فيحاذي بجمع بدنه جميع الحجر فيمر جميع بدنه على جميع الحجر وذلك بحيث يصير جميع الحجر عن يمينه ويصير منكبه الأيمن عند طرف الحجر ، ويتحقق أنه لم يبق وراءه جزء من الحجر ثم يبتدئ طوافه ماراً بجميع بدنه على جميع الحجر ، جاعلاً يساره إلى جهة البيت ، ثم يمشي طائفاً بالبيت ، ثم يمر وراء الحجر بكسر الحاء ويدور بالبيت . فيمر على الركن اليماني ، ثم ينتهي إلى ركن الحجر الأسود ، وهو المحل الذي بدأ منه طوافه ، فتتم له بهذا طوافة واحدة ، ثم يفعل

كذلك ، حتى يتمم سبعاً .

وأصح أقوال أهل العلم فيما يظهر لنا والله أعلم : أنه لا بد من أن يكون خارجاً جميع بدنه ، حال طوافه عن شاذروان الكعبة ، لأنه منها ، وكذلك لا بد أن يكون خارجاً جميع بدنه حال طوافه عن جدار الحجر ، لأن أصله من البيت ، ولكن لم تبنه قريش على قواعد إبراهيم ، ولأجل ذلك لم يشرع استلام الركنين الشاميين ، لأن أصلهما من وسط البيت ، لأن قريشاً لم تبن ما كان عن شمالهما من البيت ، وهو الحجر الذي عليه الجدار وأصله من البيت كما بينا ، ومما يدل على ذلك ما رواه الشيخان في صحيحيهما ، عن عائشة رضي الله عنها .

(283/522)

قال البخاري في صحيحه : حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك ، عن ابن شهاب ، عن سالم بن عبد الله ، أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبر عبد الله بن عمر ، عن عائشة رضي الله عنها زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : " ألم تري قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم ؟ فقلت : يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ قال : لولا حدثان قومك بالكفر ، لفعلت " قال عبد الله رضي

الله عنه : لئن كانت عائشة رضي الله عنها سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم . وفي رواية عنها في صحيح البخاري قالت : " سألت النَّبي صلى الله عليه وسلم عن الجدر ، أمن البيت هو ؟ قال : نعم ، قلت : فما لهم لم يدخلوه في البيت ؟ قال : ألم تري قومك قصرت بهم النفقة ، قلت : فما شأن بابه مرتفعاً ؟ قال : فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا ولولا أن قومك حديثٌ عهدهم بالجاهلية ، فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدر في البيت ، وأن ألصق بابه بالأرض " ا ه . والمراد بالجدر بفتح الجيم ، وسكون الدال المهلمة هنا : الحجر . وفي رواية عنها رضي الله عنها في صحيح البخاري أيضاً قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " لولا حداثة قومك بالكفر ، لنقضت البيت ، ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام ، فإن قريشاً استقصرت بناءه ، وجعلت لها خلفاً " قال أبو معاية : حدثنا هشام خلفاً يعني : باباً . وفي رواية عنها فيه أيضاً : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : " يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية ، لأمرت بالبيت فهدم ، فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض ، وجعلت له بابين ، باباً شرقياً ، وباباً غربياً فبلغت به أساس إبراهيم " فذلك الذي حمل ابن الزبير رضي الله عنهما على هدمه قال يزيد

: وشهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه ، وأدخل فيه من الحجر ، وقد رأيت أساس إبراهيم حجارة كأسنمة الإبل قال جريرٌ : فقلت له أين موضعه ؟ قال : أريكه الآن ، فدخلت معه الحجر ، فأشار إلى مكان ، فقال : ها هنا ، قال جوير : فحزرت من الحجر ستة أذرع أو نحوها . انتهى من صحيح البخاري وزيد المذكور هو ابن رومان وجبرير هو ابن حازم ، وهما مذكوران في سند الحديث المذكور . قوال مسلم في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى ، أخبرنا أبو معاوية ، عن هشام بن عروة . عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم

(285/522)

" لولا حداثة عهد قومك بالكفر ، لنقضت الكعبة ، ولجعتلها على أساس إبراهيم ، فإنَّ قريشاً حين بنت البيت استقصرت ولجعت لها خلفاً " ا ه . وقال النووي خلفاً : أي باباً من خلفها ، وفي رواية عنها فيه أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " ألم تري أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ " قالت : فقلت يا رسول الله أفلا تردها على قواعد إبراهيم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا حدثان قومك

بالكفر لفعلت " فقال عبد الله بن عمر : لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر ، إلا أن البيت لم يتمم على قواعدِ إبراهيم . وفي رواية عنها فيه أيضاً قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية أو قال : بكفر لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ، ولجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها من الحجر " وفي رواية عنها فيها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض ، وجعلت لها بابين ، باباً شرقياً ، وباباً غربياً وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشاً اقتصرتها حين بنت الكعبة " انتهى من صحيح مسلم . وحديثها هذا المتفق عليه الذي ذكرنا بعض رواياته في الصحيحين ، نص صريح فيما ذكرنا وبه تعلم أن قول من زعم من أهل العم أن من سلك نفس الحجر في طوافه ، ثم رجع إلى بلده ، لزمه دم مع صحة طوافه غير صحيح لما رأيت من أن الحجر من البيت ، وأن الطواف فيه ليس طوافاً بالبيت . والعلم عند الله تعالى .

(286/522)

الفرع الثاني : يسن الرمل في الأشواط الثلاثة الأول من أول طواف يطوفه القادم ، إلى مكة ، سواء كان طواف عمرة ، أو طواف قدوم في حج ، وأما الأشواط الأربعة الأخيرة فإنه يمشي فيها ، ولا يرمل ، وذلك ثابت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم في الصحيحين وغيرهما .

قال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد هو ابن زيد ، عن أيوب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه فقال المشركون : إنه يقدم عليكم وقد وهنتم حمى يثرب ، فأمرهم النَّبي صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا ما بين الركنين ، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها ، إلا الإبقاء عليهم . ثم قال البخاري رحمه الله : حدثنا أصبغ بن الفرج ، أخبرني ابن وهب ، عن يونس ، عن ابن شهاب ، عن سالم ، عن أبيه رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقدم مكة إذا استلم الركن الأسود ، أول ما يطوف يخب ثلاثة أطوافٍ من السبع .

(287/522)

ثم قال البخاري رحمه الله : حدثني محمد ، حدثنا سريج بن النعمان حدثنا فليح ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : سعى النَّبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أشواط ، ومشى أربعة في الحج والعمرة ، تابعه الليث . قال : حدثني كثير بن فرقد عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم . حدثنا سعيد بن أبي مريم ، أخبرنا محمد بن جعفر ، قال : أخبرني زيد بن أسلم : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للركن : أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت النَّبي صلى الله عليه وسلم استلمك ما استلمتك ، فاستلمه ثم قال : فما لنا وللرمل إنما كنا رأينا المشركين ، وقد أهلكهم الله ثم قال شيء صنعه النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فلا نحب أن نتركه . انتهى منه ، وفي حديث جابر الطويل في حجة النَّبي صلى الله عليه وسلم ، عند مسلم : حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن ، فرمل ثلاثاً ، ومشى أربعاً الحديث . وفي صحيح البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا طاف بالبيت الطواف الأول ، يخب ثلاثة أطواف ، ويمشي أربعة ، وأنه كان يسعى بطن المسيل ، إذا طاف بين الصفا والمروة " وفي لفظ عند البخاري ، ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا طاف الطواف الأول ، خب ثلاثاً ومشى أربعاً ، وكان يسعى بطن المسيل إذا طاف بين الصفا والمروة " زاد مسلم : وكان ابن عمر يفعل ذلك .

وبهذه النصوص الصحيحة يتبين أن الرمل في الأشواط الثلاثة في طواف العمرة وطواف القدوم مما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى ذلك عامة أهل العلم إلا من شذ ، وإن ترك الرمل في الأشواط الأول لم يقضه في الأشواط الأخيرة على الصواب . ولا يلزم بتركه دم على الأظهر ، لعدم الدليل ، خلافاً لمن أوجب فيه الدم .

تنبيهان

(288/522)

الأول : إن قيل ما الحكمة في الرمل بعد زوال علته التي شرع من أجلها ، والغالب اطراد العلة وانعكاسها ، بحيث يدون معها المعلل بها ، وجوداً وعدماً ؟

فالجواب : أن بقاء حكم الرمل مع زوال علته ، لا ينافي أن لبقائه علة أخرى ، وهي أن يتذكر به المسلمون نعمة الله عليهم حيث كثرهم وقواهم بعد القلة والضعف ، كما قال تعالى ﴿ واذكروا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرض تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ الناس فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ ﴾ [الأنفال : 26] الآية وقال تعالى عن نبيه شعيب ﴿ واذكروا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾

[الأعراف : 86] .

وصيغة الأمر في قوله : اذكروا في الآيتين المذكورتين تدل على تحتم ذكر النعمة بذلك ، وإذاً فلا مانع من كون الحكمة في بقاء حكم الرمل ، هي تذكر نعمة الله بالقوة بعد الضعف . والكثرة بعد القلة ، وقد أشار إلى هذا ابن حجر في الفتح ، ومما يؤيده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمل في حجة الوداع بعد زوال العلة المذكورة ، فلم يمكن بعد ذلك تركه لزوالها ، والعلم عند الله تعالى .

(289/522)

التنبيه الثاني : اعلم أن الروايات الثابتة في الصحيح في الرمل ظاهرها الاختلاف ، لأن في بعضها أن الرمل ليس في الشوط كله بل ما بين الركنين اليمانيين لا رمل فيه ، وقد قدمنا في حديث ابن عباس عند البخاري ما لفظه : فأمرهم النَّبي صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا ما بين الركنين ، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها ، إلا الإبقاء عليهم . ولفظه عند مسلم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه مكة ، وقد وهنتهم حمى يثرب . قال المشركون : إنه يَقْدَمُ عليكم غداً قوم قد وهنتهم الحمى ولقوا منها شدة ، فجلسوا مما يلي الحِجْر ، وأمرهم النَّبي صلى الله عليه وسلم أن يرملوا ثلاثة أشواط ، ويمشوا ما بين الركنين ليرى المشركون

جَلَدَهُم ، فقال المشركون : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم ، هؤلاء أَجْلَدُ من كذا وكذا . قال ابن عباس : ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاءُ عليهم .

فحديث ابن عباس هذا الذي أخرجه الشيخان : فيه التصريح بأنهم لم يرملوا فيما بين الركنين ، وقد بين ابن عباس علة ذلك وهي قوله : فجلسوا مما يلي الحجر ، يعني : أن المشركين جلسوا في جهة البيت الشمالية مما يلي الحجر بكسر الحاء ، وإذاً فالذي بين الركنين اليمانيين لا يرونه لأن الكعبة تحول بينهم وبينه ، وإذا كانوا لا يرونهم مشوا فإذا ظهروا لهم عند ركن الحجر رملوا ، مع أن في بعض الروايات الثابتة في الصحيح : أنه صلى الله عليه وسلم رمل الأشواط الثلاثة كلها ، من الحجر إلى الحجر .

(290/522)

ففي صحيح مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ما لفظه : قال : " رمل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحجر إلى الحجر ثلاثاً ، ومشى أربعاً " وفي لفظ في صحيح مسلم أيضاً عن نافع : أن ابن عمر رمل من الحجر إلى الحجر ، وذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعله . وفي لفظ عند مسلم أيضاً من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم رمل من الحجر الأسود ، حتى انتهى إليه ثلاثة

أطواف ، وفيه عن جابر أيضاً بلفظ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمل ثلاثةَ أطواف من الحجر إلى الحجر .

والجواب عن هذا الذي ذكرنا من اختلاف الروايات : أن حديث ابن عباس الذي فيه أنهم مشوا ما بين الركنين كان في عمرة القضاء في ذي القعدة عام سبع ، وما في الروايات الأخرى من الرمل في كل شوط من الحجر إلى الحجر في حجة الوداع ، كما أجاب بهذا غير واحد .

وقال النووي في شرح مسلم : إن رمله صلى الله عليه وسلم في كل الشوط من الحجر إلى الحجر في حجة الوداع ، ناسخ للمشي بين الركنين الثابت في حديث ابن عباس لأنه متأخر عنه ، والمتأخر ينسخ المتقدم .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : لا يتعين النسخ الذي ذكره النووي ، لما تقرر في الأصول عن جماعة من العلماء ، أن من الأفعال لا تعارض بينها ، فلا يلزم نسخ الآخر منها للأول ، بناء على أن الفعل لا عموم له ، فلا يقع في الخارج إلا شخصياً لا كلياً ، حتى ينافي فعلاً آخر ، فجائز أن يقع الفعل واجباً في وقت ، وفي وقت آخر بخلافه .

(291/522)

قال ابن الحاجب في مختصره الأصولي : مسألة الفعلان لا يتعارضان كصوم وأكل ، لجواز تحريم الأكل في وقت ، وإباحته في آخر . الخ ، ومحل عدم تعارض الفعلين المذكور ما لم يقترن بالفعلين ، قول يدل على ثبوت الحكم ، وإلا كان آخر الفعلين ناسخاً للأول عند قوم ، وعند آخرين لا يكون ناسخاً ، كما لو لم يقترن بهما قول ، وعن مالك والشافعي يصار إلى الترجيح بين الفعلين ، إن اقترب بهما القول وإن لم يترجح أحدهما ، فالتخيير بينهما مثال الفعلين اللذين لم يقترن بهما قول يدل على ثبوت الحكم مشيه صلى الله عليه وسلم بين الركنين اليمانيين ورمله في غير ذلك من الأشواط الثلاثة الأول في عمرة القضاء ، مع رمله في الجميع في حجة الوداع ، ومثال الفعلين اللذين اقترن بهما قول يدل على ثبوت الحكم صلاته صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف على صفات متعددة ، مختلفة كما أوضحناه في سورة النساء ، مع أن تلك الأفعال المختلفة اقترنت بقول يدل على ثبوت الحكم ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم " صلوا كما رأيتموني أصلي " فالجاري على الأصول حسبما ذكرنا عن جماعة منهم : ابن الحاجب ، والعضد ، والرهوني ، وغيرهم أن طواف الأشواط كلها ليس ناسخاً للمشي بين الركنين ، وأن صيغة صلاة الخوف فيها الأقوال المارة قيل كل صورة بعد أخرى ، فهي ناسخة لها ، وقيل كلها صحيحة لم ينسخ منها شيء وقيل : بالترجيح بين صورها ، وإن لم يترجح واحد ، فالتخيير . وإلى هذه المسألة أشار صاحب مراقي السعود بقوله :

ولم يكن تعارضُ الأفعال . . . في كل حالة من الأحوال

وإن يكُ القولُ بحكم لامعا . . . فآخر الفعلين كان رافعا

والكل عند بعضهم صحيحُ . . . ومالكٌ عنه روى الترجيح

وحيثما قد عدم المصير . . . إليه فالأولى هو التخيير

(292/522)

وقال صاحب الضياء اللامع شرح جمع الجوامع : تنبيه : لم يتعرض المصنف للتعارض بين الفعلين ، وصرح الرهوني وغيره ، بأنه لا تعارض بينهما في الحقيقة سواء تماثل الفعلان ، أو اختلفا ، وسواء أمكن الجمع بينهما ، أو لم يمكن لأن الفعل لا عموم له من حيث هو إذ لا يقع في الأعيان ، إلا مشخصاً فلا يكون كلياً حتى ينافي فعلاً آخر ، فجاز أن يكون واجباً في وقت مباحاً في آخر ، وهذا ما لم يقترن بالفعل قول : يدل على ثبوت الحكم كقوله عليه الصلاة والسلام " صلوا كما رأيتموني أصلي " ورأوه صلى صلاة الخوف على صفات متعددة فقال الأبياري : هذا كاختلاف القولين على الصحيح ، والمتأخر ناسخ ، وقيل : يصح إيقاعها على كل وجه من تلك الوجوه ، وبه قال القاضي : وللشافعي ميل إليه وقيل يطلب الترجيح ، كما قال مالك والشافعي . انتهى محل الغرض منه .

والرمل : مصدر رمل بفتح الميم يرمل بضمها رملاً بفتح الميم ورملاناً : إذا أسرع في مشيته

وهز منكبيه وهو في ذلك لا ينزو أي لا يثبت وأنشد المبرد :

ناقته ترمل في النقال . . . متلف مال ومفيد مال

ومراده بالنقال : المناقلة ، وهو أن تضع رجليها مواضع يديها ، وهو دليل على أن الرمل فيه إسراع ، وهو الخبب ، ولذا جاء في بعض روايات الحديث : رمل وفي بعضها خب ، والمعنى واحد .

الفرع الثالث : التحقيق أن الاضطباع يسن في الطواف ، لثبوت ذلك عنه صلى الله عليه وسلم .

قال أبو داود في سننه : حدثنا محمد بن كثير : أخبرنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن ابن يعلى عن يعلى ، قال " طاف النَّبي صلى الله عليه وسلم مضطبعاً ببرد أخضر " حدثنا أبو سلمة موسى ، ثنا حماد عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه اعتمروا من الجعرانة ، فرملوا بالبيت ، وجعلوا أرديتهم تحت آباطهم ، قد قذفوها على عواتقهم اليسرى " انتهى منه .

(293/522)

وقال الترميذي في جامعه : حدثنا محمود بن غيلان ، ن قبيصة ، عن سفيان ، عن ابن جريج ، عن عبدالحميد ، عن ابن يعلى ، عن أبيه ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم " طاف بالبيت مضطبعاً ، وعليه برد " قال أبو عيسى : هذا حديث الثوري عن ابن جريج لا نعرفه ، إلا من حديثه ، وهو حديث حسن صحيح وعبدالحميد هو ابن جبير بن شيبة ، عن ابن يعلى ، عن أبيه ، وهو يعلى بن أمية . ا ه .

وقال ابن ماجه في سننه : حدثنا محمد بن يحيى ، ثنا محمد بن يوسف وقبيصة قالا : ثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن عبد الحميد ، عن ابن يعلى بن أمية ، عن أبيه يعلى " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم طاف مضطبعاً "

قال قبيصة : وعليه برد . انتهى منه . وقال النووي في شرح المهذب في حديث ابن عباس الذي ذكرناه آنفاً في الاضطباع عند أبي داود ، وحديث ابن عباس هذا صحيح ، رواه أبو داود بإسناد صحيح ، ولفظه : عن ابن عباس ثم ساقه كما سقناه آنفاً ، ثم قال : ورواه البيهقي بإسناد صحيح قال عن ابن عباس : قال " اضطبع رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه ورملوا ثلاثة أشواط ومشوا أربعاً " وعن يعلى بن أمية رضي الله عنه ، " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت مضطجعاً ببرد " رواه أبو داود والترمذي ، وابن ماجه بأسانيد صحيحة . وقال الترمذي : هو حديث حسن صحيح . وفي رواية البيهقي : " رأيت النَّبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالبيت مضطبعاً " إسناده

صحيح ، وعن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول فيم الرملان والكشف عن المناكب ، وقد وطد الله الإسلام ، ونفى الكفر وأهله ، ومع ذلك لا نترك شيئاً كنا نصنعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . رواه البيهقي بإسناد صحيح . انتهى كلام النووي .

وبذلك تعلم سنية الاضطباع في الطواف ، خلافاً لمالك ومن قال بقوله : إن الاضطباع ليس بسنة .

(294/522)

وصفة الاضطباع : أن يجعل وسط الرداء تحت كتفه اليمنى ، ويرد طرفيه على كتفه اليسرى ، وتبقى كتفه اليمنى مكشوفة وهو افتعال من الضبع بفتح الضاد ، وسكون الباء بمعنى : العضد سمي بذلك للإبداء أحد الضبعين ، والعرب تسمي العضد : ضبعاً ومنه قول طرفة في معلقته :

وإن شئت سامي واسط الكور رأسها . . . وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد

تقول العرب : ضبعه إذا مد إليه ضبعه ، ليضربه . ومنه قول عمرو بن شاس :

نذود الملوك عنكم وتذودنا . . . ولا صلح حتى تضبعونا ونضبعا

أي تمدون أضباعكم إلينا بالسيوف ، ونمد أضباعنا إليكم ، وقيل : تضبعون أي تمدون أضباعكم للصلح والمصافحة . والطاء في الإضباع مبدلة من تاء الافتعال ، لأن الضاد من حروف الإطباق على القاعدة المشار لها بقوله في الخلاصة :

طا تا افتعال رد إثر مطبق . . . في أدان وازدد وادكر دالا بقى

الفرع الرابع : في كلام العلماء في الطواف هل يشترط له ما يشترط للصلاة من طهارة الحدث والخبث وستر العورة أو لا يشترط في الطواف أو لا يشترط ذلك ؟

اعلم أن اشتراط الطهارة من الحدث والخبث وستر العورة في الطواف هو قول أكثر أهل العلم ، منهم مالك ، وأصحابه ، والشافعي ، وأصحابه ، وهو مشهور مذهب الإمام أحمد .

قال النووي في شرح المهذب : وحكاه الماوردي عن جمهور العلماء ، وحكاه ابن المنذر في طهارة الحدث ، عن عامة العلماء .

وخالف الإمام أبو حنيفة رحمه الله الجمهور في هذه المسألة ، فقال : لا تشترط للطواف طهارة ، ولا ستر عورة ، فلو طاف جنباً ، أو محدثاً ، أو عليه نجاسة ، أو عرياناً صح طوافه عنده .

واختلف أصحابه في وجوب الطهارة للطواف ، مع اتفاقهم على أنها ليست بشرط فيه .

ومن أشهر الأقوال عندهم أنه إذا طاف طواف الإفاضة جنباً ، فعليه بدنة ، وإن طافه

محدثاً : فعليه شاة ، وأنه يعيد الطواف بطهارة ما دام بمكة ، فإن رجع إلى بلده ، فالدم على التفصيل المذكور ، واحتج الجمهور لاشتراط الطهارة للطواف ، بأدلة .

(295/522)

منها : حديث عائشة المتفق عليه الذي ذكرناه سابقاً بسنده ، ومتنه عند البخاري ومسلم : أن أول شيء بدأ النَّبي صلى الله عليه وسلم حين قدم " أنه توضأ ، ثم طاف بالبيت " الحديث قالوا : فهذا الحديث الصحيح صرحت فيه عائشة رضي الله عنها ، بأن النَّبي صلى الله عليه وسلم بدأ بالوضوء قبل الطواف لطوافه ، فدل على أنه لا بد للطواف من الطهارة .

تفإن قيل : وضوءه صلى الله عليه وسلم المذكور في هذا الحديث ، قد دل دليلان على أنه لازم ، لا بد منه .

أحدهما : أنه صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع " خذوا عني مناسككم " وهذا الأمر للوجوب والتحتم ، فلما توضأ للطواف لزمنا أن نأخذ عنه الوضوء للطواف امتثالاً لأمره في قوله " خذوا عني مناسككم " .

والدليل الثاني : أن فعله في الطواف من الوضوء له ، ومن هيئته التي أتى به عليها كلها بيان

وتفصيل لما أجمل في قوله تعالى ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق ﴾ [الحج : 29] وقد تقرر في الأصول أن فعل النَّبي صلى الله عليه وسلم إذا كان لبيان نص من كتاب الله ، فهو على اللزوم والتحتم . ولذا أجمع العلماء على قطع يد السارق من الكوع ، لأن قطع النَّبي صلى الله عليه وسلم للسارق من الكوع بيان وتفصيل لما أجمل في قوله تعالى ﴿ فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : 38] لأن اليد تطلق على العضو إلى المرفق ، وإلى المنكب .

قال صاحب الضياء اللامع في شرح قول صاحب جمع الجوامع : ووقوعه بياناً ما نصه :

الثاني : أن يكون فعله صلى الله عليه وسلم لبيان مجمل ، إما بقرينة حال مثل القطع من الكوع ، فإنه بيان لقوله تعالى ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : 38] وإما بقول كقوله " صلوا كما رأيتموني أصلي " فإن الصلاة فرضت على الجملة ، ولم تبين صفاتها فبينها بفعله وأخبر بقوله : أن ذلك الفعل بيان ، وكذا قوله " خذوا عني مناسككم " وحكم هذا القسم وجوب الاتباع انتهى . محل الغرض منه .

(296/522)

وأشار في مراقي السعود : إلى أن فعله صلى الله عليه وسلم الواقع لبيان مجمل من كتاب الله إن كان المبين بصيغة اسم المفعول واجباً فالفعل المبين له بصيغة اسم الفاعل واجب بقوله :

من غير تخصيص وبالنص يرى . . . وبالبيان وامتثال ظهرا

ومحل الشاهد منه قوله : وبالبيان يعني : أنه يعرف حكم فعل النَّبي صلى الله عليه وسلم من الوجوب أو غيره بالبيان ، فإذا بين أمراً واجباً : كالصلاة والحج ، وقطع السارق بالفعل ، فهذا الفعل واجب إجماعاً لوقوعه بياناً لواجب ، إلا ما أخرجه دليل خاص ، وبهذا تعلم أن الله تعالى أوجب طواف الركن بقوله

﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق ﴾ [الحج : 29] وقد بينه صلى الله عليه وسلم بفعله وقال " خذوا عني مناسككم " ومن فعله الذي بينه به : الوضوء له كما ثبت في الصحيحين ، فعلينا أن نأخذه عنه إلا بدليل ، ولم يرد دليل يخالف ما ذكرنا .

ومن أدلتهم على اشتراط الطهارة من الحدث للطواف : ما أخرجاه في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها ، قال البخاري رحمه الله في كتاب الحيض : حدثنا أبو نعيم ، قال : حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة ، قالت : خرجنا مع النَّبي صلى الله عليه وسلم ، لا نذكر إلا الحج ، فلما جئنا سرف طمثت الحديث . وفيه " فافعلي ما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري " انتهى منه .

(297/522)

وأخرج مسلم في صحيحه حديث عائشة هذا بإسنادين عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه عنهما بلفظ " افعلي ما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري " وفي لفظ لمسلم عنها " فاقضي ما يقضي الحاج غير ألا تطوفي بالبيت حتى تغتسلي " قالوا : فهذا الحديث المتفق عليه صرح فيه النَّبي صلى الله عليه وسلم بنهي عائشة رضي الله عنها عن الطواف إلى غاية هي الطهارة لقوله " حتى تطهري " عند الشيخين و" حتى تغتسلي " عند مسلم ومنع الطواف في حالة الحدث ، الذي هو الحيض إلى غاية الطهارة من جنابته : يدل مسلك الإيماء ، والتنبيه على أن علة منعها من الطواف ، هو الحدث الذي هو الحيض ، فيفهم منه اشتراط الطهارة من الجنابة ، للطواف كما ترى .

فإِن قيل : يجوز أن تكون علة النهي عن طوافها ، وهي حائض ، أن الحائض لا تدخل المسجد .

فالجواب : أن نص الحديث يأبى هذا التعليل ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال " حتى تطهري حتى تغتسلي " ولو كان المراد ما ذكر لقال : حتى ينقطع عنك الدم .

قال النووي في شرح المهذب : فإن قيل : إنما نهاها ، لأن الحائض لا تدخل المسجد .

قلنا : هذا فاسد لأنه صلى الله عليه وسلم قال " حتى تغتسلي " ولم يقل حتى ينقطع دمك ، وهو ظاهر .

ومن أدلة الجمهور على اشتراط الطهارة في الطواف : ما جاء عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " الطواف بالبيت صلاة " الحديث . قال الزيلعي في نصب الراية : رواه ابن حبان في صحيحه في النوع السادس والستين من القسم الثالث من حديث فضيل بن عياض ، والحاكم في المستدرك من حديث سفيان كلاهما عن عطاء بن السائب ، عن طاوس ، عن ابن عباس . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(298/522)

" الطواف بالبيت صلاة إلا أن الله قد أحل فيه النطق فمن نطق فيه لا ينطق إلا بخير " انتهى . وسكت الحاكم عنه وأخرجه الترمذي في كتابه عن جرير ، عن عطاء بن السائب به بلفظ " الطواف بالبيت مثل الصلاة " قال : وقد روي هذا الحديث عن ابن طاوس وغيره ، عن طاوس موقوفاً ولا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عطاء بن السائب . وعن الحاكم رواه البيهقي في المعرفة بسنده ثم قال : وهذا حديث قد رفعه عطاء بن السائب في رواية جماعة عنه وروي عنه موقوفاً ، وهو أصح انتهى . وقال الشيخ تقي الدين في الإمام : هذا الحديث روي مرفوعاً ، وموقوفاً أما المرفوع فله ثلاثة أوجه :

أحدها : رواية عطاء بن السائب رواها عنه جرير ، وفضيل بن عياض ، وموسى بن أعين

، وسفيان أخرجها كلها البيهقي .

الوجه الثاني : رواية ليث بن أبي سليم رواها عنه موسى بن أعين ، عن ليث ، عن طاوس ، عن ابن عباس مرفوعاً باللفظ المذكور ، أخرجها البيهقي في سننه ، والطبراني في معجمه .

(299/522)

الوجه الثالث : رواية الباغندي ، عن أبيه ، عن ابن عيينة ، عن إبراهيم بن ميسرة ، عن طاوس ، عن ابن عباس مرفوعاً نحوه رواه البيهقي أيضاً . فأما طريق عطاء فإن عطاء من الثقات ، لكنه اختلط بأخرة قال ابن معين : من سمع منه قديماً فهو صحيح ومن سمع منه حديثاً ، فليس بشيء ، وجميع من روى عنه روى عنه في الاختلاط إلا شعبة . وسفيان ، وما سمع منه جرير وغيره ، فليس من صحيح حديثه . وأما طريق ليث ، فليث رجل صالح صدوق يستضعف . قال ابن معين : ليث بن أبي سليم ضعيف مثل عطاء بن السائب ، وقد أخرج له مسلم في المتابعات ، وقد يقال : لعل اجتماعه مع عطاء يقوي رفع الحديث ، وأما طريق الباغندي ، فإن البيهقي لما ذكرها قال ولم يضع الباغندي شيئاً في رفعه لهذه الرواية . فقد رواه ابن جريج ، وأبو عوانة عن إبراهيم بن ميسرة موقوفاً انتهى من

نصب الراية للزيلعي . ثم قال أيضاً : حديث آخر رواه الطبراني في معجمع الأوسط :

حدثنا محمد بن أبان ، ثنا أحمد بن ثابت الجحدري ، ثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود ، ثنا سفيان ، عن حنظلة ، عن طاوس : عن ابن عمر لا نعلمه إلا عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " الطواف صلاة فأقلوا فيه الكلام " انتهى منه .

واعلم : أن علماء الحديث قالوا : إن وقف هذا الحديث على ابن عباس أصح من رفعه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : وقد علمت مما مر قريباً أن حديث ابن عباس المذكور رفعه عطاء بن السائب ، وليث بن أبي سليم ، والظاهر أن اجتماعهما معاً لا يقل عن درجة الحسن ، ومما يؤيد ذلك أن ممن روى رفعه عن عطاء سفيان الثوري ، وقد ذكروا أن رواية سفيان عنه صحيحة ، لأنه روى عنه قبل اختلاطه ، وعلى ذلك فهو دليل على اشتراط الطهارة ، وستر العورة ، لأن قوله

" الطواف صلاة " يدل على أنه يشترط فيه ما يشترط في الصلاة ، إلا ما أخرجه دليل خاص كالمشي فيه ، والانحراف عن القبلة ، والكلام ، ونحو ذلك .

(300/522)

فإن قيل : المحققون من علماء الحديث ، يرون أن الصحيح أن حديث الطواف صلاة موقوف لا مرفوع ، لأن من وقفوه أضبط ، وأوثق ممن رفعه ؟

فالجواب : أنا لو سلمنا أنه موقوف ، فهو قول صحابي اشتهر ولم يعلم له مخالف من الصحابة ، فيكون حجة ، لا سيما وقد اعتضد بما ذكرنا قبله من الأحاديث الصحيحة ، وبينا وجه دلالتها على اشتراط الطهارة للطواف .

وقال النووي في شرح المهذب في الكلام على حديث " الطواف صلاة " ما نصه : وقد سبق أن الصحيح أنه موقوف على ابن عباس ، وتحصل منه الدلالة أيضاً ، لأنه قول صحابي اشتهر ، ولم يخالفه أحد من الصحابة ، فكان حجة كما سبق بيانه في مقدمة هذا الشرح ، وقول الصحابي حجة أيضاً ، عند أبي حنيفة انتهى منه .

فهذا الذي ذكرنا هو حاصل أدلة من قال : باشتراط الطهارة من الحدث الأكبر والأصغر للطواف ، وأما اشتراط ستر العورة للطواف فقد استدلوا له بحديث متفق عليه دال على ذلك .

(301/522)

قال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث قال يونس : قال ابن شهاب : حدثني حميد بن عبدالرحمن : أن أبا هريرة أخبرَهُ أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعثه في الحجة التي أَمَّرَهُ عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حجة الوداع يوم النحر في رهطٍ يؤذِّن في الناس : ألا يَحُجُّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . وقال مسلم رحمه الله في صحيحه : حدثنا هارون بن سعيد الأيلي ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو عن ابن شهاب عن حميد بن عبدالرحمن عن أبي هريرة ح حدثني حرملة بن يحيى التُجَيبيُّ ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يونس : أن ابن شهاب أخبره عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف ، عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الحجة التي أَمَّرَه عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حَجَّةِ الوداع في رهط ، يؤذن في الناس يوم النحر : " لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان " قال ابن شهاب : فكان حميد بن عبدالرحمن يقول : يوم النحر يوم الحج الأكبر ، من أجل حديث أبي هريرة ، فهذا الحديث المتفق عليه بلفظ " ولا يطوف بالبيت عريان " يدل فيه مسلك الإيماء والتنبيه على أن علة المنع من الطواف ، كونه عرياناً ، وهو دليل على اشتراط ستر العورة للطواف كما ترى .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : وجوب ستر العورة للطواف ، يدل عليه كتاب الله في قوله تعالى في سورة الأعراف

﴿ يا بني آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : 31] الآية . وإيضاح دلالة هذه الآية الكريمة على ستر العورة للطواف ، يتوقف أولاً على مقدمتين .

الأولى منهما : أن تعلم أن المقرر في علوم الحديث ، أن تفسير الصحابي إذا كان له تعلق بسبب النزول ، أن له حكم الرفع كما أوضحناه في سورة البقرة .

قال العلوي الشنقيطي في طلعة الأنوار :

تفسير صاحب له تعلق . . . بالسبب الرفع له محقق

وقال العراقي في ألفيته :

(302/522)

وعد ما فسره الصحابي . . . رفعاً فمحمول على الأسباب

المقدمة الثانية : هي أن تعلم أن صورة سبب النزول قطعية الدخول عند جماهير الأصوليين ، وهو الصواب إن شاء الله تعالى .

فإذا علمت ذلك : فاعلم أن سبب نزول قوله تعالى ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : 31] أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، فكانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة ، فتقول : من يعيرني ثوباً تجعله على فرجها ، وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله . . . وما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية في هذا السبب ﴿ يا بني آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : 31] الآية . ومن زينتهم التي أمروا بأخذها عند كل مسجد : لبسهم الثياب عند المسجد الحرام للطواف ، لأنه هو صورة سبب النزول . فدخولها في حكم الآية قطعي عند الجمهور ، كما ذكرناه الآن وأوضحناه سابقاً في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك . فالأمر في : خذوا شامل لستر العورة للطواف ، وهو أمر حتم أوجبه الله مخاطباً به بني آدم ، وهو السبب الذي نزل فيه الأمر .

واعلم أيضاً : أنه ثبت عن ابن عباس ما يدل على أنه فسر ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ [الأعراف : 31] بلبس الثياب للطواف استناداً لسبب النزول .

قال مسلم رحمه الله في صحيحه : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ح وحدثني أبو بكر بن نافع واللفظ له ، حدثنا غُنْدَرٌ ، حدثنا شُعْبَةُ ، عن سلمة بن كُهَيلٍ ، عن مسلم البَطِينِ ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان المرأة تطوف بالبيت ، وهي عُرْيَانَة فتقول : من يعرني تِطْوَافاً تجعله على فرجها وتقول :

اليومَ يبدُو بعضُه أو كلُّهُ . . . فما بدا منهُ فلا أحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : 31] انتهى منه .

ولأجل هذا كان ابن عباس يفسر الزينة المذكورة في هذه الآية : باللباس ، ولتعلق هذا التفسير بسبب النزول ، فله حكم الرفع كما بينا والبيت المذكور بعده .

جهم من الجهم عظيم ظله . . . كم من لبيب عقله يضله

وناظر ينظر ما يمله . . . قال صاحب الدر المنثور : وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس في قوله ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : 31] قال : كان رجال يطوفون بالبيت عراة ، فأمرهم الله بالزينة : اللباس ، وهو ما يواري السوأة وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع اه منه . وجماهير علماء التفسير مطبقون على هذا التفسير المتعلق بسبب النزول ، فتبين بما ذكرنا أن القرآن والسنة الصحيحة دلا معاً على ستر العورة للطواف ، وقد قدمنا مراراً كلام العلماء في اقتضاء النهي الفساد فأغنى ذلك عن إعادته هنا ، وقد رأيت فيما كتبنا أدلة الجمهور على طهارة الحدث وستر العورة للطواف .

أما طهارة الخبث : فقد استدلوا لها بما تقدم من أن الطواف صلاة ، وقد بينا وجه الدلالة منه على ذلك ، سواء قلنا : إنه موقوف ، أو مرفوع ، وقد يقال : إنه لا مجال للرأي فيه ، فله حكم الرفع ، واستأنس بعضهم لطهارة الخبث للطواف بقوله تعالى ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ

﴾ [الحج : 26] ، لأنه يدل في الجملة على الأمر بالطهارة للطائفين ، والعلم عند الله تعالى . وإذا علمت مما ذكرنا أن جماهير العلماء منهم الأئمة الثلاثة قالوا : باشتراط الطهارة وتسر العورة للطواف ، وأن أبا حنيفة خالف الجمهور في هذه المسألة ، فلم يشترط الطهارة ، ولا ستر العورة للطواف .

(304/522)

فاعلم أن حجته في ذلك هي قاعدة مقررة في أصوله ترك من أجلها العمل بأحاديث صحيحة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وتلك القاعدة التي ترك من أجلها العمل ببعض الأحاديث الصحيحة ، متركبة من مقدمتين :

إحداهما : أن الزيادة على النص نسخ .

والثانية : أن الأخبار المتواترة لا تنسخ بأخبار الآحاد ، فقال في المسألة التي نحن بصددها : قال الله تعالى في كتابه ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق ﴾ [الحج : 29] وهو نص متواتر ، فلو زدنا على الطواف اشتراط الطهارة ، والستر ، فإن هذه الزيادة نسخ ، وأخبارها أخبار آحاد فلا تنسخ المتواتر الذي هو الآية ، ولأجل هذا لم يقل بتغريب الزاني البكر ، لأن الأحاديث الصحيحة الدالة عليه عنده أخبار آحاد ، وزيادة التغريب على قوله ﴿ الزانية

والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ﴾ [النور : 2] الآية نسخ له ، وهو متواتر ، فلا ينسخ بأخبار الآحاد . ولأجل ذلك أيضاً لم يقل بثبوت المال بالشاهد واليمين ، لأنه يرى ذلك زيادة على قوله تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهدآء ﴾ [البقرة : 282] الآية والزيادة نسخ ، والمتواتر لا ينسخ بالآحاد اه والتحقيق في مسألة الزيادة على النص هو التفصيل . فإن كانت الزيادة أثبتت شيئاً نفاه المتواتر ، أو نفت شيئاً أثبته ، فهي نسخ له ، وإن كان الزيادة زيد فيها شيء ، لم يتعرض له النص المتواتر ، فهي زيادة شيء مسكوت عنه لم ترفع حكماً شرعياً ، وإنما رفعت البراءة الأصلية التي هي الإباحة العقلية ، ورفعها ليس بنسخ .

(305/522)

مثال الزيادة التي هي نسخ على التحقيق : زيادة تحريم الخمر بالقرآن ، وتحريم الحمر الأهلية بالنسبة الصحيحة ، على قوله تعالى ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ ﴾ [الأنعام : 145] فإن هذه الآية الكريمة لم تسكت عن إباحة الخمر والحمر الأهلية وقت نزولها ، بل صرحت بإباحتهما بمقتضى الحصر الصريح بالنفي في ﴿ لاَّ أَجِدُ فِي مَآ

أُوْحِيَ إِلَيَّ ﴾ والإثبات في قوله ﴿ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ الآية.

فتحريم شيء زائد على الأربعة المذكورة في الآية زيادة ناسخة، لأنها أثبتت تحريماً دلت الآية على نفيه.

ومثال الزيادة التي لم يتعرض لها النص بنفي ولا إثبات، زيادة تغريب الزاني البكر عاماً بالسنة الصحيحة على آية الجلد، وزيادة الحكم بالشاهد واليمين. على آية ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان ﴾ [البقرة: 282] الآية وزيادة الطهارة، والستر التي بينا أدلتها على آية ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق ﴾ [الحج: 29] وقد أشار صاحب مراقي السعود إلى مسألة الزيادة على النص بقوله:

وليس نسخاً كل ما أفادا . . . فيما رسا بالنص الازديادا

وقد أوضحنا هذه المسألة في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ ﴾ [الأنعام: 145] الآية، وبينا أن التحقيق هو جواز نسخ المتواتر بالآحاد إذا علم تأخرها عنه، وبيناها أيضاً في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ [النحل: 101] الآية. ولذلك اختصرناها هنا، والعلم عند الله تعالى.

الفرع الخامس : اعلم أن الطواف في الحج المفرد والقران ثلاثة أنواع : طواف القدوم ، وطواف الإفاضة : وهو طواف الزيارة ، وطواف الوداع .

أما طواف الإفاضة فهو ركن من أركان الحج بإجماع العلماء ، وأما طواف الوداع ، وطواف القدوم : فقد اختلف فيهما العلماء ، فذهب مالك وأصحابه ، إلى أن طواف القدوم : واجب يجبر بدم ، وأن طواف الوداع : سنة ، ولا يلزم بتركه شيء ، واستدل لوجوب القدوم بحديث عائشة وعروة المتفق عليه الذي قدمنا بسنده ومتنه عند الشيخين ، وفيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم أول ما يبدأ به الطواف ، وكذلك الخلفاء الراشدون ، والمهاجرون ، والأنصار مع قوله صلى الله عليه وسلم " خذوا عني مناسككم "

واستدل لعدم وجوب طواف الوداع ، بترخيص النبي صلى الله عليه وسلم للحائض في تركه ولم يأمرها بدم ولا شيء ، قالوا : فلو كان واجباً لأمر يجبره ، وأكثر أهل العلم : على أن طواف القدوم لا يلزم بتركه شيء . وقال ابن حجر في الفتح : وذهب الجمهور إلى أن من ترك طواف القدوم لا شيء عليه ، وعن مالك وأبي ثور : عليه دم ، ومن حججهم على أن طواف القدوم لا شيء في تركه أنه تحية ، فلم يجب كتحية المسجد . وأكثر أهل العلم على أن طواف الوداع واجب ، يجب بتركه الدم إلا أنه يرخص في تركه للحائض خاصة ، إذا نفرت رفقتها قبل أن تطهر . قال النووي في شرح مسلم : الصحيح في مذهبنا وجوب طواف

الوداع ، وأنه إذا تركه لزمه دم ، ثم قال : وبه قال أكثر العلماء ، منهم الحسن البصري ، والحكم ، وحماد ، والثوري ، وأبو حنيفة ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو ثور . وقال مالك ، وداود ، وابن المنذر : هو : سنة لا شيء في تركه . وعن مجاهد روايتان كالمذهبين انتهى منه . وقد نقل ابن حجر كلامه هذا ، ثم تعقب عزوه سنيته ، لابن المنذر فقال : والذي رأيته في الأوسط لابن المنذر : أنه واجب للأمر به إلا أنه لا يجب بتركه شيء .

(307/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين في طواف الوداع دليلاً : أنه واجب .

(308/522)

قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثنا سعيد بن منصور ، وزهير بن حرب ، قالا : حدثنا سفيان ، عن سليمان الأحول ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : كان الناس ينصرفون في كل وجه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا ينفِرَنَّ أحد حتى يكونَ آخرُ عهدِهِ بالبيت " قال زهير : ينصرفون كل وجه ، ولم يقل في . انتهى منه . فقوله صلى الله

عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح بصيغة النهي الصريح " لا ينفِرَنَّ أحد " الخ . دليل على منع النفر بدون وداع ، وهو واضح في وجوب طواف الوداع ، ثم قال مسلم رحمه الله : حدثنا سعيد بن منصور ، وأبو بكر بن أبي شيبة واللفظ لسعيد قالا : حدثنا سفيان ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : أُمِر الناس أن يكون آخرُ عهدهم بالبيت ، إلا أنه خُفِّفَ عن المرأة الحائض . اهـ منه . وقال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا مسدد ، حدثنا سفيان ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أُمر الناس أن يكون آخر عَهدِهم بالبيت ، إلا أنه خُفِّفَ عن الحائضِ انتهى . منه وقوله أمر بصيغة المبني للمفعول ، ومعلوم في علوم الحديث ، وأصول الفقه أن مثل ذلك له حكم الرفع . فهو حديث صحيح متفق عليه ، يدل على أمر النبي صلى الله عليه وسلم بطواف الوداع ، مع الترخيص لخصوص الحائض والله يقول ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر : 7] الآية . وهو صلى الله عليه وسلم يقول " إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه " وقد نهى في حديث مسلم السابق ، عن النفر بدون طواف وداع ، وأمر في الحديث المتفق عليه بالوداع . فدل ذلك الأمر وذلك النهي على وجوبه . أما لزوم الدم في تركه ، فيتوقف على دليل صالح لإثبات ذلك ، وسنذكر إن شاء الله ما تيسر من أدلة الدماء التي يوجبها الفقهاء ، وحديث ترخيص النبي صلى الله عليه وسلم لصفية أن تنفر وهي حائض من غير وداع معروف .

الفرع السادس : في أول وقت طواف الإفاضة وآخرة :

الظاهر أن أول وقته يوم النحر بعد الإفاضة من عرفة ومزدلفة ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم فإنه طاف طواف الإفاضة ، يوم النحر ، بعد رمي جمرة العقبة ، والنحر والحلق وقال " خذوا عني مناسككم " والشافعية ، ومن وافقهم يقولون : إن أول وقته يدخل بنصف ليلة النحر ، ولا أعلم لذلك دليلاً مقنعاً . وأما آخر وقت طواف الإفاضة ، فلم يرد فيه نص ، وجمهور العلماء على أنه لا آخر لوقته ، بل يبقى وقته ما دام صاحب النسك حياً ، ولكن العلماء اختلفوا في لزوم الدم بالتأخير .

قال النووي في شرح المهذب : قد ذكرنا أن مذهبنا أن طواف الإفاضة لا آخر لوقته ، بل يبقى ما دام حياً ، ولا يلزمه بتأخيره دم ، قال ابن المنذر : ولا أعلم خلافاً بينهم في أن من أخره وفعله في أيم التشريق أجزأه ولا دم عليه ، فإن أخره عن أيام التشريق . فقد قال جمهور العلماء كمذهبنا : لا دم . وممن قال به : عطاء ، وعمرو بن دينار ، وابن عيينة : وأبو ثور ، وأبو يوسف ومحمد وابن المنذر ، وهو رواية عن مالك . وقال أبو حنيفة : إن رجع إلى وطنه قبل الطواف : لزمه العود للطواف ، فيطوف ، وعليه دم للتأخير ، وهو الرواية

المشهورة عن مالك . دليلنا أن الأصل عدم الدم حتى يرد الشرع به . والله أعلم انتهى الغرض من كلام النووي .

ولزوم الدم بالتأخير فيه خلاف معروف عند المالكية ، مع اتفاقهم على أن من أخره إلى انسلاخ شهر ذي الحجة عليه الدم .

(310/522)

الفرع السابع : لا خلاف بين العلماء في استحباب استلام الحجر الأسود للطائف ، وجماهيرهم على تقبيله ، وإن عجز وضع يده عليه ، وقبّلها خلافاً لمالك قائلاً : إنه يضعها على فيه من غير تقبيل . وقال النووي في شرح المهذب : أجمع المسلمون على استحباب استلام الحجر الأسود ، ويستحب عندنا مع ذلك تقبيله والسجود عليه ، بوضع الجبهة كما سبق بيانه ، فإن عجز عن تقبيله قبل اليد بعده ، وممن قال بتقبيل اليد : ابن عمر ، وابن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وأبو هريرة ، وأبو سعيد الخدري ، وسعيد بن جبير ، وعطاء وعروة ، وأيوب السختياني ، والثوري ، وأحمد ، وإسحاق . حكاه عنهم ابن المنذر قال : وقال القاسم بن محمد ومالك : يضع يده على فيه من غير تقبيل .

قال ابن المنذر : وبالأول أقول : لأن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فعلوه ، وتبعهم

جملة الناس عليه ، وروينا ه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وأما السجود على الحجر الأسود ، فحكاه ابن المنذر عن عمر بن الخطاب ، وابن عباس ، وطاوس ، والشافعي ، وأحمد .

قال ابن المنذر : وبه أقول : قال وقد روينا فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال مالك : هو بدعة ، واعترف القاضي عياض المالكي بشذوذ مالك عن الجمهور في المسألتين ، فقال جمهور العلماء : على أنه يستحب تقبيل اليد ، إلا مالكاً في أحد قوليه ، والقاسم بن محمد قالا : لا يقبلها . قال : وقال جميعهم : يسجد عليه ، إلا مالكاً وحده فقال : بدعة .

وأما الركن اليماني ففيه للعلماء ثلاثة أقوال :

الأول : أنه يستحب استلامه باليد ، ولا يقبل ، بل تقبل اليد بعد استلامه ، وهذا هو مذهب الشافعي ، قال النووي : وروي عن جابر ، وأبي سعيد الخدري ، وأبي هريرة .

القول الثاني : أنه يستلمه ، ولا يقبل يده بعده بل يضعها على فيه من غير تقبيل ، وهو مشهور مذهب مالك ، وأحمد ، وعن مالك رواية : أنه يقبل يده بعد استلامه كمذهب الشافعي .

(311/522)

القول الثالث : أنه يقبله ، وهو مروي عن أحمد .

تنبيهان

(312/522)

الأول : قد جاءت روايات متعارضة في الوقت ، الذي طاف فيه النبي صلى الله عليه وسلم طواف الإفاضة ، وفي الموضع الذي صلى فيه ظهر يوم النحر ، فقد جاء في بعض الروايات : أنه طاف يوم النحر ، وصلى ظهر ذلك اليوم بمنى ، وجاء في بعض الروايات : أنه صلى ظهر ذلك اليوم في مكة ، وفي بعض الروايات : أنه طاف ليلاً لا نهاراً . ففي حديث جابر الطويل في حجة النبي صلى الله عليه سولم عند مسلم ما لفظه " ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر " ففي هذا الحديث الصحيح التصريح بأنه أفاض نهاراً ، وهو نهار يوم النحر ، وأنه صلى ظهر يوم النحر بمكة ، وكذلك قالت عائشة : أنه طاف يوم النحر ، وصلى الظهر بمكة . وقال مسلم في صحيحه أيضاً : حدثني محمد بن رافع ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر " أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أفاض يوم النحر ، ثم رجع فصلى الظهر بمنى " قال نافع : فكان ابن عمر يفيض يوم النحر ، ثم يرجع ، فيصلي الظهر بمنى ، ويذكُرُ أن النبي صلى الله

عليه وسلم فعله انتهى منه . فترى حديث جابر وحديث ابن عمر الثابتين في صحيح مسلم ، اتفقا على أنه طاف طواف الإفاضة نهاراً ، واختلفا في موضع صلاته لظهر ذلك اليوم ، ففي حديث جابر : أنه صلاها بمكة وكذلك قالت عائشة . وفي حديث ابن عمر : أنه صلاها بمنى ، بعد ما رجع من مكة . ووجه الجمع بين الحديثين : أنه صلى الله عليه وسلم صلى الظهر بمكة ، كما قال جابر وعائشة ، ثم رجع إلى منى ، فصلى بأصحابه الظهر مرة أخرى ، كما صلى بهم صلاة الخوف مرتين : مرة بطائفة ، ومرة بطائفة أخرى في بطن نخل ، كما أوضحناه سابقاً في سورة النساء ، فرأى جابر وعائشة صلاته في مكة فأخبرا بما رأيا وقد صدقا . ورأى ابن عمر صلاته بهم في منى فأخبر بما رأى ، وقد صدق وهذا واضح ، وبهذا الجمع جزم النووي ، وغير واحد . وقال البخاري في صحيحه : وقال أبو الزبير ، عن

(313/522)

عائشة ، وابن عباس رضي الله عنهم : أَخَّرَ النبي صلى الله عليه وسلم الزيارة إلى الليل انتهى محل الغرض منه . وقد قدمنا أن كل ما علقه البخاري بصيغة الجزم فهو صحيح إلى من علق عنه ، مع أن وصله أبو داود والترمذي وأحمد ، وغيرهم من طريق سفيان ، وهو

الثوري ، عن أبي الزبير به وزيارته ليلاً في هذا الحديث المروي عن عائشة ، وابن عباس ، مخالفة لما قدمنا في حديث جابر وابن عمر ، وللجمع بينهما أوجه من أظهرها عندي اثنان .

الأول : أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف طواف الزيارة في النهار ، يوم النحر ، كما أخبر به جابر وعائشة ، وابن عمر ، ثم بعد ذلك صار يأتي البيت ليلاً ، ثم يرجع إلى منى فيبيت بها ، وإتيانه البيت في ليالي منى ، هو مراد عائشة ، وابن عباس .

وقال البخاري في صحيحه بعد أن ذكر هذا الحديث الذي علقه بصيغة الجزم ما نصه : ويُذكَرُ عن ابي حسان ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي كان يزور البيت أيام منى . ا ه .

وقال ابن حجر في الفتح : فكأن البخاري عقب هذا بطريق أبي حسان ، ليجمع بين الأحاديث بذلك ، فيحمل حديث جابر وابن عمر : على اليوم الأول ، وحديث ابن عباس هذا : على بقيه الأيام ، وهذا الجمع مال إليه النووي . وهذا ظاهر .

الوجه الثاني : في الجمع بين الأحاديث المذكورة أن الطواف الذي طافه النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً : طواف الوداع ، فنشأ الغلط من بعض الرواة في تسميته بالزيارة ، ومعلوم أن طواف الوداع كان ليلاً .

قال البخاري في صحيحه : حدثنا أصبغ بن الفرج ، أخبرنا ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن قتادة : أنَّ أنس بن مالك رضي الله عنه حدَّثَهُ " أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم رقد رقدة بالمُحَصّب ثم ركب إلى البيت ، فطاف به " . تابعه الليث . حدثني خالد عن سعيد عن قتادة أن أنس بن مالك رضي الله عنه : حدثه " أن النبي صلى الله عليه وسلم " انتهى من البخاري ، وهو واضح في أنه طاف طواف الوداع ليلاً ا ه . وحديث عائشة المتفق عليه يدل لذلك ، وإلى هذا الجمع مال ابن القيم في زاد المعاد ، ولو فرضنا أن أوجه الجمع غير مقنعة فحديث جابر ، وعائشة ، وابن عمر : أنه طاف طواف الزيارة نهاراً أصح مما عارضها فيجب تقديمها عليه والعلم عند الله تعالى .

التنبيه الثاني : اعلم أنه جاء في بعض الروايات الصحيحة ، ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف ماشياً ، ومما يدل على ذلك الأحاديث الصحيحة التي سقناها سابقاً ، في أنه رمل ثلاثة أشواط ، ومشى أربعاً ، فإن ذلك يدل على أنه ماش على رجليه لا راكب ، مع أنه جاءت روايات أخر صحيحة تدل على أنه طاف راكباً .

قال البخاري في صحيحه : حدثنا أحمد بن صالح ، ويحيى بن سليمان قالا : حدثنا ابن وهب ، قال : أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، عن عبيد الله عن ابن عباس رضي الله

عنهما قال " طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على بعير يستلم الركن بمحجن " تابعه الدراوردي ، عن ابن أخ الزهري ، عن عمه .

وقال مسلم في صحيحه : حدثني أبو الطاهر ، وحرملة بن يحيى ، قالا : أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف في حجة الوداع على بعيرٍ يستلم الركن بمحجن " .

(315/522)

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا علي بن مسهر ، عن ابن جُريج ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال " طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على راحلته يستلم الركن بمحجنه ، لأن يراه الناس وليشرف وليسألوه ، فإن الناس قد غشوه " .

وفي لفظ عن جابر عند مسلم " طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على راحلته بالبيت وبالصفا والمروة ليراه الناس وليشرف وليسألوه ، فإن الناس قد غشوه " .

وقال مسلم في صحيحه أيضاً : حدثني الحكم بن موسى القنطري ، حدثنا شعيب بن إسحاق ، عن هشام بن عروة ، عن عروة ، عن عائشة قالت " طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع حول الكعبة على بعيره يستلم الرُّكن ، كراهية أن يضرب عنه الناس "

انتهى منه .

فهذه الأحاديث الصحيحة الثابتة عن ابن عباس ، وجابر وعائشة ، رضي الله عنهم ، صريحة في أنه طاف راكباً .

ووجه الجمع بين هذه الأحاديث الدالة على طوافه راكباً ، مع الأحاديث الدالة على أنه طاف ماشياً : كأحاديث الرمل في الأشواط الثلاثة الأول ، والمشي في الأربعة الأخيرة : هو " أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف طواف القدوم ماشياً ، ورمل في أشواطه الثلاثة الأول ، وطاف طواف الإفاضة في حجة الوداع " وهو نص صريح صحيح ، يبين أن من طاف ، وسعى راكباً ، فطوافه وسعيه كلاهما صحيح ، لفعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك مع قوله " خذوا عني مناسككم " وقد قدمنا البحث مستوفى في المشي ، والركوب في الحج مع مناقشة أدلة الفريقين . والعلم عند الله تعالى . .

(316/522)

الفرع الثامن : أجمع العلماء على مشروعية صلاة ركعتين بعد الطواف ، ولكنهم اختلفوا في ركعتي الطواف ، هل حكمهما الوجوب أو السنية ؟ فقال بعض أهل العلم : إن ركعتي الطواف واجبتان ، واستدلوا لوجوبهما بصيغة الأمر في قوله ﴿ واتخذوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ

مُصَلًّى ﴾ [البقرة : 125] على قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، قالوا : والنبي صلى الله عليه وسلم لما طاف : قرأ هذه الأية الكريمة ، وصلى ركعتين خلف المقام ، ممتثلاً بذلك الأمر في قوله ﴿ واتخذوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : 125] . وقد قال صلى الله عليه وسلم " خذوا عني مناسككم " والأمر في قوله ﴿ واتخذوا ﴾ على القراءة المذكورة يقتضي الوجوب كما بيناه مراراً في هذا الكتاب المبارك . وقال جمهور العلماء : إن ركعتي الطواف من السنن ، لا من الواجبات ، واستدلوا لعدم وجوبهما بحديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه الثابت في الصحيح .

قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، من أهل نجد ، ثائر الرأس ، يسمع دوي صوته ، ولا يفقه ما يقول ، فإذا هو يسأل عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خمس صلوات في اليوم والليلة ، فقال : هل عليَّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع " الحديث . قالوا : وفي هذا الحديث الصحيح التصريح بأنه لا يجب شيء من الصلاة ، غير الخمس المكتوبة ، وقد يجاب عن هذا الاستدلال : بأن الأمر بصلاة ركعتي الطواف ، خلف المقام وارد بعد قوله صلى الله عليه وسلم " لا . إلا أن تطوع " والعلم عند الله تعالى .

(317/522)

والمستحب أن يقرأ في الأولى من ركعتي الطواف ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ [الكافرون : 1] وفي الثانية ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] كما هو ثابت في حديث جابر . وجمهور أهل العلم على أن ركعتي الطواف ، لا يشترط في صحة صلاتهما أن تكون خلف المقام ، بل لو صلاهما في أي موضع غيره صح ذلك ولو طاف في وقت نهي ، فأحد قولي أهل العلم : إنه يؤخر صلاتهما إلى وقت لا نهي عن النافلة فيه ، ومما يدل على هذين الأمرين أعني صحة صلاتهما في موضع آخر ، وتأخير صلاتهما إلى وقت لا نهي عن النافلة فيه ، ومما يدل على هذين الأمرين أعني صحة صلاتهما في موضع آخر ، وتأخير صلاتهما إلى وقت غير وقت النهي الذي طاف فيه ما ذكره البخاري في صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم ، قال : [باب الطواف بعد الصبح والعصر] وكان ابن عمر رضي الله عنهما : يصلي ركعتي الطواف ما لم تطلع الشمس ، وطاف عمر بعد الصبح ، فركب حتى صلى الركعتين بذي طُوى . وفعل عمر رضي الله عنه هذا الذي ذكره البخاري يدل على عدم اشتراط كون الركعتين خلف المقام ، بل تصح صلاتهما في أي موضع صلاهما فيه ، وأن تأخيرهما عن وقت النهي هو الصواب ، وممن قال به : أبو سعيد الخدري ، ومعاذ بن عفراء ، ومالك وأصحابه : وعزاه بعضهم إلى الجمهور ، وقد قدمنا مراراً قول من يقول من أهل العلم : إن ذوات الأسباب الخاصة من الصلوات لا تدخل في عموم النهي في أوقات النهي ، إلا أن القاعدة المقررة في الأصول : أن درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح .

وقال الشافعي وأصحابه : إن صلاة ركعتي الطواف جائزة في أوقات النهي بلا كراهة ، واستدلوا لذلك بدليلين .

(318/522)

أحدهما : عام وهو أن ذوات الأسباب الخاصة من الصلوات ، لا تدخل في عموم النهي ، لأن سببها الخاص ، يخرجها من عموم النهي ، كركعتي الطواف فإنهما لسبب خاص ، هو الطواف . وكتحية المسجد في وقت النهي ، ونحو ذلك ، وأحدهما خاص : وهو ما ورد في خصوص البيت الحرام ، كحديث جُبَيْر بن مُطْعِم رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من ليل أو نهار "

رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن ، وصححه الترمذي ، ورواه أيضاً ابن خزيمة وابن حبان ، والدارقطني ، قال ابن حجر في التلخيص في هذا الحديث : رواه الشافعي ، وأحمد ، وأصحاب السنن ، وابن خزيمة ، وابن حبان والدارقطني ، والحاكم من حديث أبي الزبير عن عبد الله بن باباه ، عن جبير بن مطعم ، وصححه الترمذي ، ورواه الدارقطني من وجهين آخرين ، عن نافع بن جبير ، عن أبيه ، ومن طريقين آخرين عن جابر وهو معلول ،

فإِن المحفوظ عن أبي الزبير ، عن عبد الله بن باباه ، عن جبير ، لا عن جابر . وأخرجه الدارقطني أيضاً ، عن ابن عباس من رواية مجاهد عنه ، ورواه الطبراني من رواية عطاء ، عن ابن عباس ، ورواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان ، والخطيب في التلخيص من طريق ثمامة بن عبيدة عن أبي الزبير ، عن علي بن عبد الله بن عباس ، عن أبيه ، وهو معلول . وروى ابن عدي من طريق سعيد بن أبي راشد ، عن عطاء ، عن أبي هريرة حديث " لا صلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس " الحديث وزاد في آخره " من طاف فليصل " أي حين طاف ، وقال : لا يتابع عليه ، وكذا قال البخاري . وروى البيهقي من طريق عبد الله بن باباه ، عن أبي الدرداء : أنه طاف عند مغاب الشمس فصلى الركعتين ، وقال : إن هذه البلدة ليست كغيرها .

تنبيه

(319/522)

عزا المجد ابن تيمية حديث جبير لمسلم ، فإنه قال : رواه الجماعة ، إلا البخاري . وهذا وهم منه تبعه عليه المحب الطبري ، فقال : رواه السبعة إلا البخاري ، وابن الرفعة ، فقال : رواه مسلم ، ولفظه " لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من ليل أو

نهار " وكأنه والله أعلم : لما رأى ابن تيمية عزاه إلى الجماعة ، دون البخاري اقتطع مسلماً من بينهم واكتفى به عنهم ، ثم ساقه باللفظ الذي أورده ابن تيمية ، فأخطأ مكرراً .

فائدة

قال البيهقي : يحتمل أن يكون المراد بهذه الصلاة ، صلاة الطواف خاصة : وهو الأشبه بالآثار ، ويحتمل جميع الصلوات . انتهى كلام ابن حجر في التلخيص الحبير .

وهذا الذي ذكرنا عن الشافعي وأصحابه من جواز صلاة ركعتي الطواف في أوقات النهي بلا كراهة ، حكاه ابن المنذر ، عن ابن عمر ، وابن عباس ، والحسن ، والحسين ابني علي ، وابن الزبير ، وطاوس ، وعطاء ، والقاسم بن محمد ، وعروة ، ومجاهد ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبي ثور . انتهى بواسطة نقل النووي في شرح المهذب .

ومما استدلوا به على ذلك ما رواه مجاهد عن أبي ذر مرفوعاً " لا صلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس ولا صلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس إلا بمكة " قال ابن حجر في التلخيص : في هذا الحديث رواه الشافعي أخبرنا عبد الله بن المؤمل ، عن حميد مولى غفرة ، عن قيس بن سعد ، عن مجاهد ، وفيه قصة وكرر الاستثناء ثلاثاً .

(320/522)

ورواه أحمد عن يزيد ، عن عبد الله بن المؤمل إلا أنه لم يذكر حميداً في سنده . ورواه ابن عدي من حديث سعيد بن سالم عند عبد الله بن المؤمل ، فلم يذكر قيساً ، ورواه ابن عدي من طريق اليسع بن طلحة وسمعت مجاهداً يقول : بلغنا أن أبا ذر فذكره ، وعبد الله ضعيف ، وذكر ابن عدي هذا الحديث من جملة ما أنكر عليه . وقال البيهقي : فقال تفرد به عد الله ولكن تابعه إبراهيم بن طهمان ، ثم ساقه بسنده إلى خلاد بن يحيى قال : ثنا إبراهيم بن طهمان ، ثنا حميد مولى غفرة ، عن قيس بن سعد ، عن مجاهد قال : جاءنا أبو ذر فأخذ بحلقة الباب الحديث . وقال أبو حاتم الرازي : لم يسمع مجاهد من أبي ذر ، وكذا أطلق ذلك ابن عبد البر ، والبيهقي ، والمنذري ، وغير واحد . قال البيهقي : قوله في رواية إبراهيم بن طهمان : جاءنا أبو ذر أي جاء بلدنا .

قلت : ورواه ابن خزيمة في صحيحه ، من حديث سعيد بن سالم كما رواه ابن عدي وقال : أنا أشك في سماع مجاهد ، من أبي ذر انتهى . كلام ابن حجر في التلخيص الحبير .

هذا هو حاصل ما احتج به الشافعي ، وأصحابه ، ومن وافقهم على جواز صلاة ركعتي الطواف ، في أوقات النهي وحجة مخالفيهم هي عموم الأحاديث الواردة في النهي عن الصلاة في تلك الأوقات وظاهرها العموم .

وقد قال الشوكاني رحمه الله في نيل الأوطار : وأنت خبير بأن حديث جبير بن مطعم ، لا يصلح لتخصيص أحاديث النهي المتقدمة ، لأنه أعم منها من وجه وأخص من وجه ،

وليس أحد العمومينِ أولى بالتخصيص من الآخر ، لما عرفت غير مرة انتهى منه ، وهو كما قال رحمه الله .

والقاعدة المقررة في الأصول : أن النصين إذا كان بينهما عموم ، وخصوص من وجه ، فإنهما يظهر تعارضهما في الصورة التي يجتمعان فيها ، فيجب الترجيح بينهما . كما أشار له صاحب مراقي السعود بقوله :

وإن يك العموم من وجه ظهر . . . فالحكم بالترجيح حتماً معتبر

(321/522)

وإيضاح كون حديث جبير المذكور بينه ، وبين أحاديث النهي المذكورة عموم وخصوص من وجه ، كما ذكره الشوكاني رحمه الله : هو أن أحاديث النيه عامة في مكة وغيرها ، خاصة في أوقات النهي . وحديث جبير بن مطعم عام في أوقات النهي وغيرها ، خاص بمكة حرسها الله ، فتختص أحاديث النهي بأوقات النهي في غير مكة ، ويختص حديث جبير بالأوقات التي لا ينهى عن الصلاة فيها بمكة ، ويجتمعان في أوقات النهي في مكة ، فعموم أحاديث النهي يشمل مكة وغيرها ، وعموم إباحة الصلاة في جميع الزمن في حديث جبير ، يشمل أوقات النهي وغيرها في مكة فيظهر التعارض في أوقات النهي في مكة ، فيجب

الترجيح . وأحاديث النهي أرجح من حديث جبير من وجهين :

أحدهما : أنها أصح منه لثبوتها في الصحيح .

والثاني : هو ما تقرر في الأصول ، أن النص الدال على النهي يقدم على النص الدال على الإباحة ، لأن درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح ، كما قدمناه مراراً . والعلم عند الله تعالى .

الفرع التاسع : اعلم أن أظهر أقوال العلماء ، وأصحها إن شاء الله : أن الطواف لا يفتقر إلى نية تخصه ، لأن نية الحج تكفي فيه ، وكذلك سائر أعمال الحج كالوقوف بعرفة ، والمبيت بمزدلفة ، والسعي ، والرمي كلها لا تفتقر إلى نية ، لأن نية النسك بالحج تشمل جميعها ، وعلى هذا أكثر أهل العلم . ودليله واضح ، لأن نية العبادة تشمل جميع أجزائها فكما لا يحتاج كل ركوع وسجود من الصلاة إلى نية خاصة لشمول نية الصلاة لجميع ذلك ، فكذلك لا تحتاج أفعال الحج لينة تخص كل واحد منها ، لشمول نية ا لحج لجميعها .

ومما استدلوا به لذلك ، أنه لو وقف بعرفة ناسياً أجزأه ذلك بالإجماع ، قاله النووي . ومقابل القول الذي هو الصواب إن شاء الله قولان آخران لأهل العلم :

(322/522)

أحدهما : وبه قال أبو علي بن أبي هريرة من الشافعية ، أن ما كان منها مختصاً بفعل كالطواف والسعي والرمي ، فهو مفتقر إلى نية ، وما كان منها غير مختص بفعل بل هو لبث مجرد كالوقوف بعرفة ، والمبيت بمزدلفة فهو لا يفتقر إلى نية .

والثاني منهما : وبه قال أبو إسحاق المروزي : أنه لا يفتقر شيء من أعمال الحج ، إلى نية إلا الطواف ، لأنه صلاة ، والصلاة تفتقر إلى النية ، وأظهرها وأصحها إن شاء الله الأول ، وهو قول الجمهور .

(323/522)

الفرع العاشر : أظهر قَوْلَيْ العلماء عندي أنه إن أقيمت الصلاة وهو في أثناء الطواف أنه يصلي مع الناس ولا يستمر في طوافه مقدماً إتمام الطواف على الصلاة ، وممن قال بذلك : ابن عمر ، وسالم ، وعطاء ، وأبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأَحمد ، وأصحابهم ، وأبو ثور . وروي ذلك عنهم في السعي أيضاً ولكن عند المالكية لا يجوز قطع الطواف إلا للصلاة المكتوبة خاصة ، إذا أقيمت ، وهو في أثناء الطواف ، ويبني عندهم إن قطعه للصلاة خاصة ، ويندب عندهم إكمال الشوط إن قطعه في أثناء شوط ، وإن قطعه لغيرها كصلاة الجنازة ، أو تحصيل نفقة لا بد منها لم يبن على ما مضى منه ، بل يستأنف الطواف عندهم ،

لأنه لا يجوز عندهم قطعه لذلك ابتداءن كما ذكرناه قريباً . وقيل : يمضي في طوافه ، ولا يقطعه للصلاة واحتج من قال بهذا ، بأن الطواف صلاة ، فلا تقطع لصلاة . ورد عليه بحديث " إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة " ومن قال من أهل العلم : إن الطواف يجوز قطعه للصلاة على الجنازة والحاجة الضرورية : كالشافعية والحنابلة ، قالوا : يبني على ما أتى به من أشواط الطواف ، فإن كان قطعه للطواف عند انتهاء شوط من أشواطه ، بنى على الأشواط المتقدمة ، وجاء ببقية الأشواط ، وإن كان قطعه له في أثناء الشوط ، فأظهر قَوْلَيْ أهل العلم عندي : أنه يبتدئ من الموضع الذي وصل إليه ، ويعتد ببعض الشوط الذي فعله قبل قطع الطواف ، خلافاً لمن قال : إنه يبتدئ الشوط الذي قطع الطواف في أَثنائه ، ولا يعتد ببعضه الذي فعله : وهو قول الحسن ، وأحد وجهين عند بعض الشافعية ، وهو مندوب عند المالكية إن قطعه للفريضة كما تقدم وكذلك لو أحدث في أثناء الطواف عند من يقول : إنه يتوضأ ، ويبني على ما مضى من طوافه ، وهو مذهب الشافعي وإحدى الروايتين عن أَحمد .

(324/522)

الفرع الحادي عشر : أظهر قولي أهل العلم عندي : أن من طاف قبل التحلل ، وهو لابس مخيطاً أن الطواف صحيح كمن صلى في ثوب حرير ، ولكنه يلزمه الدم والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثاني عشر : لا خلاف بين من يعتد به من أهل العلم : أن الطواف جائز في أوقات النهي عن الصلاة ، وفي صلاة الركعتين ، إذا طاف وقت نهى الخلاف الذي تكلمنا عليه قريباً .

الفرع الثالث عشر : اختلف العلماء في صلاة النافلة في المسجد الحرام . والطواف بالبيت أيهما أفضل ؟ فقال بعض أهل العلم : الطواف أفضل . وبه قال بعض علماء الشافعية ، واستدلوا بأن الله قدم الطواف على الصلاة في قوله ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة : 125] وقوله ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج : 26] وقال بعض أهل العلم : الصلاة أفضل لأهل مكة والطواف أفضل للغرباء . وممن قال به : ابن عباس ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، كما نقله عنهم النووي في شرح المهذب .

المسألة السادسة : اختلف العلماء في السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة ، هل هو ركن من أركان الحج والعمرة ؟ لا يصح واحد منهما بدونه ، ولا يجبر بدم ، أو هو واجب يجبر بدم ، أو سنة لا يلزم بتركه دم ؟ وممن قال : إنه ركن من أركان الحج والعمرة مالك

والشافعي وأصحابهما ، وأم المؤمنين عائشة ، وإسحاق ، وأبو ثور ، وداود ، وهو رواية عن الإمام أحمد كما نقله النووي في شرح المهذب ، وقال في شرح مسلم : مذهب جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم : أن السعي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج ، لا يصح إلا به ، ولا يجبر بدم وممن قال بهذا : مالك والشافعي ، وأحمد وإسحاق ، أبو ثور . انتهى محل الغرض منه ، وعزوه إياه لأحمد ، قد قدمنا فيه أنه إحدى الروايات عن أحمد .

(325/522)

وقال ابن قدامة في المغني : وروي عن أحمد أنه ركن لا يتم الحج إلا به ، وهو قول عائشة ، وعروة ، ومالك ، والشافعي .

وممن قال إنه واجب يجبر بدم : أبو حنيفة وأصحابه ، والحسن ، وقتادة ، والثوري ، وبه قال القاضي من الحنابلة ، وذكره النووي رواية عن أحمد وقد رواه ابن القصار من المالكية ، عن القاضي إسماعيل ، عن مالك وقال ابن قدامة في المغني : إنه أولى .

وذكر النووي عن طاوس أنه قال : من ترك من السعي أربعة أشواط لزمه دم ، وإن ترك دونها لزمه لكل شوط نصف صاع . وليس هو بركن ، ثم قال : وهو مذهب أبي حنيفة . انتهى .

وما قال النووي : إنه مذهب أبي حنيفة من أن ترك أقل السعي فيه الصدقة بنصف صاع عن كل شوط ، عزاه شهاب الدين أحمد الشلبي في حاشيته على تبيين الحقائق ، شرح كنز الدقائق للحاكم الشهيد في مختصره المسمى بالكافي ا ه .

ومعلوم أن مذهب أبي حنيفة في طواف الإفاضة ، أن من ترك منه ثلاثة أشواط فأقل ، فعليه دم ، وحجه صحيح ، وتفريقه بين الأقل والأكثر في الطواف الذي هو ركن يدل على التفريق بينهما في السعي ، وممن روي عنه أن السعي بين الصفا والمروة سنة لا يلزم بتركه دم : ابن مسعود وأبي بن كعب ، وأنس ، وابن عباس ، وابن الزبير ، وابن سيرين .

وإذا علمت أقوال أهل العلم في السعي : فاعلم أنا نريد هنا أن نبين أدلة كل منهم على ما ذهب إليه مع مناقشتها .

فأما الذين قالوا : إنه ركن من أركان الحج والعمرة ، فقد استدلوا لذلك بأدلة :

منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله ﴾ [البقرة : 158] الآية . قالوا : فتصريحه تعالى بأن الصفا والمروة من شعائر الله ، يدل على أن السعي بينهما أمر حتم لا بد منه ، لأن شعائر الله عظيمة ، لا يجوز التهاون بها . وقد أشار البخاري رحمه الله في صحيحه إلى أن كونهما من شعائر الله .

يدل على ذلك . قال : باب وجوب الصفا والمروة ، وجعل من شعائر الله .

وقال ابن حجر في الفتح في شرح قول البخاري : وجعل من شعائر الله : أي وجوب السعي بينهما ، مستفاد من كونهما جعلا من شعائر الله ، قاله ابن المنير في الحاشية . انتهى الغرض من كلامه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ومما يدل على أن شعائر الله لا يجوز التهاون بها ، وعدم إقامتها قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ الله ﴾ [المائدة : 2] الآية . وقوله تعالى : ﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ [الحج : 32] الآية ، ومن أدلتهم على ذلك " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم طاف في حجه وعمرته بين الصفا والمروة سبعاً " وقد دل على أن ذلك لا بد منه دليلان :

الأول : هو ما قدمنا من أنه تقرر في الأصول أن فعل النَّبي صلى الله عليه وسلم ، إذا كان لبيان نص مجمل من كتاب الله ، أن ذلك الفعل يكون لازماً ، وسعيه بين الصفا والمروة ، فعل بين به المراد من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله ﴾ [البقرة : 158]

والدليل على أنه فعله بياناً للآية هو قوله صلى الله عليه وسلم

" نبدأ بما بدأ الله به " يعني الصفا لأن الله بدأ بها في قوله : ﴿ إِنَّ الصفا والمروة ﴾ [البقرة : 158] الآية . وفي رواية " أبدأ " بهمزة المتكلم والفعل مضارع . وفي رواية عند النسائي " ابدَؤوا بما بدأ الله به " بصيغة الأمر .

الدليل الثاني : أنه صلى الله عليه وسلم قال " لتأخذوا عني مناسككم " وقد طاف بين الصفا والمروة سبعاً ، فيلزمنا أن نأخذ عنه ذلك من مناسكنا ، ولو تركناه لكنا مخالفين أمره بأخذه عنه ، والله تعالى يقول : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : 63] فاجتماع هذه الأمور الثلاثة التي ذكرنا يدل على اللزوم : وهي كونه سعى بين الصفا والمروة سبعاً ، وأن ذلك بيان منه لآية من كتاب الله وأنه قال : " لتأخذوا عني مناسككم " .

أما طوافه بينهما سبعاً فهو ثابت بالروايات الصحيحة .

منها : حديث ابن عمر الثابت في الصحيح ولفظه في صحيح البخاري . قال : " قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعاً ، وصلى خلف المقام ركعتين ، وطاف بين الصفا والمروة سبعاً . لقد كان لكم في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة " وفي لفظ في صحيح مسلم ، من حيث ابن عمر " فأتى الصفا ، فطاف بالصفا والمروة سبعة أطواف " والروايات بسعيه صلى الله عليه وسلم سبعاً بين الصفا والمروة كثيرة معروفة . وقد مثلنا لها بحديث ابن عمر المتفق عليه . وأما كون ذلك السعي بياناً لآية

﴿ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله ﴾ [البقرة : 158] الآية . فهو أمر لا شك فيه ، ويدل عليه أمران :

أحدهما : سبب نزول الآية ، لأنه ثبت في الصحيحين أنها نزلت في سؤالهم عن السعي بين الصفا والمروة ، وإذا كانت نازلة جواباً عن سؤالهم عن حكم السعي ، بين الصفا والمروة ، فسعى النَّبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها بيان لها .

والأمر الثاني : هو ما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم " أبدأ بما بدأ الله به " يعني الصفا كما تقدم قريباً ، وأما حديث " لتأخذوا عني مناسككم " فقد قال مسلم في صحيحه في باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً ، وبيان قوله صلى الله عليه وسلم " لتأخذوا عني مناسككم "

(328/522)

حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، وعلي بن خشرم جميعاً ، عن عيسى بن يونس ، قال ابن خشرم : أخبرنا عيسى ، عن ابن جريج ، أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابراً يقول : رأيت النَّبي صلى الله عليه وسلم يرمي على راحلته يوم النحر ويقول " لتأخذوا عني مناسككم فإني لا أَدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه " وقال البيهقي في السنن الكبرى : في باب الإيضاح في

وادي محسر : وأخبرنا علي بن أحمد بن عبدان ، أنبأنا سليمان بن أحمد بن أيوب ، ثنا علي بن عبد العزيز ، ثنا إبراهيم قال : وحدثنا حفص ثنا قبيصة قال : وحدثنا يوسف القاضي ، ومعاذ بن المثنى قالا : ثنا ابن كثير ، قالوا : ثنا سفيان ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : أفاض النبي صلى الله عليه وسلم ، وعليه السكينة ، وأمرهم بالسكينة ، وأوضع في وادي محسر ، وأمرهم أن يرموا الجمار مثل حصى الخذف ، وقال

" خذوا عني مناسككم لعلي لا أراكم بعد عامي هذا " انتهى منه .

وقال النووي في شرح المهذب : إن هذا الإسناد الذي رواه به البيهقي صحيح على شرط البخاري ، ومسلم .

واعلم أن رواية مسلم ورواية البيهقي المذكورتين معناهما واحد ، لأن " خذوا عني مناسككم " بصيغة فعل الأمر يؤدي معنى قوله " لتأخذوا عني " بالفعل المضارع المجزوم بلام الأمر ، فكلتا الصيغتين صيغة أمر ، ومن المعلوم أن الصيغ الدالة على الأمر أربع ، الأولى فعل الأمر نحو ﴿ أَقِمِ الصلاةِ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [الإسراء : 78] وقوله " خذوا عني مناسككم " .

الثانية : الفعل المضارع المجزوم بلام الأمر كقوله تعالى ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بالبيت العتيق ﴾ [الحج : 29] وقوله " لتأخذوا عني مناسككم " في رواية

مسلم .

الثالثة : اسم فعل الأمر نحو قوله تعالى ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [المائدة : 105] .

(329/522)

الرابعة : المصدر النائب عن فعله كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ [محمد : 4] أي فاضربوا رقابهم .

ومن أدلتهم على أن السعي فرض لا بد منه ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما ، عن عائشة رضي الله عنها قال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري قال عروة : سألت عائشة رضي الله عنها فقلت لها : أرأيت قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله فَمَنْ حَجَّ البيت أَوِ اعتمر فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة : 158] فوالله ما على أحد جناح ألا يطوف بالصفا والمروة . قالت : بئس ما قلت يا ابن أختي ، إن هذه لو كانت لكما أولتها عليه كانت لا جناح عليه ، ألا يطوف بهما ، ولكنها أُنزلت في الأنصار ، كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية ، التي كانوا يعبدونها ، عند المشلل فكان من أهل يتحرج أن يطوف بالصفا ، والمروة ، فلما أسلموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، قالوا : يا رسول الله إنا كنا نتحرج

أن نطوف بين الصفا والمروة ، فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله ﴾ الآية قالت عائشة رضي الله عنها : وقد سنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما ، ثم أَخْبَرتُ أبا بكر بن عبد الرحمن فقال : إن هذا العلم ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يذكرون أن الناس إلا من ذكرت عائشة ، ممن كان يهل لمناة كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة ، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصَّفا والمروة ، قالوا : يا رسول الله كنا نطوف بالصفا والمروة وإن الله أنزل الطواف بالبيت ، فلم يذكر الصفا ، فهل علينا من حرج أن نَطَّوَّف بالصفا ، والمروة ؟ فأنزل الله تعالى

(330/522)

﴿ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله ﴾ [البقرة : 158] الآية . قال أبو بكر : فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما ، في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا بالجاهلية بالصفا والمروة ، والذين يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام ، من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ، ولم يذكر الصفا ، حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت . انتهى من صحيح البخاري .

وهذا الحديث الصحيح صريح في أن النَّبي صلى الله عليه وسلم سن الطواف بين الصفا والمروة أي فرضه باسنة ، وقد أجابت عائشة عما يقال : إن رفع الجناح في قوله ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة : 158] ينافي كونه فرضاً بأن ذلك نزل في قوم ، تحرجوا من السعي بين الصفا والمروة ، وظنوا أن ذلك لا يجوز لهم ، فنزلت الآية مبينة أن ما ظنوه من الحرج في ذلك منفي .

وقد تقرر في الأصول أن النص الوارد في جواب سؤال لا مفهوم مخالفة له ، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله في هذه المسألة . وقال ابن حجر في : فتح الباري في الكلام على هذا الحديث :

تنبيه

قول عائشة رضي الله عنها : سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بين الصفا والمروة أي فرضه بالسنة ، وليس مرادها نفي فرضيته ، ويؤيده قولها : لم يتم الله حج أحدكم ، ولا عمرته ما لم يطف بينهما .

(331/522)

وقال مسلم رحمه الله في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى ، حدثنا أبو معاوية ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قال : قلت لها : إني لا أظن رجلاً لو لم يطف بين الصفا والمروة ما ضَرَّهُ . قالت لم ؟ قلت : لأن الله تعالى يقول ﴿ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله ﴾ [البقرة : 158] إلى آخر الآية فقالت : ما أتم الله حَجَّ امرئ ، ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة ، ولو كان كما تقول ، لكان ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ الحديث ، وفي رواية في صحيح مسلم ، عن عروة قال : قلت لعائشة : " ما أرى عَلَيَّ جُناحاً أن لا أتطوَّف بين الصفا والمروة ، قالت لم ؟ قلت : لأن الله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله ﴾ الآية فقالت : لو كان كما تقول ، لكان ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ إنما أُنزل هذا في أُناس من الأنصار ، كانوا إذا أهلُّوا لمناة في الجاهلية فلا يحل لهم أن يطَّوَّفوا بين الصفا والمروة ، فلما قدموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم للحَجِّ ذكروا ذلك له ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، " فلعمري ما أتم الله حَجَّ من لم يطف بين الصفا والمروة " وفي رواية ، عن عروة أيضاً في صحيح مسلم قال : قلت لعائشة زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم : ما أرى على أحد ، لم يطف بين الصفا والمروة شيئاً ، وما أبالي ، أنْ لا أطوف بينهما .

(332/522)

قالت : بئس ما قلت يا ابن أختي : طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف المسلمون ، فكان سُنَّةً ، وإنما كان من أَهَلَّ لمناة الطاغية ، التي بالمُشَلَّلِ ، لا يطوفون بين الصفا والمروة ، فلما كان الإسلام سَأَلْنَا النَّبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فأنزل الله عز وجل ﴿ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله فَمَنْ حَجَّ البيت أَوِ اعتمر فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة : 158] ولو كانت كما تقول ، لكانت فلا جناح عليه ، ألا يَطَّوَّف بينهما . قال الزهري : فذكرت ذلك لأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام فأعجبه ذلك ، وقال : إن هذا العلم ، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون : إنما كان من لا يطوف بين الصفا والمروة من العرب ، يقولون : إن طوافنا بين هَذَين الحجرين من أمر الجاهلية ، وقال آخرون من الأنصار : إنما أُمرنا بالطواف بالبيت ، ولم نؤمر به بين الصفا والمروة ، فأنزل الله عز وجل ﴿ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله ﴾ [البقرة : 158] قال أبو بكر بن عبد الرحمن : فأراها نزلت في هؤلاء وهؤلاء ، وفي رواية في صحيح مسلم ، عن عروة بن الزبير أيضاً قال : سألت عائشة . وساق الحديث بنحوه ، وقال في الحديث : فلما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن ذلك فقالوا : يا رسول الله ، إنا كُنَّا نَتَحرج أن نَطُوف بالصفا والمروة ، فأنزل الله عزوجل ﴿ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله فَمَنْ حَجَّ البيت أَوِ اعتمر فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة : 158] قالت عائشة : قد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بهما .

فهذه الروايات الثابتة في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها فيها الدلالة الواضحة ، على أن السعي بين الصفا والمروة ركن ، لا بد منه ، لأنك رأيت في بعض هذه الروايات الثابتة عنها في الصحيح ، أنها قالت : ما أتم الله حج امرئ ، ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة ، وفي بعضا قالت : فلعمري ما أتم الله حج من لم يطف بين الصفا والمروة . وفي رواية متفق عليها عنها رضي الله عنها : قد سنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما إلى آخر ما تقدم ، من الروايات وفيها النص الصريح الصحيح ، على أن السعي لا بد منه وأن من لم يسع ، لم يتم له حج ولا عمرة .

تنبيه

اعلم أن ما يظنه كثير من أهل العلم ، من أن حديث عائشة هذا ، الدال على أن السعي لا بد منه ، وأنه لا يتم بدونه حج ، ولا عمرة أنه موقوف عليها غير صواب ، بل هو مرفوع ، ومن أصرح الأدلة في ذلك أنها رتبت بالفاء في الرواية المتفق عليها قولها : فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما ، على قولها : قد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ، وهو صريح في أن قولها : ليس لأحد أن يترك الطواف بينهما ، لأجل أنه صلى الله عليه وسلم

سن الطواف بينهما ، ودل هذا الترتيب بالفاء على أن مرادها بأنه سنه أنه فرضه بسنته كما جزم به ابن حجر في الفتح ، مقتصراً عليه ، مستدلاً له بأنها قالت : ما أتم الله حج امرئ ولا عمرته ، لم يطف بين الصفا والمروة ، فقولها : إن النَّبي صلى الله عليه وسلم سن الطواف بينهما وترتيبها على ذلك بالفاء قولها : فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما ، وجزمها بأنه لا يتم حج ولا عمرة ، إلا بذلك دليل واضح على أنها إنما أخذت ذلك مما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا برأي منها ، كما ترى .

(334/522)

وقد تقرر في الأصول في مبحث النص الظاهر من مسالك العلة أن الفاء في الكتاب ، والسنة تفيد التعليل ، وكذلك هي في كلام الراوي الفقيه ، فهو المرتبة الثانية بعد الوحي من كتاب ، أو سنة ، ثم يلي ذلك الفاء من الراوي غير الفقيه .

ومثاله في الوحي قوله تعالى ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : 38] أي لعلة سرقتها . وقوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى فاعتزلوا النسآء فِي المحيض ﴾ [البقرة : 222] أي لعلة كون الحيض أذى .

ومثاله في كلام الراوي . حديث أنس المتفق عليه : أن يهودياً رض رأس جارية بين حجرين ،

فقيل لها : من فعل بك هذا فلا أو فلان ؟ حتى سمي اليهودي ، فأومأت برأسها فجيء به فاعترف ، فأمر به فرض رأسه بحجرين . فقول أنس في هذا الحديث الصحيح : فأمر به فرضَّ رأسه بحجرين : أي لعلة رضه رأس الجارية المذكورة ، بين حجرين .

ومن أمثلة ذلك ما رواه أبو داود في سننه ، عن عمران بن حصين " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم صلى بهم فسها فسجد سجدتين ، ثم تشهد ثم سلم " ا ه . أي سجد لعلة سهوه ، وكذلك قول عائشة رضي الله عنها : قد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما ، أي لأجل أن النَّبي صلى الله عليه وسلم سن ذلك : أي فرضه بسنته كما تقدم إيضاحه ، وإلى إفادة الفاء التعليل في كلام الشارع ثم الراوي الفقيه ثم الراوي غير الفقيه أشار في مراقي السعود بقوله في مراتب النص الظاهر :

فالفاء الشارع فالفقيه . . . فغيره يتبع بالشبيه

ومن أَدلتهم على أن السعي ركن لا بد منه : حديث " إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا " وقد روي عن النَّبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عباس ، ومن حديث حبيبة بنت أبي تجراة ، ومن حديث تملك العبدرية ، ومن حديث صفية بنت شيبة .

(335/522)

قال الزيلعي في نصب الراية : أما حديث ابن عباس ، فرواه الطبراني في معجمه ، ثنا محمد بن النضر الأزدي ، عن معاوية بن عمرو ، عن المفضل بن صدقة ، عن ابن جريج ، وإسماعيل بن مسلم ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرمل ؟ فقال " إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا " انتهى .

وأَما حديث حبيبة بنت أَبي تجراة فرواه الشافعي ، وأَحمد بن راهويه ، والحاكم في المستدرك وسكت عليه ، وأعله ابن عدي في الكامل با بن المؤمل ، وأسند تضعيفه عن أحمد والنسائي ، ووافقهم . ومن طريق أحمد الطبراني في معجمه ، ومن طريق الشافعي رواه الدارقطني ، ثم البيهقي في سننهما ، قال الشافعي : أخبرنا عبد الله بن المؤمل العائذي ، عن عمر بن عبد الرحمن بن حصين ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن صفية بنت شيبة عن حبيبة بنت أبي تجراة إحدى نساء بني عبد الدار قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه ، وهو وراءهم ، وهو يسعى ، حتى أرى ركبتيه من شدة السعي ، وهو يقول " اسعوا فإن الله تعالى كتب عليكم السعي " انتهى .

وأخرجه الحاكم في المستدرك أيضاً في الفضائل ، عن عبد الله بن نبيه ، عن جدته صفية ، عن حبيبة بنت أبي تجراة بنحوه . وسكت عنه أيضاً ، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه : حدثنا محمد عن عبد الله بن المؤمل ، حدثنا عبد الله بن أبي حسين عن عطاء ، عن

حبيبة بنت أبي تجراة ، فذكره ، قال أبو عمرو بن عبد البر : أخطأ ابن أبي شيبة أو شيخه في موضعين منه .

(336/522)

أحدهما : أنه جعل موضع ابن محيصن عبد الله بن أبي حسين ، والآخر أنه أسقط صفية بنت شيبة . قال ابن القطان في كتابه : وعندي أن الوهم من عبد الله بن المؤمل فإن ابن أبي شيبة إمام كبير ، وشيخه محمد بن بشر ثقة ، وابن المؤمل : سيئ الحفظ ، وقد اضطرب في هذا الحديث اضطراباً كثيراً فأسقط عطاء مرة ، وابن محيصن أخرى ، وصفية بنت شيبة أخرى ، وأبدل ابن محيصن بابن أبي حسين أخرى ، وجعل المرأة عبدرية تارة ويمنية أخرى . وفي الطواف تارة ، وفي السعي بين الصفا والمروة أخرى ، وكل ذلك دليل على سوء حفظه ، وقلة ضبطه . والله أعلم انتهى .

طرق آخر أخرجه الدارقطني في سننه ، عن ابن المبارك ، أخبرني معروف بن مشكان ، قال : أخبرني منصور بن عبد الرحمن ، عن أمه صفية قالت : أخبرني نسوة من بني عبد الدار اللاتي أدركن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلن : دخلنا دار ابن أبي حسين فاطلعنا من باب مقطع فرأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد في المسعى إلى آخره .

قال صاحب التنقيح : إسناده صحيح ومعروف بن مشكان باني كعبة الرحمن صدوق ، لا نعلم من تكلم فيه ، ومنصور هذا ثقة مخرج له في الصحيحين .

انتهى .

(337/522)

وأما حديث " تملك العبدرية " فأخرجه البيهقي في سننه ، والطبراني في معجمه عن مهران بن أبي عمر ، ثنا سفيان ، ثنا المثنى بن الصباح عن المغيرة بن حكيم ، عن صفية بنت شيبة ، عن تملك العبدرية : قالت : نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا في غرفة لي بين الصفا والمروة ، وهو يقول " أيها الناس إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا " انتهى . تفرد به مهران بن أبي عمر ، قال البخاري : في حديثه اضطراب . وأما حديث صفية بنت شيبة فرواه الطبراني في معجمه ، حدثنا محمد بن عيد الحضرمي ، ثنا علي بن الحكم الأودي ، ثنا حميد بن عبد الرحمن عن المثنى بن الصباح ، عن المغيرة بن حكيم ، عن صفية بنت شيبة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي " انتهى .

وذكر الدارقطني في علله : في هذا الحديث اضطراباً كثيراً . ثم قال : والصحيح قول من قال

عن عمر بن محيصن ، عن عطاء ، عن صفية ، عن حبيبة بنت أبي تجراة وهو الصواب انتهى .

وقال الحازمي في كتابه : الناسخ والمنسوخ : الوجه السادس والعشرون من وجوه الترجيحات : هو أن يكون أحد الحديثين من قول النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وهو مقارن فعله ، والآخر مجرد قوله لا غير ، فيكون الأول أولى بالترجيح نحو ما روته حبيبة بنت أبي تجراة ، قالت : رأيت النَّبي صلى الله عليه وسلم في بطن المسيل يسعى : وهو يقول " اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي " فهو أولى من حديث " الحج عرفة " لأنه مجرد قول . والأول قول وفعل ، وفيه أيضاً إخباره عن الله أنه أوجبه علينا ، فكان أولى . انتهى كلامه .

(338/522)

ورواه الواقدي في كتاب المغازي : حدثنا علي بن محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، عن منصور بن عبد الرحمن ، عن أمه عن بَرَّة بنت أبي تجراة قالت : لما انتهى النَّبي صلى الله عليه وسلم إلى السعي قال " أيها الناس إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا " قالت : فسعى حتى رأيت إزاره انكشف عن فخذه . انتهى كله من نصب الراية للزيلعي .

وقد رأيته عزا لصاحب التنقيح : أن حديث صفية بنت شيبة ، عن نسوة من بني عبد

الدار أدركن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنهن رأينه ، يطوف بين الصفا والمروة وهو يقول " إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا " أن إسناده صحيح ، وهو نص في محل النزاع . والظاهر أن الإسناد المذكور صحيح كما قال . لأن معروف بن مشكان المذكور صدوق ، ومنصور بن عبد الرحمن بن طلحة بن الحارث العبدري الحجبي ثقة ، وهو ابن صفية بنت شيبة المذكورة .

وقال النووي في شرح المهذب : واحتج أصحابنا بحديث صفية بنت شيبة ، عن نسوة من بني عبد الدار أنهن سمعن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد استقبل الناس في المسعى ، وقال " يا أيها الناس اسعوا فإن السعي قد كتب عليكم " رواه الدارقطني والبيهقي بإسناد حسن .

انتهى منه .

وهو نص صالح للاحتجاج في أن السعي مما كتب على الناس ، ولفظة : كتب : تدل على اللزوم .

فإن قيل : حديث حبيبة المذكور في إسناده عبد الله بن المؤمل ، وهو وإن كان وثقه ابن حبان وقال : يخطئ ، فقد ضعفه غيره ، وحديث صفية في إسناده موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف ، وحديث : تملك المذكور فيه المثنى بن الصباح ، وهو وإن وثقه ابن معين في

رواية ، فقد ضعفه جماعة . وحديث بان عباس المذكور فيه المفضل بن صدقة ، وهو متروك .

(339/522)

فالجواب : أن رواية صفية بنت شيبة عن نسوة من بني عبد الدار عند الدارقطني والبيهقي ، ليس في إسنادها شيء مما ذكر ، وقد صحح إسنادها ابن الهمام في التنقيح ، كما ذكره الزيلعي وحسنها النووي في شرح المهذب ، والبيهقي روى حديثها المذكور من طريق الدارقطني ، قال في سننه الكبرى : أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو بكر بن الحارث الفقيه قالا : ثنا علي بن عمر الحافظ ، ثنا يحيى بن صاعد ، ثنا الحسن بن عيسى النيسابوري ، ثنا ابن المبارك ، أخبرني معروف ابن مشكان ، أخبرني منصور بن عبد الرحمن ، حسين ، فأطلعنا من باب مقطع ، ورأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد في المسعى ، حتى إذا بلغ زقاق بني فلان ، موضعاً قد سماه من المسعى ، استقبل الناس فقال : " يا أيها الناس اسعوا فإن السعي قد كتب عليكم " انتهى منه .

فهذا الإسناد هو الذي صححه صاحب التنقيح ، وحسنه النووي .

واعلم أن اختلاف الروايات في المرأة التي روت عنها صفية المذكورة هذا الحديث ، لا يضر

لتصريحها في رواية الدارقطني والبيهقي ، هذه بأنها روت ذلك عن نسوة أدركن النَّبي صلى الله عليه وسلم . وإذن فلا مانع من أن تسمى واحدة منهن في رواية ، وتسمى غيرها منهن في رواية أخرى كما لا يخفى وقال ابن حجر في فتح الباري : واحتج ابن المنذر للوجوب بحديث صفية بنت شيبة ، عن حبيبة بنت أبي تجراة بكسر المثناة ، وسكون الجيم بعدها راء ، ثم ألف ساكنة ، ثم هاء ، وهي إحدى نساء بني عبد الدار ، قالت : دخلت مع نسوة من قريش دار آل أبي حسين ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسعى وإن مئزره ليدور من شدة السعي ، وسمعته يقول : " اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي " أخرجه الشافعي ، وأحمد وغيرهما . وفي إسناد هذا الحديث : عبد الله بن المؤمل ، وفيه ضعف ، ومن ثم قال ابن المنذر : إن ثبت فهو حجة في الوجوب .

(340/522)

قلت : له طريق أخرى في صحيح ابن خزيمة مختصرة ، وعند الطبراني عن ابن عباس كالأولى ، وإذا انضمت إلى الأولى قويت .

واختلف على صفية بنت شيبة في اسم الصحابية التي أخبرتها ، ويجوز أن تكون أخذته عن جماعة ، فقد وقع عند الدارقطني عنها : أخبرتني نسوة من بني عبد الدار ، فلا يضره

الاختلاف . انتهى الغرض من كلام ابن حجر .

وقد علمت مما ذكرنا أن بعض طرق حديث " إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا " لا تقل عن درجة القبول . وهو نص في محل النزاع مع أنه معتضد بما ذكرناه من حديث عائشة ، عند الشيخين . وبظاهر الآية كما بينا ، وبما سيأتي أيضاً إن شاء الله تعالى .

ومن أدلتهم على لزوم السعي ما جاء في بعض روايات حديث أبي موسى المتفق عليه ، من أمر النَّبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، قال مسلم رحمه الله في صحيحه : حدثنا محمد بن المثنى وابن بشار ، قال ابن المثنى : حدثنا محمد بن جعفر ، أخبرنا شعبة ، عن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب ، عن أبي موسى قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو منيخ بالبطحاء ، فقال لي " أحججت ؟ فقلت : نعم . فقال : بم أهللت ؟ قال : قلت : لبيك بإهلال كإهلال النَّبي صلى الله عليه وسلم . قال : فقد أحسنت . طف بالبيت وبالصفا والمروة " الحديث قالوا : فقوله صلى الله عليه وسلم لأَبي موسى الأشعري " طف بالبيت وبالصفا والمروة " أمر صريح منه صلى الله عليه وسلم بذلك ، وصيغة الأمر تقتضي الوجوب ما لم يقم دليل صارف عن ذلك ، وقد دل على اقتضائها الوجوب : الشرع واللغة .

وقال بعضهم : إن العقل يفيد ذلك ، وليس بسديد عندي ، أما دلالة الشرع على ذلك ففي نصوص كثيرة كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : 63] وهذا الوعيد العظيم على مخالفة أمره ، يدل على وجوب امتثال أمره ، وكقوله تعالى : لإبليس لما لم يمتثل الأمر المدلول عليه بصيغة أفعل التي هي قوله تعالى ﴿ اسجدوا لآدَمَ ﴾ [الأعراف : 11] ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف : 12] الآية فتوبيخه وتقريعه له في هذه الآية لمخالفته الأمر ، وقد سمي نبي الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، مخالفة الأمر معصية وذلك يدل على وجوب الامتثال في قوله تعالى عنه ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [طه : 93] وكقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : 36] فجعل أمر الله ورسوله مانعاً من الاختيار موجباً للامتثال ، منبهاً على عدم الامتثال معصية في قوله بعده : ﴿ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾ [الأحزاب : 36] وكقوله تعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] وقوله صلى الله عليه وسلم " إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه " إلى غير ذلك من الأدلة .

وأما دلالة اللغة على اقتضاء صيغة أفعل الوجوب . فإيضاحها أن أهل اللسان العربي مجمعون على أن السيد لو قال لعبده : اسقني ماء مثلاً ، ثم لم يمتثل العبد وعاقبه سيده على عدم الامتثال كان ذلك العقاب واقعاً موقعه ، لأن صيغة أفعل ألزمته الامتثال ، وليس للعبد أن يقول : صيغة افعل لم توجب على الامتثال ، ولم تلزمني إياه ؟ فعقابك لي غلط لأني لم أترك شيئاً لازماً ، حتى تعاقبني عليه . وإجماعهم على أنه ليس له ذلك وأن عقابه له صواب لعصيانه ، دليل على أن صيغة أفعل تقتضي الوجوبن ما لم يصرف عنه صارف ، وهو قول جمهور الأصوليين . ومقابله أقوال أخر ، اشار لها في مراقي السعود بقوله في مبحث الأمر :

وافعل لدى الأكثر للوجوب . . . وقيل للندب أو المطلوب

وقيل للوجوب أمر الرب . . . وأمر من أرسله للندب

ومفهم الوجوب يدري الشرع . . . أو الحجا أو المفيد الوضع

وقال بعض أهل العلم : إن دلالة اللغة على اقتضاء الأمر الوجوب راجعة إلى دلالة الشرع ، لأن الشرع هو الذي دل على وجوب طاعة العبد لسيده .

ومن أدلتهم على أن السعي بين الصفا والمروة لا بد منه : ما قدمنا من حديث ابن عمر عند

الترمذي ، أنه صلى الله عليه وسلم قال " من أحرم بالحج والعمرة أجزأه طواف واحد وسعي واحد منهما حتى يحل منهما جميعاً " قال المجد في المنتقى : رواه الترمذي ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، وفيه دليل على وجوب السعي ، ووقوف التحلل عليه . انتهى منه .

والذي رأيته في الترمذي لما ساق الحديث بلفظه المذكور : هو أنه قال : قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح ، تفرد به الداوردي على ذلك اللفظ ، وقد رواه غير واحد عن عبيد الله بن عمر ، ولم يرفعوه . وهو أصح . انتهى منه .

(343/522)

ومن أدلتهم على ذلك : ما جاء في بعض الروايات الثابتة في الصحيح ، من أنه صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها " يجزئ عنك طوافك بين الصفا والمروة عن حجك وعمرتك " وهذا اللفظ في صحيح مسلم ، قالوا : ويفهم من قوله " يجزئ عنك طوافك بين الصفا والمروة عن حجك وعمرتك " أنها لو لم تطف بينهما لم يحصل لها أجزاء عن حجها وعمرتها ، هذا هو حاصل ما استدل به القائلون بأنه ركن من أركان الحج والعمرة .

وأما حجة الذين قالوا : إنه سنة لا يجب بتركه شيء ، فهي قوله تعالى ﴿ إِنَّ الصفا والمروة

مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ البيت أَوِ اعتمر فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 158] قالوا: فرفع الجناح في قوله ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ دليل قرآني على عدم الوجوب، كما قاله عروة بن الزبير، لخالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

والجواب عن الاستدلال بهذه الآية على عدم وجوب السعي: هو ما أجابت به عائشة عروة، فإنها أولاً ذمَّت هذا التفسير لهذه الآية بقولها: بئس ما قلت يا ابن أختي، ومعلوم أن لفظة بئس فعل جامد لإنشاء الذم، وما ذمت تفسير الآية بما ذكر، إلا لأنه تفسير غير صحيح، وقد بينت له أن الآية نزلت جواباً لسؤال من ظن أن في السعي بين الصفا والمروة جناحاً، وإذاً فذكر رفع الجناح لمطابقة الجواب للسؤال، لا لإخراج المفهوم عن حكم المنطوق، فلو سألك سائل مثلاً قائلاً: هل علي جناح في أن أصلي الخمس المكتوبة؟ وقلت له: لا جناح عليك في ذلك، لم يلزم من ذلك أنك تقول: بأنها غير واجبة، وإنما قلت: لا جناح في ذلك، ليطابق جوابك السؤال، وقد دلت قرينتان على أنه ليس المراد رفع الجناح، عمن لم يسع بين الصفا والمروة.

(344/522)

الأول منهما : أن الله قال في أول الآية ﴿ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله ﴾ [البقرة : 158] وكونهما من شعائر الله ، لا يناسبه تخفيف أمرهما برفع الجناح عمن لم يطف بينهما ، بل المناسب لذلك تعظيم أمرهما ، وعدم التهاون بهما ، كما أوضحناه في أول هذا المبحث .

والقرينة الثانية : هي أنه لو أراد ذلك المعنى لقال : فلا جناح عليه ألا يطوف بهما ، كما قالت عائشة لعروة ، وقد تقرر في الأصول : أن اللفظ الوارد جواباً لسؤال لا مفهوم مخالفة له ، لأن المقصود به مطابقة الجواب للسؤال ، لا إخراج المفهوم عن حكم المنطوق ، وقد أوضحنا هذا في سورة البقرة في الكلام على آية الطلاق ، وإلى ذلك أشار في مراقي السعود بقوله عاطفاً على ما يمنع اعتبار دليل الخطاب ، أعني مفهوم المخالفة :

أو جهل الحكم أو النطق انجلب . . . للسؤل أو جرى على الذي غلب

ومحل الشاهد منه قوله : أو النطق انجلب للسؤل .

ومعنى ذلك : أن المنطوق إذا كان جواباً لسؤال فلا مفهوم مخالفة له ، لأن المقصود بلفظ المنطوق مطابقة الجواب للسؤال ، لا إخراج المفهوم عن حكم المنطوق .

فإن قيل : جاء في بعض قراءات الصحابة ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ كما ذكره الطبري ، وابن المنذر وغيرهما ، عن أُبي بن كعب ، وابن مسعود ، وابن عباس رضي الله

عنهم .

فالجواب من وجهين :

(345/522)

الأول : أن هذه القراءة لم تثبت قرآناً لإجماع الصحابة على عدم كتبها في المصاحف العثمانية ، وما ذكره الصحابي على أنه قرآن ، ولم يثبت كونه قرآناً . ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه لا يستدل به على شيء ، وهو مذهب مالك ، والشافعي ، ووجهه أنه لما لم يذكره إلا لكونه قرآناً ، فبطل كونه قرآناً بطل من أصله ، فلا يحتج به على شيء ، وقال بعض أهل العلم : إذا بطل كونه قرآناً لم يمنع ذلك من الاحتجاج به كأخبار الآحاد ، التي ليست بقرآن ، فعلى القول الأول : فلا إشكال ، وعلى الثاني : فيجاب عنه بأن القراءة المذكورة تخالف القراءة المجمع عليها المتواترة ، وما خالف المتواتر المجمع عليه إن لم يمكن الجمع بينهما فهو باطل ، والنفي والإثبات لا يمكن الجمع بينهما لأنهما نقيضان .

الوجه الثانيك هو ما ذكره ابن حجر في الفتح عن الطبري والطحاوي ، من أن قراءة : أن لا يطوف بهما ، محمولة على القراءة المشهورة ، ولا زائدة . انتهى . ولا يخلو من تكلف كما ترى .

واعلم أن قوله تعالى ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 158] لا دليل فيه ، على أن السعي تطوع ، وليس بفرض ، لأن التطوع المذكور في الآية راجع إلى نفس الحج والعمرة ، لا إلى السعي لإجماع المسلمين على أن التطوع بالسعي لغير الحاج والمعتمر غير مشروع ، والعلم عند الله تعالى .

وأما حجة من قال : السعي واجب يجبر بدم ، فهي أن النَّبي صلى الله عليه وسلم طاف بينهما فدل ذلك على أن الطواف بينهما نسك ، وفي الأثر المروي عن ابن عباس : من ترك نسكاً فعليه دم . وسيأتي لهذا إن شاء الله زيادة إيضاح .

فروع تتعلق بهذه المسألة

(346/522)

الفرع الأول : اعلم أن جمهور العلماء على أن السعي لا تشترط له طهارة الحدث ، ولا الخبث ، ولا ستر العورة ، فلو سعى ، وهو محدث أو جنب ، أو سعت امرأة وهي حائض ، فالسعي صحيح ، ولا يبطله ذلك ، وممن قال به الأئمة الأربعة ، وجماهير أهل العلم ، وقال الحسن : إن كان قبل التحلل تطهر وأعاد السعي ، وإن كان بعده ، فلا شيء عليه ، وذكر بعض الحنابلة رواية عن الإمام أحمد : أن الطهارة في السعي ، كالطهارة في الطواف . قال ابن

قدامة في المغني : ولا يعود عليه ، والطهارة في السعي مستحبة عند كثير من أهل العلم ، وهو مذهب مالك والشافعي ، وأحمد وغيرهم . وحجة الجمهور على أن السعي لا تشترط له الطهارة : هي ما تقدم من حديث عائشة المتفق عليه ، وقد أمرها النَّبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المذكور : أن تفعل كل ما يفعله الحاج ، وهي حائض إلا الطواف بالبيت خاصة . وهو دليل على أن السعي لا تشترط له الطهارة ، خلافاً لمن قال : لا دليل في الحديث ، لأن السعي لا يصح إلا بعد طواف ، والحيض مانع من الطواف ، وهو مردود بأن النفي والإثبات نص في أن غير الطواف يصح من الحائض ويدخل فيه السعي .

وقال ابن قدامة في المغني : قال أبو داود : سمعت أحمد ، يقول : إذا طافت المرأة بالبيت ، ثم حاضت سعت بين الصفا والمروة ثم نفرت . وروي عن عائشة ، وأم سلمة أنهما قالتا : إذا طافت المرأة بالبيت ، وصلت ركعتين ، ثم حاضت فلتطف بالصفا والمروة ، رواه الأثرم . وقال ابن قدامة أيضاً : ولأن ذلك عبادة لا تتعلق بالبيت ، فأشبهت الوقوف . انتهى منه .

وقال أيضاً في المغني : ولا يشترط أيضاً الطهارة من النجاسة ولا الستارة للسعي ، لأنه إذا لم تشترط له الطهارة من الحدث وهي آكد فغيرها أولى .

(347/522)

الفرع الثاني : اعلم أن جمهور أهل العلم يشترطون في السعي الترتيب ، وهو أن يبدأ بالصفا ، ويختم بالمروة ، فإن بدأ بالمروة لم يعتد بذلك الشوط ، وممن قال باشتراط الترتيب : مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وأصحابهم ، والحسن البصري ، والأوزاعي ، وداود ، وجمهور العلماء ، وعن أبي حنيفة خلاف في ذلك .

قال صاحب تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ، في فقه الإمام أبي حنيفة رحمه الله : ولو بدأ من المروة لا يعتد بالأولى لمخالفته الأمر . انتهى منه .

وقال الشيخ شهاب الدين الشلبي في حاشيته على تبيين الحقائق المذكور قوله : ولو بدأ بالمروة لا يعتد بالأولى . وفي مناسك الكرماني : إن الترتيب فيه ليس بشرط عندنا ، حتى لو بدأ بالمروة ، وأتى الصفا جاز ويعتد به ، ولكنه مكروه لترك السنة . فتستجيب إعادة ذلك الشوط .

قال السروجي رحمه الله في الغاية : ولا أصل لما ذكره الكرماني .

وقال الرازي في أحكام القرآن : فإن بدأ بالمروة قبل الصفا لم يعتد بذلك في الرواية المشهورة ، عن أصحابنا ، وروي عن أبي حنيفة : أنه ينبغي له أن يعيد ذلك الشوط ، فإن لم يفعل ، فلا شيء عليه ، وجعله بمنزلة ترك الترتيب في أعضاء الطهارة ا ه . فقول السروجي : لا أصل لما قاله الكرماني فيه نظر . انتهى منه .

وحجة الجمهور في اشتراط الترتيب : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك وقال " أبدأ بما بدأ الله به " وفي رواية عند النسائي " ابدؤوا بما بدأ الله به " بصيغة الأمر ، ومع ذلك فقد قال " خذوا عني مناسككم " فيلزمنا أن نأخذ عنه من مناسكنا الابتداء بما بدأ الله به ، وفعله صلى الله عليه وسلم عملاً بالقرآن العظيم .

(348/522)

الفرع الثالث : اعلم أن جمهور أهل العلم على أن السعي لا يصح ، إلا بعد طواف ، فلو سعى قبل الطواف لم يصح سعيه ، عند الجمهور ، منهم الأئمة الأربعة ، ونقل الماوردي وغيره الإجماع عليه . قال النووي في شرح المهذب : وحكى ابن المنذر ، عن عطاء ، وبعض أهل الحديث : أنه يصح ، وحكاه أصحابنا عن عطاء ، وداود وحجة الجمهور : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يسع في حج ، ولا عمرة إلا بعد الطواف ، وقد قال " لتأخذوا عني مناسككم " فعلينا أن نأخذ ذلك عنه ، واحتج من قال بصحة السعي قبل الطواف بما رواه أبو داود في سننه : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير عن الشيباني ، عن زياد بن علاقة ، عن أسامة بن شريك قال : خرجت مع النَّبي صلى الله عليه وسلم حاجاً فكان الناس يأتونه ، فمن قال : يا رسول الله سعيت ، قبل أن أطوف ، أو قدمت شيئاً ، أو أخرت

شيئاً ، فكان يقول :

" لا حرج لا حرج إلا على رجل اقترض عرض رجل مسلم ، وهو ظالم له ، فذلك الذي حرج وهلك " انتهى منه . وهذا الإسناد صحيح ، ورجاله كلهم ثقات معروفون . وجرير المذكور فيه هو ابن عبد الحميد بن قرط الضبي ، أبو عبد الله الرازي القاضي والشيباني المذكور فيه : هو أبو إسحاق سليمان بن أبي سليمان الكوفي ، ورجال هذا الإسناد كلهم مخرج لهم في الصحيحين إلا الصحابي ، الذي هو أسامة بن شريك . وقد أخرج عنه أصحاب السنن ، وروي عنه زياد بن علاقة المذكور ، وعلي بن الأقمر ، خلافاً لمن قال : لم يرو عنه إلا زياد المذكور ، كما ذكره في تهذيب التهذيب عن الأزدي ، وسعيد بن السكن ، والحاكم وغيرهم ، وهذا الحديث الصحيح يقتضي صحة السعي قبل الطواف ، وجماهير أهل العلم على خلافه ، وأنه لا يصح السعي ، إلا مسبوقاً بالطواف .

(349/522)

قال النووي في شرح المهذب : في حديث أسامة بن شريك هذا بعد أن ذكر صحة الإِسناد المذكور ، وهذا الحديث محمول على ما حمله عليه الخطابي وغيره ، وهو أن قوله : سعيت قبل أن أطوف : أي سعيت بعد طواف القدوم ، وقبل طواف الإفاضة والله تعالى أعلم

انتهى منه .

فقوله : قبل أن أطوف يعني : طواف الإفاضة الذي هو ركن ، ولا ينافي ذلك أنه سعي بعد طواف القدوم الذي هو ليس بركن .

الفرع الرابع : اعلم أن جمهور أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة : مالك ، وأحمد ، والشافعي ، وأصحابهم ، على أنه يشترط في صحة السعي ، أن يقطع جميع المسافة بين الصفا والمروة في كل شوط ، فلو بقي منها بعض خطوة لم يصح سعيه ، وقد قدمنا مذهب أبي حنيفة في السعي ، وأنه لو تركه كله أو ترك أربعة أشواط منه فأكثر لصح حجه ، وعليه دم وأنه إن ترك منه ثلاثة أشواط فأقل لزمه عن كل شوط نصف صاع ، وحجة أبي حنيفة ، ومن وافقه كطاوس هي تغليب الأكثر على الأقل ، مع جبر الأقل بالصدقة ، ولا أعلم مستنداً من النقل للتفريق بين الأربعة والثلاثة ، ولا لجعل نصف الصاع مقابل الشوط . والعلم عند الله تعالى .

الفرع الخامس : اعلم أنه لا يجوز السعي في غير موضع السعي ، فلو كان يمر من وراء المسعى ، حتى يصل إلى الصفا والمروة من جهة أخرى لم يصح سعيه ، وهذا لا ينبغي أن يختلف فيه . وعن الشافعي في القديم : أنه لو انحرف عن موضع السعي انحرافاً يسيراً أنه يجزئه . والظاهر أن التحقيق خلافه وأنه لا يصح السعي إلا في موضعه .

(350/522)

الفرع السادس : اعلم أن الأظهر أقوال أهل العلم دليلاً : أنه لو سعى راكباً أو طاف راكباً أجزأه ذلك ، لما قدمنا في الصحيح من أنه صلى الله عليه وسلم طاف في حجة الوداع بالبيت ، وبين الصفا والمروة ، وهو على راحلته ، ومعلوم أن من أهل العلم من يقول : لا يجزئه السعي ، ولا الطواف راكباً إلا لضرورة ومنهم : من منع الركوب في الطواف ، وكرهه في السعي إلا لضرورة ، ومنهم من يقول : إن ركب ولم يعد سعيه ماشياً ، حتى رجع إلى وطنه فعليه الدم .

والأظهر هو ما قدمنا . لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم طاف راكباً ن وسعى راكباً ، وهو صلوات الله وسلامه عليه لا يفعل إلا ما يسوغ فعله ، وقد قال لنا " خذوا عني مناسككم " والذين قالوا : إن الطواف والسعي يلزم فيهما المشي . قالوا : إن ركوبه لعلة وبعضهم يقول : هي كونه مريضاً كما جاء في بعض الروايات ، وبعضهم يقول : هي أن يرتفع ، ويشرف حتى يراه الناس ويسألوه ، وبعضهم يقول : هي كراهيته أن يضرب عنه الناس ، وقد قدمنا الروايات بذلك في صحيح مسلم ، ففي حديث جابر عند مسلم : طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبيت في حجة الوداع على راحلته يستلم الركن بمحجنه ، لأن يراه الناس وليشرف ، وليسألوه فإن الناس قد غشوه . وفي رواية في صحيح مسلم عن جابر رضي الله ، طاف النَّبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، على راحلته بالبيت وبالصفا

والمروة ليراه الناس ، وليشرف ، وليسألوه حول الكعبة على بعير يستلم الركن ، كراهية أن يضرب عنه الناس .

(351/522)

المسألة السابعة : اعلم أن العلماء أجمعوا على أن الوقوف بعرفة : ركن من أركان الحج لا يصح الحج بدونه ، وأنهم أجمعوا على أن الوقوف ينتهي وقته بطلوع فجر يوم النحر ، فمن طلع فجر يوم النحر ، وهو لم يأت عرفة فقد فاته الحج إجماعاً ، ومن جمع في وقوف عرفة بين الليل والنهار وكان جزء النهار الذي وقف فيه من بعد الزوال فوقوفه تام ، ومن اقتصر على جزء من الليل دون النهار صح حجه ، ولزمه دم عند المالكية ، خلافاً لجماهير أهل العلم القائلين : بأنه لا دم عليه ، وما ذكره النووي عن بعض الخراسانيين : من أن الوقوف بالليل لا يجزئ ولا يصح به الحج ، حتى يقف معه بعض النهار ظاهر السقوط لمخالفته للنص ، وعامة أهل العلم ، ومن اقتصر على جزء من النهار دون الليل لم يصح حجه عند مالك ، وهو رواية عن أحمد ، وعند الشافعي ، وأبي حنيفة وأحمد في الرواية الأخرى : حجه صحيح ، وعليه دم ، ولا خلاف بين العلماء : أن عرفة كلها موقف .

والدليل على أن الوقوف بعرفة ركن ، وأن وقته ينتهي بطلوع الفجر ليلة النحر : ما رواه

الإمام أحمد وأصحاب السنن ، وغيرهم من حديث عبد الرحمن بن يعمر الدِّيلي رضي الله عنه : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال " الحج عرفة ، فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج "

قال ابن حجر في التلخيص الحبير في هذا الحديث : رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان ، والحاكم ، والدارقطني ، والبيهقي من حديث عبدالرحمن بن يعمر ، قال : شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة ، وأتاه ناس من أهل نجد فقالوا : يا رسول الله كيف الحج ؟ فقال

" الحج عرفة من جاء عرفة قبل صلاة الفجر من ليلة جمع فقد تم حجه " لفظ أحمد وفي رواية لأبي داود " من أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك الحج " وألفاظ الباقين نحوه .

وفي رواية للدارقطني والبيهقي : الحج عرفة الحج عرفة . انتهى من التلخيص .

(352/522)

وفي سنن أبي داود : الحج الحج يوم عرفة ، بتكرير لفظة الحج . وفي سنن النسائي : فمن أدرك ليلة عرفة قبل طلوع الفجر من ليلة جمع ، فقد تم حجه . وقال ابن ماجه في سننه ، بعد أن ساق الحديث باللفظ الذي ذكره صاحب التلخيص : قال محمد بن يحيى : ما رأى للثوري حديثاً أشرف منه . وقال النووي في شرح المهذب : حديث عبدالرحمن الديلي

صحيح رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وآخرون بأسانيد صحيحة .

وهذا لفظ الترمذي عن عبد الرحمن بن يعمر : أن ناساً من أهل نجد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألوه عن الحج ؟ فأمر منادياً ينادي : الحج عرفة ، من جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج . وفي رواية أبي داود " فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً فنادى : الحج الحج يوم عرفة ، من جاء قبل الصبح من ليلة جمع فتم حجه " وفي رواية البيهقي ، عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي ، قال : سمعت النَّبي صلى الله عليه وسلم يقول " الحج عرفات الحج عرفات فمن أدرك ليلة جمع قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك " وإسناد هذه الرواية صحيح ، وهو من رواية سفيان بن عيينة .

قلت : عن سفيان الثوري ، قال ابن عيينة : ليس عندكم بالكوفة ، حديث أشرف ولا أحسن من هذا . انتهى كلام النووي .

ودليل الإجماع على أن من جمع في وقوفه بعرفة بين جزء من الليل ، وجزء من النهار ، من بعد الزوال : أن وقوفه تام ، هو ما ثبت في الروايات الصحيحة " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كذلك فعل وقال : لتأخذوا عني مناسككم " .

(353/522)

فمن الروايات الصحيحة الدالة على ذلك ، ما رواه مسلم في صحيحه في حديث جابر الطويل في حجة النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فإن فيه " فأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عرفة ، فوجد القبة ، قد ضربت له بنمرة ، فنزل حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له ، فأتى بطن الوادي فخطب الناس إلى أن قال : ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء ، إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلاً ، حتى غاب القرص "

الحديث . ففي هذا الحديث الصحيح : أنه جمع في وقوفه بين النهار من بعد الزوال ، وبين جزء قليل من الليل مع قوله " لتأخذوا عني مناسككم " ودليل القائلين بأن من اقتصر في وقوفه بعرفة على جزء من الليل ، دون النهار فقد تم حجه : حديث عبد الرحمن بن يعمر المذكور ، فإن فيه تصريح النَّبي صلى الله عليه وسلم ، بأن من أدرك عرفة ، قبل طلوع الفجر من ليلة جمع ، فقد تم حجه . وجمع : هي المزدلفة ، وليلتها : هي الليلة التي صبيحتها يوم النحر .

ودليل من ألزموه دماً مع وقوفه بعرفة في جزء من الليل : وهم المالكية أن النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يكتف بالليل ، بل وقف معه جزءاً من النهار ، فتارك الوقوف بالنهار تارك نسكاً .

وفي الأثر المروي عن ابن عباس : من ترك نسكاً فعليه دم ، ولكن قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الدِّيلي " فقد تم حجه " لا يساعد على لزوم الدم ، لأن لفظ التمام ، يدل على عدم الحاجة إلى الجبر بدم ، فهو يؤيد مذهب الجمهور ، والعلم عند الله تعالى .

(354/522)

ودليل من قال : بأن من اقتصر في وقوفه على النهار ، دون الليل : أن وقوفه صحيح وحجه تام حديث عروة بن مضرب بن أسو بن حارثة بن لأمٍ الطائي قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزدلفة ، حين خرج إلى الصلاة ، فقلت : يا رسول الله ، إني جئت من جبلي طيئ . أكللت راحلتي ، وأتعبت نفسي . والله ! ما تركت من جبل ، إلا وقفت عليه ، فهل لي من حجٍ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من شهد صلاتنا هذه ، ووقف معنا حتى ندفع ، وقد وقف قبل ذلك بعرفة ليلاً أو نهاراً ، فقد تم حجه وقضى تفثه " ا ه .

قال المجد في المنتقى ، بعد أن ساق هذا الحديث : رواه الخمسة ، وصححه الترمذي ، وهو حجة في أن نهار عرفة كله وقت للوقوف ، وقال ابن حجر في التلخيص الحبير في هذا الحديث " رواه أحمد وأصحاب السنن ، وابن حبان ، والحاكم ، والدارقطني ، ثم قال :

وصحح هذا الحديث الدارقطني ، والحاكم ، والقاضي أبو بكر بن العربي على شرطهما .

وقال النووي في شرح المهذب في حديث عروة بن مضرس : هذا رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه وغيرهم ، بأسانيد صحيحة . قال الترمذي : هو حديث حسن صحيح .

ودليل أن عرفة كلها موقف ما رواه مسلم في صحيحه : حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبي عن جعفر ، حدثني أبي عن جابر في حديثه ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " نحرت ها هنا ومنى كلها منحر ، فانحروا في رحالكم ووقفت ها هنا وعرفة كلها موقف ووقفت ها هنا وجمع كلها موقف " انتهى من صحيح مسلم .

(355/522)

وقال المجد في المنتقى : بعد أن ساق هذا الحديث بلفظ مسلم الذي سقناه به : رواه أحمد ومسلم ، وأبو داود ، ولابن ماجه وأحمد أيضاً نحوه وفيه " وكل فجاج مكة طريق ومنحر "

وقد قدمنا إجماع أهل العلم على أن وقت الوقوف ينتهي بطلوع الفجر ، ليلة جمع .

وإجماعهم على أن ما بعد الزوال من يوم عرفة ، وقت للوقوف . وأما ما قبل الزوال من يوم عرفة ، فجمهور أهل العلم على أنه ليس وقتاً للوقوف ، وخالف الإمام أحمد رحمه الله

الجمهور في ذلك قائلاً : إن يوم عرفة كله من طلوع فجره إلى غروبه ، وقت للوقوف ، واحتج لذلك بحديث عروة بن المضرس ، المذكور آنفاً فإن فيه : وقد وقف بعرفة ليلاً أو نهاراً ، فقد تم حجه ، فقوله صلى الله عليه وسلم : " ليلاً أو نهاراً " يدل على شمول الحكم لجميع الليل والنهار ، وقد قدمنا قول المجد في المنتقى ، بعد أن ساق هذا الحديث : وهو حجة في أن نهار عرفة كله وقت للوقوف ، وحجة الجمهور هي : أن المراد بالنهار في حديث عروة المذكور خصوص ما بعد الزوال ، بدليل أن النَّبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بعده ، لم يقفوا إلا بعد الزوال ، ولم ينقل عن أحد أنه وقف قبله . قالوا : ففعله صلى الله عليه وسلم ، وفعل خلفائه من بعده مبين للمراد من قوله : أو نهاراً .

والحاصل : أن الوقوف بعرفة ركن من أركان الحج إجماعاً ، وأن من جمع بين الليل والنهار من بعد الزوال فوقوفه تام إجماعاً ، وأن من اقتصر على الليل دون النهار ، فوقوفه تام ولا دم عليه عند الجمهور ، خلافاً للمالكية القائلين بلزوم الدم ، وأن من اقتصر على النهار دون الليل ، لم يصح وقوفه عند المالكية . وعند جمهور العلماء : حجه صحيح . منهم الشافعي ، وأبو حنيفة ، وعطاء ، والثوري ، وأبو ثور ، وهو الصحيح من مذهب أحمد .

(356/522)

ولكن اختلفوا في وجوب الدم ، فقال أحمد وأبو حنيفة : يلزمه دم ، وعن الشافعية قولان : أحدهما : لا دم عليه . وصححه النووي وغيره . والثاني : عليه دم . قيل وجوباً ، وقيل : استناناً ن وقيل : ندباً . والأصح أنه سنة على القول به ، كما جزم به النووي . وإنما قيل : الزوال من يوم عرفة ليس وقتاً للوقوف عند جماهير العلماء ، خلافاً للإمام أحمد رحمه الله ، وقد رأيت أدلة الجميع .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أما من اقتصر في وقوفه على الليل دون النهار ، أو النهار من بعد الزوال ، دون الليل ، فأظهر الأقوال فيه دليلاً : عدم لزوم الدم . أما المقتصر على الليل فلحديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي رضي الله عنه ، الذي قدمناه قريباً ، وبينا أنه صحيح . وفيه عند أحمد والنسائي فمن أدرك ليلة عرفة قبل طلوع الفجر من ليلة جمع فقد تم حجه . هذا لفظ النسائي ، ولفظ أحمد : من جاء عرفة قبل صلاة الفجر من ليلة جمع ، فقد تم حجه ، ا ه .

(357/522)

ولفظ أحمد المذكور بواسطة نقل ابن حجر في التلخيص فقوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الثابت : فقد تم حجه مرتباً ذلك على إتيانه عرفة ، قبل طلوع فجر يوم النحر ، نص

صريح في أن المقتصر على الوقوف ليلاً : أن حجه تام ، وظاهر التعبير بلفظ التمام ، عدم لزوم الدم ، ولم يثبت ما يعارضه من صريح الكتاب أو السنة ، وعلى هذا جمهور أهل العلم ، خلافاً للمالكية . وأما المقتصر على النهار دون الليل ، فلحديث عروة بن مضرس الطائي ، وقد قدمناه قريباً ، وبينا أنه صحيح ، وبينا أن فيه : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال فيه : وقد وقف قبل ذلك بعرفة ليلاً أو نهاراً ، يدل على أن الواقف نهاراً يتم حجه بذلك ، والتعبير بلفظ التمام ظاهر ، في عدم لزوم الجبر بالدم ، كما بيناه فيما قبله ، ولم يثبت نقل صريح في معارضة ظاهر هذا الحديث ، وعدم لزوم الدم للمتقصر على النهار ، هو الصحيح من مذهب الشاعفي ، لدلالة هذا الحديث على ذلك ، كما ترى . والعلم عند الله تعالى .

وأما الاكتفاء بالوقوف يوم عرفة قبل الزوال ، فقد قدمنا : أن ظاهر حديث ابن مضرس المذكورن يدل عليه ، لأن قوله صلى الله عليه وسلم : أو نهاراً ، صادق بأول النهار وآخره . كما ذهب إليه الإمام أحمد . ولكن فعل النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه من بعده ، كالتفسير للمراد بالنهار ، في الحديث المذكور ، وأنه بعد الزوال ، وكلاهما له وجه من النظر ، ولا شك أن عدم الاقتصار على أول النهار أحوط ، والعلم عند الله تعالى .

وحجة مالك : في أن الوقوف نهاراً لا يجزئ إلا إذا وقف معه جزءاً من الليل : هي أن النَّبي صلى الله عليه وسلم فعل كذلك ، وقال : " لتأخذوا عني مناسككم " فيلزمنا أن نأخذ

عنه من مناسكنا الجمع في الوقوف بين الليل والنهار ، ولا يخفى أن هذا لا ينبغي أن يعارض به الحديث الصريح في محل النزاع الذي فيه ، وكان قد وقف قبل ذلك بعرفة ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه كما ترى .

(358/522)

واعلم : أنه إن وقف بعد الزوال بعرفة ثم أفاض منها قبل الغروب ثم رجع إلى عرفة في ليلة جمع : أن وقوفه تام ولا دم عليه في أظهر القولين ، لأنه جمع في وقوفه بين الليل والنهار ، خلافاً لأبي حنيفة ، وأبي ثور القائلين : بأن الدم لزمه بإفاضته ، قبل الليل وأن رجوعه بعد ذلك ليلاً لا يسقط عنه ذلك الدم بعد لزومه . والله تعالى أعلم .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : اعلم أنه لا خلاف بين أهل العلم في صحة الوقوف ، دون الطهارة ، فيصح وقوف الجنب والحائض ، وقد قدمنا دليل ذلك في حديث عائشة المتفق عليه ، لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم أمرها فيه ، بأن تفعل كل ما يفعله الحاج ، غير أن لا تطوف بالبيت .

الفرع الثاني : اعلم أن العلماء اختلفوا في صحة وقوف المغمى عليه بعرفة . قال النووي ، في شرح المهذب : ذكرنا أن الأصح عندنا أنه لا يصح وقوف المغمى عليه ، وحكاه ابن المنذر

عن الشافعي وأحمد ، وإسحاق ، وأبي ثور ، قال : وبه أقوال ، وقال مالك وأبو حنيفة : يصح .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ليس في وقوف المغمى عليه نص من كتاب ولا سنة ، يدل على صحته أو عدمها .

وأظهر القولين عندي : قول من قال : بصحته لما قدمنا ، من أنه لا تشترط له نية تخصه ، وإذا سلمنا صحته بدون النية ، كما قدمنا أنه هو الصواب فلا مانع من صحته من المغمى عليه ، كما يصح من النائم ، واحتج من خالف في ذلك ، بأن المغمى عليه ليس من أهل العبادة ، حتى يصح وقوفه ، وممن قال بعدم صحته : الحسن ، وممن قال بصحته : عطاء ، والله تعالى أعلم .

الفرع الثالث : اعلم أن العلماء اختلفوا فيمن وقف بعرفات ، وهو لا يعلم أنها عرفات ، قال النووي في شرح المهذب : قد ذكرنا أن مذهبنا صحة وقوفه ، وبه قال مالك ، وأبو حنيفة ، وحكى ابن المنذر عن بعض العلماء أنه لا يجزئه . انتهى منه .

(359/522)

الفرع الرابع : اعلم أنه لا خلاف بين العلماء في مشروعية جمع الظهر والعصر جمع تقديم يوم عرفة والمغرب والعشاء جمع تأخير بمزدلفة ، وقد ثبت ذلك في صحيح مسلم وغيره من حديث جابر رضي الله عنه .

وأظهر الأقوال دليلاً : أنه يؤذن للظهر فقط ، ويقيم لكل واحدة منهما .

وأظهر قولي أهل العلم عندي : أن جميع الحجاج يجمعون الظهر والعصر ، ويقصرون ، وكذلك في جمع التأخير في مزدلفة يقصرون العشاء ، وأن أهل مكة وغيرهم في ذلك سواء ، وأن حديث " أتموا فإنا قوم سَفرٌ " إنما قاله لهم النَّبي صلى الله عليه وسلم في مكة لا في عرفة ولا في مزدلفة ، وروى مالك بإسناده الصحيح في الموطأ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه " أنه لما قدم مكة وصلى بهم ركعتين ، ثم انصرف فقال : يا أهل مكة : أتموا صلاتكم فإنا قوم سَفرٌ . ثم صلى ركعتين بمنى ، ولم يبلغني أنه قال لهم شيئاً ، وممن قال بأن أهل مكة يقصرون بعرفة ومزدلفة ومنى : مالك ، وأصحابه ، والقاسم بن محمد ، وسالم ، والأوزاعي . وممن قال بأن أهل مكة يتمون صلاتهم في عرفة ، ومزدلفة ، ومنى : الأئمة الثلاثة : أبو حنيفة ، والشافعي ، وأحمد ، وعطاء ، ومجاهد ، والزهري ، وابن جريج ، والنووي ، ويحيى القطان ، وابن المنذر ، كما نقله عنهم ابن قدامة في المغني ، وعزا النووي هذا القول للجمهور .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : لا يخفى أن ظاهر الروايات : أن النَّبي صلى الله عليه

وسلم وجميع من معه جمعوا وقصروا ، ولم يثبت شيء يدل على أنهم أتموا صلاتهم بعد سلامه في منى ولا مزدلفة ولا عرفة ، بل ذلك الإتمام في مكة ، وقد قدمنا أن تحديد مسافة القصر لم يثبت فيه شيء عن النَّبي صلى الله عليه وسلم .

(360/522)

وأن أقوى الأقوال دليلاً : هو أن كل ما يطلق عليه اسم السفر لغة تقصر فيه الصلاة كما أوضحنا ذلك بأدلته في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصلاة ﴾ [النساء : 101] الآية .

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد ما نصه : فلما أتمها يعني الخطبة ، يوم عرفة ، أمر بلالاً ، فأذن ، ثم أقام فصلى الظهر ركعتين ، أسر فيهما بالقراءة ، وكان يوم الجمعة . فدل على أن المسافر لا يصلي جمعة ، ثم أقام ، فصلى العصر ركعتين ايضاً ، ومعه أهل مكة وصلوا بصلاته قصراً وجمعاً بلا ريب ، ولم يأمرهم بالإتمام ، ولا بترك الجمع ، ومن قال إنه قال لهم " أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر " فقد غلط عليه غلطاً بيناً ، ووهم وهماً قبيحاً ، وإنما قال لهم ذلك في غزاة الفتح بجوف مكة ، حيث كانوا في ديارهم مقيمين ، ولهذا كان أصح أقوال العلماء أن أهل مكة يقصرون ، ويجمعون بعرفة ، كما فعلوا مع النَّبي صلى الله عليه

وسلم .

وفي هذا أوضح دليل على أن سفر القصر لا يتحدد بمسافة معلومة ، ولا بأيام معلومة ، ولا تأثير للنسك في قصر الصلاة ألبتة ، وإنما التأثير لما جعله الله سبباً ، وهو السفر . هذا مقتضى السنة ولا وجه لما ذهب إليه الملحدون . انتهى كلام ابن القيم رحمه الله .

وقد قدمنا قول من قال : إن القصر والجمع المذكور ، لأهل مكة من أجل النسك ، والعلم عند الله تعالى .

ولا يخفى أن حجة من قالوا : بإتمام أهل مكة صلاتهم في عرفة ومزدلفة ومنى ، هو ما قدمنا من تحديدهم للمسافة بأربعة برد أو ثلاثة أيام . وعرفة ومزدلفة ومنى أقل مسافة من ذلك ، قالوا : ومن سافر دون مسافة القصر أتم صلاته ، هذا هو دليلهم .

(361/522)

الفرع الخامس : اعلم أن الصعود على جبل الرحمة الذي يفعله كثير من العوام لا أصل له ، ولا فضيلة فيه ، لأنه لم يرد في خصوصه شيء بل هو كسائر أرض عرفة ، وعرفة كلها موقف ، وكل أرضها سواء إلا موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالوقوف فيه أفضل من غير ، كما قاله غير واحد ، وبذلك تعلم أنما قاله أبو جعفر بن جرير الطبري والماوردي من

استحباب صعود جبل الرحمة لا يعول عليه . والعلم عند الله تعالى .

والتحقيق : أن عرَنَة ليست من عرفة ، فمن وقف بعرنة لم يجزئه ذلك وما يذكر عن مالك ، من أن وقوفه بعرنة يجزئ ، وعليه دم ، خلاف التحقيق الذي لا شك فيه ، والظاهر أنه لم يصح عن مالك .

المسألة الثامنة : لا خلاف بين العلماء أنه إن غربت الشمس واستحكم غروبها ، وهو واقف بعرفة ، أفاض منها إلى المزدلفة ، وذلك هو معنى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ الناس ﴾ [البقرة : 199] الآية . كما قدمنا إيضاحه في سورة البقرة .

(362/522)

وقد بينت الأحاديث الصحيحة كيفية إفاضته من عرفات ، ففي حديث جابر الطويل عند مسلم " فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص . وأردف أسامة خلفه . ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شنق للقصواء الزِّمام . حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله . ويقول بيده اليمنى " أيها الناس ! السكينة السكينة " كلما أَتى حبلاً من الحبال أرخى لها قليلاً . حتى تصعد . حتى أتى المزدلفة . فصلى بها المغرب والعشاء " الحديث ، وقول جابر في هذا الحديث : وقد شنق للقصواء

الزمام ، يعني أنه يكفها بزمامها عن شدة المشي ، والمورك بفتح الميم وكسر الراء : هو الموضع الذي يثني الراكب رجله عليه قدام واسطة الرحل ، إذا مل من الركوب . وضبطه القاضي عياض بفتح الراء قال : وهو قطعة أدم يتورك عليها الراكب ، تجعل في مقدمة الرحل ، شبه المخدة الصغيرة ، وقوله : ويقول بيده السكينة السكينة : أي يأمرهم بالسكينة مشيراً بيده ، والسكينة : الرفق والطمأنينة ، وقول جابر في هذا الحديث : كلما أتى حبلاً من الحبال : هو بالحاء المهملة ، والباء الموحدة ، والمراد بالحبل في حديثه : الرمل المستطيل المرتفع ، ومنه قول ذي الرمة :

ويوماً بذي الأرطى إلى جنب مشرف . . . بوعسائه حيث اسبطرت حبالها

وقول عمر بن أبي ربيعة :

يا ليتني قد أجزت الحبل نحوكم . . . حبل المعرف أو جاوزت ذا عشر

وحديث جابر هذا الدال على الرفق ، وعدم الإسراع ، وما جاء في معناه من الأحاديث يفسره حديث أسامة الثابت في الصحيحين "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير العنق فإذا وجد فجوة نص " والعنق بفتحتين : ضرب من السير دون النص ، ومنه قول الراجز :

يا ناق سيري عنقاً فسيحاً . . . إلى سليمانَ فنستريحا

والنص : أعلى غاية الإسراع ، ومنه قول كثير :

حلفت برب الراقصات إلى منًى . . . يجوب الفيافي نصها وذميلها

(363/522)

والفجوة تقدم تفسيرها بشواهده العربية في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ [الكهف : 17] .

وإذا علمت وقت إفاضته صلى الله عليه وسلم من عرفات إلى المزدلفة ، وكيفية إفاضته ، فاعلم " أنه صلى الله عليه وسلم نزل في الطريق ، فبال ، وتوضأ وضوءاً خفيفاً ، وأخبرهم بأن الصلاة أمامهم . ثم أتى المزدلفة ، فأسبغ وضوءه ، وصلى المغرب والعشاء بأذان واحد ، وإقامتين ، ولم يصل بينهما شيئاً ثم اضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى طلع الفجر ، وصلى الفجر في أول وقته ، حين تبين له الصبح بأذان ، وإقامة ، ثم ركب القصواء ، حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة ، فدعاه ، وكبره ، وهلله فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ، فدفع قبل أن تطلع الشمس " ومن فعل كفعله صلى الله عليه وسلم فقد أصاب السنة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم " لتأخذوا عني مناسككم " وأما من خالف في ذلك ، فل يبت بالمزدلفة ، فقد اختلف العلماء في حكمه إلى ثلاثة مذاهب :

الأول : أن المبيت بمزدلفة واجب يجبر بدم .

الثاني : أنه ركن لا يتم الحج بدونه .

الثالث : أنه سنة وليس بواجب ، والقول : بأنه واجب يجبر بدم : هو قول أكثر أهل العلم منهم : مالك ، وأحمد ، وأبو حنيفة ، والشافعي في المشهور عنه ، وعطاء ، والزهري ، وقتادة ، والثوري ، وإسحاق ، وأبو ثور .

قال النووي في شرح المهذب : قد ذكرنا أن المشهور من مذهبنا : أنه ليس بركن ، فلو تركه صح حجه . قال القاضي أبو الطيب ، وأصحابنا : وبهذا قال جماهير العلماء من السلف والخلف . انتهى منه .

(364/522)

وممن قال : بأنه ركن لا يصح الحج إلا به خمسة من أئمة التابعين ، وبعض الشافعية ، وأما الخمسة المذكورون : فهم علقمة ، والأسود ، والشعبي ، والنخعي ، والحسن البصري ، وممن قال به من الشافعية : أبو عبد الرحمن بن بنت الشافعي ، وأبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة ، كما نقله عنهم النووي في شرح المهذب ، ونقله القرطبي أيضاً عن عكرمة ، والأوزاعي وحماد بن أبي سليمان ، قال : وروي عن ابن الزبير . وقال ابن القيم في زاد

المعاد : وهو مذهب اثنين من الصحابة : ابن عباس ، وابن الزبير ، وإليه ذهب إبراهيم النخعي ، والشعبي ، وعلقمة والحسن البصري ، وهو مذهب الأوزاعي وحماد بن أبي سليمان ، وداود بن علي الظاهري ، وأبي عبيد القاسم بن سلام . واختاره المحمدان ابن جرير وابن خزيمة ، وهو أحد الوجوه للشافعية ، وهؤلاء القائلون بأن المبيت بمزدلفة : ركن من أركان الحج يقولون : إن فاته المبيت بها تحلل من إحرامه بعمرة ، ثم حج من قابل .

وممن قال بأن المبيت بمزدلفة سنة لا يجب بتركه دم : بعض الشافعية ، وذكر النووي أن هذا القول مشهور أيضاً ، لكن الأول أصح منه ، وعن عطاء ، والأوزاعي : أنها منزل من شاء نزل به ، ومن شاء لم ينزل به ، وروى نحوه الطبري بسند فيه ضعف ، عن ابن عمر مرفوعاً ، قاله الحافظ في الفتح .

فإذا علمت أقوال أهل العلم في حكم المبيت بمزدلفة ، فهذه تفاصيل أدلتهم ، أما الذين قالوا : بأنه واجب ، وليس بركن : فقد استدلوا على أنه ليس بركن بحديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي رضي الله عنه ، وقد قدمنا ألفاظ رواياته ، وأنه صحيح ، وقد بين النَّبي صلى الله عليه وسلم فيه " أن من أدرك عرفة ولو في آخر جزء من ليلة النحر قبل الصبح أنه تم حجه وقضى تفثه " ومعلوم أن هذا الواقف بعرفة في آخر جزء من ليلة النحر ، قد فاته المبيت بمزدلفة قطعاً بلا شك ، ومع ذلك فقد صرح النَّبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المذكور بأن حجه تام .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الظاهر أن الاستدلال بهذا الحديث على هذا الحكم صحيح ، ودلالته عليه هي المعروفة عند أهل الأصول بدلالة الإشارة ، ومعلوم في الأصول أن دلالة الإشارة ، ودلالة الاقتضاء ، ودلالة الإيماء والتنبيه كلها من دلالة الالتزام ، ومعلوم أن هذه الأنواع من دلالة الالتزام اختلف فيها هل هي من قبيل المنطوق غير الصريح ، أو من قبيل المفهوم ؟ وإلى ذلك أشار في مراقي السعود بقوله :

وفي كلام الوحي والمنطوق هل . . . ما ليس بالصريح فيه قد دخل

وهو دلالة اقتضاء أن يدل . . . لفظ على ما دونه لا يستقل

دلالة اللزوم مثل ذات . . . إشارة كذلك الايما آتي . الخ

وقصدنا هنا إيضاح دلالة الإشارة دون غيرها ، وضابط دلالة الإشارة هي : أن يساق النص لمعنى مقصود : فيلزم ذلك المعنى المقصود أمر آخر غير مقصود باللفظ لزوماً لا ينفك ، كما أشار له في المراقي بقوله :

فأول إشارة اللفظ لما . . . لم يكن القصد له قد علما

فإذا علمت ذلك ، فاعلم أنه صلى الله عليه وسلم ، لم يذكر حديث عبد الرحمن بن يعمر

المذكور لقصد بيان حكم المبيت بمزدلفة ، ولكنه ذكره قاصداً بيان أن من أدرك الوقوف بعرفة في آخر جزء من ليلة النحر أن حجة تام ، وهذا المعنى المقصود يلزمه حكم آخر غير مقصود باللفظ وهو عدم ركنيه المبيت بمزدلفة ، لأنه إذا لم يدرك عرفة إلا في الجزء الأخير من الليل ، فقد فاته المبيت بمزدلفة قطعاً ، ومع ذلك فقد صرح صلى الله عليه وسلم بأن حجه تام .

(366/522)

ومن أمثلة دلالة الإشارة في القرآن قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصيام الرفث إِلَى نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة : 187] فإنه يدل بدلالة الإشارة المذكورة ، على صحة صوم من أصبح جنباً ، لأن الآية الكريمة سيقت لبيان جواز الجماع في ليلة الصيام ، وذلك صادق بآخر جزء منها ، بحيث لا يبقى بعده من الليل ، قدر ما يسع الاغتسال ، فيلزم من جواز الجماع في آخر جزء من الليل ، الذي دلت عليه الآية أنه لا بد أن يصبح جنباً ، ولفظ الآية : لم يقصد به صحة صوم من أصبح جنباً ، ولكن المعنى الذي قصد به يلزمه ذلك كما بينا .

ومن أمثلتها أيضاً في القرآن قوله تعالى ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً ﴾ [الأحقاف : 15] مع قوله : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان : 14] فإن الآيتين لم يقصد بلفظهما

بيان قدر أقل أمد الحمل ، ولكن المعنى الذي قصد بهما يلزمه أن أقل أمد الحمل ستة أشهر ، لأنه جمع الحمل والفصال في ثلاثين شهراً ، ثم بين أن الفصال في عامين ، فيطرح من الثلاثين شهراً أربعة وعشرون التي هي عاما الفصال ، فيبقى ستة أشهر ، فدلت الآيتان دلالة الإشارة على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، ولا خلاف في ذلك بين أهل العلم كما أوضحناه في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى :

﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرحام وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : 8] .

ومراد الأصوليين أن المدلول عليه بالإشارة لم يقصد باللفظ ، أن اللفظ لا يتناوله بحسب الوضع اللغوي ، مع علمهم بأن علم الله محيط بكل شيء ، سواء دل عليه اللفظ المذكور بمنطوقه أو لم يدل عليه ، وحجتهم في أنه واجب يجبر بدم أنه نسك ، وفي أثر ابن عباس : من ترك نسكاً فعليه دم ، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله تعالى .

وأما حجة من قال : إنه ركن فهي من كتاب وسنة .

(367/522)

أما الكتاب ، فقوله تعالى : ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فاذكروا الله عِندَ المشعر الحرام ﴾ [البقرة : 198] قالوا : فهذا الأمر القرآني الصريح ، يدل على أنه لا بد من ذكر الله عند المشعر الحرام بعد الإفاضة من عرفة .

وأَما السنة ، فمنها حديث عروة بن مضرس ، الذي سقناه سابقاً ، فإن فيه " من أدرك معنا هذه الصلاة ، وكان قد أتى عرفات ، قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه " قالوا : فقوله صلى الله عليه وسلم في حديث ابن مضرس هذا " من أدرك معنا هذه الصلاة " الحديث . يفهم منه أن من لم يدركها معهم لم يتم حجه ، ولم يقض تفثه ، والمراد بها صلاة الصبح بمزدلفة كما هو واضح ، قالوا : وفي رواية عند النسائي ، عن عروة بن مضرس : من أدرك جمعاً مع الإمام ، والناس حتى يفيضوا منها ، فقد أدرك الحج ، ومن لم يدرك مع الناس الإمام فلم يدرك ، قالوا : ولأبي يعلى ومن لم يدرك جمعاً ، فلا حج له .

وأجاب الجمهور القائلون : بأن المبيت بمزدلفة ، ليس بركن ، عن أدلة هؤلاء القائلين : إنه ركن لا يتم الحج إلا به .

قالوا : أما الآية التي استدلوا بها على وجوب الوقوف بمزدلفة التي هي قوله تعالى : ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فاذكروا الله عِندَ المشعر الحرام ﴾ [البقرة : 198] الآية ، فإنها لم تتعرض للوقوف بمزدلفة أصلاً ، وإنما أمر فيها بذكر الله عند المشعر الحرام .

قالوا : وقد أجمعوا كلهم على أن من وقف بمزدلفة ، ولم يذكر الله أن حجه تام ، فإذا كان الذكر المذكور في الكتاب ليس من صلب الحج بإجماعهم فالموطن الذي يكون الذكر فيه أحرى أن لا يكون فرضاً ، وأجابوا عن استدلالهم بمفهوم الشرط في حديث عروة بن مضرس المذكور " من أدرك معنا هذه الصلاة " الحديث . بأنهم أجمعوا كلهم ، على أنه لو بات بمزدلفة ووقت قبل ذلك بعرفة ، ونام عن صلاة الصبح ، فلم يصلها مع الإمام ، حتى فاتته أنه حجه تام ، وقد قدمنا دلالة حديث عبد الرحمن بن يعمر على ذلك .

وأجابوا عن رواية النسائي التي أشرنا إليها التي قال فيها : أخبرنا محمد بن قدامة ، قال : حدثني جرير ، عن مُطّرف ، عن الشعبي ، عن عروة بن مضرس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" من أدرك جمعاً مع الإمام والناس حتى يُفِيضَ منا فقد أدرك ، ومن لم يدرك مع الناس والإمام فلم يدرك " اه بأن هذه الزيادة في هذه الرواية ، لم تثبت .

قال ابن حجر في فتح الباري في بيان تضعيف الزيادة المذكورة : وقد صنَّف أبو جعفر العقيلي جزءاً في إنكار هذه الزيادة ، وبين أنها من رواية مطرف عن الشعبي ، عن عروة ، وأن مطرفاً كان يهم في المتون ، قال : وقد ارتكب ابن حزم الشطط فزعم : أن من لم يصل صلاة الصبح بمزدلفة مع الإمام : أن الحج يفوته ، ولم يعتبر ابن قدامة مخالفته هذه ، فحكى

الإجماع على الإجزاء كما حكاه الطحاوي . انتهى كلام ابن حجر مع حذف يسير .

وأجابوا عن الرواية المذكورة عند أبي يعلى ، وغيره : بأنها ضعيفة .

قال النووي في شرح المهذب في كلامه على قول القائلين : بأنه ركن ، واحتج لهم بالحديث المروي ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من فاته المبيت بمزدلفة فقد فاته الحج "

ثم قال : وأما الحديث فالجواب عنه من وجهين :

أحدهما : أنه ليس بثابت ولا معروف .

والثاني : أنه لو صح لحمل على فوات كمال الحج لا فوات أصله . انتهى منه .

(369/522)

وما ذكرنا عن ابن حجر من تضعيف الزيادة المذكورة يعني به ما عند النسائي ، وأبي يعلى منها في حيث عروة المذكور .

ومن أدلتهم على أن المبيت بمزدلفة ركن : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كذلك فعل ، وقال : " لتأخذوا عني مناسككم " وأجاب الجمهور عن هذا : بأنهم لم يخالفوا في أنه نسك ، ينبغي أن يؤخذ عنه صلى الله عليه وسلم ، ولكن صحة الحج بدونه علمت بدليل آخر : وهو حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي المذكور سابقاً ، الدال على عدم اشتراط المبيت

بمزدلفة ، كما أوضحنا وجه دلالته على ذلك ، والعلم عند الله تعالى .

وأما حجة من قال : إن المبيت بمزدلفة : سنة ، وليس بركن ، ولا واجب هي : أنه مبيت ، فكان سنة كالمبيت بمنى ليلة عرفة . أعني : الليلة التاسعة ، التي صبيحتها يوم عرفة ، هذا هو حاصل أقوال أهل العلم ، وأدلتهم في المبيت بمزدلفة .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : قد قدمنا أن الاستدلال بحديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي رضي الله عنه ، على عدم ركنيه المبيت بمزدلفة صحيح ، وأن دلالته على ذلك دلالة إشارة كما هو معروف في الأصول ، ولا شك أنه ينبغي للحاج أن يحرص على أن يفعل كفعل النَّبي صلى الله عليه وسلم فيبيت بمزدلفة كما قدمنا إيضاحه ، والعلم عند الله تعالى .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : قد قدمنا أن المزدلفة كلها موقف ، فحيث وقف منها أجزأه ، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء ، وقد قدمناه من حديث جابر عند مسلم .

الفرع الثاني : اعلم أنه ينبغي التعجيل بصلاة الصبح يوم النحر بمزدلفة في أول وقتها ، كما فعل صلى الله عليه وسلم .

(370/522)

واعلم أن ما رواه البخاري ، ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صلى صلاة إلا بميقاتها إلا صلاتين : صلاة المغرب والعشاء بجمع ، وصلى الفجر يومئذ قبل ميقاتها . ليس المراد به أنه صلى الصبح قبل طلوع الفجر ، لأن ذلك ممنوع إجماعاً ، ولكن مراده به أنه صلاها قبل ميقاتها المعتاد الذي كان يصليها فيه ، ولكن بعد تحقق طلوع الفجر .

ومما يدلعلى هذا ما رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود نفسه رضي الله عنه حدثنا عمرو بن خالد ، حدثنا زهير ، حدثنا أبو إسحاق قال : سمعت عبد الرحمن بن يزيد يقول : حج عبد الله رضي الله عنه ، فأتينا المزدلفة . الحديث وفيه : فلما طلع الفجر قال : إن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان لا يصلي هذه الساعة إلا هذه الصلاة في هذا المكان من هذا اليوم . قال عبد الله : هما صلاتان يُحَوَّلان عن وَقتِهما ، صلاة المغرب بعد ما يأتي الناس المزدلفة ، والفجر حين يبزُغ الفجر ، قال رأيت النَّبي صلى الله عليه وسلم يفعله انتهى من صحيح البخاري .

فقول ابن مسعود في هذا الحديث الصحيح : فلما طلع الفجر وقوله : والفجر حين يبزغ الفجر وإتباعه ذلك بقوله رأيت النَّبي صلى الله عليه وسلم يفعله ، صريح فيما ذكرنا من أن

مراده بقوله : قبل ميقاتها يعني به : وقتها الذي يصليها فيه عادة ، وليس مراده أنه صلاها قبل طلوع الفجر كما ترى .

(371/522)

الفرع الثالث : اعلم أن العلماء اختلفوا في القدر الذي يكفي في النزول بالمزدلفة ، فذهب مالك ، وأصحابه ، إلى أن النزول بمزدلفة بقدر ما يصلي المغرب والعشاء ، ويتعشى يكفيه في نزول مزدلفة ولو أفاض منها قبل نصف الليل ، وبعضهم يقول : لا بد في ذلك من حط الرحال ، وذهب الشافعي وأحمد إلى أنه إن دفع منها بعد نصف الليل أجزأه ، وإن دفع منها قبل نصف الليل لزمه دم . وذهب أبو حنيفة إلى أنه إن دفع منها قبل الفجر لزمه دم ، لأن وقت الوقوف عنده بعد صلاة الصبح ، ومن حضر المزدلفة في ذلك الوقت فقد أتى بالوقوف ، ومن تركه ودفع ليلاً فعليه دم إلا إن كان لعذر .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الأظهر عندي في هذه المسألة : هو أنه ينبغي أن يبيت إلى الصبح ، لأنه لا دليل مقنعاً يجب الرجوع إليه مع من حدد بالنصف الأخير ، ولا مع من اكتفى بالنزول ، وقياسهم الأقوياء على الضعفاء قائلين : إنه لو كان الدفع بعد النصف ممنوعاً لما رخص فيه صلى الله عليه وسلم لضعفه أهله ، لأنه لا يرخص لأحد في حرام ،

قياس مع وجود الفارق ، ولا يخفى ما في قياس القوي على الضعيف الذي رخص له لأجل ضعفه كما ترى ، ولا خلاف بين العلماء أن السنة أنه يبقى بجمع حتى يطلع الفجر كما تقدم ومن المعلوم أن جمعاً والمزدلفة والمشعر الحرام ، أسماء مترادفة ، يراد بها شيء واحد خلافاً لمن خصص المشعر الحرام بقزح دون باقي المزدلفة .

الفرع الرابع : اعلم أنه لا بأس بتقديم الضعفة إلى منى قبل طلوع الفجر . قال ابن قدامة في المغني : ولا نعلم فيه مخالفاً اه ومن المعلوم أن ذلك ثابت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم .

(372/522)

قال البخاري رحمه الله في صحيحه : باب من قَدَّم ضَعَفَةَ أَهْلِهِ بليل فيقفون بالمزدلفة ويدعون ، ويقدم إذا غاب القمر : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، عن يونس ، عن ابن شهاب قال سالم : وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يُقَدِّم ضَعَفَةَ أَهْلِهِ ، فيقفون عند المشعر الحرام بالمزدلفة بليل فيذكرون الله عز وجل ، ما بدا لهم ، ثم يرجعون قبل أن يقف الإمام ، وقبل أن يدفع ، فمنهم من يقدم لصلاة الفجر ، ومنهم من يَقْدُمُ بعد ذلك ، فإن قدموا رموا الجمرة ، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : أَرْخَصَ في أولئك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم من جمع بليل .

حدثنا عَلِيٌّ ، حدثنا سفيان قال : أخبرني عبيد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول : أنا ممن قدم النَّبي صلى الله عليه وسلم ليلة المزدلفة في ضعفة أهله . حدثنا مسدد عن يحيى عن ابن جريج ، قال : حدثني عبد الله مولى أسماء ، عن أسماء أنها نزلت ليلة جمع عند المزدلفة ، فقامت تُصَلِّي ، فصلت ساعة ، ثم قالت : يا بُنَيَّ هل غاب القمر ؟ قلت : لا فصلت ساعة ثم قالت : هل غاب القمر ؟ قلت : نعم قالت : فارتحلوا ، فارتحلنا ، ومضينا حتى رَمَتِ الجمرةَ ثمّ رجعت ، فصلت الصبح في منزلها ، فقلت لها : يا هَنتَاهْ : ما أُرَانا إلاَّ قد غلسنا ، قالت : يا بُنَيَّ : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَذِنَ لِلظُّعُنِ .

حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان ، حدثنا عبد الرحمن هو ابن القاسم عن القاسم ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : استأذنت سَوْدَى النَّبي صلى الله عليه وسلم ليلة جَمْعٍ ، وكانت ثقيلة ثبطة ، فأَذن لها .

(373/522)

حدثنا أبو نعيم ، حدثنا أَفْلَحُ بن حميد ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : نزلنا المزدلفة ، فاستأذنت النَّبي صلى الله عليه وسلم سودة أن تدفع قبل حطمة الناس ، وكانت امرأة بطيئة ، فأَذن لها فدَفَعَتْ قبل حَطْمَة الناس ، وأقمنا حتى أصبحنا نحن .

ثم دفعنا بِدَفْعِهِ فَلأن أكون استَأْذَنْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما استأذنت سَوْدَةُ أحب إلي من مفروح به انتهى من صحيح البخاري .

وهذه الأحاديث التي رواها البخاري عن ابن عمر ، وابن عباس ، وأسماء وعائشة رضي الله عنهم رواها كلها مسلم في صحيحه أيضاً ، مع بعض اختلاف في الألفاظ والمعنى واحد .

وروى مسلم في صحيحه : عن أم حبيبة رضي الله عنها : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم بعث بها من جمع بليل ، وفي لفظ لها عند مسلم : كنا نفعله على عهد النَّبي صلى الله عليه وسلم نغلس من جميع إلى منى ، وفي رواية الناقد : نغلس من مزدلفة اه وهذه النصوص الصحيحة تدل على جواز تقديم الضعفة والنساء من المزدلفة ليلاً كما ترى .

(374/522)

الفرع الخامس : اعلم أن العلماء اختلفوا في الوقت الذي يجوز فيه رمي جمرة العقبة من الضعفة وغيرهم ، مع إجماعهم على أن من رماها بعد طلوع الشمس أجزأه ذلك ، فذهبت جماعة من أهل العلم ، إلى أن أول الوقت الذي يجزئ فيه رمي جمرة العقبة هو ابتداء النصف الأخير من ليلة النحر ، وممن قال بهذا : الشافعي ، وأحمد ، وعطاء ، وابن أبي ليلى ، وعكرمة بن خالد كما نقله عنهم ابن قدامة في المغني ، قوال النووي في شرح المهذب : وبه قال عطاء ، وأحمد ، وهو مذهب أسماء بنت أبي بكر ، وابن أبي مليكة وعكرمة بن خالد ، وذهب جماعة من أهل العلم : إلى أن أول وقته يبتدئ من بعد طلوع الشمس ، وهو مذهب مالك ، وأبي حنيفة ، وذهب بعض أهل العلم إلى أن أول وقته للضعفة من طلوع الفجر ولغيرهم من بعد طلوع الشمس ، وهو اختيار ابن القيم ، وإذا علمت أقوال أهل العلم في المسألة ، فهذه تفاصيل أدلتهم .

أما الذين قالوا : إن رمي جمرة العقبة يجوز في النصف الأخير من ليلة النحر فقد استدلوا بما رواه أبو داود في سننه : حدثنا هارون بن عبد الله ثنا ابن أبي فُدَيْك ، عن الضحاك يعني ابن عثمان ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة أنها قالت : أرسل النَّبي صلى الله عليه وسلم بأم سلمة ليلة النحر ، فرمت الجمرة قبل الفجر ، ثم مضت ، فأفاضت وكان ذلك اليوم اليوم الذي يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني عندها انتهى منه .

قال النووي في شرح المهذب : في هذا الحديث وأما حديث عائشة في إرسال أم سلمة

فصحيح . رواه أبو داود بلفظه بإسناد صحيح على شرط مسلم وقال الزيلعي في نصب الراية ، بعد أن ساق حديث أبي داود : هذا عن عائشة ورواه البيهقي في سننه وقال : إسناده صحيح لا غبار عليه وما ذكره الزيلعي من أنه قال : إسناده صحيح لا غبار عليه لم أره في سننه الكبرى ، وقد ذكر الحديث فيها بدون التصحيح المذكور .

(375/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ما ذكره النووي من كون إسناد أبي داود المذكور صحيحاً ، على شرط مسلم صحيح ، لأن طبقته الأولى هارون الحمال وهو ثقة من رجال مسلم ، وطبقته الثانية محمد بن إسماعيل بن مسلم بن أبي فديك ، وهو صدوق . أخرج له الشيخان وغيرهما وطبقته الثالثة الضحاك بن عثمان الحزامي الكبير ، وهو صدوق يهم ، وهو من رجال مسلم ، وباقي الإسناد هشام عن عروة بن الزبير عن عائشة وصحته ظاهرة ، فالاحتجاج بهذا الإسناد ظاهر ، لأن جميع رجاله من رجال مسلم ، وبعض رجاله أخرج له الجميع فظاهره الصحة مع أن بعض أهل العلم ضعفه قائلاً : إنه مضطرب متناً وسنداً ، وممن ذكر أنه ضعفه الإمام أحمد وغيره ، ولا يخفى أن رواية أبي داود المذكورة ظاهرها الصحة .

وتعتضد بما رواه الخلال : أنبأنا علي بن حرب ، حدثنا هرون بن عمران ، عن سليمان بن أبي داود ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه قال : أخبرتني أم سلمة قالت : قَدَّمني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن قدَّم من أهله ليلة المزدلفة ، قالت : فرميتُ بليل ، ثم مضيت إلى مكة ، فصليت بها الصبح ، ثم رجعت إلى منى انتهى منه بواسطة نقل ابن القيم في زاد المعاد ولا شك أن هذه الرواية عن أم سلمة تقوي الرواية الأولى عن عائشة . ولما ساق ابن القيم هذه الرواية التي ذكرها الخلال قال : قلت : سليمان بن أبي داود هذا ، هو الدمشقي الخولاني ويقال : ابن داود قال أبو زرعة : عن أحمد رجل من أهل الجزيرة ليس بشيء ، وقال عثمان بن سعيد : ضعيف .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : رواية سليمان بن داود المذكورة ، لا تقل عن أن تعضد الرواية المذكورة قبلها ، وسليمان المذكور وثقه ، وأثنى عليه غير واحد ، قال فيه ابن حيان : سليمان بن داود الخولادني من أهل دمشق ثقة مأمون ، وقال البيهقي : وقد أثنى على سليمان بن داود أبو زرعة ، وأبو حاتم وعثمان بن سعيد ، وجماعة من الحفاظ انتهى بواسطة نقل ابن حجر في تهذيب التهذيب .

(376/522)

وقال ابن حجر فيه أيضاً : قلت : أما سليمان بن داود الخولاني ، فلا ريب في أنه صدوق ، وقال فيه في التقريب : سليمان بن داود الخولاني أبو داود الدمشقي : سكن داريا صدوق من السابعة ، وبذلك كله يعلم أن روايته لا تقل عن أن تكون عاضداً لغيرها .

هذا هو حاصل حجة من أجاز رمي الجمرة قبل الصبح .

وأما حجة من قال : لا يجوز رميها ، إلا بعد طلوع الشمس ، فمنها أن النَّبي صلى الله عليه وسلم رماها وقت الضحى . وقال : " خذوا عني مناسككم " .

ومنها ما رواه أصحاب السنن وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما " أن النبي صلى الله عليه وسلم : بعث بضعفة أهله ، فأمرهم أن لا يرموا الجمرة ، حتى تطلع الشمس " .

وفي لفظ عن ابن عباس ، قال : " قَدَّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المزدلفة أغيلمة بني عبد المطلب على حمرات فجعل يلطح أفخاذنا ويقول : أي بني لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس " قال أبو داود : اللطح الضرب اللين ، وهذا الحديث صحيح ، وقال الترمذي رحمه الله في هذا الحديث : قال أبو عيسى : حديث ابن عباس حديث حسن صحيح ، والعلم على هذا الحديث عند أهل العلم ، وقال النووي في شرح المهذب في حديث ابن عباس المذكور ، أما حديث ابن عباس ، فصحيح رواه أبو داود والترمذي ، والنسائي ، وغيرهم بأسانيد صحيحة ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح انتى كلام

النووي .

وقال ابن القيم في زاد المعاد في حديث ابن عباس المذكور : حديث صحيح صححه الترمذي وغيره .

وأما حجة من قال : بجواز رمي جمرة العقبة للضعفة بعد الصبح قبل طلوع الشمس دون غيرهم ، وأن غيرهم لا يجوز له رميها إلا بعد طلوع الشمس ، فمنها حديث أسماء المتفق عليه الذي قدمناه .

(377/522)

قال فيه : قالت : يا بُنَيَّ : هل غاب القمر ؟ قلت : نعم ، قالت : فارتحلوا ، فارتحلنا ، ومضينا ، حتى رمت الجمرة ، ثم رجعت ، فصلت الصبح في منزلها فقلت لها : يا هنتاه : ما أرانا إلا قد غلسنا قالت : يا بني : " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن للظعن " ا ه . فهذا الحديث المتفق عليه صريح أن أسماء رمت الجمرة قبل طلوع الشمس ، بل بغلس ، وهو بقية الظلام ، ومنه قول الأخطل .

كذبتك عينك أم رأيت بواسط . . . غلس الظلام من الرباب خيالا

وصرحت بأنه صلى الله عليه وسلم : أذن في ذلك للظعن ، ومفهومه أنه لم يأذن للأقوياء

الذكور كما ترى .

ومنها حديث ابن عمر المتفق عليه الذي قدمناه أيضاً ، فإن فيه : أنه كان يقدك ضعفة أهله ، وأن منهم من يقدم مِنًى لصلاة الفجر ، ومنهم من يقدم بعد ذلك فإذا قدموا رموا الجمرة ، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : أرخص في أولئك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحديث ابن عمر هذا المتفق عليه ، يدل دلالة واضحة ، على الترخيص للضعفة في رمي جمرة العقبة بعد الصبح ، قبل طلوع الشمس كما ترى ، ومفهومه أنه لم يرخص لغيرهم في ذلك .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : إن الذي يقتضي الدليل رجحانه في هذه المسألة : أن الذكور الأقوياء لا يجوز لهم رمي جمرة العقبة ، إلا بعد طلوع الشمس ، وأن الضعفة والنساءس لا ينبغي التوقف في جواز رميهم بعد الصبح ، قبل طلوع الشمس ، لحديث أسماء ، وابن عمر المتفق عليهما الصريحين في الترخيص لهم في ذلك ، وأما رميهم أعني الضعفة والنساء ، قبل طلوع الفجر ، فهو محل نظر ، فحديث عائشة عند أبي داود يقتضي جوازه ، وحديث ابن عباس عند أصحاب السنن : يقتضي منعه .

(378/522)

والقاعدة المقررة في الأصول : هي أن يجمع بين النصين إن أمكن الجمع وإلا فالترجيح بينهما ، وقد جمعت بينهما جماعة من أهل العلم ، فجعلوا لرمي جمرة العقبة وقتين : وقت فضيلة ، ووقت جواز ، وحملوا حديث ابن عباس : على وقت الفضيلة ، وحديث عائشة : على وقت الجواز ، وله وجه من النظر . والعلم عند الله تعالى .

أما الذكور الأقوياء فلم يرد في الكتاب ولا السنة دليل يدل على جواز رميهم جمرة العقبة ، قبل طلوع الشمس ، لأن جميع الأحاديث الواردة في الترخيص في ذلك كلها في الضعفة ، وليس شيء منها في الأقوياء الذكورن وقد قدمنا أن قياس القوي على الضعيف الذي رخص له من أجل ضعفه قياس مع وجود الفارق ، وهو مردود كما هو مقرر في الأصول وإليه أشار في مراقي السعود بقوله :

والفرق بين الأصل والفرع قدح . . . إبداء مختص بالأصل قد صلح

أو مانع في الفرع . إلخ . . . ومحل الشاهد منه قوله : إبداء مختص بالأصل قد صلح ، لأن معترض قياس القوي على الضعيف في هذه المسألة يبدي وصفاً مختصاً بالأصل ، دون الفرع صالحاً للتعليل ، وهو الضعف ، لأن الضعف الموجود في الأصل ، المقيس عليه ، الذي هو علة الترخيص المذكور ، ليس موجوداً في الفرع المقيس الذي هو الذكر القوي كما ترى والعلم عند الله تعالى .

الفرع السادس : اعلم أن وقت رمي جمرة العقبة يمتد إلى آخر نهار يوم النحر ، فمن رماها

قبل الغروب من يوم النحر فقد رماها في وقت لها .

قال ابن عبد البر : أجمع أهل العلم على أن من رماها يوم النحر ، قبل المغيب فقد رماها في وقت لها وإن لم يكن مستحباً لها انتهى منه بواسطة نقل ابن قدامة في المغني فإن فات يوم النحر ، ولم يرمها فقال بعض أهل العلم : يرميها ليلاً والذين قالوا : يرميها ليلاً : منهم من قال : رميها ليلاً أداء لا قضاء ، وهو أحد وجهين مشهورين للشافعية حكاهما صاحب التقريب ، والشيخ أبو محمد الجويني ، وولده إمام الحرمين ، وآخرون .

(379/522)

قال النووي : وروى مالك في الموطأ عن أبي بكر بن نافع مولى ابن عمر ، عن أبيه نافع : أن ابنة أخ لصفية بنت أبي عبيد نفست بالمزدلفة ، فتخلفت هي وصفية ، حتى أَتَتا من بعد أن غربت الشمس من يوم النحر ، فأمرهما عبد الله بن عمر : أن ترميا ، ولم ير عليهما شيئاً انتهى منه وهو دليل على أن ابن عمر يرى أن رميها في الليل أداء ، لمن كان له عذر كصفية وابنة أخيها . وممن قال برميها ليلاً : مالك وأصحابه ، لأن مذهبه قضاء الرمي الفائت في الليل وغيره .

وفي الموطإ قال يحيى : سُئِلَ مالك عمن نسي جمرة من الجمار في بعض أيام منى حتى

يُمْسي ؟ قال : لِيَرْمِ أية ساعة ذكَرَ من ليل أو نهار ، كما يُصلي الصلاة ، إذا نسيها ، ثم ذكرها ليلاً أو نهاراً ، فإن كان ذلك بعد ما صَدَرَ ، وهو بمكة ، أو بعد ما يَخْرجُ منها فعليه الهَدْيُ واجب انتهى من الموطأ .

وقال الشيخ المواق في شرحه : لمختصر خليل بن إسحاق المالكي في الكلام على قوله : والليل قضاء ، قال بن شاس . للرمي وقت أداء ، ووقت قضاء ، ووقت فوات ، فوقت الأداء : في يوم النحر من طلوع الفجر إلى غروب الشمس قال : وتردد الباجي في الليلة التي تلي يوم النحر هل هي وقت أداء ، أو وقت قضاء ؟ ووقت الأداء في كل يوم من الأيام الثلاثة ، من بعد الزوال ، إلى مغيب الشمس ، وبتردد في الليل كما تقدم انتهى منه .

وقال الشيخ شهاب الدين أحمد الشلبي في حاشيته على : تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق في الفقه الحنفي : ولو أخر الرمي إلى الليل رماها ، ولا شيء عليه ، لأن الليل تبع لليوم في مثل هذا ، كما في الوقوف بعرفة ، فإن أخره إلى الغد رماه وعليه دم انتهى كرماني انتهى منه .

(380/522)

وقال بعض أهل العلم : إن غربت الشمس من يوم النحر ، وهو لم يرم جمرة العقبة ، لم يرمها في الليل ، ولكن يؤخر رميها ، حتى تزول الشمس من الغد ، قال ابن قدامة في المغني : فإن

أخرها إلى الليل ، لم يرمها ، حتى تزول الشمس من الغد وبهذا قال أبو حنيفة ، وإسحاق ، وقال الشافعي ومحمد بن المنذر ويعقوب : يرميها ليلاً لقول النَّبي صلى الله عليه وسلم " ارم ولا حرج " انتهى من المغني .

فإذا عرفت أقوال أهل العلم في الرمي ليلاً هل يجوز أو لا ؟ وعلى جوازه هل هو أداء أو قضاء ؟

فاعلم أن من قال بجواز الرمي ليلاً ، استدل بما ثبت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : من أنه لا حجر على من رمى بعد ما أمسى ، قال البخاري في صحيحه : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا يزيد بن زُرَيعٍ ، حدثنا خالد عن عكرمه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النَّبي صلى الله عليه وسلم يُسأل يوم النحر بمنى فيقول " لا حرج ، فسأله رجل فقال : حلقت قبل أن أذبح ؟ قال : اذبح ولا حرج ، قوال : رميت بعد ما أمسيت ؟ فقال : لا حرج " قالوا : قد صرح النَّبي صلى الله عليه وسلم بأن من رمى بعد ما أمسى لا حرج عليه ، واسم المساء يصدق بجزء من الليل .

واعلم أن من قالوا : لا يجوز الرمي ليلاً ردوا الاستدلال بهذا الحديث قائلين : إن مراد السائل بقوله بعد ما أمسيت يعني به بعد زوال الشمس في آخر النهار قبل الليل قالوا : والدليل الواضح على ذلك : أن حديث ابن عباس المذكور فيه : كان النَّبي صلى الله عليه وسلم ، يسأل يوم النحر بمنى الحديث ، فتصريحه بقوله يوم النحر ، يدل على أن السؤال وقع

في النهار والرمي بعد الإمساء ، وقع في النهار ، لأن المساء يطلق لغة على ما بعد وقت الظهر إلى الليل .

قال ابن حجر في فتح الباري في شرح الحديث المذكور : قال : رميت بعد ما أمسيت : أي بعد دخول المساء وهو يطلق على ما بعد الزوال إلى أن يشتد الظلام ، فلم يتعين لكون الرمي المذكور كان بالليل انتهى منه .

(381/522)

وقال ابن منظور في : لسان العرب المساء بعد الظهر إلى صلاة المغرب ، وقال بعضهم : إلى نصف الليل ا ه .

قالوا : فالحديث صريح في أن المراد بالإمساء فيه آخر النهار ، بعد الزوال لا الليل ، وإذا فلا حجة فيه للرمي ليلاً ، وأجاب القائلون : بجواز الرمي ليلاً عن هذا بأجوبة :

الأول منها : أن قول النَّبي صلى الله عليه وسلم " لا حرج " بعد قول السائل : رميت بعد ما أمسيت يشمل لفظه نفي الحرج ، عمن رمى بعد ما أمسى وخصوص سببه بالنهار لا عبرة به لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب ، ولفظ المساء عام لجزء من النهار وجزء من الليل ، وسبب ورود الحديث المذكور خاص بالنهار ، وقد قدمنا الأدلة الصحيحة

على أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك .

الجواب الثاني : أنه ثبت في بعض روايات حديث ابن عباس المذكور ، ما هو أعلم من يوم النحر ، وهو صادق قطعاً ، بحسب الوضع اللغوي ببعض أيام التشريق ، ومعلوم أن الرمي فيها لا يكون إلا بعد الزوال فقول السائل في بعض أيام التشريق : رميت بعد ما أمسيت لا ينصرف إلا إلى الليل ، لأن الرمي فيها بعد الزوال معلوم فلا يسأل عنه صحابي .

(382/522)

قال أبو عبد الرحمن النسائي في سننه أخبرنا محمد بن عبد الله بن بَزِيعٍ ، قال : حدثنا يزيد ، هو ابن زُرَيعٍ قال : حدثنا خالد عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل أيامَ منىً فيقول " لا حرج " فسأله رجل فقال : حلقت قبل أن أذبح قال : " لا حرج " فقال رجل : رميت بعد ما أمسيت قال : " لا حرج " انتهى منه ، وهذا الحديث صحيح الإسناد كما ترى ، لأن طبقته الأولى ، محمد بن عبد الله بن بزيع ، وهو ثقة معروف ، وهو من رجال مسلم في صحيحه ، وبقية إسناده هي بعينها إسناد البخاري الذي ذكرناه آنفاً ، وقوله في هذا الحديث الصحيح : أيام منى بصيغة الجمع صادق بأكثر من يوم

واحد ، فهو صادق بحسب وضع اللغة ببعض أيام التشريق ، والسؤال عن الرمي بعد المساء فيها لا ينصرف إلا إلى الليل كما بينا .

فإن قيل : صيغة الجمع في رواية النسائي تخصص بيوم النحر الوارد في رواية البخاري فيحمل ذلك الجمع على المفرد نظراً لتخصيصه به ، ويؤيد ذلك : أن في رواية أبي داود وابن ماجه لحديث ابن عباس المذكور ، يوم منى بالإفراد .

فالجواب : أن المقرر في الأصول أن ذكر بعض أفراد العام ، بحكم العام لا يخصصه على مذهب الجمهور ، خلافاً لأبي ثور . سواء كان العام ، وبعض أفراده المذكور بحكمه في نص واحد أو نصين .

فمثال كونهما في نص واحد قوله تعالى : ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ [البقرة : 238] فلا يخصص عموم الأمر بالمحافظة على جميع الصلوات بالصلاة الوسطى بل المحافظة على جميعها واجبة .

(383/522)

ومثال كونهما في نصين : حديث ابن عباس العام في جلود الميتة " أيما إهاب دبغ فقد طهر " مع حديثه الآخر أنه تصدق على مولاة لميمونة بشاة فماتت فمر بها رسول الله صلى الله

عليه وسلم فقال " هلا أخذتم إهابها فدبغتموه فانتفعتم به " الحديث ، فذكر جلد الشاة في هذا الحديث الآخير لا يخصص عموم الجلود المذكورة " أيما إهاب دبغ " الحديث ، فذكر جلد الشاة في هذا الحديث الأخير لا يخصص عموم الجلود المذكورة " أيما إهاب دبغ " الحديث ، فجواز الانتفاع عام في جلد الشاة ، وفي غيرها من الأهب إلا ما أخرجه دليل خاص ، لأن ذكر بعض أفراد العام بحكم العام لا يخصصه ، وإلى ذلك أشار في مراقي السعود بقوله عاطفاً على ما لا يخصص به العموم .

وذكر ما وافقه من مفرد . . . ومذهب الراوي على المعتمد

وللمخالفين القائلين : لا يجوز الرمي ليلاً أن يردوا هذا الاستدلال فيقولوا رواية النسائي العامة في أيام منى فيها أنه كان يسأل فيها فيقول " لا حرج " وأنه سأله رجل فقال : رميت بعد ما أمسيت فقال " لا حرج " ولم يعين اليوم الذي قال فيه : رميت بعد ما أمسيت وعموم أيام منى صادق بيوم النحر وقد بينت رواية البخاري أن ذلك السؤال وقع في خصوص يوم النحر من أيام منى ولا ينافي ذلك أنه قال : لا حرج في أشياء أخر في بقية أيام منى ، وغاية ذلك أن أيام منى عام ورواية البخاري عينت اليوم الذي قال فيه رميت بعد ما أمسيت .

الجواب الثالث : هو ما قدمنا في الموطأ عن ابن عمر من : أنه أمر زوجته صفية بنت أبي عبيد وابنة أخيها ، برمي الجمرة بعد الغروب ، ورأى أنهما لا شيء عليهما في ذلك ، وذلك يدل على أنه علم من النَّبي صلى الله عليه وسلم أن الرمي ليلاً جائز ، وقد يقال : إن صفية

وابنة أخيها كان لهما عذر ، لأن ابنة أخيها عذرها النفاس ليلة المزدلفة وهي عذرها معاونة ابنة أخيها ، والعلم عند الله تعالى .

(384/522)

الفرع السابع : اعلم أنه لا بأس بلقط الحصيات من المزدلفة : أعني السبع التي ترمى بها جمرة العقبة يوم النحر ، وبعض أهل العلم يقول : إن لقطها من المزدلفة مستحب ، واستدلوا لذلك بأمرين :

الأول : حديث الفضل بن العباس رضي الله عنهما أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال له غداة يوم النحر

" القط لي حصى " فلقطت له حصيات مثل حصى الخذف ، قال النووي في شرح المهذب : وأما حديث الفضل بن عباس في لقط الحصيات ، فصحيح رواه البيهقي بإسناد حسن أو صحيح وهو على شرط مسلم من رواية عبد الله بن عباس ، عن أخيه الفضل بن عباس ، ورواه النسائي وابن ماجه بإسنادين صحيحين إسناد النسائي ، على شرط مسلم ، لكنهما روياه من رواية ابن عباس مطلقاً ، وظاهر روايتيهما أنه عبد الله بن عباس ، لا الفضل وكذا ذكره الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في الأطراف في مسند عبد الله بن عباس ،

لا الفضل بن عباس ، ولم يذكره في مسند الفضل والجميع صحيح كما ذكرناه ، فيكون ابن عباس وصله في رواية البيهقي وأرسله في روايتي النسائي ، وابن ماجه ، وهو مرسل صحابي وهو حجة لو لم يعرف المرسل عنه فأولى بالاحتجاج ، وقد عرف هنا أنه الفضل بن عباس .

فالحاصل : أن الحديث صحيح من رواية الفضل بن عباس والله أعلم ، انتهى كلام النووي .

الأمر الثاني : أن السنة أنه إذا أتى منى لا يشتغل بشيء قبل الرمي ، فاستحب أن يأخذ الحصى من منزله بمزدلفة لئلا يشتغل عن الرمي بلقطه إذا أتى منى ، ولا شك أنه إن أخذ الحصى من غير المزدلفة أنه يجزئه لأن اسم الحصى يعق عليه ، والله تعالى أعلم .

الفرع الثامن : اعلم أن السنة أن يكون الحصى الذي يرمي به مثل حصى الخذف ، لأحاديث واردة بذلك عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وفي حديث جابر الطويل في صحيح مسلم : فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها حصى الخذف الحديث .

(385/522)

قال في اللسان : والخذف رميك بحصاة ، أو نواة تأخذها بين سبابتيك ، وقال الجوهري في صحاحه : الخذف بالحصى الرمي به بالأصابع ومنه قول الشاعر : " خذف أعسرا " ا ه

منه ، والشاعر امرؤ القيس وتمام البيت :

كأن الحصى من خلفا وأمامها . . . إذا نجلته رجلها خذف أعسرا

الفرع التاسع : اعلم أن جمهور العلماء على أ ، رمي جمرة العقبة واجب يجبر بدم ، وخالف عبد الملك بن الماجشون من أصحاب مالك الجمهور فقال : هو ركن واحتج الجمهور بالقياس على ا لرمي في أيام التشريق واحتج ابن الماجشون : بأن النَّبي صلى الله عليه وسلم رماها ، وقال " لتأخذوا عني مناسككم "كما في صحيح مسلم ، وفي رواية البيهقي " خذوا عني مناسككم " وفي رواية أبي داود : " لتأخذوا عني مناسككم " .

الفرع العاشر : أجمع العلماء على أنه لا يرمي من الجمرات يوم النحر إلا جمرة العقبة .

الفرع الحادي عشر : اعلم أن الأفضل في موقف من أراد رمي جمرة العقبة أن يقف في بطن الوادي ، وتكون منى عن يمينه ، ومكة عن يساره كما دلت الأحاديث الصحيحة ، على أن النَّبي صلى الله عليه وسلم فعل كذلك .

قال النووي في شرح المهذب : وبهذا قال جمهور العلماء ، منهم ابن مسعود ، وجابر ، والقاسم بن محمد ، وسالم ، وعطاء ، ونافع ، والثوري ، ومالك وأحمد ، قال ابن المنذر : وروينا أن عمر رضي الله عنه خاف الزحام فرماها من فوقها .

المسألة التاسعة : اعلم أنه إذا رمى الجمرة يوم النحر وحلق فقد تحلل التحلل الأول ، وبه يحل كل شيء كان محظوراً بالإحرام إلا النساء . وعند مالك : إلا النساء والصيد والطيب ،

فإن طاف طواف الإفاضة وكان قد سعى بعد طواف القدوم ، أو سعى بعد إفاضته فقد تحلل التحلل الثاني ، وبه يحل كل شيء كان محظوراً بالإحرام ، حتى النساء والصيد والطيب .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : اعلم أنهم اختلفوا في الحلق ، هل هو نسك كما قدمناه في سورة البقرة ؟

(386/522)

فمن قال : هو نسك قال : إن التحلل الأول ، لا يكون إلا بعد الرمي والحلق معاً ، ومن قال : إن الحلق غير نسك قال : يتحلل التحلل الأول بمجرد انتهائه من رمي جمرة العقبة يوم النحر .

وأظهر القولين عندي : أن الحلق نسك ، كما قدمنا إيضاحه في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ [البقرة : 196] الآية .

الفرع الثاني : في مذاهب العلماء في مسألة التحلل : فمذهب مالك : أنه بمجرد رمي جمرة العقبة يوم النحر : يحل له كل شيء إلا النساء والصيد والطيب ، والطيب مكروه عنده بعد رميها لا حرام ، وإن طاف طواف الإفاضة . وكان قد سعى حل له كل شيء ، ومذهب أبي حنيفة : أنه إذا حلق ، أو قصر حل التحلل الأول ، ويحل به كل شيء عنده إلا النساء ،

وإن طاف طواف الإفاضة . حل له النساء ، وهم يقولون إن حل النساء بعد الطواف ، إنما هو بالحلق السابق ، لا بالطواف لأن الحلق هو المحلل ، دون الطواف ، غير أنه أخر عمله إلى ما بعد الطواف فإذا طاف عمل الحلق عمله كالطلاق الرجعي أخر عمله إلى انقضاء العدة لحاجته إلى الاسترداد ، فإذا انقضت عمل الطلاق عمله فبانت .

والدليل على ذلك : أنه لو لم يحلق حتى طاف بالبيت لم يحل له شيء حتى يحلق ، وبذلك تعلم أن المدار عندهم على الحلق ، إلا أن الحلق عندهم بعد رمي جمرة العقبة ، وبعد النحر إن كان الحاج يريد النحر ، ومذهب الشافعي في هذه المسألة هو : أنه على القول بأن الحلق نسك ، يحصل التحلل الأول باثنين من ثلاثة هي : رمي جمرة العقبة ، والحلق ، وطواف الإفاضة ، فإذا فعل اثنين من هذه الثلاثة تحلل التحلل الأول ، وإن فعل الثالث منها تحلل التحلل الثاني ، وبالأول يحل عنده كل شيء إلا النساء ، وبالثاني تحل النساء ، وعلى القول بأن الحلق ليس بنسك ، فالتحلل الأول يحصل بواحد من اثنين : هما رمي جمرة العقبة ، وطواف الإفاضة .

(387/522)

ويحصل التحلل الثاني بفعل الثاني ، ومذهب الإمام أحمد هو أنه إن رمى جمرة العقبة ، ثم حلق تحلل التحلل الأول ، وبه يحل عنده كل شيء إلا النساء ، فإن طاف طواف الإفاضة ، حلت له النساء .

وقال ابن قدامة في المغني بعد أن ذكر أن هذا هو الصحيح من مذهب أحمد . وهذا قول ابن الزبير ، وعائشة وعلقمة ، وسالم ، وطاوس ، والنخعي ، وعبد الله بن الحسين ، وخارجة بن زيد ، والشافعي ، وأبي ثور ، وأصحاب الرأي ، وروي أيضاً عن ابن عباس ، وعن أحمد أنه يحل له كل شيء إلا الوطء في الفرج ، لأنه أغلظ المحرمات ، ويفسد النسك ، بخلاف غيره . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يحل له كل شيء ، إلا النساء ، والطيب . وروي ذلك عن ابن عمر وعروة بن الزبير ، وعباد بن عبد الله بن الزبير ، لأنه من دواعي الوطء فأشبه القبلة ، وعن عروة : أنه لا يلبس القميص ، ولا العمامة ، ولا يتطيب ، وروي في ذلك عن النَّبي صلى الله عليه وسلم حديثاً انتهى كلام صاحب المغني .

وإذا عرفت أقوال أهل العلم في المسألة ، فهذه تفاصيل أدلتهم .

أما حجة مالك في أن التحلل الأول يحل به ما سوى النساء والصيد والطيب : أما بالنسبة إلى الصيد ، فلم أر له مستنداً من النقل ، إلا أمرين :

أحدهما : أثر مروي عن مكحول عن عمر رضي الله عنه أنه قال : إذا رميتم الجمرة ، فقد حل لكم كل شيء إلا النساء والطيب والصيد : ذكر هذا الأثر صاحب المهذب ، وقال

النووي في شرحه : وأما الأثر المذكور عن عمر رضي الله عنه فهو مرسل . لأن مكحولاً لم يدرك عمر فحديثه عنده منقطع ومرسل . والله أعلم .

والثاني : التمسك بظاهر قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصيد وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة : 95] لأن حرمة الجماع المتفق عليها بعد رمي جمرة العقبة ، دليل على بقاء إحرامه في الجملة ، فيشمله عموم ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصيد وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ ، لأنه لو زال حكم إحرامه بالكلية ، لما حرم عليه الوطء .

(388/522)

وأما حجته أعني مالكاً بالنسبة إلى النساء والطيب ، فهي ما روى في موطئه عن نافع ، وعبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب الناس بعرفة ، وعلمهم أَمرَ الحج ، وقال لهم فيما قال : إذا جئتم منًى ، فمن رَمَى الجمرة ، فقد حل له ما حرم على الحاج إلا النِساء والطيب لا يَمَسَّ أحد نساءً ولا طيباً حتى يطوف بالبيت ا ه .

ومما يستدل به لمالك على ذلك ، ما رواه الحاكم في المستدرك : حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ ، ثنا إبراهيم بن عبد الله ، أنبأ زيد بن هارون ، أنبأ يحيى بن سعيد عن

القاسم بن محمد ، عن عبد الله بن الزبير قال : من سُنَّة الحج أن يصلي الإمام الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والصبح بمنى ، ثم يغدو إلى عرفة الحديث ، وفيه : فإذا رمى الجمرة الكبر حل له كل شيء حرم عليه إلا النساء والطيب حتى يزور البيت ا ه .

ثم قال : هذا حديث على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، ولم يتعقبه عليه الذهبي .

هذا هو حاصل حجة مالك وأصحابه في أن التحلل الأول يحل به ، ما عدا النساء والصيد والطيب ، وقد قدمنا أن الطيب بعد رمي الجمرة مكروه عنده لا حرام .

وأما حجة من قال : إنه إن رمى جمرة العقبة وحلق : حل له كل شيء إلا النساء : كأحمد والشافعي ومن وافقهما ، فمنها حديث عائشة المتفق عليه ، قالت : كنت أطيِّبُ رسُول الله صلى الله عليه وسلم لإحرامه ، حين يحرم ولِحِلِّهِ قبل أن يطوف بالبيت . هذا لفظ البخاري في صحيحه ، ولفظ مسلم في صحيحه عن عائشة قالت : طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم لِحُرْمِهِ حين أحْرَمَ ، ولِحِلِّهِ قبل أن يَطُوفَ بالبيت ، وفي لفظ : طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي لِحُرْمِهِ حِينَ أَحْرَمَ ، ولِحِلِّه حين أحَلَّ . قبل أن يطوف بالبيت . وقد ذكر مسلم لهذا الحديث ألفاظاً متعددة متقاربة معناها واحد .

(389/522)

منها قالت : طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم لِحُرْمِهِ حين أَحْرَمَ وَلِحِلِّهِ قبل أن يُفِيضَ بأطيبِ ما وجدت .

ومن أدلتهم على ذلك : ما رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا رميتم الجمرة فقد حلَّ لكم كل شيء إلا النساء . قال رجل : والطيب ؟ فقال ابن عباس : أما أنا فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضمخ رأسه بالمسك ، أفطيب ذلك أم لا ؟ قال النووي في شرح المهذب في حديث ابن عباس هذا : وقد روى النسائي بإسناده عن الحسين بن عبد الله العرني ، عن ابن بعاس قال : قال رسول الله صلى الله لعيه وسلم " إذا رميتم الجمرة فقد حل لكم كل شيء إلا النساء " هكذا رواه النسائي وابن ماجه مرفوعاً ، وإسناده جيد ، إلا أن يحيى بن معين وغيره ، قالوا : يقال : إن الحسن العُرَنِيّ لم يسمع ابن عباس ورواه البيهقي موقوفاً على ابن عباس . انتهى كلام النووي رحمه الله .

والذي رأيته في سنن النسائي ، وابن ماجه : أن حديث الحسن العرني المذكور موقوف عندهما على ابن عباس ، إلا ما ذهره من أنه رأى النَّبي صلى الله عليه وسلم يتضمخ بالمسك . وقال ابن حجر في تهذيب التهذيب في الحسن العرني المذكور ، قال أحمد : لم يسمع من ابن عباس شيئاً ، وقال أبو حاتم : لم يدركه ا ه . والعرني بضم العين ، وفتح الراء ثم نون : نسبة إلى عرينة بطن من بجيلة .

ومن أدلتهم على ذلك : ما رواه أبو داود في سننه من طريق الحجاج بن أرطاة عن الزهري عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا رمى أحدكم جمرة العقبة ، فقد حل له كل شيء إلا النساء " ا ه .

ومعلوم أن هذا الحديث ضعيف من وجهين :

أحدهما : هو ما قدمنا من تضعيف الحجاج بن أرطاة .

(390/522)

والثاني : أن الحجاج المذكور لم يسمع من الزهري . وقد قال أبو داود في سننه بعد أن ساق هذا الحديث : هذا حديث ضعيف : الحجاج لم ير الزهري ولم يسمع منه ، وقال النووي في شرح المهذب في هذا الحديث : أما حديث عائشة رضي الله عنها فرواه أبو داود بإسناد ضعيف جداً من رواية الحجاج بن أرطاة وقال : هو حديث ضعيف ا ه .

هذا هو حاصل حجة من قال : إنه يحل له بعد رمي جمرة العقبة كل شيء إلا النساء ، وأما ما ذكرنا عن الشافعي : من أنه يحل له كل شيء إلا النساء باثنين من ثلاثة : هي الرمي ، والحلق ، والطواف ، وتحل النساء بالثالث منها ، بناء على أن الحلق نسك ، وعلى أنه ليس بنس ، يحل له كل شيء إلا النساء بواحد من اثنين ، هما : الرمي ، والطواف وتحل له

النساء بالثاني منهما لم نعلم له نصاً يدل عليه ، هكذا والظاهر أنه رأى هذه الأشياء لها مدخل في التحلل ، وقد دل النص الصحيح على حصول التحلل الأول بعد الرمي والحلق ، فجعل هو الطواف كواحد منهما . والله تعالى أعلم .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : التحقيق أن الطيب يحل له بالتحلل الأول ، لحديث عائشة المتفق عليه الذي هو صريح في ذلك . وكذلك لبس الثياب ، وقضاء التفث ، وأن الجماع لا يحل إلا بالتحلل الأخير ، وأما حلية الصيد بالتحلل الأول فهي محل نظر ، لأن الأحاديث التي فيها التصريح ، بأنه يحل له كل شيء إلا النساء ، قد علمت ما فيها من الكلام ، وحديث عائشة المتفق عليه ، لم يتعرض لحل الصيد .

وظاهر قوله : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة : 95] يمكن أن يتناول ما بعد التحلل الأول ، لأن حرمة الجماع تدل على أنه متلبس بالإحرام في الجملة ، وإن كان قد حل له بعض ما كان حراماً عليه ، والله تعالى أعلم .

المسألة العاشرة في أحكام الرمي

(391/522)

اعلم أنّا قدمنا في الكلام على الإفاضة من مزدلفة إلى منى ، بعض أحكام رمي جمرة العقبة ، فبينا كلام العلماء في حكمه ، وفي أول وقته وآخره ، وذكرنا بعض الأحكام المتعلقة برميها قريباً ، والآن سنذكر إن شاء الله المهم من أحكام الرمي .

اعلم أن الرمي في أيام التشريق واجب ، يجبر بدم عند جماهير العلماء على اختلاف بينهم في تعدد الدماء فيه ، وعدم تعددها ، ولا خلاف بينهم في أنه ليس بركن لأن الحج يتم قبله ، ويتحلل صاحبه التحلل الأصغر والأكبر ، فيحل له كل شيء حرم عليه بالإ ؛ رام ، فحجه تام إجماعاً قبل رمي أيام التشريق ، ولكن رميها واجب يجبر بدم ، لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم رمى فيها ، وقال

" لتأخذوا عني مناسككم " .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : اعلم أن التحقيق أنه لا يجوز الرمي في أيام التشريق ، إلا بعد الزوال ، لثبوت ذلك عن النَّبي صلى الله عليه وسلم .

ففي صحيح مسلم من حديث جابر قال : " رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمرة يوم النحر ضحى ، وأما بعد فإذا زالت الشمس " هذا لفظ مسلم عنه في صحيحه ، وحديث جابر هذا الذي رواه مسلم في صحيحه موصولاً باللفظ الذي ذكرنا ، رواه البخاري تعليقاً مجزوماً به بلفظ : وقال جابر " رمى النَّبي صلى الله عليه وسلم ، يوم النحر

ضحى ورمى بعد ذلك بعد الزوال " ثم ساق البخاري رحمه الله بسنده عن ابن عمر قال : كنا نتحين ، فإذا زالت الشمس رمينا .

(392/522)

وقال ابن حجر في فتح الباري في قول ابن عمر : كنا نتحين . الحديث ، فأعلمه بما كانوا يفعلونه في زمن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وهو دليل على أن الحافظ ابن حجر يرى قول ابن عمر : كنا نتحين ، فإذا زالت الشمس رمينا له حكم الرفع ، وحديث جابر الصحيح المذكور قبله صريح في الرفع ، وروى الإمام أحمد ، وأبو داود ، عن عائشة رضي الله عنها قالت " أفاض رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر يوم حين صلى الظهر ، ثم رجع إلى منى فمكث بها ليالي أيام التشريق يرمي الجمرة إذا زالت الشمس " الحديث ، وفي إسناده محمد بن إسحاق ، صاحب المغازي ، وهو مدلس ، وقد قال ابن إسحاق المذكور في الإسناد المذكورن عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، عن عائشة ، والمدلس إذا عنعن لم تقبل روايته عند أهل الحديث وقد قدمنا مراراً أن من يحتج بالمرسل ، يحتج بعنعنة المدلس من باب أولى ، وأن المشهور عن أبي حنيفة ، ومالك ، وأحمد : الاحتجاج بالمرسل . وروى الإمام أحمد ، وابن ماجه ، والترمذي وحسنه عن ابن عباس قال " رمى رسول الله صلى

الله عليه وسلم الجمار حين زالت الشمس " .

وبهذه النصوص الثابتة عن النَّبي صلى الله عليه وسلم تعلم أن قول عطاء وطاوس بجواز الرمي في أيام التشريق ، قبل الزوال ، وترخيص أبي حنيفة في الرمي يوم النفر قبل الزوال ، وقول إسحاق : إن رمى قبل الزوال في اليوم الثالث أجزأه كل ذلك ، خلاف التحقيق لأنه مخالف لفعل النَّبي صلى الله عليه وسلم الثابت عنه المعتضد بقوله : " لتأخذوا عني مناسككم " ولذلك خالف أبا حنيفة في ترخيصه المذكور صاحباه محمد وأبو يوسف ، ولم يرد في كتاب الله ، ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم شيء يخالف ذلك ، فالقول بالرمي قبل الزوال أيام التشريق ، لا مستند له ألبتة ، مع مخالفته للسنة الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم ، فلا ينبغي لأحد أن يفعله ، والعلم عند الله تعالى .

(393/522)

الفرع الثاني : اعلم أنه يجب الترتيب في رمي الجمار ، أيام التشريق فيبدأ بالجمرة الأولى ، التي تلي مسجد الخيف ، فيرميها بسبع حصيات ، مثل حصى الخذف ، يكبر مع كل حصاة ، ثم يقف ، فيدعو طويلاً ، ثم ينصرف إلى الجمرة الوسطى ، فيرميها كالتي قبلها ، ثم يقف ، فيدعو طويلاً ، ثم ينصرف إلى جمرة العقبة ، فيرميها كذلك ، ولا يقف عندها ، بل

ينصرف إذا رمى وهذا الترتيب على النحو الذي ذكرنا هو الذي فعله النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وأمر بأخذ المناسك عنه . فعلينا أن نأخذ عنه من مناسكنا الترتيب المذكور .

ففي صحيح البخاري رحمه الله من حديث ابن عمر رضي الله عنهما : أنه كان يرمي الجمرة الدنيا ، بسبع حصيات ، يكبر على إِثْرِ كل حصاةٍ ، ثم يتقدَّم ، حتى يُسْهِلَ ، فيقوم مستقبل القبلة ، فيقوم طويلاً ، ويدعو ويرفع يديه ، ثم يرمي الوُسطى ، ثم يأخذ ذات الشمال فيستهل ، ويقوم مستقبل القبلة فيقوم طويلاً ، ويدعو ويرفع يديه ويقوم طويلاً ثم يرمي جمرة ذات العقبة من بطن الوادي ، ولا يقف عندها ، ثم ينصرف فيقول : هكذا رأيت النَّبي صلى الله عليه وسلم يفعله اه . روى البخاري هذا الحديث في ثلاثة أبواب متوالية ، وهو نص صحيح صريح في الترتيب المذكور ، وقد قال صلى الله عليه وسلم " لتأخذوا عني مناسككم " فإن لم يرتب الجمرات ، بأن بدأ بجمرة العقبة لم يجزئه الرمي منسكاً لأنه خالف هدي النَّبي صلى الله عليه وسلم وفي الحديث " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " وتنكيس الرمي عمل ليس من أمرنا ، فيكون مردوداً ، وبهذا قال مالك والشافعي وأحمد وجمهور أهل العلم ، وقال أبو حنيفة : الترتيب المذكور سنة ، فإن نكس الرمي أعاده وإن لم يعد أجزأه ، وهو قول الحسن وعطاء ، واحتجوا بأدلة لا تنهض . وعلى الصحيح الذي هو قول الجمهور : إن الترتيب شرط لو بدأ بجمرة العقبة ، ثم الوسطى ، ثم الأولى أو بدأ بالوسطى ، ورمى الثلاث لم يجزه إلا الأولى ، لعدم الترتيب

في الوسطى والأخيرة ، فعليه أن يرمي الوسطى ، ثم الأخيرة ، ولو رمى جمرة العقبة . ثم الأولى ، ثم الوسطى أعاد جمرة العقبة وحدها هذا هو الظاهر .

واعلم أن العلماء اختلفوا في مسائل كثيرة من مسائل الرمي ، ليس فيها نص ، وسنذكر هنا بعض ذلك مما يظهر لنا أنه أقرب للصواب ، مع الاختصار ، لعدم النصوص في ذلك .

فمن ذلك : أن الأقرب فيما يظهر لنا أنه لا بد من رمي الحصاة بقوة ، فلا يكفي طرحها ، ولا وضعها باليد في المرمى ، لأ ، ذلك ليس برمي في العرف ، خلافاً لمن قال : إنه رمي ، وأنه لا بد من وقوع الحصاة في نفس المرمى ، وهو الجمرة التي يحيط بها البناء واستقرارها فيه خلافاً لمن قال : إنها إن وقعت في المرمى ثم تدحرجت حتى خرجت منه : أنه يجزئه ، وأنها لو ضربت شيئاً دون المرمى ، ثم طارت ، وسقطت في المرمى : أن ذلك يجزئه ، بخلاف ما لو جاءت في محمل ، أو في ثوب رجل ، فتحرك المحمل أو الرجل فسقطت في المرمى ، فإنها لا تجزئ ، وكذلك لو جاءت دون المرمى ، فأطارت حصاة أخرى ، فجاءت هذه الحصاة الأخرى في المرمى ، فإنها لا تجزئه .

لأن الحصاة التي رماها لم تسقط في المرمى ، وإنما وقعت فيه الحصاة التي أطارتها ، وأنها إن

أخطأت المرمى ، ولكن سقطعت قريباً منه ، أن ذلك لا يجزئه ، خلافاً لمن قال : يجزئه ، وأنه لا ينبغي أن يرمي إلا بالحجارة ، فلا ينبغي الرمي بالمدر ، والطين ، والمغرة ، والنورة ، والزرنيخ ، والملح ، والكحل ، وقبضة التراب ، والأحجار النفيسة : كالياقوت ، والزبرجد ، والزُّمُرُّدْ ، ونحو ذلك ، خلافاً لمن أجاز الرمي بذلك .

(395/522)

ولا يجوز الرمي بالخضب ، والعنبر ، واللؤلؤ ، والجواهر ، والذهب ، والفضة ، والأقرب أيضاً أن الحصاة إن وقعت فيه شقوق في البناء المنتصب في وسط الجمرة ، وسكنت فيها أنها لا تجزئ ، لأنها وقعت في هواء المرمى ، لا في نفس المرمى خلافاً لمن قال : إنها تجزئه ، والأقرب : أنه لا يلزم غسل الحصى لعدم الدليل على ذلك ، وأنه لو رمى بحصاة نجسة أجزأه ذلك لصدق اسم الرمي عليه ، وعدم نص على اشتراط طهارة الحصى مع كراهة ذلك عند بعض أهل العلم ، وقول بعضهم : بعدم الإجزاء والأقرب أنه لو مرى بحصاة قد رمى بها أنها تجزئه ، لصدق اسم الرمي عليها ، وعدم النص على منع ذلك ، ولا على عدم إجزائه ولكن الأحوط في الجميع الخروج من الخلاف ، كما قال بعضهم :

وأن الأورع الذي يخرج من . . . خلافهم ولو ضعيفاً فاستبن

وفي كتب الفروع هنا أشياء تركناها لكثرتها .

تنبيه

اعلم أن العلماء اختلفوا في المعنى الذي منه الجمرة ، فقال بعض أهل العلم : الجمرة في اللغة : الحصاة ، وسميت الجمرة التي هي موضع الرمي بذلك ، لأنها المحل الذي يرمي فيه بالحصى ، وعلى هذا فهو من تسمية الشيء باسم ما يحل فيه ، وهو أسلوب عربي معروف ، وهو عند البلاغيين من نوع ما يسمونه المجاز المرسل ، والتجمير رمي الحصى في الجمار ومنه قول عمر بن أبي ربيعة :

بدَا لِي منها معصمٌ يوم جَمَّرت . . . وكفٌّ خضيبٌ زُيِّنت ببنانِ

فوالله ما أدري وإني لحاسبٌ . . . بسبع رميتُ الجمرَ أم بثمانِ

والمجمر بصيغة اسم المفعول مضعفاً : هو الموضع الذي ترمى فيه الجمار ، ومنه قول حذيفة بن أنس الهذلي :

لأدركهم شُعْث النواصي كأنهم . . . سوابقُ حجَّاج تُوافِي المجمَّرا

(396/522)

وقال بعض أهل العلم : أصل الجمرة من التجمر بمعنى التجمع ، تقول العرب : تجمَّر القوم ، إذا اجتمعوا ، وانضم بعضهم إلى بعض ، وجمرهم الأمر : أحوجهم إلى التجمر ، وهو التجمع ، وجمر الشيء : جمعه ، وجمر الأمير الجيش ، إذا أطال حبسهم مجتمعين بالثغر ، ولم يأذن لهم في الرجوع والتفرق ، وروى الربيع : أن الشافعي أنشده في ذلك قول الشاعر :

وجمَّرتْنا تجميرَ كسرى جُنوده . . . ومنيتنا حتى نسينا الأمَانِيَا

والجمار : القوم المجتمعون ، ومنه قول الأعشى :

فَمَنْ مُبلغٍ وائلاً قومَنا . . . وأعني بذلك بكراً جمارا

أي مجتمعين ، وعلى هذا فاشتقاق الجمرة من التجمر بمعنى : التجمع لاجتماع الحجيج عندها يرمونها ، وقيل : لأن الحصى يتجمع فيها ، وقيل : اشتقاق الجمرة من أجمر إذا أسرع ، لأن الناس يأتون مسرعين لرميها . وقيل : أصلها من جمرته إذا نحيته وأظهرها القول الأول والثاني ، والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثالث : في آخر وقت الرمي أيام التشريق .

قد علمت أن أول وقت رميها بعد الزوال ، ولا خلاف بين العلماء ، أن بقية اليوم وقت للرمي إلى الغروب .

واختلفوا فيما بعد الغروب ، فمنهم من يقول : إن غربت الشمس ، ولم يرم رمى بالليل ، وبعضهم يقول : الليل قضاء ، وبعضهم يقول : أداء ، وقد قدمنا أقوالهم ، وحججهم في

الكلام على رمي جمرة العقبة ، ومنهم من يقول : لا يرمي بالليل ، بل يؤخر الرمي ، حتى تزول الشمس من الغد كما قدمناه ، مع إجماعهم على فوات وقت الرمي بغروب اليوم الثالث عشر من ذي الحجة الذي هو رابع يوم النحر .

واعلم أن هذا الحكم له حالتان :

الأولى : حكم الرمي في الليلة التي تلي اليوم الذي فاته الرمي فيه من أيام التشريق .

والثانية : الرمي في وم آخر من أيام التشريق .

(397/522)

أما الليل فقد قدمنا أن الشافعية والمالكية والحنفية كلهم يقولون : يرمي ليلاً ، والمالكية بعضهم يقولون : الرمي ليلاً قضاء ، وهو المشهور عندهم ، وبعضهم يتوقف في كونه قضاء أو أداء ، كما قدمناه عن الباجي ، والحنفية يقولون : إن الليلة التي بعد اليوم تبع له ، فيجوز الرمي فيها تبعاً له ، فيجوز الرمي فيها تبعاً لليوم ، والشافعية لهم وجهان مشهوران في الرمي في الليلة التي بعد اليوم ، هل هو أداء ، أو قضاء ؟ كما قدمناه مستوفى ، والحنابلة قدمنا أنهم يقولون : لا يرمي ليلاً ، بل يرمي من الغد بعد زوال الشمس ، كما ذكرنا فيه كلام صاحب المغني وأما رمي يوم من أيام التشريق في يوم آخر منها ، فلا خلاف فيه بين من يعتد

به من أهل العلم ، إلا أنهم اختلفوا في أيام التشريق الثلاثة هل هي كيوم واحد ؟ فالرمي في جميعها أداء ، لأنها وقت للرمي كيوم واحد ، أو كل يوم منها مستقل ، فإن فات هو وليلته التي بعده فات وقت رميه ، فيكون رميه ، فيكون قضاء في اليوم الذي ب عده ، فعلى القول الأول لو رمى عن اليوم الأول في الثاني أو عن الثاني في الثالث ، أو عن الأول والثاني في الثالث ، فلا شيء عليه ، لأنه رمى في وقت الرمي ، وعلى الثاني يلزمه دم عن كل يوم فاته رمي فيه إلى الغد ، عند من يقول : بتعدد الدماء كالشافعية ، أو دم واحد عن اليومين ، عند من يقول : بعدم التعدد .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : التحقيق في هذه المسألة أن أيام التشريق كاليوم الواحد بالنسبة إلى الرمي ، فمن رمى عن يوم منها في يوم آخر منها أجزأه ، ولا شيء عليه ، كما هو مذهب أحمد ، ومشهور مذهب الشافعي ، ومن وافقهما .

(398/522)

والدليل على ذلك : هو ما رواه مالك في الموطأ ، والإمام أحمد ، والشافعي ، وابن حبان ، والحاكم ، وأصحاب السنن الأربعة ، عن عاصم بن عدي العجلاني رضي الله عنه ، أن النَّبي صلى الله عليه وسلم رخَّص لرعاء الإبل ، أن يرموا يوماً ، ويدعو يوماً هذا لفظ أبي

داود ، والنسائي وابن ماجه ، وفي لفظ : رخَّص رسول الله صلى الله عليه وسلم لرعاء الإبل في البيتوتة عن منى ، يرمون يوم النحرن ثم يرمون الغداة ، ومن بعد الغداة ليومين ، ثم يرمون يوم النفر . ولهذا الحديث ألفاظ متقاربة غير ما ذكرنا ، ومعناها واحد ، وقال الإمام مالك رحمه الله في الموطأ : ما نصه : تفسير الحديث الذي أرخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لرعاء الإبل في تأخير رمي الجمار فيما نرى والله أعلم : أنهم يرمون يوم النحر ، فإذا مضى اليوم الذي يلي يوم النحر رموا من الغد ، وذلك يوم النفر الأول ، فيرمون لليوم الذي مضى ، ثم يرمون ليومهم ذلك ، لأنه لا يقضي أحد شيئاً حتى يجب عليه ، فإذا وجب عليه ومضى كان القضاء بعد ذلك ، فإن بدا لهم النفر فقد فرغوا ، وإن أقاموا إلى الغد رموا مع الناس يوم النفر الآخر ، ونفروا . انتهى منه ، وهذا المعنى الذي فسر به الحديث هو صريح معناه في رواية من روى : أن يرموا يوماً ويدعوا يوماً ، وحديث عاصم العجلاني هذا قال فيه الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(399/522)

فإن قيل : أنتم سقتم هذا الحديث مستدلين به على أن أيم التشريع كاليوم الواحد ، لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم لما رخص لهم في تأخير رمي يوم إلى اليوم الذي بعده ، دل ذلك على أن

اليوم الثاني وقت لرمي اليوم الأول ، لأنه لو فات وقته لفات بفوات وقته لإجماع العلماء على أنه لا يقضي في اليوم الرابع عشر من ذي الحجة الذي هو خامس يوم النحر فما بعده ، ولكن ظاهر كلام مالك في تفسيره الحديث المذكور ، يدل على أن رمي يوم في اليوم الذي بعده قضاء لقوله في كلامه المذكور : فإذا وجب عليه ومضى كان القضاء .

فالجواب عن ذلك من وجهين :

أحدهما : أن إطلاق القضاء على ما فات وقته بالكلية اصطلاح حادث للفقاء ، لأن القضاء في الكتاب والسنة يطلق على فعل العبادة في وقتها ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصلاة ﴾ [النساء : 103] الية ، وقوله : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة ﴾ [الجمعة : 10] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَّنَاسِكَكُمْ ﴾ [البقرة : 200] الآية . فالقضاء في هذه الآيات بمعنى الأداء .

الوجه الثاني : أنا لو فرضنا أن مالكاً رحمه الله ، يريد بالقضاء في كلامه المذكور المعنى الاصطلاحي عند الفقهاء ، وهو أن القضاء فعل العبادة بعد خروج وقتها المعين لها تداركاً لشيء علم تقدم ما أوجب فعله في خصوص وقته ، كما هو المعروف في مذهبه . إنه إن أخر الرمي إلى الليل فما بعده ، أنه قضاء . يلزم به الدم ، فإنا لا نسلم أن رمي يوم في اليوم الذي بعده قضاء لعبادة ، خرج وقتها بالكلية استناداً لأمرين :

الأول : أن رمي الجمار عبادة موقتة بالإجماع ، فإذن النَّبي صلى الله عليه وسلم في فعلها في وقت ، دليل واضح على أن ذلك الوقت من أجزاء وقت تلك العبادة الموقتة ، لأنه ليس من المعقول أن تكون هذه العبادة موقتة بوقت معين ينتهي بالإجماع في وقت معروف ، ويأذن النَّبي صلى الله عليه وسلم في فعلها في زمن ليس من أجزاء وقتها المعين لها . فهذا لا يصح بحال ، وإذا تقرر أن الوقت الذي أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في فعل العبادة الموقتة فيه أنه من وقتها ، علم أنها أداء لا قضاء ، والأداء في اصطلاح أهل الأصول هو إيقاع العبادة في وقتها المعين لها شرعاً ، لمصلحة اشتمل عليها ذلك الوقت .

الأمر الثاني : أنه لا يمكن أن يقال هنا : إن النَّبي صلى الله عليه وسلم أمر بالرمي في وقت غير وقته ، بل بعد فوات وقته ، وأن أمره به في ذلك الوقت أمر بقضائه بعد فوات وقته المعين له ، لما قدمنا من إجماع المسلمين على أنه لا يجوز الرمي في رابع يوم النحر ، ولو كان يجوز قضاء الرمي بعد فوات وقته ، لجاز الرمي في رابع النحر وخامسه ، وما بعد ذلك .

والقضاء في اصطلاح الفقهاء والأصوليين : لا يطلق إلا على ما فات وقته بالكلية ، والصلاة في آخر الوقت الضروري أداء عندهم ، حتى إنه لو صلى بعضها في آخر الضروري ، وبعضها بعد خروج الوقت الضروري ، فهي أداء عندهم على الصحيح . ويدل له قوله صلى الله عليه وسلم " من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة " وعرف في مراقي

السعود الأداء والوقت والقضاء عند الأصوليين بقوله :

فعل العبادة بوقتٍ عُينا . . . شرعاً لها باسم الأداء قُرنا

وكونه بفعل بعض يحصل . . . لعاضد النص هو المعول

وقيل ما في وقته أداء . . . وما يكون خارجاً قضاء

والوقت ما قدره من شرعا . . . من زمن مضيقاً موسعا

وعكسه القضا تداركاً لما . . . سبق الذي أوجبه قد علما

وقوله : وعكسه القضا عين أن القضاء ضد الأداء .

(401/522)

وبما ذكرنا : تعلم أن التحقيق أن أيام الرمي كلها كاليوم الواحد ، وأن من رمى عن يوم في الذي بعده ، لا شيء عليه لإذن النَّبي صلى الله عليه وسلم للرعاء في ذلك ، ولكن لا يجوز تأخير يوم إلى يوم آخر إلا لعذر ، فهو وقت له ، ولكنه كالوقت الضروري . والله تعالى أعلم .

أما رمي جمرة العقبة ، فقال بعض أهل العلم : إن حكمه مع رمي أيام التشريق كواحد منها ، فمن أخر رميه إلى يوم من أيام التشريق ، فهو كمن أخر يوماً منها إلى يوم وعليه ففيه الخلاف المذكور ، وقال بعض أهل العلم : هو مستقل بوقته دونها لأنه يخالفها في الوقت ، والعدد

لأنها جمرة واحدة أول النهار ، وأيام التشريق بعكس ذلك وله وجه من النظر . والله أعلم .

الفرع الرابع : أظهر قَوْلَيْ أهل العلم عندي أنه إن قضى رمي اليوم الأول والثاني من أيام التشريق في اليوم الثالث منها ، ينوي تقديم الرمي عن اليوم الأول قبل الثاني ، ولا يجوز تقديم رمي الثاني بالنية ، لأنه لا وجه لتقديم المتأخر وتأخير المتقدم من غير إستناد إلى دليل كما ترى . والظاهر أنه إن نوى تقديم الثاني : لا يجزئه لأنه كالمتلاعب ، خلافاً لمن قال : يجزئه . والله تعالى أعلم .

(402/522)

الفرع الخامس : اعلم أن العلماء اختلفوا في القدر الذي يوجب تركه الدم ، من رمي الجمار ، فذهب مالك ، وأصحابه إلى أن من أخر رمي حصاة واحدة من واحدة من الجمار . إلى ليل ذلك اليوم ، لزمه الدم ، وما فوق الحصاة أحرى بذلك ، وسواء عندهم في ذلك رمي جمرة العقبة ، يوم النحرن ورمي الثلاث أيام التشريق . ومعلوم أن من توقف من المالكية في كون الرمي ليلاً قضاء يتوقف في وجوب الدم ، إن رمى ليلاً ، ولكن مشهور مذهبه : هو أن الليل قضاء كما قال خليل في مختصره : والليل قضاء . وذهب أبو حنيفة ، وأصحابه : إلى أن الدم يلزمه بترك رمي الجمرات كلها ، أو رمي يوم واحد من أيام التشريق ، وكذلك عندهم

رمي جمرة العقبة ، فرمي جمرة العقبة ورمي يوم من أيام التشريق ، ورمي الجميع سواء عندهم ، يلزم في ترك كل واحد منها دم واحد ، وما هو أكثر من نصف رمي يوم عندهم كرمي اليوم يلزم فيه الدم ، فلو رمى جمرة وثلاث حصيات من جمرة ، وترك الباقي ، فعليه دم ، لأنه رمى عشر حصيات وترك إحدى عشرة حصاة ، فإن ترك أقل من نصف رمي يوم كأن ترك جمرة واحدة ، فلا دم عليه ، ولكن عليه الصدقة ، عندهم ، فيلزمه لكل حصاة نصف صاع من بر أو صاع من تمر ، أو شعير إلا أن يبلغ ذلك دماً فينقص ما شاء هكذا يقولون . ولا أعلم له مستند اص من النقل ، وقد قدمنا أن الدم يلزم عند أبي حنيفة بفوات الرمي في ومه وليلته ، التي بعده ، ولو رماه من الغد في أيام التشريق ، وخالفه في ذلك صاحباه .

ومذهب الشافعي في هذه المسألة فيه اختلاف يرجع إلى قولين :

القول الأول : وعليه اقتصر صاحب المهذب : أنه إن ترك رمي الجمار الثلاث في يوم من أيام التشريق لزمه دم ، وإن ترك ثلاث حصيات من جمرة ، فما فوقها : فزمه دم لأن ثلاث حصيات فما فوقها يقع عليها اسم الجمع المطلق ، فصار تركها كترك الجميع ، وإن ترك حصاة واحدة فثلاثة أقوال :

الأول : يجب عليه ثلاث دم .

والثاني : مد .

والثالث : درهم . وحكم الحصاتين كذلك ، قيل : يلزم فيها ثلثا دم ، وقيل : مدان وقيل درهمان ، فإن ترك الرمي في أيام التشريق كلها ، فعلى القول المشهور عندهم أنها كيوم واحد ، فاللازم دم واحد . وإن قلنا : بأن كل يوم منفرد بوقته ، فثلاثة دماء ، وإن ترك رمي جمرة العقبة يوم النحر ، ورمي أيام التشريق ، فعلى القول بأن رمي يوم النحر كرمي يوم من أيام التشريق ، لزمه على القول الأول أنها كيوم واحد دم واحد ، وإن قلنا : بانفراد رمي يوم النحر عن أيام التشريق ، لمخالفته لها وقتاً وعدداً ، فإن قلنا : بالمشهور أن أيام التشريق كيوم واحد ، لزمه دمان ، وإن قلنا : بانفراد كل يوم منها عن الآخر بوقته ، لزمه أربعة دماء . القول الثاني : أن الجمرات الثلاث كلها كالشعرات الثلاث ، فلا يكمل الدم في بعضها بل لا يلزم إلا بترك جميعها ، بأن يترك رمي يوم ، وعليه فإن ترك رمي جمرة من الجمار ، ففيه الأقوال الثلاثة المشهورة عندهم ، فيمن حلق شعرة أظهرها : مد ، والثاني : درهم ، والثالث : ثلث دم ، فإن ترك جمرتين ، فعلى هذا القياس ، وهو لزوم مدين أو درهمين أو ثلثي دم ، وعلى هذا لو ترك حصاة من جمرة ، فعلى أن في الجمرة ثلث دم يلزمه في الحصاة جزء من واحد وعشرين جزءاً من دم ، وعلى أن فيها مد أو درهماً ، ففي الحصاة سبع مد أو سبع

درهم ، وللشافعية في هذا المبحث تفاصيل كثيرة ، تركناها لطولها ، ومذهب الإمام أحمد : أن من أخر الرمي كله عن أيام التشريق . لزمه دم ، وعنه في ترك رمي الجمرة الواحدة دم ، ولا شيء عنده في الحصاة ، والحصاتين وعنه يتصدق بشيء . وروي عنه أن في الصحاة الواحدة : دماً كقول مالك . وروي عنه أن في ثلاث حصيات : دماً كأحد قولي الشافعي وفيما دون ذلك كل حصاة مد كأحد الأقوال عند الشافعية والعلم عند الله تعالى .

وإذا عرفت أقوال أهل العلم ، في حكم من أخل بشيء من الرمي ، حتى فات وقته .

(404/522)

فاعلم أن دليلهم في إجماعهم على أن من ترك الرمي كله . وجب عليه دم ، هو ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : من نسي من نسكه شيئاً ، أو تكره ، فليهرق دماص ، وهذا صح عن ابن عباس موقوفاً عليه ، وجاء عنه مرفوعاً ولم يثبت .

وقد روى مالك في موطئه عن أيوب بن أبي تميمة السختياني عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : من نسي من نسكه شيئاً إلى آخره باللفظ الذي ذكرنا وهذا إسناد في غاية الصحة إلى ابن عباس كما ترى . وقال البيهقي في سننه : أخبرنا أبو زكريا بن أبي إسحاق المزكي ، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، ثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، أنبأ ابن

وهب ، أخبرني عبدالله بن عمر ، ومالك بن أنس ، وغيرهما : أن أيوب بن أبي تميمة ، أخبرهم عن سعيد بن جبير ، عن عبدالله بن عباس أنه قال : من نسي من نسكه شيئاً أو تكره فليهرق دماً اه .

وقال النووي في شرح المهذب : وأما حديث " من ترك نسكاً فعليه دم " فرواه مالك ، والبيهقي ، وغيرهما بأسانيد صحيحة ، عن ابن عباس موقوفاً عليه ، لا مرفوعاً ولفظه ، عن مالك عن أيوب ، عن سعيد بن جبير : أن ابن عباس قال : من نسي من نسكه شيئاً أو تركه فليهرق دماً قال مالك : لا أدري قال : ترك أم نسي قال البيهقي : وكذا رواه الثوري ، عن أيوب : من ترك شيئاً فليهرق وما قال البيهقي ، فكأنه قالهما يعني البيهقي أن أو ليست للشك كما أشار إليه مالك بل للتقسيم ، والمراد به يريق دماً ترك عمداً أو سهواً والله أعلم . انتهى كلام النووي .

(405/522)

وقال ابن حجر في تلخيص الحبير حديث ابن عباس موقوفاً عليه ومرفوعاً " من ترك نسكاً فعليه دم " أما الموقوف ، فرواه مالك في الموطأ . والشافعي عنه عن أيوب عن سعيد بن جبير عنه بلفظ : " من نسي من نسكه شيئاً أو تركه فليهرق دماً " وأما المرفوع فرواه ابن

حزم ، من طريق علي بن الجعد ، عن ابن عيينة ، عن أيوب به وأعله بالراوي : عن علي بن الجعد أحمد بن علي بن سهل المروزي فقال : إنه مجهول ، وكذا الراوي عنه علي بن أحمد المقدسي قال : هما مجهولان . انتهى من التلخيص .

فإذا علمت أن الأثر المذكور ثابت بإسناد صحيح ، عن ابن عباس .

فاعلم أن وجه استدلال الفقهاء به على سائر الدماء التي قالوا بوجوبها غير الدماء الثابتة بالنص ، أنه لا يخلو من أحد أمرين .

الأول : أن يكون له حكم الرفع ، بناء على أنه تعبد ، لا مجال للرأي فيه ، وعلى هذا فلا إشكال .

والثاني : أنه لو فرض أنه مما للرأي فيه مجال ، وأنه موقوف ليس له حكم الرفع ، فهو فتوى من صحابي جليل لم يعلم لها مخالف من الصحابة ، وهم رضي الله عنهم خير أسوة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما اختلاف العلماء في لزوم الدم بترك جمرة أو رمي يوم أو حصاة أو حصاتين إلى آخر ما تقدم : فهو من نوع الاختلاف في تحقيق المناط فمالك مثلاً القائل : بأن في الحصاة الواحدة دماً يقول الحصاة .

الواحدة داخلة في أثر ابن عباس المذكور ، فمناط لزوم الدم محقق فيها ، لأنها شيء من نسكه فيتناولها قوله : من نسي من نسكه شيئاً أو تكره إلخ ، لأن لفظة شيئاً نكرة في سياق الشرط ، فهي صيغة عموم ، والذين قالوا : لا يلزم في الحصاة والحصاتين دم ، قالوا ، الحصاة ، والحصاتان ، لا يصدق عليهما نسك ، بل هما جزء من نسك ، وكذلك الذين قالوا : لا يلزم في الجمرة الواحدة دم ، قالوا : رمي اليوم الواحد نسك واحد فمن ترك جمرة في في يوم لم يترك نسكاً ، وإنما ترك بعض نسك ، وكذلك الذين قالوا : لا يلزم إلا بترك الجميع قالوا : إن الجميع نسك واحد والعلم عند الله تعالى .

الفرع السادس : اعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا : يستحب رمي جمرة العقبة راكباً إن أمكن ، ورمي أيام التشريق ماشياً في الذهاب والإياب إلا اليوم الأخير ، فيرمي فيه راكباً ، وينفر عقب الرمي وقال بعضهم : يرميه كله راكباً .

وأظهر الأقوال في المسألة : هو الاقتداء بالنَّبي صلى الله عليه وسلم وهو قد رمى جمرة العقبة راكباً ورمى أيام التشريق ماشياً ذهاباً وإياباً والله تعالى أعلم .

الفرع السابع : إذا عجز الحاج عن الرمي ، فله أن يستنيب من يرمي عنه ، وبه قال كثير من أهل العلم ، وهو الظاهر ، وفي الموطأ قال يحيى : سئل مالك ، هل يُرمى عن الصبي والمريض ؟ فقال : نعم ، ويتحرى المريض حين يُرمى عنه ، فيكبر وهو في منزله ، ويهريق دماً

، فإن صح المريض في أيام التشريق : رَمَى الذي رمِيَ عنه ، وأهدى وجوباً انتهى من الموطأ .

(407/522)

أما الرمي عن الصبيان فهو كالتلبية عنهم ، والأصل فيه ما رواه ابن ماجه في سننه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، ثنا عبد الله بن نمير ، عن أشعث ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعنا النساء ، والصبيان ، فلبَّينا عن الصبيان ، ورمينا عنهم ، ورجال إسناد ابن ماجه هذا ثقات معروفون إلا أشعث وهو ابن سوار الكندي النجار الكوفي مولى ثقيف فقد ضعفه غير واحد ومسلم إنما أخرج له في المتابعات ، وهو ممن يعتبر بحديثه ، كما يدل على ذلك إخراج مسلم له في المتابعات . وروى الدورقي عن يحيى أشعث بن سوار الكوفي ثقة ، وقال ابن عدي : لم أجد لأشعث متناً منكراً وإنما يغلط في الأحايين في الأسانيد ويخالف . وأما الرمي عن المريض ونحوه ممن كان له عذر غير الصغر فلا أعلم له مستنداً من النقل إلا أن الاستنابة في الرمي ، هي غاية ما يقدر عليه والله تعالى يقول ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ [التغابن : 16] وبعض أهل العلم يتسدل لذلك بالقياس على الصبيان ، بجامع العجز في الجميع وبعضهم يقيس الرمي

على أصل الحج قال النووي في شرح المهذب : استدل أصحابنا على جواز الاستنابة في الرمي بالقياس على الاستنابة في أصل الحج قالوا والرمي أولى بالجواز ا ه .

تنبيه

إذا رمى النائب عن العاجز ثم زال عذر المستنيب ، وأيام الرمي باقية ، فقد قدمنا قول مالك في الموطأ : أنه يقضي كل ما رماه عنه النائب ، مع لزوم الدم وقال بعض أهل العلم : لا يلزمه قضاء ما رمى عنه النائب ، لأن فعل النائب كفعل المنوب عنه ، فيسقط به الفرض ، ولكن تندب إعادته ، وهذا هو مشهور مذهب الشافعي . وفي المسألة لأهل العلم غير ما ذكرنا .

(408/522)

قال مقيده عفا الله وغفر له : أظهر أقوال أهل العلم عندي في هذه المسألة : أنه إذا زال عذر المستنيب وأيام الرمي باق بعضها : أنه يرمي جميع ما رمى عنه ، ولا شيء عليه ، لأن الاستنابة إنما وقعت لضرورة العذر ، فإذا زال العذر والوقت باق بعضه ، فعليه أن يباشر فعل العبادة بنفسه .

وقد قدمنا أن أقوى الأقوال دليلاً هو قول من قال : إن أيام الرمي كيوم واحد بدليل ما قدمنا

من ترخيصه صلى الله عليه وسلم للرعاء أن يرموا يوماً ، ويدعوا يوماً كما تقدم إيضاحه والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثامن : اعلم أن التحقيق في عدد الحصيات التي ترمى بها كل جمرة أنها سبع حصيات ، فمجموع الحصى سبعون حصاة سبع منها ترمى بها جمرة العقبة يوم النحر ، والثلاث والستون الباقية تفرق على الأيام الثلاثة في كل يوم إحدى وعشرون حصاة ، لكل جمرة سبع .

وأحوط الأقوال في ذلك قول مالك وأصحابه ومن وافقهم : أن من ترك حصاة واحدة كن ترك رمي الجميع ، وقال بعض أهل العلم : يجزئه الرمي بخمس أو ست وقال ابن قدامة في المغني : والأولى ألا ينقص في الرمي عن سبع حصيات ، لأن النَّبي صلى الله عيه وسلم رمى بسبع حصيات ، فإن نقص حصاة أو حصاتين فلا بأس ، ولا ينقص أكثر من ذلك نص عليه يعني أحمد ، وهو قول مجاهد وإسحاق ، وعنه : إن رمى بست ناسياً ، فلا شيء عليه ، ولا ينبغي أن يتعمده فإن تعمد ذلك تصدق بشيء ، وكان ابن عمر يقول : ما أبالي رميت بست ، أو بسبع . وعن أحمد : أن عدد السبع شرط ، ونسبه إلى مذهب الشافعي ، وأصحاب الرأي لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم رمى بسبع . وقال أبو حبة : لا بأس بما رمى به الرجل من الحصى ، فقال عبد الله بن عمرو : صدق أبو حبة ، وكان أبو حبة بدريا .

ووجه الرواية الأولى ما روى ابن أبي نجيح قال : سئل طاوس عن رجل ترك حصاة ؟ قال : يتصدق بتمرة أو لقمة ، فذكرت ذلك لمجاهد فقال : إن أبا عبد الرحمن لم يسمع قول سعد قال سعد : رجعنا من الحجة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضنا يقول : رميت بست وبعضنا يقول بسبع ، فلم يعب ذلك بعضنا على بعض رواه الأثرم وغيره انتهى كلام ابن قدامة في المغني .

وما رواه عن أبي نجيح قال : سئل طاوس إلخ رواه البيهقي بإسناده في السنن الكبرى ، من طريق الفريابي ، عن ابن عيينة ، عن أبي نجيح .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : التحقيق أنه لا يجوز أقل من سبع حصيات للروايات الصحيحة عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان يرمي الجمار بسبع حصيات . مع قوله " خذوا عني مناسككم " فلا ينبغي العدول عن ذلك ، لوضوح دليله وصحته ولأن مقابله لم يقم عليه دليل يقارب دليله ، والعلم عند الله تعالى . والظاهر أن من شك في عدد ما رمى بيني على اليقين ، وروى البيهقي عن علي رضي الله عنه ما يؤيده .

الفرع التاسع : اعلم أن جمهور أهل العلم على أن من غربت شمس يوم النفر الأول ، وهو بمنى

لزمه المقام بمنى ، حتى يرمي الجمار الثلاث بعد الزوال في اليوم الثالث ، ولا ينفر ليلاً . وممن قال بهذا : الأئمة الثلاثة : مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وهو قول أكثر أهل العلم . وقال ابن قدامة في المغني : وهو قول عمر ، وجابر بن زيد ، وعطاء ، وطاوس ، ومجاهد ، وأبان بن عثمان ، ومالك ، والثوري ، والشافعي ، وإسحاق ، وابن المنذر . وقال ابن المنذر : ثبت عن عمر أنه قال : " من أدركته المساء في اليوم الثاني ، فليقم إلى الغد ، حتى ينفر مع الناس " . وخالف ابو حنيفة الجمهور في هذه المسألة فقال : له أن ينفر ليلة الثالث عشر من الشهر حتى يطلع الفجر من اليوم الثالث ، فإن طلع الفجر لزمه البقاء ، حتى يرمي .

(410/522)

والأظهر عندي : حجة الجمهور . لأن الله تعالى قال ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [البقرة : 203] ولم يقل في يومين وليلة .

ووجه قول أبي حنيفة : هو أن من نفر بالليل فقد نفر في وقت ، لا يجب فيه الرمي ، بل لا يجوز فجاز له النفر كالنهار . وقد قدمنا أيضاً عن الحنفية أنهم يرون الليلة التي بعد اليوم من أيام التشريق تابعة له ، فيجوز فيها ما يجوز في اليوم الذي قبلها كالرمي فيها والنفر فيها إن كان يجوز في يومها .

والأظهر عندي : أنه لو ارتحل من منى فغربت عليه الشمس ، وهو سائر في منى لم يخرج منها أنه يلزمه المبيت والرمي ، لأنه يصدق عليه أنه غربت عليه الشمس في منى ، فلم يتعجل منها في يومين خلافاص للمشهور من مذهب الشافعي القائل : بأن له أن يستمر في نفره ولا يلزمه المبيت والرمي .

والأظهر عندي أيضاً : أنه لو غربت عليه الشمس ، وهو في شغل الارتحال أنه يبيت ، ويرمي خلافاً لمن قال : يجوز له الخروج منها بعد الغروب لأنها غربت ، وهو مشتغل بالرحيل ، وهما وجهان مشهوران عند الشافعية والعلم عند الله تعالى .

واعلم : أن التحقيق أن التعجل جائز ، لأهل مكة فهم فيه كغيرهم ، خلافاً إن فرق بين المكي وغيره ، إلا لعذر لأن الله قال ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 203] وهو عموم شامل لأهل مكة وغيرهم ، ولا شك أن التأخير أفضل من التعجيل لأن فيه زيادة عمل ، والنَّبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع لم يتعجل .

(411/522)

الفرع العاشر : اعلم أن العلماء اختلفوا في المبيت في منى ، ليالي أيام التشريق هل هو واجب أو مستحب ، مع إجماعهم على أنه مشروع ؟ فذهب مالك ، وأصحابه : إلى أنه واجب ،

ولو بات ليلة واحدة منها أو جل ليلة ، وهو خارج عن منى . لزمه دم لأثر ابن عباس السابق . وروى مالك في الموطأ ، عن نافع أنه قال : زعموا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كان يبعث رجالاً يُدْخلون الناس من وراء العقبة . وروى مالك في الموطأ أيضاً ، عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن عمر بن الخطاب قال : لا يَبِيتَنَّ أحد من الحاج ليالي منًى من وراء العقبة . ا ه منه .

وهو دليل على وجوب المبيت ليالي أيام التشريق بمنى كما أنه دليل على أن ما وراء جمرة العقبة ، مما يلي مكة ، ليس من منى ، وهو معروف ، ومذهب أبي حنيفة : هو أن عدم المبيت بمنى ليالي منى مكروه ، ولو بات بغير منى لم يلزمه شيء ، عند أبي حنيفة ، وأصحابه ، لأنهم يرون أن المبيت بمنى لأجل أن يسهل عليه الرمي ، فلم يكن من الواجبات عندهم . ومذهب الشافعي في هذه المسألة : هو أن في المبيت بمنى ليالي منى طريقتين ، أصحهما ، وأشهرهما فيه قولان : أصحهما : أنه واجب ، والثاني : أنه سنة ، والطريق الثاني أنه سنة قولاً واحداً فعلى القول بأنه واجب ، فالدم واجب في تركه ، وعلى أنه سنة ، فالدم سنة في تركه ، ولا يلزم عندهم الدم ، إلا في ترك المبيت في الليالي كلها ، لأنها عندهم كأنها نسك واحد ، وإن ترك المبيت في ليلة من الليالي الثلاث ، ففيه الأقوال المذكورة في ترك الحصاة الواحدة عندهم أصحها أن في ترك مبيت الليلة الواحدة مداً ، والثاني : أن فيه درهماً ، والثالث : أن فيه ثلث دم كما تقدم ، وحكم الليلتين معلوم كما تقدم .

ومذهب الإمام أحمد في هذه المسألة : أن المبيت بمنى ليالي منى واجب ، فلو ترك المبيت بها في الليالي الثلاث . فعليه دم على الصحيح من مذهبه ، وعنه : يتصدق بشيء ، وعنه : لا شيء عليه فإن ترك المبيت في ليلة من لياليها ، ففيه ما في الحصاة الواحدة من الأقوال التي قدمنا ، قيل مَنٌّ وقيل : درهم ، وقيل ، ثلث دم .

فإذا عرفت أقوال أهل العلم في هذه المسألة فاعلم أن أظهر الأقوال دليلاً أن المبيت بمنى أيام منى نسك من مناسك الحج ، يدخل في قول ابن عباس : من نسي من نسكه شيئاً ، أو تركه فليهرق دماً .

والدليل على ذلك ثلاثة أمور .

الأول : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم بات بها الليالي المذكورة وقال " لتأخذوا عني مناسككم " فعلينا أن نأخذ من مناسكنا البيتوتة بمنى الليالي المذكورة .

الثاني : هو ما ثبت في الصحيحين : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم رخص للعباس أن يبيت بمكة أيام منى ، من أجل سقايته وفي رواية : أذن للعباس .

وقال ابن حجر في فتح الباري في شرح حديث الترخيص للعباس المذكور عند البخاري ما

نصه : وفي الحديث دليل على وجوب المبيت بمنى وأنه ن مناسك الحج ، لأن التعبير بالرخصة يقتضي أن مقابلها عزيمة ، وأن الإذن وقع للعلة المذكورة ، وإذا لم توجد هي أو ما في معناها لم يحصل الإذن وبالوجوب قال الجمهور : وفي قول للشافعي ورواية عن أحمد ، وهو مذهب الحنفية : أنه سنة ووجوب الدم بتكره مبني على هذا الاختلاف ، ولا يحصل المبيت إلا بمعظم الليل انتهى محل الغرض عنه . وما ذكره من أخذ الوجوب من الحديث المذكور واضح .

وقال النووي في شرح مسلم في الكلام على الحديث المذكور : هذا يدل لمسألتين .

(413/522)

إحداهما : أن المبيت بمنى ليالي أيام التشريق مأمور به ، وهذا متفق عليه ، لكن اختلفوا هل هو واجب أو سنة ؟ وللشافعي قولان ، أحصهما : واجب وبه قال مالك ، وأحمد ، والثاني : سنة . وبه قال ابن عباس ، والحسن وأبو حنيفة ، فمن أوجبه أوجب الدم في تركه وإن قنلا سنة لم يجب الدم بتركه ، ولكن يستحب انتهى محل الغرض منه وكأنه يقول : إن الحديث لا يؤخذ منه الوجوب ، ولكن يؤخذ منه الوجوب ، ولكن يؤخذ منه مطلق الأمر به لأن رواية مسلم ليس فيها لفظ الترخيص ، وإنما فيها التعبير بالإذن ورواية البخاري فيها

رخَّص النَّبي صلى الله عليه وسلم والتعبير بالترخيص : يدل على الوجوب كما أوضحه ابن حجر في كلامه الذي ذكرناه آنفاً .

الأمر الثالث : هو ما قدمنا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنه كان يمنع الحجاج من المبيت ، خارج منى ويرسل رجالاً يدخلونهم في منى ، وهو من الخلفاء الراشدين الذين أمرنا بالاقتداء بهم ، والتمسك بسنتهم ، والظاهر أن من ترك المبيت بمنى لعذر لا شيء عليه ، كما دل عليه الترخيص للعباس من أجل السقاية ، والترخيص لرعاء الإبل في عدم المبيت ورمي يوم بعد يوم .

الفرع الحادي عشر : في حكمة الرمي :

اعلم أنه لا شك في أن حكمة الرمي في الجملة هي طاعة الله ، فيما أمر به وذكره امتثال أمره على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، قال أبو داود في سننه حدثنا مسدد ، ثنا عيسى بن يونس ، ثنا عبيد الله بن أبي زياد ، عن القاسم عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" إنما جُعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورَمْيُ الجِمار لإقامة ذكر الله " وقال النووي في شرح المهذب في حديث أبي داود هذا ، وهذا الإسناد كله صحيح إلا عبيد الله فضعفه أكثرهم ضعفاً يسيراً ، ولم يضعف أبو داود هذا الحديث ، فهو حسن عنده كما سبق . وروى الترمذي هذا الحديث من رواية عبيد الله هذا ، وقال هو حديث حسن ، وفي بعض النسخ : حسن صحيح ، فلعله اعتضد برواية أخرى . انتهى محل الغرض منه .

(415/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : عبيد الله بن أبي زياد المذكور ، هو القداح أبو الحصين المكي ، وقد وثقه جماعة ، وضعفه آخرون ، وحديثه هذا معناه صحيح بلا شك ويشهد لصحة معناه قوله تعالى ﴿ واذكروا الله في أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ [البقرة : 203] لأنه يدخل في الذكر المأمور به : رمي الجمار بدليل قوله بعده ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 203] الآية ، وذلك يدل على أن الرمي شرع لإقامة ذكر الله ، كما هو واضح ، ولكن هذه الحكمة إجمالية ، وقد روى البيهقي رحمه الله في سننه عن ابن عباس مرفوعاً قال : لما أتى إبراهيم خليل الله عليه السلام المناسك ، عرض له الشيطان عند جمرة العقبة ، فرماه بسبع حصيات ، حتى ساخ في الأرض ، ثم عرض له عند الجمرة الثانية ، فرماه

بسبع حصيات ، حتى ساخ في الأرض ، ثم عرض له في الجمرة الثالثة ، فرماه بسبع حصيات ، حتى ساخ في الأرض . قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : الشيطان ترجمون وملة أبيكم تتبعون . انتهى بلفظه من السنن الكبرى للبيهقي ، وقد روى هذا الحديث الحاكم في المستدرك مرفوعاً ثم قال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، وعلى هذا الذي ذكره البيهقي ، فذكر الله الذي شرع الرمي لإقامته ، هو الاقتداء بإبراهيم في عداوة الشيطان ، ورميه ، وعدم الانقياد إليه ، والله يقول ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الممتحنة : 4] الآية ، فكأن الرمي رمز وإشارة إلى عداوة الشيطان التي أمرنا الله بها في قوله ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ [فاطر : 6] وقله منكراً على من والاه ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ [الكهف : 50] الآية ، ومعلوم أن الرجم بالحجارة من أكبر مظاهر العداوة .

(416/522)

وقال النووي في شرح المهذب : فرع في الحكمة في الرمي ، قال العلماء : أصل العبادة الطاعة ، وكل عبادة فلها معنى قطعاً ، لأن الشرع لا يأمر بالعبث ، ثم معنى العبادة قد يفهمه المكلف ، وقد لا يفهمه ، فالحكمة في الصلاة ، التواضع ، والخضوع ، وإظهار الافتقار إلى

الله تعالى ، والحكم في الصوم . كسر النفس وقمع الشهوات ، والحكمة في الزكاة : مواساة المحتاج ، وفي الحج : إقبال العبد أشعث أغبر من مسافة بعيدة إلى بيت فضله الله كإقبال العبد إلى مولاه ذليلاً .

ومن العبادات التي لا يفهم معناها : السعي والرمي ، فكلف العبد بهما ليتم انقياده ، فإن هذا النوع لاحظ للنفس فيه ، ولا للعقل ، ولا يحمل عليه إلا مجرد امتثال الأمر وكمال الانقياد فهذه إشارة مختصرة تعرف بها الحكمة في جميع العبادات والله أعلم انتهى كلام النووي .

(417/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ما ذكره الشيخ النووي رحمه الله : من أن حكمة السعي والرمي غير معقولة المعنى ، غير صحيح فيما يظهر لي والله تعالى أعلم بل حكمة الرمي والسعي معقولة ، وقد دلت بعض النصوص ، على أنها معقولة ، أما حكمة السعي : فقد جاء النص الصحيح ببيانها ، وذلك هو ما رواه البخاري في صحيحه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل في مكة ، وأنه وضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، وفي الحديث الصحيح المذكور " وجعلت أم إسماعيل ترضع

إسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال : يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي ، تنظر هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات " قال ابن عباس : قال النَّبي صلى الله عليه وسلم " فذلك سعى الناس بينهما " الحديث . وهذا الطرف الذي ذكرنا من هذا الحديث سقناه بلفظ البخاري رحمه الله في صحيحه ، وقول النَّبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح " فذلك سعى الناس بينهما " فيه الإشارة الكافية إلى حكمة السعي بين الصفا والمروة ، لأن هاجر سعت بينهما السعي المذكور ، وهي في أشد حاجة ، وأعظم فاقة إلى ربها ، لأن ثمرة كبدها ، وهو ولدها إسماعيل تنظره يتلوى من العطش في بلد لا ماء فيه ، ولا أنيس ، وهي أيضاً في جوع وعطش في غاية الاضطرار إلى خالقها جل وعلا ، وهي من شدة الكرب تصعد على هذا الجبل فإذا لم تر شيئاً جرت إلى الثاني فصعدت عليه لترى أحداً فأمر الناس بالسعي بين الصفا والمروة ، ليشعروا بأن حاجتهم ، وفقرهم إلى خالقهم ورازقهم كحاجة وفقر تلك

المرأة في ذلك الوقت الضيق والكرب العظيم ، إلى خالقها ورازقها وليتذكروا أن من كان يطيع الله كإبراهيم عليه ، وعلى نبينا الصلاة والسلام ، لا يضيعه ، ولا يخيب دعاءه وهذه حكمة بالغة ظاهرة دل عليها حديث صحيح وقد قدمنا في حديث البيهقي المذكور حكمة الرمي أيضاً فتبين بذلك أن حكمة السعي والرمي معروفة ظاهرة خلافاً لما ذكره النووي .

والعلم عند الله تعالى .

المسألة الحادية عشرة في مواقيت الحج والعمرة

اعلم أن الحج له ميقات زماني : وهو المذكور في قوله تعالى ﴿ الحج أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ [البقرة : 197] الآية ، وهي : شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة . وقيل : وذو الحجة مع الإجماع على فوات الحج بعدم الوقوف بعرفة قبل الفجر من ليلة النحر ، وميقات مكاني ، والمواقيت المكانية خمسة ، أربعة منها بتوقيت النَّبي صلى الله عليه وسلم ، بلا خلاف بين العلماء ، لثبوت ذلك في الصحيحين وغيرهما عنه صلى الله عليه وسلم ، وواحد مختلف فيه هل وقته النبي صلى الله عليه وسلم ، أو وقته عمر رضي الله عنه . أما الأربعة المجمع على نقلها عن النبي صلى الله عليه وسلم فهي : ذو الحليفة ، وهو ميقات أهل المدينة ، والجحفة وهي : ميقات أهل الشام وقرن المنازل وهو : ميقات أهل نجد ،

ويلملم وهي ميقات أهل اليمن أخرج توقيت هذه المواقيت الأربعة الشيخان في صحيحيهما ، عن ابن عباس ، وابن عمر رضي الله عنهم إلا أن ابن عمر لم يسمع من النَّبي صلى الله عليه وسلم توقيت يلملم لأهل اليمن ، بل سمعه من غيره صلى الله عليه وسلم ، وهو مرسل صحابي ، والاحتجاج بمراسيل الصحابة معروف ، أما ابن عباس فقد سمع منه صلى الله عليه وسلم المواقيت الأربعة المذكورة .

(419/522)

فتحصل : أن ذا الحليفة ، والجحفة ، وقرن المنازل اتفق الشيخان على إخراج توقيتها عن النبي صلى الله عليه وسلم ، من حديث ابن عمر وابن عباس . وأن يلملم اتفقا أيضاً على إخراج توقيته عنهما معاً ، إلا أن ابن عباس سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم ، وابن عمر سمعه من غيره ، كما أوضحناه وذو الحليفة هو المسمى الآن بآبار علي ، وقرن المنازل هو المسمى الآن : بالسيل . والجحفة خراب الآن ، والناس يحرمون من رابغ ، وهو قبلها بقليل وهو موضع معروف قديماً وفيه قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

ولما أجزنا الميل من بطن رابغ . . . بدت نارها قمراء للمتنور

وأما الميقات الخامس الذي اختلف العلماء فيه ، هل وقته رسول الله صلى الله عليه وسلم

، أو وقته عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فهو : ذات عرق لأهل العراق ، فقال بعض أهل العلم . توقيت ذات عرق ، لأهل العراق من النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : هو بتوقيت عمر رضي الله عنه ، هو الذي قطع به الغزالي ، والرافعي في شرح المسند ، والنووي في شرح مسلم ، وكذا وقع في المدونة لمالك وصحح الحنفية ، والحنابلة ، وجمهور الشافعية ، والرافعي في الشرح الصغير ، والنووي في شرح المهذب : أنه منصوص . انتهى محل الغرض من فتح الباري .

وقال النووي في شرح مسلم في الكلام على ميقات ذات عرق : واختلف العلماء ، هل صارت ميقاتهم بتوقيت النبي صلى الله عليه وسلم ، أم باجتهاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؟ وفي المسألة وجهان لأصحاب الشافعي أصحهما ، وهو نص الشافعي رضي الله عنه في الأم : بتوقيت عمر رضي الله عنه .

(420/522)

انتهى محل الغرض منه . وقال النووي في شرح المهذب ، وممن قال إنه مجتهد فيه من السلف ، طاوس ، وابن سيرين ، وأبو الشعثاء جابر بن زيد وحكاه البيهقي وغيره عنهم ، وممن قال من السلف إنه منصوص عليه : عطاء بن أبي رباح وغيره ، وحكاه ابن الصباغ ، عن أحمد

، وأصحاب أبي حنيفة ، وإذا عرفت اختلاف أهل العلم فيمن وقت ذات عرق لأهل العراق ، فهذه تفاصيل أدلتهم .

أما الذين قالوا : إنه باجتهاد من عمر فاستدلوا بما رواه البخاري في صحيحه : حدثني علي بن مسلم ، حدثنا عبدالله بن نمير ، حدثنا عبيدالله ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما فتح هذان المصران أتوا عمر فقالوا : يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدَّ لأهل نجد : قرناً ، وهو جَوْرٌ عَنْ طريقنا ، وإنا إن أردنا قرناً شق علينا . قال : فانظروا حذوها من طريقكم ، فحدَّ لهم ذات عرق ا ه منه . قالوا : فهذا الحديث الصحيح صريح في أن توقيت ذات عرق باجتهاد من عمر ، وقد جاءت بذلك أيضاً آثار عن بعض السلف .

(421/522)

وأما الذين قالوا : إنه بتوقيت النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فاستدلوا بأحاديث منها : ما رواه مسلم في صحيحه ، وحدثني محمد بن حاتم ، وعبد بن حميد ، كلاهما عن محمد بن بكر ، قال عبد : أخبرنا محمد ، أخبرنا ابن جريج ، أخبرني أبو الزبير : أنه سمع جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، يسأل عن المهل ؟ فقال : سمعت أحسبه رفع إلى النَّبي صلى الله

عليه وسلم ، فقال : مهل أهل المدينة ، من ذي الحليفة والطريق الآخر الجحفة ، ومهل أهل العراق : من ذات عرق ، ومهل أهل نجد : من قرن . ومهل أهل اليمن : من يلملم . انتهى منه . وهذا الإنساد صحيح كما ترى إلا أنه ليس فيه الجزم برفع الحديث إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم . وقال النووي في شرح المهذب في هذا الحديث : فهذا إسناد صحيح ، لكنه لم يجزم برفعه إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم : فلا يثبت رفعه بمجرد هذا ، ورواه ابن ماجه من رواية إبراهيم بن يزيد الخوزي بضم الخاء المعجمة بإسناده عن جابر مرفوعاً بغير شك ، لكن الخوزي ضعيف ، لا يحتج بروايته ورواه الإمام أحمد في مسنده ، عن جابر ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، بلا شك أيضاً ، لكنه من رواية الحجاج بن أرطاة ، وهو ضعيف ، وعن عائشة " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم وقَّت لأهل العراق : ذات عرق " رواه أبو داود والنسائي والدارقطني وغيرهم بإسناد صحيح ، لكن نقل ابن عدي : أن أحمد بن حنبل أنكر على أفلح بن حميد روايته هذه ، وانفراده به مع أنه ثقة ، وعن الحارث بن عمرو السهمي الصحابي رضي الله عنه :

(422/522)

" أن النَّبي صلى الله عليه وسلم وقَّت لأهل العراق : ذات عرق " رواه أبو داود ، وعن عطاء عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : " أنه وقت لأهل المشرق : ذات عرق " رواه البيهقي ، والشافعي بإسناد حسن ، عن عطاء ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً ، وعطاء من كبار التابعين . وقد قدمنا في مقدمة هذا الشرح أن مذهب الشافعي الاحتجاج بمرسل كبار التابعين ، إذا اعتضد بأحد أربعة أمور .

منها : أن يقول به بعض الصحابة ، أو أكثر العلماء ، وهذا قد اتفق على العمل به الصحابة ، ومن بعدهم ، قال البيهقي : هذا هو الصحيح من رواية عطاء أنه رواه مرسلاً ، قال : وقد رواه الحجاج بن أرطاة ، عن عطاء وغيره متصلاً ، والحجاج ظاهر الضعف . انتهى كلام النووي . وقال صاحب نصب الراية : وأخرجه الدارقطني في سننه ، وابن أبي شيبة ، وإسحاق بن راهويه وأبو يعلى الموصلي في أسانيدهم ، عن حجاج ، عن عطاء ، عن جابر . وحجاج لا يحتج به ، وذكر الحافظ في الفتح أن أحمد روى هذا الحديث من طريق ابن لهيعة من غير شك في الرفع .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين عندي دليلاً أن ذات عرق ، وقتها النَّبي صلى الله عليه وسلم لأهل العراق ، والدليل على ذلك من وجهين :

أحدهما : أن ذلك ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في أحاديث منها : ما هو صحيح الإسناد ، ومنها : ما في إسناده كلام ، وبعضها يقوي بعضاً .

قال أبو داود رحمه الله في سننه : حدثنا هشام بن بهرام المدائني ، ثنا المعافى بن عمران ، عن أفلح يعني : ابن حميد ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة رضي الله عنها " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت لأهل العراق ذات عرق " انتهى من سنن أبي داود ، وهذا الإسناد صحيح كما ترى ، لأن طبقته الأولى هشام بن بهرام المدائني أبو محمد ، وهو ثقة ، وطبقته الثانية : المعافى بن عمران الأزدي الفهمي أبو مسعود الموصلي ، وهو ثقة عابد فقيه . وطبقته الثالثة : أفلح بن حميد بن نافع المدني أبو عبد الرحمن ، ويقال له : ابن صعيراء ، وهو ثقة ، وطبقته الرابعة ، والخامسة القاسم بن محمد أبي بكر ، عن عمته عائشة رضي الله عنها ، فهذا إسناد في غاية الصحة كما ترى .

وقال النسائي في سننه : حدثنا محمد بن عبد الله بن عمار الموصلي ، قال : حدثنا أبو هاشم محمد بن علي عن المعافى ، عن أفلح بن حميد ، عن القاسم ، عن عائشة قالت " وقَّت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة : ذا الحُليفة ، ولأهل الشام ومصر : الجحفة ، ولأهل العراق : ذات عرق ، ولأهل نجد : قرناً ، ولأهل اليمن : يلملم " وهذا إسناد صحيح أيضاً ، لأن طبقته الأولى محمد بن عبد الله بن عمار الموصلي وهو ثقة

حافظ ، وطبقته الثانية هي أبو هاشم محمد بن علي الأسدي ، وهو ثقة عابد وباقي الإسناد ، هو ما تقدم الآن في إسناد أبي داود ، وكلهم ثقات كما أوضحناه الآن ، فهذا الإسناد لا شك في صحته ومتنه فيه التصريح بتوقيت النبي صلى الله عليه وسلم ذات عرق لأهل العراق .

(424/522)

واعلم أن تضعيف من ضعف هذا الحديث بأن الإمام أحمد رحمه الله ، أنكر على أفلح بن حميد ذكره في هذا الحديث لذات عرق ، وأنه انفرد بذلك غير مسلم لأن أفلح بن حيمد ثقة وزيادة العدل مقبولة ، ولا يضره انفراد المعافى بن عمران أيضاً لأنه ثقة ، وكم من حديث صحيح غيريب انفرد به ثقة عن ثقة ، كما هو معلوم في الأصول وعلم الحديث . وقال الشيخ الذهبي رحمه الله في ميزان الاعتدال في نقد الرجال في ترجمة أفلح بن حميد المذكور : وثقه ابن معين ، وأبو حاتم . وقال ابن صاعد : كان أحمد ينكر على أفلح بن حميد قوله : ولأهل العراق ذات عرق ، وقال ابن عدي في الكامل : هو عندي صالح ، وهذا الحديث ينفرد به المعافى بن عمران ، عن أفلح ، عن القاسم عن عائشة .

قلت : هو صحيح غريب . انتهى كلام الذهبي . وتراه صرح بأن هذا الحديث صحيح

غريب ، مع أن هذا الحديث في توقيت النبي صلى الله عليه وسلم ذات عرق ، لأهل العراق له شواهد متعددة .

منها : حديث جابر في صحيح مسلم ، وإن كان لم يجزم فيه بالرفع ، لأن قوله : أحسبه رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ظن من أبي الزبير أن جابراً رفع الحديث ، وهذا الظن يقوي الروايات ، التي فيها الجزم بالرفع .

(425/522)

ومنها : ما رواه أبو داود في سننه : حدثنا أبو معمر عبد الله بن عمرو بن أبي الحجاج ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا عتبة بن عبد الملك السهمي ، حدثني زرارة بن كريم : أن الحارث بن عمرو السهمي ، حدثه : قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمنى أو بعرفات ، وقد أطاف به الناس قال : فتجيء الأعراب ، فإذا رأوا وجهه قالوا : هذا وجه مبارك ، قال : ووقت ذات عرق : لأهل العراق . انتهى منه . وهذا الإسناد لا يقل عن درجة الحسن ، لأن طبقته الأولى : عبد الله بن عمرو بن أبي الحجاج أبو معمر المقعد التميمي المِنْقَري ، وهو ثقة ثبت رمِيَ بالقدر ، وطبقته الثانية : عبد الوارث وهو ابن سعيد بن ذكوان العنبري مولاهم أبو عبيدة التنوري ، وهو ثقة ثبت رمِيَ بالقدر ولم يثبت عنه ،

وطبقته الثالثة : عتبة بن عبد الملك السهمي ، وهو بصري . ذكره ابن حبان في الثقات ، وطبقته الرابعة : زرارة بن كريم بن الحارث بن عمرو السهمي ، وهو له رؤية ، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين ، وطبقته الخامسة : الحارث بن عمرو السهمي الباهلي رضي الله عنه وهو صحابي ، فهذا الإسناد لا يقل عن درجة الحسن ، وهو صالح لأن يعتضد به حديث عائشة المتقدم عند أبي داود ، والنسائي الذي قدمنا : أن إسناده صحيح ، وقد سكت أبو داود على هذا الحديث .

ومعلوم أن أبا داود إذا سكت على حديث ، فهو صالح للاحتجاج عنده ، كما قدمناه مراراً . وقد ذكر ابن حجر في الإصابة في ترجمة الحارث بن عمرو المذكور : أن حديثه هذا صححه الحاكم ، ولم يتعقب ذلك بشيء . وذكر البخاري هذا الحديث في تاريخه في ترجمة زرارة بن كريم بالسند الذي رواه به أبو داود ، ولم يتعقبه بشيء .

(426/522)

ومنها : ما رواه أحمد ، وابن أبي شيبة ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو يعلى الموصلي في مسانيدهم والدارقطني في سننه : عن جابر : أن النبي صلى الله عليه وسلم وقت ذات عرق : لأهل العراق من غير شك في الرفع ، وقد قدمنا في كلام النووي ، والزيلعي ، وابن

حجر : أن في إسناده ابن لهيعة ، والحجاج بن أرطاة ، وكلاهما ضعيف .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : لا شك أن رواية الحجاج بن أرطاة معتبر بها صالحة لاعتضاد غيرها ، ومن أجل ذلك أخرج له مسلم في صحيحه مقروناً بغيره ، كما قاله الذهبي في الميزان ، وقد أثنى عليه غير واحد ، وروى عنه شعبة وقال : اكتبوا حديث حجاج بن أرطاة ، وابن إسحاق ، فإنهما حافظان . وقال فيه الثوري : ما بقي أحد أعرف بما يخرج من رأسه منه ، وقال فيه حماد بن زيد : كان أقهر عندنا لحديثه من سفيان . وقال فيه الذهبي في الميزان : هو أحد الأعلام على لين في حديثه . وقال فيه الذهبي : وأ : ثر ما نقم عليه التدليس ، وفيه تيه لا يليق بأهل العلم ، وقال فيه ابن حجر في التقريب : صدوق كثير الخطأ والتدليس ا ه .

وعلى كل حال : فلا شك في الاعتبار بروايته ، وصلاحها لتقوية غيرها ، وابن لهيعة لا شك في أن روايته تعضد غيرها ، وقد أخرج له مسلم أيضاً مقروناً بغيره . وقد قدمنا الكلام عليه .

(427/522)

وعلى كل حال فرواية الحجاج وابن لهيعة عاضدة للرواية الصحيحة . ومنها الحديث الذي رواه عطاء مرسلاً كما قدمنا في كلام النووي ، وقد قال : إنه رواه الشافعي والبيهقي بإسناد حسن ومرسل عطاء هذا في توقيت النبي صلى الله عليه وسلم : ذات عرق لأهل العراق محتج به عند الأئمة الأربعة . أما مالك ، وأبو حنيفة ، وأحمد ، فالمشهور عنهم الاحتجاج بالمرسل كما قدمناه مراراً . وأما الشافعي : فقد قدمنا عن النووي : أنه يعمل بمرسل التابعي لكبير إن قال به بعض الصحابة أو أكثر أهل العلم ، ومرسل عطاء هذا أجمع على العمل به الصحابة ، فمن بعدهم إلى غير ذلك من الأدلة العاضدة ، لأن توقيت ذات عرق لأهل العراق من النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن حجر في فتح الباري بعد أن ساق بعض طرق حديث توقيت النبي صلى الله عليه وسلم ذات عرق لأهل العراق ما نصه : وهذا يدل على أن للحديث أصلاً ، فلعل من قال : إنه غير منصوص لم يبلغه ، ورأى ضعف الحديث باعتبار أن كل طريق لا يخلو من مقال . انتهى محل الغرض منه .

وقد بينا أن بعض روايات هذا الحديث صحيحة ، ولا يضرها انفراد بعض الثقات بها .

(428/522)

الأمر الثاني : من الأمرين المذكورين في أول هذا المبحث : هو إنما ثبت في صحيح البخاري من حديث ابن عمر ، مما يدل على أن توقيت ذات عرق ، لأهل العراق باجتهاد من عمر ، كما قدمناه لا يعارض هذه الأدلة التي ذكرناها ، على أنه منصوص ، لاحتمال أن عمر لم يبلغه ذلك ، فاجتهد فوافق اجتهاده توقيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو رضي الله عنه معروف أنه وافقه الوحي في مسائل متعددة ، فلا مانع من أن تكون هذه منها لا شرعاً ولا عقلاً ولا عادة . وأما إعلال بعضهم حديث ذات عرق ، بأن العراق لم تكن فتحت يومئذ فقد قال فيه ابن عبد البر : هي غفلة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم وقت المواقيت لأهل النواحي قبل الفتوح ، لأنه علم أنها ستفتح ، فلا فرق في ذلك بين الشام والعراق . انتهى بواسطة نقل ابن حجر في الفتح .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : اعلم أن المواقيت الخمسة التي ذكرنا ، مواقيت أيضاً لكل من مر عليها من غير أهلها ، وهو يريد النسك حجاً كان أو عمرة ، ففي حديث ابن عباس المتفق عليه ، الذي ذكرناه في أول هذا المبحث بعد ذكر المواقيت المذكورة " فهي لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهنَّ لمن كان يريد الحج والعمرة " هذا لفظ البخاري في صحيحه من رواية ابن عباس : وفي لفظ في البخاري ، عن ابن عباس : " هُنَّ لأهلهن ولكل آتٍ أتى عليهنَّ من غيرهم ممن

أراد الحج والعمرة " وكلا اللفظين في صحيح مسلم من رواية ابن عباس وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم .

(429/522)

الفرع الثاني : اعلم أن من كان مسكنه أقرب إلى مكة من الميقات ، فميقاته من موضع سكناه ، ففي حديث ابن عباس المتفق عليه المذكور آنفاً : " فمن كان دونهن فمهله من أهله " وفي رواية " فمن كان دونهن فمن أهله " وفي لفظ " ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ " كل هذه بالألفاظ في صحيح البخاري من حديث ابن عباس مرفوعاً ، واللفظان الأخيران منها في صحيح مسلم أيضاً من حديث ابن عباس ، وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم .

الفرع الثالث : اعلم أن أهل مكة يهلون من مكة ، وفي حديث ابن عباس المتفق عليه المذكور آنفاً " حتى أهل مكة ، يهلون منها "

، وفي لفظ : " حتى أهل مكة يهلون من مكة " ، وكلا اللفظين في الصحيحين من حديث ابن عباس المذكور ، وهذا بالنسبة إلى الإهلال بالحج ، لا خلاف فيه بين أهل العلم إلا ما ذكره بعضهم من أن المكي يجوز له أن يحرم من أي موضع من الحرم ، ولو خارجاً عن مكة وهو

ظاهر السقوط لمخالفته للنص الصريح ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما إهلال المكي بالعمرة ، فجماهير أهل العلم على أنه لا يهل بالعمرة من مكة ، بل يخرج إلى الحل ، ويحرم منه ، وهو قول الأئمة الأربعة وأصحابهم ، وحكى غير واحد عليه الإجماع .

قال صاحب تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق في الفقه الحنفي : الوقت لأهل مكة الحرم في الحج ، والحل في العمرة للإجماع على ذلك . انتهى منه .

وقال ابن قدامة في المغني في الكلام على ميقات المكي : وإن أراد العمرة فمن الحل ، لا نعلم في هذا خلافاً . انتهى منه .

وقال ابن حجر في فتح الباري في الكلام على ميقات أهل مكة : وأما المعتمر فيجب عليه أن يخرج إلى أدنى الحل ، كما سيأتي بيانه في أبواب العمرة .

قال المحب الطبري : لا أعلم أحداً جعل مكة ميقاناً للعمرة . انتهى محل الغرض منه .

(430/522)

وقال ابن القيم : إن أهل مكة لا يخرجون من مكة للعمرة ، وظاهر صنيع البخاري أنه يرى إحرامهم من مكة بالعمرة ، حيث قال : باب مهل أهل مكة للحج والعمرة ، ثم ساق بسنده حديث ابن عباس المذكور ، ومحل الشاهد عنده منه المطابق للترجمة هي قوله : " حتى

أهل مكة من مكة " فقوله في الترجمة باب مهل أهل مكة للحج والعمرة ، وإيراده لذلك ، حتى أهل مكة يهلون من مكة ، دليل واضح على أنه يرى أن أهل مكة يهلون من مكة للعمرة والحج معاً كما هو واضح من كلامه .

وإذا علمت ذلك ، فاعلم أن دليل هذا القول هو عموم حديث ابن عباس المتفق عليه . الذي فيه حتى أهل مكة يهلون من مكة ، والحديث عام بلفظه في الحج والعمرة ، فلا يمكن تخصيص العمرة منه إلا بدليل يجب الرجوع إليه ، وأما القائلون : بأنه لا بد أن يخرج إلى الحل ، وهم جماهير أهل العلم كما قدمنا ، فاستدلوا بدليلين .

أحدهما : ما ثبت في الصحيحين ، وغيرهما من : أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر عبد الرحمن بن أبي بكر أن يخرج بعائشة في عمرتها من مكرة إلى النعيم وهو أدنى الحل .

قالوا : فلو كان الإهلال من مكة بالعمرة سائغاً لأمرها بالإهلال من مكة ، وأجاب المخالفون عن هذا : بأن عائشة آفاقية والكلام في أهل مكة لا في الآفاقيين ، وأجاب الآخرون عن هذا بأن الحديث الصحيح ، دل على أن من مر ميقات لغيره كان ميقاتاً له ، فيكون ميقات أهل مكة في عمرتهم هو ميقات عائشة في عمرتها .

لأنها صارت معهم عند ميقاتهم .

الدليل الثاني : هو الاستقراء وقد تقرر في الأصول : أن الاستقراء من الأدلة الشرعية ، ونوع الاستقراء المعروف عندهم بالاستقراء التام حجة بلا خلاف ، وهو عند أكثرهم دليل قطعي ، وأما الاستقراء الذي ليس بتام وهو المعروف عندهم بإلحاق الفرد بالأغلب فهو حجة ظنية عند جمهورهم . والاستقراء التام المذكور هو : أن تتبع الأفراد ، فيوجد الحكم في كل صورة منها ، ما عدا الصورة التي فيها النزاع ، فيعلم أن الصورة المتنازع فيها حكمها حكم الصور الأخرى التي ليست محل نزاع .

وإذا علمت هذا فاعلم أن الاستقراء التام أعني تتبع أفراد النسك ، دل على أن كل نسك من حج أو قران أو عمرة ، غير صورة النزاع لا بد فيه من الجمع بين الحل والحرم ، حتى يكون صاحب النسك زائراً قادماً على البيت من خارج كما قال تعالى ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ [الحج : 27] الآية . فالمحرم بالحج أو القران من مكة لا بد أن يخرج إلى عرفات : وهي في الحل ، والآفاقيون يأتون من الحل لحجهم وعمرتهم ، فجميع صور النسك غير صورة النزاع ، لا بد فيها من الجمع بين الحل والحرم ، فيعلم بالاستقراء التام أن صورة النزاع لا بد فيها من الجمع أيضاً بين الحل والحرم ، وإلى مسلألة الاستقراء المذكورة أشار في مراقي السعود بقوله :

ومنه الاستقراء بالجزئي . . . على ثبوت الحكم للكلي

فإن يعم غير ذي الشقاق . . . فهو حجة بالاتفاق الخ

وقوله : فإن يعم البيت : يعني أن الاستقراء إذا عم الصور كلها غير صورة النزاع فهو حجة في صورة النزاع بلا خلاف ، والشقاق الخلاف . فقوله : غير ذي الشقاق : أي غير محل النزاع .

(432/522)

واعلم أن جماعة من أهل العلم يقولون : إن أهل مكة ليس لهم التمتع ، ولا القران ، فالعمرة في التمتع والقران ليست لهم ، وإنما لهم أن يحجوا بلا خلاف والعمرة منهم في غير تمتع ، ولا قران جائزة عند جل من لا يرون عمرة التمتع والقران لأهل مكة ، وممن قال لا تمتع ولا قران لأهل مكة : أبو حنيفة وأصحابه ، ونقله بعض الحنفية عن ابن عمر وابن عباس ، وابن الزبير ، وهو رأي البخاري رحمه الله كما ذكره في صحيحه ، ومنشأ الخلاف في أهل مكة هل لهم تمتع أو قران أو لا ؟ هو اختلاف العلماء في مرجع الإشارة في قوله تعالى ﴿ ذلكِ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 196] فالذين قالوا : لأهل مكة تمتع وقران كغيرهم ، قالوا : الإشارة راجعة إلى الهدي والصوم ، ومفهومه أن من كان أهله حاضري المسجد الحرام إذا تمتع فلا هدي عليه ولا صوم ، والذين قالوا : ليس لأهل مكة

تمتع ولا قران ، قالوا : الإشارة راجعة إلى قوله ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ ﴾ [البقرة : 196] أي ذلك التمتع ﴿ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المسجد الحرام ﴾ أما من كان أهله حاضري المسجد الحرام ، فلا تمتع له والقران داخل في اسم التمتع في عرف الصحابة ، كما تقدم إيضاحه ، والذين قالوا هذا القول زعموا أن في الآية بعض القرائن الدالة عليه ، منها التعبير باللام في قوله ﴿ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ ﴾ الآية ، لأن اللام تستعمل فيما لنا لا فيما علينا ، والتمتع لنا أن نفعله بخلاف الهدي ، فهو علينا وكذلك الصوم عند العجز عن الهدي ، ومنها : أنه جمع في الإشارة بين اللام والكاف ، وذلك يدل على شدة البعد والتمتع أبعد في الذكر من الهدي والصوم .

(433/522)

وأجاب المخالفون : بأن الإشارة ترجع إلى أقرب مذكور وهو الهدي ، والصوم ، وأن الإشارة إلى القريب إشارة البعيد أسلوب عربي معروف ، وقد ذكره البخاري عن أبي عبيدة معمر بن المثنى ومنه قوله ﴿ ذَلِكَ الكتاب ﴾ [البقرة : 2] أي هذا الكتاب . لأن الكتاب قريب ، ولذا تكثر الإشارة إليه بإشارة القريب كقوله ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] وقوله ﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ [الأنعام : 92 ، 155]

الآية وأمثال ذلك كثيرة في القرآن ، ومن إطلاق إشارة البعد على القريب قول خفاف بن ندبة السلمي :

فإن تَكُ خيلي قد أصيب صَميمها . . . فعمداً على عيني يتمَّمتً مالكا

أقول له والرُّمح يأطر مَتْنُه . . . تأمَّل خفافاً إنني أنا ذِلكا

فقد أشار إلى نفسه إشارة البعيد ، ومعلوم أنه لا يمكن أن يكون بعيداً من نفسه قالوا : واللام تأتي بمعنى على كقوله ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : 7] أي فعليها وقوله تعالى ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ ﴾ [الإسراء : 109] أي على الأذقان ، ومنه قول الشاعر ، وقد قدمناه في أول سورة هود :

هتكت له بالرمح جيبَ قميصهِ . . . فخرَّ صريعاً لليديْن ولِلْفَم

وفي الحديث " واشترطي لهم الولاء " أو أن المراد ذلك الحكم بالهدي والصوم مشروع ، لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام .

(434/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أقرب أقوال أهل العلم عندي للصواب في هذه المسألة : أن أهل مكة لهم أن يتمتعوا ، ويقرنوا وليس عليهم هدي ، لأن قوله تعالى ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ

بالعمرة إِلَى الحج ﴾ [البقرة : 196] الآية عام بلفظه في جميع الناس من أهل مكة ، وغيرهم ولا يجوز تخصيص هذا العموم ، إلا بمخصص يجب الرجوع إليه ، وتخصيصه بقوله ﴿ ذلكِ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 196] لا يجب الرجوع إليه ، لاحتمال رجوع الإشارة إلى الهدي والصوم ، لا إلى التمتع كما أوضحناه ، وأن المكي إذا أراد العمرة خرج إلى الحل فأحرم منه ، والدليل على هذا هو ما قدمناه من إرسال النَّبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها ، مع أخيها لتحرم بعمرتها من التنعيم ، وهو نص متفق على صحته ، وقول من قال : إن النَّبي أرسلها مع أخيها لتلك العمرة تطييباً لخاطرها ، لا تقوم به حجة ألبتة ، لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم لا يأمرها بعمرة ، وهي نسك وعبادة إلا على الوجه المشروع لعامة الناس لاستواء جميع الناس في أحكام التكليف ، فعمرتها المذكورة نسك قطعاً ، والحالة التي أمر النَّبي صلى الله عليه وسلم بأداء ذلك النسك عليها ، لا شك أنها مشروعة لجميع الناس إلا فيما قام دليل يجب الرجوع إليه بالخصوص ، وقصة عمرة عائشة المذكورة لم يثبت فيها دليل على التخصيص والعلم عند الله تعالى .

الفرع الرابع : اعلم أن من سلك إلى الحرم طريقاً لا ميقات فيها فميقاته المحل المحاذي ، لأقرب المواقيت إليه ، كما يدل عليه ما قدمناه في صحيح البخاري ، من توقيت عمر ذات عرق لأهل العراق لمحاذاتها قرن المنازل . وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم .

الفرع الخامس : قد قدمنا في حديث النسائي أن الجحفة ميقات لأهل مصر وأهل الشام ، وعليه فميقات أهل مصر منصوص ، والحديث المذكور قد قدمنا أنه صحيح الإسناد .

(435/522)

الفرع السادس : أظهر قولي أهل العلم عندي : أن أهل الشام ، ومصر مثلاً إذا قدموا المدينة ، فيمقاتهم من ذي الحليفة ، وليس لهم أن يؤخروا إحرامهم إلى ميقاتهم الأصلي الذي هو الجحفة ، أو ما حاذاها ، لظاهر حديث ابن عباس المتفق عليه : فَهُنَّ لهن ، ولمن أتى عليهن من غير أهلهن . وقس على ذلك .

الفرع السابع : اعلم أن جمهور أهل العلم على أن من جاوز ميقاته من المواقيت المذكورة غير محرم ، وهو يريد النسك أن عليه دماً ، ودليله في ذلك أثر ابن عباس ، الذي قدمناه موضحاً : " من نسي من نسكه شيئاً أو تكره فليهرق دماً " ، قالوا : ومن جاوز الميقات غير محرم ، وهو يريد النسك فقد ترك من نسكه شيئاً ، وهو الإحرام من الميقات ، فيلزمه الدم .

وأظهر أقوال أهل العلم عندي : أنه إن جاوز الميقات ، ثم رجع إلى الميقات ، وهو لم يحرم أنه لا شيء عليه ، لأنه لم يبتدئ إحرامه ، إلا من الميقات ، وأنه إن جاوز الميقات غير محرم ، وأحرم في حال مجاوزته الميقات ، ثم رجع إلى الميقات محرماً أن عليه دماً لإحرامه بعد

الميقات ، ولو رجع إلى الميقات فإن ذلك لا يرفع حكم إحرامه مجاوزاً للميقات . والله تعالى أعلم .

الفرع الثامن : في الكلام على مفهوم قوله صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس المتفق عليه ممن أراد النسك ، ومفهومه صادق بصورتين :

إحداهما : أن يمر إنسان على واحد من هذه المواقيت المذكورة وهو لا يريد النسك ، ولا دخول مكة أصلاً كالذي يمر بذي الحليفة قاصداً الشام أو نجداً مثلاً وهذه الصورة لا خلاف في أنه لا يلزمه فيها الإحرام ، وأن مفهوم قوله : ممن أراد النسك دالاً على أنه لا إحرام عليه في هذه الصورة .

والثانية : هي أن يمر على واحد من هذه المواقيت وهو لا يريد حجاً ، ولا عمرة ، ولكنه يريد دخول مكة ، لقضاء حاجة أخرى .

(436/522)

وهذه الصورة اختلف فيها أهل العلم ، فقال بعض أهل العلم : لا يجوز لأحد دخول مكة بغير إحرام ، ولو كان دخوله لغرض آخر غير النس .

وقال بعضهم : إذا كان دخوله مكة لغرض غير النسك ، فلا مانع من دخوله غير محرم ،

والخلاف في هذه المسألة مشهور بين أهل العلم .

وقال ابن حجر في فتح الباري : في باب دخول الحرم ومكة بغير إحرام في هذه المسألة : وقد اختلف العلماء في هذا . فالمشهور من مذهب الشافعي عدم الوجوب مطلقاً ، وفي قول : يجب مطلقاً ، وفيمن يتكرر منه دخولها خلاف ، وهو أولى بعدم الوجوب . والمشهور عن الأئمة الثلاثة : الوجوب . وفي رواية عن كل منهم لا يجب ، وهو قول ابن عمر والزهري والحسن ، وأهل الظاهر ، وجزم الحنابلة باستثناء ذوي الحاجات المتكررة ، واستثنى الحنفية من كان داخل الميقات ، وزعم ابن عبد البر أن أكثر الصحابة والتابعين على القول بالوجوب . انتهى كلام ابن حجر . ونقل النووي في شرح مسلم عن القاضي عياض : أن هذا هو قول أكثر العلماء .

وإذا علمت اختلاف العلماء في هذه المسألة فهذه تفاصيل أدلتهم . أما الذين قالوا : إنه لا يجوز دخول مكة بغير إحرام إلا للمترددين عليها كثيراً كالحطابين ، وذوي الحاجات المتكررة كالمالكية والحنابلة ، ومن وافقهم فقد استدلوا بأدلة :

منها قول بعضهم : إن من نذر دخول مكة لزمه الإحرام . قالوا : ولو لم يكن واجباً لم يجب بنذر الدخول كسائر البلدان .

ومنها : ما رواه البيهقي في سننه أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف الأصبهاني ، أنبأ أبو سعيد بن الأعرابي ، ثنا سعدان بن نصر ، ثنا إسحاق الأزرق ، عن عبد الملك ، عن عطاء ، عن ابن عباس أنه قال : لا يدخل مكة أحد من أهلها ، ولا من غير أهلها إلا بإحرام ، ورواه إسماعيل بن مسلم ، عن عطاء عن ابن عباس : فوالله ما دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حاجاً أو معتمراً . انتهى من البيهقي . وقال ابن حجر في التلخيص : حديث ابن عباس لا يدخل أحد مكة إلا محرماً . رواه البيهقي من حديثه ، وإسناده جيد ، ورواه ابن عدي مرفوعاً من وجهين ضعيفين ، ولابن أبي شيبة من طريق طلحة ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، قال : لا يدخل أحد مكة بغير إحرام ، إلا الحطابين والعمالين ، وأصحاب منافعها . وفيه طلحة بن عمرو فيه ضعف . وروى الشافعي عن ابن عيينة ، عن عمرو ، عن أبي الشعثاء : أنه رأى ابن عباس يرد من جاوز الميقات غير محرم . ا ه منه .

ومنها : أن دخول مكة بغير إحرام مناف للتعظيم اللازم لها .

وأما الذين قالوا : بجواز دخول مكة بلا إحرام لمن لم يرد نسكاً ، فاحتجوا بأدلة .

منها : ما رواه البخاري في صحيحه ، قال : باب دخول الحرم ومكة بغير إحرام . ودخل ابن عمر وإنما أمر النَّبي صلى الله عليه وسلم بالإهلال لمن أراد الحج والعمرة ، ولم يذكر

الحطابين وغيرهم .

ثم ساق بسنده حديث ابن عباس المتفق عليه المذكور سابقاً وفيه " هن لهن ولكل آت أتى عليهم من غيرهم ممن أراد الحج والعمرة " الحديث ومراد البخاري رحمه الله أن مفهوم قوله : ممن أراد الحج والعمرة أن من لم يرد الحج ، والعمرة لا إحرام عليه ، ولو دخل مكة .

(438/522)

وقال ابن حجر في الفتح في الكلام على هذا الحديث وحاصله : أنه خص الإحرام بمن أراد الحج والعمرة واستدل بمفهوم قوله في حديث ابن عباس : ممن أراد الحج والعمرة ، فمفهومه : أن المتردد إلى مكة لغير قصد الحج والعمرة لا يلزمه الإحرام . انتهى محل الغرض منه ثم قال البخاري رحمه الله : حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك ، عن ابن شهاب ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عام الفتح ، وعلى رأسه المِغفَر فلما نزعه جاء رجل فقال : إن ابن خَطَلٍ متعلق بأستار الكعبة فقال : اقتلوه " انتهى منه فقول أنس في هذا الحديث الصحيح : دخل عام الفتح ، وعلى رأسه المغفر ، دليل على أنه صلى الله عليه وسلم دخل مكة عام الفتح بغير إحرام ، كما هو واضح ، وحديث أنس هذا أخرجه مالك في الموطأ ، وزاد : ولم يكن رسول الله صلى الله عليه

وسلم يومئذ محرماً ، وأخرجه أيضاً مسلم في صحيحه باللفظ الذي ذكره البخاري في باب جواز دخول مكة بغير إحرام .

(439/522)

وقال مسلم رحمه الله في صحيحه أيضاً : حدثنا يحيى بن يحيى التميمي ، وقتيبة بن سعيد الثقفي ، قال يحيى : أخبرنا ، وقال قتيبة : حدثنا معاوية بن عمار الدُّهْنيُّ ، عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبد الله الأنصاري " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة " وقال قتيبة " دخل يوم فتح مكة ، وعليه عمامة سوداء بغير إحرام " وفي رواية قتيبة قال : حدثنا أبو الزبير ، عن جابر ، وفي رواية أخرى عند مسلم عن جابر أيضاً : " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم دخل يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء " وفي رواية عند مسلم من طريق عمرو بن حُرَيْثٍ ، عن أبيه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس وعليه عمامة سوداء " وفي لفظ لمسلم ، عن جعفر بن عمرو بن حُرَيْثٍ ، عن أبيه قال : كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، وعليه عمامة سوداء ، قد أرخى طرفيها بين كتفيه . ولم يقل أبو بكر : على المنبر . انتهى منه .

فإن قيل : في بعض هذه الأحاديث الصحيحة : أنه دخل مكة ، وعلى رأسه المغفر ، وفي

بعضها : أنه دخل وعليه عمامة سوداء .

فالجواب : أن العلماء جمعوا بين الروايتين . قال القاضي عياض : وجه الجمع بينهما أن أول دخوله كان على رأسه المغفر ، ثم بعد ذلك كان على رأسه العمامة بعد إزالة المغفر ، بدليل قوله : خطب الناس ، وعليه عمامة سوداء ، لأن الخطبة إنما كانت عند باب الكعبة بعد تمام فتح مكة ، وجمع بعض أهل العلم بينهما بأن العمامة السوداء كانت ملفوفة فوق المغفر وكانت تحت المغفر وقاية لرأسه من صدأ الحديد ، فأراد أنس بذكر المغفر كونه دخل متهيئاً للحرب ، وأراد جابر بذكر العمامة كونه دخل غير محرم انتهى محل الغرض منه من فتح الباري .

(440/522)

وقال ابن حجر في الفتح في قول البخاري : ودخل ابن عمر وصله مالك رحمه الله في الموطأ عن نافع قال : أقبل عبد الله بن عمر من مكة ، حتى إذا كان بِقُدَيْدٍ (يعني بضم القاف) جاءه خبر من المدينة ، فرجع فدخل مكة بغير إحرام ا ه منه ، وقد ذكره مالك في الموطأ في جامع الحج بلفظ : جاءه خبر من المدينة يدل عن الفتنة ، وباقي اللفظ كما ذكره ابن حجر .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين عندي دليلاً : أن من أراد دخول مكة

حرسها الله لغرض غير الحج والعمرة أنه لا يجب عليه الإحرام ، ولو أحرم كان خيراً له ، لأن أدلة هذا القول أقوى وأظهر فحديث ابن عباس المتفق عليه : خص فيه النَّبي صلى الله عليه وسلم الإحرام بمن أراد النسك . وظاهره أن من لم يرد نسكاً فلا إحرام عليه . وقد رأيت الروايات الصحيحة بدخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح غير محرم ، ودخول ابن عمر غير محرم والعلم عند الله تعالى .

وأما قول بعض أهل العلم من المالكية وغيرهم أن دخول مكة بغير إحرام من خصائصه صلى الله عليه وسلم ، فهو لا تنهض به حجة ، لأن المقرر في الأصول وعلم الحديث أن فعله صلى الله عليه وسلم لا يختص حكمه به إلا بدليل يجب الرجوع إليه ، لأنه هو المشرع لأمته بأقواله وأفعاله وتقريره كما هو معلوم .

(441/522)

الفرع التاسع : في حكم تأخير الإحرام عن الميقات ، وتقديمه عليه قد قدمنا أنه لا يجوز تأخير الإحرام عن الميقات ممن يريد حجاً أو عرمة ، وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم ، وقد قدمنا دليله ، وأما ما رواه مالك رحمه الله في الموطأ عن نافع : أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أهل من الفُرْعِ . ومعلوم أن الفرع وراء ميقات أهل المدينة الذي هو ذو

الحليفة ، فهو محمول عند أهل العلم كما ذكره ابن عبد البر وغيره ، على أنه وصل الفرع وهو لا يريد النسك فطرأت عليه نية النسك بالفرع ، فأهل منه ، وهذا متعين ، لأن ابن عمر رضي الله عنهما ممن روى المواقيت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فمن المعلوم أنه لا يخالف ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما الإحرام من موضع فوق الميقات ، فأكثر أهل العلم على جوازه غير واحد عليه الاتفاق .

واختلفوا في الأفضل من الأمرين وهما الإحرام من الميقات أو الإحرام من بلده إن كان أبعد من الميقات ؟ قال النووي في شرح المهذب : أجمع من يعتد به من السلف والخلف من الصحابة ، فمن بعدهم ، على أنه يجوز الإحرام من الميقات ومما فوقه . وحكى العبدري وغيره عن داود أنه قال : لا يجوز الإحرام مما فوق الميقات ، وأنه لو أحرم مما قبله لم يصح إحرامه ، ويلزمه أن يرجع ، ويحرم من الميقات . وهذا الذي قاله مردود بإجماع من قبله . انتهى كلام النووي .

(442/522)

وحجة من قال : إن الإحرام من الميقات أفضل أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أحرم في حجته وعمرته من الميقات الذي هو ذو الحليفة ، وهذا مجمع عليه من أهل العلم ، وأحرم معه في حجه وعمرته أصحابه كلهم من الميقات ، وكذلك كان يفعل بعده خلفاؤه الراشدون وغيرهم من الصحابة والتابعين ، وجماهير العلماء ، وأهل الفضل فترك النبي صلى الله عليه وسلم الإحرام في مسجده الذي صلاة فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وإحرامه من الميقات دليل واضح ، لا شك فيه أن السنة هي الإحرام من الميقات ، لا مما فوقه ، واحتج من قال : بكون الإحرام مما فوق الميقات أفضل بما رواه أبو داود في سننه : حدثنا أحمد بن صالح ، ثنا ابن أبي فُدَيك ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يُحنَّس ، عن يحيى بن أبي سفيان الأخنسي ، عن جدته حكيمة عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من أهل بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أو وجبت له الجنة " شك عبد الله أيتهما قال : قال أبو داود : يرحم الله وكيعاً أحرم من بيت المقدس ، يعني إلى مكة . انتهى من سنن أبي داود . واحتج أهل هذا القول أيضاً بتفسير عمر ، وعلي رضي الله عنهما لقوله ﴿ وَأَتِمُّواْ الحج والعمرة للَّهِ ﴾ [البقرة : 196] قالا : إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك ، واحتجوا أيضاً بما رواه مالك في الموطأ عن الثقة

عنده أن عبد الله بن عمر : أهَلَّ من إيلياء . وهي بيت المقدس ، ورد المخالفون استدلال هؤلاء بأن حديث أم سلمة : ليس بالقوي .

(443/522)

قال النووي في شرح المهذب : وأما حديث أم سلمة ، فرواه أبو داود ، وابن ماجه ، والبيهقي ، وآخرون وإسناده ليس بالقوي ، وبأن تفسير علي وعمر رضي الله عنهما للآية ، وفعل ابن عمر كلاهما مخالف لفعل النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله في حجته تفسير لآيات الحج . وقد قال صلى الله عليه وسلم " خذوا عني مناسككم "

وإحرامه من الميقات مجمع عليه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين عندي دليلاً هو : الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ، والإِحرام من الميقات ، فلو كان الإحرام قبله فيه فضل لفعله صلى الله عليه وسلم ، والخير كله في اتباعه صلى الله عليه وسلم .

وقال النووي في شرح المهذب ، بعد أن يبين أن الإحرام من الميقات أفضل من غيره ما نصه :

فإن قيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم ، أحرم من الميقات لبيان جوازه .

فالجواب من أوجه :

أحدها : أنه صلى الله عليه وسلم قد بين الجواز بقوله صلى الله عليه وسلم " مهل أهل المدينة من ذي الحليفة " .

الثاني : أن بيان الجواز فيما يتكرر فعله ، ففعله صلى الله عليه وسلم مرة أو مرات يسيرة على أقل ما يجزئ بياناً للجواز ويداوم في عموم الأحوال ، على أكمل الهيئات ، كما توضأ مرة في بعض الأحوال وداوم على الثلاث ، ونظائر هذا كثيرة ، ولم ينقل أنه صلى الله عليه وسلم أحرم من المدينة ، وإنما أحرم بالحج وعمرة الحديبية من ذي الحليفة .

الثالث : أن بيان الجواز إنما يكون في شيء اشتهر أكمل أحواله بحيث يخاف أن يظن وجوبه ، ولم يوجد ذلك هنا ، وهذا كله إنما يحتاج إليه على تقدير دليل صريح صحيح في قمابلته ولم يوجد ذلك ، فغن حديث أم سلمة قد سبق أن إسناده ليس بالقوي فيجاب عنه بأربعة أجوبة .

الأول : أن إسناده ليس بقوي .

الثاني : أن فيه بيان فضيلة الإحرام من فوق الميقات وليس فيه أنه أفضل من الميقات . ولا خلاف أن الإحرام من فوق الميقات فيه فضيلة ، وإنما الخلاف أيهما أفضل .

(444/522)

فإن قيل : هذا الجواب يبطل فائدة تخصيص المسجد الأقصى .

فالجواب : أن فيه زيادة هي تبيين قدر الفضيلة فيه .

والثالث : أن هذا معارض لفعله صلى الله عليه وسلم المتكرر في حجته وعمرته ، فكان فعله المتكرر أفضل .

الرابع : أن هذه الفضيلة جاءت في المسجد الأقصى لأن له مزايا عديدة معروفة ، ولا يوجد ذلك في غيره ، فلا يلحق به والله تعالى أعلم . إنتهى كلام النووي . ولا شك : أن مسجد النَّبي صلى الله عليه سولم أفضل من المسجد الأقصى ، بدليل الحديث المتفق عليه " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام " ولا خلاف بين أهل العلم في دخول المسجد الأصى في هذا العموم ، وتفضيل مسجد النَّبي صلى الله عليه وسلم في الجملة ، فلو كان فضل المكان سبباً للإحرام فيه قبل الميقات ، لأحرم النَّبي صلى الله عليه وسلم في مسجده ، لأنه لا يفعل إلا ما هو الأفضل والأكمل صوات الله وسلامه عليه ، ولا يخفى أن الاقتداء بالنَّبي صلى الله عليه وسلم أفضل وأكمل من غيره .

الفرع العاشر : في حكم تقديم الإحرام على ميقاته الزماني ، الذي هو أشهر الحج التي تقدم بيانها .

اعلم أن جماعة من أهل العلم قالت : لا ينعقد الإحرام بالحج في غير أشهر الحج ، وأكثر من قال بهذا يقولون : إنه إن أحرم بالحج في غير أشهره ينعقد إحرامه بعمرة لا حج ، وهذا هو مذهب الشافعي . قال النووي في شرح المهذب : وبه قال عطاء ، وطاوس ، ومجاهد ، وأبو ثور . ونقله الماوردي عن عمر ، وابن مسعود ، وجابر ، وابن عباس وأحمد . وقال الأوزاعي : يتحلل بعمرة . وقال ابن عباس : لا يحرم بالحج إلا في أشهره . وقال داود : لا ينعقد . وقال النخعي والثوري ، ومالك ، وأبو حنيفة ، وأحمد : يجوز قبل أشهر الحج ، ولكن يكره قالوا : فأما الأعمال فلا تجوز قبل أشهر الحج بلا خلاف ، واحتج لهم بقوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج ﴾ [البقرة : 189] فأخبر سبحانه وتعالى أن الأهلة كلها مواقيت للناس والحج ، ولأنها عبادة تدخلها النيابة ، وتجب الكافرة في إفسادها ، فلم تخص بوقت كالعمرة ، ولأن الإحرام بالحج يصح في زمان لا يمكن إيقاع الأفعال فيه . وهو شوال . فعلم أنه لا يختص بزمان . قالوا ، ولأن التوقيت ضربان توقيت مكان وزمان . وقد ثبت أنه لو تقدم إحرامه على ميقات المكان صح ، فكذا الزمان قالوا : وأجمعنا على أنه لو أحرم بالحج قبل أشهره انعقد لكن اختلفنا ، هل ينعقد حجاً أو عمرة ؟ فلو لم ينعقد حجاً لما انعقد عمرة . انتهى محل الغرض من كلام النووي .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ومن العجيب عندي أن يستدل عالم بمثل هذه الأدلة التي هي في غاية السقوط كما ترى ، لأن آية ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة : 189] ليس معناها : أن كل شهر منها ميقات للحج ، ولكن أشهر الحج ، إنما تعلم بحساب جميع الأشهر ، لأنه هو الذي يتميز به وقت الحج من غيره ، ولأن هذه الأدلة لا يعول عليها في مقابلة آية محكمة من كتاب الله صريحة في توقيت الحج بأشهر معلومات هي قوله تعالى ﴿ الحج أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحج فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحج ﴾ [البقرة : 197] فتجاهل هذا النص القرآني ، ومعارضته بما رأيت من الغرائب كما ترى .

والتحقيق الذي يدل عليه القرآن هو قول من قال : إن الحج لا ينعقد في غير زمنه ، كما أن الصلاة المكتوبة لا ينعقد إحرامها قبل وقتها ، وانقلاب إحرامه عمرة له وجه من النظر ، ويستأنس له بأن النَّبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه المحرمين بالحج الذين لم يسرقوا هدياً أن يقلبوا حجهم الذي أحرموا به عمرة ، وبأن من فاته الحج تحلل من إحرامه للحج بعمرة والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثانية عشرة في التلبية في بيان أول وقتها ووقت انتهائها وفي حكمها وكيفية لفظها

ومعناها :

أما لفظها : فقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وفي صحيح البخاري ، من حديث عائشة رضي الله عنها ، ومسلم من حديث جابر أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في تلبيته ، إذا أهل محرماً

(447/522)

" لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، لبيك إن الحمدَ والنعمةَ لك والملكَ لا شريك لك "

ورواية البخاري عن عائشة المذكورة إلى قوله " إن الحمد والنعمة لك " وقد أجمع المسلمون على لفظ التلبية المذكورة في حديث ابن عمر المتفق عليه ، وحديث جابر ، عند مسلم عند الإحرام بالحج أو العمرة . ولكن اختلفوا في الزيادة عليه بألفاظ فيها تعظيم الله ، وحديث جابر ، عند مسلم عند الإحرام بالحج أو العمرة . ولكن اختلفوا في الزيادة عليه بألفاظ فيها تعظيم الله ، ودعاؤه ، ونحو ذلك فكره بعضهم : الزيادة ، على تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكاه ابن عبد البر ، عن مالك قال : وهو أحد قولي الشافعي : انتهى منه بواسطة نقل ابن حجر في الفتح .

وقال آخرون : لا بأس بالزيادة المذكورة ، واستحب بعضهم الزيادة المذكورة .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي في هذه المسألة : أن الأفضل هو الاقتداء بالنَّبي صلى الله عليه وسلم ، والاقتصار على لفظ تلبيته الثابت في الصحيحين وغيرهما ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] وهو صلى الله عليه وسلم يقول " لتأخذوا عني مناسككم " وأن الزيادة المذكورة لا بأس بها . والدليل على ذلك من وجهين :

(448/522)

أحدهما : ما رواه مسلم في صحيحه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما بعد أن ساق حديثه بلفظ تلبية النَّبي صلى الله عليه وسلم المذكورة قال : قال نافع : كان عبد الله رضي الله عنه ، يَزِيدُ مع هذا : لبيك لبيك وسعديك ، والخير بيديك لبيك ، والرغباء إليك ، والعمل .

وقال مسلم رحمه الله في صحيحه أيضاً بعد أن ساق حديثه ، بتلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن ابن عمر من رواية ابنه سالم رضي الله عنه ، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُهِلُّ بإهلال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الكلمات ويقول : لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ، والخير في يديك والرغباء إليك والعمل . ا ه .

وقال ابن حجر في الفتح بعد أن ذكر الرواية عن عمر وابنه عبد الله ، فعرف أن ابن عمر اقتدى في ذلك بأبيه ا ه .

ومعلوم أن الزيادة على تلبية النَّبي صلى الله عليه وسلم ، لو كان فيها محذور ، لما فعلها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما .

الوجه الثاني : هو ما ثبت في صحيح مسلم في حديث جابر الطويل ، فإن فيه ما نصه :

فأهل بالتوحيد : لبيك اللَّهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، وأهل الناس بهذا الذين يهلون به فلم يَردَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم شيئاً منه .

انتهى محل الغرض من حديث جابر المذكور ، وهو واضح في أنهم يزيدون على تلبيته صلى الله عليه وسلم ، ويقرهم على ذلك ، ولم ينكره عليهم كما ترى .

وأما أول وقتها : فأظهر أقوال أهل العلم فيه : أنه أول الوقت ، الذي يكرب فيه مركوبه عند إرادة ابتداء السير لصحة الأحاديث الواردة ، بأنه صلى الله عليه وسلم أهل حين استوت به راحلته .

(449/522)

قال البخاري في صحيحه : باب من أهل حين استوت به راحلته قائمة : حدثنا أبو عاصم ، أخبرنا ابن جريج ، قال أخبرني صالح بن كيسان ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما : قال : أهَلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استوت به راحلته قائمةً : باب الإهلال مُستقبل القِبلة ، وقال أبو مَعْمَرٍ : حدثنا عبد الوارث ، حدثنا أيوب ، عن نافع ، قال : كان ابن عمر رضي الله عنهما : إذا صلى بالغداة بذي الحُلَيْفَةِ ، أمَرَ براحلته فَرحِلَتْ ، ثم ركب ، فإذا استوت به استقبل القبلة قائماً ، ثم يُلَبي حتى يَبلُغَ الحرم ، ثم يُمسكُ ، حتى إذا جاء ذا طُوًى بات به ، حتى يصبح ، فإذا صلى الغداة اغتَسَلَ ، وزَعَمَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك . تابعه إسماعيل عن أيوب في الغَسْلِ : حدثنا سليمان بن داود أبو الربيع ، حدثنا فُلَيْحٌ ، عن نافع قال : كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أراد الخروج إلى مكة ادَّهَنَ بِدُهْنٍ ، ليس له رائحة طيبة ، ثم يأتي مسجد الحُلَيفة ، فيصلي ثم يَركَبُ ، وإذا استوت به راحلتُهُ قائمة أحرم ، ثم قال : هكذا رأيت النَّبي صلى الله عليه وسلم يفعل . انتهى من صحيح البخاري .

فهذه الروايات الصحيحة الثابتة ، عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه صلى الله عليه وسلم أحرم حين استوت به راحلته قائمة واضحة فيما ذكرنا ، من أول وقت الإحرام ، عندها يكرب حالة شروعه في السير من الميقات .

وقال مسلم في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى ، قال : قرأ على مالك عن موسى بن عقبة ، عن سالم بن عبد الله أنه سمع أباه رضي الله عنه يقول : بَيْدَاؤُكُم هذه التي تكذبون عَلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ما أَهَلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا من عند المسجد يعني ذا الحُلَيْفَةِ ، وحدثناه قتيبة بن سعيد ، حدثنا حاتم يعني : ابن إسماعيل ، عن موسى بن عقبة ، عن سالم قال : كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا قيل له : الإحرام من البَيْداءِ قال : البيداء التي تَكْذِبُونَ فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أَهَلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من عند الشجرة ، حين قام به بعيره .

(451/522)

وفي لفظ لابن عمر رضي الله عنهما عند مسلم : فإني لم أرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يُهِلُّ حتى تنبعث به راحلته . وفي لفظ له أيضاً عند مسلم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا وضع رجله في الغَرْزِ ، وانبعثت به راحلته قائمةً أَهَلَّ من ذي الحُلَيْفَة . وفي مسلم عنه ألفاظ أخرى متعددة بهذا المعنى ، ومراد ابن عمر رضي الله عنهما بكذبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإحرام من البيداء هو ما روه البخاري ، من

حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، بلفظ : فأصبح بذي الحليفة ركب راحلته ، حتى استوى على البيداء أهل هو وأصحابه . الحديث ، وما رواه البخاري رحمه الله في صحيحه أيضاً ، عن أنس بن مالك بلفظ قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن معه بالمدينة الظهر أربعاً والعصر بذي الحُلَيْفَة ركعتين ، ثم بات بها ، حتى أصبح ، ثم ركب حتى استوت به على البيداء حمد الله وسَبَّح ، وكَبَّر ، ثم أهَلَّ بحج وعمرة ، وأهل الناس بهما . الحديث . ومراد ابن عمر أن النبي صلى الله لعيه وسلم أهل محرماً حين استوت به راحلته قائمة من منزله بذي الحليفة ، قبل أن يصل البيداء ، ووجه الجمع بين حديث ابن عمر ، وحديث بان عباس ، وأنس معروف عند أهل الحديث ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم ابتدأ إهلاله حين استوت به راحلته قائمة فسمعه قوم ، ثم لما استوت به على البيداء أعاد تلبيته فسمعه آخرون لم يسمعوا تلبيته الأولى فحدَّث كل واحد منهم بما سمع .

(452/522)

وقال بعضهم : أحرم في مصلاه فسمعه بعضهم ، ولم يسمعه ابن عمر ، حتى ساتوت به راحلته ، وجزم ابن عمر أنه ما أهل حتى استوت به راحلته يدل على أنه علم أنه لم يهل حتى

استوت به ، فالأحاديث متفقة ومراد بان عمر بالإنكار والتكذيب خاص بمن زعم أنه لم يلب قبل وصله البيداء ، وهذا الجمع ذكره ابن حجر ، عن أبي داود ، والحاكم وقال ابن حجر في الفتح : فائدة البيداء هذه فوق علَمي ذي الحليفة ، لمن صعد من الوادي قاله أبو عبيد البكري وغيره . انتهى منه .

وإذا عرفت مما ذكرنا أول وقت التلبية . وأنه وقت انعقاد الإحرام فاعلم أن الصحيح الذي قام عليه الدليل : أن الحاج لا يقطع التلبية ، حتى يشرع في رمي جمرة العقبة ، وقال بعض أهل العلم : حتى ينتهي رميه إياها .

والدليل على أن القول هو الصواب دون غيره من أقوال أهل العلم هو ما ثبت في صحيح مسلم من حديث الفضل بن العباس رضي الله عنهم ، وكان رديف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع من مزدلفة إلى منى ، ففي لفظ لمسلم عن الفضل بن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يُلَبي حتى بلغ الجمرة .

(453/522)

وقوله في هذا الحيدث الصحيح : حتى بلغ الجمرة ، هو حجة من قال : يقطع التلبية ، عند الشروع في الرمي لأن بلوغ الجمرة هو وقت للشروع في الرمي وفي لفظ لمسلم ، عن الفضل

أيضاً " أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يلبي ، حتى رمى جمرة العقبة " وقوله في هذا الحديث " حتى رمى جمرة العقبة " هو حجة من قال يلبي حتى ينتهي رميه ، وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، من طريق عبد الرحمن بن يزيد قال : قال عبد الله : ونحن بجمع سمعت الذي أنزلت عليه سورة البقرة ، يقول في هذا المقام " لبيك اللهم لبيك " وجمع هي المزدلفة . وهذا الحديث الصحيح يدل على تلبية النبي صلى الله عليه وسلم بمزدلفة بعد الرجوع من عرفة ، وفي لفظ لابن مسعود عند مسلم أيضاً : قال عبد الله : أَنَسِيَ الناس أم ضَلُّوا سمعتُ الذي أنزلت عليه سورة البقرة يقول في هذا المكان : " لبيك اللهم لبيك " وفي لفظ عنه أيضاً عند مسلم ، من رواية عبد الرحمن بن يزيد والأسود بن يزيد قالا : سمعنا عبد الله بن مسعود يقول بجمع : سمعت الذي أنزلت لعيه سورة البقرة ههنا يقول " لبيك اللهم لبيك " ثم لبى ولبينا معه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : فهذه النصوص الصحيحة ، تدل على عدم قطع التلبية بعرفة ، والأظهر أنه يقطعها عند الشروع في رمي العقبة ، وأن رواية مسلم حتى رمى جمرة العقبة يراد به الشروع في رميها لا الانتهاء منه .

ومن القرائن الدالة على ذلك : ما ثبت في الروايات الصحيحة من التكبير مع كل حصاة فظرف الرمي لا يستغرق غير التكبير ، مع الحصاة لتتابع رمي الحصيات .

قال الزرقاني في شرح الموطأ ، ولابن خزيمة عن الفضل : أفضت مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يلبي ، حتى رمى جمرة العقبة يكبر من كل حصاة ، ثم قطع التلبية ، مع آخر حصاة ، قال ابن خزيمة : حديث صحيح مفسر لما أبهم في الرواية الأخرى ، وأن المراد بقوله " حتى رمى جمرة العقبة " أتم رميها ا ه وعلى تقدير صحة هذه الرواية لا ينبغي العدول عنها .

وإذا علمت الصحيح الذي دلت عليه النصوص ، فاعلم أن في وقت انتهاء الرمي مذاهب للعلماء غير ما ذكرنا . فقد روي عن سعد بن أبي وقاص ، وعائشة : أنه يقطع التلبية ، إذا راح إلى الموقف ، وعن علي ، وأم سلمة : أنهما كانا يلبيان حتى تزول الشمس يوم عرفة ، وهذا قريب من قول سعد وعائشة ، وكان الحسن يقول : يلبي حتى يصلي الغداة يوم عرفة ، ومذهب مالك أنه يقطعها إذا زاغت الشمس من يوم عرفة ، وقد روى مالك رحمه الله في الموطأ عن جعفر بن محمد ، عن أبيه : أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يلبي في الحج .

حتى إذا زاغت الشمس من يوم عرفة ، قطع التلبية قال مالك : وذلك الأمر الذي لم يزل عليه أهل العلم ببلدنا ا ه . وروى مالك في الموطأ أيضاً عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : أنها كانت تترك التلبية إذا رجعت إلى

الموقف ، وروي في الموطأ أيضاً عن نافع عن ابن عمر أنه كان يقطع التلبية في الحج إذا انتهى إلى الحرم . حتى يطوف بالبيت . وبين الصفا والمروة . ثم يلبي حتى يغدو من منى إلى عرفة . فإذا غدا ترك التلبية . وكان يَترك التلبية في العمرة ، إذا دخل الحرم ا ه .

والتحقيق أنه لا يقطعها ، إلا إذا رمى جمرة العقبة ، لدلالة حديث الفضل بن عباس الثابت في الصحيح على ذلك ، دلالة واضحة ودلالة حديث ابن مسعود الثابت في الصحيح على تلبية النبي بمزدلفة أيضاً ، ولم يثبت في كتاب الله ، ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم شيء يخالف ذلك ، والعلم عند الله تعالى .

(455/522)

وأما حكم التلبية فقد اختلف فيه أهل العلم اختلافاً معروفاً ، قال ابن حجر في فتح الباري : لم يتعرض المصنف لحكم التلبية ، وفيها مذاهب أربعة ، يمكن توصيلها إلى عشرة .

الأول : أنها سنة من السنن لا يجب بتركها شيء وهو قول الشافعي وأحمد .

ثانيها : واجبة ويجب بتركها دم حكاه الماوردي عن ابن أبي هريرة من الشافعية ، وقال : إنه وجد للشافعي نصاً يدل عليه وحكاه ابن قدامة عن بعض المالكية والخطابي عن مالك وأبي حنيفة وأغرب النووي فحكى عن مالك أنها سنة ، ويجب بتركها دم ، ولا يعرف ذلك

عندهم إلا أن ابن الجلاب قال : التلبية في الحج مسنونة غير مفروضة ، وقال ابن التين : يريد أنها ليست من أركان الحج وإلا فهي واجبة ، ولذلك يجب بتركها الدم ، ولو لم تكن واجبة لم يجب ، وحكى ابن العربي : أنه يجب عندهم بترك تكرارها دم ، وهذا قدر زائد على أصل الوجوب .

ثالثها : واجبة لكن يقوم مقامها فعل يتلعق بالحج ، كالتوجه على الطريق ، وبهذا صدر ابن شاس من المالكية كلامه في الجواهر له ، وحكى صاحب الهداية من الحنفية مثله ، لكن زاد القول الذي يقوم مقام التلبية من الذكر كما في مذهبهم من أنه لا يجب لفظ معين ، وقال ابن المنذر : قال أصحاب الرأي : إن كبر أو هلل أو سبح ينوي بذلك الإحرام ، فهو محرم .

رابعها : أنها ركن في الإحرام لا ينعقد بدونها حكاه ابن عبد البر عن الثوري ، وأبي حنيفة ، وابن حبيب من المالكية ، والزبير من الشافعية ، وأهل الظاهر قالوا : هي نظيرة تكبيرة الإحرام للصلاة ، ويقويه ما تقدم من بحث ابن عبد السلام ، عن حقيقة الإحرام ، وهو قول عطاء ، أخرجه سعيد بن منصور بإسناد صحيح عنه ، قال : التلبية فرض الحج ، وحكاه ابن المنذر عن ابن عمر وطاوس ، وعكرمة ، وحكى النووي : عن داود : أنه لا بد من رفع الصوت بها ، وهذا قدر زائد على أصل كونها ركناً .

انتهى من فتح الباري .

وإذا عرفت مذاهب أهل العلم في حكم التلبية ، فاعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لبى كما ذكرنا وقال : " لتأخذوا عني مناسككم " فعلينا أن نأخذ عنه من مناسكنا التلبية ، وهذا القدر هو الذي قام عليه الدليل : أما كونها مسنونة أو مستحبة أو واجبة يصح الحج بدونها ، وتجبر بدم فكل ذلك لم يرد فيه دليل خاص ، والخير كله في اتباعه صلى الله عليه وسلم ، والعلم عند الله تعالى .

وأما معنى التلبية : فهي من لبى بمعنى : أجاب ، فلفظة : لبيك مثناة على قول سيبويه والجمهور ، وتثنيتها للتكثير : أي إجابة لك بعد إجابة ، ولزوماً لطاعتك ، وقال يونس بن حبيب البصري : لبيك : اسم مفرد لا مثنى ، قال : وإنما انقلبت ألفه ياء لاتصالها بالضمير ، كما قلبت ألف لدى ، وإلى ، وعلى في حالة الاتصال بالضمير فتقول : لديك ، وإليك وعليك بإبدال الألف ياء ، والأظهر قول سيبويه ، وجمهور أهل اللغة .

ومما يدل على ذلك أنه سمع في كلام العرب ثبوت الياء مع الإضافة للاسم الظاهر لا الضمير كما في قول الشاعر ، وهو أعرابي من بني أسد :

دعوتُ لما نابني مِسورَا . . . فلبى فلبى يدي مسور

وقال ابن الأنباري : ثنوا لبيك كما ثنوا حنانيك : أي تحنناً بعد تحنن ، وقال القاضي عياض : اختلفوا في معنى لبيك واشتقاقها ، فقيل معناها : اتجاهي وقصدي إليك ، مأخوذ من قولهم : داري تلب دارك أي تواجهها ، وقيل معناها محبتي لك مأخوذ من قولهم : امرأة لبة ، إذا كانت محبة لولدها عاطفة عليه ، وقيل معناها : إخلاصي لك مأخوذ من قولهم : حب لباب ، إذا كان خالصاً محضاً ، ومن ذلك لب الطعام ولبابه ، وقيل معناها : أنا مقيم على طاعتك ، وإجابتك مأخوذ من قولهم : لب الرجل بالمكان ، وألب به إذا أقام فيه قال ابن الأنباري : وبهذا قال الخليل . وقيل في لبيك : أي قرباً منك ، وطاعة ، والإلباب : القرب ، وقال أبو نصر معناه : أنا ملب بين يديك أي خاضع . انتهى كلام عياض ، مع تصرف ، وحذف يسير بواسطة نقل النووي في شرح مسلم ، وما قاله الشيخ عياض رحمه الله ، يدور حوله كلام أهل اللغة في معنى التلبية ، وبقية ألفاظ التلبية معانيها ظاهرة .

واعلم أن لفظة لبيك ملازمة للإضافة لضمير المخاطب ، وشذ إضافتها للظاهر كما تقدم قريباً ، وشذ أيضاً إضافتها لضمير الغائب كقول الراجز :

إنك لو دعوتني ودوني . . . زوراء ذات منزع بيون

لقلت لبيه لمن يدعوني . . . فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : اعلم أنه ينبغي للرجال رفع أصواتهم بالتلبية ، لما رواه مالك في الموطأ ،

والشافعي ، وأحمد ، وأصحاب السنن ، وابن حبان ، والحاكم .

من حديث خلاد بن السائب الأنصاري ، عن أبيه السائب بن خلاد بن سويد رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية " ا ه .

(458/522)

ولفظ مالك في موطئه " أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي ، أو من معي أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية أو بالإهلال " يريد أحدهما . وقال الترمذي في هذا الحديث : حديث حسن صحيح ، وجمهور أهل العلم على أن هذا الأمر المذكور في الحديث للاستحباب ، وذهب الظاهرية إلى أنه للوجوب ، والقاعدة المقررة في الأصول مع الظاهرية ، وهي أن الأمر يقتضي الوجوب إلا لدليل صارف عنه ، وأما النساء فلا ينبغي لهن رفع الصوت بالتلبية كما عليه جماهير أهل العلم .

قال مالك في موطئه : إنه سمع أهل العلم يقولون : ليس على النساء رفع الصوتِ بالتلبية ، لِتُسمِع المرأة نَفْسَها ، وعلل بعض أهل العلم خفض المرأة صوتها بالتلبية ، بخوف الافتتان بصوتها .

وقال الرافعي في شرحه الكبير المسمى فتح العزيز في شرح الوجيز : وإنما يسحب الرفع في حق الرجل ، ولا يرفع حيث يجهد ويقطع صوته ، والنساء تقتصرن على إسماع أنفسهن ، ولا يجهرن كما لا يجهرن بالقراءة في الصلاة .

قال القاضي الروياني : ولو رفعت صوتها بالتلبية لم يحرم ، لأن صوتها ليس بعورة خلافاً لبعض أصحابنا ا ه . وذكره نحوه النووي عن الروياني ثم قال : وكذا قال غيره : لا يحرم لكن يكره صرح به الدارمي ، والقاضي أبو الطيب والبندنيجي ، ويخفض الخنثى صوته كالمرأة ذكره صاحب البيان وهو ظاهر .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أما المرأة الشابة الرخيمة الصوت ، فلا شك أن صوتها من مفاتن النساء ولا يجوز لها رفعه بحال ، ومن المعلوم أن الصوت الرخيم من محاسن النساء ومفاتنها ، ولأجل ذلك يكثر ذكره في التشبيب بالنساء ، كقول غيلان ذي الرمة :

لها بشر مثل الحرير ومنطق . . . رخيم الحواشي لا هراء ولا نزر

وعينان قال الله : كونا فكانتا . . . فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

فتراه جعل الصوت الرخيم من محاسن النساء ، كالبشرة الناعمة والعينين الحسنتين ، وكقول قعنب ابن أم صاحب :

في الخدود لو أن الدار جامعة . . . بيض أوانس في أصواتها غنن

فتراه جعل الصوت الأغن من جملة المحاسن ، وهذا أمر معروف لا يمكن الخلاف فيه ، وقد قال جل وعلا مخاطباً لنساء النَّبي صلى الله عليه وسلم وهن خير أسوة لنساء المسلمين ﴿ فَلاَ تَخْضَعْنَ بالقول فَيَطْمَعَ الذي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ﴾ [الأحزاب : 32] لأن تليين الصوت وترخيمه يدل على الاهتمام بالريبة كإبداء غيره من محاسن المرأة للرجال كما قال الشاعر :

يحسبن من الكلام زوانيا . . . ويصدهن عن الخنا الإسلام

الفرع الثاني : اعلم أنه يستحب الإكثار من التلبية في دوام الإحرام ، ويتأكد استحبابها في كل صعود وهبوط ، وحدوث أمر من ركوب ، أو نزول ، أو اجتماع رفاق ، أو فراغ من صلاة وعند إقبال الليل والنهار ، ووقت السحر ، وغير ذلك من تعاير الأحوال ، وعلى هذا أكثر أهل العلم .

(460/522)

قال صاحب المهذب : يستحب أن يكثر من التلبية ، ويلبي عند اجتماع الرفاق ، وفي كل صعود وهبوط ، وفي إدبار الصلوات ، وإقبال الليل والنهار ، لما روى جابر رضي الله عنه ،

قال "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبي إذا رأى كوكباً أو صعد أكمة أو هبط وادياً " وفي أدبار المكتوبة وآخر الليل . انتهى محل الغرض منه . ولم يتكلم النووي في شرحه للمهذب على حديث جابر المذكور ، وقال ابن حجر في التلخيص الحبير في حديث جابر المذكور : هذا الحديث ذكره الشيخ في المهذب ، وبيض له النووي ، والمنذري ، وقد رواه ابن عسكر في تخريجه لأحاديث المهذب من طريق عبد الله بن محمد بن ناجية في فوائده بإسناد له إلى جابر قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبي إذا لقي راكباً " فذكره ، وفي إسناده من لا يعرف ، وروى الشافعي ، عن سعيد بن سالم عن نافع ، عن عبد الله بن عمر ، أنه كان يلبي راكباً ، ونازلاً ، ومضطجعاً . وروى ابن أبي شيبة من رواية ابن سابط قال : كان السلف يستحبون التلبية في أربعة مواضع : في دبر الصلاة ، وإذا هبطوا وادياً أو علوه ، وعند التقاء الرفاق ، وعند خيثمة نحوه وزاد : وإذا استقلت بالرجل راحلته . انتهى من التلخيص .

وقال مالك في الموطأ : سمعت بعض أهل العلم يستحب التلبية دبر كل صلاة ، وعلى كل شرف من الأرض . ويستأنس لحديث جابر المذكور يقول البخاري : باب التلبية ، إذا انحدر في الوادي ، ثم ساق بسنده الحديث عن ابن عباس وفيه قال " أما موسى كأني أنظر إليه ، إذ انحدر في الوادي يلبي " وقال في الفتح في شرح هذا الحديث ، وفي الحديث : أن

التلبية في بطون الأودية من سنن المرسلين ، وأنها تتأكد عند الهبوط كما تتأكد عند الصعود .

(461/522)

الفرع الثالث : اعلم أن العلماء اختلفوا في استحباب التلبية في حال طواف القدوم والسعي بعده ، وممن قال إنه لا يلبي في طواف القدوم ، والسعي بعده : مالك وأصحابه ، وهو الجديد الصحيح من قولي الشافعي ، وقال ابن عيينة : ما رأيت أحداً يقتدى به يلبي حول البيت إلا عطاء بن السائب ، وممن أجاز التلبية في طواف القدوم : أحمد ، وقال ابن قدامة في المغني : وبه يقول ابن عباس ، وعطاء بن السائب ، وربيعة بن أبي عبد الرحمن ، وابن أبي ليلى ، والشافعي . وروي عن سالم بن عبد الله أنه قال : لا يلبي حول البيت ، وقال ابن عيينة : ما رأينا أحداً يقتدى به يلبي حول البيت ، إلا عطاء بن السائب ، وذكر أبو الخطاب : أنه لا يلبي ، وهو قول للشافعي ، لأنه مشتغل بذكر يخصه ، فكان أولى .

انتهى محل الغرض من المغني ، وقد قدمنا لك أن القول الجديد الأصح في مذهب الشافعي : أنه لا يلبي خلافاً لما يوهمه كلام صاحب المغني ، وروى مالك في موطئه عن نافع : أن عبد الله بن عمر كان يقطع التلبية في الحج إذا انتهى إلى الحرم . حتى يطوف بالبيت . وبين

الصفا والمروة . ثم يلبي حتى يَغْدُو من منى إلى عرفات . فإذا غدا ترك التلبية . وكان يترك التلبية في العمرة ، إذا دخل الحرم . انتهى من الموطأ ، وروى مالك في الموطأ أيضاً عن ابن شهاب ، أنه كان يقول : كان عبد الله بن عمر لا يلبي ، وهو يطوف بالبيت انتهى منه ، وقد روي عن ابن عمر أيضاً خلاف هذا ، فقد ذكر ابن حجر في التلخيص : أن ابن أبي شيبة أخرج من طريق ابن سيرين عن ابن عمر أنه كان إذا طاف بالبيت لبى .

الفرع الرابع : اعلم أنه لا خلاف بين من يعتد به من أهل العلم في أن المحرم يلبي في المسجد الحرام ، ومسجد الخيف بمنى ، ومسجد نَمِرة بقرب عرفات ، لأنها مواضع نسك .

واختلفوا في التلبية فيما سوى ذلك من المساجد .

وأظهر القولين عندي : أنه يلبي في كل مسجد ، إلا أنه لا يرفع صوته رفعاً يشوش على المصلين ، والعلم عند الله تعالى .

(462/522)

الفرع الخامس : أظهر قولي أهل العلم عندي : أن المحرم يلبي في كل مكان في الأمصار وفي البراري ، ونقل النووي عن العبدري أنه قال به أكثر الفقهاء . خلافاً لمن قال : التلبية مسنونة في الصحارى ، ولا يعجبِني أن يلبي في المصر ، والعلم عند الله تعالى .

المسألة الثالثة عشرة فيما يمتنع بسبب الإحرام على المحرم حتى يحل من إحرمه .

فمن ذلك ما صرح الله بالنهي عنه في كتابه في قوله ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحج فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحج ﴾ [البقرة : 197] والصيغة في قوله ﴿ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ ﴾ [البقرة : 197] صيغة خبر أريد بها الإنشاء : أي فلا يرفث ولا يفسق ، ولا يجادل ، وقد تقرر في فن المعاني أن الصيغة قد تكون خبرية ، والمراد بها الإنشاء لأسباب منها التفاؤل كقولك : رحم الله زيداً ، فالصيغة خبرية ، والمراد بها إنشاء الدعاء له بالرحمة ، ومنها إظهار تأكيد الإتيان بالفعل ، وإلزام ذلك كقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بالله ﴾ [الصف : 10-11] الآية : أي آمنوا بالله بدليل جزم الفعل في قوله ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [الأحقاف : 31 ونوح : 4] الآية فهو مجزوم بالطلب المراد بالخبر في قوله ﴿ تُؤْمِنُونَ بالله ﴾ [الصف : 11] أي آمنوا بالله ، يغفر لكم ذنوبكم كقوله ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله ﴾ [التوبة : 14] الآية ﴿ تَعَالَوْاْ أَتْلُ ﴾ [الأنعام : 151] الآية ، ونحو ذلك ، فالمسوغ لكون الصيغة في الآية خبرية ، هو إظهار التأكد ، واللزوم في الإتيان بالإيمان فعبر عنه بصيغة الخبر ، لإظهار أنه يتأكد ويلزم أن يكون كالواقع بالفعل المخبر عن وقوعه ، وكقوله تعالى

﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ ﴾ [البقرة : 233] الآية ، وقوله ﴿ والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾ [البقرة : 228] الآية . فالمراد الأمر بالإرضاع ، والتربص وقد عبر عنه بصيغة خبرية لما ذكرنا ، كما هو معروف في فن المعاني .

والأظهر في معنى الرفث في الآية أنه شامل لأمرين :

أحدهما : مباشرة النساء بالجماع ومقدماته .

والثاني : الكلام بذلك كأن يقول المحرم لامرأته : إن أحللنا من إحرامنا فعلنا كذا وكذا ، ومن إطلاق الرفث على مباشرة المرأة كجماعها قوله تعالى ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصيام الرفث إِلَى نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة : 187] فالمراد بالرفث في الآية : المباشرة بالجماع ومقدماته ، ومن إطلاق الرفث على الكلام قول العجاج :

ورب أسرابٍ حجيج كظمِ . . . عن اللغا ورفث التكلم

وقد قدمنا هذا البيت في سورة المائدة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما أنشد وهو محرم قول الراجز :

وهنَّ يمشين بنا هميساً . . . إن تَصْدِق الطير ننكْ لَميسَا

فقيل له أترفث ، وأنت محرم ؟ قال : إنما الرفث : ما روجع به النساء ، وفي لفظ : ما قيل من ذلك عند النساء .

والأظهر في معنى الفسوق في الآية أنه شامل لجميع أنواع الخروج عن طاعة الله تعالى ،

والفسوق في اللغة : ومنه قول العجاج :

يهوين في نجد وغورا غائرا . . . فواسقا عن قصدها جوائرا

يعني بقوله : فواسقا عن قصدها : خوارج عن جهتها التي كانت تقصدها .

(464/522)

والأظهر في الجدال في معنى الآية : أنه المخاصمة والمراء أي لا تخاصم صاحبك وتماره حتى تغضبه ، وقال بعض أهل العلم : معنى لا جدال في الحج : أي لم يبق فيه مراء ولا خصومة ، لأن الله أوضح أحكامه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك ما صرح الله بالنهي عنه في كتابه ، من حلق شعر الرأس في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] ومن ذلك تغطية المحرم الذكر رأسه لما ثبت في الصحيح ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : في المحرم الذي خر على راحلته فوقصته فمات " ولا تخمروا رأسه فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبياً " ، وفي رواية في صحيح مسلم " لا تخمروا رأسه ولا وجهه فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً " ، وهذا الحديث في صحيح مسلم بألفاظ متعددة في بعضها الاقتصار على النهي عن

تخمير الرأس ، وفيها النهي عن تخمير الرأس والوجه ، وفي بعضها : النهي عن مسه بطيب ، وفي بعضها : النهي عن أن يقربوه طيباً وأن يغطوا وجهه ، وكل ذلك ثابت ، وهو نص صريح في منع تغطية المحرم الذكر رأسه أو وجهه ، أما المرأة فإنها تغطي رأسها ، ولا تغطي وجهها ، إلا إذا خافت نظر الرجال الأجانب إليه كما سيأتي إن شاء الله تعالى . ومن ذلك لبس كل شيء محيط بالبدن ، أو بعضه ، وكل شيء يغطي الرأس كما تقدم قريباً فلا يجوز للمحرم لبس القميص ، ولا العمامة ، ولا السروايل ، ولا البرنس ، ولا القباء ، ولا الخف إلا إذا لم يجد نعلاً ف إنه يجوز له لبس الخفين ، ويلزمه أن يقطعهما أسفل من الكعبين ، وكذلك إذا لم يجد إزاراً : فله أن يلبس السراويل على الأصح فيهما .

وكذلك لا يجوز له أن يلبس ثوباً مسه ورس أو زعفران . وهذه أدلة منع ما ذكر .

(465/522)

قال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك ، عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن رجلاً قال يا رسول الله : ما يلبس المحرم من الثياب ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يلبس القُمُصَ ولا العمائم ولا السَّراوِيلاتِ ولا البَرَانِسَ ولا الخِفافِ إلا أحدُ لا يَجدُ نعلين فليلبس خُفَّين وليقطعهما أسفل من الكعبين ،

ولا تلبسوا من الثياب شيئاً مَسَّهُ الزعفرانُ أو وَرْسٌ " انتهى من صحيح البخاري .

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى ، قال : قرأت على مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يلبس المحرم من الثياب ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تلبسوا القُمُص ، ولا العمائم ، ولا السَّراوِيلاَتِ ، ولا البرانِس ولا الخِفاف إلا أحدٌ لا يجد النعلين فليلبس الخفين وليقطعهما أسفلُ من الكعبينِ ولا تلبسوا من الثياب شيئاً مَسَّه الزعفران ولا الوَرْسُ " وأخرج مسلم رحمه الله هذا الحديث عن ابن عمر أيضاً من طريق ابنه سالم .

وأخرج بعضه عنه أيضاً من طريق عبد الله بن دينار . ثم قال مسلم : حدثنا يحيى بن يحيى وأبو الربيع الزهراني ، وقتيبة بن سعيد جميعاً ، عن حماد قال يحيى : أخبرنا حَماد بن زيد ، عن عمرو ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب يقول : " السَّراويل لمن لم يجد الإزار ، والخُفَّاف لمن لم يجد النعلين " يعني المحرم . وقد ذكر مسلم هذا الحديث من طرق ، عن عمرو بن دينار ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس ، وزاد شعبة في روايته ، عن عمرو : يخطب بعرفات .

(466/522)

وأخرج البخاري نحوه عن ابن عباس أيضاً ثم قال مسلم رحمه الله : وحدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنا زهير ، حدثنا أبو الزبير ، عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من لم يجد نعلين ، فليلبس خُفَّين ، ومن لم يجد إزار فليلبس سراويل " اهـ من صحيح مسلم ، وهو يدل دلالة واضحة على جواز لبس السراويل للمحرم ، الذي لم يجد إزاراً ، كجواز لبس الخفين لمن لم يجد نعلين ، وفي حديث ابن عباس ، وجابر المذكورين زيادة على حديث ابن عمر : وهي جواز السراويل لمن لم يجد إزاراً وهذه الزيادة ، يجب قبولها ، خلافاً لمن منع قبولها ، وإطلاق الخفين في حديث ابن عباس ، وجابر المذكورين يجب تقييده بما في حديث ابن عمر من قطعهما أسفل من الكعبين ، لوجوب حمل المطلق على المقيد ، ولا سيما إذا اتحد حكمهما وسببهما كما هنا ، كما هو مقرر في الأصول .

فأظهر الأقوال دليلاً : أنه لا يجوز لبس الخفين ، إلا في حالة عدم وجود النعلين ، وأن قطعهما حتى يكونا أسفل من الكعبين لا بد منه ، وأن لبس السراويل جائز للمحرم الذي لم يجد إزاراً ، خلافاً لمن ذهب إلى غير ذلك .

وقال النووي في شرح المهذب : وأما حديث ابن عمر أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يلبس المحرم القميص ولا السراويلات ولا البرانس ولا العمامة ولا الخف إلا إلا يجد نعلين فليلبس الخفين وليقطعهما حتى يكونا أسفل من الكعبين ولا يلبس من الثياب ما مسَّه ورس

أو زعفران " فرواه البخاري ومسلم هكذا ، وزاد البيهقي وغيره فيه " ولا يلبس القباء "

وقال البيهقي : هذه الزيادة صحيحة محفوظة انتهى منه وهو دليل على منع لبس القباء للمحرم .

(467/522)

وقال ابن حجر في فتح الباري في شرحه لحديث ابن عمر المذكور . زاد الثوري في روايته ، عن أيوب ، عن نافع في هذا الحديث : ولا القباء ، أخرجه عبد الرزاق ، ورواه الطبراني من وجه آخر عن الثوري ، وأخرجه الدارقطني ، والبيهقي من طريق حفص بن غياث ، عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع أيضاً . انتهى محل الغرض منه ، وهذا الذي ذكرنا من تحريم اللباس المذكور إنما هو في حق الرجال ، وأما النساء فلهن أن يلبسن ما شئن من أنواع الثياب ، إلا أنهن لا يجوز لهن أن ينتقبن ، ولا أن يلبسن القفازين ، لأن إحرام المرأة في وجهها وكفيها . وقد قال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا الليث ، حدثنا نافع ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قام رجل فقال : يا رسول الله ، ماذا تأمرنا أن نلبس من الثياب الحديث وفيه " ولا تنتقب المرأة المحرمة ، ولا تلبس القفازين " تابعه موسى بن عقبة ، وإسماعيل بن إبراهيم بن عقبة ، وجويرية ، وابن إسحاق في النقاب

والقفازين ، وقال عبد الله : ولا ورس ، وكان يقول : لا تنتقب المرأة ولا تلبس القفازين ، وقال مالك عن نافع عن ابن عمر : لا تنتقب المحرمة ، وتابعه ليث بن أبي سليم . انتهى من صحيح البخاري .

وقال أبو داود رحمه الله في سننه بعد أن ساق حديث ابن عمر المتقدم : حدثنا قتيبة بن سعيد ، ثنا الليث ، عن نافع عن ابن عمر عن النَّبي صلى الله عليه وسلم بمعناه . وزاد : " ولا تنتقب المرأة الحرام ، ولا تلبس القفازين " وفي لفظ عن ابن عمر ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم

(468/522)

" المحرمة لا تنتقب ولا تلبس القفازين " وقال النووي في شرح المهذب في هذا الحديث : وأما حديث ابن عمر أن النَّبي صلى الله عليه وسلم نهى النساء في إحرامهن عن القفازين ، والنقاب ، وما مسه الورس ، والزعفران من الثياب وليلبسن بعد ذلك ما أحببن من أنواع الثياب من معصفر أو خز أو حرير ، أو حلياً أو سراويل أو قميصاً أو خفاً ، فرواه أبو داود بإسناد حسن ، وهو من رواية محمد بن إسحاق صاحب المغازي إلا أنه قال : حدثني نافع

عن ابن عمر وأكثر ما أنكر على ابن إسحاق التدليس ، وإذا قال المدلس : حدثني ، احتج به على المذهب الصحيح المشهور . انتهى منه .

(469/522)

وقال ابن حجر في التلخيص : حديث : أنه صلى الله عليه وسلم نهى النساء في إحرامهن عن النقاب ، وليلبسن بعد ذلك ما أحببن من ألوان الثياب معصفراً ، أو خزاً ، أو حلياً ، أو سراويل ، أو قيمصاً ، أو خفاً . رواه أبو داود والحاكم والبيهقي من حديث ابن عمر ، واللفظ لأبي داود زاد فيه بعد قوله : عن النقاب : وما مس الزعفران والورس من الثياب : وليلبسن بعد ذلك . ورواه أحمد إلى قوله من الثياب ، ومن ذلك استعمال المحرم الطيب في بدنه . أو ثيابه ، والطيب هو ما يتطيب به ، ويتخذ منه الطيب ، كالمسك ، والكافور ، والعنبر ، والصندل ، والورس ، والزعفران ، والورد ، والياسمين ونحو ذلك ، والأصل في منع استعمال الطيب للمحرم هو ما قدمنا في حديث ابن عمر المتفق عليه من نهيه صلى الله عليه وسلم عن لبس ما مسه الزعفران ، والورس من الثياب في الإحرام ، وما قدمنا من حديث مسمل في الذي وقع عن راحلته فأوقصته فمات . ففي لفظ في صحيح مسلم : فأمر النَّبي صلى الله عليه وسلم أن يغسل بماء وسدر وأن يكفن في ثوبين ، ولا يمس طيباً

الحديث . وفي لفظ في صحيح مسلم : فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم " اغسلوه ولا تقربوه طيباً ولا تغطوا وجهه فإنه يبعث يوم القيامة يلبي " فقوله " ولا يمس طيباً " في الرواية الأولى نكرة في سياق النفي وقوله " ولا تُقَرِّبُوه طيباً " في الرواية الثانية نكرة في سياق النهي ، وكلتاهما من صيغ العموم ، كما هو مقرر في الأصول فهو يدل على منع جميع أنواع الطيب للمحرم ، وترتيبه صلى الله عليه وسلم على ذلك بالفاء :

(470/522)

قوله : " فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً " دليل على أن علة منع ذلك الطيب كونه محرماً ملبياً ، الدلالة على العلة المذكورة : هي من دلالة مسلك الإيماء والتنبيه ، كما هو معروف في الأصول . ومن ذلك عقد النكاح ، فإنه لا يجوز للمحرم أن يتزوج ، ولا أن يزوج غيره بولاية أو وكالة ، وسيأتي الخلاف في تزويج المحرم غيره بالولاية العامة إن شاء الله تعالى ، وكون إحرام أحد الزوجين أو الولي مانعاً من عقد النكاح ، هو الذي عليه أكثر أهل العلم .

وعزاه النووي في شرح المهذب لجماهير العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم . وقال وهو مذهب عمر بن الخطاب ، وعثمان ، وعلي ، وزيد بن ثابت ، وابن عمر ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، والزهري ، ومالك ، وأحمد ، والشافعي ،

وإسحاق ، وداود ، وغيرهم . وقال في شرح مسلم : قال مالك والشافعي ، وأحمد ، وجمهور العلماء من الصحابة ، فمن بعدهم : لا يصح نكاح المحرم ا ه . وقال ابن قدامة في المغني . وروي ذلك عن عمر وابنه ، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم ، وبه قال سعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، والزهري ، والأوزاعي ، ومالك ، والشافعي ا ه .

وذهبت جماعة أخرى من أهل العلم : إلى أن إحرام أحد الزوجين ، أو الولي ، ليس مانعاً من عقد النكاح ، وممن قال بهذا القول : أبو حنيفة ، وهو مروي عن الحكم ، والثوري ، وعطاء ، وعكرمة ، وعزاه صاحب المغني ، لابن عباس ، والظاهر أن عزو هذا القول الأخير لابن عباس أصح من عزو النووي له القول الأول كما ذكرناه عنه آنفاً كما سترى : ما يدل على ذلك إن شاء الله تعالى .

(471/522)

وإذا علمت أقوال أهل العلم في الإحرام بحج أو عمرة ، هل هو مانع من عقد النكاح ، أو لا ، فهذه أدلتهم . أما الجمهور القائلون : بأن الإحرام مانع من النكاح ، فاستدلوا بما رواه مسلم رحمه الله في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى قال : قرأت على مالك ، عن نافع ، عن نُبَيْهِ بن وهب . أن عمر بن عبيد الله أراد أن يُزَوِّجَ طلحة بن عمر ، بنت شيبة بن جبير .

فأرسل إلى أبان بن عثمان يَحْضُر ذلك وهو أمير الحج . فقال أبان : سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يَنْكِحُ المحرم ، ولا يُنْكَحُ ولا يَخْطِبُ " .

وحدثنا محمد بن أبي بكر المُقَدَّمِي . حدثنا حماد بن زيد عن أيوب ، عن نافع . حدثني نبيه بن وهب . قال : بعثني عمر بن عبيد الله بن معمر . وكان يخطب بنت شيبة بن عثمان على ابنه . فأرسلني إلى أبان بن عثمان وهو على الموسم . فقال : ألا أراه أعرابياً " إن المحرم لا يَنْكِحْ ولا يُنْكَحُ " ، أخبرنا بذلك عثمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحدثني أبو غسان المِسْمَعِي . حدثنا عبد الأعلى . ح وحدثني أبو الخطاب زياد بن يحيى . حدثنا محمد بن سواء . قالا جميعاً : حدثنا سعيد عن مطر ويعلى بن حكيم ، عن نافع ، عن نبيه بن وهب ، عن أبان بن عثمان عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لا يَنْكِحُ الْمُحْرِمُ ، ولا يُنْكَحُ ولا يَخْطِبُ " .

وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعمرو الناقد ، وزهير بن حرب . جميعاً عن ابن عيينة . قال زهير : حدثنا سفينا بن عيينة عن أيوب بن موسى ، عن نبيه بن وهب ، عن أبان بن عثمان ، عن عثمان يَبْلُغُ به النَّبي صلى الله عليه وسلم قال " المحرم لا يَنْكِحُ ولا يَخْطُبُ " .

حدثنا عبدالملك بن شعيب بن الليث . حدثني أبي عن جدي . حدثني خالد بن يزيد . حدثني سعيد بن أبي هلال عن نبيه بن وهب . أن عمر بن عبيد الله بن معمر أراد أن يُنْكِحَ ابنه طلحة بنت شيبة بن جبير في الحج . وأبان بن عثمان يومئذ أميرِ الحاجِّ . فأرسل إلى أبان : إني أردت أن أُنْكِحَ طلحة بن عمر . فأحِبُّ أن تَحْضُرَ ذلك . فقال له أبان : ألا أراك عراقياً جافياً ! إني سمعت عثمان بن عفان يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يَنْكِحُ المحرم " .

وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وابن نمير وإسحاق الحنظلي . جميعاً عن ابن عيينة . قال ابن نمير : حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار ، عن أبي الشعثاء . أن ابن عباس أخبره . أن النَّبي صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة وهو محرم . زاد ابن نمير : فحدثت به الزهري فقال : أخبرني يزيد بن الأصم : أنه نَكَحَها وهو حلال . وحدثنا يحيى بن يحيى أخبرنا داود بن عبد الرَّحمن عن عمرو بن دينار ، عن جابر بن زيد ، أبي الشعثاء ، عن ابن عباس . أنه قال : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة وهو محرم .

(473/522)

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة . حدثنا يحيى بن آدم . حدثنا جرير بن حازم . حدثنا أبو فزارة عن يزيد بن الأصم حدثتني ميمونة بنت الحارث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها وهو حلال . قال : وكانت خالتي وخالة ابن عباس . انتهى من صحيح مسلم .

وحديث عثمان المذكور في صحيح مسلم رواه أيضاً مالك وأحمد وأصحاب السنن .

وقال أبو عيسى الترمذي بعد أن ساقه : حديث عثمان حديث حسن صحيح ، والعلم على هذا عند بعض أصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم ، منهم عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وابن عمرن وهو قول بعض فقهاء التابعين ، وبه يقول مالك ، والشافعي وأحمد ، وإسحاق لا يرون أن يتزوج المحرم . وقالوا : إن نكح فنكاحه باطل . وحديث يزيد بن الأصم ، عن ميمونة المذكور في صحيح مسلم " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم نكحها وهو حلال " رواه أيضاً الترمذي ، وأبو داود وابن ماجه والإمام أحمد ، وقال الترمذي : حدثنا قتيبة ، ثنا حَمَّاد بن زيد عن مطر الورَّاق ، عن ربيعة بن أبي عبد الرَّحمن ، عن سليمان بن يسار ، عن أبي رافع قال " تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة ، وهو حلال وبنى بها وهو حلال وكنت أنا الرسول فيما بينهما "

(474/522)

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن ، لا نعلم أحداً أسنده غير حماد بن زيد عن مطر الوراق ، عن ربيعة . وروى مالك بن أنس عن ربيعة ، عن سليمان بن يسار " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة وهو حلال " رواه مالك مرسلاً ، ورواه أيضاً سليمان بن بلال عن ربيعة مرسلاً . انتهى : محل الغرض منه . وحديث أبي رافع هذا رواه أيضاً الإمام أحمد ، وروى مالك رحمه الله في موطئه ، عن نافع . أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يقول : لا ينكح المحرم ، ولا يخطب على نفسه ، ولا على غيره . وفي الموطأ أيضاً ، عن مالك أنه بلغه : أن سعيد بن المسيب وسالم بن عبد الله ، وسليمان بن يسار سُئِلُوا عن نكاح المحرم ؟ فقالوا : لا يَنْكِحُ المحرم ، ولا يُنْكِحْ . وفي الموطأ أيضاً عن مالك ، عن داود بن الحصين . أن أبا غطفان بن طَرِيف المُرِّيَّ ، أخبره أن أباه طريفاً ، تزوج امرأة وهو محرم . فرد عمر بن الخطاب رضي الله عنه نكاحه . وحديث أبي غطفان بن طريف ، هذا رواه أيضاً الدارقطني ، وروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنه سئل عن امرأة أراد أن يتزوجها رجل ، وهو خارج من مكة ، فأراد أن يعتمر أو يحج ؟ فقال : لا تتزوجها ، وأنت محرم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه انتهى منه بواسطة نقل المجد في المنتقى .

فهذا هو حاصل أدلة من قال : بأن الإحرام مانع من عقد النكاح ، وأما الذين قالوا : بأن الإحرام لا يمنع عقد النكاح ، فقد استدلوا بما رواه الشيخان في صحيحيهما ، وأصحاب السنن ، والإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن النبي صلى الله عليه وسلم

تزوج ميمونة وهو محرم " وللبخاري " تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ميمونة وهو محرم ، وبنى بها وهو حلال وماتت بسرف " ا ه .

(475/522)

قالوا : فهذا الحديث المتفق عليه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما فيه التصريح بأنه صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة وهو محرم ، والله تعالى يقول ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] وهو المشرع لأمته بأقواله ، وأفعاله ، وتقريره صلوات الله وسلامه عليه ، فلو كان تزويج المحرم حراماً لما فعله صلى الله عليه وسلم واحتج الجمهور القائلون : بمنع نكاح المحرم بالأحاديث المتقدمة ، قالوا : ثبت في صحيح مسلم من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لا ينكح المحرم ولا يخطب " وصيغة النفي في قوله " لا ينكح ولا ينكح ولا يخطب " يراد بها النهي كقوله تعالى ﴿ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحج ﴾ [البقرة : 197] أي لا ترفثوا ، ولا تفسقوا ، ولا تجادلوا في الحج ، وإيراد الإنشاء بصيغة الخبر أبلغ من إيراده بصيغة الإنشاء ، كما هو مقرر في المعاني .

والحديث دليل صحيح من قول النبي صلى الله عليه وسلم على منع نكاح المحرم وهو

معتضد بما ذكرنا معه من الأحاديث ، والآثار الدالة على منع نكاح المحرم . وأجاب الجمهور القائلون : بمنع إحرام أحد الزوجين : أو الولي عقد النكاح عن حديث ابن عباس المذكور ، بأجوبة .

واعلم أولاً : أن المقرر في الأصول : أنه إذا اختلف نصان وجب الجمع بينها إن أمكن ، وإن لم يمكن وجب الترجيح .

وإذا عرفت هذه المقدمة فاعلم أن من أجوبتهم عن حديث ابن عباس المذكور ، أنه يمكن الجمع بينه وبين حديث ميمونة ، وأبي رافع " أنه تزوجها وهو حلال " ووجه الجمع في ذلك ، هو أن يفسر قول ابن عباس : أنه تزوجها وهو محرم بأن المراد بكونه محرماً كونه في الشهر الحرام ، وقد تزوجها صلى الله عليه وسلم في الشهر الحرام ، وهو ذو القعدة عام سبع في عمرة القضاء ، كما ذكره البخاري رحمه الله في صحيحه في كتاب : المغازي في باب عمرة القضاء .

(476/522)

قال بعد أن ساق حديث ابن عباس المذكور ، وزاد بن إسحاق : حدثني ابن أبي نجيح ، وأبان بن صالح ، عن عطاء ، ومجاهد ، عن ابن عباس قال : " تزوج النبي صلى الله عليه

وسلم ميمونة في عمرة القضاء " ا ه منه . ومعلوم أن عمرة القضاء كانت في الشهر الحرام ، وهو ذو القعدة من سنة سبع ، ولا خلاف بين أهل اللسان العربي في إطلاق الإحرام على الدخول في حرمة لا تهتك كالدخول في الشهر الحرام ، أو في الحرم أو غير ذلك .

وقال ابن منظور في اللسان : وأحرم الرجل : إذا دخل في حرمة لا تهتك ، ومن إطلاق الإحرام على الدخول في الشهر الحرام ، وقد أنشده في اللسان شاهداً لذلك قول زهير :

جعلن القنان عن يمين وحزنه . . . وكم بالقنان من محل ومحرم

وقول الآخر :

وإذ فتك النعمان بالناس مُحرما . . . فملئ من عوف بن كعب سلاسله

وقول الراعي :

قتلوا ابن عفَّان الخليفةَ مُحرما . . . ودعا فلم أر مثله مقتولا

فتفرقت من بعد ذاك عصاهُم . . . شقفاً وأصبح سيفهم مسلولا

ويروى : فلم أرد مثله مخذولاً ، فقوله : قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً : أي في الشهر الحرام وهو ذو الحجة ، وقيل المعنى : أنهم قتلوه في حرم المدينة ، لأن المحرم يطلق لغة على كل داخل في حرمة لا تهتك سواء كانت زمانية ، أو مكانية أو غير ذلك .

وقال بعض أهل اللغة منهم الأصمعي : إن معنى قول الراعي : محرماً في بيته المذكور كونه في حرمة الإسلام ، وذمته التي يجب حفظها ، ويحرم انتهاكها وأنه لم يحل من نفسه شيئاً

يستوجب به القتل ، ومن إطلاق المحرم على هذا المعنى الأخير قول عدي بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرما . . . غادروه لم يمتع بكفن

(477/522)

يريد قتل شيرويه أبه أبرويز بن هرمز ، مع أن له حرمة العهد الذي عاهدوه به ، حين ملكوه عليهم ، وحرمة الأبوة ولم يفعل لهم شيئاً يستوجب به منهم القتل . وذلك هو مراده بقوله : محرماً ، وعلى تفسير قول ابن عباس : وهو محرم بما ذكر فلا تعارض بين حديث ابن عباس ، وبين حديث ميمونة وأبي رافع ، ولو فرضنا أن تفسير حديث ابن عباس بما ذكر ليس بمتعين وليس بظاهر كل الظهور ، وأن التعارض بين الحديثين باق ، فالمصير إلى الترجيح إذاً واجب . وحديث ميمونة وأبي رافع أرجح من حديث ابن عباس ، لأن ميمونة هي صاحبة القصة ، ولا شك أن صاحب القصة أدرى بما جرى له في نفسه من غيره . وقد تقرر في الأصول أن خبر صاحب الواقعة المروية مقدم على خبر غيره ، لأنه أعرف بالحال من غيره ، والأصوليين يمثلون له بحديث ميمونة المذكورة ، مع حديث ابن عباس . وإليه أشار في مراقي السعود في مبحث الترجيح ، باعتبار حال الراوي بقوله عاطفاً على ما ترجح به رواية أحد الروايين على رواية الآخرة :

أو راويا باللفظ أو ذا الواقع . . . وكون من رواه غير مانع

ومحل الشاهد منه قوله : أو ذا الواقع : أي يقدم خبر ذي الواقع المروي على خبر غيره كخبر ميمونة ، مع خبر ابن عباس ومما يرجح به حديث أبي رافع على حديث ابن عباس : أن أبا رافع هو رسوله إليها يخطبها عليه ، فهو مباشر للواقعة ، وابن عباس ليس كذلك ، وقد تقرر في الأصول ترجيح خبر الراوي المباشر ، لما روى على خبر غيره ، لأن المباشر لما روى أعرف بحاله من غيره ، والأصوليون يمثلون له بخبر أبي رافع المذكور " أنه صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة وهو حلال " قال : وكنت الرسول فيما بينهما ، مع حديث ابن عباس المذكور " أنه تزوجها وهو محرم " .

(478/522)

ومما يرجح به حديث ميمونة ، وحديث أبي رافع معاً ، على حديث ابن عباس : أن ميمونة ، وأبا رافع كانا بالغين وقت تحمل الحديث المذكور ، وابن عباس ليس ببالغ وقت التحمل . وقد تقرر في الأصول ترجيح خبر الراوي المتحمل بعد البلوغ على المتحمل قبله ، لأن البالغ أضبط من الصبي لما تحمل ، وللاختلاف في قبول خبر المتحمل ، قبل البلوغ مع الاتفاق على قبول خبر المتحمل بعد البلوغ ، وإن كان الراجح قبول خبر المتحمل قبل البلوغ إذا كان الأداء

بعد البلوغ ، لأن المتفق عليه أرجح من المختلف فيه ، وإلى تقديم خبر الراوي المباشر على خبر غيره ، وتقديم خبر المتحمل بعد البلوغ على خبر المتحمل قبله .

أشار في مراقي السعود في مبحث الترجيح باعتبار حال الراوي بقوله عطافاً على ما يرجح أحد الخبرين :

أو كونه مباشراً أو كلفا . . . أو غير ذي اسمين للأمن من خفا

فإن قيل : يرجح حديث ابن عباس ، بأنه اتفق عليه الشيخان في صحيحيهما . ومعلوم أن ما اتفق عليه مسلم والبخاري ، أرجح مما انفرد به مسلم ، وهو حديث ميمونة ، وأرجح مما أخرجه الترمذي وأحمد ، وهو حديث أبي رافع .

فالجواب : أن غاية ما يفيده اتفاق الشيخين صحة الحديث ، إلى ابن عباس ، ونحن لو جزمنا بأنه قاله قطعاً لم يمنع ذلك من ترجيح حديث ميمونة وأبي رافع عليه ، لأنهما أعلم بحال الواقعة منه ، لأن ميمونة صاحبة الواقعة ، وأبو رافع هو الرسول المباشر لذلك .

فلنفرض أن ابن عباس قال ذلك ، وأن أبا رافع وميمونة خالفاه ، وهما أعلم بالحال منه ، لأن لكل منهما تعلقاً خاصاً بنفس الواقعة ليس لابن عباس مثله .

(479/522)

ومن المرجحات التي رجح بها بعض العلماء : حديث تزوجه صلى الله عليه وسلم ميمونة ، وهو حلال على حديث تزوجه إياها ، وهو محرم : أن الأول : رواه أبو رافع ، وميمونة . والثاني : رواه ابن عباس وحده ، وما رواه الاثنان أرجح مما رواه الواحد كما هو مقرر في الأصول ، وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود في مبحث الترجيح باعتبار حال المروي :

وكثرة الدليل والرواية . . . مرجح لدى ذوي الدراية

كما تقدم في سورة البقرة .

ولكن هذا الترجيح المذكور يرده ما ذكره ابن حجر في فتح الباري ، ولفظه فالمشهور عن ابن عباس " أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها وهو محرم " وصح نحوه عن عائشة وأبي هريرة . اهـ منه .

وعلى تقدير صحة ما ذكره ابن حجر فمن روى أن تزويجها في حالة الإحرام أكثر .

فإن قيل : يرجح حديثهم إذاً بالكثرة .

فالجواب : أنهم وإن كثروا فميمونة ، وأبو رافع أعلم منهم بالواقعة كما تقدم ، والمرجحات يرجح بعضها على بعض ، وضابط ذلك عند الأصوليين هو قوة الظن ، ومعلوم أن ما أخبرت به ميمونة رضي الله عنها عن نفسها ، وأخبر به الرسول بينها ، وبين زوجها صلى الله عليه وسلم الذي هو أبو رافع أقوى في ظن الصدق مما أخبر به غيرهما ، وأشار في مراقي

السعود إلى ما ذكرنا بقوله :

قطب رحاها قوة المظنة . . . فهي لدى تعارض مئنه

(480/522)

ومن أقوى الأدلة الدالة على أن حديث ابن عباس ، لا تنهض به الحجة ، على جواز عقد النكاح في حال الإحرام هو : أنا لو سلمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة ، وهو محرم ، لم تكن في ذلك حجة على جواز ذلك بالنسبة إلى أمته صلى الله عليه وسلم ، لأنه ثبت عنه في صحيح مسلم وغيره من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ما يدل على منع النكاح في حال الإحرام وهو عام لجميع الأمة . والأظهر دخوله هو صلى الله عليه وسلم في ذلك العموم ، فإذا فعل فعلاً يخالف ذلك العموم المنصوص عليه بالقول ، دل على أن ذلك الفعل خاص به صلى الله عليه وسلم لتحتم تخصيص ذلك العموم القولي بذلك الفعل .

فيكون خاصاً به صلى الله عليه وسلم .

وقد تقرر في الأصول : أن النص القولي العام الذي يشمل النبي بظاهر عمومه لا بنص صريح ، إذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم فعلاً يخالفه كان ذلك الفعل مخصصاً لذلك العموم

القولي ، فيكون ذلك الفعل خاصاً به صلى الله عليه سولم . وقد أشار صاحب مراقي السعود إلى ذلك في كتاب السنة بقوله :

في حقه القول بفعل خصا . . . إن يك فيه القول ليس نصا

فإن قيل : لا حجة في حديث عثمان المذكور في صحيح مسلم ، على منع عقد النكاح في حال الإحرام ، لأن المراد بالنكاح فيه وطء الزوجة ، وهو حرام في حال الإحرام إجماعاً ، وليس المراد به العقد .

فالجواب من أوجه :

(481/522)

الأول : أن في نفس الحديث قرينتين دالتين على أن المراد به عقد النكاح ، لا الوطء . الأولى : أنه صلى الله عليه وسلم قال في الحديث المذكور " لا يَنْكِحُ المحرم ولا يُنْكَحُ " فقوله : " ولا يُنْكَحُ " بضم الياء ، دليل على أن المراد : لا يزوج ، ولا يمكن أن يكون المراد بذلك الوطء ، لأن الولي إذا زوج قبل الإحرام ، وطلب الزوج وطء زوجته في حال إحرام وليها ، فعليه أن يمكنه من ذلك إجماعاً ، فدل ذلك على أن المراد بقوله : ولا ينكح ليس الوطء بل التزويج كما هو ظاهر القرينة الثانية : أنه صلى الله عيه وسلم قال أيضاً : " ولا يخطب " ، والمراد

خطبة المرأة التي هي طلب تزويجها ، وذلك دليل على أن المراد العقد ، لأنه هو الذي يطلب بالخطبة ، وليس من شأن وطء الزوجة أن يطلب بخطبة كما هو معلوم .

الوجه الثاني : أن أبان بن عثمان راوي الحديث وهو من أعلم الناس بمعناه ، فسره بأن المراد بقوله : ولا ينكح : أي لا يزوج ، لأن السبب الذي أورد فيه الحديث ، هو أنه أرسل له عمر بن عبيد الله حين أراد أن يزوج ابنه طلحة بن عمر ابنة شيبة بن جبير ، فأنكر عليه ذلك أشد الإنكار وبين له أن حديث عثمان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، دليل على منع عقد النكاح في حال الإحرام ، ولم يعلم أنه أنكر عليه أحد تفسيره الحديث ، بأن المراد بالنكاح فيه العقد لا الوطء .

الوجه الثالث : هو ما قدمنا من الأحاديث ، والآثار الدالة على منع التزويج في حال الإحرام ، كحديث ابن عمر ، عند أحمد : أنه سئل عن امرأة أراد أن يتزوجها رجل ، وهو خارج من مكة : فأراد أن يعتمر أو يحج فقال : لا تتزوجها وأنت محرم . نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ا ه .

فتراه : صرح بأن النكاح المنهي عنه في الإحرام : التزويج .

(482/522)

وقال الشوكاني في نيل الأوطار في حديث ابن عمر هذا : في إسناده أيوب بن عيينة ، وهو ضعيف وقد وثق ، وكالأثر الذي رواه مالك والبيهقي والدارقطني ، عن أبي غطفان بن طريف : أن أباه طريفاً تزوج امرأة ، وهو محرم فرد عمر بن الخطاب نكاحه ا ه .

وذلك دليل على أن عمر يفسر النكاح الممنوع في الإحرام بالتزويج ولا يخصه بالوطء . وقد روى البيهقي في السنن الكبرى بإسناده عن الحسن ، عن علي قال : من تزوج وهو محرم نزعنا منه امرأته .

وروى بإسناده أيضاً عن جعفر بن محمد عن أبيه : أن علياً رضي الله عنه قال : لا ينكح المحرم ، فإن نكح رد نكاحه . وروي بإسناده أيضاً عن شوذب مولى زيد بن ثابت : أنه تزوج ، وهو محرم ، ففرق بينهما زيد بن ثابت .

قال : وروينا في ذلك عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وروى بإسناده أيضاً عن قدامة بن موسى قال : تزوجت ، وأنا محرم فسألت سعيد بن المسيب فقال : يفرق بينهما ، وروي بإسناده أيضاً عن سعيد بن المسيب : أن رجلاً تزوج ، وهو محرم فأجمع أهل المدينة على أن يفرق بينهما . ا ه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي رجحانه بدليل هو أن إحرام أحد الزوجين أو الولي مانع من عقد النكاح لحديث عثمان الثابت في صحيح مسلم ، ولما قدمنا من الآثار الدالة على ذلك ، ولم يثبت في كتاب الله ، ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم شيء يعارض

ذلك الحديث . وحديث ابن عباس معارض بحديث ميمونة ، وأبي رافع ، وقد قدمنا لك أوجه ترجيحهما عليه . ولو فرضنا أن حديث ابن عباس ، لم يعارضه معارض ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة ، وهو محرم . فهذا فعل خاص لا يعارض عموماً قولياً لوجوب تخصيص العموم القولي المذكور بذلك الفعل كما تقدم إيضاحه .

(483/522)

أما ما رواه أبو داود في سننه : حدثنا ابن بشار ، ثنا عبد الرحمن بن مهدي ، ثنا سفيان ، عن إسماعيل بن أمية ، عن رجل ، عن سعيد بن المسيب قال : وَهِمَ ابن عباس في تزويج ميمونة وهو محرم . فلا تنهض به حجة على توهيم ابن عباس ، لأن الراوي ، عن سعيد ، لم تعرف عينه كما ترى ، وما احتج به كل واحد من المتنازعين في هذه المسألة من الأقيسة كقياس من أجاز النكاح في الإحرام ، النكاح على شراء الأمة في الإحرام . لقصد الوطء ، وكقياس من منعه النكاح في الإحرام على نكاح المعتدة بجامع أن كل منهما لا يعقبه جواز التلذذ كالوطء والقبلة تركناه وتركنا مناقشته ، لأن هذه المسألة من السمائل المنصوصة فلا حاجة فيها إلى القياس ، مع أن كل الأقيسة التي استدل بها الطرفان لا تنهض بها حجة .

فروع تتعلق بهذه المسألة

التي هي ما يمتنع بالإحرام على المحرم حتى يحل من إحرامه :

الفرع الأول : اعلم أن أظهر قولي أهل العلم عندي : أن المحرم يجوز له أن يرتجع مطلقته في حال الإحرام ، لأن الرجعة ليست بنكاح مؤتنف لأنها لا يحتاج فيها إلى عقد ، ولا صداق ، ولا إلى إذن الولي ولا الزوجة فلا تدخل في قوله صلى الله عيه وسلم

" لا يَنْكح المحرم ولا يُنْكح " وجواز الرجعة في الإحرام هو قول جمهور أهل العلم منهم : الأئمة الثلاثة ، وأصحابهم : مالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة ، وهو إحدى الروايتين ، عن الإمام أحمد ، وعزاه النووي في شرح المهذب لعامة العلماء إلا رواية عن الإمام أحمد .

وقال ابن قدامة في المغني في شرحه قول الخرقي : وللمحرم أن يتجر ويصنع الصنائع ، ويرتجع امرأته ما نصه :

فأما الرجعة : فالمشهور إباحتها ، وهو قول أكثر أهل العلم ، وفيه رواية ثانية أنها لا تباح .

إلى أن قال : وجه الرواية الصحيحة : أن الرجعية زوجة والرجعة إمساك بدليل قوله تعالى ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة : 231] فأبيح ذلك كالإمساك قبل الطلاق . انتهى محل الغرض منه .

(484/522)

وقال مالك في الموطأ في الرجل المحرم : أنه يراجع امرأته ، إذا كانت في عدة منه . وذكر النووي عن الخراسانيين من الشافعية وجهين ، أصحهما : جواز الرجعة ، والثاني : منعها في الإحرام .

الفرع الثاني : اعلم أن التحقيق أن الولي إذا وكل وكيلاً على تزويج وليته ، فلا يجوز لذلك الوكيل تزويجها بالوكالة في حالة إحرامه ، لأنه يدخل في عموم الحديث المذكور ، وكذلك وكيل الزوج .

الفرع الثالث : اعلم أن أظهر قولي أهل العلم عندي : أن السلطان لا يجوز له أن يزوج بالولاية العامة في حال إحرامه ، لدخوله في عموم قوله صلى الله عليه وسلم " لا يَنكح المحرم ولا يُنكح " فلا يجوز إخراج السلطان من هذا العموم ، إلا بدليل خاص به من كتاب أو سنة ، ولم يرد بذلك دليل ، فالتحقيق منع تزويجه في الإحرام وهو قول جمهور العلماء خلافاً لبعض الشافعية القائلين : يجوز ذلك للسلطان ، ولا دليل معهم من كتاب ولا سنة ، وإنما يحتجون بأن الولاية العامة أقوى من الولاية الخاصة . بدليل أن الولي المسلم الخاص ، لا يزوج الكافرة بخلاف السلطان ، فله عندهم أن يزوج الكافرة بالولاية العامة .

الفرع الرابع : اعلم أن أظهر قولي أهل العلم عندي : أن للشاهد المحرم ، أن يشهد على عقد نكاح ، لأن الشاهد لا يتناوله حديث " لا ينكح المحرم ولا ينكح " لأن عقد النكاح بالإيجاب والقبول والشاهد لا صنع له في ذلك ، وخالف في ذلك أبو سعيد الاصطخري من الشافعية

، قائلاً : إن شهادة الشاهد ركن في العقد ، فلم تجز في حال الإحرام كالولي ، وكره بعض أهل العلم للمحرم أن يشهد على النكاح .

الفرع الخامس : الأظهر عندي : أن المحرم لا يجوز له أن يخطب امرأة ، وكذلك المحرمة ، لا يجوز للرجل خطبتها لما تقدم من حديث عثمان ، عند مسلم :

(485/522)

" لا ينكح المحرم ولا يُنكح ولا يخطب " فالظاهر أن حرمة الخطبة كحرمة النكاح ، لأن الصيغة فيهما متحدة ، فالحكم بحرمة أحدهما دون الآخر ، يحتاج إلى دليل خاص ، ولا دليل عليه . والظاهر من الحديث حرمة النكاح وحرمة وسيلته التي هي الخطبة كما تحرم خطبة المعتدة .

وبه تعلم أن ما ذكره كثير من أهل العلم من أن الخطبة لا تحرم في الإحرام ، وإنما تكره أنه خلاف الظاهر من النص ولا دليل عليه ، وما استدل به بعض أهل العلم من الشافعية وغيرهم : على أن المتعاطفين قد يكون أحدهما مخالفاً لحكم الآخر كقوله تعالى ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : 141] الآية . قالوا : الأكل مباح وإيتاء الحق واجب ، لا دليل فيه ، لأن الأمر بالأكل معلوم أنه ليس للوجوب ، بخلاف قوله في

الحديث " ولا يخطب " فلا دليل على أنه ليس للتحريم كقوله قبله " لا ينكح المحرم " .

الفرع السادس : إذا وقع عقد النكاح في حال إحرام أحد الزوجين أو الولي ، فالعقد فاسد ، ولا يحتاج إفى فسخه بطلاق ، كما هو ظاهر الآثار التي قدمنا ، ومذهب مالك وأحمد : أنه يفسخ بطلاق مراعاة لقول من أجازه كأبي حنيفة ومن تقدم ذكرهم .

الفرع السابع : أظهر قولي أهل العلم عندي : أنه إذا وكل حلال حلالاً في التزويج ، ثم أحرم أحدهما أو المرأة أن الوكالة لا تنفسخ بذلك ، بل له أن يُزَوِّج بعد التحلل بالوكالة السابقة خلافاً لمن قال تنفسخ الوكالة بذلك ، والتحقيق أن الوكيل إذا كان حلالاً والموكل محرماً فليس للوكيل الحلال عقد النكاح ، قبل تحلل موكله خلافاً لمن حكى وجهاً بجواز ذلك ، ولا شك أن تجويز ذلك غلط .

(486/522)

الفرع الثامن : اعلم أنا قدمنا في أول الكلام على هذه المسألة : أن الإحرام يحرم بسببه على المحرم وطء امرأته في الفرج ، ومباشرتها فيما دون الفرج لقوله تعالى : ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحج فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحج ﴾ [البقرة : 197] وقد قدمنا أن الرفث شامل للجماع ، ومقدماته . وقد أردنا في هذا الفرع أن نبين ما يلزمه لو فعل شيئاً من ذلك ،

ولا خلاف بين أهل العلم : أن المحرم إذا جامع امرأته قبل الوقوف بعرفات : أن حجه يفسد بذلك ، ولا خلاف بينهم أنه لا يفسد الحج من محظورات الإحرام ، إلا الجماع خاصة ، وإذا فسد حجة بجماعه قبل الوقوف بعرفات : فعليه إتمام حجه هذا الذي أفسده عليه قضاء الحج ، وعليه الهدي ، وهو عند مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وجماعات من الصحابة بدنة ، وقال أبو حنيفة : عليه شاة ، وقال داود : هو مخير بين بدنة وبقرة وشاة ، فإن كل جماعه بعد الوقوف بعرفات ، وقبل رمي جمرة العقبة ، وطواف الإفاضة فحجه فاسد عند مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله .

وقال أبو حنيفة رحمه الله : حجه صحيح ، وعليه أن يهدي بدنة متمسكاً بظاهر حديث " الحج عرفة " وإن كان جماعة بعد رمي جمرة العقبة ، وقبل طواف الإفاضة : فحجه صحيح عند الجميع ، وعند الشافعي : تلزمه فدية ، وعند أبي حنيفة : إن جامع بعد الحلق : فعليه شاة ، وإن جامع قبل الحلق ، وبعد الوقوف : فعليه بدنة .

وعن أحمد روايتان : فيما يلزمه هل هو شاة ، أو بدنة ، ومذهب مالك : أن حجه صحيح ، وعليه : هدي وعمرة ، ووجهه عنده أن الجماع لما كان بعد التحلل الأول برمي جمرة العقبة ، لم يفسد به الحج ، ولكنه وقع فيه نقص بسبب الجماع قبل التحلل الثاني ، فكان هذا النقص عنده يجبر بالعمرة والهدي .

وفي الموطأ قال مالك : في رجل وقع بامرأته في الحج ما بينه ، وبين أن يدفع من عرفة ، ويرمي الجمرة أنه يجب عليه الهدي وحج قابل ، قال : فإن كانت إصابته أهله بعد رمي الجمرة ، فإنما عليه أن يعتمر ويهدي ، وليس عليه حج قابل ا ه .

ونقل البابجي عن مالك : أن محل فساد الحج بالجماع قبل الرمي والإفاضة وبعد الوقوف بعرفة ، فيما إذا كان الوطء واقعاً يوم النحر ، أما إن أخر رمي جمرة العقبة ، وطواف الإفاضة معاً عن يوم النحر ، وجامع قبلهما ، فلا يفسد حجه : وعليه عمرة وهديان : هدي لوطئه ، وهدي لتأخير رمي الجمرة انتهى منه بواسطة نقل المواق في شرحه لمختصر خليل في الكلام على قوله : والجماع ومقدماته ، وأفسد مطلقاً كاستدعاء مني ، وإن بنظر قبل الوقوف مطلقاً ، إن وقع قبل إفاضة وعقبه يوم النحر أو قبله وإلا فهدي ا ه .

فتحصل : أن الجماع قبل الوقوف بعرفات مفسد للحج ، عند الأئمة الأربعة وبعد التحلل الأول ، وقبل الثاني : لا يفسد الحج عند الأربعة .

وقد عرفت ما قدمنا ما يقع به التحلل عند كل واحد منهم ، وإن وقع بعد الوقوف بعرفة ، وقبل التحلل : أفسد عند الثلاثة ، خلافاً لأبي حنيفة كما تقدم إيضاحه قريباً .

وإذا عرفت أقوال أهل العلم في الجماع ، فاعلم أنهم متفقون على أن مقدمات الجماع كالقبلة والمفاخذة ، واللمس بقصد اللذة حرام على المحرم .

ولكنهم اختلفوا فيما يلزمه لو فعل شيئاً من ذلك : فمذهب مالك وأصحابه : أن كل تلذذ بمباشرة المرأة من قبلة ، أو غيرها ، إذا حصل معه إنزال أفسد الحج . وقد بينا قريباً ما يلزم من أفسد حجه حتى إنه لو أدام النظر بقصد اللذة فأنزل : فسد عند مالك حجه ولو أنزل بسبب النظرة الأولى من غير إدامة : لم يفسد حجه عند مالك ، وعليه الهدي . أما إذا تلذذ بالمرأة بما دون الجماع ، ولم ينزل فإن كان بتقبيل الفم : فعليه هدي ، والقبلة حرام على المحرم مطلقاً عند مالك ، وأما إن كان بغير القبلة كاللمس باليد ، فهو ممنوع إن قصد به اللذة ، وإن لم يقصدها به ، فليس بممنوع ، ولا هدي فيه ولو قصد به اللذة وإنما عليه الإثم إلا إذا حصل بسببه مذي فيلزم فيه الهدي ومحل هذا عندهم في غير الملاعبة الطويلة والمباشرة الكثيرة ففيها الهدي .

فتحصل : أن مذهب مالك فساد الحج بمقدمات الجماع ، إن أنزل ، وإن لم ينزل ففي القبلة خاصة مطلقاً : هدي وكذلك كل تلذذ خرج بسببه مذي ، وكذلك الملاعبة الطويلة والمباشرة الكثيرة وما عدا ذلك من التلذذ ، فليس فيه إلا التوبة والاستغفار ، ولا يفسد الحج عنده إلا بالجماع ، أو الإنزال . ومذهب أبي حنيفة رحمه الله : أن التلذذ بما دون

الجماع كالقبلة ، واللمس بشهوة ، والمفاخذة ونحو ذلك ، يلزم بسببه دم ، وسواء عنده في ذلك أنزل أو لم ينزل ، ولو ردد النظر إلى امرأته حتى أمنى ، فلا شيء عليه عند أبي حنيفة .

ومذهب الشافعي رحمه الله : هو أنه إن باشر امرأته فيما دون الفرج بشهوة أو قبلها بشهوة : أن عليه فدية الأذى والاستمناء عنده كالمباشرة فيما دون الفرج . وصحح بعض الشافعية : أن عليه شاة ، ولو ردد النظر إلى امرأته ، حتى أمنى ، فلا شيء عليه عند الشافعي . ومذهب الإمام أحمد رحمه الله : أنه إن وطئ فيما دون الفرج ، ولم ينزل : فعليه دم ، وإن أنزل : فعليه بدنة . وفي فساد حجه روايتان :

(489/522)

إحداهما : أنه إن أنزل فسد حجه ، وعليه بدنة وبها جزم الخرقي .

وقال في المغني : في هذه الرواية اختارها الخرقي وأبو بكر ، وهو قول عطاء والحسن ، والقاسم بن محمد ، ومالك ، وإسحاق .

والرواية الثانية : أنه إن أنزل فعليه بدنة ، ولا يفسد حجه .

وقال ابن قدامة في المغني : في هذه الرواية : وهي الصحيحة ، إن شاء الله ، لأنه استمتاع لا

يجب بنوعه حد فلم يفسد الحج كما لو لم ينزل ، ولأنه لا نص فيه ولا إجماع ، ولا هو في معنى المنصوص عليه . انتهى محل الغرض منه .

وما ذكرنا عن أحمد : من أنه إن أنزل تلزمه بدنة : أي سواء قلنا بفساد الحج ، أو عدم فساده ، وممن قال بلزوم البدنة في ذلك : الحسن وسعيد بن جبير ، والثوري ، وأبو ثور ، كما نقله عنهم صاحب المغني . وإن قبل امرأته ، ولم ينزل أو أنزل جرى على حكم الوطء فيما دون الفرج ، وقد أوضحناه قريباً .

وإن نظر إلى امرأته ، فصرف بصره ، فأمنى فعليه دم عند أحمد ، وإن كرر النظر ، حتى أمنى ، فعليه بدنة عنده .

وقد قدمنا عن مالك : أنه إن كرر النظر ، حتى أمنى فسد حجه ، وهو مروي عن الحسن وعطاء .

واعلم أن أظهر قولي أهل العلم عندي : أن الحج الفاسد بالجماع يجب قضاؤه فوراً في العام القابل ، خلافاً لمن قال : إنه على التراخي ، ودليل ذلك الآثار التي ستراها إن شاء الله في الكلام على أدلة هذا المبحث .

وأظهر قولي أهل العلم عندي أيضاً : أن الزوجين اللذين أفسدا حجهما يفرق بينهما ، إذا أحرما بحجة القضاء لئلا يفسدا حجة القضاء أيضاً بجماع آخر كما يدل عليه بعض الآثار المروية عن الصحابة ، والأظهر أيضاً : أن الزوجة إن كانت مطاوعة له في الجماع يلزمها مثل

ما يلزم الرجل من الهدي والمضي في الفاسد والقضاء في العام القابل ، خلافاً لمن قال : يكفيهما هدي واحد . والأظهر أنه إن أكرهها : لا هدي عليها .

(490/522)

وإذا علمت أقوال أهل العلم في جماع المحرم ، ومباشرته بغير الجماع ، فاعلم أن غاية ما دل عليه الدليل : أن ذلك لا يجوز في الإحرام لأن الله تعالى نص على ذلك في قوله تعالى ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحج فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحج ﴾ [البقرة : 197] أما أقوالهم في فساد الحج وعدم فساده ، وفيما يلزم في ذلك ، فليس على شيء ، من أقوالهم في ذلك دليل من كتاب ولا سنة ، وإنما يحتجون بآثار مروية عن الصحابة . ولم أعلم بشيء مروي في ذلك عن النَّبي صلى الله عليه وسلم إلا حديثاً منقطعاً لا تقوم بمثله حجة : وهو ما رواه أبو داود في المراسيل ، والبيهقي في سننه : أخبرنا أبو بكر محمد بن صالح أنبأنا أبو الحسن عبد الله بن إبراهيم الفسوي الداودي ، ثنا أبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي ، ثنا أبو داود السجستاني ثنا أبو توبة ، ثنا معاوية يعني : ابن سلام ، عن يحيى قال : أخبرني يزيد بن نعيم أو زيد بن نعيم : شك أبو توبة : أن رجلاً من جذم جامع امرأته وهما محرمان ، فسأل الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما " اقضيا نسككما وأهديا هدياً ثم ارجعا حتى

إذا جئتما المكان الذي أصبتما فيه ما أصبتما فتفرقا ولا يرى واحد منكما صاحبه وعليكما حجة أخرى فتقبلا حتى إذا كنتما في المكان الذي أصبتما فيه ما أصبتما فأحرما وأتما نسككما وأهديا " هذا منقطع ، وهو يزيد بن نعيم الأسلمي بلا شك . انتهى من البيهقي وتراه صرح بأنه منقطع وانقطاعه ظاهر ، لأنه يزيد بن نعيم المذكور من صغار التابعين . وقال الزيلعي في نصب الراية بعد أن ذكر الحديث المذكور ، عند أبي داود في المراسيل ، والبيهقي ، وذكر قول البيهقي : إنه منقطع ما نصه : وقال ابن القطان في كتابه : هذا حديث لا يصح ، فإن زيد بن نعيم مجهول ، ويزيد بن نعيم بن هزال ثقة . وقد شك أبو توبة ، ولا يعلم عمن هو منهما ، ولا عمن حدثهم به معاوية بن سلام ، عن يحيى بن أبي كثير ، فهو لا

(491/522)

يصح . قال ابن القطان : وروى ابن وهب ، أخبرني ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن عبد الرحمن بن حرملة ، عن ابن المسيب : أن رجلاً من جذام جامع امرأته ، وهما محرمان ، فسأل الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما :

" أتما حجكما ، ثم ارجعا ، وعليكما حجة أخرى ، فإذا كنتما بالمكان الذي أصبتما فيه

ما أصبتما ، فأحرما وتفرقا ، ولا يرى واحد منكما صاحبه ثم أتما نسككما وأهديا "

انتهى .

قال ابن القطان : وفي هذا أنه أمرهما بالتفرق في العودة لا في الرجوع وحديث المراسيل على العكس منه قال : وهذا ضعيف أيضاً بابن لهيعة انتهى كلامه انتهى محل الغرض منه من نصب الراية للزيلعي .

وإذا كانت هذه المسألة المذكورة ليس فيها عن النَّبي صلى الله عليه وسلم إلا هذا الحديث المنقطع سنده تبين : أن عمدة الفقهاء فيها على الآثار المروية عن الصحابة ، فمن ذلك ما رواه مالك في الموطأ بلاغاً أن عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وأبا هريرة رضي الله عنهم سئلوا عن رجل أصاب أهله ، وهو محرم بالحج ؟ فقالوا : يَنْفُذَانِ يمضيان لوجههما حتى يقضيا حجهما ثم عليهما حج قابل والهدي . قال : وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : وإذا أهلا بالحج من عام قابل تفرقا حتى يقضيا حجهما ا ه .

وهذا الأثر عن هؤلاء الصحابة منقطع أيضاً كما ترى .

وفي الموطأ أيضاً : عن مالك ، عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : ما ترون في رجل وقع بامرأته وهو محرم ؟ فلم يقل له القوم شيئاً . فقال سعيد : إن رجلاً وقع بامرأته ، وهو محرم ، فبعث إلى المدينة يسأل عن ذلك ، فقال بعض الناس : يفرق بينهما إلى عام قابل ، فقال سعيد بن المسيب : لِيَنْفُذَا لِوُجهِهِمَا فَلْيُتِمَّا حَجَّهُمَا الذي أفسداه ، فإذا فرغا رجعا

، فإن أدركهما حج قابل فعليهما الحج والهدي ، ويُهِلانِ من حيث أهَلاَّ بحجهما الذي أفسداه ويتفرقان ، حتى يقضيا حجهما . قال مالك : يهديان جميعاً بدنة بدنة .

(492/522)

قال مالك في رجل وقع بامرأته في الحج : ما بينه وبين أن يدفع من عرفة ، ويرمي الجمرة إنه يجب عليه الهدي وحج قابل ، فإن كانت إصابته أهله بعد رمي الجمرة ، فإنما عليه أن يعتمر ، ويهدي ، وليس عليه حج قابل .

قال مالك : والذي يفسد الحج أو العمرة ، التقاء الختانين . وإن لم يكن ماء دافق . قال : ويوجب ذلك أيضاً الماء الدافق ، إذا كان من مباشرة ، فأما رجل ذكر شيئاً حتى خرج منه ماء دافق ، فلا أرى عليه شيئاً ، ولو أن رجلاً قبّل امرأته ، ولم يكن من ذلك ماء دافق ، لم يكن عليه القبلة إلا الهدي ، وليس على المرأة التي يصيبها زوجها ، وهي محرمة مراراً في الحج أو العمرة ، وهي له في ذلك مطاوعة : إلا الهدي وحج قابل ، إن أصابها في الحج ، وإن كان أصابها في العمرة ، فإنما عليها قضاء العمرة التي أفسدت والهدي ا ه . وفي الموطأ أيضاً عن مالك عن أبي الزبير المكي ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : أنه سُئِل عن رجل وقع بأهله ، وهو بمنى ، قبل أن يفيض ، فأمره أن ينحر بدنة .

وفي الموطأ أيضاً عن مالك ، عن ثور بن زيد الديلي ، عن عكرمة مولى ابن عباس أنه قال : الذي يصيب أهله قبل أن يُفِيضَ يعتمر ويهدي . وفي الموطأ أيضاً عن مالك : أنه سمع ربيعة بن أبي عبد الرحمن يقول في ذلك مثل قول عكرمة ، عن ابن عباس . قال مالك : وذلك أحب ما سمعت إلي في ذلك . انتهى محل الغرض منه .

(493/522)

وروى البيهقي بإسناده ، عن عطاء : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال في محرم بحجة أصاب امرأته ، يعني وهي محرمة ؟ قال : يقضيان حجهما وعليهما الحج من قابل من حيث كانا أحرما ، ويفترقان حتى يتما حجهما ، قال وقال عطاء : وعليهما بدنة ، إن أطاعته ، أو استكرهها ، فإنما عيهما بدنة واحدة ا ه . وهذا الأثر منقطع أيضاً ، لأن عطاء لم يدرك عمر رضي الله عنه وروى البيهقي بإسناده أيضاً : أن مجاهداً سئل عن المحرم ، يواقع امرأته ؟ فقال : كان ذلك على عهد عمر رضي الله عنه ، قال : يقضيان حجهما والله أعلم بحجهما ، ثم يرجعان حلالاً ، كل واحد منهما لصاحبه ، فإذا كان من قابل حجا وأهديا ، وتفرقا في المكان الذي أصابها فيه .

(494/522)

وروى البيهقي بإسناده أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما : في رجل وقع على امرأته وهو محرم ؟ قال : اقضيا نسككما ، وارجعا إلى بلدكما ، فإذا كان عام قابل فاخرجا حاجين ، فإذا أحرمتما فتفرقا ، ولا تلتقيا حتى تقضيا نسككما ، وأهديا هديا . وفي رواية : ثم أهلا من حيث أهللتما أول مرة ا ه . قال النووي في هذا الأثر الذي رواه البيهقي عن ابن عباس ، إسناده صحيح وروى البيهقي بإِسناده ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه : أن رجلاً أتى عبد الله بن عمرو يسأله عن محرم ، وقع بامرأته ؟ فأشار إلى عبد الله بن عمر فقال : اذهب إلى ذلك فسله . قال شعيب : فلم يعرفه الرجل ، فذهبت معه ، فسأل ابن عمر فقال : بطل حجك . فقال الرجل : فما أصنع ؟ قال : اخرج مع الناس واصنع ما يصنعون ، فإذا أدركت قابلاً ، فحج وأهد ، فرجع إلى عبد الله بن عمرو ، وأنا معه فأخبره ، فقال : اذهب إلى ابن عباس فسله ، قال شعيب : فذهبت معه إلى ابن عباس فسأله فقال له : كما قال ابن عمر ، فرجع إلى عبد الله بن عمرو ، وأنا معه ، فأخبر بما قال ابن عباس ، ثم قال : ما تقول أنت ؟ فقال : قولي مثل ما قالا ا ه . ثم قال البيهقي هذا إسناد صحيح وفيه دليل على صحة سماع شعيب بن محمد بن عبد الله عن جده عبد بن عمرو بن العاص ، فترى هذا الأثر عن هؤلاء الصحابة الثلاثة فيه ذلك الحكم عنهم بإسناد صحيح .

وروى البيهقي أيضاً من طرق أخرى ، عن ابن عباس مثل ذلك ، وفي بعض الروايات عن ابن عباس : أن على كل واحد منهما بدنة ، وفي بعضها : أنهما تكفيهما بدنة واحدة ، فهذه الآثار عن الصحابة وبعض خيار التابعين هي عمدة الفقهاء في هذه المسألة .

(495/522)

الفرع التاسع : اعلم أن أظهر أقوال أهل العلم عندي : أنه إذا جامع مراراً قبل أن يكفر كفاه هدي واحد ، وإن كان كفر لزمته بالجماع الثاني كفارة أخرى ، كما أنه إن زنى مراراً قبل إقامة الحد عليه كفاه حد واحد إجماعاً ، وإن زنى بعد إقامة الحد عليه لزمه حد آخر ، وهذا هو مذهب الإمام أحمد ، وممن قال بأنه يكفيه هدي واحد مطلقاً : مالك ، وإسحاق ، وعطاء .

والأصح في مذهب الشافعي : أنه يلزمه في الجماع الأول بدنة ، وفي كل مرة بعد ذلك شاة .

وعن أبي ثور : تلزمه بكل مرة بدنة ، وهو رواية عن أحمد .

وعن أبي حنيفة : إن كان ذلك في مجلس واحد . فدم واحد وإلا فدمان .

واعلم أنهم اختلفوا فيما إذا جامع ناسياً لإحرامه ؟ ومذهب أبي حنيفة ، ومالك ، وأحمد : أن العمد والنسيان سواء بالنسبة إلى فساد الحج ، وهو قول للشافعي ، وهو قوله القديم .

وقال في الجديد : إن وطئ ناسياً أو جاهلاً لا يفسد حجه ولا شيء عليه ، أما إن قبل امرأته لإحرامه ، فليس عليه شيء عند الشافعي وأصحابه قولاً واحداً .

وقال ابن قدامة في المغني : ينبغي أن يكون الأمر كذلك في المذهب الحنبلي .

واعلم أن الجماع المفسد للحج هو التقاء الختانين الموجب للحد والغسل كما قدمناه في كلام مالك في الموطأ ، والأظهر أن الإتيان في الدبر كالجماع في إفساد الحج ، وكذلك الزنا أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منه فعل كل ما لا يرضي الله تعالى .

وقد قدمنا أن أظهر قولي أهل العلم عندنا أنه يفرق بين الزوجين اللذين أفسدا حجهما ، وذلك التفريق بينهما في حجة القضاء . لا في جميع السنة .

(496/522)

وظاهر الآثار المتقدمة أن ذلك التفريق بينهما إنما يكون من الموضع الذي جامعها فيه ، وعن مالك : يفترقان من حيث يحرمان ، ولا ينتظر موضع الجماع ، وهو رواية عن أحمد ، وهو أظهر . وعن مالك وأحمد : أن التفريق المذكور واجب وهو قول أو وجه عند الشافعية ، والثاني عندهم : أنه مستحب وهو وجه أيضاً عن الحنابلة ، وممن قال بالتفريق بينهما : عمر بن الخطاب ، وعثمان ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، والثوري ، وإسحاق ،

وابن المنذر . كما نقله عنهم النووي في شرح المهذب ونقله ابن قدامة في المغني ، عن عمر وابن عباس ، وسعيد بن المسيب وعطاء ، والنخعي والثوري ، وأصحاب الرأي وغيرهم ، وعن أبي حنيفة وعطاء : لا يفرق بينهما ، ولا يفترقان قياساً على الجماع في نهار رمضان ، فإنهما إذا قضيا اليوم الذي أفسداه لا يفرق بينهما .

واعلم أنا قدمنا خلاف العلماء في الهدي الذي على المفسد حجه بالجماع ، وذكرنا أنه عند مالك والشافعي وأحمد : بدنة ، وهو قول جماعات من الصحابة وغيرهم منهم ابن عباس ، وطاوس ، ومجاهد الثوري ، وأبو ثور ، وإسحاق ، وغيرهم . ولم نتكلم على ما يلزمه إن عجز عن البدنة ، وفي ذلك خلاف بين أهل العلم ، فذهب بعضهم إلى أنه إن عجز عن البدنة كفته شاة ، وممن قال به الثوري ، وإسحاق ، وذهب بعضهم : إلى أنه إن لم يجد بدنة فبقرة ، فإن لم يجد بقرة فسبع من الغنم ، فإن لم يجد أخرج بقيمة البدنة طعاماً ، فإن لم يجد صام عن كل مد يوماً ، وهذا هو مذهب الشافعي ، وبه قال جماعة من أهل العلم .

وعن أحمد رواية : أنه مخير بين هذه الخمسة المذكورة .

(497/522)

واعلم أن المفسد حجه بالجماع إذا قضاه على الوجه الذي أحرم به في حجه الفاسد ، كأن يكون في حجه الفاسد مفرداص ويقضيه مفرداً أو قارناً ، ويقضيه قارناً فلا إشكال في ذلك وكذلك إن كان مفرداً في الحج الذي أفسده وقضاه قارناً فلا إشكان لأنه جاء بقضاء الحج مع زيادة العمرة ، وأما إذا كان قارناً في الحج الذي أفسده ثم قضاه مفرداً ، فالظاهر أن الدم اللازم له بسبب القران لا يسقط عنه بإفراده في القضاء ، خلافاً لمن زعم ذلك .

وقال النووي في شرح المهذب : إذا وطئ القارن ، فسد حجه وعمرته ، ولزمه المضي في فاسدهما ، وتلزمه بدنة للوطء ، وشاة بسبب القران ، فإذا قضى لزمته أيضاً شاة أخرى ، سواء قضى قارناً ، أم مفرداً لأنه توجه عليه القضاء قارناً ، فإذا قضى مفرداً لا يسقط عنه دم القران . قال العبدري : وبهذا كله قال مالك ، وأحمد .

وقال أبو حنيفة : إن وطئ قبل طواف العمرة ، فسد حجه وعمرته ، ولزمه المضي في فاسدهما والقضاء ، وعليه شاتان : شاة لإفساد الحج ، وشاة لإفساد العمرة ويسقط عنه دم القران ، فإن وطئ بعد طواف العمرة فسد حجه ، وعليه قضاؤه وذبح شاة ، ولا تفسد عمرته فتلزمه بدنة بسببها ، ويسقط عنه دم القران .

قال ابن المنذر ، وممن قال يلزمه هدي واحد : عطاء وابن جريج ومالك والشافعي ، وإسحاق ، وأبو ثور . وقال الحكم : يلزمه هديان ا ه . من شرح المهذب .

وقد قدمنا أن الأظهر عندنا : أن الزوجين المفسدين حجهما بالجماع تلزم كل واحد منهما

بدنة ، إن كانت مطاوعة له ، وهو مذهب مالك . وبه قال النخعي ، وهو أحد القولين للشافعي .

قال النووي : قال ابن المنذر : وأوجب ابن عباس ، وابن المسيب والضحاك والحكم ، وحماد ، والثوري ، وأبو ثر على كل واحد منهما هدياً ، وقال النخعي ومالك : على كل واحد منهما بدنة .

وقال أصحاب الرأي : إن كان قبل عرفة ، فعلى كل واحد منهما شاة ، وعن أحمد روايتان :

إحداهما : يجزئهما هدي واحد .

(498/522)

والثانية : على كل واحد منهما هدي ، وقال عطاء وإسحاق : لزمهما هدي واحد .

الفرع العاشر : إذا جامع المحرم بعمرة قبل طوافه : فسدت عمرته إجماعاً ، وعليه المضي في فاسدها والقضاء والهدي ، فإن كان جماعه بعد الطواف ، وقبل السعي فعمرته فاسدة أيضاً عند الشافعي ، وأحمد ، وأبي ثور ، وهو مذهب مالك فعليه إتمامها ، والقضاء والدم ، وقال عطاء : عليه شاة ، ولم يذكر القضاء . وقال أبو حنيفة : إن جامع المعتمر بعد أن

طاف بالبيت أربعة أشواط لم تفسد عمرته ، وعليه دم ، وإن طاف ثلاثة أشواط ، فسدت ، وعليه إتمامها والقضاء ودم ، وأما إن كان جماعة بعد الطواف والسعي ، ولكنه قبل الحلق ، فلم يقل بفساد عمرته إلا الشافعي .

قال ابن المنذر : ولا أحفظ هذا عن غير الشافعي . وقال ابن عباس ، والثوري ، وأبو حنيفة : عليه دم وقال مالك : عليه الهدي ، وعن عطاء : أنه يستغفر الله ، ولا شيء عليه ، قال ابن المنذر : قول ابن عباس أعلا . انتهى بواسطة نقل النووي .

وأظهر قولي أهل العلم عندي : أن المحرمة التي أكرهها زوجها على الوطء حتى أفسد حجها أو عمرتها بذلك ، أن جميع التكاليف اللازمة لها بسبب حجة القضاء من نفقات سفرها في الحج ، كالزاد والراحلة والهدي اللازم لها كله على الزوج ، لأنه هو الذي تسبب لها في ذلك وإن كانت بانت منه ، ونكحت غيره ، وأنه إن كان عاجزاً لفقره صرفت ذلك من مالها ، ثم رجعت عليه بذلك ، إن أيسر ، وهذا مذهب مالك وأصحابه وعطاء ، ومن وافقهم ، خلافاً لمن قال : إن جميع تكاليف حجة القضاء في مالها لا في مال الزوج ، وهو قول بعض أهل العلم .

(499/522)

قال الشيخ شهاب الدين أحمد الشلبي في حاشيته ، على تبيين الحقائق ، شرح كنز الدقائق في الفقه الحنفي ما نصه : قال في شرح الطحاوي : أما المرأة إذا كانت نائمة ، أو جامعها صبي أو مجنون ، فذلك كله سواء ، ولا ترجع المرأة من ذلك بما لزمها عَلَى المكره ، لأن ذلك شيء لزمها فيما بينها ، وبين الله غير مجبور عليها كرجل أكره على النذر ، فإنه يلزمه ، فإذا أدى ما لزمه ، فإنه لا يرجع على المكره ، كذلك هنا انتهى إتقاني رحمه الله تعالى . انتهى كلام الشلبي في حاشيته .

وقال في موضع آخر من حاشيته المذكورة : ثم إذا كانت مكرهة حتى فسد حجها ولزمها دم ، هل ترجع على الزوج ، عن أبي شجاع : لا ، وعن القاضي أبي حازم : نعم ا ه .

وقد ذكرنا أن الأظهر عندنا لزوم ذلك لزوجها الذي أكرهها ، ووجهه ظاهر جداً ، لأن سببه هو جنايته بالجماع ، الذي لا يجوز له شرعاً ، ومن تسبب في غرامة إنسان بفعل حرام ، فإلزامه تلك الغرامة لا شك في ظهور وجهه ، والعلم عند الله تعالى .

وقال ابن قدامة في المغني : في مذهب أحمد في هذه المسألة : ما نصه : وإذا كانت المرأة مكرهة على الجماع ، فلا هدي عليها ، ولا على الرجل أن يهدي عنها نص عليه أحمد لأنه جماع يوجب الكفارة ، فلم يجب به حال الإكراه أكثر من كفارة واحدة كما في الصيام ، وهذا قول إسحاق ، وأبي ثور ، وابن المنذر .

وعن أحمد رواية أخرى : أن عليه أن يهدي عنها ، وهو قول عطاء ، ومالك ، لأن إفساد

الحج وجد منه في حقها ، فكان عليه لإفساده حجها هدي قياساً على حجه ، وعنه ما يدل على أن الهدي عليها ، لأن فساد الحج ثبت بالنسبة إليها ، ويحتمل أنه أراد أن الهدي عليها ، ويتحمله الزوج عنها ، فلا يكون رواية ثالثة . انتهى منه .

(500/522)

وفي مذهب الشافعي في هذه المسألة وجهان ، الأصح منهما عند أصحاب الشافعي : وجوب ذلك على الزوج كما بينه النووي في شرح المهذب . أمّا إن كانت مطاوعة له ، فالأظهر أن على كل واحد منهما تكاليف حجة القضاء ، وكل ما سببه الوطء المذكور لأنهما سواء فيه ، ولا ينبغي العدول عن ذلك .

الفرع الحادي عشر : اعلم أنا قدمنا أن من أفسد حجه أو عمرته ، لزمه القضاء ، وقد بينا أن الصحيح وجوبه على الفور لا على التراخي ، وسواء في ذلك كان الحج والعمرة فرضاً أو نفلاً ، لأن النفل منهما يصير فرضاً بالشروع فيه ، وقد أردنا أن نبين في هذا الفرع أنه لو أحرم بالقضاء ، فأفسده أيضاً بالجماع ، لزمته الكفارة ولزمه قضاء واحد ، ولو تكرر ذلك منه مائة مرة ، ويقع القضاء عن الحج الأول أي الذي أفسده أولاً ، والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثاني عشر : قد قدّمنا أن مما يمنع بسبب الإحرام ، حلق شعر الرأس لقوله تعالى ﴿

وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] فإن حلق شعر رأسه لأجل مرض ، أو أذى ككثرة القمل في راسه ، فقد نص تعالى على ما يلزمه بقوله ﴿ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة : 196] .

وهذه الآية الكريمة نزلت في كعب بن عجرة رضي الله عنه ، والتحقيق الذي لا شك فيه : أن الثلاثة المذكورة في الآية على سبيل التخيير بينها لأن لفظة أو في قوله ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة : 196] حرف تخيير ، والتحقيق أن الصيام المذكور ثلاثة أيام ، وأن الصدقة المذكورة ثلاثة آصع بين ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع ، وما سوى هذا فهو خلاف التحقيق .

(501/522)

وقد روى الشيخان في صحيحيهما ، عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : كان بي أذى من رأسي فحملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقمل يتناثر على وجهي ، فقال : " ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ منك ما أرى ، أتجد شاة ؟ قلت : لا . فنزلت الآية

﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة : 196] قال : هو صوم ثلاثة أيام ، أو إطعام ستة مساكين نصف صاع نصف صاع طعاما لكل مسكين "

(502/522)

وفي رواية " أتى عَلَيّ رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية فقال : كأن هوام رأسك تؤذيك ؟ فقلت : أجل . قال : فاحلقه ، واذبح شاة ، أو صم ثلاثة أيام ، أو تصدق بثلاثة آصع من تمر بين ستة مساكين " رواه مسلم ، وأحمد ، وأبو داود ، ولأبي داود في رواية " فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : احلق رأسك ، وصم ثلاثة أيام ، أو أطعم ستة مساكين ، فرقاً من زبيب ، أو انسك شاة فحلقت رأسي ثم نسكت " وفي رواية عند البخاري ، عن كعب بن عجرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : لعلك آذاك هوامك ؟ قال : نعم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : احلق رأسك ، وصم ثلاثة أيام ، أو أطعم ستة مساكين ، أو انسك بشاة " وفي رواية عند البخاري أيضاً ، عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال " وقف عَليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ، ورأسي يتهافت قملاً فقال : يؤذيك هوامُّك ؟ قلت : نعم . قال : فاحْلِقْ رأسك ، أو احلق قال : فيَّ نزلت هذه الآية ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ

بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ﴾ [البقرة : 196] إلى آخرها فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم : صم ثلاثة أيام ، أو تصدق بفرق بين ستة ، أو انسك بما تيسر " وفي رواية عند البخاري أيضاً " فأنزل الله الفدية ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يُطْعِمَ فَرَقاً بين ستة أو يهدي شاة ، أو يصوم ثلاثة أيام " وبعض هذه الروايات في صحيح مسلم وفيه غيرها بمعناها .

والفَرق ثلاثة آصع .

(503/522)

فهذه النصوص الصحيحة الصريحة : مبينة غاية البيان آية الفدية ، موضحة : أن الصيام المذكور في الآية ثلاثة أيام ، وأن الصدقة فيها ثلاثة آصع بين ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع ، وأن النسك فيها ما تيسر شاة فما فوقها ، وأن ذلك على سبيل التخيير بين الثلاثة ، كما هو نص الآية ، والأحاديث المذكورة ، وهذا لا ينبغي العدول عنه ، لدلالة القرآن ، والسنة الصحيحة عليه ، وهو قول جماهير العلماء .

وبه تعلم أن قول الحسن والثوري وعكرمة ونافع : أن الصيام عشرة أيام ، والصدقة على عشرة مساكين ، خلاف الصواب لما ذكرنا ، وإنما يقول أصحاب الرأي : من أنه يجزئ نصف صاع من البر خاصة لكل مسكين ، وأما غير البر كالتمر والشعير مثلاً ، فلا بد من

صاع كامل لكل مسكين ، خلاف الصواب أيضاً لمخالفته للروايات الصحيحة ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم التي ذكرناها آنفاً ، وأن ما رواه الطبري وغيره ، عن سعيد بن جبير : من أن الواجب أولاً النسك ، فإن لم يجد نسكاً ، فهو مخير بين الصوم والصدقة ، خلاف الصواب أيضاً ، للأدلة التي ذكرناها ، وهي واضحة صريحة في التخيير .

(504/522)

ومن أصرحها في التخيير ما رواه أبو داود في سننه : حدثنا موسى بن إسماعيل ، ثنا حماد ، عن داود ، عن الشعبي ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن كعب بن عجرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له " إن شئت فانسك نسيكة ، وإن شئت فصم ثلاثة أيام ، وإن شئت فأطعم ثلاثة آصع من تمر لستة مساكين " ا ه . فصراحة هذا في التخيير بين الثلاثة كما ترى وما رواه مالك في موطئه ، عن عبد الكريم بن مالك الجرزي ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ، أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم محرماً ، فآذاه القمل في رأسه ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحلق رأسه ، وقال : " صم ثلاثة أيام ، أو أطعم ستة مساكين مُدَّيْنِ مُدَّيْنِ ، لكل إنسان أو انسك بشاة . أيَّ ذلك فعلت أجزأ عنك " ا ه من الموطأ .

وقوله " أيَّ ذلك فعلت أجزأ عنك " صريح في التخيير كما ترى ، مع أن الآية الكريمة ، والروايات الثابتة في الصحيحين نصوص صريحة في ذلك لصراحة لفظه ، أو في التخيير والعلم عند الله تعالى .

وهذا الذي بينا حكمه الآن : هو حلق جميع شعر الرأس أما حلق بعض شعر الرأس ، أو شعر باقي الجسد غير الرأس ، فسيأتي الكلام عليه إن شاء الله . واعلم أن ما جاء في بعض الروايات أن النسك المذكور في آية البقرة ، يجاب عنه من وجهين ، وسنذكر هنا إن شاء الله بعض الروايات الواردة بذلك ، والجواب عنها .

قال أبو داود في سننه : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن نافع : أن رجلاً من الأنصار أخبره عن كعب بن عجرة ، وكان قد أصابه في رأسه أذى ، فحلق فأمره النَّبي صلى الله عليه وسلم أن يهدي هدياً بقرة . ا ه منه .

وقال ابن حجر في الفتح : بعد أن أشار لحديث أبي داود : هذا وللطبراني من طريق عبد الوهاب بن بخت ، عن نافع عن ابن عمر قال : حلق كعب بن عجرة رأسه فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفتدي فافتدى ببقرة .

(505/522)

ولعبد بن حميد من طريق أبي معشر ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : افتدى كعب من أذى كان في رأسه ، فحلقه ببقرة قلدها وأشعرها .

ولسعيد بن منصور من طريق ابن أبي ليلى ، عن نافع عن سليمان بن يسار قيل لابن كعب بن عجرة : ما صنع أبوك حين أصابه الأذى في رأسه ؟ قال : ذبح بقرة . انتهى من الفتح . ثم قال : فهذه الطرق كلها تدور على نافع .

وقد اختلف عليه في الواسطة التي بينه وبين كعب ، وقد عارضها ما هو أصح منها ، من أن الذي أمر به كعب وفعله إنما هو شاة .

وروى سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد من طريق المقبري ، عن أبي هريرة : أن كعب بن عجرة ذبح شاة لأذى كان أصابه ، وهذا أصوب من الذي قبله ، واعتمد ابن بطال على رواية نافع ، عن سليمان بن يسار فقال : أخذ كعب بأرفع الكفارات ، ولم يخالف النَّبي صلى الله عليه وسلم فيما أمره به من ذبح الشاة ، بل وافقه ، وزاد ففيه : أن من أفتى بأيسر الأشياء فله أن يأخذ بأرفعها ، كما فعل كعب .

قلت : هو فرع ثبوت الحديث ولم يثبت لما قدمته . والله أعلم . انتهى كلام ابن حجر .

وقد علمت منه الروايات المقضية : أن النسك في آية الفدية المذكورة بقرة ، وأن الجواب عنها من وجهين :

الأول : عدم ثبوت الروايات الواردة بالبقرة ، ومعارضتها بما هو صحيح ثابت من أن

النسك المذكور في الآية شاة كما قدمناه .

والجواب الثاني : أنا لو فرضنا أن تلك الروايات ثابتة ، فهي لا تعارض الروايات الصحيحة الدالة ، على أن النسك المذكور : شاة ، وذلك بأن اللازم هو الشاة ، والتطوع بالبقرة تطوع بأكثر من اللازم . ولا مانع من التطوع بأكثر مما يلزم ، والعلم عند الله تعالى .

وهذا الذي ذكرنا حكمه : هو حلق الرأس لعذر كمرض ، أو أذى في الرأس ككثرة القمل فيه ، كما هو موضوع آية الفدية ، والأحاديث التي ذكرنا .

(506/522)

أما إن حلق رأسه قبل وقت الحلق لغير عذر من مرض ، أو أذى من رأسه ، فقد اختلف أهل العلم فيما يلزمه ، فذهب مالك والشافعي وهو ظاهر مذهب أحمد : إلى أن الفدية في العمد بلا عذر ، حكمها حكم الفدية لعذر المرض ، أو الأذى في الرأس ، ولا فرق بين المعذور وغيره ، إلا في الإثم ، فإن المعذور تلزمه الفدية ، ولا إثم عليه ومن لا عذر له تلزمه الفدية المذكورة مع الإثم ، وهو مروي عن الثوري .

وعند الحنابلة وجه : أنه لا فدية على من حلق ناسياً إحرامه ، وهو قول إسحاق ، وابن المنذر ، واحتجوا بالأدلة الدالة على العذر بالنسيان .

وذهب أبو حنيفة : إلى الفرق بين من حلق لعذر ومن حلق لغير عذر ، فإن حلقه لعذر ، فعليه الفدية المذكورة في الآية على سبيل التخيير ، وفاقا للجمهور ، وإن كان حلقه لغير عذر تعين عليه الدم دون الصيام والصدقة ، ولا أعلم لأقوالهم رحمهم الله في هذه المسألة نصاً واضحاً يجب الرجوع إليه من كتاب ولا سنة ولا إجماع .

أما الذين قالوا : إن فدية غير المعذور كفدية المعذور . فاحتجوا ، بأن الحلق إتلاف ، فاستوى عمده وخطأه كقتل الصيد . قالوا : ولأن الله تعالى أوجب الفدية على من حلق رأسه لأذى به وهو معذور ، فكان ذلك تنبيهاً على وجوبها على غير المعذور ا ه . ولا يخفى أن هذا النوع من الاستدلال وأمثاله ليس فيه مقنع .

وأما الذين فرقوا بين المعذور وغيره ، وهم الحنفية فاستدلوا بظاهر قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة : 196] قالوا : فرتب الفدية المذكورة على العذر ، فدل ذلك على أن من ليس له عذر ، لا يكون له هذا الحكم المرتب على العذر خاصة .

احتج بعض أجلاء علماء الشافعية على استدلال الحنفية بالآية المذكورة بأنه قول بدليل الخطاب : يعني مفهوم المخالفة ، والمقرر في أصول الحنفية : عدم الاحتجاج بدليل الخطاب .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : لا يلزم الحنفية احتجاج الشافعية المذكور عليهم لأنهم يقولون : نعم نحن لا نعتبر مفهوم المخالفة ، ولكن نرى أن قوله ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ﴾ الآية ليس فيه تعرض لحكم الحالق لغير عذر ، لا بنفي الفدية المذكورة ، ولا بإثباتها وقد ظهر لنا من دليل آخر خارج عن الآية : أنه يلزمه دم ا ه . ولا خلاف بين أهل العلم : أن صيام الفدية له أن يصومه حيث شاء ، والأظهر عندي في النسك ، والصدقة أيضاً أن له أن يفعلهما حيث شاء ، لأن فدية الأذى أشبه بالكفارة منها بالهدي ، ولأن الله لم يذكر للفدية محلاً معيناً ، ولم يذكره النَّبي صلى الله عليه وسلم وسماها نسكاً ولم يسمها هدياً ، والظاهر أنه لا مانع من أن ينوي بالنسك المذكور الهدي ، فيجري على حكم الهدي ، فلا يصح في غير الحرم ، إلا أنه لا يجوز له الأكل منه ، لأنه في حكم الكفارة ، كما قاله علماء المالكية ، وعند الحنفية ، ومن وافقهم يختص النسك المذكور بالحرم . والعلم عند الله تعالى . أما إذا كان الذي حلقه بعض شعر رأسه لا جميعه ، أو كان شعر جسده ، أو بعضه لا شعر الرأس ، فليس في ذلك نص صريح من كتاب ، ولا سنة ، ولا إجماع ، لأن الله جل وعلا إنما ذكر في آية الفدية : حلق الرأس ، وظاهرها حلق جميعه لا بعضه ، والعلماء مختلفون في ذلك ولم يظهر لنا في مستندات أقوالهم . ما فيه مقنع ، يجب الرجوع إليه والعلم عند الله تعالى .

فذهب مالك رحمه الله وأصحابه إلى أن ضابط ما تلزم به فدية : الأذى من الحلق هو حصول أحد أمرين :

أحدهما : أن يحصل له بذلك ترفه .

والثاني : أن يزيل عنه به أذى . أما حلق القليل من شعر رأسه ، أو غيره مما لا يحصل به ترفه ، ولا إماطة أذى ، فيلزم فيه التصدق بحفنة : وهي يد واحدة ، وكذلك عندهم الظفر الواحد لا لإماطة أذى ، وقتل القملة أو القملات .

(508/522)

وقال ابن القاسم في المدونة : ما سمعت بحد فيما دون إماطة الأذى أكثر من حفنة من شيء من الأشياء ، وقد قال في قملة أو قملات حفنة من طعام ، والحفنة بيد واحدة . انتهى بواسطة نقل المواق في شرحه لقول خليل في مختصره ، وفي الظفر الواحد ، لا لإماطة الأذى حفنة ا ه .

وذهب الشافعي وأصحابه : إلى أن حلق ثلاث شعرات فصاعداً تلزم فيه فدية الأذى كاملة ، واحتجوا بأن الثلاث : يقع عليها اسم الجمع المطلق ، فكان حلقها كحلق الجميع ، وهذا القول رواية عن الإمام أحمد ، وقال القاضي : إنها المذهب ، وبذلك قال الحسن ،

وعطاء ، وابن عيينة وأبو ثور ، كما نقله عنهم صاحب المغني . أما حلق الشعرة الواحدة ، أو الشعرتين فللشافعية فيه أربعة أقوال :

الأول : وهو أصحها عند محققيهم ، وهو نص الشافعي في أكثر كتبه : أنه يجب في الشعرة الواحدة مد وفي الشعرتين مدان .

الثاني : يجب في شعرة واحدة درهم ، وفي شعرتين درهمان .

الثالث : يجب في شعرة : ثلث دم وفي شعرتين : ثلثاه .

الرابع : أن في الشعرة الواحدة دماً كاملاً . ومذهب الإمام أحمد : وجوب الفدية كاملة في أربع شعرات فصاعداً ، وهذه الرواية اقتصر عليها الخرقي ، وقد قدمنا قريباً ، الرواية عنه بوجوب الفدية بثلاث شعرات فصاعداً . أما ما هو أقل من القدر . الذي يوجب الفدية ، وهو ثلاث شعرات ، أو شعرتان بحسب الروايتين المذكورتين ففي الشعرة الواحدة : مد من طعام ، وفي الشعرتين : مدان ، وعنه أيضاً في كل شعرة : قبضة من طعام ، وروي نحوه عن عطاء .

وذهب أبو حنيفة إلى أنه إن حلق ربع رأسه ، أو ربع لحيته ، أو حلق عضواً كاملاً كرقبته ، أو عانته أو أحد إبطيه ، ونحو ذلك : لزمته فدية الأذى ، إن كان ذلك لعذر ، وإن كان لغير عذر : لزمه دم ، ويلزم عنده في حلق أقل مما ذكر كحلق أقل من ربع الرأس ، أو ربع اللحية ، أو أقل من عضو كامل صدقة ، والصدقة عندهم : نصف صاع من بر ، أو صاع من غيره .

وروي عن أبي حنيفة وأصحابه : أن في كل شعرة قبضة من طعام كما ذكره عنهم صاحب المغني .

وأما حلق شعر البدن غير الرأس ، فقد علمت مما ذكرنا آنفاً أن مذهب أبي حنيفة فيه : أنه إن حلق عضواً كاملاً ففيه الفدية أو الدم ، وإن حلق أقل من عضو ، ففيه الصدقة ، وأن حكم اللحية عنده كحكم الرأس ، وحلق الربع فيهما كحلق الجميع .

ومذهب الشافعي أن حلق شعر الجسد غير الرأس كحكم حلق الرأس ، فتلزم الفدية في ثلاث شعرات فصاعداً ، سواء كانت من شعر الرأس أو غيره من الجسد ، وفي الشعرة ، أو الشعرتين من الجسد عندهم الأقوال الأربعة المتقدمة ، وإن حلق شعر رأسه وشعر بدنه معاً ، لزمه عند الشافعي ، وأصحابه : فدية واحدة ، خلافاً لأبي القاسم الأنماطي القائل : يلزمه فديتان ، محتجاً بأن شعر الرأس مخالف لشعر البدن ، لأن النسك يتعلق بشعر الرأس ، فيلزم حلقه ، أو تقصيره بخلاف شعر البدن .

واحتج الشافعية بأنهما ، وإن اختلف حكمهما في النسك فهما جنس واحد ، فأجزأت لهما فدية واحدة .

ومذهب الإمام أحمد في هذه المسألة كمذهب الشافعي فشعر الرأس وشعر البدن حكمهما عنده سواء . وإن حلق شعر رأسه ، وبدنه : فعليه فدية واحدة ، وعنه رواية أخرى : أنه يلزمه دمان ، إذا حلق من كل من الرأس ، والجسد ما تجب به الفدية منفرداً عن الآخر كقول الأنماطي المتقدم .

قال في المغني : وهو الذي ذكره القاضي ، وابن عقيل ، لأن الرأس يخالف البدن ، بحصول التحلل به دون البدن ، ولنا أن الشعر كله جنس واحد في البدن ، فلم تتعدد الفدية فيه باختلاف مواضعه كسائر البدن ، وكاللباس ، ودعوى الاختلاف تبطل باللباس فإنه يجب كشف الرأس ، دون غيره ، والجزا في اللبس فيهما واحد .

(510/522)

وقال ابن قدامة في المغني أيضاً : وإن حلق من رأسه شعرتين ، ومن بدنه شعرتين فعليه دم واحد هذا ظاهر كلام الخرقي ، واختيار أبي الخطاب ، ومذهب أكثر الفقهاء . ومذهب مالك في هذه المسألة : أن شعر البدن كشعر الرأس فإن حلق من شعر بدنه ما فيه ترفه ، أو إماطة أذى : لزمته الفدية ، وإلا فالتصدق بحفنة بيد واحدة .

وسئل مالك : عن المحرم يتوضأ فيمر يديه على وجهه ، أو يخلل لحيته في الوضوء ، أو يدخل

يده في أنفه لمخاط ينزعه ، أو يمسح رأسه أو يركب دابته ، فيحلق ساقه إلا كاف أو السرج ؟ قال مالك : ليس عليه في ذلك كله شيء ، وهذا خفيف ، ولا بد للناس منه انتهى بواسطة نقل أبي الخطاب في كلامه على قول خليل ، وتساقط شعر لوضوء أو ركوب ا ه .

وإذا علمت أقوال الأئمة رحمهم الله في شعر الجسد . فاعلم أني لا أعلم لشيء منها مستنداً من نص كتاب ، أو سنة .

والأظهر أنهم قاسوا شعر الجسد على شعر الرأس ، بجامع أن الكل قد يحصل بحلقه الترفه ، والتنظف ، والظاهر أن اجتهادهم في حلق بعض شعر الرأس يشبه بعض أنواع تحقيق المناط ، والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثالث عشر في حكم قص المحرم أظافره أو بعضها :

وقد اختلف أهل العلم في ذلك ، فالصحيح مِن مذهب مالك : أنه إن قلم ظفرين فصاعداً : لزمته الفدية مطلقاً ، وإن قلم ظفراً واحداً ، لإماطة أذى عنه : لزمته الفدية أيضاً ، وإن قلمه لا لإماطة أذى : لزمه إطعام حفنة بيد واحدة .

قال الشيخ الحطاب في كلامه على قول خليل في مختصره : وفي الظفر الواحد لا لإماطة الأذى حفنة ، ما نصه : أما لو قلم ظفرين فلم أرَ في ابن عبد السلام والتوضيح ، وابن فرحون في شرحه ، ومناسكه وابن عرفة ، والتادلي ، والطراز وغيرهم خلافاً في لزوم الفدية ، ولم يفصلوا كما فصلوا في الظفر الواحد والله أعلم انتهى منه .

ولا ينبغي أن يختلف في أن الظفر إذا انكسر جاز أخذه ، ولا شيء فيه ، لأنه بعد الكسر لا ينمو فهو كحطب شجر الحرم . والله أعلم .

(511/522)

ومذهب الشافعي وأصحابه : أن حكم الأظفار كحكم الشعر ، فإن قلم ثلاثة أظفار ، فصاعداً ، فعليه الفدية كاملة ، وأظفار اليد والرجل في ذلك سواء ، وإن قلم ظفراً واحداً أو ظفرين ففيه الأقوال الأربعة فيمن حلق شعرة واحدة أو شعرتين ، وقد قدمنا أن أصحها عندهم أن في الشعرة : مداً ، وفي الشعرتين : مدين ، وباقي الأقوال المذكورة موضح قريباً

ومذهب الإمام أحمد في الأظفار كمذهبه في الشعر ، ففي أربعة أظفار ، أو ثلاثة على الرواية الأخرى : فدية كاملة ، وحكم الظفر الواحد كحكم الشعرة الواحدة ، وحكم الظفرين كحكم الشعرتين . وقد تقدم موضحاً قريباً .

ومذهب أبي حنيفة في هذه المسألة : أنه لو قص أظفار يديه ورجليه جميعاً بمجلس واحد ، أو قص أظفار يد واحدة كاملة في مجلس ، أو رجل كذلك لزمه الدم ، وإن قطع مثلاً خمسة أظفار ثلاثة من يد واثنان من رجل ، أو يد أخرى ، أو عكس ذلك : فعليه الصدقة : هي نصف صاع من بُر عن كل ظفر ، والمعروف عند الحنفية في باب الفدية : أن ما كان

لعذر ففيه فدية الأذى المذكورة في الآية ، وما كان لغير عذر ففيه الدم كما تقدم . أما لو قص أظفار إحدى يديه ، أو رجليه في مجلس ، والأخرى في مجلس آخر ، فعند أبي حنيفة ، وأبي يوسف : يتعدد الدم ، حتى إنه يمكن أن تلزمه أربعة دماء للرجلين واليدين ، إذا كانت كل واحدة في مجلس ، وعند محمد : لا يلزمه إلا دم واحد ، ولو تعددت المجالس إلا إذا تخللت الكفارة بينهم ، وقد علمت أنه لو قص أظافر أكثر من خمسة متفرقة من الرجلين واليدين : ليس عليه إلا الصدقة عندهم .

وقال زفر : يجب الدم بقص ثلاثة أظفار من اليد أو من الرجل ، وهو قول أبي حنيفة الأول ، بناءً على اعتبار الأكثر ، والثلاثة أكثر من الباقي بعدها بالنسبة إلى الخمسة .

(512/522)

وقال ابن قدامة في المغني : قال ابن المنذر : وأجمع أهل العلم على أن المحرم ممنوع من أخذ أظفاره ، وعليه الفدية بأخذها في قول أكثرهم ، وهو قول حماد ، ومالك ، والشافعي ، وأبي ثور ، وأصحاب الرأي . وروي ذلك عن عطاء ، وعنه لا فدية عليه ، لأن الشرع لم يرد فيه بفدية ، ولم يعتبر ابن المنذر في حكايته الإجماع قول داود الظَّاهري : إن المحرم له أن يقص أظفاره ، ولا شيء عليه لعدم النص ، وفي اعتبار داود في الإجماع خلاف معروف ،

والأظهر عند الأصوليين اعتباره في الإجماع. والله تعالى أعلم.

ثم قال صاحب المغني: ولنا أنه أزال ما منع إزالته لأجل الترفه، فوجبت عليه الفدية كحلق الشعر، وعدم النص فيه، لا يمنع قياسه. كشعر البدن مع شعر الرأس، والحكم في فدية الأظفار كالحكم في فدية الشعر سواء في أربعة منها: دم. وعنه في ثلاثة: دم، وفي الظفر الواحد: مد من طعام وفي الظفرين: مدان على ما ذكرنا من التفصيل والاختلاف فيه.

وقول الشافعي وأبي ثور كذلك انتهى محل الغرض منه.

وإذا عرفت مذاهب الأئمة في حكم قص المحرم أظفاره، وما يلزمه في ذلك فاعلم أني لا أعلم لأقوالهم مستنداً من النصوص، إلا ما ذكرنا عن ابن المنذر، من الإجماع على أن المحرم ممنوع من أخذ أظفاره، أما لزوم الفدية، فلم يدع فيه إجماعاً، وإلا ما جاء عن بعض السلف من الصحابة التابعين، من تفسير آية الحج، فإنه يدل على منع المحرم من أخذ أظفاره كمنعه من حلق شعره حتى يبلغ الهديُ مَحِلَّه، والآية المذكورة هي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ [الحج: 29] الآية.

قال صاحب الدر المنثور في التفسير بالمأثور: وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ قال: "يعني بالتفث: وضع إحرامهم من حلق الرأس، ولبس الثياب، وقص الأظفار، ونحو ذلك".

وقال أيضاً : وأخرج ابن أبي شيبة ، عن محمد بن كعب قال : التفث : حلق العانة ونتف الإبط ، والأخذ من الشارب ، وتقليم الأظفار ا ه . ونحو هذا كثير في كلام المفسرين وإن فسر بعضهم الآية بغيره .

وعلى التفسير المذكور فالآية تدل على : أن الأظفار كالشعر بالنسبة إلى المحرم ، ولا سيما أنها معطوفة بثم على نحر الهدايا لأن الله تعالى قال ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسم الله فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ [الحج : 28] والمراد بذكر اسمه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام : التسمية عند نحر الهدايا والضحايا ، ثم رتب على ذلك قوله ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ [الحج : 29] فدل على أن الحلق وقص الأظافر ، ونحو ذلك ، ينبغي أن يكون بعد النحر كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم : أن من حلق قبل أن ينحر لا شيء عليه . كما بيناه موضحاً في سورة البقرة في الكلام على قوله ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ [البقرة : 196] ويؤيد التفسير المذكور الدال على ما ذكرنا كلام أهل اللغة .

قال الجوهري في صحاحه : التفث في المناسك : ما كان من نحو قص الأظفار ، والشارب وحلق الرأس ، والعانة ، ورمي الجمار ، ونحر البدن ، وأشباه ذلك . قال أبو عبيدة : ولم

يجئ فيه شِعر يحتج به ا ه منه .

قال صاحب القاموس : التفث محركة في المناسك : الشعث ، وما كان من نحو قص الأظفار ، والشارب ، وحلق العانة ، وغير ذلك . وككتف الشعث والمغبر ا ه .

وقال صاحب اللسان : التفث : نتف الشعر وقص الأظفار . الخ .

(514/522)

وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره في الكلام على معنى التفث . قال ابن العربي : وهذه اللفظة غريبة لم يجد أهل العربية فيها شعراً ، ولا أحاطوا بها خبراً ، لكني تتبعت التَّفَثَ لغةً فرأيت أبا عبيدة معمر بن المثنى قال : إنه قص الأظفار وأخذ الشارب ، وكل ما يحرم على المُحرم إلا النكاح ، ولم يجئ فيه شِعر يحتج به .

وقال صاحب العين : التَّفَث : هو الرمي والحلق ، والتقصير ، والذبح ، وقص الأظفار ، والشارب ، والإبط . وذكر الزجاج والفراء نحوه ، ولا أراهم أخذوه إلا من قول العلماء ، وقال قطرب : تَفَثَ الرجل : إذا كثر وسخه . قال أمية بن أبي الصلت :

حلقوا رؤوسهم لم يحلقوا تفثا . . . ولم يسلوا لهم قملاً وصئبانا

وما أشار إليه قطرب هو الذي قاله ابن وهب عن مالك ، وهو الصحيح في التفث ، وهذه

صورة إلقاء التفث لغة ، إلى أن قال : قلت ما حكاه عن قطرب ، وذكر من الشعر قد ذكره في تفسيره الماوردي ، وذكر بيتاً آخر فقال :

قضوا تَفَثاً ونحباً ثم ساروا . . . إلى نجدٍ وما انتظروا عليا

وقال الثعلبي : وأصل التفث في اللغة : الوسخ ، تقول العرب للرجل تستقذره : ما أتفثك أي ما أوسخك وأقذرك .

قال أمية بن أبي الصلت :

ساخين آباطهم لم يقذفوا تَفَثاً . . . وينزعوا عنهم قملاً وصئبانا

انتهى من القرطبي .

والظاهر أن قوله : ساخين آباطهم البيت ، من قولهم : سخا يسخو سخواً إذا سكن من حركته : يعني أنهم ساكنون عن الحركة إلى آباطهم بالحلق ، بدليل قوله بعده :

. . . لم يقذفوا تفثاً . . . وينزعوا عنهم قملاً وصئبانا

الفرع الرابع عشر : قد قدمنا في أول الكلام في هذه المسألة التي هي مسألة ما يمتنع على المحرم بسبب إحرامه ، ما يُمنع المحرم من لبسه من أنواع الملبوس ، وسنذكر في هذا الفرع ما يلزم في ذلك عند الأئمة .

فذهب الشافعي ، وأصحابه : إلى أنه إن لبس شيئاً مما قدمنا أنه لا يجوز لبسه مختاراً عامداً ، أثم بذلك ، ولزمته المبادرة إلى إزالته ولزمته الفدية سواءً قصر زمان اللبس أو طال ، لا فرق عندهم في ذلكن ولا دليل عندهم للزوم الفدية في ذلك ، إلا القياس على حلق الرأس المنصوص عليه في آية الفدية ، واللبس الحرام الموجب للفدية عندهم محمول على ما يعتاد في كل ملبوس ، فلو التحف بقميص أو قباء ، أو ارتدى بهما ، أو ائتزر سراويل : فلا فدية عليه عندهم ، لأنه ليس لبساً له في العادة ، فهو عندهم كمن لفق ازاراً من خرق وطبقها وخاطها : فلا فدية عليه بلا خلاف ، وكذا لو التحف بقميص أو بعباءة أو إزار ونحوها ولفها عليه طاقاً أو طاقين ، أو أكثر فلا فدية ، وسواء فعل ذلك في النوم أو اليقظة قاله النووي ثم قال : قال أصحابنا : وله أن يتقلد المصحف وحمائل السيف ، وأن يشهد الهميان والمنطقة في وسطه ، ويلبس الخاتم ، ولا خلاف في جواز هذا كله ، وهذا الذي ذكرناه في المنطقة والهميان مذهبنا ، وبه قال العلماء كافة ، إلا ابن عمر في أصح الروايتين عنه فكرههما ، وبه قال نافع مولاه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ما ذكره النووي رحمه الله ، من كون جواز شد المنطقة والهميان في وسطه ، هو قول العلماء كافة ، إلا ابن عمر في أصح الروايتين فيه نظر ، فإن مذهب مالك ، وأصحابه : منع شد المنطقة والهميان ، فوق الإزار مطلقاً ، وتجب به

الفدية عندهم .

أما شد المنطقة مباشرة للجلد تحت الإزار ، فهو جائز عندهم ، بشرط كونه يريد بذلك حفظ نفقته ، فلا يجوز إلا تحت الإزار ، لضرورة حفظ النفقة خاصة ، وإلا فتجب الفدية ، وشد المنطقة لغير النفقة تجب به الفدية أيضاً ، عند أحمد . والهميان قريب مما تسميه العامة اليوم : بالكمر .

(516/522)

قال الشيخ الحطاب في كلامه على قول خليل في مختصره عاطفاً على ما يجوز للمحرم : وشد منطقة لنفقته على جلده . قال ابن فرحون في شرح ابن الحاجب : المنطقة : الهميان ، وهو مثل الكيس تجعل فيه الدراهم ا ه .

وروى البيهقي بإسناده عن عائشة : أنه لا بأس بشد المنطقة لحفظ النفقة ، وما في المغني من رفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيه نظر ، والظاهر أنه من قول ابن عباس ، والمرفوع عند الطبراني وفي إسناده يوسف بن خالد السمتي ، وهو ضعيف . قاله في مجمع الزوائد ، وقال في التقريب في يوسف المذكور : تركوه ، وكذبوه .

وإذا علمت مما مر أن اللبس الحرام على المُحرم ، تجب به الفدية عند الشافعية ، وأنه لا فرق

عندهم بين اللحظة والزمن الطويل ، فاعلم أن الأصح عندهم ، وبه جزم الأكثرون : أن اللازم في ذلك هو فدية الأذى المذكورة في آية الفدية . ودليلهم القياس كما تقدم ، ولهم طريقان غير هذا في المسألة إحداهما ، وذكر أبو علي الطبري في الإيضاح ، وآخرون من العراقيين أن في المسألة قولين :

أحدهما : أنه كالمتمتع ، فيلزمه ما استيسر من الهَدْي فإن لم يجد فصيام عشرة أيام كما هو معلوم .

والقول الثاني : أنه يلزمه الهدْي فإن لم يجده قومه دراهم ، وقوم الدراهم طعاماً ، ثم يصوم عن كل مد يوماً .

الطريق الثانية : هي أن في المسألة عندهم أربعة أوجه أصحها : أنه كالحلق لاشتراكهما في الترفه .

والثاني : أنه مخير بين شاة ، وبين تقويمها ، ويخرج قيمتها طعاماً ، ويصوم عن كل مد يوماً .

الثالث : تجب شاة ، فإن عجز عنها ، لزمه الطعام بقيمتها .

والرابع : أنه كالمتمتع . ا ه من النووي .

(517/522)

وقد علمت أن الصحيح عند الشافعية : أن اللبس الحرام تلزم فيه فدية الأذى ، وهذا حاصل مذهب الشافعي ، وأصحابه في المسألة ومذهب أحمد ، وأصحابه : أن الفدية تجب بقليل اللبس وكثيره كمذهب الشافعي . ويجوز عند الشافعي ، وأصحابه : للرجل المُحرِم ستر وجهه ، ولا فدية عليه ، بخلاف البياض الذي وراء الآذان .

قال النووي : وبه قال جمهور العلماء : يعني جواز ستر المحرم وجهه ، وقال أبو حنيفة ومالك : لا يجوز كرأسه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : وهذا القول الأخير أرجح عندي كما تقدم ، لأن في صحيح مسلم في المحرم الذي خر من بعيره ، فمات

" ولا تخمروا وجهه ولا رأسه " وقد قدمنا أن العلة كونه يبعث ملبياً . فدل هذا الحديث الصحيح على أن إحرام الرجل مانع من ستر وجهه ، وما أول به الشافعية وغيرهم الحديث المذكور ، ليس بمقنع فلا يجوز العدول عن ظاهر الحديث إليه ، ولا عبرة بالأجلاء الذين خالفوا ظاهره ، لأن السنة أولى بالاتباع ، والآثار التي رووها عن عثمان وزيد بن ثابت ، ومروان بن الحكم ، لا يعارض بها المرفوع الصحيح والله أعلم .

والظاهر لنا : أن ما يُروى عن أبي حنيفة والثوري وسعد بن أبي وقاص : من جواز لبس المحرمة القفازين ، خلاف الصواب لما قدمنا من حديث ابن عمر الثابت في الصحيح ، وفيه " ولا تنتقب المرأة المحرمة ، ولا تلبس القفازين " الحديث . ولم يثبت شيء صحيح من

كتاب أو سنة ، يخالفه ، وما قاله بعض أهل العلم من الحنابلة وغيرهم ، من النهي عن لبس المرأة الخلخال والسوار خلاف الصواب : والظاهر : جواز ذلك : ولا دليل يمنع منه . والله أعلم .

أما لبس الرجل القفازين ، فلم يخالف في منعه أحد ، وعند الشافعية : إذا طلى المحرم رأسه بطين ، أو حِناء أو مرهم ونحو ذلك فإن كان رقيقاً لا يستر فلا فدية ، وإن كان ثخيناً ساتراً فوجهان أصحهما : وجوب الفدية .

(518/522)

والثاني : لا تجب لأن ذلك لا يعد ساتراً ولو توسد وسادة ، أو وضع يده على رأسه ، أو انغمس في ماء أو استظل بمحمل ، أو هودج ، فذلك عند الشافعية : جائز ، ولا شيء فيه ، سواء مس المحمل رأسه أم لا ، وفيه قول ضعيف : أنه إن مس المحمل رأسه ، وجبت الفدية .

وضابط ما تجب به الفدية عندهم هو : أن يستر من رأسه قدراً يقصد ستره ، لغرض كشد عصابة وإلصاق لصوق لشجة ونحوها : والصحيح عندهم : أنه إن شد خيطاً على رأسه لم يضره ، ولا فدية عليه ، ولو جرح المحرم فشد على جرحه خرقة ، فإن كان الجرح في غير

الرأس فلا فدية ، وإن كان في الرأس ، لزمته الفدية ولا إثم عليه .

وقد قدمنا أن إحرام المرأة في وجهها فلا يجوز لها ستره بما يعد ساتراً ، ولها ستر وجهها عن الرجال ، والأظهر في ذلك أن تسدل الثوب على وجهها متجافياً عنه لا لاصقاً به . والله أعلم .

ويجوز عند الشافعية : أن يعقد الإزار ويشد عليه خيطان ، وأن يجعل له مثل الحجزة ، ويدخل فيها التكة ، لأن ذلك من مصلحة الإزار لا يستمسك ، إلا بنحو ذلك ، وقيل : لا يجوز له جعل حجزة في الإزار ، وإدخال التكة فيها ، لأنه حينئذ يصير كالسراويل ، والصحيح عندهم الأول ، والأخير ضعيف عندهم ، وكذلك القول بمنع عقد الإزار ضعيف عندهم . أما عقد الرداء فهو حرام عندهم ، وكذلك عندهم خله بخلال ، وربط طرفه إلى طرفه الآخر بخيط ، كل ذلك لا يجوز عندهم ، وفيه الفدية ، وفيه خلاف ضعيف عندهم .

(519/522)

ووجه تفريقهم بين الإزار والرداء أن الإزار يحتاج إلى العقد ، بخلاف الرداء ، ولو حمل المحرم على رأسه زنبيلاً ، أو حملاً ، ففي ذلك عند الشافعية طريقان أصحهما : أن ذلك جائز ،

ولا فدية فيه ، لأنه لا يقصد به الستر كما لا يُمنع المحدث من حمل المصحف في متاع ا ه .

ومذهب الإمام أحمد في جواز عقد الإزار ، ومنع عقد الرداء كمذهب الشافعي . ويجوز عند الإمام أحمد أن يشد في وسطه منديلاً أو عمامة أو حبلاً ونحو ذلك ، إذا لم يعقده فإن عقده منع ذلك عنده ، وإنما يجوز إذا أدخل بعض ذلك الذي شد على وسطه في بعض .

قال في المغني : قال أحمد في محرم : حزم عمامة على وسطه لا تعقدها ، ويدخل بعضها في بعض ، ثم قال : قال طاوس : رأيت ابن عمر يطوف بالبيت ، وعليه عمامة قد شدها على وسطه ، فأدخلها هكذا . وقد قدمنا أن مثل هذا يجوز عند المالكية لضرورة العمل خاصة ، ثم قال في المغني : ولا يجوز أن يشق أسفل ردائه نصفين ، ويعقد كل نصف على ساق لأنه يشبه السراويل انتهى من المغني . وفيه عند الشافعية وجهان أصحهما : المنع ، ولزوم الفدية ، لأنه كالسراويل ، كما قال صاحب المغني .

والوجه الثاني : لا فدية في ذلك ، وهو ضعيف ا ه .

وأظهر قولي أهل العلم عندي : أن لبس الخف المقطوع ، مع وجود النعل تلزم به الفدية .

والله أعلم .

(520/522)

ومذهب مالك وأصحابه في هذه المسألة : هو أن المحرم إن لبس ما يحرم عليه لبسه لزمته فدية الأذى ، ويستوي عندهم الخياطة والعقد والتزرر والتخلل والنسج على هيئة المحيط ، ولكن بشرط أن ينتفع بذلك اللبس ، من حر ، أو برد ، أو يطول زمنه كيوم كامل ، لأن ذلك مظنة انتفاعه به من حر أو برد . أما إذا لبس المحرم ما يحرم عليه لبسه ، ولم ينتفع بلبسه من حر أو برد ، ولم يدم لبسه له يوماً كاملاً ، فلا فدية عليه عندهم ، ومشهور مذهب مالك : أن للمحرم أن يشد في وسطه الحزام ، لأجل العمل خاصة ، ولا يعقده ، وأن له أن يستثفر عند الركوب والنزول . وعنه في الاستثفار للركوب والنزول قول بالكراهة ولا فدية فيه على كل حال . والاستثفار : شد الفرج بخرقة عريضة ويوثق طرفاها إلى شيء مشدود على الوسط ، وهو مأخوذ من ثغر الدابة ، الذي يجعل تحت ذنبها ، أو من ثفر الدابة بمعنى : فرجها ، ومنه قول الأخطل :

جزى الله عنا الأعورين ملامة . . . وفروة ثفر الثورة المتضاجم

فقوله : ثفر الثورة يعني : فرج البقرة ، وهو بدل من فروة ، والمتضاجم المائل وهو مخفوض بالمجاورة ، لأنه صفة للثفر ، وهو منصوب وفروة اسم رجل جعله في الخبث ، والحقارة كأنه فرج بقرة مائل . وستر المحرم وجهه عند المالكية ، كستر رأسه : تلزم فيه الفدية ، إن ستر ذلك بما يعد ساتراً كالمحيط ، ويدخل في ذلك ما لو ستره بطين أو جلد حيوان يسلخ ، فيلبس ، ولا يمنع عندهم لبس المخيط ، إذا استعمل استعمال غير المخيط ، كأن يجعل

القميص إزاراً أو رداءً ، لأنه إذا ارتدى بالقميص مثلاً ، لم يدخل فيه حتى يحيط به ، لأنه استعمله استعمال الرداء ، ولا بأس عندهم باتقاء الشمس أو الريح باليد يجعلها على رأسه أو وجهه .

(521/522)

وله وضع يده على أنفه من غبار ، أو جيفة مرَّ بها . ويستحب ذلك له عندهم ، إنْ مرَّ على طيب وتلزم عندهم الفدية بلبس القباء ، وإن لم يدخل يده في كمه ، وحمله بعضهم على ما إذا أدخل فيه منكبيه ، وأطلقه بعضهم . ولا يجوز عندهم أن يظلل المحرم على رأسه ، أو وجهه بعصاً فيها ثوب فإن فعل افتدى ، وفيه قول عندهم : بعد لزوم الفدية ، وهو الحق . والحديث الذي قدمنا في التظليل على النَّبي صلى الله عليه وسلم بثوب يقيه الحر ، وهو يرمي جمرة العقبة : يدل على ذلك ، وعلى أنه جائز ، فالسنة أولى بالاتباع ، وأجاز المالكية للمحرم أن يرفع فوق رأسه شيئاً يقيه من المطر .

واختلفوا في رفعه فوقه شيئاً يقيه من البرد . والأظهر الجواز والله أعلم . لدخوله في معنى الحديث المذكور ، إذ لا فرق بين الأذى من البرد والحر والمطر والله أعلم . وبعضهم يقول : إن الفدية المذكورة مندوبة لا واجبة . وما يذكره المالكية ، من أن من لم يجد الإزار ، يكره له

لبس السراويل أو يمنع وأن ذلك تلزم فيه الفدية ، خلاف التحقيق للحديث المتقدم الذي قال فيه النَّبي صلى الله عليه وسلم " ومن لم يجد إزاراً فليلبس السَّراويل " وهو حديث صحيح كما تقدم . وظاهره أن من لم يجد إزاراً ، فله لبس السراويل من غير إثم ولا فدية ، إذ لو كانت الفدية تلزمه لبينه النَّبي صلى الله عليه وسلم لأن البيان لا يجوز تأخيره عن وقت الحاجة إليه ، ولا خلاف بين أهل العلم في الاستظلال بالخباء ، والقبة المضروبة والفسطاط والشجرة ، وأنْ يرميَ عليها ثوباً . وعن مالك منع إلقاء الثوب على الشجرة ، وأجازه عبد الملك بن الماجشون قياساً على الخيمة ، وهو الأظهر .

(522/522)

واعلم : أن الاستظلال بالثوب على العصا عندهم إذا فعله وهو سائر لا خلاف في منعه ، ولزوم الفدية فيه ، وإن فعله وهو نازل ففيه خلاف عندهم أشرنا له قريباً . والحق : الجواز مطلقاً للحديث المذكور ، لأن ما ثبتت فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجوز العدول عنه إلى رأي مجتهد من المجتهدين ، ولو بلغ ما بلغ من العلم والعدالة ، لأن سنته صلى الله عليه وسلم حجة على كل أحد ، وليس قول أحد حجة على سنته صلى الله

عليه وسلم ، وقد صح عن الأئمة الأربعة رحمهم الله أنهم كلهم قالوا : إذا وجدتم قولي يخالف كتاباً أو سنة ، فاضربوا بقولي الحائط ، واتبعوا الكتاب والسنة .

(523/522)

وقد قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : وحدَّثَنِي سلمة بن شبيب ، حدثنا الحسن بن أعين حدثنا معقل ، عن زيد بن أبي أنيسة ، عن يحيى بن حصين ، عن جدته أم الحصين قال : سمعتها تقول : حججت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، فرأيته حين رمى جمرة العقبة وانصرف ، وهو على راحلته ، ومعه بلال ، وأسامة أحدهما يقود به راحلته ، والآخر رافع ثوبه على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشمس . الحديث . وفي لفظ لمسلم ، عن أم الحصين : فرأيت أسامة وبلالاً وأحدهما آخذ بخطام ناقة النَّبي صلى الله عليه وسلم ، والآخر رافع ثوبه ، يستره من الحر ، حتى رمى جمرة العقبة . انتهى محل الغرض من صحيح مسلم ، وهو نص صحيح صريح في جواز استظلال المحرم الراكب بثوب مرفوع فوقه يقيه حر الشمس . والنازل أخرى بهذا الحكم ، عند المالكية من الراكب ، وهذا الحديث الصحيح المرفوع لا يعارض بما روي من فعل عمر . وقول ابنه عبد الله رضي الله عنهما ، موقوفاً عليهما ولا بحديث جابر الضعيف في منع

استظلال المحرم ، والعلم عند الله تعالى . ويجوز عند المالكية : حمل المُحرم زاده على رأسه في خرج أو جراب إن كان فقيراً تدعوه الحاجة إلى ذلك ، أما إن كان ذلك لبخله بأجرة الحمل ، وهو غني ، أو لأجل تجارة بالمحمول ، فلا يجوز ، وتلزم به الفدية عندهم ، ويجوز عندهم إبدال ثوبه الذي أحرم فيه بثوب آخر ، ويجوز عندهم بيعه ، ولو قصد بذلك الاستراحة من الهوام التي فيه ، إلا أن ينقل الهوام من جسده ، أو ثوبه الذي عليه إلى الثوب الذي يريد طرحه فيكون ذكل كطرحه لها . قاله صاحب الطراز ، ويكره للمحرم عند المالكية غسل ثوبه الذي أحرم فيه ، إلا لنجاسة فيه ، فيجوز غسله بالماء فقط ، وقال بعضهم : يجوز غسله بالماء أيضاً ، لأجل الوسخ ، فلا يختص الجواز بالنجاسة ، لأن الوصخ مبيح لغسله بالماء على هذا القول ، ولا يجوز للمحرم عندهم أن يغسل ثوب غيره خوف أن يقتل بغسله إياه بعض

(524/522)

الدواب التي في الثوب . وقال بعضهم : فإن فعل افتدى . والظّاهر أن محل ذلك ، فيما إذا لم يعلم أن الثوب ليس فيه شيء من الدواب ، فإن علم ذلك ، فلا بأس بغسله ، ولا شيء فيه إن كان ذلك لنجاسة أو وسخ والله تعالى أعلم . ويجوز عندهم : أن يعصب المحرم على

جرحه خرقاً وتلزمه الفدية بذلك . وقال التونسي : وفي المدونة : صغير خرق التعصيب والربط ككبيرها ، وورى محمد : رقعة قدر الدرهم كبيرة فيها الفدية ، وظاهر قول خليل في مختصره المالكي : أو لصق خرقة كدرهم : أن الخرقة التي هي أصغر من الدرهم ، لا شيء فيها .

(525/522)

وقال شارحه الحطاب : انظر إذا كان به جروح متعددة ، وألصق على كل واحد منها خرقة ، دون ا لدرهم والمجموع كدرهم ، أو أكثر . وظاهر ما في التوضيح ، وابن الحاجب : أنه لا شيء عليه . انتهى . وسمع ابن القاسم : لا بأس ، ولا فدية في جعل فرجه في خرقة عند النوم فإن لفها على ذكره لبول ، أو مذي افتدى . انتهى بواسطة نقل المواق . ولا يجوز تغطيتها بالقطن ، وكذلك لو جعل على صدغه قرطاساً تلزمه الفدية عندهم ، سواء كان ذلك لعذر أو لغير عذر ، ولا يجوز عندهم عصب رأسه بعصابة ، فإن فعل افتدى . ويكره عندهم لبس لا مصبوغ بغير طيب ، لمن يقتدى به خاصة دون غيره ، إذا كان لون الصبغ يشبه لون صبغ الطيب : ويكره عندهم شد نفقته بعضده أو فخذه أو ساقه ، ولا فدية عليه في ذلك ، وإن شد عضده ، أو ساقه ، أو فخذه بما يحيط به لغير نفقة أو لنفقة غيره

افتدى . وإن شد نفقته ، وجعل معها نفقة لغيره فلا بأس ، فإن فرغت نفقته ألقى المنطقة ونحوها مما كان يشده لحفظها ورد نفقة غيره إلى ربها فوراً ، وإن ترك ردها إليه افتدى ، وإن ذهب صاحبها ، وهو عالم افتدى ، وإن لم يعلم فلا شيء عليه . انتهى من المواق . ويكره عند المالكية : كب المحرم وجهه على الوسادة ، وبعضهم يقول : بكراهة ذلك مطلقاً للمحرم وغيره . وهو الأظهر ، ويكره عندهم غمس رأسه في الماء ، وإن فعل ذلك أطعم شيئاً ، قاله مالك في المدونة ونقلناه بواسطة نقل المواق والحطاب ، وعن بعضهم : أن إطعام الشيء ، المذكور مستحب لا واجب ، وهذا في حق من له شعر يكون فيه القمل . أما من لا شعر له ، ولا يكون فيه القمل فلا يكره غمس رأسه في الماء ، ولا شيء عليه فيه قاله اللخمي ، وصابح الطراز . انتهى بواسطة نقل الحطاب . وغسل الرأس لجنابة : لا خلاف فيه . أما غسله لغير جنابة بل للتَّبرُّد ونحوه : ففيه عندهم قولان : بالجواز ، والكراهة والجواز : أظهر . والله تعالى أعلم .

(526/522)

ومذهب أبي حنيفة في هذه المسألة أنه إن لبس اللبس الحرام ، ويدخل فيه تغطية الرأس كما تقدم لا يلزمه بذلك دم ، إلا إذا لبسه يوماً كاملاً لأن اليوم الكامل مظنة الانتفاع باللبس ،

من حر أو برد ، وعن أبي يوسف : أنه إذا لبس أكثر من نصف يوم ، فعليه دم وهو قول أبي حنيفة الأول ، عن محمد : أنه إن لبسه في بعض اليوم يجب عليه من الدم بحسابه ا ه . هذا هو حاصل مذهب أبي حنيفة وصاحبيه في هذه المسألة .

وقد قدمنا مراراً أن مثل ذلك إن كان فعله لعذر ففيه عندهم فدية الأذى ، وإن كان لغير عذر ، ففيه الدم ، والعلم عند الله تعالى .

والظّاهر : أن اختلافهم في القدر الذي تلزم به الفدية في اللبس الحرام من نوع الاختلاف في تحقيق المناط والله تعالى أعلم .

ولو ارتدى بالقميص أو اتشح به ، أو اتزر بالسراويل ، فلا بأس ، ولا يلزمه شيء عند الحنفية كما قدمنا عن غيرهم ، وكذلك لو أدخل منكبيه في القباء ، ولم يدخل يديه في الكمين ، فلا شيء عليه عندهم خلافاً لزفر وقد بيّنّا حُكْم ذلك عند غيرهم وعن أبي حنيفة : تغطية ربع الرأس كتغطية جميعه ، وعن أبي يوسف : أنه يعتبر في ذلك الأكثر ودوام لبس المحيط عندهم بعد الإحرام كابتدائه ، وهو كذلك عند غيرهم أيضاً .

واعلم أن النووي قال في شرح المهذب : وله يعني : المحرم أن يتقلد المصحف وحمائل السيف وأن يشد الهميان والمنطقة في وسطه ، ويلبس الخاتم ، ولا خلاف في جواز هذا كله ، وهذا الذي ذكرناه في المنطقة والهميان مذهبنا وبه قال العلماء كافة إلا ابن عمر في أصح الروايتين عنه ، فكرههما وبه قال نافع مولاه .

وقد علمت أنا ناقشناه في كلامه وبينَّا : أن مالكاً وأصحابه لا يجيزون شد المنطقة والهميان ، إلا تحت الإزار مباشراً جلده لخصوص النفقة ، وأن شد الهميان فوق الإزار فيه عندهم الفدية مطلقاً ، وكذلك تحت الإزار لغير حفظ النفقة ، وأن الإمام أحمد تلزم عنده الفدية في شد المنطقة لغير حفظ النفقة : أي ولو كان لوجع بظهره ، وسنتمم الكلام هنا .

أما ما ذكره من أن لبس الخاتم لا خلاف في جوازه للمحرم ، ففيه نظر أيضاً ، لأن بعض العلماء يقول : بمنع لبس المحرم الخاتم والخلاف في جواز لبسه ومنعه معروف في مذهب مالك .

قال الشيخ الحطاب في كلامه على قول خليل في مختصره : مشبهاً على ما لا يجوز لبسه للمحرم كخاتم ما نصه : قال ابن الحاجب : وفي الخاتم قولان ، فحملهما في التوضيح على الجواز والمنع . وقال اللخمي وابن رشد : المعروف من قول مالك : منعه ، لأنه أشبه بالإحاطة بالإصبع المحيط ، وفي مختصر ما ليس في المختصر : لا بأس به . إلى أن قال : فالذي يظهر أن القائل بالمنع يقول : بالفدية ، والقائل بالجواز يقول : بسقوط الفدية . انتهى منه .

ثم قال : تنبيه : وهذا في حق الرجل ، وأما المرأة فيجوز لها لبس الخاتم ا ه .

وبما ذكرنا تعلم أن قول النووي ، ولا خلاف في جواز هذا كله . فيه نظر ، وأما تقلد حمائل السيف فعند المالكية ، إن كان لعذر يلجئه إلى ذلك ، فهو جائز له ، ولا فدية فيه ، فإن تقلده لغير حاجة فقد قال ابن المواز عن مالك : ينزعه ولا فدية عليه انتهى بواسطة نقل المواق في كلامه على قول خليل في مختصره ، ولا فدية في سيف ، ولو بلا عذر ا ه . وظاهر قوله : ينزعه أنه لا يجوز تقلد السيف اختياراً عنده كما ترى ، والعلم عند الله تعالى .

(528/522)

وظاهر مذهب الإمام أحمد : أنه لا يجوز للمحرم ، أن يتقلد السيف إلا لضرورة ، وقال الخرقي : ويتقلد بالسيف عند الضرورة ، وقال في المغني في شرحه لكلام الخرقي : فأما من غير خوف ، فإن أحمد قال : لا إلا من ضرورة . انتهى محل الغرض منه .

وقال البخاري في صحيحه في كتاب الحج : باب لبس السلاح للمحرم ، وقال عكرمة : إذا خشي العدو ، لبِسَ السلاح وافتدى ولم يتابع عليه في الفدية .

حدثنا عبيد الله ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن البراء رضي الله عنه " اعتمر النَّبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يَدَعُوه يدخل مكة ، حتى

قَاضَاهُمْ لا يدخل مكة سلاحاً إلا في القراب " ا ه منه .

وقوله : ولم يتابع عليه في الفدية ، يدل على أنه توبع في لبس السلاح للضرورة ، لأن معنى قاضاهم : لا يدخل مكة سلاحاً إلا في القراب ، أنه صالح كفار مكة صلح الحديبية ، أنه إن دخل معتمراً عام سبع في ذي القعدة لا يدخل مكة السيوف إلا في أغمادها ، والقراب غمد السيف ، فدل ذلك على جواز دخول المحرم متقلداً سيفه للخوف من العدو .

(529/522)

وقال البخاري في صحيحه في باب عمرة القضاء : حدثني عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال " لما اعتَمَرَ النَّبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة ، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة ، حتى قضاهم على أ ، يقيم بها ثلاثة أيَّام " الحديث بطوله ، وفيه " فكتب هذا ما قَاضَى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب " الحديث . وفي لفظ للبخاري في كتاب الصلح " لا يدخُلُ مكة سلاحٌ إلا في القراب " وفي لفظ له في كتاب الصلح أيضاً " ولا يدخلها إلا بجُلُبان السلاح " فسألوه ما جُلُبَّان السلاح ؟ فقال : " القِراب بما فيه " والجلبان بضم الجيم واللام وتشديد الباء الموحدة بعدها ألف ، ثم نون : هو قِراب السيف ويطلق على

أوعية السلاح ، ويروى بتسكين اللام ، وتخفيف الباء ، وهو شبه الجراب من الأدم يوضع فيه السيف مغموداً .

وقال صاحب اللسان : والقِراب غمد السيف والسكين ، ونحوهما وجمعه قُرب أي بضمتين ، وفي صحاح الجوهري : قراب السيف : جفنه وهو وعاء يكون فيه السيف بغمده ، وحمالته ا ه والقراب ككتاب ومن جمعه على قُرب بضمتين قوله :

يا ربةَ البيت قومي غير صاغرةٍ . . . ضُمي إليك رحالَ القومِ والقُربَا

يعني : ضمي إليك رحالهم وسلاحهم ، في أوعيته .

وبهذه الأحاديث : استدل بعض أهل العلم على أن الصحابة دخلوا مكة محرمين عام سبع وهم متقلدو سيوفهم في أغمادها ، وأن ذلك لعلة خوفهم من المشركين ، لأن الكفار لا يوثق بعهودهم .

وقد علمت أن بعض أهل العلم قال : إن ذلك لا يجوز إلا لضرورة ، والله تعالى أعلم .

وللمخالف أن يقول : إن الأحاديث المذكورة ليس فيها التصريح بأن النَّبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه تقلدوها . ويمكن أن يكونوا حملوا السلاح معهم في رحالهم في أوعيته من غير أن يتقلدوه ، وعلى هذا الاحتمال ، فلا حجة في الأحاديث على تقلد المحرم حمائل السيف ، والعلم عند الله تعالى .

(530/522)

الفرع الخامس عشر : قد بينا في هذه المسألة التي هي مسألة ما يمتنع على المحرم بسبب إحرامه أنه يمنع من الطيب ، وسنذكر إن شاء الله في هذا الفرع ما يلزم في ذلك .

اعلم : أن الأئمة الثلاثة : مالكاً ، والشافعي ، وأحمد : لا فرق عندهم ، بين أن يطيّب جسده كله أو عضواً منه ، أو أقل من عضو ، فكل ذلك عندهم إن فعله قصداً يأثم به ، وتلزمه الفدية .

(531/522)

وقال أبو حنيفة : لا تجب عليه الفدية إلا إذا طيب عضواً كاملاً ، مثل الرأس ، والفخذ ، والساق : فإن طيب أقل من عضو فعليه الصدقة ، وهي عندهم نصف صاعٍ من بُرٍّ أو صاع من غيره ، كتمر وشعير . وقد قدمنا مراراً أن مذهب أبي حنيفة : أنه إن فعل المحظور ، كاللباس ، والتطيب ، لا لعذر ، فعليه دم ، وتُجزِئُه شاة وإن فعله لعذر فعليه فدية الأذى المذكورة في آية الفدية ، على التخيير ، وإن أكل المحرم طيباً كثيراً : لزمه الدم عند أبي حنيفة ، وقال صاحباه محمد وأبو يوسف : تجب في ذلك الصدقة ، وعن محمد : أنه إن طيب أقل من عضوٍ لزمه بحسبه من الدم فإن طيب ثلث العضو ، فعليه ثلث دم مثلاً ،

وهكذا ، وعن بعض الحنفية : أنه إن طيب ربع عضوٍ : لزمه الدم كاملاً كحلق ربع الرأس ، فهو عندهم كحلق جميعه وهذا خلاف المشهور في تطيب بعض العضو عندهم . وظاهر كلامهم أنه لو جعل طيباً كثيراً على بعض عضو ، فليس عليه إلا الصدقة . وصحح بعض الحنفية : أنه إن كان الطيب قليلاً فالعبرة بالعضو ، وإن كان كثيراً فالعبرة بالطيب ، وله وجه من النَّظر ، وعن بعض الحنفية أن من مس طيباً بأصبعه ، فأصابها كلها فعليه دم . وعن أبي يوسف : إنْ طيَّبَ شاربَه كله أو يقدره من لحيته ، أو رأسه فعليه دم ، وعن بعض الحنفية : أنه إن اكتحل بكحل مطيب ، فعليه صدقة ، ومثله الأنف ، فإن فعل ذلك مراراً كثيرة فعليه دم ، وفي مناسك الكرماني : لو طيب جميع أعضائه فعليه دم واحد ، لاتحاد الجنس ، ولو كان الطيب في أعضاء متفرقة يجمع ذلك كله ، فإن بلغ عضواً : فعليه دم ، وإلا فصدقة ، ولو شم طيباً فليس عليه شيء ، وإن دخل بيتاً مجمراً ، فليس عليه شيء ، وإن أجمر ثوبه ، فإن تعلق به كثيراً ، فعليه دم ، وإلا فصدقة ا ه من تبيين الحقائق .

(532/522)

وقال بعض الحنفية : إن طيب أعضاءه كلها في مجلس واحد فعليه دم واحد كما تقدم ، وإن كان ذلك في مجلسين مختلفين ، فعليه لكل واحد دم في قول أبي حنيفة ، وأبي يوسف ، سواء

ذبح للأول أو لم يذبح .

وقال محمد : إن ذبح للأول ، فكذلك ، وإن لم يذبح فعليه دم واحد ، والاختلاف فيه كاختلاف في الجماع اه .

وأظهرها عندي قول محمد : والحناء عندهم طيب ، فلو خضب رأسه بالحناء ، لزمه الدم . واستدلوا بحديث الحناء طيب . قالوا رواه البيهقي . وسيأتي ما يدل على أن البيهقي رواه في المعرفة ، وفي إسناده ابن لهيعة ، وهو ضعيف . وقد روى البيهقي عن عائشة مرفوعاً ، ما يدل على أن الحناء ليس بطيب ، والعلم عند الله تعالى : هذا حاصل مذهب أبي حنيفة وأصحابه في الطيب للمحرم .

(533/522)

وأما مذهب مالك في الطيب للمُحرم فحاصله : أن الطيب عندهم نوعان : مذكر ومؤنث ، أما المذكر فهو ما يظهر ريحه ، ويخفى أثره : كالريحان ، والياسمين ، والورد ، والبنفسج ونحو ذلك . وأما المؤنث : فهو ما يظهر ريحه ، ويبقى أثره : كالمسك والورس والزعفران والكافور والعنبر والعود ونحو ذلك . فأما المذكر فيكره شمه والتطيب به ، ولا فدية في مسه ، والتطيب به ولو غسل يديه بماء الورد ، فلا فدية عليه عندهم في ذلك ، لأنه من الطيب

المذكر ، خلافاً لابن فرحون في مناسكه حيث قال : إن ماء الورد فيه الفدية لأن أثره يبقى ، وممن قال : بأن الطيب المذكر لا فدية في استعماله : عثمان بن عفان ، والحسن ، ومجاهد ، وإسحاق . وأما ما ينبت في الأرض من النبات الطيب الريح ولا يقصد التطيب به ، كالشيح ، والقيصوم ، والزنجبيل ، والإذخر ، فلا فدية فيه عندهم ، فهو كريح الفواكه الطيبة كالتفاح والليمون ، والأترج وسائر الفواكه وبعض أهل العلم يكره شمه للمحرم ، وإن خضب رأسه أو لحيته بحناء ، أو خضبت المرأة رأسها أو رجليها ، أو طرفت أصابعها بحناء فالفدية عندهم واجبة في ذلك . وأما مؤنث الطيب : كالمسك ، والورس ، والزعفران ، فإن التطيب به عندهم حرام ، وفيه الفدية .

ومعنى التطيب بالطيب عندهم : إلصاقه بالثوب ، أو باليد وغيرها من الأعضاء ، ونحو ذلك ، فإن علق به ريح الطيب دون عينه بجلوسه في حانوت عطار ، أو في بيت تجمر ساكنوه ، فلا فدية عليه عندهم مع كراهة تماديه في حانوت العطار أو البيت الذي تجمر ساكنوه ، هذا هو مشهور مذهب مالك . وإن مس الطيب المؤنث افتدى عندهم ، وحد ريحه أولاً ، لصق به أولاً ، ويكره شم الطيب عندهم مطلقاً .

وأظهر أقوال علماء المالكية في الثوب المصبوغ بالورس ، والزعفران : إذا تقادم عهده ، وطال زمنه حتى ذهبت ريحه بالكلية : أنه مكروه للمحرم ، ما دام لون الصبغ باقياً ولكنه لا فدية فيه لانقطاع ريحه بالكلية .

وأقيس الأقوال : أنه يجوز مطلقاً ، لأن الرائحة الطيبة التي منع من أجلها زالت بالكلية ، والعلم عند الله تعالى . وإن اكتحل عندهم بما فيه طيب ، فالفدية ، ولو لضرورة مع الجواز للضّرورة وبما لا طيب فيه فهو جائز للضّرورة ولغيرها ، فثلاثة أقوال مشهورها : وجوب الفدية على الرجل ، والمرأة معاً ، وقيل : لا تجب عليهما ، وقيل : تجب على المرأة دون الرجل .

وحاصل مذهب الإمام أحمد في هذه المسألة : أن النبات الذي تستطاب رائحته على ثلاثة أضرب :

أحدها : ما لا ينبت للطيب ولا يتخذ منه ، كنبات الصحراء من الشيح ، والقيصوم ، والخزامي والفواكه كلها من الأترج ، والتفاح وغيره ، وما ينبته الآدميون لغير قصد الطيب ، كالحناء والعصفر ، وهذا النوع مباح شمه في مذهب الإمام أحمد ، ولا فدية فيه .

قال في المغني : ولا نعلم فيه خلافاً إلا ما روي عن ابن عمر أنه كان يكره للمحرم : أن يشُمَّ شَيئاً من نبات الأرض من الشيح والقيصوم وغيرهما قال : ولا نعلم أحداً أوجب في ذلك شيئاً فإنه لا يقصد للطيب ، ولا يتخذ منه فأشبه سائر نبات الأرض . وقد روي أن أزواج

رسول الله صلى الله عليه وسلم كنَّ يحرمن في المعصفرات .

النوع الثاني : ما ينبته الآدميون للطيب ، ولا يتخذ منه طيب ، كالريحان ، والنرجس ، ونحو ذلك وفي هذا النوع للحنابلة وجهان .

أحدهما : يباح بغير فدية كالذي قبله .

قال في المغني : وبه قال عثمان بن عفان ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وإسحاق .

والوجه الثاني : يحرم شمه ، فإن فعل فعليه الفدية .

قال في المغني : وهو قول جابر ، وابن عمر ، والشافعي ، وأبي ثور ، لأنه يتخذ للطيب فأشبه الورد . وكرهه مالك ، وأصحاب الرأي ، ولم يوجبوا فيه شيئاً ، وكلام أحمد فيه محتمل لهذا ، فإنه قال في الريحان : ليس من آلة المحرم ، ولم يذكر فديته ، وذلك لأنه لا يتخذ منه طيب ، فأشبه العصفر . ا ه من المغني .

(535/522)

والنوع الثالث عندهم : هو ما ينبت للطيب ، ويتخذ منه طيب كالورد والبنفسج والياسمين ، ونحو ذلك . وهذا النوع إذا استعمله ، وشمه ففيه الفدية عندهم ، لأن الفدية تجب فيما يتخذ منه ، فكذلك في أصله . وعن أحمد رواية أخرى في الورد : أنه لا فدية

عليه في شمه ، لأنه زهر كزهر سائر الشجر .

قال في المغني : وذكر أبو الخطاب في هذا ، والذي قبله روايتين والأولى : تحريمه ، لأنه ينبت للطيب ، ويتخذ منه ، فأشبه الزعفران والعنبر . قال القاضي يقال : إن العنبر ثمر شجر وكذلك الكافور . ا ه من المغني .

وفي المغني أيضاً : وإن مس من الطيب ما يعلق بيده كالغالية ، وماء الورد والمسك المسحوق الذي يعلق بأصابعه فعليه الفدية ، لأنه مستعمل للطيب ، وإن مس ما لا يعلق بيده كالمسك غير المسحوق ، وقطع الكافور والعنبر ، فلا فدية لأنه غير مستعمل للطيب ، فإن شمه فعليه الفدية لأنه يستعمل هكذا ، وإن شم العود ، فلا فدية عليه لأنه لا يتطيب به هكذا ا ه من المغني .

وقال في المغني أيضاً : فكل ما صبغ بزعفران ، أو ورس ، أو غمس في ماء ورد ، أو بخر بعود ، فليس للمحرم لبسه ولا الجلوس عليه ، ولا النوم عليه نص أحمد عليه ، وذلك لأنه استعمال له ، فأشبه لبسه ، ومتى لبسه أو استعمله ، فعليه الفدية .

(536/522)

وبذلك قال الشافعي ، وقال أبو حنيفة : إن كان رطباً يلي بدنه أو يابساً ينفض فعليه الفدية ، وإلاَّ فلا ، لأنه ليس بمتطيب ثم قال صاحب المغني : وإن انقطعت رائحة الثوب ، لطول الزمن عليه أو لكونه صبغ بغيره فغلب عليه بحيث لا يفوح له رائحة إذا رش فيه الماء ، فلا بأس باستعماله لزوال الطيب منه . وبهذا قال سعيد بن المسيب ، والحسن ، والنخعي ، والشافعي ، وأبو ثور ، وأصحاب الرأي . وروي ذلك عن عطاء ، وطاوس ، وكره ذلك مالك ، إلا أن يغسل ، ويذهب لونه : لأن عين الزعفران ونحوه فيه . ثم قال : فأما إن لم يكن له رائحة في الحال لكن كان بحيث إذا رش فيه الماء فاح ريحه : ففيه الفدية ، لأنه متطيب بدليل أن رائحته تظهر عند رش الماء فيه . والماء لا رائحة له ، وإنما هي من الصبغ الذي فيه . فأما إن فرش فوق الثوب ثوباً صفيقاً يمنع الرائحة والمباشرة : فلا فدية عليه بالجلوس ، والنوم عليه ، وإن كان الحائل بينهما ثياب بدنه ففيه الفدية ، لأنه يمنع من استعمال الطيب في الثوب الذي عليه كمنعه من استعماله في بدنه . ا ه من المغني .

وأما العصفر : فليس عندهم بطيب ، ولا بأس باستعماله ، وشمه ، ولا بما صبغ به .

قال في المغني : وهذا قول جابر ، وابن عمر ، وعبد الله بن جعفر ، وعقيل بن أبي طالب ، وهو مذهب الشافعي ، وعن عائشة وأسماء ، وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم : " أنهن كن يحرمن في المعصفرات " وكرهه مالك : إذا كان ينتفض في بدنه ، ولم يوجب فيه فدية ،

ومنع منه الثوري ، وأبو حنيفة ، ومحمد بن الحسن وشبهوه بالمورس ، والمزعفر ، لأنه صبغ طيب الرائحة فأشبه ذلك ا ه .

(537/522)

والأظهر : أن العصفر ليس بطيب مع أنه لا يجوز لبس المحرم ، ولا غيره للمعصفر ، وقد قدمنا فيه حديث ابن عمر ، عن أبي داود " أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى النساء في إحرامهن عن القفازين والنقاب وما مسه الورس والزعفران من الثياب ، وليلبسن بعد ذلك ما أحببن من ألوان الثياب من معصفر أو خز " الحديث وهو صريح في أن العصفر : ليس بطيب . وقد قدمنا الكلام على هذا الحديث .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يختضبن بالحناء ، وهن محرمات ، ويلبسن المعصفر وهنَّ محرمات " .

وقال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الكبير ، وفيه يعقوب بن عطاء ، وثقه ابن حبان ، وضعّفه جماعة ا ه . وسيأتي ما يدل على منع لبس المعصفر مطلقاً .

وقال صاحبُ المغني أيضاً : ولا بأس بالمصبوغ بالمغرة ، لأنه مصبوغ بطين لا بطيب ، وكذلك المصبوغ بسائر الأصباغ ، سوى ما ذكرنا ، لأن الأصلَ الإباحة ، إلا ما ورد الشرع

بتحريمه ، وما كان في معناه ، وليس هذا كذلك ، وأما المصبوغ بالرياحين : فهو مبني على الرياحين في نفسها ، فما منع المحرم من استعماله منع من لبس المصبوغ به إذا ظهرت رائحته ، وإلا فلا ، وهذا الذي ذكرنا هو حاصل مذهب الإمام أحمد في الطيب للمحرم ، ولا فرق عنده بين قليل الطيب وكثيره ، ولا بين قليل اللبس وكثيره ، كما تقدمَ إلا أنه يفرق بين تعمُّد استعمال الطيب ، واللبس وبين استعماله لذلك ناسياً ، فإن فعله متعمداً أثم وعليه الفدية ، وإزالة الطيب ، واللباس فوراً ، وإن تطيب ، أو لبس ناسياً : فلا فدية عليه ، ويخلع اللباس ، ويغسل الطيب .

(538/522)

قال ابن قدامة في المغني : المشهور أن المتطيب ناسياً ، أو جاهلاً لا فدية عليه ، وهو مذهب عطاء ، والثوري ، وإسحاق ، وابن المنذر . انتهى محل الغرض منه ، ثم ذكر أن الذي يستوي عمده ونسيانه في لزوم الكفارة ثلاثة أشياء : وهي الجماع ، وقتل الصيد ، وحلق الرأس ، وأن كل ما سوى هذه الثلاثة يفرق فيه بين العمد والنسيان . وذكر أن الإمام أحمد نقل عن سفيان أن الثلاثة المذكورة يستوي عمدها ونسيانها في لزوم الكفارة .

وقال في المغني : ويلزمه غسل الطيب ، وخلع اللباس ، لأنه فعل محظوراً ، فيلزمه إزالته ،

وقطع استدامته كسائر المحظورات ، والمستحب أن يستعين في غسل الطيب بحلال لئلا يباشر المحرم الطيب بنفسه . ويجوز أن يليَهُ بنفسه ، ولا شيء عليه ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال للذي رأى عليه طيباً أو خلوقاً " اِغسل عنكَ الطيبَ " ولأنه تارك له ، فإن لم يجدْ ما يغسله به ، مسحه بخرقة ، أو حكه بترابٍ ، أو ورقٍ أو حشيش ، لأن الذي عليه إزالته بحسب القدرة . وهذا نهاية قدرته ثم قال : وإذا احتاج إلى الوضوء ، وغسل الطيب ، ومعه ماء لا يكفي إلا أحدهما : قدم غسل الطيب ويتيمم للحدث ، لأنه لا رخصة في إبقاء الطيب ، وفي ترك الوضوء إلى التيمم رخصة ، فإن قدر على قطع رائحة الطيب بغير الماء فعل ، وتوضّأ فإن المقصود من إزالة الطيب قطع رائحته ، فلا يتعين الماء والوضوء ، بخلافه ا ه منه . وهذا خلاصة المذهب الحنبلي في مسألة الطيب للمحرم .

(539/522)

ومذهب الشافعي في هذه المسألة : أنه يحرم على الرجل والمرأة استعمال الطيب ، ولا فرق عنده بين القليل والكثير ، واستعمال الطيب عنده : هو أنْ يلصق الطيب ببدنه ، أو ملبوسه على الوجه المعتاد في ذلك الطيب . فلو طيب جزءاً من بدنه بغالية ، أو مسك مسحوق ، أو ماء ورد : لزمته الفدية ، سواء كان الإلصاق بظاهر البدن أو باطنه ، فإن

أكله أو احتقن به ، أو استعط ، أو اكتحل أو لطخ به رأسه ، أو وجهه أو غير ذلك من بدنه أثِمَ ، ولزمته الفديةُ ، ولا خلاف عندهم في شيءٍ من ذلك ، إلا الحقنة والسعوط ففيهما وجه ضعيف : أنه لا فدية فيهما ، ومشهور مذهب الشافعي : وجوب الفدية فيهما ، ولو لبس ثوباً مبخّراً بالطيب ، أو ثوباً مصبوغاً بالطيب ، أو علق بنعله طيب ، لزمته الفدية عند الشافعية ولو عبقت رائحة الطيب دون عينه ، بأن جلس في دكان عطار أو عند الكعبة ، وهي تبخر أو في بيت يبخر ساكنوه : فلا فدية عليه بلا خلاف ، ثم إن لم يقصد الموضع لاشتمام الرائحة ، لم يكره ، وإن قصده لاشتمامها ففي كراهته قولان : للشافعي أصحهما : يكره ، وبه قطع القاضي أبو الطيب ، وآخرون ، وهو نصه في الإملاء ، والثاني : لا يكره ، وقطع القاضي حسين : بالكراهة ، وقال : إنما القولان في وجوب الفدية ، والمذهب الأول ، وبه قطع الأكثرون .

(540/522)

قاله النووي ثم قال : ولو احتوى على مجمرة فتبخّر بالعود بدنه أو ثيابه : لزمته الفدية ، بلا خلاف ، لأنه يُعد استعمالاً للطيب ، ولو مس طيباً يابساً كالمسك والكافور ، فإن علق بيده لونه وريحه وجبت الفدية ، بلا خلاف ، لأن استعماله هكذا يكون ، وإن لم يعلق بيده

شيء من عينه ، لكن عبقت به الرائحة ، ففي وجوب الفدية قولان الأصح عند الأكثرين وهو نصه في الأوسط : لا تجب ، لأنها عن مجاورة فأشبه من قعد عند الكعبة ، وهي تبخر ، والثاني : تجب . وصححه القاضي أبو الطيب ، وهو نصه في الأم والإملاء والقديم ، لأنها عن مباشرة ، وإن ظن أن الطيب يابس فمسه ، فعلق بيده ففي الفدية عند الشافعية قولان أصحهما : لا تجب عليه الفدية ، خلافاً لإمام الحرمين . وأما إن مس الطيب ، وهو عالم بأنه رطب وكان قاصداً مسه ، فعلق بيده ، فعليه فدية عندهم ، ولو شد مسكاً أو كافوراً ، أو عنبراً في طرفِ ثوبه أو جبته : وجبت الفدية عندهم قطعاً ، لأنه استعمال له ، ولو شد العود فلا فدية ، لأنه لا يعد تطيباً ، بخلاف شد المسك ، ولو شم الورد فقد تطيب عندهم ، بخلاف ما لو شم ماء الورد ، فإنه لا يكون متطيباً عندهم ، بل استعمال ماء الورد عندهم هو أن يصبه على بدنه أو ثوبه ولو حمل مسكاً ، أو طيباً غيره في كيس ، أو خرقة مشدوداً ، أو قارورة مصممة الرأس ، أو حمل الورد فيوعاء : فلا فدية عليه . نص عليه في الأم وقطع به الجمهور : وفيه وجه شاذٌ : أنه إن كان يشمه قصداً : لزمته الفدية ، ولو حمل مسكاً في قارورة غير مشقوقة : فلا فدية في أصح الوجهين . ولو كانت القارورة مشقوقة ، أو مفتوحةَ الرأس ، فعن جماعة من الأصحاب الشافعيين : تجب الفدية ، وخالف الرافعي قائلاً : إن ذلك لا يعد تطيباً ، ولو جلس على فراشٍ مطيب أو أرض

مطيبة ، أو نام عليها مفضياً إليها ببدنه أو ملبوسه : لزمته الفدية عندهم . ولو فرش فوقه ثوباً ، ثم جلس عليه ، أو نام : لم تجب الفدية .

(541/522)

نص عليه الشافعي في الأم . واتفق عليه الأصحاب ، لكن إن كان الثوب رقيقاً كره ، وإلا فلا ، ولو داس بنعله طيباً لزمته الفدية ، وإن خفيت رائحة الطيب في الثوب لطول الزمان ، فإن كانت تفوح عند رشه بالماء حرم استعماله ، وإن بقي لون الطيب دون ريحه ، لم يحرم على أصح الوجهين . ولو صب ماء ورد في ماء كثير ، حتى ذهب ريحه ولونه : لم تجب الفدية باستعماله في أصح الوجهين . فلو ذهبت الرائحة ، وبقي اللون ، أو الطعم فحكمه عندهم حكم من أكل طعاماً فيه زعفران أو طيب . وذلك أن الطيب إن استهلك في الطعام ، حتى ذهب لونه ، وريحه وطعمه : فلا فدية . ولا خلاف في ذلك عندهم ، وإن ظهر لونه وطعمه ، وريحه وجبت الفدية ، بلا خلاف ، وإن بقيت الرائحة فقط : وجبت الفدية لأنه يعد طيباً ، وإن بقي اللون وحده ، فطريقان مشهوران أصحهما : أن فيه قولين الأصح منهما : أنه لا فدية فيه ، وهو نص الشافعي في الأم والإملاء والقديم الثاني : تجب الفدية ، وهو نصه في الأوسط والطريق الثاني : أنه لا فدية فيه قطعاً ، وإن بقي الطعم

وحده ففيه عندهم ثلاث طرق أصحها : وجوب الفدية قطعاً : كالرائحة ، والثاني : فيه طريقان بلزومها وعدمه ، والثالث : لا فدية ، وهذا ضعيف أو غلط . وحكى بعض الشافعية طريقاً رابعاً : وهو أنه لا فدية قطعاً ولو كان المحرم أخشم لا يجد رائحة الطيب ، واستعمل الطيب : لزمته الفدية عندهم ، بلا خلاف لأنه وجد منه استعمال الطيب مع علمه بتحريم الطيب على المحرم فوجبت الفدية وإن لم ينتفع به كما لو نتف شعر لحيته أو غيرها من شعوره التي لا ينفعه نتفها قال النووي : وممن صرح بهذا المتولي ، وصاحب العدة والبيان ا ه .

(542/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : لزوم الفدية للأخشم الذي لا يجد ريح الطيب ، إذا استعمل الطيب ، مبني على قاعدة هي : أن المعلل بالمظان لا يتخلف بتخلف حكمته ، لأن مناط الحكم مظنة وجود حكمة العلة ، فلو تخلفت في صورة لم يمنع ذلك من لزوم الحكم كمن كان منزله على البحر ، وقطع مسافة القصر في لحظة في سفينة ، فإنه يباح له قصر الصلاة والفطر في رمضان بسفره ، هذا الذي لا مشقة فيه ، لأن الحكم الذي هو الرخصة علق بمظنة المشقة في الغالب ، وهو سفر أربعة برد مثلاً والمعلل بالمظان لا تتخلف أحكامه

، بتخلف حكمها في بعض الصوَر كما عقده بعض أهل العلم بقوله :

إن علل الحكم بعلة غلب . . . وجودها اكتفى بذا عن الطب

لها بكل صورة الخ . . . وإيضاحه : أن الغالب كون الإنسان يجد ريح الطيب ، فأنبط الحكم بالأغلب الذي هو وجوه ريح الطيب ، فلو تخلفت الحكمة في الأخشم الذي لا يجد ريح الطيب لم يتخلف الحكم لإناطته بالمظنة ، وقد أوضحنا هذه المسألة وأكثرنا من أمثلتها في غير هذا الموضع .

(543/522)

وقد تقرر في الأصول : أن وجود الحكم مع تخلف حكمته من أنواع القادح المسمى بالكسر ، وقد أشار إلى ذلك صاحب المراقي بقوله في مبحث القوادح :

والكسر قادح ومنه ذكرا . . . تخلف الحكمة عنه من درا

وهذا الذي قررنا في مسألة الأخشم مبني على القول ، بأن الكسر بتخلف الحكمة عن حكمها ، لا يقدح في المعلل بالمظان ، كما أوضحنا ، والعلم عند الله تعالى .

واعلم : أن الحكمة في اصطلاح أهل الأصول : هي الفائدة التي صار بسببها الوصف علة للحكم ، فتحريم الخمر مثلاً حكم والإسكار هو علة هذا الحكم ، والمحافظة على العقل

من الاختلال : هي الحكمة التي من أجلها صار الإسكار علة لتحريم الخمر ، وقد عرف صاحب المراقي الحكمة بقوله :

وهي التي من أجلها الوصف جرى . . . علة حكم عند كل من دَرَى

وعلة الرخصة بقصر الصلاة والإفطار في رمضان : هي السفر ، والحكمة التي صار السفر علة بسببها : هي تخفيف المشقة على المسافر مثلاً ، وهكذا .

واعلم : أن علماء الشافعية قالوا : إنه يشترط في الطيب الذي يحكم بتحريمه : أن يكون معظم الغرض منه التطيب ، واتخاذ الطيب منه ، أو يظهر فيه هذا الغرض . هذا ضابطه عندهم .

ثم فصلوه فقالوا : الأصل في الطيب : المسك ، والعنبر ، والكافور ، والعود ، والصندلن والذريرة ، وهذا كله لا خلاف فيه عندهم قالوا : والكافور صمغ شجر معروف .

وأما النبات الذي له رائحة فأنواع :

منها : ما يطلب للتطيب ، واتخاذ الطيب منه كالورد والياسمين ، والخيرى ، والزعفران ، والورس ونحوها ، فكل هذا طيب . وعن الرافعي وجه شاذ في الورد والياسمين والخيرى : أنها ليست طيباً والمذهب الأول .

(544/522)

ومنها : ما يُطلب للأكل والتداوي غالباً ، كالقرنفل والدارصيني ، والفلفل ، والمصطكى ، والسنبل وسائر الفواكه كل هذا وشبهه ليس بطيب ، فيجوز أكله وشمه وصبغ الثوب به ، ولا فدية فيه سواء قليله وكثيره ، ولا خلاف عند الشافعية في شيء من هذا إلا القرنفل ، ففيه وجهان عندهم . والصحيح المشهور أنه ليس بطيب عندهم .

ومنها : ما ينبت بنفسه ، ولا يُراد للطيب كنور أشجار الفواكه كالتفاح ، والمشمش ، والكمثرى ، والسفرجل ، وكالشيح ، والقيصوم ، وشقائق النعمان والإذخر ، والخزامي ، وسائر أزهار البراري ، فكل هذا ليس بطيب فيجوز أكله وشمه ، وصبغ الثوب به ، ولا فدية فيه ، بلا خلاف .

ومنها : ما يُتطيب به ، ولا يتخذ منه الطيب : كالنرجس ، والآس ، وسائر الرياحين وفي هذا النوع عند الشافعية طريقان .

أحدهما : أنه طيب قولاً واحداً .

والطريق الثاني : وهو الصحيح المشهور عندهم : أن فيه قولين مشهورين الصحيح منهما ، وهو قوله الجديد : أنه طيب موجب للفدية . القول الثاني وهو القديم : أنه ليس بطيب ، ولا فدية فيه اه والحناء والعصفر ليسا بطيب عند الشافعية بلا خلاف على التحقيق ، خلافاً لمن زعم خلافاً عندهم في الحناء .

واعلم : أن الأدهان عند الشافعية ضربان أحدهما دهن ليس بطيب ، ولا فيه طيب ، كالزيت ، والشيرج ، والسمن ، والزبد ، ودهن الجوز ، واللوز ونحوها .

(545/522)

فهذا لا يحرم استعماله في جميع البدن ، ولا فدية فيه ، إلا في الرأس ، واللحية ، فيحرم عندهم استعماله فيهما بلا خلاف ، وفيه : الفدية . لأنه إزالة للشعث ، إن كان في الرأس واللحية ، فإن كان أصلع لا ينبت الشعر في رأسه فدهن رأسه أو أمرد فدهن ذقنه : فلا فدية عندهم في ذلك ، بلا خلاف ، وإن كان محلوق الرأس فدهنه بما ذكر ، ففيه عندهم وجهان : أصحهما : وجوب الفدية بناء على أن الشَّعر إنْ نبت جَمله ذلك الدهن ، الذي جعل عليه ، وهو محلوق والوجه الثاني : لا فدية ، لأنه لا يزول به شعث . واختاره المزني وغيره ولو كان برأسه شجة فجعل هذا الدهن في داخلها من غير أن يمس شعر رأسه : فلا فدية ، بلا خلاف ، ولو طلى شعر رأسه ولحيته بلبن جاز : ولا فدية ، وإن كان اللبن يستخرج منه السمن ، لأنه ليس بدهن ولا يحصل به ترجيل الشعر ، والشحم ، والشمع عندهم ، إذا أُذيبا كالدهن يحرم على المحرم ترجيل شعره بهما .

الضرب الثاني : دهن هو طيب ومنه : دهن الورد ، والمذهب عندهم : وجوب الفدية فيه

، وقيل فيه وجهان . ومنه : دهن البنفسج ، فعلى القول بأن نفس البنفسج : لا فدية فيه ، فدهنه أولى ، وعلى أن فيه الفدية ، فدهنه كدهن الورد ، والأدهان كثيرة ، وخلاف العلماء فيها من الخلاف في تحقيق المناط كدهن البان والزنبق ، وهو دهن الياسمين والكاذي وهو دهن ، ونبت طيب الرائحة والخيري ، وهو معرب ، وهو نبت طيب الرائحة ويقال للنحاسي : خيري البر ، ومذهب الشافعي : أن الأدهان المذكورة ، ونحوها طِيب ، تجب باستعماله الفِدْية .

(546/522)

واعلم : أن محل وجوب الفدية عند الشافعية في الطيب : إذا كان استعمله عامداً ، فإن كان ناسياً أو ألقته الريح عليه ، لزمته المبادرة بإزالته بما يقطع ريحه ، وكون الأولى أن يستعين في غسله بحلال وتقديمه غسله على الوضوء ، إن لم يكف الماء ، إلا أحدهما عند الشافعية موافق لما قدمنا عن الحنابلة ، بخلاف غسل النجاسة ، فهو مقدم عندهم على غسل الطيب ولو لصق بالمحرم طيب يوجِب الفدية ، لزمه المبادرة إلى إزالته فإن أخره عصى ولا تتكرر به الفدية والاكتحال عندهم بما فيه طيب حرام ، فإن احتاج إليه اكتحل به ولزمته الفدية .

وأما الاكتحال بما لا طيب فيه ، فإن كان فيه زينة كره عندهم : كالإثمد ، وإن كان بما لا زينة فيه : كالتوتيا الأبيض فلا كراهة .

وقال النووي بعد أن ذكر الإجماع على تحريم الطيب للمرحم : ومذهبنا أنه لا فرق بين أن يتبخر ، أو يجعله في ثوبه ، أو بدنه ، وسواء كان الثوب مما ينفض الطيب ، أم لم يكن .

قال العبدري : وبه قال أكثر العلماء .

وقال أبو حنيفة : يجوز للمحرم أن يتبخر بالعود ، والند ، ولا يجوز أن يجعل شيئاً من الطيب في بدنه ، ويجوز أن يجعله على ظاهر ثوبه ، فإن جعله في باطنه ، وكان الثوب لا ينفض ، فلا شيء عليه ، وإن كان ينفض لزمته الفدية ا ه منه .

والظّاهر المنع مطلقاً لصريح الحديث الصحيح في النهي عن ثوب مسه ورس أو زعفران ، وكل هذه الصور يصدق فيها : أنه مسه ورس أو زعفران ، وغيرهما من أنواع الطيب وحكمه كحكمهما ، كما أوضحنا الأحاديث الدالة عليه في أول الكلام في هذه المسألة التي هي مسألة ما يمتنع على المحرم للطيب كما تقدم ، والعلمث عند الله تعالى .

وقال النووي في شرح المهذب : قد ذكرنا أن مذهبنا : أن الزيت ، والشيرج ، والسمن ، والزبد ونحوها من الأدهان غير المطيبة ، لا يحرم على المحرم استعمالها في بدنه ويحرم عليه في شعر رأسه ولحيته .

وقال الحسن بن صالح : يجوز استعمال ذلك في بدنه وشعر رأسه ولحيته .

وقال مالك : لا يجوز أن يدْهن بها أعضاءه الظاهرة كالوجه ، واليدين ، والرجلين ، ويجوز دهن الباطنة : وهي ما يوارى باللباس .

وقال أبو حنيفة : كقولنا في السمن والزبد ، وخالفنا في الزيت والشيرج فقال : يحرم استعمالهما في الرأس والبدن .

وقال أحمد : إن ادهن بزيت أو شيرج : فلا فدية في أصح الروايتين ، سواء دهن يديه أو رأسه .

وقال داود : يجوز دهن رأسه ، ولحيته ، وبدنه بدهن غير مطيب .

وحجة من قال بهذا حديث جاء بذلك : فقد قال البيهقي في السنن الكبرى : أخبرنا أبو ظاهر الفقيه ، وأبو سعيد بن أبي عمرو قراءة عليهما ، وأبو محمد عبد الله بن يوسف الأصبهاني إملاء قالوا : ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، ثنا محمد بن إسحاق الصغاني ، أنبأ أبو سلمة الخزاعي ، أنبأ حماد بن سلمة ، عن فرقد ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس " أن النبي صلى الله عليه وسلم ادهن بزيت غير مقتت وهو محرم " يعني غير مطيب ، مل يذكر ابن يوسف تفسيره . قال الإمام أحمد : ورواه الأسود بن عامر شاذان ، عن

حماد بن سملة ، عن فرقد ، عن سعيد ، عن ابن عمر فذكره من غير تفسيرا ه منه : ثم ذكر بإسناده عن أبي ذر رضي الله عنه : أنه مر عليه قوم محرمون ، وقد تشققت أرجلهم فقال : ادهنوها . وفرقد المذكور في سند هذا الحديث ، هو فرقد بن يعقوب السبخي بفتح السين المهملة والباء الموحدة وبخاء معجمة : أبو يعقوب البصري ، وهو معروف بالزهد والعبادة . ولكنه ضعّفه غير واحد . وقال فيه ابن حجر في التقريب : صدوق عابد ، لكنه لين الحديث كثير الخطأ . وقال النووي في شرح المهذب : واحتج أصحابنا بحديث فرقد السبخي الزاهد رحمه الله ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ادهن بزيت غير مقتت وهو محرم " رواه الترمذي والبيهقي ، وهو ضعيف .

(548/522)

وفرقد غير قوي عند المحدثين . قال الترمذي : هو ضعيف غريب ، لا يعرف إلا من حديث فرقد ، وقد تكلم فيه يحيى بن سعيد . وقوله : غير مقتت : أي غير مطيب انتهى محل الغرض منه .

وفي القاموس : وزيت مقتت طبخ بالرياحين أو خلط بأدهان طيبة ، واحتجاج الشافعية

بهذا الحديث الذي ذكرنا على جواز دهن جميع البدن غير الرأس واللحية بالزيت والسمن ونحوهما فيه أمران :

الأول : أن الحديث ضعيف لا يصلح للاحتجاج ، لضعف فرقد المذكور .

والثاني : أنه على تقدير صحة الاحتجاج به فظاهره عدم الفرق بين الرأس واللحية وبين سائر البدن ، لأن الأدهان فيه مطلق غير مقيد بما سوى الرأس واللحية ا ه .

وحجة من منع الأدهان بغير الطيب ، لأنه يزيل الشعث الحديث الذي فيه " انظروا إلى عبادي جاؤوا شعثاً غبراً " وهو مشهور ، وفيه دليل على أنه لا ينبغي إزالة الشعث ، ولا التنظيف . والله أعلم .

وقال النووي في شرح المهذب : قال ابن المنذر : أجمع العلماء على أن للمحرم أن يأكل الزيت والشحم والسمن . قال : وأجمع عوام أهل العلم ، على أنه له دهن بدنه بالزيت والشحم والشيرج والسمن ، قال : وأجمعوا على أنه ممنوع من حيث استعمال الطيب في جميع بدنه .

وقال النووي أيضاً : الحناء ليس بطيب عندنا كما سبق : ولا فدية ، وبه قال مالك ، وأحمد ، وداود . وقد قدمنا أن الخِضاب بالحناء : يوجب الفدية عند المالكية ، ثم قال النووي : وقال أبو حنيفة : هو طيب يوجب الفدية ، وإذا لبس ثوباً معصفراً : فلا فدية ، والعصفر : ليس بطيب هذا مذهبنا ، وبه قال أحمد وداود ، وحكاه ابن المنذر عن ابن عمر وجابر ، وعبد الله بن جعفر ، وعقيل بن أبي طالب وعائشة وأسماء وعطاء ، قال : وكرهه عمر بن

الخطاب ، وممن تبعه الثوري ومالك ، ومحمد بن الحسن ، وأبو ثور ، وقال أبو حنيفة : إن نفض على البدن : وجبت الفدية ، وإلا وجبت صدقة . انتهى محل الغرض منه .

(549/522)

وقال النووي أيضاً : ذكرنا أن مذهبنا في تحريم الرياحين قولان : الأصح تحريمها ، ووجوب الفدية ، وبه قال ابن عمر ، وجابر ، والثوري ، ومالك ، وأبو ثور ، وأبو حنيفة ، إلا أن مالكاً ، وأبا حنيفة يقولان : يحرم ولا فدية .

قال ابن المنذر : واختلف في الفدية ، عن عطاء وأحمد ، وممن جوزه وقال : هو حلال لا فدية فيه : عثمان ، وابن عباس ، والحسن البصري ، ومجاهد وإسحاق ، قال العبدري : وهو قول أكثر الفقهاء .

وقال النووي أيضاً : قد ذكرنا أن مذهبنا : جواز جلوس المحرم ، عند العطار : ولا فدية فيه . وبه قال ابن المنذر ، قال : وأوجب عطاء فيه الفدية ، وكره ذلك مالك . انتهى منه .

واعلم : أن المحرم عند الشافعية ، إذا فعل شيئاً من محظورات الإحرام ناسياً أو جاهلاً ، فإن كان إتلافاً كقتل الصيد والحلق والقلم ، فالمذهب وجوب الفدية ، وفيه خلاف ضعيف . وإن كان استمتاعاً محضاً : كالتطيب ، واللباس ، ودهن الرأس واللحية ،

والقبلة ، وسائر مقدمات الجماع : فلا فدية ، وإن جامع ناسياً أو جاهلاً : فلا فدية في الأصح أيضاً .

قال النووي : وبهذا قال عطاء ، والثوري وإسحاق وداود . وقال مالك ، وأبو حنيفة ، والمزني وأحمد في أصح الروايتين عنه : عليه الفدية ، وقاسوه على قتل الصيد .

وقد قدمنا حكم المجامع ناسياً وأقوال الأئمة فيه . هذا هو حاصل كلام العلماء من الصحابة ومن بعدهم ، ومنهم الأئمة الأربعة في مسألة الطيب . وقد علمت من النقول التي ذكرنا عن الأئمة وغيرهم ، من فقهاء الأمصار ، ما اتفقوا عليه ، وما اختلفوا فيه .

(550/522)

واعلم : أنهم مجمعون على منع الطيب للمحرم في الجملة ، إلا أنهم اختلفوا في أشياء كثيرة ، اختلافاً من نوع الاختلاف في تحقيق المناط . فيقول بعضهم مثلاً : الريحان والياسمين ، كلاهما طيب فمناط تحريمهما ، على المحرم موجود ، وهو كونهما طيباً ، فيخالفه الآخر ، ويقول : مناط التحريم ، ليس موجوداً فيهما ، لأنهما لا يُتخذ منهما الطيب ، فليسا بطيب وهكذا .

واعلم : أنهم متفقون على لزوم الفدية في استعمال الطيب ، ولا دليل من كتاب ولا سنة ،

على أن من استعمل الطيب ، وهو محرم يلزمه فدية ، ولكنهم قاسوا الطيب على حلق الرأس المنصوص على الفدية فيه ، إن وقع لعذر في آية ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة : 196] .

وأظهر أقوال أهل العلم : أن الفدية اللازمة كفدية الأذى وهي على التخيير المذكور في الآية ، لأنها هي حكم الأصل المقيس عليه ، والمقرر في الأصول أنه لا بد من اتفاق الفرع المقيس ، والأصل المقيس عليه في الحكم وذلك هو مذهب أبي حنيفة ، إن كان التطيب ، أو اللبس لعذر ، لأن الآية نزلت في العذر . وقد قدمنا أنه هو الصحيح من مذهب الشافعي مطلقاً كان لعذر أو غيره ، وهو أيضاً مذهب مالك وأحمد .

فتحصل : أن مذاهب الأئمة الأربعة متفقون على أن فدية الطيب ، وتغطية الرأس ، واللبس ، وتقليم الأظافر ، كفدية حلق الرأس المنصوصة في آية الفدية ؟ وقد قدمنا الكلام عليها مستوفى ، وقدمنا الأقوال المخالفة لهذا المذهب الصحيح المشهور عند الأربعة .

وقد بينا أنه مقتضى الأصول ، لوجوب اتفاق الأصل والفرع في الحكم ، والعلم عند الله تعالى .

تنبيهان

الأول : في ذكر أشياء مما ذكر وردت فيها نصوص ، وتفصيل ذلك : فمن ذلك العصفر وقد رأيت في النقول التي ذكرنا كثرة من قال من أهل العلم : بأنه ليس بطيب ، وأنه لا بأس بلبس المحرم له ، وقد قدمنا فيه حديث أبي داود المصرح بأنه لا بأس بلبس النساء له ، وهن محرمات ، وفيه ابن إسحاق ، وقد صرح فيه بالسماع ، فعلم أنه لم يدلس فيه إلى آخر ما قدمنا فيه ، والظاهر بحسب الدليل : أن المعصفر لا يجوز لبسه ، وإن جوزه كثير من أجلاَّء العلماء من الصحابة ومن بعدهم ، لأن السنة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أحق بالاتباع .

وقد قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني أبي عن يحيى ، حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث : أن ابن معدان أخبره : أن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أخبره قال " رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليَّ ثوبين معصفرين ، فقال : إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبَسْها " ا ه .

وابن معدان المذكور : هو خالد كما ثبت في صحيح مسلم بعد الحديث المذكور مباشرة ، وفي لفظ لمسلم بإسناد ، غير الأول ، عن عبد الله بن عمرو قال " رأى صلى الله عليه وسلم عليَّ ثوبين معصفرين ، فقال : أأمك أُمَرْتك بهذا ؟ قلتُ : أغسِلُهُمَا قال : بلْ أحرِقْهُما " .

وقال مسلم في صحيحه آنفاً : حدثنا يحيى بن يحيى ، قال : قرأت على مالك ، عن نافع ، عن إبراهيم بن عبد الله بن حنين ، عن أبيه ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : نهى عن لبس القسيِّ ، والمعصفر ، وعن تختم الذهب وعن قراءة القرآن في الركوع " وفي لفظ لمسلم ، عن علي رضي الله عنه " نهاني النبي صلى الله عليه وسلم عن القراءة ، وأنا راكع ، وعن لبس الذهب ، والمعصفر " وفي لفظ لمسلم عنه أيضاً رضي الله عنه " نهاني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التختم بالذهب ، وعن لباس القسى ، وعن القراءة في الركوع والسجود ، وعن لباس المعصفر " اهـ منه .

فهذا الحديث الثابت في صحيح مسلم ، وغيره عن صحابيين جليلين ، وهما علي ، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، صريح في منع لبس المعصفر مطلقاً ، لأن قوله صلى الله عليه وسلم في حديث عبد الله بن عمرو " إنهما من ثياب الكفار فلا تلبسهما " صريح في منع لبسهما ، لأن النهي يقتضي التحريم كما تقرر في الأصول ، ويؤيد ذلك هنا أنه رتب النيه عنهما على أنهما من ثياب الكفار ، وهذا دليل واضح على منع لبس المعصفر مطلقاً في الإحرام وغيره . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم في حديث

عبد الله بن عمرو " بل أحرقهما " فهو دليل واضح على منع لبسهما لأنُ لبس الجائز لبسه ، لا يستوجب الإحراق بحال ، فهو نص في منع المعصفر مطلقاً ، وقول علي رضي الله عنه " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لبس القسّيِّ والمعصفر ، وعن تختم الذهب " الحديث دليل أيضاً على منع لبس المعصفر مطلقاً . لأن النهي يقتضي التحريم ، إلا لدليل صارف عنه ، وليس موجوداً ، ويؤيده أنه قرنه بالتختم بالذهب ، وهو ممنوع ، وما زعمه بعض أهل العلم : من أن رواية علي المذكورة آنفاً في مسلم " نهاني رسول الله صلى الله عليه وسلم "

(553/522)

تدل على اختصاص هذا الحكم ، بعلي لأنه قال : نهاني بياء المتكلم في الرواية المذكورة ، مردود من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه صلى الله عليه وسلم بين في حديث ابن عمرو عموم هذا الحكم ، حيث قال لعبد الله " إن هذا من ثياب الكفار فلا تلبسها " وهذا صريح في عدم اختصاص هذا الحكم ، بعلي رضي الله عنه .

الوجه الثاني : أنه ثبت في صحيح مسلم ، عن علي رضي الله عنه " أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم : نهى عن لبس القسي ، والمعصفر وعن تختم الذهب " بحذف مفعول نهى ، وحذف المفعول في ذلك ، يدل على عموم الحكم ، على التحقيق كما حرره القرافي في شرح التنقيح من أن مثل نهى صلى الله عليه وسلم عن كذا صيغة عموم بما لا يدع مجالاً للشك ؟ وممن انتصر لذلك : ابن الحاجب وغيره ، واختاره الفهري .

والحاصل : أن التحقيق في مثل نهى صلى الله عليه وسلم ، عن بيع الغرر وقضى بالشفعة ، وقضى بالشهد واليمين ونحو ذلك : أنه يعم كل غرر وكل شفعة ، وكل شاهد ، ويمين ، وإن خالف في ذلك كثير من الأصوليين ، كما حررنا أدلة الفريقين ، وناقشناها في غير هذا الموضع .

(554/522)

الوجه الثّالث : أن رواية نهاني التي احتج بها مدعي اختصاص هذا الحكم بعلي : تدل أيضاً على عموم الحكم ، لأن خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لواحد من أمته يعم حكمه جميع الأمة لاستوائهم في أحكام التكليف ، إلا بدليل خاصّ يجب الرجوع إليه ، وخلاف أهل الأصول في خطاب الواحد ، هل هو من صيغ العموم الدالة على عموم الحكم ، خلاف في حال لا خلاف حقيقي ، فخطاب الواحد عند الحنابلة صيغة عموم ، وعند غيرهم من

الشّافعية ، والمالكية وغيرهم : أن خطاب الواحد لا يعم ، لأن اللفظ للواحد لا يشمل بالوضع غيره ، وإذا كان لا يشمله وضعاً ، فلا يكون صيغة عموم ، ولكن أهل هذا القول موافقون : على أن حكم خطاب الواحد عام لغيره لكن بدليل آخر غير خطاب الواحد ، وذلك الدليل بالنص والقياس . أما القياس فظاهر ، لأن قياس غير ذلك المخاطب عليه بجامع استواء المخاطبين في أحكام التكليف من القياس الجلي والنص ، كقوله صلى الله عليه وسلم في مبايعة النساء " إني لا أصافح النساء ، وما قولي لامرأة واحدة إلا كقولي لمائة امرأة " .

قالوا : ومن أدلة ذلك حديث " حكمي على الواحد حكمي على الجماعة " .

قال ابن قاسم العبادي في الآيات البينات : اعلم أن حديث " حكمي على الواحد حكمي على الجماعة " لا يعرف له أصل بهذا اللفظ ، ولكن روى الترمذي وقال : حسن صحيح ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن حبان ، قوله صلى الله عليه وسلم في مبايعة النساء " إني لا أصافحُ النساء " وساق الحديث كما ذكرناه .

وقال صاحب كشف الخفاء ومزيل الألباس ، عما اشتهر من الأحاديث ، على ألسنة الناس : حكمي على الواحد حكمي على الجماعة ، وفي لفظ : كحكمي على الجماعة ، ليس له أصل بهذا اللفظ ، كما قال العراقي : في تخريج أحاديث البيضاوي .

(555/522)

وقال في الدرد كالزّركشي لا يعرف ، وسئل عنه المزّي ، والذهبي فأنكراه . نعم يشهد له ما رواه الترمذي ، والنسائي من حديث أميمة بنت رقيقة ، فلفظ النسائي " ما قولي لامرأة واحدة إلا كقولي لمائة امرأة " ولفظ الترمذي " إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة " وهو من الأحاديث التي ألزم الدارقطني الشيخين بإخراجهما ، لثبوتهما على شرطهما .

وقال ابن قاسم العبادي في شرح الورقات الكبير : حكمي على الجماعة ، لا يعرف له أصل ، إلى آخره قريباً مما ذكرنا عنه ا ه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الحديث المذكور ثابت من حديث أميمة بنت رقيقة بقافين مصغراً وهي صحابية من المبايعات ، ورقيقة أمها : وهي أخت خديجة بنت خويلد . وقيل عمتها واسم أبيها بجاد بموحدة ، ثم جيم ابن عبد الله بن عمير التيمي تيم بن مرة ، وأشار إلى ذلك في المراقي بقوله :

خطاب واحد لغير الحنبلي . . . من غير رعي النص والقيس الجلي

وبهذا كله تعلم أن التحقيق منع لبس المعصفر ، وظاهر النصوص الإطلاق : أي سواء كان في الإحرام ، أو غيره كما رأيت ، وجمع بعض العلماء بين الأحاديث التي ذكرناها في صحيح مسلم ، الدالة على منع لبس المعصفر مطلقاً ، وبين حديث أبي داود المتقدم الدال على

إباحته للنساء في الإحرام ، بأن الأحاديث المنع إنما هي بالنسبة للرجال ، وحديث الجواز بالنسبة إلى النساء ، فيكون ممنوعاً للرجال جائزاً للنساء ، وتتفق الأحاديث .

(556/522)

وممن اعتمد هذا الجمع الترمذي في سننه حيث قال : باب ما جاء في كراهة المعصفر للرجال : حدثنا قتيبة ، ثنا مالك بن أنس ، عن نافع ، عن إبراهيم بن عبد الله بن حنين ، عن أبيه ، عن علي رضي الله عنه قال " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لبس القسّيِّ والمعصفر " وفي الباب عن أنس ، وعبد الله بن عمرو ، وحديث علي : حديث حسن صحيح انتهى منه . فتراه في ترجمة الحيدث جعله خاصّاً بالرجال ، وهو عين الجمع الذي ذكرنا ، وأشار النووي قوله صلى الله عليه وسلم " أَأُمك أمرتك بهذا " معناه : أن هذا من لباس النساء ، وزيهن ، وأخلاقهن . انتهى محل الغرض منه .

وتفسيره للحديث : يدل على أن الحديث فيه تحريم المعصفر على الرجال دون النساء .

ويدل لهذا الجمع ما رواه أبو داود في سننه : حدثنا مسدد ، ثنا عيسى بن يونس ، ثنا هشام بن الغاز ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده قال : هبطنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنية فالتفت إلي وعلي ريطة مضرجة بالعصفر فقال " ما هذه الريطة

عليك " فعرفت ما كره فأتيت أهلي ، وهم يسجرون تنوراً لهم فقذفتها فيه ، ثم أتيته من الغد فقال

" يا عبد الله ما فعلت الريطة ؟ فأخبرته فقال : ألا كسوته بعض أهلك فإنه لا بأس به للنساء " ا ه من سنن أبي داود ، وهو صريح في الجمع المذكور ، وهذا الإسناد لا يقل عن درجة الحسن ، وهذا الحديث أخرجه ابن ماجه : حدثنا أبو بكر ، ثنا عيسى بن يونس ، عن هشام بن الغاز إلى آخر الإسناد ، ثم قال : أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنية أذاخر ، فالتفت إلي وعلي ريطة إلى آخر الحديث . كلفظ أبي داود ا ه .

وجمع الخطابي بين الأحاديث : بأن النهي فيما صبغ من الثياب بعد النسج ، وأن الإباحة منصرفة إلى ما صبغ غزله ، ثم نسج نقل هذا الجمع النووي في شرح مسلم عن الخطابي .

(557/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : هذا الجمع فيه نظر ، لأنه تحكم ، والظاهر أن العصفر ليس بطيب ، فأُبيح للنساء ومنع للرجال ، كالحرير وخاتم الذهب . والله تعالى أعلم .

فاتضح أن الظاهر بحسب الدليل أن المعصفر : لا يحل لبسه للرجال ، ويحل للنساء ، لأن ظاهر أحاديث النهي عنه العموم ، وكونه من ثياب الكفار قرينة على التعميم ، إلا أن

أحاديث النهي تخصص بالأحاديث المتقدمة المصرحة ، بجوازه للنساء كحديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عند أبي داود وابن ماجه ، وحديث الترمذي وما فسر به النووي حديث مسلم وحديث أبي داود المتقدم الذي فيه ابن إسحاق ، وكونه من ثياب الكفار : لا ينافي أن ذلك بالنسبة للرجال . دون النساء ، كما قال في الذهب والفضة والديباج والحرير " إنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة " مع إباحتها للنساء .

والذين أباحوا لبس المعصفر للرجال والنساء معاً ، احتجوا بما ذكره النووي في شرح مسلم قال : ثبت أن النَّبي صلى الله عليه وسلم لبس حلة حمراء .

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال " رأيت النَّبي صلى الله عليه وسلم يصبغ بالصفرة " ا ه منه فانظره .

والذين منعوه للرجال دون النساء استدلوا بالأحاديث المذكورة المصرحة بإباحته للنساء ، وعضدوا الأحاديث المذكورة بآثار عن الصحابة رضي الله عنهم ، فمن ذلك ما رواه مالك في الموطأ ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما : أنها كانت تلبس الثياب المعصفرات المشبعات ، وهي محرمة ليس فيها زعفران . انتهى محل الغرض منه .

وقال شارحه الزرقاني : وكذلك جاء عن أختها . روى سعيد بن منصور ، عن القاسم بن

محمد قال : كانت عائشة رضي الله عنها ، تلبس الثياب المعصفرة ، وهي محرمة . إسناده صحيح انتهى منه .

(558/522)

وروى البيهقي بإسناده ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن أسماء بنت أبي بكر نحو رواية مالك في الموطأ عنها ثم قال : هكذا رواه مالك ، وخالفه أبو أسامة ، وحاتم بن إسماعيل ، وابن نمير فرووه عن هشام ، عن فاطمة ، عن أسماء قاله مسلم بن الحجاج .

انتهى من السنن الكبرى .

وقال البيهقي : وروينا عن نافع أن نساء ابن عمر كن يلبسن المعصفر ، وهن محرمات ، ثم ذكر عن أبي داود في المراسيل : أن مكحولاً قال : جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثوب مشبع بعصفر ، فقالت : يا رسول الله إني أريد الحج ، فأحرم في هذا قال " لك غيره ؟ قالت : لا . قال : فأحرمي فيه " ثم ساق سنده به إلى أبي داود ، وذكر بسنده عن جابر أنه قال " لا تلبس المرأة ثياب الطيب وتلبس الثياب المعصفرة لا أرى المعصفر طيباً " وروى البيهقي بسنده عن عائشة رضي الله عنها ، " أنها كانت تلبس الثياب الموردة بالعصفر ، الخفيف : وهي محرمة " ، وقد قدمنا حديث ابن عباس ، عند الطبراني

في الكبير قال : كان أزواج النَّبي صلى الله عليه سلم يختضبن بالحناء ، وهن محرمات ، ويلبسن المعصفر ، وهن محرمات ، وفي إسناده يعقوب بن عطاء . قال في مجمع الزوائد : وثقه ابن حبان ، وضعفه جماعة .

وقال أبو داود في سننه : حدثنا زهير بن حرب ، ثنا يحيى بن أبي بكير ، ثنا إبراهيم بن طهمان ، حدثني بديل عن الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة ، عن أم سلمة زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال " المتوفى عنها زوجها لا تلبس المعصفر من الثياب ولا الممشقة ولا الحلي ولا تختضب " ا ه منه ، وهذا الإسناد صحيح كما ترى .

(559/522)

وقال صاحب الجوهر النقي في حاشيته على سنن البيهقي ، لما أشار إلى حديث أبي داود هذا ، وفيه دليل على أن العصفر طيب ، ولذلك نهيت عن المعصفر ، إذ لو كان النهي لكونه زينة نهيت عن ثوب العصب ، لأنه في الزنية فوق المعصفر ، والعصب برود اليمن يعصب غزلها : أي تطوى ، ثم تصنع مصبوغاً ، ثم تنسج .

وفي الصحيحين : أنه صلى الله عليه وسلم استثنى من المنع ثوب العصب ، والشافعية

خالفت هذا الحديث .

قال النووي : الأصح عندنا تحريم العصب مطلقاً ، والحديث حجة لمن أجازه . وقال أيضاً : الأصح أنه يجوز لها لبس الحرير . انتهى منه .

وفي صحيح مسلم من حديث أم عطية ، في المتوفى عنها زوجها " ولا تلبس ثوباً مصبوغاً إلا ثوب عصب ، ولا تكتحل ولا تمس طيباً " الحديث .

وفي صحيح البخاري : من حديث أم عطية قالت : "كنا ننهى أن نحد على ميت فوق ثلاث ، إلا على زوج " الحديث ، وفيه " ولا تكتحل ولا تطيب ولا تلبس ثوباً مصبوغاً إلا ثوب عصب " الحديث .

والممشقة في حديث أم سلمة المذكور هي المصبوغة بالمشق بالكسر والفتح وهو المغرة والعصفر بالضم نبات يصبغ به وبزره هو القرطم .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي أن منع المتوفى عنها زوجها ، من لبس المعصفر المذكور ، ليس لكونه طيباً كما ظنه صاحب الجوهر النقي ، بدليل الأحاديث الدالة على المنع منه في غير الإِحرام ، مع جواز الطيب لغير المحرم ، والأظهر أن المنع منه للزينة : وهي محرمة على المتوفى عنها زوجها ، دون غيرها من النساء . والعلم عند الله تعالى .

ولا يتعين كون العصب فوقه في الزينة لأن المتوفى عنها زوجها ممنوعة في العدة ، من الطيب ، والتزين ، فإباحة العصب لها تدل على ضعف مرتبته في الزينة . والله تعالى أعلم .

(560/522)

ومن ذلك الحناء قد قدمنا اختلاف العلماء فيها ، هل هي طيب أو لا ؟ وقد قدمنا آثاراً تدل : على أنها ليست بطيب ، وقدمنا حديث ابن عباس ، عند الطبراني أن أزواج النَّبي كن يختضبن بالحناء ، وهن محرمات ، وقد قدمنا أن في إسناده يعقوب بن عطاء ، وقد روى البيهقي بإسناده في السنن الكبرى عن عائشة رضي الله عنها أنها قيل لها : ما تقولين في الحناء والخضاب ؟ قالت : كان خليلي لا يحب ريحه ، ثم قال البيهقي : فيه كالدلالة على أن الحناء ليس بطيب " فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الطيب ولا يحب ريح الحناء " ا ه منه .

(561/522)

وهذا حاصل مستند من قال : إن الحناء ليس بطيب وقال صاحب الجوهر النقي : بعد أن ذكر كلام البيهقي الذي ذكرنا ، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم خلاف هذا . قال أبو عمر في التمهيد : ذكر ابن بكير عن ابن لهيعة ، عن بكير بن الأشج ، عن خولة بنت حكيم ، عن أمها أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال لأم سلمة " لا تطيبي ، وأنت محدّ ولا تمسي الحناء فإنه طيب " وأخرجه البيهقي في كتاب المعرفة ، من هذا الوجه وقد عد أبو حنيفة الدينوري وغيره : من أهل اللغة : الحناء من أنواع الطيب . وقال الهروي في الغريبين : وفي الحديث " سيد رياحين الجنة الفاغية " قال الأصمعي : هو نور الحناء . وفي الحديث أيضاً ، عن أنس : " كان النَّبي صلى الله عليه وسلم يعجبه الفاغية " انتهى منه . وقال صاحب كشف الخفاء ومزيل الإلباس . وقال النجم ، وعند الطبراني والبيهقي ، وأبي نعيم في الطب عن بريدة " سيد الإدام في الدنيا والآخرة اللحم ، وسيد الشراب في الدنيا والآخرة الماء ، وسيد الرياحين في الدنيا والآخرة الفاغية " انتهى محل الحاجة منه ، وقال ابن الأثير في النهاية فيه " سيد رياحين الجنة الفاغية هي نور الحناء " وقيل نور الريحان . وقيل : نور كل نبت من أنوار الصحراء ، التي لا تزرع . وقيل فاغية كل نبت نوره ، ومنه : حديث أنس " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبه الفاغية "

ا ه .

وفي القاموس : والفاغية نور الحناء أو يغرس غصن الحناء مقلوباً فيثمر زهراً أطيب من

الحناء ، فذلك الفاغية ا ه محل الغرض منه . ولا يخفى أن الحناء لم يثبت فيه شيء مرفوع وأكثر أنواع الطيب لم تثبت في خصوصها نصوص ، ومنها : ما ثبت بالنص كالزعفران ، والورس ، كما تقدم إيضاحه ، وكالذريرة ، واللمسك كما سيأتي إن شاء الله ، وقد قدمنا أن الذي اختلف فيه أهل العلم من الأنواع : هل هو طيب ، أو ليس بطيب ؟ أن ذلك من نوع الاختلاف في تحقيق المناط ، والعلم عند الله تعالى .

(562/522)

الفرع السادس عشر : اعلم أن العلماء اختلفوا في التطيب عند إرادة الإحرام قبله بحيث يبقى أثر الطيب ، وريحه أو عينه بعد التلبس بالإحرام ، هل يجوز ذلك لأنه وقت الطيب غير محرم ، والدوام على الطيب ، ليس كابتدائه كالنكاح عند من يمنعه في حال الإحرام ، مع إباحة الدوام على نكاح معقود ، قبل الإحرام أو لا يجوز ذلك ، لأن وجود ريح الطيب ، أو عينه ، أو أثره في المحرم بعد إحرامه كابتدائه للتطيب ، ولأنه متلبس حال الإحرام بالطيب ، مع أن الطيب منهي عنه في الإحرام ، فقال جماهير من أهل العلم : إن الطيب عند إرادة الإحرام مستحب . قال النووي في شرح المهذب : قد ذكرنا أن مذهبنا استحبابه ، وبه قال جمهور العلماء من السلف والخلف والمحدثين والفقهاء منهم سعد بن أبي وقاص ،

وابن عباس ، وابن الزبير ، ومعاوية ، وعائشة ، وأم حبيبة ، وأبو حنيفة ، والثوري ، وأبو يوسف ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو ثور ، وابن المنذر ، وداود وغيرهم ا ه .

وقال النووي في شرح مسلم : وبه قال خلائق من الصحابة والتابعين وجماهير الفقهاء والمحدثين منهم : سعد بن أبي وقاص ، وابن عباس إلى آخره ، كما في شرح المهذب .

وقال ابن قدامة في المغني في شرحه لقول الخرقي : ويتطيب .

وجملة ذلك أنه يستحب لمن أراد الإحرام أن يتطيب في بدنه خاصة ، ولا فرق بين ما يبقى عينه كالمسك والغالية ، أو أثره كالعود والبخور وماء الورد هذا قول ابن عباس ، وابن الزبير ، وسعد بن أبي وقاص وعائشة ، وأم حبيبة ، ومعاوية ، وروي عن محمد بن الحنفية ، وأبي سعيد الخدري ، وعروة ، والقاسم ، والشعبي وابن جريج . ا ه محل الغرض منه .

وقال جماعة آخرون من أهل العلم : لا يجوز التطيب عند إرادة الإحرام ، فإن فعل ذلك لزمه غسله حتى يذهب أثره وريحه ، وهذا هو مذهب مالك .

وقال النووي في شرح مسلم : وقال آخرون بمعنه مهم : الزهري ، ومالك ، ومحمد بن الحسن ، وحكي أيضاً عن جماعة من الصحابة والتابعين ا ه .

(563/522)

وقال في شرح المهذب : وقال عطاء والزهري ومالك ومحمد بن الحسن : يكره .

قال القاضي عياض : وحكي أيضاً عن جماعة من الصحابة والتابعين ا ه .

وقال ابن قدامة في المغني : وكان عطاء يكره ذلك ، وهو قول مالك ، وروي ذلك عن عمر وعثمان وابن عمر رضي الله عنهم ا ه .

وإذا علمت أقوال أهل العلم في هذه المسألة : فهذه أدلتهم ومناقشتها وما يظهر رجحانه بالدليل منها .

أما الذين منعوا ذلك : فقد احتجوا بحديث يعلى بن أمية التميمي رضي الله عنه ، وهو متفق عليه .

(564/522)

قال البخاري في صحيحه ، قال أبو عاصم : أخبرنا ابن جريج ، أخبرني عطاء : أن صفوان بن يعلى أخبره : أن يعلى قال لعمر رضي الله عنه : أرني النَّبي صلى الله عليه وسلم حين يوحى إليه ؟ فبينما النَّبي صلى الله عليه وسلم بالجعرانة ، ومعه نفر من أصحابه ، جاء رجل فقال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف ترى في رجلٍ أحرم بعمرة ، وهو متضمخ بطيب ؟ فسكت النَّبي صلى الله عليه وسلم ساعة ، فجاءه الوحي فأَشار

عمر رضي الله عنه إلى يعلى ، فجاء يعلى ، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوب ، وقد أظل به ، فأدخل رأسه فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم محمر الوجه ، وهو يغط ، ثم سري عنه فقال : " أين الذي سأل عن العمرة فأتي برجل فقال : اغسل الطيب الذي بك ثلاث مرات ، وانزع عنك الجبة ، واصنع في عمرتك كما تصنع في حجتك " قلت لعطاء : أراد الإنقاء حين أمره أن يغسل ثلاث مراتٍ ؟ قال : نعم . ا ه من صحيح البخاري قالوا : فهذا الحديث الصحيح صرح فيه النَّبي صلى الله عليه وسلم بغسل الطيب الذي تضمخ به قبل الإحرام ، وأمر بإنقائه كما قاله عطاء ، ولا شك أن هذا الحديث يقتضي أن الطيب في بدنه إذ لو كان في الجبة ، دون البدن لكفى نزع الجبة كما ترى ، خلافاً لما توهمه ترجمة الحديث الذي ترجمه بها البخاري : وهو قوله : باب غسل الخلوق ثلاث مرات من الثياب . وقول البخاري في أول هذا الإسناد : قال أبو عاصم : قد قدمنا الكلام على مثله مستوفى وبينا أنه صحيح سواء قلنا : إنه موصول كما هو الصحيح ، أو معلق ، لأنه أورده بصيغة الجزم .

(565/522)

وقال البخاري أيضاً في صحيحه : في أبواب العمرة : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا همام ، حدثنا عطاء قال : حدثني صفوان بن يعلى بن أمية : يعني عن أبيه : أن رجلاً أتى النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وهو بالجِعْرَانة ، وعليه جبة ، وعليه أثر الخلوق ، أو قال صفوة ، فقال : كيف تأمرني أن أصنعَ في عمرتي ؟ فأنزل الله على النَّبي صلى الله عليه وسلم فستر بثوب وودت أني رأيت النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أُنزل عليه الوحي فقال عمر : تعال أيسرك أن تنظر إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أنزل الله الوحي ؟ قلت : نعم ، فرفع طرف الثوب ، فنظرت إليه له غطيط : وأحسبه قال : كغطيط : وأحسبه قال : كغطيط البكر ، فلما سري عنه قال

" أين السائل عن العمرة : اخلعْ عنك الجبة ، واغسل أثر الخلوق عنك ، وأنق الصفرة واصنع في عمرتك كما تصنع في حجتك " اهـ منه . وقوله في هذا الحديث : " اخلع عنك الجبة واغسل أثر الخلوق وأنق الصفرة " صريح في أن غسل ذلك وإنقاءه من بدنه لأن ما في الجبة من الخلوق ، والصفرة يزول بخلعها كما ترى .

وقال مسلم في صحيحه : حدثنا شيبان بن فروخ ، حدثنا همام ، حدثنا عطاء بن أبي رباح ، عن صفوان بن يعلى بن أمية ، عن أبيه رضي الله عنه قال " جاء رجلٌ إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم وهو بالجعرانة عليه جبة ، وعليها خلوق أو قال : أثر صفرة . فقال : كيف تأمرني أن أصنع في عمرتي ؟ قال : وأُنزل على النَّبي صلى الله عليه وسلم الوحي ،

فستر بثوب وكان يعلى يقول : وددت أن أرى النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وقد نزل عليه الوحي قال فقال : أيسرك أن تنظر إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أُنزل عليه الوحي ؟ قال : فرفع عمر طرف الثوب ، فنظرت إليه له غطيط قال : وأحسبه قال : كغطيط البكر . قال : فلما سري عنه قال : أين السائل عن العمرة : اغسل عنك أثر الصفرة أو قال أثر الخلوق واخلع عنك جبتك واصنع في عمرتك ما أنت صانع في حجك " .

(566/522)

وفي لفظ في صحيح مسلم عن يعلى قال : أتى النَّبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ ، وهو بالجعرانة ، وأنا عند النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وعليه مقطعات ، يعني جبة ، وهو متضمخ بالخلوق فقال : إني أحرمت بالعمرة ، وعلي هذا ، وأنا متضمخ بخلوق ، فقال له النَّبي صلى الله عليه وسلم " ما كنت صانعاً في حجك " قال : أنزع عني هذه الثياب ، وأغسل عني هذا الخلوق فقال له النَّبي صلى الله عليه وسلم : " ما كنت صانعاً في حجك فاصنعه في عمرتك " وفي لفظ في صحيح مسلم ، عن يعلى فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم " أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مراتٍ ، وأما الجبة فانزعها ثم اصنع في عمرتك ما تصنع في حجتك " وفي لفظ في صحيح مسلم عن يعلى رضي الله عنه " أن رجلاً أتى النَّبي

صلى الله عليه وسلم وهو الجعرانة قد أهل بالعمرة ، وهو مصفر لحيته ورأسه ، وعليه جبة ، فقال يا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أحرمت بعمرة ، وأنا كما ترى فقال : انزعْ عنك الجبة ، واغسل عنك الصفرة ، وما كنت صانعاً في حجك ، فاصنعه في عمرتك " وفي لفظ في صحيح مسلم عن يعلى أيضاً قال " انزع عنك جبتك واغسل أثر الخلوق الذي بك . وافعل في عمرتك ما كنت فاعلاً في حجك " انتهى من صحيح مسلم .

قالوا : فهذه الروايات الصحيحة عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : فيها التصريح ، بأن من تضمخ بالطيب قبل إحرامه لا يجوز له الدوام على ذلك ، بل يجب غسله ثلاثاً ، وإنقاؤه ، ولا شك أن بعض الروايات الصحيحة التي أوردنا صريحة في ذلك .

وهذا هو حجة مالك ومن ذكرنا معه من أهل العلم في وجوب إزالة المحرم الطيب ، الذي تلبس به قبل إحرامه .

(567/522)

وروى مالك في الموطأ ، عن حميد بن قيس ، عن عطاء بن أبي رباح " إن أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بجُنين ، وعلى الأعرابي قميص ، وبه أثر صفرةٍ فقال : يا رسول الله إني أهللتُ بعمرة فكيف تأمرني أن أصنع ؟ فقال له رسول الله صلى الله

عليه وسلم : " انزع قميصك ، واغسلْ هذه الصفرة عنك وافعل في عمرتك ما تفعل في حجتك " ا ه .

والذين قالوا بهذا قالوا : يعتضد حديث يعلى المتفق عليه ببعض الآثار الواردة ، عن بعض الصحابة رضي الله عنهم ، كما أشرنا إليه غير بعيد ، وقد روى مالك في الموطأ ، عن نافع ، عن أسلم مولى عمر بن الخطاب : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجد ريحَ طيبٍ ، وهو بالشجرة ، فقال : ممن ريح هذا الطيب ، فقال معاوية بن أبي سفيان : مني يا أمير المؤمنين ، فقال منك لعمر الله فقال معاوية : أن أم حبيبة طيبتني يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : عزمت عليك لترجعن فلتغسلنه .

وروى مالك في الموطأ عن الصلت بن زيد عن غير واحد من أهله : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وجد ريح طيبٍ وهو بالشجرة ، وإلى جنبه كثير بن الصّلت ، فقال عمر : ممن ريح هذا الطيب ؟ فقال كثير : مني يا أمير المؤمنين ، لبدت رأسي ، وأردت ألا أحلق فقال عمر : فاذهب إلى شربة فادلك رأسك ، حتى تنقيه ، ففعل كثير بن الصلت . قال مالك : الشربة حفير تكون عند أصل النخلة . انتهى من الموطأ .

(568/522)

قالوا : ففعل هذا الخليفة الراشد في زمن خلافته مطابق لما تضمنه حديث يعلى بن أمية المتفق عليه ، فتبين بذلك أنه غير منسوخ ، وذكر الزرقاني في شرح الموطأ : أن عمر أنكر أيضاً ذلك على البراء بن عازب ، وقال : إنه رواه ابن أبي شيبة عن بشير بن يسار ، كما أنكر على معاوية وكثير المذكورين ، قال : فهذا عمر قد أنكر على صحابيين ، وتابعي كبير الطيب بمحضر الجمع الكثير من الناس صحابة وغيرهم ، وما أنكر عليه منهم أحد ، فهو من أقوى الأدلة على تأويل حديث عائشة ، ثم ذكر عن وكيع ، عن شعبة ، عن سعد بن إبراهيم ، عن أبيه : أن عثمان رأى رجلاً قد تطيب عند الإحرام ، فأمره أن يغسل رأسه بطين ا ه .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن ابن عمر : أن محمد بن المنتشر سأله عن الرجل يتطيب ، ثم يصبح محرماً ، فقال : " ما أحب أن أصبح محرماً أنضخ طيباً ، لأن أطلى بقطران أحب إلي من أن أفعل ذلك " .

هذا لفظ مسلم في صحيحه . وفيه بعده رد عائشة على ابن عمر كما سيأتي إن شاءَ الله تعالى .

فحديث يعلى المتفق عليه ، والآثار التي ذكرنا عن بعض الصحابة ، ومنها ما لم نذكره هو حجة مالك ، ومن ذكرنا معه في منع التطيب قبل الإحرام ، ووجوب غسله ، وإنقائه إن فعل

ذلك ، ولا فدية فيه عندهم مطلقاً ، وذكر بعضهم : أن المشهور عن مالك : الكراهة لا التحريم .

(569/522)

واحتج الجمهور القائلون باستحباب التطيب عند الإحرام بما رواه الشيخان وغيرهما ، عن عائشة رضي الله عنها وبعض الآثار الدالة على ذلك ، عن بعض الصحابة رضي الله عنهم . قال البخاري في صحيحه : حدثنا عبدالله بن يوسف ، أخبرنا مالك ، عن عبدالرحمن بن القاسم ، عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ، زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم قالت : كنت أطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم لإحرامه ، حين يحرم ولحله قبل أن يطوف بالبيت . وفي صحيح البخاري : قيل هذا الحديث متصلاً به من طريق الأسود ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كأني أنظر إلى وبيص الطيب في مفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو محرم . وقد ذكرنا هذا الحديث في الكلام على التحلل الأول .

وقال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا علي بن عبدالله ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبد الرحمن بن القاسم : أنه سمع أباه وكان أفضل أهل زمانه يقول : سمعت عائشة رضي الله عنها تقول : طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي هاتين ، حين أحرم ، ولحله

حين أحل ، قبل أن يطوف ، وبسطت يديها ا ه منه .

وقال مسلم رحمه الله في صحيحه : حدثنا محمد بن عباد أخبرنا سفيان ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم لحرمِهِ ، حين أحرم ، ولحله قبل أن يطوف بالبيت . وفي لفظ لمسلم عنها من طريق القاسم بن محمد قالت : طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ، لحرمه حين أحرم ، ولحله حين أحل ، قبل أن يطوف بالبيت . وفي لظف عند مسلم عنها قالت : كنت أطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم لإحرامه ، قبل أن يحرم ، ولحله قبل أن يطوف بالبيت . وفي لفظ عنها عند مسلم قالت : طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي بذريرة في حجة الوداع ، للحل والإحرام .

(570/522)

وفي النهاية الذريرة : نوع من الطيب مجموع من أخلاط . وقال السيوطي في تلخيصه للنهاية : وقيل هي فتات قصب ، وقال النووي في شرح مسلم : هي فتات قصب طيب ، يجاء به من الهند ، وقد قدمنا في سورة الأنعام أن الذريرة قصب يجاء به من الهند كقصب النشاب أحمر يتداوى به .

وفي لفظ عند مسلم أيضاً ، عن عروة قال : سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند إحرامه ؟ قالت : بأطيب الطيب ، وفي لفظ : بأطيب ما أقدر عليه ، قبل أن يحرم ، ثم يحرم . وفي لفظ : بأطيب ما وجدت . وفي لفظ عنها قالت : كأني أنظر إلى وبيص الطيب في مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو محرم ، وفي لفظ عنها قالت : لكأني أنظر إلى وبيص الطيب في مفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يهل . وفي لفظ : وهو يلبي . والألفاظ المماثلة لهذا متعددة في صحيح مسلم عنها رضي الله عنها . وفي لفظ عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أرادَ أن يحرمَ ، يتطيب بأطيب ما يجد ، ثم أرى وبيص الدهن في رأسه ولحيته . وفي لفظ عنها قالت : كنت أطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يحرم ، ويوم النحر ، قبل أن يطوف بالبيت بطيب فيه مسك . وفي صحيح مسلم : أن عائشة لما بلغها قول ابن عمر المتقدم : لأن أطلى بقطران أحب إلي من أن أفعل ذلك ، قالت : " أنا طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند إحرامه ، ثم طاف في نسائه ، ثم أصبح محرماً " اه . كل هذه الألفاظ في صحيح مسلم . قالوا فهذا الحديث التي اتفق عليه الشيخان ، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، دليل صحيح صريح في مشروعية الطيب قبل الإحرام ، وإن كان أثره باقياً بعد الإحرام ، بل ولو بقي عينه وريحه ، لأن رؤيتها وبيص الطيب في مفارقه صلى

الله عليه وسلم ، وهو محرم صريح في ذلك ، قالوا : وقد وردت آثار عن بعض الصحابة بذلك ، تدل على عدم خصوصية ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم .

(571/522)

قال صاحب نصب الراية : وقيل : إن ذلك من خواصه صلى الله عليه وسلم ، وفيه نظر ، فقد رئي ابن عباس محرماً ، وعلى رأسه مثل الرب من الغالية . وقال مسلم بن صبح : رأيت ابن الزبير ، وهو محرم ، وفي رأسه ولحيته من الطيب ما لو كان لرجل أعد منه رأس مال . انتهى منه .

فهذا الحديث ، وهذه الآثار : حجة من قال : بالتطيب قبل الإحرام ، ولو كان الطيب يبقى بعد الإحرام .

وإذا عرفت أقوال أهل العلم وحججهم في هذه المسألة فهذه مناقشة أقوالهم : اعلم أن المالكية ، ومن وافقهم أجابوا عن حديث عائشة المذكور ، بأجوبة :

منها : أنهم حملوه على أنه تطيب ، ثم اغتسل بعده ، فذهب الطيب قبل الإحرام قالوا : ويؤيد هذا قولها في الرواية الأخرى " طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند إحرامه ثم طاف على نسائه ، ثم أصبح محرماً " فظاهره أنه إنما تطيب لمباشرة نسائه ثم زال بالغسل

بعده ، لا سيما وقد نقل أنه كان يتطهر من كل واحدة قبل الأخرى ، ولا يبقى مع ذلك طيب ، ويكون قولها : ثم أصبح ينضح طيباً : أي قبل غسله ، وقد سبق في رواية لمسلم : أن ذلك الطيب كان ذريرة وهي مما يذهبه الغسل ، قالوا : وقولها : كأني أنظر إلى وبيص الطيب في مفارق رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو محرم المراد به : أثره لا جرمه قاله القاضي عياض .

وقال ابن العربي : ليس في شيء من طرق حديث عائشة : أن عين الطيب بقيت .

ومنها : أن ذلك التطيب خاص به صلى الله عليه وسلم .

ومنها : أن الدوام على الطيب بعد الإحرام كابتداء الطيب في الإحرام ، بجامع الاستمتاع بريح الطيب في حال الإحرام ، في كل منهما قالوا : ومما يؤيد أن ذلك التطيب خاص به صلى الله عليه وسلم : أنه لو كان مشروعاً لعامة الناس لما أنكره عمر ، وعثمان ، وابن عمر مع علمهم بالمناسك وجلالتهم في الصحابة . ولم ينكر عليهم أحد إلا ما أنكرت عائشة على ابن عمر ولما أنكره الزهري ، وعطاء مع علمهما بالمناسك .

(572/522)

ومنها : أن حديث عائشة المذكور يقتضي إباحة الطيب ، لمن أراد الإحرام ، وحديث يعلى بن أمية : يقتضي منع ذلك ، والمقرر في الأصول : أن الدال على المنع مقدم على الدال على الإباحة ، لأن ترك مباح أهون من ارتكاب حرام .

ومنها : أن حديث يعلى من قول النَّبي صلى الله عليه وسلم بلفظه الصريح في الأمر بإزالة الطي ، وإنقائه من البدن ، وظاهره العموم لما قدمنا أن خطاب الواحد يعم حكمه الجميع لاستواء الجميع في التكليف ، والعموم القولي لا يعارضه فعل النَّبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه مخصص له كما تقرر في الأصول ، كما أوضحناه سابقاً ، وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود :

في حقه القول بفعل خصا إن يك فيه القول ليس نصا

فهذا هو حاصل ما أجاب به القائلون : بمنع التطيب ، عند إرادة الإحرام أو كراهته .

وأجاب المخالفون بمنع ذلك كله قالوا : دعوى أن التطيب للنساء لا الإحرام ، يرده صريح الحديث في قولها : طيبته لإحرامه ، وادعاء أن اللام للتوقيت ، خلاف الظاهر قالوا وادعاء أن الطيب زال بالغسل قبل الإحرام ترده الروايات الصريحة ، عن عائشة : أنها كانت تنظر إلى وبيص الطيب ، في مفرقه صلى الله عليه وسلم وهو محرم ، لأن الوبيص في اللغة : البريق ، واللمعان ، وهو وصف وجودي ، والوصف الوجودي : لا يوصف به المعدوم ، وإنما يوصف به الموجود . فدل على أن الطيب الموصوف بالوبيص موجود بعينه

، وهو يرد قول ابن العربي أنه لم يرد في شيء من طرق حديث عائشة أن عين الطيب بقيت .

ويؤيده ما رواه أبو داود في سننه : حدثنا الحسين بن الجنيد الدامغاني : ثنا أبو أسامة ، قال : أخبرني عمر بن سويد الثقفي ، قال : حدثتني عائشة بنت طلحة : أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، حدثتها قالت :

(573/522)

" كنا نخرج مع النَّبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة . فنضمد جباهنا بالسك المطيب ، عند الإحرام ، فإذا عرفت إحدانا سال على وجهها ، فيراه النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فلا ينهانا " ا ه منه والسك بضم السين ، وتشديد الكاف : نوع من الطيب ، يضاف إلى غيره من الطيب ، ويستعمل .

وقال الشوكاني في نيل الأوطار في حديث أبي داود هذا : سكت عنه أبو داود ، والمنذري ، وإسناده رواته ثقات إلا الحسين بن الجنيد شيخ أبي داود وقد قال النسائي ، لا بأس به ، وقال ابن حبان في الثقات : مستقيم الأمر فيما يروى ا ه . وقال فيه ابن حجر في التقريب : لا بأس به ، وقال فيه : في تهذيب التهذيب : قال النسائي : لا بأس به . وذكره ابن حبان في الثقات . وقال من أهل سمغان : مستقيم الأمر فيما يروي .

قلت : وقال أحمد بن حمدان العابدي ، ثنا الحسين بن الجنيد ، وكان رجلاً صالحاً وقال : مسلمة بن القاسم ثقة ا ه منه .

وبما ذكرنا : تعلم أن حديث عائشة المذكور عند أبي داود أقل درجاته أنه حسن ، وقال فيه النووي في شرح المهذب : هذا حديث حسن ، رواه أبو داود بإسناد حسن ا ه منه ، وهو حجة في جواز بقاء عين الطيب في المحرم بعد الإحرام ، إن كان استعماله للطيب ، قبل الإحرام .

قال في القاموس : والسك بالضم طيب ، يتخذ من الرامك مدقوقاً منخولاً معجوناً بالماء ، ويعرك شديداً ، ويمسح بدهن الخيري لئلا يلصق بالإناء ، ويترك ليلة ثم يسحق المسك ويلقمه ويعرك شديداً ، ويقرص ، ويترك يومين ، ثم يثقب بمسلة وينظم في خيط قتب ، ويترك سنة ، وكلما عتق طابت رائحته اه منه . وقال أيضاً : والرامك كصاحب : شيء أسود يخلط بالمسك ، ويفتح انتهى منه . ولا يخفى أن أزواج النَّبي صلى الله عليه وسلم ، إنما كن يضمدن به جباههن في حال كونه معجوناً ، قبل أن يقرص ويجف .

(574/522)

وقال ابن منظور في اللسان : والسك ضرب من الطيب يركب من مسك ورامك ، وقال في اللسان أيضاً ابن سيده : والرامك والرامك ، والكسر أعلى ، شيء أسود كالقار يخلط بالمسك فيجعل سكاً قال :

إن لك الفضل على صحبتي . . . والمسك قد يستصحب الرامكا

وأجابوا عن كون التطيب المذكور خاصاً به صلى الله عليه وسلم : بأن حديث عائشة هذا نص في عدم خصوص ذلك به صلى الله عليه وسلم ، وعضدوه بالآثار المروية ، عن بعض الصحابة كما تقدم ، عن ابن عباس ، وابن الزبير قالوا : وإنكار عمر وعثمان لا يعارض به الصحيح المرفوع إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم لأن سنته أولى بالاتباع ، من قول كل صحابي ، مع أنهم خالفهم بعض الصحابة .

وقد ثبت في صحيح مسلم : أن عائشة أنكرت ذلك على ابن عمر رضي الله عنهم .

وأجابوا عن كون حديث يعلى ، كالعموم القولي ، فلا يعارضه فعله صلى الله عليه وسلم ، بل يخصص به بما ذكرناه آنفاً من الأدلة ، على أن ذلك الفعل الذي هو التطيب قبل الإحرام ، ليس خاصاً به كما دل عليه حديث عائشة المذكور آنفاً . وقولها في الصحيح : " طيبته بيدي هاتين " . صريح في أنها شاركته في ملابسة ذلك الطيب كما ترى .

(575/522)

وأجابوا عن كون حديث يعلى : دالاً على المنع ، وحديث عائشة : دالاً على الجواز .

والدال على المنع مقدم على الدال على الجواز ، بأن محل ذلك فيما إذا جهل المتقدم منهما . أما إذا علم المتقدم ، فإنه يجب الأخذ بالمتأخر لأنهم كانوا يأخذون بالأحدث ، فالأحدث وقصة يعلى ، وقعت بالجعرانة عام ثمان بلا خلاف ، وحديث عائشة في حجة الوداع ، عام عشر ومن المقرر في الأصول أن النصين ، إذا تعارضا وعلم المتأخر منهما فهو ناسخ للأول كما هو معلوم في محله . وأجابوا عن كون الدوام على الطيب كابتدائه بأنه منتقض بالنكاح ، فإن ابتداء عقده في حال الإحرام ممنوع عند الجمهور كما تقدم إيضاحه خلافاً لأبي حنيفة ، مع الإجماع على جواز الدوام على نكاح ، وقع عقده قبل الإحرام ، ثم أحرم بعد عقده الزوجان ، وهو دليل على أنه ما كل دوام كالابتداء .

وقد تقرر في الأصول أن المانع بالنسبة إلى الابتداء والدوام ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : هو المانع للدوام والابتداء معاً كالرضاع ، فإن الرضاع مانع من ابتداء عقد النكاح كما أنه أيضاً مانع من الدوام عليه فلو تزوج رضيعة ، غير محرم منه في حال العقد ، ثم أرضعتها أمه بعد العقد فإن هذا الرضاع الطارئ على عقد النكاح مانع من الدوام عليه ، لوجبو فسخ ذلك النكاح بذلك الرضاع الطارئ عليه ، وكالحدث فإنه مانع من ابتداء الصلاة ، مانع من الدوام عليها إذا طرأ في أثنائها .

والثاني : هو المانع للدوام فقط دون الابتداء ، كالطلاق فإنه مانع من الدوام على العقد الأول ، والاستمتاع بالزوجة بموجبه ، وليس مانعاً من ابتداء عقد جديد والاستمتاع بها بموجبه .

(576/522)

والثالث : هو المانع من الابتداء فقط ، دون الدوام ، كالنكاح بالنسبة إلى الإحرام ، فإن الإحرام مانع من ابتداء العقد ، وليس مانعاً من الدوام على عقد كان قبله ، كالاستبراء ، فإنه مانع من النكاح في حال الاستبراء ، وليس مانعاً من الدوام على النكاح ، لأن الزوج إذا وطئت امرأته بشبهة ، فلزمها الاستبراء بذلك فإن ذلك لا يمنع من الدوام ، على عقد زواجها الأول ، قالوا : ومن هذا الطيب فإن الإحرام مانع من ابتدائه ، وليس مانعاً من الدوام عليه ، كالنظائر المذكورة وإلى تعريف المانع وأقسامه ، أشار في المراقي بقوله :

ما من وجوده يجيء العدم . . . ولا لزوم في انعدام يعلم

بمانع يمنع للدوام . . . والابتدا أو آخر الأقسام

أو أول فقط على نزاع . . . كالطول الاستبراء والرضاع

هذا هو حاصل أقوال العلماء ومناقشتها .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر قولي أهل العلم عندي في هذه المسألة : أن الطيب جائز عند إرادة الإحرام ، ولو بقيت ريحه بعد الإحرام ، لحديث عائشة المتفق عليه ، ولإجماع أهل العلم على أنه آخر الأمرين ، والأخذ بآخر الأمرين أولى كما هو معلوم .

وقد علمت الأدلة على أنه ليس من خصائصه صلى الله عليه وسلم فحديث عائشة في حجة الوداع عام عشر ، وحديث يعلى عام الفتح ، وهو عام ثمان فحديث عائشة بعد حديث يعلى بسنتين ، هذا ما ظهر ، والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

(577/522)

أظهر قولي أهل العلم عندي : إنه إن طيب ثوبه قبل الإحرام فله الدوام على لبسه كتطييب بدنه ، وأنه إن نزع عنه ذلك الثوب المطيب بعد إحرامه ، فليس له أن يعيد لبسه صار كالذي ابتدأ الطيب في الإحرام ، فتلزمه الفدية ، وكذلك إن نقل الطيب الذي تلبس به قبل الإحرام ، من موضع من بدنه إلى موضع آخر بعد الإحرام ، فهو ابتداء تطيب في ذلك الموضع ، الذي نقله إليه ، وكذلك إن تعمد مسه بيده أو نحاه من موضعه ، ثم رده إليه ، لأن كل تلك الصور فيها ابتداء تلبس جديد بعد الإحرام بالطيب ، وهو لا يجوز . أما إن كان

قد عرق فسال الطيب من موضعه إلى موضع آخر فلا شيء عليه في ذلك ، لأنه ليس من فعله .

ولحديث عائشة : عند أبي داود الذي ذكرناه قريباً . قوال بعض علماء المالكية : ولا فرق في ذلك ، بين أن يكون الطيب في بدنه ، أو ثوبه ، إلا أنه إذا نزع ثوبه لا يعود إلى لبسه ، فإن عاد فهل عليه في العود فدية ، يحتمل أن نقول : لا فدية ، لأن ما فيه قد ثبت له حكم العفو كما لو لم ينزعه . وقال أصحاب الشافعي : تجب عليه الفدية ، لأنه لبس جديد وقع بثوب مطيب . انتهى من الحطاب والعلم عند الله تعالى .

الفرع السابع عشر : في أحكام أشياء متفرقة : كالنظر في المرآة للمحرم ، وغسل الرأس ، والبدن وما يلزم من قتل بغسله رأساً قملاً ، والحجامة ، وحك الجسد ، والرأس وتقريد البعير ، وتضميد العين بالصبر ونحوه ، والسواك . أما النظر في المرآة : فالظاهر أنه لا بأس به للمحرم ، ولم يرد شيء يدل على النهي عنه فيما أعلم .

(578/522)

وقال البخاري رحمه الله في صحيحه : باب الطيب عند الإحرام ، وما يلبس إذا أراد أن يحرم ويترجل ، ويدهن . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يشم المحرم الريحان ، وينظر في

المرآة ، ويتداوى بما يأكل الزيت والسمن ، وقال عطاء : يتختم ويلبس الهميان ، وطاف ابن عمر رضي الله عنهما ، وهو محرم ، وقد حزم على بطنه بثوب ، ولم تر عائشة رضي الله عنها بالتبان بأساً للذين يرحلون هودجها انتهى منه .

ومحل الشاهد عنه قول ابن عباس : وينظر في المرآة وهذه المسائل التي ذكرها البخاري ، قد قدمنا كلها وأوضحنا مذاهب العلماء فيها ، إلا النظر في المرآة الذي هو غرضنا منها الآن . وكون عائشة لم تر بأساً بالتبان ، للذين يرحلون هودجها ، والتبان كرمان ، سراويل صغير يستر العورة المغلظة ، وإباحة عائشة للتبان للذين يرحلون هودجها قريب من قول المالكية : بجواز الاستثفار للركوب والنزول وما ذكره البخاري عن ابن عمر من : " أنه طاف وهو محرم ، وقد حزم على بطنه بثوب " خصص المالكية ، جواز شد الحزام على البطن من غير عقد بضرورة العمل خاصة كما تقدم .

والحاصل : أنه لا ينبغي أن يختلف في جواز نظر المحرم في المرآة ، إذ لا دليل على النهي عنه ، وذكر ابن حجر في الفتح : أنه نقلت كراهته عن القاسم بن محمد ، وذلك هو مشهور مذهب مالك ، وفي سماع ابن القاسم : لا أحب نظر المحرم في المرآة ، فإن نظر فلا شيء عليه ، وليستغفر الله .

وأصح القولين عند الشافعية : أنه لا كراهة فيه ، ونقل ابن المنذر عدم الكراهة عن ابن عباس ، وأبي هريرة ، وطاوس ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق قال : وبه أقول ، وكره

ذلك عطاء الخراساني . وقال مالك : لا يفعل ذلك إلا عن ضرورة ، قال : وعن عطاء في المسألة قولان : بالكراهة والجواز ، وصح عن ابن عمر : أنه نظر في المرآة . انتهى بالمعنى من النووي .

(579/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : التحقيق إن شاء الله في هذه المسألة : أن مجرد نظر المحرم في المرآة لا بأس به ، ما لم يقصد به الاستعانة على أمر من محظورات الإحرام ، كنظر المرأة فيها لتكتحل بما فيه طيب أو زينة ، ونحو ذلك ، والعلم عند الله تعالى .

وذكر في الفتح أيضاً : أن سعيد بن منصور روى من طريق عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، عن عائشة : أنها حجت ، ومعها غلمان لها ، وكانوا إذا شدوا رحلها يبدو منهم الشيء ، فأمرتهم أن يتخذوا التبابين فيلبسوها ، وهم محرمون قال : وأخرجه من وجه آخر مختصراً بلفظ : " يشدون هودجها انتهى محل الغرض منه ، وقوله : يَرْحَلون هودجها هو بفتح الياء المثناة التحتية ، وسكون الراء ، وفتح الحاء من قولهم : رحلت البعير أرحَلَه بفتح الحاء ، في المضارع ، والماضي رحلا بمعنى : شددت الرَّحْلَ على ظهره ، ومنه قول الأعشى :

رحلت سيمة غدوةً أجمالَها . . . غضبى عليك فما تقول بدالها

وقول المثقب العبدي وهو عائد بن محصن :

إذا ما قمت أرحلها بليلٍ . . . تأوه آهة الرجل الحزين

والهودج : مركب من مراكب النساء معروف ، وما ذكر عن عائشة رضي الله عنها ظاهره أنها إنما رخّصت في التبان ، لمن يرحل هودجها ، لضرورة انكشاف العورة ، وهو يدل على أنه لا يجوز لغير ضرورة ، والعلم عند الله تعالى .

وأما غسل الرأس والبدن بالماء ، فإن كان لجنابة كاحتلام ، فلا خلاف في وجوبه ، وإن كان لغير ذلك فهو جائز على التحقيق ، ولكن ينبغي أن يكون برفق لئلا يقتل بعض الدواب في رأسه واغتسال المحرم ، وغسله رأسه ، لا ينبغي أن يختلف فيه : لثبوته عن النَّبي صلى الله عليه وسلم وكلما خالف السنة الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم ، فهو مردود على قائله .

(580/522)

قال البخاري في صحيحه : باب الاغتسال للمحرم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يدخل المحرم الحمام ، ولم ير ابن عمر وعائشة بالحك بأساً . حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن إبراهيم بن عبد الله بن حنين ، عن أبيه : " أن عبد

الله بن عباس والمسور بن مخرمة اختلفا بالأبواء ، فقال عبد الله بن عباس : يغسل المحرم رأسه . وقال المِسوَر : لا يغسل المحرم رأسه ، فأرسلني عبد الله بن العباس ، إلى أبي أيوب الأنصاري فوجدته يغتسل بين القرنين ، وهو يستر بثوب ، فسلمت عليه فقال : من هذا ؟ فقلت : أنا عبد الله بن حنين ، أرسلني إليك عبد الله بن العباس أسألك كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغسل رأسه ، وهو محرم ؟ فوضع أبو أيوب يده على الثوب ، فطأطأه حتى بدا لي رأسه ، ثم قال لإنسان يصب عليه : اصبب ، فصب على رأسه ، ثم حرك رأسه بيديه ، فأقبل بهما ، وأدبر وقال : هكذا رأيته صلى الله عليه وسلم يفعل .

وقال ابن حجر في الكلام على هذا الحديث : وكأنه خص الرأس بالسؤال لأنه موضع الإشكال في هذه المسألة ، لأنه محل الشعر الذي يخشى انتتافه بخلاف سائر البدن غالباً ، وحديث أبي أيوب المذكور أخرجه أيضاً مسلم في صحيحه كلفظ البخاري ، وزاد مسلم فقال المسور لابن عباس : لا أماريك أبداً . وقال النووي في شرحه لحديث أبي أيوب : هذا عند مسلم ، وفي هذا الحديث فوائد .

(581/522)

منها : جواز اغتسال المحرم ، وغسله رأسه ، وإمرار اليد على شعره بحيث لا ينتف شعراً إلى آخره ، وهذا حديث متفق عليه فيه التصريح : بجواز غسل الرأس في الإحرام ، وكذلك غسل البدن ، وقال النووي في شرح المهذب : قال الماوردي : أما اغتسال المحرم بالماء والانغماس فيه ، فجائز لا يعرف بين العلماء ، خلاف فيه ، لحديث أبي أيوب السابق : أما دخول الحمام وإزالة الوسخ عننفسه بجائز أيضاً ، عندنا وبه ، قال الجمهور وقال مالك : تجب الفدية بإزالة الوسخ ، وقال أبو حينفة : إن غسلَ رأسه بخطمى : لزمته الفدية دليلنا حديث ابن عباس في المحرم الذي خر عن بعير . وقال ابن المنذر : وكره جابر بن عبدالله ومالك : غسل المحرم راسه بالخطمى قال مالك : وعليه الفدية وبه قال أبو حنيفة وقال أبو يوسف ، ومحمد : عليه صدقة . قال ابن المنذر : هو مباح لحديث ابن عباس . انتهى محل الغرض منه .

وقد قدمنا جواز غسل الرأس بالماء وحده ، عن المالكية ، وكراهة غمس الرأس في الماء ما لم يتيقن أنه لا يقتل بذلك بعض دواب الرأس .

وقال صاحب اللسان : والخطمى : ضرب من النبات ، يغسل به ، وفي الصحاح : يغسل به الرأس . قال الأزهري : هو بفتح الخاء ، ومن قال : خطمى بكسر الخاء فقد لحن ، وفي المدونة عن مالك : لا يدخل المحرم الحمام ، فإن دخله ، وتدلك ، وألقى الوسخ : افتدى .

وقال اللخمي : أرى أن يفتدي ، ولو لم يتدلك ، لأن الشأن فيمن دخل الحمام ، ثم اغتسل أن الشعث يذهب عنه ، ولو لم يتدل ا ه بواسطة نقل المواق .

(582/522)

فتحصل : أن مطلق الغسل الذي لا تنظيف فيه لا خلاف فيه إلا ما رواه مالك ، عن ابن عمر : " أنه كان لا يغسل رأسه وهو محرم إلا من احتلام " وروى مالك في الموطأ ، عن عمر بن الخطاب " أنه غسل رأسه ، وهو محرم ، وأمر يعلى بن منية : أن يصب على رأسه أي عمر الماء . وقال : اصببْ ، فلن يزيده الماء إلا شعثاً " . وقد ثبت في الصحيحين جوازه ، وأن إزالة الوسخ بالتدلك في الحمام ، وغسل الرأس بالخطمى ونحو ذلك : فيه خلاف كما رأيت أقوال أهل العلم فيه .

وحجة من قال : إنّ التدلك وإزالة الوسخ لا شيء فيه حديث ابن عباس في المحرم الذي خر عن بعيره ، ومات ، ونهاهم النَّبي صلى الله عليه وسلم أن يخمروا رأسه ووجهه ، وعلل ذلك : بأنه يبعث ملبياً ، ومع ذلك فقد أمرهم أن يغسلوه بماء وسدر ، وذلك ثابت في الصحيح ، وأن الأصل عدم الوجوب .

واحتج من منع إزالة الوسخ : بأن الوسخ من التفث وقد دلت آية ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ [

الحج : 29] على أن إزالة التفث : لا تجوز قبل وقت التحلل الأول .

واحتجوا أيضاً بحديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله تعالى يباهي بأهل عرفات أهل السماء فيقول لهم : انظروا إلى عبادي جاؤوني شعثاً غبراً " قال النووي في شرح المهذب : رواه البيهقي ، بإسناد صحيح .

وأخرج الترمذي ، وابن ماجه ، عن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال : " الحاج الشعث التفل " وفيه إبراهيم بن يزيد الخوزي .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أما مجرد الغسل الذي لا يزيده إلا شعثاً كما قال عمر رضي الله عنه ، فلا ينبغي أن يختلف فيه ، لحديث أبي أيوب المتفق عليه ، وأما التدلك في الحمام ، وغسل الرأس بالخطمى ، فلا نص فيه ، والأحسن تركه احتياطاً ، وأما لزوم الفدية فيه فلا أعلم له دليلاً يجب الرجوع إليه والعلم عنده الله تعالى .

وأما حكم من قتل بغسله رأسه قملاً فلا أعلم في خصوص قتل المحرم القمل نصاً من كتاب ، ولا سنة .

(583/522)

وقد قدمنا أن مذهب مالك : أنه إن قتل قملة أو قملات أطعم ملء يد واحدةٍ من الطعام كفارة لذلك ، وإن قتل كثيراً منه لزمته الفدية ، وعن الشافعي أن من قتل قملةً : أطعم شيئاً قال : وأي شيء فداها به فهو خير منها .

وعند الشافعي : أنه إن ظهر القمل على بدنه أو ثيابه ، لم يكره له أن ينحيه ، لأنه ألجأه .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن قتل القمل لا فدية فيه ، وهو مذهب أحمد وأصحابه مع أن عنه روايتين :

أحداهما : إباحة قتله ، لأنه يؤذي ، والأخرى منع قتله ، لأن فيه ترفهاً .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر أقوال أهل العلم عندي في ذلك : أن القمل لا يجوز قتله ، وأخذه من الرأس ، بدليل قصة كعب بن عجرة المتقدمة ، فإنه لو كان كان قتله يجوز لما صبر على أذاه ، ولتسبب في التفلي ، لإزالته من رأسه ، كما هو العادة المعروفة فيمن آذاه القمل ، وهو غير محرم إن لم يرد الحلق ، وأنه لا شيء على من قتله . والدليل على ذلك أمران .

أحدهما : أن الأصل عدم الوجوب إلا لدليل ، ولا دليل على لزوم شيء في قتل القمل ، مع أنه يؤذي أشد الإيذاء .

الأمر الثاني : أن ظاهر حديث كعب بن عجرة المتفق عليه ، وظاهر القرآن العظيم كلاهما : يدل على أن الفدية إنما لزمت بسبب حلق الرأس ، مع كثرة ما فيه من القمل ، فلو كانت

الفدية تلزم من قتل القمل ، وإزالته لبيّنه صلى الله عليه وسلم فقوله تعالى ﴿ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة : 196] ظاهره أن الأذى الذي برأسه من القمل ونحوه : كالمرض في إباحة الحلق ، وأن الفدية لزمت بسبب الحلق لا بسبب المرض ، ولا بسبب إزالة القمل ، وكذلك ظاهر حديث كعب ، حيث أمره بالحلق والفدية ، فهو يدل على أن الفدية من أجل الحلق لا غيره .

(584/522)

ومما يؤيد ذلك : أن القمل لا قيمة له فهو كالبراغيب والبعوض ، وليس القمل بمأكول ، وليس بصيد .

قال صاحب المغني : وحكي عن ابن عمر قال : هي أهون مقتول ، وسئل ابن عباس ، عن محرم ألقى قملة ، ثم طلبها فلم يجدها ؟ قال : تلك ضالة لا تبتغى . قال : وهذا قول طاوس ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، وأبي ثور ، وابن المنذر ، وعن أحمد فيمن قتل قملة قال : يطعم شيئاً فعلى هذا أي شيء تصدق به أجزأه ، سواء قتل كثيراً أو قليلاً ، وهذا قول أصحاب الرأي وقال إسحاق : تمرة فما فوقها . وقال مالك : حفنة من طعام . وروي ذلك

عن ابن عمر ، وقال عطاء : قبضة من طعام .

وهذه الأقوال كلها راجعة إلى ما قلناه ، فإنهم لم يريدوا بذلك التقدير ، وإنما هو على التقريب لأقل ما يتصدق به . انتهى من المغني . ولا يخفى أنها أقوال لا دليل على شيء منها .

وحجة القائلين بها في الجملة : أن قتل القمل فيه ترفه للمحرم ، والعلم عند الله تعالى .

وأما الحجامة : إن دعت إليها ضرورة ، فلا خلاف في جوازها للمحرم ، وإنما اختلف أهل العلم في الفدية ، إن احتجتم . أما جوازها لضرورة فهو ثابت ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ثبوتاً لا مطعن فيه .

قال البخاري في صحيحه : باب الحجامة للمحرم : وكوى ابن عمر ابنه ، وهو محرم ، ويتداوى ما لم يكن فيه طيب .

حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، قال : قال عمرو : أول شيء سمعت عطاء يقول : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول : احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو محرم ، ثم سمعته يقول : حدثني طاوس ، عن ابن عباس فقلت : لعله سمعه منهما .

حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن علقمة بن أبي علقمة ، عن عبد الرحمن الأعرج ، عن ابن بحينة رضي الله عنه قال " احتجمَ النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو محرم بلحيى جمل في وسط رأسه " انتهى من صحيح البخاري .

وقال البخاري في كتاب : الطب : باب الحجم في السفر والإحرام : قاله ابن بحينة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

حدثنا مسدد ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن طاوس ، وعطاء ، عن ابن عباس قال " احتجم النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وهو محرم " .

وقال البخاري في كتاب : الطب أيضاً : باب الحجامة على الرأس .

حدثنا إسماعيل ، حدثني سليمان ، عن علقمة : أنه سمع عبد الرحمن الأعرج : أنه سمع عبد الله ابن بحينة ، يحدث " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجم بلَحْيى جملٍ من طريق مكة وهو محرم في وسط رأسه " وقال الأنصاري : أخبرنا هشام بن حسّان ، حدثنا عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجم في رأسه " وفي لفظ للبخاري ، عن ابن عباس قال : " احتجم النَّبي صلى الله عليه وسلم في رأسه وهو محرم من وجع كان به بماء يقال له لحيى جمل " وفي لفظ له أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجم وهو محرم في رأسه من شقيقةٍ كانت به " انتهى منه . وحديث ابن عباس الذي ذكره البخاري : أخرجه مسلم

أيضاً ، عن طاوس ، وعطاء ، عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم احتجم وهو محرم " وأخرج مسلم أيضاً حديث ابن بحينة المذكور بلفظ " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم احتجم بطريق مكة وهو محرم وسط رأسه " اه .

فهذا الحديث المتفق عليه ، عن صحابيين جليلين وهما : عبد الله بن عباس وعبد الله بن بحينة : صريح في جواز الحجامة للمحرم إن دعت إلى ذلك ضرورة وجع . والحديث المتفق عليه المذكور فيه أن الحجامة المذكورة كانت في الرأس .

(586/522)

قال ابن حجر في الفتح : وخالف ذلك حديث أنس فأخرج أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي ، وصححه ابن خزيمة ، وابن حبان من طريق معمر ، عن قتادة عنه قال " احتجم النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وهو محرم على ظهر القدم من وجع كان به " ورجاله رجال الصحيح ، إلا أن أبا داود ، حكى عن أحمد أن سعيد بن أبي عروبة رواه عن قتادة ، فأرسله وسعيد أحفظ من معمر وليس هذه بعلة قادحة ، والجمع بين حديث ابن عباس ، وحديث أنس ، واضح بالحمل على التعدد أشار إلى ذلك الطبري . ا ه منه .

ولا يخفى أن مثل هذا لا تعارض فيه ، وأنه احتجم مرة في الرأس ، ومرة على ظهر القدم كما

لا يخفى . وقوله في الحديث المتفق عليه " بلحيي جمل " هو بفتح اللام ، ويجوز كسرها وسكون الحاء وياء مثناة تحتية ، وفي بعض رواياته : بياءين بصيغة التثنية ، وجمل بفتح الجيم ، والميم . وقد جاء في الروايات ، أنه اسم موضع بين مكة ، والمدينة . وقال في الفتح : قال ابن وضاح : هي بقعة معروفة وهي عقبة الجحفة على سبعة أميال من السقيا اه . وقال صاحب القاموس : ولحى جمل موضع بين الحرمين ، وإلى المدينة أقرب . وزعم صاحب القاموس : أن السقيا بالضم : موضع بين المدينة ، ووادي الصفراء ، وما ظنه بعضهم : من أن المراد به أحد فكي الجمل الذي هو ذكر الإبل ، وأن فكه كان هو آلة الحجامة ، فهو غلط لا شك فيه .

فهذه النصوص التي ذكرنا لا يبقى معها شك في جواز الحجامة للمحرم الذي به وجه يحتاج إلى الحجامة .

(587/522)

أما ما يلزم في ذلك فاختلفوا فيه : قال النووي في شرح مسلم : وفي هذا الحديث دليل لجواز الحجامة للمحرم . وقد أجمع العلماء على جوازها له في الرأس وغيره ، إذا كان له عذر في ذلك وإن قطع الشعر حينئذ ، لكن عليه الفدية لقطع الشعر ، فإن لم يقطع فلا فدية عليه ،

ودليل المسألة قوله تعالى ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ ﴾ [البقرة : 196] الآية . وهذا الحديث محمول على أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان له عذر في الحجامة في وسط الرأس ، لأنه لا ينفك عن قطع شعر ، أما إذا أراد المحرم الحجامة لغير حاجة ، فإن تضمنت قلع شعر ، فهي حرام لتحريم قطع الشعر وإن لم تتضمن ذلك ، بأن كانت في موضع لا شعر فيه ، فهي جائزة عندنا .

وعند الجمهور : ولا فدية فيها ، ووافق الجمهور سحنون ، من أصحاب مالك ، وعن ابن عمر ومالك كراهتها ، وعن الحسن البصري : فيها الفدية .

دليلنا : أن إخراج الدم ليس حراماً في الإحرام . انتهى منه .

وما ذكره النووي ، عن ابن عمر ومالك : من كراهة الحجامة لغير عذر ، ذكره مالك في الموطأ ، عن نافع ، عن ابن عمر بلفظ : أنه كان يقول : " لا يحتجم المحرم إلا مما لا بد منه " وفيه قال مالك : لا يحتجم المحرم إلا من ضرورة ، ولا شك أنها إن أدت إلى قطع شعر من غير حاجة إليها أنها حرام ، وإن كانت لا تؤدي إلى قطع شعر ، فقد وجه المالكية كراهتها المذكورة ، عن مالك وابن عمر بأمرين .

أحدهما : أن إخراج الدم من الحاج ، قد يؤدي إلى ضعفه ، كما كره صوم يوم عرفة للحاج ، مع أن الصوم أخف من الحجامة ، قالوا : فبطل الاستدلال المجيز ، بأنه لم يقم دليل على تحريم إخراج الدم في الإحرام ، لأنا لم نقل بالحرمة ، بل بالكراهة لعلة أخرى علمت . قاله الزرقاني

في شرح الموطأ .

ومرادهم أن ضعفه بإخراج الدم منه ، قد يؤدي إلى عجزه عن إتمام بعض المناسك .

(588/522)

الأمر الثاني : هو أن الحجامة إنما تكون في العادة ، بشد الزجاج ونحوه والمحرم ممنوع من العقد والشد على جسده . قاله الشيخ سند .

وقال الحطاب في شرحه لقول خليل عاطفاً على ما يكره : وحجامة بلا عذر ما نصه : وأما مع العذر فتجوز ، فإن لم يزل بسببها شعراً ، ولم يقتل قملاً فلا شيء عليه ، وإن أزال بسببها شعراً : فعليه الفدية . وذكر ابن بشير قولاً بسقوطها قال في التوضيح : وهو غريب ، وإن قتل قملاً ، فإن كان كثيراً ، فالفدية وإلا أطعم حفنة من طعام . والله سبحانه أعلم انتهى منه .

والقول الذي ذكره ابن بشير من المالكية واستغربه خليل في التوضيح بسقوط الفدية مطلقاً . ولو أزال بسبب الحجامة شعراً له وجه من النظر ، ولا يخلو عندي من قوة والله تعالى أعلم .

وإيضاح ذلك أن جميع الروايات المصرحة " بأن النَّبي صلى الله عليه وسلم احتجم في

رأسه " لم يرد في شيء منها أنه افتدى لإزالة ذلك الشعر من أجل الحجامة ، ولو وجبت عليه في ذلك فدية ، لبينها للناس ، لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز .

والاستدلال على وجوب الفدية في ذلك بعموم قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ ﴾ [البقرة : 196] . الآية لا ينهض كل النهوض ، لأن الآية واردة في حلق جميع الرأس ، لا في حلق بعضه ، وقد قدمنا أن حلق بعضه : ليس فيه نص صريح .

(589/522)

ولذلك اختلف العلماء فيه ، فذهب الشافعي : إلى أن الفدية تلزم بحلق ثلاث شعرات فصاعداً . وذهب أحمد في إحدى الروايتين إلى ذلك ، وفي الأخرى : إلى لزومها بأربع شعرات ، وذهب أبو حنيفة : إلى لزومها بحلق الربع ، وذهب مالك : إلى لزومها بحلق ما فيه ترفه ، أو إماطة أذى ، وهذا الاختلاف يدل على عدم النص الصريح في حلق بعض الرأس ، فلا تتعين دلالة الآية على لزوم الفدية ، في من أزال شعراً قليلاً ، لأجل تمكن آلة الحجامة من موضع الوجع والله تعالى أعلم .

وممن قال بأن إزالة الشعر عن موضع الحجامة : لا فدية فيه : محمد وأبو يوسف صاحبا أبي

حنيفة بل قالا : في ذلك صدقة ، وقد قدمنا مراراً : أن الصدقة عندهم نصف صاع من بر أو صاع كامل من غيره كتمر وشعير .

والحاصل : أن أكثر أهل العلم منهم الأئمة الأربعة ، على أنه إن حلق الشعر لأجل تمكن آلة الحجامة ، لزمته الفدية على التفصيل المتقدم في قدر ما تلزم به الفدية ، من حلق الشعر كما تقدم إيضاحه . وأن عدم لزومها عندنا له وجه من النظر قوي ، وحكاه ابن بشير من المالكية . وأما إن لم يحلق بالحجامة شعراً ، فقد قدمنا قريباً أقوال أهل العلم فيها ، وتفصيلهم بين ما تدعو إليه الضرورة ، وبين غيره . والعلم عند الله تعالى .

واستدل أهل العلم بأحاديث الحجامة المذكورة ، على جواز الفصد ، وربط الجرح ، والدمل ، وقلع الضرس ، والختان : وقطع العضو ، وغير ذلك من وجوه التداوي ، إذا لم يكن في ذلك محظور : كالطيب ، وقطع الشعر .

وأما الحك فإن كان في موضع لا شعر فيه فلا ينبغي أن يختلف في جوازه ، وإن كان في موضع فيه شعر كالرأس ، وكان برفق بحيث لا يحصل به نتف بعض الشعر فكذلك ، وإن كان بقوة بحيث يحصل به نتف بعض الشعر ، فالظاهر أنه لا يجوز .

(590/522)

وهذا هو الصواب إن شاء الله في مسألة الحك . ولم أعلم في ذلك بشيء مرفوع إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم . وإنما فيه بعض الآثار عن الصحابة رضي الله عنهم ، وقد قدمنا قول البخاري ، ولم ير ابن عمر وعائشة بالحك بأساً .

وروى مالك في الموطأ عن علقمة بن أبي علقمة عن أمه أنها قالت : سمعت عائشة زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم تسأل عن المحرم ، أيحك جسده ؟ قالت : نعم فليحككه ، وليشدد ، ولو ربطت يداي ، ولم أجد إلا رجلي لحككت ا ه .

وأما نزع القراد والحلمة من بعيره ، فقد أجازه عمر بن الخطاب . وكرهه ابن عمر ومالك .

وقد روى مالك في الموطأ ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي ، عن ربيعة بن أبي عبد الله بن الهدير : أنه رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرد بعيراً له في طين بالسقيا ، وهو محرم . قال مالك : وأنا أكرهه . وروي أيضاً في الموطأ عن نافع : أن عبد الله بن عمر ، كان يكره أن ينزع المحرم حلمة ، أو قراداً عن بعيره . قال مالك : وذلك أحب ما سمعت إلي في ذلك . وقوله : يقرد بعيره : أي ينزع عنه القراد ويرميه .

وأما تضميد العين بالصبر ونحوه مما لا طيب فيه لضرورة الوجع فلا خلاف فيه ، بين العلماء وأنه لا فدية فيه ، كما أجمعوا على أنه إن دعته الضرورة إلى تضميد العين ونحوها بما فيه طيب .

أن ذلك جائز له ، وعليه الفدية .

ومن أدلتهم على جواز تضميد العين بالصبر ونحوه : ما رواه مسلم في صحيحه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، وعمرو الناقد ، وزهير بن حرب جميعاً ، عن ابن عيينة قال أبو بكر : حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا أيوب بن موسى ، عن نبيه بن وهب قال : خرجنا مع أبان بن عثمان ، حتى إذا كنا بملل اشتكى عمر بن عبيد الله عينيه ، فلما كنا بالروحاء اشتد وجعه ، فأرسل إلى أبان بن عثمان يسأله ، فأرسل إليه : أن اضمدهما بالصبر ، فإن عثمان رضي الله عنه حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرجل إذا اشتكى عينيه ، وهو محرم ضمدهما بالصبر . وفي لفظ عن مسلم : أن عمر بين عبيد الله بن معمر رمدت عينيه ، فأراد أن يكحلها ، فنهاه أبان بن عثمان ، وأمره أن يضمدها بالصبر ، وحدث عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : أنه فعل ذلك . انتهى من صحيح مسلم .

وأما السواك في الإحرام ، فلا خلاف في جوازه بين أهل العلم .

قال الشيخ الحطاب في شرحه لقول خليل في مختصره : وربط جرحه ما نصه : قال التادلي في مناسك ابن الحاج : وأجمع أهل العلم على أن للمحرم أن يتسوك ، وإن دمي فمه . انتهى .

وقال ابن عرفة الشيخ : روى محمد والعتبي : للمحرم أن يتسوك ، ولو أدمى فاه انتهى ، ثم قال : قلت : لا يلزم من منع القاضي الزينة منع السواك بالجوزاء ونحوه . انتهى والله أعلم .

انتهى كلام الحطاب .

فصل فيما تتعدد فيه الفدية ونحوها

وما لا يتعدد فيه ذلك وأقوال العلماء فيه

اعلم أولاً أن هذا الفصل يدخل في مسألة كبيرة ، يذكرها علماء الأصول في مبحث الأمر وهي : هل الأمر يقتضي التكرار أو لا ؟ وهي ذات واسطة وطرفين ، طرف يتعدد فيه اللازم بلا خلاف ، وطرف لا يتعدد فيه ، بلا خلاف ، وواسطة : هي محل الخلاف ، وهذا البحث أعم مما نحن بصدده ، ولكن إذا تكلمنا عليه على سبيل العموم ، رجعنا إلى مسألتنا ، فذكرنا فيها كلام أهل الكلام ، وأدلتهم ، وناقشناها .

(592/522)

والمسألة المذكورة : هي إذا تعددت الأسباب ، واتحد موجبها بصيغة اسم المفعول ، هل يتعدد الموجب نظراً لتعدد أسبابه أو لا يتعدد نظراً لاتحاده في نفسه ؟ وأشار إلى هذه المسألة في الجملة الشيخ ميارة في التكميل بقوله :

إن يتعدد سبب والموجب . . . متحد كَفى لهن موجب

كناقض سهو ولوغ والفدا . . . حكاية حد تيمم بدا

وذا الكثير والتعدد ورد . . . بخلف أو وفق بنص معتمد

فقوله : الموجب في الموضعين بصيغة اسم المفعول . وقوله كناقض : يعني أن نواقض الوضوء ، إن تعددت كمن بال مرات . أو بال ونام وقبل ، فإنه يكفي لجميعها وضوء واحد .

وكذلك الجنابة ، إن تعددت أسبابها بوطء مرات ، وإنزال بلذة ، واحتلام ، وانقطاع حيض ، فإنه يكفي لجميع ذلك غسل واحد .

وقوله : سهو يعني : أن من سها في صلاته مرات متعددة ، يكفيه لجميعها سجود سهو واحد .

وقوله : ولوغ : يعني : أنه إذا تعدد ولوغ الكلب في الإناء بأن ولغ فيه مرات متعددة أو ولغت فيه كلاب متعددة ، فإنه يكفي لجميع ذلك غسله سبع مرات على نحو ما في الحديث ، ولا يتعدد الغسل بتعدد الولوغ .

وقوله : والفدا : يعني أن من تكرر منه موجب الفدية ، كمن لبس ثواباً مخيطاً مطيباً تكفيه فدية واحدة .

قوله : حكاية : يعني : أن من سمع أذان جماعة من المؤذنين في وقت واحد ، يكفيه حكاية أذان واحد ، ولا تتعدد حكاية الأذان لتعدد المؤذنين .

وقوله : حد : يعني أن من زنى مرات متعددة قبل أن يقام عليه الحد يكفي حده حداً واحداً ، ولا يتعدد الحد بتعدد الزنى مثلاً . أما إذا أقيم عليه الحد ، ثم زنى بعد إقامة الحد ، فإنه يقام عليه الحد لزناه الواقع بعد إقامة الحد .

وقوله : تيمم : يعني : أن الجنب مثلاً الذي حكمه التيمم ، إذا أراد حمل المصحف وقراءة القرآن فيه يكفيه تيمم واحد ، ولا يلزمه أن يتيمم لكل واحد منهما .

وقوله : وذا الكثير : يعني أن الكثير في فروع هذه المسألة ، عدم تعدد الموجب الذي تعددت أسبابه .

(593/522)

وقوله : والتعدد ورد بخلف ، أو وفق يعني : أن تعدد الموجب ، لتعدد أسبابه وارد في الشرع ، وتارة يكون مجمعاً على تعدده ، وتارة يكون مختلفاً فيه فقوله : أن وفق يعني : بالوفق الاتفاق ، ومراده به الإجماع . وقد نظم العلوي الشنقيطي في نشر البنود شرح مراقي السعود ما يتعدد بتعدد سببه إجماعاً ، وما يتعدد بخلاف في شرحه لقوله في المراقي :

أو التكرر إذا ما علقا . . . بشرط أو بصفة تحققا

فقال رحمه الله :

وما تعدد بوفق غره . . . ومهر غصب الحره

عقيقة ومهر من لم تعلم . . . والثلث من بعد الخروج فاعلم

والخلف في صاع المصراة وفي . . . كفارة الظهار من نسا يفي

وهدى من نذر نحر ولده . . . غسل إنا الولغ يرى بعدده

حكاية المؤذنين وسجود . . . تلاوة وبعد تكفير يعود

قذف جماعة وثلث قبل أن . . . يخرج ثلثا قاله من قد فطن

كفارة اليمين بالله علا . . . لقصد تأسيس من الذي ائتلا

وحاصل كلامه في نظمه : أن الذي يتعدد إجماعاً خمس مسائل :

الأولى : أن من ضرب بطن حامل ، فأسقطت جنينين مثلاً ، يتعدد الواجب فيهما من غرة أو دية على ما مر تفصيله في سورة بني إسرائيل ، وهذا مراده بقوله : وما تعدد بوفق غرة أو دية .

المسألة الثانية : أن من غصب حرة فزنى بها مرات متعددة ، يتعدد عليه مهرها بتعدد الزنى بها .

والثالثة : أن من ولد له توأمان لزمته عقيقتان .

الرابعة : أن من وطئت مرات وهي غير عالمة كالنائمة ، فإنه يتعدد لها المهر بتعدد الوطء .

الخامسة : أن من نذر ثلث ماله فأخرجه ثم نذر بعد ذلك ثلثه ، فإنه يلزمه ، ومراده بهذا

واضح من النظم ، وقد يقال : إن بعض المذكورات ، لا يخلو من خلاف .

أما ما ذكر تعدده على خلاف فيه ، فهو عشر مسائل :

الأولى : صاع المصراة يعني صاع التمر الذي يرده مع المصراة إذا حلبها ، هل يتعدد بتعدد الشياه المصراة ، أو يكفي عن جميعها صاع واحد ، والأظهر في هذه التعدد .

(594/522)

الثانية : إذا ظاهر من زوجاته الأربع ، هل تتعدد كفارة الظهار بتعددهن ، أو تكفي كفارة واحدة ؟

والثالثة : إذا تكرر منه نذر ذبح ولده ، بأن نذر أنه يذبح اثنين ، أو ثلاثة من ولده ، وقلنا : يلزمه الهدي ، هل يتكرر الأولاد المنذور ذبحهم ، أو يكفي هدي واحد ؟ .

والرابعة : تعدد ولوغ الكلاب في الإناء ، هل يتعدد الغسل سبعاً بتعدد الولوغ ، أو يكفي غسله سبعاً مرة واحدة ؟ .

والخامسة : حكاية أذان المؤذنين .

والسادسة : سجود التلاوة ، إذا كرر آية السجدة مراراً في وقت واحد ، هل يكفي سجود واحداً أو لا ؟

والسابعة : إذا جامع في نهار رمضان ، ثم كفر من حينه ، ثم جامع مرة أخرى في نفس اليوم ، هل تتعدد الكفارة أو لا ؟

والثامنة : إذا قذف جماعة ، هل يتعدد عليه حد القذف بتعددهم ، أو يكفي حد واحد ؟

والتاسعة : إذا نذر ثلي ماله ، ثم نذر ثلثا آخر قبل أن يخرج الثلث الأول هل يلزمه النذر في الثلثين ، أو يكفي واحد ؟

والعاشرة : إذا حلف بالله مرات متعددة ، وقصد بكل يمين التأسيس لا التأكيد ، هل تتعدد الكفارة بتعدد الأيمان ، أو تكفي كفارة واحدة ، هذا هو حاصل مراده بالأبيات .

ولا شك أن المسائل المتفق على تعددها والمختلف فيها أكثر مما ذكر بكثير ، فمن المسائل المتفق على التعدد فيها ، ولم يذكرها من صاد ظبيين مثلاً ، وهو محرم فإنه يتكرر عليه الجزاء إجماعاً . وما روي عن أحمد من أنه يكفي جزاء واحد ، لا يصح ، كما قاله صاحب المغني ، لأنه مخالف لصريح قوله تعالى ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ [المائدة : 95] لأن الواحد لا يكون مثلاً للاثنين .

(595/522)

والحاصل : أن هذه المسألة ، إنما تعرف فروعها بالتتبع ، فقد يكفي موجب واحد مع تعدد الأسباب إجماعاً ، كتعدد نواقض الوضوء ، وأسباب الجنابة ، وتعدد سبب الحد كالزنى ، وقد يتعدد إجماعاً كالمسائل المذكورة آنفاً ، وقد يختلف في تعدده ، وعدم تعدده وهذا هو الغالب في فروع هذه المسألة ، خلافاً لما قاله الشيخ ميارة في التكميل .

فإذا علمت هذه المسألة في الجملة وعلمت أنها عند الأصوليين من المسائل المبنية على مسألة الأمر هل يقتضي التكرار أو لا يقتضيه ؟ فهذه أقوال أهل العلم ، وأدلتهم في المسألة التي نحن بصددها ، وهي ما تعدد فيه الفدية ونحوها ، بتعدد أسبابها ، وما لا تتعدد فيه .

واعلم أولاً : أن تعدد اللازم في الجماع بتعدد الجماع ، وعدم تعدده قد قدمنا أقوال أهل العلم فيه ، واستوفينا الكلام عليه .

أما مذهب مالك رحمه الله في هذه المسألة ففيه تفصيل . حاصله : أن الجماع لا يتعدد الهدي اللازم فيه بتعدده ، سواء جامع بعد إخراج الهدي عن الجماع الأول أو قبله . وأما غير الجماع من محظورات الإحرام كلبس المخيط والتطيب ، وحلق الرأس ، وقلم الأظافر ، ونحو ذلك ، فتارة تكفي عنده في ذلك فدية واحدة ، عن الجميع ، وتارة تتعدد بتعدد أسبابها .

أما موجبات عدم تعدد الفدية فهي في مذهب مالك ثلاثة .

الأولى : أن يكون فعل أسباب الفدية في وقت واحد أو بعضها بالقرب من بعض ، فإن لبس

وتطيب وحلق في وقت واحد ، فعليه فدية واحدة ، وكذلك إن فعل بعضها قريباً من بعض ، والقول الذي خرجه اللخمي بالتعدد في ذلك ضعيف ، لا يعول عليه .

الثانية : أن ينوي فعل جميعها ، بأن ينوي اللبس والتطيب والحلق فتزلمه فدية واحدة ، ولو كان بعضها بعد بعض غير قريب منه .

(596/522)

الثالثة : أن يكون فعل محظورات الإحرام أنها مباحة ، كالذي يطوف على غير وضوء في عمرته ، ثم يسعى ، ويحل ويفعل محظورات متعددة ، وكالذي يرفض إحرامه ظاناً أن الإحرام يصح رفضه ، فيفعل بعد رفضه محظورات متعددة ، وكمن أفسد إحرامه بالوطء ، ثم فعل موجبات الفدية ظاناً أن الإحرام تسقط حرمته بالفساد ، وجعل بعض المالكية من صور ظن الإباحة من ظن أن الإحرام لا يمنعه من محرماته أو لا يمنعه من بعضها . وأما ما يوجب تعدد الفدية عند المالكية ، فهو أن يفعل محظورات الإحرام مترتبة بعضها بعد بعض ، غير قريب منه ، فإنه تلزمه بكل محظور فدية ، ولو كثر ذلك سواء كانت المحظورات من نوع واحد ، كمن كرر التطيب ، أو كرر اللبس ، أو كرر الحلق في أوقات غير متقاربة ، والظاهر أن القرب بحسب العرف ، أو من أنواع كمن لبس مخيطاً ، ثم تطيب ، ثم حلق ، فإن الفدية

تتعدد في جميع ذلك ، إن لم يكن بعضه قريباً من بعض ، أو في وقت واحد ، فإن احتاج إلى لبس قميص ، ثم احتاج بعد ذلك إلى لبس سراويل ، ففدية واحدة عندهم ، لأن محل السراويل كان يستره القميص قبل لبس السراويل . أما إن احتاج إلى السراويل أولاً ، ثم احتاج بعد ذلك إلى القميص ، ففديتان ، لأن القميص يستر من أعلى بدنه شيئاً ما كان يستره السراويل .

هذا هو حاصل مذهب مالك في تعدد الفدية وعدمه في تعدد محظورات الإحرام .

(597/522)

وأما مذهب أبي حنيفة : فهو أنه إن تكرر منه موجب الفدية من نوع واحد في مجلس واحد ، فعليه كفارة واحدة ، وهي فدية الأذى إن كان ذلك لعذر ، ودم إن كان لغير عذر ، وإن فعل ذلك في مجالس متعددة تعددت الكفارة . وقال محمد : لا تتعدد إلا إذا كفر عن الأول قبل فعل الثاني ، فلو لبس قميصاً وقباء وسراويل وخفين يوماً كاملاً لزمه دم واحد أو فدية واحدة ، لأنها من جنس واحد فصارت كجناية واحدة ، وكذلك لو دام على لبس ذلك أياماً ، وكذا لو كان ينزعه بالليل ، ويلبسه بالنهار ، لا يجب عليه إلا دم واحد ، إلا إذا نزعه على عزم الترك ، ثم لبسه بعد ذلك ، فإنه يجب عليه دم آخر ، لأن اللبس الأول انفصل عن

الثاني بالعزم على الترك ، وكذا لو لبس قميصاً للضرورة ولبس خفين من غير ضرورة فعليه دم وفدية ، لأن السبب اختلف فلا يمكن التداخل ، وكذلك لو طيب جميع أعضائه ، فإن كان في مجلس واحد فعليه دم واحد ، إن كان لغير عذر ، وفدية واحدة ، إن كان ذلك لعذر ، وإن كان تطييب أعضائه في مجالس تعددت الفدية أو الدم بتعدد الأعضاء التي طيبها في قول أبي حنيفة ، وأبي يوسف ، سواء ذبح للأول أو لم يذبح .

وقال محمد : إن ذبح للأول ، فكذلك ، وإن لم يذبح فعليه دم واحد ، وإن اختلفت أسباب الفدية ، كمن تطيب ، ولبس مخيطاً أو تطيب ، وغطى رأسه يوماً كاملاً مثلاً ، تعددت الفدية ، أو الدم سواء كان ذلك في مجلس واحد ، أو في مجلسين . وقد قدمنا أنه لا خلاف في تعدد جزاء الصيد بتعدد الصيد . وما روي عن أحمد مما يخالف ذلك ، لم يصح لمخالفته صريح القرآن العظيم .

هذا هو حاصل مذهب أبي حنيفة ، في المسألة .

(598/522)

وأما مذهب أحمد في هذه المسألة فهو : أنه إن فعل محظورات متعددة من جنس واحد ، كما لو حلق مرة بعد مرة ، أو لبس مرة بعد مرة ، أو تطيب مرة بعد مرة : فعليه فدية واحدة

، ولا تتعدد الفدية بتعدد الأسباب ، التي هي من نوع واحد ، سواء كانت في مجلس واحد ، أو مجالس متفرقة ، ومحل هذا ما لم يكفر عن الفعل الأول ، قبل الفعل الثاني . فلو تطيب مثلاً ، ثم افتدى ثم تطيب بعد الفدية لزمته فدية أخرى ، لتطيبه بعد أن افتدى .

وعن أحمد : أنه إن كرر ذلك لأسباب مختلفة ، مثل أن لبس للبرد ، ثم لبس للحر ، ثم لبس للمرض فكفارات ، وإن كان لسبب واحد فكفارة واحدة وقد روى عنه الأثرم فيمن لبس قميصاً وجبة وعمامة وغير ذلك لعلة واحدة .

قلت له : فإن اعتل فلبس جبة ، ثم برأ ثم اعتل فلبس جبة ، قال : هذا الآن عليه كفارتان قاله في المغني ، ثم قال : وعن الشافعي كقولنا ، وعنه لا يتداخل . وقال مالك : تتداخل كفارة الوطء دون غيره ، وقال أبو حنيفة : إن كرره في مجلس واحد فكفارة واحدة ، وإن كان في مجالس فكفارات ، لأن حكم المجلس الواحد حكم الفعل الواحد ، بخلاف غيره ، ولنا أنما يتداخل إذا كان بعضه عقب بعض ، يجب أن يتداخل ، وإن تفرق كالحدود وكفارة الأيمان ، ولأن الله تعالى أوجب في حلق الرأس : فدية واحدة ، ولم يفرق بين ما وقع في دفعة أو دفعات ، والقول بأنه لا يتداخل غير صحيح ، فإنه إذا حلق رأسه لا يمكن إلا شيئاً بعد شيء .

انتهى من المغني .

وأما إن كانت المحظورات من أجناس مختلفة ، كأن حلق ، ولبس ، وتطيب ، ووطئ فعليه

لكل واحد منها فدية ، سواء فعل ذلك مجتمعاً أو متفرقاً . قال في المغني : وهذا مذهب الشافعي .

وعن أحمد : أن في الطيب واللبس والحلق فدية واحدة ، وإن فعل ذلك واحداً بعد واحد ، فعليه لكل واحد دم ، وهو قول إسحاق .

وقال عطاء وعمرو بن دينار : إذا حلق ثم احتاج إلى الطيب أو إلى قلنسوة أو إليهما ، ففعل ذلك ، فليس عليه إلا فدية .

(599/522)

وقال الحسن : إن لبس القميص ، وتعمم ، وتطيب فعل ذلك جميعاً : فليس عليه إلا كفارة واحدة ، ونحو ذلك عن مالك .

ولنا أنها محظورات مختلفة الأجناس ، فلم تتداخل أجزاؤها كالحدود المختلفة ، والأيمان المختلفة ، وعكسه ما إذا كان من جنس واحد . ا ه من المغني .

وهذا هو حاصل مذهب أحمد في المسألة .

وأما مذهب الشافعي في هذه المسألة : فهو أن المحظورات تنقسم عند الشافعية إلى استهلاك ، كالحلق ، والقلم ، والصيد وإلى استمتاع ، وترفه كالطيب ، واللباس ،

ومقدمات الجماع فإذا فعل محظورين ، فله ثلاثة أحوال :

أحدها : أن يكون أحدهما : استهلاكاً والآخر : استمتاعاً ، فينظر إن لم يستند إلى سبب واحد ، كالحلق ، ولبس القميص تعددت الفدية كالحدود المختلفة ، وإن استند إلى سبب واحد ، كمن أصابت رأسه شجة ، واحتاج إلى حلق جوانبها ، وسترها بضماد ، وفيه طيب ، ففي تعدد الفدية وجهان ، والصحيح منهما تعددها .

الحال الثاني : أن يكون استهلاكاً وهو على ثلاثة أضرب :

الأول : أن يكون مما يقابل بمثله ، وهو الصيد . فتتعدد الفدية بتعدده ، بلا خلاف عندهم ، سواء فدى عن الأول ، أم لا ، وسواء اتحد الزمان والمكان ، أو اختلفا كضمان المتلفات .

الضرب الثاني : أن يكون أحدهما مما يقابل بمثله ، دون الآخر كالصيد والحلق فتتعدد بلا خلاف .

(600/522)

الضرب الثالث : أن لا يقابل واحد منهما بمثله ، فينظر إن اختلف نوعهما كحلق وطيب أو لباس وحلق ، تعددت الفدية ، سواء فرق بينهما أو والى في مكان أو مكانين بفعلين أو بفعل واحد ، وإن لبس ثوباً مطيباً فوجهان عندهم ، الصحيح المنصوص منهما : أن عليه فدية

واحدة ، والثاني : عليه فديتان ، وإن اتحد النوع ، فإن كرر الحلق ، وكان ذلك في وقت واحد : لزمته فدية واحدة ، كمن يحلق رأسه شيئاً بعد شيء في وقت واحد ، ولو طال الزمان ، وهو في أثناء الحلق ، فهو كما لو حلف لا يأكل في اليوم إلا مرة واحدة ، فوضع الطعام ، وجعل يأكل لقمة لقمة من بكرة إلى العصر ، فإنه لا يحنث عندهم .

وأما إن كان الحلق في أمكنة متعددة أو في مكان واحد في أوقات متفرقة ففيه عندهم طريقان .

أصحهما : تتعدد الفدية فتفرد كل مرة بحكمها ، فإن كان حلق في كل مرة ثلاث شعرات فصاعداً ، وجب لكل مرة فدية وإن كانت شعرة أو شعرتين ، ففيها الأقوال السابقة الأربعة : وهي أنه قيل في الشعرة الواحدة مد . وقيل : درهم . وقيل : ثلث دم . وقيل : دم كامل وحكم الشعرتين معروف من هذا كما تقدم إيضاحه .

الطريق الثاني : أن في المسألة قولين : بالتعدد ، وعدمه ، وعدم التعدد : هو القديم ، والتعدد : هو الجديد . وإن حلق عندهم ثلاث شعرات في ثلاثة أمكنة أو ثلاثة أزمنة متفرقة ففي ذلك عندهم طريقان ، أصحهما ، أنه يفرد كل شعرة بحكمها ، وفيها الأقوال الأربعة الماضية .

والطريق الثاني : هو تفريع ذلك على القول ، بالتداخل وعدمه . فإن قلنا بالتداخل : لزمته فدية كاملة ، لأنه كأنه قطع الشعرات الثلاث في وقت واحد ، وإن قلنا : بعدمه ، وهو

الصحيح عندهم ، فلكل شعرة حكمها كما تقدم في الطريق الصحيح عندهم . ولو أخذ ثلاث شعرات في وقت واحد من ثلاثة مواضع من بدنه . ففيه عندهم طريقان :

أصحهما : لزوم الفدية ، كما لو أخذها من موضع واحد .

والطريق الثاني : فيه وجهان أحدهما : هذا الذي ذكرناه آنفاً .

(601/522)

والثاني : أنه كما لو أزالهما في أزمنة متفرقة ، أو أمكنة متفرقة ، فيجزي على الخلاف في ذلك أو قد قدمنا أن حكم الأظفار عندهم كحكم الشعر .

الحال الثالث : أن يكون استمتاعاً ، فإن اتحد النوع بأن تطيب بأنواع من الطيب أو لبس أنواعاً من الثياب كعمامة وقميص وسراويل ، وخف أو استعمل نوعاً واحداً مرات ، فإن فعل ذلك متوالياً من غير أن يتخلله تكفير عن الأول ففيدة واحدة تكفي للجميع ، وإن تخلله تكفير وجبت الفدية للثاني أيضاً ، وإن فعل ذلك في مكانين ، أو زمانين متفرقين فإن تخللهما تكفير : وجبت الفدية للثاني ، وإن لم يتخللهما تكفير فقولان الأصح عندهم منهما ، وهو الجديد : تعدد الفدية ، والقديم : تتداخل ، ولا تتعدد وإن اختلف النوع ، بأن لبس وتطيب في مجلس واحد ، قبل أن يكفر عن الأول منهما أو فعلهما معاً ، ففيه ثلاثة أوجه

مشهورة عندهم .

أصحها : تعدد الفدية لاختلاف نوع السبب .

الثاني : تجب فدية واحدة ، لأنهما استمتاع ، فيتداخلان ، لاتحاد الجنس .

الثالث : التفصيل ، فإن اتحد سببهما بأن أصابته شجة ، واحتاج في مداواتها إلى طيب وسترها . لزمته فدية واحدة ، وإن لم يتحد السبب : ففديتان ، وهذا كله في غير الجماع ، وقد قدمنا حكم تعدد الجماع ، وفيه للشافعية خمسة أقوال :

أصحها : تجب بالجماع الأول : بدنة ، وبالثاني : شاة .

والثاني : تجب بكل جماعة بدنة .

الثالث : تكفي بدنة واحدة عن الجميع .

الرابع : إن كفر عن الأول ، قبل الجماع الثاني وجبت الكفارة للثاني : وهي شاة في الأصح ، وبدنة في القول الآخر ، وإن لم يكن كفر عن الأول كفته بدنة عنهما .

والخامس : إن طال الزمان بين الجماعين أو اختلف المجلس : وجبت كفارة أخرى للثاني ، وفيها القولان . وإلا فكفارة واحدة ، وإن وطئ مرة ثالثة ورابعة ، أو أكثر ففيه الأقوال المذكورة ، الأظهر : تجب للأول بدنة ، ولكل جماع بعد ذلك شاة .

(602/522)

والثاني : تجب بكل جماع بدنة إلى آخر الأقوال المذكورة آنفاً . هذا هو حاصل مذهب الشافعي في المسألة .

ولنكتف هنا بما ذكرنا من أحكام الحج في الكلام على آية الحج هذه خوف الإطالة المملة .

تنبيهان

الأول : اعلم أن مسألة الإحصار والفوات قد قدمنا الكلام عليها مستوف في سورة البقرة ، ومسألة الصيد وجزائه في الإحرام ، أو أحد الحرمين ، وأشجار الحرمين ، ونباتهما ونحو ذلك وصيد وج قد قدمنا الكلام عليها مستوفى في سورة المائدة ، وأحكام الهدي سيأتي تفصيلها إن شاء الله في الآيات الدالة عليها من سورة الحج هذه .

التنبيه الثاني : اعلم أن جميع ما ذكرنا في هذا الفصل من تعدد الفدية ، وعدم تعددها ، إذا تعددت أسبابها لا نص فيه من كتاب ، ولا سنة فيما نعلم ، واختلاف أهل العلم فيه كما ذكرنا من نوع الاختلاف في تحقيق المناط . والعلم عند الله تعالى .

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28)

قوله تعالى : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ .

اللام في قوله : ليشهدوا : هي لام التعليل : وهي متعلقة بقوله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِي الناس

بالحج يَأْتُوكَ رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ [الحج : 27] الآية : أي إن تؤذن فيهم يأتوك مشاة وركباناً ، لأجل أن يشهدوا : أي يحضروا منافع لهم ، والمراد بحضورهم المنافع : حصولها لهم .

وقوله : ﴿ مَنَافِعَ ﴾ جمع منفعة ، ولم يبين هنا هذه المنافع ما هي . وقد جاء بيان بعضها في بعض الآيات القرآنية ، وأن منها ما هو دنيوي ، وما هو أخروي ، أما الدنيوي فكأرباح التجارة ، إذا خرج الحاج بمال تجارة معه ، فإنه يحصل له الربح غالباً ، وذلك نفع دنيوي .

(603/522)

وقد أطبق علماء التفسير على أن معنى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : 198] أنه ليس على الحاج إثم ولا حرج ، إذا ابتغى ربحاً بتجارة في أيام الحج ، إن كان ذلك لا يشغله عن شيء ، من أداء مناسكه كما قدمنا إيضاحه .

فقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فيه بيان لبعض المنافع المذكورة في آية الحج هذه وهذا نفع دنيوي .

ومن المنافع الدنيوية ما يصيبونه من البدن والذبائح كما يأتي تفصيله إن شاء الله قريباً كقوله في البدن : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الحج : 33] على أحد التفسيرين .

وقوله : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ في الموضعين ، وكل ذلك نفع دنيوي ، وفي ذلك بيان أيضاً لبعض المنافع المذكورة في آية الحج هذه .

وقد بينت آية البقرة على ما فسرها به جماعة من الصحابة ومن بعدهم ، واختاره أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسيره ، ووجه اختياره له ، بكثرة الأحاديث الدالة عليه : أن من المنافع المذكورة في آية الحج : غفران ذنوب الحاج ، حتى لا يبقى عليه إثم إن كان متقياً ربه في حجه بامتثال ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه .

وذلك أنه قال : إن معنى قوله تعالى : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 203] أن الحاج يرجع مغفوراً له ، ولا يبقى عليه إثم سواء تعجل في يومين ، أو تأخر إلى الثالث ، ولكن غفران ذنوبه هذا مشروط بتقواه ربه في حجه ، كما صرح به في قوله تعالى : ﴿ لِمَنِ اتقى ﴾ [البقرة : 203] الآية : أي وهذا الغفران للذنوب ، وحط الآثام إنما هو لخصوص من اتقى .

ومعلوم أن هذه الآية الكريمة فيها أوجه من التفسير غير هذا .

(604/522)

وممن نقل عنهم ابن جرير أن معناها : أنه يغفر للحاج جميع ذنوبه ، سواء تعجل في يومين ، أو تأخر : علي وعبدالله بن مسعود ، وابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، وإبراهيم ، وعامر ، ومعاوية بن قرة .

ولما ذكر أقوال أهل العلم فيها قال وأولى هذه الأقوال بالصحة قول من قال : تأويل ذلك : فمن تعجل من أيام منى الثلاثة ، فنفر في اليوم الثاني ، فلا إثم عليه ، يحط الله ذنوبه إن كان قد اتقى في حجه ، فاجتنب فيه ما أمر الله باجتنابه ، وفعل فيه ما أمر الله بفعله ، وأطاعه بأدائه على ما كلفه من حدوده ، ومن تأخر إلى اليوم الثالث منهن ، فلم ينفر إلى النفر الثاني ، حتى نفر من غد النفر الأول ، فلا إثم عليه ، لتكفير الله ما سلف من آثامه ، وإجرامه إن كان اتقى الله في حجه بأدائه بحدوده .

(605/522)

وإنما قلنا إن ذلك أولى تأويلاته : لتظاهر الأخبار ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه " وأنه قال " تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة " وساق ابن جرير رحمه الله بأسانيده أحاديث دالة على ذلك ففي لفظ له أن النَّبي

صلى الله عليه وسلم قال : " تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديث والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب دون الجنة " وفي لفظ له ، عن عمر يبلغ به النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " تابعوا بين الحج والعمرة فإن المتابعة بينهما تنفي الفقر والذنوب كما ينفي الكير الخبث أو خبث الحديد " وفي لفظ له عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا قضيت حجك فأنت مثل ما ولدتك أمك " وما أشبه ذلك من الأخبار التي يطول بذكر جميعها الكتاب مما ينبئ عن أن من حج ، فقضاه بحدوده على ما أمره الله ، فهو خارج من ذنوبه كما قال جل ثناؤه ﴿ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتقى ﴾ [البقرة : 203] وأن قول من قال : إن سبب النزول أن بعضهم كان يقول : التعجل لا يجوز ، وبعضهم يقول : التأخر لا يجوز .

فمعنى الآية : النهي عن تخطئة المتأخر المتعجل كعكسه : أي لا يؤثمن أحدهما الآخر أن هذا القول خطأ ، لمخالفته لقول جميع أهل التأويل .

(606/522)

والحاصل : أنه أعني الطبري بين كثيراً من الأدلة على أن معنى الآية : هو ما ذكر من أن الحاج يخرج مغفوراً له ، كيوم ولدته أمه ، لا إثم عليه ، سواء تعجل في يومين ، أو تأخر ، وقد يظهر

للناظر أن ربط نفي الإثم في قوله : ﴿ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ بالتعجل والتأخر في الآية ربط الجزاء بشرطه يتبادر منه ، أن نفي الإثم إنما هو في التعجل والتأخر ، ولكن الأدلة التي أقامها أبو جعفر الطبري ، على المعنى الذي اختار فيها فيه مقنع ، وتشهد لها أحاديث كثيرة ، وخير ما يفسر به القرآن بعد القرآن سنة النَّبي صلى الله عليه وسلم .

فقوله في آية البقرة هذه ﴿ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم " رجع كيوم ولدته أمه "

وقوله : ﴿ لِمَنِ اتقى ﴾ [البقرة : 203] هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم " من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق " لأن من يرفث ، ولم يفسق ، هو الذي اتقى .

ومن كلام ابن جرير الطويل الذي أشرنا إليه أنه قال : ما نصه : فإن قال قائل ما الجالب للام في قوله : ﴿ لِمَنِ اتقى ﴾ وما معناها ؟

قيل : الجالب لها معنى قوله : ﴿ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ، لأن في قوله : ﴿ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ معنى : حططنا ذنوبه ، وكفرنا آثامه ، فكان في ذلك معنى : جعلنا تكفير الذنوب لمن اتقى الله في حجه ، وترك ذكر جعلنا تكفير الذنوب اكتفاء بدلالة قوله : ﴿ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 203] ، وقد زعم بعض نحويي البصرة أنه كأنه إذا ذكر هذه الرخصة ، فقد أخبر عن أمر فقال : ﴿ لِمَنِ اتقى ﴾ [البقرة : 203] أي هذا لمن اتقى ، وأنكر بعضهم ذلك من قوله :

وقد زعم أن الصفة لا بد لها من شيء تتعلق به : لأنها لا تقوم بنفسها ، ولكنها فيما زعم من صلة قول متروك .

(607/522)

فكان معنى الكلام عنده ما قلنا : من أن من تأخر لا إثم عليه لمن اتقى ، وقال قوله : ﴿ وَمَن تَأَخَّرَ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 203] مقام القول . انتهى محل الغرض من كلام ابن جرير .

وعلى تفسير هذه الآية الكريمة بأن معنى ﴿ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ في الموضعين : أن الحاج يغفر جميع ذنوبه ، فلا يبقى عليه إثم ، فغفران جميع ذنوبه هذا الذي دل عليه هذا التفسير من أكبر المنافع المذكورة في قوله : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ وعليه فقد بينت آية البقرة هذه بعض ما دلت عليه آية الحج ، وقد أوضحت السنة هذا البيان بالأحاديث الصحيحة التي ذكرنا كحديث " من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه " وحديث " الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة " ومن تلك المنافع التي لم يبينها القرآن حديث " إن الله يباهي بأهل عرفة أهل السماء " الحديث كما تقدم . ومن تلك المنافع التي لم يبينها القرآن تيسر اجتماع المسلمين من أقطار الدنيا في أوقات معينة ، في أماكن معينة ليشعروا بالوحدة

الإسلامية ، ولتمكن استفادة بعضهم من بعض ، فيما يهم الجميع من أمور الدنيا والدين ، وبدون فريضة الحج ، لا يمكن أن يتسنى لهم ذلك ، فهو تشريع عظيم من حكيم خبير ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ .

قوله : ويذكروا منصوب بحذف النون ، لأنه معطوف على المنصوب ، بأن المضمرة بعد لام التعليل أعني قوله : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ .

(608/522)

وإيضاح المعنى : وأذن في الناس بالحج يأتوك مشاة وركباناً ، لأجل أن يشهدوا منافع لهم ، ولأجل أن يتقربوا إليه بإراقة دماء ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، مع ذكرهم اسم الله عليها عند النحر والذبح ، وظاهر القرآن يدل على أن هذا التقرب بالنحر في هذه الأيام المعلومات ، إنما هو الهدايا لا الضحايا ، لأن الضحايا لا يحتاج فيها إلى الأذان بالحج ، حتى يأتي المضحون مشاة وركباناً ، وإنما ذلك في الهدايا على ما يظهر ، ومن هنا ذهب مالك ، وأصحابه إلى أن الحاج بمنى لا تلزمه الأضحية ولا تسن له ، وكل ما يذبح في ذلك المكان والزمان ، فهو يجعله هدياً لا أضحية .

وقوله : ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ ﴾ أي على نحر وذبح ما رزقهم ﴿ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ ليتقربوا إليه بدمائها ، لأن ذلك تقوى منهم ، فهو يصل إلى ربهم كما في قوله تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ الله لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ ﴾ [الحج : 37] وقد بين في بعض المواضع أنه لا يجوز الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه منها كقوله : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام : 121] الآية . وقوله : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام : 119] وقد بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه جعل الحرم المكي منسكاً تراق فيه الدماء تقرباً إلى الله ، ويذكر عليها عند تذكيتها اسم الله ، ولم يبين في هذه الآية ، هل وقع مثل هذا لكل أمة أو لا ، ولكنه بين في موضع آخر : أنه جعل مثل هذا لكل أمة من الأمم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِّيَذْكُرُواْ اسم الله على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ [الحج : 34] .

(609/522)

وإذا علمت أن من حكم الأذان في الناس بالحج ، ليأتوا مشاة ، وركباناً تقربم إلى ربهم بدماء الأنعام ، ذاكرين عليها اسم الله عند تذكيتها ، وأن الآية أقرب إلى إرادة الهدي من إرادة الأضحية ، فدونك تفصيل أحكام الهدايا التي دعوا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم

منها .

اعلم أولاً : أن الهدي قسمان : هدي واجب ، وهدي غير واجب بل تطوع به صاحبه تقرباً لله تعالى ، والأيام المعلومات التي ذكر الله عز وجل أنه يذبح فيها ، ويذكر عليه اسم الله فيها ، للعلماء فيها أقوال كثيرة . والتحقيق إن شاء الله تعالى : أن غير اثنين من تلك الأقوال الكثيرة باطل لا يعول عليه ، وأن المعول عليه منها اثنان ، لأن القرآن دل على أن الأيام المعلومات : هي أيام النحر ، بدليل قوله : ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ وذكرهم الله عليها يعني : التسمية عند تذكيتها . فاتضح أنها أيام النحر ، والقولان المعول عليهما دون سائر الأقوال الأخرى أحدهما : أنها يوم النحر : ويومان بعده ، وعليه فلا يذبح الهدي ، ولا الأضحية في اليوم الأخير من أيام منى ، الذي هو اليوم الثالث عشر من ذي الحجة .

قال ابن قدامة في المغني : وهذا القول نص عليه أحمد وقال : وهو عن غير واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورواه الأثرم عن ابن عمر وابن عباس ، وبه قال مالك والثوري ، ويروى عن علي رضي الله عنه أنه قال : أيام النحر : يوم الأضحى ، وثلاثة أيام بعده .

وبه قال الحسن ، وعطاء ، والأوزاعي ، والشافعي ، وابن المنذر . انتهى محل الغرض منه .

وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسير هذه الآية : اختلفوا كم أيام النحر . فقال مالك : ثلاثة ،

يوم النحر ويومان بعده ، وبه قال أبو حنيفة ، والثوري ، وأحمد بن حنبل . وروي ذلك عن أبي هريرة ، وأنس بن مالك ، من غير اختلاف عنهما .

(610/522)

وقال الشافعي : أربعة أيام ، يوم النحر ، وثلاثة بعده ، وبه قال الأوزاعي ، وروي ذلك عن علي رضي الله عنه ، وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم . وروى عنهم أيضاً مثل قول مالك وأحمد . ا ه محل الغرض منه .

وقال أيضاً : قال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على أن يوم النحر : يوم أضحى . وأجمعوا على ألا أضحى بعد انسلاخ ذي الحجة ، ولا يصح عندي في هذه إلا قولان :

أحدهما : قول مالك والكوفيين .

والآخر : قول الشافعي ، والشاميين ، وهذان القولان مرويان عن الصحابة ، فلا معنى للاشتغال بما خالفهما ، لأن ما خالفهما لا أصل له في السنة ، ولا في قول الصحابة ، وما خرج عن هذين فمتروك لهما ا ه .

وقال النووي في شرح المهذب : في وقت ذبح الهدي طريقان : أصحهما وبه قطع العراقيون وغيرهم : أنه يختص بيوم النحر وأيام التشريق ، والثاني : فيه وجهان أصحهما : هذا ،

والثاني : لا يختص بزمان كدماء الجبران . فعلى الصحيح لو أخر الذبح ، حتى مضت هذه الأيام ، فإن كان الهدي واجباً : لزمه ذبحه ، ويكون قضاء ، وإن كان تطوعاً فقد فات الهدي .

قال الشافعي والأصحاب : فإن ذبحه كان شاة لحم لا نسكاً . ا ه محل الغرض منه .

وذكر النووي عن الرافعي : أنه في بعض المواضع من كتابه في باب صفة الحج ، جزم بأنه لا يختص بيوم النحر ، وأيام التشريق ، وأنه ذكر المسألة على الصواب في باب الهدي .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : القول بعدم الاختصاص بيوم النحر ويومين أو ثلاثة بعده ظاهر البطلان ، لأن عدم الاختصاص يجعل زمن النحر مطلقاً ، ليس مقيداً بزمان ، وهذا يرده صريح قوله ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ فجعل ظرفه أياماً معلومات يرد الإطلاق في الزمن رداً لا ينبغي أن يختلف فيه كما ترى .

(611/522)

وقال النووي أيضاً في شرح المهذب : اتفق العلماء على أن الأيام المعدودات هي : أيام التشريق ، وهي ثلاثة بعد يوم النحر ا ه .

ولا وجه للخلاف في ذلك ، مع أنه يدل عليه قوله تعالى متصلاً به : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ

فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 203] الآية ، والمراد بذلك : أيام الرمي التي هي أيام التشريق كما ترى ، ثم قال النووي : وأما الأيام المعلومات فمذهبنا : أنها العشر الأوائل من ذي الحجة إلى آخر يوم النحر .

انتهى محل الغرض منه . وعزا ابن كثير هذا القول لابن عباس قال : وعلقه عنه البخاري بصيغة الجزم ، ونقله ابن كثير أيضاً عن أبي موسى الأشعري ، ومجاهد ، وقتادة ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، والضحاك ، وعطاء الخراساني ، وإبراهيم النخعي ، قال : وهو مذهب الشافعي ، والمشهور عن أحمد بن حنبل ، ثم شرع يذكر الأحاديث الدالة على فضل الأيام العشرة الأول من ذي الحجة .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : تفسير الأيام المعلومات في آية الحج هذه : بأنها العشر الأول من ذي الحجة إلى آخر يوم النحر ، لا شك في عدم صحته ، وإن قال به من أجلاء العلماء ، وبعض أجلاء الصحابة من ذكرنا .

(612/522)

والدليل الواضح على بطلانه أن الله بين أنها أيام النحر بقوله : ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ وهو ذكره بالتسمية عليها عند ذبحها تقرباً إليه

كما لا يخفى ، والقول : بأنها العشرة المذكورة ، يقتضي أن تكون العشرة كلها أيام نحر ، وأنه لا نحر بعدها ، وكلا الأمرين باطل كما ترى ، لأن النحر في التسعة التي قبل يوم النحر لا يجوز والنحر في اليومين ، بعده جائز . وكذلك الثالث عند من ذكرنا ، فبطلان هذا القول واضح كما ترى . ثم قال النووي متصلاً بكلامه الأول ، وقال مالك : هي ثلاثة أيام : يوم النحر ، ويومان بعده فالحادي عشر ، والثاني عشر عنده من المعلومات ، والمعدودات .

وقال أبو حنيفة المعلومات : ثلاثة أيام : يوم عرفة والنحر والحادي عشر . وقال علي رضي الله عنه : المعلومات أربعة : يوم عرفة والنحر ويومان بعده .

وفائدة الخلاف : أن عندنا يجوز ذبح الهدايا والضحايا في أيام التشريق كلها ، وعند مالك ، لا يجوز في اليوم الثالث . هذا كلام صاحب البيان انتهى من النووي . وقد سكت على كلام صاحب البيان : وهو باطل بطلاناً واضحاً ، لأن القول بأن الأيام المعلومات هي العشرة الأول ، لا يدل على جواز الذبح فيما بعد يوم النحر لأنه آخرها ، وقد يدل على جواز الذبح قبل يوم النحر في جميع التسعة الأول ، لأن القرآن دل على أن الأيام المعلومات ، هي ظرف الذبح كما بينا مراراً فإن كانت هي العشرة كانت العشرة هي ظرف الذبح . فلا يجوز فيما قبلها ولا ما بعدها ، ولكنه يجوز في جميعها ، وبطلان هذا واضح كما ترى ، ثم قال النووي متصلاً بكلامه السابق .

وقال العبدري : فائدة وصفه بأنه معلوم جواز النحر فيه ، وفائدة وصفه بأنه معدود انقطاع الرمي فيه .

(613/522)

وقال : وبمذهبنا قال أحمد ، وداود ، وقال الإمام أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره : قال أكثر المفسرين الأيام المعلومات : هي عشر ذي الحجة . قال : وإنما قيل لها معلومات للحرص على علمها من أجل أن وقت الحج في آخرها .

قال : وقال مقاتل : المعلومات أيام التشريق . وقال محمد بن كعب : المعلومات والمعدودات واحد .

قلت : وكذا نقل القاضي أبو الطيب والعبدري ، وخلائق إجماع العلماء على أن المعدودات : هي أيام التشريق . وأما ما نقله صاحب البيان عن ابن عباس فخلاف المشهور عنه .

فالصحيح المعروف عن ابن عباس : أن المعلومات : أيام العشر كلها كمذهبنا ، وهو مما احتج به أصحابنا ، كما سأذكره قريباً إن شاء الله . واحتج لأبي حنيفة ، ومالك بأن الله تعالى قال : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن

بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ وأراد بذكر اسم الله في الأيام المعلومات : تسمية الله تعالى على الذبح ، فينبغي أن يكون ذكر اسم الله تعالى في جميع المعلومات ، وعلى قول الشافعي : لا يكون ذلك إلا في يوم واحد منها ، وهو يوم النحر . واحتج أصحابنا بما رواه سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : قال : الأيام المعلومات : أيام العشر ، والمعدودات : أيام التشريق . رواه البيهقي بإسناد صحيح .

واستدلوا أيضاً بما استدل به المزني في مختصره : وهو أن اختلاف الأسماء ، يدل على اختلاف المسميات ، فلما خولف بين المعدودات والمعلومات في الاسم دل على اختلافهما ، وعلى ما يقول المخالفون يتداخلان في بعض الأيام ، والجواب عن الآية من وجهين :

أحدهما : جواب المزني : أنه لا يلزم من سياق الآية : وجود الذبح في الأيام المعلومات ، بل يكفي وجوده في آخرها وهو يوم النحر .

قال المزني والأصحاب : ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [نوح : 16] وليس هو نوراً في جميعها ، بل في بعضها .

(614/522)

الثاني : أن المراد بالذكر في الآية الذكر على الهدايا ، ونحن نستحب لمن رأى هدياً أو شيئاً من بهيمة الأنعام في العشر أن يكبر ، والله أعلم . انتهى كلام النووي .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي والله تعالى أعلم : أن مذهب الشافعية في الأيام المعلومات ، خلاف الصواب ، وإن قال به من قال من أجلاء العلماء ، وأن الأجوبة التي أجابوا بها عن الاعتراضات الواردة عليه ، لا ينهض شيء منها لما قدمنا من أن الله بين في كتابه ، أن الأيام المعلومات هي ظرف الذبح والنحر ، فتفسيرها بأنها العشرة الأول ، يلزمه جواز الذبح في جميعها ، وعدم جوازه بعد غروب شمس اليوم العاشر ، وهذا كله باطل كما ترى .

وزعم المزني رحمه الله : أن الآية كقوله ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ ظاهر السقوط ، لأن كون القمر كوكباً واحداً والسموات سبعاً طباقاً قرينة دالة على أنه في واحدة منها دون الست الأخرى .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ فظاهره المتبادر منه أن جميع الأيام المعلومات ظرف لذكر الله على الذبائح ، وليس هنا قرينة تخصصه ببعضها دون بعض . فلا يجوز التخصيص ببعضها ، إلا بدليل يجب الرجوع إليه ، وليس موجوداً هنا وتفسيرهم ذكر اسم الله عليها ، بأن معناه : أن من رأى هدياً أو شيئاً من بهيمة الأنعام في العشر استحب له أن يكبر ، وأن ذلك التكبير هو ذكر الله على ما

رزقهم من بهيمة الأنعام ، ظاهر السقوط كما ترى ، لأنه مخالف لتفسير عامة المفسرين للآية الكريمة ، والتحقيق في تفسيرها ما هو مشهور عند عامة أهل التفسير ، وهو ذكر اسم الله عليها عند التذكية ، كما دل عليه قوله بعده مقترناً به ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ البَآئِسَ الفقير ﴾ الآية .

(615/522)

وقوله : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام : 121] الآية . وقوله : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام : 119] الآية وتداخل الأيام لا يمنع من مغايرتها ، لأن الأعمين من وجه متغايران إجماعاً مع تداخلهما في بعض الصور .

ومما يبطل القول بأن الأيام المعلومات هي العشرة المذكورة أن كونها العشرة المذكورة يستلزم عدم جواز الذبح بعد غروب شمس اليوم العاشر ، وهو خلاف الواقع لجواز الذبح في الحادي عشر والثاني عشر ، بل والثالث عشر عند الشافعية . والتحقيق إن شاء الله في هذه المسألة : أن الأيام المعدودات : هي أيام التشريق التي هي أيام رمي الجمرات . وحكى عليه غير واحد الإجماع ، ويدل عليه قوله تعالى متصلاً به ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 203] الآية ، وأن الأيام المعلومات : هي : أيام

النحر ، فيدخل فيها يوم النحر واليومان بعده ، والخلاف في الثالث عشر ، هل هو منها كما مر تفصيله ، وقد رجح بعض أهل العلم أن الثالث عشر منها . ورجح بعضهم : أنه ليس منها .

وقد قال ابن قدامة في المغني في ترجيح القول بأنه ليس منها : ما نصه : ولنا " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الأكل من النسك ، فوق ثلاث " وغير جائز أن يكون الذبح مشروعاً في وقت يحرم فيه الأكل ، ثم نسخ تحريم الأكل ، وبقي وقت الذبح بحاله ، ولأن اليوم الرابع : لا يجب فيه الرمي ، فلم يجز فيه الذبح كالذي بعده .

ومما رجح به بعضهم أن اليوم الرابع منها : أنه يؤدي فيه بعض المناسك : وهو الرمي ، إذا لم يتعجل فهو كسابقيه من أيام التشريق ، والعلم عند الله تعالى .

(616/522)

ومما يوضح أن الأيام المعلومات ، هي : أيام النحر ، سواء قلنا إنها ثلاثة ، أو أربعة : أن الله نص على أنها هي التي يذكر فيها اسم الله : أي عند التذكية ، على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، كما قدمنا إيضاحه .

وإذا عرفت كلام أهل العلم في الأيام المعلومات ، التي هي زمن الذبح .

فاعلم : أن العلماء اختلفوا في ليالها ، هل يجوز فيها الذبح ؟ فذهب مالك ، وأصحابه : إلى أنه لا يجوز ذبح النسك ليلاً ، فإن ذبحه ليلاً لم يجز ، وتصير شاة لحم لا نسك ، وهو رواية عن أحمد ، وهي ظاهر كلام الخرقي .

وذهب الشافعي ، وأصحابه : إلى جواز الذبح ليلاً قال النووي : وبه قال أبو حنيفة ، وإسحاق ، وأبو ثور والجمهور وهو الأصح عن أحمد .

وحجة من قال لا يجوز الذبح ليلاً : أن الله خصصه بلفظ الأيام في قوله ﴿ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ قالوا : وذكر اليوم يدل على أن الليل ليس كذلك .

وحجة من أجازه : أن الأيام تطلق لغة على ما يشمل الليالي ، وتخصيصه بالأيام أحوط ، لمطابقة لفظ القرآن والعلم عند الله تعالى .

وإذا علمت وقت نحر الهدي وأن الهدي نوعان : واجب ، وغير واجب ، وهو هدي التطوع ، فهذه تفاصيل أحكام كل منهما .

أما الهدي الواجب فهو بالتقسيم الأول نوعان .

أحدهما : هدي واجب بالنذر ، وسيأتي الكلام عليه ، إن شاء الله في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج : 29] . وهدي واجب بغير النذر ، وهو أيضاً ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : الهدي المنصوص عليه .

والثاني : الهدي المسكوت عنه ، ولكن العلماء قاسوه على الهدي المنصوص عليه .

أما المنصوص عليه فهو أربعة أقسام :

الأول : هدي التمتع ، ويدخل فيه القران ، لأن الصحابة رضي الله عنهم جاء عنهم التصريح ، بأن اسم التمتع في الآية ، صادق بالقران ، كما قدمناه واضحاً عن ابن عمر ، وعمران بن حصين ، وغيرهما ، والصحابة هم أعلم الناس بلغة العرب وبدلالة القرآن .

(617/522)

وهدي التمتع المذكور منصوص في قوله تعالى : ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بالعمرة إِلَى الحج فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ [البقرة : 196] .

الثاني : دم الإحصار المنصوص عليه في قوله : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ [البقرة : 196] .

الثالث : دم جزاء الصيد المنصوص عليه بقوله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] الآية .

الرابع : دم فدية الأذى المذكور في قوله : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة : 196] ، وهذه الدماء الأربعة اثنان منها على التخيير ، وهما : دم الفدية في قوله : ﴿

فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ كما قدمنا إيضاحه.

والثاني: جزاء اصيد فهو على التخيير أيضاً كما قدمنا إيضاحه مستوفى في الكلام على قوله: ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الكعبة أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً ﴾ [المائدة: 95] الآية.

وقد أوضحنا الكلام على التخيير فيهما غاية الإيضاح بما أغنى عن إعادته هنا، وواحد من الدماء الأربعة المذكورة على الترتيب إجماعاً، وهو دم التمتع الشامل للقران، لأن الله بين أنه على الترتيب بقوله: ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بالعمرة إِلَى الحج فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ [البقرة: 196] ثم قال مبيناً الترتيب: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحج وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ [البقرة: 196].

(618/522)

والرابع: من الدماء المذكورة اختلف فيه فمن قال: له بدل عند العجز عنه قال: هو على الترتيب، ومن قال: لا بدل له فالأمر على قوله واضح، لأنه ليس هناك تعدد، يقتضي الترتيب أو عدمه، وهذا القسم هو دم الإحصار وقد قدمنا الكلام عليه مستوفى في سورة البقرة في الكلام على قوله:

﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ [البقرة : 196] الآية .

والحاصل : أن ثلاثة من الدماء الأربعة المذكورة ، قد قدمنا الكلام على كل واحد منها ، بغاية الإيضاح ، والاستيفاء فدم الفدية قدمناه في مبحث آية الحج التي هي : ﴿ وَأَذِّنْ فِي الناس بالحج ﴾ [الحج : 27] الآية . في جملة مسائل الحج ، التي ذكرنا في الكلام عليها .

ودم جزاء الصيد قد قدمنا الكلام عليه مستوفى في المائدة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ هَدْياً بَالِغَ الكعبة أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً ﴾ [المائدة : 95] الآية .

ودم الإحصار قد قدمنا الكلام عليه مستوفى في البقرة ، في الكلام على قوله ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ .

وأما هدي التمتع ، فلم يتقدم لنا فيه إيضاح ، وسنبينه الآن .

أما التمتع بالعمرة فمعلوم : أن كل من اعتمر في أشهر الحج ، ثم حل من عمرته ، ثم حج من عامه ، ولم يكن أهله حاضري المسجد الحرام أنه متمتع .

وقد بينا أن الصحابة بينوا أنه يشمل القران من حيث إن كلاً منهما عمرة في أشهر الحج مع الحج ، وإن كان بين حقيقتيهما اختلاف كما هو واضح .

اعلم أولاً : أن العلماء اشترطوا لوجوب هدي التمتع شروطاً .

منها : ما هو مجمع عليه .

ومنها : ما هو مختلف فيه .

الأول : أن يعتمر في أشهر الحج فإن اعمر في غير أشهر الحج ، لم يلزمه دم ، لأنه لم يجمع بين النسكين في أشهر الحج ، فلم يلزمه دم كالمفرد ، ولا يخفى سقوط قول طاوس : إنه متمتع ، كما لا يخفى سقوط قول الحسن : إن من اعتمر بعد النحر فهو متمتع .

(619/522)

وقال ابن المنذر : لا نعلم أحداً قال بواحد من هذين القولين . قاله في المغني فإن أحرم بها في غير أشهر الحج ، ولكنه أتى بأفعالها في أشهر الحج ، ففي ذلك للعلماء قولان :

أحدهما : يجب عليه الدم نظراً إلى أفعال العمرة الواقعة في أشهر الحج .

والثاني : لا يجب عليه دم نظراً إلى وقوع الإحرام ، قبل أشهر الحج ، وهو نسك لا تتم العمرة بدونه ، ولكليهما وجه من النظر ، ولا نص فيهما ، وممن قال بأنه لا دم عليه ، وأنه غير متمتع : الإمام أحمد .

قال في المغني : ونقل معنى ذلك ، عن جابر ، وأبي عياض ، وهو قول إسحاق ، وأحد قولي الشافعي ، وقال طاوس عمرته : في الشهر الذي يدخل فيه الحرم . وقال الحسن ، والحكم ، وابن شبرمة ، والثوري ، والشافعي في أحد قوليه : عمرته في الشهر الذي يطوف فيه . وقال عطاء : عمرته في الشهر الذي يحل فيه ، وهو قول مالك . وقال أبو حنيفة : إن طاف للعمرة

أربعة أشواط ، قبل أشهر الحج فليس بمتمتع ، وإن طاف الأربعة في أشهر الحج ، فهو متمتع . لأن العمرة صحت في أشهر الحج ، بدليل أنه لو وطئ أفسدها ، فأشبه إذا أحرم بها في أشهر الحج .

قاله في المغني والله تعالى أعلم .

الشرط الثاني : أن يحج في نفس تلك السنة ، التي اعتمر في أشهر الحج منها . أما إذا كان حجه في سنة أخرى : فلا دم عليه .

قال صاحب المهذب : وذلك لما روى سعيد بن المسيب قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتمرون في أشهر الحج فإذا لم يحجوا من عامهم ذلك ، لم يهدوا ، قال : ولأن الدم إنما يجب لترك الإحرام بالحج من الميقات وهذا لم يترك الإحرام بالحج من الميقات ، فإنه إن أقام بمكة صارت مكة ميقاته ، وإن رجع إلى بلده ، وعاد فقد أحرم من الميقات .

وقال النووي في الأثر المذكور : المروي عن ابن المسيب حسن رواه البيهقي بإِسناد حسن ، ولا يخفى سقوط قول الحسن : إنه متمتع وإن لم يحج من عامه .

(620/522)

الشرط الثالث : أن لا يعود إلى بلده ، أو ما يماثله في المسافة . وقال بعضهم : يكفي في هذا الشرط ، أن يرجع إلى ميقاته فيحرم بالحج منه ، وبعضهم يكتفي بمسافة القصر بعد العمرة ، ثم يحرم للحج من مسافة القصر .

والحاصل : أن الأئمة الأربعة متفقون على أن السفر بعد العمرة ، والإحرام بالحج من منتهى ذلك السفر مسقط لدم التمتع ، إلا أنهم مختلفون في قدر المسافة ، فمنهم من يقول : لا بد أن يرجع بعد العمرة في أشهر الحج ، إلى المحل الذي جاء منه ، ثم ينشئ سفراً للحج ويحرم من الميقات . وبعضهم يقول : يكفيه أن يرجع إلى بلده أو يسافر مسافة مساوية لمسافة بلده ، وبعضهم يكفي عنده سفر مسافة القصر ، وبعضهم يقول : يكفيه أن يرجع لإحرام الحج إلى ميقاته ، وقد قدمنا أقوالهم مفصلة ، ودليلهم في ذلك ما فهموه من قوله تعالى ﴿ ذلكِ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 196] قالوا : لا فرق بين حاضري المسجد الحرام ، وبين غيرهم ، إلا أن غيرهم ترفهوا بإسقاط أحد السفرين الذي هو السفر للحج ، بعد السفر للعمرة ، وإن سافر للحج بعد العمرة زال السبب ، فسقط الدم بزواله ، وعضدوا ذلك بآثار رووها ، عن عمر وابنه رضي الله عنهما ، وقد قدمنا قولي العلماء في الشيء الذي ترجع إليه الإشارة في قوله : ﴿ ذلكِ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المسجد الحرام ﴾ وناقشنا أدلتهما ، وبينا أنه على القول الذي يراه البخاري رحمه الله ، ومن وافقه : أن الإشارة راجعة إلى نفس التمتع وأن أهل مكة لا متعة لهم أصلاً ، فلا دليل في الآية على

أقوال الأئمة التي ذكرنا ، وعلى القول الآخر أن الإشارة راجعة إلى حكم التمتع وهو لزوم ما استيسر من الهدي ، والصوم عند العجز عنه لا نفس التمتع فاستدلال الأئمة بها على الأقوال المذكورة له وجه من النظر كما ترى .

(621/522)

والحاصل : أن استدلالهم بها إنما يصح على أحد التفسيرين في مرجع الإشارة في الآية ، وقد قدمنا الكلام على ذلك مستوفى .

والأحوط عندي : إراقة دم التمتع ، ولو سافر لعدم صراحة دلالة الآية ، في إسقاطه ، وللاحتمال الآخر الذي تمسك به البخاري والحنفية كما تقدم إيضاحه . وممن قال بذلك الحسن واختاره ابن المنذر لعموم الآية قاله في المغني . والعلم عند الله تعالى .

الشرط الرابع : أن يكون من غير حاضري المسجد الحرام ، فأما إذا كان من حاضري المسجد الحرام فلا دم عليه لقوله تعالى : ﴿ ذلكِ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 196] .

وأظهر أقوال أهل العلم عندي في المراد بحاضري المسجد الحرام : أنهم أهل الحرم ومن بينه وبينه مسافة لا تقصر فيها الصلاة ، لأن المسجد الحرام ، قد يطلق كثيراً ويراد به الحرم كله ،

ومن على مسافة دون مسافة القصر ، فهو كالحاضر ، ولذا تسمى صلاته إن سافر من الحرم ، إلى تلك المسافة صلاة حاضر ، فلا يقصرها لا صلاة مسافر ، حتى يشرع له قصرها فظهر دخوله في اسم حاضري المسجد الحرام ، بناء على أن المراد به جميع الحرم ، وهو الأظهر خلافاً لمن خصه بمكة ، ومن خصه بالحرم ، ومن عممه في كل ما دون الميقات ، وقد علمت أن هذا الشرط إنما يتمشى على أحد القولين في الآية .

(622/522)

الشرط الخامس : ما قال به بعض أهل العلم : من أنه يشترط نية التمتع بالحج إلى العمرة عند الإحرام بالعمرة . قال : لأنه جمع بين عبادتين في وقت إحداهما ، فافتقر إلى نية الجمع كالجمع بين الصلاتين ، وعلى الاشتراط المذكور ، فمحل نية التمتع هو وقت الإحرام بالعمرة . وقال بعضهم : له نيته ما لم يفرغ من الصلاة الأولى ، هكذا قاله بعض أهل العلم ، وعليه فلو اعتمر في أشهر الحج ، وهو لا ينوي الحج في تلك السنة ، ثم بعد الفراغ من العمرة بدا له أن يحج في تلك السنة ، فلا دم تمتع عليه ، واشتراط النية المذكور عزاه صاحب الإنصاف للقاضي ، وأكثر الحنابلة ، وحكي عدم الاشتراط بقيل ثم قال : واختاره المصنف ، والشارح ، وقدمه في المحرر والفائق ، والظاهر سقوط هذا الشرط ، وأنه متى حج بعد أن اعتمر في

أشهر الحج من تلك السنة : فعليه الهدي ، لظاهر عموم الآية الكريمة ، فتخصيصه بالنية تخصيص القرآن ، بلا دليل يجب الرجوع إليه : ويؤيده أنهم يقولون : إن سبب وجوب الدم : أنه ترفه بإسقاط سفر الحج ، وتلك العلة موجودة في هذه الصورة ، والعلم عند الله تعالى .

(623/522)

الشرط السادس : هو ما اشترطه بعض أهل العلم من كون الحج والعمرة المذكورين عن شخص واحد كأن يعتمر بنفسه ويحج بنفسه ، وكل ذلك عن نفسه لا عن غيره أو يحج شخص ، ويعتمر عن شخص واحد . أما إذا حج عن شخص ، واعتمر عن شخص آخر ، أو اعتمر عن شخص ، وحج عن نفسه ، أو اعتمر عن نفسه ، وحج عن شخص آخر ، فهل يلزم دم التمتع نظراً إلى أن مؤدي النكسين شخص واحد أو لا يلزم ، نظراً إلى أن الحج وقع عن شخص والعمرة وقت عن شخص آخر فهو كما لو فعله شخصان فحج أحدهما ، واعتمر الآخر ، وإذن فلا تمتع على أحدهما ، وكلاهما له وجه من النظر ، ومذهب الشافعي الذي عليه جمهور الشافعية : هو عدم اشتراط هذا الشرط نظراً إلى اتحاد فاعل النسك ، ومقابله المرجوح عدم وجوب الدم نظراً إلى أن الحج عن شخص ، والعمرة عن آخر ، ومذهب مالك في هذا قريب من مذهب الشافعي في وجود الخلاف .

وترجيح عدم الاشتراط.

قال الشيخ المواق في شرح قول خليل في مختصره، في عده شروط وجوب دم التمتع، وفي شرط كونهما عن واحد تردد ما نصه: ذكر ابن شاس من الشروط التي يكون بها متمتعاً: أن يقع النسكان عن شخص واحد: ابن عرفة لا أعرف هذا، بل في كتاب محمد من اعتمر عن نفسه، ثم حج من عامه عن غيره فتمتع. وقال الشيخ الحطاب في شرحه لقول خليل المذكور ما نصه: أشار بالتردد لتردد المتأخرين في النقل، فالذي نقله صاحب النوادر وابن يونس، واللخمي عدم اشتراط ذلك. وقال ابن الحاجب: الأشهر اشتراط كونهما عن واحد، وحكى ابن شاس في ذلك قولين قال في التوضيح: لم يعزهما ولم يعين المشهور منهما، ولم يحك صاحب النوادر وابن يونس، إلا ما وقع في الموازية أنه تمتع. انتهى. وقال في مناسكه بعد أن ذكر كلام ابن الحاجب خليل: ولم أر في ابن يونس وغيره، إلا القول بوجوب الدم.

(624/522)

وقال ابن عرفة: وشرط ابن شاش كونهما عن واحد، ونقل ابن حاجب: لا أعرفه، بل في كتاب محمد من اعتمر عن نفسه، ثم حج من عامه عن غيره متمتع فما ذكره المصنف من

التردد صحيح . لكن المعروف : عدم اشتراط ذلك وعادته أن يشير بالتردد لما ليس فيه ترجيح .

وقال ابن جماعة : الشافعي في منسكه الكبير : لا يشترط أن يقع النسكان عن واحد عند جمهور الشافعية ، وهو قول الحنفية ورواية ابن المواز ، عن مالك ، وعلى ذلك جرى جماعة من أئمة المالكية منهم الباجي ، والطرطوشي ، ومن الشافعية من شرط ذلك . قوال ابن الحاجب : إنه الأشهر من مذهب مالك ، وتبع ابن الحاجب في اشتراط ذلك صاحب الجواهر ، وقوله : إنه الأشهر غير مسلم ، فإن القرافي في الذخيرة ذكر ما سوى هذا الشرط ، وقال : إن صاحب الجواهر زاد هذا الشرط ، ولم يعزه لغيره . انتهى كلام الحطاب ، والظاهر من النقول التي نقلها أن عدم اشتراط كون النسكين عن واحد : هو المعروف في مذهب مالك ، وهو كذلك ، ومذهب أحمد قريب من مذهب مالك والشافعي ، ففيه خلاف أيضاً ، هل يشترط كون النسكين عن واحد أو لا يشترط ؟ وعدم اشتراطه عليه الأكثر من الحنابلة ، وعزاه في الإنصاف لبعض الأصحاب قال منهم المصنف ، والمجد ، قاله الزركشي ، واقتصر عليه في الفروع وعزا مقابله لصاحب التلخيص ، وقد قدمنا في كلام ابن جماعة الشافعي : أن عدم اشتراط كون النسكين ، عن شخص واحد هو مذهب الحنفية أيضاً ، فظهر أن المشهور في المذاهب الأربعة عدم اشتراط هذا الشرط ، وقول من اشترطه له وجه من النظر .

والعلم عند الله تعالى .

الشرط السادس : أن يحل من العمرة قبل إحرامه بالحج ، فإن أحرم قبل حله منها صار قارناً ، كما وقع لعائشة رضي الله عنها في حجة الوداع على التحقيق كما تقدم إيضاحه .

(625/522)

الشرط السابع : هو ما اشترطه بعض أهل العلم من كونه لا يعد متمتعاً ، حتى يحرم بالعمرة من الميقات ، فإن أحرم بها من دون الميقات صار غير متمتع ، لأنه كأنه من حاضري المسجد الحرام ، ولا يخفى سقوط هذا الشرط .

قال صاحب الإنصاف : لما ذكر هذا الشرط ذكره أبو الفرج والحلواني وجزم به ابن عقيل في التذكرة ، وقدمه في الفروع . وقال القاضي وابن عقيل : وجزم به في المستوعب والتلخيص والرعاية وغيرهم : إن بقي بينه ، وبين مكة مسافة قصر ، فأحرم منه لم يلزمه دم المتعة لأنه من حاضري المسجد الحرام ، بل دم مجاوزة الميقات . واختار المصنف والشارح وغيرهما ، أنه إذا أحرم بالعمرة من دون الميقات : يلزمه دمان دم المتعة ، ودم الإحرام من دون الميقات ، لأنه لم يقم ولم ينوها به ، وليس بساكن وردوا ما قال القاضي . انتهى منه وهذا الأخير هو الظاهر . والله تعالى أعلم .

وقال صابح الإنصاف بعد كلامه : هذا متصلاً به .

قال المصنف والشارح : ولو أحرم الآفاقي بعمرة في غير أشهر الحج ثم أقام بمكة واعتمر من التنعيم ، فهو متمتع نص عليه ، وفي نصه على هذه الصورة تنبيه على إيجاب الدم في الصورة الأولى بطريق الأولى ا ه منه . ولا ينبغي أن يختلف في واحدة منهما لدخولهما صريحاً في عموم آية التمتع ، كما ترى . والعلم عند الله تعالى .

واعلم أن من يعتد به من أهل العلم : أجمعوا على أن القارن يلزمه المتمتع من الهدي ، والصوم عند العجز عن الهدي ، وقد قدمنا الروايات الصحيحة الثابتة عن بعض أجلاء الصحابة ، بأن القران داخل في اسم التمتع ، وعلى هذا فهو داخل في عموم الآية ، وكلا النسكين فيه تمتع لغة ، لأن التمتع من المتاع أو المتعة ، وهو الانتفاع أو النفع ومنه قوله :

وقفت على غبر غريب بقفرة . . . متاع قليل من حبيب مفارق

(626/522)

جعل استثنائه بقبره متاعاً لانتفاعه بذلك الاستئناس ، وكل من القارن والمتمتع ، انتفع بإسقاط أحد السفرين وانتفع القارن عند الجمهور باندراج أعمال العمرة في الحج .

وقال جماعة من أهل العلم : إن القران لم يدخل في عموم الآية بحسب مدلول لفظها ، وهو

الأظهر ، لأن الغاية في قوله

﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بالعمرة إِلَى الحج ﴾ [البقرة : 196] تدل على ذلك ، والذين قالوا هذا قالوا : هو ملحق به في حكمه لأنه في معناه . وعلى أن القارن يلزمه ما يلزم المتمتع عامة العلماء منهم : الأئمة الأربعة ، إلا من شذ شذوذاً لا عبرة به .

وليس كل خلاف جاء معتبرا . . . إلا خلاف له وجه من النظر

قال في الإنصاف : وسأله يعني الإمام أحمد بن مشيش القارن يجب عليه الدم وجوباً ؟ فقال : فكيف يجب عليه وجوباً ، وإنما شبهوه بالمتمتع قال في الفروع ، فتتوجه منه رواية لا يلزمه دم . ا ه منه .

ولا يخفى أن مذهب أحمد مخالف لما زعموه رواية ، وأن القارن كالمتمتع في الحكم . وقال ابن قدامة في المغني : ولا نعلم في وجوب الدم على القارن خلافاً إلا ما حكي عن داود أنه لا دم عليه . وروي ذلك عن طاوس . وحكى ابن المنذر : أن ابن داود لما دخل مكة ، سئل عن القارن هل يجب عليه دم ؟ فقال : لا ، فجر برجله ، وهذا يدل على شهرة الأمر بينهم . ا ه منه . وذكر النووي : أن العبدري حكى هذا القول ، عن الحسن بن علي بن سريج . والتحقيق خلافه ، وأنه يلزمه ما يلزم المتمتع .

ومن النصوص الدالة على ذلك . حديث عائشة المتفق عليه ، وفيه " فدخل علينا يوم النحر بلحم بقر فقلت : ما هذا ؟ فقيلك نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أزواجه

" متفق عليه .

قال المجد في المنتقى : وفيه دليل على الأكل من دم القران ، لأن عائشة كانت قارنة . ا ه منه . وهو يدل على أن القارن عليه دم . والله أعلم .

(627/522)

ومن أصرح الأدلة في ذلك : ما رواه مسلم في صحيحه ، عن جابر بلفظ " ذبح رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عائشة بقرة يوم النحر " ومعلم أنها كانت قارنة ، على التحقيق فتلك البقرة دم قران ، وذلك دليل على لزومه ، وما ذكره ابن قدامة في المغني ، من أنه روي عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قرن بين حجه وعمرته فليهرق دماً " لم أعرف له أصلاً ، والظاهر أنه لا يصح مرفوعاً . والله تعالى أعلم .

وأكثر أهل العلم : على أن القارن إن كان أهله حاضري المسجد الحرام ، أنه لا دم عليه ، لأنه متمتع أو في حكم المتمتع ، والله يقول ﴿ ذلكِ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 196] .

وقال ابن قدامة في المغني ، وهو قول جمهور العلماء : وقال ابن الماجشون : عليه دم ، لأن الله تعالى أسقط الدم عن المتمتع ، وهذا ليس متمتعاً ، وليس هذا بصحيح ، فإننا ذكرنا أنه

متمتع ، وإن لم يكن متمتعاً ، فهو مفرع عليه ، ووجوب الدم على القارن ، إنما كان بمعنى النص على التمتع ، فلا يجوز أن يخالف الفرع أصله . انتهى منه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : حاصل هذا الكلام : أن القارن كالمتمتع في أن كلا منهما إن كان في حاضري المسجد الحرام ، لا دم عليه ، وذكر صاحب المغني : أن ابن الماجشون خالف في ذلك ، وقال : عليه دم ، وله وجه قوي من النظر على قول الجمهور : أنه يكفيه طواف واحد وسعي واحد لحجه ، وعمرته .

فقد انتفع بإسقاط عمل أحد النسكين ، ولزوم الدم في مقابل ذلك ، له وجه من النظر كما ترى .

(628/522)

وقال النووي في شرح المهذب : قال أصحابنا : ولا يجب على حاضري المسجد الحرام دم القران ، كما لا يجب على المتمتع ، هذا هو المذهب ، وبه قطع الجمهور . وحكى الحناطي والرافعي وجهاً : أنه يلزمه . انتهى محل الغرض منه . وهذا الوجه عند الشافعية هو قول ابن الماجشون من المالكية ، كما ذكره صاحب المغني ، ومذهب مالك ، وأصحابه ، كمذهب الشافعي وأحمد ، في أن القارن إن كان من حاضري المسجد الحرام ، لا دم عليه ،

وحاضروا المسجد عند مالك وأصحابه أهل مكة ، وذي طوى .

قال الشيخ الحطاب في شرحه لقول خليل في مختصره : وشرط دمهما عدم إقامته بمكة أو ذي طوى الخ ما نصه : وذو طوى هو ما بين الثنية التي يهبط منها إلى مقبرة مكة المسماة بالمعلاة ، والثنية الأخرى التي إلى جهة الزاهر وتسمى عند أهل مكة بين الحجونين ا ه . محل الغرض منه .

وقد قدمنا أن مذهب أبي حنيفة ، وأصحابه : أن أهل مكة ونحوهم ممن دون الميقات : لا تشرع لهم العمرة أصلاً فلا تمتع لهم ولا قران ، بناء على رجوع الإشارة في قوله ﴿ ذلكِ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 196] لنفس التمتع كما تقدم إيضاحه ، مع أنهم يقولون : إنهم إن تمتعوا أو قرنوا أساؤوا وانعقد إحرامهم ، ولزمهم دم الجبر ، وهذا الدم عندهم دم جناية لا يأكل صاحبه منه ، بخلاف دم التمتع والقران من غير حاضري المسجد الحرام ، فهو عندهم دم نسك ، يجوز لصاحبه الأكل منه ، ونقل بعض الحنفية ، عن ابن عمر وابن عباس ، وابن الزبير : أن أهل مكة لا متعة لهم . وقد قدمنا أنه رأي البخاري .

(629/522)

واعلم : أنا قدمنا أن من شروط وجوب دم التمتع : ألا يرجع بعد العمرة إلى بلده أو مسافة مثله ، أو يسافر مسافة القصر على ما بينا هناك من أقوال الأئمة في ذلك ، وأردنا أن نذكر هنا حكم القارن إذا أتى بأفعال العمرة ، ثم رجع إلى بلده ، ثم حج من عامه ، أو سافر مسافة قصر ، ثم أحرم بالحج من الميقات ، هل يسقط عنه الدم بذلك كالمتمتع أو لا .

ومذهب أبي حنيفة : أن الدم لا يسقط عنه برجوعه إلى بلده بعد إتيانه بأفعال العمرة ، إن رجع ، وحج لأنه لم يزل قارناً .

وقال صاحب الإنصاف في الكلام على القارن : لا يلزم الدم حاضري المسجد الحرام ، كما قال المصنف : وقاله في الفروع وغيره ، وقال : والقياس أنه لا يلزم من سافر سفر قصر أو إلى الميقات ، إن قلنا به ، كظاهر مذهب الشافعي ، وكلامهم يقتضي لزومه ، لأن اسم القران باق بعد السفر ، بخلاف التمتع ا ه .

منه .

وحاصل كلامه : أن ظاهر كلام الحنابلة : أن السفر بعد وصول مكة ، لا يسقط دم القران ، وأن مقتضى القياس أنه يسقط إلحاقاً له بالتمتع ، وقال النووي في شرح المهذب : لو دخل القارن مكة قبل يوم عرفة ، ثم عاد إلى الميقات ، فالمذهب : أنه لا دم عليه في الإملاء ، وقطع به كثيرون أو الأكثرون ، وصححه الحناطي وآخرون . وقال إمام الحرمين : إن قلنا المتمتع إذا أحرم بالحج ثم عاد إليه لا يسقط عنه الدم فهنا أولى ، وإلا فوجهان : والفرق أن

اسم القران ، لا يزول بالعود ، بخلاف التمتع ، ولو أحرم بالعمرة من الميقات ، ودخل مكة ، ثم رجع إلى الميقات قبل طوافه فأحرم بالحج ، فهو قارن .

قال الدارمي في آخر باب الفوات : إن قلنا إذا أحرم بهما جميعاً ، ثم رجع سقط الدم فهنا أولى ، وإلا فوجهان . انتهى منه .

(630/522)

وظاهر كلام خليل في مختصره المالكي : أن السفر لا يسقط دم القران والحاصل : أنا بينا اختلاف أهل العلم في السفر بعد أفعال العمرة أو بعد دخول مكة ، هل يسقط دم القران أو لا ؟ وبينا قول صاحب الإنصاف : أن سقوطه بالسفر ، هو مقتضى قياسه على التمتع .

وأقرب الأقوال عندي للصواب : أن دم القران لا يسقطه السفر ، وقد بينا أن الأحوط عندنا : أن دم التمتع لا يسقطه السفر ، لتصريح القران بوجوب الهدي على المتمتع ، وعدم صراحة الآية في سقوطه بالسفر . وقد ذكرنا أن لزوم الدم للقارن الذي هو من حاضري المسجد الحرام له وجه من النظر ، لأنه اكتفى عن النكسين بعمل أحدهما على قول الجمهور ، كما تقدم .

وأظهر قولي أهل العلم عندنا : أن المكي إذا أراد الإحرام بالقران ، أحرم به من مكة ، لأنه

يخرج في حجه إلى عرفة ، فيجمع بين الحل والحرم ، خلافاً لمن قال : يلزم المكي القارن إنشاء إحرامه من أدنى الحل وكذلك الآفاقي ، إذا كان في مكة ، وأراد أن يحرم قارناً ، فالأظهر أنه يحرم بالقران من مكة خلافاً لمن قال : يحرم به من أدنى الحل لما بينا . والعلم عند الله تعالى .

وإذا عرفت الشروط التي بها يجب دم التمتع والقران ، فاعلم أنا أردنا هنا أن نبين ما يجزئ فيه ووقت ذبحه ، أما ما يجزئ فيه ، فالتحقيق أنه ما تيسر من الهدي ، وأقله شاة تجزئ ضحية ، وأعلاه : بدنة وأوسطه : بقرة ، والتحقيق : أن سبع بدنة أو بقرة يكفي ، فلو اشترك سبعة من المتمتعين في بدنة أو بقرة وذبحوها أجزأت عنهم ، للنصوص الصحيحة الدالة على ذلك ، كحديث جابر الثابت في الصحيح قال " أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بدنة "

وفي لفظ لمسلم " قال اشتركنا مع النَّبي صلى الله عليه وسلم في الحج والعمرة كل سبعة منا في بدنة " فقال رجل لجابر : أيشترك في البقرة ما يشترك في الجزور ؟ فقال : ما هي إلا من البدن .

(631/522)

قال مسلم في صحيحه : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا مالك ح وحدثنا يحيى بن يحيى . واللفظ له قال : قرأت على مالك عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال " نحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة " وفي لفظ لمسلم عن جابر قال " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلين بالحج فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بدنة " وفي لفظ له عنه أيضاً قال " حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنحرنا البعير عن سبعة والبقرة عن سبعة " وفي لفظ له عنه أيضاً قال " اشتركنا مع النَّبي صلى الله عليه وسلم في الحج والعمرة كل سبعة في بدنة " فقال رجل لجابر : أيشترك في البدنة ما يشترك في الجزور ؟ قال : ما هي إلا من البدن ، وحضر جابر الحديبية قال " نحرنا يومئذ سبعين بدنة اشتركنا كل سبعة في بدنة " وفي لفظ له عنه ، وهو يحدث عن حجة النَّبي صلى الله عليه وسلم قال " فأمرنا إذا أحللنا أن نهدي ويجتمع النفر منا في الهدية " وذلك حين أمرهم أن يحلوا من حجهم في هذا الحديث ، وفي لفظ له عنه أيضاً قال "كنا نتمتع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنذبح البقرة ، عن سبعة نشترك فيها " ا ه . محل الغرض من صحيح مسلم .

(632/522)

وهذه الروايات الصحيحة تدل : على أن دم التمتع يكفي فيه الاشتراك بالسبع في بدنة ، أو بقرة ، ويدل على أن ذلك داخل فيما استيسر من الهدي . أما الشاة والبدنة كاملة فإجزاء كل منهما لا إشكال فيه . وقال البخاري في صحيحه : حدثنا إسحاق بن منصور ، أخبرنا النضر ، أخبرنا شعبة ، حدثنا أبو جمرة قال : سألت ابن عباس رضي الله عنهما ، عن المتعة ؟ فأمرني بها ، وسألته عن الهدي فقال : فيها جزور أو بقرة ، أو شاة ، أو شرك في دم . الحديث . فقوله : أو شرك في دم : يعني به ما بينته الروايات المذكورة الصحيحة . عن جابر : أن البدنة والبقرة كلتاهما تكفي عن سبعة من المتمتعين ، وقال ابن حجر في شرح هذا الحديث : وهذا موافق لما رواه مسلم عن جابر قال " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلين بالحج فأمرنا أن نشترك في الأبل والبقر كل سبعة منا في بدنة " ثم قال وبهذا قال الشافعي والجمهور ، سواء كان الهدي تطوعاً أو واجباً ، وسواء كانوا كلهم متقربين بذلك ، أو كان بعضهم يريد التقرب ، وبعضهم يريد اللحم . وعن أبي حنيفة : يشترط في الاشتراك أن يكونوا كلهم متقربين بالهدي ، وعن زفر مثله بزيادة : أن تكون أسبابهم واحدة ، وعن داود وبعض المالكية : يجوز في هدي التطوع ، دون الواجب ، وعن مالك : لا يجوز مطلقا ا ه منه .

(633/522)

والتحقيق أن سبع البدنة وسبع البقرة كل واحد منهما يقوم مقام الشاة ، ويدخل في عموم ﴿ فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ [البقرة : 196] والروايات الصحيحة التي ذكرنا حجة على كل من خالف ذلك كمالك ، ومن وافقه وما احتج به إسماعيل القاضي لمالك ، من أن الاشتراك في الهدي ، لا يصح من أن حديث جابر ، إنما كان بالحديبية ، حيث كانوا محصرين . وأن حديث ابن عباس خالف فيه أبو جمرة عنه ثقات أصحابه ، فرووا عنه أن ما استيسر من الهدي : شاة ثم ساق ذلك عنهم بأسانيد صحيحة مردودة . أما دعوى أن حديث جابر إنما كان بالحديبية ، حيث كانوا محصرين ، فهي مردودة ، بما ثبت في الروايات الصحيحة في مسلم التي سقناها بألفاظها : أنهم اشتركوا الاشتراك المذكور معه صلى الله عليه وسلم أيضاً في حجه ، ولا شك أن المراد بحجه حجة الوداع ، لأنه لم يحج بعد الهجرة حجة غيرها . وفي بعض الروايات الصحيحة ، عند مسلم التي سقناها بألفاظها آنفاً التصريح بوقوع الاشتراك في الحجة المذكورة ، كما هو واضح من ألفاظ مسلم التي ذكرناها . وأما دعوى مخالفة أبي جمرة في ذكره الاشتراك المذكور ثقات أصحاب ابن عباس ، فيه مردودة أيضاً ، بما ذكره ابن حجر في الفتح ، حيث قال : وليس بين رواية أبي جمرة ، ورواية غيره منافاة ، لأنه زاد عليهم ذكر الاشتراك ، ووافقهم على ذكر الشاة ، وإنما أراد ابن عباس بالاقتصار على الشاة الرد على من زعم اختصاص الهدي بالإبل والبقر . وذلك واضح

فيما سنذكره بعد هذا ، إلى أن قال : وبهذا تجتمع الأخبار ، وهو أولى من الطعن في رواية من أجمع العلماء ، على توثيقه ، وهو أبو جمرة الضبعي . وقد روي عن ابن عمر أنه كان لا يرى التشريك ، ثم رجع عن ذلك لما بلغته السنة ، وذكر ابن حجر رجوع ابن عمر عن ذلك ، عن أحمد بسنده من طريق الشعبي ، عن ابن عمر .

(634/522)

وأظهر قولي أهل العلم عندي : أن البدنة لا تجزئ عن أكثر من سبعة ، وذكر ابن حجر في الفتح ، عن سعيد بن المسب في إحدى الروايتين عنه : أنها تجزئ عن عشرة . قال : وبه قال إسحاق بن راهويه ، وابن خزيمة من الشافعية . واحتج لذلك في صحيحه ، وقواه واحتج له ابن خزيمة بحديث رافع بن خديج : " أنه صلى الله عليه وسلم قسم فعدل عشراً من الغنم ببعير "

الحديث . وهو في الصحيحين .

وأجمعوا على أن الشاة : لا يصح الاشتراك فيها وقوله : أو شاة هو قول جمهور العلماء .

ورواه الطبري وابن أبي حاتم بأسانيد صحيحة عنهم ، ورويا بإسناد قوي عن القاسم بن محمد ، عن عائشة ، وابن عمر : أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدي : إلا من الإبل

والبقر ، ووافقهما القاسم ، وطائفة . قال إسماعيل القاضي في الأحكام له : أظن أنهم ذهبوا إلى ذلك لقوله تعالى : ﴿ والبدن جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَعَائِرِ الله ﴾ [الحج : 36] فذهبوا إلى تخصيص ما يقع عليه اسم البدن ، قال : ويرد هذا قوله تعالى ﴿ هَدْياً بَالِغَ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] وأجمع المسلمون على أن في الظبي شاة ، فوقع عليهما اسم هدي .

قلت : قد احتج بذلك ابن عباس ، فأخرج الطبري بإسناد صحيح إلى عبد الله بن عبيد بن عمير قال : قال ابن عباس : الهدي شاة . فقيل له في ذلك ، فقال : أنا أقرأ عليكم من كتاب الله ما تقرون به ما في الظبي ، قالوا : شاة ، قال : فإن الله يقول ﴿ هَدْياً بَالِغَ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] اهـ من فتح الباري .

وقد قمنا في سورة البقرة : أنه ثبت في الصحيحين ، عن عائشة أنها قالت " أهدي صلى الله عليه وسلم مرة غنماً " وهو نص صحيح عنها صريح في تسمية الغنم هدياً كما ترى .

(635/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي أنه هو الصواب في هدي التمتع ، الذي نص الله في كتابه على أنه ما استيسر من الهدي : أنه شاة ، أو بدنة ، أو بقرة . ويكفي في ذلك

سبع البدنة وسبع البقرة ، عن المتمتع الواحد ، وتكفي البدنة عن سبعة متمتعين لثبوت الروايات الصحيحة بذلك ، ولم يقم من كتاب الله ، ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم : نص صريح في محل النزاع يقاومها ، ورواية جابر : أن البدنة تكفي في الهدي ، عن سبعة أخص في محل النزاع من حديث رافع بن خديج " أنه صلى الله عليه وسلم جعل البعير في القسمة يعدل عشراً من الغنم " لأن هذا في القسمة ، وحديث جابر في خصوص الهدي ، والأخص في محل النزاع مقدم على الأعم ، والعلم عند الله تعالى .

ومما يوضح ذلك ما ذكره ابن حجر في الفتح في شرح حديث رافع المذكور ، وقد أورده البخاري في كتاب الذبائح ، عن رافع بن خديج بلفظ قال " كنا مع النَّبي صلى الله عليه وسلم بذي الحليفة فأصبنا إبلاً وغنماً ، وكان النَّبي صلى الله عليه وسلم في أخريات الناس فعجلوا فنصبوا القدور ، فدفع النَّبي صلى الله عليه وسلم إليهم فأمر بالقدور فأكفئت ، ثم قسم فعدل عشراً من الغنم ببعير فند منها بعير " الحديث .

ونص كلام ابن حجر في هذا الحديث ، وهذا محمول على أن هذا كان قيمة الغنم إذ ذاك ، فلعل الإبل كانت قليلة ، أو نفيسة ، والغنم كانت كثيرة ، أو هزيلة بحيث كانت قيمة البعير عشر شياه ، ولا يخالف ذلك القاعدة في الأضاحي ، من أن البعير يجزئ عن سبع شياه ، لأن ذلك هو الغالب في قيمة الشاة والبعير المتعدلين .

وأما هذه القسمة ، فكانت واقعة عين ، فيحتمل أن يكون التعديل لما ذكر من نفاسة الإبل ،

دون الغنم .

وحديث جابر عند مسلم صريح في الحكم حيث قال فيه " أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نشترك في الإبل والبقر ، كل سبعة منا في بدنة " والبدنة تطلق على الناقة ، والبقرة .

(636/522)

وأما حديث ابن عباس " كنا مع النَّبي صلى الله عليه وسلم في سفر فحضر الأضحى فاشتركنا في البقرة تسعة وفي البدنة عشرة " فحسنه الترمذي وصححه ابن حبان ، وعضده بحديث رافع بن خديج هذا .

والذي يتحرر في هذا : أن الأصل أن البعير بسبع ما لم يعرض عارض من نفاسة ، ونحوها ، فيتغير الحكم بحسب ذلك ، وبهذا تجتمع الأخبار الواردة في ذلك ، ثم الذي يظهر من القسمة المذكورة ، أنها وقعت فيما عدا ما طبخ وأريق من الإبل والغنم ، التي كانوا غنموها ، ويحتمل إن كانت الواقعة تعددت أن تكون القصة التي ذكرها ابن عباس ، أتلف فيها اللحم لكونه كان قطع للطبخ ، والقصة التي في حديث رافع طبخت الشياه صحاحاً مثلاً ، فلما أريق مرقها ضمت إلى الغنم لتقسم ، ثم يطبخها من وقعت في سهمه ، ولعل هذا هو

النكتة في انحطاط قيمة الشياه ، عن العادة والله أعلم . انتهى كلام ابن حجر .

وكون اللحم رد لطبخه من وقع في سهمه مرة أخرى ، غير ظاهر عندي والله أعلم .

وحديث رافع المذكور : أخرجه أيضاً مسلم في كتاب : الصيد والذبائح ، ولفظ المراد منه عن رافع قال : "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي الحليفة من تهامة فأصبنا غنماً وإبلاً فعجل القوم فأغلوا بها القدور فأمر بها فكفئت ، ثم عدل عشراً من الغنم بجزور ".

والحاصل : أن أخص شيء في محل النزاع وأصرحه فيه ، وأوضحه فيه حديث جابر ، الذي ذكرنا روايته عند مسلم . أما حديث رافع ، فهو في قسمة الغنيمة لا في الهدي . وأما حديث ابن عباس ، فظاهره أنه في الضحايا ، وعلى كل حال : فحديث جابر أصح منه ، فالذي يظهر أن المتمتع يكفيه سبع بدنة ، وأن النص الصريح الوارد بذلك ينبغي تقديمه ، على أنه يكفيه عشر بدنة ، وقد رأيت أدلة القولين . والعلم عند الله تعالى .

(637/522)

فإذا علمت أقوال أهل العلم في تعيين القدر المجزئ في هدي التمتع ، والقران ، وأن أظهر الأقوال : أن أقله شاة ، أو سبع بدنة أو بقرة ، وأن إجزاء البدنة الكاملة ، لا نزاع فيه .

فاعلم : أن أهل العلم اختلفوا في وقت وجوبه ، ووقت نحره ، وهذه تفاصيل أقوالهم وأدلتها ، وما يرجحه الدليل منها .

أما مذهب مالك فالتحقيق فيه : أن هدي التمتع والقران لا يجب وجوباً تاماً إلا يوم النحر بعد رمي جمرة العقبة ، لأن ذبحه في ذلك الوقت هو الذي فعله صلى الله عليه وسلم ، وقال " لتأخذوا عني مناسككم " ولذا لو مات المتمتع يوم النحر ، قبل رمي جمرة العقبة ، لا يلزم إخراج هدي التمتع من تركته ، لأنه لم يتم وجوبه ، وهذا هو الصحيح المشهور في مذهب مالك ، وقد كنت قلت في نظمي في فروع مالك ، وفي الفرائض على مقتضى مذهبه في الكلام على ما يخرج من تركة الميت ، قبل ميراث الورثة بعد أن ذكرت قضاء ديونه :

وأتبعن دينه بهدي . . . تمتع إن مات بعد الرمي

واعلم : أن قول من قال من المالكية : إنه يجب بإحرام الحج ، وأنه يجزئ قبله كما هو ظاهر قول خليل في مختصره الذي قال في ترجمته مبيناً لما به الفتوى : ودم التمتع يجب بإحرام الحج ، وأجزأ قبله ، قد اغتر به بعض من لا تحقيق عنده بالمذهب المالكي ، والتحقيق أن الوجوب عندهم برمي جمرة العقبة ، وبه جزم ابن رشد وابن العربي ، وصاحب الطراز وابن عرفة ، قال ابن عرفة : سمع ابن القاسم إن مات . يعني : المتمتع قبل رمي جمرة العقبة ، فلا دم عليه .

ابن رشد : لأنه إنما يجب في الوقت ، الذي يتعين فيه نحره ، وهو بعد رمي جمرة العقبة ، فإن مات قبله لم يجب عليه .

(638/522)

ابن عرفة : قلت : ظاهره لو مات يوم النحر قبل رميه : لم يجب ، وهو خلاف نقل النوادر ، عن كتاب محمد عن ابن القاسم ، وعن سماع عيسى : من مات يوم النحر ، ولم يرم فقد لزمه الدم ، ثم قال ابن عرفة : فقول ابن الحاجب : يجب بإحرام الحج يوهم وجوبه على من مات قبل وقوفه ، ولا أعلم في سقوطه خلافاً .

ولعبد الحق ، عن ابن الكاتب ، عن بعض أصحابنا : من مات بعد وقوفه ، فعليه الدم . ا ه من الحطاب .

فأصح الأقوال الثلاثة وهو المشهور : أنه لا يجب على من مات ، إلا إذا كان موته بعد رمي جمرة العقبة ، وفيه قول : بلزومه ، إن مات يوم النحر قبل الرمي ، وأضعفها أنه يلزمه ، إن مات بعد الوقوف بعرفة . أما لو مات قبل الوقوف بعرفة ، فلم يقل أحد بوجوب الدم عليه من عامة المالكية ، وقول من قال منهم : إنه يجب بإحرام الحج لا يتفرع عليه من الأحكام شيء ، إلا جواز إشعاره وتقليده ، عليه فلو أشعره ، أو قلده قبل إحرام الحج ، كان هدي

تطوع ، فلا يجزئ عن هدي التمتع ، فلو قلده ، وأشعره بعد إحرام الحج ، ثم أخر ذبحه إلى وقته : أنه يجزئه عن هدي التمتع ، وعليه فالمراد بقول خليل : وأجزأ قبله أي أجزأ الهدي الذي تقدم تقليده ، وإشعاره على إحرام الحج هذا هو المعروف عند عامة علماء المالكية .

فمن ظن أن المجزئ هو نحره قبل إحرام الحج ، أو بعده قبل وقت النحر . فقد غلط غلطاً فاحشاً .

قال الشيخ المواق في شرحه : قول خليل : وأجزأ قبله ما نصه : ابن عرفة : يجزئ تقليده ، وإشعاره بعد إحرام حجه ، ويجوز أيضاً قبله على قول ابن القاسم . ا ه منه .

وقال الشيخ الحطاب في شرحه لقول خليل في مختصره : ودم التمتع يجب بإحرام الحج وأجزأ قبله ما نصه :

فإن قلت : إذا كان هدي التمتع إنما ينحر بمنى ، إن وقف به بعرفة ، أو بمكة بعد ذلك على ما سيأتي فما فائدة الوجوب هنا ؟

(639/522)

قلت : يظهر في جواز تقليده ، وإشعاره بعد الإحرام بالحج ، وذلك أنه لو لم يجب الهدي حينئذ مع كونه يتعين بالتقليد ، لكان تقليده إذ ذاك قبل وجوبه ، فلا يجزئ إلا إذا قلد بعد كمال الأركان .

وقال الشيخ الحطاب أيضاً : والحاصل : أن دم التمتع والقران ، يجوز تقليدهما قبل وجوبهما على قول ابن القاسم ، ورواية عن مالك ، وهو الذي مشى عليه المصنف . فإذا علم ذلك فلم يبق للحكم بوجوب دم التمتع بإحرام الحج فائدة تعم على القول ، بأنه لا يجزئه ما قلده قبل الإحرام بالحج تظهر ثمرة الوجوب في ذلك ، ويكون المعنى : أنه يجب بإحرام الحج ، وجوباً غير متحتم ، لأنه معرض للسقوط بالموت ، والفوات ، فإذا رمى جمرة العقبة تحتم الوجوب ، فلا يسقط بالموت . كما نقول في كفارة الظهار ، أنها تجب بالعود وجوباً ، غير متحتم بمعنى أنها تسقط بموت الزوجة وطلاقها فإن وطئ تحتم الوجوب ولزمت الكفارة ، ولو ماتت الزوجة ، أو طلقها إلى أن قال : بل تقدم في كلام ابن عبد السلام في شرح المسألة الأولى : أن هدي التمتع إنما ينحر بمنى ، إن وقف به بعرفة ، أو بمكة بعد ذلك إلى آخره ، وهو يدل : على أنه لا يجزئ نحره قبل ذلك . والله أعلم ونصوص أهل المذهب شاهدة لذلك .

(640/522)

قال القاضي عبد الوهاب في المعونة : ولا يجوز نحر هدي التمتع والقران ، قبل يوم النحر ، خلافاً للشافعي لقوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] وقد ثبت أن الحلق ، لا يجوز قبل يوم النحر ، فدل على أن الهدي ، لم يبلغ محله إلا يوم النحر ، وله نحو ذلك في شرح الرسالة . وقال في التلقين : الواجب لكل واحب من التمتع والقران هدي ينحره بمنى ، ولا يجوز تقديمه قبل فجر يوم النحر ، وله مثله في مختصر عيون المجالس ، ثم قال الحطاب رحمه الله : فلا يجوز الهدي عند مالك ، حتى يحل ، وهو قول أبي حنيفة وجوزه الشافعي : من حين يحرم بالحج . واختلف قوله فيما بعد التحلل من العمرة قبل الإحرام بالحج .

ودليلنا أن الهدي متعلق بالتحلل ، وهو المفهوم من قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ﴾ اه منه .

وكلام علماء المالكية بنحو هذا كثير معروف .

والحاصل : أنه لا يجوز ذبح دم التمتع ، والقران عند مالك ، وعامة أصحابه قبل يوم النحر وفيه قول ضعيف ، بجوازه بعد الوقوف بعرفة ، وهو لا يعول عليه ، أن قولهم : أنه يجب بإحرام الحج ، لا فائدة فيه إلا جواز إشعار الهدي وتقليده بعد إحرام الحج ، لا شيء آخر فما نقل عن عياض وغيره من المالكية ، مما يدل على جواز نحره قبل يوم النحر كله غلط .

إما من تصحيف الإشعار ، والتقليد وجعل النحر بدل ذلك غلطاً ، وإما من الغلط في فهم المراد عند علماء المالكية ، كما لا يخفى على من عنده علم بالمذهب المالكي ، فاعرف هذا التحقيق ، ولا تغتر بغيره .

(641/522)

ومذهب الإمام أحمد في وقت وجوبه فيه خلاف ، فقيل : وقت وجوبه ، هو وقت الإحرام بالحج . قال في المغني : وهو قول أبي حنيفة ، والشافعي . لأن الله تعالى قال : ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بالعمرة إِلَى الحج فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ [البقرة : 196] وهذا قد فعل ذلك ، ولأن ما جعل غاية فوجود أوله كاف كقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصيام إِلَى الليل ﴾ [البقرة : 187] إلى أن قال : وعنه أنه يجب إذا وقف بعرفة . قال : وهو قول مالك ، واختيار القاضي ووجه في المغني هذا القول ، بأنه قبل الوقوف ، لا يعلم أيتم حجه أو لا ، لأنه قد يعرض له الفوات ، فلا يكون متمتعاً ، فلا يجب عليه دم ، وذكر عن عطاء وجوبه برمي جمرة العقبة .

وعن أبي الخطاب يجب إذا طلع فجر يوم النحر ، ثم قال في المغني : فأما وقت إخراجه فيوم النحر ، وبه قال مالك ، وأبو حنيفة : لأن ما قبل يوم النحر لا يجوز فيه ذبح الأضحية ، فلا

يجوز فيه ذبح هدي التمتع ، ثم قال : وقال أبو طالب : سمعت أحمد قال في الرجل : يدخل مكة في شوال ، ومعه هدي قال : ينحر بمكة ، وإن قدم قبل العشر ينحره لا يضيع أو يموت أو يسرق . وكذلك قال عطاء : وإن قدم في العشر حتى ينحره بمنى ، لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قدموا في العشر ، فلم ينحروا ، حتى نحروا بمنى ، ومن جاء قبل ذلك نحره عن عمرته ، وأقام على إحرامه ، وكان قارناً اه محل الغرض منه . وسترى ما يرد هذا إن شاء الله تعالى .

وقال صاحب الإنصاف : يلزم دم التمتع ، والقران بطلوع فجر يوم النحر على الصحيح من المذهب ، وجزم به القاضي في الخلاف ، ورد ما نقل عنه خلافه إليه وجزم به في البلغة ، وقدمه في الهداية والمستوعب والخلاصة ، والتلخيص ، والفروع ، والرعايتين ، والحاويين ، وعنه يلزم الدم إذا أحرم بالحج ، وأطلقهما في المذهب ، ومسبوك الذهب وعنه يلزم الدم بالوقوف وذكره المصنف والشارح اختيار القاضي .

(642/522)

قال الزركشي : ولعله في المجرد وأطلقها ، والتي قبلها في الكافي ، ولم يذكر غيرها ، وكذا قال المغني والشرح ، وقال ابن الزاغوني في الواضح : يجب دم القران بالإحرام .

قال في الفروع : كذا قال ، وعنه يلزم بإحرام العمرة لنية التمتع ، إذ قال في الفروع : ويتوجه أن يبني عليها ، ما إذا مات بعد سبب الوجوب ، يخرج عنه من تركته .

وقال بعض الأصحاب : فائدة الروايات إذا تعذر الدم ، وأراد الانتقال إلى الصوم ، فمتى يثبت العذر فيه الروايات ، ثم قال في الإنصاف : هذا الحكم المتقدم في لزوم الدم . وأما وقت ذبحه فجزم في الهداية ، والمذهب ومسبوك الذهب والمستوعب ، والخلاصة ، والهادي ، والتلخيص ، والبلغة ، والرعايتين والحاويين وغيرهم : أنه لا يجوز ذبحه قبل وجوبه .

قال في الفروع : وقال القاضي وأصحابه : لا يجوز قبل فجر يوم النحر ، ثم ذكر صاحب الإنصاف ، عن بعضهم ما يدل على جواز ذبحه قبل ذلك ، وذكر رده ، ورده الذي ذكر هو الصحيح .

ومن جملة ما رده به فعل النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، لأنهم لم يذبحوا قبل يوم النحر قارنهم ومتمتعهم جميعاً ، ثم قال : وقد جزم في المحرر والنظم ، والحاوي ، والفائق وغيرهم : أن وقت دم المتعة والقران : وقت دم الأضحية على ما يأتي في بابه ، ثم قال : واختار أبو الخطاب في الانتصار يجوز له نحره بإحرام العمرة ، وأنه أولى من الصوم ، لأنه بدل ، وحمل رواية ابن منصور بذبحه يوم النحر على وجوبه يوم النحر ، ثم قال :

ونقل أبو طالب إن قدم قبل العشر ومعه هدي : ينحره لا يضيع ، أو يموت ، أو يسرق . قال

في الفروع وهذا ضعيف .

قال في الكافي : وإن قدم قبل العشر نحره ، وإن قدم به في العشر لم ينحره ، حتى ينحره بمنى استدل بهذه الرواية ، واقتصر عليه . انتهى محل الغرض من الإنصاف .

(643/522)

وقد رأيت في كلامه أن الروايات بتحديد وقت الوجوب يبني عليها لزوم الهدي في تركته ، إن مات بعد الوجوب ، وتحقق وقت العذر المبيح ، للانتقال إلى الصوم ، إن لم يجد الهدى ، لا أن المراد بوقت الوجوب استلزام جواز الذبح ، لأنهم يفردون وقت الذبح بكلام مستقل ، عن وقت الوجوب .

وأن الصحيح المشهور من مذهبه : أنه لا يجوز ذبحه قبل يوم النحر ، واختيار أبي الخطاب : جواز ذبحه بإحرام المتعة .

ورواية أبي طالب : جواز ذبحه إن قدم به . قبل العشر كلاهما ضعيف لا يعول عليه ، ولا يعضده دليل ، والتعليل بخوف الموت والضياع ، والسرقة منتقض بما إذا قدم به في العشر ، لأن العشر يحتمل أن يموت فيها ، أو يضيع ، أو يسرق كما ترى والتحديد بنفس العشر ، لا دليل عليه من نص ولا قياس ، فبطلانه واضح لعدم اعتضاده بشيء غير احتمال الموت

والضياع والسرقة ، وذلك موجود في الهدي الذي قدم به في العشر ، مع أن الأصل في كليهما السلامة ، والعلم عند الله تعالى .

ومذهب الشافعي في هذه المسألة : هو أن وقت وجوب دم التمتع ، هو وقت الإحرام بالحج .

قال النووي في شرح المهذب : وبه قال أبو حنيفة ، وداود ، وقال عطاء : لا يجب حتى يقف بعرفات .

وقال مالك : لا يجب حتى يرمي جمرة العقبة ، وأما وقت جواز ذبحه عند الشافعية ففيه قولان :

أحدهما : لا يجوز قبل الإحرام بالحج ، قالوا : لأن الذبح قربة تتعلق بالبدن ، فلا تجوز قبل وجوبها ، كالصلاة والصوم .

والقول الثاني : يجوز بعد الفراغ من العمرة لأ ، ه حق مالي يجب بسببين ، فجاز تقديمه على أحدهما ، كالزكاة بعد ملك النصاب وقبل الحول ، أما جواز ذبحه بعد الإحرام بالحج ، فلا خلاف فيه عند الشافعية ، كما أن ذبحه قبل الإحرام بالعمرة ، لا يجوز عندهم ، بلا خلاف .

(644/522)

وقد قدمنا نقل النووي ، عن أبي حنيفة : أن وقت جوبه : هو وقت الإحرام بالحج ، أما وقت نحره فهو عند أبي حنيفة ، وأصحابه : يوم النحر فلا يجوز تقديمه عليه عند الحنفية ، وإن قدمه لم يجزئه ، وينبغي تحقيق الفرق بين وقت الوجوب ، ووقت النحر ، لأن وقت الوجوب إنما تظهر فائدته ، فيما لو مات المحرم هل يخرج الهدي من تركته بعد موته ، ويتعين به وقت ثبوت العذر المجيز للانتقال إلى الصوم ، ولا يلزم من دخول وقت الوجوب ، جواز الذبح .

ومن فوائد ذلك : أنه إن فاته الحج بعد وجوبه بالإحرام ، عند من يقول بذلك ، لا يتعين لزوم الدم . لأنه بفوات الحج انتفى عنه اسم المتمتع : فلا دم تمتع عليه ، وإنما عليه دم الفوات . كما يأتي إن شاء الله تعالى .

وإذا عرفت أقوال أهل العلم في وقت ذبح دم التمتع ، والقران فدونك أدلتهم ، ومناقشتها ، وبيان الحق الذي يعضده الدليل منها .

اعلم : أن من قال بجوازه قبل يوم النحر : كالشافعية ، وأبي الخطاب من الحنابلة ، ورواية ضعيفة ، عن أحمد : إن جاء به صاحبه قبل عشر ذي الحجة فقد احتجوا ، واحتج لهم بأشياء . أما رواية أبي طالب عن أحمد : بجواز تقديم ذبحه ، إن قدم به صاحبه ، قبل

العشر . فقد ذكرنا تضعيف صاحب الفروع لها ، وبينا أنها لا مستند لها لأن مستندها مصلحة مرسلة مخالفة لسنة ثابتة .

(645/522)

وأما قول أبي الخطاب : إنه يجوز بإحرام العمرة ، فلا مستند له من كتاب ، ولا سنة ولا قياس . والظاهر : أنه يرى أن هدي التمتع له سببان ، وهما العمرة والحج في تلك السنة ، فإن أحرم بالعمرة انعقد السبب الأول في الجملة فجاز الإتيان بالمسبب ، كوجوب قضاء الحائض أيام حيضها من رمضان ، لأن انعقاد السبب الأول الذي هو وجود شهر رمضان كفى في وجوب الصوم ، وإن لم تتوفر الأسباب الأخرى ، ولم تنتف الموانع ، لأن قضاء الصوم فرع عن وجوب سابق في الجملة ، كما أوضحناه في غير هذا الموضع . ولا يخفى سقوط هذا ، كما ترى . وأما الشافعية : فقد ذكروا لمذهبهم أدلة .

منها : أن هدي التمتع حق مالي ، يجب بسببين : هما الحج ، والعمرة .

فجاز تقديمه على أحدهما قياساً ، على الزكاة بعد ملك النصاب ، وقبل حلول الحول .

ومنها : قوله تعالى ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بالعمرة إِلَى الحج فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ [البقرة : 196] قالوا : قوله ﴿ فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ أي عليه ما استيسر من الهدي ،

وبمجرد الإحرام بالحج يسمى متمتعاً ، فوجب حينئذ ، لأنه معلق على التمتع : وقد وجد . قالوا : ولأن ما جعل غاية تعلق الحكم بأوله كقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصيام إِلَى الليل ﴾ [البقرة : 187] فالصيام ينتهي بأول جزء من الليل ، فكذلك التمتع ، يحصل بأول جزء من الحج وهو الإحرام .

ومنها : أن شروط التمتع وجدت عند الإحرام بالحج ، فوجد التمتع ، وذبح الهدى معلق على التمتع ، وإذا حصل المعلق عليه حصل المعلق .

ومنها : أن الصوم الذي هو بدل الهدي عند العجز عنه ، يجوز تقديم بعضه على يوم النحر ، وهو الأيام الثلاثة المذكورة في قوله ﴿ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحج ﴾ [البقرة : 196] الآية وتقديم البدل ، يدل على تقديم المبدل منه .

ومنها : أنه دم جبران ، فجاز بعد وجوبه قبل يوم النحر كدم فدية الطيب واللباس .

(646/522)

ومنها : ظواهر بعض الأحاديث التي قد يفهم منها الذبح قبل يوم النحر ، فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه في باب الاشتراك في الهدي .

وحدثني محمد بن حاتم حدثنا محمد بن بكر ، أخبرنا ابن جريج ، أخبرنا : أبو الزبير : أنه

سمع جابر بن عبد الله يحدث عن حجة النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " فأمرنا إذا أحللنا أن نهدي ، ويجتمع النفر منا في الهدية " وذلك حين أمرهم أن يحلوا من حجهم في هذا الحديث . انتهى بلفظه من صحيح مسلم . وقال النووي في شرحه لهذا الحديث : وفيه دليل لجواز ذبح هدي التمتع ، بعد التحلل من العمرة ، وقبل الإحرام بالحج . وفي المسألة خلاف ، وتفصيل إلى آخر كلام النووي .

ومن ذلك أيضاً ما رواه الحاكم في المستدرك : أخبرنا أبو الحسن علي بن عيسى بن إبراهيم ، ثنا أحمد بن النضر بن عبد الوهاب ، ثنا يحيى بن أيوب ، ثنا وهب بن جرير ، ثنا أبي عن محمد بن إسحاق ، ثنا ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، وعطاء ، عن جابر بن عبد الله ، قال : كثرت القالة من الناس ، فخرجنا حجاماً ، حتى لم يكن بيننا وبين أن نحل إلا ليال قلائل ، أمرنا بالإحلال الحديث . وفيه : قال عطاء قال ابن عباس رضي الله عنهما " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم يومئذ في أصحابه غنماً فأصاب سعدَ بن أبي وقاص تيس فذبحه عن نفسه ، فلما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة أمر ربيعة بن أمية بن خلف فقام تحت يدي ناقته فقال له النَّبي صلى الله عليه وسلم اصرخ أيها الناس ، هل تدرون أي شهر هذا "

إلى آخر الحديث ، ثم قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه ، وفيه ألفاظ من ألفاظ حديث جعفر بن محمد الصادق ، عن أبيه ، عن جابر أيضاً ، وفيه

أيضاً زيادة ألفاظ كثيرة ا ه . وأقره الحافظ الذهبي على تصحيح الحديث المذكور ، وقوله في هذا الحديث " فأصاب سعد بن أبي وقاص تيس فذبحه عن نفسه فلما وقف بعرفة " إلخ . قد يتوهم منه ، أن ذبح سعد لتيسه كان قبل الوقوف بعرفة .

(647/522)

هذا هو حاصل ما استدل به القائلون بجواز ذبح هدي التمتع قبل يوم النحر ، وغيره مما زعموه أدلة تركناه لوضوح سقوطه ، ولأنه لا يحتاج في سقوطه ، إلى دليل .

وأما الجمهور القائلون : بأنه لا يجوز ذبح دم التمتع والقران قبل يوم النحر فاستدلوا بأدلة واضحة ، وأحاديث كثيرة صحيحة صريحة ، في أن أول وقت نحر الهدي : هو يوم النحر ، وكان صلى الله عليه وسلم قارناً كما قدمنا ، ما يدل على الجزم بذلك ، سواء قلنا : إنّه بدأ إحرامه ، قارناً أو أدخل العمرة على الحج ، وأن ذلك خاص به كما تقدم . وكانت أزواجه كلهن متمتعات كما هو ثابت في الأحاديث الصحيحة ، إلا عائشة فإنها كانت قارنة على التحقيق كما قدمنا إيضاحه بالأدلة الصحيحة الصريحة ، ولم ينحر عن نفسه صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد من أزواجه ، إلا يوم النحر بعد رمي جمرة العقبة ، وكذلك كل من كان معه من المتمتعين ، وهم أكثر أصحابه والقارنين الذين ساقوا الهدي ، لم ينحر أحد منهم

ألبتة ، قبل يوم النحر ، وعلى ذلك جرى عمل الخلفاء الراشدين ، والمهاجرين ، والأنصار ، وعامة المسلمين فلم يثبت عن أحد من الصحابة ، ولا من الخلفاء : أنه نحر هدي تمتعه ، أو قرانه قبل يوم النحر البتة .

فإن قيل : فعله صلى الله عليه وسلم لا يتعين به الوجوب ، لإمكان أن يكون سنة لا فرضاً ، لأن الفعل لا يقع في الخارج إلا شخصياً ، فلا عموم له ، ولذلك كانت أفعال هيئات صلاة الخوف كلها جائزة ، ولم ينسخ الأخير منها الأول ، وإذا فلا مانع من أن يكون هو ذبح يوم النحرن مع جواز الذبح قبله .

(648/522)

فالجواب من وجهين ، الأول : هو ما تقرر في الأصول ، من أن فعله صلى الله عليه وسلم ، إذا كان بياناً لنص فهو محمول على الوجوب ، إن كان الفعل المبين واجباً كما أطبق عليه الأصوليون . وقد قدمنا إيضاحه فقطعه السارق من الكوع مبيناً به المراد من اليد في قوله ﴿ فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : 38] يقتضي الوجوب ، فلا يجوز لأحد القطع من غير الكوع ، وأفعاله في جميع مناسك الحج مبينة للآيات الدالة على الحج ، ومن ذلك الذبائح ، وأوقاتها لأنها من جملة المناسك المذكورة في القرآن المبينة بالسنة . ولذا ثبت عنه صلى

الله عليه وسلم أنه قال " لتأخذوا عني مناسككم "

وإذاً يجب الاقتداء به في فعله في نوعه وزمانه ، ومكانه ما لم يكن هنالك قول منه أعم من الفعل كبيانه أن عرفة كلها موقف ، وأن مزدلفة كلها موقف ، وأن منى كلها منحر ، ونحو ذلك ، فلا يختص الحكم بنفس محل موقفه أو نحره .

قال صاحب جمع الجوامع عاطفاً على ما تعرف به جهة فعله صلى الله عليه وسلم من وجوب أو ندب ما نصه : ووقوعه بياناً إلخ . يعني : أن وقوع الفعل بياناً لنص مجمل إن كان مدلول النص واجباً ، فالفعل المبين به ذلك النص واجب بلا خلاف ، وإن كان مندوباً فمندوب . سواء كان الفعل المبين النص ، دل على كونه بياناً قرينة أو قول .

(649/522)

قال شارحه صاحب الضياء اللامع ما نصه : الثاني : أن يكون فعله بياناً لمجمل إما بقرينة حال مثل القطع من الكوع ، فإنه بيان لقوله تعالى ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : 38] وإما بقول مثل قوله " صلوا كما رأيتموني أصلي " فإن الصلاة فرضت على الجملة ، ولم تبين صفاتها فبينها بفعله ، وأخبر بقوله أن ذلك الفعل بيان ، وكذا قوله " خذوا عني مناسككم " وحكم هذا القسم وجوب الاتباع . ا ه محل الغرض منه ، وهو

واضح فيما ذكرنا ولا أعلم فيه خلافاً فجيمع أفعال الحج ، والصلاة التي بين بها صلى الله عليه وسلم آيات الصلاة والحج يجب حمل كل شيء منها ، على الوجوب إلا ما أخرجه دليل خاص يجب الرجوع إليه . وقال ابن الحاجب في مختصره الأصولي : مسألة فعله صلى الله عليه وسلم ، ما وضح فيه أمر الجبلة ، كالقيام ، والقعود ، والأكل ، والشرب ، أو تخصيصه ، كالضحى ، والوتر ، والتهجد ، والمشاورة ، والتخيير ، والوصال والزيادة على أربع فواضح ، وما سواهما إن وضح أنه بيان بقول أو قرينة مثل : صلوا ، وخذوا ، وكالقطع من الكوع والغسل إلى المرافق ، اعتبر اتفاقاً انتهى محل الغرض منه . ومعنى قوله : اعتبر اتفاقاً : أنه إن كان المبين باسم المفعول واجباً ، فالفعل المبين باسم الفاعل واجب ، لأن المبين بحسب المبين وقال شارحه العضد : فإن عرف أنه بيان لنص على جهته من الوجوب ، والندب ، والإباحة اعتبر على جهة المبين من كونه خاصاً وعاماً اتفاقاً ، ومعرفة كونه بياناً إما بقول ، وإما بقرينة ، فالقول نحو " خذوا عني مناسككم " " وصلوا كما رأيتموني أصلي " والقرينة مثل : أن يقع الفعل ، بعد إجمال ، كقطع يد السارق من الكوع ، دون المرفق ، بإدخال المرافق ، أو إخراجها بعد ما نزلت ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : 38] والغسل إلى المرافق ، بإدخال المرافق ، أو إخراجها بعد ما نزلت ﴿ فاغسلوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ

إِلَى المرافق ﴾ [المائدة : 6] اه محل الغرض منه ، وهو واضح فيما ذكرنا من أن الفعل المبين لنص دال على واجب ، يكون واجباً لأن البيان به بيان لواجب ، كما هو واضح .

وإلى ذلك أشار في مراقي السعود بقوله :

من غير تخصيص وبالنص يرى . . . وبالبيان وامتثال ظهرا

ومحل الشاهد منه قوله : وبالبيان وقال في شرحه نشر البنود في معنى قوله والبيان ، فيكون حكمه حكم المبين اه منه ، وهو واضح ، والمبين بصيغة اسم المفعول في آيات الحج ، وهدي التمتع واجب ، لأن الحج واجب إجماعاً ، وهدي التمتع واجب إجماعاً ، فالفعل المبين لهما يكون واجباً على ما قررناه ، وعليه عامة أهل الأصول ، إلا ما أخرجه دليل خاص وبه تعلم أن ذبحه صلى الله عليه وسلم هديه يوم النحر ، وهو قارن وذبحه عن أزواجه يوم النحر ، وهن متمتعات ، وعن عائشة وهي قارنة : فعل مبين لنص واجب ، فهو واجاب ، ولا تجوز مخالفته في نوع الفعل ، ولا في زمانه ، ولا في مكانه إلا فيما أخرجه دليل خاص ، كغير المكان الذي ذبح فيه من منى ، لأنه بين أن منى كلها منحر ، ولم يبين أن الزمن كله وقت نحر ، ومما يؤيد ذلك ما اختاره بعض أهل الأصول ، من أن فعله صلى الله عليه وسلم الذي لم يكن بياناً لمجمل ، ولم يعلم هل فعله على سبيل الوجوب ، أو على سبيل الندب أنه يحمل على الوجوب ، لأنه أحوط وأبعد من لحوق الإثم ، إذ على احتمال الندب ،

والإباحة لا يقتضي ترك الفعل إثماً ، وعلى احتمال الوجوب يقتضي الترك الإثم ، وإلى هذا أشار في مراقي السعود في مبحث أفعاله صلى الله عليه وسلم مجهول الصفة : أي مجهول الحكم ، فإنه يحمل على الوجوب إلى أن قال : وكونه للوجوب هو الأصح ، وهو الذي ذهب إليه الإمام مالك ، والأبهري وابن القصار وبعض الشافعية ، وأكثر أصحابنا وبعض الحنفية ، وبعض الحنابلة . ا ه محل الغرض منه .

(651/522)

وقال صاحب الضياء اللامع : وبهذا قال مالك في رواية أبي الفرج ، وابن خويز منداد وقال به الأبهري ، وابن القصار ، وأكثر أصحابنا ، وبعض الشافعية ، وبعض الحنفية ، وبعض الحنابلة ، وبعض المعتزلة . واستدل أهل هذا القول بأدلة .

منها قوله تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ واليوم الآخر ﴾ [الأحزاب : 21] قالوا : معناه : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فله فيه أسوه أسوة حسنة ، ويستلزم أن من ليس له فيه أسوة حسنة ، فهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، وملزوم الحرام حرام ولازم الواجب واجب . وقالوا أيضاً : وهو مبالغة في التهديد ، على عدم الأسوة فتكون الأسورة واجبة ، ولا شك أن من الأسوة اتباعه في أفعاله .

ومنها : قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] قالوا : وما فعله فقد آتاناه ، لأنه هو المشرع لنا بأقواله وأفعاله . وتقريره .

ومنها : قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ [آل عمران : 31] الآية . ومن اتباعه التأسي به في فعله ، قالوا : وصيغة الأمر في قوله ﴿ فاتبعوني ﴾ للوجوب .

ومنها : أن الصحابة لما اختلفوا ، في وجوب الغسل من الوطء ، بدون إنزال سألوا عائشة ، فأخبرتهم أنها هي ورسول الله صلى الله عليه وسلم فعلا ذلك ، فاغتسلا فحملوا ذلك الفعل الذي هو الغسل ، من الوطء ، بدون إنزال على الوجوب .

(652/522)

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم لما خلع نعليه في الصلاة ، خلعوا نعالهم ، فلما سألهم : لم خلعوا نعالهم ؟ قالوا : رأيناك خلعت نعليك ، فخلعنا نعالنا ، فحملوا مطلق فعله على الوجوب ، فخلعوا لما خلع ، وأقرهم صلى الله عليه وسلم على ذلك قالوا : فلو كان الفعل الذي لم يعلم حكمه لا يدل على الوجوب ، لبين لهم أنه لا يلزم من خلعه ، أن يخلعوا ، ولكنه أقرهم على خلع نعالهم ، وأخبرهم أن جبريل أخبره : أَن في باطنهما قذراً والقصة في ذلك

ثابتة من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عند أحمد ، وأبي داود ، والحاكم وغيرهم . وقال النووي في شرح المهذب في هذا الحديث : رواه أبو داود بإسناد صحيح ، ورواه الحاكم في المستدرك . قوال : هو صحيح على شرط مسلم ، وقال الشوكاني في نيل الأوطار في شرحه لحديث أبي سعيد المذكور في المنتقى بعد أن قال المجد في المنتقى : رواه أحمد وأبو داود ا ه الحديث : أخرجه أيضاً الحاكم ، وابن خزيمة ، وابن حبان واختلف في وصله وإرساله ورجح أبو حاتم في العلل الموصول ، ورواه الحاكم من حديث أنس ، وابن مسعود إلى آخر كلامه . ومعلوم أن المخالفين القائلين : بأن الفعل الذي لم يكن بياناً لمجمل ، ولم يعلم حكمه من وجوب لا يحمل على الوجوب ، بل على الندب ، أو الإباحة إلى آخر أقوالهم ناقشوا الأدلة التي ذكرنا مناقشة معروفة في الأصول قالوا قوله ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر : 7] أي ما أمركم به بدليل قوله ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [الحشر : 7] فهي في الأمر ، والنهي لا في مطلق الفعل ، ولا يخفى أن تخصيص : وما آتاكم ، بالأمر تخصيص لا دليل عليه ، وذكر النهي بعده لا يعينه وقالوا ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعوني ﴾ [آل عمران : 31] إنما يكون الاتباع واجباً فيما علم أنه واجب ، أما إذا كان فعله مندوباً فالاتباع فيه مندوب ، ولا يتعين أن الفعل واجب ، على الأمة بالاتباع إلا إذا علم أنه صلى الله

عليه وسلم ، فعله على سبيل الوجوب . أما لو كان فعله على سبيل الندب وفعلته الأمة على سبيل الوجوب ، فلم يتحقق الاتباع بذلك قالوا : وكذلك يقال في قوله تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] الآية فلا تتحقق الأسوة ، إذا كان هو صلى الله عليه وسلم فعله ، على سبيل الندب ، وفعلته أمته على سبيل الوجوب ، بل لا بد في الأسوة من علم جهة الفعل ، الذي فيه التأسي قالوا : وخلعهم نعالهم لا دليل فيه ، لأنه فعل داخل في نفس الصلاة : وإنما أخذوه من قوله صلى الله عليه وسلم " صلوا كما رأيتموني أصلي " لأن خلع النعال كأنه في ذلك الوقت من هيئة أفعال الصلاة ، قالوا : وإنما أخذوا وجوب الغسل من الفعل ، الذي أخبرتهم به عائشة ، لأنه صح عن النَّبي صلى الله عليه وسلم وجوب الغسل من التقاء الختانين ، أو لأنه فعل مبين لقوله

(654/522)

﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فاطهروا ﴾ [المائدة : 6] والفعل المبين لإجمال النص ، لا خلاف فيه كما تقدم إيضاحه . قالوا : والاحتياط في مثل هذا : لا يلزم ، لأن الاحتياط لا يلزم إلا فيما ثبت وجوبه أو كان وجوبه ، هو الأصل كليلة الثلاثين من رمضان ، إن حصل غيم يمنع رؤية

الهلال عادة أما غير ذلك ، فلا يلزم فيه الاحتياط ، كما لو حصل الغيم المانع من رؤية هلال رمضان ليلة ثلاثين من شعبان : فلا يجوز صوم يوم الشك ، ولا يحتاط فيه ، لأنه لم يثبت له وجوب ولم يكن وجوبه هو الأصل إلى آخر أدلتهم ومناقشتها . فلم نطل بجميعها الكلام ، ولاشك : أن الأدلة التي ذكرها الفريق الأول كقوله ﴿ فاتبعوني ﴾ [آل عمران : 31] وقوله ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر : 7] الآية وقوله ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] الآية وإن لم تكن مقنعة بنفسها في الموضوع ، فلا تقل عن أن تكون عاضدة لما قدمنا من وجوب الفعل الواقع به البيان ، وما سنذكره من غير ذلك وهو الوجه الثاني من وجهي الجواب اللذين ذكرنا : وهو أن ذلك الفعل الذي هو ذبح هدي التمتع ، والقران يوم النحر ، هو الذي مشى عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين . ودلت عليه الأحاديث ولن يصلح آخر هذه الأمة ، إلا ما أصلح أولها ، ومن أوضح الأدلة الثابتة في ذلك الأحاديث المتفق عليها التي لا مطعن فيها بوجه أنه صلى الله عليه وسلم ، أمر أصحابه بفسخ حجهم في عمرة ، وأن يحلوا منها الحل كله ، ثم يحرموا بالحج ، وتأسف على أنه لم يفعل مثل فعلهم وقال " لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة " وفي تلك النصوص الصحيحة : التصريح بأمرهم بفسخ الحج في العمرة ومعناه : أنه هو صلى الله عليه وسلم ، يجوز له أن يفسخ الحج في العمرة ، كما أمر

أصحابه بذلك . وقد صرح في الأحاديث الصحيحة ، بأن الذي منعه من ذلك . أنه ساق الهدي ، فلو كان هدي

(655/522)

التمتع يجوز ذبحه بعد الإحلال من العمرة لجعل الحج عمرة ، وأحل منها ، ونحر الهدي بعد الإحلال منها . ولكن المانع الذي منع من ذلك هو عدم جواز النحر في ذلك الوقت . والحلق الذي لا يصح الإحلال دونه ، معلق على بلوغ الهدي محله كما قال ﴿ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] وقد بين صلى الله عليه وسلم بفعله الثابت عنه أن محله : منى يوم النحر . وقد قدمنا في سورة البقرة : أن القرآن دل في موضعين ، على أن النحر قبل الحلق .

أحدهما : قوله تعالى ﴿ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ﴾ .

والثاني : قوله تعالى ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ وقد قدمنا أنه التسمية عند نحرها تقرباً لله ، ثم قال بعد النحر الذي هو معنى الآية

(656/522)

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ [الحج : 29] ومن قضاء تفثهم : الحلق ، أو التقصير . وقد ثبت في الصحيح " أنه صلى الله عليه وسلم حلق قبل أن ينحر وأمر بذلك " كما قدمناه في سورة البقرة مستوفى ، ولكنه صلى الله عليه وسلم بين أن من قدم الحلق ، على النحر : لا شيء عليه . ولا خلاف أن كل الواقع من ذلك في حجته ، أنه كان يوم النحر كما هو معروف . وقد دلت آية الحج على أن كل هدي له تعلق بالحج ، ويدخل فيه التمتع دخولاً أولياً أن وقت ذبحه مخصص بأيام معلومات ، دون غيرها من الأيام ، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾ لأن معنى الآية الكريمة : أذن فيهم بالحج ، يأتوك مشاة ، وركباناً لأجل أن يشهدوا منافع لهم ، ولأجل أن يذكروا اسم الله في أيام معلومات ، على ما رزقهم من بهيمة الأنعام : أي ولأجل أن يتقربوا بدماء الأنعام في خصوص تلك الأيام المعلومات وهو واضح كما ترى . وقد قدمنا أن هذه الأنعام التي يتقرب بها في هذه الأيم المعلومات ، ويسمى عليها الله عند تذكيتها ، أنها أظهر في الهدايا من الضحايا ، لأن الضحايا لا تحتاج أن يؤذن فيها للمضحين ، ليأتوا رجالاً وركباناً ، ويذبحوا ضحاياهم كما ترى ، والأحاديث الصحيحة الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم كان قارناً ونحر هديه يوم النحر ، وأنه ما منعه من فسخ الحج في العمرة إلا سوق الهدي ، وأن

الهدي لو كان يجوز ذبحه بعد الإحلال من العمرة ، لأحل بعمرة ، وذبح هدي التمتع عند الإحلال منها ، أو عند الإحرام بالحج كما يقول من ذكرنا : أنه جائز ، وقد قدمنا كثيراً منها موضحاً بأسانيده ، وسنعيد طرفاً منه هنا إن شاء الله تعالى .

(657/522)

فمن ذلك حديث حفصة زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم المتفق عليه قال البخاري في صحيحه : حدثنا إسماعيل قال : حدثني مالك ، حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك ، عن نافع عن ابن عمر عن حفصة رضي الله عنها زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم أنا قالت " يا رسول الله ما شأن الناس حلوا بعمرة ، ولم تحلل أنت من عمرتك ؟ قال : إني لبدت رأسي وقلدت هديي ، فلا أحل حتى أنحره " ا ه من صحيح البخاري ، وقوله : حتى أنحر يعني يوم النحر ، فلو جاز نحر هدي التمتع قبل ذلك ، لأحل بعمرة ، ونحر .

وقال مسلم في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى قال : قرأت على مالك ، عن نافع ، عن عبد الله بن عمر أن حفصة رضي الله عنهم ، زوج النَّبي صلى الله عليه وسلم قالت " يا رسول الله ما شأن الناس حلوا ، ولم تحلل أنت من عمرتك ؟ قال : إني لبدت رأسي ، وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر " وفي لفظ له عنها قالت قال " إني قلدت هديي فلا أحل

حتى أحل من الحج " وفي لفظ لها عنها " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أمر أزواجه أن يحللن عام حجة الوداع ، قالت حفصة : قلت ما يمنعك أن تحل ؟ قال : إني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر هديي " ا ه .

ففي هذه الروايات الصحيحة ما يدل على أن الهدي الذي معه مانع من الحل ، ولو كان النحر قبل يوم النحر جائزاً لتحلل بعمرة ثم نحر ، وفيه أن أزواجه صلى الله عليه وسلم متمتعات ، وقد نحر عنهن البقر يوم النحر .

(658/522)

قال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك عن يحيى بن سعيد ، عن عمرة بنت عبد الرحمن قالت : سمعت عائشة رضي الله عنها تقول " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لخمس بقين من ذي القعدة ، لا نرى إلا الحج ، فلما دنونا من مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يكن معه هدي إذا طاف وسعى بين الصفا والمروة أن يحل . قالت : فدخل علينا يوم النحر بلحم بقر فقلت : ما هذا ؟ قال : نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أزواجه " قال يحيى : فذكرته للقاسم بن محمد فقال : أتتك بالحديث على وجهه ، انتهى من صحيح البخاري .

وقال مسلم رحمه الله في صحيحه : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا يحيى بن زكرياء بن أبي زائدة ، عن ابن جريج ، عن أبي الزبير عن جابر قال " ذبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن عائشة بقرة يوم النحر " وفي لفظ لمسلم ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال " نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نسائه " وفي حديث أبي بكر عن عائشة بقرة في حجته . انتهى من صحيح مسلم ، وقد تركنا ذكر اختلاف الروايات ، هل ذبح عن جميعهن بقرة واحدة ، أو عن كل واحدة بقرة ، كما جاء التصريح به في حديث مسلم ، هذا بالنسبة إلى عائشة ، وعلى كل حال فهذه الروايات الصحيحة ، وأمثالها الكثيرة التي قدمنا كثيراً منها : تدل على أنه صلى الله عليه وسلم نحر عمن تمتع من أزواجه ، ومن قرن في خصوص يوم النحر ، وأنه هو صلى الله عليه وسلم كذلك فعل عن نفسه ، وكان قارناً مع أنه كان يتمنى أن يعتمر ، ويحل منها ، ثم يحرم بالحج ، كما أمر أصحابه بفعل ذلك ، وصرح في الروايات الصحيحة : بأن المانع له من ذلك سوق الهدي ، فلو كان الهدي يجوز نحره قبل يوم النحر لتحلل ونحر كما أوضحناه ، وفعله هذا كالتفسير لقوله تعالى

(659/522)

﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] فبين بفعله : أن بلوغه محله يوم النحر بمنى ، بعد رمي جمرة العقبة ، فمن أجاز ذبح هدي التمتع قبل ذلك ، فقد خالف فعله صلى الله عليه وسلم المبين لإجمال القرآن ، وخالف ما كان عليه أصحابه من بعده وجرى عليه عمل عامة المسلمين ، ولا يثبت بنص صحيح عن صحابي واحد أنه نحر هدي تمتع أو قران قبل يوم النحر ، فلا يجوز العدول عن هذا الذي فعله صلى الله عليه وسلم مبيناً به إجمال الآيات القرآنية ، وأكده بقوله " لتأخذوا عني مناسككم " كما ترى .

فإذا عرفت مما ذكرنا : أن الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وفعل الخلفاء الراشدين ، وغيرهم من كافة علماء المسلمين : هو أنه لا يجوز نحر هدي التمتع والقران ، قبل يوم النحر . فدونك الأجوبة التي أجيبت بها عن أدلة المخالفين القائلين : بجواز ذبحه عند إحرام الحج ، أو عند الإحلال من العمرة .

أما استدلالهم بأن هدي التمتع له سببان ، فجاز بأحدهما قياساً على الزكاة ، بعد ملك النصاب ، وقبل حلول الحلول فهو مردود بكونه فاسد الاعتبار ، وفساد الاعتبار من القوادح المجمع على القدح بها ، وهو بالنسبة إلى القياس أن يكون القياس مخالفاً لنص من كتاب ، أو سنة ، أو إجماع ، وهذا القياس مخالف للسنة الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم التي هي النحر يوم النحر ، كما قدمنا إيضاحه ، وعرف في مراقي السعود فساد الاعتبار

بقوله في مبحث القوادح .

والخلف للنص أو إجماع دعا . . . فساد الاعتبار كل من وعى

واستدلالهم بأن شروط التمتع وجدت عند الإحرام بالحج ، فوجد التمتع بوجود شروطه ، وذبح الهدي معلق على وجود التمع في الآية . وإذا حصل المعلق عليه ، حصل المعلق مردود من وجهين :

(660/522)

الأول : أن وجود التمع لم يحقق بإحرام الحج ، لاحتمال أن يفوته الحج بسبب عائق عن الوقوف بعرفة وقته ، لأنه لو فاته الحج ، لم يوجد منه التمتع ، فدل ذلك على أن الإحرام بالحج لا يتحقق به وجود حقيقة التمتع التي علق على وجوده ما استيسر من الهدي .

الثاني : أن الهدي الواجب بالتمتع له محل معين ، لا بد من بلوغه في زمن معين ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] . وقد بين صلى الله عليه وسلم بفعله الثابت ثبوتاً لا مطعن فيه . وقوله " إني لبدت رأسي وقلدت هديي " الحديث المتقدم : أن محله هو منى يوم النحر كما تقدم إيضاحه ،

واستدلالهم بأن الصوم الذي هو بدل الهدي ، عند العجز عنه يجوز تقديم بعضه على يوم

النحر ، وهو الأيام الثلاثة المذكورة في قوله ﴿ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحج ﴾ [البقرة : 196] فجاز تقديم الهدي على يوم النحر ، قياساً على بدله مردود من وجهين :

الأول : أنه قياس مخالف لسنة النَّبي صلى الله عليه وسلم التي فعلها مبيناً بها القرآن . وقال : " لتأخذوا عني مناسككم " فهو قياس فاسد الاعتبار ، كما قدمنا إيضاحه قريباً .

الوجه الثاني : أنه قياس مع وجود فوارق تمنع من إلحاق الفرع بالأصل .

منها : أن الهدي يترتب على ذبحه قضاء التفث ، كما يدل عليه قوله في ذبح الهدايا : ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ ثم رتب على ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ [الحج : 29] وهذا الحكم الموجود في الأصل منتف عن الفرع ، لأن الصوم لا يترتب عليه قضاء تفث .

ومنها : أن الهدي يختص بمكان ، وهذا الوصف منتف عن الفرع ، وهو الصوم ، فإنه لا يختص بمكان .

(661/522)

ومنها : أن الصوم إنما يؤدي جزؤه الأكبر بعد الرجوع إلى الأهل في قوله تعالى : ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ [البقرة : 196] وهذا منتف عن الأصل الذي هو الهدي ، فلا يفعل منه شيء بعد الرجوع إلى الأهل كما ترى .

واستدلالهم : بأنه دم جبران ، فجاز بعد وجوبه قبل يوم النحر قياساً على فدية الطيب واللباس مردود من وجهين أيضاً .

اعلم أولاً : أنا قدمنا أقوال أهل العلم ، ومناقشة أدلتهم مناقشة دقيقة في هدي التمتع هل هو دم جبران ، أو دم النسك كالأضحية ؟ فعل : أنه دم نسك فسقوط الاستدلال المذكور واضح ، وعلى : أنه دم جبران ، فقياسه على فدية الطيب واللباس يمنعه أمران .

الأول : أنه قياس فاسد الاعتبار لمخالفته السنة الثابتة ، عند صلى الله عليه وسلم .

(662/522)

الثاني : أنه لم يثبت نص صحيح من كتاب ، ولا سنة على وجوب الهدي في الطيب واللباس ، حتى يقاس عليه هدي التمتع ، والعلماء إنما أوجبوا الفدية في الطيب ، واللباس قياساً على الحلق المنصوص في آية الفدية ، والقياس على حكم مثبت بالقياس فيه خلاف معروف بين أهل الأصول . فذهبت جماعة منهم إلى أن حكم الأصل المقيس عليه ، لا بد

أن يكون ثابتاً بنص ، أو اتفاق الخصيمن . وذهب آخرون إلى جواز القياس على الحكم الثابت بالقياس ، كأن تقول هنا : من لبس أو تطيب في إحرامه ، لزمته فدية الأذى ، قياساً على الحلق المنصوص عليه في قوله تعالى ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ ﴾ [البقرة : 196] الآية بجامع ارتكاب المحظور ، ثم تقول : ثبت بهذا القياس أن في الطيب واللباس ، فدية فتجعل الطيب واللباس الثابت حكمهما بالقياس أصلاً ثانياً ، فتقيس عليهما هدي التمتع في جواز التقديم بجامع أن الكل دم جبران ، وكأن تقول : يحرم الربا في الذرة ، قياساً على البر بجامع الاقتيات ، والادخار ، أو الكيل مثلاً ثم تقول : ثبت تحريم الربا في الربا في الذرة ، قياساً على البر بجامع الاقتيات ، والادخار ، أو الكيل مثلاً ثم تقول : ثبت تحريم الربا في الربا في الذرة ، قياساً على البر بجامع الاقتيات ، والادخار ، أو الكيل مثلاً ثم تقول : ثبت تحريم الربا في الربا في الذرة بالقياس على البر ، فتجعل الذرة أصلاً ثانياً ، فتقيس عليها الأرز ، ونحو ذلك فعلى أن مثل هذا لا يصح به القياس ، فسقوط الاستدلال المذكور واضح وعلى القول بصحة القياس عليه ، وهو الذي درج عليه في مراقي السعود بقوله :

وحكم الأصل قد يكون ملحقاً . . . لما من اعتبار الأدنى حققا

فهو قياس مختلف في صحته أصلاً ، وهو فاسد الاعتبار أيضاً ، لمخالفته لسنته صلى الله عليه وسلم .

واستدلالهم بقوله تعالى : ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بالعمرة إِلَى الحج فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ [البقرة : 196] قائلين : إنه بمجرد الإحرام بالحج يسمى متمتعاً ، فيجب الهدي بإحرام الحج ، لأن اسم التمتع يحصل به ، والهدي معلق عليه قالوا : ولأن ما جعل غاية تعلق الحكم بأوله كقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصيام إِلَى الليل ﴾ [البقرة : 187] مردود أيضاً .

أما كون التمتع يوجد بإحرام الحج ، والهدي معلق عليه فيلزم وجوده بوجوده ، فقد بينا رده من وجهين بإيضاح قريباً فأغنى عن إعادته هنا .

وقولهم : إن ما جعل غاية تعلق الحكم بأوله يعنون أن قوله تعالى : ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بالعمرة إِلَى الحج ﴾ [البقرة : 196] جعل فيه الحج غاية بحرف الغاية الذي هو إلى ، فيجب تعلق الحكم الذي هو ذبح الهدي بأول الغاية ، وهو الحج وأوله الإحرام ، فيجب الذبح بالإحرام كقوله : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصيام إِلَى الليل ﴾ [البقرة : 187] فإن حكم إتمام الصيام ينتهي بأول جزء من الليل ، الذي هو الغاية لإتمامه مردود من وجهين .

الأول : أن هذا غير مطرد ، فلا يلزم تعلق الحكم بأول ما جعل غاية .

ومن النصوص التي لم يتعلق الحكم فيها بأول ما جعل غاية قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ

تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حتى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ [البقرة : 230] فنكاحها زوجاً غيره جعل غاية لعدم حليتها له ، مع أن أول هذه الغاية الذي هو عقد النكاح ، لا يتعلق به الحكم ، بل لا بد من بلوغ آخر الغاية : وهو الجماع ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم " لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك " فعلم أن التعلق بأول الغاية : لا يلزم على كل حال .

(664/522)

الوجه الثاني : أن سنة النَّبي الثابتة عنه من فعله ، ومفهوم قوله : بينت أن هذا الحكم ، لا يتعلق بأول الغاية ، وإنما يتعلق بآخرها وهو الإحلال الأول : لأنه لم ينحر هدي تمتع ، ولا قران إلا بعد رمي جمرة العقبة ، وفعله فيه البيان الكافي للمراد من الغاية التي يترتب عليها ﴿ فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ [البقرة : 196] والله يقول ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله واليوم الآخر ﴾ [الأحزاب : 21] الآية ففعله مبين لقوله ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بالعمرة إِلَى الحج فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ لأنه ذبح عن أزواجه المتمتعات يوم النحر ، وأمر أصحابه المتمتعين بذلك ، وخير ما يبين به القرآن بعد القرآن السنة ، والله يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : 44] الآية ، وهو صلى الله

عليه وسلم يبين المناسك بأفعاله ، موضحاً بذلك المراد من القرآن ، ويقول : " لتأخذوا عني مناسككم " .

الثالث : أنه لو جاز له ذبحه قبل يوم النحر ، لجاز الحلق قبل يوم النحر ، وذلك باطل فالحلق لا يجوز ، حتى يبلغ الهدي محله . كما هو صريح القرآن ، والحلق لم يجز قبل يوم النحر ، فالهدي لم يبلغ محله قبل يوم النحر ، وهو واضح كما ترى ، ولذا لم يأذن صلى الله عليه وسلم في حجته ، لمن ساق هدياً أن يحل ويحلق ، وإنما أمر بفسخ الحج في العمرة من لم يسق هدياً ، ولا شك أن ذلك عمل منه بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] .

(665/522)

واستدلالهم بحديث جابر المتقدم عند مسلم قال : " فأمرنا إذا أحللنا أن نهدي ويجتمع النفر منا في الهدية " وذلك حين أمرهم أن يحلوا من حجهم مردود بالقادح المسمى في اصطلاح أهل الأصول بالقلب ، لأن حديث جابر المذكور حجة عليهم ، لا لهم وذلك هو عين القلب وإيضاحه أن لفظ الحديث " وذلك حين أمرهم أن يحلوا من حجهم " والإشارة في قوله : وذلك راجعة إلى الأمر بالهدية ، والاشتراك فيها ، والحديث صريح في أن ذلك

حين إحلالهم من حجهم . وذلك إنما وقع يوم النحر ، لأنه لا إحلال من حج ألبتة قبل يوم النحر .

والغريب من الشيخ النووي أنه قال في حديث جابر هذا : وفيه دليل لجواز ذبح هدي التمتع بعد التحلل من العمرة ، وقبل الإحرام بالحج ، لأن لفظ الحديث مصرح بأن ذلك عند الأمر بالإحلال من الحج ، وهو يستدل به على وقوعه قبل الإحرام بالحج .

والظاهر أن هذا سهو منه أو أنه ذهب ذهنه إلى أنه أمرهم بذلك حين تحللهم من العمرة ، وظن أن اسم الحج لا ينافي ذلك . لأن أصل الإحرام بالحج ، ففسخوه في عمرة ، فلما أحلوا منها صاروا كأنهم محلون من الحج الذي فسخوه فيها ، وهذا محتمل ولكنه بعيد جداً من ظاهر اللفظ لأن الحج الذي أحرموا به لما فسخوه في عمرة زال اسمه بالكلية ، وصار الإحلال من عمرة لا من حج كما ترى ، فحمل لفظ الإحلال من الحج على الإحلال من العمرة حمل للفظ الحديث ، على ما لا يدل عليه بحسب الوضع العربي من غير دليل يجب الرجوع إليه .

ولو سلمنا جدلياً : أن المراد في حديث جابر المذكور بالإحلال من الحج : هو الإحلال من العمرة التي فسخوا فيها الحج كما هو رأي النووي ، فلا دليل في الحديث أيضاً ، لأن غاية ما دل عليه الحديث على التفسير المذكور : أنه أمرهم عند الإحلال من العمرة بالهدي وذلك

لا يستلزم أنهم ذبحوه في ذلك الوقت ، بل الأحاديث الصحيحة الكثيرة الدالة على أنهم لم يذبحوا شيئاً من هداياهم ، قبل يوم النحر ، كما تقدم إيضاحه .

(666/522)

واستدلالهم بحديث ابن عباس المتقدم عند الحاكم " أنه صلى الله عليه وسلم قسم يومئذ في أصحابه غنماً فأصاب سعد بن أبي وقاص تيس فذبحه عن نفسه ، فلما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة " إلى آخر الحديث المتقدم ، لا دليل فيه ، لأنه محمول على أنه لم يذبحه إلا يوم النحر ، كما فعل جميع الصحابة . وجاء في مسند الإمام أحمد التصريح بذلك فصارت رواية أحمد المصرحة ، بأن ذلك وقع يوم النحر مفسرة لرواية الحاكم .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ما نصه : باب تفرقة الهدي عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قسم غنماً يوم النحر في أصحابه وقال : اذبحوا لعمرتكم فإنها تجزئ عنكم فأصاب سعد بن أبي وقاص تيس " رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح . ا ه منه .

(667/522)

وهذه الرواية الصحيحة مبينة أن ذبحهم عن عمرتهم ، إنما كان يوم النحر ، وأن ذلك هو المراد في الرواية التي رواها الحاكم ، لأن الروايات يفسر بعضها بعضاً ، كما هو معلوم في علم الحديث والأصول ، ولقد صدق الهيثمي في أن رجاله رجال الصحيح ، لأن أحمد رواه عن عجاج بن محمد المصيصي الأعور أبي محمد مولى سليمان بن مجالد ، وهو ترمذي الأصل سكن بغداد ثم تحول إلى المصيصة ، أخرج له الجميع . وقال فيه ابن مجر في التقريب : ثقة ثبت ، لكنه اختلط في آخر عمره ، لما قدم بغداد قبل موته وقال فيه في تهذيب التهذيب بعد أن ذكر ثناء عليه كثيراً من نقاد رجال الحديث : كان ثقة صدوقاً إن شاء الله ، وكان قد تغير في آخر عمره حين رجع إلى بغداد . والظاهر أن الإمام أحمد إنما أخذ عنه قبل اختلاطه لأنه كان في بغداد قبل المصيصة ، ثم رجع من المصيصة إلى بغداد في حاجة له ، فمات بها واختلاطه في رجوعه الأخير كما يعلمه من نظر ترجمته في كتب الرجال ، وحجاج المذكور رواه عن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وقد أخر له الجميع وهو ثقة فقيه فاضل معروف وكان يدلس ويرسل ، ولكنه في هذا الحديث صرح بالإخبار عن عكرمة ، عن ابن عباس وراوي الحديث عن أحمد ابنه ، عبد الله وجلالته معروفة ، فظهر صحة الإسناد المذكور كما قاله في مجمع الزوائد ، والعلم عند الله تعالى وقد رأيت مما ذكرنا أدلة من قال : بجواز ذبح هدي التمتع عند الإحرام بالحج ، ومن قال : بجوازه عند الفراغ من

العمرة ، وأدلة من قال : لا يجوز ذبحه قبل يوم النحر ومناقشتها .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي والله أعلم : أنه لا يجوز ذبح هدي التمتع ، والقران قبل يوم النحر لأدلة متعددة ، أوضحناها غاية الإيضاح قريباً .

(668/522)

منها : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كذلك فعل فلم يذبح ، عن أزواجه المتمتعات ولاَ عَنْ عائشة القارنة إلا يوم النحر ، وكذلك فعل وهو وجميع أصحابه المتمتعين بأمره ، واستمر على ذلك عمل الأمة ، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة . وقد أمرنا أن نأخذ عنه مناسكنا ، ومن مناسكنا : وقت ذبح الهدايا ، ولا شك أن القرآن العظيم دل على أن كل هدي له تعلق بالحج أن ذبحه في أيام معلومات ، لا في أيام مجهولات كما أوضحناه مراراً لأنه تعالى قال ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾ لأن مضمون الآية الكريمة : أذن فيهم بالحج يأتوك حجاجاً مشاة وركباناً ، لأجل أن يشهدوا منافع لهم ، ولأجل أن يذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام : أي وليتقربوا إلى الله بدماء ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، ذاكرين اسم الله عليها عند التذكية .

فقد صرح بأن ذلك التقرب بدماء الأنعام الذي هو من جملة ما دعوا إلى الحج من أجله ، أنه في أيام معلومات لا في زمن مطلق مجهول كما ترى .

وقد بينا الأيام المعلومات في أول هذا البحث ، وقد بين صلى الله عليه وسلم أول وقتها ، فذكر اسم الله على ما رزقه من بهيمة الأنعام : وقت تذكيتها يوم النحر ، ويوضح أن ذكر اسم الله عليها إنما هو عند تذكيتها تقرباً لله تعالى بدمائها قوله تعالى ﴿ والبدن جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ [الحج : 36] أي ذكوها قائمة صواف على ثلاثة أرجل كما هو معلوم .

(669/522)

ولا شك أن الله جل وعلا في محكم كتابه بين أن الهدي له محل معروف لا يجوز التحلل بحلق الرأس ، قبل بلوغه إياه ، وذلك في قوله ﴿ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] ، وقد ثبتت الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي لا مطعن فيها : أنه صلى الله عليه وسلم أمر من لم يسق هدياً من أصحابه بفسخ حجه في عمرة ، والإحلال من العمرة ، وتأسف هو صلى الله عليه وسلم أنه لم يفعل ذلك وقال " لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة " .

ولا شك أن المانع له من فسخ الحج في العمرة أنه لا يمكنه التحلل ، وحلق الرأس ، حتى يبلغ الهدي محله .

ومن الضروري البديهي أن هدي التمتع ، لو كان يجوز ذبحه عند الإحلال من العمرة ، أو الإحرام بالحج أنه صلى الله عليه وسلم يتحلل بعمرة ، ويذبح هديه عندما تحلل منها ، فيكون متمتعاً ذابحاً عند الفراغ من العمرة ، أو عند الإحرام بالحج ، فلما صرح بامتناع هذا وعلله بأنه قلد هديه ، وعلم أنه لا يجوز ذبحه قبل يوم النحر كما هو واضح .

وقد أوضحنا أن جميع أفعاله في الحج ، ويدخل فيها الذبح ووقته كلها بيان لإجمال آيات القرآن كقوله ﴿ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] وقوله ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ كما أنه بيان لقوله ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت ﴾ [آل عمران : 97] الآية . ولذا قال صلى الله عليه وسلم مبيناً : أن أفعاله في الحج ، بيان للقرآن " لتأخذوا عني مناسككم " وقد قدمنا اتفاق الأصوليين ، على أن فعله صلى الله عليه وسلم الذي هو بيان لإجمال نص يقتضي الوجوب : أنه واجب إلى آخر ما قدمناه من الأدلة .

(670/522)

وقد علمت مما ذكرنا أن القائلين بجواز ذبح هدي التمتع عند الإحرام بالحج ، أو بعد الفراغ من العمرة كالشافعية وأبي الخطاب من الحنابلة ، ليس معهم حجة واضحة من كتاب الله ، ولا من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولا فعل أحد من الصحابة وأن تمسكهم بآية ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بالعمرة إِلَى الحج ﴾ [البقرة : 196] وبعض الأحاديث ليس في شيء منه حجة ناهضة ، يجب الرجوع إليها ، هذا ما ظهر لنا في هذه المسألة ، العلم عند الله تعالى .

تنبيه

(671/522)

اعلم أن ما يفعله كثير من الحجاج الذين يزعمون التقرب بالهدي ، يوم النحر من ذبح الغنم في أماكن متفرقة من منى لا يقدر الفقراء على الوصول إليها ، والتمكن منها ، وتركها مذبوحة ليس بقربها فقير ينتفع بها ، وتضيع تلك الغنم بكثرة وتنتفخ وينتشر نتن ريحها في أقطار منى ، حتى يعم أرجاءها النتن كأنه نتن الجيف أن كل ذلك لا يجوز وهو إلى المعصية أقرب منه إلى الطاعة . ولا يجوز لمن بسط الله يده إقرارهم على ذلك ، لأنه فساد وأذية لسائر الحجاج بالأرواح المنتنة ، وإضاعة للمال ، وإفساد له باسم التقرب إلى الله ، ودواء ذلك الداء المنتشر في منى كل سنة أن يعلم كل مهد وكل مضح : أنه يلزمه إيصال لحم ما يتقرب به إلى

الفقراء ، فعليه إذا ذبحها أن يؤجر من يسلخها طرية حين ذبحها أو يسلخها هو ، ويحملها بنفسه أو بأجرة ، حتى يوصلها إلى المستحقين ، لأن الله يقول ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ البآئس الفقير ﴾ [الحج : 28] ويقول ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ القانع والمعتر ﴾ [الحج : 36] ولا يمكنه إطعام أحد ممن أمره الله بإطعامهم إلا بإيصال ذلك إليهم ، ولو اجتهد في إيصاله إليهم ، لأمكنه ذلك لأنه قادر عليه وعلى من بسط الله يده ، أن يعين الحجاج المتقربين بالدماء على طريق الإيصال إلى الفقراء بالطرق الكفيلة بتيسير ذلك كتهيئة عدد ضخم من العاملين للإيجار يوم النحر على سلخ الهدايا والضحايا طرية ، وحمل لحومها إلى الفقراء في أماكنهم ، وكتعدد مواضع الذبح في أرجاء منى ، وفجاج مكة ، ونحو ذلك من الطرق المعينة على إيصال الحقوق لمستحقيها .

واعلم : أن التحقيق أن فقراء الحرم هم الموجودون فيه وقت نحر الهدايا من الآفاقيين ، وحاضري المسجد الحرام ، فإن ذبح في موضع فيه فقراء ، وخلى بينهم وبين الذبيحة أجزأه ذلك لأنه يسر لهم الأكل منها بطريق لا كلفة عليهم فيها ، فكأنه أطعمهم بالفعل ، والعلم عند الله تعالى .

(672/522)

ومعلوم أن المتمتع إذا لم يجد هدياً أنه ينتقل إلى الصوم كما قال تعالى ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحج وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة : 196] .

وأظهر قولي أهل العلم عندي أن معنى قوله في الحج : أي في حالة التلبس بإحرام الحج ، لأن الظاهر من اسم الحج هو الدخول في نفس الحج ، وذلك بالإحرام وقال بعض أهل العلم : المراد بالحج أشهره ، واستدل بقوله تعالى ﴿ الحج أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ [البقرة : 197] ولا دليل في الآية عندي ، لأن الكلام على حذف مضاف : أي زمن الحج أشهر معلومات . وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أسلوب عربي كما أشار له في الخلاصة بقوله :

وما يلي المضاف يأتي خلفا . . . عنه في الإعراب إذا ما حذفا

وعليه فينبغي أن يحرم بحجه ، قبل يوم التروية ليتم الثلاثة . قبل يوم النحر لأن صومه لا يجوز . وكره بعض اهل العلم للحاج صوم يوم عرفة ، واستحب أن يفرغ من صوم الثلاثة قبله ، وجزم به صاحب المهذب والتحقيق : أن السبعة إنما يصومها بعد الرجوع إلى أهله ، ووصلوه إلى بلده ، وأنه ليس المراد أنه يصومها في طريقه في رجوعه . وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر : أن المراد الرجوع إلى أهله وهو ظاهر القرآن . فلا يجوز العدول عنه . والظاهر أن الأيام الثلاثة والأيام السبعة : لا يجب التتابع في واحد منهما ، لعدم الدليل على ذلك قال في المغني : ولا نعلم فيه خلافاً ، وإن فاته صومها قبل يوم النحر ، فهل يجوز له أن

يصوم أيام التشريق الثلاثة ؟ اختلف العلماء في ذلك على قولين :

أحدهما : أنه لا يجوز صوم أيام التشريق للمتمتع .

(673/522)

والثاني : يجوز له صومها ، وفيها قول ثالث : أنها يجوز صومها مطلقاً ، ولا يخفى بعد هذا القول وسقوطه . أما حجة من قال : إنها لا يجوز صومها للمتمتع ، ولا غيره فهو ما رواه مسلم في صحيحه . وحدثنا سريج بن يونس ، حدثنا هشيم ، أخبرنا خالد ، عن أبي المليح ، عن نبيشة الهذلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أيام التشريق أيام أكل وشرب " وفي لفظ عند مسلم عنه زيادة " وذكر الله " .

وقال مسلم في صحيحه أيضاً : وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا محمد بن سابق ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن أبي الزبير ، عن ابن كعب بن مالك ، عن أبيه أنه حدثه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه وأوس بن الحدثان أيام التشريق ، فنادى : أنه لا يدخل الجنة ، إلا مؤمن ، وأيام منى أيام أكل وشرب "

وفي لفظ عند مسلم : " فناديا " اهـ منه قالوا : فهذا الحديث الصحيح الذي رواه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم صحابيان : هما كعب بن مالك ، ونبيشة بن عبد الله الهذلي ، فيه

التصريح من النَّبي صلى الله عليه وسلم بأن أيام التشريق أيام أكل وشرب ، وذلك يدل على أنها لا يجوز صومها . وظاهر الحديث الإطلاق في المتمتع وغيره . وفي الحديث المذكور : الرد على من أجاز صومها مطلقاً ، ومما يؤيد ذلك حديث عمرو بن العاص أنه قال لابنه عبد الله في أيام التشريق : إنها الأيام التي نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صومهن ، وأمر بفطرهن . قال ابن حجر في الفتح : أخرجه أبو داود ، وابن المنذر وصححه ابن خزيمة والحاكم .

وأما حجة من قال بجواز صوم أيام التشريق الثلاثة للمتمتع الذي فاته صومها قبل يوم النحر ، فهي ما رواه البخاري في صحيحه قال : باب صيام أيام التشريق ، قال أبو عبد الله : قال لي محمد بن المثنى : حدثنا يحيى ، عن هشام قال : أخبرني أبي كانت عائشة رضي الله عنها تصوم أيام منى ، وكان أبوه يصومها .

(674/522)

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة : سمعت عبد الله بن عيسى عن الزهري عن عروة ، عن عائشة ، وعن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهم قالا : لم يرخص في أيام التشريق ، أن يصمن ، إلا لمن لم يجد الهدي . انتهى منه قالوا : فهذا الحديث له حكم

الرفع وفيه التصريح بالترخيص في صوم أيام التشريق للمتمتع ، الذي لم يجد هدياً ، والروايات الصحيحة التي رواها الحفاظ من أصحاب شعبة ، لم يرخص بضم الياء وفتح الخاء مبنياً للمفعول .

قال في الفتح : ووقع في رواية يحيى بن سلام عن شعبة عند الدارقطني ، واللفظ له ، والطحاوي : رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم للمتمتع إذا لم يجد الهدي أن يصوم أيام التشريق ، وقال : إن يحيى بن سلام ، ليس بالقوي ، ولم يذكر طريق عائشة ، وأخرجه من وجه آخر ضعيف عن الزهري ، عن عروة عن عائشة ، وإذا لم تصح هذه الطرق المصرحة بالرفع ، بقي الأمر على الاحتمال .

وقد اختلف علماء الحديث في قول الصحابي : أمرنا بكذا ، ونهينا عن كذا ، هل له حكم الرفع ؟ على أقوال :

ثالثها : إن أضافه إلى عهد النَّبي صلى الله عليه وسلم فله حكم الرفع ، وإلا فلا .

واختلف في الترجيح فيما إذا لم يضفه ، ويلتحق به رخص لنا في كذا وعزم علينا ألا نفعل كذا كل في الحكم سواء ، فمن يقول : إن له حكم الرفع فغاية ما وقع في رواية يحيى بن سلام ، أنه روى بالمعنى . لكن قال الطحاوي : إن قول ابن عمر وعائشة أخذاه من عموم قوله تعالى

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحج ﴾ [البقرة : 196] لأن قوله : في الحج يعم ما قبل النحر ، وما بعده ، فتدخل أيام التشريق فعلى هذا ، فليس بمرفوع بل هو بطريق الاستنباط منهما ، عما فهماه من عموم الآية . وقد ثبت نهيه صلى الله عليه وسلم عن صوم أيام التشريق ، وهو عام في حق المتمتع وغيره . وعلى هذا فقد تعارض عموم الآية المشعر بالإذن ، وعموم الحديث المشعر بالنهي ، وفي تخصيص عموم المتواتر بعموم الآحاد نظر لو كان الحديث مرفوعاً ، فكيف وفي كونه مرفوعاً نظر ، فعلى هذا يترجح القول بالجواز ، وإلى هذا جنح البخاري والله أعلم . انتهى كلام ابن حجر في الفتح وتراه فيه يجعل : أمرنا ونهينا ، ورخص لنا وعزم علينا كلها سواء في الخلاف المذكور هل لها حكم الرفع أو الوقف ، وممن قال : بصوم أيام التشريق للمتمتع : ابن عمر ، وعائشة ، وعروة ، وعبيد بن عمير ، والزهري ، ومالك ، والأوزاعي وإسحاق ، والشافعي في أحد قوليه ، وأحمد في إحدى الروايتين ، وممن روى عنه عدم صوم المتمتع لها : الشافعي في القول الثاني ، وأحمد في الرواية الثالثة ، وروي نحوه عن علي والحسن ، وعطاء وهو قول ابن المنذر قاله في المغني .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : مسألة صوم أيام التشريق للمتمتع يظهر لي فيها أنها بالنسبة إلى النصوص الصريحة ، يترجح فيها ، عدم جواز صومها وبالنظر إلى صناعة علم الحديث يترجح فيها جواز صومها ، وإيضاح هذا أن عدم صومها : دل عليه حديث نبيشة

الهذلي ، وكعب بن مالك في صحيح مسلم ، كما قدمنا وكلا الحديثين صريح في أن كونها : أيام أكل وشرب . من لفظ النَّبي صلى الله عليه سولم ، وهو نص صحيح صريح في عدم صومها ، فظاهره الإطلاق في المتمتع ، الذي لم يجد هدياً وفي غيره .

(676/522)

ولم يثبت نص صريح من لفظ النَّبي صلى الله عليه وسلم ولا من القرآن : يدل على جواز صومها للمتمتع ، الذي لم يجد هدياً ، وما ذكره ابن حجر عن الطحاوي من أن ابن عمرن وعائشة رضي الله عنهم أخذا جواز صومها من ظاهر عموم قوله تعالى ﴿ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحج ﴾ [البقرة : 196] ليس بظاهر ، والظاهر سقوطه الله أعلم لإجماع جميع المسلمين : أن الحاج إذا طاف طواف الإفاضة ، بعد رمي جمرة العقبة ، والحلق : أنه يحل له كل شيء حرم عليه بالحج من النساء ، والصيد ، والطيب ، وكل شيء . فقد زال عنه الإحرام بالحج بالكلية ، وصار حلالاً حلاً تاماً كل التمام . وذلك ينافي كونه يطلق عليه أنه في الحج ، فإن صام أيام التشريق فقد صامها في غير الحج ، لأنه تحلل من حجه ، وقضى مناسكه .

ومن أصرح الأدلة في ذلك : أن الله صرح بأنه لا رفث في الحج ، وأيام التشريق يجوز فيها

الرفث بالجماع ، فما دونه فدل على أن ذلك الرافث فيها ليس في الحج ، وأما الرمي في أيام التشريق فهو من السنن .

الواقعة بعد تمام الحج تابعه له ، وكذلك النحر فيها إن لم ينحر يوم النحر .

أما كونه في أيام التشريق : يصدق عليه أنه في الحج بعد إحلاله منه ، وفراغه منه ، حتى يتناوله عموم الآية ، فليس بظاهر عندي . والله تعالى أعلم .

وأما بالنظر إلى صناعة علم الحديث فالذي يترجح هو جواز صوم أيام التشريق للمتمتع ، الذي لم يجد هدياً ، لأن المشهور الذي عليه جمهور المحدثين : أن قول الصحابي : أمرنا بكذا ، أو نهينا عن كذا ، أو رخص لنا في كذا ، أو أحل لنا كذا له كله حكم الرفع ، فهو موقوف لفظاً مرفوع حكماً .

(677/522)

قال ابن الصلاح في علوم الحديث الثاني : قول الصحابي : أمرنا بكذا ، أو نهينا عن كذا من نوع المرفوع ، والمسند عند أصحاب الحديث ، وهو قول أكثر أهل العلم ، وخالف في ذلك فريق منهم : أبو بكر الإسماعيلي ، والأول هو الصحيح ، لأن مطلق ذلك ينصرف بظاهره إلى من إليه الأمر والنهي ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى محل الغرض منه .

وقد قال بعد هذا : ولا فرق بين أن يقول ذلك في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بعده .

وقال النووي في تقريبه : الثاني قول الصحابي : أمرنا بكذا ، أو نهينا عن كذا ، أو من السنة كذا ، أو أمر بلال أن يشفع الأذان وما أشبهه ، كله مرفوع على الصحيح الذي قاله الجمهور . وقيل : ليس بمرفوع ، ولا فرق بين قوله في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بعده انتهى منه ، وعلى هذا درج العراقي في ألفيته في قوله :

قول الصحابي من السنة أو . . . نحو أمرنا حكمه الرفع ولو

بعد النَّبي قاله بأعصر . . . على الصحيح وهو قول الأكثر

وفي علوم الحديث مناقشات في هذه المسألة معروفة ، والصحيح عندهم الذي عليه الأكثر : أن ذلك له حكم الرفع وبه تعلم أن حديث ابن عمر ، وعائشة عند البخاري لم يرخص في أيام التشريق ، أن ضمن الحديث له حكم الرفع . وإذا قلنا : إنه حديث صحيح مرفوع عن صحابيين ، فلا إشكال في أنه يخصص به عموم حديث نبيشة ، وكعب بن مالك ، ولو كان ظاهر الآية ، يدل على صومها ، كما ذكره ابن حجر عن الطحاوي ، فلا مانع من تخصيص عمومها بالحديث المرفوع .

(678/522)

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن التحقيق ، جواز تخصيص عموم المتواتر ، بأخبار الآحاد كما هو معلوم ، لأن التخصيص بيان ، والبيان يجوز بكل ما يزيل اللبس ، ولذا كان جمهور العلماء على جواز بيان المتواتر ، بأخبار الآحاد ، كتخصص عموم ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ [النساء : 24] وهو متواتر بحديث " لا تنكح المرأة على عمتها أو خالتها " وهو خبر آحاد ، وقد أكثرنا من أمثلته في هذا الكتاب المبارك ، وكذلك أجاز الجمهور تخصيص المنطوق بالمفهوم كتخصيص عموم :

" في أربعين شاة شاة " وهو منطوق بمفهوم المخالفة في حديث " في الغنم السائمة زكاة " عند من يقول بذلك .

والحاصل : أن المبين باسم الفاعل ، يجوز أن يكون دون المبين باسم المفعول في السند ، وفي الدلالة ، وإليه أشار في مراقي السعود بقوله :

وبين القاصر من حيث السند . . . أو الدلالة على ما يعتمد

وقد أوضحنا هذا ، وذكرنا كلام أهل العلم فيه في ترجمة هذا الكتاب المبارك .

وقد يترجح عند الناظر عدم صومها للمتمتع من وجهين :

الأول : أن عدم صومها مرفوع رفعاً صريحاً ، وصومها موقوف لفظاً ، مرفوع حكماً على المشهور ، والمرفوع صريحاً أولى بالتقديم من المرفوع حكماً .

والثاني : أن الجواز والنهي ، إذا تعارضا قدم النهي ، لأن ترك مباح أهون من ارتكاب منهي عنه ، وقد يحتج المخالف ، بأن دليل الجواز خاص بالمتمتع ، ودليل النهي عام ، والخاص يقضي على العام ، والعلم عند الله تعالى . فإن أخر صوم الأيام الثلاثة ، عن يوم عرفة فقد فات وقتها على القول ، بأن أيام التشريق لا يصومها المتمتع ، وعلى القول بأنه يصومها إنما يخرج وقتها بانتهاء أيام التشريق وهل عليه قضاؤها بعد ذلك ؟ لا أعلم في ذلك نصاً من كتاب الله ولا من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

(679/522)

والعلماء مختلفون في ذلك فقال بعضهم : يقضيها فيصوم عشرة ، ومن قال بهذا القول ، من أهل العلم اختلفوا ، هل يفرقها ، فيفصل بين الثلاثة ، والعشرة ، بمقدار ما وجب التفريق بينهما في الأداء ، لو لم تفت في وقتها بناء على أن تقديم الثلاثة على السبعة لا يتعلق بالوقت ، فلم يسقط كترتيب أفعال الصلاة ، أو ليس عليه تفريقها ، بل يجوز أن يصوم العشرة كلها متوالية ، بناء على أن التفريق وجب بحكم الوقت المعين ، وقد فات ، فسقط كالتفريق بين الصلوات التي فاتت أوقاتها ، فإنها تقضي متوالية ، لا متفرقة على أوقاتها حسب الأداء لو لم تفت ، والتفريق بين الثلاثة والسبعة في الصوم هو مذهب الشافعي ، وعدمه : مذهب

أحمد ، وعلى قول من قالوا : بلزوم قضاء الأيام الثلاثة ، بعد خروج وقتها .

فبعضهم يقول : لا دم على المتمتع ، لأنه قضى ما فات ، وهو مذهب الشافعي . وقيل : عليه دم مع القضاء ، لأجل التأخير ، وجزم به الخرقي وهو مروي عن أحمد . وقال القاضي : إن أخره لعذر ، فليس عليه إلا القضاء ، ولا دم . وعن أحمد لا دم مع القضاء بحال .

وقيل : لا تقضى الأيام الثلاثة ، بعد خروج وقتها ، ويلزم الدم لسقوط قضائها بفوات وقتها ، ولا يجوز صوم السبعة بعد ذلك ، لأنها تابعة للثلاثة التي سقطت ، ويتعين الدم ، وهذا مذهب أبي حنيفة ، وآخر وقت الثلاة عنده يوم عرفة .

واعلم : أن أبا حنيفة وأحمد يقولان : إن صوم الثلاثة للعاجز عن الهدي ، يجوز قبل التلبس بإحرام الحج ، فمذهب أبي حنيفة : أن أول وقت صومها في أشهر الحج ، بين الإحرامين ، والأفضل عنده : أن يؤخرها إلى آخر وقتها ، فيصوم السابع ، ويوم التروية ، ويوم عرفة .

(680/522)

وبعض الحنفية يروي هذا عن علي رضي الله عنه . وعند أحمد : يجوز صومها ، عند الإحرام بالعمرة ، وعنه : إذا حل من العمرة ، وهذه الأقوال مبنية على أن قوله : في الحج يراد به : أشهره . وقد بينا عدم ظهوره ، وعند مالك والشافعي : لا يجوز صومها إلا بعد

التلبس بإحرام الحج ، وهذا أقرب لظاهر القرآن ، وهما يقولان : ينبغي تقديمها قبل يوم النحر ، والشافعي : يستحب إنهاءها قبل يوم عرفة ، فإن لم يصم إلى يوم النحر ، أفطر يوم النحر ، وصام عند مالك أيام التشريق ، فإن لم يصمها ، حتى رجع إلى بلده وله به مال : لزمه أن يبعث بالهدي ، إلى الحرم ، ولا يجزئه الصوم عنده ، وليس له أن يؤخر الصيام ، ليهدي من بلده ، وفي صوم أيام التشريق ، للمتمتع عند الشافعية : قولان . وعن أحمد : روايتان فيهما . وقد علمت أن أبا حنيفة لا يجيز صومها . وأن مالكاً يجيزه ويكفي عنده في صوم السبعة الرجوع من منى .

وقد قدمنا أن التحقيق أن صومها بعد الرجوع إلى أهله لحديث ابن عمر الثابت في الصحيح : فما يروى عن مالك وأبي حنيفة ، والشافعي ، وغيرهم مما يخالف ذلك من الروايات لا ينبغي التعويل عليه ، لمخالفته الحديث الصحيح . ولفظه : " فمن لم يجد هدياً فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله " الحديث هذا لفظ مسلم في صحيحه ، ولفظ البخاري " فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله " فلفظة : إذا رجع إلى أهله في الصحيحين من حديث ابن عمر مرفوعاً إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وهو تفسير منه لقوله تعالى ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ [البقرة : 196] وإذا ثبت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم في الصحيحين ، من حديث ابن عمر : تفسير الرجوع في الآية برجوعه إلى أهله ، فلا وجه للعدول عنه .

وفي صحيح البخاري ، من حديث ابن عباس بلفظ " وسبعة إذا رجعتم إلى أمصاركم "

وكل ذلك يدل على أن صوم السبعة بعد رجوعه ، إلى أهله ، لا في رجوعه إلى مكة ، ولا في طريقه كما هو ظاهر النصوص ، التي ذكرنا ، بل صريحها ، والعدول عن النص ، بلا دليل يجب الرجوع إليه لا يجوز ، والعلم عند الله تعالى .

والأظهر عندي : أنه إن صام السبعة قبل يوم النحر ، لا يجزئه قال ، فما ذلك قال اللخمي من المالكية : من أنه يرى إجزاءها لا وجه له . والله أعلم .

بل لو قال قائل : بمقتضى النصوص ، وقال لا تجزئ قبل رجوعه إلى أهله ، لكان له وجه من النظر واضح لأن من قدمها قبل الرجوع إلى أهله ، فقد خالف لفظ النَّبي صلى الله عليه وسلم ، الثابت في الصحيحين عن ابن عمر وهو لفظ منه صلى الله عليه وسلم ، في معرض تفسير آية

﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ [البقرة : 196] والعدول عن لفظه الصريح ، المبين لمعنى القرآن . لو قيل : بأنه لا يجزئ فاعله ، لكان له وجه ، والعلم عند الله تعالى .

واعلم : أن العاجز عن الهدي في حجه ينتقل إلى الصوم ولو غنياً في بلده هذا هو الظاهر ،

وإن عجز وابتدأ صوم الثلاثة ثم وجد الهدي ، بعد أن صام يوماً منها أو يومين ، فالأظهر عندي فيه : أنه لا يلزمه الرجوع إلى الحج ، لأنه دخل في الصوم بوجه جائز وأنه ينبغي له أن ينتقل إلى الهدي ، واستحباب الانتقال إلى الهدي هو مذهب مالك ، ومن وافقه . وممن وافقه الحسن ، وقتادة والشافعي وأحمد . وعن ابن أبي نجيح ، وحماد ، والثوري ، والمزني : إن وجد الهدي ، قبل أن يكمل صوم الثلاثة ، فعليه الهدي . وقيل : متى قدر على الهدي قبل يوم النحر انتقل إليه صام ، أو لم يصم ، والأظهر ما قدمنا والله أعلم .

(682/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي : أنه إن فاته صوم الثلاثة في وقتها ، إلى ما بعد أيام التشريق أنه يجري على القاعدة الأصولية التي هي : هل يستلزم الأمر المؤقت القضاء ، إذا فات وقته ، أو لا يستلزمه ؟ وقد قدمنا الكلام على تلك المسألة مستوفى في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة ﴾ [مريم : 59] .

فعلى القول : بأن الأمر يستلزم القضاء فلا إشكال في قضاء الثلاثة بعد وقتها وعلى القول : بأنه لا يستلزم القضاء يحتمل أن يقال : بوجوب القضاء لعموم حديث : " فدين الله أحق أن

يقضى " ويحتمل أن يقال بعدمه ، بناء على أن صوم الثلاثة في الحج ، ليكون ذلك مسوغاً لقضاء التفث ، لأن الدم مسوغ لقضاء التفث ، ممن عنده هدي فلا يبعد أن يكون بعض الصوم ، قدم لينوب عن الدم في تسويغ قضاء التفث . وعلى هذا الاحتمال : لا يظهر القضاء ، ولا يبعد لزوم الدم للإخلال بالصوم في وقته ، والعلم عند الله تعالى .

أما لزوم صوم السبعة بعد الرجوع ، إلى أهله ، فالذي يظهر لي : لزومه لمن لم يجد الهدي مطلقاً : وأنه لا يسقط بحال لأن وجوبه ثابت بالقرآن فلا يمكن إسقاطه ، إلا بدليل واضح ، يجب الرجوع إليه . فجعل الدم بدلاً منه إن فات صوم الثلاثة في وقتها ، ليس عليه دليل يوجب ترك العمل بصريح القرآن في قوله : ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ [البقرة : 196] .

تنبيه

إذا أخر الحاج طواف الإفاضة ، عن أيام التشريق إلى آخر ذي الحجة مثلاً ، فهل يجزئه حينئذ صوم الأيام الثلاثة لأنه لم يزل في الحج ، لبقاء ركن منه ، ولأنه لا يجوز له الرفث إلى النساء ، لأنه لم يزل في الحج ، أو لا يجوز له صومها نظراً إلى أن وقت الطواف ، الذي بينه النَّبي صلى الله عليه وسلم وقال

" لتأخذوا عني مناسككم " قد فات ؟ وهذا التأخير مخالف للسنة ، فلا عبرة به ، وهذا أظهر عندي . والله تعالى أعلم .

(683/522)

وبنحوه جزم النووي في شرح المهذب قائلاً : إن تأخير الطواف بعيد فلا يحمل عليه قوله تعالى في الحج وذكر عن بعض الشافعية وجهاً آخر غير هذا . وإن مات المتمتع العاجز ، عن الصوم قبل أن يصوم فقال بعض أهل العلم : يتصدق عما أمكنه صومه ، عن كل يوم بمد من حنطة ، وهو مروي عن الشافعي . وقيل : يهدي عنه . وقيل : لا هدي عنه ، ولا إطعام . والله تعالى أعلم .

واختلف أهل العلم : إن وجب عليه الصوم فلم يشرع فيه ، حتى قدر على الهدي هل ينتقل إلى الهدي ، لأن الصوم إنما لزم للعجز عن الهدي ، وقد زال بوجوده ، وهذا إن وقع قبل يوم النحر ، لا ينبغي أن يختلف فيه . أما إن وجد الهدي ، بعد فوات وقت الأيم الثلاثة ، فهو محل القولين ، وهما روايتان ، عن أحمد ، وقد قدمنا كلام أهل العلم في ذلك ، ولا نص فيه .

والأظهر : أن صوم السبعة الذي لم يعين له وقت لا ينبغي العدول عنه ، إلى غيره ، كما تقدم خلافاً لمن قال بغير ذلك ، والعلم عند الله تعالى .

هذا هو حاصل ما يتعلق بالدماء الواجبة ، بغير النذر مع كونها منصوصاً عليها في القرآن .

أما الدماء التي لم يذكر حكمها في القرآن ، وقد قاسها العلماء على المذكورة في القرآن ، فمنها : دم الفوات . فقد روى مالك في الموطأ ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنه

أمر أبا أيوب الأنصاري ، وهبار بن الأسود حين فاتهما الحج ، وأتيا يوم النحر : أن يحلا بعمرة ، ثم يرجعا حلالاً ثم يحجان عاماً قابلاً ، ويهديان ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج ، وسبعة إذا رجع إلى أهله . انتهى محل الغرض منه .

(684/522)

فقد قاس عمر بن الخطاب رضي الله عنه : دم الفوات على دم التمتع حيث قال : فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله ، وقول عمر ثلاثة أيام في الحج ، لا يظهر في الفوات ، لأن الفوات لا يتحقق إلا بانتهاء ليلة النحر ، اللهم إلا إن كان عاقه عائق ، وهو بعيد ، بحيث لو سار ثلاثة أيام لم يدرك عرفة ليلة النحر ، فحينئذ قد يصومها وكأنه في الحج ، لأنه لم يحصل له الفوات فعلاً ، وإن كان الفوات محققاً وقوعه في المستقبل ، ووجه قياس : دم الفوات على دم التمتع ، حتى صار بدله من الصوم كبدله . ذكره ابن قدامة في المغني قائلاً : إن هدي التمتع ، إنما وجب للترفه بترك أحد السفرين وقضائه النسكين في سفر واحد ، فيقاس عليه دم من فاته الحج بجامع أنه ترك بعض ما اقتضاه إحرامه ، فصار كالتارك .

لأحد السفرين انتهى محل الغرض منه . ولا يظهر عندي كل الظهور .

ثم قال في المغني : فإن قيل : فهلا ألحقتموه بهدي الإحصار فإنه أشبه به ، إذ هو حلال من إحرامه قبل إتمامه . قلنا : الهدي فيهما سواء . وأما البدل ، فإن الإحصار ليس بمنصوص على البدل فيه ، وإنما ثبت قياساً ، فقياس هذا على الأصل المنصوص عليه أول من قياسه على فرعه ، على أن الصيام ها هنا مثل الصيام ، عن دم الإحصار ، وهو عشرة أيام أيضاً ، إلا أن صيام الإحصار : يجب أن يكون قبل حله ، وهذا يجوز فعله قبل حله وبعده ، وهو أيضاً مفارق لصوم المتعة ، لأن الثلاثة في المتعة : يستحب أن يكون آخرها يوم عرفة ، وهذا يكون بعد فوات عرفة . والخرقي ، إنما جعل الصوم عن هدي الفوات مثل الصوم ، عن جزاء الصيد ، عن كل مد يوماً . والمروي عن عمر وابنه مثل ما ذكرنا ، ويقاس عليه أيضاً : كل دم وجب لترك واجب ، كدم القران وترك الإحرام من الميقات والوقوف بعرفة إلى غروب الشمس ، والمبيت بمزدلفة ، والرمي ، والمبيت ليالي منى بها ، وطواف الوداع . فالواجب فيه : ما استيسر من الهدي ، فإن لم يجد فصيام عشرة أيام ، وأما من أفسد حجة بالجماع ، فالواجب فيه بدنة بقول الصحابة المنتشر الذي لم يظهر خلافه ، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج ، وسبعة إذا رجع ، كصيام المتعة . كذا قال عبد الله بن عمر ،

وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو رواه عنهم الأثرم ، ولم يظهر في الصحابة خلافهم ، فيكون إجماعاً ، فيكون بدله مقيساً على بدل دم المتعة .

(686/522)

وقال أصحابنا : يقوم البدنة بدراهم ، ثم يشتري بها طعاماً ، فيطعم كل مسكين مداً أو يصوم عن كل مد يوماً ، فتكون ملحقة بالبدنة الواجبة في جزاء الصيد ، ويقاس على فدية الأذى ما وجب بفعل محظور ، يترفه به كتقليم الأظافر ، واللبس ، والطيب وكل استمتاع من النساء : كالوطء في العمرة ، أو في الحج بعد رمي جمرة العقبة ، فإنه في معنى فدية الأذى من الوجه الذي ذكرنا ، فيقاس عليه ، ويلحق به ، فقد قال ابن عباس : لا مرأة وقع عليها زوجها قبل أن تقصر : عليك فدية من صيام . أو صدقة . أو نسك انتهى بطوله من المغني .

وهذه الأمور المذكورة لا نص فيها من كتاب ولا سنة .

وقد قدمنا في سورة البقرة أقوال أهل العلم في المحصر إن عجز عن الهدي هل يلزمه بدله ، أو لا يلزمه شيء بدلاً منه . وأقوال من قالوا : يلزمه البدل في البدل . هل هو الصوم . أو الإطعام . بما أغنى عن إعادته هنا .

وقد علمت من كلام صاحب المغني : أن المشهور في مذهب أحمد : هو قياس دم الفوات

على دم التمتع ، كما فعل عمر رضي الله عنه ، وأن الخرقي من الحنابلة قاسه على دم جزاء الصيد فجعل الصوم عن دم الفوات ، كالصوم عن جزاء الصيد ، وأن مذهب أحمد أيضاً ، قياس كل دم وجب لترك واجب على دم التمتع .

فيصوم عند العجز عند عشرة أيام ، وذلك كدم القران ، وترك الإحرام من الميقات ، والوقوف بعرفة إلى غروب الشمس ، والمبيت بمزدلفة والرمي والمبيت ليالي منى بها . وطواف الوداع . وكذلك قياس صوم من عجز عن البدنة في حال إفساد حجه بالجماع ، فهو عند أحمد : عشرة أيام قياساً على التمتع . وقد قدمنا نقل صاحب المغني لذلك عن بعض الصحابة وعدم مخالفة غيرهم لهم .

وعن بعض الحنابلة : تقويم بدنة المجامع العاجز بالدراهم ، فيشتري بها طعاماً إلى آخر ما تقدم . وأن مذهب أحمد : قياس كل دم وجب بفعل محظور ، كاللبس ، والطيب ، وتقليم الأظافر ، ونحو ذلك على فدية الأذى .

(687/522)

وقد قدمنا أن قياس تلك الأشياء على فدية الأذى ، مجمع عليه من الأئمة الأربعة ، إلا أن أبا حنيفة . يخصصه بما فعل للعذر ، ويوجب الدم دون غيره ، فيما فعل من ذلك لا لعذر

كما تقدم إيضاحه .

وأما مذهب الشافعي في دم الفوات ، ففيه طريقان أصحهما : قياسه على دم التمتع ، في الترتيب ، والتقدير ، وسائر الأحكام .

والطريق الثاني : على قولين أحدهما : أنه كدم التمتع أيضاً . والثاني : أنه كدم الجماع في الأحكام ، إلا أن هذا شاة ، والجماع بدنة لاشتراك الصورتين في وجوب القضاء ، وقد قدمنا حكم المجامع العاجز عن البدنة في مذهب الشافعي ماذا يلزمه ، ومذهب الشافعي في الدم الواجب بسبب ترك بعض المأمورات كالإحرام من الميقات ، والرمي والوقوف بعرفة إلى الغروب ، والمبيت بمزدلفة ليلة النحر ، وبمنى ليالي منى ، وطواف الوداع هو أن في ذلك أربعة أوجه أصحها : أنه كدم التمتع أيضاً في الترتيب ، والتقدير ، فإن عجز عن الهدي ، صام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع .

الوجه الثاني : أنه إن عجز عن الهدي قوم شاة الهدي دراهم ، واشترى بها طعاماً وتصدق به ، فإن عجز صام عن كل مد يوماً ، والوجهان الآخران عند الشافعية تركناهما لضعفهما وشذوذهما ، كما قاله علماء الشافعية . ومذهب الشافعي في الدم اللازم . بسبب الاستمناء : كالطيب واللباس ، ومقدمات الجماع : أن فيه عندهم أربعة أوجه ، وقد قدمناها .

وقد منا أن أصحها أنه كفدية الأذى المنصوصة في آية الفدية . ودم الجماع فيه ، عند الشافعية طرق واختلاف منتشر ، والمذهب المشهور عندهم : أنه بدنة ، فإن عجز عنها فبقرة ، فإن عجز فسبع شياه ، فإن عجز قوم البدنة بدراهم ، والدراهم بطعام ثم تصدق به ، فإن عجز صام عن كل مد يوماً . وقيل : إن عجز عن الغنم قوم البدنة وصام ، فإن عجز أطعم ، فيقدم الصيام على الإطعام ككفارة الظهار ونحرها . وقيل : لا مدخل للإطعام والصيام ، بل إذا عجز عن الغنم ثبت الفداء في ذمته . وقيل : إنه يتخير بين البدنة ، والبقرة ، والغنم ، فإن عجز عنها ، فالإطعام ثم الصوم .

وقيل : يتخير بين البدنة ، والبقرة والشياه ، والإطعام والصيام وكل هذه الأقوال لا دليل على شيء منها من كتاب ولا سنة ولا قياس جلي .

وقول الظاهرية : إن كل ما لم يثبت من هذه المذكورات من صيام ، ودم لا يجب ، لأن كل ما سكت عنه الوحي فهو عفو له وجه من النظر ، والعلم عند الله تعالى .

وقد قدمنا أن مذهب مالك هو قياس الطيب واللبس ونحو ذلك على فدية الأذى كغيره ، من الأئمة .

وأما دم الفوات والفساد ، وترك الرمي وتعدي الميقات ، وترك المبيت بمزدلفة ، فكل ذلك يقيس بدله على بدل التمتع ، فإن عجز عن الهدي صام عشرة أيام ، وإنما يصوم الثلاثة في

الحج عندهم المتمتع ، والقارن ومتعدي الميقات ، ومفسد الحج ومن فاته الحج .

وأما من لزمه ذلك لترك جمرة أو النزول بمزدلفة ، فيصوم متى شاء ، لأنه يقضي في غير حج ، فيصوم في غير حج . اهـ من المواق .

وقد قدمنا في مسائل الحج التي ذكرناها في الكلام على آية الحج : بعض المسائل التي يتعدد فيها الدم ، وبعض المسائل التي لا يتعدد فيها في مواضع متفرقة ، مع عدم النص في ذلك من كتاب أو سنة .

(689/522)

والأظهر عندي : أن الدماء إن اختلفت أسبابها كمن جاوز الميقات غير محرم ، ودفع من عرفة قبل غروب الشمس عند من يقول حجه صحيح ، وعليه دم ، وترك المبيت بمزدلفة وترك المبيت بمنى أيام منى ، أنه تتعدد عليه الدماء ، بتعدد أسبابها مع اختلافها . أما إن كانت الأسباب المتعددة من نوع واحد ، كأن ترك رمي يوم ، ثم ترك رمي يوم آخر أو بات ليلة من ليالي منى في غير منى ثم كرر ذلك ، فللتعدد وجه وللاتحاد وجه ، وقد قدمنا أقوال أهل العلم في ذلك في محله . والعلم عند الله تعالى .

واعلم : أن من اعتمر في أشهر الحج ، وأحل من عمرته ، وهو يريد التمتع ثم كرر العمرة في

أشهر الحج : لا يلزمه إلا هدي تمتع واحد ، ولا ينبغي أن يختلف في ذلك ، والعلم عند الله تعالى .

وقد قدمنا أن أقل الهدي واجباً كان للتمتع والقران ونحوهما ، أو غير واجب شاة تجزئ ضحية أو شرك في دم ، كسبع بدنة أو بقرة على التحقيق ، كما تقدم إيضاحه ، ولا عبرة بخلاف من خالف في الاشتراك فيه لثبوته بالنص الصحيح .

واعلم : أن من أحرم بعمرة في أشهر الحج له أن يدخل عليها الحج ، فيكون قارناً ، وعليه دم القران ما لم يفتتح الطواف بالبيت ، وإن افتتح الطواف : ففي جواز إدخاله عليها حينئذ ، خلاف بين أهل العلم .

قال النووي : فجوزه مالك ومنعه عطاء ، والشافعي ، وأبو ثور .

واختلفوا أيضاً في إدخال العمرة على الحج ، فيكون قارناً ، وعليه دم القران ، وقد قدمنا أن الشافعية والمالكية يقولون : إن ذلك هو الذي فعله النَّبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، وأكثرهم يقول : هو لا يجوز لغيره ، بل جوازه خاص به صلى الله عليه وسلم كما قدمنا .

وقال النووي في شرح المهذب : واختلفوا في إدخال العمرة على الحج ، فقال أصحابنا : يجوز ، ويصير قارناً وعليه دم القران ، وهو قول قديم للشافعي ومنعه الشافعي في مصر ، ونقل منعه عن أكثر من لقيه . ا ه محل الغرض منه .

والظاهر : أن المحرم المتمتع إذا أحل من عمرته ، يستحب له ألا يحرم بالحج ، إلا يوم التروية لأن ذلك هو الذي فعله أصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم ، بأمره في حجة الوداع ، ومحل هذا إن كان واجداً هدي التمتع ، فإن كان عاجزاً عنه ويريد أن يصوم ، استحب له تقديم الإحرام ، ليصوم الأيام الثلاثة في إحرام الحج ، وقد قدمنا أقوال من قال من أهل العلم : إنه ينبغي أن يكون آخرها يوم عرفة ، وقول من كره صوم يوم عرفة واستحب انتهاءها قبل يوم عرفة . والله تعالى أعلم .

تنبيه

إذا فرغ المتمتع من عمرته ، وكان لم يسق هدياً فإن له التحلل التام ، فله مس الطيب والاستمتاع بالنساء ، وكل شيء حرم عليه بإحرامه ، فإن كان ساق الهدي ففيه للعلماء قولان :

أحدهما : أن له التحلل أيضاً ، لأن الله يقول في التمتع ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بالعمرة إِلَى الحج ﴾ [البقرة : 196] ولا يمنعه سوق الهدي من ذلك ، لأنه متمتع .

والقول الثاني : أنه لا يجوز له الإحلال حتى يبلغ الهدي محله يوم النحر ، واستدل من قال

بهذا بحديث : حفصة رضي الله عنها ، الذي قدمناه أنها قالت له صلى الله عليه وسلم : ما شأن الناس حلوا ، ولم تحلل أنت من عمرتك ؟ فقال " إني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر " وكلا القولين قال به جماعة من الأئمة رضي الله عنهم .

(691/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين عندي : أن له أن يحل من إحرامه ، ولكنه يؤخر ذبح هدي تمتعه ، حتى يرمي جمرة العقبة يوم النحر ، كما قدمنا إيضاحه .

والاحتجاج بحديث حفصة المذكور لا ينهض كل النهوض لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان قارناً ، فحديثها ليس في محل النزاع ، لأن النزاع فيمن أحرم بعمرة يريد التحلل منها . والإحرام بالحج بعد ذلك . هل يمنعه سوق الهدي من التحلل ؟ وحديث حفصة في القران ، والقران ليس محل نزاع ، وقولها : ولم تحلل أنت من عمرتك . تعني : عمرته المقرونة مع الحج ، لا عمرة مفردة بإحرام ، دون الحج كما هو معلوم ، وكما تقدم إيضاحه .

ومما يوضحه أنه صلى الله عليه وسلم قال " لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتا عمرة " فدل على أنه لم يجعلها عمرة مفردة الذي هو محل النزاع ، لأن ظاهره أنها لو كانت مفردة لكان له الإحلال منها مطلقاً ، ولا حجة في قوله

" لما سقت الهدي " لأنه ساقه لقران لا لعمرة مفردة عن الحج .

وقال النووي : فإن قيل : قد ثبت في صحيح مسلم ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في حجة الوداع فمنا من أهل بعمرة ، ومنا من أهل بحجة ، حتى قدمنا مكة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أحرم بعمرة ولم يهد فليحلل ، ومن أحرم بعمرة وأهدى فلا يتحلل حتى ينحر هديه ، ومن أهل بحجة فليتم حجه " .

فالجواب : أن هذه الرواية مختصرة من روايتين ذكرهما مسلم قبل هذه الرواية ، وبعدها قالت " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع فأهللنا بعمرة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان معه هدي فليهلل بالحج مع العمرة ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعاً " فهذه الرواية مفسرة للأولى ويتعين هذا التأويل ، لأن القصة واحدة فصحت الروايات . انتهى منه .

(692/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ومما يؤيد ما ذكرنا عن النووي : أن رواية حديث عائشة المذكورة التي قال : إنها يجب تأويلها بتفسيرها بالروايات الصحيحة الأخرى فيها ما لفظه :

ومن أهل بحجة فليتم حجه . لكثرة الروايات الصحيحة المتفق عليها عن جماعة من الصحابة أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أمر كل من أحرم بحج مفرداً ، ولم يسق هدياً أن يفسخ حجه في عمرة ، ويحل منها الحل كله ، فعلم أن قولها : ومن أهل بحجة فليتم حجته : يجب تأويله ، وتفسيره بالروايات الأخرى الصحيحة ، كما قال النووي . وقول من قال : إن سوق الهدي في عمرته يمنعه من الإحلال منها ، حتى ينحر يوم النحر له وجه قوي من النظر لدخوله في ظاهر عموم قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] ، وهذا المعتمر المتمتع الذي ساق معه هدي التمتع إن حل من عمرته حلق قبل أن يبلغ هديه محله ، والعلم عند الله تعالى . ولنكتف هنا بما ذكرنا من أحكام الدماء الواجبة بغير النذر .

(693/522)

أما الهدي الذي ليس بواجب : وهو هدي التطوع ، وهو مستحب فيستحب لمن قصد مكة حاجاً أو معتمراً أن يهدي إليها من بهيمة الأنعام ، وينحره ويفرقه " لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدى مائة بدنة وهو قارن " ويكفيه لدم القران بدنة واحدة ، بل شاة واحدة ، وبقية المائة تطوع منه صلى الله عليه وسلم : ويستحب أن يكون ما يهديه سميناً

حسناً لقوله تعالى : ﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله ﴾ [الحج : 32] الآية . وعن ابن عباس رضي الله عنهما تعظيمها الاستسمان والاستحسان والاستعظام ، ويؤيده قوله تعالى ﴿ والبدن جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَعَائِرِ الله ﴾ [الحج : 36] الآية . ومعلوم : أن أقل الهدي : شاة تجزئ ، ضحية أو سبع بدنة أو بقرة كما تقدم إيضاحه ، ولا يكون من الحيوان إلا من بهيمة الأنعام ، وقد تقدم إيضاح الأنعام ، وأنها الأزواج الثمانية المذكورة في آيات من كتاب الله : وهي الجمل والناقة ، والبقرة والثور ، والنعجة ، والكبش ، والعنز ، والتيس .

واعلم : أن التحقيق أن الهدي والإطعام يختص بهما فقراء الحرم المكي ، وأن الصوم لا يختص به مكان دون مكان ، مع اختلاف في الطعام كما تقدم إيضاحه في سورة المائدة .

وأظهر قولي أهل العلم أنه يلزمه ذبح الهدي في الحرم ، وتفريقه ، في الحرم أيضاً ، خلافاً لمن زعم جواز الذبح في الحل ، إن كان تفريق اللحم في الحرم ، والتحقيق أن البدن يسن تقليدها ، وإشعارها فيقلدها نعلين . ومعنى إشعارها : هو جرحها في صفحة سنامها ، ويسلت الدم عنها . والجمهور على أن الإشعار في صفحة السنام اليمنى ، كما ثبت في الصحيح من حديث ابن عباس خلافاً لمالك القائل : إنه في الصفحة اليسرى .

(694/522)

واعلم : أن التحقيق أن الإشعار المذكور سنة لثبوته عنه صلى الله عليه وسلم ، خلافاً لأبي حنيفة القائل : بالنهي عنه ، معللاً : بأنه مثلة وهي منهي عنها . وروي مثله عن النخعي ، لأن الأحاديث الصحيحة الواردة بالإشعار تخصص عموم النهي عن المثلة ولأنه لا يسلم أنه مثلة ، فهو جرح لمصلحة كالفصد والختان والحجامة والكي والوسم .

واعلم : أن الهدي من الغنم يسن تقليده ، عند عامة أهل العلم ، وخالف مالك وأصحابه الجمهور ، وقد ثبت في الصحيحين من حديث عائشة " أنه صلى الله عليه وسلم أهدى غنماً فقلدها " وقال بعض أهل العلم : لا تقلد بالنعال لضعفها ، وإنما تقلد بنحو عرى القرب ، ولا تشعر الغنم إجماعاً ، والظاهر أن مالكاً لم يبلغه حديث تقليد الغنم ، ولو بلغه لعمل به ، لأنه صحيح متفق عليه ، وإشعار البقر إن كان له سنام لا نص فيه ، وقاسه جماعة من أهل العلم على إشعار الإبل . والمقصود من الإشعار والتقليد وتلطيخ الهدي بالدم ، هو أن يعلم كل من رآه أنه هدي ، لأنه قد يختلط بغيره ، فإذا أشعر وقلد تميز عن غيره ، وربما شرد فيعرف أنه هدي فيرد ، وهذه العلة موجودة في البقر ، فمقتضى القياس : إشعاره إن كان له سنام .

وقال بعض أهل العلم : الحكمة في تقليده النعلين : أن المنتعل عندهم كالراكب لكون النعل تقي صاحبها الأذى من الحر والبرد والشوك ، والقذر ونحو ذلك فكأن المهدي خرج لله عن مركوبه الحيواني ، وغير الحيواني ، وظاهر صنيع البخاري أنهم قلدوا البقر في حجة الوداع

حيث قال : " باب فتل القلائد للبدن والبقر . ثم ساق حديث حفصة المتقدم ، وفيه قال : " إني لبدت رأسي وقلدت هديي " الحديث ، فترى البخاري قال في الترجمة هذه : باب فتل القلائد للبدن والبقر .

وقال ابن حجر . وترجمة البخاري صحيحة لأنه إن كان المراد بالهدي في الحديث الإبل والبقر معاً فلا كلام وإن كان المراد الإبل خاصة ، فالبقر في معناها .

ا ه محل الغرض منه وهو كما قال .

(695/522)

والأظهر : أن الصواب إن شاء الله أن البقر والإبل والغنم كلها تقلد إن كانت هدياً ، وأن الغنم لا تشعر قولاً واحداً ، وأن السنة الصحيحة ثابتة بإشعار الإبل ، ومقتضى القياس أن البقر كذلك إن كان له سنام . والله تعالى أعلم .

واعلم : أن التحقيق أن من أهدى إلى الحرم هدياً وهو مقيم في بلده ليس بحاج ولا معتمر ، لا يحرم عليه شيء بإرسال الهدي كما هو ثابت في الصحيح ، عن عائشة رضي الله عنها ثبوتاً لا مطعن فيه فلا ينبغي أن يعول على ما خالفه ، والعلم عند الله تعالى ، ولذا ثبت في صحيح البخاري : أن زياد بن أبي سفيان كتب إلى عائشة رضي الله عنها أن عبد الله بن

عباس رضي الله عنهما قال : من أهدى هدياً حرم عليه ما يحرم على الحاج ، حتى ينحر هديه قالت : عمرة . فقالت عائشة رضي الله عنها : ليس كما قال ابن عباس : فتلت قلائد هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ، ثم قلدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيديه ، ثم بعث بها مع أبي فلم يحرم على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء أحله الله حتى نحر الهدي . وحديث عائشة المذكور عند البخاري : أخرجه مسلم بألفاظ كثيرة معناها واحد ، إلا أن فيه : أن الذي سأل عائشة ابن زياد .

(696/522)

والصواب ما في البخاري من أن الذي كتب إليها يسألها هو زياد بن أبي سفيان المعروف بزياد ابن أبيه ، كما نبه عليه غير واحد ، فما في مسلم من كونه ابن زياد ، وهم من بعض الرواة ، وقد قدمنا مراراً أن السنة الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم ثبوتاً لا مطعن فيه يجب تقديمها على قول كل عالم ، ولو بلغ ما بلغ من العلم والدي ، وبه تعلم أن التحقيق أن من بعث بهدي ، وأقام في بلده لا يحرم عليه شيء بإرسال هديه ، وأن ما خالف ذلك لا يلتفت إليه ، وإن زعم جماعة أنه مروي عن عمر وابنه ، وعلي وقيس بن سعد بن عبادة ، وسعيد بن جبير وابن سيرين ، وعطاء ، والنخعي ، ومجاهد ، لأن السنة الصحيحة مقدمة على

أقوال كل العلماء وكذلك ما قاله سعيد بن المسيب : من أنه لا يجتنب إلا الجماع ليلة جمع : وهي ليلة النحر ، لا يلتفت إليه . للحديث الصحيح المتفق عليه المذكور آنفاً ، والحديث الذي رواه الطحاوي وغيره من طريق عبد الملك بن جابر ، عن أبيه : الدال على أنه يحرم عليه ما يحرم على الحاج ضعيف ، كما ذكره الحافظ في الفتح ، فلا يعارض به الحديث المتفق عليه . وذكر ابن حجر في الفتح عن الزهري : ما يدل على أن الأمر استقر على حديث عائشة لما بينت به سنة النَّبي صلى الله عليه وسلم ورجع الناس عن فتوى ابن عباس ، والعلم عند الله تعالى .

واعلم : أن التحقيق الذي عليه جمهور أهل العلم : أن من أراد النسك لا يصير محرماً بمجرد تقليد الهدي ، ولا يجب عليه بذلك شيء خلافاً لما حكاه ابن المنذر عن الثوري وأحمد وإسحاق ، من أنه يصير محرماً بمجرد تقليد الهدي ، وخلافاً لأصحاب الرأي في قولهم : إن من ساق الهدي ، وأم البيت ثم قلد وجب عليه الإحرام ، لأن إيجاب الإحرام يحتاج إلى دليل يجب الرجوع إليه .

وقد دلت النصوص : على أنه لا يجب ، إلا إذا بلغ الميقات وأراد مجاوزته كما هو معلوم ، والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

الظاهر : أن التحقيق أنه لا يشترط في الهدي أن يجمع به بين الحل والحرم ، فلو اشتراه من منى ونحره بها من غير أن يخرجه إلى الحل أجزأه . قال النووي في شرح المهذب : وهو مذهبنا ، وبه قال ابن عباس ، وأبو حنيفة وأبو ثور والجمهور . وقال ابن عمر وسعيد بن جبير : لا هدي إلا ما أحضر عرفات . وقال ابن قدامة في المغني : وليس من شرط الهدي أن يجمع فيه بين الحل ، والحرم ، ولا أن يقفه بعرفة لكن يستحب ذلك . وروي هذا عن ابن عباس وبه قال الشافعي ، وأبو ثور وأصحاب الرأي ، وكان ابن عمر لا يرى الهدي إلا ما عرف به ونحوه ، عن سعيد بن جبير ا ه محل الغرض منه .

ومعلوم أن مذهب مالك : أنه لا يذبح هدي التمتع والقران بمنى ، إلا إذا وقف به بعرفة ، وإن لم يقف به بعرفة ذبحه في مكة ، ولا بد عنده في الهدي أن يجمع به بين الحل والحرم ، فإن اشتراه في الحرم . لزمه إخراجه إلى الحل والرجوع به إلى الحرم وذبحه فيه ، وإنما قلنا : إن الظاهر لنا في هذه المسألة عدم اشتراط جمع الهدي ، بين الحل والحرم لثلاثة أمور .

الأول : أنه لم يرد نص بذلك يجب الرجوع إليه .

الثاني : أن المقصود من الهدي نفع فقراء الحرم ، ولا فائدة لهم في جمعه بين الحل والحرم .

الثالث : أنه قول أكثر أهل العلم . وقال جماعة من أهل العلم : يستحب أن يكون الهدي معه من بلده ، فإن لم يفعل فشراؤه من الطريق أفضل من شرائه من مكة ، ثم من مكة ، ثم من

عرفات ، فإن لم يسقه أصلاً بل اشتراه من منى جاز ، وحصل الهدي ا ه .

وهذا هو الظاهر واحتج من قال : بأنه لا بد أن يجمع بين الحل والحرم ، بأن النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يهد هدياً إلا جامعاً بين الحل والحرم ، لأنه يساق من الحل إلى الحرم وأن ذلك هو ظاهر قوله تعالى :

(698/522)

﴿ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] . وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره : أن ابن عمر اشترى هديه من الطريق ، ونحو ذلك من الأدلة ، ولا شك أن سوق الهدي من الحل إلى الحرم : أفضل ولا يقل عن درجة الاستحباب ، كما ذكرنا عن بعض أهل العلم . أما كونه لا يجزئ بدون ذلك ، فإنه يحتاج إلى دليل خاص ، ولا دليل يجب الرجوع إليه يقتضي ذلك ، لأن الذي دل عليه الشرع أن المقصود التقرب إلى الله بما رزقهم من بهيمة الأنعام ، في مكان معين في زمن معين والغرض المقصود شرعاً حاصل ، ولو لم يجمع الهدي بين حل وحرم ، وجمع هديه صلى الله عليه وسلم بين الحل والحرم ، محتمل للأمر الجبلي ، فلا يتمحض لقصد التشريع ، لأن تحصيل الهدي أسهل عليه من بلده ، ولأن الإبل التي قدم بها علي من اليمن تيسر له وجودها هناك ، والله جل وعلا أعلم . فحصول

الهدي في الحل يشبه الوصف الطردي ، لأنه لم يتضمن مصلحة كما ترى ، والعلم عند الله تعالى .

ولا خلاف بين أهل العلم : في أن المهدي إن اضطر لركوب البدنة المهداة في الطريق ، أن له أن يركبها لما ثبت في الصحيحين ، عن أبي هريرة : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يسوق بدنة فقال : اركبها . قال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها بدنة ، فقال : اركبها ويلك في الثانية أو في الثالثة " هذا لفظ مسلم ، ولفظ البخاري فقال " اركبها فقال : إنها بدنة فقال : اركبها ، قال : إنها بدنة فقال : اركبها ، ويلك في الثانية أو في الثالثة " وروى مسلم نحوه عن أنس ، وجابر رضي الله عنهما .

(699/522)

واعلم : أن أهل العلم اختلفوا في ركوب الهدي ، فذهب بعضهم إلى أنه يجوز للضرورة دون غيرها ، وهو مذهب الشافعي ، قال النووي : وبه قال ابن المنذر ، وهو رواية عن مالك ، وقال عروة بن الزبير ، ومالك ، وأحمد وإسحاق : له ركوبه من غير حاجة ، بحيث لا يضره . وبه قال أهل الظاهر ، وقال أبو حنيفة : لا يركبه ، إلا إن لم يجد منه أبداً ، وحكى القاضي عن بعض العلماء : أنه أوجب ركوبها لمطلق الأمر ولمخالفة ما كانت الجاهلية

عليه ، من إهمال السائبة والبحيرة والوصيلة والحام .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر الأقوال دليلاً عندي في ركوب الهدي ، واجباً أو غير واجب : هو أنه إن دعته ضرورة لذلك جاز وإلا فلا ، لأن أخص النصوص الواردة في ذلك بمحل النزاع .

وأصرحها فيه ما رواه مسلم في صحيحه . وحدثني محمد بن حاتم ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن أبن جريج : أخبرني أبو الزبير قال : سمعت جابر بن عبد الله ، سئل عن ركوب الهدي ؟ فقال : سمعت النَّبي صلى الله عليه وسلم يقول : " اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهرا "

وفي رواية عنه في صحيح مسلم : " اركبها بالمعروف حتى تجد ظهرا " ا ه . فهذا الحديث الصحيح فيه التصريح منه صلى الله عليه وسلم بأن ركوب الهدي إنما يجوز بالمعروف ، إذا ألجأت إليه الضرورة ، فإن زالت الضرورة بوجود ظهر يركبه غير الهدي : ترك ركوب الهدي ، فهذا القيد الذي في هذا الحديث تقيد به جميع الروايات الخالية عن القيد ، لوجوب حمل المطلق على المقيد ، عند جماهير أهل العلم . ولا سيما إن اتحد الحكم ، والسبب كما هنا .

(700/522)

أما حجة من قال : بوجوب ركوب الهدي ، فهي ظاهرة السقوط ، لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يركب هديه كما هو معلوم . وأما حجة : من أجاز الركوب مطلقاً ، فهو قوله صلى الله عليه وسلم " ويلك اركبها " وقوله تعالى ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الحج : 33] على أحد التفسيرين ، ولا تنهض به الحجة فيما يظهر ، لأنه محمول على كونه تدعوه الضرورة إلى ذلك ، بدليل حديث جابر عند مسلم الذي ذكرناه آنفاً فهو أخص نص في محل النزاع ، فلا ينبغي العدول عنه ، والعلم عند الله تعالى ، والظاهر أن شرب ما فضل من لبنها ، عن ولدها لا بأس به ، لأنه لا ضرر فيه عليها ولا على ولدها . وقال بعض أهل العلم : إن ركبها الركوب المباح للضرورة ونقصها ذلك : فعليه قيمة النقص يتصدق بها . وله وجه من النظر . والعلم عند الله تعالى .

وإنما قلنا : إن الظاهر أنه لا فرق في الحكم المذكور بين الهدي الواجب وغيره ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال لصاحب البدنة " اركبها " وهي مقلدة نعلاً ، وقد صرح له تصريحاً مكرراً بأنها بدنة ، ولم يستفصله النَّبي صلى الله عليه وسلم ، هل تلك البدنة من الهدي الواجب أو غيره ، وترك الاستفصال ينزل منزلة العموم في الأقوال كما تقدم إيضاحه مراراً .

وقد أشار إليه في مراقي السعود بقوله :

ونزلن ترك الاستفصال . . . منزلة العموم في الأقوال

مسألة في حكم الهدي إذا عطب في الطريق أو بعد بلوغ محله

اعلم أولاً أن الصواب الذي لا ينبغي العدول عنه : أن من بعث معه هدي إلى الحرم فعطب في الطريق ، قبل بلوغ محله : أنه ينحره ثم يصبغ نعليه في دمه ، ويضرب بالنعل المصبوغ بالدم صفحة سنامها ، ليعلم من مر بها أنها هدي ويخلي بينها وبين الناس ، ولا يأكل منها هو ، ولا أحد من أهل رفقته المرافقين له في سفره .

(701/522)

وإنما قلنا : إن هذا هو الصواب الذي لا ينبغي العدول عنه : لثبوته عن النَّبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح ، فقد روى مسلم في صحيحه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ما لفظه " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بست عشرة بدنه ، مع رجل وامرأة فيها قال : فمضى ثم رجع فقال : يا رسول الله ، كيف أصنع بما أبدع علي منها ؟ قال : انحرها ، ثم اصبغ نعليها في دمها ثم اجعله على صفحتها ، ولا تأكل منها أنت ولا أحد من أهل رفقتك "

انتهى من صحيح مسلم .

وفي رواية صحيح مسلم ، عن ابن عباس " أن ذؤيباً أبا قبيصة حدثه أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم كان يبعث معه بالبدن ثم يقول : إن عطب شيء منها فخشيت عليه موتاً فانحرها ، ثم اغمس نعلها في دمها ثم اضرب بها صفحتها ولا تطعمها أنت ولا أحد من رفقتك " انتهى منه . وقوله : كيف أصنع بما أبدع منها : هو بضم الهمزة ، وإسكان الباء ، وكسر الدال بصيغة المبني للمفعول : أي كل وأعيي حتى وقف من الإعياء ، فهذا النص الصحيح ، لا يلتفت معه إلى قول من قال : إن رفقته لهم الأكل مه جملة المساكين ، لأنه مخالف للنص الصحيح ، ولا قول أحد مع السنة الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم ، كما أوضحناه مراراً . والظاهر أن علة منعه ومنع رفقته : هو سد الذريعة لئلا يتوصل هو أو بعض رفقته إلى نحره ، بدعوى أنه عطب أو بالتسبب له في ذلك للطمع في أكل لحمه ، لأنه صار للفقراء ، وهم يعدون أنفسهم من الفقراء ، ولو لم يبلغ محله . والظاهر : أنه لا يجوز الأكل منه للأغنياء ، بل للفقراء والله أعلم .

فإن قيل : روى أصحاب السنن عن ناجية الأسلمي " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معه بهدي فقال : إن عطب فانحره ، ثم اسبغ نعله في دمه ، ثم خل بينه وبين الناس " ا ه وظاهر قوله " وبين الناس " يشمل بعمومه سائق الهدي ورفقته .

(702/522)

فالجواب : أن حديث مسلم أصح وأخص ، والخاص يقضي على العام . لأن حديث مسلم أخرج السائق ورفقته من عموم حديث أصحاب السنن . ومعلوم : أن الخاص يقضي على العام .

واعلم أن العلماء تفاصيل في حكم ما عطب من الهدي ، قبل نحره بمحل النحر ، سنذكر أرجحها عندنا إن شاء الله من غير استقصاء للأقوال والحجج ، لأن مسائل الحج أطلنا عليها الكلام طولاً يقتضي الاختصار في بعضها خوف الإطالة المملة .

اعلم أولاً : أن الهدي إما واجب ، وإما تطوع ، والواجب إما بالنذر ، أو بغيره ، والواجب بالنذر ، إما معين ، أو غير معين ، فالظاهر الذي لا ينبغي العدول عنه : أن الهدي الواجب بغير النذر كهدي التمتع والقران والدماء الواجبة بترك واجب ، أو فعل محظور ، والواجب بالنذر في ذمته كأن يقول : علي لله نذر أن أهدي هدياً ، أن لجميع ذلك حالتين .

الأولى : أن يكون ساق ما ذكر من الهدي ينوي به الهدي الواجب عليه ، من غير أن يعينه بالقول ، كأن يقول : هذا الهدي سقته أريد به أداء الهدي الواجب علي .

والحالية الثانية : هي أن يسوقه ينوي به الهدي المذكور مع تعيينه بالقول ، فإن نواه ، ولم يعينه بالقول .

(703/522)

فالظاهر : أنه لا يزال في ضمانه ولا يزول ملكه عنه ، إلا بذبحه ودفعه إلى مستحقيه ، ولذا إن عطب في الطريق فله التصرف فيه بما شاء من أكل وبيع ، لأنه لم يزل في ملكه ، وهو مطالب بأداء الهدي الواجب عليه بشيء آخر غير الذي عطب ، لأنه عطب في ضمانه ، فهو بمنزلة من عليه دين فحمله إلى مستحقه بقصد دفعه إليه ، فتلف قبل أن يوصله إليه : فعليه قضاء الدين بغير التالف ، لأنه تلف في ذمته وإن تعيب الهدي المذكور قبل بلوغه محله ، فعليه بدله سليماً ويفعل بالذي تعيب ما شاء ، لأنه لم يزل في ملكه ، وضمانه . والذي يظهر أن له التصرف فيه ، ولو لم يعطب ، ولم يتعيب ، لأن مجرد نية إهدائه عن الهدي الواجب لا ينقل ملكه عنه ، والهدي المذكور لازم له في ذمته ، حتى يوصله إلى مستحقه . والظاهر : أن له نماءه .

وأما الحالة الثانية : وهي ما إذا نواه وعينه بالقول كأن يقول : هذا هو الهدي الواجب فيه من غير أن تبرأ الذمة ، فليس له التصرف فيه ما دام سليماً ، وإن عطب أو سرق أو ضل أو نحو ذلك لم يجزه ، وعاد الوجوب إلى ذمته . فيجب عليه هدي آخر ، لأن الذمة لا تبرأ بمجرد التعيين بالنية والقول أو التقليد والإشعار . والظاهر : أنه إن عطب فعل به ما شاء ، لأن الهدي لازم في ذمته ، وهذا الذي عطب صار كأنه شيء من ماله لا حق فيه لفقراء الحرم ، لأن حقهم باق في الذمة ، فله بيعه وأكله ، وكل ما شاء . وعلى هذا جمهور أهل

العلم . وعن مالك يأكل ويطعم من شاء من الأغنياء والفقراء ، ولا يبيع منه شيئاً ، وإن بلغ الهدي محله فذبحه وسرق : فلا شيء عليه عند أحمد .

(704/522)

قال في المغني : وبهذا قال الثوري وابن القاسم صاحب مالك ، وأصحاب الرأي . وقال الشافعي : عليه الإعادة ، لأنه لم يوصف الحق إلى مستحقه ، فأشبه ما لو لم يذبحه . ولنا أنه أدى الواجب عليه ، فبرئ منه كما لو فرقه . ودليل أنه أدى الواجب : أنه لم يبق إلا التفرقة ، وليست واجبة ، بدليل أنه لو خلى بينه ، وبين الفقراء أجزأه . ولذلك لما نحر النَّبي صلى الله عليه وسلم البدنات قال : " من شاء اقتطع " انتهى محل الغرض من المغني .

وأظهر القولين عندي : أنه لا تبرأ ذمته بذبحه : حتى يوصله إلى المستحقين ، لأن المستحقين إن لم ينتفعوا به ، لا فرق عندهم بين ذبحه وبين بقائه حياً ، ولأن الله تعالى يقول ﴿ وَأَطْعِمُواْ البآئس الفقير ﴾ [الحج : 28] ويقول ﴿ وَأَطْعِمُواْ القانع والمعتر ﴾ [الحج : 36] الآيتان تدلان على لزوم التفرقة ، والتخلية بينه ، وبين الفقراء يقتسمونه تفرقة ضمنية ، لأن الإذن لهم في ذلك ، وهو متيسر لهم كإعطائهم إياه بالفعل والعلم عند الله تعالى .

وقول من قال : إن الهدي المذكور إن تعيب في الطريق فعليه نحره ، ونحر هدي آخر غير

معيب لا يظهر كل الظهور ، إذ لا موجب لتعدد الواجب عليه وهو لم يجب عليه إلا واحد .

وحجة من قال بذلك : أنه لما عينه متقرباً به إلى الله لا يحسن انتفاعه به بعد ذلك ، ولو لم يجزئه .

وأما الواجب المعين بالنذر ، كأن يقول : نذرت لله إهداء هذا الهدي المعين ، فالظاهر أنه يتعين بالنذر ، ولا يكون في ذمته ، فإن عطب أو سرق : لم يلزمه بدله ، لأن حق الفقراء إنما تعلق بعينه ، لا بذمة المهدي . والظاهر أنه ليس له الأكل منه سواء عطب في الطريق أو بلغ محله .

(705/522)

وحاصل ما ذكرنا : راجع إلى أن ما عطب بالطريق من الهدي إن كان متعلقاً بذمته سليماً فالظاهر : أن له الأكل منه ، والتصرف فيه ، لأنه يلزمه بدله سليماً ، وقيل : يلزم الذي عطب والسليم معاً لفقراء الحرم ، وأن ما تعلق الوجوب فيه بعين الهدى كالنذر المعين للمساكين ، ليس فيه تصرف فيه ، ولا الأكل منه إذا عطب ولا بعد نحره ، إن بلغ محله على الأظهر .

واعلم : أن مالكاً وأصحابه يقولون : إن كل هدي ، جاز الأكل منه للمهدي له ، أن يطعم منه

من شاء من الأغنياء والفقراء ، وكل هدي لا يجوز له الأكل منه ، فلا يجوز إطعامه إلا للفقراء الذين لا تلزمه نفقتهم ، وكره عندهم إطعام الذميين منه . وستأتي تفاصيل ما يجوز الأكل منه ، وما لا يجوز إن شاء الله تعالى في الكلام على آية ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ [البقرة : 58] الآية .

(706/522)

وأما هدي التطوع : فالظاهر أنه إن عطب في الطريق ألقيت قلائده في دمه ، وخلى بينه وبين الناس ، وإن كان له سائق مرسل معه لم يأكل منه هو ولا أحد من رفقته ، كما تقدم إيضاحه ، وليس لصاحبه الأكل منه عند مالك وأصحابه . وهو ظاهر مذهب أحمد ، وليس عيه بدله لأنه معين لم يتعلق بذمته . وأما مذهب الشافعي ، وأصحابه : فهو أن هدي التطوع باق على ملك صاحبه ، فله ذبحه ، وأكله ، وبيعه وسائر التصرفات فيه . ولو قلده لأنه لم يوجد منه إلا نية ذبحه والنية لا تزيل ملكه عنه ، حتى يذبحه بمحله ، فلو عطب في الطريق فلمهديه أن يفعل به ما شاء من بيع وأكل وإطعام ، لأنه لم يزل في ملكه ولا شيء عليه في شيء من ذلك . وأما مذهب أبي حنيفة في هدي التطوع إذا عطب في الطريق قبل بلوغ محله : فهو أنه لا يجوز لمهديه الأكل منه ولا لغني من الأغنياء ، وإنما يأكله الفقراء . ووجه

قول من قال إن هدي التطوع إذا عطب في الطريق ، لا يجوز لمهيده أن يأكل منه : هو أن الإذن له في الأكل ، جاء النص به بعد بلوغه محله ، أما قبل بلوغه محله فلم يأت الإذن بأكله ، ووجه خصوص الفقراء به ، لأنه حينئذ يصير صدقة ، لأن كونه صدقة خير من أن يترك للسباع تأكله .

هكذا قالوا : والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

الأظهر عندي أنه إذا عين هدياً بالقول ، أو التقليد ، والإشعار ثم ضل ثم نحر هدياً آخر مكانه ثم وجد الهدي الأول الذي كان ضالاً : أن عليه أن ينحره أيضاً ، لأنه صار هدياً للفقراء . فلا ينبغي أن يرده لمكله ، مع وجوده ، وكذلك إن عين بدلاً عنه ، ثم وجد الضال ، فإنه ينحرهما معاً .

(707/522)

قال ابن قدامة في المغني : وروي ذلك عن عمر وابنه ، وابن عباس وفعلته عائشة رضي الله عنهم . وبه قال مالك ، والشافعي ، وإسحاق ، ويتخرج على قولنا فيما إذا تعيب الهدي ، فأبدله فإن له أن يصنع ما شاء أن يرجع إلى ملك أحدهما ، لأنه قد ذبح ما في الذمة ، فلم

يلزمه شيء آخر ، كما لو عط بالمعين وهذا قول أصحاب الرأي .

ووجه الأول : ما روي عن عائشة رضي الله عنها : أنها أهدت هديين ، فأضلتهما ، فبعث إليها ابن الزبير هديين فنحرتهما ، ثم عاد الضالان فنحرتهما ، وقالت : هذه سنة الهدي رواه الدارقطني . وهذا ينصرف إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأنه تعلق حق الله بهما بإيجابهما أو ذبح أحدهما ، وإيجاب الآخر . انتهى محل الغرض من المغني . وليس في المسألة شيء مرفوع . والأحوط : ذبح الجميع كما ذكرنا أنه الأظهر ، والعلم عند الله تعالى .

واعلم : أن الهدي إن كان معيناً بالنذر من الأصل ، بأن قال : نذرت إهداء هذا الهدي بعينه أو معيناً تطوعاً ، إذا رآه صاحبه في حالة يغلب على الظن : أنه سيموت ، فإنه تلزمه ذكاته ، وإن فرط فيها حتى مات كان عليه ضمانه ، لأنه كالوديعة عنده .

أما لو مات بغير تفريطه ، أو ضل أو سرق ، فليس عليه بدل عنه كما أوضحناه ، لأنه لم يتعلق الحق بذمته بل بعين الهدي .

والأظهر عندي : إن لزمه بدله بتفريطه أنه يشتري هدياً مثله ، وينحره بالحرم بدلاً عن الذي فرط فيه ، وإن قيل : أنه يلزمه التصدق بقيمته على مساكين الحرم ، فله وجه من النظر . والله أعلم .

ولا نص في ذلك ولنكتف بما ذكرنا هنا من أحكام الهدي ، وسيأتي إن شاء الله تفصيل ما

يجوز الأكل منه ، وما لا يجوز من الهدايا .

تنبيه

(708/522)

قد قدمنا في سورة البقرة : أن القرآن دل في موضعين ، على أن نحر الهدي قبل الحلق ، والتقصير يوم النحر ، وبينا أنه لو قدم الحلق على النحر لا شيء عليه ، وأوضحنا ذلك في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا استيسر مِنَ الهدي ﴾ [البقرة : 196] . والحاصل : أن الحاج مفرداً كان أو قارناً أو متمتعاً إن رمى جمرة العقبة ونحر ما معه من الهدي : فعليه الحلق أو التقصير ، وقد قدمنا أن التحقيق : أن الحلق نسك وأنه أفضل من التقصير ، لقوله صلى الله عليه وسلم

" رحم الله المحلقين قالوا : يا رسول الله : والمقصرين . قال : رحم الله المحلقين ، قالوا : والمقصرين ؟ فقال : والمقصرين " في الرابعة ، أو الثالثة كما تقدم إيضاحه . فدل دعاؤه للمحلقين بالرحمة مراراً : على أن الحلق نسك لأنه لو لم يكن قربة لله تعالى لما استحق فاعله دعاء النَّبي صلى الله عليه وسلم له بالرحمة ، ودل تأخير الدعاء للمقصرين ، إلى الثالثة أو الرابعة : أن التقصير مفضول ، وأن الحلق أفضل منه ، والتقصير مع كونه مفضولاً : يجزئ

بدلالة الكتاب ، والسنة والإجماع ، لأن الله تعالى يقول ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَآءَ الله آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ [الفتح : 27] وقد روى الشيخان ، وغيرهما : التقصير عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم .

فمن ذلك حديث جابر : أنه حج مع النَّبي صلى الله عليه وسلم وقد أهلوا بالحج مفرداً ، فقال لهم : " أحلوا من إحرامكم بطواف البيت ، وبين الصفا والمروة ، وقصروا " وفي الصحيحين ، عن ابن عمر قال : " حلق النَّبي صلى الله عليه وسلم وحلق طائفة من أصحابه وقصر بعضهم " ، وقد قدمنا حديث معاوية الثابت في الصحيحين ، قال : قصرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشقص على المروة وحديث : " رحم الله المحلقين " ، ثم قال بعد ذلك : " والمقصرين " إلى غير ذلك من الأحاديث .

(709/522)

وقد أجمع جميع علماء الأمة على أن التقصير مجزئ ولكنهم اختلفوا في القدر الذي يكفي في الحلق والتقصير ، فقال الشافعي ، وأصحابه : يكفي فيهما حلق ثلاث شعرات فصاعداً ، أو تقصيرها ، لأن ذلك يصدق عليه أنه حلق أو تقصير ، لأن الثلاث جمع .

وقال أبو حنيفة : يكفي حلق ربع الرأس ، أو تقصير ربعه بقدر الأنملة .

وقال مالك ، وأحمد وأصحابهما : يجب حلق جميع الرأس ، أو تقصير جميعه ، ولا يلزمه في التقصير تتبع كل شعرة ، بل يكفيه أن يأخذ من جميع جوانب الرأس ، وبعضهم يقول : يكفيه قدر الأنملة ، والمالكية يقولون : يقصره إلى القرب من أصول الشعر .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر الأقوال عندي : أنه يلزم حلق جميع الرأس ، أو تقصير جميعه ، ولا يلزم تتبع كل شعرة في التقصير ، لأن فيه مشقة كبيرة ، بل يكفي تقصير جميع جوانب الرأس مجموعة أو مفرقة ، وأنه لا يكفي الربع ، ولا ثلاث شعرات خلافاً للحنفية والشافعية ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ ﴾ [الفتح : 27] ولم يقل : بعض رؤوسكم ﴿ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ [الفتح : 27] أي : رؤوسكم لدلالة ما ذكر قبله عليه ، وظاهره حلق الجميع أو تقصيره ، ولا يجوز العدول عن ظاهر النص إلا لدليل يجب الرجوع إليه ، ولأن النَّبي صلى الله عليه وسلم يقول : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " فمن حلق الجميع أو قصره ترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ، ومن اقتصر على ثلاث شعرات أو على ربع الرأس ، لم يدع ما يريبه ، إذ لا دليل يجب الرجوع إليه ، من كتاب ، ولا سنة على الاكتفاء بواحد منهما ، ولأن النَّبي صلى الله عليه وسلم لما حلق في حجة الوداع ، حلق جميع رأسه وأعطى شعر رأسه لأبي طلحة ليفرقه على الناس .

وفعله في الحلق بيان للنصوص الدالة على الحلق كقوله : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] .

وقد قدمنا أن فعله صلى الله عليه وسلم : إذا كان بياناً لنص مجمل يقتضي وجوب حكم : أن ذلك الفعل المبين لذلك النص المجمل واجب . ولا خلاف في ذلك بين من يعتد به من أهل الأصول .

تنبيه آخر

اعلم : أن محل كون الحلق أفضل من التقصير ، إنما هو بالنسبة إلى الرجال خاصة . أما النساء : فليس عليهن حق وإنما عليهن التقصير .

والصواب عندنا : وجوب تقصير المرأة جميع رأسها ويكفيها قدر الأنملة ، لأنه يصدق عليه أنه تقصير من غير منافاة لظواهر النصوص ، ولأن شعر المرأة من جمالها ، وحلقه مثله وتقصيره جداً إلى قرب أصول الشعر نقص في جمالها ، وقد جاء عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : أن النساء لا حلق عليهن ، وإنما عليهن التقصير .

قال أبو داود في سننه : حدثنا محمد بن الحسن العتكي ، ثنا محمد بن بكر ، ثنا ابن جريج ، قال : بلغني عن صفية بنت شيبة بن عثمان ، قالت : أخبرتني أم عثمان بنت أبي سفيان : أن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس على النساء حلق ، إنما

على النساء التقصير " .

حدثنا أبو يعقوب البغدادي ثقة ، ثنا هشام بن يوسف ، عن ابن جريج ، عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة عن صفية بنت شيبة ، قالت : أخبرتني أم عثمان بنت أبي سفيان أن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليس على النساء حلق إنما على النساء التقصير " انتهى منه .

وقال النووي في شرح المهذب : في حديث ابن عباس هذا : رواه أبو داود بإسناد حسن .

وقال صاحب نصب الراية في حديث ابن عباس المذكور : قال ابن القطان في كتابه : هذا ضعيف ومنقطع .

أما الأول : فانقطاعه من جهة ابن جريج ، قال : بلغني عن صفية ، فلم يعلم من حدثه به .

(711/522)

وأما الثاني : فقول أبي داود : حدثنا رجل ثقة ، يكنى أبا يعقوب ، وهذا غير كاف . وإن قيل : إنه أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم أبي إسرائيل ، فذاك رجل تركه الناس لسوء رأيه .

وأما ضعفه : فإن أم عثمان بنت أبي سفيان لا يعرف حالها . انتهى محل الغرض من نصب الراية للزيلعي .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : حديث ابن عباس المذكور : في أن على النساء التقصير لا الحلق ، أقل درجاته الحسن .

فقول النووي : إنه حديث رواه أبو داود بإسناد حسن أصوب مما نقله الزيلعي عن ابن القطان في كتابه ، وسكت عليه من أن الحديث المذكور ضعيف ومنقطع ، فقول ابن القطان : وأما ضعفه فإن أم عثمان بنت أبي سفيان لا يعرف حالها فيه قصور ظاهر جداً لأن أم عثمان المذكورة من الصحابيات المبايعات ، وقد روت عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس فدعوى أنها لا يعرف حالها ظاهرة السقوط كما ترى . وقال ابن عبد البر في الاستيعاب : أم عثمان بنت سفيان القرشية الشيبية العبدرية ، أم بني شيبة الأكابر ، كانت من المبايعات . روت عنها صفية بنت شيبة ، وروى عبد الله بن مسافع عن أمه عنها . انتهى منه .

وقال ابن حجر في الإصابة : أم عثمان بنت سفيان ، والدة بني شيبة الأكابر ، وكانت من المبايعات . قاله أبو عمر إلى آخر كلامه ، وقد أورد فيه حديثاً روته عن النبي صلى الله عليه وسلم بين الصفا والمروة ، وقد قدمناه .

وذكر ابن حجر في الإصابة عن أبي نعيم : حديثاً أخرجه ، وفيه : أن أم عثمان بنت سفيان هي أم بني شيبة الأكابر ، وقد بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ا ه .

وقال ابن حجر في تهذيب التهذيب : أم عثمان بنت سفيان . ويقال : بنت أبي سفيان :

هي أم ولد شيبة بن عثمان . روت عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس .

وروت عنها صفية بنت شيبة ا ه .

(712/522)

ومعلوم أن الصحابة كلهم عدول بتزكية الكتاب والسنة لهم ، كما أوضحناه في غير هذا الموضع ، فتبين أن قول ابن القطان : إن الحديث ضعيف ، لأنها لم يعلم حالها قصور منه رحمه الله كما ترى . وأما قوله : إن توثيق أبي داود لأبي يعقوب غير كاف ، وأن أبا يعقوب المذكور ، إن قيل : إنه إسحاق بن إبراهيم أبي إسرائيل فذاك رجل تركه الناس لسوء رأيه . فجوابه : أن أبا يعقوب المذكور هو إسحاق بن إبراهيم واسم إبراهيم أبو إسرائيل ، وقد وثقه أبو داود وأثنى عليه غير واحد من أجلاء العلماء بالرجال . وقال فيه الذهبي في الميزان : حافظ شهير قال : ووثقه يحيى بن معين ، والدارقطني : وقال صالح جزرة صدوق ، إلا أنه كان يقف في القرآن ، ولا يقول : غير مخلوق بل يقول : كلام الله . وقال فيه أيضاً : قال عبدوس النيسابوري : كان حافظاً جداً لم يكن مثله أحد في الحفظ والورع وأنهم بالوقف . وقال فيه ابن حجر في تهذيب التهذيب ، قال ابن معين : ثقة . وقال أيضاً : من ثقات المسلمين ما كتب حديثاً قط ، عن أَحد من الناس ، إلا ما خطه هو في ألواحه أو

كتابه . وقال أيضاً : ثقة مأمون أثبت من القواريري وأكيس ، والقواريري ثقة صدوق ، وليس هو مثل إسحاق ، وذكر غير هذا من ثناء ابن معين عليه ، وتفضيله على بعض الثقات المعروفين ، ثم قال : وقال الدارقطني : ثقة .

وقال البغوي : كان ثقة مأموناً ، إلا أنه كان قليل العقل ، وثناء أئمة الرجال عليه في الحفظ ، والعدالة كثير مشهور وإنما نقموا عليه أنه كان يقول : القرآن كلام الله ، ويسكت عندها ولا يقول : غير مخلوق ، ومن هنا جعلوه واقفياً ، وتكلموا في حديثه ، كما قال فيه صالح جزرة : صدوق في الحديث إلا أنه يقول : القرآن كلام الله ويقف .

وقال الساجي : تركوه لموضع الوقف ، وكان صدوقاً . وقال أحمد : إسحاق بن أبي إسرائيل واقفي مشؤوم ، إلا أنه كان صاحب حديث كيساً .

(713/522)

وقال السراج : سمعته يقول : هؤلاء الصبيان يقولون كلام الله غير مخلوق ألا قالوا كلام الله وسكتوا . وقال عثمان بن سعيد الدارمي : سألت يحيى بن معين فقال : ثقة قال عثمان : لم يكن أظهر الوقف حين سألت يحيى عنه ويوم كتبنا عنه كان مستوراً وقال عبدوس النيسابوري : كان حافظاً جداً ، ولم يكن مثله في الحفظ والورع ، وكان لقي المشايخ فقيل :

كان يتهم بالوقف قال : نعم اتهم وليس بمتهم . وقال مصعب الزبيري : ناظرته فقال : لم أقل على الشك ، ولكني أسكت كما سكت القوم قبلي .

والحاصل : أنهم متفقون على ثقته ، وأمانته بالنسبة إلى الحديث إلا أنهم كانوا يتهمونه بالوقف ، وقد رأيت قول من نفى عنه التهمة ، وقول من ناظره أنه قال له : لم أقل على الشك . ولكني سكت كما سكت القوم قبلي ، ومعنى كلامه : أنه لا يشك في أن القرآن غير مخلوق ، ولكنه يقتدي بمن لم يخض في ذلك ، ولما حكى الذهبي في الميزان قول الساجي : إنهم تركوا الأخذ عنه لمكان الوقف ، قال بعده ما نصه : قلت : قل من ترك الأخذ عنه ا ه ، وهو تصريح منه بأن الأكثرين على قبوله فحديثه لا يقل عن درجة الحسن ، وروايته عند أبي داود الذي وثقه تعتضد بالرواية المذكورة قبلها ، وقول ابن جريج فيها : بلغني عن صفية بنت شيبة تفسيره الرواية الثانية التي بين فيها ابن جريج : أن من بلغه عن صفية المذكورة : هو عبد الحميد بن جبير بن شيبة ، وهو ثقة معروف .

فإن قيل : ابن جريج روى عنه بالعنعنة ، وهو مدلس ، والرواية بالعنعنة لا تقبل من المدلس بل لا بد من تصريحه ، بما يدل على السماع .

والجواب : أنا قدمنا أن مشهور مذهب مالك ، وأبي حنيفة ، وأحمد هو الاحتجاج بالمرسل ، ومن يحتج بالمرسل يحتج بعنعنة المدلس ، من باب أولى كما نبه عليه غير واحد من الأصوليين .

وقد قدمنا موضحاً مراراً في هذا الكتاب المبارك مع اعتضاد هذه الرواية بالأخرى واعتضادها بغيرها .

(714/522)

قال الزيلعي في نصب الراية : بعد ذكره كلام ابن القطان في تضعيف حديث ابن عباس المذكور في تقصير النساء ، وعدم حلقهن الذي ناقشنا تضعيفه له كما رأيت ما نصه : وأخرجه الدارقطني في سننه والطبراني في معجمه ، عن أبي بكر بن عياش ، عن يعقوب بن عطاء ، عن صفية بنت شيبة به ، وأخرجه الدارقطني أيضاً ، والبزار في مسنده ، عن حجاج بن محمد ، عن ابن جريج ، عن عبد الحميد بن جبير ، عن صفية به .

قوال البزار : لا نعلمه يروي عن ابن عباس ، إلا من هذا الوجه انتهى ، وأخرجه الدارقطني في سننه ، عن ليث ، عن نافع ، عن ابن عمر قال في المحرمة : تأخذ من شعرها قدر السبابة . انتهى ، وليث هذا الظاهر أنه ابن أبي سليم ، وهو ضعيف . انتهى من نصب الراية .

فتبين من جميع ما ذكر : أن حديث ابن عباس في أن على النساء المحرمات إذا أردن قضاء التفث التقصير ، لا الحلق أنه لا يقل عن درجة الحسن ، كما جزم النووي بأن إسناده عند

أبي داود حسن وقد رأيت اعتضاده ، بما ذكرنا من الروايات المتابعة له بواسطة نقل الزيلعي ، عند الطبراني ، والدارقطني : والبزار ويعتضد عدم حلق النساء رؤوسهن بخمسة أمور غير ما ذكرنا .

الأول : الإجماع على عدم حلقهن في الحج ، ولو كان الحلق يجوز لهن لشرع في الحج .

الثاني : أحاديث جاءت بنهي النساء عن الحلق .

الثالث : أنه ليس من عملنا ، ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد .

الرابع : أنه تشبه بالرجال ، وهو حرام .

الخامس : أنه مثلة والمثلة لا تجوز . أما الإجماع ، فقد قال النووي في شرح المهذب ، قال ابن المنذر : أجمعوا على ألا حلق على النساء ، وإنما عليهن التقصير ، ويكره لهن الحلق لأنه بدعة في حقهن ، وفيه مثلة .

(715/522)

واختلفوا في قدر ما تقصره ، فقال ابن عمر والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو ثور : تقصر من كل قرن مثل الأنملة ، وقال قتادة : تقصر الثلث أو الربع ، وقالت حفصة بنت سيرين : إن كانت عجوزاً من القواعد أخذت نحو الربع ، وإن كانت شابة فلتقلل ، وقال

مالك : تأخذ من جميع قرونها أقل جزء ولا يجوز من بعض القرون . انتهى محل الغرض منه ، وتراه نقل عن ابن المنذر الإجماع على أن النساء : لا حلق عليهن في الحج ، ولو كان الحلق يجوز لهن لأمرن به في الحج ، لأن الحلق نسك على التحقيق ، كما تقدم إيضاحه .

وأما الأحاديث الواردة في ذلك فسأنقلها بواسطة نقل الزيلعي ، في نصب الراية لأنه جمعها فيه في محل واحد قال : فنهي النساء عن الحلق فيه أحاديث .

منها : ما رواه الترمذي في الحج ، والنسائي في الزينة ، قالا ، حدثنا محمد بن موسى الحرشي ، عن أبي داود الطيالسي ، عن همام ، عن قتادة ، عن خلاس بن عمرو ، عن علي قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تحلق المرأة رأسها " انتهى ثم رواه الترمذي ، عن محمد بن بشار ، عن أبي داود الطيالسي به ، عن خلاس عن النبي مرسلاً ، وقال : هذا حديث فيه اضطراب ، وقد روي عن حماد بن سملة عن قتادة ، عن عائشة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً انتهى ، وقال عبد الحق في أحكامه : هذا حديث يرويه همام عن يحيى ، عن قتادة ، عن خلاس بن عمرو ، عن علي وخالفه هشام الدستوائي ، وحماد بن سمله فروياه عن قتادة ، عن النبي مرسلاً .

(716/522)

حديث آخر أخرجه البزار في مسنده عن معلى بن عبد الرحمن الواسطي . ثنا عبد الحميد بن جعفر ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها : " أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن تحلق المرأة رأسها " انتهى . قال البزار ، ومعلى بن عبد الرحمن الواسطي : روى عن عبد الحميد أحاديث ، لم يتابع عليها ، ولا نعلم أحداً تابعه على هذا الحديث . انتهى ، ورواه ابن عدي في الكامل ، وقال : أرجو أنه لا بأس به ، قال عبد الحق : وضعفه أبو حاتم وقال : إنه متروك الحديث انتهى . وقال ابن حبان في كتاب الضعفاء : يروي عن عبد الحميد بن جعفر المقلوبات ، لا يجوز الاحتجاج به ، إذا تفرد حديث آخر رواه البزار في مسنده أيضاً : حدثنا عبد الله بن يوسف الثقفي ، ثنا روح بن عطاء بن أبي ميمونة ، ثنا أبي ، عن وهب بن عمير قال : سمعت عثمان يقول : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تحلق المرأة رأسها " انتهى قال البزار : ووهب بن عمير لا نعلمه روى غير هذا الحديث ، ولا نعلم روى عنه إلا عطاء بن أبي ميمونة ، وروح ليس بالقوي . انتهى كلام الزيلعي في نصب الراية .

(717/522)

وهذه الروايات التي ذكرنا في نهي المرأة عن حلق رأسها ، عن علي ، وعثمان ، وعائشة : يعضد بعضها بعضاً كما تعتضد بما تقدم ، وبما سيأتي إن شاء الله ، وأما كون حلق المرأة رأسها ليس من عمل نساء الصحابة ، فمن بعدهم ، فهو أمر معروف ، لا يكاد يخالف فيه إلا مكابر ، فالقائل : بجواز الحلق للمرأة قائل بما ليس من عمل المسلمين المعروف ، وفي الحديث الصحيح : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " فالحديث يشمل عمومه الحلق بالنسبة للمحرمة بلا شك ، وإذا لم يبح لها حلقه في حال النسك ، فغيره من الأحوال أولى ، وأما كون حلق المرأة رأسها تشبها بالرجال ، فهو واضح ، ولا شك أن الحالقة رأسها متشبهة بالرجال ، لأن الحلق من صفاتهم الخاصة بهم دون الإناث عادة . وقد قدمنا الحديث الصحيح في لعن المتشبهات من النساء بالرجال في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] وأما كون حلق رأس المرأة مثلة ، فواضح ، لأن شعر رأسها من أحسن أنواع جمالها وحلقه تقبيح لها وتشويه لخلقتها ، كما يدركه الحس السليم ، وعامة الذين يذكرون محاسن النساء في أشعارهم ، وكلامهم مطبقون على أن شعر المرأة الأسود من أحسن زينتها لا نزاع في ذلك بينهم في جميع طبقاتهم وهو في أشعارهم مستفيض استفاضة يعلمها كل من له أدنى إلمام ، وسنذكر هنا منه أمثلة قليلة تنبيهاً بها على غيرها قال امرؤ القيس في معلقته :

وفرع يزين المتن أسود فاحم . . . أثيث كقنو النخلة المتعثكل

غدائره مستشزرات إلى العلى . . . تضل المداري في مثنى ومرسل

فتراه جعل كثرة شعر رأسها وسواده وطوله من محاسنها ، وهو كذلك . وقال الأعشى ميمون بن قيس :

غراء فرعاء مصقول عوارضها . . . تمشي الهوينا كما يمشي الوحي الوحل

فقوله فرعاء يعني أن فرعها أي شعر رأسها تام في الطول والسواد والحسن وقال عمر بن أبي ربيعة :

(718/522)

تقول يا أمتا كفى جوانبه . . . ويلي بليت وأبلى جيدي الشعر

مثل الأساود قد أعيى مواشطه . . . تضل فيه مداريها وتنكسر

فلو لم تكن كثرة الشعر وسواده من الجمال عندهم ، لما تعبوا في خدمته هذا التعب الذي ذكره هذا الشاعر ونظيره قول الآخر :

وفرع يصير الجيد وحف كأنه . . . على الليث قنوان الكروم الدوالح

لأن قوله : يصير الجيد أي يميل العنق لكثرته ، وقد بالغ من قال :

بيضاء تسحب من قيام فرعها . . . وتغيب فيه وهو وجف أسحم

فكأنها فيه نهار ساطع . . . وكأنه ليل عليها مظلم

وأمثال هذا أكثر من أن تنحصر ، وقصدنا مطلق التمثيل ، وهو يدل على أن حلق المرأة شعر رأسها نقص في جمالها ، وتشويه لها ، فهو مثلة وبه تعلم : أن العرف الذي صار جارياً في كثير من البلاد ، بقطع المرأة شعر رأسها إلى قرب أصوله سنة إفرنجية مخالفة لما كان عليه نساء المسلمين ونساء العرب قبل الإسلام ، فهو من جملة الانحرافات التي عمت البلوى بها في الدين والخلق ، والسمت وغير ذلك .

فإن قيل : جاء عن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ما يدل على حلق المرأة رأسها ، وتقصيرها إياه ، فما دل على الحلق ، فهو ما رواه ابن حبان في صحيحه في النوع الحادي عشر من القسم الخامس ، من حديث وهب بن جرير ثنا أبي سمعت أبا فزارة ، يحدث عن يزيد بن الأصم ، عن ميمونة " أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها حلالاً وبنى بها وماتت بسرف فدفنها في الظلة التي بنى بها فيها فنزلنا قبرها أنا وابن عباس فلما وضعناها في اللحد مال رأسها فأخذت ردائي فوضعته تحت رأسها فاجتذبه ابن عباس فألقاه وكانت قد حلقت رأسها في الحج فكان رأسها محجماً " انتهى بواسطة نقل صاحب نصب الراية .

فهذا الحديث يدل على أن ميمونة حلقت رأسها ، ولو كان حراماً ما فعلته ، وأما التقصير فما رواه مسلم في صحيحه .

(719/522)

وحدثني عبيد الله بن معاذ العنبري ، قال : حدثنا أبي قال : حدثنا شعبة عن أبي بكر بن حفص ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : دخلت على عائشة أنا وأخوها من الرضاع ، فسألها عن غسل النبي صلى الله عليه وسلم من الجنابة فدعت بإناء قدر الصاع ، فاغتسلت ، وبيننا وبينها ستر ، وأفرغت على رأسها ثلاثاً .

قال : وكان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، يأخذن من رؤوسهن حتى تكون كالوفرة . ا ه من صحيح مسلم .

فالجواب ، عن حديث ميمونة على تقدير صحته : أن فيه أن رأسها كان محجماً ، وهو يدل على أن الحلق المذكور لضرورة المرض ، لتتمكن آلة الحجم من الرأس ، والضرورة يباح لها ما لا يباح بدونها وقد قال تعالى ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ ﴾ [الأنعام : 119] .

وأما الجواب : عن حديث مسلم فعلى القول ، بأن الوفرة أطول من اللمة التي هي ما ألم بالمنكبين من الشعر ، فلا إشكال ، لأن ما نزل عن المنكبين طويل طولاً يحصل به المقصود .

قال النووي في شرح مسلم : والوفرة أشبع ، وأكثر من اللمة . واللمة ما يلم بالمنكبين من الشعر . قاله الأصمعي . انتهى محل الغرض من النووي .

وأما على القول الصحيح المعروف عند أهل اللغة : من أنها لا تجاوز الأذنين . قال في

القاموس : والوفرة : الشعر المجتمع على الرأس ، أو ما سال على الأذنين منه أو ما جاوز شحمة الأذن ، ثم الجمة ، ثم اللمة ا ه منه .

وقال الجوهري في صحاحه : والوفرة : الشعر إلى شحمة الأذن ، ثم الجمة ثم اللمة : وهي التي ألمت بالمنكبين . وقال ابن منظور في اللسان : والوفرة : الشعر المجتمع على الرأس ، وقيل : ما سال على الأذنين من الشعر . والجمع وفار . قال كثير عزة :

كأن وفار القوم تحت رحالها . . . إذا حسرت عنها العمائم عنصل

(720/522)

وقيل : الوفرة أعظم من الجمة . قال ابن سيده : وهذا غلط إنما هي وفرة ، ثم جمة ، ثم لمة ، والوفرة : ما جاوز شحمة الأذنين ، واللمة : ما ألم بالمنكبين . التهذيب ، والوفرة : الجمة من الشعر إذا بلغت الأذنين ، وقيل : الوفرة الشعرة إلى شحمة الأذن ، ثم الجمة ثم اللمة ، إلى أن قال : والوفرة شعر الرأس ، إذا وصل شحمة الأذن . انتهى من اللسان .

فالجواب : من أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إنما قصرن رؤوسهن بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، لأنهن كن يتجملن له في حياته ، ومن أجمل زينتهن شعرهن . أما بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، فلهن حكم خاص بهن لا تشاركهن فيه امرأة واحدة من نساء جميع

أهل الأرض ، وهو انقطاع أملهن انقطاعاً كلياً من التزويج ، ويأسهن منه اليأس ، الذي لا يمكن أن يخالطه طمع ، فهن كالمعتدات المحبوسات بسببه صلى الله عليه وسلم إلى الموت . قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ اللّهِ وَلاَ أَن تَنكِحُواْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللّهِ عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : 53] واليأس من الرجال بالكلية ، قد يكون سبباً للترخيص في الإخلال بأشياء من الزينة ، لا تحل لغير ذلك السبب .

(721/522)

وقال النووي في شرح مسلم في الكلام علي هذا الحديث : قال عياض رحمه الله تعالى : والمعروف أن نساء العرب إنما كن يتخذن القرون ، والذوائب ، ولعل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعلن هذا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم لتركن التزين ، واستغنائهن عن تطويل الشعر وتخفيفاً لمؤنة رؤوسهن ، وهذا الذي ذكره القاضي عياض من كونهن فعلنه ، بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، لا في حياته . كذا قاله أيضاً غيره ، وهو متعين ولا يظن بهن فعله في حياته صلى الله عليه وسلم ، وفيه دليل على جواز تخفيف الشعور للنساء . انتهى كلام النووي . وقوله : وفيه دليل على جواز تخفيف الشعور للنساء ، فيه عندي نظر لما قدمنا من أن أزواج النبي بعد وفاته صلى الله عليه وسلم لا يقاس عليهن غيرهن ، لأن قطع

طمعهن في الرجال بالكلية خاص بهن دون غيرهن ، وهو قد يباح له من الإخلال ببعض الزينة ما لا يباح لغيره حتى إن العجوز من غيرهن لتتزين للخطاب ، وربما تزوجت لأن كل ساقطة لها لاقطة . وقد يحب بعضهم العجوز كما قال القائل :

أبى القلب إلا أم عمرو وحبها . . . عجوزاً ومن يحبب عجوزاً يفند

كثوب اليماني قد تقادم عهده . . . ورقعته ما شئت في العين واليد

وقال الآخر :

ولو أصبحت ليلى تدب على العصا . . . لكان هوى ليلى جديداً أوائله

والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ البآئس الفقير ﴾ .

(722/522)

الضمير في قوله : منها . راجع إلى بهيمة الأنعام المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ [الحج : 28] وهذا الأكل الذي أمر به هنا منها وإطعام البائس الفقير منها ، أمر بنحوه في خصوص البدن أيضاً في قوله تعالى ﴿ والبدن جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَعَائِرِ الله ﴾ [الحج : 36] إلى قوله : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ

القانع والمعتر ﴾ [الحج : 36] الآية ففي الآية الأولى : الأمر بالأكل من جميع بهيمة الأنعام الصادق بالبدن ، وبغيرها ، وقد بينت الآية الأخيرة أن البدن داخلة في عموم الآية الأولى .

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يرد نص عام ، ثم يرد نص آخر يصرح بدخول بعض أفراده في عمومه ، ومثلنا لذلك بعض الأمثلة وفي الآية العامة هنا أمر بالأكل ، وإطعام البائس الفقير ، وفي الآية الخاصة بالبدن : أمر بالأكل ، وإطعام القانع والمعتر .

وفي هاتين الآيتين الكريمتين مبحثان .

الأول : حكم الأكل المأمور به في الآيتين هل هو الوجوب لظاهر صيغة الأمر ، أو الندب والاستحباب ؟

المبحث الثاني فيما يجوز الأكل منه لصاحبه ، وما لا يجوز له الأكل منه ، ومذاهب أهل العلم في ذلك .

أما المبحث الأول : فجمهور أهل العلم على أن الأمر بالأكل في الآيتين : للاستحباب ، والندب ، لا للوجوب ، والقرينة الصارفة عن الوجوب في صيغة الأمر : هي ما زعموا من أن المشركين ، كانوا لا يأكلون هداياهم فرخص للمسلمين في ذلك .

(723/522)

وعليه فالمعنى : فكلوا إن شئتم ولا تحرموا الأكل على أنفسكم كما يفعله المشركون ، وقال ابن كثير في تفسيره : إن القول بوجوب الأكل غريب ، وعزا للأكثرين أن الأمر للاستحباب قال : وهو اختيار ابن جرير في تفسيره ، وقال القرطبي في تفسيره : فكلوا منها : أمر معناه : الندب عند الجمهور ، ويستحب للرجل ، أن يأكل من هديه وأضحيته ، وأن يتصدق بالأكثر مع تجويزهم الصدقة بالكل ، وأكل الكل وشذت طائفة ، فأوجبت الأكل والإطعام بظاهر الآية ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : " فكلوا وادخروا وتصدقوا " قال الكيا قوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ﴾ يدل على أنه لا يجوز بيع جميعه ، ولا التصدق بجميعه . انتهى كلام القرطبي .

ومعلوم : أن بيع جميعه لا وجه لحليته ، بل ولا بيع بعضه ، كما هو معلوم .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أقوى القولين دليلاً : وجوب الأكل والإطعام من الهدايا والضحايا ، لأن الله تعالى قال : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ في موضعين . وقد قدمنا أن الشرع واللغة دلا على أن صيغة أفعل : تدل على الوجوب إلا لدليل صارف ، عن الوجوب ، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك كقوله ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : 63] .

وأوضحنا جميع أدلة ذلك في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك ، منها آية الحج التي ذكرنا عندها مسائل الحج .

(724/522)

ومما يؤيد أن الامر في الآية يدل على وجوب الأكل وتأكيده " أن النبي صلى الله عليه وسلم نحر مائة من الإبل فأمر بقطعة لحم من كل واحدة ، منها فأكل منها وشرب من مرقها " وهو دليل واضح على أنه أراد ألا تبقى واحدة ، من تلك الإبل الكثيرة إلا وقد أكل منها أو شرب من مرقها ، وهذا يدل على أن الأمر في قوله : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ ليس لمجرد الاستحباب والتخيير ، إذ لو كان كذلك لاكتفى بالأكل من بعضها ، وشرب مرقه دون بعض ، وكذلك الإطعام فالأظهر فيه الوجوب .

والحاصل : أن المشهور عند الأصوليين : أن صيغة أفعل : تدل على الوجوب إلا لصارف عنه ، وقد أمر بالأكل من الذبائح مرتين ، ولم يقم دليل يجب الرجوع إليه صارف عن الوجوب وكذلك الإطعام ، هذا هو الظاهر بحسب الصناعة الأصولية ، وقد دلت عليها أدلة الوحي ، كما قدمنا إيضاحه .

وقال أبو حيان في البحر المحيط : والظاهر وجوب الأكل والإطعام وقيل باستحبابهما .

وقيل : باستحباب الأكل ، ووجوب الإطعام . والأظهر أنه : لا تحديد للقدر الذي يأكله والقدر الذي يتصدق به ، فيأكل ما شاء ويتصدق بما شاء ، وقد قال بعض أهل العلم : يتصدق بالنصف ، ويأكل النصف ، واستدل لذلك بقوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ البآئس الفقير ﴾ قال : فجزأها نصفين نصف له ، ونصف للفقراء ، وقال بعضهم : يجعلها ثلاثة أجزاء ، يأكل الثلث ويتصدق بالثلث ، ويهدي الثلث ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ القانع والمعتر ﴾ [الحج : 36] فجزأها ثلاثة أجزاء ، ثلث له ، وثلث للقانع ، وثلث للمعتر . هكذا قالوا وأظهرها الأول ، والعلم عند الله تعالى ، والبائس : هو الذي أصابه البؤس ، وهو الشدة . قال الجوهري في صحاحه : وبئس الرجل بيأس بؤساً وبئساً : اشتدت حاجته ، فهو بائس وأنشد أبو عمرو :

لبيضاء من أهل المدينة لم تذق . . . بئيساً ولم تتبع حمولة مجحد

(725/522)

وهو اسم وضع موضع المصدر ا ه منه يعني : أن البئيس في البيت لفظه لفظ الوصف ، ومعناه المصدر ، والفقير معروف ، والقاعدة عند علماء التفسير : أن الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا ، وعلى قولهم : فالفقير هنا يشمل المسكين ، لأنه غير

مذكور معه هنا ، وذلك هو مرادهم ، بأنهما إذا افترقا اجتمعا ، ومعلوم خلاف العلماء في الفقير والمسكين في آية الصدقة أيهما أشد فقراً ، وقد ذكرنا حجج الفريقين وناقشناها في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة البلد ، ومما استدل به القائل : إن الفقير أحوج من المسكين ، وأن المسكين من عنده شيء لا يقوم بكفايته قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر ﴾ [الكهف : 79] الآية ، قالوا : فسماهم مساكين ، مع أن عندهم سفينة عاملة للإيجار .

ومما استدل به القائلون بأن المسكين أحوج من الفقير : أن الله قال في المسكين : ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 16] قالوا : ذا متربة : أي لا شيء عنده . حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر ، ليس له مأوى إلا التراب .

قال ابن عباس : هو المطروح على الطريق الذي لا بيت له . وقال مجاهد : هو الذي لا يقيه من التراب لباس ، ولا غيره انتهى من القرطبي . وعضدوا هذا بأن العرب تطلق الفقير على من عنده مال لا يكفيه ، ومنه قول راعي نمير :

أما الفقير الذي كانت حلوبته . . . وفق العيال فلم يترك له سيد

فسماه فقيراً مع أن له حلوبة قدر عياله .

وقد ناقشنا أدلة الفريقين مناقشة تبين الصواب في الكتاب المذكور ، فأغناها ذلك عن إعادته هنا ، والعلم عند الله تعالى .

(726/522)

وأما المبحث الثاني : وهو ما يجوز الأكل منه ، وما لا يجوز فقد اختلف فيه أهل العلم ، وهذه مذاهبهم وما يظهر رجحانه بالدليل منها : فذهب مالك رحمه الله ، وأصحابه إلى جواز الأكل من جميع الهدي واجبه وتطوعه إذا بلغ محله إلا ثلاثة أشياء : جزاء لصيد ، وفدية الأذى ، والنذر الذي هو للمساكين وقال اللخمي : كل هدي واجب في الذمة ، عن حج أو عمرة من فساد أو متعة أو قران ، أو تعدي ميقات ، أو ترك النزول بعرفة نهاراً ، أو ترك النزول بمزدلفة أو تكر رمي الجمار أو أخر الحلق يجوز الأكل منه قبل بلوغ محله وبعده . أما جزاء الصيد ، وفدية الأذى فيؤكل منهما قبل بلوغها محلهما ، ولا يؤكل منهما بعده . وأما النذر المضمون ، إذا لم يسمه للمساكين : فإنه يأكل منه بعد بلوغه محله ، وإن كان منذوراً معيناً ، ولم يسمه للمساكين ، أو قلده ، وأشعره من غير نذر أكل منه بعد بلوغه محله ، ولم يأكل منه قبله وإن عين النذر للمساكين أو نوى ذلك حين التقليد والإشعار لم يأكل منه قبل ولا بعد .

(727/522)

والحاصل : أن النذر المعين للمساكين لا يجوز له الأكل منه مطلقاً ، عند مالك وأن النذر المضمون للمساكين ، حكمه عند المالكية ، حكمه عند المالكية : حكم جزاء الصيد ، وفدية الأذى فيمتنع الأكل منه بعد بلوغه محله ، ويجوز قبله ، لأنه باقي في الذمة حتى يبلغ محله . وأما النذر المضمون الذي لم يسم للمساكين كقوله : علي لله نذر أن أتقرب إليه بنحر هدي ، فله عند المالكية : الأكل منه قبل بلوغ محله ، وبعده ، وقد قدمنا أن هدي التطوع إن عطب في الطريق . لا يجوز له الأكل منه عند المالكية ، وأوضحنا دليل ذلك . هذا هو حاصل مذهب مالك في الأكل من الهدايا ، ولا خلاف في جواز الأكل من الضحايا . وقد قدمنا قول اللخمي من المالكية : أن كل هدي جاز أن يأكل منه : جاز أن يطعم منه من شاء من غني وفقير ، وكل هدي لم يجز له أن يأكل منه ، فإنه يطعمه فقيراً ، لا تلزمه نفقته كالكفارة . وكره ابن القاسم من أصحاب مالك إطعام الذمي من الهدايا كما تقدم .

ومذهب أبي حنيفة رحمه الله : أنه يأكل من هدي التمتع والقران ، وهدي التطوع إذا بلغ محله ، أما إذا عطب هدي التطوع ، قبل بلوغ محله ، فليس لصاحبه الأكل منه عند أبي حنيفة كما تقدم إيضاحه . ولا يأكل من غير ذلك ، هو ولا غيره من الأغنياء ، بل يأكله الفقراء . هذا حاصل مذهب أبي حنيفة رحمه الله .

وأما مذهب الشافعي رحمه الله : فهو أن الهدي إن كان تطوعاً ، فالأكل منه مستحب ، واستدل بعضهم لعدم وجوب الأكل بقوله : ﴿ والبدن جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَعَائِرِ اللهِ ﴾ [

الحج : 36] . قالوا : فجعلها لنا وما هو للإنسان فهو مخير بين تركه ، وأكله ، ولا يخفى ما في هذا الاستدلال .

(728/522)

واعلم : أنا حيث قلنا في هذا المبحث : يجوز الأكل ، فإنا نعني : الإذن في الأكل الصادق بالاستحباب ، وبالوجوب لما قدمنا من الخلاف ، في وجوب الأكل والإطعام ، واستحبابهما ، والفرق بينهما بإيجاب الإطعام دون الأكل ، وكل هدي واجب لا يجوز الأكل منه في مذهب الشافعي ، كهدي التمتع والقران ، والنذر ، وجميع الدماء الواجبة ، قال النووي : وكذا قال الأوزاعي ، وداود الظاهري : لا يجوز الأكل من الواجب . هذا هو حاصل مذهب الشافعي .

وأما مذهب أحمد رحمه الله : فهو أنه لا يأكل من هدي واجب ، إلا هدي التمتع والقران ، وأنه يستحب له أن يأكل من هدي التطوع ، وهو ما أوجبه بالتعيين ابتداء من غير أن يكون عن واجب في ذمته ، وما نحره تطوعاً من غير أن يوجبه هذا هو مشهور مذهب الإمام أحمد .

وعنه رواية أنه لا يأكل من المنذور ، وجزاء الصيد ويأكل مما سواهما .

قال في المغني : وهو قول ابن عمر وعطاء والحسن وإسحاق ، لأن جزاء الصيد بدل والنذر جعله الله تعالى بخلاف غيرهما .

وقال ابن أبي موسى : لا يأكل أيضاً من الكفارة ، ويأكل مما سوى هذه الثلاثة ، ونحوه مذهب مالك ، لأن ما سوى ذلك لم يسمه للمساكين ، ولا مدخل للإطعام فيه فأشبه التطوع . وقال الشافعي : لا يأكل من واجب ، لأنه هدي واجب بالإحرام فلم يجز الأكل منه كدم الكفارة . انتهى من المغني .

فقد رأيت مذاهب الأربعة فيما يجوز الأكل منه ، وما لا يجوز .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يرجحه الدليل في هذه المسألة : هو جواز الأكل من هدي التطوع وهدي التمتع والقران دون غير ذلك والأكل من هدي التطوع لا خلاف فيه بين العلماء بعد بلوغه محله ، وإنما خلافهم في استحباب الأكل منه ، أو وجوبه ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم ثبت عنه في الأحاديث الصحيحة في حجة الوداع " أنه أهدى مائة من الإبل " ومعلوم أن ما زاد على الواحدة منها تطوع ، وقد أكل منها وشرب من مرقها جميعاً .

(729/522)

وأما الدليل على الأكل من هدي التمتع والقران ، فهو ما قدمنا مما ثبت في الصحيح " أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ذبح عنهن صلى الله عليه وسلم بقراً ودخل عليهن بلحمه وهن متمتعات وعائشة منهن قارنة وقد أكلن جميعاً مما ذبح عنهن في تمتعهن وقرانهن بأمره صلى الله عليه وسلم " وهو نص صحيح صريح في جواز الأكل من هدي التمتع والقران .

أما غير ما ذكرنا من الدماء فلم يقم دليل يجب الرجوع إليه على الأكل منه ، ولا يتحقق دخوله في عموم ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ لأنه لترك واجب أو فعل محظور ، فهو بالكفارات أشبه ، وعدم الأكل منه أظهر وأحوط . والعلم عند الله تعالى .

مسألة في الأضحية

لا يخفى أن كلامنا في الهدي وأن الآية التي نحن بصددها ظاهرها أنها في الهدي ، ولما كان عمومها قد تدخل فيه الأضحية . أردنا هذا أنيشير إلى بعض أحكام الأضحية باختصار .

اعلم أولاً : أن الأضحية فيها أربع لغات : أضحية بضم الهمزة ، وإضحية بكسرها ، وجمعهما أضاحي بتشديد الياء وتخفيفها ، وضحية ، وجمعها ضحايا ، وأضحاة وجمعها : أضحى كأرطاة ، وأرطى .

واعلم أنه لا خلاف في مشروعة الأضحية . قال بعض أهل العلم : وقد دل على مشروعيتها الكتاب والسنة والإجماع .

أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ [الكوثر : 2] على ما قاله بعض أهل التفسير ، من أن المراد به : ذبح الأضحية بعد صلاة العيد ، ولا يخفى أن صلاة العيد داخلة في عموم ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ وأن الأضحية داخلة في عموم قوله ﴿ وانحر ﴾ .

وأما الإِجماع : فقد أجمع جميع المسلمين على مشروعية الأضحية . وأما السنة فقد وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة صحيحة في مشروعية الأضحية وسنذكر طرفاً منها فيه كفاية إن شاء الله .

(730/522)

قال البخاري في صحيحه : باب أضحية النبي صلى الله عليه وسلم على مشروعية الأضحية . وأما السنة فقد وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة صحيحة في مشروعية الأضحية وسنذكر طرفاً منها فيه كفاية إن شاء الله .

قال البخاري في صحيحه : باب أضحية النبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أقرنين ويذكر سمينين . وقال يحيى بن سعيد : سمعت أبا أمامة بن سهل ، قال : كنا نسمن الأضحية بالمدينة ، وكان المسلمون يسمنون . حدثنا آدم بن أبي إياس ، حدثنا شعبة ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب قال : سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه قال : "كان النبي صلى الله

عليه وسلم يضحي بكبشين " وأنا أضحي بكبشين . حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا عبد الوهاب عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انكفأ إلى كبشين أقرنين أملحين فذبحهما بيده " وقال إسماعيل وحاتم بن وردان ، عن أيوب ، عن ابن سيرين ، عن أنس تابعه وهيب عن أيوب ، وقال : حدثنا عمرو بن خالد ، حدثنا الليث عن يزيد عن أبي الخير عن عقبة بن عامر " أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاه غنماً يقسمها على صحابته ضحايا فبقي عتود ، فذكره النبي صلى الله عليه وسلم فقال ضح به أنت " انتهى من صحيح البخاري . وفي لفظ له من حديث أنس رضي الله عنه قال " ضحى النبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين فرأيته واضعاً قدمه على صفاحهما يسمي ويكبر فذبحهما بيده " وفي لفظ للبخاري عن أنس أيضاً قال " ضحى النبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما " وفي لفظ له عن أنس رضي الله عنه أيضاً " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يضحي بكبشين أملحين أقرنين ويضع رجله على صفاحهما ، ويذبحهما بيده " انتهى منه .

(731/522)

وقال مسلم بن الحجاج في صحيحه : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا أبو عوانة عن قتادة ، عن أنس قال " ضحى النَّبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده ، وسمى وكبر ووضع رجله على صحافهما " وفي لفظ له عن أنس رضي الله عنه قال " ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين قال ورأيته يذبحهما بيده ورأيته واضعاً قدمه على صفاحهما قال : وسمى وكبر " ، وفي لفظ لمسلم عن أنس عن النَّبي صلى الله عليه وسلم بمثله غير أنه قال ويقول .

" بسم الله والله أكبر " وقال مسلم في صحيحه أيضاً : حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا عبدالله بن وهب قال : قال حيوة : أخبرني أبو صخر عن يزيد بن قسيط عن عروة بن الزبير ، عن عائشة رضي الله عنها : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بكبشين أقرن يطأ في سواد ويبرك في سواد ، وينظر في سواد فأتى به ليضحي به فقال لها : يا عائشة ، هلمي المدية ثم قالك أشحذيها بحجر ، ففعلت ثم أخذها وأخذ الكبشر فأضجعه ثم ذبحه ثم قال : باسم الله اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد ثم ضحى به " انتهى من صحيح مسلم ، والأحاديث الواردة في مشروعية الأضحية كثيرة ، معروفة .

وقد اختلف أهل العلم في حكمها فذهب أكثر أهل العلم : إلى أنها سنة مؤكدة في حق الموسر ، ولا تجب عليه وقال النووي في شرح المهذب : وهذا مذهبنا وبه قال أكثر العلماء منهم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وبلال ، وأبو مسعود البدري ، وسعيد بن

المسيب وعطاء وعلقمة ، والأسود ، ومالك ، وأحمد ، وأبو يوسف ، وإسحاق ، وأبو ثور ، والمزني ، وداود وابن المذنر ، وقال ربيعة والليث بن سعد ، وأبو حنيفة ، والأوزاعي : هي واجبة على الموسر إلا الحاج بمنى . وقال محمد بن الحسن : هي واجبة على المقيم بالأمصار . والمشهور عن أبي حنيفة : أنه إنما يوجبها على مقيم يملك نصاباً . انتهى كلام النووي .

(732/522)

وقال النووي في شرح مسلم : واختلف العلماء في وجوب الأضحية ، على الموسر ، فقال جمهورهم : هي سنة في حقه إن تركها بلا عذر ، لم يأثم ، ولم يلزمه القضاء ، وممن قال بهذا : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب إلى آخر كلامه قريباً مما ذكرنا عنه في شرح المهذب .

وقال ابن قدامة في المغني : أكثر أهل العلم على أنها سنة مؤكدة غير واجبة : روي ذلك عن أبي بكر ، وعمر ، وبلال ، وأبي مسعود البدري رضي الله عنهم . وبه قال سويد بن غفلة وسعيد بن المسيب ، وعلقمة ، والأسود ، وعطاء ، والشافعي ، وإسحاق ، وأبو ثور ، وابن المنذر . وقال ربيعة ، ومالك ، والثوري ، والأوزاعي ، والليث ، وأبو حنيفة : هي واجبة ونقل ابن قدامة في المغني عن مالك وجوب الأضحية خلاف مذهبه ، ومذهبه هو

ما نقل عنه النووي : من أنها سنة ، ولكنها عنده لا تسن على خصوص الحاج بمنى ، لأن ما يذبحه هدي لا أضحية . وقد قدمنا أن آية الحج لا تخلو من دلالة على ما ذهب إليه مالك ، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله تعالى .

فإذا رأيت أقوال أهل العلم في حكم الأضحية ، فهذه أدلة أقوالهم ومناقشتها ، وما يظهر رجحانه بالدليل منها ، على سبيل الاختصار .

أما من قال : إنها واجبة فقد استدل بأدلة منها أنه صلى الله عليه وسلم كان يفعلها والله يقول :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] الآية .

وقد قدمنا قول من قال من أهل الأصول إن فعله صلى الله عليه وسلم الذي لم تعلم جهته من وجوب أو غيره يحمل على الوجوب . وأوضحنا أدلة ذلك . وذكرنا أن صاحب مراقي السعود ذكره بقوله في كتاب السنة في مبحث أفعال النَّبي صلى الله عليه وسلم :

وكل ما الصفة فيه تجهل . . . فللوجوب في الأصح يجعل

وذكرنا مناقشة الأقوال فيه في الحج ، وغيره من سور القرآن .

(733/522)

ومن أدلتهم على وجوب الأضحية ما رواه البخاري في صحيحه : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا الأسود بن قيس : سمعت جندب بن سفيان البجلي قال : شهدت النَّبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر فقال : " من ذبح قبل أن يصلي فليعد مكانها أخرى ، ومن لم يذبح فليذبح " ا ه . قالوا قوله : فليعد وقوله : فليذبح كلاهما صيغة أمر .

وقد قدمنا أن الصحيح عند أهل الأصول أن الأمر المتجرد عن القرائن ، يدل على الوجوب ، وبينا أدلة ذلك من الكتاب والسنة ، ورجحناه بالأدلة الكثيرة الواضحة كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ [النور : 63] . وقوله : ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [طه : 69] فسمى مخالفة الأمر معصية ، وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة ﴾ [الأحزاب : 36] الآية . فجعل أمره وأمر رسوله مانعاً من الاختيار ، موجباً للامتثال ، وكقوله صلى الله عليه وسلم " إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم " الحديث إلى آخر ما قدمنا ، وحديث جندب بن سفيان الذي ذكرناه عن البخاري أخرجه أيضاً مسلم في صحيحه بلفظ : " من كان ذبح أضحيته قبل أن يصلي أو نصلي ، فليذبح مكانها أخرى ومن كان لم يذبح فليذبح باسم الله " وصيغة الأمر بالذبح في حديثه ، واضحة كما بينا دلالتها على الوجوب آنفاً .

ومن أدلتهم على وجوب الأضحية : ما رواه أبو داود في سننه ، حدثنا مسدد ، ثنا يزيد ح وثنا حميد بن مسعدة ، ثنا بشر عن عبد الله بن عون ، عن عامر أبي رملة قال : أخبرنا

مخنف بن سليم قال : ونحن وقوف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات قال : " يا أيها الناس إن على كل أهل بيت في كل عام أضحية وعتيرة أتدرون ما العتيرة ؟ هي : التي يقول عنها الناس : الرجبية " ا ه منه .

(734/522)

وقال النووي في شرح المهذب : في هذا الحديث رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم ، قال الترمذي : حديث حسن . قال الخطابي : هذا الحديث ضعيف المخرج ، لأن أبا رملة مجهول . وهو كما قال الخطابي مجهول قال فيه ابن حجر في التقريب : عامر أبو رملة شيخ لابن عون لا يعرف ا ه منه . وقال فيه الذهبي في الميزان : عامر أبو رملة شيخ لابن عون فيه جهالة له عن مخنف بن سليم عن النَّبي صلى الله عليه وسلم :

" يا أيها الناس إن على كل بيت في الإسلام أضحية ، وعتيرة " قال عبد الحق : إسناده ضعيف ، وصدقه ابن القطان لجهالة عامر ، رواه عنه ابن عون ا ه منه .

وبه تعلم أن قول ابن حجر في الفتح في حديث مخنف بن سليم أخرجه أحمد والأربعة بسند قوي ، خلاف التحقيق كما ترى . وقد قال أبو داود بعد أن ساق الحديث بسنده ومتنه كما ذكرناه عنه آنفاً . قال أبو داود : العتيرة : منسوخة هذا خبر منسوخ ا ه منه . ولكنه لم

يبين الناسخ ، ولا دليل النسخ . وعلى كل حال فالحديث ضعيف لا يحتج به ، لأن أبا رملة مجهول كما رأيت من قال ذلك .

ومن أدلتهم على وجوبها : ما رواه الإمام أحمد وابن ماجه وصححه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا " قال ابن حجر في بلوغ المرام : في هذا الحديث رواه أحمد وابن ماجه ، وصححه الحاكم ورجح الأئمة غيره وقفه ، وقال ابن حجر في فتح الباري : وأقرب ما يتمسك به لوجوب الأضحية ، حديث أبي هريرة ، رفعه " من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا " أخرجه ابن ماجه ، وأحمد ورجاله ثقات لكن اختلف في رفعه ووقفه والموقوف أشبه بالصواب . قاله الطحاوي وغيره ، ومع ذلك فليس صريحاً في الإيجاب ا ه منه .

(735/522)

وذكر النووي في شرح المهذب ، من أدلة من أوجبها : ما جاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نحيرة يوم عيد " ثم قال رواه البيهقي . وقال : تفرد به محمد بن ربيعة ، عن إبراهيم بن يزيد الخوزي وليسا بقويين

، ثم قال : وعن عائذ الله المجاشعي ، عن أبي داود نفيع عن زيد بن أرقم أنهم قالوا : يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما هذه الأضاحي قال : " سنة أبيكم إبراهيم (صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا وسلم) ، قالوا : ما لنا فيها من الأجر ؟ قال : بل كل قطرة حسنة " رواه ابن ماجه ، والبيهقي . قال البيهقي : قال البخاري : عائذ الله المجاشعي عن أبي داود لا يصح حديثه ، وأبو داود هذا ضعيف ، ثم قال النووي : قال البخاري : عائذ الله المجاشعي عن أبي داود لا يصح حديثه ، وأبو داود هذا ضعيف ، ثم قال النووي : وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نسخ الأضحى كل ذبح ، وصوم رمضان كل صوم والغسل من الجنابة كل غسل ، والزكاة كل صدقة " رواه الدارقطني والبيهقي قال : وهو ضعيف ، واتفق الحفاظ على ضعفه ، وعن عائشة قالت : قلت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أستدين وأضحي ؟ قال : " نعم فإنه دين مقضي " رواه الدارقطني والبيهقي ، وضعفاه قالا : وهو مرسل ا ه كلام النووي . وما ذكره من تضعيف الأحاديث المذكورة : هو الصواب ، وقد وردت أحاديث غير ما ذكرنا في الترغيب في الأضحية ، وفيها أحاديث متعددة ليست بصحيحة . وهذا الذي ذكرنا هو عمدة من قال : بوجوب الأضحية ، واستدلال بعض الحنفية على وجوبها بالإضافة في قولهم : يوم الأضحى قائلاً : إن الإضافة إلى الوقت ، لا تحقق إلا إذا كانت

موجودة فيه بلا شك ، ولا تكون موجودة فيه بيقين ، إلا إذا كانت واجبة لا يخفى سقوطه ، لأن الإضافة تقع بأدنى ملابسة ، فلا تقتضي الوجوب على التحقيق ، كما لا يخفى .

(736/522)

وأقوى أدلة من قال بالوجوب : هو ما قدمنا في الصحيحين من حديث جندب بن سفيان البجلي ، من أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أمر من ذبح قبل الصلاة بالإعادة ، وأمر من لم يذبح بالذبح . وقد قدمنا دلالة الأمر على الوجوب والحديث المختلف في وقفه ورفعه ، الذي قدمنا ، لأن قوله فيه " فلا يقربن مصلانا " يفهم منه أن ترك الأضحية مخالفة غير هينة ، لمنع صاحبها من قرب المصلى وهو يدل على الوجوب . والفرق بين المسافر والمقيم عند أبي حنيفة لا أعلم له مستنداً من كتاب ولا سنة ، وبعض الحنفية يوجهه ، بأن أداءها له أسباب تشق على المسافر ، وهذا وحده لا يكفي دليلاً ، لأنه من المعلوم أن كل واجب عجز عنه المكلف ، يسقط عنه لقوله تعالى : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : 286] .

وأما الذين قالوا : بأن الأضحية سنة مؤكدة ، وليست بواجبة ، فاستدلوا بأدلة منها : ما رواه مسلم في صحيحه : حدثنا بن أبي عمر المكي ، حدثنا سفيان عن عبد الرحمن بن

حميد بن عبد الرحمن بن عوف ، سمع سعيد بن المسيب يحدث عن أم سلمة أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخلت العشر وأراد أحدكم أن يضحي فلا يمس من شعره وبشره شيئاً " قيل لسفيان : فإن بعضهم لا يرفعه . قال : لكني أرفعه ا ه وفي لفظ عنها ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم عند مسلم : " إذا دخل العشر وعنده أضحية يريد أن يضحي فلا يأخذن شعراً ولا يقلمن ظفراً " وفي لفظ له عنها مرفوعاً " إذا أراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن شعره وأظفاره " ا ه .

كل هذه الألفاظ في صحيح مسلم عن النَّبي صلى الله عليه وسلم من حديث زوجه أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها ، ووجه الاستدلال بها ، على عدم الوجوب أن ظاهر الرواية : أن الأضحية موكولة إلى إرادة المضحي ، ولو كانت واجبة لما كانت كذلك .

(737/522)

قال النووي في شرح المهذب : بعد أن ذكر بعد روايات حديث أم سلمة المذكورة ما نصه : قال الشافعي : هذا دليل أن التضحية ليست بواجبة ، لقوله صلى الله عليه وسلم ، وأراد فجعله مفوضاً إلى إرادته ، ولو كانت واجبة لقال : فلا يمس من شعره ، حتى يضحي ا ه منه .

وقال النووي في شرح المهذب أيضاً : واستدل أصحابنا ، يعني لعدم الوجوب بحديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " هن علي فرائض وهن لكم تطوع : ا لنحر ، والوتر ، وركعتا الضحى " رواه البيهقي بإسناد ضعيف . ورواه في موضع آخر وصرح بضعفه وللحديث المذكور طرق ، ولا يخلو شيء منها من الضعف ولم يذكرها النووي . ثم قال النووي : وصح عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : أنهما كانا لا يضحيان ، مخافة أن يعتقد الناس وجوبها ا ه كلام النووي . وقال ابن حجر في فتح الباري : قال ابن حزم : لا يصح عن أحد من الصحابة أنها واجبة ، وصح أنها غير واجبة عن الجمهور ، ولا خلاف في كونها من شرائع الدين . وقد استدل لعدم وجوبها : المجد في المنتقى بحديثين ، ولا تظهر دلالتها على ذلك عندي كل الظهور . قال في المنتقى : باب ما احتج به في عدم وجوبها ، بتضحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن أمته : عن جابر قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عيد الأضحى ، فلما انصرف " أتى بكبش فذبحه فقال : باسم الله والله أكبر ، اللهم هذا عني وعمن لم يضح من أمتي " وعن علي بن الحسين ، عن أبي رافع " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين

، فإذا صلى وخطب للناس أوتي بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية ، ثم يقول : اللهم هذا عني وعن أمتي جميعاً من شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ ، ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ويقول : هذا عن محمد وآل محمد فيطعمهما جميعاً المساكين ، ويأكل هو وأهله منهما " فمكثنا سنين ليس لرجل من بني هاشم يضحي قد كفاه الله المؤنة برسول الله صلى الله عليه وسلم والغرم رواه أحمد أ ه من المنتقى .

(739/522)

وقال شارحه في نيل الأوطار : ووجه دلالة الحديثين ، وما في معناهما على عدم الوجوب : أن تضحيته صلى الله عليه وسلم عن أمته وعن أهله تجزئ كل من لم يضح ، سواء كان متمكناً من الأضحية أو غير متمكن ، ثم تعقبه بقوله : ويمكن أن يجاب عن ذلك ، بأن حديث " على كل أهل بيت أضحية " يدل على وجوبها على كل أهل بيت ، يجدونها فيكون قرينة على أن تضحية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن غير الواجدين من أمته ولو سلم الظهور المدعي فلا دلالة له على عدم الوجوب ، لأن محل النزاع من لم يضح عن نفسه ، ولا ضحى عنه غيره ، فلا يكون عدم وجوبها على من كان في عصره صلى الله عليه وسلم من الأمة مستلزماً ، لعدم وجوبها على من كان في غير عصره صلى الله عليه

وسلم منهم ا ه .

من نيل الأوطار . وقد رأيت أدلة القائلين بالوجوب ، والقائلين بالسنة . والواقع في نظرنا أنه ليس في شيء من أدلة الطرفين ، دليل جازم سالم من المعارض على الوجوب ، ولا على عدمه لأن صيغة الأمر بالذبح في الحديث الصحيح وبإعادة من ذبح ، قبل الصلاة ، وإن كان يفهم منه الوجوب على أحد الأقوال ، وهو المشهور في صيغة الأمر . فحديث أم سلمة الذي ظاهره : تفويض ذلك إلى إرادة المضحي ، وهو في صحيح مسلم يمكن أ ن يكون قرينة صارفة عن الوجوب في صيغة الأمر المذكور ، وكلا الدليلين لا يخلو من احتمال ، وحديث " من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا " رجح أكثر الأئمة وقفه ، وقد قدمنا أن ابن حجر قال : إنه ليس صريحاً في الإيجاب وأجاب القرطبي في المفهم عن دلالة صيغة الأمر في قوله : فليعد ، وقوله : فليذبح وقال : لا حجة في شيء من ذلك ، على الوجوب وإنما المقصود بيان كيفية مشروعية الأضحية ، لمن أراد أن يفعلها أو من أوقعها على غير الوجه المشروع خطأً أو جهلاً ، فبين له وجه تدارك ما فرط منه ا ه محل الغرض منه بواسطة نقل ابن حجر في الفتح .

(740/522)

قال مقيده عفا لاله عنه وغفر له : الذي يظهر لي في مثل هذا الذي لم تتضح فيه دلالة النصوص على شيء معين إيضاحاً بيناً أنه يتأكد على الإنسان : الخروج من الخلاف فيه ، فلا يترك الأضحية مع قدرته عليها ، لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم يقول : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " ، فلا ينبغي تركها قادر عليها ، لأن أداءها هو الذي يتيقن به براءة ذمته ، والعلم عند الله تعالى .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الأول : قد علمت : أن أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم على أن الأضحية : سنة لا واجبة ، والمالكية يقولون : إن وجوبها خاص به صلى الله عليه وسلم ، وقد علمت أن الأحاديث الواردة في ذلك لا تخلو من ضعف ، وقد استثنى مالك ، وأصحابه الحاج بمنى ، قالوا : لا تسن له الأضحية لأن ما يذبحه هدي لا أضحية ، وخالفهم جماهير أهل العلم نظراً لعموم أدلة الأمر بالأضحية في الحاج وغيره ، ولبعض النصوص المصرحة بمشروعية الأضحية للحاج بمنى . قال البخاري في صحيحه : باب الأضحية للمسافر والنساء : حدثنا مسدد ، حدثنا سفيان ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها : " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وحاضت بسرف قبل أن تدخل مكة ، وهي تبكي " الحديث وفيه : " فلما كنا بمنى أتيت بلحم بقر فقلت : ما هذا ؟ قالوا ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أزواجه بالبقر "

(741/522)

اه . وقال مسلم في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى قال : قرأت على مالك ، عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل ، عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع ، فمنا من أهل بعمرة ، ومنا من أهل بحج وعمرة ومنا من أهل بالحج وأهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج " ، الحديث بطوله ، وفيه فقالت : " وضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نسائه بالبقر " اه من صحيح مسلم . قالوا : فقد ثبت في الصحيحين ، عن عائشة رضي الله عنها : " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم ضحى عن نسائه ببقر يوم النحر بمنى " ، وهو دليل صحيح على مشروعية الأضحية للحاج بمنى .

(742/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين دليلاً عندي في هذا الفرع قول مالك وأصحابه ، وإن خالفهم الجمهور ، وأن الأضحية لا تسن للحاج بمنى ، وأن ما يذبحه هدي

لا أضحية ، وأن الاستدلال بحديث عائشة المتفق عليه المذكور آنفاً لا تنهض به الحجة على مالك وأصحابه ، ووجه كون مذهب مالك : أرجح في نظرنا هنا مما ذهب إليه جمهور أهل العلم ، هو أن القرآن العظيم دال عليه ، ولم يثبت ما يخالف دلالة القرآن عليه سالماً من المعارض من كتاب أو سنة ، ووجه دلالة القرآن على أن ما يذبحه الحاج بمنى : هدي لا أضحية ، هو ما قدمناه موضحاً لأن قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ [الحج : 27- 28] الآية فيه معنى : أذن في الناس بالحج : يأتوك مشاة وركباناً لحكم . منها : شهودهم منافع لهم ، ومنها : ذكرهم اسم الله : ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾ [الحج : 28] ، عند ذبحها تقرباً إلى الله ، والذي يكون من حكم التأذين فيهم بالحج ، حتى يأتوا مشاة وركباناً ، ويشهدوا المنافع ويتقربوا بالذبح ، إنما هو الهدي خاصة دون الأضحية لإجماع العلماء على أن للمضحي : أن يذبح أضحيته في أي مكان شاءه من أقطار الدنيا ولا يحتاج في التقرب بالأضحية ، إلى إتيانهم مشاة وركباناً من كل فج عميق . فالآية الظاهرة في الهدي ، دون الأضحية ، وما كان القرآن أظهر فيه وجب تقديمه على غيره ، أما الاحتجاج بحديث عائشة المتفق عليه : " أنه ضحى ببقر عن نسائه يوم النحر صلوات الله وسلامه عليه " فلا

تنهض به الحجة ، لكثرة الأحاديث الصحيحة المصرحة بأنهن متمتعات ، وأن ذلك البقر هدي واجب ، وهو هدي التمتع المنصوص عليه في القرآن وأن عائشة

(743/522)

منهن قارنة والبقرة التي ذبحت عنها : هدي قران ، سواء قلنا إنها استقلت بذبح بقرة عنها وحدها ، كما قدمناه في بعض الروايات الصحيحة ، أو كان بالاشتراك مع غيرها في بقرة ، كما قال به بعضهم : وأكثر الروايات ليس فيها لفظ : ضحى ، بل فيها : أهدى ، وفيها : ذبح عن نسائه وفيها : نحر عن نسائه فلفظ ضحى من تصرف بعض الرواة للجزم ، بأن ما ذبح عنهم من البقر يوم النحر بمنى : هدي تمتع بالنسبة لغير عائشة ، وهدي قران : بالنسبة إليها ، كما هو معلوم بالأحاديث الصحيحة ، التي لا نزاع فيها ، وبهذا الذي ذكرنا تعلم أن ظاهر القرآن مع مالك ، والحديث ليس فيه حجة عليه .

وقال ابن حجر في فتح الباري : في باب ذبح الرجل البقر عن نسائه من غير أمرهن بعد ذكره رواية : ضحى المذكورة ما نصه : والظاهر أن التصرف من الرواة ، لأنه في الحديث ذكر النحر ، فحمله بعضهم على الأضحية ، فإن رواية أبي هريرة صريحة في أن ذلك ، كان عمن اعتمر من نسائه فقويت رواية من رواه بلفظ : أهدى ، وتبين أنه هدي التمتع ، فليس فيه

حجة على مالك في قوله : لا ضحايا على أهل منى اه محل الغرض من فتح الباري ، وهو واضح فيما ذكرنا ، والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثاني : اعلم أن من ذبح أضحية ، قبل أن يصلي إمام المسلمين صلاة العيد ، فإن ذبيحته لا تجزئه عن الأضحية ، وإنما شاته التي ذبحها شاة لحم يأكلها هو من شاء . وليست بشاة نسك ، وهذا ثابت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم .

(744/522)

قال البخاري في صحيحه : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة عن زبيد اليامي ، عن الشعبي ، عن البراء رضي الله عنه قال : قال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " إن أول ما يبدأ به في يومنا هذا أن يصلي ، ثم نرجع فننحر ، من فعل فقد أصاب سنتنا ، ومن ذبح قبل فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء " اه محل الغرض منه . وفي لفظ للبخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " من ذبح قبل الصلاة ، فإنما ذبح لنفسه ، ومن ذبح بعد الصلاة . فقد تم نسكه وأصاب سنة المسلمين " اه . وفي لفظ للبخاري ، عن أنس بن مالك أيضاً قال : قال النَّبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر : " من كان ذبح قبل الصلاة فليعد " الحديث . وفي لفظ للبخاري من

حديث البراء ، عنه صلى الله عليه وسلم قال : من ذبح قبل الصلاة فإنما يذبح لنفسه ، ومن ذبح بعد الصلاة فقد تم نسكه وأصاب سنة المسلمين " اه .

وقد قدمنا في حديث جندب بن سفيان البجلي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " من ذبح قبل أن يصلي فليعد مكانها أخرى "

الحديث إلى غير هذا من الروايات بمعناه في صحيح البخاري ، وكون الأضحية المذبوحة قبل الصلاة : لا تجزئ صاحبها الذي ذكرنا في صحيح البخاري ، أخرجه مسلم أيضاً من حديث جندب بن سفيان البجلي ، والبراء بن عازب ، وأنس بن مالك رضي الله عنهم ، فهذه الأحاديث المتفق عليها عن جندب والبراء وأنس : نصوص صريحة في أن من ذبح أضحيته قبل صلاة الإمام صلاة العيد : أنها لا تجزئه ، وإن كان الإمام الأعظم ، هو إمام الصلاة فلا إشكال ، وإن كان إمام الصلاة غيره ، فالظاهر : أن المعتبر إمام الصلاة ، لأن ظاهر الأحاديث : أنها يشترط لصحتها ، أن تكون بعد الصلاة ، وظاهرها العموم سواء كان إمام الصلاة الإمام الأعظم أو غيره ، والعلم عند الله تعالى .

(745/522)

والأظهر : أن من أراد أن يضحي بمحل لا تقام فيه صلاة العيد ، أنه يتحرى بذبح أضحيته قدر ما يصلي فيه الإمام صلاة العيد عادة ، ثم يذبح . والله تعالى أعلم .

وقد جاء في صحيح مسلم وغيره ، ما يدل على عدم إجزاء ما نحر قبل نحره صلى الله عليه وسلم . وظاهره : أنه لا بد لإجزاء الأضحية ، من أن تكون بعد الصلاة ، وبعد نحر الإمام ، والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثالث : في سن الأضحية التي تجزئ . والأظهر : أن السن التي تجزئ في الأضحية هي التي تكون مسنة ، فإن تعسرت المسنة أجزأته جذعة من الضأن .

قال مسلم بن الحجاج في صحيحه : حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا زهير ، حدثنا أبو الزبير ، عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تذبحوا إلا مسنة إلا أن يعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن " اه .

وقال النووي في شرح هذا الحديث ما نصه : قال العلماء : المسنة هي الثنية من كل شيء من الإبل والبقر والغنم ، فما فوقها . وهذا تصريح : بأنه لا يجوز الجذع من غير الضأن في حال من الأحوال . وهذا مجمع عليه على ما نقله القاضي عياض ، ونقل العبدري وغيره ، من أصحابنا ، عن الأوزاعي أنه قال : يجزئ الجذع من الإبل والبقر والمعز والضأن . وحكي هذا عن عطاء . وأما الجذع من الضأن فمذهبنا ، ومذهب العلماء كافة : أنه يجزئ سواء وجد غيره أو لا وحكوا عن ابن عمر والزهري : أنهما قالا : لا يجزئ . وقد

يحتج لهما بظاهر هذا الحديث . قال الجمهور : هذا الحديث محمول على الاستحباب والأفضل ، وتقديره : يستحب لكم أن لا تذبحوا إلا مسنة ، فإن عجزتم فجذعة ضأن ، وليس فيه تصريح بمنع جذعة الضأن ، وأنها لا تجزئ بحال . وقد أجمعت الأمة أنه ليس على ظاهره ، لأن الجمهور يجوزون الجذع من الضأن ، مع وجود غيره وعدمه . وابن عمر والزهري يمنعانه مع وجود غيره وعدمه ، فتعين تأويل الحديث على ما ذكرنا من الاستحباب والله أعلم .

(746/522)

إلى أن قال : والجذع من الضأن : ما له سنة تامة ، هذا هو الأصح عند أصحابنا ، وهو الأشهر عند أهل اللغة وغيرهم ، وقيل ما له ستة أشهر .

وقيل : سبعة ، وقيل : ثمانية ، وقيل : ابن عشرة . حكاه القاضي ، وهو غريب .

وقيل : إن كان متوالداً من بين شابين ، فستة أشهر ، وإن كان من هرمين فثمانية أشهر اه محل الغرض منه . وقال في شرح المهذب : ثم الجذع ما استكمل سنة على أصح الأوجه إلى آخر الأوجه التي ذكرها في شرح مسلم . وتقدم نقلها عنه آنفاً . وقال أيضاً : وأما الثني من الإبل فما استكمل خمس سنين ، ودخل في السادسة . وروى حرملة عن الشافعي أنه الذي

استكمل ست سنين ، ودخل في السابعة .

قال الروياني : وليس هذا قولاً آخر للشافعي ، وإن توهمه بعض أصحابنا ، ولكنه إخبار عن نهاية سن الثني ، وما ذكره الجمهور بيان لابتداء سنه ، وأما الثني من البقر فهو ما استكمل سنتين ، ودخل في الثالثة .

وروى حرملة عن الشافعي : أنه اما استكمل ثلاث سنين ، ودخل في الرابعة . والمشهور من نصوص الشافعي الأول وبه قطع الأصحاب وغيرهم من أهل اللغة وغيرهم . والثني من المعز فيه عندهم وجهان : أصحهما : ما استكمل سنتين . والثاني : ما استكمل سنه اه منه .

وقد علمت أن الثني هو المسن . قال ابن الأثير في النهاية في الجذع : هو من الإبل ما دخل في السنة الخامسة ، ومن البقر والمعز : ما دخل في السنة الثانية ، وقيل : البقر في الثالثة ومن الضأن : ما تمت له سنة ، وقيل : أقل منها ، ومنهم من يخالف بعض هذا في التقدير اه منه .

وقال ابن الأثير في النهاية أيضاً : الثنية من الغنم ما دخلت في السنة الثالثة ، ومن البقر كذلك ، ومن الإبل : في السادسة والذكر ثني ، وعلى مذهب أحمد بن حنبل : ما دخل من المعز في الثانية ، ومن البقر في الثالثة .

وقال ابن الأثير في النهاية في المسنة ، قال الأزهري : البقرة والشاة يقع عليهما اسم المسن ، إذا أثنيا ، ويثنيان في السنة الثالثة .

وقال الجوهري في صحاحه : الجذع ، قبل الثني والجمع جذعان وجذاع ، والأنثى : جذعة ، والجمع : جذعات تقول منه لولد الشاة في السنة الثانية ، ولولد البقر والحافر في السنة الثالثة ، وللإبل في السنة الخامسة : أجذع والجذع اسم له في زمن ليس بسن تنب ولا تسقط ، وقد قيل : في ولد النعجة : إنه جذع في ستة أشهر ، أو تسعة أشهر ، وذلك جائز في الأضحية انتهى منه . وفي القاموس : والثنية : الناقة الطاعنة في السادسة ، والبعير ثني والفرس الداخلة في الرابعة والشاة في الثالثة كالبقرة . اه منه .

وقد علمت مما مر : أن حديث مسلم الثابت فيه دل على أن الأضحية لا تكون إلا بمسنة ، وأنها إن تعسرت فجذعة من الضأن ، فمن ضحى بمسنة ، أو بجذعة من الضأن عند تعسرها : فضحيته مجزئة إجماعاً .

واختلف أهل العلم فيما سوى ذلك ، وهذه مذاهبهم وأدلتها .

فذهب مالك رحمه الله وأصحابه : إلى أن المجزئ في الضحية : جذع الضأن ، وثني المعز والبقر ، والإبل . وجذع الضأن عندهم : هو ما أكمل سنة على المشهور ، وثني المعز عندهم : هو ما أكمل سنة ، ودخل في الثانية دخولاً بيناً ، فالدخول في السنة الثانية ،

دخولا بيناً هو الفرق عندهم بين جذع الضأن ، وثني المعز .

ودليل مالك وأصحابه على ما ذكرنا عنهم في سن الأضحية : أن جذع الضأن عندهم ، لا فرق بينه وبين جذعة الضأن المنصوص على إجزائها في صحيح مسلم ، وأن الثني ثبت إجزاؤه مطلقاً ، وتحديدهم له في المعز بما دخل في الثانية دخولاً بيناً من تحقيق المناط ، والثني عندهم من البقر ابن ثلاث سنين والأنثى والذكر سواء عندهم . والثني عندهم من الإبل : ابن خمس سنين ، والذكر والأنثى سواء .

ومعلوم أن الذكورة ، والأنوثة في الضحايا والهدايا ، وصفان طرديان ، لا أثر لواحد منهما في الحكم فهما سواء . وقال بعض المالكية : إن الثني من البقر : ابن أربع سنين . والظاهر : أنه غير مخالف للقول الأول ، وأن المراد به ابن ثلاث ودخل في الرابعة .

(748/522)

وقال ابن حبيب من المالكية : والثني من الإبل ابن ست سنين ، والظاهر أيضاً أنه غير مخالف للقول الأول ، لأن المراد به ابن خمسن ودخل في السادسة ، فإن قيل . . . سلمنا أن جذعة الضأن المنصوص عليها في حديث جابر عند مسلم : لا فرق بينها ، وبين الجذع الذكر ، لأن الذكورة والأنوثة في الهدايا والضحايا وصفان طرديان ، لا أثر لهما في الحكم .

ولكن ظاهر الحديث ، يدل على أن جذعة الضأن الأنثى المذكورة في الحديث ، لا يذبحها ، إلا من تعسرت عليه المسنة ، التي هي الثنية ، لأن لفظ الحديث المتقدم " لا تذبحوا إلا مسنة إلا أن يعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن " .

فالجواب : أن ظاهر الحديث أن الجذعة من الضأن : لا تجزئ إلا عند تعسر المسنة ، وظاهره : أن الجذع الذكر من الضأن : لا يجزئ سواء عسر وجود المسنة ، أو لم يعسر ، وجمهور أهل العلم خالفوا ظاهر هذا الحديث من الجهتين المذكورتين ، إلا ما روي عن ابن عمر ، والزهري : من أن الجذع الذكر من الضأن لا يجزئ مطلقاً لظاهر هذا الحديث .

(749/522)

قال النووي : في شرحه لحديث مسلم : هذا ما نصه : قال العلماء : المسنة هي الثنية : من كل شيء من الإبل والبقر والغنم ، فما فوقها وهذا تصريح بأنه لا يجوز الجذع من غير الضأن في حال من الأحوال ، وهذا مجمع عليه على ما نقله القاضي عياض ، ونقل العبدرين وغيره من أصحابنا أنه قال : يجوز الجذع من الإبل والبقر والمعز والضأن ، وحكي هذا عن عطاء ، وأما الجذع من الضأن : فمذهبنا ، ومذهب العلماء كافة : أنه يجزئ ، سواء وجد غيره أو لا ، وحكوا عن ابن عمر والزهري أنهما قالا : تجزئ ، وقد يحتج لهما بظاهر الحديث ،

قال الجمهور : هذا الحديث محمول على الاستحباب ، والأفضل وتقديره : يستحب لكم ألا تذبحوا إلا مسنة ، فإن عجزتم فجذعة ضأن ، وليس فيه تصريح بمنع جذعة الضأن ، وأنها لا تجزئ بحال ، وقد أجمعت الأمة أنه ليس على ظاهره ، لأن الجمهور يجوزون الجذع من الضأن مع وجود غيره وعدمه ، وابن عمر والزهري : يمنعانه مع وجود غيره وعدمه ، فتعين تأويل الحديث على ما ذكرنا من الاستحباب والله أعلم .

(750/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الحديث ظاهر في أن جذعة الضأن : لا تجزئ إلا إذا تعسر وجود المسنة ، لأن قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح : " لا تذبحوا إلا مسنة " نهي صريح عن ذبح غير المسنة ، التي هي الثنية . والنهي : يقتضي التحريم كما تقرر في الأصول ، إلا إذا وجد صارف عنه ، وهو دليل ظاهر على أن جذعة الضأن : لا تجزئ إلا عند تعسر المسنة كما ترى ، وسيأتي إن شاء الله إيضاح بقية هذا البحث بعد ذكر مذاهب أهل العلم في هذه المسألة ، ومناقشة أدلتهم ، وأما مذهب الشافعي رحمه الله في هذه المسألة : فهو أن الجذع لا يجزئ إلا من الضأن خاصة ، والجذع من الضأن والجذعة عنده سواء ، وأما غير الضأن : فلا يجزئ عنده منه إلا الثنية ، أو الثني . وقد

قدمنا كلام أهل العلم ، واللغة في سن الجذع ، والثني والجذعة والثنية والوجه الذي حكاه الرافعي : أن جذع المعز يجزئ عند الشافعية غلط كما صرح به النووي . وأما مذهب أبي حنيفة : فهو كمذهب الشافعي ، وهو جواز التضحية بالجذع من الضأن خاصة ، وبالثني من غير الضأن وهو المعز والإبل والبقر .

وقال صاحب تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق في الفقه الحنفي ما نصه : والجذع من الضأن : ما تمت له ستة أشهر عند الفقهاء ، وذكر الزعفراني : أنه ابن سبعة أشهر . والثني من الضأن ، والمعز ابن سنة ، ومن البقر : ابن سنتين ، ومن الإبل : ابن خمس سنين ، وفي القرب : الجذع من البهائم قبل الثني إلا أنه من الإبل قبل السنة الخامسة ، ومن البقر والشاة في السنة الثانية ، ومن الخيل في الرابعة ، وعن الزهري الجذع من المعز لسنة ، ومن الضأن لثمانية أشهر . اه منه .

(751/522)

والأصح : هو ما قدمنا في سن الجذع والثني عن الفقهاء ، وأهل اللغة ، ومذهب الإمام أحمد كمذهب أبي حنيفة والشافعي ، فلا يجوز عنده الجذع إلا من الضأن خاصة ، ولا يجوز من غير الضأن : إلا الثني ، والجذع من الضأن عندهم : ما له ستة أشهر ، ودخل في

السابع ، وثني المعز عندهم : إذا تمت له سنة ، ودخل في الثانية ، وثني البقر عندهم : إذا تمت له سنتان ، ودخل في الثالثة ، وثني الإبل عندهم : إذا تمت له خمس سنين ، ودخل في السادسة .

قاله ابن قدامة في المغني : وقال أيضاً قال الأصمعي ، وأبو زياد الكلابي ، وأبو زيد الأنصاري : إذا مضت السنة الخامسة على البعير ، ودخل في السادسة ، وألقى ثنيته فهو حينئذ ثني ، ونرى أنه إنما سمي ثنياً ، لأنه ألقى ثنيته . وأما البققر فهي التي لها سنتان ، لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تذبحوا إلا مسنة " ومسنة البقر التي لها سنتان ، وقال وكيع : الجذع من الضأن يكون ابن سبعة أشهر . انتهى كلام المغني . وقد عرفت مذاهب الأئمة الأربعة في السن ، التي تجزئ ضحية من بهيمة الأنعام ، وأنهم متفقون على إجزاء جذع الضأن ، والثني من غيره مع بعض الاختلاف ، الذي رأيت في سن الجذع والثني .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الأظهر عندي : هو ما عليه جمهور أهل العلم منهم الأئمة الأربعة وغيرهم : أنه لا يجزئ في الأضحية : الجذع إلا من الضأن خاصة ، ومن غير الضأن وهو المعز ، والإبل والبقر : لا يجزئ إلا الثني . فما فوقه . والذكر والأنثى سواء في الهدايا ، والأضاحي كما تقدم .

(752/522)

والتأويل الذي قدمنا عن النووي في حديث جابر في قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تذبحوا إلا مسنة إلا أن يعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن " أنه متعين بحمله على الاستحباب ، والأفضل يظهر لي أنه متعين كما قاله النووي ، والقرينة الصارفة عن ظاهر حديث جابر المذكور عند مسلم : هي أحاديث أُخر جاءت من طرق عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : أن الجذع من الضأن يجزئ ، وظاهرها ، ولو كان المضحي قادراً على المسنة ، وسنذكرها هنا بواسطة نقل المجد في المنتقى ، لأنه ذكرها في محل واحد ، فمنها ما رواه الإمام أحمد والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " نعم أو نعمت الأضحية : الجذع من الضأن " ومنها : ما روه الإمام أحمد وابن ماجه ، عن أم بلال بنت هلال ، عن أبيها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يجوز الجذع من الضأن ضحية " ومنها : ما رواه أبو داود وابن ماجه ، عن مجاشع بن سليم أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : " إن الجذع يوفي مما توفي منه الثنية " ومنها : ما رواه النسائي ، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : " ضحينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجذع من الضأن " اه . بواسطة نقل المجد في المنتقى .

وهذه الأحاديث يقوي بعضها بعضاً ، فتصلح بمجموعها للاحتجاج ، وتعتضد بأن عامة أهل العلم ، على العمل بها ، إلا ما نقل عن ابن عمر والزهري . وقد دل حديث جابر

المذكور عند مسلم : على أن الجذع من غير الضأن لا يجزئ ، وهو كذلك ، وحديث البارء بن عازب الثابت في الصحيحين أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بردة :

(753/522)

" ضح بجذعة من المعز ولن تجزئ عن أحد بعدك " دليل : على أن جذع المعز لا يجزئ في الأضحية . قال البخاري في صحيحه : باب قول النَّبي صلى الله عليه وسلم لأبي بردة : " ضح بالجذع من المعز ولن تجزئ عن أحد بعدك " حدثنا مسدد ، حدثنا خالد بن عبد الله ، حدثنا مطرف ، عن عامر عن البراء بن عازب رضي الله عنهما ، قال : ضحى خال لي يقال له أبو بردة ، قبل الصلاة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " شاتك شاة لحم ، فقال : يا رسول الله ، إن عندي داجناً جذعة من المعز . قال : اذبحها ولا تصلح لغيرك " اه منه . وفي لفظ للبخاري من حديث البراء " ولن تجزئ عن أحد بعدك " وكذلك هي في بعض ألفاظ مسلم في حديث البراء المذكور " ولن تجزئ عن أحد بعدك " وفي لفظ عند مسلم من حديث البراء " ضح بها ولا تصلح لغيرك " وفي لفظ له عنه " ولا تجزئ جذعة عن أحد بعدك " .

والروايات بأن النَّبي صلى الله عليه وسلم رخص لأبي بردة في التضحية بعناق جذعة من

المعز وصرح : بأنها لا تجزئ عن أحد بعده معروفة في الصحيحين وغيرهما : وهي دليل على أن جذع المعز لا يجزئ . فمن قال من أهل العلم بأنه يجزئ رد قوله بهذا الحديث الصحيح ، المصرح بأن جذعة المعز لا تجزئ عن أحد بعد أبي بردة .

(754/522)

فإن قيل : جاء في الصحيحين من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أعطاه غنماً يقسمها على صحابته ضحايا فبقي عتود فذكره للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ضح به أنت " وهذا لفظ البخاري في صحيحه ، وفي لفظ لمسلم عن عقبة بن عامر الجهني المذكور رضي الله عنه قال : " قسم النَّبي صلى الله عليه وسلم فينا ضحايا فأصابني جذع ، فقلت : يا رسول الله أصابني جذع فقال : ضح به " اه منه .
وروايات هذا الحديث الصحيح ، عن عقبة بن عامر : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يضحي بجذع المعز ، لأن العتود لا تطلق إلا على ولد المعز ، والروايات مصرحة بأن المذكور جذع . وقال ابن الأثير في النهاية : والعتود من ولد المعز إذا قوي ورعى ، وأتى عليه حول . وهذا حديث متفق عليه فيه الدلالة الصريحة : على جواز التضحية بجذع المعز ، وذكر ابن حجر في الفتح : أن البيهقي ذكر زيادة في حديث عقبة بن عامر ، المذكور عن

النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعقبة : " ولا رخصة فيها لأحد بعدك "

وقال ابن حجر : إن الطريق التي روى بها البيهقي الزيادة المذكورة صحيحة : وإن حاول بعضهم تضعيفها .

(755/522)

فالجواب : أن الجمع بين ما وقع لأبي بردة ، وعقبة بن عامر أشكل على كثير من أهل العلم ، ويزيده إشكالاً ، أن الترخيص في الأضحية بجذع المعز ورد عنه صلى الله عليه وسلم لجماعة آخرين . قال ابن حجر في الفتح : فقد أخرج أبو داود وأحمد ، وصححه ابن حبان من حديث زيد بن خالد " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أعطاه عتوداً جذعاً فقال : ضح به . فقلت : إنه جذع أفأضحي ؟ قال : نعم ضح به فضحيت به " لفظ أحمد إلى أن قال : وفي الطبراني في الأوسط ، من حديث ابن عباس " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أعطى سعد بن أبي وقاص جذعاً من المعز فأمره أن يضحي به " وأخرجه الحاكم من حديث عائشة ، وفي سنده ضعف ، ولأبي يعلى ، والحاكم من حديث أبي هريرة : أن رجلاً قال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا جذع من الضأن مهزول ، وهذا جذع من المعز

سمين ، وهو خيرهما أفأضحي به ؟ قال " ضح به فإن لله الخير " انتهى بواسطة نقل ابن حجر في فتح الباري .

(756/522)

وإذا عرفت أن في الأحاديث المذكورة إشكالاً ، فاعلم : أن الحافظ في التفح تصدى لإزالة ذلك الإشكال ، فقال في موضع بعد سوقه الأحاديث التي ذكرنا والحق أنه لا منافاة بين هذه الأحاديث ، وبين حديثي أبي بردة وعقبة ، لاحتمال أن يكون ذلك في ابتداء الأمر ، ثم تقرر الشرع بأن الجذع من المعز لا يجزئ ، واختص أبو بردة وعقبة بالرخصة في ذلك . وإنما قلت ذلك : لأن بعض الناس زعم أن هؤلاء شاركوا أبا بردة وعقبة في ذلك ، والمشاركة إنما وقعت في مطلق الإجزاء لا في خصوص منع الغير . انتهى محل الغرض منه بلفظه . ومقصوده : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يقل لأحد ممن رخص لهم في التضحية بجذع المعز " ولن تجزئ عن أحد بعدك " إلا لأبي بردة ، وعقبة بن عامر على ما رواه البيهقي ، والذين لم يقل لهم ، ولن تجزئ عن أحد بعدك ، لا إشكال في مسألتهم ، لاحتمال أنها قبل تقرر الشرع بعدم إجزاء جذع المعز ، فبقي الإشكال بين حديث أبي بردة ، وحديث عقبة . وقد تصدى لحله ابن حجر في الفتح أيضاً فقال في موضع : وأقرب ما يقال فيه : إن ذلك صدر

لكل منهما في وقت واحد ، أو تكون خصوصية الأول نسخت بثبوت الخصوصية للثاني ، ولا مانع من ذلك ، لأنه لم يقع في السياق استمرار المنع لغيره صريحا ا ه محل الغرض منه .

وقال في موضع آخر : وإن تعذر الجمع الذي قدمته ، فحديث أبي بردة أصح مخرجاً ا ه منه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أما الجمع الذي ذكره ابن حجر ، فالظاهر عندي : أنه لا يصح .

(757/522)

وقوله : لأنه لم يقع في السياق استمرار المنع غلط منه رحمه الله ، بل وقع في السياق التصريح باستمرار المنع لأن قوله صلى الله عليه وسلم " ولن تجزئ عن أحد بعدك " صريح في استمرار منع الإجزاء عن غيره ، لأن لفظة " لن " تدل على نفي الفعل في المستقبل من الزمن ، فهي دليل صريح على استمرار عدم الإجزاء عن غيره ، في المستقبل من الزمن ويؤيد ذلك أن قوله " عن أحد بعدك " نكرة في سياق النفي ، فهي تعم كل أحد في كل وقت كما ترى .

والصواب : الترجيح بين الحديثين ، وحديث أبي بردة لا شك أن لفظة " ولن تجزئ عن أحد بعدك " فيه أصح سنداً من زيادة نحو ذلك في حديث عقبة ، فيجب تقديم حديث أبي

بردة ، على حديث عقبة ، كما ذكره ابن حجر في كلامه الأخير والله تعالى أعلم .

فإن قيل : ذكر جماعة من علماء العربية أن لفظة : لن : لا تدل على تأبيد النفي . قال ابن هشام في المغني في الكلام على لن : ولا تفيد توكيد النفي ، خلافاً للزمخشري في كشافه ، ولا تأبيده خلافاً له في أنموذجه ، وكلاهما دعوى بلا دليل ، قيل : ولو كانت للتأبيد ، لم يقيد منفيها باليوم في ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ [مريم : 26] ولكان ذكر الأبد في ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً ﴾ [البقرة : 95] تكراراً والأصل عدمه اه محل الغرض منه .

(758/522)

فالجواب : أن قول الزمخشري بإفادة لن : التأبيد يجب رده ، لأنه يقصده به استحالة رؤية الله تعالى يوم القيامة زاعماً أن قوله لموسى : ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ [الأعراف : 143] تفيد فيه لفظة : لن تأبيد النفي ، فلا يرى الله عنده أبداً لا في الدنيا ، ولا في الآخرة . وهذا مذهب معتزلي معروف باطل ترده النصوص الصحيحة في القرآن والأحاديث الصحيحة الكثيرة التي لا مطعن في ثبوتها . وقد بينا مراراً أن رؤية الله تعالى بالأبصار : جائزة عقلاً في الدنيا والآخرة . ولو كانت ممنوعة عقلاً في الدنيا لما قال نبي الله موسى ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 143] لأنه لا يجهل المحال في حق خالقه تعالى ، وأنها ممنوعة شرعاً في

الدنيا ثابتة الوقوع في الآخرة ، وإفادة لن التأبيد التي زعمها الزمخشري في الآية تردها النصوص الصحيحة الصريحة في الرؤية في الآخرة ، ولا ينافي ذلك أن تفيد لن : التأبيد في موضع لم يعارضها فيه نص .

وبالجملة فقد اختلف أهل العربية في إفادة لن تأبيد النفي حيث لم يصرف عنه صارف ، وعدم إفادتها لذلك ، فعلى القول : بأنها تفيد التأبيد فقوله صلى الله عليه وسلم لأبي بردة " ولن تجزئ عن أحد بعدك " يدل على تأبيد نفي الإجزاء ، كما ذكرنا وعلى عدم اقتضائها التأبيد ، فلا تقل عن الظهور فيه ، حتى يصرف عنه صارف ، وبذلك كله تعلم : أن الجمع بين حديث أبي بردة ، وحديث عقبة بن عامر ، كالمتعذر فيجب الترجيح ، وحديث أبي بردة أرجح .

والعلم عند الله تعالى .

وهذا الذي ذكرنا في هذا الفرع هو حاصل كلام أهل العلم في السن التي تجزئ في الضحايا .

(759/522)

الفرع الرابع : اعلم : أنه لا يجوز في الأضحية إلا بهيمة الأنعام ، وهي الإبل والبقر والضأن والمعز بأنواعها ، لقوله تعالى : ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ

الأنعام ﴾ [الحج : 28] فلا تشرع التضحية بالظباء ولا ببقرة الوحش وحمار الوحش مثلاً . وقال النووي في شرح المهذب : ولا تجزئ بالمتولد من الظباء والغنم ، لأنه ليس من بهيمة الأنعام . اه .

والظاهر أنه كذلك كما عليه جماهير أهل العلم ، فما روي عن الحسن بن صالح من أن بقرة الوحش تجزئ عن سبعة ، والظبي عن واحد ، خلاف التحقيق . وعن أصحاب الرأي : أن ولد البقرة الإنسية يجزئ ، وإن كان أبوه وحشياً وعن أبي ثور : يجزئ إن كان منسوباً إلى بهيمة الأنعام . والأظهر : أن المتولد من بين ما يجزئ ، وما لا يجزئ ، لا يجزئ بناء على قاعدة تقديم الحاظر على المبيح . ومعلوم أنها خالف فيها بعض أهل الأصول ، وعلى كل حال ، فالأحوط أن لا يضحي إلا ببهيمة الأنعام . لظاهر الآية الكريمة .

الفرع الخامس : اعلم : أن أكثر أهل العلم على أن أفضل أنواع الأضحية : البدنة ، ثم البقرة ، ثم الشاة ، والضأن ، أفضل من المعز . وسيأتي الكلام على حكم الاشتراك في الأضحية ببدنة ، أو بقرة إن شاء الله . وكون الأفضل : البدنة ، ثم البقرة ، ثم شاة الضأن ، ثم شاة المعز . قال النووي في شرح المهذب : هو مذهبنا ومذهب أبي حنيفة ، وأحمد ، وداود . وقال مالك : أفضلها الغنم ثم البقر ، ثم الإبل . قال : والضأن أفضل من المعز وإناثها أفضل من فحول المعز وفحول الضأن خير من إناث المعز ، وإناث المعز خير من الإبل ، والبقر . وقال بعض أصحاب مالك : الإبل أفضل من البقر .

فإذا عرفت أقوال أهل العلم في أفضل ما يضحى به من بهيمة الأنعام فاعلم أن الجمهور الذين قالوا البدنة أفضل ، ثم البقرة ، ثم الشاة احتجوا بأدلة :

(760/522)

منها : أن البدنة أعظم من البقرة ، والبقرة أعظم من الشاة ، الله تعالى يقول : ﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ [الحج : 32] الآية .

ومنها : ما قدمنا ثابتاً في الصحيح : أن البقرة والبدنة كلتاهما عن سبعة في الهدي ، فكل واحد منهما تعدل سبع شياه . وكونها تعدل سبع شياه ، دليل واضح على أنها أفضل من شاة واحدة .

ومنها : ما رواه الشيخان والإمام أحمد وأصحاب السنن ، غير ابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ، ثم راح فكأنما قرب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة ، فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة ، فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة ، فكأنما قرب بيضة فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يسمعون الذكر "

اه . قالوا : ففي هذا الحديث الصحيح الدلالة الواضحة ، على أن البدنة أفضل ، ثم البقرة ، ثم الكبش الأقرن ، ووجهه ظاهر . واحتج مالك ، وأصحابه : على أن التضحية بالغنم : أفضل لأنه صلى الله عليه وسلم كان يضحي بالغنم لا بالإبل ولا بالبقر . وقد قدمنا الأحاديث بتضحيته بكبشين أقرنين أملحين ، وتضحيته بكبش أقرن يطأ في سواد ، ويبرك في سواد ، وينظر في سواد ، وكلها ثابتة في الصحيح كما قدمنا أسانيدها ومتونها . قالوا : وهو صلى الله عليه وسلم لا يضحي مكرراً ذلك عاماً بعد عام ، إلا بما هو الأفضل في الأضحية . فلو كانت التضحية : بالإبل ، والبقر أفضل لفعل صلى الله عليه وسلم ذلك الأفضل .

قالوا فإن قيل : أهدى في حجته الإبل ، ولم يهد الغنم .

(761/522)

فالجواب : أنه أهدى الغنم أيضاً فبعث بها إلى البيت ، ولو سلمنا أن الإبل أفضل في الهدي ، فلا نسلم أنها أفضل في الأضحية ، والمالكية لا ينكرون أفضلية الإبل في الهدي ، وإنما يقولون : إن الغنم أفضل في الأضحية ، ولكل من الغنم والإبل فضل من جهة ، فالإبل أفضل من حيث كثرة لحمها ، والغنم أفضل ، من حيث إن لحمها أطيب ، وألذ . وعند المالكية :

فلا مانع من أن يراعي كل واحد من الوصفين في نوع من أنواع النسك ، ودليل الجمهور ظاهر . لكن دليل المالكية أخص في محل النزاع ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يضح إلا بالغنم والخير كله في اتباعه في أقواله ، وأفعاله ، وما جاء عنه من تفضيل البدنة ، ثم البقرة ، ثم الكبش الأقرن ، لم يأت في خصوص الأضحية . ولكن فعله صلى الله عليه وسلم في خصوص الأضحية والله تعالى يقول : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] .

والحاصل : أن لكل من القولين وجهاً من النظر . والله تعالى أعلم بالصواب .

واعلم : أن الجمهور أجابوا عن دليل مالك بأن تضحيته صلى الله عليه وسلم بالغنم ، لبيان الجواز ، أو لأنه لم يتيسر له في ذلك الوقت بدنة ولا بقرة ، وإنما تيسرت له الغنم هكذا قالوا . وظاهر الأحاديث تكرر تضحيته صلى الله عليه وسلم بالغنم ، وقد يدل ذلك على قصده الغنم دون غيرها ، لأنه لو لم يتيسر له الإ الغنم سنة ، فقد يتيسر له غيرها في سنة أخرى . والله تعالى أعلم .

فإن قيل : روى البيهقي عن ابن عمر كان صلى الله عليه وسلم يضحي بالجزور أحياناً وبالكبش إذا لم يجد الجزور .

فالجواب : أن الزرقاني في شرح الموطأ قال ما نصه : وحديث البيهقي عن ابن عمر كان صلى الله عليه وسلم يضحي بالجزور أحياناً ، وبالكبش إذا لم يجد الجزور .

ضعيف . في سنده عبد الله بن نافع ، وفيه مقال . اه منه . وقد روى البيهقي في السنن الكبرى ، عن أبي أمامة ، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خير الضحايا الكبش الأقرن " اه منه . وقد ذكر النووي أن فيه ضعفاً ، ولا شك أنه تقويه الأحاديث الصحيحة الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم على التضحية بالكبشين الأقرنين ، أو الكبش الأقرن . كما تقدم إيضاحه .

الفرع السادس : اعلم : أن جمهور أهل العلم : أجازوا اشتراك سبعة ، مضحين في بدنة أو بقرة ، بأن يشتروها مشتركة بينهم ، ثم يهدوا بها ، أو يضحوا بها عن كل واحد سبعها . وقد قدمنا النصوص الصريحة بذلك في الهدي ، والظاهر : عدم الفرق في ذلك بين الهدي ، والأضحية .

وخالف مالك وأصحابه الجمهور ، فقالوا : لا يجوز ذبح بدنة مشتركة ، ولا بقرة ، وإنما يملكها واحد فيشرك غيره معه في الأجر . أما اشتراكهم في ملكها ، فلا يجزئ عند مالك لا في الأضحية ولا في الهدي الواجب ، وكذلك هدي التطوع خلافاً لأشهب من أصحابه .

واعلم : أن مالكاً رحمه الله حمل أحاديث اشتراك السبعة في البدنة والبقرة ، على الاشتراك

في الأجر ، بأن يكون المالك واحداً ، ويشكر غيره معه في الأجر لا في ملك الرقبة ، وظاهر الأحاديث فيه الدلالة الواضحة على الاشتراك في الملك . وأجاز مالك للرجل : أن يضحي بالشاة الواحدة ، ويشرك معه أهله في الأجر .

وقد قدمنا في الصحيح أن النَّبي صلى الله عليه وسلم ذبح كبشاً وقال : " اللهم تقبل من محمد وآل محمد " .

(763/522)

والحاصل : أن العلماء مجمعون على أنه لا يجوز اشتراك مالكين في شاة الأضحية ، أما كون المالك واحداً فيضحي عن نفسه بالشاة وينوي اشتراك أهل بيته معه في الأجر ، وأن ذلك يتأدى به الشعار الإسلامي عنهم جميعاً فلا ينبغي أن يختلف فيه . لدلالة النصوص الصحيحة عليه ، كالحديث المذكور آنفاً وغيره ، كحديث أبي أيوب الأنصاري : كان الرجل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحي بالشاة عنه ، وعن أهل بيته ، فيأكلون ويطعمون ، حتى تباهى الناس ، فصار كما ترى . قال في المنتقى : رواه ابن ماجه ، والترمذي ، وصححه ، وقال شارحه في النيل : وأخرجه مالك في الموطأ إلى غير ذلك من الأحاديث ، والاشتراك المذكور في الأجر في الشاة الواحدة يصح ولو كانوا أكثر من سبعة ،

كما هو ظاهر النص ، وكما صرح به المالكية وغيرهم واشترط المالكية لذلك شروطاً ثلاثة . وهي سكناهم مع المضحي ، وقرابتهم منه ، وإنفاقه عليهم ، وإن تبرعاً . ولا أعلم لهذه الشروط مستنداً من الوحي إلا أن يكون يراد بها تحقيق المناط في مسمى الأهل ، وأن أهل الرجل هم ما اجتمع فيهم الأوصاف الثلاثة ، ولا تساعد على الشروط المذكورة في جميع النسك الأحاديث المتقدمة باشتراك كل سبعة من الصحابة في بدنة أو بقرة في عمرة الحديبية وفي الحج ، لأن ذلك الاشتراك عند مالك في الأجر لا في الرقبة ، وظاهر الأحاديث أنهم لم تجتمع فيهم الشروط المذكورة ، والعلم عند الله تعالى .

وما ذكرنا من التضحية بالشاة الواحدة عن المضحي وأهله . قال ابن قدامة في المغني : نص عليه أحمد ، وبه قال مالك ، والليث والأوزاعي ، وإسحاق ، وروي ذلك عن ابن عمر ، وأبي هريرة ثم قال : وكره ذلك الثوري ، وأبو حنيفة ، لأن الشاة لا تجزئ عن أكثر من واحد ، فإذا اشترك فيها اثنان لم تجزئ عنهما كالأخبيين اه منه . والحديث المتفق عليه المذكور : حجة على من خالفه .

(764/522)

الفرع السابع : اعلم : أنا قدمنا وقت الأضحية والهدي وأقوال أهل العلم في ذلك ، بما أغنى عن إعادته هنا ، وقد قدمنا حديث أم سلمة ، عند مسلم المقتضي : أن من أراد أن يضحي لا ينبغي له أن يحلق شيئاً من شعره ، ولا أن يقلم شيئاً من أظفاره في عشر ذي الحجة ، حتى يضحي ، وظاهر الحديث : تحريم ذلك ، لأن في لفظ الحديث عند مسلم ، عن أم سلمة عنه صلى الله عليه وسلم " فلا يأخذن شعراً ، ولا يقلمن ظفراً " وفي لفظ له عنها عنه صلى الله عليه وسلم : " فلا يمس من شعره وبشره شيئاً " وفي الألفاظ المذكورة في الحديث الصحيح النهي عن حلق الشعر ، وتقليم الأظفار في عشر ذي الحجة لمن أراد أن يضحي ، والنهي يقتضي التحريم إلا لصارف عنه يجب الرجوع إليه كما تقرر في الأصول ، وقال الشافعية والمالكية ، ومن وافقهم : إن الحلق وتقليم الأظفار مكروه كراهة تنزيه لا تحريم ، لأن المضحي ليس بمحرم .

(765/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : التحريم أظهر لظاهر الحديث ، ولأنه صلى الله عليه وسلم يقول : " وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه " والتحريم المذكور لظاهر النص وجه للشافعية ، قال النووي : حكاه أبو الحسن العبادي في كتابه الرقم ، وحكاه الرافعي عنه

لظاهر الحديث ، وحكى الشيخ المواق في شرحه لخليل ، عن أحمد ، وإسحاق : تحريم الحلق ، وتقليم الأظافر في عشر ذي الحجة لمريد التضحية ، وقال ابن قدامة في المغني : قال بعض أصحابنا : بالتحريم ، وحكاه ابن المنذر عن أحمد ، وإسحاق ، وسعيد بن المسيب ، وقال القاضي ، وجماعة من أصحابنا : هو مكروه غير محرم ، وبه قال مالك والشافعي لقول عائشة : "كنت أفتل قلائد هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقلدها بيده" ، ولا يحرم عليه شيء أحله الله له ، حتى ينحر الهدي متفق عليه ، وقال أبو حنيفة : لا يكره ذلك ، لأنه لا يحرم عليه الوطء واللباس ، فلا يكره له حلق الشعر ، وتقليم الأظفار ، كما لو لم يرد أن يضحي . اه محل الغرض منه بلفظه .

وأظهر شيء في محل النزاع وأصرحه وأخصه فيه : حديث أم سلمة ، وظاهره التحريم .

وقال النووي في شرح المهذب : مذهبنا أن إزالة الشعر والظفر في العشر لمن أراد التضحية : مكروه كراهة تنزيه ، حتى يضحي ، وقال مالك وأبو حنيفة : لا يكره ، وقال سعيد بن المسيب ، وأحمد ، وربيعة ، وإسحاق ، وداود : يحرم ، وعن مالك : أنه يكره ، وحكى عنه الدارمي يحرم في التطوع ، ولا يحرم في الواجب ، ثم ذكر الدليلين المذكورين للقولين .

وقد ذكرنا آنفاً أن أخصهما في محل النزاع ظاهره التحريم : وهو حديث أم سلمة ، والعلم عند الله تعالى .

(766/522)

الفرع الثامن : أجمع العلماء : على إجزاء الذكر والأنثى . واختلفوا أيهما أفضل ، وظاهر النصوص الصحيحة : أن ذكور الضأن خير من إناثها ، لتضحيته بالكبش ، دون النعجة وبعضهم قال : بأفضلية الذكور مطلقاً ، وبعضهم قال : بأفضلية الإناث مطلقاً ولم يقم دليل صحيح في غير ذكر الضأن فلا ينبغي أن يختلف في ذكر الضأن أنه أفضل من أنثاه .

الفرع التاسع : اعلم : أن منع ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث منسوخ . فقد دلت الأحاديث الصحيحة ، على أنه صلى الله عليه وسلم منع ادخار لحم الأضاحي بعد ثلاث ، ومنع المضحي أن يأكل من أضحيته ، بعد ثلاث ، ثم نسخ ذلك ، وصار الأكل والادخار منها مباحاً مطلقاً . وسنذكر هنا إن شاء الله طرفاً من الأحاديث الصحيحة الدالة على المنع المذكور أولاً ، وعلى نسخه وإباحة ذلك مطلقاً .

قال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا أبو عاصم ، عن يزيد بن أبي عبيد ، عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ، قال : قال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " من ضحى منكم فلا يصبحن بعد ثالثه ، وبقي في بيته منه شيء فلما كان العام المقبل قالوا : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعل كما فعلنا العام الماضي ؟ قال كلوا وأطعموا وادخروا فإن ذلك العام كان بالناس جهد فأردت أن تعينوا فيها " وحديث سلمة بن الأكوع ، هذا أخرجه أيضاً مسلم في صحيحه قريباً من لفظ البخاري . وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله في

صحيحه : حدثني عبد الجبار بن العلاء ، حدثنا سفيان ، حدثنا الزهري ، عن أبي عبيد قال : شهدت العيد مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة ، وقال : " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن نأكل من لحوم نسكنا بعد ثلاث " وفي لفظ لمسلم ، عن علي أنه قال : " إنه صلى الله عليه وسلم قد نهاكم أن تأكلوا لحوم نسككم فوق ثلاث ليال فلا تأكلوا " .

(767/522)

وفي لفظ لمسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يأكل أحدكم من لحم أضحيته فوق ثلاثة أيام " وفي لفظ له عنه " أنه صلى الله عليه وسلم نهى أن تؤكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث " ثم قال : قال سالم : فكان ابن عمر لا يأكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث .

وفي لفظ : بعد ثلاث . وفي لفظ لمسلم ، عن عبد الله بن واقد قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل لحوم الضحايا بعد ثلاث فقال عبد الله بن أبي بكر : فذكرت ذلك لعمرة فقالت : صدق سمعت عائشة رضي الله عنها تقول : دف أهل أبيات من أهل البادية صفرة الأضحى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : ادخروا ثلاثاً ، ثم تصدقوا بما بقي فلما كان بعد ذلك قالوا : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الناس يتخذون الأسقية من ضحاياهم ، ويَجْمِلُونَ مِنْهَا الوَدَكَ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما ذاك ؟ قالوا نهيت أن تؤكل لحوم الضحايا بعد ثلاث فقال : إنما نهيتكم من أجل الدافة التي دفت فكلوا وادخروا وتصدقوا " .

وفي لفظ لمسلم عن جابر رضي الله عنه ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم " أنه نهى عن أكل لحوم الضحايا بعد ثلاث ثم قال بعد : كلوا وتزودوا وادخروا " .

(768/522)

وفي لفظ لمسلم عن عطاء ، عن جابر أيضاً أنه قال : كنا لا نأكل من لحوم بُدْنِنَا فوق ثلاث في منى فأرخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "كلوا وتزودوا " قلت لعطاء : قال جابر : حتى جئنا المدينة : قال : نعم . وفي لفظ لمسلم ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال : كنا لا نمسك لحوم الأضاحي ، فوق ثلاث ، فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتزود منها ، ونأكل يعني : فوق ثلاث ، وفي لفظ له عنه : كنا نتزودها إلى المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي لفظ لمسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أهل المدينة لا تأكلوا لحوم

الأضاحي فوق ثلاث " وقال ابن المثنى : ثلاثة أيام ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لهم عيالاً وَحَشَماً وخدماً فقال : "كلوا وأطعموا واحبسوا وادخروا " فقال ابن المثنى : شك عبد الأعلى .

وفي لفظ لمسلم ، عن ثوبان رضي الله عنه قال : " ذبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحية ثم قال : يا ثوبان أصحل لهم هذه ، فلم أزل أطعمه منها حتى قدم المدينة " .

وفي بعض ألفاظ حديث ثوبان ، هذا عند مسلم أن ذلك في حجة الوداع .

وفي لفظ لمسلم ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث فامسكوا ما بدا لكم ونهيتكم عن النَّبيذ إلا في سقاء فاشربوا في الأسقية كلها ولا تشربوا مسكراً " اه منه .

فكل هذه الألفاظ الثابتة بالأسانيد الصحيحة في مسلم وبعضها في البخاري فيها الدلالة الصحيحة الصريحة : أن تحريم الادخار ، والأكل من لحوم الأضاحي ، فوق ثلاث : أنه منسوخ ، وأن ذلك جائز مطلقاً ، وفي بعض الروايات : تعليل ذلك النهي الموقت بمجيء بعض الفقراء من البادية ، وهم المعبر عنهم في الحديث بالدافة .

(769/522)

قال ابن الأثير في النهاية : الدافة القوم يسيرون جماعة سيراً ليس بالشديد . يقال لهم يدفون دفيفاً ، والدافة قوم من الأعراب يردون المصر يريد أنهم قدموا المدنية عند الأضحى ، فنهاهم عن ادخار لحوم الأضحاي ، ليفرقوها ويتصدقوا بها ، فينتفع أولئك القادمون بها . انتهى من النهاية .

تنبيه

في هذا الحديث دليل لمن قال من أهل الأصول : باشتراط انعكاس العلة في صحتها ، لأن علة تحريم ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث : هي وجود دافة فقراء البادية ، الذين دفوا عليهم . ولما زالت هذه العلة زال الحكم معها ، ودوران الحكم مع علته في العدم ، هو المعروف في الاصطلاح بانعكاسها . والمقرر في الأصول : أن محل القدح في العلة بعدم انعكاسها فيما إذا كانت علة الحكم واحدة ، لا إن كانت له علل متعددة ، فلا يقدح في واحدة منها بعدم العكس ، لأنه إذا انعدمت واحدة منها ثبت الحكم بالعلة الأخرى ، كالبول ، والغائط ، لنقض الوضوء مثلاً . فإن البول يكون معدوماً وعلة النقض ثابتة بخروج الغائط ، وهكذا . وكذلك مع كونها علة واحد لا بد أيضاً في القدح فيها ، بعدم العكس من عدم ورود دليل ببقاء الحكم مع ذهاب العلة ، فإن دل دليل على بقاء الحكم ، مع انتفاء العلة ، فلا يقدح فيها بعدم العكس ، كالرمل في الأشواط الأول ، من الطواف ، فإن علته هي

أن يعلم المشركون : أن الصحابة أقوياء ولم تضعفهم حمى يثرب . وهذه العلة قد زالت مع أن حكمها وهو الرمل في الأشواط المذكورة باق لوجود الدليل على بقائه ، لأنه صلى الله عليه وسلم رمل في حجة الوداع ، والعلة المذكورة معدومة قطعاً زمن حجة الوداع كما قدمنا إيضاحه ، وإلى هذه المسألة أشار صاحب مراقي السعود في مبحث القوادح بقوله :

وعدم العكس مع اتحاد . . . يقدح دون النص بالتمادي

(770/522)

الفرع العاشر : أظهر قولي أهل العلم عندي : هو نسخ الأمر بالفرع والعتيرة . ونقل النووي في شرحه لمسلم ، عن عياض : أن جماهير العلماء على نسخ الأمر بالفرع ، والعتيرة . وذكر النووي أيضاً في شرحه لمسلم : أن الصحيح عند علماء الشافعية : استحباب الفرع والعتيرة قال : وهو نص الشافعي .

والدليل عندنا على أن الأظهر هو نسخهما : هو ثبوت ما يدل على ذلك عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى التميمي ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، وعمرو الناقد ، وزهير بن حرب قال يحيى : أخبرنا .

وقال الآخرون : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، عن سعيد ، عن أبي هريرة رضي

الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ح وحدثني محمد بن رافع وعبد بن حميد قال عبد : أخبرنا . وقال ابن رافع : حدثنا بعد الرزاق أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن ابن المسيب ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا فَرَعَ ولا عتيرة " زاد ابن رافع في روايته : والفرع : أول النتاج ، كان ينتج لهم فيذبحونه اه من صحيح مسلم . وهذا الإسناد في غاية الصحة من طريقيه كما ترى . وفيه : تصريح النَّبي صلى الله عليه وسلم ، بأنه لا فرع . والعتيرة والفرع بالفاء والراء المفتوحتين بعدهما عين مهملة ، جاء تفسيره ، عن ابن رافع كما ذكره عنه مسلم فيما رأيت . وقال النووي : قال الشافعي ، وأصحابه وآخرون : الفعر : هو أول نتاج البهيمة ، كانوا يذبحونه ، ولا يملكونه رجاء البركة في الأم ، وكثرة نسلها ، وهكذا فسره كثيرون من أهل اللغة وغيرهم ، وقال كثيرون منهم : هو أول النتاج كانوا يذبحونه لآلهتهم : وهي طواغيتهم . وكذا جاء في هذا التفسير في صحيح البخاري ، وسنن أبي داود وقيل : هو أول النتاج لمن بلغت إبله مائة يذبحونه . وقال شمر : قال أبو مالك : كان الرجل إذا بلغت إبله مائة قدم بكراً فنحره لصنمه ، ويسمونه الفرع . اه محل الغرض منه .

(771/522)

وأما العتيرة بعين مهملة مفتوحة ، ثم تاء مثناة من فوق فهي : ذبيحة كانوا يذبحونها في العشر الأول من رجب ، ويسمونها الرجبية أيضاً ، وحديث مسلم هذا الذي ذكرنا صريح في نسخ الأمر بها ، لأن قوله " لا فرع ولا عتيرة " نفي : أريد به النهي فيما يظهر كقوله : ﴿ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحج ﴾ [البقرة : 197] أي لا ترفثوا ولا تفسقوا ، وعليه فيكون المعنى : لا تعملوا عمل الجاهلية في ذبح الفرع والعتيرة ، ولو قدرنا أن الصيغة نافية ، فالظاهر أن المعنى : لا فرع ولا عتيرة مطلوبان شرعاً ، ونسخهما هو الأظهر عندنا للحديث الصحيح كما رأيت . ومن زعم بقاء مشروعيتهما ، واستحبابهما فقد استدل ببعض الأحاديث ، على ذلك ، وسنذكر حاصلها بواسطة نقل النووي لأنه جمعها في محل واحد ، فقال منها : حديث نبيشة رضي الله عنه قال : نادى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنا كنا نعتر عتيرة في الجاهلية في رجب ، فقال : " اذبحوا لله في أي شهر كان وبروا لله وأطعموا " قال : إنا كنا نفرع فرعاً في الجاهلية ، فما تأمرنا ؟ فقال : " في كل سائمة فرع تغذوه ماشيتك حتى إذا استحمل ذبحته فتصدقت بلحمه " رواه أبو داود ، وغيره بأسانيد صحيحة . وقال ابن المنذر : هو حديث صحيح . قال أبو قلابة ، أحد رواة هذا الحديث : السائمة مائة .

(772/522)

ورواه البيهقي بإسناده الصحيح ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفرعة من كل خمسين واحدة . وفي رواية : من كل خمسين شاة شاة . قال ابن المنذر : حديث عائشة صحيح ، وفي سنن أبي داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال الراوي : أراه عن جده . قال سئل النَّبي صلى الله عليه وسلم عن الفرع فقال : " الفرع حق وإن تركوه حتى يكون بكراً أو ابن مخاض أو ابن لبون فتعطيه أرملة أو تحمل عليه في سبيل الله خير من أن تذبحه فيلزق لحمه بوبره وتكفأ إناؤك وتوله ناقتك " قال أبو عبيد في تفسير هذا الحديث : قال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " الفرع حق " ولكنهم كانوا يذبحونه حين يولد ولا شبع فيه ، ولذا قال تذبحه ، فيلزق لحمه بوبره ، وفيه أن ذهاب ولدها يدفع لبنها ، ولهذا قال " خير من أن تكفأ " يعني : أنك إذا فعلت ذلك ، فكأنك كفأت إناءك وأرقته . وأشار به إلى ذهاب اللبن ، وفيه : أنه يفجعها بولدها ولهذا قال : وتوله ناقتك فأشار بتركه ، حتى يكون ابن مخاض ، وهو ابن سنة ، ثم يذهب وقد طاب لحمه واستمتع بلبن أمه ، ولا تشق عليها مفارقته لأنه استغنى عنها . هذا كلام أبي عبيد . وروى البيهقي بإسناده عن الحارث بن عمر قال : أتيت النَّبي صلى الله عليه وسلم بعرفات ، أو قال : بمنى ، وسأله رجل عن العتيرة ؟ فقال : " من شاء عتر ومن شاء لم يعتر ومن شاء فرع ومن شاء لم يفرع " وعن أبي رزين قال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا كنا نذبح في الجاهلية

ذبائح في رجب ، فنأكل منها ، ونطعم من جاءنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا بأس بذلك " وعن أبي رملة ، عن مخنف بن سليم قال : كنا وقوفاً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات فسمعته يقول : " يا أيها الناس إن على أهل كل بيت في كل عام أضحية وعتيرة هل تدري ما العتيرة ؟ هي : التي تسمى الرجبية " ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم . قال الترمذي : حديث حسن . وقال

(773/522)

الخطابي : هذا الحديث ضعيف المخرج ، لأن أبا رملة مجهول ، هذا مختصر ما جاء من الأحاديث في الفرع والعتيرة اه كلام النووي .

وقد قدمنا الكلام مستوفى على حديث مخنف بن سليم المقتضي : أن على كل أهل بيت في كل عام : أضحية وعتيرة ، وقد علمت حجج الفريقين في الفرع والعتيرة .

وقد قدمنا أن الظهر عندنا فيهما : النسخ ويترجح ذلك بأمور :

منها : أن حديث مسلم المصرح بذلك أصح من جميع الأحاديث المذكورة في الباب .

ومنها : أن أكثر أهل العلم على النسخ في ذلك ، كما ذكره النووي عن عياض .

ومنها : أن ذلك كان من فعل الجاهلية ، وكانوا يتقربون بهما لطواغيتهم ، وللمخالف أن يقول

في هذا الأخير : إن المسلمين يتقربون بهما لله ويتصدقون بلحومهما .

ولم نستقص أقوال أهل العلم في المسألة لقصد الاختصار ، لطول الكلام في موضوع آيات الحج هذه .

الفرع الحادي عشر : اعلم : أن المعيبة لا تجوز التضحية بها ، ولا تجزئ . والأصل في ذلك ما رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن وابن حبان والبيهقي ، والحاكم عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، وصححه الترمذي . وقال النووي : في حديث البراء : صحيح رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم ، بأسانيد حسنة قال أحمد بن حنبل : ما أحسنه من حديث . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربع لا تجزئ في الأضاحي : العوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعرجاء البين ضلعها ، والعجفاء التي لا تنقى " وفي رواية " والكسير التي لا تنقى " والتي لا تنقى هي التي لا مخ فيها لأن النقى بكسر النون المشددة ، وسكون القاف المخ . فقول العرب : أنقت تنقى إنقاء : إذا كان لها مخ ومنه قول كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه :

يبيت الندى يا أم عمرو ضجيعه . . . إذا لم يكن في المنقيات حلوب

وقول الآخر :

يسرق الكلب السرو نعالنا . . . ولا ينتقي المخ الذي في الجماجم

وقال ابن الأثير في النهاية : الكسير : التي لا تنقى ، أي التي لا مخ فيها لضعفها وهزالها .

وقوله في الحديث : البين ضلعها : أي عرجها كما هو واضح ، والضلع بفتح الضاد ، واللام ، وقد جاء في الحديث عن علي رضي الله عنه قال : " أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستشرف العين والأذن ولا نضحي بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء " قال المجد في المنتقى : ورواه الخمسة ، وصححه الترمذي . ومراده بالخمسة الإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة ، وقال الشوكاني في نيل الأوطار : في حديث علي المذكور : أخرجه أيضاً البزار وابن حبان والحاكم والبيهقي . وأعله الدارقطني ، والمقابلة والمدابرة : كلتاهما بفتح الباء بصيغة اسم المفعول ، والمقابلة ، هي التي قطع شيء من مقدم أذنها ولم ينفصل ، بل بقي لاصقاً بالأذن متدلياً والمدابرة : هي التي قطع شيء من مؤخر أذنها على نحو ما ذكرنا فيما قبلها ، والخرقاء : التي في أذنها خرق مستدير ، والشرقاء : مشقوق الأذن ا ه . وضابط ما يمنع الإجزاء هو ما ينقص اللحم . وقال النووي في شرح المهذب : أجمعوا على أن العمياء لا تجزئ ، وكذلك العوراء البيِّن عورها ، والعرجاء البيِّن عرجها ، والمريضة البين مرضها ، والعجفاء .

واختلفوا في ذاهبة القرن ومكسورته فمذهبنا : أنها تجزئ . قال مالك : إن كانت مكسورة القرن ، وهو يدمي لم تجزه ، وإلا فتجزئه . وقال أحمد : إن ذهب أكثر من نصف قرنا لم تجزه ، سواء دميت أم لا ، وإن كان دون النصف أجزأته .

(775/522)

وأما مقطوعة الأذن ، فمذهبنا : أنها لا تجزئ ، سواء قطع كلها أو بعضها . وبه قال مالك ، وداود وقال أحمد : إن قطع أكثر من النصف لم تجزه ، وإلا فتجزئه . وقال أبو حنيفة : إن قطع أكثر من الثلث لم تجزه وقال أبو يوسف ، ومحمد : إن بقي أكثر من نصف أذنها : أجزأت ، وأما مقطوعة بعض الألية : فلا تجزئ عندنا ، وبه قال مالك وأحمد ، وقال أبو حنيفة في رواية : إن بقي الثلث أجزأت ، وفي رواية : إن بقي أكثرها أجزأت وقال داود : تجزئ بكل حال . انتهى محل الغرض من كلام النووي .

ومعلوم أن هناك روايات أخر لم يذكرها عن الأئمة الذين نقل عنهم ولم نستقص هنا أقوال أهل العلم ، لأن باب الأضحية جاء في هذا الكتاب استطراداً ، مع أن الكلام في آيات الحج طال كثيراً ، ولذلك اكتفينا هنا بهذه الجمل التي ذكرنا من أحكام الأضاحي .

مسألة

اعلم أنه لما كانت العمرة قرينة الحج في آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّواْ الحج والعمرة للَّهِ ﴾ [البقرة : 196] وقوله : ﴿ فَمَنْ حَجَّ البيت أَوِ اعتمر فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة : 158] وقوله : ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بالعمرة إِلَى الحج ﴾ [البقرة : 196] أردنا أن نذكر هنا حكم العمرة على سبيل الاختصار استطراداً والعمرة في اللغة الزيارة ومنه قول الراجز :

لقد سما ابن معمر حين اعتمر . . . مغزى بعيداً من بعيد وخبر

وهي في الشرع : زيارة بيت الله للنسك المعروف المتركب من إحرام ، وطواف وسعي وحلق أو تقصير .

واعلم : أن العلماء أجمعوا على أن من أحرم بالعمرة ، وجب عليه إتمامها ، ولا يجوز له قطعها وعدم إتمامها ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّواْ الحج والعمرة للَّهِ ﴾ [البقرة : 196] .

(776/522)

أما حكم استئناف فعلها فقد اختلف فيه أهل العلم ، فذهب بعضهم : إلى أنها واجبة في العمر كالحج ، وذهب بعضهم : إلى أنها غير واجبة أصلاً ، ولكنها سنة في العمر مرة واحدة ، وممن قال : بأنها فرض في العمر مرة : الشافعي في الصحيح من مذهبه . قال

النووي : وبه قال عمر وابن عباس ، وابن عمر وجابر وطاوس ، وعطاء ، وابن المسيب ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصري ، وابن سيرين ، والشعبي ، ومسروق ، وأبو بردة بن أبي موسى الحضرمي ، وعبدالله بن شداد ، والثوري ، وأحمد وإسحاق وأبو عبيد وداود .

وممن قال : بأنها سنة في العمر ليست بواجبة : مالك وأصحابه ، وأبو حنيفة ، وأبو ثور ، وحكاه ابن المنذر وغيره ، عن النخعي قاله النووي . وقال ابن قدامة في المغني : وتجب العمرة على من يجب عليه الحج في إحدى الروايتين . وروي ذلك عن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت ، وابن عمر وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، وطاوس ومجاهد والحسن ، وابن سيرين ، والشعبي . وبه قال الثوري ، وإسحاق ، والشافعي في أحد قوليه . والرواية الثانية ليست بواجبة ، وروي ذلك عن ابن مسعود وبه قال مالك ، وأبو ثور ، وأصحاب الرأي اه . محل الغرض منه .

وإذا علمت أقوال العلماء في العمرة : هل هي فرض في العمر ، أو سنة ؟ فدونك أدلتهم ، ومناقشتها باختصار مع بيان ما يظهر رجحانه منها .

أما الذين قالوا : العمرة فرض في العرم ، فقد احتجوا بأحاديث :

منها : حديث أبي رزين العقيلي ، وقد قدمنا الكلام عليه مستوفى وهو أنه " أتى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أبي شيخ كبير ، لا يستطيع الحج ، ولا العمرة ولا الظعن ، فقال : حج عن أبيك واعتمر " رواه أحمد وأصحاب السنن ، وصححه الترمذي ومحل الدليل منهق وله : واعتمر ، لأن صيغة أمر بالعمرة ، مقرونة بالأمر بالحج ، فأفادت صيغة الأمر الوجوب كما أوضحنا توجيه ذلك مراراً في هذا الكتاب المبارك . وذكر غير واحد عن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال : لا أعلم في إيجاب العمرة حديثاً أجود من هذا ولا أصح .

ومن أدلتهم على وجوبها قوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّواْ الحج والعمرة للَّهِ ﴾ [البقرة : 196] الآية بناء على أن المراد بإتمامها في الآية ابتداء فعلها على الوجه الأكمل ، لا إتمامها بعد الشروع ، وقد قدمنا الكلام في الآية بما أغنى عن إعادته هنا .

وأن الظاهر أن المتبادر منها : وجوب الإتمام بعد الشروع من غير تعرض إلى حكم ابتداء فعلها .

ومن أدلتهم على وجوبها : ما رواه الدارقطني من حديث زيد بن ثابت " الحج والعمرة فريضتان لا يضرك أيهما بدأت " اه .

ومن أدلتهم على وجوب العمرة : ما جاء في بعض روايات حديث في سؤال جبريل : " وأن

تحج وتعتمر " أخرجه ابن خزيمة ، وابن حبان ، والدارقطني ، وغيرهم . ورواه المجد في المنتقى بلفظ فقال : " يا محمد ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتعتمر وتغتسل من الجنابة وتتم الوضوء وتصوم رمضان " الحديث . وأنه قال : " هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " ثم قال المجد : رواه الدارقطني وقال : هذا إسناد ثابت صحيح . ورواه أبو بكر الجوزقي في كتابه المخرج على الصحيحين .

(778/522)

ومن أدلتهم على وجوبها : ما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل على النساء من جهاد ؟ قال : " نعم عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة " اه قال المجد في المنتقى : رواه أحمد وابن ماجه ، وإسناده صحيح ، ومن أجوبة المخالفين عن هذه الأدلة الدالة على وجوب العمرة أن الحديث الذي قال أحمد : لا أعلم حديثاً أجود في إيجاب العمرة منه ، وهو حديث أبي رزين العقيلي ، الذي فيه : " حج عن أبيك واعتمر " أن صيغة الأمر في قوله : واعتمر واردة بعد سؤال أبي رزين ، وقد قرر جماعة من أهل الأصول أن صيغة الأمر الواردة بعد المنع أو

السؤال : إنما تقتضي الجواز لا الوجوب ، لأن وقوعها في جواب السؤال ، عن الجواز دليل صارف عن الوجوب ، إلى الجواز والخلاف في هذه المسألة معروف .

وقد قدمنا الكلام عليه في آيات الحج هذه وأجابوا عن آية ﴿ وَأَتِمُّواْ الحج ﴾ [البقرة : 196] بأن المراد بها : الإتمام بعد الشروع كما تقدم إيضاحه ، وأجابوا عن حديث " الحج والعمرة فريضتان " الحديث . بأن في إسناده إسماعيل بن مسلم المكي ، وهو ضعيف لا يحتج به . وقال ابن حجر في التلخيص : ثم هو عن ابن سيرين ، عن زيد وهو منقطع ورواه البيهقي موقوفاً ، على زيد من طريق ابن سيرين ، وإسناده أصح وصححه الحاكم ، ورواه ابن عدي والبيهقي من حديث ابن لهيعة ، عن عطاء ، عن جابر وابن لهيعة ضعيف .

وقال ابن عدي : هو غير محفوظ ، عن عطاء انتهى محل الغرض منه وبه تعلم أن حديث زيد بن ثابت المذكور : ليس بصالح للاحتجاج ، وأجابوا عما جاء في حديث جبريل ، عن عمر مرفوعاً بلفظ " وأن تحج وتعتمر " بجوابين .

أحدهما : أن الروايات الثابتة في صحيح مسلم ، وغيره وليس فيها ذكر العمرة وهي أصح ، وقد يجاب عن هذا بأن زيادة العدول مقبولة .

والجواب الثاني : هو ما ذكر الشوكاني رحمه الله في نيل الأوطار في شرحه للحديث المذكور ، ونص كلامه .

فإن قيل : إن وقوع العمرة في جواب من سأل عن الإسلام : يدل على الوجوب فيقال : ليس كل أمر من الإسلام واجباً . والدليل على ذلك : حديث شعب الإسلام ، والإيمان ، فإنه اشتمل على أمور ليست بواجبة بالإجماع اه منه وله وجه من النظر .

وأجابوا عن حديث عائشة : بأن قوله صلى الله عليه وسلم : " عليهن جهاد لا قتال فيه الحج والعمرة " بأن لفظة : عليهن : ليست صريحة في الوجوب ، فقد تطلق على ما هو سنة مؤكدة ، وإذا كان محتملاً لإرادة الوجوب والسنة المؤكدة ، لزم طلب الدليل بأمر خارج وقد دل دليل خارج على وجوب الحج ، ولم يدل دليل خارج ، يجب الرجوع إليه على وجوب العمرة .

هذا هو حاصل أدلة القائلين بوجوب العمرة مرة في العمر ومناقشة مخالفيهم لهم .

أما القائلون : بأن العمرة سنة لا فرض ، فقد احتجوا أيضاً بأدلة :

منها : ما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه ، والبيهقي ، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ، عن جابر رضي الله عنه : أن أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أخبرني عن العمرة ، أواجبة هي ؟ فقال : " لا وأن تعتمر خير لك " وفي رواية : " أولى لك " وقال صاحب نيل الأوطار : وقد رواه البيهقي من حديث سعيد بن عفير عن يحيى بن أيوب ، عن عبيد الله ، عن جابر بنحوه ، ورواه ابن جريج ، عن ابن المنكدر ، عن

جابر وقال ابن حجر في التلخيص ، وفي الباب عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رواه الدارقطني ، وابن حزم والبيهقي وإسناده ضعيف .

وأبو صالح : ليس هو ذكوان السمان ، بل هو : أبو صالح ماهان الحنفي ، كذلك رواه الشافعي ، عن سعيد بن سالم عن الثوري ، عن معاوية بن إسحاق ، عن أبي صالح الحنفي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الحج جهاد والعمرة تطوع " ورواه ابن ماجه من حديث طلحة ، وإسناده ضعيف . والبيهقي من حديث ابن عباس ولا يصح من ذلك شيء .

(780/522)

واستدل بعضهم ما رواه الطبراني من طريق يحيى بن الحارث عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعاً : " من مشى إلى صلاة مكتوبة فأجره كحجة ، ومن مشى إلى صلاة تطوع فأجره كعمرة " .

هذا هو حاصل أدلة من قالوا : بأن العمرة غير واجبة .

وأجاب مخالفوهم عن أدلتهم ، قالوا : أما حديث سؤال الأعرابي النَّبي صلى الله عليه وسلم عن وجوب العمرة ، وأنه أجابه : بأنها غير واجبة ، وأنه إن اعتمر تطوعاً ، فهو خير

له بأنه حديث ضعيف ، وتصحيح الترمذي له مردود ، ووجه ذلك أن في إسناده : الحجاج بن أرطاة ، وأكثر أهل الحديث على تضعيف الحجاج المذكور كما قدمناه مراراً ، وقال ابن حجر في التلخيص : وفي تصحيحه نظر كثير من أجل الحجاج ، فإن الأكثر على تضعيفه ، والاتفاق على أنه مدلس ، وقال النووي ، ينبغي ألا يغتر بكلام الترمذي في تصحيحه ، فإنه اتفق الحفاظ على تضعيفه وقد نقل الترمذي ، عن الشافعي أنه قال : ليس في العمرة شيء ثابت : أنها تطوع . وأفرط ابن حزم فقال : إنه مكذوب باطل . اه محل الغرض من كلام ابن حجر . ثم قال بعد هذا في الحديث المذكور : أنه موقوف على جابر ، وقال كذلك : رواه ابن جريج عن ابن المنكدر عن جابر اه منه .

هذا هو حاصل حجج من قالوا : إن العمرة سنة لا واجبة .

(781/522)

وقال الشوكاني : في نيل الأوطار ، بعد أن ساق الأحاديث ، التي ذكرنا في عدم وجوب العمرة ما نصه : قال الحافظ : ولا يصح من ذلك شيء ، وبهذا تعرف أن الحديث من قسم الحسن لغيره ، وهو محتج به عند الجمهور ، ويؤيده ما عند الطبراني : عن أبي أمامة مرفوعاً " من مشى إلى صلاة مكتوبة فأجره كحجة ، ومن مشى إلى صلاة غير مكتوبة ، فأجره

كعمرة " إلى أن قال والحق عدم وجوب العمرة ، لأن البراءة الأصلية ، لا ينتقل عنها إلا بدليل يثبت به التكليف ، ولا دليل يصلح لذلك ، لا سيما مع اعتضاده بما تقدم من الأحاديث القاضية : بعدم الوجوب ، ويؤيد ذلك اقتصاره صلى الله عليه وسلم على الحج في حديث " بني الإسلام على خمس " واقتصار الله جل جلاله على الحج في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت ﴾ [آل عمران : 97] انتهى محل الغرض منه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي أن ما احتج به كل واحد من الفريقين ، لا يقل عن درجة الحسن لغيره ، فيجب الترجيح بينهما ، وقد رأيت الشوكاني : رجح عدم الوجوب بموافقته للبراءة الأصلية ، والذي يظهر بمقتضى الصناعة الأصولية : ترجيح أدلة الوجوب ، على أدلة عدم الوجوب وذلك من ثلاثة أوجه :

الأول : أن أكثر أهل الأصول يرجحون الخبر الناقل عن الأصل : على الخبر المبقي على البراءة الأصلية ، وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود في مبحث الترجيح باعتبار المدلول :

وناقل ومثبت والآمر . . . بعد النوهي ثم هذا الآخر

على إباحة . . الخ .

لأن معنى قوله : وناقل أن الخبر الناقل عن البراءة الأصلية مقدم على الخبر المبقي عليها .

وعزاه في شرحه المسمى : نشر البنود للجمهور ، وهو المشهور عند أهل الأصول .

الثاني : أن جماعة من أهل الأصول : رجحوا الخبر الدال على الوجوب ، على الخبر الدال على عدمه . ووجه ذلك : هو الاحتياط في الخروج من عهدة الطلب ، وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود المذكور آنفاً :

(782/522)

ثم هذا الآخر . . . على إباحة الخ . . . لأن مراده بالآخر المقدم على الإباحة : هو الخبر الدال على الأمر ، فالأول الدال على النهي ، لأن درأ المفاسد ، مقدم على جلب المصالح ، ثم الدال على الأمر للاحتياط في الخروج من عهدة الطلب ، ثم الدال على الإباحة ويشمل غير الواجب ، فيدخل فيه المسنون والمندوب ، لاشتراك الجميع في عدم العقاب على ترك الفعل .

الثالث : أنك إن علمت بقول من أوجبها فأديتها على سبيل الوجوب برئت ذمتك بإجماع أهل العلم من المطالبة بها ، ولو مشيت على أنها غير واجبة فلم تؤدها على سبيل الوجوب بقيت مطالباً بواجب على قول جمع كثير من العلماء . والنَّبي صلى الله عليه وسلم يقول : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " ويقول : " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه " وهذا المرجح راجع في الحقيقة لما قبله ، والعلم عند الله تعالى .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : اعلم أنه لا خلاف بين أهل العلم في أن جميع السنة وقت للعمرة إلا أيام التشريق . فلا تنبغي العمرة فيها حتى تغرب شمس اليوم الرابع عشر ، على ما قاله جمع من أهل العلم .

الفرع الثاني : اعلم أنه قد صح عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : " أن عمرة في رمضان ، تعدل حجة " وفي بعض روايات الحديث في الصحيح " حجة معي " .

الفرع الثالث : اعلم : أن التحقيق أن النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يعتمر في رجب بعد الهجرة قطعاً ، وأنه لم يعتمر بعد الهجرة ، إلا أربع عمر . الأولى : عمرة الحديبية في ذي القعدة ، من عام ست ، وصده المشركون ، وأحل ونحر من غير طواف ولا سعي ، كما هو معلوم . الثانية : عمرة القضاء في ذي القعدة ، عام سبع : وهي التي وقع عليها صلح الحديبية .

وقد قدمنا في سورة البقرة وجه تسميتها عمرة القضاء وأوضحناه . الثالثة : عمرة الجعرانة في ذي القعدة من عام ثمان ، بعد فتح مكة في رمضان عام ثمان . الرابعة : العمرة التي قرنها ، مع حجة الوداع . هذا هو التحقيق .

(783/522)

وقد قدمنا الإشارة إليه ولنكتف هنا بما ذكرنا من أحكام العمرة، لأن غالب أحكامها ذكرناه في أثناء كلامها على مسائل الحج. والعلم عند الله تعالى.

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)

قوله تعالى: ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج: 29] صيغة الأمر في هذه الآية الكريمة: تدل على وجوب الإيفاء بالنذر، كما قدمنا مراراً أن صيغة الأمر تقتضي الوجوب، على الأصح، إلا لدليل صارف عنه.

ومما يدل من القرآن على لزوم الإيفاء بالنذر: أنه تعالى أشار إلى أنه هو، والخوف من أهوال يوم القيامة، من أسباب الشرب من الكأس الممزوجة بالكافور في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الأَبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ [الإنسان: 5-6] ثم أشار إلى بعض أسباب ذلك فقال: ﴿ يُوفُونَ بِالنذر وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ [الإنسان: 7] فالوفاء بالنذر ممدوح على كل حال، وإن كانت آية الإنسان ليست صريحة في وجوبه، وكذلك قوله في سورة البقرة: ﴿ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ﴾ [البقرة: 270] الآية. وقد بينا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن البيان بالقرآن، إن لم يكن وافياً بالمقصود أتممناه بالبيان بالسنة. ولذلك سنبين هنا ما تقتضيه السنة من النذر الذي يجب الإيفاء به، والذي لا يجب الإيفاء به.

اعلم أولاً : أن الأمر المنذور له في الجملة حالتان :

الأولى : أن يكون فيه طاعة لله .

والثانية : ألا يكون فيه طاعة لله ، وهذا الأخير منقسم إلى قسمين .

أحدهما : ما هو معصية لله .

والثاني : ما ليس فيه معصية في ذاته ، ولكنه ليس من جنس الطاعة كالمباح الذي لم يؤمر به .

(784/522)

والذي يجب اعتماده بالدليل في الأقسام الثلاثة المذكورة : أن المنذور إن كان طاعة لله ، وجب الإيفاء به ، سواء كان في ندب كالذي ينذر صدقة بدراهم على الفقراء ، أو ينذر ذبح هدي تطوعاً أو صوم أيام تطوعاً ، ونحو ذلك . فإن هذا ونحوه ، يجب بالنذر ، ويلزم الوفاء به . وكذلك الواجب إن تعلق النذر بوصف ، كالذي ينذر أن يؤدي الصلاة في أول وقتها ، فإنه يجب عليه الإيفاء بذلك .

أما لو نذر الواجب كالصلوات الخمس ، وصوم رمضان ، فلا أثر لنذره ، لأن إيجاب الله لذلك أعظم من إيجابه بالنذر ، وإن كان المنذور معصية لله : فلا يجوز الوفاء به ، وإن كان

جائزاً لا نهي فيه ، ولا أمر فلا يلزم الوفاء به .

أما الدليل على وجوب الإيفاء في نذر الطاعة وعلى منعه في نذر المعصية فهو : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم ثبت عنه ذلك .

قال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا مالك ، عن طلحة بن عبد الملك ، عن القاسم ، عن عائشة رضي الله عنها ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه " اه . وهو ظاهر في وجوب الإيفاء بنذر الطاعة ، ومنع الإيفاء بنذر المعصية .

وقال البخاري أيضاً : حدثنا أبو عاصم ، عن مالك ، عن طلحة بن عبد الملك ، إلى آخر الإسناد والمتن المذكورين آنفاً .

وإذا علمت أن هذا الحديث الصحيح ، قد دل على لزوم الإيفاء بنذر الطاعة ، ومنعه في نذر المعصية .

فاعلم : أن الدليل على عدم الإيفاء بنذر الأمر الجائز : هو أنه ثبت أيضاً عن النَّبي صلى الله عليه وسلم .

(785/522)

قال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا وهيب ، حدثنا أيوب ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : " بينا النَّبي صلى الله عليه وسلم يخطب إذ هو برجل قائم ، فسأل عنه فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ، ولا يستظل ولا يتكلم ، ويصوم ، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم : مره فليتكلم ، وليستظل وليقعد ، وليتم صومه " اه محل الغرض من صحيح البخاري . وفيه التصريح بأن ما كان من نذره من جنس الطاعة ، وهو الصوم أمره صلى الله عليه وسلم بإتمامه ، وفاء بنذره وما كان من نذره مباحاً لا طاعة ، كترك الكلام ، وترك القعود ، وترك الاستظلال ، أمره بعدم الوفاء به ، وهو صريح في أنه لا يجب الوفاء به .

واعلم أنا لم نذكر أقوال أهل العلم هنا للاختصار ، ولوجود الدليل الصحيح من السنة على ما ذكرنا .

فروع تتعلق بهذه المسألة

الفرع الأول : اعلم أنه لا نذر لشخص في التقرب بشيء لا يملكه ، وقد ثبت ذلك عن النَّبي صلى الله عليه وسلم .

قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : وحدثني زهير بن حرب ، وعلي بن حجر السعدي واللفظ لزهير قالا : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا أيوب ، عن أبي قلابة عن أبي المهلب ، عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : كانت ثقيف حلفاء لبني

عقيل فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث بطوله .

(786/522)

وفيه ما نصه : وأسرت امرأة من الأنصار ، وأصيبت العضباء فكانت المرأة في الوثاق ، وكان القوم يريحون نعمهم بين يدي بيوتهم ، فانفلتت ذات ليلة من الوثاق ، فأتت الإِبل ، فجعلت إذا دنت من البعير رغا فتتركه حتى تنتهي إلى العضباء ، فلم ترغ قال : وناقة منوقة فقعدت في عجزها ، ثم زجرتها فانطلقت ونذروا بها فطلبوها ، فأعجزتهم قال : ونذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها . فلما قدمت المدينة ، رآها الناس فقال : العضباء ناقة رسول الله صلى الله عليه سولم قالت : غنها نذرت إن نجاها الله عليها لتنحرنها ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له فقال : " سبحان الله بئسما جزتها نذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها لا وفاء لنذر في معصية ، ولا فيما لا يملك العبد " الحديث . ومحل الشاهد منه قوله صلى الله عليه وسلم : " ولا فيما لا يملك العبد " وهذا نص صحيح صريح فيما ذكرنا ، ويؤيده حديث ثابت بن الضحاك : أنه صلى الله عليه وسلم قال :

" لا وفاء لنذر في معصية الله ولا في قطيعة رحم ولا فيما لا يملك ابن آدم " اه .

قال الحافظ في بلوغ المرام : رواه أبو داود والطبراني ، واللفظ له ، وهو صحيح الإسناد ، وله شاهد من حديث كردم عند أحمد .

الفرع الثاني : اعلم أن العلماء اختلفوا فيمن نذر نذراً لا يلزم الوفاء به هل تلزمه كفارة يمين ، أو لا يلزمه شيء ؟ وحجة من قال : لا يلزمه شيء : هو حديث نذر أبي إسرائيل ، أنه لا يقعد ولا يتكلم ، ولا يستظل ، وقد أمره النَّبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح المذكور آنفاً : أنه لا يفي بهذا النذر ، ولم يقل له إن عليه كفارة يمين .

(787/522)

وقد قدمنا هذا في سورة مريم موضحاً . وقد قدمنا أن القرطبي قال في قصة أبي إسرائيل : هذه أوضح الحجج للجمهور في عدم وجوب الكفارة ، على من نذر معصية ، أم ما لا طاعة فيه . فقد قال مالك : لما ذكره ولم أسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمره بالكفارة ، وأما الذين قالوا : إن النذر الذي لا يجب الوفاء به تجب فيه كفارة يمين فقد احتجوا بما رواه مسلم ، في صحيحه : وحدثني هارون بن سعيد الأيلي ، ويونس بن عبد الأعلى ، وأحمد بن عيسى ، قال يونس : أخبرنا وقال الآخران : حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو

بن الحارث ، عن كعب بن علقمة ، عن عبد الرحمن بن شماسة ، عن أبي الخير ، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كفارة النذر كفارة اليمين " اه ، وظاهره شموله للنذر الذي لا يجب الوفاء به .

وقال النووي في شرح مسلم : اختلف العلماء في المراد به ، فحمله جمهور أصحابنا على نذر اللجاج ، وهو أن يقول إنسان يريد الامتناع من كلام زيد مثلاً : إن كلمت زيداً مثلاً ، فلله علي حجة ، أو غيرها ، فيكلمه فهو بالخيار بين كفارة يمين ، وبين ما التزمه . هذا هو الصحيح في مذهبنا ، وحمله مالك وكثيرون أو الأكثرون على النذر المطلق كقوله : علي نذر ، وحمله أحمد وبعض أصحابنا على نذر المعصية ، كمن نذر أن يشرب الخمر وحمله جماعة من فقهاء أصحاب الحديث ، على جميع أنواع النذر ، وقالوا : هو مخير في جميع المنذورات بين الوفاء بما التزم ، وبين كفارة يمين والله أعلم اه كلام النووي .

ولا يخفى بعد القول الأخير لقوله تعالى : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج : 29] فهو أمر جازم مانع للتخيير بين الإيفاء به ، وبين شيء آخر .

والأظهر عندي في معنى الحديث : أن من نذر نذراً مطلقاً كأن يقول : علي لله نذر أنه تلزمه كفارة يمين ، لما رواه ابن ماجه ، والترمذي وصححه ، عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين " وروي نحوه أبو داود ، وابن ماجه ، عن ابن عباس ، وفي الحديثين بيان المراد بحديث مسلم ، بأن المراد به : النذر المطلق الذي لم يسم صاحبه ما نذهر ، بل أطلقه والبيان يجوز بكل ما يزيد الإيهام ، كما قدمناه مراراً ، والمطلق يحمل على المقيد .

ومما يؤيد القول بلزوم الكفارة في نذر اللجاج : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم لما حرم شرب العسل على نفسه في قصة مما لأة أزواجه عليه . وأنزل الله في ذلك : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ [التحريم : 1] قال الله بعد ذلك : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ [التحريم : 2] فدل ذلك على لزوم كفارة اليمين ، وكذلك قال ابن عباس وغيره : بلزوم كفارة اليمين ، على القول بأنه حرم جاريته ، والأقوال فيمن حرم زوجته ، أو جاريته ، أو شيئاً من الحلال معروفة عند أهل العلم . فغير لزوجة والأمة لا يحرم بالتحريم قولاً واحداً والخلاف في لزوم كفارة اليمين ، وعدم لزومها ، وظاهر الآية لزومها ، وبعض العلماء يقول : لا يلزم فيه شيء وهو مذهب مالك وأصحابه ، أما تحريم الرجل امرأته أو جاريته ، ففيه لأهل العلم ما يزيد على ثلاثة عشر مذهباً معروفة في محلها ، وأجراها على القياس في تحريم الزوجة لزوم كفارة الظهار ، لأن من قال لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، فهو بمثابة ما لو قال لها : أنت حرام ، والظهار نص الله في كتابه ، على أن فيه كفارته المنصوصة في سورة

المجادلة .

أما نذر اللجاج فقد قدمنا القول ، بأن فيه كفارة يمين ، والمراد بنذر اللجاج النذر الذي يراد به الامتناع من أمر لا التقرب إلى الله .

(789/522)

قال ابن قدامة في المغني : وجملته أنه إذا أخرج النذر مخرج اليمين ، بأن يمنع نفسه أو غيره به شيئاً ، أو يحث به على شيء مثل أن يقول : إن كلمة زيداً ، فلله علي الحج أو صدقة مالي أو صوم سنة ، فهذا يمين ، حكمه أنه مخير بين الوفاء بما حلف عليه ، فلا يلزمه شيء ، وبين أن يحنث فيتخير بين فعل المنذور وبين كفارة يمين ، ويسمى نذر اللجاج ، والغضب ، ولا يتعين الوفاء به ، ثم قال : وهذا قول عمر وابن عباس ، وابن عمر وعائشة وحفصة ، وزينب بنت أبي سلمة ، وبه قال عطاء ، وطاوس وعكرمة ، والقاسم والحسن ، وجابر بن زيد ، والنخعي ، وقتادة وعبد الله بن شريك ، والشافعي ، والعنبري وإسحاق وأبو عبيد ، وأبو ثور ، وابن المنذر ، وقال سعيد بن المسيب : لا شيء في الحلف بالحج ، وعن الشعبي ، والحارث العكلي وحماد والحكم : لا شيء في الحلف بصدقة ماله ، لأن الكفارة إنما تلزم بالحلف بالله لحرمة الاسم ، وهذا ما حلف باسم الله ولا يجب ما سماه ، لأنه لم

يخرجه مخرج القربة ، وإنما التزمه على طريق العقوبة ، فلم يلزمه . وقال أبو حنيفة ومالك : يلزمه الوفاء بنذره ، لأنه نذر فيلزم الوفاء به كنذر البر .

وروي نحو ذلك عن الشعبي .

(790/522)

ولنا ما روى عمران بن حصين قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا نذر في غضب وكفارته كفارة يمين " إلى أن قال : " من حلف بالمشي والهدي ، أو جعل ماله في سبيل الله أو في المساكين أو في رتاج الكعبة فكفارته يمين " إلى أن قال : وعن أحمد رواية ثانية : أنه تتعين الكفارة ، ولا يجزئه الوفاء بنذره . وهو قول بعض أصحاب الشافعي لأنه يمين اه محل الغرض من المغني ، وروى أبو داود ، عن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث ، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال : إن عدت تسألني القسمة ، فكل مالي في رتاج الكعبة ، فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك كفر عن يمينك وكلم أخاك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب ولا في قطيعة رحم وفيما لا تملك " اه رواه أبو داود وسعيد بن المسيب : لم يصح سماعه عن عمر . قاله بعضهم : وعليه فهو من مراسيل سعيد ، وذكر جماعة أنه ولد

لسنتين مضتا من خلافة عمر رضي الله عنه ، وعن أحمد ما يدل على سماع سعيد ، من عمر وأنه قال : إن لم نقبل سعيداً ، عن عمر ، فمن يقبل . والظاهر سماعه من عمر كما صدر بما يدل عليه صاحب تهذيب التهذيب ، وعن مالك وغيره أنه لم يدرك عمر وحديث سعيد المذكور عن عمر : إما متصل ، وإما مرسل من مراسيل سعيد ، وقد قدمنا كلام العلماء فيها .

وقال الشوكاني في نيل الأوطار : ولكن سعيد بن المسيب لم يسمع من عمر بن الخطاب ، فهو منقطع ، وروي نحوه عن عائشة : أنها سئلت عن رجل جعل ماله في رتاج الكعبة إن كلم ذا قرابة . فقالت : يكفر عن اليمين . أخرجه مالك ، والبيهقي بسند صحيح . وصححه ابن السكن اه . ولفظ مالك في الموطأ فقالت عائشة رضي الله عنها : يكفره ما يكفر اليمين ، وليس في الموطأ أن فتواها هذه في نذر لجاج بل الذي فيه : أنها سئلت عن رجل قال : مالي في رتاج الكعبة . وهو بابها وهو براء مكسورة ، فمثناة فوقية بعدها ألف فجيم .

(791/522)

وهذا الذي ذكرنا هو : حاصل حجة من قال : إن نذر اللجاج فيه كفارة يمين ، وهو الأقرب عندي لما ذكرنا ، خلافاً لمن قال : لا شيء فيه . وأما نذر المعصية فلا خلاف في أنه حرام ،

وأن الوفاء به ممنوع ، وإنما الخلاف في لزوم الكفارة به فذهب جمهور أهل العلم أنه لا كفارة فيه ، وعن أحمد والثوري وإسحاق ، وبعض الشافعية ، وبعض الحنفية : فيه الكفارة وذكر الترمذي : اختلاف الصحابة في ذكل ، واحتج من قال : بأنه ليس فيه كفارة بالأحاديث الصحيحة ، الواردة بأنه : لا نذر في معصية ، ونفي نذر المعصية مطلقاً : يدل على نفي أثره ، فإذا انتفى النذر من أصله انتفت كفارته لأن التابع ينتفي بانتفاء المتبوع .

وإن قلنا : إن الصيغة في قوله : لا نذر في معصية ، خبر أريد به الإنشاء وهو النهي عن نذر المعصية ، فالنهي يقتضي الفساد ، وإذا فسد المنذور بالنهي ، بطل معه تأثيره في الكفارة .

قالوا : والأصل براءة الذمة من الكفارة . قالوا : ومما يؤيد ذلك الأحاديث الواردة بأنه : لا نذر إلا فيما ابتغى به وجه الله . قال المجد في المنتقى : رواه أحمد ، وابو داود وفي لفظ عند أحمد : إنما النذر ما ابتغى به وجه الله ، وهو من رواية عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده . وفي إسناده مناقشات تركناها اختصاراً ، واحتج من قال : بأن في نذر المعصية كفارة ببعض الأحاديث الواردة بذلك .

منها : ما روي عن عائشة رضي الله عنها : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين " قال المجد في المنتقى : رواه الخمسة ، واحتج به أحمد ، وإسحاق . ومعلوم أن مراده بالخمسة ، الإمام أحمد وأصحاب السنن ، ولفظ أبي داود في هذا الحديث :

حدثنا إسماعيل بن إبراهيم أبو معمر ، ثنا عبد الله بن المبارك ، عن يونس عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن عائشة رضي الله عنها أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين " .

(792/522)

حدثنا ابن السرح قال : ثنا وهب عن يونس ، عن ابن شهاب بمعناه . وإسناده قال أبو داود : سمعت أحمد بن شَبُّوَيه ، يقول : قال ابن المبارك : يعني في هذا الحديث : حدث أبو سلمة ، فدل ذلك على أن الزهري لم يسمعه من أبي سلمة ، وقال أحمد بن محمد : وتصديق ذلك ، ما حدثنا أيوب يعني ابن سليمان قال أبو داود : سمعت أحمد بن حنبل يقول : أفسدوا علينا هذا الحديث ، قيل له : وصح إفساده عندك ، وهل رواه غير ابن أبي أويس ؟ قال : أيوب كان أمثل منه ، يعني : أيوب بن سليمان بن بلال ، وقد رواه أيوب .

حدثنا أحمد بن محمد المروزي ، ثنا أيوب بن سليمان ، عن أبي بكر بن أبي أويس ، عن سليمان بن بلال ، عن ابن أبي عتيق وموسى بن عقبة ، عن ابن شهاب ، عن سليمان بن أرقم : أن يحيى بن أبي كثير أخبره ، عن أبي سملة عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين " قال أحمد بن

محمد المروزي : إنما الحديث حديث علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير عن محمد بن الزبير ، عن أبيه عن عمران بن حصين ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أراد أن سليمان بن أرقم وهم فيه ، وحمله عنه الزهري ، وأرسله عن أبي سلمة عن عائشة رحمها الله !

قال أبو داود : روى بقية عن الاوزاعي ، عن يحيى ، عن محمد بن الزبير بإسناد علي بن المبارك مثله اه من سنن أبي داود بلفظه .

(793/522)

وفيه سوء ظن كثير بالزهري ، وهو أنه حذف من إسناد الحديث واسطتين : وهما سليمان بن أرقم ، ويحيى بن أبي كثير ، وأرسله عن أبي سلمة وكذلك قال الترمذي بعد إخراجه لحديث عائشة المذكور ، لا يصح ، لأن الزهري لم يسمع هذا الحديث من أبي سلمة ، ومما يقوي سوء الظن المذكور بالزهري : أن سليمان بن أرقم الذي حذفه من الإسناد متروك لا يحتج بحديثه ، فحذف المتروك . ورواية حديثه عمن فوقه من العدول من تدليس التسوية ، وهو شر أنواع التدليس وأقبحها ، ولا شك أن هذا النوع من التدليس قادح فيمن تعمده . وما ذكره بعضهم : من أن الثوري والأعمش كانا يفعلان هذا النوع من التدليس مجاب عنه بأنهما لا يدلسان إلا عمن هو ثقة عندهما . وإن كان ضعيفاً عند غيرهما . ومن المستبعد

أن يكون الزهري يحسن الظن بسليمان بن أرقم مع اتفاق الحفاظ على عدم الاحتجاج به .

والحاصل : أن لزوم الكفارة في نذر المعصية ، جاءت فيه أحاديث متعددة ، لا يخلو شيء منها من كلام . وقد يقوي بعضها بعضاً .

وقال الشوكاني : قال النووي في الروضة حديث " لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين " ضعيف باتفاق المحدثين . قال الحافظ : قلت : قد صححه الطحاوي ، وأبو علي بن السكن ، فأين الاتفاق انتهى منه . وقد تركنا تتبع الأحاديث الواردة فيه ، ومناقشتها اختصاراً . والأحوط لزوم الكفارة ، لأن الأمر مقدم على الإباحة كما تقرر في الأصول للاحتياط في الخروج من عهدة الطلب . فمن أخرج كفارة عن نذر المعصية ، فقد برئ من المطالبة بها باتفاق الجميع ومن لم يخرجها بقي مطالباً بها على قول أحمد ، ومن ذكرنا معه .

الفرع الثالث : اعلم أن من نذر شيئاً من الطاعة لا يقدر عليه لا يلزمه الفواء به ، لعجزه عنه .

واختلف فيما يلزمه في ذلك المعجوز عنه ، فلو نذر مثلاً أن يحج ، أو يعتمر ماشياً على رجليه ، وهو عاجز عن المشي : جاز له الركوب لعجزه عن المشي ، وإن قدر على المشي : لزمه .

(794/522)

وفي حالة ركوبه عند العجز اختلف العلماء فيما يلزمه فقال بعضهم : لا شيء عليه ، لأنه عاجز والله يقول : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : 286] فقد عجز عما نذر ولا يلزمه شيء غير ما نذر . وقال بعضهم : تلزمه كفارة يمين . وقال بعضهم : يلزمه صوم ثلاثة أيام . وقال بعضهم : تلزمه بدنة . وقال بعضهم : يلزمه هدي .

قال ابن قدامة في المغني : وجملته أن من نذر المشي إلى بيت الله الحرام ، لزمه الوفاء بنذره . وبهذا قال مالك ، والأوزاعي ، والشافعي ، وأبو عبيد ، وابن المنذر ، ولا نعلم فيه خلافاً ، وذلك لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال :

(795/522)

" لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى " ولا يجزئه المشي إلا في الحج أو العمرة . وبه يقول الشافعي . ولا أعلم فيه خلافاً ، وذلك لأن المشي المعهود في الشرع : هو المشي في حج أو عمرة ، فإذا أطلق الناذر حمل على المعهود الشرعي . ويلزمه المشي فيه لنذره ، فإن عجز عن المشي : ركب ، وعليه كفارة يمين ، وعن أحمد رواية أخرى : أنه يلزم دم ، وهو قول الشافعي ، وأفتى به عطاء لما

روى ابن عباس أن أخت عقبة بن عامر نذرت المشي إلى بيت الله الحرام ، فأمرها النَّبي صلى الله عليه وسلم أن تركب ، وتهدي هدياً . رواه أبو داود وفهي ضعف ولأنه أخل بواجب في الإحرام فلزم هدي كتارك الإحرام من الميقات . وعن ابن عمر وابن الزبير قالا : يحج من قابل ، بل ويركب ما مشي ، ويمشي ما ركب ونحوه . قال ابن عباس وزاد فقال : ويهدي ، وعن الحسن مثل الأقوال الثلاثة وعن النخعي روايتان : إحداهما : كقول ابن عمر والثانية : كقول ابن عباس ، وهذا قول مالك . وقال أبو حنيفة : عليه هدي سواء عجز عن المشي ، أو قدر عليه . وأقل الهدي : شاة ، وقال الشافعي : لا يلزمه مع العجز كفارة بحال ، إلا أن يكون النذر مشياً إلى بيت الله الحرام ، فهل يلزمه هدي ؟ فيه قولان . وأما غيره فلا يلزمه مع العجز شيء اه محل الغرض من المغني .

وإذا علمت أقوال أهل العلم : فيما يلزم من نذر شيئاً ، وعجز عنه ، فهذه أدلة أقوالهم نقلناها ملخصة بواسطة نقل المجد في المنتقى ، لأن جمعها في محل واحد أما من قال : تلزمه كفارة يمين فقد احتج بنا رواه أبو داود ، وابن ماجه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من نذر نذراً ولم يسمه فكفارته كفارة يمين ، ومن نذر نذراً لم يطقه فكفاره كفارة يمين " اه .

قال الحافظ في بلوغ المرام : في حديث ابن عباس ، هذا إسناده صحيح ، إلا أن الحفاظ رجحوا وقفه اه كما تقدمت الإشارة إليه .

ومن أدلة أهل هذا القول ما رواه كريب ، عن ابن عباس قال : جاءت امرأة إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن أختي نذرت أن تحج ماشية فقال : " إن الله لا يصنع بشقاء أختك شيئاً . لتخرج راكبة ولتكفر عن يمينها " رواه أحمد ، وأبو داود وقال في نيل الأوطار : في هذا الحديث سكت عنه أبو داود ، والمنذري ، ورجاله رجال الصحيح . والظاهر المتبادر : أن المراد بالتكفير عن اليمين : هو كفارة اليمين المعروفة ، ولقد صدق الشوكاني في أن رجال حديث أبي داود المذكور رجال الصحيح ، لأن أبا داود قال : حدثنا حجاج بن أبي يعقوب ، ثنا أبو النضر ، ثنا شريك عن محمد بن عبد الرحمن مولى آل طلحة ، عن كريب عن ابن عباس إلى آخر الحديث المذكور بمتنه فطبقة إسناده الأولى حجاج بن أبي يعقوب وهو حجاج بن الشاعر الذي أكثر مسلم في صحيحه من الإخراج له ، وهو ثقة حافظ وطبقته الثانية : أبو النضر وهو هاشم بن القاسم بن مسلم بن مقسم الليثي البغدادي خراساني الأصلن ولقبه قيصر ، وهو ثقة ثبت ، أخرج له الجميع وطبقته الثالثة هي : شريك ، وهو ابن عبد الله بن أبي شريك النخعي ، أبو عبد الله الكوفي القاضي .

أخرج له البخاري تعليقاً ، وهو من رجال مسلم وظاهر كلام ابن حجر في تهذيب التهذيب : أن مسلماً إنما أخرج له في المتابعات ، وكلام أهل العلم فيه كثير بين مئن وذاكر غير ذلك ، وطبقته الرابعة : محمد بن عبد الرحمن مولى آل طلحة ، وهو من رجال مسلم وهو ثقة . وطبقته الخامسة : كريب بن أبي مسلم الهاشمي ، مولى ابن عباس ومعلوم أنه ثقة ، وأنه أخرج له الجميع .

(797/522)

هذا هو حاصل حجة من قال : إن على من نذر نذراً ، ولم يطقه كفارة يمين ، وأما الذين قالوا : عليه صيام ثلاثة أيام ، فقد احتجوا بما رواه أحمد ، وأصحاب السنن عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن أخته نذرت أن تمشي حافية ، غير مختمرة ، فسأل النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إن الله لا يصنع بشقاء أختك شيئاً ، مرها فلتختمر ولتركب ولتصم ثلاثة أيام " اه بواسطة نقل المجد في المنتقى . قال الشوكاني في هذا الحديث : حسنه الترمذي ولكن في إسناده عبيد الله بن زحر وقد تكلم فيه غير واحد من الأئمة اه محل الغرض منه .

قال مقيده عفا لاله عنه وغفر له : ظاهر كلام أبي داود في عبيد الله بن زحر المذكور : أنه

ثقة عنده ، لأنه ذكر تزكيته عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، ولم يتعقب ذلك بشيء .

فقد قال أبو داود في هذا الحديث : حدثنا مسدد ثنا يحيى بن سعيد القطان قال : أخبرني يحيى بن سعيد الأنصاري ، أخبرني عبيد الله بن زخر : أن أبا سعيد أخبره أن عبد الله بن مالك أخبره : أن عقبة بن عامر أخبره : أنه سأل النَّبي صلى الله عليه وسلم ، عن أخت له نذرت أن تحج حافية غير مختمرة ، فقال : " مرها فلتختمر ولتركب ولتصم ثلاثة أيام "

حدثنا مخلد بن خالد ، ثنا عبد الرزاق ، ثنا ابن جريج قال : كتبت إلى يحيى بن سعيد أخبرني عبيد الله بن زحر ، مولى لبنى ضمرة ، وكان أيما رجل أن أبا سعيد الرعيني ، أخبره بإسناد يحيى ، ومعناه اه من سنن أبي داود ، فكتابة يحيى بن سعيد الأنصاري إلى ابن جريج في ابن زحر المذكور .

وكان أيما رجل فيه أعظم تزكية ، لأن قولهم فكان أيما رجل يدل على أنه من أفاضل الرجال والتفضيل في هذا المقام ، إنما هو في الثقة والعدالة ، كما ترى ومن هذا القبيل قول الراعي :

فأومأت إيماء خفيا لحبتر . . . فلله عيناً حبتر أيما فتى

وقال ابن حجر في التقريب في ابن زحر المذكور : صدوق يخطئ ، وكلام أئمة الحديث فيه كثير منهم المثنى ومنهم القادح .

(798/522)

وحجة من قال إن عليه بدنة : هي ما رواه عكرمة ، عن ابن عباس : أن عقبة بن عامر سأل النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخته نذرت أن تمشي إلى البيت وشكا إليه ضعفها ، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله غني عن نذر أختك فلتركب ولتهد بدنة " رواه أحمد ، وأبو داود . وقال الشوكاني في هذا الحديث : سكت عنه أبو داود والمنذري ، ورجاله رجال الصحيح : قال الحافظ في التلخيص : إسناده صحيح .

وحجة من قال : إن عليه هدياً هي : ما رواه أبو داود ، حدثنا محمد بن المثنى ، ثنا أبو الوليد ثنا همام ، عن قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن أخت عقبة بن عامر ، نذرت أن تمشي إلى البيت ، فأمرها النَّبي صلى الله عليه وسلم أن تركب ، وتهدي هدياً . وقال الشوكاني في هذا الحديث : سكت عنه أبو داود والمنذري ، ولزوم الهدي المذكور مروي عن مالك في الموطأ وفسر الهدي : ببدنة ، أو بقرة ، أو شاة ، إن لم تجد غيرها .

هذا هو حاصل أدلة أقوال أهل العلم : فيما يلزم من نذر شيئاً ، وعجز عن فعله . والقول بالهدي والقول بالبدنة ، يمكن الجميع بينهما ، لأن البدنة هدي ، والخاص يقضي على العام .

وقد ذكرنا كلام الناس في أسانيد الأحاديث الواردة في ذلك وأحوطها : فيمن عجز عن المشي ، الذي نذره في الحج : البدنة ، لأنها أعظم ما قيل في ذلك ، وليس من المستبعد ، أن

تلزمه البدنة ، وأنه يجزئ الهدي والصوم وكفارة اليمين ، لأن كل الأحاديث الواردة بذلك ليس فيها التصريح بنفي إجزاء شيء آخر . فحديث لزوم كفارة اليمين : لم يصرح بعدم إجزاء البدنة ، وحديث الهدي : لم يصرح بعدم إجزاء الصوم مثلاً وهكذا .

(799/522)

وقد عرفت أقوال أهل العلم في ذلك مع أن الأحاديث لا يخلو شيء منها من كلام . وظاهر النصوص العامة : أنه لا شيء عليه ، لأن الله يقول : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : 286] ويقول : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ [التغابن : 16] ويقول النَّبي صلى الله عليه وسلم : " إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم " وقد ثبت في صحيح مسلم : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : 286] الآية . قال الله : قد فعلت . وفي رواية : نعم ، ويدخل في حكم ذلك قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾

[البقرة : 286] الآية .

الفرع الرابع : في حكم الإقدام على النذر مع تعريفه لغة وشرعاً .

اعلم أن الأحاديث الصحيحة ، دلت على أن النذر ، لا ينبغي وأنه منهي عنه ، ولكن إذا

وقع وجب الوفاء به ، إن كان قربة كما تقدم .

قال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا يحيى بن صالح ، حدثنا فليح بن سليمان ، حدثنا سعيد بن الحارث ، أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقول : أو لم ينهوا عن النذر ، إن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخر وإنما يستخرج بالنذر من البخيل " وفي البخاري ، عن ابن عمر قال : نهى النَّبي صلى الله عليه وسلم عن النذر فقال : " إنه لا يرد شيئاً ولكنه يستخرج به من البخيل " وفي لفظ للبخاري من حديث أبي هريرة قال : قال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " لا يأتي ابن آدم النذر بشيء لم أكن قدّرته ، ولكن يلقيه النذر إلى القدر قد قُدِّرَ له فيستخرج الله به من البخيل فَيُؤْتِي عليه ما لم يكن يُؤتِي عليه من قبل " اه من صحيح البخاري ، وهو صريح في النهي عن النذر ، وأنه ليس ابتداء فعله من الطاعات المرغب فيها .

(800/522)

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : وحدثني زهير بن حرب ، وإسحاق بن إبراهيم ، قال إسحاق : أخبرنا . وقال زهير : حدثنا جرير ، عن منصور ، عن عبد الله بن مرة ، عن عبد الله بن عمر قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ينهانا عن النذر

ويقول : " إنه لا يرد شيئاً وإنما يستخرج به من الشحيح " وفي لفظ لمسلم ، عن ابن عمر عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخره وإنما يستخرج به من البخيل " وفي لفظ لمسلم عن ابن عمر ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : أنه نهى عن النذر ، وقال : " إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل " .

وقال مسلم في صحيحه أيضاً : وحدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا عبد العزيز ، يعني الدراوردي ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تنذروا فإن النذر لا يغني من القدر شيئاً ، وإنما يستخرج به من البخيل " وفي لفظ لمسلم ، عن أبي هريرة ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن النذر وقال : " إنه لا يرد من القدر ، وإنما يستخرج به من البخيل " وفي لفظ لمسلم ، عن أبي هريرة : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن النذر لا يقرب من ابن آدم شيئاً لم يكن الله قدره له ، ولكن النذر يوافق القدر فيخرج بذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يريد أن يخرج "

اه . من صحيح مسلم .

(801/522)

وهذا الذي ذكرنا من حديث الشيخين ، عن ابن عمر وأبي هريرة : فيه الدلالة الصريحة على النهي عن الإقدام على النذر ، وأنه لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل . وفي الأحاديث المذكورة إشكال معروف ، لأنه قد دل القرآن على الثناء على الذين يوفون بالنذر ، وأنه من أسباب دخول الجنة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبرارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً يُوفُونَ بالنذر وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ [الإنسان : 5-7] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ﴾ [البقرة : 270] وقد دل الكتاب والسنة على وجوب الوفاء ، بنذر الطاعة ، كقوله تعالى في هذه الآية ، التي نحن بصددها ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج : 29] الآية . وكقوله صلى الله عليه وسلم : " من نذر أن يطيع الله فليطعه " ويؤيد ذلك ما ثبت في الصحيح ، من ذم الذين لم يوفوا بنذورهم .

قال البخاري في صحيحه : حدثنا مسدد ، عن يحيى عن شعبة : حدثني أبو جمرة ، حدثنا زهدم بن مضرب ، قال : سمعت عمران بن حصين رضي الله عنهما ، يحدث عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم " قال عمران : لا أدري ذكر ثنتين أو ثلاثاً بعد قرنه " ثم يجيء قوم ينذرون ولا يوفون ويخونون ولا يؤتمنون ويشهدون ولا يستشهدون ويظهر فيهم السمن " اه من صحيح البخاري . وهو ظاهر جداً في إثم الذين لا يوفون بنذرهم ، وأنهم كالذين يخونون ، ولا يؤتمنون . وهذا الحديث أخرجه أيضاً

مسلم في صحيحه ، عن عمران بن حصين . وقال النووي في شرحه لحديث عمران هذا فيه وجوب الوفاء بالنذر ، وهو واجب ، بلا خلاف ، وإذا كان ابتداء النذر منهياً عنه : كما سبق في بابه ، اه محل الغرض منه .

(802/522)

ولأجل هذا المذكور اختلف العلماء في حكم الإقدام على النذر ، فذهب المالكية : إلى جواز نذر المندوبات إلا الذي يتكرر دائماص كصوم يوم من كل أسبوع فهو مكروه عندهم ، وذهب أكثر الشافعية : إلى أنه مكروه ، ونقل بعضهم عن نص الشافعي للأحاديث الدالة على النهي عنه . ونق لنحوه عن المالكية أيضاً ، وجزم به عنهم ابن دقيق العيد . وأشار ابن العربي إلى الخلاف عنهم ، والجزم عن الشافعية بالكراهة . وجزم الحنابلة بالكراهة ، وعندهم رواية في أنها كراهة تحريم ، وتوقف بعضهم في صحتها ، وكراهته مروية عن بعض الحصابة . اه بواسطة نقل ابن حجر في الفتح . وجزم صاحب المغني : بأن النهي عنه نهي كراهة .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الظاهر لي في طريق إزالة هذا الإشكال ، الذي لا ينبغي العدول عنه : أن نذر القربة على نوعين .

أحدهما : معلق على حصول نفع كقوله : إن شفى الله مريضي ، فعلي لله نذر كذا أو إن نجاني الله من الأمر الفلاني المخوف ، فعلي لله نذر كذا ، ونحو ذلك .

والثاني : ليس معلقاً على نفع للناذر ، كأن يتقرب إلى الله تقرباً خالصاً بنذر كذا ، من أنواع الطاعة ، وأن النهي إنما هو في القسم الأول ، لأن النذر فيه لم يقع خالصاً للتقرب إلى الله ، بل بشرط حصول نفع للناذر وذلك النفع الذي يحالوه الناذر هو الذي دلت الأحاديث على أن القدر فيه غالب على النذر وأن النذر لا يرد فيه شيئاً من القدر .

أما القسم الثاني : وهو نذر القربة الخالص من اشتراط النفع في النذر ، فهو الذي فيه الترغيب والثناء على الموفين به المقتضي أنه من الأفعال الطيبة ، وهذا التفصيل قالت به جماعة من أهل العلم .

وإنما قلنا : إنه لا ينبغي العدول عنه لأمرين :

(803/522)

الأول : أن نفس الأحاديث الواردة في ذلك فيها قرينة واضحة ، دالة عليه ، وهو ما تكرر فيها من أن النذر لا يرد شيئاً من القدرن ولا يقدم شيئاً ، ولا يؤخر شيئاً ونحو ذلك . فكونه لا يرد شيئاً من القدر ، قرينة واضحة على أن الناذر أراد بالنذر جلب نفع عاجل ، أو دفع

ضر عاجل فبين صلى الله عليه وسلم أن ما قضى الله به في ذلك واقع لا محالة ، وأن نذر الناذر لا يرد شيئاً كتبه الله عليه ، ولكنه إن قدر الله ما كان يريده الناذر بنذره ، فإنه يستخرج بذلك من البخيل الشيء الذي نذر وهذا واضح جداً كما ذكرنا .

الثاني : أن الجمع واجب إن أمكن وهذا جمع ممكن بين الأدلة واضح تنتظم به الأدلة ، ولا يكون بينها خلاف ، ويؤيده أن الناذر الجاهل ، قد يظن أن النذر قد يرد عنه ما كتبه الله عليه . هذا هو الظاهر في حل هذا الإشكال . وقد قال به غير واحد . والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

فإن قيل : إن النذر المعلق كقوله : إن شفى الله مريضي أو نجاني من كذا ، فلله علي نذر كذا ، فقد ذكرتم أنه هو المنهي عنه ، وإذا تقرر أنه منهي عنه لم يكن من جنس القربة ، فكيف يجب الوفاء بمنهي عنه .

والجواب : أن النص الصحيح دل على هذا فدل على النهي عنه أولاً ، كما ذكرنا الأحاديث الدالة على ذلك ، ودل على لزوم الوفاء به بعد الوقوع فقوله صلى الله عليه وسلم : " وإنما يستخرج به من البخيل " نص صريح في أن البخيل يلزمه إخراج ما نذر إخراجه ، وهو المصرح بالنهي عنه أولاً ، ولا غرابة في هذا ، لأن الواحد بالشخص قد يكون له جهتان . فالنذر المنذور له جهة هو منهي عنه من أجلها ابتداء : وهي شرط حصول النفع فيه ، وله

جهة أخرى هو قربة بالنظر إليها ، وهو إخراج المنذور تقرباً لله وصرفه في طاعة الله ، والعلم عند الله تعالى .

واعلم : أن النذر في اللغة النحب وهو ما يجعله الإنسان نحباً واجباً عليه قضاؤه ، ومنه قول لبيد :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول . . . أنحبٌ فيقضى أم ضلالٌ وباطل

(804/522)

وحاصله : أنه إلزام الإنسان نفسه بشيء لم يكن لازماً لها ، فيجعله واجباً عليها وهو في اصطلاح الشرع : التزام المكلف قربة لم تكن واجبة عليه . وقال ابن الأثير في النهاية : يقال : نذرت أنذر وأنذر نذراً إذا أوجبت على نفسي شيئاً تبرعاً من عبادة أو صدقة أو غير ذلك . وقد تكرر في أحاديثه ذكر النهي عنه وهو تأكيد لأمره وتحذير عن التهاون به بعد إيجابه ، ولو كان معناه الزجر عنه حتى لا يفعل لكان في ذلك إبطال حكمه ، وإسقاط لزوم الوفاء به إذ كان بالنهي يصير معصية . فلا يلزم ، وإنما وجه الحديث أنه قد أعلمهم أن ذلك أمر لا يجر لهم في العاجل نفعاً ، ولا يصرف عنهم ضراً ولا يرد قضاء . فقال : لا تنذروا على أنكم قد تدركون بالنذر شيئاً لم يقدره الله لكم ، أو تصرفون به عنكم ما جرى به

القضاء عليكم ، فإذا نذرتم ولم تعتقدوا هذا فأخرجوا عنه بالوفاء ، فإن الذي نذرتموه لازم لكم اه الغرض من كلام ابن الأثير . وقد قاله غيره ، ولا يساعد عليه ظواهر الأحاديث .

فالظاهر أن الأرجح الذي لا ينبغي العدول عنه هو ما قدمنا من الجمع ، والعلم عند الله تعالى .

واعلم : أن تعريف المالكية للنذر شرعاً : بأنه التزام مسلم مكلف ، ولو غضبان إلى آخره فيه أمران .

الأول : أن اشتراط الإسلام في النذر فيه نظر ، لأن ما نذره الكافر من فعل الطاعات قد ينعقد نذره له بدليل أنه يفعله إذا أسلم بعد ذلك ، ولو كان لغواً غير منعقد ، لما كان له أثر بعد الإسلام .

(805/522)

قال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا عبد الله أخبرنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر : أن عمر قال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام قال : " أوف بنذرك " انتهى منه . فقوله صلى الله عليه وسلم لعمر في هذا الحديث الصحيح : " أوف بنذرك " مع أنه نذره في الجاهلية صريح في

ذلك كما ترى ، ولا التفات إلى ما أوله به بعض العلماء من المالكية وغيرهم . وقول المالكية في تعريف النذر ، ولو غضبان لا يخفى أن العلماء مختلفون في نذر الغضبان ، هل يلزم فيه ما نذر أو هو من نوع اللجاج ، تلزم فيه كفارة يمين كما أوضحنا حكمه سابقاً .

الفرع الخامس : اعلم : أنه قد دل الحديث على أن من نذر أن ينحر تقرباً لله في محل معين ، فلا بأس بإيفائه بنذره ، بأن ينحر في ذلك المحل المعنين إذا لم يتقدم عليه أنه كان به وثن يعبد أو عيد من أعياد الجاهلية .

ومفهومه أنه إن كان قد سبق أن فيه وثناً يعبد ، أو عيداً من أعياد الجاهلية : أنه لا يجوز النحر فيه .

قال أبو داود في سننه : حدثنا داود بن رشيد ، ثنا شعيب بن إسحاق ، عن الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير قال : حدثني أبو قلابة ، قال : حدثني ثابت بن الضحاك ، قال : نذر رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن ينحر إبلاً ببوانة ، فأتى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا قال : هل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم " اه منه .

وفيه الدلالة الظاهرة على أن النحر بموضع كان فيه وثن يعبد أو عيد من أعياد الجاهلية من معصية الله تعالى ، وأنه لا يجوز بحال ، والعلم عند الله تعالى . وإسناد الحديث صحيح .

(806/522)

الفرع السادس : اعلم : أن الأحاديث الصحيحة دلت على أن من مات وعليه نذر أنه يقضى عنه ، وسنقتصر هنا على قليل منها اختصاراً لصحته ، وثبوته .

قال البخاري رحمه الله في صحيحه : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري ، قال : أخبرني عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن عباس ، أخبره " أن سعد بن عبادة الأنصاري استفتى النَّبي صلى الله عليه وسلم في نذر كان على أمه ، فتوفيت قبل أن تقضيه ، فأفتاه : أن يقضيه عنها فكانت سُنَّةً بَعْدُ " اه من صحيح البخاري .

وقد قدمنا بعض الأحاديث الدالة على ذلك فيمن مات وعليه نذر الحج أنه يقضي عنه كما تقدم إيضاحه ، والأحاديث في هذا الباب كثيرة معروفة .

تنبيه

اعلم : أن ابن عمر وابن عباس أفتيا بقضاء الصلاة المنذورة عن الميت إذا مات ولم يصل ما نذر . قال البخاري في صحيحه : باب من مات وعليه نذر ، وأمر ابن عمر امرأة جعلت

أمها على نفسها صلاة بقباء فقال : صلِّي عنها . وقال ابن عباس نحوه اه من البخاري . وفي الموطأ عن مالك ، عن عبد الله بن أبي بكر عن عمته : أنها حدثته ، عن جدته أنها كانت جعلت على نفسها مشياً إلى مسجد قباء ، فماتت ولم تقضه ، فأفتى عبد الله بن عباس ابنتها : أن تمشي عنها . قال يحيى : وسمعت مالكاً يقول : لا يمشي أحد عن أحد اه من الموطأ . وقال الزرقاني ، في شرحه : قال ابن القاسم : أنكر مالك الأحاديث في المشي إلى قباء ، ولم يعرف المشي إلا إلى مكة خاصة . قال ابن عبد البر يعني : لا يعرف إيجاب المشي للحالف ، والناذر . وأما المتطوع ، فقد روى مالك فيما مر أنه صلى الله عليه وسلم ، كان يأتي قباء راكباً وماشياً ، وأن إتيانه مرغب فيه .

اه منه .

(807/522)

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي عليه جمهور أهل العلم ، وحكى ابن بطال الإجماع عليه أنه لا يصلي أحمد عن أحمد ، أما الصوم والحد عن الميت فقد قدمنا مشروعيتهما . وإن خالف جل أهل العلم في الصوم عن الميت ، والعلم عند الله تعالى . وفي الموطأ عن مالك بعد أن ذكر حديث " من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه

" قال يحيى : وسمعت مالكاً يقول : معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه " أن ينذر الرجل أن يمشي إلى الشام ، أو إلى مصر ، أو إلى الرَّبَذَةِ ، أو ما أشبه ذلك مما ليس لله بطاعة ، إن كلم فلاناً أو ما أشبه ذلك فليس عليه في شيء من ذلك شيء إن هو كلمه ، أو حنث بما حلف عليه ، لأنه ليس لله في هذه الأشياء طاعة . وإنما يوفي لله بما له فيه طاعة اه . من الموطأ .

الفرع السابع : الأظهر عندي : أن من نذر جميع ماله لله ليصرف في سبيل الله ، أنه يكفيه الثلث ولا يلزمه صرف الجميع ، وهذا قول مالك وأصحابه وأحمد وأصحابه ، والزهري . وفي هذه المسألة للعلماء عشرة مذاهب أظهرها عندنا : هو ما ذكرنا ، ويليه في الظهور عندنا قول من قال : يلزمه صرفه كله ، وهو مروي عن الشافعي والنخعي ، وعن أحمد رواية أخرى : أن عليه كفارة يمين ، وعن ربيعة تلزمه الصدقة بقدر الزكاة ، وعن جابر بن زيد ، وقتادة : إن كان كثيراً وهو ألفان تصدق بعشره ، وإن كان متوسطاً وهو ألف تصدق بسبعه ، وإن كان قليلاً ، وهو خمسمائة تصدق بخمسه ، وعن أبي حنيفة : يتصدق بالمال الزكوي كله ، وعنه في غيره روايتان .

إحداهما : يتصدق به .

والثانية : لا يلزم منه شيء ، وعن النخعي ، والبتي ، والشافعي : يتصدق بماله كله ، وعن الليث : إن كان ملياً لزمه ، وإن كان فقيراً فعليه كفارة يمين ، ووافقه ابن وهب وزاد وإن كان متوسطاً يخرج قدر زكاة ماله وهذا مروي أيضاً عن أبي حنيفة ، وهو قول ربيعة كما تقدم . وعن الشعبي : لا يلزم شيء أصلاً ، وقيل : يلزم الكل إلا في نذر اللجاج ، فكفارة يمين ، وعن سحنون : يلزمه إخراج ما لا يضر به . وعن الثوري والأوزاعي ، وجماعة : يلزمه كفارة يمين بغير تفصيل .

وإذا علمت أقوال أهل العلم في هذه المسألة .

فاعلم : أن أكثرها لا يعتضد بدليل ، والذي يعتضد بالدليل منها ثلاثة مذاهب :

الأول : هو ما قدمنا أنه أظهرها عندنا ، وهو الاكتفاء بالثلث .

والثاني : لزوم الصدقة بالمال كله .

والثالث : قول سحنون : أنه يلزمه إخراج ما لا يضر به . أما الاكتفاء بالثلث الذي هو أقربها عندنا ، فقد يستدل له ببعض الأحاديث الصحيحة التي فيها النهي عن التصدق بالمال كله ، وفيها أن الثلث كثير .

قال البخاري رحمه الله في صحيحه : باب إذا أهدى ماله على وجه النذر ، والتوبة :

حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، أخبرني

عبد الرحمن بن عبد الله عن عبد الله بن كعب بن مالك ، وكان قائد كعب من بنيه حين عمي ، قال : سمعت كعب بن مالك يقول في حديثه : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾ [التوبة : 118] فقال في آخر حديثه : إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله ، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك " اه .

(809/522)

فظاهر هذا الحديث الصحيح : أن كعباً غير مستشير بل مريد التجرد من جميع ماله على وجه النذر والتوبة ، كما في ترجمة الحديث . وقد أمره صلى الله عليه وسلم بأن يمسك بعض ماله ، وصرح له بأن ذلك خير له . وقد جاء في بعض الروايات أنه فسر ذلك البعض الذي يمسكه بالثلثين ، وأنه يتصدق بالثلث . وقال ابن حجر في شرح هذا الحديث قوله : " أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك " زاد أبو داود عن أحمد بن صالح بهذا السند ، فقلت : إني أمسك سهمي الذي بخيبر ، وهو عند المصنف من وجه آخر عن ابن شهاب ، ووقع في رواية ابن إسحاق عن الزهري بهذا السند ، عند أبي داود : " إن من توبتي إلى الله أن أخرج من مالي كله لله ورسوله صدقة قال : لا . قلت : فنصفه ؟ قال : لا . قلت : فثلثه ؟ قال : نعم . قلت : فإني أمسك سهمي الذي في خيبر " .

واعلم أن ابن إسحاق في حديثه هذا عند أبي داود ، صرح بالتحديث عن الزهري ، فأمن تدليسه ثم قال ابن حجر : وأخرج من طريق ابن عيينة ، عن الزهري ، عن ابن كعب بن مالك ، عن أبيه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر الحديث وفيه : وإني أنخلع من مالي كله صدقة . قال : " يجزئ عنك الثلث " وفي حديث أبي لبابة ، عند أحمد وأبي داود مثله اه محل الغرض من فتح الباري .

وقد رأيت الروايات المصرحة بأنه يجزئه الثلث عن جميع المال . وظاهر الحديث أنه جازم غير مستشير فمن زعم من أهل العلم أنه مستشير فهو مخالف لظاهر اللفظ ، لأن اللفظ مبدوء بجملة خبرية مؤكدة بحرف التوكيد ، الذي هو إن المكسورة في قوله : إن من توبتي أن أنخلع من مالي ، واللفظ الذي هذه صفته ، لا يمكن حمله على التوقف والاستشارة ، كما ترى فقوله صلى الله عليه وسلم لكعب بن مالك وأبي لبابة : إن الثلث يكفي عن الصدقة بجميع المال . هو الدليل الذي ذكرنا بسببه : أن أقرب الأقوال عندنا الاكتفاء بالثلث .

(810/522)

وأما قول من قال : يلزمه التصدق بجميعه ، فيستدل له بالحديث الصحيح : " من نذر أن يطيع الله فليطعه " وهو يدل على إيفائه بنذره ، ولو أتى على كل المال ، إلا أن دليل ما قبله

أخص منه في محل النزاع والأخص مقدم على الأعم .

وأما قول سحنون : يلزمه التصدق بما لا يضر به فيستدل له بقوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو ﴾ [البقرة : 219] الآية ، لأن العفو في أصح التفسيرين ، هو ما لا يضر إنفاقه بالمنفق ، ولا يجحف به لإمساكه ما يسد خلته الضرورية . وهذا قد يرجع إلى الأول لأن الثلث من العفو الذي لا يجحف به إنفاقه . فأظهرها الأول كما ذكرنا وباقي الأقوال لا أعلم له دليلاً متجهاً من كتاب ، ولا سنة ، وما وجه به تلك الأقوال بعض أهل العلم لا يتجه عندي ، والعلم عند الله تعالى .

الفرع الثامن : اعلم أنه قد دل النص الصحيح ، على أن من نذر أن يسافر إلى مسجد ليصلي فيه كمسجد البصرة ، أو الكوفة أو نحو ذلك : لا يلزمه السفر إلى مسجد من تلك المساجد ، وليصل الصلاة التي نذرها به في موضعه الذي هو به .

والنص الصحيح المذكور هو حديث : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدي هذا ومسجد بيت المقدس " والجاري على الأصول : أنه لا يخرج من هذا الحصر الذي صرح به النَّبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح ، إلا ما أخرجه نص صحيح يجب الرجوع إليه من كتاب أو سنة . والأظهر أن من نذر السفر لصلاة في مسجد إيلياء ، وصلاها في مسجد مكة أو المدينة أجزأته ، لأنهما أفضل منه .

وقد قال أبو داود : حدثنا موسى بن إسماعيل ثنا حماد أخبرنا حبيب المعلم ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن جابر بن عبد الله : أن رجلاً قام يوم الفتح فقال : يا رسول الله إني نذرت إن فتح الله عليك مكة أن أصلي في بيت المقدس ركعتين قال : " صل ها هنا ثم أعاد عليه ، فقال : صل ها هنا ثم أعاد عليه ، فقال : شأنك إذاً " قال أبو داود : وروي نحوه عن عبد الرحمن بن عوف ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم . وفي لفظ لأبي داود عن عمر بن عبد الرحمن بن عوف ، عن رجال من أصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : " والذي بعث محمداً بالحق لو صليت هنا لأجزأ عنك صلاة في بيت المقدس " اه . والعلم عند الله تعالى .

ولنكتف بما ذكر هنا من مسائل النذر لكثرة ما كتبنا في آيات سورة الحج من الأحكام الشرعية وأقوال أهل العلم فيها ، والنذر باب مذكور في كتب الفروع ، فمن أراد الإحاطة بجميع مسائله ، فلينظرها في كتب فروع المذاهب الأربعة ، وقد ذكرنا هنا عيون مسائله المهمة ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق ﴾ .

في المراد بالعتيق هنا للعلماء ثلاثة أقوال :

الأول : أن المراد به القديم ، لأنه أقدم مواضع التعبد .

الثاني : أن الله أعتقه من الجبابرة .

الثالث : أن المراد بالعتق فيه الكرم ، والعرب تسمي القديم عتيقاً ومنه قول حسان رضي الله عنه :

كالمسك تخلطه بماء سحابة . . . أو عاتق كدم الذبيح مدام

لأن مراده بالعاتق الخمر القديمة التي طال مكثها في دنها زمناً طويلاً ، وتسمى الكرم عتقاً ومنه قول كعب بن زهير :

قنواء في حرتيها للبصير بها . . . عتق مبين وفي الخدين تسهيل

فقوله : عتق مبين : أي كرم ظاهر ، ومنه قول المتنبي :

ويبين عتق الخيل في أصواتها . . . أي كرمها ، والعتق من الجبابرة كالعتق من الرق ، وهو معروف .

(812/522)

وإذا علمت ذلك فاعلم : أنه قد دلت آية من كتاب الله ، على أن العتيق في الآية بمعنى : القديم الأول وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ [آل عمران : 96] الآية مع أن المعنيين الآخرين كلاهما حق ، ولكن القرآن دل على ما ذكرنا ،

وخير ما يفسر به القرآن القرآن .

تنبيهان

الأول : دلت هذه الآية الكريمة ، على لزوم طواف الإفاضة وأنه لا صحة للحج بدونه .

الثاني : دلت هذه الآية أيضاً على لزوم الطواف من وراء الحجر الذي عليه الجدار القصير شمال البيت لأن أصله من البيت ، فهو داخل في اسم البيت العتيق ، كما تقدم إيضاحه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(813/522)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾

ما دام الكلام السابق كان حول البيت الحرام ، فمن المناسب أنْ يتكلم عن تاريخه وبنائه ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ والقآئمين والركع السجود ﴾ [الحج : 26] معنى بَوَّأَه : أي : جعله مَبَاءةً يعني : يذهب لعمله ومصالحه ، ثم يبوء إليه ويعود ، كالبيت للإنسان يرجع إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ الله . . ﴾ [البقرة : 61] .

وإذ : ظرف زمان لحدث يأتي بعده الإخبار بهذا الحدث ، والمعنى خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اذكر يا محمد الوقت الذي قيل فيه لإبراهيم كذا وكذا . وهكذا في كل آيات القرآن تأتي (إذ) في خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بحدث وقع في ذلك الظرف .

لكن ، ما علاقة المباءة أو المكان المتبوّأ بمسألة البيت ؟ قالوا : لأن المكان المتبوّأ بقعة من الأرض يختارها الإنسان ؛ ليرجع إليها من متاعب حياته ، ولا يختار الإنسان مثل هذا المكان إلا توفرتْ فيه كل مُقوّمات الحياة .

لذلك يقول تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ . . ﴾ [يوسف : 56]

وقال في شأن بني إسرائيل : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بني إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ . . ﴾ [يونس : 93] فمعنى : ﴿ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت . . ﴾ [الحج : 26] أي : جعلناه مبَاءة له ، يرجع إليه من حركة حياته بعد أنْ أعلمنَاهُ ، ودَلَّلْناه على مكانه .

(814/522)

وقلنا : إن المكان غير المكين ، المكان هو البقعة التي يقع فيه ويحلُّ بها المكين ، فأرض هذا المسجد مكان ، والبناء القائم على هذه الأرض يُسمَّى " مكين في هذا المكان " . وعلى هذا فقد دَلَّ الله إبراهيم عليه السلام على المكان الذي سيأمره بإقامة البيت عليه .

وقد كان للعلماء كلام طويل حول هذه المسألة : فبعضهم يذهب إلى أن إبراهيم عليه السلام هو أول مَنْ بنى البيت . ونقول لأصحاب هذا الرأي : الحق – تبارك وتعالى – بوَّأ لإبراهيم مكان البيت ، يعني : بيَّنه له ؛ كأن البيت كان موجوداً ، بدليل أن الله تعالى يقول في القصة على لسان إبراهيم : ﴿ إِنِي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم . . ﴾ [إبراهيم : 37] .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت وَإِسْمَاعِيلُ . . ﴾ [البقرة : 127]

ومعلوم أن إسماعيل قد شارك أباه وساعده في البناء لما شَبَّ ، وأصبح لديه القدرة على معاونة أبيه ، أمّا مسألة السكن فكانت وإسماعيل ما يزال رضيعاً ، وقوله تعالى : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ المحرم . . ﴾ [إبراهيم : 37] يدل على أن العِنْدية موجودة قبل أنْ يبلغَ إسماعيل أنْ يساعد أباه في بناية البيت ، إذن : هذا دليل على أن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم .

وقد أوضح الحق – سبحانه وتعالى – هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾

[آل عمران : 96] .

وحتى نتفق على فَهْم الآية نسأل : مَنْ هُم الناس ؟ الناس هم آدم وذريته إلى أن تقوم الساعة ، إذن : فآدم من الناس ، فلماذا لا يشمله عموم الآية ، فالبيت وُضِع للناس ، وآدم من الناس ، فلا بُدَّ أن يكون وُضِع لآدم أيضاً .

(815/522)

إذن : يمكنك القول بأن البيت وُضِع حتى قبل آدم ؛ لذلك نُصدِّق بالرأي الذي يقول : إن الملائكة هي التي وضعتْ البيت أولاً ، ثم طمسَ الطوفانُ معالم البيت ، فدلَّ الله إبراهيم بوحي منه على مكان البيت ، وأمره أنْ يرفعه من جديد في هذا الوادي .

ويُقال : إن الله تعالى أرسل إلى إبراهيم سحابة دَلَّتْه على المكان ، ونطقتْ : يا إبراهيم خُذْ على قدري ، أي : البناء .

ولو تدبرتَ معنى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت . . ﴾ [البقرة : 127] الرَّفْع يعني : الارتفاع ، وهو البعد الثالث ، فكأن القواعد كان لها طُول وعَرْض موجود فعلاً ، وعلى إبراهيم أنْ يرفعها .

لكن لماذا بوَّأ الله لإبراهيم مكان البيت ؟

لما أسكن إبراهيم ذريته عند البيت قال : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة . . ﴾ [إبراهيم : 37] كأن المسألة من بدايتها مسألة عبادة وإقامة للصلاة ، الصلاة للإله الحق والربِّ الصِّدْق ؛ لذلك أمره أولاً : ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ والقآئمين والركع السجود ﴾ [الحج : 26] والمراد : طَهِّر هذا المكان من كل ما يُشعِر بالشرك ، فهذه هي البداية الصحيحة لإقامة بيت الله .

وهل كان يُعقل أنْ يدخل إبراهيم – عليه السلام – في الشرك ؟ بالطبع لا ، وما أبعدَ إبراهيمَ عن الشرك ، لكن حين يُرسِل الله رسولاً ، فإنه أول مَنْ يتلقَّى عن الله الأوامر ليُبلِّغ أمته ، فهو أول مَنْ يتلقى ، وأول مَنْ يُنفذ ليكون قدوةً لقومه فيُصدِّقوه ويثقوا به ؛ لأنه أمرهم بأمر هو ليس بنَجْوة عنه .

(816/522)

ألا ترى قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ يا أَيُّهَا النبي اتق الله . . ﴾ [الأحزاب : 1] وهل خرج محمد صلى الله عليه وسلم عن تقوى الله ؟ إنما الأمر للأمة في شخص رسولها ، حتى يسهُلَ علينا الأمر حين يأمرنا ربنا بتقواه ، ولا نرى غضاضةً في هذا الأمر الذي سبقنا إليه رسول الله ؛ لأنك تلحظ أن البعض يأنف أن تقول له : يا فلان اتق الله

، وربما اعتبرها إهانة واتهاماً ، وظن أنها لا تُقال إلا لمَنْ بدر منه ما يخالف التقوى .

وهذا فَهْم خاطئ للأمر بالتقوى ، فحين أقول لك : اتق الله . لا يعني أنني أنفي عنك التقوى ، إنما أُذكِّرك أنْ تبدأ حركة حياتك بتقوى الله .

إذن : قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً . . ﴾ [الحج : 26] لا تعني تصوُّر حدوث الشرك من إبراهيم ، وقال ﴿ شَيْئاً . . ﴾ [الحج : 26] ليشمل النهيُ كُلَّ ألوان الشرك ، أياً كانت صورته : شجر ، أو حجر ، أو وثن ، أو نجوم ، أو كواكب .

ويؤكد هذا المعنى بقوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ . . ﴾ [الحج : 26] والتطهير يعني : الطهارة المعنوية بإزالة أسباب الشرك ، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريكَ له ، وطهارة حِسّية مِمّا أصابه بمرور الزمن وحدوث الطوفان ، فقد يكون به شيء من القاذورات مثلاً .

ومعنى ﴿ لِلطَّآئِفِينَ . . ﴾ [الحج : 26] الذين يطوفون بالبيت : ﴿ والقآئمين . . ﴾ [الحج : 26] المقيمين المعتكفين فيه للعبادة ﴿ والركع السجود ﴾ [الحج : 26] الذين يذهبون إليه في أوقات الصلوات لأداء الصلاة ، عبَّر عن الصلاة بالركوع والسجود ؛ لأنهما أظهر أعمال الصلاة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَذِّن فِي الناس بالحج يَأْتُوكَ رِجَالاً . . ﴾ .

أمر الله نبيه إبراهيم بعد أنْ رفع القواعد من البيت أنْ يُؤذِّن في الناس بالحج ، لماذا ؟ لأن البيت بيت الله ، والخَلْق جميعاً خَلْق الله ، فلماذا تقتصر رؤية البيت على مَنْ قُدِّر له أنْ يمرّ به ، أو يعيش إلى جواره ؟

فأراد الحق – سبحانه وتعالى – أنْ يُشيع هذه الميْزة بين خَلْقه جميعاً ، فيذْهبوا لرؤية بيت ربهم ، وإنْ كانت المساجد كلها بيوت الله ، إلا أن هذا البيت بالذات هو بيت الله باختيار الله ؛ لذلك جعله قبْلة لبيوته التي اختارها الخَلْق .

إن من علامات الولاء بين الناس أنْ نزور قصور العظماء وعِلْية القوم ، ثم يُسجل الزائر اسمه في سِجلِّ الزيارات ، ويرى في ذلك شرفاً ورِفْعة ، فما بالك ببيت الله ، كيف تقتصر زيارته ورؤيته على أهله والمجاورين له أو مَنْ قُدِّر لهم المرور به ؟

ومعنى ﴿ أَذِّن . . ﴾ [الحج : 27] الأذان : العلم ، وأول وسائل العلم السماع بالأذن ، ومن الأذن أُخذ الأذان . أي : الإعلام . ومن هذه المادة قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ . . ﴾ [إبراهيم : 7] أي : أعلم ؛ لأن الأذن وسيلة السماع الأولى ، والخطاب المبدئي الذي نتعلَّم به ؛ لذلك قبل أنْ تتكلَّم لا بُدَّ أنْ تسمع .

وحينما أمر الله إبراهيم بالأذان لم يكُن حول البيت غير إبراهيم وولده وزوجته ، فلمَنْ يُؤذِّن ؟ ومَنْ سيستمع في صحراء واسعة شاسعة وواد غير مسكون ؟ فناداه ربه : " يا إبراهيم عليك الأذان وعلينا البلاغ " .

مهمتك أنْ ترفَع صوتك بالأذان ، وعلينا إيصال هذا النداء إلى كل الناس ، في كل الزمان ، وفي كل المكان ، سيسمعه البشر جميعاً ، وهم في عالم الذَّرِّ وفي أصلاب آبائهم بقدرة الله تعالى الذي قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى . . ﴾ [الأنفال : 17] .

(818/522)

يعني : أَدِّ ما عليك ، واترك ما فوق قدرتك لقدرة ربك . فأَذَّنَ إبراهيم في الناس بالحج ، ووصل النداء إلى البشر جميعاً ، وإلى أن تقوم الساعة ، فَمنْ أجاب ولَبَّى : لبيك اللهم لبيك كُتِبَتْ له حجة ، ومَنْ لَبَّى مرتين كُتِبت له حجَّتَيْن وهكذا ، لأن معنى لبيك : إجابةً لك بعد إجابة .

فإنْ قُلْتَ : إن مطالب الله وأوامره كثيرة ، فلماذا أخذ الحج بالذات هذه المكانة ؟ نقول : أركان الإسلام تبدأ بالشهادتين : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ثم الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم

الصوم ، ثم الحج ، لو نظرتَ إلى هذه الأركان لوجدتَ أن الحج هو الركن الوحيد الذي يجتهد المسلم في أدائه وإنْ لم يكُن مستطيعاً له فتراه يوفر ويقتصد حتى من قُوته ، وربما حرمَ نفسه لِيُؤدّي فريضة الحج ، ولا يحدث هذا ولا يتكلفه الإنسان إلا في هذه الفريضة ، لماذا ؟

قالوا : لأن الله تعالى حكم في هذه المسألة فقال : أَذِّن – يأتوكَ ، هكذا رَغْماً عنهم ، ودون اختيارهم ، أَلاَ ترى الناس ينجذبون لأداء هذه الفريضة ، وكأن قوة خارجة عنهم تجذبهم

.

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ . . ﴾ [إبراهيم : 37]

ومعنى تهوي : تأتي دون اختيار من الْهُوِيِّ أي : السقوط ، وهو أمر لا يملكه الإنسان ، كالذي يسقط من مكان عالٍ ، فليس له اختيار في ألاَّ يسقط .

وهكذا تحِنُّ القلوب إلى بيت الله ، وتتحرَّق شَوْقاً إليه ، وكأن شيئاً يجذبها لأداء هذه الفريضة ؛ لأن الله تعالى أمر بهذه الفريضة ، وحكم فيها بقوله ﴿ يَأْتُوكَ . . ﴾ [الحج : 27] أما في الأمور الأخرى فقد أمر بها وتركها لاختيار المكلف ، يطيع أو يعصي ، إذن : هذه المسألة قضية صادقة بنصِّ القرآن .

(819/522)

وبعض أهل الفَهْم يقولون : إن الأمر في : ﴿ وَأَذِّن فِي الناس بالحج . . ﴾ [الحج : 27] ليس لإبراهيم ، وإنما لمحمد صلى الله عليه وسلم – الذي نزل عليه القرآن ، وخاطبه بهذه الآية ، فالمعنى ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت . . ﴾ [الحج : 26] يعني : اذكر يا مَنْ أُنْزل عليه كتابي إذْ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ، اذكر هذه القضية ﴿ وَأَذِّن فِي الناس بالحج . . ﴾ [الحج : 27] فكأن الأمر هنا لمحمد صلى الله عليه وسلم .

لذلك لا نشاهد هذا النسك في الأمم الأخرى كاليهود والنصارى ، فهم لا يحجون ولا يذهبون إلى بيت الله أبداً ، وقد ثبت أن موسى – عليه السلام – حج بيت الله ، لكن لم يثبت أن عيسى عليه السلام حَجَّ ، بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " " يُوشك أنْ ينزل ابن مريم ، ويأتي حاجاً ، ويزور قبري ، ويُدفن هناك " .

فقال رسول الله : " ويأتي حاجاً " لأنه لم يمت ، وسوف يدرك عهد التكليف من رسول الله حين ينزل من السماء ، وسيصلي خلف إمام من أمة محمد صلى الله على جميع أنبياء الله ورُسُله .

ومن المسائل التي نحتجُّ بها عليهم قولهم : إن الذبيح إسحق ، فلو أن الذبيح إسحق كما يدَّعون لكانت مناسك الذبح والفداء ورَمْي الجمار عندكم في الشام ، أمّا هذه المناسك فهي هنا في مكة ، حيث كان إسماعيل .

ثم تذكَّروا جيداً ما قاله كتابكم المقدس في الأصحاح 23 ، 24 من أن الحق – سبحانه

وتعالى – أوحى إلى إبراهيم أن يصعد على جبل فاران ، ويأخذ ولده الوحيد ويذبحه ، فالوحيد إسماعيل لا إسحق ؛ لأن الله فدى إسماعيل ، ثم بشّر إبراهيم بإسحق .

(820/522)

ومن حكمة الله – عز وجل – أنْ جعل في كذب الكاذب مَنْفذاً للحق ، وثغرات نصل منها إلى الحقيقة ؛ لذلك يقول رجال القضاء : ليست هناك جريمة كاملة أبداً ، لا بُدَّ أنْ يترك المجرم قرينة تدلُّ عليه مهما احتاط لجريمته ، كأن يسقط منه شيء ولو أزرار من ملابسه ، أو ورقة صغيرة بها رقم تليفون . . إلخ ، لذلك نقول : الجريمة لا تفيد ؛ لأن المجرم سيقع لا محالة في يد مَنْ يقتصُّ منه .

ولرجال القضاء ووكلاء النيابة مقدرة كبيرة على استخلاص الحقيقة من أفواه المجرمين أنفسهم ، فيظل القاضي يحاوره إلى أنْ يجد في كلامه ثغرةً أو تضارباً يصل منه إلى الحقيقة . ذلك لأن للصدق وجهاً واحداً لا يمكن أنْ يتلجلج صاحبه أو يتردد ، أمّا الكذب فله أكثر من وجه ، والكاذب نفسه لو حاورتَهُ أكثر من مرة لوجدتَ تغييراً وتضارباً في كلامه ؛ لذلك العرب يقولون : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً . يعني : تذكَّر ما قُلْته أولاً ، حتى لا تُغيِّره بعد ذلك .

ومن أمثلة الكذب الذي يفضح صاحبه قَوْلُ أحدهم للآخر : هل تذكر يوم كنا في مكان كذا ليلة العيد الصغير ، وكان القمر ظهراً ! ! فقال : كيف ، يكون القمر مثل الظهر في آخر الشهر ؟

وقد يلجأ القاضي إلى بعض الحِيَل ، ولا بُدَّ أنْ يستخدم ذكاءه لاستجلاء وجه الحق ، كالقاضي الذي احتكم إليه رجلان يتهم أحدهما الآخر بأنه أخذ ماله أمانة ، ثم أخذها لنفسه ودفنها في موضع كذا وكذا ، فلما حاور القاضي المتهم أنكر فانصرف عنه ، وتوجَّه إلى صاحب الأمانة ، وقال له : اذهب إلى المكان ، وابحثْ لعلَّك تكون قد نسيتَه هنا أو هناك .

أو لعلّ آخر أخذه منك ، فذهب صاحب المال ، وفجأة سأل القاضي المتهم : لماذا تأخر فلان طوالَ هذا الوقت ؟ فردَّ المتهم : لأن المكان بعيدٌ يا سيادة القاضي . فخانتْه ذاكرته ، ونطق بالحق دون أن يشعر .

(821/522)

ثم يقول تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً . . ﴾ [الحج : 27] ورجالاً هنا ليست جَمْعاً لرجل ، إنما جمع لراجل ، وهو الذي يسير على رِجْلَيْه ﴿ وعلى كُلِّ ضَامِرٍ . . ﴾ [الحج : 27]

الضامر : الفَرَس أو البعير المهزول من طول السفر .

وتقديم الماشين على الراكبين تأكيد للحكم الإلهي ﴿ يَأْتُوكَ . . ﴾ [الحج : 27]

فالجميع حريص على اداء الفريضة حتى إنْ حَجَّ ماشياً .

وقوله : ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : 27] أي : من كل طريق واسع ﴿ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : 27] يعني : بعيد .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ . . ﴾ .

كلمة ﴿ مَنَافِعَ . . ﴾ كلمة عامة واسعة تشمل كل أنواع النفع : مادية دنيوية ، أو دينية أُخروية ، ولا ينبغي أنْ نُضيِّق ما وسَّعه الله ، فكُلُّ ما يتصل بالحج من حركات الحياة يُعَد من المنافع ، فاستعدادك للحج ، وتدبير نفقاته وأدواته وراحلته فيها منافع لك ولغيرك حين توفر لأهلك ما يكفيهم حتى تعود .

ما يتم من حركة بيع وشراء في مناطق الحج ، كلها منافع متبادلة بين الناس ، التاجر الذي يبيع لك ، وصاحب البيت الذي يُؤجِّره لك ، وصاحب السيارة التي تنقلك .

إذن : المنافع المادية في الحج كثيرة ومتشابكة ، متداخلة مع المنافع الدينية الأخروية ، فحين تشتري الهَدْي مثلاً تؤدي نُسُكاً وتنفع التاجر الذي باع لك ، والمربِّي الذي ربَّى هذا الهَدْي ، والجزار الذي ذبحه ، والفقير الذي أكل منه .

إذن : لا يتم الحج إلا بحركة حياة واسعة ، فيها نَفْع لك وللناس من حيث لا تدري ، ولك أنْ

تنظرَ في الهدايا التي يجلبها الحجاج معهم لأهليهم وذويهم ، خاصة المصريين منهم ، فترى بعضهم ينشغل بجَمْع هذه الأشياء قبل أنْ يُؤدّي نُسُكه ويقضي معظم وقته في الأسواق ، وكأنه لن يكون حاجاً إلا إذا عاد مُحمّلاً بهذه الهدايا .

(822/522)

لذلك يأتي إلينا بعض هؤلاء يسألون : أنا عليَّ دَم مُتْعة وليس معي نقود ، فماذا أفعل ؟ يريد أن يصوم . صحيح : كيف سيُؤدي ما عليه وقد أنفق كُلَّ ما معه ؟ فكنت أقول له : اعْطِني حقيبة سفرك ، وسأبيع ما بها ، ولن أُبقي لك إلا ما يكفيك من نفقات حتى تعود .

أليست هذه كلها من المنافع ؟

ومن منافع الحج ان الحاجَّ منذ أنْ ينوي أداء هذه الفريضة ويُعِد نفسه لها إعداداً مادياً ، وإعداداً نفسياً معنوياً ، فيحاول أنْ يُعيد حساباته من جديد ، ويُصلح من نفسه ما كان فاسداً ، وينتهي عَمَّا كان يقع فيه من معصية الله ، ويُصلِح ما بينه وبين الناس ، إذن : يجري عملية صَقْل خاصة تُحوّله إلى إنسان جديد يليق بهذا الموقف العظيم ، ويكون أهْلاً لرؤية بيت الله والطواف به .

ومن الإعداد للحج أنْ يتعلّم الحاجُّ ما له وما عليه ، ويتأدب بآداب الحج فيعرف محظوراته

وما يحرُم عليه ، وأنه سوف يتنازل عن هِنْدامه وملابسه التي يزهو بها ، ومكانته التي يفتخر بها بين الناس ، وكيف أن الإحرام يُسوِّي بين الجميع .

يتعلم كيف يتأدب مع نفسه ، ومع كل أجناس الكون من حوله ، مع نفسه فلا يُفكّر في معصية ، ولا تمتدّ يده حتى على شعره من شعره ، أو ظُفْر من أظافره ولا يقْربُ طيباً ، ولا حتى صابونة لها رائحة .

والعجيب أن الحاج ساعة يدخل في الإحرام يحرص كل الحرص على هذه الأحكام ، وأتحدى أيَّ إنسان ينوي الحج ويأخذ في الإحرام به ، ثم يفكر في معصية ؛ لأنه يُعِدُّ نفسه لمرحلة جديدة يتطهر فيها من الذنوب ، فكيف يكتسب المزيد منها وقد أتى من بلاد بعيدة ليتطهر منها ؟

وفي الحجِّ يتأدب الحاج مع الحيوان ، فلا يصيده ولا يقتله ، ومع النبات فلا يقطع شجراً .

يتأدب حتى مع الجماد الذي يعتبره أَدْنى أجناس الكون ، فيحرص على تقبيل الحجر الأسود ، ويجتهد في الوصول إليه ، فإنْ لم يستطع أشار إليه بيده .

(823/522)

إن الحج التزام وانضباط يفوق أيَّ انضباط يعرفه أهل الدنيا في حركة حياتهم ، ففي الحج ترى هذا الإنسان السيد الأعلى لكل المخلوقات كَمْ هو منكسر خاضع مهما كانت منزلته ، وكم هي طمأنينة النفس البشرية حين تُقبِّل حجراً وهي راضية خاضعة ، بل ويحزن الإنسان إذ لم يتمكن من تقبيل الحجر .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ . . ﴾ [الحج : 28] يذكروا اسم الله ؛ لأن كل أعمال الحج مصحوبة بذكر الله وتلبيته ، فَمَا من عمل يُؤدِّيه الحاجّ إلا ويقول : لبيك اللهم لبيك . وتظل التلبية شاغله ودَيْدنه إلى أنْ يرمي جمرة العقبة ، ومعنى " لبيك اللهم لبيك " أن مشاغل الدنيا تطلبني ، وأنت طلبتني لأداء فَرْضِك عليَّ ، فأنا أُلبِّيك أنت أولاً ؛ لأنك خالقي وخالق كل ما يشغلني ويأخذني منك .

والأيام المعلومات هي : أيام التشريق .

ومعنى : ﴿ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ . . ﴾ [الحج : 28] أي : يشكرون الله على هذا الرزق الوقتي الذي يأكلون منه ويشربون ، ويبيعون ويشترون في أوقات الحج . أو يشكرون الله على أنْ خلقَ لهم هذه الأنعام ، وإنْ لم يحجُّوا ، ففي خَلْق الأنعام – وهي الإبل والبقر والغنم والماعز – وتسخيرها للإنسان حكمة بالغة ، ففضلاً عن الانتفاع بلحمها وألبانها وأصوافها وأوبارها اذكروا الله واشكروه أنْ سخَّرها لكم ، فلولا تسخير الله لها لَمَا استطعتُم أنْ تنتفعوا بها ، فالجمل مثلاً هذا الحيوان الضخم يقوده الطفل الصغير ، ويُنيخه

ويحمله في حين لم يستطع الإنسان تسخير الثعبان مثلاً أو الذئب .

لذلك يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ . . ﴾ [يس : 71 - 72] .

(824/522)

لذلك نذكر الله ونشكره على ما رزقنا من بهيمة الأنعام استمتاعاً بها أَكْلاً ، أو استمتاعاً بها بَيْعاً أو زينة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل : 6] .

ولولا أن الله تعالى ذلَّلها لِخدمتك ما استطعْتَ أنت تذليلها والانتفاع بها ؛ لذلك من حكمة الله أنْ يترك بعض خَلْقه غير مُسْتأنس ، ولا يمكن لك بحال أن تستأنسه أو تُذلّله لتظل على ذِكْر لهذه النعمة ؛ وتشكر الله عليها .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالبرغوث ، وهو أَدْنى هذه المخلوقات ، ولا تكاد تراه ، ومع ذلك لا تقدر عليه ، وربما أقضَّ مَضْجعك ، وأقلق نومك طوال الليل . وتلمس هذه النعمة في الجمل الذي يقوده الصبي الصغير ، إذا حرن منك فلا تستطيع أن تجعله يسير رغماً عنه ، أو صَالَ فلا يقدر عليه أحد ، وقد يقتل صاحبه ويبطش بمَنْ حوله .

إذن : لا قدرة لك عليه بذاتك ، إنما بتذليل الله يمكن الانتفاع به ، فتسوقه إلى نَحْره ، فيقف ساكناً مُسْتسلماً لك .

والمتأمل في حال الحيوانات التي أحلها الله لنا يجد امرها عجيباً ، فالحيوان الذي أحلَّه الله لك تظل تنتفع به طوال عمره ، فإذا ما تعرّض لما يُزهِق روحه ، ماذا يفعل ؟ يرفع رأسه إلى أعلى ، ويعطيك مكان ذَبْحه ، وكأنه يقول لك : أنا في اللحظات الأخيرة فاجتهد في أنْ تنتفع بلحمي ، وأهل الريف إذا شاهدوا مثل هذه الحالة يقولون : طلب الحلال يعني الذبح . أما الحيوان الذي لا يُذبح ولا يُحله الله فيموت مُنكَّس الرأس ؛ لأنه لا فائدة منه .

(825/522)

هذا الحيوان الذي تتهمه بالغباء وتقول أنه بهيم . . الخ لو فكرتَ فيه لَتغيَّر رأيك ، فالحمار الذي تتخذه رَمْزاً للغباء وعدم الفَهْم تسوقه أمامك وتُحمِّله القاذورات وتضربه فلا يعترض عليك ولا يخالفك ، فإنْ نظفْته وزيَّنْتَه بلجام فضة ، وبردعة قطيفة تتخذه رُكُوبة وزينة ويسير بك ويحملُك ، وأنت على ظهره ، فإنْ غضبتَ عليه واستخدمْته في الأحمال وفي القاذورات تحمَّل راضياً مطيعاً . .

وانظر إلى هذا الحمار الذي تتخذه مثالاً للغباء ، إذا أردتَ منه ان يقفز قناة أوسع من

مقدرته وإمكانياته ، فإنه يتراجع ، ومهما ضربتَه وقسْوتَ عليه لا يُقدِم عليها أبداً ؛ لأنه يعلم مدى قفزته ، ويعلم مقدرته ، ولا يُقدِم على شيء فوق ما يطيق – وبعد ذلك نقول عنه : حمار ! !

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَطْعِمُواْ البآئس الفقير . . ﴾ [الحج : 28] .

البائس : هو الذي يبدو على مِحْنته وشكله وزِيّه أنه فقير محتاج ، أما الفقير فهو محتاج الباطن ، وإنْ كانَ ظاهره اليُسْر والغِنَى ، وهؤلاء الفقراء لا يلتفت الناس إليهم ، وربما لا يعلمون حالهم وحاجتهم ، وقد قال الله فيهم : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الجاهل أَغْنِيَآءَ مِنَ التعفف تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ الناس إِلْحَافاً . . ﴾ [البقرة : 273] .

والمعنى : كُلُوا مما يُبَاح لكم الأكل منه ، وهي الصدقة المحضة ، أو الهدية للبيت غير المشروطة بشيء ، يعني : لا هي دم قِرَان أو تمتُّع ، ولا هي فدية لمخالفة أمر من أمور الإحرام ، أو كانت نذراً فهذه كلها لا يؤكَل منها .

إذن : كلوا من الصدقة والتطوع ، وأطعموا كذلك البائس والفقير ، ومن رحمة الله بالفقراء أنْ جعل الأغنياء والمياسير هم الذين يبحثون عن الذبائح ويشترونها ويذهبون لمكان الذبح ويتحمَّلون مشقة هذا كله ، ثم يبحثون عن الفقير ليعطوه وهو جالس في مكانه مستريحاً ، يأتيه رِزْقه من فَضْل الله سهلاً وميسّراً .

لذلك يقولون : من شرف الفقير أنْ جعله الله ركناً من أركان إسلام الغنيّ ، أي : في فريضة الزكاة ، ولم يجعل الغني ركناً من أركان إسلام الفقير .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا . . ﴾

.

﴿ لْيَقْضُوا . . ﴾ [الحج : 29] كلمة قضاء تُقال ، إما لقضاء الله الذي يقضيه على الإنسان مثلاً ، وهو أمر لازم محكوم به ، وإما قضاء من إنسان بين متخاصمين ، وأول شيء في مهمة القضاء أن يقطع الخصومة ، كأن المعنى ﴿ لْيَقْضُوا . . ﴾ [الحج : 29] أي : يقطعوا .

ومعنى ﴿ تَفَثَهُمْ . . ﴾ [الحج : 29] لما نزل القرآن بهذه الكلمة لم تكن مستعملة في لسان قريش ، ولم تكن دائرة على ألسنتهم ، فسألوا عنها أهل البادية ، فقالوا : التفَثُ يعني : الأدران والأوساخ التي تعلَقُ بالجسم ، فقالوا : والله لم نعرفها إلا ساعةَ نزل القرآن بها .

فالمراد – إذن – ليقطعوا تفثهم أي الأدران التي لحقتهم بسبب التزامهم بأمور الإحرام ، حيث يمكث الحاجُّ أيام الحج مُحْرِماً لا يتطيب ، ولا يأخذ شيئاً من شعره أو أظافره ، فإذا ما أنهى أعمال الحج وذبح هَدْيَة يجوز له أنْ يقطع هذا التفث ، ويزيل هذه الأدران بالتحلُّل من الإحرام ، وفِعْل ما كان محظوراً عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ . . ﴾ [الحج : 29] يعني : طواف الإفاضة ، والطواف : أنْ تدور حول شيء بحيث تبدأ وتنتهي ، وتبدأ وتنتهي ، وهكذا ، وقد وصف البيت بأنه عتيق ، وكلمة عتيق استعملت في اللغة استعمالات واسعة ، منها : القديم ، وما دام هو أول بيت وُضِع للناس فهو إذن قديم ، والقِدَم هنا صفة مدح ؛ لأنها تعني الشيء الثمين الذي يُحافظ عليه ويُهتَم به .

كما نرى عند بعض الناس أشياء ثمينة ونادرة يحتفظون بها ويتوارثونها يسمونها " العاديات " مثل : التحف وغيرها ، وكلما مَرَّ عليها الزمن زادتْ قيمتها ، وغلا ثمنها .

(827/522)

والعتيق : الشيء الجميل الحسن ، والعتيق : المعتوق من السيطرة والعبودية لغيره ، فما المراد بوصف البيت هنا بأنه عتيق ؟

وَصْف البيت بالقِدَم يشمل كُلَّ هذه المعاني : فهو قديم ؛ لأنه أول بيت وُضِع للناس ، وهو غالٍ ونفيس ونادر حيث نرى فيه مَا لا نراه في غيره من آيات ، ويكفي أن رؤيته والطواف به تغفر الذنوب ، وهو بيت الله الذي لا مثيلَ له .

وهو كذلك عتيق بمعنى معتوق من سيطرة الغير ؛ لأن الله حفظه من اعتداء الجبابرة ، ألاَ

ترى قصة الفيل ، وما فعله الله بأبرهة حين أراد هَدْمه ؟ حتى الفيل الذي كان يتقدَّم هذا الجيش أدرك أن هذا اعتداءٌ على بيت الله ، فتراجع عن البيت ، وأخذ يتوجَّه أي وجهة أرادوا إلا ناحية الكعبة .

ويُقال : إن رجلاً تقدّم إلى الفيل . وقال في أذنه : ابْرُك محمود – اسم الفيل – وارجع راشداً فإنك ببلد الله الحرام . وقد عبَّر الشاعر عن هذا الموقف ، فقال :

حُبِسَ الفيل بالمُغَمَّسِ حَتَّى . . . ظَلَّ يعوي كأنه مَعْقُور

ثم ينزل الله عليهم الطير الأبابيل التي ترميهم بالحجارة حتى الموت .

لذلك لما ذهب عبد المطلب جَدُّ الرسول صلى الله عليه وسلم ليُكلِّم أبرهة في الإبل المائة التي أخذها من إبله ، قال أبرهة : لقد كنتُ أهابك حين رأيتُك ، لكنك سقطت من نظري لما كلَّمتني في مائة بعير أصبْتها لك ، وتركتَ البيت الذي فيه مجدُكم وعزكم .

فماذا قال عبد المطلب ؟ قال : أما الإبل فإنها لي ، أما البيت فله ربٌّ يحميه .

البعض يتهم عبد المطلب لمقالته هذه بالسلبية ، وليست هذه سلبية من كبير قريش ، إنما ثقةً منه في حماية الله لبيته ؛ لذلك رَدَّه إلى أقوى منه ، وكأنه قال : إنْ كنتُ أحميه أنا ، فسأحميه بقوتي وقدرتي وحيلتي ، لكنني أريد أنْ أرعبه بقدرة الله وقوته ، وما سلَّمتُ البيت إلاَّ وأنا واثق أن ربَّ البيت سيحميه ، وهذه تُزلزل العدو وتُربكه .

وما أشبه موقف عبد المطلب بموقف موسى عليه السلام ، لما قال له قومه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] فقال في يقين وثقة : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] .

إذن : لم يكُنْ عبد المطلب سلبياً كما يتهمه البعض ، بل كان إيجابياً من النوع الراقي ، فلو كان إيجابياً بالمعنى الذي تريدون لأعطتْه هذه الإيجابية منعةً بقوته هو ، إنما تصرُّفه وما تعتبرونه سلبية أعطاه منعةً بقدرة الله وقُوَّته سبحانه ؛ لذلك تدخَّلتْ فوراً جنود السماء .

لكن لماذا الطواف والدوران حول الكعبة ؟

قالوا : لأن المسلم وهو غائب عن الكعبة يُصلِّي لجهتها ، كلّ حسب موقعه منها ، فتجد المسلمين في كل أنحاء العالم يتجهون نحوها ، كل من ناحية ، هذا من الشمال ، وهذا من الجنوب ، وهذا من الشرق ، وهذا من الغرب ، يعني بكل الجهات الأصلية والفرعية .

فإذا ما ذهبتَ إلى الكعبة ذاتها ، وتشرفتَ برؤيتها ، فهل تستقبلها من نفس المكان الذي كنتَ تتجه إليه في صلاتك وغيرك وغيرك ؟ إذن : فكل اتجاهات الكعبة سواء لك ولغيرك ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله . . ﴾ [البقرة : 115] فليس هناك مكان أَوْلَى من مكان ؛ لذلك نطوف حول البيت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(829/522)

فائدة

قال التستري :

قوله : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ [27] قال : إن لله تعالى عباداً يذهبون إلى المساجد بعضهم على السرير ، وبعضهم على المراكب من ذهب عليها سندس ، وتجرها الملائكة .

قال أحمد بن سالم : كنت في أرض أصلحها ، فرأيت سهلاً على فرش فوق ماء الفرات .

وقال : دخلت يوماً دار سهل وكان بابه صغيراً ، فرأيت فرساً قائماً ، فخرجت فزعاً ، وتعجبت كيف دخل من هذا الباب الصغير ، فرآني سهل وقال : ارجع ، فرجعت فلم أر شيئاً .

وحكي أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أشرف على أهل عرفات فقال : لو يعلم الجمع هنا بفناء من نزلوا لاستبشروا بالفضل بعد المغفرة .

(830/522)

قوله : ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ [28] يعني الهدايا والضحايا .

وحكي عن فتح الموصلي أنه أشرف في يوم العيد على الموصل ، فرأى الدخان في بيوت الناس ، فقال : إلهي كم من متقرب إليك في هذه الليلة بقربان ، وقد تقربت إليك بقربان ، يعني الصلوات ، فما أنت صانع فيه يا محبوب .

وحكي عن عدي بن ثابت الأنصاري أنه قال : قربان المتقين الصلاة ، والله أعلم .

(831/522)

قوله : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ بالبيت العتيق ﴾ [29] قال : اختلف الناس فيه .

قال الحسن : إنما سماه عتيقاً تكرمه له ، كما تقول العرب : جسد عتيق ، وفرس عتيق إذا كان كريماً .

وحكى خاله محمد ابن سوار عن الثوري أنه قال : إنما قيل ذلك لأنه أقدم مساجد الله وأعتقها ، كما قال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً ﴾ [آل عمران : 96] ، وقال بعضهم : سماه عتيقاً لأنه لم يقصده جبار من الجبابرة بمكيدة إلا قصمه الله تعالى ، فأعتق البيت منه .

وقال بعضهم : لأنه أعتق من الغرق في زمن الطوفان ، حيث رفع إلى السماء ، وكما أعتق الله بيته كذلك أعتق قلب المؤمن من الغير ، وهو أقدم مما نصبه الله تعالى علماً في أرضه وجعله في المسجد الحرام ، كذلك القلب له قلب آخر ، وهو موضع وقوف العبد بين يدي مولاه ، لا يتحرك في شيء إنما هو ساكن إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 108.107 ﴾

(832/522)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾

وأخرج أبو الشيخ وابن عدي وابن مردويه والديلمي بسند ضعيف ، عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " دثر مكان البيت فلم يحجه هود ولا صالح حتى بوأه الله لإبراهيم " .

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه من طريق حارثة بن مضرب ، عن علي بن أبي طالب قال : لما أمر إبراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر ، فلما قدم مكة رأى على

رأسه في موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس ، فكلمه فقال : يا إبراهيم ، ابن على ظلي أو على قدري ولا تزد ولا تنقص . فلما بنى خرج وخلف إسماعيل وهاجر . وذلك حين يقول الله ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت . . . ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن عطاء بن أبي رباح قال : لما أهبط الله آدم كان رجلاه في الأرض ورأسه في السماء ، فيسمع كلام أهل السماء ودعاءهم فيأنس إليهم ، فهابت الملائكة منه حتى شكت إلى الله في دعائها وفي صلاتها ، فأخفضه الله إلى الأرض ، فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش حتى شكا إلى الله في دعائه وفي صلاته ، فوجه إلى مكة فكان موضع قدمه قرية وخطوة مفازة ، حتى انتهى إلى مكة فأنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة فكانت على موضع البيت الآن ، فلم يزل يطاف به حتى أنزل الله الطوفان فرفعت تلك الياقوتة ، حتى بعث الله إبراهيم فبناه . فذلك قول الله ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت . . . ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق معمر ، عن قتادة قال : وضع الله البيت مع آدم حين أهبط الله آدم إلى الأرض ، وكان مهبطه بأرض الهند ، وكان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض ، وكانت الملائكة تهابه فنقص إلى ستين ذراعاً ، فحزن آدم إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم فشكا ذلك إلى الله فقال الله :

" يا آدم ، إني قد أهبطت لك بيتاً يطاف به كما يطاف حول عرشي ، ويصلى عنده كما يصلى عند عرشي . . . فاخرج إليه " فخرج اليه آدم ومدّ له في خطوه ، فكان بين كل خطوتين مفازة . فلم تزل تلك المفاوز بعد على ذلك . . . وأتى آدم فطاف به ومن بعده من الأنبياء .

قال معمر : وأخبرني أبان أن البيت أهبط ياقوتة واحدة أو درة واحدة . قال معمر : وبلغني أن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً ، حتى إذا أغرق الله قوم نوح فقدوا بقي أساسه ، فبوّأه الله لإبراهيم فبناه بعد ذلك . فذلك قول الله ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت . . . ﴾ .

قال معمر : قال ابن جريج : قال ناس : أرسل الله سبحانه سحابه فيها رأس ، فقال الرأس : يا إبراهيم ، إن ربك يأمرك أن تأخذ قدر هذه السحابة . فجعل ينظر إليها ويخط قدرها . قال الرأس : قد فعلت ؟ قال : نعم . ثم ارتفعت فحفر فأبرز عن أساس ثابت في الأرض .

قال ابن جريج : قال مجاهد : أقبل الملك والصرد والسكينة مع إبراهيم من الشام ، فقالت السكينة : يا إبراهيم ، ريض على البيت . قال : فلذلك لا يطوف البيت أعرابي ولا ملك من هذه الملوك ، إلا رأيت عليه السكينة والوقار .

قال ابن جريج : وقال ابن المسيب : قال علي بن أبي طالب : وكان الله استودع الركن أبا قبيس ، فلما بنى إبراهيم ناداه أبو قبيس فقال : يا إبراهيم ، هذا الركن فيّ فخده . فحفر عنه فوضعه ، فلما فرغ إبراهيم من بنائه قال : قد فعلت يا رب ، فأرنا مناسكنا . . . أبرزها لنا وعلمناها . فبعث الله جبريل فحج به ، حتى إذا رأى عرفة قال : قد عرفت . وكان أتاها قبل ذلك مرة . قال : فلذلك سميت عرفة ، حتى إذا كان يوم النحر عرض له الشيطان فقال : احصب . فحصبه بسبع حصيات . ثم اليوم الثاني فالثالث فسدّ ما بين الجبلين – يعني إبليس – فلذلك كان رمي الجمار . قال : اعل على ثبير . فعلاه فنادى : يا عباد الله ، أجيبوا الله . . . يا عباد الله ، أطيعوا الله . . . فسمع دعوته من بين الأبحر السبع ممن كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان . فهي التي أعطى الله إبراهيم في المناسك قوله : لبيك اللهم لبيك ، ولم يزل على وجه الأرض سبعة مسلمون فصاعداً ، فلولا ذلك هلكت الأرض ومن عليها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار قال : كان البيت غثاة – وهي الماء – قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عاماً ، ومنه دحيت الأرض .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل ، عن السدي قال : إن الله عز وجل أمر إبراهيم أن يبني البيت هو وإسماعيل ، فانطلق إبراهيم حتى أتى مكة فقام هو وإسماعيل

وأخذ المعاول لا يدريان أين البيت ، فبعث الله ريحاً يقال لها ريح الخجوج ، لها جناحان ورأس في صورة حية ، فكنست لهما ما حول الكعبة من البيت الأول ، واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس .

(835/522)

فذلك حين يقول الله ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ فلما بنيا القواعد فبلغ مكان الركن ، قال إبراهيم لإسماعيل : اطلب لي حجراً حسناً أضعه ههنا . قال : يا أبت ، اني كسلان لغب . قال : عليّ ذلك . فانطلق يطلب له حجراً فأتاه بحجر فلم يرضه ، فقال : ائتني بحجر أحسن من هذا . فانطلق يطلب حجراً فجاءه جبريل بالحجر الأسود من الجنة ، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة ، وكان آدم هبط به من الجنة فاسوّد من خطايا الناس ، فجاءه إسماعيل بحجر فوجد عنده الركن فقال : يا أبت ، من جاءك بهذا ؟ قال : جاءني به من هو أنشط منك . فبينما هما يدعوان بالكلمات التي ابتلى بها إبراهيم ربه ، فلما فرغا من البنيان أمره الله أن ينادي . فقال ﴿ أذن في الناس بالحج ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن حوشب بن عقيل قال : سألت محمد بن عباد بن جعفر : متى كان البيت ؟ قال : خلقت الأشهر له . قلت : كم كان طول بناء إبراهيم ؟ قال : ثمانية

عشر ذراعاً . قلت : كم هو اليوم قال : ستة وعشرون ذراعاً : قلت : هل بقي من حجارة بناء إبراهيم شيء ؟ قال : حشي به البيت إلا حجرين مما يليا الحجر .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قال الله لنبيه ﴿ وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ قال : طواف قبل الصلاة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الطواف بالبيت بمنزلة الصلاة ، إلا أن الله قد أحل فيه المنطق ، فمن نطق فلا ينطق إلا بخير " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عطاء في قوله ﴿ للطائفين ﴾ قال : الذين يطوفون به ﴿ والقائمين ﴾ قال : المصلين عنده .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة قال : القائمون ، المصلون .

(836/522)

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : ربّ ، قد فرغت . فقال ﴿ أذن في الناس بالحج ﴾ قال : ربّ ، وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذّن وعليّ البلاغ . قال : ربّ ، كيف أقول ؟ قال : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج إلى البيت

العتيق . . . فسمعه من بين السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون . . . ؟

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي ، عن ابن عباس قال : لما بنى إبراهيم البيت ، أوحى الله إليه أن أذن في الناس بالحج .

فقال : ألا إن ربكم قد اتخذ بيتاً وأمركم أن تحجوه . فاستجاب له ما سمعه من حجر أو شجر أو أكمة أو تراب أو شيء . فقالوا : لبيك اللهم لبيك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما أمر الله إبراهيم أن ينادي في الناس بالحج ، صعد أبا قبيس فوضع أصبعيه في أذنيه ثم نادى : إن الله كتب عليكم الحج فأجيبوا ربكم . فأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، وأول من أجابه أهل اليمن . فليس حاج يحج من يومئذ إلى أن تقوم الساعة ، إلا من كان أجاب إبراهيم يومئذ .

وأخرج الديلمي بسندٍ واهٍ ، عن علي رفعه : لما نادى إبراهيم بالحج لبى الخلق ، فمن لبى تلبية واحدة حج حجة واحدة ، ومن لبى مرتين حج حجتين ، ومن زاد فبحساب ذلك .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وأذّن في الناس بالحج ﴾ قال : قام إبراهيم عليه السلام على الحجر فنادى : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج . . . فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فأجاب من آمن ممن سبق في علم الله أن يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ قال : وقرت في كل ذكر وأنثى .

(837/522)

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت ، أوحى الله إليه أن ﴿ أذن في الناس بالحج ﴾ فخرج فنادى في الناس : يا أيها الناس ، إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه . فلم يسمعه حينئذ من إنس ولا جن ولا شجرة ولا أكمة ولا تراب ولا جبل ولا ماء ولا شيء ، إلا قال : لبيك اللهم لبيك .

وأخرج أبو الشيخ في كتاب الأذان ، عن عبد الله بن الزبير قال : أخذ الأذان من أذان إبراهيم في الحج ﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ قال : فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير قال : لما أمر إبراهيم عليه السلام بدعاء الناس إلى الله ، استقبل المشرق فدعا ، ثم استقبل المغرب فدعا ، ثم استقبل الشام فدعا ، ثم استقبل اليمن فدعا ، فأجيب : لبيك لبيك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طلحة ، أن الله أوحى إلى إبراهيم عليه السلام أن ﴿

أذن في الناس بالحج ﴾ فقام على الحجر فقال : يا أيها الناس ، إن الله يأمركم بالحج . فأجابه من كان مخلوقاً في الأرض يومئذ ، ومن كان في أرحام النساء ، ومن كان في أصلاب الرجال ، ومن كان في البحور ، فقالوا : لبيك اللهم لبيك .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : قال جبريل لإبراهيم ﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ قال : كيف أؤذن ؟ قال : قل يا أيها الناس ، أجيبوا إلى ربكم ؛ ثلاث مرات .

فأجاب العباد فقالوا : لبيك اللهم ربنا لبيك ، لبيك اللهم ربنا لبيك . فمن أجاب إبراهيم يومئذ من الخلق فهو حاج .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : لما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت ، أمر إبراهيم أن يؤذن بالحج ، فقام على الصفا فنادى بصوت سمعه ما بين المشرق والمغرب يا أيها الناس ، أجيبوا إلى ربكم . فأجابوه وهم في أصلاب آبائهم فقالوا : لبيك . قال : فإنما يحج البيت اليوم من أجاب إبراهيم يومئذ .

(838/522)

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : لما أذن إبراهيم بالحج قال : يا أيها الناس ، أجيبوا ربكم . فلبى كل رطب ويابس .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب ، عن مجاهد قال : لما أمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج ، قام على المقام فنادى بصوت أسمع من بين المشرق والمغرب : يا أيها الناس ، أجيبوا ربكم .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب ، عن مجاهد قال : قال إبراهيم : كيف أقول ؟ قال : قل يا أيها الناس أجيبوا ربكم . فما خلق الله من جبل ولا شجر ولا شيء من المطيعين له ، إلا ينادي : لبيك اللهم لبيك . فصارت التلبية .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : تطاول به المقام حتى كان كأطول جبل في الأرض ، فأذن فيهم بالحج فأسمع من تحت البحور السبع وقالوا : لبيك أطعنا . . . لبيك أجبنا . فكل من حج إلى يوم القيامة ممن استجاب له يومئذ .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : قيل لإبراهيم ﴿ أذن في الناس بالحج ﴾ قال : يا رب ، كيف أقول ؟ قال : قل لبيك اللهم لبيك . فكان إبراهيم أول من لبى .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : لما أمر إبراهيم بالحج قام على المقام فنادى نداء سمعه جميع أهل الأرض : ألا إن ربكم قد وضع بيتاً وأمركم أن تحجوه . فجعل الله في أثر قدميه آية في الصخرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء قال : صعد إبراهيم على الصفا فقال : يا أيها الناس ، أجيبوا ربكم . فأسمع من كان حياً في أصلاب الرجال .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : أجاب إبراهيم كل جنّي وإنسي وكل شجر وحجر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس قال : لما أمر إبراهيم أن يؤذن في الناس ، تواضعت له الجبال ورفعت له الأرض فقام فقال : يا أيها الناس ، أجيبوا ربكم .

(839/522)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : صعد إبراهيم أبا قبيس فقال : الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن إبراهيم رسول الله . . . أيها الناس ، إن الله أمرني أن أنادي في الناس بالحج .

. . أيها الناس ، أجيبوا ربكم . فأجابه من أخذ الله ميثاقه بالحج إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ يعني بالناس أهل القبلة ، ألم تسمع أنه قال ﴿ إن أول بيت وضع للناس . . . ﴾ [آل عمران : 96] إلى قوله ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ [آل عمران : 97] يقول : ومن دخله من الناس الذين أمر أن يؤذن فيهم وكتب عليهم الحج .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ، ﴿ يأتوك رجالاً ﴾ قال : مشاة ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ قال : الإبل ﴿ يأتين من كل فج عميق ﴾ قال : بعيد .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن محمد بن كعب القرظي قال : سمعت ابن عباس يقول : ما آسى على شيء إلا أني لم أكن حججت راجلاً ؛ لأني سمعت الله يقول ﴿ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر ﴾ وهكذا كان يقرأوها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما آسى على شيء فاتني ، إلا أني لم أحج ماشياً حتى أدركني الكبر أسمع الله تعالى يقول ﴿ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر ﴾ فبدأ بالرجال قبل الركبان .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن مجاهد ، أن إبراهيم وإسماعيل حجا وهما ماشيان .

وأخرج ابن خزيمة والحاكم وصححه والبيهقي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من حج من مكة ماشياً حتى يرجع إلى مكة ، كتب الله له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم . قيل : وما حسنات الحرم ؟ قال : بكل حسنة مائة ألف حسنة " .

(840/522)

وأخرج ابن سعد وابن مردويه والضياء في المختارة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن للحاج الراكب بكل خطوة تخطوها راحلته سبعين حسنة ، وللماشي بكل قدم سبعمائة حسنة من حسنات الحرم . قيل : يا رسول الله ، وما حسنات الحرم ! ؟ قال : الحسنة مائة ألف حسنة " .

وأخرج البيهقي وضعفه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الملائكة لتصافح ركاب الحجاج وتعتنق المشاة " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يأتوك رجالاً ﴾ قال : على أرجلهم ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ قال : الإبل ﴿ يأتون من كل فج عميق ﴾ يعني مكان بعيد .

وأخرج ابن جرير وعبد الرزاق عن مجاهد رضي الله عنه قال : كانوا يحجون ولا يتزوّدون ، فأنزل الله ﴿ وتزودوا ﴾ [البقرة : 197] . وكانوا يحجون ولا يركبون ، فأنزل الله ﴿ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر ﴾ فأمرهم بالزاد ورخص لهم في الركوب والمتجر .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ من كل فج عميق ﴾ قال : طريق بعيد قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول الشاعر :

فساروا العناء وسدوا الفجاج. . . بأجساد عادلها آيدات

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر ﴾ قال: هم المشاة والركبان.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ قال: ما تبلغه المطي حتى تضمر.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ من كل فج عميق ﴾ قال: طريق بعيد.

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك رضي الله عنه مثله.

وأخرج ابن المنذر عن أبي العالية رضي الله عنه ﴿ من كل فج عميق ﴾ قال: مكان بعيد.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه مثله.

(841/522)

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبيد بن عمير قال: لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ركباً يريدون البيت فقال: من أنتم؟ فأجابه أحدثهم سناً فقال: عباد الله المسلمون.

فقال : من أين جئتم ؟ قال : من الفج العميق . قال : أين تريدون ؟ قال : البيت العتيق .

فقال عمر رضي الله عنه : تأوّلها لعمر الله . فقال عمر رضي الله عنه : من أميركم ؟

فأشار إلى شيخ منهم ، فقال عمر : بل أنت أميرهم لأحدثهم سناً الذي أجابه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ قال : أسواقاً كانت لهم . ما ذكر الله منافع إلا الدنيا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ قال : منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة . فأمّا منافع الآخرة ، فرضوان الله عز وجل . وأما منافع الدنيا ، فما يصيبون من لحوم البدن في ذلك اليوم والذبائح والتجارات .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ قال : الأجر في الآخرة والتجارة في الدنيا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل رضي الله عنه في قوله ﴿ ويذكروا اسم الله ﴾ قال : فيما ينحرون من البدن .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ويذكروا اسم الله ﴾ قال : كان يقال : إذا ذبحت نسيكتك فقل بسم الله والله أكبر ، اللهم هذا منك ولك عن فلان ، ثم كل وأطعم كما أمرك الله : الجار والأقرب فالأقرب .

وأخرج أبو بكر المروزي في كتاب العيدين وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما

قال : الأيام المعلومات ، أيام العشر .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الأيام المعلومات : يوم النحر وثلاثة أيام بعده .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ في أيام معلومات ﴾ يعني أيام التشريق .

(842/522)

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ في أيام معلومات ﴾ يعني أيام التشريق ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ يعني البدن .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله عنه قال : الأيام المعلومات والمعدودات ، هن جميعهن أربعة أيام . فالمعلومات ، يوم النحر ويومان بعده . والمعدودات ، ثلاثة أيام بعد يوم النحر .

وأخرج ابن المنذر عن علي رضي الله عنه قال : الأيام المعلومات ، يوم النحر وثلاثة أيام بعده .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ في أيام

معلومات ﴾ قال : قبل يوم التروية بيوم ، ويوم التروية ، ويوم عرفة .

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء ومجاهد رضي الله عنه قال : الأيام المعلومات ، أيام العشر .

وأخرج عن سعيد بن جبير والحسن رضي الله عنه مثله .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن إبراهيم رضي الله عنه قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائح نسائكم ، فأنزل الله ﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ فرخص للمسلمين ، فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه ، عن مجاهد في الآية قال : هي رخصة ، إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل . بمنزلة قوله : ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء ﴿ فكلوا منها وأطعموا ﴾ قال : إذا ذبحتم فاهدوا وكلوا وأطعموا وأقلوا لحوم الأضاحي عندكم .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح الحنفي رضي الله عنه ﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ قال : هي في الأضاحي .

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء رضي الله عنه قال : إن شاء أكل من الهدي والأضحية ؛ وإن شاء لم يأكل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فكلوا منها ﴾ أن ابن مسعود كان يقول للذي يبعث : بهديه معه : كُلْ ثلثاً ، وتصدق بالثلث ، واهد لآل عتبة ثلثاً .

(843/522)

وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال : نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل جزور بضعة ، فجعلت في قدر فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي من اللحم وحسوا من المرق . قال سفيان : لأن الله يقول ﴿ فكلوا منها ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وأطعموا البائس ﴾ قال : الزمن .

وأخرج الطستي عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قول الله ﴿ وأطعموا البائس الفقير ﴾ قال : ﴿ البائس ﴾ الذي لم يجد شيئاً من شدة الحاجة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت طرفة وهو يقول :

يغشاهم البائس المدقع . . . والضيف وجار مجاور جنب

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ومجاهد قالا ﴿ البائس ﴾ الذي يمد كفيه إلى الناس يسأل .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه قال : ﴿ البائس ﴾ المضطر

الذي عليه البؤس و﴿ الفقير ﴾ الضعيف .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله و﴿ البائس الفقير ﴾ قال : هما سواء .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال : ﴿ البائس الفقير ﴾ الذي به زمانه وهو فقير .

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عمر رضي الله عنه قال : التفث ، المناسك كلها .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : التفث ، قضاء النسك كله .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه قال في التفث : حلق الرأس ، والأخذ من العارضين ، ونتف الابط ، وحلق العانة والوقوف بعرفة ، والسعي بين الصفا والمروة ، ورمي الجمار ، وقص الأظفار ، وقص الشارب ، والذبح .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ قال : يعني بالتفث : وضع إحرامهم من حلق الرأس ، ولبس الثياب ، وقص الأظفار . . . ونحو ذلك ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ قال : يعني نحر ما نذروا من البدن .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ قال : التفث ، كل شيء أحرموا منه ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ قال : هو الحج .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : ﴿ ليقضوا تفثهم ﴾ قال : حلق الرأس والعانة ، ونتف الأبط ، وقص الشارب والأظفار ، ورمي الجمار ، وقص اللحية : ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ قال : نذر الحج .

وأخرج ابن أبي شيبة عن محمد بن كعب قال : التفث ، حلق العانة ، ونتف الابط ، وأخذ من الشارب ، وتقليم الأظفار .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه ، أنه قرأ ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ مثقله بجزم اللام . ﴿ وليطوفوا ﴾ بجزم اللام مثقلة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وليطوفوا ﴾ قال : هو الطواف الواجب يوم النحر .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد ، عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ وليطوفوا ﴾ قال : هو الطواف الواجب يوم النحر .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ وليطوفوا ﴾ قال : طواف الزيارة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وليطوفوا ﴾ قال : يعني زيارة البيت . ولفظ ابن جرير : هو طواف الزيارة يوم النحر .

وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وحسنه وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنما سمى الله البيت العتيق ؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط " .

(845/522)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : البيت العتيق ، لأنه أعتق من الجبابرة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد

رضي الله عنه قال : إنما سمي البيت العتيق ؛ لأنه أعتق من الجبابرة لم يدعه جبار قط . وفي لفظ : فليس في الأرض جبار يدعي أنه له .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه قال : إنما سمي البيت العتيق ؛ لأنه لم يرده أحد بسوء إلا هلك .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : إنما سمي البيت العتيق ؛ لأنه أعتق من الغرق في زمان نوح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال : إنما سمي العتيق ؛ لأنه أول بيت وضع .

وأخرج ابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنما جعل الطواف بالبيت ملاذاً ؛ لأن الله لما خلق آدم أمر إبليس بالسجود له فأبى ، فغضب الرحمن فلاذت الملائكة بالبيت حتى سكن غضبه " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه .

وأخرج سفيان بن عيينة والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس قال : الحجر من البيت ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت من ورائه . قال الله ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : طواف الوداع واجب ، وهو قول الله ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي جمرة قال : قال لي ابن عباس : أتقرأ سورة الحج ؟ يقول الله ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ قال : فإن آخر المناسك الطواف بالبيت .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كانوا ينفرون من منى إلى وجوههم ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون آخر عهدهم بالبيت ، ورخص للحائض .

(846/522)

وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري قال : من طاف بهذا البيت سبعاً لا يتكلم فيه إلا بتكبير أو تهليل ، كان عدل رقبة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمر قال : من طاف بالبيت أسبوعاً وصلى ركعتين ، كان مثل يوم ولدته أمه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو قال : من طاف بالبيت كان عدل رقبة .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب ، عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من طاف بالبيت سبعاً يحصيه ، كتب الله له بكل

خطوة حسنة ومحيت عنه سيئة ورفعت له درجة ، وكان له عدل رقبة " .

وأخرج ابن عدي والبيهقي عن أبي عقال قال : طفت مع أنس في مطرة فقال لنا : استأنفوا العمل فقد غفر لكم ، طفت من نبيكم صلى الله عليه وسلم في مثل هذا اليوم فقال : " استأنفوا العمل فقد غفر لكم " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن محمد بن المنكدر عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من طاف حول البيت أسبوعاً لا يلغو فيه ، كان عدل رقبة يعتقها " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : من طاف بالبيت خمسين أسبوعاً ، خرج من الذنوب كيوم ولدته أمه .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه عن جبير بن مطعم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يا بني عبد مناف ، لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت وصلى أي ساعة شاء من ليل أو نهار " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي الدرداء ، أنه طاف بالبيت بعد العصر وصلى ركعتين ، فقيل له فقال : إنها ليست كسائر البلدان .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر ، أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان إذا طاف بالبيت ، استلم الحجر والركن في كل طواف .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : رأيت عمر بن الخطاب قبّل الحجر وسجد

عليه ، ثم قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبَّل الركن اليماني ووضع خده عليه .

(847/522)

وأخرج الحاكم وصححه ، عن سعيد بن جبير قال : كان ابن عباس يقول : احفظوا هذا الحديث . وكان يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو به بين الركنين : " رب قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه ، واخلف عليّ كل غائبة بخير " .

وأخرج الترمذي والحاكم وصححه ، عن ابن عباس يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الطواف بالبيت مثل الصلاة ، إلا أنكم تتكلمون ، فمن تكلم فلا يتكلم إلا بخير " .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب ماء في الطواف .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب ، عن عبد الأعلى التيمي قال : " قالت خديجة رضي الله عنها : " يا رسول الله ، ما أقول وأنا أطوف بالبيت ؟ قال : قولي : اللهم اغفر ذنوبي وخطئي وعمدي وإسرافي في أمري ، إنك إن لا تغفر لي تهلكني " " .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه ، عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : أسمعت ابن عباس ؟

قال : إنما أمرتم بالطواف به ولم تؤمروا بدخوله . قال : لم يكن نهانا عن دخوله ، ولكن سمعته يقول : أخبرني أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل البيت ، فلما خرج ركع ركعتين في قبل البيت . وقال : هذه القبلة .

وأخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندي وهو قرير العين طيب النفس ، ثم رجع وهو حزين فقلت : يا رسول الله ، خرجت من عندي وأنت كذا وكذا . . . ! قال : إني دخلت الكعبة . . . وددت أني لم أكن فعلته ، إني أخاف أن أكون أتعبت أمتي من بعدي " .

وأخرج الحاكم وصححه عن عائشة ، أنها كانت تقول : عجباً للمرء المسلم ! إذا دخل الكعبة حين يرفع بصره قِبَل السقف ، يدع ذلك إجلالاً لله وإعظاماً ، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة ما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(848/522)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا ﴾ : أي : اذكرْ حينَ . واللامُ في "لإبراهيم" فيها ثلاثةُ أوجهٍ أحدُها : أنها للعلةِ ، ويكون مفعولُ "بَوَّأْنا" محذوفاً أي : بَوَّأْنا الناسَ لأجل إبراهيم مكانَ البيت . و "بَوَّأَ" جاء متعدياً صَريحاً قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [يونس : 93] ، ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفاً ﴾ [العنكبوت : 58] . وقال الشاعر :

3382 كَمْ مِنْ أَخٍ لِيَ صالحٍ . . . بَوَّأْتُه بيَدي لَحْدا

والثاني : أنها مزيدةٌ في المفعولِ به . وهو ضعيفٌ ؛ لِما عَرَفْتَ أنها لا تُزاد إلاَّ إنْ تَقَدَّم المعمولُ ، أو كان العاملُ فرعاً الثالث : أَنْ تكونَ مُعَدِّيَةً للفعل على أنه مُضَمَّنٌ معنى فعل يتعدَّى بها أي : هَيَّأْنا له مكانَ البيتِ كقولك : هَيَّأْتُ له بيتاً ، فتكونُ اللامُ مُعدِّيَةً قال معناه أبو البقاء . وقال الزمخشري : "واذكرْ حينَ جَعَلْنا لإبراهيمَ مكان البيت مباءة" ففسَّر المعنى بأنه ضَمَّن "بَوَّأْنا" معنى جَعَلْنا ، ولا يريد تفسيرَ الإعرابَ .

وفي ﴿ مَكَانَ البيت ﴾ وجهان ، أظهرُهما : أنَّه مفعولٌ به . والثاني : قال أبو البقاء : "أَنْ يكونَ ظرفاً" . وهو ممتنعٌ من حيث إنَّه ظرفٌ مختصٌّ فحَقُّه أن يتعدى إليه ب في .

(849/522)

قوله : ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ ﴾ في " أنْ هذه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنَّها هي المفسِّرَةُ . قال الزمخشري : بعد أنْ ذكَرَ هذا الوجه : " فإن قلتَ : كيف يكونُ النهيُ عن الشرك والأمرِ بتطهيرِ البيتِ تفسيراً للتبوئَةِ ؟ قلت : كانت البتوئةُ مقصودةً من أجل العبادةِ ، وكأنه قيل : تعبَّدْنا إبراهيمَ قُلْنا له : لا تُشْرِكْ " . قلت : يعني أبو القاسم أنَّ " أنْ " المفسرةَ لا بُدَّ أن يتقدَّمها ما هو بمعنى القولِ لا حروفِه ، ولم يتقدَّم إلاَّ التَّبْوئَةُ وليست بمعنى القول ، فضمَّنها معنى القول ، ولا يريدُ بقولِه " قلنا : لا تشرك " تفسيرَ الإعراب بل تفسيرُ المعنى ؛ لأنَّ المفسِّرةَ لا تفسِّر القولَ الصريح . وقال أبو البقاء : " تقديرُه : قائِلين له : لا تشركْ ف " أنْ " مفسرةٌ للقولِ المقدَّر " وهذا . . . .

الثاني : أنَّها المخففةُ من الثقيلةِ ، قاله ابن عطية . وفيه نظرٌ من حيث إن " أَنْ " المخففةَ لا بُدَّ أَنْ يتقدَّمَها فعلُ تحقيقٍ أو ترجيح ، كحالِها إذا كانَتْ مشددة .

الثالث : أنها المصدريةُ التي تنصِبُ المضارعَ ، وهي تُوْصَلُ بالماضي والمضارعِ والأمرِ ، والنهي كالأمر . وعلى هذا ف " أنْ " مجرورةٌ بلام العلةِ مقدرةً أي : بَوَّأناه لئلا تشركَ . وكان من حقِّ اللفظِ على هذا الوجه أن يكون " أن لا يشرك " بياء الغَيْبةِ ، وقد قُرِىء بذلك . قال أبو البقاء : " وقوى ذلك قراءةُ مَنْ قرأه بالياء " يعني مِنْ تحتُ . قلت : ووجهُ قراءةِ العامَّةِ على هذا التخريج أن تكونَ من الالتفاتِ من الغيبة إلى الخطاب .

الرابع : أنها الناصبةُ ، ومجرورةٌ بلام أيضاً . إلاَّ أن اللامَ متعلقةٌ بمحذوفٍ أي : فَعَلْناه ذلك

لئلا تشركَ ، فجعل النهيَ صلةً لها . وقوّى ذلك قراءةُ الياء . قاله أبو البقاء والأصلُ عدمُ التقديرِ مع عدمِ الاحتياج إليه .

(850/522)

وقرأ عكرمة وأبو نهيك "أن لا يُشرِك" بالياء . قال الشيخ : "على معنى : أَنْ يقولَ معنى القول الذي قيل له" . وقال أبو حاتم : "ولا بُدَّ مِنْ نصبِ الكافِ على هذه القراءةِ بمعنى لئلا تشركَ" . قلت : كأنه لم يظهرْ له صلةٌ "أنْ المصدرية بجملةِ النهي . فجعل "لا" نافيةً ، وسلَّط "أنْ" على المضارعِ بعدها ، حتى صار علةً للفعل قبله . وهذا غيرُ لازمٍ لما تقدَّم لك من وضوحِ المعنى مع جَعْلِها ناهيةً .

قوله : ﴿ وَأَذِّن ﴾ : قرأ العامَّةُ بتشديد الذال بمعنى نادِ . وقرأ الحسنُ وابن محيصن "آذِنْ" بالمدِّ والتخفيف بمعنى أَعْلِمْ . ويُبْعِدُه قوله : ﴿ فِي الناس ﴾ إذ كان ينبغي أَنْ يتعدَّى بنفسِه . وقرآ أيضاً فيما نقله عنهما أبو الفتح "أَذِنَ" بالقصر وتخفيف الذال . وخرَّجها أبو الفتح وصاحب "اللوامح" على أنها عطفٌ على "بَوَّأْنا" أي : واذكرْ/ إذ بَوَّأْنا وإذ أَذِنَ في الناس وهي تخريجٌ واضح . وزاد صاحب "اللوامح" فقال : "فيصيرُ في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ ويصير "يأتوك" جزماً على جواب الأمر الذي في "وطهِّرْ" : ونَسَب ابنُ عطية أبا

الفتح في هذه القراءةِ إلى التصحيفِ فقال بعد أن حكى قراءةَ الحسنِ وابن محيصنٍ " وآذِنْ " بالمَدّ و " تَصَحَّفَ هذا على ابن جني فإنَّه حكى عنهما " وأَذِنَ " على فعلٍ ماضٍ . وأعربَ على ذلك بأَنْ جعَلَه عطفاً على " بَوَّأْنا " .

قلت : ولم يَتَصَحَّفْ فِعْلُه ، بل حكى تلك القراءةَ أبو الفضل الرازي في " اللوامح " له عنهما ، وذكرها أيضاً ابنُ خالويه ، ولكنه لم يَطَّلِعْ عليها فنسَبَ مَنْ اطَّلع إلى التصحيفِ ولو تأَنَّى أصاب أو كاد .

وقرأ ابنُ أبي إسحاقَ " بالحِجِّ " بكسرِ الحاء حيث وَقَع كما قَدَّمْتُه عنه .

(851/522)

قوله : ﴿ رِجَالاً ﴾ نصبٌ على الحالِ ، وهو جمعُ راجِل نحو : صاحِب وصِحاب وتاجِر وتِجار وقائِم وقِيام . وقرأ عكرمة والحسن وأبو مجلز " رُجَّالاً " بضمِّ الراء وتشديدِ الجيمِ . ورُوي عنهم تخفيفُها . وافقهم ابنُ أبي إسحاق على التخفيفِ وجعفر من محمد ومجاهدٌ على التشديد . ورُوِيَتْ عن ابن عباس بالألف . فالمخفف اسمُ جمعٍ كظُؤَار ، والمشدَّدُ جمعُ تكسيرٍ كصائم وصُوَّام . ورُوي عن عكرمةَ أيضاً " رُجَالى " كنُعامى بألف التأنيث ، وكذلك عن ابنِ عباس وعطاء ، إلاَّ أنهما شدَّدا الجيمَ .

قوله : ﴿ وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ نسَقٌ على " رِجالاً " فيكون حالاً أي : مُشاةً وركباناً .

قوله : ﴿ يَأْتِينَ ﴾ النونُ ضميرُ " كلِّ ضامِرٍ " حَمْلاً على المعنى ؛ إذ المعنى : على ضوامرَ . و " يَأْتِيْنَ " صفةٌ لـ " ضامِر " . وأتى بضميرِ الجمعِ حَمْلاً على المعنى . وكان قد تقرَّر أولَ هذا التصنيفِ أنَّ " كل " إذا أُضِيْفَتْ إلى نكرةٍ لم يُراعَ معناها ، إلاَّ في قليلٍ كقوله :

3383 جادَتْ عليه كلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ . . . فتركْنَ كلَّ حَديقةٍ كالدِّرْهَمِ

وهذه الآيةُ تَرُدُّه ؛ فإنَّ " كلاً " فيها مضافةٌ لنكرةٍ وقد روعي معناها . وكان بعضُهم أجاب عن بيتِ زهير بأنه إنما جاز ذلك لأنه في جملتين ، فقلت : فهذه الآيةُ جملةٌ واحدةٌ لأنَّ " يَأْتِيْنَ " صفةٌ لـ " ضامِر " .

وجَوَّز الشيخ أَنْ يكونَ الضميرُ يَشْمَلُ رجالاً وكل ضامر قال : " على معنى الجماعات والرفاق " قلت : فعلى هذا يجوزُ أَنْ يقالَ عنده : الرجال يَأْتِيْنَ .

ولا ينفعُه كونُه اجتمع مع الرجال هنا كلُّ ضامر فيقال : جاز ذلك لَمَّا اجتمع معه ما يجوزُ فيه ذلك ؛ إذ يلزمُ منه تغليبُ غيرِ العاقلِ على العاقلِ ، وهو ممنوعٌ .

(852/522)

وقرأ ابن مسعود والضحاك وابنُ أبي عبلة "يَأْتُونَ" تغليباً للعقلاءِ الذكورِ ، وعلى هذا فيحتمل أَنْ يكونَ قولُه : ﴿ وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ حالاً أيضاً . ويكون "يَأْتُون" مستأنفاً يتعلَّقُ به ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ ﴾ أي : يَأْتُوكَ رِجالاً وركباناً ثم قال : يأتون من كلِّ فَج ، وأَنْ يتعلَّقَ بقوله : "يَأْتُون" أي : يأتون على كلِّ ضامرٍ من كلِّ فَج ، و "يَأْتُون" مستأنفٌ أيضاً . ولا يجوز أن يكونَ صفةً ل "رجالاً" ول "ضامِر" لاختلافِ الموصوفِ في الإعرابِ ؛ لأنَّ أحدَهما منصوبٌ والآخَرَ مجرورٌ . لو قلت "رأيتُ زيداً ومررت بعمرٍو العاقِلَيْن" على النعتِ لم يَجُزْ ، بل على القطعِ . وقد جَوَّزَ ذلك الزمخشري فقال : "وقرىء "يأْتُون" صفةً للرجال والركبان" وهو مردودٌ بما ذكرتُه .

والضَّامِرُ : المَهْزولِ ، يقال : . . . . والعميق : البعيدُ سُفلاً . يقال : بئر عَميق ومَعِيق ، فيجوز أن يكون مقلوباً ، لأنه أَقَلُّ من الأول قال :

3384 إذا الخيلُ جاءت مِنْ فِجاجٍ عميقةٍ . . . يَمُدُّ بها في السيرِ أشعثُ شاحِبُ

يقال : عَمِقَ وعَمُقَ بكسر العين وضَمِّها عَمْقاً بفتح الفاء . قال الليث : عَميق ومَعِيق ، والعَميق في الطريق أكثرُ" . وقال الفراء : "عميق" لغةُ الحجازِ ، و "مَعِيْق" لغةُ تميم" . وأَعْمَقْتُ البئرَ وأَمْعَقْتُها ، وعَمُقَتْ ومَعُقَتْ عَماقَةً ومَعَاقة وإعْماقاً وإمْعاقاً . قال رؤبة :

3385 وقاتمِ الأعماقِ خاوي المُخْتَرَقْ . . . الأعماقُ هنا بفتح الهمزة جمع عُمْق ، وعلى

هذا فلا قلبَ في مَعِيق لأنها لغة مستقلة ، وهو ظاهرُ قولِ الليث أيضاً . وقرأ ابن مسعود " فج مَعِيق " بتقديم الميم . ويقال : غَمِيق بالغين المعجمةِ أيضاً .

(853/522)

قوله : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ ﴾ : يجوز في هذه اللامِ وجهان أحدهما : أن يتعلَّقَ ب " أَذِّن " أي : أَذِّنِ لِيَشْهدوا . والثاني : أنها متعلقةٌ ب " يأْتُوْك " وهو الأظهرُ . قال الزمخشري : " ونكَّر منافع لأنه أرادَ منافع مختصةً بهذه العبادةِ دينية ودنياوية لا تُوْجَدُ في غيرها من العبادات " .

قوله : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ ﴾ : العامَّةُ على كسرِ اللامِ وهي لامُ الأمرِ . وقرأ نافع والكوفيون والبزي بسكونِها إجراءً للمنفصلِ مُجْرى المتصل نحو " كَتْف " وهو نظيرُ تسكينِ هاء " هو " بعد " ثُمَّ " في قراءةِ الكسائي وقالون حيث أُجْرِيَتْ " ثُمَّ " مجرى الواو والفاء .

والتَّفَثُ قيل : أصلُه مِنْ التَّفِّ وهو وَسَخُ الأظفارِ ، قُلِبَت الفاءُ ثاءً كمُغْثُور في مُغْفُور . وقيل : هو الوسخُ والقَذَرُ يقال : ما تَفَثُكَ ؟ وحكى قطرب : تَفِثَ الرجل أي : كَثُرَ وسخُه في سَفَره . ومعنى " ليقْضُوا تَفَثَهم " : ليصنعوا ما يصنعه المُحْرِمُ مِنْ إزالةِ شعر وشَعْثٍ ونحوِهما عند حِلِّه ، وفي ضمن هذا قضاءُ جميعِ المناسك ، إذ لا يُفعل هذا إلاَّ بعد فِعْل

المناسِك كلّها .

قوله : ﴿ وَلْيُوفُواْ ﴾ قرأ أبو بكر " وليُوَفُّوا " بالتشديد . والباقون بالتخفيف . وقد تقدم في البقرة أن فيه ثلاث لغاتٍ : وَفَى ووفَّى وأوفى . وقرأ بن ذكوان " وِلِيُوْفوا " بكسر اللام ، والباقون بسكونها ، وكذلك هذا الخلاف جارٍ في قوله : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 261.269 ﴾

(854/522)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾

أصلحنا له مكانَ البيت وأسكنَّاه منه ؛ وأرشدناه له ، وهديناه إليه ، وأَعنَّاه عليه ، وذلك أنه رفع البيت إلى السماء الرابعة في زمن طوفان نوح عليه السلام ، ثم أمر إبراهيم عليه السلام ببناءِ البيت على أساسه القديم . قوله ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئاً ﴾ ، أي لا تلاحظ البيتَ ولا بناءَك له .

﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ . . . . ﴾ يعني الكعبة – وذلك على لسان العلم ، وعلى بيان الإشارة فَرِّغ

قَلبَكَ عن الأشياء كلَّها سوى ذِكْرِه – سبحانه .

وفي بعض الكتب : " أوحى الله إلى بعض الأنبياء فَرِّغ لي بيتاً أسكنه ، فقال ذلك الرسول : إلهي . . . أي بيت تشغل ؟ فأوحى الله إليه : ذلك قلب عبدي المؤمن " . والمراد منه ذكر الله تعالى ؛ فالإشارة أن يفرِّغ قلبه لذكر الله . وتفريغ القلب على أقسام : أوله نم الغفلة ثم مِنْ توهُّم شيءٍ من الحدثان من غير الله .

ويقال قد تكون المطالبة على قوم بِصَوْنِ القلب عن ملاحظة العمل ، وتكون المطالبة على الآخرين بحراسة القلب عن المساكنة إلى الأحوال .

ويقال : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ : أي قَلبكَ عن التطلع والاختيار ؛ بألا يكون لك عند الله حظٌّ في الدنيا أو في الآخرة حتى تكون عبداً له بكمال قيامك بحقائق العبودية .

ويقال ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ : أي بإخراج كل نصيب لك في الدنيا والآخرة من تطلعِ إكرام ، أو تَطَلُّبِ إنعام ، أو إرادة مقام ، أو سبب من الاختيار والاستقبال .

ويقال طَهِّرْ قلبك للطائفين فيه من موارد الأحوال على ما يختاره الحق . ﴿ والقَآئِمِينَ ﴾ وهي الأشياء المقيمة من مستودعات العرفان في القلب من الأمور المُغْنِيةِ عن البرهان ، ويتطلع بما هو حقائق البيان التي هي كالعيان كما في الخبر : "كأنك تراه" .

(855/522)

﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ : هي أركان الأحوال المتوالية من الرغبة والرهبة ، والرجاء والمخافة ، والقبض والبسط ، وفي معناه أنشدوا :

لست من جملة المحبين إن لم . . . أجعل القلبَ بيتَه والمقاما

وطوافي إجالةُ السّرّ فيه . . . وهو ركني إذا أردتُ استلاما

قوله : ﴿ لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً ﴾ : لا تلاحظ البيت ولا بِنَاءكَ للبيت .

ويقال هو شهود البيت دون الاستغراق في شهود ربّ البيت .

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27)

أَذَّن إبراهم – عليه السلام – بالحج ونادى ، وأسمع اللَّهُ نداءَه جميعَ الذرية في أصلابِ آبائهم ، فاستجاب مَنْ المعلوم مِنْ حاله أنه يحج .

وقدَّم الرَّجالةَ على الركبان لأنَّ الحَمْلَ على المركوب أكثر .

ولتلك الجِمالِ على الجمال خصوصية لأنها مركب الأحباب ، وفي قريبٍ من معناه أنشدوا :

وإنَّ جِمالاً قد علاها جَمَالُكُم . . . – وإن قُطِّعَتْ أكبادنا – لحبائب

ويقال ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ هذا على وجه المدح وسبيل الشكر منهم .

وكم قَدْرُ مسافةِ الدنيا بجملتها ! ؟ ولكنْ لِأَجْلِ قَدْرِ أفعالهم وتعظيمِ صنيعِهم يقول ذلك

إظهاراً لفضله وكرمه .

قوله جلّ ذكره ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ .

أرباب الأموال منافعهم أموالُهم ، وأرباب الأعمال منافعُهم حلاوةُ طاعتهم ، وأصحاب الأحوال منافعهم صفاءُ أنفاسهم ، وأهلُ التوحيد منافعهم رضاهم باختيارِ الحقِّ ما يبدو من الغيب لهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾ .

لأقوامٍ عند التقرُّب بقرابينهم وسوق هَدْيِهم . وآخرون يذكرون اسمه عند ذَبْحِهم أمانيهم واختيارهم بسكاكين اليأس . . حتى يقوموا بالله لله بِمَحَوِ ما سوى الله .

(856/522)

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ ﴾ .

شاركُوا الفقراءَ في الأكل من ذبيحتكم – الذي ليس بواجب – لتلحقكم بركاتُ الفقراء .

والإشارة فيه أن ينزلوا ساحةَ الخضوع والتواضع ، ومجانبة الزَّهْوِ والتكبُّر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ .

ليقضوا حوائجهم وليحققوا عهودَهم ، وليوفوا نذورهم فيما عقدوه مع الله بقلوبهم ، فَمَنْ كان عقدُه التوبة فوفاؤه ألا يرجعَ إلى العصيان . ومَنْ كان عَهْدُه اعتناقَ الطاعةِ فَشَرْطُ وفائه تركُ تقصيره . ومن كان عهدُه ألا يرجع إلى طلب مقامٍ وتطلُّعِ إكرام فوفاؤه استقامته على الجملة في هذا الطريق بألا يرجع إلى استعجالِ نصيبٍ واقتضاءِ حظٍ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ .

الإشارة في الطواف إلى أنه يطوف بنَفْسه حولَ البيت ، وبقلبه في ملكوت السماء ، وبِسِرِّه في ساحات الملكوت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 538. 540 ﴾

(857/522)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والعشرون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/523)

الجزء الثالث والعشرون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 30 ﴾ من سورة الحج

وحتى الآية ﴿ 35 ﴾ من نفس السورة

(4/523)

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ

مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم أشار إلى تعظيم الحج وأفعاله هذه بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر الجليل العظيم الكبير المنافع دنيا وأخرى ذلك .

ولما كان التقدير : فمن فعله سعد ، ومن انتهك شيئاً منه شقي ، عطف عليه قوله : ﴿ ومن يعظم ﴾ أي بغاية جهده ﴿ حرمات الله ﴾ أي ذي الجلال والإكرام كلها من هذا ومن غيره ، وهي الأمور التي جعلها له فحث على فعلها أو تركها ﴿ فهو ﴾ أي التعظيم الحامل له على امتثال الأمر فيها على وجهه واجتناب المنهي عنه كالطواف عرياناً والذبح بذكر اسم غير الله ﴿ خير ﴾ كائن ﴿ له عند ربه ﴾ الذي أسدى إليه كل ما هو فيه من النعم فوجب عليه شكره فإن ذلك يدل على تقوى قلبه ، لأن تعظيمها من تقوى القلوب ، وتعظيمها لجلال الله ، وانتهاكها شر عليه عند ربه .

ولما كان التقدير : فقد حرمت عليكم أشياء أن تفعلوها ، وأشياء أن تتركوها ، عطف عليه قوله بياناً أن الإحرام لم يؤثر فيها كما أثر في الصيد : ﴿ وأحلت لكم الأنعام ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم كلها ﴿ إلا ما يتلى ﴾ أي على سبيل التجديد مستمراً ﴿ عليكم ﴾

تحريمه من الميتة والدم وما أهل لغير الله به ، خلافاً للكفار في افترائهم على الله بالتعبد بتحريم الوصيلة والبحيرة والسائبة والحامي وإحلال الميتة والدم .

ولما أفهم ذلك حل السوائب وما معها وتحريم المذبوح للأنصاب ، وكان سبب ذلك كله الأوثان ، سبب عنه قوله : ﴿ فاجتنبوا ﴾ أي بغاية الجهد اقتداء بالأب الأعظم إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي تقدم الإيصاء له بمثل ذلك عند جعل البيت له مباءة ﴿ الرجس ﴾ أي القذر الذي من حقه أن يجتنب من غير أمر ؛ ثم بينه وميزه بقوله : ﴿ من الأوثان ﴾ أي القذر الذي من حقه أن يجتنب من غير أمر ، فإنه إذا اجتنب السبب اجتنب المسبب .

ولما كان ذلك كله من الزور ، أتبعه النهي عن جميع الزور ، وزاد في تبشيعه وتغليظه إذ عدله - كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - بالشرك فقال : ﴿ واجتنبوا ﴾ أي بكل اعتبار ﴿ قول الزور ﴾ أي جميعه ، وهو الانحراف عن الدليل كالشرك المؤدي إلى لزوم عجز الإله وتحريم ما لم ينزل الله به سلطاناً من السائبة وما معها ، وتحليل الميتة ونحوها مما قام الدليل السمعي على تحريمه كما أن الحنف الميل مع الدليل ، ولذلك أتبعه قوله : ﴿ حنفاء لله ﴾ الذي له الكمال كله ، فلا ميل في شيء من فعله ، وإنما كانا كذلك مع اجتماعهما في مطلق الميل ، لأن الزور تدور مادته على القوة والوعورة ، والحنف - كما مضى في البقرة - على

الرقة والسهوله ، فكان ذو الزور معرضاً عن الدليل بما فيه من الكثافة والحنيف مقبلاً على الدليل بما له من الاطافة .

(5/523)

ولما أفهم ذلك التوحيد ، أكده بقوله : ﴿ غير مشركين به ﴾ أي شيئاً من إشراك ، بل مخلصين له الدين ، ودل على عظمة التوحيد وعلوه ، وفظاعة الشرك وسفوله ، بقوله زاجراً عنه عاطفاً على ما تقديره : فمن امتثل ذلك أعلاه اعتداله إلى الرفيق الأعلى : ﴿ ومن يشرك ﴾ أي يوقع شيئاً من الشرك ﴿ بالله ﴾ أي الذي له العظمة كلها ، لشيء من الأشياء في وقت من الأوقات ﴿ فكأنما خرّ من السماء ﴾ لعلو ما كان فيه من أوج التوحيد وسفول ما انحط إليه من حضيض الإشراك .

ولما كان الساقط من هذا العلو متقطعاً لا محالة إما بسباع الطير أو بالوقوع على جلد ، عبر عن ذلك بقوله : ﴿ فتخطفه الطير ﴾ أي قطعاً بينها ، وهو نازل في الهواء قبل أن يصل إلى الأرض ﴿ أو تهوي به الريح ﴾ أي حيث لم يجد في الهواء ما يهلكه ﴿ في مكان ﴾ من الأرض ﴿ سحيق ﴾ أي بعيد في السفول ، فيتقطع حال وصوله إلى الأرض بقوة السقطة وشدة الضغطة لبعد المحل الذي خر منه وزل عنه ، فالآية من الاحتباك : خطف الطير

الملزوم للتقطع أولاً دال على حذف التقطع ثانياً ، والمكان السحيق الملزوم لبلوغ الأرض ثانياً دليل على حذف ضده أولاً ؛ ثم عظم ما تقدم من التوحيد وما هو مسبب عنه بالإشارة بأداة البعد . ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) ﴾ .

(6/523)

﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الكبير ذلك ، فمن راعاه فاز ، ومن حاد عنه خاب ؛ ثم عطف عليه ما هو أعم من هذا المقدر فقال : ﴿ ومن ﴾ ويجوز أن يكون حالاً ، أي أشير إلى الأمر العظيم والحال أنه من ﴿ يعظم شعائر الله ﴾ أي معالم دين الملك الأعظم التي ندب إليها وأمر بالقيام بها في الحج ، جمع شعيرة وهي المنسك والعلامة في الحج ، والشعيرة أيضاً : البدنة المهداة إلى البيت الحرام ، قال البغوي : وأصلها من الإشعار وهو إعلامها ليعرف أنها هدي - انتهى .

(7/523)

ولعله مأخوذ من الشعر لأنها إذا جرحت قطع شيء من شعرها أو أزيل عن محل الجرح ، فيكون من الإزالة ، وتعظيمها استحسانها ، فتعظيمها خير له لدلالته على تقوى قلبه ﴿ فإنها ﴾ أي تعظيمها ﴿ من ﴾ أي مبتدىء من ﴿ تقوى القلوب ﴾ التي من شأنها الشعور بما هو أهل لأن يعظم ، فمعظمها متق ، وقد علم بما ذكرته أنه حذف من هذه جملة الخير ومن قوله ﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ سبب كونه خيراً له ، وهو التقوى ، ودل على إرادته هناك بذكره هنا ، وحذف هنا كون التعظيم خيراً ، ودل عليه بذكره هناك ، فقد ذكر في كل جملة ما دل على ما حذف من الأخرى كما تقدم في ﴿ قد كان لكم آية في فئتين ﴾ [آل عمران : 13] في آل عمران ، وأنه يسمى الاحتباك ، وتفسيري للشعائر بما بما ذكرته من الأمر العام جائز الإرادة ، ويكون إعادة الضمير على نوع منه نوعاً من الاستخدام ، فقوله : ﴿ لكم فيها ﴾ معناه : البدن أو النعم المهداة أو مطلقاً ﴿ منافع ﴾ بالدر والنسل والظهر ونحوه فكلما كانت سمينة حسنة كانت منافعها أكثر ديناً ودنيا ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو الموت الذي قدرناه على كل نفس ، أو النحر إن كانت مهداة ، أو غير ذلك ، وهذا تعليل للجملة التي قبله ، فإن المنافع حاملة لذوي البصائر على التفكر فيها لا سيما مع تفاوتها ، والتفكر فيها موصل إلى التقوى بمعرفة أنها من الله ، وأنه قادر على ما يريد .

وأنه لا شريك له .

ولما كانت هذه المنافع دنيوية ، وكانت منفعة نحرها إذا أهديت دينية ، أشار إلى تعظيم الثاني بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم محلها ﴾ أي وقت حلول نحرها بانتهائكم بها ﴿ إلى البيت العتيق ﴾ أي إلى فنائه وهو الحرم كما قال تعالى ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 149 . 151 ﴾

(8/523)

فصل

قال الفخر :

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾

قال صاحب "الكشاف" ﴿ ذلك ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي الأمر والشأن ذلك كما يقدم الكاتب جملة من كلامه في بعض المعاني فإذا أراد الخوض في معنى آخر قال هذا وقد كان كذا ، والحرمة ما لا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها يحتمل أن يكون عاماً في جميع تكاليفه ، ويحتمل أن يكون خاصاً فيما يتعلق بالحج ، وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس : الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمشعر الحرام ، وقال المتكلمون ولا تدخل النوافل في حرمات الله تعالى : ﴿ فَهُوَ

خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ أي فالتعظيم خير له للعلم بأنه يجب القيام بمراعاتها وحفظها ، وقوله : ﴿ عِندَ رَبِّهِ ﴾ يدل على الثواب المدخر لأنه لا يقال عند ربه فيما قد حصل من الخيرات ، قال الأصم فهو خير له من التهاون بذلك ، ثم إنه تعالى عاد إلى بيان حكم الحج فقال : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام ﴾ فقد كان يجوز أن يظن أن الإحرام إذا حرم الصيد وغيره فالأنعام أيضاً تحرم فبين الله تعالى أن الإحرام لا يؤثر فيها فهي محللة ، واستثنى منه ما يتلى في كتاب الله من المحرمات من النعم وهو المذكور في سورة المائدة وهو قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصيد وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة : 1] وقوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ﴾ [المائدة : 3] وقوله : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام : 121] ، ثم إنه سبحانه لما حث على تعظيم حرماته وحمد من يعظمها أتبعه بالأمر باجتناب الأوثان وقول الزور .

(9/523)

لأن توحيد الله تعالى وصدق القول أعظم الخيرات ، وإنما جمع الشرك وقول الزور في سلك واحد لأن الشرك من باب الزور ، لأن المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة فكأنه قال فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور ، واجتنبوا قول الزور كله ، ولا تقربوا منه شيئاً لتماديه في القبح والسماجة ، وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان وسمى الأوثان

رجساً لا للنجاسة ، لكن لأن وجوب تجنبها أوكد من وجوب تجنب الرجس ولأن عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات .

ثم قال الأصم إنما وصفها بذلك لأن عادتهم في المتقربات أن يتعمدوا سقوط الدماء عليها وهذا بعيد وقيل إنه إنما وصفها بذلك استحقاراً واستخفافاً وهذا أقرب ، وقوله : ﴿ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ بيان للرجس وتمييز له كقوله عندي عشرون من الدراهم لأن الرجس لما فيه من الإيهام يتناول كل شيء ، فكأنه قال فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان ، وليس المراد أن بعضها ليس كذلك ، والزور من الزور والإزورار وهو الانحراف ، كما أن الإفك من أفكه إذا صرفه ، والمفسرون ذكروا في قول الزور وجوهاً : أحدها : أنه قولهم هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افترائهم وثانيها : شهادة الزور عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أنه صلى الصبح فلما سلم قام قائماً واستقبل الناس بوجهه وقال عدلت شهادة الزور الإشراك بالله " وتلا هذه الآية وثالثها : الكذب والبهتان ورابعها : قول أهل الجاهلية في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك .

أما قوله تعالى : ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ ﴾ فقد تقدم ذكر تفسير ذلك وأنه الاستقامة على قول بعضهم والميل إلى الحق على قول البعض ، والمراد في هذا الموضع ما قيل من أنه الإخلاص فكأنه قال تمسكوا بهذه الأمور التي أمرت ونهيت على وجه العبادة لله وحده لا على وجه إشراك غير الله به .

ولذلك قال ﴿ غير مشركين به ﴾ وهذا يدل على أن الواجب على المكلف أن ينوي بما يأتيه من العبادة الإخلاص فبين تعالى مثلين للكفر لا مزيد عليهما في بيان أن الكافر ضار بنفسه غير منتفع بها .

وهو قوله : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ قال صاحب "الكشاف" إن كان هذا تشبيهاً مركباً فكأنه قيل من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس وراءه هلاك بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرقت أجزاؤه في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة .

وإن كان تشبيهاً مفرقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله كالساقط من السماء والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذي يطرحه في وادي الضلالة بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة .

وقرىء بكسر الخاء والطاء وبكسر الفاء مع كسرهما وهي قراءة الحسن وأصلها تختطفه وقرىء الرياح .

ثم إنه سبحانه أكد ما تقدم فقال ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ واختلفوا فقال بعضهم يدخل فيه كل عبادة وقال بعضهم بل المناسك في الحج وقال بعضهم بل المراد الهدي خاصة والأصل في الشعائر الأعلام التي بها يعرف الشيء فإذا فسرنا الشعائر بالهدايا فتعظيمها على وجهين : أحدهما : أن يختارها عظام الأجسام حساناً جساماً سماناً غالية الأثمان ويترك المكاس في شرائها ، فقد كانوا يتغالون في ثلاثة ويكرهون المكاس فيهن الهدي والأضحية والرقبة .

روي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن أبيه " أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك ، " وقال بل أهدها " "وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب " والوجه الثاني : في تعظيم شعائر الله تعالى أن يعتقد أن طاعة الله تعالى في التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد وأن يحتفل به ويتسارع فيه ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ أي إن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى من ارتبط به

وإنما ذكرت القلوب لأن المنافق قد يظهر التقوى من نفسه .

ولكن لما كان قلبه خالياً عنها لا جرم لا يكون مجداً في أداء الطاعات ، أما المخلص الذي تكون التقوى متمكنة في قلبه فإنه يبالغ في أداء الطاعات على سبيل الإخلاص ، فإن قال قائل : ما الحكمة في أن الله تعالى بالغ في تعظيم ذبح الحيوانات هذه المبالغة ؟

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33) ﴾

(12/523)

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا منافع إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ لا يليق إلا بأن تحمل الشعائر على الهدي الذي فيه منافع إلى وقت النحر ، ومن يحمل ذلك على سائر الواجبات يقول لكم فيها أي في التمسك بها منافع إلى أجل ينقطع التكليف عنده ، والأول هو قول جمهور المفسرين ، ولا شك أنه أقرب .

وعلى هذا القول فالمنافع مفسرة بالدر والنسل والأوبار وركوب ظهورها ، فأما قوله ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ ففيه قولان : أحدهما : أن لكم أن تنتفعوا بهذه البهائم إلى أن تسموها ضحية وهدياً فإذا فعلتم ذلك فليس لكم أن تنتفعوا بها ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والضحاك وقال آخرون ﴿ لكم فيها ﴾ أي في البدن ﴿ منافع ﴾ مع

تسميتها هدياً بأن تركبوها إن احتجتم إليها وأن تشربوا ألبانها إذا اضطررتم إليها ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ يعني إلى أن تنحروها هذه هي الرواية الثانية عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو اختيار الشافعي ، وهذا القول أولى لأنه تعالى قال : ﴿ لَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ أي في الشعائر ولا تسمى شعائر قبل أن تسمى هدياً وروى أبو هريرة أنه عليه السلام " مر برجل يسوق بدنة وهو في جهد ، فقال عليه السلام اركبها فقال يا رسول الله إنها هدى فقال اركبها ويلك " وروى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اركبوا الهدي بالمعروف حتى تجدوا ظهراً " واحتج أبو حنيفة رحمه الله على أنه لا يملك منافعها بأن لا يجوز له أن يؤجرها للركوب فلو كان مالكاً لمنافعها لملك عقد الإجارة عليها كمنافع سائر المملوكات ، وهذا ضعيف لأن أم الولد لا يمكنه بيعها ، ويمكنه الانتفاع بها فكذا ههنا .

(13/523)

أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إلى البيت العتيق ﴾ فالمعنى أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم وأعظم هذه المنافع محلها إلى البيت العتيق أي وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت ، كقوله : ﴿ هَدْياً بالغ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] وبالجملة فقوله : ﴿ مَحِلُّهَا ﴾ يعني حيث يحل نحرها ، وأما البيت العتيق فالمراد به الحرم كله ،

ودليله قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا ﴾ [التوبة : 28] أي الحرم كله فالمنحر على هذا القول كل مكة ، ولكنها تنزهت عن الدماء إلى منى ومنى من مكة ، قال عليه السلام : "كل فجاج مكة منحر وكل فجاج منى منحر " قال القفال هذا إنما يختص بالهدايا التي بلغت منى فأما الهدي المتطوع به إذا عطب قبل بلوغ مكة فإن محله موضعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 28 . 30 ﴾

(14/523)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ ﴾

يَعْنِي بِهِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ اجْتِنَابَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي وَقْتِ الْإِحْرَامِ تَعْظِيمًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتِعْظَامًا لِمُوَاقَعَةِ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فِي إحْرَامِهِ صِيَانَةً لِحَجِّهِ وَإِحْرَامِهِ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ مِنْ تَرْكِ اسْتِعْظَامِهِ وَالتَّهَاوُنِ بِهِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ قِيلَ فِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : إلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَالْمَوْقُوذَةِ وَالْمُتَرَدِّيَةِ وَالنَّطِيحَةِ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ .

وَالثَّانِي : وَأُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ فِي حَالِ إحْرَامِكُمْ إلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ مِنْ الصَّيْدِ فَإِنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى الْمُحْرِمِ .

(15/523)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الْأَوْثَانِ ﴾ يَعْنِي : اجْتَنِبُوا تَعْظِيمَ الْأَوْثَانِ فَلَا تُعَظِّمُوهَا وَاجْتَنِبُوا الذَّبَائِحَ لَهَا عَلَى مَا كَانَ يَفْعَلُهُ الْمُشْرِكُونَ ، وَسَمَّاهَا رِجْسًا اسْتِقْذَارًا لَهَا وَاسْتِخْفَافًا بِهَا ، وَإِنَّمَا أَمَرَهُمْ بِاسْتِقْذَارِهَا ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَنْحَرُونَ عَلَيْهَا هَدَايَاهُمْ وَيَصُبُّونَ عَلَيْهَا الدِّمَاءَ وَكَانُوا مَعَ هَذِهِ النَّجَاسَاتِ يُعَظِّمُونَهَا ، فَنَهَى اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ تَعْظِيمِهَا وَعِبَادَتِهَا وَسَمَّاهَا رِجْسًا لِقَذَارَتِهَا وَنَجَاسَتِهَا مِنْ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرْنَا ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ سَمَّاهَا رِجْسًا لِلُزُومِ اجْتِنَابِهَا كَاجْتِنَابِ الْأَقْذَارِ وَالْأَنْجَاسِ .

بَابُ شَهَادَةِ الزُّورِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ وَالزُّورُ الْكَذِبُ وَذَلِكَ عَامٌّ فِي سَائِرِ وُجُوهِ الْكَذِبِ ، وَأَعْظَمُهَا الْكُفْرُ بِاللَّهِ وَالْكَذِبُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(16/523)

وَقَدْ دَخَلَ فِيهِ شَهَادَةُ الزُّورِ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ وَيَعْلَى ابْنَا عُبَيْدٍ عَنْ سُفْيَانَ الْعُصْفُرِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ حَبِيبِ بْنِ النُّعْمَانِ عَنْ خُرَيْمِ بْنِ فَاتِكٍ قَالَ : صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالْإِشْرَاكِ بِاللَّهِ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ ﴾ وَرَوَى وَائِلُ بْنُ رَبِيعَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : ﴿ عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالشِّرْكِ بِاللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ .

﴾ وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْمُؤَدِّبُ قَالَ : حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْفُرَاتِ التَّمِيمِيُّ قَالَ : سَمِعْتُ مُحَارِبَ بْنَ دِثَارٍ يَقُولُ : أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ شَاهِدُ الزُّورِ لَا تَزُولُ قَدَمَاهُ حَتَّى تُوجِبَ لَهُ النَّارَ ﴾ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي حُكْمِ شَاهِدِ الزُّورِ ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : " لَا يُعَزَّرُ " وَهَذَا عِنْدَنَا عَلَى أَنَّهُ إنْ جَاءَ تَائِبًا ، فَأَمَّا إنْ كَانَ مُصِرًّا فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ عِنْدِي بَيْنَهُمْ فِي أَنَّهُ يُعَزَّرُ .

(17/523)

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ : "يُضْرَبُ وَيُسَخَّمُ وَجْهُهُ وَيُشَهَّرُ وَيُحْبَسُ" .

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : "أُتِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِشَاهِدِ زُورٍ ، فَجَرَّدَهُ وَأَوْقَفَهُ لِلنَّاسِ يَوْمًا وَقَالَ : هَذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ فَاعْرِفُوهُ ثُمَّ حَبَسَهُ" .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ الْبَزَّازُ قَالَ : حَدَّثَنَا خَلَفُ بْنُ هِشَامٍ قَالَ : حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ الْحَجَّاجِ عَنْ مَكْحُولٍ ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ فِي الشَّاهِدِ الزُّورِ : "يُضْرَبُ ظَهْرُهُ وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ وَيُسَخَّمُ وَجْهُهُ وَيُطَالُ حَبْسُهُ" .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : الشَّعَائِرُ جَمْعُ شَعِيرَةٍ ، وَهِيَ الْعَلَامَةُ الَّتِي تُشْعِرُ بِمَا جُعِلَتْ لَهُ ، وَإِشْعَارُ الْبُدْنِ هُوَ أَنْ نُعَلِّمَهَا بِمَا يُشْعِرُ أَنَّهَا هَدْيٌ ، فَقِيلَ عَلَى هَذَا : إنَّ الشَّعَائِرَ عَلَامَاتُ مَنَاسِكِ الْحَجِّ كُلِّهَا ، مِنْهَا رَمْيُ الْجِمَارِ وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَوَى حَبِيبٌ الْمُعَلِّمُ عَنْ عَطَاءٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَقَالَ : "حُرُمَاتُ اللَّهِ اتِّبَاعُ طَاعَتِهِ وَاجْتِنَابُ مَعْصِيَتِهِ فَذَلِكَ شَعَائِرُ اللَّهِ" .

وَرَوَى شَرِيكٌ عَنْ جَابِرٍ عَنْ عَطَاءٍ : ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ قَالَ : "اسْتِسْمَانُهَا وَاسْتِعْظَامُهَا" .

(18/523)

وَرَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ قَالَ : " فِي الِاسْتِحْسَانِ وَالِاسْتِسْمَانِ وَالِاسْتِعْظَامِ " وَعَنْ عِكْرِمَةَ مِثْلُهُ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ .

وَقَالَ الْحَسَنُ " شَعَائِرُ اللَّهِ دِينُ اللَّهِ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْوُجُوهُ كُلُّهَا مُرَادَةً بِالْآيَةِ لِاحْتِمَالِهَا لَهَا .

بَابٌ فِي رُكُوبِ الْبَدَنَةِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : " لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ فِي أَلْبَانِهَا وَظُهُورِهَا وَأَصْوَافِهَا إِلَى أَنْ تُسَمَّى بُدْنًا ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ " ، وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ مِثْلُهُ .

وَقَالَ عَطَاءٌ : " إِنَّهُ يُنْتَفَعُ بِهَا إِلَى أَنْ تُنْحَرَ " وَهُوَ قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَاتَّفَقَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَنْ تَابَعَهُ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أُرِيدَ بِهِ إِلَى أَنْ تَصِيرَ بُدْنًا ، فَذَلِكَ هُوَ الْأَجَلُ الْمُسَمَّى ، وَكَرِهُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تُرْكَبَ ، وَقَالَ عَطَاءٌ وَمَنْ وَافَقَهُ : " يَرْكَبُهَا بَعْدَ أَنْ تَصِيرَ بَدَنَةً " وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ : " وَيَرْكَبُهَا غَيْرَ فَادِحٍ لَهَا وَيَحْلُبُهَا عَنْ فَضْلِ وَلَدِهَا " .

(19/523)

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ أَخْبَارٌ يُحْتَجُّ بِهَا مَنْ أَبَاحَ رُكُوبَهَا ، فَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلًا يَسُوقُ بَدَنَةً فَقَالَ لَهُ : ﴿ وَيْحَكَ ارْكَبْهَا فَقَالَ : إنَّهَا بَدَنَةٌ فَقَالَ : وَيْحَكَ ارْكَبْهَا ﴾ وَرَوَى شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوَ ذَلِكَ .

وَهَذَا عِنْدَنَا إنَّمَا أَبَاحَهُ لِضَرُورَةِ عِلْمِهِ مِنْ حَاجَةِ الرَّجُلِ إلَيْهَا ، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ فِي أَخْبَارٍ أُخَرَ ، مِنْهَا مَا رَوَى إسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ حُمَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : ﴿ مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ يَسُوقُ بَدَنَةً وَهُوَ يَمْشِي وَقَدْ بَلَغَ مِنْهُ فَقَالَ : ارْكَبْهَا قَالَ : إنَّهَا بَدَنَةٌ قَالَ : ارْكَبْهَا ﴾ وَسُئِلَ جَابِرٌ عَنْ رُكُوبِ الْهَدْيِ فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ ارْكَبْهَا بِالْمَعْرُوفِ إذَا أُلْجِئْتَ إلَيْهَا حَتَّى تَجِدَ ظَهْرًا ﴾ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ

قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ فِي رُكُوبِ الْهَدْيِ قَالَ : ارْكَبْ بِالْمَعْرُوفِ إذَا احْتَجْتَ إلَيْهَا حَتَّى تَجِدَ ظَهْرًا ﴾ .

فَبَيَّنَ فِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ أَنَّ إبَاحَةَ رُكُوبِهَا مَعْقُودَةٌ بِشَرِيطَةِ الضَّرُورَةِ إلَيْهَا ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مَنَافِعَهَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُؤَاجِرَهَا لِلرُّكُوبِ ، فَلَوْ كَانَ مَالِكًا لِمَنَافِعِهَا لَمَلَكَ عَقْدَ الْإِجَارَةِ عَلَيْهَا كَمَنَافِعِ سَائِرِ الْمَمْلُوكَاتِ .

(20/523)

بَابُ مَحِلِّ الْهَدْيِ مَحِلُّ الْهَدْيِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ مُرَادَهُ تَعَالَى فِيمَا جُعِلَ هَدْيًا أَوْ بَدَنَةً أَوْ فِيمَا وَجَبَ أَنْ تُجْعَلَ هَدْيًا مِنْ وَاجِبٍ فِي ذِمَّتِهِ ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَحِلَّ مَا كَانَ هَذَا وَصْفُهُ إلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، وَالْمُرَادُ بِالْبَيْتِ هَهُنَا الْحَرَمُ كُلُّهُ ؛ إذْ مَعْلُومٌ أَنَّهَا لَا تُذْبَحُ عِنْدَ الْبَيْتِ وَلَا فِي الْمَسْجِدِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ الْحَرَمُ كُلُّهُ ، فَعَبَّرَ عَنْهُ بِذِكْرِ الْبَيْتِ ؛ إذْ كَانَتْ حُرْمَةُ الْحَرَمِ كُلِّهِ مُتَعَلِّقَةً بِالْبَيْتِ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي جَزَاءِ الصَّيْدِ : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ وَلَا خِلَافَ أَنَّ الْمُرَادَ الْحَرَمُ كُلُّهُ .

وَقَدْ رَوَى أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ عَرَفَةُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ وَمِنًى كُلُّهَا مَنْحَرٌ وَكُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ طَرِيقٌ وَمَنْحَرٌ ﴾ ، وَعُمُومُ الْآيَةِ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مَحِلُّ سَائِرِ الْهَدَايَا الْحَرَمَ وَلَا يُجْزِئُ فِي غَيْرِهِ ؛ إذْ لَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَ شَيْءٍ مِنْهَا .

(21/523)

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي هَدْيِ الْإِحْصَارِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا : " مَحِلُّهُ ذَبْحُهُ فِي الْحَرَمِ " وَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ وَكَانَ الْمَحِلُّ مُجْمَلًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، فَلَمَّا قَالَ : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ بَيَّنَ فِيهِ مَا أَجْمَلَ ذِكْرَهُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَحِلُّ هَدْيِ الْإِحْصَارِ الْحَرَمَ .

وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي سَائِرِ الْهَدَايَا الَّتِي يَتَعَلَّقُ وُجُوبُهَا بِالْإِحْرَامِ مِثْلُ جَزَاءِ الصَّيْدِ وَفِدْيَةِ الْأَذَى وَدَمِ التَّمَتُّعِ أَنَّ مَحِلَّهَا الْحَرَمُ ، فَكَذَلِكَ هَدْيُ الْإِحْصَارِ لَمَّا تَعَلَّقَ وُجُوبُهُ بِالْإِحْرَامِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِي الْحَرَمِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(22/523)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : الْحُرُمَاتُ : امْتِثَالُ مَا أَمَرَ بِهِ ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ ، فَإِنَّ لِهَذَا حُرْمَةَ الْمُبَادَرَةِ إلَى الِامْتِثَالِ ، وَلِذَلِكَ حُرْمَةُ الِانْكِفَافِ وَالِانْزِجَارِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي

سُورَةِ الْمَائِدَةِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ وَصَفَ اللَّهُ الْأَوْثَانَ بِأَنَّهَا رِجْسٌ، وَالرِّجْسُ النَّجِسُ، وَهِيَ نَجِسَةٌ حُكْمًا، وَالنَّجَاسَةُ لَيْسَتْ وَصْفًا ذَاتِيًّا لِلْأَعْيَانِ، وَإِنَّمَا هِيَ وَصْفٌ شَرْعِيٌّ مِنْ أَحْكَامِ الْإِيمَانِ، وَلِهَذَا قُلْنَا: إنَّهَا لَا تُزَالُ إلَّا بِالْإِيمَانِ كَمَا لَمْ تَجُزْ الطَّهَارَةُ فِي الْأَعْضَاءِ إلَّا بِالْمَاءِ، إذْ الْمَنْعَانِ مُتَمَاثِلَانِ فِي حُكْمِ الشَّرْعِ لَيْسَا بِجِنْسَيْنِ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَسْأَلَةِ إزَالَةِ النَّجَاسَةِ مِنْ مَسَائِلِ الْخِلَافِ.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ وَهُوَ الْكَذِبُ.

وَلَهُ مُتَعَلِّقَاتٌ، أَعْظَمُهَا عُقُوبَةُ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ فِي ذَاتِهِ، أَوْ صِفَاتِهِ أَوْ أَفْعَالِهِ، وَهُوَ الشِّرْكُ.

وَيُلْحَقُ بِهِ الْكَذِبُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّهُ عَلَى اللَّهِ؛ إذْ بِكَلَامِهِ يَتَكَلَّمُ.

الْمُتَعَلِّقُ الثَّانِي: الشَّهَادَةُ.

(23/523)

وَهُوَ تَصْوِيرُ الْبَاطِلِ بِصُورَةِ الْحَقِّ فِي طَرِيقِ الْحُكْمِ؛ ﴿ وَلِهَذَا عَظَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَهَا، فَذَكَرَ الْكَبَائِرَ، فَقَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَقَوْلُ

الزُّورِ ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ .

فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا : لَيْتَهُ سَكَتَ ﴾ .

وَمِنْ طَرِيقٍ آخَرَ : ﴿ عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الْإِشْرَاكَ بِاللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ ﴾ .

ثُمَّ تَتَفَاوَتُ مُتَعَلَّقَاتُ الْكَذِبِ بِحَسَبِ عِظَمِ ضَرَرِهِ وَقِلَّتِهِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ : وَاحِدُهَا شَعِيرَةٌ ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا أَنَّهَا الْمَعَالِمُ .

وَحَقِيقَتُهَا أَنَّهَا فَعِيلَةٌ ، مِنْ شَعَرَتْ ، بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ .

وَشَعَرْتُ : دَرَيْتُ ، وَتَفَطَّنْتُ ، وَعَلِمْتُ ، وَتَحَقَّقْتُ ؛ كُلُّهُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ فِي الْأَصْلِ ، وَتَتَبَايَنُ الْمُتَعَلَّقَاتُ فِي الْعُرْفِ ، هَذَا مَعْنَاهُ لُغَةً .

فَأَمَّا الْمُرَادُ بِهَا فِي الشَّرْعِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فَفِي ذَلِكَ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا عَرَفَةُ ، وَالْمُزْدَلِفَةُ ، وَالصَّفَا ، وَالْمَرْوَةُ ، وَمَحَلُّ الشَّعَائِرِ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

قَالَهُ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ .

الثَّانِي : أَنَّهَا مَنَاسِكُ الْحَجِّ وَتَعْظِيمُهُ اسْتِيفَاؤُهَا .

الثَّالِثُ : أَنَّهَا الْبُدْنُ ، وَتَعْظِيمُهَا اسْتِسْمَانُهَا .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ دِينُ اللَّهِ وَكُتُبُهُ ، وَتَعْظِيمُهَا الْتِزَامُهَا .

وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا جَمِيعُ مَنَاسِكِ الْحَجِّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ يُرِيدُ فَإِنَّ حَالَةَ التَّعْظِيمِ إذَا كَسَتْ الْعَبْدَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا فَأَصْلُهُ تُقَاةُ الْقَلْبِ بِصَلَاحِ السِّرِّ وَإِخْلَاصِ النِّيَّةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّعْظِيمَ مِنْ أَفْعَالِ الْقَلْبِ ، وَهُوَ الْأَصْلُ لِتَعْظِيمِ الْجَوَارِحِ بِالْأَفْعَالِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا التِّجَارَةُ ؛ وَيَكُونُ الْأَجَلُ عَلَى هَذَا الْقُدْرَةَ عَلَى الْحَجِّ .

الثَّانِي : أَنَّ الْمَنَافِعَ الثَّوَابُ ، وَالْأَجَلُ يَوْمُ الدِّينِ .

الثَّالِثُ : أَنَّ الْمَنَافِعَ الرُّكُوبُ ، وَالدَّرُّ وَالنَّسْلُ ، وَالْأَكْلُ ؛ وَهَذَا عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ : إنَّهَا الْبُدْنُ ، وَالْأَجَلُ إيجَابُ الْهَدْيِ .

وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا الْبُدْنُ ، وَتَدُلُّ عَلَى غَيْرِهَا إمَّا مِنْ طَرِيقِ الْمُمَاثَلَةِ ، وَإِمَّا مِنْ طَرِيقِ الْأَوْلَى .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ : يُرِيدُ أَنَّهَا تَنْتَهِي إلَى

الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، وَهُوَ الطَّوَافُ ؛ وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ : إنَّ الْحَجَّ كُلَّهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، يَعْنِي أَنَّ شَعَائِرَ الْحَجِّ كُلَّهَا تَنْتَهِي إلَى الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ .

(25/523)

وَقَالَ عَطَاءٌ : تَنْتَهِي إلَى مَكَّةَ ، هَذَا عُمُومٌ لَا يُفِيدُ شَيْئًا فَإِنَّهُ قَدْ صَرَّحَ بِذِكْرِ الْبَيْتِ ، فَلَا مَعْنَى لِإِلْغَائِهِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ : إنَّهُ إلَى الْحِلِّ وَالْحَرَمِ ، وَهَذَا إنَّمَا بَنَوْهُ عَلَى أَنَّ الشَّعَائِرَ هِيَ الْبُدْنُ ، وَلَا بُدَّ فِيهَا مِنْ الْجَمْعِ بَيْنَ الْحِلِّ وَالْحَرَمِ ، وَلَا وَجْهَ لِتَخْصِيصِ الشَّعَائِرِ مَعَ عُمُومِهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(26/523)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾

فيه قولان : أحدهما : أنه فعل ما أمر به من مناسكه ، قاله الكلبي .

والثاني : أنه اجتناب ما نهى عنه في إحرامه . ويحتمل عندي قولاً ثالثاً : أن يكون تعظيم

حرماته أن يفعل الطاعة ويأمر بها ، وينتهي عن المعصية وينهى عنها .

﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : إلا ما يتلى عليكم من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذُبِحَ على النصب .

والثاني : إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم .

﴿ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أي اجتنبواْ من الأوثان الرجس ، ورجس الأوثان عبادتها ، فصار معناه : فاجتنبوا عبادة الأوثان .

الثاني : معناه : فاجتنبواْ الأوثان فإنها من الرجس .

﴿ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ ﴾ فيه أربعة أقاويل

: أحدها : الشرك ، وهو قول يحيى بن سلام .

والثاني : الكذب ، وهو قول مجاهد .

والثالث : شهادة الزور . روى أيمن بن محمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قام خطيباً فقال : " أَيُّهَا النَّاسُ عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الشِّرْكَ بِاللَّهِ مَرَّتَينَ " ثم قرأ : ﴿ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ ﴾ .

والرابع : أنها عبادة المشركين ، حكاه النقاش .

ويحتمل عندي قولاً خامساً : أنه النفاق لأنه إسلام في الظاهر زور في الباطن .

قوله عز وجل : ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : يعني مسلمين لله ، وهو قول الضحاك ، قال ذو الرمة :

إذا حول الظل العشي رأيته . . . حنيفاً وفي قرن الضحى يتنصر

والثاني : مخلصين لله ، وهو قول يحيى بن سلام .

والثالث : مستقيمين لله ، وهو قول عليّ بن عيسى .

والرابع : حجاجاً إلى الله ، وهو قول قطرب .

(27/523)

﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : غير مرائين بعبادته أحداً من خلقه .

والثاني : غير مشركين في تلبية الحج به أحداً لأنهم كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ، قاله الكلبي .

قوله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَآئِرَ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : فروض الله .

والثاني : معالم دينه ، ومنه قول الكميت :

نقتلهم جيلاً فجيلاً نراهم . . . شعائر قربان بهم يتقرب

وفيها ثلاثة أقاويل

: أحدها : أنها مناسك الحج ، وتعظيمها إشعارها ، وهو مأثور عن جماعة .

والثاني : أنها البُدن المشعرة ، وتعظيمها استسمانها واستحسانها ، وهو قول مجاهد .

والثالث : أنها دين الله كله ، وتعظيمها التزامها ، وهو قول الحسن .

﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ قال الكلبي والسدي : من إخلاص القلوب

. ويحتمل عندي وجهاً آخر أنه قصد الثواب .

ويحتمل وجهاً آخر أيضاً : أنه ما أرضى الله تعالى :

قوله عز وجل : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن المنافع التجارة ، وهذا قول من تأول الشعائر بأنها مناسك الحج ، والأجل المسمى العود .

والثاني : أن المنافع الأجر ، والأجل المسمى القيامة ، وهذا تأويل من تأولها بأنها الدين .

والثالث : أن المنافع الركوب والدر والنسل ، وهذا قول من تأولها بأنها الهَدْى فعلى هذا في الأجل المسمى وجهان :

أحدهما : أن المنافع قبل الإِيجاب وبعده ، والأجل المسمى هو النحر ، وهذا قول عطاء .

﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ إن قيل إن الشعائر هي مناسك الحج ففي تأويل قوله :

﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ وجهان :

أحدهما : مكة ، وهو قول عطاء .

والثاني : الحرم كله محل لها ، وهو قول الشافعي .

وإن قيل إن الشعائر هي الدين كله فيحتمل تأويل قوله : ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ أن محل ما اختص منها بالأجر له ، هو البيت العتيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(28/523)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾

يحتمل أن يكون في موضع رفع بتقدير فرضكم ذلك أو الواجب ذلك ، ويحتمل أن يكون في موضع نصب بتقدير امتثلوا ذلك ونحو هذا الإضمار ، وأحسن الأشياء مضمراً أحسنها ومظهراً ونحو هذه الإشارة البليغة قول زهير : [البسيط]

هذا وليس كمن يعطي بخطته . . . وسط الندى إذا ما قائل نطقا

والحرمات المقصودة ها هنا في أفعال الحج المشار إليها في قوله ﴿ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم ﴾ ويدخل في ذلك تعظيم المواضع ، قاله ابن زيد وغيره ، ووعد على تعظيمها بعد ذلك تحريضاً ، وتحريصاً ، ثم لفظ الآية بعد ذلك يتناول كل حرمة لله تعالى في جميع الشرع .

(29/523)

وقوله تعالى : ﴿ فهو خير ﴾ ، ظاهره أنها ليست للتفضيل وإنما هي عدة بخير ، ويحتمل أن يجعل ﴿ خير ﴾ للتفضيل على تجوز في هذا الموضع ، وقوله تعالى : ﴿ أحلت ﴾ إشارة إلى ما كانت العرب تفعله من تحريم أشياء برأيها كالبحيرة والسائبة فأذهب الله تعالى ذلك وأحل لهم جميع ﴿ الأنعام إلا ما يتلى ﴾ عليهم في كتاب الله تعالى . في غير موضع ثم أمرهم باجتناب ﴿ الرجس من الأوثان ﴾ والكلام يحتمل معنيين أحدهما أن تكون ﴿ من ﴾ لبيان الجنس فيقع نهيه عن رجس الأوثان فيقع نهيها في غير هذا الموضع ، والمعنى الثاني أن تكون ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية فكأنه نهاهم عن الرجس عاماً ثم عين لهم مبدأ الذي منه يلحقهم إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس ، ويظهر أن الإشارة إلى الذبائح التي كانت للأوثان فيكون هذا مما يتلى عليهم ، ومن قال ﴿ من ﴾ للتبعيض قلب معنى

الآية ويفسده ، والمروي عن ابن عباس وابن جريج أن الآية نهي عن عبادة الأوثان ، و ﴿ الزور ﴾ ، عام في الكذب والكفر وذلك أن كل ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزور ، وقال ابن مسعود وابن جريج : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " عدلت شهادة الزور بالشرك " ، وتلا هذه الآية ، و ﴿ الزور ﴾ مشتق من الزور وهو الميل ومنه في جانب فلان زور ويظهر أن الإشارة في زور أقوالهم في تحريم وتحليل مما كانوا قد شرعوه في الأنعام ، و ﴿ حنفاء ﴾ ، معناه مستقيمين أو مائلين إلى الحق بحسب أن لفظة الحنف من الأضداد تقع على الاستقامة وتقع على الميل ، و ﴿ حنفاء ﴾ نصب على الحال ، وقال قوم ﴿ حنفاء ﴾ معناه حجاجاً ع وهذا تخصيص لا حجة معه ، و ﴿ غير مشركين ﴾ ، ويجوز أن يكون حالاً أخرى ، ويجوز أن يكون صفة لقول ﴿ حنفاء ﴾ ثم ضرب تعالى مثلاً للمشرك بالله أظهره في غاية السقوط وتحمل والانبتات من النجاة بخلاف ما ضرب للمؤمن في قوله ﴿ فمن كفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ [البقرة : 256] ومنه قول علي رضي الله

(30/523)

عنه : إذا حدثتكم عن رسول الله فلأن أخر من السماء إلى الأرض أهون علي من أن أكذب عليه ، الحديث . وقرأ نافع وحده " فتخطّفه الطير " بفتح الخاء وشد الطاء على حذف تاء التفعل وقرأ الباقون " فتخْطفه " بسكون الخاء وتخفيف الطاء ، وقرأ الحسن فيما روي عنه " فَتِخِطَّفه " بكسر التاء والخاء وفتح الطاء مشددة ، وقرأ أيضاً الحسن وأبو رجاء بفتح التاء وكسر الخاء والطاء وشدها ، وقرأ الأعمش " من السماء تخطفه " بغير فاء وعلى نحو قراءة الجماعة وعطف المستقبل على الماضي لأنه بتقدير فهو تخطفه الطير ، وقرأ أبو جعفر ، " الرياح " و " السحيق " البعيد ومنه قولهم أسحقه الله ومنه قوله عليه السلام " فسحقاً فسحقاً " ومنه نخلة سحوق للبعيدة في السماء .

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) ﴾

(31/523)

التقدير في هذا الموضع الأمر ذلك ، و " الشعائر " جميع شعيرة وهي كل لله تعالى ، فيه أمر أشعر به وأعلم ، قال فرقة : قصد ب " الشعائر " في هذه الآية للهدي والأنعام المشعرة ، ومعنى تعظيمها تسميتها والاهتبال بأمرها والمغالاة بها قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة ، وعود الضمير في ﴿ إنها ﴾ على التعظمة والفعلة التي يتضمنها الكلام ، وقرأ " القلوبُ "

بالرفع على أنها الفاعلة بالمصدر الذي هو ﴿ تقوى ﴾ ، ثم اختلف المتألون في قوله ﴿ لكم فيها منافع ﴾ الآية ، فقال مجاهد وقتادة : أراد أن للناس في أنعامهم منافع من الصوف واللبن وغير ذلك ما لم يبعثها ربها هدياً فإذا بعثها فهو " الأجل المسمى " ، وقال عطاء بن أبي رباح : أراد في الهدي المبعوث منافع من الركوب والاحتلاب لمن اضطر ، و " الأجل " نحرها وتكون ﴿ ثم ﴾ لترتيب الجمل ، لأن المحل قبل الأجل ومعنى الكلام عند هاتين الفرقتين ﴿ ثم محلها ﴾ إلى موضع النحر فذكر ﴿ البيت ﴾ لأنه أشرف الحرم وهو المقصود بالهدي وغيره ، وقال ابن زيد وابن عمر والحسن ومالك : " الشعائر " في هذه الآية مواضع الحج كلها ومعالمه بمنى وعرفة والمزدلفة والصفا والمروة والبيت وغير ذلك ، وفي الآية التي تأتي أن البدن من الشعائر ، و " المنافع " التجارة وطلب الرزق ، ويحتمل أن يريد كسب الأجر والمغفرة ، وبكل احتمال قالت فرقة و " الأجل " الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة وقوله ، ﴿ محلها ﴾ مأخوذ من إحلال المحرم ومعناه ثم أخر هذا كله إلى طواف الإفاضة ب ﴿ البيت العتيق ﴾ ، ف ﴿ البيت ﴾ على هذا التأويل مراد بنفسه ، قاله مالك في الموطأ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(32/523)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر ذلك ، يعني : ما ذكر من أعمال الحج ﴿ ومن يعظِّم حرمات الله ﴾ فيجتنب ما حرم الله عليه في الإِحرام تعظيماً لأمر الله .

قال الليث : الحرمة : ما لا يحلُّ انتهاكه .

وقال الزجاج : الحرمة : ما وجب القيام به ، وحرم التفريط فيه .

قوله تعالى : ﴿ فهو ﴾ يعني : التعظيم ﴿ خير له عند ربه ﴾ في الآخرة ﴿ وأُحلَّت لكم الأنعام ﴾ وقد سبق بيانها [المائدة : 1] ﴿ إِلا ما يتلى عليكم ﴾ تحريمه ، يعني [به] : ما ذكر في [المائدة : 3] من المنخنقة وغيرها .

وقيل : وأُحلت لكم الأنعام في حال إِحرامكم ، إِلا ما يتلى عليكم في الصيد ، فإنه حرام .

قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس ﴾ أي : دعوه جانباً ، قال الزجاج : و"مِن" هاهنا ، لتخليص جنس من أجناس ، المعنى : فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن .

وقد شرحنا معنى الرجس في [المائدة : 90] .

وفي المراد بقول الزور أربعة أقوال .

أحدها : شهادة الزور ، قاله ابن مسعود .

والثاني : الكذب ، قاله مجاهد .

والثالث : الشرك ، قاله أبو مالك .

والرابع : أنه قول المشركين في الأنعام : هذا حلال ، وهذا حرام ، قاله الزجاج ، قال : وقوله تعالى : ﴿ حنفاء لله ﴾ منصوب على الحال ، وتأويله : مسلمين لا يُنسَبون إلى دين غير الإسلام .

ثم ضرب الله مثلاً للمشرك ، فقال : ﴿ ومن يشرك بالله ﴾ إلى قوله : ﴿ سحيق ﴾ ، والسحيق : البعيد .

واختلفوا في قراءة "فتخطَفُه" فقرأ الجمهور : "فتخطَفُه" بسكون الخاء من غير تشديد الطاء .

وقرأ نافع : بتشديد الطاء .

وقرأ أبو المتوكل ، ومعاذ القارىء : بفتح التاء والخاء وتشديد الطاء ونصب الفاء .

وقرأ أبو رزين ، وأبو الجوزاء ، وأبو عمران [الجوني] : بكسر التاء والخاء وتشديد الطاء ورفع الفاء .

وقرأ الحسن ، والأعمش : بفتح التاء وكسر الخاء وتشديد الطاء ورفع الفاء .

وكلُّهم فتح الطاء .

وفي المراد بهذا المثَل قولان .

(33/523)

أحدهما : أنه شبَّه المشرك بالله في بعده عن الهدى وهلاكه ، بالذي يَخِرُّ من السماء ، قاله قتادة .

والثاني : أنه شبَّه حال المشرك في أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفع ضر يوم القيامة ، بحال الهاوي من السماء ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر ذلك الذي ذكرناه ﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ قد شرحنا معنى الشعائر في [البقرة : 158] .

وفي المراد بها هاهنا قولان .

أحدهما : أنها البدن .

وتعظيمها : استحسانها ، واستسمانها ﴿ لكم فيها منافع ﴾ قبل أن يُسمِّيَها صاحبها هدياً ، أو يشعرها ويوجبها ، فإذا فعل ذلك ، لم يكن له من منافعها شيء ، روى هذا المعنى مقسم عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك .

وقال عطاء ابن أبي رباح : لكم في هذه الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هدايا إذا احتجتم إلى شيء من ذلك أو اضطررتم إلى شرب ألبانها ﴿ إلى أجل مسمًّى ﴾ وهو أن تُنحَر .

والثاني : أن الشعائر : المناسك ومشاهد مكة ؛ والمعنى : لكم فيها منافع بالتجارة إلى

أجلٍ مسمًّى ، وهو الخروج من مكة ، رواه أبو رزين عن ابن عباس .

وقيل : لكم فيها منافع من الأجر والثواب في قضاء المناسك إلى أجل مسمى ، وهو انقضاء أيام الحج .

قوله تعالى : ﴿ فإنها ﴾ يعني الأفعال المذكورة ، من اجتناب الرجس وقول الزور ، وتعظيم الشعائر .

وقال الفراء : "فإنها" يعني الفعلة ﴿ من تقوى القلوب ﴾ ، وإنما أضاف التقوى إلى القلوب ، لأن حقيقة التقوى تقوى القلوب .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّها ﴾ أي : حيث يَحِلُّ نحرها ﴿ إلى البيت ﴾ يعني : عند البيت ، والمراد به : الحرم كلُّه ، لأنا نعلم أنها لا تذبح عند البيت ، ولا في المسجد ، هذا على القول الاول ؛ وعلى الثاني ، يكون المعنى : ثم مَحِلّ الناس من إحرامهم إلى البيت ، وهو أن يطوفوا به بعد قضاء المناسك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(34/523)

وقال القرطبى :

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾

فيه ثماني مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ يحتمل أن يكون في موضع رفع بتقدير : فرضُكم ذلك ، أو الواجب ذلك .

ويحتمل أن يكون في موضع نصب بتقدير : امتثلوا ذلك ؛ ونحو هذه الإشارة البليغة قول زهير :

هذا وليس كمن يَعْيَا بخُطّته . . .

وسْطَ النَّدِيّ إذا ما قائل نطقا

والحرمات المقصودة هنا هي أفعال الحج المشار إليها في قوله : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ ، ويدخل في ذلك تعظيم المواضع ؛ قاله ابن زيد وغيره .

ويجمع ذلك أن تقول : الحرمات امتثال الأمر في فرائضه وسننه .

وقوله : ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ أي التعظيم خير له عند ربه من التهاون بشيء منها .

وقيل : ذلك التعظيم خير من خيراته يُنتفع به ، وليست للتفضيل وإنما هي عِدَة بخير .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام ﴾ أن تأكلوها ؛ وهي الإبل والبقر والغنم .

﴿ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ أي في الكتاب من المحرمات ؛ وهي المَيْتة والمَوْقُوذة وأخواتها .

ولهذا اتصال بأمر الحج ؛ فإن في الحج الذبح ، فبيّن ما يحلّ ذبحه وأكل لحمه .

وقيل : ﴿ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ غيرَ مُحِلّي الصيد وأنتم حرم .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ الرجس : الشيء القذِر .

والوَثَن : التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها ، وكانت العرب تنصِبها وتعبدها .

والنصارى تنصِب الصليب وتعبده وتعظمه فهو كالتمثال أيضاً .

وقال عَدِيّ بن حاتم : أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال : " أَلْقِ هذا الوثن عنك " أي الصليب ؛ وأصله من وَثَن الشيء أي أقام في مقامه .

وسمي الصنم وَثَناً لأنه ينصب ويركز في مكان فلا يبرح عنه .

يريد اجتنبوا عبادة الأوثان ؛ روي عن ابن عباس وابن جُرَيج .

(35/523)

وسماها رجساً لأنها سبب الرجز وهو العذاب .

وقيل : وصفها بالرجس ، والرجس النجس فهي نجسة حكماً .

وليست النجاسة وصفاً ذاتياً للأعيان وإنما هي وصف شرعيّ من أحكام الإيمان ، فلا تُزال إلا بالإيمان كما لا تجوز الطهارة إلا بالماء .

الرابعة : ﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ مِنَ الأوثان ﴾ قيل : إنها لبيان الجنس ، فيقع نهيه عن

رجس الأوثان فقط ، ويبقى سائر الأرجاس نهيها في غير هذا الموضع .

ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية ؛ فكأنهم نهاهم عن الرجس عاماً ثم عيّن لهم مبدأه الذي منه يلحقهم ؛ إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس .

ومن قال إن "مِن" للتبعيض ، قلب معنى الآية وأفسده .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ واجتنبوا قَوْلَ الزور ﴾ والزور : الباطل والكذب .

وسمي زوراً لأنه أميل عن الحق ؛ ومنه ﴿ تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ ، ومدينةٌ زوراء ؛ أي مائلة .

وكل ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزُور .

وفي الخبر أنه عليه السلام قام خطيباً فقال : " عَدَلت شهادةُ الزور الشّركَ بالله "

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33)

فيه سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ فيه ثلاثة أوجه .

قيل : يكون في موضع رفع بالابتداء ، أي ذلك أمر الله .

ويجوز أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداء محذوف .

ويجوز أن يكون في موضع نصب ، أي اتّبعوا ذلك .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ الشعائر جمع شَعيرة ، وهو كل شيء لله تعالى فيه أمر أشعَر به وأعلم ؛ ومنه شِعار القوم في الحرب ؛ أي علامتهم التي يتعارفون بها . ومنه إشعار البَدَنة وهو الطعن في جانبها الأيمن حتى يسيل الدم فيكون علامة ، فهي تسمى شعِيرة بمعنى المشعورة .

فشعائر الله أعلام دينه لا سيما ما يتعلق بالمناسك .

(36/523)

وقال قوم : المراد هنا تسمين البُدْن والاهتمام بأمرها والمغالاة بها ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة .

وفيه إشارة لطيفة ، وذلك أن أصل شراء البُدْن ربما يحمل على فعل ما لا بدّ منه ، فلا يدل على الإخلاص ، فإذا عظمها مع حصول الإجزاء بما دونه فلا يظهر له عمل إلا تعظيم الشرع ، وهو من تقوى القلوب .

والله أعلم .

الثالثة : الضمير في "إنها" عائد على الفِعلة التي يتضمنها الكلام ، ولو قال فإنه لجاز .

وقيل إنها راجعة إلى الشعائر ؛ أي فإن تعظيم الشعائر ، فحذف المضاف لدلالة الكلام

عليه ، فرجعت الكناية إلى الشعائر .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ قرىء "القلوبُ" بالرفع على أنها فاعلة بالمصدر الذي هو "تَقْوَى" وأضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى في القلب ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في صحيح الحديث : " التقوى هاهنا " وأشار إلى صدره .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ يعني البُدْن من الركوب والدَّرّ والنَّسل والصوف وغير ذلك ، إذا لم يبعثها ربُّها هَدْياً ، فإذا بعثها فهو الأجل المسمَّى ؛ قاله ابن عباس .

فإذا صارت بُدناً هَدْياً فالمنافع فيها أيضاً ركوبها عند الحاجة ، وشربُ لبنها بعد رِيّ فصيلها .

وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " رأى رجلاً يسوق بَدَنة فقال : "اركبها" فقال : إنها بدنة .

فقال : "اركبها" قال : إنها بدنة .

قال : "اركبها وَيْلَكَ" " في الثانية أو الثالثة .

" وروي عن جابر بن عبد الله وسئل عن ركوب الهَدْي فقال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "اركبها بالمعروف إذا أُلْجِئت إليها حتى تجد ظَهْراً" " والأجل المسمَّى على هذا القول نحرها ؛ قاله عطاء بن أبي رَباح .

السادسة : ذهب بعض العلماء إلى وجوب ركوب البدنة لقوله عليه الصلاة والسلام : "اركبها" .

وممن أخذ بظاهره أحمد وإسحاق وأهل الظاهر .

(37/523)

وروى ابن نافع عن مالك : لا بأس بركوب البَدَنة ركوباً غيرَ فادح .

والمشهور أنه لا يركبها إلا إن اضطر إليها لحديث جابر فإنه مقيّد والمقيّد يقضي على المطلق .

وبنحو ذلك قال الشافعيّ وأبو حنيفة .

ثم إذا ركبها عند الحاجة نزل ؛ قاله إسماعيل القاضي .

وهو الذي يدل عليه مذهب مالك ، وهو خلاف ما ذكره ابن القاسم أنه لا يلزمه النزول ، وحجته إباحة النبيّ صلى الله عليه وسلم له الركوب فجاز له استصحابه .

وقوله : "إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهراً" يدل على صحة ما قاله الإمام الشافعيّ وأبو حنيفة رضي الله عنهما ؛ وما حكاه إسماعيل عن مذهب مالك .

وقد جاء صريحاً أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يسوق بدَنة وقد جُهد ، فقال :

"اركبها" .

وقال أبو حنيفة والشافعيّ : إن نَقَصها الركوب المباح فعليه قيمة ذلك ويتصدّق به .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إلى البيت العتيق ﴾ يريد أنها تنتهي إلى البيت ، وهو الطواف .

فقوله : "مَحِلّها" مأخوذ من إحلال المحرِم .

والمعنى أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورَمْيُ الجِمار والسّعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق .

فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه ؛ قاله مالك في الموطأ .

وقال عطاء : ينتهي إلى مكة .

وقال الشافعيّ : إلى الحرم .

وهذا بناء على أن الشعائر هي البُدْن ، ولا وجه لتخصيص الشعائر مع عمومها وإلغاء خصوصية ذكر البيت . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(38/523)

وقال أبو حيان :

﴿ ذلك ﴾ خبر مبتدأ محذوف قدّره ابن عطية فرضكم ﴿ ذلك ﴾ أو الواجب ﴿ ذلك ﴾ وقدّره الزمخشري الأمر أو الشأن ﴿ ذلك ﴾ قال كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال : هذا وقد كان كذا انتهى .

وقيل : مبتدأ محذوف الخبر أي ﴿ ذلك ﴾ الأمر الذي ذكرته .

وقيل في موضع نصب تقديره امتثلوا ﴿ ذلك ﴾ ونظير هذه الإشارة البليغة قول زهير وقد تقدم له جمل في وصف هرم :

هذا وليس كمن يعيا بخطبته . . .

وسط الندى إذا ما ناطق نطقا

وكان وصفه قبل هذا بالكرم والشجاعة ، ثم وصفه في هذا البيت بالبلاغة فكأنه قال :

هذا خلقه وليس كمن يعيا بخطبته ، والحرمات ما لا يحل هتكه وجميع التكليفات من مناسك الحج وغيرها حرمه ، والظاهر عمومه في جميع التكاليف ، ويحتمل الخصوص بما يتعلق بالحج وقاله الكلبي قال : ما أمر به من المناسك ، وعن ابن عباس هي جميع المناهي في الحج : فسوق وجدال وجماع وصيد .

وعن ابن زيد هي خمس المشعر الحرام ، والمسجد الحرام ، والبيت الحرام ، والشهر الحرام ، والمحرم حتى يحل .

وضمير ﴿ فهو ﴾ عائد على المصدر المفهوم من قوله ﴿ ومن يعظم ﴾ أي فالتعظيم ﴿ خير له عند ربه ﴾ أي قربة منه وزيادة في طاعته يثيبه عليها ، والظاهر أن خيراً هنا ليس أفعل تفضيل .

﴿ وأحلت لكم بهيمة الأنعام ﴾ دفعاً لما كانت عليه من تحريم أشياء برأيها كالبحيرة والسائبة ، ويعني بقوله ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ ما نص في كتابه على تحريمه ، والمعنى ﴿ ما يتلى عليكم ﴾ آية تحريمه .

ولما حث على تعظيم حرمات الله وذكر أن تعظيمها خير لمعظمها عند الله أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور لأن توحيد الله ونفي الشركاء عنه وصدق القول أعظم الحرمات ، وجمعا في قران واحد لأن الشرك من باب الزور لأن المشرك يزعم أن الوثن يستحق العبادة فكأنه قال ﴿ فاجتنبوا ﴾ عبادة ﴿ الأوثان ﴾ التي هي رأس الزور ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ كله .

(39/523)

و ﴿ من ﴾ في ﴿ من الأوثان ﴾ لبيان الجنس ، ويقدر بالموصول عندهم أي الرجس الذي هو الأوثان ، ومن أنكر أن تكون ﴿ من ﴾ لبيان الجنس جعل ﴿ من ﴾ لابتداء

الغاية فكأنه نهاهم عن الرجس عاماً ثم عين لهم مبدأه الذي منه يلحقهم إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس ، وعلى القول الأول يكون النهي عن سائر الأرجاس من موضع غير هذا .

قال ابن عطية : ومن قال إن ﴿ من ﴾ للتبعيض قلب معنى الآية فأفسده انتهى .

وقد يمكن التبعيض فيها بأن يعني بالرجس عبادة الأوثان ، وقد روي ذلك عن ابن عباس وابن جريج ، فكأنه قال : فاجتنبوا من الأوثان الرجس وهو العبادة لأن المحرم من الأوثان إنما هو العبادة ، ألا ترى أنه قد يتصور استعمال الوثن في بناء وغير ذلك مما لم يحرمه الشرع ؟ فكأن للوثن جهات منها عبادتها ، وهو المأمور باجتنابه وعبادتها بعض جهاتها ، ولما كان قول الزور معادلاً للكفر لم يعطف على الرجس بل أفرد بأن كرر له العامل اعتناء باجتنابه .

وفي الحديث : " عدلت شهادة الزور بالشرك " .

ولما أمر باجتناب عبادة الأوثان وقول الزور ضرب مثلاً للمشرك فقال ﴿ ومن يشرك بالله ﴾ الآية .

قال الزمخشري : يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده بأن صور حاله بصورة حال من ﴿ خر من السماء ﴾ فاختطفته ﴿ الطير ﴾ فتفرق مرعاً في حواصلها ، وعصفت به ﴿ الريح ﴾ حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة ، وإن كان مفرقاً فقد

شبه الإيمان في علوه بالسماء والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والإهواء التي تنازع أوكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي ﴿ تهوي ﴾ مما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة انتهى .

وقرأ نافع ﴿ فتخطفه ﴾ بفتح الخاء والطاء مشددة وباقي السبعة بسكون الخاء وتخفيف الطاء .

(40/523)

وقرأ الحسن وأبو رجاء والأعمش بكسر التاء والخاء والطاء مشددة ، وعن الحسن كذلك إلاّ أنه فتح الطاء مشددة .

وقرأ الأعمش أيضاً تخطه بغير فاء وإسكان الخاء وفتح الطاء مخففة .

وقرأ أبو جعفر والحسن وأبو رجاء : الرياح .

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) ﴾

إعراب ﴿ ذلك ﴾ كإعراب ﴿ ذلك ﴾ المتقدم ، وتقدم تفسير ﴿ شعائر الله ﴾ في أول المائدة ، وأما هنا فقال ابن عباس ومجاهد وجماعة : هي البدن الهدايا ، وتعظيمها تسمينها والاهتبال بها والمغالاة فيها .

وقال زيد بن أسلم : الشعائر ست : الصفا ، والمروة ، والبدن ، والجمار ، والمشعر الحرام ، وعرفة ، والركن .

وتعظيمها إتمام ما يفعل فيها .

وقال ابن عمر والحسن ومالك وابن زيد : مواضع الحج كلها ومعالمه بمنى وعرفة والمزدلفة والصفا والمروة والبيت وغير ذلك ، وهذا نحو من قول زيد بن أسلم .

وقيل : شرائع دينه وتعظيمها التزامها والمنافع الأجر ، ويكون والضمير في ﴿ فيها ﴾ من قوله ﴿ لكم فيها منافع ﴾ عائداً على الشعائر التي هي الشرائع أي لكم في التمسك بها ﴿ منافع إلى أجل ﴾ منقطع التكليف ﴿ ثم محلها ﴾ بشكل على هذا التأويل .

فقيل : الإيمان والتوجه إليه بالصلاة ، وكذلك القصد في الحج والعمرة ، أي محل ما يختص منها بالإحرام ﴿ البيت العتيق ﴾ وقيل : معنى ذلك ثم أجرها على رب ﴿ البيت العتيق ﴾ قيل : ولو قيل على هذا التأويل أن ﴿ البيت العتيق ﴾ الجنة لم يبعدوا الضمير في إنها عائد على الشعائر على حذف مضاف أي فإن تعظيمها أو على التعظمة ، وأضاف التقوى إلى القلوب كما قال عليه الصلاة والسلام : " التقوى ههنا " وأشار إلى صدره .

" وعن عمر أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار فسأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك وقال : "بل اهدها" وأهدى هو عليه السلام مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب " ، وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي فيتصدق بلحومها وبجلالها ، ويعتقد أن طاعة الله في التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد أن يقام به ويسارع فيه ، وذكر ﴿ القلوب ﴾ لأن المنافق يظهر التقوى وقلبه خال عنها ، فلا يكون مجداً في أداء الطاعات ، والمخلص التقوى بالله في قلبه فيبالغ في أدائها على سبيل الإخلاص .

وقال الزمخشري : فإن تعظيمها ﴿ من ﴾ أفعال ذوي ﴿ تقوى القلوب ﴾ فحذفت هذه المضافات ، ولا يستقيم المعنى إلاّ بتقديرها لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى ﴿ من ﴾ ليرتبط به ، وإنما ذكرت ﴿ القلوب ﴾ لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء انتهى .

وما قدره عار من راجع إلى الجزاء إلى ﴿ من ﴾ ألا ترى أن قوله فإن تعظيمها من أفعال القلوب ليس في شيء منه ضمير يعود إلى ﴿ من ﴾ يربط جملة الجزاء بجملة الشرط الذي أدانه ﴿ من ﴾ وإصلاح ما قاله أن يكون التقدير فأي تعظيمها منه ، فيكون الضمير في منه عائداً على من فيرتبط الجزاء بالشرط .

وقرىء ﴿ القلوب ﴾ بالرفع على الفاعلية بالمصدر الذي هو ﴿ تقوى ﴾ والضمير في ﴿ فيها ﴾ عائد على البدن على قول الجمهور ، والمنافع درها ونسلها وصوفها وركوب ظهرها ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو أن يسميها ويوجبها هدياً فليس له شيء من منافعها .

قاله ابن عباس في رواية مقسم ، ومجاهد وقتادة والضحاك .

وقال عطاء : منافع الهدايا بعد إيجابها وتسميتها هدياً بأن تركب ويشرب لبنها عند الحاجة ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ أي إلى أن تنحر .

وقيل : إلى أن تشعر فلا تركب إلاّ عند الضرورة .

وروى أبو رزين عن ابن عباس : الأجل المسمى الخروج من مكة .

(42/523)

وعن ابن عباس ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ أي إلى الخروج والانتقال من هذه الشعائر إلى غيرها .

وقيل : الأجل يوم القيامة .

وقال الزمخشري : إلى أن تنحر ويتصدق بلحومها ويؤكل منها .

و ﴿ ثم ﴾ للتراخي في الوقت فاستعيرت للتراخي في الأفعال ، والمعنى أن لكم في الهدايا

منافع كثيرة في دنياكم ودينكم وإنما يعبد الله بالمنافع الدينية قال تعالى : ﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴾ وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطاً في النفع محلها إلى البيت أي وجوب نحرها ، أو وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت كقوله ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت لأن الحرم هو حريم البيت ، ومثل هذا في الاتساع قولك : بلغنا البلد وإنما شارفتموه واتصل مسيركم بحدوده .

وقيل : المراد بالشعائر المناسك كلها و ﴿ محلها إلى البيت العتيق ﴾ يأباه انتهى .

وقال القفال : الهدي المتطوع به إذا عطب قبل بلوغ مكة فإن محله موضعه ، فإذا بلغ منى فهي محله وكل فجاج مكة .

وقال ابن عطية : وتكرر ﴿ ثم ﴾ لترتيب الجمل لأن المحل قبل الأجل ، ومعنى الكلام عند هاتين الفريقين يعني من قال مجاهد ومن وافقه ، ومن قال بقول عطاء ﴿ ثم محلها ﴾ إلى موضع النحر فذكر البيت لأنه أشرف الحرم وهو المقصود بالهدي وغيره ، والأجل الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة وقوله ﴿ ثم محلها ﴾ مأخوذ من إحلال المحرم معناه ، ثم أخر هذا كله إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق ، فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه قاله مالك في الموطأ انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(43/523)

وقال أبو السعود :

﴿ ذلك ﴾ أي الأمرُ ذلك ، وهذا وأمثالُه يُطلق للفصل بين الكلامين أو بين وجهَيْ كلامٍ واحد ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حرمات الله ﴾ أي أحكامَه وسائر ما لا يحلُّ هتكُه بالعلم بوجوب مُراعاتها والعملِ بموجبه . وقيل الحُرمُ وما يتعلَّق بالحجِّ من التَّكاليفِ . وقيل الكعبةُ والمسجدُ الحرامُ والبلدُ الحرامُ والشَّهرُ الحرامُ ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ أي فالتَّعظيمُ خير له ثواباً ﴿ عِندَ رَبِّهِ ﴾ أي في الآخرة ، والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافة إلى ضمير مَن لتشريفه والإشعار بعلَّةِ الحكم . ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام ﴾ وهي الأزواج الثَّمانيةُ على الإطلاقِ فقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ أي إلا ما يُتلى عليكم آيةُ تحريمِهِ . استثناءٌ متَّصلٌ منها على أنَّ ما عبارةٌ عمَّا حُرِّم منها لعارضٍ كالميتة وما أُهلَّ به لغير الله تعالى .

(44/523)

والجملةُ اعتراضٌ جيء به تقريراً لما قبله من الأمرِ بالأكل والإطعام ودفعاً لما عسى يُتوهَّم أنَّ الإحرامَ يحرِّمُه كما يحرم الصَّيدُ . وعدمُ الاكتفاء ببيان عدم كونها من ذلك القبيلِ بحمل الأنعام على ما ذُكر من الضَّحايا والهدايا المعهودة خاصَّةً لئلاَّ يحتاج إلى الاستثناء المذكورِ

إذ ليس فيها ما حُرِّمَ لعارضٍ قطعاً لمراعاة حسنِ التَّخلصِ إلى ما بعده من قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ فإنَّه مترتّبٌ على ما يُفيده قوله تعالى ومَن يعظِّم حرماتِ اللَّهِ من وجوب مراعاتها والاجتنابِ عن هتكِها . ولمَّا كان بيانُ حلِّ الأنعام من دَوَاعي التَّعاطِي لا مِن مبادِي الاجتنابِ عُقِّب بما يُوجب الاجتنابَ عنه من المحرَّماتِ ثم أمر بالاجتناب عمَّا هو أقصى الحرماتِ ، كأنَّه قيل ومَن يعظِّم حرماتِ الله فهو خيرٌ له والأنعامُ ليستْ من الحُرُماتِ فإنَّها محلَّلةٌ لكم إلاَّ ما يتلى عليكم آيةُ تحريمه فإنَّه ممَّا يجبُ الاجتنابُ عنه فاجتنبُوا ما هو معظمُ الأمورِ التي يجب الاجتناب عنها . وقولُه تعالى : ﴿ واجتنبوا قَوْلَ الزور ﴾ تعميمٌ بعد تخصيصٍ فإنَّ عبادةَ الأوثانِ رأسُ الزُّورِ ، كأنَّه لمَّا حثَّ على تعظيم الحُرمات أتبعَ ذلك ردًّا لما كانت الكفرةُ عليه من تحريم البحائرِ والسَّوائبِ ونحوِهما والافتراءِ على الله تعالى بأنَّه حَكَم بذلك . وقيل شهادة الزُّورِ لما رُوي أنَّه عليه السلام قالَ : " عَدلت شهادةُ الزُّورِ الإشراكَ بالله تعالى ثلاثاً " وتلا هذه الآية . والزُّورُ : من الزَّور وهو الانحرافُ كالإفكِ المأخوذِ من الأفْك الذي هو القلبُ والصَّرفُ فإنَّ الكذبَ منحرفٌ مصروفٌ عن الواقعِ . وقيل هو قولُ أهلِ الجاهلية في تلبيتهم لبَّيكَ لا شريكَ لكَ إلاَّ شريكٌ هو لك تملكُه وما ملكَ .

(45/523)

﴿ حُنَفَاء للَّهِ ﴾ مائلين عن كلِّ دين زائغٍ إلى الدِّين الحقِّ مُخلصين لله تعالى . ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ أي شيئاً من الأشياءِ فيدخل في ذلك الأوثانُ دخولاً أوليًّا ، وهما حالانِ من واو فاجتنبُوا ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بالله ﴾ جملةٌ مبتدأةٌ مؤكِّدةٌ لما قبلها من الاجتناب عن الإشراك . وإظهارُ الاسمِ الجليلِ لإظهار كمالِ قُبح الإشراكِ ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السماء ﴾ لأنَّه مُسْقَط من أوجِ الإيمان إلى حضيض الكفرِ ﴿ فَتَخْطَفُهُ الطير ﴾ فإنَّ الأهواء المُردية توزِّعُ أفكارَه . وقُرِىء فتخَطَّفه بفتح الخاء وتشديد الطَّاءِ . وبكسرِ الخاء والطَّاء ، وبكسر التَّاءِ مع كسرهما ، وأصلُهما تَخْتطفُه ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ الريح ﴾ أي تُسقطه وتقذفُه ﴿ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ بعيدٍ ، فإنَّ الشَّيطانَ قد طوَّحَ به في الضَّلالةِ . وأو للتَّخييرِ كما في ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ أو للتَّنويعِ . ويجوز أنْ يكونَ من باب التَّشبيهِ المُركَّبِ فيكون المعنى : ومَن يُشرك بالله فقد هلكتْ نفسُه هلاكاً شَبيهاً بهلاكِ أحدِ الهالكينَ هنا .

(46/523)

﴿ ذلك ﴾ أي الأمرُ ذلكَ أو امتثلُوا ذلك ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شعائر الله ﴾ أي الهَدَايا فإنَّها من معالم الحجِّ وشعائرِه تعالى كما يُنبىء عنه . ﴿ والبدن جعلناها لَكُمْ مِّن شعائر الله ﴾

وهو الأوفقُ لما بعده. وتعظيمُها اعتقادُ أنَّ التَّقربَ بها من أجلِّ القُرباتِ وأنْ يختارَها حِساناً سِماناً غاليةَ الأثمانِ. رُوي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أهدى مائةَ بَدَنةٍ، فيها جملٌ لأبي جهلٍ في أنفه بُرَةٌ من ذهبٍ، وأنَّ عمرَ رضي الله عنه أهدى نَجيبةً طُلبتْ منه بثلاثمائةِ دينارٍ ﴿ فَإِنَّهَا ﴾ أي فإنَّ تعظيمَها ﴿ مِن تَقْوَى القلوب ﴾ أي من أفعال ذَوي تقوى القلوبِ فحُذفتْ هذه المضافاتُ والعائدُ إلى مَن. أو فإنَّ تعظيمَها ناشىءٌ من تقوى القلوب. وتخصيصُها بالإضافة لأنَّها مراكزُ التَّقوى التي إذا ثبتتْ فيها وتمكَّنتْ ظهر أثرُها في سائر الأعضاءِ.

﴿ لَكُمْ فِيهَا ﴾ أي في الهَدَايا ﴿ منافع ﴾ هي درُّها ونسلُها وصوفُها وظهرُها ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو وقت نحرِها والتَّصدُّقُ بلحمها والأكلُ منه ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا ﴾ أي وجوبُ نحرِها أو وقت نحرِها منتهيةً ﴿ إلى البيت العتيق ﴾ أي إلى ما يليهِ من الحرمِ. وثمَّ للتَّراخي الزَّمانيِّ أو الرُّتَبي أي لكم فيها منافعُ دنيويَّةٌ إلى وقتِ نحرِها ثمَّ منافعُ دينيَّةٌ أعظمها في النَّفعِ محلُّها أي وجوبُ نحرِها أو وقت وجوبِ نحرِها إلى البيتِ العتيقِ أي منتهيةً إليه.

هذا وقد قيل المرادُ بالشَّعائرِ مناسكُ الحجِّ ومعالمُه. والمعنى لكُم فيها منافعُ بالأجر والثَّوابِ في قضاءِ المناسكِ وإقامةِ شعائرِ الحجِّ إلى أجلٍ مُسمًّى هو انقضاءُ أيَّامِ الحجِّ ثمَّ محلُّها أي محلُّ النَّاسِ من إحرامهم إلى البيتِ العتيقِ أي منتهٍ إليه بأن يطوفُوا به طوافَ الزِّيارةِ

يومَ النَّحرِ بعد قضاء المناسكِ ، فإضافةُ المحلِّ إليها لأدنى ملابسةٍ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(47/523)

وقال الآلوسى :

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾

﴿ ذلك ﴾ أي الأمر ، وهذا وأمثاله من أسماء الإشارة يطلق للفصل بين الكلامين أو بين وجهي كلام واحد ، والمشهور من ذلك هذا كقوله تعالى : ﴿ هذا وَإِنَّ للطاغين لَشَرَّ مَئَابٍ ﴾ [ص : 55] وكقول زهير وقد تقدم له وصف هرم بالكرم والشجاعة

: هذا وليس كمن يعيا بخطبته . . .

وسط الندى إذا ما ناطق نطقاً

واختيار ﴿ ذلك ﴾ هنا لدلالته على تعظيم الأمر وبعد منزلته وهو من الاقتضاب القريب من التخلص لملاءمة ما بعده لما قبله ، وقيل : هو في موضع نصب بفعل محذوف أي امتثلوا ذلك ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حرمات الله ﴾ جمع حرمة وهو ما يحترم شرعاً ، والمراد بها جميع التكليفات من مناسك الحج وغيرها ، وتعظيمها بالعلم بوجوب مراعاتها والعمل بموجبه ،

وقال جمع : هي ما أمر به من المناسك ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هي جميع المناهي في الحج فسوق وجدال وجماع وصيد ، وتعظيمها أن لا يحوم حولها ، وعن ابن زيد هي خمس المشعر الحرام .

والمسجد الحرام .

والبيت الحرام .

والشهر الحرام .

والمحرم حتى يحل ﴿ فَهُوَ ﴾ أي فالتعظيم ﴿ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ من غيره على أن ﴿ خَيْرٌ ﴾ اسم تفضيل .

وقال أبو حيان : الظاهر أنه ليس المراد به التفضيل فلا يحتاج لتقدير متعلق ، ومعنى كونه خيراً له ﴿ عِندَ رَبِّهِ ﴾ أنه يثاب عليه يوم القيامة ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير ﴿ مِنْ ﴾ لتشريفه والإشعار بعلة الحكم .

﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام ﴾ أي ذبحها وأكلها لأن ذاتها لا توصف بحل وحرمة ، والمراد بها الأزواج الثمانية على الإطلاق ، وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ أي إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه استثناء متصل كما اختاره الأكثرون منها على أن ﴿ مَا ﴾ عبارة عما حرم منها لعارض كالميتة وما أهل به لغير الله تعالى .

وجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً بناء على أن ﴿ مَا ﴾ عبارة عما حرم في قوله سبحانه : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة ﴾ [المائدة : 3] الآية ، وفيه ما ليس من جنس الأنعام ، والفعل على الوجهين لم يرد منه الاستقبال لسبق تلاوة آية التحريم ، وكأن التعبير بالمضارع استحضاراً للصورة الماضية لمزيد الاعتناء ، وقيل : التعبير بالمضارع للدلالة على الاستمرار التجددي المناسب للمقام ، والجملة معترضة مقررة لما قبلها من الأمر بالأكل والإطعام ودافعة لما عسى يتوهم أن الإحرام يحرم ذلك كما يحرم الصيد ﴿ فاجتنبوا الرجس ﴾ أي القذر ﴿ مِنَ الاوثان ﴾ أي الذي هو الأوثان على أن من بيانية .

وفي تعريف ﴿ الرجس ﴾ بلام الجنس مع الإبهام والتعيين وإيقاع الاجتناب على الذات دون العبادة ما لا يخفى من البالغة في التنفير عن عبادتها ، وقيل : من لابتداء الغاية فكأنه تعالى أمرهم باجتناب الرجس عاماً ثم عين سبحانه لهم مبدأه الذي منه يلحقهم إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس ، وفي "البحر" يمكن أن تكون للتبعيض بن يعني بالرجس عبادة الأوثان وقد روى ذلك عن ابن عباس .

وابن جريج فكأنه قيل فاجتنبوا من الأوثان الرجل وهو العبادة لأن المحرم منها إنما هو العبادة ألا ترى أنه قد يتصور استعمال الوثن في بناء وغير ذلك مما لم يحرمه الشرع فكان للوثن جهات ، منها عبادته وهو المأمور باجتنابه وعبادته بعض جهاته فقول ابن عطية : إن من جعل من

للتبعيض قلب المعنى وأفسده ليس في محله انتهى .

ولا يخفى ما في كلا الوجهين الابتداء والتبعيض من التكلف المستغنى عنه ، وههنا احتمال آخر ستعلمه مع ما فيه إن شاء الله تعالى قريباً ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما يفيده قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ ﴾ الخ من وجوب مراعاة الحرمات والاجتناب عن هتكها .

(49/523)

وذكر أن بالاستثناء حسن التخلص إلى ذلك وهو السر في عدم حمل الأنعام على ما ذكر من الضحايا والهدايا المعهودة خاصة ليستغني عنه إذ ليس فيها ما حرم لعارض فكأنه قيل : ومن يعظم حرمات الله فهو خير له والأنعام ليست من الحرمات فإنها محللة لكم إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه فإنه مما يجب الاجتناب عنه فاجتنبوا ما هو معظم الأمور التي يجب الاجتناب عنها وهو عبادة الأوثان ، وقيل : الظاهر أن ما بعد الفاء متسبب عن قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ الأنعام ﴾ فإن ذلك نعمة عظيمة تستدعي الشكر لله تعالى لا الكفر . والإشراك به بل لا يبعد أن يكون المعنى فاجتنبوا الرجس من أجل الأوثان على أن ﴿ مِنْ ﴾ سببية وهو تخصيص لما أهل به لغير الله تعالى بالذكر فيتسبب عن قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا يتلى ﴾ ويؤيده قوله تعالى : فيما بعد ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ [الحج : 31] فإنه إذا

حمل على ما حملوه كان تكراراً انتهى .

وأورد على ما ادعى ظهوره أن إحلال الأنعام وإن كان من النعم العظام إلا أنه من الأمور الشرعية دون الأدلة الخارجية التي يعرف بها التوحيد وبطلان الشرك فلا يحسن اعتبار تسبب اجتناب الأوثان عنه .

وأما ما ادعى عدم بعده فبعيد جداً وإنكار ذلك مكابرة فتأمل .

وقوله تعالى : ﴿ واجتنبوا قَوْلَ الزور ﴾ تعميم بعد تخيص فإن عبادة الأوثان رأس الزور لما فيها من ادعاء الاستحقاق كأنه تعالى لما حث على تعظيم الحرمات اتبع ذلك بما فيه رد لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما والافتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك ، ولم يعطف قول الزور على الرجل بل أعاد العامل لمزيد الاعتناء ، والمراد من الزور مطلق الكذب وهو من الزور بمعنى الانحراف فإن الكذب منحرف عن الواقع والإضافة بيانية ، وقيل : هو أمر باجتناب شهادة الزور لما أخرج أحمد .

وأبو داود .

وابن ماجه .

والطبراني .

وغيرهم عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الصبح فلما انصرف قائماً قال : عدلت شهادة الزور الإشراك بالله تعالى ثلاث مرات ثم تلا هذه الآية .

وتعقب بأنه لا نص فيما ذكر من الخبر مع ما في سنده في بعض الطرق من المقال على التخصيص لجواز بقاء الآية على العموم وتلاوتها لشمولها لذلك ، وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنه قال يعني بقول الزور الشرك بالكلام وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت فيقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك وهو قول بالخصيص .

ولا يخفى أن التعميم أولى منه وإن لاءم المقام كتخصيص بعضهم ذلك بقول المشركين هذا حلال وهذا حرام ﴿ حُنَفَاء للَّهِ ﴾ مائلين عن كل دين زائغ إلى الدين الحق مخلصين له تعالى ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ أي شيئاً من الأشياء فيدخلوا في ذلك الأوثان دخولاً أولياء وهما حالان مؤكدتان من واو فاجتنبوا .

وجوز أن يكون حالاً من واو ﴿ واجتنبوا ﴾ وأخر التبري عن التولي ليتصل ﴿ حنفاء لله ﴾ مائلين عن كل دين زائع الى الدين الحق مخلصين له تعالى ﴿ غير مشركين به ﴾ أي شيئاً من الأشياء فيدخل في ذلك الأوصان دخولاً أولياً هما حالان مؤكدتان من واو ﴿ فاجتنبوا ﴾ [الحج : 30] وجوز أن يكون حالاً من واو ﴿ واجتنبوا ﴾ [الحج : 30] وأخر التبري عن التولي ليتصل بقوله تعالى :

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السماء ﴾ وهي جملة مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الاجتناب من الإشراك ، وإظهار الاسم الجليل لإظهار كمال قبح الإشراك ، وقد شبه الايمان بالسماء لعلوه والإشراك بالسقوط منها فالمشرك ساقط من أوج الايمان إلى حضيض الكفر وهذا السقوط إن كان في حق المرتد فظاهره وهو في حق غيره باعتبار الفطرة وجعل التمكن والقوة بمنزلة الفعل كما قيل في قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطاغوت يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النور إِلَى الظلمات ﴾ [البقرة : 257] ﴿ فَتَخْطَفُهُ الطير ﴾ فإن الأهواء المردية توزع أفكاره وفي ذلك تشبيه الأفكار الموزعة بخطف جوارح الطير وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء متشاكسون ﴾ [الزمر : 29] وأصل الخطف الاختلاس بسرعة .

وقرأ نافع ﴿ فَتَخْطَفُهُ ﴾ بفتح الخاء والطاء مشددة .

وقرأ الحسن .

وأبو بحار .

والأعمش ﴿ فَتَخْطَفُهُ ﴾ بكسر التاء والخاء والطاء مشددة ، وعن الحسن كذلك إلا أنه

فتح الطاء مشددة .

وقرأ الأعمش أيضاً ﴿ تخطفه ﴾ بغير فاء وإسكان الخاء وفتح الطاء مخففة ، والجملة على هذه القراءة في موضع الحال ، وأما على القراءات الأول فالفاء للعطف وما بعدها عطف على ﴿ فَلَمَّا خَرَّ ﴾ وفي إيثار المضارع إشعار باستحضار تلك الحالة العجيبة في مشاهد المخاطب تعجيباً له ، وجوز أبو البقاء أن يكون الكلام بتقدي فهو يخطفه والعطف من عطف الجملة في مشاهد المخاطب تعجيباً له ، وجوز أبو البقاء أن يكون الكلام بتقدير فهو يخطفه والعف من عطف الجملة على الجملة ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ الريح ﴾ أي تسقطه وتقذفه .

وقرأ أبو جعفر .

(52/523)

وأبو رجاء ﴿ الرياح ﴾ ﴿ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ بعيد فإن الشيطان قد طوح به في الضلالة ، وفي ذلك تشبيه الشيطان المضل بالريح المهوية وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ [مريم : 83] فالتشبيه في الآية مفرق .

والظاهر أن ﴿ تَهْوِى ﴾ عطف على ﴿ تخطف ﴾ وأو للتقسيم على معنى أن مهلكه إما هوى يتفرق به في شعب الخسار أو شيطان يطوح به في مهمه البوار ، وفرق بين خاطر النفس والشيطان فلا يرد ما قاله ابن المنير من أن الأفكار من نتائج وساوس الشيطان ، والآية سيقت لجعلهما شيئين ، وفي تفسير القاضي أنها للتخيير على معنى أنت مخير بين أن تشبه المشرك بمن خر من السماء فتخطفه الطير وبين من خر من السماء فتهوى به الريح في مكان سحيق أو للتنويع على معنى أن المشبه به نوعان والمشبه بالنوع الأول الذي توزع لحمه في بطون جوارح الطير المشرك الذي لا خلاص له من الشرك ولا نجاة أصلاً ، والمشبه بالنوع الثاني الذي رمته الريح في المهاوي المشرك الذي يرجى خلاصه على بعد ، وقال ابن المنير : إن الكافر قسمان لا غير ، مذبذب متمادى على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة وهذا مشبه بمن اختطفته الطير وتوزعته فلا يستولى طائر على قطعة منه إلا انتبا منه آخر وتلك حال المذبذب لا يلوح له خيال إلا اتبعه وترك ما كان عليه ، ومشرك مصمم على معتقد باطل لو نشر بالمناشيز لم يكع ولم يرجع لا سبيل إلى تشكيكه ولا مطمع في نقله عما هو عليه فهو فرح مبتهج بضلالته وهذا مشبه في قراره على الكفر باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل هو أبعد الأحياز عن السماء فاستقر فيه انتهى ، ولا يخفى أن ما ذكرناه أوفق بالظاهر .

وجوز غير واحد أن يكون من التشبيهات المركبة فكأنه سبحانه قال : من أشرك بالله تعالى فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق قطعاً في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة ، وجعل في "الكشف" أو على هذا للتخيير وليس بمتعين فيما يظهر ، وعلى الوجهين تفريق التشبيه وتركيبه في الآية تشبيهان .

وذكر الطيبي أن فيها على التركيب تشبيهين ، و﴿ وَمَا تَهْوَى ﴾ عطف على ﴿ خَرَّ ﴾ وعلى التفريق تشبيهاً واحداً و﴿ تَهْوَى ﴾ عطف على ﴿ تخطف ﴾ وزعم أن في عبارة الكشاف ما يؤذن بذلك وهو غير مسلم ﴿ يَفْعَلْ ذلك ﴾ أي الأمر ذلك أو امتثلوا ذلك ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شعائر الله ﴾ أي البدن الهدايا كما روى عن ابن عباس .

ومجاهد .

وجماعة وهي جمع شعيرة أو شعارة بمعنى العلامة كالشعار ، وأطلقت على البدن الهدايا لأنها من معالم الحج أو علامات طاعته تعالى وهدايته .

وقال الراغب : لأنها تشعر أي تعلم بأن تدمى بشعيرة أي حديدة يشعر بها ، ووجه الإضافة على الأوجه الثلاثة لا يخفى ، وتعظيمها أن تختار حساناً سماناً غالية الأثمان ، روى أنه صلى الله عليه وسلم أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب ،

وعن عمر أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك وقال : بل أهدها ، وكان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما يسوق البدن مجللة بالقباطي فيتصدق بلحومها وبجلالها ، وقال زيد بن أسلم :

الشعار ست الصفا .

والمروة والبدن .

والجمار والمسجد الحرام .

وعرفة .

والركن ، وتعظيمها إتمام ما يفعل بها ، وقال ابن عمر .

والحسن .

ومالك .

وابن زيد : الشعائر مواضع الحجج كلها من منى وعرفة والمزدلفة والصفا والمروة والبيت وغير ذلك وهو نحو قول زيد .

(54/523)

وقيل : هي شرائع دينية تعالى وتعظيمها التزامها ، والجمهور على الأول وهو أوفق لما بعد ، و﴿ مِنْ ﴾ إما شرطية أو موصولة وعلى التقديرين لا بد في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ من ضمير يعود إليها أو ما يقوم مقامه فقيل إن التقدير فإن تعظيمها الخ ، والتعظيم مصدر مضاف إلى مفعوله ولا بد له من فاعل وهو ليس إلا ضميراً يعود إلى ﴿ مِنْ ﴾ فكأنه قيل فإن تعظيمه إياها ، و﴿ مِنْ ﴾ تحتمل أن تكون للتعليل أي فإن تعظيمها لأجل تقوى القلوب وأن تكون لابتداء الغاية أي فإن تعظيمها ناشيء من تقوى القلوب ، وتقدير هذا المضاف واجب على ما قيل من حيث أن الشعائر نفسها لا يصح الإخبار عنها بأنها من التقوى بأي معنى كانت ﴿ مِنْ ﴾ .

وقال الزمخشري : التقدير فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى ﴿ مِنْ ﴾ ليرتبط به اه .

وتعقبه أبو حيان بأن ما قدره عار من راجع إلى ﴿ مِنْ ﴾ ولذا لما سلك جمع مسلكه في تقدير المضافات قيل التقدير فإن تعظيمها منه من أفعال الخ أو فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب منهم فجاؤا بضمير مجرور .

عائد إلى ﴿ مِنْ ﴾ في آخر الكلام أو في أثنائه ، وبعض من سلك ذلك لم يقدر منه ولا منهم لكن التزم جعل اللام في ﴿ القلوب ﴾ بدلاً من الضمير المضاف إليه على رأي الكوفيين

للربط أي تقوى قلوبهم .

والدماميني جعل الرابط في تقدير الزمخشري فاعل المصدر المحذوف لفهم المعنى فلا يكون ما قدره عارياً عن الراجع إلى ﴿ مِنْ ﴾ كما زعمه أبو حيان فإن المحذوف المفهوم بمنزلة المذكور .

وقال "صاحب الكشف" : في الانتصار له أيضاً أراد أنه على ما قدره يكون عموم ذوي تقوى القلوب بمنزلة الضمير فتقدير منه كما فعل البيضاوي ليس بالوجه .

(55/523)

واعترض صاحب التقريب تقدير المضافين الأخيرين أعني أفعال وذوى بأنه إنما يحتاج إليه إذا جعل ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض وأما إذا جعل للابتداء فلا إذ المعنى حينئذ فإن تعظيمها ناشيء من تقوى القلوب وهو قول بأحد الوجهين اللذين سمعتهما أولاً ، ولم يرتض ذلك "صاحب الكشف" قال : إن إضمار الأفعال لأن المعنى إن التعظيم باب من التقوى ومن أعظم أبوابها لا أن التعظيم صادر من ذي تقوى .

ومنه يظهر أن الحمل على أن التعظيم ناشيء من تقوى القلوب .

والاعتراض بأن قول الزمخشري : إنما يستقيم إذا حمل على التبعيض ليس على ما ينبغي

على أن حينئذ إن قدر من تقوى قلوبهم على المذهب الكوفي أو من تقوى القلوب منهم اتسع الخرق على الراقع ، ثم التقوى إن جعلت متناولة للأفعال والتروك على العرف الشرعي فالتعظيم بعض البتة وإن جعلت خاصة بالتروك فمنشأ التعظيم منها غير لائح إلا على التجوز انتهى .

واعترض بأن دعواه أن المعنى على أن التعظيم باب من التقوى دون أن التعظيم صادر من ذي تقوى دعوى بلا شاهد .

وبأنه لا تظهر الدلالة على أنه من أعظم أبواب التقوى كما ذكره ، وبأن القول بعدم الاحتياج إلى الإضمار على تقدير أن يكون التعظيم بعضاً من التقوى صلح لا يرضى به الخصم .

وبأنه إذا صح الكلام على التجوز لا يستقيم قول الزمخشري : لا يستقيم الخ .

(56/523)

وتعقب بأنه غير وارد ، أما الأول فلأن السياق للتحريض على تعظيم الشعائر وهو يقتضي عده من التقوى بل من أعظمها وكونه ناشئاً منها لا يقتضي كونه منها بل ربما يشعر بخلافه ، وأما الثاني فلأن الدلالة على الأعظمية مفهومة من السياق كما إذا قلت : هذا من أفعال المتقين والعفو من شيم الكرام والظلم من شيم النفوس كما يشهد به الذوق ، وأما الثالث

فلأنه لم يدع عدم الاحتياج إلى الإضمار على تقدير كون التعظيم بعضاً بل يقول الرابط العموم كما قال أولاً ، وأما الرابع فلأن صحة الكلام بدون تقدير على التجوز لكونه خفياً في قوة الخطا إذ لا قرينة عليه والتبعيض متبادر منه فلا غبار إلا على نظر المعترض ، وأقول : لا يخفى أنه كلما كان التقدير أقل كان أولى فيكون قول من قال : التقدير فإن تعظيمها من تقوى القلوب أولى من قول من قال : التقدير فأن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب .

ومن في ذلك للتبعيض ، وما يقتضيه السياق من تعظيم أمر هذا التعظيم يفهم من جعله بعض تقوى القلوب بناء على أن تقييد التقوى بالقلوب للإشارة إلى أن التقوى قسمان ، تقوى القلوب والمراد بها التقوى الحقيقية الصادقة التي يتصف بها المؤمن الصادق .

وتقوى الأعضاء والمراد بها التقوى الصورية الكاذبة التي يتصف بها المنافق الذي كثيراً ما تخشع أعضاؤه وقلبه ساه لاه .

والتركيب أشبه التراكيب بقولهم : العفو من شيم الكرام فمتى فهم منه كون العفو من أعظم أبواب الشيم فليفهم من ذلك كون التعظيم من أعظم أبواب التقوى والفرق تحكم .

ولعل كون الإضافة لهذه الإشارة أولى من كونها لأن القلوب منشأ التقوى والفجور والآمرة بهما فتدبر .

ومن الناس من لم يوجب تقدير التعظيم وأرجع ضمير ﴿ فَإِنَّهَا ﴾ إلى الحرمة أو الخصلة

كما قيل نحو ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : " من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت " أو إلى مصدر مؤنث مفهوم من ﴿ يُعَظِّمْ ﴾ أي التعظيمة .

(57/523)

واعترض هذا بأن المصدر الذي تضمنه الفعل لا يؤنث إلا إذا اشتهر تأنيثه كرحمة وهذا ليس كذلك ونظر فيه .

نعم إن اعتبار ذلك مما لا يستلذه الذوق السليم ، ومنه يعلم حال اعتبار التعظيمات بصيغة الجمع ، على أنه قيل عليه : إنه يوهم أن التعظيمة الواحدة ليست من التقوى ، ولا يدفعه أنه لا اعتبار بالمفهوم أو أن ذلك من مقابلة الجمع بالجمع كما لا يخفى .

وإذا اعتبر المذهب الكوفي في لام ﴿ القلوب ﴾ لم يحتج في الآية إلى إضمار شيء أصلاً .

وذهب بعض أهل الكمال إلى أن الجزاء محذوف تقديره فهم متقون حقاً لدلالة التعليل القائم مقامه عليه .

وتعقب بأن الحذف خلاف الأصل وما ذكر صالح للجزائية باعتبار الأعلام والأخبار كما عرف في أمثاله ، وأنت تعلم أن هذا التقدير ينساق إلى الذهن ومثله كثير في الكتاب الجليل .

وقرىء ﴿ القلوب ﴾ بالرفع على أنه فاعل بالمصدر الذي هو ﴿ تَقْوَى ﴾ واستدل الشيعة ومن يحذو حذوهم بالآية على مشروعية تعظيم قبور الأئمة وسائر الصالحين بإيقاد السرج عليها وتعلق مصنوعات الذهب والفضة ونحو ذلك مما فاقوا به عبدة الأصنام ولا يخفى ما فيه .

﴿ لَكُمْ فِيهَا ﴾ أي في الشعائر بالمعنى السابق ﴿ منافع ﴾ هي درها ونسلها وصوفها وركوب ظهورها ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو وقت أن يسميها ويوجبها هدياً وحينئذ ليس لهم شيء من منافعها قاله ابن عباس في رواية مقسم .

ومجاهد .

(58/523)

وقتادة والضحاك ، وكذا عند الإمام أبي حنيفة فإن المهدي عنده بعد التسمية والإيجاب لا يملك منافع الهدى أصلاً لأنه لو ملك ذلك لجاز له أن يؤجره للركوب وليس له ذلك اتفاقاً ، نعم يجوز له الانتفاع عند الضرورة وعليه يحمل ما روى عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم مر برجل يسوق هديه وهو في جهاد فقال عليه الصلاة والسلام : " اركبها فقال يا رسول الله : إنها هدى فقال : اركبها ويلك " وقال عطاء : منافع الهدايا بعد إيجابها

وتسميتها هدياً أن تركب ويشرب لبنها عند الحاجة إلى أجل مسمى وهو وقت أن تنحر وإلى ذلك ذهب الشافعي ، فعن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال : " اركبوا الهدى بالمعروف حتى تجدوا ظهراً " واعترض على ما تقدم بأن مولى أم الولد يملك الانتفاع بها وليس له أن يبيعها فلم لا يجوز أن يكون الهدى كذلك لا يملك المهدى بيعه وإجارته ويملك الانتفاع به بغير ذلك ، وقيل الأجل المسمى وقت أن تشعر فلا تركب حينئذ إلا عند الضرورة .

وروى أبو رزين عن ابن عباس الأجل المسمى وقت الخروج من مكة ، وفي رواية أخرى عنه وقت الخروج والانتقال من هذه الشعائر إلى غيرها ، وقيل الأجل المسمى يوم القيامة ولا يخفى ضعفه .

﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا ﴾ أي وجوب نحرها على أن يكون محل مصدراً ميمياً بمعنى الوجوب من حل الدين إذا وجب أو وقت نحرها على أن يكون اسم زمان ، وهو على الاحتمالين معطوف على ﴿ منافع ﴾ والكلام على تقدير مضاف .

(59/523)

وقوله تعالى : ﴿ إلى البيت العتيق ﴾ في موضع الحال أي منتهية إلى البيت ، والمراد به ما يليه بعلاقة المجاورة فإنها لا تنتهي إلى البيت نفسه وإنما تنتهي إلى ما يقرب منه ، وقد جعلت مني منحراً ففي الحديث "كل فجاج مكة منحر وكل فجاج منى منحر " وقال القفال : هذا في الهدايا التي تبلغ منى وأما الهدى المتطوع به إذا عطب قبل بلوغ مكة فمنحره موضعه ، وقالت الإمامية : منحر هدى الحج منى ومنحر هدى العمرة المفردة مكة قبالة الكعبة بالحزورة ، و﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي الزماني أو الرتبي أي لكم فيها منافع دنيوية إلى أجل مسمى وبعده لكم منفعة دينية مقتضية للثواب الأخروي وهو وجوب نحرها أو وقت نحرها ، وفي ذلك مبالغة في كون نفس النحر منفعة ، والتراخي الرتبي ظاهر وأما التراخي الزماني فهو باعتبار أول زمان الثبوت فلا تغفل .

(60/523)

والمعنى على القول بأن المراد من الشعائر مواضع الحج لكم في تلك المواضع منافع بالأجر والثواب الحاصل بأداء ما يلزم أداؤه فيها إلى أجل مسمى هو انقضاء أيام الحج ثم محلها أي محل الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق أي منته إليه بأن يطوفوا به طواف الزيارة يوم النحر بعد أداء ما يلزم في هاتيك المواضع فإضافة المحل إليها لأدنى ملابسة ؛ وروي نحو ذلك عن

مالك في "الموطأ" أو لكم فيها منافع التجارات في الأسواق إلى وقت المراجعة ثم وقت الخروج منها منتهية إلى الكعبة بالإحلال بطواف الزيارة أو لكم منافع دنيوية وأخروية إلى وقت المراجعة الخ ، وهكذا يقال على ما روي عن زيد بن أسلم من تخصيصها بالست ، وعلى القول بأن المراد بها شرائع الدين لكم في مراعاتها منافع دنيوية وأخروية إلى انقطاع التكليف ثم محلها الذي توصل إليه إذا روعيت منته إلى البيت العتيق وهو الجنة أو محل رعايتها منته إلى البيت العتيق وهو معبد للملائكة عليهم السلام ، وكونه منتهى لأنه ترفع إليه الأعمال ، وقيل كون محلها منتهياً إلى البيت العتيق أي الكعبة كما هو المتبادر باعتبار أن محل بعضها كالصلاة والحج منته إلى ذلك ، وقيل : غير ذلك والكل مما لا ينبغي أن يخرج عليه كلام أدنى الناس فضلاً عن كلام رب العالمين ، وأهون ما قيل : إن الكلام على هاتيك الروايات متصل بقوله تعالى : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام ﴾ [الحج : 30] وضمير ﴿ فِيهَا ﴾ لها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(61/523)

وقال القاسمى :

﴿ ذَلِكَ ﴾ خبر محذوف . أي : الأمر ذلك . وهو وأمثاله من أسماء الإشارة ، تطلق

للفصل بين الكلامين ، أو بين وجهي كلام واحد .

قال الشهاب : والمشهور في الفصل هَذَا كقوله : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ [ص : 55] ، واختيار ذلك هنا لدلالته على تعظيم الأمر وبعد منزلته . وهو من الاقتضاب القريب من التخلص ، لملائمة ما بعده لما قبله ، كما هنا : ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ ﴾ أي : أحكامه . أو الحرم وما يتعلق بالحج من المناسك . والحرمات جمع حرمة وهو ما لا يحل هتكه ، بل يحترم شرعاً : ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أي : ثواباً . وخير اسم تفضيل حذف متعلقه . أي : من غيره ، أو ليس المراد به التفضيل فلا يحتاج لتقديره ، قاله الشهاب . والثاني هو الأظهر ، لأنه أسلوب التنزيل في موضع لا يظهر التفاضل فيها . وإيثاره ، مع ذلك ، لرقة لفظه ، وجمعه بين الحسن والروعة : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أي : آية تحريمه . وذلك قوله في سورة المائدة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾ [المائدة : 3] ، والمعنى : أن الله قد أحل لكم الأنعام كلها ، إلا ما استثناه في كتابه . فحافظوا على حدوده . وإياكم أن تحرموا مما أحل لكم شيئاً . كتحريم عَبْدة الأوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك . وأن تحلوا مما حرم الله . كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك . أفاده الزمخشري .

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ تفريع على ما سبق من تعظيم حرماته تعالى . فإن ترك الشرك واجتناب الأوثان من أعظم المحافظة على حدوده تعالى . ومن بيانية . أي : فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان ، كما تجتنب الأنجاس . وهو غاية المبالغة في النهي عن تعظيمها والتنفير عن عبادتها . قال الزمخشري : سمى الأوثان رجساً وكذلك الخمر والميسر والأزلام ، على طريق التشبيه . يعني أنكم ، كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه ، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة . ونبه على هذا المعنى بقوله : ﴿ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة : 90] ، جعل العلة في اجتنابه أنه رجس ، والرجس مجتنب . وقوله تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ تعميم بعد تخصيص . فإن عبادة الأوثان رأس الزور . كأنه لما حث على تعظيم الحرمات ، أتبعه ذلك ، ردّاً لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب . وتعظيم الأوثان والافتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك ، وإعلاماً بأن توحيد الله ونفي الشركاء عنه ، وصدق القول ، أعظم الحرمات وأسبقها خطواً : ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ ﴾ مخلصين له الدين ، منحرفين عن الباطل إلى الحق : ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ أي : شيئاً من الأشياء . ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى ، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾ أي : سقط منها فقطعته الطيور في الهواء : ﴿ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ

﴾ أي : تقدمه : ﴿ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ أي : بعيد مهلك لمن هوى فيه . وأو للتخيير أو التنويع . قال الزمخشري : يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق . فإن كان تشبيهاً مركباً ، فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية . بأن صور حاله بصورة حال مَنْ خَرَّ من السماء فاختطفته الطير ،

(63/523)

فتفرق مزعاً في حواصلها . أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة . وإن كان مفرقاً ، فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله ، بالساقط من السماء . والأهواء التي تتوزع أفكاره ، بالطير المختطفة . والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة ، بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة . فكتب الناصر عليه : أما على تقدير أن يكون مفرّقاً فيحتاج تأويل [في المطبوع : تأيل] تشبيه المشرك بالهاوي من السماء ، إلى التنبيه على أحد أمرين : إما أن يكون الإشراك المراد ردَّته ، فإنه حينئذ كمن علا إلى السماء بإيمانه ثم هبط بارتداده وإما أن يكون الإشراك أصلياً ، فيكون قد عدّ تمكن المشرك من الإيمان ومن العلوّ به ثم عدوله عنه اختياراً ، بمنزلة من علا إلى السماء ثم هبط كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ

النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة : 257] ، فعدهم مخرجين من النور وما دخلوه قط ، ولكن كانوا متمكنين منه . وفي تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر ، بالطير المختطفة ، وفي تشبيه تطويح الشيطان بالهوي مع الريح في مكان سحيق – نظر . لأن الأمرين ذكرا في سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين . فإذا جعل الأول مثلاً لاختلاف الأهواء والأفكار ، والثاني مثلاً لنزغ الشيطان فقد جعلهما شيئاً واحداً . لأن توزع الأفكار واختلاف الأهواء ، مضاف إلى نزغ الشيطان ، فلا يتحقق التقسيم المقصود . والذي يظهر في تقرير التشبيهين غير ذلك . فنقول : لما انقسمت حال الكفر إلى قسمين لا مزيد عليهما ، الأول منهما : المتذبذب والمتمادي على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة . فهذا القسم من المشركين مشبه بمن اختطفته الطير وتوزعته ، فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر ، وذلك حال المذبذب . لا يلوح له خيال إلا اتّبعه ونزل عما كان عليه .

(64/523)

والثاني : مشرك مصمم على معتقد باطل . لو نشر بالمنشار لم يكع ولم يرجع . لا سبيل إلى تشكيكه ، ولا مطمع في نقله عما هو عليه ، فهو فرح مبتهج بضلالته .

فهذا مشبه في إقراره على كفره ، باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل فاستقرّ فيه .

ويظهر تشبيه بالاستقرار في الوادي السحيق ، الذي هو أبعد الأحباء عن السماء ، وصف ضلاله بالبعد في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [إبراهيم : 3] ، و : ﴿ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ [النساء : 167] ، أي : صمموا على ضلالهم فبَعُد رجوعهم إلى الحق فهذا تحقيق القسمين والله أعلم . انتهى كلامه .

ولا يخفى أن في النظم الكريم مساغاً له . إلا أنه لا قاطع به . نعم ، هو من بديع الاستنباط ، ورقيق الاستخراج . فرحم الله ناسخه [في المطبوع : ناسجه] .

قال ابن كثير : وقد ضرب تعالى للمشركين مثلاً آخر في سورة الأنعام . وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ [الأنعام : 71] الآية .

(65/523)

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾

أي : علائم هدايته ، وهو الدين . أو معالم الحج ومناسكه . أو الهدايا خاصة ، لأنها من معالم الحج وشعائره تعالى . كما تنبئ عنه آية : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾

[36] ، وهو الأوفق لما بعده . وتعظيمُها أن يختارها عظام الأجرام حساناً سماناً ، غالية الأثمان . ويترك المكاس في شرائها . فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون المكاس فيهن : الهدي والأضحية والرقبة .

وعن سهل : كنا نسمن الأضحية في المدينة وكان المسلمون يسمنون . رواه البخاريّ .

وعن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين أقرنين . رواه البخاريّ

وعن البراء مرفوعاً : < أربع لا تجوز في الأضاحي ، العوراء البيّن عورها ، والمريضة البيّن مرضها ، والعرجاء البيّن ظلعها ، والكسيرة التي لا تُنْقِي > رواه أحمد وأهل السنن ﴿ فَإِنَّهَا ﴾ أي : فإن تعظيمها : ﴿ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ أي : من أفعال ذوي التقوى . والإضافة إلى القلوب ، لأن التقوى وضدها تنشأ منها .

(66/523)

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ أي : لكم في الهدايا منافع دَرّها ونسلها وصوفها وظهرها إلى وقت نحرها . وقد روي في الصحيحين عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يسوق بدنة قال : < اركبها > . قال : إنها

بدنة قال : < اركبها ويحك . في الثانية أو الثالثة > . وقوله : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا ﴾ أي : محل الهدايا وانتهاؤها إلى البيت العتيق وهو الكعبة كما قال تعالى : ﴿ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة : 95] ، وقال : ﴿ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ [الفتح : 25] .

قال في " الإكليل " : فيه أن الهدي لا يذبح إلا بالحرم . وقيل : المعنى : محل هذه الشعائر كلها الطواف بالبيت العتيق . فيقتضي أن الحاج بعد طواف الإفاضة . يحل له كل شيء .

وكذا روي عن ابن عباس : ما طاف أحد بالبيت إلا حل ، لهذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 257.260 ﴾

(67/523)

وقال ابن عاشور :

﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ حرمات الله فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾

اسم الإشارة مستعمل هنا للفصل بين كلامين أو بين وجهين من كلام واحد ، والقصد منه التنبيه على الاهتمام بما سيذكر بعده .

فالإشارة مرادٌ بها التنبيه ، وذلك حيث يكون ما بعده غيرَ صالح لوقوعه خبراً عن اسم الإشارة فيتعين تقدير خبر عنه في معنى : ذلك بيانٌ ، أو ذكرٌ ، وهو من أساليب الاقتضاب

في الانتقال .

والمشهور في هذا الاستعمال لفظ (هذا) كما في قوله تعالى : ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مئاب ﴾ [ص : 55] وقولِ زهير:

هَذا وليس كمن يَعْيَا بخطبته . . .

وسْط النّدي إذا ما قائل نَطقا

وأوثر في الآية اسم إشارة البعيد للدلالة على بعد المنزلة كناية عن تعظيم مضمون ما قبله .

فاسم الإشارة مبتدأ حذف خبره لظهور تقديره ، أي ذلك بيان ونحوه .

وهو كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض الأغراض فإذا أراد الخوض في غرض آخر ، قال : هذا وقد كان كذا وكذا .

وجملة ﴿ ومن يعظم ﴾ الخ . . .

معترضة عطفاً على جملة ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ [الحج : 26] عطف الغرض على الغرض .

وهو انتقال إلى بيان ما يجب الحفاظ عليه من الحنيفية والتنبيه إلى أن الإسلام بُني على أساسها .

وضمير ﴿ فهو ﴾ عائد إلى التعظيم المأخوذ من فعل ﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ .

والكلام موجّه إلى المسلمين تنبيهاً لهم على أنّ تلك الحرمات لم يعطل الإسلام حرمتَها ،

فيكون الانتقال من غرض إلى غرض ومن مخاطب إلى مخاطب آخر .

فإن المسلمين كانوا يعتمرون ويحجون قبل إيجاب الحجّ عليهم ، أي قبل فتح مكة .

والحُرمات : جمع حُرُمة بضمتين : وهي ما يجب احترامه .

والاحترام : اعتبار الشيء ذَا حَرَم ، كناية عن عدم الدخول فيه .

أي عدم انتهاكه بمخالفة أمر الله في شأنه ، والحُرمات يشمل كل ما أوصَى الله بتعظيم أمره فتشمل مناسك الحج كلها .

(68/523)

وعن زيد بن أسلم : الحرمات خمس : المسجد الحرام ، والبيت الحرام ، والبلد الحرام ، والشهر الحرام ، والمُحرم ما دام محرماً ، فقصَرَه على الذوات دون الأعمال .

والذي يظهر أن الحرمات يشمل الهدايا والقلائد والمشعر الحرام وغير ذلك من أعمال الحجّ ، كالغسل في مواقعه ، والحلق ومواقيته ومناسكه .

﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الانعام إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ فاجتنبوا الرجس مِنَ الاوثان واجتنبوا قَوْلَ الزور حُنَفَآءَ للَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾

لما ذكر آنفاً بهيمة الأنعام وتعظيم حرمات الله أعقب ذلك بإبطال ما حرمه المشركون على

أنفسهم من الأنعام مثل : البَحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحَامي وبعضِ ما في بطونها . وقد ذكر في سورة الأنعام .

واستثني منه ما يتلى تحريمه في القرآن وهو ما جاء ذكره في [سورة الأنعام : 145] في قوله : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً ﴾ الآيات وما ذكر في سورة النحل وكلتاهما مكيتان سابقتان .

وجيء بالمضارع في قوله : إلا ما يتلى عليكم ﴾ ليشمل ما نزل من القرآن في ذلك مما سبق نزولَ سورة الحجّ بأنه تلي فيما مضى ولم يزل يتلى ، ويشمل ما عسى أن يَنزل من بعد مثل قوله : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ﴾ الآية في ﴾ [سورة العقود : 103] .

والأمر باجتناب الأوثان مستعمل في طلب الدوام كما في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ [النساء : 136] .

وفرع على ذلك جملة معترضة للتصريح بالأمر باجتناب ما ليس من حرمات الله ، وهو الأوثان .

واجتناب الكذب على الله بقولهم لبعض المحرمات ﴿ هذا حلال ﴾ مثل الدم وما أهلّ لغير الله به ، وقولهم لبعض : هذا حرام مثل البَحيرة ، والسائبة .

قال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ﴾ [النحل : 116] .

والرّجس : حقيقته الخبث والقذارة ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ فإنه رجس ﴾ في [سورة الأنعام : 145] .

(69/523)

ووصف الأوثان بالرجس أنها رجس معنوي لكون اعتقاد إلهيتها في النفوس بمنزلة تعلّق الخبث بالأجساد فإطلاق الرجس عليها تشبيه بليغ .

و(مِن) في قوله من الأوثان بيان لمجمل الرجس ، فهي تدخل على بعض أسماء التمييز بياناً للمراد من الرجس هنا لا أن معنى ذلك أن الرجس هو عين الأوثان بل الرجس أعمّ أريد به هنا بعض أنواعه فهذا تحقيق معنى (من) البيانية .

و﴿ حنفاء لله ﴾ حال من ضمير ﴿ اجتنبوا ﴾ أي تكونوا إن اجتنبتم ذلك حنفاء لله ، جمع حنيف وهو المخلص لله في العبادة ، أي تكونوا على ملّة إبراهيم حقاً ، ولذلك زاد معنى ﴿ حنفاء ﴾ بياناً بقوله ﴿ غير مشركين به ﴾ .

وهذا كقوله : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾ [النحل : 120] .

والباء في قوله ﴿ مشركين به ﴾ للمصاحبة والمعية ، أي غير مشركين معه غيره .

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾

أعقب نهيهم عن الأوثان بتمثيل فظاعة حال من يشرك بالله في مصيره بالشرك إلى حال انحطاط وتلقف الضلالات إياه ويأسه من النجاة ما دام مشركاً تمثيلاً بديعاً إذ كان من قبيل التمثيل القابل لتفريق أجزائه إلى تشبيهات .

قال في "الكشاف" : "يجوز أن يكون هذا التشبيه من المركب والمفرّق بأن صُور حال المشرك بصورة حال مَن خرّ من السماء فاختطفَتْه الطيرُ فتفرّق مِزعاً في حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة ، وإن كان مفرقاً فقد شبّه الإيمان في علوّه بالسماء ، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء ، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة" أ .

.٥

(70/523)

يعني أنّ المشرك لما عدل عن الإيمان الفطري وكان في مكنته فكأنه كان في السماء فسقط منها ، فتوزعته أنواع المهالك ، ولا يخفى عليك أنّ في مطاوي هذا التمثيل تشبيهات كثيرة لا يعوزك استخراجها .

والسحيق : البعيد فلا نجاة لمن حل فيه .

وقوله : ﴿ أو تهوي به الريح ﴾ تخيير في نتيجة التشبيه ، كقوله : ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ [البقرة : 19] .

أشارت الآية إلى أن الكافرين قسمان : قسم شِركه ذبذبة وشكّ ، فهذا مشبّه بمن اختطفته الطير فلا يستولي طائر على مزعة منه إلاّ انتهبها منه آخر ، فكذلك المذبذب متى لاح له خيال اتبعه وترك ما كان عليه .

وقسم مصمّم على الكفر مستقر فيه ، فهو مشبّه بمن ألقته الريح في واد سحيق ، وهو إيماء إلى أن من المشركين من شركه لا يرجى منه خلاص كالذي تخطفته الطير ، ومنهم من شركه قد يخلص منه بالتوبة إلا أن توبته أمر بعيد عسير الحصول .

والخُرور : السقوط .

وتقدم في قوله : ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم ﴾ في [سورة النحل : 26] .

و ﴿ تخطّفُه ﴾ مضاعف خطف للمبالغة ، الخطف والخطف : أخذ شيء بسرعة سواء كان في الأرض أم كان في الجو ومنه تخطف الكرة .

والهُوِيّ : نزول شيء من علو إلى الأرض .

والباء في ﴿ تهوي به ﴾ للتعدية مثلها في : ذهب به .

وقرأ نافع ، وأبو جعفر ﴿ فتَخَطّفه ﴾ بفتح الخاء وتشديد الطاء مفتوحة مضارع خطّف المضاعف .

وقرأه الجمهور بسكون الخاء وفتح الطاء مخففة مضارع خطف المجرّد .

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) ﴾

﴿ ذلك ﴾ تكرير لنظيره السابق .

الشعائر : جمع شعيرة : المَعْلم الواضح مشتقة من الشعور .

وشعائر الله : لقب لمناسك الحجّ ، جمع شعيرة بمعنى : مُشعِرة بصيغة اسم الفاعل أي معلمة بما عينه الله .

فمضمون جملة ﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ الخ . . .

أخص من مضمون جملة ﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ [الحج : 30] وذكر الأخص بعد الأعم للاهتمام .

(71/523)

أو بمعنى مشعر بها فتكون شعيرة فعيلة بمعنى مفعولة لأنها تجعل ليشعر بها الرائي .

وتقدم ذكرها في قوله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ في [سورة البقرة : 158] .

فكل ما أمر الله به بزيارته أو بفعل يوقع فيه فهو من شعائر الله ، أي مما أشعر الله الناس وقرره وشهره .

وهي معالم الحجّ : الكعبة ، والصفا والمروة ، وعرفة ، والمشعر الحرام ، ونحوها من معالم الحجّ .

وتطلق الشعيرة أيضاً على بدنة الهدى .

قال تعالى : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ﴾ [الحج : 36] لأنهم يجعلون فيها شِعاراً ، والشِعار العلامة بأن يطعنوا في جلد جانبها الأيمن طعناً حتى يسيل منه الدم فتكون علامة على أنها نُذرت للهدي ، فهي فعلية بمعنى مفعولة مصوغة من أشعر على غير قياس .

فعلى التفسير الأول تكون جملة ﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ إلى آخرها عطفاً على جملة ﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ [الحج : 30] الخ .

وشعائر الله أخصّ من حرمات الله فعطف هذه الجملة للعناية بالشعائر .

وعلى التفسير الثاني للشعائر تكون جملة ﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ عطفاً على جملة

﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ [الحج : 28]

تخصيصاً لها بالذكر بعد ذكر حرمات الله .

وضمير ﴿ فإنها ﴾ عائد إلى شعائر الله المعظمة فيكون المعنى : فإن تعظيمها من تقوى القلوب .

وقوله ﴿ فإنها من تقوى القلوب ﴾ جواب الشرط والرابط بين الشرط وجوابه هو العموم في قوله : ﴿ القلوب ﴾ فإن من جملة القلوب قلوب الذين يعظمون شعائر الله .

فالتقدير : فقد حلّت التقوى قلبه بتعظيم الشعائر لأنها من تقوى القلوب ، أي لأنّ تعظيمها من تقوى القلوب .

وإضافة ﴿ تقوى ﴾ إلى ﴿ القلوب ﴾ لأنّ تعظيم الشعائر اعتقاد قلبي ينشأ عنه العمل .

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33) ﴾

(72/523)

جملة ﴿ لكم فيها منافع ﴾ حال من الأنعام في قوله : ﴿ وأحلت لكم الأنعام ﴾ [الحج : 30] وما بينهما اعتراضات أو حال من ﴿ شعائر الله ﴾ [الحج : 32] على التفسير الثاني للشعائر .

والمقصود بالخبر هنا : هو صنف من الأنعام ، وهو صنف الهدايا بقرينة قوله : ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾

وضمير الخطاب موجّه للمؤمنين .

والمنافع : جمع منفعة ، وهي اسم النفع ، وهو حصول ما يلائم ويحفّ .

وجعل المنافع فيها يقتضي أنها انتفاع بخصائصها مما يراد من نوعها قبل أن تكون هدياً .

وفي هذا تشريع لإباحة الانتفاع بالهدايا انتفاعاً لا يتلفها ، وهو رد على المشركين إذ كانوا إذا قلّدوا الهدْيَ وأشعَرُوه حظروا الانتفاع به من ركوبه وحمل عليه وشرب لبنه ، وغير ذلك .

وفي "الموطّأ" : " عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يسوق بدنة فقال : اركبها ؟ فقال : إنها بدنة ، فقال : اركبها ، فقال : إنها بدنة ، فقال : اركبها ، ويلك في الثانية أو الثالثة " .

والأجل المسمّى هو وقت نحرها ، وهو يوم من أيام مِنى .

وهي الأيام المعدودات .

والمَحِلّ : بفتح الميم وكسر الحاء مصدر ميمي من حلّ يحِلّ إذا بلغ المكان واستقرّ فيه .

وهو كناية عن نهاية أمرها ، كما يقال : بلغ الغاية ، ونهاية أمرها النحر أو الذبح .

و﴿ إلى ﴾ حرف انتهاء مجازي لأنها لا تنحر في الكعبة ، ولكن التقرب بها بواسطة تعظيم الكعبة لأنّ الهدايا إنما شرعت تكملة لشرع الحجّ ، والحجّ قصد البيت .

قال تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ [آل عمران : 97] ، فالهدايا تابعة للكعبة ، قال تعالى : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] وإن كانت الكعبة لا ينحر فيها ، وإنما المناحر : مِنى ، والمروة ، وفجاج مكة أي طرقها بحسب أنواع الهدايا ، وتبيينه في السنة .

(73/523)

وقد جاء في قوله تعالى : ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ رد العجز على الصدر باعتبار مبدأ هذه الآيات وهو قوله تعالى : ﴿ وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ [الحج : 26] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(74/523)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ .

لم يبين هنا هذا الذي يتلى عليهم المستثنى من حلية الأنعام ، ولكنه بينه بقوله في سورة

الأنعام : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ ﴾ [الأنعام : 145] وهذا الذي ذكرنا هو الصواب ، أما ما قاله جماعات من أهل التفسير من أن الآية التي بينت الإجمال في قوله تعالى هنا : ﴿ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ أنها قوله تعالى في المائدة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمُ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ والمنخنقة والموقوذة ﴾ [المائدة : 3] الآية فهو غلط ، لأن المائدة من آخر ما نزل من القرآن وآية الحج هذه نازلة قبل نزول المائدة بكثير ، فلا يصح أن يحال البيان عليها في قوله : ﴿ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ بل المبين لذلك الإجمال آية الأنعام التي ذكرنا لأنها نازلة بمكة ، فيصح أن تكون مبينة لآية الحج المذكورة كما نبه عليه غير واحد .

أما قوله تعالى في المائدة : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأنعام إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة : 1] فيصح بيانه بقوله في المائدة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم ﴾ الآية . كما أوضحنا في أول المائدة والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ .

" من " في هذه الآية بيانية .

والمعنى : فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان : أي عبادتها والرجس القذر الذي تعافه النفوس ، وفي هذه الآية الكريمة الأمر باجتناب عبادة الأوثان ، ويدخل في حكمها ، ومعناها عبادة كل معبود من دون الله كائناً من كان . وهذا الأمر باجتناب عبادة غير الله المذكور هنا ، جاء بميناً في آيات كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [النحل : 36] وبيَّن تعالى أن ذلك شرط في صحة إيمانه بالله في قوله : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بالطاغوت وَيُؤْمِن بالله فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ [البقرة : 256] وأثنى الله على مجتنبي عبادة الطاغوت المنيبين لله ، وبين أن لهم البشرى ، وهي ما يسرهم عند ربهم في قوله تعالى : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أَن يَعْبُدُوهَا وأنابوا إِلَى الله لَهُمُ البشرى ﴾ [الزمر : 17] الآية . وقد سأل إبراهيم ربه أن يرزقه اجتناب عبادة الطاغوت ، في قوله تعالى : ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ [إبراهيم : 35] والأصنام ، تدخل في الطاغوت دخولاً أولياً .

قوله تعالى : ﴿ واجتنبوا قَوْلَ الزور حُنَفَآءَ للَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ .

أمر في هذه الآية الكريمة باجتناب قول الزور ، وهو الكذب والباطل كقولهم : إن الله حرم البحيرة والسائبة ، ونحو ذلك ، وكادعائهم له الأولاد والشركاء ، وكل قول مائل عن الحق فهو زور ، لأن أصل المادة التي هي الزور من الازورار بمعنى الميل ، والاعوجاج ، كما

أوضحناه في الكلام على قوله : ﴿ تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾

[الكهف : 17] الآية .

واعلم أنا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها ، أن يذكر لفظ عام ، ثم يصرح في بعض المواضعي بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه ، وتقدمت لذلك أمثلة . وسيأتي بعض أمثلته في الآيات القريبة من سورة الحج هذه .

(76/523)

وإذا علمت ذلك فاعلم أنه هنا قال : ﴿ واجتنبوا قَوْلَ الزور ﴾ بصيغة عامة ، ثم بين في بعض المواضع بعض أفراد قول الزور المنهي عنه كقوله تعالى في الكفار الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقَالَ الذين كفروا إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ افتراه وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾ [الفرقان : 4] فصرح بأن قولهم هذا من الظلم والزور . وقال في الذين يظاهرون من نسائهم ، ويقول الواحد منهم لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ القول وَزُوراً ﴾ [المجادلة : 2] فصرح بأن قولهم ذلك ، منكر وزور ، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي بكرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت " اه وقد جمع تعالى هنا بين قول الزور والإشراك به تعالى في قوله : ﴿ واجتنبوا قَوْلَ الزور حُنَفَآءَ للَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ وكما أنه جمع بينهما هنا ، فقد جمع بينهما أيضاً في غير هذا الموضع كقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإثم والبغي بِغَيْرِ الحق وَأَن تُشْرِكُواْ بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 33] لأن قوله : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ هو قول الزور . وقد أتى مقروناً قوله : ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ﴾ وذلك يدل على عظمة قول الزور ، لأن الإشراك بالله قد يدخل في قول الزور ، كادعائهم الشركاء ، والأولاد لله . وكتكذيبه صلى الله عليه وسلم فكل ذلك الزور فيه أعظم الكفر والإشراك بالله .

(77/523)

نعوذ بالله من كل سوء .

ومعنى حنفاء : قد قدمناه مراراً مع بعض الشواهد العربية ، فأغنى عن إعادته هنا .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السمآء فَتَخْطَفُهُ الطير أَوْ تَهْوِي بِهِ الريح فِي

مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة : أن من أشرك بالله غيره أي ومات ولم يتب من ذلك فقد وقع في هلاك ، لا خلاص منه بوجه ولا نجاة معه بحال ، لأنه شبهه بالذي خر : أي سقط من السماء إلى الأرض ، فتمزقت أوصاله ، وصارت الطير تتخطفها وتهوي بها الريح فتلقيها في مكان سحيق : أي محل بعيد لشدة هبوبها بأوصاله المتمزلقة ، ومن كانت هذه صفته فإنه لا يرجى له خلاص ولا يطمع له في نجاة ، فهو هالك لا محالة ، لأن من خر من السماء إلى الأرض لا يصل الأرض عادة إلى متمزق الأوصال ، فإذا خطفت الطير أوصاله وتفرق في حواصلها ، أو ألقته الريح في مكان بعيد فهذا هلاك محقق لا محيد عنه .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من هلاك من أشرك بالله وأنه لا يرجى له خلاص ، جاء موضحاً في مواضع أخر كقوله : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾ [المائدة : 72] الآية . وكقوله : ﴿ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : 50] وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : 48] الآية في الموضعين من سورة النساء ، والخطف الأخذ بسرعة والسحيق البعيد . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : 11] أي بعداً لهم .

وقد دلت آيات أخر على أن محل هذا الهلاك الذي لا خلاص منه بحال الواقع بمن يشرك بالله

، إنما هو في حق من مات على ذلك الإشراك ، ولم يتب منه قبل حضور الموت . أما من تاب من شركه قبل حضور الموت ، فإن الله يغفر له ، لأن الإسلام يجبّ ما قبله .

(78/523)

والآيات الدالة على ذلك متعددة كقوله : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : 38] وقوله : ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بالحق ﴾ [الفرقان : 68] إلى قوله : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فأولئك يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان : 70] الآية وقوله في الذين : ﴿ قالوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إله إِلاَّ إله وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إلى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : 73-74] وقوله : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ [طه : 82] الآية . إلى غير ذلك من الآيات . وأما إن كانت توبته من شكره عند حضور الموت ، فإنها لا تنفعه .

(79/523)

وقد دلت على ذلك آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التوبةِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن وَلاَ الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ [النساء : 18] فقد دلت الآية على التسوية بين الموت على الكفر والتوبة منه ، عند حضور الموت وكقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قالوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 84-85] وكقوله في فرعون : ﴿ حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ [يونس : 90-91] وقرأ هذا الحرف نافع فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء أصله فتتخطفه الطير بتاءين فحذفت إحداهما وقرأه غيره من السبعة فتخطفه الطير بإسكان الخاء وتخفيف الطاء مضارع خطفه بالكسر .

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32)

(80/523)

قد ذكرنا قريباً أنا ذكرنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر لفظ عام ، ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه ، فيكون ذلك

الفرد قطعي الدخول لا يمكن إخراجه بمخصص ، وواعدنا بذكر بعض أمثلته في هذه الآيات . ومرادنا بذلك هذه الآية الكريمة لأن قوله تعالى : ﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله ﴾ عام في جميع شعائر الله ، وقد نص تعالى على أن البدن فرد من أفراد هذا العموم ، داخل فيه قطعاً وذلك في قوله : ﴿ والبدن جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَعَائِرِ الله ﴾ [الحج : 36] فيدخل في الآية تعظيم البدن واستسمانها واستحسانها كما قدمنا عن البخاري : أنهم كانوا يسمنون الأضاحي ، وكانوا يرون أن ذلك من تعظيم شعائر الله . وقد قدمنا أن الله صرح بأن الصفا والمروة داخلان في هذا العموم بقوله : ﴿ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله ﴾ [البقرة : 158] الآية وأن تعظيمها المنصوص في هذه الآية : يدل على عدم التهاون بالسعي بين الصفا والمروة كما تقدم إيضاحه في مبحث السعي ، وقوله في هذه الآية ذلك فيه ثلاث أوجه من الإعراب .

الأول : أن يكون في محل رفع بالابتداء والخبر محذوف : أي ذلك حكم الله وأمره .

الثاني : أن يكون خبر مبتدأ محذوف : أي اللازم ذلك أو الواجب ذلك .

الثالث : أن يكون في محل نصب بفعل محذوف ، أي اتبعوا ذلك أو امتثلوا ذلك ، ومما يشبه هذه الإشارة في كلام العرب قول زهير :

هذا وليس كمن يعي بخطته . . . وسط الندى إذا ما قائل نطقا

قاله القرطبي وأبو حيان والضمير المؤنث في قوله : ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ قال القرطبي : هو عائد إلى الفعلة التي يتضمنها الكلام ، ثم قال : وقيل إنه راجع إلى الشعائر بحذف مضاف : أي فإن تعظيمها أي الشعائر فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه فرجع الضمير إلى الشعائر . اه . وقال الزمخشري في الكشاف : فإنها من تقوى القلوب أي فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب ، فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها ، لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى من ليرتبط به اه . منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(82/523)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾

﴿ ذلك . . ﴾ إشارة إلى الكلام السابق بأنه أمْر واضح ، لكن استمع إلى أمر جديد سيأتي ، فهنا استئناف كلام على كلام سابق ، فبعد الكلام عن البيت وما يتعلَّق به من مناسك الحج يستأنف السياق : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ الله فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ . . ﴾ [

الحج : 30] فالحق – سبحانه – يريد لعبده أنْ يلتزمَ أوامره بفعل الأمر واجتناب النهي ، فكُلُّ أمر لله يَحرُم عليك أن تتركه ، وكلّ نَهْي يحرم عليك أنْ تأتيه ، فهذه هي حرمات الله التي ينبغي عليك تعظيمها بطاعة الأمر واجتناب النهي .

وحين تُعظِّم هذه الحرمات لا تُعظمها لذاتها ، فليس هناك شيء له حُرْمة في ذاته ، إنما تُعظِّمها لأنها حرمات الله وأومره ؛ لذلك قد يجعل الالتزام بها مُتغيّراً ، وقد يطرأ عليك ما يبدو متناقضاً في الظاهر .

فالوضوء مثلاً ، البعض يرى فيه نظافة للبدن ، فإذا انقطع الماء وعُدِم وجوده حَلَّ محلّه التيمُم بالتراب الطاهر الذي نُغبِّر به أعضاء التيمم ، إذن : ليس في الأمر نظافة ، إنما هو الالتزام والانقياد واستحضار أنك مُقْبل على أمر غير عادي يجب عليك أنْ تتطَّهر له بالوضوء ، فإنْ أمرتُكَ بالتيمم فعليك الالتزام دون البحث في أسباب الأمر وعِلّته .

وهكذا يكون الأدب مع الأوامر وتعظيمها ؛ لأنها من الله ، ولِمَ لا ونحن نرى مثل هذا الالتزام أو رياضة التأديب في الالتزام في تعاملاتنا الطبيعية الحياتية ، فمثلاً الجندي حين يُجنَّد يتعلم أول ما يتعلم الانضباط قبل أنْ يُمسِك سلاحاً أوْ يتدرب عليه ، يتعلم أن كلمة " ثابت " معناها عدم الحركة مهما كانت الظروف فلو لَدغه عقرب لا يتحرك .

(83/523)

ويدخل المدرب على الجنود في صالة الطعام فيقول : ثابت فينفذ الجميع . . الملعقة التي في الطبق تظل في الطبق ، والملعقة التي في فم الجندي تظل في فمه ، فلا ترى في الصالة الواسعة حركة واحدة . وهذا الانضباط الحركي السلوكي مقدمة للانضباط في الأمور العسكرية الهامة والخطيرة بعد ذلك .

إذن : فربُّك – عز وجل – أَوْلَى بهذا الانضباط ؛ لأن العبادة ما هي إلا انضباط عابد لأوامر معبود وطاعة مطلقة لا تقبل المناقشة ؛ لأنك لا تؤديها لذاتها وإنما انقياداً لأمر الله ، ففي الطواف تُقبِّل الحجر الأسود ، وفي رمي الجمار ترمي حجراً ، وهذا حجر وذاك حجر ، هذا ندوسه وهذا نُقبِّله فَحَجر يُقبَّل وحَجر يُقَبْل ؛ لأن المسألة مسألة طاعة والتزام ، هذا كله من تعظيم حرمات الله .

لذلك الإمام علي – رضي الله عنه – يلفتنا إلى هذه المسألة فيقول في التيمم : لو أن الأمر كما نرى لكان مسح باطن القدم أَوْلَى من ظاهرها ؛ لأن الأوساخ تعلق بباطن القدم أولاً .

وقد ذكرنا في الآيات السابقة أن الحرمات خمس : البيت الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والمشعر الحرام ، والشهر الحرام ، وحرمات الله هي الأشياء المحرمة التي يجب الاَّ تفعلها .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه جزاء هذا الالتزام : ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ . . ﴾ [الحج : 30] الخيرية هنا ليست في ظاهر الأمر وعند الناس أو في ذاته ، إنما الخيرية للعبد عند الله .

(84/523)

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ . . ﴾ [الحج : 30] قد تقول : كيف وهي حلال من البداية وفي الأصل ، قالوا : لأنه لما حرَّم الصيد قد يظن البعض أنه حرام دائماً فلا ينتفعون بها ، فبيَّن سبحانه أنها حلال إلا ما ذُكر تحريمه ، ونصَّ القرآن عليه في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمُ الخنزير وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وَمَآ أَكَلَ السبع إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النصب وَأَنْ تَسْتَقْسِمُواْ بالأزلام . . ﴾ [المائدة : 3] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ . . ﴾ [الأنعام : 121] .

ومعنى : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان . . ﴾ [الحج : 30] الرجْس : النجاسة الغليظة المتغلغلة في ذات الشيء . يعني : ليست سطحية فيه يمكن إزالتها ، وإنما هي في نفس الشيء لا يمكن أنْ تفصلها عنه .

﴿ واجتنبوا . . ﴾ [الحج : 30] لا تدل على الامتناع فقط ، إنما على مجرد الاقتراب من دواعي هذه المعصية ؛ لأنك حين تقترب من دواعي المعصية وأسبابها لا بُدَّ أن تداعبك وتشغل خاطرك ، ومَنْ حام حول الشيء يوشك أنْ يقع فيه ، لذلك لم يقُل الحق – سبحانه وتعالى – امتنعوا إنما قال : اجتنبوا ، ونعجب من بعض الذين أسرفوا على أنفسهم ويقولون : إن الأمر في اجتنبوا لا يعني تحريم الخمر ، فلم يَقُلْ : حُرِّمَتْ عليكم الخمر .

نقول : اجتنبوا أبلغ في النهي والتحريم وأوسع من حُرِّمَتْ عليكم ، لو قال الحق – تبارك وتعالى – حُرّمت عليكم الخمر ، فهذا يعني أنك لا تشربها ، ولكن لك أن تشهد مجلسها وتعصرها وتحملها وتبيعها ، أما اجتنبوا فتعني : احذروا مجرد الاقتراب منها على أيِّ وجه من هذه الوجوه .

(85/523)

لذلك ، تجد الأداء القرآني للمطلوبات المنهجية في الأوامر والنواهي من الله يُفرِّق بين حدود ما أحلَّ الله وحدود ما حرَّم ، ففي الأوامر يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا . . ﴾ [البقرة : 229] .

وفي النواهي يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا . . ﴾ [البقرة : 187] .

ففي الأوامر وما أحلَّ الله لك قِفْ عند ما أحلَّ ، ولا تتعداه إلى غيره ، أمَّا المحرمات فلا تقترب منها مجردَ اقتراب ، فلما أراد الله نَهْي آدم وحواء عن الأكل من الشجرة قال لهما : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هذه الشجرة . . ﴾ [البقرة : 35] .

وبعد أن أمر الحق سبحانه باجتناب الرجْس في عبادة الأصنام قال : ﴿ واجتنبوا قَوْلَ الزور ﴾ [الحج : 30] فقرن عبادة الأوثان بقول الزُّور ، كأنهما في الإثم سواء ؛ لذلك النبي صلى الله عليه وسلم سلَّم يوماً من صلاة الصبح ، ثم وقف وقال : " ألا وإن شهادة زور جعلها الله بعد الأوثان " .

لماذا ؟ لأن في شهادة الزور جماع لكل حيثيات الظلم ، فساعةَ يقول : ليس للكون إله ، فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، كذلك حين يظلم أو يُغير في الحقيقة ، أو يذمُّ الآخرين ، كلها داخلة تحت شهادة الزور .

ولما عدَّد النبي صلى الله عليه وسلم الكبائر ، قال : " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين – وكان متكئاً فجلس – فقال : ألا وقول الزور ألا وقول الزور ، قال الراوي : فما زال يكررها حتى قلنا (ليته سكت) أو حتى ظننا أنه لا يسكت " .

ويقولون في شاهد الزور : يا شاهد الزور أنت شر منظور ، ضلَّلتَ القُضاة ، وحلفت كاذباً بالله .

ومن العجيب في شاهد الزور أنه أول ما يسقط من نظر الناس يسقط من نظر مَنْ شهد لصالحه ، فرغم أنه شَهِد لصالحك ، ورفع رأسك على خَصْمك لكن داستْ قدمك على كرامته وحقَّرته ، ولو تعرَّض للشهادة في قضية أخرى فأنت أول مَنْ تفضحه بأنه شهد زوراً لصالحك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السمآءِ . . ﴾

اكتفتْ الآية بذكر صفتين فقط من صفات كثيرة على وجه الإجمال ، وهما حنفاء لله ، غير مشركين به ، وحنفاء : جمع حنيف ، مأخوذة من حنيف الرِّجل يعني : تقوُّسها وعدم استقامتها ، فيقال : فيه حَنَف أي : ميْل عن الاستقامة ، وليس الوصف هنا بأنهم مُعْوجون ، إنما المراد أن الاعوجاج عن الاعوجاج استقامة .

لذلك وُصِف إبراهيم – عليه السلام – بأنه ﴿ كَانَ حَنِيفاً . . ﴾ [آل عمران : 67] يعني : مائلاً عن عبادة الأصنام .

وقلنا : إن السماء لا تتدخَّل برسالة جديدة إلا حين يَعمُّ الفسادُ القومَ ، ويستشري بينهم

الضلال ، وتنعدم أسباب الهداية ، حيث لا واعظَ للإنسان لا من نفسه وضميره ، ولا من دينه ، ولا من مجتمعه وبيئته ؛ ذلك لأن في النفس البشرية مناعةً للحق طبيعية ، لكن تطمسها الشهوات ، فإذا عُدِم هذا الواعظ وهذه المناعة في المجتمع تدخَّلَتْ السماء بنبي جديد ، ورسالة جديدة ، وإنذار جديد ؛ لأن الفساد عَمَّ الجميع ، ولم يَعُدْ أحد يعِظُ الآخر ويهديه .

وهذا المعنى الذي قال الله فيه : ﴿ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : 79]

ومن هنا شهد الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنها خير أمة أُخرِجَتْ للناس ؛ لأن المناعة للحق فيها قائمة ، ولها واعظ من نفسها يأمر بالخير ، ويأخذ على يد المنحرف حتى يستقيم ؛ لذلك قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم : " الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة " .

(87/523)

والمعنى : الخير فِيَّ حصراً وفي أمتي نَثْراً ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم جمع خصال الخير كله ، وخَصه الله بالكمال ، لكن مَنْ يُطيق الكمال المحمدي من أمته ؟ لذلك نثر الله

خصال الخير في جميع أمة محمد ، فأخذ كلّ واحد منهم صفةً من صفاته ، فكماله صلى الله عليه وسلم منثور في أمته : هذا كريم ، وهذا شجاع ، وهذا حليم . . إلخ .

ولما كان لأمة محمد هذا الدور كان هو خاتم الأنبياء ؛ لأن أمته ستؤدي رسالته من بعده ، فلا حاجة – إذن – لتدخل السماء برسالة جديدة إلى أن تقوم الساعة .

إذن نقول : الرسل لا تأتي إلا عند الاعوجاج ، يأتون هم ليُقوّموا هذا الاعوجاج ، ويميلون عنه إلى الاستقامة ، هذا معنى الحنيف أو ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ . . ﴾ [الحج : 31] .

وهذه الصفة هي مقياس الاستقامة على أوامر الله لا على أوامر البشر ، فنحن لا نضع لأنفسنا أسبابَ الكمال ثم نقول : ينبغي أن يكون كذا وكذا ، لا إنما الذي يضع أسباب الكمال للمخلوق هو الخالق .

والحق – سبحانه وتعالى – ليس مراده من الفعل أنْ يُفعل لذاته ولمجرد الفعل ، إنما مراده من الفعل أنْ يُفعل لأنه أمر به ، وقد أوضحنا هذه المسألة بالكافر الذي يفعل الخير وينفع الناس والمجتمع ، لكن ليس من منطلق الدين وأمر الله ، إنما من منطلق الإنسانية والمكانة الاجتماعية والمهابة والمنزلة بين الناس ، ومثل هذا لا يجحفه الله حَقه ، ولا يبخسه ثواب عمله ، يعطيه لكن في الدنيا عملاً بقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف : 30] .

لكن لا حَظَّ لهؤلاء في ثواب الآخرة ؛ لأنهم عملوا للمجتمع وللناس وللمنزلة ، وقد أخذوا المقابل في الدنيا شُهْرة وصيتاً ذائعاً ، ومكانة وتخليداً .

وفي الحديث القدسي يقول الحق سبحانه لهم : " لقد فعلْتَ لِيُقال وقد قيل " وانتهت المسألة .

(88/523)

والحق – تبارك وتعالى – ضرب لنا عدة أمثلة لهؤلاء ، فقال : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب . . ﴾ [النور : 39] .

فعمل الكافر كالسراب يتراءى له من بعيد ، يظن من ورائه الخير ، وهو ليس كذلك ، حتى إذا ما عاين الأمر لم يجد شيئاً ، وفُوجِئ بوجود إله عادل لم يكُنْ في باله يوم عمل ما عمل .

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ . . ﴾ [إبراهيم : 18] .

وقال : ﴿ كالذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ الناس وَلاَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ والله لاَ يَهْدِي القوم

الكافرين . . ﴾ [البقرة : 264] .

وهل ينبت المطر شيئاً إذا نزل على الحجر الصَّلد الأملس ؟ هكذا عمل الكافر ، فمن أراد ثواب الآخرة فليحقق معنى ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ . . ﴾ [الحج : 31] ويعمل من منطلق أن الله أمر .

إذن : العمل لا يُفعَل ؛ لأنه حسن في ذاته ، إنما لأن الله أمرك به ، بدليل أن الشارع سيأمرك بأمور لا تجد فيها حُسْناً ، ومع ذلك عليك أنْ تلتزم بها لتحقق الانضباط الذي أراده منك الشارع الحكيم ، وبعد ذلك سينكشف لك وجه الحُسْن في هذا العمل ، وتعلم الحكمة منه .

خذ مثلاً موقف الإسلام من اليتيم ، وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على رعايته وإكرامه وكفالته حتى أنه قال : " أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة ، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى " فكافل اليتيم قرين لرسول الله في الجنة .

(89/523)

ففي هذا الموقف حِكَم كثيرة ، قد لا يعلمها كثير من الناس ؛ لأن اليتيم فقد أباه وهو صغير ، ونظر فلم يَجِدْ له أباً ، في حين يتمتع رفاقه بأحضان آبائهم ، فإذا لم يجد هذا الصغير حناناً

من كل الناس كأنهم آباؤه لتربّي عنده شعور بالسُّخْط على الله والاعتراض على القدر الذي حرمه دون غيره من حنان الأب ورعايته .

لذلك يريد الإسلام أن ينشأ اليتيم نشأة سويّة في المجتمع ، لا يسخط على الله ، ولا يسخط على الناس ؛ لأنهم جميعاً عاملوه كأنه ولد لهم .

وهناك ملحظ آخر : حين ترى مكانة اليتيم ، وكيف يرعاه المجتمع وينهض به يطمئن قلبك إنْ فاجأك الموت وأولادك صغار ، هذه مناعات يجعلها الإسلام في المجتمع : مناعة في نفس اليتيم ، ومناعة فيمَنْ يرعاه ويكفله .

وكفالة اليتيم وإكرامه لا بُدَّ أنْ تتم في إطار ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ . . ﴾ [الحج : 31] فيكون عملك لله خالصاً ، دون نظر إلى شيء آخر من متاع الدنيا ، كالذي يسعى للوصاية على اليتيم لينتفع بماله ، أو أن له مطمعاً في أمه . . إلخ فهذا عمله كالذي قُلْنا : (كسراب بقيعة) أو كرماد اشتدت به الريح أو كحجر أملس صَلْد لا ينبت شيئاً .

فإنْ حاول الإنسان إخلاص النية لله في مثل هذا العمل فإنه لا يأمن أنْ يخالطه شيء ، كما جاء في الحديث الشريف : " اللهم إني أستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطني فيه ما ليس لك " .

الصفة الثانية التي وصف الله بها عباده المؤمنين : ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ . . ﴾ [الحج : 31] فالشرك أمر عظيم ؛ لأن الحق – تبارك وتعالى – كما قال في الحديث القدسي –

أغنى الشركاء عن الشرك ، فكيف تلجأ إلى غير الله والله موجود ؟

لذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ، تركته وشِرْكه " .

(90/523)

ويعطينا الحق سبحانه بعدها صورة توضيحية لعاقبة الشرك : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السمآء فَتَخْطَفُهُ الطير أَوْ تَهْوِي بِهِ الريح فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ . . ﴾ [الحج : 31] .

خرَّ : يعني سقط من السماء لا يُمسكه شيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ . . ﴾ [النحل : 26] .

وفي الإنسان جمادية ؛ لأن قانون الجاذبية يتحكم فيه ، فإنْ صَعِد إلى أعلى لا بُدَّ أنْ يعود إلى الأرض بفعل هذه الجاذبية ، لا يملك أنْ يُمسِك نفسه مُعلَّقاً في الهواء ، فهذا أمر لا يملكه وخارج عن استطاعته ، وفي الإنسان نباتية تتمثل في النمو ، وفيه حيوانية تتمثل في الغرائز ، وفيه إنسانية تتمثل في العقل والتفكير والاختيار بين البدائل ، وبهذه كُرِّم عن سائر الأجناس .

وتلحظ أن (خرَّ) ترتبط بارتفاع بعيد ﴿ خَرَّ مِنَ السمآء . . ﴾ [الحج: 31] بحيث لا تستطيع قوة أنْ تحميه، أو تمنعه لا بذاته ولا بغيره، وقبل أنْ يصل إلى الأرض تتخطفه الطير، فإنْ لم تتخطفه تهوي به الريح في مكان بعيد وتتلاعب به، فهو هالك هالك لا محالةَ، ولو كانت واحدة من هذه الثلاث لكانت كافية.

وعلى العاقل أنْ يتأمل مغزى هذا التصوير القرآني فيحذر هذا المصير، فهذه حال مَنْ أشرك بالله، فإنْ أخذتَ الصورة على أنها تشبيه حالة بحالة، فها هي الصورة أمامك واضحة، وإنْ أردتَ تفسيراً آخر يُوضِّح أجزاءها: فالسماء هي الإسلام، والطير هي الشهوات، والريح هي ريح الشيطان، يتلاعب به هنا وهناك. فأيُّ ضياع بعد هذا؟ ومَنْ ذا الذي ينقذه من هذا المصير؟

ثم يقول سبحانه: ﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله . . ﴾

﴿ ذلك . . ﴾ [الحج: 32] كما قلنا في السابقة: إشارة إلى الكلام السابق الذي أصبح واضحاً معروفاً، ونستأنف بعدها كلاماً جديداً تَنَبَّه له.

(91/523)

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ . . ﴾ [الحج : 32] الشعائر : جمع شعيرة ، وهي المعالم التي جعلها الله لعباده لينالوا ثوابه بتعظيمها ، فالإحرام شعيرة ، والتكبير شعيرة ، والطواف شعيرة ، والسَّعْي شعيرة ، ورمْي الجمار شعيرة . . إلخ . وهذه أمور عظّمها الله ، وأمرنا بتعظيمها .

وتعظيم الشيء أبلغ وأشمل من فِعْله ، أو أدائه ، أو عمله ، عَظَّم الشعائر يعني : أدَّاها بحبٍّ وعشْق وإخلاص ، وجاء بها على الوجه الأكمل ، وربما زاد على ما طُلِبَ منه .

ومثالنا في ذلك : خليل الله إبراهيم ، عندما أمره الله أنْ يرفع قواعد البيت : كان يكفيه أنْ يبني على قَدْر ما تطوله يده ، وبذلك يكون قد أدّى ما أُمِر به ، لكنه عشق هذا التكليف وأحبَّه فاحتال للأمر ووضع حجراً على حجر ليقف عليه ، ويرفع البناء بقدر ما ارتفع إليه .

فمحبة أمر الله مَرْقي من مراقي الإيمان ، يجب أن نسموَ إليه ، حتى في العمل الدنيوي : هَبْ أنك نُقِلْتَ إلى ديوان جديد ، ووصل إلى عِلْمك أن مدير هذا الديوان رجل جادّ وصعب ، ويُحاسب على كل صغيرة وكبيرة ، فيمنع التأخير أو التسيّب أثناء الدوام الرسمي ، فإذا بك تلتزم بهذه التعليمات حرفياً ، بل وتزيد عليها ليس حباً في العمل ، ولكن حتى لا تُسأَل أمام هذا المدير في يوم من الأيام .

إذن : الهدف أنْ نؤدي التكاليف بحُبٍّ وعِشْق يُوصّلنا إلى حب الله عز وجل ؛ لذلك نجد

من أهل المعرفة مَنْ يقول : رُبَّ معصية أورثتْ ذلاً وانكساراً خَيْر من طاعة أورثت عِزاً واستكباراً .

فالمهم أن نصل إلى الله ، أن نخضع لله ، أنْ نذِلّ لعزته وجلاله ، والمعصية التي تُوصّلك إلى هذه الغاية خير من الطاعة التي تُسلِمك للغرور والاستكبار .

(92/523)

هذه المحبة للتكاليف ، وهذا العشق عبَّر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال : " وجُعلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة " لذلك نَعَي القرآن على أولئك الذين ﴿ إِذَا قاموا إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى يُرَآءُونَ الناس وَلاَ يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلاً . . ﴾ [النساء : 142] .

وابنته فاطمة – رضي الله عنها – كانت تجلو الدرهم وتلمعه ، فلما سألها رسول الله عما تفعل ، قالت : لأنني نويتُ أنْ أتصدَّق به ، وأعلم أنه يقع في يد الله قبل أنْ يقع في يد الفقير .

هذا هو التعظيم لشعائر الله والقيام بها عن رغبة وحب .

وفي عصور الإسلام الأولى كان الناس يتفاضلون بأسبقهم إلى صلاة الجماعة حين يسمع النداء ، وبآخرهم خروجاً من المسجد بعد أداء الصلاة ، ولك أن تقيس حال هؤلاء بحالنا اليوم . هؤلاء قوم عظَّموا شعائر الله فلم يُقدّموا عليها شيئاً .

وقد بلغ حُبُّ التكاليف وتعظيم شعائر الله بأحد العارفين إلى أنْ قال : لقد أصبحتُ أخشى ألا يثيبني الله على طاعته ، فسألوه : ولماذا ؟ قال : لأنني أصبحتُ أشتهيها يعني : أصبحتْ شهوة عندي ، فكيف يُثاب – يعني – على شهوة عندي ؟ !

لذلك أهل العزم وأهل المعرفة عن الله إذا ورد الأمر من الله وثبت أخذوه على الرَّحْب والسِّعَة دون جدال ولا مناقشة ، وكيف يناقشون أمر الله وهم يُعظِّمونه ؟ ومن هنا نقول للذين يناقشون في أمور فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل تعدُّد زوجاته مثلاً ويعترضون ، بل ومنهم مَنْ يتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يليق .

نقول لهم : ما دُمْتُم آمنتم بأنه رسول الله ، فكيف تضعون له موازين الكمال من عند أنفسكم . وتقولون : كان ينبغي أنْ يفعل كذا ، ولا يفعل كذا ؟ وهل عندكم من الكمال ما تقيسون به فِعْل رسول الله ؟ المفروض أن الكمال منه صلى الله عليه وسلم ومن ناحيته ، لا من ناحيتكم .

(93/523)

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ [الحج : 32] ليست من تقوى الجوارح ، بل تقوى قلب لا تقوى قالب ، فالقلب هو محلُّ نظر الله إليك ، ومحلُّ قياس تعظيمك لشعائر

الله .

وسبق أنْ ذكرنا أن الله تعالى لا يريد أنْ يُخضِع قوالبنا ، إنما يريد أنْ يُخضع قلوبنا ، ولو أراد سبحانه أنْ تخضع القوالب لخضعتْ له راغمة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 3 – 4] .

وأنت تستطيع أنْ تُرغِم مَنْ هو أضعف منك على أيِّ شيء يكرهه ، إنْ شئتَ سجد لك ، لكن لا تملك أنْ تجعل في قلبه حباً أو احتراماً لك ، لماذا ؟ لأنك تجبر القالب ، أمّا القلب فلا سلطةَ لك عليه بحال .

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33) ﴾

يعني : ما دامت هذه المسائل من شعائر الله ومن تقوى القلوب فاعملوها وعظِّموها ؛ لأن لكم فيها منافع عرفتها أو لم تعرفها ، وربما تعرف بعضها ولا تعرف الباقي ؛ لأنه مستور عنك ولو أنك لا تعلم قيمة الجزاء على هذه الشعائر ، فقيمة الجزاء على العمل بحسب أنفاس الإخلاص في هذا العمل .

ومعنى ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . ﴾ [الحج : 33] ما دام الحق – سبحانه وتعالى – ذَيَّل الآية بقوله ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إلى البيت العتيق . . ﴾ [الحج : 33] .

إذن : فالمراد هنا شعيرة الذَّبْح ، ولا يخفى ما فيها من منافع حيث ننتفع بصوفها ووبرها ولبنها ولحمها ، ونتخذها زينة وركوبة .

(94/523)

كل هذا ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . ﴾ [الحج : 33] يعني : زمن معلوم ، وهو حين تقول وتنوي : هذه هدية للحرم ، ساعة تعقد هذه النية فليس لك الانتفاع بشيء منها ، لا أنت ولا غيرك ؛ لذلك يُميِّزونها بعلامة حتى إنْ ضلت من صاحبها يعرفون أنها مُهْداة لبيت الله ، فلا يأخذها أحد .

وما دامت هذه منافع إلى أجل مسمى ، فلا بُدَّ أنها المنافع الدنيوية ، أما المنافع الأخروية فسوف تجدها فيما بعد في الآخرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إلى البيت العتيق ﴾ [الحج : 33] أي : بعد هذا الأجل المسمى ينتهي بها المطاف عند الحرم حيث تُذبَح هناك .

وقد كان للعلماء كلامٌ حول هذه الآية : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إلى البيت العتيق ﴾ [الحج : 33] حيث قالوا : محل الذَّبْح في مِنَى ، وليس في مكة ، والآية تقول ، محلها البيت العتيق .

نقول : الأصل كما جاء في الآية أن الذبح في مكة وفي الحرم ، إلا أنهم لما استقذروا الذَّبْح في

الحرم بسبب ما يُخلفه من قاذورات ودماء وخلافه نتيجة هذه العملية ، فرُؤي أن يجعلوا الذبح بعيداً عن الحرم حتى يظل نظيفاً ، وهذا لا يمنع الأصل ، وهو أنْ يكون الذَّبْح في الحرم ، كما جاء في آية أخرى : ﴿ هَدْياً بَالِغَ الكعبة . . ﴾ [المائدة : 95] وفي الحديث الشريف : " مكّةُ كُلُّها مَنْحرٌ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(95/523)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلق بغيره ويجوز لك في هذا التشبيه أمران أحدهما أن تجعله تشبيها مركبا ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكا لا يرجى معه نجاة فصور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير في الهوى فتمزق مزقا في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة وعلى هذا لا تنظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابله من

المشبه به والثاني أن يكون من التشبيه المفرق فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه فمنها هبط إلى الأرض وإليها يصعد منها وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد والآلام المتراكمة والطير الذي تخطف أعضاءه وتمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله سبحانه وتعالى عليه وتؤزه أزا وتزعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه والريح التي تهوي به في مكان سحيق هو هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أعلام الموقعين حـ 1 صـ 180 ﴾

(96/523)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في

قوله ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله ﴾ قال : الحرمة الحج والعمرة وما نهى الله عنه من معاصيه كلها .

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء وعكرمة ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله ﴾ قالا : المعاصي .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ قال : الحرمات المشعر الحرام ، والبيت الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن ماجة وابن أبي حاتم ، عن عياش بن أبي ربيعة المخزومي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لن تزال هذه الأمة بخير ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها – يعني مكة – فإذا ضيعوا ذلك هلكوا " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ يقول : اجتنبوا طاعة الشيطان في عبادة الأوثان ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ يعني الافتراء على الله والتكذيب به .

وأخرج أحمد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، " عن أيمن بن خريم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال : يا أيها الناس ، عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله ثلاثاً ، ثم قرأ ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ " .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن داود وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم

والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب ، عن خريم بن فاتك الأسدي قال : " صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح ، فلما انصرف قائماً قال : عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ثلاثاً ، ثم تلا هذه الآية ﴿ واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ﴾ " .

(97/523)

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي ، عن أبي بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين – وكان متكئاً فجلس – فقال : ألا وقول الزور ! . . . ألا وشهادة الزور . . . " فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي ، عن ابن مسعود قال : شهادة الزور تعدل بالشرك بالله . ثم قرأ ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ قال : الكذب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ يعني الشرك بالكلام . وذلك

أنهم كانوا يطوفون بالبيت فيقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ حنفاء لله غير مشركين به ﴾ قال : حجاجاً لله غير مشركين به .

وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين ، فلما أظهر الله الإسلام قال الله للمسلمين : حجوا الآن غير مشركين بالله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر الصديق قال : كان الناس يحجون وهم مشركون ، فكانوا يسمونهم حنفاء الحجاج ، فنزلت ﴿ حنفاء لله غير مشركين به ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر الصديق قال : كان ناس من مضر وغيرهم يحجون البيت وهم مشركون ، وكان من لا يحج البيت من المشركين يقولون : قولوا حنفاء . فقال الله ﴿ حنفاء لله غير مشركين به ﴾ يقول : حجاجاً غير مشركين به .

وأخرج ابن المنذر عن السدي قال : ما كان في القرآن من حنفاء ، قال : مسلمين . وما كان حنفاء مسلمين ، فهم حجاج .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ حنفاء ﴾ قال : حجاجاً .

وأخرج عن الضحاك مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ﴿ حنفاء ﴾ قال : متبعين .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء . . . ﴾ . قال : هذا مثل ضربه الله لمن أشرك بالله في بعده من الهدى وهلاكه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ في مكان سحيق ﴾ قال : بعيد .

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ قال : البدن .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ قال : الاستسمان والاستحسان والاستعظام . وفي قوله ﴿ لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ﴾ قال : إلى أن تسمى بدنا .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ قال : استعظام البدن واستسمانها واستحسانها ﴿ لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ﴾ قال : ظهورها وأوبارها واشعارها وأصوافها ، إلى أن تسمى هدياً .

فإذا سميت هدياً ذهبت المنافع ﴿ ثم محلها ﴾ يقول : حين يسمى إلى البيت العتيق .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الضحاك وعطاء في الأية قال : المنافع فيها ، الركوب عليها إذا احتاج ، وفي أوبارها وألبانها .

والأجل المسمى : إلى أن تقلد فتصير بدناً ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ قالا : إلى يوم النحر تنحر بمنى .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ قال : إذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها .

(99/523)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن محمد بن موسى في قوله ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ قال : الوقوف بعرفة من شعائر الله ، وبجمع من شعائر الله ، والبدن من شعائر الله ورمي الجمار من شعائر الله ، والحلق من شعائر الله . . . فمن يعظمها ﴿ فإنها من تقوى القلوب لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ﴾ قال : لكم في كل مشعر منها منافع إلى أن تخرجوا منه إلى غيره ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ قال : محل هذه الشعائر كلها ، الطواف بالبيت العتيق .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء ، أنه سئل عن شعائر الله قال : حرمات الله ، اجتناب سخط الله واتباع طاعته . فذلك شعائر الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(100/523)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ ذلك ﴾ : خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : الأمرُ والشأنُ ذلك . قال الزمخشري : "كما يُقَدِّمُ الكاتبُ جملةً من كتابِه في بعضِ المعاني ، ثم إذا أرادَ الخوضَ في معنى آخرَ قال : هذا وقد كان كذا " . وقَدَّره ابنُ عطية : " فَرْضُكُمْ ذلك ، أو الواجبُ ذلك " . وقيل : هو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ . أي : ذلك الأمرُ الذي ذكرتُه . وقيل : في محلِّ نصب أي : امتثلوا ذلك . ونظيرُ هذه الإشارةِ قولُ زهير ، بعد تقدُّم جُمَل في وَصْفِ هَرِم ابن سنان :

3386 هذا وليس كمَنْ يَعْيا بخُطْبَتِه . . . وسَطَ النَّدِيِّ إذا ما ناطقٌ نَطَقا

قوله : " فهو " " هو " ضميرُ المصدرِ المفهومِ من قولِه ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ ﴾ أي : وتعظيمُه حرماتِ الله خيرٌ له كقولِه تعالى : ﴿ اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [المائدة : 8] و " خيرٌ " هنا

ظاهرُها التفضيلُ بالتأويلِ المعروفِ .

قوله : ﴿ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ استثناءً متصلاً ، ويُصْرَفُ إلى ما يُحَرَّمُ مِنْ بهيمةِ الأنعام لسببٍ عارضٍ كالموت ونحوه ، وأن يكونَ استثناءً منقطعاً ؛ إذ ليس فيها مُحَرَّمٌ وقد تقدَّم تقريرُ هذا الوجهِ أولَ المائدةِ .

(101/523)

قوله : ﴿ مِنَ الأوثان ﴾ في "مِنْ" ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنها لبيانِ الجنسِ ، وهو مشهورُ قول المُعْرِبين ، ويَتَقَدَّرُ بقولك : الرِّجْسُ الذي هو الأوثان . وقد تقدَّم أنَّ شرطَ كونِها بيانيةً ذلك . وتجيءُ مواضعُ كثيرةٌ لا يتأتى فيها ذلك ولا بعضُه . والثاني : أنَّها لابتداءِ الغايةِ . وقد خَلَط أبو البقاء القولين فجَعَلَهما قولاً واحداً فقال : "ومِنْ لبيانِ الجنسِ أي : اجْتَنِبوا الرجسَ من هذا القبيل ، وهو بمعنى ابتداء الغاية ههنا" يعني أنه في المعنى يَؤُول إلى ذلك ، ولا يَؤُول إليه البتةَ . الثالث : أنها للتبعيض . وقد غَلَّط ابنُ عطية القائلَ بكونِها للتبعيضِ ، فقال : "ومَنْ قال : إن "مِنْ" للتبعيض قَلَبَ معنى الآيةِ فأفسده" وقد يُمْكِنُ التبعيضُ فيها : بأَنْ يَعْني بالرِّجْسِ عبادةَ الأوثانِ . وبه قال ابنُ عباس وابنُ جريج ، فكأنه قال : فاجْتَنِبوا من الأوثانِ الرِّجسَ وهو العبادةُ ؛ لأنَّ المُحَرَّمَ من الأوثان إنما هو العبادةُ ألا ترى أنه قد

يُتَصَوَّرُ استعمالُ الوثَنِ في بناءٍ وغيرِه ممَّا لم يُحَرِّمِ الشرعُ استعمالَه ، وللوَثَنِ جهاتٌ منها عبادتُها ، وهي بعض جهاتِها . قاله الشيخ . وهو تأويلٌ بعيدٌ .

قوله : ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ : حالٌ مِنْ فاعلِ " اجْتَنِبوا " . وكذلك ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ ﴾ وهي حالٌ مؤكدة ، إذ يلزَمُ من كونِهم حُنَفاءَ عدمُ الإشراك .

(102/523)

قوله : ﴿ فَتَخْطَفُهُ ﴾ قرأ نافعٌ بفتحِ الخاءِ والطاء مشددةً . وأصلُها تَخْتَطِفُه فأدغم . وباقي السبعةِ " فَتَخْطَفُه " بسكون الخاء وتخفيفِ الطاء . وقرأ الحسنُ والأعمشُ وأبو رجاء بكسر التاء والخاء والطاء مع التشديد . ورُوِي عن الحسن أيضاً فتحُ الطاءِ مشددةً مع كسرِ التاءِ والخاءِ . ورُوِي عن الأعمش كقراءةِ العامَّةِ إلاَّ أنه بغير فاء : " تَخْطَفُه " . وتوجيهُ هذه القراءاتِ قد تقدَّم مستوفى في أوائل البقرة عند ذِكْري القراءاتِ في قولِه تعالى : ﴿ يَكَادُ البرقَ يَخْطَفُ ﴾ [البقرة : 20] فلا أُعيدها .

وقرأ أبو جعفر " الرياحُ " جمعاً . وقولِه " خَرَّ " في معنى يَخِرُّ ؛ ولذلك عُطِفَ عليه المستقبلُ وهو " فَتَخْطَفُهُ " ، ويجوز أن يكون على بابه ، ولا يكونُ " فَتَخْطَفُه " عطفاً عليه ، بل هو خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : فهو يَخْطَفُه .

قال الزمخشري : " ويجوزُ في هذا التشبيهِ أن يكونَ من المركب والمفرَّق . فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال : مَنْ أشرك بالله فقد أهلكَ نفسَه إهلاكاً ليس بعده [هلاكٌ] : بأَنْ صوَّر حالَه بصورةِ حالِ مَنْ خرَّ من السماءِ فاخْتَطَفَتْه الطيرُ ، فتفرَّق مِزَعاً في حَواصِلِها ، أو عَصَفَتْ به الريحُ حتى هَوَتْ به في بعض المطاوحِ البعيدةِ . وإن كان مُفَرَّقاً فقد شَبَّه الإيمانَ في عُلُوِّه بالسماءَ ، والذي تركَ الإيمانَ وأشرك بالله ، بالساقط من السماء ، والأهواءَ التي تتوزَّعُ أفكارَه بالطير المتخطفةِ ، والشيطانَ الذي يُطَوِّحُ به في وادي الضَّلالةِ بالريح التي تهوي بما عَصَفَتْ به في بعض المهاوي المُتْلِفَةِ " . قلت : وهذه العبارةُ من أبي القاسم مما يُنَشِّطُك إلى تَعَلُّم عِلْمِ البيان فإنها في غاية/ البلاغة .

(103/523)

والأَوْثان : جمع وَثَن . والوَثَنُ يُطْلَقُ على ما صُوِّر من نحاسٍ وحديدٍ وخَشَبٍ . ويُطْلَقُ أيضاً على الصَّليب . " عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم أنه قال لعدي بن حاتم وقد رأى في عنقه صليباً : أَلْقِ هذا الوثنَ عنك " وقال الأعشى :

3387 يطوفُ العبادُ بأبوابه . . . كطَوْفِ النصارى ببَيْتِ الوَثَنْ

واشتقاقُه مِن وَثَن الشيءُ أي : أقام بمكانه وثَبَتَ فهو واثِنٌ . وأُنشد لرؤبة :

3388 على أَخِلاَّءِ الصَّفاءِ الوُثَّنِ . . . أي : المقيمين على العهد . وقد تقدَّم الفرقُ بين الوَثَنِ والصنم .

والسَّحيقُ : البعيدُ . ومنه سَحَقَه اللهُ أي : أبعده . وقوله عليه السلام : " فأقولُ سُحْقاً سُحْقاً " أي : بُعْداً بُعْداً . والنَّخْلة السَّحُوقُ : الممتدةُ في السماء ، من ذلك .

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32)

قوله : ﴿ ذلك ﴾ : إعرابُه كإعرابِ " ذلك " المتقدمِ وتقدَّم تفسيرُ " الشَّعيرة " واشتقاقُها في المائدة .

(104/523)

قوله : ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ في هذا الضميرِ وجهان ، أحدُهما : أنه ضميرُ الشعائرِ ، على حَذْفِ مضافٍ . أي : فإن تعظيمَها مِنْ تقوى القلوبِ . والثاني : أنه ضميرُ المصدرِ المفهومِ من الفعل قبلَه أي : فإنَّ التعظيمةَ مِنْ تقوى القلوب . والعائدُ على اسمِ الشرط من هذه الجملةِ الجزائيةِ مقدرٌ ، تقديرُه : فإنها مِنْ تَقَوى القلوب منهم . ومَنْ جوَّز إقامةَ أل مُقام الضميرِ وهم الكوفيون أجاز ذلك هنا ، والتقدير : مِنْ تقوى قلوبِهم ، كقوله : ﴿ فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 41] وقد تقدَّم تقريرُه . وقال الزمخشري : أي فإنَّ تعظيمَها

من أفعالِ ذوي تقوى القلوبِ فحُذِفَتْ هذه المضافاتُ ، ولا يَسْتقيمُ المعنى إلاَّ بتقديرِها ؛ لأنه لا بُدَّ من راجعٍ من الجزاء إلى " مَنْ " لتَرْتَبِط به " قال الشيخ : " وما قَدَّره عارٍ من راجعٍ من الضميرِ من الجزاء إلى " مَنْ " . ألا ترى أنَّ قولَه " فإنَّ تعظيمَها من أفعال ذوي تقوى القلوب " ليس في شيءٍ منه ضميرٌ يَرْجِعُ من الجزاء إلى " مَنْ " يربطه به . وإصلاحُه أن يقولَ : فإنَّ تعظيمَها منه ، فالضميرُ في " منه " عائدٌ على " مَنْ " .

والعامَّة على خفض " القلوب " . وقُرِىء برفعِها فاعلةً للمصدرِ قبلها وهو " تقوى " .

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33)

[قوله : ﴿ فِيهَا ﴾ :] والضميرُ في " فيها " عائدٌ على الشعائر بمعنى الشرائع أي : لكم في التمسُّكِ بها ، وقيل : عائدٌ على بهيمةِ الأنعام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 269. 273 ﴾

(105/523)

فصل فى منزلة تعظيم حرمات الله عز وجل

قال ابن القيم :

فصل: ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة تعظيم حرمات الله عز وجل

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ [الحج: 30] قال جماعة من المفسرين حرمات الله ههنا مغاضبه وما نهى عنه و تعظيمها ترك ملابستها قال الليث: حرمات الله: ما لا يحل انتهاكها وقال قوم: الحرمات: هي الأمر والنهي وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه وقال قوم: الحرمات ههنا المناسك ومشاعر الحج زمانا ومكانا والصواب: أن الحرمات تعم هذا كله وهي جمع حرمة وهي ما يجب احترامه وحفظه: من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأماكن فتعظيمها : توفيتها حقها وحفظها من الإضاعة

قال صاحب المنازل:

الحرمة: هي التحرج عن المخالفات والمجاسرات التحرج الخروج من حرج المخالفة وبناء تفعل يكون للدخول في الشيء كتمني إذا دخل في الأمنية وتولج في الأمر: دخل فيه ونحوه وللخروج منه كتحرج وتحوب وتأثم إذا أراد الخروج من الحرج والحوب: هو الإثم

(106/523)

أراد أن الحرمة هي الخروج من حرج المخالفة وجسارة الإقدام عليها ولما كان المخالف قسمين جاسرا وهائبا قال عن المخالفات والمجاسرات: قال: هي على ثلاث درجات

الدرجة الأولى: تعظيم الأمر والنهي لا خوفا من العقوبة فتكون خصومة للنفس ولا طلبا للمثوبة فيكون مستشرفا للأجرة ولا مشاهدا لأحد فيكون متزينا بالمراءاة فإن هذه الأوصاف كلها من شعب عبادة النفس هذا الموضع يكثر في كلام القوم والناس بين معظم له ولأصحابه معتقد أن هذا أرفع درجات العبودية: أن لا يعبد الله ويقوم بأمره ونهيه خوفا من عقابه ولا طمعا في ثوابه فإن هذا واقف مع غرضه وحظ نفسه وأن المحبة تأبى ذلك فإن المحب لا حظ له مع محبوبه فوقوفه مع حظه علة في محبته وأن طمعه في الثواب: تطلع إلى أنه يستحق بعمله على الله تعالى أجرة ففي هذا آفتان: تطلعه إلى الأجرة وإحسان ظنه بعمله إذ تطلعه إلى استحقاقه الأجر وخوفه من العقاب: خصومة للنفس فإنه لا يزال يخاصمها إذا خالفت ويقول: أما تخافين النار وعذابها وما أعد الله لأهلها فلا تزال الخصومة بذلك بينه وبين نفسه ومن وجه آخر أيضا: وهو أنه كالمخاصم عن نفسه الدافع عنها خصمه الذي يريد هلاكه وهو عين الاهتمام بالنفس والالتفات إلى حظوظها مخاصمة عنها واستدعاء لما تلتذ به

ولا يخلصه من هذه المخاصمة وذلك الاستشراف: إلا تجريد القيام بالأمر والنهي من كل علة بل يقوم به تعظيما للآمر الناهي وأنه أهل أن يعبد وتعظم حرماته فهو يستحق العبادة والتعظيم والإجلال لذاته كما في الأثر الإسرائيلي لو لم أخلق جنة ولا نارا أما كنت أهلا أن أعبد ومنه قول القائل:

هب البعث لم تأتنا رسله . . . وجاحمة النار لم تضرم

أليس من الواجب المستح . . . ق على ذي الورى الشكر للمنعم

(107/523)

فالنفوس العلية الزكية تعبده لأنه أهل أن يعبد ويجل ويحب ويعظم فهو لذاته مستحق للعبادة قالوا: ولا يكون العبد كأجير السوء إن أعطى أجره عمل وإن لم يعط لم يعمل فهذا عبد الأجرة لا عبد المحبة والإرادة قالوا: والعمال شاخصون إلى منزلتين: منزلة الآخرة ومنزلة القرب من المطاع قال تعالى في حق نبيه داود ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: 25] فالزلفى منزلة القرب وحسن المآب: حسن الثواب والجزاء وقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: 26] ف الحسنى الجزاء و الزيادة منزلة القرب ولهذا فسرت بالنظر إلى وجه الله عز وجل وهذان هما اللذان وعدهما فرعون للسحرة إن غلبوا موسى فقالوا له: إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال: نعم وإنكم إذا لمن المقربين [الأعراف: 11311 وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبه: 72]

قالوا: والعارفون عملهم على المنزلة والدرجة والعمال عملهم على الثواب والأجرة وشتان ما بينهما

فصل وطائفة ثانية تجعل هذا الكلام من شطحات القوم ورعوناتهم وتحتج

بأحوال الأنبياء والرسل والصديقين ودعائهم وسؤالهم والثناء عليهم بخوفهم من النار ورجائهم للجنة كما قال تعالى في حق خواص عباده الذين عبدهم المشركون: إنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه كما تقدم وقال عن أنبيائه ورسله: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ إلى أن قال ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي

(108/523)

الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: 8990 أي رغبا فيما عندنا ورهبا من عذابنا والضمير في قوله: إنهم عائد على الأنبياء المذكورين في هذه السورة عند عامة المفسرين والرغب والرهب رجاء الرحمة والخوف من النار عندهم أجمعين وذكر سبحانه عباده الذين هم خواص خلقه وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم وجعل منها: استعاذتهم به من النار فقال تعالى: والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما إنها ساءت مستقرا ومقاما [الفرقان: 6566] وأخبر عنهم: أنهم

توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: 16] فجعلوا أعظم وسائلهم إليه: وسيلة الإيمان وأن ينجيهم من النار وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولي الألباب أنهم كانوا يسألونه جنته ويتعوذون به من ناره فقال تعالى: إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الآيات إلى آخرها ولا خلاف أن الموعود به على ألسنة رسله: هي الجنة التى سألوها

وقال عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: 8289] فسأل الله الجنة واستعاذ به من النار وهو الخزي يوم البعث وأخبرنا سبحانه عن الجنة: أنها كانت وعدا عليه مسئولا أي يسأله إياها عباده وأولياؤه

(109/523)

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته: أن يسألوا له في وقت الإجابة عقيب الأذان أعلى منزلة في الجنة وأخبر: أن من سألها له حلت عليه شفاعته

وقال له سليم الأنصاري أما إني أسأل الله الجنة وأستعيذ به من النار لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال: أنا ومعاذ حولها ندندن وفي الصحيح في حديث الملائكة السيارة الفضل عن كتاب الناس إن الله تعالى يسألهم عن عباده وهو أعلم تبارك وتعالى فيقولون: أتيناك من عند عباد لك يهللونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك فيقول عز وجل: وهل رأوني فيقولون: لا يا رب ما رأوك فيقول عز وجل: كيف لو رأوني فيقولون: لو رأوك لكانوا لك أشد تمجيدا قالوا: يارب ويسألونك جنتك فيقول: هل رأوها فيقولون: لا وعزتك ما رأوها فيقول: فكيف لو رأوها فيقولون: لو رأوها لكانوا لها أشد طلبا قالوا: ويستعيذون بك من النار فيقول عز وجل: وهل رأوها فيقولون: لا وعزتك ما رأوها فيقول: فكيف لو رأوها فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد منها هربا فيقول: إني أشهدكم أني قد غفرت لهم وأعطيتهم ما سألوا وأعذتهم مما استعاذوا منه

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء على عباده وأوليائه بسؤال الجنة ورجائها والاستعاذة من النار والخوف منها

قالوا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: " استعيذوا بالله من النار وقال لمن سأله مرافقته في الجنة: أعني على نفسك بكثرة السجود " قالوا: والعمل على طلب الجنة والنجاة من النار مقصود الشارع من أمته ليكونا دائما على ذكر منهم فلا ينسونهما ولأن الإيمان بهما شرط في النجاة والعمل على حصول الجنة والنجاة من النار: هو محض الإيمان

قالوا: وقد حض النبي صلى الله عليه وسلم عليها أصحابه وأمته فوصفها وجلاها لهم ليخطبوها وقال: " ألا مشمر للجنة فإنها ورب الكعبة نور

(110/523)

يتلألأ وريحانة تهتز وزوجة حسناء وفاكهة نضيجة وقصر مشيد ونهر مطرد الحديث فقال الصحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن المشمرون لها فقال: قولوا: إن شاء الله" ولو ذهبنا نذكر ما في السنة من قوله: من عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة تحريضا على عمله لها وأن تكون هي الباعثة على العمل: لطال ذلك جدا وذلك في جميع الأعمال قالوا: فكيف يكون العمل لأجل الثواب وخوف العقاب معلولا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحرض عليه ويقول: من فعل كذا فتحت له أبواب الجنة الثمانية و: من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة و: من كسا مسلما على عرى كساه الله من حلل الجنة و: عائد المريض في خرفة الجنة والحديث مملوء من ذلك أفتراه يحرض المؤمنين على مطلب معلول ناقص ويدع المطلب العالي البريء من شوائب العلل لا يحرضهم عليه قالوا: وأيضا فالله سبحانه يحب من عباده أن يسألوه جنته ويستعيذوا به من ناره فإنه يحب أن يسأل ومن لم يسأله يغضب عليه وأعظم ما سئل الجنة وأعظم ما استعيذ به من النار

فالعمل لطلب الجنة محبوب للرب مرضي له وطلبها عبودية للرب والقيام بعبوديته كلها أولى من تعطيل بعضها

قالوا: وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار ورجاء هذه والهرب من هذه: فترت عزائمه وضعفت همته ووهى باعثه وكلما كان أشد طلبا للجنة وعملا لها: كان الباعث له أقوى والهمة أشد والسعي أتم وهذا أمر معلوم بالذوق

قالوا: ولو لم يكن هذا مطلوبا للشارع لما وصف الجنة للعباد وزينها لهم وعرضها عليهم وأخبرهم عن تفاصيل ما تصل إليه عقولهم منها وما عداه أخبرهم به مجملا كل هذا تشويقا لهم إليها وحثا لهم على السعى لها سعيها

(111/523)

قالوا: وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ وهذا حث على إجابة هذه الدعوة والمبادرة إليها والمسارعة في الإجابة والتحقيق أن يقال: الجنة ليست اسما لمجرد الأشجار والفواكه والطعام والشراب والحور العين والأنهار والقصور وأكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم وسماع كلامه وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه فلا نسبة

للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبدا فأيسر يسير من رضوانه: أكبر من الجنان وما فيها من ذلك كما قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبه: 72] وأتى به منكرا في سياق الإثبات أي أي شيء كان من رضاه عن عبده: فهو أكبر من الجنة قليل منك يقنعني . . . ولكن قليلك لا يقال له قليل

وفي الحديث الصحيح حديث الرؤية: "فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إلى وجهه" وفي حديث آخر: "أنه سبحانه إذا تجلى لهم ورأوا وجهه عيانا ": نسوا ما هم فيه من النعيم وذهلوا عنه ولم يلتفوا إليه ولا ريب أن الأمر هكذا وهو أجل مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة فإن المرء مع من أحب ولا تخصيص في هذا الحكم بل هو ثابت شاهدا وغائبا

فأي نعيم وأي لذة وأي قرة عين وأي فوز يداني نعيم تلك المعية ولذتها وقرة العين بها وهل فوق نعيم قرة العين بمعية المحبوب الذي لا شيء أجل منه ولا أكمل ولا أجمل قرة عين ألبتة وهذا والله هو العلم الذي شمر إليه المحبون واللواء الذي أمه العارفون وهو روح مسمى الجنة وحياتها وبه طابت الجنة وعليه قامت

(112/523)

فكيف يقال: لا يعبد الله طلبا لجنته ولا خوفا من ناره وكذلك النار أعاذنا الله منها فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانته وغضبه وسخطه والبعد عنه: أعظم من التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم بل التهاب هذه النار في قلوبهم: هو الذي أوجب التهابها في أبدانهم ومنها سرت إليها فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين: هو الجنة ومهربهم: من النار

والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل ومقصد القوم: أن العبد يعبد ربه بحق العبودية والعبد إذا طلب من سيده أجرة على خدمته له كان أحمق ساقطا من عين سيده إن لم يستوجب عقوبته إذ عبوديته تقتضي خدمته له وإنما يخدم بالأجرة من لا عبودية للمخدوم عليه إما أن يكون حرا في نفسه أو عبدا لغيره وأما من الخلق عبيده حقا وملكه على الحقيقة ليس فيهم حر ولا عبد لغيره: فخدمتهم له بحق العبودية فاقتضاؤهم للأجرة خروج عن محض العبودية

وهذا لا ينكر على الإطلاق ولا يقبل على الإطلاق وهو موضع تفصيل وتمييز وقد تقدم في أول الكتاب: ذكر طرق الخلق في هذا الموضع وبينا طريق أهل الاستقامة فالناس في هذا المقام أربعة أقسام أحدهم: من لا يريد ربه ولا يريد ثوابه فهؤلاء أعداؤه حقا وهم أهل العذاب الدائم وعدم إرادتهم لثوابه: إما لعدم تصديقهم به وإما لإيثار العاجل عليه ولو كان فيه سخطه

والقسم الثاني: من يريده ويريد ثوابه وهؤلاء خواص خلقه قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب: 29] فهذا خطابه لخير نساء العالمين أزواج نبيه وقال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ﴾ [الإسراء: 19] فأخبر أن السعي المشكور: سعي من أراد الآخرة وأصرح منها: قوله لخواص أوليائه وهم أصحاب نبيه ورضى عنهم في يوم أحد ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ فقسمهم إلى هذين القسمين اللذين لا ثالث لهما وقد غلط من قال: فأين من يريد الله فإن إرادة الآخرة عبارة عن إرادة الله تعالى وثوابه فإرادة الثواب لا تنافي إرادة الله والقسم الثالث: من يريد من الله ولا يريد الله فهذا ناقص غاية النقص وهو حال الجاهل بربه الذي سمع: أن ثم جنة ونارا فليس في قلبه غير إرادة نعيم الجنة المخلوق لا يخطر بباله سواه ألبتة بل هذا حال أكثر المتكلمين المنكرين رؤية الله تعالى والتلذذ بالنظر إلى وجهه في الآخرة وسماع كلامه وحبه والمنكرين على من يزعم أنه يحب الله وهم عبيد الأجرة المحضة فهؤلاء لا يريدون الله تعالى وتقدس

ومنهم من يصرح بأن إرادة الله محال قالوا: لأن الإرادة إنما تتعلق بالحادث فالقديم لا يراد فهؤلاء منكرون لإرادة الله غاية الإنكار وأعلى الإرادة عندهم: إرادة الأكل والشرب والنكاح واللباس في الجنة وتوابع ذلك فهؤلاء في شق وأولئك الذين قالوا: لم نعبده طلبا لجنته ولا هربا من ناره في شق وهما طرفا نقيض بينهما أعظم من بعد المشرقين وهؤلاء من أكثف الناس حجابا وأغلظهم طباعا وأقساهم قلوبا وأبعدهم عن روح المحبة والتأله ونعيم الأرواح والقلوب وهم يكفرون أصحاب

(114/523)

المحبة والشوق إلى الله والتلذذ بحبه والتصديق بلذة النظر إلى وجهه وسماع كلامه منه بلا واسطة

وأولئك لا يعدونهم من البشر إلا بالصورة ومرتبتهم عندهم قريبة من مرتبة الجماد والحيوان البهيم وهم عندهم في حجاب كثيف عن معرفة نفوسهم وكمالها ومعرفة معبودهم وسر عبوديته وحال الطائفتين عجب لمن اطلع عليه

والقسم الرابع وهو محال: أن يريد الله ولا يريد منه فهذا هو الذي يزعم هؤلاء: أنه مطلوبهم وأن من لم يصل إليه ففي سيره علة وأن العارف ينتهي إلى هذا المقام وهو أن يكون الله مراده

ولا يريد منه شيئا كما يحكى عن أبي يزيد أنه قال: قبل لي: ما تريد فقلت: أريد أن لا أريد

وهذا في التحقيق عين المحال الممتنع: عقلا وفطرة وحسا وشرعا فإن الإرادة من لوازم الحي

وإنما يعرض له التجرد عنها بالغيبة عن عقله وحسه كالسكر والإغماء والنوم فنحن لا ننكر

التجريد عن إرادة ما سواه من المخلوقات التي تزاحم إرادتها إرادته أفليس صاحب هذا

المقام مريدا لقربه ورضاه ودوام مراقبته والحضور معه وأي إرادة فوق هذه نعم قد زهد في

مراد لمراد هو أجل منه وأعلا فلم يخرج عن الإرادة وإنما انتقل من إرادة إلى إرادة ومن مراد

إلى مراد وأما خلوه عن صفة الإرادة بالكلية مع حضور عقله وحسه: فمحال

وإن حاكمنا في ذلك محاكم إلى ذوق مصطلم مأخوذ عن نفسه فإن عن

عوالمها: لم ننكر ذلك لكن هذه حال عارضة غير دائمة ولا هي غاية مطلوبة للسالكين ولا

مقدورة للبشر ولا مأمور بها ولا هي أعلا المقامات فيؤمر باكتساب أسبابها فهذا فصل

الخطاب في هذا الموضع والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل قوله: ولا مشاهدا لأحد فيكون متزينا بالمراءاة هذا فيه

(115/523)

تفصيل أيضا وهو أن المشاهدة في العمل لغير الله نوعان مشاهدة تبعث عليه أو تقوي باعثه فهذه مراءاة خالصة أو مشوبة كما أن المشاهدة القاطعة عنه أيضا من الآفات والحجب ومشاهدة لا تبعث عليه ولا تعين الباعث بل لا فرق عنده بين وجودها وعدمها فهذه لا تدخله في التزين بالمراءاة ولا سيما عند المصلحة الراجحة في هذه المشاهدة: إما حفظا ورعاية كمشاهدة مريض أو مشرف على هلكة يخاف وقوعه فيها أو مشاهدة عدو يخاف هجومه كصلاة الخوف عند المواجهة أو مشاهدة ناظر إليك يريد أن يتعلم منك فتكون محسنا إليه بالتعليم وإلى نفسك بالإخلاص أو قصدا منك للاقتداء وتعريف الجاهل فهذا رياء محمود والله عند نية القلب وقصده فالرياء المذموم: أن يكون الباعث: قصد التعظيم والمدح والرغبة فيما عند من ترائيه أو الرهبة منه وأما ما ذكرنا من قصد رعايته أو تعليمه أو إظهار السنة وملاحظة هجوم العدو ونحو ذلك: فليس في هذه المشاهد رياء بل قد يتصدق العبد رياء مثلا وتكون صدقته فوق صدقة صاحب السر مثال ذلك: رجل مضرور سأل قوما ما هو محتاج إليه فعلم رجل منهم: أنه إن أعطاه سرا حيث لا يراه أحد: لم يقتد به أحد ولم يحصل له سوى تلك العطية وأنه إن أعطاه جهرا: اقتدي به واتبع وأنف الحاضرون من تفرده عنهم بالعطية فجهر له بالعطاء وكان الباعث له على الجهر: إرادة سعة العطاء عليه

من الحاضرين فهذه مراءاة محمودة حيث لم يكن الباعث عليها قصد التعظيم والثناء وصاحبها جدير بأن يحصل له مثل أوجور أولئك المعطين

(116/523)

قوله: فإن هذه الأوصاف كلها من شعب عبادة النفس يعني أن الخائف يشتغل بحفظ نفسه من العذاب ففيه عبادة لنفسه إذ هو متوجه إليها وطالب المثوبة متوجه إلى طلب حظ نفسه وذلك شعبة من عبوديتها والمشاهد للناس في عبادته: فيه شعبة من عبودية نفسه إذ هو طالب لتعظيمهم وثنائهم ومدحهم فهذه شعب من شعب عبودية النفس والأصل الذي هذه الشعب فروعه: هي النفس فإذا ماتت بالمجاهدة والإقبال على الله والاشتغال به ودوام المراقبة له: ماتت هذه الشعب فلا جرم أن بناء أمر هذه الطائفة على ترك عبادة النفس وقد علمت أن الخوف وطلب الثواب: ليس من عبادة النفس في شيء نعم التزين بالمراءاة عين عبادة النفس والكلام في أمر أرفع من هذا فإن حال المرائي أخس ونفسه أسقط وهمته أدنى من أن يدخل في شأن الصادقين ويذكر مع الصالحين والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل : قال صاحب المنازل: الدرجة الثانية: إجراء الخبر على ظاهره وهو أن تبقى أعلام

توحيد العامة الخبرية على ظواهرها ولا يتحمل البحث عنها تعسفا ولا يتكلف لها تأويلا ولا يتجاوز ظواهرها تمثيلا ولا يدعي عليها إدراكا أو توهما

يشير الشيخ رحمه الله وقدس روحه بذلك إلى أن حفظ حرمة نصوص الأسماء والصفات بإجراء أخبارها على ظواهرها وهو اعتقاد مفهومها المتبادر إلى أذهان العامة ولا يعني بالعامة الجهال بل عامة الأمة كما قال مالك رحمه الله وقد سئل عن قوله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه: 5] كيف استوى

فأطرق مالك حتى علاه الرحضاء ثم قال: الاستواء معلوم والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ففرق بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة وبين الكيف الذي لا يعقله البشر وهذا الجواب من مالك رضي الله عنه شاف عام في جميع مسائل الصفات فمن سأل عن قوله: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: 46] كيف يسمع ويرى أجيب بهذا الجواب بعينه فقيل له: السمع والبصر معلوم والكيف غير معقول

(117/523)

وكذلك من سأل عن العلم والحياة والقدرة والإرادة والنزول والغضب والرضى والرحمة والضحك وغير ذلك فمعانيها كلها مفهومة وأما كيفيتها : فغير معقولة إذ تعقل الكيفية فرع

العلم بكيفية الذات وكنهها فإذا كان ذلك غير معقول للبشر فكيف يعقل لهم كيفية الصفات والعصمة النافعة في هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل تثبت له الأسماء والصفات وتنفى عنه مشابهة المخلوقات فيكون إثباتك منزها عن التشبيه ونفيك منزها عن التعطيل فمن نفى حقيقة الاستواء فهو معطل ومن شبهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثل ومن قال: استواء ليس كمثله شيء فهو الموحد المنزه وهكذا الكلام في السمع والبصر والحياة والإرادة والقدرة واليد والوجه والرضى والغضب والنزول والضحك وسائر ما وصف الله به نفسه والمنحرفون في هذا الباب قد أشار الشيخ إليهم بقوله: لا يتحمل البحث عنها تعسفا أي لا يتكلف التعسف عن البحث عن كيفياتها و التعسف سلوك غير الطريق يقال: ركب فلان التعاسيف في سيره إذا كان يسير يمينا وشمالا جائرا عن الطريق ولا يتكلف لها تأويلا أراد بالتأويل ههنا: التأويل الاصطلاحي وهو صرف اللفظ عن ظاهره عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح

وقد حكى غير واحد من العلماء: إجماع السلف على تركه وممن حكاه البغوى وأبو المعالي الجويني في رسالته النظامية بخلاف ما سلكه في شامله وإرشاده وممن حكاه: سعد بن علي الزنجاني وقبل هؤلاء خلائق من العلماء لا يحصيهم إلا الله

ولا يتجاوز ظاهرها تمثيلا أي لا يمثلها بصفات المخلوقين وفي قوله: لا يتجاوز ظاهرها إشارة لطيفة وهي أن ظواهرها لا تقتضي التمثيل كما تظنه المعطلة النفاة وأن التمثيل تجاوز لظواهرها إلى ما لا تقتضيه كما أن تأويلها تكلف وحمل لها على ما لا تقتضيه فهي لا تقتضي ظواهرها تمثيلا ولا تحتمل تأويلا بل إجراء على ظواهرها بلا تأويل ولا تمثيل فهذه طريقة السالكين بها سواء السبيل

وأما قوله: ولا يدعى عليها إدراكا أي لا يدعى عليها استدراكا ولا فهما ولا معنى غير فهم العامة كما يدعيه أرباب الكلام الباطل المذموم بإجماع السلف

وقوله: ولا توهما أي لا يعدل عن ظواهرها إلى التوهم و التوهم نوعان: توهم كيفية لا تدل عليه ظواهرها أو توهم معنى غير ما تقتضيه ظواهرها وكلاهما توهم باطل وهما توهم تشبيه وتمثيل أو تحريف وتعطيل وهذا الكلام من شيخ الإسلام يبين مرتبته من السنة ومقداره في العلم وأنه بريء مما رماه به أعداؤه الجهمية من التشبيه والتمثيل على عادتهم في رمي أهل الحديث والسنة بذلك كرمي الرافضة لهم بأنهم نواصب والمعتزلة بأنهم نوابت حشوية وذلك ميراث من أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم في رميه ورمي أصحابه رضي الله عنهم بأنهم صبأة قد ابتدعوا دينا محدثا وميراث لأهل الحديث والسنة من نبيهم وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين بتلقيب أهل الباطل لهم

بالألقاب المذمومة وقدس الله روح الشافعي حيث يقول وقد نسب إلى الرفض:

إن كان رفضا حب آل محمد . . . فليشهد الثقلان أني رافضي

ورضي الله عن شيخنا أبي العباس بن تيمية حيث يقول

إن كان نصبا حب صحب محمد . . . فليشهد الثقلان أني ناصبي

وعفا الله عن الثالث حيث يقول

فإن كان تجسيما ثبوت صفاته . . . وتنزيهها عن كل تأويل مفترى

فإني بحمد الله ربي مجسم . . . هلموا شهودا واملأوا كل محضر

فصل قال: الدرجة الثالثة: صيانة الانبساط: أن تشوبه جرأة وصيانة

(119/523)

السرور: أن يداخله أمن وصيانة الشهود: أن يعارضه سبب لما كانت هذه الدرجة عنده مختصة بأهل المشاهدة والغالب عليهم الانبساط والسرور فإن صاحبها متعلق باسمه الباسط حذره من شائبة الجرأة وهي ما يخرجه عن أدب العبودية ويدخله في الشطح كشطح من قال سبحاني ونحو ذلك من الشطحات المعروفة المخرجة عن أدب العبودية التي نهاية صاحبها: أن يعذر بزوال عقله وغلبة سكر الحال عليه فلا بد من مقارنة التعظيم

والإجلال لبسط المشاهدة وإلا وقع في الجرأة ولا بد فالمراقبة تصونه عن ذلك قوله: وصيانة السرور: أن يداخله أمن

يعني أن صاحب الانبساط والمشاهدة يداخله سرور لا يشبهه سرور ألبتة فينبغي له أن لا يأمن في هذا الحال المكر بل يصون سروره وفرحه عن خطفات المكر بخوف العاقبة المطوي عنه علم غيبها ولا يغتر وأما صيانة الشهود: أن يعارضه سبب فيريد أن صاحب الشهود: قد يكون ضعيفا في شهود حقيقة التوحيد فيتوهم أنه قد حصل له ما حصل بسبب الاجتهاد التام والعبادة الخالصة فينسب حصول ما حصل له من الشهود إلى سبب منه وذلك نقص في توحيده ومعرفته لأن الشهود لا يكون إلا موهبة ليس هو كسبيا ولو كان كسبيا فشهود سببه نقص في التوحيد وغيبة عن شهود الحقيقة ويحتمل أن يريد بالسبب المعارض للشهود: ورود خاطر على الشاهد يكدر عليه صفو شهوده فيصونه عن ورود سبب يعارضه: إما معارض إرادة أو معارض شبهة وقد يعم كلامه الأمرين والله سبحانه أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مدارج السالكين حـ 2 صـ 74. 89﴾

(120/523)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ .

تعظيم الحرمات بتعظيم أمره ؛ وتعظيمُ أمرِهِ بتَرْكِ مخالفته .

ويقال من طلب الرضا بغير رضى الله لم يبارك له فيما آثره ومن هواه على رضى مولاه ، ولا محالةَ سيلقى سريعاً غِبَّه .

ويقال تعظيم حرماته بالغيرة على إيمانه وما فَجَرَ صاحبُ حُرْمَةٍ قط .

ويقال ترك الخدمة يوجب العقوبة ، وترك الحرمة يوجِبُ الفُرْقة .

ويقال كلُّ شيءٍ من المخالفات فللعفو فيه مساغ وللأمل إليه طريق ، وتَرْكُ الحرمة على خَطَر ألا يُغْفَر . . . وذلك بأن يؤدي ثبوتُه بصاحبه إلى أَنْ يختَلَّ دِينُه وتوحيدُه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ .

فالخنزير من جملة المحرمات كذلك النطيحة والموقوذة ، وما يجيء تفصيله في نَصِّ الشرع .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ .

" من " ههنا للجنس لا للتبغيض ، وهوى كلِّ من اتبعه معبودُه ، وصنمُ كلِّ أحدٍ نَفْسُه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ واجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ : ومن جملة ذلك قول اللسان بما لا يساعده قولُ القلب ونطقه ، ومَنْ عاهد اللَّهَ بقلبه ثم لا يفي بذلك فهو من جملة قول الزور .

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31)

الحنيف المائلُ إلى الحق عن الباطل في القلبِ والنَّفْسِ ، في الجهر وفي السِّرِّ ، في الأفعال وفي الأحوال وفي الأقوال .

﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ : الشِّركُ جَلِيٌّ وخَفِيٌّ .

(121/523)

قوله ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا . . . ﴾ كيف لا . . . وهو يهوي في جهنم وتتجاذبه ملائكة العذاب ؟ أو تهوى به الريح من مكان سحيق . . . وكذلك غداً في صفة قوم يقول الله تعالى : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : 67] .

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32)

يقف المؤمنُ على تعيين شعائر الله وتفصيلها بشهادة العلم جهراً ، وبخواطر الإلهام سِرّاً . وكما لا تجوز مخالفةُ شهادة الشرع لا تجوز مخالفة شهادة خواطر الحق فإنّ خاطر الحقّ لا يكذِبُ ، عزيزٌ مَنْ له عليه وقوف . وكما أَنّ النَّفْسَ لا تصدق فالقلب لا يكذب ، وإذا خولف القلبُ عَمِيَ في المستقبل ، وانقطعت عنه تعريفاتُ الحقيقة ، والعبارة والشرح

يتقاصران عن ذكر هذا التعيين والتفسير . ويقوي القلبُ بتحقيق المنازلة ؛ فإذا خرست النفوسُ ، وزالت هواجسها ، فالقلوب تِنطق بما تُكاشَفُ به من الأمور .

ومنَ الفَرْقِ بين ما يكون طريقه العلم وما طريقه من الحق أن الذي طريقه العلم يعلم صاحبُه أولاً ثم يعمل مختاراً ، وما كان من الحق يجري ويحصل ثم بعده يعلم مَنْ جرى عليه ذلك معناه ، ولا يكون الذي يجْرِي عليه ما يُجْرَى مضطراً إلى ما يُجْرَى . وليس يمكن أن يقال إنه ليس له اختيار ، بل يكون مختاراً ولكنَّ سببَه عليه مشكلٌ ، والعجب من هذا أن العبارة عنه كالبعيد .

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33)

لكلِّ من تلك الجملة منفعةٌ بِقَدْره وحدِّه ؛ فلأقوام بركاتٌ في دفع البلايا عن نفوسهم وعن أموالهم ، ولآخرين في لذاذاتِ بَسطِهم ، ولآخرين في حلاوة طاعاتهم ، ولآخرين في أُنسِ أنفاسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 541. 543 ﴾

(122/523)

قوله تعالى ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ

وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : جعل لكم سبحانه هذه الأشياء مناسك ، عطف عليه قوله : ﴿ ولكل أمة ﴾ أي من الأمم السالفة وغيرها ﴿ جعلنا ﴾ بعظمتنا التي لا يصح أن تخالف ﴿ منسكاً ﴾ أي عبادة أو موضع عبادة أو قرباناً ، فإنه يكون مصدر نسك - كنصر وكرم - نسكاً ومنسكاً ، ويكون بمعنى الموضع الذي يعبد فيه ، والذي يذبح فيه النسك وهو الهدي ، وقال ابن كثير : ولم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل .

ثم أتبع هذا الجعل علته بياناً لأنه ليس مقصوداً في نفسه فقال : ﴿ ليذكروا ﴾ ولما كان الدين سهلاً سمحاً ذا يسر ، رضي بالدخول فيه بالظاهر فقال : ﴿ اسم الله ﴾ أي الملك الأعلى وحده ، على ذبائحهم وقرابينهم وعبادتهم كلها ، لأنه الرزاق لهم وحده ؛ ثم علل الذكر بالنعمة تنبيهاً على التفكر فيها فقال : ﴿ على ما رزقهم ﴾ فوجب شكره به عليهم ﴿ من بهيمة الأنعام ﴾ .

ولما علم أن الشارع لجميع الشرائع الحقة واحد ، وأن علة نصبه لها ذكره وحده ، تسبب عنه قوله : ﴿ فإلهكم ﴾ أي الذي شرع هذه المناسك كلها .

ولما كان الإله ما يحق له الإلهية بما تقرر من أوصافه ، لا ما سمي إلهاً ، قال : ﴿ إله ﴾ ووصفه بقوله : ﴿ واحد ﴾ أي وإن اختلفت فروع شرائعه ونسخ بعضها بعضاً ، ولو اقتصر على " واحد " لربما قال متعنتهم : إن المراد اقتصارنا على واحد مما نعبده .

والتفت إلى الخطاب لأنه أصرح وأجدر بالقبول .

ولما ثبت كونه واحداً ، وجب اختصاصه بالعبادة ، فلذا قال : ﴿ فله ﴾ أي وحده ﴿ أسلموا ﴾ أي انقادوا بجميع ظواهركم وبواطنكم في كل ما أمر به أو نهى عنه ناسخاً كان أو لا وإن لم تفهموا معناه كغالب مناسك الحج .

(123/523)

ولما أمر بالإسلام من يحتاج إلى ذلك إيجاداً أو تكميلاً أو إدامة ، وكان الإسلام هو سهولة الانقياد من غير كبر ولا شماخة ، وكان منشأ الطمأنينة والتواضع اللذين هما أنسب شيء لحال الحجاج المتجرد من المخيط المكشوف الرأس الطالب لوضع أوزاره ، وتخفيف آصاره لستر عوراه ، أقبل سبحانه وتعالى على الرأس من المأمورين ، الحائز لما يمكن المخلوقين أن يصلوا إليه من رتب الكمال ، وخلال الجمال والجلال ، إشارة إلى أنه لا يلحقه أحد في ذلك فقال : ﴿ وبشر المخبتين ﴾ أي المتواضعين ، المنكسرين ، من الخبت –

للأرض المنخفضة الصالحة للاستطراق وغيره من المنافع ؛ ثم بين علاماتهم فقال : ﴿ الذين إذا ذكر الله ﴾ أي الذي له الجلال والجمال ﴿ وجلت ﴾ أي خافت خوفاً مزعجاً ﴿ قلوبهم ﴾ .

ولما كان في ذكر الحج ، وكان ذلك مظنة لكثرة الخلطة الموجبة لكثرة الأنكاد ولا سيما وقد كان أكثر المخالطين مشركين ، لأن السورة مكية ، قال عاطفاً غير مُتبع ، إيذاناً بالرسوخ في الأوصاف : ﴿ والصابرين ﴾ الذين صار الصبر عادتهم ﴿ على ما أصابهم ﴾ كائناً ما كان .

ولما كان ذلك شاغلاً عن الصلاة ، قال : ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ أي وإن حصل لهم من المشاق بأفعال الحج وغيره ما عسى أن يحصل ، ولذلك عبر بالوصف دون الفعل إشارة إلى أنه لا يقيمها على الوجه المشروع مع ذلك المشاق والشواغل إلا الأراسخ في حبها ، فهم – لما تمكن من حبها في قلوبهم والخوف من الغفلة عنها – كأنهم دائماً في صلاة .

ولما كان ما يحصل فيه من زيادة النفقة ربما كان مقعداً عنه ، رغب فيه بقوله : ﴿ ومما رزقناهم ﴾ فهم لكونه نعمة منا لا يبخلون به ، ولأجل عظمتنا يحسنون ظن الخلف ﴿ ينفقون ﴾ أي يجددون بذله على الاستمرار ، بالهدايا التي يغالون في أثمانها وغير ذلك ، إحساناً إلى خلق الله ، امتثالاً لأمره كالخبت الباذل لما يودعه تعالى فيه من الماء والمرعى .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 151 . 153 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ اسم الله ﴾ فالمعنى شرعنا لكل أمة من الأمم السالفة من عهد إبراهيم عليه السلام إلى من بعده ضرباً من القربان وجعل العلة في ذلك أن يذكروا اسم الله تقدست أسماؤه على المناسك ، وما كانت العرب تذبحه للصنم يسمى العتر والعتيرة كالذبح والذبيحة ، وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً منسكاً بكسر السين وقرأ الباقون بالفتح وهو مصدر بمعنى النسك والمكسور بمعنى الموضع .

أما قوله تعالى : ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ ففي كيفية النظم وجهان : أحدهما : أن الإله واحد وإنما اختلفت التكاليف باختلاف الأزمنة والأشخاص لاختلاف المصالح الثاني : ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ فلا تذكروا على ذبائحكم غير اسم الله ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُواْ ﴾ أي اخلصوا له الذكر خاصة بحيث لا يشوبه إشراك ألبتة ، والمراد الانقياد لله تعالى في جميع تكاليفه ، ومن انقاد له كان مخبتاً فلذلك قال بعده ﴿ وَبَشِّرِ المخبتين ﴾ والمخبت المتواضع الخاشع .

قال أبو مسلم : حقيقة المخبت من صار في خبت من الأرض ، يقال أخبت الرجل إذا صار في الخبت كما يقال أنجد وأشأم وأتهم ، والخبت هو المطمئن من الأرض .

وللمفسرين فيه عبارات أحدها : المخبتين المتواضعين عن ابن عباس وقتادة وثانيها : المجتهدين في العبادة عن الكلبي وثالثها : المخلصين عن مقاتل ورابعها : الطمئنين إلى ذكر الله تعالى والصالحين عن مجاهد وخامسها : هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا عن عمرو بن أوس .

ثم وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فيظهر عليهم الخوف من عقاب الله تعالى والخشوع والتواضع لله ، ثم لذلك الوجل أثران أحدهما : الصبر على المكاره وذلك هو المراد بقوله : ﴿ والصابرين على مَا أَصَابَهُمْ ﴾ وعلى ما يكون من قبل الله تعالى ، لأنه الذي يجب الصبر عليه كالأمراض والمحن والمصائب .

(125/523)

فأما ما يصيبهم من قبل الظلمة فالصبر عليه غير واجب بل إن أمكنه دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقاتلة والثاني : الاشتغال بالخدمة وأعز الأشياء عند الإنسان نفسه وماله .

أما الخدمة بالنفس فهي الصلاة ، وهو المراد بقوله : ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ وأما الخدمة

بالمال فهو المراد من قوله : ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ قرأ الحسن ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ بالنصب على تقدير النون ، وقرأ ابن مسعود والمقيمين الصلاة على الأصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 30. 31 ﴾

(126/523)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قُرِئَ مَنْسِكٌ بِكَسْرِ السِّينِ وَفَتْحِهَا ، وَبَابُ مَفْعَلٍ فِي اللُّغَةِ يَخْتَلِفُ حَالُ دَلَالَتِهِ بِاخْتِلَافِ حَالِ فِعْلِهِ ؛ فَإِذَا كَانَ مَكْسُورَ الْعَيْنِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَاسْمُ الْمَكَانِ مِنْهُ مَفْعَلُ ، وَالْمَصْدَرُ مَفْتُوحُ الْعَيْنِ ، وَاسْمُ الزَّمَانِ مِنْهُ كَاسْمِ الْمَكَانِ ، قَالُوا : أَتَتْ النَّاقَةُ عَلَى مَضْرِبِهَا وَمَحْلَبِهَا .

وَمَا كَانَ الْعَيْنُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنْهُ مَفْتُوحًا فَالْمَصْدَرُ وَالْمَكَانُ مَفْتُوحَانِ ، كَالْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ ، وَيَأْتِي لِغَيْرِهِ كَالْمَكْبَرِ مِنْ كَبُرَ يَكْبُرُ ، وَمَا كَانَ عَلَى فَعَلَ يَفْعُلُ بِضَمِّ الْعَيْنِ فَبِمَنْزِلَةِ

مَا كَانَ عَلَى يَفْعَلُ مَفْتُوحًا ، لَمْ يَقُولُوا فِيهِ مَفْعَلُ بِضَمِّ الْعَيْنِ .

وَقَدْ جَاءَ الْمَصْدَرُ مَكْسُورًا فِي هَذَا الْبَابِ ، قَالُوا مَطْلِعَ الشَّمْسِ ، وَالْحِجَازِيُّونَ يَفْتَحُونَهُ ، وَقَدْ كَسَرُوا اسْمَ الْمَكَانِ أَيْضًا ، فَقَالُوا : الْمَنْبِتُ لِمَوْضِعِهِ ، وَالْمَطْلِعُ لِمَوْضِعِهِ ، فَعَلَى هَذَا قُلْ : مَنْسَكًا وَمَنْسِكًا بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : إذَا ثَبَتَ هَذَا فَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَاهُ ، فَقِيلَ : مَعْنَى مَنْسَكًا حَجًّا . قَالَهُ قَتَادَةُ .

وَقِيلَ : ذَبْحًا . قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

وَقِيلَ : عِيدًا قَالَهُ الْفَرَّاءُ .

(127/523)

وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ نَسَكْت ، وَلَهُ فِي اللُّغَةِ مَعَانٍ : الْأَوَّلُ : تَعَبَّدْت ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ خُصَّ فِي الْحَجِّ عَلَى عَادَةِ اللُّغَةِ .

الثَّانِي : قَالَ ثَعْلَبٌ : هُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ النَّسِيكَةِ ، وَالنَّسِيكَةُ : الْمُخَلَّصَةُ مِنْ الْخَبَثِ ، وَيُقَالُ لِلذَّبْحِ نُسُكٌ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْعِبَادَاتِ الْخَالِصَةِ لِلَّهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُذْبَحُ لِغَيْرِهِ .

وَادَّعَى ابْنُ عَرَفَةَ أَنَّ مَعْنَى نَسَكْت ذَهَبْت ، وَكُلُّ مَنْ ذَهَبَ مَذْهَبًا فَقَدْ نَسَكَ .

وَلَا يَرْجِعُ إلَّا إلَى الْعِبَادَةِ وَالتَّقَرُّبِ .

وَهُوَ الصَّحِيحُ .

وَلَمَّا رَأَى قَوْمٌ أَنَّ الْعِبَادَةَ تَتَكَرَّرُ قَالَ : إنَّ نَسَكْت بِمَعْنَى تَعَهَّدْت .

وَالَّذِي ذَهَبَ إلَيْهِ الْفَرَّاءُ مِنْ أَنَّهُ الْعِيدُ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَهُوَ مِنْ أَفْضَلِ الْمَنَاسِكِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ يَعْنِي يَذْبَحُونَهَا لِلَّهِ دُونَ غَيْرِهِ فِي هَدْيٍ أَوْ ضَحِيَّةٍ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فِي إقَامَةِ الصَّلَاةِ : وَقَدْ تَقَدَّمَ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(128/523)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً ﴾

فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : يعني حجاً ، وهو قول قتادة .

والثاني : ذبحاً ، وهو قول مجاهد .

والثالث : عيداً ، وهو قول الكلبي والفراء ، والمنسك في كلام العرب هو الموضع المعتاد ، ومنه تسمية مناسك الحج ، لاعتياد مواضعها .

﴿ لِّيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : أنها الهدي ، إذا قيل إن المنسك الحج .

والثاني : الأضاحي ، إذا قيل إن المنسك العيد .

قوله عز وجل : ﴿ . . . وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ فيه تسعة تأويلات :

أحدها : المطمئنين إلى ذكر إلههم ، وهو قول مجاهد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُم ﴾ [الحج : 54] .

والثاني : معناه المتواضعين ، وهو قول قتادة .

والثالث : الخاشعين ، وهو قول الحسن . والفرق بين التواضع والخشوع أن التواضع في الأخلاق والخشوع في الأبدان .

والرابع : الخائفين ، وهو معنى قول يحيى بن سلام .

والخامس : المخلصين ، وهو قول إبراهيم النخعي .

والسادس : الرقيقة قلوبهم ، وهو قول الكلبي .

والسابع : أنهم المجتهدون في العبادة ، وهو قول الكلبي ومجاهد .

والثامن : أنهم الصالحون المطمئنون ، وهو مروي عن مجاهد أيضاً .

والتاسع : هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا ، وهو قول الخليل بن أحمد . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(129/523)

وقال ابن عطية :

ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل أمة من الأمم المؤمنة ﴿ منكساً ﴾ أي موضع نسك وعبادة وهذا على أن المنسك ظرف المذبح ونحوه ، ويحتمل أن يريد به المصدر ، وكأنه قال عبادة ونحو هذا ، والناسك العابد ، وقال مجاهد : سنة في هراقة دماء الذبائح ، وقرأ معظم القراء " منسَكاً " بفتح السين وهو من نسك ينسك بضم السين في المستقبل ، وقرأ حمزة والكسائي " منسِكاً " بكسر السين قال أبو علي : الفتح أولى لأنه إما المصدر وإما المكان وكلاهما مفتوح والكسر في هذا من الشاذ في اسم المكان أن يكون مفعل من فعل يفعل مثل مسجد من سجد يسجد ، ولا يسوغ فيه القياس ، ويشبه أن الكسائي سمعه من العرب . وقوله ﴿ ليذكروا اسم الله ﴾ معناه أمرناهم عند ذبائحهم بذكر الله وأن يكون الذبح له لأنه رازق ذلك ، ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه فالإله

واحد لجميعكم بالأمر كذلك في الذبيحة إنما ينبغي ان تخلص له ، و ﴿ أسلموا ﴾ معناه لحقه ولوجهه ولإنعامه آمنوا وأسلموا ، ويحتمل أن يريد الاستسلام ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبشر بشارة على الإطلاق وهي أبلغ من المفسرة لأنها مرسلة مع نهاية التخيل ، و ﴿ المخبتين ﴾ المتواضعين الخاشعين من المؤمنين ، والخبت ما انخفض من الأرض والمخبت المتواضع الذي مشيه متطامن كأنه في حدود من الأرض وقال عمرو بن أوس المخبتون الذين لا يظلمون إذا ظلموا لم ينتصروا .

(130/523)

قال القاضي أبو محمد : وهذا مثال شريف من خلق المؤمن الهين اللين ، وقال مجاهد : هم المطمئنون بأمر الله ، ووصفهم تعالى بالخوف والوجل عند ذكر الله ، وذلك لقوة يقينهم ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم بين يديه ، ووصفهم بالصبر وبإقامة الصلاة وإدامتها ، وقرأ الجمهور " الصلاة " بالخفض ، وقرأ ابن أبي إسحاق " الصلاة " بالنصب على توهم النون وأن حذفها للتخفيف ، ورويت عن أبي عمرو ، وقرأ الأعمش " والمقيمين الصلاةَ " بالنون والنصب في " الصلاة " وقرأ الضحاك " والمقيم الصلاة " ، وروي أن هذه الآية ، قوله ﴿

وبشر المخبتين ﴾ نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(131/523)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولكل أُمَّة جعلنا منسكاً ﴾

قرأ حمزة ، والكسائي ، وبعض أصحاب أبي عمرو بكسر السين ، وقرأ الباقون بفتحها .

فمن فتح أراد المصدر ، من نَسَكَ يَنْسُكُ ، ومن كسر أراد مكان النَّسْك كالمجلِس والمطلِع .

ومعنى الآية : لكلِّ جماعة مؤمنة من الأمم السالفة جعلنا ذبح القرابين ﴿ ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ ، وإنما خص بهيمة الأنعام ، لأنها المشروعة في القُرَب .

والمراد من الآية : أن الذبائح ليست من خصائص هذه الأمة ، وأن التسمية عليها كانت مشروعة قبل هذه الأمة .

قوله تعالى : ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ أي : لا ينبغي أن تذكروا على ذبائحكم سواه ﴿ فله أسلموا ﴾ أي : انقادوا واخضعوا .

وقد ذكرنا معنى الإِخبات في [هود : 23] وكذلك ألفاظ الآية التي تلي هذه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(132/523)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً ﴾

لما ذكر تعالى الذبائح بيّن أنه لم يُخْل منها أمة ، والأمة القوم المجتمعون على مذهب واحد ؛

أي ولكل جماعة مؤمنة جعلنا منسكاً .

والمنسك الذبح وإراقة الدم ؛ قاله مجاهد .

يقال : نَسَك إذا ذبح يَنْسُك نَسْكاً .

والذبيحة نسيكة ، وجمعها نُسُك ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة : 196] .

والنسك أيضاً الطاعة .

وقال الأزهريّ في قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً ﴾ : إنه يدل على موضع النحر في هذا الموضع ، أراد مكان نَسْك .

ويقال : مَنْسَك ومَنْسِك ، لغتان ، وقرئ بهما .

قرأ الكوفيون إلا عاصماً بكسر السين ، الباقون بفتحها .

وقال الفراء : المَنْسَك في كلام العرب الموضع المعتاد في خير أو شر .

وقيل مناسك الحج لترداد الناس إليها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي .

وقال ابن عرفة في قوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً ﴾ : أي مذهباً من طاعة الله تعالى ؛

يقال : نَسَك نَسْك قومه إذا سلك مذهبهم .

وقيل : منسكاً عيداً ؛ قاله الفرّاء .

وقيل حجًّا ؛ قاله قتادة .

والقول الأول أظهر ؛ لقوله تعالى : ﴿ لِّيَذْكُرُواْ اسم الله على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾

أي على ذبح ما رزقهم .

فأمر تعالى عند الذبح بذكره وأن يكون الذبح له ؛ لأنه رازق ذلك .

ثم رجع اللفظ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه : فالإله واحد لجميعكم ،

فكذلك الأمر في الذبيحة إنما ينبغي أن تخلص له .

قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُواْ ﴾ معناه لحقّه ولوجهه وإنعامه آمنوا وأسلِموا .

ويحتمل أن يريد الاستسلام ؛ أي له أطيعوا وانقادوا .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ المخبتين ﴾ المخبِت : المتواضع الخاشع من المؤمنين .

والخَبْت ما انخفض من الأرض ؛ أي بشرهم بالثواب الجزيل .

(133/523)

قال عمرو بن أوس : المخبِتون الذين لا يظلمون ، وإذا ظُلموا لم يَنْتَصِروا .

وقال مجاهد فيما روى عنه سفيان عن ابن أبي نجيح : المخبتون المطمئنون بأمر الله عز وجل .

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (35) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي خافت وحَذِرت مخالفته .

فوصفهم بالخوف والوَجَل عند ذكره ، وذلك لقوّة يقينهم ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم بين يديه ، ووصفهم بالصبر وإقامة الصلاة وإدامتها .

وروي أن هذه الآية قوله : ﴿ وَبَشِّرِ المخبتين ﴾ نزلت في أبي بكر وعمر وعليّ رضوان الله عليهم .

وقرأ الجمهور "الصلاةِ" بالخفض على الإضافة ، وقرأ أبو عمرو "الصلاةَ" بالنصب على توهّم النون ، وأن حذفها للتخفيف لطول الاسم .

وأنشد سيبويه :

الحافِظُو عَوْرَةَ العَشِيرة . . .

. . .

.

الثانية : هذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : 2] ، وقوله تعالى : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ [الزمر : 23] .

(134/523)

هذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ؛ لا كما يفعله جهال العوامّ والمبتدِعة الطُّغام من الزعيق والزئير ، ومن النُّهاق الذي يشبه نُهاق الحمير ؛ فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وَجْد وخشوع : إنك لم تبلغ أن تساوي حال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوفِ منه والتعظيم لجلاله ؛ ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهمَ عن الله والبكاءَ خوفاً من الله .

وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه ، ومن لم يكن كذلك فليس على هَدْيهم ولا على طريقتهم ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرسول ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فاكتبنا مَعَ الشاهدين ﴾ [المائدة : 83] .

فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ؛ فمن كان مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنّ ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسّهم حالاً ؛ والجنون فنون .

روى الصحيح " عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى أَحْفَوْه في المسألة ، فخرج ذات يوم فصعِد المنبر فقال : "سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بيّنته لكم ما دمت في مقامي هذا" فلما سمع ذلك القومُ أَرَمُّوا ورهِبوا أن يكون بين (يدي) أمرٍ قد حضر .

قال أنس : فجعلت ألتفت يميناً وشِمالاً فإذا كل إنسان لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي " وذكر الحديث .

وقد مضى القول في هذه المسألة بأشبعَ من هذا في سورة "الأنفال" والحمد لله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾

والمنسك مفعل من نسك واحتمل أن يكون موضعاً للنسك ، أي مكان نسك ، واحتمل أن يكون مصدراً واحتمل أن يراد به مكان العبادة مطلقاً أو العبادة ، واحتمل أن يراد نسك خاص أو نسكاً خاصاً وهو موضع ذبح أو ذبح ، وحمله الزمخشري على الذبح ، يقال : شرع الله لكل أمة أن ينسكوا له أي يذبحوا لوجهه على وجه التقرب ، وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسماؤه على المناسك انتهى .

وقياس بناء مفعل مما مضارعه يفعل يضم العين مفعل بفتحها في المصدر والزمان والمكان ، وبالفتح قرأ الجمهور .

وقرأ بكسرها الأخوان وابن سعدان وأبو حاتم عن أبي عمرو ويونس ومحبوب وعبد الوارث إلا القصبي عنه .

قال ابن عطية : والكسر في هذا من الشاذ ولا يسوغ فيه القياس ، ويشبه أن يكون الكسائي سمعه من العرب .

وقال الأزهري : منسك ومنسك لغتان .

وقال مجاهد : المنسك الذبح ، وإراقة الدماء يقال : نسك إذا ذبح ، والذبيحة نسيكة وجمعها نسك .

وقال الفرّاء : المنسك في كلام العرب المعتاد في خير وبر .

وقال ابن عرفة ﴿ منسكاً ﴾ أي مذهباً من طاعة الله ، يقال : نسك نسك قومه إذا سلك مذهبهم .

وقال الفراء ﴿ منسكاً ﴾ عيداً وقال قتادة : حجاً .

﴿ ليذكروا اسم الله ﴾ معناه أمرناهم عند ذبائحهم بذكر الله ، وأن يكون الذبح له لأنه رازق ذلك ، ثم خرج إلى الحاضرين فقال ﴿ فإلهكم إله واحد فله أسلموا ﴾ أي انقادوا ، وكما أن الإله واحد يجب أن يخلص له في الذبيحة ولا يشرك فيها لغيره ، وتقدم شرح الإخبات .

وقال عمرو بن أوس : المخبتون الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا .

وقرأ الجمهور ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ بالخفض على الإضافة وحذفت النون لأجلها .

وقرأ ابن أبي إسحاق والحسن وأبو عمرو في رواية ﴿ الصلاة ﴾ بالنصب وحذفت النون لأجلها .

وقرأ ابن مسعود والأعمش والمقيمين بالنون ﴿ الصلاة ﴾ بالنصب .

(136/523)

وقرأ الضحاك : والمقيم الصلاة ، وناسب تبشير من اتصف بالإخبات هنا لأن أفعال الحج من نزع الثياب والتجرد من المخيط وكشف الرأس والتردد في تلك المواضع الغبرة المحجرة ، والتلبس بأفعال شاقة لا يعلم معناها إلاّ الله تعالى مؤذن بالاستسلام المحض والتواضع المفرط حيث يخرج الإنسان عن مألوفه إلى أفعال غريبة ، ولذلك وصفهم بالإخبات والوجل إذا ذكر الله تعالى والصبر على ما أصابهم من المشاق وإقامة الصلوات في مواضع لا يقيمها إلاّ المؤمنون المصطفون والإنفاق مما رزقهم ومنها الهدايا التي يغالون فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(137/523)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي لكلِّ أهلِ دينٍ ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ أي مُتعبَّداً وقُرباناً يتقرَّبون به إلى الله عزَّ وجلَّ . وقُرِىء بكسر السِّين أي موضعُ نُسُكٍ . وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفعل

للتَّخصيص أي لكلِّ أُمَّةٍ من الأُممِ جعلنا منسكاً لا لبعضٍ دونَ بعضٍ . ﴿ لِّيَذْكُرُواْ اسم الله ﴾ خاصَّةً دون غيرِه ويجعلُوا نسيكتهم لوجهه الكريمِ عُلِّل الجعلُ به تنبيهاً على أنَّ المقصودَ الأصليَّ من المناسكِ تذكُّرُ المعبودِ . ﴿ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ عند ذبحِها ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ القُربان يجبُ أنْ يكونَ من الأنعام . والخطابُ في قوله تعالى : ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ للكلِّ تغليباً . والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلَها فإنَّ جعلَه تعالى لكلِّ أُمَّةٍ من الأُمم مَنْسكاً ممَّا يدلُّ على وحدانيَّته تعالى . وإنَّما قيل إله واحدٌ ولم يُقل واحدٌ لما أنَّ المرادَ بيانُ أنَّه تعالى واحدٌ في ذاتِه كما أنَّه واحدٌ في إلهيته للكلِّ . والفاءُ في قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُواْ ﴾ لترتيب ما بعدها من الأمر بالإسلام على وحدانيَّتِه تعالى ، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الأمر للقصر ، أي فإذا كان إلهكم إلها واحداً فأخلصوا له التَّقرُّبَ أو الذِّكرَ واجعلُوه لوجهِه خاصَّةً ولا تشوبُوه بالشِّرك ﴿ وَبَشِّرِ المخبتين ﴾ تجريدٌ للخطاب إلى رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أي المُتواضعينَ أو المُخلِصين فإنَّ الإخباتَ من الوظائف الخاصَّةِ بهم .

(138/523)

﴿ الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ منه تعالى لإشراق أشعةِ جلاله عليها ﴿ والصابرين على مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من مشاقّ التَّكاليفِ ومُؤناتِ النَّوائبِ . ﴿ والمقيمى الصلاة ﴾ في أوقاتها . وقُرِىء بنصب الصَّلاةِ على تقدير النُّونِ . وقُرِىء والمقيمينَ الصَّلاةَ على الأصلِ . ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ في وجوه الخيراتِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(139/523)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾

عطف على قوله سبحانه ﴿ لَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ أو على قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ ﴾ [الحج : 32] الخ وما في البين اعتراض على ما قيل ، وكأني بك تختار الأول ؛ وسيأتي إن شاء الله تعالى تمام الكلام عليه عند نظير الآية ، والمنسك موضع النسك إذا كان اسم مكان أو النسك إذا كان مصدراً ، وفسره مجاهد هنا بالذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى فجعله مصدراً وحمل النسك على عبادة خاصة وهو أحد استعمالاته وإن كان في الأصل بمعنى العبادة مطلقاً وشاع في أعمال الحج .

وقال الفراء : المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد في خير وبر وفسره هنا بالعيد ، وقال قتادة : هو الحج .

وقال ابن عرفة ﴿ مَنسَكًا ﴾ أي مذهباً من طاعته تعالى .

واختار الزمخشري ما روي عن مجاهد وهو الأوفق أي شرع لكل أهل دين أن يذبحوا له تعالى على وجه التقرب لا لبعض منهم ، فتقديم الجار والمجرور على الفعل للتخصيص .

وقرأ الأخوان وابن سعدان .

وأبو حاتم عن أبي عمرو .

ويونس .

ومحبوب .

وعبد الوارث ﴿ مَنسَكًا ﴾ بكسر السين ، قال ابن عطية وهو في هذا شاذ ولا يجوز في القياس ويشبه أن يكون الكسائي سمعه من العرب ، قال الأزهري : الفتح والكسر فيه لغتان مسموعتان ﴿ لِّيَذْكُرُواْ اسم الله ﴾ خاصة دون غيره تعالى كما يفهمه السياق والسياق ، وفي تعليل الجعل بذلك فقط تنبيه على أن المقصود الأهم من شرعية النسك ذكره عز وجل ﴿ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ عند ذبحها ، وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون من الأنعام فلا يجوز بالخيل ونحوها .

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ قيل للتعليل وما بعدها علة لتخصيص اسم الله تعالى بالذكر ، والفاء في قوله سبحانه : ﴿ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْ ﴾ لترتيب ما بعدها من الأمر بالإسلام على وحدانيته عز وجل ، وقيل : الفاء الأولى لترتيب ما بعدها على ما قبلها أيضاً فإن جعله تعالى لكل أمة من الأمم منسكاً يدل على وحدانيته جل وعلا ، ولا يخفى ما في وجه الدلالة من الخفاء ، وتكلف بعضهم في بيانه بأن شرع المنسك لكل أمة ليذكروا اسم الله تعالى يقتضي أن يكون سبحانه إلهاً لهم لئلا يلزم السفه ويلزم من كونه تعالى إلهاً لهم أن يكون عز وجل واحداً لأنه لا يستحق الألوهية أصلاً من لم يتفرد بها فإن الشركة نقص وهو كما ترى ، وفي "الكشف" لما كانت العلة لقوله سبحانه : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا ﴾ ذكر اسمه تعالى على المناسك ومعلوم أن الذكر إنما يكون ذكراً عند مواطأة القلب اللسان وذكر القلب إشعار بالتعظيم جاء قوله تعالى : ﴿ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْ ﴾ مسبباً عنه تسبباً حسناً .

واعترض بقوله تعالى : ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ لأنه يؤكد الأمر بالإخلاص ويقوي السبب تقوية بالغة ويؤكد أيضاً كون الذكر هو المقصود من شرعية النسك انتهى ، وهو يشعر بأن الفاء الأولى للاعتراض والفاء الثانية للترتيب .

ولعل ما ذكر أولاً أظهر ، وأما ما قيل من أن الفاء الأولى للتعليل والمعلل محذوف والمعنى إنما اختلفت التكاليف باختلاف الأزمنة والأشخاص لاختلاف المصالح لا لتعدد الإله فإن إلهكم إله واحد فمما لا ينبغي أن يخرج عليه كلام الله تعالى الجليل كما لا يخفى ، وإنما قيل : ﴿ إله واحد ﴾ ولم يقل واحد لما أن المراد بيان أنه تعالى واحد في ذاته كما أنه واحد في إلهيته ؛ وتقديم الجار على الأمر للقصر ، والمراد اخلصوا له تعالى الذكر خاصة واجعلوه لوجهه سالماً خالصاً لا تشوبوه بإشراك ﴿ وَبَشِّرِ المخبتين ﴾ خطاب له صلى الله عليه وسلم ، والمخبتون المطمئنون كما روي عن مجاهد أو المتواضعون كما روي عن الضحاك .

وقال عمرو بن أوس : هم الذين لا يظلمون الناس وإذا ظلموا لم ينتصروا .

وقال سفيان : هم الراضون بقضاء الله تعالى .

وقال الكلبي : هم المجتهدون في العبادة ، وهو من الإخبات وأصله كما قال الراغب : نزول الخبت وهو المطمئن من الأرض ، ولا يخفى حسن موقع ذلك هنا من حيث أن نزول الخبت مناسب للحاج .

﴿ الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ ﴾ أي خافت ﴿ قُلُوبِهِمْ ﴾ منه عز وجل لإشراق أشعة

الجلال عليها ﴿ والصابرين على مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من مشاق التكاليف ومؤنات النوائب كالأمراض والمحن والغربة عن الأوطان ولا يخفى حسن موقع ذلك هنا أيضاً ، والظاهر أن الصبر على المكاره مطلقاً ممدوح.

وقال الرازي : يجب الصبر على ما كان من قبل الله تعالى ، وأما على ما يكون من قبل الظلمة فغير واجب بل يجب دفعه على من يمكنه ذلك ولو بالقتال انتهى وفيه نظر ﴿ والمقيمى الصلاة ﴾ في أوقاتها ، ولعل ذكر ذلك هنا لأن السفر مظنة التقصير في إقامة الصلاة.

وقرأ الحسن.

وابن أبي إسحاق.

وأبو عمرو في رواية ﴿ الصلاة ﴾ بالنصب على المفعولية لمقيمي وحذفت النون منه تخفيفاً كما في بيت الكتاب

: الحافظو عورة العشيرة لا . . .

تأتيهم من ورائهم نطف

بنصب عورة ونظير ذلك قوله

: إن الذي حانت بفلج دماؤهم . . .

هم القوم كل القوم يا أم مالك

وقوله

: ابني كليب أن عمي اللذا . . .

قتلا الملوك وفككا الأغلالا

وقرأ ابن مسعود .

والأعمش ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ بإثبات النون ونصب الصلاة على الأصل ، وقرأ الضحاك ﴿ إِلَى الصلاة ﴾ بالإفراد والإضافة ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ في وجوه الخير ومن ذلك إهداء الهدايا التي يغالون فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(143/523)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾

محل ﴿ ذلك ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي الأمر ذلك ، أو مبتدأ خبره محذوف ، أو في محل نصب بفعل محذوف ، أي افعلوا ذلك .

والمشار إليه هو ما سبق من أعمال الحجّ ، وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين طرفي كلام واحد ، والحرمات جمع حرمة .

قال الزجاج : الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه ، وهي في هذه الآية ما نهي عنها ، ومنع من الوقوع فيها .

والظاهر من الآية عموم كل حرمة في الحج وغيره كما يفيده اللفظ وإن كان السبب خاصاً ، وتعظيمها ترك ملابستها ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ أي فالتعظيم خير له ﴿ عِندَ رَبِّهِ ﴾ يعني : في الآخرة من التهاون بشيء منها .

وقيل : إن صيغة التفضيل هنا لا يراد بها معناها الحقيقي ، بل المراد : أن ذلك التعظيم خير ينتفع به ، فهي عدة بخير ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ أي في الكتاب العزيز من المحرّمات ، وهي الميتة وما ذكر معها في سورة المائدة .

وقيل في قوله : ﴿ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلّى الصيد وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة : 1] .

﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ الرجس : القذر ، والوثن : التمثال ، وأصله من وثن الشيء ، أي أقام في مقامه ، وسمي الصليب وثناً ، لأنه ينصب ويركز في مقامه ، فلا يبرح عنه .

والمراد : اجتناب عبادة الأوثان ، وسماها رجساً ؛ لأنها سبب الرجس وهو العذاب .

وقيل : جعلها سبحانه رجساً حكماً ، والرجس : النجس ، وليست النجاسة وصفاً ذاتياً لها ولكنها وصف شرعي ، فلا تزول إلا بالإيمان كما أنها لا تزول النجاسة الحسية إلا بالماء .

(144/523)

قال الزجاج : " من " هنا لتخليص جنس من أجناس ، أي فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن ﴿ واجتنبوا قَوْلَ الزور ﴾ الذي هو الباطل ، وسمي زوراً ؛ لأنه مائل عن الحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ [الكهف : 17] .

وقولهم : مدينة زوراء ، أي مائلة ، والمراد هنا قول الزور على العموم ، وأعظمه الشرك بالله بأيّ لفظ كان .

وقال الزجاج المراد بقول الزور ها هنا : تحليلهم بعض الأنعام وتحريمهم بعضها ، وقولهم : ﴿ هذا حلال وهذا حَرَامٌ ﴾ [النحل : 116] .

وقيل : المراد به : شهادة الزور .

وانتصاب ﴿ حُنَفَاء ﴾ على الحال ، أي مستقيمين على الحق ، أو مائلين إلى الحق .

ولفظ حنفاء من الأضداد يقع على الاستقامة ، ويقع على الميل .

وقيل : معناه : حجاجاً ، ولا وجه لهذا .

﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ هو حال كالأوّل ، أي غير مشركين به شيئاً من الأشياء كما يفيده الحذف من العموم ، وجملة : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السماء ﴾ مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الأمر بالاجتناب .

ومعنى خرّ من السماء : سقط إلى الأرض ، أي انحط من رفيع الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿ فَتَخْطَفُهُ الطير ﴾ ، يقال : خطفه : إذا سلبه ، ومنه قوله :

﴿ يَخْطَفُ أبصارهم ﴾ [البقرة 20] .

أي تخطف لحمه وتقطعه بمخالبها .

قرأ أبو جعفر ونافع بتشديد الطاء وفتح الخاء ، وقرىء بكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما ﴿ أَوْ تَهْوِي بِهِ الريح ﴾ أي تقذفه وترمي به ﴿ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ أي بعيد ، يقال : سحق يسحق سحقاً فهو سحيق : إذا بعد قال الزجاج : أعلم الله أن بعد من أشرك به من الحقّ ، كبعد ما خرّ من السماء ، فتذهب به الطير أو هوت به الريح في مكان بعيد .

﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ شعائر الله ﴾ الكلام في هذه الإشارة قد تقدّم قريباً ، والشعائر : جمع الشعيرة ، وهي كل شيء فيه لله تعالى شعار ، ومنه شعار القوم في الحرب ، وهو علامتهم التي يتعارفون بها ، ومنه إشعار البدن ، وهو الطعن في جانبها الأيمن ، فشعائر الله : أعلام دينه ، وتدخل الهدايا في الحجّ دخولاً أوّلياً ، والضمير في قوله : ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ راجع إلى الشعائر بتقدير مضاف محذوف ، أي فإن تعظيمها من تقوى القلوب أي : من أفعال القلوب التي هي من التقوى ، فإن هذا التعظيم ناشىء من التقوى .

﴿ لَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ أي في الشعائر على العموم ، أو على الخصوص ، وهي البدن كما يدلّ عليه السياق .

ومن منافعها : الركوب والدرّ والنسل والصوف وغير ذلك ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو وقت نحرها ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إلى البيت العتيق ﴾ أي حيث يحلّ نحرها ، والمعنى : أنها تنتهي إلى البيت وما يليه من الحرم ، فمنافعهم الدنيوية المستفادة منها مستمرّة إلى وقت نحرها ، ثم تكون منافعها بعد ذلك دينية .

وقيل : إن محلها ها هنا مأخوذ من إحلال الحرام ، والمعنى : أن شعائر الحجّ كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي تنتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت ، فالبيت على هذا مراد بنفسه .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ المنسك ها هنا المصدر من نسك ينسك : إذا ذبح القربان ، والذبيحة : نسيكة ، وجمعها نسك .

وقال الأزهري : إن المراد بالمنسك في الآية : موضع النحر ، ويقال : منسك بكسر السين وفتحها لغتان ، قرأ بالكسر الكوفيون إلا عاصماً وقرأ الباقون بالفتح .

وقال الفرّاء : المنسك في كلام العرب : الموضع المعتاد في خير أو شرّ ، وقال ابن عرفة : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ أي مذهباً من طاعة الله .

وروي عن الفراء أن المنسك : العيد .

(146/523)

وقيل : الحجّ ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ لِّيَذْكُرُواْ اسم الله ﴾ إلى آخره ، والأمة : الجماعة المجتمعة على مذهب واحد ، والمعنى : وجعلنا لكل أهل دين من الأديان ذبحاً يذبحونه ، ودما يريقونه ، أو متعبداً أو طاعة أو عيداً أو حجاً يحجونه ، ليذكروا اسم الله وحده ، ويجعلوا نسكهم خاصاً به ﴿ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ أي على ذبح ما رزقهم منها .

وفيه إشارة إلى أن القربان لا يكون إلا من الأنعام دون غيرها ، وفي الآية دليل على أن

المقصود من الذبح المذكور هو ذكر اسم الله عليه .

ثم أخبرهم سبحانه بتفرّده بالإلهية وأنه لا شريك له ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ثم أمرهم بالإسلام له ، والانقياد لطاعته وعبادته ، وتقديم الجار والمجرور على الفعل للقصر ، والفاء هنا كالفاء التي قبلها ، ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يبشر ﴿ المخبتين ﴾ من عباده ، أي المتواضعين الخاشعين المخلصين ، وهو مأخوذ من الخبت ، وهو المنخفض من الأرض ، والمعنى : بشرهم يا محمد بما أعدّ الله لهم من جزيل ثوابه وجليل عطائه .

وقيل : إن المخبتين هم الذين لا يظلمون غيرهم ، وإذا ظلمهم غيرهم لم ينتصروا .

ثم وصف سبحانه هؤلاء المخبتين بقوله : ﴿ الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي خافت وحذرت مخالفته ، وحصول الوجل منهم عند الذكر له سبحانه دليل على كمال يقينهم وقوّة إيمانهم ، ووصفهم بالصبر ﴿ على مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من البلايا والمحن في طاعة الله ثم وصفهم بإقامة ﴿ الصلاة ﴾ أي الإتيان بها في أوقاتها على وجه الكمال .

قرأ الجمهور : ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ بالجرّ على ما هو الظاهر ، وقرأ أبو عَمْرو بالنصب على توهم بقاء النون ، وأنشد سيبويه على ذلك قول الشاعر :

الحافظو عورة العشيرة . . . البيت بنصب عورة ، وقيل : لم يقرأ بهذه القراءة أبو عمرو ، وقرأ ابن محيصن : " والمقيمين " بإثبات النون على الأصل ، ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود ، ثم وصفهم سبحانه بقوله : ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ أي يتصدّقون به وينفقونه في وجوه البرّ ، ويضعونه في مواضع الخير ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءاياته زَادَتْهُمْ إِيمانا وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : 2] .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ حرمات الله ﴾ قال : الحرمة مكة والحجّ والعمرة وما نهى الله عنه من معاصيه كلها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ يقول : اجتنبوا طاعة الشيطان في عبادة الأوثان ﴿ واجتنبوا قَوْلَ الزور ﴾ يعني : الافتراء على الله والتكذيب به .

وأخرج أحمد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أيمن بن خريم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال : " يا أيها الناس ، عدلت شهادة الزور شركاً بالله " " ثلاثاً ، ثم قرأ : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان واجتنبوا قَوْلَ الزور ، قال أحمد :

غريب ، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد .

وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث ، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقد أخرجه أحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب من حديث خريم .

(148/523)

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر " ثلاثاً ، قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : " الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين " ، وكان متكئاً ، فجلس فقال : " ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور " ، فما زال يكرّرها حتى قلنا : ليته سكت .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ قال : حجاجاً لله غير مشركين به ، وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين ، فلما أظهر الله الإسلام ، قال الله للمسلمين : حجوا الآن غير مشركين بالله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر الصدّيق نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شعائر الله ﴾ قال : البدن .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شعائر الله ﴾ قال : الاستسمان والاستحسان والاستعظام ، وفي قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا منافع إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال : إلى أن تسمى بدناً .

وأخرج هؤلاء عن مجاهد نحوه ، وفيه قال : ولكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، في ظهورها وألبانها وأوبارها وأشعارها وأصوافها إلى أن تسمى هدياً ، فإذا سميت هدياً ذهبت المنافع ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا ﴾ يقول : حين تسمى ﴿ إلى البيت العتيق ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : إذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ قال : عيداً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : إهراق الدماء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : ذبحاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في الآية قال : مكة لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها .

وقد وردت أحاديث في الأضحية ليس هذا موضع ذكرها .

(149/523)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَبَشِّرِ المخبتين ﴾ قال : المطمئنين .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في ذم الغضب ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في شعب الإيمان عن عمرو بن أوس قال : المخبتون في الآية الذين لا يظلمون الناس ، وإذا ظلموا لم ينتصروا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(150/523)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ اسم الله على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الانعام فإلهكم إله واحد فَلَهُ أَسْلِمُواْ ﴾

عطف على جملة ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ [الحج : 33] .

والأمة : أهل الدين الذين اشتركوا في اتباعه .

والمراد : أنّ المسلمين لهم منسك واحد وهو البيت العتيق كما تقدم .

والمقصود من هذا الرد على المشركين إذ جعلوا لأصنامهم مناسك تشابه مناسك الحج وجعلوا لها مواقيت ومذابح مثل الغَبْغَب مَنحر العُزّى ، فذكرهم الله تعالى بأنه ما جعل لكل أمّة إلاّ منسكاً واحداً للقربان إلى الله تعالى الذي رزق الناس الأنعام التي يتقربون إليه منها فلا يحق أن يُجعل لغير الله منسك لأنّ ما لا يخلق الأنعام المقرّب بها ولا يرزقها الناسَ لا يسْتحق أن يُجعل له منسكٌ لقربانها فلا تتعدد المناسك .

فالتنكير في قوله ﴿ منسكاً ﴾ للإفراد ، أي واحداً لا متعدداً ، ومحلّ الفائدة هو إسناد الجعل إلى ضمير الجلالة .

وقد دل على ذلك قوله : ﴿ ليذكروا اسم الله ﴾ وأدلّ عليه التفريع بقوله ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ .

والكلام يفيد الاقتداء ببقيّة الأمم أهل الأديان الحق .

و﴿ على ﴾ يجوز أن تكون للاستعلاء المجازي متعلقة بـ ﴿ يذكروا اسم الله ﴾ مع تقدير مضاف بعدَ ﴿ على ﴾ تقديره : إهداء ما رزقهم ، أي عند إهداء ما رزقهم ، يعني ونحرها أو ذبحها .

ويجوز أن تكون ﴿ على ﴾ بمعنى : لام التعليل .

والمعنى : ليذكروا اسم الله لأجل ما رزقهم من بهيمة الأنعام .

وقد فرع على هذا الانفرادُ بالإلهية بقوله : ﴿ فإلهكم إله واحد فله أسلموا ﴾ أي إذ كان قد جعل لكم منسكاً واحداً فقد نبهكم بذلك أنه إله واحد ، ولو كانت آلهة كثيرة لكانت شرائعها مختلفة .

وهذا التفريع الأول تمهيد للتفريع الذي عقبه وهو المقصود ، فوقع في النظم تغيير بتقديم وتأخير .

وأصل النظم : فلله أسلموا ، لأن إلهكم إله واحد .

(151/523)

وتقديم المجرور في ﴿ فله أسلموا ﴾ للحصر ، أي أسلموا له لا لغيره .

والإسلام : الانقياد التام ، وهو الإخلاص في الطاعة ، أي لا تخلصوا إلا لله ، أي فاتركوا جميع المناسك التي أُقيمت لغيرِ الله فلا تنسكوا إلاّ في المنسك الذي جعله لكم ، تعريضاً بالرد على المشركين .

وقرأ الجمهور ﴿ مَنسَكاً ﴾ بفتح السين وقرأه حمزة ، والكسائي ، وخلف بكسر السين ، وهو على القراءتين اسم مكان للنَّسْك ، وهو الذبح .

إلا أنه على قراءة الجمهور جارٍ على القياس لأن قياسه الفتح في اسم المكان إذ هو من نسك ينسك بضمّ العين في المضارع .

وأما على قراءة الكسر فهو سماعي مثل مَسجد من سجد يسجد ، قال أبو عليّ الفارسي : ويشبه أن الكسائي سمعه من العرب .

﴿ وَبَشِّرِ المخبتين الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ والصابرين على مَآ أَصَابَهُمْ والمقيمى الصلاة وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾

اعتراض بين سوق المنن ، والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم وأصحاب هذه الصفات هم المسلمون .

والمُخْبِت : المتواضع الذي لا تكبُّر عنده .

وأصل المخبت مَن سلك الخَبْت .

وهو المكان المنخفض ضد المُصعد ، ثم استعير للمتواضع كأنه سلك نفسه في الانخفاض ، والمراد بهم هنا المؤمنون ، لأنّ التواضع من شيمهم كما كان التكبّر من سمات المشركين قال تعالى : ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ [غافر : 35] .

والوَجل : الخوف الشديد .

وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ قال إنا منكم وجلون ﴾ في [سورة الحجر : 52] .

وقد أتبع صفة ﴿ المخبتين ﴾ بأربع صفات وهي : وجل القلوب عند ذكر الله ، والصّبر

على الأذى في سبيله ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق .

وكلّ هذه الصفات الأربع مظاهر للتواضع فليس المقصود مَن جمع تلك الصفات لأن بعض المؤمنين لا يجد ما ينفق منه وإنما المقصود مَن لم يُخِل بواحدة منها عند إمكانها .

والمراد من الإنفاق الإنفاق على المحتاجين الضعفاء من المؤمنين لأنّ ذلك هو دأب المخبتين .

(152/523)

وأما الإنفاق على الضيف والأصحاب فذلك مما يفعله المتكبرون من العرب كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين ﴾ [البقرة : 180] .

وهو نظير الإنفاق على الندماء في مجالس الشراب .

ونظير إتمام الإيسار في مواقع الميسر ، كما قال النّابغة:

أني أتمم أيساري وأمنحهم . . .

مثنَى الأيادي وأكسوا الجفنة الأُدما

والمراد بالصبر : الصبر على ما يصيبهم من الأذى في سبيل الإسلام .

وأما الصبر في الحروب وعلى فقد الأحبّة فمما تتشرك فيه النفوس الجلْدة من المتكبرين

والمخبتين .

وفي كثير من ذلك الصبر فضيلة إسلامية إذا كان تخلقاً بأدب الإسلام قال تعالى : ﴿ وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ [البقرة : 155156] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(153/523)

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ المخبتين الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ والصابرين على مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ .

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبشر المخبتين : أي المتواضعين لله المطمئنين الذين من صفتهم : أنهم إذا سمعوا ذكر الله ، وجلت قلوبهم : أي خافت من الله جل وعلا ، وأن يبشر الصابرين على ما أصابهم من الأذى ، ومتعلق التبشير محذوف لدلالة المقام عليه أي بشرهم بثواب الله وجنته . وقد بين في موضع أخر : أن الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم : هم المؤمنون حقاً وكونهم هم المؤمنين حقاً ، يجعلهم جديرين بالبشارة المذكورة هنا .

وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : 2]

الآية . وأمره في موضع آخر أن يبشر الصابرين على ما أصابهم مع بيان بعض ما بشروا به ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصابرين الذين إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا للَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعونَ أولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وأولئك هُمُ المهتدون ﴾ [البقرة : 155-157] .

(154/523)

واعلم : أن وجل القلوب عند ذكر الله أي خوفها من الله عند سماع ذكره لا ينافي ما ذكره جل وعلا ، من أن المؤمنين تطمئن قلوبهم بذكر الله كما في قوله تعالى : ﴿ الذين آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28] ووجه الجمع بين الثناء عليهم بالوجل الذي هو الخوف عند ذكره جل وعلا ، مع الثناء عليهم بالطمأنينة بذكره ، والخوف والطمأنينة متنافيان هو ما أوضحناه في كتابنا : دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وهو أن الطمأنينة بذكر الله تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد ، وصدق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فطمأنينتهم بذلك قوية لأنها لم تتطرقها الشكوك ، ولا الشبه والوجل عند ذكر الله تعالى يكون بسبب خوف الزيغ عن الهدى ، وعدم تقبل الأعمال ، كما قال تعالى عن الراسخين في العلم ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل

عمران : 8] وقال تعالى : ﴿ والذين يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : 60] وقال تعالى : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ [الزمر : 23] ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(155/523)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾

يُبيِّن لنا الحق سبحانه بعض صفات المخبتين ، فهم ﴿ الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . ﴾ [الحج : 35] (وَجِلت) : يعني خافت ، واضطربت ، وارتعدت لذكر الله تعظيماً له ، ومهابة منه .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28] .

فمرة يقول ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . ﴾ [الحج : 35] ومرة ﴿ تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28] ، لماذا ؟ لأن ذكر الله إنْ جاء بعد المخالفة لا بُدَّ للنفس أنْ تخاف وتَوْجَل

وتضطرب هيبةً لله عز وجل ، أما إنْ جاء ذِكْر الله بعد المصيبة أو الشدة فإن النفس تطمئنُّ به ، وتأنَسُ لما فيها من رصيد إيماني ترجع إليه عند الشدة وتركَنُ إليه عند الضيق والبلاء ، فإنْ تعرَّضَت لمصيبة وعزَّتْ أسبابُ دَفْعها عليك تقول : أنا لي رب فتلجأ إليه ، كما كان من موسى – عليه السلام – حين قال : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62] .

﴿ والصابرين على مَا أَصَابَهُمْ . . ﴾ [الحج : 35] ومعنى أصاب : يعني جاء بأمر سيء في عُرْفك أنت ، فتعده مصيبة ؛ لأننا نُقدِّر المصيبة حَسْب سطحية العمل الإيذائي ، إنما لو أخذتَ مع المصيبة في حسابك الأجر عليها لهانَتْ عليك وما أعتبرتَها كذلك ؛ لذلك في الحديث الشريف يقول صلى الله عليه وسلم : " المصاب من حرم الثواب " . هذا هو المصاب حقاً الذي لا تُجبَر مصيبته ، أما أنْ تُصاب بشيء فتصبر عليه حتى تنالَ الأجر فليس في هذا مصيبة .

(156/523)

ثم يقول سبحانه : ﴿ والمقيمي الصلاة . . ﴾ [الحج : 35] لأن الصلاة هي الولاء الدائم للعبد المسلم ، والفرض الذي لا يسقط عنه بحال من الأحوال ، فالشهادتان يكفي أنْ

تقولها في العمر مرة ، والزكاة إنْ كان عندكِ نِصَاب فهي مرة واحدة في العام كله ، والصيام كذلك ، شهر في العام ، والحج إنْ كنتَ مستطيعاً فهو مرة واحدة في العمر ، وإنْ لم تكُنْ مستطيعاً فليس عليك حج .

إذن : الصلاة هي الولاء المستمر للحق سبحانه على مَدار اليوم كله ، وربك هو الذي يدعوك إليها ، ثم لك أنْ تُحدّدِ أنت موعد ومكان هذا اللقاء في حَضْرته تعالى ؛ لأنه سبحانه مستعد للقائك في أيِّ وقت .

وتصور أن رئيس الجمهورية أو الملك مثلاً يدعوك ويُحتِّم عليك أنْ يراك في اليوم خمس مرات لتكون في حضرته ، والحق سبحانه حين يدعو عباده للقائه ، لا يدعوهم مرة واحدة إنما خمس مرات في اليوم والليلة ؛ لأنه سبحانه لا يتكلف في هذه العملية تكرار لقاءات ، فهو سبحانه يَلْقَى الجميع في وقت واحد .

ولما سئل الإمام علي – رضي الله عنه – : كيف يُحاسب الله كُلَّ هؤلاء الناس في وقت واحد ؟ قال : كما أنه يرزقهم جميعاً في وقت واحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الحج : 35] لا ينفقون من جيوبهم ، إنما من عطاء الله ورزقه .

ومن العجيب أن الله تعالى يعطيك ويهبُكَ ويُغدِق عليك تفضلاً منه سبحانه ، فإذا أرادك تُعين محتاجاً قال لك : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً . . ﴾ [الحديد : 11]

وكأن الله تعالى يقول لنا : أنا لا أعود في هبتي ولا عطائي ، فأقول : أعْطِ ما أخذتَه لفلان ، بل إنْ أعطيتَ الفقير من مالك فهو أيضاً لك مُدَّخر لا يضيع ، فرِزْقك الذي وهبك الله إياه مِلْكك ، ولا نغبنك في شيء منه أبداً ، فربّك يحترم ملكيتك ويحترم جزاء عملك وجدِّك واجتهادك .

(157/523)

نقول – ولله المثل الأعلى – : كالرجل الذي يحتاج مبلغاً كبيراً لأحد الأبناء فيأخذ من الباقين ما معهم وما ادخروه من مصروفاتهم على وَعْد أنْ يُعوِّضهم بدلاً منها فيما بعد . لذلك يقول بعدها : ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ . . ﴾ [الحديد : 11] فيعاملك ربك بالزيادة ؛ لذلك يقول البعض : إن الله تعالى حرَّم علينا الربا وهو يعاملنا به ، نعم يعاملك ربك بالربا ويقول لك : اترك لي أنا هذا التعامل ؛ لأنني حين أزيدك لا أنقص الآخرين ، ولا أُنقِص مما عندي ، ولا أُرهِق ضعيفاً ولا محتاجاً ولا أستغلّ حاجته .

والصدقة في الإسلام تأمينٌ لصاحبها ضد الفقر إن احتاج ، فأخوَفُ ما يخافه المرءُ الحاجة عند الكبَر ، وعدم القدرة على الكَسْب ، وعند الإعاقة عن العمل ، يخاف أنْ ينفد ماله ، ويحتاج إلى الناس حال كِبَره .

وعندها يقول له ربه : اطمئن ، فكما أَعطيْتَ حال يُسْرك سيعطيك غيرُك حال عَوَزِك وحاجتك .

إذن : أخذ منك ليعطيك ، وليُؤمّن لك مستقبل حياتك الذي تخاف منه .

الصدقة في الإسلام صندوق لتكافل المجتمع ، كصندوق التأمين في شركات التأمين ، فإذا ما ضاقت بك أسباب الرزق وشكوْتَ الكِبَر والعجز نقول لك : لا تحزن فأنت في مجتمع مؤمن متكافل ، وكما طلبنا منك أنْ تعطي وأنت واجد طلبنا من غيرك أنْ يعطيَك وأنت مُعْدم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(158/523)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ﴾ قال : عيداً .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ﴾ قال : إهراق الدماء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ﴾ قال : ذبحاً .

وأخرج أبو داود والنسائي والحاكم وصححه ، عن عبد الله بن عمر : " أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت بعيد الأضحى جعله الله لهذه الأمة . قال الرجل : فإن لم نجد إلا ذبيحة أنثى أو شاة أعليّ ، اذبحها ؟ قال : لا ، ولكن قلم أظفارك وقص شاربك واحلق عانتك ، فذلك تمام أضحيتك عند الله " .

وأخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي ، عن أبي هريرة قال : " نزل جبريل فقال النبي صلى الله عليه وسلم كيف رأيت عيدنا ؟ فقال : لقد تباهى به أهل السماء ! . . . اعلم يا محمد ، أن الجذع من الضأن خير من السيد من المعز ، وإن الجذع من الضأن خير من السيد من البقر ، وإن الجذع من الضأن خير من السيد من الإبل . ولو علم الله خيراً منه فدى بها إبراهيم " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أنه قال : في هذه الآية ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ﴾ أنه مكة ، لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها .

أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، عن جابر بن عبد الله : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى للناس يوم النحر ، فلما فرغ من خطبته

وصلاته دعا بكبش فذبحه هو بنفسه وقال : بسم الله والله أكبر . . . اللهم هذا عني وعمن لم يضح من أمتي " .

(159/523)

وأخرج أحمد وأبو داود وابن ماجة وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب ، عن جابر قال : " ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين في يوم عيد فقال حين وجههما : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . اللهم منك ولك وعن محمد وأمته . ثم سمى الله وكبر وذبح " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الأضاحي والبيهقي في الشعب ، عن علي أنه قال حين ذبح : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة ، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين أقرنين فسمى وكبر .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عمر رضي الله عنه ، أنه كان إذا ذبح قال : بسم الله والله أكبر ، اللهم منك ولك اللهم تقبل مني .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل ﴿ فله أسلموا ﴾ يقول : فله أخلصوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم . عن مجاهد في قوله ﴿ وبشر المخبتين ﴾ قال : المطمئنين .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في ذم الغضب ، وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان ، عن عمرو بن أوس ﴿ وبشر المخبتين ﴾ قال : المخبتون ، الذين لا يظلمون الناس ، وإذا ظلموا لم ينتصروا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ وبشر المخبتين ﴾ قال : المتواضعين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ﴿ وبشر المخبتين ﴾ قال : الوجلين .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أنه كان إذا رأى الربيع بن خثيم قال : ﴿ وبشر المخبتين ﴾ وقال له : ما رأيتك إلا ذكرت المخبتين .

(160/523)

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (35) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ عندما يخوفون ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ من البلاء والمصيبات ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ يعني إقامتها بأداء ما استحفظهم الله فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(161/523)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾

قوله : ﴿ مَنسَكاً ﴾ : قرأ الأخَوان هذا وما بعده " مَنْسِكاً " بالكسر ، والباقون بالفتح . فقيل : هما بمعنىً واحد . والمرادُ بالمَنْسَك مكانُ النُّسُكِ أو المصدرُ . وقيل : المكسورُ مكانٌ ، والمفتوحُ مصدرٌ . قال ابنُ عطية : " والكسرُ في هذا من الشاذِّ ، ولا يَسُوغُ فيه القياس . ويُشْبِهُ أَنْ يكونَ الكسائيُّ سمعه من العرب " . قلت : وهذا الكلامُ منه غير مَرْضِيّ : كيف يقول : ويُشْبه أَنْ يكنَ الكسائيُ سَمِعه . الكسائي يقول : قرأتُ به فكيف

يحتاج إلى سماعٍ مع تمسُّكِه بأقوى السَّماعات ، وهو روايتُه لذلك قرآناً متواتراً ؟ وقوله : " من الشاذِّ " يعني قياساً لا استعمالاً فإنه فصيحٌ في الاستعمال ؛ وذلك أنَّ فَعَل يَفْعُل بضم العين في المضارع قياسُ المَفْعَل منه : أن تُفتَحَ عينُه مطلقاً أي : سواءٌ أُريد به الزمانُ أم المكانُ أم المصدرُ . وقد شَذَّتْ ألفاظٌ ضَبَطها النحاةُ في كتبهم وذكرتُها أيضاً في هذا الموضوعِ .

قوله : ﴿ الذين إذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ : يجوز أن يكونَ هذا الموصولُ في موضعِ جرٍّ أو نصبٍ أو رفعٍ . فالجرُّ من ثلاثةِ أوجهٍ : النعتُ للمُخْبِتِيْن ، أو البدلُ منهم ، أو البيانُ لهم . والنصبُ على المدحِ . الرفعُ على إضمار " هم " وهو مدحٌ أيضاً ، ويُسَمِّيه النحويون " قَطْعاً " .

(162/523)

قوله : ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ العامَّةُ على خفضِ " الصلاةِ " بإضافةِ المقيمين إليها . وقرأ الحسن وأبو عمرو في روايةٍ بنَصْبِها على حذفِ النونِ تخفيفاً ، كما يُحْذف التنوينُ لالتقاءِ السَاكنين . وقرأ ابنُ مسعودٍ والأعمشُ بهذا الأصل : " والمقيمينَ الصلاةَ " بإثباتِ النونِ ، ونصبِ " الصلاة " . وقرأ الضحَّاكُ " والمقيمَ الصلاةَ " بميمٍ ليس بعدها شيء . وهذه لا

تخالِفُ قراءةَ العامَّةِ لفظاً ، وإنما تظهرُ مخالفتُها لها وَقْفاً وخَطّاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 274. 275 ﴾

(163/523)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾ .

الشرائعُ مختلفةٌ فيما كان من المعاملات ، متفقة فيما كان من جملة المعارف ، ثم هم فيها مختلفون : فقومٌ هم أصحاب التضعيف ، فيما أوجب عليهم وجعل لهم ، وقومٌ هم أصحاب التخفيف فيما ألزموا وفيما وُعَد لهم . قوله ﴿ لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلِى ﴾ وذكر اسم الله على ما رزقهم على أقسام : منها معرفتهم إنعام الله بذلك عليهم . . . وذلك من حيث الشكر ، ثم يذكرون اسمه على ما وفّقَهم لمعرفته بأنه هو الذي يتقبل منهم وهو الذي يُثيبهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ .

أي اسْتَسلموا لِحُكمه بلا تعبيسٍ ولا استكراهٍ من داخل القلب .

والإسلام يكون بمعنى الإخلاص ، والإخلاص تصفية الأعمال من الآفات ، ثم تصفية الأخلاق من الكدورات ، ثم تصفية الأحوال ، ثم تصفية الأنفاس . ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ : الإخبات استدامة الطاعة بشرط الاستقامة بقدر الاستطاعة . ومنْ أماراتِ الإخباتِ كمالُ الخضوع بشرط دوام الخشوع ، وذلك بإطراق السريرة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الوَجَلُ الخوفُ من المخافة ، والوَجلُ عند الذكر على أقسام : إما لخوفِ عقوبة ستحصل أو لمخافة عاقبة بالسوء تختم ، أو لخروجٍ من الدنيا على غَفلَةٍ من غير استعدادٍ للموت ، أو إصلاح أُهْبَةٍ ، أو حياءٍ من الله سبحانه في أمورٍ إذا ذَكَرَ اطلاعه – سبحانه – عليها لمَا بَدَرَت منه تلك الأمور التي هي غير محبوبة .

ويقال الوجَلُ على حسب تجلي الحق للقلب ؛ فإن القلوب في حال المطالعةِ والتجلي تكون بوصف الوجل والهيبة .

(164/523)

ويقال وَجلٌ له سبب وجل بلا سبب ؛ فالأول مخافةٌ من تقصير ، والثاني معدودٌ في جملة الهيبة .

ويقال الوَجَلُ خوفُ المَكْرِ والاستدراج ، وأقربُهم من الله قلباً أكثرهُم من الله – على هذا الوجه – خوفاً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ .

أي خامدين تحت جريان الحكم من غير استكراهٍ ولا تمني خَرْجةٍ ، ولا زَوْمِ فُرْجةٍ بل يستَسلِمُ طوعاً :

ويقال الصابرين على ما أصابهم . أي الحافظين معه أسرارهم ، لا يطلبون السلوةَ بإطلاعِ الخَلْق على أحوالهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالمُقِيمِى الصَّلَاةِ ﴾ .

أي إذا اشتدت بهم البلوى فزعوا إلى الوقوف في محلِّ النجوى :

إذا ما تمنَّى الناسُ رَوْحاً وراحةً . . . تمنَّيْتُ أن أشكو إليك فَتَسمَعَا

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

عند المعاملة من أموالهم ، وفي قضايا المنازلة بالاستسلام ، وتسليم النفس وكل ما منك وبك لطوارق التقدير ؛ فينفقون أبدانَهم على تحمل مطالبات الشريعة ، وينفقون قلوبَهم على

التسليم والخمود تحت جريان الأحكام بمطالبات الحقيقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 543 . 545 ﴾

(165/523)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والعشرون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/524)

الجزء الرابع والعشرون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 36 ﴾ من سورة الحج

وحتى الآية ﴿ 37 ﴾ من نفس السورة

(4/524)

قوله تعالى ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36) لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قدم سبحانه الحث على التقرب بالأنعام كلها ، وكانت الإبل أعظمها خلقاً ، وأجلها في

أنفسهم أمراً ، خصها بالذكر في سياق تكون فيه مذكورة مرتين معبراً بالاسم الدال على عظمها ، أو أنه خصها لأنه خص العرب بها دون الأمم الماضية ، فقال عاطفاً على قوله ﴿ جعلنا منسكاً ﴾ أو يكون التقدير والله أعلم : فأشركناكم مع الأمم الماضية في البقر والغنم ﴿ والبدن ﴾ أي الإبل أي المعروفة بعظم الأبدان - ﴿ جعلناها ﴾ أي بعظمتنا ، وزاد في التذكير بالعظمة بذكر الاسم العلم فقال : ﴿ لكم من شعائر الله ﴾ أي أعلام دين الملك الأعظم ومناسكه التي شرعها لكم وشرع فيها الإشعار ، وهو أن يطعن بحديدة في سنامها ، تمييزاً لما يكون منها هدياً عن غيره .

(5/524)

ولما نبه على ما فيها من النفع الديني ، نبه على ما هو أعم منه فقال : ﴿ لكم فيها خير ﴾ بالتسخير الذي هو من منافع الدنيا ، والتقريب الذي هو من منافع الآخرة ؛ روى الترميذي وحسنه وابن ماجة عن عائشة ـ رضى الله عنهم ـ ا أن النبي صلى الله علية وسلم قال : " ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من هراقة الدم ، وإنه ليؤتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها ، وأن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض فطيبوا بها نفساً " والدارقطني في السنن عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : " قال رسول الله ـ صلى الله

عليه وسلم ـ : " ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد "

ولما ذكر ما فيها ، سبب عنه الشكر فقال : ﴿ فاذكروا اسم الله ﴾ أي الذي لا سمي له ﴿ عليها ﴾ أي على ذبحها بالتكبير ، حال كونها ﴿ صواف ﴾ قياماً معقلة الأيدي اليسرى ، فلولا تعظيمه بامتثال شرائعه ، ما شرع لكم ذبحها وسلطكم عليها مع أنها أعظم منكم جرماً وأقوى ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ أي سقطت سقوطاً بردت به بزوال أرواحها فلا حركة لها أصلاً ، قال ابن كثير وقد جاء في حديث مرفوع " ولا تعجلوا النفس أن تزهق " وقد وراه الثوري في جامعه عن أيوب عن يحيى بن أبي كثير عن فرافصة الحنفي عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهم ـ أنه قال ذلك .

(6/524)

ولما كان ربما ظن أنه يحرم الأكل ممنها للأمر بتقريبها لله تعالى ، قال نافياً لذلك : ﴿ فكلوا منها ﴾ إذا كانت تطوعاً إن شئتم الأكل ، فإن ذلك لا يخرجها عن كونها قرباناً ﴿ وأطعموا القانع ﴾ أي المتعرض للسؤال بخضوع وانكسار ﴿ والمعتر ﴾ أي السائل ، وقيل : بالعكس ، وهو قول الشافعي رحمه الله ، قال في كتاب اختلاف الحديث : والقانع هو السائل ، والمعتر هو الزائر والمار ، قال الرازي في اللوامع : وأصله في اللغة أن القاف والنون والعين تدل

على الإقبال على الشيء ، ثم تختلف معانيه مع اتفاق القياس ، فالقانع : السائل ، لإقباله على من يساله ، والقانع : الراضي الذي لا يسأل ، كأنه مقبل على الشيء الذي هو راض به .

ولما كان تسخيرها لمثل هذا القتل على هذه الكيفية مع قوتها وكبرها أمراً باهراً للعقل عند التأمل ، نبه عليه بالتحريك للسؤال عما هو أعظم منه فقال : ﴿كذلك﴾ أي مثل هذا التسخير العظيم المقدار ﴿سخرناها﴾ بعظمتنا التي لولاها ما كان ذلك ﴿لكم﴾ وذللناها ليلاً ونهاراً مع عظمها وقوتها ، ولو شئنا جعلناها وحشية ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي لتتأملوا ذلك فتعرفوا أنه ما قادها لكم إلا الله فيكون حالكم حال من يرجى شكره ، فتوقعوا الشكر بأن لا تحرموا منها إلا ما حرم ، ولا تحلوا إلا ما أحل ، وتشهدوا منها ما حث على إهدائه ، وتتصرفوا فيها بحسب ما أمركم .

ولما حث على التقرب بها مذكوراً اسمه عليها ، وكان من مكارم الأخلاق ، وكان أكثرهم يفعله ، وكانوا ينضحون البيت ونحوه بدماء قرابينهم ، ويشرحون اللحم ، ويضعونه حوله ، زاعمين أن ذلك قربة ، وقد كان بعض ذلك شرعاً قديماً ، نبه سبحانه على نسخ ذلك بأن نبه على أن المقصود منه روحه لا صورته فقال : ﴿لن ينال﴾ أي يصيب ويبلغ ويدرك .

ولما كان السياق للحث على التقريب له سبحانه ، كان تقديم اسمه على الفاعل أنسب للإسراع بنفي ما قد يتوهم من لحاق نفع أو ضر ، فقال معبراً بالاسم العلم الذي حمى عن الشركة بكل اعتبار : ﴿ الله ﴾ أي رضا الملك الذي له صفات الكمال فلا يلحقه نفع ولا ضر ﴿ لحومها ﴾ المأكوله ﴿ ولا دماؤها ﴾ المهراقة ﴿ ولكن يناله التقوى ﴾ أي عمل القلب وهي الصفة المقصود بها أن تقي صاحبها سخط الله ، وهي التي استولت على قلبه حتى حملته على امتثال اموامر التي هي نهايات لذلك ، الكائنة ﴿ منكم ﴾ الحاملة على التقرب التي بها يكون له روح القبول ، المحصلة للمأمول ؛ قال الرازي في اللوامع : وهذا دليل على أن النية الخالصة خير من الأعمال الموظفة – انتهى .

فإذا نالته سبحانه النية قبل العمل فتلقى اللقمة " فرباها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل جبل " " ووقع الدم منه بمكان " فالنفي لصورة لا روح لها والإثبات لذات الروح ، فقد تفيد النية من غير عمل كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزوة تبوك ما معناه .

" إن بالمدينة رجالاً ما نزلنا منزلاً ولا قطعنا وادياً إلا كانوا فيه حبسهم العذر " ولا يفيد العمل بغير نية ، والنية هي التي تفيد الجزاء سرمداً والله الموفق ؛ ثم كرر التنبيه على عظيم تسخيرها منبهاً على ما أوجب عليهم به فقال : ﴿ كذلك ﴾ أي التسخير العظيم ﴿ سخرها ﴾ أي الله الجامع لصفات الكمال ﴿ لكم ﴾ بعظمته وغناه عنكم ﴿ لتكبروا

﴾ .

ولما ذكر التكبير ، صوره بالاسم الأعظم فقال : ﴿ الله ﴾ وضمن التكبير فعل الشكر ، فكان التقدير : شاكرين له ﴿ على ما هداكم ﴾ أي على هدايتكم له والأمور العظيمة التي هداكم إليها .

(8/524)

ولما كان الدين لا يقوم إلا بالنذارة والبشارة ، وكان السياق لأجل ما تقدم من شعائر الحج ، ومعالم العج والثج - بالبشارة أليق ، ذكرها مشيراً إلى النذارة بواو العطف ليؤذن أن التقدير : فأنذر أيها الداعي المسيئين : ﴿ وبشر المحسنين ﴾ أي الذين أوجدوا الإحسان لأفعالهم صورة ومعنى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 153.156 ﴾

(9/524)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ والبدن ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

البدن جمع بدنة كخشب وخشبة ، سميت بذلك إذا أهديت للحرم لعظم بدنها وهي الإبل خاصة ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألحق البقر بالإبل حين قال : " البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة " ولأنه قال : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ وهذا يختص بالإبل فإنها تنحر قائمة دون البقر ، وقال قوم البدن الإبل والبقر التي يتقرب بها إلى الله تعالى في الحج والعمرة ، لأنه إنما سمى بذلك لعظم البدن فالأولى دخولها فيه ، أما الشاة فلا تدخل وإن كانت تجوز في النسك لأنها صغيرة الجسم فلا تسمى بدنة .

المسألة الثانية :

قرأ الحسن والبدن بضمتين كثمر في جمع ثمرة ، وابن أبي إسحق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف ، وقرىء بالنصب والرفع كقوله : ﴿ والقمر قدرناه مَنَازِلَ ﴾ [يس : 39] والله أعلم .

المسألة الثالثة :

إذا قال لله عليَّ بدنة ، هل يجوز له نحرها في غير مكة ؟ قال أبو حنيفة ومحمد رحمهما الله يجوز ، وقال أبو يوسف رحمه الله لا يجوز إلا بمكة واتفقوا فيمن نذر هدياً أن عليه ذبحه

بمكة ، ولو قال : لله عليَّ جزور ، أنه يذبحه حيث شاء ، وقال أبو حنيفة رحمه الله البدنة بمنزلة الجزور فوجب أن يجوز له نحرها حيث يشاء بخلاف الهدي فإنه تعالى قال : ﴿ هَدْياً بالغ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] فجعل بلوغ الكعبة من صفة الهدي ، واحتج أبو يوسف رحمه الله بقوله تعالى : ﴿ والبدن جعلناها لَكُمْ مّن شعائر الله ﴾ فكان اسم البدنة يفيد كونها قربة فكان كاسم الهدي ، أجاب أبو حنيفة رحمه الله بأنه ليس كل ما كان ذبحه قربة اختص بالحرم فإن الأضحية قربة وهي جائزة في سائر الأماكن .

(10/524)

أما قوله تعالى : ﴿ جعلناها لَكُمْ ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما خلق البدن وأوجب أن تهدى في الحج جاز أن يقول ﴿ جعلناها لَكُمْ مّن شعائر الله ﴾ أما قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ فالكلام فيه ما تقدم في قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ [الحج : 33] وإذا كان قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ كالترغيب فالأولى أن يراد به الثواب في الآخرة وما أخلق العاقل بالحرص على شيء شهد الله تعالى بأن فيه خيراً وبأن فيه منافع ، أما قوله : ﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا ﴾ ففيه حذف أي اذكروا اسم الله على نحرها ، قال المفسرون هو أن يقال عند النحر أو الذبح بسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك ، أما قوله : ﴿ صَوَآفَّ ﴾ ، فالمعنى

قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وقرىء صوافن من صفون الفرس ، وهو أن تقوم على ثلاث وتنصب الرابعة على طرف سنبكه لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث ، وقرىء صوافي أي خوالص لوجه الله تعالى لا تشركوا بالله في التسمية على نحرها أحداً كما كان يفعله المشركون ، وعن عمرو ابن عبيد صوافياً بالتنوين عوضاً عن حرف الإطلاق عند الوقف ، وعن بعضهم صوافي نحو قول العرب اعط القوس باريها ولا يبعد أن تكون الحكمة في إصفافها ظهور كثرتها للناظرين فتقوى نفوس المحتاجين ويكون التقرب بنحرها عند ذلك أعظم أجراً وأقرب إلى ظهور التكبير وإعلاء اسم الله وشعائر دينه ، وأما قوله : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ فاعلم أن وجوب الجنوب وقوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقط ، ووجبت الشمس وجبة إذا غربت ، والمعنى إذا سقطت على الأرض وذلك عند خروج الروح منها ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ وقد ذكرنا اختلاف العلماء فيما يجوز أكله منها ﴿ وَأَطْعِمُواْ القانع والمعتر ﴾ القانع السائل يقال قنع يقنع قنوعاً إذا سأل قال أبو عبيد هو الرجل يكون مع القوم يطلب فضلهم ويسأل معروفهم ونحوه ، قال الفراء والمعنى الثاني القانع هو الذي لا يسأل من القناعة يقال قنع يقنع

(11/524)

قناعة إذا رضي بما قسم له وترك السؤال ، أما المعتر فقيل إنه المتعرض بغير سؤال ، وقيل إنه المتعرض بالسؤال قال الأزهري قال ابن الأعرابي يقال عروت فلاناً وأعررته وعروته واعتريته إذا أتيته تطلب معروفه ونحوه ، قال أبو عبيد والأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح ، والمعتر هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال فيفعل ما يدل على أنه لا يقنع بما يدفع إليه أبداً وقرأ الحسن والمعتري وقرأ أبو رجاء القنع وهو الراضي لا غير يقال قنع فهو قنع وقانع .

أما قوله : ﴿ كذلك سخرناها لَكُمْ ﴾ فالمعنى أنها أجسم وأعظم وأقوى من السباع وغيرها مما يمتنع علينا التمكن منه ، فالله تعالى جعل الإبل والبقر بالصفة التي يمكننا تصريفها على ما نريد ، وذلك نعمة عظيمة من الله تعالى في الدين والدنيا ، ثم لما بين تعالى هذه النعمة قال بعده ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ والمراد لكي تشكروا .

قالت المعتزلة : هذا يدل على أنه سبحانه أراد من جميعهم أن يشكروا فدل هذا على أنه يريد كل ما أمر به ممن أطاع وعصى ، لا كما يقوله أهل السنة من أنه تعالى لم يرد ذلك إلا من المعلوم أن يطيع ، والكلام عليه قد تقدم غير مرة .

أما قوله تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

لما كانت عادة الجاهلية على ما روي في القربان أنهم يلوثون بدمائها ولحومها الوثن وحيطان

الكعبة بين تعالى ما هو القصد من النحر فقال : ﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ ﴾ فبين أن الذي يصل إليه تعالى ويرتفع إليه من صنع المهدي من قوله ونحره وما شاكله من فرائضه هو تقوى الله دون نفس اللحم والدم ، ومعلوم أن شيئاً من الأشياء لا يوصف بأنه يناله سبحانه فالمراد وصول ذلك إلى حيث يكتب يدل عليه قوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ [فاطر : 10] .

المسألة الثانية :

(12/524)

قالت المعتزلة دلت هذه الآية على أمور : أحدها : أن الذي ينتفع به المرء فعله دون الجسم الذي ينتفع بنحره وثانيها : أنه سبحانه غني عن كل ذلك ، وإنما المراد أن يجتهد العبد في امتثال أوامره وثالثها : أنه لما لم ينتفع بالأجسام التي هي اللحوم والدماء وانتفع بتقواه وجب أن تكون تقواه فعلاً وإلا لكانت تقواه بمنزلة اللحوم ورابعها : أنه لما شرط القبول بالتقوى وصاحب الكبيرة غير متق فوجب أن لا يكون عمله مقبولاً وأنه لا ثواب له والجواب : أما الأولان فحقان ، وأما الثالث فمعارض بالداعي والعلم ، وأما الرابع فصاحب الكبيرة وإن لم يكن متقياً مطلقاً ولكنه متق فيما أتى به من الطاعة على سبيل الإخلاص فوجب أن

تكون طاعته مقبولة وعند هذا تنقلب الآية حجة عليهم .

المسألة الثالثة :

كلهم قرأوا ﴿ يَنَالَ اللَّهَ ﴾ ويناله بالياء إلا يعقوب فإنه قرأ بالتاء في الحرفين فمن أنث فقد رده إلى اللفظ ومن ذكر فللحائل بين الاسم والفعل .

ثم قال : ﴿ كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ والمراد أنه إنما سخرها كذلك لتكبروا الله وهو التعظيم ، بما نفعله عند النحر وقبله وبعده على ما هدانا ودلنا عليه وبينه لنا ، ثم قال بعده على وجه الوعد لمن امتثل أمره ﴿ وَبَشِّرِ المحسنين ﴾ كما قال من قبل ﴿ وَبَشِّرِ المخبتين ﴾ [الحج : 34] والمحسن هو الذي يفعل الحسن من الأعمال ويتمسك به فيصير محسناً إلى نفسه بتوفير الثواب عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 31.33 ﴾

(13/524)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾

قِيلَ : إنَّ الْبُدْنَ الْإِبِلُ الْمُبَدَّنَةُ بِالسَّمْنِ ، يُقَالُ بَدَّنْتَ النَّاقَةَ إذَا سَمَّنْتَهَا ، وَيُقَالُ بَدُنَ الرَّجُلُ إذَا سَمِنَ .

وَإِنَّمَا قِيلَ لَهَا بَدَنَةٌ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ ، ثُمَّ سُمِّيت الْإِبِلُ بُدْنًا مَهْزُولَةً كَانَتْ أَوْ سَمِينَةً ، فَالْبَدَنَةُ اسْمٌ يَخْتَصُّ بِالْبَعِيرِ فِي اللُّغَةِ ، إلَّا أَنَّ الْبَقَرَةَ لَمَّا صَارَتْ فِي حُكْمِ الْبَدَنَةِ قَامَتْ مَقَامَهَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ الْبَدَنَةَ عَنْ سَبْعَةٍ وَالْبَقَرَةَ عَنْ سَبْعَةٍ فَصَارَ الْبَقَرُ فِي حُكْمِ الْبُدْنِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ تَقْلِيدُ الْبَقَرَةِ كَتَقْلِيدِ الْبَدَنَةِ فِي بَابِ وُقُوعِ الْإِحْرَامِ بِهَا لِسَائِقِهَا وَلَا يُقَلَّدُ غَيْرُهُمَا ، فَهَذَانِ الْمَعْنَيَانِ اللَّذَانِ يَخْتَصُّ بِهِمَا الْبُدْنُ دُونَ سَائِرِ الْهَدَايَا ، وَرُوِيَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : " الْبَقَرَةُ مِنْ الْبُدْنِ " .

وَاخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ قَالَ " لِلَّهِ عَلَيَّ بَدَنَةٌ " هَلْ يَجُوزُ لَهُ نَحْرُهَا بِغَيْرِ مَكَّةَ ؟ فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ : " يَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ " وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ : " لَا يَجُوزُ لَهُ نَحْرُهُ إلَّا بِمَكَّةَ " .

وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِيمَنْ نَذَرَ هَدْيًا أَنَّ عَلَيْهِ ذَبْحَهُ بِمَكَّةَ وَأَنَّ مَنْ قَالَ : " لِلَّهِ عَلَيَّ جَزُورٌ " أَنَّهُ يَذْبَحُهُ حَيْثُ شَاءَ .

(14/524)

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ : " مَنْ نَذَرَ جَزُورًا نَحَرَهَا حَيْثُ شَاءَ ، وَإِذَا نَذَرَ بَدَنَةً نَحَرَهَا بِمَكَّةَ " ، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ وَعَطَاءٍ ، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ وَسَالِمٍ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ .

وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ أَيْضًا وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ قَالَا : " إذَا جَعَلَ عَلَى نَفْسِهِ هَدْيًا فَبِمَكَّةَ وَإِذَا قَالَ بَدَنَةٌ فَحَيْثُ نَوَى " .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " لَيْسَتْ الْبُدْنُ إلَّا بِمَكَّةَ " .

وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ إلَى أَنَّ الْبَدَنَةَ بِمَنْزِلَةِ الْجَزُورِ وَلَا يَقْتَضِي إهْدَاءَهَا إلَى مَوْضِعٍ فَكَانَ بِمَنْزِلَةِ نَاذِرِ الْجَزُورِ وَالشَّاةِ وَنَحْوِهَا ، وَأَمَّا الْهَدْيُ فَإِنَّهُ يَقْتَضِي إهْدَاءَهُ إلَى مَوْضِعٍ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ فَجَعَلَ بُلُوغَ الْكَعْبَةِ مِنْ صِفَةِ الْهَدْيِ .

وَيُحْتَجُّ لِأَبِي يُوسُفَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ فَكَانَ اسْمُ الْبَدَنَةِ مُفِيدًا لِكَوْنِهَا قُرْبَةً كَالْهَدْيِ ؛ إذْ كَانَ اسْمُ الْهَدْيِ يَقْتَضِي كَوْنَهُ قُرْبَةً مَجْعُولًا لِلَّهِ ، فَلَمَّا لَمْ يَجُزْ الْهَدْيُ إلَّا بِمَكَّةَ كَانَ كَذَلِكَ حُكْمُ الْبَدَنَةِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذَا لَا يَلْزَمُ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَا كَانَ ذَبْحُهُ قُرْبَةً فَهُوَ مُخْتَصٌّ بِالْحَرَمِ ؛ لِأَنَّ الْأُضْحِيَّةَ قُرْبَةٌ ، وَهِيَ جَائِزَةٌ فِي سَائِرِ الْأَمَاكِنِ ، فَوَصْفُهُ لِلْبُدْنِ بِأَنَّهَا مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَا يُوجِبُ تَخْصِيصَهَا بِالْحَرَمِ .

(15/524)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ رَوَى يُونُسُ عَنْ زِيَادٍ قَالَ : رَأَيْت ابْنَ عُمَرَ أَتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَنَحَرَهَا وَهِيَ بَارِكَةٌ ، فَقَالَ : " انْحَرْهَا قِيَامًا مُقَيَّدَةً سُنَّةَ أَبِي الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

وَرَوَى أَيْمَنُ بْنُ نَابِلٍ عَنْ طَاوُسٍ قَالَ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ " قِيَامًا " .

وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : مَنْ قَرَأَ : " صَوَافَّ " فَهِيَ قَائِمَةٌ مَضْمُومَةٌ يَدَاهَا ، وَمَنْ قَرَأَ : " صَوَافِنَ " قِيَامٌ مَعْقُولَةٌ .

وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَرَأَهَا " صَوَافِنَ " .

قَالَ : " مَعْقُولَةٌ ، يَقُولُ : بِسْمِ اللَّهِ وَاَللَّهُ أَكْبَرُ " .

وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي الضُّحَى قَالَ : سَمِعْت ابْنَ عَبَّاسٍ وَسُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ صَوَافَّ قَالَ : " قِيَامًا مَعْقُولَةً " .

وَرَوَى جُوَيْبِرٌ عَنْ الضَّحَّاكِ قَالَ : كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَقْرَؤُهَا : " صَوَافِنَ " وَصَوَافِنَ أَنْ يُعْقَلَ إحْدَى يَدَيْهَا فَتَقُومَ عَلَى ثَلَاثٍ .

وَرَوَى قَتَادَةُ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَرَأَهَا : " صَوَافِي " قَالَ : " خَالِصَةٌ مِنْ الشِّرْكِ " .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ وَعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ : " أَنَّهَا تُنْحَرُ مُسْتَقْبِلَةً الْقِبْلَةَ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : خَلَصَتْ قِرَاءَةُ السَّلَفِ لِذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ : أَحَدُهَا : " صَوَافَّ " بِمَعْنَى

مُصْطَفَّةً قِيَامًا ، وَ " صَوَافِي " بِمَعْنَى خَالِصَةً لِلَّهِ تَعَالَى ، وَ " صَوَافِنَ " بِمَعْنَى مُعَقَّلَةً فِي قِيَامِهَا .

(16/524)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِهِمْ : " إذَا سَقَطَتْ " وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : الْوُجُوبُ هُوَ السُّقُوطُ ، وَمِنْهُ : وَجَبَتْ الشَّمْسُ إذَا سَقَطَتْ لِلْمَغِيبِ ، قَالَ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ : أَطَاعَتْ بَنُو عَوْفٍ أَمِيرًا نَهَاهُمْ عَنْ السِّلْمِ حَتَّى كَانَ أَوَّلَ وَاجِبِ يَعْنِي : أَوَّلَ مَقْتُولٍ سَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ .

وَكَذَلِكَ الْبُدْنُ إذَا

نُحِرَتْ قِيَامًا سَقَطَتْ لِجُنُوبِهَا ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ أَرَادَ بِقَوْلِهِ : " صَوَافَّ " قِيَامًا ؛ لِأَنَّهَا إذَا كَانَتْ بَارِكَةً لَا يُقَالُ إنَّهَا تَسْقُطُ إلَّا بِالْإِضَافَةِ فَيُقَالُ سَقَطَتْ لِجُنُوبِهَا ، وَإِذَا كَانَتْ قَائِمَةً ثُمَّ نُحِرَتْ فَلَا مَحَالَةَ يُطْلَقُ عَلَيْهَا اسْمُ السُّقُوطِ ، وَقَدْ يُقَالُ لِلْبَارِكَةِ إذَا مَاتَتْ فَانْقَلَبَتْ عَلَى الْجَنْبِ إنَّهَا سَقَطَتْ لِجَنْبِهَا ، فَاللَّفْظُ مُحْتَمِلٌ لِلْأَمْرَيْنِ ، إلَّا أَنَّ أَظْهَرَهُمَا أَنْ تَكُونَ قَائِمَةً فَتَسْقُطَ لِجَنْبِهَا عِنْدَ النَّحْرِ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ أُرِيدَ بِوُجُوبِهَا

لِجُنُوبِهَا مَوْتُهَا ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ سُقُوطَهَا فَحَسْبُ ، وَأَنَّهُ إنَّمَا أَرَادَ سُقُوطَهَا لِلْمَوْتِ فَجَعَلَ وُجُوبَهَا عِبَارَةً عَنْ الْمَوْتِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْأَكْلُ مِنْهَا إلَّا بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَا بَانَ مِنْ الْبَهِيمَةِ وَهِيَ حَيَّةٌ فَهُوَ مَيْتَةٌ ﴾ .

(17/524)

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ يَقْتَضِي إيجَابَ الْأَكْلِ مِنْهَا ، إلَّا أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْأَكْلَ مِنْهَا غَيْرُ وَاجِبٍ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مُسْتَحَبًّا مَنْدُوبًا إلَيْهِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ أَكَلَ مِنْ الْبُدْنِ الَّتِي سَاقَهَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ يَوْمَ الْأَضْحَى حَتَّى يُصَلِّيَ صَلَاةَ الْعِيدِ ثُمَّ يَأْكُلُ مِنْ لَحْمِ أُضْحِيَّتِهِ ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كُنْت نَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَكُلُوا وَادَّخِرُوا ﴾ .

وَرَوَى أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ أَبِي إسْحَاقَ عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ : بَعَثَ مَعِي عَبْدُ اللَّهِ بِهَدْيِهِ فَقُلْت لَهُ : مَاذَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ بِهِ ؟ قَالَ : " إذَا كَانَ يَوْمُ عَرَفَةَ فَعَرِّفْ بِهِ وَإِذَا كَانَ يَوْمُ النَّحْرِ فَانْحَرْهُ صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَ لِجَنْبِهِ فَكُلْ ثُلُثًا وَتَصَدَّقْ بِثُلُثٍ وَابْعَثْ إلَى أَهْلِ أَخِي ثُلُثًا " .

وَرَوَى نَافِعٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، كَانَ يُفْتِي فِي النُّسُكِ وَالْأُضْحِيَّةِ ثُلُثٌ لَك وَلِأَهْلِك وَثُلُثٌ فِي جِيرَانِك وَثُلُثٌ لِلْمَسَاكِينِ " .

وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ عَنْ عَطَاءٍ مِثْلَهُ ، قَالَ : " وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ الْبُدْنِ وَاجِبًا كَانَ أَوْ تَطَوُّعًا فَهُوَ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ إلَّا مَا كَانَ مِنْ جَزَاءِ صَيْدٍ أَوْ فِدْيَةٍ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ أَوْ نَذْرٍ مُسَمًّى لِلْمَسَاكِينِ " .

(18/524)

وَقَدْ رَوَى طَلْحَةُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : ﴿ أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَتَصَدَّقَ بِثُلُثِهَا وَنَأْكُلَ ثُلُثَهَا وَنُعْطِيَ الْجَازِرَ ثُلُثَهَا ﴾ ، وَالْجَازِرُ غَلَطٌ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِعَلِيٍّ : ﴿ لَا تُعْطِ الْجَازِرَ مِنْهَا شَيْئًا ﴾ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْجَازِرُ صَحِيحًا ، وَإِنَّمَا أَمَرَنَا بِإِعْطَائِهِ مِنْ غَيْرِ أُجْرَةِ الْجِزَارَةِ ، وَإِنَّمَا نَهَى أَنْ يُعْطَى الْجَازِرُ مِنْهَا مِنْ أُجْرَتِهِ .

وَلَمَّا ثَبَتَ جَوَازُ

الْأَكْلِ مِنْهَا ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى جَوَازِ إعْطَائِهِ الْأَغْنِيَاءَ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا يَجُوزُ لَهُ أَكْلُهُ يَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَ مِنْهُ الْغَنِيَّ كَسَائِرِ أَمْوَالِهِ .

وَإِنَّمَا قَدَّرُوا الثُّلُثَ لِلصَّدَقَةِ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِحْبَابِ ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا جَازَ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ بَعْضَهُ وَيَتَصَدَّقَ بِبَعْضِهِ ، وَيُهْدِيَ بَعْضَهُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ الصَّدَقَةِ كَانَ الَّذِي حَصَلَ لِلصَّدَقَةِ الثُّلُثُ ،

وَقَدْ قَدَّمْنَا قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا ﴿ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لُحُومِ الْأَضَاحِيّ : فَكُلُوا وَادَّخِرُوا ﴾ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ حَصَلَ الثُّلُثُ لِلصَّدَقَةِ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ عَطْفًا عَلَى الْبُدْنِ يَقْتَضِي عُمُومُهُ جَوَازَ الْأَكْلِ مِنْ بُدْنِ الْقِرَانِ وَالتَّمَتُّعِ لِشُمُولِ اللَّفْظِ لَهَا .

(19/524)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْقَانِعُ قَدْ يَكُونُ الرَّاضِي بِمَا رُزِقَ ، وَالْقَانِعُ السَّائِلُ ، أَخْبَرَنَا أَبُو عُمَرَ غُلَامُ ثَعْلَبٍ قَالَ : أَخْبَرَنَا ثَعْلَبٌ عَنْ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ قَالَ : الْقَنَاعَةُ الرِّضَا بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَيُقَالُ مِنْ الْقَنَاعَةِ رَجُلٌ قَانِعٌ وَقَنِعٌ " وَمِنْ الْقُنُوعِ رَجُلٌ قَانِعٌ " لَا غَيْرَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَقَالَ الشَّمَّاخُ فِي الْقُنُوعِ : لَمَالُ الْمَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِي مَفَاقِرَهُ أَعَفُّ مِنْ الْقُنُوعِ وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي الْمُرَادِ بِالْآيَةِ ، فَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ قَالُوا : " الْقَانِعُ الَّذِي لَا يَسْأَلُ وَالْمُعْتَرُّ الَّذِي يَسْأَلُ " .

وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَا : " الْقَانِعُ الَّذِي يَسْأَلُ " .

وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : " الْمُعْتَرُّ يَتَعَرَّضُ وَلَا يَسْأَلُ " .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " الْقَانِعُ جَارُكَ وَالْغَنِيُّ وَالْمُعْتَرُّ الَّذِي يَعْتَرِيكَ مِنْ النَّاسِ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : إنْ كَانَ الْقَانِعُ هُوَ الْغَنِيُّ فَقَدْ اقْتَضَتْ الْآيَةُ أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَحَبُّ الصَّدَقَةَ بِالثُّلُثِ ؛ لِأَنَّ فِيهَا الْأَمْرَ بِالْأَكْلِ وَإِعْطَاءِ الْغَنِيِّ وَإِعْطَاءِ الْفَقِيرِ الَّذِي يَسْأَلُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ قِيلَ فِي مَعْنَاهُ : لَنْ يَتَقَبَّلَ اللَّهُ اللُّحُومَ وَلَا الدِّمَاءَ وَلَكِنْ يَتَقَبَّلُ التَّقْوَى مِنْهَا .

وَقِيلَ : لَنْ يَبْلُغَ رِضَا اللَّهِ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَبْلُغُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ .

(20/524)

وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ بَيَانًا أَنَّهُمْ إنَّمَا يَسْتَحِقُّونَ الثَّوَابَ بِأَعْمَالِهِمْ ؛ إذْ كَانَتْ اللُّحُومُ وَالدِّمَاءُ فِعْلَ اللَّهِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَسْتَحِقُّوا بِهَا الثَّوَابَ وَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّونَهُ بِفِعْلِهِمْ الَّذِي هُوَ التَّقْوَى وَمَجْرَى مُوَافَقَةِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِذَبْحِهَا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ يَعْنِي : ذَلَّلَهَا لِتَصْرِيفِ الْعِبَادِ فِيمَا يُرِيدُونَ مِنْهَا خِلَافُ السِّبَاعِ الْمُمْتَنِعَةِ بِمَا أُعْطِيت مِنْ الْقُوَّةِ وَالْآلَةِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(21/524)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ .

فِيهَا ثَمَانِي عَشْرَةَ مَسْأَلَةً :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ الْبُدْنُ جَمْعُ بَدَنَةٍ ، وَهِيَ الْوَاحِدَةُ مِنْ الْإِبِلِ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ مِنْ الْبَدَانَةِ وَهِيَ السِّمَنُ ، يُقَالُ : بَدُنَ الرَّجُلُ بِضَمِّ الْعَيْنِ : إذَا سَمِنَ ، وَبَدَّنَ بِتَشْدِيدِهَا : إذَا كَبِرَ وَأَسَنَّ ، وَإِنَّمَا سَمَّاهَا بِصِفَتِهَا لِيُنَبِّهَ بِذَلِكَ عَلَى اخْتِيَارِهَا ، وَتَعْيِينِ الْأَفْضَلِ مِنْهَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ مَا اُخْتِيرَ لَهُ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ جَابِرٍ وَعَطَاءٍ أَنَّ الْبَقَرَةَ يُقَالُ لَهَا بَدَنَةٌ وَحَكَى ابْنُ شَجَرَةَ أَنَّهُ يُقَالُ فِي الْغَنَمِ ، وَهُوَ قَوْلٌ شَاذٌّ ، وَالْبُدْنُ هِيَ الْإِبِلُ .

وَالْهَدْيُ عَامٌّ فِي الْإِبِلِ ، وَالْبَقَرِ ، وَالْغَنَمِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ وَهَذَا نَصٌّ فِي أَنَّهَا بَعْضُ الشَّعَائِرِ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ يَعْنِي مَنْفَعَةَ اللِّبَاسِ وَالْمَعَاشِ وَالرُّكُوبِ وَالْأَجْرِ ، فَأَمَّا الْأَجْرُ فَهُوَ خَيْرٌ مُطْلَقًا ، وَأَمَّا غَيْرُهُ فَهُوَ خَيْرٌ إذَا قَوَّى عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ : فِيهَا ثَلَاثُ قِرَاءَاتٍ : صَوَافَّ

بِفَاءٍ مُطْلَقَةٍ ، قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ .

صَوَافِنَ بِنُونٍ ، قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ .

صَوَافِّي بِيَاءٍ مُعْجَمَةٍ بِاثْنَتَيْنِ مِنْ تَحْتِهَا ، قِرَاءَةُ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ .

(22/524)

فَأَمَّا قَوْلُ صَوَافَّ فَمِنْ صَفَّ يَصُفُّ إذَا كَانَتْ جُمْلَةً ؛ مِنْ مَقَامٍ أَوْ قُعُودٍ ، أَوْ مُشَاةٍ ، بَعْضُهَا إلَى جَانِبِ بَعْضٍ عَلَى الِاسْتِوَاءِ ، وَيَكُونُ مَعْنَاهَا هَاهُنَا صَفَّتْ قَوَائِمَهَا فِي حَالِ نَحْرِهَا ، أَوْ صَفَّتْ أَيْدِيَهَا قَالَ مُجَاهِدٌ .

وَأَمَّا صَوَافِنُ فَالصَّافِنُ هُوَ الْقَائِمُ .

وَقِيلَ : هُوَ الَّذِي يَثْنِي إحْدَى رِجْلَيْهِ .

وَأَمَّا صَوَافِّي فَهُوَ جَمْعُ صَافِيَةٍ ، وَهِيَ الَّتِي أَخْلَصَتْ لِلَّهِ نِيَّةً وَجَلَالًا ، وَإِشْعَارًا وَتَقْلِيدًا .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا إشْعَارَ ، وَهُوَ بِدْعَةٌ ؛ لِأَنَّهُ مُثْلَةٌ ؛ وَكَأَنَّهُ لَا خَبَرَ عِنْدَهُ لِلسُّنَّةِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ ، وَلَا لِلْأَحَادِيثِ الْمُتَعَاضِدَةِ ، فَهِيَ فِعْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّحَابَةِ بَعْدَهُ وَمَعَهُ وَالْخُلَفَاءُ لِلْإِشْعَارِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ يَعْنِي انْحَرُوهَا ، كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّ

ذِكْرَ اللَّهِ اسْمٌ صَارَ كِنَايَةً عَنْ النَّحْرِ وَالذَّبْحِ ، لِمَا بَيَّنَّا مِنْ أَنَّهُ شَرْطٌ فِيهِ وَأَصْلٌ مَعَهُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : فِي كَيْفِيَّةِ نَحْرِ الْهَدْيِ : وَفِيهِ أَقْوَالٌ : الْأَوَّلُ : قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ شِهَابٍ عَنْ الصَّوَافِّ ، فَقَالَ : يُقَيِّدُهَا ثُمَّ يَصُفُّهَا .

وَقَالَ لِي مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ مِثْلَهُ .

(23/524)

وَقَالَ : فَيَنْحَرُهَا قَائِمَةً ، وَلَا يَعْقِلُهَا ، إلَّا أَنْ يَضْعُفَ إنْسَانٌ فَيَتَخَوَّفَ أَنْ تَتَفَلَّتَ بَدَنَتُهُ ، فَلَا بَأْسَ بِأَنْ يَنْحَرَهَا مَعْقُولَةً ، وَإِنْ كَانَ يَقْوَى عَلَيْهَا فَلْيَنْحَرْهَا قَائِمَةً مَصْفُوفَةً يَدَاهَا بِالْقُيُودِ .

قَالَ : وَسَأَلْت مَالِكًا عَنْ الْبَدَنَةِ تُنْحَرُ وَهِيَ قَائِمَةٌ هَلْ تُعَرْقَبُ ؟ قَالَ : مَا أُحِبُّ ذَلِكَ إلَّا أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ يَضْعُفُ عَنْهَا ، فَلَا يَقْوَى عَلَيْهَا ، فَيَخَافُ أَنْ تَتَفَلَّتَ مِنْهُ ، فَلَا أَرَى بَأْسًا أَنْ يُعَرْقِبَهَا ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ لِلْعُلَمَاءِ : الْأَوَّلُ : يُقِيمُهَا .

الثَّانِي : يُقَيِّدُهَا أَوْ يَعْقِلُهَا .

الثَّالِثُ : يُعَرْقِبُهَا .

وَزَادَ مَالِكٌ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ يَخْتَلِفُ بِحَسَبِ قُوَّةِ الرَّجُلِ وَضَعْفِهِ .

وَرُوِيَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ مِثْلُهُ .

وَالْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةٌ : الْأَوَّلُ : فِي نَحْرِهَا مُقَيَّدَةً : فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ أَتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ أَنَاخَ بَدَنَتَهُ فَنَحَرَهَا قَالَ : " ابْعَثْهَا قِيَامًا مُقَيَّدَةً سُنَّةَ مُحَمَّدٍ " .

الثَّانِي : فِي نَحْرِهَا قَائِمَةً : فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحَرَ بِيَدِهِ سَبْعَ بُدْنٍ قِيَامًا ﴾ .

وَقَدْ كَانَ ابْنُ عُمَرَ يَأْخُذُ الْحَرْبَةَ بِيَدِهِ فِي عُنْفُوَانِ أَيْدِهِ فَيَنْحَرُ بِهَا فِي صَدْرِهَا وَيُخْرِجُهَا عَلَى سَنَامِهَا ، فَلَمَّا أَسَنَّ كَانَ يَنْحَرُهَا بَارِكَةً لِضَعْفِهِ ، وَيُمْسِكُ مَعَهُ رَجُلٌ الْحَرْبَةَ ، وَآخَرُ بِخِطَامِهَا .

(24/524)

وَالْعَقْلُ بَعْضُ تَقْيِيدٍ ، وَالْعَرْقَبَةُ تَعْذِيبٌ لَا أَرَاهُ إلَّا لَوْنَدَّ ، فَلَا بَأْسَ بِعَرْقَبَتِهِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ يَعْنِي سَقَطَتْ عَلَى جُنُوبِهَا ، يُرِيدُ مَيِّتَةً ، كَنَّى عَنْ الْمَوْتِ بِالسُّقُوطِ عَلَى الْجَنْبِ ، كَمَا كَنَّى عَنْ النَّحْرِ وَالذَّبْحِ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ ، وَالْكِنَايَاتُ فِي أَكْثَرِ الْمَوَاضِعِ أَبْلَغُ مِنْ التَّصْرِيحِ قَالَ الشَّاعِرُ :

لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ يُنَازِعُ شِلْوَهُ غُبْسٌ كَوَاسِبُ مَا يُمَنُّ طَعَامُهَا وَقَالَ آخَرُ : فَتَرَكْنَهُ جَزْرَ السِّبَاعِ يَنُشْنَهُ مَا بَيْنَ قُلَّةِ رَأْسِهِ وَالْمِعْصَمِ فِي مَعْنَاهُ ، وَذَلِكَ كَثِيرٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ وَلَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ الْهَدْيُ تَطَوُّعًا أَوْ وَاجِبًا ، فَأَمَّا هَدْيُ التَّطَوُّعِ فَيَأْكُلُ مِنْهُ ، وَأَمَّا الْهَدْيُ الْوَاجِبُ فَلِلْعُلَمَاءِ فِيهِ أَقْوَالٌ ، أُصُولُهَا ثَلَاثَةٌ :

الْأَوَّلُ : لَا يَأْكُلُ مِنْهُ بِحَالٍ ؛ قَالَهُ الشَّافِعِيُّ .

الثَّانِي : أَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْ هَدْيِ التَّمَتُّعِ وَالْقِرَانِ ، وَلَا يَأْكُلُ مِنْ الْوَاجِبِ بِحُكْمِ الْإِحْرَامِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْ الْوَاجِبِ كُلِّهِ إلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : جَزَاءُ الصَّيْدِ ، وَفِدْيَةُ الْأَذَى ، وَنَذْرُ الْمَسَاكِينِ .

وَتَعَلَّقَ الشَّافِعِيُّ بِأَنَّهُ وَجَبَ عَلَيْهِ إخْرَاجُهُ مِنْ مَالِهِ ، فَكَيْفَ يَأْكُلُ مِنْهُ ؟ وَتَعَلَّقَ أَبُو حَنِيفَةَ بِأَنَّ مَا وَجَبَ بِسَبَبٍ مَحْظُورٍ الْتَحَقَ بِجَزَاءِ الصَّيْدِ .

(25/524)

وَتَعَلَّقَ مَالِكٌ بِأَنَّ جَزَاءَ الصَّيْدِ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلْمَسَاكِينِ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ﴾ ، وَحُكْمُ الْبَدَلِ حُكْمُ الْمُبْدَلِ ، وَقَالَ فِي فِدْيَةِ الْأَذَى : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ .

﴿ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي فِدْيَةِ الْأَذَى : وَأَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ مُدَّيْنِ لِكُلِّ

مِسْكِينٍ ﴾ ، وَنَذْرُ الْمَسَاكِينِ مُصَرَّحٌ بِهِ ، وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْهَدَايَا فَهُوَ عَلَى أَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ .

وَهَذَا نَصٌّ فِي إبَاحَةِ الْأَكْلِ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحَرَ بُدْنَهُ ، وَأَمَرَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضْعَةٍ ، فَطُبِخَهَا وَأَكَلَ مِنْهَا ، وَشَرِبَ مِنْ مَرَقِهَا ، وَكَانَ مِنْ هَدْيِهِ وَاجِبًا ، وَهُوَ دَمُ الْقِرَانِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ فِي حَجِّهِ ﴾ .

وَإِنَّمَا أَذِنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَكْلِ لِأَجْلِ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ لَا تَرَى أَنْ تَأْكُلَ مِنْ نُسُكِهَا ، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ بِمُخَالَفَتِهِمْ ، فَلَا جَرَمَ كَذَلِكَ شُرِعَ وَبُلِّغَ ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ حِينَ أَهْدَى وَأَحْرَمَ .

وَمَا تَعَلَّقَ بِهِ أَبُو حَنِيفَةَ غَيْرُ صَحِيحٍ .

فَلَيْسَتْ الْعِلَّةُ مَا ذُكِرَ مِنْ الْحَظْرِ ، وَإِنَّمَا هُوَ دَعْوَى لَا بُرْهَانَ عَلَيْهَا .

(26/524)

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي حُكْمِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ فَكُلُوا ﴾ ، ﴿ وَأَطْعِمُوا ﴾ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُمَا وَاجِبَانِ قَالَهُ أَبُو الطَّيِّبِ بْنُ أَبِي ثَعْلَبَةَ .

الثَّانِي : أَنَّهُمَا مُسْتَحَبَّانِ قَالَهُ ابْنُ شُرَيْحٍ .

الثَّالِثُ : أَنَّ الْأَكْلَ مُسْتَحَبٌّ ، وَالْإِطْعَامَ وَاجِبٌ ؛ قَالَهُ الشَّافِعِيُّ ، وَهُوَ صَرِيحُ قَوْلِ مَالِكٍ ؛ فَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُمَا وَاجِبَانِ فَتَعَلَّقَ بِظَاهِرِ الْقَوْلِ ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ مُخَالَفَةِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَفِيهِ غَرِيبَةٌ مِنْ الْفِقْهِ لَمْ تَقَعْ لِي ، مُذْ قَرَأْت الْعِلْمَ ، لَهَا نَظِيرٌ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ : إنَّهُمَا جَمِيعًا يُتْرَكَانِ ؛ لِأَنَّهُمَا مُسْتَحَبَّانِ لَمْ يُتَصَوَّرْ شَرْعًا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ إلَّا إتْلَافُهَا ، وَذَلِكَ لَا يَجُوزُ ، فَلَا يَصِحُّ اسْتِحْبَابُهُمَا مَعًا ؛ وَإِنَّمَا يُقَالُ أَحَدُهُمَا وَاجِبٌ عَلَى الْبَدَلِ ، أَوْ يُقَالُ الْأَكْلُ مُسْتَحَبٌّ ، وَالْإِطْعَامُ وَاجِبٌ ، كَمَا قَالَ مَالِكٌ .

وَالْأَصَحُّ عِنْدِي أَنَّ الْأَكْلَ وَاجِبٌ ، وَقَدْ احْتَجَّ عُلَمَاؤُنَا بِأَمْثِلَةٍ وَرَدَتْ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ ، وَلَمْ تَكُنْ وَاجِبَةً ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ ؛ لِأَنَّهُ إذَا سَقَطَ أَمْرٌ بِدَلِيلٍ لَا يَسْقُطُ غَيْرُهُ بِغَيْرِ دَلِيلٍ .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : إذَا أَكَلَ مِنْ لَحْمِ الْهَدْيِ الَّذِي لَا يَحِلُّ أَكْلُهُ ، فَفِيهِ لِعُلَمَائِنَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : مَا وَقَعَ فِي الْمَدِينَةِ أَنَّهُ إنْ كَانَ جَهْلٌ فَلْيَسْتَغْفِرْ اللَّهَ ، وَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ .

قَالَ مَالِكٌ : وَقَدْ كَانَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُونَ : يَأْكُلُ مِنْهُ .

(27/524)

وَقَالَ فِي الْمَشْهُورِ مِنْ مَذْهَبِنَا : إنَّهُ إذَا أَكَلَ مِنْ جَزَاءِ الصَّيْدِ أَوْ فِدْيَةِ الْأَذَى بَعْدَ أَنْ بَلَغَ مَحَلَّتَهُ غَرِمَ .

وَمَاذَا يَغْرَمُ ؟ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : يَضْمَنُ الْهَدْيَ كُلَّهُ ؛ قَالَهُ ابْنُ الْمَاجِشُونِ .

الثَّانِي : لَيْسَ عَلَيْهِ إلَّا غُرْمُ قَدْرِ مَا أَكَلَ ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ ، لَا شَيْءَ غَيْرُهُ .

وَكَذَا لَوْ نَذَرَ هَدْيَ الْمَسَاكِينِ ، فَأَكَلَ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ مَحِلَّهُ لَا يَغْرَمُ إلَّا مَا أَكَلَ ، خِلَافًا لِلْمُدَوَّنَةِ ؛ لِأَنَّ الصَّحِيحَ عِنْدِي مَا ذَكَرْته لَكُمْ ، إذْ النَّحْرُ قَدْ وَقَعَ ، وَالتَّعَدِّي إنَّمَا هُوَ فِي اللَّحْمِ ، فَيَغْرَمُ بِقَدْرِ مَا تَعَدَّى فِيهِ .

وَاخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا فِيمَا يَغْرَمُ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : فَقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : إنَّهُ يَغْرَمُ قِيمَةَ اللَّحْمِ .

وَقَالَ فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ وَابْنِ حَبِيبٍ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ : إنَّهُ يَغْرَمُهُ طَعَامًا .

وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ؛ لِأَنَّ الطَّعَامَ إنَّمَا هُوَ فِي مُقَابَلَةِ الْهَدْيِ كُلِّهِ عِنْدَ تَعَذُّرِهِ عِبَادَةً ، وَلَيْسَ حُكْمُ التَّعَدِّي حُكْمَ الْعِبَادَةِ ، فَأَمَّا إذَا عَطِبَ الْوَاجِبُ كُلُّهُ قَبْلَ مَحَلِّهِ فَلْيَأْكُلْ مِنْهُ ؛ لِأَنَّ عَلَيْهِ بَدَلَهُ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : فَإِنْ كَانَ تَطَوُّعًا فَعَطِبَ قَبْلَ مَحَلِّهِ لَمْ يَأْكُلْ ؛ لِأَنَّهُ يُتَّهَمُ أَنْ يَكُونَ أَسْرَعَ بِهِ لِيَأْكُلَهُ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ سَدِّ الذَّرَائِعِ ، وَهِيَ :

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ : الْقَانِعَ : وَالْخَامِسَةَ عَشْرَةَ : الْمُعْتَرَّ : وَفِي ذَلِكَ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قَالَ ابْنُ وَهْبٍ وَابْنُ الْقَاسِمِ : الْقَانِعُ الْفَقِيرُ ، وَالْمُعْتَرُّ الزَّائِرُ .

الثَّانِي : قَالَ ابْنُ وَهْبٍ ، وَعُقْبَةُ : السَّائِلُ ، وَقَالَهُ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ .

الثَّالِثُ : الْمُعْتَرُّ الَّذِي يَعْتَرِيك ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ ، وَالْقَانِعُ الْجَالِسُ فِي بَيْتِهِ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

الرَّابِعُ : الْقَانِعُ الَّذِي يَرْضَى بِالْقَلِيلِ .

وَالْمُعْتَرُّ الَّذِي يَمُرُّ بِك وَلَا يُبَايِتُكَ ؛ قَالَهُ الْقُرْطُبِيُّ .

الْخَامِسُ : الَّذِي يَقْنَعُ هُوَ الْمُتَعَفِّفُ ، وَالْمُعْتَرُّ السَّائِلُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ : هَذِهِ الْأَقْوَالُ مُتَقَارِبَةٌ ، فَأَمَّا الْقَانِعُ فَفِعْلُهُ قَنَعَ يَقْنَعُ ، وَلَهُ فِي اللُّغَةِ مَعْنَيَانِ : أَحَدُهُمَا الَّذِي يَرْضَى بِمَا عِنْدَهُ .

وَالثَّانِي : الَّذِي يُذَلُّ ، وَكِلَاهُمَا يَنْطَلِقُ عَلَى الْفَقِيرِ ، فَإِنَّهُ ذَلِيلٌ .

فَإِنْ وَقَفَ عِنْدَ رِزْقِهِ فَهُوَ قَانِعٌ ، وَإِنْ لَمْ يَرْضَ فَهُوَ مُلْحِفٌ .

وَأَمَّا الْمُعْتَرُّ وَالْمُعْتَرِي فَهُمَا مُتَقَارِبَانِ مَعْنًى ، مَعَ افْتِرَاقِهِمَا اشْتِقَاقًا ، فَالْمُعْتَرُّ مُضَاعَفٌ ، وَالْمُعْتَرِي مُعْتَلُّ اللَّامِ ، وَمِنْ النَّادِرِ فِي الْعَرَبِيَّةِ كَوْنُهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ : وَشَيْبَةُ فِيهِمْ وَالْوَلِيدُ وَمِنْهُمْ أُمَيَّةُ مَأْوَى الْمُعْتَرِينَ وَذِي الرَّحَلِ يُرِيدُ بِالْمُعْتَرِينَ مَنْ يُقِيمُ لِلزِّيَارَةِ ، وَذُو الرَّحْلِ مَنْ يَمُرُّ بِك فَتُضَيِّفُهُ .

وَقَالَ زُهَيْرٌ : عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ وَيُعَضِّدُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ يُرِيدُ نَزَلَ بِك ؛ فَهَذَا كُلُّهُ فِي الْمُعْتَلِّ .

وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي الْمُضَاعَفِ ، فَكَقَوْلِ الشَّاعِرِ : يُعْطِي ذَخَائِرَ مَالِهِ مُعَتَّرُهُ قَبْلَ السُّؤَالِ وَقَالَ الْكُمَيْتُ : أَيَا خَيْرَ مَنْ يَأْتِهِ الطَّارِقُونَ إِمَّا عِيَادًا وَإِمَّا اعْتِرَارًا وَقَالَ آخَرُ : لَمَالُ الْمَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِي مَفَاقِرَهُ أَعَفُّ مِنْ الْقُنُوعِ قَالَ الْقَاضِي الْإِمَامُ : وَالَّذِي عِنْدِي فِيهِ أَنَّ الْمَعْنَى فِيهِمَا مُتَقَارِبٌ كَتَقَارُبِ مَعْنَى الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ .

وَحَقِيقَةُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالْأَكْلِ وَإِطْعَامِ الْفَقِيرِ .

وَالْفَقِيرُ عَلَى قِسْمَيْنِ : مُلَازِمٌ لَك ، وَمَارٌّ بِك ، فَأَذِنَ اللَّهُ فِي إطْعَامِ الْكُلِّ مِنْهُمَا مَعَ اخْتِلَافِ حَالِهِمَا ، وَمِنْ هَاهُنَا وَهِمَ بَعْضُ النَّاسِ فِيهِ ، فَقَالَ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ : إنَّ الْقَانِعَ هُوَ جَارُك الْغَنِيُّ ، وَلَيْسَ لِذَلِكَ وَجْهٌ كَمَا بَيَّنَّاهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ : قَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّ الْهَدْيَ يُقَسَّمُ أَثْلَاثًا : قِسْمٌ يَأْكُلُهُ صَاحِبُهُ ، وَقِسْمٌ

يَأْخُذُهُ الْقَانِعُ ، وَقِسْمٌ يَأْخُذُهُ الْمُعْتَرُّ ، وَإِنَّمَا يُقَسَّمُ قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ يَأْخُذُهُ الْآكِلُ ، وَقِسْمٌ يَأْخُذُهُ الْقَانِعُ وَالْمُعْتَرُّ ؛ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ : لَيْسَ عِنْدَنَا فِي الضَّحَايَا قِسْمٌ مَعْلُومٌ مَوْصُوفٌ .

(30/524)

قَالَ مَالِكٌ فِي حَدِيثِهِ : بَلَغَنِي عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ شَيْءٌ لَيْسَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ عِنْدَنَا ، وَهُوَ الَّذِي أَشَرْنَا إلَيْهِ : قِسْمَتُهَا أَثْلَاثًا .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِيُجَزَّأَ أَثْلَاثًا ؛ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ هَذَا التَّقْدِيرَ لَيْسَ بِأَصْلٍ يُرْجَعُ إلَيْهِ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ : ﴿ ضَحَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَاةٍ ثُمَّ قَالَ لِي : أَصْلِحْ لَحْمَهَا ، فَمَا زَالَ يَأْكُلُ مِنْهُ ، حَتَّى قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَلَمْ يَذْكُرْ صَدَقَةً ﴾ .

وَهَذَا نَصٌّ فِي الْمَسْأَلَةِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرْ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ ﴾ مِنْ الْأَلْفَاظِ الْمُشْكِلَةِ ؛ فَإِنَّ النَّيْلَ لَا يَتَعَلَّقُ بِالْبَارِئِ سُبْحَانَهُ ، وَلَكِنْ عَبَّرَ بِهِ تَعْبِيرًا مَجَازِيًّا عَنْ الْقَبُولِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ مَا نَالَ الْإِنْسَانَ مُوَافِقٌ أَوْ مُخَالِفٌ ؛ فَإِنْ نَالَهُ مُوَافِقٌ قَبِلَهُ ، أَوْ مُخَالِفٌ كَرِهَهُ ، وَلَا عِبْرَةَ بِالْأَفْعَالِ بَدَنِيَّةً كَانَتْ أَوْ مَالِيَّةً بِالْإِضَافَةِ إلَى اللَّهِ تَعَالَى ؛ إذْ لَا يُخْتَلَفُ فِي حَقِّهِ إلَّا بِمُقْتَضَى نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ ، وَإِنَّمَا مَرَاتِبُهَا الْإِخْلَاصُ فِيهَا وَالتَّقْوَى مِنْهَا .

(31/524)

وَلِذَلِكَ قَالَ : لَنْ يَصِلَ إلَى اللَّهِ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا ، وَإِنَّمَا يَصِلُ إلَيْهِ التَّقْوَى مِنْكُمْ ، فَيَقْبَلُهُ وَيَرْفَعُهُ إلَيْهِ وَيَسْمَعُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ امْتَنَّ عَلَيْنَا سُبْحَانَهُ بِتَذْلِيلِهَا لَنَا وَتَمْكِينِنَا مِنْ تَصْرِيفِهَا ، وَهِيَ أَعْظَمُ مِنَّا أَبْدَانًا ، وَأَقْوَى أَعْضَاءً ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّ الْأُمُورَ لَيْسَتْ عَلَى مَا تَظْهَرُ إلَى الْعَبْدِ مِنْ التَّدْبِيرِ وَإِنَّمَا هِيَ بِحَسَبِ مَا يُدَبِّرُهَا الْعَزِيزُ الْقَدِيرُ ، فَيَغْلِبُ الصَّغِيرُ الْكَبِيرَ ، لِيَعْلَمَ الْخَلْقُ أَنَّ الْغَالِبَ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اسْمَهُ عَلَيْهَا فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا فَقَالَ : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ ، وَذَكَرَهَا هُنَا

التَّكْبِيرَ ، فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَجْمَعُ بَيْنَهَا إذَا نَحَرَ هَدْيَهُ ، فَيَقُولُ : " بِسْمِ اللَّهِ ، وَاَللَّهُ أَكْبَرُ " .

وَهَذَا مِنْ فِقْهِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَقَدْ قَالَ قَوْمٌ : التَّسْمِيَةُ

عِنْدَ الذَّبْحِ وَالتَّكْبِيرُ عِنْدَ الْإِحْلَالِ بَدَلًا مِنْ التَّلْبِيَةِ عِنْدَ الْإِحْرَامِ ، وَفِعْلُ ابْنِ عُمَرَ أَفْقَهُ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(32/524)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾

في البدن ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها الإبل ، وهو قول الجمهور .

والثاني : أنها الإبل ، والبقر ، والغنم ، وهو قول جابر ، وعطاء .

والثالث : كل ذات خُفٍّ وحافر من الإبل ، والبقر ، والغنم ، وهو شاذ حكاه ابن الشجرة ، وسميت بُدْناً لأنها مبدنة في السمن ، وشعائر الله تعالى دينه في أحد الوجهين ، وفروضه في الوجه الآخر .

وتعمق بعض أصحاب الخواطر فتأول البُدْن أن تطهر بدنك من البدع ، والشعائر أن تستشعر بتقوى الله وطاعته ، وهو بعيد .

﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ فيه تأويلان

: أحدهما : أي أجر ، وهو قول السدي .

والثاني : منفعة فإن احْتِيجَ إلى ظهرها رُكِبَ ، وإن حُلِبَ لَبَنُها شُرِبَ ، وهو قول إبراهيم النخعي .

﴿ فَاذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ وهي قراءة الجمهور ، وقرأ الحسن : صوافي ، وقرأ ابن مسعود : صوافن .

فتأول صواف على قراءة الجمهور فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : مصطفة ، ذكره ابن عيسى .

والثاني : قائمة لتصفّد يديها بالقيود ، وهو قول ابن عمر .

والثالث : معقولة ، وهو قول مجاهد .

وتأويل صوافي ، وهي قراءة الحسن : أي خالصة لله تعالى ، مأخوذ من الصفوة .

وتأويل صوافن وهي قراءة ابن مسعود : أنها مصفوفة ، وهو أن تَعقِل إحدى يديها حتى تقف على ثلاث ، مأخوذ من صفن الفرس إذا ثنى إحدى يديه حتى يقف على ثلاث ، ومنه قوله تعالى : ﴿ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ وقال الشاعر :

الف الصفون مما يزال كأنه . . . مما يقوم على الثلاث كسيراً

﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ أي سقطت جنوبها على الأرض ، ومنه وجب الحائط إذا سقط ، ووجبت الشمس إذا سقطت للغروب ، وقال أوس بن حجر :

ألم تكسف الشمس ضوء النهار . . . والبدر للجبل الواجب

﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أن أكله منها واجب إذا تطوع بها ، وهو قول أبي الطيب بن سلمة .

(33/524)

والثاني : وهو قول الجمهور أنه استحباب وليس بواجب ، وإنما ورد الأمر به لأنه بعد حظر ، لأنهم كانواْ في الجاهلية يحرمون أكلها على نفوسهم .

﴿ وَأَطْعِمُواْ الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ فيهم أربعة تأويلات

: أحدها : أن القانع السائل ، والمعتر الذي يتعرض ولا يسأل ، وهذا قول الحسن ، وسعيد بن جبير ، ومنه قول الشماخ :

لمال المرء يصلحه فيغني . . . مفاقِرَه أعف من القُنُوع

أي من السؤال

. والثاني : أن القانع الذي يقنع ولا يسأل ، والمعتر الذي يسأل ، وهذا قول قتادة ، ومنه قول زهير :

على مكثريهم رزق من يعتريهم . . . وعند المقلين السماحةُ والبذلُ

والثالث : أن القانع المسكين الطوّاف ، والمعتر : الصديق الزائر ، وهذا قول زيد بن أسلم ، ومنه قول الكميت :

إما اعتياداً وإما اعتراراً . . . والرابع : أن القانع الطامع ، والمعتر الذي يعتري البُدْنَ ويتعرض للحم لأنه ليس عنده لحم ، وهذا قول عكرمة ، ومنه قول الشاعر :

على الطارق المعتريا أم مالك . . . إذا ما اعتراني بين قدري وصخرتي

قوله عز وجل : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : لن يقبل الله الدماء وإنما يقبل التقوى ، وهذا قول علي بن عيسى .

والثاني : معناه لن يصعد إلى الله لحومها ولا دماؤها ، لأنهم كانوا في الجاهلية إذا ذبحوا بُدنهم استقبلوا الكعبة بدمائها فيضجعونها نحو البيت ، فأراد المسلمون فعل ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُم ﴾ أي يصعد إليه التقوى والعمل الصالح ، وهذا قول ابن عباس .

﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ أي ذللها لكم يعني الأنعام

. ﴿ لِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : يعني التسمية عند الذبح .

والثاني : لتكبروا عند الإِحلال بدلاً من التلبية في الإِحرام .

﴿ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ أي ما أرشدكم إليه من حجكم .

﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : بالقبول .

والثاني : بالجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(34/524)

وقال ابن عطية :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾

البدن جمع بدنة وهي ما أشعر من ناقة أو بقرة ، قاله عطاء وغيره وسميت بذلك لأنها تبدن أي تسمن ، وقيل بل هذا الاسم خاص بالإبل ، وقالت فرقة ﴿ البدن ﴾ جمع بَدَن بفتح الدال والباء ثم اختلفت ، فقال بعضها ﴿ البدن ﴾ مفرد اسم جنس يراد به العظيم السمين من الإبل والبقر ، ويقال للسمين من الرجال بدن ، وقال بعضها ﴿ البدن ﴾ جمع

بدنة كمثرة وثمر ، وقرأ الجمهور " والبدْن " ساكنة الدال ، وقرأ أبو جعفر وشيبة والحسن وابن أبي إسحاق " البدُن " بضم الدال ، فيحتمل أن يكون جمع بدنة كثمر ، وعدد الله تعالى في هذه الآية نعمته على الناس في هذه ﴿ البدن ﴾ ، وقد تقدم القول في " الشعائر " ، و" الخير " قيل فيه ما قيل في المنافع التي تقدم ذكرها والصواب عمومه في خير الدنيا والآخرة ، وقوله ، ﴿ عليها ﴾ يريد عند نحرها ، وقرأ جمهور الناس " صوافَّ " بفتح الفاء وشدها جمع صافَّة أي مصطفة في قيامها ، وقرأ الحسن ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعري وشقيق وسليمان التيمي والأعرج " صوافي " جمع صافية أي خالصة لوجه الله تعالى لا شركة فيها لشيء كما كانت الجاهلية تشرك ، وقرأ الحسن أيضاً " صوافٍ " بكسر الفاء وتنوينها مخففة وهي بمعنى التي قبلها لكن حذفت الياء تخفيفاً على غير قياس وفي هذا نظر ، وقرأ ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وأبو جعفر محمد بن علي " صوافن " بالنون جمع صافنة وهي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب ، والصافن من الخيل الرافع لفراهيته إحدى يديه وقيل إحدى رجليه ومنه قوله تعالى : ﴿ الصافنات الجياد ﴾ [ص : 31] .

وقال عمرو بن كلثوم :

تركنا الخيل عاكفة عليه . . . مقلدة أعنتها صفونا

و ﴿ وجبت ﴾ ، معناه سقطت بعد نحرها ، ومنه وجبت الشمس ، ومنه قول أوس بن حجر : ألم تكسف الشمس والبدر والكواكب للجبل الواجب ، وقوله ﴿ كلوا ﴾ ندب ، وكل العلماء يستحب أن يأكل الإنسان من هديه وفيه أجر وامتثال إذ كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هديهم ، وقال مجاهد وإبراهيم والطبري : هي إباحة ، و ﴿ القانع ﴾ ، السائل يقال قنَع الرجل يقنع قنوعاً إذا سأل ، بفتح النون في الماضي ، وقنِع بكسر النون يقنع قناعة فهو قنع إذا تعفف واستغنى ، قاله الخليل ومن الأول قول الشماخ :

لَمَالُ المرء يصلحه فيغني . . . مفاقره أعف من القنوع

فمحرور القول من أهل العلم قالوا ﴿ القانع ﴾ السائل ﴿ والمعتر ﴾ المتعرض من غير سؤال ، قال محمد بن كعب القرظي ومجاهد وإبراهيم والكلبي والحسن بن أبي الحسن ، وعكست فرقة هذا القول ، حكى الطبري عن ابن عباس أنه قال ﴿ القانع ﴾ المستغني بما أعطيه ﴿ والمعتر ﴾ المتعرض ، وحكي عنه أنه قال ﴿ القانع ﴾ المتعفف ﴿ والمعتر ﴾ السائل ، وحكي عن مجاهد أنه قال ﴿ القانع ﴾ الجار وإن كان غنياً ، وقرأ أبو رجاء " القنع " فعلى هذا التأويل معنى الآية أطعموا المتعفف الذي لا يأتي متعرضاً والمتعرض ، وذهب أبو الفتح بن جني إلى أنه أراد القانع فحذف الألف تخفيفاً وهذا بعيد لأن توجيهه على ما ذكرته آنفاً أحسن وإنما يلجأ إلى هذا إذا لم توجد مندوحة ، وقرأ أبو رجاء وعمرو

بن عبيد " المعتري " والمعنى واحد ، وروي عن أبي رجاء " والمعتر " بتخفيف الراء وقال الشاعر : [الطويل]

لعمرك ما المعتر يغشى بلادنا . . . لنمنعه بالضائع المتهضم

(36/524)

وذهب ابن مسعود إلى أن الهدي أثلاث ، وقال جعفر بن محمد عن أبيه : أطعم ﴿ القانع والمعتر ﴾ ثلثاً ، والبائس الفقير ثلثاً ، وأهلي ثلثاً ، وقال ابن المسيب : ليس لصاحب الهدي منه إلا الربع وهذا كله على جهة الاستحسان لا على الفرض ، ثم قال ﴿ كذلك ﴾ أي وكما أمرناكم فيها بهذا كله ﴿ سخرناها لكم ﴾ ، ﴿ ولعلكم ﴾ ، ترجّ في حقنا وبالإضافة إلى نظرنا ، وقوله ، ﴿ ينال ﴾ عبارة مبالغة وتوكيد وهي بمعنى لن يرتفع عنده ويتحصل سبب ثواب ، وقال ابن عباس إن أهل الجاهلية كانوا يضرجون البيت بالدماء فأراد المؤمنون فعل ذلك فنهى الله عن ذلك ونزلت هذه الآية ، والمعنى ولكن ينال الرفعة عنده والتحصيل حسنة لديه ، ﴿ التقوى ﴾ ، أي الإخلاص والطاعات ، وقرأ مالك بن دينار والأعرج وابن يعمر والزهري " تنال وتناله " ، بتاء فيهما ، والتسمية والتكبير على الهدي والأضحية هو أن يقول الذابح باسم الله والله أكبر ، وروي أن قوله ﴿ وبشر

المحسنين ﴾ ، نزلت في الخلفاء الأربعة حسبما تقدم في التي فأما ظاهر اللفظ فيقتضي العموم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(37/524)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والبُدْنَ ﴾ وقرأ الحسن ، وابن يعمر برفع الدال .

قال الفراء : يقال : بُدْن وبُدُن ، والتخفيف أجود وأكثر ، لأن كل جمع كان واحده على "فَعَلة" ثم ضُمَّ أول جمعه ، خُفِّف ، مثل أَكَمَة وأُكْم ، وأَجَمَة وأُجْم ، وخَشَبَة وخشب .

وقال الزجاج : "البُدْنَ" منصوبة بفعل مُضمر يفسره الذي ظهر ، والمعنى : وجعلنا البُدْنَ ؛ وإن شئتَ رفعتها على الإستئناف ، والنصب أحسن ، ويقال : بُدْن وبُدُن وبَدَنَة ، مثل قولك : ثُمْر وثُمُر وثَمرة ؛ وإنما سمّيت بَدَنَة ، لأنها تَبْدُن ، أي : تسمن .

وللمفسرين في البُدْن قولان .

أحدهما : أنها الإبل والبقر ، قاله عطاء .

والثاني : الإبل خاصة ، حكاه الزجاج ، وقال : الأول قول أكثر فقهاء الأمصار .

قال القاضي أبو يعلى : البدنة : اسم يختص الإبل في اللغة ، والبقرة تقوم مقامها في الحكم ،

لأن النبي صلى الله عليه وسلم جعل البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة .

قوله تعالى : ﴿ جعلناها لكم من شعائر الله ﴾ أي : جعلنا لكم فيها عبادة لله ، من سَوْقها إلى البيت ، وتقليدها ، وإشعارها ، ونحرها ، والإطعام منها ، ﴿ لكم فيها خير ﴾ وهو النفع في الدنيا والأجر في الآخرة ، ﴿ فاذكروا اسم الله عليها ﴾ أي : على نحرها ، ﴿ صَوَافّ ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وقتادة : "صَوافن" بالنون .

وقرأ الحسن ، وأبو مجلز ، وأبو العالية ، والضحاك ، وابن يعمر : "صَوافي" بالياء .

قال الزجاج : "صَوافَّ" منصوبة على الحال ، ولكنها لا تنوَّن لأنها لا تنصرف ؛ أي : قد صفَّت قوائمها ، والمعنى : اذكروا اسم الله عليها في حال نحرها ، والبعير يُنحَر قائماً ، وهذه الآية تدل على ذلك .

ومن قرأ : "صوافن" فالصافن : التي تقوم على ثلاث ، والبعير إذا أرادوا نحره ، تُعقل إحدى يديه ، فهو الصافن ، والجميع : صوافن .

(38/524)

هذا ومن قرأ : "صوافيَ" بالياء وبالفتح بغير تنوين ، فتفسيره : خوالص ، أي : خالصة لله لا تشركوا به في التسمية على نحرها أحداً .

﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ أي : إذا سقطت إلى الأرض ، يقال : وَجَبَ الحائط وَجْبَة ، إذا سقط .

ووَجَبَ القلب وَجيباً : إذا تحرك من فزع .

واعلم أن نحرها قياماً سُنَّة ، والمراد بوقوعها على جُنوبها : موتها ، والأمر بالأكل منها أمر إباحة ، وهذا في الأضاحي .

قوله تعالى : ﴿ وأَطْعِموا القانعَ والمُعْتَرَّ ﴾ وقرأ الحسن : "والمُعْتَرِ" بكسر الراء خفيفة .

وفيهما ستة أقوال .

أحدها : أن القانع : الذي يَسأل ، والمعترّ : الذي يتعرَّض ولا يسأل ، رواه بكر بن عبد الله عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، واختاره الفراء .

والثاني : أن القانع : المتعفّف ، والمعترّ : السائل ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والنخعي ، وعن الحسن كالقولين .

والثالث : أن القانع : المستغني بما أعطيته وهو في بيته ، والمعترّ : الذي يتعرَّض لك ويُلِمُّ بك ولا يسأل ، رواه العوفي عن ابن عباس .

وقال مجاهد : القانع : جارك الذي يقنع بما أعطيته ، والمعترّ : الذي يتعرَّض ولا يسأل ، وهذا مذهب القرظي .

فعلى هذا يكون معنى القانع : أن يقنع بما أُعطي .

ومن قال : هو المتعفف ، قال : هو القانع بما عنده .

والرابع : القانع : أهل مكة ، والمعترّ : الذي يعترُّ بهم من غير أهل مكة ، رواه خصيف عن مجاهد .

والخامس : القانع : الجار وإن كان غنيّاً ، والمعترّ : الذي يعترُّ بك ، رواه ليث عن مجاهد .

والسادس : القانع : المسكين السائل ، والمعترّ : الصَّديق الزائر ، قاله زيد ابن أسلم .

قال ابن قتيبة : يقال : قَنَع يَقْنَع قُنوعاً : إذا سأل ، وقَنِع يَقْنَع قَنَاعة : إذا رضي ، ويقال في المعتر : اعترَّني واعتراني وعَرَاني .

(39/524)

وقال الزجاج : مذهب أهل اللغة أن القانع : السائل ، يقال : قَنَع يَقْنَع قُنُوعاً : إذا سأل ، فهو قانع ، قال الشماخ :

لَمَالُ المَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِي . . .

مَفَاقِرَهُ أَعَفُّ مِنَ القُنُوعِ

أي : من السؤال ؛ ويقال : قَنِعَ قَنَاعة : إذا رضي ، فهو قَنِع ، والمعترُّ والمعتري واحد .

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل ما وصفنا من نحرها قائمة ﴿ سخَّرناها لكم ﴾

نِعمة مِنّا عليكم لتتمكَّنوا من نحرها على الوجه المسنون ﴿ لعلكم تَشْكُرون ﴾ أي : لكي تَشْكُروا .

قوله تعالى : ﴿ لن ينال اللهَ لحومُها ﴾ وقرأ عاصم الجحدري ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة ، ويعقوب : "لن تنال اللهَ لحومُها" بالتاء ﴿ ولكن تنالُه التقوى ﴾ بالتاء أيضاً .

سبب نزولها أن المشركين كانوا إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء ينضحون بها نحو الكعبة ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

قال المفسرون : ومعنى الآية : لن تُرفع إلى الله لحومُها ولا دماؤها ، وإنما يُرفع إليه التقوى ؛ وهو ما أُرِيدَ به وجهُه منكم .

فمن قرأ "تناله التقوى" بالتاء ، فإنه أنث للفظ التقوى .

ومن قرأ : "يناله" بالياء ، فلأن التقوى والتُّقى واحد .

والإشارة بهذه الآية إلى أنه لا يقبل اللحوم والدّماء إذا لم تكن صادرة عن تقوى الله ، وإنما يتقبل ما يتقونه به ، وهذا تنبيه على امتناع قبول الأعمال إذا عريت عن نيَّةٍ صحيحة .

قوله تعالى : ﴿ كذلك سَخَّرها ﴾ قد سبق تفسيره [الحج : 37] ، ﴿ لتُكَبِّروا الله على ما هداكم ﴾ أي : على ما بيَّن لكم وأرشدكم إلى معالم دينه ومناسك حجّه ، وذلك أن يقول : الله أكبر على ما هدانا ، ﴿ وبَشِّر المحسنين ﴾ قال ابن عباس : يعني : الموحِّدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾

فيها عشر مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ والبدن ﴾ وقرأ ابن أبي إسحاق "والبُدُن" لغتان ، واحدتها بَدَنة .

كما يقال : ثمرة وثُمُر وثُمْر ، وخشبة وخُشُب وخُشْب .

وفي التنزيل : "وكان له ثُمُر" وقرىء "ثُمْر" لغتان .

وسميت بَدَنة لأنها تَبْدُن ، والبدانة السِّمن .

وقيل : إن هذا الاسم خاص بالإبل .

وقيل : البُدْن جمع "بَدَن" بفتح الباء والدال .

ويقال : بَدُن الرجل "بضم الدال" إذا سَمِن .

وبدّن "بتشديدها" إذا كبِر وأسنّ .

وفي الحديث : "إني قد بدّنت" أي كبِرت وأسننت .

وروي "بَدُنْت" وليس له معنى ؛ لأنه خلاف صفته صلى الله عليه وسلم ، ومعناه كثرة اللحم .

يقال : بَدُن الرجل يبدُن بُدْناً وبَدانة فهو بادن ؛ أي ضخم .

الثانية : اختلف العلماء في البُدْن هل تطلق على غير الإبل من البقر أم لا ؛ فقال ابن مسعود وعطاء والشافعيّ : لا .

وقال مالك وأبو حنيفة : نعم .

وفائدة الخلاف فيمن نذر بَدَنة فلم يجد البدنة أو لم يقدر عليها وقدر على البقرة ؛ فهل تجزيه أم لا ؛ فعلى مذهب الشافعيّ وعطاء لا تجزيه .

وعلى مذهب مالك تجزيه .

والصحيح ما ذهب إليه الشافعيّ وعطاء ؛ " لقوله عليه السلام في الحديث الصحيح في يوم الجمعة : "من راح في الساعة الأولى فكأنما قرّب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة" " الحديث .

فتفريقه عليه السلام بين البقرة والبَدَنة يدلّ على أن البقرة لا يقال عليها بدنة ؛ والله أعلم .

وأيضاً قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ يدل على ذلك ؛ فإن الوصف خاص بالإبل .

والبقر يضجع ويذبح كالغنم ؛ على ما يأتي .

ودليلنا أن البدنة مأخوذة من البدانة وهو الضخامة ، والضخامة توجد فيهما جميعاً .

وأيضاً فإن البقرة في التقرب إلى الله تعالى بإراقة الدم بمنزلة الإبل ؛ حتى تجوز البقرة في الضحايا عن سبعةٍ كالإبل .

(41/524)

وهذا حجة لأبي حنيفة حيث وافقه الشافعيّ على ذلك ، وليس ذلك في مذهبنا .

وحكى ابن شجرة أنه يقال في الغنم بدنة ، وهو قول شاذ .

والبُدْن هي الإبل التي تُهْدَى إلى الكعبة .

والهَدْي عامّ في الإبل والبقر والغنم .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ نصٌّ في أنها بعض الشعائر .

وقوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ يريد به المنافع التي تقدم ذكرها .

والصواب عمومه في خير الدنيا والآخرة .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ أي انحروها على اسم الله .

و"صوافّ" أي قد صفّت قوائمها .

والإبل تُنحر قياماً معقولة .

وأصل هذا الوصف في الخيل ؛ يقال : صَفَن الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وثَنَى سُنْبُك الرابعة ؛ والسّنبك طرف الحافر .

والبعير إذا أرادوا نحره تُعقل إحدى يديه فيقوم على ثلاث قوائم .

وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعريّ "صَوَافِيَ" أي خوالص لله عز وجل لا يشركون به في التسمية على نحرها أحداً .

وعن الحسن أيضاً "صوافٍ" بكسر الفاء وتنوينها مخفّفةً ، وهي بمعنى التي قبلها ، لكن حذفت الياء تخفيفاً على غير قياس و"صوافَّ" قراءة الجمهور بفتح الفاء وشدها ؛ من صفّ يَصُفّ .

وواحد صوافّ صافة ، وواحد صوافي صافية .

وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو جعفر محمد بن علي "صوافِن" بالنون جمع صافنة .

ولا يكون واحدها صافناً ؛ لأن فاعلاً لا يجمع على فواعل إلا في حروف مختصة لا يقاس عليها ؛ وهي فارس وفوارس ، وهالك وهوالك ، وخالف وخوالف .

والصافنة هي التي قد رفعت إحدى يديها بالعَقْل لئلا تضطرب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ الصافنات الجياد ﴾ [ص : 31] .

وقال عمرو بن كُلْثوم :

تركنا الخيلَ عاكفةً عليه . . .

مقلَّدةً أعنَّتَها صُفُونَا

ويروى :

تظل جيادُه نَوْحاً عليه . . .

مقلَّدةً أعنَّتَها صُفُونَا

وقال آخر :

أِلف الصُّفون فما يزال كأنه . . .

مما يقوم على الثلاث كسيرا

(42/524)

وقال أبو عمرو الجَرْمِيّ : الصافن عرق في مقدم الرجل ، فإذا ضرب على الفرس رفع رجله .

وقال الأعشى :

وكلّ كُمَيْت كجذع السَّحو . . .

ق يَرْنُو القِناء إذا ما صَفَنْ

الخامسة : قال ابن وهب : أخبرني ابن أبي ذئب أنه سأل ابن شهاب عن الصوافّ فقال : تقيّدها ثم تصفها .

وقال لي مالك بن أنس مثله .

وكان العلماء على استحباب ذلك ؛ إلا أبا حنيفة والثّوريّ فإنهما أجازا أن تنحر باركة وقياماً .

وشذّ عطاء فخالف واستحب نحرها باركة .

والصحيح ما عليه الجمهور ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ معناه سقطت بعد نحرها ؛ ومنه وَجَبت الشمس .

وفي صحيح مسلم عن زياد بن جُبير أن ابن عمر أتى على رجل وهو ينحر بَدَنته باركةً فقال : ابعثها قائمة مقيَّدة سنةَ نبيّكم صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو داود عن أبي الزبير عن جابر ، وأخبرني عبد الرحمن بن سابط : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه كانوا ينحرون البَدَنة معقولة اليسرى قائمةً على ما بقي من قوائمها .

السادسة : قال مالك : فإن ضَعُف إنسان أو تخوّف أن تنفلت بَدَنته فلا أرى بأساً أن ينحرها معقولة .

والاختيار أن تُنحر الإبل قائمة غير معقولة ؛ إلا أن يتعذر ذلك فتعقل ولا تُعَرْقَب إلا أن

يخاف أن يضعف عنها ولا يقوى عليها .

ونحرها باركة أفضل من أن تعرقب .

وكان ابن عمر يأخذ الحربة بيده في عنفوان أَيْده فينحرها في صدرها ويخرجها على سنامها ، فلما أسنّ كان ينحرها باركة لضعفه ، ويمسك معه الحربة رجل آخرُ ، وآخر بِخطامها .

وتضجع البقر والغنم .

السابعة : ولا يجوز النحر قبل الفجر من يوم النحر بإجماع .

وكذلك الأضحيّة لا تجوز قبل الفجر .

فإذا طلع الفجر حل النحر بمِنًى ، وليس عليهم انتظار نحر إمامهم ؛ بخلاف الأضحيّة في سائر البلاد .

والمنحر مِنًى لكل حاج ، ومكة لكل معتمِر .

ولو نحر الحاج بمكة والمعتمرُ بمنًى لم يَحْرَجْ واحد منهما ، إن شاء الله تعالى .

(43/524)

الثامنة : قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ يقال : وجبت الشمس إذا سقطت ، ووجب الحائط إذا سقط .

قال قيس بن الخَطِيم :

أطاعت بنو عوف أميراً نهاهُم . . .

عن السِّلْم حتى كان أوّل واجبِ

وقال أوْس بن حَجَر :

ألم تكسف الشمسُ والبدرُ وال . . .

كواكبُ للجبل الواجب

فقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ يريد إذا سقطت على جنوبها ميتة .

كنّى عن الموت بالسقوط على الجنب كما كنّى عن النحر والذبح بقوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا ﴾ .

والكنايات في أكثر المواضع أبلغ من التصريح .

قال الشاعر :

فتركته جَزَرَ السباعِ يَنُشْنَه . . .

ما بين قُلّة رأسه والمِعْصَمِ

وقال عنترة :

وضربت قَرْنَيْ كبشها فَتَجدّلا . . .

أي سقط مقتولاً إلى الجَدالة ، وهي الأرض ؛ ومثله كثير .

والوُجوب للجَنْب بعد النحر علامة نزف الدّم وخروج الروح منها ، وهو وقت الأكل ، أي وقت قرب الأكل ؛ لأنها إنما تبتدأ بالسلخ وقطع شيء من الذبيحة ثم يطبخ .

ولا تسلخ حتى تَبْرُد لأن ذلك من باب التعذيب ؛ ولهذا قال عمر رضي الله عنه : لا تعجلوا الأنفس أن تزهق .

التاسعة : قوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ أمر معناه الندب .

وكل العلماء يستحبّ أن يأكل الإنسان من هَدْيه ، وفيه أجر وامتثال ؛ إذ كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هَدْيهم كما تقدّم .

وقال أبو العباس بن شُرَيح : الأكل والإطعام مستحبان ، وله الاقتصار على أيهما شاء .

وقال الشافعي : الأكل مستحب والإطعام واجب ، فإن أطعم جميعها أجزاه وإن أكل جميعها لم يجزه ، وهذا فيما كان تطوّعاً ؛ فأما واجبات الدماء فلا يجوز أن يأكل منها شيئاً حسبما تقدّم بيانه .

العاشرة : قوله تعالى : ﴿ وَأَطْعِمُواْ القانع والمعتر ﴾ قال مجاهد وإبراهيم والطبريّ : قوله : "وأطعِموا" أمر إباحةٍ .

و"القانِع" السائل .

يقال : قَنَع الرجل يَقْنَع قنوعاً إذا سأل ، بفتح النون في الماضي وكسرها في المستقبل ، يقنَع قناعة فهو قَنِع ، إذا تعفف واستغنى ببلغته ولم يسأل ؛ مثل حمِد يحمَد ، قَناعة وقَنَعا وقَنَعانا ؛ قاله الخليل .

ومن الأوّل قول الشّماخ :

لَمَالُ المرء يُصلِحْه فيُغْنِي . . .

مَفاقِرَه أعفُّ من القُنُوع

وقال ابن السِّكيت : من العرب من ذكر القُنوع بمعنى القناعة ، وهي الرضا والتعفّف وترك المسألة .

وروي عن أبي رجاء أنه قرأ "وأطعِموا القَنِع" ومعنى هذا مخالف للأوّل .

يقال : قَنِع الرجل فهو قَنِع إذا رضي .

وأما المعترّ فهو الذي يُطيف بك يطلب ما عندك ، سائلاً كان أو ساكتاً .

وقال محمد بن كعب القُرَظِيّ ومجاهد وإبراهيم والكلبيّ والحسن بن أبي الحسن : المعتّر المعترض من غير سؤال .

قال زهير :

على مُكْثِرِيهم رزقُ من يعتريهمُ . . .

وعند المُقِلّين السماحةُ والبَذْلُ

وقال مالك : أحسن ما سمعت أن القانع الفقيرُ ، والمعتر الزائر .

وروي عن الحسن أنه قرأ "والمعترِيَ" ومعناه كمعنى المعتر .

يقال : اعترّه واعتراه وعرّه وعرّاه إذا تعرّض لما عنده أو طلبه ؛ ذكره النحاس .

﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37) ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا ﴾ قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يضرّجون البيت بدماء البُدْن ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فنزلت الآية .

والنَّيل لا يتعلق بالباريء تعالى ، ولكنه عبّر عنه تعبيراً مجازياً عن القبول ، المعنى : لن يصل إليه .

وقال ابن عباس : لن يصعد إليه .

ابن عيسى : لن يقبل لحومها ولا دماءها ، ولكن يصل إليه التقوى منكم ؛ أي ما أريد به وجهه فذلك الذي يقبله ويُرفع إليه ويسمعه ويُثيب عليه ؛ ومنه الحديث " إنما الأعمال بالنيات " والقراءة "لن ينال اللَّهَ" و"ينالُه" بالياء فيهما .

وعن يعقوب بالتاء فيهما ، نظراً إلى اللحوم .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ مَنّ سبحانه علينا بتذليلها وتمكيننا من تصريفها وهي أعظم مِنا أبداناً وأقوى منا أعضاء ، ذلك ليعلم العبد أن الأمور ليست على ما يظهر إلى العبد من التدبير ، وإنما هي بحسب ما يريدها العزيز القدير ، فيغلِب الصغيرُ الكبيرَ ليعلم الخلق أن الغالب هو الله الواحد القهار فوق عباده .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ لِتُكَبِّرُواْ الله على مَا هَدَاكُمْ ﴾ ذكر سبحانه ذِكر اسمِه عليها في الآية قبلها فقال عزّ من قائل : ﴿ فاذكروا اسم اللَّهِ عليها ﴾ ، وذكر هنا التكبير .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يجمع بينهما إذا نَحَر هَدْيَه فيقول : باسم الله والله أكبر ؛ وهذا من فقهه رضي الله عنه .

وفي الصحيح عن أنس قال : ضحَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكَبْشين أمْلَحَيْن أقْرَنَيْن .

قال : ورأيته يذبحهما بيده ، ورأيته واضعاً قدمه على صِفاحهما ، وسَمّى وكبّر .

وقد اختلف العلماء في هذا ؛ فقال أبو ثور : التسمية متعيّنة كالتكبير في الصلاة ؛ وكافّة العلماء على استحباب ذلك .

فلو قال ذكرا آخر فيه اسم من اسماء الله تعالى وأراد به التسمية جاز .

وكذلك لو قال : الله أكبر فقط ، أو لا إله إلا الله ؛ قاله ابن حبيب .

فلو لم يرد التسمية لم يَجْز عن التسمية ولا توّكل ؛ قاله الشافعي ومحمد بن الحسن .

وكره كافة العلماء من أصحابنا وغيرهم الصلاةَ على النبيّ صلى الله عليه وسلم عند التسمية في الذبح أو ذِكره ، وقالوا : لا يذكر هنا إلا الله وحده .

وأجاز الشافعيّ الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم عند الذبح .

(46/524)

الرابعة : ذهب الجمهور إلى أن قول المضحِّي : اللَّهُمَّ تقبل مني ؛ جائز .

وكره ذلك أبو حنيفة ؛ والحجة عليه ما رواه الصحيح عن عائشة رضي الله عنها ، وفيه : ثم قال : " باسم الله اللَّهُمَّ تقبّل من محمد وآل محمد ومن أمّة محمد " ثم ضحَّى به .

واستحب بعضهم أن يقول ذلك بنص الآية ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم ﴾ [البقرة : 127] .

وكره مالك قولهم : اللهم منك وإليك ، وقال : هذه بدعة .

وأجاز ذلك ابن حبيب من أصحابنا والحسن .

والحجة لهما ما رواه أبو داود عن جابر بن عبد الله قال : " ذبح النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الذبح كبشين أقرنين مَوْجُوءَيْن أملحين ، فلما وجّههما قال : "إني وَجّهتُ وَجْهِيَ للذِي فَطَرَ السمواتِ والأرضَ حَنِيفاً وقرأ إلى قوله : وأنا أوّل المسلمِين ﴾ اللَّهُمَّ منك ولك عن محمد وأمته باسم الله والله أكبر" " ثم ذبح .

فلعلّ مالكاً لم يبلغه هذا الخبر ، أو لم يصح عنده ، أو رأى العمل يخالفه .

وعلى هذا يدل قوله : إنه بدعة .

والله أعلم .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ المحسنين ﴾ رُوي أنها نزلت في الخلفاء الأربعة ؛ حسبما تقدّم في الآية التي قبلها .

فأما ظاهر اللفظ فيقتضي العموم في كل محسِن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(47/524)

وقال أبو حيان :

﴿ والبدن جعلناها لَكُمْ مّن شعائر الله ﴾

وقرأ الجمهور ﴿ البدن ﴾ بإسكان الدال .

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وشيبة وعيسى بضمها وهي الأصل ، ورويت عن أبي جعفر ونافع .

وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً بضم الياء والدال وتشديد النون ، فاحتمل أن يكون اسماً مفرداً بُني على فعل كعتل ، واحتمل أن يكون التشديد من التضعيف الجائز في الوقف ، وأجرى الوصل مجرى الوقف ، والجمهور على نصب ﴿ والبدن ﴾ على الاشتغال أي وجعلنا ﴿ البدن ﴾ وقرىء بالرفع على الابتداء و﴿ لكم ﴾ أي لأجلكم و﴿ من شعائر ﴾ في موضع المفعول الثاني ، ومعنى ﴿ من شعائر الله ﴾ من أعلام الشريعة التي شرعها الله وأضافها إلى اسمه تعالى تعظيماً لها ﴿ لكم فيها خير ﴾ قال ابن عباس : نفع في الدنيا ، وأجر في الآخرة .

وقال السدّي أجر .

وقال النخعي : من احتاج إلى ظهرها ركب وإلى لبنها شرب ﴿ عليها صواف ﴾ أي على نحرها .

قال مجاهد : معقولة .

وقال ابن عمر : قائمة قد صفت أيديها بالقيود .

وقال ابن عيسى : مصطفة وذكر اسم الله أن يقول عند النحر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ، اللهم منك وإليك .

وقرأ أبو موسى الأشعري والحسن ومجاهد وزيد بن أسلم وشقيق وسليمان التيمي والأعرج : صوافي جمع صافية ونون الياء عمرو بن عبيد .

قال الزمخشري : التنوين عوض من حرف عند الوقف انتهى .

والأولى أن يكون على لغة من صرف ما لا ينصرف ، ولا سيما الجمع المتناهي ، ولذلك قال بعضهم والصرف في الجمع أي كثيراً حتى ادّعى قوم به التخيير أي خوالص لوجه الله تعالى لا يشرك فيها بشيء ، كما كانت الجاهلية تشرك .

وقرأ الحسن أيضاً ﴿ صواف ﴾ مثل عوار وهو على قول من قال فكسرت عار لحمه يريد عارياً وقولهم : اعط القوس باريها .

(48/524)

وقرأ عبد الله وابن عمر وابن عباس والباقر وقتادة ومجاهد وعطاء والضحاك والكلبي والأعمش بخلاف عنه صوافن بالنون ، والصافنة من البدن ما اعتمدت على طرف رجل

بعد تمكنها بثلاث قوائم وأكثر ما يستعمل في الخيل ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ عبارة عن سقوطها إلى الأرض بعد نحرها .

قال محمد بن كعب ومجاهد وإبراهيم والحسن والكلبي ﴿ القانع ﴾ السائل ﴿ والمعتر ﴾ المعترض من غير سؤال ، وعكست فرقة هذا .

وحكى الطبري عن ابن عباس ﴿ القانع ﴾ المستغني بما أعطيه ﴿ والمعتر ﴾ المعترض من غير سؤال .

وحكى عنه ﴿ القانع ﴾ المتعفف ﴿ والمعتر ﴾ السائل .

وعن مجاهد ﴿ القانع ﴾ الجار وإن كان غنياً .

وقال قتادة ﴿ القانع ﴾ من القناعة ﴿ والمعتر ﴾ المعترض للسؤال .

وقيل ﴿ المعتر ﴾ الصديق الزائر .

وقرأ أبو رجاء : القنع بغير ألف أي ﴿ القانع ﴾ فحذف الألف كالحذر والحاذر .

وقرأ الحسن والمعتري اسم فاعل من اعترى .

وقرأ عمرو وإسماعيل ﴿ والمعتر ﴾ بكسر الراء دون ياء ، هذا نقل ابن خالويه .

وقال أبو الفضل الرازي في كتاب اللوامح أبو رجاء بخلاف عنه ، وابن عبيد والمعتري على مفتعل .

وعن ابن عباس برواية المقري ﴿ والمعتر ﴾ أراد المعتري لكنه حذف الياء تخفيفاً

واستغناءً بالكسرة عنها ، وجاء كذلك عن أبي رجاء .

قال ابن مسعود : الهدي أثلاث .

وقال جعفر بن محمد أطعم القانع والمعتر ثلثاً ، والبائس الفقير ثلثاً ، وأهلي ثلثاً .

وقال ابن المسيب : ليس لصاحب الهدي منه إلاّ الربع وهذا كله على جهة الاستحباب لا الفرض قاله ابن عطية ﴿ كذلك ﴾ سخرها لكم أي مثل ذلك التسخير ﴿ سخرناها لكم ﴾ تأخذونها منقادة فتعقلونها وتحبسونها صافة قوائمها فتطعنون في لباتها ، منّ عليهم تعالى بذلك ولولا تسخير الله لم تطق ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرماً وأقل قوّة ، وكفى بما يتأبد من الإبل شاهداً وعبرة .

وقال ابن عطية : كما أمرناكم فيها بهذا كله سخرنا لكم لن ينال الله لحومها ولا دماؤها .

(49/524)

قال مجاهد : أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذبح وتشريح اللحم منصوباً حول الكعبة ونضح الكعبة حواليها بالدم تقرّباً إلى الله ، فنزلت هذه الآية .

وعن ابن عباس قريب منه ، والمعنى لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر ، والمراد أصحاب اللحوم والدماء ، والمعنى لن يرضى المضحون والمقربون

ربهم إلاّ بمراعاة النية والإخلاص والاحتياط بشروط التقوى في حل ما قرب به وغير ذلك من المحافظات الشرعية وأوامر الورع ، فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية والتقريب ، وإن كثر ذلك منهم قاله الزمخشري وهو تكثير في اللفظ .

وقرأ مالك بن دينار والأعرج وابن يعمر والزهري وإسحاق الكوفي عن عاصم والزعفراني ويعقوب .

وقال ابن خالويه : تناله التقوى بالتاء يحيى بن يعمر والجحدري .

وقرأ زيد بن علي ﴿ لحومها ولا دماءها ﴾ بالنصب ﴿ ولكن يُناله ﴾ بضم الياء وكرر ذكر النعمة بالتسخير .

قال الزمخشري : لتشكروا الله على هدايته إياكم لإعلام دينه ومناسك حجه بأن تكبروا وتهللوا ، فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر وعديّ تعديته انتهى .

﴿ وبشر المحسنين ﴾ ظاهر في العموم .

قال ابن عباس : وهم الموحدون وروي أنها نزلت في الخلفاء الأربعة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(50/524)

وقال أبو السعود :

﴿ والبدن ﴾ بضمّ الباءِ وسكون الدّال . وقُرِىء بضمّها . وهُما جَمْعا بَدَنَةٍ ، وقيل الأصلُ ضمُّ الدّالِ كخُشُبٍ وخَشَبَةٍ والتَّسكينُ تخفيفٌ منه . وقُرِىء بتشديدِ النُّونِ على لفظِ الوقفِ . وإنَّما سُمِّيتْ بها الإبلُ لعظمِ بَدَنِها ، مأخوذةٌ من بَدُنَ بَدَانَةً وحيثُ شاركها البقرةُ في الإجزاءِ عن سبعةٍ بقوله صلى الله عليه وسلم : " البُدْنَةُ عن سبعةٍ والبقرةُ عن سبعةٍ " جُعلا في الشَّريعةِ جنساً واحداً . وانتصابُه بمضمرٍ يفسّرهُ : ﴿ جعلناها لَكُمْ ﴾ وقُرِىء بالرَّفعِ على أنَّه مبتدأٌ والجملةُ خبرُهُ . وقولُه تعالى : ﴿ مِن شَعَائِرِ الله ﴾ أي من أعلامِ دينهِ التي شرعها اللَّهُ تعالى . مفعولٌ ثانٍ للجعل . ولكُم ظرفُ لغوٍ متعلّقٌ به . وقولُه تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ أي منافعُ دينيَّةٌ ودنيويَّةٌ . جملة مستأنفةٌ مقرّرةٌ لما قبلها .

﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا ﴾ بأنْ تقولُوا عند ذبحِها اللَّهُ أكبرُ لا إله إلاَّ اللَّهُ واللَّهُ أكبرُ اللهمَّ منكَ وإليكَ ﴿ صَوَافَّ ﴾ أي قائماتٍ قد صففنَ أيديهنَّ وأرجلهنَّ . وقُرِىء صَوَافِنَ من صَفَنِ الفرسُ إذا قام على ثلاثٍ وعلى طرفِ سُنْبكِ الرَّابعةِ لأنَّ البدنةَ تُعقل إحدى يديها فتقومُ على ثلاثٍ . وقُرِىء صَوَافِنا بإبدالِ التَّنوينِ من حرفِ الإطلاقِ عند الوقفِ . وقُرِىء صَوَافِى أي خَوَالِصَ لوجهِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ . وصَوَافْ على لغةِ مَن يُسكِّنُ الياءَ على الإطلاق كما في قوله

لعلّي أرى باقْ على الحدثانِ . . . ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ سقطتْ على الأرضِ وهو كنايةٌ عن الموت ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ القانع ﴾ الرَّاضيَ بما عنده من غير مسألةٍ ، ويؤيِّدهُ أنَّه قُرِىء القنع . أو السَّائلَ من قَنع إليه قُنوعاً إذا خضعَ له في السُّؤالِ ﴿ والمعتر ﴾ أي المتعرِّضَ للسُّؤالِ . وقُرِىء المُعتري يقال عَرّهُ وعَرَاهُ واعترَّهُ واعتراهُ ﴿ كذلك ﴾ مثلَ ذلك التَّسخيرِ البديعِ المفهوم من قوله تعالى : ﴿ سخرناها لَكُمْ ﴾ مع كمالِ عظمِها ونهايةِ قوَّتِها فلا تستعصي عليكم حتَّى تأخذوها منقادةً فتعقِلونها وتحبسونها صافَّةً قوائمها ثم تطعنونَ في لبَّاتِها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ لتشكرُوا إنعامَنا عليكم بالتَّقرُّب والإخلاص . ﴿ لَن يَنَالَ الله ﴾ أي لن يبلغَ مرضاتَهُ ولن يقعَ منه موقعَ القَبُولِ ﴿ لُحُومُهَا ﴾ المُتصدَّقُ بها ﴿ وَلاَ دِمَاؤُهَا ﴾ المُهراقةُ بالنَّحر من حيثُ إنَّها لحومٌ ودماءٌ ﴿ ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ ﴾ ولكن يُصيبه تقوى قلوبِكم التي تدعُوكم إلى الامتثال بأمره تعالى وتعظيمه والتَّقرُّبِ إليه والإخلاصِ له . وقيل كانَ أهلُ الجاهليةِ يُلطِّخون الكعبةَ بدماءِ قَرَابينهم فهمَّ به المُسلمون فنزلتْ : ﴿ كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ تكريرٌ للتَّذكيرِ والتَّعليلِ بقوله تعالى : ﴿ لِتُكَبِّرُواْ الله ﴾ أي لتعرفُوا عظمتَه باقتداره على ما لا يقدرُ عليه غيرُه فتوحِّدُوه بالكبرياءِ ، وقيل هو التَّكبيرُ عند الإحلالِ أو الذَّبحِ . ﴿ على مَا هَدَاكُمْ ﴾ أي أرشدكُم إلى طريق تسخيرِها وكيفيَّةِ التَّقرُّبِ بها . وما مصدريةٌ أو موصولةٌ أي على هدايتِه إيَّاكم أو على ما هَدَاكُم

إليه . وعلى متعلّقةٌ بتكبّروا لتضمُّنهِ معنى الشُّكرِ . ﴿ وَبَشّرِ المحسنين ﴾ أي المُخلصين في كلِّ ما يأتُون وما يذرُون في أمورِ دينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(52/524)

وقال الآلوسى :

﴿ والبدن جعلناها لَكُمْ مّن شعائر الله ﴾

أي من أعلام دينه التي شرعها الله تعالى ، والبدن جمع بدنة وهي كما قال الجوهري .

ناقة أو بقرة تنحر بمكة .

وفي "القاموس" هي من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم تهدي إلى مكة وتطلق على الذكر والأنثى وسميت بذلك لعظم بدنها لأنهم كانوا يسمنونها ثم يهدونها ، وكونها من النوعين قول معظم أئمة اللغة وهو مذهب الحنفية فلو نذر نحر بدنة يجزئه نحر بقرة عندهم وهو قول عطاء .

وسعيد بن المسيب ، وأخرج عبد بن حميدة وابن المنذر عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما لا تعلم البدن إلا من الإبل والبقر .

وفي "صحيح مسلم" عن جابر رضي الله تعالى عنه كنا ننحر البدنة عن سبعة فقيل والبقرة فقال : وهل هي إلا من البدن ، وقال صاحب البارع من اللغويين : إنها لا تطلق على ما يكون من البقر ، وروي ذلك عن مجاهد .

والحسن وهو مذهب الشافعية فلا يجزى عندهم من نذر نحر بدنة نحر بقرة ، وأيد بما رواه أبو داود عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة " فإن العطف يقتضي المغايرة وفيما يأتي آخراً تأييد لذلك أيضاً ، والظاهر أن استعمال البدنة فيما يكون من الإبل أكثر وإن كان أمر الإجزاء متحداً .

ولعل مراد جابر بقوله في البقرة وهل هي إلا من البدن أن حكمها حكمها وإلا فيبعد جهل السائل بالمدلول اللغوي ليرد عليه بذلك ، ويمكن أن يقال فيما روي عن ابن عمر : أن مراده بالبدن فيه البدن الشرعية ، ولعله إذا قيل باشتراكها بين ما يكون من النوعين يحكم العرف أو نحوه في التعيين فيما إذا نذر الشخص بدنة ويشير إلى ذلك ما أخرجه ابن أبي شيبة .

(53/524)

وعبد بن حميد عن يعقوب الرياحي عن أبيه قال : أوصى إلى رجل وأوصى ببدنة فأتيت ابن عباس فقلت له : إن رجلاً أوصى إلي وأوصى ببدنة فهل تجزى عني بقرة ؟ قال : نعم ثم

قال : ممن صاحبكم ؟ فقلت : من رياح قال : ومتى اقتنى بنور رياح البقر إلى الإبل وهم صاحبكم إنما البقر لأسد .

وعبد القيس فتدبر .

وقرأ الحسن .

وابن أبي إسحاق .

وشيبة .

وعيسى ﴿ البدن ﴾ بضم الباء والدال ، قيل وهو الأصل كخشب وخشبة وإسكان الدال تخفيف منه ، ورويت هذه القراءة عن نافع .

وأبي جعفر .

وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً بضم الباء والدال وتشديد النون فاحتمل أن يكون اسماً مفرداً بنى على فعل كعتل واحتمل أن يكون التشديد من التضعيف الجائز في الوقف وأجرى الوصل مجرى الوقف ، والجمهور على نصب ﴿ البدن ﴾ على الاشتغال أي وجعلنا البدن جعلناها ، وقرىء بالرفع على الابتداء ، وقوله تعالى : ﴿ اللهُ لَكُمْ ﴾ ظرف متعلق بالجعل ، و ﴿ مِن شَعَائِرِ اللهِ ﴾ في موضع المفعول الثاني له ، وقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ أي نفع في الدنيا وأجر في الآخرة كما روي عن ابن عباس .

وعن السدي الاقتصار على الأجر جملة مستأنفة مقررة لما قبلها .

﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا ﴾ بأن تقولوا عند ذبحها بسم الله والله أكبر اللهم منك ولك .

وقد أخرج ذلك جماعة عن ابن عباس ، وفي "البحر" بأن يقول : عند النحر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك .

﴿ صَوَافَّ ﴾ أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن فهو جمع صافة ومفعوله مقدر .

وقرأ ابن عباس ، وابن عمر وابن مسعود .

والباقر .

ومجاهد .

وقتادة .

وعطاء .

والكلبي .

والأعمش بخلاف عنه ﴿ صوافن ﴾ بالنون جمع صافنة وهو إما من صفن الرجل إذا صف قدميه فيكون بمعنى صواف أو من صفن الفرس إذا قام على ثلاث وطرف سنبك الرابعة لأن البدنة عند الذبح تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث ، وعقلها عند النحر سنة ، فقد أخرج البخاري .

ومسلم .

وغيرهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه رأى رجلاً قد أناخ بدنته وهو ينحرها فقال : ابعثها قياماً مقيدة سنة محمد صلى الله عليه وسلم .

والأكثرون على عقل اليد اليسرى ، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن ابن سابط رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يعقلون يد البدنة اليسرى وينحرونها قائمة على ما بقي من قوائمها .

وأخرج عن الحسن قيل له : كيف تنحر البدنة ؟ قال : تعقل يدها اليسرى إذا أريد نحرها ، وذهب بعض إلى عقل اليمنى ؛ فقد أخرج ابن أبي شيبة أيضاً عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان ينحرها وهي معقولة يدها اليمنى ، وقيل لا فرق بين عقل اليسرى وعقل اليمنى ، فقد أخرج ابن أبي شيبة أيضاً عن عطاء قال : اعقل أي اليدين شئت .

وأخرج جماعة عن ابن عمر أنه فسر ﴿ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ بقائمات معقولة إحدى أيديهن فلا فرق في المراد بين صواف وصوافن على هذا أصلاً ، لكن روي عن مجاهد أن الصواف على أربع والصوافن على ثلاث .

وقرأ أبو موسى الأشعري .

والحسن .

ومجاهد .

وزيد بن أسلم .

وشقيق .

وسليمان التيمي .

والأعراج ﴿ صوافي ﴾ بالياء جمع صافية أي خوالص لوجه الله عز وجل لا يشرك فيها شيء كما كانت الجاهلية تشرك ، ونون الياء عمر .

وابن عبيد وهو خلاف الظاهر لأن ﴿ صوافي ﴾ ممنوع من الصرف لصيغة منتهى الجموع ، وخرج على وجهين ، أحدهما : أنه وقف عليه بألف الإطلاق لأنه منصوب ثم نون تنوين الترنم لا تنوين الصرف بدلاً من الألف ، وثانيهما أنه على لغة من يصرف ما لا ينصرف لا سيما الجمع المتناهي ولذا قال بعضهم

: والصرف في الجمع أتى كثيرا . . .

حتى ادعى قوم به التخييرا

وقرأ الحسن أيضاً ﴿ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ بالتنوين والتخفيف على لغة من ينصب المنقوص بحركة مقدرة ثم يحذف الياء فأصل ﴿ صَوَافَّ ﴾ صوافي حذفت الياء لثقل الجمع واكتفى بالكسرة التي قبلها ثم عوض عنها التنوين ونحوه

.

ولو أن واش باليمامة داره . . .

وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا

وقد تبقى الياء ساكنة كما في قوله

: يا باري القوس بريا ليست تحسنها . . .

لا تفسدنها وأعط القوس باريها

وعلى ذلك قراءة بعضهم ﴿ صوافي ﴾ بإثبات الياء ساكنة بناءً على أنه كما في القراءة المشهورة حال من ضمير ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ﴾ ولو جعل كما قيل بدلاً من الضمير لم يحتج إلى التخريج على لغة شاذة ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ أي سقطت على الأرض وهو كناية عن الموت .

وظاهر ذلك مع ما تقدم من الآثار يقتضي أنها تذبح وهي قائمة ، وأيد به كون البدن من الإبل دون البقر لأنه لم تجز عادة بذبحها قائمة وإنما تذحب مضطجعة وقلما شوهد نحر الإبل وهي مضطجعة ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ القانع ﴾ أي الراضي بما عنده وبما يعطى من غير مسألة ولا تعرض لها ، وعليه حمل قول لبيد

: فمنهم سعيد آخذ بنصيبه . . .

ومنهم شقي بالمعيشة قانع

﴿ والمعتر ﴾ أي المعترض للسؤال من اعتره إذا تعرض له ، وتفسيرهما بذلك مروى عن

ابن عباس .

وجماعة ، وقال محمد بن كعب .

ومجاهد .

وإبراهيم .

والحسن .

والكلبي : ﴿ القانع ﴾ السائل كما في قول عدي بن زيد

: وما خنت ذا عهد وأيت بعهده . . .

ولم أحرم المضطر إذ جاء قانعاً

﴿ والمعتر ﴾ المعترض من غير سؤال ، فالقانع قيل على الأول من قنع يقنع كتعب يتعب

قنعاً إذا رضي بما عنده من غير سؤال ، وعلى الثاني من قنع يقنع كسأل يسأل لفظاً ومعنى

قنوعاً .

وعلى ذلك جاء قول الشاعر

: العبد حر إن قنع . . .

والحر عبد إن قنع فاقنع ولا تطمع فما

شيء يشين سوى الطمع . . .

فلا يكون ﴿ القانع ﴾ على هذا من الأضداد لاختلاف الفعلين ، ونص على ذلك الخفاجي حاكماً بتوهم من يقول بخلافه .

(56/524)

وفي "الصحاح" نقل القول بأنه من الأضداد عن بعض أهل العلم ولم يتعقبه بشيء ، ونقل عنه أيضاً أنه يجوز أن يكون السائل سمي قانعاً لأنه يرضى بما يعطي قل أو كثر ويقبله ولا يرد فيكون معنى الكلمتين راجعاً إلى الرضا ، وإلى كون قنع بالكسر بمعنى رضي وقنع بالفتح بمعنى سأل ذهب الراغب وجعل مصدر الأول قناعة وقنعانا ومصدر الثاني قنوعاً .

ونقل عن بعضهم أن أصل ذلك من القناع وهو ما يغطى به الرأس فقنع بالكسر لبس القناع ساتراً لفقره كقولهم : خفي إذا لبس الخفاء وقنع إذا رفع قناعه كاشفاً لفقره بالسؤال نحو خفي إذا رفع الخفاء ، وأيد كون القانع بمعنى الراضي بقراءة أبي رجاء ﴿ القانع ﴾ بوزن الحذر بناءً على أنه لم يرد بمعنى السائل بخلاف القانع فإنه ورد بالمعنيين والأصل توافق القراءات ، وعن مجاهد ﴿ القانع ﴾ الجار وإن كان غنياً وأخرج ابن أبي شيبة عنه وعن ابن جبير أن القانع أهل مكة والمعتر سائر الناس ، وقيل : المعتر الصديق الزائر ، والذي

اختاره من هذه الأقوال أولها .

وقرأ الحسن ﴿ والمعتري ﴾ اسم فاعل من اعترى وهو واعتر بمعنى .

وقرأ عمرو .

وإسماعيل كما نقل ابن خالويه ﴿ المعتر ﴾ بكسر الراء بدون ياء ، وروى ذلك المقري عن ابن عباس ، وجاء ذلك أيضاً عن أبي رجاء وحذفت الياء تخفيفاً منه واستغناءً بالكسرة عنها .

واستدل بالآية على أن الهدى يقسم أثلاثاً ثلث لصاحبه وثلث للقانع والمعتر ثلثاً والبائس الفقير ثلثاً وأهلي ثلثاً وفي القلب من صحته شيء .

وقال ابن المسيب : ليس لصاحب الهدى منه إلا الربع وكأنه عد القانع والمعتر والبائس الفقير ثلاثة وهو كما ترى ، قال ابن عطية : وهذا كله على جهة الاستحسان لا الفرض ، وكأنه أراد بالاستحسان الندب فيكون قد حمل كلا الأمرين في الآية على الندب .

(57/524)

وفي التيسير أمر ﴿ وَفَرْشًا كُلُواْ ﴾ للإباحة ولو لم يأكل جاز وأمر ﴿ أطعموا ﴾ للندب ولو صرفه كله لنفسه لم يضمن شيئاً ، وهذا في كل هدى نسك ليس بكفارة وكذا الأضحية

، وأما الكفارة فعليه التصدق بجميعها فما أكله أو أهداه لغنى ضمنه .

وفي الهداية يستحب له أن يأكل من هدى التطوع والمتعة والقران وكذا يستحب أن يتصدق على الوجه الذي عرف في الضحايا وهو قول بنحو ما يقتضيه كلام ابن عطية في كلا الأمرين .

وأباح مالك الأكل من الهدى الواجب الأجزاء الصيد والأذى والنذر ، وأباحه أحمد إلا من جزاء الصيد والنذر ، وعند الحسن الأكل من جميع ذلك مباح وتحقيق ذلك في كتب الفقه

﴿ قَالَ كَذلك ﴾ أي مثل ذلك التسخير البديع المفهوم من قوله تعالى : ﴿ صَوَافَّ ﴾ ﴿ سخرناها لَكُمْ ﴾ مع كمال عظمها ونهاية قوتها فلا تستعصى عليكم حتى إنكم تأخذونها منقادة فتعقلونها وتحبسونها صافة قوائمها ثم تطعنون في لباتها ولولا تسخير الله تعالى لم تطق ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرماً وأقل قوة وكفى ما يتأبد من الإبل شاهداً وعبرة .

وقال ابن عطية : كما أمرناكم فيها بهذا كله سخرناها لكم ولا يخفى بعده ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي لتشكروا أنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص .

﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا ﴾

أي لن يصيب رضا الله تعالى اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر من حيث أنها لحوم ودماء ﴿ ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ ﴾ ولكن يصيبه ما يصحب ذلك من تقوى قلوبكم

التي تدعوكم إلى تعظيمه تعالى والتقرب له سبحانه والإخلاص له عز وجل .

وقال مجاهد : أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذبح وتشريح اللحم ونصبه حول الكعبة ونضحها بالدماء تعظيماً لها وتقرباً إليه تعالى فنزلت هذه الآية ، وروي نحوه عن ابن عباس .

وغيره .

وقرأ يعقوب .

وجماعة ﴿ لَن تَنَالُواْ ولكن تَنَالُهُ ﴾ بالتاء .

(58/524)

وقرأ أبو جعفر الأول بالتاء والثاني بالياء آخر الحروف ، وعن يحيى بن يعمر .

والجحدري أنهما قرأا بعكس ذلك .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ لَن يَنَالَ ولكن يَنَالُهُ ﴾ بالبناء لما يسم فاعله في الموضعين ﴿ ولحومها ولا دماءها ﴾ بالنصب ﴿ يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ كرره سبحانه تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله تعالى : ﴿ لِتُكَبِّرُواْ الله ﴾ أي لتعرفوا عظمته تعالى باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره عز وجل فتوحدوه بالكبرياء ، وقيل : أي

لتقولوا الله أكبر عند الإحلال أو الذبح ﴿ على مَا هَدَاكُمْ ﴾ أي على هدايته وإرشاده إياكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها ، فما مصدرية ، وجوز أن تكون موصوفة وأن تكون موصولة والعائد محذوف ، ولا بد أن يعتبر منصوباً عند من يشترط في حذف العائد المجرور أن يكون مجروراً بمثل ما جر به الموصول لفظاً ومعنى ومتعلقاً ، و﴿ على ﴾ متعلقة بتكبروا لتضمنه معنى الشكر أو الحمد كأنه قيل : لتكبروه تعالى شاكرين أو حامدين على ما هداكم ، وقال بعضهم : على بمعنى اللام التعليلية ولا حاجة إلى اعتبار التضمين ، ويؤيد ذلك قول الداعي على الصفا : الله أكبر على ما هدانا والحمد لله تعالى على ما أولانا ، ولا يخفى أن لعدم اعتبار التضمين هنا وجهاً ليس فيما نحن فيه فافهم ﴿ وَبَشِّرِ المحسنين ﴾ أي المخلصين في كل ما يأتون ويذرون في أمور دينهم .

وعن ابن عباس هم الموحدون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(59/524)

وقال الشوكانى :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾

قرأ ابن أبي إسحاق : " والبدن " بضم الباء والدال ، وقرأ الباقون بإسكان الدال وهما

لغتان ، وهذا الاسم خاص بالإبل .

وسميت بدنة ؛ لأنها تبدن ، والبدانة : السمن .

وقال أبو حنيفة ومالك : إنه يطلق على غير الإبل ، والأوّل أولى لما سيأتي من الأوصاف التي هي ظاهرة في الإبل ، ولما تفيده كتب اللغة من اختصاص هذا الاسم بالإبل .

وقال ابن كثير في تفسيره : واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين : أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح في الحديث ﴿ جعلناها لَكُمْ ﴾ وهي ما تقدّم بيانه قريباً ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ أي منافع دينية ودنيوية كما تقدّم ﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا ﴾ أي على نحرها ومعنى ﴿ صَوَافَّ ﴾ أنها قائمة قد صفت قوائمها ، لأنها تنحر قائمة معقولة .

وأصل هذا الوصف في الخيل يقال : صفن الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم وثنى الرابعة .

وقرأ الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعري : " صوافي " أي خوالص لله لا تشركون به في التسمية على نحرها أحداً ، وواحد صوافّ صافة ، وهي قراءة الجمهور .

وواحد صوافي صافية ، وقرأ ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وأبو جعفر ومحمد بن علي : " صوافن " بالنون جمع صافنة .

والصافنة هي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ الصافنات الجياد ﴾ [ص : 31] ، ومنه قول عمرو بن كلثوم :

تركنا الخيل عاكفة عليه . . . مقلدة أعنتها صفونا

وقال الآخر :

ألف الصفون فما يزال كأنه . . . مما يقوم على الثلاث كسيرا

﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ الوجوب : السقوط ، أي فإذا سقطت بعد نحرها ، وذلك عند خروج روحها ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ ذهب الجمهور أن هذا الأمر للندب ﴿ وَأَطْعِمُواْ القانع والمعتر ﴾ هذا الأمر قيل : هو للندب كالأوّل ، وبه قال مجاهد والنخعي وابن جرير وابن سريج .

(60/524)

وقال الشافعي وجماعة : هو للوجوب .

واختلف في القانع من هو ؟ فقيل : هو السائل ، يقال : قنع الرجل بفتح النون يقنع بكسرها إذا سأل ، ومنه قول الشماخ :

لمال المرء يصلحه فيغني . . . مفاقره أعفّ من القنوع

أي السؤال ، وقيل : هو المتعفف عن السؤال المستغني ببلغة ، ذكر معناه الخليل .

قال ابن السكيت : من العرب من ذكر القنوع بمعنى القناعة ، وهي الرضا والتعفف وترك المسألة .

وبالأوّل قال زيد بن أسلم وابنه وسعيد بن جبير والحسن ، وروي عن ابن عباس .

وبالثاني قال عكرمة وقتادة .

وأما المعترّ ، فقال محمد بن كعب القرظي ومجاهد وإبراهيم والكلبي والحسن : أنه الذي يتعرّض من غير سؤال .

وقيل : هو الذي يعتريك ويسألك .

وقال مالك : أحسن ما سمعت أن القانع : الفقير ، والمعترّ : الزائر .

وروي عن ابن عباس : أن كليهما الذي لا يسأل ، ولكن القانع الذي يرضى بما عنده ولا يسأل ، والمعترّ الذي يتعرّض لك ولا يسألك .

وقرأ الحسن : " والمعتّرى " ومعناه كمعنى المعترّ ومنه قول زهير :

على مكثريهم رزق من يعتريهم . . . وعند المقلين السماحة والبذل

يقال : اعترّه واعتراه وعرّه وعراه : إذا تعرّض لما عنده أو طلبه ، ذكره النحاس ﴿ كذلك سخرناها لَكُمْ ﴾ أي مثل ذلك التسخير البديع سخرناها لكم ، فصارت تنقاد لكم إلى مواضع نحرها فتنحرونها .

وتنتفعون بها بعد أن كانت مسخرة للحمل عليها والركوب على ظهرها والحلب لها ونحو ذلك ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هذه النعمة التي أنعم الله بها عليكم .

﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا ﴾ أي لن يصعد إليه ولا يبلغ رضاه ولا يقع موقع القبول منه لحوم هذه الإبل التي تتصدّقون بها ولا دماؤها التي تنصب عند نحرها من حيث إنها لحوم ودماء ﴿ ولكن يَنَالُهُ ﴾ أي يبلغ إليه تقوى قلوبكم ، ويصل إليه إخلاصكم له وإرادتكم بذلك وجهه ، فإن ذلك هو الذي يقبله الله ويجازي عليه .

(61/524)

وقيل : المراد : أصحاب اللحوم والدماء ، أي : لن يرضى المضحون والمتقرّبون إلى ربهم باللحوم والدماء ، ولكن بالتقوى .

قال الزجاج : أعلم الله أن الذي يصل إليه تقواه وطاعته فيما يأمر به ، وحقيقة معنى هذا الكلام تعود إلى القبول ، وذلك أن ما يقبله الإنسان يقال : قد ناله ووصل إليه ، فخاطب الله الخلق كعادتهم في مخاطبتهم ﴿ كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ كرّر هذا للتذكير ، ومعنى ﴿ لِتُكَبِّرُواْ اللهَ على مَا هَدَاكُمْ ﴾ هو قول الناحر : الله أكبر عند النحر ، فذكر في الآية الأولى الأمر بذكر اسم الله عليها .

وذكر هنا التكبير .

للدلالة على مشروعية الجمع بين التسمية والتكبير .

وقيل : المراد بالتكبير : وصفه سبحانه بما يدلّ على الكبرياء ، ومعنى ﴿ على مَا هَدَاكُمْ ﴾ : على ما أرشدكم إليه من علمكم بكيفية التقرّب بها ، و" ما " مصدرية ، أو موصولة ﴿ وَبَشّرِ المحسنين ﴾ قيل : المراد بهم : المخلصون .

وقيل : الموحدون .

والظاهر أن المراد بهم : كل من يصدر منه من الخير ما يصح به إطلاق اسم المحسن عليه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عبد الله بن عمر قال : لا نعلم البدن إلا من الإبل والبقر .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : البدن ذات الجوف .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : ليس البدن إلا من الإبل .

وأخرجوا عن الحكم نحوه .

وأخرجوا عن عطاء نحو ما قال ابن عمر .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ، سعيد بن المسيب نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن نحوه أيضاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن يعقوب الرباحي عن أبيه قال : أوصى إليّ رجل ، وأوصى ببدنة ، فأتيت ابن عباس فقلت له : إن رجلاً أوصى إليّ وأوصى ببدنة ، فهل تجزىء عني بقرة ؟ قال : نعم ، ثم قال : ممن صاحبكم ؟ فقلت : من بني رباح ، فقال : ومتى اقتنى بنو رباح البقر إلى الإبل ؟ وهم صاحبكم ، إنما البقر للأسد وعبد القيس .

(62/524)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في الأضاحي ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في سننه عن أبي ظبيان قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ قال : إذا أردت أن تنحر البدنة فأقمها على ثلاث قوائم معقولة ، ثم قل : بسم الله والله أكبر .

وأخرج الفريابي وأبو عبيد وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ صَوَافَّ ﴾ قال : قياماً معقولة ، وفي الصحيحين وغيرهما عنه أنه رأى رجلاً قد أناخ بدنته وهو ينحرها ، فقال : ابعثها قياماً مقيدة سنّة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أبو عبيدة وعبد بن حميد وابن المنذر عن ميمون بن مهران قال : في قراءة ابن

مسعود : " صوافن " يعني : قياماً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ ﴾ قال : سقطت على جنبها .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : نحرت .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : ﴿ القانع ﴾ : المتعفف ﴿ والمعتر ﴾ : السائل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال : القانع الذي يقنع بما آتيته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : القانع : الذي يقنع بما أوتي ، والمعترّ : الذي يعترض .

وأخرج عنه أيضاً قال : القانع الذي يجلس في بيته .

وأخرج عبد بن حميد ، والبيهقي في سننه عنه ، أنه سئل عن هذه الآية ، فقال : أما القانع : فالقانع بما أرسلت إليه في بيته ، والمعترّ : الذي يعتريك .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال : القانع : الذي يسأل ، والمعترّ : الذي يتعرض ، ولا يسأل .

وقد روي عن التابعين في تفسير هذه الآية أقوال مختلفة ، والمرجع المعنى اللغوي لا سيما مع الاختلاف بين الصحابة ومن بعدهم في تفسير ذلك .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان المشركون إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء فينضحون بها نحو الكعبة ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فأنزل الله : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج نحوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(64/524)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾)

عطف على جملة ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ﴾ [الحج : 34] أي جعلنا منسكاً للقربان والهدايا ، وجعلنا البدن التي تُهدى ويتقرب بها شعائرَ من شعائر الله .

والمعنى : أنّ الله أمر بقربان البُدْن في الحجّ من عهد إبراهيم عليه السلام وجعلها جزاء عما يترخص فيه من أعمال الحجّ .

وأمر بالتطوع بها فوعد عليها بالثواب الجزيل فنالت بذلك الجَعل الإلهي يُمناً وبركة وحرمة ألحقتها بشعائر الله ، وامتن بذلك على الناس بما اقتضته كلمة ﴿ لكم ﴾ .

والبدن : جمع بَدنَة بالتحريك ، وهي البعير العظيم البَدن .

وهو اسم مأخوذ من البَدانة ، وهي عِظم الجثّة والسمن ، وفعله ككرم ونصر ، وليست زنة بدنة وصفاً ولكنها اسم مأخوذ من مادة الوصف ، وجمعه بُدْن .

وقياس هذا الجمع أن يكون مضموم الدال مثل خُشُب جمع خشبة ، وثُمرُ جمع ثَمرة ، فتسكين الدال تخفيف شائع ، وغلب اسم البدنة على البعير المعيّن للهدي .

وفي "الموطأ" : "عن أبي هُريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يسوق بدنة فقال : اركَبْها ، فقال : إنها بدنة ، فقال : اركَبْها ، فقال : إنها بدنة ، فقال : اركبْها ويلك في الثانية أو الثالثة " فقول الرجل : إنها بدنة ، متعين لإرادة هديه للحجّ .

وتقديم ﴿ البُدن ﴾ على عامله للاهتمام بها تنويهاً بشأنها .

والاقتصار على البدن الخاصصِ بالإبل لأنها أفضل في الهَدي لكثرة لحمها ، وقد ألحقت بها البقر والغنم بدليل السنّة ، واسم ذلك هَدي .

ومعنى كونها من شعائر الله : أنّ الله جعلها معالم توّذن بالحج وجعل لها حرمة .

وهذا وجه تسميتهم وضع العلامة التي يعلّم بها بعير الهَدْي في جلده إشعاراً .

قال مالك في "الموطأ" : "كان عبد الله بن عمر إذا أهدى هدْياً من المدينة قلّده وأشعره بذي الحليفة ، يقلّده قبل أن يُشعره . . .

يقلده بنعلين ويشعره من الشق الأيسر . . .

" بطعن في سنامه فالإشعار إعداد للنحر .

وقد عدها في جملة الحرمات في قوله : ﴿ لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي في سورة العقود (2) .

وتقديم ﴿ لكم ﴾ على المبتدأ ليتأتى كون المبتدأ نكرة ليفيد تنوينه التعظيم ، وتقديم ﴿ فيها ﴾ على متعلّقه وهو ﴿ خير ﴾ للاهتمام بما تجمعه وتحتوي عليه من الفوائد .

والخير : النّفع ، وهو ما يحصل للناس من النفع في الدنيا من انتفاع الفقراء بلحومها وجلودها وجِلالها ونعالها وقَلائدها .

وما يحصل للمُهدين وأهلهم من الشبع من لحمها يوم النّحر ، وخير الآخرة من ثواب المُهدين ، وثواب الشكر من المعطَيْن لحومَها لربّهم الذي أغناهم بها .

وفرع على ذلك أن أمَرَ الناس بأن يذكروا اسم الله عليها حين نحرها .

وصوافّ : جمع صافّة .

يقال : صف إذا كان مع غيره صفّا بأن اتّصل به .

ولعلّهم كانوا يصفُّونها في المنحر يوم النّحر بمِنى ، لأنه كان بمِنى موضع أُعدّ للنحر وهو

المنحَر .

وقد ورد في حديث مسلم عن جابر بن عبد الله في حجّة الوداع قال فيه : "ثم انصرف رسول الله إلى المنحرَ فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثلاثاً وستين بَدنة جعل يطعنها بحَربة في يده ثم أعطى الحربة عليّاً فنحر ما غَبَر ، أي ما بقي وكانت مائة بدنة" وهذا يقتضي أنها كانت مجتمعة متقاربة .

وانتصب ﴿ صوافّ ﴾ على الحال من الضمير المجرور في قوله ﴿ عليها ﴾ .

وفائدة هذه الحال ذكر محاسن من مَشاهد البُدن فإن إيقاف الناس بدنهم للنحر مجتمعة ومنتظمة غير متفرقة مما يزيد هيئتها جلالاً .

وقريب منه قوله تعالى : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ [الصف : 4] .

ومعنى ﴿ وجبت ﴾ سقطت ، أي إلى الأرض ، وهو كناية عن زوال الروح التي بها الاستقلال .

(66/524)

والقصد من هذا التوقيت المبادرة بالانتفاع بها إسراعاً إلى الخير الحاصل من ذلك في الدنيا بإطعام الفقراء وأكل أصحابها منها فإنه يستحب أن يكون فطور الحاج يوم النحر مِن هديه ، وكذلك الخير الحاصل من ثواب الآخرة .

والأمر في قوله ﴿ فكلوا منها ﴾ مجمل ، يحتمل الوجوب ويحتمل الإباحة ويحتمل الندب ، وقرينة عدم الوجوب ظاهرة لأنّ المكلف لا يفرض عليه ما الداعي إلى فعله من طبعه .

وإنما أراد الله إبطال ما كان عند أهل الجاهلية من تحريم أكل المُهدي من لحوم هديه فبقي النظر في أنه مباح بحت أو هو مندوب .

واختلف الفقهاء في الأكل من لحوم الهدايا الواجبة .

فقال مالك : يباح الأكل من لحوم الهدايا الواجبة ، وهو عنده مستحبّ ولا يؤكل من فدية الأذى وجزاءِ الصيد ونذر المساكين ، والحُجّة لمالك صريح الآية .

فإنها عامة إلا ما قام الدّليل على منعه وهي الثلاثة الأشياء المستثناة .

وقال أبو حنيفة : يأكل من هدي التمتّع والقِران ، ولا يأكل من الواجب الذي عيّنه الحاج عند إحرامه .

وقال الشافعي : لا يأكل من لحوم الهدايا بحالٍ مستنداً إلى القياس ، وهو أن المُهدي أوجب إخراج الهدي من ماله فكيف يأكل منه .

كذا قال ابن العربي .

وإذا كان هذا قصارى كلام الشافعي فهو استدلال غير وجيه ولفظ القرآن ينافيه لا سيما وقد ثبت أكل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من لحوم الهدايا بأحاديث صحيحة .

وقال أحمد : يؤكل من الهدايا الواجبة إلاّ جزاء الصيد والنذر .

وأما الأمر في قوله : ﴿ وأطعموا القانع والمعتر ﴾ فقال الشافعي : للوجوب ، وهو الأصح .

قال ابن العربي وهو صريح قول مالك .

وقلت : المعروف من قول مالك أنه لو اقتصر المُهدي على نحر هديه ولم يتصدق منه ما كان آثماً .

والقانع : المتصف بالقنوع ، وهو التذلل .

يقال : قنَع من باب سَأل .

قُنوعاً بضم القاف إذا سأل بتذلّل .

وأما القناعة ففعلها من باب تَعِب ويستوي الفعل المضارع مع اختلاف الموجب .

(67/524)

ومن أحسن ما جمع من النظائر ما أنشده الخفاجي:

العَبْد حرّ إن قَنِع . . .

والحر عبد إن قنَع

فاقنَع ولا تقنَع فما . . .

شيء يشين سوى الطمَع

وللزمخشري في "مقاماته" : "يا أبا القاسم اقنَع من القَناعة لا من القنوع ، تستغْن عن كل مِعْطَاءٍ ومنوع" .

وفي "الموطأ" في كتاب الصيد قال مالك : "والقانع هو الفقير" .

والمعتَرّ : اسم فاعل من اعترّ ، إذا تعرّض للعطاء ، أي دون سؤال بل بالتعريض وهو أن يحضر موضع العطاء ، يقال : اعترّ ، إذا تعرّض .

وفي "الموطأ" في كتاب الصيد قال مالك : "وسمعت أنّ المعترّ هو الزائر ، أي فتكون من عرا إذا زار" والمراد زيارة التعرض للعطاء .

وهذا التفسير أحسن ويرجحه أنه عطف ﴿ المعترّ ﴾ على ﴿ القانع ، ﴾ فدل العطف على المغايرة ، ولو كانا في معنى واحد لما عطف عليه كما لم يعطف في قوله ﴿ وأطعموا البائس الفقير ﴾ [الحج : 28] .

وجملة ﴿ وكذلك سخرناها لكم ﴾ استئناف للامتنان بما خلق من المخلوقات لنفع

الناس .

والأمارة الدالة على إرادته ذلك أنه سخّرها للناس مع ضعف الإنسان وقوّة تلك الأنعام فيأخذ الرجل الواحد العدد منها ويسوقها منقادة ويؤلمونها بالإشعار ثم بالطعن .

ولولا أنّ الله أودع في طباعها هذا الانقياد لما كانت أعجزَ من بعض الوحوش التي هي أضعف منها فتنفر من الإنسان ولا تسخّر له .

وقوله ﴿ كذلك ﴾ هو مثل نظائره ، أي مثلَ ذلك التسخير العجيب الذي ترونه كان تسخيرها لكم .

ومعنى ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ خلقناها مسخرة لكم استجلاباً لأن تشكروا الله بإفراده بالعبادة .

وهذا تعريض بالمشركين إذا وضعوا الشكر موضع الشكر .

﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ ﴾

(68/524)

جملة في موضع التعليل لجملة ﴿ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾ [الحج : 36] ، أي دلّ على أنّا سخرناها لكم لتشكروني أنه لا انتفاع لله بشيء من لحومها ولا دمائها حين

تتمكنون من الانتفاع بها فلا يريد الله منكم على ذلك إلا أن تتّقُوه .

والنَيْل : الإصابة .

يقال ناله ، أي أصابه ووصل إليه .

ويقال أيضاً بمعنى أحرز ، فإن فيه معنى الإصابة كقوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ [آل عمران : 92] وقوله : ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ [التوبة : 74] .

والمقصود من نفي أن يصل إلى الله لحومها ودماؤها إبطال ما يفعله المشركون من نضح الدماء في المذابح وحول الكعبة وكانوا يذبحون بالمَرْوَةِ .

قال الحسن : كانوا يلطخون بدماء القرابين وكانوا يشرّحون لحوم الهدايا وينصبونها حول الكعبة قرباناً لله تعالى ، يعني زيادة على ما يعطونه للمحاويج .

وفي قوله : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ إيماء إلى أن إراقة الدماء وتقطيع اللحوم ليسا مقصودين بالتعبد ولكنهما وسيلة لنفع الناس بالهدايا إذ لا يُنتفع بلحومها وجلودها وأجزائها إلا بالنّحر أو الذبح وإن المقصد من شرعها انتفاع الناس المُهدين وغيرهم .

فأما المهدون فانتفاعهم بالأكل منها في يوم عيدهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في تحريم صيام يوم النّحر : " يوم تأكلون فيه من نُسككم " فذلك نفع لأنفسهم ولأهاليهم ولو بالادخار منه إلى رجوعهم إلى آفاقهم .

وأما غيرهم فانتفاع من ليس له هدْيٌ من الحجيج بالأكل مما يهديه إليهم أقاربهم وأصحابهم ، وانتفاع المحاويج من أهل الحرم بالشبع والتزود منها والانتفاع بجلودها وجِلالها وقلائدها . كما أوما أليه قوله تعالى : ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ﴾ [المائدة : 97] .

(69/524)

وقد عرض غير مرة سؤال عما إذا كانت الهدايا أوفر من حاجة أهل الموسم قطعاً أو ظناً قريباً من القطع كما شوهد ذلك في مواسم الحجّ ، فما يبقى منها حيّاً يباع وينفق ثمنه في سدّ خلة المحاويج أجدَى من نحره أو ذَبحه حين لا يَرغب فيه أحد ، ولو كانت اللحوم التي فاتَ أن قُطعّت وكانت فاضلة عن حاجة المحاويج يعمل تصبيرها بما يمنع عنها التعفُّن فيُنتفع بها في خلال العام أجدى للمحاويج .

وقد ترددتْ في الجواب عن ذلك أنظار المتصدّين للإفتاء من فقهاء هذا العصر ، وكادوا أن تتفق كلمات من صدرت منهم فتاوى على أن تصبيرها مناف للتعبد بهَديها .

أما أنا فالذي أراه أن المصير إلى كلا الحالين من البيع والتصبير لما فضل عن حاجة الناس في أيام الحج ، لينتفع بها المحتاجون في عامهم ، أوفقُ بمقصد الشارع تجنباً لإضاعَة ما فَضِل

منها رعياً لمقصد الشريعة من نفع المحتاج وحفظ الأموال مع عدم تعطيل النحر والذبح للقدر المحتاج إليه منها المشار إليه بقوله تعالى:

﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ [الحج : 36] وقوله : ﴿ وكذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ﴾ ، جمعاً بين المقاصد الشرعية .

وتعرض صورة أخرى وهي توزيع المقادير الكافية للانتفاع بها على أيام النحر الثلاثة بحيث لا يُتعجل بنحر جميع الهدايا في اليوم الأول طلباً لفضيلة المبادرة ، فإن التقوى التي تصِل إلى الله من تلك الهدايا هي تسليمها للنفع بها .

وهذا قياس على أصل حفظ الأموال كما فرضوه في بيع الفَرس الحُبُس إذا أصابه ما يفضي به إلى الهلاك أو عدم النفع ، وهي المعاوضة لِرَبْع الحبس إذا خرب .

وحكم الهدايا مركب من تعبّد وتعليل ، ومعنى التعليل فيه أقوى ، وعلّته انتفاع المسلمين ، ومسلك العلّة الإيماء الذي في قوله تعال : ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ﴾ [الحج : 36] .

(70/524)

واعلم أن توهم التقرب بتلطيخ دماء القرابين وانتفاع المتقرب إليه بتلك الدماء عقيدة وثنية قديمة فربما كانوا يطرحون ما يتقربون به من لحم وطعام فلا يدَعون أحداً يأكله .

وكان اليونان يشوون لحوم القرابين على النار حتى تصير رماداً ويتوهمون أنّ رائحة الشواء تسرّ الآلهة المتقرب إليها بالقرابين ، وكان المصريُّون يُلقون الطعام للتماسيح التي في النيل لأنها مقدّسة .

وقرأ الجمهور ﴿ يَنال ، ويَناله ﴾ بتحتية في أولهما .

وقرأه يعقوب بفوقية على مراعاة ما يجوز في ضمير جمع غير العاقل .

وربما كانوا يقذفون بمِزع من اللحم على أنها لله فربما أصابها محتاج وربما لم يتفطن لها فتأكلها السّباع أو تفسد .

ويشمل التقوى ذكر اسم الله عليها والتصدّق ببعضها على المحتاجين .

و﴿ يناله ﴾ مشاكلة ل ﴿ ينال ﴾ الأول ، استعير النيل لتعلّق العلم .

شبه علم الله تقواهم بوصول الشيء المبعوث إلى الله تشبيهاً وجهّه الحصول في كلّ وحسنته المشاكلة .

و(مِن) في قوله ﴿ مِنكم ﴾ ابتدائية .

وهي ترشيح للاستعارة ، ولذلك عبّر بلفظ ﴿ التقوى منكم ﴾ دون : تقواكم أو التقوى .

مجرداً مع كون المعدول عنه أوجز لأنّ في هذا الإطناب زيادة معنى من البلاغة .

﴿ كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ اللهَ على مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ المحسنين ﴾ .

تكرير لجملة : ﴿ كذلك سخرناها لكم ﴾ [الحج : 36] ، وليبنى عليه التنبيه إلى أن الثناء على الله مسخّرها هو رأس الشكر المنبه عليه في الآية السابقة ، فصار مدلول الجملتين مترادفاً .

فوقع التأكيد .

فالقول في جملة ﴿ كذلك سخرها لكم لتكبروا الله ﴾ كالقول في أشباهها .

وقوله ﴿ على ما هداكم ﴾ ﴿ على ﴾ فيه للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى التمكن ، أي لتكبّروا الله عند تمكنكم من نحرها .

و(ما) موصولة ، والعائد محذوف مع جارّه .

والتقديرُ : على ما هداكم إليه من الأنعام .

(71/524)

والهداية إليها : هي تشريع الهدايا في تلك المواقيت لينتفع بها الناس ويرتزق سكان الحرم الذين اصطفاهم الله ليكونوا دعاةَ التوحيد لا يفارقون ذلك المكان ، والخطاب للمسلمين .

وتغيير الأسلوب تخريج على خلاف مقتضى الظاهر بالإظهار في مقام الإضمار للإشارة إلى

أنهم قد اهتدوا وعملوا بالاهتداء فأحسنوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(72/524)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ القانع والمعتر ﴾ .

قد قدمنا أنه تعالى أمر بالأكل من بهيمة الأنعام : وهي الإبل والبقر والغنم بأنواعها الثمانية ، وأمر بإطعام البائس الفقير منها . وأمر بالأكل من البدن وإطعام القانع والمعتر منها ، وما كان من الإبلن فهو من البدن بلا خلاف .

واختلفوا في البقرة ، هل هي بدنة ، وقد قدمنا الحديث الصحيح : أن البقرة من البدن ، وقد قدمنا أيضاً ما يدل على أنها غير بدنة ، وأظهرهما أنها من البدن ، وللعلماء في تفسير القانع والمعتر أقوال متعددة متقاربة أظهرها عندي : أن القانع هو الطامع الذي يسأل أن يعطى من اللحم ومنه قول الشماخ :

لمال المرء يصلحه فيغني . . . مفاقره أعف من القنوع

يعني أعف من سؤال الناس ، والطمع فيهم ، وأن المعتر هو الذي يعتري متعرضاً للإعطاء من

غير سؤال وطلب ، والله أعلم وقد قدمنا حكم الأكل من أنواع الهدايا والضحايا ، وأقوال أهل العلم في ذلك بما أغنى عن إعادته هنا .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

(73/524)

قوله كذلك : نعت لمصدر : أي سخرناها أي البدن لكم تسخيراً كذلك : أي مثل ذلك التسخير الذي تشاهدون : أي ذللناها لكم ، وجعلناها منقادة لكم تفعلون بها ما شئتم من نحر وركوب ، وحلب وغير ذلك من المنافع ، ولولا أن الله ذللها لكم لم تقدروا عليها ، لأنها أقوى منكم ألا ترى البعير ، إذا توحش صار صاحبه غير قادر عليه ، ولا متمكن من الانتفاع به . وقوله هنا : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ قد قدمنا مراراً أن لعل تأتي في القرآن لمعان أقربها . اثنان : أحدهما : أنها بمعناها الأصلي ، الذي هو الترجي والتوقع ، وعلى هذا فالمراد بذلك خصوص الخلق لأنهم هم الذي يترجى منهم شكر النعم من غير قطع ، بأنهم يشكرونها أو لا ينكرونها لعدم علمهم بما تؤول إليه الأمور ، وليس هذا المعنى في حق الله تعالى لأنه عالم بما سيكون فلا يجوز في حقه جل وعلا إطلاق الترجي والتوقع لتنزيهه عن ذلك ، وإحاطة علمه بما ينكشف عنه الغيب ، وقد قال تعالى لموسى وهارون : ﴿ فَقُولَا

لَهُ قَوْلاً لَّيِّنا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 44] أي على رجائكما وتوقعكما أنه يتذكر أو يخشى ، مع أن الله عالم في سابق أزله أن فرعون لا يتذكر ولا يخشى ، فمعنى لعل بالنسبة إلى الخلق ، لا إلى الخالق جل وعلا . المعنى الثاني : هو ما قدمنا من أن بعض أهل العلم ، قال : كل لعل في القرآن فهي للتعليل إلا التي في سورة الشعراء ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء : 129] قال : فهي بمعنى : كأنكم تخلدون . وإتيان لفظة لعل للتعليل معروف في كلام العرب . وقد قدمناه موضحاً مراراً وقد قدمنا من شواهده العربية قول الشاعر :

فقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا . . . نكف ووثقتم لنا كل موثق

يعني كفوا الحروب لأجل أن نكف ، وإذا علمت أن هذه الآية الكريمة بين الله فيها أن تسخيره الأنعام لبني آدم نعمة من إنعامه ، تستوجب الشكر لقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

(74/524)

فاغلم : أنه بين هذا في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ

وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [يس : 71-73] وقوله في آية يس : هذه : ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى قريباً : ﴿ كذلك سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الحج : 37] الآية ، وقد قدمنا معنى شكر العبد لربه وشكر الرب لعبده ، مراراً بما أغنى عن إعادته هنا والتسخير التذليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(75/524)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى في النفقة مِمَّا رزقكم الله تكلَّم في النفقة في البُدْن ، والبُدْن : جمع بَدَنَة ، وهي الجمل أو الناقة ، أو ما يساويهما من البقر ، وسمَّاها بَدَنَة إشارة إلى ضرورة أنْ تكون بدينة سمينة وافرة ، ولا بُدَّ أنْ تراعي فيها هذه الصفة عند اختيارك للهَدْي الذي ستُقدمه لله ، واحذر أن تكون من أولئك الذين يجعلون لله ما يكرهون ، إنما كُنْ من الذين قال الله لهم : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمنوا أَنْفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ . . ﴾ [البقرة : 267] وقوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا صَوَآفَّ . . ﴾ [الحج : 36]

أي : اذكروا الله بالشكر على أنْ وهبها وذلَّلها لكم ، واذكروا اسم الله عليها حين ذَبْحها .

ومعنى ﴿ صَوَآفَّ . . ﴾ [الحج : 36] يعني : واقفةً قائمة على أرْجُلها ، لا ضعفَ فيها ولا هُزَال ، مصفوفة وكأنها في معرض أمامك . وهذه صفات البُدْن الجيدة التي تناسب هذه الشعيرة وتليق أنْ تُقدَّمَ هَدْياً لبيت الله .

ومعنى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا . . ﴾ [الحج : 36] وجبَ الشيء وجباً يعني : سقط سقوطاً قوياً على الأرض ، ومعلوم أن البَدَنة لا تُذبح وهي مُلْقاة على الأرض مثل باقي الأنعام ، وإنما تُنْحر وهي واقفة ، فإذا ما نُحِرَتْ وقعتْ على الأرض وارتمتْ بقوة من بدانتها .

﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا . . ﴾ [الحج : 36] وقلنا : إن الأكل لا يكون إلا من الهَدْي المحض والتطوع الخالص الذي لا يرتبط بشيء من مسائل الحج ، فلا يكون هَدْيَ تمتُّع أو قِرَان ، ولا يكون جبْراً لمخالفة ، ولا يكون نَذْراً . . إلخ .

وعِلَّة الأمر بالأكل من الهَدْي ؛ لأنهم كانوا يتأففون أنْ يأكلوا من المذبوح للفقراء ، وكأن في الأمر بالأكل منها إشارة لوجوب اختيارها مما لا تعافه النفس .

(76/524)

ومعنى : ﴿ القانع والمعتر . . ﴾ [الحج : 36] القانع : الفقير الذي يتعفَّف أنْ يسأل الناس ، والمعترّ : الفقير الذي يتعرَّض للسؤال .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كذلك سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . . ﴾ [الحج : 36] يعني : سخّرناها لكم ، ولو في غير هذا الموقف ، لقد سخَّرها الله لكم منذ وُجِد الإنسان ؛ لذلك عليكم أنْ تشكروا الله على أنْ أوجدها وملّككم إياها ، وتشكروه على أنْ سخَّرها وذلَّلها لكم ، وتشكروه على أنْ هداكم للقيام بهذا المنسك ، وأداء هذه الشعيرة وعمل هذا الخير الذي سيعود عليكم بالنفع في الدنيا وفي الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانة : ﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ . . ﴾

ذلك لأنهم كانوا قبل الإسلام حين يذبحون للأوثان يُلطّخون الصنم بدماء الذبيحة ، كأنهم يقولون له : لقد ذبحنا لك ، وها هي دماء الذبيحة ، وفي هذا العمل منهم دليل على غبائهم وحُمْق تصرفهم ، فهم يروْن أنهم إذا لم يُلطِّخوه بالدم ما عرف أنهم ذبحوا من أجله .

وهنا ينبه الحق – سبحانه وتعالى – إلى هذه المسألة : ﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا . . ﴾ [الحج : 37] يعني : لا يأخذ منها شيئاً ، وهو سبحانه قادر أنْ يعطي الفقير الذي أمرك أنْ تعطيه ، ويجعله مثلك تماماً غير محتاج .

إنما أراد سبحانه من تباين الناس في مسألة الفقر والغنى أن يُحدِث توازناً في المجتمع ،

فالمجتمع ليس آلة ميكانيكية تسير على وتيرة واحدة ، إنما هي حياة بشر لا بُدَّ من هذه التفاوتات بين الناس ، ثم تتدخّل الشرائع السماوية فتأخذ من القوى وتعطي الضعيف ، وتأخذ من الغني وتعطي الفقير . . وساعتها ، نقضي على مشاعر الحقد والحسد والبغضاء والأَثَرة .

(77/524)

فحين يعطي القويُّ الضعيفَ من قوته لا يحسده عليها ، ويتمنى له دوامها ؛ لأن خيرها يعود عليه ، وحين يعطي الغنّي مما أفاض الله عليه للفقير يُؤلِّف قلبه ، ويجتثّ منه الغِلَّ والحسد ، ويدعو له بدوام النعمة .

لا بد من هذا التفاوت ليتحقق فينا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص ، يشدُّ بعضه بعضاً " .

لذلك ، ترى صاحب النعمة الذي ينثر منها على غيره ، إنْ أصابته في ماله مصيبة يحزن له الآخرون ويتألمون بألمه ؛ لأن نعمته تفيض عليهم ، وخيرُه ينالهم . وأهل الريف إلى عهد قريب كان الواحد منهم يُربِّي البقرة أو الجاموسة ؛ ليحلب لبنها ، وكان لا ينسى الجيران وأهل الحاجة ، فكانوا يدعُونَ الله له أنْ يبارك له في ماله ، وإنْ أصابته ضرّاء في ماله حَزِنوا

من أجله .

إذن : حين تفيض من نعمة الله عليك على مَنْ حُرِم منها تدفع عن نفسك الكثير من الحقد والحسد ، فإنْ لم تفعل فلا أقلَّ من إخفاء هذا الخير عن أعْيُنِ المحتاجين حتى لا تثير حفائظهم ، وربما لو رآك الرجل العاقل يُردعه إيمانه فلا تمتدّ عيناه إلى ما في يدك ، إنما حين يراك الأطفال الصغار تحمل ما حُرِموا منه ، أو رأوا ولدك يأكل وهم محرومون هنا تكون المشكلة وقوله تعالى : ﴿ ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ . . ﴾ [الحج : 37] واتقاء الله هو اتباع منهجه ، فيُطاع الله باتباع المنهج فلا يُعصي ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يُكفر ، وطريق الطاعة يوجد في اتباع المنهج ب " افعل " و " لا تفعل " ، ولكن النعم التي خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أنْ تتذكر في كل نعمة مَنْ أنعم بها ، وإياك أنْ تُنسيَك النعمةُ المنعِمَ .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ الله على مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ المحسنين ﴾ [الحج : 37]

(78/524)

تلحظ هنا مسألة المتشابهات يقف عندها العلماء الذين يبحثون في القرآن الكريم ، ففي الآية السابقة ذَيَّلها الحق سبحانه بقوله : ﴿ كذلك سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الحج : 36] .

هذه المتشابهات يقف عندها العلماء الذين يبحثون في القرآن ويُقلِّبون في آياته ؛ لذلك يجمعون مثل هذه المتشابهة التي تتحدث في موضوع واحد ويُرتِّبونها في الذِّهن ؛ لذلك لا يُؤتمنون على الحِفْظ ، ومن هنا قالوا : ينبغي لمَنْ أراد حِفْظ القرآن أنْ يدعَ مسألة العلم جانباً أثناء حِفْظه ، حتى إذا نسي كلمةً وقف مكانه لا يتزحزح إلى أنْ يعرفها ، أمّا العالم فربما وضع مرادفها مكانها ، واستقام له المعنى .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ لِتُكَبِّرُواْ الله على مَا هَدَاكُمْ . . ﴾ [الحج : 37] يعني : تذكرونه وتشكرونه على ما وفّقكم إليه من هذه الطاعات ﴿ وَبَشِّرِ المحسنين . . ﴾ [الحج : 37] بشِّر يعني : أخْبِرْ بشيء سَارٍّ قبل مَجِيء زمنه ، ليستعد له المبشَّر ويفرح به ، كذلك الإنذار : أن تخبر بشيء سيء قبل حلوله أيضاً ؛ ليستعد له المنذر ، ويجد الفرصة التي يتلافى فيها خطأه ، ويُجنِّب نفسه ما يُنذَر به ، ويُقبل على ما يُنجيه .

و﴿ المحسنين . . ﴾ [الحج : 37] : جمع مُحسِن ، والإحسان : أعلى مراتب الإيمان ، وهو أنْ تُلزِم نفسك بشيء من طاعة الله التي فرضها عليك فوق ما فرض ، فربُّك عز وجل فرض عليك خمس صلوات في اليوم والليلة ، وفي إمكانك أنْ تزيد من هذه الصلوات ما

تشاء ، لكن من جنس ما فرض الله عليك ، لا تخترع أنت عبادة من عندك ، كذلك الأمر في الصوم ، وفي الزكاة ، وفي الحج ، وفي سائر الطاعات التي ألزمك الله بها ، فإنْ فعلت هذا فقد دخلتَ في مقام الإحسان .

(79/524)

وفي الإحسان أمران : مُحسن به وهو العبادة أو الطاعة التي تُلزِم نفسك بها فوق ما فرض الله عليك ، ودافعٌ عليه ، وهو أن تؤدي العمل كأن الله يرقبك ، كما جاء في حديث جبريل : " والإحسان أنْ تعبدَ الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك " .

فمراقبتك لله ومراعاتك لنظره تعالى إليك ، يدفعك إلى هذا الإحسان ، أَلَا ترى العامل الذي تباشره وتُشرِف عليه ، وكيف يُنهِي العمل في موعده ؟ وكيف يُجيده ؟ على خلاف لو تركتَه وانصرفْتَ عنه .

فإنْ لم تَصِل إلى هذه المرتبة التي كأنك ترى الله فيها ، فلا أقلَّ من أنْ تتذكر نظره هو إليك ، ومراقبته سبحانه لحركاتك وسكناتك .

لذلك ، في سورة الذريات : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ [الذاريات : 15 – 16] ثم يُفسِّر سبب هذا الإحسان :

﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات : 17-19] .

ومَنْ يلزمك بهذه الكاليف ؟ لك أنْ تصلي العشاء ثم تنام إلى الفجر ، كذلك لم يُلزمك بالاستغفار وقت السَّحَر ، ولم يلزمك بصدقة التطوع . إذن : هذه طاعات فوق ما فرض الله وصلَتْ بأصحابها إلى مقام الإحسان ، وأعلى مراتب الإيمان ، فليُشمِّر لها مَنْ أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(80/524)

وقال الشيخ الصابونى :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾

22 - سورة الحج

[1] التقرب إلى الله بالهدي الأضاحي

التحليل اللفظي

﴿ والبدن ﴾ : جمع بدنة وهي اسم للواحد من الإبل ، ذكراً أو أنثى ، وسميت بذلك لعظم بدنها ، وقد اشتهر إطلاقها في الشرع على البعير الذي يهدى للكعبة .

﴿ صَوَآفَّ ﴾ : جمع صافة وهي التي قد صُفَت قوائمها للذبح ، والبعير ينحر قائماً .

ومن قرأ (صوافن) فالصافن التي تقوم على ثلاث ، والبعير إذا أرادوا نحره تعقل إحدى يديه فهو الصافن .

﴿ وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ : أي سقطت جنوبها ، والجُنُوبَ جمع جَنْب وهو الشق ، أي إذا سقطت على الأرض يقال : وجب الحائط وجبةً إذا سقط ، ووجب القلب وجيباً إذا تحرك من فزع ، وسقوط الجنوب كناية عن الموت ومفارقة الروح بعد الذبح .

﴿ القانع والمعتر ﴾ : القانع الراضي بما قدّر الله له من الفقر والبؤس ، العفيف الذي لا يتعرض لسؤال الناس ، مأخوذ من قنع يقنع إذا رضي .

وأمّا المعْترّ فهو الذي يتعرض لسؤال الناس ، فهو كالمعتري الذي يعتري الأغنياء ويذهب إليهم المرة بعد المرة ، وقيل بالعكس ، القانع : السائل ، والمعتر الذي لا يسأل الناس .

قال ابن عباس : القانع الذي يسأل ، والمعتر الذي يتعرض ولا يسأل ، واختاره الفرّاء .

وجه الارتباط بالآيات السابقة

ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أن طريق التقوى إنما هو في تعظيم شعائر الله والالتزام بما شرعه من الأحكام وقد امتنّ الله على عباده بأن جعل لهم البُدْن يسوقونها إلى مكة قُرْبة عظيمة ، حيث جعلها شعيرة من شعائر الله ، وعلماً من أعلام دينه ، ودليلاً على طاعته ،

ففي سوقها للحرم ونحرها هناك خيرٌ عظيم ، وثواب كبير ، يناله أصحابها في الآخرة .

المعنى الإجمالي

(81/524)

يقول الله جل ثناؤه ما معناه : لقد جعلنا لكم – أيها المؤمنون – الإبل من شعائر دين الله ، لكم فيها عبادة لله ، من سوقها إلى البيت ، وتقليدها ، وإشعارها ، ونحرها ، والإطعام منها ، لكم فيها النفع في الدنيا ، والأجر في الآخرة ، فاذكروا اسم الله عند نحرها ، قائماتٍ قد صففن أيديهنّ وأرجلهنّ ، فإذا سقطت جنوبها على الأرض بعد نحرها ، وسكنت حركتها ، فكلوا منها وأطعموا السائل المحتاج ، والمعتر الذي يتعرض للسؤال ولا يسأل ، مثل ذلك التسخير الذي تشاهدون ، سخرناها وذلّلناها لكم مع قوتها وعظم أجسامها ، وجعلناها منقادة لكم تفعلون بها ما شئتم من نحرٍ وركوب ، وحلبٍ وغير ذلك من وجوه المنافع ، ولولا تسخيرها لكم لم تقدروا عليها لأنها أقوى منكم ، فاشكروا الله على نعمه وآلائه التي لا تعد ولا تحصى .

ثم بيّن الله تعالى في الآية الثانية أنه جلا وعلا لا يصل إليه شيء من لحوم هذه الأضاحي والقرابين التي يهدونها لبيته الحرام ، ويذبحونها تقرباً إليه ، فلا شيء من هذا يصل إلى الله أو

يرضيه ، وإنما يرضيه جلّ وعلا امتثال الأمر منكم وطاعته وتقواه ، فالأعمال إنما تكون مقبولة بمقدار التقوى والإخلاص فيها ، وبدون التقوى والإخلاص تكون أشبه بصور أجسام لا روح فيها ولا حياة ، فلا يظن أنه ينال ثواب الله باللحم يقطعه وينشره ، ولا بالدم يلطخ به الكعبة الطاهرة ، فعل أهل الشرك في الجاهلية وإنما ينال ذلك بتقوى الله ، والبعد عن مثل تلك الأعمال التي تجافي روح الإسلام وطهارته .

(82/524)

ثمّ ختم الله تعالى هذه الآية بتذكير المؤمنين بوجوب شكره وتعظيمه على ما سخّر لهم من الأنعام ، يتقربون بها إلى المولى جل وعلا ، فيأكلون من لحومها ، ويتصدقون ببعضها ، لينالوا الأجر من الله والثواب العظيم ، وليبشرهم بالفضل العميم في جنات النعيم .

سبب النزول

روي عن ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما أن جماعة من المسلمين كانوا قد همّوا أن يفعلوا بذبائحهم فعل أهل الجاهلية ، يقطعون لحومها وينشرونها حول الكعبة ، وينضحون على الكعبة من دمائها ، فلما أسلموا وعزموا على ذلك نزلت الآية الكريمة تزجرهم عن هذا الفعل ، وترشدهم إلى ما هو الأجدرُ بهم والأليق .

وجوه القراءات

قرأ الجمهور ﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ جمع صافّة ، وقرئ (صوافن) جمع صافنة وهي القائمة على ثلاث قوائم والرابعة مرفوعة ، وقرئ (صوافي) جمع صافية بمعنى خالصة لله تعالى .

وجوه الإعراب

أولاً : قوله تعالى : ﴿ والبدن جَعَلْنَاهَا ﴾ البُدنَ : مفعول مقدم لجعلنا مثل قوله تعالى : ﴿ والقمر قَدَّرْنَاهُ ﴾ [يس : 39] وقرئ برفعها (والبُدنُ) على الابتداء .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ الجار والمجرور خبر مقدم و (خيرٌ) مبتدأ مؤخر .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ صَوَآفَّ ﴾ منصوب على الحال وهو حال من المفعول البدن .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿ كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ كذلك : نعتٌ لمصدرٍ محذوف تقديره سخرناها لكم تسخيراً كذلك التسخير العجيب ، وعلى هذا تكون الكاف صلة ، ويصح أن تكون على معناها مفيدة للتشبيه ويكون ذلك من تشبيه الشيء بنفسه مبالغة .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : بيّن الباري جل وعلا أن تسخيره الأنعام لبني آدم ، نعمةٌ من إنعامه تستوجب الشكر وقد جاء هذا الامتنان على العباد (مجملاً) في هذه الآية ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ وجاء التفصيل في آيات أخرى كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [يس : 71-73] وكقوله : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 5-7] .

اللطيفة الثانية : المراد من قوله تعالى : ﴿ مِّن شَعَائِرِ اللهِ ﴾ أي من أعلام الشريعة التي شرعها الله لعباده ، وإضافتها إلى الله جلّ وعلا للتعظيم مثل ﴿ نَاقَةُ اللهِ ﴾ [الأعراف : 73] ، و (بيت الله) وإنما كانت هذه البُدنُ من الشعائر ، لأن الغرض منها التقرب إلى الله بالهدايا والضحايا وغيرها من وجوه البر والإحسان .

(84/524)

اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ إشارة لطيفة إلى أنّ الإبل لا تذبح ذبحاً وإنما تُنحر نحراً ، وأنّ المطلوب عند نحرها أن تكون قائمة قد صُفّت أيديها وأرجلها ، فإنّ ذلك هو الطريق الأمثل في ذبح الإبل كما وضحته السنة النبوية المطهرة .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل تطلق البُدن على الإبل والبقر ؟

اتفق العلماء على أن البُدن اسم للواحد من الإبل ذكراً كان أو أنثى ، فهي تطلق على الإبل باتفاق ، وقد اشتهر في الشرع إطلاقها على البعير يهدى إلى الكعبة ، واختلفوا هل تطلق البدنة على البقرة ؟ باعتبار أنها تجزئ في الهَدْي والأضحية عن سبعة كالبعير على مذهبين :

أولاً – مذهب الحنفية : أن البدنة تطلق على البقرة كما تطلق على البعير ، فهي من قبيل المشترك في المعنيين ، فمن نذر بدنةً أجزأته بقرة فهي مثلها في اللفظ والحكم ، وبهذا قال (عطاء) و (سعيد بن المسيّب) واستدلوا بما يلي :

1 – روي عن جابر رضي الله عنه أنه قال : « كنّا ننحر البدنة عن سبعة ، فقيل : والبقرة ؟ قال : وهل هي إلاّ من البُدن » ؟

ب – وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : لا نعلم البُدن إلا من الإبل والبقر .

ثانياً – مذهب الشافعية : أما الشافعية فقالوا : لا تطلق البدن بالحقيقة إلاّ على الإبل ، وإطلاقها على البقر إنما يكون مجازاً ، فلو نذر بدنة لا تجزئه بقرة ، وبهذا قال (مجاهد) .

ودليلهم ما روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : « تجزئ البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة » قالوا : فلهذا يدل على ما قلنا لأن العطف يقتضي المغايرة .

(85/524)

والظاهر أن اسم البدنة حقيقة في الإبل لقوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ فالإبل هي التي تنحر واقفة بخلاف البقر فإنها تذبح ذبحاً ، وقول جابر : وهل هي إلا من الإبل ؟ وقول ابن عمر : لا نعلم البدن إلا من الإبل والبقر ، فمحمولٌ على أنهما أرادا اتحاد الحكم فيهما ، وهذا شيء غير اشتراك اللفظ بينهما والله أعلم .

الحكم الثاني : ما هو الأفضل في الهدي والأضاحي .

أجمع العلماء على أن الهدي لا يكون إلا من النعم (الإبل ، البقر ، الغنم ، الماعز) وأن الذكر والأنثى بالنسبة للأضاحي والهدي سواءٌ ، واتفقوا على أن الأفضل الإبل ، ثم البقر ، ثم الغنم على هذا الترتيب ، لأن الإبل أنفع للفقراء لعظمها ، والبقر أنفع من الشاة كذلك ، وأقل

ما يجزئ عن الواحد شاةٌ ، والبدنةُ تجزئ عن سبعة وكذلك البقرة . واختلفوا في الأفضل للشخص الواحد :

هي يُهدي سُبْع بدنة ، أو سُبْع بقرة ، أو يهدي شاةً ؟ والظاهر أن الاعتبار إنما يكون بما هو أنفع للفقراء ، وهذا هو الأصح .

(86/524)

ومما يدل على أن البدنة أو البقرة تجزئ عن سبعة ما رواه جابر رضي الله عنه أنه قال : « حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحرنا البعير عن سبعةٍ ، والبقرة عن سبعةٍ » .

وللمرء أن يهدي للحرم ما يشاء من النعم ، وقد أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائةً من الإبل ، وكان هديه عليه السلام هدي تطوع .

الحكم الثالث : الأكل من لحوم الهدي .

أمر الله تعالى بالأكل من لحوم الهدي في قوله جل ثناؤه ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ البآئس الفقير ﴾ [الحج : 28] وهذا الأمر يتناول بظاهره (هدي التمتع) و (هدي التطوع) والهدي الواجب بسبب ارتكاب بعض المحظورات في الحج أو العمرة .

وقد اختلف الفقهاء في ذلك على عدة أقوال نلخّصها فيما يلي :

1 – ذهب أبو حنيفة وأحمد إلى جواز الأكل من هدي التمتع ، وهدْي القِران ، وهدي التطوع ، ولا يأكل من دم الجزاء .

وقال مالك رحمه الله : يأكل من هدي التمتع ، والقِران ، والهدي الذي ساقه لفساد حجه أو لفوات الحج ، ومن الهدي كله إلا فدية الأذى ، وجزاء الصيد ، وما نذره للمساكين .

وقال الشافعي رحمه الله : لا يجوز الأكل من الهدي الواجب مثل دم الجزاء ، وجزاء الصيد ، وهدي التمتع والقِران ، وإفساد الحج ، وكذلك ما كان نذراً أوجبه على نفسه .

أمّا كان تطوعاً فله أن يأكل منه ويُهدي ، ويتصدّق ، فأباح الأكل من هدي التطوع فحسب .

ومبنى الخلاف بين الجمهور والإمام الشافعي في (هدي التمتع) أنّ الدم الواجب عندهم دم شكر فيباح له أن يأكل منه ، وعنده أنه دم جزاء فلا يباح الأكل منه والتفصيل في كتب الفروع .

وقد استدل الإمام الشافعي على وجوب إطعام الفقراء من الهدايا بقوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ القانع والمعتر ﴾ وقوله : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ البآئس الفقير ﴾ [الحج : 28] .

وقال أبو حنيفة : إن الإطعام مندوب ، لأنها دماء نُسُك فتتحقق القربة فيها بإراقة الدم ، أما إطعام الفقراء فهو باق على حكمه العام وهو الندب .

الحكم الرابع : وقت الذبح ومكانه .

اختلف العلماء في وقت ذبح الهدي .

فعند الشافعي : أن وقت ذبحه يوم النحر ، وأيام التشريق (الثاني والثالث والرابع) من أيام عيد الأضحى ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « وكلّ أيام التشريق نحرٌ » فإن فات وقته ذبح الهدي الواجب قضاءً وأثم بالتأخير .

وعند مالك وأحمد أن وقت ذبح الهدي – سواءً كان واجباً أمّ تطوعاً – أيام النحر (الأول والثاني والثالث) من أيام عيد الأضحى ، ولا يصح الذبح في اليوم الرابع .

ووافق الحنفية مذهب مالك وأحمد بالنسبة لهدي التمتع والقرآن ، وأما النذر ، والكفارات ، والتطوع فيذبح في أي وقت كان .

وحكي عن النخعي : أن وقت الذبح يمتد من يوم النحر ، إلى آخر ذي الحجة .

وأما مكان الذبح – سواءً كان واجباً أم تطوعاً – فهو الحرم لقوله تعالى :

﴿ هَدْياً بَالِغَ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] وقوله : ﴿ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة : 196] ومَحِلّه هو الحرم فيجوز أن يذبح في أي مكان من الحرم ، في مكة ومنى وغيرها من حدود الحرم لقوله صلى الله عليه وسلم : « كل مِنى منحرٌ ، وكلّ المزدلفة موقفٌ ، وكلّ فِجاج مكة طريق ومنحر » .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

1 – تعظيم الهدي والتقرب به إلى الله من شعائر الدين الإسلامي .

2 – الهدي والأضحية لا تكون إلاّ من الأنعام (الإبل والبقر والغنم) .

3 – الأفضل في الإبل النحرُ ، وفي البقر والغنم الذبحُ .

4 – في إراقة الهدي نفع الفقير ، والحصولُ على مرتبة التقوى .

5 – النسك بالأضاحي فيه إحياء لذكرى (الفداء) لإسماعيل مع أبيه الخليل عليهما السلام حين أمر بذبح ولده في المنام .

خاتمة البحث :

حكمة التشريع

جعل الباري – تباركت أسماؤه – الهَدْي والأضاحي من شعائر دين الله ، يذبحها المسلم ليتقرب بها إلى ربه جلّ وعلا وينال مغفرته ورضوانه ، ولتكون تكفيراً لما جنته يداه من

الذنوب والآثام ، وليتعودّ على الإخلاص في القول والفعل والعمل ، فالمؤمن إنما يذبح على اسم الله ، وبأمره جل وعلا ، ألاّ يذكر معه اسم غيره ، ولا يتوجه إلى أحد سواه ، ولا يقصد بعمله غير وجه الله ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للَّهِ رَبِّ العالمين * لاَ شَرِيكَ لَهُ وبذلك أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ المسلمين ﴾ [الأنعام : 162-163] .

وبهذا التوجه بالنسك لله يتعود المؤمن على الإخلاص ، ويكتسب مرتبة التقوى التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿ لَن يَنَالَ الله لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ ﴾ [الحج : 37] .

(89/524)

ولئن كان المشركون يذبحون هذه القرابين للأصنام رجاء النفع ودفع الضر ، فإن المؤمن لا يذبح لصنمٍ ، ولا وثن ، وإنما يتقرب بنسكه إلى الله وحده ، مخلصاً له العبادة جل وعلا والإسلام يربط بين الهدي الذي ينحره الحاج وبين تقوى القلوب ، فالتقوى هي الغاية من مناسك الحج وشعائره ، وهذه المناسك والشعائر كلها رموزٌ تعبيرية عن التوجه إلى ربّ البيت وطاعته ، وهي تحمل في طياتها (ذكرى الفداء) ذكرى إقدام الخليل إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده (إسماعيل) امتثالاً لأمر الله حين أمر بذبح ولده في المنام ﴿ إني أرى

فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى ﴾ [الصافات : 102] إلى قوله : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات : 107] فهوى ذكرى لآيةٍ من آيات الله ، ومعجزة من معجزاته الباهرة ، حين فدى ولد خليله بذبح عظيم ، وهي بعد ذلك صدقة وقربى لله بإطعام الفقراء ، ومعونة أهل الحاجة من الضعفاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روائع البيان حـ 1 صـ 619.609 ﴾

(90/524)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه ، أنه قرأ ﴿ والبدن ﴾ خفيفة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : لا نعلم البدن إلا من الإبل والبقر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله عنه قال : البدنة ، ذات الخف .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن ابن عمر رضي الله عنه قال :

البدنة ذات البدن من الإبل والبقر .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : ليس البدن إلا من الإبل .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عبد الكريم قال : اختلف عطاء والحكم فقال عطاء البدن من الإبل والبقر . وقال الحكم : من الإبل .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن سعيد بن المسيب قال : البدن ، البعير والبقرة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنه قال : البدن من البقر .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن يعقوب الرياحي ، عن أبيه قال أوصى الي رجل ، وأوصى ببدنة ، فأتيت ابن عباس – رضي الله عنهما – فقلت له : إن رجلاً أوصى إلي ، وأوصى إلي ببدنة ، فهل تجزئ عني بقرة ؟ قال : نعم . ثم قال : ممن صاحبكم ؟ فقلت : من بني رياح . قال : ومتى تقتني . اقتنى بنو رياح البقر إلى الإبل [ ] وهو صاحبكم وإنما البقر للأسد ، وعبد القيس .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : إنما سميت البدن ؛ من قبل السمانة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن إبراهيم في قوله ﴿ لكم فيها خير ﴾ قال : هي البدنة . ان احتاج إلى ظهر ركب ، أو إلى لبن شرب .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ لكم فيها خير ﴾ قال : لكم أجر ومنافع للبدن .

(91/524)

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن ماجة ، والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب ، " عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله ، ما هذه الأضاحي ؟ " قال سنة أبيكم إبراهيم " قال : فما لنا فيها يا رسول الله ؟ قال : " بكل شعرة حسنة " قالوا : فالصوف ؟ قال : " بكل شعرة من الصوف حسنة " " .

وأخرج ابن عدي والدارقطني والطبراني والبيهقي في الشعب ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد " .

وأخرج الترمذي وحسنة وابن ماجة والحاكم وصححه ، عن عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من هراقه دم ، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها واظلافها وأشعارها ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفساً " .

وأخرج ابن ماجة والحاكم وصححه والبيهقي ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من وجد سعة لأن يضحي فلم يضح فلا يقربن مصلانا " .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مالك بن أنس قال : حج سعيد بن المسيب وحج معه ابن حرملة ، فاشترى سعيد كبشاً فضحى به ، واشترى ابن حرملة بدنة بستة دنانير فنحرها . فقال له سعيد : اما كان لك فينا أسوة ؟ فقال : إني سمعت الله يقول : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ، لكم فيها خير ﴾ فاحببت أن آخذ الخير من حيث دلني الله عليه ، فاعجب ذلك ابن المسيب منه ! وجعل يحدث بها عنه .

وأخرج أبو نعيم الحلية ، عن ابن عيينة قال : حج صفوان بن سليم ومعه سبعة دنانير فاشترى بها بدنة ، فقيل له : ليس معك إلا سبعة دنانير تشتري بها بدنة ! فقال : إني سمعت الله يقول : ﴿ لكم فيها خير ﴾ .

(92/524)

وأخرج قاسم بن أصبغ وابن عبد البر في التمهيد ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : يا أيها الناس ضحوا وطيبوا بها نفساً ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من عبد يوجه بأضحيته إلى القبلة ؛ إلا كان دمها وقرنها وصوفها حسنات محضرات في

ميزانه يوم القيامة ، فإن الدم إن وقع في التراب فإنما يقع في حرز الله حتى يوفيه صاحبه يوم القيامة " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم – " اعملوا قليلاً تجزوا كثيراً " .

وأخرج أحمد عن أبي الأشد السملي ، عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أفضل الضحايا أغلاها وأسمنها " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن طاوس قال : " ما أنفق الناس من نفقة أعظم أجراً من دم يهراق يوم النحر ؛ إلا رحماً محتاجة يصلها " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن مجاهد في قوله ﴿ لكم فيها خير ﴾ قال : إن احتاج إلى اللبن شرب ، وإن احتاج إلى الركوب ركب ، وإن احتاج إلى الصوف أخذ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عكرمة قال : قال رجل لابن عباس أيركب الرجل البدنة على غير مثقل ؟ قال : ويحلبها على غير مجهد .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن علي رضي الله عنه قال : يركب الرجل بدنته بالمعروف .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اركبوا الهدي بالمعروف حتى تجدوا ظهراً " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عطاء رضي الله عنه : أن النبي – صلى الله عليه وسلم – رخص لهم أن يركبوها إذا احتاجوا إليها .

وأخرج مالك وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي ، عن أبي هريرة : " أن

النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يسوق بدنة فقال : " اركبها " قال : إنها بدنة . قال : " اركبها ويلك أو يحك " " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن أنس : " أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى رجلاً يسوق بدنة أو هدية فقال : " اركبها " فقال : إنها بدنة - أو هدية . قال : " وإن كانت " " .

(93/524)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في الأضاحي وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه ، عن أبي ظبيان قال : سألت ابن عباس ، عن قوله ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ قال : إذا أردت أن تنحر البدنة ، فاقمها على ثلاث قوائم معقولة ، ثم قل : بسم الله والله أكبر اللهم منك ولك .

وأخرج الفريابي وأبو عبيد وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ صواف ﴾ قال : قياماً معقولة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عمر : أنه نحر بدنة وهي قائمة معقولة إحدى يديها . وقال : ﴿ صواف ﴾ كما قال الله عز وجل .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رجلاً أناخ بدنته وهو ينحرها فقال : ابعثها قياماً مقيدة ؛ سنة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن ابن سابط : أن النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه كانوا يعقلون من البدنة اليسرى ، وينحرونها قائمة على ما هي من قوائمها .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن ابن عمر – رضي الله عنه – أنه كان ينحرها وهي معقولة يدها اليمنى .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن الحسن في البدنة كيف تنحر ؟ قال : تعقل يدها اليسرى وينحرها من قبل يدها اليمنى .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن مجاهد أنه كان يعقل يدها اليسرى إذا أراد أن ينحرها .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عطاء قال : اعقل أي اليدين شئت .

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف والضياء في المختارة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه كان يقرأ ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صوافن ﴾ .

وأخرج ابن الأنباري ، عن مجاهد في قوله ﴿ صوافن ﴾ قال : معقولة على ثلاثة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن الأنباري ، عن قتادة قال : كان عبد الله بن مسعود يقرأ [فاذكروا اسم الله عليها صوافن] أي معقولة قياماً .

وأخرج عبد بن حميد ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه : أنه كان يقرأُها [صوافن] قال : رأيت ابن عمر ينحر بدنته وهي على ثلاثة قوائم قياماً معقولة .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه ، عن مجاهد قال : من قرأها ﴿ صوافن ﴾ قال : معقولة . ومن قرأها ﴿ صواف ﴾ قال : يصف بين يديها . ولفظ عبد بن حميد من قرأها ﴿ صواف ﴾ فهي قائمة مضمومة يديها . ومن قرأها ﴿ صوافن ﴾ قياماً معقولة ، ولفظ ابن أبي شيبة الصواف ، على أربع ، والصوافن على ثلاثة .

وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف وابن أبي حاتم ، عن الحسن أنه كان يقرأُها ﴿ صواف ﴾ قال : خالصة . لله تعالى قال : كانوا يذبحونها لأصنامهم .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن زيد بن أسلم أنه قرأ " فاذكروا اسم الله عليها صوافي " بالياء منتصبة . وقال : خالصة لله من الشرك ، لأنهم كانوا يشركون في الجاهلية إذا نحروها .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ فإذا وجبت ﴾ قال : سقطت على جنبها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ فإذا وجبت ﴾ قال نحرت .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن مجاهد ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ قال : إذا سقطت إلى الأرض .

وأخرج أبو داود والنسائي والحاكم وصححه وأبو نعيم في الدلائل ، عن عبد الله بن قرط قال : قدم إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بدنات خمس أو ست ، فطفقن يزدلفن إليه بأيتهن يبدأ ، فلما وجبت جنوبها قال : من شاء اقتطع .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عمر أنه : كان يطعم من بدنه قبل أن يأكل منها ويقول : ﴿ فكلوا منها وأطعموا ﴾ هما سواء .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن إبراهيم قال : كانوا لا يأكلون من شيء جعلوه لله ، ثم رخص لهم أن يأكلوا من الهدي والأضاحي وأشباهه .

(95/524)

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن علي قال : لا يؤكل من النذر ، ولا من جزاء الصيد ، ولا مما جعل للمساكين .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن سعيد بن جبير قال : لا يؤكل من النذر ، ولا من الكفارة ، ولا مما

جعل للمساكين .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن معاذ قال : أمرنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن نطعم من الضحايا الجار ، والسائل ، والمتعفف .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن ابن عمر : أنه كان بمنى فتلا هذه الآية ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ﴾ وقال : لغلام معه هذه القانع الذي يقنع بما آتيته .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : القانع المتعفف ، والمعتر السائل .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، القانع الذي يقنع بما أوتي ، والمعتر الذي يعترض .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : القانع الذي يجلس في بيته .

وأخرج الطستي في مسائله ، عن ابن عباس : أن نافع بن الأزرق قال له : اخبرني عن قوله ﴿ القانع والمعتر ﴾ قال : القانع الذي يقنع بما أُعطي ، والمعتر الذي يعتر من الأبواب . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر وهو يقول :

على مكثريهم حق من يعتريهم . . . وعند المقلين السماحة والبذل

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية ؟ قال : أما القانع ؛ فالقانع بما أرسلت إليه في بيته . والمعتر الذي يعتريك .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس قال : القانع الذي يسأل ، والمعتر الذي يعترض لولا

يسأل .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ، عن سعيد بن جبير قال : القانع السائل الذي يسأل ، ثم أنشد قول الشاعر :

لمال المرء يصلح فيبقى . . . معاقره أعف من القنوع

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ، عن الحسن قال : القانع الذي يقنع اليك بما في يديك ، والمعتر الذي يتصدى إليك لتطعمه . ولفظ ابن أبي شيبة ، والمعتر الذي يعتريك ، يريك نفسه ولا يسألك .

(96/524)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، والبيهقي في سننه ، عن مجاهد قال : القانع الطامع بما قبلك ولا يسألك ، والمعتر الذي يعتريك ولا يسألك .

وأخرج عبد بن حميد ، عن سعيد بن جبير قال : القانع الذي يسأل فيعطى في يديه ، والمعتر الذي يعتر فيطوف .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير قال : القانع أهل مكة . والمعتر سائر الناس .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن مجاهد قال : القانع السائل ، والمعتر معتر البدن .

وأخرج البيهقي في سننه ، عن مجاهد قال : البائس الذي يسأل بيده إذا سأل ، والقانع الطامع الذي يطمع في ذبيحتك من جيرانك . والمعتر الذي يعتريك بنفسه ، ولا يسألك يتعرض لك .

وأخرج عبد بن حميد ، عن القاسم بن أبي بزة أنه سئل عن هذه الآية ، ما الذي آكل وما الذي أعطي القانع والمعتر ؟ قال : اقسمها ثلاثة أجزاء . قيل : ما القانع ؟ قال : من كان حولك . قيل : وإن ذبح ؟ قال : وإن ذبح . والمعتر : الذي يأتيك ويسألك .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : كان المشركون إذا ذبحوا استقبلوا الكعبة بالدماء ، فينضحون بها نحو الكعبة . فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فأنزل الله ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن جرير قال : كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها .

فقال : أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فنحن أحق أن ننضح . فأنزل الله ﴿ لن ينال الله لحومها ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن جريج قال : النصب ليست بأصنام الصنم يصوّر وينقش ، وهذه حجارة تنصب ثلثمائة وستون حجراً ، فكانوا إذا ذبحوا نضحوا الدم على

ما أقبل من البيت ، وشرحوا اللحم ، وجعلوه على الحجارة . فقال المسلمون : يا رسول الله ، كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم ، فنحن أحق أن نعظمه . فكأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكره ما قالوا . فنزلت ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ﴾ .

(97/524)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مقاتل بن حيان ﴿ لن ينال الله ﴾ قال : لن يرفع إلى الله ﴿ لحومها ولا دماؤها ولكن ﴾ نحر البدن من تقوى الله وطاعته . يقول : يرفع إلى الله منكم : الأعمال الصالحة والتقوى .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن إبراهيم ﴿ ولكن يناله التقوى منكم ﴾ قال : ما التمس به وجه الله تعالى .

وأخرج ابن المنذر ، عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ ولكن يناله التقوى منكم ﴾ يقول : إن كانت من طيب وكنتم طيبين وصل إلي أعمالكم وتقبلتها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في قوله : ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ قال : على ذبحها في تلك الأيام .

وأخرج الحاكم وابن مردويه والبيهقي في الشعب ، عن الحسن قال : أمرنا رسول الله -

صلى الله عليه وسلم – أن نلبس أجود ما نجد ، وأن نتطيب بأجود ما نجد ، وأن نضحي بأسمن ما نجد ، والبقرة عن سبعة ، والجزور عن سبعة ، وأن نظهر التكبير ، وعلينا السكينة والوقار ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(98/524)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ والبدن ﴾ :

العامَّةُ على نصب " البُدْنَ " على الاشتغال . ورُجِّح النصبُ وإن كان مُحْوِجاً لإضمارٍ ، على الرفع الذي لم يُحْوِجْ إليه ، لتقدُّمِ جملةٍ فعليةٍ على جملةِ الاشتغالِ . وقُرِىء برفعِها على الابتداءِ ، والجملةُ بعدها الخبرُ .

والعامَّةُ أيضاً على تسكينِ الدالِ . وقرأ الحسن وتُرْوى نافعٍ وشيخةِ أبي جعفر بضمِّها ، وهما جمعان ل " بَدَنَة " نحو : ثَمَرةٍ وثُمُرٍ وثُمْرٍ . فالتسكينُ يحتمل أن يكونَ تخفيفاً من المضمومِ ، وأَنْ يكونَ أصلاً . وقيل : البُدْنُ والبُدُنُ جمعُ بَدَن ، والبَدَنُ جمعٌ لبَدَنَة نحو : خَشَبَة وخَشَب ، ثم يُجْمع خَشَباً على خُشُب وخُشْب . / وقيل : البُدْنُ اسمٌ مفردٌ لا

جمعٌ يَعْنُون اسمَ جنسٍ . وقرأ ابنُ أبي إسحاق " البُدُنَّ " بضم الباء والدال وتشديد النون . وهي تحتمل وجهين ، أحدُهما : أنَّه قرأ كالحسن ، فوقَفَ على الكلمةِ وضعَّفَ لامَها كقولِهم : " هذا فَرُخْ " ثم أجرى الوصلَ مجرى الوقفِ في ذلك . ويُحتمل أَنْ يكونَ اسماً على فُعُل كـ عُتُلّ .

(99/524)

وسُمِّيَت البَدَنَة بَدَنَةً لأنها تُبْدَنُ أي : تُسَمَّنُ . وهنل تختصُّ بالإبل ؟ الجمهورُ على ذلك . قال الزمخشري : " والبُدْنُ : جمعُ بَدَنَة سُمِّيَتْ لِعظَمِ بَدَنِها ، وهي الإبلُ خاصةً ؛ لأنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ألحق البقرَ بالإبل حين قال : " البَدَنَةُ عن سبعةٍ ، والبقرة عن سبعة " فجَعَلَ البقرَ في حُكْمِ الإبلِ ، صارَت البَدَنَةُ متناوَلَةً في الشريعة للجنسين عند أبي حنيفة وأصحابه ، وإلاَّ فالبُدْنُ هي الإبلُ وعليه تَدُلُّ الآيةُ " . وقيل لا تختصُّ ، فقال الليث : البَدَنَةُ بالهاء تقعُ على الناقةِ والبقرة والبعير وما يجوز في الهَدْي والأضاحي ، ولا تقعُ على الشاة . وقال عطاءٌ وغيرُه : ما أشعر مِنْ ناقة أو بقرةٍ . وقال آخرون : البُدْنُ يُراد به العظيمُ السِّنِّ من الإبل والبقر . ويقال للسَّمين من الرجال . وهو اسمُ جنسٍ مفردٍ .

قوله : ﴿ مِّن شَعَائِرِ اللهِ ﴾ هو المفعولُ الثاني للجَعْل بمعنى التصيير .

قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ الجملةُ حالٌ : إمَّا من " ها " " جَعَلْناها " ، وإمَّا مِنْ شعائر الله . وهذان مبنيَّان على أن الضميرَ في " فيها " هل هو عائدٌ على " البُدْن " أو على شعائر ؟ والأولُ قولُ الجمهورِ .

(100/524)

قوله : ﴿ صَوَآفَّ ﴾ نصبٌ على الحال أي : مُصْطَفَّةً جنبَ بعضِها إلى بعض . وقرأ أبو موسى الأشعري والحسن ومجاهد وزيد بن أسلم " صَوافي " جمعَ صافِيَة أي : خالصةً لوجهِ الله تعالى . وقرأ عمرو بن عبيد كذلك ، إلاَّ أنه نَوَّنَ الياءَ فقرأ " صَوافياً " .

واسْتُشْكِلَتْ من حيث إنه جمعٌ متَناهٍ . وخُرِّجَتْ على وجهين ، أحدُهما : ذكره الزمخشري وهو أَنْ يكونَ التنوينُ عِوَضاً من حرفِ الإِطلاقِ عند الوقف . يعني أنه وَقَفَ على " صَوافي " بإشباع فتحةَ الياءِ فَتَوَلَّد منها أَلِفٌ يُسَمَّى حرفَ الإِطلاق ، ثم عَوَّضَ عنه هذا التنوينَ ، وهو الذي يُسَمِّيه أهلُ النحوِ تنوينَ الترنُّم .

والثاني : أنه جاء على لغةِ مَنْ يَصْرِفُ ما لا يَنْصَرِفُ .

وقرأ الحسنُ " صَوافٍ " بالكسرِ والتنوين . وتوجيهُها : أنه نصبها بفتحة مقدرةٍ ، فصار حكمُ هذه الكلمةِ كحكمِها حالةَ الرفعِ والجرِّ في حَذْفِ الياءِ وتعويض التنوينِ نحو : " هؤلاء

جوارٍ " ، ومررت بجوارٍ . وتقديرُ الفتحةِ في الياءِ كثيرٌ كقولهم : " أعْطِ القوسَ بارِيْها " وقولِه :

3389 كأنَّ أيْدِيهنَّ بالقاعِ القَرِقْ . . . أيديْ جوارٍ يتعاطَيْنَ الوَرِق

وقوله :

3390 وكَسَوْتُ عارٍ لَحْمُه . . . . . .

. . . . . .

ويدلُّ على ذلك قراءةُ بعضِهم " صَوافِيْ " بياءٍ ساكنةٍ من غيرِ تنوينٍ ، نحو : " رأيتُ القاضيْ يا فتى " بسكون الياء . ويجوز أن يكونَ سكَّن الياءَ في هذه القراءةِ للوقفِ ثم أَجْرَى الوصلَ مُجْراه .

وقرأ العبادلة ومجاهدٌ والأعمش " صَوافِنْ " بالنون جمعَ " صَافِنَة " وهي التي تقومُ على ثلاثٍ وطرفِ الرابعة ، إلاَّ أنَّ ذلك إنما يُسْتَعْمَلُ في الخيلِ كقوله : ﴿ الصافنات الجياد ﴾ [ص : 31] ، وسيأتي ، فيكون استعمالُه في الإبلِ استعارةً .

(101/524)

والوجوبُ : السُّقوطُ . وجَبَتِ الشَمسُ أي : سَقَطَتْ . ووجَبَ الجِدارُ أي : سَقَطَ ، ومنه الواجبُ الشرعي كأنه وقع علينا ولَزِمَنا . وقال أوس بن حجر :

3391 ألم تُكْسَفِ الشمسُ شمسُ النَّها . . . رِ والبدرُ للجبل الواجبِ

قوله : " القانِعَ والمعتَّر " فيهما أقوالٌ . فالقانِعُ : السائل والمُعْتَرُّ : المعترضُ من غيرِ سؤالٍ . وقال قومٌ بالعكس . وقال ابن عباس : القانِعُ : المستغني بما أعطيتَه ، والمعترُّ : المعترضُ من غيرِ سؤالٍ . وعنه أيضاً : القانعُ : المتعفّفُ ، والمعترُّ : السائلُ . وقال بعضُهم : القانِعُ : الراضي بالشيءِ اليسيرِ . مِنْ قَنِعَ يَقْنَعُ قَناعةً فهو قانِعٌ . والقَنِعُ : بغير ألفٍ هو السَّائلُ . ذكره أبو البقاء . وقال الزمخشري : " القانِعُ : السَّائلُ . مِنْ قَنِعْتُ وكَنَعْتُ إذا خَضَعْتَ له . وسألتُه قُنُوْعاً . والمُعْتَرُّ : المعترّضُ بغيرِ سؤالٍ ، أو القانِعُ الراضي . بما عندَه ، وبما يعطى ، من غيرِ سؤالٍ . مِنْ قَنِعْتُ قَنَعاً وقَناعة . والمعترُّ : المتعرض بالسؤال " . انتهى . وفرَّق بعضهم بين المعنيين بالمصدر فقال : قَنِعَ يَقْنَع قُنوعاً أي سأل ، وقَناعة أي : تعفَّف ببُلْغَته واستغنى بها . وأنشد للشماخ :

3392 لَمالُ المَرْءِ يُصْلِحُه فيُغْني . . . مَفاقِرَه أَعَفُّ من القُنوعِ

وقال ابن قتيبة : " المُعْتَرُّ : المتعرِّضُ من غير سؤال . يُقال : عَرَّه/ واعتَرَّه وعَراه واعْتَراه أي : أتاه طالباً معروفَه قال :

3393 لَعَمْرُكَ ما المُعتَرُّ يَغْشى بلادَنا . . . لِنَمْنَعَه بالضائعِ المُتَهَضَّمِ

وقوله الآخر :

3394 سَلي الطارِقَ المعترَّيا أمَّ مالِكٍ . . . إذا ما اعْتَراني بينَ قِدْري ومَجْزَري

(102/524)

وقرأ أبو رجاء " القَنِع " دون ألف . وفيها وجهان ، أحدهما : أنَّ أصلَها " القانِع " فَحَذَفَ الألف كما قالوا : مِقْوَل ومِخْيَط وجَنَدِل وعُلَبط في : مِقْوال ومِخْياط وجَنادل وعُلابط .

والثاني : أن القانِعَ هو الراضي باليسير ، والقَنِع : السائلُ ، كما تقدَّم تقريره ، قال الزمخشري : " والقَنِعُ : الراضي لا غير " .

وقرأ الحسن : " والمُعْتري " اسمُ فاعلٍ مِنْ اعْتَرى يَعْتري . وقرأ إسماعيل وتروى عن أبي رجاء والحسن أيضاً " والمُعْتَرِ " بكسر الراء اجتزاءً بالكسرة عن لامِ الكلمة .

وقُرِىء " المُعْتَرِيَ " بفتح الياء . قال أبو البقاء : " وهو في معناه " أي : في معنى " المعترّ " في قراءة العامَّة .

و[قوله :] ﴿ كذلك سَخَّرْنَاهَا ﴾ الكافُ نعتُ مصدرٍ أو حالٌ من ذلك المصدر .

لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)

وكذلك قوله : ﴿ كذلك سَخَّرَهَا ﴾ : و ﴿ لِتُكَبِّرُواْ ﴾ : متعلقٌ به . ﴿ على مَا هَدَاكُمْ ﴾ متعلقٌ بالتكبير . عُدِّيَ ب " على " لتضمُّنِه معنى الشكر .

قوله : ﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا ﴾ : العامَّةُ على القراءةِ بياءِ الغَيْبة في الفعلين ؛ لأنَّ التأنيثَ مجازي وقد وُجد الفصلُ بينهما . وقُرِىء بالتاء فيهما اعتباراً باللفظ . وقرأ زيد بن علي " لحومَها ولا دماءَها " بالنصب ، والجلالةُ بالرفع ، و " لكن يُنالُه " بضم الياء ، على أن يكونَ القائمَ مقامَ الفاعلِ ، " التقوى " ، و " منكم " حالٌ من " التقوى " ، ويجوز أن يتعلَّقَ بنفسِ " تَنالُه " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 275. 281 ﴾

(103/524)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى وجب)

مادّته تدلّ على سُقوط الشىء ووقوعه ، تقول : وَجَبَ الشىء : إذا لَزِمَ ، يَجِبُ وُجُوباً .

وفى كتاب يافع ويَفَعة : وَجَبَ البَيْع وَجُوباً بفتح الواو كالقَبُول والوَلُوع وجِبَةً كِعَدة .

ووَجَبَ القَلْبُ وَجِيباً : اضْطَرَبَ .

ووَجُبَ الرَّجُل كَكَرُم وُجُوبَةً : جَبُنَ .

والوَجْبُ : الجَبانُ ، قال الأَخطل :

*عَمُوس الدُّجَى يَنْشَقُّ عن مُتَضَرِّمٍ * طَلُوب الأَعادِى لا سَؤُوم ولا وَجْبِ*

والوَجْبَةُ : السَّقْطَة قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ ، أَى سقطت إلى الأَرضِ ،

ومنه : خرجَ القومُ إلى مَواجبِهم ، أَى مصارِعِهم .

وَوَجَبَ المَيّتُ : إذا سَقَطَ ومات ، وفى الحديث : "دَعْهُنَّ فإذا وَجَبَ فلا تَبْكِيَنَّ باكِيَةٌ ،

فقيل ما الوُجوبُ ؟ قال : إذا مات" .

ويُقال للقَتِيل واجِبٌ ، قال قَيْس بن الخطيم الأَنصارىّ :

*أَطاعَتْ بنُو عَوْف أَمِيراً نهاهُمُ * عن السِّلْمِ حَتَّى كان أَوَّلَ واجِبِ*

وأَوْجَبَ الله الشىءَ على عِباده : فَرَضَه .

والواجِبُ يقال على أَوْجُه : يقال فى مُقابَلَة المُمْكِن وهو الحاصِلُ الَّذى إذا قُدِّرَ كَوْنُه مرتفعاً

حَصَل منه مُحالٌ ، نحوُ وجُودِ الواحِد مع وُجودِ الاثْنَيْن ، فإِنَّه مُحالٌ أَن يرتفع الواحدُ مع

حصول الاثْنين .

الثانى : يُقال الَّذِى إذا لم يُفْعَلْ يُستحقُّ [به] اللَّوْمُ ، وذلك ضَرْبان : واجبٌ من جهة العَقْل

كوُجوب معرفةِ الوَحْدانية والنُبُوَّة ، وواجبٌ من جهة الشَّرْع كوُجوب العِبادات المُوَظَّفة .

وقيل : الواجِبُ يُقال على وَجْهَين : أَحدُهما يُراد به اللازِمَ الوجوب ، فإِنَّه لا يصحّ أَن لا

يكون موجوداً ، كقولنا فى الله تعالى إنّه واجبٌ وُجوده .

والثانى الواجبُ بمعنى أَنَّ حَقَّه أَنْ يُوجَدَ .

(104/524)

وقولُ الفُقَهاء : الواجِبُ الذى يستحق تارِكُه العِقابَ وصْفٌ له بشىء عارِض له ، ويَجْرى مَجْرَى مَنْ يقول : الإِنسانُ الذى إِذا مَشَى مَشَى على رِجْلَيْن .

وأَوْجَبَ الرّجلُ : إِذا عَمِلَ عَمَلاً يُوجِبُ الجَنَّةَ أَو النَّار .

ويُقال للحَسَنَة والسّيّئة مُوجِبَةٌ .

وفى الدُّعاءِ النَّبوىّ : "اللَّهُمَّ إِنِّى أَسأَلُك مُوجِباتِ رَحْمَتِك" وقيل/ للنبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم "إِن صاحِباً لنا قد أَوْجَبَ فقال : مُرُوهُ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً" أَى ارتكب كبيرةً وَجَبت له النَّارُ .

وفى حديثه الآخر : "أَوْجَبَ ذو الثلاثَةِ والاثْنَين" أَى الذى أَفْرَطَ من وَلَده ثلاثةً أَو اثنين .

والكلمة المُوجِبَةُ لا إِله إِلاَّ الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 160 .

﴿161

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾

أقسام الخير فيها كثيرة بالركوب والحَمْل عليها (وشرب ألبانها وأكل لحومها والانتفاع بوبرها ثم الاعتبار بخِلْقَتِها كيف سُخِّرت للناس على قوتها وصورتها ، ثم كيف تنقاد للصبيان في البروكِ عند الحَمْل عليها وركوبها والنزول منها ووضع الحمل عنها وصبرها على العطش في الأسفار ، وعلى قليل العَلَف ، ثم ما في طبْعِها من لُطفِ الطبع ، وحيث تستريح بالحُدَاء مع كثافة صورتها إلى غير ذلك .

﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ : أي سقطت على وجه الأرض في حال النَّحْرِ فأطعموا القانع الذي ألقى جلباب الحياء وأظهر فقره للناس ، والمُعْتَرَّ الذي هو في تَحَمَّله مُتَحَمِّلٌ ، ولمواضِع فاقته كاتم .

لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)

لا عِبْرَةَ بأعيان الأفعال سواء كانت بدنيةً محضة ، أو ماليةً صِرْفة ، أو بما له تعلُّق بالوجهين ، ولكن العبرة باقترانها بالإخلاص فإذا انصافَ إلى أكسابِ الجوارح إخلاصُ القصود ، وتَجَرَّدَتْ عن ملاحظة أصحابِها للأغيارَ صَلُحَتْ للقبول .

ويقال التقوى شهودُ الحقّ بنَعْتِ التفرُّدِ ؛ فلا يُشَابُ تَقَرُّبُكَ بملاحظةِ أحدٍ ، ولا تأخذ عِوَضاً على عملٍ من بَشَرٍ .

﴿ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ : أي هداكم وأرشدكم إلى القيام بحقِّ العبودية على قضية الشرع .

﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : والإحسان كما في الخبر : " أن تعبد الله كأنك تراه . . " .

وأمارةُ صحته سقوطُ التعب بالقلبِ عن صاحبهِ ، فلا يستثقلُ شيئاً . ولا يتبرم بشيءٍ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 545.546 ﴾

(106/524)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ هذان خَصْمَانِ ﴾

يعني : أهل دينين ﴿ اختصموا فِى رَبِّهِمْ ﴾ ، يعني : احتجوا في دين ربهم .

قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه نزلت هذه الآية في الذين بارزوا يوم بدر ، يعني : حمزة ، وعلي بن أبي طالب ، وعبيدة بن الحارث من المؤمنين رضي الله عنهم وشيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة من المشركين ، يعني : أن المؤمنين يخاصمون الكفار ويجاهدونهم ويقاتلونهم .

ثم بيَّن مصير كلا الفريقين بقوله : ﴿ فالذين كَفَرُواْ ﴾ ؛ وقال مجاهد : ﴿ هذان خَصْمَانِ ﴾ ، يعني : المؤمنين والكافرين اختصما في البعث ، فالكافرون ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ ، والمؤمنون يدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار ، وقال عكرمة : ﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا ﴾ ، أي اختصمت الجنة والنار ، فقالت الجنة : خلقت للرحمة ، وقالت النار : خلقت للعذاب .

وروي عن ابن عباس أنه قال : ﴿ هذان خَصْمَانِ ﴾ ، وذلك أن اليهود قالوا : كتابنا ونبينا أفضل ، وقالت النصارى : ونبينا كان يحيي الموتى وهو أفضل من نبيكم ، فنحن أولى بالله ؛ وقال المؤمنون : نحن آمنا بالله وبجميع الأنبياء عليهم السلام وبجميع الكتب ، وأنتم كفرتم ببعض الرسل وببعض الكتب ، فديننا أولى من دينكم ، فنزل : ﴿ هذان خَصْمَانِ ﴾ الآية ؛ وقال : ﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا ﴾ ، ولم يقل اختصما ، لأن كل واحد من الخصمين جمع .

قرأ ابن كثير ﴿ هذان ﴾ بتشديد النون ، والباقون بالتخفيف .

وفي الآية دليل أن الكفر كله ملة واحدة ، لأنه ذكر ستة ملل من الأديان .

ثم قال : ﴿ هذان خَصْمَانِ ﴾ ثم بيَّن مصير كلا الفريقين ، فقال : ﴿ فالذين كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ ، أي جحدوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، هيئت لهم ثياب أي قُمُصٌ من نار ، ويقال : نحاس .

(107/524)

﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الحميم ﴾ ؛ قال مقاتل : يضرب الملك رأسَه بالمقمع ، فيثقب رأسه .

ثم يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، الذي قد انتهى حَرُّهُ .

﴿ يُصْهَرُ ﴾ به ، يعني : يذاب به ﴿ مَا فِى بُطُونِهِمْ والجلود ﴾ ، يعني : تنضج الجلود فتسلخ .

﴿ وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ ، يضرب بها هامتهم ، ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ ﴾ ، يعني : من الغم والشدة التي أدركته ، ضرب بمقمعة من حديد ، فيهوي بها كذلك .

فذلك قوله : ﴿ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ ، أي ردوا إليها .

﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق ﴾ ، أي المحرق ، يعني : يقال لهم : ذوقوا عذاب النار ؛ وهذا الجزاء لأحد الخصمين .

ثم بين جزاء الخصم الآخر ، فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ ، يعني : يلبسون في الجنة .

﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ ، يعني : أقلبة .

﴿ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ﴾ .

قرأ نافع وعاصم في رواية حفص ﴿ وَلُؤْلُؤاً ﴾ بالهمز والنصب ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر هكذا إلا أنه لم يهمز الواو الأولى ؛ وقرأ الباقون بالهمز والكسر .

فمن قرأ بالكسر ، فلأجل مِنْ ، ومن قرأ بالنصب فمعناه يحلون .

لؤلؤاً نصب لوقوع الفعل عليه ، وهو اختيار أبي عبيد .

ثم قال : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ، أي في الجنة .

قوله عز وجل : ﴿ وَهُدُواْ إِلَى الطيب مِنَ القول ﴾ ، يعني : أرشدوا ؛ ويقال : دعوا إلى قول التوحيد ، لا إله إلا الله ، ويقال : القرآن .

﴿ وَهُدُواْ إلى صراط الحميد ﴾ ، يعني : الطريق المحمود في أفعاله وهو دين الإسلام .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : أهل مكة .

﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ ، يعني : صرفوا الناس عن دين الإسلام .

﴿ والمسجد الحرام ﴾ ؛ يعني : وعن المسجد الحرام .

(108/524)

وهذه الآية مدنية ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج مع أصحابه من الحديبية ، منعهم المشركون عن المسجد الحرام .

ثم وصف المسجد الحرام ، فقال : ﴿ الذى جعلناهُ لِلنَّاسِ سَوَاء ﴾ ، يعني : عاماً للمؤمنين جميعاً ﴿ العاكف فِيهِ والباد ﴾ ، يعني : سواء المقيم في الحرم ، ومن دخل مكة من غير أهلهما ؛ ومعناه المقيم والغريب فيه سواء ؛ ويقال : في تعظيمه وحرمته ؛ ويقال : المسجد الحرام أراد به جميع الحرم المقيم وغيره ، في حق النزول سواء .

وقال عمر رضي الله عنه : يا أهل مكة ، لا تتخذوا لدوركم أبواباً ، لينزل البادي حيث يشاء .

ولهذا قال أبو حنيفة : إن بيع دور مكة لا يجوز .

وفي إحدى الروايتين يجوز ، وهذا قول أبي يوسف ، والأول قول محمد .

قرأ عاصم في رواية حفص ﴿ سَوَآء ﴾ بالنصب ، يعني : جعلناه سواء ، وقرأ الباقون ﴾

سَوَآء ﴾ بالضم على معنى الابتداء .

ثم قال : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ﴾ ، وهو الظلم والميل عن الحق ؛ ويقال : أصله ومن يرد فيه إلحاداً ، فزيد فيه الباء ، كما قال : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ ، ويقال : من اشترى الطعام بمكة للاحتكار ، فقد ألحد .

﴿ بِظُلْمٍ ﴾ ، يعني : بشرك أو بقتل .

﴿ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، أي مؤلم .

قال الزجاج : الإلحاد في اللغة العدول عن القصد ، وقال مقاتل : نزلت الآية في عبد الله بن أنيس بن خطل القرشيّ ، وذلك أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعث رجلين أحدهما مهاجريّ ، والآخر أنصاريّ ، فافتخرا في الأنساب ، فغضب عبد الله بن أنس ، فقتل الأنصاري ، ثم ارتد عن الإسلام ، وهرب إلى مكة .

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة بقتله ، فقتل .

قرأ أبو عمرو : ﴿ وَالبَادِي ﴾ بالياء عند الوصل ، وكذلك نافع في رواية ورش ، وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر بغير ياء في الوصل والقطع ، وقرأ ابن كثير بالياء في الوصل والقطع .

وهو الأصل في اللغة .

ومن أسقطه ، لأن الكسر يدل عليه .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ البيت ﴾ ، قال مقاتل : يعني : دللنا لإبراهيم موضع البيت ، فبناه مع إسماعيل عليهما السلام ولم يكن له أثر ولا أساس البيت ، لأن البيت كان أيام الطوفان مرفوعاً ، قد رفعه الله إلى السماء وهو البيت المعمور ؛ وقال الكلبي : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا ﴾ أي جعلنا لإبراهيم مكان البيت يتكلم ، فيقول : بموضع البيت .

جعله الله منزلاً لإبراهيم ، بعث الله تعالى سحابة على قدر البيت فيها رأس يتكلم ، فيقول : يا إبراهيم ، ابن على قدري وحيالي ، فأسس عليها البيت ، وذهبت السحابة .

ثم بناه حتى فرغ منه ، فأوحى الله تعالى إليه : ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً ﴾ ؛ وقال أبو قلابة : بناه من خمسة أجبل : حراء ، وثبير ، وطور سيناء ، ولبنان ، وجبل أحد ؛ وقال الزجاج : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا ﴾ ، أي جعلنا مكان البيت مبوأ لإبراهيم .

والمبوأ المنزل ، يعني أن الله تعالى علم إبراهيم عليه السلام مكان البيت ، فبناه على أسه القديم ، وكان البيت قد رفع إلى السماء .

قال : ويروى أن البيت الأول كان من ياقوتة حمراء .

وروي عن ابن عباس أنه قال : رفع السماء إلى السادسة ، يطوف به كل يوم سبعون ألف

ملك ، وهو بجبال الكعبة .

ثم قال : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ ، يعني : أوحى الله تعالى إلى إبراهيم أن طهر بيتي من النجاسات ومن عبادة الأوثان ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ ، يعني : لأجل الطائفين بالبيت من غير أهل مكة ﴿ والقائمين ﴾ ، يعني : المقيمين من أهل مكة ﴿ والركع السجود ﴾ ، يعني : أهل الصلاة بالأوقات من كل وجه .

ثم قال الله عز وجل : ﴿ وَأَذِّن فِي الناس بالحج ﴾ ، يعني : ناد في الناس ، وذلك أن إبراهيم لما فرغ من بناء الكعبة ، أمره الله تعالى أن ينادي ، فصعد إبراهيم على أبي قبيس ونادى : يا أيها الناس ، أجيبوا ربكم .

(110/524)

إن الله تعالى قد بنى بيتاً وأمركم بأن تحجوه ؛ وقال مجاهد : فقام إبراهيم على المقام ، فنادى بصوت أسمع من بين المشرق والمغرب : يا أيها الناس ، أجيبوا ربكم ، فأجابوه من أصلاب الرجال : لبيك .

قال : فإنما يحج من أجاب إبراهيم يومئذٍ ؛ ويقال : التلبية اليوم جواب الله عز وجل من نداء إبراهيم عن أمر ربه ، فذلك قوله : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ ، يعني : على أرجلهم مشاة ﴿

وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ ، يعني : على الإبل وغيرها .

فلا يدخل بعيره ولا غيره الحرم ، إلا وقد ضمر من طول الطريق .

﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ ، أي من نواحي الأرض ﴿ عَمِيقٍ ﴾ ، يعني : بعيد .

وقال مجاهد : الفج الطريق ، والعميق البعيد ، وقال : إن إبراهيم وإسماعيل .

عليهما السلام حجا ماشيين ؛ وقال ابن عباس : ما آسى على شيء ، إلا أني وددت أني كنت حججت ماشياً ، لأن الله تعالى قال : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ .

قال الفقيه أبو الليث : هذا إذا كان بيته قريباً من مكة ؛ فإذا حج ماشياً ، فهو أحسن .

وأما إذا كان بيته بعيداً ، فالركوب أفضل .

وروي عن أبي حنيفة رحمه الله أنه قال : الراكب أفضل ، لأن في المشي يتعب نفسه ويسوء خلقه .

وإن كان الرجل يأمن على نفسه أن يصبر ، فالمشي أفضل ، لأنه روي في الخبر أن الملائكة عليهم السلام تتلقى الحاج ، فيسلمون على أصحاب المحامل ، ويصافحون أصحاب البعير والبغال والحمير ويعانقون المشاة .

ثم قال عز وجل : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ منافع لَهُمْ ﴾ ، يعني : الأجر في الآخرة في مناسكهم ؛ ويقال : وليحضروا مناحرهم وقضاء مناسكهم .

﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله ﴾ ، يعني : ولكي يذكروا الله ﴿ فِى أَيَّامٍ معلومات ﴾ ، يعني : يوم النحر ويومين بعده ؛ وقال مجاهد وقتادة : المعلومات أيام العشر ، والمعدودات أيام التشريق ؛ وقال سعيد بن جبير : كلاهما أيام التشريق ؛ ويقال : المعلومات أيام النحر ، والمعدودات أيام التشريق ، وهو طريق الفقهاء وأشبه بتأويل الكتاب ، لأنه ذكر في أيام معلومات الذبح ، وذكر في أيام معدودات الذكر عند الرمي ، ورخص بتركه في اليوم الآخر بقوله : ﴿ واذكروا الله فى أَيَّامٍ معدودات فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتقى واتقوا الله واعلموا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البقرة : 203] .

ثم قال : ﴿ على مَا رَزَقَهُمْ مّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ ، يعني : ليذكروا اسم الله عند الذبح والنحر على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، وهو البقر والإبل والغنم .

ثم قال : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ ، يعني : من لحوم الأنعام ، ﴿ وَأَطْعِمُواْ البائس الفقير ﴾ ؛ يعني : الضرير والزمن والفقير ، الذي ليس له شيء ؛ وقال الزجاج : البائس الذي أصابه البؤس وهو الشدة .

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ ، يعني : مناسكهم ؛ وقال مجاهد : التفث حلق الرأس وتقليم الأظفار .

وروي عن عطاء ، عن ابن عباس وقال : التفث : الرمي ، والحلق ، والتقصير ، وحلق

العانة ، ونتف الإبط ، وقص الأضافير ، والشارب ، والذبح .

وروى نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنه قال : التفث : ما عليه من المناسك ؛ وقال الزجاج : التفث ، لا يعرف أهل اللغة ما هو ؛ وإنما عرفوا في التفسير ، وهو الأخذ من الشارب ، وتقليم الأظافر ، والأخذ من الشعر ، كأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال .

ثم قال : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ ، يقول : من كان عليه نذر في الحج والعمرة مما أوجب على نفسه من هدي أو غيره ؛ فإذا نحر يوم النحر ، فقد أوفى بنذره .

(112/524)

ثم قال : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بالبيت العتيق ﴾ ، يعني : طواف الزيارة ، بعد ما حلق رأسه أو قصر ؛ وقال مقاتل : ﴿ العتيق ﴾ يعني : عتقه في الجاهلية من القتل والسبي والجراحات ، وغيرها ؛ وقال الحسن : ﴿ العتيق ﴾ يعني : القديم ، كما قال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى للعالمين ﴾ [آل عمران : 96] ؛ وقال مجاهد : عتيق ، يعني : أعتق من الجبابرة ، ويقال : أعتق من الغرق يوم الطوفان ؛ وهذا قول الكلبي ؛ وقرأ حمزة والكسائي وعاصم : ﴿ لْيَقْضُوا ﴾ بجزم اللام وكذلك ﴿ وَلْيُوفُوا ﴾ ؛ وقرأ أبو عمرو الثلاثة كلها بالكسر ، بمعنى لام كي ؛ وقرأ ابن كثير بكسر اللام الأولى خاصة .

فمن قرأ بالجزم، جعلها أمر الغائب؛ ومن قرأ بالكسر، جعله خبراً عطفاً على قوله: ﴿ لِّيَذْكُرُواْ ﴾.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ وَلْيُوفُواْ ﴾ بنصب الواو وتشديد الفاء، وقرأ الباقون بالتخفيف من أوفى يوفي، والأول من وفَّى يوفّي؛ ومعناهما واحد.

ثم قال عز وجل: ﴿ ذلك ﴾، يعني: هذا الذي ذكر من أمور المناسك.

ثم قال: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حرمات الله ﴾، يعني: أمر المناسك كلها، ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾؛ يعني: أعظم لأجره، ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام ﴾؛ يعني: الإبل والبقر والغنم وغيره.

﴿ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ في التحريم في سورة المائدة.

﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الاوثان ﴾، يعني: اتركوا عبادة الأوثان، ﴿ واجتنبوا ﴾؛ يعني: اتركوا ﴿ قَوْلَ الزور ﴾، يعني: الكذب؛ وهو قولهم: هذا حلال وهذا حرام؛ ويقال: معناه اتركوا الشرك؛ ويقال: اتركوا شهادة الزور.

ثم قال عز وجل: ﴿ حُنَفَاء للَّهِ ﴾، يعني: مخلصين مسلمين لله؛ ويقال: معناه كونوا مخلصين بالتلبية، لأن أهل الجاهلية كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك.

ويقال : إن هذا القول بالزور الذي أمرهم الله باجتنابه .

ثم قال : ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السماء ﴾ ، أي وقع من السماء ، ﴿ فَتَخْطَفُهُ الطير ﴾ ، يعني : تختلسه الطير ، ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ الريح ﴾ ، يعني : تذهب به الريح ﴿ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ ، يعني : بعيد ؛ فكذلك الكافر في البعد من الله عز وجل ؛ ويقال : معناه من يشرك بالله ، فقد ذهب أصله .

وقال الزجاج : الخطف هو أخذ الشيء بسرعة ، فهذا مثل ضربه الله عز وجل للكافرين في بعدهم من الحق ، فأخبر أن بعد من أشرك من الحق ، كبعد من خر من السماء ، فذهبت به الطير وهوت به الريح في مكان ﴿ سَحِيقٍ ﴾ ، يعني : بعيد .

قرأ نافع : ﴿ فَتَخْطَفُهُ الطير ﴾ بنصب الخاء والتشديد ، وقرأ الباقون بالجزم والتخفيف من خطف .

ومن قرأ بالتشديد ، فلأن أصله فتخطفه فأدغم التاء في الطاء ، وألقيت حركة التاء على الخاء .

ثم قال عز وجل : ﴿ ذلك ﴾ ، يقول هذا الذي أمر من اجتناب الأوثان .

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شعائر الله ﴾ ، يعني : البدن فيذبح أعظمها وأسمنها .

وروي عن ابن عباس أنه قال : تعظيمها استعظامها ، وأيضاً استسمانها واستحسانها .

ثم قال : ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ ، يعني : من إخلاص القلوب ؛ ويقال : من صفاء القلوب ، وشعائر الله : معالم الله ودينه ، ندب الله إليها وأمر بالقيام بها ، وواحدها شعيرة .

قوله عز وجل : ﴿ لَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ ، يعني : في البدن ؛ وقال مجاهد : يعني : في ركوبها وشرب ألبانها وأوبارها .

﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، يعني : إلى أجَلٍ مسمًّى بدناً ، فمحلها إلى البيت العتيق .

وروي عن ابن عباس نحو هذا قول بعض الناس : إنه يجوز ركوب البدن ؛ وقال أهل العراق : لا يجوز إلا عند الضرورة ، ويضمن ما نقصها الركوب ، وهذا القول أحوط الوجهين .

﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إلى البيت العتيق ﴾ ، يعني : منحرها في الحرم .

(114/524)

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " جَمِيعُ فِجَاجِ مَكَّةَ مَنْحَرٌ " .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ ، أي لكل أهل دين ؛ ويقال : لكل قوم من المؤمنين فيما خلا ، ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ ؛ يعني : ذبحاً لهراقة دمائهم ؛ ويقال : مذبحاً يذبحون فيه .

قال الزجاج : معناه جعلنا لكل أمة أن تتقرب بأن تذبح الذبائح لله تعالى .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ مَنسَكًا ﴾ بكسر السين ، وقرأ الباقون بالنصب .

فمن قرأ بالكسر ، يعني : مكان النسك ؛ ومن قرأ بالنصب ، فعلى المصدر ؛ وقال أبو عبيد : قراءتنا هي بالنصب لفخامتها .

ثم قال : ﴿ لِّيَذْكُرُواْ اسم الله على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ ، يعني : يذكرون اسم الله تعالى عند الذبح .

﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ ، أي ربكم رب واحد .

﴿ فَلَهُ أَسْلِمُواْ ﴾ ، يعني : أخلصوا بالتسمية عند الذبيحة وفي التلبية .

﴿ وَبَشِّرِ المخبتين ﴾ ، يعني : المخلصين بالجنة ؛ ويقال : ﴿ المخبتين ﴾ المجتهدين في العبادة والسكون فيها .

قال قتادة : المخبتون المتواضعون ؛ وقال الزجاج : أصله من الخبت من الأرض ، وهو المكان المنخفض من الأرض ؛ ويقال : المخبت الذي فيه الخصال التي ذكرها الله بعده ، وهو قوله : ﴿ الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، يعني : خافت قلوبهم ﴿ والصابرين على مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من أمر الله من المرازي والمصائب ﴿ الذين إِذَا ﴾ يعني : يقيمونها بمواقيتها ، ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ ؛ يعني : يتصدقون وينفقون في الطاعة .

ثم ذكر البدن ، يعني : ينحرون البدن .

فهذه الخصال الحسنة صفة المخبتين .

قوله عز وجل : ﴿ والبدن جعلناها لَكُمْ ﴾ ؛ قرأ بعضهم : ﴿ والبدن ﴾ بضم الدال

والباء ، وقراءة العامة بسكون الدال والمعنى واحد .

﴿ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ ، يعني : جعلنا البدن من مناسك الحج .

﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ ، يعني : في نحرها أجر في الآخرة ومنفعة في الدنيا .

(115/524)

﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ ، يعني : إذا نحرتم ، فاذكروا اسم الله عليها ﴿ صَوَافَّ ﴾ أي قائمة قد صفت قوائمها .

والآية تدل على أن الإبل تنحر قائمة .

وروي عن عبد الله بن عمر ، أنه أمر برجل قد أناخ بعيره لينحره ، فقال له : انحره قائماً ، فإنه صفة أبي القاسم صلى الله عليه وسلم ، وروي عن ابن مسعود ، وابن عباس أنهما كانا يقرآن ﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا ﴾ ، والصوافن التي تقوم على ثلاثة قوائم ، إذا أرادوا نحره ، تعقل إحدى يديه فهو الصافن ، وجماعته صوافن ؛ وقال مجاهد : من قرأ صوافن ، قال : قائمة معقولة .

من قرأها صواف ، قال يصف بين يديها .

وروي عن زيد بن أسلم أنه قرأ ﴿ صوافي ﴾ بالياء منتصبة ، ويقال : خالصة من الشرك ؛

وروي عن الحسن مثله وقال : خالصة لله تعالى ، وهكذا روى عنهما أبو عبيدة ، وحكى القتبي عن الحسن قال : كان يقرأ ﴿ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ مثل قاض وغاز أي خالصة لله تعالى ، يعني : لا تشرك به في حال التسمية على نحرها .

ثم قال : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ ، يعني : إذا ضربت بجنبيها على الأرض بعد نحرها ، يقال : وجب الحائط إذا سقط ، ووجب القلب إذا تحرك من الفزع ؛ ويقال : وجب البيع إذا أبرم .

﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ القانع والمعتر ﴾ ، فالقانع الراضي الذي يقنع بما أعطي وهو السائل والمعتر الذي يتعرض للمسألة ولا يتكلم ؛ ويقال : القانع المتعفف الذي لا يسأل ويقنع بما أرسلت إليه والمعتر : السائل الذي يعتريك للسؤال .

وقال الزهري : السنة أن يأكل الرجل من لحم أضحيته قبل أن يتصدق ، وروي عن عطاء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لِيَأْكُلْ أَحَدُكُمْ مِنْ لَحْمِ أُضْحِيَتِه " .

وروى منصور ، عن إبراهيم قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم ، فرخص للمسلمين بقوله : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا فَمَن شَاء أَكَلَ وَمَن شَاء لَمْ يَأْكُلْ ﴾ .

(116/524)

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله : والأفضل أن يتصدق بثلثه على المساكين ، ويعطي ثلثه للجيران والقرابة أغنياء كانوا أو فقراء ويمسك لنفسه ثلثه .

وروي عن ابن مسعود نحو هذا .

وروي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن القانع والمعتر ، فقال : القانع الذي يقنع بما أعطي ، والمعتر الذي يعتري بالأبواب ، قال : أما سمعت قول زهير :

عَلَى مُكْثِرِيهِمُ حَقُّ مَنِ يَعتَرِيهِم .

. . وَعِنْدَ المُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالبَذْلُ

وقال مجاهد : القانع جارك وإن كان غنياً .

ثم قال تعالى : ﴿ كذلك سخرناها لَكُمْ ﴾ ، أي ذللناها لكم وهي البدن .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ، يعني : لكي تشكروا رب النعمة .

قوله عز وجل : ﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا ﴾ ، وذلك أن أهل الجاهلية ، كانوا إذا نحروا البدن عند زمزم ، أخذوا دماءها ، ولطخوها حول الكعبة ، وعلقوا لحومها بالبيت ، وقالوا : اللهم تقبل منا .

فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فنزل : ﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا ﴾ ، يعني : لن يصل إلى الله عز وجل لحومها ولا دماؤها .

﴿ ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ ﴾ ، أي يصل إليه التقوى من أعمالكم الزاكية والنية الخالصة .

قرأ الحضرمي : ﴿ لَن تَنَالُواْ اللهَ ﴾ بالتاء ، لأن لفظ اللحوم مؤنثة ، ولكن تناله بالتاء ، لأن لفظ التقوى مؤنث ، وقراءة العامة بالياء ، وانصرف إلى المعنى ، لأن الفعل مقدم .

ثم قال : ﴿ كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ ، يعني : ذلَّلها لكُم ، ﴿ لِتُكَبِّرُواْ اللهَ ﴾ ؛ يقول : لتعظموا الله ﴿ على مَا هَدَاكُمْ ﴾ ، يعني : أرشدكم لأمر دينه .

﴿ وَبَشِّرِ المحسنين ﴾ بالجنة ، فمن فعل ما ذكر في هذه الآيات ، فهو محسن ؛ ويقال : المحسن الذي يحسن الذبيحة فيختار بغير عيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 461.453 ﴾

(117/524)

وقال الثعلبى :

﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا فِي رَبِّهِمْ ﴾

أي في دينه وأمره ، والخصم اسم شبيه بوصف المصدر فلذلك قال : اختصموا ، نظيرها ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ [ص : 21] .

واختلف المفسّرون في هذين الخصمين من هما ؟ فروى قيس بن عبّاد أنّ أبا ذرّ الغفاري كان يقسم بالله سبحانه أُنزلت هذه الآية في ستّة نفر من قريش تبادروا يوم بدر : حمزة بن

عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة وعبيدة بن الحارث ، قال : وقال علي : إنّي لأوّل من يجثو للخصومة يوم القيامة بين يدي الله سبحانه وتعالى ، وإلى هذا القول ذهب هلال بن نساف وعطاء بن يسار . وقال ابن عباس : هم أهل الكتاب قالوا للمؤمنين : نحن أولى بالله وأقدم منكم كتاباً ونبيّنا قبل نبيكم ، وقال المؤمنون : نحن أحقّ بالله ، آمنّا بمحمد صلى الله عليه وسلم وآمنّا بنبيّكم وبما أنزل الله سبحانه من كتاب ، فأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً ، وكان ذلك خصومتهم في ربّهم .

وقال مجاهد وعطاء أبن أبي رباح وعاصم بن أبي النجود والكلبي : هم المؤمنون والكافرون كلّهم من أيّ ملّة كانوا .

(118/524)

وقال عكرمة : هما الجنة والنار اختصمتا فقالت النار : خلقني الله سبحانه وتعالى لعقوبته ، وقالت الجنّة : خلقني الله عزّ وجلّ لرحمته ، فقد قصّ الله عليك سبحانه من خبرهما ما تسمع ، ودليل هذا التأويل ما أخبرنا أبو سعيد بن حمدون رحمه الله بقراءتي عليه قال : أخبرنا أبو حامد ابن الشرقي قال : حدّثنا محمد بن يحيى الذهلي وعبد الرَّحْمن بن بشر

العبدي وأحمد بن يوسف السلمي قالوا : حدّثنا عبد الرزاق بن همام الحميري قال : أخبرنا معمر بن راشد عن همام بن منبه قال : هذا ما حدّثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " تحاجّت الجنة والنار فقالت النار : أوثرتُ بالمتكبّرين المتجبّرين ، وقالت الجنة : لا يدخلني إلاّ ضعفاء الناس وسقاطهم ، فقال الله سبحانه للجنة : إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنتِ عذابي أُعذّب بك من أشاء من عبادي ، ولكلّ واحد منكما ملؤها ، فأما النار فإنّهم يُلقون فيها وتقول : هل من مزيد ؟ فلا تمتلئ حتى يضع الله سبحانه رجله فتقول : قط قط قط ، فهنالك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض ، ولا يظلم من خلقه أحداً . وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً . "

ثم بيّن مآل الخصمين وحال أهل الدارين فقال سبحانه وتعالى ﴿ فالذين كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ .

قال سعيد بن جبير : ثياب من نحاس من نار ، وليس من الآنية شيء إذا حمي أشدّ حرّاً منه .

﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم ﴾ الماء الحار .

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : " إنّ الحميم ليصبّ على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جنبه فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه ، وهو الصهر ثم يعاد كما كان " ﴿ يُصْهَرُ ﴾ يذاب ، يقال : صهرت الألية والشحم بالنار أذبتها ،

أصهرها صهراً ، قال الشاعر :

تروي لقىً ألقى في صفصف . . . تصهره الشمس ولا ينصهر

(119/524)

ومعنى الآية : يذاب بالحميم الذي يصبّ من فوق رؤوسهم ما في بطونهم من الشحوم والأحشاء وتنشوي جلودهم منه فتتساقط .

﴿ وَلَهُمْ مَّقَامِعُ ﴾ سياط ﴿ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ واحدتها مقمعة ، سمّيت بذلك لأنّها يُقمع بها المضروب أي يذلّل .

﴿ كُلَّمَآ أَرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ ردّوا إليها .

روى الأعمش عن أبي ظبيان قال : ذُكر أنّهم يحاولون الخروج من النار حين تجيش جهنم فتلقي مَن فيها إلى أعلى أبوابها فيريدون الخروج منها فيعذبهم الخزّان فيها ويعيدونهم إليها بالمقامع ويقولون لهم ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق ﴾ أي المحرق مثل الأليم والوجيع ، والذوق : حاسة يحصل منها إدراك الطعم ، وهو ها هنا توسّع ، والمراد به إدراكهم الآلام .

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ وهي جمع سوار ﴿ وَلُؤْلُؤاً ﴾ .

قرأ عاصم وأهل المدينة ها هنا وفي سورة الملائكة : ولؤلؤاً بالنصب على معنى ويحلّون لؤلؤاً ، واستدلّوا بأنّها مكتوبة في جميع المصاحف بالألف ها هنا .

وقرأ الباقون بالخفض عطفاً على الذهب ، ثمّ اختلفوا في وجه إثبات الألف فيه ، فقال أبو عمرو : أُثبتت الألف فيه كما أُثبتت في قالوا وكانوا ، وقال الكسائي : أثبتوها فيه للهمزة لأنّ الهمزة حرف من الحروف ، وأمّا يعقوب فإنّه قرأها هنا بالنصب وفي سورة فاطر بالخفض رجوعاً إلى المصحف ؛ لأنّه كُتب في جميع المصاحف ها هنا بالألف وهناك بغير ألف .

﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (*) وهدوا إِلَى الطيب مِنَ القول ﴾ وهو شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وقال ابن زيد : لا إله إلاّ الله والله أكبر والحمد لله ، نظيرها قوله سبحانه ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ [فاطر : 10] ﴿ وهدوا إلى صِرَاطِ الحميد ﴾ إلى دين الله .

(120/524)

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ ﴾ فعطف بالمستقبل على الماضي لأنّ الصدّ بمعنى دوام الصفة لهم ، ومعنى الآية : وهم يصدّون ومن شأنهم الصدّ ، نظيرها قوله ﴿ الذين آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله ﴾ [الرعد : 28] وقيل : لفظه مستقبل ، ومعناه الماضي ، أي : وصدّوا عن سبيل الله ﴿ والمسجد ﴾ يعني عن المسجد ﴿ الحرام الذي جَعَلْنَاهُ ﴾

خلقناه وبنيناه ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ كلّهم لم نخصّ منهم بعضاً دون بعض ﴿ سَوَآءً العاكف ﴾ المقيم ﴿ فِيهِ والباد ﴾ الطاري المنتاب إليه من غيره .

وقرأ عاصم برواية حفص ويعقوب برواية روح : سواء بالنصب بإيقاع الجعل عليه لأنّ الجعل يتعدّى إلى مفعولين .

وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وما بعده خبره . وتمام الكلام عند قوله ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ .

واختلف العلماء في معنى الآية : فقال قوم : سواء العاكف فيه والباد في تعظيم حرمته وقضاء النسك به وحقّ الله الواجب عليهما فيه ، وإليه ذهب مجاهد .

وقال آخرون : هما سواء في النزول به فليس أحدهما بأحقّ يكون فيه من الآخر . وحرّموا بهذه الآية كراء دور مكّة وكرهوا إجارتها في أيام الموسم .

قال عبد الله بن عمر : سواء أكلت محرماً أو كراء دار مكة .

وقال عبد الرَّحْمن بن سابط : كان الحجاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحقّ بمنزله منهم فكان الرجل إذا وجد سعة نزل ، ففشا فيهم السرق ، وكلّ إنسان يسرق من ناحيته فاصطنع رجل باباً فأرسل إليه عمر : اتخذت باباً من حجاج بيت الله ؟ فقال : لا ، إنّما جعلته ليحترز متاعهم وهو قوله ﴿ سَوَآءً العاكف فِيهِ والباد ﴾ .

قال : البادي فيه كالمقيم ليس أحد أحقّ بمنزله من أُحد إلاّ أن يكون سبق إلى منزل ، وإلى

هذا القول ذهب ابن عباس وابن جبير وابن زيد وباذان قالوا : هما سواء في البيوت والمنازل ، والقول الأول أقرب إلى الصواب .

(121/524)

أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسن بقراءتي عليه قال : حدّثنا صفوان بن الحسين قال : حدّثنا أبو محمد بن أبي حاتم قال : سمعت أبا إسماعيل الترمذي بمكة سنة ستين ومائتين قال : سمعت إسحاق بن راهويه يقول : جالست الشافعي بمكة فتذاكرنا في كراء بيوت مكة ، وكان يرخّص فيه ، وكنت لا أرخّص فيه ، فذكر الشافعي حديثاً وسكت ، وأخذت أنا في الباب ، أسرد فلمّا فرغت منه قلت لصاحب لي من أهل مرو بالفارسية : مرد كما لاني هست قرية بمرو ، فعلم أني راطنت صاحبي بشيء هجّنته فيه ، فقال لي : أتناظر ؟ قلتُ : وللمناظرة جئت ، فقال : قال الله سبحانه وتعالى ﴿ فالذين هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ ﴾ نسب الديار إلى مالكيها أو غير مالكيها . ؟

وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : " من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن وهل ترك عقيل لنا من رباع " ؟نسب الدار إلى أربابها أو غير أربابها وقال لي : اشترى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه دار السجن من مالك أو غير مالك ؟ فلمّا

علمت أنّ الحجة لزمتني قمت .

﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ ﴾ أي في المسجد الحرام ﴿ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ يعني إلحاداً بظلم وهو الميل إلى الظلم ، والباء فيه زائدة كقوله : تنبت بالدهن أي تنبت الدهن .

قال الفرّاء : وسمعت أعرابياً من ربيعة وسألته عن شيء فقال : أرجو بذلك يريد أرجو ذلك .

وقال الشاعر :

بواد يمان ينبت الشت صدره . . . وأسفله بالمرخ والشبهان

أي المرخ . وقال الأعشى :

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا . . . بين المراجل والصريح الأجرد

بمعنى ضمنت رزق عيالنا أرماحنا وقال آخر :

ألم يأتيك والأنباء تنمي . . . بما لاقت لبون بني زياد

واختلفوا في معنى الآية ، فقال مجاهد وقتادة ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ هو الشرك أن يعبد فيه غير الله سبحانه وتعالى .

وقال آخرون : هو استحلال الحرام وركوب الآثام فيه .

قال ابن مسعود : ما من رجل يهمّ بسيّئة فيكتب عليه ، ولو أنّ رجلاً بعدن أو ببلد آخر يهمّ أن يقتل رجلاً بمكّة ، أو يهمّ فيها بسيّئة ولم يعملها إلاّ أذاقه الله العذاب الأليم .

وقال ابن عباس : هو أن تقتل فيه ما لا يقتلك ، أو تظلم من لا يظلمك ، وهذا القول معنى قول الضحاك وابن زيد .

أخبرنا أحمد بن أُبي قال : أخبرنا المغيرة بن عمرو قال : حدّثنا المفضل بن محمد قال : حدّثنا محمد بن يوسف قال : حدّثنا أبو قرّة قال : ذكر سفيان عن ليث عن مجاهد أنّه قال : تُضاعف السيئات بمكّة كما تضاعف الحسنات .

ابن جريج : هو استحلال الحرام متعمّداً ، عن حبيب بن أبي ثابت : احتكار الطعام بمكة ، بعضهم : هو كل شيء كان منهيّاً عنه من القول والفعل حتى قول القائل : لا والله ، وبلى والله .

وروى شعبة : عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمر أنّه كان له فسطاطان أحدهما في الحلّ والآخر في الحرم ، فإن أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الآخر ، فسئل عن ذلك فقال : كنّا نحدّث أنّ من الإلحاد فيه أن يقول الرجل : كلاّ والله وبلى والله .

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا ﴾ وطّأنا . قال ابن عباس : جعلنا ، الحسن : أنزلنا ، مقاتل بن سليمان : دللناه عليه ، ابن حبان : هيأنا ، نظيره ﴿ تُبَوِّئُ المؤمنين ﴾ [آل عمران : 121] ﴿

وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض ﴾ [الأعراف : 74] وقوله ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفاً ﴾ [العنكبوت : 58] . ﴿ لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت ﴾ والمكان جوهر يمكن أن يثبت عليه غيره ، كما أن الزمان عرض يمكن أن يحدث فيه غيره ، وأراد بالبيت الكعبة .

﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ ﴾ يعني أمرناه وعهدنا إليه أن لا تشرك ﴿ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ للطَّآئِفِينَ والقآئمين ﴾ يعني المصلّين ﴿ والركع السجود ﴾ .

﴿ وَأَذِّن ﴾ يعني وعهدنا إلى إبراهيم ايضاً أن أذّنْ أي أعلِمْ ونادِ في الناس ﴿ بالحج ﴾ .

(123/524)

فقال إبراهيم : يا رب وما يبلغ صوتي ؟ فقال : عليك الأذان وعليّ البلاغ ، فقام إبراهيم على المقام وقيل : على جبل أبي قبيس ونادى : يا أيها الناس ألا إنّ ربّكم قد بنى بيتاً فحجّوه ، فأسمع الله ذلك من في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، وما بين المشرق والمغرب والبر والبحر ممن سبق في علم الله سبحانه أن يحجّ إلى يوم القيامة ، فأجابه : لبيك اللهم لبيك .

وقال ابن عباس : عنى بالناس في هذه الآية أهل القبلة وزعم الحسن أنّ قوله تعالى ﴿ وَأَذِّن فِي الناس بالحج ﴾ كلام مستأنف ، وأن المأمور بهذا التأذين محمد رسول الله صلى الله

عليه وسلم أُمر أن يفعل ذلك في حجّة الوداع .

﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ مشاة على أرجلهم جمع راجل مثل قائم وقيام وصائم وصيام .

﴿ وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ أي وركبانا ، والضامر البعير المهزول ، وإنما جمع ﴿ يَأْتِينَ ﴾ لمكان كلّ ، أراد النوق ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ طريق بعيد .

سمعت أبا الحسن محمد بن القاسم الفقيه يقول : سمعت أبا القاسم بشر بن محمد بن ياسين القاضي يقول : رأيت في الطواف كهلاً قد أجهدته العبادة واصفرّ لونه وبيده عصا وهو يطوف معتمداً عليها ، فتقدّمت إليه وجعلت أُسائله فقال لي : من أين أنت ؟ قلت : من خراسان قال : في أي ناحية تكون خراسان ؟ كأنّه جهلها ؟ قلت : ناحية من نواحي المشرق ، فقال : في كم تقطعون هذا الطريق ؟ قلت : في شهرين وثلاثة أشهر ، قال : أفلا تحجّون كل عام فأنتم من جيران هذا البيت ؟ فقلت له : وكم بينكم وبين هذا البيت ؟ فقال : مسيرة خمس سنين ، خرجت من بلدي ولم يكن في رأسي ولحيتي شيب ، فقلت : هذا والله الجهد البيّن والطاعة الجميلة والمحبة الصادقة ، فضحك في وجهي وأنشأ يقول :

زُر مَن هويت وإنْ شطّت بك الدار . . . وحال من دونه حجب وأستارُ

لا يمنعك بُعدٌ من زيارته . . . إنّ المحبّ لمن يهواه زَوارُ

﴿ لِّيَشْهَدُواْ ﴾ ليحضروا ﴿ مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ يعني التجارة عن سعيد بن جبير ، وهي رواية ابن رزين عن ابن عباس قال : هي الأسواق .

مجاهد : التجارة وما يرضي الله سبحانه من أمر الدنيا والآخرة .

سعيد بن المسيب وعطية العوفي ومحمد بن عليّ الباقر : العفو والمغفرة .

﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ يعني ذي الحجّة في قول أكثر المفسّرين ، والمعدودات أيام التشريق ، وإنّما قيل لها معدودات لأنّها قليلة ، وقيل للعشر : معلومات للحرص على علمها بحسابها من أجل أنّ وقت الحج في آخرها .

وقال مقاتل : المعلومات أيام التشريق .

محمد بن كعب : المعدودات والمعلومات واحدة .

﴿ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ يعني الهدايا والضحايا من الإبل والبقر والغنم .

﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ أمر إباحة وليس بواجب .

قال المفسرون : وإنّما قال ذلك لأنّ أهل الجاهلية كانوا ينحرون ويذبحون ولا يأكلون من لحوم هداياهم شيئاً .

﴿ وَأَطْعِمُواْ البآئس ﴾ يعني الزمِن ﴿ الفقير ﴾ الذي لا شيء له ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ ﴾ واختلف القرّاء في هذه اللامات فكسرها بعضهم فرقاً بين ثم والواو والفاء لأن ثمّ مفضول

من الكلام ، والواو والفاء كأنهما من نفس الكلمة ، وجزمها الآخرون لأنّها كلّها لامات الأمر

﴿ تَفَثَهُمْ ﴾ والتفث : مناسك الحج كلّها عن ابن عمر وابن عباس .

وقال القرظي ومجاهد : هو مناسك الحج واخذ الشارب ونتف الإبط وحلق العانة وقصّ الأظفار .

عكرمة : التفث : الشعر والظفر .

الوالبي عن ابن عباس : هو وضع الإحرام من حلق الرأس وقصّ الأظفار ولبس الثياب ونحوها . وأصل التفث في اللغة الوسخ ، تقول العرب للرجل تستقذره : ما أتفثك أي ما أوسخك ! وأقذرك ! قال أمية بن الصلت :

ساخين آباطهم لم يقذفوا تفثاً . . . وينزعوا عنهم قملاً وصئبانا

﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ قال مجاهد : نذر الحج والهدي وما ينذر الانسان من شيء يكون في الحج .

(125/524)

﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بالبيت العتيق ﴾ أراد الطواف الواجب وهو طواف الإفاضة والزيارة الذي يطاف بعد التعريف أمّا يوم النحر وأمّا بعده . واختلف العلماء في معنى العتيق ، فقال ابن

عباس وابن الزبير ومجاهد وقتادة : سمّي عتيقاً لأنّ الله سبحانه أعتقه من الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه ، فلم يظهر عليه جبار قطّ ، ولم يسلّط عليه إلاّ من يعظّمه ويحترمه .

قال سعيد بن جبير : أقبل تبّع يريد هدم البيت حتى إذا كان بقديد أصابه الفالج فدعا الأحبار فقالوا : إنّ لهذا البيت ربّاً ما قصده قاصد بسوء إلاّ حجبه عنه بمكروه فإن كنت تريد النجاة ممّا عرض لك فلا تتعرّض له بسوء .

قال : فأهدى إلى البيت كسوة وأنطاعاً فأُلبست ، وكان أوّل ما أُلبست ، ونحر عنده ألف ناقة وعفا عن أهله وبرّهم ووصلهم ، فسمّيت المطابخ لمطبخة القوم ، وكانت خيله جياداً فسميّت جياد لخيل تبّع ، وسميّت قعيقعان لقعقعة السلاح حين أقبل من المدينة .

وقال سفيان بن عيينة : سمّي بذلك لأنه لم يُملك قط ، وهي رواية عبيد عن مجاهد قال : إنما سمّي البيت العتيق لأنّه ليس لأحد فيه شيء .

ابن زيد : لأنه قديم وهو أول بيت وضع للناس ، يقال : سيف عتيق ودينار عتيق أي قديم ، وقيل : لأنه كريم على الله سبحانه ، يقول العرب : فرس عتيق .

﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ الله ﴾ فيجتنب معاصيه ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ .

قال ابن زيد : الحرمات : المشعر الحرام والبيت الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام ، وقيل : هي المناسك .

﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام ﴾ أن تأكلوها إذا ذكّيتموها ﴿ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ في القرآن

وهو قوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم ﴾ [المائدة: 3] الآية، وقوله ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام: 121] وقيل: وأُحلّت لكم الأنعام في حال إحرامكم إلاّ ما يتلى عليكم من الصيد فإنه حرام في حال الإحرام.

(126/524)

﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ يعني عبادتها لأن الأوثان كلّها رجس.

﴿ واجتنبوا قَوْلَ الزور ﴾ يعني الكذب والبهتان.

قال أيمن بن حريم: قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال: "يا أيها الناس عدلت شهادة الزور الشرك بالله، ثمَّ قرأ هذه الآية".

وقال بعضهم: هو قول المشركين في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك.

﴿ حُنَفَآءَ ﴾ مستقيمين مخلصين ﴿ لِلَّهِ ﴾ وقيل: حجاجاً غير مشركين به ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السمآء ﴾ أي سقط إلى الأرض ﴿ فَتَخْطَفُهُ الطير ﴾ والخطف والاختطاف تناول الشيء بسُرعة، وقرأ أهل المدينة فتخَطّفه بفتح الخاء وتشديد الطاء أي تتخَطَّفه فأُدغم، وتصديق قراءة العامة قوله تعالى ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ

الخطفة ﴾ [الصافات : 10] .

﴿ أَوْ تَهْوِي ﴾ تميل وتذهب ﴿ بِهِ الرِيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ بعيد .

قال أهل المعاني : إنما شبّه حال المشرك بحال الهاوي في أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفع ضر يوم القيامة .

وقال الحسن : شبّه أعمال الكفّار بهذه الحال في أُنها تذهب وتبطل ، فلا يقدرون على شيء منها .

﴿ ذلك ﴾ الذي ذكرت من اجتناب الرجس والزور وتعظيم شعائر الله ﴿ مِن تَقْوَى القلوب ﴾ هذا معنى الآية ونظمها : وشعائر الله : الهدي والبُدن ، وأصلها من الإشعار وهو إعلامها لتعرف أنها هدي فسمّيت به ، وتعظيمها استعظامها واستحسانها واستسمانها .

﴿ لَكُمْ فِيهَا ﴾ أي في الهدايا ﴿ مَنَافِعُ ﴾ قيل : أن يسمّيها صاحبها بدنة أو هدياً ويشعرها ويقلدّها في رسلها وأصوافها وأوبارها وركوب ظهورها .

(127/524)

﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو أن يسمّيها هدياً ويوجبها ، فإذا فعل ذلك لم يكن له من منافعها شيء ، هذا قول مجاهد وعطاء والضحاك وقتادة ، ورواية مقسم عن ابن عباس ، وقيل : معناه : لكم في هذه الهدايا منافع بعد إنجابها وتسميتها هدياً بأن تركبوها إذا احتجتم إليها وتشربوا ألبانها إن اضطررتم إليها ، إلى أجل مسمّى يعني إلى أن تُنحر ، وهذا قول عطاء بن أبي رباح.

وقال بعضهم : أراد بالشعائر المناسك ومشاهد مكة ، ومعنى الآية : لكم فيها منافع بالتجارة والأسواق إلى أجل مسمّى وهو الخروج من مكة ، وهذه رواية أبي ذر عن ابن عباس .

وقال بعضهم : لكم فيها منافع بالأجر والثواب في قضاء المناسك وإقامة شعائر الحج إلى أجل مسمى وهو انقضاء أيام الحج .

﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إلى البيت العتيق ﴾ أي منحرها عند البيت العتيق يعني أرض الحرم كلّها ، نظيرها قوله سبحانه ﴿ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا ﴾ [التوبة : 28] أي الحرم كلّه ، وقال الذين قالوا : عنى بالشعائر المناسك ، معنى الآية : ثم محلّ الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق أن يطوفوا به طواف الزيارة يوم النحر بعد قضاء المناسك .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ جماعة مؤمنة سلفت قبلكم ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكاً ﴾ اختلف القرّاء فيه فقرأ أهل الكوفة إلاّ عاصماً بكسر السين في الحرفين على معنى الاسم مثل المجلس والمطلع

أي مذبحاً موضع قربان ، وقرأ الآخرون بفتح السين فيهما على المصدر مثل المدخل والمخرج أي إهراق الدماء وذبح القرابين .

﴿ لِّيَذْكُرُواْ اسم الله على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ عند ذبحها ونحرها ، وإنّما خصّ بهيمة الأنعام لأنَّ من البهائم ما ليس من الأنعام كالخيل والبغال والحمير ، وإنما قيل بهائم لأنها لا تتكلم .

(128/524)

﴿ فإلهكم إله وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُواْ وَبَشِّرِ المخبتين ﴾ قال ابن عباس وقتادة : المتواضعين ، مجاهد : المطمئنّين إلى الله سبحانه ، الأخفش : الخاشعين ، ابن جرير : الخاضعين ، عمرو بن أوس : هم الذين لا يَظلمون ، وإذا ظُلموا لم ينتصروا .

﴿ الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ والصابرين على مَآ أَصَابَهُمْ والمقيمي الصلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * والبدن ﴾ أي الإبل العظام الضخام الأجسام ، وتخفّف وتثقّل واحدتها بدنة مثل تمرة وتمر وخشبة وخشب وبادن مثل فاره وفره ، والبدن هو الضخم من كلّ شيء ومنه قيل لامرئ القيس بن النعمان صاحب الخورنق والسدير : البدن لضخمه ، وقد بدُن الرجل بدناً وبدانةً إذا ضخم ، فأما إذا أشفى واسترخى قيل : بدّن

تبديناً .

وقال عطاء والسدّي : البدن : الإبل والبقر .

﴿ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَعَائِرِ اللهِ ﴾ أي أعلام دينه إذا أُشعر ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ النفع في الدنيا ، والأجر في العقبى ﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا ﴾ عند نحرها ، قال ابن عباس : هو أن تقول : الله أكبر لا إله إلاّ الله والله أكبر ، اللهمّ منك ولك .

﴿ صَوَآفَّ ﴾ أي قياماً على ثلاث قوائم قد صفّت رجليها وإحدى يديها ويدها اليسرى معقولة فينحرها كذلك .

روى يعلى بن عطاء عن يحيى بن سالم قال : رأيت ابن عمر وهو ينحر بدنته فقال : صوافّ كما قال الله سبحانه ، فنحرها وهي قائمة معقولة إحدى يديها .

وقال مجاهد : الصواف إذا عقلت رجلها اليسرى وقامت على ثلاث وتنحر كذلك .

وقرأ ابن مسعود : صوافن وهي المعقلة تعقل يد واحدة ، وكانت على ثلاث وتنحر ، وهو مثل صواف .

وقرأ أُبيّ : صوافي وهكذا أيضاً مجاهد وزيد بن أسلم بالياء أي صافية خالصة لله سبحانه لا شريك له فيها كما كان المشركون يفعلون .

﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ أي سقطت بعد النحر فوقعت جنوبها على الأرض .

وقال ابن زيد : فإذا ماتت ، وأصل الوجوب الوقوع ، يقال : وجبت الشمس إذا سقطت للمغيب ، ووجب الفعل إذا وقع ما يلزم به فعله .

﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ أمر إباحة ورخصة مثل قوله سبحانه ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فاصطادوا ﴾ [المائدة : 2] وقوله سبحانه وتعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض ﴾ [الجمعة : 10] .

﴿ وَأَطْعِمُواْ القانع والمعتر ﴾ اختلفوا في معناهما ، فروى العوفي عن ابن عباس وليث عن مجاهد أنّ القانع الذي يقنع بما أُعطي ، ويرضى بما عنده ولا يسأل ، والمعترّ : الذي يمرّ بك ويتعّرض لك ولا يسأل .

عكرمة وابن ميثم وقتادة : القانع : المتعفف الجالس في بيته ، والمعترّ : السائل الذي يعتريك ويسألك ، وهي رواية الوالبي عن ابن عباس .

حصيف عن مجاهد ، القانع : أهل مكة وجارك وإن كان غنّياً ، والمعتّر الذي يعتريك ويأتيك فيسألك ، وعلى هذه التأويلات يكون القانع من القناعة وهي الرضا والتعفّف وترك السؤال .

سعيد بن جبير والكلبي : القانع : الذي يسألك ، والمعترّ : الذي يتعرّض لك ويريك نفسه ولا يسألك ، وعلى هذا القول يكون القانع من القنوع وهو السؤال . قال الشماخ :

لمال المرء يصلحه فيغني . . . مفاقره أعفّ من القنوع

وقال لبيد :

واعطاني المولى على حين فقره . . . إذا قال أبصر خلّتي وقنوعي

وقال زيد بن أسلم : القانع : المسكين الذي يطوف ويسأل ، والمعترّ : الصديق الزائر الذي يعترّ بالبدن .

ابن أبي نجيح عن مجاهد : القانع : الطامع ، والمعتر : من يعتر بالبدن من غنّي أو فقير .

ابن زيد : القانع : المسكين ، والمعترّ الذي يعترّ القوم للحمهم وليس بمسكين ولا يكون له ذبيحة ، يجيء إلى القوم لأجل لحمهم .

وقرأ الحسن : والمعتري وهو مثل المعتر ، يقال : عراه واعتراه إذا أتاه طالباً معروفه .

(130/524)

﴿ كذلك سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا ﴾ وذلك أنّ أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن لطّخوا حيطان الكعبة بدمائها فأنزل الله سبحانه ﴿ لَن يَنَالَ اللهَ ﴾ أي لن يصل إلى الله ﴿ لُحُومُهَا وَلا دِمَآؤُهَا ﴾ .

﴿ ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ ﴾ أي النيّة والإخلاص وما أُريد به وجه الله عزّ وجلّ ، وقرأ

يعقوب تنال وتناله بالتاء ، غيره : بالياء .

﴿ كذلك ﴾ هكذا ﴿ سَخَّرَهَا ﴾ يعني البدن ﴿ لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ اللهَ على مَا هَدَاكُمْ ﴾ لإعلام دينه ومناسك حجّه وهو أن يقول : الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أبلانا وأولانا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 13.24 ﴾

(131/524)

وقال الزمخشرى :

﴿ هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾

الخصم : صفة وصف بها الفوج أو الفريق ، فكأنه قيل : هذان فوجان أو فريقان مختصمان وقوله هذانِ للفظ . واخْتَصَمُوا للمعنى ، كقوله وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا

(132/524)

ولو قيل : هؤلاء خصمان . أو اختصما : جاز . يراد المؤمنون والكافرون . قال ابن عباس :

رجع إلى أهل الأديان الستة فِي رَبِّهِمْ أى في دينه وصفاته . وروى أن أهل الكتاب قالوا للمؤمنين : نحن أحق بالله ، وأقدم منكم كتابا ، ونبينا قبل نبيكم . وقال المؤمنون : نحن أحق بالله ، آمنا بمحمد ، وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا ، فهذه خصومتهم في ربهم فَالَّذِينَ كَفَرُوا هو فصل الخصومة المعنىّ بقوله تعالى إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وفي رواية عن الكسائي : خصمان ، بالكسر ، وقرئ :

قطعت بالتخفيف ، كأنّ الله تعالى يقدّر لهم نيرانا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة . ويجوز أن تظاهر على كل واحد منهم تلك النيران كالثياب المظاهرة على اللابس بعضها فوق بعض . ونحوه سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ . الْحَمِيمُ الماء الحار . عن ابن عباس رضى الله عنه : لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها يُصْهَرُ يذاب . وعن الحسن بتشديد الهاء للمبالغة ، أى : إذا صبّ الحميم على رؤسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر ، فيذيب أحشاءهم وأمعاءهم كما يذيب جلودهم ، وهو أبلغ من قوله وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ والمقامع : السياط . في الحديث : «لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها «1»» ، وقرأ الأعمش : ردوا فيها .

والإعادة والرد لا يكون إلا بعد الخروج ، فالمعنى :

كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها . ومعنى الخروج : ما يروى عن

الحسن أنّ النار تضربهم بلهبها فترفعهم، حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا وَقيل لهم ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ والحريق: الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك.

[سورة الحج (22): الآيات 23 إلى 25]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (23) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ (24) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (25)

يُحَلَّوْنَ عن ابن عباس: من حليت المرأة فهي حال «2» وَلُؤْلُؤاً بالنصب على:

---

(1). وهو عند أحمد وأبى يعلى من رواية ابن لهيعة عن دراج. لفظه في قوله وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ:

لو وضع مقمع منها في الأرض... الحديث. [.....]

(2). قوله «من حليت المرأة فهي حال» الذي في الصحاح: حليت المرأة، أى: صارت ذات حلى، فهي حلية وحالية. (ع)

ويؤتون لؤلؤا ، كقوله : وحورا عينا . ولؤلوا بقلب الهمزة الثانية واوا . ولوليا ، بقلبهما واوين ، ثم بقلب الثانية ياء كأدل . ولول كأدل فيمن جرّ . ولولؤ . وليليا ، بقلبهما ياءين ، عن ابن عباس : وهداهم اللّه وألهمهم أن يقولوا الحمد للّه الذي صدقنا وعده ، وهداهم إلى طريق الجنة . يقال : فلان يحسن إلى الفقراء وينعش المضطهدين ، لا يراد حال ولا استقبال ، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه والنعشة في جميع أزمنته وأوقاته . ومنه قوله تعالى وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى الصدود منهم مستمرّ دائم لِلنَّاسِ أى الذين يقع عليهم اسم الناس من غير فرق بين حاضر وباد وتانئ «1» وطارئ ومكي وآفاقى . وقد استشهد به أصحاب أبى حنيفة قائلين : إنّ المراد بالمسجد الحرام : مكة ، على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها .

وعند الشافعي : لا يمتنع ذلك . وقد حاور إسحاق بن راهويه فاحتجّ بقوله الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وقال أنسب الديار إلى مالكيها ، أو غير مالكيها ؟ واشترى عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه دار السجن من مالكيه أو غير مالكيه ؟ سَواءً بالنصب : قراءة حفص . والباقون على الرفع . ووجه النصب أنه ثانى مفعولي جعلناه ، أى : جعلناه

مستويا الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ وفي القراءة بالرفع . الجملة مفعول ثان . الإلحاد : العدول عن القصد ، وأصله إلحاد الحافر . وقوله بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ حالان مترادفتان . ومفعول يُرِدْ متروك ليتناول كل متناول ، كأنه قال : ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ يعنى أنّ الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهمّ به ويقصده . وقيل : الإلحاد في الحرم :

منع الناس عن عمارته وعن سعيد بن جبير : الاحتكار . وعن عطاء : قول الرجل في المبايعة «لا واللّه ، وبلى واللّه» وعن عبد اللّه بن عمر أنه كان له فسطاطان ، أحدهما : في الحل ، والآخر في الحرم ، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل ، «2» فقيل له ، فقال ، كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل : لا واللّه ، وبلى واللّه . وقرئ : يرد ، بفتح الياء من الورود . ومعناه :

من أتى فيه بإلحاد ظالما . وعن الحسن : ومن يرد إلحاده بظلم ، أراد : إلحادا فيه ، فأضافه على الاتساع في الظرف ، كمكر الليل . ومعناه : من يرد أن يلحد فيه ظالما . وخبر إن محذوف لدلالة جواب الشرط عليه ، تقديره : إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم ، وكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك . عن ابن مسعود : الهمة في الحرم تكتب ذنبا .

---

(1) . قوله «و تانئ» في الصحاح : تنأت بالبلد تنوءا : قطنته . والناتئ من ذلك . (ع)

(2) . أخرجه الطبري والأزرقي في تاريخ مكة من رواية شعبة عن منصور عن مجاهد قال «كان لعبد اللّه بن عمرو ابن العاص . . . فذكره» .

«تنبيه» ما في نسخ الكشاف «ابن عمر» تصحيف ، وإنما هو «ابن عمرو» .

(134/524)

[سورة الحج (22) : آية 26]

وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26)

واذكر حين جعلنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ مباءة ، أى : مرجعا يرجع إليه للعمارة والعبادة . رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء ، فأعلم اللّه إبراهيم مكانه بريح أرسلها يقال لها الخجوج : كنست ما حوله ، فبناه على أسه القديم . وأن هي المفسرة . فإن قلت : كيف يكون النهى عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيرا للتبوئة ؟ قلت : كانت التبوئة مقصودة من أجل العبادة ، فكأنه قيل : تعبدنا إبراهيم قلنا له : لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ من الأصنام والأوثان «1» والأقذار أن تطرح حوله . وقرئ : يشرك ، بالياء على الغيبة .

[سورة الحج (22) : آية 27]

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27)

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ ناد فيهم. وقرأ ابن محيصن: وآذن. والنداء بالحج: أن يقول: حجوا، أو عليكم بالحج. وروى أنه صعد أبا قبيس فقال: يا أيها الناس حجوا بيت «2» ربكم. وعن الحسن أنه خطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع «3» رِجالًا مشاة جمع راجل، كقائم وقيام. وقرئ: رجالا، بضم الراء مخفف الجيم ومثقله، ورجالي كعجالى عن ابن عباس وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ حال معطوفة على حال، كأنه قال: رجالا وركبانا يَأْتِينَ صفة لكل ضامر، لأنه في معنى الجمع. وقرئ: يأتون، صفة للرجال والركبان.

والعميق: البعيد، وقرأ ابن مسعود: معيق. يقال: بئر بعيدة العمق والمعق «4».

[سورة الحج (22) : آية 28]

لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (28)

نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات. وعن أبي حنيفة رحمه اللّه: أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج، فلما حجّ فضل

(1) . قوله «و الأوثان» في الصحاح «الوثن» : الصنم . (ع)

(2) . أخرجه الثعلبي عن الحسن فذكره . وسنده إليه في أول الكتاب .

(3) . أخرجه الطبري عن ابن عباس ، بلفظ «قام عند الحجر» وفي رواية «عند مقامه . وقال : يا أيها الناس حجوا بيت ربكم فأجابوه لبيك اللهم لبيك»

(4) . قوله «بعيدة العمق والمعق» في الصحاح «المعق» : قلب العمق ، والامعاق : مثل الاعماق ، وهو ما بعد من أطراف المفاوز . (ع)

(135/524)

الحج على العبادات كلها ، لما شاهد من تلك الخصائص . وكنى عن النحر والذبح بذكر اسم اللّه ، لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا . وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلى فيما يتقرّب به إلى اللّه أن يذكر اسمه ، وقد حسن الكلام تحسينا بينا : أن جمع بين قوله لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ، وقوله : عَلى ما رَزَقَهُمْ ولو قيل : لينحروا في أيام معلومات بهيمة الأنعام ، لم تر شيئا من ذلك الحسن والروعة . الأيام المعلومات : أيام العشر عند أبى حنيفة ، وهو قول الحسن وقتادة . وعند صاحبيه : أيام النحر . البهيمة : مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر ، فبينت بالأنعام : وهي الإبل والبقر والضأن والمعز . الأمر بالأكل

منها أمر إباحة ، لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من نسائكهم ، ويجوز أن يكون ندبا لما فيه من مساواة الفقراء ومواساتهم ومن استعمال التواضع . ومن ثمة استحب الفقهاء أن يأكل الموسع من أضحيته مقدار الثلث . وعن ابن مسعود أنه بعث بهدى وقال فيه : إذا نحرته فكل وتصدّق وابعث منه إلى عتبة ، يعنى ابنه «1» . وفي الحديث «2» : «كلوا وادخروا وائتجروا» «3» الْبائِسَ الذي أصابه بؤس أى شدة : والْفَقِيرَ الذي أضعفه الإعسار .

[سورة الحج (22) : آية 29]

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)

قضاء التفث : قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد ، والتفث : الوسخ ، فالمراد قضاء إزالة التفث . وقرئ : وليوفوا ، بتشديد الفاء نُذُورَهُمْ مواجب حجهم ، أو ما عسى ينذرونه من أعمال البر في حجهم وَلْيَطَّوَّفُوا طواف الإفاضة ، وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان الحج ، ويقع به تمام التحلل . وقيل : طواف الصدر ، وهو طواف الوداع الْعَتِيقِ القديم ، لأنه أول بيت وضع للناس عن الحسن . وعن قتادة : أعتق من الجبابرة ، كم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه اللّه . وعن مجاهد : لم يملك قط . وعنه : أعتق من الغرق . وقيل :

---

(1) . أخرجه الطبري من رواية حبيب بن أبى ثابت عن إبراهيم عن علقمة - أن عبد اللّه

بعث معه بهدى . فقال :

كل أنت وأصحابك ثلثا وتصدق بثلث وابعث إلى أخى عتبة بثلث «تنبيه» وقع في نسخ الكشاف يعنى ابنه وهو تحريف وإنما هو أخوه .

(2) . أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وأحمد وإسحاق من رواية خالد الحذاء عن أبى المليح عن عتبة قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «إنا كنا نهيناكم عن لحوم الأضاحى ألا تأكلوها فوق ثلاث لكي يسعكم .

وقد جاء اللّه بالسعة فكلوا وادخروا وائتجروا : لفظ أبى داود . وليس عند مسلم والنسائي وابن ماجة «و ائتجروا» والنسائي في رواية «و تصدقوا» وله شاهد عن أبى سعيد الخدري عن أحمد «فائدة» قال في النهاية : ائتجروا أى تصدقوا طالبين للأجر . وليس هو اتجر بالإدغام من التجارة وأجاز الهروي الإدغام واستدل عليه بقوله «من يتجر مع هذا فيصلى معه» ولا دلالة فيه لأنه يحتمل أن يكون من التجارة .

(3) . قوله «و ائتجروا» الظاهر أن المراد : اطلبوا الأجر بالصدقة . (ع)

(136/524)

بيت كريم ، من قولهم : عتاق الخيل والطير . فإن قلت : قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع .

قلت :

ما قصد التسلط على البيت ، وإنما تحصن به ابن الزبير ، فاحتال لإخراجه ثم بناه . ولما قصد التسلط عليه أبرهة ، فعل به ما فعل .

[سورة الحج (22) : الآيات 30 إلى 31]

ذِلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (31)

ذِلِكَ خبر مبتدإ محذوف ، أى : الأمر والشأن ذلك ، كما يقدّم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال : هذا وقد كان كذا . والحرمة : ما لا يحل هتكه . وجميع ما كلفه اللّه تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها ، فيحتمل أن يكون عاما في جميع تكاليفه ، ويحتمل أن يكون خاصا فيما يتعلق بالحج . وعن زيد بن أسلم : الحرمات خمس الكعبة الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والشهر الحرام ، والمحرم حتى يحل فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ أى فالتعظيم خير له . ومعنى التعظيم : العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها . المتلوّ لا يستثنى من الأنعام ، ولكن المعنى إِلَّا ما يُتْلى

عَلَيْكُمْ آية تحريمه ، وذلك قوله في سورة المائدة حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ والمعنى : أنّ الله قد أحل لكم الأنعام كلها إلا ما استثناه في كتابه ، فحافظوا على حدوده ، وإياكم أن تحرموا مما أحل شيئا ، كتحريم عبدة الأوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك ، وأن تحلوا مما حرم الله ، كاحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك .

لما حث على تعظيم حرماته وأحمد من يعظمها «1» أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور ، لأن توحيد الله ونفى الشركاء عنه وصدق القول أعظم الحرمات وأسبقها خطوا . وجمع الشرك وقول الزور في قران واحد ، وذلك أنّ الشرك من باب الزور لأنّ المشرك زاعم أنّ الوثن تحق له العبادة ، فكأنه قال : فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا شيئا منه لتماديه في القبح والسماجة . وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان . وسمى الأوثان رجسا وكذلك الخمر والميسر والأزلام ، على طريق التشبيه . يعنى : أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه ، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة . ونبه على هذا المعنى بقوله رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ جعل العلة في اجتنابه أنه رجس ، والرجس مجتنب مِنَ الْأَوْثانِ

---

(1) . قوله «وأحمد من يعظمها» في الصحاح «أحمدته» : وجدته محمودا موافقا مرضيا . (ع)

بيان للرجس وتمييز له ، كقولك : عندي عشرون من الدراهم ، لأنّ الرجس مبهم يتناول غير شيء ، كأنه قيل : فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان . والزور من الزور والازورار وهو الانحراف ، كما أنّ الإفك من أفكه إذا صرفه . وقيل قَوْلَ الزُّورِ قولهم : هذا حلال وهذا حرام ، وما أشبه ذلك من افترائهم . وقيل : شهادة الزور . عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه صلى الصبح فلما سلم قام قائما واستقبل الناس بوجهه وقال «عدلت شهادة الزور الإشراك باللّه ، عدلت شهادة الزور الإشراك باللّه ، عدلت شهادة الزور الإشراك باللّه» «1» وتلا هذه الاية .

وقيل : الكذب والبهتان . وقيل : قول أهل الجاهلية في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيها مركبا فكأنه قال : من أشرك باللّه فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء فاختطفته الطير ، فتفرق مزعا «2» في حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح «3» البعيدة . وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي ترك الإيمان وأشرك باللّه بالساقط من

السماء ، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذي يطوّح به في وادى الضلالة بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوى المتلفة «4» .

---

(1) . أخرجه أبو داود وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة من رواية سفيان بن زياد العصفري عن أبيه عن حبيب ابن النعمان عن حريم بن فاتك . وأخرجه الترمذي من رواية العصفري عن فاتك بن فضالة عن أنس بن حريم كذا قال .

(2) . قوله «مزعا» مفرده «مزعة» بالضم . أى : قطعة لحم كما في الصحاح . (ع)

(3) . قوله «و المطاوح» أى المقاذف . وطاح يطوح ويطيح : هلك وسقط . وطوحته الطوائح : قذفته القواذف ، كذا في الصحاح أيضا . (ع) [. . . . .]

(4) . قال محمود : «ويجوز في هذا التشبيه أن يكون مركبا ومفرقا ، فان كان مركبا فكأنه قال : من أشرك باللّه فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية ، بأن صور حاله بصورة من خر من السماء فاختطفته الطير فصيرته مزعا في حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة ، وإن كان مفرقا فقد شبه الايمان في علوه بالسماء والذي ترك الايمان وأشرك باللّه بالساقط من السماء ، وشبه الأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذي يطوح به في وادى الضلالة بالريح تهوى بما عصفت به في بعض المهاوى المتلفة» قال أحمد : أما على تقدير أن يكون مفرقا ، فيحتاج تأويل تشبيه المشرك بالهاوى من السماء إلى التنبيه على أحد أمرين : إما أن يكون الاشراك المراد ردته ، فانه

حينئذ كمن علا إلى السماء بإيمانه ثم هبط بارتداده . وإما أن يكون الاشراك أصليا ، فيكون قد عد تمكن المشرك من الايمان ومن العلو به ثم عدوله عنه اختيارا ، بمنزلة من علا إلى السماء ثم هبط كما قال تعالى وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ فعدهم مخرجين من النور وما دخلوه قط ، ولكن كانوا متمكنين منه . وقد مضى تقرير هذا المعنى بأبسط من هذا . وفي تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر بالطير المختطفة ، وفي تشبيه تطويح الشيطان بالهوى مع الريح في مكان سحيق : نظر ، لأن الأمرين ذكرا في سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين ، فإذا جعل الأول مثلا لاختلاف الأهواء والأفكار . والثاني مثلا لنزغ الشيطان : فقد جعلهما شيئًا واحدا ، لأن توزع الأفكار واختلاف الأهواء ، مضاف إلى نزغ الشيطان ، فلا يتحقق التقسيم المقصود . والذي يظهر في تقرير التشبيهين غير ذلك ، فنقول : لما انقسمت حال الكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما ، الأول منهما : المتذبذب والمتمادى على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة ، فهذا القسم من المشركين مشبه بمن اختطفته الطير وتوزعته فلا يستولى طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر ، وذلك حال المذبذب لا يلوح له خيال إلا اتبعه ونزل عما كان عليه . والثاني : مشرك مصمم على معتقد باطل ، لو نشر بالمباشير لم يكع ولم يرجع لا سبيل إلى تشكيكه ولا مطمع في نقله عما هو عليه ، فهو فرح مبتهج لضلالته ، فهذا مشبه في إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل فاستقر فيه . ونظير تشبيهه

بالاستقرار في الوادي السحيق الذي هو أبعد الأخباء عن السماء : وصف ضلاله بالبعد في قوله تعالى أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِيداً أى صمموا على ضلالهم فبعد رجوعهم إلى الحق ، فهذا تحقيق القسمين ، واللّه أعلم .

(138/524)

وقرئ : فتخطفه . بكسر الخاء والطاء . وبكسر التاء مع كسرهما ، وهي قراءة الحسن . وأصلها :

تختطفه . وقرئ : الرياح .

[سورة الحج (22) : الآيات 32 إلى 33]

ذِلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33)

تعظيم الشعائر - وهي الهدايا ، لأنها من معالم الحج - : أن يختارها عظام الأجرام حسانا سماتا غالية الأثمان ، ويترك المكاس في شرائها ، فقد كانوا يغالون في ثلاث - ويكرهون المكاس فيهنّ - : الهدى ، والأضحية ، والرقبة . وروى ابن عمر عن أبيه رضى اللّه عنهما أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار ، فسأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم

أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا .

فنهاه عن ذلك وقال : «بل أهدها «1»» وأهدى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مائة بدنة ، فيها جمل لأبى جهل في أنفه برّة من ذهب «2» . وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطى «3» فيتصدّق بلحومها وبجلالها «4» ، ويعتقد أن طاعة اللّه في التقرّب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بدّ أن يقام به ويسارع فيه فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ أى فإن تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب ، فحذفت هذه المضافات ، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها ، لأنه لا بد من راجع من الجزاء

---

(1) . تقدم الكلام عليه في أثناء سورة البقرة .

(2) . أخرجه إسحاق والبزار من حديث على . وفي الباب عن جابر قال كان جميع ما جاء به مائة بدنة فيها جمل في أنفه برة من فضة أخرجه الحاكم والطبراني من رواية زيد بن الحباب عن الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه عنه قال البخاري هذا خطأ من زيد . وإنما هو عن الثوري عن أبى إسحاق عن مجاهد مرسلا . وقد جاء عن مجاهد عن ابن عباس قال «أهدى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في هداياه جملا كان لأبى جهل في رأسه برة من ذهب ليغيظ به المشركين» أخرجه أبو داود والحاكم وأبو يعلى والطبراني .

(3) . قوله «مجللة بالقباطى» في الصحاح : القبط أهل مصر . والقبطية : ثياب بيض رقاق من كتان تتخذ بمصر والجمع قباطي . (ع)

(4) . أخرجه مالك في الموطأ عن نافع عنه بهذا وأتم منه . ورواه ابن أبى شيبة من طريق فليح عن نافع نحوه .

(139/524)

إلى مَنْ ليرتبط به ، وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ، ظهر أثرها في سائر الأعضاء . إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إلى أن تنحر ويتصدق بلحومها ويؤكل منها . وثُمَّ للتراخي في الوقت ، فاستعيرت للتراخي في الأحوال . والمعنى : أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم ، وإنما يعتدّ اللّه بالمنافع الدينية ، قال سبحانه تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطا في النفع : مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ أى وجوب نحرها . أو وقت وجوب نحرها في الحرم منتهية إلى البيت ، كقوله هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت ، لأن الحرم هو حريم البيت . ومثل هذا في الاتساع قولك : بلغنا البلد ، وإنما شارفتموه واتصل مسيركم بحدوده . وقيل : المراد بالشعائر : المناسك كلها ، ومَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ يأباه .

[سورة الحج (22) : الآيات 34 إلى 35]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ

فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (35)

شرع اللّه لكل أمة أن ينسكوا له : أى يذبحوا لوجهه على وجه التقرّب ، وجعل العلة في ذلك أيذكر اسمه تقدست أسماؤه على النسائك : وقرئ مَنْسَكاً بفتح السين وكسرها ، وهو مصدر بمعنى النسك ، والمكسور يكون بمعنى الموضع فَلَهُ أَسْلِمُوا أى أخلصوا له الذكر خاصة ، واجعلوه لوجهه سالما ، أى : خالصا لا تشوبوه بإشراك .

المخبتون : المتواضعون الخاشعون ، من الخبت وهو المطمئن من الأرض . وقيل : هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا . وقرأ الحسن وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ بالنصب على تقدير النون . وقرأ ابن مسعود : والمقيمين الصلاة ، على الأصل .

[سورة الحج (22) : آية 36]

وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36)

الْبُدْنَ جمع بدنة ، سميت لعظم بدنها وهي الإبل خاصة ، ولأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم

ألحق البقر بالإبل حين قال : «البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة» « 1 » ، فجعل البقر في حكم الإبل ، صارت البدنة في الشريعة متناولة للجنسين عند أبى حنيفة وأصحابه ، وإلا فالبدن هي الإبل وعليه تدل الآية ، وقرأ الحسن : والبدن ، بضمتين ، كثمر في جمع ثمرة . وابن أبى إسحاق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف . وقرئ بالنصب والرفع كقوله وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ .

مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ أى من أعلام الشريعة التي شرعها اللّه . وإضافتها إلى اسمه : تعظيم لها لَكُمْ فِيها خَيْرٌ كقوله لَكُمْ فِيها مَنافِعُ ومن شأن الحاج أن يحرص على شيء فيه خير ومنافع بشهادة اللّه . عن بعض السلف أنه لم يملك إلا تسعة دنانير ، فاشترى بها بدنة ، فقيل له في ذلك ، فقال : سمعت ربى يقول لَكُمْ فِيها خَيْرٌ وعن ابن عباس : دنيا وآخرة . وعن إبراهيم : من احتاج إلى ظهرها ركب ، ومن احتاج إلى لبنها شرب . وذكر اسم اللّه : أن يقول عند النحر : اللّه أكبر لا إله إلا اللّه واللّه أكبر ، اللهم منك وإليك صَوافَّ قائمات قد صففن أيديهنّ وأرجلهنّ . وقرئ : صوافن ، من صفون الفرس ، وهو أن يقوم على ثلاث وينصب الرابعة على طرف سنبكه ، لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث . وقرئ : صوافي ، أى :

خوالص لوجه اللّه . وعن عمرو بن عبيد : صوافنا ، بالتنوين عوضا من حرف الإطلاق

عند الوقف . وعن بعضهم : صواف «2» نحو مثل العرب . أعط القوس باريها ، بسكون الياء .

وجوب الجنوب : وقوعها على الأرض ، من وجب الحائط وجبة إذا سقط . ووجبت الشمس جبة : غربت . والمعنى : فإذا وجبت جنوبها وسكنت نسائسها «3» حل لكم الأكل منها والإطعام الْقانِعَ السائل ، من قنعت إليه وكنعت : إذا خضعت له وسألته قنوعا وَالْمُعْتَرَّ المعترض بغير سؤال ، أو القانع الراضي بما عنده وبما يعطى من غير سؤال ، من قنعت قنعا وقناعة .

والمعتر : المعترض بسؤال . وقرأ الحسن : والمعترى . وعرّه وعراه واعتراه واعتره : بمعنى .

وقرأ أبو رجاء : القنع ، وهو الراضي لا غير . يقال : قنع فهو قنع وقانع .

منّ اللّه على عباده واستحمد إليهم بأن سخر لهم البدن مثل التسخير الذي رأوا وعلموا ، يأخذونها منقادة للأخذ طيعة فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها ، ثم يطعنون في لبانها . ولولا تسخير اللّه لم

---

(1) . لم أره مرفوعا من لفظه . نعم أخرجه أبو داود بلفظ «الجزور عن سبعة» وأخرجه مسلم وأصحاب السنن من رواية مالك عن أبى الزبير عن جابر قال «نحرنا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة» وفي الباب عن ابن مسعود عند الطبراني .

(2) . قوله «صواف» لعله : صوافي ، بالسكون . (ع)

(3) . قوله «و سكنت نسائسها» في الصحاح «النسيسة ، والنسيس» الإيكال بين الناس . والنسائس : النمائم .

والنسيس : بقية الروح . وفيه أيضا «الإيكال بين الناس» السعى بينهم . (ع)

(141/524)

تطق ، ولم نكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرما وأقل قوّة ، وكفى بما يتأبد من الإبل شاهدا وعبرة .

[سورة الحج (22) : آية 37]

لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)

أى : لن يصيب رضا اللّه اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المهراقة بالنحر ، والمراد أصحاب اللحوم والدماء ، والمعنى : لن يرضى المضحون والمقرّبون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص والاحتفاظ بشروط التقوى في حل ما قرب به ، وغير ذلك من المحافظات الشرعية وأوامر الورع . فإذا لم يراعوا ذلك ، لم تغن عنهم التضحية والتقريب وإن كثر ذلك منهم . وقرئ :

لن تنال اللّه . ولكن تناله : بالتاء والياء . وقيل : كان أهل الجاهلية إذا نحروا البدن نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم ، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك ، فنزلت .

كرّر تذكير النعمة بالتسخير ثم قال : لتشكروا اللّه على هدايته إياكم لأعلام دينه ومناسك حجه ، بأن تكبروا وتهللوا ، فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر ، وعدى تعديته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 149 . 159 ﴾

(142/524)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾

أي جادلوا في دينه وأمره واختلفوا في هذين الخصمين فروي عن قيس بن عبادة قال : سمعت أبا ذر يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ نزلت في الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد من عتبة أخرجاه في الصحيحين (خ) عن علي بن أبي طالب قال : أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الرحمن يوم القيامة .

قال قيس بن عبادة فيهم نزلت ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ قال هم الذين

تبارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة بن الحارث وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة .

قال محمد بن إسحاق : خرج يوم بدر عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ، ودعوا إلى المبارزة فخرج إليهم فئة من الأنصار ثلاثة عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء وعبد الله بن رواحة فقالوا رهط من الأنصار فقالوا حين انتسبوا أكفاء كرام ثم نادى مناديهم يا محمد اخرج إلينا أكفاءنا من قومنا فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " قم يا عبيدة بن الحارث ويا حمزة بن عبد المطلب ويا علي بن إبي طالب " فلما دنوا منهم قالوا : من أنتم فذكروا أنفسهم قالوا نعم أكفاء كرام فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة وبارز حمزة شيبة وبارز علي الوليد ابن عتبة فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة وعلي الوليد واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتان كلاهما أثبت صاحبه فكرّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذففا واحتملا عبيدة إلى أصحابه وقد قطعت رجله ومخها يسيل . فلما أتوا به إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : ألست شهيداً يا رسول الله قال : بلى فقال عبيدة : لو كان أبو طالب حياً لعلم أنا أحق بما قال منه حيث يقول :

ونسلمه حتى نصرع حوله . . .

ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وقال ابن عباس : نزلت الآية في المسلمين وأهل الكتاب قال أهل الكتاب نحن أولى بالله وأقدم منكم كتاباً ونبينا قبل نبيكم وقال المسلمون نحن أحق بالله آمنا بنبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم تعرفون نبينا وكتابنا وكفرتم حسداً فهذه خصومتهم في ربهم وقيل هم المؤمنون والكافرون من أي ملة كانوا فالمؤمنون خصم والكفار خصم وقيل الخصمان الجنة والنار (ق) عن أبي هريرة قال قال النبيّ (صلى الله عليه وسلم) " تحاجت الجنة والنار فقال النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين .

وقالت الجنة : فما لي لا يدخلني إلاّ ضعفاء الناس وسقطهم " زاد في رواية " وغزاتهم فقال الله عزّ وجلّ للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار إنّما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله فتقول قط قط فهناك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم ربك من خلقه أحداً .

وأما الجنة فإنّ الله تعالى ينشىء لها خلقاً " وللبخاري " اختصمت الجنة والنار " وهذا القول ضعيف والأقوال الأولى أولى بالصحة لأن حمل الكلام على ظاهره أولى وقوله هذان كالإشارة إلى سبب تقدم ذكره وهو أهل الأديان الستة وأيضاً فإنه ذكر صنفين أهل طاعته وأهل معصيته وذكر مآل الخصمين فقال تعالى : ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار

﴿ قال سعيد بن جبير : ثياب من نحاس مذاب وليس من الآنية شيء إذا حمي اشد حراً منه وسمي باسم الثياب .

(144/524)

لأنها تحيط بهم كإحاطة الثياب وقيل يلبس أهل النار مقطعات من نار ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ أي الماء الحار الذي انتهت حرارته ﴿ يصهر به ﴾ أي يذاب بالحميم الذي يصب من فوق رؤوسهم ﴿ ما في بطونهم ﴾ من الشحوم والأحشاء ﴿ والجلود ﴾ عن أبي هريرة أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إنّ الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ حتى يخلص إلى جوف أحدهم ، فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان " أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب صحيح ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ يعني سياط من حديد وهي الجزر من الحديد .

وفي الخبر " لو وقع مقمع من حديد في الأرض ثم اجتمع عليه الثقلان ما أقلوه من الأرض " ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم ﴾ يعني كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذي يأخذ بأنفاسهم ﴿ أعيدوا فيها ﴾ يعني ردوا إليها بالمقامع .

قيل إن جهنم لتجيش بهم فتلقيهم إلى أعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانية بمقامع

الحديد فيهوون فيها سبعين خريفاً ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ يعني تقول لهم الملائكة ذلك والحريق بمعنى المحرق فهذا وصف حال أحد الخصمين وهم الكفار وقال تعالى في وصف الخصم الآخر وهم المؤمنون ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ وهو الإبريسم الذي حرم لبسه على الرجال في الدنيا .

عن معاوية هو جد بهز بن حكيم عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال : " إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد " أخرجه الترمذي وقال : حديث صحيح (ق) عن أبي موسى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال :

" جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن " عن أبي سعيد قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (ق) عن أنس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة " قوله تعالى ﴿

وهدوا ﴾ من الهداية يعني أرشدوا ﴿ إلى الطيب من القول ﴾ قال ابن عباس : هو شهادة أن لا إله إلا الله .

وقيل هو لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله وقيل إلى القرآن وقيل هو قول أهل الجنة ﴿ والحمد لله الذين صدقنا وعده ﴾ ﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ يعني إلى دين الله وهو الإسلام والحميد هو الله المحمود في أفعاله .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ إنّ الذين كفروا ﴾ يعني بما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ويصدّون عن سبيل الله ﴾ أي بالمنع من الهجرة والجهاد والإسلام ﴿ والمسجد الحرام ﴾ يعني ويصدون عن المسجد الحرام ﴿ الذي جعلناه للناس ﴾ أي قبلة لصلاتهم ومنسكاً متعبداً ﴿ سواء العاكف ﴾ أي المقيم ﴿ فيه ﴾ قال بعضهم ويدخل فيه الغريب إذا جاور وأقام به ولزم التعبد فيه ﴿ والبارد ﴾ أي الطارىء المنتاب إليه من غيره واختلفوا في معنى الآية فقيل سواء العاكف فيه والبادي في تعظيم حرامته وقضاء النسك به .

وإليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة قالوا : والمراد منه نفس المسجد الحرام ومعنى التسوية في تعظيم الكعبة وفي فضل الصلاة فيه والطواف به .

وعن جبير بن مطعم أنّ النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال : " يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت وصلّى أية ساعة شاء من ليل أو نهار " أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي .

وقيل : المراد منه جميع الحرم ومعنى التسوية أنّ المقيم والبادي سواء في النزول به ليس أحدهما أحق بالمنزل من الآخر غير أنه لا يزعج أحد أحداً إذ كان قد سبق إلى منزلة وقول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد قالوا : هما سواء في البيوت والمنازل قال عبد الرحمن بن سابط : كان الحجاج إذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة بأحق منهم وكان عمر بن الخطاب ينهى الناس أن يغلقوا أبوابهم في الموسم فعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة وإجارتها قالوا : إنّ أرض مكة لا تملك لأنها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادي فلما استويا ثبت أن سبيلها سبيل المساجد وإليه ذهب أبو حنيفة .

قالوا : والمراد بالمسجد الحرام جميع الحرم وعلى القول الأول الأقرب إلى الصواب أنه يجوز بيه دور مكة وإجارتها وهو قول طاوس وعمرو بن دينار .

وإليه ذهب الشافعي احتج الشافعي في ذلك قوله تعالى : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ أضاف الديار إلى مالكيها وقال النبيّ (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة : " من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن " فنسب الديار إليهم نسبة ملك واشترى عمر بن الخطاب دار السجن بأربعة آلاف درهم فدلت هذه النصوص على جواز

بيعها وقوله تعالى ﴿ ومن يرد فيه ﴾ أي في المسجد الحرام ﴿ بإلحاد بظلم ﴾ أي يميل إلى الظلم قيل الإلحاد فيه هو الشرك وعبادة غير الله .

وقيل : هو كل شيء كان منهياً عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم .

وقيل هو دخول الحرم بغير إحرام أو ارتكاب شيء من محظورات الحرم من قتل صيد وقطع شجر .

وقال ابن عباس : هو أن تقتل فيه من لا يقتلك أو تظلم فيه من لا يظلمك .

(147/524)

وقال مجاهد : تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات وقيل : احتكار الطعام بمكة بدليل ما روى يعلى بن أمية أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " إنّ احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه " أخرجه أبو داود وقال عبد الله بن مسعود في قوله ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴿ نذقه من عذاب أليم ﴾ قال لو أنّ رجلاً همّ بخطيئة لم تكتب عليه ما لم يعملها ولو أنّ رجلاً همّ بقتل رجل بمكة وهو بعدن أيين أو ببلد آخر أذاقه الله من عذاب أليم .

قال السدي : إلاّ أن يتوب .

وروي عن عبد الله بن عمرو أنّه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل فسئل عن ذلك فقال كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل كلا والله وبلى والله .

قوله تعالى ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ قال ابن عباس : جعلنا وقيل وطأنا وقيل بينا وإنما ذكر مكان البيت لأن الكعبة رفعت إلى السماء زمن الطوفان فلما أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام ببناء البيت لم يدر أي جهة يبني فبعث الله تعالى ريحاً خجوجاً فكنست له ما حول البيت عن الأساس وقيل بعث الله سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا إبراهيم ابن على قدري فنبى عليه ﴿ أن لا تشرك بي شيئاً ﴾ أي عهدنا إلى إبراهيم وقلنا له : لا تشرك بي شيئاً ﴿ وطهر بيتي ﴾ أي من الشرك والأوثان والأقذار ﴿ للطائفين ﴾ أي الذي يطوفون بالبيت ﴿ والقائمين ﴾ أي المقيمين فيه ﴿ والركع السجود ﴾ أي المصلين .

(148/524)

قوله عزّ وجلّ ﴿ وأذن ﴾ أي أعلم وناد ، والأذان في اللغة الإعلام ﴿ في الناس ﴾ قال ابن عباس : أراد بالناس أهل القبلة ﴿ بالحج ﴾ فقال إبراهيم عليه السلام وما يبلغ صوتي

فقال الله عليك الأذان وعلينا الإبلاغ فقام إبراهيم على المقام حتى صار كأطول الجبال وأدخل أصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً وقال يا أيُّها الناس ألا إن ربكم قد بنى بيتاً وكتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم فأجابه كل من يحج من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات : لبيك اللهم لبيك .

قال ابن عباس : فأول من أجابه أهل اليمن فهم أكثر الناس حجاً وروي أنّ إبراهيم صعد أبا قبيس ونادى .

وزعم الحسن أن المأمور بالتأذين هو محمد صلّى الله عليه وسلم أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع (م) عن أبي هريرة قال : " خطبنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : يا أيُّها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا " ﴿ يأتوك رجالاً ﴾ أي مشاة على أرجلهم جمع راجل ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ أي ركباناً على الإبل المهزولة من كثرة السير وبدأ المشاة تشريفاً لهم ﴿ يأتين ﴾ أي جماعة الإبل ﴿ من كل فج عميق ﴾ أي من كل طريق بعيد فمن أتى مكة حاجاً فكأنه قد أتى إبراهيم لأنه مجيب نداءه .

قوله تعالى ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ قيل العفو المغفرة وقيل : التجارة وقال ابن عباس : الأسواق وقيل ما يرضى به الله من أمر الدنيا والآخرة ﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ﴾ يعني عشر ذي الحجة في قول أكثر المفسرين قيل لها معلومات للحرص عليها من أجل وقت الحج في آخرها .

وعن ابن عباس أنها أيام عرفة والنحر وأيام التشريق وقيل : إنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ يعني الهدايا والضحايا من النعم وهي الإبل والبقر والغنم وفيه دليل على أنّ الأيام المعلومات يوم النحر وأيام التشريق لأنه التسمية على بهيمة الأنعام عند نحرها ونحر الهدايا يكون في هذه الأيام ﴿ فكلوا منها ﴾ أمر إباحة ليس بواجب وذلك أن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئاً فأمر الله بمخالفتهم .

واتفق العلماء على أن الهدى إذا كان تطوعاً يجوز للمهدي أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لما روى عن جابر بن عبد الله في قصة تطوعاً يجوز للمهدي أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لما روى عن جابر بن عبد الله في قصة حجة الوداع قال " وقدم علي ببدن من اليمن وساق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مائة بدنة فنحر منها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثلاثاً وستين بدنة ونحر علي ما غبر وأشركه في بدنه ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر وطبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها " أخرجه مسلم قوله ما غبر أي ما بقي قوله ببضعه أي بقطعة .

واختلف العلماء في الهدي الواجب بالشرع مثل دم التمتع والقرآن والدم الواجب بإفساد

الحج وفوته وجزاء الصيد هل يجوز للمهدي أن يأكل منه شيئاً قال الشافعي : لا يأكل منه شيئاً وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر وقال ابن عمر : لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك وبه قال أحمد وإسحاق .

وقال مالك يأكل من هدي التمتع ومن كل هدي وجب عليه إلاّ من فدية الأذى وجزاء الصيد والمنذور وعند إصحاب الرأي أنه يأكل من دم التمتع والقرآن ولا يأكل من واجب سواهما .

وقوله تعالى ﴿ وأطعموا البائس الفقير ﴾ يعني الزمن الذي لا شيء له .

(150/524)

وقوله تعالى : ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ أي ليزيلوا أدرانهم وأوساخهم والمراد منه الخروج عن الإحرام بالحلق وقص الشارب ونتف الإبط وقلم الأظفار والاستحداد ولبس الثياب والحج أشعث أغبر إذا لم يزل هذه الأوساخ .

وقال ابن عمر وابن عباس : قضاء التفث مناسك الحج كلها ﴿ وليفوا نذورهم ﴾ أراد نذر الحج والهدي وما ينذر الإنسان من شيء يكون في الحج أي ليتموها بقضائها .

وقيل المراد منه الوفاء بما نذر وهو على ظاهره وقيل : أراد به الخروج عمَا وجب عليه

نذره أو لم ينذره ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ أراد به طواف الواجب وهو طواف الإفاضة ووقته يوم النحر بعد الرمي والحلق .

(151/524)

والطواف ثلاثة طواف القدوم وهو أنّ من قدم مكة يطوف بالبيت سبعاً يرمل ثلاثاً من الحجر الأسود إلى أن ينتهي إليه ويمشي أربعاً وهذا الطواف سنة لا شيء على من تركه (ق) عن عائشة : " إن أول شيء بدأ به حين قدم النبيّ (صلى الله عليه وسلم) أنه توضأ ثم طاف ثم لم تكن عمرة ثم حجّ أبو بكر وعمر مثله " (ق) عن ابن عمر " أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان إذا طاف الطواف الأول خب ثلاثاً ومشى أربعاً " زاد في رواية " ثم يصلي ركعتين يعني بعد الطواف بالبيت ثم يطوف بين الصفا والمروة " ولفظ أبي داود " أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان إذا طاف في الحج أو العمرة أو ما يقدم يسعى ثلاثة أشواط ويمشي أربعاً ثم يصلي سجدتين " والطواف الثاني هو طواف الإفاضة وذلك يوم النحر بعد الرمي والحلق (ق) عن عائشة قالت : " حاضت صفية ليلة النفر فقالت : ما أراني إلا حابستكم قال النبيّ صلى الله عليه وسلّم عقرى حلقى أطافت يوم النحر قيل نعم قال فانفري " قوله عقرى وحلقى معناه عقرها الله أي أصابها بالعقر وبوجع في حلقها

وقيل معناه مشئومة مؤذية ولم يرد به الدعاء عليها وإنّما هو شيء يجري على ألسنة العرب كقولهم : لا أم لك وتربت يمينك وفيه دليل على أن من لم يطف يوم النحر طواف الإفاضة لا يجوز له أن ينفر .

الثالث طواف الوداع لا رخصة لمن أراد مفارقة مكة إلى مسافة القصر في أن يفارقها حتى يطوف سبعاً فمن تركه فعليه دم إلا المرأة الحائض فإنه يجوز لها تركه للحديث المتقدم ولما روى ابن عباس قال " أمر الناس أن يكون الطواف آخر عهدهم بالبيت إلا أنه رخص للمرأة الحائض " متفق عليه .

(152/524)

الرمل سنة تختص بطواف القدوم ولا رمل في طواف الإفاضة والوداع وقوله ﴿ بالبيت العتيق ﴾ قال ابن عباس وغيره سمي عتيقاً لأن الله أعتقه من أيدي الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه فلم يظهر عليه جبار قط ، وقيل لأنه أول بيت وضع للناس وقيل لأن الله أعتقه من الغرق فإنه رفع أيام الطوفان وقيل لأنه لم يملك .

قوله عزّ وجلّ ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر ذلك يعني ما ذكر من أعمال الحج ﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ أي ما نهى الله عنه من معاصيه وتعظيمها ترك ملابستها وقيل : حرمات

الله ما لا يحل انتهاكه وقيل الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه وقيل : الحرمات هنا مناسك الحج وتعظيمها إقامتها وإتمامها وقيل الحرمات هنا البيت الحرام والبلد الحرام والمسجد الحرام والشهر الحرام ومعنى التعظيم العلم بأنه يجب القيام بمراعاتها وحفظ حرمتها ﴿ فهو خير له عند ربه ﴾ أي ثواب تعظيم الحرمات خير له عند الله في الآخرة ﴿ وأحلت لكم الأنعام ﴾ اي أن تأكلوها بعد الذبح وهي الإبل والبقر والغنم ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ أي تحريمه وهو قوله في سورة المائدة ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ﴾ الآية ﴿ فاجتنبوا الرجس والأوثان ﴾ أي اتركوا عبادتها فإنها سبب الرجس وهو العذاب وقيل سمى الأوثان رجساً لأنّ عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ يعني الكذب والبهتان .

وقال ابن عباس : هي شهادة الزور وروي عن أيمن بن خريم قال : " إنّ النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قام خطيباً فقال أيها الناس عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ثم قرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور " أخرجه الترمذي وقال قد اختلفوا في روايته ولا نعرف لأيمن سماعاً من النبيّ (صلى الله عليه وسلم) وأخرجه أبو داود عن خريم بن فاتك بنحوه وقيل : هو قول المشركين في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلاّ شريك هو لك تملكه وما ملك .

قوله تعالى : ﴿ حنفاء لله ﴾ يعني مخلصين له ﴿ غير مشركين به ﴾ فدل ذلك على أن المكلف ينوي بما يؤتيه من العبادة الأخلاص لله بها لا غيره وقيل كانوا في الشرك يحجون ويحرمون البنات والأمهات والأخوات وكانوا حنفاء فنزلت ﴿ حنفاء لله غير مشركين به ﴾ أي حجوا لله مسلمين موحدين ومن أشرك لا يكون حنيفاً ﴿ ومن يشرك بالله فكأنّما خر ﴾ أي سقط ﴿ من السماء ﴾ إلى الأرض ﴿ فتخطفه الطير ﴾ يعني تسلبه وتذهب به ﴿ أو تهوي به الريح ﴾ يعني تميل وتذهب به ﴿ في مكان سحيق ﴾ يعني بعيد .

ومعنى الآية أنّ من أشرك بالله بعيد من الحق والإيمان كبعد من سقط من السماء فذهبت به الطير أو هوت به الريح فلا يصل إليه بحال وقيل شبه حال المشرك بحال الهاوي من السماء لأنه لا يملك لنفسه حيلة حتى يقع حيث تسقط الريح فهو هالك لا محالة .

إما باستلاب الطير لحمه أو بسقوطه في المكان السحيق .

وقيل معنى الآية من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس وراءه إهلاك بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير ففرقت أجزاءه في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة .

وقيل شبه الإيمان بالسماء في علوه والذي ترك الإيمان بالساقط من السماء والأهواء التي

توزع أفكاره بالطير المختطفة والشياطين التي تطرحه في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة .

(154/524)

قوله عزّ وجلّ ﴿ ذلك ﴾ يعني الذي ذكر من اجتناب الرجس وقول الزور ﴿ ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ يعني تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب قال ابن عباس : شعائر الله البدن والهدي وأصلها من الإشعار ، وهو العلامة التي يعرف بها أنها هدى وتعظيمها استسمانها واستحسانها وقيل شعائر الله أعلام دينه وتعظيمها من تقوى القلوب ﴿ لكم فيها ﴾ اي في البدن ﴿ منافع ﴾ قيل هي درها ونسلها وصوفها ووبرها وركوب ظهرها ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ أي إلى أن يسميها ويوجبها هدياً فإذا فعل ذلك لم يكن له شيء من منافعها .

وهو قول مجاهد وقتادة والضحّاك ورواية عن ابن عباس وقيل معناه لكم في الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هدايا بأن تركبوها وتشربوا من ألبانها عند الحاجة إلى أجل مسمى يعني إلى أن تنحروها وهو قول عطاء .

واختلف العلماء في ركوب الهدي فقال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق : يجوز ركوبها

والحمل عليها من غير ضرر بها لما روي عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأى رجلاً يسوق بدنه فقال : " اركبها فقال يا رسول الله إنّها بدنة فقال : اركبها ويلك في الثانية والثالثة "

أخرجاه في الصحيحين .

وكذلك يجوز له أن يشرب من لبنها بعد ما يفضل عن ري ولدها .

وقال أصحاب الرأي : لا يركبها إلاّ أن يضطر إليه وقيل أراد بالشعائر المناسك ومشاهدة مكة لكم فيها منافع يعني بالتجارة والأسواق ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ يعني إلى الخروج من مكة وقيل ﴿ لكم فيها منافع ﴾ يعني بالأجر والثواب في قضاء المناسك إلى انقضاء أيام الحج ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ يعني منحرها عند البيت العتيق يريد به جميع أرض الحرم .

وروي عن جابر في حديث حجة الوداع أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " نحرت ها هنا ومنىً كلها منحر فانحروا في رحالكم " ومن قال الشعائر المناسك قال معنى ثم محلها يعني محل الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق يطوفون به طواف الزيارة .

(155/524)

قوله تعالى ﴿ ولكل أمة ﴾ يعني جماعة مؤمنة سلفت قبلكم ﴿ جعلنا منسكاً ﴾ قرىء بكسر السين يعني مذبحاً وهو موضع القربان منسكاً بفتح السين وهو إراقة الدم وذبح القرابين ﴿ ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ يعني عند ذبحها ونحرها سماها بهيمة لأنها لا تتكلم وقيد بالأنعام لأن ما سواها لا يجوز ذبحه في القرابين وإن جاز أكله .

قوله عزّ وجلّ ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ يعني سموا على الذبح اسم الله وحده فإنّ إلهكم إله واحد ﴿ فله أسلموا ﴾ يعني أخلصوا وانقادوا وأطيعوا ﴿ وبشر المخبتين ﴾ قال ابن عباس : المتواضعين وقيل المطمئنين إلى الله وقيل الخاشعين الرقيقة قلوبهم وقيل هم الذي لا يظلمون وإذا ظلموا لا ينتصرون ثم وصفهم .

فقال تعالى : ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ يعني خافت من عقاب الله فيظهر عليها الخشوع والتواضع لله تعالى ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ يعني من البلاء والمرض والمصائب ونحو ذلك مما كان من الله تعالى وما كان من الله تعالى وما كان من غير الله فله أن يصبر عليه وله أن ينتصر لنفسه ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ يعني في أوقاتها محافظة عليها ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ يعني يتصدّقون .

قوله تعالى ﴿ والبدن ﴾ جميع بدنه سميت بدنة لعظمها وضخامتها ، يريد الإبل الصحاح الأجسام والبقر ولا تسمى الغنم بدنة لصغرها ﴿ جعلناها لكم من شعائر الله ﴾ يعني من أعلام دينه قيل لأنه تشعر وهو أن تطعن بحديدة في سنامها فيعلم بذلك أنها هدي ﴿ لكم فيها خير ﴾ يعني نفع في الدنيا وثواب في العقبى ﴿ فاذكروا اسم الله عليها ﴾ يعني عند نحرها ﴿ صواف ﴾ يعني قياماً على ثلاث قوائم قد صفت رجليها ويدها اليمنى والأخرى معقولة فنحرها كذلك (ق) عن زياد بن جبير قال : " رأيت ابن عمر أتى على رجل قد أناخ بدنة ينحرها قال ابعثها قياماً مقيدة سنّة محمد (صلى الله عليه وسلم) " ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ يعني سقطت بعد النحر ووقع جنبها على الأرض ﴿ فكلوا منها ﴾ أمر إباحة ﴿ وأطعموا القانع والمعتر ﴾ قيل القانع الجالس في بيته المتعفف يقنع بما يعطى ولا يسأل .

والمعتر هو الذي يسأل وعن ابن عباس القانع هو الذي لا يسأل ولا يتعرض .

وقيل : القانع هو الذي يسأل والمعتر هو الذي يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل وقيل القانع المسكين والمعتر الذي ليس بمسكين ولا تكون له ذبيحة يجيء إلى القوم فيتعرض لهم لأجل لحمهم ﴿ كذلك ﴾ يعني مثل ما وصفنا من نحرها قياماً ﴿ سخرناها لكم ﴾ يعني لتتمكنوا من نحرها ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ يعني إنعام الله عليكم ﴿ لن ينال الله لحومها ولا

دماؤها ﴾ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحرو البدن لطخوا الكعبة بدمائها يزعمون أن ذلك قربة إلى الله تعالى فأنزل الله ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ﴾ يعني لن ترفع إلى الله لحومها ولا دماؤها ﴿ ولكن يناله التقوى منكم ﴾ يعني ولكن ترفع إليه الأعمال الصالحة والإخلاص وهو ما أريد به وجه الله ﴿ كذلك سخرها لكم ﴾ يعني البدن ﴿ لتكبروا الله على ما هداكم ﴾ وأرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه وهو أن يقول الله : أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا ﴿ وبشر المحسنين ﴾ قال ابن عباس الموحدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 19.8 ﴾

(157/524)

وقال النسفى :

﴿ هذان خَصْمَانِ ﴾

أي فريقان مختصمان ؛ فالخصم صفة وصف بها الفريق وقوله ﴿ اختصموا ﴾ للمعنى و ﴿ هذان ﴾ للفظ والمراد المؤمنون والكافرون .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : رجع إلى أهل الأديان المذكورة : فالمؤمنون خصم وسائر الخمسة خصم ﴿ فِى رَبِّهِمْ ﴾ في دينه وصفاته ، ثم بين جزاء كل خصم بقوله ﴿ فالذين

كَفَرُواْ ﴾ وهو فصل الخصومة المعنى بقوله ﴿ إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ كأن الله يقدر لهم نيراناً على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة ، واختير لفظ الماضي لأنه كائن لا محالة فهو كالثابت المتحقق ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ ﴾ بكسر الهاء والميم ، بصري ، وبضمهما : حمزة وعلي وخلف ، وبكسر الهاء وضم الميم : غيرهم ﴿ الحميم ﴾ الماء الحار .

عن ابن عباس رضي الله عنهما : لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها .

﴿ يُصْهَرُ ﴾ يذاب ﴿ بِهِ ﴾ بالحميم ﴿ مَا فِى بُطُونِهِمْ والجلود ﴾ أي يذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم فيؤثر في الظاهر والباطن ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ ﴾ سياط مختصة بهم ﴿ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ يضربون بها ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾ من النار ﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾ بدل الاشتمال من منها بإعادة الجار ، أو الأولى لابتداء الغاية والثانية بمعنى من أجل يعني كلما أرادوا الخروج من النار من أجل غم يلحقهم فخرجوا ﴿ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ بالمقامع ، ومعنى الخروج عند الحسن أن النار تضربهم بلهبها فتلقيهم إلى أعلاها فضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً ، والمراد إعادتهم إلى معظم النار لا أنهم ينفصلون عنها بالكلية ثم يعودون إليها ﴿ وَذُوقُواْ ﴾ أي وقيل لهم ذوقوا ﴿ عَذَابَ الحريق ﴾ هو الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك .

ثم ذكر جزاء الخصم الآخر فقال :

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ جمع أسورة جمع سوار ﴿ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ﴾ بالنصب : مدني وعاصم وعلي ويؤتون لؤلؤاً وبالجر : غيرهم عطفاً على ﴿ من ذهب ﴾ وبترك الهمزة الأولى في كل القرآن : أبو بكر وحماد ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ إبريسم .

﴿ وَهُدُواْ إِلَى الطيب مِنَ القول وَهُدُواْ إلى صراط الحميد ﴾ أي أرشد هؤلاء في الدنيا إلى كلمة التوحيد و ﴿ إلى صراط الحميد ﴾ أي الإسلام أو هداهم الله في الآخرة وألهمهم أن يقولوا : الحمد لله الذي صدقنا وعده وهداهم إلى طريق الجنة .

والحميد الله المحمود بكل لسان .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي يمنعون عن الدخول في الإسلام ويصدون ، حال من فاعل ﴿ كفروا ﴾ أي وهم يصدون أي الصدود منهم مستمر دائم كما يقال "فلان يحسن إلى الفقراء" فإنه يراد به استمرار وجود الإحسان منه في الحال والاستقبال ﴿ والمسجد الحرام ﴾ أي ويصدون عن المسجد الحرام والدخول فيه ﴿ الذى جعلناه لِلنَّاسِ ﴾ مطلقاً من غير فرق بين حاضر وبادٍ ، فإن أريد به البيت فالمعنى أنه

قبلة لجميع الناس ﴿ سَوَآء ﴾ بالنصب : حفص مفعول ثانٍ ل ﴿ جعلناه ﴾ أي جعلناه مستوياً ﴿ العاكف فِيهِ والباد ﴾ وغير المقيم .

(159/524)

بالياء : مكي وافقه أبو عمرو في الوصل وغيره بالرفع على أنه خبر والمبتدأ مؤخر أي العاكف فيه والباد سواء ، والجملة مفعول ثانٍ ﴿ للناس ﴾ حال ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ ﴾ في المسجد الحرام ﴿ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ حالان مترادفان ومفعول ﴿ يرد ﴾ متروك ليتناول كل متناول كأنه قال : ومن يرد فيه مراداً ما عادلاً عن القصد ظالماً ، فالإلحاد العدول عن القصد ﴿ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ في الآخرة وخبر "إن" محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره : إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم وكل من ارتكب فيه ذنباً فهو كذلك .

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ البيت ﴾ واذكر يا محمد حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة أي مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة وقد رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء ، فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها فكنست مكان البيت فبناه على أسه القديم ﴿ أن ﴾ هي المفسرة للقول المقدر أي قائلين له ﴿ لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ

بَيْتِىَ ﴾ من الأصنام والأقذار : وبفتح الياء : مدني وحفص ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ لمن يطوف به ﴿ والقائمين ﴾ والمقيمين بمكة ﴿ والركع السجود ﴾ المصلين جمع راكع وساجد .

﴿ وَأَذِّن فِى الناس بالحج ﴾ ناد فيهم ، والحج هو القصد البليغ إلى مقصد منيع .

ورُوي أنه صعد أبا قبيس فقال : يا أيها الناس حجوا بيت ربكم .

فأجاب من قدر له أن يحج من الأصلاب والأرحام بلبيك اللهم لبيك .

وعن الحسن أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع .

والأول أظهر وجواب الأمر ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ مشاة جمع راجل كقائم وقيام ﴿ وعلى كُلّ ضَامِرٍ ﴾ حال معطوفة على رجال كأنه قال : رجالاً وركباناً .

والضامر البعير المهزول ، وقدم الرجال على الركبان إظهاراً لفضيلة المشات كما ورد في الحديث ﴿ يَأْتِينَ ﴾ صفة ل ﴿ كل ضامر ﴾ لأنه في معنى الجمع .

(160/524)

وقرأ عبد الله ﴿ يأتون ﴾ صفة للرجال والركبان ﴿ مِن كُلّ فَجّ ﴾ طريق ﴿ عَمِيقٍ ﴾ بعيد .

قال محمد بن ياسين : قال لي شيخ في الطواف : من أين أنت ؟ فقلت : من خراسان .

قال : كم بينكم وبين البيت ؟ قلت : مسيرة شهرين أو ثلاثة .

قال : فأنتم جيران البيت ؟ فقلت : أنت من أين جئت ؟ قال : من مسيرة خمس سنوات وخرجت وأنا شاب فاكتهلت .

قلت : والله هذه الطاعة الجميلة والمحبة الصادقة فقال :

زر من هويت وإن شطت بك الدار . . .

وحال من دونه حجب وأستار

لا يمنعنك بعدٌ عن زيارته . . .

إن المحب لمن يهواه زوّار

واللام في ﴿ لِّيَشْهَدُواْ ﴾ ليحضروا متعلق ب ﴿ أذن ﴾ أو ب ﴿ يأتوك ﴾ ﴿ منافع لَهُمْ ﴾ نكرها لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادة ، وهذا لأن العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم ، أو بالمال كالزكاة ، وقد اشتمل الحج عليهما مع ما فيه من تحمل الأثقال وركوب الأهوال وخلع الأسباب وقطيعة الأصحاب وهجر البلاد والأوطان وفرقة الأولاد والخلان ، والتنبيه على ما يستمر عليه إذا انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء .

فالحاج إذا دخل البادية لا يتكل فيها إلا على عتاده ، ولا يأكل إلا من زاده ، فكذا المرء إذا

خرج من شاطىء الحياة وركب بحر الوفاء لا ينفع وحدته إلا ما سعى في معاشه لمعاده ، ولا يؤنس وحشته إلا ما كان يأنس به من أوراده ، وغسل من يحرم وتأهبه ولبسه غير المخيط وتطيبه مرآة لما سيأتي عليه من وضعه على سريره لغسله وتجهيزه .

مطيباً بالحنوط ملففاً في كفن غير مخيط .

(161/524)

ثم المحرم يكون أشعث حيران فكذا يوم الحشر يخرج من القبر لهفان ، ووقوف الحجيج بعرفات آملين رغباً ورهباً سائلين خوفاً وطمعاً وهم من بين مقبول ومخذول كموقف العرصات ﴿ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : 105] والإفاضة إلى المزدلفة بالمساء هو السوق لفصل القضاء ، ومنى هو موقف المنى للمذنبين إلى شفاعة الشافعين ، وحلق الرأس والتنظيف كالخروج من السيئات بالرحمة والتخفيف ، والبيت الحرام الذي من دخله كان آمناً من الإيذاء والقتال أنموذج لدار السلام التي هي من نزلها بقي سالماً من الفناء والزوال غير أن الجنة حفت بمكاره النفس العادية كما أن الكعبة حفت بمتالف البادية ، فمرحباً بمن جاوز مهالك البوادي شوقاً إلى اللقاء يوم التنادي .

﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله ﴾ عند الذبح ﴿ فِى أَيَّامٍ معلومات ﴾ هي عشر ذي الحجة عند

أبي حنيفة رحمه الله وآخرها يوم النحر وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ، وأكثر المفسرين رحمهم الله وعند صاحبيه هي أيام النحر وهو قول ابن عمر رضي الله عنهما ﴿ على مَا رَزَقَهُمْ مّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ أي على ذبحه وهو يؤيد قولهما والبهيمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر فبينت بالأنعام وهي الإبل والبقر والضأن والمعز .

﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ من لحومها ، والأمر للإباحة ، ويجوز الأكل من هدي التطوع والمتعة والقران لأنه دم نسك فأشبه الأضحية ، ولا يجوز الأكل من بقية الهدايا ﴿ وَأَطْعِمُواْ البائس ﴾ الذي أصابه بؤس أي شدة ﴿ الفقير ﴾ الذي أضعفه الإعسار .

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ ثم ليزيلوا عنهم أدرانهم كذا قاله نفطويه .

قيل : قضاء التفث قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد ، والتفث : الوسخ والمراد قضاء إزالة التفث .

(162/524)

وقال ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما : قضاء التفث مناسك الحج كلها ﴿ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ مواجب حجهم والعرب تقول لكل من خرج عما وجب عليه : وفى بنذره وإن لم ينذر ، أو ما ينذرونه من أعمال البر في حجهم ، ﴿ وليوفوا ﴾ بسكون اللام

والتشديد : أبو بكر ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ ﴾ طواف الزيارة الذي هو ركن الحج ويقع به تمام التحلل .

اللامات الثلاث ساكنة عند غير ابن عياش وأبي عمرو ﴿ بالبيت العتيق ﴾ القديم لأنه أول بيت وضع للناس بناه آدم ثم جدده إبراهيم ، أو الكريم ومنه عتاق الخيل لكرائمها ، وعتاق الرقيق لخروجه من ذل العبودية إلى كرم الحرية ، أو لأنه أعتق من الغرق لأنه رفع زمن الطوفان ، أو من أيدي الجبابرة ؛ كم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله ، أو من أيدي الملاك فلم يملك قط وهو مطاف أهل الغبراء كما أن العرش مطاف أهل السماء ، فإن الطالب إذا هاجته معية الطرب وجذبته جواذب الطلب جعل يقطع مناكب الأرض مراحل ويتخذ مسالك المهالك منازل ، فإذا عاين البيت لم يزده التسلي به إلا اشتياقاً ولم يفده التشفي باستلام الحجر إلا احتراقاً ، فيرده الأسف لهفان ويردده اللهف حوله في الدوران ، وطواف الزيارة آخر فرائض الحج الثلاث ، وأولها الإحرام وهو عقد الالتزام يشبه الاعتصام بعروة الإسلام حتى لا يرتفض بارتكاب ما هو محظور فيه ويبقى عقده مع ما يفسده وينافيه ، كما أن عقد الإسلام لا ينحل بازدحام الآثام وترتفع ألف حوبة بتوبة .

وثانيها الوقوف بعرفات بسمة الابتهال في صفة الاهتبال ، وصدق الاعتزال عن دفع الاتكال على مراتب الأعمال وشواهد الأحوال .

﴿ ذلك ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك أو تقديره ليفعلوا ذلك ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ

حرمات الله ﴾ الحرمة ما لا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله عز وجل بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها ، فيحتمل أن يكون عاماً في جميع تكاليفه ، ويحتمل أن يكون خاصاً بما يتعلق بالحج .

(163/524)

وقيل : حرمات الله البيت الحرام والمشعر الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام ﴿ فَهُوَ ﴾ أي التعظيم ﴿ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ ومعنى التعظيم العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام ﴾ أي كلها ﴿ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ آية تحريمه وذلك قوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة ﴾ [المائدة : 3] الآية .

والمعنى أن الله تعالى أحل لكم الأنعام كلها إلا ما بيّن في كتابه ، فحافظوا على حدوده ولا تحرموا شيئاً مما أحل كتحريم البعض البحيرة ونحوها ، ولا تحلوا مما حرم كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغيرهما .

ولما حث على تعظيم حرماته أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور بقوله ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان واجتنبوا قَوْلَ الزور ﴾ لأن ذلك من أعظم الحرمات وأسبقها حظراً .

و ﴿ من الأوثان ﴾ بيان للرجس لأن الرجس مبهم يتناول غير شيء كأنه قيل : فاجتنبوا

الرجس الذي هو الأوثان .

وسمى الأوثان رجساً على طريقة التشبيه يعني أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس فعليكم أن تنفروا عنها .

وجمع بين الشرك وقول الزور أي الكذب والبهتان أو شهادة الزور وهو من الزور وهو الانحراف ، لأن الشرك من باب الزور إذ المشرك زاعم أن الوثن يحق له العبادة .

﴿ حُنَفَاء للَّهِ ﴾ مسلمين ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ حال كحنفاء ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ ﴾ سقط ﴿ مّنَ السماء ﴾ إلى الأرض ﴿ فَتَخْطَفُهُ الطير ﴾ أي تسلبه بسرعة ﴿ فتخطّفه ﴾ أي تتخطفه مدني ﴿ أَوْ تَهْوِي بِهِ الريح ﴾ أي تسقطه والهوي السقوط ﴿ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ بعيد .

يجوز أن يكون هذا تشبيهاً مركباً ، ويجوز أن يكون مفرقاً .

فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق قطعاً في حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة .

(164/524)

وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي أشرك بالله بالساقط من السماء .

والأهواء المردية بالطير المتخطفة والشيطان الذي هو يوقعه في الضلال بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة .

﴿ ذلك ﴾ أي الأمر ذلك ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شعائر الله ﴾ تعظيم الشعائر وهي الهدايا لأنها من معالم الحج أن يختارها عظام الأجرام حساناً ثماناً غالية الأثمان ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ أي فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات .

وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى ﴿ لَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ من الركوب عند الحاجة وشرب ألبانها عند الضرورة ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى أن تنحر ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا ﴾ أي وقت وجوب نحرها منتهية ﴿ إلى البيت العتيق ﴾ والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت إذ الحرم حريم البيت ومثله في الاتساع قولك "بلغت البلد" وإنما اتصل مسيرك بحدوده .

وقيل : الشعائر المناسك كلها وتعظيمها إتمامها ومحلها إلى البيت العتيق يأباه ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ جماعة مؤمنة قبلكم ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ حيث كان بكسر السين بمعنى الموضع : علي وحمزة أي موضع قربان .

وغيرهما : بالفتح على المصدر أي إراقة الدماء وذبح القرابين ﴿ لِّيَذْكُرُواْ اسم الله ﴾

دون غيره ﴿ على مَا رَزَقَهُمْ مّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ أي عند نحرها وذبحها ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ أي اذكروا على الذبح اسم الله وحده فإن إلهكم إله واحد ، وفيه دليل على أن ذكر اسم الله شرط الذبح يعني أن الله تعالى شرع لكل أمة أن ينسكوا له أي يذبحوا له على وجه التقرب ، وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسماؤه على النسائك .

وقوله ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُواْ ﴾ أي أخلصوا له الذكر خاصة واجعلوه له سالماً أي خالصاً لا تشوبوه بإشراك ﴿ وَبَشّرِ المخبتين ﴾ المطمئنين بذكر الله أو المتواضعين الخاشعين من الخبت وهو المطمئن من الأرض .

(165/524)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا .

وقيل : تفسيره ما بعده أي

﴿ الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ خافت منه هيبة ﴿ والصابرين على مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من المحن والمصائب ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ في أوقاتها ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ يتصدقون .

﴿ والبدن ﴾ جمع بدنة سميت لعظم بدنها وفي الشريعة يتناول الإبل والبقر ، وقرىء

برفعها وهو كقوله ﴿ والقمر قدرناه ﴾ [يس : 39] ﴿ جعلناها لَكُمْ مِّن شعائر الله ﴾ أي من أعلام الشريعة التي شرعها الله ، وإضافتها إلى اسمه تعظيم لها و ﴿ من شعائر الله ﴾ ثاني مفعولي ﴿ جعلنا ﴾ ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ النفع في الدنيا والأجر في العقبى ﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا ﴾ عند نحرها ﴿ صَوَافَّ ﴾ حال من الهاء أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ وجوب الجنوب وقوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقط أي إذا سقطت جنوبها على الأرض بعد نحرها وسكنت حركتها ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ إن شئتم ﴿ وَأَطْعِمُواْ القانع ﴾ السائل من قنعت إليه إذا خضعت له وسألته قنوعاً ﴿ والمعتر ﴾ الذي يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل . وقيل : القانع الراضي بما عنده وبما يعطي من غير سؤال من قنعت قنعاً وقناعة ، والمعتر المتعرض للسؤال ﴿ كذلك سخرناها لَكُمْ ﴾ أي كما أمرناكم بنحرها سخرناها لكم ، أو هو كقوله ﴿ ذلك ومن يعظم ﴾ ثم استأنف فقال ﴿ سخرناها لكم ﴾ أي ذللناها لكم مع قوتها وعظم أجرامها لتتمكنوا من نحرها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ لكي تشكروا إنعام الله عليكم .

(166/524)

﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ ﴾ أي لن يتقبل الله اللحوم والدماء ولكن يتقبل التقوى ، أو لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المراقة بالنحر والمراد أصحاب اللحوم والدماء ، والمعنى لن يرضى المضحون والمقربون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص ورعاية شروط التقوى .

وقيل : كان أهل الجاهلية إذا نحروا الإبل نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم ، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت ﴿ كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ أي البدن ﴿ لِتُكَبِّرُواْ الله ﴾ لتسموا الله عند الذبح أو لتعظموا الله ﴿ على مَا هَدَاكُمْ ﴾ على ما أرشدكم إليه ﴿ وَبَشِّرِ المحسنين ﴾ الممتثلين أوامره بالثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 96.103 ﴾

(167/524)

وقال البيضاوى :

﴿ هذان خَصْمَانِ ﴾

أي فوجان مختصمان . ولذلك قال : ﴿ اختصموا ﴾ حملاً على المعنى ولو عكس لجاز ، والمراد بهما المؤمنون والكافرون . ﴿ فِى رَبِّهِمْ ﴾ في دينه أو في ذاته وصفاته . وقيل

تخاصمت اليهود والمؤمنون فقال اليهود : نحن أحق بالله وأقدم منكم كتاباً ونبياً قبل نبيكم ، وقال المؤمنون : نحن أحق بالله آمنا بمحمد ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم كفرتم به حسداً فنزلت . ﴿ فالذين كَفَرُواْ ﴾ فصل لخصومتهم وهو المعني بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ﴾ قدرت لهم على مقادير جثثهم ، وقرىء بالتخفيف . ﴿ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ نيران تحيط بهم إحاطة الثياب . ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الحميم ﴾ حال من الضمير في ﴿ لَهُمْ ﴾ أو خبر ثان ، والحميم الماء الحار .

﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ والجلود ﴾ أي يؤثر من فرط حرارته في بطونهم تأثيره في ظاهرهم فتذاب به أحشاؤهم كما تذاب به جلودهم ، والجملة حال من ﴿ الحميم ﴾ أو من ضميرهم . وقرىء بالتشديد للتكثير .

﴿ وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ سياط منه يجلدون بها وجمع مقمعة وحقيقتها ما يقمع به أي يكف بعنف .

﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾ من النار . ﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾ من عمومها بدل من الهاء بإعادة الجار . ﴿ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ أي فخرجوا أعيدوا لأن الإعادة لا تكون إلا بعد الخروج ، وقيل يضربهم لهيب النار فيرفعهم إلى أعلاها فيضربون بالمقامع فيهوون فيها . ﴿ وَذُوقُواْ ﴾ أي وقيل لهم ذوقوا . ﴿ عَذَابَ الحريق ﴾ أي النار البالغة في الإحراق .

﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ غير الأسلوب فيه وأسند الإدخال إلى الله تعالى وأكده بإن إحماداً لحال المؤمنين وتعظيماً لشأنهم . ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ من حليت المرأة إذا ألبستها الحلى ، وقرىء بالتخفيف والمعنى واحد . ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ صفة مفعول محذوف و ﴿ أَسَاوِرَ ﴾ جمع أسورة وهو جمع سوار . ﴿ مّن ذَهَبٍ ﴾ بيان له . ﴿ وَلُؤْلُؤاً ﴾ عطف عليها لا على ﴿ ذَهَبَ ﴾ لأنه لم يعهد السوار منه إلا أن يراد المرصعة به ، ونصبه نافع وعاصم عطفاً على محلها أو إضمار الناصب مثل ويؤتون ، وروى حفص بهمزتين وترك أبو بكر والسوسي عن أبي عمرو الهمزة الأولى ، وقرىء "لؤلوا" بقلب الثانية واواً و"لوليا" بقلبهما ، و"لوين" ثم قلب الثانية ياء و"ليليا" بقلبهما ياءين و"لول" كأدل . ﴿ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ غير أسلوب الكلام فيه للدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة ، أو للمحافظة على هيئة الفواصل .

﴿ وَهُدُواْ إِلَى الطيب مِنَ القول ﴾ وهو قولهم ﴿ الحمد للَّهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أو

كلمة التوحيد . ﴿ وَهُدُواْ إلى صراط الحميد ﴾ المحمود نفسه أو عاقبته وهو الجنة ، أو الحق أو المستحق لذاته الحمد وهو الله سبحانه وتعالى وصراطه الإِسلام .

(169/524)

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ لا يريد به حالاً ولا استقبالاً وإنما يريد به استمرار الصد منهم كقولهم : فلان يعطي ويمنع ، ولذلك حسن عطفه على الماضي . وقيل هو حال من فاعل ﴿ كَفَرُواْ ﴾ وخبر ﴿ إِن ﴾ محذوف دل عليه آخر الآية أي معذبون . ﴿ والمسجد الحرام ﴾ عطف على اسم الله وأَوَّلَهُ الحنفية بمكة واستشهدوا بقوله : ﴿ الذى جعلناهِ لِلنَّاسِ سَوَاء العاكف فِيهِ والباد ﴾ أي المقيم والطارىء على عدم جواز بيع دورها وإجارتها ، وهو مع ضعفه معارض بقوله تعالى : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن ديارهم ﴾ وشراء عمر رضي الله تعالى عنه دار السجن فيها من غير نكير ، و ﴿ سَوَآء ﴾ خبر مقدم والجملة مفعول ثان ل ﴿ جعلناه ﴾ إن جعل ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ حالاً من الهاء وإلا فحال من المستكن فيه ، ونصبه حفص على أنه المفعول أو الحال و ﴿ العاكف ﴾ مرتفع به ، وقرىء ﴿ العاكف ﴾ بالجر على أنه بدل من الناس . ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ ﴾ مما ترك مفعوله ليتناول كل متناول ، وقرىء بالفتح من الورود . ﴿ بِإِلْحَادٍ ﴾ عدول عن

القصد ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ بغير حق وهما حالان مترادفان ، أو الثاني بدل من الأول بإعادة الجار أو صلة له : أي ملحداً بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ جواب ل ﴿ مِنْ ﴾ .

(170/524)

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ البيت ﴾ أي واذكر إذ عيناه وجعلناه له مباءة . وقيل اللام زائدة ومكان ظرف أي وإذ أنزلناه فيه . قيل رفع البيت إلى السماء وانطمس أيام الطوفان فأعلمه الله مكانه بريح أرسلها فكنست ما حوله فبناه على أسه القديم . ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ والقائمين والركع السجود ﴾ ﴿ أَن ﴾ مفسرة ل ﴿ بَوَّأْنَا ﴾ من حيث إنه تضمن معنى تعبدنا لأن التبوئة من أجل العبادة ، أو مصدرية موصولة بالنهي أي : فعلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي وطهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلي فيه ، ولعله عبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك كيف وقد اجتمعت ، وقرىء ﴿ يُشْرَكَ ﴾ بالياء وقرأ نافع وحفص وهشام ﴿ بَيْتِىَ ﴾ بفتح الياء .

﴿ وَأَذِّن فِى الناس ﴾ ناد فيهم وقرىء "وَآذِّن" . ﴿ بالحج ﴾ بدعوة الحج والأمر به .

روي أنه عليه الصلاة والسلام صعد أبا قبيس فقال " يا أيها الناس حجوا بيت ربكم ، فأسمعه الله من أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب من سبق في علمه أن يحج " . وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بذلك في حجة الوداع . ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ مشاة جمع راجل كقائم وقيام ، وقرىء بضم الراء مخفف الجيم ومثقله ورجالى كعجالى . ﴿ وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ أي وركباناً على كل بعير مهزول أتعبه بعد السفر فهزله . ﴿ يَأْتِينَ ﴾ صفة ل ﴿ ضَامِرٍ ﴾ محمولة على معناه ، وقرىء "يأتون" صفة للرجال والركبان أو استئناف فيكون الضمير ل ﴿ الناس ﴾ . ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ ﴾ طريق . ﴿ عَمِيقٍ ﴾ بعيد ، وقرىء "معيق" يقال بئر بعيدة العمق والمعق بمعنى .

(171/524)

﴿ لِّيَشْهَدُواْ ﴾ ليحضروا . ﴿ منافع لَهُمْ ﴾ دينية ودنيوية ، وتنكيرها لأن المراد بها نوع من المنافع مخصوص بهذه العبادة . ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها . وقيل كنى بالذكر عن النحر لأن ذبح المسلمين لا ينفك عنه تنبيهاً على أنه المقصود مما يتقرب به إلى الله تعالى . ﴿ فِى أَيَّامٍ معلومات ﴾ هي عشر ذي الحجة ، وقيل أيام النحر . ﴿ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ علق الفعل بالمرزوق وبينه بالبهيمة تحريضاً

على التقرب وتنبيهاً على مقتضى الذكر . ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ من لحومها أمر بذلك إباحة وإزالة لما عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه ، أو ندباً إلى مواساة الفقراء ومساواتهم ، وهذا في المتطوع به دون الواجب . ﴿ وَأَطْعِمُواْ البائس ﴾ الذي أصابه بؤس أي شدة . ﴿ الفقير ﴾ المحتاج ، والأمر فيه للوجوب وقد قيل به في الأول .

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ ثم ليزيلوا وسخهم بقص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال . ﴿ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ ما ينذرون من البر في حجهم ، وقيل مواجب الحج . وقرأ أبو بكر بفتح الواو وتشديد الفاء . ﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ ﴾ طواف الركن الذي به تمام التحلل فإنه قرينة قضاء التفث ، وقيل طواف الوداع . وقرأ ابن عامر وحده بكسر اللام فيهما . ﴿ بالبيت العتيق ﴾ القديم لأنه أول بيت وضع للناس ، أو المعتق من تسلط الجبابرة فكم من جبار رسا إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى ، وأما الحجاج فإنما قصد إخراج ابن الزبير منه دون التسلط عليه .

(172/524)

﴿ ذلك ﴾ خبر محذوف أي الأمر ذلك وهو وأمثاله تطلق للفصل بين كلامين . ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حرمات الله ﴾ أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه ، أو الحرم وما يتعلق بالحج من

التكاليف . وقيل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرم . ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ فالتعظيم ﴿ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ . ﴿ عِندَ رَبِّهِ ﴾ ثواباً . ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ إلا المتلو عليكم تحريمه ، وهو ما حرم منها لعارض : كالميتة وما أهل به لغير الله فلا تخرجوا منها غير ما حرمه الله كالبحيرة والسائبة . ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس ، وهو غاية المبالغة في النهي عن تعظيمها والتنفير عن عبادتها . ﴿ واجتنبوا قَوْلَ الزور ﴾ تعميم بعد تخصيص فإن عبادة الأوثان رأس الزور ، كأنه لما حث على تعظيم الحرمات أتبعه ذلك رداً لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب وتعظيم الأوثان والإفتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك . وقيل شهادة الزور لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال " عدلت شهادة الزور الإشراك بالله تعالى ثلاثاً وتلا هذه الآية " و ﴿ الزور ﴾ من الزور وهو الإنحراف كما أن الإفك من الأفك وهو الصرف ، فإن الكذب منحرف مصروف عن الواقع .

(173/524)

﴿ حُنَفَاء للَّهِ ﴾ مخلصين له . ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ وهما حالان من الواو . ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السماء ﴾ لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر . ﴿

فَتَخْطَفُهُ الطير ﴾ فإن الأهواء الرديئة توزع أفكاره ، وقرأ نافع وحده ﴿ فَتَخْطَفُهُ ﴾ بفتح الخاء وتشديد الطاء . ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ الريح فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ بعيد فإن الشيطان قد طوح به في الضلالة أو للتخيير كما قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السماء ﴾ أو للتنويع فإن المشركين من لا خلاص له أصلاً ، ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة لكن على بعد ، ويجوز أن يكون من التشبيهات المركبة فيكون المعنى : ومن يشرك بالله فقد هلكت نفسه هلاكاً يشبه أحد الهلاكين .

﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ شعائر الله ﴾ دين الله أو فرائض الحج ومواضع نسكه ، أو الهدايا لأنها من معالم الحج وهو أوفق لظاهر ما بعده ، وتعظيمها أن تختارها حساناً سماناً غالية الأثمان . روي أنه صلى الله عليه وسلم أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب ، وأن عمر رضي الله تعالى عنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار . ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ فإن تعظيمها منه من أفعال ذوي تقوى القلوب ، فحذفت هذه المضافات والعائد إلى من وذكر القلوب لأنها منشأ التقوى والفجور أو الآمرة بهما .

(174/524)

﴿ لَكُمْ فِيهَا منافع إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إلى البيت العتيق ﴾ أي لكم فيها منافع درها ونسلها وصوفها وظهرها إلى أن تنحر ، ثم وقت نحرها منتهية إلى البيت أي ما يليه من الحرم ، و﴿ ثُمَّ ﴾ تحتمل التراخي في الوقت والتراخي في الرتبة ، أي لكم فيها منافع دنيوية إلى وقت النحر وبعده منافع دينية أعظم منها ، وهو على الأولين إما متصل بحديث ﴿ الأنعام ﴾ والضمير فيه لها أو المراد على الأول لكم فيها منافع دينية تنتفعون بها إلى أجل مسمى هو الموت ، ثم محلها منتهية إلى البيت العتيق الذي ترفع إليه الأعمال أو يكون فيها ثوابها وهو البيت المعمور أو الجنة ، وعلى الثاني ﴿ لَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ التجارات في الأسواق إلى وقت المراجعة ثم وقت الخروج منها منتهية إلى الكعبة بالإِحلال بطواف الزيارة .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ ولكل أهل دين . ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ متعبداً أو قرباناً يتقربون به إلى الله ، وقرأ حمزة والكسائي بالكسر أي موضع نسك . ﴿ لِّيَذْكُرُواْ اسم الله ﴾ دون غيره ويجعلوا نسيكتهم لوجهه ، علل الجعل به تنبيهاً على أن المقصود من المناسك تذكر المعبود . ﴿ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ عند ذبحها ، وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون نعماً . ﴿ فإلهكم إله واحد فَلَهُ أَسْلِمُواْ ﴾ أخلصوا التقرب أو الذكر ولا تشوبوه بالإِشراك . ﴿ وَبَشِّرِ المخبتين ﴾ المتواضعين أو المخلصين فإن الإِخبات صفتهم . ﴿ الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ هيبة منه لإِشراق أشعة جلاله عليها . ﴿

والصابرين على مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من الكلف والمصائب . ﴿ وَالمُقيمي الصَّلاَةِ ﴾ في أوقاتها ، وقرىء "والمقيمين للصلاة" على الأصل . ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ في وجوه الخير .

(175/524)

﴿ والبدن ﴾ جمع بدنة كخشب وخشبة ، وأصله الضم وقد قرىء به وإنما سميت بها الإِبل لعظم بدنها مأخوذة من بدن بدانة ، ولا يلزم من مشاركة البقرة لها في أجزائها عن سبعة بقوله عليه الصلاة والسلام " البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة " تناول اسم البدنة لها شرعاً .

بل الحديث يمنع ذلك وانتصابه بفعل يفسره . ﴿ جعلناها لَكُمْ ﴾ ومن رفعه جعله مبتدأ . ﴿ مِن شَعَائِرِ الله ﴾ من أعلام دينه التي شرعها الله تعالى . ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ منافع دينية ودنيوية . ﴿ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا ﴾ بأن تقولوا عند ذبحها الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك . ﴿ صَوَافَّ ﴾ قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ، وقرىء "صوافن" من صفن الفرس إذا قام على ثلاث . وعلى طرف حافر الرابعة لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث ، وقرىء "صوافنا" بإبدال التنوين من حرف الإِطلاق عند الوقف و"صوافي" أي خوالص لوجه الله ، و"صوافي" بسكون الياء على لغة من يسكن الياء

مطلقاً كقولهم : أعط القوس باريها . ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ سقطت على الأرض وهو كناية عن الموت . ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ القانع ﴾ الراضي بما عنده وبما يعطى من غير مسألة ويؤيده قراءة "القنع" ، أو السائل من قنعت إليه قنوعاً إذا خضعت له في السؤال . ﴿ والمعتر ﴾ والمعترض بالسؤال ، وقرىء "والمعتري" يقال عره وعراه واعتره واعتراه . ﴿ كذلك ﴾ مثل ما وصفنا من نحرها قياماً . ﴿ سخرناها لَكُمْ ﴾ مع عظمها وقوتها حتى تأخذوها منقادة فتعقلوها وتحبسوها صافة قوائمها ثم تطعنون في لبانها . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص .

(176/524)

﴿ لَن يَنَالَ الله ﴾ لن يصيب رضاه ولن يقع منه موقع القبول . ﴿ لُحُومُهَا ﴾ المتصدق بها . ﴿ وَلاَ دِمَاؤُهَا ﴾ المهراقة بالنحر من حيث إنها لحوم ودماء . ﴿ ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ ﴾ ولكن يصيبه ما يصحبه من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيم أمره تعالى والتقرب إليه والإخلاص له ، وقيل كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا القرابين لطخوا الكعبة بدمائها قربة إلى الله تعالى فهم به المسلمون فنزلت . ﴿ كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ كرره تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله : ﴿ لِتُكَبِّرُواْ الله ﴾ أي لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا

يقدر عليه غيره فتوحدوه بالكبرياء . وقيل هو التكبير عند الإِحلال أو الذبح . ﴿ على مَا هَدَاكُمْ ﴾ أرشدكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها ، و﴿ مَا ﴾ تحتمل المصدرية والخبرية و﴿ على ﴾ متعلقة ب ﴿ لِتُكَبِّرُواْ ﴾ لتضمنه معنى الشكر . ﴿ وَبَشِّرِ المحسنين ﴾ المخلصين فيما يأتونه ويذرونه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 120.128 ﴾

(177/524)

وقال ابن جزى :

﴿ هذان خَصْمَانِ ﴾

الإشارة إلى المؤمنين والكفار على العموم ، ويدل على ذلك ما ذكر قبلها من اختلاف الناس في أديانهم ، وهو قول ابن عباس ، وقيل : نزلت في علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث حين برزوا يوم بدر لعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، فالآية على هذا مدنية إلى تمام ست آيات ، والخصم يقع على الواحد والاثنين والجماعة ، والمراد به هنا الجماعة ، والإشارة بهذان الفريقين ﴿ اختصموا فِي رَبِّهِمْ ﴾ أي في دينه وفي صفاته ، والضمير في اختصموا لجماعة الفريقين ﴿ فالذين كَفَرُواْ ﴾ الآية :

حكم بين الفريقين ، بإن جعل للكفار النار وللؤمنين الجنة المذكورة بعد هذا ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ أي فصلت على قدر أجسادهم ، وهو مستعار من تفصيل الثياب ﴿ الحميم ﴾ الماء الحارّ .

﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ أي يذاب ، وذلك أن الحميم إذا صب على رؤوسهم وصل حره إلى بطونهم ، فأذاب ما فيها ، وقيل : معنى يصهر ينضج .

﴿ مَّقَامِعُ ﴾ جمع مقمعة أي مقرعة ﴿ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ يضربون بها ، وقيل : هي السياط .

﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾ بدل من المجرور قبله ﴿ وَذُوقُواْ ﴾ التقدير يقال لهم ذوقوا .

﴿ مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ من لبيان الجنس أو للتبعيض وفسرنا الأساور في [الكهف : 31] ﴿ وَلُؤْلُؤاً ﴾ مفعول بفعل مضمر أي يعطون لؤلؤاً ، أو معطوف على موضع ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ إذ هو مفعول ، وبالخفض معطوف على أساور أو على ذهب .

﴿ الطيب مِنَ القول ﴾ قيل : هو لا إله إلا الله ، واللفظ أعم من ذلك ﴿ صِرَاطِ الحميد ﴾ أي صراط الله ، فالحميد اسم الله ، ويحتمل أن يريد الصراط الحميد ، وأضاف الصفة إلى الموصوف كقولك : مسجد الجامع .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ خبره محذوف يدل عليه قوله ﴿ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، وقيل : الخبر ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ على زيادة الواو ، وهذا ضعيف ، وإنما قال : ﴿ يَصُدُّونَ ﴾ بلفظ المضارع ليدل على الاستمرار على الفعل ﴿ سَوَآءً ﴾ بالرفع مبتدأ وخبره مقدر ، والجملة في موضع المفعول الثاني لجعلنا ، وقرأ حفص بالنصب على أنه المفعول الثاني والعاكف فاعل به ﴿ العاكف فِيهِ والباد ﴾ العاكف المقيم في البلد : والبادي القادم عليه من غيره ، والمعنى : الناس سواء في المسجد الحرام ، لا يختص به أحد دون أحد وذلك إجماع ، وقال أبو حنيفة : حكم سائر مكة في ذلك كالمسجد الحرام ، فيجوز للقادم أن ينزل منها حيث شاء ، وليس لأحد فيها ملك ، والمراد عنده بالمسجد الحرام جميع مكة ، وقال مالك وغيره : ليست الدور في ذلك كالمسجد ، بل هي متملكة ﴿ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ الإلحاد الميل عن الصواب ، والظلم هنا عام في المعاصي من الكفر إلى الصغائر ، لأن الذنوب في مكة أشدّ منها في غيرها ، وقيل : هو استحلال الحرام ، ومفعول ﴿ يُرِدْ ﴾ محذوف تقديره : من يرد أحداً أو من يرد شيئاً ، ﴿ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ : حالان مترادفان ، وقيل : المفعول قوله بإلحاد على زيادة الباء .

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت ﴾ العامل في إذ مضمر تقديره اذكر وبوأنا أصله من باء بمعنى رجع ، ثم ضوعف ليتعدى ، واستعمل بمعنى أنزلنا في الموضع كقوله : ﴿ تُبَوِّىءُ المؤمنين ﴾ [آل عمران : 121] ، إلا أن هذا المعنى يشكل هنا لقوله لإبراهيم لتعدّى الفعل باللام ، وهو يتعدّى بنفسه حتى قيل : اللام زائدة ، ، وقيل : معناه هيأنا ، وقيل : جعلنا ، والبيت هنا الكعبة ، وروى أنه كان آدم يعبد الله فيه ، ثم درس بالطوفان ، فدل الله إبراهيم عليه السلام على مكانه ، وأمره ببنيانه ﴿ أَن لاَّ تُشْرِكْ ﴾ أن مفسرة ، والخطاب لإبراهيم عليه السلام ، وإنما فسرت تبوئه البيت بالنهي عن الإشراك ، والأمر بالتطهير ؛ لأن التبوئة إنما قصدت لأجل العبادة التي تقتضي ذلك ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ عام في التطهير من الكفر والمعاصي والأنجاس ، وغير ذلك ﴿ والقآئمين ﴾ يعني المصلين .

(180/524)

﴿ وَأَذِّن فِي الناس بالحج ﴾ خطاب لإبراهيم ، وقيل : لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والأول هو الصحيح ، روى أنه لما أمر بالأذان بالحج . صعد على جبل أبي قبيس ، ونادى : أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت فحجوا ، فسمعه كل من يحج إلى يوم

القيامة ، وهم في أصلاب آبائهم . وأجابه في ذلك الوقت كل شيء من جماد وغيره . لبيك اللهم لبيك ، فجرت التلبية على ذلك ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ جمع راجل أي ماشياً على رجليه ﴿ وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ الضامر يراد به كل ما يركب من فرس وناقة وغير ذلك ، وإنما وصفه بالضمور لأنه لا يصل إلى البيت إلا بعد ضموره ، وقوله : ﴿ وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ حال معطوف على حال كأنه قال : رجالاً وركباناً ، واستدل بعضهم بتقديم الرجال في الآية على أن المشي إلى الحج أفضل من الركوب ، واستدل بعضهم بسقوط ذكر البحر بهذه الآية ، على أنه يسقط فرض الحج على من يحتاج إلى ركوب البحر ﴿ يَأْتِينَ ﴾ صفة لكل ضامر ، لأنه في معنى الجمع ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ أي طريق بعيد .

(181/524)

﴿ مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ أي بالتجارة ، وقيل : أعمال الحج وثوابه ، واللفظ أعم من ذلك ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله ﴾ يعني التسمية عند ذبح البهائم ونحرها وفي الهدايا والضحايا ، وقيل : يعني الذكر على الإطلاق ، وإنما قال : ﴿ اسم الله ﴾ ، لأن الذكر باللسان إنما يذكر لفظ الأسماء ﴿ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ هي عند مالك : يوم النحر وثانية وثالثة خاصة لأن هذه هي أيام الضحايا عنده ، ولم يجز ذبحها بالليل لقوله ﴿ فِي أَيَّامٍ ﴾ وقيل : الأيام المعلومات :

عشر ذي الحجة ويوم النحر ، والثلاثة بعده ، وقيل : عشر ذي الحجة خاصة ، وأما الأيام المعدودات ، فهي الثلاثة بعد يوم النحر ، فيوم النحر من المعلومات لا من المعدودات واليومان بعده من المعلومات والمعدودات ورابع النحر في المعدودات لا من المعلومات ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ ندب أو إباحة ويستحب أن يأكل الأقل من الضحايا ويتصدق بالأكثر ﴿ البآئس ﴾ الذي أصابه البؤس وقيل : هو المتكفف وقيلا : الذي يظهر عليه أثر الجوع .

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ ﴾ التفث في اللغة الوسخ ، فالمعنى ليقضوا إزالة تفثهم بقص الأظافر ، والاستحداد وسائر خاصل الفطرة والتنظف بعد أن يحلّوا من الحج ، وقيل : التفث أعمال الحج ، وقرىء بكسر اللام وإسكانها ، وهي لام الأمر وكذلك وليوفوا وليطوّفوا .

﴿ وَلْيَطَّوَّفُواْ ﴾ المراد هنا طواف الإفاضة عند جميع المفسرين وهو الطواف الواجب ﴿ بالبيت العتيق ﴾ أي القديم ، لأنه أول بيت وضع للناس وقيل : العتيق الكريم ، كقولهم : فرس عتيق ، وقيل أُعتق من الجبابرة أي منع منهم ، وقيل : العتيق هو الذي لم يملكه أحد قط .

﴿ ذلك ﴾ هنا وفي الموضع الثاني مرفوع على تقدير : الأمر ذلك كما يقدم الكاتب جملة من كتابه ، ثم يقول هذا وقد كان كذا ، وأجاز بعضهم الوقف على قوله : ﴿ ذلك ﴾ في ثلاثة مواضع من هذه السورة وهي هذا ، و﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله ﴾ [الحج : 32] وذلك ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بالله ﴾ [الحج : 31] لأنها جملة مستقلة أو هو خبر ابتداء مضمر ، والأحسن وصلها بما بعدها عند شيخنا أبي جعفر بن الزبير ، لأن ما بعدها ليس كلاماً أجنبياً ، مثلها ﴿ ذلك وَمَنْ عَاقَبَ ﴾ [الحج : 60] و﴿ ذلكم فَذُوقُوهُ ﴾ [الأنفال : 14] في الأنفال ، و﴿ هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ ﴾ في [ص : 55] ﴿ حُرُمَاتِ الله ﴾ جمع حرمة ، وهو ما لا يحل هتكه من أحكام الشريعة ، فيحتمل أن يكون هنا على العموم ، أو يكون خاصاً بما يتعلق بالحج لأن الآية فيه ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ أي التعظيم للحرمات خير ﴿ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ يعني ما حرمه في غير هذا الموضع كالميتة ﴿ الرجس مِنَ الأوثان ﴾ من لبيان الجنس كأنه قال : الرجس الذي هو الأوثان ، والمراد النهي عن عبادتها أو عن الذبح تقرباً إليها ، كما كانت العرب تفعل ﴿ قَوْلَ الزور ﴾ أي الكذب ، وقيل : شهادة الزور .

﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السمآء ﴾ الآية ، تمثيل للمشرك بمن أهلك نفسه أشدّ الهلاك ﴿ سَحِيقٍ ﴾ أي بعيد .

﴿ شَعَائِرَ الله ﴾ قيل : هي الهدايا في الحج وتعظيمها بأن تختار سماناً عظاماً غالية الأثمان

، وقيل : مواضع الحج ، كعرفات ومنى المزدلفة ، وتعظيمها إجلالها وتوقيرها والقصد إليها ، وقيل : الشعائر أمور الدين على الاطلاق ، وتعظيمها القيام بها وإجلالها ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ الضمير عائد على الفعلة التي يتضمنها الكلام وهي مصدر يعظم ، وقال الزمخشري ، : التقدير فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب ، فحذفت هذه المضافات .

(183/524)

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ من قال إن شعائر الله هي الهدايا ، فالمانع بها شرب لبنها ، وركوبها لمن اضطر إليها ، والأجل المسمى نحرها . ومن قال إن شعائر الله مواضع الحج ، فالمنافع التجارة فيها أو الأجر ، والأجل المسمى : الرجوع إلى مكة لطواف الإفاضة ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إلى البيت العتيق ﴾ من قال : إن شعائر الله الهدايا فمحلها موضع نحرها وهي منى ومكة ، وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم وهو المقصود بالهدي ، و﴿ ثُمَّ ﴾ على هذا القول ليست للترتيب في الزمان ، لأن محلها قبل نحرها ، وإنما هي لترتيب الجُمل ، ومن قال : إن الشعائر موضع الحج ، فمحلها مأخوذ من إحلال المحرم : أي أخر ذلك كله الطواف

بالبيت يعني طواف الإفاضة إذ به يحل المحرم من إحرامه ومن قال : إن الشعائر أمور الدين على الاطلاق فذلك لا يستقيم مع قوله : محلها إلى البيت .

(184/524)

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً ﴾ أي لكل أمة مؤمنة ، والمنسك اسم مكان أي موضعها لعبادتهم ، ويحتمل أن يكون اسم مصدر بمعنى عبادة ، والمراد بذلك الذبائح لقوله : ﴿ لِّيَذْكُرُواْ اسم الله على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ بخلاف ما يفعله الكفار من الذبح تقرّباً إلى الأصنام ﴿ فإلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ في وجه اتصاله بما قبله وجهان : أحدهما أنه لما ذكر الأمم المتقدمة خاطبها بقوله : ﴿ فإلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ ، أي هو الذي شرع المناسك لكم ولمن تقدّم قبلكم ، والثاني : أنه إشارة إلى الذبائح أي إلهكم إله واحد فلا تذبحوا تقرباً لغيره ﴿ المخبتين ﴾ الخاشعين وقيل : المتواضعين ، وقيل : نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ، وكذلك قوله بعد ذلك : ﴿ وَبَشِّرِ المحسنين ﴾ [الحج : 37] واللفظ فيهما أعم من ذلك ﴿ وَجِلَتْ ﴾ خافت ﴿ والبدن ﴾ جمع بَدَنَة ، وهو ما أشعر من الإبل ، واختلف هل يقال للبقرة بدنة ، وانتصابه بفعل مضمر ﴿ مِّن شَعَائِرِ الله ﴾ واحدها شعيرة ، ومن للتبعيض ، واستدل بذلك من قال : إن شعائر الله المذكورة أو على العموم في

أمور الدين ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ قيل : الخير هنا المنافع المذكورة قبل ، وقيل : الثواب ، والصواب العموم في خير الدنيا والآخرة ﴿ صَوَآفَّ ﴾ معناه : قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ، وهي منصوبة على الحال من الضمير المجرور ، ووزنه فواعل ، وواحده صافة ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ أي سقطت إلى الأرض عند موتها ، يقال : وجب الحائط وغيره إذا سقط ﴿ القانع ﴾ معناه السائل ، هو من قولك قنع الرجل بفتح النون : إذا سأل ، وقيل : معناه المتعفف عن السؤال ، فهو على هذا من قولك : قنع بالكسر إذا رضي بالقليل ﴿ والمعتر ﴾ المعترض بغير سؤال ، ووزنه مفتعل ، يقال : اعتررت بالقوم إذا تعرّضت لهم ، فالمعنى : أطعموا من سأل ومن لم يسأل ممن تعرض بلسان حاله ، وأطعموا من تعفف عن السؤال بالكلية ،

(185/524)

ومن تعرض للعطاء ﴿ كذلك سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ﴾ أي كما أمرناكم بهذا كله سخرناها لكم ، وقال الزمخشري : التقدير مثل التخيير الذي علمتم سخرناها لكم .

﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا ﴾ المعنى لن تصلوا إلى رضا الله باللحوم ولا بالدماء ،

وإنما تصلون إليه بالتقوى أي بالإخلاص لله ، وقصد وجه الله بما تذبحون وتنحرون من الهدايا ، فعبر عن هذا المعنى بلفظ : ﴿ يَنَالَ ﴾ مبالغة وتأكيداً ، لأنه قال : لن تصل لحومها ولا دماؤها إلى الله ، وإنما تصل بالتقوى منكم ، فإن ذلك هو الذي طلب منكم ، وعليه يحصل لكم الثواب ، وقيل : كان أهل الجاهلية يضرجون البيت بالدماء فأراد المسلمون فعل ذلك فنهوا عنه ونزلت الآية ﴿ كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ كرر للتأكيد ﴿ لِتُكَبِّرُواْ الله ﴾ قيل : يعني قول الذابح : بسم الله والله أكبر ، واللفظ أعم من ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 38.42 ﴾

(186/524)

وقال الخطيب الشربينى :

ولما بين تعالى أنّ الله قسمان منهم من يسجد لله ومنهم من حق عليه العذاب ذكر كيفية اختصامهم بقوله تعالى :

(187/524)

﴿ هذان خصمان ﴾ أي : المؤمنون خصم والكفار الخمسة خصم وهو يطلق على الواحد والجماعة وقرأ ابن كثير بتشديد النون والباقون بالتخفيف ﴿ اختصموا ﴾ أي : أوقعوا الخصومة بغاية الجهد ﴿ في ربهم ﴾ أي : دينه ، وروى عن قيس بن عباد قال : سمعت أبا ذرّ يقسم قسماً إن هذه الآية ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ نزلت في الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيد بن الحارث وعتبة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة أخرجاه في الصحيحن وعن ابن عباس قال لما بارز عليّ وحمزة وعبيدة عتبة وشيبة والوليد قالوا لهم : تكلموا نعرفكم . قال أنا عليّ وهذا حمزة وهذا عبيدة فقالوا : أكفاء كرام فقال عليّ أدعوكم إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم فقال عتبة هلم للمبارزة فبارز عليّ شيبة فلم يلبث أن قتله بارز حمزة عتبة فقتله وبارز عبيدة الوليد فصعق عليه فأتى عليّ فقتله فنزلت وعن قتادة نزلت الآية في المسلمين وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم قال المسلمون كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء فنحن أولى بالله منكم ، وعن ابن عباس أنها نزلت كذلك لكن قال أهل الكتاب : نحن أولى بالله وأقدم بين يديكم كتاباً ، ونبينا قبل نبيكم وقال المسلمون : نحن أحق بالله منكم آمنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنكم تعرفون نبينا وكتابنا ثم تركتموه وكفرتم به حسداً ، فهذه خصومتهم في ربهم ، وقيل : المؤمنون والكافرون من أيّ ملة كانوا فالمؤمنون

خصم والكفار خصم ، وقيل : الخصمان الجنة والنار لما روي عن أبي هريرة أنه قال "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي . وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من

(188/524)

أشاء من

(189/524)

عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها" وعن عكرمة فقالت النار خلقني الله لعقوبته وقال الجنة خلقني الله لرحمته وهذا القول بعيد عن لاسياق لأنّ الله تعالى ذكر جزاء الخصمين بقوله تعالى : ﴿ فالذين كفروا ﴾ وهو الفصل بينهم المعني بقوله تعالى : ﴿ إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ ﴿ قطعت ﴾ أي : قدّرت ﴿ لهم ﴾ على تقادير جثثهم ﴿ ثيات من

نار ﴾ أي : نيران تحيط بهم إحاطة الثياب سابغة عليهم كما كانوا يسبلون الثياب في الدنيا تفاخراً وتكبراً وعن إبراهيم التيمي أنه قال : سبحان من قطع من النار ثياباً . وعن سعيد بن جبير قال : قطعت من نحاس وليس من الآنية شيء إذا حمى أشدّ حرارة منه . وقال في قوله : ﴿ يصبّ ﴾ أي : ادخلوها ﴿ من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ قال ابن النحاس يذاب على رؤوسهم ولكن المشهور أنه الماء الحار وعن ابن عباس : لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها ، والجملة حال من الضمير في لهم ، أو خبر ثان وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وقرأ حمزة والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم هذا في الوصل ، فإن وقف على رؤوسهم فالجميع بكسر الهاء وسكون الميم وحمزة على أصله في الوقف على رؤوسهم بتسهيل الهمزة ﴿ يصهر ﴾ أي : يذاب ﴿ به ﴾ من شدّة حرارته ﴿ ما في بطونهم ﴾ من شحم وغيره ﴿ والجلود ﴾ فيكون أثره في الباطن والظاهر سواء وقال ابن عباس يسقون ماء إذا دخل بطونهم أذابها والجلود مع البطون ﴿ ولهم مقامع ﴾ جمع مقمعة بكسر ثم فتح وهو عمود حديد وقيل : سوط يضرب به الوجه والرأس ليردّ المضروب عن مراده ردّا عنيفاً ثم نفي المجاز بقوله تعالى : ﴿ من حديد ﴾ أي : يقمعون بها روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو أنّ مقمعاً من حديد وضع في الأرض فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الأرض ولو ضرب الجبل بمقمع من

حديد لتفتت ثم عاد كما كان ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها ﴾ أي : من تلك الثياب أو من النار ﴿من غمّ ﴾ أي : كلما حاولوا الخروج من

(190/524)

النار

لما يلحقهم

من الغم والكرب الذي يأخذ بأنفسهم ﴿أعيدوا فيها ﴾ أي : ردّوا إليها بالمقامع ، وعن الحسن أنهم يضربون بلهب النار فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً ، وعن الفضيل بن عياض قال : والله ما طمعوا في الخروج لأنّ الأرجل مقيدة والأيدي موثقة ولكن يرفعهم لهبها وتردّهم مقامعها وعن الحسن قال كان عمر يقول أكثروا ذكر النار فإنّ حرّها شديد ، وقعرها بعيد ، وإنّ مقامعها من حديد ﴿و ﴾ قيل لهم ﴿ذوقوا عذاب الحريق ﴾ أي : البالغ نهاية الإحراق .

ولما ذكر تعالى مالاً حد الخصمين وهم الكافرون أتبعه ما للآخر وهم المؤمنون ، وغير الأسلوب فيه حيث لم يقل والذين آمنوا عطفاً على الذين كفروا وأسند الإدخال فيه إلى الله تعالى وأكده بأنّ احماداً لحال المؤمنين وتعظيماً لشأنهم فقال ﴿إن الله ﴾ أي الذي له الأمر

كله ﴿ يدخل الذين آمنوا ﴾ بالله ورسوله ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ من الفروض والنوافل الخالصة الشاهدة بثباتهم في الإيمان ﴿ جنات تجري ﴾ أي : دائماً ﴿ من تحتها الأنهار ﴾ أي : المياه الواسعة أينما أردت من أرضها جري لك نهر في مقابلة ما يجري من فوق رؤوس أهل النار ، عن معاوية عن النبي صلى الله عليه وسلم "قال إنّ في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعده" أخرجه الترمذي وقال : حديث صحيح ﴿ يحلون فيها ﴾ من حليت المرأة إذا لبست الحلي في مقابلة ما يزال من بواطن الكفرة وظواهرهم وقوله تعالى ﴿ من أساور ﴾ صفة مفعول محذوف أي : حلياً من أساور ومن زائدة أو تبعيضية وأساور جمع أسورة وهي جمع سوار .

(191/524)

ولما كان المقصود الحث على التقوى المعلية إلى الإنعام بالفضل شوّق إليه بأعلى ما يعرف من الحلية فقال ﴿ من ذهب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولؤلؤ ﴾ معطوف على أساور لا على ذهب لأنه لم يعهد السوار منه إلا أن يراد المرصعة وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما

فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن"

وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنّ عليهم التيجان أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب" أخرجه الترمذي وقال : حديث غريب وقرأ نافع وعاصم بنصب الهمزة الثانية مع التنوين عطفاً على محل أساور أو إضمار الناصب مثل ويؤتون والباقون بالخفض مع التنوين وأبدل الهمزة الأولى الساكنة حرف مدّ السوسي وأبو بكر هذا حالة الوصل ، وأمّا الوقف فحمزة يبدل الأولى واواً وكذا الثانية تبدل واواً له أيضاً فيها الرَّوْم وقوله تعالى : ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ وهو الإبريسم المحرم لبسه على الرجال المكلفين في الدنيا في مقابلة ثياب الكفار كما كان لبسا الكفار في الدنيا حريراً ولباس المؤمنين دون ذلك ، وقد ورد في الصحيحين عن عبد الله ابن الزبير عن عمر رضي الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال "لا تلبسوا الحرير فإنّ من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة"

(192/524)

قال ابن كثير قال عبد الله بن الزبير ومن لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة قال الله تعالى : ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ انتهى وفي الصحيحين أيضاً عن عمر رضي الله عنه أن أنّ النبيّ

صلى الله عليه وسلم قال : "إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة"

قال البقاعي : فيوشك المتشبه بالكفار في لباسهم أن يلحقه الله بهم فلا يموت ملسماً اه والأولى أن يحمل ذلك على أنه لا يلبسه مع السابقين فإنّ من مات على الإسلام لا بدّ من دخوله الجنة أو على من استحله من الرجال المكلفين ﴿ وهدوا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ إلى الطيب من القول ﴾ قال ابن عباس : هو شهادة أن لا إله إلا الله وقيل هو لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله ، وقال السدي : هو القرآن . وقال عطاء : هو قول أهل الجنة الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ أي طريق الله المحمود ودينه فكان فعلهم حسناً كما كان قولهم حسناً فدخلوا الجنة التي هي أشرف دار عند خير جار ، وحلوا فيها أشرف الحلي كما تحلوا في الدنيا بأشرف الطرائق عكس الكفار فإنهم آثروا الفاني لحضوره وأعرضوا عن الباقي مع شرفه لغيابه فدخلوا ناراً كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ثم ذكر تعالى بعد ما فصل بين الفريقين حرمة البيت وعظم جرم من صدّ عنه فقال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي : أوقعوا هذا الفعل الخبيث وصح عطف ﴿ ويصدون ﴾ وإن كان مضارعاً على الماضي لأنّ المضارع قد لا يلاحظ منه زمان معين م حال أو استقبال بل يكون المقصود منه الدلالة على مجرّد الاستمرار كما يقال : فلان يحسن إلى الفقراء لا يراد حال ولا استقبال وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه فالصدود منهم مستمرّ دائم للناس ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي : عن طاعته باقتسامهم طرق مكة يقول

بعضهم لمن يمرّ به خرج فينا ساحر وآخر يقول شاعر وآخر يقول كاهن فلا تسمعوا منه فإنه يريد أن يردكم عن دينكم حتى قال من أسلم لم يزالوا بي حتى جعلت في أذني الكُرسف

(193/524)

مخافة أن أسمع

شيئاً من كلامهم وكانوا يؤذون من أسلم إلى غير ذلك من أعمالهم ﴿ و ﴾ يصدّون عن ﴿ المسجد الحرام ﴾ أن تقام شعائره من الطواف بالبيت ، والصلاة ، والحج ، والاعتمار ممن هو أهل ذلك من أوليائنا ، ثم وصفه بما يبين شديد ظلمهم في الصدّ عنه بقوله تعالى : ﴿ الذين جعلناه ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ للناس ﴾ أي : كلهم ثم بين جعله لهم بقوله تعالى : ﴿ سواء العاكف ﴾ أي : المقيم ﴿ فيه والباد ﴾ أي : الطارىء من البادية وهو الجائي إليه من غربة ، وقال بعضهم : يدخل في العاكف الغريب إذا جاءه للتعبد وإن لم يكن من أهله قال الزمخشري : وقد استشهد بهذا أصحاب أبي حنيفة قائلين إنّ المراد بالمسجد الحرام مكة على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها انتهى . وأيضاً هو مذهب ابن عمر وعمر ابن عبد العزيز وإسحاق الحنظي المعروف بابن راهويه قال البيضاويّ وهو مع ضعفه معارض بقوله تعالى : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ الآية . وشرى عمر داراً ليسجن

فيها من غير نكير انتهى ووجه الرازي الضعيف بقوله : لأن العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام أو في الأكثر فلا يلزم ما ذكر ويحتمل أن يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن في كل وقت من الأوقات من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات انتهى واستدل أيضاً للجواز بقوله صلى الله عليه وسلم لما قال له أسامة بن زيد "يا رسول الله أتنزل غداً بدارك بمكة فقال وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور" وكان عقيل ورث أبا طالب دون علي وجعفر لأنهما كانا مسلمين ولا يورث إلا ما كان الميت مالكاً له قال الروياني : ويكره بيعها وإجارتها للخروج من الخلاف ونازعه النووي في مجموعه وقال : إنه خلاف الأولى لأنه لم يرد فيه نهي مقصود والأوّل كما قال الزركشيّ هو المنصوص بل اعترض على النوويّ فإنه صرّح بكراه بيع المصحف والشطرنج ولم يرد في ذلك نهي مقصود .

(194/524)

تنبيه : محل الخلاف بين العلة في بيع نفس الأرض أمّا البناء فهو مملوك يجوز بيعه بلا خلاف أي : إذا لم يكن من أجزاء أرضها قيل : إن إسحاق الحنطيّ ناظر الشافعيّ رضي الله تعالى عنه بمكة في بيع دور مكة فاستدلّ الشافعي بما مرّ واستدلّ هو على المنع بقوله حدّثني

بعض التابعين بأنها لا تباع فقال له الشافعيّ : لو قام غيرك مقامك لأمرت بفرك أذنيه ، أقول لك : قال الله ورسوله تقول : حدّثني بعض التابعين وقال الرازي فقال إسحاق : فلما علمت أن الحجة لزمتني تركت قولي . وقرأ حفص سواء بالنصب على أنه ثاني مفعولي جعلناه أي : جعلناه مستوياً العاكف فيه والباد ، والباقون بالرفع على أن الجملة مفعول ثان لجعلناه ، ويكون للناس حالاً من الهاء ويصح أن يكون حالاً من المستكنّ في للناس بجعله مفعولاً ثانياً لجعلنا وقرأ ورش وأبو عمرو البادي بإثبات الياء بعد الدال وصلاً لا وقفاً وأثبتها ابن كثير وقفاً ووصلاً وحذفها الباقون وقفاً ووصلاً ﴿ ومن يرد فيه ﴾ أي : المسجد الحرام ﴿ بإلحاد بظلم ﴾ أي : بميل إلى الظلم والإلحاد العدول عن القصد وأصله إلحاداً لحافر وقيل : الإلحاد فيه هو الشرك وعبادة غير الله ، وقيل : هو كل شيء منهيّ عنه من قول أو فعل حتى شتم الخادم ، وقيل : هو دخول الحرم بغير إحرام أو ارتكاب شيء من محظورات الإحرام من قتل صيد أو قطع شجر ، وقال ابن عباس : هو أن تقتل فيه من لا يقتلك ، أو تظلم فيه من لا يظلمك . وقال مجاهد : هو تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات . وقال سعيد بن جبير : احتكار الطعام بمكة بدليل ما روى يعلى بن أمية أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ احتكار الطعام في الحرم إلحاد وعن عطاء قول الرجل في المبايعة لا والله بلى والله وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما في

الحل والآخر في الحرم ، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل فقيل له فقال كنا نحدّث أنّ من الإلحاد فيه أن يقول الرجل : لا والله وبلى

(195/524)

والله .

تنبيه : قوله : بإلحاد بظلم حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال : ومن يرد فيه مراداً أمّا عادلاً عن القصد ظالماً ﴿ نذقه من عذاب أليم ﴾ أي : مؤلم أي : بعضه وخبر إنّ محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره إنّ الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله والمسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم ، فكل من ارتكب فيه ذنباً فهو كذلك فينبغي لمن كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهمّ به ويقصده .

ولما ذكر تعالى الفريقين وجزاء كل وختمه بذكر البيت أتبعه التذكير به فقال تعالى:

(196/524)

﴿ وإذ ﴾ أي : واذكر إذ ﴿ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ أي : جعلنا له مكان البيت مبوّأ أي : مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة ، فإنّ البيت رفع إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله إبراهيم عليه السلام مكانه بريح أرسلها يقال لها : الخجوج كشفت ما حوله فبناه على أسّهِ القديم ، وقيل : بعث الله تعالى له سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت وفيها رأس يتكلم يا إبراهيم ابن علي دوري فبني عليه ، وعن عطاء بن أبي رباح قال : لما أهبط الله آدم عليه السلام كان رجلاه في الأرض ورأسه في السماء يسمع تسبيح أهل السماء ودعاءهم وأنس إليهم فهابت الملائكة منه حتى شكت إلى الله تعالى في دعائها ، وقيل في صلاتها فأخفضه الله تعالى إلى الأرض ، فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش وقيل : أوّل من بني البيت إبراهيم لما روى وورد في الصحيحين عن بي ذر قال : "قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أولاً ؟ قال المسجد الحرام ، قلت : ثم أيّ ؟ قال : بيت المقدس قلت كم بينهما قال أربعون سنة" ثم فسر التبوئة بقوله تعالى : ﴿ أن لا تشرك بي شيئاً ﴾ فابتدأ بأُسّ العبادة ورأسها وعطف على النهي قوله تعالى : ﴿ وطهر بيتي ﴾ أي : عن كل ما لا يليق به من الأوثان والأقذار وطواف عريان به كما كان العرب تفعل ﴿ للطائفين ﴾ أي : الذين يطوفون بالبيت فإن قيل كيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسير للتبوئة ؟ (أجيب) بأنّ التبوئة لما كانت مقصودة من أجل العبادة فكأنه قيل تعبدنا إبراهيم قلنا له لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفتين ، وقال ابن عباس للطائفين

بالبيت من غير أهله ﴿ والقائمين ﴾ أي : المقيمين ﴿ والركوع السجود ﴾ أي : المصلين من الكل وقال غيره القائمين هم المصلون لأنّ المصلي لا بدّ أن يكون في صلاته جامعاً بين القيام والركوع والسجود ، قال البيضاويّ : ولعله عبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أنّ كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك كيف وقد اجتمعت ﴿ وأذن في

(197/524)

الناس ﴾ أي : أعلمهم وناد

(198/524)

فيهم ﴿ بالحج ﴾ وهو قصد البيت على سبيل التكرار للعبادة المخصوصة بالمشاعر المنصوصة ، وفي المأمور بذلك قولان أحدهما وعليه أكثر المفسرين أنه إبراهيم عليه السلام ، قالوا : لما فرغ من بناء البيت قال الله تعالى له أذن في الناس بالحج . قال : يا رب وما يبلغ صوتي ؟ قال : عليك الأذان وعليّ البلاغ فصعد إبراهيم الصفا وفي رواية أخرى أبا قبيس وفي أخرى على المقام قال إبراهيم : كيف أقول قال جبريل قل لبيك اللهمّ لبيك فهو أوّل من

لبى وفي رواية أخرى صعد على الصفا فقال : يا أيها الناس إنّ الله كتب عليكم حج هذا البيت العتيق ، فسمعه ما بين السماء والأرض فما بقي شيء سمع صوته إلا أقبل يلبي يقول لبيك اللهمّ لبيك ، وفي رواية أخرى : إنّ الله يدعوكم إلى حج بيته الحرام ليثيبكم به الجنة ويجيركم من الناس فأجابه يومئذ من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء وكل من وصل إليه صوته من حجر ، أو شجر ، أو آنية ، أو تراب قال مجاهد فما حج إنسان ولا يحج أحد حتى تقوم الساعة إلا وقد أسمعه ذلك النداء فمن أجاب مرّة حج مرّة ، ومن أجاب مرّتين أو أكثر فيحج مرّتين أو أكثر بذلك المقدار ، وفي رواية فنادى على جبل أبي قبيس يا أيها الناس إنّ ربكم بنى بيتاً وأوجب الحج عليكم إليه فأجيبوا ربكم والتفت بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً فأجابه كل من كتب له أن يحج من أصلاب الرجل وأرحام الأمّهات لبيك اللهمّ لبيك ، وعن ابن عباس قال لما أمر الله إبراهيم بالأذان تواضعت له الجبال وخفضت وارتفعت له القرى ، القول الثاني أنّ المأمور بذلك هو النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن واختاره أكثر المعتزلة واحتجوا عليه بأنّ ما جاء في القرآن وأمكن حمله على أنّ محمد صلى الله عليه وسلم هو المخاطب به فهو أولى لأنّ قوله تعالى : ﴿ وإذ بوأنا ﴾ تقديره واذكر يا محمد إذ بوّأنا فهو في حكم المذكور ، فإذا قال تعالى : وأذن فإليه يرجع الخطاب أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع ،

روي عن أبي

هريرة قال : "خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا" وجواب الأمر ﴿ يأتوك ﴾ أي يأتوا بيتك الذي بنيته لذلك مجيبين لصوتك بإذننا سامعين طائعين مجنبين خاشعين من أقطار الأرض كما يجيبون صوت الداعي من قبلنا إذا دعاهم بعد الموت بمثل ذلك ﴿ رجالاً ﴾ أي : مشاة على أرجلهم جمع راجل كقائم وقيام ﴿ و ﴾ ركباناً ﴿ على كل ضامر ﴾ أي : بعير مهزول وهو يطلق على الذكر والأنثى .

تنبيه على كل ضامر حال معطوف على حال كأنه قال رجلاً وركباناً وقوله تعالى :

﴿ يأتين ﴾ صفة لكل ضامر لأنه في معنى الجمع ﴿ من كل فج ﴾ أي : طريق واسع بين جبلين ﴿ عميق ﴾ أي بعيد روى سعيد بن جبير بإسناده عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللماشي سبعمائة من حسنات الحرم قيل يا رسول الله وما حسنات الحرم قال كل حسنة بمائة ألف حسنة" وفي هذا دلالة على أنّ المشي أفضل من الركوب وفي ذلك خلاف بين الأئمة محله كتب الفقه .

ولما كان الإنسان ميالاً إلى الفوائد متشوفاً إلى جميل العوائد علل الإتيان بما يرغبه مبيحاً من فضله ما يقصده من أمر المعاش بقوله تعالى : ﴿ ليشهدوا ﴾ أي : ليحضروا حضوراً تاماً ﴿ منافع لهم ﴾ واختلف في تلك المنافع فبعضهم حملها على منافع الدنيا وهي أن يتجروا في أيام الحج وبعضهم حملها على منافع الآخرة وهي العفو والمغفرة وبعضهم حملها على الأمرين جميعاً وهو كما قال الرازي أولى فيأتون لتلك المنافع يتنقلون من مشعر من مشاعر الحج إلى مشعر ، ومن مشهد إلى مشهد ، مجموعين بالدعوة ، خاشعين بالهيبة ، خائفين من السطوة ، راجين للمغفرة ، ثم يتفرّقون إلى منازلهم ومواطنهم ويتوجهون إلى مساكنهم كالسائرين إلى مواقف الحشر يوم البعث والنشر ، المتفرقين إلى داري النعيم والجحيم ، فيا أيها المصدقون بأنّ خليلنا إبراهيم عليه السلام نادى بالحج فأجابه بقدرتنا كرامة له من أراد الله تعالى حجه على بعد أقطارهم وتناي دارهم ممن كان موجوداً في ذلك الزمان وممن كان في ظهور الآباء والأمّهات الأقربين والأبعدين صدّقوا أنّ الداعي من قبلنا بالنفح في الصور يجيبه كل من كان على ظهرها ممن حفظنا له جسده أو سلطنا عليه الأرض فمزقناه حتى صار تراباً وما بين ذلك لأنّ الكل علينا يسير ، قال الزمخشريّ : وعن أبي حنيفة رحمه الله

أنه كان يفاضل بين العبادات كلها قبل أن يحج فلما حج فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص .

ولما كانت المنافع لا تطيب ولا تثمر إلا بالتقوى وكان الحامل على التقوى ذكر الله تعالى قال تعالى : ﴿ ويذكروا اسم الله ﴾ أي : الجامع لجميع الكمالات بالتكبير وغيره عند الذبح وغيره وقيل كنى بالذكر عن الذبح لأنّ ذبح المسلمين لا ينفك عنه تنبيهاً على أنّ المقصود مما يتقرّب به إلى الله تعالى أن يذكر اسمه .

(201/524)

واختلف في الأيام المعلومات في قوله تعالى ﴿ في أيام معلومات ﴾ فالذي عليه أكثر المفسرين وهو اختيار الشافعيّ وأبي حنيفة أنه عشر ذي الحجة واحتجوا بأنها معلومة عند الناس بحرصهم على علمّها من أجل أنّ وقت الحج في آخرها ثم للمنافع أوقات من العشر معروفة كيوم عرفة ، والمشعر الحرام ، ولتلك الذبائح وقت منها وهو يوم النحر وعن ابن عباس أنها أيام التشريق وقيل يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق وقيل يوم النحر إلى آخر أيام التشريق واستدلّ لهذا بقوله تعالى ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم من الهدايا والضحايا أي : يذكروا اسم الله تعالى عند نحرها ونحر الضحيا والهدايا يكون

في هذه الأيام وتقدّم الكلام على الأيام المعدودات في سورة البقرة عند قوله تعالى :

﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ (البقرة :) وقوله تعالى ﴿ فكلوا منها ﴾ أي : لحومها

أمر إباحة ، وذلك أنّ الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئاً فأمر الله تعالى

بمخالفتهم ، واتفق العلماء على أنّ الهدي إذا كان تطوّعاً يجوز للمهتدي أن يأكل منه ،

وكذلك أضحية التطوّع لما روى عن جابر بن عبد الله في قصة حجة الوداع "فأتى عليّ

ببدن من اليمن وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فنحر منها رسول الله

صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وستين بدنة ونحر عليّ ما غبر أي ما بقي وأشركه في بدنه ثم أمر

من كل بدنة ببضعة أي بقطعة فجعلت في قدر فطبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها"

أخرجه مسلم واختلفوا في الهدي الواجب بالشرع مثل دم التمتع والقرآن والدم الواجب

بإفساد الحج وفوته وجزاء الصيد هل يجوز للمهدي أن يأكل شيئاً منه ؟ قال الشافعي

رضيّ الله عنه لا يأكل منه شيئاً وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر وقال ابن عمر رضي

الله عنهما لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك وبه قال أحمد وإسحاق

وقال مالك يأكل من هدي التمتع ومن كل هدي وجب عليه إلا من فدية الأذى وجزاء

الصيد والنذر ، وعن أصحاب أبي حنيفة أنه يأكل من كل من دم التمتع والقرآن ولا يأكل من واجب سواهما وقوله تعالى : ﴿ وأطعموا البائس ﴾ أي : الذي أصابه بؤس أي : شدّة ﴿ الفقير ﴾ أي : المحتاج أمر إيجاب وقد قيل به في الأوّل ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ أي : يزيلوا أوساخهم وشعثهم كقص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ من الهدايا والضحايا ﴿ وليطوّفوا ﴾ طواف الإفاضة الذي به تمام التحلل ﴿ بالبيت العتيق ﴾ أي القديم لأنه أوّل بيت وضع للناس وقال ابن عباس سمي عتيقاً لأنّ الله تعالى أعتقه من تسلط الجبابرة فكم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى منه فإن قيل : قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع أجيب بأنه ما قصد التسلط على البيت وإنما تحصن به ابن الزبير فاحتال لإخراجه ثم بناه ولما قصد التسلط عليه أبرهة فعل به ما فعل ، وقيل لأنّ الله تعالى أعتقه من الغرق فإنه رفع في أيام الطوفان ، وقال مجاهد لأنه لم يملك قط وقيل بيت كريم أي : العتيق بمعنى الكريم ، من قولهم عتاق الخيل والطير ، والطواف ينقسم إلى ثلاثة هذا ويدخل وقته بعد الوقوف وهذا لا يجبر تركه بدم لأنه ركن الثاني : طواف الوداع ووقته عند إرادة السفر من مكة وهو واجب يجبر تركه بدم ، الثالث : طواف القدوم وهو مستحب للحاج والحلال إذا قدم مكة روت عائشة رضي الله تعالى عنها "أنّ أوّل شيء بدأ به حين قدم النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه توضأ ثم طاف ثم لم تكن عمرة ثم حج" أبو بكر وعمر مثله وقرأ ابن ذكوان وليوفوا وليطوفوا بكسر اللام فيهما

والباقون بإسكانها وفتح أبو بكر الواو ومن وليوفوا وشدّد الفاء وقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ خبر مبتدأ مقدر أي : الأمر أو الشأن ذلك المذكور كما تقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال هذا فقد كان كذا ﴿ ومن يعظم ﴾ أي بغاية جهده ﴿ حرمات الله ﴾ ذي الجلال والإكرام كلها وهي ما لا يحلّ انتهاكه من مناسك الحج

(203/524)

وغيرها وقيل:

الحرمات هنا مناسك الحج وتعظيمها إقامتها وإتمامها ، وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس الكعبة الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والشهر الحرام ، والمحرم حتى يحلّ ﴿ فهو ﴾ أي : التعظيم الحامل له على امتثال الأمر فيها على وجه واجتناب المنهي عنه كالذبح بذكر اسم غير الله والطواف عرياناً ﴿ خير ﴾ كائن ﴿ له عند ربه ﴾ أي : الذي أسدى إليه كل ما هو فيه من النعم في الآخرة ومن انتهكها فهو شر عليه عند ربه ثم إنه تعالى بين أحكام الحج بقوله تعالى : ﴿ وأحلت لكم الأنعام ﴾ أي : أكلها بعد الذبح وهي الإبل والبقر والغنم ﴿ إلا ما يتلى ﴾ أي : على سبيل التحذير مستمرّاً ﴿ عليكم ﴾ تحريمه في

قوله تعالى ﴿ حرّمت عليكم الميتة ﴾ (المائدة :) الآية فالاستثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلاً والتحريم لما عرض من الموت ونحوه فحافظوا على حدوده وإياكم أن تحرّموا مما أحلّ شيئاً كتحريم عبدة الأوثان البحيرة والسائبة وغير ذلك وأن تحلوا مما حرم الله شيئاً كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك .

(204/524)

ولما فهم من ذلك حلّ السوائب وما معها وتحريم المذبوح للأنصاب وكان سبب ذلك كله الأوثان تسبب عنه قوله تعالى ﴿ فاجتنبوا ﴾ أي : بغاية الجهد اقتداء بأبيكم إبراهيم عليه السلام الذي تقدّم الإيصاء له بمثل ذلك عند جعل البيت له مباءة ﴿ الرجس ﴾ أي : القذر الذي من حقه أنّ يجتنب من غير أمر ثم بينه وميزه بقوله تعالى : ﴿ من الأوثان ﴾ أي : الذي هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس فهو بيان للرجس وتمييز له ، كقولك عندي عشرون من الدراهم وسمى الأوثان رجساً وكذا الخمر والميسر والأزلام على طريق التشبيه يعني أنكم كما تنفرون بطباعكم من الرجس وتجتنبونه فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة ، ونبه على هذا المعنى بقوله تعالى ﴿ رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾ (المائدة :) جعل العلة في اجتنابه أنه رجس والرجس مجتنب وقوله تعالى ﴿ واجتنبوا قول

الزور ﴾ تعميم بعد تخصيص فإنّ عبادة الأوثان رأس الزور لأنّ المشرك زاعم أنّ الوثن تحق له العبادة كأنه قال فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا منه شيئاً لتماديه في القبح والسماجة وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان ، والزور من الزور والإزورار وهو الانحراف كما أنّ الإفك من أفكه إذا صرفه فإن الكذب منحرف مصروف عن الواقع وقيل : قول الزور قولهم : هذا حلال وهذا حرام . وما أشبه ذلك من افترائهم وقيل : هو قول المشركين في تلبيتهم لبيك لا شريك له إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . وقيل : هو شهادة الزور لما روى أبو داود والترمذي "أنّه صلى الله عليه وسلم صلى الصبح فلما سلم قام قائماً مستقبل الناس بوجهه الكريم وقال عدلت شهادة الزور الإشراك بالله قالها ثلاثاً وتلا هذه الآية" وقوله تعالى ﴿ حنفاء ﴾ أي : مسلمين عادلين عن كل دين سوى دينه ﴿ غير مشركين به ﴾ تأكيد لما قبله وهما حالان من الواو ﴿ ومن يشرك ﴾ أي : يوقع شيئاً من الشرك ﴿ با ﴾ الذي له العظمة كلها بشيء من الأشياء في وقت

(205/524)

من

الأوقات ﴿ فكأنما خر ﴾ أي : سقط ﴿ من السماء ﴾ لعلوّ ما كان فيه من أوج التوحيد وسفول ما انحط إليه من حضيض الإشراك ﴿ فتخطفه الطير ﴾ أي : تأخذه بسرعة وهو نازل في الهواء قبل أن يصل إلى الأرض ﴿ أو تهوي به الريح ﴾ أي : حيث لم يجد في الهواء ما يهلكه ﴿ في مكان ﴾ من الأرض ﴿ سحيق ﴾ بعيد فهو لا يرجى خلاصه .

تنبيه قال الزمخشري يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق فإن كان تشبيهاً مركباً فكأنه قال من أشرك بالله تعالى فقد أهلك نفسه هلاكاً ليس بعده هلاك بأن صوّر حاله بصورة حال من خرّ من السماء فاختطفته الطير فتفرّق مزعاً في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان في علوّه بالسماء والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة اه قوله يطوح به الباء مزيدة للتأكيد قال الجوهري : طوّحه أي توّهه وذهب به ههنا وههنا وقرأ نافع بفتح الخاء وتشديد الطاء والباقون بإسكان الخاء وتخفيف الطاء ثم عظم ما تقدّم من التوحيد وما هو مسبب عنه بالإشارة بأداة البعد فقال تعالى:

﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم الكبير فمن راعاه فاز ومن حاد عنه خاب ، ثم عطف عليه ما هو أعمّ من هذا القدر فقال تعالى : ﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ جمع شعيرة وهي البدن التي تهدي للحرم لأنها من معالي الحج بأن يختار عظام الأجرام حساناً سماناً غالية الأثمان ويترك المكاس في شرائها فقد كانوا يغالون في ثلاث ، ويكرهون المكاس فيهنّ الهدي والأضحية والرقبة ، وروى ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما "أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب" وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي فيتصدّق بلحومها وجلالها ويعتقد أن طاعة الله في التقرّب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بدّ أن يقام به ويسارع فيه ﴿ فإنها ﴾ أي : تعظيمها ناشىء ﴿ من تقوى القلوب ﴾ فمن للابتداء فإن جعلت تبعيضية فلا بدّ من حذف تقديره : فإنّ تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بدّ من راجع من الجزاء إلى من ليرتبط به وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء وسميت تلك البدن شعائر لإشعارها بما يعرف به أنها هدي كطعن حديدة بسنامها

قال البقاعي : ولعله مأخوذ من الشعر لأنها إذا جرحت قطع شيء من شعرها أو أزيل عن

محل الجرح فيكون من الإزالة ﴿ لكم فيها ﴾ أي : البدن ﴿ منافع ﴾ كركوبها والحمل عليها بما لا يضرها وعن إبراهيم : من احتاج إلى ظهرها ركب ومن احتاج إلى لبنها شرب وقال أصحاب الرأي : لا يركبها إلا إذا اضطرّ إليها ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو وقت نحرها ﴿ ثم محلها ﴾ أي : مكان حلّ نحرها ﴿ إلى البيت العتيق ﴾ أي : عنده والمراد الحرم جميعه وقيل المراد بالشعائر المناسك ومشاهد الحج وبالمنافع الأجر والثواب في قضاء المناسك إلى انقضاء آجالها وبحملها إلى محل الناس من إحرامهم إلى البيت يطوفون به طواف الزيارة

(207/524)

﴿ ولكل

أمّة ﴾ أي : جماعة مؤمنة سلفت قبلكم ﴿ جعلنا منسكاً ﴾ أي : متعبداً وقرباناً يتقرّبون به إلى الله تعالى ، وقرأ حمزة والكسائي منسكاً هنا وفي آخر السورة بكسر السين في الموضعين فيكون بمعنى الموضع والباقون بفتحها مصدر بمعنى النسك ﴿ ليذكروا اسم الله ﴾ أي : الملك لا على وحده على ذبائحهم وقرابتهم لأنه الرازق لهم وحده فيقولون عند النحر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهمّ منك وإليك ثم علل الذكر بالنعمة تنبيها على

التفكر فيها فقال تعالى : ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ فوجب شكره لذلك عليهم ، وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون من الأنعام ﴿ فإلهكم ﴾ أي : الذي شرع هذه المناسك كلها ﴿ إله واحد ﴾ وإن اختلفت فروع شرائعه ، ونسخ بعضها بعضاً ، وإذا كان واحداً وجب اختصاصه بالعبادة فلذا قال تعالى : ﴿ فله ﴾ وحده ﴿ أسلموا ﴾ أي : انقادوا بجميع طواهركم وبواطنكم في كل ما أمر به أو نهى عنه ﴿ وبشر المخبتين ﴾ أي : المطيعين المتواضعين من الخبث ، وهو المطمئن من الأرض وقيل : هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا .

ثم بين علاماتهم بقوله تعالى : ﴿ الذين إذا ذكر الله ﴾ أي : الذي له الجلال والجمال ﴿ وجلت ﴾ أي : خافت خوفاً مزعجاً ﴿ قلوبهم ﴾ فيظهر عليها الخشوع والتواضع لله تعالى ﴿ والصابرين ﴾ الذين صار الصبر عادتهم ﴿ على ما أصابهم ﴾ من الكلف والمصائب ولما كان ذلك قد يشغل عن الصلاة قال تعالى ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ في أوقاتها والمحافظة عليها ، وإن حصل لهم من المشاق بأفعال الحج وغيره ما عسى أن يحصل ، ولذلك عبر بالوصف دون الفعل إشارة إلى أنه لا يقيمها على الوجه المشروع مع تلك المشاق والشواغل إلا راسخ في حبها فهم لما تمكن حبها في قلوبهم والخوف من الغفلة عنها كأنهم دائماً في صلاة ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ في وجوه الخير من الهدايا التي يغالون في أثمانها وغير ذلك إحساناً إلى خلق الله تعالى .

ولما قدّم تعالى الحث على التقرّب بالأنعام كلها وكانت الإبل أعظمها خلقاً وأجلها في أنفسهم أمراً خصها بالذكر فقال تعالى : ﴿ والبدن ﴾ أي : الإبل المعروفة جمع بدنة كخشب وخشبة وانتصابه بفعل يفسره ﴿ جعلناها لكم من شعائر الله ﴾ أي : من أعلام دينه التي شرعها الله تعالى وقيل لأنها تُشْعَر وهي أن تطعن بحديدة في سنامها ليعلم بذلك أنها هدي ﴿ لكم فيها خير ﴾ أي : نفع في الدنيا وثواب في العقبى كما قال ابن عباس دنياً وأخرى ، وروى الترمذيّ وحسنه عن عائشة رضي الله تعالى عنه "أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من هراقة الدم وأنه ليؤتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها وإنّ الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع إلى الأرض فطيبوا بها نفساً" وروى الدارقطني في السنن عن ابن عباس قال "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد" وعن بعض السلف أنه لم يملك إلا تسعة دنانير فاشترى بها بدنة فقيل له في ذلك فقال سمعت ربي يقول ﴿ لكم فيها خير ﴾ ﴿ فاذكروا اسم الله عليها ﴾ أي : على ذبحها بالتكبير حال كونها ﴿ صواف ﴾ أي قائمة على ثلاث معقولة اليد اليسرى لأنّ البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث

﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ أي : سقطت سقوطاً بردت به بزوال أرواحها فلا حركة لها أصلاً ، من وجب الحائط وجبة سقط ، ووجبت الشمس وجبة غربت ، قال ابن كثير وقد جاء في حديث مرفوع ولا تعجلوا النفوس أن تزهق وقوله تعالى ﴿ فكلوا منها ﴾ أي : إذا كانت تطوّعاً أمر إباحة دفعاً لما قد يظنّ أنه يحرم الأكل منها للأمر بتقريبها لله تعالى : ﴿ وأطعموا القانع ﴾ أي المتعرّض للسؤال بخشوع وانكسار ﴿ والمعتر ﴾ أي : السائل وقيل بالعكس وهو قول الشاعيّ رحمه الله تعالى قال في كتاب اختلاف الحديث القانع هو السائل ، والمعتر هو الزائر ، وقيل : القانع هو الجالس في بيته المتعفف الذي يقنع بما يعطى ولا يسأل

(209/524)

ولا يتعرّض ،

والمعتر المعترّض وقيل القانع هو المسكين والمعتر الذي ليس بمسكين ، ولا تكون له ذبيحة فيجيء إلى القوم فيتعرّض لهم لأجل لحمهم ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا التسخير العظيم الذي وصفناه من نحرها قياماً ﴿ سخرناها ﴾ بعظمتنا التي لولاها ما كان ذلك ﴿ لكم ﴾ وذللناها ليلاً ونهاراً مع عظمها وقوّتها تأخذونها منقادة فتعقلونها وتحبسونها

ولو شئنا لجعلناها وحشية لم تطق ولم تكن بأعجز من بعض الوحش التي هي أصغر منها جرماً وأقل قوّة ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ إنعامنا عليكم لتعرفوا أنّ ما ذللها لكم إلا الله تعالى ، فيكون حالكم حال من يرجو شكره فتوقعوا لشكر بأن لا تحرّموا منها إلا ما حرّم عليكم ولا تحلوا منها إلا ما أحلّ ، وتهدوا منها ما حث على إهدائه وتتصرفوا بحسب ما أمركم .

ولما حث تعالى على التقرّب بها مذكوراً اسمه عليها قال تعالى : ﴿ لن ينال الله ﴾ الذي له صفات الكمال ﴿ لحومها ﴾ المأكولة ﴿ ولا دماؤها ﴾ المهراقة أي : لا يرفعان إليه ﴿ ولكن يناله التقوى منكم ﴾ أي : يرفع إليه منكم العمل الصالح الخالص له مع الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ (فاطر :) أي : يقبله وقيل : كان أهل الجاهلية إذ انحروا البدن نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت .

ثم كرّر سبحانه وتعالى التنبيه على عظيم تسخيرها منبهاً على ما أوجب عليهم به بقوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أي : التسخير العظيم ﴿ سخرها لكم ﴾ بعظمته وغناه عنكم ﴿ لتكبروا الله على ما هداكم ﴾ أي : أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه ، كأن تقولوا الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا ، فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر وعدّي تعديته .

ثم وعد من امتثل الأمر بقوله تعالى : ﴿ وبشر المحسنين ﴾ أي : المخلصين فيما يفعلونه ويذرونه كما قال تعالى من قبل ﴿ وبشر المخبتين ﴾ والمحسن هو الذي يفعل الحسن من الأعمال ويتمسك به فيصير مخبتاً إلى نفسه بتوفير الثواب عليه ، وقال ابن عباس : الموحدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 286.300 ﴾

(211/524)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ يَا أَيُّهَا الناس اتقوا رَبَّكُمُ ﴾ بالإعراض عن السوي وطلب الجزاء ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة ﴾ [الحج : 1] وهي مبادىء القيامة الكبرى ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ وهي مواد الأشياء فإن لكل شيء مادة ملكوتية ترضع رضيعها من الملك وتربيه في مهد الاستعداد ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ ﴾ وهي الهيولات ﴿ حِمْلَهَا ﴾ وهي الصور يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴿ وَتَرَى الناس سكارى ﴾ الحيرة ﴿ وَمَا هُم بسكارى ﴾ [الحج : 2] المحبة ، قيل سكر الأعداء من رؤية القهريات .

وسكر الموافقين من رؤية بدائع الأفعال .

وسكر المريدين من لمعان الأنوار .

وسكر المحبين من كشوف الأسرار .

وسكر المشتاقين من ظهور سني الصفات .

وسكر العاشقين من مكاشفة الذات .

وسكر المقربين من الهيبة والجلال .

وسكر العارفين من الدخول في حجال الوصال .

وسكر الموحدين من استغراقهم في بحار الأولية .

وسكر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام من اطلاعهم على أسرار الأزلية :

ألم بنا ساق يجل عن الوصف . . .

وفي طرفه خمر وخمر على الكف

فاسكر أصحابي بخمرة كفه . . .

وأسكرني والله من خمرة الطرف

(212/524)

﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ ﴾ الآية يدخل فيه من يعبد الله تعالى طمعاً في الكرامات ومحمدة الخلق ونيل دنايهم فإن رأي شيئاً من ذلك سكن إلى العبادة وإن لم ير تركها وتهاون فيها ﴿ خَسِرَ الدنيا ﴾ بفقدان الجاه والقبول والافتضاح عند الخلق ﴿ والاخرة ﴾ [الحج : 11] ببقائه في الحجاب عن مشاهدة الحق واحتراقه بنار البعد ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله فِى الدنيا والاخرة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السماء ﴾ [الحج : 15] الآية فيه إشارة إلى حسن مقام التسليم والرضا بما فعل الحكيم جل جلاله ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ البيت أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ والعاكفين والركع السجود ﴾ [الحج : 26] فيه من تعظيم أمر الكعبة ما فيه ، وقد جعلها الله تعالى مثالاً لعرشه وجعل الطائفين بها من البشر كالملائكة الحافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم إلا أن تسبيح البشر وثناءهم عليه عز وجل بكلمات إلهية قرآنية فيكونون من حيث تسبيحهم وثناؤهم بتلك الكلمات من حيث أنها كلماته تعالى نواباً عنه عز وجل في ذلك ويكون أهل القرآن وهم كما في الحديث أهل الله تعالى وخاصته ، وللكعبة أيضاً امتياز على العرش وسائر البيوت الأربعة عشر لأمر ما نقل إلينا أنه في العرش ولا في غيره من تلك البيوت وهو الحجر الأسود الذي جاء في الخبر أنه يمين الله عز وجل ثم إنه تعالى جعل لبيته أربعة أركان لسر إلهي وهي في الحقيقة ثلاثة لأنه شكل مكعب الركن الذي يلي الحجر كالحجر في الصورة مكعب الشكل ولذلك سمى الكعبة تشبيهاً بالكعب ، ولما جعل الله تعالى له بيتاً في

العالم الكبير جعل نظيره في العالم الصغير وهو قلب المؤمن ، وقد ذكروا أنه أشرف من هذا البيت "ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن" وجعل الخواطر التي تمر عليه كالطائفين وفيها مثلهم المحمود والمذموم ، وجعل محل الخواطر

(213/524)

فيه كالأركان التي للبيت فمحل الخاطر الإلهي كركن الحجر ومحل الخاطر الملكي كالركن اليماني ومحل الخاطر النفسي كالمكعب الذي في الحجر لا غير وليس للخاطر الشيطاني فيه محل ، وعلى هذا قلوب الأنبياء عليهم السلام ، وقد يقال : محل الخاطر النفسي كالركن الشامي ومحل الخاطر الشيطاني كالركن العراقي ، وإنما جعل ذلك للركن العراقي لأن الشارع شرع أن يقال عنده : أعوذ بالله تعالى من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق ، وعلى هذا قلوب المؤمنين ما عدا الأنبياء عليهم السلام ، وأودع سبحانه فيه كنزاً أراد صلى الله عليه وسلم أن يخرجه فلم يفعل لمصلحة رآها ، وكذا أراد عمر فامتنع اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك أودع جل وعلا في قلب الكامل كنز العلم به عز وجل .

وارتفاع البيت على ما مر سبعة وعشرون ذراعاً وربع ذراع .

وقال بعضهم : ثمانية وعشرون ذراعاً ، وعليه يكون ذلك نظير منازل القلب التي تقطعها كواكب الإيمان السيارة لإظهار حوادث تجري في النفس كما تقطع السيارة منازلها في الفلك لإظهار الحوادث في العالم العنصري إلى غير ذلك مما لا يعرفه إلا أهل الكشف .

﴿ لَكُمْ فِيهَا منافع إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إلى البيت العتيق ﴾ [الحج : 33] أي إلى ما يليه فإن النحر بمنى وجعلت محلاً للقرابين على ما ذكر الشيخ الأكبر محيي الدين قدس سره لأنها من بلوغ الأمنية ومن بلغ المنى المشروع فقد بلغ الغاية .

وفي نحر القرابين إتلاف أرواح عن تدبير أجسام حيوانية لتتغذى بها أجسام إنسانية فتنظر أرواحها إليها في حال تفريقها فتدبرها إنسانية بعد ما كانت تدبرها إبلاً أو بقراً ، وهذه مسألة دقيقة لم يفطن لها إلا من نور الله تعالى بصيرته من أهل الله تعالى انتهى .

وتعقله مفوض إلى أهله فاجهد أن تكون منهم .

(214/524)

﴿ وَبَشِّرِ المخبتين الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : 34 ، 35] حسبما يحصل لهم من التجلي عند ذلك ، وقد يحصل من الذكر طمأنينة القلب لاقتضاء التجلي إذ ذاك ذلك ، وذكر بعضهم أن لكل اسم تجلياً خاصاً فإذا ذكر الله تعالى حصل حسب

الاستعداد ومن ههنا يحصل تارة وجل وتارة طمأنينة ؛ و﴿ إِذَا ﴾ لا تقتضي الكلية بل كثيراً ما يؤتى بها في الشرطية الجزئية ، وقيل العارف متى سمع الذكر من غيره تعالى وجل قلبه ومتى سمعه منه عز وجل اطمأن .

ويفهم من ظاهر كلامهم أن السامع للذكر إما وجل أو مطمئن ولم يصرح بقسم آخر فإن كان فالباقي على حاله قبل السماع ، وأكثر مشايخ زماننا يرقصون عند سماع الذكر فما أدري أينشأ رقصهم عن وجل منه تعالى أم عن طمأنينة ؟ وسيظهر ذلك يوم تبلى السرائر وتظهر الضمائر ﴿ والبدن جعلناها لَكُمْ مِّن شعائر الله لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ [الحج : 36] قد تقدم لك أنهم ينحرون البدن معقولة اليد اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها ، وذكروا في سر ذلك أنه لما كان نحرها قربة أراد صلى الله عليه وسلم المناسبة في صفة نحرها في الوترية فأقامها على ثلاث قوائم لأن الله تعالى وتر يحب الوتر والثلاثة أول الإفراد فلها أول المراتب في ذلك والأولية وترية أيضاً ، وجعلها قائمة لأن القيومية مثل الوترية صفة إلهية فيذكر الذي ينحرها مشاهدة القائم على كل نفس بما كسبت ، وقد صح أن المناسك إنما شرعت لإقامة ذكر الله تعالى ، وشفع الرجلين لقوله تعالى :

﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ [القيامة : 29] وهو اجتماع أمر الدنيا بالآخرة ، وأفرد

اليمين من يد البدن حتى لا تعتمد إلا على وتر له الاقتدار .

وكان العقل في اليد السرى لأنها خلية عن القوة التي لليمنى والقيام لا يكون إلا عن قوة .

(215/524)

وقد أخرج مسلم عن ابن عباس أنه قال : " صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر بذي الحليفة ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن وسلت عنها الدم وقلدها نعلين ثم ركب راحلته " الحديث .

والسر في كون هديه عليه الصلاة والسلام من الإبل مع أنه جاء فيها أنها شياطين ولذا كرهت الصلاة في معاطنها الإشارة إلى أن مقامه عليه الصلاة والسلام رد البعداء من الله تعالى إلى حال التقريب .

وفي إشعارها في سنامها الذي هو أرفع ما فيها إشعار منه صلى الله عليه وسلم بأنه عليه الصلاة والسلام أتى عليهم من صفة الكبرياء الذي كانوا عليه في نفوسهم فليجتنبوها فإن الدار الآخرة إنما جعلت للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، ووقع الإشعار في الصفحة اليمنى لأن اليمين محل الاقتدار والقوة ، والصفحة من الصفح ففي ذلك إشعار بأن الله تعالى يصفح عمن هذه صفته إذا طلب القرب من الله تعالى وزال عن كبريائه الذي

أوجب له البعد ، وجعل عليه الصلاة والسلام الدلالة على إزالة الكبرياء في شيطنة البدن في تعليق النعال في رقابها إذ لا يصفع بالنعال إلا أهل الهون والمذلة ومن كان بهذه المثابة فما بقي فيه كبرياء تشهد ، وعلق النعال بقلائد العهن ليتذكر بذلك ما أراد الله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، وقد ذكروا لجميع أفعال الحج أسراراً من هذا القبيل ، وعندي أن أكثرها تعبدية وأن أكثر ما ذكروه من قبيل الشعر والله تعالى الموفق للسداد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(216/524)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)

الإعراب :

(أيّ) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب . .

(ها) حرف تنبيه (الناس) بدل من أيّ أو عطف بيان مرفوع لفظا .

جملة النداء : "يأيّها . . . "لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : "اتّقوا . . . "لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : "إنّ زلزلة . . شيء "لا محلّ لها تعليليّة – أو استئناف بيانيّ – (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تذهل) " 1 " ، (عمّا) متعلّق

---

(1) أو هو متعلّق بعظيم ، أو هو بدل اشتمال من زلزلة الساعة ، وحينئذ تكون جملة تذهل حالا من الهاء في ترونها . . ويجوز أن يكون مفعولا به لفعل محذوف تقديره اذكر .

(217/524)

ب (تذهل) " 1 " ، (سكارى) حال منصوبة من الناس وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (الواو) حاليّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (سكارى) الثاني مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف مشبّه بالفعل للاستدراك – ناسخ –

وجملة : "ترونها . . . "في محلّ جرّ بالإضافة .

وجملة : "تذهل كلّ . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " أرضعت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ أو الاسميّ (ما) .

وجملة : " تضع كلّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تذهل كلّ . . .

وجملة : " ترى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تذهل كلّ .

وجملة : " ما هم بسكارى . . . " في محلّ نصب حال من الناس .

وجملة : " لكنّ عذاب . . شديد " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي هذا كلّه هيّن ولكنّ عذاب اللّه شديد .

الصرف :

(زلزلة) ، مصدر قياسيّ لفعل زلزل الرباعيّ ، وزنه فعللة ، وثمّة مصدر آخر هو زلزال وزنه فعلال بكسر الفاء .

(مرضعة) ، اسم فاعل من أرضع الرباعيّ ، وزنه مفعلة بضمّ الميم وكسر العين ، وقد لحقته التاء دلالة عمّن باشرت الإرضاع بالفعل ، أمّا بغير تاء فهو لمن شأنها الإرضاع وإن لم تباشره .

البلاغة

التشبيه البليغ :

في قوله تعالى وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى

. فقد شبه الناس في ذلك

(1) (ما) إمّا حرف مصدريّ والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ ، وامّا اسم موصول والعائد محذوف .

(2) أجازوا أن تكون الجملة حالا من الزلزلة أو من الساعة لأنّ المضاف من بعض أجزاء المضاف إليه ، وهي بمعنى الفاعل أو المفعول للزلزلة . . وحينئذ يقدّر في الجملة ضمير أي فيها . .

(218/524)

اليوم العصيب ، بحالة السكارى الذين فقدوا التمييز وأضاعوا الرشد ، والعلماء يقولون : إن من أدلة المجاز صدق نقيضه ، كقولك زيد حمار ، إذا وصفته بالبلادة والغباء ، ثم يصدق أن تقول : وما هو بحمار ، فتنفي عنه الحقيقة . فكذلك الآية ، بعد أن أثبت السكر المجازي ، نفى الحقيقة أبلغ نفي مؤكد بالباء . والسر في تأكيده التنبيه على أن هذا السكر ، الذي هو بهم في تلك الحالة ، ليس من المعهود في شيء ، وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله . والاستدراك بقوله " وَلَكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ "

راجع إلى قوله وما هم بسكارى من الخمر ، وهو السكر المعهود . فما هذا السكر الغريب وما سببه ؟ فقيل شدة عذاب اللّه تعالى .

الفوائد

- وتضع كل ذات حمل حملها .

" ذات " اسم إشارة للفرد المؤنث .

واسم الاشارة هو من المعارف الست .

وأسماء الإشارة كما يلي :

أ- ذا للمفرد المذكر .

ب - ذي ، تي ، ذه ، ته ، ذه ، ته ، ذا ، تا ، ذه ، ته بإشباع الكسرة فيهما . وهكذا تصبح عشرة للمفرد المؤنث .

ج - وذان للمثنى المذكر رفعا ، وتان للمثنى المؤنث رفعا ، و " ذين وتين " لتثنية المذكر والمؤنث نصبا وجرا .

د - و " أولاء " لجمع العاقل مذكرا ومؤنثا ، وقد يأتي لغير العاقل على قلة ، كقول جرير :

ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

ه - تلحق اسم الاشارة " كاف الخطاب " و " لام البعد " .

و- يشار إلى المكان القريب بـ " هنا " بدون " ها " أو " هاهنا " مقرونة بـ " ها " . ويشار للمكان البعيد بـ " هناك أو ها هناك أو هنالك أو هنّا أو هينا أو هنّت أو ثمّ نحو " وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ " .

ملاحظة : إذا أضيفت ذات إلى الظروف كانت ظرفا . .

[سورة الحج (22) : الآيات 3 إلى 4]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (4)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من الناس) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (في اللّه) متعلّق بـ (يجادل) على حذف مضاف أي في قدرة اللّه (بغير) متعلّق بحال من فاعل يجادل أي :

متلبّسا بالجهل .

جملة : " من الناس من يجادل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يجادل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يتّبع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يجادل .

(عليه) متعلّق بالمبنيّ للمجهول كتب بتضمينه معنى قضي ، وضمير الغائب يعود على

الشيطان . . و(الهاء) في (أنّه) ضمير الشأن اسم أنّ (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إلى عذاب) متعلّق بـ (يهديه) .

(220/524)

والمصدر المؤوّل (أنّه من تولّاه . .) في محلّ رفع نائب الفاعل لفعل كتب . . .

والمصدر المؤوّل (أنّه يضلّه . .) في محلّ رفع مبتدأ خبره محذوف أي فإضلاله واقع أو حاصل " 1 " .

---

(1) يجوز أن يكون المصدر المؤوّل خبرا لمبتدأ محذوف والتقدير : شأن الشيطان إضلال من تولّاه .

(221/524)

وجملة : "كتب عليه . . . " في محلّ جرّ نعت لشيطان " 1 " .

وجملة : " من تولّاه . . . " في محلّ رفع خبر أنّ (الأول) .

وجملة : " تولّاه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " يضلّه . . . " في محلّ رفع خبر (أنّ) الثاني .

وجملة : " إضلاله (حاصل) " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " يهديه " في محلّ رفع معطوفة على جملة يضلّه .

[سورة الحج (22) : آية 5]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)

الإعراب :

(يأيها الناس) مرّ إعرابها " 2 " ، (كنتم) فعل ماض ناقص - ناسخ - مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط (في ريب) متعلّق بمحذوف خبر كنتم (من البعث) متعلّق بـ (ريب) - أو بنعت لـ (ريب) - (الفاء) رابطة لجواب الشرط (من تراب) متعلّق بـ (خلقناكم) بحذف مضاف أي : أباكم ،

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة لا محلّ لها . [. . . . .]

(2) في الآية (1) من هذه السورة .

ويعطف عليه بحروف العطف (ثمّ) من قوله (من نطفة) إلى قوله (من مضغة) ، (غير) معطوف على مخلّقة مجرور (اللام) للتعليل (نبيّن) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام . . والفاعل نحن للتعظيم ، ومفعوله محذوف أي : كمال قدرتنا (لكم) متعلّق بـ (نبيّن) ، (الواو) استئنافيّة (في الأرحام) متعلّق بـ (نقرّ) ، (إلى أجل) متعلّق بـ (نقرّ) . .

والمصدر المؤوّل (أن نبيّن) في محلّ جرّ متعلّق بـ (خلقناكم) .

(طفلا) حال منصوبة من مفعول نخرجكم " 1 " ، (اللام) لام الصيرورة (تبلغوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون . . و(الواو) فاعل .

والمصدر المؤوّل (أن تبلغوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف معطوف على نخرجكم بحرف العطف (ثمّ) أي : ثمّ نعمّركم لتبلغوا . . .

(الواو) عاطفة (منكم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر ، ونائب الفاعل للمبنيّ للمجهول (يتوفّى) ضمير يعود على من وهو العائد (الواو) عاطفة (منكم من يردّ) مثل منكم من يتوفّى ، (إلى أرذل) متعلّق بـ (يردّ) ، (لكيلا) حرف جرّ ، وحرف مصدريّ ونصب ، وحرف نفي (من بعد) متعلّق بـ (يعلم) .

والمصدر المؤوّل (كيلا يعلم . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يردّ) .

(الواو) عاطفة (ترى) مضارع مرفوع والرؤية بصريّة ، والفاعل أنت (هامدة) حال منصوبة

(الفاء) عاطفة (عليها) متعلّق بـ (أنزلنا) ، (ربت) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوف لالتقاء الساكنين ، والفاعل

---

(1) أفرد الطفل إمّا لأنّه . مصدر في الأصل ، وإمّا يراد به الجنس ، وإمّا لأنّ المعنى نخرج كلّ واحد منكم .

هي (من كلّ) متعلّق بـ (أنبتت) ، ومفعوله محذوف أي أشياء أو ألوانا . .

جملة : " يأيّها الناس . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إن كنتم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " إنّا خلقناكم . . . " لا محلّ لها تعليل لجواب الشرط المقدّر ، أي إن كنتم في ريب . . فانظروا في ما حولكم فإنّا خلقناكم " 1 " .

وجملة : " خلقناكم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " نبيّن لكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " نقرّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة مبيّنة ما سبق .

وجملة : " نشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " نخرجكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نقرّ .

وجملة : " تبلغوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

وجملة : " منكم من يتوفّى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نعمّركم المقدّرة .

وجملة : " يتوفّى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

وجملة : " منكم من يردّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة منكم من يتوفّى .

وجملة : " يردّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " يعلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (كي) .

وجملة : " ترى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة التعليل إنّا خلقناكم .

وجملة : " أنزلنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " اهتزّت . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ربت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اهتزّت .

---

(1) يجوز أن تكون جملة : إنّا خلقناكم . . في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " أنبتت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اهتزّت .

الصرف :

(البعث) مصدر سماعيّ لفعل بعث الثلاثيّ ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(علقة) ، اسم جامد للدم الجامد ، وزنه فعلة بفتح الثلاثة .

(مضغة) ، اسم جامد لقطعة اللحم بقدر ما يمضغ ، وزنه فعله بضمّ فسكون ففتح .

(مخلّقة) ، مؤنّث مخلّق ، اسم مفعول من خلّق الرباعيّ ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة .

(224/524)

(طفلا) ، اسم جنس للمخلوق الصغير الذي لم يبلغ ، ويستعمل للمفرد والجمع ، وزنه فعل بكسر فسكون .

(يتوفّى) ، فيه إعلال بالقلب أصله يتوفّي – بياء في آخره – تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا ، ورسمت برسم الياء غير المنقوطة لأنها خامسة .

(هامدة) ، مؤنّث هامد ، اسم فاعل من همد الثلاثيّ ، وزنه فاعل والمؤنّث فاعلة .

(بهيج) ، صفة مشبّهة من بهج يبهج باب فرح ، وزنه فعيل .

البلاغة

1 – ائتلاف الطباق والتكافؤ :

لمجيء أحد الضدين ، أو أحد المتقابلين ، حقيقة والآخر مجازا ، فهمود الأرض واهتزازها ضدان ، لأن الهمود سكون والاهتزاز هنا حركة خاصة ، وهما مجازان ، والربو والإنبات ضدان ، وهما حقيقيان ، وإنما قلنا ذلك لأن الأرض تربو حالة نزول الماء عليها ، وهي لا تنبت في تلك الحالة ، فإذا انقطعت مادة السماء ، وجفف الهواء رطوبة الماء ، خمد الربو ، وعادت الأرض إلى حالها من الاستواء

وتشققت وأنبتت . فصدر الآية تكافؤ وما قابله في عجزها طباق .

2 – المجاز العقلي :

في قوله تعالى وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ فقد أسند الإنبات للأرض ، وهو مجاز عقلي ، لأن المنبت في الحقيقة هو اللّه تعالى . وقد تقدم القول غير مرة في المجاز .

ونزيده هنا ، أن المجاز خلاف الحقيقة ، والحقيقة فعيلة بمعنى مفعولة ، من أحق الأمر يحقه ، إذا أثبته ، أو من حققته إذا كنت على يقين ، وإنما سمي خلاف المجاز بذلك ، لأنه شيء مثبت معلوم بالدلالة . والمجاز مفعل من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه ، فإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز ، على أنهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز مكانه الذي وضع فيه أولا .

الفوائد

- الأدلة على وجوده تعالى نوعان :

أ- أدلة علمية مركبة ، يتخذها الفلاسفة وعلماء الكلام وسيلة للبرهنة على حدوث العالم وديمومته تعالى . وقد أشرنا إلى نوع هذه الأدلة فيما سبق .

(225/524)

ب - وأدلة فطرية ، يدركها العقل والضمير معا ، وهذه الآية التي بين أيدينا من نوع هذه الأدلة ، فقد عرض اللّه فيها مراحل خلق الإنسان ، منذ كان نطفة إلى أن أصبح شيخا عاجزا على حافة قبره . فالمتأمل لتطور حياة الإنسان يدرك أن الذي خلقه ورعاه في هذه المراحل ، قادر على أن يعود فيبعثه من جديد ، ويحاسبه على ما كسبت يداه ، بالخير خيرا ، وبالشر شرا ، وأن اللّه على كل شيء قدير .

[سورة الحج (22) : الآيات 6 إلى 7]

ذِلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7)

الإعراب :

(ذلك) اسم إشارة مبتدأ " 1 " ، والإشارة إلى المذكور من بدء الخلق إلى آخر إحياء

الأرض . .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه هو الحقّ . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بخبر المبتدأ ذلك ، والباء سببيّة .

(هو) ضمير منفصل مبتدأ خبره (الحقّ) ، (على كلّ) متعلّق بـ (قدير) خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّه يحيي . .) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل الأول . .

وكذلك المصدر المؤوّل (أنّه على كلّ شيء قدير) .

جملة : " ذلك بأنّ اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو الحقّ . . . " في محلّ رفع خبر أنّ (الأول) .

وجملة : " يحيي الموتى . . . " في محلّ رفع خبر أنّ (الثاني) .

(الواو) عاطفة – أو استئنافيّة – (لا) نافية للجنس (ريب) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (فيها) متعلّق بخبر لا (الواو) عاطفة (في القبور) متعلّق بمحذوف صلة من .

والمصدر المؤوّل (أنّ الساعة آتية) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل السابق " 2 "

.

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يبعث . .) في محلّ جرّ معطوف على المصدر

---

(1) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره الأمر كذلك ، ويجوز أن يكون مفعولا لفعل محذوف تقديره فعلنا ذلك والباء سببيّة . هذا والباء عند بعضهم ليست سببيّة بل متعلّقة

بمحذوف يقتضيه مقام الكلام والتقدير: ذلك المذكور شاهد بأنّ اللّه هو الحقّ . . إلخ

والمصادر الواردة معطوفة كلّها على المصدر الأول في محلّ جرّ.

(2) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر كذلك، والجملة استئنافيّة.

(226/524)

المؤوّل (أنّ الساعة آتية).

وجملة: "لا ريب فيها . . . " في محلّ رفع خبر ثان للحرف (أنّ) "

.

وجملة: "يبعث . . . " في محلّ رفع خبر (أنّ) الأخير.

[سورة الحج (22): الآيات 8 إلى 10]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (8) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ (9) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (10)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (من الناس . . بغير علم) مرّ إعرابها " 2 "، (الواو) عاطفة (لا) زائدة

لتأكيد النفي في الموضعين (هدى) معطوف على علم مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف ، وكذلك (كتاب) . .

جملة : " من الناس من . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يجادل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

(ثاني) حال منصوبة من فاعل يجادل (اللام) لام التعليل (يضلّ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، ومفعوله محذوف أي غيره (عن سبيل) متعلّق بـ (يضلّ) ، (له) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (في الدنيا) متعلّق بحال من خزي " 3 " ، (خزي) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الواو) عاطفة (يوم) ظرف منصوب متعلّق بـ (نذيقه) . .

---

(1) أو حال من الضمير في آتية .

(2) في الآية (3) من هذه السورة .

(3) أو متعلّق بالخبر المحذوف .

وجملة : " يضلّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أن يضلّ . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (ثاني عطفه) . . أو بـ (يجادل) .

وجملة : " له . . خزي) لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " نذيقه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة له . . خزي .

(ذلك) مبتدأ " 1 " ، (بما) متعلّق بمحذوف خبر ، و(ما) موصول والعائد محذوف أي قدّمته (يداك) فاعل قدّمت مرفوع وعلامة الرفع الألف . .

و(الكاف) مضاف إليه (الواو) عاطفة (ظلّام) مجرور لفظا بالباء منصوب محلّا خبر ليس (اللام) زائدة للتقوية (العبيد) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به للمبالغة ظلّام " 2 " .

وجملة : " ذلك بما قدّمت . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي قائلين له : ذلك بما قدّمت يداك . . .

وجملة : " قدّمت يداك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ليس بظلّام . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه ليس بظلّام . .) في محلّ جرّ معطوف على محلّ ما قدّمت ومتعلّق بما تعلّق به (ما) .

الصرف :

(ثاني) ، اسم فاعل من ثنى الثلاثيّ ، وزنه فاعل ، وقد ثبتت الياء لأنّه مضاف .

(عطفه) ، اسم للجانب من يمين أو شمال أي الجنب ، وزنه فعل بكسر فسكون .

---

(1) وانظر الآية (6) من هذه السورة.

(2) يجوز أن يكون الجارّ أصليا متعلّقا بالصفة المشتقّة ظلام، ويبقى دالّا على التقوية.

(228/524)

[سورة الحج (22) : الآيات 11 إلى 13]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (من الناس من يعبد اللّه) مرّ إعراب نظيرها " 1 "، (على حرف) متعلّق بحال أي مستقرّا على حرف " 2 "، (الفاء) عاطفة تفريعيّة (أصابه) فعل ماض مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط، و(الهاء) مفعول به (اطمأنّ) في محلّ جزم جواب الشرط (به) متعلّق بـ (اطمأنّ)، (انقلب) في محلّ جزم جواب الشرط الثاني (على وجهه) حال من فاعل انقلب أي كافرا (ذلك) مبتدأ، والإشارة إلى الكفر والارتداد (هو) ضمير فصل لا

محلّ له " 3 " ، (الخسران) خبر المبتدأ ذلك . .

جملة : " من الناس من يعبد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعبد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " إن أصابه . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " اطمأنّ به . . . " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

---

(1) في الآية (3) من هذه السورة .

(2) ويجوز أن يكون الجارّ والمجرور هما الحال بمعنى مضطربا أو متزلزلا .

(3) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الخسران ، وجملة هو الخسران خبر اسم الإشارة .

الجدول ج 17 ، ص : 94

وجملة : " إن أصابته فتنة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أصابه خير . .

وجملة : " انقلب على وجهه " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " خسر الدنيا " في محلّ نصب حال " 1 " .

وجملة : " ذلك . . الخسران . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

فاعل (يدعو) ضمير مستتر يعود على من (من دون) متعلّق بحال من (ما) وهو مفعول يدعو و(لا) نافية في الموضعين و(ما) الثاني معطوف على الأول في محلّ نصب (ذلك هو الضلال البعيد) مثل ذلك هو الخسران المبين.

وجملة: "يدعو . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "يضرّه . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) "2" .

وجملة: "ينفعه . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني "3" .

وجملة: "ذلك . . الضلال البعيد "لا محلّ لها استئنافيّة.

(اللام) في لمن هي لام الابتداء "4" ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره إلهه (ضرّه) مبتدأ خبره (أقرب) ، (من نفعه) متعلّق بـ (أقرب) ، (اللام) لام القسم لقسم مقدّر "5" ، ومخصوص الذمّ محذوف تقديره هو . .

---

(1) يجوز أن تكون مستأنفة لا محلّ لها . . ويجوز أن تكون بدلا من جملة انقلب.

[. . . . .]

(2 ، 3) أو هي في محلّ نصب نعت لـ (ما) النكرة الموصوفة.

(4) بتضمين (يدعو) معنى يزعم الذين فيه معنى القول مع الاعتقاد حيث يتعلّق فعل يدعو عن العمل باللام. وأورد أبو البقاء وجها لإعراب يدعو بكونه تكريرا لفعل يدعو الأول فلا معمول له . . وبعضهم جعل اللام زائدة وردّ ذلك ابن هشام وجعله في غاية الشذوذ على

الرغم من قبوله من بعض المعربين الذين قاسوه على قوله تعالى : " ردف لكم " في الآية (72) من سورة النمل .

(5) أو لام الابتداء وتفيد التوكيد ، والجملة استئنافيّة أو خبر (من) إن لم يقدّر له خبر . .

(230/524)

وجملة : " يدعو . . . " لا محلّ لها استئنافيّة مؤكّدة للأولى .

وجملة : " من . . (إلهه) " في محلّ نصب مفعول به لفعل يدعو المعلّق عن العمل بلام الابتداء .

وجملة : " ضرّه أقرب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " بئس المولى . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " بئس العشير . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم .

الصرف :

(حرف) اسم لطرف الشيء وحافّته ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(الخسران) ، أحد مصادر خسر السماعيّة ، وزنه فعلان بضمّ فسكون ، والمصادر الأخرى هي : خسر بفتح الخاء وضمها وسكون السين ، وخسر بفتحتين أو ضمتين ،

وخسار بفتح الخاء ، وخسارة بفتح الخاء .

(العشير) ، اسم للقبيلة أو القريب أو الصاحب ، وزنه فعيل جمعه عشراء زنة فعلاء بضمّ ففتح .

البلاغة

الاستعارة في قوله تعالى ذِلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ أستعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد في التيه ضالا ، فطالت وبعدت مسافة ضلالته .

الفوائد

- صورتان إنسانيتان :

الأولى فيهما تصور نموذجا من الناس ، أصيب بمرض الكبر والغرور ، وأشفعهما بالجهل ، فهو يهجم على الجدل والحجاج فيما يعلم وما لا يعلم ، وكفى بالإنسان جهلا أن يتحدث بكل شيء ، ويدخل أنفه بكل قضية . وهذا النوع يكاد يكون كله ضررا لا نفع فيه .

الجدول ج 17 ، ص : 96

والصورة الثانية تصور فئة من الناس ، ضعفت نفوسهم ، وضعف إيمانهم ، فهم دائما وأبدا كأنهم على شفا هاوية ، فهم عرضة للتردي في هذه الهاوية ، بمجرد أن يتعرضوا لاختبار أو ابتلاء في النفس أو المال ، إذ ينكصون على أعقابهم ، وقد كفروا باللّه ، وخسروا الدنيا والآخرة . ولذلك كان الصبر في الحياة على الابتلاء مؤشرا من مؤشرات الإيمان ودليلا من

أدلته اليقينية .

2 - يدعو لمن ضره أقرب من نفعه :

أ - من النحاة من اعتبر هذه اللام لام الابتداء ، ومنهم من اعتبرها موطئة للقسم ، ومنهم من يرى أن هذه اللام قد كررت للمبالغة .

ب - والوجه المقبول ، الذي يتسق وقواعد النحو ، أن تكون هذه اللام زائدة ، دخلت على المفعول به " يدعو " ، لا سيما وأن عبد اللّه قرأ هذه الآية بغير لام الابتداء ، أي " يدعو من ضره " . وقد اختار هذا الوجه الجلال السيوطي .

وثمة آراء أخرى حول هذه اللام ، تكاد لا يعتدّ بها ، ولذلك ضربنا صفحا عن ذكرها .

[سورة الحج (22) : آية 14]

(231/524)

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (14)

الإعراب :

(جنّات) مفعول به منصوب عامله يدخل ، وعلامة النصب الكسرة (من تحتها) متعلّق بـ

(تجري) " 1 " (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف أي يريده .

جملة : " إنّ اللّه يدخل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يدخل . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من الأنهار .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " تجري . . . الأنهار " في محلّ نصب نعت لجنّات .

وجملة : " إنّ اللّه يفعل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يفعل ما يريد " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يريد " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

[سورة الحج (22) : آية 15]

مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ

هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (15)

الإعراب :

(من) اسم شرط مبتدأ (كان) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط ، واسمه ضمير يعود على من (أن) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، وضمير الغائب في (ينصره) يعود على النبيّ صلى اللّه عليه وسلم لأنّ سياق الكلام يشير إلى ذلك (في الدنيا) متعلّق بـ (ينصره) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اللام) لام الأمر ، وفاعل (يمدد) يعود على اسم الشرط من ، (بسبب) متعلّق بـ (يمدد) والباء للتعدية " 1 " ، (إلى السماء) متعلّق بنعت لسبب (ليقطع ، لينظر) مثل ليمدد (هل) حرف استفهام (يذهبنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . و(النون) للتوكيد (ما) موصول مفعول به عامله يذهبنّ . .

---

(1) أجاز بعض المعربين أن تكون الباء زائدة و(سبب) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (وإلى السماء) متعلّق بـ (يمدد) .

(233/524)

جملة : " من كان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كان يظنّ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " يظنّ . . . " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : " لن ينصره اللّه . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة العاملة .

والمصدر المؤوّل (أن لن ينصره . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يظنّ .

وجملة : " ليمدد . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " ليقطع . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة يمدد .

وجملة : " لينظر . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة ليقطع .

وجملة : " هل يذهبنّ كيده . . . " في محلّ نصب مفعول به عامله ينظر وقد تعلّق الفعل بسبب الاستفهام .

وجملة : " يغيظ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 1 " .

[سورة الحج (22) : آية 16]

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كذلك) متعلّق بحال من ضمير المفعول في (أنزلناه) " 2 " ، (آيات) حال منصوبة من الضمير في (أنزلناه) " 3 " وعلامة النصب الكسرة (الواو) عاطفة ومفعول يريد محذوف تقديره : يريد هدايته .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يهدي . . .) في محلّ نصب معطوف على محلّ الهاء في (أنزلناه) "

4 " .

جملة : " أنزلناه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يهدي . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " يريد " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

---

(1) العائد هو الضمير المستتر فاعل يغيظ ، وفيه ضمير يعود على من كان . . أي ما يغيظه .

(2) أي أنزلناه هاديا كذلك . . ويجوز تعليقه بمحذوف مفعول مطلق . .

(3) جاءت الحال جامدة لأنّها موصوفة .

(4) يجوز أن يكون في محلّ رفع خبرا لمبتدأ محذوف أي : الأمر أنّ اللّه يهدي . .

(234/524)

[سورة الحج (22) : آية 17]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17)

الإعراب :

(الصابئين) معطوف على (الذين آمنوا) بالواو منصوب وعلامة النصب الياء ، وعلامة النصب في (النصارى) الفتحة المقدّرة على الألف (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (يفصل) ، وكذلك (يوم) ، (على كلّ) متعلّق بـ (شهيد) .

جملة : "إنّ الذين . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "آمنوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة : "هادوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : "أشركوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث .

وجملة : "إنّ اللّه يفصل . . . "في محلّ رفع خبر إنّ الأول " 1 " .

وجملة : "يفصل بينهم . . . "في محلّ رفع خبر إنّ الثاني .

وجملة : "إنّ اللّه . . شهيد "لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(المجوس) ، اسم جمع جنسيّ لمن يعبدون النار أو الشمس ، والقائلين بأنّ للعالم أصلين النور والظلمة ، وزنه فعول بفتح الفاء .

الفوائد

تصدير الجملتين بإنّ :

وفي تصدير الجملتين بإن زيادة في تأكيد الكلام ، وقد رمقه الشعراء في أشعارهم ، قال جرير

:

إن الخليفة إن اللّه سربله سربال ملك به تزجى الخواتيم

فقوله : إن اللّه سربله خبر إن الأولى ، وكررها لتوكيد التوكيد . وسربله

---

(1) قيل إنّ الخبر محذوف تقديره مفترقون . . والجملة لا محلّ لها تفسير للخبر المحذوف .

(235/524)

كساه بالملك الشبيه بالسربال . ويروى سربال ملك . وقوله : " به " أي بذلك اللباس أو الملك . " تزجى " أي تساق . " الخواتيم " جمع خاتم بالفتح والكسر ، والأصل خواتم ، فزيدت الياء ، والمراد بها عواقب الأمور الحميدة ومغابها . وقال أبو حيان : " يحتمل أن خبر " إن " قوله به تزجى الخواتيم . وجملة إن اللّه سربله اعتراضية " . ويروى ترجى بالراء المهملة .

[سورة الحج (22) : آية 18]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (18)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (له) متعلّق بـ (يسجد) ، (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة من ، وكذلك (في الأرض) للموصول الثاني (من الناس) متعلّق بنعت لـ (كثير " 1 " ، (عليه) متعلّق بـ (حقّ) ، (من) اسم شرط مفعول به مقدّم (يهن) مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم السكون ، وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ما) نافية مهملة (له) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (مكرم) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يسجد له) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ترى .

جملة : " لم تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يسجد . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " حقّ عليه العذاب " في محلّ رفع نعت لكثير " 2 " .

---

(1) (كثير) يجوز أن يكون معطوفا على (من في السموات) ، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره مثاب .

(2) يجوز أن تكون الجملة خبرا للمبتدأ (كثير) الثاني ، وقد حذف الوصف لدلالة الأول عليه أي : كثير من الناس وقد قدّم العكبريّ هذا الوجه على الوجه الآخر أعلاه .

وجملة : " من يهن اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما له من مكرم . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " إنّ اللّه يفعل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يفعل ما يشاء . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(يهن) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم أصله يهين ، التقى ساكنان فحذفت الياء المنقلبة عن واو وزنه يفل بضم فكسر .

(مكرم) ، اسم فاعل من أكرم الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

[سورة الحج (22) : الآيات 19 إلى 22]

هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (22)

الإعراب :

(في ربّهم) متعلّق بـ (اختصموا) بحذف مضاف أي في دين ربّهم (الفاء) عاطفة تفريعيّة

(لهم) متعلّق بالمبني للمجهول قطّعت (من نار) متعلّق بنعت لـ (ثياب) ، (من فوق) متعلّق بالمبنيّ للمجهول يصبّ (به) متعلّق بالمبنيّ للمجهول يصهر و(ما) موصول نائب الفاعل في محلّ رفع ، وعطف عليه (الجلود) بحرف العطف " 1 " ، (في بطونهم) متعلّق بمحذوف صلة ما .

---

(1) يجوز أن يكون نائب الفاعل لفعل محذوف أي تحرق .

(237/524)

جملة : " هذان خصمان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اختصموا . . . " في محلّ رفع نعت لـ (خصمان) " 1 " .

وجملة : " الذين كفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " قطّعت لهم ثياب " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " يصبّ . . الحميم " في محلّ نصب حال من الهاء في (لهم) " 2 " .

وجملة : " يصهر ما في بطونهم " في محلّ نصب حال من الحميم .

(الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (من حديد) متعلّق بنعت لـ (مقامع)

المبتدأ .

وجملة : " لهم مقامع . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يصبّ " 3 " .

(كلّما) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب أعيدوا . .

(منها) متعلّق بـ (يخرجوا) ، (من غمّ) بدل من المجرور السابق بإعادة الجارّ " 4 " ، (فيها) متعلّق بالمبنيّ للمجهول (أعيدوا) .

وجملة : " أرادوا . . . " في محلّ جرّ بإضافة (كلّما) إليها " 5 " .

وجملة : " يخرجوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " أعيدوا فيها " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ذوقوا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي : تقول لهم الملائكة ذوقوا . .

---

(1) جاء الفعل جمعا لأنّ (خصمان) هما فرقتان ، والفرقة تضمّ أفرادا . [. . . . .]

(2) أو هي خبر ثان للمبتدأ (الذين) .

(3) أو استئنافيّة مؤكّدة لمعنى الجمل السابقة .

(4) يجوز أن يكون الجارّ (من) للتعليل فيتعلّق بـ (يخرجوا) أي : يخرجوا من أجل الغمّ .

(5) يجوز في (كلّما) أن يكون (كلّ) ظرفا – لأنّه أضيف إلى ظرف – و(ما) حرفا مصدريّا

ظرفيا ، والمصدر المؤوّل ما (أرادوا . . .) في محلّ جرّ مضاف إليه أي : كلّ وقت إرادة . . .

(238/524)

الصرف :

(خصمان) ، مثنّى خصم ، وهو في الأصل مصدر من حقّه الإفراد والتذكير ، وقد يستعمل وصفا – كما جاء هنا – فيثنّى ويجمع ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(مقامع) ، جمع مقمعة ، اسم آلة يقمع بها أي يضرب ، وزنه مفعلة بكسر الميم وفتح العين .

البلاغة

الاستعارة التمثيلية :

في قوله تعالى فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ . وكأنّه شبه إعداد النار المحيطة بهم ، بتقطيع ثياب وتفصيلها لهم على قدر جثثهم . ففي الكلام استعارة تمثيلية تهكمية ، وليس هناك تقطيع ولا ثياب حقيقية ، وكأن جمع الثياب للأبدان بتراكم النار المحيطة بهم وكون بعضها فوق بعض .

الفوائد

- كلّما :

هي "كل" دخلت عليها "ما" المصدرية الظرفية.

وثمة رأي أن "ما" نكرة موصوفة، بمعنى وقت، فأفادت التكرار، نحو "كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا". وكذلك هذه الآية "كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها" فالتكرار ملحوظ من المعنى، ولا تدخل إلا على الفعل الماضي، وهي مبنية على الفتح في محل نصب على الظرفية، وهي منصوبة بجوابها، وجوابها فعل ماض أيضا . . .

الجدول ج 17، ص: 104

[سورة الحج (22): الآيات 23 إلى 24]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (23) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ (24)

الإعراب:

(إنّ اللّه . . الأنهار) مرّ إعرابها "1"، (فيها) متعلّق بالمبنيّ للمجهول (يحلّون)، (من أساور) متعلّق بنعت لمفعول محذوف بتضمين يحلّون معنى يلبسون أي يحلّون حليا من أساور "2"، (من ذهب) متعلّق بنعت لـ (أساور) (الواو) عاطفة (لؤلؤا) معطوف على المفعول المحذوف "3"، (فيها) متعلّق بحال من (حرير) - نعت تقدّم على المنعوت - .

جملة : " إنّ اللّه يدخل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يدخل . . . " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) في الآية (14) من هذه السورة .

(2) يجيز الأخفش زيادة (من) بعد المثبت فـ (أساور) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به . .

أو (من) تبعيضيّة فيتعلّق الجارّ بـ (يحلّون) .

(3) أو معطوف على محلّ أساور إذا أعرب (من) زائدا .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " تجري . . الأنهار " في محلّ نصب نعت لجنّات .

وجملة : " يحلّون فيها . . . " في محلّ نصب حال من الموصول - أو من جنّات وجملة : " لباسهم . . حرير " في محلّ نصب معطوفة على جملة يحلّون .

(الواو) عاطفة (إلى الطّيّب) متعلّق بـ (هدوا) ، (من القول) حال من

الطّيّب (إلى صراط) متعلّق بـ (هدوا) .

وجملة : " هدوا (الأولى) . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يحلّون .

وجملة : " هدوا (الثانية) . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة هدوا الأولى .

الصرف :

(لؤلؤا) ، اسم جامد للحجر الثمين المعروف ، وزنه فعلل بضمّ الفاء واللام الأولى .

(حرير) ، اسم جامد للقماش المعروف ، وزنه فعيل بفتح الفاء .

[سورة الحج (22) : آية 25]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (25)

الإعراب :

خبر (إنّ) محذوف تقديره معذّبون أو خاسرون أو هالكون (الواو) عاطفة - أو حاليّة - (عن سبيل) متعلّق بـ (يصدّون) ، (المسجد) معطوف على سبيل بالواو مجرور (الذي) اسم موصول في محلّ جرّ نعت ثان للمسجد " 1 " (للناس) متعلّق بـ (جعلنا) " 2 " أي من

أجل الناس (سواء) مصدر في موضع الحال (العاكف) فاعل سواء مرفوع ، (فيه) متعلّق بـ (العاكف) ، (الباد) معطوف على العاكف بالواو مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة مراعاة للقراءة وصلا ووقفا (الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط مبتدأ (فيه) متعلّق بـ (يرد) ، (بإلحاد) متعلّق بحال من مفعول يرد المحذوف أي يرد تعديّا متلبّسا

---

(1) يجوز أن يكون في محلّ رفع خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هو . . والجملة استئناف بيانيّ . .

ويجوز أن يكون مفعولا لفعل محذوف تقديره أعني .

(2) أو متعلّق بمحذوف مفعول به ثان ، أي قبلة للناس .

(241/524)

بإلحاد " 1 " ، (بظلم) بدل من إلحاد بإعادة الجارّ " 2 " ، (من عذاب) متعلّق بـ (نذقه) و(من) تبعيضيّة .

جملة : " إنّ الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يصدّون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة " 3 " .

وجملة : " جعلناه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " من يرد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يرد فيه بإلحاد . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 4 " .

وجملة : " نذقه . . . " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

الصرف :

(الباد) ، اسم فاعل من بدا أي خرج إلى البادية ، وزنه فاعل ، وحذف الياء ليس إعلالا بل مراعاة للقراءة وصلا ووقفا ، وفيه إعلال بالقلب ، فالأصل البادو – بواو في آخره لأنّ المضارع يبدو ، تحرّكت الواو بعد كسر قلبت ياء فأصبح البادي .

---

(1) أجاز بعض المعربين زيادة الباء ، فـ (إلحاد) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به عامله يرد .

(2) أو حال ثانية . . ويجوز أن تكون الباء سببيّة فيتعلّق بإلحاد .

(3) إمّا بتقدير يصدّون بمعنى صدّوا ، أو بتقدير كفروا بمعنى يكفرون . . ويجوز أن تكون الجملة حاليّة بتقدير الجملة خبرا لمبتدأ محذوف أي هم يصدّون ، فالاسميّة حال ، أو على زيادة الواو قبل المضارع المثبت فالفعليّة حال .

(4) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(إلحاد) مصدر قياسيّ لفعل ألحد الرباعيّ أي عدل عن القصد أو ظلم، وزنه إفعال بكسر الهمزة.

[سورة الحج (22) : الآيات 26 إلى 29]

وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (لإبراهيم) متعلّق بـ (بوّأنا) بتضمينه معنى هيّأنا " 1 " ، (مكان) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (بوّأنا) " 2 " ، (أن) تفسيريّة " 3 " ، (لا) ناهية جازمة (بي) متعلّق بـ (تشرك) ، (للطائفين) متعلّق بـ (طهّر) ، (السجود) بدل من الركّع مجرور.

جملة : " بوّأنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لا تشرك بي . . . " لا محلّ لها تفسيريّة ، بتضمين بوّأنا معنى بيّنا .

وجملة : " طهّر . . . " لا محلّ لها معطوفة على التفسيريّة .

(الواو) عاطفة (في الناس) متعلّق بـ (أذّن) ، (بالحجّ) متعلّق بـ (أذّن) ، (يأتوك) مضارع مجزوم جواب الطلب ، وعلامة الجزم حذف النون . .

و(الكاف) مفعول به ، و(الواو) فاعل (رجالا) حال منصوبة من فاعل يأتوك (على كلّ) متعلّق بمحذوف حال أي ركبانا على كلّ ضامر (يأتين) مبنيّ على

---

(1) و(اللام) زائدة إذا ضمّن (بوّأنا) معنى أنزلنا . . وفي القرطبيّ : وقيل بوّأنا لإبراهيم . . أي أريناه أصله ليبنيه وقال العكبريّ بزيادة اللام مستشهدا بقوله تعالى : " و لقد بوّأنا بني إسرائيل . . . " . [. . . . .]

(2) أو هو مفعول به لفعل بوّأنا بتضمينه معنى فعل متعدّ .

(3) بعض المعربين قال بزيادة (أن) ، وهو ضعيف .

السكون في محلّ رفع . . و(النون) فاعل ضمير عائد على الضوامر (من كلّ) متعلّق بـ (يأتين) ، (عميق) نعت لفجّ مجرور مثله .

وجملة : " أذّن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة طهّر .

وجملة : " يأتوك . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " يأتين . . . " في محلّ جرّ نعت لكلّ ضامر .

(اللام) للتعليل (يشهدوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، وعلامة النصب حذف النون . . و(الواو) فاعل (لهم) متعلّق بنعت لـ (منافع) .

والمصدر المؤوّل (أن يشهدوا . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يأتوك) ، (يذكروا) منصوب معطوف على (يشهدوا) ، (في أيّام) متعلّق بـ (يذكروا) ، (ما) اسم موصول في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق بـ (يذكروا) " 1 " ، (من بهيمة) متعلّق بمحذوف حال من المفعول الثاني أي رزقهم إيّاه كائنا من بهيمة الأنعام (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (منها) متعلّق بـ (كلوا) . .

وجملة : " يشهدوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يذكروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يشهدوا .

---

(1) قيل : الذكر في أثناء الذبح ، وقيل : (على) دالّ على السببيّة .

وجملة : " رزقهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : "كلوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن صحّ الأكل فكلوا . . .

وجملة : " أطعموا . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة كلوا . . .

(اللام) لام الأمر في المواضع الثلاثة (بالبيت) متعلّق بـ (يطّوّفوا) .

وجملة : " يقضوا . . . " معطوفة على جملة أطعموا .

وجملة : " يوفوا . . . " معطوفة على جملة يقضوا .

وجملة : " يطّوّفوا . . . " معطوفة على جملة يقضوا .

الصرف :

(ضامر) ، اسم فاعل من ضمر يضمر باب نصر ، وباب كرم ، وزنه فاعل .

(عميق) ، صفة مشبّهة من عمق يعمق باب كرم ، وعمق يعمق باب فرح وزنه فعيل بمعنى بعيد .

(البائس) ، اسم فاعل من بئس يبأس باب فرح ، وزنه فاعل .

(تفثهم) ، اسم لوسخ الأظفار وغيره ، وزنه فعل بفتحتين .

(العتيق) ، صفة مشبّهة من عتق يعتق باب نصر ، وزنه فعيل .

الفوائد

1 - البيت العتيق :

فيه أقوال : أرجحها أنه البيت القديم ، لأنه أول بيت وضع للناس ، ليتخذوا منه شعائر تقربهم من اللّه زلفى . . .

2 - لام الأمر :

هي اللام الجازمة للمضارع ، وموضوعة للطلب ، وحركتها الكسر . نحو " لينفق ذو سعة من سعته " . وإسكانها بعد الفاء والواو أكثر من تحريكها ، نحو " فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي " وقد تسكّن بعد ثمّ نحو " ثم ليقضوا تفثهم " .

ملاحظة هامة : لا وسيلة لنأمر بواسطة الفعل المبني للمجهول : إلا اللام سواء للمتكلم أم للمخاطب أم للغائب . نحو " لتعن بحاجتي " و " ليعن زيد بالأمر " ونحو " لأكرم من قبلك " .

وحولها أمور جزئية أخرى يرجع إليها في المطولات .

[سورة الحج (22) : الآيات 30 إلى 31]

ذِلكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (31)

الإعراب :

(ذلك) خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر أو الشأن (الواو) عاطفة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب الشرط (له) متعلّق بـ (خير) الخبر (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (خير) ، (الواو) استئنافيّة (لكم) متعلّق بالمبنيّ للمجهول (أحلّت) ، (الأنعام) نائب الفاعل مرفوع (إلّا) أداة استثناء (ما) اسم موصول في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع – وقيل المتّصل – (عليكم) متعلّق بالمبنيّ للمجهول (يتلى) ، ونائب الفاعل ضمير مستتر يعود على آيات التحريم التي دلّ عليها الموصول ما (الفاء) لربط الجواب بشرط مقدّر (من الأوثان) متعلّق بحال من (الرجس) .

جملة : " (الأمر) ذلك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من يعظّم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعظّم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " هو خير له . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " أحلّت . . الأنعام " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتلى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " اجتنبوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أردتم الخير فاجتنبوا .

وجملة : " اجتنبوا (الثانية) " معطوفة على جملة اجتنبوا (الأولى) .

(246/524)

(حنفاء) حال منصوبة من ضمير الفاعل (اجتنبوا) ، (للّه) متعلّق بـ (حنفاء) (غير) حال ثانية مؤكّدة منصوبة (به) متعلّق بـ (مشركين) ، (الواو) عاطفة (من يشرك) مثل من يعظّم (باللّه) متعلّق بـ (يشرك) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (كأنّما) كافّة ومكفوفة (من السماء) متعلّق بـ (خرّ) ، (الفاء) عاطفة (به) متعلّق بـ (تهوي) ، (في مكان) متعلّق بـ (تهوي) .

وجملة : " من يشرك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من يعظّم .

وجملة : " يشرك باللّه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " كأنّما خرّ من السماء) في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " تخطفه الطير . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . .

والجملة الاسميّة في محلّ جزم معطوفة على جملة كأنما خرّ من السماء .

وجملة : " تهوي به الريح " في محلّ رفع معطوفة على جملة تخطفه .

الصرف :

(الأوثان) ، جمع وثن ، اسم جامد للحجر المنحوت للعبادة ، وزنه فعل بفتحتين .

(الزور) ، اسم من الزور أو الازورار وهو الانحراف في كليهما ، وزنه فعل بضمّ فسكون .

(حنفاء) ، جمع حنيف صفة مشبّهة من حنف يحنف باب ضرب أي مال إلى دين الإسلام ، وزنه فعيل ووزن حنفاء فعلاء بضمّ ففتح .

(سحيق) ، صفة مشبّهة من سحق يسحق باب فرح وباب كرم أي بعد ، وزنه فعيل .

البلاغة

التشبيه المركب :

في قوله تعالى وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ فكأنه سبحانه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه

إهلاكا ليس بعده ، بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء ، فاختطفته الطير ، فتفرق قطعا في حواصلها ، أو عصفت به الريح ، حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة .

[سورة الحج (22) : آية 32]

ذِلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32)

الإعراب :

(247/524)

(ذلك . . شعائر اللّه) مثل ذلك . . حرمات اللّه " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط ، والضمير في (إنّها) يعود على الشعائر " 2 " ، (من تقوى) متعلّق بخبر إنّ ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف .

جملة : " (الأمر) ذلك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من يعظّم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعظّم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " إنّها من تقوى . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

الفوائد

- قوله تعالى فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ورد هذا السؤال : لماذا أنث ضمير " فإنها " . الجواب : لأنه على حذف مضاف ، التقدير : فإنها هذه العادة أو الخصلة أو المعاملة أو الطاعة من تقوى القلوب .

[سورة الحج (22) : آية 33]

لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33)

---

(1) في الآية (30) من هذه السورة.

(2) وثمّة مضاف محذوف أي فإنّ تعظيمها من تقوى القلوب.

(248/524)

الإعراب:

(لكم) متعلّق بخبر مقدّم (فيها) متعلّق بحال من (منافع) " 1 " ، (إلى أجل) متعلّق بنعت لمنافع تقديره مؤخّرة أو مؤجّلة (إلى البيت) متعلّق بخبر محذوف للمبتدأ (محلّها).

جملة: "لكم فيها منافع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة - أو تعليليّة - .

وجملة: " محلّها إلى البيت . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

[سورة الحج (22) : الآيات 34 إلى 35]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (35)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لكلّ) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعلنا (اللام) للتعليل

(يذكروا) منصوب بأن مضمرة بعد اللام.

والمصدر المؤوّل (أن يذكروا . . . " في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعلنا) .

(يذكروا . . بهيمة الأنعام) مرّ إعرابها " 2 " ، (الفاء) الأولى استئنافيّة ، والثانية رابطة

لجواب شرط مقدّر (له) متعلّق بـ (أسلموا) ، و(الواو) عاطفة.

جملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " يذكروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

---

(1) أو متعلّق بالخبر المحذوف.

(2) في الآية (28) من هذه السورة.

وجملة : " رزقهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إلهكم إله . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " أسلموا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن طلبتم رضاه فأسلموا له.

وجملة : " بشّر المخبتين " معطوفة على جملة أسلموا " 1 " . .

(الذين) موصول في محلّ نصب نعت لـ (المخبتين) " 2 " ، (إذا) ظرف للزمن المستقبل متعلّق بالجواب وجلت (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (الصابرين ، المقيمي) اسمان معطوفان على المخبتين منصوبان مثله ، وعلامة النصب فيهما الياء (الصلاة) مضاف إليه مجرور (ممّا) متعلّق بـ (ينفقون) والعائد محذوف أي رزقناهم إيّاه .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه " لا محلّ لها صلة الموصول الذين .

وجملة : " ذكر اللّه " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " وجلت قلوبهم " لا محلّ لها جواب لشرط .

وجملة : " أصابهم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " رزقناهم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " ينفقون " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الذين .

الصرف :

(المخبتين) ، جمع المخبت ، اسم فاعل من أخبت الرباعيّ بمعنى تواضع وأطاع ، والإخبات النزول في الخبت وهو المكان المنخفض .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة مستأنفة فلا محلّ لها .

(2) أو في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم . . أو في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره أمدح أو أعني .

(250/524)

[سورة الحج (22) : آية 36]

وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (البدن) مفعول به لفعل محذوف تقديره جعلنا (لكم) متعلّق بـ (جعلناها) ، (من شعائر) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (لكم) الثاني متعلّق بخبر مقدّم (فيها) متعلّق بحال من المبتدأ (خير) " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (عليها) متعلّق بـ (اذكروا) ، (صوافّ) حال منصوبة من الهاء في (عليها) ، (الفاء) عاطفة و(الفاء) الثانية رابطة لجواب الشرط متعلّق بـ (كلوا) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله سخّرناها (لكم) متعلّق بـ (سخّرناها) ،

(لعلّكم) حرف مشبّه بالفعل للترجّي .

جملة : " (جعلنا) البدن . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعلناها (المذكورة) " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " لكم . . . خير " في محلّ نصب حال من الضمير الغائب في (جعلناها) " 2 " .

وجملة : " اذكروا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن نحرتموها فاذكروا . .

وجملة : " وجبت جنوبها . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : "كلوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

---

(1) يجوز تعليقه بالخبر المحذوف وانظر الآية (33) من هذه السورة .

(2) يجوز أن تكون مستأنفة لتقرير ما قبلها .

وجملة : " أطعموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كلوا وجملة : " سخّرناها . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لعلّكم تشكرون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - وجملة : " تشكرون " في محلّ رفع خبر لعلّكم .

الصرف :

(البدن) ، جمع بدنة ، اسم ذات للناقة ، وزنه فعلة بفتحتين ، ووزن البدن فعل بضمّ فسكون .

(صوافّ) ، جمع صافّة ، اسم فاعل من صفّ الثلاثيّ ، وزنه فاعل ، أدغمت عينه ولامه لأنّهما من ذات الحرف ، ووزن صوافّ فواعل .

(القانع) ، اسم فاعل من قنع الثلاثيّ أي الذي رضي بالقليل وبما يعطى ، أو الذي سأل الناس ، من باب فتح ، وزنه فاعل .

(المعترّ) ، اسم فاعل من اعترّ الخماسيّ أي اعترض من غير سؤال ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين ، ولم يظهر الكسر عليها لمناسبة التضعيف - والصيغة اسم مفعول أيضا -

[سورة الحج (22) : آية 37]

لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)

الإعراب :

(اللّه) لفظ الجلالة مفعول به مقدّم و(لحومها) فاعل مرفوع (لا) زائدة لتأكيد النفي (لكن) حرف استدراك مهمل (التقوى) فاعل يناله ، مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (منك) متعلّق بحال من التقوى (كذلك سخّرها لكم) مثل كذلك سخّرناها لكم " 1

" ، (اللام) للتعليل (تكبّروا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام .

---

(1) في الآية السابقة (36) .

والمصدر المؤوّل (أن تكبّروا . . .) في محلّ جرّ متعلّق بـ (سخّرها) .

(ما) مصدريّ " 1 " ، (الواو) استئنافيّة .

والمصدر المؤوّل (ما هداكم . . .) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بـ (تكبّروا) لأنّ فيه معنى تشكروا .

جملة : " لن ينال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يناله التقوى . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " سخّرها . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تكبّروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " هداكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) أو الاسميّ .

وجملة : " بشّر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(لحوم) ، جمع لحم ، اسم جامد لما يكسو العظام في الحيوان والإنسان ، وزنه فعل بفتح فسكون ووزنه لحوم فعول بضمّ الفاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجدول حـ 17 صـ 81. 117﴾

(253/524)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(22) سورة الحجّ

مدنيّة وآياتها ثمان وسبعون

[سورة الحج (22) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (4)

اللغة :

)

مَرِيدٍ) : عات متجرّد للفساد قال الزجاج : المريد والمارد المرتفع الأملس وقال في القاموس وشرحه : المارد : العاتي المرتفع يقال بناء مارد أي مرتفع وهو مجاز وجمعه مردة ومارد ون ومرّاد ، والمريد : الشديد المرادة والخبيث الشرير وجمعه مرد ومؤنثه مرداء يقال : مرد على جرد أي شبان مرد على خيول جرد .

الاعراب :

(254/524)

(يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) يا أداة نداء وأيها منادى نكرة مقصودة مبني على الضم والهاء للتنبيه والناس بدل من أي على اللفظ واتقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وإن زلزلة الساعة إن واسمها وشيء خبرها وعظيم صفة لشيء وجملة إن زلزلة الساعة إلخ تعليلية لا محل لها من الاعراب وذلك لقوله اتقوا ربكم . وزلزلة الساعة من إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله فعلى الأول كأنها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي وعلى الثاني على طريقة الاتساع في الظرف وإجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى "بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ" . (يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا

أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها)

الظرف متعلق بتذهل وجملة ترونها مضاف إليها الظرف وأجازوا فيه أوجها أخرى منها أن يكون متعلقا بعظيم أو باذكر مقدرة أو انه بدل اشتمال من زلزلة لأن كلا من الحدث والزمان يصدق عليه انه مشتمل على الآخر والضمير في ترونها عائد على الساعة أي القيامة ولأنها بهذه المثابة التي تقطع نياط القلوب ، ويجوز أن يعود على الزلزلة ولعله أقرب لأنه في الدنيا ، وتذهل فعل مضارع مرفوع وكل مرضعة فاعل والجملة في محل نصب على الحال من ضمير ترونها أي الهاء فإن الرؤية هنا بصرية حتما هذا إذا لم نجعل يوم متعلقا بتذهل فإن تعلق به لم تجز الحال وصارت الجملة مستأنفة أو أنها حال من الزلزلة أو من الضمير المستتر في عظيم أو من الساعة وان كانت مضافا إليها لأنها إما فاعل واما مفعول به ، كما تقدم ، ولا بد عندئذ من تقدير ضمير محذوف أي تذهل فيها والمرضعة هي التي باشرت الإرضاع بأن ألقمت الرضيع ثديها والمرضع هي التي من شأنها أن ترضع سواء باشرت

الإرضاع أم لم تباشره ففرقوا بينهما بالتاء المربوطة وسيأتي مزيد تفصيل لهذا السر في باب البلاغة وعما أرضعت متعلقان بتذهل وما موصولة أو مصدرية أي عن الذي أرضعته أو عن إرضاعها وتضع كل فعل مضارع وفاعل والجملة معطوفة على جملة تذهل وذات حمل مضاف لكل وحملها مفعول به لتضع والحمل بفتح الحاء المهملة ما كان في بطن أو على شجرة وبالكسرة ما كان على ظهر . (وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

الواو عاطفة وترى فعل مضارع معطوف على ترونها وإنما جمع في الأول وأفرد في الثاني لأن الرؤية الأولى علقت بالزلزلة أو الساعة وكل الناس يرونها أما الثانية فهي متعلقة بكون الناس سكارى فلا بد من جعل كل أحد رائيا للباقي بقطع النظر عن اتصافه بالسكر وفاعل ترى مستتر تقديره أنت والناس مفعول به وسكارى حال والواو للحال وما نافية حجازية وهم اسمها والباء حرف جر زائد وسكارى مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما والجملة في محل نصب على الحال من الناس ، ويجوز في سكارى ضم السين وفتحها فهما لغتان وبهما قرىء ، ولكن الواو عاطفة على محذوف مخالفة لما بعد لكن وهذا حكم مطرد لها والتقدير كما في البحر لأبي حيان : " فهذه الأحوال وهي الذهول والوضع ورؤية الناس شبه السكارى هينة لينة ولكن عذاب الله شديد أي ليس لينا وسهلا فما بعد لكن مخالف لما قبلها " وسيأتي مزيد بحث لهذه الآية في باب البلاغة . (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ

بِغَيْرِ عِلْمٍ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لذكر من غفل عن الجزاء في ذلك وكذب به والمناسبة بينها وبين ما تقدم من ذكر أهوال الساعة وزلزلتها واضحة ومن الناس خبر مقدم ومن نكرة موصوفة حتما وهي مبتدأ مؤخر أي ناس موصوفة بالجدل واللجاج والسفسطة والمكابرة لا تنفع فيهم

(256/524)

العظات ولا تؤثر فيهم الدلائل وجملة يجادل في اللّه صفة لمن وأفرد الضمير مراعاة للفظ من ولو جمع مراعاة لمعناها لجاز وفي اللّه متعلقان بيجادل على حذف مضاف أي قدرته وصفاته ودينه وبغير علم حال من الضمير الفاعل في يجادل أي جاهلا متخبطا في متاهات الضلالة العمياء والجهالة النكراء (وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ) ويتبع عطف على يجادل وكل مفعول به وشيطان مضاف اليه ومريد

صفة لشيطان ولا بد من تقدير مضاف أي خطوات كل شيطان . (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ) كتب فعل ماض مبني للمجهول وعليه متعلقان به وأن وما في حيزها في محل رفع نائب فاعل ومن اسم شرط جازم مبتدأ ويجوز أن تكون من اسم موصول مبتدأ وفأنه الخبر ودخلت الفاء لما في الموصول من رائحة الشرط وجملة يضله خبر

انه وجملة الشرط أو الموصول خبر أنه وأجاز الزمخشري أن تكون فأنه معطوفة على الأولى وتعقبه أبو حيان فقال : وهذا لا يجوز لأنك إذا جعلت فأنه عطفا على انه بقيت انه بلا استيفاء خبر على أن كثيرين أيدوا الزمخشري في إعرابه ونرى أن ما اخترناه هو الأقرب للصواب ، ويهديه عطف على يضله والى عذاب السعير متعلقان بيهديه .

البلاغة :

1- في قوله تعالى " وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى "

تشبيه بليغ فقد شبه الناس في ذلك اليوم العصيب بحالة السكارى الذين فقدوا التمييز وأضاعوا الرشد ، والعلماء يقولون : إن من أدلة المجاز صدق نقيضه كقولك زيد حمار إذا وصفته بالبلادة والغباء ثم يصدق أن تقول وما هو بحمار فتنفي عنه الحقيقة فكذلك الآية بعد

أن أثبتت السكر المجازي نفى الحقيقة أبلغ نفي مؤكد بالباء والسر في تأكيده التنبيه على أن هذا السكر الذي هو بهم في تلك الحالة ليس من المعهود في شيء وإنما هو أمر لم يعهدوا قبله مثله والاستدراك بقوله " وَلَكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ "

راجع إلى قوله وما هم بسكارى وكأنه تعليل لاثبات السكر المجازي كأنه قيل : إذا لم يكونوا سكارى من الخمر وهو السكر المعهود فما هذا السكر الغريب ؟ وما سببه ؟ فقيل شدة عذاب اللّه تعالى .

2- وفي عدوله عن مرضع إلى مرضعة سرّ قل من يتفطّن له وهو ان المرضعة هي التي باشرت الإرضاع فعلا فنزعها الثدي من فم طفلها عند حدوث الهول ، ووقوع الارتباك أدل على الدهشة وأكثر تجسيدا لمواطن الذهول الذي استولى عليها وهناك فرق آخر وهو أن وروده على النسب أي مرضع لا يلاحظ فيه حدوث الصفة المشتق منها ولكن مقتضاه انه موصوف بها وعلى غير النسب أي مرضعة يلاحظ فيه حدوث الفعل وخروج الصفة عليه وهذا من أسرار لغتنا التي تندر في اللغات .

وقال في المفصل : " إن مذهب الكوفيين ان حذف التاء من حائض للاستغناء عنها وهذا يوجب إثبات التاء في محل الالتباس كضامر وعاشق وأيم وثيب وعانس " وهذا الاعتراض بيّن ، وأما الاعتراض بإثبات التاء في الصفات المختصة بالإناث من امرأة معيبة وكلبة مجرية على ما في الصحاح فليس بسديد لأن ما ذكروه مجوز لا موجب لأنهم يقولون الإتيان بالتاء في صورة الاستغناء على الأصل كحاملة في المرأة قال في الصحاح : يقال امرأة حامل وحاملة إذا كانت حبلى فمن قال

حامل قال هذا نعت ومن قال حاملة بناه على حملت فهي حاملة وأنشد لعمرو بن حسان

:

تمخضت المنون له بيوم أتى ولكل حاملة تمام

فإذا حملت شيئا على ظهرها أو على رأسها فهي حاملة لا غير.

[سورة الحج (22) : الآيات 5 إلى 7]

(258/524)

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7)

اللغة:

(النطفة) : ماء الرجل أو المرأة والجمع نطاف ونطف وهو ما يعرف بالمني كفني والمني كإلي والمنية كرمية ويجمع على مني كقفل.

ومنى وأمنى ومنّى بمعنى واحد . والنطفة أيضا الماء الصافي قل أو كثر وسيأتي المزيد من الكلام عنه .

(عَلَقَةٍ) : العلقة : هي الدم الجامد وهو المراد هنا والذي يعلق باليد وكل ما يعلّق وما تتبلّغ به الماشية من الشجر ودويبة سوداء تمتص الدم والجمع علق .

(مُضْغَةٍ) : لحمة قدر ما يمضغ .

(مُخَلَّقَةٍ) : المخلقة المسواة الملساء من النقصان والعيب يقال خلق السواك والعود إذا سواه وملسه من قولهم صخرة خلقاء كأن اللّه تعالى يخلق المضغ متفاوتة متباينة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك وعلى حسب ذلك التفاوت تتفاوت المخلوقات في الصور والخلق .

)

(259/524)

طِفْلًا) : الطفل بكسر الطاء يطلق على الولد من حين الانفصال إلى حين البلوغ وأما الطفل بالفتح فهو الناعم والمرأة طفلة وأما الطفل بفتح الطاء والفاء فهو وقت ما بعد العصر من قولهم طفلت الشمس إذا مالت للغروب وأطفلت المرأة أي صارت ذات طفل وفي المختار

: الطفل يستعمل مفردا وجمعا وفي الحديث سئل صلى اللّه عليه وسلم عن أطفال

المشركين . وقال في الأساس واللسان ما خلاصته : هو طفل بين الطفولة ، وفعل ذلك في

طفولته وامرأة وظبية مطفل وطفّلت ولدها :

رشحته . قال الأخطل يصف سحابا :

إذا زعزعته الريح جرّ ذيولها كما زحفت عوذ ثقال تطفّل

وامرأة طفلة ، وطفلة الأنامل : ناعمة وبنان طفل ناعمة

قال ذو الرمة :

أسيلة مستنّ الوشاحين قانىء بأطرافها الحناء في سبط طفل

وقد طفل طفولة وطفالة وآتيه في طفل الغداة وطفل العشي وهو بعيد طلوع الشمس وقبيل

غروبها قال :

باكرتها طفل الغداة بغارة والمبتغون خطار ذاك قليل

وقال لبيد :

فتدليت عليه قافلا وعلى الأرض غيابات الطّفل

وطفّلت الشمس إذا دنت للغروب وطفّل الليل أقبل وأظلّ وطفّل علينا وتطفّل وهو طفيلي

وتقول : ما زال يطفّل على الناس ، حتى نسخ طفيل الأعراس وهو رجل من الكوفة نسب

اليه التطفيل .

(أشده) : تقدم بحثه ونقول هنا : الأشد كمال القول والعقل والتمييز وهو من ألفاظ الجمع التي لم يستعمل لها واحد وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين .

(هامِدَةً) : الهمود السكون والخشوع وهمدت الأرض يبست ودرست وهمد الثوب بلي .

(اهْتَزَّتْ) : تحركت وتجوز به هنا عن إنبات الأرض نباتها بالماء .

(رَبَتْ) : زادت وارتفعت من ربا يربو .

الاعراب :

)

(260/524)

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) يا أيها الناس تقدم إعرابها وإن شرطية وكنتم فعل ماض ناقص فعل الشرط والتاء اسمها وفي ريب خبرها ومن البعث متعلقان بمحذوف صفة لريب فإنا الفاء رابطة وان واسمها وجملة خلقناكم خبرها ومن تراب متعلقان بخلقناكم وانما ساغ وقوع قوله فانا خلقناكم جوابا على تأويل فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم . (ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) عطف بثم للدلالة على وجود تراخ في تطور الخلق وتدرجه من حال إلى حال وقوله مخلقة

صفة لمضغة وغير مخلقة عطف على مخلقة والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولا قطعة لم يظهر فيها من الأعضاء شيء ثم ظهرت بعد ذلك شيئا فشيئا .

(لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى) لنبين اللام للتعليل ونبين مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل واللام مع مدخولها متعلقة بخلقناكم أو اللام للصيرورة والعاقبة أي أن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه مالا يمكن اكتناهه أو الإحاطة به ولذلك حذف مفعول نبين ، وذلك للاستدلال بهذه القدرة على ان من قدر على بدء الخلق قادر على إعادته فلا مجال للانكار ولا مساغ للتشكك ، ونقر الواو استئنافية ونقر فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره نحن وفي الأرحام متعلقان بنقر وما مفعول به وجملة نشاء صلة والى أجل مسمى متعلقان بمحذوف حال وانما استأنف لأنه ليس المعنى خلقناكم لنقر ، ومسمى صفة لأجل حرف أي ممتد الوقت خروجه . (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ) ثم حرف عطف وتراخ أيضا ونخرجكم عطف على نقر وفاعل نخرجكم ضمير مستتر تقديره نحن والكاف مفعول به

و طفلا حال من مفعول نخرجكم ثم لتبلغوا لا بد من تقدير فعل وهو نعمركم ، ولتبلغوا اللام للتعليل أو الصيرورة وتبلغوا منصوب بأن مضمرة بعد اللام والواو فاعل وأشدكم مفعول به .

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ) الواو عاطفة ومنكم خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وجملة يتوفى صلة ومنكم خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وجملة يرد صلة والى أرذل العمر متعلقان بيرد ، ونسب إلى علي بن أبي طالب قوله أرذل العمر خمس وسبعون سنة وقيل ثمانون ، وقال قتادة تسعون والصواب انه الهرم والخرف ووصول الإنسان إلى مرحلة الاعياء والوهن أو يرتد إلى مرحلة الطفولة ضعيف البنية والعقل ، بليد الفهم .

(لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً) لكيلا متعلقان بيرد ويعلم منصوب بأن مضمرة بعد اللام وكي مصدرية ومن بعد علم متعلقان بمحذوف حال لأن علم بمعنى عرف وشيئا مفعول به ليعلم . (وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) وهذه الجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الدليل الثاني لأن الدليل الأول منه ما هو مرئي مشاهد ومنه ما ليس كذلك فعبر عنه بالخلق أما هذا الدليل فهو داخل في حيز النظر ومندرج في سلك المرئيات فلذلك عبر عنه بقوله وترى ، والأرض مفعول به وهامدة حال من الأرض فإذا الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة أنزلنا مضافة إلى الظرف وعليها متعلقان بأنزلنا والماء مفعول به وجملة اهتزت لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وربت عطف على اهتزت وكذلك قوله وأنبتت ومن كل زوج

صفة لمفعول به محذوف أي أشياء وأصنافا كائنة من كل صنف وبهيج صفة لزوج. (ذِلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ذلك مبتدأ وبأن الله خبر وقيل ذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلك وعندئذ تكون الباء

(262/524)

مع مدخولها في محل نصب على الحال وان واسمها وهو ضمير فصل أو مبتدأ والحق خبر ان أو خبر هو والمبتدأ الثاني وخبره خبر ان وانه عطف على بأن وان واسمها وجملة يحيي الموتى خبرها وانه على كل شيء قدير عطف أيضا ولا بأس هنا بأن نورد ملاحظة لأبي حيان خلاصتها أن الباء ليست للسببية وانما هي متعلقة بمحذوف تقديره شاهد بأن وهو ينطبق على ما ذكرنا من الوجهين المتقدمين. (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها) وان الساعة خبر لمبتدأ محذوف أي والأمر أن الساعة، وان واسمها وآتية خبرها ولا نافية للجنس وريب اسمها وفيها خبرها والجملة حالية أو خبر ثان لأن. (وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) عطف على ما تقدم وان واسمها وجملة يبعث خبرها ومن مفعول به وفي القبور متعلقان بمحذوف صلة من.

البلاغة:

في قوله تعالى " وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ " فنون لا يكاد يتسع لها صدر هذا الكتاب وسنحاول تلخيصها جهد المستطاع فأول ما فيها :

1- ائتلاف الطباق والتكافؤ :

لمجيء أحد الضدين أو أحد المتقابلين حقيقة والآخر مجازا فهمود الأرض واهتزازها ضدان لأن الهمود سكون فالاهتزاز هنا حركة خاصة وهما مجازان والربو والإنبات ضدان وهما حقيقتان وإنما قلنا ذلك لأن الأرض تربو حالة نزول الماء عليها وهي لا تنبت في تلك الحالة ، فإذا انقطعت مادة السماء ، وجفف الهواء رطوبة الماء خمد الربو وعادت الأرض إلى حالها من الاستواء وتشققت وأنبتت فصدر الآية تكافؤ وما قابله في عجزها طباق .

2- الارداف :

وفيها مع هذين الفنين فن الارداف وهو كما ذكر قدامة في نقد الشعر أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له ولا بلفظ الاشارة الدال على المعاني الكثيرة بل بلفظ هو

ردف المعنى الخاص وتابعه قريب من لفظ المعنى الخاص قرب الرديف من الردف وقد تقدمت الاشارة اليه في هود ، وهنا في هذه الآية عدل عن لفظي الحركة والسكون الحقيقيين إلى أردافهما من لفظي الهمود والاهتزاز لما في لفظي الارداف من الملاءمة للمعنى المراد لأن الهمود يراد به الموت ، والأرض في حال عطلها من السقي والنبات موات فكان العدول إلى لفظ الهمود المعبر به عن الموت أولى من لفظ السكون والاهتزاز المجازي مشعر بالعطالة كاهتزاز الممدوح للمدح فلأجل ذلك عدل عن لفظ الحركة العام إلى لفظ الحركة الخاص لما يشعر أن الأرض ستعطي عند سقيها ما يرضي من نباتها بتنزل السقي لها منزلة ما يسرها فاهتزت لتشعر بالعطاء فقد ظهرت فائدة العدول إلى لفظ الارداف لما يعطيه من هذه المعاني التي لا يعطيها لفظ الحقيقة .

3- التهذيب :

وقد جاء نظم هذه الآية مع ما تضمن من التكافؤ والطباق والارداف والائتلاف منعوتا بالتهذيب لما فيه من حسن الترتيب حيث تقدم فيه لفظ الاهتزاز على لفظ الربو ولفظ الربو على الإنبات لأن الماء إذ نزل على الأرض فرق أجزاءها ودخل في خلالها ، وتفريق أجزاء الجواهر الجمادية هو حركتها حالة تفرق الاتصال لأن انقسام الجوهر يدل على انتقال قسميه أو أحدهما عن حيزه ولا معنى للحركة إلا هذا

فالاهتزاز يجب أن يذكر عقيب السقي كما جاء الربو بعد الاهتزاز فإن التراب إذا دخله الماء ارتفع بالنسبة إلى حاله قبل ذلك وهذا هو الربو بعينه وقد تقدم شرح كون الإنبات انما يكون بعد الربو وجفاف رطوبة الماء وعود التراب إلى حاله وتشققه فحصل التهذيب في نظم هذه الآية بحصول حسن الترتيب واقترن بذلك حسن النسق لتقدم كل ما يجب أن يكون معطوفا عليه على كل ما يجب أن يكون معطوفا .

4- المذهب الكلامي :

وفي قوله تعالى من أول سورة الحج إلى قوله " وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ " فن المذهب الكلامي ففي هذه الآيات خمس نتائج تستنتج من عشر مقدمات وسياقها مفصلة على الترتيب :

آ- قوله تعالى " ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ " ذلك لأنه قد ثبت عندنا بالخبر المتواتر أنه سبحانه أخبر بزلزلة الساعة معظما لها وذلك مقطوع بصحته لأنه خبر أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته منقول إلينا بالتواتر فهو حق ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق فاللّه هو الحق .

ب- أخبر سبحانه أنه يحيي الموتى لأنه تعالى أخبر عن أهوال الساعة بما أخبر ، وحصول فائدة هذا الخبر موقوفة على إحياء الموتى ليشاهدوا تلك الأهوال التي فعلها سبحانه من

أجلهم وقد ثبت أنه قادر على كل شيء ، ومن الأشياء إحياء الموتى فهو يحيي الموتى .

ج- وأخبر أنه على كل شيء قدير لأنه أخبر أنه من يتبع الشياطين ومن يجادل فيه بغير علم يذقه عذاب السعير ولا يقدر على ذلك إلا من هو على كل شيء قدير ، فهو على كل شيء قدير .

(265/524)

د- وأخبر أن الساعة آتية لا ريب فيها ، لأنه أخبر بالخبر الصادق أنه خلق الإنسان من تراب الى قوله «لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً» وضرب سبحانه لذلك مثلا بالأرض الهامدة التي ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، ومن خلق الإنسان على ما أخبر به فأوجده بالخلق ثم أعدمه بالموت ثم يعيده بالبعث وأوجد الأرض بعد العدم فأحياها بالخلق ثم أماتها بالمحل ثم أحياها بالخصب ، وصدق خبره في ذلك كله بدلالة الواقع الشاهد على المتوقع الغائب حتى انقلب الخبر عيانا صدق خبره .

ه- في الإتيان بالساعة ولا تأتي الساعة إلا يبعث من في القبور ، إذ هي عبارة عن مدة تقوم فيها الأموات للمجازاة فالساعة آتية لا ريب فيها وهو سبحانه يبعث من في القبور .

5- المجاز :

في قوله تعالى «وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» فقد أسند الإنبات للأرض وهو مجاز عقلي لأن المنبت في الحقيقة هو اللّه تعالى وقد تقدم القول غير مرة في المجاز ونزيد هنا أن المجاز خلاف الحقيقة والحقيقة فعيلة بمعنى مفعولة من أحق الأمر يحقه إذا أثبته أو من حققته إذا كنت على يقين وانما سمي خلاف المجاز بذلك لأنه شيء مثبت معلوم بالدلالة والمجاز مفعل من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه فإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على أنهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولا .

شرطا المجاز :

المجاز لا يكون إلا بشرطين :

آ- أن يكون اللفظ منقولا عن معنى وضع اللفظ بإزائه أولا

(266/524)

وبهذا يتميز عن اللفظ المشترك وعن الكذب الذي ادعي فيه أنه مجاز .

ب- والشرط الثاني أن يكون النقل لمناسبة بين الأصل والفرع وعلاقته ، ولأجل ذلك لا توصف الأعلام المنقولة بأنها مجاز مثال ذلك تسميتك رجلا بالحجر ويقال ان ذلك مجاز وان كنت نقلت اسم الحجر الى الإنسان إلا أنه نقل لغير مناسبة إذ لا مناسبة بين حقيقة

الحجر وحقيقة الإنسان ومتى تحقق هذان الشرطان في لفظ كان ذلك اللفظ مجازا .

قسما المجاز :

والمجاز مجازان : مجاز استعارة ، ومجاز حذف . والأول قائم على التشبيه لأنها جعل الشيء للشيء للمبالغة في التشبيه كقولك لقيت أسدا ، وأنت تعني أنك لقيت شجاعا ولكن ليس فيها نقل كما تقدم وسيأتي مزيد بسط لهذا البحث ، فقوله تعالى «وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» نقل الإنبات الى الأرض وجعل خضرتها ونضرتها وتعاشيبها وتعاجيب ألوانها لها والحقيقة أن كل ذلك للّه .

[سورة الحج (22) : الآيات 8 الى 13]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (8) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ (9) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (10) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13)

اللغة :

(ثانِيَ عِطْفِهِ) : الثني : اللي وفي القاموس ثنى يثني الشيء عطفه وطواه ورد بعضه على بعض وكفه والعطف : الجانب يعطفه الإنسان ويلويه ويميله عند الاعراض عن الشيء وهو تعبير يراد به التكبر .

(حَرْفٍ) : طرف وسيأتي تفصيل معناه في باب البلاغة .

الاعراب :

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ) ومن الناس من يجادل في اللّه بغير علم : تقدم القول فيها مفصلا فجدد به عهدا ، ولا هدى عطف على علم ولا كتاب منير عطف أيضا وسيأتي القول في تكرير هذه الآية في باب البلاغة . (ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) ثاني حال من فاعل يجادل وانما نصبه على الحال والحال من شرطها أن تكون نكرة لأن إضافته بنية الانفصال والتنوين مراد كالمنطوق به وعطفه مضاف وثني العطف سيأتي بحثه في باب البلاغة ،

وليضل للام للتعليل أو للعاقبة والصيرورة ولعلها أولى لملاءمة السياق ويضل فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والفاعل مستتر تقديره هو وعن سبيل اللّه متعلقان بيضل أي عن دينه . (لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ) له خبر مقدم وفي الدنيا حال لأنه كان صفة لخزي وتقدم على القاعدة المشهورة وخزي مبتدأ مؤخر ونذيقه الواو عاطفة ونذيقه فعل وفاعل مستتر ومفعول به ويوم القيامة ظرف متعلق وعذاب الحريق مفعول به ثان وجملة له في الدنيا حالية . (ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) ذلك مبتدأ وبما خبر وجملة قدمت صلة ويداك فاعل وان عطف على قدمت فهي في محل جر وان واسمها وجملة ليس خبرها واسم ليس مستتر تقديره هو والباء حرف جر زائد وظلام اسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس وللعبيد جار ومجرور متعلقان بظلام وجملة ذلك بما قدمت يداك مقول قول محذوف وجملة القول حالية . (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ) الواو عاطفة أو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان حال المرتابين في ايمانهم الشاكين في دينهم ومن الناس خبر مقدم ومن نكرة موصوفة وهي مبتدأ مؤخر أي موصوفة بالعبادة القلقة غير المستقرة ولا الثابتة ، فهي عرضة للاهواء يعصف بها أقل ما يحدث لهم من بلاء أو ضر وجملة يعبد اللّه صفة لمن وعلى حرف حال من فاعل يعبد أي مضطربا مترجرجا وسيأتي مزيد بيان لهذا التعبير في باب البلاغة . (

فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ) فإن الفاء عاطفة وإن شرطية وأصابه فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والهاء مفعول به وخير فاعل واطمأن فعل ماض في محل جزم جواب الشرط وبه متعلقان باطمأن وإن الواو عاطفة على إن الأولى وأصابته فتنة عطف على ما تقدم وانقلب جواب الشرط وعلى وجهه حال أيضا وجملة خسر

(270/524)

الدنيا والآخرة حال أيضا من فاعل انقلب ولك أن تجعلها جملة مستأنفة أو تبدلها من جملة انقلب على وجهه ، والدنيا مفعول خسر والآخرة عطف على الدنيا . (ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ) ذلك مبتدأ وهو مبتدأ ثان والخسران خبر هو والجملة خبر ذلك والمبين نعت للخسران والجملة مستأنفة ولك أن تجعل هو ضمير فصل . (يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ) يجوز أن تكون هذه الجملة حالا من فاعل يعبد ويجوز أن تكون مستأنفة ويدعو فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر تقديره هو ومن دون اللّه حال وما اسم موصول مفعول به ولا نافية وجملة لا يضره صلة وما لا ينفعه عطف على الجملة

السابقة وذلك هو الضلال البعيد تقدم اعراب نظيرتها . (يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) الجملة بدل من جملة يدعو السابقة فهي بمثابة التكرير لها ولا محل لها ، ويدعو فعل مضارع واللام للابتداء أو هي موطئة للقسم ومن اسم موصول مبتدأ وضره مبتدأ ثان وأقرب من نفعه خبر ضره وجملة ضره أقرب من نفعه صلة من ، وجملة لبئس المولى خبر من ويرد على هذا الاعراب دخول لام الابتداء على الخبر وهو ضعيف من حيث القواعد النحوية إلا أن يقال أن اللام كررت للمبالغة ولك أن تجعل يدعو من أفعال القلوب متضمنة معنى يزعم لأن يزعم قول مع اعتقاد فتكون جملة لمن ضره أقرب من نفعه في محل نصب على المفعول به لأن لام الابتداء معلقة لها عن العمل أو يكون يدعو بمعنى يقول و من مبتدأ وضره مبتدأ ثان وأقرب خبره والجملة صلة من وخبر من محذوف تقديره إله أو إلهي وموضع الجملة نصب بالقول . وجملة لبئس مستأنفة لأنها لا يصح دخولها في الحكاية لأن الكفار لا يقولون عن أصنامهم لبئس المولى ولبئس العشير ، وهناك وجه آخر مقبول وهو أن تكون اللام زائدة في المفعول به ليدعو ويؤيد

(271/524)

هذا الوجه قراءة عبد اللّه يدعو من ضره بغير لام الابتداء فمن مفعول يدعو وضره مبتدأ وأقرب خبر والجملة صلة من وقد اختار الجلال السيوطي هذا الوجه ودعمه شارحوه أما الزمخشري فهذا نص عبارته :

" استعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد في التيه ضالا فطالت وبعدت مسافة ضلالته فإن قلت : الضرر والنفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين وهذا تناقض ؟ قلت : إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم وذلك ان اللّه تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جمادا لا يملك ضرا ولا نفعا وهو يعتقد فيه بجهله وضلاله أنه يستشفع به حين يستشفع به ثم قال : يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها له " لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ " أو كرر يدعو كأنه قال يدعو يدعو من دون اللّه ما لا يضره وما لا ينفعه ثم قال : " لمن ضره " بكونه معبودا أقرب من نفعه بكونه شفيعا لبئس المولى وفي حرف عبد اللّه من ضره بغير لام " فكأن الزمخشري رحمه اللّه أجمل الأعاريب التي أوردناها على أن هناك أوجها عديدة سلكها المفسرون تربو على سبعة أوجه ولكنها كلها بعيدة عن المنطق نورد لك منها على سبيل المثال رأي الفراء قال : " إن التقدير يدعو من لضره ثم قدم اللام على موضعها " ولا يخفى ما فيه من التعسف وتقديم ما في صلة الذي عليها .

وثمة رأي لا يقل عن هذا غرابة وشذوذا وهو أن يكون ذلك بمعنى الذي في موضع نصب

بيدعو أي يدعو الذي هو الضلال ولكنه قدم المفعول وهذا يتمشى على قول من جعل ذا مع غير الاستفهام بمعنى الذي مع انه منحصر في قولك ماذا ومن ذا ؟

(272/524)

و ثمة رأي آخر أشد استحالة وهو أن يكون التقدير ذلك هو الضلال البعيد يدعوه . فذلك مبتدأ وهو مبتدأ ثان أو بدل أو ضمير فصل والضلال خبر المبتدأ ويدعوه حال والتقدير مدعوا وهو وجه يدعو على نفسه بالوهن كما ترى ، وإنما أوردنا هذه الآراء لنخلص إلى القول إن هذه الآية من المشكلات التي شغلت علماء النحو والتفسير ولم يأتوا فيها بما ينقع الغليل وكلام اللّه المعجز أسمى من أن تطاله القواعد التي وضعها الإنسان .

وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم والمولى فاعل والمخصوص بالذم محذوف تقديره هو ، ولبئس العشير معطوف على قوله لبئس المولى .

[سورة الحج (22) : الآيات 14 إلى 17]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (14) مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (15) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ

يُرِيدُ (16) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17)

اللغة :

)

(273/524)

الْمَجُوسَ) : أطلق المجوس على فئة من الكهّان كان لهم الدور الخطير في الديانة الايرانية القديمة ولا سيما في العهد الساساني وقد أطلق الاسم على فئات من المنجمين والعلماء ، وجاء ذكر المجوس في إنجيل متى ، كانوا من رجال علم الفلك وقد استناروا بوحي خاص عن مجيء المسيح أتوا من منطقة لم تبعد عن فلسطين شرقا على ما يظن يهديهم نجم في السماء إلى أن وصلوا إلى بيت لحم وقدموا للمسيح الطفل هداياهم وقد ذكر التقليد الشعبي أنهم كانوا ثلاثة ومن سلالة ملوكية ، وأطلق العرب المجوس على قرصان النورمان والسكندينافيين الذين حاولوا في القرون الوسطى اقتحام السواحل والحدود في بلاد الغرب الاسلامي ، هذا وقد اختلف أهل العلم في المجوس فقيل هم قوم يعبدون النار وقيل الشمس وقيل هم القائلون بأن للعالم أصلين النور والظلمة ، وقيل : هم قوم يستعملون النجاسات

والأصل نجوس فأبدلت الميم نونا ، هذا وقد تقدم تفسير ألفاظ هذه الآية إلا المجوس .

الاعراب :

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ) ان واسمها وجملة يدخل خبر والذين مفعول به وجملة عملوا الصالحات عطف على آمنوا والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير مصير المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وجنات مفعول به ثان على السعة أو نصب بنزع الخافض وجملة تجري من تحتها الأنهار صفة لجنات وجملة إن اللّه يفعل ما يريد مستأنفة لتعليل ما تقدم وان

(274/524)

و اسمها وجملة يفعل خبر وفاعل يفعل مستتر تقديره هو وما مفعول به وجملة يريد صلة .

(مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ) من شرطية مبتدأ أو موصولة فتكون الفاء فيما بعد رابطة للتشبيه بالشرط والأول أرجح ، وكان فعل ماض ناقص واسمها مستتر يعود على من وجملة يظن خبر وفاعل يظن مستتر يعود على من وأن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف ضمير الشأن وجملة لن ينصره اللّه خبرها وان وما بعدها سدت مسد مفعولي يظن وفي الدنيا متعلقان بينصره والآخرة عطف على الدنيا .

(فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ) الفاء رابطة لجواب الشرط واللام لام الأمر ويمدد فعل مضارع مجزوم بلام الأمر والفاعل مستتر تقديره هو وبسبب متعلقان بيمدد والى السماء صفة لسبب والمراد بالسماء سقف البيت ، ثم ليقطع عطف على فليمدد وهل حرف استفهام ويذهبن فعل مضارع مبني على الفتح وكيده مفعول به وما يغيظ فاعل يذهبن وجملة يغيظ صلة وجملة هل يذهبن في موضع نصب بينظر وسيأتي تفصيل واف لهذه الآية في باب البلاغة .

(وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ) الواو عاطفة وكذلك نعت لمصدر محذوف وأنزلناه فعل وفاعل ومفعول به وآيات حال من الهاء وبينات صفة وأن اللّه عطف على هاء أنزلناه والمعنى وأنزلنا أن اللّه يهدي من يريد هدايته ولك أن تجعل الواو للحال وأن وما في حيزها في محل رفع لمبتدأ مضمر أي والأمر أن اللّه يهدي من يريد وأن واسمها وجملة يهدي خبرها ومن مفعول يهدي وجملة يريد صلة من .

)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) ان واسمها وجملة آمنوا صلة وما بعده عطف على الذين والجملة ابتدائية . (إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ) إن الثانية واسمها وخبرها في محل رفع خبر ان الاولى وسيأتي السر في تصدير الجملتين

بإن أو تجعل الثانية تأكيدا للأولى ، ويكون قوله : (إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) هو الخبر ، وإن واسمها وعلى كل شيء متعلقان بشهيد وشهيد خبر إن وقيل الخبر محذوف تقديره معترفون أو نحو ذلك وما ذكر تفسير له .

البلاغة :

1 - الإيجاز والتمثيل :

في قوله تعالى " مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ " إلى قوله " ما يغيظ " الإيجاز والتمثيل فأما الإيجاز فلأن معناه من كان يظن من حاسدي محمد ومبغضيه أن اللّه لن ينصره وانه يفعل شيئا مغايرا للنصر ومن كان يغيظه أن محمدا يظفر بمطلوبه ويبلغ ما هدف اليه من المثل العليا التي رسمناها له فليستقص وسعه وليستفرغ جهده ، فلن يكون مثله إلا مثل من يأخذ حبلا يمده إلى سماء بيته فيخنق نفسه به ثم بعد ذلك كله ليعد النظر والتأمل مجددا ليرى هل ذهب نصر اللّه الذي يغيظه ويقض مضجعه ، وهل ذهب عنه ما كان يساوره من حرقة وارتماض ؟

وسمي الاختناق قطعا لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه ومنه قيل للبهر القطع والبهر تتابع النفس ، وقال الجوهري في الصحاح : " وقوله تعالى : ثم ليقطع قالوا ليختنق لأن المختنق يمد السبب إلى السقف ثم يقطع نفسه من الأرض حتى يختنق تقول منه : قطع الرجل أي اختنق ولبن قاطع أي حامض " قلت والعامة تستعمل هذا التعبير فيما يذهب خيره ويبلى وهو عربي فصيح . وسمي هذا الفعل كيدا لأنه وضعه موضعه إما لأنه لا يستطيع سواه ولا يملك غيره وإما على سبيل

(276/524)

الاستهزاء وقد توسع المفسرون في هذه الآية وذهبوا بها مذاهب شتى فقالوا : " ويجوز أن يراد فليمد حبلا إلى السماء المظلة وليصعد عليه ثم ليقطع الوحي " وقال آخرون " النصر هو الرزق وأن الأرزاق بيد اللّه لا تنال إلا بمشيئته ولا بد للعبد من الرضا بقسمته فمن ظن أن اللّه غير رازقه وليس به صبر ولا استسلام فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يرده مرزوقا " وقيل غير ذلك وما ذكرناه أولى وأوفى بالمراد وهو ما يخالج كل حاسد وما يقال لكل من يعترض على ما ليس في طوقه ولا داخل في نطاق إرادته تقول له اشرب البحر ، أو اقتل نفسك فليس لك حيلة في تبديل ما هو واقع راهن وارادة اللّه أقوى .

2- تصدير الجملتين بان :

وفي تصدير الجملتين بإن زيادة في تأكيد الكلام وقد رمقه الشعراء في أشعارهم ، قال جرير :

إن الخليفة إن اللّه سربله سربال ملك به تزجى الخواتيم

فقوله إن اللّه سربله خبر ان الاولى وكررها لتوكيد التوكيد وسربله كساه بالملك الشبيه بالسربال ويروى لباس ملك وقوله به أي بذلك اللباس أو الملك تزجى أي تساق الخواتيم جمع خاتم بالفتح والكسر والأصل خواتم فزيدت الباء والمراد بها عواقب الأمور الحميدة ومغابها وقال أبو حيان : " يحتمل أن خبر إن قوله به تزجى الخواتيم وجملة إن اللّه سربله اعتراضية " ويروى ترجى بالراء المهملة .

[سورة الحج (22) : الآيات 18 إلى 22]

(277/524)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (18) هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ

(20) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22)

اللغة :

(الدَّوَابُّ) : جمع دابة بتشديد الباء لأنه مشتق من الدبيب فأما من قرأ بتخفيف الباء فقد حذفها كراهية التضعيف والدابة مؤنث الدابّ ما دبّ من الحيوان أي مشى كالحية أو على اليدين والرجلين كالطفل وغلبت الدابة على ما يركب ويحمل عليه وتقع على المذكر والمؤنث والتاء فيه للوحدة وتصغير الدابة دويّبة والدباب الشديد الدبيب ، والضعيف الذي يدب في المشي قال :

زعمتني شيخا ولست بشيخ إنما الشيخ من يدبّ دبيبا

والدبابة مؤنث الدباب وسميت بها آلة كانت في الماضي تتخذ في الحصار وكانوا يدخلون في جوفها ثم تدفع في أصل الحصن فينقبونه وهم في أجوافها ثم أطلقت في العصر الحديث على سيارة مصفحة تهجم على صفوف الأعداء وترمى منها القذائف .

)

(278/524)

الْحَمِيمُ) : الماء البالغ نهاية الحرارة واستحمّ الرجل : اغتسل واستحمّ دخل الحمام وبض حميمه أي عرقه ويقال للمستحم طابت حمّتك وحميمك وانما يطيب الغرق على المعافى ويخبث على المبتلى ، فمعناه أصح اللّه جسمك وهو من باب الكناية وسخن الماء بالمحمّ وهو القمقم أو الرجل ومثل العالم كمثل الحمّة وهي العين الحارّة وذابوا ذوب الحمّ وهو ما اصطهرت إهالته من الألية وحمى الرجل حمّى شديدة وهو محموم ، وهو حميمي وهي حميمتي أي وديدي ووديدتي وهم أحمّائي وتقول المرأة : هم أحمائي وليسوا بأحمّائي ، وعرف ذلك العامة والحامّة أي الخاصة وهو مولاي الأحم أي الأخص والأحب قال :

وكفيت مولاي الأحم جريرتي وحبست سائمتي على ذي الخلّة

وحمّ الأمر قضي وحمّ حمامه ونزل به القدر المحموم والقضاء المحتوم .

(يُصْهَرُ) : يذاب يقال صهرت الشحم من باب قطع إذا أذبته والصهارة الألية المذابة وصهرته الشمس أذابته وفي الحديث " إن الحميم ليصب من فوق رؤوسهم فينفذ من جمجمة أحدهم حتى

يخلص إلى جوفه فيسلب ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان " .

(مَقامِعُ) : جمع مقمعة بكسر الميم لأنها آلة القمع يقال قمعه يقمعه من باب قطع إذا ضربه بشيء يزجره به ويذله والميقعة المطرقة وقيل : السوط وفي الأساس : " قمع خصمه قهره وأذله فاقمع وتقمع والناس على باب القاضي متقمّعون وانقمع في بيته وتقمع : جلس وحده

وقمعته بالمقمع والمقمعة وبالمقامع وهي الجرزة ، وتقمّعت الدواب ذبّبت عن رءوسها القمع وهي ذبّان كبار زرق من ذبان الكلأ التي تغنى الواحدة قمعة ، وأنشد الجاحظ :

كأنّ مشافر النجدات منها إذا ما مسّها قمع الذباب

بأيدي مأتم متساعدات نعال السبت أو عذب الثياب

من النجد : العرق ، وقال أوس :

ألم تر أن اللّه أرسل مزنة وعفر الظّباء في الكناس تقمّع

(279/524)

و هم يكللون الجفان بالقمع جمع قمعة وهي أعلى السنام ، ومن المجاز " ويل لأقماع القول " وهم الذين يسمعون ولا يعون وفلان قمع الأخبار يتتبّعها ويتحدّث بها وتقول : ما لكم أسماع ، إنما هي

أقماع " وفي القاموس وشرحه " والقمع أيضا بتثليث القاف آلة توضع فوق الإناء فتصبّ فيه السوائل وجمعه أقماع " .

وللقاف مع الميم خاصة عجيبة وهي أنهما إذا اجتمعتا فاء وعينا للكلمة دلت على القهر والاذلال والغلبة تقول : قمؤ الرجل قماءة وقماً قماً إذا ذل وصغر في الأعين وهو صاغر

قميء وأقمأ الرجل أذله ، وقمحت السويق وغيره بكسر الميم واقتحمته إذا أخذته في راحتك إلى فيك ومنه القمح وهو الحب الذي يطحن ويتخذ منه الخبز وشهر أقماح أشد أشهر الشتاء بردا ، قال الهذلي :

فتى ما ابن الأغر إذا شتونا وحبّ الزاد في شهري قماح

ومن المجاز : أقمح المغلول فهو مقمح إذا لم يتركه عمود الغل الذي ينخس ذقنه أن يطأطىء رأسه " فهم مقمحون " وقمر الرجل غلبه وسلبه ماله وقمر الرجل بكسر الميم تحير بصره من الثلج وكأن القمر سمي بذلك لأنه متحير في سمائه ، وقمز الشيء جمعه وأخذه بأطراف أصابعه ، وقمسه في الماء غمسه وغرق في قاموس البحر : في قعره الأقصى وشبه القاموس بأعماق البحار لاشتماله على الكثير من مفردات اللغة وهو اسم لكتاب الفيروزبادي في اللغة ويطلق في زماننا على كل كتاب في اللغة فهو يرادف كلمة معجم وليس ذلك بعيدا ، وقمص يقمص بكسر الميم وضمها في المضارع قماصا بالكسر كالنفار والشراد وتقامص الصبيان وبينهم مقامصة وقمص الفرس رفع يديه معا وطرحهما معا وعجن برجليه وتقمص مطاوع قمص لبس القميص ويقال على الاستعارة تقمص الولاية والإمارة وتقمصت الروح انتقلت من جسد إلى جسد آخر على زعم بعضهم ومنه القميص وهو ما يلبس ، وقمط الأسير جمع

بين يديه ورجليه بالحبل وهو القماط وقمط الصبي بقماطة وهي الخرقة التي تلف عليه في المهد والعامة تستعمله كثيرا وهو عربي فصيح والقمّاط اللص وقمط الطائر انثاه والرجل امرأته فعل بها ، وقمقم ما على المائدة تتبع ما عليها وجمعه ، وقمل رأسه صار ذا قمل يفلّيه ، وقمّ الشيء يقمه بضم القاف استأصله وقممه جففه ، والقمن بفتحتين الجدير بالأمر كأنه يغلبه ويتحكم به ويكون بلفظ واحد مع المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع ويقال : هذا المنزل لك موطن قمن أي جدير بأن تسكنه ، وقمه البعير يقمه قموها رفع رأسه فلم يشرب الماء كأن شيئا غلبه وهذا من الغريب بمكان .

الاعراب :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ) : الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر تقديره أنت والرؤية هنا علمية وذلك لأن رؤية سجود هذه الأمور إنما تتأتى عن طريق العقل لا عن طريق البصر وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي تر وأن واسمها وجملة يسجد خبرها وله متعلقان بيسجد ومن فاعل وفي السموات ومن في الأرض متعلقان بمحذوف صلة الموصول والشمس وما بعدها عطف خاص على قوله من في السموات ومن في الأرض ونص على هذه الأمور لما ورد من أن

بعضهم كان يعبدها ، والسجود يشمل الملائكة والآدميين والجبال والشجر والدواب وغيرها وأفرد الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب بالذكر لشهرتها واستبعاد السجود منها .

(281/524)

)

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ) شغلت هذه الآية المفسرين والمعربين كثيرا فمن منع استعمال المشترك في معنييه الحقيقي والمجازي لم ينظم كثيرا في المفردات المتناسقة الداخلة تحت حكم الفعل وجعله مرفوعا بفعل مضمر يدل عليه قوله يسجد أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة وذلك أن السجود المسند لغير العقلاء غير السجود المسند للعقلاء فلا يسوغ عطفه عندهم على ما قبله لاختلاف الفعل المسند إليهما في المعنى فسجود العقلاء هو الكيفية المخصوصة المعرفة وسجود غير العقلاء هو الإذعان والطاعة وأما الذين أجازوا استعمال المشترك في معنييه الحقيقي والمجازي فهم ينسقونه على ما تقدم ولهم في تبرير ذلك تأويلات ثلاثة وهي :

آ- ان المراد بالسجود هو المعنى العام المشترك بين العقلاء وغيرهم وهو الخضوع والإذعان

فيكون الاشتراك معنويا .

ب- انه لا يمنع الاشتراك اللفظي وقد يشترك المجاز والحقيقة .

ج- انه يجوز الجمع بين المجاز والحقيقة وسيأتي مزيد بسط لهذا الموضوع في باب البلاغة .

ووقف فريق من المعربين موقفا ثالثا فلم يرفعوه بفعل مضمر لأن حذف فعل الفاعل غير وارد عندهم ولم ينسقوه على ما تقدم بل أعربوه مبتدأ وخبره محذوف تقديره مطيعون أو مجزيون أو مثابون أو نحو ذلك ، ومن الناس صفة كثير وكثير حق عليه العذاب عطف على سابقه .

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ) الواو استئنافية أو عاطفة ومن شرطية في محل نصب مفعول به مقدم ليهن والله فاعل وما نافية وله خبر مقدم ومن حرف جر زائد ومكرم مجرور بمن لفظا

مبتدأ مرفوع محلا وإن واسمها وجملة يفعل خبرها والجملة تعليلية .

)

هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ) الجملة مستأنفة مسوقة لسرد قصة المتبارزين يوم بدر وهم حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة وقيل هم المختصمون من أهل الكتاب والمسلمين في دين اللّه وهذان مبتدأ وخصمان خبره وجملة اختصموا صفة لخصمان ولك أن تجعل الجملة خبرا وخصمان بدل من هذان وفي ربهم متعلقان باختصموا وهو على حذف مضاف أي في دينه وقال خصمان ثم جمع الفعل لأن الخصم في الأصل مصدر ولذلك يوحّد ويذكر غالبا ويجوز أن يثنى ويجمع أو الجمع مراعاة للمعنى لأن المتخاصمين كانوا فرقا شتى وطوائف كثيرة. (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِ

البلاغة:

1- ال

ا بديه أن المخلوقات كلها تفتقر إلى أسماء يستدل بها عليها ليعرف كل منها باسمه من أجل التفاهم الذي لا بد منه فالاسم الموضوع بإزاء المسمى هو حقيقة له فاذا نقل إلى غيره صار مجازا والفرق الدقيق بينهما هو أن الحقيقة جارية على العموم في نظائر ألا ترى أنا إذا قلنا فلان "عالم" صدق على كل ذي علم بخلاف "واسأل القرية" لأنه لا يصح إلا في بعض الجمادات دون بعض إذ المراد أهل القرية

لأنهم ممن يصح السؤال لهم ولا يجوز أن يقال واسأل الحجر والتراب وقد يحسن أن يقال

واسأل الربع والطلل قال الأعشى :

ألم تسأل الربع القواء فينطق وهل تخبرنك اليوم بيداء سماق

2- الاستعارة التمثيلية في قطعت لهم ثياب :

(283/524)

في قوله تعالى : " قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ " استعارة تمثيلية جعل تقطيع الثياب وتفصيلها على قدود الكفار بمثابة الإحاطة بهم مع التهكم الذي ينطوي عليه أي أنها تشتملهم وتحتويهم كما تشتمل الثياب لابسها وتحتويه أما الروعة فهي كامنة في قوله "يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ " وهو ما يسمى بالارداف فإن الثياب تشمل جميع الجسد غير الرأس ، أفرد الرؤوس بالذكر بقوله : يصب .

[سورة الحج (22) : الآيات 23 إلى 25]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (23) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ (24) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ

(25)

الاعراب :

)

(284/524)

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ) تقدم إعراب نظيرها فجدد به عهدا . (يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ) يحلون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وفيها متعلقان بيحلون ومن أساور اضطربت أقوال المعربين فيها كما استشهد بها جميع النحويين على مجيء من لبيان الجنس وهي قوله من ذهب وعلامتها أن يصح الإخبار بما بعدها عما قبلها فتقول الأساور هي من ذهب ، ومن البيانية ومجرورها في موضع نصب على الحال مما قبلها إن كان معرفة كقوله تعالى " فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ " وفي موضع النعت كقوله من ذهب ، ولم أر بينهم جميعا من تعرض لإعراب من أساور إلا بقول مبهم لا يبل أواما ولا يشفي غليلا ولعل أقرب ما أراه فيها أن تكون نعتا لمفعول محذوف أي حليا ناشئا من أساور كائنة من ذهب ، واكتفى ابن هشام بقوله هي للابتداء وقال أبو البقاء مثل قولنا ولم يتعرض الزمخشري لها

وقال شهاب الدين الحلبي " وقوله من أساور من ذهب ، في من الأولى ثلاثة أوجه أحدها أنها زائدة والثاني أنها للتبعيض أي بعض أساور والثالث أنها لبيان الجنس ومن في من ذهب لابتداء الغاية وهي نعت لأساور " وقوله متهافت متدافع كما ترى .

ولؤلؤا عطف على محل من أساور لأن محلها النصب ، كذا قال المعربون ولكن الزمخشري لم يرتض هذا القول فجعلها منصوبة بفعل محذوف تقديره ويؤتون لؤلؤا ، وجملة يحلون حالية أو خبر ثان لإن ولباسهم الواو عاطفة ولباسهم مبتدأ وفيها حال وحرير خبر .

وفي هذا العدول عن الفعلية إلى الاسمية دلالة على الديمومة حيث لم يقل ويلبسون حريرا فقد دل على أن الحرير ثيابهم المعتادة والدائمة في

الجنة كما أن فيه رعاية للمحافظة على الفواصل لأنه لو قال ويلبسون حريرا لكان في آخر الفاصلة الألف في الكتابة والوقف بخلاف البقية (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ) الواو عاطفة وهدوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والى الطيب متعلقان بهدوا ومن القول متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستكن في الطيب

وهدوا إلى صراط الحميد عطف على الجملة السابقة أي إلى طريق اللّه المحمود ودينه القويم . (

(286/524)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ) إن واسمها وجملة كفروا صلة والجملة مستأنفة ويصدون الواو حرف عطف ويصدون عطف على كفروا وفي عطفه على الماضي تأويلات أولها أن لا يقصد بالمضارع الدلالة على زمن معين من حال أو استقبال وإنما يراد به مجرد الاستمرار ومثله " الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ " أو انه مؤول بالماضي لعطفه على الماضي أو انه على بابه وان الماضي قبله مؤول بالمستقبل وقد أجاز أبو البقاء وغيره أن تكون الواو حالية والجملة في محل نصب على الحال من فاعل كفروا وهو قول متهافت لأنه مضارع مثبت وما كان كذلك لا تدخل عليه الواو وما ورد منه على قلته مؤول فلا يسوغ حمل القرآن عليه وعن سبيل اللّه متعلقان بيصدون والمسجد الحرام عطف على سبيل اللّه والذي صفة ثانية للمسجد وجملة جعلناه صلة ونا فاعل والهاء مفعول به أول وللناس حال لأنه كان صفة وتقدم ، وسواء مفعول به ثان ان كانت جعل متعدية لاثنين وان كانت متعدية لواحد

أعربت سواء حالا من هاء جعلناه والعاكف فاعل سواء لأنه مصدر وصف فهو في قوة اسم الفاعل المشتق أي بمعنى مستو أي جعلناه مستويا فيه العاكف أي المقيم ، والباد بحذف الياء تبعا لرسم المصحف معطوف على العاكف ومعناه الطارئ ، وقد انفرد حفص بقراءة النصب في سواء والجمهور على رفعها على انه

(287/524)

خبر مقدم والعاكف والباد مبتدأ مؤخر والجملة في محل نصب مفعول به ثان أو حال وخبر إن محذوف تقديره خسروا أو هلكوا أو نحو ذلك وقدره الزمخشري نذيقهم من عذاب أليم واعترض عليه بأنه يكون بعد المسجد الحرام وفيه فصل بين الصفة والموصوف . (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ) الواو عاطفة ومن اسم شرط جازم مبتدأ ويرد فعل الشرط وفيه متعلقان بيرد ومفعول يرد محذوف ليتناول كل ما يمكن تناوله وبإلحاد حال وبظلم حال أيضا فهما حالان مترادفتان كأنه قال ومن يرد فيه مرادا عادلا عن القصد ظالما وهذا أولى من تقدير زيادة الباء في إلحاد وجعله هو المفعول ، قال أبو عبيدة : " مفعول يرد هو بإلحاد والباء زائدة في المفعول قال الأعشى : ضمنت برزق عيالنا أرماحنا أي رزق " وقال أبو حيان : " والأحسن أن يضمن معنى يرد يلتبس فيتعدى بالباء " ونذقه جواب

الشرط والفاعل مستتر تقديره نحن والهاء مفعول به ومن عذاب متعلقان بنذقه وأليم صفة وقدر أبو حيان الخبر مستنتجا من قوله نذقه ، وهو إعراب تفسيري لا صناعي فالأولى أن يقدر تقديرا أي نذيقهم عذابا أليما .

[سورة الحج (22) : الآيات 26 إلى 29]

وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)

اللغة :

)

(288/524)

رِجالًا) : مشاة جمع راجل كقائم وقيام يقال رجل يرجل بفتح الجيم رجلا بفتحتين : سار على رجليه لا راكبا ، ويقال هذا رجل أي كامل في الرجال بين الرّجولية والرّجولية وهذا

أرجل الرجلين وهو راجل ورجل بين الرّجلة وحملك اللّه عن الرّجلة ومن الرّجلة وقوم رجّال ورجال ورجّالة ورجل ورجلى ورجالى وأراجيل وترجلوا في القتال نزلوا عن دوابهم للمنازلة ورآه فترجل له ورجل أرجل عظيم الرجل ورجل رجيل وذو رجلة مشّاء .

(ضامِرٍ) : في المختار ضمر الفرس من باب دخل وضمر أيضا بالضم ضمرا بوزن فقل فهو ضامر ، وناقة ضامر وضامرة وتضمير الفرس أيضا أن تعلفه حتى يسمن ثم ترده إلى القوت وذلك في أربعين يوما . والبعير يطلق على الجمل والناقة .

(فَجٍّ) : الفج بفتح الفاء ويجمع على فجاج بكسر الفاء والفجاج بضم الفاء : الطريق الواسع الواضح بين الجبلين .

(تَفَثَهُمْ) : أوساخهم وقضاء التفث المراد به قص الأظافر ونتف الإبط وفي المصباح : تفث تفثا فهو تفث مثل تعب تعبا فهو تعب إذا ترك الأدهان والاستحداد فعلاه الوسخ وقوله تعالى : " ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ " قيل هو استباحة ما حرم عليهم بالإحرام بعد التحلل " وقال غيره : " التفث قيل أصله من التف وهو وسخ الأظفار قلبت الفاء كمعثور في معفور وقيل هو الوسخ والعذر يقال : ما نفثك ؟ وحكى قطرب : تفث الرجل إذا كثر وسخه في سفره ومعنى ليقضوا ليصنعوا ما يصنعه المحرم من ازالة شعر وشعث ونحوهما عند حله " .

الاعراب :

)

(289/524)

وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً) الواو استئنافية والظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر وجملة بوأنا مضافة إليها الظرف وبوأنا فعل وفاعل ولابراهيم متعلقان ببوأنا ومكان البيت مفعول بوأنا واختار أبو البقاء وغيره أن تكون اللام زائدة أي أنزلناه مكان البيت والدليل عليه قوله تعالى " وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ " اما على الاول فيكون معنى بوأنا هيأنا وان هي المفسرة لأنها واقعة بعد قول مقدر أي قائلين له لا تشرك ولا ناهية وتشرك فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وقيل هي مصدرية فعلنا ذلك لئلا تشرك وجعل النهي صلة لها وبي متعلقان بتشرك وشيئا مفعول تشرك ، وعبارة أبي حيان : وأن مخففة من الثقيلة قاله ابن عطية والأصل أن يليها فعل تحقيق أو ترجيح كحالها إذا كانت مشددة أو حرف تفسير قاله الزمخشري وابن عطية وشرطها أن يتقدمها جملة في معنى القول وبوأنا ليس فيه معنى القول والأولى عندي أن تكون أن الناصبة للمضارع إذ يليها الفعل المتصرف من ماض ومضارع وأمر والنهي كالأمر . (وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

وطهر الواو عاطفة وطهر فعل أمر فاعله مستتر تقديره أنت وبيتي مفعول طهر وللطائفين متعلق بطهر والقائمين والركع عطف على ما تقدم والسجود صفة للركع والأولى أن تجعل الكلمتين بمثابة الكلمة الواحدة لأنهما عملان في عمل واحد وهو الصلاة . (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) وأذن فعل أمر أي ناد بدعوة الحج والأمر به والخطاب لابراهيم كما يقتضيه السياق وعليه المفسرون جميعا وعن الحسن انه خطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمر أن يفعل ذلك في حجة الوداع

(290/524)

و هو أقوى من جهة التشريع ، وفي الناس متعلقان بأذن وبالحج متعلقان بمحذوف حال أي معلنا ويأتوك مضارع مجزوم لأنه وقع جوابا للطلب والواو فاعل والكاف مفعول به ورجالا حال وعلى كل ضامر عطف على رجالا أي مشاة وركبانا ويأتين فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل وجملة يأتين صفة لكل ضامر لأنه في معنى الجمع وقرىء يأتون صفة للرجال والركبان ومن كل فج متعلقان بيأتين وعميق صفة لفج .

(لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ) اللام للتعليل ويشهدوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعدها وهي متعلقة مع مجرورها بيأتوك أو بأذّن ومنافع مفعول به ولهم

صفة لمنافع ويذكروا عطف على يشهدوا والواو فاعل واسم اللّه مفعول به وفي أيام متعلقان بيذكروا ومعلومات صفة لأيام وسيأتي ذكر هذه الأيام في باب الفوائد . (عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ) على ما رزقهم متعلقان بيذكروا أيضا ومعنى على هنا التعليل ومثله قوله تعالى " وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ " وقول الشاعر :

علام تقول الرمح يثقل عاتقي إذا أنا لم أطعن إذا الخيل كرت

ومن بهيمة الأنعام متعلقان برزقهم ، فكلوا الفاء الفصيحة وكلوا فعل أمر وفاعل ومنها متعلقان بكلوا وأطعموا عطف على كلوا والبائس مفعول به والفقير صفة . (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) ثم حرف عطف واللام لام الأمر وسيأتي بحث مفيد عنها في باب الفوائد ويقضوا مضارع مجزوم بلام الأمر وتفثهم مفعول به وليوفوا نذورهم عطف على يقضوا تفثهم وليطوفوا بالبيت العتيق عطف أيضا وبالبيت متعلقان بيطوفوا والعتيق صفة للبيت وسيأتي السر في تسميته بالعتيق في باب الفوائد .

الفوائد :

1- لام الأمر :

لام الأمر ويسميها النجاة اللام الطلبية سواء أكانت أمر أم دعاء فالأول نحو " لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ " والثاني نحو " لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ " وتكون للالتماس ، فالأمر من الأعلى والدعاء من الأدنى والالتماس من المساوي ، ولام الأمر مكسورة إلا إذا وقعت بعد الواو والفاء فالأكثر تسكينها نحو " فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي " وقد تسكن بعد ثم ، وتدخل لام الأمر على فعل الغائب معلوما ومجهولا وعلى المخاطب والمتكلم المجهولين .

2- لما ذا سمي البيت العتيق :

اختلف المفسرون في هذه التسمية فرجح الزمخشري انه القديم لأنه أول بيت وضع للناس ، وقال ابن عباس : سمي عتيقا لأن اللّه أعتقه من تسلط الجبابرة عليه فكم من جبار سار اليه ليهدمه فمنعه اللّه ، وقال الزمخشري في تأييد هذا الوجه " فإن قلت : قد تسلط عليه الحجاج فلم يمنع ؟ قلت : ما قصد التسلّط على البيت وانما تحصن به ابن الزبير فاحتال لاخراجه ثم بناه ولما قصد التسلط عليه أبرهة فعل به ما فعل "كما سيأتي ، وقيل بيت كريم من قولهم عتاق الخيل والطير .

[سورة الحج (22) : الآيات 30 إلى 33]

ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ

(31) ذِلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33)

اللغة :

(292/524)

(حُرُماتِ اللَّهِ) : الحرمات بضمتين ويقال في الجمع أيضا حرمات بضم ففتح وحرم بضم ففتح جمع حرمة بضم فسكون وحرمة بضمتين وحرمة بضم ففتح وهي الذمة والمهابة وما وجب القيام به من حقوق اللّه وحرم التفريط به ومالا يحل انتهاكه وتفاصيل الحرمات تؤخذ من كتب الفقه .

(الرِّجْسَ) : بتشديد الراء المكسورة وسكون الجيم والرّجس بتشديد الراء المفتوحة وفتح الجيم والرجس بتشديد الراء المفتوحة وكسر الجيم : القذر والأوساخ وسمى الأوثان رجسا على طريق التشبيه لأنها قذر معنوي .

(الزُّورِ) : الشرك باللّه والباطل والكذب ومن معانيه أيضا العقل والقوة يقال ماله زور ولا صيّور أي لا قوة له ولا مرجع اليه والرأي والسيد والزعيم ولذة الطعام وطيبه ولين الثوب ونقاؤه ومجلس الغناء وهو من الزور أو هو الازورار وهو الانحراف وفي الأساس " وكلمة

زوراء دنية معوجة ومنارة زوراء : مائلة عن السمت ورمى بالزوراء : بالقوس

وفلاة زوراء وهو أزور عن مقام الذل وتقول : قوم عن مواقف الحق زور ، فعلهم رياء

وقولهم زور ، وما لكم تعبدون الزور وهو كل ما عبد من دون اللّه وأنا أزيركم ثنائي

وأزرتكم قصائدي " هذا وقد نظم بعضهم معاني هذه المادة بالأبيات التالية :

الصّدر والزائر فهو زور وكلّ زوار النساء زير

في جمع أزور يقال زور أعني به ذا ميل في الصدر

زيارة أي مرة فزوره وهيئة الزيارة ادع زيره

وقطعة الكتان أما الزّوره فموضع ذو شجر وطين

وسميت بغداد بالزوراء لانحراف قبلتها قال الطغرائي :

فيم الإقامة بالزوراء لا سكني بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

(فَتَخْطَفُهُ) : في القاموس : خطف يخطف من باب تعب خطفا الشيء استلبه بسرعة

وخطف البرق البصر ذهب به بسرعة .

(سَحِيقٍ) : بعيد أي فهو لا يرجى خلاصه .

(شَعائِرَ اللَّهِ) : جمع شعيرة أو شعارة بالكسر وفي المصباح :

" والشعائر أعلام الحج وأفعاله الواحدة شعيرة أو شعارة بالكسر والمشاعر مواضع المناسك " .

الاعراب :

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ) ذلك قال الزمخشري : " خبر مبتدأ محذوف أي الأمر والشأن ذلك كما يقدم

الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال : هذا وقد كان كذا " ومعنى هذا انه يذكر للفصل بين كلامين أو بين وجهي كلام واحد ، وقيل مبتدأ محذوف الخبر أي ذلك الأمر الذي ذكرته وقيل في موضع نصب تقديره امتثلوا ذلك ونظير هذه الاشارة البليغة قول زهير في وصف هرم بن سنان :

هذا وليس كمن يعيا بخطبته وسط النديّ إذا ما ناطق نطقا

وكان وصفه قبل هذا بالكرم والشجاعة ثم وصفه في هذا البيت بالبلاغة فكأنه قال : هذا خلقه وليس كمن يعيا بخطبته .

و الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ويعظم فعل الشرط وفاعله مستتر يعود على من وحرمات اللّه مفعول به والفاء رابطة وهو مبتدأ وخير خبر وله متعلقان بخير والجملة في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من وعند ربه الظرف متعلق بمحذوف حال . (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ) الواو عاطفة وأحلت فعل ماض مبني للمجهول ولكم متعلقان بأحلت والأنعام نائب فاعل وإلا أداة استثناء وما يستثنى يجوز فيه الاتصال والانقطاع وقد تقدم اعراب هذه الآية وما استثناه اللّه في كتابه فالانقطاع على انه ذكر في آية المائدة ما ليس من جنس الأنعام كالدم ولحم الخنزير والاتصال على صرفه إلى ما يحرم من الأنعام بسبب عارض كالموت ونحوه وجملة يتلى صلة ونائب الفاعل ضمير مستتر وعليكم متعلقان بيتلى . (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) الفاء تفريع على قوله ومن يعظم حرمات اللّه ، واجتنبوا الرجس فعل أمر وفاعل ومفعول به ومن الأوثان بيان للرجس فهو في محل نصب على الحال واختار الزمخشري أن يكون

تمييزا ومثل لذلك بقولك : عندي عشرون من الدراهم لأن الرجس منهم يتناول غير شيء كأنه قيل فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان ، وليس قوله ببعيد واجتنبوا قول الزور عطف على ما تقدم . (حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) حنفاء للّه حال مؤسسة من ضمير اجتنبوا وغير مشركين حال مؤكدة منه أيضا وبه متعلقان بمشركين وسيأتي بحثهما في باب الفوائد .

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ) هذه الجملة مستأنفة مسوقة لضرب المثل لمن يشرك باللّه ومن اسم شرط جازم مبتدأ ويشرك باللّه فعل الشرط ، فكأنما الفاء رابطة وكأنما كافة ومكفوفة وخر فعل ماض وفاعل مستتر ومن السماء متعلقان بخرّ ، فتخطفه عطف على خرّ وإنما عدل إلى المضارع لسر سيأتي في باب البلاغة ، والطير فاعل أو تهوي به الريح عطف أيضا وفي مكان متعلقان بتهوي أيضا وسحيق نعت لمكان .

(ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) ذلك خبر لمبتدأ محذوف كما تقدم ومن يعظم شعائر اللّه تقدم اعرابها والفاء رابطة وان واسمها ومن تقوى القلوب خبرها . (لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) لكم خبر مقدم وفيها حال ومنافع مبتدأ مؤخر والى أجل صفة لمنافع ومسمى صفة لأجل ثم حرف عطف ومحلها مبتدأ وهو اسم مكان من حل يحل أي صار حلالا والى البيت خبر والعتيق صفة .

البلاغة :

1 - التشبيه المركب والتمثيلي وقد تقدم انه ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد وبيان ذلك انه لما انقسمت حال الكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما الاول منهما المتذبذب الشاكّ المتمادي

(296/524)

على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة فهذا القسم من المشركين شبه بمن اختطفته الطير وتوزعته فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر وذلك حال المذبذب لا يلوح له خيال إلا اتبعه ونزل عما كان عليه والثاني مشرك مصمم على معتقد باطل لو نشر بالمناشير لم يتراجع عن تصميمه لا سبيل إلى تشكيكه ولا مطمع في نقله عما هو عليه فهو فرح مبتهج لضلالته فهذا مشبه في إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى واد سحيق سافل فاستقر فيه ونظير تشبيهه بالاستقرار في الوادي السحيق الذي هو أبعد ما يكون عن السماء .

وأجاز الزمخشري أن يكون هذا التشبيه من المركب والمفرق قال " فإن كان تشبيها مركبا فكأنه قال من أشرك باللّه فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا في حواصلها أو عصفت به الريح

حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة وان كان مفرقا فقد شبه الايمان في علوه بالسماء والذي ترك الايمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء التي تتوزّع أفكاره بالطير المتخطفة والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصف به في بعض المهاوي المتلفة " .

وكلام الزمخشري فيه نظر لأن التشبيه التمثيلي ما في ذلك شك ولا مساغ لجعله مفرقا .

2- العدول إلى لفظ المضارع :

سياق الكلام يقتضي أن يعطف فتخطفه على مضارع مع أنه في الآية معطوف على خر وهو ماض ، وإنما عدل عن ذلك لتصوير الواقع والتقدير فهي تخطفه فيكون من عطف الجملة على

الجملة ولكنه آثر المخالفة لاستحضار الصورة الغريبة التي تصوره مزعا في حواصل الطير .

الفوائد :

1- الحال إما مؤسسة وإما مؤكدة فالمؤسسة هي التي لا يستفاد معناها بدونها نحو جاء خالد راكبا ، وأكثر ما تأتي الحال من هذا النوع ، والمؤكدة هي التي يستفاد معناها بدونها

وانما يؤتى بها للتوكيد ، وهذه أنواع ثلاثة :

آ- ما يؤتى بها لتوكيد عاملها وهي التي توافقه معنى فقط أو معنى ولفظا فالأول نحو «تبسم ضاحكا» ومنه قوله تعالى «وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» والثاني كقوله تعالى : «وَأَرْسَلْناكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً» وقول الشاعر :

أصخ مصيخا لمن أبدى نصيحته والزم توقي خلط الجد باللعب

ب- ما يؤتى بها لتوكيد صاحبها كقوله تعالى : «وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً» .

ج- ما يؤتى بها لتوكيد مضمون جملة معقودة من اسمين معرفتين جامدين نحو : هو الحق بينا أو صريحا ، وقول الشاعر :

أنا ابن دارة معروفا بها نسبي وهل بدارة يا للناس من عار

2- لما ذا أنث الضمير في فإنها :

في قوله تعالى : «وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ»

سؤال مهم وهو لما ذا أنث الضمير؟ وعلى أي شيء يعود؟ والجواب لا يستقيم إلا بتقدير مضافات محذوفة ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأن الضمير يعود على الشعائر أي فإن تعظيمها من أفعال تقوى القلوب والعائد على من محذوف أي منه ويجوز أن الضمير ضمير مصدر مؤنث تقديره فإن العظمة أو الحرمة أو الخصلة.

[سورة الحج (22) : الآيات 34 الى 38]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (35) وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36) لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37) إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38)

اللغة :

(مَنْسَكاً) : بفتح السين وكسرها فالفتح على أنها مصدر ميمي والكسر على أنها اسم مكان وفي المصباح نسك للّه ينسك من باب قتل تطوع بقربة والنسك بضمتين اسم منه وفي التنزيل : «إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي» والمنسك بفتح السين وكسرها يكون زمانا ومصدرا ويكون اسم المكان الذي تذبح فيه النسيكة وهي الذبيحة وزنا ومعنى ، ومناسك الحج عباداته وقيل مواضع العبادات ومن فعل كذا فعليه نسك أي دم يريقه ، ونسك تزهد وتعبد فهو ناسك والجمع نساك مثل عابد وعباد» وفي القاموس : «المنسك بفتح السين المكان المألوف والمنسك بالفتح أيضا مصدر نسك والمنسك بالكسر شرعة النسك وموضع تذبح فيه النسيكة» .

(الْمُخْبِتِينَ) : المطيعين المتواضعين والإخبات نزول الخبت وهو المكان المنخفض وسيأتي في باب البلاغة بحث قيم حول هذا الوصف .

(الْبُدْنَ) : بضم الباء جمع بدنة سميت بذلك لعظم بدنها وهي خاصة بالإبل كما قال الأزهري أو هي تشمل الإبل والبقر كما قال صاحب الصحاح قال القسطلاني : «البدن عند الشافعي خاصة بالإبل وعند أبي حنيفة من الإبل والبقر فكلام الشافعية موافق لكلام الأزهري وكلام الحنفية موافق لكلام الصحاح» .

(صَوافَّ) : قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وقرىء صوافن من صفون الفرس وهو أن يقوم على ثلاث وينصب الرابعة على طرف سنبكه لأن البدنة تعقل إحدى يديها .

(300/524)

(وَجَبَتْ جُنُوبُها) : وجوب الجنوب وقوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقط ووجبت الشمس وجبة غربت قال أبو تمام :

فالشمس طالعة من ذا وقد غربت والشمس واجبة من ذا ولم تجب

(الْقانِعَ) : السائل المتذلل والخارج من مكان إلى مكان وخادم القوم وأجيرهم والجمع قانعون وقنّع أو بمعنى القنع أي الراضي بما قسم له يقال قنع يقنع من باب تعب تعبا قنعا وقناعة وقنعانا :

رضي بما قسم له يقال قنع يقنع من باب تعب تعبا : قنعا وقناعة وقنعانا :

رضي بما قسم له وقنع يقنع من باب فتح قنوعا : سأل وتذلل وفي الأساس واللسان : " العز في القناعة والذل في القنوع وهو السؤال وفلان قنع بالمعيشة وقنيع وقنوع وقانع ، أنشد الكسائي :

فإن ملكت كفاك قوطا فكن به قنيعا فإن المتقي اللّه قانع

و قنع بالشيء واقتنع وتقنّع ، وأقنعك اللّه بما أعطاك ، وفلان حريص ما يقنعه شيء وبيت شوقي المشهور :

شباب قنع لا خير فيهم وبورك بالشباب الطامحينا

يدل على ضلاعته باللغة وتمكنه منها .

(الْمُعْتَرَّ) : المعترض بسؤال وعرّه وعرّاه بمعنى واحد وقيل القانع السائل والمعتر المعترض من غير سؤال وقال قوم بالعكس وفي المصباح : " المعتر الضيف الزائر والمعتر : المعترض للسؤال من غير طلب يقال عره واعتره وعراه واعتراه إذا تعرض للمعروف من غير مسألة "

وفي القاموس " والمعتر الفقير والمعترض للمعروف من غير أن يسأل عرّه ، عرّا واعتره وبه "

وفي الأساس واللسان : " وعن عائشة رضي اللّه عنها : مال اليتيم عرة لا أدخله في مالي ولا أخلطه به " . ولا تفعل هذا لا تصبك منه معرّة وفي الحديث "كلما تعاررت ذكرت اللّه " وكان سلمان رضي اللّه عنه إذا تعارّ في الليل قال : سبحان رب النبيين وإله المرسلين ، وهو أن يهب من النوم مع كلام من عرار الظليم وهو صياحه و " أطعموا القانع والمعتر " أي المعترض بسؤاله " .

الاعراب :

)

(302/524)

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير التشريع الخاص بكل أمة ونوع التعبد الذي يتقربون به إلى اللّه ولكل أمة متعلقان بمحذوف مفعول جعلنا الثاني المقدم وجعلنا فعل وفاعل ومنسكا مفعول جعلنا الأول وليذكروا اللام للتعليل ويذكروا مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بجعلنا واسم اللّه مفعول به وعلى ما رزقهم متعلقان بيذكروا وجملة رزقهم صلة ومن بهيمة الأنعام متعلقان برزقهم . (فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) الفاء الفصيحة وإلهكم مبتدأ وإله خبره وواحد صفة فله الفاء عاطفة وله متعلقان بأسلموا وأسلموا فعل أمر وفاعل وبشر الواو عاطفة وبشر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت والمخبتين مفعول به .

(الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ) الذين نعت للمخبتين أو بدل منه وإذا

ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه منصوب بجوابه وجملة ذكر اللّه مضاف إليها وجملة وجلت قلوبهم لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وإذا وفعلها وجوابها لا محل لها لأنها صلة والصابرين عطف على الذين وعلى ما متعلقان بالصابرين وجملة أصابهم صلة للموصول والمقيمي الصلاة عطف أيضا وحذفت النون للاضافة ومما متعلقان بينفقون وجملة رزقناهم صلة وجملة ينفقون صلة أيضا . (وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ) الواو عاطفة والبدن مفعول لفعل محذوف فهي منصوبة على الاشتغال أي وجعلنا البدن ، وجعلناها فعل وفاعل ومفعول به ولكم متعلقان بجعلناها ومن شعائر اللّه مفعول به ثان لجعلناها التي هي بمعنى التصيير . (لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ) لكم خبر مقدم وفيها حال وخير مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها ويجوز جعلها حالا من الهاء في جعلناها ، فاذكروا الفاء الفصيحة واذكروا فعل أمر وفاعل واسم اللّه مفعول به وعليها متعلقان باذكروا وصواف حال من الهاء أي بعضها إلى جنب بعض . (فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل وجملة وجبت جنوبها مضافة إلى الظرف والفاء رابطة لجواب إذا وجملة كلوا منها لا محل

لها لأنها جواب شرط غير جازم وأطعموا القانع والمعتر عطف على جملة كلوا منها .

(كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) كذلك الكاف نعت لمصدر محذوف أي سخرها تسخيرا مثل ذلك التسخير وسخرناها فعل وفاعل ومفعول به والجملة حال ولكم متعلقان بسخرناها ولعل واسمها وجملة تشكرون خبرها والجملة في محل نصب على الحال من الكاف في لكم .

(لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ) لن حرف

(304/524)

نفي ونصب واستقبال وينال فعل مضارع منصوب بلن ولفظ الجلالة مفعول به مقدم ولحومها فاعل ينال ولا دماؤها عطف على لحومها والمعنى لن تبلغ مرضاته ولن تقع منه موقع القبول والمراد أصحاب اللحوم والدماء قال أبو حيان في البحر : " أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذبح وتشريح اللحم منصوبا حول الكعبة وتضميخ الكعبة بالدم تقربا إلى اللّه تعالى فنزلت هذه الآية " ولكن الواو عاطفة ولكن حرف استدراك مهمل لأنه مخفف وينالـه فعل مضارع ومفعول به والتقوى فاعل ومنكم حال من التقوى أي يرفع إليه منكم العمل الصالح الخالص له مع الايمان . (كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ

الْمُحْسِنِينَ) الكاف نعت لمصدر محذوف وقد تقدمت نظائره وسخرها فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به ولكم متعلقان بسخرها ولتكبروا اللام للتعليل وتكبروا منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل واللام وما في حيزها متعلقة بسخرها وتكبروا فعل مضارع وفاعل ولفظ الجلالة مفعول به ، على ما هداكم : ما مصدرية أو موصولة أي على هدايته إياكم أو على ما هداكم اليه وعلى متعلقة بتكبروا لتضمينه معنى الشكر وبشر الواو استئنافية وبشر فعل أمر وفاعل مستتر والمؤمنين مفعول به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 6 صـ 385.436 ﴾

(305/524)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والعشرون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/525)

الجزء الخامس والعشرون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 38 ﴾ من سورة الحج

وحتى الآية ﴿ 48 ﴾ من نفس السورة

(4/525)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ

إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه الحج المذكر للمهاجرين بأوطانهم المخاصمة التي أنزلت في غزوة بدر ، وذكر ما يفعل فيه من القربات ، عظم اشتياق النفوس إلى ذلك وتذكرت علو المشركين الذي يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام وظهورهم ومنعهم لمن أراد هذه الأفعال ، على هذه الأوصاف الخالصة ، والأحوال الصالحة ، وفتنتهم له ، فأجابها سبحانه عن هذا السؤال بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي لا كفوء له ﴿ يدافع عن الذين آمنوا ﴾ لأنهم بدخولهم في الإيمان لم يكونوا مبالغين في الخيانة ولا في الكفر فهو يحبهم ، فكيف بالمحسنين الذين ختمت بهم الآية السالفة ، أي فيظهرهم على عدوهم – هذا في قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب بغير ألف ، وفي قراءة الباقين مبالغة بإخراج الفعل على المغالبة ، فكأنه قال : بشرهم بأن الله يدفع عنهم ، ولكنه تعالى أظهر الأوصاف ليفهم أنها مناط الأحكام والتعبير ، فعبر بالفعل الماضي ترغيباً ، أي لكل من أوقع هذا الوصف في الخارج إقياعاً ما دفع عنه ؛ ثم علل ذلك

بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ لا يحب ﴾ أي لا يكرم كما يفعل المحب ﴿ كل خوان ﴾ في أمانته ، مانع لعباده من بيته الذي هو للناس سواء العاكف فيه والبادي ﴿ كفور ﴾ لنعمته بالتقرب إلى غيره ، فهو يفعل مكارم الأخلاق صورة ليس فيها معنى أصلاً ، لا يصححها بذكر الله وحده ، ولا يجملها بالإحسان ، وأتى بالصفتين على صيغة المبالغة لأن نقائص الإنسان لا يمكنه أن يفعلها خالية عن المبالغة ، لأنه يخون نفسه بالعزم أولاً ، والفعل ثانياً وغيره من الخلق ثالثاً ، وكذا يخون نفسه ربه سبحانه وهكذا في الكفر وغيره ، ولما كانت الخيانة منبع النقائص ، كانت المبالغة فيها أكثر .

(5/525)

ولما كان كأنه قد قيل : كيف تكون المدافعة وبمن ؟ فقيل : بعباده المؤمنين ، عبر عن ذلك بقوله : ﴿ أذن ﴾ وأشار بقراءة من بناه للمجهول إلى سهولة ذلك عليه سبحانه ﴿ للذين يقاتلون ﴾ أي للذين فيهم قوة المدافعة ، في المدافعة بالقتلا بعد أن كانوا يمنعون منه بمكة ويؤمرون بالصفح ؛ ثم ذكر سبب الإذن فقال ﴿ بأنهم ظلموا ﴾ أي وقع ظلم الظالمين لهم بالإخراج من الديار ، والأذى بغير حق .

ولما كان التقدير : فأن الله أراد إظهار دينه بهم ، عطف عليه قوله : ﴿ وإن الله ﴾ أي

الذي هو الملك الأعلى ، وكل شيء في قبضته ، ويجوز عطفه على قوله ﴿ إن الله يدفع ﴾ أي بإذنه لهم في القتال وأنه ﴿ على نصرهم ﴾ وأبلغ في التأكيد لاستبعاد النصرة إذ ذاك بالكفار من الكثرة والقوة ، وللمؤمنين من الضعف والقلة ، فقال : ﴿ لقدير ﴾ ثم وصفهم بما يبين مظلوميتهم على وجه يجمعهم ويوثقهم بالله فقال : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ إلى الشعب والحبشة والمدينة ﴿ بغير حق ﴾ أوجب ذلك ﴿ إلا أن يقولوا ﴾ أي غير قولهم ، أو ألا قولهم : ﴿ ربنا الله ﴾ المحيط بصفات الكمال ، الموجب لإقرارهم في ديارهم ، وحبهم ومدحهم واقتفاء آثارهم ، فهو من باب :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

وفي سوق ذلك المساق الاستثناء عند من يجعله منقطعاً إشارة إلى أن من أخلص لله ، صوب الناس إليه سهام مكرهم ، ولم يدعوا في أذاه شيئاً من جهدهم .

(6/525)

ولما ذكر مدافعته ، وذكر أنها بالمؤمنين ، بين سرها عموماً ليفهم منها هذا الخاص ، وصورها تقريباً لفهمها ، فقال عاطفاً على ما تقديره : فلولا إذن الله لهم لاستمر الشرك

ظاهراً ، والباطل – باستيلاء الجهلة على مواطن الحج – قاهراً : ﴿ ولولا دفع الله ﴾ أي المحيط بكل شيء علماً وقدرة في كل شريعة ، وفي زمن كل نبي أرسله ﴿ الناس ﴾ أي عموماً ﴿ بعضهم ببعض ﴾ أي بتسليط بعضهم على بعض ﴿ لهدمت صوامع ﴾ وهي معابد صغار مرتفعة للرهبان ﴿ وبيع ﴾ للنصارى ﴿ وصلوات ﴾ أي كنائس اليهود ﴿ ومساجد ﴾ أي للمسلمين ، أخرها لتكون بعيدة من الهدم قريبة من الذكر ﴿ يذكر فيها اسم الله ﴾ أي الملك الذي لا ملك غيره ، ولعل العدول عن الإضمار إلى الإظهار للإشارة إلى اختلاف ذكره تعالى في الأماكن المذكورة بالإخلاص وغيره ﴿ كثيراً ﴾ لأن كل فرقة تريد هدم ما للأخرى ، بل ربما أراد بعض أهل ملة إخراب بعض معابد أهل ملته ، لا فبدفعه الله بمن يريد من عباده ، وإذا تأملت ذلك وجدت فيه من الأسرار ، ما يدق عن الأفكار ، فإنه تعالى لما أراد بأكثر الناس الفساد ، نصب لهم من الأضداد ، ما يخفف كثيراً من العناد .

(7/525)

ولما كان لتقدير : ولكن لم تهدم المذكورات ، لأن الله دفع بعضهم ببعض ، وجعل بعضهم في نحور بعض ، عطف عليه أو على قوله ﴿ أذن ﴾ قوله : ﴿ ولينصرن الله ﴾ أي الملك

الأعظم ، وأظهر ولم يضمر تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال : ﴿ من ينصره ﴾ كائناً كم كان منهم ومن غيرهم ، بما يهيىء له من الأسباب ، إجراءً له على الأمر المعتاد ، وبغير أسباب خرقاً للعادة ، كما وقع في كثير من الفتوحات ، كخوض العلاء بن الحضرمي ـ رضى الله عنهم ـ البحر الملح إلى جواثاء بالبحرين ، واقتحام سعد بن أبي وقاص ـ رضى الله عنهم ـ الدجلة مع عظمها في ذلك العام وطموها ، وزيادتها وعلوها ، وزلزلة أسوار حمص بالتكبير وتهدّم كثيراً من بيوتها ، عن إتقان بنيانها ، وإحكام قواعدها وأركانها ونحو ذلك ؛ ثم علل نصره وإن ضعف المنصور ، بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي لا كفوء له ﴿ لقوي ﴾ أي على ما يريد ﴿ عزيز ﴾ لا يقدر أحد على مغالبته ، ومن كان ناصره فهو المنصور ، وعدوه المقهور ، ولقد صدق سبحانه فيما وعد به ، فأذل بأنصار دينه ـ رضى الله عنهم ـ م – جبابرة أهل الأرض وملوكهم ، ومن أصدق من الله حديثاً .

(8/525)

ولما وصف نفسه سبحانه بما يقتضي تمكين منصوره الذي ينصره ، وصفهم بما يبين أن قتالهم له ، لا لهم ، بعد أن وصفهم بأنهم أوذوا بالإخراج من الديار الذي يعادل القتل ، فقال : ﴿ الذين ﴾ ولما كان وقت النصرة مبهماً آخره يوم الفصل ، عبر بأداة الشك ليكون ذلك

أدل على إخلاص المخلص في القتال : ﴿ إن مكناهم ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ في الأرض ﴾ بإعلائهم على أضدادهم ﴿ أقاموا الصلاة ﴾ أي التي هي عماد الدين ، الدالة على المراقبة والإعراض عن تحصيل الفاني ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ المؤذنة بالزهد في الحاصل منه ، المؤذن بعمل النفس للرحيل ﴿ وأمروا بالمعروف ﴾ وهو ما عرفه الشرع وأجاره ﴿ ونهوا عن المنكر ﴾ المعرف بأنه لا أنس لهم إلا به سبحانه ، ولا خوف لهم إلا منه ، ولا رجاء فيه والآية دالة على صحة خلافة الأئمة الأربعة .

ولما كان هذا ابتداء الأمر بالجهاد ، وكان عقب ما آذى أعداؤه أولياءه ، فطال أذاهم لهم ، فكان التقدير كما أرشد إليه العطف على غير مذكور ، عطفاً على ﴿ ولولا دفع ﴾ فللّه بادئة الأمور ، عطف عليه قوله : ﴿ ولله ﴾ أي الملك الأعلى المحيط بكل شيء ﴿ عاقبة الأمور ﴾ فتمكينهم كائن لا محالة ، لكن ذكره للعاقبة وطيه للبادئة منبه على أنه تعالى يجعل للشيطان – كما هو المشاهد في الأغلب – حظاً في البادئة ، ليتبين الصادق من الكاذب ، والمزلزل من الثابت ، وأما العاقبة فهي متمحضة له إلى أن يكون آخر ذلك القيامة التي لا يكون لأحد فيها أمر ، حتى أنه لا ينطق أحد إلا بإذن خاص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 156.158 ﴾

(9/525)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين ما يلزم الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة ، وقد ذكرنا من قبل أن الكفار صدوهم أتبع ذلك ببيان ما يزيل الصد ويؤمن معه التمكن من الحج فقال :

﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذين ءَامَنُواْ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بالألف ومثله ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ الله ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بغير ألف فيهما .

وقرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ ﴾ بالألف ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ ﴾ بغير ألف ، فمن قرأ يدافع فمعناه يبالغ في الدفع عنهم ، وقال الخليل يقال دفع الله المكروه عنك دفعاً ودافع عنك دفاعاً والدفاع أحسنهما .

المسألة الثانية :

ذكر ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذين ءامَنُواْ ﴾ ولم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم ، وإن كان في الحقيقة أنه يدافع بأس المشركين .

فلذلك قال بعده ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفته .

المسألة الثالثة :

قال مقاتل : إن الله يدافع كفار مكة عن الذين آمنوا بمكة ، هذا حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في قتلهم سراً فنهاهم .

المسألة الرابعة :

هذه الآية بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار وكف بوائقهم عنهم وهي كقوله : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى ﴾ [آل عمران : 111] وقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين ءَامَنُواْ ﴾ [غافر : 51] وقال : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ﴾ [الصافات : 172] ﴿ وأخرى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الصف : 13] .

(10/525)

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ فالمعنى أنه سبحانه جعل العلة في أنه يدافع عن الذين آمنوا أن الله لا يحب صدهم ، وهو الخوان الكفور أي خوان في أمانة الله

كفور لنعمته ونظيره قوله : ﴿ لَا تَخُونُواْ اللهَ والرسول وَتَخُونُواْ أماناتكم ﴾ [الأنفال : 27]

قال مقاتل أقروا بالصانع وعبدوا غيره فأي خيانة أعظم من هذه ؟

أما قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يقاتلون بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم في رواية حفص ﴿ أَذِنَ ﴾ بضم الألف والباقون بفتحها أي أذن الله لهم في القتال ، وقرأ أهل المدينة وعاصم ﴿ يقاتلون ﴾ بنصب التاء ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿ أَذِنَ ﴾ بنصب الف ﴿ ويقاتلون ﴾ بكسر التاء .

قال الفراء والزجاج : يعني أذن الله للذين يحرصون على قتال المشركين في المستقبل ، ومن قرأ بفتح التاء فالتقدير أذن للذين يقاتلون في القتال .

المسألة الثانية :

في الآية محذوف والتقدير أذن للذين يقاتلون في القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه .

أما قوله : ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ فالمراد أنهم أذنوا في القتال بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مشركوا مكة يؤذونهم أذى شديداً وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم اصبروا فإني لم أومر بقتال حتى هاجر فأنزل الله تعالى هذه الآية وهي أول آية أذن فيها

بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية ، وقيل نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركوا مكة فأذن في مقاتلتهم .

أما قوله : ﴿ وَإِنَّ الله على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ فذلك وعد منه تعالى بنصرهم كما يقول المرء لغيره إن أطعتني فأنا قادر على مجازاتك لا يعني بذلك القدرة بل يريد أنه سيفعل ذلك .

(11/525)

أما قوله تعالى : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن ديارهم بِغَيْرِ حَقّ ﴾ فاعلم أنه تعالى لما بين أنهم إنما أذنوا في القتال لأجل أنهم ظلموا فبين ذلك الظلم بقوله : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن ديارهم بِغَيْرِ حَقّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله ﴾ فبين تعالى ظلمهم لهم بهذين الوجهين : أحدهما : أنهم أخرجوهم من ديارهم والثاني : أنهم أخرجوهم بسبب أنهم قالوا : ﴿ رَبُّنَا الله ﴾ وكل واحد من الوجهين عظيم في الظلم ، فإن قيل كيف استثنى من غير حق قولهم : ﴿ رَبُّنَا الله ﴾ وهو من الحق ؟ قلنا تقدير الكلام أنهم أخرجوا بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتمكين لا موجب الإخراج والتسيير ، ومثله ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ ءامَنَّا بالله ﴾ [المائدة : 59] ثم بين سبحانه بقوله : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ الله

الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ ﴾ أن عادته جل جلاله أن يحفظ دينه بهذا الأمر قرأ نافع ﴿ لَّهُدِّمَتْ ﴾ بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد وههنا سؤالات :

(12/525)

السؤال الأول : ما المراد بهذا الدفاع الذي أضافه إلى نفسه ؟ الجواب : هو إذنه لأهل دينه بمجاهدة الكفار فكأنه قال تعالى : ولولا دفاع الله أهل الشرك بالمؤمنين ، من حيث يأذن لهم في جهادهم وينصرهم على أعدائهم لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان وعطلوا ما يبنونه من مواضع العبادة ، ولكنه دفع عن هؤلاء بأن أمر بقتال أعداء الدين ليتفرغ أهل الدين للعبادة وبناء البيوت لها ، ولهذا المعنى ذكر الصوامع والبيع والصلوات وإن كانت لغير أهل الإسلام ، وذكر المفسرون وجوهاً أخر : أحدها : قال الكلبي يدفع الله بالنبيين عن المؤمنين وبالمجاهدين عن القاعدين عن الجهاد وثانيها : روى أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال يدفع الله بالمحسن عن المسيء ، وبالذي يصلي عن الذي لا يصلي ، وبالذي يتصدق عن الذي لا يتصدق وبالذي يحج عن الذي لا يحج ، وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله يدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه " ثم تلا

هذه الآية وثالثها : قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما يدفع بدين الإسلام وبأهله عن أهل الذمة ورابعها : قال مجاهد يدفع عن الحقوق بالشهود وعن النفوس بالقصاص .

(13/525)

السؤال الثاني : لماذا جمع الله بين مواضع عبادات اليهود والنصارى وبين مواضع عبادة المسلمين ؟ الجواب : لأجل ما سألت عنه اختلفوا على وجوه : أحدها : قال الحسن المراد بهذه المواضع أجمع مواضع المؤمنين ، وإن اختلفت العبارات عنها وثانيها : قول الزجاج ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في شرع كل نبي المكان الذي يصلي فيه ، فلولا ذلك الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كانوا يصلون فيها في شرعه ، وفي زمن عيسى الصوامع ، وفي زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم المساجد فعلى هذا إنما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ وثالثها : بل المراد لهدمت هذه الصوامع في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم لأنها على كل حال يجري فيها ذكر الله تعالى فليست بمنزلة عبادة الأوثان .

السؤال الثالث : ما الصوامع والبيع والصلوات والمساجد ؟ الجواب : ذكروا فيها وجوهاً : أحدها : الصوامع للنصارى والبيع لليهود والصلوات للصابئين والمساجد للمسلمين عن أبي

العالية رضي الله عنه وثانيها : الصوامع للنصارى وهي التي بنوها في الصحارى والبيع لهم أيضاً وهي التي يبنونها في البلد والصلوات لليهود ، قال الزجاج وهي بالعبرانية صلوتاً وثالثها : الصوامع للصابئين والبيع للنصارى والصلوات لليهود عن قتادة ورابعها : أنها بأسرها أسماء المساجد عن الحسن ، أما الصوامع فلأن المسلمين قد يتخذون الصوامع ، وأما البيع فأطلق هذا الاسم على المساجد على سبيل التشبيه ، وأما الصلوات فالمعنى أنه لولا ذلك الدفع لانقطعت الصلوات ولخربت المساجد .

(14/525)

السؤال الرابع : الصلوات كيف تهدم خصوصاً على تأويل من تأوله على صلاة المسلمين ؟

الجواب : من وجوه : أحدها : المراد بهدم الصلاة إبطالها وإهلاك من يفعلها كقولهم هدم فلان إحسان فلان إذا قابله بالكفر دون الشكر وثانيها : بل المراد مكان الصلوات لأنه الذي يصح هدمه كقوله : ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] أي أهلها وثالثها : لما كان الأغلب فيما ذكر ما يصح أن أن يهدم جاز ضم ما لا يصح أن يهدم إليه ، كقولهم متقلداً سيفاً ورمحاً ، وإن كان الرمح لا يتقلد .

السؤال الخامس : قوله : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً ﴾ مختص بالمساجد أو عائد إلى الكل

؟ الجواب : قال الكلبي ومقاتل عائد إلى الكل لأن الله تعالى يذكر في هذه المواضع كثيراً ، والأقرب أنه مختص بالمساجد تشريفاً لها بأن ذكر الله يحصل فيها كثيراً .

السؤال السادس : لم قدم الصوامع والبيع في الذكر على المساجد ؟ الجواب : لأنها أقدم في الوجود ، وقيل أخرها في الذكر كما في قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات بِإِذْنِ الله ﴾ [فاطر : 32] ولأن أول الفكر آخر العمل ، فلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الرسل وأمته خير الأمم لا جرم كانوا آخرهم ولذلك قال عليه السلام :

" نحن الآخرون السابقون "

(15/525)

أما قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ ﴾ فقال بعضهم من ينصره بتلقى الجهاد بالقبول نصرة لدين الله تعالى ، وقال آخرون : بل المراد من يقوم بسائر دينه ، وإنما قالوا ذلك لأن نصرة الله على الحقيقة لا تصح ، وإنما المراد من نصرة الله نصرة دينه كما يقال في ولاية الله وعداوته مثل ذلك وفي قوله : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ ﴾ وعد بالنصر لمن هذه حاله ونصر الله تعالى للعبد أن يقويه على أعدائه حتى يكون هو الظافر ويكون قائماً بإيضاح الأدلة والبينات ، ويكون بالإعانة على المعارف والطاعات ، وفيه ترغيب في الجهاد من

حيث وعدهم النصر ، ثم بين تعالى أنه قوي على هذه النصرة التي وعدها المؤمنين ، وأنه لا يجوز عليه المنع وهو معنى قوله ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لأن العزيز هو الذي لا يضام ولا يمنع مما يريده .

ثم إنه سبحانه وتعالى وصف الذين أذن لهم في القتال في الآية الأولى فقال : ﴿ الذين إِنْ مكناهم فِى الأرض ﴾ والمراد من هذا التمكن السلطنة ونفاذ القول على الخلق لأن المتبادر إلى الفهم من قوله : ﴿ مكناهم فِى الأرض ﴾ ليس إلا هذا ، ولأنا لو حملناه على أصل القدرة لكان كل العباد كذلك وحينئذ يبطل ترتب الأمور الأربعة المذكورة عليه في معرض الجزاء ، لأنه ليس كل من كان قادراً على الفعل أتى بهذه الأشياء .

إذا ثبت هذا فنقول : المراد بذلك هم المهاجرون لأن قوله : ﴿ الذين إِنْ مكناهم ﴾ صفة لمن تقدم وهو قوله : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن ديارهم ﴾ والأنصار ما أخرجوا من ديارهم فيصير معنى الآية أن الله تعالى وصف المهاجرين بأنه إن مكنهم من الأرض وأعطاهم السلطنة ، فإنهم أتوا بالأمور الأربعة ، وهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لكن قد ثبت أن الله تعالى مكن الأئمة الأربعة من الأرض وأعطاهم السلطنة عليها فوجب كونهم آتين بهذه الأمور الأربعة .

(16/525)

وإذا كانوا آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر وجب أن يكونوا على الحق ، فمن هذا الوجه دلت هذه الآية على إمامة الأربعة .

ولا يجوز حمل الآية على علي عليه السلام وحده لأن الآية دالة على الجمع ، وفي قوله : ﴿ وَلِلَّهِ عاقبة الأمور ﴾ دلالة على أن الذي تقدم ذكره من سلطنتهم وملكهم كائن لا محالة . ثم إن الأمور ترجع إلى الله تعالى بالعاقبة فإنه سبحانه هو الذي لا يزول ملكه أبداً وهو أيضاً يؤكد ما قلناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 34 . 37 ﴾

(17/525)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ ﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ : " صَوَامِعُ الرُّهْبَانِ ، وَالْبِيَعُ كَنَائِسُ الْيَهُودِ " .

وَقَالَ الضَّحَّاكُ : " صَلَوَاتٌ كَنَائِسُ الْيَهُودِ يُسَمُّونَهَا صَلُوتَا " .

وَقِيلَ : " إنَّ الصَّلَوَاتِ مَوَاضِعُ صَلَوَاتِ الْمُسْلِمِينَ مِمَّا فِي مَنَازِلِهِمْ " .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : " لَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ فِي أَيَّامِ شَرِيعَةِ عِيسَى

عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِيَعٌ فِي أَيَّامِ شَرِيعَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَسَاجِدُ فِي أَيَّامِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

وَقَالَ الْحَسَنُ : " يُدْفَعُ عَنْ هَدْمِ مُصَلَّيَاتِ أَهْلِ الذِّمَّةِ بِالْمُؤْمِنِينَ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَوَاضِعَ الْمَذْكُورَةَ لَا يَجُوزُ أَنْ تُهْدَمَ عَلَى مَنْ كَانَ لَهُ ذِمَّةٌ أَوْ عَهْدٌ مِنْ الْكُفَّارِ ، وَأَمَّا فِي دَارِ الْحَرْبِ فَجَائِزٌ لَهُمْ أَنْ يَهْدِمُوهَا كَمَا يَهْدِمُونَ سَائِرَ دُورِهِمْ .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ فِي أَرْضِ الصُّلْحِ إذَا صَارَتْ مِصْرًا لِلْمُسْلِمِينَ : " لَمْ يُهْدَمْ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ بِيعَةٍ أَوْ كَنِيسَةٍ أَوْ بَيْتِ نَارٍ ، وَأَمَّا مَا فُتِحَ عَنْوَةً وَأُقِرَّ أَهْلُهَا عَلَيْهَا بِالْجِزْيَةِ فَإِنَّهُ مَا صَارَ مِنْهَا مِصْرًا لِلْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُمْ يُمْنَعُونَ فِيهَا مِنْ الصَّلَاةِ فِي بِيَعِهِمْ وَكَنَائِسِهِمْ وَلَا تُهْدَمُ عَلَيْهِمْ وَيُؤْمَرُونَ بِأَنْ يَجْعَلُوهَا إنْ شَاءُوا بُيُوتًا مَسْكُونَةً " .

(18/525)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذِهِ صِفَةُ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي

الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُهَاجِرِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ إنْ مَكَّنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ ، وَهُوَ صِفَةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الَّذِينَ مَكَّنَهُمْ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَفِيهِ الدَّلَالَةُ الْوَاضِحَةُ عَلَى صِحَّةِ إمَامَتِهِمْ لِإِخْبَارِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ إذَا مُكِّنُوا فِي الْأَرْضِ قَامُوا بِفُرُوضِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ مُكِّنُوا فِي الْأَرْضِ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونُوا أَئِمَّةً قَائِمِينَ بِأَوَامِرِ اللَّهِ مُنْتَهِينَ عَنْ زَوَاجِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ، وَلَا يَدْخُلُ مُعَاوِيَةُ فِي هَؤُلَاءِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ إنَّمَا وَصَفَ بِذَلِكَ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَلَيْسَ مُعَاوِيَةُ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ بَلْ هُوَ مِنْ الطُّلَقَاءِ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(19/525)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : سَبَبُ نُزُولِهَا : وَفِي ذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ أَنَّ

النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ ، إنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ ، لَيَهْلِكُنَّ .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَعَرَفْت أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ ﴾ ؛ خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ .

الثَّانِي : قَالَ مُجَاهِدٌ : الْآيَةُ مَخْصُوصَةٌ ، نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مُهَاجِرِينَ ، وَكَانُوا يُمْنَعُونَ ، فَأَذِنَ اللَّهُ فِي قِتَالِهِمْ ، وَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ .

الثَّالِثُ : قَالَ الضَّحَّاكُ : اسْتَأْذَنَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ ، فَقِيلَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ فَلَمَّا هَاجَرَ نَزَلَتْ : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ ، وَهَذَا نَاسِخٌ لِكُلِّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ إعْرَاضٍ وَتَرْكٍ وَصَفْحٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي قِسْمِ النَّسْخِ الثَّانِي مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ .

(20/525)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : مَعْنَى ﴿ أُذِنَ ﴾ أُبِيحَ ، فَإِنَّهُ لَفْظٌ مَوْضُوعٌ فِي اللُّغَةِ لِإِبَاحَةِ كُلِّ مَمْنُوعٍ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِبَاحَةَ مِنْ الشَّرْعِ ، وَأَنَّهُ لَا يُحْكَمُ قَبْلَ الشَّرْعِ ، لَا إبَاحَةَ وَلَا حَظْرًا إلَّا مَا حَكَمَ بِهِ الشَّرْعُ ، وَبَيَّنَهُ ، وَقَدْ أَوْضَحْنَاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ كَانَ بَعَثَ

رَسُولَهُ وَدَعَا قَوْمَهُ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَصَرَّفُوا إلَّا بِأَمْرٍ ، وَلَا فَعَلُوا إلَّا بِإِذْنٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : بَيَّنَّا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحُجَّةِ دَعَا قَوْمَهُ إلَى اللَّهِ دُعَاءً دَائِمًا عَشَرَةَ أَعْوَامٍ ، لِإِقَامَةِ حُجَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَوَفَاءً بِوَعْدِهِ الَّذِي امْتَنَّ بِهِ بِفَضْلِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ ، وَاسْتَمَرَّ النَّاسُ فِي الطُّغْيَانِ ، وَمَا اسْتَدَلُّوا بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ ، وَحِينَ أَعْذَرَ اللَّهُ بِذَلِكَ إلَى الْخَلْقِ ، وَأَبَوْا عَنْ الصِّدْقِ أَمَرَ رَسُولَهُ بِالْقِتَالِ ، لِيَسْتَخْرِجَ الْإِقْرَارَ بِالْحَقِّ مِنْهُمْ بِالسَّيْفِ .

(21/525)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قُرِئَ يُقَاتِلُونَ بِكَسْرِ التَّاءِ وَفَتْحِهَا ، فَإِنْ كَسَرْت التَّاءَ كَانَ خَبَرًا عَنْ فِعْلِ الْمَأْذُونِ لَهُمْ ، وَإِنْ فَتَحْتَهَا كَانَ خَبَرًا عَنْ فِعْلِ غَيْرِهِمْ بِهِمْ ، وَإِنَّ الْإِذْنَ وَقَعَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَهُمْ ، فَفِي فَتْحِ التَّاءِ بَيَانُ سَبَبِ الْقِتَالِ ، وَقَدْ كَانَ الْكُفَّارُ يَتَعَمَّدُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْإِذَايَةِ ، وَيُعَامِلُونَهُمْ بِالنِّكَايَةِ : لَقَدْ خَنَقَهُ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى كَادَتْ نَفْسُهُ تَذْهَبُ ، فَتَدَارَكَهُ أَبُو بَكْرٍ ، وَقَالَ : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ ﴾ وَقَدْ بَلَغَ بِأَصْحَابِهِ إلَى الْمَوْتِ ؛ فَقَدْ قَتَلَ أَبُو جَهْلٍ سُمَيَّةَ أُمَّ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ .

وَقَدْ عُذِّبَ بِلَالٌ ، وَمَا بَعْدَ هَذَا إلَّا الِانْتِصَارُ بِالْقِتَالِ .

وَالْأَقْوَى عِنْدِي قِرَاءَةُ كَسْرِ التَّاءِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ وُقُوعِ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَمَّا فَعَلُوا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ فِي الْقِتَالِ عِنْدَ اسْتِقْرَارِهِ بِالْمَدِينَةِ ، فَأَخْرَجَ الْبُعُوثَ ، ثُمَّ خَرَجَ بِنَفْسِهِ ، حَتَّى أَظْهَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

(22/525)

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ : ﴿ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِي الْحَرْبِ ، وَلَمْ تَحِلَّ لَهُ الدِّمَاءُ ﴾ ، إنَّمَا يُؤْمَرُ بِالدُّعَاءِ إلَى اللَّهِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى ، وَالصَّفْحِ عَنْ الْجَاهِلِ [مُدَّةَ عَشَرَةِ أَعْوَامٍ ، لِإِقَامَةِ حُجَّةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ، وَوَفَاءً بِوَعْدِهِ الَّذِي امْتَنَّ بِهِ بِفَضْلِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ فَاسْتَمَرَّ الطُّغْيَانُ وَمَا اسْتَدَلُّوا بِوَاضِحِ الْبُرْهَانِ] .

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ اضْطَهَدَتْ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى فَتَنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ،

وَنَفَوْهُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ ، فَهُمْ بَيْنَ مَفْتُونٍ فِي دِينِهِ ، وَمُعَذَّبٍ ، وَبَيْنَ هَارِبٍ فِي الْبِلَادِ مُغَرَّبٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ صَبَرَ عَلَى الْأَذَى ، فَلَمَّا عَتَتْ قُرَيْشٌ عَلَى اللَّهِ ، وَرَدُّوا أَمْرَهُ وَكَرَامَتَهُ ، وَكَذَّبُوا نَبِيَّهُ ، وَعَذَّبُوا مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَبَدَهُ وَوَحَّدَهُ ، وَصَدَّقَ نَبِيَّهُ ، وَاعْتَصَمَ بِدِينِهِ ، أَذِنَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ فِي الْقِتَالِ وَالِامْتِنَاعِ وَالِانْتِصَارِ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ وَبَغَى عَلَيْهِمْ ؛ فَكَانَتْ أَوَّلَ آيَةٍ أُنْزِلَتْ فِي إِذْنِهِ لَهُ بِالْحَرْبِ وَإِحْلَالِهِ لَهُ الدِّمَاءَ : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : (" الْأُمُورِ ") .

(23/525)

أَيْ إِنَّمَا أَحْلَلْت لَهُمْ الْقِتَالَ ؛ لِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ذَنْبٌ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ إِلَّا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ ، وَأَنَّهُمْ إِذَا ظَهَرُوا أَقَامُوا الصَّلَاةَ .

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ .

وَعَنْ هَذَا عَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا أَخْبَرَنَا نَصْرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الزَّاهِدِ قَالَ : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُوسَى ، أَنْبَأَنَا الْمَرْوَزِيّ ، حَدَّثَنَا الْفَرَبْرِيُّ ، حَدَّثَنَا الْبُخَارِيُّ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُسْنَدِيُّ ، حَدَّثَنَا حَرَمِيُّ بْنُ عُمَارَةَ ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ وَاقِدِ بْنِ مُحَمَّدٍ :

سَمِعْت أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى نِسْبَةِ الْفِعْلِ الْمَوْجُودِ مِنْ الْمُلْجَأِ الْمُكْرَهِ إلَى الَّذِي أَلْجَأَهُ وَأَكْرَهَهُ ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ حُكْمُ فِعْلِهِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّ الْمُكْرَهَ عَلَى إتْلَافِ الْمَالِ يَلْزَمُهُ الْغُرْمُ ، وَكَذَلِكَ الْمُكْرَهُ عَلَى قَتْلِ الْغَيْرِ يَلْزَمُهُ الْقَتْلُ .

(24/525)

وَرُوِيَ فِي مُخْتَصَرِ الطَّبَرِيِّ أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَأْذَنُوهُ فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ ، إذْ آذَوْهُ بِمَكَّةَ غِيلَةً ، فَنَزَلَتْ : ﴿ إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ فَلَمَّا هَاجَرَ إلَى الْمَدِينَةِ أَطْلَقَ قِتَالَهُمْ ، وَهَذَا إنْ كَانَ صَحِيحًا فَقَدْ نَسَخَهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ : إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ ، فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ فَقَتَلَهُ مَعَ أَصْحَابِهِ غِيلَةً

﴾ .

وَكَذَلِكَ ﴾ بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَهْطًا إلَى أَبِي رَافِعٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ ، فَقَتَلُوهُ غِيلَةً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(25/525)

وقال الماوردى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾

فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : بالكفار عن المؤمنين ، وبالعصاة عن المطيعين ، وبالجهال عن العلماء .

والثاني : يدفع بنور السنة ظلمات البدعة ، قاله سهل بن عبد الله .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : ولولا دفع الله المشركين بالمسلمين ، وهذا قول ابن جريج .

الثاني : ولولا دفع الله عن الدين بالمجاهدين ، وهذا قول ابن زيد .

والثالث : ولولا دفع الله بالنبيين عن المؤمنين ، وهذا قول الكلبي .

والرابع : ولولا دفع الله بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن بعدهم من التابعين

، وهذا قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

والخامس : ولولا دفع الله بشهادة الشهود على الحقوق ، وهذا قول مجاهد .

والسادس : ولولا دفع الله على النفوس بالفضائل ، وهذا قول قطرب .

ويحتمل عندي تأويلاً سابعاً : ولولا دفع الله عن المنكر بالمعروف .

﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ ﴾ فيه قولان

: أحدها : أنها صوامع الرهبان ، وهذا قول مجاهد .

والثاني : أنها مصلى الصابئين ، وهو قول قتادة .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " صَوْمَعَةُ المُؤْمِنِ بَيْتُه " وسميت صومعة لانضمام طرفيها ، والمنصمع : المنضم ، ومنه أذنٌ صمعاء .

﴿ وَبِيَعٌ ﴾ فيها قولان

: أحدهما : أنها بيع النصارى ، وهو قول قتادة .

والثاني : أنها كنائس اليهود ، وهو قول مجاهد ، والبيعة اسم أعجمي مُعَرَّب .

﴿ وَصَلَوَاتٌ ﴾ فيها قولان

: أحدهما : أنها كنائس اليهود يسمونها : صلوتا ، فعرب جمعها ، فقيل صلوات ، وهذا قول الضحاك .

والثاني : معناه : وتركت صلوات ، ذكره ابن عيسى .

﴿ وَمَسَاجِدُ ﴾ المسلمين ، ثم فيه قولان

: أحدهما : لهدمها الآن المشركون لولا دفع الله بالمسلمين ، وهو معنى قول الضحاك .

(26/525)

والثاني : لهدمت صوامع في أيام شريعة موسى ، وبيع في أيام شريعة عيسى ومساجد في أيام شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا قول الزجاج ، فكان المراد بهدم كل شريعة ، الموضع الذي يعبد الله فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(27/525)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

روي أن هذه الآية نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار ويغتال ويغدر فنزلت هذه الآية إلى قوله ﴿ كفور ﴾ ، ووكد فيها بالمدافعة ونهى أفصح نهي عن الخيانة والغدر

، وقرأ نافع والحسن وأبو جعفر " يدافع " " ولولا دفاع " ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير " يدفع " " ولولا دفع " ، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي " يدافع " " ولولا دفع " قال أبو علي أجريت " دافع " في هذه القراءة مجرى " دفع " كعاقبت اللص وطابقت النعل فجاء المصدر دفعاً ، قال أبو الحسن والأخفش : أكثر الكلام أن الله " يدفع " ويقولون دافع الله عنك إلا أن دفع أكثر .

(28/525)

قال القاضي أبو محمد : فحسن في الآية ﴿ يدفع ﴾ لأنه قد عن للمؤمنين من يدفعهم ويؤذيهم فتجيء معارضته ودفعه مدافعة عنهم ، وحكى الزهراوي أن دفاعاً مصدر دفع كحسبت حساباً ، ثم أذن الله تعالى في قتال المؤمنين لمن قاتلهم من الكفار بقوله ﴿ أذن ﴾ وصورة الإذن مختلفة بحسب القراءات فبعضها أقوى من بعض ، فقرأ نافع وحفص عن عاصم " أُذن " بضم الألف " يقاتَلون " بفتح التاء ، أي في أن يقاتلهم فالإذن في هذه القراءة ظاهر أنه في مجازات ، وقرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم والحسن والزهري " أَذن " بفتح الألف " يقاتِلون " بكسر التاء ، فالإذن في هذه القراءة في ابتداء القتال ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي " أَذن " بفتح الألف " يقاتِلون " بكسر التاء ، وقرأ ابن عامر بفتح الألف

والتاء جميعاً ، وهي في مصحف ابن مسعود " أذن للذين يقاتِلون في سبيل الله " بكسر التاء ، وفي مصحف أبي " أُذن " بضم الهمزة " للذين قاتلوا " وكذلك قرأ طلحة والأعمش إلا أنهما فتحا همزة " أَذن " وقوله ﴿ بأنهم ظلموا ﴾ معناه كان الإذن بسبب أنهم ظلموا ، قال ابن جريج : وهذه الآية أول ما نقص الموادعة ، قال ابن عباس وابن جبير : نزلت عند هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وقال أبو بكر الصديق لما سمعتها علمت أن سيكون قتال ، وقال مجاهد الآية في مؤمنين بمكة أرادوا الهجرة إلى المدينة فمنعوا وما بعد هذا في الآية يرد هذا القول لأن هؤلاء منعوا الخروج لا أخرجوا ، ثم وعد تعالى بالنصر في قوله ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ ، وقوله ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ يريد كل من نبت به مكة وآذاه أهلها حتى أخرجوا بإذايتهم طائفة إلى الحبشة وطائفة إلى المدينة ، ونسب الإخراج إلى الكفار لأن الكلام في معرض تقرير الذنب وإلزامه ، وقوله ﴿ إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ استثناء منقطع ليس من الأول هذا قول سيبويه ولا يجوز عنده فيه البدل وجوزه أبو إسحاق ، والأول أصوب ،

(29/525)

وقوله ﴿ ولولا دفاع الله ﴾ الآية تقوية للأمر بالقتال وذكر الحجة بالمصلحة فيه وذكر أنه متقدم في الاسم وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات ، فكأنه قال أذن في القتال فليقاتل المؤمنون ولولا القتال والجهاد لتغلب على الحق في كل أمة ، هذا أصوب تأويلات الآية ، ثم ما قيل بعد من مثل الدفاع تبع للجهاد ، وقال مجاهد ﴿ ولولا دفاع الله ﴾ ظلم قوم بشهادات العدول ونحو هذا ، ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعد الولاة ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : المعنى ولولا دفع الله بأصحاب محمد الكفار عن التابعين فمن بعدهم وهذا كله فيه دفع قوم بقوم إلا أن معنى القتال أليق بما تقدم من الآية ، وقالت فرقة ﴿ ولولا دفاع الله ﴾ العذاب بدعاء الفضلاء ونحوه وهذا وما شاكله مفسد لمعنى الآية وذلك أن الآية تقتضي ولا بد مدفوعاً من الناس ومدفوعاً عنه فتأمله ، وقرأ نافع وابن كثير " لهدمت " مخففة الدال ، وقرأ الباقون " لهدّمت " مشددة وهذ تحسن من حيث هي صوامع كثيرة ففي هدمها تكرار وكثرة كما قال

(30/525)

﴿ بروج مشيدة ﴾ [النساء : 78] فثقل الياء وقال ﴿ قصر مشيد ﴾ [الحج : 45] فخفف لكونه فرداً ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ [يوسف : 43] و ﴿ مفتحة لهم الأبواب

﴿ [ص : 50] و" الصومعة " موضع العبادة وزنها فوعلة وهي بناء مرتفع منفرد حديد الأعلى ، والأصمع ، من الرجال الحديد القول وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وبعباد الصابئين ، قاله قتادة ، ثم استعمل في مئذنة المسلمين والبيع كنائس النصارى واحدتها بيعة قال الطبري : وقيل هي كنائس اليهود ثم أدخل عن مجاهد ما لا يقتضي ذلك ، و" الصلوات " مشتركة لكل ملة واستعير الهدم للصلوات من حيث تعطل ، أو أراد وموضع صلوات ، وذهبت فرقة إلى أن الصلوات اسم لشنائع اليهود وأن اللفظة عبرانية عربت وليست بجميع صلاة ، وقال أبو العالية الصلوات مساجد الصابئين ، واختلفت القراءة فيها فقرأ جمهور الناس " صَلَوات " بفتح الصاد واللام وبالتاء بنقطتين وذلك إما بتقدير ومواضع صلوات وإما على أن تعطيل الصلاة هدمها ، وقرأ جعفر بن محمد " صَلْوات " بفتح الصاد وسكون اللام ، وقرأت فرقة بكسر الصاد وسكون اللام حكاها ابن جني ، وقرأ الجحدري فيما روي عنه " وصُلُوات " بتاء بنقطتين من فوق وبضم الصاد واللام على وزن فعول قال وهي مساجد النصارى ، وقرأ الجحدري والحجاج بن يوسف " وصُلُوب " بضم الصاد واللام والباء على أنه جمع صليب ، وقرأ الضحاك والكلبي " وصُلُوث " بضم الصاد واللام وبالثاء منقوطة ثلاثاً قالوا وهي مساجد اليهود ، وقرأت فرقة " صَلْوات " بفتح الصاد وسكون اللام ، وقرأت فرقة " صُلُوات " بضم الصاد واللام حكاها ابن جني ، وقرأت فرقة " صلوثا " بضم الصاد واللام وقصر الألف بعد الثاء ،

وحكى ابن جني أن خارج باب الموصل بيوتاً يدفن فيها النصارى يقال لها " صلوات " ، وقرأ عكرمة ومجاهد " صلويثا " بكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الألف بعد الثاء قال القاضي : وذهب خصيف إلى أن هذه الأسماء قصد

(31/525)

بها متعبدات الأمم ، و" الصوامع " للرهبان ع وقيل للصابئين ، و" البيع " للنصارى ، و" الصلوات " لليهود و" المساجد " للمسلمين والأظهر أنها قصد بها المبالغة بذكر المتعبدات وهذه الأسماء تشترك الأمم في مسمياتها إلا البيعة فإنها مختصة بالنصارى في عرف لغة العرب ، ومعاني هذه الأسماء هي في الأمم التي لها كتاب على قديم الدهر ولم يذكر في هذه المجوس ولا أهل الاشتراك لأن هؤلاء ليس لهم ما تجب حمايته ولا يوجد ذكر الله إلا عند أهل الشرائع ، وقوله ﴿ يذكر فيها ﴾ الضمير عائد على جميع ما تقدم ثم وعد الله تعالى بنصره نصرة دينه وشرعه ، وفي ذلك حض على القتال والجد فيه ثم الآية تعم كل من نصر حقاً إلى يوم القيامة .

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾

قالت فرقة : هذه الآية في الخلفاء الأربعة ومعنى هذا التخصيص أن هؤلاء خاصة مكنوا

في الأرض من جملة الذين يقاتلون المذكورين في صدر الآية ، والعموم في هذا كله أبين وبه يتجه الأمر في جميع الناس ، وإنما الآية آخذة عهداً على كل من مكنه الله ، كل على قدر ما مكن ، فأما ﴿ الصلاة ﴾ و ﴿ الزكاة ﴾ فكل مأخوذ بإقامتها وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكل بحسب قوته والآية أمكن ما هي في الملوك ، و ﴿ المعروف ﴾ و ﴿ المنكر ﴾ يعمان الإيمان والكفر دونهما ، وقالت فرقة : نزلت هذه الاية في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خاصة من الناس وهذا على أن ﴿ الذين ﴾ بدل من قوله ﴿ يقاتلون ﴾ [الحج : 39] أو على أن ﴿ الذين ﴾ تابع ل ﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من ينصره ﴾ [الحج : 40] ، وقوله ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ توعد للمخالف عن هذه الأوامر التي تقتضيها الآية لمن مكن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(32/525)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : "يدفع" "ولولا دفع الله" بغير ألف ، وهذا على مصدر "دَفَع" .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "إِن الله يدافع" بألف "ولولا دفع" بغير ألف

، وهذا على مصدر "دافعَ" ، والمعنى : يدفع عن الذين آمنوا غائلة المشركين بمنعهم منهم ونصرهم عليهم .

قال الزجاج : والمعنى : إذا فعلتم هذا وخالفتم الجاهلية فيما يفعلونه من نحرهم وإشراكهم ، فإن الله يدفع عن حزبه .

وال "خَوَّان" فَعّال من الخيانة ، والمعنى : أنَّ مَنْ ذكر غير اسم الله ، وتقرَّب إلى الأصنام بذبيحته ، فهو خوَّان .

قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ للَّذين يُقاتَلون بأنهم ظُلِمُوا ﴾ قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "أَذِنَ" بفتح الألف .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر ، وحفص عن عاصم : "أُذِنَ" بضمها .

قوله تعالى : ﴿ للذين يقاتَلون ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : بكسر التاء .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : بفتحها .

قال ابن عباس : "كان مشركوا أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول لهم : "اصبروا ، فإني لم أُومر بالقتال" " حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله هذه الآية ، وهي أول آية أُنزلت في القتال .

وقال مجاهد : هم ناس خرجوا من مكة مهاجرين ، فأدركهم كفار قريش ، فأُذن لهم في

قتالهم.

قال الزجاج: معنى الآية: أُذن للذين يقاتَلون أن يقاتِلوا.

﴿ بأنهم ظُلموا ﴾ أي: بسبب ما ظُلموا.

ثم وعدهم النصر بقوله: ﴿ وإنَّ الله على نصرهم لقدير ﴾ ولا يجوز أن تقرأ بفتح "إن" هذه من غير خلاف بين أهل اللغة، لأن "إنَّ" إذا كانت معها اللام، لم تُفتح أبداً.

وقوله: ﴿ إلا أن يقولوا ربُّنا الله ﴾ معناه: أُخرِجوا لتوحيدهم.

(33/525)

قوله تعالى: ﴿ ولولا دَفْعُ الله الناسَ ﴾ قد فسرناه في [البقرة: 251].

قوله تعالى: ﴿ لهدِّمت ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع: "لَهُدِمَتْ" خفيفة، والباقون بتشديد الدال.

فأما الصوامع، ففيها قولان.

أحدهما: أنها صوامع الرهبان، قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، وابن زيد.

والثاني: أنها صوامع الصابئين، قاله قتادة، وابن قتيبة.

فأما البِيَع، فهي جمع بِيعة، وهي بِيَع النصارى.

وفي المراد بالصلوات قولان .

أحدهما : مواضع الصلوات .

ثم فيها قولان .

أحدهما : أنها كنائس اليهود ، قاله قتادة ، والضحاك ، وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي ، قال : قوله تعالى : ﴿ وصلوات ﴾ هي كنائس اليهود ، وهي بالعبرانية "صلوثا" .

والثاني : أنها مساجد الصابئين ، قاله أبو العالية .

والقول الثاني : أنها الصلوات حقيقة ، والمعنى : لولا دفع الله عن المسلمين بالمجاهدين ، لانقطعت الصلوات في المساجد ، قاله ابن زيد .

فأما المساجد ، فقال ابن عباس : هي مساجد المسلمين .

وقال الزجاج : معنى الآية : لولا دفع بعض الناس ببعض لهدّمت في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى الصوامع والبِيَع ، وفي زمن محمد المساجد .

وفي قوله : ﴿ يُذْكَرُ فيها اسم الله ﴾ قولان .

أحدهما : أن الكناية ترجع إلى جميع الأماكن المذكورات ، قاله الضحاك .

والثاني : إلى المساجد خاصة ، لأن جميع المواضع المذكورة ، الغالب فيها الشِّرك ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ أي : من ينصر دينه وشرعه .

قوله تعالى : ﴿ الذين إِن مكَّنَّاهم في الأرض ﴾ قال الزجاج : هذه صفة ناصِريه .

قال المفسرون : التمكين في الأرض : نصرتهم على عدوّهم ، والمعروف : لا إِله إِلا الله ، والمنكر الشِّرك .

قال الأكثرون : وهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال القرظي : هم الولاة .

قوله تعالى : ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ أي : إِليه مرجعها ، لأن كلَّ مُلك يَبْطُل سوى مُلكه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(34/525)

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

رُوي أنها نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة ؛ أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل مَن أمكنه من الكفار ويغتالَ ويَغْدِر ويحتال ؛ فنزلت هذه الآية إلى قوله : "كفورٍ" .

فوعد فيها سبحانه بالمدافعة ونهى أفصح نهي عن الخيانة والغدر .

وقد مضى في "الأنفال" التشديد في الغدر ؛ وأنه : "يُنصب للغادر لواء عند استه بقدر غَدْرته يقال هذه غَدْرة فلان" .

وقيل : المعنى يدفع عن المؤمنين بأن يديم توفيقهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم ، فلا تقدر الكفار على إمالتهم عن دينهم ؛ وإن جرى إكراه فيعصمهم حتى لا يرتدّوا بقلوبهم .

وقيل : يدفع عن المؤمنين بإعلائهم بالحجة .

ثم قتل كافرٍ مؤمناً نادر ، وإنْ فيدفع الله عن ذلك المؤمن بأن قبضه إلى رحمته .

وقرأ نافع "يُدافِع" "ولولا دِفاع" .

وقرأ أبو عمرو وابن كَثير "يدفع" "ولولا دَفْعُ" .

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي "يُدافِعُ" "ولولا دَفْعُ اللهِ" .

ويدافع بمعنى يدفع ؛ مثل عاقبت اللص ، وعافاه الله ؛ والمصدر دفعاً .

وحكى الزهراويّ أن "دِفاعا" مصدر دفع ؛ كحسب حِسابا .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ قيل : هذا بيان قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الذين آمنوا ﴾ أي يدفع عنهم غوائل الكفار بأن يبيح لهم القتال وينصرهم ؛ وفيه إضمار ،

أي أذن للذين يَصْلُحون للقتال في القتال ؛ فحذف لدلالة الكلام على المحذوف .

وقال الضحاك : اِستأذن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الكفار إذ آذوهم بمكة ؛ فأنزل الله "إِن الله لا يُحِبّ كُلَّ خَوّانٍ كفورٍ" فلما هاجر نزلت ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ .

(35/525)

وهذا ناسخ لكل ما في القرآن من إعراض وترك صفح .

وهي أوّل آية نزلت في القتال .

قال ابن عباس وابن جبير : نزلت عند هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

وروى النَّسائيّ والترمذيّ عن ابن عباس قال :

لما أخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيّهم ليهلكنّ ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ الله على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ فقال أبو بكر : لقد علمت أنه سيكون قتال .

فقال : هذا حديث حسن .

وقد روى غير واحد عن سفيان عن الأعمش عن مسلم البَطِين عن سعيد بن جُبير

مرسلاً ، وليس فيه : عن ابن عباس .

الثانية : في هذه الآية دليل على أن الإباحة من الشرع ، خلافاً للمعتزلة ؛ لأن قوله : "أُذِن" معناه أبيح ؛ وهو لفظ موضوع في اللغة لإباحة كل ممنوع .

وقد تقدّم هذا المعنى في "البقرة" وغير موضع .

وقرىء "أَذن" بفتح الهمزة ؛ أي أذن الله .

"يُقاتِلون" بكسر التاء أي يقاتلون عدوّهم .

وقرىء "يُقاتَلون" بفتح التاء ؛ أي يقاتلهم المشركون وهم المؤمنون .

ولهذا قال : "بأنهم ظُلِموا" أي أخرجوا من ديارهم .

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم ﴾ هذا أحد ما ظُلِموا به ؛ وإنما أخرجوا لقولهم : ربنا الله وحده .

فقوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله ﴾ استثناء منقطع ؛ أي لكن لقولهم ربنا الله ؛ قاله سيبويه .

وقال الفراء يجوز أن تكون في موضع خفض ، يقدرها مردودة على الباء ؛ وهو قول أبي إسحاق الزجاج ، والمعنى عنده : الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا بأن يقولوا ربنا

الله ؛ أي أخرجوا بتوحيدهم ، أخرجهم أهل الأوثان .

و﴿ الذين أُخْرِجُواْ ﴾ في موضع خفض بدلاً من قوله : ﴿ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ .

(36/525)

الثانية : قال ابن العربيّ : قال علماؤنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بَيْعة العَقَبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحلّ له الدماء ؛ إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل مدّة عشرة أعوام ؛ لإقامة حجة الله تعالى عليهم ، ووفاء بوعده الذي امتن به بفضله في قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

فاستمرّ الناس في الطغيان وما استدلوا بواضح البرهان ، وكانت قريش قد اضطهدت مَن اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفَوْهم عن بلادهم ؛ فمنهم من فرّ إلى أرض الحبشة ، ومنهم من خرج إلى المدينة ، ومنهم مَن صَبَر على الأذى .

فلما عَتَتْ قريش على الله تعالى وردّوا أمره وكذبوا نبيه عليه السلام ، وعذبوا من آمن به ووحّده وعبده ، وصدّق نبيه عليه السلام واعتصم بدينه ، أذِن الله لرسوله في القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم ، وأنزل ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا إلى قوله الأُمُورِ ﴾ .

الثالثة : في هذه الآية دليل على أن نسبة الفعل الموجود من المُلجأ المُكره إلى الذي ألجأه وأكرهه ؛ لأن الله تعالى نسب الإخراج إلى الكفار ، لأن الكلام في معنى تقدير الذنب وإلزامه .

وهذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [براءة : 40] والكلام فيهما واحد ؛ وقد تقدّم في "براءة" والحمد لله .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء ، لاستولى أهل الشرك وعطّلوا ما بنته أرباب الديانات من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرّغ أهل الدين للعبادة .

فالجهاد أمر متقدّم في الأمم ، وبه صَلَحت الشرائع واجتمعت المتعبَّدات ؛ فكأنه قال : أذن في القتال ، فليقاتل المؤمنون .

(37/525)

ثم قوّى هذا الأمر في القتال بقوله : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس ﴾ الآية ؛ أي لولا القتال والجهاد لتُغُلِّب على الحق في كل أمة .

فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه ؛ إذ لولا القتال لما بقي

الدِّين الذي يذبّ عنه .

وأيضاً هذه المواضع التي اتّخذِت قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام إنما ذكرت لهذا المعنى ؛ أي لولا هذا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى الصوامع والبِيع ، وفي زمن محمد عليه السلام المساجد .

﴿ لَّهُدِّمَتْ ﴾ من هدمت البناء أي نقضته فانهدم .

قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل في تأويل الآية .

وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : ولولا دفع الله بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الكفارَ عن التابعين فمن بعدهم .

وهذا وإن كان فيه دفع قوم بقوم إلا أن معنى القتال أَلْيق ؛ كما تقدّم .

وقال مجاهد : لولا دفع الله ظلم قوم بشهادة العدول .

وقالت فرقة : ولولا دفع الله ظلم الظّلمة بعدل الولاة .

وقال أبو الدَّرْداء : لولا أن الله عز وجل يدفع بمن في المساجد عمن ليس في المساجد ، وبمن يغزو عمن لا يغزو ، لأتاهم العذاب .

وقالت فرقة : ولولا دفع الله العذاب بدعاء الفضلاء والأخيار إلى غير ذلك من التفصيل المفسِّر لمعنى الآية ؛ وذلك أن الآية ولا بد تقتضي مدفوعاً من الناس ومدفوعاً عنه ، فتأمله .

الخامسة : قال ابن خُوَيْزمَنْداد : تضمّنت هذه الآية المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبِيعهم وبيوت نيرانهم ، ولا يُتركون أن يحدِثوا ما لم يكن ، ولا يزيدون في البنيان لا سَعة ولا ارتفاعاً ، ولا ينبغي للمسلمين أن يدخلوها ولا يصلوا فيها ، ومتى أحدثوا زيادة وجب نقضها .

ويُنقض ما وجد في بلاد الحرب من البيع والكنائس .

وإنما لم ينقض ما في بلاد الإسلام لأهل الذمة ؛ لأنها جرت مجرى بيوتهم وأموالهم التي عاهدوا عليها في الصيانة .

(38/525)

ولا يجوز أن يمكَّنوا من الزيادة لأن في ذلك إظهارَ أسباب الكفر .

وجائز أن ينقض المسجد ليعاد بنيانه ؛ وقد فعل ذلك عثمان رضي الله عنه بمسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم .

السادسة : قرىء "لَهَدِمَتْ" بتخفيف الدال وتشديدها .

﴿ صَوَامِعُ ﴾ جمع صَوْمعة ، وزنها فَوْعلة ، وهي بناء مرتفعٌ حديدُ الأعلى ؛ يقال : صمّع الثريدة ، أي رفع رأسها وحدّده .

ورجل أصمع القلب أي حادّ الفِطنة .

والأصمع من الرجال الحديد القول .

وقيل : هو الصغير الأذن من الناس وغيرهم .

وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وبعبّاد الصابئين قاله قتادة ثم استعمل في مئذنة المسلمين .

والبِيَع جمع بِيعة ، وهي كنيسة النصارى .

وقال الطبريّ : قيل هي كنائس اليهود ؛ ثم أدخل عن مجاهد ما لا يقتضي ذلك .

﴿ وَصَلَوَاتٌ ﴾ قال الزجاج والحسن : هي كنائس اليهود ؛ وهي بالعبرانية صَلُوتا .

وقال أبو عبيدة : الصلوات بيوت تبنى للنصارى في البراري يصلون فيها في أسفارهم ، تسمّى صلوتا فعرّبت فقيل صلوات .

وفي "صلوات" تسع قراءات ذكرها ابن عطية : صُلْوات ، صَلْوات ، صِلْوات ، صُلُولى على وزن فعولى ، صُلُوب بالباء بواحدة جمع صليب ، صُلُوث بالثاء المثلثة على وزن فُعول ، صُلُوات بضم الصاد واللام وألف بعد الواو ، صُلُوثا بضم الصاد واللام وقصر الألف بعد الثاء المثلثة ، (صِلْوِيثَا بكسر الصاد وإسكان اللام وواو مكسورة بعدها ياء بعدها ثاء منقوطة بثلاث بعدها ألف) .

وذكر النحاس : وروى عن عاصم الجَحْدَرِيّ أنه قرأ "وصلوب" .

وروي عن الضحاك "وَصلُوث" بالثاء معجمة بثلاث ؛ ولا أدري أفتح الصاد أم ضمها .

قلت : فعلى هذا تجيء هنا اثني عشر قراءات .

وقال ابن عباس : الصلوات الكنائس .

أبو العالية : الصلوات مساجد الصابئين .

ابن زيد : هي صلوات المسلمين تنقطع إذا دخل عليهم العدوّ وتهدم المساجد ؛ فعلى هذا استعير الهدم للصلوات من حيث تُعَطل ، أو أراد موضع صلوات فحذف المضاف .

(39/525)

وعلى قول ابن عباس والزجاج وغيرِهم يكون الهدم حقيقة .

وقال الحسن : هدم الصلوات تركها .

قُطْرُب : هي الصوامع الصغار ولم يسمع لها واحد .

وذهب خَصِيف إلى أن القصد بهذه الأسماء تقسيم متعبدات الأمم .

فالصوامع للرهبان ، والبِيَع للنصارى ، والصلوات لليهود ، والمساجد للمسلمين .

قال ابن عطية : والأظهر أنها قصد بها المبالغة في ذكر المتعبَّدات .

وهذه الأسماء تشترك الأمم في مسمياتها ، إلا البِيعة فإنها مختصة بالنصارى في لغة العرب .

ومعاني هذه الأسماء هي في الأمم التي لها كتاب على قديم الدهر .

ولم يذكر في هذه الآية المجوس ولا أهل الإشراك ؛ لأن هؤلاء ليس لهم ما يجب حمايته ، ولا يوجد ذكر الله إلا عند أهل الشرائع .

وقال النحاس : "يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللَّهِ" الذي يجب في كلام العرب على حقيقة النظر أن يكون "يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللَّهِ" عائداً على المساجد لا على غيرها ؛ لأن الضمير يليها .

ويجوز أن يعود على "صوامع" وما بعدها ؛ ويكون المعنى وقت شرائعهم وإقامتهم الحق .

السابعة : فإن قيل : لِم قدّمت مساجد أهل الذمّة ومصلّياتهم على مساجد المسلمين ؟

قيل : لأنها أقدم بناء .

وقيل لقربها من الهدم وقرب المساجد من الذكر ؛ كما أخر السابق في قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات ﴾ [فاطر : 32] .

الثامنة : قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ أي من ينصر دينَه ونبيَّه .

﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ ﴾ أي قادر .

قال الخطابيّ : القَوِيّ يكون بمعنى القادر ، ومن قَوِي على شيء فقد قدر عليه .

﴿ عَزِيزٌ ﴾ أي جليل شريف ؛ قاله الزجاج .

وقيل الممتنع الذي لا يرام ؛ وقد بيناهما في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى .

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41) ﴾

قال الزجاج: ﴿ الذين ﴾ في موضع نصب رَدًّا على "مَنْ"، يعني في قوله: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾.

وقال غيره: "الذِين" في موضع خفض ردّاً على قوله: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾، ويكون ﴿ الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض ﴾ أربعةً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن في الأرض غيرهم.

وقال ابن عباس: المراد المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان.

وقال قتادة: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال عِكرمة: هم أهل الصلوات الخمس.

وقال الحسن وأبو العالية: هم هذه الأمة إذا فتح الله عليهم أقاموا الصلاة.

وقال ابن أبي نجِيح: يعني الولاة.

وقال الضحاك: هو شرط شرطه الله عز وجل على من آتاه الملك؛ وهذا حسن.

قال سهل بن عبد الله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على السلطان وعلى العلماء الذين يأتونه.

وليس على الناس أن يأمروا السلطان ؛ لأن ذلك لازم له واجب عليه ، ولا يأمروا العلماء فإن الحجة قد وجبت عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(41/525)

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

الهدم : معروف وهو نقض ما بُني .

قال الشاعر :

وكل بيت وإن طالت إقامته . . .

على دعائمه لا بدّ مهدوم

الصومعة : موضع العبادة وزنها فعولة ، وهي بناء مرتفع منفرد حديد الأعلى ، والأصمع من الرجال الحديد القول ، وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وبعبّاد الصابئين ، قاله قتادة ثم استعمل في مئذنة المسلمين .

البيع : كنائس النصارى واحدها بيعة .

وقيل : كنائس اليهود .

البئر : من بأرت أي حفرت ، وهي مؤنثة على وزن فعل بمعنى مفعول ، وقد تذكر على معنى القليب .

تعطيل الشيء : إبطال منافعه .

﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوّان كفور أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيَع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ .

روى أن المؤمنين لما كثروا بمكة أذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة ، أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنة من الكفار ويحتال ويغدر ، فنزلت إلى قوله ﴿ كفور ﴾ وعد فيها بالمدافعة ونهى عن الخيانة ، وخص المؤمنين بالدفع عنهم والنصرة لهم ، وعلل ذلك بأنه لا يحب أعداءهم الخائنين الله والرسول الكافرين نعمه .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر جملة مما يفعل في الحج ، وكان المشركون قد صدوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عام الحديبية وآذوا من كان بمكة من المؤمنين ، أنزل الله تعالى هذه الآيات مبشرة المؤمنين بدفعه تعالى عنهم ومشيرة إلى نصرهم وإذنه لهم في القتال وتمكينهم في الأرض يردهم إلى ديارهم وفتح مكة ، وأن عاقبة الأمور راجعة إلى الله تعالى وقال تعالى : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ وقرأ الحسن وأبو جعفر ونافع ﴿ يدافع ﴾ ولولا دفاع الله .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير يدفع ﴿ ولولا دفع ﴾ وقرأ الكوفيون وابن عامر ﴿ يدافع ﴾ ﴿ ولولا دفع ﴾ وفاعل هنا بمعنى المجرد نحو جاوزت وجزت .

وقال الأخفش : دفع أكثر من دافع .

وحكى الزهراوي أن دفاعاً مصدر دفع كحسب حساباً .

وقال ابن عطية : يحسن ﴿ يدافع ﴾ لأنه قد عنّ للمؤمنين من يدفعهم ويؤذيهم فتجيء مقاومته ، ودفعه مدافعة عنهم انتهى .

يعني فيكون فاعل لاقتسام الفاعلية والمفعولية لفظاً والاشتراك فيهما معنى .

وقال الزمخشري : ومن قرأ ﴿ يدافع ﴾ فمعناه يبالغ في الدفع عنهم كما يبالغ من يغالب فيه لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ انتهى .

ولم يذكر تعالى ما يدفعه عنهم ليكون أفخم وأعظم وأعم ولما هاجر المؤمنون إلى المدينة أذن الله لهم في القتال .

وقرأ نافع وعاصم وأبو عمرو بضم همزة ﴿ أُذن ﴾ وفتح باقي السبعة .

وقرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿ يقاتلون ﴾ بفتح التاء والباقون بكسرها ، والمأذون فيه محذوف أي في القتال لدلالة ﴿ يقاتلون ﴾ عليه وعلل للإذن ﴿ بأنهم ظلموا ﴾ كانوا يأتون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من بين مضروب ومشجوج ، فيقول لهم : " اصبروا فإني لم أومر بالقتال " حتى هاجر وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نُهي عنه في نيف وسبعين آية .

وقيل : نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن لهم في مقاتلتهم .

(43/525)

﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ وعد بالنصر والإخبار بكونه يدفع عنهم ﴿ الذين أخرجوا ﴾ في موضع جر نعت للذين ، أو بدل أو في موضع نصب بأعني أو في موضع رفع على إضمارهم .

و ﴿ إلا أن يقولوا ﴾ استثناء منقطع فإن ﴿ يقولوا ﴾ في موضع نصب لأنه منقطع لا يمكن

توجه العامل عليه ، فهو مقدر بلكن من حيث المعنى لأنك لو قلت ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ ﴿ إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ لم يصح بخلاف ما في الدار أحد إلاّ حمار ، فإن الاستثناء منقطع ويمكن أن يتوجه عليه العامل فتقول : ما في الدار إلاّ حمار فهذا يجوز فيه النصب والرفع النصب للحجاز والرفع لتميم بخلاف مثل هذا فالعرب مجمعون على نصبه .

وأجاز أبو إسحاق فيه الجر على البدل واتّبعه الزمخشري فقال ﴿ أن يقولوا ﴾ في محل الجر على الإبدال من ﴿ حق ﴾ أي بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتمكين لا موجب الإخراج والتبشير ، ومثله ﴿ هل تنقمون منا إلاّ أن آمنا ﴾ انتهى .

وما أجازاه من البدل لا يجوز لأن البدل لا يكون إلاّ إذا سبقه نفي أو نهي أو استفهام في معنى النفي ، نحو : ما قام أحد إلاّ زيد ، ولا يضرب أحد إلاّ زيد ، وهل يضرب أحد إلاّ زيد ، وأما إذا كان الكلام موجباً أو أمراً فلا يجوز البدل : لا يقال قام القوم إلاّ زيد على البدل ، ولا يضرب القوم إلاّ زيد على البدل ، لأن البدل لا يكون إلاّ حيث يكون العامل يتسلط عليه ، ولو قلت قام إلاّ زيد ، وليضرب إلاّ عمر ولم يجز .

(44/525)

ولو قلت في غير القرآن أخرج الناس من ديارهم إلاّ بأن يقولوا لا إله إلاّ الله لم يكن كلاماً هذا إذا تخيل أن يكون ﴿ إلاّ أن يقولوا ﴾ في موضع جر بدلاً من غير المضاف إلى ﴿ حق ﴾ وإما أن يكون بدلاً من حق كما نص عليه الزمخشري فهو في غاية الفساد لأنه يلزم منه أن يكون البدل يلي غيراً فيصير التركيب بغير ﴿ إلاّ أن يقولوا ﴾ وهذا لا يصح ، ولو قدرت ﴿ إلاّ ﴾ بغير كما يقدر في النفي في ما مررت بأحد إلاّ زيد فتجعله بدلاً لم يصح ، لأنه يصير التركيب بغير غير قولهم ﴿ ربنا الله ﴾ فتكون قد أضفت غيراً إلى غير وهي هي فصار بغير غير ، ويصح في ما مررت بأحد إلاّ زيد أن تقول : ما مررت بغير زيد ، ثم إن الزمخشري حين مثل البدل قدره بغير موجب سوى التوحيد ، وهذا تمثيل للصفة جعل إلاّ بمعنى سوى ، ويصح على الصفة فالتبس عليه باب الصفة بباب البدل ، ويجوز أن تقول : مررت بالقوم إلاّ زيد على الصفة لا على البدل .

﴿ ولولا دفع الله الناس ﴾ الآية فيها تحريض على القتال المأذون فيه قبل ، وأنه تعالى أجرى العادة بذلك في الأمم الماضية بأن ينتظم به الأمر وتقوم الشرائع وتصان المتعبدات من الهدم وأهلها من القتل والشتات ، وكأنه لما قال ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ قيل : فليقاتل المؤمنون ، فلولا القتال لتغلب على الحق في كل أمة وانظر إلى مجيء قوله ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ لفسدت الأرض إثر قتال طالوت لجالوت ، وقتل داود جالوت . وأخبر تعالى أنه لولا ذلك الدفع فسدت الأرض فكذلك هنا .

وقال عليّ بن أبي طالب : ولولا دفع الله بأصحاب محمد الكفار عن التابعين فمن بعدهم ، وأخذ الزمخشري قول عليّ وحسنه وذيل عليه فقال : دفع الله بعض الناس ببعض إظهاره وتسليط المؤمنين منهم على الكافرين بالمجاهدة ، ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم وعلى متعبداتهم فهدموها ولم يتركوا للنصارى بيعاً ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود صلوات ، ولا للمسلمين مساجد ، ولغلب المشركون في أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم ، وهدموا متعبدات الفريقين انتهى .

وقال مجاهد : ﴿ ولولا دفع الله ﴾ ظلم قوم بشهادات العدول ونحو هذا .

وقال قوم ﴿ دفع ﴾ ظلم الظلمة بعدل الولاة .

وقالت فرقة ﴿ دفع ﴾ العذاب بدعاء الأخيار .

وقال قطرب : بالقصاص عن النفوس .

وقيل : بالنبيين عن المؤمنين .

وقال الحسن : لولا أمان الإسلام لخربت متعبدات أهل الذمة ، ومعنى الدفع بالقتال أليق

بالآية وأمكن في دفع الفساد .

وقرأ الحرميان وأيوب وقتادة وطلحة وزائدة عن الأعمش والزعفراني ﴿ فهدمت ﴾ مخففاً وباقي السبعة وجماعة مشددة لما كانت المواضع كثيرة ناسب مجيء التضعيف لكثرة المواضع فتكرر الهدم لتكثيرها .

وقرأ الجمهور ﴿ وصلوات ﴾ جمع صلاة .

وقرأ جعفر بن محمد ﴿ وصُلوات ﴾ بضم الصاد واللام .

وحكى عنه ابن خالويه ﴿ صلوات ﴾ بسكون اللام وكسر الصاد ، وحكيت عن الجحدري والجحدري ﴿ صلوات ﴾ بضم الصاد وفتح اللام ، وحكيت عن الكلبي وأبي العالية بفتح الصاد وسكون اللام ﴿ صلوات ﴾ والحجاج بن يوسف والجحدري أيضاً وصلوات وهي مساجد النصارى بضمتين من غير ألف ومجاهد كذلك إلا أنه بفتح التاء وألف بعدها والضحاك والكلبي وصلوث بضمتين من غير ألف وبثاء منقوطة بثلاث ، وجاء كذلك عن أبي رجاء والجحدري وأبي العالية ومجاهد كذلك إلاّ أنه بعد الثاء ألف .

(46/525)

وقرأ عكرمة : وصلويثا بكسر الصاد وإسكان اللام وواو مكسورة بعدها ياء بعدها ثاء منقوطة بثلاث بعدها ألف ، والجحدري أيضاً ﴿ صَلوات ﴾ بضم الصاد وسكون اللام وواو مفتوحة بعدها ألف بعدها ثاء مثلثة النقط .

وحكى ابن مجاهد أنه قرىء كذلك إلا أنه بكسر الصاد .

وحكى ابن خالويه وابن عطية عن الحجاج والجحدري صلوب بالباء بواحدة على وزن كعوب جمع صليب كظريف وظروف ، وأسينة وأسون وهو جمع شاذ أعني جمع فعيل على فعول فهذه ثلاثة عشرة قراءة والتي بالثاء المثلثة النقط .

قيل : هي مساجد اليهود هي بالسريانية مما دخل في كلام العرب .

وقيل : عبرانية وينبغي أن تكون قراءة الجمهور يراد بها الصلوات المعهودة في الملل ، وأما غيرها مما تلاعبت فيه العرب بتحريف وتغيير فينظر ما مدلوله في اللسان الذي نقل منه فيفسر به .

وروى هارون عن أبي عمرو ﴿ صلوات ﴾ كقراءة الجماعة إلاّ أنه لا ينون التاء كأنه جعله اسم موضع كالمواضع التي قبله ، وكأنه علم فمنعه الصرف للعلمية والعجمة وكملت القراءات بهذه أربع عشرة قراءة والأظهر في تعداد هذه المواضع أن ذلك بحسب معتقدات الأمم فالصوامع للرهبان .

وقيل : للصابئين ، والبيع للنصارى ، والصلوات لليهود ، والمساجد للمسلمين وقاله

خصيف .

قال ابن عطية : والأظهر أنه قصد بها المبالغة في ذكر المتعبدات ، وهذه الأسماء تشترك الأمم في مسمياتها إلاّ البيعة فإنها مختصة بالنصارى في عرف لغة ومعاني هذه الأسماء هي في الأمم التي لهم كتاب على قديم الدهر ، ولم يذكر في هذه الآية المجوس ولا أهل الإشراك لأنّ هؤلاء ليس لهم ما يَوجب حمايته ولا يوجد ذكر الله إلاّ عند أهل الشرائع انتهى .

(47/525)

والظاهر عود الضمير في قوله ﴿ يذكر فيها ﴾ على المواضع كلها جميعها وقاله الكلبي ومقاتل ، فيكون ﴿ يذكر ﴾ صفة للمساجد وإذا حملنا الصلوات على الأفعال التي يصليها أهل الشرائع كان ذلك إما على حذف مضاف أي ومواضع صلوات وإما على تضمين ﴿ لهدمت ﴾ معنى عطلت فصار التعطيل قدراً مشتركاً بين المواضع والأفعال ، وتأخير المساجد إما لأجل قدم تلك وحدوث هذه ، وإما لانتقال من شريف إلى أشرف .

وأقسم تعالى على أنه تنصر من ينصر أي ينصر دينه وأولياءه ، ونصره تعالى هو أن يظفر أولياءه بأعدائهم جلاداً وجدالاً وفي ذلك حض على القتال .

ثم أخبر تعالى أنه قوي على نصرهم ﴿ عزيز ﴾ لا يغالب .

والظاهر أنه يجوز في إعراب ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ﴾ ما جاز في إعراب ﴿ الذين أخرجوا ﴾ وقال الزجاج : هو منصوب بدل ممن ينصره ، والتمكين السلطنة ونفاذ الأمر على الخلق ، والظاهر أنه من وصف المأذون لهم في القتال وهم المهاجرون ، وفيه إخبار بالغيب عما يكون عليه سيرتهم إن مكن لهم في الأرض وبسط لهم في الدنيا ، وكيف يقومون بأمر الدين .

وعن عثمان رضي الله عنه : هذا والله ثناء قبل بلاء ، يريد أن الله قد أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا ، وقالوا : فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين لأن الله تعالى لم يجعل التمكن ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة لغيرهم من المهاجرين لا حظ في ذلك للأنصار والطلقاء .

وفي الآية أخذ العهد على من مكنه الله أن يفعل ما رتب على التمكين في الآية .

وقيل : نزلت في أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وعن الحسن وأبي العالية : هم أمّته عليه السلام .

وعن عكرمة : هم أهل الصلوات الخمس ، وهو قريب مما قبله .

وقال ابن أبي نجيح : هم الولاة .

وقال الضحاك : هو شرط شرطه الله من آتاه الملك .

وقال ابن عباس : المهاجرون والأنصار والتابعون ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ توعد للمخالف ما ترتب على التمكين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(48/525)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذين ءامَنُواْ ﴾

كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لتوطينِ قلوبِ المُؤمنين ببيانِ أنَّ الله تعالى ناصرُهم على أعدائِهم بحيثُ لا يقدرُون على صدّهم عن الحجِّ ليتفرَّغُوا إلى أداءِ مناسكِه . وتصديرُه بكلمةِ التَّحقيقِ لإبرازِ الاعتناءِ التَّامِّ بمضمونِه وصيغةُ المفاعلةِ إمَّا للمبالغةِ أو للدّلالةِ على تكرُّرِ الدَّفعِ فإنَّها قد تُجرَّدُ عن وقوعِ الفعلِ المتكرِّرِ من الجانبينِ فيبقى تكرُّره كما في الممارسةِ أي يبالغ في دفع غائلةِ المشركينَ وضررِهم الذي من جُملته الصَّدُّ عن سبيلِ الله مبالغةً من يغالب فيه أو يدفعها عنهم مرَّةً بعد أُخرى حسبما تجدَّدَ منهم القصدُ إلى الإضرارِ بالمسلمينَ كما في قولِه تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا الله ﴾ وقُرِىء يدفعُ والمفعولُ محذوفٌ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ تعليلٌ لما في ضمن الوعدِ الكريمِ من الوعيد للمشركينَ وإيذانٌ بأنَّ دفعهم بطريقِ القهرِ والخِزْيِ . ونفيُ المحبَّةِ

كنايةٌ عن البُغضِ أي أنَّ اللَّهَ يُبغضُ كلَّ خوَّانٍ في أماناته تعالى وهي أوامرُه ونواهيه أو في جميعِ الأماناتِ التي هي معظمُها كفورٌ لنعمته ، وصيغةُ المُبالغةِ فيهما لبيان أنَّهم كذلك لا لتقييدِ البُغضِ بغايةِ الخيانةِ والكفرِ أو للمبالغةِ في نفيِ المحبَّةِ على اعتبارِ النَّفيِ أوَّلاً وإيراد معنى المبالغةِ ثانياً .

(49/525)

﴿ أَذِنَ ﴾ أي رُخِّصَ . وقُرِىء على البناء للفاعلِ أي أَذِنَ اللَّهُ تعالى ﴿ لِلَّذِينَ يقاتلون ﴾ أي يُقاتلهم المشركون . والمأذونُ فيه محذوفٌ لدلالة المذكورِ عليه فإنَّ مقاتلة المُشركينَ إيَّاهُم دالَّةٌ على مقاتلتهم إيَّاهُم دلالةً بيِّنةً . وقُرِىء على صيغة المبنيِّ للفاعلِ أي يُريدون أنْ يُقاتلوا المشركين فيما سيأتي ويَحرصون عليه . فدلالتُه على المحذوفِ أظهرُ ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ أي بسبب أنَّهم ظُلموا . وهم أصحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم كانَ المشركون يُؤذونهم وكانُوا يأتونَه عليه السَّلامُ بين مضروبٍ ومَشْجُوجٍ ويتظلَّمون إليه فيقولُ عليه السَّلامُ : " اصبرُوا فإنِّي لم أُومر بالقتالِ " حتَّى هاجرُوا فأُنزلتْ وهي أوَّلُ آيةٍ نزلتْ في القتالِ بعد ما نُهيَ عنه في نيِّفٍ وسبعينَ آيةً ﴿ وَإِنَّ الله على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وعدٌ لهم بالنَّصرِ وتأكيدٌ لما مرَّ من العدةِ الكريمةِ بالدَّفعِ ، وتصريحٌ بأنَّ المرادَ به ليسَ مجرَّدَ

تخليصهم من أيدي المشركين بلْ تغليبهم وإظهارَهم عليهم . والإخبارُ بقُدرتهِ تعالى على نصرِهم واردٌ على سَننِ الكبرياءِ وتأكيدُه بكلمة التَّحقيقِ واللاَّمِ لمزيد تحقيقِ مضمونِه وزيادةِ توطينِ نفوسِ المؤمنينَ .

وقولُه تعالى : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن ديارهم ﴾ في حيّزِ الجرّ على أنَّه صفةٌ للموصولِ الأوّلِ أو بيانٌ له أو بدلٌ منه أو في محلِّ النَّصب على المدحِ أو في محلِّ الرَّفعِ بإضمارِ مبتدأ والجملةُ مرفوعةً على المدحِ والمرادُ بديارِهم مكَّةُ المعظَّمةُ ﴿ بغَيْرِ حَقّ ﴾ متعلّقٌ بأُخرجوا أي أُخرجوا بغيرِ ما يُوجب إخراجَهم وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله ﴾ بدلٌ من حقَ أي بغيرِ موجبٍ سوى التَّوحيدِ الذي ينبغي أنْ يكون مُوجباً للإقرارِ والتَّمكينِ دون الإخراجِ والتَّسييرِ لكن لا على الظَّاهرِ بل على طريقة قولِ النَّابغةِ

(50/525)

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم . . . بهنَّ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ

وقيل الاستثناءُ منقطعٌ . ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس بَعْضَهُم ببَعْضٍ ﴾ بتسليطِ المؤمنين على الكافرين في كلِّ عصرٍ وزمانٍ . وقُرِىء دِفاعُ ﴿ لَّهُدّمَتْ ﴾ لخُرِّبتْ باستيلاء المشركينَ على أهلِ الملل . وقُرِىء هُدِمت بالتَّخفيفِ ﴿ صوامع ﴾ للرُّهابنةِ ﴿ وَبِيَعٌ ﴾

للنَّصارى ﴿ وصلوات ﴾ أي وكنائسُ لليهودِ سُمّيتْ بها لأنَّها يُصلَّى فيها وقيل أصلها صلوتا بالعبريَّةِ فعُرِّبتْ ﴿ ومساجد ﴾ للمسلمين ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً ﴾ أي ذكراً كثيراً أو وقتاً ، صفةٌ مادحة للمساجدِ خُصَّت بها دلالةً على فضلها وفضلِ أهلها وقيل صفةٌ للأربعِ وليس كذلك فإنَّ بيان ذكرِ الله عزَّ وجلَّ في الصَّوامعِ والبيعِ والكنائسِ بعد انتساخِ شرعيَّتها ممَّا لا يقتضيه المقامُ ولا يرتضيه الأفهامُ ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ ﴾ أي وباللَّهِ لينصرنَّ اللَّهُ من ينصر أولياءَهُ أو من ينصر دينَه ولقد أنجز اللَّهُ عزَّ سلطانُه وعدَهُ حيث سلَّطَ المهاجرين والأنصارَ على صناديدِ العربِ وأكاسرةِ العجمِ وقياصرةِ الرُّوم وأورثهم أرضَهم وديارَهم ﴿ إِنَّ الله لَقَوِيٌّ ﴾ على كلِّ ما يُريده من مراداتهِ التي من جُملتها نصرُهم ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يُمانعه شيءٌ ولا يُدافعه .

(51/525)

﴿ الذين إِنْ مكناهم فِى الأرض أَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة وَأَمَرُواْ بالمعروف وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر ﴾ وصفٌ من الله عزَّ وجلَّ للذين أُخرجوا من ديارِهم بما سيكون منهم من حسن السِّيرةِ عند تمكينه تعالى إيَّاهُم في الأرض وإعطائه إيَّاهم زمامَ الأحكامِ منبئٌ عن عِدَّةٍ كريمة على أبلغ وجهٍ وألطفِه . وعن عثمانَ رضي الله عنه هذا واللَّهِ ثناءٌ قبل بلاءٍ . يُريد

أَنَّه تعالى أثنى عليهم قبلَ أنْ يُحدثوا من الخيرِ ما أحدثوا . قالُوا وفيه دليلٌ على صحَّة أمر الخلفاءِ الرَّاشدينَ لأَنَّه تعالى لم يعطِ التَّمكينَ ونفاذَ الأمرِ مع السِّيرةِ العادلةِ غيرهم من المهاجرين ولا حظَّ في ذلك للأنصارِ والطُّلقاءِ . وعن الحسنِ رحمه الله هم أمةُ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم . وقيل الذينَ بدلٌ من قولهِ مَنْ ينصرُه ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ خاصَّةً ﴿ عاقبة الأمور ﴾ فإنَّ مرجعَها إلى حُكمهِ وتقديره فقط . وفيه تأكيدٌ للوعد بإظهار أوليائه وإعلاءِ كلمتهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(52/525)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الذين ءامَنُواْ ﴾

كلام مستأنف مسوق لتوطين قلوب المؤمنين ببيان أن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم بحيث لا يقدرون على صدهم عن الحج وذكر أن ذلك متصل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ ﴾ [الحج : 25] وإن ما وقع في البين من ذكر الشعائر مستطرد لمزيد تهجين فعلهم وتقبيحهم لازدياد قبح الصد بازدياد تعظيم ما صد عنه ، وتصديره بكلمة التحقيق لإبراز الاعتناء التام بمضمونه ، وصيغة المفاعلة إما للمبالغة أو للدلالة على تكرر

الدفع فإنها قد تتجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبين فيبقى تكرره كالممارسة أي إن الله تعالى يبالغ في دفع غائلة المشركين وضررهم الذي من حملته الصد عن سبيل الله تعالى والمسجد الحرام مبالغة من يغالب فيه أو يدفعها عنهم مرة بعد أخرى حسبما يتجدد منهم القصد إلى الإضرار بهم كما في قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ ﴾ [المائدة : 64] .

وقرأ أبو عمرو .

وابن كثير ﴿ يدفع ﴾ والمفعول محذوف كما أشير إليه ، وفي "البحر" أنه لم يذكر ما يدفعه سبحانه عنهم ليكون أفخم وأعظم وأعم ، وأنت تعلم أن المقام لا يقتضي العموم بل هو غير صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ ءامَنُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ تعليل لما في ضمن الوعد الكريم من الوعيد للمشركين وإيذان بأن دفعهم بطريق القهر والخزي .

(53/525)

وقيل : تعليل للدفاع عن المؤمنين ببغض المدفوعين على وجه يتضمن إن العلة في ذلك الخيانة والكفر ، وأوثر ﴿ لاَ يُحِبُّ ﴾ على يبغض تنبيهاً على مكان التعريض وأن المؤمنين هم

أحباء الله تعالى ، ولعل الأول أولى لإيهام هذا إن الآية من قبيل قولك : إني أدفع زيداً عن عمرو لبغضي زيداً وليس في ذلك كثير عناية بعمر وأي أن الله تعالى يبغض كل خوان في أماناته تعالى وهي أوامره تعالى شأنه ونواهيه أو في جميع الأمانات التي هي معظمها كفور لنعمه عز وجل ، وصيغة المبالغة فيهما لبيان أن المشركين كذلك لا للتقييد المشعر بمحبة الخائن والكافر أو لأن خيانة أمانة الله تعالى وكفران نعمته لا يكونان حقيرين بل هما أمران عظيمان أو لكثرة ما خانوا فيه من الأمانات وما كفروا به من النعم أو للمبالغة في نفي المحبة على اعتبار النفي أولاً وإيراد معنى المبالغة ثانياً كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وأن الله بظلام للّعَبيدِ ﴾ [الحج : 10] وقد علمت ما فيه .

وأياً ما كان فالمراد نفي الحب عن كل فرد فرد من الخونة الكفرة .

﴿ أَذِنَ ﴾ أي رخص ، وقرأ ابن عباس وابن كثير .

وابن عامر .

وحمزة والكسائي ﴿ أَذِنَ ﴾ بالبناء للفاعل أي أذن الله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ يقاتلون ﴾ أي يقاتلهم المشركون والمأذون فيه القتال وهو في قوة المذكور لدلالة المذكور عليه دلالة نيرة .

وقرأ أبو عمرو .

وأبو بكر .

ويعقوب ﴿ يقاتلون ﴾ على صيغة المبنى للفاعل أي يريدون أن يقاتلوا المشركين في

المستقبل ويحرصون عليه فدلالته على المحذوف أنور ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ أي بسبب أنهم ظلموا .

والمراد بالموصول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين في مكة فقد نقل الواحدي .

(54/525)

وغيره أن المشركين كانوا يؤذونهم وكانوا يؤتون النبي عليه الصلاة والسلام بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه صلوات الله تعالى وسلامه عليه فيقول لهم : اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر فانزلت هذه الآية وهي أول آية نزلت في القتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية على ما روى الحاكم في "المستدرك" عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وأخرجه عبد الرزاق .

وابن المنذر عن الزهري .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية أن أول آية نزلت فيه ﴿ وقاتلوا فِي سَبِيلِ الله الذين يقاتلونكم ﴾ [البقرة : 190] وفي الأكليل للحاكم أن أول آية نزلت في ذلك ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم ﴾ [التوبة : 111] ، وروى البيهقي في الدلائل .

وجماعة أنها نزلت في أناس مؤمنين خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة فاتبعهم كفار قريش

فأذن الله تعالى لهم في قتالهم وعدم التصريح بالظالم لمزيد السخط تحاشياً عن ذكره .

﴿ وَإِنَّ الله على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وعد لهم بالنصر وتأكيد لما مر من العدة وتصريح بأن المراد به ليس مجرد تخليصهم من أيدي المشركين بل تغليبهم وإظهارهم عليهم ، وقد أخرج الكلام على سنن الكبرياء فإن الرمزة والابتسامة من الملك الكبير كافية في تيقن الفوز بالمطلوب وقد أوكد تأكيداً بليغاً زيادة في توطين نفوس المؤمنين .

﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن ديارهم ﴾ في حيز الجر على أنه صفة للموصول قبل أو بيان له أو بدل منه أو في محل النصب على المدح أو في محل الرفع بإضمار مبتدأ ، والجملة مرفوعة على المدح ، والمراد الذين أخرجهم المشركون من مكة ﴿ بِغَيْرِ حَقّ ﴾ متعلق بالإخراج أي أخرجوا بغير ما يوجب إخراجهم .

(55/525)

وجوز أن يكون صفة مصدر محذوف أي أخرجوا إخراجاً كائناً بهذه الصفة ، واختار الطبري كونه في موضع الحال أي كائنين بغير حق مترتب عليهم يوجب إخراجهم ، وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله ﴾ استثناء متصل من ﴿ حَقّ ﴾ وأن وما بعدها في تأويل مصدر بدل منه لما في غير من معنى النفي ، وحاصل المعنى لا موجب لإخراجهم إلا

التوحيد وهو إذا أريد بالموجب الموجب النفس الأمري على حد قول النابغة

: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

وجوز أن يكون الإبدال من غير وفي أخرجوا معنى النفي أي لم يقروا في ديارهم إلا بأن يقولوا الخ وهو وهو كما ترى ، وجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً وأوجبه أبو حيان أي ولكن أخرجوا بقولهم ربنا الله ، وأوجب نصب ما بعد إلا كما أوجبوه في قولهم : ما زاد إلا ما نقص وما نفع إلا ما ضر ، ورد كونه متصلاً وكون ما بعد ءلا بدلاً من ﴿ حَقّ ﴾ بما هو أشبه شيء بالمغالطة ، ويفهم من كلامه جواز أن تكون إلا بمعنى سوى صفة لحق أي أخرجوا بغير حق سوى التوحيد ، وحاصله أخرجوا بكونهم موحدين .

﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدّمَتْ صوامع وَبِيَعٌ ﴾ تحريض على القتال المأذون فيه بإفادة أنه تعالى أجرى العادة بذلك في الأمم الماضية لينتظم به الأمر وتقوم الشرائع وتصان المتعبدات من الهدم فكأنه لما قيل : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يقاتلون ﴾ [الحج : 39] الخ قيل فليقاتل المؤمنون فلولا القتال وتسليط الله تعالى المؤمنين على المشركين في كل عصر وزمان لهدفت متعبداتهم ولذهبوا شذر مذر ، وقيل : المعنى لولا دفع الله بعض الناس ببعض بتسليط مؤمني هذه الأمة على كفارها لهدمت المتعبدات المذكورة إلا أنه تعالى سلط المؤمنين على الكافرين فبقيت هذه المتعبدات بعضها للمؤمنين وبعضها لمن في حمايتهم

من أهل الذمة وليس بذاك ، وقال مجاهد : أي لولا دفع ظلم قوم بشهادة العدول ونحو ذلك لهدمت الخ .

(56/525)

وقال قوم : أي لولا دفع ظلم الظلمة بعدل الولاة ، وقالت فرقة : أي لولا دفع العذاب عن الأشرار بدعاء الأخيار ، وقال قطرب : أي لولا الدفع بالقصاص عن النفوس .

وقيل بالنبيين عليهم السلام عن المؤمنين والكل مما لا يقتضيه المقام ولا ترتضيه ذوو الأفهام .

والصوامع جمع صومعه بوزن فعولة وهي بناء مرتفع حديد الأعلى والأصمع من الرجال الحديد القول ، وقال الراغب : هي كل بناء متصمع الرأس أي متلاصقة والأصمع اللاصقة إذنه برأسه وهو قريب من قريب ، وكانت قبل الإسلام كما قال قتادة مختصة برهبان النصارى وبعباد الصابئة ثم استعملت في مئذنة المسلمين ، والمراد بها هنا متعبد الرهبان عند أبي العالية ومتعبد الصابئة عند قتادة ولا يخفى أنه لا ينبغي إرادة ذلك حيث لم تكن الصابئة ذات ملة حقة في وقت من الأوقات ، والبيع واحدها بيعة بوزن فعلة وهي مصلى النصارى ولا تختص برهبانهم كالصومعة ، قال الراغب : فإن يكن ذلك عربياً في الأصل فوجه التسمية به لما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ ﴾ [التوبة :

111] الآية ، وقيل هي كنيسة اليهود .

وقرأ أهل المدينة .

ويعقوب ﴿ وَلَوْلاَ ﴾ بالألف .

وقرأ الحرميان .

وأيوب .

وقتادة .

وطلحة .

وزائدة عن الأعمش .

والزعفراني ﴿ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ ﴾ بالتخفيف ، والتضعيف باعتبار كثرة المواضع .

﴿ وصلوات ﴾ جمع صلاة وهي كنيسة اليهود ، وقيل : معبد للنصارى دون البيعة والأول أشهر ، وسميت الكنيسة بذلك لأنها يصلى فيها فهي مجاز من تسمية المحل باسم الحال ، وقيل : هي بمعناها الحقيقي وهدمت بمعنى عطلت أو في الكلام مضاف مقدر وليس بذاك ، وقيل : ﴿ صلوات ﴾ معرب صلوثا بالثاء المثلثة والقصر ومعناها بالعبرانية المصلى .

وروى عن أبي رجاء .

والجحدري .

وأبي العالية .

ومجاهد أنهم قرأوا بذلك .

(57/525)

والظاهر أنه على هذا القول اسم جنس لا علم قبل التعريب وبعده لكن ما رواه هرون عن أبي عمرو من عدم تنوينه ومنع صرفه للعلمية والعجمة يقتضي أنه علم جنس إذ كونه اسم موضع بعينه كما قيل بعيد فعليه كان ينبغي منع صرفه على القراءة المشهورة فلذا قيل إنه صرف لمشابهته للجمع لفظاً فيكون كعرفات ، والظاهر أنه نكر إذ جعل عاماً لما عرب ، وأما القول بأن القائل به لا ينونه فتكلف قاله الخفاجي .

وقرأ جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما ﴿ صلوات ﴾ بضم الصاد واللام ، وحكى عنه ابن خالويه بكسر الصاد وسكون اللام وحكيت عن الجحدري ، وحكى عنه أيضاً ﴿ صلوات ﴾ بضم الصاد وفتح اللام وحكيت عن الكلبي ، وقرأ أبو العالية في رواية ﴿ صلوات ﴾ بفتح الصاد وسكون اللام ، وقرأ الحجاج بن يوسف ﴿ صلوات ﴾ بضم الصاد واللام من غير ألف وحكيت عن الجحدري أيضاً ، وقرأ مجاهد ﴿ صلوتا ﴾ بضمتين وتاء مثناة بعدها ألف ، وقرأ الضحاك .

والكلبي ﴿ صلوث ﴾ بضمتين من غير ألف وبثاء مثلثة ، وقرأ عكرمة ﴿ صلويثا ﴾ بكسر الصاد وإسكان اللام وواو مكسورة بعدها ياء بعدها ثاء مثلثة بعدها ألف ، وحكى عن الجحدري أيضاً ﴿ صلوث ﴾ بضم الصاد وسكون اللام وواو مفتوحة بعدها ألف بعدها ثاء مثلثة ، وحكى عن مجاهد أنه قرأ كذلك إلا أنه بكسر الصاد ، وحكى ابن خالويه .

وابن عطية عن الحجاج .

(58/525)

والجحدري ﴿ صلوب ﴾ بضمتين وباء موحدة على أنه جمع صليت كظريف وظروف وجمع فعيل على فعول شاذ فهذه عدة قراآت قلما يوجد مثلها في كلمة واحدة ﴿ وصلوات ومساجد ﴾ جمع مسجد وهو معبد معروف للمسلمين ، وخص بهذا الاسم اعتناء بشأنه من حيث أن السجود أقرب ما يكون العبد فيه إلى ربه عز وجل ، وقيل : لاختصاص السجود في الصلاة بالمسلمين ، ولد بقوله تعالى : ﴿ العالمين يا مريم اقنتى لِرَبّكِ واسجدى واركعى ﴾ [آل عمران : 43] مع الراكعين وحمل السجود فيها على المعنى اللغوي بعيد ، وقال ابن عطية : الأسماء المذكورة تشترك الأمم في مسمياتها إلا البيعة فإنها مختصة

بالنصارى في عرف كل لغة ، والأكثرون على أن الصوامع للرهبان والبيع للنصارى والصلوات لليهود والمساجد للمسلمين .

ولعل تأخير ذكرها مع أن الظاهر تقديمها لشرفها لأن الترتيب الوجودي كذلك أو لتقع في جوار مدح أهلها أو للتبعيد من قرب التهديم ، ولعل تأخير ﴿ صلوات ﴾ عن ﴿ بَيْعٌ ﴾ مع مخالفة الترتيب الوجودي له للمناسبة بينها وبين المساجد كذا قيل ، وقيل إنما جيء بهذه المتعبدات على هذا النسق للانتقال من شريف إلى أشرف فإن البيع أشرف من الصوامع لكثرة العباد فيها فإنها معبد للرهبان وغيرهم والصوامع معبد للرهبان فقد وكنائس اليهود أشرف من البيع لأن حدوثها أقدم وزمان العبادة فيها أطول ، والمساجد أشرف من الجميع لأن الله تعالى قد عبد فيها بما لم يعبد به في غيرها .

ولعل المراد من قوله تعالى : ﴿ لَّهُدِّمَتْ ﴾ الخ المبالغة في ظهور الفساد ووقوع الاختلال في أمر العباد لولا تسليط الله تعالى المحقين على المبطلين لا مجرد تهديم متعبدات للملليين ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً ﴾ في موضع الصفة لمساجد ، وقال الضحاك : ومقاتل .

(59/525)

والكلبي : في موضع الصفة للجميع واستظهره أبو حيان ، وكون كون بيان ذكر الله عز وجل في الصوامع والبيع والكنائس بعد انتساخ شرعيتها مما لا يقتضيه المقام ليس بشيء لأن الانتساخ لا ينافي بقاءها ببركة ذكر الله تعالى فيها مع أن معنى الآية عام لما قبل الانتساخ كما مر .

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ وبالله أي لينصرن الله تعالى من ينصر دينه أو من ينصر أولياءه ولقد أنجز الله تعالى وعده حيث سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ ﴾ على كل ما يريده من مراداته التي من جملتها نصرهم ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يمانعه شيء ولا يدافعه .

﴿ الذين إِنْ مكناهم فِى الأرض أَقَامُواْ الصلاة وَءاتَوُاْ الذين إِنْ مكناهم فِى الأرض أَقَامُواْ ﴾

وصف للذين أخرجوا مقطوع أو غير مقطوع .

وجوز أن يكون بدلاً ، والتمكين السلطنة ونفاذ الأمر ، والمراد بالأرض جنسها ، وقيل مكة ، والمراد بالصلاة الصلاة المكتوبة وبالزكاة الزكاة المفروضة وبالمعروف التوحيد وبالمنكر الشرك على ما روى عن زيد بن أسلم .

ولعل الأولى في الأخيرين التعميم ، والوصف بما ذكر كما روى عن عثمان رضي الله تعالى عنه ثناء قبل بلاء يعني أن الله تعالى أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا قالوا : وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين وذلك على ما في "الكشف" لأن الآية مخصوصة بالمهاجرين لأنهم المخرجون بغير حق والممكنون في الأرض منهم الخلفاء دون غيرهم فلو لم تثبت الأوصاف الباقية لزم الخلف في المقال تعالى الله سبحانه عنه لدلالته على أن كل ممكن منهم يلزمه التوالي لعموم اللفظ ، ولما كان التمكين واقعاً تم الاستدلال دون نظر إلى استدعاء الشرطية الوقوع كالكلام المقرون بلعل وعسى من العظماء فإن لزوم التالي مقتضى اللفظ لا محالة ولما وقع المقدم لزم وقوعه أيضاً ، وفي ثبوت التالي ثبوت حقية الخلافة البتة وهي واردة على صيغة الجمع المنافية للتخصيص بعلي وحده رضي الله تعالى عنه ، وعن الحسن .

وأبي العالية هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم والأولى على هذا أن يجعل الموصول بدلاً من قوله تعالى : ﴿ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج : 40] كما أعربه الزجاج ، وكذا يقال على ما روى عن ابن عباس أنهم المهاجرون والأنصار والتابعون ، وعلى ما روى عن أبي نجيح أنهم الولاة .

وأنت تعلم أن المقام لا يقتضي إلا الأول ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ خاصة ﴿ عاقبة الأمور ﴾ فإن

مرجعها إلى حكمه تعالى وتقديره فقط ، وفيه تأكيد للوعد بإعلاء كلمته وإظهار أوليائه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(61/525)

وقال الشوكانى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

قرأ أبو عمرو وابن كثير : " يدفع " وقرأ الباقون : ﴿ يدافع ﴾ وصيغة المفاعلة هنا مجرّدة عن معناها الأصلي ، وهو وقوع الفعل من الجانبين كما تدلّ عليه القراءة الأخرى .

وقد ترد هذه الصيغة ولا يراد بها معناها الأصلي كثيراً مثل : عاقبت اللصّ ونحو ذلك ، وقد قدّمنا تحقيقه .

وقيل : إن إيراد هذه الصيغة هنا للمبالغة .

وقيل : للدلالة على تكرر الواقع .

والمعنى : يدافع عن المؤمنين غوائل المشركين .

وقيل : يعلي حجتهم .

وقيل : يوفقهم .

والجملة مستأنفة لبيان هذه المزية الحاصلة للمؤمنين من ربّ العالمين ، وأنه المتولي للمدافعة عنهم ، وجملة : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ مقرّرة لمضمون الجملة الأولى ، فإن المدافعة من الله لهم عن عباده المؤمنين مشعرة أتمّ إشعار بأنهم مبغضون إلى الله غير محبوبين له .

قال الزجاج : من ذكر غير اسم الله وتقرّب إلى الأصنام بذبيحته فهو خوّان كفور ، وإيراد صيغتي المبالغة للدلالة على أنهم كذلك في الواقع لا لإخراج من خان دون خيانتهم ، أو كفر دون كفرهم .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يقاتلون بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ قرىء : " أذن " مبنياً للفاعل ومبنياً للمفعول وكذلك " يقاتلون " ، قرىء مبنياً للفاعل ومبنياً للمفعول ، وعلى كلا القراءتين فالإذن من الله سبحانه لعباده المؤمنين بأنهم إذا صلحوا للقتال ، أو قاتلهم المشركون قاتلوهم .

قال المفسرون : كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بألسنتهم وأيديهم ، فيشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول لهم : " اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر " ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية بالمدينة ، وهي أوّل آية نزلت في القتال .

وهذه الآية مقرّرة أيضاً لمضمون قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ ﴾ فإن إباحة القتال لهم هي من جملة دفع الله عنهم ، والباء في : ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ للسببية ، أي بسبب أنهم ظلموا بما كان يقع عليهم من المشركين من سب وضرب وطرد .

ثم وعدهم سبحانه النصر على المشركين ، فقال : ﴿ وَإِنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وفيه تأكيد لما مرّ من المدافعة أيضاً .

ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن ديارهم بِغَيْرِ حَقّ ﴾ ويجوز أن يكون بدلاً من الذين يقاتلون ، أو في محل نصب على المدح ، أو محل رفع بإضمار مبتدأ ، والمراد بالديار : مكة ﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله ﴾ قال سيبويه : هو استثناء منقطع ، أي لكن لقولهم : ربنا الله أي أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم لكن لقولهم : ربنا الله .

وقال الفراء والزجاج : هو استثناء متصل ، والتقدير : الذين أخرجوا من ديارهم بلا حق إلا بأن يقولوا : ربنا الله ، فيكون مثل قوله سبحانه : ﴿ هل تنقمون منا إلا آمنا بالله ﴾ [المائدة : 59] وقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . . بهن فلول من قراع الكتائب

﴿ وَلَوْلاَ دفع الله الناس ﴾ قرأ نافع : " ولولا دفاع " وقرأ الباقون : ﴿ ولولا دفع ﴾ والمعنى : لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك ،

وذهبت مواضع العبادة من الأرض ، ومعنى ﴿ لَّهُدِّمَتْ ﴾ : لخربت باستيلاء أهل الشرك على أهل الملل .

فالصوامع : هي صوامع الرهبان .

وقيل : صوامع الصابئين ، والبيع : جمع بيعة ، وهي كنيسة النصارى ، والصلوات : هي كنائس اليهود ، واسمها بالعبرانية صلوثا بالمثلثة فعربت ، والمساجد هي مساجد المسلمين ، وقيل : المعنى : لولا هذا الدفع لهدّمت في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفي زمن محمد المساجد .

قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل في تأويل الآية .

(63/525)

وقيل : المعنى : ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة .

وقيل : لولا دفع الله العذاب بدعاء الأخيار .

وقيل : غير ذلك .

والصوامع : جمع صومعة ، وهي بناء مرتفع ، يقال : صمع الثريدة : إذا رفع رأسها ، ورجل أصمع القلب ، أي حادّ الفطنة ، والأصمع من الرجال : الحديد القول .

وقيل : الصغير الأذن .

ثم استعمل في المواضع التي يؤذن عليها في الإسلام ، وقد ذكر ابن عطية في ﴿ صلوات ﴾ تسع قراءات ، ووجه تقديم مواضع عبادات أهل الملل على موضع عبادة المسلمين كونها أقدم بناء وأسبق وجوداً .

والظاهر من الهدم المذكور معناه الحقيقي كما ذكره الزجاج وغيره .

وقيل : المراد به المعنى المجازي ، وهو تعطلها من العبادة ، وقرىء : ﴿ لهدّمت ﴾ بالتشديد ، وانتصاب ﴿ كثيراً ﴾ في قوله : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف أي : ذكراً كثيراً ، أو وقتاً كثيراً ، والجملة صفة للمساجد ؛ وقيل : لجميع المذكورات .

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ ﴾ اللام هي جواب لقسم محذوف ، أي والله لينصر الله من ينصره ، والمراد بمن ينصر الله : من ينصر دينه وأولياءه .

والقويّ : القادر على الشيء ، والعزيز : الجليل الشريف قاله الزجاج .

وقيل : الممتنع الذي لا يرام ولا يدافع ولا يمانع ، والموصول في قوله : ﴿ الذين إِنْ مكناهم فِي الأرض ﴾ في موضع نصب صفة لمن في قوله : ﴿ من ينصره ﴾ قاله الزجاج : وقال غيره : هو في موضع جرّ صفة لقوله : ﴿ للذين يقاتلون ﴾ .

وقيل : المراد بهم : المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان .

وقيل : أهل الصلوات الخمس .

وقيل : ولاة العدل .

وقيل : غير ذلك ، وفيه إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من مكنه الله في الأرض وأقدره على القيام بذلك ، وقد تقدّم تفسير الآية ، ومعنى ﴿ وَلِلَّهِ عاقبة الأمور ﴾ : أن مرجعها إلى حكمه وتدبيره دون غيره .

(64/525)

وقد أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد ، والترمذي وحسنه ، والنسائي وابن ماجه والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : لما أخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكنّ القوم ، فنزلت : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يقاتلون بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ الآية .

قال ابن عباس : وهي أوّل آية نزلت في القتال .

قال الترمذي : حسن ، وقد رواه غير واحد عن الثوري ، وليس فيه ابن عباس .

انتهى .

وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن ديارهم ﴾ أي من مكة إلى المدينة بغير حق ، يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان قال : فينا نزلت هذه الآية : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن ديارهم بِغَيْرِ حَقّ ﴾ والآية بعدها ، أخرجنا من ديارنا بغير حق ، ثم مكنّاهم في الأرض أقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فهي لي ولأصحابي .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب قال : إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب محمد : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس ﴾ الآية قال : لولا دفع الله بأصحاب محمد عن التابعين لهدّمت صوامع .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَّهُدّمَتْ صوامع ﴾ الآية قال : الصوامع التي تكون فيها الرهبان ، والبيع : مساجد اليهود وصلوات : كنائس النصارى ، والمساجد : مساجد المسلمين .

وأخرجا عنه قال : البيع : بيع النصارى ، وصلوات : كنائس اليهود .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ الذين إِنْ مكناهم فِي الأرض ﴾ قال : أرض المدينة ﴿ الذين إِنْ ﴾ قال : المكتوبة ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ قال : المفروضة ﴿ وَأَمَرُواْ بالمعروف ﴾ قال : بلا إله إلا الله ﴿ وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر ﴾ قال : عن الشرك بالله ﴿ وَلِلَّهِ عاقبة الأمور ﴾ قال : وعند الله ثواب ما صنعوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(66/525)

وقال القاسمى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

كلام مستأنف ، مسوق لتوطين قلوب المؤمنين ، ببيان أن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم ، بحيث لا يقدرون على صدهم عن الحج ، ليتفرغوا إلى أداء مناسكه . كذا قاله أبو السعود . وسبقه الرازي إليه . والأوْلى أن يقال : إنه طليعة لما بعده من الإذن بالقتال ، مبشرة بغاية النصرة والحفظ والكلاءة والعاقبة للمؤمنين . تشجيعاً لهم على قتال من ظلمهم ، وتشويقاً إلى استخلاص بيته الحرام ، ليتسنى لهم إقامة شعائره وأداء مناسكه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ أي : في أمانة الله : ﴿ كَفُورٍ ﴾ أي : لنعمته بعبادته غيره ، فلا يرتضي فعلهم ولا ينصرهم . وصيغة المبالغة فيهما ، لأنه في حق المشركين ، وهم كذلك ولأن خيانة أمانة الله وكفران نعمته لا يكون حقيراً ، بل هو أمر عظيم .

(67/525)

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ أي : يقاتلهم المشركون . والمأذون فيه محذوف ، لدلالة المذكور عليه . وقرئ بكسر التاء ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ أي : بغير حق سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتمكين ، لا موجب الإخراج والتسيير . ومثله : ﴿ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ [المائدة : 59] ، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم .

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ أي : لولا كفه تعالى المشركين بالمسلمين ، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين ، لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم ، وعلى متعبداتهم فهدموها .

قال ابن جرير : ومنه كفه تعالى ببعضهم التظالم . كالسلطان الذي كف به رعيته عن التظالم بينهم ومنه كفه تعالى لمن أجاز شهادته بينهم ببعضهم عن الذهاب بحق من له قبله حق . ونحو ذلك . وكل ذلك دفع منه الناس بعضهم عن بعض . لولا ذلك لتظالموا . فهدم القاهرون صوامع المقهورين وبيعهم ، وما سمى جل ثناؤه . والصوامع : مباني الرهبانية لخلوتهم . والبيع : معابد النصارى . والصلوات : روي عن ابن عباس أنه عنى بها كنائس اليهود . سميت بها لأنها محلها . وقيل هي بمعناها الحقيقي . وهدمت : بمعنى عطلت . أو فيه مضاف مقدر : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ أي : ينصر دينه وأولياءه .

قال القاضي : وقد أنجز الله وعده ، بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ أي : مرجعها إلى حكمه وتقديره . وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 262. 264 ﴾

(68/525)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة دعت إلى تعظيم شعائر اللّه ومناسكه ، وإلى ذكر اسم اللّه على بهيمة الأنعام ، وإلى إطعام القانع والمعترّ منها . .

وهذا لا يقوم على تعظيمه والوفاء به ، إلّا أهل الإيمان والتقوى. فناسب هذا أن يذكر ما للمؤمنين المتقين عند اللّه من فضل وإحسان ، وأنهم جند اللّه ، يدافع اللّه عنهم ، وينصرهم . .

(69/525)

. وفى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا » . . إشارة إلى أن المؤمنين معرضون للابتلاء من أعداء اللّه ، الذين يكيدون لهم ، ويريدونهم على أن يكونوا معهم ، وألا يخرجوا عن طريقهم . ولكن اللّه سبحانه وتعالى « يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا » فيربط على قلوبهم ، ويثبت أقدامهم على طريق الهدى ، ويمدهم بالصبر على احتمال المكروه . . وهذا أشبه بالدروع الحصينة التي تتكسر عليها ضربات أهل الباطل والكفر . . إنها أمداد من اللّه ، وأدوات من أدوات الدفاع . . ثم ينتهى الأمر بانحسار جبهة الضلال ، واندحار أهله ،

وغلبة الإيمان وانتصار المؤمنين : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » (21 : المجادلة) .

وأنت ترى . أن دفاع اللّه عن المؤمنين ، إنما يكون والمؤمنون فى مواطن الإيمان ، وفى ميدان المعركة .

وهذا يعنى أن المؤمن الذي يستسلم لعدوّ اللّه وعدوّ المؤمنين ، لا يكون فى ميدان المعركة ، ومن ثمّ فلا يكون من اللّه دفاع عنه ، إذ لا معركة قائمة بينه وبين عدوّه . .

ومن هنا ، كان واجبا على المؤمن الذي يطمع فى دفاع اللّه عنه ، ألا يلقى السلاح .

من يده ، وألا يفرّ من الميدان . . سواء أكان ذلك ميدان حرب ، أو ميدان رأى ، ودعوة إلى اللّه . .

. وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ » . هو تهديد للكافرين ، الذين خانوا عهد اللّه وميثاقه الذي واثقهم به وهم فى أصلاب آبائهم ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا » (172 : الأعراف) .

ثم إنهم بعد هذا قد كفروا بما جاءهم من آيات اللّه على يد رسله ، وكذبوا بها . .

فهم لهذا فى معرض السخط من الله . . « لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ » (174 : البقرة) .

قوله تعالى :

« أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ » . .

أذن لهم : أي أبيح لهم القتال ، دفاعا عن النفس . .

أي أن الله سبحانه وتعالى ، قد أذن المسلمين الذين بدأهم أعداؤهم وأعداء الله بالقتال.

قد أذن لهم أن يقاتلوا ، وأن يدفعوا يد البغي والعدوان عنهم . .

فهذا قتال مشروع ، بل إنه واجب ، إذ كان فيه تقليم لأظفر الطغيان وخضد لشوكة الطغاة . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ » (179 : البقرة) ويقول : « فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ » (194 : البقرة) . .

أما الاستسلام للبغى ، والسكوت على الظلم ، فهو تمكين للشرّ ، وتدعيم لبنائه ، وإطلاق ليده ، يضرب بها كيف يشاء فى مواقع الحق ، ومواطن الخير . .

إن البغي ، والظلم ، والعدوان . . كلها وجوه منكرة من وجوه المنكر ، ومطلوب من كل مؤمن بالله أن يدفع المنكر بكل ما ملكت يده ، ووسع جهده . .

وقتال المؤمنين ، والعدوان عليهم ، بإراقة دمائهم وإزهاق أرواحهم ، هو أنكر المنكر ، وإنه

لفرض على كل مؤمن أن يردّ هذا المنكر ، ويخمد أنفاسه ، ويقدم نفسه قربانا للّه فى سبيل الدفاع عن دين اللّه ، وعن ينابيع الرحمة والخير المتدفقة منه .

- وفى قوله تعالى : « بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا » هو تعليل للإذن الذي أذن فيه للمؤمنين بالقتال . .

والمعنى : أنه قد أذن اللّه للذين يقاتلون أن يقاتلوا من يقاتلهم ، بسبب أنهم ظلموا بالتعدّى عليهم ، وبمبادأتهم بالقتال . . فهو قتال دفاع منهم ، لا قتال هجوم . . ولهذا ، فإنهم مؤيّدون بنصر اللّه ، « وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ » .

(71/525)

إذ في يده سبحانه القوى كلها ، وإنه لا غالب للّه . . وفى هذا تحريض للمظلوم - وإن كان ضعيفا - أن ينتصف ممن ظلمه ، فإنه على وعد بنصر اللّه له .

قوله تعالى : « الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ . . إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

هو بيان الحال هؤلاء الذين أذن اللّه لهم أن يقاتلوا . . فقوله تعالى :

« الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ » - هو بدل من قوله تعالى : «

لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ » فهؤلاء الذين يقاتلون ، وأذن لهم فى قتال مقاتليهم - هم أولئك المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم ظلما وعدوانا « بِغَيْرِ حَقٍّ » . . فإنهم لم يجنوا على أحد ، ولم يكرهوا أحدا على أمر ، وإنما كل جنايتهم - إن كانت هناك جناية - هى إيمانهم بالله ، وقولهم ربنا الله الواحد ، الذي لا شريك له . . فهل فى هذا عدوان على أحد ، أو ضرر يعود على أحد ؟ . ولكنّ أهل الضلال والبغي ينظرون بعيون مريضة ، ويحكمون على الأمور بعقول فاسدة ، فيرون النور ظلاما ، والخير شرا ، والإحسان إساءة . .

(72/525)

- وقوله تعالى : « وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً » . . هو إشارة إلى هذا الصدام الذي يقوم بين أهل الشر والضلال ، وأهل الخير والإيمان ، وأنه لولا أهل الخير والإيمان ، ووقوفهم فى وجه الضالين والباغين - لما قام لله دين على هذه الأرض ، ولغلب الشر الضلال ، ولأتى على كل صالحة فى هذه الدنيا ، ولخربت بيوت العبادة التي أقامها المؤمنون لعبادة الله من « صَوَامِعُ » وهى بيوت عبادة الرهبان من النصارى ، « وَبِيَعٌ » وهى بيوت عبادة النصارى عامة ، « وَصَلَوَاتٌ » وهى بيوت عبادة اليهود ، « وَمَسَاجِدُ » وهى بيوت عبادة المسلمين . .

ومن أجل هذا ، فقد أقام اللّه سبحانه وتعالى ، فى كل ملة ، وفى كل أمّة ، جماعة مؤمنة ، تقيم شرع اللّه ، وتحيى شعائره ، وتعمر بيوته ، وتحتمل فى سبيل هذا ما تحتمل من بلاء ، فى دفع الظالمين ، وردع الباغين . .

فهذا الصّدام القائم بين الهدى والضلال ، وبين المهتدين والضّالّين ، هو سنّة من سنن اللّه ، التي أقام حياة الناس عليها ، والتي كان من ثمارها أن قامت بيوت اللّه ، وعمرت بالمؤمنين الذاكرين اللّه كثيرا فيها . .

وفى هذا دعوة المؤمنين - فى صدر الدعوة الإسلامية خاصة - أن يكونوا جند اللّه فى هذه الأرض ، والحماة المدافعين عن دينه ، والمقيمين مساجده ، والمعمّرين ساحاتها بذكر اللّه فيها . .

وفى هذا أيضا إشارة إلى أنه سيكون للمسلمين مساجد ، وأن هذه المساجد ستعمر بالمصلين والذاكرين اللّه كثيرا فيها . . وهو وعد كريم من ربّ كريم ، لجماعة المؤمنين يومئذ . . وقد تحقق هذا الوعد - وكان لا بد أن يتحقق - فملأت المساجد آفاق الأرض ، وامتلأت بالمصلين ، واهتزت جنباتها بالذاكرين .

(73/525)

قوله تعالى : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » هو وعد منه سبحانه وتعالى بالنصر للمؤمنين ، الذين نصروا اللّه ، وجاهدوا فى سبيله . . إنهم نصروا اللّه إذ نصروا دينه ، فكان حقّا على اللّه أن ينصرهم ، كما يقول سبحانه : كَانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » (47 : الروم) .

وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » هو توكيد ، بعد توكيد لهذا الوعد الذي وعده اللّه المؤمنين بالنصر ، إذا هم نصروا اللّه ، ودافعوا عن دين اللّه . .

وليس وعد اللّه فى حاجة إلى توكيد ، عند المؤمنين باللّه ، ولكنه مبالغة فى تطمين القلوب ، وتثبيت الأقدام ، فى تلك الساعات التي تزيغ فيها الأبصار ، وتضطرب النفوس ، حين تلتقى جماعة المؤمنين ، فى أعدادها القليلة ، بحشود المشركين ، فى جحافلها الجرارة !

قوله تعالى :

« الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ » .

يمكن أن يكون الاسم الموصول : « الَّذِينَ » بدلا من الاسم الموصول فى قوله تعالى : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » كما يمكن أن يكون بدلا من الاسم الموصول « الَّذِينَ » فى قوله تعالى : « الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ » . .

وعلى أىّ فإن الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، هم الذين وعدوا بالنصر فى قوله تعالى

: « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » . .

فالذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، وهم المهاجرون - هم الذين وعدوا بالنصر ، لأنهم نصروا اللّه ، فخرجوا من ديارهم وأموالهم ، مهاجرين بدينهم الذي هو كل حظهم من هذه الدنيا ، والذي باعوا من أجله أنفسهم وأموالهم وديارهم وأوطانهم . .

(74/525)

وقوله تعالى : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ » - هو عرض للصورة الكريمة التي سيكون عليها هؤلاء المؤمنون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، وذلك حين ينصرهم اللّه ، ويمكّن لهم فى الأرض ، وتكون لهم القوة والغلب . .

إنهم - مع ما ملكت أيديهم من قوة ، وما مكّن اللّه سبحانه وتعالى لهم فى الأرض من سلطان - لن يكونوا على شاكلة هؤلاء الضالّين الذين كانت إلى أيديهم القوة والسلطان ، فتسلطوا على عباد اللّه ، ورهقوهم ، وأخذوهم بالبأساء والضراء ، وأخرجوهم من ديارهم بغير حق . .

إن هؤلاء المؤمنين ، حين يمكّن اللّه لهم فى الأرض ، سيكونون مصابيح هدى ، وينابيع رحمة

، للإنسانية كلها ، بما يقيمون فيها من موازين الحق ، والعدل ، وما يغرسون فى آفاقها من مغارس الخير والإحسان . . إنهم يقيمون الصلاة ، ليستمدوا منها أمداد الهدى من اللّه . . ويؤتون الزكاة ، فيكشفون بها الضرّ عن عباد اللّه . . ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . . فيصلحون بهذا من سلوك الناس ، ويقيمون لهم طرقهم مستقيمة ، فلا تتصادم منازعهم ، ولا تفسد مشاربهم . .

وقد صدق اللّه وعده ، ومكن سبحانه وتعالى للمؤمنين فى الأرض ، فكانوا أعلام هدى ، وآيات رحمة ، وموازين عدل وإحسان بين الناس . .

وكانوا كما وصفهم سبحانه بقوله : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » (110 : آل عمران) .

قوله تعالى : « وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ » . . إشارة إلى نفاد قدرة اللّه ، وأنها بالغة الغاية التي قدّرها اللّه لها فى هذا المقام ، وهى نصر المؤمنين ، وإعزازهم ، وخذلان المشركين والضالين ، وخزيهم . .

فعاقبة الأمور ، هى ثمراتها الطيبة ، إذ كانت الأمور كلها تجرى بأمر اللّه ، وتتحرك بمشيئته . . فإذا بلغت غايتها كانت خيرا ، وكانت كمالا ، وحسنا . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » (128 : الأعراف) وقوله سبحانه : « وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى » (132 : طه) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 9 صـ 1041.1048 ﴾

(76/525)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

استئناف بياني جواباً لسؤال يخطر في نفوس المؤمنين ينشأ من قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ﴾ الآية ، فإنه توعّد المشركين على صدّهم عن سبيل الله والمسجد الحرام بالعذاب الأليم ، وبشّر المؤمنين المخبِتين والمحسنين بما يتبادر منه ضد وعيد المشركين وذلك ثواب الآخرة .

وطال الكلام في ذلك بما تبعه لا جرم تشوفت نفوس المؤمنين إلى معرفة عاقبة أمرهم في الدنيا ، وهل يُنتصر لهم من أعدائهم أو يدّخر لهم الخير كله إلى الدار الآخرة .

فكان المقام خليقاً بأن يُطَمئنَ الله نفوسهم بأنه كما أعد لهم نعيم الآخرة هو أيضاً مدافع عنهم في الدنيا وناصرهم ، وحُذف مفعول ﴿ يدافع ﴾ لدلالة المقام .

فالكلام موجه إلى المؤمنين ، ولذلك فافتتاحه بحرف التوكيد إما لمجرد تحقيق الخبر ، وإما لتنزيل غير المتردد منزلة المتردّد لشدة انتظارهم النصر واستبطائهم إياه .

والتعبير بالموصول لما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الخبر وأن دفاع الله عنهم لأجل إيمانهم .

وقرأ الجمهور لفظ ﴿ يدافع ﴾ بألف بعد الدال فيفيد قوّة الدفع .

وقرأه أبو عمرو ، وابن كثير ، ويعقوب ﴿ يدفع ﴾ بدون ألف بعد الدال .

وجملة ﴿ إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ تعليل لتقييد الدفاع بكونه عن الذين آمنوا ، بأن الله لا يحب الكافرين الخائنين ، فلذلك يَدفع عن المؤمنين لردّ أذَى الكافرين : ففي هذا إيذان بمفعول ﴿ يدافع ﴾ المحذوف ، أي يدافع الكافرين الخائنين .

والخوّان : الشديد الخَوْن ، والخون كالخيانة ، الغدْر بالأمانة ، والمراد بالخوّان الكافر ، لأن الكفر خيانة لعهد الله الذي أخذه على المخلوقات بأن يوحدوه فجعله في الفطرة وأبلغه الناسَ على ألسنة الرسل فنبه بذلك ما أودعهم في فطرتهم .

(77/525)

والكفُور : الشديد الكفر : وأفادت (كلّ) في سياق النفي عمومَ نفي مَحبة الله عن جميع الكافرين إذ لا يحتمل المقام غير ذلك .

ولا يتوهم من قوله ﴿ لا يحب كل خوان ﴾ أنه يحب بعض الخوانين لأن كلمة (كلّ) اسم جامد لا يشعر بصفة فلا يتوهم توجه النفي إلى معنى الكلية المستفاد من كلمة ﴿ كل ﴾ وليس هو مثل قوله تعالى : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ [فصلت : 46] الموهم أن نفي قوّة الظلم لا يقتضي نفي قليل الظلم .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) ﴾

جملة وقعت بدل اشتمال من جملة : ﴿ إن الله يدافع ﴾ [الحج : 38] لأن دفاع الله عن الناس يكون تارة بالإذن لهم بمقاتلة من أراد الله مدافعتهم عنهم فإنه إذا أذن لهم بمقاتلتهم كان متكفلاً لهم بالنصر .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ﴿ أُذِن ﴾ بالبناء للنائب .

وقرأه الباقون بالبناء إلى الفاعل .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص ، وأبو جعفر ﴿ يقاتَلون ﴾ بفتح التاء الفوقية مبنياً إلى المجهول .

وقرأه البقية بكسر التاء مبنياً للفاعل .

والذين يقاتلون مراد بهم المؤمنون على كلتا القراءتين لأنهم إذا قوتلوا فقد قاتَلوا .

والقتال مستعمل في المعنى المجازي إما بمادته ، وإما بصيغة المضي .

فعلى قراءة فتح التاء فالمراد بالقتال فيه القتل المجازي ، وهو الأذى .

وأما على قراءة ﴿ يقاتِلون ﴾ بكسر التاء فصيغة المضي مستعملة مجازاً في التهيُّؤِ والاستعداد ، أي أذن للذين تَهَيّئوا للقتال وانتظروا إذن الله .

(78/525)

وذلك أنّ المشركين كانوا يُؤذون المؤمنين بمكة أذى شديداً فكان المسلمون يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه ، فيقول لهم : اصبروا فإني لم أومَر بالقتال ، فلما هاجر نزلت هذه الآية بعد بيعة العقبة إذناً لهم بالتهيُّؤ للدفاع عن أنفسهم ولم يكن قتال قبل ذلك كما يؤذن به قوله تعالى عقب هذا : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ [الحج : 40] .

والباء في ﴿ بأنهم ظلموا ﴾ أراها متعلقة بـ ﴿ أذن ﴾ لتضمينه معنى الإخبار ، أي أخبرناهم بأنهم مظلومون .

وهذا الإخبار كناية عن الإذن للدفاع لأنك إذا قلت لأحد : إنك مظلوم ، فكأنك استعديته على ظالمه ، وذكرته بوجوب الدفاع ، وقرينة ذلك تعقيبه بقوله : ﴿ وإن الله

على نصرهم لقدير ﴾ ، ويكون قوله : ﴿ بأنهم ظلموا ﴾ نائب فاعل ﴿ أذن ﴾ على قراءة ضم الهمزة أو مفعولاً على قراءة فتح الهمزة .

وذهب المفسرون إلى أن الباء سببية وأن المأذون به محذوف دل عليه قوله ﴿ يقاتلون ، ﴾ أي أُذن لهم في القتال .

وهذا يجري على كلتا القراءتين في قوله ﴿ يقاتلون ﴾ والتفسير الذي رأيتُه أنسبُ وأرشق .

وجملة ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ عطف على جملة ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ أي أذن لهم بذلك وذُكروا بقدرة الله على أن ينصرهم .

وهذا وعد من الله بالنصر وارد على سنن كلام العظيم المقتدر بإيراد الوعد في صورة الإخبار بأن ذلك بمحل العلم منه ونحوه ، كقولهم : عسى أن يكون كذا ، أو أن عندنا خيراً ، أو نحو ذلك ، بحيث لا يبقى للمترقب شك في الفوز بمطلوبه .

وتوكيد هذا الخبر بحرف التوكيد لتحقيقه أو تعريض بتنزيلهم منزلة المتردد في ذلك لأنهم استبطأوا النصر .

﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن ديارهم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله ﴾

بدل من ﴿ الذين يقاتلون ﴾ [الحج : 39] ، وفي إجراء هذه الصلة عليهم إيماء إلى أن المراد بالمقاتلة الأذى ، وأعظمه إخراجهم من ديارهم كما قال تعالى : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ [البقرة : 191] .

و﴿ بغير حق ﴾ حال من ضمير ﴿ أخرجوا ، ﴾ أي أخرجوا متلبسين بعدم الحق عليهم الموجِب إخراجهم ، فإن للمرء حقاً في وطنه ومعاشرة قومه ، وهذا الحق ثابت بالفطرة لأن من الفطرة أن الناشىء في أرض والمتولَّد بين قوم هو مساوٍ لجميع أهل ذلك الموطن في حق القرار في وطنهم وبين قومهم بالوجه الذي ثبت لجمهورهم في ذلك المكان من نشأة متقادمة أو قهر وغلبة لسكانه ، كما قال عمر بن الخطاب : "إنها لِبلاَدُهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الإسلام" .

ولا يزول ذلك الحق إلاّ بموجب قرره الشرّع أو العوائد قبل الشرع .

كما قال زُهير:

فإن الحق مقطعه ثلاث . . .

يمينٌ أو نِفار أو جَلاء

فمن ذلك في الشرائع التغريب والنّفي ، ومن ذلك في قوانين أهل الجاهلية الجلاء والخَلع ، وإنما يكون ذلك لاعتداء يعتديه المرء على قومه لا يجدون له مسلكاً من الردع غير ذلك .

ولذلك قال تعالى : ﴿ بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ فإن إيمانهم بالله لا ينجر منه اعتداء على غيرهم إذ هو شيء قاصر على نفوسهم والإعلان به بالقول لا يضر بغيرهم . فالاعتداء عليهم بالإخراج من ديارهم لأجل ذلك ظلم بَواح واستخدام للقوة في تنفيذ الظلم .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ استثناء من عموم الحق ، ولما كان المقصود من الحق حقاً يوجب الإخراج ، أي الحقَّ عليهم ، كان هذا الاستثناء مستعملاً على طريقة الاستعارة التهكمية ، أي إن كان عليهم حق فهو أن يقولوا ربنا الله ، فيستفاد من ذلك تأكيد عدم الحق عليهم بسبب استقراء ما قد يُتخيّل أنه حق عليهم .

وهذا من تأكيد الشيء بما يوهم نقضه .

ويسمى عند أهل البديع تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وشاهده قول النابغة:

(80/525)

ولا عَيب فيهم غير أنّ سيوفهم . . .

بِهِنّ فُلول من قِراع الكتائب

وهذه الآية لا محالة نزلت بالمدينة .

﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

اعتراض بين جملة ﴿ أُذِنَ للذين يقاتلون ﴾ [الحج : 39] الخ وبين قوله ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ﴾ [الحج : 41] الخ .

فلما تضمنت جملة ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ [الحج : 39] الخ الإذن للمسلمين بدفاع المشركين عنهم أُتبع ذلك ببيان الحكمة في هذا الإذن بالدفاع ، مع التنويه بهذا الدفاع ، والمتولّين له بأنه دفاع عن الحق والدين ينتفع به جميع أهل أديان التوحيد من اليهود والنصارى والمسلمين ، وليس هو دفاعاً لنفع المسلمين خاصة .

والواو في قوله ﴿ ولولا دفاع الله الناس ﴾ إلى آخره ، اعتراضية وتسمى واو الاستئناف ومفاد هذه الجملة تعليل مضمون جملة ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ [الحج : 39] الخ .

و ﴿ لولا ﴾ حرف امتناع لوجود ، أي حرف يدل على امتناع جوابه ، أي انتفائه لأجل وجود شرطه ، أي عند تحقق مضمون جملة شرطه فهو حرف يقتضي جملتين .

والمعنى : لولا دفاع الناس عن مواضع عبادة المسلمين لصري المشركون ولتجاوزوا فيه المسلمين إلى الاعتداء على ما يجاور بلادهم من أهل الملل الأخرى المناوية لملّة الشرك ولهَدَموا مَعَابدهم من صوامع ، وبِيَعٍ ، وصلوات ، ومساجد ، يذكر فيها اسم الله كثيراً ، قصداً منهم لمحو دعوة التوحيد ومحقاً للأديان المخالفة للشرك .

فذكر الصوامع ، والبِيَع ، إدماج لينتبهوا إلى تأييد المسلمين فالتّعريف في ﴿ النّاس ﴾ تعريف العهد ، أي الناس الذين يتقاتلون وهم المسلمون ومشركو أهل مكة .

(81/525)

ويجوز أن يكون المراد : لولا ما سبق قبل الإسلام من إذن الله لأمم التوحيد بقتال أهل الشرك (كما قاتل داوود جالوت ، وكما تغلّب سليمان على مَلِكَة سبأ) .

لَحق المشركون معالم التوحيد (كما محق بختنصر هيكل سليمان) فتكون هذه الجملة تذييلاً لجملة ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ [الحج : 39] ، أي أذن للمسلمين بالقتال كما أذن لأمم قبلَهم لكيلا يطغى عليهم المشركون كما طغوا على من قبلهم حين لم يأذن الله لهم بالقتال ، فالتعريف في ﴿ الناس ﴾ تعريف الجنس .

وإضافة الدفاع إلى الله إسناد مجازي عقلي لأنه أذن للناس أن يدفعوا عن معابدهم فكان إذن الله سبب الدفع .

وهذا يهيب بأهل الأديان إلى التألب على مقاومة أهل الشرك .

وقرأ نافع ، وأبو جعفر ، ويعقوب ﴿ دفاع .

﴿ وقرأ الباقون ﴿ دَفْع ﴾ بفتح الدال وبدون ألف .

و﴿ بعضهم ﴾ بدل من ﴿ الناسَ ﴾ بدل بعض .

و﴿ ببعض ﴾ متعلق بـ ﴿ دفاع ﴾ والباء للآلة .

والهدم : تقويض البناء وتسقيطه .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو جعفر ﴿ لهُدِمت ﴾ بتخفيف الدال .

وقرأه الباقون بتشديد الدال للمبالغة في الهدم ، أي لهدّمت هدْماً ناشئاً عن غيظ بحيث لا يبقون لها أثراً .

والصوامع : جمع صومعة بوزن فَوْعلة ، وهي بناء مستطيل مرتفع يصعُد إليه بدرج وبأعلاه بيت ، كان الرهبان يتّخذونه للعبادة ليكونوا بعداء عن مشاغلة الناس إياهم ، وكانوا يوقدون به مصابيح للإعانة على السهر للعبادة ولإضاءة الطريق للمارين .

من أجل ذلك سُمّيت الصومعة المنارة .

قال امرؤ القيس:

تضيء الظلام بالعشيّ كأنها . . .

مَنارة مُمْسَى رَاهب مُتَبتّل

والبِيَع : جمع بيعة بكسر الباء وسكون التحتية مكان عبادة النصارى ولا يعرف أصل اشتقاقها ، ولعلها معرّبة عن لغة أخرى .

والصلوات : جمع صلاة وهي هنا مراد بها كنائس اليهود معرّبة عن كلمة (صلوثا) (

بالمثلثة في آخره بعدها ألف) .

فلمّا عُربت جعلوا مكان المثلثة مثناة فوقية وجمعوها كذلك .

(82/525)

وعن مجاهد ، والجحدري ، وأبي العالية ، وأبي رجاء أنهم قرأوها هنا ﴿ وصلوات ﴾ بمثلثة في آخره .

وقال ابن عطية : قرأ عكرمة ، ومجاهد ﴿ صِلْويثا بكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الألف بعد الثاء (أي المثلثة كما قال القرطبي) وهذه المادة قد فاتت أهل اللغة وهي غفلة عجيبة .

والمساجد : اسم لمحل السجود من كل موضع عبادة ليس من الأنواع الثلاثة المذكورة قبله وقت نزول هذه الآية فتكون الآية نزلت في ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة حين بنَوا مسجدَ قباء ومسجد المدينة .

وجملة ﴿ يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ صفة والغالب في الصفة الواردة بعد جمل متعاطفة فيها أن ترجع إلى ما في تلك الجمل من الموصوف بالصفة .

فلذلك قيل برجوع صفة ﴿ يذكر فيها اسم الله ﴾ إلى ﴿ صوامع ، وبيع ، وصلوات ،

ومساجد ﴾ للأربعة المذكورات قبلها وهي معاد ضمير ﴿ فيها .

وفائدة هذا الوصف الإيماء إلى أن سبب هدمها أنها يذكر فيها اسم الله كثيراً ، أي ولا تذكر أسماء أصنام أهل الشرك فإنهم لما أخرجوا المسلمين بلا سبب إلا أنهم يذكرون اسم الله فيقولون ربنا الله ، لِمَحْو ذكرِ اسم الله من بلدهم لا جرم أنهم يهدمون المواضع المجعولة لذكر اسم الله كثيراً ، أي دون ذكر الأصنام .

فالكثرة مستعملة في الدوام لاستغراق الأزمنة ، وفي هذا إيماء إلى أن في هذه المواضع فائدة دينية وهي ذكر اسم الله .

قال ابن خويز منداد من أئمة المالكية (من أهل أواخر القرن الرابع) تضمنت هذه الآية المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبِيَعهم وبيوت نارهم أ هـ .

قلت : أما بيوت النار فلا تتضمن هذه الآية منع هدمها فإنها لا يذكر فيها اسم الله وإنما مَنع هدمَها عقدُ الذمة الذي ينعقد بين أهلها وبين المسلمين ، وقيل الصفة راجعة إلى مساجد خاصة .

(83/525)

وتقديم الصوامع في الذكر على ما بعده لأنّ صوامع الرهبان كانت أكثر في بلاد العرب من غيرها ، وكانت أشهر عندهم ، لأنهم كانوا يهتدون بأضوائها في أسفارهم ويأوون إليها ، وتعقيبها بذكر البيع للمناسبة إذ هي معابد النصارى مثل الصوامع .

وأما ذكر الصلوات بعدهما فلأنه قد تهيأ المقام لذكرها ، وتأخير المساجد لأنها أعم ، وشأن العموم أن يعقب به الخصوص إكمالاً للفائدة .

وقوله ولينصرن الله من ينصره ﴾ عطف على جملة ﴿ ولولا دفاع الله الناس ﴾ ، أي أمر الله المسلمين بالدفاع عن دينهم .

وضمن لهم النصر في ذلك الدفاع لأنهم بدفاعهم ينصرون دين الله ، فكأنهم نصروا الله ، ولذلك أكد الجملة بلام القسم ونون التوكيد .

وهذه الجملة تذييل لما فيها من العموم الشامل للمسلمين الذين أخرجهم المشركون .

وجملة ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ تعليل لجملة ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ ، أي كان نصرهم مضموناً لأنّ ناصرهم قدير على ذلك بالقوة والعزة .

والقوة مستعملة في القدرة : والعزّة هنا حقيقة لأنّ العزّة هي المنعة ، أي عدم تسلّط غير صاحبها على صاحبها .

بدل من ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ وما بينهما اعتراض .

فالمراد من ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ﴾ [الحج : 41] المهاجرون فهو ثناء على

المهاجرين وشهادة لهم بكمال دينهم .

وعن عثمان : "هذا والله ثناء قبل بَلاء" ، أي قبل اختبار ، أي فهو من الإخبار بالغيب الذي علمه الله من حالهم .

ومعنى ﴿ إن مكناهم في الأرض ﴾ [الحج : 41] أي بالنصر الذي وعدناهم في قوله : ﴿ إن الله على نصرهم لقدير ﴾ [الحج : 39] .

﴿ الذين إِنْ مكناهم فِى الأرض أَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكواة وَأَمَرُواْ بالمعروف وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر ﴾

(84/525)

ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ مَن ﴾ الموصولة في قوله : ﴿ من ينصره ﴾ [الحج : 40] فيكون المراد : كل من نصر الدين من أجيال المسلمين ، أي مكناهم بالنصر الموعود به إن نصروا دين الله : وعلى الاحتمالين فالكلام مسوق للتنبيه على الشكر على نعمة النصر بأن يأتوا بما أمر الله به من أصول الإسلام فإن بذلك دوامَ نصرهم ، وانتظام عقد جماعتهم ، والسلامة من اختلال أمرهم ، فإن حَادُوا عن ذلك فقد فرّطوا في ضمان نصرهم وأمرُهم إلى الله .

فأما إقامة الصلاة فلدلالتها على القيام بالدّين وتجديد لمفعوله في النفوس ، وأما إيتاء الزكاة فهو ليكون أفراد الأمة متقاربين في نظام معاشهم ، وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلتنفيذ قوانين الإسلام بين سائر الأمة من تلقاء أنفسهم .

والتمكين : التوثيق ، وأصله إقرار الشيء في مكان وهو مستعمل هنا في التسليط والتمليك ، والأرض للجنس ، أي تسليطهم على شيء من الأرض فيكون ذلك شأنهم فيما هو من ملكهم وما بسطت فيه أيديهم .

وقد تقدم قوله تعالى : ﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ في [سورة الأعراف : 10] ، وقوله : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ في [سورة يوسف : 56] .

والمراد بالمعروف ما هو مقرّر من شؤون الدين : إما بكونه معروفاً للأمة كلها ، وهو ما يعلم من الدين بالضرورة فيستوي في العلم بكونه من الدين سائرُ الأمة .

وإما بكونه معروفاً لطائفة منهم وهو دقائق الأحكام فيأمر به الذين من شأنهم أن يعلموه وهم العلماء على تفوت مراتب العلم ومراتب علمائه .

والمنكر : ما شأنه أن ينكر في الدين ، أي أن لا يُرضى بأنه من الدين .

وذلك كل عمل يدخل في أمور الأمة والشريعة وهو مخالف لها فعلم أن المقصود بالمنكر الأعمال التي يراد إدخالها في شريعة المسلمين وهي مخالفة لها ، فلا يدخل في ذلك ما يفعله الناس في شؤون عاداتهم مما هو في منطقة المباح ، ولا ما يفعلون في شؤون دينهم مما هو من نوع الدّيانات كالأعمال المندرجة تحت كليّات دينية ، والأعمال المشروعة بطريق القياس وقواعد الشريعة من مجالات الاجتهاد والتفقه في الدين .

والنهي عن المنكر آيل إلى الأمر بالمعروف وكذلك الأمر بالمعروف آيل إلى النهي عن المنكر وإنما جمعت الآية بينهما باعتبار أولِ ما تتوجه إليه نفوس الناس عند مشاهدة الأعمال ، ولتكون معرفة المعروف دليلاً على إنكار المنكر وبالعكس إذ بضدها تتمايز الأشياء ، ولم يزل من طرق النظر والحجاج الاستدلال بالنقائض والعكوس .

﴿ وَلِلَّهِ عاقبة الامور ﴾

عطف على جملة ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ [الحج : 40] ، أو على جملة ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ [الحج : 40] ، والمآل واحد ، وهو تحقيق وقوع النصر ، لأنّ الذي وعَد به لا يمنعه من تحقيق وعدَه مانع ، وفيه تأنيس للمهاجرين لئلا يستبطئوا النصر .

والعاقبة : آخر الشيء وما يعقُب الحاضرَ .

وتأنيثها لملاحظة معنى الحالة وصارت بكثرة الاستعمال اسماً .

وفي حديث هرقل " ثم تكون لهم العاقبة " .

وتقديم المجرور هنا للاهتمام والتنبيه على أن ما هو لله فهو يصرفه كيف يشاء . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(86/525)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذين آمنوا ﴾ .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه يدفع السوء عن عباده الذين آمنوا به إيماناً حقاً ، ويكفيهم شر أهل السوء ، وقد أشار إلى هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : 3] الآية . وقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : 36] وقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة : 14-15] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ ﴾ [غافر : 51] الآية . وقوله : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الروم : 47] وقوله : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 173] إلى غير ذلك من الآيات ، وقرأ هذا الحرف ابن كثير وأبو عمرو : ﴿ إِنَّ اللهَ يَدْفَعُ

عَنِ الذين آمنوا ﴾ بفتح الياء والفاء بينهما دال ساكنة مضارع دفع المجرد ، وعلى هذه القراءة ، فالمفعول محذوف أي يدفع عن الذين آمنوا الشر والسوء ، لأن الإيمان بالله هو أعظم أسباب دفع المكاره ، وقرأ الباقون : يدافع بضم الياء ، وفتح الدال بعدها ألف . وكسر الفاء مضارع دافع المزيد فيه ألف بين الفاء والعين على وزن فاعل . وفي قراءة الجمهور هذه إشكال معروف ، وهو أن المفاعلة تقتضي بحسب الوضع العربي اشتراك فاعلين في المصدر . والله جل وعلا يدفع كل ما شاء من غير أن يكون له مدافع يدفع شيئاً .

(87/525)

والجواب : هو ما عرف من أن المفاعلة قد ترد بمعنى المجرد ، نحو : جاوزت المكان بمعنى جزته ، وعاقبت اللص ، وسافرت ، وعافاك الله ، ونحو ذلك ، فإن فاعل في جميع ذلك بمعنى المجرد ، وعليه فقوله : يدافع بمعنى : يدفع . كما دلت عليه قراءة ابن كثير وأبي عمرو ، وقال الزمخشري : ومن قرأ يدافع فمعناه : يبالغ في الدفع عنهم كما يبالغ من يغالب فيه لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ اه منه ، ولا يبعد عندي أن يكون وجه المفاعلة أن الكفار يستعملون كل ما في إمكانهم لإضرارهم بالمؤمنين ، وإيذائهم ، والله جل وعلا يدفع كيدهم عن المؤمنين ، فكان دفعه جل وعلا لقوة عظيمة أهلها في طغيان شديد ، يحاولون إلحاق

الضرر بالمؤمنين وبهذا الاعتبار كان التعبير بالمفاعلة ، في قوله : يدافع ، وإن كان جل وعلا قادراً على إهلاكهم ، ودفع شرهم عن عبادة المؤمنين ، ومما يوضح هذا المعنى الذي أشرنا إليه قول كعب بن مالك رضي الله عنه :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها . . . وليغلبن مغالب الغلاب

والعلم عند الله تعالى : ومفعول يدافع : محذوف فعلى القول بأنه بمعنى : يدفع فقد ذكرنا تقديره ، وعلى ما أشرنا إليه أخيراً فتقدير المفعول : يدافع عنهم أعداءهم ، وخصومهم فيرد كيدهم في نحورهم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ .

(88/525)

صرح جل وعلا في هذه الآية الكريمة : بأنه لا يحب كل خوان كفور . والخوان والكفور كلاهما صيغة مبالغة ، لأن الفعال بالتضعيف والفعول بفتح الفاء من صيغ المبالغة ، والمقرر في علم العربية أن نفي المبالغة في الفعل لا يستلزم نفي أصل الفعل ، فلو قلت : زيد ليس بقتال للرجال فقد نفيت مبالغته ، في قتلهم ، ولم يستلزم ذلك أنه لم يحصل منه قتل لبعضهم ولكنه لم يبالغ في القتل ، وعلى هذه القاعدة العربية المعروفة ، فإن الآية قد صرحت بأن الله لا يحب

المبالغين في الكفر والمبالغين في الخيانة ، ولم تتعرض لمن يتصف بمطلق الخيانة ومطلق الكفر من غير مبالغة فيهما ، ولا شك أن الله يبغض الخائض مطلقاً ، والكافر مطلقاً ، وقد أوضح جل وعلا ذلك في بعض المواضع ، فقال في الخائن :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فانبذ إِلَيْهِمْ على سَوَآءٍ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الخائنين ﴾ [الأنفال : 58] وقال في الكافر : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ الله والرسول فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ [آل عمران : 33] .

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39)

(89/525)

متعلق أذن محذوف في هذه الآية الكريمة : أي أذن لهم في القتال بدليل قوله : يقاتلون ، وقد صرح جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه أذن للذين يقاتلون وهم النَّبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ودل قوله : يقاتلون : على أن المراد من يصلح للقتال منهم دون من لا يصلح له ، كالأعمى والأعرج والمريض والضعيف والعاجز عن السفر للجهاد لفقره بدليل قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض ﴾ [النور : 61 والفتح : 17] الآية . وقوله جل وعلا : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضعفآء وَلاَ على المرضى وَلاَ عَلَى

الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ للَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة : 91] وقوله : ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ الباء فيه سببية وهي من حروف التعليل ، كما تقرر في مسلك النص الظاهر من مسالك العلة . وهذه الآية هي أول آية نزلت في الجهاد كما قال به جماعات من العلماء ، وليس فيها من أحكام الجهاد إلا مجرد الإذن لهم فيه ولكن قد جاءت آيات أخر دالة على أحكام أخر زائدة على مطلق الإذن فهي مبينة عدم الاقتصار ، على الإذن كما هو ظاهر ههذ الآية . وقد قالت جماعة من أهل العلم : إن الله تبارك وتعالى لعظم حكمته في التشريع ، إذ أراد أن يشرع أمراً شاقاً على النفوس كان تشريعه على سبيل التدريج ، لأن إلزامه بغتة في وقت واحد من غير تدريج فيه مشقة عظيمة ، على الذين كلفوا به قالوا فمن ذلك الجهاد ، فإنه أمر شاق على النفوس لما فيه من تعريضها لأسباب الموت ، لأن القتال مع العدو الكافر القوي من أعظم أسباب الموت عادة ، وإن كان الأجل محدوداً عند الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً ﴾ [آل عمران : 145] وقد بين تعالى مشقة إيجاب الجهاد عليهم ، بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين قِيلَ لَهُمْ

(90/525)

كفوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتال إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ الناس كَخَشْيَةِ الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القتال لولا أَخَّرْتَنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ [النساء : 77] ومع تعريض النفوس فيه لأعظم أسباب الموت ، فإنه ينفق فيه الملل أيضاً كما قال تعالى : ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [الصف : 11] قالوا : ولما كان الجهاد فيه هذا من المشقة ، وأراد الله تشريعه شرعه تدريجاً ، فأذن فيه أولاً من غير إيجاب بقوله : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ الآية . ثم لما استأنست به نفوسهم بسبب الإذن فيه ، أوجب عليهم قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم بقوله : ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله الذين يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تعتدوا ﴾ [البقرة : 190] الآية . وهذا تدريج من الإذن إلى نوع خاص من الإيجاب ، ثم لما استأنست نفوسهم بإيجابه في الجملة أوجبه عليهم إيجاباً عاماً جازماً في آيات من كتابه كقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ واحصروهم واقعدوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة : 5] وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ [التوبة : 36] وقوله : ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ [الفتح : 16] إلى غير ذلك من الآيات .

واعلم : أن لبعض أهل العلم في بعض الآيات التي ذكرنا أقوالاً غير ما ذكرنا . ولكن هذا التدريج الذي ذكرنا دل عليه استقراء القرآن في تشريع الأحكام الشاقة ، ونظيره شرب الخمر فإن تركه شاق على من اعتاده ، فلما أراد الله أن يحرم الخمر حرمها تدريجاً . فذكر أولاً بعض معائبها كقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة : 219] ثم لما استأنست نفوسهم بأن في الخمر إثما أكثر مما فيها من النفع ، حرمها عليهم في أوقات الصلاة بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى ﴾ [النساء : 43] الآية . فكانوا بعد نزولها ، لا يشربونها إلا في وقت يزول فيه السكر قبل وقت الصلاة ، وذلك بعد صلاة العشاء وبعد صلاة الصبح لأن ما بين العشاء والصبح يصحو فيه السكران قبل وقت الصلاة ، وذلك بعد صلاة العشاء وبعد صلاة الصبح لأن ما بين العشاء والصبح يصحو فيه السكران عادة . وكذلك ما بين الصبح والظهر . وهذا تدريج من عيبها إلى تحريمها في بعض الأوقات . فلما استأنست نفوسهم بتحريمها حرمها عليهم تحريماً عاماً جازماً بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : 90] إلى قوله : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : 91] وكذلك الصوم ، فإنه لما كان الإمساك عن شهوة الفرج والبطن شاقاً على النفوس ، وأراد تعالى تشريعه

شرعه تدريجاً فخير أولاً بين صوم اليوم وإطعام المسكين في قوله : ﴿ وَعَلَى الذين يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ [البقرة : 184] فلما استأنست النفوس به في الجملة ، أوجبه أيضاً إيجاباً عاماً جازماً بقوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة :

(92/525)

185] الآية وقال بعض أهل العلم : التدريج في تشرعي الصوم على ثلاثة مراحل كما قبله قالوا : أوجب عليهم أولاً صوماً خفيفاً لا مشقة فيه وهو صوم يوم عاشوراء وثلاثة من كل شهر ، ثم لما أراد فرض صوم رمضان شرعه تدريجاً على المرحلتين اللتين ذكرناهما آنفاً ، هكذا قالته جماعات من أهل العلم ، وله اتجاه والعلم عند الله تعالى . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ يشير إلى معنيين .

أحدهما : أن فيه الإشارة إلى وعده للنبي وأصحابه ، بالنصر على أعدائهم كما قال قبله قريباً : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذين آمنوا ﴾ [الحج : 38] .

والمعنى الثاني : أن الله قادر على أن ينصر المسلمين على الكافرين من غير قتال لقدرته على إهلاكهم بما شاء ، ونصرة المسلمين عليهم بإهلاكهم إياهم ، ولكنه شرع الجهاد لحكم منها اختبار الصادق في إيمانه ، وغير الصادق فيه ، ومنها تسهيل نيل فضل الشهادة في

سبيل الله بقتل الكفار لشهداء المسلمين ، ولولا ذلك لما حصل أحد فضل الشهادة في سبيل الله .

(93/525)

كما أشار تعالى إلى حكمة اختبار الصادق في إيمانه وغيره بالجهاد في آيات من كتابه ، كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ولكن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [محمد : 4] وكقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ اللهِ لِيَذَرَ المؤمنين على مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حتى يَمِيزَ الخبيث مِنَ الطيب وَمَا كَانَ اللهِ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغيب ﴾ [آل عمران : 179] الآية وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ الله وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ المؤمنين وَلِيجَةً والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : 16] وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾ [آل عمران : 142] وقوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : 31] إلى غير ذلك من الآيات وكقوله تعالى في حكمة الابتلاء المذكور ، وتسهيل الشهادة في سبيله : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القوم قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس وَلِيَعْلَمَ الله الذين آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ والله لاَ يُحِبُّ الظالمين

وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الذين آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الكافرين ﴾ [آل عمران : 140-141] وقرأ هذا الحرف نافع ، وأبو عمرو وعاصم : أذن بضم الهمزة وكسر الذال مبيناً للمفعول ، وقرأ الباقون : بفتح الهمزة مبنياً للفاعل : أي أذن الله للذين يقاتلون ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص ، عن عاصم : يقاتلون بفتح التاء مبنياً للمفعول ، وقرأ الباقون بكسر التاء مبنياً للفاعل .

قوله تعالى : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله ﴾ .

(94/525)

تقدم ما يوضح هذه الآية من الآيات في سورة براءة في الكلام على قوله : ﴿ وَمَا نقموا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [التوبة : 74] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

(95/525)

بين الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه أقسم لينصرن من ينصره ، ومعلوم أن نصر الله إنما هو باتباع ما شرعه بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ونصرة رسله وأتباعهم ، ونصرة دينه وجهاد أعدائه وقهرهم حتى تكون كلمته جل وعلا هي العليا ، وكلمة أعدائه هي السفلى . ثم إن الله جل وعلا بين صفات الذين وعدهم بنصره ليميزهم عن غيرهم فقال مبيناً من أقسم أنه ينصره ، لأنه ينصر الله جل وعلا : ﴿ الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة وَأَمَرُواْ بالمعروف وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر ﴾ [الحج : 41] الآية وما دلت عليه هذه الآية الكريمة : من أن من نصر الله نصره الله جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِن تَنصُرُواْ الله يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ والذين كَفَرُواْ فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : 7-8] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171-173] وقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي ﴾ [المجادلة : 21] وقوله : ﴿ وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض ﴾ [النور : 55] الآية . إلى غير ذلك من الآيات وفي قوله تعالى : ﴿ الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض ﴾ [الحج : 41] الآية . دليل على أنه لا وعد من الله بالنصر ، إلا مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . فالذين يمكن الله لهم في الأرض ويجعل الكلمة فيها والسلطان لهم ، ومع ذلك لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ، ولا يأمرون

بالمعروف ، ولا ينهون عن المنكر فليس لهم وعد من الله بالنصر ، لأنهم ليسوا من حزبه ، ولا من أوليائه الذين وعدهم بالنصر ، بل هم حزب الشيطان وأولياؤه ، فلو

(96/525)

طلبوا النصر من الله بناء على أنه وعدهم إياه ، فمثلهم كمثل الأجير الذي يمتنع من عمل ما أجر عليه ، ثم يطلب الأجرة ، ومن هذا شأنه فلا عقل له ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ العزيز الغالب الذي لا يغلبه شيء ، كما قدمناه مراراً بشواهده العربية . وهذه الآيات تدل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين ، لأن الله نصرهم على أعدائهم ، لأنهم نصروه فأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، وقد مكر لهم ، واستخلفهم في الأرض كما قال : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض ﴾ [النور : 55] الآية . والحق أن الآيات المذكورة تشمل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل من قام بنصرة دين الله على الوجه الأكمل . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(97/525)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

صَدْر الآية : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذين آمنوا . . ﴾ [الحج : 38] يُشْعِرنا أن هناك معركة ، والمعركة التي يدافع الله فيها لا بُدَّ أنها بين حق أنزله ، وباطل يُواجهه ، وقد تقدَّم قبل ذلك أن قال تبارك وتعالى : ﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا فِي رَبِّهِمْ . . ﴾ [الحج : 19] .

وما دام هناك خصومة فلا بُدَّ أنْ تنشأ عنها معارك ، هذه المعارك قد تأخذ صورة الألفاظ والمجادلة ، وقد تأخذ صورة العنف والقوة والشراسة والالتحام المباشر بأدوات الحرب .

ومعركة النبي صلى الله عليه وسلم مع معارضيه من كفار مكة لم تقف عند حَدِّ المعركة الكلامية فحَسْب ، فقد قالوا عنه – صلوات الله وسلامه عليه : ساحر ، وكاهن ، ومجنون ، وشاعر ، ومُفْتر . . إلخ ثم تطوَّر الأمر إلى إيذاء أصحابه وتعذيبهم ، فكانوا يأتون رسول الله مَشْدوخين ومجروحين فيقول لهم صلى الله عليه وسلم : " لم أومر بقتال ، اصبروا اصبروا ، صبراً صبراً . . " .

إلى أنْ زاد اعتداء الكفار وطَفَح الكَيْل منهم أَذن الله لرسوله بالقتال ، فقال : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : 39] .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذين آمنوا . . ﴾ [الحج : 38] صيغة يدافع : مبالغة مِنْ يدفع ، معنى يدفع يعني : شيئاً واحداً ، أو مرة واحدة ، وتنتهي المسألة ، أمّا يدافع فتدل على مقابلة الفعل بمثله ، فالله يدفعهم وهم يقابلون أيضاً بالمدافعة ، فيحدث تدافع وتفاعل من الجانبين ، وهذا لا يكون إلا في معركة .

والمعركة تعني : منتصر ومنهزم ، لذلك الحق – تبارك وتعالى – يُطمئن المؤمنين أنه سيدخل المعركة في صفوفهم ، وسيدافع عنهم .

(98/525)

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذين آمنوا . . ﴾ [الحج : 38] أمر طبيعي ؛ لأن الحق سبحانه ما كان ليُرسِل رسولاً ، ويتركه لأهل الباطل يتغلَّبون عليه ، وإلاّ فما جَدْوى الرسالة إذن ؛ لذلك يُطمِئن الله تعالى رسوله ويُبشّره ، فيقول : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171 – 173] .

وقال : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ . . ﴾ [الحج : 40] .

وقال : ﴿ إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : 7] .

فهذه كلها آيات تُطمِئن المؤمنين وتُبشّرهم ، وقد جاءتْ على مراحل لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فمنعهم عن القتال في البداية لحكمة ، ثم جعل القتال فيما بينهم ، وقبْل أنْ يأذنَ لهم في قتال أعدائهم لحكمة : هي أنْ يَبْلوا المؤمنين ويُمحّصهم ليُخرِج من صفوفهم أهل الخَوَر والجُبْن ، وضعيفي الإيمان الذين يعبدون الله على حَرْف ، ولا يبقى بعد ذلك إلا قويُّ الإيمان ثابتُ العقيدة ، الذي يحمل راية هذا الدين وينسَاح بها في بقاع الأرض ؛ لأنها دعوة عالمية لكل زمان ولكل مكان إلى أنْ تقوم الساعة ، ولما كانت هذه الدعوة بهذه المنزلة كان لا بُدَّ لها من رجال أقوياء يحملونها ، وإلا لو استطاع الأعداءُ القضاءَ عليها فلن تقومَ لدين الله قائمة .

إذن : كان لا بُدَّ أن يُصفِّي الحقُ سبحانه أهلَ الإيمان كما يُصفِّي الصائغُ الذهبَ ، ويُخرِج خَبَثه حين يضعه في النار ، كذلك كانت الفِتَن والابتلاءات لتصفية أهل الإيمان وتمييزهم ، لكن بالقتال في صَفٍّ واحد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج : 38] فكأن الحق – سبحانه وتعالى – أصبح طرفاً في المعركة ، والخوَّان : صيغة مبالغة من خائن ، وهو كثير الخيانة وكذلك كفور : صيغة مبالغة من كافر .

ومعنى الخيانة يقتضي أن هناك أمانةً خانها . نعم ، هناك الأمانة الأولى ، وهي أمانة التكليف التي قال الله فيها : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان . . ﴾ [الأحزاب : 72] فلقد خانَ هذه الأمانة بعد أنْ رَضِي أنْ يكونَ أهْلاً لها .

وهناك أمانة قبل هذه ، وهي العهد الذي أخذه الله على عباده ، وهم في مرحلة الذَّرّ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ * أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ . . ﴾ [الأعراف : 172 - 173] .

فإنْ قالوا : نعم هذه أمانة ، لكنها بعيدة ، ومَنْ مِنَّا يذكرها الآن ؟

نقول : ألم تُقِرُّوا بأن الله خلقكم ، وأوجدكم من عدم ، وأمدكم من عُدم ؟ كما قال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله . . ﴾ [الزخرف : 87] كما أقرُّوا بخَلْق السماوات والأرض وما فيها من خيرات لله عز وجل ، فكان وفاء هذا الإقرار أنْ يؤمنوا ، لكنهم مع هذا كله كفروا ، أليست هذه خيانة للأمانة عاصروها جميعاً وعايشوها وأسهموا فيها ؟

والكَفُور : مَنْ كفر نعَم الله وجَحَدها .

وما دام هناك الخوَان والكفُور فلابُدَّ للسماء أنْ تُؤيِّد رسولها ، وأنْ تنصره في هذه المعركة أولاً ، بأنْ تأذنَ له في القتال ، ثم تأمره بأخذ العُدة والأسباب المؤدية للنصر ، فإنْ عزَّتْ المسائل عليكم ، فأنا معكم أؤيدكم بجنود من عندي .

(100/525)

وقد حدث هذا في بَدْء الدعوة ، فأيَّد الله نبيه بجنود من عنده ، بل أيَّده حتى بالكافر المعاند : ألم يكُن دليل رسول الله في الهجرة كافراً ؟ ألم ينصره الله بالحمام وبالعنكبوت وهو في الغار ؟ ألم ينصره بالأرض التي ساخَتْ تحت أقدام فرس " سُرَاقة " الذي خرج في طلبه ؟ هذه جنود لم نَرها ، ولم يُؤيَّد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن استنفد أسبابه ، ولو أراد سبحانه لَطوَّع لرسوله هؤلاء المعاندين ، فما رفع أحد منهم رأسه بعناد لمحمد ، إنما الحق – تبارك وتعالى – يريد أنْ يعطيه طواعية ويخضع له القوم ، ألم يقُلْ سبحانه وتعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 4]

.

وقلنا : إن الله تعالى يريد أنْ يُخضِع قلوب عباده لا قوالبهم ، فلو أخضعهم الله بآية كونية طبيعية كالريح أو الصاعقة أو الخَسْف ، أو غيره من الآيات التي أخذتْ أمثالهم من

السابقين لقالوا : إنها آفاتٌ طبيعية جاءتنا ، لكن جعل الله بين الفريقين هذه المواجهة ، ثم يسَّر لحزبه وجنوده أسباب النصر .

قال سبحانه : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : 14] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ . . ﴾

ودفاع الحق سبحانه عن الحق يأخذ صوراً متعددة ، فأول هذا الدفاع : أنْ أَذِن لهم في أنْ يقاتلوا . ثانياً : أمرهم بإعداد القوة للقتال : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل . . ﴾ [الأنفال : 60] .

(101/525)

والمراد أنْ يأخذوا بكل أسباب النصر على عدوهم ، وأن يستنفدوا كل ما لديهم من وسائل ، فإنِ استنفدتم وسائلكم ، أتدخَّل أنا بجنود من عندي لا ترونها ، فليس معنى أن الله يدافع عن الذين آمنوا أن تدخُلَ السماء لحمايتهم وهم جالسون في بيوتهم ، لا إنما يأخذون بأسباب القوة ويسعَوْنَ ويبادرون هم أولاً إلى أسباب النصر .

ومعنى ﴿ أُذِنَ . . ﴾ [الحج : 39] أنهم كانوا ينتظرون الأمر بالقتال ، ويستشرفون

للنصر على الأعداء ، لكن لم يُؤذَن لهم في ذلك ، فلما أراد الله لهم أنْ يقاتلوا أَذن لهم فيه ، فقال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : 39] .

وعِلّة القتال أنهم ظُلِموا ، لذلك أمرهم ربهم – تبارك وتعالى – أنْ يقاتلوا ، لكن لا يعتدوا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الذين يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تعتدوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المعتدين * واقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ . . ﴾ [البقرة : 190 – 191] .

إذن : أمرهم أولاً بالصبر ، وفي المرحلة الأولى بأنْ يقاتلوا لِردّ العدوان ، وللدفاع عن أنفسِهم دون أنْ يعتدوا ، وفي المرحلة الثانية سيقول لهم : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مِّنَ الكفار وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً واعلموا أَنَّ اللهَ مَعَ المتقين ﴾ [التوبة : 123] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : 39] بأسباب يُمكّنهم منها ، أو بغير أسباب فتأتيهم قوة خفية لا يروْنها ، وقد رأوا نماذج من ذلك فعلاً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللهُ . . ﴾

فلو أنهم أُخْرِجوا بحقٍّ كأنْ فعلوا شيئاً يستدعي إخراجهم من ديارهم ، كأنْ خدشوا الحياء ، أو هددوا الأمْن ، أو أجرموا ، أو خرجوا على قوانين قبائلهم لكانَ إخراجهُم بحقٍّ .

إنما الواقع أنهم ما فعلوا شيئاً ، وليس لهم ذنْب ﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا . . ﴾ [الحج : 40] هذه المقولة اعتبرها القوم ذنْباً وجريمة تستحق أنْ يخرجوهم بها من ديارهم .

كما قال سبحانه في أهل الأخدود : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بالله العزيز الحميد ﴾ [البروج : 8] .

وفي آية أخرى : ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بالله . . ﴾ [المائدة : 59] .

وفي قصة لوط عليه السلام : ﴿ قالوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : 56] .

إذن : أخرجوهم ، لا لأنهم أهل نجاسة ومعصية ، إنما لأنهم أناسٌ يتطهَّرون ، فالطهارة والعفة جريمتهم التي يُخْرَجُون من أجلها ! ! كما تقول : لا عيْبَ في فلان إلا أنه كريم ، أو تقول : لا كرامةَ في فلان إلا أنه لِصٌّ . فهذه – إذن – صفة لا تمدح ، وتلك صفة لا تذم .

لقد قلب هؤلاء الموازين ، وخالفوا الطبيعة السويّة بهذه الأحكام الفاسدة التي تدل على فساد الطباع ، وأيّ فساد بعد أنْ قَلَبوا المعايير ، فكرهوا ما يجب أنْ يُحب ، وأحبوا ما

يجب أن يكره ؟ ولا أدلَّ على فساد طبائعهم من عبادتهم لحجر ، وتركِهم عبادة خالق السماوات والأرض .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً . . ﴾ [الحج : 40]

وفي آية أخرى يُبيِّن الحق سبحانه نتيجة انعدام هذا التدافع : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرض . . ﴾ [البقرة : 251] .

(103/525)

والفساد إنْ حدث بين الناس في حركة الحياة فيمكن أنْ يُعوَّض ويُتدارك ، أما إنْ تعدّى الفساد إلى مُقوِّمات اليقين الإيماني في الأرض فَكرِه الناس ما يربطهم بالسماء ، وهدموا أماكن العبادة ، فهذه الطامة والفساد الذي لا صلاحَ بعده ، فكأن الآيتين تصوران نوعاً من الإيغال في الفساد ، والاتّضاع في الجرائم .

وتفسد الأرض حين ينعدم هذا التدافع ، كيف ؟ هَبْ أن ظالماً مسْتبداً في بلد ما يستعبد الناس ويمتصّ خيراتهم بل ودماءهم دون أنْ يردَّه أحد ، لا شكَّ أن هذا سيُحدث في المجتمع تهاوناً وفوضى ، ولن يجتهد أحد فوق طاقته ، ولمن سيعمل وخيره لغيره ؟ وهذا

بداية الفساد في الأرض .

فإنْ قُلْنا : هذا فساد بين الناس في حركة حياتهم يمكن أنْ يصلح فيما بعد ، فما بالك إن امتدَّ الفساد إلى أماكن الطاعات والعبادات ، وقطع بين الناس الرباط الذي يربطهم بالسماء ؟

إنْ كان الفساد الأول قابلاً للإصلاح ، ففساد الدين لا يصلح ، لأنك خرَّبْتَ الموازين التي كانت تُنظِّم حركة الحياة ، فأصبح المجتمع بلا ميزان وبلا ضوابط يرجع إليها .

ونلْحظُ في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ .

. ﴾ [الحج : 40] جاءت قضية عامة لكل الناس ، فلم يخصْ طائفة دون أخرى ، فلم يَقُلْ مثلاً : لولا دَفْع الله الكافرين بالمؤمنين ، إنما قال مُطْلق الناس ؛ لأنها قضية عامة يستوي فيها الجميع في كل المجتمعات .

كذلك جاءت كلمة (بعض) عامة ؛ لتدل على أن كلاَ الطرفين صالح أن يكون مدفوعاً مرة ، ومدفوعاً عنه أخرى ، فَهُمْ لبعض بالمرصاد : مَنْ أفسد يتصدى له الآخر ليُوقِفه عند حَدِّه ، فليس المراد أن طائفة تدفع طائفة على طول الخط .

(104/525)

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . . ﴾ [الزخرف : 32] دون أنْ يُحدّد أيهما مرفوع ، وأيهما مرفوع عليه ؛ لأن كلاً منهما مرفوع في شيء ، ومرفوع عليه في شيء آخر ؛ ذلك لأن العباد كلهم عيال الله ، لا يُحابي منهم أحداً على أحد .

انظر الآن إلى قوة روسيا في الشرق وقوة أمريكا في الغرب ، إنهما مثال لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ . . ﴾ [الحج : 40] فكلٌّ منهما تقف للأخرى بالمرصاد ، ترقبها وترصُد تحركاتها وتقدّمها العسكري ، وكأن الله تعالى جعلها لحماية سلامة الآخرين أنْ تقف كُلٌّ منهما موقفَ الحذَر والخوف من الأخرى .

وهذا الخوف والترقُّب والإعداد هو الذي يمنع اندلاع الحرب بينهما ، فما بالك لو قامت بينهما حرب أسفرت عن منتصر ومهزوم ؟ لا بُدَّ أن المنتصر سيعيثُ في الأرض فساداً ويستبد بالآخرين ، ويستشري ظُلْمه لعدم وجود مَنْ يُردِعه .

ومن رحمة الله بالمؤمنين أنْ يكيد الظالمين بالظالمين بكل ألوانهم وفنونهم ، ويؤدّب الظالم بمَنْ هو أشد منه ظُلْماً ؛ ليظلّ أهلُ الخير بعيدين عن هذه المعركة ، لا يدخلون طَرَفاً فيها ؛ لأن الأخيار لا يصمدون أمام هذه العمليات ، لأنهم قوم رِقَاق القلوب ، لا تناسبهم هذه القسوة وهذه الغِلْظة في الانتقام .

اقرأ قول الله تعالى : ﴿ وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : 129] .

وهكذا يُوفِّر الله أهل الخير ، ويحْقِن دماءهم ، ويُريح أولياءه من مثل هذه الصراعات الباطلة .

لذلك لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة دخولَ المنتصر ، بعد أنْ أخرجه قومه منها ، وبعد أنْ فعلوا به وبأصحابه الأفاعيل ، كيف دخلها وهو القائد المنتصر الذي تمكَّن من رقاب أعدائه ؟

(105/525)

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة مُطأطيء الرأس ، حتى لتكاد رأسه تلمس قربوس السرج الذي يجلس عليه ، تواضعاً منه صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك قال أبو سفيان لما رأى رسول الله في هذا الموقف ، قال للعباس : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً .

وبعد أن تمكَّن رسول الله من كفار مكة ، وكان باستطاعته القضاء عليهم جميعهم ، قال : " يا معشر قريش ، ما تظنُّون أنِّي فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء " .

فأيُّ رحمة هذه ؟ وأيُّ لين هذا الذي جعله الله في قلوب المؤمنين ؟ وهل مِثْل هذا الدين

يُعارَض ويُنْصَرف عنه ؟

إذن : يُسلِّط الحق – تبارك وتعالى – الأشرار بعضهم على بعض ، وهذه آية نراها في الظالمين في كل زمان ومكان ، ويجلس الأخيار يرقبون مثل هذه الصراعات التي يُهلِك الله فيها الظالمين بالظالمين .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ . . ﴾ [الحج : 40] صوامع جمع صومعة ، وهي مكان خاصٌّ للعبادة عند النصارى ، وعندهم مُتعبَّد عام يدخله الجميع هو الكنائس ، أما الصَّومعة فهي مكان خاص لينفرد فيه صاحبه وينقطع للعبادة ، ولا تكون الصَّوْمعة في حضر ، إنما تكون في الجبال والأودية ، بعيداً عن العمران لينقطع فيها الراهب عن حركة حياة الناس ، وهي التي يسمونها الأديرة وتوجد في الأماكن البعيدة .

وقد حرم الإسلام الرهبانية بهذا المعنى ؛ لأنها رهبانية ما شرّعها الله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغآء رِضْوَانِ الله فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا . . ﴾ [الحديد : 27] .

ومعنى : ﴿ وَبِيَعٌ . . ﴾ [الحج : 40] البِيعَ هي الكنائس .

(106/525)

فالحق – سبحانه وتعالى – مَا نَعَى عليهم الانقطاع للعبادة ، لكن نعى عليهم انقطاعهم عن حركة الحياة ، وأسباب العيش ؛ لذلك قال : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا . . ﴾ [الحديد : 27] .

وقد أباح الإسلام أيضاً الترهُّب والانقطاع للعبادة ، لكن شريطة أن تكون في جَلْوة يعني : بين الناس ، لا تعتزل حركة الحياة ، إنما تعبَّد الله في كل حركة من حركات حياتك ، وتجعل الله تعالى دائماً في بالك ونُصْب عينيك في كُلِّ ما تأتي ، وفي كل ما تدَع ، إذن : هناك فَرْق بين مَنْ يعبد الله في خَلْوته ، ومَنْ يعبد الله في جَلْوته .

لذلك سيدنا عمر – رضي الله عنه – قال عن الرجل الذي لازم المسجد للعبادة وعرف أن أخاه يتكفّل به ويُنفق عليه ، قال : أخوه أعبد منه . كيف ؟

قالوا : لأنك تستطيع أنْ تجعل من كل حركة لك في الحياة عبادة ، حين تُخلِص النية فيها لله عز وجل . ولك أن تقارن بين مؤمن وكافر ، كلاهما يعمل ويجتهد لِيقُوتَ نفسه وأهل بيته ، ويحيا الحياة الكريمة ، وهذا هدف الجميع من العمل ، لكن لو أن المؤمن اقتصر في عمله على هذا الهدف لاستوى مع الكافر تماماً .

إنما للمؤمن فوق هذا مقاصد أخرى تكمن في نيته وضميره ، المؤمن يفعل على قَدْر طاقته ، لا على قَدْر حاجته ، ثم يأخذ ما يحتاج إليه ويُنفِق من الباقي ويتصدَّق على مَنْ لا يقدر على الحركة الحياتية .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون * الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * والذين هُمْ عَنِ اللغو مُّعْرِضُونَ * والذين هُمْ للزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون : 1 – 4]

هل يعني : مُؤدُّون فقط ؟ لا ، بل إن المؤمن يتحرك ويعمل ويسعى ، وفي نيته مَنْ لا يقدر على السَّعْي والعمل ، فكأنه يُقبل على العمل ويجتهد فيه ، وفي نيته أنْ يعمل شيئاً لله بما يفيض عن حاجته من ناتج عمله وهذا ما يُميِّز المؤمن في حركة الحياة عن الكافر .

(107/525)

وأذكر مرة أننا جئنا من الريف في الشتاء في الثلاثينيات لزيارة سيدنا الشيخ الحافظ التيجاني ، وكان مريضاً – رحمه الله ورضي الله عنه – وكان يسكن في حارة ، وفضَّلنا أن نأخذ (تاكسي) يُوصِّلنا بدل أن نمشي في وَحْل الشتاء ، وعند مدخل الحارة رفض سائق (التاكسي) الدخول وقال : إن أجرة التوصيل لا تكفي لغسيل السيارة وتنظيفها من هذا الوَحْل ، وبعد إلحاح وافق وأوصلنا إلى حيث نريد ، فأعطيناه ضِعْف أجرته ، لكني قبل أن أنصرف قلتُ له : أنت لماذا تعمل على هذا (التاكسي) ولماذا تتعب ؟ قال : من أجل مصالحي ومصالح أولادي ، فقلت له : وما يُضيرك إنْ زِدْتَ على ذلك وجعلْتَ في نيتك أنْ تُيسِّر بعملك هذا على الناس ؟ فاهتمّ الرجل ولبسته الكلمة فقال : والله لا اردُّ راكباً أبداً

.

ومعنى : ﴿ والذين هُمْ للزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون : 4] لم يقل مؤدون ؛ لأن ﴿ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون : 4] تعني : أن نيتهم في الفعل أنْ يفعلوا على قَدْر طاقتهم ويجتهدوا لتوفير شيء بعد نفقاتهم يتصدقون منه .

إذن : حرَّم الإسلام الرهبانية التي تَحرِم المجتمع من مشاركة الإنسان فقال صلى الله عليه وسلم : " لا رهبانية في الإسلام " لأنه اعتبر كل حركة مقصودٍ منها صالحُ المجتمع كله حركةً إيمانية عبادية ، ومن هنا كان العمل عبادة .

وقد وضع العلماء شروطاً لَمَنْ أراد الانقطاع للعبادة : أولها : ألاَّ يأخذ نفقته من أحد ، بمعنى أن يعمل أولاً لِيُوفِّر احتياجاته طوال فترة انقطاعه ، وصدق (إقبال) حين قال :

لَيْسَ زُهْداً تصوف من تقي . . . فرَّ من غَمْرة الحيَاةِ بدين

إنما يُعرَفُ التصَوفُ في ال . . . سُّوق بمالٍ ومَطْمعٍ وفُتُون

(108/525)

ثم يقول تعالى : ﴿ وَصَلَوَاتٌ . . ﴾ [الحج : 40] وهذه لليهود يُسمُّون مكان التعبد : صَالوتاً . لكن ، لماذا لم يرتبها القرآن ترتيباً زمنياً ، فيقول : لهدمت صلوات وصوامع

وبيع ؟ قالوا : لأن القرآن يُؤرِّخ للقريب منه فالأبعد .

﴿ وَمَسَاجِدُ . . ﴾ [الحج : 40] وهذه للمسلمين ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً . . ﴾ [الحج : 40] .

وما دام الحق سبحانه ذكر المساجد بعد الفعل ﴿ لَّهُدِّمَتْ . . ﴾ [الحج : 40] فهذا دليل على أنه لا بُدَّ أن يكون للمسلمين مكان يُحكر للعبادة ، وإنْ جُعِلَتْ الأرض كلها لهم مسجداً وطَهُوراً ، ومعنى ذلك أنْ تصلي في أيِّ بقعة من الأرض ، وإنْ عُدِم الماء تتطهر بترابها ، وبذلك تكون الأرض مَحَلاً للعبادة ومَحَلاً لحركة الحياة وللعمل وللسَّعْي ، فيمكنك أن تباشر عملك في مصنعك مثلاً وتُصلِّي فيه ، لكن الحق سبحانه يريد منا أن نُخصِّص بعض أرضه ليكون بيتاً له تنقطع منه حركة الحياة كلها ، ويُوقَف فقط لأمور العبادة .

لذلك قال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ بنى لله مسجداً ولو كمِفْحَصِ قَطَاةٍ بنى الله له بيتاً في الجنة " .

فقوله تعالى : ﴿ لَّهُدِّمَتْ . . وَمَسَاجِدُ . . ﴾ [الحج : 40] تدل على مكان خاص للعبادة وإلاَّ لو اعتُبِرَتْ الأرضُ كلها مسجداً ، فماذا تهدم ؟

وعليه ، فكل مكان تُزاوَل فيه أمورٌ غير العبادة لا يُعتبر مسجداً ، كأماكن الصلاة التي يتخذونها تحت العمارات السكنية ، هذه ليست مساجد ، والصلاة فيها كالصلاة في

الشارع وفي البيت ؛ لأن المسجد (مكان) وما يُبنى عليه (مكين) .

والمسجدية تعني : المكان من الأرض إلى السماء ، بدليل أننا في بيت الله الحرام نصلي فوق سطح المسجد ، ونتجه لجوِّ الكعبة ، لا للكعبة ذاتها ، لماذا ؟ لأن جَوَّ الكعبة إلى السماء كعبة ، وكذلك لو كنا في مخابيء أو في مناجم تحت الأرض ؛ لأن ما تحت الكعبة من الأرض كعبة . وكذلك في المسْعَى مَسْعَى .

(109/525)

إذن : المسجد ما حُكِر للعبادة ، وخُصِّص للمسجدية من أرضه إلى سمائه ، وهذا لا يُمارس فيه عمل دنيوي ولا تُعقد فيه صفقة . . إلخ .

أما أنْ نجعل المسجد تحت عمارة سكنية ، وفوق المسجد مباشرة يباشر الناس حياتهم ومعيشتهم بما فيها من هَرَج ولَهْو ، حلال وحرام ، وطهارة ونجاسة ، ومعاشرة زوجية . . إلخ فهذا كله يتنافى مع المسجدية التي جعلها الله حِكْراً للعبادة من الأرض إلى السماء .

فلنُسَمِّ هذه الأماكن : مُصلّى . ولا نقول : مسجد .

ثم يصف الحق سبحانه المساجد بقوله : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً . . ﴾ [الحج : 40] لأن ذِكْر الله في المساجد دائم لا ينقطع ، ونحن لا نتحدث عن مسجد ، ولا عن

مساجد قُطْر من الأقطار ، إنما المراد مساجد الدنيا كلها من أقصى الشرق لأقصى الغرب ، ومن الشمال للجنوب .

ولو نظرتَ إلى أوقات الصلوات لرأيتَ أنها مرتبطة بحركة الفلك وبالشمس في الشروق ، وفي الزوال ، وفي الغروب ، وباعتبار فارق التوقيت في كل بلاد الله تجد أن ذِكْر الله دائم لا ينقطع أبداً في ليل أو نهار ، فأنت تُؤذِّن للصلاة ، وغيرُك يقيم ، وغيركما يصلي ، أنت تصلي الظهر ، وغيرك يصلي الصبح أو العصر ، بل أنت في الركعة الأولى من الصبح ، وغيرك في الركعة الثانية ، أنت تركع وغيرك يسجد .

إذن : هي منظومة عبادية دائمة في كل وقت ، ودائرة في كل مكان من الأرض ، فلا ينفكّ الكون ذاكراً لله . أليس هذا ذِكْراً كثيراً ؟ أليستْ كلمة (الله أكبرُ) دائرة على ألسنة الخلق لا تنتهي أبداً ؟

(110/525)

ثم لما كان دَفْع الله الناسَ بعضهم ببعض ينتج عنه معركة تُسْفر عن منتصر ومنهزم ، قال سبحانه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ . . ﴾ [الحج : 40] فإنْ كان التدافع بين الكفار فإنه لا ينتهي ، وإنْ كان بين حقٍّ لله وباطل حكم الله بأنه باطل لا بُدَّ أن تنتهي بنُصْرة الحق ،

وغالباً لا تطول هذه المعركة ؛ لأن الحق دائماً في حضانة الله ، إنما تطول المعارك بين باطل وباطل ، فليس أحدهما أَوْلَى بنُصْرة الله من الآخر ، فيظل كل منهما يطحن في الآخر ، وإنْ لم تكن حرباً ساخنة كانت حرباً باردة ، لماذا ؟ لأنه لا يوجد قويٌّ لا هوى له يستطيع أن يفصل فيها ، وطالما تدخّل الهوى تستمر المعركة .

يبقى في القسمة العقلية المعركة بين حق وحق ، وهذه لا وجودَ لها ؛ لأن الحق واحد في الوجود ، فلا يمكن أنْ يحدث تصادم أبداً بين أهل الحق .

والحق – تبارك وتعالى – في نُصْرته لأوليائه يستطيع أن ينصرهم دون حرب ، ويُهلك أعداءهم ، لكن الحق سبحانه يريد أنْ يأخذوا هم بأسباب النصر ؛ لذلك يُعلّمهم أصول هذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرقاب حتى إِذآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الوثاق فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ ولكن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ . . ﴾ [محمد : 4] .

ومعنى ﴿ أَثْخَنتُمُوهُمْ . . ﴾ [محمد : 4] يعني : جعلتموهم لا يقدرون على الحركة ﴿ فَشُدُّواْ الوثاق . . ﴾ [محمد : 4] لا تُجهزوا عليهم ، ولا تقتلوهم ، إنما شُدُّوا قيودهم واستأسِروهم ، وهذه من رحمة الإسلام وآدابه في الحروب ، فليس الهدف القتل وإزهاق الأرواح ثم ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً . . ﴾ [محمد : 4] مَنّاً إنْ كان هناك تبادل للأسرى . فأنت تمنُّ وهو يمنُّ . والفداء أنْ يفدي نفسه .

وكانت هذه المسألة حجة لنا حينما نتحدث عن الرقِّ في الإسلام ، ونرد على هؤلاء الذين يحلو لهم اتهام الإسلام ، ويستخدمون في ذلك السفسطة والمراوغة اللغوية لإقناع الناس بأن الإسلام ساهم في نشْر الرقِّ والعبودية .

ونقول : لقد جاء الإسلام والرق موجود ومنتشر لم يُشرِّعه الإسلام ، ولم يُوجِدْه بداية ، حيث كانت أسباب الرق كثيرة ، وأسباب الاستعباد متعددة : فَمنْ تحمّل دَيْناً وعجز عن سداده يُسْتعبد لصاحب الدين ، ومَنْ عمل ذنباً وخاف من عقوبته أخذوه عبداً ، ومَنْ اختطفه الأشرار في الطريق جعلوه عبداً . . إلخ .

فلما جاء الإسلام عمل على سَدِّ منابع الرقِّ هذه ، وجعل الرقَّ مقصوراً على الحرب المشروعة . ثم فتح عدة مصارف شرعية للتخلُّص من الرق القائم ، حيث لم يكُنْ موجوداً من أبواب العتق إلا إرادة السيد في أنْ يعتق عبده ، فأضاف الإسلام إلى هذا الباب أبواباً أخرى ، فجعل العتق كفارة لبعض الذنوب ، وكفارة لليمين ، وكفارة للظِّهار ، وحثَّ على الصدقة في سبيل العتق ، ومساعدة المكاتب الذي يريد العتق ويسعى إليه . . إلخ .

فإذا لم تعتق عبدك ، فلا أقل من أن تطعمه من طعامك ، وتُلْبسه من ملبسك ، ولا تُحمِّله ما

لا يطيق ، وإنْ حمَّلْته فأعِنْه ، وكما يقول النبي صلى الله عليه وسلم " إنما هم إخوانكم " .

ونلاحظ على الذين يعيبون على الإسلام مسألة الرقِّ في الحروب أنهم يقارنون بين الرِّق والحرية ، لكن المقارنة هنا ليستْ كذلك ، المقارنة هنا بين الرق والقتل ؛ لأنه لا يُسترقّ إلا مَنْ قدر المسترقُّ عليه وتمكَّن منه في المعركة ، وكان باستطاعته قَتْله ، لكن رحمة الله بعباده منعتْ قتله ، وأباحت أَخْذه رقيقاً ، فالنفعية للمقاتل المنتصر يقابلها حَقْن دم الآخر ، ثم بعد انتهاء الحرب نحثُّ على عتقه ، ونفتح له أبواب الحرية .

إذن : لا تقارن بين عبد وحر ، إنما قارن بين العبودية والقتل : أيهما أقلّ ضرراً ؟

لذلك قال تعالى :

(112/525)

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَآءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : 14 – 15] .

هذه نتائج سِتٌّ للأمر ﴿ قَاتِلُوهُمْ . . ﴾ [التوبة : 14] وجواب الأمر مجزوم بالسكون كما في (يُعذِّبْهم) ومجزوم بحذف حرف العلة كما في (وَيُخْزِهِم) ، والخزي لأنهم كانوا

مغترين بقوتهم ، ولديهم جبروت مفتعل ، يظنون أَلاَّ يقدر عليهم أحد ، وكذلك في : ينصركم ، ويشف ، ويذهب .

ثم قطع السياقُ الحكمَ السابق ، واستأنف كلاماً جديداً ، وإنْ كان معطوفاً على ما قبله في اللفظ ، وهذا مظهر من مظاهر الدقة في الأداء القرآني ، ومَلْحَظ لرحمة الله تعالى حتى بالكفار ، فقال تعالى : ﴿ وَيَتُوبُ الله على مَن يَشَآءُ . . ﴾ [التوبة : 15] هكذا بالرفع ، لا بالجزم فقطع الفعل (يتوب) عما قبله ؛ لأن الله تعالى لم يشأ أن يشرِّك بينهم حتى في جواب الأمر .

وحتى على اعتبار أنهم هُزِمُوا ، وكُسِرت شوكتهم ، وضاعتْ هيبتهم ، لعلهم يفيقون لأنفسهم ، ويعودون للحق ، وهذه من رحمة بالكافرين في معاركهم مع الإيمان .

لكن ، لماذا يتوب الله على الكفار ويرحمهم وهم أعداء دينه وأعداء نبيه ؟ قالوا : لأنه سبحانه وتعالى ربهم وخالقهم ، وهم عباده وعياله ، وهو أرحم بهم ، ومرادات الله في الخَلْق أن يكونوا جميعاً طائعين .

لذلك ، يقول سبحانه في الحديث القدسي : " قالت السماء : يا رب ائذن لي أن أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يا رب ائذن لي أن أخسف بابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لي أن أسقط

على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لي أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك " " .

(113/525)

فالكون كله ناقم على الكافرين ، متمرد على العصاة ، مغتاظ منهم ، فماذا قال الحق – تبارك وتعالى – لهم ؟ قال سبحانه : " دعوني وخَلْقي ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإنْ تابوا إليَّ ، فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم " .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ . . ﴾ [الحج : 40] وما دام أن النصر من عند الله فإياكم أنْ تبحثوا في القوة أو تقيسوا قوتكم بقوة عدوكم ، فلربك عز وجل جنود لا يعلمها إلا هو ، ووسائل النصر وأنت في حضانة الله كثيرة تأتيك من حيث لا تحتسب وبأهْون الأسباب ، أقلّها أن الله يُريكم أعداءكم قليلاً ويُكثِّر المؤمنين في أعين الكافرين ليفتَّ ذلك في عَضُدهم ويُرهبهم ويُزعزع معنوياتهم ، وقد يحدث العكس ، فيرى الكفار المؤمنين قليلاً فيجترئون عليهم ، ويتقدمون ، ثم تفاجئهم الحقيقة .

إذن : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ . . ﴾ [المدثر : 31] فلا تُعوِّل فقط على قوتك وتحسب مدى تكافُئك مع عدوك ، دَعْكَ من هذه الحسابات ، وما عليك إلا أنْ تستنفد

وسائلك وأسبابك ، ثم تدع المجال لأسباب السماء .

وأقلُّ جنود ربك أنْ يُلقي الرعب في قلوب أعدائك ، وهذه وحدها كافية ، ويُرْوى أنهم في إحدى المعارك الإسلامية تغيرت رائحة أفواه المسلمين ، وأحسُّوا فيها بالمرارة لطول فترة القتال ، فأخرجوا السواك يُنظِّفون أسنانهم ، ويُطيِّبون أفواههم ، عندها قال الكفار : إنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلونا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب من حيث لا يدرون .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : 40] عزيز : يعني لا يُغلب ، وما دام أن الله تعالى ينصر مَنْ نصره فلا بُدَّ أن تنتهي المعركة بالنصر مهما خارتْ القوى ومهما ضَعُفتْ ، ألم يكُن المسلمون في مكة ضعفاء مضطهدين ، لا يستطيع واحد منهم أن يرفع رأسه بين الكفار ؟

(114/525)

ولما نزل قول الله تعالى وهم على هذه الحال : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر : 45] تعجب عمر بفراسته وعبقريته : أيُّ جمع هذا الذي سيُهزم ونحن غير قادرين حتى حماية أنفسنا ؟ فلما رأى يوم بدر قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر : 45] .

فما دام أن الله قوي عزيز فلا بُدَّ أن ينصركم ، وهذه مسألة محكوم بها أزلاً : ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي . . ﴾ [المجادلة : 21] .

فإذا تمَّتْ لكم الغَلَبة ، فاعلموا أن لك دَوْراً ، أَلاَ وهو : ﴿ الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة . . ﴾

معنى : ﴿ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض . . ﴾ [الحج : 41] جعلنا لهم سلطاناً وقوة وغَلَبة ، فلا يَجترئ أحد عليهم أو يزحزحهم ، وعليهم أنْ يعلموا أن الله ما مكَّنهم ونصرهم لذاتهم ، وإنما ليقوموا بمهمة الإصلاح وينقوا الخلافة الإنسانية في الأرض من كُلِّ ما يُضعِف صلاحها أو يفسده .

لذلك ، سيدنا سليمان عليه السلام كان يركب بساط الريح يحمله حيث أراد ، فداخله شيء من الزهو ، فمال به البساط وأوشك أنْ يُلقيه ، ثم سمع من البساط مَنْ يقول له : أُمِرْنا أن نطيعك ما أطعتَ الله .

والممكَّن في الأرض الذي أعطاه الله البأْس والقوة والسلطان ، يستطيع أنْ يفرض على مجتمعه ما يشاء ، حتى إنْ مُكِّن في الأرض بباطل يستطيع أنْ يفرض باطله ويُخضِع الناس له ، ولو إلى حين .

فماذا يُناط بالمؤمن إنْ مُكِّن في الأرض ؟

يقول تعالى : ﴿ الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُواْ الصلاة . . ﴾ [الحج : 41]

ليكونوا دائماً على ذكْر وولاء من ربهم الذي وهبهم هذا التمكين ؛ ذلك لأنهم يترددون عليه سبحانه خَمْس مرات في اليوم والليلة .

﴿ وَآتَوُاْ الزكاة وَأَمَرُواْ بالمعروف وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر ﴾ [الحج : 41] فهذه أسس الصلاح في المجتمع والميزان الذي يسعد به الجميع .

(115/525)

﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمور ﴾ [الحج : 41] يعني : النهاية إلينا ، وآخر المطاف عندنا ، فمَن التزم هذه التوجيهات وأدَّى دوره المنُوط في مجتمعه ، فبها ونِعْمتْ ، ومَنْ ألقاها وراء ظهره فعاقبته معروفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(116/525)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ ,

هذه الآية الكريمة تدل على أن قتال الكفار مأذون فيه لا واجب وقد جاءت آيات تدل على وجوبه كقوله: ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية, وقوله: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ الآية, إلى غير ذلك من الآيات .

والجواب ظاهر وهو أنه أذن فيه أولا من غير إيجاب ثم أوجب بعد ذلك كما تقدم في سورة البقرة, ويدل لهذا ما قاله ابن عباس وعروة ابن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد كما نقله عنهم ابن كثير وغيره من أن آية ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ هي أول آية نزلت في الجهاد والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 205 ﴾

(117/525)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

أخرج عبد بن حميد ، عز عاصم أنه قرأ ﴿ إن الله يدافع ﴾ بالألف ورفع الياء .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾

قال : والله ، ما يضيع الله رجلاً قط حفظ له دينه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سفيان في قوله : إن الله لا يحب . قال : لا يقرب .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد قال : كل شيء في القرآن كفور ، يعني به الكفار .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) ﴾

أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس قال : لما خرج النبي – صلى الله عليه وسلم – من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن القوم ! فنزلت ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ الآية . وكان ابن عباس يقرأها ﴿ أذن ﴾ قال أبو بكر : فعملت أنه سيكون قتال . قال ابن عباس : وهي أول آية نزلت في القتال .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل ، عن مجاهد قال : خرج ناس مؤمنون مهاجرين من مكة إلى المدينة ، فاتبعهم كفار قريش ، فأذن لهم في قتالهم فأنزل الله ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ الآية . فقاتلوهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عروة بن الزبير أن أول آية أنزلت في القتال حين ابتلي المسلمون بمكة وسطت بهم عشائرهم ، ليفتنوهم عن الإسلام ، وأخرجوهم من ديارهم ، وتظاهروا

عليهم ، فأنزل الله ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ الآية . وذلك حين أذن الله لرسوله بالخروج ، وأذن لهم بالقتال .

(118/525)

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، عن أبي هريرة قال : كانت أول آية نزلت في القتال ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في قوله ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ قال : أذن لهم في قتالهم ، بعد ما عفى عنهم عشر سنين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ قال النبي : صلى الله عليه وسلم وأصحابه ﴿ بأنهم ظلموا ﴾ يعني ظلمهم أهل مكة حين أخرجوهم من ديارهم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن محمد بن سيرين قال : أشرف عليهم عثمان من القصر فقال : ائتوني برجل قارئ كتاب الله ، فأتوه بصعصعة بن صوحان ، فتكلم بكلام فقال : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ فقال له عثمان : كذبت ! ليست لك ولا لأصحابك ، ولكنها لي ولأصحابي .

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ أي من مكة إلى المدينة ﴿ بغير حق ﴾ يعني محمداً - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن عثمان بن عفان قال : فينا نزلت هذه الآية ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ والآية بعدها أخرجنا من ديارنا ﴿ بغير حق ﴾ ثم مكنا في الأرض ، فأقمنا الصلاة ، وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، فهي لي ولأصحابي .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ثابت بن عوسجة الخضيري قال : حدثني سبعة وعشرون من أصحاب علي وعبد الله ، منهم لاحق بن الأقمر ، والعيزار بن جرول ، وعطية القرظي أن علياً قال : إنما نزلت هذه الآية في أصحاب محمد ﴿ ولولا دفع الله الناس ﴾ قال : لولا دفع الله بأصحاب محمد عن التابعين ، لهدمت صوامع .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عاصم أنه قرأ ﴿ ولولا دفع الله الناس ﴾ بغير الألف .

(119/525)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ﴿ ولولا دفع الله الناس ﴾ . قال : لولا القتال والجهاد .

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد في الآية . قال : دفع المشركون بالمسلمين .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في الآية قال : منع بعضهم ببعض في الشهادة وفي الحق ، وفيما يكون مثل هذا يقول : لولا هذا لهلكت هذه الصوامع وما ذكر معها .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ لهدّمت صوامع ﴾ . قال : الصوامع التي تكون فيها الرهبان ، والبيع مساجد اليهود ، وصلوات كنائس النصارى ، والمساجد مساجد المسلمين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ، عن ابن عباس قال : البيع بيع النصارى ، وصلوات كنائس اليهود .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك قال : صلوات كنائس اليهود يسمون الكنيسة صلاة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عاصم الجحدري أنه قرأ ﴿ وصلوات ﴾ قال : الصلوات دون الصوامع . قال : وكيف تهدم الصلاة !

وأخرج عبد بن حميد ، عن أبي العالية قال : البيع بيع النصارى ، والصلوات : بيع صغار للنصارى .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي العالية في الآية قال : صوامع

الرهبان ، وبيع النصارى ، وصلوات مساجد الصابئين : يسمونها بصلوات .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ صوامع ﴾ قال : هي للصابئين وبيع للنصارى ، وصلوات كنائس اليهود ، ومساجد للمسلمين .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في الآية .

قال : الصوامع صوامع الرهبان ، وبيع كنائس وصلوات ومساجد لأهل الكتاب ، ولأهل الإسلام بالطرق .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في قوله : وصلوات أهل الإسلام تنقطع إذا دخل عليهم العدو .

تنقطع العبادة من المساجد .

(120/525)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك في قوله : ﴿ يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ يعني في كل مما ذكر ، من الصوامع . والصلوات والمساجد يقول : في كل هذا يذكر اسم الله ، ولم يخص المساجد .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي العالية في قوله : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ﴾ قال :

أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن محمد بن كعب ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ﴾ قال : هم الولاة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ﴾ قال : أرض المدينة ﴿ أقاموا الصلاة ﴾ قال : المكتوبة . ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ قال : المفروضة ﴿ وأمروا بالمعروف ﴾ بلا إله إلا الله ﴿ ونهوا عن المنكر ﴾ قال : الشرك بالله ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ قال : وعند الله ثواب ما صنعوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي العالية في الآية . قال : كان أمرهم بالمعروف ، أنهم دعوا إلى الله وحده ، وعبادته لا شريك له ، وكان نهيهم أنهم نهوا عن عبادة الشيطان . وعبادة الأوثان .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ﴾ قال : هذا شرط الله على هذه الأمة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(121/525)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ يُدَافِعُ ﴾ : قرأ ابن كثير وأبو عمرو "يَدْفَعُ" والباقون "يُدافع" . وفيه وجهان ، أحدهما : أنَّ فاعَلَ بمعنى فَعَل المجردِ نحو : جاوَزْته وجُزْتُه ، وسافَرْتُ ، وطارَقْتُ .

والثاني : أنه أُخْرِجَ على زِنَةِ المُفاعلة مبالغةً فيه ؛ لأنَّ فِعْلَ المفاعلةِ أبلغُ مِنْ غيره . وقال ابن عطية : " فَحَسُنَ دفاع لأنه قد عَنَّ للمؤمنين [مَنْ] يَدْفَعُهم ويؤذيهم فتجيء مقاومتُه ودَفْعُه عنهم مُدافَعَةً " يعني : فيُلْحَظُ فيها المفاعلةُ .

قوله : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ ﴾ : قرأه مبنياً للمفعول نافع وأبو عمرو وعاصم . والباقون قرؤوه مبنياً للفاعل . وأمَّا "يُقاتِلون" فقرأه مبنياً للمفعول نافع وابن عامر وحفص . والباقون مبنياً للفاعل . وحَصَلَ من مجموع الفعلين : أن نافعاً وحفصاً بَنَيا هما للمفعول ، وأنَّ ابنَ كثيرٍ وحمزةَ والكسائي بَنَيا هما للفاعل ، وأن أبا عمرو وأبا بكر بَنَيا الأول للمفعول والثاني للفاعل . وأن ابنَ عامر عكسُ هذا فهذِه أربعُ رُتَبٍ . والمأذونُ فيه محذوفٌ للعلمِ به أي : للذين يقاتَلون في القتال . و ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ متعلقٌ ب "أُذِنَ" والباءُ سببيةٌ أي : بسبب أنهم مظلومون .

قوله : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ ﴾ : يجوز أن يكونَ في محلِّ جرٍّ ، نعتاً للموصول الأولِ أو بياناً له ،

أو بدلاً منه ، وأن يكونَ في محلِّ نصبٍ على المدح ، وأن يكونَ في محلِّ رفعٍ على إضمارِ مبتدأ .

(122/525)

قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنه منصوبٌ على الاستثناءِ المنقطع ، وهذا ممَّا يُجْمِعُ العربُ على نصبه ؛ لأنه منقطعٌ لا يمكنُ تَوَجُّهُ العاملِ إليه ، وما كان كذا أجمعوا على نصبهِ ، نحو : " ما زاد إلاَّ ما نقصَ " ، " وما نفعَ إلاَّ ما ضرَّ " . فلو توجَّهَ العاملُ جاز فيه لغتان : النصبُ وهو لغةُ الحجاز ، وأَنْ يكونَ كالمتصلِ في النصبِ والبدل نحو : " ما فيها أحدٌ إلاَّ حمارٌ " ، وإنما كانت الآيةُ الكريمةُ من الذي لا يتوجَّه عليه العاملُ ؛ لأنك لو قلت : " الذين أُخْرِجوا مِنْ ديارهم إلا أَنْ يقولوا ربُّنا الله " لم يَصحَّ . الثاني : أنه في محلِّ جر بدلاً من " حَقّ " قال الزمخشري : " أي بغير موجبٍ سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرارِ والتمكينِ لا موجبَ الإخراجِ والتسييرِ . ومثلُه : ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بالله ﴾ [المائدة : 59] .

(123/525)

ومَمَّنْ جَعَلَه في موضع جرٍّ بدلاً ممَّا قبله الزجاجُ . إلاَّ أن الشيخ قد ردَّ ذلك فقال : " ما أجازاه من البدل لا يجوز ؛ لأنَّ البدلَ لا يجوزُ إلاَّ حيث سبقه نفيٌ أو نهيٌ أو استفهامٌ في معنى النفي . وأمَّا إذا كان الكلام موجَباً أو أمراً فلا يجوزُ البدلُ ؛ لأنَّ البدلَ لا يكون إلا حيثُ يكونُ العاملُ يُتَسَلَّطُ عليه . ولو قلت : " قام إلاَّ زيدٌ " ، و " لِيَضْرِبْ إلاَّ عمروٌ " لم يجز . ولو قلت في غير القرآن : " أُخْرِجَ الناسُ مِنْ ديارِهم إلاَّ بأَنْ يقولوا : لا إلهَ إلاَّ اللهُ " لم يكن كلاماً . هذا إذا تُخيِّل أَنْ يكونَ ﴿ إلاَّ أَن يَقُولُواْ ﴾ في موضعِ جرٍّ بدلاً من " غير " المضاف إلى " حَقٍّ " . وأمَّا إذا كان بدلاً من " حق " كما نَصَّ عليه الزمخشريُّ فهو في غايةِ الفسادِ ؛ لأنه يَلْزَمُ منه أن يكونَ البدلُ يلي " غيراً " فيصير التركيبُ : بغير إلاَّ أَنْ يقولوا ، وهذا لا يَصِحُّ ، ولو قَدَّرْنا [إلاَّ] ب " غير " كما / يُقَدَّرُ في النفي في : " ما مررت بأحدٍ إلاَّ زيدٍ " فتجعلُه بدلاً لم يَصِحَّ ؛ لأنه يصيرُ التركيبُ : بغير غيرِ قولِهم ربُّنا اللهُ ، فتكون قد أضَفْتَ غيراً إلى " غير " وهي هي فيصير : بغير غير ، ويَصِحُّ في " ما مررتُ بأحدٍ إلاَّ زيدٍ " أن تقول : ما مررت بغير زيد ، ثم إن الزمخشري حيث مَثَّل البدلَ قَدَّره : بغير موجبٍ سوى التوحيدِ ، وهذا تمثيلٌ للصفة جَعَلَ [إلاَّ] بمعنى سِوَى ، ويَصِحُّ على الصفةِ فالتبسَ عليه بابُ الصفة بباب البدل .

ويجوز أن تقولَ : " مررتُ بالقومِ إلاَّ زيدٍ " على الصفة لا على البدل " .

قوله : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ ﴾ قد تقدَّم الخلافُ فيه في البقرة وتوجيهُ القراءتين .

وقرأ " لَهُدِمَتْ " بالتخفيفِ نافعٌ وابن كثير . والباقون بالتثقيل الدالِّ على التكثيرِ ؛ لأنَّ المواضعَ كثيرةٌ متعددةٌ ، والقراءةُ الأولى صالحةٌ لهذا المعنى أيضاً .

(124/525)

والعامَّةُ على " صَلَواتٌ " بفتح الصاد واللام جمعَ صلاةٍ . وقرأ جعفر ابن محمد " وصُلُوات " بضمِّهما . ورُوي عنه أيضاً بكسرِ الصاد وسكونِ اللام . وقرأ الجحدري بضم الصاد وفتح اللام . وأبو العالية بفتح الصادِ وسكونِ اللام . والجحدريُّ أيضاً " وصُلُوْت " بضمِّهما وسكونِ الواو ، بعدها تاءٌ مثناةٌ من فوقُ مثلَ : صُلْب وصُلُوب .

والكلبيُّ والضحاكُ كذلك ، إلاَّ أنهما أَعْجَما التاءَ بثلاثٍ مِنْ فوقها . والجحدريُّ أيضاً وأبو العاليةِ وأبو رجاءٍ ومجاهدٌ كذلك ، إلاَّ أنَّهم جعلوا بعد الثاءِ المثلثة ألفاً فقرؤوا " صُلُوْثا " ورُوي عن مجاهدٍ في هذه التاءِ المثنَّاةِ مِنْ فوقُ أيضاً . ورُوي عن الجحدريِّ أيضاً " صُلْواث " بضم الصادِ وسكونِ اللامِ وألفٍ بعد الواوِ والثاءِ مثلثةً .

وقرأ عكرمة " صلويثى " بكسر الصاد وسكون اللام ، وبعدها واوٌ مكسورةٌ بعدَها ياءٌ مثنَّاةٌ مِنْ تحتُ بعدها ثاءٌ مثلثةٌ ، وحكى ابنُ مجاهد أنه قُرِئَ " صِلْواث " بكسر الصاد وسكون اللام . بعدها واوٌ ، بعدها ألف ، بعدها ثاءٌ مثلثةٌ .

وقرأ الجحدري " وصُلُوب " مثل كُعُوْب بالباء الموحدةِ وهو جمع " صليب " ، وفُعُوْل جمعُ فعيل شاذٌّ نحو : ظريف وظروف وأَسِينة وأُسُون ، ورُوي عن أبي عمرو " صلواتُ " كالعامَّةِ ، إلاَّ أَنَّه لم يُنَوِّن ، مَنَعه الصرفَ للعلميَّة والعجمة ؛ لأنه جعله اسمَ موضعٍ ، فهذه أربعَ عشرةَ قراءةً ، المشهورُ منها واحدةٌ ، وهي هذه الصلاةُ المعهودة .

(125/525)

ولا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مضافٍ ليَصِحَّ تَسَلُّطُ الهَدْمِ عليها أي : مواضع صلواتٍ ، أو يُضَمَّن " هُدِّمَتْ " معنى " عُطِّلَتْ " فيكون قَدْراً مشتركاً بين المواضع والأفعال ؛ فإنَّ تعطيل كلِّ شيءٍ بحَسبه . وأخَّر المساجدَ لحُدوثها في الوجود ، أو الانتقالِ إلى الأشرفِ . والصلواتُ في الأمم . . . . . صلاةُ كلِّ مِلَّةٍ بحَسَبها . وظاهرُ كلام الزمخشري أنها بنفسِها اسمُ مكان فإنه قال : " وسُمِّيَتْ الكنسيةُ صلاةً لأنه يُصَلَّى فيها . وقيل : هي كلمةٌ مُعَرَّبَةٌ أصلُها بالعبرانيةِ صَلُوثا " . انتهى .

وأمَّا غيرُها من القراءات فقيل : هي سريانيةٌ أو عبرانيةٌ دَخَلَتْ في لسانِ العربِ . ولذلك كَثُر فيها اللغاتُ .

والصَّوامِعُ : جمعُ صَوْمَعَة وهي البناءُ المرتفعُ الحديدُ الأعلى ، مِنْ قولِهم رجلٌ أصمعُ ، وهو

الحديدُ القولِ . ووزنها فَوْعَلة كدَوْخَلة . وهي متعبَّد الرهبانِ لأنهم ينفردون . وقيل : متعبَّدُ الصَّابِئين .

والبِيَعُ : جمع بِيْعَة ، وهي متعبَّدُ النصارى . وقيل : كنائس اليهود . والأشهر أنَّ الصوامِعَ للرهبانِ والبِيَعَ للنصارى ، والصَّلَواتِ لليهود ، والمساجدَ للمسلمين .

و﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله ﴾ يجوز أَنْ يكونَ صفةً للمواضعِ المتقدمةِ كلِّها ، إنْ أَعَدْنا الضميرَ مِنْ " فيها " عليها ، أو صفةً للمساجد فقط ، إنْ خَصَصْنا الضميرَ في " فيها " بها ، والأولُ أظهر .

قوله : ﴿ الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ ﴾ : يجوزُ في هذا الموصولِ ما جاز في الموصولِ قبلَه . ويزيد هذا عليه : بأَنْ يجوزَ أن يكونَ بدلاً مِنْ " مَنْ يَنْصُرُه " ذكره الزجاج أي : ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ الذي إنْ مَكَّنَّاهم . وإنْ مَكَّنَّاهم " شرطٌ . و " أقاموا " جوابُه ، والجُملةُ الشرطيةُ بأَسْرِها صلةُ الموصولِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 281.286 ﴾

(126/525)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) ﴾

يدفع عن صدورهم نزغاتِ الشيطان ، وعن قلوبِهم خطراتِ العصيان ، وعن أرواحهم طوارقَ النسيان .

والخيانةُ على أقسام : خيانةٌ في الأموال تفصيلها في المسائل الشرعية وخيانة في الأعمال ، وخيانة في الأحوال ؛ فخيانة الأعمال بالرياء والتصنع ، وخيانة الأحوال بالملاحظة والإعجاب والمساكنة ، وشرُّها الإعجابُ ، ثم المساكنةُ وأخفاها الملاحظة .

ويقال خيانة الزاهدين عزوفهم عن الدنيا على طلب الأعواض ليجدوا في الآخرة حُسْنَ المآل . . . وهذا إخلاص الصالحين . ولكنه عند خواص الزهاد خيانة ؛ لأنهم تركوا دنياهم لا لله ولكن لوجود العِوَض على تركهم ذلك مِنْ قِبَلِ الله .

وخيانةُ العابدين أن يَدَعُوا شهواتِهم ثم يرجعون إلى الرُّخَص ، فلو صدقوا في مرماهم لَمَا انحطُّوا إلى الرخص بعد ترقيهم عنها .

وخيانة العارفين جنوحهم إلى وجود مقام ، وتطلعهم لمنال منزلة وإكرام من الحق ونوع تقريب .

وخيانة المحبين روم فرحة مما يمسهم من برحاء المواجيد ، وابتغاء خرجه مما يَشْتَدُّ عليهم من استيلاء صَدِّ ، أو غلبات شوقٍ ، أو تمادي أيامِ هَجْرٍ .

وخيانة أربابِ التوحيد أن يتحرك لهم للاختيار عِرْقٌ ، وروجوعُهم – بعد امتحائِهم عنهم

- إلى شظية من أحكام الفَرْقِ ، اللهم إلا أن يكونَ ذلك منهم موجوداً ، وهم عنه مفقودون .

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39)

(127/525)

إذا أصابهم ضُرٌّ أو مَسَّهم - ما هو في الظاهر - ذُلٌّ من الأعادي يجري عليهم ضَيْمٌ ، أو يلحقهم من الأجانب استيلاءٌ وظلمٌ . . فالحقُّ - سبحانه - ينتقِمُ من أعدائهم لأَجْلِهم ، فهم بنعت التسليم والسكون في أغلب الأحوال ، وتفاصيلُ الأقدارِ جاريةٌ باستئصالِ مَنْ يناويهم ، وبإحالة الدائرة على أعاديهم . وفي بعض الأحايين ينصبهم الحق سبحانه بنعت الغَلَبَةِ والتمكين من نزولهم بساحات مَنْ يناوئهم بِحُسْنِ الظَّفَر ، وتمام حصولِ الدائرة على مَنْ نَاصَبَهم ، وأخزاهم بأيديهم ، وكلُّ ذلك يتفق ، وأنواعُ النصرَةِ من الله - سبحانه - حاصلةٌ ، واللَّهُ - في الجملةِ - غالِبٌ على أمره .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾

المظلومُ منصورٌ ولو بعد حين ، ودولة الحق تغلب دولة الباطل ، والمظلومُ حميدُ العقبى ، والظالمُ وشيك الانتقام منه بشديد البلوى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل : 52] . وقد يجري من النَّفْسِ وهواجسها على القلوبِ لبعضِ الأولياءِ وأهل القصةِ - ظُلْمٌ

، ويَحْصُلُ لِسُكَّانِ القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاءٌ ، وتستولي غَاغَةُ النَّفْس ، فتعمل في القلوب بالفساد بسبب استيطانِ الغفلة حتى تتداعى القلوبُ للخراب من طوارق الحقائق وشوارق الأحوال ، كما قال قائلهم :

أنعي إليكَ قلوباً طالما هَطَلَتْ . . . سحائبُ الجودِ فيها أَبْحُرَ الحِكَم

فَيَهْزِمُ الحقُّ – سبحانه – بجنودِ الإقبال أزاذِلَ الهواجسِ ، وينصرُ عَسْكَرَ التحقيقِ بأَمْدَادِ الكشوفات . ويَتَجَدَّدُ دارسُ العهد ، وتطْلُعُ شموسُ السَّعْدِ في ليالي الستر ، وتُكْنَسُ القلوبُ وتتطهر من آثارِ ظُلْمَةِ النَّفْسِ ، كما قيل :

(128/525)

أطلالُ سُعْدَى باللِّوى تَتَجَدَّدُ . . . فإذا هبَّتْ على تلك القلوب رياحُ العناية ، وزال عنها وهج النسيان سقاها الله صَوْبَ التجلِّي ، وأنبت فيها أزهارَ البَسْط فيتضح فيها نهارُ الوَصْلِ ، ثم يوجد فيها نسيم القرب إلى أن تطلع شموس التوحيد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

يتجاوز عن الأصاغر لقَدْرِ الأكابر ، ويعفو عن العوام لاحترام الكرام . . وتلك سُنَّةٌ أجراها

الله لاستنقاء منازل العبادة ، واستصفاء مناهل العرفان . ولا تحويل لسُنَّتِهِ ، ولا تبديل لكريم عادته .

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)

إذا طالت بهم المدةُ ، وساعَدَهم العمرُ لم يستفرغوا أعمالَهم في استجلاب حظوظهم ، ولا في اقتناء محبوبهم من الدنيا أو مطلوبهم ، ولكن قاموا بأداء حقوقنا .

وقوله : ﴿ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ في الظاهر ، واستداموا المواصلات في الباطن .

ويقال إقامة الصلاة الوفاء بأدائها ؛ فتَعْلَمَ – بين يدي الله – مَنْ أنت ، ومَنْ تناجي ، ومَنْ الرقيب عليك ، ومن القريب منك .

وقوله : ﴿ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ﴾ : الأغنياء منهم يوفون بزكاة أموالهم ، وفقراؤهم يُؤْتُون زكاةَ أحوالهم ؛ فزكاة الأموال عن كل مائتين خَمْسَة للفقراء والباقي لهم ، وزكاة الأحوال أن يكون من مائتي نَفَسٍ تسعة وتسعون ونصف جزء ومائة لله ، ونصف جزء من نَفَسٍ – من المائتين – لَكَ . . . . وذلك أيضاً عِلَّةٌ .

(129/525)

قوله : ﴿ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنكَرِ ﴾ : يبتدئون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأنفُسِهم ثم بأغيارهم ، فإذا أخذوا في ذلك لم يتفرغوا من أنفسهم إلى غيرهم .

ويقال " الأمر بالمعروف " حفظ الحواس عن مخالفة أمره ، ومراعاة الأنفاس معه إجلالاً لِقَدْرِه .

ويقال الأمر بالمعروف على نَفْسك ، ثم إذا فَرَغْتَ من ذلك تأخذ في نهيها عن المكر . ومنْ وجوهِ المكرِ الرياءُ والإعجابُ والمساكنةُ والملاحظةُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 547 ﴾

(130/525)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23) ﴾

التفسير : لما ذكر حال أحد الخصمين في الآخرة أراد أن يذكر حال الآخر وهو المؤمن ولهذا ألزم التكرار ، إلا أنه يفطن بهذه الآية فائدة أخرى هي بيان أهل الجنة يحلون فيها وقد مر

مثله في أوائل الكهف . ومن قرأ ﴿ لؤلؤاً ﴾ بالنصب فعلى تقدير ويؤتون لؤلؤاً لأن السوار من اللؤلؤ غريب إلا أن يكون شيئاً منظوماً منه . ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ﴾ عن ابن عباس هو قولهم الحمد لله الذي صدقنا وعده يلهمهم الله ذلك ﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ أي إلى طريق المقام المحمود وهو الجنة أو إلى صراط الله كقوله

(131/525)

﴿ إلى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ [إبراهيم : 12] وقال السدي : الطيب من القول هو القرآن . وقيل : شهادة أن لا إله إلا الله وقال حكماء الإسلام : هو كشف الغطاء عن الحقائق الروحانية والمعارف الربانية ، ثم كرر وعيد أهل الكفر ومن دناهم فقال ﴿ إن الذين كفروا ويصدون ﴾ إنما حسن عطف المستقبل على الماضي لأنه أراد به الاستمرار وأنه من شأنهم الصد وكأنه قيل : كفروا واستمروا على الصد . وقال ابو علي الفارسي . كفروا في الماضي وهم الآن يصدون . عن ابن عباس أنها نزلت في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه عام الحديبية عن أن يحجوا ويعتمروا وينحروا الهدي . ومن قرأ ﴿ سواء ﴾ بالنصب فعلى أنه مفعول ثانٍ لجعلنا أي جعلناه مستوياً ﴿ العاكف فيه

والباد ﴾ ومن قرأ بالرفع فعلى أن ﴿ العاكف ﴾ مبتدأ و﴿ سواء ﴾ خبر مقدم والجملة مفعول ثان ويجوز أن يكون ﴿ للناس ﴾ مفعولاً ثانياً اي جعلناه متعبداً لكل من وقع عليه اسم الناس ، وقوله ﴿ سواء ﴾ إلى آخره الجملة بيان لذلك الجعل أي لا فرق بين الحاضر المقيم به وبين الطارئ من البدو ، واختلفوا في أن المكي والآفاقي يستويان في أي شيء فعن ابن عباس في بعض الروايات أنهما يستويان في سكنى مكة والنزول بها للآية بناء على أن المراد بالمسجد الحرام مكة ، ولما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال " مكة مباحة سبق إليها " وإلى هذا ذهب أبو حنيفة وهو قول قتادة وسعيد بن جبير أيضاً ، ولأجل ذلك زعموا أن كراء دور مكة حرام . والأكثرون على أنهما مستويان في العبادة في المسجد ليس للمقيم أن يمنع البادي وبالعكس ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " يا بني عبد مناف من ولي منكم من أمور الناس شيئاً فلا يمنعن أحداً طاف بهذا البيت أو صلى أية ساعة شاء من ليل أو نهار " وعلى هذا فلا منع من بيع دور مكة وإجارتها وهو مذهب الشافعي وقد جرت المناظرة بينه وبين إسحق

(132/525)

الحنظلي وكان إسحق لا يرخص في كراء دور مكة فاحتج الشافعي بقوله تعالى ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ [الحج : 40] بأن عمر اشترى دار السجن فسكت إسحق وإنما ذهب الأولون إلى أن المراد بالمسجد الحرام ههنا مكة كلها لأنه جعل العاكف فيه بإزاء البادي . أجاب الأكثرون بأنه اراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن في كل وقت من التعبد فيه . والإلحاد العدول عن القصد كما مر في قوله ﴿ وذر الذين يلحدون في أسمائه ﴾ [الأعراف : 180] وقوله ﴿ بالحاد بظلم ﴾ حالان ومفعول ﴿ يرد ﴾ متروك ليفيد العموم أي ومن يرد فيه مراداً ما جائراً ظالماً .

(133/525)

وفائدة الحال الثانية أن العدول عن القصد قد يكون بالحق كقوله ﴿ وجزاء سيئة سيئة ﴾ [الشورى : 40] واختلفوا في الإلحاد في الحرم فعن قتادة وسعيد بن جبير وابن عباس في رواية عطاء أنه الشرك يعني من لجأ إلى حرم الله ليشرك به عذبه الله . وقال مقاتل : نزلت في عبد الله بن حنظلة حيث قتل الأنصاري وهرب إلى مكة كافراً . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله يوم الفتح وهو العذاب الأليم . وعن مجاهد أنه الاحتكار . وقيل : المنع من عمارته . وعن عطاء : هو قول الرجل في المبايعة " لا والله " وبلى والله . ومثله ما روي عن

عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم ، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل فقيل له في ذلك فقال : كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل " لا والله " و" بلى والله " . والأولى التعميم . وفيه أن الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في مهامه ومقاصده ، وهذا وإن كان واجباً في كل مكان إلا أن وجوبه هناك أوكد فللمكان خاصية كما للزمكان ولهذا قال مجاهد : تضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات . عن ابن مسعود : أن القصد إلى الذنب يكتب هناك ذنباً وإن لم يخرج إلى الفعل . وعنه لو أن رجلاً يهم بأن يعمل سيئة عند البيت اذاقه الله تعالى عذاباً أليماً . واعلم أن خبر إن محذوف لدلالة جواب الشرط عليه كأنه قيل : إن الذين كفروا ويصدون نذيقهم من عذاب أليم ومن يرد في الحرم بإلحاد فهو كذلك ، وحين انجر الكلام إلى ذكر المسجد الحرام أتبعه ذكر الكعبة وبعض ما يتعلق به من المناسك فقال ﴿ وإذ بوأنا ﴾ أي واذكر حين جعلنا ﴿ لإبراهيم مكان البيت ﴾ مباءة أي مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة ، ويروى أن موضع البيت كان مطموساً بفبعث الله تعالى ريحاً كنست ما حوله حتى ظهر اسه القديم فبنى إبراهيم عليه وقد مر قصة ذلك في " البقرة " . وقيل : بعث غمامة على قدر البيت الحرام في العرض والطول

وفيها راس يتكلم وله لسان وعينان فقال : يا إبراهيم ابن على قدري فأخذ في البناء وذهبت السحابة . وأن في ﴿ أن لا تشرك ﴾ هي المفسرة وذلك أن المقصود من التوبة هو العبادة فكأنه قيل : تعبدنا لإبراهيم قلنا له : لا تشرك وطهر وقد مر مثله في " البقرة " . وإنما قال ههنا ﴿ والقائمين ﴾ لأن العاكف ذكر مرة في قوله ﴿ سواء العاكف ﴾ والقائم إما بمعنى القيام في الصلاة بدليل قوله ﴿ والركع السجود ﴾ أو بمعنى المقيم المتوطن . والظاهر أن الخطاب في ﴿ وأذن ﴾ لإبراهيم أيضاً أي ناد ﴿ في الناس ﴾ وهو أن يقول حجوا أو عليكم ﴿ بالحج ﴾ يروى أنه صعد أبا قبيس فقال : ايها الناس حجوا بيت ربكم ، قال مجاهد : فما حج إنسان ولا يحج إلى القيامة إلا وقد سمع ذلك النداء من في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فمن أجاب مرة حج مرة ومن أجاب أكثر فأكثر .

(135/525)

ولعل الفائدة في قوله ﴿ يأتوك ﴾ هي هذه لأن الإتيان إلى مكة بسبب ندائه إتيان إليه . وأيضاً هو أول من حج وغيره يقتدي به وكأنه يأتيه . وعن الحسن وهو اختيار أكثر العلماء المعتزلة أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأنه معطوف على " أذكر " مقدراً ، ثم إنه

عام لجميع الناس أو خاص بمن حج معه في حجة الوداع قولان . وقيل : إنه ابتداء فرض الحج والرجال المشاة واحده راجل . وقوله ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ حال آخر كأنه قيل رجالاً وركباناً . والضامر البعير المهزول لطول السفر . ﴿ ويأتين ﴾ صفة ﴿ لكل ضامر ﴾ لأنه في معنى الجمع . والفج الطريق الواسع وقد مر في السورة المتقدمة . والعميق البعيد ومثله معيق وبه قرأ ابن مسعود . وفي تقديم المشاة تشريف لهم . روى سعيد بن جبير بإسناده عن النبي صلى الله عليه وسلم " إن الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللماشي سبعمائة من حسنات الحرم . قيل : يا رسول الله وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسنة بمائة ألف حسنة " قال جار الله : نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات وقد كنى عن النحر والذبح بذكر اسم الله تعالى لأن المسلمين لا ينفكون عن التسمية إذا نحروا أو ذبحوا ، وفيه تنبيه على أن التسمية من الأغراض الأصلية المعتبرة خلاف ما كان يفعله المشركون من الذبح للنصب . وفي قوله ﴿ على ما رزقهم ﴾ إشارة إلى أن نفس القربان وتيسير ذلك العمل من نعم الله تعالى ولو قيل " لينحروا في أيام معلومات بهيمة الأنعام " لم يكن شيء من هذه الفوائد . والأيام المعلومات عند أكثر العلماء عشر ذي الحجة الأول آخرها يوم النحر لأنها معلومة عند الناس لحرصهم على أعمال الحج فيها . ثم للمنافع أوقات من العشر معروفة كيوم

عرفة والمعشر الحرام ، كذلك للذبح وقت بعينه وهو يوم النحر وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والحسن ورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس واختيار الشافعي وأبي حنيفة .

(136/525)

وعن ابن عباس في رواية أخرى أنها يوم النحر وثلاثة ايام بعدها وهو اختيار أبي مسلم وقول أبي يوسف ومحمد . وعلى الأول يكون قوله ﴿ في أيام ﴾ متعلقاً بكلا الفعلين أعني ﴿ ليشهدوا ﴾ ﴿ وليذكروا ﴾ وعلى الثاني يختص تعلقه بالثاني . ومعنى ﴿ بهيمة الأنعام ﴾ بهيمة من الأنعام لأن البهيمة تشمل كل ذات أربع في البر والبحر فبينت بالأنعام وهي الإبل والبقر والضأن والمعز ، وقد مر في أول المائدة قال مقاتل : إذا ذبحت فقل " بسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك " وتستقبل القبلة .

(137/525)

وزاد الكلبي " إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين " . قال القفال : كأن المتقرب بها وبإراقة دمائها متصور بصورة من يفدي نفسه بما يعادلها فكأنه يبذل تلك الشاة

بذل مهجته طلباً لمرضاة الله واعترافاً بأن تقصيره كاد يستحق مهجته . أما قوله ﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ فالبائس الذي أصابه بؤس أي شدة والفقير قد مر في آية الصدقات في " التوبة " وفي غيرها . ثم من الناس من قال : الأمران للوجوب لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون منها فأمر المسلمون بمخالفتهم . والأكثرون على أن الأكل ليس بواجب . ثم منهم من قال : يحسن أن يأكل النصف ويتصدق بالنصف رعاية للأمرين . ومنهم من قال : يأكل الثلث ويتصدق بالثلثين لما يجيء من قوله ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ﴾ فجعلها على ثلاثة أقسام ومنهم من قال : يأكل الثلث ويدخر الثلث ويتصدق بالثلث لما جاء في الحديث من الأمر بالادخار . والأولى وهو مذهب الشافعي أنه إن أطعم جميعها أجزأه ، وإن أكل جميعها لم يجزئه ، وإذا تصدق بأقل شيء من لحمها يكفي هذا إذا كان متطوعاً . وأما الواجبات كالنذور والكفارات وجبران النقصانات مثل دم القران ودم التمتع ودم الإساءة فلا يأكل منها لا هو ولا أغنياء الرفقة ولا فقراؤها لما روي عن هشام بن عروة عن أبيه عن ناجية الخزاعي " قال : قلت : يا رسول الله كيف أصنع بما عطب من البدن ؟ قال : انحرها ثم إغمس نعلها في دمها ثم خل بين الناس وبينها يأكلونها " وقال ايضاً صلى الله عليه وسلم في مثله : " لا تأكل منها أنت ولا أحد من أهل رفقتك " قوله ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ لا يبعد أن يكون معطوفاً على ﴿ ليشهدوا ﴾ فإن هذه الأعمال كلها غايات للإتيان إلا أن إسكان هذه اللامات في بعض القراءات يدل على أنها لام

الأمر وعلى هذا تكون هذه الأوامر الغائبة معطوفة على الأمرين الحاضرين قبلها والله أعلم . قال أبو عبيدة : لم يجيء في الشعر ما يحتج به في معنى النفث . وقال

(138/525)

الزجاج : إن أهل اللغة لا يعرفون التفث إلا من التفسير . وقال القفال : قال نفطويه : سألت أعرابياً فصيحاً ما معنى قوله ﴿ ثم ليقضوا نفثهم ﴾ ؟ فقال : ما أفسر القرآن ولكنا نقول للرجل : ما أتفثك وما أدرنك ! ثم زعم القفال أن هذا أولى من قول الزجاج لأن المثبت أولى من النافي . وقال المبرد : أصل التفث في كلام العرب كل قاذورة تلحق الإنسان فيجب عليه نقضها . وأجمع أهل التفسير على أن المراد ههنا إزالة الأوساخ والزوائد كقص الشارب والأظفار ونتف الإبط وحلق العانة .

(139/525)

فتقدير الآية ثم ليقضوا إزالة تفثهم وليوفوا نذورهم اي الأعمال التي أوجبها الحج بالشروع فيه ، أو أعمال البر التي أوجبوها على أنفسهم بالنذر فإن الرجل إذا حج أو اعتمر فقد

يوجب على نفسه من الهدي وغيره ما لولا إيجابه لم يكن الحج يقتضيه . ﴿ وليطوفوا ﴾ هو طواف الإفاضة والزيارة التي هي ركن وقد شرحت حاله في البقرة في قوله ﴿ فإذا أفضتم من عرفات ﴾ [البقرة : 198] وقيل : هو طواف الوداع والصدر . سمي ﴿ بالبيت العتيق ﴾ لأنه أول بيت وضع للناس عن الحسن ، وقال قتادة : لأنه أعتق من تسلط الجبابرة عليه وهو قول ابن عباس وابن الزبير ورووه عن رسول الله صلى الله عيله وسلم . وعن ابن عيينة لأنه لم يملك قط . وعن مجاهد لأنه أعتق من الغرق أيام الطوفان . وقيل : معناه البيت الكريم من قولهم " عتاق الخيل والطير " . والحرمة ما لا يحل هتكه وجميع التكاليف بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها ، ويحتمل أن يراد ههنا ما يتعلق بالحج ، عن زيد بن أسلم أن الحرمات خمس : الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرم حتى يحل . وتعظيمها العلم بوجوبها والقيام بحقوقها . وقوله ﴿ فهو خير ﴾ أي فالتعظيم له خير من التهاون بذلك . وقوله ﴿ عند ربه ﴾ إشارة إلى أن ثوابه مدخر لأجله . قوله ﴿ وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ﴾ قد مر في أول " المائدة " مثله أي إلا ما يتلى عليكم آية تحيمه وهي ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] أو قوله ﴿ غير محلي الصيد وأنتم حرم ﴾ [المائدة : 1] أو قوله ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ [الأنعام : 121] وحين حث على تعظيم الحرمات أتبعه الأمر بما هو أعظم أنواعها وأقدم أصنافها قائلاً ﴿ فاجتنبوا الرجس ﴾ وبينه بقوله ﴿ من الأوثان ﴾ أي

الرجس الذي هو الأوثان كقولك " عندي عشرون من الدراهم " . والرجس العمل القبيح في الغاية وقد مر في آخر المائدة في تفسير قوله ﴿ رجس من عمل الشيطان ﴾ [الآية : 90]

(140/525)

والزور من الزور الميل والإضافة كقولهم " رجل صدق " جمع بين القول الزور وبين الشرك لأن عبادة الأوثان هي راس الزور وملاكه . قال الصم : وصف الأوثان بأنها رجس لأن عادتهم في القرابين أن يتعمدوا سقوط الدماء عليها ، والأقرب أنها وصفت بذلك لأن عبادتها فعلة مما دية في القبح والسماجة . وللمفسرين في قول الزور وجوه منها : أنه قولهم هذا حلال وهذا حرام . ومنها أنه شهادة الزور رفعوا هذا التفسير إلى النبي صلى الله عليه وسلم . ومنها أنه الكذب والبهتان . ومنها أنه قول أهل الجاهلية في الطواف " لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك " وقوله ﴿ حنفاء لله غير مشركين به ﴾ حالان مؤكدان والمراد الإخلاص في التوحيد كقوله

(141/525)

﴿ حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾ [النحل : 120] وفائدة الحالين هي فائدة التولي والتبري وإنما أخر نفي الإشراك وإن كان مقدماً في الرتبة إذ التخلية والتبرئة مقدمة على التحلية والتولية ليرتب عليه قوله ﴿ ومن يشرك بالله ﴾ الآية . قال جار الله : إن كان تشبيهاً مركباً فمعناه من أشرك بالله فقد هلك نفسه غاية الإهلاك وذلك بأن صور حاله بصورة من خر من السماء فاحتطفه أي استلبته الطير فتفرق مزعاً أي قطعاً من اللحم في حواصلها ، أو بحال من خر فعصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح السحيقة البعيدة . وإن كان مفرقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي تركه فأشرك فقد سقط منها والإهواء التي توزع أفكاره بالطير المتخطفة ، وفي المثل الآخر شبه الشيطان الذي يطرح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بالأشياء في المهاوي المتلفة . وتعظيم شعائر الله وهي الهدايا كما مر في أمر " المائدة " هي أن يختارها عظام الأجرام غالية الأثمان . وقد مر وصفها الشرعي في " البقرة " في قوله ﴿ فما استيسر من الهدي ﴾ [الآية : 196] وقد أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب قال في الكشاف ﴿ فإنها من تقوى القلوب ﴾ أي فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى من ليرتبط به . وأقول : في هذا الوجوب نظر لأنه ليس بشرعي ولا بعقلي على ما

تزعم المعتزلة . أما المضاف الأول فلأنه يحتمل أن يعود الضمير إلى التعظيم موحدين حتى لا يطابقها لفظ القلوب بل يحتمل أن يقدر لفظة منهم أو يقدر فإن تعظيمهم إياها فيرجع الكلام إلى قلوبنا ﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ فإن تلك الخلة منهم من تقوى القلوب أي ناشئة من تقوى قلوبهم ، فإن القلوب مراكز التقوى التي منها عيارها وعليها مدارها ولا عبرة بما يظهر من آثارها على سائر الجوارح دونها . ثم كان لسائل أن

(142/525)

يسال : ما بال هذه الحيوانات تذبح فيتقرب بها إلى الله تعالى ؟ فلهذا قال ﴿ لكم فيها منافع ﴾ يعني الدنيوية من الدر وركوب الظهر وسيشير إلى الدينية بقوله ﴿ لكم فيها خير ﴾ ولهذا أطلق ذلك وقيد هذه بقوله ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ وهو أوان النحر . ثم بين أن وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها أو مكان نحرها منته إلى البيت أو إلى ما يجاوره ويقرب مه وهو الحرم كما مر في قوله ﴿ هديا بالغ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] ومثله قوله : بلغنا البلد " إذا شارفوه واتصل مسيرهم بحدوده . قال القفال : هذا إنما يختص بالهدايا التي بلغت مني ، فأما إذا عطبت قبل بلوغ مكة فإن محلها هو موضعها .

(143/525)

" روى أبو هريرة نه صلى الله عليه وسلم مر برجل يسوق بدنة وهو في جهد فقال صلى الله عليه وسلم : اركبها فقال : يا رسول الله إنها هدي . فقال : اركبها ويلك " وعن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال : " اركبوا الهدي بالمعروف حتى تجدوا ظهراً " وهذا هو الذي اختاره الشافعي . وعن ابي حنيفة أنه لا يجوز الإنتفاع بها لأنه لا يجوز إجارتها ولو كان مالكاً لمنافعها لملك عقد الإجارة عليها . وضعف بأن أم الولد لا يمكنه بيعها ويمكنه الانتفاع بها . وممن ذهب إلى هذا القول من فسر الأجل المسمى بوقت تسميتها هدياً ، والمراد أن لكم أن تنتفعوا بهذه الأنعام إلى أن تسموها أضحية وهدياً فإذا فعلتم ذلك فليس لكم أن تنتفعوا بها . وقد ينسب هذا القول إلى ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والضحاك . أجاب الأولون بأن الضمير في قوله ﴿ لكم فيها منافع ﴾ عائد إلى الشعائر ، وتسمية ما سيجعل شعيرة مجاز والأصل عدمه . قال في الكشاف : " ثم " للتراخي في الوقت فاستعيرت للتراخي في الأحوال ، والمعنى إن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم ، وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطاً في النفع محلها منتهية إلى البيت . ومنهم من فسر الشعائر بالمناسك كلها وفسر الأجل المسمى بأوان انقطاع التكليف ، وزيفه جار الله بأن محلها إلى البيت يأباه ، ثم بين أن القرابين في الشرائع القديمة وإن اختلفت أمكنتها وأوقاتها فقال ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ﴾ موضعاً أو وقتاً يذبح فيه النسائك الذبائح

كسر السين سماع وفتحها قياس . ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى النسك والمراد شرعنا لكل أمة من الأمم السالفة من زمن إبراهيم إلى من قبله وبعده أن ينسكوا له أي يذبحوا لوجهه على جهة التقرب وجعل الغاية في ذلك هي أن يذكر اسمه على نحرها ، ثم بين العلة في تخصيص اسمه بذلك قائلاً ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ لأن تفرده بالإلهية يقتضي أن لا يذكر على الذبائح إلا سامه . ويجوز أن يتعلق هذا الكلام بأول الآية ، والمعنى

(144/525)

إنما اختلفت التكاليف باختلاف الأزمنة والأشخاص لاختلاف المصالح لا لتعدد الإله . ثم ذكر أن تفرده بالإلهية يقتضي اختصاصه بالطاعة قائلاً ﴿ فله أسلموا ﴾ أي خصوه بالانقياد الكلي والامتثال لأوامره ونواهيه خالصاً لوجهه من غير شائبة إشراك . ثم أمر نبيه عليه السلام بتبشير المخبتين وفسرهم بقوله ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ والتركيب يدور على التواضع والخشوع ومنه الخبت للمطمئن من الأرض ، وعن عمرو بن أوس : هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا . قال الكلبي : هم المجتهدون في العبادة . ثم عطف على المخبتين قوله ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ أي من المكاره في ذات الله

كالأمراض والمحن ، فأما الذي يصيبهم من قبل الظلمة فقد قال العلماء : إنه لا يجب الصبر عليه ولكن لو أمكن الدفع وجب دفعه ولو بالقتال .

(145/525)

ثم خص من أنواع التكاليف التي تشق على النفس وتكرهها نوعين هما أشرف العبادات البدنية والمالية أعني الصلاة والزكاة وقوله ﴿ ومما رزقناهم ﴾ عطف على ﴿ المقيمي الصلاة ﴾ من حيث المعنى كأنه قيل : والذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . ثم عاد إلى تعظيم شأن الضحايا مرة اخرى وخص منها العظام الجسام بقوله ﴿ والبدن جعلناها ﴾ هي بضم الدال وسكونها جمع بدنة وهي الإبل خاصة لعظم بدنها إلا أن الشارع ألحق البقرة بها حكماً . قال أبو حنيفة ومحمد : لو قال : عليَّ بدنة يجوز له نحرها في غير مكة . وقال أبو يوسف : لا يجوز إلا بمكة بناء على أن البدنة مختصة بناقة أو بقرة تذبح هناك . واتفقوا فيما إذا نذر هدياً أنه يجب ذبحه بمكة ، وفيما إذا أنذر جزوراً أنه يذبحه حيث شاء . وانتصب قوله و ﴿ البدن ﴾ بفعل يفسره ما بعده . ومعنى جعلها من شعائر الله أنها من أعلام الشريعة التي شرعها الله . عن بعض السلف أنه لم يملك إلا تسعة دنانير فاشترى بها بدنة فقيل له في ذلك فقال : سمعت ربي يقول ﴿ لكم فيها خير ﴾ أي ثواب في

الآخرة كما ذكرنا . وبعضهم لم يفرق بين الآيتين فحمل كلاً منهما على خير الدنيا والآخرة ، والأنسب ما فسرناه حذراً من التكرار ما أمكن . ومعنى ﴿ صواف ﴾ قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ، ولعل السر فيه تكثير سوادها للناظرين وتقوية قلوب المحتاجين . ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ اي سقطت على الأرض من وجبت الحائط وجبة سقطت ، ووجبت الشمس وجبة غربت . والمعنى إذا زهق روحها حل لكم الأكل منها وإطعام القانع والمعتر فالقانع السائل والمعتر الذي لا يسأل تعففاً . وقيل : بالعكس فهماً من الأضداد كأن القانع قنع بالسؤال أو قنع بما قسم له فلا يسأل ، والمعتر رضي بعرّه اي عيبه فلا يسال أو يسأل . ثم منَّ على عباده بأن سخر لهم البدن أن يحتبسوها صافة قوائمها مطعوناً في لباتها مثل التسخير الذي شاهدوا وعلموا يأخذ بخطامها صبي فيقودها إلى حيث يشاء ، وليست بأعجز من

(146/525)

بعض الوحوش التي هي أصغر جرماً وأقل قوة لولا أنه سبحانه سخرها . يورى أن أهل الجاهلية كانوا يلطخون الأوثان وحيطان الكعبة بلحوم القرابين ودمائها فبين الله تعالى ما هو المقصود منها فقال ﴿ لن ينال الله ﴾ أي لن يصيب رضا الله أصحاب اللحوم والدماء

المهراقة بمجرد الذبح والتصدق . ﴿ ولكن يناله التقوى منكم ﴾ بأن يكون القربان حلالاً روعي فيها جهات الأجزاء ثم يصرفها فيما آمر . ثم كرر منة التسخير وأن الغاية تكبير الله على الهداية لأعلام دينه ومناسك حجه ، وصورة التكبير وما يتعلق بها قد سبق في " البقرة " في آية الصيام . قالت المعتزلة : لما لم ينتفع المكلف بالأجسام التي هي اللحوم والدماء وانتفع بتقواه وجب أن تكون التقوى فعلاً له وإلا كان بمنزلة الأجسام .

(147/525)

وأيضاً إنه قد شرط التقوى في قبول العمل وصاحب الكبيرة غير متق فوجب أن لا يقبل عمله . والجواب أنه لا يلزم من عدم انتفاعه ببعض ما ليس من أفعاله أن لا ينتفع بكل ما ليس من أفعاله . وأيضاً إن صاحب الكبائر اتقى الشرك فيصدق عليه أنه متقٍ ﴿ وبشر المحسنين ﴾ إلى أنفسهم بتوفير الثواب عليها . والإحسان بالحقيقة أن تبعد الله كأنك تراه ، وفيه ترغيب لما شرط من رعاية الإخلاص في القرابين وغيرها . وحين فرغ من تعداد بعض مناسك الحج ومنافعها وكان الكلام قد انجر إلى ذكر الكفار وصدهم عن المسجد الحرام أتبعه بيان ما يزيل ذلك الصد ويمكن من الحج وزيارة البيت فقال ﴿ إن الله يدفع ﴾ ومن قرأ ﴿ يدافع ﴾ فمعناه يبالغ في الدفع ﴿ عن الذين آمنوا ﴾ فعل المغالب والمدفوع هو

بأس المشركين وما كانوا يخونون الله ورسوله فيه يدل عليه تعليله بقوله ﴿ إن الله لايحب كل خوان كفور ﴾ أي أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذه صفته قال مقاتل : اقروا بالصانع وعبدوا غيره فأي خيانة أعظم من هذا ؟ وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقون من المشركين أذى شديداً وكانوا يلقونه من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر فنزل ﴿ أذن ﴾ وفاعله الله سبحانه أم لم يسم والمأذون فيه القتال بدليل قوله ﴿ للذين يقاتلون ﴾ إن فتح التاء فظاهر لأن المشركين كانوا يقاتلون المؤمنين وإنهم يؤمرون بالصبر ، وإن كسرت فمعناه أذن للذين يحرصون على قتال المشركين في المستقبل نزل حرصهم على القتال منزلة نفس القتال ﴿ بأنهم ظلموا ﴾ أي بسبب كونهم مظلومين وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية . وقيل : نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن لهم في مقاتلتهم . وفي قوله ﴿ إن الله يدافع ﴾ ثم في قوله ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ عدة كاملة بإعلاء هذا الدين وإظهار ذويه على أهل الأديان كلهم كما تقول لغيرك إن أطعتني

(148/525)

فأنا قادر على مجازاتك . لا تريد مجرد إثبات القدرة بل تريد أنك ستفعل ذلك . ثم وصف ذلك الظلم بأن وصف الموعودين بالنصر بقوله ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ ومحل ﴿ أن يقولوا ﴾ جر على الإبدال من ﴿ حق ﴾ اي بغير موجب سوى التوحيد الذي يوجب الإقرار والتمكين لا الإخراج والإزعاج نظيره ﴿ هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ﴾ [المائدة : 59] ﴿ ولولا دفع الله الناس ﴾ قد مر في أواخر البقرة . وللمفسرين في عبارات قال الكلبي : يدفع بالنبيين عن المؤمنين وبالمجاهدين عن القاعدين . وعن ابن عباس : يدفع بالمحسن عن المسيء وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(149/525)

" إن الله يدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه ثم تلا هذه الآية " وقال الضحاك : يدفع بدين الإسلام وأهله عن أهل الذمة . وقال مجاهد : يدفع عن الحقوق بالشهود وعن النفوس بالقصاص . أما الصوامع والبيع والصلوات فعن الحسن أنها كلها اسماء المساجد ، فقد يتخذ المسلم لنفسه صومعة لأجل العبادة . قال الجوهري : الأصمع الصغير الأذن ويقال أتانا بثريدة مصمعة ، إذا دققت وحدد راسها . وصومعة النصارى " فوعلة " من هذا لأنها دقيقة الرأس ، وقد تطلق البيعة على المسجد للتشبيه وكذا

الصولات . وسميت كنيسة اليهود صلاة لأنها يصلى فيها ، ويحتمل أن يراد مكان الصلوات أو يراد الصلاة الشرعية نفسها . وصح إيقاع الهدم عليها نظراً إلى قرائنها كقوله : مقلداً سيفاً ورمحاً . وإن كان الرمح لا يتقلد . هذا كله توجيه تفسير الحسن . والأكثرون على أنها متعبدات مختلفة ، فعن ابي العالية أن الصوامع للنصارى والبيع لليهود والصلوات للصابئين والمساجد للمسلمين . وفي تخصيصها بقوله ﴿ يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ تشريف لها وتفضيل على غيرها لأن الظاهر عود الضمير إليها فقط . وعن قتادة أن الصوامع للصابئين والبيع للنصارى والصلوات لليهود . قال الزجاج : وهي بالعبرانية صلوتا . وقيل : الصوامع والبيع كلتاهما للنصارى ولكن الأولى في الصحراء والأخرى في البلد ، وإنما أخر متعبد أهل الإسلام لتأخر زمانهم ولا ضير فإن أول الفكر آخر العمل . وقال صلى الله عليه وسلم " نحن الآخرون السابقون " وتفسير الآية على قول الأكثرين لولا دفع الله لهدم في شرع كل نبي المكان المعهود لهم في العبادة ، فهدم في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفي زمن محمد صلى الله عليه وسلم المساجد . وعلى هذا الوجه إنما رفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف والنسخ ، ويحتمل أن يراد لولا ذلك لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان في زمن أمة محمد صلى الله عليه وسلم من المسلمين وأهل

الكتاب الذين في ذمتهم ، وهدموا المتعبدات باسرها . وعلى هذا الوجه إنما دفع عن سائر أهل الأديان لأن متعبداتهم يجري فيها ذكر الله في الجملة ليست بمنزلة بيوت الأصنام . ثم عزم على نفسه نصرة من ينصر دينه وأولياؤه وأكد ذلك بقوله ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ ومعنى القوة والعزة أنه لا يمتنع شيء من نفاذ أمره فيه مع أنه لا يتأثر عن شيء أصلاً . ونصرة الله العبد تقويته على أعدائه ووضع الدلائل على ما يفيده في الدارين ونفث روح القدس بأمره دايعة الخير والصلاح في روعه . ثم أتبع قوله الذين أخرجوا قوله . ﴿ الذين إن مكناهم ﴾ وقيل : هو بدل من قوله ﴿ من ينصره ﴾ وهو إخبار منه عز وجل عما ستكون عليه سيرة المهاجرين إذا مكنهم في الأرض وبسط لهم في الدنيا .

وعن عثمان : هذا والله ثناء قبل بلاء ، أراد أن الله تعالى قد أثنى عليهم قبل أن يحدثوا في شأن الدين وإعلائه ما أحدثوا . قيل : إنه مخصوص من المهاجرين بالخلفاء الراشدين لأنه تعالى لم يعط التمكين فتمكينهم هو إبقاءهم إلى أوان التكليف ، وقد يشمل الأطفال أيضاً إذا ماتوا قبل البلوغ لقوله الله أعلم بما كانوا عاملين . ثم ختم الآية بقوله ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ أي مرجعها ومصيرها إلى حكمه وتقديره وقد أراد تمكين أهل هذا الدين في كل حين فيقع لا محالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 84.74 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾

انتهى الدرس الماضي بتصوير عاقبة الخصام في الله ، ومشهد الجحيم الحارق للكافرين ، والنعيم الوارف للمؤمنين .

وبهذه النهاية يتصل الدرس الجديد ، فيتحدث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام . وهم الذين كانوا يواجهون الدعوة الإسلامية في مكة ، فيصدون الناس عنها ؛ ويواجهون الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فيمنعونهم من دخول المسجد الحرام .

وبهذه المناسبة يتحدث عن الأساس الذي أقيم عليه ذلك المسجد يوم فوض الله إبراهيم عليه السلام في بنائه ، والأذان في الناس بالحج إليه . ولقد كلف إبراهيم أن يقيم هذا البيت على التوحيد ، وأن ينفي عنه الشرك ، وأن يجعله للناس جميعاً ، سواء المقيم فيه والطارئ عليه ، لا يمنع عنه أحد ، ولا يملكه أحد . ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من

استجاشة القلوب للتقوى وذكر الله والاتصال به . . وينتهي إلى ضرورة حماية المسجد الحرام من عدوان المعتدين الذين يصدون عنه ويغيرون الأساس الذي قام عليه ؛ وبوعد الله للمدافعين بالنصر متى نهضوا بالتكاليف التي تفرضها حماية العقيدة .

﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس ، سوآء العاكف فيه والباد . ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ . .

(152/525)

وكان ذلك فعل المشركين من قريش : أن يصدوا الناس عن دين الله وهو سبيله الواصل إليه ، وهو طريقه الذي شرعه للناس ، وهو نهجه الذي اختاره للعباد وأن يمنعوا المسلمين من الحج والعمرة إلى المسجد الحرام كما فعلوا عام الحديبية وهو الذي جعله الله للناس منطقة أمان ودار سلام ، وواحة اطمئنان . يستوي فيه المقيم بمكة والطارئ عليها . فهو بيت الله الذي يتساوى فيه عباد الله ، فلا يملكه أحد منهم ، ولا يمتاز فيه أحد منهم : ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ .

ولقد كان هذا المنهج الذي شرعه الله في بيته الحرام سابقاً لكل محاولات البشر في إيجاد منطقة حرام . يلقى فيها السلاح ، ويأمن فيها المتخاصمون ، وتحقن فيها الدماء ، ويجد كل

أحد فيها مأواه . لا تفضلاً من أحد ، ولكن حقاً يتساوى فيه الجميع .

ولقد اختلفت أقوال الفقهاء في جواز الملكية الفردية لبيوت مكة غير المسكونة بأهلها .

وفي جواز كراء هذه البيوت عند من أجاز ملكيتها . . فذهب الشافعي رحمة الله إلى أنها تملك وتورث وتؤجر محتجاً بما ثبت من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشترى من صفوان بن أمية داراً بأربعة آلاف درهم فجعلها سجناً . وذهب إسحاق بن راهوية رحمه الله إلى أنها لا تورث ولا تؤجر ، قال : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر ، وما تدعى رباع مكة (جمع ربع) إلا السوائب ، من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن .

(153/525)

وقال عبد الرزاق عن مجاهد عن أبيه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم أنه قال : لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها . وقال أيضاً عن ابن جريج : كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم . وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن تبويب دور مكة لأن ينزل الحاج في عرصاتها . فكان أول من بوّب سهيل بن عمرو ، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك ، فقال : انظرني يا أمير المؤمنين إني كنت امرأ تاجراً ، فأردت أن أتخذ لي بابين يحبسان لي ظهري (أي ركائبي) قال : فلك ذلك إذن . وقال عبد الرزاق عن معمر عن منصور عن مجاهد أن عمر بن

الخطاب قال : يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث يشاء . . وتوسط الإمام أحمد – رحمه الله – فقال : تملك وتورث ولا تؤجر . جمعاً بين الأدلة .

وهكذا سبق الإسلام سبقاً بإنشاء واحة السلام ، ومنطقة الأمان ، ودار الإنسان المفتوحة لكل إنسان ! والقرآن الكريم يهدد من يريد اعوجاجاً في هذا النهج المستقيم بالعذاب الأليم : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب اليم ﴾ . . فما بال من يريد ويفعل ؟ إن التعبير يهدد ويتوعد على مجرد الإرادة زيادة في التحذير ، ومبالغة في التوكيد . وذلك من دقائق التعبير .

ومن دقائق التعبير كذلك أن يحذف خبر إن في الجملة : ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام . . . ﴾ فلا يذكرهم ما لهم ؟ ما شأنهم ؟ ما جزاؤهم كأن مجرد ذكر هذا الوصف لهم يغني عن كل شيء آخر في شأنهم ، ويقرر أمرهم ومصيرهم ! ثم يرجع إلى نشأة هذا البيت الحرام ، الذي يستبد به المشركون ، يعبدون فيه الأصنام ، ويمنعون منه الموحدين بالله ، المتطهرين من الشرك . . يرجع إلى نشأته على يد إبراهيم عليه السلام بتوجيه ربه وإرشاده . ويرجع إلى القاعدة التي أقيم عليها وهي قاعدة التوحيد . وإلى الغرض من إقامته وهو عبادة الله الواحد ، وتخصيصه للطائفين به والقائمين لله فيه :

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً ، وطهر بيتي للطآئفين والقآئمين والركع السجود . وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ . .

فللتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة . عرف الله مكانه لإبراهيم عليه السلام وملكه أمره ليقيمه على هذا الأساس : ﴿ أن لا تشرك بي شيئاً ﴾ فهو بيت الله وحده دون سواه .

وليطهره به من الحجيج ، والقائمين فيه للصلاة : ﴿ وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ فهؤلاء هم الذين أنشئ البيت لهم ، لا لمن يشركون بالله ، ويتوجهون بالعبادة إلى سواه .

ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام باني البيت إذا فرغ من إقامته على الأساس الذي كلف به أن يؤذن في الناس بالحج ؛ وأن يدعوهم إلى بيت الله الحرام ووعده أن يلبي الناس دعوته ، فيتقاطرون على البيت من كل فج ، رجالا يسعون على أقدامهم ، وركوباً ﴿ على كل ضامر ﴾ جهده السير فضمر من الجهد والجوع : ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً

وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ . .

وما يزال وعد الله يتحقق منذ إبراهيم عليه السلام إلى اليوم والغد . وما تزال أفئدة من الناس تهوى إلى البيت الحرام ؛ وترف إلى رؤيته والطواف به . . الغني القادر الذي يجد الظهر يركبه ووسيلة الركوب المختلفة تنقله ؛ والفقير المعدم الذي لا يجد إلا قدميه .

وعشرات الألوف من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الأرض البعيدة تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم عليه السلام منذ آلاف الأعوام . .

ويقف السياق عند بعض معالم الحج وغاياته :

(155/525)

﴿ ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ . .

والمنافع التي يشهدها الحجيج كثير . فالحج موسم ومؤتمر . الحج موسم تجارة وموسم عبادة . والحج مؤتمر اجتماع وتعارف ، ومؤتمر تنسيق وتعاون . وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة . . أصحاب السلع

والتجارة يجدون في موسم الحج سوقاً رائجة ، حيث تجبى إلى البلد الحرام ثمرات كل شيء . . من أطراف الأرض ؛ ويقدم الحجيج من كل فج ومن كل قطر ، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق في أرجاء الأرض في شتى المواسم . . يتجمع كله في البلد الحرام في موسم واحد . فهو موسم تجارة ومعرض نتاج ؛ وسوق عالمية تقام في كل عام .

وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح ، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام . وهي ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التي تحوم عليه وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد . .

طيف إبراهيم الخليل عليه السلام وهو يودع البيت فلذة كبده إسماعيل وأمه ، ويتوجه بقلبه الخافق الواجف إلى ربه : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة . فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ وطيف هاجر ، وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة المتلهبة حول البيت ، وهي تهرول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش ، وهدها الجهد وأضناها الإشفاق على الطفل .

. ثم ترجع في الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء . وإذا هي زمزم . ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب .

وطيف إبراهيم عليه السلام – وهو يرى الرؤيا ، فلا يتردد في التضحية بفلذة كبده ، ويمضي في الطاعة المؤمنة إلى ذلك الأفق البعيد : ﴿ قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ ﴾ فتجيبه الطاعة الراضية في إسماعيل عليه السلام – : ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ وإذا رحمة الله تتجلى في الفداء : ﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنَّا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾ وطيف إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يرفعان القواعد من البيت ، في إنابة وخشوع : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ وتظل هذه الأطياف وتلك الذكريات ترف وتتتابع ، حتى يلوح طيف عبد المطلب ، وهو ينذر دم ابنه العاشر إن رزقه الله عشرة أبناء . وإذا هو عبد الله . وإذا عبد المطلب حريصاً على الوفاء بالنذر . وإذا قومه من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء وإذا هو يدير القداح حول الكعبة ويضاعف الفداء ، والقدح يخرج في كل مرة على عبد الله ، حتى يبلغ الفداء مائة ناقة بعد عشر هي الدية المعروفة . فيقبل منه الفداء ، فينحر مائة وينجو عبد الله . ينجو ليودع رحم آمنة أطهر نطفة وأكرم خلق الله على الله محمد رسول

الله صلى الله عليه وسلم ثم يموت ! فكأنما فداه الله من الذبح لهذا القصد الوحيد الكريم الكبير !

(157/525)

ثم تتواكب الأطياف والذكريات . من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدرج في طفولته وصباه فوق هذا الثرى ، حول هذا البيت . . وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه ليطفئ الفتنة التي كادت تنشب بين لقبائل . . وهو يصلي . . وهو يطوف . . وهو يخطب . . وهو يعتكف . . وإن خطواته عليه الصلاة والسلام لتنبض حية في الخاطر ، وتتمثل شاخصة في الضمير ، ويكاد الحاج هناك يلمحها وهو مستغرق في تلك الذكريات . . وخطوات الحشد من صحابته الكرام وأطيافهم ترف وتدف فوق هذا الثرى ، حول ذلك البيت ، تكاد تسمعها الأذن وتكاد تراها الأبصار !

والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة . مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ﴾ ويجدون محورهم الذي يشدهم جميعاً إليه : هذه القبلة التي يتوجهون إليها جميعاً ويلتقون عليها جميعاً . . ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها . . راية العقيدة الواحدة

التي تتوارى في ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان .

. ويجدون قوتهم التي قد ينسونها حيناً . قوة التجمع والتوحد والترابط الذي يضم الملايين . الملايين التي لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايتها الواحدة التي لا تتعدد . . راية العقيدة والتوحيد .

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى ، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب . وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة في كل عام . في ظل الله . بالقرب من بيت الله . وفي ظلال الطاعات البعيدة والقريبة ، والذكريات الغائبة والحاضرة . في أنسب مكان ، وأنست جو ، وأنسب زمان . .

فذلك إذ يقول الله سبحانه : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ . . كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته .

وذلك بعض ما أراده الله بالحج يوم أن فرضه على المسلمين ، وأمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن به في الناس .

(158/525)

ويمضي السياق يشير إلى بعض مناسك الحج وشعائره وأهدافها :

﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ . .

وهذه كناية عن نحر الذبائح في أيام العيد وأيام التشريق الثلاثة بعده . والقرآن يقدم ذكر اسم الله المصاحب لنحر الذبائح ، لأن الجو جو عبادة ولأن المقصود من النحر هو التقرب إلى الله . ومن ثم فإن أظهر ما يبرز في عملية النحر هو ذكر اسم الله على الذبيحة . وكأنما هو الهدف المقصود من النحر لا النحر ذاته . .

والنحر ذكرى لفداء إسماعيل عليه السلام فهو ذكرى لآية من آيات الله وطاعة من طاعات عبديه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فوق ما هو صدقة وقربى لله بإطعام الفقراء .

وبهيمة الأنعام هي الإبل والبقر والغنم والمعز .

﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ . .

والأمر بالأكل من الذبيحة يوم النحر هو أمر للإباحة أو الاستحباب . أما الأمر بإطعام البائس الفقير منها فهو أمر للوجوب . ولعل المقصود من أكل صاحبها منها أن يشعر الفقراء أنها طيبة كريمة .

وبالنحر ينتهي الإحرام فيحل للحاج حلق شعره أو تقصيره ، ونتف شعر الإبط ، وقص الأظافر والاستحمام . مما كان ممنوعاً عليه في فترة الإحرام ، وهو الذي يقول عنه : ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ﴾ التي نذروها من الذبائح غير الهدي الذي هو من أركان

الحج . ﴿ وليطوّفوا بالبيت العتيق ﴾ . . طواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفات . وبه تنتهي شعائر الحج . وهو غير طواف الوداع .

والبيت العتيق هو المسجد الحرام أعفاه الله فلم يغلب عليه جبار . وأعفاه الله من البلى والدثور ، فما يزال معموراً منذ إبراهيم عليه السلام ولن يزال .

تلك قصة بناء البيت الحرام ، وذلك أساسه الذي قام عليه . . بيت أمر الله خليله إبراهيم عليه السلام بإقامته على التوحيد ، وتطهيره من الشرك ، وأمره أن يؤذن في الناس بالحج إليه . ليذكروا اسم الله لا أسماء الآلهة المدعاة على ما رزقهم من بهيمة الأنعام .

(159/525)

ويأكلوا منها ويطعموا البائس الفقير على اسم الله دون سواه . . فهو بيت حرام حرمات الله فيه مصونه وأولها عقيدة التوحيد ، وفتح أبوابه للطائفين والقائمين والركع السجود إلى جانب حرمة الدماء ، وحرمة العهود والمواثيق . وحرمة الهدنة والسلام .

﴿ ذلك . ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه . وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به . ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ . .

وتعظيم حرمات الله يتبعه التحرج من المساس بها . وذلك خير عند الله . خير في عالم الضمير والمشاعر ، وخير في عالم الحياة والواقع . فالضمير الذي يتحرج هو الضمير الذي يتطهر والحياة التي ترعى فيها حرمات الله هي الحياة التي يأمن فيها البشر من البغي والاعتداء ، ويجدون فيها متابة أمن ، وواحة سلام ، ومنطقة اطمئنان . .

ولما كان المشركون يحرمون بعض الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي فيجعلون لها حرمة ، وهي ليست من حرمات الله بينما هم يعتدون على حرمات الله فإن النص يتحدث عن حل الأنعام إلا ما حرم الله منها كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به : ﴿ وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ﴾ . . وذلك كي لا تكون هنالك حرمات إلا لله ؛ وألا يشرع أحد إلا بإذن الله ؛ ولا يحكم إلا بشريعة الله .

وبمناسبة حل الأنعام يأمر باجتناب الرجس من الأوثان . وقد كان المشركون يذبحون عليها وهي رجس والرجس دنس النفس والشرك بالله دنس يصيب الضمير ويلوث القلوب ، ويشوب نقاءها وطهارتها كما تشوب النجاسة الثوب والمكان .

ولأن الشرك افتراء على الله وزور ، فإنه يحذر من قول الزور كافة : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ . .

ويغلظ النص من جريمة قول الزور إذ يقرنها إلى الشرك . . وهكذا روى الإمام أحمد بإسناده عن فاتك الأسدي قال : صلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم الصبح . فلما انصرف قام قائماً فقال : " عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عز وجل " ثم تلا هذه الآية . .

إنما يريد الله من الناس أن يميلوا عن الشرك كله ، وأن يجتنبوا الزور كله ، وأن يستقيموا على التوحيد الصادق الخالص : ﴿ حنفاء لله غير مشركين به ﴾ . . ثم يرسم النص مشهداً عنيفاً يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد ، فيهوي إلى درك الشرك . فإذا هو ضائع ذاهب بدداً كأن لم يكن من قبل أبداً :

﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ .

.

إنه مشهد الهويّ من شاهق ﴿ فكأنما خر من السماء ﴾ . وفي مثل لمح البصر يتمزق ﴿ فتخطفه الطير ﴾ أو تقذف به الريح بعيداً بعيداً عن الأنظار : ﴿ أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ في هوة ليس لها قرار !

والملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ " بالفاء " وفي المنظر

بسرعة الاختفاء . . على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير .

وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله ، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء . إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها . قاعدة التوحيد . ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه ؛ فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح ، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح . وهو لا يمسك بالعروة الوثقى ، ولا يستقر على القاعدة الثابتة ، التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه .

ثم يعود السياق من تعظيم حرمات الله باتقائها والتحرج من المساس بها . . إلى تعظيم شعائر الله وهي ذبائح الحج باستسمانها وغلاء أثمانها :

﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ .

(161/525)

ويربط بين الهدي الذي ينحره الحاج وتقوى القلوب ؛ إذ أن التقوى هي الغاية من مناسك الحج وشعائره . وهذه المناسك والشعائر إن هي إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته . وقد تحمل في طياتها ذكريات قديمة من عهد إبراهيم عليه السلام وما تلاه .

وهي ذكريات الطاعة والإنابة ، والتوجه إلى الله منذ نشأة هذه الأمة المسلمة . فهي والدعاء والصلاة سواء .

وهذه الأنعام التي تتخذ هدياً ينحر في نهاية أيام الإحرام يجوز لصاحبها الانتفاع بها . إن كان في حاجة إليها يركبها ، أو في حاجة إلى ألبانها يشربها ، حتى تبلغ محلها وهو البيت العتيق . ثم تنحر هناك ليأكل منها . ويطعم البائس الفقير .

" وقد كان المسلمون على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يغالون في الهدي ، يختارونه سميناً غالي الثمن ، يعلنون بها عن تعظيمهم لشعائر الله ، مدفوعين بتقوى الله . روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : " أهدي عمر نجيباً فأعطى بها ثلاث مائة دينار ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني أهديت نجيباً ، فأعطيت بها ثلاث مائة دينار . أفأبيعها واشتري بثمنها بدناً ؟ قال : لا . انحرها إياها " .

والناقة النجيب التي جاءت هدية لعمر رضي الله عنه قومت بثلاث مائة دينار لم يكن عمر رضي الله عنه يريد أن يضنَّ بقيمتها ، بل كان يريد أن يبيعها فيشتري بها نوقاً أو بقراً للذبح . فشاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضحي بالنجيب ذاتها لنفاستها وعظم قيمتها ، ولا يستبدل بها نوقاً كثيرة ، قد تعطي لحماً أكثر ، ولكنها من ناحية القيمة الشعورية أقل . والقيمة الشعورية مقصودة ﴿ فإنها من تقوى القلوب ﴾ . وهذا هو المعنى الذي لحظه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول لعمر رضي الله عنه - " انحرها إياها " هي بذاتها لا سواها !

(162/525)

هذه الذبائح يذكر القرآن الكريم أنها شعيرة معروفة في شتى الأمم ؛ إنما يوجهها الإسلام وجهتها الصحيحة حين يتوجه بها إلى الله وحده دون سواه :

﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . فإلهكم إله واحد . فله أسلموا وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمي الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ﴾ . .

والإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات ، ويتوجه بها كلها إلى الله . ومن ثم يعنى بتوجيه الشعور والعمل ، والنشاط والعبادة ، والحركة والعادة ؛ إلى تلك الوجهة الواحدة . وبذلك تصطبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة .

وعلى هذا الأساس حرم من الذبائح ما أهل لغير الله به ؛ وحتم ذكر اسم الله عليها ، حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الغرض البارز ، وكأنما تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله . ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ . .

ويعقب بتقرير الوحدانية : ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ . . وبالأمر بالإسلام له وحده : ﴿ فله أسلموا ﴾ . . وليس هو إسلام الإجبار والاضطرار ، إنما هو إسلام التسليم والاطمئنان : ﴿ وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ فبمجرد ذكر اسم الله يحرك الوجل في ضمائرهم ومشاعرهم . ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ فلا اعتراض لهم على قضاء الله فيهم . ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ فهم يعبدون الله حق عبادته . ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فهم لا يضنون على الله بما في أيديهم . .

وهكذا يربط بين العقيدة والشعائر . فهي منبثقة من العقيدة وقائمة عليها . والشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورمز لها . والمهم أن تصطبغ الحياة كلها ويصطبغ نشاطها بتلك الصبغة ، فتتوحد الطاقة ويتوحد الاتجاه ، ولا تتمزق النفس الإنسانية في شتى الاتجاهات .

ويستطرد السياق في تقرير هذا المعنى وتوكيده وهو يبين شعائر الحج بنحر البدن :

(163/525)

﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف . فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر . كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها

لكم لتكبروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين ﴾ . .

ويخص البدن بالذكر لأنها أعظم الهدي ، فيقرر أن الله أراد بها الخير لهم ، فجعل فيها خيراً وهي حية تركب وتحلب ، وهي ذبيحة تهدى وتطعم فجزاء ما جعلها الله خيراً لهم أن يذكروا اسم الله عليها ويتوجهوا بها إليه وهي تهيأ للنحر بصف أقدامها : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ .

والإبل تنحر قائمة على ثلاث معقولة الرجل الرابعة ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ واطمأنت على الأرض بموتها أكل منها أصحابها استحباباً ، وأطعموا منها الفقير القانع الذي لا يسأل والفقير المعتر الذي يتعرض للسؤال . فلهذا سخرها الله للناس ليشكروه على ما قدر لهم فيها من الخير حية وذبيحة : ﴿ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾ . .

وهم حين يؤمرون بنحرها باسم الله ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ﴾ فإن اللحوم والدماء لا تصل إلى الله سبحانه . إنما تصل إليه تقوى القلوب وتوجهاتها لا كما كان مشركو قريش يلطخون أوثانهم وآلهتهم بدماء الأضحيات على طريقة الشرك المنحرفة الغليظة !

﴿ كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ﴾ . . فقد هداكم إلى توحيده والاتجاه إليه وإدراك حقيقة الصلة بين الرب والعباد ، وحقيقة الصلة بين العمل والاتجاه .

﴿ وبشر المحسنين ﴾ . . الذين يحسنون التصور ، ويحسنون الشعور ، ويحسنون العبادة ، ويحسنون الصلة بالله في كل نشاط الحياة .

وهكذا لا يخطو المسلم في حياته خطوة ، ولا يتحرك في ليله أو نهاره حركة ، إلا وهو ينظر فيها إلى الله . ويجيش قلبه فيها بتقواه ، ويتطلع فيها إلى وجهه ورضاه . فإذا الحياة كلها عبادة تتحقق بها إرادة الله من خلق العباد ، وتصلح بها الحياة في الأرض وهي موصولة السبب بالسماء .

تلك الشعائر والعبادات لا بد لها من حماية تدفع عنها الذين يصدون عن سبيل الله وتمنعهم من الاعتداء على حرية العقيدة وحرية العبادة ، وعلى قداسة المعابد وحرمة الشعائر ، وتمكن المؤمنين العابدين العاملين من تحقيق منهاج الحياة القائم على العقيدة ، المتصل بالله ، الكفيل بتحقيق الخير للبشرية في الدنيا والآخرة .

ومن ثم أذن الله للمسلمين بعد الهجرة في قتال المشركين ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم اعتداء المعتدين ، بعد أن بلغ أقصاه ، وليحققوا لأنفسهم ولغيرهم حرية العقيدة وحرية العبادة في ظل دين الله ، ووعدهم النصر والتمكين ، على شرط أن ينهضوا بتكاليف عقيدتهم التي بينها لهم فيما يلي من الآيات :

﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ، إن الله لا يحب كل خوان كفور ، أذن للذين يقاتلون بأنهم

ظلموا . وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور ﴾ . .

إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض ، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال ؛ والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان .

والشر جامح والباطل مسلح .

(165/525)

وهو يبطش غير متحرج ، ويضرب غير متورع ؛ ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه ، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له . فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش ، وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم .

ولم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلاً تكافح قوى الطغيان والشر والباطل ، اعتماداً على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحق في الفطر ، وعمق الخير في القلوب . فالقوة

المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر . وللصبر حد وللاحتمال أمد ، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه . والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم .

ومن ثم لم يشأ ان يترك المؤمنين للفتنة ، إلا ريثما يستعدون للمقاومة ، ويتهيأون للدفاع ، ويتمكنون من وسائل الجهاد . . وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان .

وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنهم أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم في حمايته : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ . .

وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخذولون حتماً : ﴿ إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ . .

وأنه حكم لهم بأحقية دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية فهم مظلمون غير معتدين ولا متبطرين : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ . .

وأن لهم أن يطمئنوا إلى حماية الله لهم ونصره إياهم : ﴿ وان الله على نصرهم لقدير ﴾ . .

(166/525)

وأن لهم ما يبرر خوضهم للمعركة فهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة ، لا يعود خيرها عليهم وحدهم ، إنما يعود على الجبهة المؤمنة كلها ؛ وفيها ضمان لحرية العقيدة وحرية العبادة .

وذلك فوق انهم مظلومون أخرجوا من ديارهم بغير حق : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ . . وهي أصدق كلمة أن تقال ، وأحق كلمة بأن تقال . ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم . فهو البغي المطلق الذي لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين . وهو التجرد من كل هدف شخصي من ناحية المعتدى عليهم ، إنما هي العقيدة وحدها من أجلها يخرجون ، لا الصراع على عرض من أعراض هذه الأرض ، التي تشتجر فيها الأطماع ؛ وتتعارض فيها المصالح ؛ وتختلف فيها الاتجاهات وتتضارب فيها المنافع !

ووراء هذا كله تلك القاعدة العامة . . حاجة العقيدة إلى الدفع عنها : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ . .

والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان ، والبيع للنصارى عامة وهي أوسع من الصوامع ، والصلوات أماكن العبادة لليهود . والمساجد أماكن العبادة للمسلمين .

وهي كلها معرضة للهدم على قداستها وتخصيصها لعبادة الله لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها ، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض . أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها ، ويعتدون على أهلها . فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول .

ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه ، بل لا بد من القوة تحميه وتدفع عنه .

وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان !

ولا بد من وقفة أمام هذه النصوص القليلة الكلمات العميقة الدلالة ، وما وراءها من أسرار في عالم النفس وعالم الحياة .

(167/525)

إن الله يبدأ الإذن بالقتال للذين قاتلهم المشركون ، واعتدى عليهم المبطلون ، بأن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وأنه يكره المعتدين عليهم من الكفار الخائنين :

﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ . .

فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم . ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتماً من عدوه ، ظاهر حتماً على عدوه . . ففيم إذن يأذن لهم بالقتال ؟ وفيم إذن يكتب عليهم الجهاد ؟ وفيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح ، والجهد والمشقة ، والتضحية والآلام . . والعاقبة معروفة ، والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقة ، ولا تضحية ولا ألم ، ولا قتل ولا قتال ؟

والجواب أن حكمة الله في هذا هي العليا ، وأن لله الحجة البالغة . . والذي ندركه نحن

البشر من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من " التنابلة " الكسالى ، الذين يجلسون في استرخاء ، ثم يتنزل عليهم نصره سهلاً هيناً بلا عناء ، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء ، كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء !

نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة ، وأن يرتلوا القرآن ، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء . ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها ؛ إنما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة . والذخيرة التي يدخرونها للموقعة ، والسلاح الذي يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله .

(168/525)

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركة . فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر ؛ وهي تدفع وتدافع ، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة . . عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها ؛ ولتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة ؛ ولتؤتي أقصى ما تملكه ، وتبذل آخر

ما تنطوي عليه ؛ وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهيأة له من الكمال .

والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها ، واحتشاد كل قواها ، وتوفز كل استعدادها ، وتجمع كل طاقاتها ، كي يتم نموها ، ويكمل نضجها ، وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها .

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء ، والذي يتنزل هيناً ليناً على القاعدين المستريحين ، يعطل تلك الطاقات عن الظهور ، لأنه لا يحفزها ولا يدعوها .

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه . أولاً لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة . وثانياً لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه . فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه .

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة ، والكر والفر ، والقوة والضعف والتقدم والتقهقر . ومن المشاعر المصاحبة لها . . من الأمل والألم . ومن الفرح والغم ، ومن الاطمئنان والقلق . ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة . . ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة وقبلها وبعدها وكشف نقط الضعف ونقط القوة ، وتدبير الأمور في جميع الحالات . . وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة عليها وعلى الناس .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله . . جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم ؛ ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء .

والنصر قد يبطئ على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . فيكون هذا الإبطال لحكمة يريدها الله .

قد يبطئ النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات . فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً !

وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد ، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً ، لا تبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله .

وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر . إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله .

وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم وتبذل ؛ ولا تجد لها سنداً إلا الله ، ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء . وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله . فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق

والعدل والخير الذي نصرها به الله .

وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها . والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله ، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه .

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى . فأيها في سبيل الله . فقال : " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " .

(170/525)

قد يبطئ النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير ، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً ، ويذهب وحده هالكاً ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار !

وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً . فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ؛ فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة . فيشاء

الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية !

وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة . فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار . فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ، ولاستقبائه !

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يبطئ النصر ، فتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام . مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية .

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه ، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه :

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ؛ ولله عاقبة الأمور ﴾ . .

فوعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره . . فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله ، فيستحقون نصر الله ، القوي العزيز الذي لا يهزم من يتولاه ؟ إنهم هؤلاء :

﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ﴾ . . فحققنا لهم النصر ، وثبتنا لهم الأمر . . ﴿ أقاموا الصلاة ﴾ . . فعبدوا الله ووثقوا صلتهم به ، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين . . ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ . . فأدوا حق المال ، وانتصروا على شح النفس ، وتطهروا من الحرص ، وغلبوا وسوسة الشيطان ، وسدوا خلة الجماعة ، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج ، وحققوا لها صفة الجسم الحي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " . ﴿ وأمروا بالمعروف ﴾ . . فدعوا إلى الخير والصلاح ، ودفعوا إليه الناس . . ﴿ ونهوا عن المنكر ﴾ . . فقاوموا الشر والفساد ، وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التي لا تبقى على منكر وهي قادرة على تغييره ، ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه .

هؤلاء هم الذين ينصرون اللّه ، إذ ينصرون نهجه الذي أراده للناس في الحياة ، معتزين باللّه وحده دون سواه . وهؤلاء هم الذين يعدهم اللّه بالنصر على وجه التحقيق واليقين .

فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته . المشروط بتكاليفه وأعبائه . . والأمر بعد ذلك للّه ، يصرفه كيف يشاء ، فيبدل الهزيمة نصرا ، والنصر هزيمة ، عند ما تختل القوائم ، أو تهمل التكاليف : «وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ» . .

إنه النصر الذي يؤدي إلى تحقيق المنهج الإلهي في الحياة . من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهة إلى الخير والصلاح . المنظور فيه إلى هذه الغاية التي يتوارى في ظلها الأشخاص والذوات ، والمطامع والشهوات . .

وهو نصر له سببه . وله ثمنه . وله تكاليفه . وله شروطه . فلا يعطى لأحد جزافا أو محاباة ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2428.2415 ﴾

(172/525)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴾ القلب سواء فيه من سبق إليه مدة طويلة والذي يصل إليه في الحال لأفضل إلا بسبق مقامات القلب ومنازله ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم ﴾ الروح مكان بيت القلب ﴿ وطهر بيتي ﴾ عن غيري وهو كل ما فيه حظ النفس دون الواردات المطيفة والأخلاق الثابتة والأحوال المتوالية كالرغبة والرهبة والقبض والبسط والأنس والهيبة ﴿ رجالاً ﴾ هي النفس وصفاتها ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ هي

البدن وجوارحه فإن الأعمال الشرعية قد ركبت الجوارح المرتاضة ، فأعمال البدن مركبة من حركات الجوارح ونيات الضمير كما أن أعمال النفس بسيطة . لأنها نيات الضمير فقط ﴿ من كل فج عميق ﴾ هو مصالح الدنيا لأن مصالحها بعيدة عن مصالح الآخرة ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ فمنافع النفس وصفاتها بتبديل الأخلاق ، ومنافع القلب والجوارح بظهور اثر الطاعة عليها ﴿ ويذكروا ﴾ اي القلب والنفس والقالب شكراً ﴿ على ما رزقهم من ﴾ تبديل الصفات البهيمية بالصفات الروحيانية فانتفعوا بها وأفيضوا منها على الطالبين فهو خير لأن العبد يصل بالطاعة إلى الجنة ويصل بحرمة الطاعة إلى الله ، وترك الخدمة يوجب العقوبة وترك الحرمة يوجب الفرقة . ﴿ وأحلت لكم ﴾ استعمال الصفات البهيمية بقدر الضرورة ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ في قولنا ﴿ ولا تسرفوا ﴾ [الأعراف : 31] وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم " من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه " ﴿ فاجتنبوا ﴾ مقتضيات الهوى وكونوا صادقين في الطلب لا مزورين مائلين إلى الحق غير طالبين معه غيره ، وخر من سماء القلب فاستلبه طير الشياطين أو وتهوي به ريح الهوى والخذلان إلى أسفل سافلين البعد والحرمان . لكم في شواهد آثار صنع الإرشاد منافع وهي لذة العبور على المقامات ولذة البسط ولذة الأنس إلى أجل مسمى وهو حد الكمال ، ثم انتهاء السلوك إلى حضرة القديم . ولكل سالك جعلن مقصداً وطريقاً ، منهم من يطلب الله من طريق المعاملات ، ومنهم من يطلبه

من طريق المجاهدات ، ومنهم من يطلبه بطريق المعارف ، ومنهم من يطلبه به . ﴿ فله أسلموا ﴾ أي أخلصوا والإخلاص تصفية الأعمال من الآفات ، ثم الأخلاق من الكدورات ، ثم الأحوال من الالتفات ، ثم الأنفاس من الأغيار ﴿ وبشر المخبتين ﴾ عنى المستقيمين على هذه الطريقة . ﴿ وجلت قلوبهم ﴾ الوجل عند الذكر على حسب تجلي الحق للقلب ﴿ والصابرين على ما اصابهم ﴾ من غير تمني ترحة ولا روم فرحة ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ الحافظين مع الله أسرارهم لا يطلبون إطلاع الخلق على أحوالهم ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ يبذلون الموجود في طلب المقصود والوجود بشهود المعبود ﴿ والبدن ﴾ يعني بدن الأبدان الجسام جعلنا قربانها عند كعبة القلب بذبحها عن شهواتها من شعائر أهل الصدق في الطلب ، فإذا ماتت عن طبيعتها فانتفعوا بها أنتم وغيركم من الطالبين والقانعين بما أفضتم عليه ، والمعترين المتعطشين الذين لا يروون رياً من ماء حياة المعرفة

شربت الحب كأساً بعد كأس . . . فما نفد الشراب وما رويت

﴿ وكذلك سخرناها لكم ﴾ فيه أن ذبح النفس بسكين الرياضة لا يتيسر إلا بتسخير

خالقها وتيسير موجدها يؤكده قوله ﴿ إن الله يدافع ﴾ خيانة النفس وهواها ﴿ عن الذين آمنوا ﴾ ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ فيه أن قتال يجب أن يكون بإذن من الله تعالى وهو أن يكون على وفق الشرع وفي أوان التكليف وعلى حسب ظلم النفس على القلب وإخراجها إياه من ديار الطمأنينة ﴿ ولولا دفع الله ﴾ النفوس بالقلوب لضيعت صوامع أركان الشريعة ، وبيع آداب الطريقة ، وصلوات مقامات الحقيقة ، ومساجد القلوب التي ﴿ يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ لاتساعها بإشراف نور الله عليها ﴿ أن مكناهم في الأرض ﴾ البشرية ﴿ أقاموا ﴾ صلاة المواصلة وأتوا زكاة الأحوال وهي إيثار ربع عشر الأوقات على مصالح الخلق ، وأمروا بحفظ الحواس عن مخالفات الأمر وبمراعاة الأنفاس مع الله ، ونهوا عن مناكير الرياء والإعجاب وإلى الله عاقبة الأمور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 84.86 ﴾

(174/525)

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان في ترغيب هذه الآيات وترهيبها ما يعطف العاقل ، ويقصف الجاهل ، طوي حكم العاقل لفهمه ما سبق ، وهو : فإن يؤمنوا بك مكناهم في الأرض ، ودل عليه بعطف حكم الجاهل على غير مذكور في سياق يسلي به نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويعزيه ، ويؤنسه ويواسيه ، فقال ﴿ وإن يكذبوك ﴾ أي أخذتهم وإن كانوا أمكن الناس ، فقد فعلت بمن قبلهم ذلك ، فلا يحزنك أمرهم ﴿ فقد كذبت ﴾ وأتى سبحانه بتاء التأنيث تحقيراً للمكذبين في قدرته وإن كانوا أشد الناس .

ولما كانت هذه الأمم لعظمهم وتمادي أزمانهم كأنهم قد استغرقوا الزمان كله ، لم يأت بالجار فقال : ﴿ قبلهم قوم نوح ﴾ وكانوا أطول الناس أعماراً ، وأشدهم اقتداراً ؛ ولما لم يتعلق في هذا السياق غرض بالمخالفة في ترتيبهم ، ساقهم على حسب ترتيبهم في الوجود فقال : ﴿ وعاد ﴾ أي ذوو الأبدان الشداد ﴿ وثمود ﴾ أولو الأبنية الطوال ، في السهول والجبال ﴿ وقوم إبراهيم ﴾ المتجبرون المتكبرون ﴿ وقوم لوط ﴾ الأنجاس ، بما لم يسبقهم إليه أحد من الناس ﴿ وأصحاب مدين ﴾ أرباب الأموال ، المجموعة من خزائن الضلال .

ولما كان موسى عليه السلام قد أتى من الآيات المرئية ثم المسموعة بما لم يأت بمثله أحد ممن تقدمه ، فكان تكذيبه في غاية من البعد ، غير سبحانه الأسلوب تنبيهاً على ذلك ، وعلى

أن الذين أطبقوا على تكذيبه القبط ، وأما قومه فما كذبه منهم إلا ناس يسير ، فقال : ﴿ وكذب موسى ﴾ وفي ذلك أيضاً تعظيم للتأسية وتفخيم للتسلية ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ أي فتعقب عن تكذيبهم أني أمهلتهم بتأخير عقوبتهم إلى الوقت الذي ضربته لهم ، وعبر عن طول الإملاء بأداة التراخي لزيادة التأسية فقال : ﴿ ثم أخذتهم ﴾ ونبه سبحانه وتعالى على أنه كان في أخذهم عبر وعجائب ، وأهوال وغرائب ، بالاستفهام في قوله : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي إنكاري لأفعالهم ، فليحذر هؤلاء الذين أتيتهم بأعظم ما أتى به رسول قومه مثل ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 158 . 159 ﴾

(175/525)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ نكيري ﴾ بإثبات الياء حيث كان في الحالين : يعقوب . وافق ورش وسهل وعباس في الوصل . ﴿ أهلكتها ﴾ على التوحيد : أبو عمرو وسهل ويعقوب الآخرون ﴿ أهلكناها ﴾ ﴿ وبير ﴾ بالياء : أبو عمرو غير شجاع وأوقية ويزيد والأعمش وورش وربيعة وابن فليح وحمزة في الوقف . ﴿ يعدون ﴾ على الغيبة : ابن كثير وحمزة

وعلي وخلف ﴿ معجزين ﴾ بالتشديد : حيث كان : ابن كثير وأبو عمرو . ثم ﴿ قتلوا ﴾ بالتشديد ابن عامر ﴿ وأن ما يدعون ﴾ بياء الغيبة وكذلك في سورة لقمان : أبو عمرو وسهل ويعقوب وحمزة وعلي وخلف وحفص .

الوقوف : ﴿ وثمود ﴾ 5 ﴿ ولوط ﴾ 5 ﴿ مدين ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتحاد المعنى ﴿ أخذتهم ﴾ ج لابتداء التهديد مع فاء التعقيب ﴿ نكير ﴾ 5 ﴿ مشيد ﴾ 5 ﴿ يسمعون بها ﴾ 5 للابتداء بأن مع الفاء ﴿ الصدور ﴾ 5 ﴿ وعده ﴾ ط ﴿ تعدون ﴾ 5 ﴿ أخذتها ﴾ ط ﴿ المصير ﴾ 5 ﴿ مبين ﴾ 5 ج للابتداء مع الفاء ﴿ كريم ﴾ 5 ﴿ الجحيم ﴾ 5 ﴿ أمنيته ﴾ ج لانقطاع النظم مع إتحاد المعنى ﴿ آياته ﴾ ط ﴿ حكيم ﴾ 5 لا لتعلق اللام ﴿ قلوبهم ﴾ ط ﴿ بعيد ﴾ 5 لا ﴿ قلوبهم ﴾ ط ﴿ مستقيم ﴾ 5 ﴿ عقيم ﴾ 5 ﴿ لله ﴾ ط ﴿ بينهم ﴾ ط ﴿ النعيم ﴾ 5 ﴿ مهين ﴾ 5 ﴿ حسناً ﴾ ط ﴿ الرازقين ﴾ 5 ﴿ يرضونه ﴾ ط ﴿ حليم ﴾ 5 ﴿ ذلك ﴾ ج ﴿ لينصرنه الله ﴾ ط ﴿ غفور ﴾ 5 ﴿ بصير ﴾ 5 ﴿ الكبير ﴾ 5 ﴿ ماء ﴾ ز لنوع عدول مع العطف ﴿ مخضرة ﴾ ط ﴿ خبير ﴾ 5 ﴿ وما في الأرض ﴾ ط ﴿ الحميد ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 87 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين فيما تقدم إخراج الكفار المؤمنين من ديارهم بغير حق ، وأذن في مقاتلتهم وضمن للرسول والمؤمنين النصرة وبين أن لله عاقبة الأمور ، أردفه بما يجري مجرى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم في الصبر على ما هم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره ، فقال : وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم سائر الأمم أنبياءهم ، وذكر الله سبعة منهم .

فإن قيل : ولم قال : ﴿ وَكُذِّبَ موسى ﴾ ولم يقل قوم موسى ؟ فالجواب : من وجهين : الأول : أن موسى عليه السلام ما كذبه قومه بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه وهم القبط الثاني : كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسوله ، وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره .

أما قوله تعالى : ﴿ فَأَمْلَيْتُ للكافرين ﴾ يعني أمهلتهم إلى الوقت المعلوم عندي ثم أخذتهم بالعقوبة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ استفهام تقرير (ي) ، أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب ، أليس كان واقعاً قطعاً ؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة وبالكثرة قلة وبالحياة موتاً

وبالعمارة خراباً ؟ ألست أعطيت الأنبياء جميع ما وعدتهم من النصرة على أعدائهم والتمكين لهم في الأرض .

فينبغي أن تكون عادتك يا محمد الصبر عليهم ، فإنه تعالى إنما يمهل للمصلحة فلا بد من الرضاء والتسليم ، وإن شق ذلك على القلب .

واعلم أن بدون ذلك يحصل التسلية لمن حاله دون حال الرسول عليه السلام ، فكيف بذلك مع منزلته ، لكنه في كل وقت يصل إليه من جهتهم ما يزيده غماً ، فأجرى الله عادته بأن يصبره حالاً بعد حال ، وقد تقدم ذكر هؤلاء المكذبين وبأي جنس من عذاب الاستئصال هلكوا .

(177/525)

وههنا بحث ، وهو أن هذه الآية تدل على أنه سبحانه يفعل به وبقومه كل ما فعل بهم وبقومهم إلا عذاب الاستئصال فإنه لا يفعله بقوم محمد صلى الله عليه وسلم وإن كان قد مكنهم من قتل أعدائهم وثبتهم .

قال الحسن : السبب في تأخر عذاب الاستئصال عن هذه الأمة أن ذلك العذاب مشروط بأمرين : أحدهما : أن عند الله حد (ا ً) من الكفر من بلغه عذبه ومن لم يبلغه لم يعذبه

والثاني : أن الله لا يعذب قوماً حتى يعلم أن أحداً منهم لا يؤمن ، فأما إذا حصل الشرطان وهو أن يبلغوا ذلك الحد من الكفر وعلم الله أن أحداً منهم لا يؤمن ، فحينئذ يأمر الأنبياء فيدعون على أممهم فيستجيب الله دعاءهم فيعذبهم بعذاب الاستئصال وهو المراد من قوله : ﴿ حتى إِذَا استيئس الرسل ﴾ [يوسف : 110] أي من إجابة القوم ، وقوله لنوح : ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ من قد آمن ﴾ [هود : 36] وإذا عذبهم الله تعالى فإنه ينجي المؤمنين لقوله :

﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا ﴾ [هود : 66] أي بالعذاب نجينا هوداً ، واعلم أن الكلام في هذه المسألة قد تقدم فلا فائدة في الإعادة ، فإن قيل كيف يوصف ما ينزله بالكفار من الهلاك بالعذاب المعجل بأنه نكير ؟ قلنا إذا كان رادعاً لغيره وصادعاً له عن مثل ما أوجب ذلك صار نكيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 36 . 38 ﴾

(178/525)

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿ وإن يكذبوك ﴾ يعني قريشاً وهذه آية تسلية للنبي عليه السلام ووعيد قريش ، وذلك أنه مثلهم بالأمم المكذبة المعذبة وأسند فعلاً فيه علامة التأنيث إلى قوم من حيث

أراد الأمة والقبيلة ليطرد القول في ﴿ عاد وثمود ﴾ و﴿ قوم نوح ﴾ هم أول أمة كذبت نبيها ثم أسند التكذيب في موسى عليه السلام إلى من لم يسم من حيث لم يكذبه قومه بل كذبه القبط وقومه به مؤمنون ، و﴿ أمليت ﴾ ، معناه فأمهلت وكأن الإمهال أن تمهل من تنوي فيه المعاقبة ، وأنت في حين إمهالك عالم بفعله . و" النكير " ، مصدر كالعذير بمعنى الإنكار والأعذار وهو في هذه المصادر بناء مبالغة فمعنى هذه الآية فكما فعلت بهذه الأمم كذلك أفعل بقومك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(179/525)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ثم أَخَذْتُهم ﴾ أي : بالعذاب ﴿ فكيف كان نَكير ﴾ أثبت الياء في "نكير" يعقوب [في الحالَيْن] ، ووافقه ورش في إِثباتها في الوصل ، والمعنى : كيف [أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب بالإِهلاك ؟ ! والمعنى : إِني] أنكرتُ عليهم أبلغ إِنكار ، وهذا استفهام معناه التقرير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(180/525)

وقال القرطبى :

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) ﴾

هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتعزيةٌ ؛ أي كان قبلك أنبياء كُذِّبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذِّبين ، فاقتد بهم واصبر .

﴿ وَكُذِّبَ موسى ﴾ أي كذبه فرعون وقومُه .

فأما بنو إسرائيل فما كذبوه ، فلهذا لم يعطفه على ما قبله فيكون وقومُ موسى .

﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي أخّرت عنهم العقوبة .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ فعاقبتهم .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ استفهام بمعنى التغيير ؛ أي فانظر كيف كان تغييري ما كانوا فيه من النعم بالعذاب والهلاك ، فكذلك أفعل بالمكذبين من قريش .

قال الجوهريّ : النكير والإنكار تغيير المنكر ، والمنكر واحد المناكير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(181/525)

وقال أبو حيان :

﴿ وإن يكذبوك ﴾ الآية فيها تسلية للرسول بتكذيب من سبق من الأمم المذكورة لأنبيائهم ، ووعيد لقريش إذ مثلهم بالأمم المكذبة المعذبة وأسند الفعل بعلامة التأنيث من حيث أراد الأمة والقبيلة ، وبنى الفعل للمفعول في ﴿ وكذب موسى ﴾ أن قومه لم يكذبوه وإنما كذبه القبط ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ أي أمهلت لهم وأخرت عنهم العذاب مع علمي بفعلهم ، وفي قوله ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ ترتيب الإملاء على وصف الكفر ، فكذلك قريش أملى تعالى لهم ثم أخذهم في غزوة بدر وفي فتح مكة وغيرهما ، والأخذ كناية عن العقاب والإهلاك ، النكير مصدر كالنذير المراد به المصدر ، والمعنى فكيف كان إنكاري عليهم وتبديل حالهم الحسنة بالسيئة وحياتهم بالهلاك ومعمورهم بالخراب ؟ وهذا استفهام يصحبه معنى التعجب ، كأنه قيل : ما أشد ما كان إنكاري عليهم وفي الجملة إرهاب لقريش . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(182/525)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾

تسليةٌ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم متضمّنةٌ للوعدِ الكريمِ بإهلاكِ مَن يُعاديه من الكفَرَةِ وتعيينٌ لكيفيَّةِ نصرِه تعالى له الموعودِ بقوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ وبيانٌ لرجوعِ عاقبةِ الأمور إليه تعالى . وصيغةُ المضارعِ في الشَّرطِ مع تحقُّقِ التَّكذيبِ لما أنَّ المقصودَ تسليتُه عليه السلام عمَّا يترتَّبُ على التَّكذيبِ من الحزن المتوقَّعِ أي وإنْ تحزنْ على تكذيبِهم إيَّاك فاعلم أنَّك لست بأوحديَ في ذلك فقد كذَّبتْ قبل تكذيبِ قومِك إيَّاك قومُ نوحٍ ﴿ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ﴿ وَقَوْمِ إبراهيم وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ ﴿ وأصحاب مَدْيَنَ ﴾ أي رُسُلَهم ممَّن ذُكر ومَن لم يُذكر ، وإنَّما حُذف لكمال ظهور المرادِ أو لأنَّ المرادَ نفسُ الفعل أي فعلتْ التَّكذيبَ قومُ نوحٍ إلى آخره . ﴿ وَكُذِّبَ موسى ﴾ غيَّر النَّظمُ الكريم بذكر المفعولِ وبناء الفعل له لا لأنَّ قومَه بنوُ إسرائيل وهم لم يكذِّبوه وإنَّما كذَّبه القِبْطُ لما أنَّ ذلك إنَّما يقتضي عدمَ ذكرِهم بعُنوان كونِهم قومَ مُوسى لا بعنوانٍ آخرَ على أنَّ بني إسرائيل أيضاً قد كذَّبوه مرَّةً بعد أُخرى حسبما نطقَ به قوله تعالى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ﴾ ونحو ذلك من الآياتِ الكريمة بل للإيذانِ بأنَّ تكذيبَهم له كان في غاية الشَّناعةِ لكون آياتِه في كمال الوضوحِ وقوله تعالى : ﴿ فَأَمْلَيْتُ للكافرين ﴾ أي أمهلتهم حتَّى انصرمتْ حبالُ آجالِهم . والفاءُ لترتيبِ إمهالِ كلِّ فريقٍ من فِرق المكذِّبينَ على تكذيب ذلك الفريقِ لا لترتيب إمهال الكلِّ على تكذيب الكلِّ . ووضعُ الظَّاهر موضعَ الضَّميرِ العائد إلى المكذِّبين لذمِّهم بالكفرِ والتَّصريحِ بمكذِّبي موسى عليه السلام حيثُ لم يذكروا فيما قبل صَريحاً ﴿

ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أي أخذتُ كلَّ فريقٍ من فرق المكذِّبين بعد انقضاء مدَّةِ إملائِه وإمهالِه ﴿ فَكَيْفَ كَانَ

نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري عليهم بالإهلاك أي فكان ذلك في غاية ما يكون من الهول والفظاعة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(183/525)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) ﴾

تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصيغة المضارع في الشرط مع تحقق التكذيب لما أن المقصود تسليته عليه الصلاة والسلام عما يترتب على التكذيب من الحزن المتوقع أو للإشارة إلى أنه مما لا ينبغي تحققه وإلحاق ﴿ كَذَّبَ ﴾ تاء التأنيث لأن الفاعل وهو ﴿ قَوْمُ ﴾ اسم جمع يجوز تذكيره وتأنيثه ولا حاجة لتأويله بالأمة أو القبيلة كما فعل أبو حيان ومن تبعه ، وفي اختيار التأنيث حط لقدر المكذبين ومفعول كذب محذوف لكمال ظهور المراد . وجوز أن يكون الفعل منزلاً منزلة اللازم أي فعلت التكذيب واستغنى في عاد وثمود عن ذكر القوم لاشتهارهم بهذا الاسم الأخصر والأصل في التعبير العلم فلذا لم يقل قوم صالح وقوم

هود ولا علم لغير هؤلاء ، ولم يقل وقوم شعيب قيل لأن قومه المكذبين له عليه السلام هم هؤلاء دون أهل الأيكة لأنهم وإن أرسل عليه السلام إليهم فكذبوه أجنبيون ، وتكذيب هؤلاء أيضاً أسبق وأشد ، والتخصيص لأن التسلية للنبي عليه الصلاة والسلام عن تكذيب قومه أي وإن يكذبك قومك فاعلم أنك لست بأوحدى في ذلك فقد كذبت قبل تكذيب قومك إياك قوم نوح الخ ﴿ وَكُذِّبَ موسى ﴾ المكذب له عليه السلام هم القبط وليسوا قومه بل قومه عليه السلام بنو إسرائيل ولم يكذبوه بإسرهم ولم يكذبوه بأسرهم ومن كذبه منهم تاب إلا اليسير وتكذيب اليسير من القوم كلا تكذيب ألا ترى أن تصديق اليسير من المذكورين قبل عد كلا تصديق ولهذا لم يقل وقوم موسى كما قيل : ﴿ قَوْمُ نُوحٍ وَقَوْمِ إبراهيم ﴾ وأما أنه لم يقل والقبط بل أعيد الفعل مبنياً للمفعول فللإيذان بأن تكذيبهم له عليه الصلاة والسلام في غاية الشناعة لكون آياته في كمال الوضوح ﴿ فَأَمْلَيْتُ للكافرين ﴾ أي أمهلتهم حتى انصرمت حبال آجالهم .

(184/525)

والفاء لترتيب إمهال كل فريق من فرق المكذبين على تكذيب ذلك الفريق لا لترتيب إمهال الكل على تكذيب الكل .

ووضع الظاهر موضع المضمر العائد على المكذبين لذمهم بالكفر والتصريح بمكذبي موسى عليه السلام حيث لم يذكروا فيما قبل تصريحاً ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أي أخذت كل فريق من فريق المكذبين بعد انقضاء مدة إملائه وإمهاله .

والأخذ كناية عن الإهلاك ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري عليهم بتغيير ما هم عليه من الحياة والنعمة وعمارة البلاد وتبديله لضده فهو مصدر من نكرت عليه إذا فعلت فعلاً يردعه بمعنى الإنكار كالنذير بمعنى الإنذار .

وياء الضمير المضاف إليها محذوفة للفاصلة وأثبتها بعض القراء ، والاستفهام للتعجب كأنه قيل فما أشد ما كان إنكاري عليهم ، وفي الجملة إرهاب لقريش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(185/525)

وقال القاسمى :

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ ﴾

وهم قوم هود : ﴿ وَثَمُودُ ﴾ وهم قوم صالح : ﴿ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴾ وهم قوم شعيب : ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَى ﴾ وإنما لم يقل وقوم موسى كسابقه ، لأن موسى

ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط . وفيه شيء آخر كأنه قيل ، بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم : ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَى ﴾ مع وضوح آياته وعظم معجزاته ، فما ظنك بغيره ؟ أفاده الزمخشري .

قال الناصر : ويحتمل عندي ، والله أعلم ، أنه لما صدّر الكلام بحكاية تكذيبهم ، ثم عدّد أصناف المكذبين وطوائفهم ، ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام ، حسن تكريره لِيَلِي قوله : ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ فيتصل المسبب بالسبب ، كما قال في آية ق بعد تعديدهم : ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق : 14] ، فربط العقاب والوعيد ، ووصلهما بالتعذيب ، بعد أن جدد ذكره ، والله أعلم .

وإيراد من زعم بأن موسى كذبه قومه بعبادة العجل ، إيراد من لم يفهم معنى التكذيب الذي هو ردّ دعوة النبيّ وعدم الإيمان به والإصرار على الكفر بوحيه ، والقيام في وجهه وصد الناس عن اتباعه . وما وقع من قوم موسى هو تخليط ، وخطأ اجتهاد ، وتعنت ولجاج مع الاستظلال بظل دعوته ، والانتظام في سلك إجابته . وقوله تعالى : ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي : أمهلتهم : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أي : بالعقوبة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : إنكاري عليهم بالإهلاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 264 .

﴿ 265

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) ﴾

لما نعى على المشركين مساويَهم في شؤون الدين بإشراكهم وإنكارهم البعث وصدّهم عن الإسلام وعن المسجد الحرام وما ناسب ذلك في غرضه من إخراج أهله منه ، عُطف هنا إلى ضلالهم بتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم فقُصد من ذلك تسليّةُ الرسول صلى الله عليه وسلم وتمثيلُهم بأمثال الأمم التي استأصلها الله ، وتهديدهم بالمصير إلى مصيرهم ، ونظير هذه الآية إجمالاً وتفصيلاً تقدم غير مرة في سورة آل عمران وغيرها .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه قوله : ﴿ فقد كذبت قبلهم ﴾ الخ إذ التقدير : فلا عجب في تكذيبهم ، أو فلا غضاضة عليك في تكذيب قومك إياك فإن تلك عادة أمثالهم .

وقوم إبراهيم هم الكلدان ، وأصحاب مَدْين هم قوم شُعيب ، وإنما لم يعبّر عنهم بقوم شُعيب لئلا يتكرر لفظ قَوم أكثر من ثلاث مرات .

وقال : ﴿ وكذب موسى ﴾ لأن مُكذّبيه هم القبط قوم فرعون ولم يكذبه قومه بنو إسرائيل .

وقوله : ﴿ فأمليتُ للكافرين ﴾ معناه فأمليت لهم ، فوُضع الظاهر موضع الضمير للإيماء إلى أن علة الإملاء لهم ثم أخذِهم هو الكفر بالرسُل تعريضاً بالنذارة لمشركي قُريش .

والأخذ حقيقته : التناولِ لما لم يكن في اليد ، واستعير هنا للقدرة عليهم بتسليط الإهلاك بعد إمهالهم ، ومناسبة هذه الاستعارة أن الإملاء لهم يشبه بعد الشيء عن متناوله فشبّه انتهاءُ ذلك الإملاء بالتناول ، شبه ذلك بأخذ الله إياهم عنده ، لظهور قدرته عليهم بعد وعيدهم ، وهذا الأخذ معلوم في آيات أخرى عدا أن قوم إبراهيم لم يتقدم في القرآن ذكر لعذابهم أو أخذهم سوى أن قوله تعالى في [سورة الأنبياء : 70] ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ مشير إلى سُوءِ عاقبتهم مما أرادوا به من الكيد ، وهذه الآية صريحة في ذلك كما أشرنا إليه هنالك .

(187/525)

ومناسبة عَدّ قوم إبراهيم هنا في عداد الأقوام الذين أخذهم الله دون الآيات الأخرى التي ذُكر فيها من أُخذوا من الأقوام ، أنّ قوم إبراهيم أتمّ شبهاً بمشركي قُريش في أنهم كذبوا رسولهم وآذوه .

وألجأوه إلى الخروج من موطنه ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ [الصافات : 99] .

فكان ذكر إلجاء قريش المؤمنين إلى الخروج من موطنهم في قوله : ﴿ الذين أخرجوا من

ديارهم بغير حق ﴾ [الحج : 40] مناسبةٌ لذكر قوم إبراهيم .

والإملاءُ : ترك المتلبّس بالعِصيان دون تعجيل عقوبته وتأخيرها إلى وقت متأخر حتى يحسب أنه قد نَجا ثم يؤخذ بالعقوبة .

والفاء في ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ للتعقيب دلالة على أن تقدير هلاكهم حاصل من وقت تكذيبهم وإنما أُخر لهم ، وهو تعقيب موزع ، فلكل قوم من هؤلاء تعقيبُ إملائه ، والأخذ حاصل بعد الإملاء بمهلة ، فلذلك عطف فعلُه بحرف المهلة .

وعطفت جملة ﴿ فكيف كان نكير ﴾ بالفاء لأنّ حق ذلك الاستفهام أن يحصل عند ذكر ذلك الأخذ ، وهو استفهام تعجيبي ، أي فأعْجَب من نكيري كيف حصل .

ووجه التعجيب منه أنهم أبدلوا بالنعمة مِحنة ، وبالحياة هلاكاً ، وبالعمارة خراباً فهو عبرة لغيرهم .

والنكير : الإنكار الزجري لتغيير الحالة التي عليها الذي يُنكَر عليه:

و﴿ نكيرِ ﴾ بكسرة في آخره دالة على ياء المتكلم المحذوفة تخفيفاً .

وكأنّ مناسبة اختيار النكير في هذه الآية دون العذاب ونحوه أنه وقع بعد التنويه بالنهي عن المنكر لينبه المسلمين على أن يبذلوا في تغيير المنكر منتهى استطاعتهم ، فإن الله عاقب على المنكر بأشد العقاب ، فعلى المؤمنين الائتساء بصنع الله ، وقد قال الحكماء : إنّ

الحكمة هي التشبه بالخالق بقدر ما تبلغه القوة الإنسانية ، وفي هذا المجال تتسابق جياد الهمم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(188/525)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) ﴾

في هذه الآيات الكرمية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الذي عامله به قومه من التكذيب عومل به غيره من الرسل الكرام ، وذلك يسليه ويخفف عليه كما قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : 120] الآية . وقوله تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت : 43] وقوله : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [فاطر : 4] الآية إلى غير ذلك من الآيات . وذكر تعالى في هذه الآيات سبع أمم كل واحدة منهم كذبت رسولها .

الأولى : قوم نوح في قوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ والآيات الدالة على تكذيب قوم نوح لا تكاد تحصى في القرآن ، لكثرتها ولنقتصر على الأمثلة لكثرة الآيات الدالة على تكذيب هذه الأمم رسلها كقوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾ [الشعراء : 105]

وقوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وازدجر ﴾ [القمر : 9] إلى غير ذلك من الآيات .

الثانية : عاد ، وقد بين تعالى في غير هذا الموضع في آيات كثيرة أنهم كذبوا رسولهم هوداً ، كقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين ﴾ [الشعراء : 123] وقوله : ﴿ قَالُواْ يا هود مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بتاركي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : 53] .

الثالثة : ثمود وقد بين تعالى في غير هذا الموضع تكذيبهم لنبيهم صالح في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين ﴾ [الشعراء : 141] وقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس : 14] إلى غير ذلك من الآيات .

(189/525)

الرابعة : قوم إبراهيم ، وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أنهم كذبوه في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ الله مِنَ النار ﴾ [العنكبوت : 24] وقوله : ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وانصروا آلِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء : 68] الآية . وكقوله : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يا إبراهيم لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهجرني مَلِيّاً ﴾ [مريم : 46] إلى غير ذلك من الآيات .

الخامسة : قوم لوط وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أنهم كذبوه في آيات كثيرة كقوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسلين ﴾ [الشعراء : 160] وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [النمل : 56] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

السادسة : أصحاب مدين ، وقد بين تعالى أنهم كذبوا نبيهم شعيباً في غير هذا الموضع في آيات كثيرة كقوله : ﴿ أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود : 59] وقوله : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يا قوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [هود : 84] إلى قوله : ﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ [هود : 87] وقوله : ﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ [هود : 91] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

السابعة : من كذبوا موسى وهم فرعون وقومه ، وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أن فرعون وقومه كذبوا موسى في آيات كثيرة كقوله : ﴿ لَئِنِ اتخذت إلها غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ﴾

[الشعراء : 29] وقوله : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الشعراء : 18-19] وقوله : ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 132] إلى غير ذلك من الآيات ، وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ قد بين تعالى نوع العذاب الذي عذب به كل أمة من تلك الأمم ، بعد الإملاء لها والإمهال لعاد أهلكهم بالريح القعيم كقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 6] الآيات وقوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات : 41-42] وقوله : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأُصْبَحُواْ لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف : 24-25] إلى غير ذلك من الآيات وبين أنه أهلك ثمود بصيحة أهلكتهم جميعاً كقوله فيهم : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود : 67] وقوله : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ﴾ [فصلت : 17] الآية إلى غير ذلك من الآيات ، وقوم إبراهيم الذين كذبوه هم نمروذ ، وقومه ، وقد ذكر المفسرون أن العذاب الدنيوي الذي أهلكهم الله به هو المذكور في قوله تعالى في سورة النحل : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ

العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : 26] وقد بين تعالى أنه أهلك قوم لوط بجعل عالي أرضهم

(191/525)

سافلها ، وأنه أرسل عليهم مطراً من حجارة السجيل في مواضع متعددة كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [هود : 82] ونحو ذلك من الآيات . وقد بين تعالى أنه أهلك أصحاب مدين بالصيحة في مواضع كقوله فيهم : ﴿ وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود : 94-95] إلى غير ذلك من الآيات وقد بين في مواضع كثيرة أنه أهلك الذين كذبوا موسى ، وهم فرعون وقومه بالغرق كقوله : ﴿ واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان : 24] وقوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : 78] الآية وقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين ﴾ [يونس : 90] إلى غير ذلك من الآيات .

(192/525)

ومعلوم أن الآيات كثيرة في بيان ما أهلكت به هذه الأمم السبع المذكورة ، وقد ذكرنا قليلاً منها كالمثال لغيره ، وكل ذلك يوضح معنى قوله تعالى بعد أن ذكر تكذيب الأمم السبع لأنبيائهم ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أي بالعذاب ، وهو ما ذكرنا بعض الآيات الدالة على تفاصيله وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ النكير : اسم مصدر بمعنى الإنكار أي كيف كان إنكاري عليهم منكرهم ، الذي هو كفرهم بي ، وتكذيبهم رسلي ، وهو ذلك العذاب المستأصل الذي بينا وبعده عذاب الآخرة الذي لا ينقطع نرجو الله لنا ولإخواننا المسلمين العافية من كل ما يسخط خالقنا ، ويستوجب عقوبته . والجواب إنكارك عليهم بذلك العذاب واقع موقعه على أكمل وجه ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فجزاء العمل البالغ غاية القبح بالنكال العظيم جزاء وفاق واقع موقعه ، فسبحان الحكم الخبير الذي لا يضع الأمر إلا في موضعه ولا يوقعه إلا في موقعه ، وقرأ هذا الحرف ورش وحده عن نافع : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ بياء المتكلم بعد الراء وصلاً فقط وقرأ الباقون بحذفها اكتفاء بالكسرة عن الياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(193/525)

وقال الشيخ الشعراوى :

ثم يُسلِّي الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم حتى لا يهتم بما يفعله قوم من كفر وعناد ومجابهة للدعوة : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ . . ﴾

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ . . ﴾ [الحج : 42] يعني : في دعوتك فيواجهونك ، ويقفون في سبيل دعوتك ليبطلوها ، فاعلم أنك لست في ذلك بِدْعاً من الرسل ، فقد كُذِّب كثير من الرسل قبلك ، وعليك ألَّا تلاحظ مسألة التكذيب منفصلةً عن عاقبته ، نعم : كذب القوم لكن كيف كانت العاقبة ؟ اتركناهم أم أخذناهم أَخْذ عزيز مقتدر ؟

فلا تحزن ، فسوف يحلُّ بهم ما حَلَّ بسابقيهم من المكذِّبين والمعاندين .

وقلنا : إن الرسول يتحمّل من مشقة الرسالة وعناء الدعوة على قَدْر رسالته ، فكلُّ رسل الله قبل محمد كان الرسول يُرْسَل إلى قومه خاصة ، وفي مدة محدودة ، وزمان محدود ، ومع ذلك تعبوا كثيراً في سبيل دعوتهم ، فما بالك برسول بُعِثَ إلى الناس كافة في كل زمان وفي كل مكان ، لا شَكَّ أنه سيتحمل من التعب والعناء أضعاف ما تحمّله إخوانه من الرسل السابقين .

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يُعد رسوله صلى الله علية وسلم ويُوطِّنه على تحمُّل المشاقِّ من بداية الطريق حتى لا تفتّ في عَضُده حين يواجهها عند مباشرة أمر الدعوة ، يقول له :

ليست السيادة أمراً سهلاً ، إنما دونها متاعب وأهوال ومصاعب فاستعد ، كما تنبه ولدك : انتبه ، فالامتحانات ستأتي هذا العام صعبة ، فالوزارة تريد تقليل عدد المتقدمين للجامعة ، فاجتهد حتى تحصل على مجموع مرتفع ، وحين يسمع الولد هذا التنبيه يُجمع تماسكه ، ويجمع تركيزه ، فلا يهتز حين يواجه الامتحانات .

ثم يذكر الحق – تبارك وتعالى – نماذج للمكذّبين للرسل : ﴿ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ موسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ . . ﴾

(194/525)

نلحظ هنا أن الحق سبحانه ذكر المكذبين ، إلا في قصة موسى فذكر المكذَّب ، فلم يَقُل : وقوم موسى بل قال : وكُذِّب موسى ، لماذا ؟ قالوا : لأن مهمته كانت أصعب حيث تعرَّض في دعوته لمن ادَّعى الألوهية ذاتها .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ . . ﴾ [الحج : 44] أمليت : أمهلْتُ حتى ظنوه إهمالاً ، وهو إمهال بأنْ يمدّ الله لهم ، ويطيل في مدتهم ، لا إكراماً لهم ، ولكن ليأخذهم بعد هذا أخْذ عزيز مقتدر ، وفي آية أخرى يُوضِّح لنا هذه البرقية المختصرة ، فيقول سبحانه : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ

ليزدادوا إِثْمَاً . . ﴾ [آل عمران : 178]

وفي هذا المعنى يقول أيضاً : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : 55] .

إذن : لا تغتر بما في أيديهم ؛ لأنه فتنة ، حتى إذا أخذهم الله كانت حسرتهم أكبر ، فمن عُدم هذه النعم لا يتعلق قلبه بها ، ولا يأْلَم لفقدها .

وقد حدث شيء من هذا في أيام سعد زغلول ، وكان أحد معارضيه يشتمه ويتطاول عليه ، لكن فوجئ الجميع بأنه يُولِّيه منصباً مرموقاً في القاهرة ، فتعجّب الناس وسألوه في ذلك فقال : نعم ، وضعته في هذا المنصب ليعرف العلو والمنزلة حتى يتحسَّر عليها حين تُسْلَب منه ، وتكون أنكى له . يعني : يرفعه إلى أعلى حتى يهوي على رقبته ، لأنه ما فائدة أن توقعه من على الحصيرة مثلاً ؟ ! !

ثم يقول تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج : 44] الحق سبحانه يُلقِي الخبر في صورة استفهام لتقول أنت ما حدث وتشهد به .

والمراد : أعاقبناهم بما يستحقون ؟

(195/525)

والنكير : هو الإنكار على شخص بتغيير حاله من نعمة إلى نقمة ، كالذي يُكرمك ويُواسيك ويَبَشُّ في وجهك ويُغدق عليك ، ثم يقطع عنك هذا كله ، فتقول : لماذا تنكَّر لي فلان ؟ يعني : قطع عني نعمته .

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يريد أن ينتزع مِنَّا الإقرار بقدرته تعالى على عقاب أعدائه ومُكذِّبي رسله ، وهذا المعنى جاء أيضاً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : 29 – 36] يعني : هل جُوزي الكفار بما عملوا ؟ وهل استطعنا أنْ نعاقبهم بما يستحقون من العذاب ؟

﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج : 44] أي : إنكاري لموقفهم من عدم أداء حقوق النعمة فبدَّلها الله عليهم نقمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(196/525)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) ﴾

قوله : ﴿ نَكِيرِ ﴾ : النكيرُ مصدرٌ بمعنى الإِنكار كالنَّذير بمعنى الإِنذار . وأثبتَ ياءَ " نَكيري " حيث وقع ورشٌ في الوصل ، وحذفها في الوقف .

والباقون بحذفِها وَصْلاً ووَقْفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 286 ﴾

(197/525)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) ﴾

في الآيات تسليةٌ للنبي – صلى الله عليه وسلم ، وأمرٌ حَتْمٌ عليه بالصبر على مقاساة ما كان يلقاه من قومه من فنون البلاءِ وصنوفِ الأسواء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 547.550 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت هذه الأمم السبعة أكثر أهل الأرض ، بل كانت أمة منهم أهل الأرض كما مضى بيانه في الأعراف ، فكيف بمن عداهم ممن كان في أزمانهم وبعدهم ، وأخبر سبحانه وتعالى أن عادته فيهم الإملاء ثم الإهلاك ، تسبب عن ذلك تهويل الإخبار عنهم وتكثيرهم ، فقال تعالى شارحاً للأخذ والإمهال على طريق النشر المشوش : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها ﴾ كهؤلاء المذكورين وغيرهم ، وفي قراءة الجماعة غير أبي عمرو بالنون إظهاراً للعظمة ﴿ وهي ﴾ أي والحال أنها ﴿ ظالمة فهي ﴾ أي فتسبب عن إهلاكها أنها

﴿ خاوية ﴾ أي متهدمة ساقطة أي جدرانها ﴿ على عروشها ﴾ أي سقوفها ، بأن تقصفت الأخشاب ولا من كثرة الأمطار ، وغير ذلك من الأسرار ، فسقطت ثم سقطت عليها الجدران .

(199/525)

أو المعنى : خالية ، قد ذهبت أرواحها بذهاب سكانها على البقاء سقوفها ، ليست محتاجة إلى غير السكان ﴿ و ﴾ كم من ﴿ بئر معطلة ﴾ من أهلها مع بقاء بنائها ، وفوران مائها ﴿ وقصر مشيد ﴾ أي عال متقن مجصص لأنه لا يشيد - أي يجصص - إلا الذي يقصد رفعه ، فحلت القصور من أربابها ، وأقفرت موحشة من جميع أصاحبها ، بعد كثرة التضام في نواديها ، وعطلت الآبار من ورَّادها بعد الازدحام بين رائحها وغاديها ، دانية ونائية ، حاضرة وبادية ؛ ولما كان خراب المشيد يوهى من أركانه ، ويخلق من جدارنه ، لم يحس التشديد في وصف القصر ، كما حسن في وصف البئر .

ولما كان هذا واعظاً لمن له استبصار ، وعاطفاً له إلى العزيز الغفار ، تسبب عنه الإنكار عليهم في عدم الاعتبار ، فعد أسفارهم - التي كانوا يرون فيها هذه القرى على الوجه الذي أخر به سبحانه لما كانت على ذلك الوجه - عدماً ، فقال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في

الأرض ﴾ أي وهم بصراء ينظرون بأعينهم ما يمرون عليه ، من الآيات المرئية من القرى الظالمة المهلكة وغيرها ، وقرينة الحث على السير دل على البصر .

(200/525)

ولما كان الجواب منصوباً ، علم أنه منفي لأنه مسبب عن همزة الإنكار التي معناها النفي ، وقد دخلت على النفي السير فنفته ، فأثبتت السير عرياً عما أفاده الجواب ، وهو قوله ﴿ فتكون ﴾ أي فيتسبب عن سيرهم أن تكون ﴿ لهم قلوب ﴾ واعية ﴿ يعقلون بها ﴾ ما رأوه بأبصارهم في الآيات المرئيات من الدلالة على وحدانية الله تعالى وقدرته على الإحياء والإماتة متى أراد فيعتبروا به ، فانتفاء القلوب الموصوفة متوقف على نفي السير الذي هو إثبات السير ، وكذا الكلام في الآذان من قوله ﴿ أو ﴾ أي أو تكون لهم إن كانوا عمي الأبصار كما دل عليه جعل هذا قسيماً ﴿ آذان يسمعون بها ﴾ الآيات المسموعة المترجمة عن تلك القرى وغيرها سواء ساروا أو لم يسيروا ، إن كانت بصائرهم غير نافذة الفهم بمجرد الرؤية فيتدبروها بقلوبهم ، فإنه لا يضرهم فقد الأبصار عند وجود البصائر . ولما كان الضار للإنسان إنما هو عمى البصائر دون الأبصار ، نفى العمى أصلاً عن الأبصار لعدم ضرورة مع إنارة البصائر ، وخصه بالبصر لوجود الضرر به ولو وجدت الأبصار ،

مسبباً عما مضى مع ما أرشد إليه من التقدير ، فقال : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ﴾ أي لعدم الضرر بعماها المستنير البصيرة ﴿ ولكن تعمى القلوب ﴾ وأكد المعنى بقوله : ﴿ التي في الصدور ﴾ لوجود الضرر بعماها المبطل لمنفعة صاحبها وإن كان البصر موجداً ، فاحتيج في تصوير عماها إلى زيادة تعيين لما تعورف من أن العمى إنما هو للبصر ، إعلاماً بأن القلوب ما ذكرت غلطاً ، بل عمداً ، تنبيهاً على أن عمى البصر عدم بالنسبة لى عماها ، والمراد بالقلب لطيفة ربانية روحانية مودعة في اللحم الصنوبري المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، لديه تعلق . . .

(201/525)

عقول الأكثر في أنه يضاهي تعلق العرض بالجسم ، أو الصفة بالموصوف ، أو المتمكن بمكان وهذه اللطيفة على حقيقة الإنسان سميت قلباً للمجاورة والتعلق ، وهي كالفارس والبدن كله كالفرس ، وعمى الفارس أضر على الفارس من عمى الفرس ، بل لا نسبة لأحد الضررين بالآخرة ، فلذلك نفى عمى الأبصار أصلاً ورأساً ، فلا شيء ضرره بالنسبة إلى عمى البصائر .

ولما قدم سبحانه أن الضال المضل له خزي في الدنيا ، وقدم أنه يدفع عن الذين آمنوا

وينصرهم ، وساق الدليل الشهودي على ذلك لمن كان جامد الفهم ، مقيداً بالوهم ، بالقرى الظالمة التي أنجز هلاكها ، وختم بإنكار عماهم عن ظاهر الآيات البينات ، قال عاطفاً على ﴿ ومن الناس من يجادل ﴾ معجباً منهم وموضحاً لعماهم : ﴿ ويستعجلونك ﴾ ويجوز وهو أحسن أن تكون هذه الجملة حالاً من فاعل ﴿ يسيروا ﴾ فيكون مما أنكر عليهم ﴿ بالعذاب ﴾ الذي تتوعدهم به تكذيباً واستهزاء ، ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ لن يخلف الله ﴾ الذي لا كفوء له ﴿ وعده ﴾ فلا بد من وقوعه لكن الطويل عندهم من الزمن قصير عنده ، وقد ينجز الوعد وقد يؤخره بعد الوعيد إلى حين يوم أو أقل أو أكثر ، لأن قضاءه سبق أنه لا يكون إلا فيه لحكم يظهرها لمن يشاء من عباده ﴿ وإن يوماً ﴾ أي واحداً ﴿ عند ربك ﴾ أي المحسن إليك بتأخير العذاب عنهم إكراماً لك ﴿ كألف سنة ﴾ ولما كان المقصود هنا التطويل ، فعبر بالسنة تنبيهاً عليه ؛ ولما كانت السنون قد تختلف قال : ﴿ مما تعدون ﴾ لأن أيامكم تناسب أوهامكم ، وأزمانكم تناسب شأنكم ، وهو حليم لا يستطيل الزمان ، وقادر لا يخاف الفوت .

(202/525)

ولما دل على نصر أوليائه ، وقسر أعدائه ، بشهادة تلك القرى ، وختم بالتعجيب من استعجالهم مع ما شاهدوا من إهلاك أمثالهم ، وأعلمهم ما هو عليه من الأناة ، واتساع العظمة ، وكبر المقدار ، عطف على ﴿ فكأين ﴾ محذراً من نكاله ، بعد طويل إمهاله ، قوله : ﴿ وكأين من قرية ﴾ أي من أهلها ﴿ أمليت لها ﴾ أي أمهلتها كما أمهلتكم ﴿ وهي ظالمة ﴾ كظلمكم بالاستعجال وغيره ﴿ ثم أخذتها ﴾ أي بالعذاب ﴿ وإليّ المصير ﴾ بانقطاع كل حكم دون حكمي ، كما كان مني البدء ، فلم يقدر أحد أن يمنع من خلق ما أردت خلقه ، ولا أن يخلق ما لم أرد خلقه ، فلا تغتروا بالإمهال ، وإن تمادت الأيام والليالي ، واحذروا عواقب الوبال ، وإن بلغتم ما أردتم من الآمال ، ولعله إنما طوى ذكر البدء ، لأنه احتجب فيه بالأسباب فغلب فيه اسمه الباطن ، ولذلك ضل في هذه الدار أكثر الخلق وقوفاً مع الأسباب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 159 . 162 ﴾

(203/525)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أهلكناها ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال بعضهم : المراد من قوله : ﴿ فَكَأَيِّن ﴾ فكم على وجه التكثير ، وقيل أيضاً معناه ، ورب قرية والأول أولى لأنه أوكد في الزجر ، فكأنه تعالى لما بين حال قوم من المكذبين وأنه عجل إهلاكهم أتبعه بما دل على أن لذلك أمثالاً وإن لم يذكر مفصلاً .

المسألة الثانية :

قرأ ابن كثير وأهل الكوفة والمدينة ﴿ أهلكناها ﴾ بالنون ، وقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿ أهلكتها ﴾ وهو اختيار أبي عبيد لقوله في الآية الأولى ﴿ فَأَمْلَيْتُ للكافرين ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ أهلكناها ﴾ أي أهلها ودل بقوله وهي ظالمة على ما ذكرنا ، ويحتمل أن يكون المراد إهلاك نفس القرية ، فيدخل تحت إهلاكها إهلاك من فيها لأن العذاب النازل إذا بلغ أن يهلك القرية فتصير منهدمة حصل بهلاكها هلاك من فيها وإن كان الأول أقرب .

أما قوله وهي : ﴿ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ ففيه سؤالان :

السؤال الأول : ما معنى هذه اللفظة ؟ فقال صاحب الكشاف : كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة فهو عرش ، والخاوي الساقط من خوى النجم إذا سقط أو الخالي من خوى المنزل إذا خلا من أهله ، فإن فسرنا الخاوي بالساقط ، كان المعنى أنها

ساقطة على سقوفها ، أي خرت سقوفها على الأرض ، ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف ، وإن فسرناه بالخالي كان المعنى أنها خالية عن الناس مع بقاء عروشها وسلامتها ، قال ويمكن أن يكون خبراً بعد خبر ، كأنه قيل هي خاوية وهي على عروشها ، بمعنى أن السقوف سقطت على الأرض فصارت في قرار الحيطان وبقيت الحيطان قائمة فهي مشرفة على السقوف الساقطة ، وبالجملة فالآية دالة على أنها بقيت محلاً للاعتبار .

السؤال الثاني : ما محل هاتين الجملتين من الإعراب .

(204/525)

أعني ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ الجواب : الأولى : في محل النصب على الحال والثانية : لا محل لها لأنها معطوفة على (أهلكناها) وهذا الفعل ليس له محل .

قال أبو مسلم : المعنى فكأين من قرية أهلكناها وهي كانت ظالمة وهي الآن خاوية .

أما قوله : ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ الحسن ﴿ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ من أعطله بمعنى معطلة ومعنى المعطلة أنها عامرة فيها الماء ويمكن الاستقاء منها إلا أنها عطلت أي تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها وفي المشيد

قولان : أحدهما : أنه المجصص لأن الجص بالمدينة يسمى الشيد والثاني : أنه المرفوع المطول ، والمعنى أنه تعالى بين أن القرية مع تكلف بنائهم لها واغتباطهم بها جعلت لأجل كفرهم بهذا الوصف ، وكذلك البئر التي كلفوها وصارت شربهم صارت معطلة بلا شارب ولا وارد ، والقصر الذي أحكموه بالجص وطولوه صار ظاهراً خالياً بلا ساكن ، وجعل ذلك تعالى عبرة لمن اعتبر وتدبر .

وفيه دلالة على أن تفسير على بمع أولى لأن التقدير وهي خاوية مع عروشها ومعلوم أنها إذا كانت كذلك كانت أدخل في الاعتبار وهو كقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الصافات : 137] ، والله أعلم بالصواب .

المسألة الثانية :

(205/525)

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن هذه البئر نزل عليها صالح مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ، ونجاهم الله تعالى من العذاب وهم بحضرموت ، وإنما سميت بذلك لأن صالحاً حين حضرها مات ، وثم بلدة عند البئر اسمها حاضوراً بناها قوم صالح ، وأمروا عليها حاسر بن جلاس وجعلوا وزيره سنجاريب وأقاموا بها زماناً ثم كفروا وعبدوا صنماً ، وأرسل

الله تعالى إليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه في السوق فأهلكهم الله تعالى ، وعطل بئرهم وخرب قصورهم ، قال الإمام أبو القاسم الأنصاري ، وهذا عجيب لأني زرت قبر صالح بالشام ببلدة يقال لها عكة فكيف يقال إنه بحضرموت .

أما قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ فالمقصود منه ذكر ما يتكامل به ذلك الاعتبار لأن الرؤية لها حظ عظيم في الاعتبار وكذلك استماع الأخبار فيه مدخل ، ولكن لا يكمل هذان الأمران إلا بتدبر القلب لأن من عاين وسمع ثم لم يتدبر ولم يعتبر لم ينتفع ألبتة ولو تفكر فيها سمع لانتفع ، فلهذا قال : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فِى الصدور ﴾ كأنه قال لا عمى في أبصارهم فإنهم يرون بها لكن العمى في قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروه ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض ﴾ هل يدل على الأمر بالسفر الجواب : يحتمل أنهم ما سافروا فحثهم على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا ، ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا .

السؤال الثاني : ما معنى الضمير في قوله : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ﴾ والجواب : هذا الضمير ضمير القصة والشأن يجيء مؤنثاً ومذكراً وفي قراءة ابن مسعود ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسره الأبصار .

السؤال الثالث : أي فائدة في ذكر الصدور مع أن كل أحد يعلم أن القلب لا يكون إلا في الصدر ؟ الجواب : أن المتعارف أن العمى مكانه الحدقة ، فلما أريد إثباته للقلب على خلاف المتعارف احتيج إلى زيادة بيان كما تقول : ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك ، فقولك الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسان وتثبيت ، لأن محل المضاء هو هو لا غير ، وكأنك قلت ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك سهواً ، ولكني تعمدته على اليقين .

وعندي فيه وجه آخر وهو أن القلب قد يجعل كناية عن الخاطر والتدبر كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق : 37] وعند قوم أن محل التفكر هو الدماغ فالله تعالى بين أن محل ذلك هو الصدر .

السؤال الرابع : هل تدل الآية على أن العقل هو العلم وعلى أن محل العلم هو القلب ؟ الجواب : نعم لأن المقصود من قوله : ﴿ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ العلم وقوله : ﴿ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ كالدلالة على أن القلب آلة لهذا التعقل ، فوجب جعل القلب محلاً للتعقل ويسمى الجهل بالعمى لأن

الجاهل لكونه متحيراً بشبه الأعمى .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾

(207/525)

اعلم أنه تعالى لما حكى من عظم ما هم عليه من التكذيب أنهم يستهزئون باستعجال العذاب فقال : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ وفي ذلك دلالة على أنه عليه السلام كان يخوفهم بالعذاب إن استمروا على كفرهم ولأن قولهم : ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بالملئكة ﴾ [الحجر : 7] يدل على ذلك فقال تعالى : ﴿ وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ ﴾ لأن الوعد بالعذاب إذا كان في الآخرة دون الدنيا فاستعجاله يكون كالخلف ثم بين أن العاقل لا ينبغي أن يستعجل عذاب الآخرة فقال : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبّكَ ﴾ يعني فيما ينالهم من العذاب وشدته ﴿ كَأَلْفِ سَنَةٍ ﴾ لو بقي وعذب في كثرة الآلام وشدتها فبين سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه ، وهذا قول أبي مسلم وهو أولى الوجوه : الوجه الثاني : أن المراد طول أيام الآخرة في المحاسبة ويرجع معناه إلى قريب مما تقدم ، وذلك أن الأيام القصيرة إذا مرت في الشدة كانت مستطيلة فكيف تكون الأيام المستطيلة إذا مرت في الشدة .

ثم إن العذاب الذي يكون طول أيامها إلى هذا الحد لا ينبغي للعاقل أن يستعجله والوجه الثالث : أن اليوم الواحد وألف سنة بالنسبة إليه على السواء لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء ، فإذا لم يستبعدوا إمهال يوم فلا يستبعدوا أيضاً إمهال ألف سنة .

(208/525)

أما قوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظالمة ﴾ فالمراد وكم من قرية أخرت إهلاكهم مع استمرارهم على ظلمهم فاغتروا بذلك التأخير ثم أخذتهم بأن أنزلت العذاب بهم ، ومع ذلك فعذابهم مدخر إذا صاروا إلي وهو تفسير قوله : ﴿ وَإِلَيَّ المصير ﴾ فإن قيل فلم قال فيما قبل ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أهلكناها وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ [الحج : 45] وقال ههنا : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ الأولى بالفاء وهذه بالواو ؟ قلنا : الأولى وقعت بدلاً عن قوله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج : 44] وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو ، أعني قوله : ﴿ وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 39 . 41 ﴾

(209/525)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾

فيها ثلاثة أوجه

: أحدها : يعني خالية من أهلها لهلاكها .

والثاني : غائرة الماء .

والثالث : معطلة من دلالتها وأرشيتها .

﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أن المشيد الحصين وهو قول الكلبي ، ومنه قول امرىء القيس :

وتيماء لم يترك بها جذع نخلةٍ . . . ولا أطماً إلا مشيراً بجندل

والثاني : أن المشيد الرفيع ، وهو قول قتادة ، ومنه قول عدي بن زيد :

شاده مرمراً وجلله كل . . . ساً فللطير في ذراه وكورُ

والثالث : أن المشيد المجصص ، والشيد الجص ، وهو قول عكرمة ومجاهد ومنه قول الطرماح :

كحية الماء بين الطين والشيد . . . وفي الكلام مضمر محذوف وتقديره : وقصر مشيد مثلها معطل ، وقيل إن القصر والبئر بحضرموت من أرض اليمن معروفان ، وقصرِ مشرف على

قلة جبل ولا يرتقى إليه بحال ، والبئر في سفحه لا تقر الريح شيئاً سقط فيها إلا أخرجته ، وأصحاب القصور ملوك الحضر ، وأصحاب الآبار ملوك البوادي ، أي فأهلكنا هؤلاء وهؤلاء .

قوله عز وجل : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ هذا يدل على أمرين : على أن العقل علم ، ويدل على أن محله القلب .

وفي قوله : ﴿ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ وجهان :

أحدهما : يعملون بها ، لأن الأعين تبصر والقلوب تصير .

﴿ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أي يفقهون بها ما سمعوه من أخبار القرون السالفة .

﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ يحتمل عندي وجهين :

أحدهما : أنها لا تعمى الأبصار عن الهدى ولكن تعمى القلوب عن الاهتداء .

والثاني : فإنها لا تعمى الأبصار عن الاعتبار ولكن تعمى القلوب عن الادّكار .

(210/525)

قال مجاهد : لكل إنسان أربع أعين : عينان في رأسه لدنياه ، وعينان في قلبه لآخرته ، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه لم يضره عماه شيئاً ، وإن أبصرت عينا رأسه

وعميت عينا قلبه لم ينفعه نظره شيئاً .

قال قتادة : نزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم الأعمى وهو عبد الله بن زائدة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ يستبطئون نزوله بهم استهزاء منهم .

﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ ولن يؤخر عذابه عن وقته

. ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أن يوماً من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض كألف سنة ، قاله

مجاهد .

الثاني : أن طول يوم من أيام الآخرة كطول ألف سنة من أيام الدنيا في المدة .

الثالث : أن ألم العذاب في يوم من أيام الآخرة كألف سنة من أيام الدنيا في الشدة وكذلك يوم

النعيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(211/525)

وقال ابن عطية :

﴿ فَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾

﴿ كأين ﴾ هي كاف التشبيه دخلت على " أي " قال سيبويه وقد أوعبت القول في هذه

اللفظة وقراءتها في سورة آل عمران في قوله ﴿ وكأين من نبي قاتل ﴾ [آل عمران : 146] ، وهي لفظة إخبار وقد تجيء استفهاماً ، وحكى الفراء "كأين ما لك" ، وقرأت فرقة " أهلكناها " ، وقرأت فرقة " أهلكتها " ، بالإفراد والمراد أهل القرية و﴿ ظالمة ﴾ معناه بالكفر ، و﴿ خاوية ﴾ ، معناه خالية ومنه خوى النجم اذا خلا من النور ، ونحوه ساقطة ﴿ على عروشها ﴾ ، والعرش السقوف والمعنى أن السقوف سقطت ثم وقعت الحيطان عليها فهي على العروش ، ﴿ وبئر ﴾ ، قيل هو معطوف على " العروش " وقيل على " القرية " وهو أصوب ، وقرأت فرقة " وبيئر " بهمزة وسهلها الجمهور ، وقرأت فرقة " مَعْطَلة " بفتح الميم وسكون العين وفتح الطاء وتخفيفها ، والجمهور على " مُعَطّلة " بضم الميم وفتح العين وشد الطاء ، و" المشيد " المبني بالشيد وهو الجص ، وقيل " المشيد " المعلى بالآجر ونحو : فمن الشيد قول عدي بن زيد :

شاده مرمراً وجلله كلساً . . . فللطير في ذراه وكور

(212/525)

شاد بنى ، بالشيد والأظهر في البيت أنه أراد علاه بالمرمر ، وقالت فرقة في هذه الآية إن ﴿ مشيد ﴾ معناه معلى محصناً ، وجملة معنى الآية تقتضي أنه كان كذلك قبل خرابه ثم

وبخهم على الغفلة وترك الاعتبار بقوله ، ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ أي في البلاد فينظروا في أحوال الأمم المكذبة المعذبة ، وهذه الآية تقتضي أن العقل في القلب وذلك هو الحق ولا ينكر أن للدماغ اتصالاً بالقلب يوجب فساد العقل متى اختل الدماغ ، ﴿ فتكون ﴾ ، نصب بالفاء في جواب الاستفهام صرف الفعل من الجزم إلى النصب ، وقوله ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ﴾ ، لفظ مبالغة كأنه قال : ليس العمى عمى العين وإنما العمى حق العمى عمى القلب ، ومعلوم أن الأبصار تعمى ولكن المقصد ما ذكرناه ، وهذا كقوله عليه السلام ، " ليس الشديد بالصرعة وليس المسكين بهذا الطواف " والضمير في ﴿ فإنها ﴾ للقصة ونحوها من التقدير وقوله ﴿ التي في الصدور ﴾ ، مبالغة كقوله ﴿ يقولون بأفواههم ﴾ [آل عمران : 167] كما تقول : نظرت إليه بعيني ونحو هذا ، والضمير في ﴿ يستعجلونك ﴾ لقريش ، وقوله ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ ، وعد ووعيد وإخبار بأن كل شيء إلى وقت محدود ، و" الوعد " هنا مقيد بالعذاب فلذلك ، ورد في مكروه ، وقوله ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة ﴾ ، قالت فرقة : معناه ﴿ وإن يوماً ﴾ من أيام عذاب الله ﴿ كألف سنة ﴾ مما تعدون من هذه لطول العذاب وبؤسه ، فكأن المعنى فما أجهل من يستعجل هذا وقالت فرقة معناه ﴿ وإن يوماً ﴾ عند الله لإحاطته فيه وعلمه وإنفاذه قدرته ﴿ كألف سنة ﴾ عندكم ع وهذا التأويل يقتضي أن عشرة آلاف سنة وإلى ما لا نهاية له من العدد في حكم الألف ولكنهم قالوا ذكر الألف لأنه منتهى العدد كون تكرار

فاقتصر عليه ع وهذا التأويل لا يناسب الآية ، وقالت فرقة : أن المعنى أن اليوم عند الله كألف سنة من هذا العدد ، من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم

(213/525)

" إني لأرجو أن تؤخر أمتي نصف يوم " ، وقوله " يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم " ذلك خمسمائة سنة ، ومنه قول ابن عباس : مقدار الحساب يوم القيامة ألف سنة فكأن المعنى وإن طال الإمهال فإنه في بعض يوم من أيام الله وكرر قوله ﴿ وكأين ﴾ لأنه جلب معنى آخر ذكر أولاً القرى المهلكة دون إملاء بل بعقب التكذيب ثم ثنى بالمهملة لئلا يفرح هؤلاء بتأخير العذاب عنهم ، وقرأت فرقة " تعدون " بالتاء ، وقرأت فرقة " يعدون " بالياء على الغائب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(214/525)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أهلكتُها ﴾ قرأ أبو عمرو : "أهلكتُها" بالتاء .

والباقون : "أهلكناها" بالنون .

قوله تعالى : ﴿ وبئر معطَّلة ﴾ قرأ ابن كثير ، [وعاصم] ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "وبئر" مهموز .

وروى ورش عن نافع بغير همز ، والمعنى : وكم بئرٍ معطَّلة ، أي : متروكة ﴿ وقصر مَشِيد ﴾ فيه قولان .

أحدهما : مجصَّص ، قاله ابن عباس ، وعكرمة .

قال الزجاج : أصل الشّيد : الجصُّ والنُّورة ، وكل ما بني بهما أو بأحدهما فهو مَشِيد .

والثاني : طويل ، قاله الضحاك ، ومقاتل .

وفي الكلام إِضمار ، تقديره : وقصر مشيد معطَّل أيضاً ليس فيه ساكن .

قوله تعالى : ﴿ أفلم يَسِيروا ﴾ قال المفسرون : أفلم يَسِر قومك في أرض اليمن والشام ﴿ فتكونَ لهم قلوب يَعْقِلون بها ﴾ إِذا نظروا آثار من هلك ﴿ أو آذان يَسْمَعون بها ﴾ أخبار الأمم المكذّبة ﴿ فإِنها لا تعمى الأبصار ﴾ قال الفراء : الهاء في قوله : "فإِنها" عماد ، والمعنى : أن أبصارهم لم تعم ، وإِنما عميت قلوبهم .

وأما قوله : ﴿ التي في الصدور ﴾ فهو توكيد ، لأن القلب لا يكون إِلا في الصدر ، ومثله : ﴿ تلك عَشَرة كاملة ﴾ [البقرة 196] ، ﴿ يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : 38] ، ﴿ يقولون بأفواههم ﴾ [آل عمران 167] .

قوله تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ قال مقاتل : نزلت في النضر بن الحارث القرشي .

وقال غيره : هو قولهم له : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [الملك 25] ونحوه من استعجالهم ، ﴿ ولن يُخْلِف الله وعده ﴾ في إنزال العذاب بهم في الدنيا ، فأنزله بهم يوم بدر ، ﴿ وإِن يوماً عند ربّك ﴾ أي : من أيام الآخرة ﴿ كألف سنة مما تَعُدُّون ﴾ من أيام الدنيا .

قرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "تَعُدُّون" بالتاء .

وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي : "يَعُدُّون" بالياء .

فإن قيل : كيف انصرف الكلام من ذِكْر العذاب إلى قوله : "وإِن يوماً عند ربّك" ؟ فعنه جوابان .

(215/525)

أحدهما : أنهم استعجلوا العذاب في الدنيا ، فقيل لهم : لن يخلف الله وعده في إنزال العذاب بكم في الدنيا ، وإِن يوماً من أيام عذابكم في الآخرة كألف سنة من سنيِّ الدنيا ، فكيف تستعجلون بالعذاب ؟ ! فقد تضمنت الآية وعدهم بعذاب الدنيا والآخرة ، هذا قول الفراء .

والثاني : وإن يوماً عند الله وألف سنة سواء في قدرته على عذابهم ، فلا فرق بين وقوع ما يستعجلونه وبين تأخيره في القدرة ، إلا أن الله تفضَّل عليهم بالإمهال ، هذا قول الزجاج .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(216/525)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ أي أهلكنا أهلها .

وقد مضى في "آل عمران" الكلام في كأين .

﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أي بالكفر .

﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ تقدّم في الكهف .

﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ قال الزجاج : "وبِئرٍ معطلةٍ" معطوف على "مِن قريةٍ" أي ومن أهل قرية ومن أهل بئر .

والفرّاء يذهب إلى أن "وبِئرٍ" معطوف على "عروشِها" .

وقال الأصمعيّ : سألت نافع بن أبي نعيم أيهمز البئر والذئب ؟ فقال : إن كانت العرب تهمزهما فاهمزهما .

وأكثر الرواة عن نافع بهمزهما ؛ إلا وَرْشاً فإن روايته عنه بغير همز فيهما ، والأصل الهمز .

ومعنى "معطلةٍ" متروكة ؛ قاله الضحاك .

وقيل : خالية من أهلها لهلاكهم .

وقيل : غائرة الماء .

وقيل : معطلة من دِلائها وأَرْشِيَتها ؛ والمعنى متقارب .

﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ قال قتادة والضحاك ومقاتل : رفيع طويل .

قال عدِيّ بن زيد :

شاده مَرْمَراً وجَلَّله كِلْ . . .

ساً فللطير في ذُراه وُكور

أي رفعه .

وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومجاهد : مجصّص ؛ من الشِّيد وهو الجصّ .

قال الراجز :

لا تَحْسَبَنِّي وإن كنت امرأ غَمِراً . . .

كحيّة الماء بين الطين والشِّيد

وقال امرؤ القيس :

وَلا أُطُماً إلا مَشيداً بجَنْدَلِ . . .

وقال ابن عباس : "مشِيدٍ" أي حصين ؛ وقاله الكلبيّ .

وهو مَفْعِل بمعنى مفعول كمبيع بمعنى مبيوع .

وقال الجوهريّ : والمشِيد المعمول بالشيد .

والشيد (بالكسر) : كل شيء طلَيت به الحائط من جص أو بلاط ، وبالفتح المصدر .

تقول : شاده يَشِيده شَيْداً جَصّصه .

والمشيَّد (بالتشديد) المطوّل .

وقال الكسائيّ : "المشِيد" للواحد ، من قوله تعالى : "وقصرٍ مَشِيدٍ" والمشيّد للجمع ، من قوله تعالى : ﴿ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : 78] .

وفي الكلام مضمر محذوف تقديره : وقصر مشيد مثلها معطل .

(217/525)

ويقال : إن هذه البئر والقصر بحضرموت معروفان ، فالقصر مشرف على قُلّة جبل لا يرتَقى إليه بحال ، والبئر في سفحة لا تُقِرّ الريح شيئاً سقط فيه إلا أخرجته .

وأصحاب القصور ملوك الحضر ، وأصحاب الآبار ملوك البوادي ؛ أي فأهلكنا هؤلاء وهؤلاء .

وذكر الضحاك وغيره فيما ذكر الثعلبيّ وأبو بكر محمد بن الحسن المقرىء وغيرهما أن البئر الرّس ، وكانت بعدن باليمن بحضرَمَوْت ، في بلد يقال له حَضُوراء ، نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ، ونجوْا من العذاب ومعهم صالح ، فمات صالح فسُمّيَ المكان حضرموت ؛ لأن صالحاً لما حضره مات فبنَوْا حضوراء وقعدوا على هذه البئر ، وأمّروا عليهم رجلاً يقال له العلس بن جلاس بن سويد ، فيما ذكر الغزنويّ .

الثعلبيّ : جلهس بن جلاس .

وكان حسن السيرة فيهم عاملاً عليهم ، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سوادة ، فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا ، وكانت البئر تسقي المدينة كلها وباديتها وجميعَ ما فيها من الدواب والغنم والبقر وغير ذلك ؛ لأنها كانت لها بكرات كثيرة منصوبة عليها ، ورجال كثيرون موكلون بها ، وأبازن (بالنون) من رخام وهي شبه الحياض كثيرة تملأ للناس ، وأُخر للدواب ، وأُخر للبقر ، وأخر للغنم .

والقُوّام يسقون عليها بالليل والنهار يتداولون ، ولم يكن لهم ماء غيرها .

وطال عمر الملك الذي أمّروه ، فلما جاءه الموت طُلِيَ بدهن لتبقى صورته لا تتغير ، وكذلك كانوا يفعلون إذا مات منهم الميت وكان ممن يكرم عليهم .

فلما مات شق ذلك عليهم ورأوا أن أمرهم فسد ، وضجوا جميعاً بالبكاء ، واغتنمها الشيطان منهم فدخل في جثة الملك بعد موته بأيام كثيرة ، فكلمهم وقال : إني لم أمت ولكن

تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم ؛ ففرِحوا أشدّ الفرح وأمر خاصته أن يضربوا له حجاباً بينه وبينهم ويكلمهم من ورائه لئلا يعرف الموت في صورته .

فنصبوا صنماً من وراء الحجاب لا يأكل ولا يشرب .

(218/525)

وأخبرهم أنه لا يموت أبداً وأنه إلهم ؛ فذلك كله يتكلم به الشيطان على لسانه ، فصدّق كثير منهم وارتاب بعضهم ، وكان المؤمن المكذب منهم أقلّ من المصدّق له ، وكلما تكلم ناصح لهم زُجر وقُهر .

فأصفقوا على عبادته ، فبعث الله إليهم نبيًّا كان الوحي ينزل عليه في النوم دون اليقظة ، كان اسمه حنظلة بن صفوان ، فأعلمهم أن الصورة صنم لا روح له ، وأن الشيطان قد أضلهم ، وأن الله لا يتمثل بالخلق ، وأن المِلك لا يجوز أن يكون شريكاً لله ، ووعظهم ونصحهم وحذرهم سطوة ربهم ونقمته ؛ فآذَوه وعادوه وهو يتعهدّهم بالموعظة ولا يُغِبّهم بالنصيحة ، حتى قتلوه في السوق وطرحوه في بئر ؛ فعند ذلك أصابتهم النقمة ، فباتوا شباعاً رُواء من الماء وأصبحوا والبئر قد غار ماؤها وتعطل رِشاؤها ، فصاحوا بأجمعهم وضجّ النساء والولدان ، وضجّت البهائم عطشا ؛ حتى عمّهم الموت وشَمِلهم الهلاك ،

وخَلَفتهم في أرضهم السباع ، وفي منازلهم الثعالب والضباع ، وتبدلت جناتهم وأموالهم بالسِّدر وشَوْك العِضاه والقَتاد ، فلا يسمع فيها إلا عزيف الجن وزئير الأسد ، نعوذ بالله من سَطَواته ، ومن الإصرار على ما يوجب نَقِماته .

قال السُّهيلي .

وأما القصر المشِيد فقصر بناه شدّاد بن عاد بن إرم ، لم يبن في الأرض مثله فيما ذكروا وزعموا وحاله أيضاً كحال هذه البئر المذكورة في إيحاشه بعد الأنيس ، وإقفاره بعد العمران ، وإن أحداً لا يستطيع أن يدنو منه على أميال ؛ لما يسمع فيه من عزيف الجن والأصوات المنكرة بعد النعيم والعيش الرَّغَد وبهاء المُلْك وانتظام الأهل كالسلك فبادوا وما عادوا ؛ فذكّرهم الله تعالى في هذه الآية موعظة وعبرة وتذكرة ، وذكرا وتحذيراً من مَغَبة المعصية وسوء عاقبة المخالفة ؛ نعوذ بالله من ذلك ونستجير به من سوء المآل .

وقيل : إن الذي أهلكهم بختنصّر على ما تقدم في سورة "الأنبياء" في قوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ [الأنبياء : 11] .

(219/525)

فتعطلت بئرهم وخربت قصورهم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرض ﴾ يعني كفار مكة فيشاهدوا هذه القرى فيتّعظوا ، ويحذروا عقاب الله أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم .

﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ أضاف العقل إلى القلب لأنه محله كما أن السمع محله الأذن .

وقد قيل : إن العقل محله الدماغ ؛ وروي عن أبي حنيفة ، وما أراها عنه صحيحة .

﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ﴾ قال الفراء : الهاء عماد ، ويجوز أن يقال فإنه ، وهي قراءة عبد الله بن مسعود ، والمعنى واحد ، التذكير على الخبر ، والتأنيث على الأبصار أو القصة ؛ أي فإن الأبصار لا تعمى ، أو فإن القصة .

﴿ لاَ تَعْمَى الأبصار ﴾ أي أبصار العيون ثابتة لهم .

﴿ ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور ﴾ أي عن درك الحق والاعتبار .

وقال قتادة : البصر الناظر جعل بُلْغة ومنفعة ، والبصر النافع في القلب .

وقال مجاهد : لكن عين أربع أعين ؛ يعني لكل إنسان أربع أعين : عينان في رأسه لدنياه ، وعينان في قلبه لآخرته ؛ فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضرّه عماه شيئاً ، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئاً .

وقال قتادة وابن جُبير : نزلت هذه الآية في ابن أُمّ مَكْتُوم الأعمى .

قال ابن عباس ومقاتل : لما نزل ﴿ وَمَن كَانَ فِي هذه أعمى ﴾ [الإسراء : 72] قال ابن أمّ مكتوم : يا رسول الله ، فأنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى ؟ فنزلت : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور ﴾ .

أي من كان في هذه أعمى بقلبه عن الإسلام فهو في الآخرة في النار .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ نزلت في النضر بن الحارث ، وهو قوله : "فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" .

وقيل : نزلت في أبي جهل بن هشام ، وهو قوله : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ [الأنفال : 32] .

(220/525)

﴿ وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ ﴾ أي في إنزال العذاب .

قال الزجاج : استعجلوا العذاب فأعلمهم الله أنه لا يفوته شيء ؛ وقد نزل بهم في الدنيا يوم بدْر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : يعني من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض .

عكرمة : يعني من أيام الآخرة ؛ أعلمهم الله إذ استعجلوه بالعذاب في أيام قصيرة أنه يأتيهم به في أيام طويلة .

قال الفرّاء : هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم في الآخرة ؛ أيّ يوم من أيام عذابهم في الآخرة ألف سنة .

وقيل : المعنى وإن يوماً في الخوف والشدّة في الآخرة كألف سنة من سنيّ الدنيا فيها خوف وشدة ؛ وكذلك يوم النعيم قياساً .

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي "مِما يعدّون" بالياء المثناة تحت ، واختاره أبو عبيد لقوله : "ويستعجِلونك" .

والباقون بالتاء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ أي أمهلتها مع عتوّها .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ أي بالعذاب .

﴿ وَإِلَيَّ المصير ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(221/525)

وقال أبو حيان :

﴿ فكأين ﴾ للتكثير ، واحتمل أن يكون في موضع رفع على الابتداء وفي موضع نصب على الاشتغال .

وقرأ أبو عمرو وجماعة أهلكتها بتاء المتكلم ، والجمهور بنون العظمة ﴿ وهي ظالمة ﴾ جملة حالية ﴿ فهي خاوية على عروشها ﴾ تقدم تفسير هذه الجملة في البقرة في قوله ﴿ أو كالذي مر على قرية ﴾ وقال الزمخشري : فإن قلت : ما محل الجملتين من الإعراب ؟ أعني ﴿ وهي ظالمة فهي خاوية ﴾ قلت : الأولى في محل نصب على الحال ، والثانية لا محل لها لأنها معطوفة على ﴿ أهلكناها ﴾ وهذا الفعل ليس له محل انتهى .

وهذا الذي قاله ليس بجيد لأن ﴿ فكأين ﴾ الأجود في إعرابها أن تكون مبتدأة والخبر الجملة من قوله ﴿ أهلكناها ﴾ فهي في موضع رفع والمعطوف على الخبر خبر ، فيكون قوله ﴿ فهي خاوية ﴾ في موضع رفع ، لكن يتجه قول الزّمخشري على الوجه القليل وهو إعراب ﴿ فكأين ﴾ منصوباً بإضمار فعل على الاشتغال ، فتكون الجملة من قوله ﴿ أهلكناها ﴾ مفسرة لذلك الفعل ، وعلى هذا لا محل لهذه الجملة المفسرة فالمعطوف عليها لا محل له .

وقرأ الجحدري والحسن وجماعة ﴿ معطلة ﴾ مخففاً يقال : عطلت البئر وأعطلتها فعطلت ، هي بفتح الطاء ، وعطلت المرأة من الحليّ بكسر الطاء .

قال الزمخشري : ومعنى المعطلة أنها عامرة فيها الماء ومعها آلات الاستقاء إلاّ أنها عطلت أي تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها ، والمشيد المجصص أو المرفوع البنيان والمعنى كم قرية أهلكنا ، وكم بئر عطلنا عن سقاتها و﴿ قصر مشيد ﴾ أخليناه عن ساكنيه ، فترك ذلك لدلالة ﴿ معطلة ﴾ عليه انتهى .

(222/525)

﴿ وبئر ﴾ ﴿ وقصر ﴾ معطوفان على ﴿ من قرية ﴾ و﴿ من قرية ﴾ تمييز لكأين ، ﴿ وكأين ﴾ تقتضي التكثير ، فدل ذلك على أنه لا يراد بقربه وبئر وقصر معين ، وإن كان الإهلاك إنما يقع في معين لكن من حيث الوقوع لا من حيث دلالة اللفظ ، وينبغي أن يكون ﴿ بئر ﴾ ﴿ وقصر ﴾ من حيث عطفا على ﴿ من قرية ﴾ أن يكون التقدير أهلكتهما كما كان أهلكتها مخبراً به عن ﴿ كأين ﴾ الذي هو القرية من حيث المعنى .

والمراد أهل القرية والبئر والقصر ، وجعل ﴿ وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ معطوفين على ﴿ عروشها ﴾ جهل بالفصاحة ووصف القصر بمشيد ولم يوصف بمشيد كما في قوله في ﴿ بروج مشيدة ﴾ لأن ذلك جمع ناسب التكثير فيه ، وهذا مفرد وأيضاً ﴿ مشيد ﴾ فاصلة آية .

وقد عين بعض المفسرين هذه البئر .

فعن ابن عباس أنها كانت لأهل عدن من اليمن وهي الرس .

وعن كعب الأحبار أن القصر بناه عاد الثاني وهو منذر بن عاد بن إرم بن عاد .

وعن الضحاك وغيره : أن البئر بحضرموت من أرض الشحر ، والقصر مشرف على قلة جبل لا يرتقى ، والبئر في سفحه لا يقر الريح شيئاً يسقط فيها .

روي أن صالحاً عليه السلام نزل عليها مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله من العذاب .

وهي بحضرموت ، وسميت بذلك لأن صالحاً حين حضرها مات وثم بلدة عند البئر اسمها حاضورا بناها قوم صالح وأمروا عليهم جليس بن جلاس ، وأقاموا بها زمناً ثم كفروا وعبدوا صنماً ، وأرسل إليهم حنظلة بن صفوان ، وقيل : اسمه شريح بن صفوان نبياً فقتلوه في السوق فأهلكهم الله عن آخرهم وعطل بئرهم وخرب قصرهم .

وعن الإمام أبي القاسم الأنصاري أنه قال : رأيت قبر صالح بالشام في بلدة يقال لها عكا فكيف يكون بحضرموت .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾

ولما ذكر تعالى من كذب الرسل من الأمم الخالية وكان عند العرب أشياء من أحوالهم ينقلونها وهم عارفون ببلادهم وكثيراً ما يمرون على كثير منها قال ﴿ أفلم يسيروا ﴾ فاحتمل أن يكون حثاً على السفر ليشاهدوا مصارع الكفار فيعتبروا ، أو يكونوا قد سافروا وشاهدوا فلم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا .

وقرأ مبشر بن عبيد : فيكون بالياء والجمهور بالتاء ﴿ فتكون ﴾ منصوب على جواب الاستفهام قاله ابن عطية ، وعلى جواب التقرير قاله الحوفي .

وقيل : على جواب النفي ، ومذهب البصريين أن النصب بإضمار إن وينسبك منها ومن الفعل مصدر يعطف على مصدر متوهم ، ومذهب الكوفيين أنه منصوب على الصرف إذ معنى الكلام الخبر صرفوه عن الجزم على العطف على ﴿ يسيروا ﴾ ، وموردوه إلى أخي الجزم وهو النصب هذا معنى الصرف عندهم ، ومذهب الجرمي أن النصب بالفاء نفسها وإسناد العقل إلى القلب يدل على أنه محله ، ولا ينكر أن للدفاع بالقلب اتصالاً يقتضي فساد العقل إذا فسد الدماغ ومتعلق ﴿ يعقلون بها ﴾ محذوف أي ما حل بالأمم السابقة حين كذبوا أنبياءهم و ﴿ يعقلون ﴾ ما يجب من التوحيد ، وكذلك مفعول ﴿ يسمعون ﴾ أي يسمعون أخبار تلك الأمم أو ما يجب سماعه من الوحي .

والضمير في ﴿ فإنها ﴾ ضمير القصة وحسن التأنيث هنا ورجحه كون الضمير وليه فعل

بعلامة التأنيث وهي التاء في ﴿ لا تعمى ﴾ ويجوز في الكلام التذكير وقرأ به عبد الله فإنه لا تعمى .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسره ﴿ الأبصار ﴾ وفي ﴿ تعمى ﴾ راجع إليه انتهى .

وما ذكره لا يجوز لأن الذي يفسره ما بعده محصور ، وليس هذا واحداً منها وهو في باب رب وفي باب نعم .

وبئس ، وفي باب الأعمال ، وفي باب البدل ، وفي باب المتبدأ والخبر على خلاف في هذه الأربعة على ما قرر ذلك في أبوابه .

(224/525)

وهذه الخمسة يفسر الضمير فيها المفرد وفي ضمير الشأن ويفسر بالجملة على خلاف فيه أيضاً وهذا الذي ذكره الزمخشري ليس واحداً من هذه الستة فوجب اطّراحه والمعنى أن أبصارهم سالمة لا عمى بها ، وإنما العمى بقلوبهم ، ومعلوم أن الأبصار قد تعمى لكن المنفي فيها ليس العمى الحقيقي وإنما هو ثمرة البصر وهو التأدية إلى الفكرة فيما يشاهد البصر لكن ذلك متوقف على العقل الذي محله القلب ، ووصفت ﴿ القلوب ﴾ بالتي ﴿ في الصدور

﴾ .

قال ابن عطية مبالغة كقوله ﴿ يقولون بأفواههم ﴾ وكما تقول نظرت إليه بعيني .

وقال الزمخشري : الذي قد تعورف واعتقد أن العمى على الحقيقة مكان البصر وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها ، واستعماله في القلب استعارة ومثل ، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف لتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار ، كما تقول : ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك فقولك : الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسانه ، وتثبيت لأن محل المضاء هو هو لا غير وكأنك قلت : ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة ولا سهواً مني ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً انتهى .

وقوله ولكن تعمّدت به إياه بعينه تعمداً فصل الضمير وليس من مواضع فصله ، والصواب ولكن تعمدته به كما تقول السيف ضربتك به ولا تقول : ضربت به إياك ، وفصله في مكان اتصاله عجمة ، وقال أبو عبد الله الرازي : وعندي فيه وجه آخر وهو أن القلب قد يجعل كناية عن الخاطر ، والتدبير كقوله تعالى ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ وعند قوم أن محل الفكر هو الدماغ فالله تعالى بين أن محل ذلك هو الصدر .

والضمير في ﴿ ويستعجلونك ﴾ لقريش ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يحذرهم نقمات الله ويوعدهم بذلك دنيا وآخرة وهم لا يصدقون بذلك ويستبعدون وقوعه ، فكان استعجالهم على سبيل الاستهزاء وأن ما توعدتنا به لا يقع وإنه لا بعث وفي قوله ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ أي إن ذلك واقع لا محالة ، لكن لوقوعه أجل لا يتعداه .

وأضاف الوعد إليه تعالى لأن رسوله عليه الصلاة والسلام هو المخبر به عن الله تعالى .

وقال الزمخشري : أنكر استعجالهم بالمتوعد به من العذاب العاجل والآجل ، كأنه قال : ولم يستعجلون به كأنهم يجوّزون الفوت وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف والله عز وعلا لا يخلف الميعاد ، وما وعده ليصيبهم ولو بعد حين وهو سبحانه حليم لا يعجل انتهى .

وفي قوله وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف دسيسة الاعتزال .

وقيل : ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ في النظرة والإمهال واختلفوا في هذا التشبه .

فقيل : في العدد أي اليوم عند الله ألف سنة من عددكم .

وفي الحديث الصحيح : " يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وذلك خمسمائة عام " فالمعنى وإن طال الإمهال فإنه في بعض يوم من أيام الله .

وقيل : التشبيه وقع في الطول للعذاب فيه ، والشدة أي ﴿ وإن يوماً ﴾ من أيام عذاب الله

لشدة العذاب فيه وطوله ﴿ كألف سنة ﴾ من عددكم إذ أيام الترحة مستطالة وأيام الفرحة مستقصرة ، وكان ذلك اليوم الواحد كألف سنة من سني العذاب والمعنى أنهم لو عرفوا حال الآخرة ما استعجلوه وهذا القول قريب من قول أبي مسلم .

وقيل : التشبيه بالنسبة إلى علمه تعالى وقدرته وإنفاذ ما يريد ﴿ كألف سنة ﴾ واقتصر على ألف سنة وإن كان اليوم عنده كما لا نهاية له من العدد لكون الألف منتهى العدد دون تكرار ، وهذا القول لا يناسب مورد الآية إلاّ إن أريد أنه القادر الذي لا يعجزه شيء ، فإذا لم يستبعدوا إمهال يوم فلا يستبعدوا أيضاً إمهال ألف سنة .

(226/525)

وقال ابن عباس : أراد باليوم من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض .

وقال ابن عيسى يجمع لهم عذاب ألف سنة في يوم واحد ، ولأهل الجنة سرور ألف سنة في يوم واحد .

وقال الفراء : تضمنت الآية عذاب الدنيا والآخرة ، وأريد العذاب في الدنيا أي ﴿ لن يخلف الله وعده ﴾ في إنزال العذاب بكم في الدنيا ، ﴿ وإن يوماً ﴾ من أيام عذابكم في الآخرة ﴿ كألف سنة ﴾ من سني الدنيا فكيف تستعجلون العذاب .

وقال الزجاج : تفضل تعالى عليهم بالإمهال والمعنى أن اليوم عند الله والألف سواء في قدرته بين ما استعجلوا به وبين تأخره .

وقرأ الأخوان وابن كثير يعدون بياء الغيبة ، وباقي السبعة بتاء الخطاب وعطفت ﴿ فكأين ﴾ الأولى بالفاء وهذه الثانية بالواو .

وقال الزمخشري : الأولى وقعت بدلاً عن قوله ﴿ فكيف كان نكير ﴾ وما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو أعني قوله ﴿ لن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة ﴾ وتكرر التكثير بكائن في القرى لإفادة معنى غير ما جاءت له الأولى لأنه ذكر فيها القرى التي أهلكها دون إملاء وتأخير ، بل أعقب الإهلاك التذكير وهذه الآية لما كان تعالى قد أمهل قريشاً حتى استعجلت بالعذاب جاءت بالإهلاك بعد الإملاء تنبيهاً على أن قريشاً وإن أملى تعالى لهم وأمهلهم فإنه لا بد من عذابهم فلا يفرحوا بتأخير العذاب عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(227/525)

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾

منصوبٌ بمضمر يفسّرُه قوله تعالى : ﴿ أهلكناها ﴾ أي فأهلكنا كثيراً من القُرى بإهلاك أهلها . والجملةُ بدلٌ من قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أو مرفوعٌ على الابتداءِ وأهلكنا خبرُهُ أي فكثيرٌ من القُرى أهلكناها . وقُرىء أهلكتُها على وفق قوله تعالى : ﴿ فَأَمْلَيْتُ للكافرين ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ ﴿ وَهِىَ ظالمة ﴾ جملة حاليَّةٌ من مفعول أهلكنا . وقوله تعالى : ﴿ فَهِىَ خَاوِيَةٌ ﴾ عطفٌ على أهلكناها لا على (وهي ظالمةٌ) لأنَّها حالٌ والإهلاك ليس في حالِ خوائها فعلى الأوَّلِ لا محلَّ له من الإعرابِ كالمعطوف عليه وعلى الثَّاني في محلِّ الرَّفعِ لعطفه على الخبرِ والخَوَاءُ إمَّا بمعنى السُّقوطِ من خَوَى النَّجمُ إذ سقطَ فالمعنى فهي ساقطةٌ حيطانُها ﴿ على عُرُوشِهَا ﴾ أي سُقوفِها بأنْ تعطَّل بنيانُها فخرَّتْ سقوفُها ثم تهدَّمتْ حيطانُها فسقطتْ فوق السُّقوفِ .

(228/525)

وإسنادُ السُّقوطِ على العُروش إليها لتنزيلِ الحيطانِ منزلةَ كلِّ البنيانِ لكونها عمدةً فيه وإمَّا بمعنى الخُلوِّ من خَوَى المنزلُ إذا خَلاَ من أهله فالمعنى فهي خاليةٌ مع بقاءِ عُروشها وسلامتها فتكونُ على بمعنى معَ ويجوزأنْ يكون على عُروشها خبراً بعد خبرٍ أي فهي على عُروشها أي قائمةٌ مشرفةٌ على عروشِها على معنى أنَّ السُّقوفَ سقطتْ إلى الأرضِ

وبقيتْ الحيطانُ قائمةً فهي مشرفة على السُّقوفِ السَّاقطةِ . وإسنادُ الإشرافِ إلى الكلِّ مع كونِه حال الحيطانِ لما مرَّ آنفاً ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ عطفٌ على قريةٍ أي وكم بئرٍ عامرةٍ في البوادي تُركت لا يُستقى منها لهلاكِ أهلِها . وقُرِىء بالتَّخفيفِ من أعطلَه بمعنى عطَّله ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ مرفوعِ البنيانِ أو مجصَّصٍ أخليناهُ عن ساكنيهِ وهذا يؤيِّد كونَ معنى (خاويةٌ على عروشِها) خاليةً مع بقاء عروشِها ، وقيل : المراد بالبئرِ بئرٌ بسفحِ جبلٍ بحضْرَموت وبالقصرِ قصرٌ مشرفٌ على قُلَّتِه كانا لقومِ حنظلةَ بنِ صفوانَ من بقايا قومِ صالحٍ فلما قتلُوه أهلكَهم الله تعالى وعطَّلهما .

(229/525)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ ﴾ حثٌّ لهم أن يُسافروا ليرَوا مصارعَ المهلَكين فيعتبروا وهمُ وإنْ كانُوا قد سافروا فيها ولكنَّهم حيث لم يُسافروا للاعتبارِ جُعلوا غيرَ مسافرين فحثُّوا على ذلك . والفاءُ لعطفِ ما بعدها على مقدَّرٍ يقتضيه أي أغفِلُوا فلم يسيروا فيها ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ ﴾ بسبب ما شاهدُوه من موادِّ الاعتبار ومظانِّ الاستبصار ﴿ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ يجب أنْ يُعقل من التَّوحيدِ ﴿ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ ما يجبُ أنْ يُسمع من الوحيِ أو من أخبارِ الأُممِ المُهلَكة ممَّن يُجاورهم من النَّاسِ فإنَّهم أعرف منهم بحالِهم ﴿ فَإِنَّهَا لاَ

تَعْمَى الأبصار ﴾ الضَّميرُ للقصَّةِ أو مبهمٌ يفسّرُه الأبصارُ . وفي تعمى ضمير راجعٌ إليه وقد أقيم الظَّاهرُ مُقامَه ﴿ ولكن تعمى القلوب التى فِى الصدور ﴾ أي ليس الخللُ في مشاعرِهم وإنَّما هو في عقولِهم باتّباع الهَوَى والانهماكِ في الغَفْلَةِ . وذكر الصُّدورِ للتَّأكيدِ ونفيِ تَوهُّمِ التَّجوزِ وفضل التَّنبيه على أنَّ العَمَى الحقيقيَّ ليس المتعارف الذي يختصُّ بالبصر ، قيل : لمَّا نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هذه أعمى ﴾ قال ابنُ أُمِّ مكتومٍ : يا رسولَ الله ، أنا في الدُّنيا أعمى أفأكونُ في الآخرةِ أعمى ؟

(230/525)

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ كانوا منكرين لمجيءِ العذابِ المتوعَّدِ به أشدَّ الإنكارِ وإنَّما كانوا يستعجلون به استهزاءً برسولِ الله صلى الله عليه وسلم وتعجيزاً له على زعمِهم فحَكَى عنهم ذلك بطريقِ التَّخطئةِ والاستنكارِ فقوله تعالى : ﴿ وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ ﴾ إمَّا جملةٌ حاليَّةٌ جيء بها لبيانِ بُطلانِ إنكارِهم لمجيئه في ضمن استعجالِهم به وإظهار خطئِهم فيه كأنَّه قيل : كيف يُنكرون مجيءَ العذابِ الموعود والحالُ أنَّه تعالى لا يُخلف وعدَه أبداً وقد سبق الوعدُ فلابُدَّ من مجيئِه حتماً أو اعتراضيةٌ مبنيَّةٌ لما ذُكر . وقولُه تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ جملة مستأنفة إنْ كانت الأُولى حاليَّةً

ومعطوفةٌ عليها إنْ كانتْ اعتراضيةً سيقت لبيان خطئِهم في الاستعجال المذكورِ ببيان كمال سَعةِ ساحةِ حلمه تعالى ووقاره وإظهار غاية ضيق عطنِهم المستتبع لكون المُدّة القصيرةِ عنده تعالى مُدداً طوالاً عندهم حسبما ينطقُ به قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ ولذلك يرَون مجيئَه بعيداً ويتَّخذونه ذريعةً إلى إنكاره ويجترئون على الاستعجالِ به ولا يدرون أنَّ معيار تقدير الأمور كلِّها وقوعاً وأخباراً ما عنده تعالى من المقدار . وقراءة يعدّون على صيغة الغَيبة أي يعده المستعجلون أوفقُ لهذا المعنى وقد جعل الخطابُ في القراءةِ المشهورة لهم أيضاً بطريقِ الالتفاتِ لكن الظَّاهرُ أنَّه للرسولِ عليه السَّلامُ ومن معه من المؤمنينَ ، وقيل : المرادُ بوعدِه تعالى ما جعل لهلاك كلِّ أُمَّةٍ من موعد معيَّنٍ وأجل مسمَّى كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءهُمُ العذاب ﴾

(231/525)

فتكون الجملةُ الأُولى حالية كانتْ أو اعتراضيةً مبيّنة لبطلانِ الاستعجالِ به ببيان استحالةِ مجيئِه قبل وقته الموعود والجملةُ الأخيرةُ بياناً لبطلانه ببيانِ ابتناء على استطالةِ ما هو قصير عنده تعالى على الوجهِ الذي مرَّ بيانُه فلا يكون في النَّظمِ الكريمِ حينئذٍ تعرُّضٌ لإنكارِهم

الذي دسُّوه تحت الاستعجال بل يكون الجوابُ مبنيًّا على ظاهر مقالِهم ويكتفى في ردِّ إنكارِهم ببيان عاقبةِ من قبلهم من أمثالِهم . هذا وحملُ المستعجَلِ به على عذاب الآخرة وجعلُ اليَومِ عبارةً عن يوم العذابِ المستطال لشدَّتِه أو عن أيام الآخرةِ الطَّويلةِ حقيقةً أو المُستطالة لشدَّةِ عذابها ممَّا لا يُساعده سباقُ النَّظمِ الجليلِ ولا سياقُه فإنَّ كُلاًّ منهما ناطقٌ بأنَّ المرادَ هو العذابُ الدُّنيويُّ وأن الزَّمانَ الممتدَّ هو الذي مرَّ عليهم قبل حلولِه بطريق الإملالِ لا الزَّمانُ المقارن له ألا يُرَى إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ الخ ، فإنه كما سلف من قوله تعالى : ﴿ فَأَمْلَيْتُ للكافرين ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ صريحٌ في أنَّ المراد هو الأخذُ العاجلُ الشَّديدُ بعد الإملاء المديدِ أي وكم من أهلِ قريةٍ فحُذف المضافُ وأُقيم المضافُ إليه مُقامَه في الإعرابِ ورجع الضَّمائرِ والأحكامِ مبالغةً في التَّعميمِ والتَّهويلِ ﴿ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ كما أمليتُ لهؤلاء حتَّى أنكرُوا مجيء ما وُعدوا من العذابِ واستعجلُوا به استهزاءً برسلِهم كما فعلَ هؤلاءِ ﴿ وَهِىَ ظالمة ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ مفيدةٌ لكمال حلمِه تعالى ومشعرةٌ بطريق التَّعريضِ بظلم المستعجلينَ أي أمليتُ لها والحالُ أنَّها ظالمةٌ مستوجبةٌ لتعجيل العقوبةِ كدأبِ هؤلاءِ ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ بالعذاب والنَّكالِ بعد طول الإملاءِ والإمهالِ وقولُه تعالى : ﴿ وَإِلَىَّ المصير ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لما قبله ومصرِّحٌ بما أفاده ذلك بطريقِ التَّعريضِ من أنَّ مالَ

أمر المُستعجلين أيضاً ما ذُكر من الأخذِ الوبيلِ أي إلى حُكمي مرجعُ الكُلِّ جميعاً لا إلى أحدٍ غيري لا استقلالاً ولا شركة فأفعل مُمَّا يليقُ بأعمالِهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(233/525)

وقال الآلوسى :

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾

منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى : ﴿ أهلكناها ﴾ أي فأهلكنا كثيراً من القرى أهلكناها ، والجملة بدل من قوله سبحانه ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج : 44] أو مرفوع على الابتداء وجملة ﴿ أهلكناها ﴾ خبره أي فكثير من القرى أهلكناها ، واختار هذا أبو حيان قال : الأجود في إعراب ﴿ كأين ﴾ أن تكون مبتدأ وكونها منصوبة بفعل مضمر قليل .

وقرأ أبو عمرو .

وجماعة ﴿ أهلكتها ﴾ بتاء المتكلم على وفق ﴿ موسى فَأَمْلَيْتُ للكافرين ثم أخذتهم ﴾ [الحج : 44] ونسبة الإهلاك إلى القرى مجازية والمراد إهلاك أهلها ، ويجوز أن يكون الكلام بتقدير مضاف ، وقيل : الإهلاك استعارة لعدم الانتفاع بها بإهلاك أهلها ، وقوله تعالى : ﴿ وَهِيَ ظالمة ﴾ جملة حالية من مفعول أهلكنا ، وقوله تعالى : ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ عطف على ﴿ أهلكناها ﴾ فلا محل له من الإعراب أو محله الرفع كالمعطوف عليه ، ويجوز عطفه على جملة ﴿ كأين ﴾ الخ الاسمية واختاره بعضهم لقضية التشاكل ، والفاء غير مانعة بناء على ترتب الخواء على الإهلاك لأنه على نحو زيد أبوك فهو عطوف عليك ، وجوز عطفه على الجملة الحالية ، واعترض بأن خواءها ليس في حال إهلاك أهلها بل بعده ، وأجيب بأنها حال مقدرة ويصح عطفها على الحال المقارنة أو يقال هي حال مقارنة أيضاً بأن يكون إهلاك الأهل بخوائها عليهم ، ولا يخفى أن كلا الجوابين خلاف الظاهر ، والخوار إما بمعنى السقوط من خوى النجم إذا سقط ، وقوله تعالى : ﴿ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ متعلق به ، والمراد بالعروش السقوف ، والمعنى فهي ساقطة حيطانها على سقوفها بأن تعطل بنيانها فخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف ، وإسناد

السقوط على العروش إليها لتنزيل الحيطان منزلة كل البنيان لكونها عمدة فيه ، وإما بمعنى الخلو من خوت الدار تخوى خواء إذا خلت من أهلها ، ويقال : خوى البطن يخوي خوى إذا خلا من الطعام ، وجعل الراغب أصل معنى الخواء هذا وجعل خوى النجم من ذلك فقال : يقال خوى النجم وأخوى إذا لم يكن منه عند سقوطه مطر تشبيهاً بذلك فقوله تعالى : ﴿ على عُرُوشِهَا ﴾ إما متعلق به أو متعلق بمحذوف وقع حالاً ، و ﴿ على ﴾ بمعنى مع أي فهي خالية مع بقاء عروشها وسلامتها ، ويجوز على تفسير الخواء بالخلو أن يكون ﴿ على عُرُوشِهَا ﴾ خبراً بعد خبر أي فهي خالية وهي على عروشها أي قائمة مشرفة على عروشها

(235/525)

على أن السقوف سقطت إلى الأرض وبقيت الحيطان قائمة وهي مشرفة على السقوف الساقطة ، وإسناد الإشراف إلى الكل مع كونه حال الحيطان لما مر آنفاً ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ عطف على ﴿ قَرْيَةٌ ﴾ والبئر من بأرت أي حفرت وهي مؤنثة على وزن فعل بمعنى مفعول وقد تذكر على معنى القليب وتجمع على أبار وآبار وأبؤر وآبر وبيار ، وتعطيل الشيء إبطال منافعه أي وكم بئر عامرة في البوادي تركت لا يسقى منها لهلاك أهلها .

وقرأ الجحدري .

والحسن .

وجماعة ﴿ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ بها لتخفيف من أعطله بمعنى عطله .

﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ عطف على ما تقدم أيضاً أي وكم قصر مرفوع البنيان أو مبنى بالشيد بالكسر أي الجص أخليناه عن ساكنيه كما يشعر به السياق ووصف البئر بمعطلة قيل ، وهذا يؤيد كون معنى ﴿ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ خالية مع بقاء عروشها ، وفي "البحر" ينبغي أن يكون ﴿ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ ﴾ من حيث عطفهما على ﴿ قَرْيَةٌ ﴾ داخلين معها في حيز الإهلاك مخبراً به عنهما بضرب من التجوز أي وكم بئر معطلة وقصر مشيد أهلكنا أهلهما .

وزعم بعضهم عطفهما على ﴿ عُرُوشِهَا ﴾ وليس بشيء ، وظاهر التنكير فيهما عدم إرادة معين منهما ، وعن ابن عباس أن البئر كانت لأهل عدن من اليمن وهي الرس ، وعن كعب الأحبار أن القصر بناه عاد الثاني .

وعن الضحاك .

وغيره أن القصر على قلة جبل بحضرموت والبئر بسفحه وأن صالحاً عليه السلام نزل عليها مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله تعالى من العذاب ، وسميت حضرموت بفتح الراء والميم ويضمان ويبني ويضاف لأن صالحاً عليه السلام حين حضرها مات ، وعند البئر

بلدة اسمها حاضورا بناها قوم صالح وأمروا عليها جلهس بن جلاس وأقاموا بها زماناً ثم كفروا وعبدوا صنماً وأرسل الله تعالى إليهم حنظلة بن صفوان نبياً فقتلوه في السوق فأهلكهم الله تعالى عن آخرهم وعطل سبحانه بئرهم وقصرهم .

وجوز أن يكون إرادة ذلك بطريق التعريض وفيه بعد .

(236/525)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ حث لهم على السفر للنظر والاعتبار بمصارع الهالكين هذا إن كانوا لم يسافروا وإن كانوا سافروا فهو حث على النظر والاعتبار ، وذكر المسير لتوقفه عليه ، وجوز أن يكون الاستفهام للإنكار أو التقرير ، وأياً ما كان فالعطف على مقدر يقتضيه المقام ، وقوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ ﴾ منصوب في جواب الاستفهام عند ابن عطية .

وفي جواب التقرير عند الحوفي وفي جواب النفي عند بعض ، ومذهب البصريين أن النصب بإضمار أن وينسبك منها ومن الفعل مصدر يعطف على مصدر متوهم .

ومذهب الكوفيين أنه منصوب على الصرف إذ معنى الكلام الخبر صرفوه عن الجزم على العطف على ﴿ يَسِيرُواْ ﴾ وردوه إلى أخي الجزم وهو النصب وهو كما ترى .

ومذهب الجرمي أن النصب بالفاء نفسها .

وقرأ مبشر بن عبيد ﴿ فَيَكُونُ ﴾ بالياء التحيتية ﴿ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ أي يعلمون بها ما يجب أن يعلم من التوحيد فمفعول ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ محذوف لدلالة المقام عليه ، وكذا يقال في قوله تعالى : ﴿ أَوْ ءاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أي يسمعون بها ما يجب أن يسمع من الوحي أو من أخبار الأمم المهلكة ممن يجاورهم من الناس فإنهم أعرف منهم بحالهم ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فِى الصدور ﴾ ضمير ﴿ فَإِنَّهَا ﴾ للقصة فهو مفسر بالجملة بعده ، ويجوز في مثله التذكير باعتبار الشان ، وعلى ذلك قراءة عبد الله ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ وحسن التأنيث هنا وقوع ما فيه تأنيث بعده ، وقيل : يجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً بالإبصار ، وكان الأصل فإنها الأبصار لا تعمى على أن جملة ﴿ لاَ تَعْمَى ﴾ من الفعل والفاعل المستتر خبر بعد خبر فلما ترك الخبر الأول أقيم الظاهر مقام الضمير لعدم ما يرجع إليه ظاهراً فصار فاعلاً مفسراً للضمير .

(237/525)

واعترضه أبو حيان بأنه لا يجوز لأن الضمير المفسر بمفرد بعده محصور في أمور وهي باب رب وباب نعم وبئس وباب الأعمال وباب البدل وباب المبتدا والخبر وما هنا ليس منها .

ورد بأنه من باب المبتدا والخبر نحو ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ [الأنعام : 29] ولا يضره دخول الناسخ ، وفيه نظر ، والمعنى أنه لا يعتد بعمى الأبصار وإنما يعتد بعمى القلوب فكأن عمى الأبصار ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب ، فالكلام تذييل لتهويل ما بهم من عدم فقه القلب وأنه العمى الذي لا عمى بعده بل لا عمى إلا هو أو المعنى إن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها وإنما العمى بقلوبهم فكأنه قيل : أفلم يسيروا فتكون لهم قلوب ذات بصائر فإن الآفة ببصائر قلوبهم لا بأبصار عيونهم وهي الآفة التي كل آفة دونها كأنه يحثهم على إزالة المرض وينعي عليهم تقاعدهم عنها ، ووصف القلوب بالتي في الصدور على ما قال الزجاج للتأكيد كما في قوله تعالى :

﴿ يَقُولُونَ بأفواههم ﴾ [آل عمران : 167] وقولك : نظرت بعيني .

وقال الزمخشري : قد تعورف واعتقد أن العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب استعارة ومثل فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار كما تقول : ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك وهو في حكم قولك : ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة ولا سهواً مني ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً .

وهذه الآية على ما قيل نزلت في ابن أم مكتوم حين سمع قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هذه أعمى فَهُوَ فِى الآخرة أعمى ﴾ [الإسراء : 72] فقال : يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى ؟ وربما يرجح بهذه الرواية إن صحت المعنى الأول إذ حصول الجواب بالآية عليه ظاهر جداً فكأنه قيل له : أنت لا تدخل تحت عموم ﴿ وَمَن كَانَ ﴾ الخ لأن عمى الأبصار في الدنيا ليس بعمى في الحقيقة في جنب عمى القلوب والذي يدخل تحت عموم ذلك من اتصف بعمى القلب ، وهذا يكفي في الجواب سواء كان معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِى هذه أعمى فَهُوَ فِى الآخرة أعمى ﴾ ومن كان في الدنيا أعمى القلب فهو في الآخرة كذلك أو ومن كان في الدنيا أعمى للقلب فهو في الآخرة أعمى البصر لأنه فيها تبلى السرائر فيظهر عمى القلب بصورة عمى البصر ، نعم في صحة الرواية نظر .

وفي "الدر المنثور" أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في هذه الآية : ذكر لنا أنها نزلت في عبد الله بن زائدة يعني ابن أم مكتوم ، ولا يخفى حكم الخبر إذا روى هكذا .

واستدل بقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾ الخ على استحباب السياحة في الأرض وتطلب الآثار .

وقد أخرج ابن أبي حاتم في كتاب التفكر عن مالك بن دينار قال : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن اتخذ نعلين من حديد وعصا ثم سح في الأرض فاطلب الآثار

والعبر حتى تحفى النعلان وتنكسر العصا ، وبقوله تعالى : ﴿ فَتَكُونُ ﴾ الخ على أن محل العقل القلب لا الرأس ، قاله الجلال السيوطي في أحكام القرآن العظيم .

(239/525)

وقال الإمام الرازي : في الآية دلالة على أن العقل هو العلم وعلى أن محله هو القلب ، وأنت تعلم أن كون العقل هو العلم هو اختيار أبي إسحاق الاسفرائيني واستدل عليه بأنه يقال لمن عقل شيئاً علمه ولمن علم شيئاً عقله ، وعلى تقدير التغاير لا يقال ذلك وهو غير سديد لأنه إن أريد بالعلم كل علم يلزم منه أن لا يكون عاقلاً من فاته بعض العلوم مع كونه محصلاً لما عداه وإن أريد بعض العلوم فالتعريف غير حاصل لعدم التمييز وما ذكر من الاستدلال غير صحيح لجواز أن يكون العلم مغايراً للعقل وهما متلازمان .

وقال الأشعري : لا فرق بين العقل والعلم إلا في العموم والخصوص والعلم أعم من العقل فالعقل إذاً علم مخصوص فقيل : هو العلم الصارف عن القبيح الداعي إلى الحسن وهو قول الجبائي ، وقيل : هو العلم بخير الخيرين وشر الشرين وهو قول لبعض المعتزلة أيضاً ولهم أقوال أخر ، والذي اختاره القاضي أبو بكر أنه بعض العلوم الضرورية كالعلم باستحالة اجتماع الضدين وأنه لا واسطة بين النفي والإثبات وأن الموجود لا يخرج عن أن يكون قديماً أو

حادثاً ونحو ذلك .

واحتج إمام الحرمين على صحة ذلك وإبطال ما عداه بما ذكره الآمدي في ابكار الأفكار بما له وعليه .

واختار المحاسبي عليه الرحمة أنه غزيرة يتوصل بها إلى المعرفة ، ورد بأنه إن أراد بالغريزة العلم لزمه ما لزم القائل بأنه العلم وإن أراد بها غير العلم فقد لا يسلم وجود أمر وراء العلم يتوصل به إلى المعرفة .

(240/525)

وقال صاحب القاموس بعد نقل عدة أقوال في العقل : والحق أنه نور روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية ، ولعنا نحقق ذلك في موضع آخر إن شاء الله تعالى ، ثم ان في محلية القلب للعلم خلافاً بين العقلاء فالمشهور عن الفلاسفة أن محل العلم المتعلق بالكليات والجزئيات المجردة النفس الناطقة ومحل العلم المتعلق بالجزئيات المادية قوى جسمانية قائمة بأجزاء خاصة من البدن وهي منقسمة إلى خمس ظاهرة وخمس باطنة وتسمى الأولى الحواس الظاهرة والثانية الحواس الباطنة وأمر كل مشهور .

وزعم بعض متفلسفة المتأخرين أن المدرك للكليات والجزئيات إنما هو النفس والقوى مطلقاً

غير مدركة بل آلة في إدراك النفس وذهب إليه بعض منا .

وفي أباكر الأفكار بعد نقل قولي الفلاسفة وأما أصحابنا فالبنية المخصوصة غير مشترطة عندهم بل كل جزء من أجزاء بدن الإنسان إذا قام به إدراك وعلم فهو مدرك عالم ، وكون ذلك هما يقوم بالقلب أو غيره مما لا يجب عقلا ولا يمتنع لكن دل الشرع على القيام بالقلب لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق : 37] وقوله سبحانه : ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ وقوله عز وجل ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : 24] انتهى ، ولا يخفى أن الاستدلال بما ذكر على محلية القلب للعلم لا يخلو عن شيء ، نعم لا ينكر دلالة الآيات على أن للقلب الإنساني لما أودع فيه مدخلاً تاماً في الإدراك ، والوجدان يشهد بمدخلية ما أودع في الدماغ في ذلك أيضاً ، ومن هنا لا أرى للقول بأن لأحدهما مدخلاً دون الآخر وجهاً ، وكون الإنسان قد يضرب على رأسه فيذهب عقله لا يدل على أن لما أودع في الدماغ لا غير مدخلاً في العلم كما لا يخفى على من له قلب سليم وذهن مستقيم فتأمل .

(241/525)

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ الضمير لقريش كان صلى الله عليه وسلم يحذرهم عذاب الله تعالى ويوعدهم ميجئه وهم ينكرون ذلك أشد الإنكار ويطلبون مجيئه استهزاء وتعجيزاً له صلى الله عليه وسلم فانكر عليهم ذلك ، فالجملة خبر لفظاً واستفهام وإنشاء معنى ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ ﴾ جملة حالية جيء بها لبيان بطلان إنكارهم العذاب في ضمن استعجالهم به كأنه قيل : كيف تنكرون مجيء العذاب الموعود والحال أنه تعالى لا يخلف وعده ، وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئة أو اعتراضية لما ذكر أيضاً ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ جملة مستأنفة إن كانت الأولى حالية ومعطوفة عليها إن كانت اعتراضية سيقت لتحقيق إنكار الاستعجال وبيان خطئهم فيه ببيان كمال سعة ساحة حلمه تعالى وءظهار غاية ضيق عطنهم المستتبع لكون المدة القصيرة عنده تعالى مدداً طوالاً عندهم حسبما ينطق به قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [المعارج : 6 ، 7] ولذا يرون مجيئه بعيداً ويتخذونه ذريعة إلى إنكاره ويجترؤون على الاستعجال به ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها وقوعاً وأخباراً ما عنده من المقدار .

وقراءة الأخوين .

وابن كثير ﴿ يَعْدُونَ ﴾ على صيغة الغيبة أي يعده المستعجلون أوفق لهذا المعنى ، وقد جعل الخطاب في قراءة الجمهور لهم أيضاً بطريق الالتفات لكن الظاهر أنه للرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين ، وقيل : المراد بوعده تعالى ما جعل لهلاك كل أمة من موعد معين وأجل مسمى كما في قوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءهُمُ العذاب ﴾ [العنكبوت : 53] فتكون الجملة الأولى مطلقاً مبينة لبطلان الاستعجال به ببيان استحالة مجيئه قبل وقته الموعود ، والجملة الأخيرة بيان لبطلانه ببيان ابتنائه على استطالة ما هو قصير عنده تعالى على الوجه المار بيانه ، وحينئذ لا يكون في النظم الكريم تعرض لانكارهم مجيئه الذي دسوه تحت الاستعجال ، ويكتفي في رد ذلك ببيان عاقبة من قبلهم من أمثالهم ، وأياً ما كان فالعذاب المستعجل به العذاب الدنيوي وهو الذي يقتضيه السباق والسياق .

وقيل : المراد بالعذاب العذاب الأخروي والمراد باليوم المذكور يوم ذلك العذاب واستطالته لشدته فإن أيام الترحة مستطالة وأيام الفرحة مستقصرة كما قيل :

تمتع بايام السرور فإنها . . .

قصار وأيام الهموم طوال

وعلى ذلك جاء قوله :

ليلى وليلى نفي نومي اختلافهما . . .

بالطول والطول يا طوبى لو اعتدلا

يجود بالطول ليلى كلما بخلت . . .

بالطول ليلى وأن جادت به بخلا

فيكون قد رد عليهم إنكار مجيء العذاب بالجملة الأولى وأنكر عليهم الاستعجال به وإن كان ذلك على وجه الاستهزاء بالجملة الثانية فكأنه قيل : كيف تنكرون مجيئه وقد سبق به الوعد ولن يخلف الله تعالى وعده فلا بد من مجيئه حتماً وكيف تستعجلون به واليوم الواحد من أيامه لشدته يرى كألف سنة مما تعدون ، ويقال نحو ذلك على القول بأن المراد باليوم أحد أيام الآخرة فإنها اعتبرت طوالاً أو أنها تستطال لشدة عذابها .

(243/525)

واعترض بأن ذلك مما لا يساعده السباق ولا السياق ، وقال الفراء : تضمنت الآية عذاب الدنيا والآخرة وأريد بالعذاب المستعجل به عذاب الدنيا أي لن يخلف الله تعالى وعده في إنزال العذاب بكم في الدنيا وإن يوماً من أيام عذابكم في الآخرة كألف سنة من سني الدنيا ، ولا يخلو عن حسن إلا أن فيه بعدا كما لا يخفى .

واستدل المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ لَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ على أن الله سبحانه لا يغفر للعصاة لأن الوعد فيه بمعنى الوعيد وقد أخبر سبحانه أنه لا يخلفه والمغفرة تستلزم الخلف المستلزم للكذب المحال عليه تعالى .

وأجاب أهل السنة بأن وعيدات سائر العصاة إنشاءات أو اخبارات عن استحقاقهم ما أوعدوا به لا عن إيقاعه أو هي إخبارات عن إيقاعه مشروطة بعدم العفو وترك التصريح بالشرط بزيادة الترعيب ولا كذلك وعيدات الكفار فإنها محض اخبارات عن الإيقاع غير مشروطة بشرط أصلاً كمواعيد المؤمنين ، والداعي للتفرقة الجمع بين الآيات ، وأنت تعلم أن ظاهر هذا أن وعيدات الكفار بالعذاب الدنيوي كوعيداتهم بالعذاب الأخروي لا يتطرقها عدم الوقوع فلا يجوز العفو عن عذابهم مطلقاً متى وعد به ، وعندي في التسوية بين الأمرين تردد ، ويعلم من ذلك حال هذا الجواب على تقدير حمل العذاب في الآية على العذاب الدنيوي الأوفق للمقام والوعد على الوعد به .

وأجاب بعضهم هنا بأن المراد بالوعد وعده تعالى بالنظرة والامهال وهو مقابل للوعيد في نظر الممهل ولا خلاف في أن الله تعالى لا يخلف الوعد المقابل للوعيد وأن ما يؤدي به خبر محض لا شرط فيه ؛ وقيل : المراد به وعده تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بإنزال العذاب المستعجل به عليهم وذلك مقابل للوعيد من حيث أن فيه خيراً له عليه الصلاة والسلام ، ولا مانع من أن يكون شيء واحد خيراً وشراً بالنسبة إلى شخصين فقد قيل :

مصائب قوم عند قوم فوائد . . .

وحينئذ لا دليل للمعتزلة في الآية على دعواهم .

(244/525)

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ أي كم من سكنة قرية ﴿ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ كما أمليت لهؤلاء حتى أنكروا مجيء ما وعد من العذاب واستعجلوا به استهزاء وتعجيزاً لرسلهم عليهم السلام كما فعل هؤلاء ، والجملة عطف على ما تقدمها جيء بها لتحقيق الرد كما تقدم فلذا جيء بالواو ، وجيء في نظيرتها السابقة بالفاء قيل : لأنها أبدلت من جملة مقرونة بها ، وفي إعادة الفاء تحقيق للبدلية ، وقيل : جيء بالفاء هناك لأن الجملة مترتبة على ما قبلها ولم يجيء بها هنا لعدم الترتب ، وقوله تعالى : ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ جملة حالية مفيدة لكمال حلمه تعالى ومشعرة بطريق التعريض بظلم المستعجلين أي أمليت لها والحال أنها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة كدأب هؤلاء ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ بالعذاب والنكال بعد طول الاملاء والامهال ﴿ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ أي إلى حكمي مرجع جميع الناس أو جميع أهل القرية لا إلى أحد غيري لا استقلالاً ولا شركة فأفعل بهم ما أفعل مما يليق باعمالهم ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله مصرح بما أفاده ذلك بطريق التعريض من أن مآل أمر

المستعجلين أيضاً ما ذكر من الأخذ الوبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(245/525)

وقال القاسمى :

﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾

أي : فكم من أهالي قرية : ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ أي : بالعذاب : ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أي : مشركة كافرة : ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ أي : ساقطة : ﴿ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ أي : سقوفها : ﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ ﴾ أي : وكم من بئر متروكة لا يستقى منها ، لهلاك أهلها : ﴿ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ أي : مرفوع . من شاد البناء : رفعه . أو معناه مطليٌّ ومعمول بالشيد ، بالكسر ، وهو الجص ، أي : مجصص ، أخليناه عن ساكنيه ، ومن شواهد الأول قول عديّ بن زيد :

~شَادَهُ مَرْمَراً وَجَلَّلَهُ كِلْساً ، فللطير في ذُرَاهُ وُكُورُ

(246/525)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ أي : أهل مكة في تجارتهم : ﴿ فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ ﴾ أي : بما يشاهدونه من مواد الاعتبار : ﴿ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ أي : ما يجب أن يعقل من التوحيد : ﴿ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أي : ما يجب أن يسمع من الوحي والتخويف : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ الضمير في فإنها للقصة . أو مبهم يفسره الأبصار . والمعنى : ليس الخلل في مشاعرهم ، وإنما هو في عقولهم باتباع الهوى والانهماك في الغفلة . وفائدة ذكر الصدور هو التأكيد مثل : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [آل عِمْرَان : 167] ، و : ﴿ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] ، إلا أنه لتقرير معنى الحقيقة ، وهنا لتقرير معنى المجاز .

وقال الزمخشري : الفائدة زيادة التصوير والتعريف وعبارته : الذي قد تعورف واعتقد ؛ أن العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها . واستعماله في القلب استعارة ومثل . فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ، ونفيه عن الأبصار ، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ، ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار . كما تقول : ليس المضاء للسيف ، ولكنه للسانك الذي بين فكيك ، فقولك : الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسانه ، وتثبيت . لأن محل

المضاء هو هو لا غير . وكأنك قلت : ما نفيت المضاء عن السيف . وأثبته للسانك ، فلتة ولا سهواً مني ، ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً .

(247/525)

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ أي : المبيّن في آية : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] : ﴿ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أي : فيصيبهم ما أوعدهم به ، ولو بعد حين : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي : هو تعالى حليم لا يعجل ، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه ، كيوم واحد عنده ، بالنسبة إلى حلمه . لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شيء . وإن أنظر وأملى . ولهذا قال بعده :

(248/525)

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾

أي : أمهلتها : ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ إلى حكمي مرجع الكل

فأجزيهم بأعمالهم . فتأثُر هذه الآية ما قبلها صريح في بيان خطئهم في الاستعجال المذكور ، ببيان كمال سعة حلمه تعالى ، وإظهار غاية ضيق عطنهم ، المستتبع لكون المدة القصيرة عنه تعالى ، مُدداً طوالاً عندهم ، حسبما ينطق به قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [المعارج : 6 – 7] ، ولذلك يرون مجيئه بعيداً ، ويتخذونه ذريعة إلى إنكاره ، ويجترؤون على الاستعجال به ، ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها ، وقوعاً وإخباراً ، ما عنده تعالى من المقدار . أفاده ابن كثير وأبو السعود .

وفي " العناية " : لما ذكر استعجالهم ، وبيّن أنه لا يتخلف ما استعجلوه ، وإنما أخر حلماً ، لأن اليوم ألف سنة عنده . فما استطالوه ليس بطويل بالنسبة إليه ، بل هو أقصر من يوم . فلا يقال : إن المناسب حينئذ أن ألف سنة كيوم ، والقلب لا وجه له .

وقال الرازي : لما حكى تعالى من عظم ما هم عليه من التكذيب ، أنهم يستهزؤون باستعجال العذاب ، بيّن أن العاقل لا ينبغي أن يستعجل عذاب الآخرة فقال : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يعني فيما ينالهم من العذاب وشدته : ﴿ كَأَلْفِ سَنَةٍ ﴾ لو عُدّ في كثرة الآلام وشدتها . فبيّن سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة ، وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه .

قال الرازي : وهذا قول أبي مسلم ، وهو أولى الوجوه . انتهى .

وقد حكاه الزمخشريّ بقوله : وقيل معناه : كيف يستعجلون بعذاب مَنْ يَومٌ واحد من أيام

عذابه ، في طول ألف سنة من سنيكم . لأن أيام الشدائد مستطالة ، أي : تعدّ طويلة كما قيل :

تمتعْ بأيام السرورِ فإنَّهَا قِصَارٌ . وَأيامُ الهُمُومِ طِوَالُ

أو كان ذلك اليوم الواحد ، لشدة عذابه ، كألف سنة من سني العذاب . انتهى .

(249/525)

واعتمد الوجه الأول أبو السعود . وناقش فيما بعده ؛ بأنه لا يساعده سياق النظم الجليل ولا سياقه . فإن كلاً منهما ناطق بأن المراد هو العذاب الدنيوي . وأن الزمان الممتد هو الذي مرّ عليهم قبل حلوله بطريق الإملاء والإمهال . لا الزمان المقارن له . ألا يرى إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ الخ ، فإنه صريح في أن المراد هو الأخذ العاجل الشديد ، بعد الإملاء المديد . انتهى . وفيه قوة . فالله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 265.267 ﴾

(250/525)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾

تفرع ذكر جملة ﴿ كأين من قرية ﴾ على جملة ﴿ فكيف كان نكير ﴾ [الحج : 44]

فعطفت عليها بفاء التفريع ، والتعقيب في الذكر لا في الوجود ، لأن الإملاء لكثير من القرى

ثم أخذها بعد الإملاء لها يبين كيفيّة نكير الله وغضبه على القرى الظالمة ويفسره ،

فناسب أن يذكر التفسير عقب المفسر بحرف التفريع ، ثم هو يفيد بما ذكر فيه من اسم كثرة

العَدد شُمولاً للأقوام الذين ذُكروا من قبل في قوله : ﴿ فقد كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ [الحج

: 42] إلى آخره فيكون لتلك الجملةِ بمنزلة التذييل .

و ﴿ كأين ﴾ اسم دال على الإخبار عن عدد كثير .

وموضعها من الجملة محل رفع بالابتداء وما بعده خبر .

والتقدير : كثير من القرى أهلكناها ، وجملة ﴿ أهلكناها ﴾ الخبر .

ويجوز كونها في محل نصب على المفعولية بفعل محذوف يفسره ﴿ أهلكناها ﴾ والتقدير :

أهلكنا كثيراً من القرى أهلكناها ، والأحسن الوجه الأول لأنه يحقق الصدارة التي

تستحقها (كأين) بدون حاجة إلى الاكتفاء بالصدارة الصورية ، وعلى الوجه الأول فجملة

﴿ أهلكناها ﴾ في محل جر صفة ل ﴿ قرية ﴾ .

وجملة ﴿ فهي خاوية ﴾ معطوفة على جملة ﴿ أهلكناها ، ﴾ وقد تقدم نظيره في قوله

﴿ وكأين من نبي ﴾ في [سورة آل عمران : 146] .

وأهل المدن الذين أهلكهم الله لظلمهم كثيرون ، منهم من ذُكر في القرآن مثل عاد وثمود .

ومنهم من لم يذكر مثل طَسم وجَديس وآثارُهم باقية في اليمامة .

ومعنى ﴿ خاوية على عروشها ﴾ أنها لم يبق فيها سقف ولا جدار .

وجملة ﴿ على عروشها ﴾ خبر ثان عن ضمير ﴿ فهي ﴾ والمعنى : ساقطة على عروشها ، أي ساقطة جدرانها فوق سُقفها .

والعروش : جمع عَرش ، وهو السَقْف ، وقد تقدم تفسير نظير هذه الآية عند قوله تعالى : ﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ﴾ في [سورة البقرة : 259] .

(251/525)

والمعطلة : التي عطل الانتفاع بها مع صلاحها للانتفاع ، أي هي نابعة بالماء وحولها وسائل السقي ولكنها لا يستقى منها لأن أهلها هلكوا .

وقد وجد المسلمون في مسيرهم إلى تبوك بئاراً في ديار ثمود ونهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الشرب منها إلا بِئراً واحدة التي شربت منها ناقة صالح عليه السلام .

والقصر : المسكن المبني بالحجارة المجعول طباقاً .

والمَشِيد : المبنيّ بالشّيد بكسر الشين وسكون الياء وهو الجصّ : وإنما يبنى به البناء من الحجر لأنّ الجصّ أشدّ من التراب فبشدة مسكه يطول بقاء الحجر الذي رُصّ به .

والقصور المُشيّدة : وهي المخلفة عن القرى التي أهلكها الله كثيرةٌ مثل : قصر غُمدان في اليمن ، وقصور ثمود في الحِجْر ، وقصور الفراعنة في صعيد مصر ، وفي "تفسير القرطبي" يقال : "إن هذه البئر وهذا القصر بحضرموت معروفان .

ويقال : إنها بئر الرّس وكانت في عدن وتسمى حضور بفتح الحاء .

وكان أهلها بقية من المؤمنين بصالح الرسول عليه السلام .

وكان صالح معهم ، وأنهم آل أمرهم إلى عبادة صنم وأن الله بعث إليهم حَنظلة بن صفوان رسولاً فنهاهم عن عبادة الصنم فقتلوه فغارت البئر وهلكوا عطشاً" .

يريد أن هذه القرية واحدة من القرى المذكورة في هذه الآية وإلا فإن كلمة (كأيِّنْ) تنافي إرادة قرية معيّنة .

وقرأ الجمهور ﴿ أهلكناها ﴾ بنون العظمة : وقرأه أبو عَمرو ويعقوب ﴿ أهلكتُها ﴾ بتاء المتكلم .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾

تفريع على جملة ﴿ فكأين من قرية أهلكناها ﴾ [الحج : 45] وما بعدها .

والاستفهام تعجيبي من حالهم في عدم الاعتبار بمصارع الأمم المكذّبة لأنبيائها ، والتعجيب

متعلّق بمن سافروا منهم ورأوا شيئاً من تلك القرى المهلكة وبمن لم يسافروا ، فإن شأن المسافرين أن يخبروا القاعدين بعجائب ما شاهدوه في أسفارهم كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ أو آذان يسمعون بها ﴾ .

(252/525)

فالمقصود بالتعجيب هو حال الذين ساروا في الأرض ، ولكن جعل الاستفهام داخلاً على نفي السير لأن سير السائرين منهم لما لم يفدهم عبرة وذكرى جُعل كالعدم فكانَ التعجيب من انتفائه ، فالكلام جارٍ على خلاف مقتضى الظاهر .

والفاء في ﴿ فتكون ﴾ سببية جوابية مسبب ما بعدها على السير ، أي لم يسيروا سيراً تكون لهم به قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها ، أي انتفى أن تكون لهم قلوب وآذان بهذه المثابة لانتفاء سيرهم في الأرض .

وهذا شأن الجواب بالفاء بعد النفي أن تدخل الفاء على ما هو مسبب على المنفي لو كان ثابتاً وفي هذا المعنى قال المعرّي:

وقيل أفادَ بالأسفار مالاً . . .

فقلنا هل أفادَ بها فؤادا

وهذا شأن الأسفار أن تفيد المسافر ما لا تفيده الإقامة في الأوطان من اطلاع على أحوال الأقوام وخصائص البلدان واختلاف العادات ، فهي تفيد كل ذي همّة في شيء فوائدَ تزيد هِمتَه نفاذاً فيما تتوجه إليه وأعظم ذلك فوائد العبرة بأسباب النجاح والخسارة .

وأطلقت القلوب على تقاسيم العقل على وجه المجاز المرسل لأن القلب هو مُفيض الدم وهو مادة الحياة على الأعضاء الرئيسية وأهمها الدماغ الذي هو عضو العقل ، ولذلك قال : ﴿ يعقلون بها ﴾ وإنما آلة العقل هي الدماغ ولكن الكلام جرَى أوله على متعارف أهل اللغة ثم أجري عقب ذلك على الحقيقة العلمية فقال : ﴿ يعقلون بها ﴾ فأشار إلى أن القلوب هي العقل .

ونزّلت عقولهم منزلة المعدوم كما نزّل سَيْرهم في الأرض منزلة المعدوم .

وأما ذكر الآذان فلأنّ الأذن آلة السمع والسائر في الأرض ينظر آثار الأمم ويسمع أخبار فنائهم فيستدل من ذلك على ترتب المسببات على أسبابها ؛ على أن حظ كثير من المتحدث إليهم وهم الذين لم يسافروا أن يتلقوا الأخبار من المسافرين فيعلموا ما علمه المسافرون علماً سبيلُه سماع الأخبار .

(253/525)

وفي ذكر الآذان اكتفاء عن ذكر الأبصار إذ يعلم أن القلوب التي تعقل إنما طريق علمها مشاهدة آثار العذاب والاستئصال كما أشار إليه قوله بعد ذلك : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور ﴾ .

فحصل من مجموع نظم الآية أنهم بمنزلة الأنعام لهم آلات الاستدلال وقد انعدمت منهم آثارها فلهم قلوب لا يعقلون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها وهذا كقوله تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾

[البقرة : 171] .

والفاء في جملة ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ﴾ تفريع على جواب النفي في قوله : ﴿ فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ ، وفذلكة للكلام السابق ، وتذييل له بما في هذه الجملة من العموم .

والضمير في قوله ﴿ فإنها ﴾ ضمير القصة والشأن ، أي فإن الشأن والقصة هو مضمون الجملة بعدَ الضمير ، أي لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب ، أي فإن الأبصار والأسماع طرق لحصول العلم بالمبصرات والمسموعات ، والمدرِك لذلك هو الدماغ فإذا لم يكن في الدماغ عقل كان المبصر كالأعمى والسامع كالأصمّ ، فآفة ذلك كله هو اختلال العقل .

واستعير العَمى الثاني لانتفاء إدراك المبصرات بالعقل مع سلامة حاسّة البصر لشبهه به في الحالة الحاصلة لصاحبه .

والتعريف في ﴿ الأبصار ﴾ ، و﴿ القلوب ﴾ ، و﴿ الصدور ﴾ تعريفُ الجنس الشامل لقلوب المتحدّث عنهم وغيرهم ، والجمْع فيها باعتبار أصحابها .

وحرف التوكيد في قوله : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ﴾ لغرابة الحكم لا لأنه مما يشك فيه .

وغالب الجمل المفتتحة بضمير الشأن اقترانُها بحرف التوكيد .

والقصر المستفاد من النفي وحرف الاستدراك قصر ادعائيّ للمبالغة بجعل فقد حاسة البصر المسمى بالعمى كأنه غير عمىً ، وجعل عدم الاهتداء إلى دلالة المبصرات مع سلامة حاسة البصر هو العمى مبالغة في استحقاقه لهذا الاسم الذي استعير إليه ، فالقصر ترشيح للاستعارة .

(254/525)

ففي هذه الآية أفانين من البلاغة والبيان وبَداعة النظم .

و﴿ التي في الصدور ﴾ صفة ل ﴿ القلوب ﴾ تفيد توكيداً للفظ ﴿ القلوب .

﴿ فوزانه وزان الوصف في قوله تعالى : ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : 38] .

ووزان القيد في قوله : ﴿ يقولون بأفواههم ﴾ [آل عمران : 167] فهو لزيادة التقرير والتشخيص .

ويفيد هذا الوصف وراء التوكيد تعريضاً بالقوم المتحدث عنهم بأنهم لم ينتفعوا بأفئدتهم مع شدّة اتصالها بهم إذ هي قارة في صدورهم على نحو قول عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم " فالآن أنت أحبّ إليّ من نفسي التي بين جنبيَّ " فإن كونها بين جنبيه يقتضي أن تكون أحبّ الأشياء إليه .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾

عطف على جملة ﴿ وإن يكذبوك ﴾ [الحج : 42] عطف القصة على القصة فإن من تكذيبهم أنهم كذبوا بالوعيد وقالوا : لو كان محمد صادقاً في وعيده لعُجّل لنا وعيده ، فكانوا يسألونه التعجيل بنزول العذاب استهزاء ، كما حكى الله عنهم في قوله : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] ، وقال : ﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾ [السجدة : 28] فذكر ذلك في هذه الآية بمناسبة قوله ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ [الحج : 44] الآية .

وحُكي ﴿ ويستعجلونك ﴾ بصيغة المضارع للإشارة إلى تكريرهم ذلك تجديداً منهم للاستهزاء وتوركاً على المسلمين .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود إبلاغه إياهم .

والباء من قوله ﴿ بالعذاب ﴾ زائدة لتأكيد معنى الاستعجال بشدّته كأنه قيل يحرصون

على تعجيله .

وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ﴾ في أول [سورة الرعد : 6] .

(255/525)

ولما كان استعجالهم إياه تعريضاً منهم بأنهم موقنون بأنه غير واقع أعقب بقوله : ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ ، أي فالعذاب الموعود لهم واقع لا محالة لأنه وعدٌ من الله والله لا يخلف وعده .

وفيه تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لئلا يستبطئونه .

وقوله : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ عطف على جملة ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ ، فإن الله توعدهم بالعذاب وهو صادق على عذاب الدنيا والآخرة وهم إنما استعجلوا عذاب الدنيا تهكماً وكناية عن إيقانهم بعدم وقوعه بلازم واحد ، وإيماء إلى عدم وقوع عذاب الآخرة بلازمين ، فَردّ الله عليهم رداً عاماً بقوله : ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ ، وكان ذلك تثبيتاً للمؤمنين ، ثم أعقبه بإنذارهم بأن عذاب الآخرة لا يفلتون منه أيضاً وهو أشدّ العذاب .

فقوله : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ خبر مستعمل في التعريض بالوعيد ، وهذا اليوم هو يوم القيامة .

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ يستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ [العنكبوت : 5354] .

وليس المراد بقوله : ﴿ وإن يوماً عند ربك ﴾ إلى آخره استقصار أجل حلول العذاب بهم في الدنيا كما درج عليه أكثر المفسرين لعدم رشاقة ذلك على أن هذا الاستقصار يغني عنه قوله عقب هذا : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها ﴾ [الحج : 48] .

والخطاب في ﴿ تعدون ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

وقرأ الجمهور ﴿ تعدون ﴾ بالفوقية ، وقرأه ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ﴿ مما يعدون ﴾ بياء الغائبين .

أي مما يعده المشركون المستعجلون بالعذاب .

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48) ﴾

عطف على جملة ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ [الحج : 47] أو على جملة ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ [الحج : 47] باعتبار ما تضمنه استعجالهم بالعذاب من التعريض بأنهم آيسون منه لتأخّر وقوعه ، فذُكّروا بأن أمماً كثيرة أمهلت ثمّ حلّ بها العذاب .

فوزان هذه الآية وِزان قوله آنفاً : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ﴾ [الحج : 45] الخ ؛ إلا أن الأولى قصد منها كثرة الأمم التي أهلكت لئلا يتوهّم من ذكر قوم نوح ومَن عطف عليهم أن الهلاك لم يتجاوزهم ولذلك اقتصر فيها على ذكر الإهلاك دون الإمهال . وهذه الآية القصد منها التذكير بأنّ تأخير الوعيد لا يقتضي إبطاله ، ولذلك اقتصر فيها على ذكر الإمهال ثم الأخذِ بعده المناسب للإملاء من حيث إنه دخول في القَبْضَة بعد بعده عنها .

وأما عطف جملة ﴿ فكأين من قرية أهلكناها ﴾ [الحج : 45] بالفاء وعطف جملة ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ﴾ بالواو فلأن الجملة الأولى وقعت بدَلاً من جملة ﴿ فكيف كان نكير ﴾ [الحج : 44] فقرنت بالفاء التي دخلت نظيرتُها على الجملة المبدَل منها ، وأما هذه الجملة الثانية فخليّة عن ذلك فعطفت بالحرف الأصلي للعطف .

وجملة ﴿ وإليَّ المصير ﴾ تذييل ، أي مصير الناس كلهم إليّ .

والمصير مِصدر ميمي ل (صار) بمعنى : رجع ، وهو رُجوع مجازي بمعنى الحصول في

المكنة .

وتقديم المجرور للحصر الحقيقي ، أي لا يصير الناس إلا إلى الله ، وهو يقتضي أنّ المصير إليه كائن لا محالة ، وهو المقصود من الحصر لأن الحصر يقتضي حصول الفعل بالأحرى فهو كناية عن عدم الإفلات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(257/525)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أهلك كثيراً من القرى في حال كونها ظالمة : أي بسبب ذلك الظلم ، وهو الكفر بالله وتكذيب رسله ، فصارت بسبب الإهلاك والتدمير ديارها متهدمة وآبارها معطلة ، لا يسقي منها شيء لإهلاك أهلها الذين كانوا يستقون منها .

وهذا المعنى الذي ذكره تعالى في هذه الآية : جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ [الطلاق : 8-10] وقوله تعالى : ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ

أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 102] وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنه أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ صلى الله عليه وسلم ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ " إلى غير ذلك من الآيات ، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ العروش السقوف والخاوية الساقطة ومنه قول الخنساء :

كان أبو حسان عرشاً خوى . . . مما بناه الدهر دان ظليل

(258/525)

والمعنى : أن السقوف سقطت ثم سقطت عليها حيطانها على أظهر التفسيرات ، والقصر المشيد المطلي بالشيد بكسر الشين ، وهو الجص ، وقيل المشيد الرفيع الحصين . كقوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الموت وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : 78] أي حصون رفيعة منيعة . والظاهر أن قوله : ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ معطوف على قرية : أي وكأين من قرية أهلكناها ، وكم من بئر عطلناها بإهلاك أهلها ، وكم من قصر مشيد أخليناه من ساكنيه ، وأهلكناهم لما كفروا وكذبوا الرسل . وفي هذه الآية وأمثالها : تهديد

لكفار قريش الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم ، وتحذير لهم من أن ينزل بهم ما نزل بتلك القرى من العذاب لما كذبت رسلها .

تنبيه

يظهر لطالب العلم في هذه الآية سؤال : وهو أن قوله : ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ يدل على تهدم أبنية أهلها ، وسقوطها قولها : ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ يدل على بقاء أبنيتها قائمة مشيدة .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الظاهر لي في جواب هذا السؤال : أن قصور القرى التي أهلكها الله ، وقت نزول هذه الآية منها ما هو متهدم كما دل عليه قوله : ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ ومنها ما هو قائم باق على بنائه ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ وإنما استظهرنا هذا الجمع ، لأن القرآن دل عليه ، وخير ما يفسر به القرآن القرآن ، وذلك في قوله جل وعلا في سورة هود : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ القرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [هود : 100] فصرح في هذه الآية بأن منها قائماً ، ومنها حصيداً .

وأظهر الأقوال وأجراها على ظاهر القرآن : أن القائم هو الذي لم يتهدم . والحصيد هو الذي تهدم وتفرقت أنقاضه . ونظيره من كلام العرب قوله :

والناس في قسم المنية بينهم . . . كالزرع منه قائم وحصيد

وفي معنى القائم والحصيد ، أقوال أخر غير ما ذكرنا ، ولكن ما ذكرنا هو أظهرها . وذكر الزمخشري ما يفهم منه وجه آخر للجمع ، وهو أن معنى قوله خاوية : خالية من أهلها من قوله : خوى المكان إذا خلا من أهله ، وأن معنى : على عروشها : أن الأبنية باقية أي هي خالية من أهلها مع بقاء عروشها قائمة على حيطانها . وما ذكرناه أولاً هو الصواب إن شاء الله تعالى .

وقد دلت هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن أن لفظ القرية : يطلق تارة على نفس الأبنية ، وتارة على أهلها الساكنين بها ، فالإهلاك في قوله : ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ ، والظلم في قوله : ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ : يراد به أهلها الساكنون بها وقوله : ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ يراد به الأبنية كما قال في آية : ﴿ واسأل القرية التي كُنَّا فِيهَا ﴾ [يوسف : 82] وقال في أخرى : ﴿ حتى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ استطعما أَهْلَهَا ﴾ [الكهف : 77] .

وقد بينا في رسالتنا المسماة منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز : أن ما يسميه البلاغيون مجاز النقص ، ومجاز الزيادة ، ليس بمجاز حتى عند جمهور القائلين بالمجاز من الأصوليين ، وأقمنا الدليل على ذلك ، وقرأ هذا الحرف ابن كثير : وكائن بألف بعد الكاف ، وبعد الألف همزة مكسورة ، فنون ساكنة وقرأه الباقون : وكأين بهمزة مفتوحة بعد الكاف بعدها ياء مكسورة مشددة فنون ساكنة . ومعنى القراءتين واحد ، فهما لغتان

فصيحتان ، وقراءتان سبعيتان صحيحتان .

وأبو عمرو يقف على الياء ، والباقون يقفون على النون ، وقرأ أبو عمرو : أهلكتها بتاء المتكلم المضمومة بعد الكاف من غير ألف ، والباقون بنون مفتوحة بعد الكاف ، وبعد النون ألف ، والمراد بصيغة الجمع ، على قراءة الجمهور التعظيم ، كما هو واضح ، وقرأ ورش والسوسي وبير بإبدال الهمزة ياء والباقون بالهمزة الساكنة .

مسألة

(260/525)

اعلم : أن كأين فيها لغات عديدة أفصحها الاثنتان اللتان ذكرناهما ، وكأين بفتح الهمزة والياء المكسورة المشددة أكثر في كلام العرب ، وهي قراءة الجمهور كما بينا ، وكأين بالألف والهمزة المكسورة أكثر في شعر العرب ، ولم يقرأ بها من السبعة غير ابن كثير كما بينا ، ومعنى كأين : كمعنى كم الخبرية ، فهي تدل على الإخبار بعدد كثير ومميزها له حالتان : الأولى : أن يجرّ بمن وهي لغة القرآن كقوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ [الحج : 48 ومحمد : 13 والطلاق : 8] وقوله ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ ﴾ [آل عمران : 146] الآية ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض ﴾ [يوسف : 105] الآية . ونظير ذلك من كلام العرب في

جر مميز كأين بمن قوله :

وكائن بالأباطح من صديق . . . يراني لو أصيب هوا المصابا

الحالة الثانية أن ينصب ومنه قوله :

وكائن لنا فضلاً عليكم ومنة . . . قديماً ولا تدرون ما من منعم

وقول الآخر :

اطرد اليأس بالرجاء فكائن . . . آلما حم يسره بعد عسر

قال في الخلاصة :

ككم كأين وكذا وينتصب . . . تمييز ذين أو به صل من تصب

أما الاستفهام بكأين فهو نادر ولم يثبته إلا ابن مالك ، وابن قتيبة ، وابن عصفور ، واستدل له ابن مالك بما روى عن أبي بن كعب أنه قال لابن مسعود : كأين تقرأ سورة الأحزاب آية فقال : ثلاثاً وسبعين اه .

واختلف في كأين هل هي بسيطة أو مركبة وعلى أنها مركبة فهي مركبة من كاف التشبيه ، وأي المنونة ، قال بعضهم : ولأجل تركيبها جاز الوقف عليها بالنون في قراءة الجمهور ، لأن التنوين لما دخل في التركيب أشبه النون الأصلية ، ولهذا رسم في المصحف نوناً وقراءة أبي عمرو بالوقف على الياء لأجل اعتبار حكم التنوين في الأصل ، هو حذفه في الوقف .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الأظهر عندي أن كأين بسيطة ، وأنها كلمة وضعتها العرب للإخبار بعدد كثير نحو : كم . إذ لا دليل يجب الرجوع إليه على أن أصلها مركبة ، ومن الدليل على أنها بسيطة : إثبات نونها في الخط لأن الأصل في نون التنوين عدم إثباتها في الخط ، ودعوى أن التركيب جعلها كالنون الأصلية دعوى مجردة عن الدليل . واختار أبو حيان أنها غير مركبة ، واستدل لذلك بتلاعب العرب بها في تعدد اللغات ، فإن فيها خمس لغات اثنتان منها قد قدمناهما ، وبينا أنهما قراءتان سبعيتان ، لأن إحداهما قرأ بها ابن كثير والأخرى قرأ بها الجمهور . واللغة الثالثة فيها : كأين بهمزة ساكنة فياء مكسورة ، والرابعة كيئن بياء ساكنة وهمزة مكسورة ، الخامسة : كأن بهمزة مفتوحة ونون ساكنة اه . ولقد صدق أبو حيان في أن التلاعب بلفظ هذه الكلمة إلى هذه اللغات يدل على أن أصلها بسيطة لا مركبة . والله تعالى أعلم .

(262/525)

واعلم : أن ما يذكره كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة من أن البئر المعطلة ، والقصر المشيد معروفان ، أنهما بحضرموت ، وأن القصر مشرف على تلة جبل لا يرتقي

إليه بحال ، وأن البئر في سفحه لا تقر الرياح شيئاً سقط فيها إلا أخرجته ، وما يذكرونه أيضاً من أن البئر هي : الرس ، وأنها كانت بعدن باليمن بحضرموت في بلد يقال له : حضور ، وأنها نزل بها أربعة آلاف ممن آمنوا بصالح ، ونجوا من العذاب ومعهم صالح ، فمات صالح ، فسمي المكان حضرموت ، لأن صالحاً لما حضره مات فبنوا حضور وقعدوا على هذه البئر ، وأمروا عليهم رجلاً يقال له العلس بن جلاس بن سويد أو جلهس بن جلاس وكان حسن السيرة فيهم عاملاً عليهم ، وجعلوا وزيره سنجاريب بن سوادة ، فأقاموا دهراً ، وتناسلوا حتى كثروا ، وكانت البئر تسقي المدنية كلها وباديتها ، وجميع ما فيها من الدواب والغنم والبقر وغير ذلك ، لأنها كانت لها بكرات كثيرة منصوبة عليها ، ورجال كثيرون موكلون بها ، وحياض كثيرة حولها تملأ للناس وحياض للدواب وحياض للغنم ، وحياض للبقر ، ولم يكن لهم ماء غيرها ، وآل لهم الأمر إلى أن مات ملكهم وطلوا جثته بدهن يمنعها من التغيير ، وأن الشيطان دخل في جثته ، وزعم لهم أنه هو الملك ، وأنه لم يمت ولكنه تغيب عنهم ليرى صنيعهم وأمرهم أن يضربوا بينهم وبين الجثة حجاباً ، وكان الشيطان يكلمهم من جثة الملك من وراء حجاب لئلا يطلعوا على الحقيقة أنه ميت ، ولم يزل بهم حتى كفروا بالله تعالى فبعث الله إليهم نبياً اسمه : حنظلة بن صفوان يوحي إليه في النوم دون اليقظة ، فأعلمهم أن الشيطان أضلهم وأخبرهم أن ملكهم قد مات ، ونهاهم عن الشرك باله ووعظهم ونصح لهم ، وحذرهم عقاب ربهم ، فقتلوا نبيهم المذكور في السوق ، وطرحوه

في بئر فعند ذلك نزل بهم عقاب الله ، فأصبحوا والبئر غاز ماؤها ، وتعطل رشاؤها فصاحوا بأجمعهم ، وضج النساء والصبيان حتى مات الجميع من العطش ، وأن

(263/525)

تلك البئر هي البئر المعطلة في هذه الآية كله لا معول عليه ، لأنه من جنس الإسرائيليات ، وظاهر القرآن يدل على خلافه ، لأن قوله :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ [الحج : 48 ومحمد : 13 والطلاق : 8] معناه . الإخبار بأن عدداً كبيراً من القرى أهلكهم الله بظلمهم ، وأن كثيراً من آبارهم بقيت معطلة بهلاك أهلها ، وأن كثيراً من القصور المشيدة بقيت بعد هلاك أهلها بدونهم ، لأن مميز كأين ، وإن كان لفظه مفرداً فمعناه يشمل عدداً كثيراً كما هو معلوم في محله .

وقال أبو حيان في البحر المحيط وعن الإمام أبي القاسم الأنصاري قال : رأيت قبر صالح بالشام في بلدة يقال لها : عكا فكيف يكون بحضرموت ، ومعلوم أن ديار قوم صالح التي أهلكوا فيها معروفة يمر بها الذاهب من المدينة إلى الشام ، وقد قدمنا في سورة الحجر أن النَّبي صلى الله عليه وسلم مر بها في طريقه إلى تبوك في غزوة تبوك . ومن المستبعد أن يقطع صالح ، ومن آمن من قومه هذه المسافة البعيدة من أرض الحجر إلى حضرموت من غير داع

يدعوه ويضطره إلى ذلك ، كما ترى . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ .

(264/525)

بين الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن كفار مكة الذين كذبوا نبينا صلوات الله وسلامه عليه ، ينبغي لهم أن يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، لأنهم إذا سافروا مروا بأماكن قوم صالح ، وأماكن قوم لوط ، وأماكن قوم هود ، فوجدوا بلادهم خالية وآثارهم منطمسة لم يبق منهم داع ولا مجيب ، لتكذيبهم رسلهم ، وكفرهم بربهم ، فيدركون بعقولهم : أن تكذيبهم نبيهم لا يؤمن أن يسبب لهم من سخط الله مثل ما حل بأولئك الذين مروا بمساكنهم خالية ، قد عم أهلها الهلاك ، وتكون لهم آذان يسمعون بها ما قص الله في كتابه على نبيه من أخبار تلك الأمم ، وما أصابها من الإهلاك المستأصل والتدمير ، فيحذروا أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك .

والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة كقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ [محمد : 10] ثم بين تهديده لكفار

مكة بما فعل بالأمم الماضية في قوله : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد : 10] وكقوله في قوم لوط : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافت : 137- 138] وكقوله فيهم : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر : 76] الآية ، وكقوله في قوم لوط وقوم شعيب : ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأيكة لَظَالِمِينَ ﴾ [الحجر : 78] ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : 79] لأن معنى الآيتين : أن ديارهم على ظهر الطريق الذي يمرون فيه المعبر عنه بالسبيل والإمام ، والآيات بمثل هذا كثيرة . وقد قدمنا منها جملاً كافية في سورة المائدة وغيرها .

(265/525)

والآية تدل على أن محل العقل : في القلب ، ومحل السمع ، في الأذن ، فما يزعمه الفلاسفة من أن محل العقل الدماغ باطل ، كما أوضحناه في غير هذا الموضع ، وكذلك قول من زعم أن العقل لا مركز له أصلاً في الإنسا ، لأنه زماني فقط لا مكاني فهو في غاية السقوط والبطلان كما ترى .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة لمعنى هذه الآية في سورة بني إسرائيل ، في الكلام على قوله تعالى

: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هذه أعمى فَهُوَ فِي الآخرة أعمى ﴾ [الإسراء : 72] الآية. مع بعض الشواهد العربية، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الكفار يطلبون من النَّبي صلى الله عليه وسلم تعجيل العذاب الذي يعدهم به طغياناً وعناداً .

والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة في القرآن كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ [ص : 16] وقوله : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ [العنكبوت : 54] وقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب ﴾ [العنكبوت : 53] الآية.

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا المعنى في مواضع متعددة، من هذا الكتاب المبارك في سورة الأنعام في الكلام على قوله : ﴿ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ [الأنعام : 57] وفي يونس في الكلام على قوله : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ [يونس : 51] إلى غير ذلك من المواضع .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ ﴾ [الحج : 47] الظاهر أن المراد بالوعد هنا : هو ما أوعدهم به من العذاب الذي يستعجلون نزوله .

والمعنى : هو منجز ما وعدهم به من العذاب ، إذا جاء الوقت المحدد لذلك كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [العنكبوت : 53] وقوله تعالى : ﴿ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [هود : 8] وقوله تعالى : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ الآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [يونس : 51] وبه تعلم أن الوعد يطلق في القرآن على الوعد بالشر .

(267/525)

ومن الآيات الموضحة لذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذلكم النار وَعَدَهَا الله الذين كَفَرُواْ وَبِئْسَ المصير ﴾ [الحج : 72] فإنه قال في هذه الآية في النار : وعدها الله بصيغة الثلاثي الذي مصدره الوعد ، ولم يقل أوعدها وما ذكر في هذه الآية ، من أن ما وعد به الكفار من العذاب واقع لا محالة ، وأنه لا يخلف وعده بذلك ، جاء مبيناً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة ق ﴿ قَالَ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ ﴾ [ق : 28-29] الآية والصحيح أن المراد بقوله : ﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ ﴾ أن ما أوعد الكفار به من العذاب ، لا يبدل لديه ، بل هو واقع لا محالة ، وقوله تعالى

: ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق : 14] أي وجب وثبت فلا يمكن عدم وقوعه بحال وقوله تعالى : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص : 14] كما أوضحناه في كتابنا : دفع إيهام الاضطراب ، عن آيات الكتاب في سورة الأنعام ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قَالَ النار مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَآءَ الله ﴾ [الأنعام : 128] الآية .

وأوضحنا أنما أوعد به الكفار لا يخلف بحال ، كما دلت عليه الآيات المذكورة . أما ما أوعد به عصاة المسلمين ، فهو الذي يجوز ألا ينفذه وأن يعفو كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : 48] الآية .

وبالتحقيق الذي ذكرنا : تعلم أن الوعد يطلق في الخير والشر كما بينا ، وإنما شاع على ألسنة كثير من أهل التفسير ، من أن الوعد لا يستعمل إلا في الوعد بخير وأنه هو الذي لا يخلفه الله ، وأما إن كان المتوعد به شراً ، فإنه وعيد وإيعاد .

(268/525)

قالوا : إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤماً ، وعن الإيعاد كرماً ، وذكروا عن الأصمعي أنه قال : كنت عند أبي عمرو بن العلاء ، فجاءه عمرو بن عبيد فقال : يا أبا عمرو ، هل يخلف الله الميعاد ؟ فقال : لا ، فذكر آية وعيد ، فقال له : أمن العجم أنت ؟ إن العرب تعد

الرجوع عن الوعد لؤماً وعن الإيعاد كرماً ، أما سمعت قول الشاعر :

ولا يرهب ابن العم والجار سطوتي . . . ولا انثنى عن سطوة المتهدد

فإنّي وإن أوعدته أو وعدته . . . لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

فيه نظر من وجهين :

الأول : هو ما بيناه آنفاً من إطلاق الوعد في القرآن على التوعد بالنار ، والعذاب كقوله تعالى : ﴿ النار وَعَدَهَا الله الذين كَفَرُواْ ﴾ [الحج : 72] وقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ ﴾ لأن ظاهر الآية الذي لا يجوز العدول عنه ، ولن يخلف الله وعده في حلول العذاب الذي يستعجلونك به بهم ، لأنه مقترن بقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ فتعلقه به هو الظاهر .

الثاني : هو ما بينا أن ما أوعد الله به الكفار لا يصح أن يخلفه بحال ، لأن ادعاء جواز إخلافه ، لأنه إيعاد وأن العرب تعد الرجوع عن الإيعاد كرماً يبطله أمران :

الأول : أنه يلزمه جواز ألا يدخل النار كافر أصلاً ، لأن إيعادهم بإدخالهم النار مما زعموا أن الرجوع عنه كرم ، وهذا لا شك في بطلانه .

الثاني : ما ذكرنا من الآيات الدالة : على أن الله لا يخلف ما أوعد به الكفار من العذاب كقوله : ﴿ قَالَ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ ﴾ [ق : 28-29] الآية وقوله تعالى فيهم ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق : 14] وقوله فيهم : ﴿ فَحَقَّ

عِقَابِ ﴾ [ص : 14] ومعنى حق : وجب وثبت ، فلا وجه لانتفائه بحال ، كما أوضحناه هنا وفي غير هذا الموضع .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

(269/525)

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن اليوم عنده جل وعلا كألف سنة مما يعده خلقه ، وما ذكره هنا من كون اليوم عنده كألف سنة ، أشار إليه في سورة السجدة بقوله : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السمآء إِلَى الأرض ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : 5] وذكر في سورة المعارج أن مقدار اليوم خمسون ألف سنة وذلك في قوله : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] الآية . فآية الحج ، وآية السجدة متوافقتان تصدق كل واحدة منهما الأخرى ، وتماثلها في المعنى . وآية المعارج تخالف ظاهرهما لزيادتها عليهما بخمسين ضعفاً . وقد ذكرنا وجه الجمع بين هذه الآيات في كتابنا : دفع إيهام الاضطراب ، عن آيات الكتاب .

وسنذكره إن شاء الله هنا ملخصاً مختصراً . ونزيد عليه بعض ما تدعو الحاجة إليه .

فقد ذكرنا ما ملخصه : أن أبا عبيدة روى عن إسماعيل بن إبراهيم ، عن أيوب ، عن ابن

أبي مليكة أنه حضر كلاً من ابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، سئل عن هذه الآيات : فلم يدر ما يقوله فيها ، ويقول : لا أدري ، ثم ذكرنا أن للجمع بينهما وجهين :

الأول : هو ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سماك ، عن عكرمة عن ابن عباس من أن يوم الألف في سورة الحج : هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض ويوم الألف في سورة السجدة ، هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى ويوم الخمسين ألفاً ، هو يوم القيامة .

الوجه الثاني : أن المراد بجميعها يوم القيامة ، وأن اختلاف زمن اليوم إنما هو باعتبار حال المؤمن ، وحال الكافر لأن يوم القيامة أخف على المؤمن منه على الكافر كما قال تعالى : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : 9-10] اه . ذكر هذين الوجهين صاحب الإتقان .

(270/525)

وذكرنا أيضاً في كتابنا : دفع إيهام الاضطراب ، عن آيات الكتاب في سورة الفرقان ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان : 24] ما ملخصه : أن آية الفرقان هذه تدل على انقضاء الحساب في نصف نهار

، لأن المقيل القيلولة أو مكانها وهي الاستراحة نصف النهار في الحر ، وممن قال بانقضاء الحساب في نصف نهار : ابن عباس ، وابن مسعود ، وعكرمة وابن جبير لدلالة هذه الآية ، على ذلك ، كما نقله عنهم ابن كثير وغيره .

وفي تفسير الجلالين ما نصه : وأخذ من ذلك انقضاء الحساب في نصف نهار ن كما ورد في حديث انتهى منه ، مع أنه تعالى ذكر أن مقدار يوم القيامة خمسون ألف سنة في قوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] وهو يوم القيامة بلا خلاف في ذلك .

والظاهر في الجواب : أن يوم القيامة يطول على الكفار ويقصر على المؤمنين ، ويشير لهذا قوله تعالى : بعد هذا بقليل ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن وكَانَ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً ﴾ [الفرقان : 26] فتخصيصه عسر ذلك اليوم بالكافرين : يدل على أن المؤمنين ليسوا كذلك وقوله تعالى : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : 9-10] يدل بمفهوم مخالفته على أنه يسير على المؤمنين غير عسير كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : 8] .

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث : أن سعيداً الصواف حدثه أنه بلغه : أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين ، حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وأنهم يتقلبون في رياض الجنة ، حتى يفرغ من الناس وذلك قوله : ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان : 24] ونقله عنه ابن كثير في تفسيره ، وأما على قول من فسر المقيل في الآية بأنه المأوى والمنزل كقتادة رحمه الله ، فلا دلالة في الآية لشيء مما ذكرنا .

ومعلوم أن من كان في سرور ونعمة ، أنه يقصر عليه الزمن الطويل قصراً شديداً ، بخلاف من كان في العذاب المهين والبلايا والكروب ، فإن الزمن القصير يطول عليه جداً صن وهذا أمر معروف ، وهو كثير في كلام العرب . وقد ذكرنا في كتابنا المذكور بعض الشواهد الدالة عليه ، كقول أبي سفيان بن الحارث رضي الله عنه يرثي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أرقت فبات ليلي لا يزول . . . وليل أخي المصيبة فيه طول

وقول الآخر :

فقصارهن مع الهموم طويلة . . . وطوالهن مع السرور قصار

وقول الآخر :

ليلي وليلي نفي نومي اختلافهما . . . في الطول والطول طوبى لي لو اعتدلا

يجود بالطول ليلي كلما بخلت . . . بالطول ليلي وإن جادت به بخلا

ونحو هذا كثير جداً في كلام العربن ومن أظرف ما قيل فيه ما روي عن يزيد بن معاوية أنه قال :

لا أسأل الله تغييراً لما فعلت . . . نامت وقد أسهرت عيني عيناها

فالليل أطول شيء حين أفقدها . . . والليل أقصر شيء حين ألقاها

وقد ورد بعض الأحاديث بما يدل على ظاهر آية الحج ، وآية السجدة .

(272/525)

وسنذكر هنا طرفاً منه بواسطة نقل ابن كثير في تفسير هذه الآية من سورة الحج . قال ابن كثير : قال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثني عبدة بن سليمان ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام " ورواه الترمذي والنسائي من حديث الثوري عن محمد بن عمرو به ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقد رواه ابن جرير عن أبي هريرة موقوفاً فقال : حدثني يعقوب ثنا ابن علية ، ثنا سعيد الجريري عن أبي نضرة ، عن سمير بن نهار قال : قال أبو هريرة : يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء ، بمقدار نصف يوم ، قلت : وما مقدار نصف يوم ؟ قال : أو ما تقرأ القرآن ؟

قلت : بلى قال : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ وقال أبو داود في آخر كتاب الملاحم من سننه : حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثني صفوان عن شريح بن عبيد ، عن سعد بن أبي وقاص ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إني لأرجو ألا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم ، قيل لسعد : وكم نصف يوم ؟ قال : خمسمائة سنة " .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن إسرائيل ، عن سماك عن عكرمة ، عن ابن عباس ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ قال : من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض .

(273/525)

ورواه ابن جرير عن ابن بشار ، عن ابن المهدي وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، ونص عليه أحمد بن حنبل في كتاب الرد على الجهمية . وقال مجاهد : هذه الآية كقوله : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السمآءِ إِلَى الأَرضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : 5] اه محل الغرض من ابن كثير ، وظواهر الأحاديث التي ساق يمكن الجمع بينها وبين ما ذكرنا من أن أصل اليوم كألف سنة ، ولكنه بالنسبة إلى المؤمنين يقصر ويخف ، حتى يكون

كنصف نهار . والله تعالى أعلم . وقرأ هذا الحرف ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا يَعُدُّونَ ﴾ بياء الغيبة ، وقرأه الباقون ﴿ تَعُدُّونَ ﴾ بتاء الخطاب ومعنى القراءتين واضح ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(274/525)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ . . ﴾ [الحج : 45]

(كأيِّن) أداة تدل على الكَثْرة مثل : كم الخبرية حين تقول : كَمْ أحسنتُ إليك . تعني مرات عديدة تفوق الحصر ، فهي تدل على المبالغة في العدد والكمية ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ . . ﴾ [آل عمران : 146] .

والقرية : اسم للمكان ، وحين يُهلِك الله القرية لا يُهلك المكان ، إنما يهلك المكين فيه ، فالمراد بالقرية أهلها ، كما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا . . ﴾ [يوسف : 82] أي : اسأل أهل القرية .

ويحتمل أن يكون المعنى : اسأل القرية تُجبك ، لأنك لو سألتَ أهل القرية فلربما يكذبون ، أمَّا القرية فتسجل الأحداث وتُخبِر بها كما حدثت .

وقد يتعدى الهلاك إلى القرية ذاتها ، فيغير معالمها بدليل قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظلموا . . ﴾ [النمل : 52] .

ومعنى : ﴿ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ . . ﴾ [الحج : 45] أي : بسبب ظُلْمها ، ولا يُغيّر الله ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم ، وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : 112] .

فهلاك القُرَى لا بُدَّ أن يكون له سبب ، فلما وقع عليها الهلاك أصبحت ﴿ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا . . ﴾ [الحج : 45] الشيء الخاوي يعني : الذي سقط وتهدَّم على غيره ، وقوله : ﴿ على عُرُوشِهَا . . ﴾ [الحج : 45] يدل على عِظَم ما حَلَّ بها من هلاك ، حيث سقط السقف أولاً ، ثم انهارت عليه الجدران ، أو : أن الله تعالى قَلَبها رأساً على عَقِب ، وجعل عاليها سافلها .

(275/525)

وقوله سبحانه : ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ . . ﴾ [الحج : 45] البئر : هو الفجوة العميقة في الأرض ، بحيث تصل إلى مستوى الماء الجوفيّ ، ومنه يُخرجون الماء للشُّرْب وللزراعة . .

إلخ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ . . ﴾ [القصص : 23] أي : البئر الذي يشربون منه .

والبئر حين تكون عاملة ومُسْتفاداً منها تلحظ حولها مظاهر حياة ، حيث ينتشر الناس حولها ، وينمو النبات على بقايا المياه المستخرجة منها ، ويحوم حولها الطير ليرتوي منها ، أما البئر المعطّلة غير المستعملة فتجدها خَرِبة ليس بها علامات حياة ، وربما تسفو عليها الرياح ، وتطمسها فتُعطَّل وتُهجَر ، فالمراد معطلة عن أداء مهمتها ، ومهمة البئر السُّقيا .

﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج : 45] القصر : اسم للمأوى الفَخْم ؛ لأن المأوى قد يكون خيمة ، أو فسطاطاً ، أو عريشة ، أو بيتاً ، أو عمارة ، وعندما يرتقي الإنسان في المأوى فيبني لنفسه شيئاً خاصاً به ، لكن لا بُدَّ له أنْ يخرج لقضاء لوازم الحياة من طعام وخلافه ، أما القصر فيعني مكان السكن الذي يتوفر لك بداخله كل ما تحتاج إليه ، بحيث لا تحتاج إلى الخروج منه ، يعني : بداخله كل مُقوّمات الحياة . ومنه : سميت الحور مقصورات في قوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الخيام ﴾

[الرحمن : 72] يعني : لا تتعداها ولا تخرج منها .

و﴿ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج : 45] من الشيد ، وهو الجير الذي يستعمل كَمُونَةٍ في بناء الحجر يعني : مادة للصق الحجارة ، وجَعْلها على مستوى واحد ، وقديماً كان البناء بالطوب اللَّبن ، والمونة من الطين ، أما في القصور والمساكن الفخمة الراقية فالبناء بالحجر ، والمشيد أيضاً

العالي المرتفع ، ومنه قولهم : أشاد به يعني : رفعه وأعْلى من مكانته ، والارتفاع من مَيْزات القصور ، ومعلوم أن مقاسات الغرف في العمارات مثلاً غيرها في القصور ، هذه ضيقة منخفضة ، وهذه واسعة عالية .

(276/525)

وفي قوله تعالى ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج : 45] دليل على أن هؤلاء المهلْكين كانوا من أصحاب الغِنَى والنعيم ، ومن سكان القصور ومِنْ عِلْية القوم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا . . ﴾

السَّيْر : قَطْع مسافات من مكان إلى آخر ، ويسمونه السياحة ، والحق سبحانه يدعو عباده إلى السياحة في أنحاء الأرض ؛ لأن للسياحة فائدتين :

فإما أنْ تكون سياحة استثمارية لاستنباط الرزق إنْ كنتَ في مكان يضيق بك العيش فيه ، كهؤلاء الذين يسافرون للبلاد الأخرى للعمل وطلب الرزق .

وإما أن تكون سياحة لأَخْذ العبرة والتأمل في مخلوقات الله في مُلْكه الواسع ليستدل بخَلْق الله وآياته على قدرته تعالى .

والسياحة في البلاد المختلفة تتيح لك فرصة ملاحظة الاختلافات من بيئة لأخرى ، فهذه حارة وهذه باردة ، وهذه صحراء جرداء وهذه خضراء لا يوجد بها حبة رمل ، لذلك يخاطبنا ربنا تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظروا . . ﴾ [الأنعام : 11]

فالعطف في الآية ب (ثُمَّ) يدل على أن للسياحة مهمة أخرى ، هي الاستثمار وطلب الرزق ، ففي الآية إشارة إلى الجمع بين هاتين المهمتين ، فحين تذهب للعمل إياك أنْ تغفل عن آيات الله في المكان الذي سافرت إليه ، وخُذْ منه عبرة كونية تفيدك في دينك .

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ . . ﴾ [النمل : 69]

العطف هنا بالفاء التي تفيد الترتيب ، يعني : سيروا في الأرض لتنظروا آيات الله ، فهي خاصة بسياحة الاعتبار والتأمل ، لا سياحة الاستثمار وطلب الرزق .

(277/525)

لذلك يقولون في الأمثال : (اللي يعيش ياما يشوف ، واللي يمشي يشوف أكثر) فكلما تعددتْ الأماكن تعددت الآيات والعجائب الدالة على قدرة الله ، وقد ترى منظراً لا يؤثر فيك ، وترى منظراً آخر يهزُّك ويُحرِّك عواطفك ، وتأملاتك في الكون .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ . . ﴾ [الحج : 46] تعني وتؤكد أنهم ساروا فعلاً ، كما تقول :

أفلم أُكرمك ؟ ولا تقول هذا إلا إذا أكرمته فعلاً ، وقد حدث أنهم ساروا فعلاً في البلاد أثناء رحلة الشتاء والصيف ، وكانوا يمرون على ديار القوم المهلكين ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . . ﴾ [الصافات : 137] .

يعني : أنتم أهل سَيْر وترحال وأهل نظر في مصير مَنْ قبلكم ، فكيف يقبل منكم الانصراف عن آيات الله ؟

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور ﴾ [الحج : 46] فما داموا قد ساروا وترحلَّوا في البلاد ، فكيف لا يعقلون آيات الله ؟ وكيف لا تُحرِّك قلوبهم ؟

ولنا وقفة عند قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ . . ﴾ [الحج : 46] وهل يعقِل الإنسانُ بقلبه ؟ معلوم أن العقل في المخ ، والقلب في الصدر .

نعم ، للإنسان وسائل إدراك هي الحواس التي تلتقط المحسَّات يُسمُّونها تأدُّباً مع العلم : الحواس الخمس الظاهرة ؛ لأن العلم أثبت للإنسان في وظائف الأعضاء حواساً أخرى غير ظاهرة ، فحين تُمسِك بشيئين مختلفين يمكنك أن تُميِّز أيهما أثقل من الآخر ، فبأيِّ حاسة من الحواس الخمس المعروفة توصلْتَ إلى هذه النتيجة ؟

إنْ قُلْتَ بالعين فدعْها على الأرض وانظر إليها ، وإنْ قُلْتَ باللمس فلك أنْ تلمسها دون أنْ ترفعها من مكانها ، إذن : فأنت لا تدرك الثقل بهذه الحواس ، إنما بشيء آخر وبآلة إدراك أخرى هي حاسة العَضَلِ الذي يُميّز لك الخفيف من الثقيل .

وحين تذهب لشراء قطعة من القماش تفرك القماش بلطف بين أنا ملك ، فتستطيع أنْ تُميّز الثخين من الرقيق ، مع أن الفارق بينهما لا يكاد يُذْكَر ، فبأيِّ حاسة أدركْتَه ؟ إنها حاسة البَيْن . كذلك هناك حاسة البُعْد وغيرها من الحواسّ التي يكتشفها العلم الحديث في الإنسان .

فلما يدرك الإنسان هذه الأشياء بوسائل الإدراك يتدخَّل العقل ليغربل هذه المدركات ، ويختار من البدائل ما يناسبه ، فإنْ كان سيختار ثوباً يقول : هذا أنعم وأرقّ من هذا ، وإنْ كان سيختار رائحة يقول : هذه ألطف من هذه ، إنْ كان في الصيف اختار الخفيف ، وإنْ كان في الشتاء اختار السميك .

وبعد أن يختار العقل ويوازن بين البدائل يحكم بقضية تستقر في الذِّهْن وتقتنع بها ، ولا تحتاج لإدراك بعد ذلك ، ولا لاختيار بين البدائل ، وعندها تنفذ ما استقر في نفسك ، وارتحْتَ إليه بقلبك .

إذن : إدراك بالحواس وتمييز بالعقل ووقوف عند مبدأ بالقلب ، وما دام استقر المبدأ في

قلبك فقد أصبح دستوراً لحياتك ، وكل جوارحك تخدم هذا المبدأ الذي انتهيتَ إليه ، واستقر في قلبك ووجدانك .

(279/525)

لكن ، لماذا القلب بالذات ؟ قالوا : لأن القلب هو الذي يقوم بعملية ضَخِّ سائل الحياة ، وهو الدم في جميع إجزاء الجسم وجوارحه ، وهذه الجوارح هي أداة تنفيذ ما استقر في الوجدان ؛ لذلك قالوا : الإيمان محلّه القلب ، كيف ؟ قالوا : لأنك غربلْتَ المسائل وصفَّيْت القضايا إلى أن استقرت العقيدة والإيمان في قلبك ، والإيمان أو العقيدة هي ما انعقد في القلب واستقرَّ فيه ، ومن القلب تمتد العقيدة إلى جميع الأعضاء والحواس التي تقوم بالعمل بمقتضى هذا الإيمان ، وما دُمْتَ قد انتهيتَ إلى مبدأ وعقيدة ، فإياك أنْ تخالفه إلى غيره ، وإلاَّ فيكون قلبك لم يفهم ولم يفقه .

وكلمة ﴿ يَعْقِلُونَ بِهَآ . . ﴾ [الحج : 46] تدل على أن للعقل مهام أخرى غير أنه يختار ويفاضل بين البدائل ، فالعقل من مهامه أنْ يعقل صاحبه عن الخطأ ، ويعقله أنْ يشرد في المتاهات ، والبعض يظن أن معنى عقل يعني حرية الفكر وأنْ يشطح المرء بعقله في الأفكار كيف يشاء ، لا ، العقل من عِقَال الناقة الذي يمنعها ، ويحجزها أنْ تشرُدَ منك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا . . ﴾ [الحج : 46] كيف ولهؤلاء القوم آذان تسمع ؟ نعم ، لهم آذان تسمع ، لكن سماع لا فائدة منه ، فكأن الحاسَّة غير موجودة ، وإلا ما فائدة شيء سمعتَه لكن لم تستفد به ولم تُوظِّفه في حركة حياتك ، إنه سماع كعدمه ، بل إن عدمه أفضل منه ؛ لأن سماعك يقيم عليك الحجة .

﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور ﴾ [الحج : 46] فعمي الأبصار شيء هيِّن ، إذا ما قِيسَ بعمى القلوب ؛ لأن الإنسان إذا فقد رؤية البصر يمكنه أنْ يسمع ، وأنْ يُعمل عقله ، وأنْ يهتدي ، ومَا لا يراه يمكن أنْ يخبره به غيره ، ويَصِفه له وَصْفا دقيقاً وكأنه يراه ، لكن ما العمل إذا عَمِيَتْ القلوب ، والأنظار مبصرة ؟

(280/525)

وإذا كان لعمى الأبصار بديل وعِوَض ، فما البديل إذا عَمي القلب ؟ الأعمى يحاول أنْ يتحسَّس طريقه ، فإنْ عجز قال لك : خُذْ بيدي ، أما أعمى القلب فماذا يفعل ؟

لذلك ، نقول لمن يغفل عن الشيء الواضح والمبدأ المستقر : أعمى قَلْب . يعني : طُمِس على قلبه فلا يعي شيئاً .

وقوله : ﴿ القلوب التي فِي الصدور ﴾ [الحج : 46] معلوم أن القلوب في الصدور ،

فلماذا جاء التعبير هكذا ؟ قالوا : ليؤكد لك على أن المراد القلب الحقيقي ، حتى لا تظن أنه القلب التفكيريّ التعقليّ ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم . . ﴾ [آل عمران : 167]

ومعلوم أن القَوْل من الأفواه ، لكنه أراد أن يؤكد على القول والكلام ؛ لأن القول قد يكون بالإشارة والدلالة ، فالقول بالكلام هو أبلغ أنواع القول وآكده ؛ لذلك قال الشاعر :

جِرَاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا الْتِئَامُ . . . ولاَ يُلْتَامُ مَا جَرَحَ اللسَانُ

ويقولون : احفظ لسانك الذي بين فكَّيْك ، وهل اللسان إلا بين الفكَّيْن ؟ لكن أراد التوكيد على القول والكلام خاصة ، لا على طرق التفاهم والتعبير الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ . . ﴾

ألم يقولوا في استعجال العذاب : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . . ﴾ [الأنفال : 32] .

وقالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الأعراف : 70] .

ولا يستعجل الإنسانُ العذابَ إلا إذا كان غَيْرَ مؤمن به ، المؤمن بالعذاب – حقيقةً – يخاف منه ، ويريد أنْ يبطئ عنه أو أنْ ينجوَ منه . والمعنى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب . . ﴾ [الحج : 47] أنهم يظنون أنَّه إنْ توعّدهم الله بالعذاب فإنه سيقع لِتَوِّه . لذلك ، الحق سبحانه يصحح لهم هذا الفهم ، فيقول : ﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . . ﴾ [الحج : 47] فلا تتعجلوا توعّدكم به ، فهو واقع بكم لا محالة ؛ لأنه وَعْد من الله ، والله لا يُخلِف وعده ، لكن اعلموا أن اليوم عند الله ليس كيومكم ، اليوم عندكم أربع وعشرون ساعة ، أما عند الله فهو كألف سنة من حسابكم أنتم للأيام .

واليوم زمن يتسع لبعض الأحداث ، ولا يسع أكثر مما قدِّر أن يُفعل فيه من الأحداث ، أما اليوم عند الله – عَزَّ وجَلَّ – فيسع أحداثاً كثيرة تملأ من الزمن ألف سنة من أيامكم ؛ ذلك لأنكم تزاولون الأعمال وتعالجونها ، أما الخالق سبحانه فإنه لا يزاول الأفعال بعلاج ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كُنْ فيكون ، ففِعْلُك يحتاج إلى وقت ، أما فِعْل ربك فبكلمة كُنْ . وقد شاء الحق سبحانه أنْ يعيشَ هؤلاء في عذاب التفكير في هذا الوعيد طول عمرهم ، فيُعذّبون به قبل حدوثه .

إذن : لا تظن أن العذاب الذي توعّدكم به سيحدث اليوم أو غداً ، لا ؛ لأن حساب الوقت مختلف .

ألم تقرأ قول الله تعالى لنبيه موسى – عليه السلام – لَمَّا دعا على قومه : ﴿ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم . . ﴾ [يونس : 88]

قال له ربه : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا . . ﴾ [يونس : 89] .

ويقول المفسرون : حدثتْ هذه الإجابة لموسى بعد أربعين سنة من دعوته عليهم .

(282/525)

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السمآء إِلَى الأرض ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : 5] .

وتزيد هذه المدة في قوله سبحانه : ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] لماذا ؟ لأن الزمن عندكم في هذه الحالة مُعطَّل ، فأنتم من هَوْل ما تروْنَ تستطيلون القصير ، ويمر عليكم الوقت ثقيلاً ؛ لذلك تتمنون الانصراف ولو إلى النار .

كما أن صاحب النعيم يستقصر الطويل ، ويمر عليه الوقت كأنه لمح البصر ، ومن ذلك ما تلاحظه من قِصَر الوقت مع الأحبة وطوله مع الأعداء ومَنْ لا يهواه قلبك ، ولهذه المسألة

شواهد كثيرة في شعرنا العربي ، منها قول أحدهم :

حَادِثَاتُ السُّرورِ تُوزَنُ وَزْناً . . . وَالبَلاَيَا تُكَال بالقُفْزَان

وقول الآخر :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي ولكِنْ لَمْ أَنَمْ . . . ونَفَى عَنّي الكَرَى طَيْفٌ أَلَمّ

ويقول ابن زيدون :

إنْ يَطُلْ بعدكَ لَيْلِي فَلَكَمْ . . . بتُّ أَشكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَك

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ . . ﴾

﴿ وَكَأَيِّن . . ﴾ [الحج : 48] قلنا : تدل على الكثرة يعني : كثير من القرى ، ﴿ أَمْلَيْتُ . . ﴾ [الحج : 48] : أمهلتُ ، لكن طوال الإمهال لا يعني الإهمال ؛ لأن الله تعالى يُملي للكافر ويُمهله لأجل ، فإذا جاء الأجل والعقاب أخذه .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ [الحج : 48] وأَخْذُ الشيء يتناسب مع قوة الآخذ وقدرته وعنف الانتقام بحسب المنتقم ، فإذا كان الآخذ هو الله عز وجل ، فكيف سيكون أَخْذه ؟

في آية أخرى يوضح ذلك فيقول : ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 42] لا يُغَالب ، ولا يمتنع منه أحد ، وكلمة الأَخْذ فيها معنى الشدة والعنف والقَهْر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَيَّ المصير ﴾ [الحج : 48] يعني : المرجع والمآب ، فلن يستطيعوا أنْ يُفلِتوا .

إذن : الإملاء : تأخير العذاب إلى أجل معين ، كما قال سبحانه : ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ [الطارق : 17] .

هذا الأجل قد يكون لمدة ، ثم يقع بهم العذاب ، كما حدث في الأمم السابقة التي أهلكها الله بالخسْف أو بالغرق . . الخ ، أما في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيكون الإملاء بأحداث سطحية في الدنيا ، كالذي حَلَّ بالكفار من الخِزْي والهوان والهزيمة وانكسار شوكتهم ، أمّا العذاب الحقيقي فينتظرهم في الآخرة .

لذلك يقول الحق – تبارك وتعالى – لنبيه صلى الله عليه وسلم : لا تستبطئ عذابهم والانتقام منهم في الدنيا ، فما لم تَرَهُ فيهم من العذاب في الدنيا ستراه في الآخرة : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر : 77] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(284/525)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ) (الحج : 45) ، وقال تعالى بعد هذا : (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ) (الحج : 48) ، يسأل عن الفرق الموجب لاختلاف الواقع في الآيتين ؟

والجواب : أن الآية الأولى تنزلت على ما ذكر قبلها ممن أهلك من القرون والأمم السالفة بتكذيبهم للرسل ، ممن قال فيهم بعد تفصيل ذكرهم : (وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ) (الحج : 44) ، وأما الآية الثانية فوقع قبلها ذكر استعجالهم العذاب تكذيباً واستبعاداً في قوله : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) (الحج : 47) ، فعرفوا بأن تأخيره عنهم إملاء للمكذبين به : (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا) (آل عمران : 178) ، وقيل في حالهم في التكذيب واستبعاد وقوع العذاب ، قد جرى لمن قبلهم من المكذبين ثم جاءهم ما كذبوا به وحل بهم ما استبعدوه فقال تعالى : (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا) (الحج : 48) ، فاستعجالهم العذاب أوجب تعريفهم بحال غيرهم ممن ناسب حالهم لعلهم يتذكرون ، يزيد ذلك بياناً قوله : (وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ) (الحج : 48) ، وكأن الكلام في قوة أن لو قيل لهم : إنما يعجل من يخاف الفوت ، أمّا إذا كان مرجع الكل ومصيرهم إليه فيأخذ المكذب متى شاء ، وإن أخره فإملاه لزيادة مِحنِهَ ، فوضح ما بين الآيتين ، وأنه

لا يمكن على ما تمهد وقوع واحدة منهما في موضع الأخرى ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 359.360 ﴾

(285/525)

لطيفة أخرى

قوله تعالى : (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) (الحج : 47) ، وفي سورة السجدة : (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) (السجدة : 5) ، وفي سورة المعارج : (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) (المعارج : 4) ، يسأل عن وجه الفرق ؟ وما معنى تقدير اليوم بما ذكر تعالى ؟

(286/525)

والجواب عنه ، والله أعلم : أن المراد تبيين أفعال سبحانه ، وأنه لا تكلف فيها ولا معالجة : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يس : 82) ، فكأن قد قيل لهم : إذا شاء

هذا بكم كان ، فإنه سبحانه المتعالي عن التعاون والمعالجة والافتقار ، فإذا قدر الشيء وأراد إنفاذه كان وتحصل في الوقت الوجيز القريب ، منه ما تصدرون حصوله ومعالجة وقوعه في ألف سنة من أيامكم أو ما تقدرون تهيئة ونفوذه بألف سنة من أيامكم على مألوفكم ، وإذا أراد سبحانه وقوع ذلك كان (عن أمره كن) أعجل من كل عاجل ، إذ ليست أفعاله كأفعال خلقه التي يحتاجون فيها إلى العون والعلاج والآلات ، تعالى الله عن شبه خلقه ، فَلِمَ يستعجلون ما لا تكلف في وقوعه وحلوله ؟ فإنما يمنع من استعجاله ربطه بأجل ، إذا بلغ الأجل كان وقوعه ، وهو يوم القيامة ، وهو الأجل المسمى ، ومن شاء تعجيل عذابه في دنياه أو ما شاء من امتحانه حل به إذا آن وقته ، وتوقفه عمن قدره عليه إملاء وزيادة في امتحانه ، (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا) (الحج : 48) ، (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) (الأعراف : 34) ، وعلى هذا قوله : (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ . . . .) (السجدة : 5) ، المراد أن بعد هذه المسافة لا تحول دون استعجال نفوذه تدبيره وإمضاء مقاديره ، وأنه سبحانه ليديرها ثم ترجع إليه في وقت لو وكل ذلك إليكم وكان من مقدوراتكم لفعلتموه في ألف سنة على نحو ما تقدم في الآية الأخرى .

(287/525)

وأما آية المعارج فالمراد باليوم المذكور فيها يوم القيامة ، الواقع فيها حساب الخلائق ، ووزن أعمالهم ، وفصل ما بينهم ، إلى استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، ففيه من الأعمال المتعلقة بالخلق ما يتقدر وقوعه وتخلصه من أيام الدنيا على متعارفها ، مع عظيم أهواله وشدة كروبه ، وأيام الأهوال والشدائد توصف بالطول لعظيم أهوالها ، مع ما يقتضي فيه . مقدر من أيامنا بخمسين ألف سنه ، وهو على مؤمن التقي كصلاة صلاها ، قال تعالى : (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) (المدثر : 8 – 10) ، ويدل على أن المراد به يوم القيامة ما ذكره الله سبحانه عقب تقديره من وصفه بقوله : (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ) (المعارج : 8) إلى قوله : (وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ) (المعارج : 14) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 360 . 361 ﴾

(288/525)

لطيفة

قال ابن عجيبة :

الإشارة : عمى القلوب هو انطماس البصيرة ، وعلامة انطماسها أمور : إرسال الجوارح في معاصي الله ، والانهماك في الغفلة عن الله ، والوقيعة في أولياء الله ، والاجتهاد في طلب الدنيا مع التقصير فيما طلبه منه الله . وفي الحِكَم : « اجتهادك فيما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك ، دليل على انطماس البصيرة منك » . وعلامة فتحها أمور : المسارعة إلى طاعة الله ، واستعمال المجهود في معرفة الله ، بصحبة أولياء الله ، والإعراض عن الدنيا وأهلها ، والأنس بالله ، والغيبة عن كل ما سواه . واعلم أن البصر والبصيرة متقابلان في أصل نشأتهما ، فالبصر لا يُبصر إلا الأشياء الحسية الحادثة ، والبصيرة لا تُبصر إلا المعاني القديمة الأزلية ، فإذا انطمست البصيرة كان العبد مفروقًا عن الله ، لا يرى إلا الأكوان الظلمانية الحادثة . وفي ذلك يقول المجذوب رضي الله عنه .

مَنَ نَظَرَ الكَوْن بِالْكَوْنِ غَرَّهُ في عمى البصيرة . . . ومن نظر الكون بالمكون صادق علاج السريرة

وإذا انفتحت البصيرة بالكلية استولى نورها على نور البصر ، فانعكس نور البصر إلى البصيرة ، فلا يرى العبدُ إلا أسرار المعاني الأزلية ، المفنية للأواني الحادثة ، فيغيب عن رؤية الأكوان بشهود المكون . وعِلاَجُ انفتاحها يكون على يد طبيب ماهر عارف بالله ، يقدحها له بمرود التوحيد ، فلا يزال يعالجها بإثمد توحيد الأفعال ، ثم توحيد الصفات ، ثم توحيد الذات ، حتى تنفتح . فتوحيد الأفعال والصفات يُشهد قُرب الحق من العبد ،

وتوحيد الذات يُشهد عدمه لوجود الحق ، وهو الذي أشار إليه في الحكم بقوله : « شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق ، لا عدمك ولا وجودك . كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان » . فيرى حينئذ من أسرار الذات وأنوار الصفات ما لا يراه الناظرون ، ويشاهد ما لا يشاهده الجاهلون . وفي ذلك يقول الحلاج :

(289/525)

قُلوبُ العَارفينَ لَهَا عُيُونٌ . . . تَرَى مَا لا يُرَى للنَّاظِرِينَا

وأجْنِحَةٌ تَطِيرُ بغَيْرِ رِيشٍ . . . إلَى مَلَكُوتِ رَبِّ العَالَمِينا

وألْسِنَةٌ بأسْرَارٍ تُنَاجِي . . . تَغيبُ عن الكِرَامِ الكَاتِبِينا

وقال الورتجبي : الجهال يرون الأشياء بأبصار الظواهر ، وقلوبهم محجوبة عن رؤية حقائق الأشياء ، التي تلمع منها أنوار الذات والصفات ، وأعماهم الله بغشاوة الغفلة وغطاء الشهوة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 542 . 543 ﴾

(290/525)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ .

ظاهر هذه الآية أن الأبصار لا تعمى ، وقد جاءت آيات أخر تدل على عمى الأبصار كقوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ , وكقوله: ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ .

والجواب: أن التمييز بين الحق والباطل وبين الضار والنافع وبين القبيح والحسن لما كان كله بالبصائر لا بالإبصار صار العمى الحقيقي هو عمى البصائر لا عمى الأبصار ألا ترى أن صحة العينين لا تفيد مع عدم العقل كما هو ضروري وقوله: ﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ يعني بصائرهم أو أعمى أبصارهم عن الحق وإن رأت غيره . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 205 . 206 ﴾

(291/525)

فائدة أخرى

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل على أن مقدار اليوم عند الله ألف سنة وكذلك قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

وقد جاءت آية أخرى تدل على خلاف ذلك وهي قوله تعالى في سورة سأل سائل:

﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ الآية, إعلم أولا أن أبا عبيدة روى عن إسماعيل ابن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة أنه حضر كلاً من ابن عباس وسعيد ابن المسيب سئل عن هذه الآيات فلم يدر ما يقول فيها ويقول لا أدري .

وللجمع بينهما وجهان:

الوجه الأول: هو ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس من أن يوم الألف في سورة الحج هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات و الأرض ، ويوم الألف في سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى .

ويوم الخمسين ألفا هو يوم القيامة .

الوجه الثاني: أن المراد بجميعها يوم القيامة وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر ؛ ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ذكر هذين

الوجهين صاحب الإتقان . والعلم عند الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 207.206 ﴾

(292/525)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45) ﴾

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن قتادة ﴿ فهي خاوية على عروشها ﴾ قال : خربة ليس فها أحد ﴿ وبئر معطلة ﴾ قال : عطلها أهلها وتركوها ﴿ وقصر مشيد ﴾ قال شيدوه وحصنوه فهلكوا وتركوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وبئر معطلة ﴾ قال : التي تركت لا أهل لها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وقصر مشيد ﴾ قال هو المجصص .

وأخرج الطستي ، عن ابن عباس : أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ وقصر مشيد ﴾ قال : شيد بالجص والآجر . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت عدي بن زيد وهو يقول :

شاده مرمرا وجلله . . . كلسا فللطير في ذراه وكور

وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد ﴿ وقصر مشيد ﴾ قال : بالقصة .

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق ، عن عطاء ﴿ وقصر مشيد ﴾ قال : مجصص .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾

أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر ، عن ابن دينار قال : أوحى الله إلى موسى عليه السلام ، أن اتخذ نعلين من حديد ، وعصا ثم سح في الأرض ، فاطلب الآثار والعبر ، حتى تحفوا النعلان وتنكسر العصا .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ﴾ قال : ما هذه الأبصار التي في الرؤوس ؟ فإنها جعلها الله منفعة وبلغة ، وأما البصر النافع فهو في القلب . ذكر لنا أنها نزلت في عبد الله بن زائدة يعني ابن أم مكتوم .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وأبو نصر السجزي في الإبانة في شعب الإيمان ، والديلمي ، في مسند الفردوس ، عن عبد الله بن جراد قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " ليس الأعمى من يعمى بصره ، ولكن الأعمى من تعمى بصيرته " .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ قال : قال ناس من جهلة هذه الأمة ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ قال : من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض .

وأخرج ابن المنذر ، عن عكرمة ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ قال : يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن إبراهيم قال : ما طول ذلك اليوم على المؤمن ، إلا كما بين الأولى والعصر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة ،

فقد مضى منها ستة آلاف .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الأمل ، عن سعيد بن جبير قال : إنما الدنيا جمعة من جمع الآخرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن محمد بن سيرين عن رجل من أهل الكتاب أسلم قال : إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ وجعل أجل الدنيا ستة أيام ، وجعل الساعة في اليوم السابع ، فقد مضت الستة الأيام ، وأنتم في اليوم السابع ، فمثل ذلك مثل الحامل إذا دخلت في شهرها ، ففي أية ساعة ولدت كان تماماً .

(294/525)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن صفوان بن سلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياء من المسلمين بنصف يوم . قيل : وما نصف اليوم ؟ قال خمسمائة عام " وتلا ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق ضمير بن نهار قال : قال أبو هريرة يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم . قلت : وما مقدار نصف يوم ؟ قال : أو ما تقرأ القرآن ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ .

وأخرج أحمد في الزهد ، عن ضمير بن نهار ، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم " وتلا ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ .

وأخرج البيهقي في الشعب ، عن ابن عباس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من صلى على جنازة فانصرف قبل أن يفرغ منها كان له قيراط ، فإن انتظر حتى يفرغ منها كان له قيراطان ؛ والقيراط مثل أحد في ميزانه يوم القيامة " ثم قال ابن عباس : حق لعظمة ربنا أن يكون قيراطه مثل أحد ، ويومه كألف سنة .

وأخرج ابن عدي والديلمي ، عن أنس قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " الدنيا كلها سبعة أيام من أيام الآخرة " وذلك قول الله ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(295/525)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ :

يجوز أن تكونَ "كأيِّنْ" منصوبةً المحل على الاشتغالِ بفعلٍ مقدرٍ يُفَسره "أهلكناها" وأَنْ يكونَ في محلِّ رفعٍ بالابتداءِ، والخبر "أَهْلكناها". وقد تقدَّم تحقيقُ القولِ فيها.

قوله: ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ جملةٌ حاليةٌ مِنْ هاء "أَهْلكناها".

قوله: ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ عطفٌ على "أَهْلَكْناها"، فيجوزُ أن تكونَ في محلِّ رفعٍ لعطفِها على الخبر على القول الثاني، وأنْ لا يكونَ لها محلٌّ لعطفِها على الجملةِ المفسِّرة على القول الأول. وهذا عنى الزمخشريُّ بقوله: "والثانيةُ يعني قولَه: ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ لا محلَّ لها لأنها معطوفةٌ على "أهلكناها"، وهذا الفعلُ ليس له محلٌ تفريعاً/ على القولِ بالاشتغالِ. وإلاَّ فإذا قلنا: إنه خبرٌ ل "كأيِّن" كان له محلٌّ ضرورةً.

وقرأ أبو عمرو "أهلكتُها". والباقون "أَهْلكناها" وهما واضحتان.

قوله: ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ عطفٌ على "قريةٍ"، وكذلك و "قَصْرٍ" أي: وكأيِّن من بئرٍ وقصرٍ أَهْلكناها أيضاً، هذا هو الوجهُ. وفيه وجهٌ ثانٍ: أَنْ تكونَ معطوفةً وما بعدها على "عروشِها" أي: خاوية على بئرٍ وقصرٍ أيضاً. وليس بشيءٍ.

والبِئْرُ: مِنْ بَأَرْتُ الأرض أي حفرتُها. ومنه "التَّأْبير" وهو شَقٌّ . . . . . الطلع.

والبِئْر فِعْل بمعنى مَفْعول كالذِّبْح بمعنى المَذْبوح وهي مؤنثةٌ، وقد تُذَكَّرُ على معنى القليب.

وقوله:

3395 . . . . . وبِئْرِي ذو حَفَرْتُ وذو طَوَيْتُ

(296/525)

يَحتمل التذكيرَ والتأنيثَ . والمُعَطَّلَةُ : المُهْملة ، والتعطيل : الإهمال . وقرىء " مُعْطَلَةٍ " بالتخفيف يقال : أَعْطَلْتُ البئر وعَطَّلْتُها فَعَطَلَت بفتح الطاء ، وأما عَطِلَتْ المرأةُ من الحُلِيِّ فبكسرِ الطاءِ . والمَشِيْدُ : قد تَقدَّم أنه المرتفعُ أو المُجَصَّصُ . وإنما بني هنا مِنْ شادَه ، وفي النساء مِنْ شَيَّده ؛ لأنه هناك بعد جمعٍ فناسَبَ التكثيرَ ، وهنا بعد مفردٍ فناسَب التخفيفَ ، ولأنه رأسُ آيةٍ وفاصلةٍ .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾

قوله : ﴿ فَتَكُونَ ﴾ : هو منصوبٌ على جوابِ الاستفهامِ . وعبارةُ الحوفي " على جوابِ التقريرِ " . وقيل : على جوابِ النفيِ ، وقرأ مبشّر بنُ عبيد " فيكونَ " بالياءِ من تحتُ ؛ لأنَّ التأنيثَ مجازيٌّ . ومتعلَّقُ الفعلِ محذوفٌ أي : ما حَلَّ بالأممِ السالفةِ .

قوله : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ﴾ الضميرُ للقصةِ . و ﴿ لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ﴾ مُفَسِّرَةٌ له .

وحَسَّنَ التأنيثَ في الضمير كونُه وَلِيَه فِعْلٌ بعلامةِ تأنيثٍ ، ولو ذُكِّر في الكلامِ فقيل : " فإنه "

لجازَ ، وهي قراءةٌ مَرْوِيَّةٌ عن عبد الله ، والتذكيرُ باعتبارِ الأمرِ والشأنِ . وقال الزمخشري : " ويجوزُ أن يكون ضميراً مُبْهماً يُفَسِّره " الأبصارُ " وفي " تَعْمَى " راجعٌ إليه " . قال الشيخ : " وما ذكره لا يجوزُ لأن الذي يُفَسِّره ما بعدَه محصورٌ ، وليس هذا واحداً منه : وهو من باب " رُبَّ " ، وفي بابِ نِعْم وبئس ، وفي باب الإِعمال ، وفي باب البدل ، وفي باب المبتدأ والخبر ، على خلافٍ في بعضها ، وفي باب ضمير الشأن ، والخمسةُ الأُوَلُ تُفَسَّر بمفرد إلاَّ ضميرَ الشأنِ ، فإنه يُفَسَّر بجملةٍ ، وهذا ليس واحداً من الستة " .

(297/525)

قلت : بل هذا من المواضع المذكورةِ ، وهو باب المبتدأ . غايةُ ما في ذلك أنه دَخَلَ عليه ناسخٌ وهو " إنَّ " فهو نظيرُ قولِهم : " هي العروبُ تقول ما شاءَتْ ، وهي النفسُ تتحمَّل ما حَمَلَتْ " وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا ﴾ [الأنعام : 29] . وقد جعل الزمخشريُّ جميعَ ذلك مِمَّا يُفَسَّر بما بعده ، ولا فرقَ بين الآيةِ الكريمةِ وبين هذه الأمثلةِ إلاَّ دخولُ الناسخِ ولا أثرَ له ، وعَجِبْتُ من غَفْلَةِ الشيخ عن ذلك .

قوله : ﴿ التي فِي الصدور ﴾ صفةٌ أو بدلٌ أو بيانٌ . وهل هو توكيدٌ ؛ لأنَّ القلوبَ لا تكونُ في غير الصدور ، أو لها معنى زائدٌ ؟ كما قال الزمخشري : " الذي قد تُعُوْرِف واعتُقِدَ أنَّ

العمى في الحقيقة مكانُه البصرُ ، وهو أن تصابَ الحَدَقَةُ بما يَطْمِسُ نورَها ، واستعمالُه في القلبِ استعارةٌ ومَثَلٌ . فلمَّا أُريدَ إثباتُ ما هو خلافُ المعتقدِ مِنْ نسبةِ العمى إلى القلوبِ حقيقةً ، ونفيُه عن الأبصارِ ، احتاج هذا التصويرُ إلى زيادةِ تعيينٍ وفَضْلِ تعريفٍ ؛ ليتقرَّرَ أنَّ مكانَ العمى هو القلوبُ لا الأبصارُ ، كما تقولُ : ليس المَضاءُ للسَّيْفَ ، ولكنه لِلسانِك الذي بينَ فَكَّيْكَ . فقولُك : " الذي بين فَكَّيْكَ " تقريرٌ لما ادَّعَيْتَه لِلسانِه وتثبيتٌ ؛ لأنَّ مَحَلَّ المَضاءِ هو هو لا غير ، وكأنَّك قلتَ : ما نَفَيْتُ المَضاءَ عن السيفِ وأثبتُّه لِلسانِك فلتةً مني ولا سَهواً ، ولكن تَعَمَّدْتُ به إيَّاه بعينه تَعَمُّداً .

وقد رَدَّ الشيخ على أبي القاسم قولَه : " تَعَمَّدْتُ به إياه " وجعل هذه العبارةَ عُجْمَةً من حيث إنه فَصَلَ الضميرَ ، وليس من مواضعِ فَصْلِه ، وكان صوابُه أن يقول : تعمَّدْتُه به كما تقول : " السيفُ ضربتُك به " لا " ضربْتُ به إياك " .

(298/525)

قلت : وقد تقدَّم لك نظيرُ هذا الردِّ والجوابُ عنه بما أُجيب عن قولِه تعالى : ﴿ يُخْرِجُونَ الرسول وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الممتحنة : 1] ، ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [النساء : 131] : وهو أنه مع قَصْدِ تقديمِ غيرِ الضميرِ عليه لغرضٍ يمتنعُ

اتصالُه ، وأيُّ خطأ في مثل هذا حتى يَدَّعي العُجْمَةَ على فصيحٍ شَهِدَ له بذلك أعداؤُه ، وإن كان مُخْطِئاً في بعضِ الاعتقاداتِ مِمَّا لا تَعَلُّقَ له فيما نحن بصدِده ؟

وقال الإمامُ فخر الدين : " وفيه عندي وجهٌ آخرُ : وهو أنَّ القلبَ قد يُجْعَل كُنايةً عن الخاطرِ والتدبُّرِ ، كقولِه تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق : 37] . وعند قومٍ أنَّ محلَّ الذِّكْرِ هو الدماغُ ، فاللهُ تعالى بيَّن أنَّ مَحَلَّ ذلك هو الصدرُ " . وفي محلِّ العقلِ خلافٌ مشهورٌ ، وإلى الأولِ مَيْلُ ابنِ عطية قال : " هو مبالغةٌ كما تقول : نظرتُ إليه بعيني ، وكقوله : يقولون بأَفْواههم " . قلت : وقد أَبْدَيْتُ فائدةً في قوله " بأفواههم " زيادةً على التأكيد .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (47) ﴾

قوله : ﴿ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ : قرأ الأخَوان وابن كثير "يَعُدُّون " بياءِ الغَيْبة . والباقون بتاءِ الخطاب وهما واضحتان .

قوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ : قد تقدَّم نظيرُها . قال الزمخشري : " فإن قلتَ : لِمَ عُطِفَتْ الأولى بالفاء ، وهذه بالواو ؟ قلت الأولى وَقَعَتْ بدلاً مِنْ قولِه ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ و [أمَّا] هذه فحكمُها حكمُ الجملتين قبلها المعطوفَتَيْن بالواو ، أعني قولَه ﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ

وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 291.286 ﴾

(299/525)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ .

الظلمُ يوجِبُ خرابَ أوطانِ الظالم ، فتخرب أولاً أوطان راحة الظالم وهو قلبه ، فالوحشةُ التي هي غالبةَ على الظَّلَمَةِ من ضيقِ صدورهم ، وسوءِ أخلاقهم ، وفَرْطِ غيظ مَنْ يَظْلِمُونَ عليهم . . . كل ذلك من خراب أوطان راحاتهم ، وهو في الحقيقة من جملة العقوبات التي تلحقهم على ظلمهم .

ويقال خرابُ منازلِ الظَّلَمَةِ ربما يتأخر وربما يتعجل . وخرابُ نفوسهم في تعطلها عن العباداتِ لِشُؤْمِ ظُلْمِهم ، وخرابُ قلوبهم باستيلاء الغفلة عليهم خصوصاً في أوقات صلواتهم وأوان خلواتهم . . . نقدٌ غير مستأخر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ .

الإشارة في ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ : إلى العيون المتفجرة التي كانت في بواطنهم ، وكانوا يستقون منها ، وفي ذلك الاستقاء حياةُ أوقاتِهم من غلبات الإرادة وقوة المواجيد ، فإذا اتصفوا بظلمهم غَلَبَ غُثاؤها وانقطع ماؤها بانسداد عيونها .

والإشارة في ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيها من الهيبة والأُنس ، وخُلُوّ أرواحهم من أنوار المحابّ ، وسلطان الاشتياق ، وصنوف المواجيد .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

كانت لهم مقلوبٌ من حيث الخلقة ، فلما زايلتها صفاتُها المحمودةُ صارت كأنها لم تكن في الحقيقة . ثم إنه أخبر أن العمى عمى القلب وكذلك الصم . وإذا صَحَّ وصفُ القلبِ بالسمع والبصر صَحَّ وصفُه بسائر صفات الحيِّ من وجوه الإدراكات ؛ فكما تبصر القلوبُ بنور اليقين يُدْرَكُ نسيمُ الإقبال بِمَشَامِّ السِّرِّ ، وفي الخبر :

(300/525)

" إني لأجد نَفَسَ ربكم من قِبَل اليمن " وقال تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 49] وما كان ذلك إلا بإدراك السرائر دون اشتمام ريحٍ

في الظاهر .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47)

عَدَمُ تصديقهم حَمَلَهم على استعمال ما توعدهم به ، قال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى : 18] ولو آمنوا لصدَّقوا ، ولو صدَّقوا لَسَكَنُوا . ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ ﴾ : أي إنَّ الأيامَ عنده تتساوى ، إذ لا استعجالَ له في الأمور ؛ فسواء عنده يوم واحد وألف سنة ؛ إذ مَنْ لا يَجْرِي عليه الزمانُ وهو يُجْرِي الزمانَ فَسَوَاء عليه وجودُ الزمانِ ، وعدم الزمان وقِلة الزمان وكَثْرَةُ الزمانِ .

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48)

الإمهال يكون من الله – سبحانه وتعالى ، والإمهال يكون بأَنْ يَدَعَ الظالمَ في ظُلمِه حيناً ، ويوسِّع له الحَبْل ، ويطيل به المهل ، فيتوهم أنه انفلت من قبضة التقدير ، وذلك ظنه الذي أراده ، ثم يأخذه من حيث لا يَرْتَقِب ، فيعلوه نَدَمٌ ، ولات حينه ، وكيف يستبقي بالحيلة ما حق في التقدير عَدَمُه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 551 . 553 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والعشرون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس والعشرون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 49 ﴾ من سورة الحج

وحتى الآية ﴿ 55 ﴾ من نفس السورة

(4/526)

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الاستعجال بالأفعال لا يطلب من الرسول ، وكان الإخبار باستهزائهم وشدة عماهم ربما أفهم الإذن في الإعراض عنهم أصلاً ورأساً قال سبحانه وتعالى مزيلاً لذلك منبهاً على أن مثله إنما يطلب من المرسل ، لا من الرسول : ﴿ قل ﴾ أي لهم ، ولا يصدنك عن دعائهم ما أخبرناك به من عماهم ﴿ يا أيها الناس ﴾ أي جميعاً من قومي وغيرهم ﴿ إنما أنا لكم نذير ﴾ أي وبشير ، وإنما طواه لأن المقام للتخويف ، ويلزم منه الأمن للمنتهى

فتأتي البشارة ، ولأن النذارة هي المقصود الأعظم من الدعوة ، لأنه لا يقدم عليها إلا المؤيدون بروح من الله ﴿ مبين ﴾ أي لكل ما ينفعكم لتلزموه .

ويضركم فتتركوه لا إله ، أعجل لكم العذاب ؛ ثم تسبب عن كونه مبيناً العلم بأن وصف البشارة مراد وإن طوي ، فدل عليه سبحانه بقوله تفضيلاً لأهل البشارة والنذارة : ﴿ فالذين آمنوا ﴾ أي أقروا بالإيمان ﴿ وعملوا ﴾ أي تصديقاً لدعواهم ذلك ﴿ الصالحات لهم مغفرة ﴾ لما فرط منهم من التقصير لأنه لن يقد أحد أن يقدر الله حق قدره .

ولما كان هذا أول الإذن في القتال ، الموجب لمنابذة الكفار ، ومهاجرة الأهل والأموال والديار ، وكان ذلك – مع كونه في غاية الشدة – موجباً للفقر عادة ، قال محققاً له ومنبهاً على أنه سبب الرزق : ﴿ ورزق ﴾ أي في الدنيا بالغنائم وغيرها ، والآخرة بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ كريم ﴾ لا خسة فيه ولا دناءة بانقطاع ولا غيره أصلاً ما داموا على الاتصاف بذلك ، هذا فعل ربهم بهم عكس ما وصف به مدعو الكفار من أن ضره أقرب من نفعه .

(5/526)

ولما كان في سياق الإنذار ، قال معبراً بالماضي زيادة في التخويف : ﴿ والذين سعوا ﴾ أي أوقعوا السعي ولو مرة واحدة بشبهة من الشبه ونحوها ﴿ في آياتنا ﴾ أي التي نصبناها للدلالة علينا مرئية أو مسموعة ﴿ معاجزين ﴾ أي مبالغين في فعل ما يلزم - في زعمهم - منه عجزنا ، ومعجزين ، أي مقدرين أنهم يعجزوننا بإخفائهم آياتنا ، وإضلال الناس وصدهم عنها بألقاء الشبه والجدال ، اتباعاً للشيطان المريد ، من غير علم ولا هدى ولا كتب منير كشبه الاتحادية الذين راج أمرهم على كثير من الناس مع أنه لا شيء أوهى من شبههم ولا أظهر بطلاناً ، ولذلك راج أمرها على أهل الغباوة ، فإن الداعية منهم يقول لمن يغره : هذا الظاهر من الكلام لا يقول به عاقل ، فالمراد به أسرار دقيقة ، وراء طور العقل ، لا يوصل إليه إلا بالرياضة والكشف ، وما درى المغرور أن أبا طالب كان أعقل من هذا الذي ينسب إليه ذلك الكفر الظاهر ، فإن شعره أحسن من شعره ، وبديهته أعظم من بديهته ، ورؤيته أحكم من رؤيته ، وقد رأى من الآيات من النبي - صلى الله عليه وسلم - ما لا مزيد عليه ، مع أن له من القرابة ما هو معروف ، ومن المحبة ما يفوت الحصر ، ومع ذلك فقد أصرّ من الضلال ما لا يرضاه حمار لو نطق ، على أن هذا المغرور قد لزمه - بتحسين الظن بهؤلاء الكفرة - إساءة الظن بأشرف الخلق : النبي - صلى الله عليه وسلم - في قوله

" من رأى منكم منكراً " – الحديث الذي في بعض رواياته : " وليس وراء ذلك أي الإنكار بالقلب – مثقال حبة من إيمان " وقد أفردت لبيان ضلالهم كتباً لما استطار من شرهم ، ومس من ضرهم ، منها المطول والمختصر ، لا مزيد على بيانها وظهور سلطانها

﴿ أولئك ﴾ البعداء البغضاء ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ أي استحقاقاً بما سعوا ، فإن شاء تاب عليهم ، وإن شاء كبهم فيها ، ليعلموا أنهم هم العاجزون ، هذا في الآخرة ، وسيظهر سبحانه في الدنيا أيضاً عجزهم ، بكشف شبههم ومج القلوب النيرة لها ، مع ذلهم وانكسارهم ، وهوانهم وصغارهم ، حتى لا يقدروا أن ينطقوا من ذلك ببنت شفة ، علماً منهم أن مثلها لا يقوله عاقل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 162 . 163 ﴾

(7/526)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فالمعنى أنه تعالى أمر رسوله بأن يديم لهم التخويف والإنذار ، وأن لا يصده ما يكون منهم من الاستعجال للعذاب على سبيل

الهزؤ عن إدامة التخويف والإنذار ، وأن يقول لهم إنما بعثت للإنذار فاستهزاؤكم بذلك لا يمنعني منه .

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين للرسول صلى الله عليه وسلم أنه يجب أن يقول لهم أنا نذير مبين أردف ذلك بأن أمره بوعدهم ووعيدهم ، لأن الرجل إنما يكون منذراً بذكر الوعد للمطيعين والوعيد للعاصين .

فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات فجمع بين الوصفين وهذا دليل على أن العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان وبه يبطل قول المعتزلة ويدخل في الإيمان كل ما يجب من الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان ، ويدخل في العمل الصالح أداء كل واجب وترك كل محظور ، ثم بين سبحانه أن من جمع بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم .

أما المغفرة فإما أن تكون عبارة عن غفران الصغائر ، أو عن غفران الكبائر بعد التوبة ، أو عن غفرانها قبل التوبة ، والأولان واجبان عند الخصم ، وأداء الواجب لا يسمى غفراناً ، فبقي الثالث وهو دلالته على العفو عن أصحاب الكبائر من أهل القبلة .

وأما الرزق الكريم فهو إشارة إلى الثواب ، وكرمه يحتمل أن يكون للصفات السلبية ، وهو أن الإنسان هناك يستغني عن المكاسب وتحمل المشاق والذل فيها وارتكاب المآثم والدناءة بسببها ، وأن يكون للصفات الثبوتية ، وهو أن يكون رزقاً كثيراً دائماً خالصاً عن شوائب

الضرر ، مقروناً بالتعظيم والتبجيل .

والأولى جعل الكريم دالاً على كل هذه الصفات ، فهذا شرح حال المؤمنين .

(8/526)

وأما حال الكفار فقال : ﴿ والذين سَعَوْاْ فِى ءاياتنا معاجزين ﴾ والمراد اجتهدوا في ردها والتكذيب بها حيث سموها سحراً وشعراً وأساطير الأولين ، ويقال لمن بذل جهده في أمر : إنه سعى فيه توسعاً من حيث بلغ في بذل الجهد النهاية ، كما إذا بلغ الماشي نهاية طاقته فيقال له سعى ، وذكر الآيات وأراد التكذيب بها مجازاً .

قال صاحب "الكشاف" : يقال سعى في أمر فلان إذا أصلحه أو أفسده بسعيه ، أما المعاجز فيقال عاجزته ، أي طمعت في إعجازه ، واختلفوا في المراد ، هل معاجزين لله أو للرسول وللمؤمنين ، والأقرب هو الثاني لأنهم إن أنكروا الله استحال منهم أن يطمعوا في إعجازه وإن أثبتوه فيبعد أن يعتقدوا أنهم يعجزونه ويغلبونه ، ويصح منهم أن يظنوا ذلك في الرسول بالحيل والمكايد .

أما الذين قالوا المراد معاجزين لله ، فقد ذكروا وجوهاً : أحدها : المراد بمعاجزين مغالبين مفوتين لربهم من عذابهم وحسابهم حيث جحدوا البعث وثانيها : أنهم يثبطون غيرهم

عن التصديق بالله ويثبطونهم بسبب الترغيب والترهيب وثالثها : يعجزون الله بإدخال الشبه في قلوب الناس والجواب : عن الأول أن من جحد أصل الشيء لا يوصف بأنه مغالب لمن يفعل ذلك الشيء ، ومن تأول الآية على ذلك فيجب أن يكون مراده أنهم ظنوا مغالبة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما كان يقوله من أمر الحشر والنشر والجواب : عن الثاني والثالث أن المغالبة في الحقيقة ترجع إلى الرسول والأمة ، لا إلى الله تعالى .

(9/526)

أما قوله تعالى : ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ فالمراد أنهم يدومون فيها وشبههم من حيث الدوام بالصاحب ، فإن قيل إنه عليه السلام في هذه الآية بشر المؤمنين أولاً وأنذر الكافرين ثانياً ، فكان القياس أن يقال : قل يا أيها الناس إنما أنا لكم بشير ونذير ، قلنا الكلام مسوق إلى المشركين ، ويا أيها الناس نداء لهم ، وهم الذين قيل فيهم ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ [الحج : 46] ووصفوا بالاستعجال وإنما ألقى ذكر المؤمنين وثوابهم في البين زيادة لغيظهم وإيذائهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 41.42 ﴾

(10/526)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : أنه تكذيبهم بالقرآن ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : أنه عنادهم في الدين ، قاله الحسن .

﴿ مُعَجِزِينَ ﴾ قراءة ابن كثير وأبي عمرو ، وقرأ الباقون ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ فمن قرأ معجزين ففي تأويله أربعة أوجه :

أحدها : مثبطين لمن أراد اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قول السدي .

الثاني : مثبطين في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قول مجاهد .

والثالث : مكذبين ، حكاه ابن شجرة .

الرابع : مَعَجِزِينَ لمن آمن بإظهار تعجيزة في إيمانه .

ومن قرأ ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ ففي تأويله أربعة أوجه :

أحدها : مشاققين ، قاله ابن عباس .

والثاني : متسارعين ، حكاه ابن شجرة .

والثالث : معاندين ، قاله قطرب .

والرابع : مُعَاجِزِينَ يظنون أنهم يُعْجِزُونَ الله هرباً ، قاله السدي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(11/526)

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) ﴾

المعنى ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إنما أنا نذير ﴾ عذاب ليس إلي أن أعجل عذاباً ولا أن أؤخره عن وقته ، ثم قسم حالة المؤمنين والكافرين بأن للمؤمنين سترة ذنوبهم ورزقه إياهم في الجنة ، و" الكريم " صفة نفي المذام ، كما تقول ثوب كريم ، وأن للكافرين المعاجزين عذاب ﴿ الجحيم ﴾ وهذا كله مما أمره أن يقوله ، أي هذا معنى رسالتي لا ما تتمنون أنتم ، وقوله ﴿ سعوا ﴾ معناه تحيلوا وكادوا من السعاية ، و" الآيات " : القرآن ، أو كادوه بالتكذيب وسائر أقوالهم ، وقرأت فرقة ، " معاجزين " ، ومعناه مغالبين كأنهم طلبوا عجز صاحب الآيات والآيات تقتضي تعجيزهم فصارت مفاعله ، وعبر بعض الناس في تفسير ﴿ معاجزين ﴾ بظانين أنهم يفلتون الله وهذا تفسير خارج عن اللفظة ، وقرأت فرقة " معجّزين " بغير ألف وبشد الجيم ومعناه معجزين الناس أي جاعلوهم بالتثبيط عجزة عن

الإيمان وقال أبو علي : " معجزين " ناسبين أصحاب النبي إلى العجز كما تقول فسّقت فلاناً وزنيته إذا نسبته إلى ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(12/526)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ورِزقٌ كريم ﴾ يعني به [الرزق] الحَسَن في الجنة .

قوله تعالى : ﴿ والذين سَعَوا في آياتنا ﴾ أي : عملوا في إبطالها ﴿ مُعاجِزين ﴾ قرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "مُعجِزين" بغير ألف .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : "مُعاجِزين" بألف .

قال الزجاج : "مُعاجِزين" .

أي : ظانِّين أنهم يُعجزوننا ، لأنهم ظنوا أنهم لا يُبعثون وأنه لا جنة ولا نار ، قال : وقيل في التفسير : مُعاجِزين : معانِدين ، وليس هو بخارج عن القول الأول ؛ و"معجزين" تأويلها : أنهم كانوا يعجِّزون من اتَّبع النبيَّ صلى الله عليه وسلم ويثبِّطونهم عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(13/526)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس ﴾ يعني أهل مكة .

﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أي منذر مخوِّف .

وقد تقدّم في البقرة الإنذار في أوّلها .

﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي أبيّن لكم ما تحتاجون إليه من أمر دينكم .

﴿ فالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني الجنة .

﴿ والذين سَعَوْاْ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي في إبطال آياتنا .

﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ أي مغالبين مشاقّين ؛ قاله ابن عباس .

الفرّاء : معاندين .

وقال عبد الله بن الزبير : مثبّطين عن الإسلام .

وقال الأخفش : معاندين مسابقين .

الزجاج : أي ظانين أنهم يعجزوننا لأنهم ظنوا أن لا بعث ، وظنوا أن الله لا يقدر عليهم ؛

وقاله قتادة .

وكذلك معنى قراءة ابن كثير وأبي عمرو "مُعَجِّزِين" بلا ألف مشدّداً .

ويجوز أن يكون معناه أنهم يعجزون المؤمنين في الإيمان بالنبيّ عليه السلام وبالآيات ؛ قاله

السُّدِّي .

وقيل : أي يَنْسُبون من اتبع محمداً صلى الله عليه وسلم إلى العجز ؛ كقولهم : جهّلته وفسّقته .

﴿ أولئك أَصْحَابُ الجحيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(14/526)

وقال أبو حيان :

ثم أمر نبيه أن يقول لأهل مكة ﴿ يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير ﴾ من عذاب الله موضح لكم ما تحذرون أو موضح النذارة لا تلجلج فيها ، وذكر النذارة دون البشارة وإن كان التقسيم بعد ذلك يقتضيهما لأن الحديث مسوق للمشركين ، و ﴿ يا أيها الناس ﴾ نداء لهم وهم المقول فيهم ﴿ أفلم يسيروا ﴾ والمخبر عنهم باستعجال العذاب وإنما ذكر المؤمنون هنا وما أعد الله لهم من الثواب ليغاظ المشركون بذلك وليحرضهم على نيل هذه الرتبة الجليلة التي فيها فوزهم ، وحصر النذارة لأن المعنى ليس لي تعجيل عذابكم ولا تأخيره عنكم وإنما أنا منذركم به .

وقال الكرماني : التقدير بشير و ﴿ نذير ﴾ فحذف والتقسيم داخل في المقول ، والسعي

الطلب والاجتهاد في ذلك ، ويقال : سعى فلان في أمر فلان فيكون بإصلاح وبإفساد وقد يستعمل في الشر ، يقال : فيه سعى بفلان سعاية أي تحيل ، وكاد في إيصال الشر إليه وسعيهم بالفساد في آيات الله حيث طعنوا فيها فسموها سحراً وشعراً وأساطير الأولين ، وثبطوا الناس عن الإيمان بها .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والجحدري وأبو السمال والزعفراني معجزّين بالتشديد هنا وفي حرفي سبأ زاد الجحدري في جميع القرآن أي مثبطين .

وقرأ باقي السبعة بألف .

وقرأ ابن الزبير معجّزين بسكون العين وتخفيف الزاي من أعجزني إذا سبقك ففاتك .

قال صاحب اللوامح : لكنه هنا بمعنى معاجزين أي ظانين أنهم يعجزوننا ، وذلك لظنهم أنهم لا يبعثون .

وقيل : في ﴿ معاجزين ﴾ معاندين ، وأما معجّزين بالتشديد فإنه بمعنى مثبطين الناس عن الإسلام ، ويقال : مثبطين .

وقال الزمخشري : عاجزه سابقه لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به ، فإذا سبقه قيل أعجزه وعجزه ، فالمعنى سابقين أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم ، طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم انتهى .

وقال أبو علي الفارسي : معجزين معناه ناسبين أصحاب النبيّ (صلى الله عليه وسلم) إلى العجز كما تقول : فسقت فلاناً إذا نسبته إلى الفسق .

وتقدم شرح أخرى هاتين الجملتين الواردتين تقسيماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(16/526)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنَّمَا أَنَاْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

أنذركم إنذاراً بيِّناً بما أُوحي من أنباء الأمم المهلكة من غير أن يكونَ لي دخل في إتيانِ ما تُوعدونه من العذاب حتَّى تستعجلوني به والاقتصارُ على الإنذارِ مع بيان حالِ الفريقين بعدَه لما أُشير إليه من أنَّ مساقَ الحديث للمشركين وعقابِهم وإنَّما ذُكر المؤمنون وثوابُهم زيادةً في غيظهم .

﴿ فالذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ ﴾ لما ندرَ منهم من الذُّنوبِ ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ هي الجنَّةُ . والكريمُ من كلِّ نوع ما يجمعُ فضائلَه ويحوزُ كمالاتِه .

﴿ والذين سَعَوْاْ فِى ءايا تنا معاجزين ﴾ أي سابقين أو مُسابقين في زعمِهم وتقديرهم طامعين أنّ كيدَهم للإسلام يتمُّ لهم . وأصلُه من عاجزَهُ وعجزَه فأعجزَه إذا سابقَه فسبقَه لأنّ كُلاًّ من المتسابقينَ يريدُ إعجازَ الآخرِ عن اللَّحاق بِهِ . وقُرِىء مُعجزين أي مُثبّطينَ النَّاسَ عن الإيمان على أنَّه حالٌ مقدَّرةٌ ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذُكر من السَّعيِ والمُعاجزة ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ أي ملازمُوا النَّارَ المُوقدةِ ، وقيل : هو اسم دَرَكةٍ من دَرَكاتِها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(17/526)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) ﴾

ظاهر السياق يقتضي أن المراد بالناس المشركون فإن الحديث مسوق لهم فكأنه قيل : قل يا أيها المشركون المستعجلون بالعذاب إنما أنا منذر لكم إنذاراً بينا بما أوحى إلي من أنباء الأمم المهلكة من غير أن يكون لي دخل في اتيان ما تستعجلون من العذاب الموعود حتى تستعجلوني به فوجه الاقتصار على الإنذار ظاهر ، وأما وجه ذكر المؤمنين وثوابهم

﴿ فالذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

فالزيادة في إغاظة المشركين فهو بحسب المآل إنذار ، ويجوز أن يقال : إن قوله سبحانه : ﴿ فالذين ءامَنُواْ ﴾ الآية تفصيل لمن نجع فيه الإنذار من الناس المشركين ومن بقي منهم على كفره غير ناجه فيه ذلك كأنه قيل : أنذر يا محمد هؤلاء الكفرة المستعجلين بالعذاب وبالغ فيه فمن آمن ورجع عما هو عليه فله كذا ومن داوم على كفره واستمر على ما هو عليه فله كذا ، واختاره الطيبي وهو كما في الكشف حسن وعليه لا يكون التقسيم داخلاً في المقول بخلاف الوجه الأول .

وقال بعض المحققين : الناس عام للمؤمن والكافر والمنذر به قيام الساعة ، وإنما كان صلى الله عليه وسلم نذيراً مبيناً لأن بعثه عليه الصلاة والسلام من اشراطها فاجتمع فيه الإنذار قالا وحالا بقوله : ﴿ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحج : 49] كقوله صلى الله عليه وسلم الثابت في الصحيحين " أنا النذير العريان " وقد دل على ذلك تعقيب الخطاب بالإنذار تفصيل حال الفريقين عند قيامها اه .

(18/526)

ولا مانع منه لولا ظاهر السياق ، وكون المؤمنين لا ينذرون لا سيما وفيهم الصالح والطالح مما لا وجه له ، ومن منع من العموم لذلك قال : التقدير عليه بشير ونذير ونقل هذا عن الكرماني

؛ ثم المغفرة تحتمل أن تكون لما ندر من الذين آمنوا من الذنوب وذلك لا ينافي وصفهم بعمل الصالحات ، وتحتمل أن تكون لما سلف منهم قبل الإيمان والرجوع عما كانوا عليه ، والمراد بالرزق الكريم هنا الجنة كما يشعر به وقوعه بعد المغفرة وكذلك في جميع القرآن على ما أخرجه ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي ، ومعنى الكريم في صفات غير الآدميين الفائق .

﴿ والذين سَعَوْاْ فِى ءاياتنا ﴾ أي بذلوا الجهد في إبطالها فسموها تارة سحراً وتارة شعراً وتارة أساطير الأولين .

وأصل السعي الإسراع في المشي ويطلق على الاصلاح والإفساد يقال : سعى في أمر فلان إذا أصلحه أو أفسده بسعيه فيه ﴿ معاجزين ﴾ أي مسابقين للمؤمنين ؛ والمراد بمسابقتهم مشاقتهم لهم ومعارضتهم فكلما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله ، وأصله من عاجزه فاعجزه وعجزه إذا سابقه فسبقه فإن كلا من المتسابقين يريد إعجاز الآخر عن اللحاق .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو .

والجحدري .

وأبو السالم .

والزعفراني دمعجزين ﴾ بالتشديد أي مثبطين الناس عن الإيمان .

وقال أبو علي الفارسي : ناسبين المسلمين إلى العجز كما تقول : فسقت فلاناً إذا نسبته إلى الفسق وهو المناسب لقوله تعالى : ﴿ ﴾ بالتشديد أي مثبطين الناس عن الإيمان .

(19/526)

وقال أبو علي الفارسي : ناسبين المسلمين إلى العجز كما تقول : فسقت فلاناً إذا نسبته إلى الفسق وهو المناسب لقوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ [الحج : 47] وقرأ ابن الزبير ﴿ معاجزين ﴾ بسكون العين وتخفيف الزاي من أعجزك إذا سبقك ففاتك ، قال صاحب اللوامح : والمراد هنا ظانين أنهم يعجزوننا وذلك لظنهم أنهم لا يبعثون ، وفسر ﴿ معاجزين ﴾ في قراءة الجمهور بمثل ذلك ، والوصف على جميع القراءات حال من ضمير ﴿ سَعَوْاْ ﴾ وليست مقدرة على شيء منها كما يظهر للمتأمل ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ أي ملازمو النار الشديدة التأجج ، وقيل هو اسم دركة من دركات النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(20/526)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ إلخ

هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزية له متضمنة للوعد له بإهلاك المكذبين له كما أهلك سبحانه المكذبين لمن كان قبله .

وفيه إرشاد له صلى الله عليه وسلم إلى الصبر على قومه والاقتداء بمن قبله من الأنبياء في ذلك ، وقد تقدّم ذكر هذه الأمم وما كان منهم ومن أنبيائهم وكيف كانت عاقبتهم .

وإنما غير النظم في قوله : ﴿ وَكُذِّبَ موسى ﴾ فجاء بالفعل مبنياً للمفعول ؛ لأن قوم موسى لم يكذبوه وإنما كذّبه غيرهم من القبط ﴿ فَأَمْلَيْتُ للكافرين ﴾ أي : أخرت عنهم العقوبة وأمهلتهم والفاء لترتيب الإمهال على التكذيب ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أي أخذت كلّ فريق من المكذبين بالعذاب بعد انقضاء مدّة الإمهال ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ هذا الاستفهام للتقرير ، أي فانظر كيف كان إنكاري عليهم وتغيير ما كانوا فيه من النعم وإهلاكهم ، والنكير اسم من الإنكار .

قال الزجاج : أي ثم أخذتهم فأنكرت أبلغ إنكار .

قال الجوهري : النكير والإنكار تغيير المنكر .

ثم ذكر سبحانه كيف عذّب أهل القرى المكذبة فقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أهلكناها ﴾

أي أهلكنا أهلها ، وقد تقدّم الكلام على هذا التركيب في آل عمران ، وقرىء : " أهلكتها " ، وجملة : ﴿ وَهِيَ ظالمة ﴾ حالية ، وجملة : ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ عطف على ﴿ أهلكناها ﴾ ، لا على ﴿ ظالمة ﴾ لأنها حالية ، والعذاب ليس في حال الظلم ، والمراد بنسبة الظلم إليها نسبته إلى أهلها .

والخواء : بمعنى السقوط فهي ساقطة ﴿ على عُرُوشِهَا ﴾ أي على سقوفها ، وذلك بسبب تعطل سكانها حتى تهدّمت فسقطت حيطانها فوق سقوفها ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية في البقرة ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ معطوف على قرية ، والمعنى : وكم من أهل قرية ، ومن أهل بئر معطلة ، هكذا قال الزجاج .

وقال الفراء : إنه معطوف على عروشها .

(21/526)

والمراد بالمعطلة : المتروكة ، وقيل : الخالية عن أهلها لهلاكهم .

وقيل : الغائرة .

وقيل معطلة من الدلاء والأرشية ، والقصر المشيد هو : المرفوع البنيان ، كذا قال قتادة والضحاك ، ويدلّ عليه قول عديّ بن زيد :

شاده مرمرا وجلله كِلْ . . . ساً فللطير في ذراه وكور

شاده : أي رفعه .

وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومجاهد : المراد بالمشيد : المجصص ، مأخوذ من الشيد ، وهو الجص ، ومنه قول الراجز :

لا تحسبني وإن كنت أمرأ غمرا . . . كحية الماء بين الطين والشيد

وقيل : المشيد : الحصين قاله الكلبيّ .

قال الجوهري : المشيد المعمول بالشيد ، والشيد : بالكسر : كلّ شيء طليت به الحائط من جصّ أو بلاط ، وبالفتح المصدر ، تقول : شاده يشيده جصصه ، والمشيد بالتشديد : المطوّل .

قال الكسائي : [المشِيد] للواحد من قوله تعالى : ﴿ وقصر مشيد ﴾ والمُشيِّد للجمع ، من قوله تعالى : ﴿ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : 78] والمعنى المعنيّ : وكم من قصر مشيد معطل مثل البئر المعطلة ؟ ومعنى التعطيل في القصر هو : أنه معطل من أهله ، أو من آلاته ، أو نحو ذلك .

قال القرطبي في تفسيره : ويقال : إن هذه البئر والقصر بحضر موت معروفان ، فالقصر مشرف على قلة جبل لا يرتقى إليه بحال ، والبئر في سفحه لا تقرّ الريح شيئاً سقط فيها إلا أخرجته ، وأصحاب القصر ملوك الحضر ، وأصحاب البئر ملوك البدو .

حكى الثعلبيّ وغيره : أن البئر كان بعدن من اليمن في بلد يقال لها : حضوراء ، نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ونجوا من العذاب ومعهم صالح فمات صالح ، فسمي المكان حضر موت ؛ لأن صالحاً لما حضره مات فبنوا حضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلاً ، ثم ذكر قصة طويلة ، وقال بعد ذلك : وأما القصر المشيد فقصر بناه شدّاد بن عاد بن إرم ، لم يبن في الأرض مثله فيما ذكروا وزعموا ، وحاله أيضاً كحال هذه البئر المذكورة في إيحاشه بعد الأنس ، وإقفاره بعد العمران ، وإن أحداً لا يستطيع أن يدنو منه على أميال ، لما يسمع فيه من عزيف الجنّ والأصوات المنكرة بعد النعيم والعيش الرغد وبهاء الملك ، وانتظام الأهل كالسلك فبادوا وما عادوا ، فذكرهم الله سبحانه في هذه الآية موعظة وعبرة .

قال : وقيل : إنهم الذين أهلكهم بختنصر على ما تقدّم في سورة الأنبياء في قوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ [الأنبياء : 11] .

فتعطلت بئرهم وخربت قصورهم .

انتهى .

ثم أنكر سبحانه على أهل مكة عدم اعتبارهم بهذه الآثار قائلاً : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض ﴾ حثاً لهم على السفر ليروا مصارع تلك الأمم فيعتبروا ، ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ولم يعتبروا ، فلهذا أنكر عليهم ، كما في قوله : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 137 ، 138] .

ومعنى ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ : أنهم بسبب ما شاهدوا من العبر تكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب أن يتعقلوه وأسند التعقل إلى القلوب لأنها محل العقل .

كما أن الآذان محل السمع .

وقيل : إن العقل محله الدماغ ولا مانع من ذلك ، فإن القلب هو الذي يبعث على إدراك العقل وإن كان محله خارجاً عنه .

(23/526)

وقد اختلف علماء المعقول في محل العقل وماهيته اختلافاً كثيراً لا حاجة إلى التطويل بذكره ﴿ أو آذان يسمعون بها ﴾ أي ما يجب أن يسمعوه مما تلاه عليهم أنبياؤهم من كلام الله ، وما نقله أهل الأخبار إليهم من أخبار الأمم المهلكة ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ﴾ قال الفراء : الهاء عماد يجوز أن يقال : فإنه ، وهي قراءة عبد الله بن مسعود ، والمعنى واحد ،

التذكير على الخبر ، والتأنيث على الأبصار أو القصة ، أي فإن الأبصار لا تعمى ، أو فإن القصة ﴿ لا تعمي الأبصار ﴾ أي أبصار العيون ﴿ ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور ﴾ أي ليس الخلل في مشاعرهم ، وإنما هو في عقولهم أي لا تدرك عقولهم مواطن الحق ومواضع الاعتبار .

قال الفراء والزجاج : إن قوله ﴿ التي في الصدور ﴾ من التوكيد الذي تزيده العرب في الكلام كقوله : ﴿ عشرة كاملة ﴾ [البقرة : 196] ، ﴿ يقولون بأفواههم ﴾ [المائدة : 41] ، ﴿ يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : 38] .

ثم حكى سبحانه عن هؤلاء ما كانوا عليه من التكذيب والاستهزاء فقال : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ لأنهم كانوا منكرين لمجيئه أشدّ إنكار ، فاستعجالهم له ، هو على طريقة الاستهزاء والسخرية ، وكأنهم كانوا يقولون ذلك عند سماعهم لما تقوله الأنبياء عن الله سبحانه من الوعد منه عزّ وجلّ بوقوعه عليهم وحلوله بهم ، ولهذا قال : ﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ قال الفراء : في هذه الآية وعيد لهم بالعذاب في الدنيا والآخرة .

وذكر الزجاج وجهاً آخر فقال : أعلم أن الله لا يفوته شيء ، وإن يوماً عنده وألف سنة في قدرته واحد ، ولا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره في القدرة ، إلا أن الله تفضل بالإمهال انتهى .

ومحل جملة : ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ النصب على الحال ، أي والحال أنه لا يخلف وعده أبداً ، وقد سبق الوعد فلا بدّ من مجيئه حتماً ، أو هي اعتراضية مبينة لما قبلها ، وعلى الأوّل تكون جملة : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ مستأنفة ، وعلى الثاني تكون معطوفة على الجملة التي قبلها مسوقة لبيان حالهم في الاستعجال ، وخطابهم في ذلك ببيان كمال حلمه ، لكون المدة القصيرة عنده كالمدة الطويلة عندهم كما في قوله : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [المعارج : 6 ، 7] .

قال الفرّاء : هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم في الآخرة أي : يوم من أيام عذابهم في الآخرة كألف سنة .

وقيل : المعنى : وإن يوماً من الخوف والشدّة في الآخرة كألف سنة من سني الدنيا فيها خوف وشدة ، وكذلك يوم النعيم قياساً .

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي : "مما يعدون " بالتحتية ، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ ﴾ وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب ، واختارها أبو حاتم .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ : هذا إعلام منه سبحانه أنه أخذ قوماً بعد الإملاء والتأخير .

قيل : وتكرير هذا مع ذكره قبله للتأكيد ، وليس بتكرار في الحقيقة ؛ لأن الأوّل سيق لبيان

الإهلاك مناسباً لقوله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ ولهذا عطف بالفاء بدلاً عن ذلك ؛

والثاني : سيق لبيان الإملاء مناسباً لقوله : ﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ ﴾ فكأنه قيل : وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أمهلتهم حيناً ، ثم أخذتهم بالعذاب ، ومرجع الكل إلى حكمي .

فجملة : ﴿ وإليّ المصير ﴾ تذييل لتقرير ما قبلها .

(25/526)

ثم أمره الله سبحانه أن يخبر الناس بأنه نذير لهم بين يدي الساعة مبين لهم ما نزل إليهم ، فمن آمن وعمل صالحاً فاز بالمغفرة والرزق الكريم وهو الجنة ، ومن كان على خلاف ذلك فهو في النار ، وهم ﴿ الذين سعوا في آيات الله معاجزين ﴾ يقال : عاجزه : سابقه ، لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر ، فإذا سبقه قيل : أعجزه وعجزه ، قاله الأخفش .

وقيل : معنى ﴿ معاجزين ﴾ ظانين ومقدّرين أن يعجزوا الله سبحانه ويفوتوه فلا يعذبهم ، قاله الزجاج ؛ وقيل : معاندين ، قاله الفرّاء .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ قال : خربة ليس فيها أحد ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ : عطلها أهلها وتركوها

﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ قال : شيدوه وحصنوه فهلكوا وتركوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ قال : التي تركت لا أهل لها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ قال : هو المجصص .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد عن عطاء نحوه أيضاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ قال : من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة ، قال في الآية : هو يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة ، فقد مضى منها ستة آلاف .

وأخرج ابن عدّي والديلمي عن أنس مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ معاجزين ﴾ قال : مراغمين .

وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : مشاقين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

وهي الجنة : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ أي : والذين سعوا في ردّ آياتنا ، وصدّ الناس عنها مشاقّين . فالمعاجزة مستعارة للمشاقة مع المؤمنين ومعارضتهم . فكلما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله . كما يقال : جاراه في كذا . قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ [العنكبوت : 4] ، وقرئ : معجّزين بتشديد الجيم . بمعنى أنهم عجّزوا الناس وثبطوهم عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بالقرآن . وكلتا القراءتين متقاربة المعنى . وذلك أن من عجّز عن آيات الله ، فقد عاجز الله . ومن معاجزة الله التعجيز عن آيات الله ، والعمل بمعاصيه ، وخلاف أمره . وكان من صفة القوم الذين نزلت فيهم الآيات أنهم كانوا يبطّئون الناس عن الإيمان بالله واتباع رسوله . ويغالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحسبون

أنهم يعجزونه ويغلبونه . وقد ضمن الله له نصره عليهم . فكان ذلك معاجزتهم الله . كذا في الشهاب وابن جرير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 268 ﴾

(27/526)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) ﴾

استئناف بعد المواعظ السالفة والإنذارات ، وافتتاحه بـ ﴿ قُل ﴾ للاهتمام به ، وافتتاح المقول بنداء الناس للفت ألبابهم إلى الكلام .

والمخاطَبون هم المشركون .

والغرض من خطابهم إعلامهم بأن تكذيبهم واستهزاءهم لا يَغيظ النبي صلى الله عليه وسلم ولا يصدّه عن أداء رسالته ، ففي ذلك قمع لهم إذ كانوا يحسبون أنهم بتكذيبهم واستهزائهم يُملّونه فيترك دعوتهم ، وفيه تثبيت للنبيء وتسلية له فيما يلقاه منهم .

وقصر النبي على صفة النذارة قصر إضافي ، أي لستُ طالباً نكايتكم ولا تزلفاً إليكم فمن آمن فلنفسه ومن عمى فعليها .

والنذير : المحذّر من شرّ يتوقع .

وفي تقديم المجرور المؤذن بالاهتمام بنذارتهم إيماء إلى أنهم مشرفون على شرّ عظيم فهم أحرياء بالنذارة .

والمبين : المفصِح الموضح ، أي مبين للإنذار بما لا إيهام فيه ولا مصانعة .

وفُرع على الأمر بالقول تقسيم للناس في تلقي هذا الإنذار المأمور الرسولُ بتبليغه إلى مصدق ومكذّب لبيان حال كلا الفريقين في الدنيا والآخرة ترغيباً في الحالة الحسنى وتحذيراً من الحالة السُّوأى فقال تعالى : ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم ﴾ إلى آخره . . .

فهذا إخبار من الله تعالى كما يقتضيه قوله ﴿ في آياتنا ﴾ .

والجملة معترضة بالفاء .

والمغفرة : غفران ما قدموه من الشرك وما يتبعه من شرائع الشرك وضلالاته ومفاسده .

وهذه المغفرة تفضي إلى نعيم الآخرة ، فالمعنى : أنهم فازوا في الدار الآخرة .

والرّزق : العطاء .

ووصفه بالكريم يجمع وفرته وصفاءَه من المكدرات كقوله تعالى : ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾ [فصلت : 8] ذلك هو الجنة .

والرزق منه ما هو حاصل لهم في الدنيا ، فهم متمتعون بانشراح صدورهم ورضاهم عن ربهم ، وأعظمه ما يحصل لهم في الآخرة .

والذين سعوا هم الفريق المقابل للذين آمنوا ، فمعناه : والذين استمروا على الكفر ، فعبر عن الاستمرار بالسعي في الآيات لأنه أخص من الكفر ، وذلك حال المشركين المتحدث عنهم .

والسّعي : المشي الشديد .

ويطلق على شدّة الحرص في العمل تشبيهاً للعامل الحريص بالماشي الشديد المشي في كونه يكدّ للوصول إلى غاية كما قال تعالى : ﴿ ثم أدبر يسعى فحشر فنادى ﴾ [النازعات : 2223] فليس المراد أن فرعون خرج يمشي وإنما المراد أنه صرف عنايته لإحضار السحرة لإحباط دعوة موسى .

وقال تعالى : ﴿ ويسعون في الأرض فساداً ﴾ [المائدة : 64] .

والكلام تمثيل ، شبهت هيئة تفننهم في التكذيب بالقرآن وتطلب المعاذير لنقض دلائله من قولهم : هو سحر ، هو شعر ، هو أساطير الأولين ، هو قول مجنون ، وتعرضهم بالمجادلات والمناقضات للنبيء صلى الله عليه وسلم بهيئة الساعي في طريق يسابق غيره ليفوز بالوصول .

والمُعاجز : المسابق الطالب عجز مُسايره عن الوصول إلى غايته وعن اللحاق به ، فصيغ له المفاعلة لأنّ كل واحد يطلب عجز الآخر عن لحاقه .

والمعنى : أنهم بعملهم يغالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم لا يشعرون أنهم يحاولون أن يغلبوا الله وقد ظنوا أنهم نالوا مُرادهم في الدنيا ولم يعلموا ما لهم من سوء العاقبة .

وقرأ الجمهور ﴿ معاجزين ﴾ بألف بعد العين وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو ﴿ مُعَجّزين ﴾ بفتح العين وتضعيف الجيم ، أي محاولين إعجاز الله تعالى وهم لا يعلمون .

والتصدير باسم الإشارة في قوله ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ للتنبيه على أن المخبَر عنهم جديرون بما سيرد بعد اسم الإشارة من الحُكم لأجل ما ذكر قبلَه من الأوصاف ، أي هم أصحاب الجحيم لأنّهم سعوا في آياتِنا معاجزين .

(29/526)

ومن أحسن ما يفسر هذه الآية ما جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن مثَلي ومثَل ما بعثني الله به كمثَل رجل أتى قومه فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعيْني وأنا النذير العُريان فالنّجَاءَ النّجاءَ ، فأطاعته طائفة من قومه فأدْلَجُوا وانطلقوا على مهلهم ، وكذّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانَهم فصبّحهم الجيش فأهلكهمُ واجتاحهم .

فذلك مَثَلِيَ ومثَلُ من أطاعني واتّبع ما جئتُ به ، ومثَل مَن عصاني وكذّب ما جئت به من الحقّ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(30/526)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية أن يقول للناس ﴿ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي إني لست بربكم ، ولا بيدي هدايتكم ولا علي عقابكم يوم القيامة ، ولكني مخوف لكم من عذاب الله وسخطه .

والآيات بهذا المعنى كثيرة جداً كقوله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ [الرعد : 40] وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ [الرعد : 7] وقوله ﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : 115] وقوله ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البلاغ ﴾ [الشورى : 48] وقوله ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ : 46] وقوله ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1]

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً . وقوله في هذه الآية الكريمة : مبين الظاهر أنه الوصف

من أبان الرباعية اللازمة التي بمعنى بان ، والعرب تقول : أبان فهو بين معنى بان ، فهو بين من اللازم الذي ليس بمتعد إلى المفعول ، ومنه قول كعب بن زهير :

قنواء في حرتيها للبصير بها . . . عتق مبين وفي الخدين تسهيل

فقوله : عتق مبين : أي كرم ظاهر ومن أبان اللازمة قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

لو دب ذر فوق ضاحي جلدها . . . لأبان من آثارهن حدور

يعني لظهر وبان من آثارهن ورم ومنه قول جرير :

إذا آباؤنا وأبوك عدوا . . . أبان المقرفات من العراب

أي ظهر : وبان المقرفات من العراب ، ويحتمل أن يكون قوله في هذه الآية : مبين : اسم فاعل أبان المتعدية ، والمفعول محذوف للتعميم : أي مبين لكم في إنذاري كل ما ينفعكم ، وما يضركم لتجتلبوا النفع ، وتجتنبوا الضر ، والأول أظهر . والله أعلم .

(31/526)

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51)

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الذين آمنوا به وبرسله ، وكل ما يجب الإيمان به ،

وعملوا الفعلات الصالحات من امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي لهم من الله مغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم : أي حسن ، هو ما يرزقهم من أنواع النعيم في جناته ، وأن الذي عملوا بخلاف ذلك فهم أصحاب الجحيم : أي النار الشديد حرها ، وفي هذه الآية وعد لمن أطاعه ووعيد لمن عصاه . والآيات بمثل ذلك في القرآن كثيرة كقوله تعالى ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم ﴾ [الحجر : 49-50] وقوله ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِي الطول ﴾ [غافر : 3] الآية إلى غير ذلك من الآيات ، وقد أوضحناها في غير هذا الموضع وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ والذين سَعَوْاْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ قال مجاهد : معاجزين يثبطون الناس عن متابعة النَّبي صلى الله عليه وسلم وكذا قال عبد الله بن الزبير : مثبطين . وقال ابن عباس : معاجزين أي مغالبين ومشاقين ، وعن الفراء معاجزين : معاندين . وعن الأخفش معاجزين : معاندين مسابقين ، وعن الزجاج معاجزين : أي ظانين أنهم يعجزوننا ، لأنهم ظنوا ألا بعث ، وأن الله لا يقدر عليهم .

واعلم : أن في هذا الحرف قراءتين سبعيتين قرأه الجمهور : معاجزين بألف بين العين والجيم بصيغة المفاعلة اسم فالع عاجزه ، وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو : معجزين بلا ألف مع تشديد الجيم المكسورة على صيغة اسم الفاعل من عجزه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الظاهر بحسب الوضع العربي في قراء الجمهور معاجزين : هو اقتضاء طرفين ، لأن الظاهر لا يعدل عنه إلا لدليل يجب الرجوع إليه ، والمفاعلة تقتضي الطرفين إلا لدليل يصرف عن ذلك ، واقتضاء المفاعلة الطرفين في الآية من طريقين .

الأولى : هي ما قاله ابن عرفة من أن معنى معاجزين في الآية أنهم يعاجزون الأنبياء وأتباعهم ، فيحاول كل واحد منهما إعجاز الآخر فالأنبياء وأتباعهم ، يحاولون إعجاز الكفار وإخضاعهم لقبول ما جاء عن الله تعالى ، والكفار يقاتلون الأنبياء ، وأتباعهم ، ويمانعونهم ، ليصيروهم إلى العجز عن أمر الله . وهذا الوجه ظاهر كما قال تعالى ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حتى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ﴾ [البقرة : 217] وعليه فمفعول معاجزين محذوف : أي معاجزين الأنبياء وأتباعهم ، أي مغالبين لهم ، ليعجزوهم عن إقامة الحق .

الطريقة الثانية : هي التي ذكرناها آنفاً عن الزجاج أن معنى معاجزين : ظانين أنهم يعجزون ربهم ، فلا يقدر عليهم لزعمهم أنه لا يقدر على بعثهم بعد الموت كما قال تعالى ﴿ زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾ [التغابن : 7] وكما قال تعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] وقال تعالى عنهم إنهم قالوا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام : 29] ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ [الدخان : 35]

وعلى هذا القول فالكفار معاجزين الله في زعمهم الباطل ، وقد بين تعالى في آيات كثيرة أن زعمهم هذا كاذب ، وأنهم لا يعجزون ربهم بحال كقوله تعالى

(33/526)

﴿ واعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله وَأَنَّ الله مُخْزِي الكافرين ﴾ [التوبة : 2] وقوله ﴿ فاعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله وَبَشِّرِ الذين كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : 3] وقوله : ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء ﴾ [العنكبوت : 22] الآية وقوله تعالى في الجن ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ الله فِي الأرض وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً ﴾ [الجن : 12] إلى غير ذلك من الآيات . وقد قدمنا أن مما يوضح هذا الوجه الأخير قول كعب بن مالك رضي الله عنه :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها . . . وليغلبن مغالب الغلاب

ومراده بسخينة قريش : يعني أنهم يحاولون غلبة ربهم ، والله غالبهم بلا شك والوجه الأول أظهر . وأما على قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو : معجزين بكسر الجيم المشددة ، بلا ألف ، فالأظهر أن المعنى معجزين : أي مثبطين من أراد الدخول في الإيمان عن الدخول فيه ، وقيل معجزين من اتبع النَّبي صلى الله عليه وسلم ومعنى ذلك : أنهم ينسبونهم إلى العجز من

قولهم : عجزه بالتضعيف إذا نسبه إلى العجز الذي هو ضد الحزم ، يعنون أنهم يحسبون المسلمين سفهاء لا عقول لهم ، حيث ارتكبوا أمراً غير الحزم والصواب ، وهو اتباع دين الإسلام في زعمهم كما قال تعالى عن إخوانهم المنافقين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ الناس قالوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السفهآء ألا إِنَّهُمْ هُمُ السفهآء ﴾ [البقرة : 13] الآية وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ والذين سَعَوْاْ فِي آيَاتِنَا ﴾ .

(34/526)

اعلم أولاً : أن السعي يطلق على العمل في الأمر لإفساده وإصلاحه ، ومن استعماله في الإفساد قوله تعالى هنا : ﴿ سَعَوْاْ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي سعوا في إبطالها وتكذيبها بقولهم : إنها سحر وشعر وكهانة وأساطير الأولين ، ونحو ذلك . ومن إطلاق السعي في الفساد أيضاً قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تولى سعى فِي الأرض لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ [البقرة : 205] الآية ومن إطلاق السعي في العمل للإصلاح قوله تعالى ﴿ إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإنسان : 22] وقوله ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يسعى وَهُوَ يخشى ﴾ [عبس : 8-9] الآية إلى غير ذلك من الآيات .

ومن إطلاق السعي على الخير والشر معاً قوله تعالى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ [الليل : 4]

إلى قوله : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تردى ﴾ [الليل : 11] وهذه الآية التي ذكرها هنا في سورة الحج التي هي قوله تعالى ﴿ فالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ والذين سَعَوْاْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أولئك أَصْحَابُ الجحيم ﴾ جاء معناها واضحاً في سورة سبأ في قوله تعالى ﴿ لِّيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ والذين سَعَوْاْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أولئك لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [سبأ : 4-5] فالعذاب من الرجز الأليم المذكور في سبأ هو عذاب الجحيم المذكور في الحج . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(35/526)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) ﴾

والإنذار نوع من الرحمة ، لأنك تخبر بشرٍّ قبل أوانه ، ليحذره المنذَر ، ويحاول أنْ يُنجي نفسه منه ، ويبتعد عن أسبابه ، فحين أُذكّرك بالله ، وأنه يأخذ أعداءه أخْذَ عزيز مقتدر ، فعليك أنْ ترأ بنفسك عن هذه النهاية ، وأن تنجوَ من دواعي الهلاك .

ومعنى ﴿ مُّبِينٌ ﴾ [الحج : 49] محيط ، لا يترك صغيرة ولا كبيرة .

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50)

وطالما آمنوا وعملوا الصالحات فقد انتفعوا بالنذراة ، وأثمرتْ فيهم ، فآمنوا بالله إلهاً فاعلاً مختاراً له صفات الكمال المطلق ، ثم عملوا على مقتضى أوامره ؛ لذلك يكون لهم مغفرة إنْ كانت أَلَمَّتْ نفوسهم بشيء من المعاصي ، ويكون لهم رزق كريم . والكريم هو البذَّال ، كأن الرزق نفسه وصل إليهم بكرم وزيادة ، كما أن الكريم هو الذي تظل يده مبسوطة دائماً بالعطاء ، على حَدّ قول الشاعر :

وَإِنِّي امْرُؤٌ لاَ تَسْتَقِرُّ دَرَاهِمِي . . . عَلَى الكَفِّ إِلاَّ عَابِرَات سَبِيل

فالرزق نفسه كريم ؛ لأنه ممدود لا ينقطع ، كما لو أخذت كوب ماء من ماء جارٍ ، فإنه يحلُّ محلَّه غيره على الفور ، وهكذا .

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51)

السعي : عمل يذهب إلى غاية ، فإنْ كان قطع مسافة نقول : سِرْنا من كذا إلى كذا ، وإنْ كان في قضية علمية فكرية ، فيعني : أن الحدث يعمل من شيء بداية إلى شيء غاية .

(36/526)

والسَّعْيُ لا يُحمد على إطلاقه ، ولا يُذمُّ على إطلاقه ، فإنْ كان في خير فهو محمود ممدوح ، كالسعي الذي قال الله فيه : ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإسراء : 19] ، وإنْ كان في شرٍّ فهو قبيح مذموم ، كالسعي الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحياة الدنيا وَيُشْهِدُ الله على مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخصام * وَإِذَا تولى سعى فِي الأرض لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحرث والنسل . . ﴾ [البقرة : 204 – 205] .

أما السعاية فعادة تأخذ جانب الشر . وتعني : الوشاية والسّعي بين الناس بالنميمة ، تقول : فلان سَعَّاء بين الخلق يعني : بالشر ينقله بين الناس بقصْد الأذى ، وهؤلاء إنْ عَلِموا الخير أخفَوْه ، وإنْ علموا الشر أذاعوه ، وإن لم يعلموا كذبوا .

لذلك ، نقول عَمَّا ينتج من هذه السعاية من الشر بين الناس : هذا آفة الآخِذ ، يعني : الذي سمع الشرَّ ونقله وسعى به ، وكان عليه أنْ يحبسه ويُخفِيَه ، حتى لا تنتشر هذه الرذيلة بين الخَلْق .

وقد وشى واشٍ بمهام بن عبد الله السلولي إلى زياد بن أبيه ، وكان زياد جباراً فقال للواشي : أأجمع بينك وبينه ؟ فلم يجد الواشي بُدّاً من أنْ يقول : نعم ، فكيف ينكر ما قال ؟ ! ولعله قال في نفسه : لعل الله يقضي أمراً يُخرِجني من هذه (الورطة) قبل هذه المواجهة ؟ ثم أرسل زياد إلى ابن همام فأُتِي به ، وقد جعل زياد الواشي في مجلسه خلف ستار ، وأُدخِل همام ، فقال له : يا همام بلغني أنك هجوْتني ، فقال : كلا ، أصلحك الله ما فعلتُ : ولا أنت

لذلك بأهْل ، فكشف زياد الستار وقال : هذا الرجل أخبرني أنك هجوتني ، فنظر ابن همام ، فإذا هو صديق له يجالسه ، فقال له :

أنتَ امْرؤٌ إمّا ائتمنْتكَ خَالِياً . . . فَخُنْتَ وَإِمّا قُلْتَ قَوْلاً بِلاَ عِلْمِ

(37/526)

فَأُبْتَ مِنَ الأَمْرِ الذي كَانَ بيننَا . . . بمنزلةٍ بيْنَ الخِيَانَةِ والإِثْمِ

يعني : أنت مذموم في كل الأحوال ؛ لأنك إما خُنْتَ أمانة المجلس والحديث ولم تحفظ سِراً فضفضْتُ لك به ، وإمَّا اختلقْتَ هذا القوْل كذباً وبلا علم .

وعندها خلع زياد على همام الخُلَع ، لكنه لم يعاقب الواشي ، وفي هذا إشارة إلى ارتياحهم لمن ينقل إليهم ، وأن آذانهم قد أخذتْ على ذلك وتعوَّدَتْ عليه .

ومعنى ﴿ فِي آيَاتِنَا ﴾ [الحج : 51] والآيات إما كونية ، كالشمس والقمر ، وإما معجزات ، وإما آيات الأحكام ، وسَعَوْا فيها يعني : قالوا فيها قِوْلاً باطلاً غير الحق ، كما يسعى الواشي بالباطل بين الناس ، فهؤلاء إنْ نظروا في آيات الكون قالوا : من صنع الطبيعة

.

وإنْ شاهدوا معجزة على يد نبيٍّ قالوا : سحر وأساطير الأولين ، وإنْ سمعوا آيات الأحكام

تُتْلى قالوا : شعر . وهم بذلك كله يريدون أنْ يُفسِدوا على أهل الإيمان إيمانهم ، ويصدُّوا عن سبيل الله .

ومعنى ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ [الحج : 51] جمع لاسم الفاعل معاجز مثل : مقاتل ، وهي من عَاجَزَ غير عجز عن كذا يعني : لم يقدر عليه ، عَاجَزَ فلانٌ فلاناً يعني باراه أيُّهما يعجز قبل الآخر ، فعاجزه مثل باراه ليثبتَ أنه الأفضل ، ومثل : سابقه ونافسه .

إذن : فالمعاجزة مفاعلة ومشاركة ، وكلمة نافسه الأصل فيها من النفَس الذي نأخذه في الشهيق ، ونُخرِجه في الزفير ، والذي به يتأكسد الدم ، وتستمر حركة الإنسان ، فإن امتنع التنفس يموت ؛ لأن الإنسان يصبر على الطعام ويصبر على الماء ، لكنه لا يصبر على الهواء ولو لنفَس واحد .

(38/526)

وقد حدثتْ هذه المعاجزة أو المنافسة بين سيدنا عمر وسيدنا العباس رضي الله عنهما : قال عمر للعباس : أتُنافسني في الماء ، يعني : نغطس تحت الماء وننظر أيهما يُعجِز الآخر ، ويتحمل عملية توقُّف النفَس ، ومثل هذه المنافسة قد يحتال عليها الإنسان إنْ كتم نفسَه وهو في جَوِّ الهواء ، أما إنْ نزل تحت الماء حيث ينعدم الهواء ، فكيف سيحتال على هذه

المسألة؟ وتحت الماء لا يكون إلا الهواء الذاتي الذي اختزنه كل منهما في رئته ، ومثل هذه المنافسة أيهما أفسح صَدْراً من الآخر ، وأيُّهما أكثر تحمُّلاً تحت الماء . هذه هي المعاجزة .

فمعنى ﴿ سَعَوْاْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ . . ﴾ [الحج : 51] أي : يظنون أنهم قادرون أن يُعجزونا ، فحين نأتي إليهم بكلام بليغ مُعْجز يختلقون كلاماً فارغاً ليعجزونا به ، فأنّى يكون لهم ذلك؟ وأنّى لهم أنْ يطعنوا بكلامهم على كلام الله؟

ثم يُبيّن جزاء هذا الفعل وهذه المكابرة : ﴿ أولئك أَصْحَابُ الجحيم ﴾ [الجح : 51] فهذا حُكْم الله فيهم قضية واضحة من أقصر الطرق ، فمَنْ ذَا الذي يُعجِز الله؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(39/526)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) (الحج : 50) ، وبعد هذه الآية قوله تعالى : (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي

جَنَّاتِ النَّعِيمِ) (الحج : 56) ، يسأل عن وجه الاختلاف فيما ذكر من الجزاء مع اتفاق وصفهم بالإيمان وعمل الصالحات ؟

والجواب عنه أن الآية الأولى إخبار لهم عند دعائهم قبل : أن ((آمنوا)) ، ألا ترى أن قبله أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقول لهم في قوله تعالى : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ) (الحج : 49) ، ثم أخبرهم بما لهم إن آمنوا من غفران ما تقدم لهم من أعمال المخالفات والمترخصات ، والرزق الكريم ، ولما ذكر في الآية الأولى حالهم في الدار الأخرى بعد انصرام الدنيا ، وحصول اتصافهم بالإيمان وأعمال الطاعات ، أخبروا فيها بالحاصل من المغفرة ، وبين لهم الرزق الكريم وأنه نعيم الجنة والخلود الأبدي فيها ، فالآية الأولى تضمنت وعدهم إن آمنوا ، وذلك عند دعائهم إلى الإيمان ، ويزيدك في ذلك بياناً نداؤهم في دعائهم إلى الاستجابة بقوله : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) (الحج : 49) ، ولو كانوا قد حصل لهم الإيمان لوسموا بذلك في خطابهم ، فكأن يقال : يا أيها

(40/526)

الذين آمنوا ، فإنما دعوا بما به (يدعى) من لم يحصل له الإيمان ولا اتصف به ، وبشروا إن آمنوا ، ثم أخبروا ثانياً بالحاصل لهم بياناً لمضمن البشارة الأولى وإخباراً لهم بغاية الجزاء ،

فالآية الثانية بيان وتفصيل لما أجمل في الآولى ، مرتب عليه وآت بعده بما يجب فيما يأتي فيه الإجمال والتفصيل ، فكأنهم قالوا : ما الرزق الكريم ؟ فقيل لهم : جنات النعيم ، فورد كل من الآيتين على ما يجب ويناسب ، ولا يلائم ما ورد من الجزاء في الآية الثانية – على تمهيد – ما وقع دعاء أو خطاباً في الأولى ، ولا ما بني على الآية الأولى أن وقع إخباراً في الثانية ، بل ورد كل على ما يجب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 361 . 362 ﴾

(41/526)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن محمد بن كعب القرظي قال : إذا سمعت الله يقول ﴿ رزق كريم ﴾ فهي الجنة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ ﴿ معاجزين ﴾ في كل القرآن ؛ يعني بألف ، وقال : مشاقين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ معاجزين ﴾ قال مراغمين .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن الزبير أنه كان يقرأ [والذين سعوا في آياتنا معجزين] يعني مثبطين .

وأخرج بن أبي حاتم ، عن عروة بن الزبير : أنه كان يعجب من الذين يقرأُون هذه الآية ﴿ والذين سعوا في آياتنا معاجزين ﴾ قال : ليس معاجزين من كلام العرب ، إنما هي [معجزين] يعني مثبطين .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ في آياتنا معاجزين ﴾ قال : مبطئين ، يبطئون الناس عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ والذين سعوا في آياتنا معاجزين ﴾ قال : كذبوا بآيات الله وظنوا أنهم يعجزون الله ، ولن يعجزوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(42/526)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51) ﴾

قوله : ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ : قرأ أبو عمرو وابن كثير بالتشديد في الجيم هنا ، وفي حرفَيْ سبأ ، والباقون " مُعاجزين " في الأماكن الثلاثة . والجحدري كقراءة ابن كثير وأبي عمرو في جميع القرآن وابن الزبير : " مُعْجِزين " بسكون العين .

فأمَّا الأُولى ففيها وجهان ، أحدُهما : قال الفارسي : معناه : ناسِبين أصحابَ النبيِّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى العَجْز نحو : فَسَّقْتُه أي نَسَبْتَه إلى الفسق " . والثاني : أنها للتكثير . ومعناها : مُثَبِّطِيْنَ الناسَ عن الإيمان . وأمَّا الثانيةُ فمعناها : ظانِّين أنهم يَعْجِزوننا . وقيل : معاندِين . وقال الزمخشري : " عاجَزَه : سابقَه ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما في طَلَب إعجازِ الآخرِ عن اللِّحاق به . فإذا سبقه قيل : أعجزه وعَجَزه . فالمعنى : سابقين أو مُسابقين في زعمهم وتقديرِهم طامِعين أنَّ كيدَهم للإسلامِ يَتِمُّ لهم . والمعنى : سَعَوا في معناها بالفسادِ " . وقال أبو البقاء : إنَّ معاجزين في معنى المُشَدَّدِ ، مثلَ عاهَدَ وعَهَّد . وقيل : عاجَزَ سابَقَ ، وعَجَزَ سَبَق " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 291.292 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) ﴾

أشابِهُكُم في الصورة ولكني اُبَايِنُكم من حيث السريرة ، وأنا لِحُسْنِكم بشير ، ولِمُسِيئِكُم نذير ، وقد أُيِّدت بإقامةِ البراهينِ ما جِئتكم به من وجوهِ الأمر بالطاعة والإحسان .

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50)

الناس – في المغفرة – على أقسام : فمنهم من يستر عليه زلَّتَه ، ومنهم من يستر عليه أعماله الصالحة صيانةً له عن الملاحظة ، ومنهم من يستر حاله لئلا تُصيبَه مِنَ الشهرةِ فتنةٌ ، وفي معناه قالوا :

لا تُنْكِرَنْ جُحْدِي هَوَاكَ فإنما . . . ذاك الجحودُ عليكَ سِتْرَ مُسْبَلُ

ومنهم مَنْ يستره بين أوليائه ، لذلك وَرَدَ في الكتب : " أوليائي في قبائي ، لا يشهد أوليائي غيري " .

﴿ والرزق الكريم ﴾ ما يكون من وجه الحلال . ويقال ما يكون من حيث لا يَحْتَسِب العبدُ .

ويقال هو الذي يبدو – من غير ارتقابٍ – على رِفْقٍ في وقت الحاجة إليه .

ويقال هو ما يَحْمِلُ المرزوقَ على صَرْفِهِ في وَجْهِ القربة . ويقال ما فيه البركة .

ويقال الرزق الكريم الذي يُنال من غير تعب ، ولا يتقلد مِنَّةً مخلوق .

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51)

في الحال في معَجَّلِهِ الوحشةُ وانسدادُ أبوابِ الرشدِ ، وتنغصُ العَيْش ، والابتلاءُ بمن لا يعطف عليه ممن لا يخافون الله .

وفي الآخرة ما سيلقون من أليم العقوبة على حسب الإجرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 553.554 ﴾

(44/526)

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما لاح من ذلك أن الشيطان ألقى للكفار شبهاً ، يعاجزون بها بجدالهم في دين الله الذي أمر رسوله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإظهاره ، وتقرير وإشهاره ، عطف عليه تسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : ﴿ وما أرسلنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ من قبلك ﴾ ثم أكد الاستغراق بقوله : ﴿ من رسول ﴾ أي من ملك أو بشر بشريعة جديدة يدعو إليها ﴿ ولا نبي ﴾ سواء كان رسولاً أو لا ، مقرر بالحفظ لشريعة سابقة – كذا قال البيضاوي وغيره في الرسول وهو منقوص بأنبياء بني أسرائيل الذين بين موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، فإن الله تعالى سماهم رسلاً في غير آية منها ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ﴾ [البقرة : 87] فالصواب أن يقال : النبي إنسان أوحي إليه بشرع جديد أو مقرر ، فإن أمر بالتبليغ فرسول أيضاً ، والتقييد بشرع لإخراج مريم وغيرها من الأولياء ﴿ إلا إذا تمنى ﴾ أي تلا على الناس ما أمره الله به أو حدثهم به واشتهى في نفسه أن يقبلوه حرصاً منه على إيمانهم شفقة عليهم ﴿ ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ أي ما تلاه أو حدث به واشتهى أن يقبل ، من الشبه والتخيلات ما يتلقفه منه أولياءه فيجادلون به أهل الطاعة ليضلوهم

(45/526)

﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ [الأنعام : 121] ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ [الأنعام : 112] كما يفعل هؤلاء فيما يغيرون به في وجه الشريعة أصولاً وفروعاً من قولهم : إن القرآن شعر وسحر وكهانة ، وقولهم ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾ [الأنعام : 148] وقولهم ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] وقولهم : إن ما قتله الله بالموت حتف أنفه أولى بالأكل مما ذبح ، وقولهم : نحن أهل الله وسكان حرمه ، لا نخرج من الحرم فنقف في الحج بالمعشر الحرام ويقف الناس بعرفة ، ونحن نطوف في ثيابنا وكذا من ولدناه ، وأما غيرنا فلا يطوف إلا عرياناً ذكراً ان أو أنثى إلا أن يعطيه أحد منا ما يلبسه ، ونحو ذلك مما يريدون أن يطفئوا به نور الله ، وكذا تأويلات الباطنية والاتحادية وأنظارهم التي ألحدوا فيها ، يضل بها من يشاء الله ثم يمحوها من أراد من عباده وما أراد من أمره ﴿ فينسخ ﴾ أي فيتسبب عن إلقائه أنه ينسخ ﴿ الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ ما يلقي الشيطان ﴾ فيبطله بإيضاح أمره ومج القلوب له .

ولما كان إبطاله سبحانه للشبه إبطالاً محكماً ، لا يتطرق إليه لعلو رتبة بيانه – شبهة أصلاً ، عبر بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم يحكم الله ﴾ أي الملك الذي لا كفوء له ﴿ آياته ﴾ أي يجعلها جلية فيما أريد منها ، وأدل دليل على أن هذا هو المراد مع الافتتاح بالمعاجزة في

الآيات – الختام بقوله عطفاً على ما تقديره : فالله على ما يشاء قدير : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ عليم ﴾ أي بنفي الشبه ﴿ حكيم ﴾ بإيراد الكلام على وجه لا تؤثر فيه عند من له أدنى بصيرة ، وكذا ما مضى في السورة ويأتي من ذكر الجدال .

(46/526)

ولما ذكر سبحانه ما حكم به من تمكين الشيطان من هذا الإلقاء ، ذكر العلة في ذلك فقال : ﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان ﴾ أي في المتلو أو المحدث به من تلك الشبه في قلوب أوليائه ﴿ فتنة ﴾ أي اختباراً وامتحاناً ﴿ للذين في قلوبهم مرض ﴾ لسفولها عن حد الاعتدال من اللين حتى صارت مائيته تقبل كل صورة ولا يثبت فيها صورة ، وهم أهل النفاق المتلقفون للشبه الملقون لها ﴿ والقاسية قلوبهم ﴾ عن فهم الآيات ، وهم من علت قلوبهم عن ذلك الجدال أن صارت حجرية ، وهم المصارحون بالعداوة ، فهم في ريب من أمرهم وجدال للمؤمنين ، قد انتقشت فيها الشبه ، فصارت أبعد شيء عن الزوال .

ولما كان التقدير : فإنهم حزب الشيطان ، وأعداء الرحمن ، عطف عليه قوله .

(47/526)

وإنهم هكذا الأصل ، ولكنه أظهر تنبيهاً على وصفهم فقال : ﴿ وإن الظالمين ﴾ أي الواضعين لأقوالهم وأفعالهم في غير مواضعها كفعل من هو في الظلام ﴿ لفي شقاق ﴾ أي خلاف بكونهم في شق غير شق حزب الله بمعاجزتهم في الآيات بتلك الشبه التي تلقوها من الشيطان ، وجادلوا بها أولياء الرحمن ﴿ بعيد ﴾ عن الصواب ﴿ ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ [الأنعام : 113] ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم ﴾ بإتقان حججه ، وإحكام براهينه ، وضعف شبه المعاجزين ، وبني فعله للمجهول تعظيماً لثمرته في حد ذاته لا بالنسبة إلى معط معين ﴿ أنه ﴾ أي الشيء الذي تلوته أو حدثت به ﴿ الحق ﴾ أي الثابت الذي لا يمكن زواله ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك بتعليمك إياه ، فإن الحق كلما جودل أهله ظهرت حججه ، وأسفرت وجوهه ، ووضحت براهينه ، وغمرت لججه ، كما قال تعالى ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ [البقرة : 26] ﴿ فيؤمنوا به ﴾ لما ظهر لهم من صحته بما ظهر من ضعف تلك الشبه ﴿ فتخبت ﴾ أي تطمئن وتخضع ﴿ له قلوبهم ﴾ وتسكن به قلوبهم ، فإن الله جعل فيها السكينة فجعلها زجاجية صلبة صافية رقيقة بين المائية والحجرية ، نافعة بفهم العلم وحفظه والهداية به لمن يقبل عنهم من الضالين كما ينفع الخبث بقبول طائفة منه لطائفة من الماء ، وإنبات ما يقدره الله من الكلاء وغيره وحفظ طائفة أخرى لطائفة أخرى منه لشرب

الحيوان ﴿ وإن الله ﴾ بجلاله وعظمته لهاديهم ، ولكنه أظهر تنبيهاً على سبب العلم فقال : ﴿ لهاد الذين آمنوا ﴾ في جميع ما يلقيه أولياء الشيطان ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ يصلون به إلى معرفة بطلانه ، فيوصلهم ذلك إلى سعادة الدارين ﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾ أي وجد منهم الكفر وطبعوا عليه ﴿ في مرية ﴾ أي شك يطلبون السكون إليه ﴿ منه ﴾ أي من أجل إلقاء الشيطان وما ألقاه ، أو مبتدىء منه ﴿ حتى تأتيهم الساعة ﴾ أي الموت أو القيامة ﴿ بغتة ﴾ أي فجأة بموتهم حتف الأنف ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم

(48/526)

عقيم ﴾ يقتل فيه جميع أبنائهم منهم ولا يكون لهم فيه شيء مما يترجونه من نصر أو غيره كما سعوا بجد لهم وإلقاء الضلالات في إعقام الآيات ، فإذا انكشف لهم الغطاء بالساعة أو العذاب الموصل إلى حد الغرغرة آمنوا دأب البهائم التي لا ترى إلا الجزئيات ، فلم ينفعهم ذلك لفوات شرطه ، وقد زالت بحمد الله عن هذه الآية - بما قررته الشكوك ، وانفضحت مخيلات الشبه ، وانقمعت مضلات الفتن ، من قصة الغرانيق وما شاكلها مما يتعالى عنه ذلك الجناب الرفيع ، والحمى العظيم المنيع ، ولم يصح شيء من ذلك كما صرح به الحافظ عماد الدين ابن كثير وغيره كيف وقد منع الشيطان من مثاله - صلى الله عليه وسلم - في المنام ،

كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ " من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي " وقد تولى الله سبحانه حفظ الذكر الحكيم بحراسة السماوات وغيرها ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ﴿ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ [الجن : 27] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 163 . 166 ﴾

(49/526)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

من الناس من قال : الرسول هو الذي حدث وأرسل ، والنبي هو الذي لم يرسل ولكنه ألهم أو رأى في النوم ، ومن الناس من قال : إن كل رسول نبي ، وليس كل نبي يكون رسولاً ، وهو قول

الكلبي والفراء .

وقالت المعتزلة كل رسول نبي ، وكل نبي رسول ، ولا فرق بينهما ، واحتجوا على فساد القول الأول بوجوه : أحدها : هذه الآية فإنها دالة على أن النبي قد يكون مرسلاً ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ ﴾ [الأعراف : 94] ، وثانيها : أن الله تعالى خاطب محمداً مرة بالنبي ومرة بالرسول ، فدل على أنه لا منافاة بين الأمرين ، وعلى القول الأول المنافاة حاصلة وثالثها : أنه تعالى نص على أنه خاتم النبيين ورابعها : أن اشتقاق لفظ النبي إما من النبأ وهو الخبر ، أو من قولهم نبأ إذا ارتفع ، والمعنيان لا يحصلان إلا بقبول الرسالة .

أما القول الثاني : فاعلم أن شيئاً من تلك الوجوه لا يبطله ، بل هذه الآية دالة عليه لأنه عطف النبي على الرسول ، وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص .

(50/526)

وقال في موضع آخر ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ ﴾ [الزخرف : 6] وذلك يدل على أنه كان نبياً ، فجعله الله مرسلاً وهو يدل على قولنا : " وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كم المرسلون ؟ فقال ثلثمائة وثلاثة عشرة ، فقيل وكم الأنبياء ؟ فقال مائة ألف

وأربعة وعشرون ألفاً الجم الغفير " إذا ثبت هذا فنقول : ذكروا في الفرق بين الرسول والنبي أموراً : أحدها : أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه ، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب ، وإنما أمر أن يدعو إلى كتاب من قبله والثاني : أن من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرسول ، ومن لم يكن مستجمعاً لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول ، وهؤلاء يلزمهم أن لا يجعلوا إسحق ويعقوب وأيوب ويونس وهرون وداود وسليمان رسلاً لأنهم ما جاءوا بكتاب ناسخ والثالث : أن من جاءه الملك ظاهراً وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول ، ومن لم يكن كذلك بل رأى في النوم كونه رسولاً ، أو أخبره أحد من الرسال بأنه رسول الله ، فهو النبي الذي لا يكون رسولاً وهذا هو الأولى .

المسألة الثانية :

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى إعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على إيمانهم فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش كثير أهله وأحب يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء ينفروا عنه وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى سورة

﴿ والنجم إذا هوى ﴾ [النجم : 1] فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 19 ، 20] ألقى الشيطان على لسانه " تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى " فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته فقرأ السورة كلها فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد سوى الوليد بن المغيرة وأبي أحيحة سعيد بن العاصي فإنهما أخذا حفنة من التراب من البطحاء ورفعاها إلى جبهتيهما وسجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام فقال ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله وقلت ما لم أقل لك ؟ ! فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً وخاف من الله خوفاً عظيماً حتى نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ الآية .

هذا رواية عامة المفسرين الظاهريين ، أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول .

أما القرآن فوجوه : أحدها : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة : 44 46] ، وثانيها : قوله : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [يونس : 15] وثالثها : قوله : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ ﴿ النجم : 3] فلو أنه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرانيق العلي لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال وذلك لا يقوله مسلم ورابعها : قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 73] وكلمة كاد عند بعضهم معناه قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنه لم يحصل وخامسها : قوله : ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 74] وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل وسادسها : قوله : ﴿ كَذَلِكَ نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان : 32] . وسابعها : قوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى ﴾ [الأعلى : 6] .

وأما السنة فهي ما روي عن محمد بن إسحق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال هذا وضع من الزنادقة وصنف فيه كتاباً .

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم ، وأيضاً فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي عليه السلام قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن وليس فيه حديث الغرانيق .

وروي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها ألبتة حديث الغرانيق .

(53/526)

وأما المعقول فمن وجوه : أحدها : أن من جوز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الأوثان فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان وثانيها : أنه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلى ويقرأ القرآن عند الكعبة آمناً أذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا أيديهم إليه وإنما كان يصلي إذا لم يحضروها ليلاً أو في أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم وثالثها : أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الأمر فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجداً مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم ورابعها : قوله : ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشيطان ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ ءاياته ﴾ وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن

الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها ، فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآناً ، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلاً أولى وخامسها : وهو أقوى الوجوه أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [المائدة : 67] فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة أكثر ما في الباب أن جمعاً من المفسرين ذكروها لكنهم ما بلغوا حد التواتر ، وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة ، ولنشرع الآن في التفصيل فنقول التمني جاء في اللغة لأمرين : أحدهما : تمنى القلب والثاني : القراءة قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة : 78] أي إلا قراءة لأن الأمي لا يعلم القرآن من المصحف وإنما

(54/526)

يعلمه قراءة ، وقال حسان :

تمنى كتاب الله أول ليلة . . وآخرها لاقى حمام المقادر

قيل إنما سميت القراءة أمنية لأن القارىء إذا انتهى إلى آية رحمة تمنى حصولها وإذا انتهى إلى آية عذاب تمنى أن لا يبتلى بها ، وقال : أبو مسلم التمني هو التقدير وتمنى هو تفعل من منيت والمنية وفاة الإنسان في الوقت الذي قدره الله تعالى ، ومنى الله لك أي قدر لك .

(55/526)

وقال رواة اللغة الأمنية القراءة واحتجوا ببيت حسان ، وذلك راجع إلى الأصل الذي ذكرناه فإن التالي مقدر للحروف ويذكرها شيئاً فشيئاً ، فالحاصل من هذا البحث أن الأمنية ، إما القراءة ، وإما الخاطر ، أما إذا فسرناها بالقراءة ففيه قولان : الأول : أنه تعالى أراد بذلك ما يجوز أن يسهو الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ويشتبه على القارىء دون ما رووه من قوله تلك الغرانيق العلى الثاني : المراد منه وقوع هذه الكلمة في قراءته ثم اختلف القائلون بهذا على وجوه : الأول : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بقوله تلك الغرانيق العلى ولا الشيطان تكلم به ولا أحد تكلم به لكنه عليه السلام لما قرأ سورة النجم اشتبه الأمر على الكفار فحسبوا بعض ألفاظه ما رووه من قولهم تلك الغرانيق العلى وذلك على حسب ما جرت العادة به من توهم بعض الكلمات على غير ما يقال وهذا الوجه ذهب إليه جماعة وهو ضعيف لوجوه : أحدها : أن التوهم في مثل ذلك إنما يصح فيما قد

جرت العادة بسماعه فأما غير المسموع فلا يقع ذلك فيه وثانيها : أنه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض فإن العادة مانعة من اتفاق الجم العظيم في الساعة الواحدة على خيال واحد فاسد في المحسوسات وثالثها : لو كان كذلك لم يكن مضافاً إلى الشيطان الوجه الثاني : قالوا إن ذلك الكلام كلام شيطان الجن وذلك بأن تلفظ بكلام من تلقاء نفسه أوقعه في درج تلك التلاوة في بعض وقفاته ليظن أنه من جنس الكلام المسموع من الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا والذي يؤكده أنه لا خلاف في أن الجن والشياطين متكلمون فلا يمتنع أن يأتي الشيطان بصوت مثل صوت الرسول عليه السلام فيتكلم بهذه الكلمات في أثناء كلام الرسول عليه السلام وعند سكوته فإذا سمع الحاضرون تلك الكلمة بصوت مثل صوت الرسول وما رأوا شخصاً آخر ظن الحاضرون أنه كلام الرسول ، ثم هذا لا يكون قادحاً في النبوة لما لم يكن فعلاً له ، وهذا أيضاً

(56/526)

ضعيف فإنك إذا جوزت أن يتكلم في أثناء الشيطان كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بما يشتبه على كل السامعين كونه كلاماً للرسول بقي هذا الاحتمال في كل ما يتكلم به الرسول فيفضي إلى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع فإن قيل هذا الاحتمال قائم في الكل ولكنه لو وقع

لوجب في حكمة الله تعالى أن يشرح الحال فيه كما في هذه الواقعة إزالة للتلبيس ، قلنا لا يجب على الله إزالة الاحتمالات كما في المتشابهات وإذا لم يجب على الله ذلك تمكن الاحتمال من الكل الوجه الثالث : أن يقال المتكلم بذلك بعض شياطين الإنس وهم الكفرة فإنه عليه السلام لما انتهى في قراءة هذه السورة إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم وقد علموا من عادته أنه يعيبها فقال بعض من حضر تلك الغرانيق العلى فاشتبه الأمر على القوم لكثرة لغط القوم وكثرة صياحهم وطلبهم تغليطه وإخفاء قراءته ، ولعل ذلك كان في صلاته لأنهم كانوا يقربون منه في حال صلاته ويسمعون قراءته ويلغون فيها ، وقيل إنه عليه السلام كان إذا تلا القرآن على قريش توقف في فصول الآيات فألقى بعض الحاضرين ذلك الكلام في تلك الوقفات فتوهم القوم أنه من قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أضاف الله تعالى ذلك إلى الشيطان لأنه بوسوسته يحصل أولاً ولأنه سبحانه جعل ذلك المتكلم في نفسه شيطاناً وهذا أيضاً ضعيف لوجهين : أحدهما : أنه لو كان كذلك لكان يجب على الرسول صلى الله عليه وسلم إزالة الشبهة وتصريح الحق وتبكيت ذلك القائل وإظهار أن هذه الكلمة منه صدرت وثانيهما : لو فعل ذلك لكان ذلك أولى بالنقل ، فإن قيل إنما لم يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه كان قد أدى السورة بكمالها إلى الأمة من دون هذه الزيادة فلم يكن ذلك مؤدياً إلى التلبيس كما يؤدي سهوه في الصلاة بعد أن وصفها إلى اللبس

، قلنا إن القرآن لم يكن مستقراً على حالة واحدة في زمان حياته لأنه كان تأتيه الآيات فيلحقها بالسور فلم يكن تأدية تلك السورة بدون

(57/526)

هذه الزيادة سبباً لزوال اللبس ، وأيضاً فلو كان كذلك لما استحق العتاب من الله تعالى على ما رواه القوم الوجه الرابع : هو أن المتكلم بهذا هو الرسول صلى الله عليه وسلم ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه فإنه إما أن يكون قال هذه الكلمة سهواً أو قسراً أو اختياراً أما الوجه الأول : وهو أنه عليه السلام قال هذه الكلمة سهواً فكما يروى عن قتادة ومقاتل أنهما قالا إنه عليه السلام كان يصلي عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان فلما فرغ من السورة سجد وسجد كل من في المسجد وفرح المشركون بما سمعوه وأتاه جبريل عليه السلام فاستقرأه ، فلما انتهى إلى الغرانيق قال لم آتك بهذا ، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن نزلت هذه الآية وهذا ضعيف أيضاً لوجوه : أحدها : أنه لو جاز هذا السهو لجاز في سائر المواضع وحينئذ تزول الثقة عن الشرع وثانيها : أن الساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة وطريقتها ومعناها ، فإنا نعلم بالضرورة أن واحداً لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها ومعناها

وطريقتها وثالثها : هب أنه تكلم بذلك سهواً ، فكيف لم ينبه لذلك حين قرأها على جبريل عليه السلام وذلك ظاهر أما الوجه الثاني : وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك قسراً وهو الذي قال قوم إن الشيطان أجبر النبي صلى الله عليه وسلم على أن يتكلم بهذا فهذا أيضاً فاسد لوجوه : أحدها : أن الشيطان لو قدر على ذلك في حق النبي عليه السلام لكان اقتداره علينا أكثر فوجب أن يزيل الشيطان الناس عن الدين ولجاز في أكثر ما يتكلم به الواحد منا أن يكون ذلك بإجبار الشياطين وثانيها : أن الشيطان لو قدر على هذا الإجبار لارتفع الأمان عن الوحي لقيام هذا الاحتمال وثالثها : أنه باطل بدلالة قوله تعالى حاكياً عن الشيطان

(58/526)

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [إبراهيم : 22] وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ على الذين ءَامَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سلطانه على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ [النحل : 99 ، 100] وقال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [الحجر : 40] ولا شك أنه عليه السلام كان سيد المخلصين أما الوجه الثالث : وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك اختياراً فههنا وجهان : أحدهما : أن

نقول إن هذه الكلمة باطلة والثاني : أن نقول إنها ليست كلمة باطلة أما على الوجه الأول فذكروا فيه طريقين : الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء إن شيطاناً يقال له الأبيض أتاه على صورة جبريل عليه السلام وألقى عليه هذه الكلمة فقرأها فلما سمع المشركون ذلك أعجبهم فجاء جبريل عليه السلام فاستعرضه فقرأها فلما بلغ إلى تلك الكلمة قال جبريل عليه السلام أنا ما جئتك بهذه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أتاني آت على صورتك فألقاها على لساني الطريق الثاني : قال بعض الجهال إنه عليه السلام لشدة حرصه على إيمان القوم أدخل هذه الكلمة من عند نفسه ثم رجع عنها ، وهذان القولان لا يرغب فيهما مسلم ألبتة لأن الأول يقتضي أنه عليه السلام ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث والثاني يقتضي أنه كان خائناً في الوحي وكل واحد منهما خروج عن الدين أما الوجه الثاني : وهو أن هذه الكلمة ليست باطلة فههنا أيضاً طرق الأول : أن يقال الغرانيق هم الملائكة وقد كان ذلك قرآناً منزلاً في وصف الملائكة .

(59/526)

فلما توهم المشركون أنه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته الثاني : أن يقال المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار ، فكأنه قال : أشفاعتهن ترتجى ؟ الثالث : أن يقال إنه ذكر الإثبات

وأراد النفي كقوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ [النساء : 176] أي لا تضلوا كما قد يذكر النفي ويريد به الإثبات كقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾

[الأنعام : 151] والمعنى أن تشركوا ، وهذان الوجهان الأخيران يعترض عليهما بأنه لو جاز ذلك بناء على هذا التأويل فلم لا يجوز أن يظهروا كلمة الكفر في جملة القرآن أو في الصلاة بناء على هذا التأويل ، ولكن الأصل في الدين أن لا يجوز عليهم شيء من ذلك لأن الله تعالى قد نصبهم حجة واصطفاهم للرسالة فلا يجوز عليهم ما يطعن في ذلك أو ينفر ، ومثل ذلك في التنفير أعظم من الأمور التي حثه الله تعالى على تركها كنحو الفظاظة والكتابة وقول الشعر فهذه الوجوه المذكورة في قوله تلك الغرانيق العلا قد ظهر على القطع كذبها ، فهذا كله إذا فسرنا التمني بالتلاوة .

(60/526)

وأما إذا فسرناها بالخاطر وتمنى القلب فالمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم متى تمنى بعض ما يتمناه من الأمور يوسوس الشيطان إليه بالباطل ويدعوه إلى ما لا ينبغي ثم إن الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويهديه إلى ترك الالتفات إلى وسوسته ، ثم اختلفوا في كيفية تلك

الوسوسة على وجوه : أحدها : أنه يتمنى ما يتقرب به إلى المشركين من ذكر آلهتهم بالثناء قالوا إنه عليه السلام كان يحب أن يتألفهم وكان يردد ذلك في نفسه فعند ما لحقه النعاس زاد تلك الزيادة من حيث كانت في نفسه وهذا أيضاً خروج عن الدين وبيانه ما تقدم وثانيها : ما قال مجاهد من أنه عليه السلام كان يتمنى إنزال الوحي عليه على سرعة دون تأخير فنسخ الله ذلك بأن عرفه بأن إنزال ذلك بحسب المصالح في الحوادث والنوازل وغيرها وثالثها : يحتمل أنه عليه السلام عند نزول الوحي كان يتفكر في تأويله إن كان مجملاً فيلقى الشيطان في جملته ما لم يرده ، فبين تعالى أنه ينسخ ذلك بالإبطال ويحكم ما أراده الله تعالى بأدلته وآياته ورابعها : معنى الآية إذا تمنى إذا أراد فعلاً مقرباً إلى الله تعالى ألقى الشيطان في فكره ما يخالفه فيرجع إلى الله تعالى في ذلك وهو كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين اتقوا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ الشيطان تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : 201] وكقوله : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله ﴾ [الأعراف : 200] ومن الناس من قال لا يجوز حمل الأمنية على تمني القلب لأنه لو كان كذلك لم يكن ما يخطر ببال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة للكفار وذلك يبطله قوله تعالى : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشيطان فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ ، والجواب : لا يبعد أنه إذا قوي التمني اشتغل الخاطر به فحصل السهو في الأفعال الظاهرة بسببه فيصير ذلك فتنة للكفار فهذا آخر القول في هذه المسألة .

المسألة الثالثة :

يرجع حاصل البحث إلى أن الغرض من هذه الآية بيان أن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى وإن عصمهم عن الخطأ مع العلم فلم يعصمهم من جواز السهو ووسوسة الشيطان بل حالهم في جواز ذلك كحال سائر البشر فالواجب أن لا يتبعوا إلا فيما يفعلونه عن علم فذلك هو المحكم ، وقال أبو مسلم معنى الآية أنه لم يرسل نبياً إلا إذا تمنى كأنه قيل : وما أرسلنا إلى البشر ملكاً وما أرسلنا إليهم نبياً إلا منهم ، وما أرسلنا نبياً خلا عند تلاوته الوحي من وسوسة الشيطان وأن يلقي في خاطره وما يضاد الوحي ويشغله عن حفظه فيثبت الله النبي على الوحي وعلى حفظه ويعلمه صواب ذلك وبطلان ما يكون من الشيطان ، قال وفيما تقدم من قوله : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ تقوية لهذا التأويل فكأنه تعالى أمره أن يقول للكافرين أنا نذير لكم لكني من البشر لا من الملائكة ، ولم يرسل الله تعالى مثلي ملكاً بل أرسل رجالاً فقد وسوس الشيطان إليهم ، فإن قيل هذا إنما يصح لو كان السهو لا يجوز على الملائكة ، قلنا إذا كانت الملائكة أعظم درجة من الأنبياء لم يلزم من استيلائهم بالوسوسة على الأنبياء استيلاؤهم بالوسوسة على الملائكة ، واعلم أنه

سبحانه لما شرح حال هذه الوسوسة أردف ذلك ببحثين :

البحث الأول : كيفية إزالتها وذلك هو قوله تعالى : ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشيطان ﴾ فالمراد إزالته وإزالة تأثيره فهو النسخ اللغوي لا النسخ الشرعي المستعمل في الأحكام .

أما قوله : ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ ءاياته ﴾ فإذا حمل التمني على القراءة فالمراد به آيات القرآن وإلا فيحمل على أحكام الأدلة التي لا يجوز فيها الغلط .

(62/526)

البحث الثاني : أنه تعالى بين أثر تلك الوسوسة ، ثم إنه سبحانه شرح أثرها في حق الكفار أولاً ثم في حق المؤمنين ثانياً ، أما في حق الكفار فهو قوله : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان فِتْنَةً ﴾ والمراد به تشديد التبعيد لأن عندما يظهر من الرسول صلى الله عليه وسلم الاشتباه في القرآن سهواً يلزمهم البحث عن ذلك ليميزوا السهو من العمد وليعلموا أن العمد صواب والسهو قد لا يكون صواباً .

أما قوله : ﴿ لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ ففيه سؤالان :

السؤال الأول : لم قال : ﴿ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ولم خصهم بذلك الجواب : لأنهم مع كفرهم يحتاجون إلى ذلك التدبر ، وأما المؤمنون فقد تقدم علمهم بذلك فلا يحتاجون إلى

التدبر .

السؤال الثاني : ما مرض القلب الجواب : أنه الشك والشبهة وهم المنافقون كما قال : ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ وأما القاسية قلوبهم فهم المشركون المصرون على جهلهم ظاهراً وباطناً .

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الظالمين لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ يريد أن هؤلاء المنافقين والمشركين فأصله وإنهم ، فوضع الظاهر موضع المضمر قضاء عليهم بالظلم والشقاق والمشاقة والمعاداة والمباعدة سواء ، وأما في حق المؤمنين فهو قوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ وفي الكناية ثلاثة أوجه : أحدها : أنها عائدة إلى نسخ ما ألقاه الشيطان ، عن الكلبي .

(63/526)

وثانيها : أنه الحق أي القرآن عن مقاتل وثالثها : أن تمكن الشيطان من ذلك الإلقاء هو الحق ، أما على قولنا فلأنه سبحانه وتعالى أي شيء فعل فقد تصرف في ملكه وملكه بضم الميم وكسرها فكان حقاً ، وأما على قول المعتزلة فلأنه سبحانه حكيم فتكون كل أفعاله صواباً فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم أي تخضع وتسكن لعلمهم بأن المقضي كائن ، وكل ميسر لما

خلق له ، ﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا ﴾ إلى أن يتأولوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبوا ما أشكل منه من المجمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة وقرىء (لهاد الذين آمنوا) بالتنوين ، ولما بين سبحانه حال الكافرين أولاً ثم حال المؤمنين ثانياً عاد إلى شرح حال الكافرين مرة أخرى فقال : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مّنْهُ ﴾ أي من القرآن أو من الرسول ، وذلك يدل على أن الأعصار إلى قيام الساعة لا تخلو ممن هذا وصفه .

أما قوله تعالى : ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً ﴾ أي فجأة من دون أن يشعروا ثم جعل الساعة غاية لكفرهم ، وأنهم يؤمنون عند أشراط الساعة على وجه الإلجاء .

(64/526)

واختلف في المراد باليوم العقيم وفيه قولان : أحدهما : أنه يوم بدر وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم لوجوه أربعة : أحدها : أن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن وثانيها : أن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز وثالثها : هو الذي لا خير فيه يقال ريح عقيم إذا لم تنشىء مطراً ولم تلقح شجراً ورابعها : أنه لا مثل له في عظم أمره ، وذلك لقتال الملائكة فيه القول الثاني : أنه يوم القيامة ،

وإنما وصف بالعقيم لوجوه : أحدها : أنهم لا يرون فيه خيراً وثانيها : أنه لا ليل فيه فيستمر كاستمرار المرأة على تعطل الولادة وثالثها : أن كل ذات حمل تضع حملها في ذلك اليوم فكيف يحصل الحمل فيه ، وهذا القول أولى لأنه لا يجوز أن يقول الله تعالى ﴿ وَلَا يَزَالُ الذين كَفَرُواْ ﴾ ويكون المراد يوم بدر ، لأن من المعلوم أنهم في مرية بعد يوم بدر ، فإن قيل لما ذكر الساعة .

فلو حملتم اليوم العقيم على يوم القيامة لزم التكرار ؛ قلنا ليس كذلك لأن الساعة من مقدمات القيامة واليوم العقيم هو نفس ذلك اليوم ، وعلى أن الأمر لو كان كما قاله لم يكن تكراراً لأن في الأول ذكر الساعة ، وفي الثاني ذكر عذاب ذلك اليوم ، ويحتمل أن يكون المراد بالساعة وقت موت كل أحد وبعذاب يوم عقيم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 43. 49 ﴾

(65/526)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِك مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إلَّا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ الْآيَةَ .

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكِ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ : أَنَّ السَّبَبَ فِي نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَمَّا ﴿ تَلَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ أُلْقِيَ الشَّيْطَانُ فِي تِلَاوَتِهِ : تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى ، وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى ﴾ .

(66/526)

وَقَدْ اخْتُلِفَ فِي مَعْنَى أُلْقِيَ الشَّيْطَانُ ، فَقَالَ قَائِلُونَ : لَمَّا تَلَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ السُّورَةَ وَذَكَرَ فِيهَا الْأَصْنَامَ عَلِمَ الْكُفَّارُ أَنَّهُ يَذْكُرُهَا بِالذَّمِّ وَالْعَيْبِ ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ حِينَ بَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾ : " تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى " وَذَلِكَ بِحَضْرَةِ الْجَمْعِ الْكَثِيرِ مِنْ قُرَيْشٍ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَقَالَ سَائِرُ الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا بِالْبُعْدِ مِنْهُ : إنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَدَحَ آلِهَتَنَا ، وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي تِلَاوَتِهِ ، فَأَبْطَلَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ وَبَيَّنَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَتْلُهُ وَإِنَّمَا تَلَاهُ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ ، وَسَمَّى الَّذِي أُلْقِيَ ذَلِكَ فِي حَالِ تِلَاوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْطَانًا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ وَالشَّيْطَانُ اسْمٌ لِكُلِّ مُتَمَرِّدٍ عَاتٍ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ .

وَقِيلَ : إِنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ شَيْطَانًا مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ ، وَقَالَ ذَلِكَ عِنْدَ تِلَاوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِثْلُ ذَلِكَ جَائِزٌ فِي أَزْمَانِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ

(67/526)

أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتْ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ إِبْلِيسُ حِينَ تَصَوَّرَ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ لِقُرَيْشٍ وَهُمْ يُرِيدُونَ الْخُرُوجَ إِلَى بَدْرٍ ، وَكَمَا تَصَوَّرَ فِي صُورَةِ الشَّيْخِ النَّجْدِيِّ حِينَ تَشَاوَرَتْ قُرَيْشٌ فِي دَارِ النَّدْوَةِ فِي أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ مِثْلُ ذَلِكَ جَائِزًا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِضَرْبٍ مِنْ التَّدْبِيرِ ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الَّذِي قَالَ ذَلِكَ شَيْطَانًا فَظَنَّ الْقَوْمُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَهُ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَكَلَّمَ بِذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ السَّهْوِ الَّذِي لَا يَعْرَى مِنْهُ بَشَرٌ فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يُنَبِّهَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ .

وَأَنْكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ ذَلِكَ ، وَذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ يُلْقِي وَسَاوِسَهُ فِي صَدْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يُشْغِلُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يَقُولُ ، فَيَقْرَأُ غَلَطًا فِي الْقَصَصِ

الْمُتَشَابِهَةِ نَحْوَ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِرْعَوْنَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ الْقُرْآنِ مُخْتَلِفَةَ الْأَلْفَاظِ ، فَكَانَ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ رُبَّمَا قَالُوا قَدْ رَجَعَ عَنْ بَعْضِ مَا قَرَأَ وَكَانَ ذَلِكَ يَكُونُ مِنْهُ عَلَى طَرِيقِ السَّهْوِ فَنَبَّهَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ .

(68/526)

فَأَمَّا الْغَلَطُ فِي قِرَاءَةِ " تِلْكَ الْغَرَانِيقُ " فَإِنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ وُقُوعُهُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا لَا يَجُوزُ وُقُوعُ الْغَلَطِ عَلَى بَعْضِ الْقُرْآنِ بِإِنْشَادِ شِعْرٍ فِي أَضْعَافِ التِّلَاوَةِ عَلَى أَنَّهُ مِنْ الْقُرْآنِ .

وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ لَمَّا تَلَا مَا فِيهِ ذِكْرُ الْأَصْنَامِ ﴿ قَالَ لَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّمَا هِيَ عِنْدَكُمْ كَالْغَرَانِيقِ الْعُلَى وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى فِي قَوْلِكُمْ ﴾ عَلَى جِهَةِ التَّكِيرِ عَلَيْهِمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(69/526)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : فِي ذَلِكَ رِوَايَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ ، أَظْهَرُهَا وَمَا فِيهَا ظَاهِرٌ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ فِي نَادٍ مِنْ أَنْدِيَةِ قَوْمِهِ ، كَثِيرٌ أَهْلُهُ ، فَتَمَنَّى يَوْمَئِذٍ أَلَّا يَأْتِيَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْءٌ فَيَنْفِرُوا عَنْهُ يَوْمَئِذٍ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ فَقَرَأَ حَتَّى إِذَا بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ .

أَلْقَى الشَّيْطَانُ كَلِمَتَيْنِ : تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَا ، وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى .

فَتَكَلَّمَ بِهَا ، ثُمَّ مَضَى بِقِرَاءَةِ السُّورَةِ كُلِّهَا ، ثُمَّ سَجَدَ فِي آخِرِ السُّورَةِ ، وَسَجَدَ الْقَوْمُ جَمِيعًا مَعَهُ ، وَرَفَعَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ تُرَابًا إِلَى جَبْهَتِهِ وَسَجَدَ عَلَيْهِ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا ، فَلَمَّا أَمْسَى أَتَاهُ جِبْرِيلُ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ السُّورَةَ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْكَلِمَتَيْنِ قَالَ : مَا جِئْتُك بِهَاتَيْنِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ فَمَا زَالَ مَغْمُومًا مَهْمُومًا

حَتَّى نَزَلَتْ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ .

﴿ وَفِي رِوَايَةٍ ﴾ أَنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لَهُ : لَقَدْ تَلَوْتَ يَا مُحَمَّدُ عَلَى النَّاسِ شَيْئًا لَمْ آتِكَ بِهِ ، فَحَزِنَ وَخَافَ خَوْفًا شَدِيدًا ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ : إنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ رَسُولٌ وَلَا نَبِيٌّ تَمَنَّى كَمَا تَمَنَّى ، وَأَحَبَّ كَمَا أَحَبَّ ، إلَّا وَالشَّيْطَانُ قَدْ أَلْقَى فِي أُمْنِيَّتِهِ كَمَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ ﴾ .

(71/526)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : اعْلَمُوا أَنَارَ اللَّهُ أَفْئِدَتَكُمْ بِنُورِ هُدَاهُ ، وَيَسَّرَ لَكُمْ مَقْصِدَ التَّوْحِيدِ وَمَغْزَاهُ أَنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ يَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ، وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى الْآيَةِ فِي فَصْلِ تَنْبِيهِ الْغَبِيِّ عَلَى مِقْدَارِ النَّبِيِّ بِمَا نَرْجُو بِهِ عِنْدَ اللَّهِ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ، فِي مَقَامِ الزُّلْفَى ، وَنَحْنُ الْآنَ نَجْلُو بِتِلْكَ الْفُصُولِ الْغَمَاءَ ، وَنُرَقِّيكُمْ بِهَا عَنْ حَضِيضِ الدَّهْمَاءِ ، إلَى بِقَاعِ الْعُلَمَاءِ فِي عَشْرِ مَقَامَاتٍ : الْمَقَامُ الْأَوَّلُ : أَنَّ النَّبِيَّ إذَا أَرْسَلَ اللَّهُ إلَيْهِ الْمَلَكُ بِوَحْيِهِ ، فَإِنَّهُ يَخْلُقُ لَهُ الْعِلْمَ بِهِ ، حَتَّى يَتَحَقَّقَ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِهِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا صَحَّتْ الرِّسَالَةُ ،

وَلَا تَبَيَّنَتْ النُّبُوَّةُ ، فَإِذَا خَلَقَ اللَّهُ لَهُ الْعِلْمَ بِهِ تَمَيَّزَ عِنْدَهُ مِنْ غَيْرِهِ ، وَثَبَتَ الْيَقِينُ ، وَاسْتَقَامَ سَبِيلُ الدِّينِ ، وَلَوْ كَانَ النَّبِيُّ إذَا شَافَهَهُ الْمَلَكُ بِالْوَحْيِ لَا يَدْرِي أَمَلَكٌ هُوَ أَمْ إنْسَانٌ ، أَمْ صُورَةٌ مُخَالِفَةٌ لِهَذِهِ الْأَجْنَاسِ أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ كَلَامًا ، وَبَلَّغَتْ إلَيْهِ قَوْلًا لَمْ يَصِحَّ لَهُ أَنْ يَقُولَ : إنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلَا ثَبَتَ عِنْدَنَا أَنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ ، فَهَذِهِ سَبِيلٌ مُتَيَقَّنَةٌ ، وَحَالَةٌ مُتَحَقِّقَةٌ ، لَا بُدَّ مِنْهَا ، وَلَا خِلَافَ فِي الْمَنْقُولِ وَلَا فِي الْمَعْقُولِ فِيهَا ، وَلَوْ جَازَ لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَتَمَثَّلَ فِيهَا ، أَوْ يَتَشَبَّهَ بِهَا مَا أَمِنَاهُ عَلَى آيَةٍ ، وَلَا عَرَفْنَا مِنْهُ بَاطِلًا مِنْ حَقِيقَةٍ ؛

(72/526)

فَارْتَفَعَ بِهَذَا الْفَصْلِ اللَّبْسُ ، وَصَحَّ الْيَقِينُ فِي النَّفْسِ . .

الْمَقَامُ الثَّانِي : أَنَّ اللَّهَ قَدْ عَصَمَ رَسُولَهُ مِنْ الْكُفْرِ ، وَآمَنَهُ مِنْ الشِّرْكِ ، وَاسْتَقَرَّ ذَلِكَ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ بِإِجْمَاعِهِمْ فِيهِ ، وَإِطْبَاقِهِمْ عَلَيْهِ ؛ فَمَنْ ادَّعَى أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يَكْفُرَ بِاللَّهِ ، أَوْ يَشُكَّ فِيهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ ؛ بَلْ لَا تَجُوزُ عَلَيْهِ الْمَعَاصِي فِي الْأَفْعَالِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُنْسَبَ إلَى الْكُفْرِ فِي الِاعْتِقَادِ ؛ بَلْ هُوَ الْمُنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ فِعْلًا وَاعْتِقَادًا .

وَقَدْ مَهَّدْنَا ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ بِأَوْضَحِ دَلِيلٍ .

الْمَقَامُ الثَّالِثُ : أَنَّ اللَّهَ قَدْ عَرَّفَ رَسُولَهُ بِنَفْسِهِ ، وَبَصَّرَهُ بِأَدِلَّتِهِ ، وَأَرَاهُ مَلَكُوتَ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ ، وَعَرَّفَهُ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنْ إِخْوَتِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا نَعْرِفُهُ الْيَوْمَ ، وَنَحْنُ حُثَالَةُ أُمَّتِهِ ؛ وَمَنْ خَطَرَ لَهُ ذَلِكَ فَهُوَ مِمَّنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ ، غَيْرَ عَارِفٍ بِنَبِيِّهِ وَلَا بِرَبِّهِ .

(73/526)

الْمَقَامُ الرَّابِعُ : تَأَمَّلُوا فَتَحَ اللَّهُ أَغْلَاقَ النَّظَرِ عَنْكُمْ إِلَى قَوْلِ الرُّوَاةِ الَّذِينَ هُمْ بِجَهْلِهِمْ أَعْدَاءٌ عَلَى الْإِسْلَامِ ، مِمَّنْ صَرَّحَ بِعَدَاوَتِهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا جَلَسَ مَعَ قُرَيْشٍ تَمَنَّى أَلَّا يَنْزِلَ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ وَحْيٌ ، فَكَيْفَ يَجُوزُ لِمَنْ مَعَهُ أَدْنَى مُسْكَةٍ أَنْ يَخْطُرَ بِبَالِهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آثَرَ وَصْلَ قَوْمِهِ عَلَى وَصْلِ رَبِّهِ ، وَأَرَادَ أَلَّا يَقْطَعَ أُنْسَهُ بِهِمْ بِمَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ مِنْ الْوَحْيِ الَّذِي كَانَ حَيَاةَ جَسَدِهِ وَقَلْبِهِ ، وَأُنْسَ وَحْشَتِهِ ، وَغَايَةَ أُمْنِيَّتِهِ .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ ؛ فَإِذَا جَاءَهُ جِبْرِيلُ كَانَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنْ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ فَيُؤْثِرُ عَلَى هَذَا مُجَالَسَةَ الْأَعْدَاءِ .

الْمَقَامُ الْخَامِسُ : أَنَّ قَوْلَ الشَّيْطَانِ تِلْكَ الْغَرَانِقَةُ الْعُلَا ، وَإِنَّ شَفَاعَتَهَا تُرْتَجَى لِلنَّبِيِّ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبِلَهُ مِنْهُ ؛ فَالْتَبَسَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ بِالْمَلَكِ ، وَاخْتَلَطَ عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ بِالْكُفْرِ ، حَتَّى لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمَا .

وَأَنَا مِنْ أَدْنَى الْمُؤْمِنِينَ مَنْزِلَةً ، وَأَقَلِّهِمْ مَعْرِفَةً بِمَا وَفَّقَنِي اللَّهُ لَهُ ، وَآتَانِي مِنْ عِلْمِهِ ، لَا يَخْفَى عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ أَنَّ هَذَا كُفْرٌ لَا يَجُوزُ وُرُودُهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

(74/526)

وَلَوْ قَالَهُ أَحَدٌ لَكُمْ لَتَبَادَرَ الْكُلُّ إِلَيْهِ قَبْلَ التَّفْكِيرِ بِالْإِنْكَارِ وَالرَّدْعِ ، وَالتَّثْرِيبِ وَالتَّشْنِيعِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَجْهَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَالَ الْقَوْلِ ، وَيَخْفَى عَلَيْهِ قَوْلُهُ ، وَلَا يَتَفَطَّنُ لِصِفَةِ الْأَصْنَامِ بِأَنَّهَا الْغَرَانِقَةُ الْعُلَا ، وَأَنَّ شَفَاعَتَهَا تُرْتَجَى .

وَقَدْ عَلِمَ عِلْمًا ضَرُورِيًّا أَنَّهَا جَمَادَاتٌ لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ ، وَلَا تَنْطِقُ وَلَا تَضُرُّ ، وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَنْصُرُ وَلَا تَشْفَعُ ، بِهَذَا كَانَ يَأْتِيهِ جِبْرِيلُ الصَّبَاحُ وَالْمَسَاءُ ، وَعَلَيْهِ انْبَنَى التَّوْحِيدُ ، وَلَا يَجُوزُ نَسْخُهُ مِنْ جِهَةِ الْمَعْقُولِ وَلَا مِنْ جِهَةِ الْمَنْقُولِ ، فَكَيْفَ يَخْفَى هَذَا عَلَى الرَّسُولِ ؟ ثُمَّ لَمْ يَكْفِ هَذَا حَتَّى قَالُوا : إِنَّ جِبْرِيلَ لَمَّا عَادَ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ لِيُعَارِضَهُ فِيمَا أُلْقِيَ إِلَيْهِ الْوَحْيُ كَرَّرَهَا عَلَيْهِ جَاهِلًا بِهَا تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ فَحِينَئِذٍ أَنْكَرَهَا عَلَيْهِ جِبْرِيلُ ، وَقَالَ لَهُ : مَا جِئْتُك بِهَذِهِ .

فَحَزِنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِذَلِكَ ، وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ ، فَيَا لِلَّهِ وَالْمُتَعَلِّمِينَ وَالْعَالِمِينَ مِنْ شَيْخٍ فَاسِدٍ وَسُوسٍ هَامِدٍ ، لَا يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَافِيَةٌ لِمَا زَعَمُوا ، مُبْطِلَةٌ لِمَا رَوَوْا وَتَقَوَّلُوا ، وَهُوَ : الْمَقَامُ السَّادِسُ : وَذَلِكَ أَنَّ

(75/526)

قَوْلَ الْعَرَبِيِّ : كَادَ يَكُونُ كَذَا : مَعْنَاهُ قَارَبَ وَلَمْ يَكُنْ ؛ فَأَخْبَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ قَارَبُوا أَنْ يَفْتِنُوهُ عَنْ الَّذِي أُوحِيَ إلَيْهِ ، وَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ ، ثُمَّ قَالَ : لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ .

وَهُوَ : الْمَقَامُ السَّابِعُ : وَلَمْ يَفْتَرِ ، وَلَوْ فَتَنُوكَ وَافْتَرَيْت لَاتَّخَذُوك خَلِيلًا ، فَلَمْ تُفْتَتَنْ وَلَا افْتَرَيْت ، وَلَا عَدُّوك خَلِيلًا .

وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاك وَهُوَ :

الْمَقَامُ الثَّامِنُ : ﴿ لَقَدْ كِدْت تَرْكَنُ إلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ ؛ فَأَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ ثَبَّتَهُ ، وَقَرَّرَ التَّوْحِيدَ وَالْمَعْرِفَةَ فِي قَلْبِهِ ، وَضَرَبَ عَلَيْهِ سُرَادِقَ الْعِصْمَةِ ، وَآوَاهُ فِي كَنَفِ الْحُرْمَةِ .

وَلَوْ وَكَّلَهُ إلَى نَفْسِهِ ، وَرَفَعَ عَنْهُ ظِلَّ عِصْمَتِهِ لَحْظَةً لَأَلْمَمَت بِمَا رَامُوهُ ، وَلَكِنَّا أَمَرْنَا عَلَيْك

بِالْمُحَافَظَةِ ، وَأَشْرَقْنَا بِنُورِ الْهِدَايَةِ فُؤَادَكَ ، فَاسْتَبْصِرْ وَأَزِحْ عَنْكَ الْبَاطِلَ ، وَادْحَرْ .

فَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ فِي عِصْمَتِهِ مِنْ كُلِّ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ ، فَكَيْفَ يَتَأَوَّلُهَا أَحَدٌ ؟ عَدُّوا عَمَّا نُسِبَ مِنْ الْبَاطِلِ إِلَيْهِ .

الْمَقَامُ التَّاسِعُ : قَوْلُهُ : فَمَا زَالَ مَهْمُومًا حَتَّى نَزَلَتْ عَلَيْهِ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ الْآيَةَ .

فَأَمَّا غَمُّهُ وَحُزْنُهُ فَبِأَنْ تَمَكَّنَ الشَّيْطَانُ مِمَّا تَمَكَّنَ ، مِمَّا يَأْتِي بَيَانُهُ ؛ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعِزُّ عَلَيْهِ أَنْ يَنَالَ الشَّيْطَانُ مِنْهُ شَيْئًا وَإِنْ قَلَّ تَأْثِيرُهُ .

(76/526)

الْمَقَامُ الْعَاشِرُ : أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَصٌّ فِي غَرَضِنَا ، دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ مَذْهَبِنَا ، أَصْلٌ فِي بَرَاءَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَالَهُ عِنْدَنَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ مِنْ سُنَّتِهِ فِي رُسُلِهِ وَسِيرَتِهِ فِي أَنْبِيَائِهِ أَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا عَنْ اللَّهِ قَوْلًا زَادَ الشَّيْطَانُ فِيهِ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ ، كَمَا يَفْعَلُ سَائِرُ الْمَعَاصِي ، كَمَا تَقُولُ : أَلْقَيْت فِي الدَّارِ كَذَا ، وَأَلْقَيْت فِي الْعِكْمِ كَذَا ، وَأَلْقَيْت فِي الْكِيسِ كَذَا .

فَهَذَا نَصٌّ فِي أَنَّ الشَّيْطَانَ زَادَ فِي الَّذِي قَالَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا أَنَّ النَّبِيَّ قَالَهُ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إذَا قَرَأَ تَلَا قُرْآنًا مُقَطَّعًا ، وَسَكَتَ فِي مَقَاطِعِ الْآيِ سُكُوتًا مُحَصَّلًا ، وَكَذَلِكَ كَانَ حَدِيثُهُ مُتَرَسِّلًا مُتَأَنِّيًا ، فَيَتَّبِعُ الشَّيْطَانُ تِلْكَ السَّكَتَاتِ الَّتِي بَيْنَ قَوْلِهِ : ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴾ ، فَقَالَ يُحَاكِي صَوْتَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَإِنَّهُنَّ الْغَرَانِقَةُ الْعُلَا ، وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى .

(77/526)

فَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ لِقِلَّةِ الْبَصِيرَةِ وَفَسَادِ السَّرِيرَةِ فَتَلَوْهَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَسَبُوهَا بِجَهْلِهِمْ إلَيْهِ ، حَتَّى سَجَدُوا مَعَهُ اعْتِقَادًا أَنَّهُ مَعَهُمْ ، وَعَلِمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَرْفُضُونَ غَيْرَهُ ، وَتُجِيبُ قُلُوبُهُمْ إلَى الْحَقِّ ، وَتَنْفِرُ عَنْ الْبَاطِلِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ ابْتِلَاءٌ مِنْ اللَّهِ وَمِحْنَةٌ .

فَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِهِمْ ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ إلَّا غَايَةُ الْبَيَانِ بِصِيَانَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْإِسْرَارِ وَالْإِعْلَانِ عَنْ الشَّكِّ وَالْكُفْرَانِ .

وَقَدْ أَوْعَدْنَا إلَيْكُمْ تَوْصِيَةً أَنْ تَجْعَلُوا الْقُرْآنَ إمَامَكُمْ ، وَحُرُوفَهُ أَمَامَكُمْ ، فَلَا تَحْمِلُوا عَلَيْهَا

مَا لَيْسَ فِيهَا ، وَلَا تَرْبِطُوا فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا ، وَمَا هُدِيَ لِهَذَا إِلَّا الطَّبَرِيُّ بِجَلَالَةِ قَدْرِهِ ، وَصَفَاءِ فِكْرِهِ ، وَسَعَةِ بَاعِهِ فِي الْعِلْمِ ، وَشِدَّةِ سَاعِدِهِ وَذِرَاعِهِ فِي النَّظَرِ ؛ وَكَأَنَّهُ أَشَارَ إِلَى هَذَا الْغَرَضِ ، وَصَوَّبَ عَلَى هَذَا الْمَرْمَى فَقَرْطَسَ بَعْدَمَا ذَكَرَ فِي ذَلِكَ رِوَايَاتٍ كَثِيرَةٍ كُلُّهَا بَاطِلَةٌ ، لَا أَصْلَ لَهَا ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَمَا رَوَاهَا أَحَدٌ وَلَا سَطَرَهَا ، وَلَكِنَّهُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ، عَصَمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِالتَّوْفِيقِ وَالتَّسْدِيدِ ، وَجَعَلَنَا مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(78/526)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾

فيه تأويلان :

أحدهما : يعني أنه إذا حدّث نفسه ألقى الشيطان في نفسه ، قاله الكلبي .

الثاني : إذا قرأ ألقى الشيطان في قراءته ، قاله قتادة ومجاهد ، قال الشاعر :

تمنى كتاب الله أول ليله . . . وآخره لاقى حمام المقادِرِ

﴿ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ . . . ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أن الرسول والنبي واحد ، ولا فرق بين الرسول والنبي ، وإنما جمع بينهما لأن الأنبياء تخص البشر ، والرسل تعم الملائكة والبشر .

والقول الثاني : أنهما مختلفان ، وأن الرسول أعلى منزلة من النبي .

واختلف قائل هذا في الفرق بين الرسول والنبي على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الرسول هو الذي تتنزل عليه الملائكة بالوحي ، والنبي يوحى إليه في نومه .

والثاني : أن الرسول هو المبعوث إلى أُمَّةٍ ، والنبي هو المحدث الذي لا يبعث إلى أمة ، قاله قطرب .

والثالث : أن الرسول هو المبتدىء بوضع الشرائع والأحكام ، والنبي هو الذي يحفظ شريعة الله ، قاله الجاحظ .

﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ أي يرفعه

. ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ أي يثبتها ، واختلف أهل التأويل فيما قرأه النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك على أربعة أقاويل :

أحدها : أنه ألقاه الشيطان على لسانه فقرأه ساهياً .

الثاني : أنه كان ناعساً فألقاه الشيطان على لسانه فقرأه في نعاسه قاله قتادة .

الثالث : أن بعض المنافقين تلاه عن إغواء الشيطان فخيل للناس أنه من تلاوة رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، حكاه ابن عيسى .

الرابع : إنما قال : هي كالغرانيق العلا – يعني الملائكة – وأن شفاعتهم لترتجى ، أي في قولكم ، قاله الحسن .

(79/526)

سبب نزول هذه الآية ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه سورة النجم . قرأها في المسجد الحرام حتى بلغ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ [النجم : 19-20] ألقى الشيطان على لسانه " أولئك الغرانيق العلا . وأن شفاعتهن لترتجى " ثم ختم السورة وسجد . وسجد معه المسلمون والمشركون ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه ، وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود ، ورضي بذلك كفار قريش ، وسمع بذلك من هاجر لأرض الحبشة . فأنكر جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ما قرأه ، وشق ذلك عليه فأنزل الله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ﴾ فيه وجهان :

أولهما : محنة .

الثاني : اختباراً . ﴿ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي نفاق

. ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ يعني المشركين

. ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لفي ضلال طويل ، قاله السدي .

الثاني : لفي فراق للحق بعيد إلى يوم القيامة ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ يعني في شك ﴿ مِّنْهُ ﴾ من القرآن ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : ساعة القيامة على من يقوم عليه من المشركين ، قاله الحسن .

الثاني : ساعة موتهم .

﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : يوم القيامة ، قاله عكرمة ، والضحاك .

الثاني : يوم بدر ، قاله مجاهد ، وقتادة .

وفي العقيم وجهان :

أحدهما : أنه الشديد ، قاله الحسن .

الثاني : أنه الذي ليس له مثيل ولا عديل ، قال يحيى بن سلام : لقتال الملائكة فيه .

ويحتمل ثالثاً : أن يكون العقيم هو الذي يجدب الأرض ويقطع النسل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(80/526)

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿ وما أرسلنا ﴾ الآية تسليه للنبي عليه السلام عن النازلة التي ألقى الشيطان فيها في أُمنية النبي عليه السلام ، و﴿ تمنى ﴾ معناه المشهور أراد وأحب ، وقالت فرقة هو معناها في الآية ، والمراد أن الشيطان ألقى ألفاظه بسبب ما تمناه رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقاربة قومه وكونهم متبعين له قالوا : فلما تمنى رسول الله من ذلك ما لم يقضه الله وجد الشيطان السبيل ، فحين قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم النجم في مسجد مكة وقد حضر المسلمون والمشركون بلغ إلى قوله ﴿ أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 20] القى الشيطان تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترجى قال الكفار هذا محمد يذكر آلهتنا بما نريد وفرحوا بذلك ، فلما انتهى إلى السجدة سجد الناس أجمعون إلا أمية بن حلف فإنه أخذ قبضة من تراب ثم رفعها إلى جبهته وقال يكفيني هذا ، قال البخاري : هو أمية بن خلف ، وقال بعض الناس : هو الوليد بن المغيرة ، وقال بعض

الناس : هو أبو أحيحة سعيد بن العاصي ثم اتصل بمهاجرة الحبشة أن أهل مكة اتبعوا محمداً ففرحوا بذلك وأقبل بعضهم فوجد ألقية الشيطان قد نسخت وأهل مكة قد ارتبكوا وافتتنوا ، وقالت فرقة ﴿ تمنى ﴾ معناه تلا والأمنية التلاوة ومنه قول الشاعر : [الطويل]

تمنى كتاب الله أول ليلة . . . وآخرها لاقى حمام المقادر

ومنه قول الآخر : [الطويل]

" تمنى داود الزبور على رسل " . . . وتأولوا قوله تعالى " إلا أماني " أي إلا تلاوة ، وقالت هذه الفرقة في معنى سبب " إلقاء الشيطان " في تلاوة النبي عليه السلام ما تقدم آنفاً من ذكر الله .

(81/526)

قال القاضي أبو محمد : وهذا الحديث الذي فيه هن الغرانقة وقع في كتب التفسير ونحوها ولم يدخله البخاري ولا مسلم ولا ذكره في علمي مصنف مشهور بل يقتضي مذهب أهل الحديث أن " الشيطان ألقى " ولا يعينون هذا السبب ولا غيره ، ولا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو الألفاظ مسموعة بها وقعت الفتنة ، ثم اختلف الناس في صورة هذا

الإلقاء فالذي في التفاسير وهو مشهور القول أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم بتلك الألفاظ وأن الشطيان أوهمه ووسوس في قلبه حتى خرجت تلك الألفاظ على لسانه ، ورووا أنه نزل إليه جبريل بعد ذلك فدارسه سورة النجم فلما قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له جبريل لم آتك بهذا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " افتريت على الله وقلت ما لم يقل لي " وجعل يتفجع ويغتم فنزلت هذه الآية ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ﴾ ، ع وحدثني أبي رضي الله عنه أنه لقي بالمشرق من شيوخ العلماء والمتكلمين من قال : هذا لا يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم في التبليغ وإنما الأمر أن الشيطان نطق بلفظ أسمعه الكفار عند قول النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 20] وصوب صوته من صوت النبي صلى الله عليه وسلم حتى التَبس الأمر على المشركين وقالوا محمد قرأها ع و﴿ تمنى ﴾ على هذا التأويل بمعنى تلا ولا بد ، وقد روي نحو هذا التأويل عن الإمام أبي المعالي

(82/526)

و" الرسول " أخص من النبي وكثير من الأنبياء لم يرسلوا وكل رسول نبي ، و" النسخ " في هذه الآية الإذهاب ، كما تقول نسخت الشمس الظل وليس يرفع ما استقر من الحكم ، ع وطرق

الطبري وأشبع الإسناد في أن إلقاء الشيطان كان على لسان النبي عليه السلام واختلفت الروايات في الألفاظ ففي بعضها تلك الغرانقة ، وفي بعضها تلك الغرانيق ، وفي بعضها وإن شفاعتهن وفي بعضها منها الشفاعة ترتجى ع والغرانيق معناه السادة العظام الأقدار ، ومنه قول الشاعر :

" أهلا بصائدة الغرانق " . . . وقوله ﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان ﴾ الآية ، اللام في قوله ﴿ ليجعل ﴾ متعلقة بقوله ﴿ فينسخ الله ﴾ و" الفتنة " الامتحان والاختبار ، و﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾ هم ، عامة الكفار ، والقاسية قلوبهم خواص منهم عتاة كأبي جهل والنضر وعقبة ، و" الشقاق " البعد عن الخير ، والضلال والكون في شق الصلاح ، و﴿ بعيد ﴾ ، معناه أنه انتهى بهم وتعمق فرجعتهم منه غير مرجوة ، و﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ هم أصحاب محمد رسول الله عليه السلام ، والضمير في ﴿ أنه ﴾ عائد على القرآن و" تخبت " معناه تتطامن وتخضع وهو مأخوذ من الخبث وهو المطمئن من الأرض ، وقرأت فرقة " لهاد " بغير ياء بعد الدال ، وقرأت فرقة : " لهادي " بياء ، وقرأت فرقة " لهادٍ " بالتنوين وترك الإضافة وهذه الآية معادلة لقوله ، قبل ﴿ وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ .

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55) ﴾

" المرية " الشك ، والضمير في قوله ﴿ منه ﴾ قالت فرقة هو عائد على القرآن ، وقالت فرقة : على محمد عليه السلام ، وقالت فرقة : على ما ﴿ ألقى الشيطان ﴾ [الحج : 52] ، وقال سعيد بن جبير أيضاً على سجود النبي صلى الله عليه وسلم في سورة النجم ، و ﴿ الساعة ﴾ ، قالت فرقة : أراد يوم القيامة ، " واليوم العقيم " ، يوم بدر ، وقالت فرقة : ﴿ الساعة ﴾ ، موتهم أو قتلهم في الدنيا كيوم بدر ونحوه ، و " اليوم العقيم " ، يوم القيامة ، ع وهذان القولان جيدان لأنهما أحرزا التقسيم ب ﴿ أو ﴾ ومن جعل ﴿ الساعة ﴾ و " اليوم العقيم " ، يوم القيامة ، فقد أفسد رتبة ﴿ أو ﴾ ، وسمي يوم القيامة أو يوم الاستئصال عقيماً لأنه لا ليلة بعده ولا يوم ، والأيام كأنها نتائج لمجيء وأحد إثر واحد ، فكأن أخر يوم قد عقم وهذه استعارة ، وجملة هذه الآية توعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وما أَرْسَلْنا من قبلك من رسول ﴾ الآية .

قال المفسرون : سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه سورة (النجم) قرأها حتى بلغ قوله : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 19 ، 20] ، فألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى ، وإِن شفاعتهن لترتجى ؛ فلما سمعت قريش بذلك فرحوا ، فأتاه جبريل ، فقال : ماذا صنعتَ ؟ تلوتَ على الناس مالم آتِكَ به عن الله ، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً ، فنزلت هذه الآية تطييباً لقلبه ، وإِعلاماً له أن الأنبياء قد جرى لهم مثل هذا .

قال العلماء المحققون : وهذا لا يصح ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوم عن مثل هذا ، ولو صح ، كان المعنى أن بعض شياطين الإِنس قال تلك الكلمات ، فإِنهم كانوا إِذا تلا لغطوا ، كما قال الله عز وجل : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه ﴾ [فصّلت : 26] .

قال : وفي معنى "تمنى" قولان .

أحدهما : تلا ، قاله الأكثرون ، وأنشدوا :

تمنَّى كتابَ اللهِ أوّل ليلهِ . . .

وآخرَه لاقى حِمامَ المقادِرِ

وقال آخر :

تمنَّى كتابَ الله آخرَ ليلِه . . .

تمنِّيَ داودَ الزبورَ على رِسْلِ

والثاني : أنه من الأُمنية ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمنى يوماً أن لا يأتيه من الله شيء ينفر عنه به قومُه ، فألقى الشيطان على لسانه لِما كان قد تمناه ، قاله محمد بن كعب القرظي .

قوله تعالى : ﴿ فيَنْسَخُ الله ما يُلقي الشيطان ﴾ أي : يُبطله ويُذهبه ﴿ ثم يُحْكِمُ الله آياته ﴾ قال مقاتل : يُحْكِمُها من الباطل .

قوله تعالى : ﴿ ليجعل ﴾ اللام متعلقة بقوله : "ألقى الشيطان" ، والفتنة ها هنا بمعنى البلية والمحنة .

والمرضُ : الشك والنفاق .

﴿ والقاسيةِ قلوبهم ﴾ يعني : الجافية عن الإِيمان .

ثم أعلمه أنهم ظالمون وأنهم في شقاق دائم ، والشقاق : غاية العدواة .

(85/526)

قوله تعالى : ﴿ وليَعْلَمَ الذين أوتوا العلم ﴾ وهو التوحيد والقرآن ، وهم المؤمنون .

وقال السدي : التصديق بنسخ الله .

قوله تعالى : ﴿ أنّه الحق ﴾ إشارة إلى نسخ ما يلقي الشيطان ؛ فالمعنى : ليعلموا أن نسخ ذلك وإبطاله حق من الله ﴿ فيؤمنوا ﴾ بالنسخ ﴿ فتُخْبِتَ له قلوبهم ﴾ أي : تخضع وتَذِلّ .

ثم بيَّن بباقي الآية أن هذا الإيمان والإخبات إنما هو بلطف الله وهدايته .

قوله تعالى : ﴿ في مِرْيَة منه ﴾ أي : في شكّ .

وفي هاء "منه" أربعة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى قوله : تلك الغرانيق العلى .

والثاني : أنها ترجع إلى سجوده في سورة (النجم) .

والقولان عن سعيد بن جبير ، فيكون المعنى : إنهم يقولون : ما بالُه ذكر آلهتنا ثم رجع عن ذكرها ؟ !

والثالث : أنها ترجع إلى القرآن ، قاله ابن جريج .

والرابع : أنها ترجع إلى الدّين ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ حتى تأتيَهم الساعة ﴾ وفيها قولان .

أحدهما : القيامة تأتي مَنْ تقوم عليه من المشركين ، قاله الحسن .

والثاني : ساعة موتهم ، ذكره الواحدي .

قوله تعالى : ﴿ أو يأتيَهم عذاب يوم عقيم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه يوم بدر ، روي عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : أنه يوم القيامة ، قاله عكرمة ، والضحاك .

وأصل العقم في الولادة ، يقال : امرأة عقيم لا تلد ، ورجل عقيم لا يولد له ، وأنشدوا :

عُقْمِ النِّساءُ فلا يَلِدْنَ شَبْيَهه . . .

إِن النِّساءَ بمِثْلِه عُقْمُ

وسميت الريح العقيم بهذا الاسم ، لأنها لا تأتي بالسحاب الممطر ، فقيل لهذا اليوم : عقيم ، لأنه لم يأت بخير .

فعلى قول من قال : هو يوم بدر ، في تسميته بالعقيم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه لم يكن فيه للكفار بركة ولا خير ، قاله الضحاك .

والثاني : لأنهم لم يُنْظَروا فيه إلى الليل ، بل قُتلوا قبل المساء ، قاله ابن جريج .

والثالث : لأنه لا مثْل له في عِظَم أمره ، لقتال الملائكة فيه ، قاله يحيى بن سلام .

(86/526)

وعلى قول من قال : هو يوم القيامة ، في تسميته بذلك قولان .

أحدهما : لأنه لا ليلة له ، قاله عكرمة .

والثاني : لأنه لا يأتي المشركين بخير ولا فرج ، ذكره بعض المفسرين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(87/526)

وقال القرطبى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ تمنى ﴾ أي قرأ وتلا .

و ﴿ أَلْقَى الشيطان في أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أي قراءته وتلاوته .

وقد تقدّم في البقرة .

قال ابن عطية : وجاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نَبِيٍّ ولا مُحَدَّث" ذكره مَسْلَمة بن القاسم بن عبد الله ، ورواه سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس .

قال مسلمة : فوجدنا المُحَدَّثين معتصمين بالنبوّة على قراءة ابن عباس لأنهم تكلموا بأمور عالية من أنباء الغيب خَطرات ، ونطقوا بالحكمة الباطنة فأصابوا فيما تكلموا وعُصموا فيما نطقوا ؛ كعمر بن الخطاب في قصة سارية وما تكلم به من البراهين العالية .

قلت : وقد ذكر هذا الخبر أبو بكر الأنباريّ في كتاب الردّ له ، وقد حدّثني أبي رحمه الله حدّثنا عليّ بن حرب حدّثنا سفيان بن عُيينة عن عمرو عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نَبِيّ ولا مُحَدَّث" قال أبو بكر : فهذا حديث لا يؤخذ به على أن ذلك قرآن .

والمحدَّث هو الذي يوحى إليه في نومه ؛ لأن رؤيا الأنبياء وَحْيٌ .

الثانية : قال العلماء : إن هذه الآية مشكلة من جهتين : إحداهما : أن قوماً يرون أن الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم مرسلون وفيهم غير مرسلين .

وغيرهم يذهب إلى أنه لا يجوز أن يقال نبيّ حتى يكون مرسلاً .

والدليل على صحة هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ فأوجب للنبيّ صلى الله عليه وسلم الرسالة .

وأن معنى "نَبيّ" أنبأ عن الله عز وجل ، ومعنى أنبأ عن الله عز وجل الإرسال بعينه .

وقال الفراء : الرسول الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل عليه السلام إليه عِياناً .

والنبيّ الذي تكون نبوّته إلهاماً أو مناماً ؛ فكل رسول نبيٌّ وليس كلّ نبيّ رسولا .

قال المهدوِيّ : وهذا هو الصحيح ، أن كلَّ رسول نبيٌّ وليس كل نبيّ رسولا .

وكذا ذكر القاضي عِياض في كتاب الشفا قال : والصحيح والذي عليه الجمّ الغفير أن كلّ رسول نبيّ وليس كل نبيّ رسولا ؛ واحتج بحديث أبي ذرّ ، وأن الرسل من الأنبياء ثلاثمائة وثلاثة عشر ، أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم .

والجهة الأخرى التي فيها الإشكال وهي :

الثالثة : الأحاديث المروِيّة في نزول هذه الآية ، وليس منها شيء يصح .

وكان مما تموّه به الكفار على عوامّهم قولهم : حق الأنبياء ألا يعجزوا عن شيء ، فلم لا يأتينا محمد بالعذاب وقد بالغنا في عداوته ؟ وكانوا يقولون أيضاً : ينبغي ألا يجري عليهم سَهْوٌ وغلط ؛ فبيّن الرب سبحانه أنهم بَشَر ، والآتي بالعذاب هو الله تعالى على ما يريد ، ويجوز على البشر السهو والنسيان والغلط إلى أن يُحكم الله آياته وينْسَخ حِيَل الشيطان .

روى اللّيث عن يونس عن الزهريّ عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ والنجم إذَا هوى ﴾ [النجم : 1] فلما بلغ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللات والعزى وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 19 20] سها فقال : "إن شفاعتهم تُرْتَجَى" فلقيه المشركون والذين في قلوبهم مرض فسلّموا عليه وفرحوا ؛ فقال :

"إن ذلك من الشيطان" فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ الآية .

قال النحاس : وهذا حديث منقطع وفيه هذا الأمر العظيم .

وكذا حديث قتادة وزاد فيه "وإنهنّ لهنّ الغَرَانِيق العُلاَ" .

وأفظعُ من هذا ما ذكره الواقدي عن كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله قال : سجد المشركون كلهم إلا الوليد بن المغيرة فإنه أخذ تراباً من الأرض فرفعه إلى جبهته وسجد عليه ، وكان شيخاً كبيراً .

(89/526)

ويقال إنه أبو أُحَيْحةَ سعيد بن العاص ، حتى نزل جبريل عليه السلام فقرأ عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له : "ما جئتك به" ! وأنزل الله ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 74] .

قال النحاس : وهذا حديث منكر منقطع ولا سيما من حديث الواقديّ .

وفي البخاري أن الذي أخذ قبضة من تراب ورفعها إلى جبهته هو أمية بن خلف .

وسيأتي تمام كلام النحاس على الحديث إن شاء الله آخر الباب .

قال ابن عطية : وهذا الحديث الذي فيه هي الغرانيق العلا وقع في كتب التفسير ونحوها ، ولم يدخله البخاريّ ولا مسلم ، ولا ذكره في علمِي مصنّف مشهور ؛ بل يقتضي مذهب أهل الحديث أن الشيطان ألقَى ، ولا يعيّنون هذا السبب ولا غيره .

ولا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة ؛ بها وقعت الفتنة .

ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاء ، فالذي في التفاسير وهو مشهور القول أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تكلم بتلك الألفاظ على لسانه .

وحدّثني أبي رضي الله عنه أنه لَقِيَ بالمشرق من شيوخ العلماء والمتكلمين من قال : هذا لا يجوز على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم في التبليغ ، وإنما الأمر أن الشيطان نطق بلفظ أسمعه الكفارَ عند قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللات والعزى وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى ﴾ ، وقرّب صوته من صوت النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى التبس الأمر على المشركين ، وقالوا : محمد قرأها .

وقد روي نحو هذا التأويل عن الإمام أبي المعالي .

وقيل : الذي ألقى شيطانُ الإنس ؛ كقوله عز وجل : ﴿ والغوا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26] .

قتادة : هو ما تلاه ناعسا .

وقال القاضي عِياض في كتاب الشفا بعد أن ذكر الدليل على صدق النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه ، لا قصداً ولا عمداً سهواً أو غلطاً : اِعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما : في توهين أصله ، والثاني : على تسليمه .

أما المأخذ الأوّل فيكفيك أن هذا حديث لم يخرّجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند صحيح سليم متصل ثقةٌ ؛ وإنما أولِع به وبمثله المفسّرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقّفون من الصحف كل صحيح وسقيم .

قال أبو بكر البزار : وهذا الحديث لا نعلمه يُروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره ؛ إلا ما رواه شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب ، الشك في الحديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان بمكة . . .

وذكر القصة .

ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد ، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير .

وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ؛ فقد بيّن لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف ما نبّه عليه مع وقوع الشك فيه الذي ذكرناه ، الذي لا يُوثق به ولا حقيقةَ معه .

وأما حديث الكلبيّ فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذِكره لقوّة ضعفه وكذبه ؛ كما أشار إليه البزار رحمه الله .

والذي منه في الصحيح : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ "والنجم" بمكة فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس ؛ هذا توهينه من طريق النقل .

وأما المأخذ الثاني فهو مبنيّ على تسليم الحديث لو صح .

وقد أعاذنا الله من صحته ، ولكن على كل حال فقد أجاب أئمة المسلمين عنه بأجوبة ؛ منها الغَثّ والسَّمين .

(91/526)

والذي يظهر ويترجح في تأويله على تسليمه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربّه يرتّل القرآن ترتيلاً ، ويفصّل الآي تفصيلاً في قراءته ؛ كما رواه الثقات عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات ، محاكياً نغمة النبيّ صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار .

فظنّوها من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم وأشاعوها .

ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله ، وتحققِهم من حال

النبيّ صلى الله عليه وسلم في ذم الأوثان وعَيْبها ما عُرف منه ؛ فيكون ما روي من حزن النبيّ صلى الله عليه وسلم لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [الحج : 52] الآية .

قلت : وهذا التأويل أحسن ما قيل في هذا .

وقد قال سليمان بن حرب : إن "في" بمعنى عند ؛ أي ألقى الشيطان في قلوب الكفار عند تلاوة النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ كقوله عز وجل : ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا ﴾ [الشعراء : 18] أي عندنا .

وهذا هو معنى ما حكاه ابن عطية عن أبيه عن علماء الشرق ، وإليه أشار القاضي أبو بكر بن العربي ، وقال قبله : إن هذه الآية نص في غرضنا ، دليل على صحة مذهبنا ، أصل في براءة النبيّ صلى الله عليه وسلم مما ينسب إليه أنه قاله ؛ وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أي في تلاوته .

فأخبر الله تعالى أن من سنته في رسله وسيرته في أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولاً زاد الشيطان فيه من قِبل نفسه كما يفعل سائر المعاصي .

تقول : ألقيت في الدار كذا وألقيت في الكيس كذا ؛ فهذا نص في الشيطان أنه زاد في الذي قاله النبيّ صلى الله عليه وسلم ، لا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تكلم به .

ذكر معنى كلام عياض إلى أن قال : وما هُدِي لهذا إلا الطبري لجلالة قدره وصفاء فكره وسَعة باعه في العلم ، وشِدّة ساعده في النظر ؛ وكأنه أشار إلى هذا الغرض ، وصوّب على هذا المرمى ، وقرطس بعد ما ذكر في ذلك روايات كثيرة كلها باطل لا أصل لها ، ولو شاء ربك لما رواها أحد ولا سطرها ، ولكنه فعال لما يريد .

وأما غيره من التأويلات ممّا حكاه قوم أن الشيطان أكرهه حتى قال كذا فهو محال ؛ إذ ليس للشيطان قدرة على سلب الإنسان الاختيار ، قال الله تعالى مخبراً عنه : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي ﴾ [إبراهيم : 22] ؛ ولو كان للشيطان هذه القدرة لما بقي لأحد من بني آدم قوّة في طاعة ، ومن توَهّم أن للشيطان هذه القوّة فهو قول الثَّنَوِيَّة والمجوس في أن الخير من الله والشر من الشيطان .

ومن قال جرى ذلك على لسانه سهواً قال : لا يبعد أنه كان سمع الكلمتين من المشركين وكانتا على حفظه فجرى عند قراءة السورة ما كان في حفظه سهواً ؛ وعلى هذا يجوز السهو عليهم ولا يُقَرّون عليه ، وأنزل الله عز وجل هذه الآية تمهيداً لعذره وتسلية له ؛ لئلا يقال : إنه رجع عن بعض قراءته ، وبَيّن أن مثل هذا جرى على الأنبياء سهواً ، والسهو إنما ينتفي عن الله تعالى ، وقد قال ابن عباس : إن شيطاناً يقال له الأبيض كان قد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة جبريل عليه السلام وألقى في قراءة النبيّ صلى الله عليه

وسلم : تلك الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهن لتُرْتَجَى .

وهذا التأويل وإن كان أشبه مما قبله فالتأويل الأوّل عليه المعوّل ، فلا يُعدل عنه إلى غيره لاختيار العلماء المحققين إياه ، وضعفُ الحديث مُغْنٍ عن كل تأويل ، والحمد لله .

ومما يدل على ضعفه أيضاً وتوهينه من الكتاب قولُه تعالى : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾

(93/526)

[الإسراء : 73] الآيتين ؛ فإنهما تردّان الخبر الذي روَوْه ؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري ، وأنه لولا أن ثبّته لكان يركن إليهم .

فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى عَصَمه من أن يفتري وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً فكيف كثيراً ، وهم يروُون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم ، وأنه قال عليه الصلاة والسلام : افتريت على الله وقلت ما لم يقل .

وهذا ضدّ مفهوم الآية ، وهي تضعّف الحديث لو صح ؛ فكيف ولا صحة له .

وهذا مِثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ [النساء : 113] .

قال القُشَيْرِيّ : ولقد طالبته قريش وثقيف إذ مرّ بآلهتهم أن يُقبل بوجهه إليها ، ووعدوه

بالإيمان به إن فعل ذلك ، فما فعل ! ولا كان ليفعل ! قال ابن الأنباري : ما قارب الرسول ولا ركَن .

وقال الزجاج : أي كادوا ، ودخلت إن واللام للتأكيد .

وقد قيل : إن معنى "تمنّى" حدّث ، لا "تلا" .

روي عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ إِلاَّ إِذَا تمنى ﴾ قال : إلا إذا حدّث ﴿ أَلْقَى الشيطان في أُمْنِيَّتِهِ ﴾ قال : في حديثه ﴿ فَيَنسَخُ الله مَا يُلْقِي الشيطان ﴾ قال : فيبطل الله ما يلقي الشيطان .

قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل في الآية وأعلاه وأجله .

وقد قال أحمد بن محمد بن حنبل بمصر صحيفةً في التفسير ، رواها علي بن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً .

والمعنى عليه : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا حدّث نفسه ألقى الشيطان في حديثه على جهة الحيْلة فيقول : لو سألتَ الله عز وجل أن يغنمك ليتسع المسلمون ؛ ويعلم الله عز وجل أن الصلاح في غير ذلك ؛ فيبطل ما يلقي الشيطان كما قال ابن عباس رضي الله عنهما .

وحكى الكسائي والفراء جميعاً "تمنى" إذا حدّث نفسه؛ وهذا هو المعروف في اللغة.

وحَكَيَا أيضاً "تمنى" إذا تلا.

وروي عن ابن عباس أيضاً وقاله مجاهد والضحاك وغيرهما.

وقال أبو الحسن بن مهدي: ليس هذا التمني من القرآن والوحي في شيء، وإنما كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا صفِرت يداه من المال، ورأى ما بأصحابه من سوء الحال، تمنّى الدنيا بقلبه ووسوسة الشيطان.

وذكر المهدويّ عن ابن عباس أن المعنى: إذا حدّث ألقى الشيطان في حديثه؛ وهو اختيار الطبري.

قلت: قوله تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان فِتْنَةً ﴾ الآية، يردّ حديث النفس، وقد قال ابن عطية: لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة، بها وقعت الفتنة؛ فالله أعلم.

قال النحاس: ولو صح الحديث واتصل إسناده لكان المعنى فيه صحيحاً، ويكون معنى سها أسقط، ويكون تقديره: أفرأيتم اللّاتَ والعُزَّى؛ وتم الكلام، ثم أسقط (والغرانيق العلا) يعني الملائكة (فإن شفاعتهم) يعود الضمير على الملائكة.

وأما من روى: فإنهن الغرانيق العلا، ففي روايته أجوبة؛ منها أن يكون القول محذوفاً كما

تستعمل العرب في أشياء كثيرة ، ويجوز أن يكون بغير حذف ، ويكون توبيخاً ؛ لأن قبله "أفرأيتم" ويكون هذا احتجاجاً عليهم ؛ فإن كان في الصلاة فقد كان الكلام مباحاً في الصلاة .

وقد روي في هذه القصة أنه كان مما يقرأ : أفرأيتم اللات والعُزّى .

ومناة الثالثة الأخرى .

والغرانقة العلا .

وأن شفاعتهن لترتجى .

روي معناه عن مجاهد .

وقال الحسن : أراد بالغرانيق العلا الملائكة ؛ وبهذا فسر الكلبيّ الغرانقة أنها الملائكة .

وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون (أن) الأوثان والملائكة بنات الله ، كما حكى الله تعالى عنهم ، وردّ عليهم في هذه السورة بقوله : ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الانثى ﴾ فأنكر الله كل هذا من قولهم .

(95/526)

ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح ؛ فلما تأوّله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتُهم ولبّس عليهم الشيطان بذلك ، نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللّتين وجد الشيطان بهما سبيلاً للتلبيس ، كما نُسخ كثير من القرآن ؛ ورفعت تلاوته .

قال القُشَيري : وهذا غير سديد ؛ لقوله : ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشيطان ﴾ أي يبطله ، وشفاعة الملائكة غير باطلة .

﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ "عليم" بما أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم .

"حكيم" في خلقه .

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان فِتْنَةً ﴾ أي ضلالة .

﴿ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي شرك ونفاق .

﴿ والقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ فلا تلين لأمر الله تعالى .

قال الثعلبيّ : وفي الآية دليل على أن الأنبياء يجوز عليهم السهو والنسيان والغلط بوسواس الشيطان أو عند شَغْل القلب حتى يغلَط ، ثم يُنَبَّه ويرجع إلى الصحيح ؛ وهو معنى قوله : ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشيطان ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ ﴾ .

ولكن إنما يكون الغلط على حسب ما يغلَط أحدنا ، فأما ما يضاف إليه من قولهم : تلك الغرانيق العلا ، فكذِب على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأن فيه تعظيم الأصنام ، ولا

يجوز ذلك على الأنبياء ، كما لا يجوز أن يقرأ بعض القرآن ثم ينشد شعراً ويقول : غلِطت وظننته قرآنا .

﴿ وَإِنَّ الظالمين لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي الكافرين لفي خلاف وعصيان ومشاقّة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد تقدّم في "البقرة" والحمد لله وحده .

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ أي من المؤمنين .

وقيل : أهل الكتاب .

﴿ أَنَّهُ ﴾ أي أن الذي أحكم من آيات القرآن هو ﴿ الحق مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي تخشع وتسكن .

وقيل : تخلص .

(96/526)

﴿ وَإِنَّ الله لَهَادِ الذين آمنوا ﴾ قرأ أبو حَيْوَة "وإن الله لهادٍ الذِين آمنوا" بالتنوين .

﴿ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي يثبتهم على الهداية .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ يعني في شك من القرآن ؛ قاله ابن

جُرِيج .

وغيره : من الدِّين ؛ وهو الصراط المستقيم .

وقيل : مما ألقى الشيطان على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : ما باله ذكر الأصنام بخير ثم ارتدّ عنها .

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ "في مُرْيَةٍ" بضم الميم .

والكسر أعرف ؛ ذكره النحاس .

﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة ﴾ أي القيامة .

﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة .

﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ قال الضحاك : عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة .

النحاس : سمي يوم القيامة عقيماً لأنه ليس يَعْقُب بعده يوماً مثله ؛ وهو معنى قول الضحاك .

والعقيم في اللغة عبارة عمن لا يكون له ولد ؛ ولما كان الولد يكون بين الأبوين وكانت الأيام تتوالى قبلُ وبعدُ ، جعل الاتباع فيها بالبعدية كهيئة الولادة ، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقيم .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : المراد عذاب يوم بدر ، ومعنى عقيم لا مثل له في عِظمه ؛ لأن الملائكة قاتلت فيه .

ابن جُريج : لأنهم لم يُنظروا فيه إلى الليل ، بل قتلوا قبل المساء فصار يوماً لا ليلة له .

وكذلك يكون معنى قول الضحاك أنه يوم القيامة ؛ لأنه لا ليلة له .

وقيل : لأنه لم يكن فيه رأفة ولا رحمة ، وكان عقيماً من كل خير ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِيحَ العقيم ﴾ [الذاريات : 41] أي التي لا خير فيها ولا تأتي بمطر ولا رحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(97/526)

وقال أبو حيان :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾

العقم : الامتناع من الولادة ، يقال : امرأة عقيم ورجل عقيم لا يولد له ، والجمع عقم وأصله من القطع ، ومنه الملك عقيم أي يقطع فيه الأرحام بالقتل ، والعقيم الذي قطعت ولادتها .

وقال أبو عبيد العقم السد ، يقال : امرأة معقومة الرحم أي مسدودة الرحم .

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق

من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وأن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغي عليه لينصرنه الله إن الله لعفوّ غفور ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير ذلك بأن الله هو الحق وأنما يدعونه من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾ .

(98/526)

لما ذكر تعالى أنه يدفع عن الذين آمنوا وأنه تعالى أذن للمؤمنين في القتال وأنهم كانوا أخرجوا من ديارهم وذكر مسلاة رسوله (صلى الله عليه وسلم) بتكذيب من تقدم من الأمم لأنبيائهم وما آل إليه أمرهم من الإهلاك إثر التكذيب وبعد الإمهال ، وأمره أن ينادي الناس ويخبرهم أنه نذير لهم بعد أن استعجلوا بالعذاب ، وأنه ليس له تقديم العذاب ولا تأخيره ، ذكر له تعالى مسلاة ثانية باعتبار من مضى من الرسل والأنبياء وهو أنهم كانوا حريصين

على إيمان قومهم متمنين لذلك مثابرين عليه ، وأنه ما منهم أحد إلاّ وكان الشيطان يراغمه بتزيين الكفر لقومه وبث ذلك إليهم وإلقائه في نفوسهم ، كما أنه (صلى الله عليه وسلم) كان من أحرص الناس على هدى قومه وكان فيهم شياطين كالنضر بن الحارث يلقون لقومه وللوافدين عليه شبهاً يثبطون بها عن الإسلام ، ولذلك جاء قبل هذه الآية ﴿ والذين سعوا في آياتنا معاجزين ﴾ وسعيهم بإلقاء الشبه في قلوب من استمالوه ، ونسب ذلك إلى الشيطان لأنه هو المغوي والمحرك شياطين الإنس للإغواء كما قال ﴿ لأغوينهم ﴾ وقيل : إن ﴿ الشيطان ﴾ هنا هو جنس يراد به شياطين الإنس .

والضمير في ﴿ أمنيته ﴾ عائد على ﴿ الشيطان ﴾ أي في أمنية نفسه ، أي بسبب أمنية نفسه .

ومفعول ﴿ ألقى ﴾ محذوف لفهم المعنى وهو الشر والكفر ، ومخالفة ذلك الرسول أو النبيّ لأن الشيطان ليس يلقي الخير .

ومعنى ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ أي يزيل تلك الشبه شيئاً فشيئاً حتى يسلم الناس ، كما قال ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ﴾ و ﴿ يحكم الله آياته ﴾ أي معجزاته يظهرها محكمة لا لبس فيها ﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان ﴾ من تلك الشبه وزخارف القول ﴿ فتنة ﴾ لمريض القلب ولقاسيه ﴿ وليعلم ﴾ من أوتي العلم أن ما تمنى الرسول والنبيّ من هداية قومه وإيمانهم هو الحق .

وهذه الآية ليس فيها إسناد شيء إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، إنما تضمنت حالة من كان قبله من الرسل والأنبياء إذا تمنوا .

وذكر المفسرون في كتبهم ابن عطية والزمخشري فمن قبلها ومن بعدهما ما لا يجوز وقوعه من آحاد المؤمنين منسوباً إلى المعصوم صلوات الله عليه ، وأطالوا في ذلك وفي تقريره سؤالاً وجواباً وهي قصة سئل عنها الإمام محمد بن إسحاق جامع السيرة النبوية ، فقال : هذا من وضع الزنادقة ، وصنف في ذلك كتاباً .

وقال الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وقال ما معناه : إن رواتها مطعون عليهم وليس في الصحاح ولا في التصانيف الحديثة شيء مما ذكروه فوجب اطّراحه ولذلك نزهت كتابي عن ذكره فيه .

والعجب من نقل هذا وهم يتلون في كتاب الله تعالى ﴿ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ وقال الله تعالى آمراً لنبيه ﴿ قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلاّ ما يوحى إليّ ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم ﴾ الآية

فالتثبيت واقع والمقاربة منفية .

وقال تعالى ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ وقال تعالى : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ وهذه نصوص تشهد بعصمته ، وأما من جهة المعقول فلا يمكن ذلك لأن تجويزه يطرق إلى تجويزه في جميع الأحكام والشريعة فلا يؤمن فيها التبديل والتغيير ، واستحالة ذلك معلومة .

ولنرجع إلى تفسير بعض ألفاظ الآية إذ قد قررنا ما لاح لنا فيها من المعنى فقوله ﴿ من قبلك ﴾ ﴿ من ﴾ فيه لابتداء الغاية و﴿ من ﴾ في ﴿ من رسول ﴾ زائدة تفيد استغراق الجنس .

وعطف ﴿ ولا نبي ﴾ على ﴿ من رسول ﴾ دليل على المغايرة .

(100/526)

وقد تقدم لنا الكلام على مدلوليهما فأغنى عن إعادته هنا ، وجاء بعد ﴿ إلا ﴾ جملة ظاهرها الشرط وهو ﴿ إذا تمنى ألقى الشيطان ﴾ وقاله الحوفي ، ونصوا على أنه يليها في النفي مضارع لا يشترط فيه شرط ، فتقول : ما زيد إلاّ يفعل كذا ، وما رأيت زيداً إلاّ يفعل كذا ، وماض بشرط أن يتقدمه فعل كقوله ﴿ وما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا ﴾

أو يكون الماضي مصحوباً بقد نحو : ما زيد إلاّ قد قام ، وما جاء بعد ﴿ إلاّ ﴾ في الآية

جملة شرطية ولم يلها مرض مصحوب بقد ولا عار منها ، فإن صح ما نصوا عليه تؤول على أن إذا جردت للظرفية ولا شرط فيها وفصل بها بين ﴿ إلاّ ﴾ والفعل الذي هو ﴿ ألقى ﴾ وهو فصل جائز فتكون إلاّ قد وليها ماض في التقدير ووجد شرطه وهو تقدم فعل قبل ﴿ إلاّ ﴾ وهو ﴿ ما أرسلنا ﴾ وعاد الضمير في ﴿ تمنى ﴾ مفرداً وذكروا أنه إذا كان العطف بالواو عاد الضمير مطابقاً للمتعاطفين ، وهذا عطف بالواو وما جاء غير مطابق أولوه على الحذف فيكون تأويل هذا ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ﴾ ﴿ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ ﴿ ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه و ﴿ تمنى ﴾ تفعل من المنية .

قال أبو مسلم : التمني نهاية التقدير ، ومنه المنية وفاة الإنسان للوقت الذي قدره الله ، ومنى الله لك أي قدر .

وقال رواه اللغة : الأمنية القراءة ، واحتجوا ببيت حسان وذلك راجع إلى الأصل الذي ذكر فإن التالي مقدر للحروف فذكرها شيئاً فشيئاً انتهى .

وبيت حسان :

تمنى كتاب الله أول ليلة . . .

وآخره لاقى حمام المقادر

وقال آخر :

تمنى كتاب الله أول ليلة . . .

تمنى داوود الزبور على الرسل

وحمل بعض المفسرين قوله ﴿ إذا تمنى ﴾ على تلاو ﴿ في أمنيته ﴾ على تلاوته .

والجملة بعد ﴿ إلاّ ﴾ في موضع الحال أي ﴿ وما أرسلنا ﴾ إلاّ ، وحاله هذه .

(101/526)

وقيل : الجملة في موضع الصفة وهو قول الزمخشري في نحو : ما مررتُ بأحد إلاّ زيد خير منه ، والصحيح أن الجملة حالية لا صفة لقبولها واو الحال ، واللام في ﴿ ليجعل ﴾ متعلقة بيحكم قاله الحوفي .

وقال ابن عطية : بينسخ .

وقال غيرهما : بألقى ، والظاهر أنها للتعليل .

وقيل : هي لام العاقبة و ﴿ ما ﴾ في ﴿ ما يلقي ﴾ الظاهر أنها بمعنى الذي ، وجوّز أن تكون مصدرية .

والفتنة : الابتلاء والاختبار .

والذين في قلوبهم مرض عامة الكفار .

وقال الزمخشري : المنافقون والشاكون ﴿ والقاسية قلوبهم ﴾ خواص من الكفار عتاة كأبي جهل والنضر وعتبة .

وقال الزمخشري : المشركون المكذبون ﴿ وإن الظالمين ﴾ يريد وإن هؤلاء المنافقين والمشركين ، وأصله وإنهم فوضع الظاهر موضع المضمر ، قضاء عليهم بالظلم .

والشقاق المشاقة أي في شق غير شق الصلاح ، ووصفه بالبعيد مبالغة في انتهائه وأنهم غير مرجو رجعتهم منه .

والضمير في : ﴿ أنه ﴾ قال ابن عطية : عائد على القرآن ﴿ والذين أوتوا العلم ﴾ أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقد تقدم من قولنا في الآية ما يعود الضمير إليه ﴿ فتخبت ﴾ أي تتواضع وتتطامن بخلاف من في قلبه مرض وقسا قلبه .

وقرأ الجمهور ﴿ لهاد الذين آمنوا ﴾ الإضافة ، وأبو حيوة وابن أبي عبلة بتنوين ﴿ الهاد ﴾ .

المرية : الشك .

والضمير في ﴿ منه ﴾ قيل : عائد على القرآن .

وقيل : على الرسول .

وقيل : ما ألقى الشيطان ، ولما ذكر حال الكافرين أولاً ثم حال المؤمنين ثانياً عاد إلى شرح حال الكافرين ، والظاهر أن ﴿ الساعة ﴾ يوم القيامة .

قيل : واليوم العقيم يوم بدر .

وقيل : ساعة موتهم أو قتلهم في الدنيا كيوم بدر ، واليوم العقيم يوم القيامة .

وقال الزمخشري : اليوم العقيم يوم بدر ، وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن ، أو لأن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقم على سبيل المجاز .

(102/526)

وقيل : هو الذي لا خير فيه يقال : ريح عقيم إذا لم تنشىء مطراً ولم تلقح شجراً .

وقيل : لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه .

وعن الضحاك : إنه يوم القيامة وإن المراد بالساعة مقدماته ويجوز أن يراد بالساعة و ﴿ يوم عقيم ﴾ يوم القيامة كأنه قيل ﴿ حتى تأتيهم الساعة ﴾ أو يأتيهم عذابها فوضع ﴿ يوم عقيم ﴾ موضع الضمير انتهى .

وقال ابن عطية : وسمي يوم القيامة أو يوم الاستئصال عقيماً لأنه لا ليلة بعده ولا يوم ، والأيام كلها نتائج يجيء واحد أثر واحد ، وكان آخر يوم قد عقم وهذه استعارة ، وجملة هذه الآية توعد انتهى .

و﴿ حتى ﴾ غاية لاستمرار مريتهم ، فالمعنى ﴿ حتى تأتيهم الساعة ﴾ ﴿ أو عذاب يوم عقيم ﴾ فتزول مريتهم ويشاهدون الأمر عياناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(103/526)

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان فِي أُمْنِيَّتِهِ . . . ﴾ الآية .

قلت : قال القاضي أبو الفضل عياض : وقد توجهت ها هنا لبعض الطاعنين سُؤَالاتٍ منها ما رُوِيَ مِنْ " أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ سورة «والنجم» وقال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ [النجم : 19 ، 20] قال : تِلْكَ الْغَرَانِيقُ العلى ، وإِنَّ شَفَاعَتَهَا لترتجى " . قال عياض : اعلم (أكرمك الله) أَنَّ لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما : في توهين أصله .

والثاني : على تقدير تسليمه .

أما المأخذ الأَوَّلُ : فيكفيك أَنَّ هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولاَ رَوَاهُ ثقة

بسند مُتَّصِلٍ سليم ؛ وإنما أولع به وبمثله المُفَسِّرُون والمؤرِّخُونَ المُولَعُونَ بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، وصدق القاضي أبو بكر ابن العلاء المالكيُّ (رحمه اللّه تعالى) حيث يقول : لقد بُلِيَ الناسُ ببعض أهل الأهواء والتفسير ، ثم قال عياض : قال أبو بكر البَزَّارُ : هذا الحديث لا نعلمه يُرْوَى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد مُتَّصل يجوز ذكرُه ؛ وإنَّما يُعْرَفُ عن الكلبيِّ ، قال عياض : والكلبيُّ مِمَّنْ لا تجوز الرواية عنه ولا ذِكْرُهُ ؛ لقوَّةِ ضعفه وكذبه ، كما أشار إليه البَزَّارُ ، وقد أجمعت الأمة على عصمته صلى الله عليه وسلم ونزاهته عن مثل هذا ، انتهى ، ونحو هذا لابن عطية قال : وهذا الحديث الذي فيه : هن الغرانقة وقع في كتب التفسير ونحوها ، ولم يُدْخِلْهُ البخاريُّ ولا مسلم ، ولا ذكره في علمي مُصَنِّفٌ مشهور ؛ بل يقتضي مذهبُ أهل الحديث أَنَّ الشيطان ألقى ولا يعينون هذا السَّبَبَ ولا غيره .

(104/526)

قال *ع* : وحدثني أَبي (رحمه اللّه تعالى) أَنَّهُ لَقِيَ بالمشرق من شيوخ العلماء والمتكلمين مَنْ قال : هذا لا يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم في التبليغ ؛ وإنَّما الأمرُ يعني على تقدير صحَّته أَنَّ الشيطان نَطَقَ بلفظ أُسْمِعَهُ الكُفَّارُ عند قول النبي

صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ [النجم : 19 ، 20] .

وقَرَّبَ صوته من صوتِ النبي صلى الله عليه وسلم حتى التبس الأمر على المشركين ، وقالوا : محمد قرأها ، هذا على تقدير صحته ، وقد رُوِيَ نحوُ هذا التأويل عن الإمام أبي المعالي .

قلت : قال عياض : وقد أعادنا اللّه من صِحَّتِهِ ، وقد حكى موسى بن عقبة في «مغازيه» نحوَ هذا ، وقال : إنَّ المسلمين لم يسمعوها ، وإنما ألقى الشيطانُ ذلك في أسماع المشركين ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ تمنى ﴾ أي : تلا ومنه قوله تعالى : ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة : 78] . أي : تلاوة ، ﴿ فَيَنسَخُ الله مَا يُلْقِي الشيطان ﴾ أي : يُذْهِبُهُ ، ويزيل اللبس به ويُحكمُ آياته ، وعبارة البخاريّ : وقال ابن عباس : ﴿ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ ، أي : إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ، فيبطل اللّه ما يلقى الشيطان ويحكم آياته ، ويقال : ﴿ أُمْنِيَّتِهِ ﴾ : قراءته انتهى .

قال عياض : وقيل : معنى الآية هو ما يقع للنبي صلى الله عليه وسلم من السهو إذا قرأ فيتنبه لذلك ، ويرجعُ عنه ، انتهى .

وقوله سبحانه : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان فِتْنَةً ﴾ الفتنة : الامتحانُ والاختبار ، والذين في قلوبهم مرض : عامَّةُ الكُفَّارِ ، ﴿ والقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ خواصُّ منهم عتاة : كأبي جهل وغيره ، والشقاق : البعد عن الخير والكونُ في شقٍّ غيرِ شقِّ الصلاح ، و ﴿ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ : هم أصحاب نَبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والضمير في ﴿ أَنَّهُ ﴾ : عائد على القرآن ، ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ : معناه : تتطامن وتَخْضَعُ ، وهو مأخوذ من الخبت وهو المطمئن من الأرض كما تقدم .

﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي : من القرآن ، والمريةُ : الشَّكُّ ، ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة ﴾ يعني يوم القيامة ، ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ قيل : يوم بدر ، وقيل : الساعةُ سَاعَةُ موتهم ، واليوم العقيم يومُ القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(106/526)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ ﴾

الرَّسولُ من بعثه الله تعالى بشريعةٍ جديدةٍ يدعُو النَّاسَ إليها ، والنَّبيُّ يعمُّه ومَن بعثه لتقريرِ شريعةٍ سابقةٍ كأنبياءِ بني إسرائيلَ الذين كانُوا بين موسى وعيسى عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ولذلك شَبَّه عليه السَّلامُ علماءَ أُمَّتِه بهم . فالنَّبيُّ أعمُّ من الرَّسول ، ويدلُّ عليه أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ سُئل عن الأنبياءِ فقال : " مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفاً " قيل : فكم الرَّسولُ منهم ؟ فقال : " ثلاثمائةٌ وثلاثةَ عشرَ جَمًّا غفيراً " . وقيل : الرَّسولُ من جمعَ إلى المعجزةِ كتاباً منزَّلاً عليه ، والنَّبيُّ غيرُ الرَّسولِ من لا كتابَ له . وقيل : الرَّسولُ من يأتيهِ المَلَكُ بالوحيِ ، والنَّبيُّ يقال له ولمن يُوحى إليهِ في المنامِ ﴿ إلاَّ إذَا تمنى ﴾ أي هيَّأ في نفسِه ما يهواه ﴿ أَلْقَى الشيطان فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ في تشهِّيه ما يُوجب اشتغالَه بالدُّنيا كما قال عليه السَّلامُ : " وإنَّه ليُغانُ على قلبي فأستغفرُ الله في اليَومِ سبعينَ مَرَّة " ﴿ فَيَنسَخُ الله مَا يُلْقِى الشيطان ﴾ فيُبطله ويذهبُ به بعصمتِه عن الرُّكونِ إليه وإرشادِه إلى ما يُزيحه ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ الله ءاياته ﴾ أي يُثبت آياتِه الدَّاعية إلى الاستغراق في شؤون الحقِّ . وصيغةُ المضارع في الفعلينِ للدَّلالةِ على الاستمرار التَّجدُّدي . وإظهارُ الجلالة في موقعِ الإضمارِ لزيادةِ التَّقريرِ والإيذانِ بأنَّ الأُلوهيَّةَ من موجباتِ أحكامِ آياتِه الباهرة ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ مبالغٌ في العلمِ بكلِّ ما من شأنِه أنْ يُعلم ومن جُملتِه ما صدرَ عن العبادِ من قولٍ وفعلٍ عمداً أو خطأً ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في كلِّ ما يفعلُ . والإظهارُ هاهنا أيضاً لما ذُكر مع ما فيه من تأكيد استقلالِ

الاعتراضِ التَّذييليِّ ، قيل : حدَّث نفسَه بزوال المسكنةِ فنزلتْ ، وقيل : تمنَّى لحرصِه على إيمان قومِه أنْ ينزل عليه ما يُقرِّبهم إليه

(107/526)

واستمرَّ به ذلك حتَّى كان في ناديهم فنزلتْ عليه سورةُ النَّجم فأخذَ يقرؤها فلمَّا بلغَ ومناةَ الثَّالثةَ الأُخرى وسوسَ إليه الشَّيطانُ حتَّى سبق لسانُه سهواً إلى أنْ قال تلكَ الغرانيقُ العُلا وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتجى ففرح به المشركون حتَّى شايعُوه بالسُّجودِ لمَّا سجدَ في آخرِها بحيث لم يبقَ في المسجد مؤمنٌ ولا مشركٌ إلاَّ سجد ثم نبَّهه جَبريل عليه السلام فاغتمَّ به فعزَّاه الله عزَّ وجلَّ بهذه الآيةِ وهو مردودٌ عند المحقِّقين ولئن صحَّ فابتلاءٌ يتميَّز به الثَّابتُ على الإيمانِ عن المتزلزلِ فيه ، وقيل : تمنَّى بمعنى قرأ كقوله

تمنَّى كتابَ الله أوَّلَ ليلة . . . تمنِّيَ داودَ الزَّبورَ على رسلِ

وأمنيَّتُه قراءتُه وإلقاءُ الشَّيطانِ فيها أنْ يتكلَّم بذلك رافعاً صوتَه بحيثُ ظنَّ السَّامعون أنَّه من قراءة النَّبيِّ عليه السَّلامُ وقد رُدَّ بأنه أيضاً يخلُّ بالوثوقِ بالقرآنِ ولا يندفعُ بقولِه تعالى : ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشيطان ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ ءاياته ﴾ لأنَّه أيضاً يحتملُه ، وفي الآيةِ دلالةٌ على جوازِ السَّهو من الأنبياءِ عليهم السلام وتطرق الوسوسةِ إليهم .

(108/526)

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان ﴾ علَّة لما يُنبىء عنه ما ذُكر من إلقاءِ الشَّيطان من تمكينه تعالى إيَّاهُ من ذلك في حقِّ النبيِّ عليه السلام خاصَّة كما يعرب عنه سياقُ النَّظمِ الكريم لما أنَّ تمكينَه تعالى إيَّاهُ من الإلقاء في حقِّ سائر الأنبياء عليهم السَّلامُ لا يمكن تعليلُه بما سيأتي وفيه دلالةٌ على أنَّ ما يُلقيه أمر ظاهرٌ يعرفه المحقُّ والمبطل ﴿ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي شكٌّ ونفاق كما في قوله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ الآيةَ ﴿ والقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ أي المشركين ﴿ وَإِنَّ الظالمين ﴾ أي الفريقينِ المذكورينِ ، فوضعُ الظَّاهرِ موضعَ ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظُّلمِ مع ما وُصفوا به من المرض والقساوةِ ﴿ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي عداوةٍ شديدةٍ ومخالفةٍ تامَّةٍ ، ووصفُ الشّقاقِ بالبُعد مع أنَّ الموصوفَ به حقيقةٌ هو معروضة للمبالغةِ والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله .

(109/526)

﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ ﴾ أي القرآنَ ﴿ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ أي هو الحقُّ النّازل من عنده تعالى ، وقيل : ليعلمُوا أنَّ تمكينَ الشَّيطانِ من الإلقاءِ هو الحقُّ المتضمنُ للحكمةِ البالغة والغايةِ الجميلةِ لأنَّه ممَّا جرتْ به عادتُه في جنس الإنس من لَدُن آدمَ عليه السلام فحينئذٍ لا حاجة إلى تخصيصِ التَّمكينِ فيما سبق بالإلقاءِ في حقّه عليه السَّلامُ لكن يأباه قولُه تعالى : ﴿ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ ﴾ أي بالقرآنِ أي يثبتوا على الإيمانِ به أو يزدادوا إيماناً بردِّ ما يُلقي الشَّيطانُ ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ بالانقياد والخشية والإذعانِ لما فيه من الأوامرِ والنَّواهي ، ورجعُ الضَّميرِ لا سيَّما الثَّاني إلى تمكينِ الشَّيطانِ من الإلقاء ممَّا لا وجه له ﴿ وَإِنَّ الله لَهَادِ الذين ءَامَنُواْ ﴾ أي في الأمورِ الدِّينيةِ خُصوصاً في المداحض والمشكلاتِ التي من جُملتها ما ذكر ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هو النَّظرُ الصحيحُ الموصل إلى الحقِّ الصَّريحِ والجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ لما قبله .

﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ ﴾ أي في شكَ وجدال ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من القرآن وقيل : من الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم والأَوَّلُ هو الأظهرُ بشهادة ما سبقَ من قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ الله ءاياته ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ ﴾ وما لحقَ من قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ وأمَّا تجويزُ كون الضَّميرِ لما ألقى الشَّيطانُ في أمنيَّته فممَّا لا مساغ له لأنَّ ذلك ليس من هَنَاتِهم التي تستمرُّ إلى الأمدِ المذكورِ بل إنَّما هي مريتُهم في شأن القُرآن ولا يُجدي حملُ مِن على السَّببيةِ دون الابتدائيَّةِ لما أنَّ مريتهم المستمرَّةَ كما أنَّها

ليست مبتدأةً من ذلك ليست ناشئةً منه ضرورةَ أنَّها مستمرَّةَ منهم من لَدُن نزول القرآن الكريم .

(110/526)

﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة ﴾ أي القيامةُ نفسُها كما يُؤذن قوله تعالى : ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأةً فإنَّها الموصوفةُ بالإتيان كذلك لا أشراطُها وقيل : الموت ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ أي يومٌ لا يومَ بعده كأنَّ كلَّ يوم يلدُ ما بعده من الأيَّامِ فما لا يومَ بعده يكون عقيماً .

والمرادُ به السَّاعةُ أيضاً كأنَّه قيل : أو يأتيَهم عذابُها فوضع ذلك موضعَ ضميرِها لمزيد التَّهويلِ ولا سبيل إلى حمل السَّاعةِ على أشراطِها لما عرفتَه . وأمَّا ما قيل من أنَّ المراد يومُ حربٍ يُقتلون فيه كيومِ بدرٍ سُمِّي به لأنَّ أولاد النِّساء يُقتلون فيه فيصِرْن كأنهنَّ عُقُمٌ لم يلدن أو لأنَّ المقاتلين أبناءُ الحرب فإذا قُتلوا صارتْ عقيماً أي ثَكْلى فوصف اليَومُ بوصفها اتِّساعاً أو لأنَّه لا خيرَ لهم فيه ومنه الرِّيحُ العقيمُ لما لم يُنشىء مطراً ولم يلقح شَجراً أو لأنَّه لا مثلَ له لقتال الملائكةِ عليهم السَّلامُ فيه فممَّا لا يساعده سياقُ النَّظمِ الكريمِ أصلاً كيفَ لا وإنَّ تخصيصَ الملك والتَّصرفِ الكُليِّ فيه بالله عزَّ وجلَّ ثم بيانَ ما يقع فيه من حكمِه تعالى

بين الفريقين بالثَّواب والعذابِ الأُخرويين يقضي بأنَّ المرادَ به يومُ القيامةِ قضاءً بيّناً لا ريبَ فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(111/526)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾

"من" الأولى ابتدائية ، والثانية مزيدة لاستغراق الجنس ، والجملة المصدرة بإذا في موضع الحال عند أبي حيان ، وقيل : في موضع الصفة وأفرد الضمير بتأويل كل واحد أو بتقدير جملة مثل الجملة المذكورة كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] والظاهر أن "إذا" شرطية ونص على ذلك الحوفي لكن قالوا : إن "إلا" في النفي إما أن يليها مضارع نحو ما زيد إلا يفعل وما رأيت زيداً إلا يفعل أو يليها ماض بشرط أن يتقدمه فعل كقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا ﴾ [الحجر : 11] الخ أو "2" يكون الماضي مصحوباً بقد نحو ما زيد إلا قد قام ، ويشكل عليه هذه الآية إذ لم يليها فيها مضارع ولا ماض بل جملة شرطية فإن صح ما قالوه احتيج إلى التأويل ، وأول ذلك في البحر بأن "إذا" جردت للظرفية وقد فصل بها وبما أضيفت إليه بين إلا والفعل الماضي الذي هو

"ألقى" وهو فصل جائز فتكون إلا قد وليها ماض في التقدير ووجد الشرط ، وعطف "نبي" على "رسول" يدل على المغايرة بينهما وهو الشائع ، ويدل على المغايرة أيضاً ما روي أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن الأنبياء فقال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قيل : فكن الرسل منهم ؟ قال : ثلثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً ، وقد أخرج ذلك كما قال السيوطي أحمد .

وابن راهويه في مسنديهما من حديث أبي أمامة ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه .

والحاكم في مستدركه من حديث أبي ذر .

(112/526)

وزعم ابن الجوزي أنه موضوع وليس كذلك ، نعم قيل في سنده ضعف جبر بالمتابعة ؛

وجاء في رواية الرسل ثلثمائة وخمسة عشر ، واختلفوا هنا في تفسير كل منهما فقيل : الرسول ذكر حر بعثه الله تعالى بشرع جديد يدعو الناس إليه والنبي يعمه ومن بعثه لتقرير شرع سابق كانبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام ، وقيل : الرسول ذكر حر بعثه الله تعالى إلى قوم بشرع جديد بالنسبة إليهم وإن لم يكن جديداً في نفسه كاسماعيل عليه السلام إذ بعث لجرهم أولا والنبي يعمه ومن بعث بشرع غير جديد

كذلك ، وقيل : الرسول ذكر حر له تبليغ في الجملة وإن كان بياناً وتفصيلاً لشرع سابق والنبي من أوحى إليه ولم يؤمر بتبليغ أصلا أو أعم منه ومن الرسول ، وقيل : الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة كتاباً منزلاً عليه والنبي غير الرسول من لا كتاب له ، وقيل : الرسول من له كتاب أو نسخ في الجملة والنبي من لا كتاب له ولا نسخ ، وقيل الرسول من يأتيه الملك عليه السلام بالوحي يقظة والنبي يقال له ولمن يوحي إليه في المنام لا غير : وهذا أغرب الأقوال ويقتضي أن بعض الأنبياء عليه السلام لم يوح إليه إلا مناماً وهو بعيد ومثله لا يقال بالرأي .

(113/526)

وأنت تعلم أن المشهور أن النبي في عرف الشرع أعم من الرسول فإنه من أوحى إليه سواء أمر بالتبليغ أم لا والرسول من أوحى إليه وأمر بالتبليغ ولا يصح إرادة ذلك لأنه إذا قوبل العام بالخاص يراد بالعام ما عدا الخاص فمتى أريد بالنبي ما عدا الرسول كان المراد به من لم يؤمر بالتبليغ وحيث تعلق به الإرسال صار مأموراً بالتبليغ فيكون رسولاً فلم يبق في الآية بعد تعلق الإرسال رسول ونبي مقابل له فلا بد لتحقيق المقابلة أن يراد بالرسول من بعث بشرع جديد وبالنبي من بعث لتقرير شرع من قبله أو يراد بالرسول من بعث بكتاب وبالنبي من بعث بغير كتاب أو يراد نحو ذلك مما يحصل به المقابلة مع تعلق الإرسال بهما ، والتمني على

ما قال أبو مسلم نهاية التقدير ومنه المنية وفاة الإنسان للوقت الذي قدره الله تعالى ، والأمنية على ما قال الراغب الصورة الحاصلة في النفس من التمني ، وقال غير واحد : التمني القراءة وكذا الأمنية ، وأنشدوا قول حسان في عثمان رضي الله تعالى عنهما .

تمني كتاب الله أول ليلة . . .

تمني داود الزبور على رسل

(114/526)

وفي البحر أن ذلك راجع إلى الأصل المنقول عن أبي مسلم فإن التالي يقدر الحروف ويتصورها فيذكرها شيئاً فشيئاً ، والمراد بذلك هنا عند كثير القراءة ، والآية مسوقة لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم بأن السعي في إبطال الآيات أمر معهود وأنه لسعي مردود ، والمعنى وما أرسلنا من قبلك رسولاً ولا نبياً إلا وحاله أنه إذا قرأ شيئاً من الآيات القى الشيطان الشبه والتخيلات فيما يقرؤه على أوليائه ليجادلوه بالباطل ويردوا ما جاء به كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ ليجادلوكم ﴾ [الأنعام : 121] وقال سبحانه ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبىّ عَدُوّاً شياطين الإنس والجن يُوحِى بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول ﴾ [الأنعام : 112] وهذا كقولهم عند سماع قراءة الرسول صلى الله

عليه وسلم ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة ﴾ [القرة : 173] إنه يحل ذبيح نفسه ويحرم ذبيح الله تعالى ، وقولهم على ما في بعض الروايات عند سماع قراءته عليه الصلاة والسلام : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ [الأنبياء : 98] إن عيسى عبد من دون الله تعالى والملائكة عليهم السلام عبدوا من دون الله تعالى ﴿ فَيَنسَخُ الله مَا يُلْقِى الشيطان ﴾ أي فيبطل ما يلقيه من تلك الشبه ويذهب به بتوفيق النبي صلى الله عليه وسلم لرده أو بأنزال ما يرده ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ الله ءاياته ﴾ أي يأتي بها محكمة مثبتة لا تقبل الرد بوجه من الوجوه ، و ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي الرتبي فإن الإحكام أعلا رتبة من النسخ ، وصيغة المضارع في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددي ، وإظهار الجلالة في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بأن الألوهية من موجبات أحكام آياته تعالى الباهرة .

(115/526)

ومثل ذلك في زيادة التقرير إظهار "الشيطان" ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في العلم بكل ما من شأنه أن يعلم ومن جملته ما يصدر من الشيطان وأوليائه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في كل ما يفعل ومن جملته تمكين الشيطان من إلقاء الشبه وأوليائه من المجادلة بها وإبداؤه تعالى ردها ، والإظهار ههنا لما ذكر أيضاً مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييلي .

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53)

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشيطان ﴾ أي الذي يلقيه .

وقيل : القاءه ﴿ فِتْنَةً ﴾ أي عذاباً .

وفي البحر ابتلاء واختباراً ﴿ لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي شك ونفاق وهو المناسب لقوله تعالى في المنافقين ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ [البقرة : 10] وتخصيص المرض بالقلب مؤيد له لعدم إظهار كفرهم بخلاف الكافر المجاهر ﴿ والقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ أي الكفار المجاهرين ، وقيل : المراد من الأولين عامة الكفار ومن الأخيرين خواصهم كأبي جهل . والنضر .

وعتبة ، وحمل الأولين على الكفار مطلقاً والأخيرين على المنافقين لأنهم أحق بوصف القسوة لعدم انجلاء صدأ قلوبهم بصيقل المخالطة للمؤمنين ليس بشيء .

﴿ وَإِنَّ الظالمين ﴾ أي الفريقين المذكورين فوضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم مع ما وصفوا به من المرض والقسوة ﴿ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي عداوة شديدة ومخالفة تامة ، ووصف الشقاق بالبعد مع أن الموصوف به حقيقة هو معروضة للمبالغة ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله ، ولام ﴿ لِيَجْعَلَ ﴾ للتعليل وهو عند الحوفي متعلق ب ﴿ يحكم ﴾ [الحج : 52] وعند ابن عطية ب ﴿ ينسخ ﴾ [الحج :

52] وعند غيرهما ب ﴿ ألقى ﴾ [الحج : 52] لكن التعليل لما ينبىء عنه القاء الشيطان من تنكينه تعال إياه من ذلك في حق النبي صلى الله عليه وسلم خاصة لعطف

(116/526)

﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ وكون ضمير ﴿ أَنَّهُ ﴾ للقرآن ، وقيل لا حاجة للتخصيص وضمير ﴿ أَنَّهُ ﴾ لتمكين الشيطان من الالقاء أي وليعلم العلماء أن ذلك التمكين هو الحق المتضمن للحكمة البالغة لأنه مما جرت به عادته تعالى في جنس الانس من لدن آدم عليه السلام ، وضميراً ﴿ بِهِ وَلَهُ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ ﴾ أي يثبتوا على الإيمان أو يزدادوا إيماناً ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ بالانقياد والخشية للقرآن على التخصيص وللرب على التعميم ، وجعلهما لتمكين الشيطان لا سيما الثاني مما لا وجه له .

(117/526)

ورجح ما قاله ابن عطية بأن أمر التعليل عليه أظهر أي فينسخ الله تعالى ما يلقيه الشيطان ويرده ليجعله بسبب الرد وظهور فساد التمسك به عذاباً للمنافقين والكافرين أي سبباً لعذابهم حيث استرسلوا معه مع ظهور فساده أو اختبار لهم هل يرجعون عنه وليعلم الذين أوتوا العلم أن القرآن هو الحق حيث بطل ما أورد من الشبه عليه ولم يبطل هو ، وقد يقال مثل ذلك على ما ذهب إليه الحوفي ، ولا يبعد أن يكون قوله تعالى ﴿ لِيَجْعَلَ ﴾ الخ متعلقاً بمحذوف أي فعل ذلك ليجعل الخ والإشارة إلى النسخ والأحكام ويجعل ﴿ لِيَجْعَلَ ﴾ علة النسخ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ﴾ علة لفعل الإتيان بالآيات محكمة ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى التمكين المفهوم مما تقدم مع النسخ والأحكام ويجعل ﴿ لِيَجْعَلَ ﴾ علة لفعل التمكين وما بعد علة لما بعد ، ويجوز أيضاً أن ترجع الضمائر في ﴿ أَنَّهُ وَبِهِ وَلَهُ ﴾ للموحى الذي يقرأه كل من الرسل والأنبياء عليهم السلام المفهوم من الكلام فلا حاجة للتخصيص ، وأياً ما كان فقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الذين ءامَنُواْ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ اعتراض مقرر لما قبله ، والمراد بالذين آمنوا المؤمنين من هذه الأمة على تقدير التخصيص أو المؤمنون مطلقاً على تقدير التعميم ، والمراد بالصراط المستقيم النظر الصحيح الموصل إلى الحق الصريح أي إنه تعالى لهادي المؤمنين في الأمور الدينية خصوصاً في المداخض والمشكلات التي من جملتها رد شبه الشياطين عن آيات الله عز وجل .

وقرأ أبو حيوة .

وابن أبي عبلة ﴿ لَهَادٍ ﴾ بالتنوين .

(118/526)

﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ ﴾ أي في شك ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من القرآن ؛ وقيل : من الرسول ، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الموحى على ما سمعت و ﴿ مِنْ ﴾ على جميع ذلك ابتدائية ، وجوز أن يرجع إلى ما ألقى الشيطان وأختير عليه أن من سببية فإن مرية الكفار فيما جاءت به الرسل عليهم السلام بسبب ما ألقى الشيطان في الموحى من الشبه والتخيلات فتأمل ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة ﴾ أي القيامة نفسها كما يؤذن به قوله تعالى : ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة فإنها الموصوفة بالاتيان كذلك ، وقيل : أشراطها على حذف المضاف أو على التجوز .

وقيل : الموت على أن التعريف في ﴿ الساعة ﴾ للعهد ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ أي منفرد عن سائر الأيام لا مثل له في شدته أو لا يوم بعده كأن كل يوم يلد .

ما بعده من الأيام فما لا يوم بعده يكون عقيماً ، والمراد به الساعة بمعنى يوم القيامة أيضاً كأنه قيل أو يأتيهم عذابها فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل والتخويف .

و ﴿ أَوْ ﴾ في محلها لتغاير الساعة وعذابها وهي لمنع الخلو وكان المراد المبالغة في استمرارهم على المرية ، وقيل : المراد بيوم عقيم يوم موتهم فإنه لا يوم بعده بالنسبة إليهم ، وقيل : المراد به يوم حرب يقتلون فيه ، ووصف بالعقيم لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن أو لأن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم ، وفيه على الأول مجاز في الإسناد ومجاز في المفرد من جعل الثكل عقماً ، وكذا على الثاني لأن الولود والعقيم هي الحرب على سبيل الاستعارة بالكناية فإذا وصف يوم الحرب بذلك كان مجازاً في الإسناد ، ومن ثم قيل : إنه مجاز موجه من قولهم ثوب موجه له وجهان ، وقيل : هو الذي لا خير فيه يقال : ريح عقيم إذا لم تنشىء مطراً ولم تلقح شجراً ، وفيه على هذا استعارة تبعية لأن ما في اليوم من الصفة المانعة من الخير جعل بمنزلة العقم ، وخص غير واحد هذا اليوم بيوم بدر فإنه يوم حرب قتل فيه عتاة الكفرة ويوم لا خير فيه لهم ، ويصح أيضاً أن يكون وصفه بعقيم لتفرده بقتال الملائكة عليهم السلام فيه ، وأنت تعلم أن الظاهر مما يأتي بعد إن شاء الله تعالى تعين تفسير هذا اليوم بيوم القيامة ، هذا وجوز أن يراد من الشيطان شيطان الإنس كالنضر بن الحرث كان يلقي الشبه إلى قومه وإلى الوافدين يثبطهم

بها عن الإسلام ، وقيل : ضمير ﴿ أُمْنِيَّتِهِ ﴾ للشيطان والمراد بها الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء و﴿ فِى ﴾ للسببية مثلها في قوله صلى الله عليه وسلم : " إن امرأة دخلت النار في هرة " أي ألقى الشيطان بسبب أمنيته الشبه وأبداها ليبطل بها الآيات .

(120/526)

وقيل : ﴿ تمني ﴾ قرأ و﴿ فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ قراءته والضميرء للنبي أو الرسول و﴿ فِى ﴾ على ظاهرها ، والمراد بما يلقى الشيطان ما يقع للقارىء من إبدال كلمة بكلمة أو حرف بحرف أو تغيير إعراب سهواً ، وقيل : المراد ما يلقيه في الآيات المتشابهة من الاحتمالات التي ليست مراداً لله تعالى ، وقيل : تمني هيأ وقدر في نفسه ما يهواه و﴿ أُمْنِيَّتِهِ ﴾ قراءته ، والمعنى إذا تمنى إيمان قومه وهدايتهم ألقى الشيطان إلى أوليائه شبهاً فينسخ الله تعالى تلك الشبه ويحكم الآيات الدالة على دفعها ، وقيل : ﴿ تمني ﴾ قدر في نفسه ما يهواه و﴿ فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ تشهيه وما يلقيه الشيطان ما يوجب اشتغاله في الدنيا ، وجعله فتنة باعتبار ما يظهر منه من الاشتغال بأمور الدنيا ، ونسخه إبطاله بعصمته عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يزينه .

وقيل : ﴿ تمني ﴾ قرأ و﴿ فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ قراءته وما يلقي الشيطان كلمات تشابه الوحي يتكلم بها الشيطان بحيث يظن السامع أنها من قراءة النبي ، وقد روى أن الآية نزلت حين قرأ عليه الصلاة والسلام ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ﴾ [النجم : 19 ، 20] فألقى الشيطان في سكتته محاكياً نغمته عليه الصلاة والسلام بحيث يسمعه من حوله تعالى الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجي فظن المشركون أنه عليه الصلاة والسلام هو المتكلم بذلك ففرحوا وسجدوا معه لما سجد آخر السورة ، وقيل : المتكلم بذلك بعض المشركين وظن سائرهم أنه عليه الصلاة والسلام هو المتكلم به ، وقيل : إنه صلى الله عليه وسلم هو الذي تلكم بذلك عامداً لكن مستفهما على سبيل الإنكار والاحتجاج على المشركين ، وجعل من إلقاء الشيطان لما ترتب عليه من ظن المشركين أنه مدح لآلهتهم ، ولا يمنع ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي لأن الكلام في الصلاة كان جائزاً إذ ذاك .

(121/526)

وقيل : بل كان ساهياً ، فقد أخرج عبد بن حميد من طريق يونس عن ابن شهاب قال : حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قرأ عليهم والنجم فلما بلغ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ﴾ [النجم : 19 ، 20]

قال : إن شفاعتهن ترتجي وسها رسول الله عليه الصلاة والسلام ففرح المشركون بذلك فقال صلى الله عليه وسلم : " ألا إنما ذلك من الشيطان " فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ حتى بلغ ﴿ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج : 52 55] ، قال الجلال السيوطي : وهو خبر مرسل صحيح الإسناد ، وقيل : تكلم بذلك ناعساً .

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : بينا نبي الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند المقام إذ نعس فألقى الشيطان على لسانه كلمة فتكلم ها قال : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ﴾ وإن شفاعتهن لترتجي وإنها لمع الغرانيق العلا فحفظها المشركون وأخبرهم الشيطان أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قد قرأها فزلت ألسنتهم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ الآية ، وقيل : ﴿ تمني ﴾ قدر في نفسه ما يهواه ودأمنيته ﴾ قراءته وما يلقي الشيطان كلمات تشابه الوحي ، فقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : أنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد عليه ما ناله أصحابه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنه ضلالتهم فكان يتمنى هداهم فلما أنزل الله تعالى سورة النجم قال :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ﴾ [النجم : 19 ، 20] قراءته وما يلقي الشيطان كلمات تشابه الوحي ، فقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : أنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد عليه ما ناله أصحابه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنه ضلالتهم فكان يتمنى هداهم فلما أنزل الله تعالى سورة النجم قال : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ﴾ [النجم : 19 ، 20] ألقى الشيطان عندها كلمات فقال : وإنهن لهن الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لهي التي ترتجي وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وزلت بهما ألسنتهم وتباشروا بهما وقالوا .

إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر النجم سجد وسجد كل من حضر من مسلم أو مشرك ففشت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ [الحج : 52] الآيات ، وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم حين ألقاها الشيطان تكلم بها ظانا أنها وحي حتى نبهه جبريل عليه السلام ، ففي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن المنذر .

وابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة النجم فلما بلغ "أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى" ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجي قالوا : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا ثم جاءه جبريل عليهما الصلاة والسلام بعد ذلك فقال : اعرض على ما جئتك به فلما بلغ تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجي قال له جبريل عليهما السلام : لم آتك بهذا هذا من الشيطان فأنزل الله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ [الحج : 52] الآية .

وأخرج البزار .

والطبري .

وابن مردويه .

والضياء في المختارة بسند رجاله ثقات من طريق سعيد عن ابن عباس نحو ذلك لكن ليس فيه حديث السجود وفيه أيضاً مغايرة يسيرة غير ذلك ، وجاء حديث السجود في خبر آخر عنه أخرجه البزار .

وابن مردويه أيضاً من طريق أمية بن خالد عن شعبة لكن قال في إسناده : عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب فشك في وصله ، وفي رواية أبي حاتم عن السدي أن جبريل عليه السلام قال له عليه الصلاة والسلام حين عرض عليه ذلك : معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا فاشتد عليه عليه الصلاة والسلام فأنزل الله تعالى وطيب نفسه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ [الحج : 52] الآية قيل : ولمشابهة ما ألقى الشيطان للوحي المنزل وكونه في أثنائه أطلق على إبطاله اسم النسخ الشائع إيقاعه على ما هو وحي حقيقة لكن لا يخفى أن النسخ الشرعي لا يتعلق بنحو ما ذكر من الإخبار فلا بد من تأويل ما لذلك ، وقد أنكر كثير من المحققين هذه القصة فقال البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل .

وقال القاضي عياض في الشفاء : يكفيك في توهين هذا الحديث أنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم متصل وإنما أولع به وبمثله المفسرون .

والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم .

(124/526)

وفي "البحر" أن هذه القصة سئل عنها الإمام محمد بن إسحاق جامع السيرة النبوية فقال : هذا من وضع الزنادقة وصنف في ذلك كتاباً .

وذكر الشيخ أبو منصور الماتريدي في كتاب حصص الأتقياء الصواب أن قوله : تلك الغرانيق العلا من جملة إيحاء الشيطان إلى أوليائه من الزنادقة حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين ليرتابوا في صحة الدين وحضرة الرسالة بريئة من مثل هذه الرواية .

وذكر غير واحد أنه يلزم على القول بأن الناطق بذلك النبي صلى الله عليه وسلم بسبب إلقاء الشيطان الملبس بالملك أمور .

منها تسلط الشيطان عليه عليه الصلاة والسلام وهو صلى الله عليه وسلم بالإجماع معصوم من الشيطان لا سيما في مثل هذا من أمور الوحي والتبليغ والاعتقاد ، وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ [الحجر : 42] وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ على الذين ءامَنُواْ ﴾ [النحل : 99] إلى غير ذلك ، ومنها زيادته صلى الله عليه وسلم في القرآن ما ليس منه وذلك مما يستحيل عليه عليه الصلاة والسلام لمكان العصمة ، ومنها اعتقاد النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس بقرآن أنه قرآن مع كونه بعيد الالتئام متناقضاً ممتزج المدح بالذم وهو خطأ شنيع لا ينبغي أن يتساهل في نسبته إليه صلى الله عليه وسلم ، ومنها أنه إما أن يكون عليه الصلاة والسلام عند نطقه بذلك متعقداً ما اعتقده المشركون من مدح آلهتهم بتلك الكلمات وهو كفر محال في حقه صلى الله عليه وسلم وإما أن يكون معتقداً معنى آخر مخالفاً لما اعتقدوه ومبايناً لظاهر العبارة ولم يبينه لهم

مع فرحهم وادعائهم أنه مدح آلهتهم فيكون مقراً لهم على الباطل وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يقر على ذلك .

(125/526)

ومنها كونه صلى الله عليه وسلم اشتبه عليه ما يلقيه الشيطان بما يلقيه عليه الملك وهو يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام على غير بصيرة فيما يوحى إليه ، ويقتضي أيضاً جواز تصور الشيطان بصورة الملك ملبساً على النبي ولا يصح ذلك كما قال في الشفاء لا في أول الرسالة ولا بعدها والاعتماد في ذلك دليل المعجزة .

وقال ابن العربي : تصور الشيطان في صورة الملك ملبساً على النبي كتصوره في صورة النبي ملبساً على الخلق وتسليط الله تعالى له على ذلك كتسليطه في هذا فكيف يسوغ في لب سليم استجازة ذلك .

ومنها التقول على الله تعالى إما عمداً أو خطأً أو سهواً .

وكل ذلك محال في حقه عليه الصلاة والسلام ، وقد اجتمعت الأمة على ما قال القاضي عياض على عصمته صلى الله عليه وسلم فيما كان طريقه البلاغ من الأقوال عن الأخبار بخلاف الواقع لا قصداً ولا سهواً ، ومنها الإخلال بالوثوق بالقرآن فلا يؤمن فيه التبديل

والتغيير ، ولا يندفع كما قال البيضاوي بقوله تعالى : ﴿ فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ﴾ [الحج : 52] لأنه أيضاً يحتمل إلى غير ذلك .

وذهب إلى صحتها الحافظ ابن حجر في "شرح البخاري" وساق طرقاً عن ابن عباس .

وغيره ثم قال : وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإما منقطع لكن كثرة الطرق تدل على أن لها أصلاً مع أن لها طريقاً متصلاً بسند صحيح أخرجه البزار وطريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيحين ، أحدهما : ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب ، والثاني : ما أخرجه أيضاً من طريق المعتمر بن سليمان .

وحماد بن سلمة فرقهما عن داود بن أبي هند عن أبي العالية ، ثم أخذ في الرد على أبي بكر بن العربي .

والقاضي عياض في إنكارهما الصحة .

(126/526)

وذهب إلى صحة القصة أيضاً خاتمة المتأخرين الشيخ إبراهيم الكوراني ثم المدني ، وذكر بعد كلام طويل أنه تحصل من ذلك أن الحديث أخرجه غير واحد من أهل الصحة وأنه رواه ثقات بسند سليم متصل عن ابن عباس وبثلاث أسانيد صحيحة عن ثلاث من التابعين من

أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة وهم سعيد بن جبير وأبو بكر بن عبد الرحمن .

وأبو العالية ، وقد قال السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول : قال الحاكم في علوم الحديث : إذا أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث مسند ومشى عليه ابن الصلاح .

وغيره ثم قال : ما جعلناه من قبيل المسند من الصحابي إذا وقع من تابعي فهو مرفوع أيضاً لكنه مرسل فقد يقبل إذا صح السند إليه وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة كمجاهد وعكرمة .

(127/526)

وسعيد بن جبير أو اعتضد بمرسل ونحو ذلك ، فعلى هذا يكون الخبر في هذه القصة مسنداً من الطريق المتصلة بابن عباس مرسلاً مرفوعاً من الطرق الثلاثة والزيادة فيه التي رواها الثقات عن ابن عباس في غير رواية البخاري ليست مخالفة لما في البخاري عنه فلا تكون شاذة فإطلاق الطعن فيه من حيث النقل ليس في محله ، وأجاب عما يلزم على تقدير كون الناطق بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، أما عن الأول فبأن السلطان المنفي عن العباد المخلصين هو الإغواء أعني التلبيس المخل بأمر الدين وهو الذي وقع الإجماع على أن

النبي عليه الصلاة والسلام معصوم منه وأما غير المخل فلا دليل على نفيه ولا إجماع على العصمة منه وما هنا غير مخل لعدم منافاته للتوحيد كما يبين إن شاء الله تعالى بل فيه تأديب وتصفية وترقية للحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم لأنه عليه الصلاة والسلام تمنى هدى الكل ولم يكن ذلك مراداً لله تعالى والأكمل في العبودية فناء إرادته في إرادة الحق سبحانه فليس عليه عليه الصلاة والسلام الإلقاء حالة تمني هدى الكل المصادم للقدر والمنافي لما هو الأكمل ليترقى إلى الأكمل وقد حصل ذلك بهذه المرة ولذا لم يقع التلبيس مرة أخرى بل كان يرسل بعد من بين يديه ومن خلفه رصد ليعلم أن قد أبلغوا رسالة ربه سبحانه ، وفي ترتيب الإلقاء على التمني ما يفهم العتاب عليه ؛ وأما عن الثاني فبأن المستحيل المنافي للعصمة أن يزيد عليه الصلاة والسلام فيه من تلقاء نفسه أي يزيد فيه ما يعلم أنه ليس منه وما هنا ليس كذلك لأنه عليه الصلاة والسلام إنما تبع فيه الإلقاء الملبس عليه في حالة خاصة فقط تأديباً أن يعود لمثل تلك الحالة ، وأما عن الثالث فبأنه يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم نطق به على فهم أنه استفهام إنكاري حذف منه الهمزة أو حكاية عنهم بحذف القول وحينئذٍ لا يكون بعيد الالتئام ولا متناقضاً ولا ممتزج المدح بالذم ولا بد من التزام أحد الأمرين على تقدير

صحة الخبر لمكان العصمة ، والنكتة في التعبير كذلك إيهام الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم أنه عليه الصلاة والسلام مدح آلهتهم ويحصل ذلك مراد الله تعالى المشار إليه بقوله سبحانه :

﴿ لِيَجْعَلَ ﴾ [الحج : 53] الخ ، وأما عن الرابع فبأنا نختار الشق الثاني بناءً على أنه استفهام حذف منه الهمزة أو حكاية بحذف القول ، وعلى التقديرين يكون عليه الصلاة والسلام معتقداً لمعنى مخالف لما اعتقدوه ؛ ولا يلزم منه التقرير على الباطل لأنه بين بطلان معتقدهم بقوله تعالى بعد : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سلطان ﴾ [النجم : 23] فإن ما لم ينزل الله تعالى به سلطاناً لا ترجى شفاعته إذ لا شفاعة إلا من بعد إذن إلهي لقوله تعالى بعد : ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِى السموات لاَ تُغْنِى شفاعتهم شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاء ويرضى ﴾ [النجم : 26] .

وأما عن الخامس فبأن هذا الاشتباه في حالة خاصة للتأديب لا يقتضي أن يكون صلى الله عليه وسلم على غيره بصيرة فيما يوحى إليه في غير تلك الحالة ، وأما قول القاضي عياض : لا يصح أن يتصور الشيطان بصورة الملك ويلبس عليه عليه الصلاة والسلام فإن أراد به أنه لا يصح أن يلبس تلبيساً قادحاً فهو مسلم لكنه لم يقع وإن أراد مطلقاً ولو كان غير مخل فلا

دليل عليه ، ودليل المعجزة إنما ينفي الاشتباه المخل بأمر النبوة المنافي للتوحيد القادح في العصمة وما ذكر غير مخل بل فيه تأديب بما يتضمن تنقية وترقية إلى الأكمل في العبودية .

(129/526)

وأما ما ذكر ابن العربي فقياس مع الفارق لأن تصور الشيطان في صورة النبي مطلقاً منفي بالنص الصحيح وتصوره في صورته ملبساً على الخلق إغواء يعم وهو سلطان منفي بالنص عن المخلصين ، وأما تصوره في صورة الملك في حالة خاصة ملبساً على النبي بما لا يكون منافياً للتوحيد لما يريد الله تعالى بذلك تأديباً ولإيهامه خلاف المراد فتنة لقوم فليس من السلطان المنفي ولا بالتصور الممنوع لعدم إخلاله بمقام النبوة .

وأما عن السادس فبأن التقول تكلف القول ومن لا يتبع إلا من يلقى إليه من الله تعالى حقيقة أو اعتقاداً ناشئاً من تلبيس غير مخل لا تكلف للقول عنده فلا تقول على الله تعالى أصلاً ؛ وما أشبه هذه القصة بما تضمنه حديث ذي اليدين فالتلبيس عليه عليه الصلاة والسلام في الإلقاء في حالة التمني تأديباً كإيقاع السهو عليه صلى الله عليه وسلم في الصلاة باعتقاد التمام تشريعاً والنطق بما ألقاه الشيطان في حالة خاصة مما لا ينافي التوحيد على أنه قرآن بناءً على اعتقاد أن الملقى ملك تلبيساً للتأديب كالنطق بالسلام ثم بلم أنس معتقداً أنه

مطابق للواقع بناءً على اعتقاد التمام سهواً ، ووقوع البيان على لسان جبريل عليه السلام ثم النسخ والإحكام كوقوع البيان على لسان الصحابي ثم التدارك وسجود السهو فكما أن السهو للتشريع غير قادح في منصب النبوة كذلك الاشتباه في الإلقاء للتأديب غير قادح ، وكما أن النطق بلم أنس مع تبين أنه عليه الصلاة والسلام قد نسي صدق بناء على اعتقاد التمام سهواً كذلك النطق بما يلقيه الشيطان في تلك الحالة على أنه قرآن بناءً على اعتقاد أن الملقى ملك صدق ولا شيء من الصدق بالتقول فلا شيء من النطق بما يلقيه الشيطان في تلك الحالة به ، وما ذكر عن القاضي عياض من حكاية الإجماع على عدم جواز دخول السهو في الأقوال التبليغية كما قال الحافظ ابن حجر متعقب .

(130/526)

وأما عن السابع فبأنه لا إخلال بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلم والذين آمنوا لأن وثوق كل منهما تابع لوثوق متبوعهم الصادق الأمين فإذا جزم بشيء أنه كذا جزموا به وإذا رجع عن شيء بعد الجزم رجعوا كما هو شأنهم في نسخ غير هذا من الآيات التي هي كلام الله تعالى لفظاً ومعنى إذ قبل نسخ ما نسخ لفظه كانوا جازمين بأنهم متعبدون بتلاوته وبعد النسخ جزموا بأنهم ما هم متعبدين بتلاوته ، وما نسخ حكمه كانوا جازمين بأنهم مكلفون

بحكمه وبعد النسخ جزموا بأنهم ما هم مكلفين به ، فقول البيضاوي : إن ذلك لا يندفع بقوله تعالى : ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ ﴾ [الحج : 52] الخ لأنه أيضاً يحتمله ليس بشيء ، وبيانه أنه إن أراد أنه يحتمله عند الفرق الأربع المذكورة في الآيات وهم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم والذين أوتوا العلم والذين آمنوا فهو ممنوع لدلالة قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ﴾ [الحج : 54] الخ على انتفاء الاحتمال عند فريقين من الفرق الأربع بعد النسخ والأحكام ، وإن أراد أنه يحتمله في الجملة أي عند بعض دون بعض فهو مسلم وغير مضر لعدم إخلاله بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلم والذين آمنوا ، وأما إخلاله بالنسبة إلى الفريقين الآخرين فهو مراد الله عز وجل .

(131/526)

هذا واعترض على الجواب الأول بأن التلبيس بحيث يشتبه الأمر على النبي صلى الله عليه وسلم فيعتقد أن الشيطان ملك مخل بمقام النبوة ونقص فيه فإن الولي الذي هو دونه عليه الصلاة والسلام بمراتب لا يكاد يخفى عليه الطائع من العاصي فيدرك نور الطاعة وظلمة المعصية فكيف بمن هو سيد الأنبياء ونور عيون قلوب الأولياء يلتبس عليه من هو محض نور بمن محض ديجور ، واشتباه جبريل عليه السلام عليه صلى الله عليه وسلم في بعض

المرات حتى لم يعرفه إلى أن ذهب فقال : " والذي نفسي بيده ما شبه علي منذ أتاني قبل مرتي هذه وما عرفته حتى ولى " إذا صح ليس من قبيل اشتباه الشيطان به عليه السلام إذ يجوز أن يكون من اشتباه ملك بملك وكل منهما نوراني ، وقد كان يأتيه صلى الله عليه وسلم غير جبريل عليه السلام من الملائكة الكرام ، وأن يكون من اشتباه ملك بواحد من البشر نوراني أيضاً لم يكن رآه عليه الصلاة والسلام قبل ذلك كالخضر والياس مثلاً إن قلنا بحياتهما .

(132/526)

وأيضاً قال المحققون : إن الأنبياء عليهم السلام ليس لهم خاطر شيطاني ، وكون ذلك ليس منه بل كان مجرد إلقاء على اللسان دون القلب ممنوع ألا ترى أنه قال تعالى : ﴿ أَلْقَى الشيطان فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : 52] دون ألقى الشيطان على لسانه ، وتسمية القراءة أمنية لما أن القارىء يقدر الحروف في قلبه أولاً ثم يذكرها شيئاً فشيئاً ، وأيضاً حفظه صلى الله عليه وسلم لذلك إلى أن أمسى كما جاء في بعض الروايا فنبهه عليه جبريل عليهما السلام يبعد كون الإلقاء على اللسان فقط ، على أنا لو سلمنا ذلك وقلنا : إن الشيطان ألقى على لسانه صلى الله عليه وسلم ولم يلق في قلبه كما هو شأن الوحي المشار

إليه بقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الامين على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ [الشعراء : 193 ، 194] وقلنا : إن ذلك مما يعقل للزم أن يعلم صلى الله عليه وسلم من خلو قلبه واشتغال لسانه أن ذلك ليس من الوحي في شيء ولم يحتج إلى أن يعلمه جبريل عليه السلام ، والقول بأنه لبس الحال عليه عليه الصلاة والسلام للتأديب والترقية إلى المقام الأكمل في العبودية وهو فناء إرادته صلى الله عليه وسلم في إرادة مولاه عز وجل حيث تمنى إيمان الكل وحرص عليه ولم يكن مراد الله تعالى مما لا ينبغي أن يلتفت إليه لأن القائل به زعم أن التأديب بذلك كان بعد قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ استطعت أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأرض أَوْ سُلَّماً فِي السماء فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ ﴾ [الإنعام : 35] ولا شك أن التأديب به لم يبق ولم يذر ولم يقرن بما فيه تسلية أصلاً فإذا قيل والعياذ بالله تعالى : إن ذلك لم ينجع فكيف ينجع ما دونه ، وأيضاً أية دلالة في الآية على التأديب وهي لم تخرج مخرج العتاب بل مخرج التسلية على أبلغ وجه عما كان يفعل المشركون من السعي في إبطال الآيات ، ولا نسلم أن ترتيب الإلقاء على التمني مع ما

في السباق والسياق مما يدل على التسلية عن ذلك يجدي نفعاً في هذا الباب كما لا يخفى على ذوي الألباب .

ويرد على قوله : إنه بعد حصول التأديب بما ذكر كان يرسل من بين يديه ومن خلفه رصد يحفظونه من إلقاء الشيطان أنه لم يدل دليل على تخصيص الإرسال بما بعد ذلك بل الظاهر أن ذلك كان في جميع الأوقات فقد أخرج عبد بن حميد .

وابن جرير عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾

[الجن : 27] قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث إليه الملك بالوحي بعث معه ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه أن يتشبه الشيطان بالملك ، وقد ذكروا أن كان في ذلك للاستمرار .

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال : ما جاء جبريل عليه السلام بالقرآن إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلا ومعه أربعة من الملائكة حفظة ، وهذا صريح في ذلك ولا شك أن هذا الإلقاء عند من يقول به كان عند نزول الوحي ، فقد أخرج ابن جرير .

وابن مردويه من طريق العوفي عن ابه عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم بينما هو يصلي إذ نزلت عليه قصة آلهة العرب فجعل يتلوها فسمعه المشركون فقالوا : إنا نسمعه يذكر آلهتنا بخير فدنوا منه فبينما هو يتلوها وهو يقول : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ﴾ [النجم : 19 ، 20] ألقى الشيطان تلك الغرانيق العلا منها الشفاعة ترتجى فعلى هذا ونحوه يكون الرصد موجوداً مع عدم ترتب أثره عليه ؛ والقول بأن جبريل عليه السلام ومن معه تنحوا عنه حتى ألقى الشيطان ما ألقى بناءً على ما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في آية الرصد : كان النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يلقي الشيطان في أمنيته يدنون منه فلما ألقى الشيطان في أمنيته أمرهم أن يتنحوا عنه قليلاً فإن المراد من قوله : فيه فلما ألقى فلما أراد أن يلقى في حيز المنع وكذا صحة هذا الخبر ، ثم أية فائدة في إنزال الرصد إذا لم يحصل به الحفظ بل كيف يسمى رصداً .

(135/526)

ومما ذكر في هذا الاعتراض يعلم ما في الجواب الثاني من الاعتراض وهو ظاهر ، وقد يقال : إن إعجاز القرآن معلوم له صلى الله عليه وسلم ضرورة كما ذهب إليه أبو الحسن الأشعري

بل قال القاضي : إن كل بليغ أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعة يعلم ضرورة إعجازه ، وذكر أن الإعجاز يتعلق بسورة أو قدرها من الكلام بحيث يتبين فيه تفاضل قوي البلاغة فإذا كانت آية بقدر حروف سورة وإن كانت كسورة الكوثر فهو معجز ، وعلى هذا يمتنع أن يأتي الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً بمقدار أقصر سورة منه تشبهه في البلاغة ومتى أتى أحد بما يزعم فيه ذلك لم تنفق سوقه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا عند كل بليغ محيط بما تقدم ولم يخف على الرسول عليه الصلاة والسلام ولا على ذلك البليغ عدم إعجازه فلا يشتبه عنده بالقرآن أصلاً ، ولا شك أن ما ألقى الشيطان على ما في بعض الروايات حروفه بقدر حروف سورة الكوثر بل أزيد إن اعتبر الحرف المشدد بحرفين وهو وإنهن لهن الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لهي التي ترتجي الوراد فيما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب .

وجاء في رواية ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم بسند قال السيوطي : هو صحيح عن أبي العالية أنه ألقى تلك الغرانيق العلا وشفاعتهن ترتجى وترتضى ومثلهن لا ينسى وحروفه أزيد من حروفها إذا لم يعتبر الحرف المشدد في شيء منهما بحرفين أما إذا اعتبر فحروفها أزيد بواحد فإن كان ما ذكر مما يتعلق به الإعجاز فإن كان معجزاً لزم أن يكون من الله تعالى لا من إلقاء عدوه ضرورة عجزه

كسائر الجن والإنس عن الإتيان بذلك ، وإن لم يكن مما يتعلق به الإعجاز فهو كلام غير يسير يتنبه البليغ الحاذق إذا سمعه أثناء كلام فوقه بمراتب لكونه ليس منه فيبعد كل البعد أن يخفى عليه عليه الصلاة والسلام قصور بلاغته عن بلاغة شيء من آيات القرآن سواء قلنا بتفاوتها في البلاغة كما اختاره أبو نصر القشيري .

(136/526)

وجماعة أم قلنا بعدم التفاوت كما اختاره القاضي فيعتقد أنه قرآن حتى ينبهه جبريل عليه السلام لا سيما وقد تكرر على سمعه الشريف سكر الآيات ومازجت لحمه ودمه ، والواحد منا وإن لم يكن من البلاغة بمكان إذا ألف شعر شاعر وتكرر على سمعه يعلم إذا دس بيت أو شطر في قصيدة له أن ذلك ليس له وقد يطالب بالدليل فلا يزيد على قوله : لأن النفس مختلف ، وهذا البعد متحقق عندي على تقدير كون الملقى ما في الرواية الشائعة وهو تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهم لترتجى أيضاً لا سيما على قول جماعة : إن الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره من الجمل المفيدة لقوله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ [الطور : 34] والقول بأن النبي صلى الله عليه وسلم خفي عليه ذلك للتأديب فيه ما فيه ، ولا يبعد استحقاق قائله للتأنيب .

وما ذكره في الجواب عن الثالث من أنه لا بد من حمل الكلام على الاستفهام أو حذف القول وهو دون الأول إذا صح الخبر صحيح لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد فإن الطاعنين فيه من حيث النقل علماء أجلاء عارفون بالغث والسمين من الإخبار وقد بذلوا الوسع في تحقيق الحق فيه فلم يرووه إلا مردوداً وما ألقى الشيطان إلى أوليائه معدوداً وهم أكثر ممن قال بقبوله ومنهم من هو أعلم منه ، ويغلب على الظن أنهم وقفوا على رواته في سائر الطرق فرأوهم مجروحين وفات ذلك القائل بالقبول ، ولعمري أن القول بأن هذا الخبر مما ألقاه الشيطان على بعض ألسنة الرواة ثم وفق الله تعالى جمعاً من خاصته لإبطاله أهون من القول بأن حديث الغرانيق مما ألقاه الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نسخه سبحانه وتعالى لا سيما وهو مما لم يتوقف على صحته أمر ديني ولا معنى آية ولا ولا سوى أنها يتوقف عليها حصول شبه في قلوب كثير من ضعفاء المؤمنين لا تكاد تدفع إلا بجهد جهيد ، ويؤيد عدم الثبوت مخالفته لظواهر الآيات فقد قال سبحانه في وصف القرآن :

(137/526)

﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : 42]

والمراد بالباطل ما كان باطلاً في نفسه وذلك الملقى كذلك وإن سوغ نطق النبي صلى الله عليه وسلم به تأويله بأحد التأويلين ، والمراد ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ ﴾ استمرار النفي لا نفي الاستمرار .

وقال عز وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [الحجر : 9] فجيء بالجملة الاسمية مؤكدة بتأكيدين ونسب فيها الحفظ المحذوف متعلقه إفادة للعموم إلى ضمير العظمة وفي ذلك من الدلالة على الاعتناء بأمر القرآن ما فيه .

وقد استدل بالآية من استدل على حفظ القرآن من الزيادة والنقص وما علينا ما قيل في ذلك ، وكون الإلقاء المذكور لا ينافي الحفظ لأنه نسخ ولم يبق إلا زماناً يسيراً لا يخلو عن نظر ، والظاهر أنه وإن لم يناف الحفظ في الجملة لكنه ينافي الحفظ المشار إليه في الآية على ما يقتضيه ذلك الاعتناء ، ثم إن قيل : بما روي عن الضحاك من أن سورة الحج كلها مدنية لزم بقاء ما ألقى الشيطان قرآناً في اعتقاد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين زماناً طويلاً والقول بذلك من الشناعة بمكان ، وقال جل وعلا : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يوحى ﴾ [النجم : 4] والظاهر أن الضمير لما ينطق به عليه الصلاة والسلام مما يتعلق بالدين ، ومن هنا أخرج الدارمي عن يحيى بن أبي كثير أنه قال : كان جبريل عليه السلام ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن .

والمتبادر من لحن الخطاب أن جميع ما ينطق به عليه الصلاة والسلام من ذلك ليس عن إلقاء شيطاني كما أنه ليس عن هوى ، وبقيت آيات أخر في هذا الباب ظواهرها تدل على المدعي أيضاً ، وتأويل جميع الظواهر الكثيرة لقول شرذمة قليلة بصحة الخبر المنافي لها مع قول جم غفير بعد الفحص التام بعدم صحته مما لا يميل إليه القلب السليم ولا يرتضيه ذو الطبع المستقيم ، ويبعد القول بثبوته أيضاً عدم إخراج أحد من المشايخ الكبار له في شيء من الكتب الست مع أنه مشتمل على قصة غريبة وفي الطباع ميل إلى سماع الغريب وروايته ومع إخراجهم حديث سجود المشركين معه صلى الله عليه وسلم حين سجد آخر النجم ، فقد روى البخاري .

ومسلم .

وأبو داود .

والنسائي .

وغيرهم عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ والنجم ﴾ [النجم : 1] فسجد فيها وسجد كل من كان معه غير أن شيخاً من قريش أخذ كفاً من حصى أو تراب

ورفعه إلى جبهته وقال : يكفيني هذا .

وروى البخاري أيضاً .

(139/526)

والترمذي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس إلى غير ذلك ، وليس لأحد أن يقول : إن سجود المشركين يدل على أنه كان في السورة ما ظاهره مدح آلهتهم وإلا لما سجدوا لأنا نقول : يجوز أن يكونوا سجدوا لدهشة أصابتهم وخوف اعتراهم عند سماع السورة لما فيها من قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الاولى وَثَمُودَ فَمَا أبقى وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وأطغى والمؤتفكة أهوى فغشاها مَا غشى ﴾ [النجم : 50-54] إلى آخر الآيات فاستشعروا نزول مثل ذلك بهم ، ولعلهم لم يسمعوا قبل ذلك مثلها منه صلى الله عليه وسلم وهو قائم بين يدي ربه سبحانه في مقام خطير وجمع كثير وقد ظنوا من ترتيب الأمر بالسجود على ما تقدم أن سجودهم ولو لم يكن عن إيمان كاف في دفع ما توهموه ، ولا تستبعد خوفهم من سماع مثل ذلك منه صلى الله عليه وسلم فقد نزلت سورة حم السجدة بعد ذلك كما جاء مصرحاً به في حديث عن ابن عباس ذكره السيوطي في أول الاتقان فلما

سمع عتبة بن ربيعة قوله تعالى فيها : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صاعقة مِّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : 13] أمسك على فم رسول الله صلى الله عليه وسلم وناشده الرحم واعتذر لقومه حين ظنوا به أنه صبأ وقال : كيف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب .

وقد أخرج ذلك البيهقي في الدلائل .

وابن عساكر في حديث طويل عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه .

(140/526)

ويمكن أن يقال على بعد : إن سجودهم كان لاستشعار مدح آلهتهم ولا يلزم منه ثبوت ذلك الخبر لجواز أن يكون ذلك الاستشعار من قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ﴾ [النجم : 19 ، 20] بناءً على أن المفعول محذوف وقدروه حسبما يشتهون أو على أن المفعول ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الانثى ﴾ [النجم : 21] وتوهموا أن مصب الإنكار فيه كون المذكورات إناثاً والحب للشيء يعمي ويصم ، وليس هذا بأبعد من حملهم تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى على المدح حتى سجدوا لذلك آخر السورة مع وقوعه بين ذمين المانع من حمله على المدح في البين كما لا يخفى على من سلمت

عين قلبه عن الغين .

واعترض على الجواب الرابع بأن سجودهم كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم آخراً بعد سماع قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سلطان ﴾ [النجم : 23] فكان ينبغي التنبيه بعد السجود ، ولعلهم أرجعوا ضمير ﴿ هِيَ ﴾ للأسماء وهي قولهم اللات والعزى ومناة كما هو أحد احتمالين فيه ذكرهما الزمخشري ، فيكون المعنى ما هذه الأسماء إلا أسماء سميتم بها بهواكم وشهوتكم ليس لكم على صحة التسمية بها برهان تتعلقون به ، وحينئذٍ لا يكون فيه دليل على رد ما فهموه مما ألقى الشيطان من مدح آلهتهم بأنها الغرانيق العلا ، ويحتمل أنهم أولوه على وجه آخر وباب التأويل واسع .

(141/526)

واعترض على قوله في الجواب الخامس : إن هذا الاشتباه في حالة خاصة للتأديب لا يقتضي أن يكون صلى الله عليه وسلم على غير بصيرة فيما يوحى إليه في غير تلك الحالة بأن المعترض لم يرد أنه إذا اشتبه الأمر عليه عليه الصلاة والسلام مرة يلزم أن يكون على غير بصيرة فيما يوحى إليه في غيرها بل أراد أن اللائق بمقام النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون

على بصيرة في جميع ما يوحى إليه وأنه متى اشتبه عليه عليه الصلاة والسلام في حالة من الأحوال لم تبق الكلية كلية وهو خلاف المراد .

(142/526)

وفي التنقيح أن الوحي إما ظاهر أو باطن أما الظاهر فثلاثة أقسام ، الأول : ما ثبت بلسان الملك فوقع في سمعه صلى الله عليه وسلم بعد علمه بالمبلغ باية قاطعة والمراد بها كما قال ابن ملك : العلم الضروري بأن المبلغ ملك نازل بالوحي من الله تعالى والقرآن من هذا القبيل ، والثاني : ما وضح له صلى الله عليه وسلم بإشارة الملك من غير بيان بالكلام كما قال عليه الصلاة والسلام : " إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها " الحديث وهذا يسمى خاطر الملك ، والثالث : ما تبدى لقلبه الشريف بلا شبهة بإلهام من الله تعالى بأن أراه بنور من عنده كما قال تعالى : ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَا أَرَاكَ الله ﴾ [النساء : 105] وكل ذلك حجة مطلقاً بخلاف الإلهام للولي فإنه لا يكون حجة على غيره ، وأما الباطن فما ينال بالرأي والاجتهاد وفيه خلاف إلى آخر ما قال ، وهو ظاهر في أنه صلى الله عليه وسلم على بصيرة في جميع ما يوحى إليه من القررن لأنه جعله من القسم الأول من أقسام الوحي الظاهر ، ويعلم منه عدم ثبوت تكلمه صلى الله عليه

وسلم بما ألقى الشيطان لأنه عند زاعمه يكون قد اعتقده عليه الصلاة والسلام قرآناً ووحياً من الله تعالى فيجب على ما سمعت أن يكون عليه الصلاة والسلام قد علم ذلك علماً ضرورياً فحيث أنه ليس كذلك في نفس الأمر يلزم انقلاب العلم جهلاً ، واستثناء هذه المادة من العموم مما لا دليل عليه عند الزاعم سوى الخبر الذي زعم صحته وبنى عليه تفسير الآية بما فسرها به وذلك أول المسألة .

(143/526)

ويجوز أن يقال : إنه أراد أنه إذا وقع الاشتباه مرة اقتضى أن لا يكون عليه الصلاة والسلام على بصيرة في شيء مما يوحى إليه بعد لأن احتمال التأديب على تعاطي ما ليس أكمل بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم قائم والعصمة من ذلك ممنوعة فقد وقع منه صلى الله عليه وسلم بعد هذه القصة التي زعمها الخصم ما عوتب عليه كقصة الإسراء المشار إليها بقوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسرى حتى يُثْخِنَ فِي الأرض ﴾ [الأنفال : 67] الآية ، وكقصة الإذن المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة ؛ 43) وكقصة زينب رضي الله تعالى عنها المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَ تَقُولُ لِلَّذِى أَنعَمَ الله

عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب : 37] ودعوى أن التأديب بذلك على غير التمني مما لا تقتضيه الحكمة فلا يمكن وقوعه مما لم يقم عليه دليل ، وقصارى ما تفيده الآية أن الإلقاء مشروط بالتمني أو في وقته بناءً على الخلاف في أن ﴿ إِذَا ﴾ للشرط أو لمجرد الظرفية وعند انتفاء ذلك الشرط أو عدم تحقق ذلك الوقت يبقى الإلقاء على العدم الأصلي إن لم يكن هناك ما يقوم مقام ذلك الشرط أو ذلك الوقت .

ولا شك أن صدور خلاف الأكمل لا سيما إذا كان كالتمني أو فوقه أو وقت صدوره مما يقوم مقام ذلك فيما يقتضيه فيلزم حينئذ أن يكون صلى الله عليه وسلم في كل وحي متوقفاً غير جازم بأن وحي لا تلبيس إلى أن يتضح له عليه الصلاة والسلام عدم صدور خلاف الأكمل بالنسبة إليه منه وفي ذلك من البشاعة ما فيه .

(144/526)

واعترض على قوله في الجواب أيضاً : إن ما قاله ابن العربي قياس مع الفارق الخ بأنه غير حاسم للقيل والقال إذ لنا أن نقول : خلاصة ما أشار إليه ابن العربي أنه قد صح بل تواتر قوله صلى الله عليه وسلم : " من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي "

والظاهر أنه لا يتمثل به صلى الله عليه وسلم أصلاً لا للمخلصين ولا لغيرهم لعموم من ولزوم مطابقة التعليل المعلل وإذا لم يتمثل مناماً فلأن لا يتمثل يقظة من باب أولى ، وعلله الشراح بلزوم اشتباه الحق بالباطل .

وقالت الصوفية في ذلك : إن المصطفى صلى الله عليه وسلم وإن ظهر بجميع أسماء الحق تعالى وصفاته تخلقاً وتحققاً فمقتضى رسالته للخلق أن يكون الأظهر فيه حكماً وسلطنة من صفات الحق سبحانه وأسمائه جل شأنه الهداية والاسم الهادي والشيطان مظهر الاسم المضل والظاهر بصفة الضلالة فهما ضدان فلا يظهر أحدهما بصفة الآخر ، والنبي صلى الله عليه وسلم خلق للهداية فلو ساغ ظهور إبليس بصورته لزال الاعتماد عليه الصلاة والسلام فلذلك عصمت صورته صلى الله عليه وسلم عن أن يظهر بها شيطان اه ، ولا شك أن نسبة جبريل عليه السلام إليه صلى الله عليه وسلم وكذا إلى سائر إخوانه الأنبياء عليهم السلام نسبة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأمة فإذا استحال تمثل الشيطان بالنبي يقظة أو مناماً لأحد من أمته مخلصاً أو غير مخلص خوف الاشتباه وزوال الاعتماد وكمال التضاد فليقل باستحالة تمثله بجبريل عليه السلام لذلك ومن ادعى الفرق فقد كابر .

وتعقب ما ذكره في الجواب السادس بأن كون المتتبع لما يعتقده وحياً للتلبيس غير منقول صحيح إلا أن القول باعتقاد ما ليس قرآناً للتلبيس الناشيء عن إرادة التأديب بسبب تمني

إيمان الجميع الغير المراد له تعالى ليس به ، وكون التلبيس للتأديب كالسهو في الصلاة للتشريع لا يخفى ما فيه .

(145/526)

وأورد على قوله في الجواب السابع : إنه لا إخلال بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلم والذي آمنوا لأن وثوق كل منهما تابع لوثوق متبوعهم الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم أنه إذا فتح باب التلبيس لا يوثق بالوثوق في شيء أصلاً لجواز أن يكون كل وثوق ناشئاً عن تلبيس كالوثوق بأن تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى قرآن فلما تطرق الاحتمال الوثوق جاز أن يتطرق الرجوع ولا يظهر فرق بينهما فلا يعول حينئذ على جزم ولا على رجوع .

وقوله فيما ذكره البيضاوي عليه الرحمة : ليس بشيء ليس بشيء لأن منع الاحتمال عند الفرق الأربع بعد القول بجواز التلبيس مكابرة والآية التي ادعى دلالتها على انتفاء الاحتمال عند فريقين بعد النسخ والأحكام فيها أيضاً ذلك الاحتمال ، والحق أنه لا يكاد يفتح باب قبول الشرائع ما لم يسد هذا الباب .

ولا يجدي نفعاً كون الحكمة المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ آية عن

بقاء التلبيس فلا أقل من أن يتوقف قبول معظم ما يجيء به النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن يتبين كونه ليس داخلاً في باب التلبيس مع أنا نرى الصحابة رضي الله تعالى عنهم يسارعون إلى امتثال الأوامر عند إخباره صلى الله عليه وسلم إياهم بوحي الله تعالى إليه بها من من غير انتظار ما يجيء بعد ذلك فيها مما يحقق أنها ليست عن تلبيس فافهم والله تعالى الموفق .

وتوسط جمع في أمر هذه القصة فلم يثبتوها كما أثبتها الكوراني عفا الله تعالى عنه من أنه صلى الله عليه وسلم نطق بما نطق عمداً معتقداً للتلبيس أنه وحي حاملاً له على خلاف ظاهره ولم ينفوها بالكلية كما فعل أجلة إثبات وإليه أميل بل أثبتوها على وجه غير الوجه الذي أثبته الكوراني واختلفوا فيه على أوجه تعلم مما أسلفناه من نقل الأقوال في الآية وكلها عندي مما لا ينبغي أن يلتفت إليها .

(146/526)

وفي "شرح الجوهرة الأوسط" أن حديث تلك الغرانيق الخ ظاهره مخالف للقواطع فيجب تأويله إن صح بما هو مذكور في موضعه مما أقربه على نظر فيه أن الشيطان ترصد قراءته عليه الصلاة والسلام وكان يرتل القراءة إذ ذاك عند البيت فحين انتهى عليه الصلاة والسلام

إلى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ﴾ [النجم : 19 ، 20] وكان منه عليه الصلاة والسلام وقفة ما للترتيل أدرج ذلك في تلاوته محاكياً صوته صلى الله عليه وسلم فظن أنه من قوله عليه الصلاة والسلام وليس به انتهى ، والنظر الذي أشار إليه لا يخفى على من أحاط بما قدمناه خبراً وأخذت العناية بيديه ، وأقبح الأقوال التي رأيناها في هذا الباب وأظهرها فساداً أنه صلى الله عليه وسلم أدخل تلك الكلمة من تلقاء نفسه حرصاً على إيمان قومه ثم رجع عنها ، ويجب على قائل ذلك التوبة ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ [الكهف : 5] ، وقريب منه ما قيل إنها كانت قرآناً منزلاً في وصف الملائكة عليهم السلام فلما توهم المشركون أنه يريد عليه الصلاة والسلام مدح آلهتهم بها نسخت ، وأنت تعلم أن تفسير الآية أعني قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ [الحج : 52] الخ لا يتوقف على ثبوت أصل لهذه القصة ، وأقرب ما قيل في تفسيرها على القول بعدم الثبوت ما قدمناه ، وقيل : هو بعيد صدقوا لكن عن إيهام الإخلال بمقام النبوة ونحو ذلك ، واستفت قلبك إن كنت ذا قلب سليم .

هذا وأخرج عبد بن حميد .

وابن الأنباري في المصاحف عن عمرو بن دينار قال : كان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يقرأ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِىّ وَلاَ مُّحْدَثٍ ﴾ فنسخ ﴿ وَلاَ مُّحْدَثٍ ﴾ والمحدثون صاحب يس .

ولقمان .

ومؤمن من آل فرعون .

وصاحب موسى عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(147/526)

وقال القاسمى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ﴾

أي : رغب في انتشار دعوته ، وسرعة علوّ شرعته : ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أي : بما يصدّ عنها ، ويصرف المدعوّين عن إجابتها : ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ أي : يبطله ويمحقه : ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ أي : يثبتها : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد : 17] ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ يعلم الإلقاءات الشيطانية ، وطريق نسخها من وجه وحيه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يحكم آياته بحكمته .

ثم أشار إلى أن من مقتضيات حكمته أنه يجعل الإلقاء الشيطانيّ فتنة للشاكّين المنافقين والقاسية قلوبهم عن قبول الحق ، ابتلاء لهم ليزدادوا إثماً . ورحمة للمؤمنين ليزدادوا ثباتاً واستقامة ، فقال تعالى :

﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي : شك وارتياب : ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ وهم العتاة المتمردون : ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ ﴾ أي : خلاف للحق : ﴿ بَعِيدٍ ﴾ عن موافقته جداً ، بسبب ظلمهم وشركهم .

(148/526)

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : بالانقياد ، والخشية . والضمير للقرآن أو لله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي : إلى طريق الحق والاستقامة ، فلا تزلّ أقدامهم بقبول ما يلقي الشيطان ، ولا تقبل قلوبهم إلا ما يلقي الرحمن ، لصفائها . هذا هو الصواب في تفسير الآية . ولها نظائر تظهر المراد منها كما أشرنا إليه ، لو احتاجت إلى نظير . ولكنها بيّنة بنفسها ، غنية عن التطويل في التأويل ، لولا ما أحوج المحققين إلى ردّ ما دسه بعض الرواة هنا من الأباطيل . ونحن نسوق ما قيل فيها من ذلك ، ثم نتبعه بنقد المحققين ، لئلا يبقى في نفس الواقف حاجة .

(149/526)

قال ابن جرير الطبري : قيل : إن السبب الذي من أجله أنزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن الشيطان كان ألقى على لسانه ، في بعض ما يتلوه مما أنزل الله عليه من القرآن ، ما لم ينزل الله عليه . فاشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم واغتم به ، فسلاّه الله مما به من ذلك ، بهذه الآيات . ثم ذكر من قال ذلك . فأسند عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس وغيرهما ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس في ناد من أندية قريش ، كثير أهله ، فتمنى يومئذ ألا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه . فأنزل الله عليه : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ [النجم : 1 – 2] ، فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ [النجم : 19 – 20] ، ألقى عليه الشيطان كلمتين : تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى . فتكلم بها ، ثم مضى فقرأ السورة كلها . فسجد في آخر السورة وسجد القوم جميعاً معه ورضوا بما تكلم به .

قالا : فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة . فلما بلغ الكلمتين المذكورتين قال : ما جئتك بهاتين . فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله تبارك وتعالى عليه يعزيه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآية .

وقال القاضي عياض في " الشفا " : اعلم أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما في توهين أصله ، والثاني على تسليمه .

(150/526)

أما المأخذ الأول ، فيكفيك أن هذا لم يخرّجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سُلَيم متصل . وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم . وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال : لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفاسير . وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف بعض نقلته ، واضطراب رواياته ، وانقطاع إسناده ، واختلاف كلماته . ومن حكيت عنه هذه الحكاية من المفسرين والتابعين ، لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب . وأكثر الطرق عنهم فيها ، واهية ضعيفة ، والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فيما أحسب الشك في الحديث : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان بمكة ، وذكر القصة .

قال أبو بكر البزّار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل ، يجوز ذكره إلا هذا ، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد . وغيره يرسله عن

سعيد بن جبير . وإنما يعرف عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس . فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا . وفيه من الضعف ما نبه عليه ، مع وقوع الشك فيما ذكرناه ، الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه . وأما حديث الكلبي فما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره ، لقوة ضعفه وكذبه ، كما أشار أليه البزار رحمه الله : والذي منه في الصحيح ؛ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم وهو بمكة . فسجد معه المسلمون والمشركون والإنس والجن .

هذا توهينه من طريق النقل .

(151/526)

وأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته عليه السلام ، ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة . إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح غير الله وهو كفر ، أو أن يتسوّر عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، حتى ينبهه عليه جبريل عليهما السلام . وذلك كله ممتنع في حقه عليه السلام . أو يقول ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم من قبل نفسه عمداً ، وذلك كفر . أو سهواً وهو معصوم من هذا كله . ووجه ثان – وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً . وذلك أن الكلام ، لو كان كما رُويَ ، بعيد

الالتئام ، متناقض الأقسام ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف . ولَمَا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ، ممن يخفى عليه ذلك ، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل . فكيف بمن رجح حلمه ، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه ؟ ووجه ثالث – أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندي المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين ، نفورهم من أول وهلة ، وتخليط العدوّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة ، وتعييرهم المسلمين والشمَّات بهم الفينة بعد الفينة . وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة . ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل . ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة . ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة . كما فعلوه مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردّة . وكذلك ما روي في قصة القضية . ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت . ولا تشغيب للمعادي حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت . فما روي عن معاند فيها كلمة . ولا عن مسلم بسببها بنت شفة . فدل على بطلانها [في المطبوع : بظلها] ، واجتثاث أصلها . ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس والجن ، على بعض مغفلي المحدثين ، ليلبس به على ضعفاء المسلمين .

(152/526)

ووجه رابع – ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء : 73] الآيتين . وهاتان الآيتان تردّان الخبر الذي رووه . لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري ، وأنه لولا أن ثبّته لكاد يركن إليهم . فمضمون هذا ومفهومه ، أن الله تعالى عصمه من أن يفتري ، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً ، فكيف كثيراً ؟ وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم . وهذا ضد مفهوم الآية ، ويضعّف الحديث ، لو صح ، فكيف ولا صحة له ؟ وأما المأخذ الثاني فهو مبنيّ على تسليم الحديث ، لو صح . وقد أعاذنا الله من صحته . ولكن على كل حال فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبةٍ منها الغث والسمين . فمنها ما رواه قتادة ومقاتل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أصابته سنة عند قراءة هذه السورة . فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم . وهذا لا يصح . إذ لا يجوز على النبيّ صلى الله عليه وسلم مثله في حالة من أحواله . ولا يخلقه الله على لسانه ولا يستولي الشيطان عليه في نوم ولا يقظة ، لعصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو . وقد قال عليه السلام : < إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي > . وفي حديث الكلبي ؛ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم حدّث نفسه ، فقال ذلك الشيطان على لسانه . وفي رواية ابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن قال : ومنها لما أخبر بذلك قال : إنما ذلك من الشيطان . وكل هذا لا يصح أن يقوله عليه السلام

لا سهواً ولا قصداً . ولا يتقوّله الشيطان على لسانه . وقيل : لعلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قاله أثناء تلاوته ، على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار . كقول إبراهيم : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ [الأنعام : 77] ، على أحد التأويلات . وكقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [63] ، بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين . ثم رجع إلى تلاوته . وهذا

(153/526)

ممكن مع بيان الفصل وقرينةٍ تدل على المراد ، وأنه ليس من المتلوّ . وهو أحد ما ذكره القاضي أبو بكر .

ومما يظهر في تأويله ، إن سلمنا القصة ، أن يراد بالغرانيق الملائكة . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح . فلما تأوّله المشركون على أن المراد بها آلهتهم . ولبّس عليهم الشيطان ذلك وزيّنه في قلوبهم ، وألقاه إليهم ، نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللفظتين . انتهى كلام القاضي ملخصاً .

وقال أبو بكر الباقلاني : وقيل كان صلى الله عليه وسلم يرتل القرآن ، فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات . ونطق بتلك الكلمات ، محاكياً نغمته . بحيث سمعه من دنا إليه ، فظنها من قوله تعالى وأشاعها .

قال : وهذا أحسن الوجوه . ويؤيده ما روي عن ابن عباس من تفسير تمنى بتلا وكذا استحسن ابن العربي هذا التأويل . وقال قبله : إن هذه الآية نص في براءة النبيّ صلى الله عليه وسلم ما نسب إليه ، وأن الشيطان زاده في قوله صلوات الله عليه ، لا أنه عليه السلام قاله .

قال : وقد سبق إلى ذلك الطبري فصوب هذا المعنى وحوّم عليه . واستحسان ابن العربي ذلك ، على فرض صحة القصة ، وإلا فقد قال : ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها . وقال تقي الدين بن تيمية : في الآية قولان والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك . والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة في سورة النجم بقوله : تِلْكَ الغَرَانِيق العُلَى وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى . وقالوا : إن هذا لم يثبت . ومن علم أنه ثبت قال : هذا ألقاه الشيطان في مسامعهم ، ولم يلفظ به الرسول صلى الله عليه وسلم . ولكن السؤال وارد على هذا التقدير أيضاً .

(154/526)

وقالوا في قوله : ﴿ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ : هو حديث النفس وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف ، فقالوا : هذا منقول نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه وقالوا :

الآثار في تفسير هذه الآية معروفة ثابتة في كتب التفسير والحديث . والقرآن يوافق ذلك . فإن نسخ الله لما يلقي الشيطان ، وإحكامه آياته ، إنما يكون لرفع ما وقع في آياته ، وتمييز الحق عن الباطل حتى لا تختلط آياته بغيرها . وجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، إنما يكون ذلك ظاهراً يسمعه الناس ، لا باطناً في النفس . والفتنة التي تحصل بهذا النوع من النسخ ، من جنس الفتنة التي تحصل بالنوع الآخر من النسخ . وهذا النوع أدلّ على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبعده عن الهوى ، من ذلك النوع . فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند الله ، وهو مصدق في ذلك ، فإذا قال عن نفسه أن الثاني هو الذي من عند الله وهو الناسخ ، وإن ذلك المرفوع الذي نسخه الله ليس كذلك ، كان أدل على اعتماده للصدق وقول الحق . وهذا كما قالت عائشة رضي الله عنها : لو كان محمد كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب : 37] ألا ترى أن الذي يعظم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله ولو كان خطأً . فبيان الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أحكم آياته ونسخ ما ألقاه الشيطان ، هو أدل على تحريه للصدق وبراءته من الكذب . وهذا هو المقصود بالرسالة . فإنه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم تسليماً . انتهى .

وفي كلامه رحمه الله نظر من وجوه :

أولاً : دعواه أن المأثور يوافق القرآن . فإنه ذهاب إلى أن الإلقاء إلقاء في الآيات . ولا تدل الآية عليه ، لا مطابقة ولا التزاماً . بل القول بذلك ينافي التنزيل والوحي منافاة النار للماء ، كما ستراه .

وثانياً : دعواه أن تلك الرواية نقلها ثابت لا يمكن القدح فيه . فقد قدح فيها من لا يحصى من المتقدمين والمتأخرين . ويكفي أن تلميذه الحافظ ابن كثير قال : قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق . وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ، ظناً منهم أن مشركي قريش أسلموا . ولكنها من طرق كلها مرسلة . ولم أرها مسندة من وجه صحيح . وتعداد طرقها ، بعد ضعف أصلها ، لا يفيد . وهذه شبهة يعتمدها كثير من الواقفين مع الروايات . يظنون أن الضعيف بكثرة طرقه يقوى . والحال أن الضعيف ضعيف كيفما جاء . وقد سرت هذه الشبهة للحافظ ابن حجر . فأخذ يقوي بعض طرقها ويصححها من جهة الإسناد . كما ستمر بك مناقشته . ولو كان لها أدنى رائحة من الصحة لأخرجها البخاري معلقة أو موقوفة ، أو أرباب السنن .

وثالثاً : اعترافه بأن السؤال وارد على تقدير ثبوتها ، وإلقاء الشيطان ذلك في مسامعهم ، مما

يبرهن أن فيها مغامز تنبذها العقول ، كما نبذتها صحة النقول .

فصل

وقال الفخر الرازي في " تفسيره " : هذه الرواية باطلة موضوعة ، عند أهل التحقيق .

واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول . أما القرآن فوجوه :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة : 44 - 46] .

وثانيها : قوله : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [يونس : 15] .

وثالثها : قوله : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم : 3 - 4] .

(156/526)

ورابعها : قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ [الإسراء : 73] ، وكلمة كاد عند بعضهم معناها أنه لم يحصل .

وخامسها : قوله : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء :

74] ، وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره . فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل .

وسادسها : إلى قوله : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان : 32] .

وسابعها : قوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى ﴾ [الأعلى : 6] .

وأما السنة فهي ما روي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة ، أنه سئل عن هذه القصة فقال : هذا وضع من الزنادقة . وصنف فيه كتاباً .

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل . ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم . وأيضاً فقد روى البخاري في صحيحه أن النبيّ عليه السلام قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن . وليس فيه حديث الغرانيق . وروي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتة حديث الغرانيق .

وأما المعقول فمن وجوه :

أحدها : أن من جوّز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الأوثان ، فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان .

وثانيها : أنه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلي ويقرأ القرآن عند الكعبة آمناً أذى المشركين له طول دعوته . حتى كانوا ربما مدّوا أيديهم إليه . وإنما كان يصلي ، إذا لم

يحضروها ، ليلاً ، أو في أوقات خلوة . وذلك يبطل قولهم .

وثالثها : أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة ، دون أن يقفوا على حقيقة الأمر . فكيف أجمعوا على أنه عظّم آلهتهم حتى خروا سجداً ؟ مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم .

(157/526)

ورابعها : قوله : ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول ، أقوى من نسخه [في المطبوع : نسخة] بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها . فإذا أراد الله إحكام الآيات ، لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآناً ، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلاً ، أولى .

وخامسها : وهو أقوى الوجوه ، أنا لو جوّزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه . وجوّزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ، ويبطل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : 67] فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي ، وبين الزيادة فيه . فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال ، أن هذه القصة موضوعة .

أكثر ما في الباب أن جمعاً من المفسرين ذكرها . لكنهم ما بلغوا حد التواتر . وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة .

ثم أطال الرازي في تفصيل المباحث . ونقل عن أبي مسلم الأصفهاني ما توسع به البحث فانظره إن شئت .

فصل

وكتب الأستاذ الإمام مفتي مصر ، الشيخ محمد عبده رحمه الله في هذه الآية مقالة بديعية ، نقتبس منها شذرات .

(158/526)

قال : يعلم كل ناظر في كتابنا الإلهيّ " القرآن " ما رفع الإسلام من شأن الأنبياء والمرسلين ، والمنزلة التي أحلهم من حيث هم حملة الوحي وقدوة البشر ، في الفضائل وصالح الأعمال . وتنزيهه إياهم عما رماهم به أعداؤهم وما نسبه إليهم المعتقدون بأديانهم . ولا يخفى على أحد من أهل النظر ، في هذا الدين القويم ، أنه قد قرر عصمة الرسل كافة من الزلل في التبليغ ، والزيغ عن الوجهة التي وجه الله وجوههم نحوها من قول أو عمل . وخص خاتمهم محمداً صلى الله عليه وسلم فوق ذلك بمزايا فصلت في ثنايا الكتاب العزيز . وعصمة الرسل في

التبليغ عن الله ، أصل من أصول الإسلام . شهد به الكتاب وأيدته السنة ، وأجمعت عليه الأمة . وما خالف فيه بعض الفرق ، فإنما هو في غير الإخبار عن الله وإبلاغ وحيه إلى خلقه . ذلك الأصل الذي اعتمدت عليه الأديان ، حق لا يرتاب فيه مِلّيٌّ يفهم ما معنى الدين . ومع ذلك لم يعدم الباطل فيه أعواناً يعملون على هدمه وتوهين ركنه . أولئك عشاق الرواة وعبدة النقل . نظروا نظرة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ وفيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن تمنى بمعنى قرأ والأمنية القراءة) فعمي عليهم وجه التأويل ، على فرض صحة الرواية عن ابن عباس ، فذهبوا يطلبون ما به يصح التأويل في زعمهم . فقيض لهم من يروي في ذلك أحاديث تختلف طرقها وتتباين ألفاظها وتتفق في أن النبيّ صلى الله عليه وسلم عندما بلغ منه أذى المشركين ما بلغ ، وأعرضوا عنه ، وجفاه قومه وعشيرته ، لعيبه أصنامهم وزرايته على آلهتهم ، أخذه الضجر من إعراضهم . ولحرصه على إسلامهم تمنى ألا ينزل عليه ما ينفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقاً إلى استمالتهم . فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة النجم إلى آخر ما رواه ابن جرير أولاً . وقد شايعه عليه كثير من المفسرين ، وفي طباع الناس إلْف الغريب ، والتهافت على العجيب .

فولعوا بهذه التفاسير ، ونسوا ما رآه جمهور المحققين في تأويلها . وذهب إليه الأئمة في بيانها .

جاء في صحيح البخاريّ : وقال ابن عباس في : ﴿ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ إذا حدث ألقي الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته . ويقال : أمنيته قراءته : ﴿ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ يقرؤون ولا يكتبون . انتهى .

فتراه حكى تفسر الأمنية بالقراءة بلفظ يقال بعد ما فسرها بالحديث رواية عن ابن عباس . وهذا يدل على المغايرة بين التفسيرين . فما يدعيه الشراح أن الحديث في رأي ابن عباس بمعنى التلاوة يخالف ظاهر العبارة . ثم حكاية تفسير الأمنية بمعنى القراءة بلفظ يقال يفيد أنه غير معتبر عنده . وسيأتي أن المراد بالحديث حديث النفس .

وقال صاحب الإبريز : إن تفسير تمنى بمعنى : قرأ , والأمنية بمعنى : القراءة مروي عن ابن عباس في نسخة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . ورواها عليّ بن صالح كاتب الليث عن معاوية بن صالح عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس . وقد علم ما للناس في ابن أبي صالح كاتب الليث ، وأن المحققين على تضعيفه . انتهى .

وهذا ما في الرواية عن ابن عباس وهي أصل هذه الفتنة وقد رأيت أن المحققين يضعفون راويها . وأما قصة الغرانيق ، فمع ما فيها من الاختلاف ، فقد طعن فيها غير واحد من

الأئمة ، حتى قال ابن إسحاق : إنها من وضع الزنادقة . كما تقدم عن الرازيّ ، ونحوه عن القاضي عياض رحمه الله ، من وهنها وسقوطها من عدة أوجه .

(160/526)

وأما ما ذكره ابن حجر من أن القصة رويت مرسلة من طرق على شرط الصحيح ، وأنه يحتج بها من يرى الاحتجاج بالمرسل ، فقد ذهب عليه كما قال في الإبريز ؛ أن العصمة من العقائد التي يطلب فيها اليقين . فالحديث الذي يريد خرمها ونقضها ، لا يقبل على أي : وجه جاء . وقد عدّ الأصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة ، من الأخبار التي يجب القطع بكذبها . هذا لو فرض اتصال الحديث ، فما ظنك بالمراسيل ؟ وإنما الخلاف في الاحتجاج بالمرسل وعدم الاحتجاج به ، فيما هو من قبيل الأعمال وفروع الأحكام ، لا في أصول العقائد ومعاقد الإيمان بالمرسل وما جاءوا به . فهي هفوة من ابن حجر يغفرها الله له .

هذا ما قاله الأئمة ، جزاهم الله خيراً ، في بيان فساد هذه القصة ، وأنها لا أصل لها . ولا عبرة برأي من خالفهم . فلا يعتد بذكرها في بعض كتب التفسير ، وإن بلغ أربابها من الشهرة ما بلغوا . وشهرة المبطل في بطله ، لا تنفخ القوة في قوله . ولا تحمل على الأخذ برأيه .

ثم قال الأستاذ رحمه الله : والآن أرجع إلى تفسير الآيات على الوجه الذي تحتملها ألفاظها وتدل عليه عباراتها . والله أعلم :

لا يخفى على كل من يفهم اللغة العربية ، وقرأ شيئاً من القرآن ، أن قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ الآيات ، يحكي قَدَرا قُدِّر للمرسلين كافة ، لا يَعْدُونَه ولا يقفون دونه . ويصف شنشنة عرفت فيهم ، وفي أممهم . فلو صح ما قال أولئك المفسرون لكان المعنى : أن جميع الأنبياء والمرسلين قد سلط الشيطان عليهم فخلط في الوحي المنزل إليهم . ولكنه بعد هذا الخلط ينسخ الله كلام الشيطان ويحكم الله آياته الخ ، وهذا من أقبح ما يتصور متصور في اختصاص الله تعالى لأنبيائه ، واختيارهم من خاصة أوليائه ! فلندع هذا الهذيان ، ولنعد إلى ما نحن بصدده .

(161/526)

ذكر الله لنبيه حالاً من أحوال الأنبياء والمرسلين قبله ، ليبين له سنته فيهم . وذلك بعد أن قال : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴾ [42] ، إلى آخر الآيات ثم قال : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ

مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [49 - 52] ، الخ ، فالقصص السابق كان في تكذيب الأمم لأنبيائهم . ثم تبعه الأمر الإلهيّ بأن يقول النبي صلى الله عليه وسلم لقومه : إنني لم أرسل إليكم إلا لأنذركم بعاقبة ما أنتم عليه ، ولأبشر المؤمنين بالنعيم . وأما الذين يسعون في الآيات والأدلة التي أقيمها على الهدى وطرق السعادة ، ليحوّلوا عنها الأنظار ويحجبوها عن الأبصار ، ويفسدوا أثرها الذي أقيمت لأجله ، ويعاجزوا بذلك النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، أي : يسابقوهم ليعجزوهم ويسكتوهم عن القول بذلك . وذلك بلعبهم بالألفاظ وتحويلها عن مقصد قائلها ، كما يقع عادة من أهل الجدل والمماحكة - هؤلاء الضالون المضلون هم أصحاب الجحيم . وأعقب ذلك بما يفيد أن ما ابتُلي به النبيّ صلى الله عليه وسلم من المعاجزة في الآيات ، قد ابتلي به الأنبياء السابقون . فلم يبعث نبي في أمة إلا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف ، ويضادّون أمانيه ، ويحولون بينه وبين ما يبتغي ، بما يلقون في سبيله من العثرات . فعلى هذا المعنى الذي يتفق مع ما لقيه الأنبياء جميعاً ، يجب أن تفسر الآية . وذلك يكون على وجهين :

الأول : أن يكون تمنَّى بمعنى : قرأ والأمنية بمعنى : القراءة وهو معنى قد يصح . وقد ورد استعمال اللفظ فيه ؛ قال حسان بن ثابت في عثمان رضي الله عنهما :

~تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيلِهِ وَآخِرَهُ لاقَى حِمَامَ المَقَادِرِ

وقال آخر :

~تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيلِهِ تَمَنِّيَ دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلى رِسْلِ

غير أن الإلقاء لا يكون على المعنى الذي ذكروه ، بل على المعنى المفهوم من قولك : ألقيتُ في حديث فلان , إذا أدخلت فيه ما ربما يحتمله لفظه ، ولا يكون قد أراده . أو نسبت إليه ما لم يقله تعللاً بأن ذلك الحديث يؤدي إليه . وذلك من عمل المعاجزين الذين ينصبون أنفسهم لمحاربة الحق ، يتبعون الشبهة ، ويسعون وراء الريبة ، فالإلقاء بهذا المعنى دأبهم ، ونسبة الإلقاء إلى الشيطان لأنه مثير الشبهات بوساوسه ، مفسد القلوب بدسائسه ، وكل ما يصدر من أهل الضلال يصح أن ينسب إليه . ويكون المعنى : وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا حدّث قومه عن ربّه ، أو تلا وحياً أنزل إليه في هدى لهم ، قام في وجهه مشاغبون ، يحوّلون ما يتلوه عليهم عن المراد منه . ويتقوّلون عليه ما لم يقله ، وينشرون ذلك بين الناس ، ليبعدوهم عنه ، ويعدلوا بهم عن سبيله ، ثم يحق الله الحق ويبطل الباطل . وما زال الأنبياء يصبرون على ما كذّبوا وأوذوا ، ويجاهدون في الحق ، ولا يعتدّون بتعجيز المعجّزين ، ولا بهزء المستهزئين إلى أن يظهر الحق بالمجاهدة ، وينتصر على الباطل بالمجالدة . فينسخ الله تلك الشبه ويجتثها من أصولها ، ويثبت آياته ويقررها . وقد وضع الله هذه

السنّة في الناس ليتميز الخبيث من الطيب ، فيفتتن الذين في قلوبهم مرض ، وهم ضعفاء العقول ، بتلك الشبه والوساوس ، فينطلقون وراءها . ويفتتن بها القاسية قلوبهم من أهل العناد والمجاحدة ، فيتخذونها سنداً يعتمدون عليها في جدلهم . ثم يتمحص الحق عند الذين أوتوا العلم ، ويخلص لهم بعد ورود كل شبهة عليه ، فيعلمون أنه الحق من ربك فيصدقون به ، فتخبت وتطمئن له قلوبهم . والذين أوتوا العلم هم الذين رزقوا قوة التمييز بين البرهان القاطع الذي يستقرّ بالعقل في قرارة اليقين . وبين المغالطات وضروب السفسطة التي تطيش بالفهم ، وتطير به مع الوهم ، وتأخذ بالعقل تارة ذات الشمال وأخرى ذات اليمين . وسواء أرجعت

(163/526)

الضمير في أنه " الحق إلى " ما جاءت به الآيات المحكمات من الهدى الإلهيّ أو إلى القرآن ، وهو أجلّها ، فالمعنى من الصحة على ما يراه أهل التمكين . هؤلاء الذين أوتوا العلم هم الذين آمنوا . وهم الذين هداهم الله إلى الصراط المستقيم . ولم يجعل للوهم عليها سلطاناً ، فيحيد بهم عن ذلك النهج القويم . وأما الذين كفروا وهم ضعفاء العقول ومرضى القلوب ، أو أهل العناد وزعماء الباطل وقساة الطباع ، الذين لا تلين أفئدتهم ولا تبش للحق قلوبهم

فأولئك لا يزالون في ريب في الحق أو الكتاب . لا تستقر عقولهم عليه ، ولا يرجعون في متصرفات شؤونهم إليه . حتى تأتي ساعة هلاكهم بغتة ، فيلاقوا حسابهم عند ربهم . أو إن امتد بهم الزمن ، ومادّهم الأجل ، فسيصيبهم عذاب يوم عقيم . يوم حرب يسامون فيه سوء العذاب ، القتل أو الأسر . ويقذفون إلى مطارح الذل وقرارات الشر . فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة ، بل يسلبون ما كان لديهم ويساقون إلى مصارع الهلكة .

وهذا هو العقم في أتم معانيه وأشأم درجاته . ما أقرب هذه الآيات في مغازيها ، إلى قوله تعالى في سورة آل عِمْرَان : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عِمْرَان : 7] ، وقد قال بعد ذلك : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ [آل عِمْرَان : 10 [في المطبوع : 116]] ، ثم قال : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عِمْرَان : 12] ، الخ الآيات .

وكأن إحدى الطائفتين من القرآن شرح للأخرى . فالذين في قلوبهم زيغ هم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . والراسخون في العلم هم الذين أوتوا العلم ، وهؤلاء هم الذين يعلمون أنه الحق من ربهم . فيقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا ، فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاديهم إلى صراط مستقيم . وأولئك هم الذين يفتتنون بالتأويل ، ويشتغلون بقال وقيل بما يلقي الشيطان ، ويصرفهم عن مرامي البيان ، ويميل بهم عن محجة الفرقان . وما يتكئون عليه من الأموال والأولاد ، لن يغني عنهم من الله شيئاً . فستوافيهم آجالهم ، وتستقبلهم أعمالهم . فإن لم يوافهم الأجل على فراشهم . فسيغلبون في هراشهم . وهذه سنة جميع الأنبياء مع أممهم ، وسبيل الحق مع الباطل من يوم أن رفع الله الإنسان إلى منزلة يميز فيها بين سعادته وشقائه ، وبين ما يحفظه وما يذهب ببقائه . وكما لا مدخل لقصة الغرانيق في آيات آل عِمْرَان ، لا مدخل لها في آيات سورة الحج ، هذا هو الوجه الأول في تفسير الآيات : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ إلى آخرها ، على تقدير أن تمنّى بمعنى : قرأ وأن الأمنية بمعنى : القراءة والله أعلم .

(165/526)

الوجه الثاني في تفسير الآيات : أن التمني على معناه المعروف . وكذلك الأمنية . وهي أفعولة بمعنى المُنْية . وجمعها : أمانيّ كما هو مشهور . قال أبو العباس أحمد بن يحيي : التمني حديث النفس بما يكون وبما لا يكون . قال : والتمني سؤال الرب . وفي الحديث : < إذا تمنى أحدكم فليتكثر فإنما يسأل ربه > وفي رواية : فليكثر . قال ابن الأثير : التمني تشهِّي حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون وبما لا يكون . وقال أبو بكر : تمنيت الشيء إذا قدرته وأحببت أن يصير إليّ . وكل ما قيل في معنى التمني على هذا الوجه ، فهو يرجع إلى ما ذكرناه ويتبعه معنى الأمنية . ما أرسل الله من رسول ولا نبيّ ليدعو قوماً إلى هَدْي جديد ، أو شرع سابق شرعه لهم ، ويحملهم على التصديق بكتاب جاء به نفسه إن كان رسولاً ؛ أو جاء به غيره إن كان نبياً بُعث ليحمل الناس على اتباع من سبقه ، إلا وله أمنية في قومه . وهي أن يتبعوه وينحازوا إلى ما يدعوهم إليه ، ويستشفوا من دائهم بداوئه ، ويعصوا أهواءهم بإجابة ندائه . وما من رسول أرسل إلا وقد كان أحرص على إيمان أمته . وتصديقهم برسالته ، منه على طعامه الذي يطعم ، وشرابه الذي يشرب ، وسكنه الذي يسكن إليه . ويغدو عنه ويروح علينا . وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم من ذلك في المقام الأعلى ، والمكان الأسمى . قال الله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] ، وقال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : 103] ، وقال : ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : 99] ، وفي الآيات ما يطول سرده ، مما يدل على أمانيه صلى الله عليه وسلم المتعلقة بهداية قومه ، وإخراجهم من ظلمات ما كانوا فيه ، إلى نور ما جاء به . وما من رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنى هذه الأمنية

(166/526)

السامية ، ألقى الشيطان في سبيله العثرات ، وأقام بينه وبين مقصده العقبات . ووسوس في صدور الناس . وسلبهم الانتفاع بما وهبوا من قوة العقل والإحساس ، فثاروا في وجهه ، وصدوه عن قصده ، وعاجزوه حتى لقد يعجزونه ، وجادلوه بالسلاح والقول حتى لقد يقهرونه . فإذا ظهروا عليه ، والدعوة في بدايتها ، وسهل عليهم إيذاؤه وهو قليل الأتباع ضعيف الأنصار ، ظنوا الحق من جانبهم ، وكان فيما ألقوه من العوائق بينه وبين ما عمد إليه ، فتنة لهم .

(167/526)

غلبت سنة الله في أن يكون الرسل من أواسط قومهم ، أو من المستضعفين فيهم ، ليكون العامل في الإذعان بالحق محض الدليل وقوة البرهان . وليكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن يدعى إليه على قبوله . ولكيلا يشارك الحق الباطل في وسائله ، أو يشاركه في نصب شراكه وحبائله . أنصار الباطل في كل زمان ، هم أهل الأنفة والقوة والجاه والاعتزاز بالأموال والأولاد والعشيرة والأعوان والغرور بالزخارف . والزهو بكثرة المعارف . وتلك الخصال إنما تجتمع كلها أو بعضها في الرؤساء وذوي المكانة من الناس فتذهلهم عن أنفسهم ، وتصرف نظرهم عن سبيل رشدهم . فإذا دعا إلى الحق داع ، عرفته القلوب النقية من أوضار هذه الفواتن ، وفزعت إليه النفوس الصافية والعقول المستعدة لقبوله ، بخلوصها من هذا الشواغل . وقلما توجد إلا عند الضعفاء وأهل المسكنة فإذا التف هؤلاء حول الداعي وظافروه على دعوته ، قام أولئك المغرورون يقولون : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود : 27] ، فإذا استدرجهم الله على سنته ، وجعل الجدال بينهم وبين المؤمنين سجالاً ، افتتن الذين في قلوبهم مرض من أشياعهم ، وافتتنوا هم بما أصابوا من الظفر في دفاعهم . ولكن الله غالب على أمره . فيمحق ما ألقاه الشيطان من هذه الشبهات ، ويرفع هذه الموانع وتلك العقبات ، ويهب السلطان لآياته فيحكمها ويثبت دعائمها ، وينشئ من ضعف أنصارها قوة ، ويخلف لهم من ذلتهم عزة ، وتكون كلمة الله هي العليا

وكلمة الشيطان هي السفلى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد : 17] ، وفي حكاية هذه السنة الإلهية التي أقام عليها الأنبياء والمرسلين ، تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم عما

(168/526)

كان يلاقي من قومه ، ووعد له بأنه سيكمل له دينه ، ويتم عليه وعلى المؤمنين نعمته ، مع استلفاتهم إلى سيرة من سبقهم : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : 2 - 3] ، ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : 214] .

هذا هو التأويل الثاني في معنى الآية . يدل عليه ما سبق من الآيات ، ويرشد إلى سياق القصص السابق في قوله : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [42] الخ .

وأنت ترى أن قصة الغرانيق لا تتفق مع هذا المعنى الصحيح .

وهناك تأويل ثالث ذكره صاحب الإبريز وإني أنقله بحروفه وما هو بالبعيد عن هذا بكثير

قال : ذكر أمانيّ الأنبياء في أممهم ، وطمعهم في إيمانهم ، وشأن نبينا صلى الله عليه وسلم في ذلك ، على نحو يقرب مما ذكرناه في الوجه الثاني :

(169/526)

ثم إن الأمة تختلف كما قال تعالى : ﴿ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾ [البقرة : 253] ، فأما من كفر فقد ألقى إليه الشيطان الوساوس القادحة له في الرسالة ، الموجبة لكفره . وكذا المؤمن أيضاً لا يخلو أيضاً من وساوس ، لأنها لازمة للإيمان بالغيب في الغالب ، وإن كانت تختلف في الناس بالقلة والكثرة ، وبحسب المتعلقات إذا تقرر هذا فمعنى تمنى : أنه يتمنى لهم الإيمان ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح ، فهذه أمنية كل رسول ونبيّ . وإلقاء الشيطان فيها ، يكون بما يلقيه في قلوب أمة الدعوة من الوساوس الموجبة لكفر بعضهم ، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ، ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة ، ويبقي ذلك عزّ وجل في قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به . فخرج من هذا أن الوساوس تلقى أولاً في قلوب الفريقين معاً ، غير أنها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين . انتهى .

(170/526)

وأنت إذا نظرت بين هذا التفسير وبين ما سبقه ، تتبين الأحق بالترجيح . ولو صح ما قاله نقلة قصة الغرانيق لارتفعت الثقة بالوحي وانتقض الاعتماد عليه ، كما قاله القاضي البيضاويّ وغيره . ولكان الكلام في الناسخ كالكلام في المنسوخ . يجوز أن يلقي فيه الشيطان ما يشاء ، ولا نهدم أعظم ركن للشرائع الإلهية وهو العصمة . وما يقال في المخرج عن ذلك ، ينفر منه الذوق ولا ينظر إليه العقل على أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق العلى لم يرد لا في نظمهم ولا في خطبهم . ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم . إلا ما جاء في معجم ياقوت غير مسند ولا معروف بطريق صحيح . وهذا يدل على أن القصة من اختراع الزنادقة ، كما قال ابن إسحاق . وربما كانت منشأ ما أورده ياقوت . ولا يخفى أن الغرنوق والغرنيق لم يعرف في اللغة إلا اسماً لطائر مائي أسود أو أبيض . أو هو اسم الكركيّ أو طائر يشبهه والغرنيق بالضم وكزنبور وقنديل وسَمَوْأَل وفردوس وقرطاس وعُلاَبط معناه : الشاب الأبيض الجميل . وتسمى الخصلة من الشعر المفتلة : الغرنوق , كما يسمى به ضرب من الشجر . ويطلق الغرنوق والغرانيق على ما يكون في أصل العوسج اللين النبات . ويقال : لمة غرانقة وغرانقية : أي : ناعمة تفيئها الريح . أو الغرنوق الناعم المستتر من النبات الخ . ولا شيء في هذه المعاني يلائم الآلهة والأصنام ، حتى يطلق عليها في فصيح القول الذي يعرض على ملوك البلاغة وأمراء الكلام . فلا

أظنك تعتقد إلا أنها من مفتريات الأعاجم ومختلفات الملبسين ، ممن لا يميز بين حر الكلام ، وما استعبد منه لضعفاء الأحلام . فراج ذلك على من يذهله الولوع بالرواية ، عما تقتضيه الدراية : ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عِمْرَان : 8] . انتهى كلام الأستاذ رحمه الله .

(171/526)

وممن جزم بوضع هذه القصة جزماً باتاً ، الإمام ابن حزم رحمه الله ، حيث قال في كتابه " الملل " في الرد على من لم يوجب العصمة على الأنبياء ما مثاله : استدلوا بالحديث الكاذب الذي لم يصح قط في قراءته عليه السلام في : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ وذكروا تلك الزيادة المفتراة التي تشبه مَنْ وَضَعَهَا من قولهم : وإنها لهي الغرانيق العلى وإن شفاعتها لترتجى , ثم قال بعد : وأما الحديث الذي فيه الغرانيق فكذب بحت موضوع . لأنه لم يصح قط من طريق النقل ، ولا معنى للاشتغال به ، إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد . وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِه ﴾ الآية ، فلا حجة لهم فيها . لأن الأمانيّ الواقعة في النفس لا معنى لها . وقد تمنى النبيّ صلى الله عليه وسلم إسلام عمه أبي طالب ، ولم يرد الله عزّ وجلّ كون ذلك . فهذه الأمانيّ التي

ذكرها الله عزّ وجلّ لا سواها ، وحاشا لله أن يتمنى نبيّ معصية . وبالله تعالى التوفيق .

وهذا الذي قلنا هو ظاهر الآية دون مزيد تكلف ، ولا يحل خلاف الظاهر إلا بظاهر آخر

وبالله تعالى التوفيق . انتهى ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

(172/526)

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ أي : في شك وجدال من التنزيل الكريم ، لما طبع على قلوبهم : ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ أي : القيامة : ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي : فجأة : ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ أي : يوم لا يوم بعده . كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام ، فما لا يوم بعده يكون عقيماً . والمراد به الساعة أيضاً . كأنه قيل : أو يأتيهم عذابها , فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل . أفاده أبو السعود . أي : لأنه بمعنى : شديد لا مثل له في شدته . وتقدم فيما نقلنا وجه آخر وهو أن المعنى : لا يزال الذين كفروا في ريب من الحق أو الكتاب ، لا تستقر عقولهم عليه حتى تأتي ساعة هلاكهم بغتة ، فيلاقون حسابهم عند ربهم . أو إن امتد بهم الزمن ، ومادّهم الأجل ، فسيصيبهم عذاب يوم عقيم . يوم حرب يسامون فيه سوء عذاب القتل أو الأسر . فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة . بل

يسلبون ما كان لديهم ، ويساقون إلى مصارع الهلكة ، وهذا هو العقم في أتم معانيه وأشأم درجاته . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 269.284 ﴾

(173/526)

وقال الشيخ المراغى :

﴿ وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾

تفسير المفردات

الرسول : من جاء بشرع جديد ، والنبي يشمل هذا ويشمل من جاء لتقرير شرع سابق كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام ، والتمني والأمنية : القراءة كما قال تعالى : « وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ » أي إلا قراءة ، وقال حسان فى عثمان حين قتل :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

وينسخ : أي يزيل ويبطل ، يحكم : أي يجعلها محكمة مثبتة لا تقبل الرد بحال ، فتنة : أي ابتلاء واختبارا ، مرض : أي شك ونفاق ، القاسية قلوبهم : هم الكفار المجاهرون بالكفر ،

شقاق بعيد : أي عداوة شديدة ، فتخبت : أي تذل وتخضع ، مرية : أي شك ، بغتة : أي فجأة ، الساعة : الموت ، يوم عقيم : أي منفرد عن سائر

(174/526)

الأيام لا مثيل له فى شدته والمراد به الحرب الضروس ، الملك : أي التصرف والسلطان ، يحكم بينهم : أي يقضى بين فريقى الكافرين والمؤمنين ، مهين : أي مذل جزاء استكبارهم عن الحق .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر فى الآيات السالفة أن قومه قد كذّبوه بوسائل شتى من التكذيب ، فقالوا تارة إنه ساحر ، وأخرى إنه شاعر ، وثالثة إن القرآن أساطير الأولين ، ثم سلاه على هذا بأنه ليس بدعا من الرسل ، فكثير قبله قد كذّبوا ، ثم ذكر أن لعظيم استهزائهم به ، وتهكمهم بما يبلّغهم عن ربه - طلبوا منه استعجال العذاب الذي يعدهم به - أردف ذلك بذكر نوع آخر من التكذيب وهو إلقاؤهم الشبه والأوهام فيما يقرؤه على أوليائه من القرآن ، ليجادلوه بالباطل ويردّوا ما جاء به من الحق ويكون فى ذلك فتنة لضعاف الإيمان وللكافرين ، وليزداد المؤمنون إيمانا ويقينا بأنه الحق من ربهم فتخبت له قلوبهم ، وإن هذه حالهم حتى

يموتوا أو يأتيهم عذاب لا يبلغ الوصف كنه حقيقته ، وعندئذ يحكم اللّه بين عباده فيدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات النعيم ، ويجازى الذين كذبوا بآياته وكانوا فى مرية من رسالة رسوله بالعذاب المهين جزاء وفاقا على تدسية أنفسهم وتدنيسها بزائغ العقائد وسيىء الأعمال وباطلها .

الإيضاح

(وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) أي وما أرسلنا قبلك رسولا ولا نبيا إلا إذا قرأ ، ألقى الشيطان على سامعيه وهو يتلو الوحى الذي أنزل إليه - شبهات فيما يقرأ ، فيقول قوم إنه سحر ، ويقول آخرون إنه نقله الرسول عن بعض الأولين ، وهكذا من الأباطيل والترّهات التي يتقوّلونها .

(175/526)

(فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ) أي فيزيل سبحانه تلك الخرافات التي علقت ببعض النفوس ، بأن يقيّض للدين من يدافع عنه ويدفع الشبهات ، ثم يجعل آياته محكمة مثبتة لا تقبل الرد بحال .

وخلاصة ذلك - إن اللّه حين أنزل القرآن وقرأه الرسول صلى اللّه عليه وسلم قال المشركون

فيه ما قالوا ، ثم لما استبان الحق وجاءت غزوة بدر ونصر الله المسلمين الذين بشرهم كتابه بالنصر على أعدائهم : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » استتب لهم الأمر ودخل أعداؤهم فى دينهم أفواجا « وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا » . وما مثل هذا إلا مثل النباتات الطّفيلية التي تنبت فى الأرض بجانب ما يزرع فيها من حنطة وفول وغيرهما مما يحتاج إليه الناس ، ولا تزال تتغذى من الأرض وتأخذ غذاء النبات النافع ، فلا يهدأ للزارع بال حتى يزيلها ويوفّ غذاءها للنبات الذي هو فى أشد الحاجة إليه .

وما أشبه الليلة بالبارحة ، فإنك الآن لترى أهل أوربا يرسلون الجيوش من القساوسة التي تفتح المدارس فى بلاد الشرق ويقولون للمسلمين : إن دينهم محشو بالخرافات والأكاذيب ويشككون فيه من تعلموا فى تلك المدارس ، ويصدق بعض غوغائهم تلك الأباطيل ، حتى لقد قالوا إن هذا الدين لا يعيش فى ظل العلم ، ولا يقبل الأفكار والآراء الراقية ، وهو والعلم عدوان لا يجتمعان ، ومما جعل لهم بعض المعذرة فيما يقولون ، حال المسلمين من الخمول وسوء الأحوال ، وقبيح المعتقدات والأعمال مما جعلهم مضغة فى أفواه الأمم المتمدينة : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » .

وإن اللّه لينسخ تلك الوساوس ، ويزيل هذه الأوهام ، فقد تصدى كثير من ذوى المعرفة لدحض تلك المفتريات ، فقام العالم الحكيم محمد عبده ، وألف كتابه [الإسلام والنصرانية] ودفع كثيرا من مطاعن أولئك المبشرين ، وقام بعده كثير من أهل الفقه بالدين ، فاحتذوا حذوه ، وواصلوا الليل بالنهار فى دحض تلك الشبه ، وإن اللّه ناصر دينه ولو كره الكافرون .

هذا وقد دسّ بعض الزنادقة فى تفسير هذه الآية أحاديث مكذوبة لم ترد فى كتاب من كتب السنة الصحيحة ، وأصول الدين تكذّبها ، والعقل السليم يرشد إلى بطلانها ، وأنها ليست من الحق فى شىء ، وهى مما تشكّك المسلمين فى دينهم ، وتجعلهم فى حيرة من أمر الوحى وكلام الرسول ، فيجب على العلماء طرحها وراءهم ظهريّا ، ولا يضيعون الزمن فى تأويلها وتخريجها ، ولا سيما بعد أن نص الثقات من المحدّثين على وضعها وكذبها ، لمصادمتها لأصول الدين التي لا تقبل شكا ولا امتراء .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أي واللّه عليم بكل شىء ، ومن ذلك ما يصدر عن الشيطان وأوليائه ، فيجازيهم عليه أشد الجزاء ، حكيم فى أفعاله ، ومن ذلك أن يمكّن الشيطان من إلقاء الشبهات ، ليحاجّ أولياؤه بها ، فيتمكن المؤمنون من ردها ودحض المفتريات التي يتشدقون بها ، ويرجع الحق إلى نصابه ، فتظهر الحقيقة ناصعة بيضاء من بين تلك الظلمات ، فتمحو

الظلام الذي كان عالقا بنفوس الذين فى قلوبهم مرض ، وتضىء آفاق العقول السليمة ، وتهديهم إلى طريق الرشاد وإلى الفريقين أشار بقوله :

(1) (لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ)

أي ليجعل ما يلقيه الشيطان على قلوب أوليائه فتنة واختبارا للمنافقين الذين فى قلوبهم مرض ، وللكافرين الذين قست قلوبهم ، فلا تلين لقبول الحق ، ولا ترعوى عما هى فيه من الغىّ .

(177/526)

ثم بين مجانفة هذين الفريقين للحق وبعدهما عن الرشد لا إلى غاية فقال :

(وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ) أي وإن هذين الصّنفين من الضلّال لفى عداوة لأمر اللّه ، وبعد عن الرشاد والسداد ، بما لا مطمع لهما معه فى النجاة والفوز برضا اللّه .

(2) (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ)

أي ولكى يعلم أهل العلم باللّه أن الذي أنزله اللّه من آياته التي أحكمها ونسخ ما ألقى الشيطان – أنه الحق من ربهم ، فيصدقوا به وتخضع له قلوبهم وتذعن للإقرار به نفوسهم ، وتعمل بما فيه من عبادات وآداب وأحكام وهى مثلجة الصدر هادئة مطمئنة ببرد اليقين ،

والسير على نهج سيد المرسلين .

ثم بين حسن مآلهم وفوزهم بسعادة العقبى فقال :

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أي وإن الله لمرشد الذين آمنوا به وصدّقوا برسوله ، وموفّقهم إلى الحق الواضح ، بنسخ ما ألقى الشيطان فى أمنية رسوله حين تلاوة الوحى ، وحفظ أصول الدين الصحيحة فى نفوسهم ، والعمل بها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وخلاصة ذلك – إن الله ليهدى الذين آمنوا إلى تأويل ما تشابه من الدين ، وتفصيل ما أجمل منه ، بما تقتضيه الأصول المحكمة . فلا تلحقهم حيرة ، ولا تعتريهم شبهة ، ولا تزلزل أقدامهم ترّهات المبطلين .

ثم أردفه بيان مآل الفريق الأول فقال :

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) أي ولا يزال الكافرون فى شك مما ألقى الشيطان فى قلوبهم حين قراءة القرآن عليهم حتى يأتيهم الموت فجأة وهم فى بيوتهم آمنون ، أو يشتبكوا مع المؤمنين فى قتال يهلك فيه أبطالهم وصناديدهم كما حدث يوم بدر .

وقد جعل هذا اليوم عقيما ، لأن المقاتلين يسمّون أبناء الحرب ، فإذا هم قتلوا وصف هذا اليوم بأنه عقيم .

وخلاصة هذا – إنه لا مطمح فى إيمانهم ، ولا لزوال المرية من قلوبهم ، فهم لا يزالون كذلك حتى يهلكوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 17 صـ 1028 . 131 ﴾

(179/526)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

[الغرانقة العلى . . قصّتها ومن أين جاءت ؟]

قوله تعالى :

« وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

هذه الآية الكريمة ، هى التي ولّد منها المفسّرون وأصحاب السّير ، قصة « الغرانقة » هذه . . ولكنا ندع هذه القصة الآن ، وننظر فى الآية الكريمة نظرا غير مرتبط بما يقال من روايات عن أسباب النزول . ننظر إليها على أنها قرآن يتلى ، ويتعبّد بتلاوته ، دون أن يكون

لسبب النزول - أيا كان - أثر فى موقعه من قلوبنا ، أو عقولنا ! - فقوله تعالى : « وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ » هو خبر يتضمن حكما عاما ، لا انفكاك منه . . يقع على رسل اللّه وأنبيائه جميعا . . وهذا الحكم ، هو : أنه ما من رسول من رسل اللّه ، ولا نبىّ من أنبيائه ، إلا والشيطان راصد له ، وأنه كلّما تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيّته ! هذا صريح ما تنطق به كلمات اللّه ، فى وضوح وجلاء . . وإن كان هناك ما يسأل عنه ، فهو كلمة التمنّى . . فما معنى التّمنّي ، وماذا كان يتمنّى الرسول ، أو النبىّ ؟ ثم ماذا يلقى الشيطان فيما يتمناه الرسول أو النبىّ ؟

والتمنّى فى اللغة معروف ، وهو طلب النّفس لرغيبة من الرغائب المحبوبة ، البعيدة عن أن تنال ، بعدا يكاد يبلغ حدّ الاستحالة .

وقد فرّق علماء النحو والبلاغة بين الترجّى ، والتّمنّي ، كما فرّقوا بين حرفى الطلب : ليت ، ولعلّ . . فقالوا : إن « ليت » للتمنّى ، وهو طلب محبوب لا يدرك ، و « لعلّ » للترجّى ، وهو طلب مرغوب يمكن إدراكه والحصول عليه ، وإن كان بعيدا .

وفى القرآن الكريم ، جاء لفظ التمني بهذا المعنى ، الذي هو طلب الشيء البعيد . . كما فى قوله تعالى : « فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » (94 - 95 : البقرة) .

والخطاب هنا لبنى إسرائيل ، وهم مطالبون فى هذا الخطاب أن يتمنّوا شيئا لا يمكن أن يقع منهم ، وهو تمنّى الموت . . ولهذا جاء قوله تعالى : « وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً » كاشفا عن هذا . . ولهذا أيضا جاء قوله تعالى بعد ذلك :

« وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ » . جاء مؤكدا لعدم وقوع هذا الأمر منهم ، إذ أن الحريص على الشيء لا يتمنى إفلاته من يده ، فكيف إذا كان أشدّ الناس حرصا عليه ؟

وجاء فى القرآن الكريم أيضا قوله تعالى : « أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى ؟ » (24 : النجم) وهو ينكر على الإنسان أن يقع له ما يتمناه ، ويجرى على هواه وهواجسه . .

وجاء فى القرآن الكريم كذلك فى قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » (78 : البقرة) والأمانىّ جمع أمنيّة . .

وعلم الأميين من أهل الكتاب ، بالكتاب ، هو علم بعيد عن الحقّ ، بعد الأمنية عمن يتمنّاها .

ذلك هو التمني ، على ما عرفته العرب ، وجاء به القرآن الكريم ، وهو أنه طلب أمر محبوب ، بعيد الإدراك ، أو مستحيله .

فما هى أمنية كلّ رسول ، وكلّ نبىّ ؟

إن أمنية كلّ رسول ، ورغيبة كلّ نبىّ ، هى أن يرى قومه على الهدى الذي يدعوهم إليه ،

وأن يصبحوا جميعا فى المؤمنين باللّه . . فتلك هى رسالته فى الناس ، يعيش لها ، ويعمل من أجل تحقيقها ، وأن سعادته كلها هى أن يرى نجاح مسعاه ، وثمرة جهاده ، فى هذه الأعداد التي استجابت له واتبعته ، وأنه كلما كثرت هذه الأعداد ، تضاعفت سعادته ، وعظمت غبطته .

(181/526)

هذه هى أمنية كل رسول ، وكل نبىّ . . لا أمنية لأحد منهم غير هذه الأمنية ! ولكن الأمانىّ - كما قلنا - بعيدة التحقيق ! وأمنية الرسول أو النبىّ فى أن يكون الناس جميعا مؤمنين - أمنية تقع فى دائرة المستحيلات ، لأنها تطلب من الحياة ما لم تجد به ، وتريد الناس على غير ما أقامهم اللّه عليه . . فالحياة لم تعرف المجتمع الإنسانىّ على طريق سواء ، يضمّ جميع أفراده . . والناس - كما خلقهم اللّه - مؤمن وكافر ، وفى هذا يقول اللّه تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ » (2 : التغابن) .

وإذن فأمنية أي رسول وأي نبىّ ، غير ممكنة التحقيق . . ومع هذا فإن على كل رسول وكل نبىّ أن يسعى سعيه ، ويبذل جهده ، ويدعو الناس جميعا إلى اللّه ، ويؤذّن فيهم بآيات اللّه ! ولكن صوت الحق هذا ، تلقاه على الطريق أصوات منكرة ، بعضها ينبح نبح الكلاب

، وبعضها يعوى عواء الذئاب ، ومنها ما ينهق نهيق الحمير ،

ومنها ما يفحّ فحيح الأفاعى . . فيتألف منها ومن كثير غيرها من كل صوت منكر .

إعصار مجنون ، يكاد يخنق هذا الصوت الكريم ، ويغطى سماءه الصافية ، بما يثير من غبار ودخان ! فهذه هى أمنية الرسول أو النبىّ ، وتلك إلقاءات الشيطان فيها . . إذ ليست كلّ هذه الأصوات المنكرة إلا صنيعة الشيطان ، وإلا غرسا من غرسه النكد ، وثمرات من ثمر هذا الغرس الخبيث . .

ويحسن هنا أن تقرأ هذا المقطع من الآية الكريمة : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ . . إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ » . .

(182/526)

وواضح مما رأيت ، أن أمنيّة كل رسول وكل نبىّ ، كانت أبدا هى هداية قومه جميعا إلى اللّه ، وأن إلقاء الشيطان فى هذه الأمنية ، هو ما يوسوس به للسفهاء ، والحمقى ، والجهلاء من القوم ، ليقفوا فى وجه الدعوة التي يدعون إليها ، وليرهقوا رسلهم وأنبياءهم . . فالشيطان لا يظهر عيانا ، ولا يلقى الرسول أو النبىّ مواجهة ، وإنما يلقاهما فى أتباعه وأوليائه ، هؤلاء الذين استذلّهم الشيطان ، وأمسك بهم من مقاودهم ، فكانوا له جنودا يسلطهم على

أنبياء اللّه ، ورسل اللّه ، وأولياء اللّه . .

ولكن ماذا يكون بين هذه الأمنية التي يتمنّاها الرسول أو النبىّ ، وما يلقى به الشيطان فيها ؟

الشيطان كما أخبرنا اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ عنه ، ليس له سلطان على الذين آمنوا ، كما يقول سبحانه : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » (99 : النحل) فكيف بالرسل والأنبياء ، الذين عصمهم اللّه ، وأمدّهم بكثير من أمداد عونه ، وتوفيقه ، وحياطته ؟ ثم كيف والشيطان أيّا كان هو ضعيف الكيد لمن عرف كيف يدافع عن إنسانيته ، ويحمى وجوده من أن يكون مطيعة ذلولا له . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً » (76 : النساء) إن هؤلاء الضالين الآثمين ، الذين يقفون فى وجه الحق ، هم صنائع الشيطان ، وهم كيده الذي يكيد به لأولياء اللّه ، وأنبياء اللّه ، ورسل اللّه . . وهذا « الكيد » الذي هو من أولياء الشيطان . . هو كيد ضعيف ، وسراب خادع ، لا يقف للحقّ ، ولا يحتمل صدمته ! . .

(183/526)

وعلى هذا ، فإن ما يلقى به الشيطان فى أمنية الرسول أو النبىّ ، من ضلالات وأباطيل ، وما يستنبت به فى منابت الحق من شوك وحسك ـ هو سحب صيف ، لا تلبث أن تنقشع من وجه الشمس ، وإذا شعاعها يملأ الآفاق ، وإذا ضوؤها يبدد كل ظلام ، وإذا حرارتها تتمشّى فى أوصال الكائنات . . « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ . . فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » (17 : الرعد) وهكذا يذهب ما يلقى الشيطان فى أمنيّة الرسول أو النبي . . هباء ، حيث يخلص النبي أو الرسول بأوليائه ، وهم صفوة المجتمع ، والثمرات الطيبة فيه ، على حين يستولى الشيطان على أتباعه ، ويسوقهم إلى حظيرته ، حيث هم حصب جهنم وحطبها ! واستمع بعد هذا إلى قوله تعالى : « فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » وانظر كيف كانت عاقبة هذا الصراع بين النبي أو الرسول ، وبين الشيطان وأولياء الشيطان . . لقد أحكم اللّه سبحانه وتعالى آياته ، فنسخ أي أبطل . . ما ألقى الشيطان ، ثم أحكم سبحانه آياته ، وثبّت قواعدها . .

ولا يعترض على هذا القول ، بأن الرسول أو النبىّ كانت أمنيّته هى هداية قومه ، أو معظم قومه ، ولكن الذين خلص بهم من هذا المعترك ، هم قليل من كثير . . فكيف يقال مع هذا إن أمنيته تحققت ، وإن اللّه سبحانه وتعالى قد أحكم آياته ـ على هذا المفهوم الذي فهمت عليه الآية ـ ونسخ ما ألقى الشيطان ؟ .

والجواب على هذا ، قريب من قريب . . فلقد تحققت أمنية النبي أو الرسول تحقيقا كاملا ، ولو لم يؤمن معه من قومه أحد . . ! كما ترى .

(184/526)

إن أمنية الرسول أو النبىّ . كانت فى أول الأمر هى هداية قومه ، فردا ، فردا . . وهو فى سبيل تحقيق هذه الأمنية لا يدخر شيئا من جهده ، ولا يضنّ بشىء من راحته . . ثم هو مع هذا يظل صابرا محتملا لكل ما يرميه به السفهاء ، من فحش القول ، وشنيع العمل . . حتى إذا انتهى الأمر إلى غاية يتضح منها أن لا خير يرجى من هؤلاء القوم ، وأن لا ثمرة تحصّل منهم ، مهما بذل من جهد ، أو ضوعف من عمل - إلى هنا يكون الشيطان قد غطى أمنية الرسول أو النبىّ ، وحجب ضوءها . . وعندئذ يتولى اللّه سبحانه وتعالى أخذ هؤلاء القوم بالبأساء والضرّاء ، فيضربهم ضربة قاضية ، فإذا هم فى الهالكين . . وهكذا ينسخ اللّه كل ما ألقى الشيطان ويبطله ، على حين يكون قد أحكم آياته وثبتها بنجاة النبىّ أو الرسول من هذا البلاء . . إن الرسول أو النبىّ فى تلك الحال - وإن كان وحده - هو آية اللّه ، أو آيات اللّه التي أحكمت ، فثبتت ، وبقيت . .

أما ما ألقى الشيطان ، فقد نسخ وبطل ، وذهب هباء ! واستمع إلى الآية كلها مرة أخرى :

« وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ . . فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ . . ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ . . وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

وأحسب ـ بعد هذا ، بل وقبل هذا ـ أن الآية الكريمة ، واضحة الدلالة بيّنة القصد ، لمن نظر إليها نظرا بعيدا عن وساوس الأساطير ، وهمسات الإسرائيليات ، التي كان يلقى بها اليهود إلى آذان القصاص ورواة الأخبار ، فيتلقاها عنهم المفسرون ، ويحملونها إلى الكتاب الكريم ! ! فالآية الكريمة تكاد لوضوحها تنطق بمضمونها ، وتحدّث بمفهومها ، ولكن الخيال الأسطورى ، أغرى المفسرين بأن يستولدوا من الآية عجائب وغرائب منكرة . . كما سنعرضها عليك بعد قليل . .

(185/526)

وهنا نحبّ أن نشير إلى أن الآية الكريمة قد تحدّثت عن الرسول ، وعن النبىّ ، باعتبار أن لكل منهما صفة خاصة ، وأنهما لو كانا على صفة واحدة لما جاءت بهما الآية على هذا النظم ، الذي جاء العطف فيه بين الرسول والنبىّ بإعادة حرف النفي ، الذي يؤكد لكلّ من الرسول والنبىّ ذاتيته . . فكأنّ نظم الآية يقول : « و ما أرسلنا من قبلك من رسول ، وما أرسلنا من قبلك من نبىّ » . . وهذا يعنى أن الرسول غير النبىّ . .

والذي عليه الرأى عند المفسرين والفقهاء ، أن كلّا من الرسول والنبىّ يوحى إليهما من اللّه ولكن الرسول ينفرد بأنه صاحب شريعة يتلقاها من اللّه ، ويدعو إليها الناس . . بخلاف النبىّ الذي لا شريعة معه ، وإنما هو على شريعة رسول سبقه ، وأنه يدعو إلى شريعة هذا الرسول . . فكل رسول نبىّ . . وليس كل نبىّ رسولا . .

وعلى أىّ ، فإن الرسول صاحب كتاب سماوى أو صحف سماوية . . أما النبىّ فلا كتاب ولا صحف معه . .

وهذا الوضع الذي يختلف فيه النبىّ عن الرسول ، له دلالة كبيرة فى المفهوم الذي ينبغى أن نفهمه من الآية السابقة ، وهو أن قوله تعالى : « فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ . »

لا يمكن أن ينصرف إلى الآيات المقروءة ، المنزلة وحيا من السماء . .

وذلك لأن النبىّ - مجرد النبىّ - لا يدخل فى هذا الحكم ، إذ لا كتاب معه ، ولا صحف ، حتى يقع عليها النسخ فيما ألقى الشيطان فيها . ! !

وإذن ، فالذى ينبغى أن نقطع به قطعا جازما ، هو أن معنى النسخ فى هذه الآية ، لا يمكن أن يكون واردا على نسخ آيات اللّه المتلوة ، كما هو المعروف عن النسخ بمعناه العام المطلق ، الذي فسره عليه المفسرون . .

وهذه الحقيقة ، هى فى الواقع من أقوى الأدلة على فساد المعنى الذي فهمت عليه الآية

الكريمة ، والذي جاءت منه قصة ـ أو خرافة ـ « الغرانقة العلا » التي ستعرف نبأها عما قليل . .

(186/526)

وقبل أن نعرض لهذه الخرافة ، ننظر فى الآيات الكريمة التي تلت هذه الآية التي نحن بين يديها ، منذ أخذنا فى هذا الحديث . . فهذه الآيات مكملة لها ، ومعقبة عليها . .

يقول اللّه تعالى بعد هذه الآية :

« لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ » . .

وهذا يشير إلى أن ما ألقاه الشيطان فى أمنية الرسول أو النبىّ ـ هو فتنة للذين كفروا من أهل الكتاب ، وللقاسية قلوبهم من هؤلاء المشركين من قريش .

بمعنى أن من اتخذهم الشيطان أولياء ، فجعل منهم جنودا مدججين بسلاح السفاهة والتطاول على الرسل والأنبياء ـ هؤلاء الجنود هم فتنة مطلة على الذين كفروا من أهل الكتاب ، وهم الذين فى قلوبهم مرض ، وعلى المشركين من

العرب ، وهم القاسية قلوبهم ، إذ كانوا بعملهم هذا ـ من أهل كتاب ومشركين ـ دعوة إلى

الضلال ، تواجه دعوة الهدى التي يدعو بها الرسول والنبىّ . . والله سبحانه وتعالى يقول :

« وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً » (20 :

الفرقان) ويقول سبحانه على لسان المؤمنين : « رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » (5 :

الممتحنة) .

وفى قوله تعالى : « وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ » إشارة أخرى إلى أن هؤلاء الذين ألقى بهم الشيطان فى طريق الدعوة التي يدعو بها الرسول أو النبىّ - هم متلبسون بظلم عظيم ، لما هم عليه من شقاق بعيد عن مواطن الحق ، ومن خلاف قائم على الجرأة والتجرد من الحياء ، فى إنكار البديهيات ، وفى عدم التسليم بها والانقياد لها :

ثم يجىء بعد هذا قوله تعالى :

« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ . . وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

(187/526)

أي أنه من هذا الاحتكاك بين الحقّ الذي يدعو إليه الرسول أو النبىّ ، وبين الباطل الذي يلقى به الشيطان وأولياء الشيطان فى وجه هذا الحق - فى هذا الاحتكاك تنقدح

شرارات مضيئة ، يرى أهل العلم والمعرفة على ضوئها فرق ما بين الحق والباطل ، فتزداد معرفتهم بالحق ، ويقوى تعلقهم به ، واطمئنان قلوبهم وإخباتها له . . « وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ، بهذا الصراع الذي يقوم بين الحق والباطل ، فلا يعشى أبصارهم عن الحق هذا الغبار الذي يثيره الباطل والمبطلون فى وجهه ، بل إن ذلك ليزيد من نور الحق ، ويضاعف من جلاله وروائه . . كالشمس ، يحجبها السحاب ، فإذا انقشع السحاب وسفرت عن وجهها ، كانت أحسن حسنا وأبهى بهاء . . إن ذلك شأن كلّ ضدّ يلتقى بضده . . فالحسن يزداد مع القبيح حسنا ، والحلو يكون بعد مذاق المرّ أحلى مذاقا وألذّ طعما . . والعافية بعد السّقم ، تكون أهنأ وأطيب منها فى جسد لم تصادفه علة ، أو يلحّ عليه مرض . . وفى المثل : « بضدها تتميز الأشياء » .

ثم يجىء بعد هذا قوله تعالى :

« وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ » .

الضمير فى « منه » يعود إلى القرآن الكريم ، الذي وإن لم يجر له ذكر فيما سبق ، فهو مذكور كأصل أصيل للحق الذي يجادل فيه الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . .

أما القاسية قلوبهم - وهم مشركو العرب - فستلين قلوبهم آخر الأمر ، وسيؤمنون بالله ، وينقادون للحق . .

وأما الذين فى قلوبهم مرض - وهم أهل الكتاب - وخاصة اليهود ، فإنهم لن يتحولوا عن

حالهم مع القرآن ، بل سيظلون على امترائهم وجدلهم فيه . . وهذا شأنهم أبدا حتى تأتيهم الساعة ، بل إن كثيرا منهم سيظل على امترائه حتى يرى عذاب اللّه فى هذا اليوم العظيم . .

(188/526)

وفى وصف هذا اليوم بأنه عقيم ، إشارة إلى أنه لا يوم بعده ، حتى يمكن أن تتحول فيه أحوال الناس ، ويصلح المفسد منهم ما أفسد . . إنه يوم عقيم لا يلد يوما بعده ، كما تلد أيام الدنيا ، أياما بعدها . .

ثم يجىء قوله تعالى :

« الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ . . فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ » :

أي فى هذا اليوم ، يكون الملك للّه وحده ، لا يملك أحد لنفسه أو لأحد شيئا . .

وفى هذا الموقف يفصل اللّه بين عباده ، ويقضى بالحقّ بينهم . . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ، ينعمون برضوان اللّه ، ويخلدون فى رحمته . . وأما الذين كفروا وكذبوا بآيات اللّه ، وجادلوا بالباطل فيها ، فأولئك لهم عذاب مهين ، يذلّهم

ويخزيهم .

وفى تخصيص الملك للّه فى هذا اليوم ، مع أن الملك للّه أبدا ، فى هذا اليوم وفى كل يوم ، إشارة إلى أن هذا اليوم يتجرد فيه كل ذى سلطان من سلطانه ، وكل ذى قوة من قوته ، وكل ذى مال من ماله ، فلا تصريف لأحد ، فى الظاهر أو الباطن ، كما للناس تصريف - فى الظاهر - فيما خوّلهم اللّه من سلطان ، وأموال . . فى هذه الدنيا ثم يجىء قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ » . .

هو إشارة إلى إحكام اللّه لآياته ، بعد أن نسخ ما ألقى الشيطان فيها . .

(189/526)

فهؤلاء الذين هاجروا فى سبيل اللّه ، فرارا بدينهم ، ثم قتلوا استشهادا فى سبيل اللّه ، أو ماتوا ميتة طبيعية - هم من الذين أحكم اللّه آياته فيهم ، فنجاهم من الافتتان فى دينهم ، وجزاهم على صبرهم على هذا الابتلاء فى أموالهم وأنفسهم ، أجرا عظيما ، حيث رزقهم أطيب رزق وأكرمه ، وهو الحق الذي معهم ، والإيمان الذي عمر قلوبهم ، ثم النّصر على عدوّهم ، والتمكين لهم فى الأرض .

ثم الرزق الأعظم بهذا الفوز بجنّات النعيم فى الآخرة . . « وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ »

ومن عطائه الجزيل الجليل ، هذا النعيم الذي ينعم به المؤمنون فى جنات الخلد ، لهم فيها ما تشتهى أنفسهم ولهم فيها ما يدّعون . . نزلا من غفور رحيم . . وهذا هو المدخل الذي يدخلهم اللّه فيه ، ويملأ قلوبهم به غبطة ورضا . . « وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ » بمن هم أحق برضاه ومغفرته وإحسانه من عباده . .

« حَلِيمٌ » لا يعجل مقوبته ، بل يمهل الظالمين ، حتّى يكون لهم نظر فى أمرهم ، ورجعة إلى ربّهم . . فإن لم يفعلوا فالنار مثواهم : « وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ » (26 : الزمر) .

هذه الآية الكريمة : « وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ . . وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » . ، وما سبقها أو تلاها من آيات ـ هى التي نسحت جولها قصة « الغرانقة » التي آن أن نحدثك عنها وقد رأينا الآيات جميعها تعرض صورة من صور هذا الصّراع ، الذي عرض القرآن الكريم كثيرا من صوره ، بين النبىّ ، وبين المشركين والكافرين والمنافقين ومن فى قلوبهم مرض . . وهى فى صورتها تلك ليس فيها شىء على غير مألوف ما جاء من صور هذا الصراع بين أنبياء اللّه ورسله ، مع أقوامهم . .

فمن أين إذن جاءت خرافة « الغرانيق العلى » ؟ ذلك ما تراه فيما سنعرضه عليك الآن . .

كان موضوع الناسخ والمنسوخ فى القرآن ، من القضايا البارزة ، التي شغل بها علماء التفسير ، والفقه . . وقد عرضنا لهذه القضية فى مبحث خاص فى الجزء الأول من هذا التفسير . . وكان من رأينا ـ ومازلنا عليه ـ أن لا نسخ فى القرآن . . (1)

وقد نظر المفسّرون فى قوله تعالى : « وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ . . ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ ـ »

نظر المفسرون فى قوله تعالى : « فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ » فرأوا هذا الخبر بالنسخ ، فكان هذا منطلقا ينطلقون منه إلى إثارة هذه القضية ، وإلى البحث عن المنسوخ الذي نسخه اللّه ، وكان من هذا أيضا امتداد النظر إلى ما وراء القرآن الكريم ، والإصغاء إلى ما يلقى إليهم من أخبار وروايات يمكن أن يتّكأ إليها ، للكشف عن أساس تقوم عليه الآية الكريمة ، ويتحقق بها ما أخبر به اللّه سبحانه وتعالى من نسخ لما ألقى الشيطان . . ثم كان ذلك داعية للبحث عن هذا الذي ألقاه الشيطان ، ثم نسخه اللّه . . !

هناك إذن أمران ، كان على المفسّرين الكشف عنهما فى هذا الموقف :

ما هى أمنية النبي ؟

ثم ماذا ألقى الشيطان فى أمنية النبىّ ؟ وأين ألقاه ؟ ثم بماذا نسخه اللّه ؟

وقد كان ! فألقى المفسّرون بشباكهم فى هذا البحر المتلاطم ، الذي يفيض من يدى القصاص ، ورواة الأخبار . . فجاءت بأكثر من صيد .

فمن ذلك ما روى أن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم قرأ مرة سورة « النجم » والمشركون يستمعون إليه ، وحين بلغ إلى

---

(1) كلام لا يلتفت إليه .

قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى » أتبع ذلك بقوله : « تلك الغرانيق « 1 » العلا » وفى رواية :

«إن شفاعتها لترتجى ، وإنها لمع الغرانيق العلا » وفى رواية ثالثة : « و الغرانقة العلا تلك الشفاعة ترتجى » . . وفى رواية رابعة « إن شفاعتهن لترتجى » من غير ذكر الغرانقة العلا .

---

(1) الغرانيق : جمع غرنيق ، أو غرنوق (بضم الغين) أو غرانق (بضم الغين أيضا) وهو طائر مائى يشبه الكركي ، ويشبه به الشاب الأبيض الجميل كما يشبه به الملائكة .

(192/526)

فهذه أربع روايات فى هذه الواقعة ، وكلّها ذات أسانيد متصلة . .

فالرواية الأولى تقول : إن النبي قرأ الآيات هكذا : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى . . تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتها لترتجى » ! والرواية الثانية تقول : إن قراءة النبي كانت هكذا : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى إن شفاعتها لترتجى ، وإنها لمع الغرانيق العلا » ! وفى الرواية الثالثة جاءت القراءة هكذا : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى ، والغرانقة العلا تلك الشفاعة ترتجى » .

والرواية الرابعة كانت هكذا : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى ، إن شفاعتهن لترتجى » .

أما القرآن الكريم ، فيقول : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى

« 1 » إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ » .

ومدلول هذه الروايات ، أن النبي صلى اللّه عليه وسلم ، قد ذكر فى تلاوته لسورة النجم ، آلهة قريش بخير ، وجعل لها عند اللّه مكانا عليّا ، حتى إنها لتشفع عنده ، لمن يلتمس الشفاعة عندها ، ويستحقها منها .

وتقول الرواية : إن النبىّ حين بلغ آخر السورة ، سجد ، وسجد معه المسلمون ، والمشركون ، عند ما سمعوه ، وقد أثنى على آلهتهم ! !

---

(1) قسمة ضيزى : أي جائرة ظالمة ، إذ جعلوا للّه الإناث ، ولهم الذكور . . والذكور فى عرفهم أكرم من الإناث .

(193/526)

وقد تداخلت مع هذه الرواية روايات أخرى ، وكأنها تريد أن تفسر هذه الواقعة ، وتجد لها وجها تقبل عليه .

فتقول بعض الروايات : إن الشيطان ألقى على لسان النبىّ هذا القول ، الذي قاله فى حق الآلهة - اللات والعزى ومناة - وأنه صلى اللّه عليه وسلم ، كان قد ألمّ به ضيق وحزن شديد ، لما كان بينه وبين قومه من خلاف مستحكم ، « فتمنى » فى تلك الحال أن لو نزل عليه شىء من القرآن يقارب بينه وبين قومه ، ويباعد شقة الخلاف بينه وبينهم ، ولهذا فإنه -

عليه الصلاة والسلام ـ حين تلا سورة النجم ، وبلغ الموضع الذي تذكر فيه آلهتهم ، ألقى الشيطان إليه بهذه الكلمات ، التي ترفع من شأنها ، وتجعل لها مكان الشفاعة عند الله . .

ثم تستطرد الرواية فتقول : « إن جبريل ـ عليه السلام ـ جاء إلى النبىّ ، فلما عرض عليه النبىّ السورة بما أدخله الشيطان عليها ، قال له جبريل : « ما جئتك بها هكذا ! ! »

فحزن النبىّ لذلك ، فنزل قوله تعالى ـ تسلية له ـ : « وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ . . » ثم قوله تعالى : « وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً » (73 ـ 75 : الإسراء) .

ونقول : إن هذه الروايات ، وتلك النقول ، كانت موضع إنكار ، واستنكار عند بعض المفسّرين ، وأصحاب السير . . إذ كانت ـ فى صورتها تلك ـ عدوانا صارخا على مقام النبوّة ، ونسخا صريحا لعصمة النبىّ . !

وقد كان القاضي عياض خير من تصدّى لهذه الأكذوبة ، وفضح مستورها وعقد لذلك فصلا فى كتابه : « الشفا . . بتعريف حقوق المصطفى . . » نرى من الخير أن نعرض جانبا منه . . (1)

---

(1) تم ذكره فيما سبق لذا آثرنا عدم تكراره .

والقصة أو الأكذوبة ـ كما ترى ـ مهلهلة النسج ، واهية البناء ، أراد مخرجوها أن يخفوا عوارها ، ويداروا هزالها ، فألقوا إليها كثيرا من الرقع ، حتى لكاد يختفى الأصل ، ولا يرى منها إلا تلك المرقعات التي أضيفت إليها ! فالمادّة التي تخلّقت منها القصة ، مادة فاسدة ، لا يتخلّق منها شىء يصلح أن يعيش فى الحياة ، وأن يكتب له بقاء فى عالم الأحياء .

ونسأل : ما مضمون هذا الخبر فى قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ » .

أليس من معنى هذا أن التمني ليس حالا واحدة تعرض للنبىّ فى حياته ، وإنما هى أمنيات تعيش مع النبي أو الرسول حياته كلها ، وأنه كلّما تمنّى أمنية ألقى الشيطان فيها ؟ .

فكيف لا يلقى الشيطان فى أمنية النبىّ إلا فى هذه المرة ؟ وماذا يحول بينه وبين أن يلقى فى كل أمنيّة للنبىّ ؟ أليس هذا مما يتمناه الشيطان ، ويعمل له جهده لو استطاع إليه سبيلا ؟ .

وأكثر من هذا ، فإن الذين يقولون بقصّة الغرانقة العلا ، يذهبون إلى أن التّمنى ، ليس معناه من الأمانىّ ، وإنما معناه القراءة ، ويستشهدون لذلك بهذا البيت اليتيم من الشعر ، وهو من

قول حسان بن ثابت فى عثمان رضى اللّه عنه .

تمنّى كتاب اللّه أول ليله وآخره لاقى حمام المقادر وهو ـ لو عقلوا ـ حجة عليهم . . لأنه يعنى أنه كلما قرأ النبىّ قرآنا ، دخل عليه الشيطان ، وألقى فيما يقرأ بما يريد ، حتى يفسد مادة القرآن ، ويغيّر وجهها ، ويطفىء نورها . .

(195/526)

والذين يروون هذه القصة ، لم يجيئوا بحادثة أخرى ، كان للشيطان فيها إلقاء فى قراءة النبىّ ، على نحو ما رووه فى هذه القصة المفتراة ! ثم إن الذين قالوا : إن النبىّ سها فوقع هذا الخاطر فى قلبه ، أو جرى سرّا على لسانه ، ثم التقطه الشيطان فأذاعه . . أو إن النبي أخذته سنة فجرى على لسانه هذا القول عند قراءته ، بحكم النوم ـ هذا يعنى أن النبي ، صلوات اللّه وسلامه عليه ـ كان فى حال يقظته يعيش مع هذه الخواطر ، ويراود نفسه بها ، وأن عقله اليقظ ـ كما يقول علماء النفس ـ كان يأبى عليه أن يصرّح به ، فلما نام أو سها ، انحلّت هذه الخواطر من عقال العقل اليقظ ، وانطلقت لا شعوريا إلى الخارج ، فكانت حديثا مسموعا . . وهذا يعنى أيضا أن النبي ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ معترف فيما بينه وبين نفسه بهذه الأصنام ، وبأنها غرانقة علا ، وأن شفاعتها ترتجى ، وأنه إذا لم يكن يصرح

بذلك ، وهو فى حال اليقظة ، فقد صرّح به سهوا ، أو حين أخذته سنة من النوم ! . .

وهذا يعنى ثالثا ، الكفر ، والنفاق معا . . ! وإنه لهو الكفر الذي يدمغ به كل مسلم ، تقع فى نفسه أية شبهة من الشبه تحوم فى سماء النبوّة الصافية ، المشرقة بنور ربّها .

وبعد هذا كله ، وقبل هذا كلّه ، فإن فيصل الحكم فى هذا الموقف هو كلمة واحدة : نبى ، أو غير نبيّ ؟ رسول أو غير رسول ؟

فإن كان « محمد » صلوات اللّه وسلامه عليه ، غير نبىّ ، وغير رسول ، فهذا موقف له حسابه وتقديره ، وللكلام الذي يقال فيه حساب وتقدير . .

(196/526)

فكل ما ينسب إليه من أخطاء ، وما يرمى به من تهم ، ممكن الوقوع ، ويمكن التسليم به ، إذ هو ـ والحال كذلك ـ إنسان ، مجرد إنسان ، يجوز عليه ما يجوز على الناس ، من صدق وكذب ، ومن إيمان وكفر ! أما إن كان « محمد » ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ نبيا ورسولا ، فإن الذي يعتقد فى نبوته ، ويؤمن برسالته ، ثم يلحق به ما يقع فى حياة الناس من أخطاء ، وعثرات ، وتخبطات ، فهذا لا يستقيم أبدا مع صفة النبوة ، فإن الرسول مبلّغ عن ربه ، وهو بهذه الصفة معصوم من الخطأ والنسيان ، فيما يتصل برسالة ربّه ، وما تحمل من

شريعة وعقيدة ، إذ أن أي انحراف أو تحريف فى هذا ، معناه سوق الناس إلى طرق مفتوحة ، مليئة بالعثرات والحفر ، على حين أن دعوة السماء تدعوهم إلى صراط مستقيم ، ولا يستقيم هذا الصراط مع تلك الأخلاط ، وهذه المتناقضات ، التي تلتقى بالناس ، وهم سائرون فيه .

ذلك ما يجب أن يتأكد ، ويتقرر ، أولا عند من يؤمنون بالأنبياء . . إنهم لن يكونوا على غير تلك الحال التي توجب لهم العصمة ، وتحمى الرسالة التي يحملونها من أية شائبة تقلق بها .

وإذن فمن الضلالة والجهل ، أن يقول قائل : إن النبىّ - ويقولها هكذا النبىّ - حين قرأ سورة النجم ، نسى ، أو سها ، أو أخذته سنة ، أو غلبه خاطر قوىّ فى نفسه ، أو ألقى الشيطان إليه ، فذكر الأصنام التي كان يعبدها قومه ، وأثنى عليها ، ورفع منزلتها ، وجعل لها عند اللّه شفاعة ! أ هذا قول يقال ، ويلتقى أوله مع آخره ؟

نبىّ يقر قرآنا منزلا من السماء . . ثم تعدو عليه عوادى الشرّ ، فتغير من آيات اللّه ، وتبدل من شريعته ، وهو على لسانه ، بل وبلسانه ؟

وماذا ترك للضالين ، والمنافقين ، وأعداء الأنبياء ؟

(197/526)

قد يكون سائغا أن تنفى عن « محمد » صفة النبوة والرسالة على سبيل المكابرة ، أو من باب الكفر والإلحاد ، ثم يقال : إنه قال فى معبودات قريش ما قال . . إنه لا يعدو أن يكون حينئذ واحدا من مشركى قريش ، الذين يتعاملون مع هذه الآلهة ، ويتعبدون لها .

أما ومحمد نبىّ ، فإنه فى عصمة ، فوق الخطأ وفوق النسيان ! عن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما ، قال : « قلت يا رسول اللّه . .

أأكتب عنك كل ما أسمع ؟ قال : « نعم » قلت : فى الرضا والغضب ؟ قال :

« نعم » فإنى لا أقول فى ذلك كلّه إلّا حقّا » .

والحديث أيّا كان سنده ، فإن القرآن الكريم ينطق بهذا فى قوله تعالى : « وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى » . فهذا حكم قاطع بأن الرسول ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ لا ينطق عن هوى ، ولا يبلغ عن اللّه إلا ما يوحى إليه . . فكيف يكون للقول بأن الرسول نطق بكذا وكذا مما ليس من عند اللّه ، ثم يتعلّل لذلك بأنه كان سهوا ، أو حديث خاطر ، أو نحو هذا ـ كيف يكون لهذا القول مكان من القبول على أي وجه من الوجوه مع قول اللّه تعالى : « وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى » ؟

إن تلك الفرية مما دسّ على المسلمين ، فى غير انتباه منهم إليه ، ولا تقدير للشر الذي ينجم عنه ، وشغلهم الخبر بغرابته وإثارته عن أن ينظروا فيه نظرا متفحصا دارسا . .

ولو أنهم فعلوا لما كان لهذا الحديث مكان فى كتب الحديث ، أو الفقه ، أو التفسير ، سواء أ

كان ذلك لمجرد نقل الخبر ، ثم تجريحه ، وتكذيبه ، أو كان لنقله ، ثم نصب العلل التي تخرج به عن مفهومه . . فهو حديث خرافة ، لا ينبغي النظر إليه ، أو الوقوف عنده .

(198/526)

وبعد ، فإن مفهوم الآية الكريمة : « وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ . . ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ . . » . نقول إن مفهوم الآية الكريمة على هذا الوجه الذي قامت فى ظله قصة « الغرانقة العلا » . هو اتهام لرسل اللّه وأنبيائه جميعا ، بأنهم تحت سلطان الشيطان ، وأنه راصد لهم ، آخذ على ألسنتهم ، فلا تستقيم ألسنتهم بقراءة آية من آيات اللّه ، حتى يخرجها الشيطان على الوجه الذي يراه ، ويلوى لسان الرسول والنبي إلى ما يريد . .

فسبحانك . . سبحانك . هذا بهتان عظيم ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشقّ الأرض ، وتخرّ الجبال هدّا ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 9 صـ 1061 . 1085 ﴾ . بتصرف يسير .

(199/526)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ عطف على جملة ﴿ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ [الحج : 49] لأنه لما أفضى الكلام السابق إلى تثبيت النبي عليه الصلاة والسلام وتأنيس نفسه فيما يلقاه من قومه من التكذيب بأن تلك شنشنة الأمم الظالمة من قبلهم فيما جاء عقبَ قوله : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ﴾ [الحج : 48] الخ .

.

وأنه مقصور على النّذارة فمن آمن فقد نجا ومن كفر فقد هلك ، أريد الانتقال من ذلك إلى تفصيل تسليته وتثبيته بأنه لقي ما لقيه سلفُه من الرسل والأنبياء عليهم السلام ، وأنه لم يسلم أحد منهم من محاولة الشيطان أن يفسد بعض ما يحاولونه من هدي الأمم وأنهم لقُوا من أقوامهم مكذّبين ومصدّقين سنةَ الله في رُسله عليهم السلام .

فقوله : ﴿ من رسول ولا نبيء ﴾ نص في العموم ، فأفاد أنّ ذلك لم يعدُ أحداً من الأنبياء والرسل .

وعطف ﴿ نبي ﴾ على ﴿ رسول ﴾ دالّ على أنّ للنبي مَعنى غيرُ معنى الرسول:

فالرسول : هو الرجل المبعوث من الله إلى الناس بشريعة .

والنبي : مَن أوحَى الله إليه بإصلاح أمر قوم بجملهم على شريعة سابقةٍ أو بإرشادهم إلى ما هو مستقر في الشّرائع كلها فالنبي أعمّ من الرسول ، وهو التحقيق .

والتمنّي : كلمة مشهورة ، وحقيقتها : طلب الشيء العسير حصولُه .

والأمنية : الشيء المتمنّى .

وإنما يتمنى الرسل والأنبياء أن يكون قومهم كلُّهم صالحين مهتدين ، والاستثناءُ من عمومِ أحوال تابعة لعموم أصحابها وهو ﴿ من رسول ولا نبيء ﴾ ، أي ما أرسلناهم في حال من الأحوال إلاّ في حالٍ إذا تمنّى أحدُهم أمنية ألقى الشيطان فيها الخ ، أي في حال حصول الإلقاء عند حصول التمني لأنّ أماني الأنبياء خيرٌ محض والشيطان دأبُه الإفساد وتعطيل الخير .

(200/526)

والقصر المستفاد من النفي والاستثناء قصر موصوف على صفة ، وهو قصر إضافي ، أي دون أن نرسل أحداً منهم في حال الخلو من إلقاء الشيطان ومكره .

والإلقاء حقيقته : رمي الشيء من اليد .

واستعير هنا للوسوسة وتسويل الفساد تشبيهاً للتسويل بإلقاء شيء من اليد بين الناس .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فكذلك ألقى السامري ﴾ [طه : 87] وقوله : ﴿ فألقوا إليهم القول ﴾ [النحل : 86] وكقوله تعالى : ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ﴾ [طه : 96] على ما حققناه فيما مضى .

ومفعول ﴿ ألقى ﴾ محذوف دل عليه المقام لأنّ الشيطان إنما يلقي الشر والفساد ، فإسناد التمني إلى الأنبياء دل على أنه تمنّي الهدى والصلاح ، وإسناد الإلقاء إلى الشيطان دلّ على أنه إلقاء الضلال والفساد .

فالتقدير : أدخل الشيطان في نفوس الأقوام ضلالات تفسد ما قاله الأنبياء من الإرشاد .

ومعنى إلقاء الشيطان في أمنية النبي والرسول إلقاء ما يضادُّها ، كمن يمكر فيلقى السمّ في الدّسم ، فإلقاء الشيطان بوسوسته : أن يأمر الناس بالتكذيب والعصيان ، ويلقي في قلوب أئمّة الكفر مطاعن يبثونها في قومهم ، ويروّج الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكر البُرهان ، والله تعالى يُعيد الإرشاد ويكرّر الهدي على لسان النبي ، ويفضح وساوس الشيطان وسوءَ فعله بالبيان الواضح كقوله تعالى:

﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ [الأعراف : 27] وقوله : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ [فاطر : 6] .

فالله بهديهِ وبيانه ينسخ ما يُلقِي الشيطان ، أي يزيل الشبهات التي يلقيها الشيطان ببيان الله الواضح ، ويزيد آيات دعوة رسله بياناً ، وذلك هو إحكام آياته ، أي تحقيقها وتثبيت

مدلولها وتوضيحها بما لا شبهة بعده إلا لمن رِين على قلبه ، وقد تقدم معنى الآيات المحكمات في آل عمران .

(201/526)

وقد فسر كثيرٌ من المفسرين ﴿ تمَنَى ﴾ بمعنى قَرَأ ، وتبعهم أصحاب كتب اللغة وذكروا بيتاً نسبوه إلى حسّان بن ثابت وذكروا قصة بروايات ضعيفة سنذكرها .

وأيّا ما كان فالقول فيه هو والقول في تفسير التمني بالمعنى المشهور سواءٌ ، أي إذا قرأ على الناس ما أنزل إليه ليهتدوا به ألقَى الشيطان في أمنيته ، أي في قراءته ، أي وسوس لهم في نفوسهم ما يناقضه وينافيه بوسوسته للناس التكذيب والإعراض عن التدبر .

فشبه تسويل الشيطان بوسوسته للكافرين عدمَ امتثال النبي بإلقاء شيء في شيء لخلطه وإفساده .

وعندي في صحة إطلاق لفظ الأمنية على القراءة شك عظيم ، فإنه وإن كان قد ورد تمنّى بمعنى قرأ في بيت نسب إلى حسّان بن ثابت إن صحت رواية البيت عن حسان على اختلاف في مصراعه الأخير:

تمنى كتاب الله أولَ ليله . . .

تمنيَ داوود الزبورَ على مَهل

فلا أظن أن القراءة يقال لها أمنية .

ويجوز أن يكون المعنى أن النبي إذا تمنّى هدْي قومه أو حرَص على ذلك فلقي منهم العناد ، وتمنّى حصول هداهم بكل وسيلة ألقى الشيطان في نفس النبي خاطر اليأس من هداهم عسى أن يُقْصر النبيءُ من حرصه أو أن يضجره ، وهي خواطر تلوح في النفس ولكن العصمة تعترضها فلا يلبث ذلك الخاطر أن ينقشع ويرسخ في نفس الرسول ما كلّف به من الدأب على الدعوة والحرص على الرشد .

فيكون معنى الآية على هذا الوجه ملوّحاً إلى قوله تعالى : ﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سُلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾ [الأنعام : 35] .

و﴿ ثُمّ ﴾ في قوله : ﴿ ثم يحكم الله آياته ﴾ للترتيب الرتبي ، لأنّ إحكام الآيات وتقريرها أهمّ من نَسخ ما يُلقي الشيطان إذ بالإحكام يتضح الهُدى ويزدادُ ما يلقيه الشيطان نسخاً .

وجملة ﴿ والله عليم حكيم ﴾ معترضة .

ومعنى هذه الآية : أن الأنبياء والرسل يرجون اهتداء قومهم ما استطاعوا فيبلغونهم ما ينزل إليهم من الله ويعظونهم ويدعونهم بالحجة والمجادلة الحسنة حتى يظنوا أن أمنيتهم قد نجحت ويقترب القوم من الإيمان ، كما حكى الله عن المشركين قولهم : ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾

[الفرقان : 41 - 42] فيأتي الشيطان فلا يزال يوسوس في نفوس الكفار فينكصون على أعقابهم ، وتلك الوساوس ضروب شتى من تذكيرهم بحب آلهتهم ، ومن تخويفهم بسوء عاقبة نبذ دينهم ، ونحو ذلك من ضروب الضلالات التي حُكيت عنهم في تفاصيل القرآن ، فيتمسك أهل الضلالة بدينهم ويصدّون عن دعوة رسلهم ، وذلك هو الصبر الذي في قوله : ﴿ لولا أن صبرنا عليها ﴾ [الفرقان : 42] وقوله : ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ﴾ [ص : 6] .

وكلما أفسد الشيطان دعوة الرّسل أمرَ الله رسلَه فعاودوا الإرشاد وكرروه وهو سبب تكرر مواعظ متماثلة في القرآن ، فبتلك المعاودة يُنسخ ما ألقاه الشيطان وتُثبت الآيات السالفة .

فالنسخ : الإزالة ، والإحكام : التثبيت .

وفي كلتا الجملتين حذف مضاف ، أي ينسخ آثارَ ما يُلقي الشيطان ، ويُحكم آثارَ آياته .

واللامان في قوله ﴿ ليجعل ﴾ وفي قوله ﴿ وليعْلَمَ ﴾ متعلقان بفعل ﴿ ينسخ الله ﴾ فإن

النسخ يقتضي منسوخاً ، وفي ﴿ يجعل ﴾ ضميرٌ عائد إلى الله في قوله : ﴿ فينسخ الله ﴾ .

والجعل هنا : جَعل نظام ترتب المسببات على أسبابها ، وتكوينِ تفاوت المدارك ومراتب درجاتها .

فالمعنى : أنّ الله مكّن الشيطان من ذلك الفعل بأصل فطرته من يوم خلق فيه داعية الإضلال ، ونسخ ما يلقيه الشيطان بواسطة رسُله وآياته ليكون من ذلك فتنة ضلال كفر وهدي إيمان بحسب اختلاف القابليات .

(203/526)

فهذا كقوله تعالى : ﴿ قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط علي مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : 39 -40] .

ولام ﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة ﴾ مستعار لمعنى الترتب مثل اللام في قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً ﴾ [القصص : 8] .

وهي مستعارة لمعنى التعقيب الذي حقه أن يكون بحرف الفاء ، أي تحصل عقب النسخ

الذي فعله الله فتنةُ من افتتن من المشركين بانصرافهم عن التأمل في أدلة نسخ ما يلقيه الشيطان ، وعن استماع ما أحكم الله به آياته ، فيستمر كفرهم ويقوى .

وأما لام ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك ﴾ فهي على أصل معنى التّعليل ، أي ينسخ الله ما يلقي الشيطان لإرادة أن يعلم المؤمنون أنه الحق برسوخ ما تمناه الرسول والأنبياء لهم من الهدى كما يحصل لهم بما يحكم الله من آياته ازدياد الهدى في قلوبهم .

و ﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾ هم المتردّدون في قبول الإيمان .

و ﴿ القاسية قلوبهم ﴾ هم الكافرون المصممون على الكفر .

والفريقان هم المراد بـ ﴿ الظالمين ﴾ في قوله : ﴿ وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ .

فذكر ﴿ الظالمين ﴾ إظهار في مقام الإضمار للإيماء إلى أن علّة كونهم في شقاق بعيد هي ظلمهم ، أي كفرهم .

والشقاق : الخلاف والعداوة .

والبعيد هنا مستعمل في معنى : البالغ حدّاً قوياً في حقيقته .

تشبيهاً لانتشار الحقيقة فيه بانتشار المسافة في المكان البعيد كما في قوله تعالى ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ [فصلت : 51] أي دعاء كثير مُلح .

وجملة ﴿ وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ معترضة بين المتعاطفات .

و ﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ هم المؤمنون بقرينة مقابلته بـ ﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾ وبقوله

﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ .

فالمراد بالعلم الوحي والكُتب التي أوتيها أصحاب الرسل السابقين فإنهم بها يصيرون من أهل العلم .

(204/526)

وإطلاق ﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ على المؤمنين تكرر في القرآن .

وهذا ثناء على أصحاب الرسل بأنهم أوتوا العلم ، وهو علم الدّين الذي يبلغهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فإن نور النُّبوءة يشرق في قلوب الذين يصحبون الرسول .

ولذلك تجد من يصحب الرسول صلى الله عليه وسلم قد يكون قبل الإيمان جِلفاً فإذا آمن انقلب حكيماً ، مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " .

وضمير ﴿ أنه الحق ﴾ عائد إلى العلم الذي أوتوه ، أي ليزدادوا يقيناً بأن الوحي الذي أوتوه هو الحق لا غيره مما ألقاه الشيطان لهم من التشكيك والشبه والتضليل ، فالقصر المستفاد من تعريف الجزأين قصر إضافي .

ويجوز أن يكون ضمير ﴿ أنه ﴾ عائداً إلى ما تقدم من قوله ﴿ فينسخ الله ﴾ إلى قوله ﴾

ثم يحكم الله آياته ﴾ ، أي أن المذكور هو الحق ، كقول رُؤبة:

فيها خطوط من سواد وبلق . . .

كأنه في الجِلد توليع البَهق

أي كان كالمذكور .

وقوله ﴿ فيؤمنوا به ﴾ معناه : فيزدادوا إيماناً أو فيؤمنوا بالناسخ والمحكَم كما آمنوا بالأصل .

والإخباتُ : الاطمئنان والخشوع .

وتقدم آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ وبشر المخبتين ﴾ [الحج : 34] ، أي فيستقر ذلك في قلوبهم كقوله تعالى : ﴿ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [البقرة : 260] .

(205/526)

وبما تلقيتَ في تفسير هذه الآية من الانتظام البيّن الواضح المستقل بدلالته والمستغني بنَهله عن عُلالته ، والسالم من التكلّفات والاحتياج إلى ضميمة القصص ترى أن الآية بمعزل عما ألصقه بها الملصقون والضعفاء في علوم السُّنّة ، وتلقاه منهم فريق من المفسرين حباً في غرائب النوادر دون تأمل ولا تمحيص ، من أن الآية نزلت في قصة تتعلق بسورة النجم فلم

يكتفوا بما أفسدوا من معنى الآية حتى تجاوزوا بهذا الإلصاق إلى إفساد معاني سورة النجم ، فذكروا في ذلك روايات عن سعيد بن جبير ، وابن شهاب ، ومحمد بن كعب القرطبي ، وأبي العالية ، والضحاك وأقربُها رواية عن ابن شهاب وابن جبير والضحاك قالوا : إنّ النبي صلى الله عليه وسلم جلس في ناد من أندية قُريش كثير أهله من مسلمين وكافرين ، فقرأ عليهم سورة النجم فلما بلغ قوله : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 19 - 20] ألقى الشيطان بين السامعين عقب ذلك قوله : ﴿ تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ﴾ ففرح المشركون بأن ذكَر آلهتهم بخير ، وكان في آخر تلك السورة سجدة من سجود التلاوة ، فلما سجد في آخر السورة سجد كلّ من حضر من المسلمين والمشركين ، وتسامع الناس بأن قُريشاً أسلموا حتى شاع ذلك ببلاد الحبشة ، فرجع من مهاجرة الحبشة نفرٌ منهم عثمان بن عفان إلى المدينة ، وأن النبي لم يشعر بأن الشيطان ألقى في القوم ، فأعلمه جبريل عليه السلام فاغتمّ لذلك فنزل قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ الآية تسلية له .

وهي قصة يجدها السامع ضِغثاً على إبَالة ، ولا يلقي إليها النّحرير بالَه .

وما رُويت إلا بأسانيد واهية ومنتهاها إلى ذكر قصة ، وليس في أحد أسانيدها سماع صحابي لشيء في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وسندها إلى ابن عباس سندٌ مطعون .

على أنّ ابن عباس يوم نزلت سورة النجم كان لا يحضر مجالس النبي صلى الله عليه وسلم وهي أخبار آحاد تعارض أصول الدين لأنها تخالف أصل عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم لا التباس عليه في تلقي الوحي .

ويكفي تكذيباً لها قوله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ [النجم : 3] وفي معرفة الملكَ .

فلو رووها الثقات لوجب رفضها وتأويلها فكيف وهي ضعيفة واهية .

وكيف يروج على ذي مُسكة من عقل أن يجْتمع في كلامٍ واحد تسفيهِ المشركين في عبادتهم الأصنام بقوله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ [النجم : 19] إلى قوله : ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ [النجم : 23] فيقع في خلال ذلك مدحها بأنها "الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى" .

وهل هذا إلا كلام يلعنُ بعضُه بعضاً .

وقد اتفق الحاكون أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم كلها حتى خاتمِتها ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ [النجم : 62] لأنهم إنما سجدوا حين سجد المسلمون ،

فدلّ على أنهم سمعوا السورة كلها وما بين آية ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ [النجم : 19] وبين آخر السورة آيات كثيرة في إبطال الأصنام وغيرها من معبودات المشركين ، وتزييف كثير لعقائد المشركين فكيف يصحّ أن المشركين سجدوا من أجل الثناء على آلهتهم .

فإن لم تكن تلك الأخبار مكذوبة من أصلها فإن تأويلها : أن بعض المشركين وجدوا ذكر اللات والعُزّى فُرصة للدخَل لاختلاق كلمات في مدحهنّ ، وهي هذه الكلمات وروّجُوها بين الناس تأنيساً لأوليائهم من المشركين وإلقاء للريب في قلوب ضعفاء الإيمان .

وفي "شرح الطيبي على الكشاف" نقلاً عن بعض المؤرّخين : أن كلمات "الغرانيق . . . " (أي هذه الجمل) من مفتريات ابن الزِّبعرى .

(207/526)

ويؤيد هذا ما رواه الطبري عن الضحاك : "أن النبي صلى الله عليه وسلم أنزل عليه قصةُ آلهة العرب (أي قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ [النجم : 19] الخ) فجعَل يتلو : اللاّتَ والعُزّى (أي الآية المشتملة على هذا) فسمع أهل مكة نبي الله يذكر آلهتهم ففرحوا ودنوا يستمعون فألقَى الشيطان تلك الغرانيق العُلَى مِنها الشفاعة ترتجَى" فإن قوله : "دنوا يستمعون فألقى الشيطان" الخ يؤذن بأنهم لم يسمعوا أول السورة ولا آخرها وأن شيطانهم

ألقى تلك الكلمات .

ولعل ابن الزبعرى كانت له مقدرة على محاكاة الأصوات وهذه مقدرة توجد في بعض الناس .

وكنت أعرف فتى من أترابنا ما يحاكي صوت أحد إلا ظنه السامع أنه صوتُ المُحاكَى .

وأما تركيب تلك القصة على الخبر الذي ثبت فيه أنّ المشركين سَجدوا في آخر سورة النجم لما سجد المسلمون ، وذلك مروي في الصحيح ، فذلك من تخليط المؤلفين .

وكذلك تركيب تلك القصة على آية سورة الحجّ .

وكم بين نزول سورة النجم التي هي من أوائل السور النازلة بمكة وبين نزول سورة الحج التي بعضها من أول ما نزل بالمدينة وبعضها من آخر ما نزل بمكة .

وكذلك ربط تلك القصة بقصة رجوع من رَجع من مهاجرة الحبشة .

وكم بين مدّة نزول سورة النجم وبين سنة رجوع من رجع من مهاجرة الحبشة .

(208/526)

فالوجه : أن هذه الشائعة التي أشيعت بين المشركين في أول الإسلام ، إنما هي من اختلاقات المستهزئين من سفهاء الأحلام بمكة مثل ابن الزبعرى ، وأنهم عمدوا إلى آية ذُكرت فيها

اللات والعُزّى ومناةَ فركّبوا عليها كلمات أخرى لإلقاء الفتنة في الناس وإنما خَصُّوا سورة النجم بهذه المرجَفة لأنهم حَضروا قراءتها في المسجد الحرام وتعلقت بأذهانهم وتطلباً لإيجاد المعذرة لهم بين قومهم على سجودهم فيها الذي جعله الله معجزة النبي صلى الله عليه وسلم وقد سرى هذا التعسف إلى إثبات معنى في اللغة ، فزعموا أن ﴿ تمنّى ﴾ بمعنى : قرأ ، والأمنية : القراءة ، وهو ادّعاء لا يوثق به ولا يُوجد له شاهد صريح في كلام العرب .

وأنشدوا بيتاً لحسان بن ثابت في رثاء عثمان رضي الله عنه:

تمنّى كتاب الله أول لَيْله . . .

وآخره لاقى حِمام المَقادر

وهو محتمل أن معناه تمنّى أن يقرأ القرآن في أول الليل على عادته فلم يتمكّن من ذلك بتشغيب أهل الحصار عليه وقتلوه آخر الليل .

ولهذا جعله تمنياً لأنه أحبَ ذلك فلم يستطع .

وربما أنشدوه برواية أخرى فظُنّ أنه شاهد آخر ، وربما توهَموا الرواية الثانية بيتاً آخر .

ولم يذكر الزمخشري هذا المعنى في الأساس ﴾ .

وقد قدمنا ذلك عند قوله تعالى : ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني ﴾ في سورة [البقرة : 78] .

وجملة ﴿ إن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ معترضة .

والواو للاعتراض ، والذين أوتوا العلم هم المؤمنون .

وقد جمع لهم الوصفان كما في قوله تعالى : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ في سورة [الروم : 56] .

وكما في سورة [سبأ : 6] ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ فإظهار لفظ ﴿ الذين آمنوا ﴾ في مقام ضمير ﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ لقصد مدحهم بوصف الإيمان ، والإيماء إلى أن إيمانهم هو سبب هديهم .

(209/526)

وعكسه قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ [الزمر : 3] .

فالمراد بالهُدى في كلتا الآيتين عناية الله بتيسيره وإلا فإن الله هدى الفريقين بالدعوة والإرشاد فمنهم من اهتدى ومنهم من كفر .

وكتب في المصحف ﴿ لهاد ﴾ بدون ياء بعد الدال واعتباراً بحالة الوصل على خلاف الغالب .

وفي الوقف يثبت يعقوب الياء بخلاف البقية .

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)

لمّا حكى عن الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم أن ما يلقيه لهم الشيطان من إبطال ما جاءت به الرّسل يكون عليهم فتنة .

خصّ في هذه الآية الكافرين بالقرآن بعد أن عمّهم مع جملة الكافرين بالرسل ، فخصّهم بأنهم يستمر شكّهم فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ويترددون في الإقدام على الإسلام إلى أن يُحال بينهم وبينه بحلول الساعة بغتة أو بحلول عذاب بهم قبل الساعة ، فالذين كفروا هنا هم مشركو العرب بقرينة المضارع في فعل ﴿ لا يزال ﴾ وفعل ﴿ حتى تأتيهم ﴾ الدّالين على استمرار ذلك في المستقبل .

ولأجل ذلك قال جمع من المفسرين : إن ضمير ﴿ في مرية منه ﴾ عائد إلى القرآن المفهوم من المقام ، والأظهر أنه عائد إلى ما عاد عليه ضمير ﴿ أنه الحق من ربك فيؤمنوا به ﴾ [الحج : 54] .

و﴿ الساعة ﴾ علَم بالغلبة على يوم القيامة في اصطلاح القرآن ، واليوم : يوم الحرب ، وقد شاع إطلاق اسم اليوم على وقت الحرب .

ومنه دُعيت حروب العرب المشهورة "أيام العرب" .

والعقيم : المرأة التي لا تلد ؛ استعير العقيم للمشؤوم لأنهم يُعدّون المرأة التي لا تلد مشؤومة .

فالمعنى : يأتيهم يوم يُستأصلون فيه قتلاً : وهذا إنذار بيوم بدر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(210/526)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾

معنى قوله تمنى في هذه الآية الكريمة فيه للعلماء وجهان من التفسير معروفان :

الأول : أن تمنى بمعنى : قرأ وتلا ومنه قول حسان في عثمان بن عفان رضي الله عنه :

تمنى كتاب الله أول ليله . . . وآخرها لاقى حمام المقادر

وقول الآخر :

تمنى كتاب الله آخر ليلة . . . تمنى داود الزبور على رسل

فمعنى تمنى في البيتين قرأ وتلا .

وفي صحيح البخاري ، عن ابن عباس أنه قال : إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته : إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه . وكون تمنى بمعنى : قرأ وتلا . هو قول أكثر المفسرين .

القول الثاني : أن تمنى في الآية من التمني المعروف ، وهو تمنية إسلام أمته وطاعتهم لله

ولرسله ، ومفعول ألقى محذوف فعلى أن تمنى بمعنى : أحب إيمان أمته ، وعلق أمله بذلك ، فمفعول ألقى يظهر أنه من جنس الوساوس ، والصد عن دين الله حتى لا يتم للنبي صلى الله عليه وسلم أو الرسول ما تمنى . .

ومعنى كون الإلقاء في أمنيته على هذا الوجه : أن الشيطان يلقي وساوسه وشبه ليصدّ بها عما تمناه الرسول أو النَّبي ، فصار الإلقاء كأنه واقع فيها بالصد عن تمامها والحيلولة دون ذلك .

وعلى أن تمنى بمعنى : قرأ . ففي مفعول ألقى تقديران :

أحدهما : من جنس الأول : أي ألقى الشيطان في قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو النَّبي الشبه والوساوس ليصد الناس عن اتباع ما يقرؤه ، ويتلوه الرسول أو النَّبي ، وعلى هذا التقدير فلا إشكال .

وأما التقدير الثاني : فهو ألقى الشيطان في أمنيته أي قراءته ما ليس منها ليظن الكفار أنه منها .

وقوله ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشيطان ﴾ يستأنس به لهذا التقدير .

(211/526)

وقد ذكر كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية قصة الغرانيق قالوا : سبب نزول هذه الآية الكريمة أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم بمكة ، فلما بلغ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللات والعزى وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 19-20] ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ، فلما بلغ آخر السورة سجد وسجد معه المشركون والمسلمون . وقال المشركون : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، وشاع في الناس أن أهل مكة أسلموا بسبب سجودهم مع النَّبي صلى الله عليه وسلم ، حتى رجع المهاجرون من الحبشة ظناً منهم أن قومهم أسلموا ، فوجدوهم على كفرهم .

وقد قدمنا في هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ، ويكون في الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول ، ومثلنا لذلك : بأمثلة متعددة ، وهذا القول الذي زعمه كثير من المفسرين : وهو أن الشيطان ألقى على لسان النَّبي صلى الله عليه وسلم ، هذا الشرك الأكبر والكفر البواح الذي هو قولهم : تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى ، يعنون : اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، الذي لا شك في بطلانه في نفس سياق آيات النجم التي تخللها إلقاء الشيطان المزعوم قرينة قرآنية واضحة على بطلان هذا القول لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم قرأ بعد موضع الإلقاء المزعوم بقليل قوله تعالى ، في اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى :

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [النجم : 23] وليس من المعقول أن النَّبي صلى الله عليه وسلم يسب آلهتهم هذا السب العظيم في سورة النجم متأخراً عن ذكره لها بخير المزعوم ، إلا وغضبوا ، ولم يسجدوا لأن العبرة بالكلام الأخير ، مع أنه قد دلت آيات قرآنية على بطلان هذا القول ، وهي الآيات الدالة على أن الله لم يجعل للشيطان سلطاناً على النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وإخوانه من الرسل ، وأتباعهم المخلصين كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ على الذين آمَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 99-100] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ [الحجر : 42] وقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخرة ﴾ [سبأ : 21] الآية وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ [إبراهيم : 22] الآية . وعلى القول المزعوم أن الشيطان ألقى على لسانه صلى الله عليه وسلم ذلك الكفر البواح ، فأي سلطان له أكبر من ذلك .

(213/526)

ومن الآيات الدالة على بطلان ذلك القول المزعوم قوله تعالى في النَّبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ [النجم : 3-4] وقوله ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ على مَن تَنَزَّلُ الشياطين تَنَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء : 221-222] وقوله في القرآن العظيم : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : 41-42] فهذه الآيات القرآنية تدل على بطلان القول المزعوم .

مسألة

اعلم : أن مسألة الغرانيق مع استحالتها شرعاً ، ودلالة القرآن على بطلانها لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج ، وصرح بعدم ثبوتها خلق كثير من علماء الحديث كما هو الصواب ، والمفسرون يروون هذه القصة عن ابن عباس من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس . ومعلوم أن الكلبي متروك ، وقد بين البزار رحمه الله : أنها لا تعرف من طريق يجوز ذكره إلا طريق أبي بشر عن سيعد بن جبير ، مع الشك الذي وقع في وصله ، وقد اعترف الحافظ ابن حجر مع انتصاره ، لثبوت هذه القصة بأن طرقها كلها إما منقطعة أو ضعيفة إلا طريق سعيد بن جبير .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن طريق سعيد بن جبير ، لم يروها بها أحد متصلة إلا أمية بن خالد ، وهو وإن كان ثقة فقد شك في وصلها .

فقد أخرج البزار وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فيما أحسب ، ثم ساق حديث القصة المذكورة ، وقال البزار : لا يرى متصلاً إلا بهذا الإسناد ، تفرد بوصله أمية بن خالد ، وهو ثقة مشهور وقال البزار : وإنما يروى من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس .

والكلبي متروك .

(214/526)

فتحصل أن قصة الغرانيق ، لم ترد متصلة إلا من هذا الوجه الذي شك راويه في الوصل ، ومعلوم أن ما كان كذلك لا يحتج به لظهور ضعفه ، ولذا قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : إنه لم يرها مسندة من وجه صحيح .

وقال الشوكاني في هذه القصة : ولم يصح شيء من هذا ، ولا يثبت بوجه من الوجوه ، ومع عدم صحته ، بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله كقوله ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴾ [الحاقة : 44] الآية وقوله ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ [النجم : 3] الآية . وقوله ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 74] فنفى المقاربة للركون فضلاً عن الركون ، ثم ذكر الشوكاني عن البزار أنها لا تروى بإسناد متصل ،

وعن البيهقي أنه قال : هي غير ثابتة من جهة النقل ، وذكر عن إمام الأئمة ابن خزيمة : أن هذه القصة من وضع الزنادقة وأبطلها ابن العربي المالكي ، والفخر الرازي وجماعات كثيرة ، وقراءته صلى الله عليه وسلم سورة النجم وسجود المشركين ثابت في الصحيح ، ولم يذكر فيه شيء من قصة الغرانيق . وعلى هذا القول الصحيح وهو أنها باطلة فلا إشكال .

(215/526)

وأما على ثبوت القصة كما هو رأي الحافظ ابن حجر فإنه قال في فتح الباري : إن هذه القصة ثابتة بثلاثة أسانيد كلها على شرط الصحيح ، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل ، وكذلك من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض ، لأن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها ، دل ذلك على أن لها أصلاً . فللعلماء عن ذلك أجوبة كثيرة أحسنها ، وأقربها : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان يرتل السورة ترتيلاً تتخلله سكتات ، فلما قرأ ﴿ وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى ﴾ قال الشيطان لعنه الله محاكياً لصوته : تلك الغرانيق العلى الخ فظن المشركون أن الصوت صوته صلى الله عليه وسلم ، وهو برئ ومن ذلك براءة الشمس من اللمس ، وقد أوضحنا هذه المسألة في رحلتنا إيضاحاً وافياً ، واختصرناها هنا ، وفي كتابنا : دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب .

والحاصل : أن القرآن دل على بطلانها ، ولم تثبت من جهة النقل ، مع استحالة الإلقاء على لسانه صلى الله عليه وسلم لما ذكر شرعاً ، ومن أثبتها نسب التلفظ بذلك الكفر للشيطان . فتبين أن نطق النَّبي صلى الله عليه وسلم بذلك الكفر ، ولو سهواً مستحيل شرعاً ، وقد دل القرآن على بطلانه ، وهو باطل قطعاً على كل حال ، والغرانيق : الطير البيض المعروفة واحدها : غرنوق كزنبور وفردوس ، وفيه لغات غير ذلك ، يزعمون أن الأصنام ترتفع إلى الله كالطير البيض ، فتشفع عنده لعابديها قبحهم الله ما أكفرهم ، ونحن وإن ذكرنا أن قوله ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشيطان ﴾ يستأنس به لقول من قال : إن مفعول الإلقاء المحذوف تقديره : ألقى الشيطان في قراءته ما ليس منها ، لأن النسخ هنا هو النسخ اللغوي ، ومعناه الإبطال والإزالة من قولهم : نسخت الشمس الظل ، ونسخت الريح الأثر ، وهذا كأنه يدل على أن الله ينسخ شيئاً ألقاه الشيطان ، ليس ما يقرؤه الرسول أو النَّبي ، فالذي يظهر لنا أنه الصواب .

(216/526)

وأن القرآن يدل عليه دلالة واضحة ، وإن لم ينته له من تكلم على الآية من المفسرين : هو أن ما يلقيه الشيطان في قراءة النَّبي : الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها ، كإلقائه

عليهم أنها سحر أو شعر ، أو أساطير الأولين ، وأنها مفتراة على الله ليست منزلة من عنده .

والدليل على هذا المعنى : أن الله بين أن الحكمة في الإلقاء المذكور امتحان الخلق ، لأنه قال : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الحج : 53] ثم قال ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : 54] فقوله ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ الحق ﴾ الآية . يدل على أنّ الشيطان يلقي عليهم ، أن الذي يقرأه النَّبي ليس بحق فيصدقه الأشقياء ، ويكون ذلك فتنة لهم ، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم ، ويعلمون أنه الحق لا الكذب كما يزعم لهم الشيطان في إلقائه : فهذا الامتحان لا يناسب شيئاً زاده الشيطان من نفسه في القراءة ، والعلم عند الله تعالى .

وعلى هذا القول ، فمعنى نسخ ما يلقى الشيطان : إزالته وإبطاله ، وعدم تأثيره في المؤمنين الذين أوتوا العلم .

ومعنى يحكم آياته : يتقنها بالإحكام ، فيظهر أنها وحي منزل منه بحق ، ولا يؤثر في ذلك محاولة الشيطان صد الناس عنها بإلقائه المذكور ، وما ذكره هنا من أنه يسلط الشيطان فيلقى في قراءة الرسول والنَّبي ، فتنة للناس ليظهر مؤمنهم من كافرهم .

بذلك الامتحان ، جاء موضحاً في آيات كثيرة قدمناها مراراً كقوله ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النار إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب وَيَزْدَادَ الذين آمنوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ الذين أُوتُواْ الكتاب والمؤمنون وَلِيَقُولَ الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والكافرون مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [المدثر : 31] الآية وقوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا القبلة التي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرسول مِمَّن يَنقَلِبُ على عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة : 143] الآية وقوله ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ والشجرة الملعونة فِي القرآن ﴾ [الإسراء : 60] أي لأنها فتنة ، كما قال ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجحيم ﴾ [الصافات : 62-64] الآية . لأنه لما نزلت هذه الآية قالوا : ظهر كذب محمد صلى الله عليه وسلم لأن الشجر لا ينبت في الموضع اليابس ، فكيف تنبت شجرة في أصل الجحيم إلى غير ذلك من الآيات ، كما تقدم إيضاحه مراراً ، والعلم عند الله تعالى واللام في قوله

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان ﴾ [الحج : 53] الآية الأظهر أنها متعلقة ، بألقى أي ألقى الشيطان في أمنية الرسل والأنبياء ، ليجعل الله ذلك الإلقاء فتنة للذين في قلوبهم مرض ، خلافاً للحوفي القائل : إنها متعلقة بيحكم ، وابن عطية القائل : إنها متعلقة بينسخ . ومعنى كونه : فتنة لهم أنه سبب لتماديهم في الضلال والكفر ، وقد أوضحنا معاني الفتنة في القرآن سابقاً ، وبينا أن أصل الفتنة في اللغة وضع الذهب في النار ، ليظهر بسبكه فيها أخالص هو أم زائف ، وأنها في القرآن تطلق على معان متعددة منها : الوضع في النار ، ومنه قوله تعالى ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات : 13] أي يحرقون بها . وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات ﴾ [البروج : 10] الآية أي أحرقوهم بنار الأخدود على أظهر التفسيرين ، ومنها : الاختبار وهو أكثر استعمالاتها في القرآن ، كقوله تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : 15] وقوله تعالى ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : 35] وقوله تعالى ﴿ وَأَلَّوِ استقاموا عَلَى الطريقة لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن : 16-17] ومنها : نتيجة الابتلاء إن كانت سيئة كالكفر والضلال كقوله ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [البقرة : 193] أي شرك بدليل قوله ﴿ الدين للَّهِ ﴾ [البقرة : 193] أي شرك بدليل قوله ﴿ وَيَكُونَ الدين للَّهِ ﴾ [البقرة : 193] وقوله في الأنفال ﴿ وَيَكُونَ الدين كُلُّهُ لله ﴾ [الأنفال : 39] ومما يوضح هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاَّ الله " الحديث .

فالغاية في الحديث مبينة للغاية في الآية ، لأن خير ما يفسر به القرآن بعد القرآن السنة ، ومنه بهذا المعنى قوله هنا ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان

(219/526)

فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي كفر وشك .

والثاني : منهما إطلاق مرض القلب على ميله للفاحشة والزنى ، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى ﴿ فَلاَ تَخْضَعْنَ بالقول فَيَطْمَعَ الذي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : 32] أي ميل إلى الزنى ونحوه ، والعرب تسمي انطواء القلب على الأمور الخبيثة : مرضاً وذلك معروف في لغتهم ومنه قول الأعشى :

حافظ للفرج راض بالتقى . . . ليس ممن قلبه فيه مرض

وقوله هنا ﴿ والقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : 53] قد بينا في سورة البقرة الآيات القرآنية الدالة على سبب قسوة القلوب في الكلام على قوله ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّن بَعْدِ ذلك فَهِيَ كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة : 74] وآية الحج هذه تبين أن ما إشتهر على ألسنة أهل العلم ، من أن النَّبي هو من أوحى إليه وحي ، ولم يؤمر بتبليغه ، وأن الرسول هو النَّبي الذي أوحى إليه ، وأمر بتبليغ ما أوحى إليه غير صحيح ، لأن قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا

مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ ﴾ الآية . يدل على أن كلاً منهما مرسل ، وأنهما مع ذلك بينهما تغاير واستظهر بعضهم أن النَّبي المرسل الذي هو غير الرسول ، هو من لم ينزل عليه كتاب وإنما أوحى إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله ، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة ، كما بينه تعالى بقوله ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النبيون الذين أَسْلَمُواْ ﴾ [المائدة : 44] الآية وقوله في هذه الآية ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي تخشع وتخضع وتطمئن .

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)

(220/526)

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أن الكفار لا يزالون في مرية ، أي شك وريب منه : أي من هذا القرآن العظيم كما هو الظاهر ، واختاره ابن جرير وهو قول ابن جريج ، كما نقله عنهم ابن كثير : وقال سعيد بن جبير ، وابن زيد : في ﴿ مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ : أي في شك مما ألقى الشيطان ، وذكر تعالى في هذه الآية : أنهم لا يزالون كذلك ، حتى تأتيهم الساعة : أي القيامة بغتة : أي فجأة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم . وقد روى مجاهد عن أبي بن كعب : أن اليوم العقيم المذكور يوم بدر ، وكذا قال مجاهد وعكرمة ، وسعيد بن جبير وغير واحد :

واختاره ابن جرير كما نقله عنهم ابن كثير في تفسيره ثم قال : وقال مجاهد وعكرمة في رواية عنهما : هو يوم القيامة لا ليل له ، وكذا قال الضحاك والحسن البصري ، ثم قال : وهذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به اه . محل الغرض من ابن كثير .

وقد ذكرنا مراراً أنا بينا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ، ويكون في الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول .

وذكرنا لذلك أمثلة كثيرة . وبه تعلم أن القرينة القرآنية هنا دلت على أن المراد باليوم العقيم : يوم القيامة ، لا يوم بدر ، وذلك أنه تعالى أتبع ذكر اليوم العقيم ، بقوله ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الحج : 56] الآية . وذلك يوم القيامة وقوله : يومئذ : أي يوم إذ تأتيهم الساعة ، أو يأتيهم عذاب عقيم ، وكل ذلك يوم القيامة . فظهر أن اليوم العقيم : يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر عقيماً على الكفار ، لأنهم لا خير لهم فيه ، وقد أصابهم ما أصابهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(221/526)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾

أثارت هذه الآية جَدلاً طويلاً بين العلماء ، ودخل فيه كثير من الحشْو والإسرائيليات ، خاصة حول معنى ﴿ تَمَنَّى ﴾ [الحج : 52] وهي تَرد في اللغة بمعنيين ، وما دام اللفظ يحتمل معنيين فليس أحدهما أَوْلَى من الآخر إلا بمدى استعماله وشيوعه بين جمهور العربية ، ويأتي التمني في اللغة بمعنى القراءة ، كما ورد في قول حسان بن ثابت في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنهما :

تمَنَّى كِتَابَ اللهِ أوَّلَ لَيْلَةٍ . . . وآخِرَهَا وَافَاهُ حَتْمُ المقَادِرِ

يعني : قُتِل عثمان وهو يقرأ القرآن ، وهذا المعنى غريب في حَمْل القرآن عليه لعدم شيوعه . وتأتي تمنى بمعنى : أحب أن يكون الشيء ، وهذا هو القول المشهور في لغة العرب . أما بمعنى قرأ فهو غير شائع ، ويُردّ هذا القول ، وينقضه نَقْضاً أولياً مبدئياً قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ . . ﴾ [الحج : 52] .

ومعلوم أن الرسول ينزل عليه كتاب يمكن أن يقرأه ، أمّا النبي فلا ينزل عليه كتاب ، بل يعمل بشرع مَنْ سبقه من الرسل . إذن : فما دام الرسول والنبي مشتركَيْن في إلقاء الشيطان ، فلا بُدَّ أن تكون الأمنية هنا بمعنى : أحب أن يكون الشيء ، لا بمعنى قرأ ، فأيُّ شيء سيقرأ النبي وليس معه كتاب ؟

والذين فهموا التمني في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : 52] أنه بمعنى : قرأ ، سواء أكانوا من العلماء

المتعمّقين أو السطحيين ، قالوا : المعنى إذا قرأ رسولُ الله القرآنَ تدخّل الشيطان في القراءة ، حتى يُدخِل فيها ما ليس منها .

(222/526)

وذكروا دليلاً على ذلك في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللات والعزى * وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 19 -20] ثم أضافوا : والغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى . وكأن الشيطان أدخل في القرآن هذا الكلام ، ثم نسخه الله بعد ذلك ، وأحكم الله آياته .

لكن هذا القول يُشكّك في قضية القرآن ، وكيف نقول به بعد أن قال تعالى في القرآن : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ [الشعراء : 193 - 194] .

وقال : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين * فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : 44 - 47] .

إذن : الحق سبحانه وتعالى حفظ قرآنه وكلامه من أمثال هذا العبث ، وكيف نُدخِل في القرآن هذه الكفريات ؟ وكيف تستقيم عبارتهم : والغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى مع قول الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللات والعزى * وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى * أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ [النجم : 19 - 22] كيف ينسجم هذا وذاك ؟

فهذا الفهم في تفسير الآية لا يستقيم ، ولا يمكن للشيطان أنْ يُدخِل في القرآن ما ليس منه ، لكن يحتمل تدخُّل الشيطان على وجه آخر : فحين يقرأ رسول الله القرآن ، وفيه هداية للناس ، وفيه مواعظ وأحكام ومعجزات ، أتنتظر من عدو الله أنْ يُخلِي الجو للناس حتى يسمعوا هذا الكلام دون أنْ يُشوّش عليهم ، ويُبلبل أفكارهم ، ويَحُول بينهم وبين سماعه ؟

(223/526)

فإذا تمنّى الرسول يعني : قرأ ألقى الشيطان في أُمنيته ، وسلَّط أتباعه من البشر يقولون في القرآن : سِحْر وشِعْر وإفْك وأساطير الأولين : فدَوْر الشيطان – إذن – لا أنْ يُدخِلَ في كلام الله ما ليس منه ، فهذا أمر لا يقدر عليه ولا يُمكّنه الله من كتابه أبداً ، إنما يمكن أنْ يُلقِي في طريق القرآن وفَهْمه والتأثر به العقبات والعراقيل التي تصدُّ الناس عن فَهْمه والتأثر به ، وتُفسِد القرآن في نظر مَنْ يريد أن يؤمن به .

لكن ، هل محاولة تشويه القرآن هذه وصَدّ الناس عنه جاءت بنتيجة ، وصرفتْ الناس فعلاً عن كتاب الله ؟

لقد خيَّبَ الله سَعيْه ، ولم تقف محاولاته عقبة في سبيل الإيمان بالقرآن والتأثر به ؛ لأن القرآن وجد قلوباً وآذاناً استمعتْ وتأملتْ فآمنت وانهارتْ لجلاله وعظمته وخضعتْ

لأسلوبه وبلاغته ، فآمنوا به واحداً بعد الآخر .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشيطان ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج : 52] يعني : ألغى وأبطل ما ألقاه الشيطان من الأباطيل والعقبات التي أراد بها أنْ يصدَّ الناس عن القرآن ، وأحكمَ الله آياته ، وأوضح أنها منه سبحانه ، وأنه كلام الله المعْجز الذي لو اجتمعتْ الإنس والجنُّ على أنْ يأتوا بمثله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

هذا على قول مَنِ اعتبر أن ﴿ تَمَنَّى ﴾ [الحج : 52] بمعنى : قرأ .

أما على معنى أنها الشيء المحبوب الذي تتمناه ، فنقول : الرسول الذي أرسله الله تعالى بمنهج الحق إلى الخَلْق ، فإنْ كان قادراً على تطبيق المنهج في نفسه فإنَّ أُمنيته أنْ يُصدَّق وأنْ يُطاع فيما جاء به ، أمنيته أنْ يسود منهجه ويُسيطر ويسُوس به حركة الحياة في الناس .

(224/526)

والنبي أو الرسول هو أَوْلى الناس بقومه ، وهو أحرصهم على نَفْعهم وهدايتهم ، والقرآن خير يجب للناس أن يأخذوا به عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .

لكن ، هل يترك الشيطان لرسول الله أنْ تتحقق أُمنيته في قومه أَمْ يضع في طريقه العقبات ،

ويُحرِّك ضده النفوس ، فيتمرّد عليه قومه حيث يُذكِّرهم الشيطان بما كان لهم من سيادة ومكانة سيفقدونها بالإسلام ؟

وهكذا يُلْقي الشيطان في أُمنية الرسول ﴿ إِلاَّ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان في أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : 52] وما كان الشيطان ليدع القرآن ينفذ إلى قلوب الناس أو حتى آذانهم ، أليس هو صاحب فكرة : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ . . ﴾ [فصلت : 26] .

إن الشيطان لو لم يُلْق العراقيل في سبيل سماع القرآن ويُشكّك فيه لآمن به كل مَنْ سمعه ؛ لأن للقرآن حلاوةً لا تُقَاوم ، وأثراً ينفذ إلى القلوب مباشرة .

ومع ذلك لم يَفُتّ ما ألقى الشيطان في عَضُد القرآن ، ولا في عَضُد الدعوة ، فأخذت تزداد يوماً بعد يوم ، ويزداد عدد المؤمنين بالقرآن المصدّقين به ، المهم أن تتنبه : كيف نستقبل القرآن ، وكيف نتلقاه ، لا بد أن نستقبله استقبالَ الخالي من هوى ، فالذي يفسد الأحكام أنْ تُستقبل وتدخل على هوى سابق .

وسبق أن قلنا : إن الحيز الواحد لا يسع شيئين في وقت واحد ، لا بُدَّ أنْ تُخرِج أحدهما لتُدخِل الآخر ، فعليك – إذن – أنْ تُخلِي عقلك وفكرك تماماً ، ثم تستقبل كلام الله ، وابحث فيه كما شئت ، فسوف تنتهي إلى الإيمان به شريطة أنْ تُصفِّي له قلبك ، فلا تُبق في ذِهْنِك ما يُعكِّر صَفْو الفطرة التي خلقها الله فيك ، عندها سيأخذ القرآن طريقه إلى قلبك ، فإذا أُشْرِب قلبُك حُبَّ القرآن ، فلا يزحزحه بعد ذلك شيء .

ولنا في إسلام سيدنا عمر مثالٌ وعِظَة ، فلما سمع القرآن من أخته لأول مرة ، وقد أغلق قلبه على كفره لم يتأثر به ، وضربها حتى أَدْمى وجهها ، وعندها رَقَّ قلبه ، وتحركت عاطفته نحو أخته ، وكأن عاطفة الحب زحزحتْ عاطفة العداوة ، وكشفت عن صفاء طَبْعه ، فلما سمع القرآن بعدها آمن به على الفور .

كذلك ، إنْ أردت أنْ تناقشَ قضية الإيمان أو الكفر ، وأنْ تختار بينهما ؛ لأنهما يجتمعان أبداً ، ولا بُدَّ أنْ تختار ، فحين تناقش هذه القضية وأنت مُصِرٌّ على الكفر فلن تصل إلى الإيمان ؛ لأن الله يطبع على القلب المُصِرَّ فلا يخرج منه الكفر ، ولا يدخله الإيمان ، إنما أخرِجْ الكفر أولاً وتحرّر من أَسْره ، ثم ناقش المسائل كما تحب .

كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ . . ﴾ [سبأ : 46] .

أما أنْ تناقش قضية ، وفي ذهْنك فكرة مُسبقة ، فأنت كهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً . . ﴾ [محمد : 16] يعني : ما الجديد الذي جاء به ، وما المعجزة في هذا الكلام ؟ فيأتي

الرد : ﴿ أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ * والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 16 - 17] .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه عن القرآن : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . ﴾ [فصلت : 44] .

(226/526)

فالقرآن واحد ، لكن المستقبل مختلف ، وقد ذكرنا أنك حين تريد أن تبرد كوب الشاي الساخن فإنك تنفخ فيه ، وكذلك إنْ أردتَ أنْ تُدفِئ يديك في برد الشتاء فإنك أيضاً تنفخ فيها ، كيف - إذن - والفاعل واحد ؟ نعم ، الفاعل واحد ، لكن المستقبل للفعل مختلف .

وقوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ ﴾ [الحج : 52] .

(من) هنا للدلالة على العموم وشمول كل الأنبياء والرسل السابقين ، فكل نبي أو رسول يتمنى يعني : يودّ ويحب ويرغب أن ينتشر دينه ويُطبّق منهجه ، ويؤمن به جميع قومه ، لكن هيهات أنْ يتركه الشيطان وما أحبَّ ، بل لا بُدَّ أنْ يقف له بطريق دعوته ليصدَّ الناس عنه ويصرفهم عن دعوته ومنهجه ، لكن في النهاية ينصر الله رسُله وأنبياءه ، وينسخ عقبات

الشيطان التي ألقاها في طريق الدعوة ، ثم يُحكِم الله آياته ، ويؤكدها ويظهرها ، فتصير مُحْكَمة لا ينكرها أحد .

وساعةَ تسمع كلمة ﴿ أَلْقَى ﴾ [الحج : 52] فاعلم أن بعدها عقبات وشروراً ، كما يقول تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العداوة والبغضاء إلى يَوْمِ القيامة ﴾ [المائدة : 64] .

ومما قاله أصحاب الرأي الأول في تفسير ﴿ تَمَنَّى ﴾ [الحج : 52] وأنها بمعنى قرأ : يقولون : إن الله تعالى يُنزِل على رسوله صلى الله عليه وسلم أشياء تُثبت بشريته ، ثم يمحو الله آثار هذه البشرية ليبين أن الله صنعه على عينه ، حتى إنْ همَّتْ بشريته بشيء يعصمه الله منها .

لذلك يقول صلى الله عليه وسلم : "يَرِدُ عليَّ فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخذ مِنّي فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم " .

إذن : فالرسول بشر إلا أنه يوحى إليه ما يعصمه من زلاَّت البشر .

(227/526)

ومن بشريته صلى الله عليه وسلم أنه تعرّض للسحر ، وهذه واقعة لا تُنكر ، وقد ورد فيها أحاديث صحيحة ، وقد كاد الكفار لرسول الله بكل أنواع الكيد : استهزاءٌ ، وسباباً ،

واضطهاداً ، وإهانة ، ثم تآمروا عليه بليل ليقتلوه ، وبيَّتوا له ، فلم يفلحوا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكرين ﴾ [الأنفال : 30] .

وكاد الله لرسوله وأخرجه من بينهم سالماً ، وهكذا فضح الله تبييتهم وخيّب سَعْيهم ، وفشلَتْ محاولاتهم الجهرية والسرية فلجئوا إلى السحرة ليفعلوا برسول الله ما عجزوا هم عنه ، وعملوا لرسول الله سحراً في مُشْطٍ ومُشَاطة من شعره صلى الله عليه وسلم وطلع نخلة ذكر ففضحهم الله ، وأخبر رسوله بذلك فأرسل الإمام علياً فأتى به من بئر ذروان .

وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُبيِّن لنا بشرية الرسول ، وأنه يجري عليه ما يجري على البشر ، لكن ربه لا يترك بشريته وحدها ، وإنما يعصمه بقيوميته .

وهذا المعنى هو ما قصده أصحاب الرأي الأول : أن الرسول يطرأ عليه ما يطرأ على البشر العادي ، لكن تتدخّل السماء لتعصمه ونحن نختار الرأي الآخر الذي يقول أن تمنى بمعنى ودَّ وأحب .

ثم تختتم الآية بقوله تعالى : ﴿ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج : 52] عليم بكيد الشيطان ، وتدبيره ، حكيم في علاج هذا الكيد .

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي

شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53)

ولسائل أن يقول : إذا كان الله تعالى ينسخ ما يُلقي الشيطان ، فلماذا كان الإلقاءُ بداية ؟

(228/526)

جعل الله الإلقاء فتنةً ليختبر الناس ، وليُميّز مَنْ ينهض بأعباء الرسالة ، فهي مسئولية لا يقوم بها إلا مَنْ ينفذ من الفتن ، وينجو من إغراءات الشيطان ، ويتخطى عقباته وعراقيله ؛ لذلك قال تعالى عنهم : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 110] .

وما تبوأتُم هذه المنزلة إلا لأنكم أهلٌ لحمْل هذه الأمانة ، تمرُّ بكم الفتن فتهزأون بها ولا تزعزعكم ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الحج : 53] أي : نفاق ، فإنْ تعرَّض لفتنة انقلب على وجهه . يقول كما يقولون : سحر وكذب وأساطير الأولين .

وكذلك فتنة ﴿ والقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : 53] وهم الذين فقدوا لين القلب ، فلم ينظروا إلى الجميل عليهم في الكون خَلْقاً وإيجاداً وإمداداً ، ولم يعترفوا بفضل الله عليهم ، ولم يستبشروا به ويأتوا إليه .

ونحن نلحظ الولد الصغير يأنس بأمه وأبيه ، ويركن إليهما ؛ لأنه ذاق حنانهما ، وتربَّى في

رعايتهما ، فإنْ ربَّته مثلاً المربية حتى في وجود أمه فإنه يميل إليها ، ويألف حضنها ، ولا يلتفت لأمه ، لماذا ؟ لأنه نظر إلى الجميل ، من أين أتاه ، ومَنْ صاحب الفضل عليه فرقَّ له قلبه ، بصرف النظر مَنْ هو صاحب الجميل .

فهؤلاء طرأوا على كَوْن الله ، لا حَوْلَ لهم ولا قوة ، فاستقبلهم بكل ألوان الخير ، ومع ذلك كانت قلوبهم قاسيةً مُتحجّرة لا تعترف بجميل .

(229/526)

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الظالمين لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [الحج : 53] فهم ظالمون أولاً لأنفسهم حين نظروا إلى منفعة عاجلة قليلة ، وتركوا منفعة كبيرة دائمة . والشّقاق : الخلاف ، ومنه قولنا : هذا في شِقٍّ ، وهذا في شِقٍّ ، يعني : غير ملتئمين ، وليْته شِقَاق هَيِّن يكون له اجتماع والتئام ، ليته كشِقَاق الدنيا بين الناس على عَرَضٍ من أعراض الحياة ، إنما هم في شقاق بعيد . يعني : أثره دائم ، وأثره فظيع .

إذن : العلة الأولى لما يُلقِي الشيطان أن يكون فتنة . أما العلة الثانية ففي قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ . . ﴾

.

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ [الحج : 54] يعني : يتأكدوا تأكيداً واضحاً أن هذا هو الحق ، مهما شوَّشَ عليه المشوِّشُون ، ومهما قالوا عنه : إنه سحر ، أو كذب ، أو أساطير الأولين ؛ لأن الله سيُبطل هذا كله ، وسيقف أهل العلم والنظر على صِدْق القرآن بما لديهم من حقائق ومقدمات واستدلالات يعرفون بها أنه الحق .

وما دام هو الحق الذي لم تزعزعه هذه الرياح الكاذبة فلا بُدّ أن يؤمنوا به ﴿ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ ﴾ [الحج : 54] ثم يتبع هذا الإيمان عملٌ وتطبيق ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ ﴾ [الحج : 54] يعني : تخشع وتخضع وتلين وتستكين .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الله لَهَادِ الذين آمنوا إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج : 54] .

فمسألة كيد الشيطان وإلقائه لم تنته بموت الرسول ، بل هو قاعد لأمته من بعده ؛ فالشيطان يقعد لأمة محمد كلها ، ولكل مَنْ حمل عنه الدعوة .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : 112] .

يعني : دعهم جانباً فالله لهم بالمرصاد ، فلماذا – إذن – فعلوه ؟ وما الحكمة ؟ يقول تعالى :

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الذين آمَنُواْ . . ﴾ [آل عمران : 141] .

وقال : ﴿ ولتصغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ [الأنعام : 113]

فمهمة الشيطان أنْ يستغلّ ضعاف الإيمان ، ومَنْ يعبدون الله على حرف من أصحاب الاحتجاجات التبريرية الذين يريدون أنْ يبرروا لأنفسهم الانغماس في الشهوة والسير في طريق الشيطان ، وهؤلاء يحلو لهم الطعن في الدين ، ويتمنون أن يكون الدين والقيامة والرب أوهاماً لا حقيقة لها ، لأنهم يخافون أن تكون حقيقة ، وأن يتورطوا بأعمالهم السيئة ونهايتهم المؤلمة ، فهم – إذن – يستبعدون القيامة ويقولون : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الصافات : 16] .

لماذا ؟ لأنه يريد أنْ يبرر سلوكه ، إنه يريد أنْ يُخرِج نفسه من ورطة ، لا مخرج منها ، وهؤلاء يتبعون كل ناعق ، ويجْرُون وراء كل شبهة في دين الله يتلقفونها ويرددونها ، ومرادهم أن يهدموا الدين من أساسه .

نسمع من هؤلاء المسرفين على أنفسهم مثلاً مَنْ يعترض على تحريم الميتة وأكل الذبيحة ، وهذا دليل على خميرة الشرك والكفر في نفوسهم ، ولهم حجج واهية لا تنطلي إلا على أمثالهم من الكفرة والمنافقين ، وهذه مسألة واضحة ، فالموت غير القتل ، غير الذبح .

الموت : أن تخرج الروح أولاً دون نَقْض بِنْية الجسم ، وبعد خروج الروح ينقض بناء الجسد ، أما القتل فيكون بنقض البنية أولاً ، ويترتب على نَقْض البنية خروج الروح ، كأن يُضرب الإنسان أو الحيوان على رأسه مثلاً ، فيموت بعد أنْ اختلّ مخه وتهشّم ، فلم يعُدْ صالحاً لبقاء الروح فيه .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ . . ﴾ [آل عمران : 144] إذن : فالموت غير القتل .

(231/526)

وقد مثَّلْنا لذلك بضوء الكهرباء الذي نراه ، والذي يسري في الأسلاك ، ويظهر أثره في هذه اللمبات ، نحن لا نعرف حتى الآن كُنْه هذه الكهرباء وماهية هذا الضوء ، إنما نراه وننعَم به ، فإذا ما كُسِرت هذه اللمبة ينطفئ النور ؛ لأنها لم تعُدْ صالحة لاستقبال هذا النور ، رغم أنه موجود في الأسلاك ، إذن : لا يظهر نور الكهرباء إلا في بنية سليمة لهذا الشكل الزجاجي المفرَّغ من الهواء .

كذلك الروح لا تسكن الجسم ، ولا تبقى فيه إلا إذا كانت له مواصفات معينة ، فإن اختلَّتْ هذه المواصفات خرجتْ الروح من الجسد .

أما الذبح فهو أيضاً إزهاق روح ، لكن بأمر الله خالقها وبرخصة منه سبحانه ، كأن يُقتلَ إنسان في قصاص ، أو في قتال مشروع ، أو نذبح الحيوان الذي أحلَّه الله لنا وأمرنا بذبحه ، ولولا أمْر الله بذبحه ما ذبحناه ، ولولا أحلَّه ما أكلناه ، بدليل أننا لا نأكل ما لم يحِل لنا من الحيوانات الأخرى .

والذين يجادلون في عملية الذَّبْح الشرعية ، ويُزهقون أرواح الحيوان بالخنق مثلاً غفلوا عن الحكمة من الذبح : الذبح إراقة للدم ، وفي الدم مواد ضارة بالإنسان يجب أن يتخلص منها بتصفية دم ذبيحته ؛ لأن بها كمية من الدم الفاسد الذي لم يمرّ على الكلية لتنقيه .

فالمسلم حريص على أن يحمل منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحريص على أن يسود هذا المنهج حركة الحياة ، لكن لن يدَعَه الشيطان يُحقِّق هذه الأمنية ، كما لم يدع رسوله صلى الله عليه وسلم من قبل ، فكيْده وإلقاؤه لمينتهِ بموت الرسول ، وإنما هو بَاقٍ ، وإلى أنْ تقومَ الساعة .

لذلك يقول تعالى في الآية بعدها : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى . . ﴾

(232/526)

قوله : ﴿ فِي مِرْيَةٍ ﴾ [الحج : 55] يعني : في شك من هذا ، لذلك قلنا : إن أتباع رسوله صلى الله عليه وسلم مُكلَّفون من الله بأنْ يكونوا امتداداً لرسالته : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً . . ﴾ [البقرة : 143] شهداء أنكم بلَّغتم كما كان الرسول شهيداً عليكم ، فكلٌّ مِنَّا كأنه مبعوث من الله ، وكما شهد رسول الله عليه أنه أبلغه ، كذلك هو يشهد أنه بلَّغ من بعد رسول الله ؛ لذلك جاءت هذه الآية للأمرين ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس .

والحق – سبحانه وتعالى – حينما حمَّلنا هذه الرسالة قال : ما دُمْتم امتداداً لرسالة الرسول ، فلا بُدَّ أنْ تتعرَّضوا لما تعرَّض له الرسول من استهزاء وإيذاء وإلقاء في أمنياتكم ، فإنْ صمدتم فإن الله تعالى ينسخ ما يُلقي الشيطان ، وينصر في النهاية أولياءه ، وسيظل الإسلام إلى أنْ تقوم الساعة ، وسيظل هناك أناس يُعَادُون الدين ويُشكِّكون فيه ، وسيظل الملحدون الذين يُشكِّكون الناس في وجود الله يخرجون علينا من حين إلى آخر بما يتناقض ودين الله كقولهم : إن هذا الكون خُلِق بالطبيعة ، وترى وتسمع هذا الكلام في كتاباتهم ومقالاتهم .

ولم يَسْلم العلم التجريبي من خرافاتهم هذه ، فإنْ رأوا الحيوان منسجماً مع بيئته قالوا : لقد أمدته الطبيعة بلون مناسب وتكوين مناسب لبيئته .

وفي النبات حينما يقفون عند آية من آياته مثلاً : ﴿ يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على

بَعْضٍ فِي الأُكُلِ . . ﴾ [الرعد : 4] يقولون : إن النبات يتغذى بعملية الانتخاب ، يعني النبات هو الذي ينتخب ويختار غذاءه ، ففي التربة الواحدة وبالماء الواحد ينمو النبات الحلو والمر والحمضي والحريف ، فبدل أنْ يعترفوا لله تعالى بالفضل والقدرة يقولون : الطبيعة وعملية الانتخاب .

(233/526)

وقد تحدثنا مع بعض هؤلاء في فرنسا ، وحاولنا الرد عليهم وإبطال حججهم ، وأبسطها أن عملية الانتخاب تحتاج إلى إرادة واعية تُميِّز بين الأشياء المنتخبة ، فهل عند النبات إرادة تُمكِّنه من اختيار الحلو أو الحامض ؟ وهل يُميز بين المرِّ والحريف ؟

إنهم يحاولون إقناع الناس بدور الطبيعة ليبعدوا عن الأذهان قدرة الله فيقولون : إن النبات يتغذّى بخاصية الأنابيب الشعرية يعني : أنابيب ضيقة جداً تشبه الشعرة فسميت بها ، ونحن نعرف أن الشعرة عبارة عن أنبوبة مجوفة . وحين تضع هذه الأنبوبة الضيقة في الماء ، فإن الماء يرتفع فيها إلى مستوى أعلى ؛ لأن ضغط الهواء داخل هذه الأنبوبة لضيقها أقلّ من الضغط خارجها لذا يرتفع فيها الماء ، أما إنْ كانت هذه الأنبوبة واسعة فإن الضغط بداخلها سيساوي الضغط خارجها ، ولن يرتفع فيها الماء .

فقُلْنا لهم : لو أحضرنا حوضاً به سوائل مختلفة ، مُذاب بعضها في بعض ، ثم وضعنا به الأنابيب الشَّعْرية ، هل سنجد في كل أنبوبة سائلاً معيناً دون غيره من السوائل ، أم سنجد بها السائل المخلوط بكل عناصره ؟

لو قمتَ بهذه التجربة فستجد السائل يرتفع نعم في الأنابيب بهذه الخاصية ، لكنها لا تُميِّز بين عنصر وآخر ، فالسائل واحد في كل الأنابيب ، وما أبعد هذا عن نمو النبات وتغذيته .

وصدق الله حين قال : ﴿ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 2 - 3] .

إذن : ما أبعدَ هذه التفسيرات عن الواقع ! وما أجهلَ القائلين بها والمروِّجين لها ! خاصة في عصر ارتقى فيه العلم ، وتقدّم البحث ، وتنوَّعت وسائلة في عصر استنارتْ فيه العقول ، واكتُشِفت أسرار الكون الدالة على قدرة خالقه عز وجل ، ومع ذلك لا يزال هناك مبطلون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً . . ﴾ [الحج : 55] .

فهم – إذن – موجودون في أمة محمد إلى أنْ تقومَ الساعة ، وسنواجههم نحن كما واجههم رسول الله ، وسيظل الشيطان يُلقِي في نفوس هؤلاء ، ويوسوس لهم ، ويوحي إلى أوليائه من الإنس والجن ، ويضع العقبات والعراقيل ليصدَّ الناس عن دين الله . هذا نموذج من إلقاء الشيطان في مسألة القمة ، وهي الإيمان بالله .

كما يُلقِي الشيطان في مسألة الرسول ، فنجد منهم مَنْ يهاجم شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف وهو الأميّ يقود أمة ويتهمونه ويخوضون في حقّه ، وفي مسألة تعدُّد زوجاته صلى الله عليه وسلم . . الخ مِمّا يُمثِّل عقبة في سبيل الإيمان به صلى الله عليه وسلم .

ونعجب لهجوم هؤلاء على رسول الله طالما هم كافرون به ، إن هذا الهجوم يحمل في طياته إيماناً بأنه رسول الله ، وإلا لَمَا استكثروا عليه ولَمَا انتقدوه ، فلو كان شخصاً عادياً ما تعرَّض لهذه الانتقادات .

لذلك لا تناقش مثل هؤلاء في مسألة الرسول ، إنما في مسألة القمة ، ووجود الإله ، ثم الرسول المبلِّغ عن هذا الإله ، أمّا أنْ تخوض معهم في قضية الرسول بدايةً فلن تصلَ معهم إلى حَلٍّ ؛ لأنهم يضعون مقاييس الكمال من عندهم ، ثم يقيسون عليها سلوكيات رسول الله ، وهذا وَضْع مقلوب ، فالكمال نأخذه من الرسول ومن فِعْله ، لا نضع له نحن مقاييس الكمال .

ثم يُشكِّكون بعد ذلك في الأحكام ، فيعترضون مثلاً على الطلاق في الإسلام ، وكيف نفرق بين زوجين ؟ وهذا أمر عجيب منهم فكيف نجبر زوجين كارهين على معاشرة لا يَبْغُونها ، وكأنهما مقترنان في سلسلة من حديد ؟ كيف وأنت لا تستطيع أنْ تربط صديقاً بصديق لا يريده ، وهو لا يراه إلا مرة واحدة في اليوم مثلاً ؟ فهل تستطيع أن تربط زوجين في مكان واحد ، وهما مأمونان على بعض في حال الكراهية ؟

ويُخيِّب الله سَعْيهم ، ويُظهر بطلان هذه الأفكار ، وتُلجِئهم أحداث الحياة ومشاكلها إلى تشريع الطلاق ، حيث لا بديلَ عنه لحلِّ مثل هذه المشاكل .

(235/526)

وقد ناقش هؤلاء كثيراً في قوله تعالى :

﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ﴾ [التوبة : 33] .

وفي قوله : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ والله مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ [الصف : 8] ﴿ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾ [الصف : 9] .

يقولون : ومع ذلك لم يتم الدين ، ولا يزال الجمهرة العالمية في الدنيا غَيْر مؤمنين بالإسلام ، يريدون أنْ يُشكِّكوا في كتاب الله . وهذا القول منهم ناشيء عن عدم فَهْم للآية ، ولمعنى

﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ [التوبة : 33] فهي لا تعني أن ينتصر الإسلام على كل ما عداه انتصاراً يمحو المخالفين له .

إنما يُظهِره يعني : يكتب له الغلبة بصدق حُجَجه وقضاياه على كُرْه من الكافرين والمشركين ، فهم – إذن – موجودون ، لكن يظهر عليهم ، ويعلو دين الإسلام ، ويضطرون هم للأخذ بقوانينه وتشريعاته حَلاً لمشاكلهم ، وكَوْنهم يتخذون منه حلاً لمشاكلهم وهم كافرون به أبلغ في الردِّ عليهم لو آمنوا به ، فلو آمنوا بالإسلام ما كان ليظهر عليهم ويعلوهم .

فما كنتم تُشكِّكون فيه وتقولون إنه ما كان يصدر من إله ولا رسول ، فها هي الأيام قد عضّتكم بأحداثها وتجاربها وألجأتكم إلى هذا الحكم الذي تعارضونه ، وها أنتم تُشرِّعون بتشريع الإسلام وأنتم كافرون به ، وهذا دليل ظهوره عليكم .

ومعنى ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً ﴾ [الحج : 55] يعني : فجأة ، وقد تكلَّم العلماء في معنى الساعة : أهي يوم القيامة ، أم يوم يموت الإنسان ؟ الساعة تشمل المعنيين معاً ، على اعتبار أن مَنْ مات فقد قامت قيامته حيث انقطع عمله ، وموت الإنسان يأتي فجأة ، كما أن القيامة تأتي فجأة ، فهما – إذن – يستويان .

(236/526)

لكن ، إنْ كانت الساعة بغتة تفجؤهم بأهوالها ، فما العلامات الصُّغْرى ؟ وما العلامات الكبرى ؟ أليست مقدمات تأذن بحلول الساعة ، وحينئذ لا تُعَدُّ بغتة ؟ قالوا : علامات الشيء ليست هي إذن وجودة ، العلامة تعني : قُرْب موعده فانتبهوا واستعِدُّوا ، أما وقت حدوثه فلا يعلمه أحد ، ولا بُدَّ أنْ يأتي بغتة رغم هذه المقدمات .

ثم يقول الحق تعالى : ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج : 55] البعض اعتبر : ﴿ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج : 55] يعني القيامة ، وبالتالي فالساعة تعني الموت ، وآخرون يقولون : ﴿ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج : 55] المراد يوم بدر الذي فصل الله فيه بين الحق والباطل .

وهذا اجتهاد يُشْكرون عليه ، لكن لما نتأمل الآية : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ [الحج : 55] يعني : المرية مستمرة ، لكن بدراً انتهت ، المرية ستظل إلى أن تقوم الساعة .

ولا مانعَ أن تكون الساعة بمعنى القيامة ، واليوم العقيم أيضاً هو يوم القيامة ، فيكون المدلول واحداً ، لأن هناك فرقاً بين زمن الحدث والحدث نفسه ، فالساعة هي زمن يوجد فيه الحدث وهو العذاب ، فالساعة أولاً ثم يأتي العذاب ، مع أن مجرد قيام الساعة في حَدِّ ذاته عذاب .

ومعنى ﴿ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج : 55] العقيم : الذي لا يلد ، رجل كان أو امرأة ،

فلا يأتي بشيء بعده ، ومنه قوله تعالى عن سارة امرأة إبراهيم عليه السلام :

﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات : 29] وكذلك يوم القيامة يوم عقيم ، حيث لا يوم بعده أبداً ، فهي نهاية المطاف على حَدِّ قول أحدهم : حَبَتْهُم به الدنيا وأدركَها العُقْم .

(237/526)

أو ﴿ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات : 29] بمعنى : أنها لا تأتي بخير ، بل بشرٍّ ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات : 41 - 42] .

ذلك لأن الريح حين تهبُّ ينتظر منها الخير ، إما بسحابة مُمطرة ، أو تحريك لقاح الذكورة بالأنوثة ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر : 22] أما هذه فلا خَيْر فيها ، ولا طائل منها ، ولتها تقف عند عدم النفع ، ولكن تتعدّاه إلى جَلْب الضُّر ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات : 42] فهي تدمر كل شيء تمرُّ عليه .

وكما جاء في قوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف : 24 - 25] .

فالمعنى - إذن - ﴿ عَقِيمٍ ﴾ [الحج : 55] لا خيرَ فيها ولا نفع ، بل فيها الشر والعذاب ، أو عقيم يعني : لا يأتي يوم بعده ؛ لأنكم تركتم دنيا الأغيار ، وتقلّب الأحوال حال بعد حال ، فالدنيا تتقلَّب من فقر إلى غنى ، ومن صحة إلى مرض ، ومن صِغَر إلى كِبَر ، ومن أَمْن إلى خوف ، وتتحول من صيف إلى شتاء ، ومن حر إلى برد ، ومن ليل إلى نهار . . وهكذا .

أما في الآخرة فقد انتقلتم مِن عالم الأغيار الذي يعيش بالأسباب إلى عالم آخر يعيش مع المسبِّب سبحانه ، وإلى يوم آخر لا يومَ بعده ، كأنه عَقِم أن يكون له عَقِب من بعده أو مثيل له ، كما لو حضرتَ حفلاً مثلاً قد استكمل ألوان الكمال والنعم ، فتقول : هذا حدث لا يتكرر يعني : عقيم لا يأتي بعده مثله .

(238/526)

وإذا كنتَ في الدنيا تعيش بالأسباب التي خلقها الله لك ، فأنت في الآخرة ستجلس مستريحاً تتمتع بالمسبِّب عَزَّ وجَلَّ ، ويكفي أن يخطر الشيء ببالك ، فتراه بين يديك ؛ ولأن القيامة لا أغيارَ فيها ولا تقلّب ، فسيظل الجميع كلٌّ على حاله في سِنٍّ واحدة ، لا يشيب ولا يهرم ، ولا يمرض ولا يموت .

ألاَ ترى إلى قوله تعالى في نساء الجنة : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لأَصْحَابِ اليمين ﴾ [الواقعة : 35 – 38] .

والكاره لزوجته في الدنيا لأنها كانت تتعبه نقول له : لا تقِسْ زوجة الدنيا بزوجة الآخرة ؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [النساء : 57] .

أي : مطهرة من كل ما كنتَ تكرهه فيها في الدنيا شكلاً وطَبْعاً وخُلقاً ، فأنت الآن في الآخرة التي لا يعكر نعيمها كَدَر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(239/526)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ . الآية .

هذه الآية الكريمة تدل على أن كل رسول وكل نبي يلقى الشيطان في أمنيته أي تلاوته إذا تلا

ومنه قول الشاعر في عثمان رضي الله عنه:

تمنى كتاب الله أول ليلة

وآخرها لاقى حمام المقادر

وقول الآخر:

تمنى كتاب الله آخر ليلة

تمني داود الزبور على رسل

ومعنى تمنى في البيتين قرأ وتلا .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس أنه قال: " إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه" .

وقال بعض العلماء: "إذا تمنى أحب شيئًا وأراده فكل نبي يتمنى إيمان أمته والشيطان يلقى عليهم الوساوس والشبه ليصدهم عن سبيل الله, وعلى أن (تمنى) بمعنى قرأ وتلا كما عليه الجمهور, فمعنى إلقاء الشيطان في تلاوته إلقاؤه الشبه والوساوس فيما يتلوه النبي ليصد الناس عن الإيمان به, أو إلقاؤه في المتلو ما ليس منه ليظن الكفار أنه منه, وهذه الآية لا تعارض بينها وبين الآيات المصرحة بأن الشيطان لا سلطان له على عباد الله المؤمنين المتوكلين, ومعلوم أن خيارهم الأنبياء كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ, إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ , وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ , وقوله: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ , وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ

إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ , ووجه كون الآيات لا تعارض بينها أن سلطان الشيطان المنفي عن المؤمنين المتوكلين في معناه وجهان للعلماء:

(240/526)

الأول: أن معنى السلطان الحجة الواضحة, وعليه فلا إشكال إذ لا حجة مع الشيطان البتة كما اعترف به فيما ذكر الله عنه في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ .

الثاني: أن معناه أنه لا تسلط له عليهم بإيقاعهم في ذنب يهلكون به ولا يتوبون منه, فلا ينافي هذا ما وقع من آدم وحواء وغيرهما فإنه ذنب مغفور لوقوع التوبة منه, فإلقاء الشيطان في أمنية النبي سواء فسرناها بالقراءة أو التمني لإيمان أمته لا يتضمن سلطانا للشيطان على النبي بل هو من جنس الوسوسة وإلقاء الشبه لصد الناس عن الحق كقوله: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ الآية, فإن قيل: ذكر كثير من المفسرين أن سبب نزول هذه الآية الكريمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم بمكة فلما بلغ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى, وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ ألقى الشيطان على لسانه: (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترجى) فلما بلغ آخر السورة سجد وسجد معه المشركون

والمسلمون وقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم وشاع في الناس أن أهل مكة أسلموا بسبب سجودهم مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى رجع المهاجرون من الحبشة ظنا منهم أن قومهم أسلموا فوجدوهم على كفرهم, وعلى هذا الذي ذكره كثير من المفسرين فسلطان الشيطان بلغ إلى حد أدخل به في القرآن على لسان النبي صلى الله عليه وسلم الكفر البواح حسبما يقتضيه ظاهر القصة المزعومة .

(241/526)

فالجواب: أن قصة الغرانيق مع استحالتها شرعا لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج, وصرح بعدم ثبوتها خلق كثير من العلماء كما بيناه بيانا شافيا في رحلتنا , والمفسرون يروون هذه القصة عن ابن عباس من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما , ومعلوم أن الكلبي متروك, وقد بين البزار أنها لا تعرف من طريق يجوز ذكره إلا طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير مع الشك الذي وقع في وصله, وقد اعترف الحافظ ابن حجر مع انتصاره لثبوت هذه القصة بأن طرقها كلها إما منقطعة أو ضعيفة إلا طريق سعيد بن جبير, وإذا علمت ذلك فاعلم أن طريق سعيد بن جبير لم يروها بها أحد متصلة إلا أمية بن خالد , وهو وإن كان ثقة فقد شك في وصلها ؛ فقد أخرج البزار وابن مردويه من طريق

أمية بن خالد عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب ثم ساق حديث القصة المذكورة, وقال البزار: "لا يروى متصلا إلا بهذا الإسناد تفرد بوصله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور", وقال البزار: "وإنما يروى من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس والكلبي متروك".

(242/526)

فتحصل أن قصة الغرانيق لم ترد متصلة إلا من هذا الطريق الذي شك راويه في الوصل, وما كان كذلك فضعفه ظاهر, ولذا قال الحافظ ابن كثير في تفسيره أنه لم يرها مسندة من وجه صحيح, وقال العلامة الشوكاني في هذه القصة: "ولم يصح شيء من هذا ولا ثبت بوجه من الوجوه ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله كقوله: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴾ الآية, وقوله: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾, وقوله: ﴿ وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ الآية, فنفى المقاربة للركون فضلا عن الركون", ثم ذكر الشوكاني عن البزار أنها لا تروى بإسناد متصل وعن البيهقي أنه قال: "هي غير ثابتة من جهة النقل" وذكر عن إمام الأئمة ابن خزيمة أن هذه القصة من وضع الزنادقة وأبطلها عياض وابن العربي المالكي والفخر الرازي وجماعات كثيرة, ومن أصرح الأدلة

القرآنية في بطلانها أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بعد ذلك في سورة النجم قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ فلو فرضنا أنه قال تلك الغرانيق العلى ثم أبطل ذلك بقوله: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ فكيف يفرح المشركون بعد هذا الإبطال والذم التام لأصنامهم بأنها أسماء بلا مسميات وهذا هو الأخير وقراءته صلى الله عليه وسلم سورة النجم بمكة وسجود المشركين ثابت في الصحيح ولم يذكر فيه شيء من قصة الغرانيق وعلى القول ببطلانها فلا إشكال وأما على القول بثبوت القصة كما هو رأي الحافظ ابن حجر فإنه قال في فتح الباري: "إن هذه القصة ثبتت بثلاثة أسانيد كلها على شرط الصحيح وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض ؛ لأن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها أصلا فللعلماء عن ذلك أجوبة كثيرة من

(243/526)

أحسنها وأقربها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرتل السورة ترتيلا تتخلله سكتات فلما قرأ ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ قال الشيطان لعنه الله محاكيا لصوته صلى الله عليه وسلم: (تلك الغرانيق العلى الخ . .) فظن المشركون أن الصوت صوته صلى الله عليه وسلم وهو

بريء من ذلك براءة الشمس من اللمس, وقد بينا هذه المسألة بيانا شافيا في رحلتنا فلذلك اختصرناها هنا فظهر أنه لا تعارض بين الآيات والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 207.212 ﴾

(244/526)

وقال صاحب التفسير الواضح :

روى المفسرون أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قرأ : وَالنَّجْمِ إِذا هَوى فلما بلغ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى سمع المشركون (تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى) فلقيه المشركون والذين في قلوبهم مرض فسلموا عليه وفرحوا فقال النبي : « إن ذلك من الشيطان » ، فأنزل اللّه تعالى : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى الآية .

(245/526)

وهناك روايات تثبت أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وهو المعصوم – هو الذي قرأ وعلى ذلك فيكون معنى الآية : وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى أى قرأ وتلا ألقى الشيطان في أمنيته أى قراءته وتلاوته ، فينسخ اللّه ما يلقى الشيطان ويزيله ، ثم يحكم اللّه آياته ، واللّه عليم حكيم .

هذه الرواية ، رواية باطلة ، وإن تكن رواية بعض المفسرين وكيف تصح ؟ ! ! ولو جوزناها لارتفع الأمان عن شرعه ، وجوزنا في كل حكم أن يكون فيه زيادة أو نقص من قبل الشيطان على أن هذه الرواية وأمثالها تفتح باب الطعن والشك ، وتكون سلاحا في يد أعداء الإسلام ، وأعداء الأديان كلها ، ولا ينفعنا أن ذلك بشكل واسع في الكتب السابقة . وهل تساعد اللغة تفسير (تمنى) بقرأ ؟ أظن لا ! ! وكيف نجوز هذا واللّه يقول وهو أصدق القائلين :

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ » « ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ . وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى [سورة النجم الآيات 3 – 5] وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا [سورة الإسراء 73 و74] وقد عرفنا تفسيرها ووقفنا على معناها .

عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً [سورة الجن الآيات 26 - 28] .

وقال القاضي عياض في كتاب الشفاء « لقد أجمعت الأمة على أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيما يبلغه عن ربه ، معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا .

واعلم - أكرمك اللّه يا أخي - أنهم خرجوا هذا الحديث المسمى بحديث الغرانيق على أن أصله واه ، وقال علماء الحديث : إنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة ، وإنما أولع به وبمثله جماعة من المفسرين والمؤرخين بعضهم بحسن نية ، وقال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بإسناد متصل يجوز ذكره .

وإذا سلمنا بالحديث على أنه مروى بعدة روايات وإن تكن كل واحدة ضعيفة إلا أن كثرة طرقها تجعلنا نقبله بتحفظ ونؤوله بما يتفق مع المبادئ العامة الإسلامية ، بل

بما يتفق مع صدر السورة ، وعجزها ، ووصف الأصنام بعد قوله تعالى أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ [سورة النجم الآيات 19 – 23] وهذا بلا شك وصف للأصنام بأنها لا حقائق لها ، وليس لكم فيها حجة ، وما تتبعون في عبادتها إلا الظن الذي لا شبهة معه . . . وإذا سلمنا بالحديث فتأويله هكذا .

أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يرتل القرآن ترتيلا ، ويفصل آياته تفصيلا في قراءته فالجائز أن الشيطان انتظر سكتة من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ودس ما اختلقه من تلك المفتريات محاكيا صوت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقد شاعت تلك الزيادة في وسط أهل مكة وسر بها المشركون .

وأما المسلمون فيحفظون السورة كما أنزلها اللّه – سبحانه – ، وكما كان يتلوها النبي قبل ذلك ، وكانوا متحققين من ذم النبي للأوثان ، وما عرف عنه في ذلك ، ومن هنا تظهر الحكمة الإلهية وهي الاختبار بأمثال هذا . فأما الكافرون الظالمون ، ومن في قلوبهم مرض فسيقولون هذا من عند اللّه ، واللّه قد مدح الأصنام التي كان يذمها محمد .

وأما المؤمنون فسيعلمون أن القرآن هو الحق من عند اللّه ، وإن هذا إلقاء شيطان لا يعبأ به ،

واللّه عليم حكيم وتكون الآية سلوى للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم حيث كان يحصل هذا مع الأنبياء قبله ، وهو لحكمة اللّه يقصدها ويعلمها ، وهي الابتلاء والاختبار .

(248/526)

ويمكن بعد هذا كله أن نفهم الآية على هذا المعنى الآتي – مع أن اللغة لا تمنع منه – يقول اللّه – سبحانه وتعالى – : وما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول له كتاب وشريعة ، ولا نبي – ليس له شريعة ولا كتاب بل ألهم أو أوحى إليه أن يتبع شريعة غيره كأنبياء إسرائيل – وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى – من الأمنية التي تهواها النفس ، وكل الأنبياء كانت تحب وتهوى أن يؤمن بهم كل الناس – ألقى الشيطان في أمنيته وفي سبيل تحقيقها من العراقيل والعقبات الشيء الكثير فكان يلقى من نفوس الناس ويزين لهم الكفر والفسوق والعصيان ، ولا شك أن الناس الذين أرسل إليهم الرسول هم محل الأمنية ، التي يتمناها النبي صلّى اللّه عليه وسلم .

فينسخ اللّه ما يلقى الشيطان ، ويزيل الوساوس من بعض قلوب الناس ثم يحكم اللّه آياته البينات ، حتى تكون محكمة سديدة عند من يؤمن بها ، واللّه عليم بخلقه حكيم في صنعه ، يعلم خلقه وما هم عليه .

ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة وضلالا للذين في قلوبهم مرض ، من شك ونفاق وحسد وبغضاء : وانظر إلى عبارة القرآن فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والمراد استقر وسكن حتى أصبح طبعا وغريزة ، والقاسية قلوبهم ، وهم المشركون المكذبون ، وإن الظالمين من المنافقين والمشركين لفي شقاق بعيد الغور ، كبير الخطر ، ولهم عذاب مقيم . . .

وليعلم الذين أوتوا العلم ، وهدوا إلى الصراط المستقيم ، وهم المؤمنون القانتون أنه الكتاب المحكم الآيات ، البعيد عن الشبهات ، هو الحق من ربك ، لا شك فيه تنزيل من حكيم حميد ، فيؤمنوا به إيمانا صادقا لا شبهة معه ، فتخبت له قلوبهم ، وتخشع وتسكن مخلصة مطمئنة ، وإن اللّه لهادى الذين آمنوا بهذا القرآن إلى صراط مستقيم ، وسيجازيهم على ذلك أحسن الجزاء .

(249/526)

ولا يزال الذين كفروا في شك منه مهما أتتهم الأدلة ، وتوالت عليهم الحجج ، لا يزالون هكذا ، في شك وحيرة حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم لا خير فيه .

ولا غرابة في هذا لأن الملك يوم الجزاء والثواب والعقاب للّه الواحد القهار . يحكم بينهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير الواضح حـ 2 صـ 596 . 599 ﴾

كلام نفيس للقاضى عياض فى هذا الموضع :

قال عليه الرحمة ما نصه :

فصل وقد توجهت ههنا لبعض الطاعنين سؤالات منها ما روى من أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ سورة والنجم وقال (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) قال تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتها لترتجي ويروى ترتضي ، وفى رواية إن شفاعتها لترتجي ، وإنها لمع الغرانيق العلى وفى أخرى والغرانقة العلى تلك الشفاعة ترتجى ، فلما ختم السورة سجد وسجد معه المسلمون والكفار لما سمعوه أثنى على آلهتهم وما وقع في بعض الروايات أن الشيطان ألفاها على لسانه وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتمنى أن لو نزل عليه شئ يقارب بينه وبين قومه * وفى رواية أخرى

(قوله بخلاف مخبره) بضم الميم وفتح الموحدة (قوله الغرانيق) في الصحاح الغرنيق بضم الغين وفتح النون من طير الماء طويل العنق ، وإذا وصف بها الرجال فواحدهم غرنيق وغرنوق بكسر الغين وفتح النون فيهما وغرنوق وغرانق وهو الشاب الناعم والجمع الغرانق بالفتح والغرانيق والغرانقة انتهى (*)

أن لا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه وذكر هذه القصة وأن جبريل عليه السلام جاءه فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمتين قال له ما جئتك بهاتين ، فحزن لذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى تسلية له (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) الآية وقوله (وإن كادوا ليفتنونك) الآية ، فاعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين أحدهما في توهين أصله والثانى على تسليمه ، أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه

ثقة بسند سليم متصل وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم وصدق القاضى بكر بن العلاء المالكى حيث قال لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته واضطراب رواياته وانقطاع إسناده واختلاف كلماته فقائل يقول إنه في الصلاة ، وآخر يقول قالها في نادى قومه حين أنزلت عليه السورة ، وآخر يقول قالها وقد أصابته سنة ، وآخر يقول بل حدث نفسه فيها ، وآخر يقول إن الشيطان قالها على لسانه وأن النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال ما هكذا أقرأتك ، وآخر يقول بل أعلمهم الشيطان

أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها ، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال والله ما هكذا نزلت ، إلى غير ذلك من اختلاف الرواة ، ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى

(قوله المولعون) بضم الميم وفتح اللام (قوله لقد بلى الناس) بضم الموحدة وكسر اللام (قوله سنة) بكسر السين وفتح النون أي نعاس .

(*)

(252/526)

صاحب وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال فيما أحسب الشك في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة وذكر القصة قال أبو بكر البزار هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله علبه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا ولم يسنده عن شعبة الا أمية بن خالد وغيره يرسله عن سعيد بن جبير وإنما يعرف عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز

ذكره سوى هذا وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه الذى لا يوثق به

ولا حقيقة معه ، وأما حديث الكلبى فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه كما أشار إليه البزار رحمه الله والذى منه في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ والنجم وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس ، هذا توهينه من طريق النقل ، فأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته صلى الله عليه وسلم ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة أما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبي صلى الله عليه وسلم أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل عليه السلام وذلك كله ممتنع في حقه صلى الله عليه وسلم أو يقول ذلك النبي صلى الله عليه وسلم من قبل نفسه عمدا – وذلك كفر – أو سهوا وهو معصوم من هذا كله وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته صلى الله عليه وسلم من جريان

(قوله عن أبى بشر) بكسر الموحدة وسكون الشين المعجمة .

(*)

الكفر على قلبه أو لسانه لا عمدا ولا سهوا أو أن يتشبه عليه ما يلقيه الملك مما يلقى الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل أو أن يتقول على الله لا عمدا ولا سهوا ما لم ينزل عليه وقد قال الله تعالى: (ولو تقول علينا بعض الأقاويل) الآية ، وقال تعالى (إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) الآية ، ووجه ثان وهو استحالة هذه القصة نظرا وعرفا وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام متناقض الأقسام ممتزج المدح بالضم متخاذل التأليف والنظم ولما

كان النبي صلى الله عليه وسلم ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه واتسع في باب البيان ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ فصيح الكلام علمه ، ووجه ثالث أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندي المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة ولم يحك أحد في هذه القصة شيئا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة كما فعلوا مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض

(قوله متخاذل) بالخاء والذال المعجمتين (قوله وصناديد) جمع صنديد بكسر الصاد

المهملة وهو السيد الشجاع (قوله والشمات) بضم الشين المعجمة وتشديد الميم: جمع شامت (قوله الفينة بعد الفينة) بفاء مفتوحة ومثناة تحتية ساكنة ونون ؟ ؟ ؟ ؟ بعد الحين (*)

(254/526)

الضعفاء ردة وكذلك ما روى في قصة القضية ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت ولا تشغيب للمعادي حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت فما روى عن معاند فيها كلمة ولا عن مسلم بسببها بنت شفة فدل على بطلها واجتثاث أصلها ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس أو الجن هذا الحديث على بعض مغفلى المحدثين ليلبسن به على ضعفاء المسلمين.

ووجه رابع ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت (وإن كادوا ليفتنونك) الآيتين، وهاتان الآيتان تردان الخبر الذى

رووه لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى عصمه من أن يفترى وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا فكيف كثيرا وهم يرون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وأنه

قال صلى الله عليه وسلم: (افتريت على الله وقلت ما لم يقل) وهذا ضد مفهوم الآية وهى تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له ؟ وهذا مثل قوله تعالى في الآية الأخرى (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شئ) وقد روى عن ابن عباس كل ما في القرآن كاد فهو ما لا يكون قال الله تعالى (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) ولم يذهب وأكاد أخفيها ولم يفعل ، قال القشيرى القاضى ولقد طالبه قريش وثقيف إذ مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ووعدوه الإيمان به إن فعل فما فعل ولا كان ليفعل ، قال ابن الانباري ما قارب الرسول ولا ركن وقد ذكرت في معنى هذه الآية تفاسير

(255/526)

أخر ما ذكرناه من نص الله على عصمة رسوله ترد سفسافها فلم يبق في الآية إلا أن الله تعالى امتن على رسوله بعصمته وتثبيته بما كاده به الكفار وراموا من فتنته ومرادنا من ذلك تنزيهه وعصمته صلى الله عليه وسلم وهو مفهوم الآية ، وأما المأخذ الثاني فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح وقد أعاذنا الله من صحته ولكن على كل حال فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغث والسمين فمنها ما روى قتادة ومقاتل أن النبي صلى الله عليه

وسلم أصابته سنة عند قراءته هذه السورة فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم وهذا لا يصح إذ لا يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم مثله في حالة من أحواله ولا يخلقه الله على لسانه ولا يستولى الشيطان عليه في نوم ولا يقظة لعصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو وفى قول الكلبى أن النبي صلى الله عليه وسلم حدث نفسه فقال ذلك الشيطان على لسانه ، وفى رواية ابن شهاب عن أبى بكر بن عبد الرحمن قال وسها فلما أخبر بذلك قال إنما ذلك من الشيطان وكل هذه لا يصح أن يقوله النبي صلى الله عليه وسلم لا سهوا ولا قصدا ولا يتقوله الشيطان على لسانه وقيل لعل النبي صلى الله عليه وسلم قاله أثناء تلاوته على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار كقول إبراهيم عليه السلام هذا ربى على أحد التأويلات وكقوله بل فعله كبيرهم هذا بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين ثم رجع إلى تلاوته وهذا يمكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد وأنه ليس من المتلو وهو أحد ما ذكره القاضى أبو بكر ولا يعترض على هذا بما روى أنه

(قوله سفسافها) بسينين مهملتين وفاءين: أي حقيرها ورذلها .

(*) (2 - 9)

كان في الصلاة فقد كان الكلام قبل فيها غير ممنوع والذى يظهر ويترجح في تأويله عنده وعند غيره من المحققين على تسليمه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلا ويفصل الآى تفصيلا في قراءته كما رواه الثقات عنه فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلفه من تلك الكلمات محاكيا نغمة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفا فظنوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم وأشاعوها ولم يقدح ذلك عند المسلمين بحفظ

السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله وتحققهم من حال النبي صلى الله عليه وسلم في ذم الأوثان وعيبها عرف منه وقد حكى موسى بن عقبة في مغازيه نحو هذا ، وقال إن المسلمين لم يسمعوها وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين وقلوبهم ويكون ما روى من حزن النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة وقد قال الله تعالى (وما أرسلنا من قبلكم من رسول ولا نبى) الآية فمعنى تمنى: تلا ، قال الله تعالى: (لا يعلمون الكتاب إلا أمانى) أي تلاوة وقوله (فينسخ الله ما يلقى الشيطان) أي يذهبه ويزيل اللبس به ويحكم آياته ، وقيل معنى الآية هو ما يقع للنبى صلى الله عليه وسلم من السهو إذا قرأ فينتبه لذلك ويرجع عنه وهذا نحو قول الكلبى في الآية أنه حدث نفسه وقال إذا تمنى أي حدث نفسه ، وفى رواية أبى بكر بن عبد الرحمن نحوه وهذا السهو في القراءة إنما يصح فيما ليس طريقه تغيير المعاني وتبديل الألفاظ

(قوله وقد حكى موسى بن عقبة) أي ابن أبي عباس وفي بعض النسخ محمد بن عقبة ، وليس بصواب .

(*)

(257/526)

وزيادة ما ليس من القرآن بل السهو عن إسقاط آية منه أو كلمة ولكنه لا يقر على هذا السهو بل ينبه عليه ويذكر به للحين على ما سنذكره في حكم ما يجوز عليه من السهو وما لا يجوز ومما يظهر في تأويله أيضا أن مجاهدا روى هذه القصة والغرانقة العلى فإن سلمنا القصة قلنا لا يبعد أن هذا كان قرانا والمراد بالغرانقة العلى وأن شفاعتهن لترجي الملائكة على هذه الرواية وبهذا فسر لكلى الغرانقة أنها الملائكة وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون الأوثان والملائكة بنات الله كما حكى الله عنهم

ورد عليهم في هذه السورة بقوله (ألكم الذكر وله الأنثى) فأنكر الله كل هذا من قولهم ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم وليس عليهم الشيطان ذلك وزينه في قلوبهم وألقاه إليهم نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلا للالباس كما نسخ كثير من

القرآن ورفعت تلاوته وكان في إنزال الله تعالى لذلك حكمة وفى نسخة حكمة ليضل به من يشاء ويهدى من يشاء وما يضل به إلا الفاسقين و (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم) الآية – وقيل إن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة وبلغ ذكرت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى خاف الكفار أن يأتي بشئ من ذمها فسبقوا إلى مدحها

(قوله ورفع تلاوة تلك اللفظين) الظاهر أن يقال تينك كما وقع في بعض النسخ وكذا قوله بتلك الكلمتين: الظاهر أن يقال بتينك (*)

(258/526)

بتلك الكلمتين ليخلطوا في تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم ويشنعوا عليه على عادتهم وقولهم (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) ونسب هذا الفعل إلى الشيطان لحمله لهم عليه وأشاعوا ذلك وأذاعوه وأن النبي صلى الله عليه وسلم قاله فحزن لذلك من كذبهم وافترائهم عليه فسلاه الله تعالى بقوله (وما أرسلنا من قبلك) الآية ، وبين للناس الحق من ذلك من الباطل وحفظ القرآن وأحكم آياته ودفع ما لبس به العدو كما ضمنه تعالى من

قوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ومن

ذلك ما روى من قصة يونس عليه السلام أنه وعد قومه العذاب عن ربه فلما تابوا كشف عنهم العذاب فقال لا أرجع إليهم كذابا أبدا فذهب مغاضبا .

فاعلم أكرمك الله أن ليس في خبر من الأخبار الواردة في هذا الباب أن يونس عليه السلام قال لهم أن الله مهلكهم وإنما فيه أنه دعا عليهم بالهلاك ، والدعاء ليس بخبر يطلب صدقة من كذبه ، لكنه قال لهم إن العذاب مصبحكم وقت كذا وكذا فكان ذلك كما قال ثم رفع الله تعالى عنهم العذاب وتداركهم ، قال الله تعالى (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى) الآية وروى في الأخبار أنهم رأوا دلائل الأعذاب ومخايله ، قاله ابن مسعود ، وقال سعيد بن جبير غشاهم العذاب كما يغشى الثوب القبر .

فإن قلت فما معنى ما روى أن عبد الله بن أبى سرح كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم ارتد مشركا وصار إلى قريش فقال لهم إنى كنت أصرف محمدا حيث أريد كان يملى على عزيز حكيم

(قوله ابن أبى سرح) بسين مهملة وراء ساكنة وحاء مهملة (*)

فأقول أو عليم حكيم ؟ فيقول نعم كل صواب ، وفى حديث آخر فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم (اكتب كذا) فيقول أكتب كذا : فيقول: (أكتب كيف شئت) ويقول اكتب عليما حكيما فيقول أكتب سميعا بصيرا ؟ فيقول له اكتب كيف شئت ، وفى الصحيح عن أنس رضى الله عنه أن نصرانيا كان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم بعد ما أسلم ثم ارتد وكان يقول ما يدرى محمد إلا ما كتبت له: اعلم ثبتنا الله وإياك على الحق ولا جعل للشيطان وتلبيسه الحق بالباطل إلينا سبيلا أن مثل هذه

الحكاة أولا لا توقع في قلب مؤمن ريبا إذ هي حكاية عمن ارتد وكفر بالله ونحن لا نقبل خبر المسلم المتهم فكيف بكافر افترى هو ومثله على الله ورسوله ما هو أعظم من هذا ؟

والعجب لسليم العقل يشغل بمثل هذه الحكاية سره وقد صدرت من عدو كافر مبغض للدين مفتر على الله ورسوله ولم يرد على أحد من المسلمين ولا ذكر أحد من الصحابة أنه شاهد ما قاله وافتراه على نبى الله وإنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ، وما وقع من ذكرها في حديث أنس رضى الله عنه وظاهر حكايتها فليس فيه ما يدل على أنه شاهدها ولعله حكى ما سمع وقد علل البزاز حديثه ذلك وقال: رواه ثابت عنه ولم يتابع عليه ، ورواه حميد عن أنس قال وأظن حميدا إنما سمعه من ثابت ، قال القاضى أبو الفضل وفقه الله ولهذا والله أعلم لم يخرج أهل الصحيح حديث ثابت ولا حميد والحصحيح حديث عبد الله بن عزيز بن رفيع عن أنس رضى الله عنه الذى خرجه أهل

الصحة وذكرناه وليس فيه عن أنس قول شئ من ذلك من قبل نفسه إلا من حكايته عن المرتد النصراني

(260/526)

ولو كانت صحيحة لما كان فيها قدح ولا توهيم للنبى صلى الله عليه وسلم فيما أوحى إليه ولا جواز للنسيان والغلط عليه والتحريف فيما بلغه ولا طعن في نظم القرآن وأن من عند الله إذ ليس فيه لو صح أكثر من أن الكاتب قال له عليم حكيم أو كتبه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم كذلك هو فسبقه لسانه أو قلمه لكلمة أو كلمتين مما نزل على الرسول قبل إظهار الرسول لها إذ كان ما تقدم مما أملاه الرسول يدل عليها ويقتضى وقوعها بقوة قدرة الكاتب على الكلام ومعرفته به وجودة حسه

وفطنته كما يتفق ذلك للعارف إذا سمع البيت أن يسبق إلى قافيته أو مبتدإ الكلام الحسن إلى ما يتم به ولا يتفق ذلك في جملة الكلام كما لا يتفق ذلك في آية ولا سورة ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم إن صح كل صواب فقد يكون هذا فيما فيه من مقاطع الآى وجهان وقراءتان أنزلنا جميعا على النبي صلى الله عليه وسلم فأملى إحداهما وتوصل الكاتب بفطنته ومعرفته بمقتضى الكلام إلى الأخرى فذكرها للنبى صلى الله عليه وسلم فصوبها له

النبي صلى الله عليه وسلم ثم أحكم الله من ذلك ما أحكم ونسخ ما نسخ كما قد وجد ذلك في بعض مقاطيع الآى مثله قوله تعالى: (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) وهذه قراءة الجمهور وقد قرأ جماعة فإنك أنت الغفور الرحيم وليست من المصحف وكذلك كلمات جاءت على وجهين في غير المقاطع قرأ بهما معا الجمهور وثبتتا في المصحف مثل (وانظر إلى العظام كيف ننشرها ، وننشزها - - ويقضى اللحق ، ويقص الحق) وكل هذا لا يوجب ريبا ولا يسبب للنبى صلى الله عليه وسلم غلطا ولا وهما وقد قيل إن هذا يحتمل

(261/526)

أن يكون فيما يكتبه عن النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس غير القرآن فيصف الله ويسميه في ذلك كيف شاء .

فصل هذا القول فيما طريقه البلاغ وأما ما ليس سبيله سبيل البلاغ من الأخبار التى لا مستند لها إلى الأحكام ولا أخبار المعاد ولا تضاف إلى وحى بل في أمور الدنيا وأحوال نفسه فالذي يجب تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يقع خبره في شئ من ذلك بخلاف مخبره لا عمدا

ولا سهوا ولا غلطا وأنه معصوم من ذلك في حال رضاه وفى حال سخطه وجده ومزحه وصحته ومرضه ودليل ذلك اتفاق السلف وإجماعهم عليه وذلك أنا نعلم من دين الصحابة وعادتهم مبادرتهم إلى تصديق جميع أحواله وللثقة بجميع أخباره في أي باب كانت وعن أي شئ وقعت وأنه لم يكن لهم توقف ولا تردد في شئ منها ولا استثبات عن حاله عند ذلك هل وقع فيها سهو أم لا ، ولما احتج ابن أبى الحقيق اليهودي على عمر حين أجلاهم من خيبر بإقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم واحتج عليه عمر رضى الله عنه بقوله صلى الله عليه وسلم: (كيف بك إذا أخرجت من خيبر ؟) فقال اليهودي كانت هزيلة من أبى القاسم فقال له عمر كذبت يا عدو الله وأيضا فإن أخباره وآثاره وسيره وشمائله معتنى بها مستقصى تفاصيلها ولم يرد في شئ منها استدراكه صلى الله عليه وسلم لغلط في قول قاله أو اعترافه بوهم في شئ أخبر به ولو كان

(قوله وجده) بكسر الجيم: ضد الهزل .

(*)

ذلك لنقل كما نقل من قصته عليه السلام رجوعه صلى الله عليه وسلم عما أشار به على الأنصار في تلقيح النحل وكان ذلك رأيا لا خبرا وغير ذلك من الأمور التى ليست من هذا الباب كقوله والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا فعلت الذى حلفت عليه وكفرت عن يمينى ، وقوله إنكم تختصمون إلى – الحديث – وقوله اسق يا زبير حتى يبلغ الماء الجدر كما سنبين كل ما في هذا من مشكل ما في هذا الباب والذى بعده إن شاء الله مع أشباههما وأيضا فإن الكذب متى عرف من أحد في شئ من الأخبار بخلاف ما هو على أي وجه كان استريب بخبره واتهم في حديثه ولم

يقع قوله في النفوس موقعا ولهذا ترك المحدثون والعلماء الحديث عمن عرف بالوهم والغفلة وسوء الحفظ وكثرة الغلط مع ثقته وأيضا فإن تعمد الكذب في أمور الدنيا معصية والإكثار منه كبيرة بإجماع مسقط للمروءة وكل هذا مما ينزه عنه منصب النبوة والمرة الواحدة منه فيما يستبشع ويستشنع مما يخل بصاحبها ويزري بقائلها لاحقة بذلك وأما فيما لا يقع هذا الموقع فإن عددناها من الصغائر فهل تجرى على حكمها في الخلاف فيها مختلف فيه والصواب تنزيه النبوة عن قليله وكثيره وسهوه وعمده إذ عمدة النبوة البلاغ والإعلام والتبيين وتصديق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وتجويز شئ من هذا قادح في ذلك ومشكك فيه مناقض للمعجزة فلنقطع عن يقين بأنه لا يجوز

(قوله في تلقيح النخل) أي تبيرها وهو جعل شئ من النخل (الذكر في الأنثى) (قوله الجدر)

بفتح الجيم وإسكان الدال المهملة قيل المراد هنا أهل الحائط وقيل أصول الشجر وقيل جدر المشارب التى يجتمع فيها الماء في أصول الشجر (*)

(263/526)

على الأنبياء خلف في القول في وجه من الوجوه لا بقصد ولا بغير قصد ولا نتسامح مع من تسامح في تجوز ذلك عليهم حال السهو فيما ليس طريقه البلاغ ، نعم وبأنه لا يجوز عليهم الكذب قبل النبوة ولا الاتسام به في أمورهم وأحوال دنياهم لأن ذلك كان يزرى ويريب بهم وينفر القلوب عن تصديقهم بعد وانظر أحوال عصر النبي صلى الله عليه وسلم من قريش وغيرها من الأمم وسؤالهم عن حاله في صدق لسانه وما عرفوا به من ذلك واعترفوا به مما عرف وإتفق النقل على عصمة نبينا صلى الله عليه وسلم منه قبل وبعد وقد ذكرنا من الآثار فيه في الباب الثاني أول الكتاب ما يبين لك صحة ما أشرنا إليه

فصل فإن قلت فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم في حديث السهو الذى حدثنا به الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر حدثنا القاضى أبو الأصبغ ابن سهل حدثنا حاتم بن محمد حدثنا أبو عبد الله بن الفخار حدثنا أبو عيسى حدثنا عبيد الله نا يحيى عن داود بن الحصين عن أبى سفيان مولى ابن أبى أحمد أنه قال سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول

صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العصر فسلم في ركعتين فقام ذو اليدين فقال

(قوله ابن الحصين) بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين (قوله فقام ذو اليدين) اسمه الحرباق السلمى كان ينزل بذى خشب من ناحية المدينة له صحبة ، قال الحسينى في رجال المسند وكان يقال له ذو الشمالين وليس هو بذى الشمالين إنما ذو الشمالين عمير ابن عبد عمرو بن حبلة الخزاعى استشهد ببدر ، وقال الذهبي وهو ذو الزوائد .

(*)

(264/526)

يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك لم يكن وفى الرواية الأخرى ما قصرت الصلاة وما نسيت – الحديث بقصته – فأخبر بنفى الحالتين وأنها لم تكن وقد كان أحد ذلك كما قال ذو اليدين قد كان بعض ذلك يا رسول الله ، فاعلم وفقنا الله ذلك كما قال ذو اليدين قد كان بعض ذلك يا رسول الله ، فاعلم وفقنا الله وإياك أن للعلماء في ذلك أجوبة بعضها بصدد الإنصاف ومنها ما هو بنية التعسف والاعتساف وها أنا أقول أما على القول بتجويز الوهم والغلط مما ليس طريقه من القول البلاغ وهو الذى زيفناه من القولين فلا اعتراض بهذا الحديث وشبهه وأما على مذهب من يمنع

السهو والنسيان في أفعاله جملة ويرى أنه في مثل هذا عامد لصورة النسيان ليسن فهو صادق في خبره لأنه لم ينس ولا قصرت ولكنه على هذا القول تعمد هذا الفعل في هذه الصورة ليسنه لمن اعتراه مثله وهو قول مرغوب عنه نذكره في موضعه وأما على إحالة السهو عليه في الأقوال وتجويز السهو عليه فيما ليس طريقه القول كما سنذكره ففيه أجوبة منها أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر عن اعتقاده وضميره أما إنكار القصر فحق وصدق باطنا وظاهرا وأما النسيان فأخبر صلى الله عليه وسلم عن اعتقاده وأنه لم ينس في ظنه فكأنه قصد الخبر بهذا عن ظنه وأن لم ينطق به وهذا صدق أيضا

(قوله أقصرت الصلاة) قال ابن الأثير يروى على ما لم يسم فاعله وعلى تسمية الفاعل بمعنى النقص ، وقال المزى: الصحيح بناء أقصرت لما لم يسم فاعله من قبل الرواية ومن قبل المعنى لأن غيرها قصرها ولموافقة لفظ القرآن هو أن تقصروا من الصلاة (قوله بنية التعسف) أي بقصد الأخذ على غير الطريق ، والتعسف والمعسف والاعتساف بمعنى واحد .

(*)

ووجه ثان أن قوله ولم أنس راجع إلى السلام أي أنى سلمت قصدا وسهوت عن العدد أي لم أسه في نفس السلام وهذا محتمل وفيه بعد ووجه ثالث وهو أبعدها ما ذهب إليه بعضهم وإن احتمله اللفظ من قوله كل ذلك لم يكن أي لم يجتمع القصر والنسيان بل كان أحدهما ومفهوم اللفظ خلافة مع الرواية الأخرى الصحيحة وهو قوله ما قصرت الصلاة وما نسيت ، هذا ما رأيت فيه لأئمتنا وكل من هذه الوجوه محتمل للفظ على بعد بعضها وتعسف الآخر منها ، قال القاضى أبو الفضل وفقه الله والذى أقول ويظهر لى أنه أقرب من هذه الوجوه كلها أن قوله لم أنس إنكار للفظ الذى نفاه عن نفسه وأنكره على غيره بقوله: بئسما لأحدكم أن يقول نسيت آية كذا وكذا ولكنه نسى ، وبقوله في بعض روايات الحديث الآخر لست أنسى ولكن أنسى فلما قال له السائل أقصرت الصلاة أم نسيت أنكر قصرها كما كان ونسيانه هو من قبل نفسه وأنه إن كان جرى شئ من ذلك فقد نسى حتى سأل غير فتحقق أنه نسى وأجرى عليه ذلك ليسن فقوله على هذا لم أنس ولم تقصر وكل ذلك لم يكن صدق وحق لم تقصر ولم ينس حقيقة ولكنه نسى * ووجه آخر استثرته من كلام بعض المشايخ وذلك أنه قال إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسهو ولا ينسى ولذلك نفى عن نفسه النسيان قال لأن النسيان غفلة وآفة والسهو إنما هو شغل .

قال فكان النبي صلى الله عليه وسلم يسهو في صلاته ولا يغفل عنها وكان يشغله عن حركات الصلاة ما في الصلاة

(قوله ولكنه نسى) بضم النون وكسر السين المهملة المشددة .

(قوله ولكن أنسى) بضم الهمزة وفتح النون وتشديد السين المفتوحة .

(*)

(266/526)

شغلا بها لا غفلة عنها فهذا إن تحقق على هذا المعنى لم يكن في قوله (ما قصرت وما نسيت) خلف في قول وعند أن قوله: (ما قصرت الصلاة وما نسيت) بمعنى الترك الذى هو أحد وجهى النسيان أراد والله أعلم أنى لم أسلم من ركعتين تاركا لإكمال الصلاة ولكني نسيت ولم يكن ذلك من تلقاء نفسي والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح إنى لأنسى أو أنسى ، لأسن .

وأما قصة كلمات إبراهيم المذكورة أنها كذباته الثلاث المنصوصة في القرآن منها اثنتان قوله: (إنى سقيم – بل فعله كبيرهم هذا) وقوله للملك عن زوجته: إنها أختى: فاعلم أكرمك الله أن هذه كلها خارجة عن الكذب لا في القصد ولا في

غيره وهى داخلة في باب المعاريض التى فيها مندوحة عن الكذب أما قوله: (إنى سقيم) فقال الحسن وغيره معناه: سأسقم أي: أن كل مخلوق معرض لذلك فاعتذر لقومه من

الخروج معهم إلى عيدهم بهذا وقيل بل سقيم بما قدر على من الموت وقيل سقيم القلب بما أشاهده من كفركم وعنادكم وقيل بل كانت الحمى تأخذه عند طلوع نجم معلوم فلما رآه

(قوله للملك) قال السهيلي على بن قتيبة إن اسمه صادوف وقيل سنان بن علوان (قوله إنها أختى) قيل إنما لم يقل إنها زوجتى لأن ذلك الجبار كان على دين المجوس وفى دينهم أن أخا الأخت أحق بها من غيره فأراد إبراهيم عليه السلام أن يستعصم من الجبار بذكر الشرع الذى عليه ذلك الجبار ، واعترض بأن الذى جاء بدين المجوس زرادشت وهو متأخر عن إبراهيم ، وأجيب بأن دين المجوس متقدم على زرادشت وإنما زرادشت زاد فيه أمورا ، وفى حاشية التفتازانى على الكشاف إنه إنما لم يقل زوجتى لأن ذلك الجبار كان لا يتعرض إلا لذوات الأزواج.

(قوله مندوحة) أي سعة: من ندحت الشئ إذا وسعته .

(*)

(267/526)

اعتذر بعادته وكل هذا ليس فيه كذب بل خبر صحيح صدق وقيل: بل عرض بسقم حجته عليهم وضعف ما أراد بيانه لهم من جهة النجوم التى كانوا يشتغلون بها وأنه أثناء

نظره في ذلك وقبل استقامة حجته عليهم في حال سقم ومرض مع أنه لم يشك هو ولا ضعف إيمانه ولكنه ضعف في استدلاله عليهم وسقم نظره كمال يقا حجة سقيمة ونظر معلول حتى ألهمه الله باستدلاله وصحة حجته عليهم بالكواكب والشمس والقمر ما نصه الله تعالى وقدمنا بيانه وأما قوله: (بل فعله كبيرهم هذا) الآية فإنه علق خبره بشرط نطقه كأنه قال إن كان ينطق فهو

فعله على طريق التبكيت لقومه وهذا صدق أيضا ولا خلف فيه ، وأما قوله أختى فقد بين في الحديث وقال: فإنك أختى في الإسلام وهو صدق والله تعالى يقول: (إنما المؤمنون إخوة) فإن قلت: فهذا النبي صلى الله عليه وسلم قد سماها كذبات وقال لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات وقال في حديث الشفاعة ويذكر كذباته فمعناه أنه لم يتكلم بكلام صورته صورة الكذب وإن كان حقا في الباطن إلا هذه الكلام ولما كان مفهوم ظاهرها خلاف باطنها أشفق إبراهيم عليه السلام بمؤاخذته بها وأما الحديث كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد

(قوله ونظر معلول) الأجود أن يقال معل ، قال ابن الصلاح: قول المحدثين والفقهاء معلول مرذول عند أهل العربية واللغة قال النووي إنه لحن ، وقال صاحب المحكم: والمتكلمون يستعملون لفظة المعلول كثيرا ولست على ثقة ولا ثلج ، لأن المعروف إنما هو علة فهو معل ، اللهم إلا أن يكون على ما ذهب إليه سيبويه في قولهم مجنون ومسلول من أنهما جاءا على

جننته وسللته ولم يستعملا في الكلام ، استغنى عنها : ما فعلت وإذا أرادوا جن وسل فإنما يقول جعل فيه الجنون والسل .

(*)

(268/526)

غزوة ورى بغيرها فليس فيه خلف في القول إنما هو ستر مقصده لئلا يأخذ عدوه حذره وكتم وجه ذهابه بذكر السؤال عن موضع آخر والبحث عن أخباره والتعريض بذكره لا أنه يقول تجهزوا إلى غزوة كذا أو وجهتنا إلى موضع كذا خلاف مقصده فهذا لم يكن والأول ليس فيه خبر يدخله الخلف .

فإن قلت فما معنى قوله موسى عليه السلام ، وقد سئل أي الناس أعلم ؟ فقال أنا أعلم فتعب الله عليه ذلك إذ لم يرد العلم إليه – الحديث – وفيه قال بل عبد لنا بمجمع البحرين أعلم منك وهذا

خبر قد أنبأ الله أنه ليس كذلك فاعلم أنه وقع في هذا الحديث من بعض طرقه الصحيحة عن ابن عباس هل تعلم أحدا أعلم منك ؟ فإذا كان جوابه على علمه فهو خبر حق وصدق لا خلف فيه ولا شبهة ، وعلى الطريق الآخر فمحمله على ظنه ومعتقده كما لو

صرح به لأن حاله في النبوة والاصطفاء يقتضى ذلك فيكون إخباره بذلك أيضا عن اعتقاده وحسبانه صدقا لا خلف فيه وقد يريد بقوله أنا أعلم بما يقتضيه وظائف النبوة من علوم التوحيد وأمور الشريعة وسياسة الأمة ويكون الخضر أعلم منه بأمور أخر مما لا يعلمه أحد إلا بإعلام الله من علوم غيبه كالقصص المذكورة في خبرهما فكان موسى عليه السلام أعلم على الجملة بما تقدم وهذا أعلم على الخصوص بما أعلم ويدل عليه قوله تعالى: (وعلمناه من لدنا علما) وعتب الله ذلك عليه فيما قاله العلماء إنكار هذا القول عليه لأنه لم يرد العلم إليه كما قالت الملائكة لا علم لنا إلا ما علمتنا أو لأنه لم يرض قوله شرعا وذلك والله أعلم لئلا يقتدى به فيه من لم يبلغ كماله في تزكية نفسه وعلو درجته من أمته فيهلك لما تضمنه من مدح الإنسان نفسه

(269/526)

ويروثه ذلك من الكبر والعجب والتعاطي والدعوى وإن نزه عن هذه الرذائل الأنبياء فغيرهم بمدرجة سبيلها ودرك ليلها إلا من عصمه الله فالتحفظ منها أولى لنفسه وليقتدى به ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم تحفظا من مثل هذا مما قد علم به (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) وهذا الحديث إحدى حججا لقائلين بنبوة الخضر لقوله فيه أنا أعلم من موسى ولا

يكون الولى أعلم من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما الأنبياء فيتفاضلون في المعارف وبقوله وما فعلته عن أمرى ، فدل أنه بوحى ،

ومن قال إنه ليس بنبى قال يحتمل أن يكون فعله بأمر نبى آخر ، وهذا يضعف لأنه ما علما أنه كان في زمن موسى نبى غيره إلا أخاه هارون وما نقل أحد من أهل الأخبار في ذلك شيئًا يعول عليه ، وإذا جعلنا أعلم منك ليس على العموم وإنما هو على الخصوص وفى قضايا معينة لم يحتج إلى إثبات النبوة خضر ، ولهذا قال بعض الشيوخ كان موسى اعلم من الخضر فيما أخذ عن الله والخضر أعلم فيما دفع إليه من موسى ، وقال آخر أنما ألجئ موسى إلى الخضر للتأديب لا للتعليم

فصل وأما ما يتعلق بالجوارح من الأعمال ولا يخرج من جملتها القول باللسان

(قوله لقوله فيه أنا أعلم من موسى) هكذا وقع في كثير من الأصول وهو غير صواب لأن الضمير المضاف إليه القول عائد حينئذ على الخضر والضمير المجرور بقى عائد على الحديث السابق وليس فيه أن الخضر قال أنا أعلم من موسى والصواب ما في بعض النسخ وهو لقوله فيه إنه أعلم من موسى ويكون المضير المضاف إليه القول عائدا على الله تعالى والضمير المنصوب بأن عائد على الخطر وقد سبق أن في الحديث: بل عبد لنا بمجمع البحرين أعلم منك .

(*)

فيما عدا الخبر الذى وقع فيه الكلام ولا الاعتقاد بالقلب فيما عدا التوحيد وما قدمناه من معارفه المختصة به فأجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر الموبقات ومستند الجمهور في ذلك الإجماع الذى ذكرناه وهو مذهب القاضى أبو بكر ومنعها غيره بدليل العقل مع الإجماع وهو قول الكافة ، واختار الأستاذ أبو إسحاق وكذلك لا خلاف أنهم معصومون من كتمان الرسالة والتقصير في التبليغ ، لأن كل ذلك

يقتضى العصمة منه المعجزة مع الإجماع على ذلك من الكافة ، والجمهور قائل بأنهم معصومون من ذلك من قبل الله معتصمون باختيارهم وكسبهم إلا حسينا النجار فإنه قال لا قدر لهم على المعاصي أصلا ، وأما الصغائر فجوزها جماعة من السلف وغيرهم على الأنبياء وهو مذهب أبى جعفر الطبري وغيره من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، وسنورد بعد هذا ما احتجوا به ، وذهبت طائفة أخرى إلى الوقف وقالوا العقل لا يحيل وقوعها منهم ولم يأت في الشرع قاطع بأحد الوجهين ، وذهبت طائفة أخرى من المحققين من الفقهاء والمتكلمين إلى عصمتهم من الصغائر كعصمتهم من الكبائر ، قالوا : لاختلاف الناس في الصغائر وتعيينها من الكبائر ، وإشكال ذلك وقول ابن عباس وغيره إن كل ما عصى الله به

فهو كبيرة وأنه إنما سمى منها الصغير بالإضافة إلى ما هو أكبر منه ومخالفة الباري في أي أمر كان يجب كونه كبيرة ، قال القاضى أبو محمد

(قوله والموبقات) بكسر الموحدة أي المهلكات (قوله وتعيينها) هو بالجر عطف على الصغائر (قوله وإشكال ذلك) هو بالجر عطف على اختلاف الناس وذلك إشارة إلى تعيينها .

(*)

(271/526)

عبد الوهاب لا يمكن أن يقال إن في معاصي الله صغيرة إلا على معنى أنها تغتفر باجتناب الكبائر ولا يكون لها حكم مع ذلك بخلاف الكبائر إذا لم يتب منها فلا يحبطها شئ والمشيئة في العفو عنها إلى الله تعالى وهو قول القاضى أبى بكر وجماعة أئمة الأشعرية وكثير من أئمة الفقهاء ، وقال بعض أئمتنا : ولا يجب على القولين أن يختلف أنهم معصومون عن تكرار الصغائر وكثرتها إذ يلحقها ذلك بالكبائر ولا في صغيرة أدت

إلى إزالة الحشمة وأسقطت المروؤة وأوجبت الإزراء والخساسة ، فهذا أيضا مما يعصم عنه الأنبياء إجماعا ، لأن مثل هذا يحط منصب المتسيم به ويزري بصاحبه وينفر القلوب

عنه والأنبياء منزهون عن ذلك ، بل يلحق بهذا ما كان من قبيل المباح فأدى إلى مثله لخروجه بما أدى إليه عن اسم المباح إلى الحظر ، وقد ذهب بعضهم إلى عصمتهم من مواقعة المكروه قصدا ، وقد استدل بعض الأئمة على عصمتهم من الصغائر بالمصير إلى امتثال أفعالهم واتباع آثارهم وسيرهم مطلقا ، وجمهور الفقهاء على ذلك من أصحاب مالك والشافعي وأبى حنيفة من غير التزام قرينة بل مطلقا عند بعضهم وإن اختلفوا في حكم ذلك ، وحكى ابن خويز منداذ وأبو الفرج عن مالك التزام ذلك وجوبا وهو قول الأبهري وابن القصار وأكثر أصحابنا وقول أكثر أهل العراق وابن سريج والإصطخري

(قوله إلى الحظر) بالحاء المهملة والظاء المعجمة: أي المنع (قوله وابن سريج) بالسين المهملة والجيم هو أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج البغدادي: أخذ عن الأنماطي ، كانت وفاته سنة ست وثلاثمائة (قوله والاصطخري) هو أبو سعيد الحسن بن أحمد بن بريد ، توفى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة كان هو وابن سريج شيخي الشافعية ببغداد (10 - 2) (*)

وابن خيران من الشافعية وأكثر الشافعية على أن ذلك ندب ، وذهبت طائفة إلى الإباحة .

وقيد بعضهم الاتباع فيما كان من الأمور الدينية وعلم به مقصد القربة ومن قال بالإباحة في أفعاله لم يقيد قال فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم في أفعالهم ، إذ ليس كل فعل من أفعاله يتميز مقصد به من القربة أو الإباحة أو الحظر أو المعصية ،

ولا يصح أو يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية لا سيما على من يرى من الأصوليين تقديم الفعل على القول إذا تعارضا ، ونزيد هذا حجة بأن نقول من جوز الصغائر ومن نفاها عن نبينا صلى الله عليه وسلم مجمعون على أنه لا يقر على منكر من قول أو فعل وأنه متى رأى شيئا فسكت عنه صلى الله عليه وسلم دل على جوازه فكيف يكون هذا حاله في حق غيرهن ثم يجوز وقوعه منه في نفسه وعلى هذا المأخذ تجب عصمته من مواقعة المكروه كما قيل وإذ الحظر أو الندب على الاقتداء بفعله ينافى الزجر والنهى عن فعل المكروه ، وأيضا فقد علم من دين الصحابة قطعا الاقتداء بأفعال النبي صلى الله عليه وسلم كيف توجهت وفى كل ؟ ؟ كالاقتداء بأمواله فقد نبذوا خواتيمهم حين نبذ خاتمه ، وخلعوا نعالهم حين خلع واحتجاجهم برؤية ابن عمر إياه جالسا لقضاء حاجته مستقبلا بيت المقدس واحتج غير واحد منهم في غير شئ مما بابه العبادة أو العادة بقوله رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله وقال: (هلا خبرتيها أنى أقبل وأنا صائم) وقالت عائشة محتجة: (كنت أفعله أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وغضب رسول الله صلى الله

عليه وسلم على الذى أخبر بمثل هذا عنه

(قوله وابن خيران) هو أبو على الحسين بن صالح بن خيران البغدادي .

(*)

(273/526)

فقال يحل الله لرسوله ما يشاء وقال: (إنى لاخشاكم لله وأعلمكم بحدوده) والآثار في هذا أعظم من أن نحيط بها لكنه يعلم من مجموعها على القطع اتباعهم أفعاله واقتداؤهم بها ولو جوزوا عليه المخالفة في شئ منها لما اتسق هذا وليقل عنهم وظهر بحثهم عن ذلك ولما أنكر صلى الله عليه وسلم على الآخر قوله واعتذاره بما ذكرناه ، وأما المباحات فجائز وقوعها منم إذ ليس فيها قدح بل هي مأذون فيها وأيديهم كأيدي غيرهم مسلمة عليها

إلا أنهم بما خصوا به من رفيع المنزلة وشرحت لهم صدورهم من أنوار المعرفة واصطفوا به من تعلق بالهم بالله والدار الآخرة لا يأخذون من المباحات إلا الضرورات مما يتقون به على سلوك طريقهم وصلاح دينهم وضرورة دنياهم وما أخذ على هذه السبيل التحقق طاعة وصار قربة كما بينا منه أول الكتاب طرفا في خصال نبينا صلى الله عليه وسلم ، فبان لك عظيم فضل الله على نبينا وعلى سائر أنبيائه عليهم السلام بأن جعل أفعالهم قربات

وطاعات بعيدة عن وجه المخالفة ورسم المعصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الشفا حـ 2 صـ 147.124 ﴾

(274/526)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ إِلاَّ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان ﴾ :

في هذه الجملةِ بعد " إلاَّ " ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنها في محلِّ نصبٍ على الحال من " رسول " والمعنى : وما أَرْسَلْناه إلاَّ حالُهُ هذه ، والحالُ محصورةٌ . الثاني : أنها في محلِّ الصفةِ ل " رسول " ، فيجوز أَنْ يُحْكَمَ على موضعها بالجرِّ باعتبارِ لفظِ الموصوف ، وبالنصبِ باعتبارِ محلِّه ؛ فإنَّ " مِنْ " مزيدةٌ فيه . الثالث : أنَّها في موضعِ استثناءٍ من غيرِ الجنس . قاله أبو البقاء . يعني أنه استثناءٌ منقطعٌ .

و " إذا " هذه يجوز أَنْ تكونَ شرطيةً ، وهو الظاهر ، وإليه ذهب الحوفيُّ ، وأَنْ تكونَ لمجردِ الظرفية . قال الشيخ : " ونَصَّوا على أَنَّه يَليها في النفي يعني " إلاَّ " المضارعُ بلا شرطٍ نحو : ما زيدٌ إلاَّ يفعلُ ، وما رأيتُ زيداً إلاَّ يفعلُ ، والماضي بشرطِ تقدُّمِ فعلٍ نحو : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ

مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ ﴾ [يس : 30] أو مصاحبةِ قد [نحو :] "ما زيدٌ إلاَّ قد فعل" . وما جاء بعد "إلاَّ" في الآية جملةٌ شرطية ، ولم يَلِها ماضٍ مصحوبٌ ب "قَدْ" ولا عارٍ منها .

فإنْ صَحَّ ما نَصُّوا عليه يُؤَوَّل على أنَّ "إذا" جُرِّدَتْ للظرفية ولا شرطَ فيها وفُصِل بها بين "إلاَّ" والفعلِ الذي هو "أُلْقى" ، وهو فصلٌ جائز ، فتكونُ "إلاَّ" قد وَلِيها ماضٍ في التقديرِ ووُجِد شرطُه : وهو تقدُّم فعلٍ قبل "إلاَّ" وهو "وما أَرْسَلْنا" .

قلت : ولا حاجةَ إلى هذا التكليفِ المُخْرِجِ للآيةِ عن معناها . بل هو جملةٌ شرطيةٌ : إمَّا حالٌ ، أو صفةٌ ، أو استثناء ، كقوله : ﴿ إِلاَّ مَن تولى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ ﴾ [الغاشية : 23] وكيف يدعى الفصلُ بها وبالفعلِ بعدَها بين "إلاَّ" وبين "ألقى" مِنْ غير ضرورةٍ تدعو إليه ومع عدم صحةِ المعنى ؟

(275/526)

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا تمنى ﴾ : إنما أُفْرِد الضميرُ ، وإن تقدَّمه شيئان معطوفٌ أحدُهما على الآخر بالواو ؛ لأنَّ في الكلام حذفاً تقديرُه : وما أَرْسَلْنا مِنْ قبلِك مِنْ رسولٍ إلاَّ إذا تمنَّى ولا نبيٍّ إلاَّ إذا تمنَّى كقولِه : ﴿ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] .

والحذفُ : إمَّا من الأول أو من الثاني .

والضميرُ في "أُمْنِيَّته" فيه قولان، أحدُهما: وهو الذين ينبغي أن يكونَ أنه ضميرُ الشيطان. والثاني: أنه ضميرُ الرسول، ورَوَوْا في ذلك تفاسيرَ اللهُ أعلم بصحتها.

قوله: ﴿ لِّيَجْعَلَ ﴾: في متعلَّق هذه اللامِ ثلاثةُ أوجهٍ، أظهرُها: أنها متعلقةٌ بـ "يُحْكِم" أي: يُحْكِم اللهُ آياتِه ليجعلَ. وقولُه: ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ جملةُ اعتراضٍ. وإليه نحا الحوفيُّ. والثاني: أنها متعلقةٌ بـ "يَنْسَخُ" وإليه نحا ابن عطية. وهو ظاهرٌ أيضاً. الثالث: أنها متعلقةٌ بألقى، وليس بظاهر. وفي اللامِ قولان، أحدهما: أنها للعلةِ، والثاني: أنها للعاقبةِ. و "ما" في قولِه ﴿ مَا يُلْقِي ﴾ الظاهرُ: أنَّها/ بمعنى الذي، ويجوزُ أَنْ تكونَ مصدريةً.

قوله: ﴿ والقاسية ﴾ أل في "القاسية" موصولةٌ، والصفةُ صلتُها، و "قلوبُهم" فاعلٌ بها، والضميرُ المضافُ إليه هو عائدُ الموصول وأُنِّثَتْ الصلةُ لأنَّ مرفوعَها مؤنثٌ مجازي، ولو وُضع فعلٌ موضعَها لجاز تأنيثُه. و "القاسيةِ" معطوفٌ على "الذين" أي: فتنةً للذين في قلوبِهم مَرَضٌ وفتنةً للقاسيةِ قلوبُهم.

قوله: ﴿ وَإِنَّ الظالمين ﴾ مِنْ وَضْعِ الظاهرِ مَوْضِعَ المضمرِ؛ إذ الأصلُ: "وإنهم في ضلال" ولكن أُبْرِزُوا ظاهرين للشهادةِ عليهم بهذه الصفةِ الذَّميمةِ.

قوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين ﴾ : عطفٌ على " ليجعلَ " عطفَ علةٍ على مثلِها . والضميرُ في " أَنَّه " فيه قولان ، أحدهما وإليه ذهب الزمخشري أنه عائدٌ على تمكينِ الشيطانِ أي : ليَعْلَمَ المؤمنونِ أن تمكينَ الشيطانِ هو الحق . الثاني وإليه نحا ابن عطية أنه عائدٌ على القرآنِ . وهو وإنْ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ فهو في قوة المنطوق .

قوله : ﴿ فَيُؤْمِنُواْ ﴾ عطفٌ على " وليعلمَ " و " فَتُخْبِتَ " عطفٌ عليه . وما أحسنَ ما وقعَتْ هذه الفاءاتُ .

وقرأ العامَّةُ " لهادِيْ الذين " بالإِضافةِ تخفيفاً . وابنُ أبي عبلة وأبو حيوةَ بتنوينِ الصفةِ وإعمالِها في الموصول .

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55) ﴾

والمِرْيَةُ والمُرْيَةُ بالكسر والضم لغتان مشهورتان . وظاهرُ كلامِ أبي البقاء أنهما قراءتان ، ولا أحفظ الضم هنا . والضمير في " منه " قيل : يعودُ على القرآن . وقيل : على الرسول . وقيل : على ما ألقاه الشيطان .

قوله : ﴿ عَقِيمٍ ﴾ العَقيم : من العُقْم . وفيه قولان ، أحدهما : أنه السَّدُّ يقال : امرأةٌ مَعْقُومَةُ الرَّحِمِ أي : مسدودتُه عن الولادة . وهذا قول أبي عبيد . والثاني : أن أصلَه

القطعُ . ومنه " المُلْك عَقيم " أي : لأنه يقطع صلةَ الرحم بالتزاحُمِ عليه . ومنه العقيمُ لانقطاع ولادِتها . والعُقْم : انقطاعُ الخير ، ومنه " يومٌ عقيم " . قيل : لأنَّه لا ليلةَ بعده ولا يومَ فشُبِّه بمَنْ انقطع نَسْلُه . هذا إنْ أريد به يومُ القيامة . وإن أريد به يومُ بدرٍ فقيل : لأنَّ أبناءَ الحربِ تُقْتَلُ فيه ، فكأنَّ النساء لم تَلِدْهُنَّ ، فيكُنَّ عُقُماً . ويقال : رجل عقيم وامرأة عقيمة أي : لا يُولد لهما ، والجمعُ عُقُم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 292 . 295 ﴾

(277/526)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) ﴾

الشياطين يتعرَّضون للأنبياء عليهم السلام ولكن لا سلطانَ ولا تأثيرَ في أحوالهم منهم ، ونبيُّنا – صلى الله عليه وسلم – أفضل الجماعة .

وإنما الشياطين تخييلٌ وتسويل من التضليل . وكان لنبيِّنا – صلى الله عليه وسلم –

سَكَتَاتٌ في خلال قراءة القرآن عند انقضاء الآيات ، فيتلَفَّظ الشيطانُ ببعض الألفاظ (1) ، فَمَنْ لم يكن له تحصيلٌ تَوَهَّمَ أنه كان من ألفاظِ الرسولِ – عليه الصلاة والسلام وصار فتنةً لقومٍ .

أما – الذين أيدهم بقوة العصمة ، وأدركتهم العناية فقد استبصروا ولم يُضِرْهُم ذلك .

﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) ﴾

إذا أراد اللَّهُ بِعَبْدِهِ خيراً أمدَّه بنور التحقيق ، وأَيَّده بحسن العصمة ، فيميّز بحسن البصيرة بين الحق والباطل ؛ فلا يُظلُّه غمامُ الرَّيبِ ، وينجلي عنه غطاءُ الغَفْلَة ، فلا تأثير لضبابِ الغداةِ في شُعاع الشمس عند متوع النهار ، وهذا معنى قوله :

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 555.554 ﴾

---

(1) كيف يتفق ذلك مع قوله تعالى فى سورة الشعراء ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212) ﴾ وقد تقدم رد مثل هذه الروايات الساقطة المخالفة للكتاب والسنة من خلال كلام المحققين من المفسرين . والله أعلم .

" بحث نفيس بعنوان نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق "

للشيخ : محمد ناصر الدين الألباني - رحمه الله -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي اصطفى نبينا على سائر البشر ، وعصمه من الشيطان أن يوحي إليه بشرٍّ ، فقال تعالى مخاطباً إبليس اللعين : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) [الحجر : 42] ، بل جعل تعالى له السلطة على شيطانه القرين ، فكيف من كان عنه من المبعدين ؟ . كما أشار إلى ذلك قول رسوله الكريم : " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن " قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : " وإياي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير " . وصلى الله على محمد الذي مكنه الله تعالى من إبليس حتى كاد أن يخنقه ، وهَمّ أن يربطه بسارية من سواري مسجد المدينة ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعد ؛ فقد كتب إلى بتاريخ 14 / 7 / 1952 م بعض الأستاذة من الإخوان الأعزة من الباكستان حيث أُوفد إليها لغاية علمية ـ يسألني عن رأيي في حديث الغرانيق الذي اختلف فيه قول حافظين كبيرين ، هما : ابن كثير الدمشقي ، وابن حجر المصري ، فقد أنكره الأول وقواه الآخر . وطلب مني أن لا أضن بالجواب عليه ، فلبثت بعض الأشهر أترقب فرصة أستطيع فيها إجابة طلبه . ثم لقيني أحد الأحبة عقب صلاة عيد الأضحى لهذه السنة ـ 1371 هـ ـ فسألني أيضاً عن حديث الغرانيق ، فأجبته بأنه لا يصح ، بل هو باطل موضوع ، فذكر لي أن أحد الشباب ممن في قلوبهم مرض احتج به على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ـ وحاشاه ـ يتكلم بما يرضي المشركين جذباً لهم إليه ، لأنه بزعمه الباطل لم يكن نبياً صادقاً ، وإنما كان يتظاهر بذلك تَرَؤُساً عليهم كما يهرف بذلك بعض الملاحدة قديماً وحديثاً ، فحملني ذلك على أن اغتنم فرصة العيد المذكور ، فشرعت ـ متوكلاً على الله الغفور ـ في جمع طرق تلك القصة من كتب التفسير والحديث ، وبينت عللها متناً وسنداً ، ثم ذكرت قول الحافظ ابن حجر في تقويتها ، وتعقبته بما يبين وَهْيَ ما ذهب إليه ، ثم عقّبت على ذلك بذكر بعض البحوث والنقول عن بعض الأئمة الفحول ذوي التحقيق في الفروع والأصول ، تؤيد ما ذهبنا إليه من نكارة القصة وبطلانها ، ووجوب رفضها ، وعدم قبولها ، تصديقاً لقوله تعالى : (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً)

[الفتح : 9] ، فجاءت رسالة فريدة في بابها ، قوية في موضوعها ، ترفع حيرة الأخ المؤمن ، وتطيح بشبهة الملحد الأرعن ، وقد سميتها :

" نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق " .

أسأل الله تعالى أن يجعلها خالصة لوجهه ، ويقبلها مني نصرة لنبيه ، ويدّخر لي ثوابها ليوم أحْوَجُ ما نكون فيه إلى شفاعته ، (يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم) [الشعراء : 88.89] إنه هو السميع العليم ، والبر الرحيم .

محمد ناصر الدين الألباني

دمشق في : 1372.1.2 هـ

1952.9.21 م

(280/526)

بين يدي الروايات

وقبل أن أشرع في سَوق روايات القصة ، أرى أنه لا بد من أن نذكر كلمة ، تتميماً لفائدة الرسالة ، فأقول :

إن هذه القصة قد ذكرها المفسرون عند قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا

نبي إلآ إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله ءاياته والله عليم حكيم (52) ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد (53) وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين ءامنوا إلى صراط مستقيم (54)) [الحج] .

وقد اختلفوا في تفسير قوله تعالى : (تمنى) و(أمنيته) ، وأحسن ما قيل في ذلك : إن (تمنى) من " الأمنية " وهي التلاوة ، كما قال الشاعر في عثمان رضي الله عنه حين قتل :

تمنى كتاب الله أول ليلة * * * وآخرها لاقى حِمام المقادر

وعليه جمهور المفسرين والمحققين ، وحكاه ابن كثير عن أكثر المفسرين ، بل عزاه ابن القيم إلى السلف قاطبة فقال في " إغاثة اللهفان " (1 / 93) :

" والسلف كلهم على أن المعنى إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته " وبيّنه القرطبي فقال في " تفسيره " (12 / 83) :

وقد قال سليمان بن حرب : إن (في) بمعنى : عند ، أي ألقى الشيطان في قلوب الكفار عند تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم كقوله عز وجل : (ولبثت فينا) (الشعراء : 18) ، أي عندنا ، وهذا هو معنى ما حكاه ابن عطية عن أبيه عن علماء الشرق ، وإليه أشار القاضي أبو بكر بن العربي .

قلت : وكلام أبي بكر سيأتي في محله إن شاء الله تعالى ، وهذا الذي ذكرناه من المعنى في تفسير الآية ، هو اختيار الإمام ابن جرير ، حيث قال بعد ما رواه عن جماعة من السلف (17 / 121) : " وهذا القول أشبه بتأويل الكلام ، بدلالة قوله تعالى : (فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله ءاياته) [الحج : 52] على ذلك ، لأن الآيات التي أخبر الله جل ثناؤه أنه يحكمها لا شك أنها آيات تنزيله ، فمعلوم بذلك أن الذي ألقى فيه الشيطان ، هو ما أخبر تعالى ذكره أنه نَسَخ ذلك منه وأبطله ثم أحكمه بنسخه ذلك ، فتأمل الكلام إذن : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تلا كتاب الله وقرأ أو حدّث وتكلم ، ألقى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقرأه ، أو في حديثه الذي حدّث وتكلم ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان بقوله تعالى : فيُذْهِب الله ما يلقي الشيطان من ذلك ، على لسان نبيه ويبطله .

هذا هو المعنى المراد من هذه الآية الكريمة ، وهي كما ترى ليس فيها إلا أن الشيطان يلقي عند تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم ما يفتتن به الذين في قلوبهم مرض ، ولكن أعداء الدين الذين قعدوا له في كل طريق ، وترصدوا له عند كل مرصد ، لا يرضيهم إلا أن يدسوا فيه ما

ليس منه ، ولم يقله رسوله ، فذكروا ما ستراه في الروايات الآتية ، مما لا يليق بمقام النبوة والرسالة ، وذلك دَيْدَنهم منذ القديم ، كما فعلوا في غير ما آية وردت في غيره صلى الله عليه وسلم من الأنبياء ، كداود ، وسليمان ، ويوسف عليهم الصلاة والسلام ، فرووا في تفسيرها من الإسرائيليات ما لا يجوز نسبته إلى رجل مسلم فضلاً عن نبي مُكَرَّم . كما هو مبين في محله من كتب التفاسير والقصص .

فَحذارِ أيها المسلم أن تغتر بشيء منها فتكون من الهالكين ، و" دع ما يريبك إلى ما لا يريبك "كما قال نبيك صلى الله عليه وسلم : (وإن الله لهادِ الذين ءامنوا إلى صراط مستقيم) [الحج : 54] .

(282/526)

روايات القصة وعِلَلُها

بعد أن فرغنا من ذكر الفائدة التي وعدنا بها ، أعود إلى ذكر روايات القصة التي وقفنا عليها لكي نسردها رواية رواية ، ونذكر عقب كل منها ما فيها من علة فأقول :

1 ـ عن سعيد بن جبير قال : " لما نزلت هذه الآية : (أفرءيتم اللات والعزى) (النجم : 19) ، قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " تلك الغرانيق العلى ، وإن

شفاعتهن لترجى " فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال المشركون : إنه لم يذكر آلهتهم قبل اليوم بخير ، فسجد المشركون معه ، فأنزل الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول . .) إلى قوله : (عذاب يومٍ عقيمٍ) (الحج : 52 ـ 55) .

أخرجه ابن جرير (17 / 120) من طريقين عن شعبة عن أبي بشر عنه ، وهو صحيح الإسناد إلى ابن جبير ، كما قال الحافظ على ما يأتي عنه ، وتبعه السيوطي في " الدر المنثور " (4 / 366) ، وعزاه لابن المنذر أيضاً وابن مردويه بعد ما ساقه نحوه بلفظ : " ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى " الحديث ، وفيه :

" ثم جاءه جبريل بعد ذلك ، قال : اعرض عليَّ ما جئتك به ، فلما بلغ : " تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترجى " قال جبريل : لم آتك بهذا ، هذا من الشيطان ! فأنزل الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) (الحج : 52) . وهكذا أخرجه الواحدي في " أسباب النزول " من طريق أخرى عن سعيد بن حسن ، كما سيأتي .

وقد روي موصولاً عن سعيد ، ولا يصح :

رواه البزار في " مسنده " عن يوسف بن حماد عن أمية بن خالد ، عن شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ـ فيما أحسبه ، الشك في الحديث ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بمكة سورة (النجم) حتى انتهى إلى قوله : (أفرءيتم اللات والعزى) (النجم : 19) ، وذكر بقيته ، ثم قال البزار :

" لا نعلمه يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد ، تفرد بوصله أمية ابن خالد وهو ثقة مشهور ، وإنما يروى هذا من طريق الكلبي عن أبي صالح ، عن ابن عباس " كذا في " تفسير ابن كثير " (3 / 129) .

وعزا الحافظ في " تخريج الكشاف " (4 / 144) هذه الرواية " للبزار ، والطبري ، وابن مردويه " وعزوه للطبري سهو ، فإنها ليست في تفسيره فيما علمت . إلا إنْ كان يعني غير التفسير من كتبه ، وما أظن يريد ذلك ، ويؤيدني أن السيوطي في " الدر " عزاها لجميع هؤلاء إلا الطبري ، إلا أن السيوطي أوهم أيضاً حيث قال عطفاً على ما ذكر : والضياء في " المختارة " بسند رجاله ثقات ، من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ، فذكر الحديث مثل الرواية المرسلة التي نقلناها آنفاً عن الدر نفسه ، ومحل الإيهام هو قوله : " بسند رجاله ثقات " بالإضافة إلى أنه أخرجه الضياء في " المختارة " فإن ذلك يوهم أنه ليس بمعلول ، وهذا خلاف الواقع ، فإنه معلول بتردد الراوي في وصله كما نقلناه عن " تفسير ابن كثير " وكذلك هو في " تخريج الكشاف " وغيره ، وهذا ما لم يرد ذِكرُه في سياق السيوطي ، ولا أدري أذلك اختصار منه ، أم من بعض مخرجي

الحديث ؟ وأياً ما كان ، فما كان يليق بالسيوطي أن يغفل هذه العلة ، لا سيما وقد صرح بما يشعر أن الإسناد صحيح ، وفيه من التغرير ما لا يخفى ، فإن الشك لا يوثق به ، ولا حقيقة فيه ، كما قال القاضي عياض في " الشفاء " (2 / 118) وأقره الحافظ في " التخريج " لكنه قال عقب ذلك :

" ورواه الطبري من طريق سعيد بن جبير مرسلاً ، وأخرجه ابن مردويه من طريق أبي عاصم النبيل ، عن عثمان بن الأسود ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس نحوه ، ولم يشك في وصله ، وهذا أصح طرق الحديث . قال البزار . . . " .

قلت : وقد نقلنا كلام البزار آنفاً ، ثم ذكر الحافظ المراسيل الآتية ، ثم قال :

" فهذه مراسيل يقوي بعضها بعضاً " .

(284/526)

قلت : وفي عبارة الحافظ شيء من التشويش ، ولا أدري أذلك منه ، أم من النساخ ؟ وهو أغلب الظن ، وذلك لأن قوله : " وهذا أصح طرق هذا الحديث " إن حملناه على أقرب مذكور ، وهو طريق ابن مردويه الموصول كما هو المتبادر ، منعنا من ذلك أمور :

الأول : قول الحافظ عقب ذلك : " فهذه مراسيل يقوي بعضها بعضاً " ، فإن فيه إشارة إلى

أن ليس هناك إسناد صحيح موصول يعتمد عليه ، وإلا لَعرَّج عليه وجعله أصلاً , وجعل الطريق المرسلة شاهدة ومُقَوية له ، ويؤيده الأمر الآتي وهو :

الثاني : وهو أن الحافظ لما رَدّ على القاضي عياض تضعيفه للحديث من طريق إسناد البزار الموصول بسبب الشك ، قال الحافظ :

" أما ضعفه فلا ضعف فيه أصلاً (قلت : يعني في رواته) ، فإن الجميع ثقات ، وأما الشك فيه ، فقد يجيء تأثيره ولو فرداً غريباً ـ كذا ـ لكن غايته أن يصير مرسلاً ، وهو حجة عند عياض وغيره ممن يقبل مرسل الثقة ، وهو حجة إذا اعتضد عند من يَرُدّ المرسل ، وهو إنما يعتضد بكثرة المتابعات " .

فقد سلَّم الحافظ بأن الحديث مُرْسَلٌ ، ولكن ذهب إلى تقويته بكثرة الطرق ، وسيأتي بيان ما فيه في ردنا عليه قريباً إن شاء الله تعالى .

فلو كان إسناد ابن مردويه الموصول صحيحاً عند الحافظ ، لرد به على القاضي عياض ، ولما جعل عمدته في الرد عليه هو كثرة الطرق ، وهذا بين لا يخفى .

الثالث : أن الحافظ في كتابه " فتح الباري " لم يُشِرْ أدنى إشارة هذه الطريق فلو كان هو أصح طرق الحديث ، لذكره بصريح العبارة ، ولجعله عمدته في هذا الباب كما سبق .

الرابع : أن من جاء بعده ـ كالسيوطي وغيره ـ لم يذكروا هذه الرواية .

فكل هذه الأمور تمنعنا من حمل اسم الإشارة (هذا) على أقرب مذكور ، وتضطرنا إلى حمله على البعيد ، وهو الطريق الذي قبل هذا ، وهو طريق سعيد بن جبير المرسل . وهو الذي اعتمده الحافظ في " الفتح " وجعله أصلاً ، وجعل الروايات الأخرى شاهدة له ، وقد اقتدينا نحن به ، فبدأنا أولاً بذكر رواية ابن جبير هذه ، وإن كنا خالفناه في كون هذه الطرق يقوي بعضها بعضاً .

قلت : هذا مع العلم أن القدر المذكور من إسناد ابن مردويه الموصول رجاله ثقات رجال الشيخين ، لكن لا بد أن تكون العلة فيمن دون أبي عاصم النبيل ، ويقوي ذلك ، أعني كون إسناده مُعَلاًّ أنني رأيت هذه الرواية أخرجها الواحدي في " أسباب النزول " (ص 233) من طريق سهل العسكري قال : أخبرني يحيى (قلت : هو القطان) عن عثمان بن الأسود ، عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أفرءيتم اللات والعزى (19) ومناة الثالثة الأخرى (20)) (النجم) ، فألقى الشيطان على لسانه : " تلك الغرانيق العلى وشفاعتهن ترتجى " ففرح بذلك المشركون ، وقالوا : قد ذكر آلهتنا ، فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اعرض علّي كلام الله ، فلما عرض عليه ، قال : أما هذا فلم آتك به ، هذا من الشيطان ، فأنزل الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) الآية (الحج : 52) .

فرجع الحديث إلى أنه ـ عن عثمان بن الأسود عن سعيد ـ مرسل ، وهو الصحيح ، لموافقته رواية عثمان هذه رواية أبي بشر عن سعيد .

ثم وقفت على إسناد ابن مردويه ومتنه ، بواسطة الضياء المقدسي في " المختارة " (60 / 235 / 1) بسنده عنه قال : حدثني إبراهيم بن محمد : حدثني أبو بكر محمد بن علي المقري البغدادي ، ثنا جعفر بن محمد الطيالسي ، ثنا إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرة ، ثنا أبو عاصم النبيل ، ثنا عثمان بن الأسود ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس :

(286/526)

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ (أفرءيتم اللات والعزى (19) ومناة الثالثة الأخرى (20)) (النجم) ، تلك الغرانيق العلى ، وشفاعتهن ترتجى " ، ففرح المشركون بذلك ، وقالوا : قد ذكر آلهتنا فجاءه جبريل ، فقال : اقرأ علّي ما جئتك به ، قال : فقرأ (أفرءيتم اللات والعزى (19) ومناة الثالثة الأخرى (20)) (النجم) ، تلك الغرانيق العلى ، وشفاعتهن ترتجى ، فقال : ما أتيتك بهذا ، هذا عن الشيطان ، أو قال : هذا من الشيطان ، لم آتك بها ! فأنزل الله (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلآ إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) إلى آخر الآية " .

قلت : وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات وكلهم من رجال " التهذيب " إلا من دون ابن عرعرة ، ليس فيهم من ينبغي النظر فيه غير أبي بكر محمد بن علي المقري البغدادي ، وقد أورده الخطيب في " تاريخ بغداد " فقال (3 / 68.69) :

" محمد بن علي بن الحسن أبو بكر المقرىء ، حدث عن محمود ابن خداش ، ومحمد بن عمرو ، وابن أبي مذعور . روى عنه أحمد بن كامل القاضي ، ومحمد بن أحمد بن يحي العطشي " ثم ساق له حديثاً واحداً وقع فيه مكناً بـ (أبي حرب) ، فلا أدري أهي كنية أخرى له ، أم تحرفت على الناسخ أو الطابع ، ثم حكى الخطيب عن العطشي أنه قال : " توفي سنة ثلاثمائة " ، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً ، فهو مجهول الحال ، وهو علة هذا الإسناد الموصول ، وهو غير أبي بكر محمد بن إبراهيم بن علي بن عاصم الأصبهاني المشهور بابن المقرىء ، الحافظ الثقة ، فإنه متأخر عن هذا نحو قرن من الزمان ، وهو من شيوخ ابن مردويه مات سنة (381) إحدى وثمانين وثلاثمائة ، ووقع في " التذكرة " (3 / 172) " ومائتين " وهو خطأ .

(287/526)

فثبت مما تقدم صواب ما كنا جزمنا به قبل الإطلاع على إسناد ابن مردويه " أن العلة فيه فيمن دون أبي عاصم النبيل " ، وازددنا تأكداً من أن الصواب عن عثمان بن الأسود إنما هو عن سعيد بن جبير مرسلاً كما رواه الواحدي ، خلافاً لرواية ابن مردويه عنه .

وبالجملة ، فالحديث مرسل ، ولا يصح عن سعيد بن جبير موصولاً بوجه من الوجوه .

2 ـ عن ابن شهاب : حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قرأ عليهم : (والنجم إذا هوى) (النجم : 1) ، فلما بلغ (أفرءيتم اللات والعزى (19) ومناة الثالثة الأخرى (20)) (النجم) ، قال : " إن شفاعتهن ترتجى " سها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقيه المشركون الذين في قلوبهم مرض فسلموا عليه وفرحوا بذلك ، فقال لهم : إنما ذلك من الشيطان ، فأنزل الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) حتى بلغ (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) (الحج : 52) .

رواه ابن جرير (17 / 121) وإسناده إلى أبي بكر بن عبد الرحمن صحيح ، كما قال السيوطي تبعاً للحافظ ، لكن علته أنه مرسل وعزاه السيوطي لعبد بن حميد أيضاً ، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب قال : فذكره مطولاً ، ولم يذكر في إسناده أبا بكر بن عبد الرحمن ، فهو مرسل ، بل معضل ، ولفظه كما في " ابن كثير " و " الدر " :

" لما أنزلت سورة (النجم) ، وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير ، أقررناه وأصحابه ، ولكن لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم ، وأحزنته ضلالتهم ، فكان يتمنى كفَّ أذاهم , (وفي " ابن كثير " هدايتهم ") ، فلما أنزل الله سورة " والنجم " قال : (أفرءيتم اللات والعزى (19) ومناة الثالثة الأخرى (20)) (النجم) ، ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الطواغيت ، فقال : " وإنهن لَهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لَهِيَ التي تُرتَجى " فكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة ، ودلقت بها ألسنتهم ، وتباشروا بها ، وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر (النجم) سجد وسجد كلُّ من حضر من مسلم ومشرك ، ففشت تلك الكلمة في الناس ، وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ، فأنزل الله (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) (الحج : 52) ، فلما بيّن الله قضاءه ، وبرّأه من سجع الشيطان ، انقلب المشركون بضلالتهم وعدوانهم للمسلمين ، واشتدوا عليه " .

وأخرجه البيهقي في " دلائل النبوة " عن موسى بن عقبة ساقه من " مغازيه " بنحوه لم يذكر ابن شهاب كما في " الدر " (4 / 367) وغيره .

(289/526)

---

3 ـ عن أبي العالية قال : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جلساؤك عبيد بني فلان ، ومولى بني فلان ، فلو ذكرت آلهتنا بشيء جالسناك ، فإنه يأتيك أشرف العرب ، فإذا رأوا جلساءك أشرف قومك كان أرغب لهم فيك ، قال : فألقى الشيطان في أمنيته ، فنزلت هذه الآية : (أفرءيتم اللات والعزى (19) ومناة الثالثة الأخرى (20)) (النجم) ، قال : فأجرى الشيطان على لسانه : " تلك الغرانيق العلى ، وشفاعتهن ترتجى ، مثلهن لا ينسى " قال : فسجد النبي صلى الله عليه وسلم حين قرأها وسجد معه المسلمون والمشركون ، فلما علم الذي أجري على لسانه ، كبر ذلك عليه ، فأنزل الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) إلى قوله (والله عليم حكيم) (52) (الحج) .

أخرجه الطبري (17 / 120) من طريقين عن داود بن أبي هند عنه ، وإسناده صحيح إلى أبي العالية ، لكن علته الإرسال ، وكذلك رواه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

4 ـ عن محمد بن كعب القرظي ، ومحمد بن قيس قالا :

" جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناد من أندية قريش كثير أهله ، فتمنى يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه ، فأنزل الله عليه : (والنجم إذا هوى (1) ما ضل صاحبكم وما غوى (2)) (النجم) فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغ : (أفرءيتم اللات والعزى (19) ومناة الثالثة الأخرى (20)) (النجم) ، ألقى عليه الشيطان كلمتين : " تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى " فتكلم بها ثم مضى ، فقرأ السورة كلها ، فسجد في آخر السورة ، وسجد القوم جميعاً معه ، ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه ، وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود ، فرضوا بما تكلم به ، وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ، وهو الذي يخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، إذا جعلتَ لها نصيباً فنحن معك ، قالا : فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة ، فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال : ما جئتك بهاتين ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : افتريت على الله ، وقلت ما لم يقل ، فأوحى الله إليه : (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا آليك لتفتري علينا غيره) إلى قوله : (ثم لا تجد لك علينا نصيراً (75)) (الإسراء) ، فما زال مغموماً مهموماً حتى نزلت

عليه : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلآ إذا تمنى . . .) (الحج : 52) ، قال : فسمع كل من المهاجرين بأرض الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا كلهم ، فرجعوا إلى عشائرهم وقالوا : هو أحب إلينا ، فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان " .

أخرجه ابن جرير (17 / 119) عن طريق أبي معشر عنهما ، وأبو معشر ضعيف ، كما قال الحافظ في " التقريب " واسمه نجيح بن عبد الرحمن السندي .

(291/526)

ثم أخرجه ابن جرير من طريق ابن إسحاق ، عن يزيد بن زياد المدني ، عن محمد بن كعب القرظي وحده به أتمّ منه ، وفيه : " فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ، وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم ، فأصاخوا له ، والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاء به عن ربهم ، ولا يتهمونه على خطأ ولا وهم ولا زلل ، الحديث " .

ويزيد هذا ثقة ، لكن الراوي عنه ابن إسحاق مدلس ، وقد عنعنه .

5 ـ عن قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتمنى أن لا يعيب الله آلهة المشركين ، فألقى الشيطان في أمنيته فقال : " إن الآلهة التي تدعى ، إن شفاعتهن لترتجى ، وإنها

لَلْغرانيق العلى " فنسخ الله ذلك ، وأحكم الله آياته : (أفرءيتم اللات والعزى (19) حتى بلغ (من سلطان) (النجم) ، قال قتادة : لما ألقى الشيطان ما ألقى ، قال المشركون : قد ذكر الله آلهتهم بخير ، ففرحوا بذلك ، فذكر قوله : (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض) (الحج : 53) .

أخرجه ابن جرير (17 / 122) من طريقين عن معمر عنه ، وهو صحيح إلى قتادة ، ولكنه مرسل أو معضل . وقد رواه ابن أبي حاتم كما في " الدر " بلفظ أتم منه وهو : " قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند المقام ، نعس ، فألقى الشيطان على لسانة كلمة فتكلم بها ، وتعلق بها المشركون عليه ، فقال : (أفرءئتم اللات والعزى (19) ومناة الثالثة الأخرى (20)) (النجم) ، فألقى الشيطان على لسانه ولغى : " وإن شفاعتهن لترتجى وإنها لمع الغرانيق العلى " فحفظها المشركون ، واخبرهم الشيطان أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قد قرأها ، فذلت بها ألسنتهم ، فأنزل الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) الآية (الحج : 52) ، فدحر الله الشيطان ولقن نبيه حجته " .

(292/526)

6 ـ عن عروة ـ يعني ابن الزبير ـ في تسمية الذين خرجوا إلى أرض الحبشة المرة الأولى (قلت وفيه :) " فقال المشركون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير ، أقررناه وأصحابه ، فإنه لا يذكر أحداً ممن خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر به آلهتنا من الشتم والشر ، فلما أنزل الله (عز وجل) السورة التي يذكر فيها : (والنجم) وقرأ : (أفرءيتم اللات والعزى (19) ومناة الثالثة الأخرى (20)) (النجم) ، ألقى الشيطان فيها عند ذلك ذكر الطواغيت فقال : " وإنهن لَمِنَ الغرانيق العُلى ، وإن شفاعتهم لتُرتجى " وذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الكلماتان في قلب كل مشرك وذلت بها ألسنتهم ، واستبشروا بها ، وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر السورة التي فيه (النجم) سجد وسجد معه كل من حضره من مسلم ومشرك ، غير أن الوليد بن المغيرة ـ كان رجلاً كبيراً ـ ، فرفع مِلْءَ كفه تراباً فسجد عليه ، فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما المسلمون فعجبوا من سجود المشركين من غير إيمان ولا يقين ، ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان على ألسنة المشركين ـ وأما المشركون فاطمأنت أنفسهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم] وأصحابه لما سمعوا الذي ألقى الشيطان في أمنتة النبي صلى الله عليه وسلم [وحدثهم الشيطان أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قرأها في (السجدة) ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم ، ففشت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان

حتى بلغت الحبشة . . فكَبُرَ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أمسى أتاه جبريل] عليه السلام ، فشكا إليه ، فأمره فقرأ عليه ، فلما بلغها تبرأ منها جبريل عليه السلام [* وقال : معاذ الله من هاتين ، ما أنزلهما ربي ، لا أمرني بهما ربك ! ! فلما رأى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

(293/526)

شق عليه ، وقال :

أطعتُ الشيطان ، وتكلمتُ بكلامه وشركني في أمر الله ، فنسخ الله] عز وجل [ما ألقى الشيطان ، وأنزل عليه : (وما آرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) إلى قوله : (لفي شقاق بعيد (53)) (الحج) . فلما برأه الله عز وجل من سجع الشيطان وفتنته انقلب المشركون بضلالهم وعداوتهم " .

رواه الطبراني هكذاً مرسلاً ، كما في " المجمع " (6 / 32 . 34 و7 / 70 . 72) وقال : " وفيه ابن لهيعة ، ولا يحتمل هذا من ابن لهيعة " .

7 - عن صالح قال: "قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المشركون: إن ذكر آلهتنا بخير ذكرنا إلهه بخير ، فألقى في أمنيته: (أفرئيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى)

[النجم] ، "إنهن لفي الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" قال: فأنزل الله (وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍ . . .) الآية [الحج:52] .

أخرجه عبد حُميد كما في "الدر" (366/4 من طريق السدي عنه ، وأخرجه ابن أبي حاتم السدي لم يتجاوزه بلفظ:

"قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ليصلي فبينما هو يقرأ ، إذ قال: (أفرئيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى) [النجم] ، فألقى الشيطان على لسانه فقال: "تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى" حتى إذا بلغ آخر السورة سجد وسجد أصحابه ، وسجد المشركون لذكر آلهتهم فلما رفع رأسه حملوه فاشتدوا به قطري مكة يقولون: نبي بني عبد مناف ، حتى إذا جاء جبريل عرض عليه فقرأ ذينك الحرفين ، فقال جبريل: معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا ! فاشتد عليه ، فأنزل الله يطيب نفسه: (وما أرسلنا من قبلكَ . . .) الآية [الحج:52]

(294/526)

قلت: وقد رُوي موصولاً عن ابن عباس أخرجه ابن مرديه من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس . وهذا إسناد ضعيف جداً ، بل موضوع ، فقد قال سفيان: " قال

لي الكلبي: كل ما حدثتك عن أبي صالح فهو كذب" ، والكلبي هذا اسمه محمد بن السائب ، وقد كان مفسراً نسّابة أخبارياً . وقال ابن حبان: كان الكلبي سبائياً من أؤلئك الذين يقولون: إن علياً لم يمت وأنه راجع إلى الدنيا ، ويملؤها عدلاً كما ملئت جوراً ، وإن رأوا سحابة قالوا: أمير المؤمنين فيها" . قال: ومذهبه في الدين ، ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفه ، ويروي عن أبي صالح عن ابن عباس التفسير ، وأبو صالح لم ير ابن عباس ولا سمع الكلبي من أبي صالح إلا الحرف بعد الحرف ، لا يحل ذكره في الكتب ، فكيف الاحتجاج به ؟ !

وروي من وجوه أخرى عن ابن عباس سيأتي ذكرها ، لا يصح شيء منها .

8- عن الضحاك قال: في قوله (وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍ) الآيه [الحج:52] فإن نبي الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكه أنزل الله عليه في آلهة العرب ، فجعل يتلو اللات والعُزّى ، ويُكثر من ترديدها ، فسمع أهل مكه النبي صلى الله عليه وسلم يذكر آلهتهم ، ففرحوا بذلك ، ودنوا يستمعون ، فألقى الشيطان في تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم: "تلك الغرانيق العلى ، ومنها الشفاعة ترتجى" فقرأها النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ، فأنزل الله عليه: (وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍ) إلى قوله: (و الله عليمٌ حكيمٌ*52*) [الحج] .

أخرجه ابن جرير (121/17) قال: حدثت عن الحسين يقول: سمعت معاذاً يقول:

أخبرنا عبيد قال: سمعت معاذاً يقول: أخبرنا عبيد قال: سمعت الضحاك يقول:

(295/526)

قلت: وهذا إسناد ضعيف منقطع مرسل ، الضحاك هذا الظاهر أنه ابن مزاحم الهلالي الخرساني ، هو كثير الإرسال ، كما قال الحافظ ، حتى قيل: إنه لم يثبت له سماع من أحد من الصحابه ، والراوي عنه عبيد لم أعرفه ، وابو معاذ الظاهر أنه سليمان بن أرقم البصري ، وهو ضعيف ، كما في "التقريب" ، والراوي عنه الحسين هو ابن الفرج أبو علي وقيل: أبو صالح ، ويعرف بابن الخياط والبغدادي ، وهو ضعيف متروك ، وله ترجمه في "تاريخ بغداد" و"الميزان" و"اللسان" ثم شيخ ابن جرير فيه مجهول لم يُسَمَّ .

(296/526)

9- عن محمد بن فضالة الظفري ، والمطلب بن عبد الله بن حنطب قالا: "رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه كفّاً عنه ، فجلس خالياً ، فتمنى فقال: ليته لا ينزل عليّ

شيء ينفّرهم عني ، وقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ، ودنا منهم ، ودنوا منه ، فجلس يوماً مجلساً في ناد من تلك الأندية حول الكعبة ، فقرأ عليهم (والنجم إذا هوى (1) [النجم] ، حتى إذا بلغ: (أفرأيتم الاّت والعزى(19) ومناة الثالثة الأخرى(20) [النجم] ، ألقى الشيطان كلمتين على لسانه: "تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى" ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهما ثم مضى ، فقرأ السورة كلها ، وسجد وسجد القوم جميعاً ، ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه ، وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود ، ويقال: إن أبا أحيحة سعيد بن العاص أخذ تراباً فسجد عليه رفعه الى جبهته ، وكان شيخاً كبيراً ، فبعض الناس يقول: إنما الذي رفع التراب الوليد ، وبعضهم يقول: أبو أحيحة ، وبعضهم يقول: كلاهما جميعاً فعل ذلك . فرفضوا بما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ، ويخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، وأما إذ جعلت لها نصيباً فنحن معك ، فكبُر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم ، حتى جلس في البيت ، فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام ، فعَرَض عليه السورة فقال جبريل: جئتك بهاتين الكلمتين ؟ ! ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قُلتُ على الله ما لم يقل ، فأوحى الله إليه: (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً (73) ولولا أن ثبتناك لقد

كِدت تركنُ إليهم شيئاً قليلاً (74) إذاً لأذقناك ضعفَ الحياة وضعفَ المماتِ ثمّ لا تجدُ لك علينا نصيراً (75) [الإسراء] .

(297/526)

أخرجه ابن سعيد في "الطبقات" (ج1 ق1 ص 137) : أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني يونس بن محمد بن فضالة الظفري عن أبيه ، قال: وحدثني كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قالا:

قلت: وهذا إسناد ضعيف جداً ، لأن محمد بن عمر ، هو الواقدي ، قال الحافظ في "التقريب": "متروك مع سعة علمه" . وشيخه في الإسناد الأول يونس بن محمد ، ووالده محمد بن فضالة ، لم أجد لهما ترجمة ، ثم رأيت ابن أبي حاتم أوردهما (55/1/4 و246/2/4) ولم يذكر فيهما جرحاً ولا تعديلاً . وفي إسناده الثاني كثير بن زيد وهو الأسلمي المدني مُختَلف فيه ، قال الحافظ: "صدوق يخطيء" .

ثم هو مرسل فإن المطلب بن عبد الله بن حنطب كثير التدليس والإرسال ، كما في "التقريب" . ولذلك قال القرطبي بعد أن ساق الرواية الثانية ، وحُكي عن النحاس تضعيفها كما سبق نقله عنه هناك قال: قلت: فذكره مختصراً ثم قال:

"قال النحّاس: هذا حديث مُنكَر منقطع ، ولا سيما من حديث الواقدي" .

10- عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة (النجم) وهو بمكة ، فأتى على هذه الآية (أفرأيتم اللات والعزى (19) ومناة الثالثة الأخرى (20) [النجم] فألقى الشيطان على لسانه "أنهن الغرانيق العلى" فأنزل الله: (وما أرسلنا من قبلك . . .) الآية [الحج: 52] ، وكذا أورده السيوطي في "الدرر المنثور" (267/4) وقال: "أخرجه ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، ومن طريق أبي بكر الهذلي وأيوب عن عكرمة عن ابن عباس ، ومن طريق سليمان التيمي عمن حدثه عن ابن عباس" .

قلت: فهذه طرق ثلاث عن ابن عباس وكلها ضعيفه .

أما الطريق الأولى: ففيها الكلبي وهو كذّاب كما تقدم بيانه قريباً .

وأما الطريق الثانية: ففيها من لم يسمّ .

(298/526)

وأما الطريق الثالثة: ففيها أبو بكر الهذلي . قال الحافظ في "التقريب": "أخباري متروك الحديث" لكن قد قرن فيها أيوب ، والظاهر أنه السختياني ، فلا بد أن يكون في الطريق إليه

من لا يُحتَج به لأن الحافظ قال في "الفتح" (355/8) بعد أن ساقه من الطرق الثلاث: "وكلها ضعيف أو منقطع".

وقد ذكر ما يفيد أن ابن مردويه أخرجها من طريق عباد بن صهيب، وهو أحد المتروكين، كما قال الحافظ الذهبي في ترجمته من "الميزان".

وله طريق رابع، أخرجه ابن جرير (120/17)، حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي. ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس، "أن نبي الله صلى الله عليه وسلم بينما هو يُصلّي إذ نزلت عليه قصة آلهة العرب، فجعل يتلوها، فسمعه المشركون، فقالوا: إنا نسمعه يذكر آلهتنا بخير، فدنوا منه، فبينما هو يقول: (أفرأيتم اللات والعزى (19) ومناة الثالثة الأخرى (20) [النجم]، ألقى الشيطان: "إن تلك الغرانيق العلى، منها الشفاعة ترتجى"، فجعل يتلوها، فنزل جبريل صلى الله عليه وسلم فنسخها، ثم قال له: (وما أرسلنا من قبلك . . .) الآية [الحج: 52].

رواه ابن مردويه أيضاً كما في "الدرر" (366/4).

قلت: وهذا إسناد ضعيف جداً، مُسَلسَل بالضعفاء: محمد ابن سعد، هو ابن محمد بن الحسن بن عطية بن جُنادة أبو جعفر العوفي ترجمه الخطيب في "تاريخ بغداد" (322/5-323) وقال: "كان ليّناً في الحديث".

ووالده سعد بن محمد ترجمه الخطيب أيضاً (126/9-127) وروى عن أحمد أنه قال

فيه: "لم يكن ممن يستأهل أن يكتب عنه ، ولا كان موضعاً لذلك" .

وعمه هو الحسين بن الحسن بن عطية بن سعد ، وهو متفق على ضَعفه ترجمه الخطيب (8/29-32) وغيره .

وأبوه الحسن بن عطية ضعيف أيضاً اتفاقاً ، وقد أورده ابن حبان في "الضعفاء" وقال: "مُنكَر الحديث ، فلا أدري البَلِيّة منه أو من ابنه ، أو منها معاً ؟" ترجمته في "تهذيب التهذيب" .

وكذا والده عطية ، وهو مشهور بالضَّعف

(299/526)

بيان بطلان القصة متناً

تلك هي روايات القصة ، وهي كلها كما رأيت مُعَلَّة بالإرسال والضّعف والجَهالة ، فليس فيها ما يصلُح للإحتجاج به ، لا سيّما في مثل هذا الأمر الخطير . ثم إن مما يؤكد ضَعفها بل بطلانها ، ما فيها من الاختلاف والنّكارة مما لا يليق بمقام النبوة والرسالة ، وإليك البيان:

أولاً: في الروايات كلها ، أو جُلها ، أن الشيطان تكلم على لسان النبي صلى الله عليه وسلم بتلك الجملة الباطلة التي تمدح أصنام المشركين ، "تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن

لترتجى" .

ثانياً: وفي بعضها كالرواية الرابعة: "والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاء به عن ربهم ولا يتهمونه على خطأ وهم" ففي هذا أن المؤمنين سمعوا ذلك منه صلى الله عليه وسلم ، ولم يشعروا بأنه من إلقاء الشيطان ، بل اعتقدوا أنه من وحي الرحمن ! ! بينما تقول الرواية السادسة: "ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان" فهذه خلاف تلك .

ثالثاً: وفي بعضها كالرواية (1 و 4 و 7 و 9): أن النبي صلى الله عليه وسلم بقي مدة لا يدري أن ذلك من الشيطان ، حتى قال له جبريل: "معاذ الله ! لم آتك بهذا ، هذا من الشيطان ! !" .

رابعاً: وفي الرواية الثانية أنه صلى الله عليه وسلم سها حتى قال ذلك ! فلو كان كذلك ، أفلا ينتبه من سهوه ؟ !

خامساً: في الرواية العاشرة الطريق الرابع: أن ذلك ألقيَ عليه وهو يصلي ! !

سادساً: وفي الرواية (4 و 5 و 9) أنه صلى الله عليه وسلم تمنّى أن لا ينزل عليه شيء من الوحي يَعيبُ آلهة المشركين ، لئلا ينفروا عنه ! ! وانظر المقام الرابع من كلام ابن العربي الآتي (ص50)

سابعاً: وفي الرواية (4 و 6 و 9) أنه صلى الله عليه وسلم قال عندما أنكر جبريل ذلك عليه "أفتريتُ على الله ، وقلتُ على الله ما لم يقل ، وشركني الشيطان في أمر الله ! !" .

فهذه طامّات يجب تنزيه الرسول منها لا سيّما هذا الأخير منها فإنه لو كان صحيحاً لصدق فيه ، عليه السلام ، – وحاشاه – قوله تعالى: "ولو تقول علينا بعض الأقاويل (44) لأخذنا منه باليمين (45) ثم لقطعنا من الوتين (46) [الحاقة]

فثبت مما تقدم بطلان هذه القصة سنداً ومتناً . والحمد لله على توفيقه وهدايته .

كلام الحافظ والرد عليه

وقد يقال: إن ما ذهبت إليه من تضعيف القصة سنداً ، وإبطالها متناً ، يخالف ما ذهب إليه الحافظ ابن حجر من تقويتها كما سبق الإشارة إليه آنفاً .

فالجواب: أنه لا ضَير علينا منه ، ولئن كنا خالفناه ، فقد وافقنا جماعة من أئمة الحديث والعلم سيأتي ذكرهم ، فاتباعهم أولى ، لأن النقد العلمي معهم ، لا لأنهم كثرة ، ورحم الله من قال: "الحق لا يعرف بالرجال إعرف الحق تعرف الرجال" .

ولبيان ذلك لا بد لي من أن أنقل كلام الحافظ بتمامه ، ثم أتبعه ببيان رأينا فيه ، والصواب الذي نرمي إليه فأقول: قال الحافظ في "الفتح" (8/354-355) بعد أن ساق الرواية الأولى وخرّجها هي وغيرها مما تقدم:

"وكلها سوى طريق سعيد بن جبير ، إما ضعيف وإما منقطع ، ولكن لكثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً ، مع أن لها طريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط "الصحيحين" (ثم ذكر الرواية الثانية والثالثة ثم قال:) وقد تجرأ أبو بكر بن العربي كعادته فقال: ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها ، وهو إطلاق مردود عليه ، وكذا قول عياض: هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل مع ضعف نقلته ، واضطراب رواياته ، وانقطاع إسناده ، وكذا قوله: ومن حملت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين ، لم يسندها أحد منهم ، ثم ردّه من طريق النظر بأن ذلك لو وقع لارتد كثير ممن أسلم ، قال: ولم ينقل ذلك انتهى . وجميع ذلك لا يتمشى مع القواعد ، فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها ، دلّ ذلك على أن لها أصلاً ، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح وهي مراسيل يحتج بها من يحتج بالمرسل ، وكذا من لا يحتج به لا اعتضاد بعضها ببعض" .

قاعدة تقوية الحديث بكثرة الطرق ليست على إطلاقها :

والجواب عن ذلك من وجوه:

أولاً: أن القاعدة التي أشار إليها ، وهي تقوية الحديث بكثرة الطرق ليست على إطلاقها ، وقد نبّه على ذلك غير واحد من علماء الحديث المحققين ، منهم الحافظ أبو عمر بن الصلاح حيث قال رحمه الله في "مقدمة علوم الحديث" (ص36- 37):

"لعل الباحث الفهم يقول: إنا نجد أحاديث محكوماً بضعفها ، مع كونها قد رُوِيَت بأسانيد كثيرة من وجوه عديدة ، مثل حديث: "الأذنان من الرأس" ونحوه ، فهلاّ جعلتم ذلك وأمثاله من نوع الحسن لأن بعض ذلك عضد بعضاً كما قلتم في نوع الحسن على ما سبق آنفاً ؟ !

(302/526)

و جواب ذلك أنه ليس كل ضعف في الحديث يزول بمجيئه من وجوه ، بل ذلك يتفاوت فمنه ما يزيله ذلك بأن يكون ضعفه ناشئاً من ضعف حفظ روايه ، ولم يختلّ فيه ضبطه له ، وكذلك إذا كان ضَعفه من حيث الإرسال زال بنحو ذلك ، كما في المرسل الذي يرسله إمام حافظ ، إذ فيه ضعف قليل يزول بروايته من وجه آخر ومن ذلك ضعف لا يزول بنحو ذلك لقوة الضعف ، وتقاعد هذا الجابر عن جبره ومقاومته ، وذلك كالضعيف الذي ينشأ من كون الراوي متهماً بالكذب ، أو كون الحديث شاذّاً . وهذه جملة تفاصيلها تُدرَك بالمباشرة والبحث ، فاعلم ذلك فإنه من النفائس العزيزة"

قلت: ولقد صدق رحمه الله تعالى ، فإن الغَفَلَةَ عن هذه النفيسة قد أوقعت كثيراً من العلماء ، لا سيّما المشتغلين منهم بالفقه في خطأ فاضح ، ألا وهو تصحيح كثير من الأحاديث الضعيفة اغتراراً بكَثْرة طُرقها ، وذهولاً منهم عن كون ضعفها من النوع الذي لا ينجبر الحديث بضعفها ، بل لا تزيده إلا وَهناً على وهن ، ومن هذا القبيل حديث ابن عباس في هذه القصة ، فإن طرقه كلها ضعيفة جداً كما تقدم ، فلا يتقوى بها أصلاً .

لكن يبقى النظر في طرق الحديث الأخرى ، هل يَتَقَوّى الحديث بها ، أم لا ؟

فاعلم أنها كلها مرسلة ، وهي على إرسالها معلة بالضعف والجهالة كما سبق تفصيلها ، سوى الطرق الأربعة الأُلى منها (رقم 1 و2 و3 و5) فهي التي تستحق النظر ، لأن الحافظ رحمه الله جعلها عمدته في تصحيحه هذه القصة ، وتقويته لها بها ، وهذا مما نخالفه فيه ، ولا نوافقه عليه ، وبيان ذلك يحتاج إلى مقدمة وجيزه مفيدة إن شاء الله تعالى ، وهي:

ضعف الحديث المرسل:

الوجه الثاني: وهو يحتوي على تحقيق أمرين أساسيين:

الأول: أن الحديث المُرسَل ، ولو كان المُرسِل ثقة ، لا يُحتج به عند أئمة الحديث ، كما بيّنه ابن الصلاح في "علوم الحديث" وجزم هو به فقال (ص58) :

"ثم اعلم أن حكم المُرسَل حكم الحديث الضعيف ، إلا أن يصح مخرجه بمجيئه من وجه آخر كما سبق بيانه . . . وما ذكرناه من سقوط الإحتجاج بالمرسل والحكم بضَعفه ، هو المذهب الذي استقر عليه آراء جماهير حفّاظ الحديث ، ونقاد الأثر ، وقد تداولوه في تصانيفهم" .

الأمر الثاني: معرفة سبب عدم احتجاج المحدثيين بالمُرسَل من الحديث ، فاعلم أن سبب ذلك إنما هو جَهالة الوساطة التي روى عنها المُرسِل الحديث ، وقد بيّن ذلك الخطيب البغدادي في "الكفاية في علم الرواية" حيث قال (ص 287) بعد أن حكى الخلاف بالعمل المرسل:

"والذي نختاره سقوط فرض العمل بالمراسيل ، وأن المرسل غير مقبول ، والذي يدل على ذلك أن إرسال الحديث يؤدي إلى الجهل بعين راويه ، ويستحيل العلم بعدالته مع الجهل بعينه ، وقد بيّنا من قبل أنه لا يجوز قبول الخبر إلا ممن عرفت عدالته ، فوجب كذلك كونه غير مقبول ، وأيضاً فإن العدل لو سئل عمن أرسل عنه ؟ فلم يُعدّله ، لم يجب العمل بخبره ، إذا لم يكن معروف العدالة من جهة غيره ، وكذلك حاله إذا ابتدأ الإمساك عن ذكره وتعديله ، لأنه من الإمساك عن ذكره غير مُعدّل له ، فوجب أن لا يقبل الخبر عنه" .

وقال الحافظ ابن حجر في "شرح نخبة الأفكار" (ص17) بعد أن ذكر الحديث المرسل في "أنواع الحديث المردود":

(304/526)

" وإنما ذكر في قسم المردود للجهل بحال المحذوف ، لأنه يحتمل أن يكون صحابياً ، ويحتمل أن يكون تابعياً ، وعلى الثاني يحتمل أن يكون ضعيفاً ، ويحتمل أن يكون ثقة ، وعلى الثاني يحتمل أن يكون حُمل عن صحابي ، ويحتمل أن يكون حمل عن تابعي آخر وعلى الثاني فيعود الإحتمال السابق ويتعدد ، أما بالتجويز العقلي ، فإلى مالا نهاية ، وأما بالإستقراء ، فإلى ستة أو سبعة ، وهو أكثر ما وجد من رواية بعض التابعين عن بعض ، فإن عرف من عادة التابعي أنه لا يرسل إلا عن ثقة ، فذهب جمهور المحدثين إلى التوقف ، لبقاء الإحتمال ، وهو أحد قولي أحمد ، وثانيهما : يقبل مطلقاً ، وقال الشافعي رضي الله عنه: يُقبل إن اعتضد بمجيئه من وجه آخر يباين الطريق الأولى مسنداً كان أو مرسلاً ليترجّح احتمال كون المحذوف ثقة في نفس الأمر"

قلت: فإذا عرف أن الحديث المُرسَل لا يقبل ، وأن السبب هو الجهل بحال المحذوف فيرد عليه أن القول بأنه يقوى بمرسل آخر غير قوي لإحتمال أن يكون كل من أرسله إنما أخذه عن

راوٍ واحد ، وحينئذ ترد الاحتمالات الذي ذكرها الحافظ ، وكأن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قد لاحظ ورود هذا الاحتمال وقوته ، فاشترط في المرسل الآخر أن يكون مُرسِله أخذ العلم عن غير رجال التابعي الأول ، كما حكاه ابن الصلاح (ص35) وكأن ذلك لَيغلب على الظن أن المحذوف في أحد المرسَلين هو غيره في المرسَل الآخر .

وهذه فائدة دقيقة لم أجدها في غير كلام الشافعي رحمه الله فاحفظها وراعِها فيما يمر بك من المرسَلات التي تذهب البعض إلى تقويتها لمجرد مجيئها من وجهين مرسَلين دون أن يراعوا هذا الشرط المهم .

ثم رأيت شيخ الإسلام ابن تيمية قد نصّ أيضاً على هذا الشرط في كلام له مفيد في أصول التفسير ، نقله عنه الحافظ محمد بن عبد الهادي في كتاب له مخطوط في الأحاديث الضعيفة والموضوعة (حديث 221/405) ، فقال ابن تيمية رحمة الله تعالى:

(305/526)

"وأما أسباب النزول ، فغالبها مرسل ، ليس بمسند ، لهذا قال الإمام أحمد : ثلاث علوم لا إسناد لها . وفي لفظ: ليس لها أصل: التفسير والمغازي والملاحم . يعني أن أحاديثها مرسلة ، ليست مسندة" .

والمراسيل قد تنازع الناس في قَبولها وردها . وأصح الأقوال: أن منها المقبول ، ومنها المردود ، ومنها الموقوف ، فمن عُلم من حاله أنه لا يرسل إلا عن ثقة قُبل مُرسَلُه ، ومن عُرف أنه يُرسِل عن الثقة وغير الثقة ، كان إرساله رواية عمن لا يُعرف حاله ، فهو موقوف . وما كان من المراسيل مخالفاً لما رواه الثقات ، كان مردوداً ، وإن جاء المرسَل من وجهين ، كل من الروايين أخذ العلم عن غير شيوخ الآخر ، فهذا يدل على صدقه فإن مثل ذلك لا يُتصور في العادة تماثل الخطأ فيه وتعمد الكذب . . . " .

قلت: ومع أن التحقق من وجود هذا الشرط في كل مرسَل من هذا النوع ، ليس بالأمر الهيِّن ، فإنه لو تحققنا من وجوده ، فقد يَرِدُ إشكال آخر ، وهو أنه يحتمل أن يكون كل من الواسطتين أو أكثر ضعيفاً ، وعليه يحتمل أن يكون ضعفهم من النوع الأول الذي ينجبر بمثله الحديث على ما سبق نقله عن ابن الصلاح ، ويحتمل أن يكون من النوع الآخر الذي لا يقوى الحديث بكثرة طرقه ، ومع ورود هذه الاحتمالات يسقط الاستدلال بالحديث المرسل وإن تعددت طرقه . وهذا التحقيق مما لم أجد مَن سبقني إليه ، فإن أصبت فمن الله تعالى وله الشكر ، وإن أخطأت فمن نفسي ، وأستغفر الله من ذنبي .

وبالجملة فالمانع من الاستدلال بالحديث المرسل الذي تعدد مرسِلوه أحد الاحتمالين:

الأول: أن يكون مصدر المرسلين واحداً .

الثاني: أن يكونوا جمعاً ، ولكنهم جميعاً ضعفاء ضعفاً شديداً . وبعد هذه المقدمة نستطيع أن نقول:

(306/526)

إننا لو ألقينا النظر على روايات هذه القصة ، لألفيناها كلها مرسَلة ، حاشا حديث ابن عباس ، ولكن طرقه كلها واهية شديدة الضعف لا تنجبر بها تلك المراسيل ، فيبقى النظر في هذه المراسيل ، وهي كما علمت سبعة ، صح إسناد أربعة منها ، وهي مرسل سعيد بن جبير ، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ، وأبي العالية (رقم 1-3) ، ومرسل قتادة ، رقم (5) وهي مراسيل يرد عليها أحد الاحتمالين السابقين ، لأنهم من طبقة واحدة: فوفاة سعيد بن جبير سنة (95) وأبي بكر بن عبد الرحمن سنة (94) ، وأبي العالية - واسمه رفيع مصغراً - سنة (90) وقتادة سنة بضع عشرة ومائة ، والأول كوفي ، والثاني مدني ، والأخيران بصريان .

فجائز أن يكون مصدرهم الذي أخذوا منه هذه القصة ورووها عنه ، واحداً لا غير ، وهو مجهول .

وجائز أن يكون جمعاً ، ولكنهم ضعفاء جميعاً ، فمع هذه الاحتمالات لا يمكن أن تطمئن

النفس لقَبول حديثهم هذا ، لا سيّما في مثل هذا الحدث العظيم الذي يمسّ المقام الكريم ، فلا جَرَم تتابع العلماء على إنكارها ، بل التنديد ببطلانها ، ولا وجه لذلك من جهة الرواية إلا ما ذكرنا ، وإن كنت لم أقف على من صرّح بذلك كما ذكرت آنفاً . قال الفخر الرازي في "تفسيره" (193/6):

"روى عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة ؟ فقال: "هذا من وضع الزنادقة" ، وصنّف فيه كتاباً . وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: "هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل" ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم ، وأيضاً : فقد روى البخاري في "صحيحه" أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة (النجم) وسجد وسجد فيها المسلمون والمشركون ، والإنس والجن ، وليس فيه حديث الغرانيق وروى هذا الحديث من طرق كثيرة ، وليس فيها البتة حديث الغرانيق .

وقد تبع هؤلاء جماعة من الأئمة العلماء ، وهاك أسماءهم على ترتيب وفياتهم:

(307/526)

1- أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي توفي سنة (542) ، في تفسيره "أحكام القرآن" .

2- القاضي عياض بن موسى بن عياض (544) في كتابه "الشفا في حقوق المصطفى" .

3- فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن الرازي (606) في تفسيره "مفاتيح الغيب" (193/6-197) وقد مضى بعض كلامه في ذلك .

4- محمد بن أحمد الأنصاري أبو عبد الله القرطبي في "أحكام القرآن" (80/12-84) .

5- محمد بن يوسف بن علي الكرماني من شرّاح "البخاري" (786) ، وقد نقل كلامه في ذلك الحافظ في "الفتح" (498/8) .

6- محمود بن أحمد بدر الدين العيني (855) في "عمدة القاري" (47/9) .

7- محمد بن علي بن محمد اليمني الشوكاني (1250) في "فتح القدير" (247/3-248) .

8- السيد محمود أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي (1270) في "روح المعاني" (160/17-169) .

9- صديق حسن خان أبو الطيب (1307) في تفسيره "فتح البيان" .

10- محمد عبده المصري الأستاذ الإمام (1323) في رسالة خاصة له في هذه القصة

وإذا عرفت هذا فلا بأس من ذكر كلمات بعض هؤلاء العلماء ، لما فيها من الفوائد والتحقيقات التي تزيد القارئ إيماناً ببطلان القصة ، وتجعله يتبين أن النقد العلمي الرجيح

يتفق دائماً مع النقد الحديثي الصحيح ، لأن كلاًّ منهما يقوم على قواعد علمية دقيقة لا تقبل التغيير والتبديل ، وأنا أكتفي هنا بكلمات أربعة منهم . ومن شاء الزيادة فليرجع إلى المصادر الأخرى التي أشرنا إليها ، والأربعة هم: 1- ابن العربي 2- القاضي عياض 3- الشوكاني 4- الآلوسي .

1- كلام أبي بكر بن العربي في إبطال القصة:

قال رحمه الله تعالى بعد أن ذكر سبب نزول آية الحج التي ذكرناها في أول الرسالة ملخصاً من الروايات التي أوردناها :

(308/526)

"اعلموا أنار الله أفئدتكم بنور هداه ، ويسَّر لكم مقصد التوحيد ومغزاه ، أن الهدى هدى الله ، فسبحان من تفضل به على من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، وقد بيَّنَّا معنى هذه الآية في "فضل تنبيه الغبي على مقدار النبي" بما نرجو به عند الله الجزاء الأوفى في مقام الزلفى ، ونحن الآن نجلو بتلك الفصول الغماء ، ونرقيكم بها عن حضيض الدهماء إلى بقاع العلماء في عشر مقامات .

المقام الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرسل الله إليه الملَك بوحيه ، فإنه يخلق له

العلم به حتى بتحقيق أنه رسول من عنده ، ولولا ذلك لما صحّت الرسالة ، ولا تبينت النبوة ، فإذا خلق الله له العلم به تميز عنده من غيره ، وثبت اليقين ، واستقام سبيل الدين ، ولو كان النبي إذا شافهه الملك بالوحي لا يدري ، أمَلَكٌ هو ، أم شيطان ، أم أنسان ، أم صورة مخالفة لهذه الأجناس ألقت عليه كلاماً وبلغت إليه قولاً لم يصح أن يقول: إنه من عند الله ، ولا تثبت عندنا أنه أمر الله ، فهذه سبيل متيقنة ، وحالة متحققة لا بد منها ، ولا خلاف في المنقول ولا في المعقول فيها ، ولو جاز للشيطان أن يتمثل فيها ، أو يتشبّه بها ما أمناه على آية ، ولا عرفنا منه باطلاً من حقيقة ، فارتفع بهذا الفصل اللَبس ، وصح اليقين في النفس .

المقام الثاني: أن الله قد عصم رسوله من الكفر ، وأَمنه من الشرك ، واستقر ذلك من دين المسلمين بإجماعهم فيه وإطباقهم عليه ، فمن ادعى أنه يجوز عليه أن يكفر بالله أو يشك فيه طرفة عين ، فقد خلع رقبة الإسلام من عنقه ، بل لا تجوز عليه المعاصي في الأفعال ، فضلاً عن أن ينسب إلى الكفر في الاعتقاد ، بل هو المنزّه عن ذلك فعلاً واعتقاداً ، وقد مهدنا ذلك في كتب الأصول بأوضح دليل .

(309/526)

المقام الثالث: أن الله قد عرّف رسوله بنفسه وبصّره بأدلته ، وأراه ملكوت سماواته وأرضه ، وعرّفه سنن من كان قبله من إخوته فلم يكن يخفى عليه من أمر الله ما نعرفه اليوم ، ونحن حُثالة أمته ، ومن خطر له ذلك فهو ممن يمشي مُكِبّاً على وجهه ، غير عارف بنبيّه ولا بربه .

المقام الرابع: تأملوا فتح الله أغلاق النظر عنكم إلى قول الرواة الذين هم بجهلهم أعداء على الإسلام ممن صرح بعداوته أن النبي صلى الله عليه وسلم لما جلس مع قريش تمنى أن لا ينزل عليه من الله وحي فكيف يجوز لمن معه أدنى مسكة أن يخطر بباله أن النبي صلى الله عليه وسلم آثر وصل قومه على وصل ربه ، وأراد أن لا يقطع أنسه بهم بما ينزل عليه من عند ربه من الوحي الذي كان حياة جسده وقلبه ، وأنس وحشته وغاية أمنيته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، فإذا جاءه جبريل ، كان أجود بالخير من الريح المرسَلة ، فيؤثر على هذا مجالسته للأعداء ؟ ! .

(310/526)

المقام الخامس: أن قول الشيطان: "تلك الغرانيق العلى ، وأن شفاعتهن لترتجى" للنبي صلى الله عليه وسلم قَبِله منه ، فالتبس عليه الشيطان بالمَلَك ، واختلط عليه التوحيد بالكفر ،

حتى لم يفرّق بينهما ، وأنا من أدنى المؤمنين منزلة ، وأقلهم معرفة بما وفقني الله له ، وآتاني من علمه لا يخفى عليَّ وعليكم أن هذا كفر لا يجوز وروده من عند الله ، ولو قال أحد لكم لتبادر الكل إليه قبل التفكير بالإنكار والردع والتثريب والتشنيع ، فضلاً عن أن يجهل النبي صلى الله عليه وسلم حال القول ، ويخفى عليه قوله ولا يتفطن لصفة الأصنام بأنها "الغرانيق العلى وأن شفاعتهن ترتجى" وقد علم علماً ضرورياً أنها جمادات لا تسمع ولا تبصر ، ولا تنطق ولا تضر ، ولا تنفع ولا تنصر ولا تشفع ، بهذا كله كان يأتيه جبريل الصباح والمساء ، وعليه انبنى التوحيد ولا يجوز نسخه من جهة المنقول ، فكيف يخفى هذا على الرسول ؟ ! ثم لم يَكْفِ هذا حتى قالوا : إن جبريل عليه السلام لما عاد إليه بعد ذلك ليعارضه فيما ألقي إليه من الوحي كررها عليه جاهلاً بها – تعالى الله عن ذلك – فحينئذ أنكرها عليه جبريل ، وقال له: "ما جئتك بهذا !" فحزن النبي صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه: "وَإِن كادُوا لَيَفْتِنونَكَ عن الذي أَوْحَينا إِلَيكَ لتفتري عَلينا غَيره" [الإسراء:73] فيا لله والمتعلمين والعالمين من شيخ فاسد موسوس هامد لا يعلم أن هذه الآية نافية لما زعموا ، مبطلة لما رووا وتقوّلوا . وهو:

المقام السادس: وذلك أن قول ابن العربي: "كاد يكون كذا" معناه قارب ولم يكن فأخبر الله في هذه الآية أنهم قاربوا أن يفتنوه عن الذي أوحي إليه ، ولم تكن فتنة ، ثم قال: "لِتفتَرِيَ علينا غَيرَهُ" [الإسراء:73] وهو:

المقام السابع: ولم يفتر ، ولو فتنوك وافتريت لاتخذوك خليلاً ، فلم تفتتن ولا افتريت ولا اتخذوك خليلاً ، "ولولا أن ثبّتْناك" [الإسراء:74] وهو:

(311/526)

المقام الثامن: "لقد كِدت تَركن إليهم شَيئاً قَليلاً" [الإسراء:74] ، فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه ثبته ، وقرر التوحيد والمعرفة في قلبه ، وضرب عليه سرادق العِصمة ، وآواه في كَنَف الحرمة ، ولو وكله إلى نفسه ، ورفع عنه ظل عصمته لحظة ، لألمت بما راموه ولكنا أمرنا عليك المحافظة ، وأشرقنا بنوره الهداية فؤادك ، فاستبصر وأزاح عنك الباطل ودحر ، فهذه الآية نص في عصمته من كل ما نسب إليه ، فكيف يتأولها أحد عدوا عما نسب إليه من الباطل إليه ؟ ! .

المقام التاسع: قوله: "فما زال مغموماً مهموماً حتى نزلت عليه: (وما أرسلنا من قَبلكَ من رّسولٍ ولا نبي) [الحج:52] ، فأما غمه وحزنه ، فبأن تمكن الشيطان مما تمكن مما يأتي بيانه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعز عليه أن ينال الشيطان شيئاً وإن قل تأثيره .

(312/526)

المقام العاشر: إن هذه الآية نص في غرضنا ، الدليل على صحة مذهبنا ، أصل في براءة النبي صلى الله عليه وسلم مما نسب إليه أنه قاله عندنا ، وذلك أنه قال تعالى: (و ما أرسلنا من قبلك من رّسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) [الحج:52] ، فأخبر الله تعالى أن من سنته في رسله ، وسيرته في أنبيائه ، أنهم إذا قالوا عن الله قولاً ، زاد الشيطان فيه من قبل نفسه ، كما يفعل سائر المعاصي ، كما تقول: ألقيت في الدار كذا ، وألقيت في العِكم كذا ، وألقيت في الكيس كذا ، فهذا نص في أن الشيطان زاد في الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، لا أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كما إذا قرأ تلا قرآنا مقطّعاً ، وسكت في مقاطع الآي سكوتاً محصلاً ، وكذلك كان حديثه مترسلاً فيه ، متأنياً ، فتبع الشيطان تلك السكتات التي بين قوله: (و مناة الثالثة الأخرى) [النجم:20] وبين قوله تعالى: (ألكُمُ الذّكرُ وله الأنثى) [النجم: 21] ، فقال يحاكي صوت النبي صلى الله عليه وسلم: "و أنهن الغرانقة العلى وإن شفاعتهن لترتجى" ، فأما المشركون ، والذين في قلوبهم مرض لقلة البصيرة وفساد السريرة ، فتلوها عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ونسبوها بجهلهم إليه ، حتى سجدوا معه اعتقاداً أنه معهم ، وعلم الذين أوتوا العلم والإيمان أن القرآن حق من عند الله ، فيؤمنون به ، ويرفضون غيره ، وتجيب قلوبهم إلى الحق ، وتنفر عن الباطل ، وكل ذلك إبتلاء من الله ، ومحنة ، فأين هذا

من قولهم ؟ ! وليس في القرآن إلا غاية البيان بصيانة النبي صلى الله عليه وسلم في الإسرار والإعلان ، عن الشرك والكُفران ، وقد أودعنا إليكم توصية أن تجعلوا القرآن ، إمامكم ، وحروفه أمامكم ، فلا تحملوا عليها ما ليس فيها ، ولا تربطوا بها ما ليس منها ، وما هدي لهذا إلا الطبري بجلالة قدره وصفاء فكره ، وسعة باعه في العلم ، وشدة ساعده وذراعه في النظر ، وكأنه

(313/526)

أشار إلى هذا الغرض ، وصوَّب على هذا المرمى فقرطس بعد ما ذكر في ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها ، ولو شاء ربك لما رواها أحد ، ولا سطرها ، ولكنه فعال لما يريد ، عصمنا الله وإياكم بالتوفيق والتسديد , وجعلنا من أهل التوحيد بفضله ورحمته" .

2- كلام القاضي عِياض في ذلك:

وقال القاضي عِيَاضْ:

"فاعلم أكرمك الله: أن لنا في الكلام على مشكل الحديث مأخذين:

أحدهما في توهِين أصله ، والثاني على تسليمه .

(314/526)

أما المأخذ الأول ، فيكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند متصل سليم ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بُلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير ، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقله ، واضطراب رواياته ، وانقطاع إسناده واختلاف كلماته . فقائل يقول: إنه في الصلاة ، وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة ، وآخر يقول: قالها وقد أصابته سِنة ، وآخر يقول: بل حَدَّثَ نفسه فسها ، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرأتك ؟ ! وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها ، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، قال: والله ما هكذا أنزلت . إلى غير ذلك من اختلاف الرواة ، ومن حُكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يُسْندها أحد منهم ، ولا رفعها إلى صاحب ، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية ، والمرفوع فيه حديث شُعبة عن أبي بِشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب – الشك في الحديث – أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة ، وذكر القصة . وقال أبو بكر البزّار: "هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذِكره إلا هذا ، ولم يسنده عن شبعة إلا أمية بن

خالد ، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير ، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس" .

(315/526)

فقد بيَّن لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يُعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف ما نبَّه عليه مع وقوع الشك فيه – كما ذكرنا – الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه .

وأما حديث الكلبي فمما لا تجوز الرواية عنه ، ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه كما أشار إليه البزّار ، والذي منه في "الصحيح" "أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ : (النجم) وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس" هذا توهينه من طريق النقل .

فأما من جهة المعنى : فقد قامت الحُجَّة ، وأجمعت الأمة على عِصمته صلى الله عليه وسلم ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة ، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهةٍ غيرِ الله وهو كفر ، أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبي صلى الله عليه وسلم أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه عليه جبريل عليه السلام ، وذلك كله ممتنع في حقه صلى الله عليه وسلم أو يقول ذلك النبي صلى الله عليه وسلم من قبل نفسه عمداً ، وذلك كفر ، أو سهو ، وهو معصوم من ذلك كله ، وقد قررنا

بالبراهين والإجماع عصمته صلى الله عليه وسلم من جَرَيان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمداً ولا سهواً ، وأن يشتبه عليه ما يلقيه الملَك بما يلقي الشيطان ، أو يكون للشيطان عليه سبيل ، أو يتقول على الله لا عمداً ولا سهواً ما لم ينزل عليه ، وقد قال تعالى: (وَلَوْ تقوَّل علَيْنا بعضَ الأقاويل) الآية [الحاقة:44] ، وقال (إذاً لأذقناك ضِعف الحياة وضِعفَ الممات) [الإسراء:75] .

(316/526)

ووجه ثانٍ: وهو استحالة هذه القصة نظراً وعُرفاً ، وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الإلتئام متناقض الأقسام ، ممتزج المدح والذم ، متخاذل التأليف والنّظم ، ولَمَا كان النبي صلى الله عليه وسلم ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك ، وهذا لا يخفى على أدنى متأمِّل ، فكيف بمن رجَحَ حلمه ، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه ؟ ! .

ووجه ثالث: أنه قد علم من عادة المنافقين ، ومعاندة المشركين ، وضعفة القلوب ، والجهلة من المسلمين ، نفورهم لأول وَهْلة ، وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة ، وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفنية بعد الفنية ، وارتداد من في قلبه مرض ممن

أظهر الإسلام لأدنى شُبهة ، ولم يحكِ أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة ، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة ، كما فعلوا مكابرة في قصة الإسراء ، حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردّة . كذلك ما روي في قصة القضية ، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت ، ولا تشغيب للمعادي حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت ، فما رُوي عن معاند فيها كلمة ، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة ، فدل على بطلانها واجتثاث أصلها . ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس والجن هذا الحديث على مُغفَّلي المحدثين ، يلبس به على ضعفاء المسلمين .

(317/526)

ووجه رابع: ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت: (وإن كادوا لَيَفتِنونَك . . .) الآيتين [الإسراء:73- 74] . وهاتان الآيتان تردّان الخبر الذي رووه ، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا ليفتنونه حتى يفتري ، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم ، فمضمون هذا ومفهومه أن الله تعالى قد عصمه من أن يفتري ، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً ، فكيف كثيراً ؟ وهم يروون في أخبارهم الواهية أن زاد على الركون الافتراء بمدح آلهتهم ، وأنه قال صلى الله

عليه وسلم: "أفتريت على الله ، وقلت ما لم يقل" وهذا ضد مفهوم الآية ، وهي تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له ؟ وهذا مثل قوله تعالى في الآية الأخرى: (و لولا فضل الله عليكَ ورحمتهُ لهمّت طائفةٌ منهم أن يُضلّوك وما يضلّون إلا أنفسهم وما يضرّونك من شيء) [النساء:113] . وقد روي عن ابن عباس: "كل ما في القرآن "كاد" فهو ما لا يكون" .

قال القاضي: و لقد طالَبَتْه قريش وثقيف إذا مرّ بآلهتهم أن يُقبل بوجهه إليها ، ووعوده الإيمان به إن فعل ، فما فعل ولا كاد أن يضل ، وقد ذكرت في معنى الآية تفاسير أخر ، ما ذكرناه من نصّ الله على عصمة رسوله برد سفاسفها ، فلم يبق في الآية إلا أن الله تعالى امتن على رسوله بعصمته وتثبيته بما كاده به الكفار ، وراموا من فتنته ، ومرادنا في ذلك تنزيهه وعصمته صلى الله عليه وسلم وهو مفهوم الآية .

وأما المأخذ الثاني: فهو مبني على تسليم الحديث لو صح أعاذنا الله من صحته ، ولكن مع كل حال فقد أجاب عن ذلك أئمة بأجوبه منها الغث والسمين" .

قلت: فذِكر هذه الأجوبة ، وضعفها جلها أو كلها ، إلا الأخير منها ، فإنه استظهره ورجحه ، وهو الذي أجاب به ابن العربي فيما تقدم من كلامه (ص 53) :

إن الشيطان هو الذي ألقى ذلك في سكتة النبي صلى الله عليه وسلم بين الآيتين ، محاكياً نغمة النبي صلى الله عليه وسلم وأشاع ذلك المشركون عنه صلى الله عليه وسلم ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظه السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله ، وتحققهم من حال النبي صلى الله عليه وسلم في ذمّ الأوثان وعيبها على ما عرف منه ، وقد حكى موسى بن عُقبة في مغازيه نحو هذا وقال: "إن المسلمين لم يسمعوها ، وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين وقلوبهم" ويكون ما روى من حزن النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنه .

ردُّ الحافظ على ابن العربي والقاضي عِياض وتعقبنا عليه:

وأما قوله الحافظ في "الفتح" بعد أن نقل خلاصة عن الوجوه التي تقدمت عن الإمامين المذكورَيْن في إعلال القصة وتوهينها :

"وجميع ذلك لا يتمشى على قواعد ، فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها ، دلّ ذلك على أن لها أصلاً ، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح ، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل ، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض" .

فأقول: إن هذا الجواب ليس بالقوي على إطلاقه لما بيَّنّا فيما تقدم أن تقوية الحديث بكثرة الطرق ليس قاعدة مضطردة ، نعم من ذهب إلى الاحتجاج بالمرسل مطلقاً أو عند

اعتضاده ، ففي الجواب رد قوي عليه ، كالقاضي عياض وغيره ممن يقبل مرسل الثقة أما نحن فهو غير وارد علينا لما أوردنا من الاحتمالات التي تمنع الاحتجاج بالحديث المرسل ولو من غير وجه ، ولعل هذا مذهب الحافظ ابن كثير حيث قال عند تفسيره للآية السابقة (229/3):

"قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ، ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح" .

(319/526)

فإن ابن كثير يعلم أن بعض هذه المراسيل التي أشار إليها أسانيدها صحيحة إلى مُرْسِلها ، فلو كان بعضها يعضد بعضاً عنده وتقوى القصة بذلك ، لما ضعفها بحجة أنه لم يرها مسندة من وجه صحيح وهذا بيِّن لا يخفى

ثم إن من الغريب أن الحافظ ابن حجر مع ذهابه إلى تقوية القصة يرى أن فيها ما يُستنكر وأنه يجب تأويله فيقول بعد كلامه الذي نقلته آنفاً :

"وإذا تقرر ذلك تعيَّن تأويل ما وقع فيها مما يستنكر وهو قوله: "ألقى الشيطان على لسانه:

"تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره لأنه يستحيل عليه صلى الله عليه وسلم أن يزيد في القرآن عمداً منه ، وكذا سهواً إذا كان مغايراً لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته"

ثم ذكر الحافظ مسالك العلماء في تأويل ذلك ، ثم اعتمد على الوجه الأخير منها . وهو الذي نقلناه عن القاضي عياض قبيل هذا الفصل ، وقلنا إنه رجَّحه ، ثم قال الحافظ: "و هذا أحسن الوجوه ، ويؤيِّده ما تقد في صدر الكلام عن ابن عباس من تفسير تمنَّى ب(تلا) " .

فينتج من ذلك أن الحافظ رحمه الله ، قد سَلَّم أن الشيطان لم يتكلم على لسان النبي صلى الله عليه وسلم بتلك الجملة ، وإنما ألقاها الشيطان بلسانه في سكتة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهذا لا يتفق البته مع القول بصحة القصة ، أو أن لها أصلاً ، فإن كان يريد بذلك أن لها أصلاً في الجملة ، أعني بدون هذه الزيادة ، فهذا ليس هو موضع خلاف بينه وبين العلماء الذين ردّ عليهم قولهم ببطلان القصة ، وإنما الخلاف في الجملة التي تزعم الروايات أن الشيطان ألقاها على لسانه صلى الله عليه وسلم فإذ قد صرح الحافظ بإنكارها وتنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عنها فنستطيع أن نقول لحضرة السائل:

(320/526)

إن الحافظ متفق مع ابن كثير – وغيره ممن سبقه ولحقه – على إنكار القصة على ما وردت في الروايات حتى التي صحَّحها الحافظ ، وأما ما بقي منها مما لا يتنافى مع عصمة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا خلاف في إمكان وقوعها ، بل الظاهر أن هذا القدر هو الذي وقع بدليل ظاهر آية الحج حسبما تقدم تفسيرها في أوائل الرسالة

نعم يرد على الحافظ هنا اعتراضان:

الأول: تليينه العبارة في إنكار تلك الزيادة ، لأنه إنما أنكرها بطريق تأويلها ! وحقه أن ينكرها من أصلها ، لأن التأويل الذي زعمه ليست تفيده تلك الزيادة أصلاً ، لأن الحافظ يقول:

"إن الشيطان هو الذي ألقى بلسانه في سكتة النبي صلى الله عليه وسلم" . وهي تقول: " إن الشيطان ألقى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم" فأين هذا من ذلك ؟ !

الثاني: تشنيعه القول على ابن العربي والقاضي عياض لإنكارهما القصة ، ومع أنه يعلم أنهما أنكراها لما فيها من البواطيل التي لا تتفق مع القول بعصمة الرسول الكريم ، منها هذه الزيادة التي وافقها الحافظ على استنكارها ، مع فارق شكلي وهو أنهما كانا صريحين في إنكارها من أساسها ، بينما الحافظ إنما أنكرها بطريق تأويلها – زعم–

ومن هنا يتبين لك ضعف ما قاله في رده على القاضي في "تخريج الكشاف" .

"و أما طعنه فيه باختلاف الألفاظ فلا تأثير للروايات الواهية في الرواية القوية ، فيعتمد من القصة على الرواية الصحيحة ، أي: يُعتمد على الرواية المتابعة ، وليس فيها وفيما تابعها اضطراب والإضطراب في غيرها ، وأما طعنه من جهة المعنى فله أسوة كثيرة من الأحاديث الصِّحاح التي لا يؤخذ بظاهرها ، بل يرد بالتأويل المعتمد إلى ما يليق بقواعد الدين" .

قلت: إن هذا الرد ضعيف ، لأن الرواية الصحيحة التي أشار إليها هي رواية ابن جُبير المتقدمة وفيها كما في غيرها من الروايات المتابعة الأمر المستنكر باعترافه ، بل في بعض الروايات عن سعيد ما هو أنكر من ذلك وهو قوله:

(321/526)

"ثم جاءه جبريل بعد ذلك فقال: عُرض علي ما جئتك به ، فلما بلغ "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" قال له جبريل: لم آتك بهذا ، وهذا من الشيطان ! !" وقد جاء هذا في غير رواية سعيد كما تقدم ، ولازمه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد انطلى عليه وحي الشيطان واختلط عنده بوحي الرحمن ، حتى لم يميِّز بينهما ، وبقي على هذه الحالة ما بقي ، إلى أن جاءه جبريل في المساء ! سبحانك هذا بهتان عظيم وافتراء جسيم

فاتضح أن ليس هناك رواية معتمدة صحيحة بالمعنى العلمي الصحيح ، وأن الرواية التي صحيحها الحافظ قد أنكر بعضها هو نفسه فأين الإعتماد .

وأما قوله: "إن حديث الغرانيق له أسوة بكثير من الأحاديث الصحيحة" ، فصحيح لو صح إسناده وأمكن تأويله ، وكلا الأمرين لا نسلِّم به . أما الأول فلما علمت من إرساله من جميع الوجوه حاشا ما اشتد ضعفه من الموصول ، وإنها على كثرتها لا تعضده . وأما الأمر الآخر فلأن التأويل الذي ذهب إليه الحافظ رحمه الله هو في الحقيقة ليس تأويلاً ، بل هو تعطيل لحقيقة الجملة المستنكرة ، وهو أشبه ما يكون بتأويلات بل تعطيلات القرامطة والرافضة للآيات القرآنية والأحاديث المصطفوية . تأييداً لمذاهبهم الهدّامة وآرائهم الباطلة ، خلافاً للحافظ رحمه الله فإنه إنما فعل ذلك دفاعاً عن مقام الحضرة النبوية والعصمة المحمدية ، فهو مشكور على ذلك ومأجور ، وإن كان مخطئاً عندنا في ذلك التأويل مع تصحيح القصة .

3- كلام الشوكاني:

وقال الشوكاني رحمه الله تعالى:

"ولم يصح شيء من هذا ، ولا يثبت بوجه من الوجوه ، ومع عدم صحته ، بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه" ثم ذكر بعض الآيات الدالّة على البطلان ثم قال:

"وقال إمام الأئمة ابن خزيمة ، إن هذه القصة من وضع الزنادقة" .

4- كلام الآلوسي في إبطال القصة:

(322/526)

وعلى كل حال فإن الحافظ ابن حجر رحمه الله متفق مع الذين أنكروا القصة على تنزيهه صلى الله عليه وسلم من أن يكون للشيطان تَكلّم على لسانه عليه الصلاة والسلام ، فالخلاف بينه وبينهم يكاد يكون شكلياً أو لفظياً ، وإنما الخلاف الحقيقي بينهم وبين بعض المتأخرين حيث ذهب إلى تصحيح القصة مع التسليم بها دون استنكار أي شيء منها ، أو تأويل ! بل جوّز على النبي صلى الله عليه وسلم جميع ما فيها زاعماً أن ذلك لا يتنافى مع عصمته ، بل هو تأديب له ! في كلام له طويل . يُغني وضوح بطلانه عن إيراده وتسويد الصفحات لرده ، وقد نقله الآلوسي برمّته ، ثم رده عليه في كلام متين ، ولولا أن هذه العجالة لم توضع لهذه الغاية ، لَسُقته بتمامه فأختصر من ذلك على قوله في خاتمة بحثه:

"لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد ، فإن الطاعنين فيه من حيث النقل علماء أجلاء ، عارفون بالغث والسمين من الأخبار ، وقد بذلوا الوُسع في تحقيق الحق فيه فلم يرووه إلا مردوداً ، وهم أكثر ممن قال بقَوله ، ومنهم من هو أعلم منه ، ويغلب على الظن أنهم

وقفوا على رواته في سائر الطرق فرأوهم مجروحين ، وفات ذلك القائل بالقَبول . ولَعمري إن القول بأن هذا الخبر مما ألقاه الشيطان على بعض ألسنة الرواة ، ثم وفق الله تعالى جمعاً من خاصته لإبطاله ، أهون من القول بأن حديث الغرانيق مما ألقاه الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نَسَخَه سبحانه وتعالى ، ولا سيّما وهو مما لم يَتوقف على صحته أمر ديني ، ولا معنى آية ، ولا سِوى أنها يتوقف عليها حصول شبه في قلوب كثير من ضعفاء المؤمنين لا تكاد تدفع إلا بجهد جهيد " .

وهذا آخر الكلام في تحقيق بطلان قصة الغرانيق .

وقد بقي علينا التعرض لذكر فائدة سبقت مناسبتها وهي سجود المشركين مع النبي صلى الله عليه وسلم عند قراءة سورة (النجم) وهي تضمن بيان سبب ذلك فأقول:

سبب سجود المشركين مع النبي صلى الله عليه وسلم

(323/526)

رب سائل يقول: إذا ثبت بطلان إلقاء الشيطان على لسانه عليه الصلاة والسلام جملة "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" فَلِمَ إذن سجد المشركين معه صلى الله عليه وسلم وليس ذلك من عادتهم ؟

والجواب ما قاله المحقق الآلوسي بعد سطور من كلامه الذي نقلته آنفاً :

"وليس لأحد أن يقول: إن سجود المشركين يدل على أنه كان في السورة ما ظاهره مدح آلهتهم ، وإلا لما سجدوا ، لأننا نقول: يجوز أن يكونوا سجدوا لدهشة أصابتهم وخوف اعتراهم عند سماع السورة لما فيها من قوله تعالى: "وأنه أهلك عاداً الأولى (50) وثمود فما أبقى (51) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هو أظلم وأطغى (52) والمؤتفكة أهوى (53) فغشّاها ما غشّا (54)" إلى آخر الآيات [النجم] . فاستشعروا نزول مثل ذلك بهم ، ولعلهم لم يسمعوا قب ذلك مثلها منه صلى الله عليه وسلم ، وهو قائم بين يديْ ربه سبحانه في مقام خطير وجمع كثير ، وقد ظنّوا من ترتيب الأمر بالسجود على ما تقدم أن سجودهم ولو لم يكن عن إيمان ، كافٍ في دفع ما توهَّموه ، ولا تستبعد خوفهم من سماع مثل ذلك منه صلى الله عليه وسلم ، فقد نزلت سورة (حم السجده) بعد ذلك كما جاء مصرّحا به في حديث عن ابن عباس . ذكره السيوطي في أول "الإتقان" فلما سمع عُتبة بن ربيعة قوله تعالى فيها : "فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عادٍ وثمود (13)" [فصّلت] ! أمسك على فم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وناشده الرحم واعتذر لقومه حين ظنوا به أنه صبأ وقال: "كيف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ؟ فخفت أن ينزل بكم عذاب" وقد أخرج ذلك البيهقي في "الدلائل" وابن عساكر في حديث طويل عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

ويمكن أن يقال على بعد : إن سجودهم كان لاستشعار مدح آلهتهم ، ولايلزم منه ثبوت ذلك الخبر ، لجواز أن يكون ذلك الاستشعار من قوله تعالى: "أفرأيتم اللات والعزّى (19) ومناة الثالثة الأخرى (20)" [النجم] ، بناء على أن المفعول محذوف وقدّروه حسبما يشتهون ، أو على أن المفعول: (ألكم الذكر وله الأنثى (21)" [النجم] . وتوهّموا أن مصب الإنكار فيه كون المذكورات إناثاً ، والحب لشيء يعمي ويُصمّ ، وليس هذا بأبعد من حملهم "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" على المدح حتى سجدوا لذلك آخر السورة ، مع وقوعه بين ذمين المانع من حمله على المدح في البين كما لا يخفى على من سلمت عين قلبه من الغين" .

"وسبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك" .

محمد ناصر الدين الألباني

انتهى تبيض هذه الرسالة صباح يوم الإثنين الواقع في 72/3/7ه - 52/11/23م

أسأل الله تعالى أن يفيد بها السائل وسائر المسلمين ويجعلها خالصة لوجه الكريم . أ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والعشرون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والعشرون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 56 ﴾ من سورة الحج

وحتى الآية ﴿ 62 ﴾ من نفس السورة

(4/527)

قوله تعالى ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (57) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانوا من الكثرة والقوة بمكان كان كأنه قيل : كيف يغلبون ؟ فقال جواباً عن ذلك :

﴿ الملك يومئذ ﴾ أي يوم إذ يأتيهم ذلك إما في القيامة أو في الدنيا ﴿ لله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال وحد بتغليب اسمه الظاهر ، بأن يجري أمره فيه على غير الأسباب التي تعرفونها .

ولما كان كأنه قيل : ما معنى اختصاصه به وكل الأيام له ؟ قيل : ﴿ يحكم بينهم ﴾ أي بين المؤمنين والكافرين بالأمر الفيصل ، لا حكم فيه ظاهراً ولا باطناً لغيره ، كما ترونه الآن ، بل يمشي فيه الأمر على أتم قوانين العدل ، ولذلك سبب ظهور العدل عنه قوله مفصلاً بادئاً .

إظهاراً لتفرده بالحكم بإكرام من كانوا قاطعين بهوانهم في الدارين مع أن تقديمهم أوفق لمقصود السورة : ﴿ فالذين آمنوا وعملوا ﴾ أي وصدقوا دعواهم الإيمان بأن عملوا ﴿ الصالحات ﴾ وهي ما أمرهم الله به .

ولما كانت إثابته تعالى لأهل طاعته تفضلاً منه ، نبه على ذلك بإعراء الخبر عن الفاء السببية بخلاف ما يأتي في حق الكفار فقال : ﴿ في جنات النعيم ﴾ في الدنيا مجازاً ، لما آلهم إليهم مع ما يجدونه من لذة المناجاة واستشعار القرب وفي الآخرة حقيقة بما رحمهم الله به من توفيقهم للأعمال الصالحة ﴿ والذين كفروا ﴾ أي غطوا ما أعطيناهم من المعرفة بالأدلة على وحدانيتنا ﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾ ساعين - بما أعطيناهم من الفهم في تعجيزها بالمجادلة بما يوحي إليهم أولياؤهم من الشياطين من الشبه ، وقرن الخبر بالفاء إيذاناً بأنه مسبب عن كفرهم فقال : ﴿ فأولئك ﴾ أي البعداء عن أسباب الكرم ﴿ لهم عذاب مهين ﴾ بسبب ما سعوا في إهانة آياتنا مريدين إعزاز أنفسهم بمغالبتها والتكبر عن اتباعها .

ولما كان المشركون يمنعون بهذ الشبه وغيرها كثيراً من الناس الإيمان ، وكانوا لا يتمكنون بها إلا ممن يخالطهم ، رغب سبحانه في الهجرة فقال : ﴿ والذين هاجروا ﴾ أي أوقعوا هجرة ديارهم وأهليهم ﴿ في سبيل الله ﴾ أي طريق ذي الجلال والإكرام التي شرعها ، فكانت ظرفاً لمهاجرتهم ، فلم يكن لهم بها غرض آخر .

ولما كان أكثر ما يخاف من الهجرة القتل .

لقصد الأعداء للمهاجر بالمصادمة ، عند تحقق المصارمة ، قال معبراً بأداة التراخي إشارة إلى طول العمر وعلو الرتبة بسبب الهجرة : ﴿ ثم قتلوا ﴾ أي بعد الهجرة ، وألحق به مطلق الموت فضلاً منه فقال : ﴿ أو ماتوا ﴾ أي من غير قتل ﴿ ليرزقنهم الله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ رزقاً حسناً ﴾ من حين تفارق أرواحهم أشباحهم لأنهم أحياء عند ربهم ، وذلك لأنهم أرضوا الله بما انخلعوا منه مما أثلوه طول أعمارهم .

وأثله آباؤهم من قبلهم ، وأموالهم وأهليهم وديارهم .

ولما كان التقدير : فإن الله فعال ما يريد من إحيائهم ورزقهم وغيره ، عطف عليه قوله : ﴿ وإن الله ﴾ أي الجامع لصفات الكمال بعظمته وقدرته على الإحياء كما قدر على الإماتة ﴿ لهو خير الرازقين ﴾ يرزق الخلق عامة البر منهم والفاجر ، فكيف بمن هاجر إليه ! ويعطي عطاء لا يدخله عد ، ولا يحويه حد ، وكما دلت الآية على تسوية من مات في

سبيل الله برباط أو غيره في الرزق بالشهيد ، دلت السنة أيضاً من حديث سلمان وغيره ـ رضى الله عنهم ـ م أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " من مات مرابطاً أجري عليه الرزق وأمن الفتانين " .

ولما كان الرزق لا يتم إلا بحسن الدار ، وكان ذلك من أفضل الرزق ، قال دالاً على ختام التي قبل : ﴿ ليدخلنهم مدخلاً ﴾ أي دخولاً ومكان دخول قراءة نافع وأبي جعفر بفتح الميم ، وإدخالاً ومكان إدخال على قراءة الباقين ﴿ يرضونه ﴾ لا يبغون به بدلاً ، بما أرضوه به بما خرجوا منه .

(6/527)

ولما كان التقدير : فإن الله لشكور حميد ، وكان من المعلوم قطعاً أنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره وإن اجتهد ، لأن الإنسان محل الخطأ والنسيان ، فلو أوخذ بذلك هلك ، وكان ربما ظن ظان أنه لو علم ما قصروا فيه لغضب عليهم ، عطف على ما قدرته قوله : ﴿ وإن الله ﴾ أي الذي عمت رحمته وتمت عظمته ﴿ لعليم ﴾ أي بمقاصدهم وما علموا مما يرضيه وغيره ﴿ حليم ﴾ عما قصروا فيه من طاعته ، وما فرطوا في جنبه سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 166 ـ 168 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ للَّهِ ﴾ فمن أقوى ما يدل على أن اليوم العقيم هو ذلك اليوم وأراد بذلك أنه لا مالك في ذلك اليوم سواه فهو بخلاف أيام الدنيا التي ملك الله الأمور غيره ، وبين أنه الحاكم بينهم لا حاكم سواه وذلك زجر عن معصيته ثم بين كيف يحكم بينهم ، وأنه يصير المؤمنين إلى جنات النعيم ، والكافرين في العذاب المهين ، وقد تقدم وصف الجنة والنار فإن قيل التنوين في يومئذ عن أي جملة ينوب ؟ قلنا تقديره : الملك يوم يؤمنون أو يوم تزول مريتهم لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مّنْهُ حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أن الملك له يوم القيامة وأنه يحكم بينهم ويدخل المؤمنين الجنات أتبعه بذكر وعده الكريم للمهاجرين ، وأفردهم بالذكر تفخيماً لشأنهم فقال عز من قائل ﴿ والذين هاجروا ﴾ واختلفوا فيمن أريد بذلك ، فقال بعضهم من هاجر إلى المدينة طالباً لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقرباً إلى الله تعالى ، وقال آخرون بل المراد من

جاهد فخرج مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو في سراياه لنصرة الدين ولذلك ذكر القتل بعده ، ومنهم من حمله على الأمرين .

واختلفوا من وجه آخر فقال قوم المراد قوم مخصوصون ، روى مجاهد أنها نزلت في طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم ، وظاهر الكلام للعموم .

ثم إنه سبحانه وتعالى وصفهم برزقهم ومسكنهم ، أما الرزق فقوله تعالى : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

لا شبهة في أن الرزق الحسن هو نعيم الجنة ، وقال الأصم إنه العلم والفهم كقول شعيب عليه السلام ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ [هود : 88] فهذا في الدنيا وفي الآخرة الجنة ، وقال الكلبي رزقاً حسناً حلالاً وهو الغنيمة وهذان الوجهان ضعيفان ، لأنه تعالى جعله جزاء على هجرتهم في سبيل الله بعد القتل والموت وبعدهما لا يكون إلا نعيم الجنة .

المسألة الثانية :

لا بد من شرط اجتناب الكبائر في كل وعد في القرآن لأن هذا المهاجر لو ارتكب كبيرة

لكان حكمه في المشيئة على قولنا ، ولخرج عن أن يكون أهلاً للجنة قطعاً على قول المعتزلة .

فإن قيل فما فضله على سائر المؤمنين في الوعد إن كان كما قلتم ؟ قلنا فضلهم يظهر لأن ثوابهم أعظم وقد قال تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح وقاتل ﴾ [الحديد : 10] فمعلوم أن من هاجر مع الرسول صلى الله عليه وسلم وفارق دياره وأهله لتقويته ونصرة دينه مع شدة قوة الكفار وظهور صولتهم صار فعله كالسبب لقوة الدين ، وعلى هذا الوجه عظم محل الأنصار حتى صار ذكرهم والثناء عليهم تالياً لذكر المهاجرين لما آووه ونصروه .

المسألة الثالثة :

(9/527)

اختلفوا في معنى قوله : ﴿ وَإِنَّ الله لَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾ مع العلم بأن كل الرزق من عنده على وجوه : أحدها : التفاوت إنما كان بسبب أنه سبحانه مختص بأن يرزق ما لا يقدر عليه غيره وثانيها : أن يكون المراد أنه الأصل في الرزق ، وغيره إنما يرزق بما تقدم من الرزق من جهة الله تعالى وثالثها : أن غيره ينقل الرزق من يده إلى يد غيره لا أنه يفعل نفس الرزق

ورابعها : أن غيره إذا رزق فإنما يرزق لانتفاعه به ، إما لأجل أن يخرج عن الواجب ، وإما لأجل أن يستحق به حمداً أو ثناء ، وإما لأجل دفع الرقة الجنسية ، فكان الواحد منا إذا رزق فقد طلب العوض ، أما الحق سبحانه فإن كماله صفة ذاتية له فلا يستفيد من شيء كمالاً زائداً فكان الرزق الصادر منه لمحض الإحسان وخامسها : أن غيره إنما يرزق لو حصل في قلبه إرادة ذلك الفعل ، وتلك الإرادة من الله ، فالرازق في الحقيقة هو الله تعالى وسادسها : أن المرزوق يكون تحت منة الرازق ومنة الله تعالى أسهل تحملاً من منة الغير ، فكان هو خير الرازقين وسابعها : أن الغير إذا رزق فلولا أن الله تعالى أعطى ذلك الإنسان أنواع الحواس وأعطاه السلامة والصحة والقدرة على الانتفاع بذلك الرزق لما أمكنه الانتفاع به ، ورزق الغير لا بد وأن يكون مسبوقاً برزق الله وملحوقاً به حتى يحصل الانتفاع .

وأما رزق الله تعالى فإنه لا حاجة به إلى رزق غيره ، فثبت أنه سبحانه خير الرازقين .

المسألة الرابعة :

قالت المعتزلة الآية تدل على أمور ثلاثة : أحدها : أن الله تعالى قادر وثانيها : أن غير الله يصح منه أن يرزق ويملك ، ولولا كونه قادراً فاعلاً لما صح ذلك وثالثها : أن الرزق لا يكون إلا حلالاً لأن قوله ﴿ خَيْرُ الرازقين ﴾ دلالة على كونهم ممدوحين والجواب : لا نزاع في كون العبد قادراً ، فإن عندنا القدرة مع الداعي مؤثرة في الفعل بمعنى الاستلزام .

وأما الثالث فبحث لفظي وقد سبق الكلام فيه .

المسألة الخامسة :

(10/527)

لما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قُتِلُواْ أَوْ مَاتُواْ ﴾ فسوى بينهما في الوعد ، ظن قوم أن حال المقتول في الجهاد والميت على فراشه سواء ، وهذا إن أخذوه من الظاهر فلا دلالة فيه ، لأن الجمع بينهما في الوعد لا يدل على تفضيل ولا تسوية ، كما أن الجمع بين المؤمنين لا يدل على ذلك . وإن أخذوه من دليل آخر فهو حق ، فإنه روى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " المقتول في سبيل الله تعالى ، والمتوفى في سبيل الله بغير قتل ، هما في الخير والأجر شريكان " ولفظ الشركة مشعر بالتسوية ، وإلا فلا يبقى لتخصيصهما بالذكر فائدة .

وروى أيضاً : أن طوائف من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا ، فما لنا إن متنا معك .

فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين وهذا يدل على التسوية لأنهم لما طلبوا مقدار الأجر ، فلولا التسوية لم يكن الجواب مفيداً .

أما المسكن فقوله تعالى : ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء مدخلاً بضم الميم وهو من الإدخال ، ومن قرأ بالفتح فالمراد الموضع .

المسألة الثانية :

قيل في المدخل الذي يرضونه إنه خيمة من درة بيضاء لا فصم فيها ولا وصم لها سبعون ألف مصراع ، وقال أبو القاسم القشيري هو أن يدخلهم الجنة من غير مكروه تقدم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إنما قال يرضونه ، لأنهم يرون في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر فيرضونه ولا يبغون عنها حولاً ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ ومساكن تَرْضَوْنَهَا ﴾ [التوبة : 24] وقوله : ﴿ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] وقوله : ﴿ ارجعي إلى ربّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : 28] وقوله : ﴿ ومساكن طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ورضوان مّنَ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : 72] .

المسألة الثالثة :

إن قيل ما معنى ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ وما تعلقه بما تقدم ؟ قلنا يحتمل أنه عليم بما يستحقونه فيفعله بهم ويزيدهم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه عليم بما يرضونه فيعطيهم ذلك في الجنة ، وأما الحليم فالمراد أنه لحلمه لا يعجل بالعقوبة فيمن يقدم على المعصية ، بل يمهل ليقع منه التوبة فيستحق منه الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 49 . 52 ﴾

(12/527)

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿ الملك يومئذ لله ﴾ ، السابق منه أنه في يوم القيامة من حيث لا ملك فيه لأحد من ملوك الدنيا ، ويجوز أن يريد به يوم بدر ونحوه من حيث ينفذ فيه قضاء الله وحده ويبطل ما سواه ويمضي حكمه فيمن أراد تعذيبه ، فأما من تأوله في يوم القيامة فاتسق له قوله ﴿ فالذين آمنوا ﴾ إلى قوله ﴿ مهين ﴾ ، ومن تأوله في يوم بدر ونحوه جعل قوله ﴿ فالذين آمنوا ﴾ ، ابتداء خبر عن حالهم المتركبة على حالهم في ذلك اليوم العقيم من الإيمان والكفر . وقوله ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ﴾ الآية ابتداء معنى آخر وذلك أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس : من قتل من

المهاجرين أفضل ممن مات حتف أنفة فنزلت هذه الآية مسوية بينهم في أن الله تعالى يرزق جميعهم ﴿ رزقاً حسناً ﴾ وليس هذا بقاض بتساويهم في الفضل ، وظاهر الشريعة أن المقتول أفضل ، وقال بعض الناس : المقتول والميت في سبيل الله شهيدان ، ولكن للمقتول مزية ما أصابه في ذات الله ، و" الرزق الحسن " ، يحتمل أن يريد به رزق الشهداء عند ربهم في البرزخ ويحتمل أن يريد بعد يوم القيامة في الجنة ، وقرأت فرقة ، " مُدخلاً " ، بضم الميم من أدخل فهو محمول على الفعل المذكور ، وقرأت فرقة " مَدخلاً " بفتح الميم من دخل فهو محمول على فعل مقدر تقديره فيدخلون مدخلاً ، وأسند الطبري عن سلامان بن عامر قال : كان فضالة برودس أميراً على الأرباع فخرج بجنازتي رجلين أحدهما قتيل والآخر متوفى فرأى ميل الناس على جنازة القتيل ، فقال : أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل وتفضلونه فوالذي نفسي بيده ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت اقرؤوا قول الله تعالى ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ﴾ الآية ، إلى قوله ﴿ حليم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(13/527)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ المُلْكُ يومئذ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ لله ﴾ من غير منازع ولا مدَّع ﴿ يحكُم بينهم ﴾ أي : بين المسلمين والمشركين ؛ وحكمه بينهم بما ذكره في تمام الآية وما بعدها .

ثم ذكر فضل المهاجرين فقال : ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ﴾ أي : من مكة إِلى المدينة .

وفي الرزق الحسن قولان .

أحدهما : أنه الحلال ، قاله ابن عباس .

والثاني : رزق الجنة ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ ثم قُتِلوا أو ماتوا ﴾ وقرأ ابن عامر : "قُتِّلوا" بالتشديد .

قوله تعالى : ﴿ لَيُدْخِلَنَّهم مُدْخَلاً ﴾ [وقرأ نافع بفتح الميم] ﴿ يرضونه ﴾ يعني : الجنة .

والمدخل يجوز أن يكون مصدرا ، فيكون المعنى : ليدخلنهم إدخالاً يكرمون به فيرضونه ؛ ويجوز أن يكون بمعنى المكان .

و"مَدخلاً" بفتح الميم على تقدير : فيدخلون مدخلاً .

﴿ وإن الله لعليم ﴾ بنيّاتهم ﴿ حليم ﴾ عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(14/527)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ للَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾

يعني يوم القيامة هو لله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع .

والملك هو اتساع المقدور لمن له تدبير الأمور .

ثم بيّن حكمه فقال : ﴿ فالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِي جَنَّاتِ النعيم والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فأولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

قلت : وقد يحتمل أن تكون الإشارة ب"يومئذٍ" ليوم بَدْر ، وقد حكم فيه بإهلاك الكافر وسعادة المؤمن ؛ وقد " قال عليه السلام لعمر "وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم" "

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾

أفرد ذكر المهاجرين الذين ماتوا وقُتلوا تفضيلاً لهم وتشريفاً على سائر الموتى .

وسبب نزول هذه الآية أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مَظْعُون وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس : من قُتل في سبيل الله أفضل مُمن مات حَتْف أنفه ؛ فنزلت هذه الآية مُسَوِّيةً بينهم ، وأن الله يرزق جميعهم رزقاً حسناً .

وظاهر الشريعة يدل على أن المقتول أفضل .

وقد قال بعض أهل العلم : إن المقتول في سبيل الله والميتَ في سبيل الله شهيد ؛ ولكن للمقتول مَزِيّة ما أصابه في ذات الله .

(15/527)

وقال بعضهم : هما سواء ؛ واحتج بالآية ، وبقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموت فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ [النساء : 100] ، وبحديث أمّ حَرام ؛ فإنها صُرعت عن دابتها فماتت ولم تُقتل فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أنت من الأوّلين " ، وبقول النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث عبد الله بن عَتيك : " من خرج من بيته مهاجراً في سبيل الله فخرّ عن دابته فمات أو لدغته حية فمات أو مات حَتْفَ أنفه فقد وقع أجره على الله ومن مات قَعْصاً فقد استوجب المآب " وذكر ابن المبارك عن فضالة بن عبيد في حديث ذكر فيه رجلين أحدهما أصيب في غَزاة بِمَنْجَنيق

فمات والآخر مات هناك ؛ فجلس فضالة عند الميت فقيل له : تركت الشهيد ولم تجلس عنده ؟ فقال : ما أبالي من أيّ حفرتيهما بُعثت ؛ ثم تلا قوله تعالى : ﴿ والذين هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ قتلوا أَوْ مَاتُواْ ﴾ الآية كلها .

وقال سليمان بن عامر : كان فضالة برُودس أميراً على الأرباع فخرِج بجنازتي رجلين أحدهما قتيل والآخر متوَفّى ؛ فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل إلى حفرته ؛ فقال : أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل ! فوالذي نفسي بيده ما أبالي من أيّ حفرتيهما بُعثت ، اِقرءوا قوله تعالى : ﴿ والذين هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ قتلوا أَوْ مَاتُواْ ﴾ .

كذا ذكره الثعلبي في تفسيره ، وهو معنى ما ذكره ابن المبارك .

واحتج من قال : إن للمقتول زيادةَ فضل بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنه سئل : أيّ الجهاد أفضل ؟ قال : "من أُهْرِيق دمُه وعُقر جوادُه" " وإذا كان من أهريق دمه وعُقر جواده أفضلَ الشهداء عُلم أنه من لم يكن بتلك الصفة مفضول .

قرأ ابن عامر وأهل الشام "قُتّلوا" بالتشديد على التكثير .

الباقون بالتخفيف .

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ ﴾ أي الجِنان .

قراءة أهل المدينة "مَدخلا" بفتح الميم ؛ أي دخولاً .

وضمها الباقون ، وقد مضى في "سبحان" .

﴿ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ قال ابن عباس : عليم بنياتهم ، حليم عن عقابهم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(17/527)

وقال أبو حيان :

﴿ الملك يَوْمَئِذٍ للَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾

والتنوين في ﴿ يومئذ ﴾ تنوين العوض ، والجملة المعوض منها هذا التنوين هو الذي حذف بعد الغاية أي ﴿ الملك ﴾ يوم تزول مريتهم وقدره الزمخشري أولاً يوم يؤمنون وهو لازم لزوال المرية ، فإنه إذا زالت المرية آمنوا ، وقدر ثانياً كما قدرنا وهو الأولى .

والظاهر أن هذا اليوم هو يوم القيامة من حيث أنه لا ملك فيه لأحد من ملوك الدنيا كما قال تعالى ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ ويساعد هذا التقسيم بعده ، ومن قال إنه يوم بدر ونحوه فمن حيث ينفذ قضاء الله وحده ويبطل ما سواه ويمضي حكمه فيمن أراد تعذيبه ، ويكون

التقسيم إخباراً متركباً على حالهم في ذلك اليوم العقيم من الإيمان والكفر وألفاظ التقسيم ومعانيها واضحة لا تحتاج إلى شرح.

وقابل النعيم بالعذاب ووصفه بالمهين مبالغة فيه.

﴿ والذين هاجروا ﴾ الآية هذا ابتداء معنى آخر، وذلك أنه لما مات عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس: من قتل من المهاجرين أفضل ممن مات حتف أنفه، فنزلت مسوِّية بينهم في أن الله يرزقهم ﴿ رزقاً حسناً ﴾ وظاهر ﴿ والذين هاجروا ﴾ العموم.

وقال مجاهد: نزلت في طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون وقاتلوهم.

وروي أن طوائف من الصحابة قالوا: يا نبيّ الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا إن متنا معك؟ فأنزل الله هاتين الآيتين.

وقال الزمخشري: لما جمعتهم المهاجرة في سبيل الله سوّى بينهم في الموعد أن يعطى من مات منهم مثل ما يعطى من قتل فضلاً منه وإحساناً والله عليم بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم، حليم عن تفريط المفرط منهم بفضله وكرمه انتهى.

(18/527)

وفي قوله : ومراتب استحقاقهم دسيسة الاعتزال ، والتسوية في الوعد بالرزق لا تدل على تفضيل في قدر المعطى ، ولا تسوية فإن يكن تفضيل فمن دليل آخر وظاهر الشريعة أن المقتول أفضل .

وقيل : المقتول والميت في سبيل الله شهيدان .

والرزق الحسن يحتمل أن يراد به رزق الشهداء في البرزخ ، ويحتمل أنه بعد يوم القيامة في الجنة وهو النعيم فيها .

وقال الكلبي : هو الغنيمة .

وقال الأصلم : هو العلم والفهم كقول شعيب ﴿ ورزقني منه رزقاً حسناً ﴾ وضعف هذان القولان لأنه تعالى جعل الرزق الحسن جزاء على قتلهم في سبيل الله أو موتهم بعد هجرتهم ، وبعد ذلك لا يكون الرزق في الدنيا .

والظاهر أن ﴿ خير الرازقين ﴾ أفعل تفضيل ، والتفاوت أنه تعالى مختص بأن يرزق بما لا يقدر عليه غيره تعالى ، وبأنه الأصل في الرزق وغيره إنما يرزق بماله من الرزق من جهة الله .

ولما ذكر الرزق ذكر المسكن فقال ﴿ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ﴾ وهو الجنة يرضونه يختارونه إذ فيه رضاهم كما قال ﴿ لا يبغون عنها حولاً ﴾ وتقدم الخلاف في القراءة بضم

الميم أو فتحها في النساء ، والأولى أن يكون يراد بالمدخل مكان الدخول أو مكان الإدخال ، ويحتمل أن يكون مصدراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(19/527)

وقال أبو السعود :

﴿ الملك ﴾ أي السُّلطانُ القاهرُ والاستيلاء التَّامُّ والتَّصرُّفُ على الإطلاقِ ﴿ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ وحدَه بلا شريكٍ أصلاً بحيث لا يكونُ فيه لأحدٍ تصرُّفٌ من التَّصرُّفاتِ في أمرٍ من الأمورِ لا حقيقةً ولا مجازاً ولا صورةً ولا معنى كما في الدُّنيا فإنَّ للبعضِ فيها تصرُّفاً صُورياً في الجملة وليس التَّنوينُ نائباً عمَّا تدلُّ عليه الغايةُ من زوالِ مريتهم كما قيل ولا عمَّا يستلزمه ذلك من إيمانهم كما قيل لما أنَّ القيدَ المعتبر مع اليَومِ حيث وُسِّط بين طرفَيْ الجملة يجب أنْ يكون مداراً لحكمها أعني كون الملكِ لله عزَّ وجلَّ وما يتفرَّعُ عليه من الإثابة والتَّعذيبِ ولا ريبَ في أنَّ إيمانَهم أو زوالَ مريتهم ليس ممَّا له تعلُّقٌ بما ذُكر فضلاً عن المداريةِ له فلا سبيل إلى اعتبارِ شيءٍ منهما مع اليَومِ قطعاً وإنَّما الذي يدورُ عليه ما ذُكر إتيانُ السَّاعةِ التي هي مُنتهى تصرُّفاتِ الخلق ومبدأُ ظهور أحكام المَلك الحقِّ جلَّ جلالُه فإذن هو نائبٌ عن نفس الجملة الواقعة غايةً لمريتهم فالمعنى : الملكُ يوم إذْ تأتيهم السَّاعةُ أو عذابُها لله تعالى . وقولُه

تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ جملةٌ مستأنفة وقعت جواباً عن سؤال نشأَ من الأخبار بكونِ الملكِ يومئذٍ لله كأنَّه قيل : فماذا يُصنع بهم حينئذٍ ؟ فقيل : يحكم بين فريقِ المؤمنينَ به والمُمارينَ فيه بالمجازاةِ . وقوله تعالى : ﴿ فالذين ءامَنُواْ ﴾ الخ ، تفسير للحُكم المذكور وتفصيلٌ له أي فالذين آمنُوا بالقرآن الكريم ولم يُماروا فيه ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ امتثالاً بما أُمروا في تضاعيفِه ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ أي مستقرُّون فيها .

(20/527)

﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ أي أصرُّوا على ذلك واستمرُّوا ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ باعتبار اتّصافِه بما في حيّز الصّلةِ من الكفر والتَّكذيبِ وما فيه من معنى البُعد للإيذانِ ببعد منزلتهم في الشَّرّ والفساد أي أولئك الموصُوفون بما ذُكر من الكفر والتَّكذيبِ وهو مبتدأٌ وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابَ ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ من مبتدأ وخبرٍ مقدَّمٍ عليه وقعت خبر لأولئك أو لهم خبرٌ لأولئك وعذابٌ مرتفعٌ على الفاعلية بالاستقرارِ في الجارّ والمجرور لاعتمادِه على المبتدأ وأولئك مع خبرِه على الوجهينِ خبرٌ للموصولِ وتصديرُه بالفاء للدّلالةِ على أنَّ تعذيب الكفَّارِ بسبب أعمالِهم السَّيئةِ كما أنَّ تجريدَ خبرِ الموصول الأوَّل عنها للإيذانِ بأنَّ إثابة المؤمنينَ بطريق التَّفضُّلِ لا لإيجاب الأعمال الصَّالحةِ إيَّاها . وقولُه تعالى :

﴿ مُّهِينٌ ﴾ صفة لعذابٌ مؤكّدة لما أفاده التَّنوينُ من الفخامةِ وفيه من المبالغةِ من وجوهٍ شتَّى ما لا يخفى .

(21/527)

﴿ والذين هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ أي في الجهادِ حسبما يلوحُ به قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قُتِلُواْ أَوْ مَاتُواْ ﴾ أي في تضاعيف المُهاجرة . ومحلُّ الموصول الرَّفعُ على الابتداء وقوله تعالى : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله ﴾ جواب لقسم محذوفٍ والجملةُ خبرُه ومن منع وقوعَ الجملةِ القسميَّةِ وجوابِها خبراً للمبتدأ يُضمر قولاً هو الخبرُ والجملةُ محكمية .

وقوله تعالى : ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ إمَّا مفعول ثانٍ على أنَّه من باب الرَّعي والذَّبحِ أي مَرزوقاً حسناً أو مصدرٌ مؤكّد والمراد به ما لا ينقطعُ أبداً من نعيمِ الجنَّةِ وإنَّما سوى بينهما في الوعدِ لاستوائهما في القصد . وأصلُ العمل على أن مراتبَ الحُسنِ متفاوتةٌ فيجوزُ تفاوتُ حال المرزوقينَ حسب تفاوت الأرزاقِ الحسنةِ . ورُوي أنَّ بعضَ أصحابِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ قالوا : يا نبيَّ الله هؤلاءِ الذين قُتلوا في سبيلِ الله قد علمنا ما أعطاهُم الله تعالى من الخيرِ ونحنُ نجاهد معك كما جاهدُوا فما لنا إنْ مُتنا معك فنزلتْ . وقيل : نزلتْ في طوائفَ خرجُوا من مكَّةَ إلى المدينةِ للهجرةِ فتبعهم المشركونَ فقاتلُوهم ﴿ وَإِنَّ الله لَهُوَ خَيْرُ الرزقين

﴿ فإنَّه يرزق بغير حسابٍ مع أنَّ ما يرزقه لا يقدِرُ عليه أحدٌ غيرُه والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقررٌ لما قبله وقوله تعالى : ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ ﴾ بدلٌ من قوله تعالى : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله ﴾ أو استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمونه . ومُدخلاً إمَّا اسمُ مكانٍ أُريد به الجنَّة فهو مفعول ثانٍ للإدخال أو مصدرٌ ميميٌّ أُكِّد به فعلُه . قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما : إنَّما قيل يَرضونه لما أنَّهم فيها يَرون ما لا عينٌ رأتْ لا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَر على قلبِ بشرٍ فيرضونه ﴿ وَإِنَّ الله لَعَلِيمٌ ﴾ بأحوالِهم وأحوالِ معاديهم ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يُعاجلهم بالعقوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(22/527)

وقال الآلوسى :

﴿ الملك ﴾ أي السلطان القاهر والاستيلاء التام والتصرف على الإطلاق ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذا تأتيهم الساعة أو عذابها ؛ وقيل أي يوم إذ تزول مريتهم وليس بذلك ، ومثله ما قيل أي يوم إذ يؤمنون ﴿ لِلَّهِ ﴾ وحده بلا شريك أصلاً بحيث لا يكون فيه لأحد تصرف من التصرفات في أمر من الأمور لا حقيقة ولا مجاز أو لا صورة ولا معنى كما في الدنيا فإن للبعض فيها تصرفاً صورياً في الجملة والتنوين في إذ عوض عن المضاف إليه ، وإضافة يوم إليه

من إضافة العام إلى الخاص وهو متعلق بالاستقرار الواقع خبراً ، وقوله سبحانه : ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ جملة مستأنفة وقعت جواب سؤال نشأ من الاخبار بكون الملك يومئذ لله ، وضمير الجمع للفريقين المؤمنين ولكافرين لذكرهما أولاً واشتمال التفصيل عليهما آخراً ، نعم ذكر الكافرين قبيلة ربما يوهم تخصيصه بهم كأنه قيل : فماذا يصنع سبحانه بالفريقين حينئذ ؟ فقيل : يحكم بينهم بالمجازاة ، وجوز أن تكون حالاً من الاسم الجليل ﴿ فالذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ وهم الذين لا مرية لهم فيما أشير إليه سابقاً كيفما كان متعلق الايمان ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ أي مستقرون في جنات مشتملة على النعم الكثيرة .

﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ وهم الذين لا يزالون في مرية من ذلك ، وفي متعلق الكفر احتمالات كاحتمالات متعلق الايمان وزيادة وهي احتمال أن يكون متعلقه الآيات ، والظاهر أن المراد بها الآيات التنزيلية ، وجوز أن يراد بها الأدلة وأن يراد بها الأعم ويتحصل مما ذكر خمسة عشر احتمالاً في الآية ، ولعل أولاها ما قرب به العطف إلى التأسيس فتأمل ، والموصول مبتدأ أول وقوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ مبتدأ ثان وهو إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد المنزلة في الشر والفساد .

(23/527)

وقوله سبحانه : ﴿ لَهُمْ عَذَابَ ﴾ جملة اسمية من مبتدأ وخبر مقدم عليه وقعت خبراً للمبتدأ الثاني أو ﴿ لَهُمْ ﴾ خبر له و﴿ عَذَابِ ﴾ مرتفع على الفاعلية بالاستقرار في الجار والمجرور لاعتماد على المبتدا وجملة المبتدا الثاني وخبره خبر للمبتدا الأول ، وتصديره بالفاء قيل للدلالة على أن تعذيب الكفار بسبب قبائحهم ولذا جيء بأولئك . وقيل لهم عذاب بلام الاستحقاق وكان الظاهر في عذاب كما قيل ﴿ فِي جنات ﴾ [الحج : 56] وجعل تجريد خبر الموصول الأول عنها للإيذان بأن إثابة المؤمنين بطريق التفضل لا لإيجاب محاسنهم إياها ، ولا ينافي ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين : 6] ونحوه لأنها بمقتضى وعده تعالى على الإثابة عليها قد تجعل سبباً ، وقيل جيء بالفاء لأن الكلام لخروجه مخرج التفصيل بتقدير أما فكأنه قيل : فأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك الخ وليس بشيء لأن ذلك يقتضي تقدير أما في قوله تعالى : ﴿ فالذين ءامَنُواْ ﴾ [الحج : 56] الخ ولا يتسنى فيه لعدم الفاء في الخبر وقوله تعالى : ﴿ مُّهِينٌ ﴾ صفة لعذاب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة ، ولم يتعرض لوصف هؤلاء الكفرة بعمل السيئات كما تعرض لوصف المؤمنين بعمل الصالحات قيل لظهور عدم اتصافهم بغيره أعني العمل الصالح الذي شرعه الله تعالى على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام بعد كفرهم وتكذيبهم بالآيات ، وقيل مبالغة في تهويل أمر الكفر حيث أخبر سبحانه أنه للمتصف به

دون عمل السيئات عذاباً مهيناً ولو تعرض لذلك لأفاد أن ذلك العذاب للمتصف بالمجموع فيضعف التهويل ، والقول بأن المراد من التكذيب بالآيات عمل السيئات أو في الكلام صنعة الاحتباك والأصل فالذين آمنوا وصدقوا بآياتنا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا وعملوا السيئات فأولئك لهم عذاب مهين خلاف الظاهر كما لا يخفى .

(24/527)

﴿ والذين هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ أي في الجهاد حسبما يلوح به قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قُتِلُواْ أَوْ مَاتُواْ ﴾ أي في تضاعيف المهاجرة .

وقرأ ابن عامر ﴿ قاتلوا ﴾ بالتشديد ، ومحل الموصول الرفع على الابتداء ، وقوله تعالى : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله ﴾ جواب لقسم محذوف والجملة خبره على الأصح من جواز وقوع القسم وجوابه خبراً ، ومن منع أضمر قولاً هو الخبر والجملة محكية به ، وقوله سبحانه : ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أما مفعول ثان ليرزق على أنه من باب النقض والذبح أي مرزوقاً حسناً أو مصدر مبين للنوع ، والمراد به عند بعض ما يكون للشهداء في البرزخ من الرزق ، ويؤيده ما أخرجه ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من مات مرابطاً أجرى عليه الرزق وأمن من الفتانين " واقرؤا إن شئتم ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ حليم ﴾ [الحج : 58-59] وقد نص سبحانه في آية أخرى على أن الذين يقتلون في سبيل الله تعالى أحيا عند ربهم يرزقون وليس ذلك في تلك الآية إلا في البرزخ وقال آخرون : المراد به ما لا ينقطع أبداً من نعيم الجنة .

ورد بأن ذلك لا اختصاص له بمن هاجر في سبيل الله ثم قتل أو مات بل يكون للمؤمنين كلهم .

وتعقب بأن عدم الاختصاص ممنوع فإن تنكير ﴿ رِزْقاً ﴾ يجوز أن يكون للتنويع ويختص ذلك النوع بأولئك المهاجرين ، وقيل المراد تشريفهم وتبشيرهم بهذا الوعد الصادر ممن لا يخلف الميعاد المقترن بالتأكيد القسمي ويكفي ذلك في تفضيلهم على سائر المؤمنين كما في المبشرين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم وفيه نظر .

(25/527)

وقال الكلبي : هو الغنيمة ، وقال الأصم : هو العلم والفهم كقول شعيب عليه السلام : ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ [هود : 88] ويرد عليهما أنه تعالى جعل هذا الرزق جزاء على قتلهم أو وتهم في تضاعيف المهاجرة في سبيل الله تعالى فلا يصح أن يكون في الدنيا ولعل قائل ذلك يقول : إنه في الآخرة وفيها تتفاوت مراتب العلم أيضاً

وظاهر الآية على ما قيل : استواء من قتل ومن مات مهاجراً في سبيل الله تعالى في الرتبة وبه أخذ بعضهم .

وذكر أنه لما مات عثمان بن مظعون .

وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس : من قتل من المهاجرين أفضل ممن مات حتف أنفه فنزلت الآية مسوية بينهم .

وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصاري الصحابي أنه كان بموضع فمروا بجنازتين إحداهما قتيل والأخرى متوفى فمال الناس على القتيل في سبيل الله تعالى فقال : والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت اسمعوا كتاب الله تعالى فقال : ﴿ والذين هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ الله ثُمَّ قُتِلُواْ أَوْ مَاتُواْ ﴾ الآية .

ويؤذ ذلك بما روى عن أنس قال : قال صلى الله عليه وسلم : " المقتول في سبيل الله تعالى والمتوفى في سبيل الله تعالى بغير قتل هما في الأجر شريكان " فإن ظاهر الشركة يشعر بالتسوية ، وظاهر القول بالتسوية أن المتوفى مهاجراً في سبيل الله تعالى شهيداً كالقتيل وبه صرح بعضهم ، وفي البحر أن التسوية في الوعد بالرزق الحسن لا تدل على تفضيل في المعطى ولا تسوية فإن يكن تفضيل فمن دليل آخر ، وظاهر الشريعة أن المقتول أفضل انتهى ، وما تقدم في سبيل النزول غير مجمع عليه ، فقد روى أن طوائف من الصحابة رضي الله تعالى عنهم قالوا : يا نبي الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك فنزلت ، واستدل بعضهم بهذا أيضاً على التسوية ، وقال مجاهد : نزلت في طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة لهجرة فتبعهم المشركون وقاتلوهم ، وعلى هذا القول ليس المراد من المهاجرة في سبيله تعالى المهاجرة في الجهاد ، وأياً ما كان فهذا ابتداء كلام غير داخل في حيز التفصيل .

ويوهم ظاهر كلام بعضهم الدخول وأنه تعالى أفراد المهاجرين بالذكر مع دخولهم دخولاً أولياً في ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [الحج : 56] تفخيماً لشأنهم وهو كما ترى ، ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرزقين ﴾ فإنه جل وعلا يرزق بغير حساب مع أن ما يرزقه قد لا يقدر عليه أحد غيره سبحانه وأن غيره تعالى إنما يرزق مما رزقه هو جل شأنه .

واستدل بذلك على أنه قد يقال لغيره تعالى رازق والمراد به معطى ، والأولى عندي أن لا يطلق رازق على غيره تعالى وأن لا يتجاوز عما ورد .

وأما إسناد الفعل إلى غيره تعالى كرزق الأمير الجندي وأرزق فلاناً من كذا فهو أهون من إطلاق رازق ولعله مما لا بأس به ، وصرح الراغب بأن الرزاق لا يقال إلا لله تعالى ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله .

(27/527)

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ ﴾ استئناف مقرر لمضمون قوله سبحانه : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله ﴾ [الحج : 58] أو بدل منه مقصود منه تأكيده .

و ﴿ مُّدْخَلاً ﴾ إما اسم مكان أريد به الجنة كما قال السدي وغيره أو درجات فيها مخصوصة بأولئك المهاجرين كما قيل ، وقيل هو خيمة من درة بيضاء لا فصم فيها ولا وصم لها سبعون ألف مصراع ، أو مصدر ميمي ، وهو على الاحتمال الأول مفعول ثان للإدخال وعلى الثاني مفعول مطلق ، ووصفه بيرضونه على الاحتمالين لما أنهم يرون إذا أدخلوا ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بسر ، وقيل على الثاني : إن رضاهم لما أن إدخالهم من غير مشقة تنالهم بل براحة واحترام .

وقرأ أهل المدينة ﴿ مُّدْخَلاً ﴾ بالفتح والباقون بالضم ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ ﴾ بالذي يرضيهم فيعطيهم إياه أو لعليم بأحوالهم وأحوال أعدائهم الذين هاجروا لجهادهم ﴿ حَلِيمٌ ﴾ فلا يعاجل أعداءهم بالعقوبة ، وبهذا يظهر مناسبة هذا الوصف لما قبله وفيه أيضاً مناسبة لما بعد ﴿ ذلك ﴾ قد حقق أمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(28/527)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾

قوله : ﴿ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ قيل : الرسول : الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عياناً ومحاورته شفاهاً ، والنبيّ : الذي تكون [نبوته] إلهاماً أو مناماً .

وقيل : الرسول من بعث بشرع وأمر بتبليغه ، والنبيّ : من أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله ، ولم ينزل عليه كتاب ، ولا بدّ لهما جميعاً من المعجزة الظاهرة ﴿ إِلَّا إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ معنى تمنى : تشهى وهيأ في نفسه ما يهواه .

قال الواحدي : وقال المفسرون : معنى تمنى : تلا .

قال جماعة المفسرين في سبب نزول هذه الآية : أنه صلى الله عليه وسلم لما شقّ عليه إعراض قومه عنه تمنّى في نفسه أن لا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه لحرصه على إيمانهم ، فكان ذات يوم جالساً في نادٍ من أنديتهم وقد نزل عليه سورة ﴿ والنجم إذَا هوى ﴾ [النجم : 1] .

فأخذ يقرؤها عليهم حتى بلغ قوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 19 ، 20] .

وكان ذلك التمني في نفسه ، فجرى على لسانه مما ألقاه الشيطان عليه : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتها لترتجى ، فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته حتى ختم السورة ، فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي من المسلمين والمشركين ، فتفرّقت قريش مسرورين بذلك وقالوا : قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر ، فأتاه جبريل فقال : ما صنعت ؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله ، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاف خوفاً شديداً ، فأنزل الله هذه الآية ، هكذا قالوا .

(29/527)

ولم يصح شيء من هذا ، ولا ثبت بوجه من الوجوه ، ومع عدم صحته بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه ، قال الله : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة : 44 ، 46] .

وقوله : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ [النجم : 3] .

وقوله : ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ [الإسراء : 74] .

فنفى المقاربة للركون فضلاً عن الركون .

قال البزار : هذا حديث لا نعلمه يروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل .

وقال البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، ثم أخذ يتكلم أن رواة هذه القصة مطعون فيهم .

وقال إمام الأئمة ابن خزيمة : إن هذه القصة من وضع الزنادقة .

قال القاضي عياض في الشفاء : إن الأمة أجمعت فيما طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه ، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً .

قال ابن كثير : قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح .

وإذا تقرّر لك بطلان ذلك عرفت أن معنى ﴿ تمنى ﴾ : قرأ وتلا ، كما قدّمنا من حكاية

الواحدي لذلك عن المفسرين .

وكذا قال البغوي : إن أكثر المفسرين قالوا معنى ﴿ تمنى ﴾ : تلا وقرأ كتاب الله ، ومعنى ﴿ أَلْقَى الشيطان فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أي في تلاوته وقراءته .

قال ابن جرير : هذا القول أشبه بتأويل الكلام ، ويؤيد هذا ما تقدّم في تفسير قوله : ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة : 78] .

وقيل : معنى ﴿ تمنى ﴾ : حدّث ، ومعنى ﴿ أَلْقَى الشيطان فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ في حديثه ، روي هذا عن ابن عباس ، وقيل : معنى ﴿ تمنى ﴾ : قال .

(30/527)

فحاصل معنى الآية : أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك من دون أن يتكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا جرى على لسانه ، فتكون هذه الآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي لا يهولنك ذلك ولا يحزنك ، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء ، وعلى تقدير أن معنى ﴿ تمنى ﴾ : حدّث نفسه كما حكاه الفرّاء والكسائي فإنهما قالا : تمنى إذا حدّث نفسه ، فالمعنى : أنه إذا حدّث نفسه بشيء تكلم به الشيطان وألقاه في مسامع الناس من دون أن يتكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا جرى على لسانه .

قال ابن عطية : لا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة .

وقد قيل في تأويل الآية : إن المراد بالغرانيق : الملائكة ، ويردّ بقوله : ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشيطان ﴾ أي يبطله ، وشفاعة الملائكة غير باطلة ؛ وقيل : إن ذلك جرى على لسانه صلى الله عليه وسلم سهواً ونسياناً وهما مجوّزان على الأنبياء ، ويرد بأن السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز كما هو مقرّر في مواطنه ، ثم لما سلاه الله سبحانه بهذه التسلية وأنها قد وقعت لمن قبله من الرسل والأنبياء بيّن سبحانه أنه يبطل ذلك ولا يثبته ولا يستمر تغرير الشيطان به فقال : ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشيطان ﴾ أي : يبطله ويجعله ذاهباً غير ثابت ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ ءاياته ﴾ أي يثبتها ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : كثير العلم والحكمة في كل أقواله وأفعاله .

(31/527)

وجملة ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان فِتْنَةً ﴾ للتعليل ، أي ذلك الإلقاء الذي يلقيه الشيطان فتنة ، أي ضلالة ﴿ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي شكّ ونفاق ﴿ والقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ : هم المشركون ، فإن قلوبهم لا تلين للحق أبداً ولا ترجع إلى الصواب بحال ، ثم سجل سبحانه

على هاتين الطائفتين : وهما : من في قلبه مرض ، ومن في قلبه قسوة بأنهم ظالمون فقال : ﴿ وَإِنَّ الظالمين لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي عداوة شديدة ، ووصف الشقاق بالبعد مبالغة ، والموصوف به في الحقيقة من قام به .

ولما بين سبحانه أن ذلك الإلقاء كان فتنة في حقّ أهل النفاق والشكّ والشرك بيّن أنه في حقّ المؤمنين العالمين بالله العارفين به سبب لحصول العلم لهم بأن القرآن حقّ وصدق فقال : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ أي : الحقّ النازل من عنده .

وقيل : إن الضمير في ﴿ أنه ﴾ راجع إلى تمكين الشيطان من الإلقاء ، لأنه مما جرت به عادته مع أنبيائه ، ولكنه يردّ هذا قوله : ﴿ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ ﴾ فإن المراد الإيمان بالقرآن ، أي يثبتوا على الإيمان به ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي تخشع وتسكن وتنقاد ، فإن الإيمان به وإخبات القلوب له لا يمكن أن يكونا تمكين من الشيطان بل للقرآن ﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا ﴾ في أمور دينهم ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي طريق صحيح لاعوج به .

وقرأ أبو حيوة : " وإن الله لهاد الذين آمنوا " بالتنوين .

﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي في شكّ من القرآن .

وقيل : في الدين الذي يدل عليه ذكر الصراط المستقيم .

وقيل : في إلقاء الشيطان ، فيقولون : ما باله ذكر الأصنام بخير ثم رجع عن ذلك ؟ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : "في مرية" بضم الميم ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة ﴾ أي القيامة ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة ؛ لأنه لا يوم بعده ، فكان بهذا الاعتبار عقيماً ، والعقيم في اللغة من لا يكون له ولد ، ولما كانت الأيام تتوالى جعل ذلك كهيئة الولادة ، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم ، وصف بالعقم .

وقيل : يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر .

وقيل : إن اليوم وصف بالعقم ، لأنه لا رأفة فيه ولا رحمة ، فكأنه عقيم من الخير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم ﴾ [الذاريات : 41] أي التي لا خير فيها ولا تأتي بمطر .

﴿ الملك يَوْمَئِذٍ للَّهِ ﴾ أي السلطان القاهر والاستيلاء التامّ : يوم القيامة لله سبحانه وحده لا منازع له فيه ولا مدافع له عنه ، وجملة : ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ مستأنفة جواباً عن سؤال مقدّر ، ثم فسر هذا الحكم بقوله سبحانه : ﴿ فالذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِي جنات النعيم ﴾ أي كائنون فيها مستقرّون في أرضها منغمسون في نعيمها ﴿ والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ أي جمعوا بين الكفر بالله والتكذيب بآياته ﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي عذاب متصف بأنه مهين للمعذبين بالغ منهم المبلغ العظيم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف ، عن عمرو بن دينار قال : كان ابن عباس يقرأ : " وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيّ وَلاَ مُّحْدَثٍ " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مثله ، وزاد : فنسخت محدّث ، قال : والمحدّثون : صاحب ياس ولقمان ، ومؤمن آل فرعون ، وصاحب موسى .

وأخرج البزار والطبراني وابن مردويه ، والضياء في المختارة .

(33/527)

قال السيوطي : بسند رجاله ثقات ، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : " أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ، تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى " .

ففرح المشركون بذلك وقالوا : قد ذكر آلهتنا ، فجاءه جبريل فقال : اقرأ عليّ ما جئت به ، فقرأ : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ﴾ فقال : ما أتيتك بهذا ، هذا من الشيطان ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيّ إِلاَّ إِذَا تمنى ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، قال السيوطي : بسند صحيح عن سعيد بن

جبير ، قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة النجم ، فذكر نحوه ، ولم يذكر ابن عباس .

وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية والسديّ عن سعيد مرسلاً .

ورواه عبد بن حميد عن السديّ عن أبي صالح مرسلاً .

ورواه ابن أبي حاتم عن ابن شهاب مرسلاً .

وأخرج ابن جرير ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام نحوه مرسلاً أيضاً .

والحاصل : أن جميع الروايات في هذا الباب إما مرسلة أو منقطعة لا تقوم الحجة بشيء منها .

وقد أسلفنا عن الحفاظ في أوّل هذا البحث ما فيه كفاية ، وفي الباب روايات من أحبّ الوقوف على جميعها فلينظرها في الدرّ المنثور للسيوطي ، ولا يأتي التطويل بذكرها هنا بفائدة ، فقد عرّفناك أنها جميعها لا تقوم بها الحجة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ حتى إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ يقول : إذا حدّث ألقى الشيطان في حديثه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك ، قال : يعني بالتمني التلاوة والقراءة ، ألقى الشيطان في أمنيته : في تلاوته ﴿ فَيَنسَخُ الله ﴾ ينسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبيّ .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن مجاهد : ﴿ إِذَا تمنى ﴾ قال : تكلم ﴿ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ قال : كلامه .

وأخرج ابن مردويه ، والضياء في المختارة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ قال : يوم بدر .

وأخرج ابن مردويه عن أبيّ بن كعب نحوه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿ عذاب يوم عقيم ﴾ ، قال : يوم بدر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير وعكرمة مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : يوم القيامة لا ليلة له .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الضحاك مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾

آذنت الغاية التي في قوله : ﴿ حتى تأتيهم الساعة بغتة ﴾ [الحج : 55] أن ذلك وقت زوال مرية الذين كفروا ، فكان ذلك منشأ سؤال سائل عن صورة زوال المرية : وعن ماذا يلقونه عند زوالها ، فكان المقام أن يجاب السؤال بجملة ﴿ الملك يومئذ لله يحكم بينهم ﴾ إلى آخر ما فيها من التفصيل ، فهي استئناف بياني .

فقوله ﴿ يومئذ ﴾ تقدير مضافه الذي عُوّض عنه التنوين : يوم إذ تزول مريتهم بحلول الساعة وظهور أن ما وعدهم الله هو الحق ، أو يوم إذ تأتيهم الساعة بغتة .

وجملة ﴿ يحكم بينهم ﴾ اشتمال من جملة ﴿ الملك يومئذ لله ﴾ .

والحكم بينهم : الحكمُ فيما اختلفوا فيه من ادّعاء كل فريق أنه على الحق وأن ضده على الباطل ، الدال عليه قوله : ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك ﴾ [الحج : 54] وقوله : ﴿ ولا يزال الذين كفروا في مرية منه ﴾ [الحج : 55] فقد يكون الحكم بالقول ، وقد يكون بظهور آثار الحق لفريق وظهور آثار الباطل لفريق ، وقد فُصل الحكم بقوله : ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الخ ، وهو تفصيل لأثر الحكم يدلّ على تفصيل أصله ، أي ذلك حكم الله بينهم في ذلك اليوم .

وأريد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات عمومه .

وخص بالذكر منهم الذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا تنويهاً بشأن الهجرة ، ولأجلها استوى أصحابها في درجات الآخرة سواء منهم من قتل في سبيل الله أو مات في غير قتال بعد أن هاجر من دار الكفر .

والتعريف في ﴿ الملك ﴾ تعريف الجنس ، فدلّت جملة ﴿ الملك يومئذ لله ﴾ على أن ماهية الملك مقصورة يومئذ على الكون مِلكاً لله ، كما تقدم في قوله تعالى ﴿ الحمد لله ﴾ [الفاتحة : 2] أي لا ملك لغيره يومئذ .

والمقصود بالكلام هو جملة ﴿ يحكم بينهم ﴾ إذ هم البدل .

(36/527)

وإنما قدمت جملة ﴿ الملك يومئذ لله ﴾ تمهيداً لها وليقع البيان بالبدل بعد الإبهام الذي في المبدل منه .

وافتتح الخبر عن الذين كفروا باسم الإشارة في قوله ﴿ فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ للتنبيه على أنهم استحقوا العذاب المُهين لأجل ما تقدم من صفتهم بالكفر والتكذيب بالآيات .

والمُهين : المذل ، أي لهم عذاب مشتمل على ما فيه مذلتهم كالضرب بالمقامع ونحوه .

وقرن ﴿ فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ بالفاء لما تضمنه التقسيم من معنى حرف التفصيل وهو (أما) ، كأنه قيل : وأما الذين كفروا ، لأنه لما تقدم ثواب الذين آمنوا كان المقام مثيراً لسؤال من يترقب مقابلة ثواب المؤمنين بعقاب الكافرين وتلك المقابلة من مواقع حرف التفصيل .

والرزق : العطاء ، وهو كل ما يتفضّل به من أعيان ومنافع ، ووصفه بالحسن لإفادة أنه يُرضيهم بحيث لا يتطلبون غيره لأنه لا أحسن منه .

وجملة ﴿ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ﴾ بدل من جملة ﴿ ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ﴾ ، وهي بدل اشتمال ، لأن كرامة المنزل من جملة الإحسان في العطاء بل هي أبهج لدى أهل الهمم ، ولذلك وصف المدخل بـ ﴿ يرضونه ﴾ .

ووقعت جملة ﴿ وإن الله لهو خير الرازقين ﴾ معترضة بين البدل والمبدل منه ، وصريحها الثناء على الله .

وكنايتُها التعريض بأن الرزق الذي يرزقهم الله هو خير الأرزاق لصدوره من خير الرازقين .

وأكدت الجملة بحرف التوكيد ولامه وضمير الفصل تصويراً لعظمة رزق الله تعالى .

وجملة : ﴿ وإن الله لعليم حليم ﴾ تذييل ، أي عليم بما تجشموه من المشاق في شأن هجرتهم من ديارهم وأهلهم وأموالهم ، وهو حليم بهم فيما لاقَوه فهو يجازيهم بما لقُوه من أجله .

وهذه الآية تبيّن مزية المهاجرين في الإسلام .

وقرأ نافع ﴿ مَدخلاً ﴾ بفتح الميم على أنه اسم مكان من دَخل المجردِ لأن الإدخال يقتضي الدخول .

وقرأ الباقون بضم الميم جرياً على فعل ﴿ ليُدخلنّهم ﴾ المزيد وهو أيضاً اسم مكان للإدخال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(37/527)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ للَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الملك يوم القيامة له ، وإن كان الملك في الدنيا له أيضاً ، لأن في الدنيا ملوكاً من المخلوقين ، ويوم القيامة لا يكون فيه اسم الملك إلا لله جل وعلا وحده ، وما ذكره في هذه الآية الكريمة من أن الملك يوم القيامة له ، ومعلوم أن الملك هو الذي له الحكم بين الخلق بينه في غير هذا الموضع كقوله ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] وقوله : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن ﴾ [الفرقان : 26] الآية وقوله ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] وقوله تعالى ﴿ وَلَهُ الملك يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ [

الأنعام : 73] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِي جَنَّاتِ النعيم والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فأولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

إدخال الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة المذكور هنا وكون الكفار المكذبين بآيات الله لهم العذاب المهين : يتضمن تفصيل حكم الله بينهم في قوله ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ وما ذكره هنا من الوعد والوعيد قد بينا الآيات الدالة على معناه مراراً بكثرة ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية : أن المؤمنين الذين هاجروا في سبيل الله ، ثم قتلوا بأن قتلهم الكفار في الجهاد ، لأن هذا هو الأغلب في قتل من قتل منهم ، أو ماتوا على فرشهم حتف أنفهم في غير جهاد ، أنه تعالى أقسم ليرزقهم رزقاً حسناً وأنه خير الرازقين ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة مما ذكرنا جاء مبيناً في غير هذا الموضع .

(38/527)

أما الذين قتلوا في سبيل الله : فقد بين الله جل وعلا أنه يرزقهم رزقاً حسناً ، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : 169] ولا شك أن ذلك الذي يرزقهم رزق حسن ، وأما الذين ماتوا في غير قتال المذكورين في قوله هنا : أو ماتوا ، فقد قال الله فيهم ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى الله وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموت فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى الله ﴾ [النساء : 100] ولا شك أن من وقع أجره على الله : أن الله يرزقه الرزق الحسن كما لا يخفى .

والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة .

وقد ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية طرفاً منها والعلم عند الله تعالى ، وقوله تعالى في هذه الآية ﴿ ثُمَّ قتلوا ﴾ قرأه ابن عامر بتشديد التاء والباقون بتخفيفها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(39/527)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾

ولقائل أنْ يقول : أليس المُلْك لله يومئذ ، وفي كل يوم ؟ نعم ، المُلْك لله في الدنيا وفي الآخرة ،

لكن في الدنيا خلق الله خَلْقاً وملّكهم ، وجعلهم ملوكاً من باطن مُلْكه تعالى ، لكنه مُلْك لا يدوم ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخير إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : 26] .

إذن : ففي الدنيا ملوك مَلّكهم الله أمراً من الأمور ، ففيها ملك للغير ، أمّا في الآخرة فالمُلْك لله تعالى وحده : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

وفي القيامة ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ . . ﴾ [الحج : 56] فقد رَدَّ المُلْك كله إلى صاحبه ، ورُدَّت الأسباب إلى مُسبِّبها .

ومعنى ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ . . ﴾ [الحج : 56] أن هناك خصومةً بين طرفين ، أحدهما على حق ، والآخر على باطل ، والفَصْل في خصومات الدنيا تحتاج إلى شهود ، وإلى بينة ، وإلى يمين فيقولون في المحاكم : البينة على المدَّعي واليمين على مَنْ أنكر ، هذا في خصومات الدنيا ، أما خصومات الآخرة فقاضيها الحق – سبحانه وتعالى – الذي يعلم السرَّ وأخفى ، فلا يحتاج إلى بينة ولا شهود ولا سلطة تُنفِّذ ما حكم به .

محكمة الآخرة لا تحتاج فيها إلى مُحامٍ ، ولا تستطيع فيها أنْ تُدلِّس على القاضي ، أو تُوجِّر شاهد زور ، لا تستطيع في محكمة الآخرة أن تستخدم سلطتك الزمنية فتنقض الحكم ، أو

تُسقطه ؛ لأن المُلْك يومئذ لله وحدة ، والحكم يومئذ لله وحدة ، هو سبحانه القاضي والشاهد والمنفِّذ ، الذي لا يستدرك على حكمه أحد .

(40/527)

وما دام هناك حكومة ، فلا بُدَّ أن تسفر عن محكوم له ومحكوم عليه ، ويُوضِّحهما قوله تعالى : ﴿ فالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِي جَنَّاتِ النعيم ﴾ [الحج : 56] .

وهؤلاء هم الفائزون الذين جاء الحكم في صالحهم .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (57)

وهؤلاء هم الجبابرة وأصحاب السيادة في دنيا الكفر والعناد ، والذين حكم الله عليهم بالعذاب الذي يُهينهم بعد عِزَّتهم وسلطانهم في الدنيا ، وتلحظ أن العذاب يُوصَف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه عظيم ، ومرة بأنه مُهين .

فالعذاب الأليم الذي يُؤلم صاحبه ، لكنه قد يكون لفترة ثم ينتهي ، أما العذاب العظيم فهو الدائم ، والمهيمن هو الذي يُذِله ويدوس كرامته التي طالما اعتز بها . وأنت تجد الناس يختلفون في تقبُّل ألوان العذاب : فمنهم مَنْ لا يؤثر فيه الضرب الموجع ولا يحركه ، لكن تؤلمه كلمة تجرح عِزَّته وكرامته . لذلك جاء العذاب هكذا ألواناً ؛ ليستوعب كل صنوف

الملَكات النفسية ، ويواجه كُلَّ نفس بما يؤلمها .

ثم تكلم الحق سبحانه عن أمر كان لا بُدَّ أن نعرفه ، فالمسلمون الأوائل في مكة أُخرِجوا من ديارهم وأبنائهم وأموالهم لأنهم قالوا : ربنا الله ، ولا شَكَّ أن للوطن وللأهل والبيئة التي نشأ فيها المرء أثراً في ملكات نفسه ، لا يمكن أنْ يُمحَى بحال ، فإنْ غاب عنه اشتاق إليه وتمنَّى العودة ، وكما يقول الشاعر :

بَلَدِي وَإنْ جَارَتْ عليَّ عَزيزَةٌ . . . أَهْلِي وإنْ ضَنُّوا عليَّ كِرَامُ

لذلك ، فطالب العالم عندما يترك بلده إلى القاهرة يقولون : لا بُدَّ له أنْ يرجع ، ولو أن تعضَّه الأحداث والشدائد ، فيعود ليطلب من أهله العون والمساعدة ، أو حتى يعود إليها في نهاية المطاف ليدفنوه في تراب بلده .

(41/527)

وقالوا : إن سيدنا سليمان – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – لما تفقَّد الطير ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : 20 – 21] .

ذلك لأنه نبي ، فالمسألة ليستْ جبروتاً وتعذيباً ، دون أن يسمع منه . وقالوا : إن الطير

سأل سليمان : كيف يعذب الهدهد ؟ قال : أضعه في غير بني جنسه ، وفي غير المكان الذي يألفه ، يعني : في غير موطنه .

يقول تعالى : ﴿ والذين هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قتلوا أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً . . ﴾ .

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللهُ ﴾ [الحج : 40] هؤلاء تحملوا الكثير ، وتعبوا في سبيل عقيدتهم ، فلا بُدَّ أنْ يُعوِّضهم الله عن هذه التضحيات ، لذلك يقول هنا : ﴿ والذين هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قتلوا أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ [الحج : 58] وأوضحنا أن الموت غير القتل : الموت أن تخرج الروح دون نَقْضٍ للبنية ، أما القتل فهو نَقْض للبِنْية يترتب عليه خروج الروح .

﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً . . ﴾ [الحج : 58] تعويضاً لهم عَمَّا فاتوه في بلدهم من أهل ومال ، كما يُعوّض الحاكم العادل المظلوم فيعطيه أكثر مِمَّا أُخِذ منه ؛ لذلك يقول سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموت فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ . . ﴾ [النساء : 100] .

(42/527)

لأن مَنْ قُتِل فقد فاز بالشهادة ونال إحدى الحُسنْيين ، أما مَنْ مات فقد حُرِم هذا الشرف ؛ لذلك فقد وقع أجره على الله ، وما بالك بأجر مُؤدّيه ربك عز وجل ؟ وكما لو أن رجلاً مُتْعباً يسير ليس معه شيء ولا يجد حتى مَنْ يقرضه ، وفجأة سقطت رِجْله في حفرة فتكَّدر وقال : حتى هذه ؟ ! لكن سرعان ما وجد قدمه قد أثارتْ شيئاً في التراب له بريق ، فإذا هو ذهب كثير وقع عليه بنفسه .

ويُروْى أن فضالة حضرهم وهم يدفنون شهيداً ، وآخر مات غير شهيد ، فرأوْه ترك قبر الشهيد وذهب إلى قبر غير الشهيد ، فلما سألوه : كيف يترك قبر الشهيد إلى غير الشهيد ؟ قال : والله ما أبالي في أيِّ حفرة منهما بُعثْت ما دام قد وقع أجري على الله ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموت فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ . ﴾ [النساء : 100] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾ [الحج : 58] حين يصف الحق سبحانه ذاته بصفة ، ثم تأتي بصيغة الجمع ، فهذا يعني أن الله تعالى أدخل معه الخَلْق في هذه الصفة ، كما سبق أنْ تكلمنا في قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] .

فقد أثبت للخَلْق صفة الخَلْق ، وأشركهم معه سبحانه في هذه الصفة ؛ لأنه سبحانه لا

يبخس عباده شيئاً ، ولا يحرمهم ثمرة مجهودهم ، فكل مَنْ أوجد شيئاً فقد خلقه ، حتى في الكذب قال ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً . . ﴾ [العنكبوت : 17] .

(43/527)

لأن الخَلْق إيجاد من عدم ، فأنت حين تصنع مثلاً كوب الماء من الزجاج أوجدتَ ما لم يكن موجوداً ، وإن كنت قد استخدمت المواد المخلوقة لله تعالى ، وأعملتَ فيها عقلك حتى توصلْتَ إلى إنشاء شيء جديد لم يكُنْ موجوداً ، فأنت بهذا المعنى خالق حسن ، لكن خلق ربك أحسن ، فأنت تخلق من موجود ، وربك يخلق من عدم ، وما أوجدتَه أنت يظل على حالته ويجمد على خلْقتك له ، ولا يتكرر بالتناسل ، ولا ينمو ، وليست فيه حياة ، أما خَلْق ربك سبحانه فكما تعلم .

كذلك يقول سبحانه هنا : ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾ [الحج : 58] فأثبت لخَلْقه أيضاً صفة الرزق ، من حيث هم سَبَب فيه ، لأن الرزق : هو كل ما ينتفع به حتى الحرام يُعَدُّ رزقاً ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ . . ﴾ [البقرة : 172] .

نقول : فالعبد سبب في الرزق ؛ لأن الله تعالى هو خالق الرزق أولاً ، ثم أعطاك إياه تنتفع به

وتعمل فيه ، وتعطي منه للغير ، فالرزق منك مناولة عن الرازق الأول سبحانه ، فأنت بهذا المعنى رازق وإنْ كرهوا أنْ يُسمَّي الإنسان رازقاً ، رغم قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾ [الحج : 58] لماذا ؟ قالوا : حتى لا يفهم أن الرزق من الناس .

لذلك نسمع كثيراً من العمال البسطاء ، أو موظفاً صغيراً ، أو بواب عمارة مثلاً حين يفصله صاحب العمل ، يقول له : يا سيدي الأرزاق بيد الله . كيف وقد كنت تأخذ راتبك من يده ومن ماله ؟ قالوا : لأنه نظر إلى المناوِل الأول للرزق ، ولم ينظر إلى المناوِل الثاني .

أما الرزق الحسن الذي أعدَّه الله للذين هاجروا في سبيله ، فيوضحه سبحانه في قوله : ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ . . ﴾

(44/527)

لأن الرزق قد يكون حسناً لكنه لا يُرضِي صاحبه ، أما رزق الله لهؤلاء فقد بلغ رضاهم ، والرضا : هو اقتناع النفس بشيء تجد فيه متعة ، بحيث لا تستشرف إلى أعلى منه ، ولا تبغي أكثر من ذلك .

لذلك بعد أنْ ينعَم أهل الجنة بنعيمها ، مِمَّا لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، بعدها يتجلَّى الحق – سبحانه – عليهم فيقول لعباده المؤمنين : يا عبادي

أرضيتم ؟ فيقولون : وكيف لا نرضى وقد أعطيْتنا ما لم تُعْطِ أحداً من العالمين ؟ قال : ألا أعطيكم أفضل من هذا ؟ قالوا : وهل شيء أفضل مما نحن فيه ؟ قال : نعم ، أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

ومن ذلك قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 5] .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : 27 - 28] .

يبالغ في الرضا ، حيث يتعداك الرضا إلى أن تكون عيشتك نفسها راضية ، وكأنها تعشقك هي ، وترضى بك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [الحج : 59] .

عليم : بما يستحقه كل إنسان عند الحساب من النعيم ، ثم يزيد مَنْ يشاء من فضله ، فليس حساب ربك في الآخرة كحسابكم في الدنيا ، إنما حسابُه تعالى بالفضل لا بالعدل .

وحليم : يحلم على العبد إنْ أساء ، ويتجاوز للصالحين عن الهَفَوات ، فإنْ خالط عملك الصالح سوء ، وإنْ خالفت منهج الله في غفلة أو هفوة ، فلا تجعل هذا يعكر صفو علاقتك بربك أو يُنغِّص عليك طمأنينة حياتك ؛ لأن ربك حليم سيتجاوز عن مثل هذا على حَدِّ قولهم (حبيبك يبلع لك الزلط) .

لذلك " لما وَشَى أحد المؤمنين للكفار في فتح مكة ، وهَمَّ عمر أن يقتله فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم " .

(45/527)

ويكفي أنهم خرجوا بأنفسهم واقتحموا معركة غير متكافئة في العدد والعُدَّة ، ألا نذكر لهم هذا الموقف ؟ ألم يقل الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات . . ﴾ [هود : 114] ومَنِ ابتُلِي بشيء يضعف أمامه ، فليكن قوياً فيما يقدر عليه ، وإنْ غلبك الشيطان في باب من أبواب الشر فشمِّر له أنت في أبواب الخير ، فإن هذا يُعوِّض ذاك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(46/527)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف ، عن عمرو بن دينار قال : كان ابن عباس رضي الله عنه يقرأ " وما أرسلنا من قبلك من رسول ، ولا نبي ولا محدث " .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : إن فيما أنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ [ولا محدث] فنسخت محدث والمحدثون : صاحب يس ولقمان وهو من آل فرعون ، وصاحب موسى .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه قال : النبي وحده الذي يكلم وينزل عليه ولا يرسل .

وأخرج عبد بن حميد من طريق السدي ، عن أبي صالح قال : قام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال المشركون : ان ذكر آلهتنا بخير ، ذكرنا آلهته بخير ف ﴿ ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 19 – 20] إنهن لفي الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى . قال : فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ . فقال ابن عباس : إن أمنيته ؛ أن يسلم قومه .

وأخرج البزار والطبراني وابن مردويه والضياء في المختارة بسند رجاله ثقات من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ أفرأيتم

اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ففرح المشركون بذلك ، وقالوا : قد ذكر آلهتنا فجاءه جبريل فقال : اقرأ عليَّ ما جئتك به ، فقرأ ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى . فقال : ما أتيتك بهذا ! هذا من الشيطان . فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ﴾ إلى آخر الآية .

(47/527)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند صحيح ، عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة النجم ، فلما بلغ هذا الموضع ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى . قالوا : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجد وسجدوا ، ثم جاءه جبريل بعد ذلك قال : اعرض عليَّ ما جئتك به . فلما بلغ : تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى . قال له جبريل : لم آتك بهذا ؛ هذا من الشيطان فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفي ، عن ابن عباس : أن النبي – صلى الله عليه

وسلم - بينما هو يصلي إذ نزلت عليه قصة آلهة العرب ، فجعل يتلوها ، فسمعه المشركون فقالوا : إنا نسمعه يذكر آلهتنا بخير ، فدنوا منه فبينما هو يتلوها وهو يقول : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ ألقى الشيطان : إن تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى .

فعلق يتلوها ، فنزل جبريل فنسخها ، ثم قال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ إلى قوله ﴿ حكيم ﴾ .

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ومن طريق أبي بكر الهذلي ، وأيوب عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنه ، ومن طريق سليمان التيمي ، عمن حدثه ، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم وهو بمكة ، فأتى على هذه الآية ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ فألقى الشيطان على لسانه : إنهن الغرانيق العلى . فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ .

(48/527)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير من طريق يونس ، عن ابن شهاب حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قرأ سورة النجم ، فلما

بلغ ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ قال : إن شفاعتهن ترتجى ، وسها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ففرح المشركون بذلك فقال : " إلا إنما كان ذلك من الشيطان " فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ حتى بلغ ﴿ عذاب يوم عقيم ﴾ " مرسل صحيح الإسناد .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب قال : لما أنزلت سورة النجم ، وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ، ولكن لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر . وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم ، وأحزنته ضلالتهم ، فكان يتمنى كف أذاهم ، فلما أنزل الله سورة النجم قال : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ القى الشيطان عندها كلمات ، حين ذكر الطواغيت ، فقال : وانهن لهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى . فكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب مشرك بمكة ، وذلقت بها ألسنتهم ، وتباشروا بها وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأوّل ، ودين قومه . فلما بلغ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – آخر النجم سجد وسجد كل من حضر من مسلم ومشرك ، ففشت تلك الكلمة في الناس ، وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة . فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ . فلما بيَّن الله قضاءه وبرأه من

سجع الشيطان ، انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم للمسلمين ، واشتدوا عليه .

وأخرجه البيهقي في الدلائل ، عن موسى بن عقبة ، ولم يذكر ابن شهاب .

وأخرج الطبراني ، عن عروة مثله سواء .

(49/527)

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير ، عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس قالا : جلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ناد من أندية قريش كثير أهله ، فتمنى يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء ؛ فيتفرقون عنه . فأنزل الله عليه ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ [النجم : 1] فقرأها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى بلغ ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 19] . ألقى الشيطان كلمتين : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى . فتكلم بها ، ثم مضى فقرأ السورة كلها ، ثم سجد في آخر السورة وسجد القوم جميعاً معه ، ورضوا بما تكلم به ، فلما أمسى أتاه جبريل فعرض عليه السورة ، فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال : ما جئتك بهاتين الكلمتين . فقال رسول الله : - صلى الله عليه وسلم - افتريت على الله وقلت ما لم يقل . فأوحى الله إليه ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾ [الإسراء : 73] إلى قوله ﴿ نصيراً ﴾ [الإسراء : 75] فما زال

مغموماً مهموماً من شأن الكلمتين ، حتى نزلت ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ . فسري عنه وطابت نفسه .

وأخرج ابن جرير ، عن الضحاك : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو بمكة أنزل عليه في آلهة العرب ، فجعل يتلو اللات والعزى ويكثر ترديدها ، فسمعه أهل مكة وهو يذكر آلهتهم ، ففرحوا بذلك ودنوا يسمعون ، فألقى الشيطان في تلاوته : تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى ، فقرأها النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ، فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ إلى قوله ﴿ حكيم ﴾ .

(50/527)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم بسند صحيح ، عن أبي العالية قال : قال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو ذكرت آلهتنا في قولك قعدنا معك ، فإنه ليس معك إلا أراذل الناس وضعفاؤهم ، فكانوا إذا رأونا عندك تحدث الناس بذلك فأتوك . فقام يصلي فقرأ ﴿ والنجم ﴾ حتى بلغ ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ تلك الغرانيق العلى وشفاعتهن ترتجى ومثلهن لا ينسى ، فلما فرغ من ختم السورة سجد وسجد المسلمون والمشركون . فبلغ الحبشة : ان الناس قد أسلموا ، فشق

ذلك على النبي – صلى الله عليه وسلم – فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ إلى قوله ﴿ عذاب يوم عقيم ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن أبي العالية قال : نزلت سورة النجم بمكة ، فقالت قريش : يا محمد ، إنه يجالسك الفقراء والمساكين ويأتيك الناس من أقطار الأرض ، فإن ذكرت آلهتنا بخير جالسناك ، فقرأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سورة ﴿ النجم ﴾ فلما أتى على هذه الآية ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 19] ألقى الشيطان على لسانه : وهي الغرانيق العلى شفاعتهن ترتجى . فلما فرغ من السورة سجد وسجد المسلمون والمشركون ، إلا أبا احيحة [ ] سعيد بن العاص ؛ فإنه أخذ كفاً من تراب فسجد عليها وقال : قد آن لابن أبي كبشة أن يذكر آلهتنا بخير ، فبلغ ذلك المسلمين الذين كانوا بالحبشة : أن قريشاً قد أسلمت ، فأرادوا أن يقبلوا واشتد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه ما ألقى الشيطان على لسانه ، فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ .

(51/527)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة قال : بينما رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يصلي عند المقام إذ نعس ، فألقى الشيطان على لسانه كلمة فتكلم بها ، وتعلق بها المشركون عليه فقال ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ فألقى الشيطان على لسانه ، ونعس ، وإن شفاعتهم لترتجى وإنها لمع الغرانيق العلى ، فحفظها المشركون ، وأخبرهم الشيطان : أن نبي الله – صلى الله عليه وسلم – قد قرأها فذلت بها ألسنتهم ، فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ . فدحر الله الشيطان ، ولقن نبيه حجته .

وأخرج عبد بن حميد ، عن مجاهد : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم قرأ النجم ، فألقى الشيطان على فيه أحكم آياته .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عكرمة قال : قرأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذات يوم ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى ﴾ [النجم : 19 – 22] فألقى الشيطان على لسان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تلك إذن في الغرانيق العلى تلك إذن شفاعة ترتجى ، ففزع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجزع ! فأوحى الله إليه ﴿ وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً ﴾ [النجم : 26] ثم أوحى إليه ففرج عنه ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ إلى قوله ﴿ حكيم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ليصلي ، فبينما هو يقرأ ، إذ قال : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ فألقى الشيطان على لسانه فقال : تلك الغرانقة العلى وإن شفاعتهن ترتجى ، حتى إذا بلغ آخر السورة سجد وسجد أصحابه وسجد المشركون لذكره آلهتهم ، فلما رفع رأسه حملوه ، فاشتدوا به بين قطري مكة يقولون : نبي بني عبد مناف ، حتى إذا جاءه جبريل عرض عليه ، فقرأ ذينك الحرفين ، فقال جبريل معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا ! فاشتد عليه فأنزل الله يطيب نفسه ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ يقول : إذا حدّث ألقى الشيطان في حديثه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك في قوله ﴿ إذا تمنى ﴾ يعني بالتمني التلاوة والقراءة ﴿ ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ في تلاوة النبي ﴿ فينسخ الله ﴾ ينسخ جبريل بأمر الله ﴿ ما ألقى الشيطان ﴾ على لسان النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ﴿ إذا تمنى ﴾ قال : تكلم في أمنيته قال : كلامه .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج ﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض

﴿ قال : المنافقون ﴿ والقاسية قلوبهم ﴾ يعني المشركين ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق ﴾ قال : القرآن ﴿ ولا يزال الذين كفروا في مرية منه ﴾ قال : من القرآن ﴿ عذاب يوم عقيم ﴾ قال : ليس معه ليلة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في ﴿ مرية منه ﴾ قال : مما جاء به الخبيث إبليس لا يخرج من قلوبهم زادهم ضلالة .

وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ عذاب يوم عقيم ﴾ قال : يوم بدر .

(53/527)

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي بن كعب قال : أربع كن يوم بدر ﴿ أو يأخذهم عذاب يوم عقيم ﴾ ذاك يوم بدر ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ [الفرقان : 77] ذاك يوم بدر ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾ [الدخان : 16] ذاك يوم بدر ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ [السجدة : 21] ذاك يوم بدر .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ عذاب يوم عقيم ﴾ قال : يوم بدر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد عذاب ﴿ يوم عقيم ﴾ قال : يوم القيامة لا ليلة له .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن الضحاك مثله .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن سلمان الفارسي : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " " من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر ، وأجرى عليه الرزق ، وأمن الفتانين ، وأقرأوا إن شئتم " ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ﴾ إلى قوله : ﴿ حليم ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن فضالة بن عبيد الأنصاري الصحابي : - إنه كان برودس - فمروا بجنازتين : أحدهما قتيل ، والآخر متوفى . فمال الناس على القتيل ، فقال فضالة : ما لي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا : هذا لقتيل في سبيل الله ، فقال : والله ، ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت . اسمعوا كتاب الله ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ مدخلاً يرضونه ﴾ قال : الجنة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(54/527)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾

قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ : منصوبٌ بما تَضَمَّنه " لله " من الاستقرارِ لوقوعه خبراً . و " يَحْكم " يجوزُ أن يكونَ حالاً من اسم الله ، وأن يكون مستأنفاً . والتنوينُ في " يومئذٍ " عوضٌ من جملة فقدَّرها الزمخشري : " يوم يؤمنون " وهو لازمٌ لزوال المِرْيَةِ . وقدَّره أيضاً " يوم تزولُ مِرْيَتُهم " .

قوله : ﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ : مبتدأ . وقوله : ﴿ فأولئك ﴾ وما بعده خبرُه . ودَخَلَتِ الفاءُ لِما عَرَفْتَ مِنْ تضمُّنِ المبتدأ معنى الشرطِ بالشرطِ المذكور . و " لهم " يُحتمل أن يكونَ خبراً عن " أولئك " . و " عذاب " فاعلٌ به لاعتمادِه على المخبرِ عنه ، وإن يكونَ خبراً مقدَّماً ، وما بعده مبتدأٌ ، والجملةُ خبرُ " أولئك " .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾

قوله : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ﴾ : جوابُ قَسَمٍ مقدرٍ . والجملةُ القسميةُ وجوابُها خبرُ قولِه : ﴿ والذين هَاجَرُواْ ﴾ وفيه دليلٌ على وقوعِ الجملةِ القسَميةِ خبراً لمبتدأ . ومَنْ يَمْنَعُ يُضْمِرْ قولاً هو الخبر تُحكى به هذه الجملةُ القَسَمية . وهو قولٌ مرجوح .

قوله : ﴿ رِزْقاً ﴾ يجوز أن يكونَ مفعولاً ثانياً على أنه من باب الرِّعْي والذِّبْح أي : مرزوقاً حسناً ، وأَنْ يكونَ مصدراً مؤكَّداً . وقوله : ﴿ ثُمَّ قتلوا ﴾ وقوله " مُدْخَلاً " قد تقدم الخلافُ في القراءةِ بهما في آل عمران وفي النساء .

لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59)

والجملةُ مِنْ " لَيُدْخِلَنَّهُمْ " يجوزُ أن تكونَ بدلاً مِنْ " لَيَرْزُقَنَّهم " ، وأن تكونَ مستأنفةً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 295.296 ﴾

(55/527)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56)

﴿

لم يتخصصْ مُلْكه – سبحانه – بيومٍ ، ولم تتحدد له وقتيةُ أَمْرٍ ، ولا لجلاله قَدْرٌ ، ولكنَّ الدعاوى في ذلك اليوم تنقطع ، والظنون ترتفع ، والتجويزات تتلاشى ؛ فللمؤمنين وأهل الوفاق نِعَمٌ ، وللكفار وأصحاب الشقاق نِقَم .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (57) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) ﴾

هؤلاء لهم عذاب مهين ، وهؤلاء لهم فضل مبين .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا . . . ﴾ للقلوب حلاوةَ العرفان ، وللأرواح حُلَّةُ المحاب ، وللأسرار دوام الشهود .

لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59)

إدخالاً فوق ما يَتَمَنّونَه ، وإبقاءً على الوصف الذي يُهْدَوْنه . . . ذلك في أوان صحوهم لينالوا لطائفَ الأُنْسِ على وصف الكمال ، ويتمكنوا من قضايا البَسْطِ على أعلى أحوال السرور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 555.556 ﴾

(56/527)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذين ءامَنُواْ ﴾

يعني : يدفع كفار مكة عن الذين آمنوا ، فلا ينالون منهم شيئاً ؛ وقال الزجاج : إذا فعلتم هذا وخالفتم أهل الجاهلية ، فيما يفعلون في نحرهم وإشراكهم ، فإن الله يدافع عن حزبه ، أي المؤمنين ؛ ويقال : إن أهل مكة آذوا المسلمين قبل الهجرة ، فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في قتالهم في السر ، فنهاهم الله عز وجل عند ذلك .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذين ءامَنُواْ ﴾ ، يعني : يدفع أذاهم عن المسلمين ، فأمرهم بالصبر .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ إِنَّ الله ﴾ ، بغير ألف ، والباقون ﴿ اللهَ يُدَافِعُ ﴾ بالألف ، من دافع يدافع ، بمعنى دفع .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ ، يعني : أثيم لأمانته ، كفور لربه ولنعمته ؛ وقال أهل اللغة : الخوان الفعال من الخيانة ، وهو المبالغة في الخيانة ، فمن ذكر اسماً غير اسم الله وتقرب إلى الأصنام بذبيحته ، فهو خوان كفور .

قوله عز وجل : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يقاتلون ﴾ ، يعني : أذن للمؤمنين بقتال المشركين .

﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ ، يعني : أذن لهم بالقتال بسبب أنهم ظلموا .

قرأ عاصم في رواية حفص ﴿ أَذِنَ ﴾ بضم الألف على معنى فعل ما لم يسم فاعله .

أذن الله للذين يقاتلون بنصب التاء على معنى أنهم مفعولون ، وقرأ ابن عامر : ﴿ أَذِنَ ﴾ بنصب الألف على معنى أذن الله للذين يقاتلون بنصب التاء ؛ وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وأبو عمرو ﴿ أَذِنَ ﴾ بالضم ﴿ يقاتلون ﴾ بالكسر ؛ وقرأ الباقون بالنصب .

قرأ حمزة والكسائي وابن كثير ﴿ يقاتلون ﴾ بالكسر ثم قال : ﴿ وَإِنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ ، يعني : قادر ، وكان المشركون لا يزالون يؤذونهم باللسان وباليد ، فشكوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فلما هاجروا ، أمروا بالقتال .

(57/527)

ثم أخبر الله عن ظلم كفار مكة ، فقال عز وجل : ﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن ديارهم بِغَيْرِ حَقّ ﴾ ، يعني : بلا جرم أجرموا .

﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله ﴾ ، يعني : لم يخرج كفار مكة المؤمنين بسبب ، سوى أنهم كانوا يقولون : ربنا الله ، فأخرجوهم بهذا السبب ويقال : في الآية تقديم ومعناه ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يقاتلون ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، إلا أن يقولوا : ربنا الله : ﴿ وَإِنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ الناس بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ بالجهاد وإقامة الحدود وكف الظلم ؛ يقول : لولا أن يدفع المشركين بالمؤمنين ، لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين .

﴿ لَّهُدِّمَتْ صوامع وَبِيَعٌ ﴾ ؛ ويقال : ولولا دفع الله بالأنبياء وبالمؤمنين من غيرهم ، لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى .

﴿ وصلوات ﴾ ، يعني : كنائس اليهود ، ﴿ ومساجد ﴾ المسلمين .

﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً ﴾ ؛ وقال مجاهد : لولا دفع الله تعالى الناس بعضهم ببعض في الشهادة في الحق ، لهدمت هذه الصوامع ، وما ذكر معها .

وقال الزجاج : تأويل هذا ، ولولا أن دفع الله بعض الناس ببعض ، لهدمت في شريعة كل نبي المكان الذي يصلي فيه ، فكان معناه : لولا دفع الله ، لهدم في زمن موسى الكنائس ، وفي زمن عيسى البيع ، وفي زمن محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء المساجد .

قرأ نافع : ﴿ وَلَوْلاَ عَبْدُ الله ﴾ بالألف ، والباقون بغير ألف ؛ وقرأ ابن كثير ونافع ﴿ لَّهُدِّمَتْ ﴾ بالتخفيف ، والباقون بالتشديد على معنى المبالغة والتكثير .

(58/527)

ثم قال : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ ، يعني : لينصرن بالغلبة على عدوه من ينصره بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقال : لينصرن الله من ينصره ، يعني : ينصر الله من ينصر دينه بالغلبة ، كما قال في آية أخرى : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : 7] .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، أي منيع قادر على أن ينصر محمداً صلى الله عليه وسلم بغير عونكم .

قوله عز وجل : ﴿ الذين إِنْ مكناهم فِى الأرض ﴾ ، يعني : إن أنزلناهم بالمدينة ، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله : ﴿ الذين إِنْ مكناهم فِى الأرض أَقَامُواْ ﴾ ، يعني : بالتوحيد واتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر ﴾ ؛ أي عن الشرك .

﴿ وَلِلَّهِ عاقبة الامور ﴾ ، يعني : لله ترجع عواقب الأمور ، يعني : عاقبة أمور العباد في الآخرة .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ ، يعني : إن يكذبوك يا محمد أهل مكة ، ﴿ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ ؛ يعني : قبل قومك .

﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ كذبوا نوحاً ، ﴿ وَعَادٌ ﴾ كذبت هوداً ، ﴿ وَثَمُودُ ﴾ كذبوا صالحاً ، ﴿ وَقَوْمِ إبراهيم ﴾ كذبوا إبراهيم ، ﴿ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ كذبوا لوطاً ﴿ وأصحاب مَدْيَنَ

﴿ كذبوا شعيباً ، ﴿ وَكُذِّبَ موسى ﴾ يعني : كذبه قومه .

﴿ فَأَمْلَيْتُ للكافرين ﴾ ؛ يعني : أمهلتهم .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ ؛ يعني : عاقبتهم بعد المهل بالعذاب .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ ؟ يعني : كيف رأيت تغييري وإنكاري عليهم ؟ يعني : أليس قد وجدوا حقاً ؟ فكذلك كفار مكة تصيبهم العقوبة ، كما أصابهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ ، يعني : وكم من أهل قرية ﴿ أهلكناها ﴾ ، يعني : أهلكنا أهلها ، ﴿ وَهِيَ ظالمة ﴾ ؛ يعني : كافرة .

(59/527)

﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ ، يعني : ساقطة حيطانها على سقوفها ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ ، يعني : خالية ليس عندها ساكن ، ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ ؛ يعني : طويلاً في السماء ؛ ويقال : معناه كم من بئر معطلة ، عطلها أربابها وليس عليها أحد يستسقي ، وقصر مشيد يعني : كم من حصن طويل مشيد ليس فيه ساكن ؛ ويقال : المشيد هو المبني بالشيد ، وهو الجص وهو المشيد المطول ؛ ويقال : المشيد والمشيد سواء ، أي المطول .

قرأ أبو عمرو : ﴿ أهلكتها ﴾ بالتاء ، وقرأ الباقون : ﴿ قَرْيَةٍ أهلكناها ﴾ بلفظ

الجماعة ، وقرأ نافع في رواية ورش ، وأبو عمرو في إحدى الروايتين وبير بالتخفيف ، وهي لغة لبعض العرب ؛ وقرأ الباقون بالهمز ، وهي اللغة المعروفة .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ ؛ يعني : أو لم يسافروا في الأرض فيعتبروا .

﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ ، يعني : فتصير لهم قلوب بالنظر والعبرة يعقلون بها ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ التخويف .

﴿ فَإِنَّهَا ﴾ ، أي النظرة بغير عبرة ؛ ويقال : كلمة الشرك .

﴿ لاَ تَعْمَى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فِى الصدور ﴾ ، يعني : العقول التي في الصدور ؛ وذكر الصدر للتأكيد .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ ؛ وهو النضر بن الحارث .

﴿ وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ ﴾ في العذاب .

﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبّكَ ﴾ ، يعني : إن يوماً من الأيام التي وعد لهم في العذاب عند ربك في الآخرة ، ﴿ كَأَلْفِ سَنَةٍ مّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ في الدنيا .

ثم بيَّن لهم العذاب في الآخرة ، حيث قال : ﴿ وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ ﴾ ، ووصف طول عذابهم ؛ ويقال : إنه أراد بذلك قدرته عليهم بحال استعجالهم ، أنه يأخذهم متى شاء .

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿ مِّمَّا يَعْدُونَ ﴾ بالياء ، وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة .

(60/527)

ثم قال عز وجل : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ ، فلم أعجل عليها العقوبة .

﴿ وَهِيَ ظالمة ﴾ ، أي كافرة .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ بالعذاب ، ولكن لم يذكر العذاب لأنه سبق ذكره .

ثم قال : ﴿ وَإِلَيَّ المصير ﴾ ، يعني : المرجع في الآخرة .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الناس إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ، يعني : رسول مبين أبلغكم بلغة تعرفونها .

﴿ فالذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ ، يعني : الطاعات ، ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ، ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ حسن في الجنة .

﴿ والذين سَعَوْاْ فِى ءاياتنا ﴾ ، يعني : عملوا في القرآن بالتكذيب ﴿ معاجزين ﴾ .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو : ﴿ معاجزين ﴾ بغير ألف والتشديد في جميع القرآن ، والباقون بالألف والتخفيف .

فمن قرأ : ﴿ معاجزين ﴾ ، أي يعجزون من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم ويثبطونهم ، ومن قرأ : ﴿ معاجزين ﴾ ، أي ظانين أنهم يعجزوننا ، لأنهم يظنون أنهم لا يبعثون .

وقيل : ﴿ معاجزين ﴾ أي معاندين ، ومعناه ليسوا بفائتين .

﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ ، يعني : النار .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تمنى ﴾ ، يعني : حدث نفسه ، ﴿ أَلْقَى الشيطان فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ ؛ أي في حديثه ؛ ويقال : تمنى أي قرأ ، كما قال القائل :

تَمَنَّى كِتَابَ الله أوَّلَ لَيْلِه .

. . وَآخِرَهُ لاَقَى حِمَامَ المَقَادِرِ td>

وقال آخر :

تَمَنَّى دَاوُدُ الزَّبُورَ عَلَى الرِّسْلِ p> > أَلْقَى الشيطان فِى أُمْنِيَّتِهِ p> > .

. . أي في تلاوته : ﴿ فَيَنسَخُ الله مَا يُلْقِى الشيطان ﴾ ، يعني : يذهب الله به ويبطله .

﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ الله ءاياته ﴾ ، يعني : بيَّن الله عز وجل الناسخ من المنسوخ .

(61/527)

قال ابن عباس في رواية أبي صالح : أتاه الشيطان في صورة جبريل ، وهو يقرأ سورة ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ (النجم 1) عند الكعبة ، حتى انتهى إلى قوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ﴾ [النجم : 19 ، 20] ، ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى ، فلما سمعه المشركون يقرأ ذلك ، أعجبهم : فلما انتهى إلى آخرها ، سجد وسجد المشركون معه والمسلمون .

فأتاه جبريل عليه السلام فقال : ما جئتك بهذا .

فنزل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيّ ﴾ الآية .

وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس نحو هذا قال : حدّثنا الخليل بن أحمد قال : حدّثنا إبراهيم بن محمد قال : حدّثنا جعفر بن زيد الطيالسي قال : حدّثنا إبراهيم بن محمد قال : حدّثنا أبو عاصم ، عن عمار بن الأسود ، عن سعيد بن جبير ، وعن ابن عباس قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ومناة الثالثة الاخرى ﴾ ثم قال : تلك الغرانيق العلى وإن الشفاعة منها ترتجى ، فقال المشركون : قد ذكر آلهتنا .

فنزلت الآية .

وقال مقاتل : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم والنجم بمكة عند مقام إبراهيم ، فنعس ، فقرأ تلك الغرانيق العلى .

فلما فرغ من السورة ، سجد وسجد من خلفه فنزل ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ

وَلَا نَبِيّ ﴾ ؛ وقال قتادة : لما ألقى الشيطان ، ما ألقى ، قال المشركون : قد ذكر الله آلهتنا بخير ففرحوا بذلك ؛ فذلك قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [الحج : 53/52] .

(62/527)

روى أسباط ، عن السدي ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فقرأ سورة النجم ، فلما انتهى إلى قوله : ﴿ ومناة الثالثة الاخرى ﴾ [النجم : 20] فألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ، حتى بلغ إلى آخر السورة ، سجد وسجد أصحابه وسجد المشركون لذكره آلهتهم .

فلما رفع رأسه ، حملوه وأسندوا به بين قطري مكة ؛ حتى إذا جاءه جبريل عليه السلام عرض عليه ، فقرأ عليه الحرفين ، فقال جبريل عليه السلام معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا واشتد عليه ، فأنزل الله تعالى لتطييب نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبره أن الأنبياء عليهم السلام قبله قد كانوا مثله .

ويقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وجلس عنده جماعة من المشركين ، فتمنى في نفسه أن لا يأتيه من الله شيء ينفرون منه ، فابتلاه الله تعالى بما ألقى الشيطان في أمنيته ؛ وقال بعضهم : تمنى : أي تفكر وحدث تلك الغرانيق العلى ، ولم يتكلم به ، لأن قول النبي صلى الله عليه وسلم كان حجة ، فلا يجوز أن يكون يجري على لسانه كلمة الكفر .

وقال بعضهم : لما رآه الشيطان يقرأ ، خلط صوته بصوت النبي صلى الله عليه وسلم : فقرأ الشيطان : تلك الغرانيق ، فظن الناس أنه قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن قرأها ؛ وقال بعضهم : قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه التعيير والزجر ، يعني : أنكم تعبدونها كأنهن الغرانيق العلى ، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنْطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : 63] وقال الزجاج : ألقى الشيطان في تلاوة ؛ فذلك محنة يمتحن الله تعالى بها من يشاء ؛ فجرى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم شيء من صفة الأصنام ، فافتتن بذلك أهل الشقاوة والنفاق .

(63/527)

وروي عن سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار : أن ابن عباس كان يقرأ (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث) والمحدث الذي يرى أمره في منامه من غير أن يأتيه

الوحي .

ثم قال : ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، أي عليم بمَا ألقى الشيطان ﴿ حَكِيمٌ ﴾ حكم بالناسخ .

وبيّن قوله عز وجل : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشيطان فِتْنَةً ﴾ ، يعني : بلية ﴿ لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ، أي شك ، ﴿ والقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ يعني : الذين قست قلوبهم عن ذكر الله وهم المشركون .

﴿ وَإِنَّ الظالمين لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ ، عن الحق ؛ يعني : المشركين في خلاف طويل عن الحق .

ثم ذكر المؤمنين فقال : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ ، يعني : الذين أكرموا بالتوحيد والقرآن ؛ ويقال : هم مؤمنو أهل الكتاب .

﴿ أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ ، يعني : القرآن .

﴿ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ ﴾ ، أي فيصدقوا به ؛ ويقال : لكي يعلموا أن ما أحكم الله في آياته حق ، وأن ما ألقى الشيطان باطل ، ويزداد لهم يقين وبيان ، فذلك قوله : ﴿ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ ﴾ ، أي يثبتوا على إيمانهم .

﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، يعني : فتخلص له قلوبهم .

﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ ، يعني : إن الله عز وجل لحافظ قلوب

المؤمنين في هذه المحنة ، حتى لم ينزع المعرفة من قلوبهم عند إلقاء الشيطان

﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ ، أي في شك منه ، يعني : من القرآن .

﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً ﴾ ، يعني : فجأة ، ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ لا فرح فيه ولا راحة ولا رحمة ولا رأفة ، وهو عذاب يوم القيامة ؛ وقال السدي وقتادة : ﴿ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ ؛ يوم بدر ؛ ويقال : إنما سمي يوم عقيم ، لأنه أعقم كثيراً من النساء ؛ وقال عمرو بن قيس : ﴿ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ يوم القيامة يوم ، ليس له ليلة ولا بعده يوم .

(64/527)

والعقيم أصله في اللغة المرأة التي لا تلد ؛ وكذلك رجل عقيم ، إذا كان لا يولد له ؛ وكذلك كل شيء لا يكون فيه خير ، يعني : لا يكون للكافرين خير في يوم القيامة ، كما قال الله تعالى : ﴿ عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : 10] ثم وصف ذلك اليوم ، فقال عز وجل : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ للَّهِ ﴾ لا ينازع فيه أحد ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، يعني : يقضي بين الخلق لا حاكم في ذلك اليوم غيره .

ثم قال : ﴿ فالذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ ، يعني : أن حكمه في يوم القيامة أن المؤمنين ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ، يعني : الشدة .

ثم قال عز وجل : ﴿ والذين هاجروا ﴾ ، وذلك أن المسلمين قاتلوا فاستشهدوا ﴿ فِي سَبِيلِ الله ﴾ ، فقال الذين لم يستشهدوا : وهل لنا أجر ؟ فنزل : ﴿ والذين هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ الله ﴾ ، يعني : في طاعة الله من مكة إلى المدينة .

﴿ ثُمَّ قُتِلُواْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رِزْقاً حَسَناً ﴾ ، يعني : يرزقهم الغنيمة في الدنيا لمن لم يموتوا ولم يقتلوا .

﴿ وَإِنَّ الله لَهُوَ خَيْرُ الرزقين ﴾ ، يعني : أفضل الرازقين وأقوى المعطين .

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ ﴾ ، يعني : الجنة إذا قتلوا وماتوا .

﴿ وَإِنَّ الله لَعَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، حيث لم يعجل بالعقوبة ؛ وهذه الآية مدنية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 461. 467 ﴾

(65/527)

وقال الثعلبي :

﴿ إِنَّ الله يُدَافِعُ عَنِ الذين آمنوا ﴾

مكي وبصري : يدفع ، غيرهم : يدافع ، ومعناه : إنّ الله يدفع غائلة المشركين .

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ ﴾ في أمانة الله ﴿ كَفُورٍ ﴾ لنعمته .

﴿ أُذِنَ ﴾ قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم أُذن بضم الألف ، وقرأ الباقون بفتحه أي أذن الله ﴿ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ قرأ أهل المدينة والشام بفتح التاء يعنون المؤمنين الذين يقابلهم المشركون ، وقرأ الباقون بكسر التاء يعني إنّ الذين أُذن لهم بالجهاد يقاتلون المشركين ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ .

قال المفسّرون : كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يزالون يجيئون من بين مضروب ومشجوج ، فيشكونهم إلى رسول الله فيقول لهم : اصبروا فإنّي لم أُؤمر بالقتال حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية وهي أول آية أذن الله فيها بالقتال .

وقال ابن عباس : لما أُخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيّهم ، إنا لله وإنّا إليه راجعون ، لنهلكنّ ، فأنزل الله سبحانه ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ الآية ، قال أبو بكر : فعرفت أنّه سيكون قتال .

وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة فكانوا يمنعون من الهجرة ، فأذن الله تعالى لهم في قتال الكفّار الذين يمنعونهم من الهجرة .

﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ بدل من الذين الأُولى ، ثمّ قال ﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللهُ ﴾ يعني لم يخرجوا من ديارهم إلاّ لقولهم ربّنا الله وحده ، فيكون أنْ في موضع

الخفض ردّاً على الباء في قوله ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ويجوز أنْ يكون في موضع نصب على وجه الاستثناء .

(66/527)

﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ بالجهاد وإقامة الحدود وكفّ الظلم ﴿ لَّهُدِّمَتْ ﴾ قرأ الحجازيّون بتخفيف الدال ، والباقون بالتشديد على الكسر أي تخرّبت ﴿ صَوَامِعُ ﴾ قال مجاهد والضحاك : يعني صوامع الرهبان ، قتادة : صوامع الصابئين .

﴿ وَبِيَعٌ ﴾ النصارى ، ابن أبي نجيح عن مجاهد : البيع : كنائس اليهود ، وبه قال ابن زيد .

﴿ وَصَلَوَاتٌ ﴾ قال ابن عباس وقتادة والضحاك : يعني كنائس اليهود ويسمّونها صَلُوتاً .

أبو العالية : هي مساجد الصابئين .

ابن أبي نجيح عن مجاهد : هي مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطريق ، وعلى هذه الأقاويل تكون الصلوات صلوات أهل الإسلام تنقطع إذا دخل عليهم العدوّ ، انقطعت العبادة وهُدمت المساجد كما صنع بخت نصّر .

﴿ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسم اللهِ كَثِيراً ﴾ يعني مساجد المسلمين ، وقيل : تأويلها : لهدمت صوامع وبيع في أيام شريعة عيسى ، وصلوات في أيام شريعة موسى ، ومساجد في

أيام شريعة محمد صلّى الله عليهم أجمعين .

وقال الحسن : يدفع عن هدم مصليات أهل الذّمة بالمؤمنين ، فإن قيل : لم قدّم مصليات الكافرين على مساجد المسلمين ؟ قلنا : لأنها أقدم ، وقيل : لقربها من الهدم ، وقرب المساجد من الذكر كما أخّر السابق في قوله

﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ [فاطر : 32] لقربه من الخيرات .

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ أي ينصر دينه ونبيّه .

﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة وَأَمَرُواْ بالمعروف وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر ﴾ قال قتادة : هم أصحاب محمد ، عكرمة : أهل الصلوات الخمس ، الحسن وأبو العالية : هذه الأُمة .

﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمور ﴾ آخر أُمور الخلق ومصيرهم إليه .

(67/527)

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ يا محمد ﴿ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ موسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أمهلتهم ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ عاقبتهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إنكاري بالعذاب والهلاك ، يعزّي نبيّه صلى الله عليه

وسلم ويخوّف مخالفيه .

﴿ فَكَأَيِّن ﴾ وكم ﴿ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ يعني وأهلها ظالمون ، فنسب الظلم إليها لقرب الجوار .

﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ ساقطة على سقوفها ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ متروكة مخلاّة عن أهلها ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ قال قتادة والضحّاك ومقاتل : رفيع طويل ، ومنه قول عدي :

شاده مرمراً وجلّله كلساً . . . فللطّير في ذراه وكور

أي رفعه .

وقال سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعكرمة : مجصّص ، من الشيد وهو الجصّ ، قال الراجز :

كحبّة الماء بين الطيّ والشيد . . . وقال امرؤ القيس :

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة . . . ولا أجماً إلاّ مشيداً بجندل

أي مبنيّاً بالشيد والجندل .

وروى أبو روق عن الضحاك أنّ هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها حاصورا وذلك أنّ أربعة آلاف نفر ممّن آمن بصالح ونجوا من العذاب أتوا حضرموت ومعهم صالح ، فلمّا حضروه مات صالح ، فسمّي حضرموت لأن صالحاً لمّا حضره مات ، فبنوا حاصورا

وقعدوا على هذه البئر وأمّروا عليهم رجلاً يقال له بلهنس بن جلاس بن سويد ، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سواده ، فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى نموا وكثروا ، ثم أنَّهم عبدوا الأصنام فكفروا فأرسل الله إليهم نبيّاً يقال له حنظلة بن صفوان كان حمالاً فيهم فقتلوه في السوق ، فأهلكهم الله وعطّلت بئرهم وخرّبت قصورهم .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض ﴾ يعني كفّار مكة فينظروا إلى مصارع المكذّبين من الأُمم الخالية .

(68/527)

﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ يعلمون بها ﴿ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ فيتفكروا ويعتبروا .

﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور ﴾ تأكيد ، كقوله سبحانه ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] وقوله تعالى ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم ﴾ [آل عمران : 167] .

قال ابن عباس ومقاتل : لمّا نزل ﴿ وَمَن كَانَ فِي هذه أعمى فَهُوَ فِي الآخرة أعمى ﴾ [الإسراء : 72] جاء ابن أم مكتوم النبي صلى الله عليه وسلم باكياً فقال : يا رسول الله أنا

في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى ؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ نزلت في النضر بن الحرث .

﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ فأنجز ذلك يوم بدر .

﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ بالياء مكي كوفي غير عاصم ، غيرهم : بالتاء .

وقال ابن عباس : هي من الأيام التي خلق الله سبحانه فيها السموات والأرض .

مجاهد وعكرمة : من أيام الآخرة .

ابن زيد : في قوله ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ قال : هذه أيام الآخرة . وفي قوله ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] قال : هو يوم القيامة .

وقال أهل المعاني : معنى الآية : وإنّ يوماً عند ربّك من أيام العذاب الذي استعجلوه في الثقل والاستطالة والشدّة كألف سنة ممّا تعدون فكيف تستعجلوه ؟ وهذا كما يقال : أيام الهموم طوال وأيام السرور قصار .

(69/527)

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ المصير * قُلْ يا أيها الناس إِنَّمَآ أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * والذين سَعَوْاْ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي عملوا في إبطال آياتنا ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ أي مغالبين مشاقّين قال ابن عباس ، الأخفش : متأنّفين ، قتادة : ظنّوا أنّهم يعجزون الله فلا يقدر عليهم ولن يعجزوه .

وقرأ ابن كثير وأبو عمر : معجّزين بالتشديد أي مثبّطين الناس عن الإيمان ، ومثله في سورة سبأ .

﴿ أولئك أَصْحَابُ الجحيم * وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تمنى ﴾ .

قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما من المفسّرين : لمّا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم تولّي قومه عنه وشقّ عليه ما رأى من مباعدتهم عمّا جاءهم به من الله سبحانه تمنّى في نفسه أن يأتيه من الله تعالى ما يقارب بينه وبين قومه ، وذلك لحرصه على إيمانهم ، فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش كثير أهله ، فأحبّ يومئذ ألاّ يأتيه من الله تعالى شيء فينفروا عنه ، وتمنى ذلك فأنزل الله سبحانه سورة ﴿ والنجم إِذَا هوى ﴾ [النجم : 1] فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللات والعزى * وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 19-20] ألقى الشيطان على لسانه لمّا كان يحدث به نفسه ويتمناه : تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهنّ لترتجى .

فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته فقرأ السورة كلّها وسجد في آخر السورة فسجد المسلمون بسجوده ، وسجد جميع من في المسجد من المشركين ، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلاّ سجد إلاّ الوليد بن المغيرة وأبو أُحيحة سعيد بن العاص فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتيهما وسجدا عليها لأنّهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود ، وتفرّقت قريش وقد سرّهم ما سمعوا وقالوا : قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر ، وقالوا : قد عرفنا أنّ الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، فإذا جعل لها محمد نصيباً فنحن معه ، فلمّا أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبرئيل (عليه السلام) فقال : يا محمد ماذا صنعت ؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله ، وقلت ما لم يقل لك ، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك حزناً شديداً وخاف من الله خوفاً كبيراً فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

وسمع بذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغهم سجود قريش ، وقيل : قد أسلمت قريش وأهل مكة فرجع أكثرهم إلى عشائرهم وقالوا : هم أحبُّ إلينا فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان ، فلمّا نزلت هذه الآية قالت قريش : ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله ، فغيّر ذلك وجاء بغيره

، وكان ذانك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله (عليه السلام) قد وقعا في فم كلّ مشرك فازدادوا شرّاً إلى ما كانوا عليه وشدة على من أسلم .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ ﴾ وهو الذي يأتيه جبرئيل بالوحي عياناً وشفاهاً ﴿ وَلاَ نَبِيٍّ ﴾ وهو الذي تكون نبوّته إلهاماً أو مناماً ﴿ إِلاَّ إِذَا تمنى ﴾ أي أحبَّ شيئاً واشتهاه وحدّث به نفسه ما لم يؤمر به .

(71/527)

﴿ أَلْقَى الشيطان فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أي مراده ووجد إليه سبيلاً ، وقال أكثر المفسرين : يعني بقوله : تمنى أي تلا وقرأ كتاب الله سبحانه ﴿ القي الشيطان في أُمنيّته ﴾ أي قراءته ، وتلاوته ، نظيره قوله سبحانه ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة : 78] يعني قراءة يقرأ عليهم .

وقال الشاعر في عثمان رضي الله عنه حين قتل :

تمنّى كتاب الله أوّل ليلة . . . وآخره لاقى حمام المقادر

وسمعت أبا القاسم الحبيب يقول : سمعت أبا الحسن علي بن مهدي الطبري يقول : ليس هذا التمنّي من القرآن والوحي في شيء وإنّما هو أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا

صفرت يده من المال ورأى ما بأصحابه من سوء الحال تمنّى الدنيا بقلبه وسوسة من الشيطان .

وقال الحسن : أراد بالغرانيق العلى الملائكة يعني أنَّ الشفاعة ترتجى منهم لا من الأصنام ، وهذا قول ليس بالقوي ولا بالمرضىّ لقوله ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشيطان ﴾ أي يبطله ويذهبه ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ ﴾ فيثبتها ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

فإن قيل : فما وجه جواز الغلط في التلاوة على النبي صلى الله عليه وسلم فعنه جوابان :

أحدهما : أنّه على سبيل السهو والنسيان وسبق اللسان فلا يلبث أن ينبّهه الله سبحانه ويعصمه .

والثاني : أنَّ ذلك إنّما قاله الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثناء قراءته وأوهم أنّه من القرآن وأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يتلوه ، قال الله سبحانه ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ فيشكّون في ذلك .

(72/527)

﴿ والقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ فلا تلين لأمر الله ﴿ وَإِنَّ الظالمين ﴾ الكافرين ﴿ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ من المؤمنين ﴿ أَنَّهُ ﴾ يعني أنّ الذي أحكم الله

سبحانه من آيات القرآن ﴿ الحق مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللّهَ لَهَادِ الذين آمنوا إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي مما ألقى الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ابن جريج : من القرآن ، غيره : من الدين وهو الصراط المستقيم .

﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ قال عكرمة والضحّاك : عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة .

وقال الآخرون : هو يوم بدر وهو الصواب لأنّ الساعة هي القيامة ، ولا وجه لأنْ يقال : حتى تأتيهم القيامة وإنّما سمّي يوم بدر عقيماً لأنّهم لم يُنظَروا فيه إلى الليل ، بل قتلوا قبل المساء قاله ابن جريج ، غيره : لأنّه لم يكن فيه رأفة ولا رحمة ، وقيل : لأنّه لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه .

﴿ الملك يَوْمَئِذٍ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ للَّهِ ﴾ وحده من غير منازع ، ولا مدّع ، والملك هو اتّساع المقدور لمن له تدبير الأُمور ، والله سبحانه وتعالى هو الذي يملك الأُمور كلّها ، وكلّ ملك سواه فهو مملّك بحكمه وإذنه .

(73/527)

﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ ثم بيّن حكمه فقال عزّ من قائل ﴿ فالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِي جَنَّاتِ النعيم * والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فأولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * والذين هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ الله ﴾ أي فارقوا أوطانهم وعشائرهم في طاعة الله سبحانه وطلب رضاه ﴿ ثُمَّ قتلوا أَوْ مَاتُواْ ﴾ وهم كذلك ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رِزْقاً حَسَناً ﴾ في الجنة ﴿ وَإِنَّ الله لَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾ وقيل : هو قوله سبحانه ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : 169] .

روى ابن وهب عن عبد الرَّحْمن بن الحجاج بن سلامان بن عامر قال : كان فضالة بن دوس أميراً على الأرباع ، فخرج بجنازتي رجلين : أحدهما قتيل والآخر متوفّى ، فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل إلى حفرته فقال : أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل وتفضّلونه على أخيه المتوفّى فوالذي نفسي بيده ما أُبالي من أيّ حفرتها بعثت ، اقرؤوا قول الله سبحانه ﴿ والذين هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ قتلوا أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ الله لَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾ .

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ الله لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 25 . 31 ﴾

وقال الزمخشري :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) ﴾

خص المؤمنين بدفعه عنهم ونصرته لهم ، كما قال إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا وقال إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وقال وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وجعل العلة في ذلك أنه لا يحب أضدادهم : وهم الخونة الكفرة الذين يخونون اللّه والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم اللّه ويغمطونها «1» . ومن قرأ يُدافِعُ فمعناه يبالغ في الدفع عنهم ، كما يبالغ من يغالب فيه ، لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ .

[سورة الحج (22) : الآيات 39 إلى 41]

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)

---

(1) . قوله «ويغمطونها» أي : يحقرونها . (ع)

أُذِنَ وَيُقاتَلُونَ قرئا على لفظ المبنى للفاعل والمفعول جميعا : والمعنى : أذن لهم في القتال ، فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا أى بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديدا ، وكانوا يأتون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه ، فيقول لهم :

اصبروا فإنى لم أومر بالقتال ، حتى هاجر فأنزلت هذه الآية ، وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين « 1 » آية . وقيل : نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن لهم في مقاتلتهم . والأخبار بكونه قادرا على نصرهم عدة منه بالنصر واردة على سنن كلام الجبابرة ، وما مرّ من دفعه عن الذين آمنوا مؤذن بمثل هذه العدة أيضا أَنْ يَقُولُوا في محل الجرّ على الإبدال من حَقٍّ أى بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتمكين لا موجب الإخراج والتسيير . ومثله : هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ .

دفع اللّه بعض الناس ببعض : إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة ،

ولولا ذلك لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم ، وعلى متعبداتهم فهدموها ، ولم يتركوا للنصارى بيعا ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود صلوات ، ولا للمسلمين مساجد . أو لغلب المشركون من أمّة محمد صلى اللّه عليه وسلم على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين . وقرئ : دفاع . ولهدمت : بالتخفيف . وسميت الكنيسة «صلاة» لأنه يصلى فيها . وقيل : هي كلمة معرّبة ، أصلها بالعبرانية : صلوثا مَنْ يَنْصُرُهُ أي ينصر دينه وأولياءه : هو إخبار من اللّه عز وجل بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين رضى اللّه عنهم إن مكنهم في الأرض وبسط لهم في الدنيا ، وكيف يقومون بأمر الدين . وعن عثمان رضى اللّه عنه : هذا واللّه ثناء قبل بلاء . يريد : أنّ اللّه قد أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا .

وقالوا : فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين ، لأنّ اللّه لم يعط التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة

---

(1) . لم أجده هكذا . وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين . قلت : هو منتزع من أحاديث : أقربها ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان قوله أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وذلك أن مشركي أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة ، فاستأذنوا النبي صلى اللّه عليه وسلم في قتالهم بمكة . فنهاهم النبي صلى اللّه عليه وسلم عن ذلك فلم خرج النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى المدينة أنزل اللّه عليه أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ

بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وذكر الطبري أن الصحابة رضى اللّه عنهم استأذنوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في قتال الكفار إذا رأوهم وسطوا عليهم بمكة قبل الهجرة غيلة وسرا :

فأنزل اللّه إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ فلما هاجروهم أحلوهم مالهم وقتالهم فقال أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ - الآية .

(76/527)

العادلة غيرهم من المهاجرين ، لاحظ في ذلك للأنصار والطلقاء . وعن الحسن : هم أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم . وقيل الَّذِينَ منصوب بدل من قوله من ينصره . والظاهر أنه مجرور ، تابع للذين أخرجوا وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ أى مرجعها إلى حكمه وتقديره . وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم .

[سورة الحج (22) : الآيات 42 إلى 44]

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (44)

يقول لرسوله صلى اللّه عليه وسلم تسلية له : لست بأوحدى في التكذيب ، فقد كذب الرسل قبلك أقوامهم ، وكفاك بهم أسوة . فإن قلت : لم قيل وَكُذِّبَ مُوسى ولم يقل : وقوم

موسى ؟ قلت : لأنّ موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط . وفيه شيء آخر ، كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم : وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته «1» وعظم معجزاته ، فما ظنك بغيره .

النكير : بمعنى الإنكار والتغيير ، حيث أبدلهم بالنعمة محنة ، وبالحياة هلاكا ، وبالعمارة خرابا .

[سورة الحج (22) : آية 45]

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45)

كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة أو كرم فهو «عرش» والخاوي : الساقط ، من خوى النجم إذا سقط . أو الخالي ، من خوى المنزل إذا خلا من أهله . وخوى بطن الحامل وقوله عَلى عُرُوشِها لا يخلو من أن يتعلق بخاوية ، فيكون المعنى أنها ساقطة على سقوفها ، أى خرّت سقوفها على الأرض ، ثم تهدّمت حيطانها فسقطت فوق السقوف . أو أنها ساقطة أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها . وإما أن يكون خبرا بعد خبر ، كأنه قيل : هي خالية ، وهي على عروشها

---

(1) . قال محمود : «فان قلت : لم قيل وكذب موسى ولم يقل وقوم موسى بدون تكرير التكذيب ؟ قلت : لأن قوم موسى هم بنو إسرائيل ولم يكذبوه ، وإنما كذبه القبط . أو لأن

آيات موسى كانت باهرة ظاهرة فكأنه قال :

وكذب موسى أيضا على ظهور آياته» قال أحمد : ويحتمل عندي - والله أعلم - أنه لما صدر الكلام بحكاية تكذيبهم ثم عدد أصناف المكذبين وطوائفهم ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام ، حسن تكريره ليلي قوله فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ فيتصل المسبب بالسبب ، كما قال في آية ق بعد تعديدهم كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ فربط العقاب والوعيد ووصلهما بالتكذيب ، بعد أن جدد ذكره ، والله أعلم .

(77/527)

أي قائمة مطلة على عروشها ، على معنى أنّ السقوف سقطت إلى الأرض فصارت في قرار الحيطان وبقيت الحيطان ماثلة فهي مشرفة على السقوف الساقطة . فإن قلت : ما محل الجملتين من الإعراب أعني وَهِيَ ظالِمَةٌ ، فَهِيَ خاوِيَةٌ ؟ قلت : الأولى في محل النصب على الحال ، والثانية لا محلّ لها لأنها معطوفة على أهلكناها ، وهذا الفعل ليس له محل . قرأ الحسن : معطلة ، من أعطله بمعنى عطله . ومعنى المعطلة : أنها عامرة فيها الماء ، ومعها آلات الاستقاء ، إلا أنها عطلت ، أي : تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها . والمشيد : المجصص أو المرفوع البنيان . والمعنى : كم قرية أهلكنا ؟ وكم بئر عطلنا عن سقاتها ؟

وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه ؟ فترك ذلك لدلالة معطلة عليه . وفي هذا دليل على أنّ عَلى عُرُوشِها بمعنى «مع» أوجه . روى أنّ هذه بئر نزل عليها صالح عليه السلام مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به . ونجاهم اللّه من العذاب ، وهي بحضر موت . وإنما سميت بذلك لأنّ صالحا حين حضرها مات ، وثمة بلدة عند البئر اسمها «حاضوراء» بناها قوم صالح ، وأمّروا عليهم جلهس بن جلاس ، وأقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما ، وأرسل اللّه إليهم حنظلة ابن صفوان نبيا فقتلوه ، فأهلكهم اللّه وعطل بئرهم وخرّب قصورهم .

[سورة الحج (22) : آية 46]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

يحتمل أنهم لم يسافروا فحثوا على السفر ، ليروا مصارع من أهلكهم اللّه بكفرهم ، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا . وأن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا ، فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا . وقرئ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ بالياء ، أى : يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ، ويسمعون ما يجب سماعه من الوحى فَإِنَّها الضمير ضمير الشأن والقصة ، يجيء مذكرا ومؤنثا وفي قراءة ابن مسعود : فإنه . ويجوز أن يكون ضميرا مبهما يفسره الْأَبْصارُ وفي تعمى ضمير راجع إليه . والمعنى : أنّ أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها . وإنما العمى بقلوبهم . أولا يعتدّ بعمى الأبصار ، فكأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب .

فإن قلت : أى فائدة في ذكر الصدور ؟

قلت : الذي قد تعورف واعتقد أنّ العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها . واستعماله في القلب استعارة ومثل ، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار ، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ، ليتقرّر أنّ مكان العمى هو القلوب لا الأبصار ، كما تقول : ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك ، فقولك «الذي بين فكيك» تقرير لما ادّعيته للسانه وتثبيت لأنّ محلّ المضاء هو هو لا غير ، وكأنك قلت : ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة

(78/527)

ولا سهوا منى ، ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمدا .

[سورة الحج (22) : الآيات 47 إلى 48]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48)

أنكر استعجالهم بالمتوعد به من العذاب العاجل أو الآجل ، كأنه قال : ولم يستعجلون به ؟

كأنهم يجوّزون الفوت ، وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف ، والله عز وعلا لا يخلف الميعاد وما وعده ليصيبنهم ولو بعد حين ، وهو سبحانه حليم لا يعجل ، ومن حلمه ووقاره واستقصاره المدد الطوال أنّ يوما واحدا عنده كألف سنة «1» عندكم . وقيل : معناه كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنيكم ، لأنّ أيام الشدائد مستطالة . أو كأن ذلك اليوم الواحد لشدّة عذابه كألف سنة من سنى العذاب . وقيل : ولن يخلف الله وعده في النظرة والإمهال . وقرئ : تعدون ، بالتاء والياء ، ثم قال : وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حينا ثم أخذتهم بالعذاب والمرجع إليّ وإلى حكمى . فإن قلت : لم كانت الأولى معطوفة بالفاء ، وهذه بالواو ؟ قلت : الأولى وقعت بدلا عن قوله فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ وأمّا هذه فحكمها حكم ما تقدّمها من الجملتين المعطوفتين بالواو ، أعنى قوله وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ .

[سورة الحج (22) : الآيات 49 إلى 51]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (51)

يقال : سعيت في أمر فلان ، إذا أصلحه أو أفسده بسعيه . وعاجزه : سابقه ، لأنّ كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به ، فإذا سبقه قيل : أعجزه وعجزه .

والمعنى : سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها ، حيث سموها : سحرا وشعرا وأساطير ، ومن تثبيط الناس

---

(1) . قال محمود : «فيه إيذان بحلم اللّه تعالى ووقاره واستقصاره الأمد الطويل حتى إن يوما واحدا عنده كألف سنة» قال أحمد : الوقار المقرون بالحلم يفهم لغة : السكون وطمأنينة الأعضاء عند المزعجات والأناة والتؤدة ، ونحو ذلك مما لا يطلق على اللّه تعالى إلا بتوقيف . وأما الوقار في قوله تعالى ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً فقد فسر بالعظمة فليس من هذا ، وعلى الجملة فهو موقوف على ثبت في النقل .

(79/527)

عنها سابقين أو مسابقين في زعمهم ، وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم . فإن قلت : كأن القياس أن يقال : إنما أنا لكم بشير ونذير ، لذكر الفريقين بعده . قلت : الحديث مسوق إلى المشركين . ويا أيها الناس : نداء لهم ، وهم الذين قيل فيهم أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ووصفوا بالاستعجال . وإنما أفحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا .

[سورة الحج (22) : آية 52]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما

يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52)

مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ دليل بين على تغاير الرسول والنبي . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه سئل عن الأنبياء فقال «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا» قيل فكم الرسول منهم ؟ قال : «ثلاثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا» «1» . والفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء : من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه . والنبىّ غير الرسول : من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله . والسبب في نزول هذه الآية أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما أعرض عنه قومه وشاقوه وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به : تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم ، فاستمرّ به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة «والنجم» وهو في نادى قومه ، وذلك التمني في نفسه ، فأخذ يقرؤها فلما بلغ قوله وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى : أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ التي تمناها ، أى : وسوس إليه بما شيعها به ، فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أن قال : تلك الغرانيق «2» العلى ، وإن شفاعتهنّ لترتجى . وروى : الغرانقة ، ولم يفطن له حتى أدركته

---

(1) . أخرجه أحمد وإسحاق من رواية معاذ بن رفاعة عن على بن زيد عن القاسم عن أبى أمامة «أن أبا ذر سأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : كم الأنبياء ؟ فقال : مثله .

وعلى ضعيف . ورواه ابن حبان من طريق إبراهيم بن هشام الغساني حدثنا أبى عن حذيفة . يعنى يحيى الغساني عن أبى إدريس الخولاني عن أبى ذر – فذكره في حديث طويل جدا .

وأفرط ابن الجوزي فذكره في الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام المذكور . ولم يصب في ذلك : فإنها طريقا أخرجها الحاكم وغيره من رواية يحيى بن سعيد السعيدي عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن أبى ذر بطوله . ويحيى السعيدي ضعيف . ولكن لا يأتى الحكم بالوضع مع هذه المتابعة .

(2) . أخرجه البزار والطبري والطبراني وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة عن أبى بشر عن سعيد ابن جبير قال : لا أعلمه إلا عن ابن عباس «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان بمكة فقرأ سورة النجم ، حتى انتهى إلى قوله تعالى أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى فجرى على لسانه : تلك الغرانيق العلا ، الشفاعة منها ترتجى ، قال : فسمع بذلك مشركو مكة ، فسروا بذلك . فاشتبه على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأنزل اللّه تعالى وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى – الآية» زاد في رواية ابن مردويه : فلما بلغ آخرها سجد وسجد معه المسلمون والمشركون» ورواه الطبري من طريق سعيد بن جبير مرسلا . وأخرجه ابن مردويه من طريق أبى عاصم النبيل عن عثمان بن الأسود عن سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه . ولم يشك في وصله ، وهذا

أصح طرف هذا الحديث . قال البزار : تفرد بوصله أمية بن خالد عن شعبة ، وغيره يرويه عنه مرسلا . وأخرجه الطبري وابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس . وهو من طريق العوفى عن جده عطية عنه ، وأخرجه الطبري من طريق محمد بن كعب القرظي ، ومن طريق قتادة ، ومن طريق أبى العالية . فهذه مراسيل يقوى بعضها بعضا . وأصل القصة في الصحيح بلفظ «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم وهو بمكة – فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس» قال البزار :

المعروف في هذا رواية الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس . وأخرجها ابن مردويه من طريقه . وأخرجه الواقدي من طريق أخرى . قلت : وفي مجموع ذلك رد على عياض حيث قال : إن من ذكر من المفسرين وغيرهم لم يسندها أحد منهم ، ولا رفعها إلى صاحب إلا رواية البزار . وقد بين البزار أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى ما ذكره وفيه ما فيه مع وقوع الشك . قلت : أما ضعفه فلا ضعف فيه أصلا . فان الجميع ثقات وأما الشك فيه فقد يجيء تأثيره ولو فردا غريبا لكن غايته أنه يصير مرسلا ، إنما هو حجة عند عياض وغيره ممن يقبل مرسل الثقة ، أما هو حجة إذا اعتضد عند من يرد المرسل إنما يعتضد بكثرة المتابعات . تبع ثقة رجالها . وأما طعنه فيه باختلاف الألفاظ فلا تأثير للروايات الضعيفة الواهية في الرواية القوية . فيعتمد من القصة على الرواية الصحيحة أى يعتمد على الرواية المتابعة وليس فيها ولا فيما تابعها اضطراب والاضطراب في غيرها .

فيكفى لأنه ضعيف برواية الكلبي ، ويكفى ما عداها ، وأما طعنه فيه من جهة المعنى فله أسوة كثيرة من الأحاديث الصحاح التي لا يؤخذ بظاهرها ، بل يرد بالتأويل المعتمد إلى ما يليق بقواعد الدين . [. . . . .]

(80/527)

العصمة فتنبه عليه . وقيل : نبهه جبريل عليه السلام . أو تكلم الشيطان بذلك فأسمعه الناس ، فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي وطابت نفوسهم ، وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من اللّه وابتلاء ، زاد المنافقون به شكا وظلمة ، والمؤمنون نورا وإيقانا . والمعنى : أن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجيراهم كذلك إذا تمنوا مثل ما تمنيت ، مكن اللّه الشيطان ليلقى في أمانيهم مثل ما ألقى في أمنيتك ، إرادة امتحان من حولهم ، واللّه سبحانه له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن ، ليضاعف ثواب الثابتين ويزيد في عقاب المذبذبين . وقيل تَمَنَّى : قرأ . وأنشد :

تمنّى كتاب اللّه أوّل ليلة تمنّى داود الزّبور على رسل «1»

وأمنيته : قراءته . وقيل : تلك الغرانيق : إشارة إلى الملائكة ، أى : هم الشفعاء لا الأصنام فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ أى يذهب به ويبطله ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ أى يثبتها .

[سورة الحج (22) : الآيات 53 إلى 54]

لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (54)

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 157 فراجعه إن شئت اه مصححه

،

(81/527)

والذين فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ المنافقون والشاكون وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ المشركون المكذبون وَإِنَّ الظَّالِمِينَ يريد : وإن هؤلاء المنافقين والمشركين . وأصله : وإنهم ، فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ أى ليعلموا أن تمكين الشيطان من الإلقاء : هو الحق من ربك والحكمة وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إلى أن يتأوّلوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة ، ويطلبوا لما أشكل منه المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة والقوانين الممهدة ، حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة ولا تزلّ أقدامهم . وقرئ : لهاد الذين آمنوا ، بالتنوين .

[سورة الحج (22) : آية 55]

وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)

الضمير في مِرْيَةٍ مِنْهُ للقرآن أو الرسول صلى اللّه عليه وسلم . اليوم العقيم : يوم بدر ، وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم لأنّ أولاد النساء يقتلون فيه ، فيصرن كأنهن عقم لم يلدن ، أو لأن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب ، فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز .

وقيل :

هو الذي لا خير فيه . يقال : ريح عقيم إذا لم تنشئ مطرا ولم تلقح شجرا . وقيل : لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة عليهم السلام فيه . وعن الضحاك أنه يوم القيامة ، وأن المراد بالساعة مقدّماته . ويجوز أن يراد بالساعة وبيوم عقيم : يوم القيامة ، وكأنه قيل : حتى تأتيهم الساعة أو يأتيهم عذابها ، فوضع يَوْمٍ عَقِيمٍ موضع الضمير .

[سورة الحج (22) : الآيات 56 إلى 57]

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (57)

فإن قلت : التنوين في يَوْمَئِذٍ عن أى جملة ينوب ؟ قلت : تقديره : الملك يوم يؤمنون . أو يوم تزول مريتهم ، لقوله وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ .

[سورة الحج (22) : الآيات 58 إلى 59]

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59)

(82/527)

لما جمعتهم المهاجرة في سبيل اللّه سوّى بينهم في الموعد ، وأن يعطى من مات منهم مثل ما يعطى من قتل تفضلا منه وإحسانا . واللّه عليهم بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم حَلِيمٌ عن تفريط المفرط منهم بفضله وكرمه . روى أن طوائف من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ورضى عنهم قالوا : يا نبى اللّه ، هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم اللّه من الخير ، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا ، فما لنا إن متنا معك ؟ فأنزل اللّه هاتين الآيتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 159 . 167 ﴾

(83/527)

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾

أي يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ويمنعهم منهم وينصرهم عليهم ﴿ إنّ الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ أي خوان في أمانة الله كفور لنعمته .

قال ابن عباس : خانوا الله فجعلوا منه شريكاً وكفروا نعمه .

وقيل من تقرّب إلى الأصنام بذبيحته وسمى غير الله عليها فهو خوان كفور .

قوله عزّ وجلّ ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ أي أذن الله لهم بالجهاد ليقاتلوا المشركين قال المفسرون كان مشركوا أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلا يزالون يجيئون من بين مضروب ومشجوج ويشكون ذلك إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيقول لهم : " اصبروا فإني لم أومر بقتال " حتى هاجر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذه الآية وهي أول آية أذن الله فيها بالقتال .

وقيل نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة فاعترضهم مشركو مكة فأذن الله لهم في قتال الكفار الذي يمنعون من الهجرة بأنهم ظلموا أي بسبب ما ظلموا واعتدوا عليهم بالإيذاء ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ فيه وعد من الله بنصر المؤمنين ثم وصفهم .

فقال تعالى ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ يعني أنهم أخرجوا بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتعظيم والتمكين لا موجب الإخراج ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ أي بالجهاد وإقامة

الحدود ﴿ لهدمت صوامع ﴾ هي معابد الرهبان المتخذة في الصحراء ﴿ وبيع ﴾ هي معابد النصارى في البلد وقيل الصوامع للصابئين والبيع للنصارى ﴿ وصلوات ﴾ هي كنائس اليهود ويسمونها بالعبرانية صلوتاً ﴿ ومساجد ﴾ يعني مساجد المسلمين ﴿ يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ يعني في المساجد .

(84/527)

ومعنى الآية ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في شريعة كل نبي مكان صلواتهم فهدم في زمن موسى الكنائس وفي زمن عيسى البيع والصوامع وفي زمن محمد (صلى الله عليه وسلم) المساجد ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ أي ينصر دينه ونبيه ﴿ إنّ الله لقوي ﴾ أي على نصر من ينصر دينه ﴿ عزيز ﴾ أي لا يضام ولا يمنع مما يريده .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ﴾ أي نصرناهم على عدوهم تمكنوا من البلاد ﴿ أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ هذا وصف أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) وقيل : هم جميع هذه الأمة وقيل هم المهاجرون وهو الأصح لأنه قوله ﴿ الذين إن مكناهم ﴾ صفة لمن تقدم ذكرهم وهو قوله ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ وهم المهاجرون ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ أي آخر أمور الخلق

مصيرها إليه وذلك أنه يبطل فيها كل ملك سوى ملكه فتصير إليه بلا منازع .

قوله تعالى ﴿ وإن يكذبوك ﴾ فيه تسلية وتعزية للنبيّ (صلى الله عليه وسلم) والمعنى وإن كذبك قومك ﴿ فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى ﴾ فإن قلت لم قال وكذب ولم يقل وقوم موسى ؟ .

قلت فيه وجهان أحدهما : أن موسى لم يكذبه قومه وهم بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه وهو القبط الثاني : كأنه قيل بعد ما ذكرت تكذيب كل قوم رسولهم قال وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ أي أمهلتهم وأخرت العقوبة عنهم ﴿ ثم أخذتهم ﴾ أي عاقبتهم ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي إنكاري عليهم ما فعلوا من التكذيب بالعذاب والهلاك يخوف به من خالف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكذبه .

(85/527)

قوله عزّ وجلّ ﴿ فكأين من قرية أهلكتها ﴾ وقرىء أهلكناها على التعظيم ﴿ وهي ظالمة ﴾ أي وأهلها ظالمون ﴿ فهي خاوية ﴾ أي ساقطة ﴿ على عروشها ﴾ أي على سقوفها ﴿ وبئر معطلة ﴾ أي وكم من بئر معطلة أي متروكة مخلاة عن أهلها ﴿ وقصر

مشيد ﴾ أي رفيع عال وقيل مجصص وقيل إن البئر المعطلة والقصر المشيد باليمن .

أما القصر فعلى قمة جبل والبئر في سفحه ولكل واحد منهما قوم كانوا في نعمة فكفروا فأهلكهم الله وبقي البئر والقصر خاليين .

وقيل إن هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها : حاضوراء وذلك أن أربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح عليه السلام لما نجوا من العذاب أتوا إلى حضرموت ومعهم صالح فلما حضروه مات صالح فسمي المكان حضرموت .

لذلك ولما مات صالح بنو حاضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلاً منهم فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا وعبدوا الأصنام وكفروا فارسل الله تعالى إليهم نبياً ؟ يقال له حنظلة بن صفوان .

وكان حمالاً فيهم فقتلوه في السوق فأهلكهم الله وعطلت بئرهم وخرب قصرهم .

قوله تعالى ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ يعني كفار مكة فينظروا إلى مصارع المكذبين من الأمم الخالية ﴿ فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ أي يعلمون بها ﴿ أو آذان يسمعون بها ﴾ يعني ما يذكر لهم من أخبار القرون الماضية فيعتبرون بها ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ المعنى أن عمى القلب هو الضار في أمر الدين لا عمى البصر لأن البصر الظاهر بلغة ومتعة وبصر القلوب النافع ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ نزلت في النضر بن الحارث ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ أي إنه أنجز ذلك يوم بدر ﴿ وإن

يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ قال ابن عباس : يعني يوماً من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض .

(86/527)

وقيل يوماً من أيام الآخرة يدل عليه ما روي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة " أخرجه أبو داود بزيادة فيه وأخرج الترمذي نحوه ومعنى الآية أنهم يستعجلون بالعذاب وإن يوماً من إيام عذابهم في الآخرة كألف سنة .

وقيل إن يوماً من أيام العذاب في الثقل والاستطالة كألف سنة فكيف يستعجلونه وقيل معناه أن يوماً عنده وألف سنة في الإمهال سواء لأنه قادر متى شاء أخذهم لا يفوته شيء بالتأخير فيستوي في قدرته وقوع ما يستعجلونه من العذاب وتأخيره وهذا معنى قول ابن عباس .

﴿ وكأين من قرية أمليت لها ﴾ يعني أمهلتها ﴿ وهي ظالمة ﴾ يعني مع استمرار أهلها

على الظلم ﴿ ثم أخذتها ﴾ يعني أنزلت بهم العذاب ﴿ وإلى المصير ﴾ يعني مصيرهم إلي في الآخرة ففيه وعيد وتهديد .

(87/527)

قوله عزّ وجلّ ﴿ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ أمر رسول الله أن يديم لهم التخويف والإنذار وأن يقول لهم إنما بعثت لكم منذراً ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ لما أمر الله الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأن يقول ﴿ إنما أنا نذير مبين ﴾ أردف ذلك بأن أمره بوعد من آمن ووعيد من عصى فقال ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ﴾ يعن ستر لصغائر ذنوبهم وقيل للكبائر أيضاً مع التوبة ورزق كريم يعني لا ينقطع أبداً وقيل هو الجنة ﴿ والذين سعوا في آياتنا ﴾ يعني عملوا في إبطال آياتنا ﴿ معاجزين ﴾ يعني مثبطين الناس عن الإيمان وقرىء معاجزين يعني معاندين مشاقين وقيل معناه ظانين ومقدرين أنهم يعجزوننا ويفوتوننا فلا نقدر عليهم بزعمهم أن لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ قال ابن عباس وغيره من المفسرين : لما رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تولي قومه عنه وشق عليه ما رأى

من مباعدتهم عما جاءهم به من الله تعالى تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه لحرصه على إيمانهم فكان يوماً في مجلس لقريش فأنزل الله عزّ وجلّ سورة والنجم فقرأها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى بلغ ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ ألقى الشيطان على لسانه ما كان يحدث به نفسه ويتمناه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى .

(88/527)

فلما سمعت قريش ذلك فرحوا به ومضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قراءته فقرأ السورة كلها وسجد في آخرها وسجد المسلمون بسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد غير الوليد بن المغيرة وأبي أحيحة سعيد بن العاص فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتهما وسجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرّهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم ويقولون قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده فإن جعل لها محمد نصيباً فنحن معه فلما أمسى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أتاه جبريل فقال : يا محمد

ماذا صنعت ؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله تعالى فحزن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حزناً شديداً وخاف من الله تعالى خوفاً كبيراً فأنزل الله تعالى هذه الآية يعزيه وكان به رحيماً وسمع بذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب النبيّ (صلى الله عليه وسلم) وبلغهم سجود قريش وقيل قد أسلمت قريش وأهل مكة فرجع أكثرهم إلى عشائرهم وقالوا : هم أحب إلينا حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن الذي كانوا يحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً فلم يدخل أحد منهم إلاّ بجوار أو مستخفياً .

(89/527)

فلما نزلت هذه الآية قالت قريش : ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله فغير ذلك وكان الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد وقعا في فم كل مشرك فازدادوا شراً إلى ما كانوا عليه وشدة على من أسلم وقوله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ﴾ الرسول هو الذي يأتيه جبريل بالوحي عياناً ﴿ ولا نبي ﴾ النبي هو الذي تكون نبوته إلهاماً ، أو مناماً فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً إلا إذا تمنى يعني أحب شيئاً واشتهاه وحدث به نفسه مما لم يؤمر به ﴿ ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ يعني في مراده وقال ابن عباس : إذا حدّث ألقى الشيطان في حديثه ووجد إليه سبيلاً .

والمعنى ما من نبي ﴿ إلا إذا تمنى ﴾ أن يؤمن قومه ولم يتمن ذلك نبي إلا ألقى الشيطان عليه ما يرضى قومه فينسخ الله ما يلقى الشيطان .

وقال أكثر المفسرين معنى تمنى قرأ وتلا كتاب الله ألقى الشيطان في أمنيته يعني في تلاوته قال حسان في عثمان حين قتل :

تمنى كتاب الله أول ليلة . . .

وآخرها لاقى حمام المقادر

فإن قلت : قد قامت الدلائل على صدقة وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منه بخلاف ما هو به لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً قال الله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ وقال تعالى : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ فكيف يجوز الغلط على النبيّ (صلى الله عليه وسلم) في التلاوة وهو معصوم منه ؟ .

(90/527)

قلت ذكر العلماء عن هذا الإشكال أجوبة : أحدها : توهين أصل هذه القصة وذلك أنه لم يروها أحد من أهل الصحة ولا أسندها ثقة بسند صحيح أو سليم متصل وإنما رواها

المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب الملفقون من الصحف كل صحيح وسقيم والذي يدل على ضعيف هذه القصة اضطراب رواتها وانقطاع سندها واختلاف ألفاظها فقائل يقول إنّ النبيّ (صلى الله عليه وسلم) كان في الصلاة وآخر يقول قرأها وهو في نادي قومه وأخر يقول قرأها وقد أصابته سنة وآخر يقول بل حدث نفسه بها فجرى ذلك على لسانه وآخر يقول إن الشيطان قالها على لسان النبيّ (صلى الله عليه وسلم) وإن النبي (صلى الله عليه وسلم) لمّا عرضها على جبريل قال ما هكذا أقرأتك إلى غير ذلك من اختلاف ألفاظها والذي جاء في الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قرآ والنجم فسجد فيها وسجد من كان معه غير أن شيخاً من قريش أخذ كفاً من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته قال عبد الله فلقد رأيته بعد قتل كافراً " .

أخرجه البخاري ومسلم وصح في حديث ابن عباس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس " .

رواه البخاري فهذا الذي جاء في الصحيح لم يذكر فيه أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ذكر تلك الألفاظ ولا قرأها والذي ذكره المفسرون عن ابن عباس في هذه القصة .

(91/527)

وفقد رواه عنه الكلبي وهو ضعيف جداً فهذا توهين هذه القصة الجواب الثاني : وهو من حيث المعنى هو أنّ الحجة قد قامت بالدليل الصحيح وإجماع الأمة على عصمة النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة وهو تمنيه أن ينزل عليه مدح إليه غير الله أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه حتى نبهه جبريل عن ذلك فهذا كله ممتنع في حقه (صلى الله عليه وسلم) قال الله عزّ وجلّ ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا من الوتين ﴾ الآية الجواب الثالث : في تسليم وقوع هذه القصة وسبب سجود الكفار أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) كان إذا قرأ يرتل القرآن ترتيلاً ويفصل الآي تفصيلاً كما صح عنه في قراءته فيحتمل أن الشيطان ترصد لتلك السكتات فدس فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكياً لصوت النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ، فسمعه من دنا منه من الكفار فظنوها من قول النبيّ (صلى الله عليه وسلم) فسجدوا معه لسجوده فأما المسلمون فلم يقدح ذلك عندهم لتحققهم من حال النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ذم الأوثان وإنهم كانوا يحفظون السورة كما أولها الله عزّ وجلّ الجواب الرابع : في تحقيق تفسير الآية وقد تقدم أنّ التمني يكون حديث النفس وبمعنى التلاوة فعلى الأول : يكون معنى قوله ﴿ إلا إذا تمنى ﴾ أي خطر بباله وتمنى بقلبه بعض الأمور ولا يبعد أنه إذا قوي التمني اشتغل الخاطر فحصل السهو في الأفعال الظاهرة وعلى الثاني : وهو تفسير التمني بالتلاوة فيكون معنى قوله ﴿ إلا إذا تمنى ﴾ أي تلا وهو ما يقع

للنبيّ (صلى الله عليه وسلم) من السهو في إسقاط آية أو آيات أو كلمة أو نحو ذلك ولكنه لا يقر على هذا السهو بل ينبه عليه ويذكر به للوقت والحين كما صح في الحديث

(92/527)

" لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أنسيتها في سورة كذا " وحاصل هذا أن الغرض من هذه الآية أن الأنبياء والرسل وإن عصمهم الله عن الخطأ في العلم فلم يعصمهم من جواز السهو عليهم بل حالهم في ذلك كحال سائر البشر والله تعالى أعلم .

قوله عزّ وجلّ ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ أي يبطله ويذهبه ﴿ ثم يحكم الله آياته ﴾ أي يثبتها ﴿ والله عليم حكيم ﴾ قوله عزّ وجلّ ﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة ﴾ أي محنة وبلية والله تعالى يمتحن عباده بما يشاء ﴿ للذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك ونفاق ﴿ والقاسية قلوبهم ﴾ أي الجافية قلوبهم عن قبول الحق وهم المشركون ﴿ وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ أي في خلاف شديد .

﴿ وليعلم الذي أوتوا العلم ﴾ أي التوحيد والقرآن والتصديق بنسخ الله ما يشاء ﴿ أنه الحق من ربك ﴾ أي الذي أحكم الله من آيات القرآن هو الحق من ربك ﴿ فيؤمنوا به ﴾ أي يعتقدوا أنه من الله عزّ وجلّ ﴿ فتخبت له قلوبهم ﴾ أي تسكن إليه ﴿ وإن الله لهاد

الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ أي إلى طريق قويم وهو الإسلام .

قوله عزّ وجلّ ﴿ ولا يزال الذين كفروا في مرية منه ﴾ أي في شك من القرآن وقيل من الدين الذي هو صراط مستقيم ﴿ حتى تأتيهم الساعة بغتة ﴾ أي فجأة وقيل أراد بالساعة الموت ﴿ أو يأتيهم عذاب عقيم ﴾ أي عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة وقيل هو يوم بدر سمي عقيماً لأنه لم يكن في ذلك اليوم للكفار خير كالريح العقيم لا تأتي بخير وقيل لأنه لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه ﴿ الملك يومئذٍ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لله ﴾ وحده من غير منازع ولا مشارك فيه ﴿ يحكم ﴾ اي يفصل ﴿ بينهم ﴾ ثم بين ذلك الحكم فقال تعالى ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ .

(93/527)

قوله تعالى ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ﴾ أي فارقوا أوطانهم وعشائرهم في طاعة الله وطلب رضاه ﴿ ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ﴾ أي لا ينقطع أبداً وهو رزق الجنة لأنه فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿ وإن الله لهو خير الرازقين ﴾ فإن قلت الرازق في الحقيقة هو الله عزّ وجلّ لا رازق للخلق غيره فكيف قال وإن الله لهو خير

الرازقين .

قلت قد يسمى غير الله رازقاً على المجاز كقوله رزق السلطان الجند أي أعطاهم أرزاقهم وإن الرزاق في الحقيقة هو الله تعالى وقيل لأنه الله تعالى يعطي الرزق ما لا يقدر عليه غيره . ﴿ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ﴾ يعني الجنة يكرمون به ولا ينالهم فيه مكروه ﴿ وإن الله لعليم ﴾ بنياتهم ﴿ حليم ﴾ بالعفو عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 25.19 ﴾

(94/527)

وقال النسفى :

﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ ﴾

﴿ يدفع ﴾ مكي وبصري وغيرهما يدافع أي يبالغ في الدفع عنهم ﴿ عَنِ الذين ءامَنُواْ ﴾ أي يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ونحوه ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين ءامَنُواْ ﴾ [غافر : 51] ثم علل ذلك بقوله ﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ ﴾ في أمانة الله ﴿ كَفُورٌ ﴾ لنعمة الله أي لأنه لا يحب أضدادهم وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغمطونها .

﴿ أُذِنَ ﴾ مدني وبصري وعاصم ﴿ لِلَّذِينَ يقاتلون ﴾ بفتح التاء مدني وشامي وحفص ، والمعنى أذن لهم في القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان مشركو مكة يؤذونهم أذىً شديداً وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر فأنزلت هذه الآية ، وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية ﴿ وَإِنَّ الله على نَصْرِهِمْ ﴾ على نصر المؤمنين ﴿ لَقَدِيرٌ ﴾ قادر وهو بشارة للمؤمنين بالنصرة وهو مثل قوله ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾

(95/527)

﴿ الذين ﴾ في محل جر بدل من ﴿ الذين ﴾ أو نصب ب "أعني" أو رفع بإضمارهم ﴿ أُخْرِجُواْ مِن ديارهم ﴾ بمكة ﴿ بِغَيْرِ حَقّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله ﴾ أي بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب التمكين لا موجب الإخراج ومثله ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ ءامَنَّا بالله ﴾ [المائدة : 59] ومحل أن يقولوا جر بدل من ﴿ حق ﴾ والمعنى ما أخرجوا من ديارهم إلا بسبب قولهم ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ الله ﴾ ﴿ دفاع ﴾ مدني ويعقوب ﴿

الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ ﴾ وبالتخفيف حجازي ﴿ صوامع وَبِيَعٌ وصلوات ومساجد ﴾ أي لولا إظهاره وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم وعلى متعبداتهم فهدموها ولم يتركوا للنصارى بيعاً ولا لرهبانهم صوامع ولا لليهود صلوات أي كنائس .

وسميت الكنيسة صلاة لأنها يصلى فيها ولا للمسلمين مساجد ، أو لغلب المشركون في أمة محمد صلى الله عليه وسلم على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين ، وقدم غير المساجد عليها لتقدمها وجوداً أو لقربها من التهديم ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً ﴾ في المساجد أو في جميع ما تقدم ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ ﴾ أي ينصر دينه وأوليائه ﴿ إِنَّ الله لَقَوِيٌّ ﴾ على نصر أوليائه ﴿ عَزِيزٌ ﴾ على انتقام أعدائه .

﴿ الذين ﴾ محله نصب بدل من ﴿ من ينصره ﴾ أو جر تابع ل ﴿ الذين أخرجوا ﴾ ﴿ إِنْ مكناهم فِى الأرض أَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكواة وَأَمَرُواْ بالمعروف وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر ﴾ هو إخبار من الله عما ستكون عليه سيرة المهاجرين إن مكنهم في الأرض وبسط لهم في الدنيا وكيف يقومون بأمر الدين ، وفيه دليل صحة أمر الخلفاء الراشدين لأن الله عز وجل أعطاهم التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة .

وعن الحسن : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلِلَّهِ عاقبة الأمور ﴾ أي مرجعها إلى حكمه وتقديره ، وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمته .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ هذه تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم من تكذيب أهل مكة إياه أي لست بأوحدي في التكذيب ﴿ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ قبل قومك ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ نوحاً ﴿ وَعَادٌ ﴾ هوداً ﴿ وَثَمُودُ ﴾ صالحاً ﴿ وَقَوْمِ إبراهيم ﴾ إبراهيم ﴿ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ لوطاً ﴿ وأصحاب مَدْيَنَ ﴾ شعيباً ﴿ وَكُذِّبَ موسى ﴾ كذبه فرعون والقبط ولم يقل وقوم موسى لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه ، أو كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته وظهور معجزاته فما ظنك بغيره ! ﴿ فَأَمْلَيْتُ للكافرين ﴾ أمهلتهم وأخرت عقوبتهم ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ عاقبتهم على كفرهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إنكاري وتغييري حيث أبدلتهم بالنعم نقماً وبالحياة هلاكاً وبالعمارة خراباً .

(97/527)

﴿ نكيري ﴾ بالياء في الوصل والوقف : يعقوب ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أهلكناها ﴾ ﴿ أهلكتها ﴾ بصري ﴿ وَهِيَ ظالمة ﴾ حال أي وأهلها مشركون ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ ساقطة من خوى النجم إذا سقط ﴿ على عُرُوشِهَا ﴾ يتعلق ب ﴿ خاوية ﴾ والمعنى أنها ساقطة على سقوفها أي خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف ، ولا محل ل ﴿ فهي خاوية ﴾ من الإعراب لأنها معطوفة على ﴿ أهلكناها ﴾ وهذا الفعل ليس له محل ، وهذا إذا جعلنا ﴿ كأين ﴾ منصوب المحل على تقدير كثيراً من القرى أهلكناها ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ أي متروكة لفقد دلوها ورشائها وفقد تفقدها ، أو هي عامرة فيها الماء ومعها آلات الاستقاء إلا أنها عطلت أي تركت لا يستقي منها لهلاك أهلها ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ مجصص من الشيد الجص أو مرفوع البنيان من شاد البناء رفعه ، والمعنى كم قرية أهلكناها وكم بئر عطلناها عن سقاتها وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه أي أهلكنا البادية والحاضرة جميعاً فخلت القصور عن أربابها والآبار عن واردها والأظهر أن البئر والقصر على العموم .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ هذا حث على السفر ليروا مصارع من أهلهم بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أي يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ونحوه ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فِى الصدور ﴾ الضمير في ﴿ فإنها ﴾ ضمير

القصة أو ضمير مبهم يفسره ﴿ الأبصار ﴾ أي فما عميت أبصارهم عن الإبصار بل قلوبهم عن الاعتبار .

ولكل إنسان أربع أعين : عينان في رأسه وعينان في قلبه ، فإذا أبصر ما في القلب وعمي ما في الرأس لم يضره ، وإن أبصر ما في الرأس وعمي ما في القلب لم ينفعه ، وذكر الصدور لبيان أن محل العلم القلب ولئلا يقال : إن القلب يعني به غير هذا العضو كما يقال "القلب لب كل شيء" .

(98/527)

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ الآجل استهزاء ﴿ وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ ﴾ كأنه قال : ولم يستعجلونك به كأنهم يجوزون الفوت وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف ولن يخلف الله وعده وما وعده ليصيبنهم ولو بعد حين ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ﴿ يعدون ﴾ مكي وكوفي غير عاصم أي كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنيكم لأن أيام الشدائد طوال .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظالمة ﴾ أي وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ بالعذاب ﴿ وَإِلَيَّ المصير ﴾ أي المرجع إلي فلا يفوتني

شيء .

وإنما كانت الأولى أي ﴿ فكأين ﴾ معطوفة بالفاء وهذه أي ﴿ وكأين ﴾ بالواو لأن الأولى وقعت بدلاً عن ﴿ فكيف كان نكير ﴾ وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو وهما ﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ ﴾ .

﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الناس إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ وإنما لم يقل بشير ونذير لذكر الفريقين بعده لأن الحديث مسوق إلى المشركين و ﴿ يا أيها الناس ﴾ نداء لهم وهم الذين قيل فيهم ﴿ أفلم يسيروا ﴾ ووصفوا بالاستعجال .

وإنما أقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا ، أو تقديره نذير مبين وبشير فبشر أولاً فقال ﴿ فالذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أي حسن .

ثم أنذر فقال ﴿ والذين سَعَوْاْ ﴾ سعى في أمر فلان إذا أفسده بسعيه ﴿ في ءاياتنا ﴾ أي القرآن ﴿ معاجزين ﴾ حال ﴿ معجزين ﴾ حيث كان : مكي وأبو عمرو .

وعاجزه سابقه كأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به فإذا سبقه قيل أعجزه وعجزه .

والمعنى سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها حيث سموها سحراً وشعراً وأساطير مسابقين في زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لها ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ أي النار الموقدة .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ "من" لابتداء الغاية ﴿ مِن رَّسُولٍ ﴾ "من" زائدة لتأكيد النفي ﴿ وَلَا نَبِيّ ﴾ هذا دليل بين على ثبوت التغاير بين الرسول والنبي بخلاف ما يقول البعض إنهما واحد .

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء فقال " مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً " فقيل : فكم الرسل منهم ؟ فقال : " ثلثمائة وثلاثة عشر " والفرق بينهما أن الرسول من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه ، والنبي من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله .

وقيل : الرسول واضع شرع والنبي حافظ شرع غيره ﴿ إِلَّا إِذَا تمنى ﴾ قرأ ، قال تمنى كتاب الله أول ليلة . . .

تمنى داود الزبور على رسل

﴿ أَلْقَى الشيطان فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ تلاوته .

قالوا : إنه عليه السلام كان في نادي قومه يقرأ "والنجم" فلما بلغ قوله ﴿ ومناة الثلاثة الأخرى ﴾ [النجم : 20] جرى على لسانه "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى"

ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبه عليه .

وقيل : نبهه جبريل عليه السلام فأخبرهم أن ذلك كان من الشيطان .

(100/527)

وهذا القول غير مرضي لأنه لا يخلوا إما أن يتكلم النبي عليه السلام بها عمداً وإنه لا يجوز لأنه كفر ولأنه بعث طاعناً للأصنام لا مادحاً لها ، أو أجرى الشيطان ذلك على لسان النبي عليه السلام جبراً بحيث لا يقدر على الامتناع منه وهو ممتنع لأن الشيطان لا يقدر على ذلك في حق غيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ [الإسراء : 65] ففي حقه أولى ، أو جرى ذلك على لسانه سهواً وغفلة وهو مردود أيضاً لأنه لا يجوز مثل هذه الغفلة عليه في حال تبليغ الوحي ولو جاز ذلك لبطل الاعتماد على قوله ، ولأنه تعالى قال في صفة المنزل عليه

﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت : 42] وقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [الحجر : 9] فلما بطلت هذه الوجوه لم يبق إلا وجه واحدٍ وهو أنه عليه السلام سكت عند قوله ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلاً بقراءة النبي صلى الله عليه وسلم فوقع عند بعضهم أنه عليه السلام هو

الذي تكلم بها ، فيكون هذا إلقاء في قراءة النبي عليه السلام وكان الشيطان يتكلم في زمن النبي عليه السلام ويسمع كلامه ، فقد رُوي أنه نادى يوم أحد ألا إن محمداً قد قتل وقال يوم بدر : ﴿ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ [الأنفال : 48]

﴿ فَيَنسَخُ الله مَا يُلْقِي الشيطان ﴾ أي يذهب به ويبطله ويخبر أنه من الشيطان ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ الله ءاياته ﴾ أي يثبتها ويحفظها من لحوق الزيادة من الشيطان ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بما أوحى إلى نبيه وبقصد الشيطان ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يدعه حتى يكشفه ويزيله .

ثم ذكر أن ذلك ليفتن الله تعالى به قوماً بقوله .

(101/527)

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان فِتْنَةً ﴾ محنة وابتلاء ﴿ لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ شك ونفاق ﴿ والقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ هم المشركون المكذبون فيزدادوا به شكاً وظلمة ﴿ وَإِنَّ الظالمين ﴾ أي المنافقين والمشركين وأصله و"إنهم" فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم ﴿ لَفِي شِقَاقٍ ﴾ خلاف ﴿ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق .

﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ بالله وبدينه وبالآيات ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي القرآن ﴿ الحق مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿ فَتُخْبِتَ ﴾ فتطمئن ﴿ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الله لَهَادِ الذين ءامَنُواْ

إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فيتأولون ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبون لما أشكل منه المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ ﴾ شك ﴿ مِنْهُ ﴾ من القرآن أو من الصراط المستقيم ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ يعني يوم بدر فهو عقيم عن أن يكون للكافرين فيه فرج أو راحة كالريح العقيم لا تأتي بخير.

أو شديد لا رحمة فيه أو لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه.

وعن الضحاك أنه يوم القيامة وأن المراد بالساعة مقدماته.

﴿ الملك يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة والتنوين عوض عن الجملة أي يوم يؤمنون أو يوم تزول مريتهم ﴿ لِلَّهِ ﴾ فلا منازع له فيه ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يقضي.

ثم بين حكمه فيهم بقوله ﴿ فالذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِى جنات النعيم والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ثم خص قوماً من الفريق الأول بفضيلة فقال:

﴿ والذين هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ خرجوا من أوطانهم مجاهدين ﴿ ثُمَّ قُتِلُواْ ﴾ شامي ﴿ أَوْ مَاتُواْ ﴾ حتف أنفهم ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رِزْقاً حَسَناً ﴾ قيل : الرزق الحسن الذي لا ينقطع أبداً ﴿ وَإِنَّ الله لَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾ لأنه المخترع للخلق بلا مثال ، المتكفل للرزق بلا ملال ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلاً ﴾ بفتح الميم مدني والمراد الجنة ﴿ يَرْضَوْنَهُ ﴾ لأن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿ وَإِنَّ الله لَعَلِيمٌ ﴾ بأحوال من قضى نحبه مجاهداً ، وآمال من مات وهو ينتظر معاهداً ﴿ حَلِيمٌ ﴾ بإمهال من قاتلهم معانداً .

رُوي أن طوائف من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : يا نبي الله : هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك ؟ فأنزل الله هاتين الآيتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 103 . 108 ﴾

(103/527)

وقال البيضاوى :

﴿ إِنَّ الله يُدَافِعُ عَنِ الذين ءَامَنُواْ ﴾

غائلة المشركين ، وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون ﴿ يُدَافِعُ ﴾ أي يبالغ في الدفع مبالغة من

يغالب فيه . ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ ﴾ في أمانة الله . ﴿ كَفُورٍ ﴾ لنعمته كمن يتقرب إلى الأصنام بذبيحته فلا يرتضي فعلهم ولا ينصرهم .

﴿ أُذِنَ ﴾ رخص ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي على البناء للفاعل وهو الله . ﴿ لِلَّذِينَ يقاتلون ﴾ المشركين والمأذون فيه محذوف لدلالته عليه ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح التاء أي الذين يقاتلهم المشركون . ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ بسبب أنهم ظلموا وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان المشركون يؤذونهم وكانوا يأتونه من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر فأنزلت . وهي أول آية نزلت في القتال بعد ما نهي عنه في نيف وسبعين آية . ﴿ وَإِنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وعد لهم بالنصر كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم .

﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن ديارهم ﴾ يعني مكة . ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ بغير موجب استحقوه به . ﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله ﴾ على طريقة قول النابغة :

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُم . . . بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

وقيل منقطع . ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ الناس بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ بتسليط المؤمنين منهم على الكافرين . ﴿ لَّهُدِّمَتْ ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل ، وقرأ نافع ﴿ دفاع ﴾ وقرأ نافع وابن كثير ﴿ لَّهُدِّمَتْ ﴾ بالتخفيف . ﴿ صوامع ﴾ صوامع الرهبانية . ﴿ وَبِيَعٌ ﴾ بيع النصارى . ﴿ وصلوات ﴾ كنائس اليهود ، سميت بها لأنها يصلى فيها ، وقيل أصلها صلوتا بالعبرانية فعربت . ﴿ ومساجد ﴾ مساجد المسلمين . ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً ﴾ صفة للأربع أو لمساجد خصت بها تفضيلاً . ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ من ينصر دينه ، وقد أنجز وعده بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم . ﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ ﴾ على نصرهم . ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يمانعه شيء .

﴿ الذين إِنْ مكناهم فِى الأرض أَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكوة وَأَمَرُواْ بالمعروف وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر ﴾ وصف للذين أخرجوا وهو ثناء قبل بلاء ، وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين إذ لم يستجمع ذلك غيرهم من المهاجرين . وقيل بدل ممن ينصره . ﴿ وَلِلَّهِ عاقبة الأمور ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه ، وفيه تأكيد لما وعده .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إبراهيم وَقَوْمُ لُوطٍ وأصحاب مَدْيَنَ ﴾ تسلية له صلى الله عليه وسلم بأن قومه إن كذبوه فهو ليس بأحودي في التكذيب ، فإن هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومه . ﴿ وَكُذِّبَ موسى ﴾ غير فيه النظم

وبنى الفعل للمفعول لأن قومه بنو إسرائيل ، ولم يكذبوه وإنما كذبه القبط ولأن تكذيبه كان أشنع وآياته كانت أعظم وأشيع . ﴿ فَأَمْلَيْتُ للكافرين ﴾ فأمهلتهم حتى انصرمت آجالهم المقدرة . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري عليهم بتغيير النعمة محنة والحياة هلاكاً والعمارة خراباً .

(105/527)

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أهلكناها ﴾ بإهلاك أهلها ، وقرأ البصريان بغير لفظ التعظيم . ﴿ وَهِىَ ظالمة ﴾ أي أهلها . ﴿ فَهِىَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ ساقطة حيطانها على سقوفها بأن تعطل بنيانها فخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف ، أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها فيكون الجار متعلقاً ب ﴿ خَاوِيَةٌ ﴾ ، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر أي هي خالية وهي على عروشها أي : مطلة عليها بأن سقطت وبقيت الحيطان مائلة مشرفة عليها ، والجملة معطوفة على ﴿ أهلكناها ﴾ لا على ﴿ وَهِىَ ظالمة ﴾ فإنها حال والإهلاك ليس حال خوائها فلا محل لها إن نصبت كأي بمقدر يفسره ﴿ أهلكناها ﴾ وإن رفعته بالإبتداء فمحلها الرفع . ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ عطف على ﴿ قَرْيَةٍ ﴾ أي وكم بئر عامرة في البوادي تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها ، وقرىء

بالتخفيف من أعطله بمعنى عطله .

﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ مرفوع أو مجصص أخليناه عن ساكنيه ، وذلك يقوي أن معنى ﴿ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ﴾ خالية مع بقاء عروشها ، وقيل المراد ب ﴿ بئر ﴾ بئر في سفح جبل بحضرموت وبقصر قصر مشرف على قلته كانا لقوم حنظلة بن صفوان من قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلهما .

(106/527)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ حث لهم على أن يسافروا ليروا مصارع المهلكين فيعتبروا ، وهم وإن كانوا قد سافروا فلم يسافروا لذلك . ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ ما يجب أن يعقل من التوحيد بما حصل لهم من الاستبصار والاستدلال . ﴿ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ ما يجب أن يسمع من الوحي والتذكير بحال من شاهدوا آثارهم . ﴿ فَإِنَّهَا ﴾ الضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبصار . وفي ﴿ تَعْمَى ﴾ راجع إليه والظاهر أقيم مقامه . ﴿ لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فِى الصدور ﴾ عن الاعتبار أي ليس الخلل في مشاعرهم وإنما أيفت عقولهم باتباع الهوى والانهماك في التقليد ، وذكر ﴿ الصدور ﴾ للتأكيد ونفي التجوز وفضل التنبيه على أن العمى الحقيقي ليس المتعارف الذي يخص

البصر . قيل لما نزل ﴿ وَمَن كَانَ فِى هذه أعمى ﴾ قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى فنزلت ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ﴾ ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ المتوعد به . ﴿ وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ ﴾ لامتناع الخلف في خبره فيصيبهم ما أوعدهم به ولو بعد حين لكنه صبور لا يعجل بالعقوبة . ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ بيان لتناهي صبره وتأنيه حتى استقصر المدد الطوال ، أو لتمادي عذابه وطول أيامه حقيقة ، أو من حيث إن أيام الشدائد مستطالة ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء .

(107/527)

﴿ وَكَأَيّن مّن قَرْيَةٍ ﴾ وكم من أهل قرية فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب ، ورجع للضمائر والأحكام مبالغة في التعميم والتهويل وإنما عطف الأولى بالفاء وهذه بالواو ، لأن الأولى بدل من قوله ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ وهذه في حكم ما تقدمها من الجملتين لبيان أن المتوعد به يحيق بهم لا محالة وأن تأخيره لعادته تعالى . ﴿ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ كما أمهلتكم . ﴿ وَهِىَ ظَالمة ﴾ مثلكم . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ بالعذاب . ﴿ وَإِلَىَّ المصير ﴾ وإلى حكمي مرجع الجميع .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الناس إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أوضح لكم ما أنذركم به ، والاقتصار على الإِنذار مع عموم الخطاب وذكر الفريقين لأن صدر الكلام ومساقه للمشركين ، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة في غيظهم .

﴿ فالذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ ﴾ لما بدر منهم . ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ هي الجنة وال ﴿ كَرِيمٌ ﴾ من كل نوع ما يجمع فضائله .

﴿ والذين سَعَوْاْ فِى ءاياتنا ﴾ بالرد والإِبطال . ﴿ معاجزين ﴾ مسابقين مشاقين للساعين فيها بالقبول والتحقيق ، من عاجزه فأعجزه وعجزه إذا سابقه فسبقه لأن كلا من المتسابقين يطلب إعجاز الآخر عن اللحوق به ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ معاجزين ﴾ على أنه حال مقدرة . ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ النار الموقدة ، وقيل اسم دركة .

(108/527)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ ﴾ الرسول من بعثه الله بشريعة مجددة يدعو الناس إليها ، والنبي يعمه ومن بعثه لتقرير شرع سابق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام ، ولذلك شبه النبي صلى الله عليه وسلم علماء أمته بهم ، فالنبي أعم من الرسول ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن الأنبياء فقال : " مائة

ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، قيل فكم الرسل منهم قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً "

وقيل الرسول من جمع إلى المعجزة كتاباً منزلاً عليه ، والنبي غير الرسول من لا كتاب له .

وقيل الرسول من يأتيه الملك بالوحي ، والنبي يقال له ولمن يوحى إليه في المنام . ﴿ إِلاَّ إِذَا تمنى ﴾ زور في نفسه ما يهواه . ﴿ أَلْقَى الشيطان فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ في تشهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام " وإنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة " ﴿ فَيَنسَخُ الله مَا يُلْقِى الشيطان ﴾ فيبطله ويذهب به بعصمته عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يزيحه . ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ الله ءاياته ﴾ ثم يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق في أمر الآخرة . ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بأحوال الناس . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يفعله بهم ، قيل حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت . وقيل تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يقربهم إليه واستمر به ذلك حتى كان في ناديهم فنزلت عليه سورة "والنجم" فأخذ يقرؤها فلما بلغ ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانه سهواً إلى أن قال : تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ، ففرح به المشركون حتى شايعوه بالسجود لمَّا سجد في آخرها ، بحيث لم يبق في المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد ، ثم نبهه جبريل عليه السلام فاغتم لذلك فعزاه الله بهذه الآية . وهو مردود عند المحققين وإن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه ، وقيل تمنى قرأ كقوله :

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ . . . تَمَنِّيَ دَاوُدُ الزَّبُورَ عَلَى رسلِ

وأمنيته قراءته وإلقاء الشيطان فيها أن تكلم بذلك رافعاً صوته بحيث ظن السامعون أنه من قراءة النبي صلى الله عليه وسلم. وقد رد أيضاً بأنه يخل بالوثوق على القرآن ولا يندفع بقوله ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشيطان ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ ءاياته ﴾ لأنه أيضاً يحتمله، والآية تدل على جواز السهو على الأنبياء وتطرق الوسوسة إليهم.

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان ﴾ علة لتمكين الشيطان منه، وذلك يدل على أن الملقى أمر ظاهر عرفه المحق والمبطل. ﴿ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ شك ونفاق. ﴿ والقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ المشركين. ﴿ وَإِنَّ الظالمين ﴾ يعني الفريقين فوضع الظاهر موضع ضميرهم قضاء عليهم بالظلم. ﴿ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق أو عن الرسول والمؤمنين.

﴿ وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ﴾ أن القرآن هو الحق النازل من عند الله، أو تمكين الشيطان من الإلقاء هو الحق الصادر من الله لأنه مما جرت به عادته في الإنس من لدن آدم. ﴿ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ ﴾ بالقرآن أو بالله. ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ بالإنقياد والخشية. ﴿ إِنَّ اللهَ لَهَادِي الَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فيما أشكل. ﴿ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هو نظر صحيح يوصلهم إلى ما هو الحق فيه.

﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ ﴾ في شك . ﴿ مِنْهُ ﴾ من القرآن أو الرسول ، أو مما ألقى الشيطان في أمنيته يقولون ما باله ذكرها بخير ثم ارتد عنها . ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة ﴾ القيامة أو أشراطها أو الموت . ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر ، سمي به لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كالعقم ، أو لأن المقاتلين أبناء الحرب فإذا قتلوا صارت عقيماً ، فوصف اليوم بوصفها اتساعاً أو لأنه لا خير لهم فيه ، ومنه الريح العقيم لما لم تنشىء مطراً ولم تلقح شجراً ، أو لأنه لا مثل له لقتال الملائكة فيه ، أو يوم القيامة على أن المراد ب ﴿ الساعة ﴾ غيره أو على وضعه ، موضع ضميرها للتهويل .

﴿ الملك يَوْمَئِذٍ للَّهِ ﴾ التنوين فيه ينوب عن الجملة التي دلت عليها الغاية أي : يوم تزول مريتهم . ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ بالمجازاة ، والضمير يعم المؤمنين والكافرين لتفصيله بقوله : ﴿ فالذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِي جنات النعيم ﴾ .

﴿ والذين كَفَرُواْ بآياتنا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وإدخال الفاء في خبر الثاني دون الأول تنبيه على أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى ، وأن عقاب الكافرين مسبب عن

أعمالهم فلذلك قال ﴿ لَهُمْ عَذَابَ ﴾ ولم يقل : هم في عذاب .

﴿ والذين هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ الله ثُمَّ قُتِلُواْ ﴾ في الجهاد . ﴿ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رِزْقاً حَسَناً ﴾ الجنة ونعيمها ، وإنما سوى بين من قتل في الجهاد ومن مات حتف أنفه في الوعد لاستوائهما في القصد وأصل العمل . روي أن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم قالوا : يا نبي الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا فنزلت . ﴿ وَإِنَّ الله لَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾ فإنه يرزق بغير حساب .

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ ﴾ هو الجنة فيها ما يحبونه . ﴿ وَإِنَّ الله لَعَلِيمٌ ﴾ بأحوالهم وأحوال معادهم . ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجل في العقوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 128.137 ﴾

(111/527)

وقال ابن جزى :

﴿ إِنَّ الله يُدَافِعُ عَنِ الذين آمنوا ﴾

كان الكفار يؤذون المؤمنين بمكة ، فوعدهم الله أن يدفع عنهم شرهم وأذاهم ، وحذف

مفعول يدافع ليكون أعظم وأعم وقرىء " يدافع " بالألف ، ويدفع بسكون الدال من غير الألف ، وهما بمعنى واحد ، أجريت فاعل مجرى فَعَل من قولك عاقبة الأمر ، وقال الزمخشري : يدافع : معناه يبالغ في الدفع عنهم ، لأنه للمبالغة ، وفعل المغالبة أقوى ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ الخوّان مبالغة في خائن ، والكفور مبالغة في كافر ، قال الزمخشري : هذه الآية علة لما قبلها .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ هذه أول آية نزلت في الإذن في القتال ، ونسخت الموادعة مع الكفار ، وكان نزولها عند الهجرة ، وقرىء أذن بضم الهمزة على البناء لما لم يسم فاعله وبالفتح على البناء للفاعل وهو الله تعالى والمعنى أذن لهم في القتال فحذف المأذون فيه لدلالة ﴿ يُقَاتَلُونَ ﴾ عليه ، وقرىء ﴿ يُقَاتَلُونَ ﴾ بفتح التاء وكسرها ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ أي بسبب أنهم ظلموا .

(112/527)

﴿ الذين أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم ﴾ يعني الصحابة ، فإن الكفار آذوهم وأضروا بهم حتى اضطروهم إلى الخروج من مكة ، فمنهم من هاجر إلى أرض الحبشة ، ومنهم من هاجر إلى المدينة ونسب الإخراج إلى الكفار ؛ لأن الكلام في معرض إلزامهم الذنب وصفهم بالظلم

﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللهُ ﴾ قال ابن عطية هو استثناء منقطع لا يجوز فيه البدل عند سيبويه ، وقال الزمخشري : ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ في محل الجر على الابدال من حق ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَاسَ ﴾ الآية تقوية للإذن في القتال وإظهار للمصلحة التي فيه ، كأن يقول لولا القتال والجهاد لاستولى الكفار على المسلمين وذهب الدين ، وقيل : المعنى ؛ لولا دفع ظلم الظلمة بعدل الولاة ، والأول أليق بسياق الآية ، وقرأ نافع : دفاع بالألف مصدر دافع ، والباقون بغير ألف مصدر دفع ﴿ لَّهُدِّمَتْ ﴾ قرأ نافع وابن كثير بالتخفيف والباقون بالتشديد للمبالغة ﴿ صَوَامِعُ ﴾ جمع صومعة بفتح الميم وهي موضع العبادة ، وكانت للصابئين ولرهبان النصارى ، ثم سمى بها في الإسلام موضع الأذان ، والبيع جمع بيعة بكسر الباء وهي كنائس النصارى ، والصلوات كنائس اليهود ، وقيل : هي مشتركة لكل أمة ، والمراد بها مواضع الصلوات ، والمساجد للمسلمين ، فالمعنى : لولا دفع الله لاستولى الكفار على أهل الملل المتقدمة في أزمانهم ، ولاستولى المشركون على هذه الأمة فهدموا مواضع عباداتهم ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله ﴾ الضمير لجميع ما تقدم من المتعبدات ، وقيل : للمساجد خاصة ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ أي من ينصر دينه وأولياءه ، وهو وعد تضمن الحض على القتال .

﴿ الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ ﴾ الآية ؛ قيل : يعني أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل :

الصحابة ، وقيل : الخلفاء الأربعة لأنهم الذين مكنوا في الأرض بالخلافة ففعلوا ما وصفهم الله به .

(113/527)

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ الآية ضمير الفاعل لقريش ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم على وجه التسلية له والوعيد لهم ﴿ نَكِيرِ ﴾ مصدر بمعنى الإنكار ﴿ على عُرُوشِهَا ﴾ العروش السقف فإن تعلق الجار بخاوية : فالمعنى أن العروش سقطت ثم سقطت الحيطان عليها فهي فوقها ، وإن كان الجار والمجرور في موضع الحال : فالمعنى أنها خاوية مع بقاء عروشها ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ أي لا يُسقى الماء منها لهلاك أهلها ، ورُوي أن هذا البئر هي الرس ، وكانت (بعدن) لأمة من بقايا ثمود ، والأظهر أنه لم يرد التعيين ، لقوله : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ وهذا اللفظ يراد به التكثير ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ أي مبنى بالشيد وهو الجص ، وقيل : المشيد المرفوع البنيان ﴿ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ ﴾ دليل على أن العقل في القلب ، خلافاً للفلاسفة في قولهم : العقل في الدماغ ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبصار ﴾ أي لا تعمى الأبصار عمى يعتد به ، وإنما العمى الذي يعتد به عمى القلوب ، وإن هؤلاء القوم ما عميت

أبصارهم ولكن عميت قلوبهم ، فالمعنى الأول لقصد المبالغة ، والثاني خاص بهؤلاء القوم ﴿ التي فِي الصدور ﴾ مبالغة كقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم ﴾ [آل عمران : 167] .

(114/527)

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ الضمير لكفار قريش ﴿ وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ ﴾ إخبار يتضمن الوعيد بالعذاب ، وسماه وعداً ؛ لأن المراد به مفهوم ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ المعنى أن يوماً من أيام الآخرة مقداره ألف سنة من أعوام الدنيا ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم . وذلك خمسمائة سنة ، وقيل : المعنى إن يوماً واحداً من أيام العذاب كألف سنة لطول العذاب ، فإن أيام البؤس طويلة ، وإن كانت في الحقيقة قصيرة ، وفي كل واحد من الوجهين تهديد للذين استعجلوا العذاب ، إلا أن الأول أرجح ، لأن الألف سنة فيه حقيقة ، وقيل : إن اليوم المذكور في الآية هو يوم من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ ذكر أولاً القرى التي أهلكها بغير إملاء ، وذكر هنا التي أهلكها بعد الإملاء ، والإملاء هو الإمهال مع إرادة المعاقبة فيما بعد ، وعطف هذه الجملة بالواو على الجمل المعطوفة قبلها بالواو ، وقال في الأولى ﴿ فَكَأَيِّن ﴾ لأنه بدل من قوله : ﴿ فَكَيْفَ

كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج : 44] .

﴿ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ﴾ أي سعوا فيها بالطعن عليها ، وهو من قولك : سعى في الأمر إذا وجد فيه لقصد إصلاحه أو إفساده ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ بالألف أي مغالبين ، لأنهم قصدوا عجز صاحب الآيات ، والآيات تقتضي عجزهم ، فصارت مفاعلة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتشديد من غير ألف ومعناه أنهم يعجزون الناس عن الإسلام أي يثبطونهم عنه .

(115/527)

﴿ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ النبيّ أعم من الرسول ، فكل رسول نبيّ وليس كل نبيّ رسولاً ، فقدم الرسول لمناسبته لقوله ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ وأخر النبي لتحصيل العموم ، لأنه لو اقتصر على رسول لم يدخل في ذلك من كان نبياً غير رسول ﴿ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ سبب هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة والنجم بالمسجد الحرام بمحضر المشركين والمسلمين فلما بلغ إلى قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللات والعزى * وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 19-20] ألقى الشيطان : تلك الغرانيق العلى ، منها الشفاعة ترتجى ، فسمع ذلك المشركون ففرحوا به وقالوا : محمد يذكر آلهتنا بما نريد .

واختلف في كيفية إلقاء الشيطان ، فقيل : إن الشيطان هو الذي تكلم بذلك ، وظن الناس

أن النبي صلى الله عليه وسلم هو المتكلم به ؛ لأنه قرّب صوته من صوت النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى التبس الأمر على المشركين ، وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي تكلم بذلك على وجه الخطأ والسهو ؛ لأن الشيطان ألقاه ووسوس في قلبه ، حتى خرجت تلك الكلمة على لسانه من غير قصد ، والقول الثاني أشهر عند المفسرين والناقلين لهذه القصة ، والقول الأول أرجح لأن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم في التبليغ ، فمعنى الآية : أن كل نبي وكل رسول قد جرى له مثل ذلك من إلقاء الشيطان ، واختلف في معنى تمنى وأمنيته في هذه الآية فقيل : تمنى بمعنى تلا ، والأمنية : التلاوة : أي إذا قرأ الكتاب ألقى الشيطان من عنده في تلاوته ، وقيل : هو من التمني بمعنى حب الشيء ، وهذا المعنى أشهر في اللفظ : أي تمنى النبي صلى الله عليه وسلم مقاربة قومه واستئلافهم ، وألقى الشيطان ذلك في هذه الأمنية ليعجبهم ذلك ﴿ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشيطان ﴾ أي يبطله كقولك : نسخت الشمس الظل .

(116/527)

﴿ لِّيَجْعَلَ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ يَنسَخُ ﴾ و ﴿ يُحْكِمُ ﴾ ﴿ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي أهل الشك ﴿ والقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ المكذبون ، وقيل : ﴿ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾

عامة الكفار ، ﴿ والقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ أشدُّ كفراً وعتوّاً كأبي جهل ﴿ وَإِنَّ الظالمين لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ يعني بالظالمين المذكورين قبل ، ولكنه جعل الظاهر موضع المضمر ، ليقضي عليهم بالظلم ، والشقاق : العداوة ، ووصفه ببعيد ، لأنه في غاية الضلال والبعد عن الخير

.

﴿ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ قيل : يعني الصحابة ، واللفظ أعم من ذلك .

﴿ أَنَّهُ الحق ﴾ الضمير عائد على القرآن ، وقال الزمخشري : هو لتمكين الشيطان من الإلقاء ﴿ فَتُخْبِتَ ﴾ أي تشخع .

﴿ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ الضيمر للقرآن ، أو للنبي صلى الله عليه وسلم أو للإلقاء ﴿ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ يعني يوم بدر ، ووصفه بالعقيم لأنه لا ليلة لهم بعده ولا يوم ، لأنهم يقتلون فيه ، وقيل : هو يوم القيامة ، والساعة مقدّماته ، ويقوي ذلك قوله : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ للَّهِ ﴾ ، ثم قسم الناس إلى قسمين : أصحاب الجحيم وأصحاب النعيم .

﴿ قتلوا أَوْ مَاتُواْ ﴾ روى أن قوماً قالوا : يا رسول الله قد علمنا ما أعطى الله لمن قتل من الخيرات ، فما لمن مات معك ؟ فنزلت الآية معلمة أن الله يرزق من قتل ومن مات معاً ، ولا يقتضي ذلك المساواة بينهم لأن تفضيل الشهداء ثابت ﴿ رِزْقاً حَسَناً ﴾ يحتمل أن يريد به الرزق في الجنة بعد يوم القيامة ، أو رزق الشهداء في البرزخ ، والأول أرجح ، لأنه يعم

الشهداء والموتى ﴿ مُّدْخَلاً ﴾ يعني الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 42 .

45 ﴾

(117/527)

وقال الخطيب الشربينى :

قوله تعالى : ﴿ إنّ الله ﴾ أي : الذي لا كفء له ﴿ يدفع عن الذين آمنوا ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وسكون الدال وفتح الفاء والباقون بضم الياء وفتح الدال وبعدها ألف وكسر الفاء أي : يبالغ في الدفع مبالغة من يغالب فيه ولم يذكر الله تعالى ما يدفعه عنهم حتى يكون أعظم وأفخم وأعمّ وإن كان في الحقيقة أنه يدفع بأس المشركين فلذلك قال تعالى بعده ﴿ إنّ الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال ﴿ لا يحب ﴾ أي : لا يكرم كما يفعل المحب ﴿ كل حوّان ﴾ في أمانته ﴿ كفور ﴾ لنعمته وهم المشركون ، قال ابن عباس : خانوا الله فجعلوا معه شريكاً وكفروا نعمه ، فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذه صفته وقال مقاتل : يدفع عن الذين آمنوا بمكة حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبيّ صلى الله عليه وسلم في قتلهم سرّاً فنهاهم عن ذلك ثم أذن الله تعالى لهم قتالهم بقوله تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ أي : المشركين

والمأذون فيه وهو في القتال محذوف لدلالة يقاتلون عليه ﴿ بأنهم ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ ظلموا ﴾ فكانوا يأتونه صلى الله عليه وسلم بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فإني لم أومر بالقتال حتى هاجر فأنزلت وهي أوّل آية نزلت في القتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية وقيل نزلت في قوم بأعيانهم مهاجرين من مكة إلى المدينة فاعترضهم مشركو مكة فأذن الله لهم في قتال الكفار الذي منعوهم من الهجرة بأنهم ظلموا واعتدوا عليهم بالإيذاء وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم بضم الهمزة والباقون بفتحها .

(118/527)

ولما كان التقدير فإنّ الله أراد إظهار دينه بهم عطف عليه قوله تعالى : ﴿ وإنّ الله ﴾ أي : الذي هو الملك الأعلى ﴿ على نصرهم لقدير ﴾ وفي ذلك وعد من الله بنصر المؤمنين ثم وصفهم بقوله تعالى : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ إلى الشعب والحبشة والمدينة ﴿ بغير حق ﴾ أوجب ذلك ما أخرجوا ﴿ إلا أن يقولوا ﴾ أي : بقولهم ﴿ ربنا الله ﴾ وهذا القول حق والإخراج به إخراج بغير حق ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ هل تنقمون منا إلا أن آمنا با ﴾ (المائدة :) .

(119/527)

تنبيه : الذين أخرجوا مجرور نعت للذين يقاتلون ، أو بدل منه ، أو منصوب على المدح ، أو مرفوع خبر مبتدأ محذوف ﴿ ولولا دفع الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء علماً ﴿ الناس بعضهم ببعض ﴾ أي : بتسليط المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمانهم وعلى متعبداتهم كما قال تعالى : ﴿ لهدّمت ﴾ أي : خربت ﴿ صوامع ﴾ وهي : معابد صغار للرهبان مرتفعة ﴿ وبيع ﴾ كنائس للنصارى ﴿ وصلوات ﴾ أي : كنائس لليهود وسميت بها لأنها يصلى فيها ، وقيل : هي كلمة معربة أصلها بالعبرانية صلوتا ﴿ ومساجد ﴾ للمسلمين ﴿ يذكر فيها ﴾ أي : هذه المواضع المذكورة ﴿ اسم اللَّه ﴾ العليّ العظيم ﴿ كثيراً ﴾ وتنقطع العبادات بخرابها ، وقيل : الضمير يرجع للمساجد فقط تشريفاً لها بأن ذكر الله يحصل فيها كثيراً فإن قيل لم قدم الصوامع والبيع في الذكر على المساجد أجيب بأنها أقدم في الوجود وقيل : أخرها في الذكر كما في قوله تعالى ومنهم سابق بالخيرات ولأنّ الذكر آخر العمل فلما كان نبينا صلى الله عليه وسلم خير الرسل وأمتنا خير الأمم لا جرم كانوا آخرهم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم "نحن الآخرون والسابقون" وقيل : أخرها لتكون بعيدة عن الهدم قريبة من الذكر وقرأ نافع دفاع بكسر الدال وفتح الفاء وألف بعدها والباقون بفتح الدال وسكون الفاء وقرى نافع وابن كثير لهدمت بتخفيف الدال والباقون بتشديدها وأظهر التاء عند الصاد

نافع وابن كثير وعاصم وأدغمها الباقون ﴿ ولينصرن الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ من ينصره ﴾ أي : ينصر دينه وأولياءه كائناً من كان منهم أو من غيرهم وقد أنجز الله تعالى وعده بأن سلطا المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿ إنّ الله ﴾ أي : الذي لا كفء له ﴿ لقويّ ﴾ أي : على ما يريد ﴿ عزيز ﴾ أي : منيع في سلطانه وقدرته وقوله تعالى : ﴿ الذين إن مكناهم ﴾ أي : بما لنا من القدرة ﴿ في الأرض ﴾ بإعلائهم على ضدّهم ﴿ أقاموا

(120/527)

الصلاة ﴾ أي : التي هي

عماد الدين الدالة على المراقبة والإعراض عن تحصيل الفاني ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ أي المؤذنة بالزهد في الحاصل منه المؤذن بعمل النفس للرحيل ﴿ وأمروا بالمعروف ﴾ أي : الذي أمر الله تعالى ورسوله به ﴿ ونهوا عن المنكر ﴾ أي : الذي نهى الله ورسوله عنه وصف للذين هاجروا وهو إخبار من الله تعالى بظهر الغيب عما ستكون عليه سيرة المهاجرين والأنصار رضي الله تعالى عنهم ، وعن عثمان رضي الله تعالى عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد أن الله تعالى أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا .

تنبيه : في ذلك دليل على صحة خلافة الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين إذ لم يستجمع ذلك غيرهم من المهاجرين وإذا ثبت ذلك وجب أن يكونوا على الحق ولا يجوز حمل الآية على أمير المؤمنين عليّ وحده لأنّ الآية دالة على الجمع ، وعن الحسن هم أمّة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : الذين منصوب بدل من قوله تعالى من ينصره ﴿ و ﴾ أي : الملك الأعلى ﴿ عاقبة الأمور ﴾ أي : آخر أمور الخلق ومصيرها إليه في الآخرة فلا يكون لأحد فيها أمر حتى أنه لا ينطق أحد إلا بإذن منه .

(121/527)

ولما بين سبحانه وتعالى فيما تقدّم إخراج الكفار للمؤمنين من ديارهم بغير حق وأذن في مقاتلتهم وضمن لرسوله صلى الله عليه وسلم النصرة وبين أنّ الله عاقبة الأمور أردفه بما يرجي مجرى التسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم في الصبر على ما هم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره فقال تعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم ﴾ أي : قبل قومك ﴿ قوم نوح ﴾ وتأنيث قوم باعتبار المعنى وتحقير المكذبين في قدرته وإن كانوا من أشدّ الناس ﴿ وعاد ﴾ أي : ذوو الأبدان الشداد قوم هود ﴿ وثمود ﴾ ولو الأبنية الطوال في السهول والجبال قوم صالح ﴿ وقوم إبراهيم ﴾ التجبرون المتكبرون ﴿ وقوم لوط ﴾

الأنجاس بما لم يسبقهم إليه أحد من الناس ﴿ وأصحاب مدين ﴾ أرباب الأموال المجموعة من خزائن الضلال فأنت يا أشرف الخلق لست بأوحديّ في التكذيب ، فإنّ هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومك .

ولما كان موسى عليه السلام قد أتى من الآيات المرئية ثم المسموعة بما لم يأت بمثله أحد هن تقدّمه فكان تكذيبه في غاية البعد غير سبحانه وتعالى الأسلوب تنبيها على ذلك وعلى أنّ الذين أطبقوا على تكذيبه القبط وأمّا قومه فما كذبه منهم إلا أناس يسير فقال تعالى :

﴿ وكذب موسى ﴾ وفي ذلك أيضاً تعظيم للتأسية وتفخيم للتسلية ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ أي : أمهلتهم بتأخير العقاب عنهم إلى الوقت الذي ضربته لهم وعبر عن طول الإملاء بأداة التراخي لزيادة التأسية فقال تعالى ﴿ ثم أخذتهم ﴾ أخذ عزيز مقتدر .

ثم نبه سبحانه وتعالى بالاستفهام في قوله تعالى : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي : إنكاري لأفعالهم على أنه كان في أخذهم عبر وعجائب وأهوال وغرائب حيث أيد لهم بالنعمة محنة ، وبالحياة هلاكاً ، وبالعمارة خراباً ، والاستفهام للتقرير أي : وهو واقع موقعه فليحذر هؤلاء الذين أتيتهم بأعظم ما أتى به رسول قومه مثل ذلك فإن لم يؤمنوا بك فعلت بهم كما فعلت بهؤلاء وإنكانوا أمكن الناس فلا يحزنك أمرهم .

تنبيه : أثبت ورش الياء بعد الراء من نكير في الوصل وحذفها الباقون وقفاً وصلاً

﴿ وكأين ﴾ أي : وكن ﴿ من قرية ﴾ وقيل : معنى كأين رُبَّ ، وقوله تعالى :

﴿ أهلكتها ﴾ قرأه أبو عمرو بعد الكاف بتاء فوقية مضمومة والباقون بعد الكاف بنون وبعدها ألف والمراد أهلها بدليل قوله تعالى ﴿ وهي ﴾ أي والحال أنها ﴿ ظالمة ﴾ أي أهلها بكفرهم ويحتمل أن يكون المراد أهلاك نفس القرية فيدخل تحت هلاكها هلاك من فيها لأنّ العذاب النازل إذا بلغ أن يهلك القرية فتصير منهدمة جعل هالكاً لمن فيها وإن كان الأوّل أقرب ﴿ فهي ﴾ أي : فتسبب عن إهلاكها أنها ﴿ خاوية ﴾ أي : منهدمة ساقطة أي : جدرانها ﴿ على عروشها ﴾ أي : سقوفها إذ كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظله أو كرم فهو عرش والخاوي الساقط من خوى إذا سقط أو الخالي من خوى المنزل إذا خلا من أهله وخوى بطن الحامل .

تنبيه : قوله : ﴿ على عروشها ﴾ لا يخلو من أن يتعلق بخاوية ، فيكون المعنى إنها ساقطة على عروشها أي : سقوفها ، أي : تقصفت الأخشاب أوّلاً من كثرة الأمطار وغير ذلك من الأشرار ، فسقطت ثم سقط عليها الجدران ، فسقطت فوق السقوف أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها وإما أن يكون خبراً بعد خبر كأنه قيل : هي خاوية وهي على عروشها ، أي : قائمة مظلة على عروشها على معنى أن السقوف سقطت إلى الأرض فصارت في

قرار الحيطان مائلة فهي مشرفة على السقوف الساقطة ، وقوله : ﴿ فهي خاوية ﴾ جملة معطوفة على ﴿ أهلكتها ﴾ لا على ﴿ وهي ظالمة ﴾ ، فإنها حال كما قدّرته ، والإهلاك ليس حال خرابها ، فلا محل لها إن نصبت كأين بمقدّر يفسره أهلكتها لأنها معطوفة على جملة أهلكتها كما مرّ ، وهي مفسرة لا محل لها ، وإن رفعت كأين بالابتداء فمحلها رفع خبراً ثانياً لكأين والخبر الأوّل أهلكتها ﴿ و ﴾ كم من ﴿ بئر معطلة ﴾ أي : متروكة بموت أهلها ﴿ وقصر مشيد ﴾ أي : رفيع خال بموت أهله .

(123/527)

تنبيه : علم مما قدّرته أن بئر معطوف على قرية ، وهو يقوي على أنّ عروشها بمعنى مع أوجه ، وروي أنّ هذه بئر نزل عليها صالح عليه السلام مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله تعالى من العذاب وهي بحضرموت ، وإنما سميت بذلك ؛ لأنّ صالحاً حين حضرها مات ، وثم بلدة عند البئر اسمها حاضوراء بناها قوم صالح وأمّروا عليهم جهلس بن جلاس وأقاموا بها زماناً ، ثم كفروا وعبدوا صنماً فأرسل الله تعالى إليهم حنظلة بن صفوان عليه السلام نبياً فقتلوه ، فأهلكهم الله تعالى وعطل بئرهم ، وخرب قصورهم ، وقوله تعالى:

﴿ أفلم يسيروا ﴾ أي : كفار مكة ﴿ في الأرض ﴾ يحتمل أنهم لم يسافروا فحثوا على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله تعالى بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا ، وإن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا ، فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا ﴿ فتكون ﴾ أي : فتسبب عن سيرهم أن تكون ﴿ لهم قلوب ﴾ واعية ﴿ يعقلون بها ﴾ ما رأوه بأبصارهم مما نزل بالمكذبين قبلهم ﴿ أو ﴾ أي : أو يكون لهم إن كانوا عمي الأبصار كما دل عليه جعل هذا قسيماً ﴿ آذان يسمعون بها ﴾ أخبارهم بالإهلاك وخراب الديار فيعتبروا

﴿ فإنها ﴾ أي : القصة ﴿ لا تعمى الأبصار ﴾ ويجوز أن يكون الضمير مبهماً يفسره الأبصار وفي تعمى راجع إليه ، والمعنى أنّ أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى فيها ، وإنما العمى لقلوبهم كما قال تعالى : ﴿ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ ولا يعتد بعمى الأبصار ، فإنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب .

فإن قيل : فأي فائدة في ذكر الصدور ؟

(124/527)

أجيب : بأن الذي قد تعورف واعتقد أنّ العمى على الحقيقة للبصر ، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب استعارة وتمثيل ، فلما أريد إثبات ما هو

خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تبيين وفضل تعريف ليتقرّر أنّ مكان العمى هو القلوب لا الأبصار ، كما تقول : ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك ، فقولك : الذي بين فكيك تقرير لما ادّعيته للسانه وتثبيت ؛ لأن محل المضاء هو لا غير ، فكأنك قلت : ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة ولا سهواً مني ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً . قيل : لما نزل قوله تعالى : ﴿ ومن كان في هذه أعمى ﴾ فهو في الآخرة أعمى ؛ قال ابن أم مكتوم : يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى ، أفأكون في الآخرة أعمى ، فنزلت:

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ الذي توعدتهم به تكذيباً واستهزاء ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ لن يخلف الله ﴾ أي : الذي لا كفء له ﴿ وعده ﴾ لامتناع الخلف فيه وفي خبره سبحانه وتعالى فيصيبهم ما وعدهم به ، ولو من بعد حين لكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة ، وقد أنجزه يوم بدر ﴿ وإنّ يوماً عند ربك ﴾ أي : المحسن إليك بتأخير العذاب عنهم إكراماً لك من أيام الآخرة بالعذاب ﴿ كألف سنة مما تعدّون ﴾ في الدنيا وطول أيامه حقيقة أو من حيث أنّ أيام الشدائد مستطالة ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب

﴿ وكأين من قرية أمليت لها ﴾ أي : أمهلتها كما أمهلتكم ﴿ وهي ظالمة ﴾ كظلمكم بالاستعجال وغيره ﴿ ثم أخذتها ﴾ أي : بالعذاب والمراد أهلها ﴿ وإليّ المصير ﴾ أي :

المرجع فينقطع كل حكم دون حكمي ففيه وعيد وتهديد .

فإن قيل : لم قال : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها ﴾ (الحج ،)

بالفاء ، وقال هنا بالواو ؟

(125/527)

أجيب : بأنّ الأولى وقعت بدلاً عن قوله تعالى : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ ، وأما هذه فحكمها حكم ما تقدّم من الجملتين المعطوفتين بالواو أعني قوله تعالى : ولن يخلف الله وعده وإنّ يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ، ولما كان الاستعجال لا يطلب من الرسول وإنما يطلب من المرسل ، أمره الله تعالى بأن يديم لهم التخويف والإنذار بقوله تعالى:

﴿ قل ﴾ أي : لهم ولا يصدّنك عن دعائهم ما أخبرناك به من عملهم ﴿ يا أيها الناس ﴾ أي : جميعاً من قومك وغيرهم ﴿ إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ أي : بين الإنذار والاقتصار على الإنذار مع عموم الخطاب ، وذكر الفريقين لأنّ صدر الكلام وسياقه للمشركين ، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم بقوله:

﴿ فالذين آمنوا ﴾ أي : أقرّوا بالإيمان ﴿ وعملوا ﴾ أي : تصديقاً لدعواهم تلك ﴿ الصالحات لهم مغفرة ﴾ أي : لما فرط منهم ﴿ ورزق ﴾ أي : في الدنيا بالغنائم وغيرها

، وفي الآخرة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿كريم﴾ أي : لا خسة فيه ولا دناءة بانقطاع ولا غيره زيادة في غيظهم ، ولما كان في سياق الإنذار قال معبراً بالماضي زيادة في التخويف

﴿والذين سعوا﴾ أي : أوقعوا السعي ولو مرّة واحدة ﴿في آياتنا﴾ أي : القرآن بإبطالها ﴿معجزين﴾ من اتبع النبيّ صلى الله عليه وسلم أي : ينسبونهم إلى العجز ويثبطونهم عن الإيمان أو مقدّرين عجزنا عنهم ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد الجيم بعد العين على أنها حال مقدّرة والباقون بألف بعد العين وتخفيف الجيم أي : مسابقين مشاقين للساعين فيها بالتثبيط ﴿أولئك﴾ البعداء البغضاء ﴿أصحاب الجحيم﴾ أي : النار استحقاقاً بما سعوا فيسكنهم فيها ليعلموا أنهم هم العاجزون ، ولما لاح من ذلك أنّ الشيطان ألقى شبهاً يفاخرون فيها بجدالهم في دين الله الذي أمر رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بإظهاره وتقريره وإشهاره عطف عليه تسلية له صلى الله عليه وسلم قوله تعالى:

(126/527)

﴿وما أرسلنا﴾ أي : بعظمتنا ﴿من قبلك﴾ ثم أكد الاستغراق بقوله تعالى : ﴿من رسول﴾ وهو نبيّ أمر بالتبليغ ﴿ولا نبيّ﴾ وهو من لم يؤمر بالتبليغ وهذا هو المشهور ،

فمعنى أرسلنا أوحينا ، فالنبي أعم من الرسول ، ويدل عليه ما رواه الإمام أحمد من أنه صلى الله عليه وسلم "سئل عن الأنبياء فقال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، قيل : فكم الرسل ، فقال : ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً" .

وقيل : كما هو ظاهر الآية الرسول من جمع إلى المعجزة كتاباً منزلاً عليه ، والنبيّ غير الرسول من لا كتاب له ، وقيل : يمكن حمل الآية عليه أيضاً ، والرسول من يأتيه الكتاب ، والنبيّ يقال له ولمن يوحى إليه في المنام ﴿ إلا إذا تمنّى ﴾ أي : تلا على الناس ما أمره الله تعالى به أو حدّثهم به ، واشتهى في نفسه أن يقبلوه حرصاً منه على إيمانهم شفقة عليهم ﴿ ألقى الشيطان ﴾ من التشبيه والتخييلات ﴿ في أمنيته ﴾ أي : فيما تلاه أو حدث به واشتهى أن يقبل ما يتلقفه منه أولياؤه فيجادلون به أهل الطاعة ليضلوهم ، وإنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّاً شياطين الإنس والجنّ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ (الأنعام ،)

(127/527)

كما يفعل هؤلاء فيما يفترقون به في وجه الشريعة أصولاً وفروعاً من قولهم في القرآن شعر وسحر وكهانة ، وقولهم : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ (الأنعام ،) ، وقولهم : إنّ

ما قتله الله تعالى بالموت حتف أنفه أولى بالأكل مما ذبح ، وقولهم : نحن أهل الله وسكان حرمه ، ولا نخرج من الحرم فنقف في الحج بالمشعر الحرام ، وتقف الناس بعرفة ، ونحن نطوف في ثيابنا وكذا من ولدناه ، وأمّا غيرنا فلا يطوف إلا عارياً ذكراً كان أو أنثى إلا أن يعطيه أحدنا ما يلبسه ، ونحو ذلك مما يريدون أن يطفئوا به نور الله تعالى ، وكذا تأويلات الباطنية والاتحادية ، وأنظارهم التي ألحدوا فيها يضل الله تعالى بها من يشاء ، ثم يمحوها ممن أراد من عباده ، وما أراد من أمره ﴿ فينسخ ﴾ أي : فيتسبب عن إلقائه أنه ينسخ ﴿ الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء علماً وقدرة ﴿ ما يلقي الشيطان ﴾ فيبطله بإيضاح أمره ﴿ ثم يحكم الله آياته ﴾ أي : ثم يجعلها جلية فيما يريد منها وأدل دليل على أنّ هذا هو المراد من الافتتاح بالمتأخرة في الآيات الختام بقوله عطفاً على ما تقديره فالله على ما يشاء قدير ﴿ والله عليم ﴾ بأحوال خلقه ﴿ حكيم ﴾ فيما يفعله بهم . وقيل:

(128/527)

إنه صلى الله عليه وسلم حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت ، وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما من المفسرين لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم لما جاءهم به تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما

يقارب بينه وبين قومه ، وذلك لحرصه على إيمانهم ، فجلس ذات يوم في نادٍ من أندية قريش كثير أهله ، وأحب يومئذٍ أن يأتيه من الله تعالى شيء لم ينفروا عنه وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى سورة والنجم إذا هوى ، فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانه سهواً إلى أن قال : تلك الغرانيق العلى ، وإنّ شفاعتهنّ لترتجى ففرح به المشركون ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءة السورة كلها ، وسجد في آخرها ، وسجد المسلمون لسجوده وجميع من في المسجد من المشركين ، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد سوى الوليد بن المغيرة وأبو أحيحة سعيد بن العاص ، فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها على جبهتهما وسجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود ، وتفرّقت قريش وقد سرهم ما سمعوا ، وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا تشفع بأحسن الذكر وقالوا : قد عرفنا أنّ الله تعالى يحيي ويميت ويرزق ، ولكن هذه آلهتنا تشفع لنا عنده ، فإذا جعل لهم محمداً نصيباً فنحن معه ، فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فقال : يا محمد ماذا صنعت لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل ، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً وخاف من الله تعالى خوفاً شديداً ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تعزية له وكان به رحيماً ، وسمع بذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبلغهم سجود قريش ، وقيل : قد أسلمت أهل مكة ،

فرجع أكثرهم إلى عشائرهم وقالوا : هم أحبّ إلينا حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن الذي كانوا يتحدّثون به من

(129/527)

إسلام

أهل مكة كان باطلاً ، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوار مستخفياً ، فلما نزلت هذه الآية قالت قريش : ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله تعالى ، فغيّر ذلك . قال الرازي : هذه رواية عامّة المفسرين الظاهرية أما أهل التحقيق فقد قالوا : هذه الرواية باطلة موضوعة ، واحتجوا على البطلان بالقرآن والسنة والمعقول .

أمّا القرآن فبوجوه أحدها : قوله تعالى : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ (الحاقة : ، ،)

ثانيها : قوله تعالى : ﴿ قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ (يونس ،) ، ثالثها : قوله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ (النجم ،)

وأمّا السنة فمنها ما روي عن محمد بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة ، فقال : هذا من وضع الزنادقة وصنف فيه كتاباً ، وقال البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، فقد

روى البخاري في صحيحه : "أنه صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم وسجد فيها ، وسجد المسلمون والكفار والإنس والجن" ، وليس فيه حديث الغرانيق .

(130/527)

وأما المعقول فمن وجوه : أحدها : أنّ من جوّز على النبيّ صلى الله عليه وسلم تعظيم الأوثان فقد كفر ؛ لأنّ من المعلوم بالضرورة أن النبيّ كان معظم سعيه في نفي الأوثان ، ثانيها : قوله تعالى : ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ﴾ (الحج ،) ، وإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول صلى الله عليه وسلم أقوى من نسخ هذه الآيات التي تبقى الشبهة معها فإذا أراد الله تعالى إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآناً ، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلاً أولى ، ثالثها : وهو أقوى الوجوه لو جوّزنا ذلك ارتفع الإيقان عن شرعه ولجوّزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك فيبطل قوله تعالى : ﴿ بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ (المائدة ،) ، فإنه لا فرق في العقل بين النقصان من الوحي وبين الزيادة فيه .

وزاد الرازي أدلة أخرى على ذلك ثم قال : وقد عرفنا أنّ هذه القصة موضوعة أكثر ما في الباب أنّ جمعاً من المفسرين ذكروها وخبر الواحد لا يعارض الدلائل العقلية والنقلية

المتواترة ، انتهى . وهذا هو الذي يطمئن إليه القلب وإن أطنب ابن حجر العسقلاني في صحتها ، ثم قال : وحينئذٍ فيتعين تأويل ما وقع فيها مما ينكر ، وهو قوله : ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق إلخ ، انتهى .

وعلى القول بها قد سلك العلماء في ذلك مسالك أحسنها أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يرتل القرآن فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات ، ونطق بتلك الكلمات محاكياً نغمته بحيث سمعه من دنا إليه فظنها من قوله وأشاعها ، وقال البيضاوي : بعد أن ذكر بعض هذه القصة وهو مردود عند المحققين ، وإن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه ، انتهى .ا

(131/527)

قال ابن الأثير : والغرانيق هنا الأصنام ، وهي في الأصل للذكور من طير الماء واحدها غرنوق وغرنيق سمي به لبياضه قال : وكانوا يزعمون أنّ الأصنام تقرّبهم من الله وتشفع لهم فشبهت بالطيور التى تعلو إلى السماء وترتفع ، وقيل : تمنى أي : قرأ ، كقول حسان في حق عثمان بن عفان:

*تمنى كتاب الله أوّل ليلة

**تمنى داود الزبور على رسل

أي : على تأن وتمهل . ولما ذكر سبحانه وتعالى ما حكم به من تمكين الشيطان من هذا الإلقاء ذكر العلة في ذلك بقوله تعالى:

﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان ﴾ أي : في المتلو أو المحدّث به من تلك الشبهة في قلوب أوليائه على التفسير الأوّل ، وعلى الثاني وغيره يؤوّل بما يناسبه ﴿ فتنة ﴾ أي : اختباراً وامتحاناً ﴿ للذين في قلوبهم مرض ﴾ أي : شك ونفاق ﴿ والقاسية ﴾ أي : الجافية ﴿ قلوبهم ﴾ عن قول الحق وهم المشركون ﴿ وإنّ الظالمين ﴾ أي : الواضعين لأقوالهم وأفعالهم في غير مواضعها كفعل من هو في الظلام ﴿ لفي شقاق ﴾ أي : خلاف لكونهم في شق غير شق حزب الله بمعاجزتهم في الآيات بتلك الشبهة التي تلقوها من الشيطان ، وجادلوا بها أولياء الرحمن ﴿ بعيد ﴾ عن الصواب ﴿ لتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ (الأنعام ،) ، وعلى ثبوت ذكر القصة وجرى عليه الجلال المحلي ؛ قال : إنهم في خلاف طويل مع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حيث جرى على لسانه ذكر آلهتهم بما يرضيهم ، ثم أبطل ذلك .

(132/527)

﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم ﴾ بإتقان حججه وإحكام براهينه وضعف شبه المعاجزين ﴿ أنه ﴾ أي : الشيء الذي تلوته أو تحدثت به ﴿ الحق ﴾ أي : الثابت الذي لا يمكن زواله ﴿ من ربك ﴾ أي : المحسن إليك بتعليمك إياه ﴿ فيؤمنوا به ﴾ لما ظهر لهم من صحته بما ظهر من ضعف تلك الشبهة ﴿ فتخبت ﴾ أي : تطمئن وتخضع ﴿ له قلوبهم ﴾ وتسكن به نفوسهم ﴿ وإنّ الله ﴾ بجلاله وعظمته ﴿ لهادي الذين آمنوا ﴾ في جميع ما يلقيه أولياء الشيطان ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ أي : قويم ، وهو الإسلام يصلون به إلى معرفة بطلانه حتى لا تلحقهم حيرة ، ولا تعتريهم شبهة ، فيوصلهم ذلك إلى سعادة الدارين

﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾ أي : وجد منهم الكفر وطبعوا عليه ﴿ في مرية ﴾ أي : شك ﴿ منه ﴾ قال ابن جريج : أي : من القرآن ، وقيل : مما ألقى الشيطان على رسول الله صلى الله عليه وسلم قولون : فما باله ذكرها بخير ثم ارتدّ عنها ، وقيل : من الدين وهو الصراط المستقيم ﴿ حتى تأتيهم الساعة ﴾ أي : القيامة ، وقيل : أشراطها ، وقيل : الموت ﴿ بغتة ﴾ أي : فجأة ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ قال عكرمة والضحاك : لا ليل بعده وهو يوم القيامة ، والأكثرون على أنه يوم بدر ، وسمي عقيماً لأنه لم يكن في ذلك اليوم للكفار خير كالريح العقيم التي لا تأتي بخير ، وقيل : لأنه لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه ، ويقوي التفسير الأوّل قوله تعالى:

﴿ الملك يومئذٍ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ لله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال وحده ، ولما كان كأنه قيل : ما معنى اختصاصه به ، وكل الأيام له قيل : ﴿ يحكم بينهم ﴾ أي : المؤمنين والكافرين بالأمر الفصل الذي لا حكم فيه ظاهراً ولا باطناً لغيره كما ترونه الآن بل يمشي فيه الأمر على أتم شيء من العدل ﴿ فالذين آمنوا وعملوا ﴾ أي : وصدّقوا دعواهم الإيمان بأن عملوا ﴿ الصالحات ﴾ وهي ما أمرهم الله به ﴿ في جنات النعيم ﴾ فضلاً منه ورحمة لهم بما رحمهم الله تعالى من توفيقهم للأعمال الصالحات

(133/527)

﴿ والذين كفروا ﴾ أي : ستروا ما أعطيناهم من المعرفة بالأدلة على وحدانيتنا ﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾ أي : ساعين بما أعطيناهم من الفهم في تعجيزها بالمجادلة بما يوحي إليهم أولياؤهم من الشياطين من الشبه ﴿ فأولئك ﴾ أي : البعداء عن أسباب الكرم ﴿ لهم عذاب مهين ﴾ أي : شديد بسبب ما سعوا في إهانة آياتنا مريدين إعزاز أنفسهم بمغالبتنا والتكبر عن آياتنا .

فإن قيل : لم أدخل الفاء في خبر الثاني دون الأوّل ؟

أجيب : بأن في ذلك تنبيهاً على أنّ إثابة المؤمنين بالجنان تفضل من الله تعالى ، وأن عقاب

الكافرين مسبب عن أعمالهم ، ولذلك قال : ﴿ لهم عذاب ﴾ ولم يقل : هم في عذاب ، ولما كان المؤمنون في حصر مع الكفار رغبهم الله في الهجرة بقوله تعالى:

﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ﴾ أي : فارقوا أوطانهم وعشائرهم في طاعة الله وطلب مرضاته من مكة إلى المدينة ﴿ ثم قتلوا ﴾ في الجهاد بعد الهجرة ، وقرأ ابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف ، وألحق به مطلق الموت فضلاً منه بقوله تعالى : ﴿ أو ماتوا ﴾ أي : من غير قتل ﴿ ليرزقنّهم الله ﴾ أي : الجامع لصفات الكمال ﴿ رزقاً حسناً ﴾ هو رزق الجنة من حين تفارق أرواحهم أشباحهم ؛ لأنهم أحياء عند ربهم ﴿ وإنّ الله ﴾ أي : الملك الأعلى القادر على الإحياء كما قدر على الإماتة ﴿ لهو خير الرازقين ﴾ فإنه يرزق بغير حساب يرزق الخلق عامة البارّ منهم والفاجر .

فإن قيل : الرازق في الحقيقة هو الله تعالى لا رازق للخلق غيره فكيف قال : ﴿ لهو خير الرازقين ﴾ ؟

أجيب : بأنّ غير الله يسمى رازقاً على المجاز كقولهم : رزق السلطان الجيش أي : أعطاهم أرزاقهم ، وإن كان الرازق في الحقيقة هو الله تعالى ، ولما كان الرزق لا يتم إلا بحسن الدار وكان ذلك من أفضل الرزق قال تعالى دالاً على ختام التي قبل:

﴿ ليدخلنّهم مدخلاً يرضونه ﴾ هو الجنة يكرمون فيه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا ينالهم فيها مكروه ، وقيل : هو خيمة في الجنة من درّة بيضاء لها سبعون ألف مصراع ، وقرأ نافع بفتح الميم أي : دخولاً ، أو مكان دخول ، والباقون بالضم أي : إدخالاً أو مكان إدخال ﴿ وإنّ الله ﴾ أي : الذي عمت رحمته وتمت عظمته ﴿ لعليم ﴾ أي : بمقاصدهم وما عملوا مما يرضيه وغيره ﴿ حليم ﴾ عما قصروا فيه من طاعته وما فرّطوا في جنبه تعالى ، فلا يعاجل أحداً بالعقوبة .

روي أنّ طوائف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا نبيّ الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 312.301 ﴾

(135/527)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) ﴾

انتهى الدرس السابق عند الإذن بالقتال لحماية العقائد والشعائر ؛ ووعد الله بالنصر لمن ينهضون بتكاليف العقيدة ، ويحققون النهج الإلهي في حياة الجماعة .

وإذ انتهى من بيان تكاليف الأمة المؤمنة أنشأ يطمئن الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تدخل يد القدرة الإلهية لنصره ؛ ولخذلان أعدائه ، كما تدخلت من قبل لنصرة إخوانه الرسل عليهم السلام وأخذ المكذبين على مدار الأجيال . وأخذ يوجه المشركين إلى تأمل مصارع الغابرين إن كانت لهم قلوب للتأمل والتدبر ، فإنها لا تعمي الأبصار ، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور .

ثم يطمئن الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يحمي رسله من كيد الشيطان كما يحميهم من كيد المكذبين . ويبطل ما يحاوله الشيطان ويحكم آياته ويجلوها للقلوب السليمة . فأما القلوب المريضة والقلوب الكافرة فتظل الريبة فيها حتى تنتهي بها إلى شر مصير . .

فالدرس كله بيان لآثار يد القدرة وهي تتدخل في سير الدعوة ، بعد أن يؤدي أصحابها واجبهم ، وينهضوا بتكاليفهم التي سبق بها الدرس الماضي في السياق .

﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وكذب موسى ، فأمليت للكافرين ثم أخذتهم ، فكيف كان نكير ؟ ﴾ . .

فهي سنة مطردة في الرسالات كلها ، قبل الرسالة الأخيرة ، أن يجيء الرسل بالآيات فيكذب بها المكذبون . فليس الرسول صلى الله عليه وسلم بدعا من الرسل حين يكذبه المشركون . والعاقبة معروفه ، والسنة مطردة ﴿ فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط ﴾ . . ويفرد موسى بفقرة خاصة : ﴿ وكذب موسى ﴾ أولاً . لأنه لم يكذب من قومه كما كذب هؤلاء من قومهم ، إنما كذب من فرعون وملئه . وثانياً لوضوح الآيات التي جاء بها موسى وتعددها وضخامة الأحداث التي صاحبتها . . وفي جميع تلك الحالات أملى الله للكافرين حيناً من الزمان كما يملي لقريش ثم أخذهم أخذاً شديداً . . وهنا سؤال للتهويل والتعجيب : ﴿ فكيف كان نكير ؟ ﴾ . . والنكير هو الإنكار العنيف المصحوب بالتغيير . والجواب معروف . فهو نكير مخيف ! نكير الطوفان والخسف والتدمير والهلاك والزلازل والعواصف والترويع . .

وبعد الاستعراض السريع لمصارع أولئك الأقوام يعمم في عرض مصارع الغابرين :

﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية على عروشها ؛ وبئر معطلة ، وقصر مشيد ﴾ .

فهي كثيرة تلك القرى المهلكة بظلمها . والتعبير يعرض مصارعها في مشهد شاخص مؤثر : ﴿ فهي خاوية على عروشها ﴾ . . والعروش السقوف ، وتكون قائمة على الجدران

عند قيام البناء . فإذا تهدم خرت العروش وسقطت فوقها البنيان ، وكان منظرها هكذا موحشاً كئيباً مؤثراً . داعياً إلى التأمل في صورتها الخالية وصورتها البادية . والربوع الخربة أوحش شيء للنفس وأشدها استجاشة للذكرى والعبرة والخشوع .

وإلى جوار القرى الخاوية على عروشها . . الآبار المعطلة المهجورة تذكر بالورد والورّاد ؛ وتتزاحم حولها الأخيلة وهي مهجورة خواء .

ثم إلى جوارها القصور المشيدة وهي خالية من السكان موحشة من الأحياء ، تطوف بها الرؤى والأشباح ، والذكريات والأطياف !

يعرض السياق هذه المشاهد ثم يسأل في استنكار عن آثارها في نفوس المشركين الكفار :

(137/527)

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ؟ أو آذان يسمعون بها ؟ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ !

إن مصارع الغابرين حيا لهم شاخصة موحية ، تتحدث بالعبر ، وتنطق بالعظات . . ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ فيروها فتوحي لهم بالعبرة ؟ وتنطق لهم بلسانها البليغ ؟ وتحدثهم بما تنطوي عليه من عبر ؟ ﴿ فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ فتدرك ما وراء

هذه الآثار الدوارس من سنة لا تتخلف ولا تتبدل . ﴿ أو آذان يسمعون بها ﴾ فتسمع أحاديث عن تلك الدور المهدمة والآبار المعطلة والقصور الموحشة ؟ .

أفلم تكن لهم قلوب ؟ فإنهم يرون ولا يدركون ، ويسمعون ولا يعتبرون ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ !

ويمعن في تحديد مواضع القلوب : ﴿ التي في الصدور ﴾ زيادة في التوكيد ، وزيادة في إثبات العمى لتلك القلوب على وجه التحديد !

ولو كانت هذه القلوب مبصرة لجاشت بالذكرى ، وجاشت بالعبرة ، وجنحت إلى الإيمان خشية العاقبة الماثلة في مصارع الغابرين ، وهي حولهم كثير .

ولكنهم بدلاً من التأمل في تلك المصارع ، والجنوح إلى الإيمان ، والتقوى من العذاب . .

راحوا يستعجلون بالعذاب الذي أخره الله عنهم إلى أجل معلوم :

﴿ ويستعجلونك بالعذاب . ولن يخلف الله وعده . وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ . .

(138/527)

وذلك دأب الظالمين في كل حين . يرون مصارع الظالمين ، ويقرأون أخبارهم ويعلمون مصائرهم . ثم إذا هم يسلكون طريقهم غير ناظرين إلى نهاية الطريق ! فإذا ذكروا بما نال أسلافهم استبعدوا أن يصيبهم ما أصابهم . . ثم يطغى بهم الغرور والاستهتار إذا أملى لهم الله على سبيل الاختبار . فإذا هم يسخرون ممن يخوفهم ذلك المصير . وإذا هم من السخرية يستعجلون ما يوعدون ! ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ فهو آت في موعده الذي أراده الله وقدره وفق حكمته . واستعجال الناس به لا يعجله كي لا تبطل الحكمة المقصودة من تأجيله . وتقدير الزمن في حساب الله غيره في حساب البشر : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ . .

ولقد أملى الله للكثير من تلك القرى الهالكة ؛ فلم يكن هذا الإملاء منجياً لها من المصير المحتوم والسنة المطردة في هلاك الظالمين :

﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ، ثم أخذتها ، وإليَّ المصير ﴾ . .

فما بال هؤلاء المشركين يستعجلون بالعذاب ، ويهزأون بالوعيد ، بسبب إملاء الله لهم حيناً من الزمان إلى أجل معلوم ؟

وعند هذا الحد من عرض مصارع الغابرين ، وبيان سنة الله في المكذبين .

. يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لينذر الناس ويبين لهم ما ينتظرهم من مصير :

﴿ قل : يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم ﴾ . .

ويمحض السياق وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المقام للإنذار : ﴿ إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ . . لما يقتضيه التكذيب والاستهزاء واستعجال العذاب من إبراز الإنذار . . ثم يأخذ في تفصيل المصير :

فأما الذين آمنوا وأتبعوا إيمانهم بثمرته التي تدل على تحققه : ﴿ وعملوا لصالحات ﴾ فجزاؤهم مغفرة من ربهم ، لما سلف من ذنوبهم أو تقصيرهم ، ﴿ ورزق كريم ﴾ غير متهم ولا مهين !

(139/527)

وأما الذين بذلوا غاية جهدهم في تعطيل آيات الله عن أن تبلغ القلوب ، وتتحقق في حياة الناس وآيات الله هي دلائله على الحق وهي شريعته كذلك للخلق فأما هؤلاء فقد جعلهم مالكين للجحيم ويا لسوئها من ملكية في مقابل ذلك الرزق الكريم !

والله الذي يحفظ دعوته من تكذيب المكذبين ، وتعطيل المعوقين ، ومعاجزة المعاجزين . . يحفظها كذلك من كيد الشيطان ، ومن محاولته أن ينفذ إليها من خلال أمنيات الرسل

النابعة من طبيعتهم البشرية . وهم معصومون من الشيطان ولكنهم بشر تمتد نفوسهم إلى أمانيّ تتعلق بسرعة نشر دعوتهم وانتصارها وإزالة العقبات من طريقها . فيحاول الشيطان أن ينفذ من خلال أمانيهم هذه فيحول الدعوة عن أصولها وعن موازينها . . فيبطل الله كيد الشيطان ، ويصون دعوته ، ويبين للرسل أصولها وموازينها ، فيحكم آياته ، ويزيل كل شبهة في قيم الدعوة ووسائلها :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ . .

لقد رويت في سبب نزول هذه الآيات روايات كثيرة ذكرها كثير من المفسرين . قال ابن كثير في تفسيره : " ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح . والله أعلم " .

وأكثر هذه الروايات تفصيلاً رواية ابن أبي حاتم . قال : حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي ، حدثنا محمد بن إسحاق الشيبي ، حدثنا محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب ، قال : أنزلت سورة النجم ، وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل

يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر .

(140/527)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم ، وأحزنه ضلالهم ؛ فكان يتمنى هداهم . فلما أنزل الله سورة النجم قال : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ ﴾ ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال : وإنهن لهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى . . وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته . . فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة ، وزلت بها ألسنتهم ، وتباشروا بها ، وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه . . فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك . غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً فرفع ملء كفه تراباً فسجد عليه . فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين .

ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان في مسامع المشركين ، فاطمأنت أنفسهم أي المشركون لما ألقى الشيطان في أمنية رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثهم به الشيطان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قرأها في السورة ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم .

ففشت تلك الكلمة في الناس ؛ وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين : عثمان بن مظعون وأصحابه ؛ وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم ، وصلوا مع رسول الله ؛ وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه ؛ وحدثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة ، فأقبلوا سراعاً ، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وحفظه من الفرية ، وقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان . ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ . . فلما بين الله قضاءه ، وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم على المسلمين ، واشتدوا عليهم . . "

قال ابن كثير : وقد ساق البغوي في تفسيره روايات مجموعة من كلام ابن عباس ، ومحمد بن

كعب القرظي وغيرهما بنحو من ذلك ، ثم سأل هنا سؤالاً : كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ثم حكى أجوبة عن الناس ، من ألطفها أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك . فتوهموا أنه صدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس كذلك في نفس الأمر ، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن صلى الله عليه وعلى آله وسلم والله أعلم .

وقال البخاري : قال ابن عباس : ﴿ في أمنيته ﴾ إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه . فيبطل الله ما يلقي الشيطان ﴿ ثم يحكم الله آياته ﴾ .

وقال مجاهد : ﴿ إذا تمنى ﴾ يعني إذا قال ؛ ويقال أمنيته : قراءته .

(142/527)

وقال البغوي : وأكثر المفسرين قالوا : معنى قوله : ﴿ تمنى ﴾ أي تلا وقرأ كتاب الله ﴿ ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ أي في تلاوته .

وقال ابن جرير عن تفسير ﴿ تمنى ﴾ بمعنى تلا : هذا القول أشبه بتأويل الكلام !

هذه خلاصة تلك الروايات في هذا الحديث الذي عرف بحديث الغرانيق . . وهو من ناحية السند واهي الأصل . قال علماء الحديث : إنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا

رواه بسند سليم متصل ثقة . وقال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره . وهو من ناحية موضوعه يصادم أصلاً من أصول العقيدة وهو عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من أن يدس عليه الشيطان شيئاً في تبليغ رسالته .

وقد أولع المستشرقون والطاعنون في هذا الدين بذلك الحديث ، وأذاعوا به ، وأثاروا حوله عجاجة من القول . والأمر في هذا كله لا يثبت للمناقشة ، بل لا يصح أن يكون موضوعاً للمناقشة .

وهناك من النص ذاته ما يستبعد معه أن يكون سبب نزول الآية شيئاً كهذا ، وأن يكون مدلوله حادثاً مفرداً وقع للرسول صلى الله عليه وسلم فالنص يقرر أن هذه القاعدة في الرسالات كلها مع الرسل كلهم : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ﴾ . . فلا بد أن يكون المقصود أمراً عاماً يستند إلى صفة في الفطرة مشتركة بين الرسل جميعاً ، بوصفهم من البشر ، مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل .

وهذا ما نحاول بيانه بعون الله . والله أعلم بمراده ، إنما نحن نفسر كلامه بقدر إدراكنا البشري . .

إن الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس ، يكون أحب شيء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة ، وأن يدركوا الخير الذي جاءوهم به من عند الله فيتبعوه . . ولكن العقبات في طريق الدعوات كثيرة . والرسل بشر محدودو الأجل . وهم يحسون هذا ويعلمونه . فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق . . يودون مثلاً لو هادنوا الناس فيما يعز على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتاً لعل الناس أن يفيئوا إلى الهدى ، فإذ دخلوا فيه أمكن صرفهم عن ذلك الموروثات العزيزة ! ويودون مثلاً لو جاروهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة ، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة !

ويودون .

ويودون . من مثل هذه الأماني والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها . . ذلك على حين يريد الله أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة ، وفق موازينها الدقيقة ، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . فالكسب الحقيقي للدعوة في التقدير الإلهي الكامل غير المشوب بضعف البشر وتقديرهم . . هو أن تمضي على تلك الأصول وفق تلك الموازين ، ولو خسرت الاشخاص في أول الطريق . فالاستقامة الدقيقة الصارمة على

أصول الدعوة ومقاييسها كفيل أن يثني هؤلاء الأشخاص أو من هم خير منهم إلى الدعوة في نهاية المطاف ، وتبقى مثل الدعوة سليمة لا تخدش ، مستقيمة لا عوج فيها ولا انحناء . .

(144/527)

ويجد الشيطان في تلك الرغبات البشرية ، وفي بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات ، فرصة للكيد للدعوة ، وتحويلها عن قواعدها ، وإلقاء الشبهات حولها في النفوس . .

ولكن الله يحول دون كيد الشيطان ، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات ، ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل ، وعما يكون قد وقع منهم من خطأ في اجتهادهم للدعوة . كما حدث في بعض تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم وفي بعض اتجاهاته ، مما بين الله فيه بياناً في القرآن . .

بذلك يبطل الله كيد الشيطان ، ويحكم الله آياته ، فلا تبقى هنالك شبهة في الوجه الصواب :

﴿ والله عليم حكيم ﴾ . . فأما الذين في قلوبهم مرض من نفاق أو انحراف ، والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين ؛ فيجدون في مثل هذه الأحوال مادة للجدل واللجاج والشقاق : ﴿ وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ . وأما الذين أوتوا العلم والمعرفة فتطمئن قلوبهم إلى

بيان الله وحكمه الفاصل : ﴿ إن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ . .

وفي حياة النبي صلى الله عليه وسلم وفي تاريخ الدعوة الإسلامية نجد أمثلة من هذا ، تغنينا عن تأويل الكلام ، الذي أشار إليه ابن جرير رحمه الله .

نجد من ذلك مثالاً في قصة ابن أم مكتوم رضي الله عنه الأعمى الفقير الذي جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : يا سول الله اقرئني وعلمني مما علمك الله ، ويكرر هذا القول والرسول صلى الله عليه وسلم مشغول بأمر الوليد بن المغيرة يود لو يهديه إلى الإسلام ومعه صناديد قريش ، وابن أم مكتوم لا يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشغول بهذا الأمر . حتى كره ، رسول الله صلى الله عليه وسلم إلحاحه فعبس وأعرض عنه . . فأنزل الله في هذا قرآناً يعاتب فيه الرسول عتاباً شديداً :

(145/527)

﴿ عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ! أما من استغنى ، فأنت له تصدى ؟ وما عليك ألا يزكى ؟ وأما من جآءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ؟ كلا ! إنها تذكرة فمن شاء ذكره . . . ﴾ وبهذا رد الله للدعوة موازينها الدقيقة وقيمها الصحيحة . وصحح تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي دفعته

إليه ، رغبته في هداية صناديد قريش ، طمعاً في إسلام من وراءهم وهم كثيرون . فبين الله له : أن استقامة الدعوة على أصولها الدقيقة أهم من إسلام أولئك الصناديد . وأبطل كيد الشيطان من الدخول إلى العقيدة من هذه الثغرة ، وأحكم الله آياته . واطمأنت إلى هذا البيان قلوب المؤمنين .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرم ابن مكتوم . ويقول إذا رآه : " مرحباً بمن عاتبني فيه ربي " ويقول له : " هل لك من حاجة " واستخلفه على المدينة مرتين .

(146/527)

كذلك وقع ما رواه مسلم في صحيحه قال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي ، عن اسرائيل ، عن المقدام بن شريح ، عن أبيه ، عن سعد هو ابن أبي وقاص قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر . فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : أطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ، ورجل من هذيل ، وبلال ، ورجلان نسيت اسميهما . فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ؛

بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ وهكذا رد الله للدعوة قيمها المجردة ، وموازينها الدقيقة . ورد كيد الشيطان فيما أراد أن يدخل من تلك الثغرة . ثغرة الرغبة البشرية في استمالة كبراء قريش بإجابة رغبتهم في أن لا يحضر هؤلاء مجلسهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيم الدعوة أهم من أولئك الكبراء ، وما يتبع إسلامهم من إسلام الألوف معهم وتقوية الدعوة في نشأتها بهم كما كان يتمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم والله أعلم بمصدر القوة الحقيقية ، وهو الاستقامة التي لا ترعى هوى شخصياً ولا عرفاً جارياً !

ولعله مما يلحق بالمثلين المتقدمين ما حدث في أمر زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد زوجها من زيد بن حارثة رضي الله عنه وكان قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال له : زيد بن محمد . فأراد الله أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة فقال تعالى : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾

(147/527)

وقال : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ وكان زيد رضي الله عنه أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجه من ابنة عمته زينب بنت جحش رضي الله عنها فلم تستقم بينهما الحياة . . وكانوا في الجاهلية يكرهون أن يتزوج المتبني مطلقة متبناه .

فاراد الله سبحانه إبطال هذه العادة ، كما أبطل نسبة الولد إلى غير أبيه . فأخبر رسوله صلى الله عليه وسلم أنه سيزوجه من زينب بعد أن يطلقها زيد لتكون هذه السنة مبطلة لتلك العادة ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أخفى في نفسه ما أخبره به الله . وكان كلما شكا إليه زيد تعذر الحياة مع زينب قال له : ﴿ أمسك عليك زوجك ﴾ مراعياً في هذا كراهية القوم لزواجه منها حين يطلقها زيد . وظل يخفي ما قدر الله إظهاره حتى طلقها زيد . . فأنزل الله في هذا قرآناً ، يكشف عما جال في خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم ويقرر القواعد التي أراد الله أن يقوم تشريعه في هذه المسألة عليها :

﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله . وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه . فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً . وكان أمر الله مفعولاً ﴾ ولقد صدقت عائشة رضي الله عنها وهي تقول . لو كتم محمد صلى الله عليه وسلم شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ وهكذا أنفذ الله شريعته وأحكمها ، وكشف ما خالج خاطر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كراهية القوم لزواجه من مطلقة دعيه . ولم يمكن للشيطان أن يدخل من هذه الثغرة . وترك الذين في قلوبهم مرض

والقاسية قلوبهم يتخذون من هذه الحادثة ، مادة للشقاق والجدال ما تزال ! ! !

هذا هو ما نطمئن إليه في تفسير تلك الآيات . والله الهادي إلى الصواب .

(148/527)

ولقد تدفع الحماسة والحرارة أصحاب الدعوات بعد الرسل والرغبة الملحة في انتشار الدعوات وانتصارها . . تدفعهم إلى استمالة بعض الأشخاص أو بعض العناصر بالإغضاء في أول الأمر عن شيء من مقتضيات الدعوة يحسبونه هم ليس أصيلاً فيها ، ومجاراتهم في بعض أمرهم كي لا ينفروا من الدعوة ويخاصموها !

ولقد تدفعهم كذلك إلى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع موازين الدعوة الدقيقة ، ولا مع منهج الدعوة المستقيم . وذلك حرصاً على سرعة انتصار الدعوة وانتشارها .

واجتهاداً في تحقيق " مصلحة الدعوة " ومصلحة الدعوة الحقيقية في استقامتها على النهج دون انحراف قليل أو كثير .

(149/527)

أما النتائج فهي غيب لا يعلمه إلا اللّه .

فلا يجوز أن يحسب حملة الدعوة حساب هذه النتائج إنما يجب أن يمضوا على نهج الدعوة الواضح الصريح الدقيق ، وأن يدعوا نتائج هذه الاستقامة للّه . ولن تكون إلا خيرا في نهاية المطاف .

وها هو ذا القرآن الكريم ينبههم إلى أن الشيطان يتربص بأمانيهم تلك لينفذ منها إلى صميم الدعوة . وإذا كان اللّه قد عصم أنبياءه ورسله فلم يمكن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطرية إلى دعوتهم . فغير المعصومين في حاجة إلى الحذر الشديد من هذه الناحية ، والتحرج البالغ ، خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة الرغبة في نصرة الدعوة والحرص على ما يسمونه «مصلحة الدعوة» . . إن كلمة «مصلحة الدعوة» يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات ، لأنها مزلة ، ومدخل للشيطان يأتيهم منه ، حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص ! ولقد تتحول «مصلحة الدعوة» إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوة وينسون معه منهج الدعوة الأصيل ! . . إن على أصحاب الدعوة أن يستقيموا على نهجها ويتحروا هذا النهج دون التفات إلى ما يعقبه هذا التحري من نتائج قد يلوح لهم أن فيها خطرا على الدعوة وأصحابها ! فالخطر الوحيد الذي يجب أن يتقوه هو خطر الانحراف عن النهج لسبب من الأسباب ، سواء كان هذا الانحراف كثيرا

أو قليلا . والله أعرف منهم بالمصلحة وهم ليسوا بها مكلفين . إنما هم مكلفون بأمر واحد . ألا ينحرفوا عن المنهج ، وألا يحيدوا عن الطريق . .

ويعقب السياق على تلك الآيات وما فيها من صيانة لدعوة الله من كيد الشيطان بأن الذين يكفرون بها مدحورون ينتظرهم العذاب المهين :

«وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ . الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ . فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» .

ذلك شأن الذين كفروا مع القرآن كله ، يذكره السياق بعد بيان موقفهم مما يلقي الشيطان في أمنيات الأنبياء والرسل ، لما بين الشأنين من تشابه واتصال . فهم لا يزالون في ريبة من القرآن وشك . منشأ هذه الريبة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشته فتدرك ما فيه من حقيقة وصدق . ويظل هذا حالهم «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ» بعد قيام الساعة . ووصف هذا اليوم بالعقيم وصف يلقي ظلا خاصا . فهو يوم لا يعقب . . إنه اليوم الأخير . .

في هذا اليوم الملك لله وحده . فلا ملك لأحد ، حتى الملك الظاهري الذي كان يظنه الناس في الأرض ملكا . والحكم يومئذ لله وحده ، وهو يقضي لكل فريق بجزائه المقسوم : «فَالَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» . . «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» . . جزاء الكيد لدين الله ، وجزاء التكذيب بآياته البينات . وجزاء الاستكبار عن الطاعة لله والتسليم . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2428 . 2436 ﴾

(151/527)

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ختم هذه الآيات – التي الإذن للمظلومين في القتال للظالمين – بصفة الحلم ، فكان ذلك مخيلة لوجوب العفو عن حقوق العباد كما في شريعة عيسى عليه الصلاة والسلام ، نفى ذلك بقوله إذناً للمجاهرين فيمن أخرجهم من ديارهم أن يخرجوه من دياره ويذيقوه بعض ما توعده

الله به من العذاب المهين : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر المقرر من صفة الله تعالى ذلك ﴿ ومن عاقب ﴾ من العباد بأن أصاب خصمه ، لمصيبة يرجو فيها العاقبة ﴿ بمثل ما عوقب ﴾ أي عولج علاج من يطلب حسن العاقبة ﴿ به ﴾ من أي معاقب كان فلم يتجاوز إلى ظلم ﴿ ثم بغي ﴾ أي من أيّ باغ كان ﴿ عليه ﴾ بالعود إلى خصومته لأخذه حقه .

ولما كان ما يحصل للمبغي عليه بالكسر عوداً على بدء من الذل والهوان مبعداً لأن ينجبر ، أكد وعده فقال : ﴿ لينصرنه الله ﴾ أي الذي لا كفوء له .

(152/527)

ولما قيد ذلك بالمثلية ، وكان أمراً خفياً ، لا يكاد يوقف عليه ، فكان ربما وقعت المجاوزة خطأً ، فظن عدم النصرة لذلك ، أفهم تعالى أن المؤاخذة إنما هي بالعمد ، بقوله ؛ ويجوز أن يكون التقدير ندباً إلى العفو بعد ضمان النصر : إن الله لعزيز حكيم ، ومن عفا وأصلح فقد تعرض لعفو الله عن تقصيره ، ومغفرته لذنوبه ، فهو احتباك : ذكر النصرة دليل العزة والحكمة ، وذكر العفو منه سبحانه دليل حذف العفو من العبد ﴿ إن الله ﴾ أي الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ لعفو ﴾ أي عمن اقتص ممن ظلمه أول مرة ﴿ غفور ﴾ لمن اقتص ممن بغى عليه .

ولما ختم بهذين الوصفينن ذكر من الدليل عليهما أمراً جامعاً للمصالح ، عاماً للخلائق ، يكون فيه وبه الإحسان بالخلق والرزق فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي معرفة اتصافه سبحانه بهذين الوصفين ﴿ بأن الله ﴾ المتصف بجميع صفات الكمال ﴿ يولج ﴾ لأجل مصالح العباد المسيء والمحسن ﴿ الليل في النهار ﴾ فيمحو ظلامه بضيائه ، ولو شاء مؤاخذة الناس لجعله سرمداً فتعطلت مصالح النهار ﴿ ويولج النهار في الليل ﴾ فينسخ ضياءه بظلامه ، ولولا ذلك لتعطلت مصالح الليل ، أو يطول أحدهما حيث يراد استيلاء ما طبع عليه على ضد ما طبع عليه آخر لما يراد من المصالح التي جعل ذلك لأجلها ﴿ وأن الله ﴾ بجلاله وعظمته ﴿ سميع ﴾ لما يمكن أن يسمع ﴿ بصير ﴾ أي مبصر عالم لما يمكن أن يبصر دائم الاتصاف بذلك فهو غير محتاج إلى سكون الليل ليسمع ، ولا لضياء النهار ليبصر ، لأنه منزه عن الأعراض ، وهو لتمام قدرته وعلمه لا يخاف في عفوه غائلة ، ولا يمكن أن يفوته أمر ، أو يكون التقدير : ذلك النصر والعفو بأنه قادر وبأنه عالم .

(153/527)

ولما وصف نفسه سبحانه بما ليس لغيره فبان بذلك نقير ما سواه بفعله علله بقوله :

﴿ ذلك ﴾ أي الاتصاف بتمام القدرة وشمول العلم ﴿ بأن الله ﴾ الحاوي لصفات الكمال ،

القادر على إخراج المعدوم وتجديد ما فات ، من نشر الأموات وغيره ﴿ هو ﴾ وحده ﴿ الحق ﴾ أي الواجب الوجود ﴿ وأن ما يدعون ﴾ أي دعاء عبادة وهم لا يسمعون . ولما كان سبحانه فوق كل شيء بقهره وسلطانه ، قال محقراً لهم : ﴿ من دونه ﴾ أي من هذه الأصنام وغيرها ، ولم يتقدم هنا من الدليل على بطلان الأوثان مثل ما ذكره في لقمان الداعي الحال إلى التأكيد بضمير الفصل فقال : ﴿ هو الباطل ﴾ لأنه ممكن وجوده وعدمه ، فليس له من ذاته إلا العدم كغيره من الممكنات ﴿ وأن الله ﴾ لكونه هو الحق الذي لا كفوء له ﴿ هو ﴾ وحده ﴿ العلي الكبير ﴾ وكل ما سواه سافل حقير ، تحت قهره وأمره ، فهو يحيي الموتى كما تقدم أول السورة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 168 . 169 ﴾

(154/527)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ ذلك وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ ذلك ﴾ قد مضى الكلام فيه في هذه الآية في هذه السورة .

وقال الزجاج أي الأمر ما قصصنا عليك من إنجاز الوعد للمهاجرين الذين قتلوا أو ماتوا .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ ذلك وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ معناه : قاتل من كان يقاتله ، ثم كان المقاتل مبغياً عليه بأن اضطر إلى الهجرة ومفارقة الوطن وابتدىء بالقتال ، قال مقاتل : نزلت في قوم من المشركين لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم ، فقال بعضهم لبعض : إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم ، فناشدهم المسلمون أن يكفوا عن قتالهم لحرمة الشهر ، فأبوا وقاتلوهم .

فذلك بغيهم عليهم ، وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم .

فوقع في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام ما وقع ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : وعفا عنهم وغفر لهم وههنا سؤالات :

السؤال الأول : أي تعلق لهذه الآية بما قبلها ؟ الجواب : كأنه سبحانه وتعالى قال مع إكرامي لهم في الآخرة بهذا الوعد لا أدع نصرتهم في الدنيا على من بغى عليهم .

السؤال الثاني : هل يرجع ذلك إلى المهاجرين خاصة أو إليهم وإلى المؤمنين ؟ الجواب :

الأقرب أنه يعود إلى الفريقين فإنه تقدم ذكرهما ، وبين ذلك قوله تعالى : ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ ﴾ وبعد القتل والموت لا يمكن ذلك في الدنيا .

(155/527)

السؤال الثالث : ما المراد بالعقوبة المذكورة ؟ الجواب : فيه وجهان : أحدهما : المراد ما فعله مشركو مكة مع المهاجرين بمكة من طلب آثارهم ، ورد بعضهم إلى غير ذلك ، فبين تعالى أن من عاقب هؤلاء الكفار بمثل ما فعلوا فسينصره عليهم ، وهذه النصرة المذكورة تقوي تأويل من تأوله على مجاهدة الكفار لا على القصاص ، لأن ظاهر النص لا يليق إلا بذلك والجواب الثاني : أن هذه الآية في القصاص والجراحات ، وهي آية مدنية عن الضحاك .

السؤال الرابع : لم سمى ابتداء فعلهم بالعقوبة ؟ الجواب : أطلق اسم العقوبة على الأول للتعلق الذي بينه وبين الثاني كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] ﴿ وَيُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء : 142] .

السؤال الخامس : أي تعلق لقوله : ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ بما تقدم ؟ الجواب : فيه وجوه : أحدها : أن الله تعالى ندب المعاقب إلى العفو عن الجاني بقوله : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ

فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ [الشورى : 40] ﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتقوى ﴾ [البقرة : 237] ، ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43] فلما لم يأت بهذا المندوب فهو نوع إساءة ، فكأنه سبحانه قال : إني قد عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها ، فإني أنا الذي أذنت لك فيه وثانيها : أنه سبحانه وإن ضمن له النصر على الباغي ، لكنه عرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو والمغفرة فلوح بذكر هاتين الصفتين وثالثها : أنه سبحانه دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة ، لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده .

(156/527)

السؤال السادس : أي تعلق لقوله : ﴿ ذلك بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل ﴾ بما قبله ؟ والجواب : من وجهين : أحدهما : ذلك أي ذلك النصر بسبب أنه قادر ومن آيات قدرته البالغة كونه خالقاً لليل والنهار ومتصرفاً فيهما ، فوجب أن يكون قادراً عالماً بما يجري فيهما ، وإذا كان كذلك كان قادراً على النصر مصيباً فيه وثانيها : المراد أنه سبحانه مع ذلك النصر ينعم في الدنيا بما يفعله من تعاقب الليل والنهار وولوج أحدهما في الآخر .

السؤال السابع : ما معنى إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل الجواب : فيه وجهان : أحدهما : يحصل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك بغيبوبة الشمس ، وضياء ذلك في مكان ظلمة هذا بطلوعها ، كما يضيء البيت بالسراج ويظلم بفقده وثانيهما : أنه سبحانه يزيد في أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات .

السؤال الثامن : أي تعلق لقوله : ﴿ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ بما تقدم ؟ الجواب : المراد أنه كما يقدر على ما لا يقدر عليه غيره ، فكذلك يدرك المسموع والمبصر ، ولا يجوز المنع عليه ، ويكون ذلك كالتحذير من الإقدام على ما لا يجوز في المسموع والمبصر .

السؤال التاسع : ما معنى قوله : ﴿ ذلك بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق ﴾ وأي تعلق له بما تقدم ؟ الجواب : فيه وجهان : أحدهما : المراد أن ذلك الوصف الذي تقدم ذكره من القدرة على هذه الأمور إنما حصل لأجل أن الله هو الحق أي هو الموجود الواجب لذاته الذي يمتنع عليه التغير والزوال فلا جرم أتى بالوعد والوعيد ثانيهما : أن ما يفعل من عبادته هو الحق وما يفعل من عبادة غيره فهو الباطل كما قال :

﴿ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدنيا وَلاَ فِي الآخرة ﴾ [غافر : 43] .

(157/527)

السؤال العاشر : أي تعلق لقوله : ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العلى الكبير ﴾ بما تقدم ؟ والجواب :

معنى العلي القاهر المقتدر الذي لا يغلب فنبه بذلك على أنه القادر على الضر والنفع دون سائر من يعبد مرغباً بذلك في عبادته زاجراً عن عبادة غيره ، فأما الكبير فهو العظيم في قدرته وسلطانه ، وذلك أيضاً يفيد كمال القدرة .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ ﴾ إخبار عن الغيب فإنه وجد مخبره كما أخبر فكان من المعجزات .

المسألة الرابعة :

قال الشافعي رحمه الله : من حرق حرقناه ، ومن غرق غرقناه .

وقال أبو حنيفة رحمه الله : بل يقتل بالسيف .

واحتج الشافعي رحمه الله بهذه الآية ، فإن الله تعالى جوز للمظلوم أن يعاقب بمثل ما عوقب به ووعده النصر عليه .

المسألة الخامسة :

قرأ نافع وابن عامر ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بالتاء ههنا وفي لقمان وفي المؤمنين وفي العنكبوت .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو كلها بالياء على الخبر ، والعرب قد تنصرف من الخطاب إلى

الإخبار ومن الإخبار إلى الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 52 .

54 ﴾

(158/527)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ ذِلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ الآية ،

فيها قولان

: أحدهما : أنها نزلت في قوم من مشركي قريش لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم فحملوا عليهم فناشدهم المسلمون ألا يقاتلوهم في الشهر الحرام فأبوا فأظفر الله المسلمين فنزل ذلك فيهم ، حكاه النقاش .

الثاني : أنها في قوم من المشركين مثلوا بقوم من المسلمين قتلوهم يوم أحد فعاقبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثله فنزل ذلك فيهم ، حكاه ابن عيسى . ونصر الله في الدنيا بالغلبة والقهر ، وفي الآخرة بالحجبة والبرهان .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾

فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أن الحق اسم من أسمائه تعالى ، قاله يحيى ابن سلام .

الثاني : أنه ذو الحق ، قاله ابن عيسى .

الثالث : معناه أن عبادته حق وهو معنى قول السدي .

﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : الأوثان ، قاله الحسن .

الثاني : إبليس ، قاله قتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(159/527)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ ، إلى قوله ﴿ الكبير ﴾ المعنى الأمر ذلك ، ثم أخبر تعالى عمن عاقب من المؤمنين من ظلمه من الكفرة ووعد المبغي عليه بأنه ينصره وسمي الذنب في هذه الآية باسم العقوبة كما تسمى العقوبة كثيراً الذنب وهذا كله تجوز واتساع ، وذكر أن هذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين لقيهم كفار في أشهر الحرم فأبى المؤمنون من قتالهم وأبى المشركون إلا القتال فلما اقتتلوا جد المؤمنون ونصرهم الله ، فنزلت هذه الاية فيهم ، وقوله ﴿ ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ﴾ ، معناها نصر الله أولياءه ومن بغي عليه بأنه القادر

على العظائم الذي لا تضاهى قدرته فأوجزت العبارة بأن أشار ب ﴿ ذلك ﴾ إلى النصر وعبر عن القدرة بتفصيلها فذكر منها مثلاً لا يدعى لغير الله تعالى ، وجعل تقصير الليل وزيادة النهار وعكسهما إيلاجاً تجوزاً وتشبيهاً ، وقوله ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ معناه نحو ما ذكرناه ، وقرأت فرقة " وأن " بفتح الألف ، وقرأت فرقة " وإن " بكسر الألف ، وقرأت فرقة " تدعون " بالتاء من فوق ، وقرأت فرقة " يدعون " والإشارة بما يدعى من دونه ، قالت فرقة هي إلى الشيطان ، وقالت فرقة هي إلى الأصنام والعموم هنا حسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(160/527)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ قال الزجاج : المعنى : الأمر ذلك ، أي : الأمر ما قصصنا عليكم ﴿ ومن عاقب بمثل ما عُوقب به ﴾ والعقوبة : الجزاء ؛ والأول ليس بعقوبة ، ولكنه سمي عقوبةً ، لاستواء الفعلين في جنس المكروه ، كقوله : ﴿ وجزاء سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلها ﴾ [الشورى : 40] لما كانت المجازاة إساءة بالمفعول به سمّيت سيِّئة ، ومثله : ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ [البقرة : 15] ، قاله الحسن .

ومعنى الآية : من قاتل المشركين كما قاتلوه ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عليه ﴾ أي : ظُلم باخراجه عن منزله .

وزعم مقاتل أن سبب نزول هذه الآية أن مشركي مكة لقوا المسلمين لليلةٍ بقيت من المحرَّم ، فقاتلوهم ، فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام ، فأبوا إلا القتال ، فثبت المسلمون ، ونصرهم الله على المشركين ، ووقع في نفوس المسلمين من القتال في الشهر الحرام ، فنزلت هذه الآية ، وقال : ﴿ إن الله لعفوٌّ ﴾ عنهم ﴿ غفور ﴾ لقتالهم في الشهر الحرام .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : ذلك النصر ﴿ بأنَّ الله ﴾ القادر على ما يشاء .

فمن قُدرته أنه ﴿ يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل وأنّ الله سميع ﴾ لدعاء المؤمنين ﴿ بصير ﴾ بهم حيث جعل فيهم الإيمان والتقوى ، ﴿ ذلك ﴾ الذي فعل من نصر المؤمنين ﴿ بأن الله هو الحقُّ ﴾ أي : هو الإله الحق ﴿ وأنَّ ما يَدْعُون ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : "يدعون" بالياء .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : بالتاء ، والمعنى : وأنَّ ما يعبدون ﴿ من دونه هو الباطل ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(161/527)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ذلك وَمَنْ عَاقَبَ ﴾ "ذلك" في موضع رفع ؛ أي ذلك الأمر الذي قصصنا عليك .

قال مقاتل : نزلت في قوم من مشركي مكة لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرّم فقالوا : إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم ؛ فناشدهم المسلمون ألا يقاتلوهم في الشهر الحرام ؛ فأبى المشركون إلا القتال ، فحملوا عليهم فثبت المسلمون ونصرهم الله على المشركين ؛ وحصل في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام شيء ؛ فنزلت هذه الآية .

وقيل : نزلت في قوم من المشركين ، مثّلوا بقوم من المسلمين قتلوهم يوم أُحُد فعاقبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثله .

فمعنى "من عاقب بمثل ما عوقب به" أي من جازى الظالم بمثل ما ظلمه ؛ فسمَّى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين في الصورة ؛ فهو مثل ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] .

ومثل ﴿ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 194] .

وقد تقدم .

﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ أي بالكلام والإزعاج من وطنه ؛ وذلك أن المشركين كذبوا نبيَّهم وآذَوْا من آمن به وأخرجوه وأخرجوهم من مكة ، وظاهروا على إخراجهم .

﴿ لَيَنصُرَنَّهُ الله ﴾ أي لينصرَنَّ الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ فإن الكفار بغوا عليهم .

﴿ إِنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أي عفا عن المؤمنين ذنوبهم وقتالهم في الشهر الحرام وستر .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بِأَنَّ الله يُولِجُ الليل فِي النهار ﴾ أي ذلك الذي قصصت عليك من نصر المظلوم هو بأني أنا الذي أولج الليل في النهار فلا يقدر أحد على ما أقدر عليه ؛ أي من قدر على هذا قدر على أن ينصر عبده .

وقد مضى في "آل عمران" معنى يولج الليل في النهار .

﴿ وَأَنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يسمع الأقوال ويبصر الأفعال ، فلا يَعْزُب عنه مثقالُ ذرّة ولا دبيب نملة إلا يعلمها ويسمعها ويبصرها .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ أي ذو الحق ؛ فدينه الحق وعبادته حق .

والمؤمنون يستحقون منه النصر بحكم وعده الحق .

﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الباطل ﴾ أي الأصنام التي لا استحقاق لها في العبادات .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر "وأن ما تدعون" بالتاء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم .

الباقون بالياء على الخبر هنا وفي لقمان ، واختاره أبو عبيد .

﴿ وَأَنَّ الله هُوَ العلي ﴾ أي العالي على كل شيء بقدرته ، والعالي عن الأشباه والأنداد ، المقدس عما يقول الظالمون من الصفات التي لا تليق بجلاله .

﴿ الكبير ﴾ أي الموصوف بالعظمة والجلال وكبرِ الشأن .

وقيل : الكبير ذو الكبرياء .

والكبرياء عبارة عن كمال الذات ؛ أي له الوجود المطلق أبداً وأزلاً ، فهو الأول القديم ، والآخر الباقي بعد فناء خلقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(163/527)

وقال أبو حيان :

﴿ ذلك ومن عاقب ﴾ الآية

قيل : نزلت في قوم من المؤمنين لقيهم كفار في الأشهر الحرم فأبى المؤمنون من قتالهم وأبى المشركون إلاّ القتال ، فلما اقتتلوا جدّ المؤمنون ونصرهم الله .

ومناسبتها لما قبلها واضحة وهو أنه تعالى لما ذكر ثواب من هاجر وقتل أو مات في سبيل الله أخبر أنه لا يدع نصرتهم في الدنيا على من بغى عليهم .

وقال ابن جريج : الآية في المشركين بغوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأخرجوه والتقدير الأمر ذلك .

قال الزمخشري : تسمية الابتداء بالجزاء لملابسته له من حيث إنه سبب وذلك مسبب عنه كما يجعلون النظير على النظير والنقيض على النقيض للملابسة فإن قلت : كيف طابق ذكر العفو الغفور هذا الموضع ؟ قلت : المعاقب مبعوث من جهة الله عز وجل على الإخلال بالعقاب ، والعفو عن الجاني على طريق التنزيه لا التحريم ومندوب إليه ومستوجب عند الله المدح إن آثر ما ندب إليه وسلك سبيل التنزيه ، فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب ولم ينظر في قول ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ فإن ﴿ الله لعفوّ غفور ﴾ أي لا يلومه على ترك ما بعثه عليه وهو ضامن لنصره في كرته الثانية من إخلاله بالعفو وانتقامه من الباغي عليه ،

ويجوز أن يضمن له النصر على الباغي فيعرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو ، ويلوح به ذكر هاتين الصفتين أو دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة لأنه لا يوصف بالعفو إلاّ القادر على حده ذلك ، أي ذلك النصر بسبب أنه قادر .

ومن آيات قدرته البالغة أنه ﴿ يولج الليل في النهار ﴾ و﴿ النهارَ في الليل ﴾ أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والانتصار .

وأنه ﴿ سميع ﴾ لما يقولون ﴿ بصير ﴾ بما يفعلون وتقدم في أوائل آل عمران شرح هذا الإيلاج .

(164/527)

﴿ ذلك ﴾ أي ذلك الوصف بخلق الليل والنهار والإحاطة بما يجري فيهما وإدراك كل قول وفعل بسبب ﴿ أن الله ﴾ ﴿ الحق ﴾ الثابت الإلهية وأن كل ما يدعى إلهاً دونه باطل الدعوة ، وأنه لا شيء أعلى منه شأناً وأكبر سلطاناً .

وقرأ الجمهور ﴿ وأن ما ﴾ بفتح الهمزة .

وقرأ الحسن بكسرها .

وقرأ الاخوان وأبو عمرو وحفص ﴿ يدعون ﴾ بياء الغيبة هنا في لقمان .

وقرأ باقي السبعة بتاء الخطاب وكلاهما الفعل فيه مبني للفاعل .

وقرأ مجاهد واليماني وموسى الأسواري يدعو بالياء مبنياً للمفعول والواو عائدة على ما على معناها و﴿ ما ﴾ الظاهر أنها أصنامهم .

وقيل : الشياطين والأولى العموم في كل مدعو دون الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(165/527)

وقال أبو السعود :

﴿ ذلك ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك والجملةُ لتقريرِ ما قبله والتَّنبيهِ على أنَّ ما بعده كلامٌ مستأنفٌ ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ أي لم يَزد في الاقتصاصِ وإنَّما سُمِّي الابتداءُ بالعقابِ الذي هو جزاءُ الجنايةِ للمشاكلةِ أو لكونِه سبباً له ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ بالمعاودةِ إلى العُقوبة ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ الله ﴾ على مَن بغى عليه لا محالة ﴿ إِنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أي مبالغٌ في العفوِ والغُفرانِ فيعفُو عن المنتصرِ ويغفرُ له ما صدرَ عنه من ترجيحِ الانتقامِ على العفوِ والصبرِ المندوبِ إليهما بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أي

ما ذُكر من الصَّبرِ والمغفرة ﴿ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ فإنَّ فيه حثًّا بليغاً على العفوِ والمغفرة فإنَّه تعالى مع كمالِ قُدرتِه لمَّا كانَ يعفُو ويغفُر فغيرُه أَوْلى بذلك وتنبيهاً على أنَّه تعالى قادرٌ على العقوبةِ إذ لا يُوصف بالعفوِ إلاَّ القادرُ على ضدِّهِ.

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى النَّصر وما فيه من معنى البُعد للإيذانِ بعلوِّ رُتبته. ومحلُّه الرَّفعُ على الابتداءِ خبرُه قوله تعالى: ﴿ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ الليلَ فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى الليل ﴾ أي بسببِ أنَّه تعالى من شأنِه وسُنَّتِه تغليبُ بعض مخلوقاته على بعضٍ والمداولةُ بين الأشياءِ المتضادَّةِ وعبَّر عن ذلك بإدخالِ أحدِ المَلَوين في الآخرِ بأنْ يزيد فيه ما يُنقص عن الآخرِ أو بتحصيلِ أحدِهما في مكانِ الآخرِ لكونِه أظهرَ الموادِّ وأوضحَها ﴿ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ بكلِّ المسموعاتِ التي من جُملتها قول المعاقِبِ ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بجميع المُبصراتِ ومن جُملتها أفعاله.

(166/527)

﴿ ذلك ﴾ أي الاتِّصافُ بما ذُكر من كمالِ القُدرةِ والعلمِ وما فيه من معنى البُعد لما مَرَّ آنفاً وهو مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى: ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق ﴾ الواجبُ لذاته الثَّابتُ في نفسِه وصفاتِه وأفعالِه وحدَهُ فإنَّ وجوبَ وجودِه ووحدتِه يقتضيانِ كونَه مبدأً لكُلِّ ما يُوجدُ من

الموجوداتِ عالِماً بكلِّ المعلوماتِ أو الثَّابتُ إلهية فلا يصلحُ إلاَّ مَن كان عالماً قادراً ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ إلها . وقُرِىء على البناءِ للمفعولِ على أنَّ الواوَ لما فاته عبارة عن الآلهةِ. وقُرِىء بالتَّاءِ على خطابِ المُشركين ﴿ هُوَ الباطل ﴾ أي المعدومُ في حدِّ ذاتِه أو الباطلُ ألوهيَّتُه ﴿ وَأَنَّ الله هُوَ العلى ﴾ على جميعِ الأشياءِ ﴿ الكبير ﴾ عن أنْ يكون له شريكٌ لا شيء أعلى منه شأناً وأكبر سلطاناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(167/527)

وقال الآلوسى :

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾

أي من جازى الجاني بمثل ما جنى به عليه ، وتسمية ما وقع ابتداء عقاباً مع أن العقاب كما قال غير واحد جزاء الجناية لأنه يأتي عقبها وهو في الأصل شيء يأتي عقب شيء للمشاكلة أو لأن الابتداء لما كان سبباً للجزاء أطلق عليه مجازاً مرسلاً بعلاقة السببية ، وقال بعض المحققين : يجوز أن يقال : لا مشاكلة ولا مجاز بناء على أن العرف جار على إطلاقه على ما يعذب به وإن لم يكن جزاء جناية ، و ﴿ مِنْ ﴾ موصولة وجوز أن تكون

شرطية سد جواب القسم الآتي مسد جوابها ، والجملة مستأنفة ، والباء في الموضعين قيل للسبب لا للآلة وإليه ذهب أبو البقاء ، وقال الخفاجي : باء ﴿ بِمِثْلِ ﴾ آلية لا سببية لئلا يتكرر مع قوله تعالى : ﴿ بِهِ ﴾ والمنساق إلى ذهني القاصر كونها في الموضعين للآلة وفيما ذكره الخفاجي نظر فتأمل .

﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ بالمعاودة إلى العقاب ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ ﴾ على من بغى عليه لا محالة عند كره للانتقام منه ﴿ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ تعليل للنصرة حيث كانت لمن ارتكب خلاف الأولى من العفو عن الجاني المندوب إليه والمستوجب للمدح عنده تعالى ولم ينظر في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ [الشورى : 40] .

﴿ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتقوى ﴾ [البقرة : 237] .

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الامور ﴾ [الشورى : 43] بأن ذلك لأنه لا يلوم على ترك الأولى إذا روعى الشريطة وهي عدم العدوان .

وفيه تعريض بمكان أولية العفو لأن ذكر الصفتين يدل على أن هناك شبه جناية ، وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار للإشارة إلى أن ذلك من مقتضى الألوهية .

وحمل الجملة على ما ذكر أحد أوجه ثلاثة ذكرها الزمخشري في بيان مطابقة ذكر العفو الغفور هذا الموضع .

وثانيها : أنه دل بذلك على أنه تعالى قادر على العقوبة لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده .

قال في "الكشف" : فهو أي ﴿ إِنَّ الله ﴾ الخ على هذا أيضاً تعليل للنصرة وأن المعاقب يستحق فوق ذلك وإنما الاكتفاء بالمثل لمكان عفو الله تعالى وغفرانه سبحانه ، وفيه إدماج أيضاً للحث على العفو وهذا وجه وجيه اه ، وثالثها : أنه دل بذلك على نفي اللوم على ترك الأولى حسبما قرر أولاً إلا أن الجملة عليه خبر ثان لقوله تعالى : ﴿ مِنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ والخبر الآخر قوله تعالى : ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ الله ﴾ فيكون قد أخبر عنه بأنه لا يلومه على ترك العفو وأنه ضامن لنصره في إخلاله ثانياً بذلك .

وجعل ذلك بعضهم من التقديم والتأخير ولا ضرورة إليه ، وقيل : إن العفو ليس لارتكاب المعاقب خلاف الأولى بل لأن المماثلة من كل الوجوه متعسرة فيحتاج للعفو عما وقع فيها وليس بذاك .

ونقل الطيبي عن الإمام أن الآية نزلت في قوم مشركين لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم فقالوا : إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون بأن يكفوا عن القتال فأبوا فقاتلوهم فنصر الملسمون ووقع في أنفسهم شيء من القتال في الشهر الحرام فأنزل الله تعالى الآية ، ثم قال : فعلى هذا

أمر المطابقة ظاهر ويكون أوفق لتأليف النظم ، وذلك أن لفظة ﴿ ذلك ﴾ فصل للخطاب وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ ﴾ شروع في قصة أخرى لأولئك السادة بعد قوله سبحانه ﴿ والذين هاجروا ﴾ الآيتين اه .

(169/527)

وتعقب بأن الآية تقتضي ابتداء ثم جزاء ثم بغياً ثم جزاء والقصة لم تدل عليه إلا أن يجعل ما بينهم من التعادي معاقبة بالمثل ويجعل البغي مناوأتهم لقتال المسلمين في الشهر الحرام وهو خلاف الظاهر ، وأما الموافقة لتأليف النظم فعلى ما ذكره غيره أبين لأنه لما ذكر حال المقتولين منهم والميتين منهم قيل الأمر ذلك فيما يرجع إلى حال الآخرة وفيما يرجع إلى حال الدنيا إنهم لهم المنصورون لأنهم بين معاقب وعاف وكلاهما منصوران أما الأول فنصاً وأما الثاني فمن فحوى الخطاب أعني مفهوم الموافقة ، وفيه وعيد شديد للباغي وأنه مخذول في الدارين مسلوك في قرن من كان في مرية حتى أتته الساعة أو العذاب اه ، وهو كلام رصين ، ولا يعكر عليه قولهم : إنه أتى بذلك للاقتضاب فتأمل .

وعن الضحاك أن الآية مدنية وهي في القصاص والجراحات .

واستدل بها الشافعي على وجوب رعاية المماثلة في القصاص ، وعندنا لا قود إلا بالسيف

كما جاء في "الخبر" والمراد به السلاح وخبر ﴿ مِنْ ﴾ لم يصح وبتسليم صحته محمول على السياسة ، وينبغي أن يعلم أن المعاقبة بالمثل على الإطلاق غير مشروعة فإن الرجل قد يعاقب بنحو يا زاني وقد قالوا : إنه إذا قيل له ذلك فقال لا بل أنت زان حد هو والقائل الأول فليحفظ .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ﴾

(170/527)

إشارة إلى النصر المدلول عليه بقوله تعالى : ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ ﴾ [الحج : 60] وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبته ، وقيل لعدم ذكر المشار إليه صريحاً ، ومحله الرفع على الإبتداء وخبره قوله سبحانه : ﴿ ذلك بِأَنَّ الله يُولِجُ الليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى ﴾ والباء فيه سببية ، والسبب ما دل عليه ما بعد بطريق اللزوم أي ذلك النصر كائن لسبب أن الله تعالى شأنه قادر على تغليب بعض مخلوقاته على بعض والمداولة بين الأشياء المتضادة ومن شأنه ذلك .

(171/527)

وعبر عن ذلك بإدخال أحد الملوين في يالآخر بأن يزيد فيه ما ينقص من الآخر كما هو الأوفق بالإيلاج أو بتحصيل أحدهما في مكان الآخر كما قيل لا بأن يجعل بن كل نهارين ليلاً وبين كل ليلين نهاراً كما قد توهم لكونه أظهر المواد وأوضحها أو كائن بسبب أنه تعالى خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والانتصار كما قيل ، وعلى الأول قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ بكل المسموعات التي من جملتها ما يقول المعاقب ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بكل المبصرات التي من جملتها ما يقع منه من الأفعال من تتمة الحكم لا بد منه إذ لا بد للناصر من القدرة على نصر المظلوم ومن العلم بأنه كذلك ، وعلى الثاني هو تتميم وتأكيد والأول أولى ، وقيل : لا يبعد أن يكون المعنى ذلك النصر بسبب تعاقب الليل والنهار وتناوب الأزمان والأدوار إلى أن يجيء الوقت الذي قدوه الملك الجبار لانتصار المظلوم وغلبته ، وفيه أنه لا محصل له ما لم يلاحظ قدرة الفاعل لذلك ، وقيل : يجوز أن تكون الإشارة إلى الاتصاف بالعفو والغفران أي ذلك الاتصاف بسبب أنه تعالى لم يؤاخذ الناس بذنوبهم فيجعل الليل والنهار سرمداً فتتعطل المصالح ، وفيه أنه مع كون لا يناسب السياق غير ظاهر لا سيما إذا لوحظ عطف قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ على مدخول الباء فيما قبل ، نعم الإشارة إلى الاتصاف

﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ فالمعنى ذلك الاتصاف بكمال القدرة الدال عليه قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ الليل فِى النهار ﴾ [الحج : 61] الخ وكمال العلم الدال عليه ﴿ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : 61] بسبب أن الله تعالى الواجب لذاته الثابت في نفسه وحده فإن وجوب وجوده ووحدته يستلزمان أن يكون سبحانه هو الموجد لسائر المصنوعان ولا بد في إيجاده لذلك حيث كان على أبدع وجه وأحكمه من كمال العلم على ما بين في موضعه ، وقيل : إن وجوب الوجود وحده متكفل بكل كمال حتى الوحدة أو المعنى ذلك الاتصاف بسبب أن الله تعالى الثابت الإلهية وحده ولا يصح لها إلا من كان كامل القدرة كامل العلم ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ إلهاً ﴿ هُوَ الباطل ﴾ أي المعدوم في حد ذاته أو الباطل الإلهية ، والحصر يحتمل أن يكون غير مراد وإنما جيء به للمشاكلة ويحتمل أن يكون مراداً على معنى أن جميع ما يدعون من دونه هو الباطل لا بعضه دون بعض .

وقيل هو باعتبار كمال بطلانه وزيادة هو هنا دون ما في سورة لقمان من نظير هذه الآية لأن ما هنا وقع بين عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين ولهذا أيضاً زيدت اللام في قوله تعالى الآتي ﴿ وَإِنَّ الله لَهُوَ الغنى الحميد ﴾ [الحج : 64] دون نظيره في تلك السورة ، ويمكن

أن يقال تقدم في هذه السورة ذكر الشيطان فلهذا ذكرت هذه المؤكدات بخلاف سورة لقمان فإنه لم يتقدم ذكر الشيطان هناك بنحو ما ذكر ههنا قاله النيسابوري ، ويجوز أن يكون زيادة ﴿ هُوَ ﴾ في هذا الموضع لأن المعلل فيه أزيد من في ذلك الموضع فتأمل ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العلى ﴾ على جميع الأشياء ﴿ الكبير ﴾ عن أن يكون له سبحانه شريك لا شيء أعلى منه تعالى شأناً وأكبر سلطاناً .

وقرأ الحسن ﴿ وَإِن مَّا ﴾ بكسر الهمزة ، وقرأ نافع .

وابن كثير .

وابن عامر .

وأبو بكر ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بالتاء على خطاب المشركين .

وقرأ مجاهد .

واليماني .

(173/527)

وموسى الإسواري ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ بالياء التحتية مبنية للمفعول على أن الواو لما فإنه عبارة عن الآلهة ، وأمر التعبير عنها بما ثم إرجاع ضمير العقلاء إليها ظاهر فلا تغفل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(174/527)

وقال ابن عاشور :

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾

اسم الإشارة للفصل بين الكلامين لفتاً لأذهان السامعين إلى ما سيجيء من الكلام لأنّ ما بعده غير صالح لأن يكون خبراً عن اسم الإشارة .

وقد تقدم نظيره عند قوله : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ﴾ [الحج : 30] .

وجملة ﴿ ومن عاقب ﴾ الخ ، معطوفة على جملة ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ﴾ [الحج : 58] الآية .

والغرض منها التهيئة للجهاد والوعد بالنصر الذي أشير إليه سابقاً بقوله تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ إلى قوله : ﴿ ولينصرن الله من

ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾ [الحج : 3940] ، فإنه قد جاء معترضاً في خلال النّعي على تكذيب المكذبين وكفرِهم النعمَ ، فأكمل الغرض الأول بما فيه من انتقالات ، ثمّ عطف الكلام إلى الغرض الذي جرت منه لمحة فعاد الكلام هنا إلى الوعد بنصر الله القوم المعتدى عليهم كما وعدهم بأن يدخلهم في الآخرة مدخلاً يرضونه .

وجيء بإشارة الفصل للتنبيه على أهمية ما بعده .

وما صْدَقُ (مَن) الموصولة العموم لقوله فيما سلف ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ [الحج : 39] ، فنبه على أن القتال المأذون فيه هو قتال جَزاء على اعتداء سابق كما دلّ عليه أيضاً قوله ﴿ بأنهم ظلموا ﴾ [الحج : 39] .

وتغيير أسلوب الجمع الذي في قوله ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ [الحج : 39] إلى أسلوب الإفراد في قوله ﴿ ومن عاقب ﴾ للإشارة إلى إرادة العموم من هذا الكلام ليكون بمنزلة القاعدة الكلية لسنّة من سنن الله تعالى في الأمم .

ولما أتي في الصلة هنا بفعل ﴿ عاقَب ﴾ مع قصد شمول عموم الصلة للذين أُذِن لهم بأنهم ظُلموا عَلم السامع أنّ القتال المأذون لهم به قتال جزاء على ظلم سابق .

وفي ذلك تحديد لقانون العقاب أن يكون مماثلاً للعدوان المجزى عليه ، أي أن لا يكون أشدّ منه .

وسُميّ اعتداء المشركين على المؤمنين عقاباً في قوله ﴿ بمثل ما عوقب به ﴾ لأن الذي دفع المعتدين إلى الاعتداء قصد العقاب على خروجهم عن دين الشرك ونبذ عبادة أصنامهم .

ويعلم أنّ ذلك العقاب ظلم بقوله فيما مضى : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ [الحج : 40] .

ومعنى ﴿ بمثل ما عوقب به ﴾ المماثلةُ في الجنس فإن المشركين آذوا المسلمين وأرْغموهم على مغادرة موطنهم فيكون عقابهم على ذلك بإخراج من يمكنهم أن يخرجوه من ذلك الوطن .

ولا يستطيعون ذلك إلا بالجهاد لأنّ المشركين كانوا أهل كثرة وكانوا مستعصمين ببلدهم فإلجاء من يمكن إلجاؤه إلى مفارقة وطنه ، إما بالقتال فهو إخراج كامل ، أو بالأسر .

و﴿ ثمّ ﴾ من قوله : ﴿ ثم بغي عليه ﴾ عطف على جملة ﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ ، ف (ثم) للتراخي الرتبي فإن البغي عليه أهم من كونه عاقب بمثل ما عوقب به إذ كان مبدوءاً بالظلم كما يقال "البادىء أظلم" .

فكان المشركون محقوقين بأن يعاقبوا لأنهم بغوا على المسلمين .

ومعنى الآية في معني قوله : ﴿ ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ﴾ [التوبة : 13] .

وكان هذا شرعاً لأصول الدفاع عن البيضة ، وأما آيات الترغيب في العفو فليس هذا مقام تنزيلها وإنما هي في شرع معاملات الأمة بعضها مع بعض ، وقد أكد لهم الله نصره إن هم امتثلوا لما أذنوا به وعاقبوا بمثل ما عُوقبوا به ، وللمفسرين في تقرير هذه الآية تكلفات تنبىء عن حَيرة في تلئيم معانيها .

وجملة ﴿ إن الله لعفو غفور ﴾ تعليل للاقتصار على الإذن في العقاب بالمماثلة في قوله : ﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ دون الزيادة في الانتقام مع أن البادىء أظلم بأن عفو الله ومغفرته لخلقه قَضَيَا بحكمته أن لا يأذن إلا بمماثلة العقاب للذنب لأن ذلك أوفق بالحق .

(176/527)

ومما يؤثر عن كسرى أنه قيل له : بم دام ملككم ؟ فقال : لأننا نعاقب على قدر الذنب لا على قدر الغَضب ، فليس ذكر وصفي ﴿ عفو غفور ﴾ إيماء إلى الترغيب في العفو عن المشركين .

ويجوز أن يكون تعليلاً للوعد بجزاء المهاجرين اتباعاً للتعليل في قوله : ﴿ إن الله لعليم حليم ﴾ [الحج : 59] لأن الكلام مستمر في شأنهم .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾

ليس اسم الإشارة مستعملاً في الفصل بين الكلامين مثل شبيهه الذي قبله ، بل الإشارة هنا إلى الكلام السابق الدال على تكفل النصر ، فإن النصر يقتضي تغليب أحد الضدّين على ضدّه وإقحام الجيش في الجيش الآخر في الملحمة ، فضرب له مثلاً بتغليب مدة النهار على مدة الليل في بعض السنة ، وتغليب مدة الليل على مدة النهار في بعضها ، لما تقرر من اشتهار التضادّ بين الليل والنهار ، أي الظلمة والنور ، وقريب منها استعارة التلبيس للإقحام في الحرب في قول المرّار السُّلَمي:

وكتيبَةٍ لبّسْتُها بكتيبة حتى . . .

إذا التَبست نفضتُ لها يدي

فخبر اسم الإشارة هنا هو قوله : ﴿ بأن الله يولج الليل ﴾ الخ .

ويجوز أن يكون اسم الإشارة تكريراً لشبيهه السابق لقصر توكيده لأنه متصل به لأن جملة ﴿ بأن الله يولج الليل في النهار ﴾ الخ ، مرتبطة بجملة ﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ الخ ، ولذلك يصح جعل ﴿ بأن الله يولج الليل في النهار ﴾ الخ متعلقاً بقوله ﴿ لينصرنه الله ﴾ [الحج : 60] .

والإيلاج : الإدخال .

مثل به اختفاء ظلام الليل عند ظهور نور النهار وعكسه تشبيهاً لذلك التصيير بإدخال جسم في جسم آخر ، فإيلاج الليل في النهار : غشيان ضوء النهار على ظلمة الليل ، وإيلاج

النهار في الليل : غشيان ظلمة الليل على ما كان من ضوء النهار .

فالمُولِج هو المُختفي ، فإيلاج الليل انقضاؤه .

(177/527)

واستعارة الإيلاج لذلك استعارة بديعة لأن تقلص ظلمة الليل يحصل تدريجاً ، وكذلك تقلّص ضوء النهار يحصل تدريجاً ، فأشبه ذلك إيلاج شيء في شيء إذ يبدو داخلاً فيه شيئاً فشيئاً .

والباء للسببية ، أي لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على الكافرين مع قلّة المسلمين ، فإن القادر على تغليب النهار على الليل حيناً بعد أن كان أمرهما على العكس حيناً آخر قادر على تغليب الضعيف على القوي ، فصار حاصل المعنى : ذلك بأن الله قادر على نصرهم .

والجمع بين ذكر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل للإيماء إلى تقلّب أحوال الزمان فقد يصير المغلوب غالباً ، ويصير ذلك الغالب مغلوباً .

مع ما فيه من التنبيه على تمام القدرة بحيث تتعلق بالأفعال المتضادّة ولا تلزم طريقَة واحدة كقدرة الصناع من البشر .

وفيه إدماج التنبيه بأنّ العذاب الذي استبطأه المشركون منوط بحلول أجله ، وما الأجل إلا إيلاج ليل في نهار ونهار في ليل .

وفي ذكر الليل والنهار في هذا المقام إدماج تشبيه الكفر بالليل والإسلام بالنهار لأن الكفر ضلالة اعتقادٍ ، فصاحبه مثل الذي يمشي في ظلمة ، ولأنّ الإيمان نور يتجلّى به الحق والاعتقاد الصحيح ، فصاحبه كالذي يمشي في النهار ، ففي هذا إيماء إلى أن الإيلاج المقصود هو ظهور النهار بعد ظلمة الليل ، أي ظهور الدين الحق بعد ظلمة الإشراك ، ولذلك ابتدىء في الآية بإيلاج الليل في النهار ، أي دخول ظلمة الليل تحت ضوء النهار .

وقوله : ﴿ ويولج النهار في الليل ﴾ تتميم لإظهار صلاحية القدرة الإلهية .

وتقدم في سورة [آل عمران : 27] ﴿ تولج الليل في النهار ﴾ وعُطف ﴿ وأن الله سميع بصير ﴾ على السبب للإشارة إلى علم الله بالأحوال كلها فهو ينصر من ينصره بعلمه وحكمته ويعد بالنصر من عَلم أنه ناصره لا محالة ، فلا يصدر منه شيء إلا عن حكمة .

(178/527)

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (62)

اسم الإشارة هنا تكرير لاسم الإشارة الذي سبقه ولذلك لم يعطف .

ثم أخبر عنه بسبب آخر لنصر المؤمنين على المشركين بأن الله هو الرب الحق الذي إذا أراد فعَل وقدر فهو ينصر أولياءه وأن ما يدعوه المشركون من دون الله هو الباطل فلا يستطيعون نَصْرَهم ولا أنفسَهم يَنصُرون .

وهذا على حمل الباء في قوله : ﴿ بأن الله هو الحق ﴾ على معنى السببية ، وهو محمل المفسرين .

وسيأتي في سورة لُقمان في نظيرها : أن الأظهر حمل الباء على الملابسة ليلتئم عطف ﴿ وأن ما تدعون من دونه هو الباطل ﴾ .

والحق : المطابق للواقع ، أي الصدق ، مأخوذ من حَقّ الشيءُ إذا ثبَت : والمعنى : أنه الحق في الإلهيّة ، فالقصر في هذه الجملة المستفاد من ضمير الفصل قصر حقيقي .

وأما القصر في قوله ﴿ وأن ما تدعون من دونه هو الباطل ﴾ المستفاد من ضمير الفصل فهو قصر ادعائيّ لعدم الاعتداد بباطلِ غيرها حتى كأنه ليس من الباطل .

وهذا مبالغة في تحقير أصنامهم لأنّ المقام مقام مناضلة وتوعد ، وإلا فكثير من أصنام وأوثان غير العرب باطل أيضاً .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم ، وأبو جعفر ﴿ تَدْعُون ﴾ بالتاء الفوقيّة على الالتفات إلى خطاب المشركين لأنّ الكلام السابق الذي جرت عليهم فيه ضمائر الغيبة

مقصود منه إسماعهم والتعريض باقتراب الانتصار عليهم .

وقرأ البقية بالتحتية على طريقة الكلام السابق .

وعلوّ الله : مستعار للجلال والكمال التام .

والكِبر : مستعار لتمام القدرة ، أي هو العلي الكبير دون الأصنام التي تعبدونها إذ ليس لها كمال ولا قدرة ببرهان المشاهدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(179/527)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين : أن الإشارة في قوله : ذلك راجعة إلى نصرة من ظلم من عباده المؤمنين المذكور قبله في قوله ﴿ ذلك وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ [الحج : 60] الآية أي ذلك النصر المذكور كائن بسبب أنه قادر لا يعجز عن نصرة من شاء نصرته ، ومن علامات قدرته الباهرة : أنه يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ، ومصرفهما ، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والانتصار ، وأنه سميع لما يقولون ، بصير بما يفعلون : أي

وذلك الوصف بخلق النهار والليل والإحاطة بما يجري فيهما ، والإحاطة بكل قول وفعل بسبب أن الله هو الحق : أي الثابت الإلهية والاستحقاق للعبادة وحده ، وأَن كل ما يدعى إلهاً غيره باطل وكفر ، ووبال على صاحبه ، وأنه جل وعلا هو العلي الكبير ، الذي هو أعلا من كل شيء وأعظم وأكبر سبحانه وتعالى علواً كبيراً .

وقد أشار تعالى لأول ما ذكرنا . بقوله ﴿ ذلك بِأَنَّ الله يُولِجُ الليل فِي النهار ﴾ الآية ، ولآخره بقوله ﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ الآية .

(180/527)

والأظهر عندي : أن الإشارة في قوله ذلك : راجعة إلى ما هو أعم من نصرة المظلوم ، وأنها ترجع لقوله ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ للَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الحج : 56] إلى ما ذكره من نصرة المظلوم : أي ذلك المذكور من كون الملك له وحده ، يوم القيامة ، وأنه الحاكم وحده بين خلقه ، وأنه المدخل الصالحين جنات النعيم والمعذب الذين كفروا العذاب المهين ، والناصر من بغى عليه من عباده المؤمنين ، بسبب أن القادر على كل شيء ، ومن أدلة ذلك : أنه يولج الليل في النهار إلى آخر ما ذكرنا . وهذا الذي وصف به نفسه هنا من صفات الكمال والجلال ذكره في غير هذا الموضع كقوله في سورة لقمان ، مبيناً أن من اتصف بهذه الصفات قادر على

إحياء الموتى ، وخلق الناس ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان : 28] .

ثم استدل على قدرته على الخلق والبعث ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيلَ فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يجري إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الباطل وَأَنَّ اللهَ هُوَ العلي الكبير ﴾ [لقمان : 29-30] فهذه الصفات الدالة على كمال قدرته ، استدل بها على قدرته في الحج ، وفي لقمان . وإيلاج كل من الليل والنهار في الآخر فيه معنيان .

الأول : وهو قول الأكثر : من أن إيلاج كل واحد منهما في الآخر ، إنما هو بإدخال جزء منه فيه ، وبذلك يطول النهار في الصيف ، لأنه أولج فيه شيء من الليل ويطول الليل في الشتاء : لأنه أولج فيه شيء من النهار ، وهذا من أدلة قدرته الكاملة .

(181/527)

المعنى الثاني : هو أن إيلاج أحدهما في الآخر ، هو تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك ، بغيبوبة الشمس . وضياء ذلك في مكان ظلمة هذا كما يضيء البيت المغلق بالسراج ، ويظلم بفقده . ذكر هذا الوجه الزمخشري ، وكأنه يميل إليه والأول أظهر ، وأكثر قائلاً ،

والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الباطل ﴾ قرأه حفص وحمزة والكسائي : يدعون بالياء التحتية ، وقرأه الباقون : بتاء الخطاب الفوقية . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(182/527)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ذلك وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ . . ﴾

﴿ ذلك ﴾ [الحج : 60] يعني : هذا الأمر الذي تحدثنا فيه قد استقر ، وإليك هذا الكلام الجديد ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ . . ﴾ [الحج : 60] .

الحق – سبحانه وتعالى – خلق الإنسان وجعل فيه ملكات مختلفة ليؤدي خلافته في الأرض بحركات متوازنة ، فخلق لنا عواطف وجعل لها مهمة ، هذه العواطف لا يحكمها قانون . وخلق لنا أيضاً غرائز ولها مهمة ، لكن محكومة بقانون تعلية الغرائز عند الخلق ، فإياك أنْ تتعدى بغريزتك إلى غير المهمة التي خلقها الله لها .

فمثلاً ، غريزة حب الطعام جعلها الله فيك لاستبقاء الحياة ، فلا تجعلها غرضاً أصيلاً لذاتها ، فتأكل لمجرد أنْ تلتذَّ بالأكل ؛ لأنها لذة وقتية تعقبها آلام ومتاعب طويلة . وهذه الغريزة جعلها الله في النفس البشرية منضبطة تماماً كما تضبط المنبّة مثلاً ، فحين تجوع تجد نفسك تاقتْ للطعام وطلبته ، وإنْ عطشتْ مالتْ نفسك نحو الماء ، وكأن بداخلك جرساً يُنبِّهك إلى ما تحتاجه بنيتك من مُقوِّمات استبقائها .

حب الاستطلاع غريزة جعلها الله فيك لتنظر بها وتستطلع ما في الكون من أسرار دالة على قدرة الله وعظمته ، فلا تتعدى هذا الغرض ، ولا تحرِّك هذه الغريزة إلى التجسُّس على الخَلْق والوقوف على أسرارهم .

التناسل غريزة جعلها الله لحِفْظ النوع ، فلا ينبغي أنْ تتعدى ما جعلت له إلى ما حرَّم الله .

الغضب غريزة وانفعال قَسْري لا تختاره بعقلك تغضب أو لا تغضب ، إنما إنْ تعرضتَ لأسبابه فلا تملك إلا أنْ تغضب ، ومع ذلك جعل له حدوداً وقنَّن له وأمر فيه بضبط النفس وعدم النزوع .

(183/527)

الحب والكُرْه غريزة وعاطفة لا تخضع لقانون ، ولا يحكمها العقل ، فلك أن تحب وأن تكره ، لكن إياك أنْ تتعدَّى هذه العاطفة إلى عمل عقليٍّ ونزوع تعتدي به أو تظلم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أَلاَّ تَعْدِلُواْ . . ﴾ [المائدة : 8] .

لأن هذه المسألة لا يحكمها قانون ، وليس بيدك الحب أو الكره ؛ لذلك لما قابل سيدنا عمر قاتل أخيه قال له عمر : أَدِرْ وجهك عني فإِنّي لا أحبك . وكان الرجل عاقلاً فقال لسيدنا عمر : أَوَعَدمُ حبك لي يمنعني حقاً من حقوقي ؟ قال عمر : لا ، فقال الرجل : إنما يبكي على الحب النساء . يعني أحب أو اكره كما شِئْتَ ، لكن لا تتعدَّ ولا تحرمني حقاً من حقوقي .

فهل وقفنا بالغرائز عند حدودها وأهدافها ؟ لو تأملتَ مثلاً الغريزة الجنسية التي يصِفُها البعض بِمْلء فيه يقول : غريزة بهيمية . . سبحان الله أَلاَ تستحي أنْ تظلم البهائم لمجرد أنها لا تتكلّم ، وهي أفهم لهذه الغريزة منك ، أَلاَ تراها بمجرد أن يُخصّب الذكَر أُنْثاه لا يقربها أبداً ، وهي لا تمكّنه من نفسها إذا ما حملَتْ ، في حين أنك تبالغ في هذه الغريزة ، وتنطلق فيها انطلاقاً يُخرِجها عن هدفها والحكمة منها ؟ على مثل هذا أن يخزى أن يقول مثل هذه المقولة ، وألاَّ يظلم البهائم ، فمن الناس مَنْ هم أَدْنى من البهائم بكثير .

وما يقال عن غريزة الجنس في الحيوان يقال كذلك في الطعام والشراب .

إذن : الخالق سبحانه خلق الغرائز فيك ، ولم يكبتها ، وجعل لها منافذ شرعية لتؤدي

مهمتها في حياتك ؛ لذلك أحاطها بسياج من التكليف يُنظّمها ويحكمها حتى لا تشرد بك ، فقال مثلاً في غريزة الطعام والشراب : ﴿ يا بني ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تسرفوا . . ﴾ [الأعراف : 31] .

(184/527)

وقال في غريزة حب الاستطلاع : ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ . . ﴾ [الحجرات : 12] وهكذا في كل غرائزك تجد لها حدوداً يجب عليك ألاَّ تتعداها .

لذلك قلنا في صفات الإيمان وفي صفات الكفر أن الله تعالى يصف المؤمنين بأنهم ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . ﴾ [الفتح : 29] لأنهم يضعون كل غريزة في موضعها فالشدة مع الأعداء ، والرحمة مع إخوانهم المؤمنين ، ويقف عند هذه الحدود لا يقلب مقاييسها ، ويلتزم بقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين . . ﴾ [المائدة : 54] .

وكأن الخالق عز وجل يُسوِّينا تسوية إيمانية ، فالمؤمن لم يُخلَق عزيزاً ولا ذليلاً ، إنما الموقف هو الذي يضعه في مكانه المناسب ، فهو عزيز شامخ مع الكفار ، وذليل مُنكسِر متواضع مع المؤمنين .

ويتفرع عن هذه المسألة مسألة ردّ العقوبة إذا اعتُدِي عليك : ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ . . ﴾ [الحج : 60] .

الحق – سبحانه وتعالى – هو خالق النفس البشرية ، وهو أعلم بنوازعها وخَلَجاتها ؛ لذلك أباح لك إن اعتدى عليك أنْ تردَّ الاعتداء بمثله ، حتى لا يختمر الغضب في نفسك ، وقد ينتج عنه ما هو أشد وأبلغ في ردِّ العقوبة ، يبيح لك الرد بالمثل لتنتهي المسألة عند هذا الحد ولا تتفاقم ، فمَنْ ضربك ضربة فلك أنْ تُنفِّس عن نفسك وتضربه مثلها ، لك ذلك ، لكن تذكرَّ المثلية هنا ، لا بد أن تكون تامة ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . . ﴾ [النحل : 126] .

وهل تستطيع أن تضبط هذه المثلية فتردّ الضربة بمثلها ؟ وهل قوتك كقوته ، وحِدَّة انفعالك كحِدَّة انفعاله ؟ ولو حدث وزدْتَ في ردِّك نتيجة غضب ، ماذا تفعل ؟ أتسمح له أنْ يردَّ عليك هذه الزيادة ؟ أم تكون أنت ظالماً معتدياً ؟

(185/527)

إذن : ماذا يُلجئك لمثل هذه المتاهة ، ولك في التسامح سِعَة ، وفي قول الله بعدها : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : 126] مَخْرج من هذا الضيق ؟

وسبق أنْ حكينا قصة المرابي اليهودي الذي قال لطالب الدَّين : إن تأخرت في السداد أشترط عليك أنْ آخذ رطلاً من لحمك . وجاء وقت السداد ولم يُوف المدين ، فرفعه الدائن إلى القاضي وأخبره بما اشترطه عليه ، فقال القاضي : نعم من حقك أن تأخذ رطلاً من لحمه لكن بضربة واحدة بالسكين تأخذ رطلاً ، إنْ زاد أو نقص أخذناه منك .

إذن : مسألة المثلية هنا عقبةٌ تحدُّ من ثورة الغضب ، وتفتح باباً للارتقاءات الإيمانية ، فإنْ كان الحق سبحانه سمح لك أن تُنفِّس عن نفسك فقال : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا . . ﴾ [الشورى : 40] فإنه يقول لك : لا تنسَ العفو والتسامح ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [آل عمران : 134] .

لذلك ، فالآية التي معنا تلفتنا لَفْتةً إيمانية : ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ . . ﴾ [الحج : 60] واحدة بواحدة ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ . . ﴾ [الحج : 60] يعني : زاده بعد أنْ ردَّ العدوان بمثله وظلمه واعتدى عليه ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ الله . . ﴾ [الحج : 60] ينصره على المعتدي الذي لم يرتَض حكم الله في رَدِّ العقوبة بمثلها .

وتلحظ في قوله تعالى مخايل النصر بقوله ﴿ إِنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [الحج : 60] مع أن الصفة التي تناسب النُّصْرة تحتاج قوة وتحتاج عزة ، لكنه سبحانه اختار صفة العفو والمغفرة ليلفت نظر مَنْ أراد أنْ يعاقب إلى هذه الارتقاءات الإيمانية : اغفر وارحم واعْفُ ؛ لأن ربك عفو غفور ، فاختار الصفة التي تُحنِّن قلب المؤمن على أخيه المؤمن .

ثم أليس لك ذنب مع الله ؟ ﴿ أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ . . ﴾ [النور : 22] فما دُمْت تحب أن يغفر الله لك فاغفر لعباده ، وحين تغفر لمَنْ يستحق العقوبة تأتي النتيجة كما قال ربك عز وجل : ﴿ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34] .

فالحق سبحانه يريد أن يشيع بيننا الصفاء النفسي والتلاحم الإيماني ، فأعطاك حقَّ رَدِّ العقوبة بمثلها لتنفِّس عن نفسك الغيظ ، ثم دعاك إلى العفو والمغفرة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ذلك بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ . . ﴾ ﴿ ذلك . . ﴾ [الحج : 61] يعني ما قُلْته لك سابقاً له دليل ، فما هو ؟ أن الله يأخذ من القوي ويعطي للضعيف ، ويأخذ من الطويل ويعطي للقصير ، فالمسألة ليست ثابتة (أو مكانيكا) وإنما خلقها الله بقدر . والليل والنهار هما ظرفا الأحداث التي تفعلونها ، والحق سبحانه ﴿ يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل . . ﴾ [الحج : 61] .

يولج الليل يعني : يُدخِل الليل على النهار ، فيأخذ منه جزءاً جزءاً فيُطوِّل الليل ويُقصِّر النهار ، ثم يُدخِل النهار على الليل فيأخذ منه جزءاً جزءاً ، فيُطوِّل النهار ويُقصِّر الليل ؛ لذلك

نراهما لا يتساويان ، فمرة يطول الليل في الشتاء مثلاً ، ويقصر النهار ، ومرة يطول النهار في الصيف ، ويقصر الليل . فزيادة أحدهما ونَقْص الآخر أمر مستمر ، وأغيار متداولة بينهما .

وإذا كانت الأغيار في ظرف الأحداث ، فلا بُدَّ أن تتغير الأحداث نفسها بالتالي ، فعندما يتسع الظرف يتسع كذلك الخير فيه ، فمثلاً عندنا في المكاييل : الكَيْلة والقدح والوَيْبة وعندنا الأردب ، وكل منهما يسَعُ من المحتوى على قدر سعته . وهكذا كما نزيد أن ننقص في ظرف الأحداث نزيد وننقص في الأحداث نفسها .

(187/527)

ثم تُذيَّل الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : 61] سميعٌ لما يقال ، بصيرٌ بما يفعل ، فالقول يقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، والبعض يظن أن العمل شيء والقول شيء آخر ، لا ؛ لأن العمل وظيفة الجارحة ، فكل جارحة تؤدي مهمتها فهي تعمل ، عمل العَيْن أن ترى ، وعمل الأذن أنْ تسمع ، وعمل اليد أن تلمس ، وعمل الأنف أن يشُم ، وكذلك عمل اللسان القول ، فالقول للسان وحده ، والعمل لباقي الجوارح وكلاهما عمل ، فدائماً نضع القول مقابل الفعل ، كما في قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف :

2] .

والسمع والبصر هما الجارحتان الرئيسيتان في الإنسان ، وهما عمدة الحواس كلها ، حيث تعملان باستمرار على خلاف الشَّم مثلاً ، أو التذوق الذي لا يعمل إلا عدة مرات في اليوم كله .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62)

﴿ ذلك . . ﴾ [الحج : 62] أي الكلام السابق أمر معلوم انتهينا منه ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق . . ﴾ [الحج : 62] والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير أبداً ، فكُلُّ ما سِوى الله – عز وجل – يتغير ، وهو سبحانه الذي يُغيِّر ولا يتغير ؛ ولذلك أهل المعرفة يقولون : إن الله تعالى لا يتغير من أجلكم ، لكن يجب عليكم أنْ تتغيروا أنتم من أجل الله .

(188/527)

وما دام أن ربك – عز وجل – هو الحق الثابت الذي لا يتغير ، وما عداه يتغير ، فلا تحزن ، ويا غضبان ارْضَ ، ويا مَنْ تبكي اضحك واطمئن ؛ لأنك ابن أغيار ، وفي دنيا أغيار لا تثبت على شيء ؛ لذلك فالإنسان يغضب إذا أُصيب بعقبة في حياته يقول : لو لم تكُنْ هذه ! ! نقول له : وهل تريدها كاملة ؟ لا بُدَّ أنْ يصيبك شيء ؛ لأنك ابن أغيار ، فماذا

تنتظر إنْ وصلْت القمة لا بُدَّ أنْ تتراجع ؛ لأنك ابن أغيار دائم التقلُّب في الأحوال ، وربك وحده هو الثابت الذي لا يتغير .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الباطل . . ﴾ [الحج : 62] كل مَا تدعيه أو تعبده من دون الله هو الباطل ، يعني الذي يَبْطُل ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقاً ﴾ [الإسراء : 81] يعني : يزول ولا يثبت أبداً ﴿ وَأَنَّ الله هُوَ العلي الكبير ﴾ [الحج : 62] العلي يعني : كل خَلْقه دونه . وكبير يعني : كل خَلْقه صغير .

ومن أسمائه تعالى ﴿ الكبير ﴾ [الحج : 62] ولا نقول أكبر إلا في الأذان ، وفي افتتاح الصلاة ، والبعض يظن أن أكبر أبلغ في الوصف من كبير ، لكن هذا غير صحيح ؛ لأن أكبر مضمونه كبير ، إنما كبير مقابله صغير ، فهو سبحانه الكبير ؛ لأن ما دونه وما عداه صغير .

أما حين يناديك ويستدعيك لأداء فريضة الله يقول : الله أكبر ؛ لأن حركة الحياة وضروريات العيش عند الله أمر كبير وأمر هام لا يغفل ، لكن إنْ كانت حركة الحياة والسعي فيها أمر كبيراً فالله أكبر ، فربُّك يُخرجك للصلاة من عمل ، ويدعوك بعدها إلى العمل : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله . . ﴾ [الجمعة : 10] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(189/527)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) (الحج : 62) ، وفي سورة لقمان : (وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ) (لقمان : 30) ، للسائل أن يسأل عن التأكيد بزيادة ((هو)) في سورة الحج وسقوطه من سورة لقمان ؟

(190/527)

ووجه ذلك ، والله أعلم : أن سورة الحج ورد فيها ما يستدعي هذا التأكيد بالضمير المنفصل ويناسبه ، وهو تكرر الإشارة إلى آلهتهم والإفصاح بذكرهم تعريفاً بوهن مرتكبهم وشنيع حالهم ، وأوضح هذا المتكرر وأشده ملاءمة الإتيان بهذا الضمير المعد فصلاً أو مبتدأ قوله تعالى : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) (الحج : 31) ، وقوله في آخر السورة : (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ) (الحج : 73) ، فهذه الآية والتي ذكرنا قبلها أنسب شيء لقوله : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ

دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) (الحج : 62) ، فورد قوله تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) الآية بناء على قوله : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ) ، وتمهيداً وتوطئه لما وبخوا به بعدها وقرعوا مما لا يجدون عليه جواباً من قوله : (لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ) (الحج : 73) إلى قوله : (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) (الحج : 74) . (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) (الحج62) ، فتأمل عظيم هذه المناسبة والتئام هذه الآية العظيمة ، ولو لم تتقدم الآية المتقدمة من قوله : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ) (الحج : 31) الآية لكانت الأخيرة وهي قوله : (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا) (الحج : 73) والتقديم والتأخير مما يرتكبه العرب كثيراً ، ويوجد في فصيح كلامهم ، ومن نحو هذه الآية التي بنينا مفهومها على تقدير التقديم

(191/527)

والتأخير قوله تعالى في سورة البقرة : (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا) (البقرة : 72) ، فتأخر هذا في الترتيب والتلاوة عن قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) (البقرة : 67) . وفعلهم متقدم من جهة معناه لأنهم إنما أمروا بذبح البقرة عند تشاجرهم في أمر القتيل المشار إليه ، فالآيتان في قوة أن لو قيل : وإذ قتلتم نفساً فادرأتم

فيها فأمرتم بذبح البقرة فأوضح لكم ذلك حكم القتيل ، فعلى هذا كانت تكون آية سورة الحج لو لم يرد قوله أولاً : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ . . . .) الآية ، فكان ترتيب الآية على قصور أفهامنا وما عليه ترتيب الكتاب العزيز أعلى نظماً وأجل ، ولكن أفهامنا قاصرة : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) (الحج : 73 – 74) (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) (الحج : 62) ، فقدم وأخر لعامل أيضاً على التقديم والتأخير لسنا الآن له ، فهذه كآية البقرة سواء ، ولما لم يقع في سورة لقمان مثل هذا لم يرد فيها التأكيد ، وذلك أبين شيء وأنسبه ، وإعراب هذا الضمير مبتدأ أو فصلاً ، وثمرته التأكيد لما ذكر ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 362 . 363 ﴾

(192/527)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60)

﴿

أخرج ابن أبي حاتم ، عن مقاتل في قوله : ﴿ ذلك ومن عاقب ﴾ الآية . قال : إن النبي – صلى الله عليه وسلم – بعث سرية في ليلتين بقيتا من المحرم ، فلقوا المشركين ، فقال المشركون بعضهم لبعض : قاتلوا أصحاب محمد ، فإنهم يحرمون القتال في الشهر الحرام . وإن أصحاب محمد : ناشدوهم وذكروهم بالله أن يعرضوا لقتالهم ؛ فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام إلا من بادأهم ، وإن المشركين بدأوا وقاتلوهم فاستحل الصحابة قتالهم عند ذلك ، فقاتلوهم ونصرهم الله عليهم .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ ذلك ومن عاقب ﴾ . قال : تعاون المشركون على النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه فأخرجوه ، فوعد الله ان ينصره وهو في القصاص أيضاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾ قال : الشيطان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(193/527)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ ذلك ﴾ : خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : الأمرُ ذلك . وما بعده مستأنفٌ . والباء في قوله : ﴿ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ للسببيةِ في الموضعين . قاله أبو البقاء . الذين يظهر أن الأُولى يُشبه أن تكونَ للآله . و ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ ﴾ مبتدأ ، خبرُه ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ ﴾ .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61)

قوله : ﴿ ذلك ﴾ : مبتدأ ، و ﴿ بِأَنَّ اللهَ ﴾ خبرُه أي : ذلك النصر بسببِ أنَّ اللهَ يُوْلِج .

وقرأ العامَّةُ و " أنَّ ما " عطفاً على الأولى والحسن بكسرِها استئنافاً .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62)

قوله : ﴿ هُوَ الحق ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ فَصلاً ومبتدأً . وجوَّز أبو البقاء أن يكونَ توكيداً . وبه بدأ . وهو غلط ؛ لأنَّ المضمرَ لا يُؤَكِّدُ المُظْهَرَ ، ولكان صيغةُ النصبِ أَوْلَى به من الرفعِ فيُقال : " إياه " لأنَّ المتبوعَ منصوبٌ .

وقرأ الأَخَوان وحفصٌ وأبو عمرو هنا وفي لقمان " يَدْعُون " بالياء من تحتُ . والباقون بالتاءِ من فوقُ . والفعلُ مبنيٌّ للفاعلِ . وقرأ مجاهدٌ واليماني بالياء من تحتُ مبنياً للمفعول . والواوُ التي هي ضميرٌ تعودُ على " ما " على معناها والمرادُ بها الأصنامُ أو الشياطينُ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 296 . 297 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60) ﴾

نصْرُه – سبحانه – للأولياء نَصْرٌ عزيز ، وانتقامه بتمام ، واستئصالُه بكمال ، وإزهاقه أعداءَه بتمحيق جملتهم ، وألَّا يحتاجَ المنصورُ إلى الاحتيال أو الاعتضادِ بأشكال .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61)

كما في أفقِ العَالَم لَيْلٌ ونهار فكذلك للسرائر ليل ونهار ؛ فعند التجلي نهار وعند الستر ليل ، ولليلِ السِّرِّ ونهاره زيادةٌ ونقصان ، فبمقدار القبض ليلٌ وبمقدار البسط نهارٌ ، ويزيد أحدُهما على الآخرِ وينقص . . . وهذا للعارفين . فأَمَّا المحقَّقُون فلَهُم الأُنْسُ والهيبةُ مكانَ قبضِ قوم وبَسْطِهم ، وذلك في حَالَيْ صحوهم ومحوهم ، ويزيد أحدهما وينقص ، ومنهم من يدوم نهارُه ولا يدخل عليه ليلٌ . . وذلك لأهل الأُنْسْ فقط

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62)

إذا بدا عِلْمٌ من الحقائق حَصَلَت بمقداره شظية من الفناء لِمَنْ حَصَلَ له التجلي ، ثم يزيد ظهورُ ما يبدو ويغلب ، وتتناقصُ آثارُ التفرقة وتتلاشى ، قال : صلى الله عليه وسلم : " إذا أَقبل النهارُ من ها هنا أدبر الليلُ من ها هنا " فإذا نأى العبدُ بالكليةِ عن الإحساسِ بما دون اللَّهِ فلا يشهد أولاً الأشياءَ إلا للحقِّ ، ثم لا يشهدها إلا بالحقِّ ، ثم لا يشهد إلا الحق . . فلا إحساسَ له بغير الحق ، ومِنْ جملة ما ينساه . . نَفْسُه والكونُ كله . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 556 . 557 ﴾

(195/527)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والعشرون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/528)

الجزء الثامن والعشرون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 63 ﴾ من سورة الحج

وحتى الآية ﴿ 72 ﴾ من نفس السورة

(4/528)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ

إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (66) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما دل ما تضمنه رزقه سبحانه للميت في سبيله بقتل أو غيره على إحيائه له ، ودل سبحانه على ذلك وعلى أنه خير الرازقين بما له من العظمة ، وختم بهذين الوصفين ، أتبعه دليلاً آخر على ذلك كله بآية مشاهدة جامعة بين العالم العلوي والسفلي قاضية بعلوه وكبره ، فقال : ﴿ ألم تر ﴾ أي أيها المخاطب ﴿ أن الله ﴾ أي المحيط قدرة وعلماً ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ بأن يرسل رياحاً فتثير سحاباً فيمطر على الأرض الملساء .

ولما كان هذا الاستفهام المتلو بالنفي في معنى الإثبات لرؤية الإنزال لكونه فيه معنى الإنكار ، عطف على ﴿ أنزل ﴾ معقباً له على حسب العادة قوله ، معبراً بالمضارع تنبيهاً على عظمة النعمة بطول زمان أثر المطر وتجدد نفعه : ﴿ فتصبح الأرض ﴾ أي بعد أن كانت مسودة يابسة ، ميتة هامدة ﴿ مخضرة ﴾ حية يانعة ، مهتزة نامية ، بما فيه رزق العبادة ، وعمار البلاد ، ولم ينصب على أنه جوابه لئلا يفيد نفي الاخضرار ، وذلك لأن الاستفهام من حيث فيه معنى الإنكار نفي لنفي رؤية الإنزال الذي هو إثبات الرؤية ، فيكون ما جعل جواباً له منفياً ، لأن الجواب متوقف على ما هو جوابه ، فإذا نفى ما عليه التوقف انتفى

المتوقف عليه ، أي إذا نفى الملزوم انتفى اللازم ، وإذا نفي السبب انتفى المسبب – كما تقدم " فتكون لهم قلوب " فلو نصب " يصبح " على أنه جواب الاستفهام لكان المعنى أن عدم الاخضرار متوقف على نفي النفي للإنزال الذي هو إثبات الإنزال ، وهو واضح الفساد – أفاده شيخنا الإمام أبو الفضل رحمه الله .

(5/528)

ولما كان هذا إنتاجاً للأشياء من أضدادها ، لأن كلاًّ من الماء في رقته وميوعه والتراب في كثافته ، وجموده في غاية البعد عن النبات في تنوعه وخضرته ، ونموه وبهجته ، قال سبحانه وتعالى منبهاً على ذلك : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له تمام العز وكمال العلم ﴿ لطيف ﴾ أي يسبب الأشياء عن أضدادها ﴿ خبير ﴾ أي مطلع على السرائر وإن دقت ، فلا يستبعد عليه إحياء من أراد بعد موته ، والإحسان في رزقه .

ولما اقتضى ذلك أنهى التصرف ، لأنه لا بد بعد اختلاط الماء بالتراب من أمور ينشأ عنها النبات ، على تلك الهيئات الغريبة المختلفة ، فأوجب ذلك أن يكون هو المالك المطلق ، قال : ﴿ له ما في السماوات ﴾ أي التي أنزل منها الماء ، ولما كان السباق لإثبات البعث والانفراد بالملك والدلالة على ذلك ، اقتضى الحال التأكيد بإعادة الموصول فقال : ﴿ وما

في الأرض ﴾ أي التي استقر فيها ، وذلك يقتضي ملك السماوات والأرضين ، فإن كل واحدة منها في التي فوقها حتى ينتهي الأمر إلى عرشه سبحانه الذي لا يجوز أصلاً أن يكون لغيره .

ولما كان من المألوف عندنا أن المالك فقير إلى ما في يده ؛ مذموم على إمساكه بالتقتير ، وعلى بذله بالتبذير ، بين أنه بخلاف ذلك فقال : ﴿ وإن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة التامة ﴿ لهو ﴾ أي وحده ﴿ الغني ﴾ أي عنهما وعما فيهما ، ما خلق شيئاً منهما أو فيهما لحاجة له إليه بل لحاجتكم أنتم إليه ﴿ الحميد ﴾ في كل ما يعطيه أو يمنعه ، لما في ذلك من الحكم الخفية والجلية ؛ ثم استدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ ألم تر ﴾ أي أيها المخاطب ﴿ أن الله ﴾ أي الحائز لصفقات الكمال ، من الجلال والجمال ﴿ سخّر لكم ﴾ فضلاً منه ﴿ ما في الأرض ﴾ كله من مسالكها وفجاجها وما فيها من حيوان وجماد ، وزروع وثمار ، فعلم أنه غير محتاج إلى شيء منه

ولما كان تسخير السلوك في البحر من أعجب العجب ، قال : ﴿ والفلك ﴾ أي وسخرها لكم موسقة بما تريدون من البضائع .

(6/528)

ثم بين تسخيرها بقوله : ﴿ تجري في البحر ﴾ أي العجاج ، المتلاطم بالأمواج ، بريح طيبة على لطف وتؤدة .

ولما كان الراكب فيها – مع حثيث السير وسرعة المر – مستقراً كأنه على الأرض ، عظم الشأن في سيرها بقوله : ﴿ بأمره ﴾ ولما كان إمساكها على وجه الماء مع لطافته عن الغرق أمراً غريباً كإمساك السماء على متن الهواء عن الوقوع ، أتبعه قوله : ﴿ ويمسك السماء ﴾ ثم فسر ذلك بقوله مبدلاً : ﴿ أن تقع ﴾ أي مع علوها وعظمها وكونها بغير عماد ﴿ على الأرض ﴾ التي هي تحتها .

ولما اقتضى السياق أنه لا بد أن تقع لانحلاله إلى أن يمنع وقوعها لأنها جسم كثيف عظيم ، ليس له من طبعه إلا السفول ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ إلا بإذنه ﴾ أي فيقع إذا أذن في وقوعها حين يريد طي هذا العالم وإيجاد عالم البقاء .

ولما كان هذا الجود الأعظم والتدبير المحكم محض كرم من غير حاجة أصلاً ، أشار إليه بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الخلق والأمر .

ولما كان الجماد كله متاعاً للحيوان ، اقتضى تقديم قوله : ﴿ بالناس ﴾ أي على ظلمهم ﴿ لرؤوف ﴾ أي بما يحفظ من سرائرهم عن الزيغ بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ونصب المناسك ، التي يجمع معظمها البيت الذي بوأه لإبراهيم عليه السلام ، وهو التوحيد والصلاة والحج الحامل على التقوى التي بنيت عليها السورة ، فإن الرأفة كما قال الحرالي :

ألطف الرحمة وأبلغها ، فالمرؤوف به تقيمه عناية الرأفة حتى تحفظ بمسراها في سره ظهور ما يستدعي العفو ، وتارة يكن هذا الحفظ بالقوة بنصب الأدلة ، وتارة يضم إلى ذلك الفعل بخلق الهداية في القلب ، وهذا خاص بمن له بالمنعم نوع وصلة .

﴿ رحيم ﴾ بما يثبت لهم عموماً من الدرجات على ما منحهم به من ثمرات ذلك الحفظ من الأعمال المرضية لما تقدم في الفاتحة من أن الرحيم خاص الرحمة بما ترضاه الإلهية ، وتقدم في البقرة تحقيق هذا الموضع .

(7/528)

ولما بين سبحانه جملاً من أمهات الدين ، وأتبعها الإعانة لأهله على المعتدين ، وختم بما بعد الموت للمهاجرين ، ترغيباً في منابذة الكافرين ، وعرّف بما له من تمام العلم وشمول القدرة ، ومثل ذلك بأنواع من التصرف في خلق السماوات والأرضين ، وأنهاه بالدلالة على أنه كله لنفع الآدميين نعمة منه ، تلا ذلك بما هو أكبر منه نعمة عليهم فقال : ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ الذي أحياكم ﴾ أي عن الجمادية بعد أن أوجدكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً ، منة منه عليكم مستقلة ، لزم منها المنة بما تقدم ذكره من المنافع الدنيوية لتستمر حياتكم أولاً ، الدينية لتنتفعوا بالبقاء ثانياً ﴿ ثم يميتكم ﴾ ليكون الموت واعظاً لأولي البصائر منكم ،

وزاجراً لهم عما طبعوا عليه من الأخلاق المذمومة ﴿ ثم يحييكم ﴾ للتحلي بفصل القضاء وإظهار العدل في الجزاء .

ولما علم أن كل ما في الوجود من جوهر وعرض نعمة على الإنسان حتى الحياة والموت ، وكان من أجلى الأشياء ، وكانت أفعاله معرضة عن الرب هذه النعم بالعبادة لغيره ، أو التقصير في حقه على عموم فضله وخيره ، ختم الآية سبحانه بقوله : ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ أي بليغ الكفر حيث لم يشكر على هذه النعم المحيطة به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 169.172 ﴾

(8/528)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

اعلم أنه تعالى لما دل على قدرته من قبل بما ذكره من ولوج الليل في النهار ونبه به على نعمه ، أتبعه بأنواع أخر من الدلائل على قدرته ونعمته وهي ستة .

أولها : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً إِنَّ الله

لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وجوهاً ثلاثة : أحدها : أن المراد هو الرؤية الحقيقية ، قالوا لأن الماء النازل من السماء يرى بالعين واخضرار النبات على الأرض مرئي ، وإذا أمكن حمل الكلام على حقيقته فهو أولى وثانيها : أن المراد ألم تخبر على سبيل الاستفهام وثالثها : المراد ألم تعلم والقول الأول ضعيف لأن الماء وإن كان مرئياً إلا أن كون الله منزلاً له من السماء غير مرئي إذا ثبت هذا وجب حمله على العلم ، لأن المقصود من تلك الرؤية هو العلم ، لأن الرؤية إذا لم يقترن بها العلم كانت كأنها لم تحصل .

المسألة الثانية :

قرىء ﴿ مُخْضَرَّةً ﴾ كمبقلة ومسبعة أي ذات خضرة ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : لم قال : ﴿ فَتُصْبِحُ الأرض ﴾ ولم يقل فأصبحت ؟ الجواب : لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان ، كما تقول أنعم على فلان عام كذا فأروح وأغد شاكراً له ، ولو قلت فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع .

السؤال الثاني : لم رفع ولم ينصب جواباً للاستفهام ؟ والجواب : لو نصب لأعطى عكس ما هو الغرض ، لأن معناه إثبات الإخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الإخضرار مثاله أن تقول لصاحبك ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر .

وإن نصبته فأنت ناف لشكره شاك لتفريطه ، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر .

السؤال الثالث : لم أورد تعالى ذلك دلالة على قدرته على الإعادة ، كما قال أبو مسلم .

(9/528)

الجواب : يحتمل ذلك ويحتمل أنه نبه به على عظيم قدرته وواسع نعمه .

السؤال الرابع : ما تعلق قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ بما تُقدم ؟ الجواب : من وجوه أحدها : أراد أنه رحيم بعباده ولرحمته فعل ذلك حتى عظم انتفاعهم به ، لأن الأرض إذا أصبحت مخضرة والسماء إذا أمطرت كان ذلك سبباً لعيش الحيوانات على اختلافها أجمع .

ومعنى ﴿ خَبِيرٌ ﴾ أنه عالم بمقادير مصالحهم فيفعل على قدر ذلك من دون زيادة ونقصان وثانيها : قال ابن عباس ﴿ لَطِيفٌ ﴾ بأرزاق عباده ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بما في قلوبهم من القنوط وثالثها : قال الكلبي ﴿ لَطِيفٌ ﴾ في أفعاله ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بأعمال خلقه ورابعها : قال مقاتل : ﴿ لَطِيفٌ ﴾ باستخراج النبت ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بكيفية خلقه .

الدلالة الثانية : قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغنى الحميد ﴾ والمعنى أن كل ذلك منقاد له غير ممتنع من التصرف فيه وهو غني عن الأشياء

كلها وعن حمد الحامدين أيضاً لأنه كامل لذاته ، والكامل لذاته غني عن كل ما عداه في كل الأمور ، ولكنه لما خلق الحيوان فلا بد في الحكمة من قطر ونبات فخلق هذه الأشياء رحمة للحيوانات وإنعاماً عليهم ، لا لحاجة به إلى ذلك .

وإذا كان كذلك كان إنعامه خالياً عن غرض عائد إليه فكان مستحقاً للحمد .

فكأنه قال إنه لكونه غنياً لم يفعل ما فعله إلا للإحسان ، ومن كان كذلك كان مستحقاً للحمد فوجب أن يكون حميداً .

فلهذا قال : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الغنى الحميد ﴾ .

الدلالة الثالثة : قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الأرض ﴾ أي ذلل لكم ما فيها فلا أصلب من الحجر ولا أحد من الحديد ولا أكثر هيبة من النار ، وقد سخرها لكم وسخر الحيوانات أيضاً حتى ينتفع بها من حيث الأكل والركوب والحمل عليها والانتفاع بالنظر إليها ، فلولا أن سخر الله تعالى الإبل والبقر مع قوتهما حتى يذللهما الضعيف من الناس ويتمكن منهما لما كان ذلك نعمة .

(10/528)

الدلالة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ والفلك تَجْرِى فِى البحر بِأَمْرِهِ ﴾ والأقرب أن المراد وسخر لكم الفلك لتجري في البحر ، وكيفية تسخيره الفلك هو من حيث سخر الماء والرياح لجريها ، فلولا صفتهما على ما هما عليه لما جرت بل كانت تغوص أو تقف أو تعطب .

فنبه تعالى على نعمه بذلك ، وبأن خلق ما تعمل منه السفن ، وبأن بين كيف تعمل ، وإنما قال بأمره لأنه سبحانه لما كان المجري لها بالرياح نسب ذلك إلى أمره توسعاً ، لأن ذلك يفيد تعظيمه بأكثر مما يفيد لو أضافه إلى فعل بناء على عادة الملوك في مثل هذه اللفظة .

الدلالة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السماء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ الله بالناس لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ واعلم أن النعم المتقدمة لا تكمل إلا بهذه لأن السماء مسكن الملائكة فوجب أن يكون صلباً .

ووجب أن يكون ثقيلاً ، وما كان كذلك فلا بد من الهوى لولا مانع يمنع منه ، وهذه الحجة مبنية على ظاهر الأوهام ، وقوله تعالى : ﴿ أَن تَقَعَ ﴾ قال الكوفيون : كي لا تقع ، وقال البصريون كراهية أن تقع ، وهذا بناء على مسألة كلامية وهي أن الإرادات والكراهات هل تتعلق بالعدم ؟ فمن منع من ذلك صار إلى التأويل الأول ، والمعنى أنه أمسكها لكي لا تقع فتبطل النعم التي أنعم بها .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله بالناس لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فالمعنى أن المنعم بهذه النعم الجامعة لمنافع الدنيا والدين قد بلغ الغاية في الإحسان والإنعام ، فهو إذن رؤوف رحيم .

الدلالة السادسة : قوله : ﴿ وَهُوَ الذى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ﴾ والمعنى أن من سخر له هذه الأمور ، وأنعم عليه بها فهو الذي أحياه فنبه بالإحياء الأول على إنعام الدنيا علينا بكل ما تقدم .

(11/528)

ونبه بالإماتة والإحياء الثاني على نعم الدين علينا ، فإنه سبحانه وتعالى خلق الدنيا بسائر أحوالها للآخرة وإلا لم يكن للنعم على هذا الوجه معنى .

يبين ذلك أنه لولا أمر الآخرة لم يكن للزراعات وتكلفها ولا لركوب الحيوانات وذبحها إلى غير ذلك معنى ، بل كان تعالى يخلقه ابتداء من غير تكلف الزرع والسقي ، وإنما أجرى الله العادة بذلك ليعتبر به في باب الدين ولما فصل تعالى هذه النعم قال : ﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ﴾ وهذا كما قد يعدد المرء نعمه على ولده ، ثم يقول إن الولد لكفور لنعم الوالد زجراً له عن الكفران وبعثاً له على الشكر ، فلذلك أورد تعالى ذلك في الكفار ، فبين أنهم دفعوا هذه النعم وكفروا بها وجهلوا خالقها مع وضوح أمرها ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشكور ﴾ [سبأ : 13] وقال ابن عباس رضي الله عنهما الإنسان ههنا هو الكافر ، وقال أيضاً هو الأسود بن عبد الأسد وأبو جهل والعاص وأبي بن خلف ،

والأولى تعميمه في كل المنكرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 54 .

56 ﴾

(12/528)

وقال ابن عطية :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

﴿ ألم تر ﴾ تنبيه وبعده خبر ﴿ أن الله ﴾ تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ فظلت ﴿ الأرض ﴾ تخضر عنه ، وقوله ﴿ فتصبح الأرض ﴾ بمنزلة قوله فتضحي أو فتصير عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء واستمرارها كذلك عادة ، ورفع قوله ﴿ فتصبحُ ﴾ من حيث الآية خبر والفاء عاطفة وليست بجواب لأن كونها جواباً لقوله ﴿ ألم تر ﴾ فاسد المعنى ، وروي عن عكرمة أنه قال : هذا لا يكون إلا بمكة وتهامة ومعنى هذا أنه أخذ قوله ﴿ فتصبح ﴾ مقصوداً به صباح ليلة المطر وذهب إلى أن ذلك الاخضرار في سائر البلاد يتأخر .

قال القاضي أبو محمد : وقد شاهدت هذا في السوس الأقصى نزل المطر بعد قحط وأصبحت تلك الأرض التي تسقيها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف دقيق ، وقرأ

الجمهور " مخضرة " و" اللطيف " المحكم للأمور برفق ، واللام في ﴿ له ما في السماوات ﴾ لام الملك والمعنى الذي لا حاجة به إلى شيء هكذا هو على الإطلاق ، وقوله ﴿ سخر لكم ما في الأرض ﴾ يريد من الحيوان والمعادن وسائر المرافق ، وقرأ الجمهور " والفلكَ " بالنصب ، وذلك يحتمل وجهين من الإعراب أحدهما أن يكون عطفاً على ﴿ ما ﴾ بتقدير وسخر الفلك ، والآخر أن يكون عطفاً على المكتوبة بتقدير وإن الفلك وقوله ، ﴿ تجري ﴾ على الإعراب الأول . في موضع الحال ، وعلى الإعراب الثاني في موضع الخبر . وقرأت فرقة " والفلكُ " بالرفع فتجري خبر على هذه القراءة . قوله : ﴿ بإذنه ﴾ يحتمل أن يريد يوم القيامة كأن طيّ السماء ونقض هذه الهيئة كوقوعها ، ويحتمل أن يريد بذلك الوعيد لهم في أنه إن أذن في سقوط لكسفها عليهم سقطت ، ويحتمل أن يعود قوله ﴿ إلا بإذنه ﴾ على " الإمساك " لأن الكلام يقتضي بغير عمد ونحوه ، فكأنه أراد إلا بإذنه فيه يمسكها ، وباقي الاية بين .

(13/528)

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (66) ﴾

الإحياء والإماتة في هذه الآيات ثلاث مراتب وسقط منها الموت الأول الذي نص عليه في غيرها إلا أنه بالمعنى في هذه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(14/528)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً ﴾

يعني : المطر ﴿ فتصبح الأرض مخضرَّة ﴾ بالنبات .

وحكى الزجاج عن الخليل أنه قال : معنى الكلام التنبيه ، كأنه قال : أتسمع ، أنزل الله من السماء ماءً فكان كذا وكذا .

وقال ثعلب : معنى الآية عند الفراء خبر ، كأنه قال : اعلم أن الله ينزِّل من السماء ماءً فتصبح ، ولو كان استفهاماً والفاء شرطاً لنصبه .

قوله تعالى : ﴿ إن الله لطيف ﴾ أي : باستخراج النبات من الأرض رزقاً لعباده ﴿ خبير ﴾ بما في قلوبهم عند تأخير المطر .

وقد سبق معنى الغني الحميد في [البقرة 267] .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله سخَّر لكم ما في الأرض ﴾

يريد البهائم التي تُركَب ﴿ ويُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ قال الزجاج : كراهة أن تقع .

وقال غيره : لئلا تقع ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ فيما سخَّر لهم وفيما حبس عنهم من وقوع السماء عليهم .

﴿ وهو الذي أحياكم ﴾ بعد أن كنتم نطفاً ميتة ﴿ ثم يُميتكم ﴾ عند آجالكم ﴿ ثم يُحييكم ﴾ للبعث والحساب ﴿ إن الإنسان ﴾ يعني : المشرك ﴿ لكفور ﴾ لنعَم الله إذ لم يوحِّده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(15/528)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾

دليل على كمال قدرته ؛ أي من قَدَر على هذا قَدَر على إعادة الحياة بعد الموت ؛ كما قال الله عز وجل : ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ ﴾ [فصلت : 39] .

ومثله كثير .

"فتُصبِحُ" ليس بجواب فيكون منصوباً ، وإنما هو خبر عند الخليل وسيبويه .

قال الخليل : المعنى انْتَبِه ! أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا ؛ كما قال :

ألم تسأل الرَّبع القَوَاء فيَنْطِقُ . . .

وهل تُخْبِرَنْكَ اليوم بَيْدَاءُ سَمْلَقُ

معناه قد سألته فنطق .

وقيل استفهام تحقيق ؛ أي قد رأيت ، فتأمل كيف تصبح ! أو عطف لأن المعنى ألم تر أن الله ينزل .

وقال الفراء : "ألم تر" خبر ؛ كما تقول في الكلام : اِعلم أن الله عز وجل ينزل من السماء ماء .

﴿ فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾ أي ذات خضرة ؛ كما تقول : مُبْقِلة ومُسْبِعَة ؛ أي ذات بقل وسباع .

وهو عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة .

قال ابن عطية : وروي عن عكرمة أنه قال : هذا لا يكون إلا بمكة وتِهامة .

ومعنى هذا : أنه أخذ قوله : "فتصبِح" مقصوداً به صباح ليلة المطر ، وذهب إلى أن ذلك الاخضرار يتأخر في سائر البلاد ، وقد شاهدت هذا بسُوسِ الأقصى نزل المطر ليلاً بعد قحط أصبحت تلك الأرض الرملة التي نسفتها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف رقيق .

﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ قال ابن عباس : "خبير" بما ينطوي عليه العبد من القنوط عند تأخير المطر .

"لطيف" بأرزاق عباده .

وقيل : لطيف باستخراج النبات من الأرض ، خبير بحاجتهم وفاقتهم .

قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ خلقاً وملكاً ؛ وكلٌّ محتاج إلى تدبيره وإتقانه .

﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغني الحميد ﴾ فلا يحتاج إلى شيء ، وهو المحمود في كل حال .

(16/528)

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأرض ﴾ ذكر نعمة أخرى ، فأخبر أنه سخر لعباده ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار .

﴿ والفلك ﴾ أي وسخّر لكم الفلك في حال جريها .

وقرأ أبو عبد الرحمن الأعرج "والفُلُك" رفعا على الابتداء وما بعده خبره .

الباقون بالنصب نسقاً على قوله : "ما في الأرض" .

﴿ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض ﴾ أي كراهية أن تقع .

وقال الكوفيون : لئلا تقع .

وإمساكه لها خلق السكون فيها حالاً بعد حال .

﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ أي إلا بإذن الله لها بالوقوع ، فتقع بإذنه ، أي بإرادته وتخليته .

﴿ إِنَّ الله بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي في هذه الأشياء التي سخرها لهم .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي أَحْيَاكُمْ ﴾ أي بعد أن كنتم نُطَفاً .

﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم .

﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أي للحساب والثواب والعقاب .

﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ﴾ أي لجحود لما ظهر من الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته .

قال ابن عباس : يريد الأسود بن عبد الأسد وأبا جهل بن هشام والعاص بن هشام وجماعةً من المشركين .

وقيل : إنما قال ذلك لأن الغالب على الإنسان كفر النعم ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ﴾ [سبأ : 13] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(17/528)

وقال أبو حيان :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

لما ذكر تعالى ما دل على قدرته الباهرة من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل وهما أمران مشاهدان مجيء الظلمة والنور ، ذكر أيضاً ما هو مشاهد من العالم العلوي والعالم السفلي ، وهو نزول المطر وإنبات الأرض وإنزال المطر واخضرار الأرض مرئيان ، ونسبة الإنزال إلى الله تعالى مدرك بالعقل .

وقال أبو عبد الله الرازي : الماء وإن كان مرئياً إلاّ أن كون الله منزله من السماء غير مرئي إذا ثبت هذا وجب حمله على العلم ، لأن المقصود من تلك الرؤية إذا لم يقترن بها العلم كانت كأنها لم تحصل .

وقال الزمخشري : فإن قلت : هلا قيل فأصبحت ولم صرف إلى لفظ المضارع ؟ قلت : لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان .

كما تقول أنعم عليّ فلان عام كذا ، فأروح وأغدو شاكراً له .

ولو قلت فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع .

فإن قلت : فما باله رفع ولم ينصب جواباً للاستفهام ؟ قلت : لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض ، لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار مثاله أن تقول لصاحبك : ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك تفريطه ، وإن

رفعته فأنتم مثبت للشكر هذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله .

وقال ابن عطية : وقوله ﴿ فتصبح الأرض ﴾ بمنزلة قوله فتضحى أو تصير عبارة عن استعجالها أثر نزول الماء واستمرارها كذلك عادة ووقع قوله ﴿ فتصبح ﴾ من حيث الآية خبراً ، والفاء عاطفة وليست بجواب لأن كونها جواباً لقوله ﴿ ألم تر ﴾ فاسد المعنى انتهى .

ولم يبين هو ولا الزمخشري كيف يكون النصب نافياً للاخضرار ، ولا كون المعنى فاسداً .

وقال سيبويه : وسألته يعني الخليل عن ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ﴾ فقال : هذا واجب وهو تنبيه .

(18/528)

كأنك قلت : أتسمع أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا .

قال ابن خروف ، وقوله فقال هذا واجب ، وقوله فكان كذا يريد أنهما ماضيان ، وفسر الكلام بأتسمع ليريك أنه لا يتصل بالاستفهام لضعف حكم الاستفهام فيه ، ووقع في الشرقية عوض أتسمع انتبه انتهى .

ومعنى في الشرقية في النسخة الشرقية من كتاب سيبويه .

وقال بعض شراح الكتاب ﴿ فتصبح ﴾ لا يمكن نصبه لأن الكلام واجب ألا ترى أن المعنى ﴿ أن الله أنزل ﴾ فالأرض هذا حالها .

وقال الفراء ﴿ ألم تر ﴾ خبر كما تقول في الكلام اعلم أن الله يفعل كذا فيكون كذا انتهى .

ويقول إنما امتنع النصب جواباً للاستفهام هنا لأن النفي إذا دخل عليه الاستفهام وإن كان يقتضي تقريراً في بعض الكلام هو معامل معاملة النفي المحض في الجواب ألا ترى إلى قوله ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ وكذلك في الجواب بالفاء إذا أجبت النفي كان على معنيين في كل منهما ينتفي الجواب ، فإذا قلت : ما تأتينا فتحدثنا بالنصب ، فالمعنى ما تأتينا محدثاً إنما يأتي ولا يحدث ، ويجوز أن يكون المعنى إنك لا تأتي فكيف تحدث ، فالحديث منتفٍ في الحالتين والتقرير بأداة الاستفهام كالنفي المحض في الجواب يثبت ما دخلته الهمزة ، وينتفي الجواب فيلزم من هذا الذي قررناه إثبات الرؤية وانتفاء الاخضرار وهو خلاف المقصود .

وأيضاً فإن جواب الاستفهام ينعقد منه مع الاستفهام السابق شرط وجزاء فقوله :

ألم تسأل فتخبرك الرسوم . . .

يتقدر أن تسأل فتخبرك الرسوم ، وهنا لا يتقدر أن ترى إنزال المطر تصبح الأرض مخضرة لأن اخضرارها ليس مترتباً على علمك أو رؤيتك ، إنما هو مترتب على الإنزال ، وإنما عبر

بالمضارع لأن فيه تصويراً للهيئة التي الأرض عليها ، والحالة التي لابست الأرض ، والماضي يفيد انقطاع الشيء وهذا كقول جحدر بن معونة العكلي ، يصف حاله مع أشد نازلة في قصة جرت له مع الحجاج بن يوسف :

يسمو بناظرتين تحسب فيهما . . .

لما أجالهما شعاع سراج

(19/528)

لما نزلت بحصن أزبر مهصر . . .

للقرن أرواح العدا محاج

فأكر أحمل وهو يقعي باسته . . .

فإذا يعود فراجع أدراجي

وعلمت أني إن أبيت نزاله . . .

أني من الحجاج لست بناجي

فقوله : فأكر تصوير للحالة التي لابسها .

والظاهر تعقب اخضرار الأرض إنزال المطر وذلك موجود بمكة وتهامة فقط قاله عكرمة

وأخذ تصبح على حقيقتها أي : تصبح ، من ليلة المطر .

وذهب إلى أن الاخضرار في غير مكة وتهامة يتأخر .

وقال ابن عطية : وقد شاهدت هذا في السوس الأقصى نزل المطر ليلاً بعد قحط فأصبحت تلك الأرض الرملة التي قد نسفتها الرياح قد اخضرّت بنبات ضعف انتهى .

وإذا جعلنا ﴿ فتصبح ﴾ بمعنى فتصير لا يلزم أن يكون ذلك الاخضرار في وقت الصباح ، وإذا كان الاخضرار متأخراً عن إنزال المطر فثم جمل محذوفة التقدير ، فتهتز وتربو فتصبح يبين ذلك قوله تعالى ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت ﴾ وقرىء ﴿ مخضرة ﴾ على وزن مفعلة ومسبعة أي ذات خضر ، وخص تصبح دون سائر أوقات النهار لأن رؤية الأشياء المحبوبة أول النهار أبهج وأسر للرائي .

﴿ إن الله لطيف ﴾ أي باستخراج النبات من الأرض بالماء الذي أنزله ﴿ خبير ﴾ بما يحدث عن ذلك النبت من الحب وغيره .

وقيل ﴿ خبير ﴾ بلطيف التدبير ﴿ خبير ﴾ بالصنع الكثير .

وقيل : ﴿ خبير ﴾ بمقادير مصالح عباده فيفعل على قدر ذلك من غير زيادة ولا نقصان .

وقال ابن عباس ﴿ لطيف ﴾ بأرزاق عباده ﴿ خبير ﴾ بما في قلوبهم من القنوط .

وقال الكلبي ﴿ لطيف ﴾ بأفعاله ﴿ خبير ﴾ بأعمال خلقه .

وقال الزمخشري ﴿ لطيف ﴾ وأصل علمه أو فضله إلى كل شيء ﴿ خبير ﴾ بمصالح

الخلق ومنافعهم .

وقال ابن عطية : واللطيف المحكم للأمور برفق .

﴿ ما في الأرض ﴾ يشمل الحيوان والمعادن والمرافق .

(20/528)

وقرأ الجمهور ﴿ والفلك ﴾ بالنصب وضم اللام ابن مقسم والكسائي عن الحسن ، وانتصب عطفاً على ﴿ ما ﴾ ونبه عليها وإن كانت مندرجة في عموم ما تنبيهاً على غرابة تسخيرها وكثرة منافعها ، وهذا هو الظاهر .

وجوز أن يكون معطوفاً على الجلالة بتقدير وأن ﴿ الفلك ﴾ وهو إعراب بعيد عن الفصاحة و ﴿ تجري ﴾ حال على الإعراب الظاهر .

وفي موضع الجر على الإعراب الثاني .

وقرأ السلمي والأعرج وطلحة وأبو حيوة والزعفراني بضم الكاف مبتدأ وخبر ، ومن أجاز العطف على موضع اسم إن أجازه هنا فيكون ﴿ تجري ﴾ حالاً .

والظاهر أن ﴿ أن تقع ﴾ في موضع نصب بدل اشتمال ، أي ويمنع وقوع السماء على الأرض .

وقيل هو مفعول من أجله يقدره البصريون كراهة ﴿ أن تقع ﴾ والكوفيون لأن لا تقع .

وقوله ﴿ إلا بإذنه ﴾ أي يوم القيامة كأن طي السماء بعض هذه الهيئة لوقوعها ، ويجوز أن يكون ذلك وعيداً لهم في أنه إن أذن في سقوطها كسفاً عليكم سقطت كما في قولهم : أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً و ﴿ إلا بإذنه ﴾ متعلق بأن تقع أي ﴿ إلاّ بإذنه ﴾ فتقع .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يعود قوله ﴿ إلاّ بإذنه ﴾ على الإمساك لأن الكلام يقتضي بغير عمد ونحوه ، فكأنه أراد إلاّ بإذنه فيه يمسكها انتهى .

ولو كان على ما قاله ابن عطية لكان التركيب بإذنه دون أداة الاستثناء أي يكون التقدير ويمسك السماء بإذنه .

﴿ وهو الذي أحياكم ﴾ أي بعد أن كنتم جماداً تراباً ونطفة وعلقة ومضغة وهي الموتة الأولى المذكورة في قوله تعالى ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ و ﴿ الإنسان ﴾ .

قال ابن عباس : هو الكافر .

وقال أيضاً : هو الأسود بن عبد الأسد وأبو جهل وأُبيّ بن خلف .

وهذا على طريق التمثيل .

﴿ لكفور ﴾ لجحود لنعم الله ، يعبد غير من أنعم عليه بهذه النعم المذكورة وبغيرها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(21/528)

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾

استفهامٌ تقريريٌّ كما يفصح عنه الرَّفعُ في قوله تعالى : ﴿ فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾

بالعطف على أنزلَ ، وإيثار صيغةَ الاستقبالِ للإشعارِ بتجدُّدِ أثرِ الإنزالِ واستمرارِه أو

لاستحضارِ صورةِ الاخضرارِ ﴿ إِنَّ الله لَطِيفٌ ﴾ يصل لطفُه أو علمُه ألى كلِّ ما جلَّ

ودقَّ ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بما يليقُ من التَّدابيرِ الحسنةِ ظاهراً وباطناً .

﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ خَلْقاً ومُلْكاً وتصرُّفاً ﴿ وَإِنَّ الله لَهُوَ الغنى ﴾

عن كلِّ شيءٍ ﴿ الحميد ﴾ المستوجبُ للحمدِ بصفاته وأفعاله .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الأرض ﴾ أي جعلَ ما فيها من الأشياءِ مذلَّلةً لكم معدَّةً

لمنافعكم تتصرَّفون فيها كيفَ شئتُم فلا أصلبَ من الحجرِ ولا أشدَّ من الحديدِ ولا أهيبَ

من النَّارِ وهي مسخَّرةٌ لكم . وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ الصَّريحِ لما مرَّ مراراً من

الاهتمامِ بالمقدَّمِ لتعجيل المسرَّةِ والتّشويقِ إلى المؤخَّرِ ﴿ والفلك ﴾ عطفٌ على مَا ، أو على اسمِ أنَّ . وقُرِىء بالرَّفعِ على الابتداء ﴿ تَجْرِى فِى البحر بِأَمْرِه ﴾ حالٌ من الفلك على الأوَّلِ وخبرٌ على الأخيرينِ ﴿ وَيُمْسِكُ السماء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض ﴾ أي من أن تقعَ أو كراهةَ أن تقع بأنْ خلقَها على هيئةٍ متداعيةٍ إلى الاستمساك ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ أي بمشيئته وذلك يومُ القيامةِ وفيه ردٌّ لاستمساكها بذاتها فإنَّها مساويةٌ في الجسميَّةِ لسائر الأجسامِ القابلةِ للميلِ الهابط فتقبله كقبولِ غيرِها ﴿ إِنَّ الله بالناس لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث هيَّأ لهم أسبابَ معاشِهم وفتحَ عليهم أبوابَ المنافعِ وأوضح لهم مناهجَ الاستدلالِ بالآيات التَّكوينيةِ والتَّنزيليةِ .

(22/528)

﴿ وَهُوَ الذى أَحْيَاكُمْ ﴾ بعد أنْ كنتُم جماداً عناصرَ ونطفاً حسبما فُصِّل في مطلع السُّورةِ الكريمة ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند مجيء آجالِكم ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ عند البعثِ ﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ﴾ أي جَحودٌ للنِّعمِ مع ظهورِها وهذا وصف للجنس بوصف بعضِ أفرادِه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(23/528)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماء ﴾

أي من جهة العلو ﴿ مَاء ﴾ أي ألم تعلم ذلك ، وجوز كون الرؤية بصرية نظراً للماء المنزل ، والاستفهام للتقرير ، وقوله تعالى : ﴿ فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾ أي فتصير ، وقيل تصبح على حقيقتها والحكم بالنظر إلى بعض الأماكن تمطر السماء فيها ليلاً فتصبح الأرض مخضرة ، والأول أولى عطف على ﴿ أَنزَلَ ﴾ والفاء مغنية عن الرابط فلا حاجة إلى تقدير بإنزاله ، والتعقيب عرفي أو حقيقي وهو إما باعتبار الاستعداد التام للإخضرار أو باعتباره نفسه وهو كما ترى ، وجوز أن تكون الفاء لمحض السبب فلا تعقيب فيها ، والعدول عن الماضي إلى المضارع لإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان كما تقول : أنعم على فلان عام كذا فاروح وأغدو شاكراً له ولو قلت : فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع أو لاستحضار الصورة البديعة ولم ينصب الفعل في جواب الاستفهام هنا في شيء من القراءات فيما نعلم وصرح غير واحد بامتناعه ، ففي البحر أنه يمتنع النصب هنا لأن النفي إذا دخل عليه الاستفهام وإن كان يقتضي تقريراً في بعض الكلام هو معامل معاملة النفي المحض في الجواب ألا ترى قوله تعالى : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف : 172] وكذلك في الجواب بالفاء إذا أجبت النفي كان على معنيين في كل منهما ينتفي الجواب فإذا قلت : ما

تأتينا فتحدثنا بالنصب فالمعنى ما تأتينا محدثاً إنما تأتينا ولا تحدث ، ويجوز أن يكون المعنى أنك لا تأتينا فكيف تحدثنا فالحديث منتف في الحالتين والتقرير بأداة الاستفهام كالنفي المحض في الجواب يثبت ما دخلته همزة الاستفهام وينفي الجواب فيلزم من ذلك هنا إثبات الرؤية وانتفاء الاخضرار وهو خلاف المراد ، وأيضاً جواب الاستفهام ينعقد منه مع الاستفهام شرط وجزاء ولا يصح أن يقال هنا إن رك إنزال الماء تصبح الأرض مخضرة لأن إخضرارها ليس مترتباً على علمك أو رؤيتك إنما هو مترتب على الإنزال اه .

(24/528)

وإلى انعكاس المعنى على تقدير النصب ذهب الزمخشري حيث قال : لو نصب الفعل جواباً للاستفهام لأعطى ما هو عكس الغرض لأن معناه إثبات الإخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الإخضرار لكن تعقبه "صاحب الفرائد" حيث قال : لا وجه لما ذكره "صاحب الكشاف" ولا يلزم المعنى الذي ذكر بل يلزم من نصبه أن يكون مشاركاً لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تابعاً له ولم يكن تابعاً لإنزال ويكون مع ناصبه مصدراً معطوفاً على المصدر التي تضمنه ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ والتقدير ألم تكن لك رؤية إنزال الماء من السماء وإصباح الأرض مخضرة وهذا غير مراد من الآية بل المراد أن يكون إصباح الأرض مخضرة بأنزال الماء

فيكون حصول إخضرار الأرض تابعاً للإنزال معطوفاً عليه اه وفيه بحث .

وقال "صاحب التقريب" في ذلك : إن النصب بتقدير إن وهو علم للاستقبال فيجعل الفعل مترقباً والرفع جزم بأخباره وتلخيصه أن الرفع جزم بإثباته والنصب ليس جزماً بإثباته لا أنه جزم بنفيه ، ولا يخفى أنه إن صح في نفسه لا يطابق مغزى الزمخشري ، وعلل أبو البقاء امتناع النصب بأمرين ، أحدهما انتفاء سببية المستفهم عنه لما بعد الفاء كما تقدم عن البحر ، والثاني أن الاستفهام المذكور بمعنى الخبر فلا يكون له جواب وإلى هذا ذهب الفراء فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ خبر كما تقول في الكلام أعلم أن الله تعالى يفعل كذا فيكون كذا ، وقال سيبويه : وسألته يعني الخليل عن قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾ فقال هذا واجب وهو تنبيه كأنك قلت : أتسمع ؟ وفي النسخة الشرقية من الكتاب انتبه أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا .

(25/528)

وقال بعض المتأخرين : يجوز أن يعتبر تسبب الفعل عن النفي ثم يعتبر دخول الاستفهام التقريري فيكون المعنى حصل منك رؤية إنزال الله تعالى الماء فإصباح الأرض مخضرة لأن الاستفهام المذكور الداخل على النفي يكون في معنى نفي النفي وهو إثبات ، فإن قلت :

الرؤية لا تكون سبباً لا نفياً ولا إثباتاً للإخضرار ، قلت : الرؤية مقحمة والمقصود هو الإنزال أو هي كناية عنه لأنها تلزمه مع أنه يكفي التشبيه بالسبب كما نص عليه الرضى في ما تأتينا فتحدثنا في أحد اعتباريه ، واختار هذا في الاستدلال على عدم جواز النصب أن النصب مخلص المضارع للاستقبال اللائق بالجزائية على ما قرر في علم النحو ولا يمكن ذلك في الآية الكريمة كما ترى .

وبالجملة إن الذي عليه المحققون أن من جوز النصب هنا لم يصب ، وأن المعنى المراد عليه ينقلب .

وقرىء ﴿ مُخْضَرَّةً ﴾ بفتح الميم وتخفيف الضاد مثل مبقلة ومجزرة أي ذات خضرة ﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ ﴾ أي متفضل على العباد بايصال منافعهم إليهم برفق ومن ذلك إنزال الماء من السماء وإخضرار الأرض بسببه ﴿ خَبِيرٌ ﴾ أي عليم بدقائق الأمور ومنها مقادير مصالح عباده .

وقال ابن عباس : لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط ، وقال مقاتل : لطيف باستخراج النبات خبير بكيفية خلقه ، وقال الكلبي : لطيف بأفعاله خبير بأعمال عباده ، وقال ابن عطية : اللطيف هو المحكم للأمور برفق ، ونقل الآمدي أنه العالم بالخفيات ، وأنت تعلم أنه المعنى المشهور للخبير ، وفسره بعضهم بالمخبر ولا يناسب المقام كتفسير اللطيف بما لا تدركه الحاسة .

﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً فاللام للاختصاص التام ﴿ وَإِنَّ الله لَهُوَ الغنى ﴾ الذي لا يفتقر إلى شيء أصلاً ﴿ الحميد ﴾ الذي حمده بصفاته وأفعاله جميع خلقه قالا أو حالا .

(26/528)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الأرض ﴾ أي جعل ما فيها من الأشياء مذللة لكم معدة لمنافعكم تتصرفون فيها كيف شئتم ، وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ﴿ والفلك ﴾ بالنصب وإسكان اللام . وقرأ ابن مقسم .

والكسائي عن الحسن بضمها وهو معطوف على ﴿ مَا ﴾ عطف الخاص على العام تنبيهاً على غرابة تسخيرها وكثرة منافعها .

وجوز أن يكون عطفاً على الاسم الجليل ، وقوله تعالى : ﴿ تَجْرِى فِى البحر بِأَمْرِهِ ﴾ على الأول حال منه وعلى الثاني خبر لأن وتكون الواو قد عطفت الاسم على الاسم والخبر على الخبر وهو خلاف الظاهر .

وفي "البحر" هو إعراب بعيد عن الفصاحة .

وقرأ السلمي .

والأعرج .

وطلحة .

وأبو حيوة .

والزعفراني ﴿ والفلك ﴾ بالرفع على الابتداء وما بعده خبره والجملة مستأنفة .

وجوز أن تكون حالية ، وقيل : يجوز أن يكون الرفع بالعطف على محل أن مع اسمها وهو على طرز العطف على الاسم ﴿ وَيُمْسِكُ السماء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض ﴾ أي عن أن تقع عليها فالكلام على حذف حرف الجر وأن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب أو مجرور على القولين المشهورين في ذلك ، وجعل بعضهم ذلك في موضع المفعول لأجله بتقدير كراهة أن تقع عند البصريين ، والكوفيون يقدرون لئلا تقع .

وقال أبو حيان : الظاهر أن ﴿ تَقَعَ ﴾ في موضع نصب بدل اشتمال من السماء أي ويمنع وقوع السماء على الأرض .

ورد بأن الإمساك بمعنى اللزوم يتعدى بالباء وبمعنى الكف بعن وكذا بمعنى الحفظ والبخل كما في تاج المصادر وأما بمعنى المنع فهو غير مشهور .

وتعقب بأنه ليس بشيء لأنه مشهور مصرح به في كتب اللغة ، قال الراغب : يقال أمسكت

عنه كذا أي منعته قال تعالى : ﴿ هَلْ هُنَّ مُمسكات رَحْمَتِهِ ﴾ [الزمر : 38] وكنى عن البخل بالإمساك اه ، وصرح به الزمخشري .

(27/528)

والبيضاوي في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السموات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ [فاطر : 41] نعم الأظهر هو الإعراب الأول ، والمراد بإمساكها عن الوقوع على الأرض حفظ تماسكها بقدرته تعالى بعد أن خلقها متماسكة آناً فآناً .

وعدم تعلق إرادته سبحانه بوقوعها قطعاً قطعاً ، وقيل إمساكه تعالى إياها عن ذلك بجعلها محيطة لا ثقيلة ولا خفيفة ، وهذا مبني على اتحاد السماء والفلك وعلى قول الفلاسفة المشهور بأن الفلك لا ثقيل ولا خفيف : وبنوا ذلك على زعمهم استحالة قبوله الحركة المستقيمة وفرعوا عليه أنه لا حال ولا بارد ولا رطب ولا يابس ، واستدلوا على استحالة قبوله الحركة المستقيمة بما أبطله المتكلمون في كتبهم .

والمعروف من مذهب سلف المسلمين أن السماء غير الفلك وأن لها أطيطاً لقوله عليه الصلاة والسلام :

" أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك قائم أو ساجد " وأنها

ثقيلة محفوظة عن الوقوع بمحض إرادته سبحانه وقدرته التي لا يتعاصاها شيء لا لاستمساكها بذاتها .

وذكر بعض المتكلمين لنفي ذلك أنها مشاركة في الجسمية لسائر الأجسام القابلة للميل الهابط فتقبله كقبول غيرها وللبحث فيه على زعم الفلاسفة مجال ، والتعبير بالمضارع لإفادة الاستمرار التجددي أي يمسكها آناً فآناً من الوقوع ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ أي بمشيئته ، والاستثناء مفرغ من أعم الأسباب ، وصح ذلك في الموجب قيل لصحة إرادة العموم أو لكون ﴿ يُمْسِكُ ﴾ فيه معنى النفي أي لا يتركها تقع بسبب من الأسباب كمزيد مرور الدهور عليها وكثقلها بما فيها إلا بسبب مشيئته وقوعها ، وقيل : استثناء من أعم الأحوال أي لا يتركها تقع في حال من الأحوال إلا في كونها ملتبسة بمشيئته تعالى ولعل ما ذكرناه أظهر .

(28/528)

وفي "البحر" أن الجار والمجرور متعلق بتقع ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يتعلق بيمسك لأن الكلام يقتضي بغير عمد ونحوه فكأنه أراد إلا بإذنه فبه يمسكها ولو كان كما قال لكان التركيب بدون إلا انتهى ، ولعمري أن ما قاله ابن عطية لا يقوله من له أدنى روية كما لا يخفى

، ثم إنه لا دلالة في الآية على وقوع الإذن بالوقوع ، وقيل فيها إشارة إلى الوقوع وذلك يوم القيامة فإن السماء فيه تتشقق وتقع على الأرض ، وأنا ليس في ذهني من الآيات أو الأخبار ما هو صريح في وقوع السماء على الأرض في ذلك اليوم وإنما هي صريحة في المور والانشقاق والطي والتبدل وكل ذلك لا يدل على الوقوع على الأرض فضلاً عن أن يكون صريحاً فيه ، والظاهر أن المراد بالسماء جنسها الشامل للسموات السبع ، ويؤيده ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس قال : إذا أتيت سلطاناً مهيباً تخاف أن يسطو بك فقل : الله أكبر الله أكبر من خلقه جميعاً الله أكبر مما أخاف وأحذر أعوذ بالله الذي لا إله إلا هو الممسك السموات السبع أن يقعن على الأرض إلا بإذنه من شر عبدك فلان وجنوده وأتباعه وأشياعه من الجن والإنس إلهي كن لي جاراً من شرهم جل ثناؤك وعز جارك وبارك اسمك لا إله غيرك ثلاث مرات .

(29/528)

والظاهر أيضاً أن مساق الآية للامتنان لا للوعيد كما جوزه بعضهم ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ بالناس لَرَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث سخر لهم ما سخر ومن عليهم بالأمن مما يحول بينهم وبين الانتفاع به من وقوع السماء على الأرض ، وقيل حيث هيأ لهم أسباب معايشهم

وفتح عليهم أبواب المنافع وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية ، وجعل الجملة تعليلية لما في ضمن ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ ﴾ الخ أظهر فيما قلنا ، والرأفة قيل ما تقتضي درء المضار والرحمة قيل ما تقتضي جلب المصالح ولكون درء المضرة أهم من جلب المصلحة قدم رؤوف على رحيم ، وفي كل مما امتن به سبحانه درء وجلب ، نعم قيل إمساك السماء عن الوقوع أظهر في الدرء ولتأخيره وجه لا يخفى ، وقال بعضهم : الرأفة أبلغ من الرحمة وتقديم ﴿ رؤف ﴾ للفاصلة .

وذهب جمع إلى أن الرحمة أعم ولعله الظاهر ، وتقديم ﴿ الله بالناس ﴾ للاهتمام وقيل للفاصلة والفصل بين الموضعين مما لا يستحسن .

﴿ وَهُوَ الذى أَحْيَاكُمْ ﴾ بعد أن كنتم جماداً عناصر ونطفاً حسبما فصل في مطلع السورة الكريمة ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند مجيء آجالكم ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ عند البعث ﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ﴾ أي جحود بالنعم مع ظهورها وهذا وصف للجنس بوصف بعض أفراده ، وقيل المراد بالإنسان الكافر وروي ذلك عن ابن عباس .

ومجاهد ، وعن ابن عباس أيضاً أنه قال : هو الأسود بن عبد الأسد .

وأبو جهل .

وأبي بن خلف ولعل ذلك على طريق التمثيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) ﴾

أفرد سبحانه المهاجرين بالذكر تخصيصاً لهم بمزيد الشرف ، فقال : ﴿ والذين هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ الله ﴾ قال بعض المفسرين : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة .

وقال بعضهم : الذين هاجروا من الأوطان في سرية أو عسكر ، ولا يبعد حمل ذلك على الأمرين ، والكلّ من سبيل الله ﴿ ثُمَّ قُتِلُواْ أَوْ مَاتُواْ ﴾ أي في حال المهاجرة ، واللام في ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رِزْقاً حَسَناً ﴾ جواب قسم محذوف ، والجملة خبر الموصول بتقدير القول ، وانتصاب ﴿ رزقاً ﴾ على أنه مفعول ثانٍ ، أي : مرزوقاً حسناً ، أو على أنه مصدر مؤكدة ، والرزق الحسن هو نعيم الجنة الذي لا ينقطع وقيل هو الغنيمة لأنه حلال .

وقيل : هو العلم والفهم كقول شعيب : ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ [هود : 88] .

قرأ ابن عامر وأهل الشام : " ثم قتلوا " بالتشديد على التكثير ، وقرأ الباقون بالتخفيف ﴿ وَإِنَّ الله لَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾ فإنه سبحانه يرزق بغير حساب ، وكل رزق يجري على يد

العباد لبعضهم البعض ، فهو منه سبحانه ، لا رازق سواه ولا معطي غيره ، والجملة تذييل مقرّرة لما قبلها .

وجملة : ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ ﴾ مستأنفة ، أو بدل من جملة : ﴿ ليرزقنهم الله ﴾ .

قرأ أهل المدينة : " مدخلاً " بفتح الميم ، وقرأ الباقون بضمها ، وهو اسم مكان أريد به الجنة ، وانتصابه على أنه مفعول ثانٍ أو مصدر ميمي مؤكد للفعل المذكور ، وقد مضى الكلام على مثل هذا في سورة سبحان .

(31/528)

وفي هذا من الامتنان عليهم والتبشير لهم ما لا يقادر قدره ، فإن المدخل الذي يرضونه هو الأوفق لنفوسهم والأقرب إلى مطلبهم ، على أنهم يرون في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وذلك هو الذي يرضونه وفوق الرضا ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ ﴾ بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم ﴿ حَلِيمٌ ﴾ عن تفريط المفرطين منهم لا يعاجلهم بالعقوبة .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم .

قال الزجاج: أي الأمر ما قصصنا عليكم من إنجاز الوعد للمهاجرين خاصة إذا قتلوا أو ماتوا، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف، ومعنى ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾: من جازى الظالم بمثل ما ظلمه.

وسمي الابتداء باسم الجزاء مشاكلة كقوله تعالى: ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: 40].

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: 194].

والعقوبة في الأصل إنما تكون بعد فعل تكون جزاء عنه.

والمراد بالمثلية: أنه اقتصر على المقدار الذي ظلم به ولم يزد عليه، ومعنى ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾: أن الظالم له في الابتداء عاوده بالمظلمة بعد تلك المظلمة الأولى.

قيل: المراد بهذا البغي: هو ما وقع من المشركين من إزعاج المسلمين من أوطانهم بعد أن كذبوا نبيهم وآذوا من آمن به، واللام في ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ الله ﴾ جواب قسم محذوف، أي لينصرن الله المبغيّ عليه على الباغي ﴿ إِنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ أي كثير العفو والغفران للمؤمنين فيما وقع منهم من الذنوب.

وقيل: العفو والغفران لما وقع من المؤمنين من ترجيح الانتقام على العفو.

وقيل : إن معنى ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ أي ثم كان المجازي مبغياً عليه ، أي مظلوماً ، ومعنى ثم تفاوت الرتبة ، لأن الابتداء بالقتال معه نوع ظلم كما قيل في أمثال العرب : البادي أظلم .

(32/528)

وقيل : إن هذه الآية مدنية ، وهي في القصاص والجراحات .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ الليل فِي النهار ﴾ إلى ما تقدّم من نصر الله سبحانه للمبغيّ عليه ، وهو مبتدأ وخبره جملة : ﴿ بأن الله يولج ﴾ ، والباء للسببية ، أي ذلك بسبب أنه سبحانه قادر ، ومن كمال قدرته إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ، وعبر عن الزيادة بالإيلاج ، لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر ، والمراد تحصيل أحد العرضين في محل الآخر .

وقد مضى في آل عمران معنى هذا الإيلاج ﴿ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع كلّ مسموع ﴿ بَصِيرٌ ﴾ يبصر كلّ مبصر ، أو سميع للأقوال مبصر للأفعال ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق ﴾ إلى ما تقدّم من اتصافه سبحانه بكمال القدرة الباهرة والعلم التام ، أي هو سبحانه ذو الحق ، دينه حقّ ، وعبادته حقّ ، ونصره لأوليائه على أعدائه حقّ ، ووعده حقّ ، فهو عزّ وجلّ في نفسه وأفعاله وصفاته حقّ ﴿

وَإِن مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الباطل ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة " تدعون " بالفوقية على الخطاب للمشركين ، واختار هذه القراءة أبو حاتم .

وقرأ الباقون بالتحتية على الخبر ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة .

والمعنى : إن الذين تدعونه إلها ، وهي الأصنام ، هو الباطل الذي لا ثبوت له ولا لكونه إلها ﴿ وَأَنَّ الله هُوَ العلي ﴾ أي العالي على كلّ شيء بقدرته المتقدّس على الأشباه والأنداد المتنزه عما يقول الظالمون من الصفات ﴿ الكبير ﴾ أي ذو الكبرياء ، وهو عبارة عن كمال ذاته وتفرّده بالإلهية .

ثم ذكر سبحانه دليلاً بيناً على كمال قدرته ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾ الاستفهام للتقرير ، والفاء للعطف على ﴿ أنزل ﴾ وارتفع الفعل بعد الفاء لكون استفهام التقرير بمنزلة الخبر كما قاله الخليل وسيبويه .

(33/528)

قال الخليل : المعنى أنزل من السماء ماء فكان كذا وكذا ، كما قال الشاعر :

ألم تسأل الربع القواء فينطق . . . وهل يخبرنك اليوم بيداء سملق

معناه : قد سألته فنطق .

قال الفراء : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ خبر ، كما تقول في الكلام : إن الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرّة ، أي ذات خضرة كما تقول مبقلة ومسبعة ، أي ذوات بقل وسباع ، وهو عبارة عن استعجالها أثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة ، وصيغة الاستقبال ، لاستحضار صورة الاخضرار مع الإشعار بتجدد الإنزال واستمراره ، وهذا المعنى لا يحصل إلا بالمستقبل ، والرفع هنا متعين ؛ لأنه لو نصب لانعكس المعنى المقصود من الآية فينقلب إلى نفي الاخضرار ، والمقصود إثباته .

قال ابن عطية : هذا لا يكون ، يعني الاخضرار في صباح ليلة المطر إلا بمكة وتهامة .

والظاهر أن المراد بالاخضرار اخضرار الأرض في نفسها لا باعتبار النبات فيها كما في قوله : ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء اهتزت وَرَبَتْ ﴾ [الحج : 5] .

والمراد بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ ﴾ أنه يصل علمه إلى كل دقيق وجليل .

وقيل : لطيف بأرزاق عباده .

وقيل : لطيف باستخراج النبات ، ومعنى ﴿ خَبِيرٌ ﴾ أنه ذو خبرة بتدبير عباده وما يصلح لهم .

وقيل : خبير بما ينطوون عليه من القنوط عند تأخير المطر .

وقيل : خبير بحاجتهم وفاقتهم .

﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ خلقاً وملكاً وتصرّفاً وكلهم محتاجون إلى رزقه ﴿ وَإِنَّ الله لَهُوَ الغني ﴾ فلا يحتاج إلى شيء ﴿ الحميد ﴾ المستوجب للحمد في كل حال ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأرض ﴾ هذه نعمة أخرى ذكرها الله سبحانه ، فأخبر عباده بأنه سخر لهم ما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار وجعله لمنافعهم ﴿ والفلك ﴾ عطف على ما ، أو على اسم أن ، أي وسخر لكم الفلك في حال جريها في البحر ، وقرأ عبد الرحمن الأعرج : " والفلك " بالرفع على الابتداء وما بعده خبره ، وقرأ الباقون بالنصب .

ومعنى ﴿ تَجْرِي فِي البحر بِأَمْرِهِ ﴾ أي بتقديره ، والجملة في محل نصب على الحال على قراءة الجمهور ﴿ وَيُمْسِكُ السماء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض ﴾ أي كراهة أن تقع ، وذلك بأنه خلقها على صفة مستلزمة للإمساك ، والجملة معطوفة على تجري ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ أي بإرادته ومشيئته ، وذلك يوم القيامة ﴿ إِنَّ الله بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : كثير الرأفة والرحمة حيث سخر هذه الأمور لعباده وهيأ لهم أسباب المعاش ، وأمسك السماء أن تقع على الأرض فتهلكهم تفضلاً منه عل عباده وإنعاماً عليهم .

ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى فقال : ﴿ وَهُوَ الذي أَحْيَاكُمْ ﴾ بعد أن كنتم جماداً ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء أعماركم ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ عند البعث للحساب والعقاب ﴿

إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ أي كثير الجحود لنعم الله عليه مع كونها ظاهرة غير مستترة ، ولا ينافي هذا خروج بعض الأفراد عن هذا الجحد ؛ لأن المراد وصف جميع الجنس بوصف من يوجد فيه ذلك من أفراده مبالغة .

(35/528)

وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سلمان الفارسي : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر ، وأجرى عليه الرزق وأمن من الفتانين ، واقرؤوا إن شئتم ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ قُتِلُواْ أَوْ مَاتُواْ ﴾ إلى قوله : ﴿ حَلِيمٌ ﴾ "

وإسناد ابن أبي حاتم هكذا : حدّثنا المسيب بن واضح ، حدّثنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن شريح عن عبد الكريم بن الحارث عن أبي عقبة ، يعني : أبا عبيدة بن عقبة قال : قال شرحبيل بن السمط : طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم ، فمرّ بي سلمان : يعني : الفارسي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصاري الصحابي أنه كان برودس ، فمرّوا بجنازتين أحدهما قتيل والآخر متوفى ، فمال الناس عن القتيل ، فقال

فضالة : مالي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا : هذا القتيل في سبيل الله ، فقال : والله ما أبالي من أيّ حفرتيهما بعثت اسمعوا كتاب الله ﴿ والذين هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ قُتِلُواْ أَوْ مَاتُواْ ﴾ الآية .

وإسناده عند ابن أبي حاتم هكذا : حدّثنا أبو زرعة عن زيد بن بشر أخبرني ضمام ؛ أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المغافري يقولان : كنا برودس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره .

قلت : ويؤيد هذا قول الله سبحانه : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مهاجرا إِلَى الله وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموت فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى الله ﴾ [النساء : 100] .

(36/528)

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله : ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ قال : إن النبيّ بعث سرية في ليلتين بقيتا من المحرم فلقوا المشركين ، فقال المشركون بعضهم لبعض : قاتلوا أصحاب محمد فإنهم يحرمون القتال في الشهر الحرام ، وإن أصحاب محمد ناشدوهم وذكروهم بالله أن يعرضوا لقتالهم فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام إلا من بادأهم ، وإن المشركين بدأوا فقاتلوهم ، فاستحلّ الصحابة قتالهم عند ذلك فقاتلوهم ونصرهم الله

عليهم .

وهو مرسل .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ ﴾ الآية قال : تعاون المشركون على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأخرجوه ، فوعده الله أن ينصره ، وهو في القصاص أيضاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وَإِن مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الباطل ﴾ قال : الشيطان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ﴾ قال : يعدّ المصيبات وينسى النعم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(37/528)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

انتقال إلى التذكير بنعم الله تعالى على الناس بمناسبة ما جرى من قوله ﴿ بأن الله يولج الليل في النهار ﴾ [الحج : 62] الآية .

والمقصود : التعريض بشكر الله على نعمه وأن لا يعبدوا غيره كما دلّ عليه التذييل عقب تعداد هذه النعم بقوله ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ [الحج : 66] ، أي الإنسان المشرك .

وفي ذلك كله إدماج الاستدلال على انفراده بالخلق والتدبير فهو الرب الحق المستحق للعبادة .

والمناسبة هي ما جرى من أن الله هو الحق وأن ما يدْعُونه الباطل ، فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً .

والخطاب لكلّ من تصلح منه الرؤية لأنّ المرئيّ مشهور .

والاستفهام : إنكاري ، نزلت غفلة كثير من الناس عن الاعتبار بهذه النعمة والاعتدادِ بها منزلة عدم العلم بها ، فأُنكر ذلك العدم على الناس الذين أهملوا الشكر والاعتبار .

وإنما حكي الفعل المستفهم عنه الإنكاري مقترناً بحرف (لم) الذي يخلّصه إلى المضي ، وحكي متعلقه بصيغة الماضي في قوله : ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ وهو الإنزال بصيغة الماضي كذلك ولم يراع فيهما معنى تجدّد ذلك لأن موقع إنكار عدم العلم بذلك هو كونه أمراً متقرراً ماضياً لا يدّعى جهله .

و﴿ تصبح ﴾ بمعنى تصير فإن خَمساً من أخوات (كان) تستعمل بمعنى : صار .

واختير في التعبير عن النبات الذي هو مقتضى الشكر لما فيه من إقامة أقوات الناس والبهائم بذكر لونه الأخضر لأنّ ذلك اللون ممتع للأبصار فهو أيضاً مُوجب شكرٍ على ما خلق الله من

جمال المصنوعات في المرأى كما قال تعالى : ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ [النحل : 6] .

(38/528)

وإنما عبّر عن مصير الأرض خضراء بصيغة ﴿ تصبح مخضرة ﴾ مع أن ذلك مفرّع على فعل ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ الذي هو بصيغة الماضي لأنه قصد من المضارع استحضار تلك الصورة العجيبة الحسنة ، ولإفادة بقاء أثر إنزال المطر زماناً بعد زمانٍ كما تقول : أنعم فلان عليّ فأروح وأغدو شاكراً له .

وفعل ﴿ تصبح ﴾ مفرّع على فعل ﴿ أنزل ﴾ فهو مثبَت في المعنى .

وليس مفرّعاً على النفي ولا على الاستفهام ، فلذلك لم ينصب بعد الفاء لأنه لم يقصد بالفاء جوابٌ للنفي إذ ليس المعنى : ألم تر فتصبحَ الأرض .

قال سيبويه : "وسألته (يعني الخليل) عن ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ﴾ فقال : هذا واجب (أي الرفع واجب) وهو تنبيه كأنك قلت : أتسمع : أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا أهـ .

قال في "الكشاف" : "لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض لأن معناه (أي الكلام) إثبات

الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار .

مثاله أن تقول لصاحبك : ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر ، إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك تفريطه فيه ، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر .

وهذا وأمثاله مما يجب أن يَرغبَ له من اتسم بالعلم في علم الإعراب" أ هـ .

والمخضرّة : التي صار لونها الخضرة .

يقال : اخضرّ الشيء ، كما يقال : اصفرّ الثَمر واحمرّ ، واسودّ الأفق : وصيغة افعلَّ مما يصاغ للاتصاف بالألوان .

وجملة ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ في موقع التعليل للإنزال ، أي أنزل الماء المتفرّع عليه الاخضرار لأنه لطيف ، أي رفيق بمخلوقاته ، ولأنه عليم بترتيب المسببات على أسبابها .

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

(39/528)

الجملة خبر ثان عن اسم الجلالة في قوله : ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ [الحج : 63] للتنبيه على اختصاصه بالخالقية والملك الحقّ ليعلم من ذلك أنه المختصّ بالمعبودية فيرد زعم المشركين أنّ الأصنام له شركاء في الإلهية وصرف عبادتهم إلى أصنامهم ، والمناسبة هي

ذكر إنزال المطر وإنبات العشب فما ذلك إلا بعض ما في السماوات وما في الأرض .

وإنما لم تعطف الجملة على التي قبلها مع اتحادهما في الغرض لأن هذه تتنزّل من الأولى منزلة التذييل بالعموم الشامل لما تضمنته الجملة التي قبلها ، ولأن هذه لا تتضمن تذكيراً بنعمة .

وجملة ﴿ إن الله لهو الغني الحميد ﴾ عطف على جملة ﴿ له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ .

وتقديم المجرور للدلالة على القصر .

أي له ذلك لا لغيره من أصنامكم ، إن جعلتَ القصر إضافياً ، أو لعدم الاعتداد بغنى غيره ومحموديته إن جعلت القصر ادعائياً .

ونبه بوصف الغنى على أنه غير مفتقر إلى غيره ، وهو معنى الغِنَى في صفاته تعالى أنه عدم الافتقار بذاته وصفاته لا إلى محلّ ولا إلى مخصّص بالوجود دون العدم والعكس تنبيهاً على أنّ افتقار الأصنام إلى من يصنعها ومن ينقلها من مكان إلى آخر ومن ينفض عنها القتام والقذر دليل على انتفاء الإلهية عنها .

وأما وصف ﴿ الحميد ﴾ بِمعنى المحمود كثيراً ، فذكره لمزاوجة وصف الغِنى لأن الغني مفيض على الناس فهم يحمدونه .

وفي ضمير الفصل إفادة أنه المختص بوصف الغنى دون الأصنام وبأنه المختص بالمحمودية فإن العرب لم يكونوا يوجّهون الحمد لغير الله تعالى .

وأكد الحصرُ بحرف التوكيد وبلام الابتداء تحقيقاً لنسبة القصر إلى المقصور كقول عمرو بن معد يكرب : "إني أنا الموت" .

وهذا التأكيد لتنزيل تحققهم اختصاصه بالغنى أو المحمودية منزلة الشك أو الإنكار لأنهم لم يجروا على موجب علمهم حين عبدوا غيره وإنما يعبد من وصفه الغنى .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾

(40/528)

هذا من نسق التذكير بنعم الله واقع موقه قوله ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ﴾ [الحج : 63] ، فهو من عداد الامتنان والاستدلال ، فكان كالتكرير للغرض ، ولذلك فصلت الجملة ولم تعطف .

وهذا تذكير بنعمة تسخير الحيوان وغيره .

وفيه إدماج الاستدلال على انفراده بالتسخير .

والتقدير : فهو الرب الحق .

وجملة ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ﴾ مستأنفة كجملة ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ﴾ [الحج : 63] .

والخطاب هنا والاستفهام كلاهما كما في الآية السابقة .

والتسخير : تسهيل الانتفاع بدون مانع وهو يؤذن بصعوبة الانتفاع لولا ذلك التسخير ، وأصله تسهيل الانتفاع بما فيه إرادة التمنع مثل تسخير الخادم وتسهيل استخدام الحيوان الداجن من الخيل ، والإبل ، والبقر ، والغنم ونحوها بأن جعل الله فيها طبع الخوف من الإنسان مع تهيئتها للإلف بالإنسان ، ثم أطلق على تسهيل الانتفاع بما في طبعه أو في حاله ما يُعذّر الانتفاع به لولا ما ألهم الله إليه الإنسان من وسائل التغلّب عليها بتعرف نواميسه وأحواله وحركاته وأوقات ظهوره ، وبالاحتيال على تملكه مثل صيد الوحش ومغاصات اللؤلؤ والمرجان ، ومثل آلات الحفر والنقر للمعادن ، ومثل التشكيل في صنع الفلك والعَجل ، ومثل التركيب والتصهير في صنع البواخر والمزجيات والصياغة ، ومثل الإرشاد إلى ضبط أحوال المخلوقات العظيمة من الشمس والقمر والكواكب والأنهار والأودية والأنواء والليل والنهار ، باعتبار كون تلك الأحوال تظهر على وجه الأرض ، وما لا يحْصَى مما ينتفع به الإنسان مما على الأرض فكل ذلك داخل في معنى التسخير .

وقد تقدم القول في التسخير آنفاً في هذه السورة .

وتقدّم في سورة الأعراف وسورة إبراهيم وغيرهما ، وفي كلامنا هنا زيادة إيضاح لمعنى التسخير .

وجملة ﴿ تجري في البحر بأمره ﴾ في موضع الحال من ﴿ الفلك ﴾ وإنما خصّ هذا بالذكر لأن ذلك الجري في البحر هو مظهر التسخير إذ لولا الإلهام إلى صنعها على الصفة المعلومة لكان حظها من البحر الغَرق .

وقوله ﴿ بأمره ﴾ هو أمر التكوين إذ جعل البحر صالحاً لحملها ، وأوحى إلى نوح عليه السلام معرفة صنعها ، ثم تتابع إلهام الصناع لزيادة اتقانها .

والإمساك : الشدّ ، وهو ضد الإلقاء .

وقد ضُمّن معنى المنع هنا وفي قوله تعالى : ﴿ إن الله يُمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴾ [فاطر : 41] فيقدر حرف جر لتعدية فعل الإمساك بعد هذا التضمين فيقدر (عن) أو (من) .

ومناسبة عطف إمساك السماوات على تسخير ما في الأرض وتسخير الفلك أن إمساك السماء عن أن تقع على الأرض ضرب من التسخير لما في عظمة المخلوقات السماوية من مقتضيات تغلّبها على المخلوقات الأرْضية وحطْمِها إياها لولا ما قدر الله تعالى لكل نوع منها من سُنن ونُظم تمنع من تسلط بعضها على بعض ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ [يس : 40] .

فكما سخّر الله للناس ما ظهر عل وجه الأرض من موجودات مع ما في طبع كثير منها من مقتضيات إتلاف الإنسان ، وكما سخّر لهم الأحوال التي تبدو للناس من مظاهر الأفق مع كثرتها وسعتها وتباعدها ، ومع ما في تلك الأحوال من مقتضيات تعذرّ الضبط ، كذلك سخّر لمصلحة الناس ما في السماوات من الموجودات بالإمساك المنظم المنوط بما قدره الله كما أشار إليه قوله ﴿ إلا بإذنه ﴾ أي تقديره .

ولفظ ﴿ السماء ﴾ في قوله : ﴿ ويمسك السماء ﴾ يجوز أن يكون بمعنى ما قابل الأرض في اصطلاح الناس فيكون كُلاًّ شاملاً للعوالم العلوية كلها التي لا نحيط بها علماً كالكواكب السيّارة وما الله أعلم به وما يكشفه للناس في متعاقب الأزمان .

(42/528)

ويكون وقوعها على الأرض بمعنى الخرور والسقوط فيكون المعنى : أن الله بتدبير علمه وقدرته جعل للسماء نظاماً يمنعها من الخرور على الأرض ، فيكون قوله ﴿ ويمسك السماء ﴾ امتناناً على الناس بالسلامة مما يُفسد حياتهم ، ويكون قوله ﴿ إلا بإذنه ﴾ احتراساً جمعاً بين الامتنان والتخويف ، ليكون الناس شاكرين مستزيدين من النعم خائفين من غضب ربّهم أن يأذن لبعض السماء بالوقوع على الأرض .

وقد أشكل الاستثناء بقوله ﴿ إلا بإذنه ﴾ فقيل في دفع الإشكال : إن معناه إلا يوم القيامة بأذن الله لها في الوقوع على الأرض .

ولكن لم يرد في الآثار أنه يقع سُقوط السماء وإنما ورد تشقق السماء وانفطارها .

وفيما جعلنا ذلك احتراساً دفع للإشكال لأن الاحتراس أمر فرضي فلا يقتضي الاستثناء وقوع المستثنى .

ويجوز أن يكون لفظ ﴿ السّماء ﴾ بمعنى المطر ، كقول معاوية بن مالك:

إذا نزَل السماء بأرض قوم . . .

رعيناه وإن كانوا غضابا

وقول زيد بن خالد الجهني في حديث "الموطأ" : "صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية على إثْر سَماء كانت من اللّيل" ، فيكون معنى الآية : أن الله بتقديره جعل لنزول المطر على الأرض مقادير قَدّر أسبابها ، وأنه لو استمر نزول المطر على الأرض لتضرّر الناس فكان في إمساك نزوله باطّراد منة على الناس ، وكان في تقدير نزوله عند تكوين الله إياه منة أيضاً .

فيكون هذا مشتملاً على ذكر نعمتين : نعمة الغيث ، ونعمة السلامة من طغيان المياه .

ويجوز أن يكون لفظ السماء قد أطلق على جميع الموجودات العلوية التي يشملها لفظ ﴿ السماء ﴾ الذي هو ما علا الأرض فأطلق على ما يحويه ، كما أطلق لفظ الأرض على

سكانها في قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ [الرعد : 41] .

(43/528)

فالله يُمسك ما في السماوات من الشهب ومن كريات الأثير والزمهرير عن اختراق كرة الهواء ، ويمسك ما فيها من القُوى كالمطر والبرَد والثلج والصواعق من الوقوع على الأرض والتحكك بها إلا بإذن الله فيما اعتاد الناس إذنه به من وقوع المطر والثلج والصواعق والشهب وما لم يعتادوه من تساقط الكواكب .

فيكون موقع ﴿ ويمسك السماء ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ والفلك تجري في البحر بأمره ﴾ كموقع قوله تعالى : ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ في [سورة الجاثية : 12 - 13] .

ويكون في قوله ﴿ إلا بإذنه ﴾ إدماجاً بين الامتنان والتخويف : فإن من الإذن بالوقوع على الأرض ما هو مرغوب للناس ، ومنه ما هو مكروه ، وهذا المحمل الثالث أجمع لما في المحملين الأخرين وأوجز ، فهو لذلك أنسب بالإعجاز .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلا بإذنه ﴾ استثناء من عموم متعلقات فعل ﴿ يمسك ﴾ وملابسات مفعوله وهو كلمة ﴿ السماء ﴾ على اختلاف محامله ، أي يمنع ما في السماء من الوقوع على الأرض في جميع أحواله إلا وقوعاً ملابساً لإذن من الله : هذا ما ظهر لي في معنى الآية .

وقال ابن عطيّة : "يحتمل أن يعود قوله ﴿ إلا بإذنه ﴾ على الإمساك لأن الكلام يقتضي بغير عَمَد (أي يدل بدلالة الاقتضاء على تقدير هذا المتعلق أخذاً من قوله تعالى : ﴿ بغير عمد ترونها ﴾ [الرعد : 2] ونحوه فكأنه أراد : إلا بإذنه فيمسكها " أ هـ .

يريد أن حرف الاستثناء قرينة على المحذوف .

والإذن حقيقته : قول يُطلب به فعل شيء ، واستعير هنا للمشيئة والتكوين ، وهما متعلّق الإرادة والقدرة .

وقد استوعبت الآية العوالم الثلاثة : البرّ ، والبحر ، والجوّ .

وموقع جملة ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ موقع التعليل للتسخير والإمساكِ باعتبار الاستثناء لأن في جميع ذلك رأفة بالناس بتيسير منافعهم الذي في ضمنه دفع الضر عنهم .

والرؤوف : صيغة مبالغة من الرأفة أو صفة مشبهة ، وهي صفة تقتضي صرف الضر .

والرّحيم : وصف من الرحمة ، وهي صفة تقتضي النفع لمحتاجه .

وقد تتعاقب الصفتان ، والجمع بينهما يفيد ما تختص به كل صفة منهما ويؤكد ما تجتمعان عليه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾

بعد أن أُدمج الاستدلال على البعث بالمواعظ والمنن والتذكير بالنعم أُعيد الكلام على البعث هنا بمنزلة نتيجة القياس ، فذُكّر الملحدون بالحياة الأولى التي لا ريب فيها ، وبالإماتة التي لا يرتابون فيها ، وبأن بعد الإماتة إحياء آخر كما أخذ من الدلائل السابقة .

وهذا محل الاستدلال ، فجملة ﴿ وَهُوَ الذى أَحْيَاكُمْ ﴾ [الحج : 65] لأن صدر هذه من جملة النِعم فناسب أن تعطف على سابقتها المتضمنة امتناناً واستدلالاً كذلك .

﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ﴾

تذييل يجمع المقصد من تعداد نعم المُنعم بجلائل النعم المقتضية انفراده باستحقاق الشكر واعتراف الخلق له بوحدانية الربوبية .

وتوكيد الخبر بحرف (إنّ) لتنزيلهم منزلة المنكر أنهم كفراء .

والتعريف في ﴿ الإنسان ﴾ تعريف الاستغراق العرفي المؤذن بأكثر أفراد الجنس من باب

قولهم : جمع الأمير الصاغة ، أي صاغة بلده ، وقوله تعالى : ﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ﴾ [الشعراء : 38] .

وقد كان أكثر العرب يومئذ منكرين للبعث ، أو أريد بالإنسان خصوص المشرك كقوله تعالى : ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حياً ﴾ [مريم : 66] .

والكفور : مبالغة في الكافر ، لأنّ كفرهم كان عن تعنّت ومكابرة .

ويجوز كون الكفور مأخوذاً من كُفر النعمة وتكون المبالغةُ باعتبار آثار الغفلة عن الشكر ، وحينئذ يكون الاستغراق حقيقياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(45/528)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

الظاهر : أن " تر " هنا من رأى بمعنى : علم . لأن إنزال المطر وإن كان مشاهداً بالبصر فكون الله هو الذي أنزله ، إنما يدرك بالعلم لا بالبصر . فالرؤية هنا علمية عَلَى التحقيق .

(46/528)

فالمعنى : ألم تعلم الله منزلاً من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة : أي ذات خضرة بسبب النبات الذي ينبته الله فيها بسبب إنزاله من الماء من السماء ، وهذه آية من آياته وبراهين قدرته عَلَى البعث كما بيناه مراراً . وهذا المعنى المذكور هنا من كون إنبات نبات الأرض ، بإنزاله الماء من آياته الدالة ، عَلَى كمال قدرته جاء موضحاً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأرض خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ ﴾ [فصلت : 39] ثم بين أن ذلك من براهين البعث بقوله : ﴿ إِنَّ الذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الموتى ﴾ [فصلت : 39] وكقوله : ﴿ فانظر إلى آثَارِ رَحْمَةِ الله كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم : 50] ثم بين أن ذلك من براهين البعث بقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الموتى وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم : 50] وقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السمآء مَآءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحصيد والنخل بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ [ق : 9-11] ثم بين أن ذلك من براهين البعث بقوله : ﴿ كَذَلِكَ الخروج ﴾ [ق : 11] أي خروجكم من قبوركم أحياء بعد الموت ، كقوله : ﴿ وَيُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : 19] وقوله : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ [ق : 11] ﴿ كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 57] والآيات بمثل هذا كثيرة .

تنبيه

في هذه الآية الكريمة سؤالان معروفان :

الأول : هو ما حكمة عطف المضارع في قوله : فتصبح على الماضي الذي هو أنزل ؟

السؤال الثاني : ما وجه الرفع في قوله : فتصبح مع أن قبلها استفهاماً ؟

(47/528)

فالجواب عن الأول : أن النكتة في المضارع هي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان كما تقول : أنعم على فلان عام كذا وكذا ، فأروح وأغدو شاكراً له ، ولو قلت : فغدوت ورحت ، لم يقع ذلك الموقع ، هكذا أجاب به الزمخشري .

والذي يظهر لي والله أعلم : أن التعبير بالمضارع يفيد استحضار الهيأة التي اتصفت بها الأرض : بعد نزول المطر ، والماضي لا يفيد دوام استحضارها لأنه يفيد انقطاع الشيء ، أما الرفع في قوله : فتصبح ، فلأنه ليس مسبباً عن الرؤية التي هي موضع الاستفهام ، وإنما هو مسبب الإنزال في قوله : أنزل ، والإنزال الذي هو سبب إصباح الأرض مخضرة ليس فيه استفهام ، ومعلوم أن الفاء التي ينصب بعدها المضارع إن حذفت جاز جعل مدخولها جزاء للشرط ، ولا يمكن أن تقول هنا : إن تر أن الله أنزل من السماء ماء ، تصبح الأرض مخضرة ، لأن الرؤية لا أثر لها ألبتة في اخضرار الأرض ، بل سببه إنزال الماء لا رؤية إنزاله .

وقد قال الزمخشري في الكشاف في الجواب عن هذا السؤال : فإن قلت : فما له رفع ولم ينصب جواباً للاستفهام .

قلت : لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض ، لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار .

مثاله : أن تقول لصاحبك : ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر ، إن تنصبه فأنت ناف لشكره شاك تفريطه ، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر ، وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب ، وتوقير أهله . انتهى منه . وذكر نحوه أبو حيان وفسره ظاناً أنه أوضحه ، ولا يظهر لي كل الظهور ، والعلم عند الله تعالى .

فإن قيل : كيف قال : فتصبح مع أن اخضرار الأرض ، قد يتأخر عن صبيحة المطر .

(48/528)

فالجواب : أنه على قول من قال : فتصبح الأرض مخضرة : أي تصير مخضرة فالأمر واضح ، والعرب تقول : أصبح فلان غنياً مثلاً بمعنى صار . وذكر أبو حيان عن بعض أهل العلم : أن بعض البلاد تصبح فيه الأرض مخضرة في نفس صبيحة المطر . ذكره عكرمة وابن عطية وعلى هذا فلا إشكال . وقال بعضهم : إن الفاء للتعقيب ، وتعقيب كل شيء بحسبه

كقوله : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً ﴾ [المؤمنون : 14] مع أن بين ذلك أربعين يوماً كما في الحديث ، قاله ابن كثير . وقوله : لطيف خبير : أي لطيف بعباده ، ومن لطفه بهم إنزاله المطر وإنباته لهم به أقواتهم ، خبير بكل شيء ، لا يغرب عن عمله مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض سبحانه وتعالى علواً كبيراً .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأرض والفلك تَجْرِي فِي البحر بِأَمْرِهِ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن الله سخر لخلقه ما في الأرض ، وسخر لهم السفن تجري في البحر بأمره ، وهذا الذي ذكره هنا جاء موضحاً في مواضع كثيرة كقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : 13] وقد بينا معنى تسخير ما في السماء بإيضاح في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر : 17] وكقوله : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفلك المشحون وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس : 41-42] وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا في سورة النحل وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ .

(49/528)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه هو الذي يمسك السماء ويمنعها من أن تقع على الأرض ، فتهلك من فيها ، وأنه لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فأهلكت من عليها ، كما قال : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السمآء ﴾ [سبأ : 9] الآية . وقد أشار لهذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : 41] الآية ، وكقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق غَافِلِينَ ﴾ [المؤمنون : 17] على قول من فسرها : بأنه غير غافل عن الخلق بل حافظ لهم من سقوط السموات المعبر عنها بالطرائق عليهم .

تنبيه

هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن كقوله : ﴿ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : 41] وقوله : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السمآء ﴾ [سبأ : 9] وقوله : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ [النبأ : 12] ، وقوله : ﴿ والسمآء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : 47] ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السمآء سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾ [الأنبياء : 32] الآية ، ونحو ذلك من الآيات ، يدل دلالة واضحة ، على أن ما يزعمه ملاحدة الكفرة ، ومن قلدهم من مطموسي البصائر ممن

يدعون الإسلام أن السماء فضاء لا جرم مبنى ، أنه كفر وإلحاد وزندقة ، وتكذيب لنصوص القرآن العظيم ، والعلم عند الله تعالى .

(50/528)

وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ إِنَّ اللهَ بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : 143] أي ومن رأفته ورحمته بخلقه : أنه أمسك السماء عنهم ، ولم يسقطها عليهم .

قوله : ﴿ وَهُوَ الذي أَحْيَاكُمْ ﴾ أي بعد أن كنتم أمواتاً في بطون أمهاتكم قبل نفخ الروح فيكم فهما إحياءتان ، وإماتتان كما بينه بقوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : 28] وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ [غافر : 11] الآية .

ونظير آية الحج المذكورة هذه قوله تعالى ، في الجاثية : ﴿ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إلى يَوْمِ القيامة لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الجاثية : 26] الآية ، وكفر الإنسان المذكور في هذه الآية في قوله : ﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ﴾ مع أن الله أحياه مرتين ، وأماته مرتين ، هو الذي دل القرآن على استعباده وإنكاره مع دلالة الإماتتين والإحياءتين على وجوب الإيمان

بالمحيي المميت ، وعدم الكفر به في قوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة : 28] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(51/528)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ . . ﴾ [الحج : 63] إنْ كانت للأمر الحِسّي الذي تراه العين ، فأنت لم تَرَهُ ونُنبهك إليه ، وإنْ كانت للأمر الذي لا يُدرَك بالعين فهي بمعنى : ألم تعلم . وتركنا العلم إلى الرؤية لنبين لك أن الذي يُعلِّمك الله به أوثق مما تهديك إليه عَيْنك .

فالمعنى : ألم تعلم وألم تنظر ؟ . المعنيان معاً .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السماء مَآءً . . ﴾ [الحج : 63] فهذه آية تراها ، لكن ترى منها الظاهر فقط ، فترى الماء ينهمر من السماء ، إنما كيف تكوَّن هذا الماء في طبقات الجو ؟ ولماذا نزل في هذا المكان بالذات ؟ هذه عمليات لم تَرَها ، وقدرة الله تعالى واسعة ، ولك أن تتأمل لو أردتَ أنْ تجمع كوب ماء واحد من ماء البخار ، وكم يأخذ منك من جهد ووقت وعمليات تسخين وتبخير وتكثيف ، فهل رأيتَ هذه العمليات في تكوين المطر ؟

إذن : رأيت من المطر ظاهرة ، لذلك يلفتك ربك إلى ما وراء هذا الظاهر لتتأمله .

لذلك ؛ جعل الخالق – عز وجل – مسطح الماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، فاتساع مُسطَّح الماء يزيد من البَخْر الذي ينشره الله تعالى على اليابس ، كما لو وضعتَ مثلاً كوبَ ماء في غرفتك ، وتركتَه مدة شهر أو شهرين ، ستجد أنه ينقص مثلاً سنتيمتراً ، أما لو نثرتَ الكوب على أرض الغرفة فسوف يجفّ بعد دقائق .

إذن : فاتساع رقعة الماء يزيد من كمية البخار المتصاعد منها ، ونحن على اليابس نحتاج كمية كبيرة من الماء العَذْب الصالح للزراعة وللشرب . . الخ ، ولا يتوفر هذا إلا بكثرة كمية الأمطار .

(52/528)

ثم يُبيِّن سبحانه نتيجة إنزال الماء من السماء : ﴿ فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً . . ﴾ [الحج : 63] يعني : تصير بعد وقت قصير خضراء زاهية . دون أن يذكر شيئاً عن تدخُّل الإنسان في هذه العملية ، فالإنسان لم يحرث ولم يبذر ولم يَرْوِ ، إنما المسألة كلها بقدرة الله ، لكن من أين أتت البذور التي كوَّنَتْ هذا النبات ؟ ومَنْ بذرها ووزَّعها ؟ البُذور كانت موجودة في التربة حيَّة كامنة لم يُصِبْها شيء ، وإنْ مَرَّ عليها الزمن ؛ لأن الله تعالى يحفظها إلى

أنْ تجد الماء وتتوفَّر لها عوامل الإنبات فتنبت ؛ لذلك نُسمِّي هذا النبات (العِذْى) ؛ لأنه خرج بقدرة الله لا دَخْل لأحد فيه .

وتولَّتْ الرياح نَقْل هذه البذور من مكان لآخر ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياحَ لَوَاقِحَ . . ﴾ [الحجر : 22] ولو سلسلْتَ هذه البذرة ستجدها من شجرة إلى شجرة حتى تصل إلى شجرة أُمٍّ ، خلقها الخالق سبحانه لا شجرةَ قبلها ولا بذرة . لذلك يُرْوى أن يوسف النجار وكان يرعى السيدة مريم عليها السلام ويشرف عليها ، ويقال كان خطيبها - لما رآها حاملاً وليس لها زوج سألها بأدب : يا مريم ، أتوجد شجرة بلا بذرة ؟ قالت : نعم الشجرة التي أنبتتْ أول بذرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحج : 63] اللطْف هو دِقَّة التناول للأشياء ، فمثلاً حين تريد أن تدخل خيطاً في إبرة ، تجد الخيط لا ينفذ من ثقبها لأول مرة ، فتحاول أنْ تُرفِّق من طرف الخيط وتبرمه حتى يدِقّ فينفذ من الثقب ، فالخيط بعد أنْ كان غليظاً أصبح لطيفاً دقيقاً .

(53/528)

ويقولون : الشيء كلما لَطُف عَنُف ، في حين يظن البعض أن الشيء الكبير هو القوي ، لكن هذا غير صحيح ، فكلما كان الشيء لطيفاً دقيقاً كان خطره أعظم ، أَلَا ترى الميكروب كيف يصيب الإنسان وكيف لا نشعر به ولا نجد له ألماً ؟ ذلك لأنه دقيق لطيف ، وكذلك له مدخل لطيف لا تشعر به ؛ لأنه من الصِّغَر بحيث لا تراه بالعين المجردة .

والبعوضة كم هي هيِّنة صغيرة ؛ لذلك تُؤلمك لدغتها بخرطومها الدقيق الذي لا تكاد تراه ، وكلما دَقَّ الشيء احتاج إلى احتياط أكثر لتحمي نفسك من خطره ، فمثلاً إنْ أردتَ بناء بيت في الخلاء أو منطقة نائية ، فإنك ستضطر أنْ تضع حديداً على الشبابيك يحميك من الحيوانات المفترسة كالذئاب مثلاً ، ثم تضع شبكة من السلك لتحميك من الفئران ، فإن أردْتَ أن تحمي نفسك من الذباب والبعوض احتجت إلى سِلْك أدق ، وهكذا كلما صَغُر الشيء ولطف احتاج إلى احتياط أكثر .

فاللطيف هو الذي يدخل في الأشياء بلطف ؛ لذلك يقولون : فلان لطيف المدخل يعني : يعني : يدخل لكل إنسان بما يناسبه ، ويعرف لكل إنسان نقطة ضَعْف يدخل إليه منها ، كأن معه (طفاشة) للرجال ، يستطيع أن يفتح بها أي شخصية .

لكن ، ما علاقة قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحج : 63] بعد قوله : ﴿ فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً . . ﴾ [الحج : 63] ؟ قالوا : لأن عملية الإنبات تقوم على مَسَامّ وشعيرات دقيقة تخرج من البذرة بعد الإنبات ، وتمتصّ الغذاء من التربة ، هذه

الشعيرات الجذرية تحتاج إلى لُطْف ، وامتصاص الغذاء المناسب لكل نوع يحتاج إلى خبرة ، كما قال تعالى : ﴿ يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأكل . . ﴾ [الرعد : 4] .

فالأرض تصبح مُخضرَّة من لُطْف الحق سبحانه ، ومن خبرته في مداخل الأشياء ، لذلك قال بعدها : ﴿ إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحج : 63] .

(54/528)

ولدِقّة الشعيرات الجذرية نحرص ألاَّ تعلو المياه الجوفية في التربة ؛ لأنها تفسد هذه الشعيرات فتتعطن وتموت فيصفرُّ النبات ويموت .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لَّهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَإِنَّ الله . . ﴾ فما في السموات وما في الأرض مِلْك لله تعالى ، ومع ذلك لا ينتفع منها الحق سبحانه بشيء ، إنما خلقها لمنفعة خَلْقه ، وهو سبحانه غنيٌّ عنها وغنيٌّ عنهم ، وبصفات الكمال فيه سبحانه خلق ما في السماوات وما في الأرض ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ وَإِنَّ الله لَهُوَ الغني الحميد ﴾ [الحج : 64] .

وصفات الكمال في الله تعالى موجودة قبل أنْ يخلق الخَلْق ، وبصفات الكمال خلق ،

وملكيته تعالى للسماوات وللأرض ، ولما فيهما ملكية للظرف وللمظروف ، ونحن لا نملك السماوات ، ولا نملك الأرض ، إنما نملك ما فيهما من خيرات ومنافع مما ملّكنا الله له ، فهو الغني سبحانه ، المالك لكل شيء ، وما ملَّكنا الله له ، فهو الغني سبحانه ، المالك لكل شيء ، وما ملَّكنا إلا من باطن مُلْكه .

والحميد : يعني المحمود ، فهو غني محمود ؛ لأن غنَاه لا يعود عليه سبحانه ، إنما يعود على خَلْقه ، فيحمدونه لغنَاه ، لا يحقدون عليه ، ومن العجيب أن الحق سبحانه يُملِّك خَلْقَه من مُلْكه ، فمَن استخدم النعمة فيما جُعلتْ له ، ومَنْ أعطى غير القادر من نعمة الله عليه يشكر الله له ، وهي في الأصل نعمته . ذلك لأنك أنت عبده ، وقد استدعاك للوجود ، وعليه سبحانه أنْ يتولاّك ويرعاك .

فإن احتاج غير القادر منك شيئاً ، قال تعالى : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً . ﴾ [البقرة : 245] .

فاعتبره قرضاً ، وهو ماله ، لكنه ملّكك إياه ؛ لذلك لا يسلبه منك إنما يأخذه قرضاً حسناً ويضاعفه لك ؛ لأنه غنيٌّ حميد أي : محمود ، ولا يكون الغنى محموداً إلا إذا كان غير الغني مستفيداً من غِنَاه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأرض والفلك تَجْرِي فِي البحر بِأَمْرِهِ . . ﴾

هذه الآية امتداد للآية السابقة ، فما في السماء وما في الأرض مِلْك له سبحانه لكنه سخَّره لمنفعة خَلْقه ، فإنْ سأل سائل : فلماذا لا يجعلها الله لنا ويُملكنا إياها ؟ نقول : لأن ربك يريد أنْ يُطمِئنك أنه لن يعطيها لأحد أبداً ، وستظل مِلْكاً لله وأنت تنتفع بها ، وهل تأمن إنْ ملّكها الله لغيره أنْ يتغيّر لك ويحرمك منها ؟ فأمْنُك في أن يظل المُلْك لله وحده ؛ لأنه ربك ومُتولّيك ، ولن يتغير لك ، ولن يتنكّر في منفعتك .

وقوله تعالى : ﴿ والفلك تَجْرِي فِي البحر بِأَمْرِهِ . . ﴾ [الحج : 65] الفُلْك : السفن ، تُطلق على المفرد وعلى الجمع ، تجري في البحر بأمره تعالى ، فتسير السفن بالريح حيث أمرها الله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرياح . . ﴾ [البقرة : 164] وهذه لا يملكها ولا يقدر عليها إلا الله ، وقال في آية أخرى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الريح فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ . . ﴾ [الشورى : 33] .

وتأمَّل دِقَّة الأداء القرآني من الله الذي يعلم ما كان ، ويعلم ما يكون ، ويعلم ما سيكون ، فلقائل الآن أنْ يقول : لم نَعُد في حاجة إلى الريح تُسيِّر السفن ، أو توجهها ؛ لأنها أصبحت تسير الآن بآلات ومحركات ، نعم السفن الآن تسير بالمحركات ، لكن للريح معنى أوسع من

ذلك ، فالريح ليست هذه القوة الذاتية التي تدفع السفن على صفحة الماء ، إنما الريح تعني القوة في ذاتها ، أياً كانت ريحاً أم بُخَاراً أم كهرباء أم ذرة . . إلخ .

بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . . ﴾ [الأنفال : 46] يعني : تذهب قوتكم أيا كانت هذه القوة حتى الصياد الذي يركب البحر بقارب صغير يُسيّره بالمجاديف بقوة يده وعضلاته هي أيضاً قوة ، لا تخرج عن هذا المعنى .

(56/528)

وهكذا يظل معنى الآية صالحاً لكل زمان ولكل مكان ، وإلى أن تقوم الساعة .

والريح إنْ أُفردَتْ دلَّتْ على حدوث شرٍّ وضرر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم ﴾ [الذاريات : 41] .

وقوله : ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . . ﴾ [الأنفال : 46]

وقوله : ﴿ بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف : 24]

وإنْ جاءت بصيغة الجمع دلَّت على الخير ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ . . ﴾ [الحجر : 22] .

وسبق أنْ تحدثنا عن مهمة الريح في تماسك الأشياء وقيامها بذاتها ، فالجبل الأشمّ الذي

تراه ثابتاً راسخاً إنما ثبتَ بأثر الريح عليه ، وإحاطته به من كل جانب ، بحيث لو فُرِّغ الهواء من أحد جوانب الجبل لانهار ، وهذه هي الفكرة التي قامت عليها القنبلة ، فالهواء هو الذي يقيم المباني والعمارات ويثبتها ؛ لأنه يحيطها من كل جانب ، فيُحدِث لها هذا التوازن ، فإنْ فُرِّغ من أحد الجوانب ينهار المبنى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيُمْسِكُ السماءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ . . ﴾ [الحج : 65] فالسماء مرفوعة فوقنا بلا عَمَد ، لا يمسكها فوقنا إلا الله بقدرته وقيوميته أنْ تقع على الأرض إلا بإذنه تعالى ، كما قال في آية أخرى :

﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ . . ﴾ [فاطر : 41] .

﴿ إِنَّ اللهَ بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج : 65] فمن صفاته تعالى الرأفة والرحمة ، والفَهْم السطحي لهاتين الصفتين يرى أنهما واحد ، لكن هما صفتان مختلفتان ، فالرأفة تزيل الآلام ، والرحمة تزيد الإنعام ، والقاعدة أن درْء المفسدة مُقدَّم دائماً على جَلْب المصلحة ، فربك يرأف بك فيزيل عنك أسباب الألم قبل أن يجلب لك نفعاً برحمته .

(57/528)

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمثل : قلنا هَبْ أن واحداً يرميك بحجر ، وآخر يرمي لك تفاحة ، فأيُّهما يشغلك أولاً ؟ لا شكَّ ستُشغل بالحجر ، كيف تقي نفسك من ضرره ثم تحاول أن تنال هذه التفاحة ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناس بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مسمى . . ﴾ [النحل : 61] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ . . ﴾

الحق – تبارك وتعالى – يُذكّرنا ببعض نعمه وببعض العمليات التي لو تتبعناها لوقفنا بمقتضاها على نِعَم الله علينا ، ولم نَنْسها أبداً .

أولها : ﴿ وَهُوَ الذي أَحْيَاكُمْ . . ﴾ [الحج : 66] والإحياء : أن يعطي المحيي ما يُحييه قوة يؤدي بها المهمة المخلوق لها . والإحياء الأول في آدم – عليه السلام – حين خلقه ربه وسوّاه ونفخ فيه من روحه ، ثم أوجدنا نحن من ذريته .

﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ . . ﴾ [الحج : 66] وكما أن الخَلْق آية من آيات الله ، فكذلك الموت آية من آيات الله ، نراها ونلمسها ، وما دُمْتَ تُصدّق بآية الخَلْق وآية الموت ، وتراهما ، ولا تشك فيهما ، فحين نقول لك إن بعد هذا حياة أخرى فصدّق ؛ لأن صاحب هذه الآيات واحد ، والمقدمات التي تحكم أنت بصدقها يجب أنْ تؤدي إلى نتيجة تحكم أيضاً بصدقها ، وها هي المقدمات بين يديك صادقة .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ . . ﴾ [الحج : 66] والإحياء يُطلَق في القرآن على معانٍ متعددة ، منها الحياة المادية التي تتمثل في الحركة والأكل والشرب ، ومنها الحياة في الآخرة التي قال الله عنها : ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ . . ﴾ [العنكبوت : 64] .

(58/528)

وهذه الحياة الحقيقية ؛ لأن حياة الدنيا تعتريها الأغيار ، ويتقلَّب فيها الإنسان بين القوة والضعف ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، والصِّغَر والكِبَر ، وبعد ذلك يعتريها الزوال ، أما حياة الآخرة التي وصفها الله بأنها الحيوان يعني : مبالغة في الحياة ، فهي حياة لا أغيار فيها ولا زوالَ لها .

إذن : لديك حياتان : حياة لِبنْية المادة وبها تتحرك وتُحِس وتعيش ، وحياة أخرى باقية لا زوالَ لها .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ . . ﴾ [الأنفال : 24] كيف - إذن - ونحن أحياء ؟ قالوا : لما يحييكم ليست حياة الدنيا المادية التي تعتريها الأغيار ، إنما يحييكم الحياةَ الحقيقية في الآخرة ،

الحياة الباقية التي لا تزول ، التي قال الله عنها : ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 64] يعني : العلم الحقيقي الذي يهدي صاحبه .

فإن كانت الحياة المادية الدنيوية بنفْخ الروح في الإنسان ، فبِمَ تكون الحياة الثانية ﴿ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ . . ﴾ [الأنفال : 24] .

قالوا : هذه الحياة تكون بروح أيضاً ، لكن غير الروح الأولى ، إنها بروح القرآن الذي قال الله فيه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا . . ﴾ [الشورى : 52] وسمَّى المَلك الذي ينزل به روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] .

فالروح الثانية التي تُحييك الحياة الحقيقية الخالدة هي منهج الله في كتابه الكريم ، إن اتبعته نِلْتَ هذه الحياة الباقية الخالدة وتمتعتَ فيها بما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، وهي لا مقطوعة ولا ممنوعة .

(59/528)

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ﴾ [الحج : 66] كفور : صيغة مبالغة من كافر ، والكفور الذي لم يعرف للمنعِم حَقّ النعمة ، مع أنه لو تبيَّنها لما انفكَّ أبداً عن شكر المنعم سبحانه .

والإنسان يمرُّ بمراحل مختلفة بين الحياة والموت ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [غافر : 11] ، فمتى سيقولون هذا الكلام ؟

قالوا : هذا يوم القيامة ، وقد أحياهم الله من موت العدم ، فأحياهم في الدنيا ثم أماتهم ، ثم أحياهم في الآخرة ، فهناك موت قبل إيجاد ، وموت بعد إيجاد ، ثم يأتي البعث في القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي أَحْيَاكُمْ . . ﴾ [الحج : 66] قضية قالها الخالق – عز وجل – ولم يدعها أحد لنفسه مع كثرة الكفار والملاحدة والأفاقين في كل زمان ومكان ، لم نسمع مَنِ ادَّعَى مسألة الخَلْق ، وهذه قضية يجب أن نقف عندها وأن نبحث : لماذا لم يظهر مَنْ يدَّعي ذلك ؟ وإذا لم يَدَّعِ الخَلْق أحدٌ ، ولم يدَّعِ الإحياء أحد ، فمَنْ – إذن – صاحب الخَلْق والإحياء والإماتة ؟

إذا كان الناس يهتمون ويؤرخون لأيِّ مخترع آلة مثلاً ، فيقولون : مخترع الكهرباء فلان وعاش في بلدة كذا ، وكان من أمره كذا وكذا ، وتعلم في كذا ، وحصل على كذا . . الخ فكيف بمَنْ خلقكم وأحياكم من عدم ؟ خاصة وهذه المسألة لم يتبجح بادعائها أحد فثبتت القضية له سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(60/528)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

(قوله تعالى : (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (الحج : 64) ، وفي سورة لقمان : (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (لقمان : 26) ، للسائل أن يسأل عن زيادة (ما) في قوله في الآية الأولى : (وَمَا فِي الْأَرْضِ) ؟ وزيادة لام الابتداء المؤكد في الجملة التي هي خبر إن وسقوط الحرفين في آية لقمان ؟

والجواب : أن الزيادتين معاً للتأكيد ، لا تدخل اللام الخبرَ لغير ذلك ، وتكرار الموصول أيضاً لذلك فدخلتا في آية الحج لما قدرت الآية قبلها من السورة من بنائها على مقصود التأكيد فجواب هذين السؤالين حاصل مما تقدم . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 363 ﴾

(61/528)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾

أخرج الطبراني ، عن ابن عباس قال : إذا أتيت سلطاناً مهيباً تخاف أن يسطو بك فقل : الله أكبر الله أكبر من خلقه جميعاً ، الله أعز ممن أخاف وأحذر ، أعوذ بالله الذي لا إله إلا هو الممسك السموات السبع أن يقعن على الأرض إلا بإذنه ، من شر عبدك فلان وجنوده وأشياعه ، من الجن والإنس إلهي كن لي جاراً من شرهم ، جل شأنك وعز جارك وتبارك إسمك ولا إله غيرك ، ثلاث مرات .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن في قوله : ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ قال : يعد المصيبات ، وينسى النعم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد قال : كل شيء في القرآن ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ يعني به الكفار ، والله أعلم ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(62/528)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

قوله : ﴿ فَتُصْبِحُ ﴾ : فيه قولان ، أحدهما : أنه مضارعٌ لفظاً ماضٍ معنى ، تقديرُه فأصبحَتْ ، فهو عطفٌ على أَنْزَل . قاله أبو البقاء . ثم قال بعد أن عطف على " أَنْزل " : " فلا موضعَ له إذن " وهو كلامٌ متهافِتٌ ؛ لأنَّ عَطْفَه على " أَنْزَلَ " يَقْتضي أن يكونَ له محلٌّ من الإِعرابِ : وهو الرفعُ خبراً ل " أنَّ " ، لكنه لا يجوزُ لعدم الرابطِ . والثاني : أنه على بابِه ، ورَفْعُه على الاستئنافِ . قال/ أبو البقاء : " فهي أي القصة ، وتُصْبِحُ الخبر " . قلت : ولا حاجةَ إلى تقديرِ مبتدأ ، بل هذه جملةٌ فعليةٌ مستأنفةٌ ، ولا سيما وقَدَّر المبتدأ ضميرَ القصة ثم حذفه وهو لا يجوز ؛ لأنه لا يؤتى بضميرِ القصة إلاَّ للتأكيدِ والتعظيم ، والحذفُ يُنافيه .

(63/528)

قال الزمخشري : " فإن قلتَ : هلا قيل : فَأَصْبحت ، ولِمَ صُرِفَ إلى لفظِ المضارع ؟ قلت : لنكتةٍ فيه : وهي إفادةُ بقاءِ أثرِ المطرِ زماناً بعد زمانٍ كما تقول : أنعم عليَّ فلانٌ عامَ كذا فأَرُوْحُ وأَغْدوا شاكراً له . ولو قلت : رُحْتُ وغَدَوْتُ لم يَقَعْ ذلك الموقعَ . فإن قلت : فما له رُفِعَ ولم يُنْصَبْ جواباً للاستفهام ؟ قلت : لو نُصِب لأعطى عكسَ الغرضِ لأنَّ معناه إثباتُ الاخضرارِ ، فينقلبُ بالنصب إلى نفي الاخضرار . مثالُه أن تقولَ لصاحبِك : ألم تَرَ أني

أنعمتُ عليك فتشكر " إن نَصَبْتَ فأنتَ نافٍ لشكره شاكٍ تفريطَه [فيه] ، وإن رَفَعْتَه فأنت مُثْبِتٌ للشكرِ ، وهذا وأمثالُه ممَّا يجب أَنْ يَرْغَبَ له من اتَّسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله " . وقال ابنُ عطية : " قوله : " فتصبحُ " بمنزلة قوله فتضحى أو تصير ، عبارةٌ عن استعجالِها إثْرَ نزولِ الماءِ واستمرارها لذلك عادةً . ورَفْعُ قولِه " فتُصْبِحُ " من حيث الآيةُ خبرٌ ، والفاء عاطفةٌ وليسَتْ بجواب ، لأنَّ كونَها جواباً لقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فاسدُ المعنى " .

(64/528)

قال الشيخ : " ولم يبين هو ولا الزمخشري قبله كيف يكون النصبُ نافياً للاخضرار ، إلاَّ كونَ المعنى فاسداً ؟ قال سيبويه : " وسألتُه يعني الخليل عن ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السمآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾ فقال : هذا واجبٌ وتنبيه . كأنك قلت : أتسمعُ أنزل اللهُ من السماءِ ماء فكان كذا وكذا " . قال ابن خروف : وقوله : " هذا واجبٌ " وقوله : " فكان كذا " يريدُ أنهما ماضيان ، وفَسَّر الكلام ب " أتسمع ليريَكَ أنه لا يتصل بالاستفهام لضعفِ حكمِ الاستفهامِ فيه . وقال بعضُ شُرَّاح الكتاب : " فتصبحُ " لا يمكن نصبُه ؛ لأنَّ الكلامَ واجب . ألا ترى أن المعنى : أن اللهَ أنزلَ ، فالأرضُ هذه حالُها . وقال الفراء : " ألم

تَرَ" خبرٌ كما تقولُ في الكلام: علم أنَّ الله يفعل كذا فيكون كذا" .

ويقول: "إنما امتنع النصب جواباً للاستفهام هنا؛ لأنَّ النفيَ إذا دخل عليه الاستفهامُ، وإن كان يقتضي تقريراً في بعضِ الكلام هو مُعامَلٌ معاملةَ النفيِ المَحْضِ في الجوابَ" . ألا ترى إلى قولِه تعالى: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف: 172] وكذلك الجوابُ بالفاءِ إذا أَجَبْتَ النفيَ كان على معنيين في كل منهما يَنْتفي الجوابُ . فإذا قلت: "ما تأتِيْنا فتحدّثَنا" بالنصب، فالمعنى: ما تأتينا محدّثاً، وإنما تأتينا ولا تحدث . ويجوزُ أن يكون المعنى: أنك لا تأتي فكيف تحدّثُ؟ فالحديثُ منتفٍ في الحالتين، والتقريرُ بأداةِ الاستفهام كالنفي المَحْض في الجواب يُثْبت ما دَخَلَتْه الهمزةُ، وينتفي الجوابُ، فيلزَمُ من هذا الذي قَرَّرْناه إثباتُ الرؤيةِ وانتفاءُ الاخضرارِ، وهو خلافُ المقصودِ . وأيضاً فإنَّ جوابَ الاستفهامِ ينعقدُ منه مع الاستفهامِ السابقِ شَرْطٌ وجزاءٌ كقوله:

3396 ألم تَسْأَلْ فَتُخْبِرْكَ الرُّسومُ . . . . . .

. . . . .

(65/528)

يتقدر : إنْ تسألْ تخبرْكَ الرسوم ، وهنا لا يتقدَّر : إنْ تَرَ إنزالَ المطر تصبح الأرضُ مخضرةً ؛ لأنَّ اخضرارَها ليس مترتباً على عِلْمِك أو رؤيتك ، إنما هو مترتبٌ على الإنزال وإنما عَبَّر بالمضارعِ ؛ لأن فيه تصويراً للهيئة التي الأرضُ عليها والحالةِ التي لابَسَتِ الأرضَ ، والماضي يفيد انقطاعَ الشيءِ . وهذا كقولِ جَحْدَرِ بنِ مَعُونة يصف حاله مع أشدِّ نازلةٍ في قصةٍ جَرَتْ له مع الحجاج ابن يوسف الثقفي ، وهي أبياتٌ فمنها : /

3397 يَسْمُوا بناظِرَتَيْنِ تَحْسَبُ فيهما . . . لِما أَجالهما شعاعَ سِراج

لَمَّا نَزَلْتُ بحُصْنِ أَزْبَرَ مُهْصِرٍ . . . للقِرْنِ أرواحَ العدا مَجَّاجِ

فأكرُّ أحملُ وهو يُقعي باسْته . . . فإذا يعودُ فراجعٌ أدراجي

وعلمْتُ أني إنْ أَبَيْتَ نِزالَه . . . أني من الحَجَّاج لستُ بناجي

فقوله : " فأكرُّ " تصويرٌ للحالةِ التي لابَسَها " .

قلت : أمَّا قولُه " وأيضاً فإنَّ جوابَ الاستفهامِ ينعقدُ منه مع الاستفهامِ " إلى قولِه : " إنما هو مترتِّبٌ على الإنزال " منتزعٌ مِنْ كلامِ أبي البقاء . قال أبو البقاء : " إنما رُفع الفعلُ هنا وإنْ كان قبلَه استفهامٌ لأمرين ، أحدهما : أنه استفهامٌ بمعنى الخبر أي : قد رأيت ، فلا يكون له جوابٌ . الثاني : أنَّ ما بعدَ الفاءِ ينتصِبُ إذا كان المستفهمُ عنه سبباً له ، ورؤيته لإنزالِ الماءِ لا يُوْجِبُ اخضرارَ الأرض ، وإنما يجبُ عن الماء " وأمَّا قولُه : " وإنما عَبَّر بالمضارع " فهو معنى كلامِ الزمخشري بعينه ، وإنما غَيَّر عبارتَه وأَوْسَعَها .

وقوله : " فتصبحُ " استدلَّ به بعضُهم على أن الفاءَ لا تقتضي التعقيبَ قال : " لأنَّ اخضرارَها متراخٍ عن إنزالِ الماء ، هذا بالمشاهدةِ " . وقد أُجيب عن ذلك بما نقله عكرمةُ : مِنْ أَنَّ أرضَ مكة وتهامةَ على ما ذُكر ، وأنها تُمْطِرُ الليلةَ فتصبح الأرضُ غُدْوَةً خَضِرةً ، فالفاءُ على بابها . قال ابن عطية : " وشاهَدْتُ هذا في السُّوس الأقصى ، نَزَل المطر ليلاً بعد قَحْط ، فأصبحت تلك الأرضُ الرَّمِلةُ التي تَسْفيها الرياحُ قد اخضرَّت بنباتٍ ضعيف " وقيل : تراخي كلِّ شيء بحَسَبه .

وقيل : ثَمَّ جملٌ محذوفةٌ قبل الفاءِ تقديره : فتهتزُّ وتَرْبُو وتَنْبُتُ فتصبحُ . يبيِّنُ ذلك قولُه : ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ ﴾ وهذا من الحذفِ الذي يَدُلُّ عليه فَحْوَى الكلام كقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق أَفْتِنَا ﴾ [يوسف : 45-46] . إلى آخر القصة .

و " تُصْبِحُ " يجوزُ أَنْ تكونَ الناقصةَ ، وأَنْ تكونَ التامَّة . و " مُخْضَرَّةً " حالٌ . قاله أبو البقاء . وفيه بُعْدٌ عن المعنى إذ يصير التقديرُ : فَتَدخُلُ الأرضُ في وقتِ الصباح على هذه الحالِ . ويجوزُ فيها أيضاً أن تكونَ على بابِها من الدلالةِ على اقترانِ مضمونِ الجملة بهذا

الزمنِ الخاصّ . وإنما خَصَّ هذا الوقتَ لأن الخضرةَ والبساتينَ أبهجُ ما ترى فيه . ويجوزُ أن تكونَ بمعنى تَصير .

وقرا العامَّةُ بضمِّ الميم وتشديدِ الراء اسمَ فاعلٍ ، مِنْ اخْضَرَّت فهي مُخْضَرَّةٌ . والأصلُ مُخْضَرِرَة بكسر الراء الأولى ، فأُدْغِمَتْ في مثلها . وقرأ بعضُهم " مَخْضَرَة " بفتح الميم وتخفيفِ الراء بزنة مَبْقَلَة ومَسْبَعَة . والمعنى : ذات خُضْرَواتٍ وذات سِباعٍ وذات بَقْلٍ .

(67/528)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (65)

قوله : ﴿ والفلك ﴾ : العامَّةُ على نصبِ " الفلك " وفيه وجهان ، أحدهما : أنها عطفٌ على ﴿ مَّا فِي الأرض ﴾ أي : سَخَّر لكم ما في الأرض ، وسَخَّر لكم الفلك . وأفردها بالذِّكْرِ ، وإن انْدَرَجَتْ بطريقِ العمومِ تحت " ما " . ومن قوله : ﴿ مَّا فِي الأرض ﴾ لظهورِ الامتنانِ بها ولعجيب تسخيرِها دونَ سائرِ المُسَخَّرات . و " تَجْري " على هذا حال . الثاني : أنها عَطْفٌ على الجلالة بتقدير : ألم تَرَ أن الفلكَ تَجْري في البحر ، فتجري خبرٌ على هذا .

وضمَّ لامَ " الفُلُكَ " هنا الكسائي فيما رواه عن الحسن ، وهي قراءةُ ابن مقسم . وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة والأعرج وأبو حيوة والزعفراني برفع " والفلكُ " على الابتداء وتجري بعده الخبر . ويجوز أن يكونَ ارتفاعُه عطفاً على محلِّ اسم " أنَّ " عند مَنْ يُجَوِّز ذلك نحو : " إنَّ زيداً وعمروٌ قائمان " وعلى هذا ف " تجري " حال أيضاً . و " بأمره " الباءُ/ للسببية . قوله : ﴿ أَن تَقَعَ ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنها في محلِّ نصبٍ أو جرٍّ لأنها على حَذْفِ حرفِ الجرِّ تقديرُه : من أن تقعَ . الثاني : أنها في محلِّ نصبٍ فقط ؛ لأنها بدلٌ من " السماء " بدلُ اشتمالٍ . أي : ويُمْسِكُ وقوعَها يَمْنَعُه . الثالث : أنها في محلِّ نصبٍ على المفعولِ مِنْ أجلِه ، فالبصريون يقدِّرون : كراهَةَ أن تقعَ . والكوفيون : لئلا تقعَ .

(68/528)

قوله : ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ في هذا الجارِّ وجهان ، أحدُهما : أنَّه متعلقٌ ب " تقعَ " أي : إلاَّ بإذنه فتقع . والثاني : أنَّه متعلِّقٌ بيُمْسِكُ . قال ابن عطية : " ويحتمل أَنْ يعودَ قولُه ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ على الإمساك ، لأنَّ الكلامَ يَقْتضي بغير عَمَدٍ ونحوَه ، كأنه أراد : إلاَّ بإذنه فبه يُمْسِكها " قال الشيخ : " ولو كان على ما قال لكان التركيبُ : بإذنِه ، دونَ أداةِ الاستثناءِ . ويكونُ التقديرُ : ويُمْسِك السماءَ بإذنه " . قلت : وهذا الاستثناءُ مُفرَّغٌ ، ولا يقعُ في موجَبٍ ،

لكنه لَمَّا كان الكلامُ قبلَه في قوةِ النفي ساغَ ذلك ، إذ التقديرُ : لا يَتْرُكُها تقعُ إلاَّ بإذنه . والذي يظهرُ أنَّ هذه الباءَ حاليةٌ أي : إلاَّ ملتبسةً بأمرِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 297.303 ﴾

(69/528)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) ﴾

ماءُ السماءِ يحيي الأرض بعد موتها ، وماءُ الرحمةِ يحيي أحوال أهلِ الزَّلَةِ بعد تَرْكِها ، وماءُ العناية يحيي أحوال (. . .) بعد زوال رونقها ، وماء الصولة يحيي أهل القربة بعد نضوبها .

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64)

المُلْكُ له ، وهو عن الجميع غني ، فهو لا يستغني بمُلْكه ، بل مُلْكُه بصير موجوداً بخَلْقِه إياه ؛ إذ المعدوم له مقدور والمقدور هو المملوك .

ويقال كما أنه غنيٌّ عن الأجانب ممن أثبتهم في شواهد الأعداء فهو غنيٌّ عن الأكابر وجميع الأولياء .

ويقال إذا كان الغنيُّ حميداً فمعنى ذلك أنه يُعْطِي حتى يُشْكَر .

ويقال الغنيُّ الحميد المستحِقُّ للحمد : أعطى أو لم يُعْطِ ؛ فإن أَعْطى استحقَّ الحمدَ الذي هو الشكر ، وإنْ لم يُعْطِ استحق الحمد الذي هو المدح .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (65)

أراد به تسخيرَ الانتفاع بها ؛ فما للخَلْقِ به انتفاع ومُيَسَّرٌ له الاستمتاع به فهو كالمُسَخَّرِ له على معنى تمكينه منه ، ثم يُرَاعَى فيه الإذنُ ؛ فَمَنْ استمتع بشيءٍ على وجه الإباحة والإذن والدعاء إليه والأمر به فذلك إنعامٌ وإكرامٌ ، ومَنْ كان بالعكس فمكْرٌ واستدراج .

(70/528)

وأمَّا السفينة . . فإلهامُ العبد بصنعها ووجوه الانتفاع بها ؛ بالحَمْل فيها وركوبها فَمِنْ أعظم إحسان الله وإرفاقه بالعبد ، ثم ما يحصل بها من قَطْع المسافات البعيدة . والتوصل بها إلى المضارب النائية ، والتمكن من وجوه الانتفاع ففي ذلك أعظمُ نعمة ، وأكملُ عافية .

وجعل الأرضَ قراراً للخَلْقِ من غير أن تميد ، وجعل السماءَ بناء من غير وقوع ، وجعل فيها من الكواكب ما يحصل به الاهتداء في الظلام ، ثم هي زينة السماء – وفي ذلك من الأدلة ما يوجب ثَلَجَ الصدر وبَرْدَ اليقين .

وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (66)

إحياءُ النفوسِ وإماتتها مراتٌ محصورةٌ ، وإحياءُ أوقاتِ العُبَّاد وإماتتها لا حَصرَ له ولا عَدَّ ، وفي معناه أنشدوا .

أموتُ إذا ذكرتُك ثم أحيا . . . فكم أحيا عليكَ وكم أموتُ

ويقال يُحْيي الآمالَ بإشهادِ تفضله ، ثم يميتها بالإطلاع على تَعَزُّزِه .

ويقال هذه صفة العوام منهم ، فأمَّا الأفاضل فحياتُهم مسرمدة وانتعاشهم مؤبَّدٌ . وأنَّى يحيا غيرُه وفي وجوده – سبحانه – غُنْيَةٌ وخَلَفٌ عن كل فائت ؟ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 557.559 ﴾

(71/528)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) ﴾

التفسير : إنه سبحانه بعد ضمان النصر لنبيه صلى الله عليه وسلم والدفع عن أمته ذكر ما فيه تسليته وهو أنه ليس بأوحدي في التكذيب له والقصص معلومة مما سلف . قال جار لله . إنما لم يقل " وقوم موسى " لأن موسى كذبه غير بني إسرائيل وهم القبط ، أو المراد وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره ؟ والنكير بمعنى الإنكار عبر به عن الهلاك المعجل لأنه يستلزمه أو لأن الهلاك رادع لغيرهم فكأنه أنكر به عليهم حتى ارتدعوا ، أو هو بمعنى التغيير لأنه أبدلهم بالنعمة محنة وبالحياة هلاكاً وبالعمارة خراباً . قوله ﴿ وهي ظالمة فهي خاوية ﴾ الأولى في محل النصب على أنها حال ، والثانية لا محل لها لأنها معطوفة على ﴿ أهلكناها ﴾ وهذه ليس لها محل . قال أبو مسلم : اراد هي كانت ظالمة فهي الآن خاوية على عروشها وقد مر تفسيرها في البقرة في قوله ﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية ﴾ [الآية : 259] قوله ﴿ وبئر معطلة ﴾ عطف على ﴿ قرية ﴾ أي وكم بئر عطلناها عن سقائها مع أنها عامرة فيها الماء ومعها آلات الاستقاء ، وكم قصر مشيد مجصص أو مرتفع أخليناه عن ساكنيه ؟ فحذف هذه الجملة لدلالة معطلة عليها . وقد يغلب على لاظن من هاتين القرينتين أن " على " في قوله ﴿ على عروشها ﴾ بمعنى " مع " كأنه قيل : هي خاوية أي ساقطة أو خالية مع بقاء عروشها قاله في الكشاف .

وأقول : إذا كانت القرى المهلكة غير البئر والقصر فهذا الظن مرجوح أو مساوٍ لا غالب . يروى أنها بئر نزل عليها صالح مع اربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم وسميت بلدة عند البئر اسمها حاضوراء بناها قوم صالح واقاموا بها زماناً ثم كفروا وعبدوا صنماً وأرسل الله إليهم حنظلة بن صفوان نبياً فقتلوه فأهلكهم الله وعطل بئرهم وخرب قصورهم . يحكى أن الإمام أبا القاسم الأنصاري قال : هذا عجيب لأني زرت قبر صالح بالشام ببلدة يقال لها عكة فكيف قيل : إنه بحضرموت ؟ قلت : لا غرو أن يتفق الموت بأرض والدفن بأرض أخرى . ثم أنكر على أهل مكة عدم اعتبارهم بهذه الاثار قائلاً ﴿ أفلم يسيروا ﴾ حثهم على السفر ليروا مصارع تلك الأمم فيعتبروا . ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ولم يعتبروا فلهذا جاء الإنكار كقوله ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [الصافات : 137 ، 138] والمراد بالسماع سماع تدبر وانتفاع وإلا كان كلا سماع كما أن المراد بالإبصار إبصار الاعتبار ولهذا قال ﴿ فإنها ﴾ أي إن القصة ﴿ لا تعمى الأبصار ﴾ أي أبصارهم ﴿ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ وفي هذا التصوير زيادة التمكين والتقرير لغرابة نسبة العمى إلى القلب ، وجوز في الكشاف أن يكون الضمير في ﴿

فإنها ﴿ ضميراً مبهماً يفسره الأبصار وفاعل ﴿ تعمى ﴾ ضمير عائد إلى الضمير الأول المبهم . والمعنى على الوجهين أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها وإنما العمى بقلوبهم ، أو لا تعتدوا بعمى الأبصار وإن فرض لأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب . وزعم بعضهم أن في الآية إبطالاً لقول من جعل محل الكفر الدماغ وليس بقوي فقد يتشار كان في ذلك ، أو يكون سلطانه في القلب والدماغ كالآلة .

(73/528)

ثم حكى من عظيم ما هم عليه من التكذيب أنهم يستهزؤن باستعجال العذاب العاجل والآجل كأنهم جوزوا الفوت فلهذا قال ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ أو لعلهم طلبوا عذاب الآخرة فذكر أن استعجاله في الدنيا كالخلف لأن موعده الآخرة ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة ﴾ قال أبو مسلم : أراد أن العاقل لا ينبغي أن يستعجل عذاب الآخرة لأن يوماً واحداً من أيام عذاب الله في الشدة كألف سنة من سنينكم لأن أيام الشدائد مستطالة ، أو كالف سنة من سني العذاب إذا عدها العاد وذلك لشدة العذاب ايضاً . وقيل : أراد أن اليوم الواحد وألف سنة بالنسبة إليه على السواء لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء ، فإذا لم يستبعدوا إمهال يوم فلا يستبعدوا أيضاً إمهال ألف سنة . وقد يدور في الخلد أن هذا

إشارة إلى لا تناهي طرف الأبد المستتبع لازدياد امتداد الآحاد الاعتبارية لأجل سهولة الضبط ، والغرض أن من كانت أيامه في الطول إلى هذا الحد لا يفيد الاستعجال بالنسبة إليه شيئاً فالأولى بل الواجب تفويض الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها من غير تقدم ولا تأخر ثم كرر قوله ﴿ وكأين من قرية ﴾ وليس بتكرار في الحقيقة لأن الأول سيق لبيان الإهلاك مناسباً لقوله ﴿ فكيف كان نكير ﴾ ولهذا عطف بالفاء بدلاً عتن ذلك ، والثاني سيق لبيان الإملاء مناسباً لقوله ﴿ ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة ﴾ فكأنه قيل : وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حيناً ثم أخذتهم بالعذاب والمرجع للكل إلى حكمي .

(74/528)

ثم أمر رسوله بأن يتلو عليهم جملة حاله في الرسالة وهي أنه نذير مبين وجملة حالهم في باب التكليف مآلا ، وإنما اقتصر على النذارة لأنها تتضمن البشارة فإن كلام الحيكم لا يخلو عن ترغيب وإن كان مبنياً على الترهيب بدليل ﴿ يا ايها الناس ﴾ وهو نداء الكفرة في قول ابن عباس . قال في الكشاف : هم الذين قيل فيهم ﴿ أفلم يسيروا ﴾ ووصفوا بالاستعجال ، وإنما أقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا . قالت الأشاعرة : المغفرة إما للصغائر

أو للكبائر بعد التوبة أو قبلها . والأولان واجبان عند الخصم وأداء الواجب لا يسمى غفراناً فبقي الثالث ويلزم منه عفو صاحب الكبيرة من أهل القبلة ، أما الرزق فلا شك أنه الثواب ، وأما الكريم فإما أن يكون أمراً سلبياً وهو أن يكون الإنسان معه بحيث يستغنى عن المكاسب وتحمل المتاعب والذل والدناءة وما ينجر إلى المآثم والمظالم ، وإما أن يكون ثبوتياً وهو أن يكون رزقاً كثيراً دائماً خالصاً عن شوائب الضرر مقروناً بالتعظيم والإجلال ﴿ والذين سعوا في آياتنا ﴾ أي بذلوا جهدهم في تكذيبها وإرادة إبطالها كمن يسعى سعياً أي يمشي سريعاً . قال أهل اللغة : عاجزه سابقه لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به ، فإذا سبقه قيل أعجزه وعجزه . والمراد معاجزين الله ورسوله أي مقدرين ذلك ظنا منهم أن كيدهم للإسلام يتم لهم ، وأن طعنهم في القرآن وتثبيطهم الناس عن التصديق يبلغ بهم غرضهم .

(75/528)

ثم بين أن له أسوة بالأنبياء السالفة والرسل السابقة في كل ما يأتي ويذر فقال ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ خصص أولاً ثم عمم ، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً ، فقد لا يكون معه كتاب بل يؤمر بأن يدعو إلى شريعة من قبله ، وقد لا ينزل عليه الملك

ظاهراً وإنما يرى الوحي في المنام أو يخبره بذلك رسول في عصره ، ولا بد للكل من المعجزة .

" عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الأنبياء فقال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قيل : فكم الرسل منهم ؟ قال : ثلثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً "

(76/528)

قال عامة المفسرين في سبب نزول الآية : أنه صلى الله عليه وسلم لما شق عليه إعراض قومه عنه تمنى في نفسه أن لا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه لحرصه على إيمانهم . وكان ذات يوم جالساً في نادٍ من أنديتهم وقد نزل عليه سورة ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ [النجم : 1] فأخذ يقرؤها عليهم حتى بلغ قوله ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 19-20] وكان ذلك التمني في نفسه فجرى على لسانه " تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى " فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته حتى ختم السورة ، فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي من المسلمين والمشركين ، فتفرقت قريش مسرورين وقالوا : قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فأتاه جبرائيل وقال : ما صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله ، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاف خوفاً شديداً فأنزل الله تعالى هذه الآية . واعترض

المحققون على هذه الرواية بالقرآن والسنة وبالمعقول . أما القرآن فكقوله ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ [الحاقة : 44-46] وقوله ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ [النجم : 3] وقوله ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن ﴾ [الإسراء : 74] نفى القرب من الركون فكيف به ؟ وأما السنة فهي ما روي عن ابن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال : هذا وضع من الزنادقة ، وقد صنف فيه كتاباً وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي . هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، ثم أخذ يتكلم أن رواة هذه القصة مطعون فيهم . وقد روى البخاري في صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون الإنس والجن وليس فيه حديث الغرانيق . وأما المعقول فهو أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث لنفي الأوثان فكيف يثبتها ؟ وأيضاً إنه بمكة لم يتمكن من القراءة والصلاة عند الكعبة ولا سيما في محفل غاص . وايضاً إن معاداتهم

(77/528)

إياه كانت أكثر من أن يغتروا بهذا القدر فيخروا سجداً قبل أن يقفوا على حقيقة الأمر . وأيضاً منع الشيطان من اصله أولى من تمكنه من الإلقاء ثم نسخه . وايضاً لوجوزنا ذلك

لارتفع الأمان من الشرع ، ولناقض قوله ﴿ بلغ ما أنزل إليك ﴾ [المائدة : 67] وحال الزيادة في الوحي كحال النقصان منه . إذا عرفت هذا فللأئمة في تأويل الآية قولان : الأول أن التمني بمعنى القراءة كما سلف في البقرة في قوله ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني ﴾ [الآية : 78] وما المراد بهذه القراءة فيه وجهان : أحدهما أنه يجوز أن يسهو النبي فيه ويشتبه على القارئ دون ما رووه من قوله " تلك الغرانيق العلى " . وثانيهما أنه قراءة هذه الكلمة وإنها قد وقعت بعينها .

وكيف وقعت ؟ ذهبت جماعة إلى أنه لما قرأ سورة والنجم اشتبه على الكفار فتوهموا بعض ألفاظه ذلك ، وزيف بأن هذا التوهم من الجم الغفير بعيد . وقيل : إن شيطان الجن ألقاها في البين فظنها الحاضرون من قول الرسول . وضعف بأن هذا يفضي إلى ارتفاع الوثوق عن كل ما يتكلم به النبي .

(78/528)

قلت : الإنصاف أنه غير ضعيف ولا يفضي إلى ارتفاع الوثوق لقوله سبحانه ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ وقيل : إن المتكلم به شيطان الإنس وهم الكفرة كانوا يقربون منه في حال صلاته ويسمعون قراءته ويلقون فيها في إثناء وقفاته . وقيل : إن المتكلم به الرسول

قاله سهواً كما روي عن قتادة ومقاتل أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان ، ولا ريب أنه يكون بإلقاء الشيطان . وضعف باستلزامه زوال الأمان عن الشرع وقد عرفت جوابه ، وبأن مثل هذا الكلام المطابق لفواصل السورة يستبعد وقوعها في النعاس . وزعم قوم أن الشيطان أجبره على ذلك ورد بنحو قوله تعالى ﴿ أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ﴾ [النحل : 99] وذهب جماعة إلى نه قال ذلك اختياراً . ثم إنها باطلة أم لا فيه وجهان : أما اول ففيه طريقان : أحدهما قول ابن عباس في رواية أن " شيطاناً " يقال له الأبيض أتاه على صورة جبريل وألقاها إليه فقرأها فلما سمع المشركون ذلك أعجبهم فجاء جبريل واستعرضه فقرأها ، فلما بلغ إلى تلك الكلمة أنكر عليه جبريل فقال : إنه أتاني آتٍ على صورتك فألقاها على لساني . وثانيهما أنه لشدة حرصه على إيمان القوم أدخل هذه الكلمة من تلقاء نفسه ثم رجع عنها . والطريقان منحرفان عند المحققين ، لأن الأول يقتضي أن النبي لا يفرق بين الملك والمعصوم والشيطان الخبيث . والثاني أنه يؤدي إلى كونه خائناً في الوحي . وأما الوجه الثاني فتصحيحه أنه اراد بالغرانيق الملائكة ، وقد كان قرآناً منزلاً في وصف الملائكة فلما توهم المشركون أنه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته . أو هو في تقدير الاستفهام بمعنى الإنكار ، أو المراد بالإِثبات ههنا النفي كقوله ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ [النساء : 176] قال

الجوهري : الغرنيق بضم الغين وفتح النون من طير الماء طويل العنق ، وإذا وصف به الرجال فواحدهم غرنيق وغرنوق بكسر الغين وفتح النون ، وغرنوق وغرانق

(79/528)

بالضم وهو الشاب السيد والجمع غرانق بالفتح والغرانيق . القول الثاني أن التمني هو تمني القلب ومعنى الآية ما من نبي إلا وهو بحيث إذا تمنى أمراً من الأمور وسوس الشيطان إليه بالباطل ويدعوه إلى مالا ينبغي ، ثم إن الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويهديه إلى ما هو الحق . وما تلك الوسوسة ؟ قيل : هي أن يتمنى ما يتقرب به إلى المشركين من ذكر آلهتهم بالخير وقد مر فساده .

(80/528)

وقال مجاهد : إنه كان يتمنى إنزال الوحي بسرعة دون تأخير فعرفه الله تعالى أن ذلك خاطر غير رحماني ، وإنما المصلحة هي إنزال الوحي على وفق الحوادث . وقيل : كان يتفكر في تأويل المجمل فيلقي الشيطان إلى جملته ما هو غير مراد ، وكان رد الله سبحانه إلى

المعنى المراد بإنزال المحكمات . وقيل : معناه إذا أراد فعلاً يتقرب به إلى الله حال الشيطان بينه وبين مقصوده والله تعالى يثبته على ذلك نظيره ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ [الأعراف : 201] ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ﴾ [الأعراف : 200] واعترض على هذا القول بأن تمني القلب كيف يكون فتنة للذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون ، وللقاسية قلوبهم وهم المشركون ؟ وأجيب بأنه إذا قوي التمني اشتغل الخاطر به فحصل السهو في الأفعال الظاهرة بسببه فيصير ذلك فتنة لمن ضعفت عقيدته في النبي . والحاصل أن الرسل لا ينفكون عن السهو وإن كانوا معصومين عن العمد فعليهم أن لا يتبعوا إلا ما يقطعون به لصدوره عن علم وذلك هو المحكم . وذهب أبو مسلم إلى أن حاصل الآية هو أن كل نبي من جنس البشر الذين هم بصدد الخطأ والنسيان من قبل وساوس الشيطان . ووجه النظم بين هذه الآية والتي قبلها أنه أمر بأن يقول إني لكم نذير لكني من البشر لا من الملائكة ولم يرسل الله قبلي ملكاً بل أرسل رجالا يوسوس الشيطان إليهم ، وعلى هذا فالملائكة لعدم إمكان استيلاء الشيطان عليهم أعظم درجة من الأنبياء وأقوى حالاً منهم . وقال صاحب الكشاف : المعنى أن الرسل والأنبياء من قبلك كانت هجيراهم كذلك إذا تمنوا مثل ما تمنيت وهو أن لا ينزل ما ينفر أمتة ولا يوافق هواهم ، مكن الله الشيطان ليلقي في أمانيهم مثل ما ألقي في أمنيتك حتى سبق لسانك . فقلت " تلك الغرانيق " الخ . وسبب التمكين إرادة امتحان

من حولهم والله سبحانه له أن يمتحن عباده بما شاء من صنوف المحن وأنواع الفتن ليضاعف ثواب

(81/528)

الثابتين ويزيد في عقاب المذبذبين . فهذه جملة أقوال المفسرين في الآية .

وأما قوله ﴿ فينسخ الله ﴾ فالمراد إزالة تأثير ما يلقي الشيطان وهو النسخ اللغوي لا النسخ الشرعي المستعمل في الأحكام وقوله ﴿ ثم يحكم الله آياته ﴾ فالمراد بالآيات هي آيات القرآن أي يجعلها بحيث لا يختلط بها شيء من كلام غيره فتكون ثابتة في مظانها ، أو يجعلها بحيث لا يتطرق إليها تأويل فاسد معمول به عند الأمة . ويحتمل أن يكون المراد بأحكام الآيات الإرشاد إلى أدلة الأحكام الشرعية . وقوله ﴿ وإن الظالمين ﴾ أراد المنافقين والمشركين المذكورين إلا أنه وضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم والشقاق البعيد والمعاداة الكاملة . وأعلم أنه سبحانه ذكر لتمكين الشيطان من الإلقاء في الأمنية أثرين : أحدهما في حق غير أهل الإيمان وهم أهل النفاق والشرك وذلك قوله ﴿ وليجعل ﴾ الآية .

(82/528)

وثانيهما في حق المؤمنين العارفين بالله وصفاته وهو قوله ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق ﴾ قال مقاتل : يعني القرآن . وعن الكلبي : أي النسخ . قال جار الله : أي تمكين الشيطان من الإلقاء قلت : أما عند الأشاعرة فلأن المالك له أن يتصرف في ملكه كيف يشاء ، وأما عند المعتزلة فلأن أفعاله جارية على وفق الحكمة والتدبير . ﴿ فتخبت ﴾ تخضع وتطمئن ﴿ له قلوبهم ﴾ بناء على أصلي الفريقين . والصراط المستقيم ههنا فسروه بالتأويلات الصحيحة والبيانات المطابقة للأصول . قلت : وتفسيره بمعنى أعم من ذلك غير ضائر . ثم بين أن الأعصار إلى قيام الساعة لا تخلو ممن يكون في شك من القرآن والرسول واليوم العقيم . قيل : يوم بدر لأنه لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه ، أو لأنه لا خير فيه للكفار من قولهم " ريح عقيم " إذا لم تنشئ مطراً ولم تلقح شجراً ، أو لأن يوم الحرب يقال له " العقيم " من حيث أن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرون كأنهن عقم لم يلدن ، أو من حيث إن المقاتلين يقال لهم " أبناء الحرب " فإذا قتلوا بقي الحرب بلا أبناء . وعن الضحاك أنه يوم القيامة لأنهم لا يرون فيه خيراً ، أو لأن كل ذات حمل تضع فيه حملها ، أو لأنه لا ليل فيه فيستمر كاستمرار المرأة على عدم الولادة . ولا تكرار على هذا القول لأن المراد بالساعة مقدماته ، أو المراد حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذابها ، فوضع يوم عقيم مقام الضمير . واستحسن بعض الأئمة قول الضحاك ورجحه لأن الأول يلزم منه أن الكفار

ينتهي شكهم في يوم بدر وليس كذلك فإنهم في مرية بعد يوم بدر أيضاً . ويمكن أن يقال : " أو " للعطف على أول الآية فيكون المراد بالذين كفروا في الأول الجنس ، وفي الثاني العهد . سلمنا أنه للعطف على ﴿ تأتيهم ﴾ إلا أن اللام في ﴿ الذين كفروا ﴾ للجنس فيقع على الذين ما انتهى شكهم إلى يوم القيامة ويحتمل أن يراد بالساعة وقت موت كل واحد وبعذاب يوم عقيم القيامة .

(83/528)

ثم بين أنه لا مالك يوم تأتي الساعة إلا الله وأنه يحكم بين الناس فيميز بين أهل الجنة وأهل النار . ثم أفرد المهاجرين بالذكر تخصيصاً لهم بمزيد التشريف . يروى أن طوائف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا نبي الله ، هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ﴾ قال بعض المفسرين هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة .

وقال بعضهم : هم الذين خرجوا من الأوطان في سرية أو عسكر . ولا يبعد حمل الآية على الفريقين . والرزق الحسن نعيم الجنة . وعن الكلبي : هو الغنيمة لأنها حلال . وقال الأصم :

العلم والفهم كقول شعيب ﴿ ورزقني منه رزقاً حسناً ﴾ [هود : 88] وضعف الوجهان بأنهما ممتنعان بعد القتل أو الموت . قال العلماء : وإنما تظهر هذه الفضيلة للمهاجرين في مزيد الدرجات وإلا فلا بد من شرط اجتناب الكبائر كما في حق غيرهم . ﴿ وإن الله لهو خير الرازقين ﴾ لأن رزق غيره ينتهي إليه وغيره لا يقدر على مثل رزقه ، ولأن رزقه لا يختلط بالمن والأذى ولا بغرض من الأغراض الفاسدة ، ولأنه يرزق ويعطي ما به يتم الانتفاع بالرزق من القوى والحواس وغير ذلك من الشرائط الوجودية والعدمية . قالت المعتزلة : في الآية دلالة على أن غير الله يقدر على الفعل وهو الرزق . ويمكن أن يجاب بأنه مجاز أو على سبيل الفرض والتقدير . وليس في الآية دليل ظاهر على أن المهاجر المقتول والمهاجر الميت على فراشه هل يستويان في الأجر أم لا بل المعلوم منها هو الجمع بينهما في الوعد . وقد يستدل على التسوية بما روي عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " المقتول في سبيل الله والمتوفي في سبيل الله بغير قتل هما في الأجر شريكان " فإن لفظ الشركة مشعر بالتسوية .

(84/528)

وحين بين رزقهم شرع في ذكر مسكنهم . قيل : في المدخل الذي يرضونه خيمة من درة بيضاء لا فصم فيها ولا وصم ، لها سبعون ألف صراع . وقال أبو القاسم القشيري : هو أن يدخلهم الجنة من غير مكروه تقدم . وقال ابن عباس : يرون في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيرضونه ولا يبغون عنها حولاً ﴿ وإن الله لعليم ﴾ بدرجات العاملين ومراتب استحقاقهم ﴿ حليم ﴾ عن تفريط المفرط منهم فيمهله حتى يتوب فيدخل الجنة . ثم بين أنه مع إكرامه لهم في الآخرة لا يدع نصرهم في الدنيا قبل أن يقتلوا أو يموتوا فقال ﴿ ذلك ﴾ قال الزجاج : أي الأمر ما قصصنا عليكم من إنجاز الوعد للمهاجرين خاصةً إذا قتلوا أو ماتوا . عن مقاتل : أن قوماً من المشركين لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم فقالوا : إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم ، فناشدهم المسلمون أن يكفوا عن قتالهم لحرمة الشهر فأبوا وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت لهم المسلمون فنصروا ، فوقع في أنفس المسلمين شيء من القتال في الشهر الحرام فنزل ﴿ ومن عاقب ﴾ أي قاتل ﴿ بمثل ما عوقب به ﴾ أي كما ابتدئ بقتاله سمى الابتداء باسم الجزاء للطباق وللمبلابسة من حيث إن ذلك سبب وهذا مسبب عنه ﴿ ثم بغي عليه ﴾ أي ثم كان المجازي مبغياً عليه أي مظلوماً .

(85/528)

ومعنى " ثم " تفاوت الرتبة لأن كونه مبدوأ بالقتال معه نوع ظلم كما قيل " البادي أظلم " وهو موجب لتنصرته ظاهراً إلا أن كونه في نفس الأمر مظلوماً هو السبب الأصلي في النصرة . وعن الضحاك أن الآية مدنية وهي في القصاص والجراحات . واستدل الشافعي بها في وجوب رعاية المماثلة في القصاص فقال : من حرق حرقناه ومن غرق غرقناه . وفي ختم الآية بذكر العفو والمغفرة وجوه منها : أن المندوب للمجني عليه هو أن يعفو عن الجاني كقوله ﴿ فمن عفا واصلح فأجره على الله ﴾ [الشورى : 40] وكأنه قال : أنا ضامن لنصرته إن ترك الانتقام وطلب إكثار ما هو أولى به فإني عفوّ غفور . ومنها أنه ضمن النصر على الباغي ولوح بذكر هاتين الصفتين بما هو أولى بالمجني عليه وهو العفو والصفح . ومنها أن دل بذكرهما على أنه قادر على العقوبة لأن العفو عند المقدرة . ثم بين أن ذلك النصر بسبب أنه قادر ومن كمال قدرته إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ، وذلك أن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر ، أو أراد تحصيل أحد العرضين الظلام والضياء في مكان الآخر وقد مر في أوائل آل عمران . وفيه أن خالق الليل والنهار ومصرف الأدوار والأكوار لا يخفى عليه شيء من الزمانيات خيراً أو شراً إنصافاً أو بغياً وأكد هذا المعنى بقوله ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ يسمع أقوال الخلائق ويبصر أفعالهم .

ثم بين أن كمال القدرة والعلم هو يقتضي وجوب الوجود فقال ﴿ ذلك ﴾ أي الوصف بخلق الملوين وبالإحاطة بما يجري فيهما بسبب أن الحقية منحصرة في ذاته وأن وجود غيره ولا سيما الأوثان موسوم بالبطلان فلا نقص كالإمكان . ويعلم مما ذكر أنه لا شيء أعلى منه شاناً وأكبر سلطاناً . وإنما قال ههنا ﴿ من دونه هو الباطل ﴾ بزيادة هو وفي "لقمان" ﴿ من دونه الباطل ﴾ [الآية : 30] لأن هذا وقع بين عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين ولهذا أيضاً زيدت اللام في قوله ﴿ وإن الله لهو الغني الحميد ﴾ بخلاف ما في "لقمان" وأيضاً يمكن أن يقال : تقدم في هذه السورة ذكر الشيطان فلهذا ذكرت هذه المؤكدات بخلاف "لقمان" فإنه لم يتقدم ذكر الشيطان هناك بنحو ما ذكر ههنا . ثم ذكر أنواعاً أخر من دلائل قدرته ونعمته فقال ﴿ الم تر ﴾ قيل : هي رؤية البصر لأن نزول الماء من جهة السماء أو اخضرار النبات من المبصرات . وقيل : بمعنى العلم لأن الرؤية إذا لم يقترن بها العلم لم يعتد بها . وفي قوله ﴿ فتصبح ﴾ دون أن يقول فأصبحت مناسباً ل ﴿ أنزل ﴾ إشارة إلى بقاء أثر المطر زماناً طويلاً وإن كان ابتداء الإصباح عقيب النزول نظيره قول القائل : "أنعم فلان عليّ عام كذا فأروح وأغدو شاكراً له" .

ولو قال : " فرحت وغدوت " لم يقع ذلك الموقع . وإنما لم ينصب ﴿ فتصبح ﴾ جواباً للاستفهام لإيهام عكس ما هو المقصود لأنه يوهم نفي الاخضرار كما لو قلت لصاحبك : الم تراني أنعمت عليك فتشكر . إن نصبته أو همت أنك نافٍ لشكره شاكٍ تفريطه فيه ، وإن رفعته فأنت مثبت لشكره بطريق الاستمرار ولا يبعد أن تكون هذه الآية إشارة إلى دليل الإعادة كما في أول السورة وهذا قول أبي مسلم : ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ قال الكلبي : لطيف في أفعاله خبير بأعمال خلقه ، وقال مقاتل : لطيف باستخراج النبت خبير بكيفية خلقه . وقال ابن عباس : لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط وقد مر مثل هذه في أواسط " الأنعام " . ثم بين أن كل ما في السموات والأرض ملكه وملكه لاي متنع شيء منها من تصرفاته ، وهو غني عن كل ذلك وإنما خلقها لحاجة المكلفين إليها ومن جملتها المطر والنبات خلقها رحمة للحيوانات وإنعاماً عليها . وإذا كان إنعامه خالياً عن غرض عائد إليه كان مستحقاً للحمد بل هو حميد في ذاته وإن لم يحمده الحامدون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 87.96 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وكأين من قرية ﴾ قالب ﴿ أهلكناها ﴾ بضيق الصدر وسوء الخلق واستيلاء الغفلة . ﴿ وبئر معطلة ﴾ هي القلب الفارغ عن أعمال القوى الروحانية في طلب المعارف والحقائق ﴿ وقصر مشيد ﴾ وهو الرأس الخالي عن نتائج الفكر الصافي والحواس السليمة ﴿ أفلم يسيروا ﴾ في أرض البشرية عابرين على منازل السالكين إلى أن يصلوا إلى مقام القلب ﴿ فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ الرحمن بذاته ﴿ أو آذان ﴾ قلوب ﴿ يسمعون بها ﴾ أقواله أو أبصار بصائر يبصرون بها أفعاله . وإذا صح وصف القلب بالسمع والبصر صح وصفه بسائر وجوه الإدراكات ، فقد يدرك نسيم الإقبال بمشام السر كقوله " إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن " وكقول يعقوب ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ [يوسف : 94] ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ ليس خلفه في وعيد المؤمنين بخلف في الحقيقة لأنه تصديق قوله " سبقت رحمتي غضبي " ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة ﴾ قيل : لأنه موجد الزمان وليس عنده صباح ولا مساء فوجود الزمان وعدمه وكثرته وقلته سواء عنده والاستعجال وضده إنما يتصور في المتزمنات قلت : ففيه أن الكل بإرادته وإن ما أراد الله فأسبابه متهيئة يحصل في يوم بإرادته مالا يحصل في ألف سنة

بحسب فرضنا وتقديرنا ومن هنا قيل : جذبة من جذبات الرحمن توازي عمل الثقلين ﴿ أمليت لها ﴾ فيه انه تعالى يمهل ولنه لا يهمل ﴿ لهم مغفرة ﴾ أي ستر فمنهم من يستر زلته ، ومنهم من يستر عليه أعماله الصالحة صيانة له عن الملاحظة ، ومنهم من يستر عليه حاله لئلا يصيبه من الشهوة فتنة كما قيل :

لا تنكرن جحدي هواك فإنما . . . ذاك الجحود عليك ستر مسبل

(89/528)

ومنهم من يستره بين أوليائه في باب العزة كما قال " أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري " ومنهم من يستر أنانيته بهويته فيقول أنا الحق وسبحاني . والرزق الكريم هو الخالي عن شوائب الحدوث لأنه من القديم الكريم ﴿ إلا إذا تمنى ﴾ فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم بل الولي لا يليق به التمني بل ما على الرسول إلا البلاغ ولا على الولي إلا الرضا والتسليم ، فلو بقي في أحدهم أدنى ملاحظة لغير الله كالحرص على إيمان القوم فوق ما أمر به ابتلاه ببلاء مجال الشيطان في أمنيته بقول أو بعمل ، فتدركه العناية الأولية ويزيل الخاطر الشيطاني ويثبته على الخاطر الرحماني ، ولا يكون لدخان الفتنة تاثير في نور يقينه كما لا تأثير للضباب في شعاع الشمس بخلاف من في قلبه ظلم الشبهات فإن ذلك الدخان يزيدها

كدورة ورينا حتى تأتيه ساعة سلب الاستعداد بالكلية ، ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ هو الأبد لأنه لا ليل له وهو عذاب قطيعة لا وصلى بعدها ﴿ والذين هاجروا ﴾ عن أوطان الطبيعة في طلب الحقيقة ﴿ ثم قتلوا ﴾ بسيف الصدق والرياضة حتى تزكوا أنفسهم ﴿ أو ماتوا ﴾ عن أوصاف البشرية ﴿ ليرزقهم الله رزقاً حسناً ﴾ فرزق القلوب حلاوة العرفان . ورزق الأسرار مشاهدات الجمال ، ورزق الأرواح مكاشفات الجلال . ﴿ وإن الله لهو خير الرازقين ﴾ لأنه يرزق من أوصاف ربوبيته كما قال صلى الله عليه وسلم " ابيت عند ربي يطعمني ويسقيني " ﴿ ومن عاقب ﴾ بالمجاهدة نفسه ﴿ بمثل ﴾ ما عاقبت النفس بالمخالفة قلبه ﴿ ثم بغي عليه ﴾ أي غلبت النفس على القلب باستيلاء صفاتها ﴿ لينصرنه الله ﴾ باستئصال النفس وتمحيق صفاتها ﴿ إن الله لعفوّ ﴾ لما سلف ﴿ غفور ﴾ لما بقي في نفوس الطالبين من الأنانية . ﴿ يولج ﴾ ليل السر في نهار التجلي وبالعكس ، أو يولج ليل القبض في نهار البسط ، أو ليل الهيبة في نهار الأنس ﴿ أنزل من ﴾ سماء القلب ماء الحكمة ﴿ فتصبح ﴾ أرض البشرية ﴿ مخضرة ﴾ بالشريعة وأرض القلوب والأرواح والأسرار بالعلوم والكشوف والأنوار والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 96. 97 ﴾

(90/528)

قوله تعالى ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (67) وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدم ذكر المناسك ، وكان لكثرة الكفار قد يقع في النفس أن إقامتها معجوز عنها ، وكشف سبحانه غمة هذا السؤال بآية ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ وما بعدها ، فأنتج ذلك علمنا بتصرفه التام بقدرته الباهرة ، وعلمه الشامل المقتضي لإقبال العباد إليه ، واجتماعهم كلهم عليه ، فمن شك في قدرته على إظهار دينه بمدافعته عن أهله ، أو نازع فيه فهو كفور ، ذكر بإظهار أول هذا الخطاب بآخر ذلك الخطاب مؤكداً لما أجاب به عن ذلك السؤال من تمام القدرة وشمول العلم أنه هو الذي مكن لكل قوم ما هم فيه من المناسك التي بها انتظام الحياة ، فإن وافقت الأمر الإلهي كانت سبباً للحياة الأبدية ، وإلا كانت سبباً للهلاك الدائم ، وهو سبحانه الذي نصب من الشرائع لكل قوم ما يلائمهم ، لأنه بتغيير الزمان بإيلاج الليل في النهار على مر الأيام وتوالي الشهور والأعوام ، بسبب من الأسباب – لأجل امتحان العباد ، وإظهار ما خبأ في جبلة كل منهم من طاعة وعصيان ، وشكر وكفران –

ما يصير الفعل مصلحة بما يقتضيه من الأسباب بعد أن كان مفسدة وبالعكس ، لاقتداره على كل شيء وإظهار اقتداره كما قال تعالى عند أول ذكره للنسخ

﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة : 106] الآيات ، فعلم أن منازعتهم فيه كفر ، فلذلك أتبع هذا قوله من غير عاطف لما بينهما من تمام الاتصال : ﴿ لكل أمة ﴾ أي في كل زمان ﴿ جعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ منسكاً ﴾ أي شرعاً لاجتماعهم به على خالقهم حيث وافق أمره ، ولاجتماعهم على أهوائهم إذا لم يوافقه ، وعن ابن جرير أن أصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه إما لخير أو لشر .

(91/528)

ولما كان بحيث إن ما أراده سبحانه كان لا محالة ، قال : ﴿ هم ناسكوه ﴾ أي متعبدون به ، لأنا ندافع عنهم من يعاديهم فيه حتى يستقيم لهم أمره ، لإسعادهم به أو إشقائهم ، فمن شك في قدرتنا على تمكينهم منه فهو كفور ، فإن وافق الأمر كان ربحاً وإيماناً ، وإن خالفه كان كفراً وخسراناً .

ولما كان قد حكم بإظهار دينه على الدين كله ، وبأن الكفار على كثرتهم يغلبون بعد ما هم فيه من البطر ، أعلم بذلك بالتعبير بصيغة الزجر لهم بقوله مسبباً عن هذه العظمة : ﴿ فلا

ينازعنك في الأمر ﴾ أي بما يلقيه الشيطان إليهم من الشبه ليجادلوا به ، من طعنهم في دينك بالنسخ بقولهم : لو كان من عند الله لما أمر اليوم بشيء ونهي عنه غداً .

لأنه يلزم منه البدء ، فليس الأمر كما زعموا ، بل هو دال على العم بالعواقب والاقتدار التام على شرع المذاهب ، وغير ذلك من الشبه كما مضت الإشارة إليه ، فلا يلتفت إليهم في شيء نازعوا فيه كائناً ما كان ، وروي أنها نزلت بسبب جدال الكفار بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهما في الذبائح ، وقولهم للمؤمنين : تأكلون ما ذبحتم وهو من قتلكم ، ولا تأكلون ما قتل الله – يعنون الميتة .

ولما كان النهي عن المنازعة في الحقيقة له ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلهاباً وتهييجاً إلى الإعراض عنهم لأنهم أهل لذلك ، لأن كيدهم في تضليل ، والإقبال على شأنه ، وكان التعبير بما تقدم من تحويله إليهم لتأكيد الأمر مع دلالته على إجلاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن المواجهة بالنهي ، عطف عليه قوله : ﴿ وادع ﴾ أي أوقع الدعوة لجميع الخلق ﴿ إلى ربك ﴾ أي المحسن إليك بإرسالك ، بالحمل لهم على كل ما أمرك به متى ما أمرك ، ولا يهولنك قولهم ، فإنهم مغلوبون لا محالة ، ولا تتأمل عاقبة من العواقب ، بل أقدم على الأمر وإن ظن أن فيه الهلاك ، فإنه ليس عليك إلا ذلك .

وأما نظم الأمور على نهج السداد في إظهار الدين ، وقهر المعاندين ، فإلى الذي أمرك بتلك الأوامر ، وأحكم الشأن في جميع الزواجر ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنك ﴾ مؤكداً له بحسب ما عندهم من الإنكار ﴿ لعلى هدى مستقيم ﴾ فإنه تأصيل العليم القدير وإن طرقه التغيير .

ولما أمره بالإقبال على ما يهمه ، والإعراض عن منازعتهم ، في صيغة نهيهم عن منازعته ، علمه الجواب إن ارتكبوا منهيه بعد الاحتهاد في دفعهم ، لما لهم من اللجاج والعتو ، فقال : ﴿ وإن جادلوك ﴾ أي في شيء من دينك بشيء مما تقدم من أقوالهم السفسافة أو بغيره ﴿ فقل ﴾ معرضاً عن عيب دينهم الذي لا أبين فساداً منه : ﴿ الله ﴾ أي الملك المحيط بالعز والعلم ﴿ أعلم بما تعملون ﴾ مهدداً لهم بذلك ، مذكراً لنفسك بقدرة ربك ، قاطعاً بذلك المنازعة من حيث رقّب ، متوكلاً على الذي أمرك بذلك في حسن تدبيرك والمدافعة عنك ومجازاتهم بما سبق علمه به مما يستحقونه ؛ قال الرازي في اللوامع : وينبغي أن يتأدب بهذا كل أحد ، فإن أهل الجدل قوم جاوزوا حد العوام بتحذلقهم ، ولم يبلغوا درجة الخواص الذين عرفوا الأشياء على ما هي عليه ، فالعوام منقادون للشريعة ، والخواص يغرفون أسرارها وحقائقها ، وأهل الجدل قوم في قلوبهم اضطراب وانزعاج .

ولما أمره بالإعراض عنهم ، وكان ذلك شديداً على النفس لتشوفها إلى النصرة ، رجاه في

ذلك بقوله : مستأنفاً مبدلاً من مقول الجزاء تحذيراً لهم : ﴿ الله ﴾ أي الذي لا كفوء له ﴿ يحكم بينكم ﴾ أي بينك مع أتباعك وبينهم ﴿ يوم القيامة ﴾ الذي هو يوم التغابن ﴿ فيما كنتم ﴾ أي بما هو لكم كالجبلة ﴿ فيه ﴾ أي خاصة ﴿ تختلفون ﴾ في أمر الدين ، ومن نصر ذلك اليوم لم يبال بما حل به قبله ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ [الشعراء : 227] قال البغوي : والاختلاف ذهاب كل واحد من الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 172 . 174 ﴾

(93/528)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ما لم ينزل ﴾ من الإنزال ابن كثير وأبو عمرو وسهل . والآخرون بالتشديد ﴿ يصطون ﴾ بالصاد مثل ﴿ بصطة ﴾ [الآية : 247] في البقرة ﴿ الذين يدعون ﴾ بياء الغيبة : سهل ويعقوب .

الوقوف : ﴿ بأمره ﴾ ط ﴿ بإذنه ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ 5 ﴿ أحياكم ﴾ ز لأن " ثم " لترتيب الأخبار ﴿ يحييكم ﴾ 5 ط ﴿ لكفور ﴾ 5 ﴿ إلى ربك ﴾ ط ﴿ مستقيم

﴿ 5 ﴾ تعملون ﴿ 5 ﴾ تختلفون ﴿ 5 ﴾ والأرض ﴿ ط ﴾ في كتاب ﴿ ط ﴾ يسير ﴿ 5 ﴾ علم ﴿ ط ﴾ نصير ﴿ 5 ﴾ المنكر ﴿ ط ﴾ آياتنا ﴿ ط ﴾ ذلكم ﴿ ط ﴾ النار ﴿ ط ﴾ كفروا ﴿ ط ﴾ المصير ﴿ 5 ﴾ فاستمعوا له ﴿ ط ﴾ اجتمعوا له ﴿ ط ﴾ منه ﴿ ط ﴾ والمطلوب ﴿ 5 ﴾ قدره ﴿ ط ﴾ ومن الناس ﴿ ط ﴾ بصير ﴿ 5 ﴾ خلفهم ﴿ ط ﴾ الأمور ﴿ 5 ﴾ تفلحون ﴿ 5 ج للآية مع العطف ﴿ جهاده ﴿ ط ﴾ حرج ﴿ ط ﴾ إبراهيم ﴿ ط ﴾ الناس ﴿ ج للعطف مع الفاء ﴿ بالله ﴿ ط ﴾ مولاكم ﴿ ط ﴾ النصير ﴿ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 98 ﴾

(94/528)

فصل

قال الفخر :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما قدم ذكر نعمه وبين أنه رؤوف رحيم بعباده وإن كان منهم من يكفر ولا يشكر ، أتبعه بذكر نعمه بما كلف فقال : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ وفيه

مسائل :

المسألة الأولى :

إنما حذف الواو في قوله : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ لأنه لا تعلق لهذا الكلام بما قبله فلا جرم حذف العاطف .

المسألة الثانية :

في المنسك أقوال : أحدها : قال ابن عباس عيداً يذبحون فيه وثانيها : قرباناً ولفظ المنسك مختص بالذبائح عن مجاهد وثالثها : مألفاً يألفونه إما مكاناً معيناً أو زماناً معيناً لأداء الطاعات ورابعها : المنسك هو الشريعة والمنهاج وهو قول ابن عباس في رواية عطاء واختيار القفال وهو الأقرب لقوله تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً ومنهاجا﴾ [المائدة : 48] ولأن المنسك مأخوذ من النسك وهو العبادة ، وإذا وقع الاسم على كل عبادة فلا وجه للتخصيص .

فإن قيل هلا حملتموه على الذبح ، لأن المنسك في العرف لا يفهم منه إلا الذبح ؟ وهلا حملتموه على موضع العبادة أو على وقتها ؟ الجواب : عن الأول لا نسلم أن المنسك في العرف مخصوص بالذبح ، والدليل عليه أن سائر ما يفعل في الحج يوصف بأنه مناسك ولأجله قال عليه السلام : " خذوا عني مناسككم " وعن الثاني : أن قوله : ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أليق بالعبادة منه بالوقت والمكان .

المسألة الثالثة :

زعم قوم أن المراد من قوله : ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ من كان في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم متمسكاً بشرع كاليهود والنصارى ، ولا يمتنع أن يريد كل من تعبد من الأمم سواء بقيت آثارهم أو لم تبق ، لأن قوله : ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ كالوصف للأمم وإن لم يعبدوا في الحال .

(95/528)

أما قوله تعالى : ﴿ فَلاَ ينازعنك فِى الأمر ﴾ فقرىء ﴿ فَلاَ ينزعنك ﴾ أي أثبت في دينك ثباتاً لا يطمعون أن يخدعوك ليزيلوك عنه .

وأما قوله : ﴿ فَلاَ ينازعنك ﴾ ففيه قولان : أحدهما : وهو قول الزجاج : أنه نهى لهم عن منازعتهم ، كما تقول لا يضاربنك فلان أي لا تضاربه والثاني : أن المراد أن عليهم اتباعك وترك مخالفتك ، وقد استقر الأمر الآن على شرعك وعلى أنه ناسخ لكل ما عداه .

فكأنه تعالى نهى كل أمة بقيت منها بقية أن تستمر على تلك العادة ، وألزمها أن تتحول إلى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فلذلك قال : ﴿ وادع إلى رَبّكَ ﴾ أي لا تخص بالدعاء أمة دون أمة فكلهم أمتك فادعهم إلى شريعتك فإنك على هدى مستقيم ، والهدى يحتمل

نفس الدين ويحتمل أدلة الدين وهو أولى .

كأنه قال ادعهم إلى هذا الدين فإنك من حيث الدلالة على طريقة واضحة ولهذا قال :

﴿ وَإِن جادلوك ﴾ والمعنى فإن عدلوا عن النظر في هذه الأدلة إلى طريقة المراء والتمسك بالعادة فقد بينت وأظهرت ما يلزمك ﴿ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ لأنه ليس بعد إيضاح الأدلة إلا هذا الجنس الذي يجري مجرى الوعيد والتحذير من حكم يوم القيامة الذي يتردد بين جنة وثواب لمن قبل ، وبين نار وعقاب لمن رد وأنكر .

فقال : ﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فتعرفون حينئذ الحق من الباطل ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 56 . 57 ﴾

(96/528)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّك فِي الْأَمْرِ ﴾

قِيلَ : إنَّ الْمَنْسَكَ الْمَوْضِعُ الْمُعْتَادُ لِعَمَلِ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ وَهُوَ الْمَأْلَفُ لِذَلِكَ ، وَمَنَاسِكُ الْحَجِّ مَوَاضِعُ الْعِبَادَاتِ فِيهِ ، فَهِيَ مُتَعَبَّدَاتُ الْحَجِّ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " مَنْسَكًا عِيدًا " وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : " مُتَعَبَّدًا فِي إرَاقَةِ الدَّمِ بِمِنًى

وَغَيْرِهِ " .

وَقَالَ عَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ أَيْضًا وَعِكْرِمَةُ ذَبَائِحُ هُمْ ذَابِحُوهُ .

وَقِيلَ إنَّ الْمَنْسَكَ جَمِيعُ الْعِبَادَاتِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا .

(97/528)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ يَوْمَ الْأَضْحَى فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّ أَوَّلَ نُسُكِنَا فِي يَوْمِنَا هَذَا الصَّلَاةُ ثُمَّ الذَّبْحُ فَجَعَلَ الصَّلَاةَ وَالذَّبْحَ جَمِيعًا نُسُكًا ﴾ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اسْمَ النُّسُكِ يَقَعُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ ، إلَّا أَنَّ الْأَظْهَرَ الْأَغْلَبَ فِي الْعَادَةِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ الذَّبْحُ عَلَى وَجْهِ الْقُرْبَةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ جَمِيعَ الْعِبَادَاتِ وَيَكُونَ الذَّبْحُ أَحَدَ مَا أُرِيدَ بِالْآيَةِ ، فَيُوجِبُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونُوا مَأْمُورِينَ بِالذَّبْحِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ﴾ وَإِذْ كُنَّا مَأْمُورِينَ بِالذَّبْحِ سَاغَ الِاحْتِجَاجُ بِهِ فِي إيجَابِ الْأُضْحِيَّةِ لِوُقُوعِهَا عَامَّةً فِي الْمُوسِرِينَ كَالزَّكَاةِ ، وَلَوْ جَعَلْنَاهُ عَلَى الذَّبْحِ الْوَاجِبِ فِي الْحَجِّ كَانَ خَاصًّا فِي دَمِ الْقِرَانِ وَالْمُتْعَةِ ؛ إذْ كَانَا نُسُكَيْنِ فِي الْحَجِّ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ الدِّمَاءِ ؛ إذْ كَانَتْ سَائِرُ الدِّمَاءِ فِي الْحَجِّ إنَّمَا يَجِبُ عَلَى جِهَةِ جُبْرَانِ نَقْصٍ

وَجِنَايَةٍ فَلَا يَكُونُ إِيجَابُهُ عَلَى وَجْهِ ابْتِدَاءِ الْعِبَادَةِ بِهِ ، وقَوْله تَعَالَى : ﴿ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ يَقْتَضِي ظَاهِرُهُ ابْتِدَاءَ إِيجَابِ الْعِبَادَةِ بِهِ .

(98/528)

وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ وَفُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ فِي وُجُوبِ الْأُضْحِيَّةِ ، فَرَوَى الشَّعْبِيُّ عَنْ أَبِي سَرِيحَةَ قَالَ : " رَأَيْت أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَمَا يُضَحِّيَانِ " .

وَقَالَ عِكْرِمَةُ : " كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَبْعَثُنِي يَوْمَ الْأَضْحَى بِدِرْهَمَيْنِ أَشْتَرِي لَهُ لَحْمًا وَيَقُولُ : مَنْ لَقِيت فَقُلْ هَذِهِ أُضْحِيَّةُ ابْنِ عَبَّاسٍ " .

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : " لَيْسَتْ بِحَتْمٍ وَلَكِنْ سُنَّةٌ وَمَعْرُوفٌ " .

وَقَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيُّ : " إنِّي لَأَدَعُ الْأَضْحَى وَأَنَا مُوسِرٌ مَخَافَةَ أَنْ يَرَى جِيرَانِي أَنَّهُ حَتْمٌ عَلَيَّ " .

وَقَالَ إبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ : " الْأُضْحِيَّةُ وَاجِبَةٌ إلَّا عَلَى مُسَافِرٍ " وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : " كَانُوا إذَا شَهِدُوا ضَحَّوْا وَإِذَا سَافَرُوا لَمْ يُضَحُّوا " .

وَرَوَى يَحْيَى بْنُ يَمَانٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ مَكْحُولٍ قَالَ : " الْأُضْحِيَّةُ وَاجِبَةٌ " .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ وَزُفَرُ : " الْأُضْحِيَّةُ وَاجِبَةٌ عَلَى أَهْلِ الْيَسَارِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ

وَالْقُرَى الْمُقِيمِينَ دُونَ الْمُسَافِرِينَ ، وَلَا أُضْحِيَّةَ عَلَى الْمُسَافِرِ وَإِنْ كَانَ مُوسِرًا ، وَحَدُّ الْيَسَارِ فِي ذَلِكَ مَا تَجِبُ فِيهِ صَدَقَةُ الْفِطْرِ " وَرُوِيَ عَنْ أَبِي يُوسُفَ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ وَهِيَ سُنَّةٌ .

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ : " عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ أُضْحِيَّةٌ الْمُسَافِرِ وَالْمُقِيمِ ، وَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ فَبِئْسَ مَا صَنَعَ " .

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَالشَّافِعِيُّ : " لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ " .

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ : " لَا بَأْسَ بِتَرْكِهَا " .

(99/528)

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَسَنِ : " يُؤْثِرُ بِهَا أَبَاهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُضَحِّيَ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَمَنْ يُوجِبُهَا يَحْتَجُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَيُحْتَجُّ لَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ﴾ قَدْ اقْتَضَى الْأَمْرُ بِالْأُضْحِيَّةِ ؛ لِأَنَّ النُّسُكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْمُرَادِ بِهِ الْأُضْحِيَّةُ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ يَا فَاطِمَةُ اشْهَدِي أُضْحِيَّتَكِ فَإِنَّهُ يُغْفَرُ لَكِ بِأَوَّلِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهَا كُلُّ

ذَنْبٍ عُمْلَتَيْهِ وَقَوْلِي : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴾ .

وَرُوِيَ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ ذَبْحِ الْأُضْحِيَّةِ : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ ﴾ الْآيَةَ .

﴿ وَقَالَ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ نِيَارٍ يَوْمَ الْأَضْحَى : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي عَجَّلْت بِنُسُكِي ﴾ .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ نُسُكِنَا فِي يَوْمِنَا هَذَا الصَّلَاةُ ثُمَّ الذَّبْحُ ﴾ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ هَذَا النُّسُكَ قَدْ أُرِيدَ بِهِ الْأُضْحِيَّةُ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَبِذَلِكَ أُمِرْت ﴾ وَالْأَمْرُ يَقْتَضِي الْوُجُوبَ .

(100/528)

وَيُحْتَجُّ فِيهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّك وَانْحَرْ ﴾ قَدْ رُوِيَ أَنَّهُ أَرَادَ صَلَاةَ الْعِيدِ وَبِالنَّحْرِ الْأُضْحِيَّةَ ، وَالْأَمْرُ يَقْتَضِي الْإِيجَابَ ، وَإِذَا وَجَبَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ وَاجِبٌ عَلَيْنَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّبِعُوهُ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ وَيُحْتَجُّ لِلْقَائِلِينَ بِإِيجَابِهَا مِنْ جِهَةِ الْأَثَرِ بِمَا رَوَاهُ زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَيَّاشٍ قَالَ : حَدَّثَنِي الْأَعْرَجُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ كَانَ لَهُ يَسَارٌ فَلَمْ يُضَحِّ فَلَا يَقْرَبَنَّ مُصَلَّانَا ﴾ .

وَقَدْ رَوَاهُ غَيْرُ زَيْدِ بْنِ الْحُبَابِ مَرْفُوعًا جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُبَارَكِ قَالَ : حَدَّثَنَا الْهَيْثَمُ بْنُ خَارِجَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَيَّاشٍ عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ قَدَرَ عَلَى سَعَةٍ فَلَمْ يُضَحِّ فَلَا يَقْرَبَنَّ مُصَلَّانَا ﴾ .

(101/528)

وَرَوَاهُ يَحْيَى بْنُ يَعْلَى أَيْضًا مَرْفُوعًا ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ النُّعْمَانِ الْفَرَّاءُ قَالَ : حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَعْلَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَيَّاشٍ أَوْ عَبَّاسٍ عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ وَجَدَ سَعَةً فَلَمْ يُضَحِّ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا ﴾ .

وَرَوَاهُ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : ﴿ مَنْ وَجَدَ سَعَةً فَلَمْ يُضَحِّ فَلَا يَقْرَبَنَّ مُصَلَّانَا ﴾ .

وَيُقَالُ إِنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي جَعْفَرٍ فَوْقَ ابْنِ عَيَّاشٍ فِي الضَّبْطِ وَالْجَلَالَةِ ، فَوَقْفُهُ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَلَمْ يَرْفَعْهُ ، وَيُقَالُ إِنَّ الصَّحِيحَ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَيْهِ غَيْرُ مَرْفُوعٍ .

وَيُحْتَجُّ لِإِيجَابِهَا أَيْضًا بِحَدِيثِ أَبِي رَمْلَةَ الْحَنَفِيِّ عَنْ مِخْنَفِ بْنِ سُلَيْمٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ عَلَى كُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ فِي عَامٍ أُضْحِيَّةٌ وَعَتِيرَةٌ ﴾ .

(102/528)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَالْعَتِيرَةُ مَنْسُوخَةٌ بِالِاتِّفَاقِ ، وَهِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَصُومُونَ رَجَبَ ثُمَّ يَعْتَرُونَ ، وَهِيَ الرَّجَبِيَّةُ ، وَقَدْ كَانَ ابْنُ سِيرِينَ وَابْنُ عَوْنٍ يَفْعَلَانِهِ ، وَلَمْ تَقُمْ الدَّلَالَةُ عَلَى نَسْخِ الْأُضْحِيَّةِ فَهِيَ وَاجِبَةٌ بِمُقْتَضَى الْخَبَرِ ، إلَّا أَنَّهُ ذُكِرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ : " عَلَى كُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ أُضْحِيَّةٌ " وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْوَاجِبَ مِنْ الْأُضْحِيَّةِ لَا يُجْزِئُ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَإِنَّمَا يُجْزِئُ عَنْ وَاحِدٍ ، فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ الْإِيجَابَ .

وَمِمَّا يُحْتَجُّ لِمُوجِبِهَا مَا حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي عَوْنٍ الْبَزْوَرِيِّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ إسْمَاعِيلُ بْنُ إبْرَاهِيمَ قَالَ :

حَدَّثَنَا أَبُو إسْمَاعِيلَ الْمُؤَدِّبُ عَنْ مُجَالِدٍ عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ جَابِرٍ وَالْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَا : قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مِنْبَرِهِ يَوْمَ الْأَضْحَى فَقَالَ : ﴿ مَنْ صَلَّى مَعَنَا هَذِهِ الصَّلَاةَ فَلْيَذْبَحْ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَقَامَ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ نِيَارٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنِّي ذَبَحْت لِيَأْكُلَ مَعَنَا أَصْحَابُنَا إذَا رَجَعْنَا ، قَالَ : لَيْسَ بِنُسُكٍ قَالَ : عِنْدِي جَذَعَةٌ مِنْ الْمَعْزِ ، قَالَ : تُجْزِي

عَنْك وَلَا تُجْزِي عَنْ غَيْرِك ﴾ ، فَيُسْتَدَلُّ مِنْ هَذَا الْخَبَرِ بِوُجُوهٍ عَلَى الْوُجُوبِ ، أَحَدُهَا : قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ صَلَّى مَعَنَا هَذِهِ الصَّلَاةَ وَشَهِدَ مَعَنَا فَلْيَذْبَحْ بَعْدَ الصَّلَاةِ ﴾ وَهُوَ أَمْرٌ بِالذَّبْحِ يَقْتَضِي ظَاهِرُهُ الْوُجُوبَ .

(103/528)

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ تُجْزِي عَنْك وَلَا تُجْزِي عَنْ غَيْرِك ﴾ . وَمَعْنَاهُ : تَقْضِي عَنْك ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ جَزَى عَنِّي كَذَا بِمَعْنَى قَضَى عَنِّي ، وَالْقَضَاءُ لَا يَكُونُ إلَّا عَنْ وَاجِبٍ فَقَدْ اقْتَضَى ذَلِكَ الْوُجُوبَ .

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنَّ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ هَذَا الْحَدِيثِ : " فَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلْيُعِدْ أُضْحِيَّتَهُ " وَفِي بَعْضِهَا أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي بُرْدَةَ : ﴿ أَعِدْ أُضْحِيَّتَك ﴾ ، وَمَنْ يَأْبَى ذَلِكَ يَقُولُ : إنَّ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ صَلَّى مَعَنَا هَذِهِ الصَّلَاةَ وَشَهِدَ مَعَنَا فَلْيَذْبَحْ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ الْإِيجَابَ ؛ لِأَنَّ وُجُوبَهَا لَا يَتَعَلَّقُ بِشُهُودِ الصَّلَاةِ عِنْدَ الْجَمِيعِ ، وَلَمَّا عَمَّ الْجَمِيعَ وَلَمْ يُخَصِّصْ بِهِ الْأَغْنِيَاءَ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ النَّدْبَ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ تُجْزِي عَنْك ﴾ فَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ جَوَازَ قُرْبَةٍ ، وَالْجَوَازُ وَالْقَضَاءُ عَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا جَوَازُ قُرْبَةٍ ، وَالْآخَرُ جَوَازُ فَرْضٍ ، فَلَيْسَ فِي ظَاهِرِ إطْلَاقِ لَفْظِ الْجَوَازِ وَالْقَضَاءِ دَلَالَةٌ عَلَى الْوُجُوبِ .

وَأَيْضًا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَبُو بُرْدَةَ قَدْ كَانَ أَوْجَبَ الْأُضْحِيَّةَ نَذْرًا ، فَأَمَرَهُ بِالْإِعَادَةِ ، فَإِذًا لَيْسَ فِيمَا خَاطَبَ بِهِ أَبَا بُرْدَةَ دَلَالَةٌ عَلَى الْوُجُوبِ ؛ لِأَنَّهُ حُكْمٌ فِي شَخْصٍ مُعَيَّنٍ لَيْسَ بِعُمُومِ لَفْظٍ فِي إيجَابِهَا عَلَى كُلِّ أَحَدٍ .

فَإِنْ قِيلَ : لَوْ أَرَادَ الْقَضَاءَ عَنْ وَاجِبٍ لَسَأَلَهُ عَنْ قِيمَتِهِ لِيُوجِبَ عَلَيْهِ مِثْلَهُ .

(104/528)

قِيلَ لَهُ : قَدْ قَالَ أَبُو بُرْدَةَ : " إنَّ عِنْدِي جَذَعَةً خَيْرٌ مِنْ شَاتَيْ لَحْمٍ " فَكَانَتْ الْجَذَعَةُ خَيْرًا مِنْ الْأُولَى .

وَمِمَّا يُحْتَجُّ بِهِ عَلَى الْوُجُوبِ مِنْ طَرِيقِ النَّظَرِ اتِّفَاقُ الْجَمِيعِ عَلَى لُزُومِهَا بِالنَّذْرِ ، فَلَوْلَا أَنَّ لَهَا أَصْلًا فِي الْوُجُوبِ لَمَا لَزِمَتْ بِالنَّذْرِ ، كَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ فِي الْوُجُوبِ فَلَا تَلْزَمُ بِالنَّذْرِ .

(105/528)

وَمِمَّا يُحْتَجُّ بِهِ لِلْوُجُوبِ مَا رَوَى جَابِرٌ الْجُعْفِيُّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ : " نَسَخَتْ الْأُضْحِيَّةُ كُلَّ ذَبْحٍ كَانَ قَبْلَهَا ، وَنَسَخَتْ الزَّكَاةُ كُلَّ زَكَاةٍ كَانَتْ قَبْلَهَا ، وَنَسَخَ صَوْمُ رَمَضَانَ كُلَّ صَوْمٍ كَانَ قَبْلَهُ ، وَنَسَخَ غُسْلُ الْجَنَابَةِ كُلَّ غُسْلٍ كَانَ قَبْلَهُ " ، قَالُوا : فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الْأُضْحَى ؛ لِأَنَّهُ نُسِخَ بِهِ مَا كَانَ قَبْلَهُ ، وَلَا يَكُونُ الْمَنْسُوخُ بِهِ إلَّا وَاجِبًا ، أَلَا تَرَى أَنَّ كُلَّ مَا ذَكَرَهُ أَنَّهُ نَاسِخٌ لِمَا قَبْلَهُ فَهُوَ فَرْضٌ أَوْ وَاجِبٌ ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذَا عِنْدِي لَا يَدُلُّ عَلَى الْوُجُوبِ ؛ لِأَنَّ نَسْخَ الْوَاجِبِ هُوَ بَيَانُ مُدَّةِ الْوُجُوبِ ، فَإِذَا بَيَّنَ بِالنَّسْخِ أَنَّ مُدَّةَ الْإِيجَابِ كَانَتْ إلَى هَذَا الْوَقْتِ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مَا يَقْتَضِي إيجَابَ شَيْءٍ آخَرَ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ قَالَ قَدْ نُسِخَتْ عَنْكُمْ الْعَتِيرَةُ وَالْعَقِيقَةُ وَسَائِرُ الذَّبَائِحِ الَّتِي كَانَتْ تُفْعَلُ لَمْ تَكُنْ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى وُجُوبِ ذَبِيحَةٍ أُخْرَى ؟ فَلَيْسَ إذًا فِي قَوْلِهِ : " نَسَخَتْ الْأُضْحِيَّةُ كُلَّ ذَبِيحَةٍ كَانَتْ قَبْلَهَا " دَلَالَةٌ عَلَى وُجُوبِ الْأُضْحِيَّةِ ، وَإِنَّمَا فَائِدَةُ ذِكْرِ النَّسْخِ فِي

هَذَا الْمَوْضِعِ بِالْأُضْحِيَّةِ أَنَّهُ بَعْدَمَا نَدَبَنَا إلَى الْأُضْحِيَّةِ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ ذَبِيحَةٌ أُخْرَى وَاجِبَةٌ .

(106/528)

وَمِمَّا يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ نَفَى وُجُوبَهَا مَا حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا إبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ : حَدَّثَنَا مَنْدَلُ بْنُ عَلِيٍّ عَنْ أَبِي حُبَابٍ عَنْ

عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْأَضْحَى عَلَيَّ فَرِيضَةٌ وَهُوَ عَلَيْكُمْ سُنَّةٌ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَبُو عُثْمَانَ الْأُنْجَذَانِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ حَمَّادٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحِيمِ بْنُ سُلَيْمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحْرِزٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أُمِرْتُ بِالْأَضْحَى وَالْوِتْرِ وَلَمْ تُعْزَمْ عَلَيَّ ﴾ .

(107/528)

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ الْفَقِيهِ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَارِثِ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبَانُ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ ثَلَاثٌ هُنَّ عَلَيَّ فَرِيضَةٌ وَلَكُمْ تَطَوُّعٌ : الْأَضْحَى وَالْوِتْرُ وَالضُّحَى ﴾ فَفِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ عَلَيْنَا ، إلَّا أَنَّ الْأَخْبَارَ لَوْ تَعَارَضَتْ لَكَانَتْ الْأَخْبَارُ الْمُقْتَضِيَةُ لِلْإِيجَابِ أَوْلَى بِالِاسْتِعْمَالِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْإِيجَابَ طَارِئٌ عَلَى إبَاحَةِ التَّرْكِ ، وَالثَّانِي : أَنَّ فِيهِ حَظْرَ التَّرْكِ وَفِي نَفْيِهِ إبَاحَةُ التَّرْكِ ، وَالْحَظْرُ أَوْلَى مِنْ الْإِبَاحَةِ .

(108/528)

وَمِمَّا يُحْتَجُّ بِهِ فِي نَفْيِ الْوُجُوبِ مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ قَالَ : حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَيُّوبَ قَالَ : حَدَّثَنِي عَيَّاشُ الْقِتْبَانِيُّ عَنْ عِيسَى بْنِ هِلَالٍ الصَّدَفِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أُمِرْت بِيَوْمِ الْأَضْحَى عِيدًا جَعَلَهُ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فَقَالَ رَجُلٌ : أَرَأَيْت إنْ لَمْ أَجِدْ إلَّا مَنِيحَةً أُنْثَى أَفَأُضَحِّي بِهَا ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنْ تَأْخُذُ مِنْ شَعْرِك وَأَظْفَارِك وَتَقُصُّ شَارِبَك وَتَحْلِقُ عَانَتَك فَتِلْكَ تَمَامُ أُضْحِيَّتِك عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴾ فَلَمَّا جَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ بِمَنْزِلَةِ الْأُضْحِيَّةِ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْأُضْحِيَّةَ غَيْرُ وَاجِبَةٍ ؛ إذْ كَانَ فِعْلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ غَيْرَ وَاجِبٍ .

(109/528)

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنِي إبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى الرَّازِيّ قَالَ : حَدَّثَنَا عِيسَى قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ أَبِي عَيَّاشٍ عَنْ

جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : ﴿ ذَبَحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ النَّحْرِ كَبْشَيْنِ أَقْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ مُوجِئَيْنِ ، فَلَمَّا وَجَّهَهُمَا قَالَ : إِنِّي وَجَّهْت وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ ، إنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْت وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، اللَّهُمَّ مِنْك وَلَك عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ ، بِاسْمِ اللَّهِ وَاَللَّهُ أَكْبَرُ ثُمَّ ذَبَحَ ﴾ .

قَالُوا : فَفِي ذَبْحِهِ عَنْ الْأُمَّةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهَا غَيْرُ وَاجِبَةٍ ؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ وَاجِبَةً لَمْ تَجُزْ شَاةٌ عَنْ جَمِيعِ الْأُمَّةِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذَا لَا يَنْفِي الْوُجُوبَ ؛ لِأَنَّهُ تَطَوُّعٌ بِذَلِكَ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَتَطَوَّعَ عَمَّنْ قَدْ وَجَبَ عَلَيْهِ كَمَا يَتَطَوَّعُ الرَّجُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَلَا يُسْقِطُ ذَلِكَ عَنْهُ وُجُوبَ مَا يَلْزَمُهُ .

وَمِمَّا يَحْتَجُّ مَنْ نَفَى الْوُجُوبَ مَا قَدَّمْنَا رِوَايَتَهُ عَنْ السَّلَفِ مِنْ نَفْيِ

(110/528)

إِيجَابِهِ ، وَفِيهِ الدَّلَالَةُ مِنْ وَجْهَيْنِ عَلَى ذَلِكَ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ مِنْ أَحَدٍ مِنْ نُظَرَائِهِمْ مِنْ السَّلَفِ خِلَافُهُ ، وَقَدْ اسْتَفَاضَ عَمَّنْ ذَكَرْنَا قَوْلُهُمْ مِنْ السَّلَفِ نَفْيَ إِيجَابِهِ وَالثَّانِي : أَنَّهُ لَوْ كَانَ وَاجِبًا مَعَ عُمُومِ الْحَاجَةِ إلَيْهِ لَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مِنْ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوْقِيفٌ لِأَصْحَابِهِ عَلَى

وُجُوبِهِ ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَوَرَدَ النَّقْلُ بِهِ مُسْتَفِيضًا مُتَوَاتِرًا وَكَانَ لَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وُرُودُهُ فِي وَزْنِ وُرُودِ إيجَابِ صَدَقَةِ الْفِطْرِ لِعُمُومِ الْحَاجَةِ إلَيْهِ ، وَفِي عَدَمِ النَّقْلِ الْمُسْتَفِيضِ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى نَفْيِ الْوُجُوبِ .

وَيُحْتَجُّ فِيهِ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ وَاجِبًا وَهُوَ حَقٌّ فِي مَالٍ لَمَا اخْتَلَفَ حُكْمُ الْمُقِيمِ وَالْمُسَافِرِ فِيهِ كَصَدَقَةِ الْفِطْرِ ، فَلَمَّا لَمْ يُوجِبْهُ أَبُو حَنِيفَةَ عَلَى الْمُسَافِرِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ وَاجِبٍ .

وَيُحْتَجُّ فِيهِ أَيْضًا بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ وَاجِبًا وَهُوَ حَقٌّ فِي مَالٍ لَمَا أَسْقَطَهُ مُضِيُّ الْوَقْتِ ، فَلَمَّا اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّهُ يَسْقُطُ بِمُضِيِّ أَيَّامِ النَّحْرِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ وَاجِبٍ ؛ إذْ كَانَتْ سَائِرُ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ فِي الْأَمْوَالِ نَحْوُ الزَّكَاةِ وَصَدَقَةِ الْفِطْرِ وَالْعُشْرِ وَنَحْوُهَا لَا يُسْقِطُهَا مُضِيُّ الْأَوْقَاتِ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(111/528)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

فيه أربعة أوجه

: أحدها : أنه العيد ، قاله ابن قتيبة .

الثاني : أنها المواضع المعتادة لمناسك الحج والعمرة ، قاله الفراء .

الثالث : المذبح ، قاله الضحاك .

الرابع : المنسك الْمُتَعَبد والنسك العِبَادَة ومنه سمي العَابِدُ ناسكاً ، قاله الحسن . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(112/528)

وقال ابن عطية :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

و" المنسك " المصدر فهو بمعنى العبادة والشرعة ، وهو أيضاً موضع النسك ، وقرأت فرقة بفتح السين وفرقة بكسرها وقد تقدم القول فيه في هذه السورة ، وقوله ﴿ هم ناسكوه ﴾ يعطي أن المنسك المصدر ولو كان الموضع لقيل هم ناسكون فيه ، وروت فرقة أن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أمر الذبائح ، وقولهم للمؤمنين تأكلون ما ذبحتم فهو من قتلكم ولا تأكلون ما قتل الله من الميتة فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة ، وقوله ﴿ فلا ينازعنك ﴾ هذه البينة من الفعل والنهي تحتمل معنى التخويف ، وتحتمل معنى احتقار الفاعل وأنه أقل من أَن يفاعل وهذا هو المعنى في هذه الآية ، وقال أبو إسحاق : المعنى فلا تنازعهم

فينازعوك ع وهذا التقدير الذي قدر إنما يحسن مع معنى التخويف ، وإنما يحسن أن يقدر هنا فلا يد لهم بمنازعتك ، فالنهي إنما يراد به معنى من غير اللفظ ، كما يراد في قولهم لا أرينك ها هنا أي لا تكن ها هنا ، وقرأت فرقة " فلا ينزعنَّك " ، وقوله ﴿ في الأمر ﴾ معناه على التأويل أَن المنسك الشرعة لا ينازعنك في الدين والكتاب ونحوه ، وعلى أَن المنسك موضع الذبح على ما روت الفرقة المذكورة من أن الآية نزلت في الذبائح يكون الأمر الذبح ، و" الهدى " في هذه الآية الإرشاد ، وقوله ﴿ وإن جادلوك ﴾ الآية موادعة محضة نسختها آية السيف ، وباقي الآية وعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(113/528)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لكلِّ أُمَّة جعلنا مَنْسَكاً ﴾

قد سبق بيانه في هذه السورة [الحج : 34] ﴿ فلا يُنَازِعُنَّكَ في الأمر ﴾ أي : في الذبائح ، وذلك أن كفار قريش وخزاعة خاصموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الذبيحة ، فقالوا : كيف تأكلون ما قتَلتم ولا تأكلون ما قتله الله ؟ ! يعنون : الميتة .

فإن قيل : إِذا كانوا هم المنازعين له ، فكيف قيل : "فلا يُنَازِعُنَّكَ في الأمر" ؟

فقد أجاب عنه الزجاج، فقال: المراد: النهي له عن منازعتهم، فالمعنى: لا تنازعنَّهم، كما تقول للرجل: لا يخاصمنَّك فلان في هذا أبداً، وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون إلا من اثنين، لأن المجادلة والمخاصمة لا تتم إلا باثنين، فإذا قلت: لا يجادلنَّك فلان، فهو بمنزلة: لا تجادلنَّه، ولا يجوز هذا في قولك: لا يضربنَّك فلان وأنت تريد: لا تضربنَّه، [ولكن] لو قلت: لا يضاربنَّك فلان، لكان كقولك: لا تضاربنَّ، ويدل على هذا الجواب قوله: ﴿ وإن جادلوك ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وادع إلى ربّك ﴾ أي: إلى دينه والإيمان به.

و"جادلوك" بمعنى: خاصموك في أمر الذبائح، ﴿ فقل الله أعلمُ بما تعملون ﴾ من التكذيب، فهو يجازيكم به.

﴿ الله يحكم بينكم يوم القيامة ﴾ أي: يقضي بينكم ﴿ فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ من الدِّين، أي: تذهبون إلى خلاف ما ذهب إليه المؤمنون؛ وهذا أدب حسن علَّمه الله عباده ليردُّوا به مَن جادل على سبيل التعنُّت، ولا يجيبوه، ولا يناظروه.

فصل

قال أكثر المفسرين: هذا نزل قبل الأمر بالقتال، ثم نسخ بآية السيف.

وقال بعضهم: هذا نزل في حق المنافقين، كانت تظهر من أقوالهم وأفعالهم فلَتات تدل على

شركهم ، ثم يجادِلون على ذلك ، فوكل أمرهم إلى الله تعالى ، فالآية على هذا محكمة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(114/528)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً ﴾ أي شرعا .

﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ أي عاملون به .

﴿ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأمر ﴾ أي لا ينازعنك أحد منهم فيما يُشرع لأمتك ؛ فقد كانت الشرائع في كل عصر .

وروت فرقة أن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أمر الذبائح ، وقولهم للمؤمنين : تأكلون ما ذبحتم ولا تأكلون ما ذبح الله من الميتة ، فكان ما قتل الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم بسكاكينكم ؛ فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة .

وقد مضى هذا في "الأنعام" والحمد لله .

وقد تقدم في هذه السورة ما للعلماء في قوله تعالى : ﴿ مَنسَكاً ﴾ .

وقوله : ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ يعطي أن المَنْسك المصدر ، ولو كان الموضع لقال هم ناسكون

فيه .

وقال الزجاج : "فلا يُنَازِعُنَّك في الأمر" أي فلا يجادلنّك ؛ ودلّ على هذا "وإن جَادَلُوكَ" .

ويقال : قد نازعوه فكيف قال فلا ينازعنك ؛ فالجواب أن المعنى فلا تنازعهم أنت .

نزلت الآية قبل الأمر بالقتال ، تقول : لا يضاربنك فلان فلا تضاربه أنت ؛ فيجري هذا في باب المفاعلة .

ولا يقال : لا يضربنك زيد وأنت تريد لا تضرب زيداً .

وقرأ أبو مِجْلَز "فلا يَنْزِعنّك في الأمر" أي لا يستخفنَّك ولا يغلبنك عن دينك .

وقراءة الجماعة من المنازعة .

ولفظ النهي في القراءتين للكفار ، والمراد النبيّ صلى الله عليه وسلم .

﴿ وادعُ إلى ربِّكَ ﴾ أي إلى توحيده ودينه والإيمان به .

﴿ إِنَّكَ لعلى هُدًى ﴾ أي دين .

﴿ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي قويم لا اعوجاج فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَادَلُوكَ ﴾ أي خاصموك يا محمد ؛ يريد مشركي مكة .

﴿ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يريد مِن تكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ عن ابن عباس .

وقال مُقاتل : هذه الآية نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وهو في السماء السابعة لما رأى من آيات ربّه الكبرى ؛ فأوحى الله إليه "وإنْ جادلوك" بالباطل فدافعهم بقولك "الله أعلم بما تعملون" من الكفر والتكذيب ؛ فأمره الله تعالى بالإعراض عن مماراتهم صيانةً له عن الاشتغال بتعنّتهم ؛ ولا جواب لصاحب العِناد .

﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ يريد بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وقومِه .

﴿ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ يريد في خلافكم آياتي ، فتعرفون حينئذٍ الحق من الباطل .

مسألة : في هذه الآية أدبٌ حَسَنٌ علّمه الله عبادَه في الردّ على من جادل تعنُّتاً ومِراء ألا يجاب ولا يناظر ويُدفع بهذا القول الذي علمه الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم .

وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة بالسيف ؛ يعني السكوت عن مخالِفه والاكتفاء بقوله : ﴿ الله يحكم بينكم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(116/528)

وقال أبو حيان :

﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً ﴾

روي أنها نزلت بسبب جدال الكفار بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهما في الذبائح وقولهم للمؤمنين : تأكلون ما ذبحتم وهو من قتلكم ، ولا تأكلون ما قتل الله فنزلت بسبب هذه المنازعة .

وقال ابن عطية ﴿ هم ناسكوه ﴾ يعطى أن المنسك المصدر ولو كان الموضع لقال هم ناسكون فيه انتهى .

ولا يتعين ما قال إذ قد يتسع في معمول اسم الفاعل كما يتسع في معمول الفعل فهو موضع اتسع فيه فأجرى مجرى المفعول به على السعة ، ومن الاتساع في ظرف المكان قوله :

ومشرب أشربه رسيل . . .

لا آجن الماء ولا وبيل

مشرب مكان الشرب عاد عليه الضمير ، وكان أصله أشرب فيه فاتسع فيه فتعدى الفعل إلى ضميره ومن الاتساع سير بزيد فرسخان .

وقرىء ﴿ فلا ينازعنك ﴾ بالنون الخفيفة أي أثبت على دينك ثباتاً لا يطمعون أن يجذبوك ، ومثله ﴿ ولا يصدنك عن آيات الله ﴾ وهذا النهي لهم عن المنازعة من باب لا أرينك ههنا ، والمعنى فلا بد لهم بمنازعتك فينازعوك .

وقرأ أبو مجلز ﴿ فلا ينازعنك ﴾ من النزع بمعنى فلا يقلعنك فيحملونك من دينك إلى أديانهم من نزعته من كذا و ﴿ الأمر ﴾ هنا الدين ، وما جئت به وعلى ما روي في سبب

النزول يكون ﴿ في الأمر ﴾ بمعنى في الذبح ﴿ لعلى هدى ﴾ أي إرشاد .

وجاء و﴿ لكل أمة ﴾ بالواو وهنا ﴿ لكل أمة ﴾ لأن تلك وقعت مع ما يدانها ويناسبها من الآي الوارادة في أمر النسائك فعطفت على أخواتها ، وأما هذه فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفاً قاله الزمخشري .

(117/528)

﴿ وإن جادلوك ﴾ آية موادعة نسختها آية السيف أي وإن أبوا للجاجهم إلاّ المجادلة بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع فادفعهم بأن الله أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء ، وهذا وعيد وإنذار ولكن برفق ولين ﴿ الله يحكم بينكم ﴾ خطاب من الله للمؤمنين والكافرين أي يفصل بينكم بالثواب والعقاب ، ومسلاة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بما كان يلقى منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(118/528)

وقال أبو السعود :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ كلام مستأنف جِيء به لزجر معاصريه عليه السَّلامُ من أهل الأديان السَّماويةِ عن منازعته عليه السَّلامُ ببيان حالِ ما تمسكوا به من الشَّرائع وإظهارِ خطئِهم في النَّظرِ أي لكلِّ أمةٍ معيَّنةٍ من الأممِ الخاليةِ والباقيةِ ﴿ جَعَلْنَا ﴾ أي وضعنَا وعيَّنا ﴿ مَنسَكًا ﴾ أي شريعةً خاصَّةً لا لأمةٍ أُخرى منهم على معنى عيَّنا كلَّ شريعةٍ لأمةٍ معيَّنةٍ من الأمم بحيث لا تتخطَّى أمةٌ منهم شريعتَها المعيَّنةَ لها إلى شريعةٍ أُخرى لا استقلالاً ولا اشتراكاً . وقوله تعالى : ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ صفة لمَنْسكاً مؤكِّدةٌ للقصر المستفادِ من تقديم الجارِّ والمجرور على الفعل ، والضَّميرُ لكلِّ أمةٍ باعتبار خصُوصها أي تلك الأُمَّةُ المعيَّنةُ ناسكوه والعاملون به لا أمةٌ أُخرى فالأمةُ التي كانت من مبعث مُوسى عليه السَّلامُ إلى مبعث عيسَى عليه السَّلامُ منسَكُهم التَّوراةُ هم ناسكوها والعاملونَ بها لا غيرُهم والتي كانت من مَبعثِ عيسى إلى مبعثِ النبيِّ عليهما السَّلامُ منسكُهم الإنجيلُ هم ناسكُوه والعاملون به لا غيرُهم وأما الأمَّةُ الموجودةُ عند مبعثِ النبيِّ عليه السَّلامُ ومن بعدهم من الموجودينَ إلى يومِ القيامةِ فهُم أمةٌ واحدةٌ منسكهم الفرقانُ ليس إلاَّ كما مرَّ في تفسيرِ قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً ومنهاجا ﴾ والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ ينازعنك فِى الأمر ﴾ لترتيبِ النَّهيِ أو موجبه على ما قبلها فإنَّ تعيينَه تعالى لكُلِّ أُمَّةٍ من الأمم التي من جُملتهم هذه الأمةُ شريعةً مستقلَّةً بحيث لا تتخطَّى أُمَّةٌ منهم شريعتَها المعيَّنةَ لها

موجبٌ لطاعةِ هؤلاء لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم وعدمِ منازعتِهم إيَّاهُ في أمرِ الدِّينِ زعماً منهم أنَّ شريعتَهم ما عُيِّن لآبائِهم الأوَّلينَ من التَّوراةِ والإنجيلِ فإنَّهما شريعتانِ لمن مَضَى من الأمم قبل انتساخِها

(119/528)

وهؤلاء أمةٌ مستقلَّةٌ منسكهم القرآنُ المجيد فحسب ، والنَّهيُ إمَّا على حقيقتِه أو كنايةٌ عن نهيِه عليه السَّلامُ عن الالتفات إلى نزاعهم المنبىءِ على زعمهم المذكورِ ، وأما جعله عبارةً عن نهيِه عليه السَّلامُ عن منازعتهم فلا يساعدُه المقامُ . وقُرِىء فلا ينزعنَّك على تهييجه عليه السَّلامُ والمبالغةِ في تثبيتِه ، وأيًّا ما كان فمحلُّ النِّزاعِ ما ذكرناهُ وتخصيصُه بأمر النَّاسكِ وجعلُه عبارةً عن قول الخُزاعيين وغيرِهم للمسلمينَ : ما لكم تأكُلون ما قتلتُم ولا تأكُلون ما قتَله الله تعالى ممَّا لا سبيلَ إليهِ أصلاً كيف لا وأنَّه يستدعِي أن يكونَ أكلُ الميتةِ وسائرُ ما يدينونَه من الأباطيلِ من جملة المناسكِ التي جعلها الله تعالى لبعضِ الأُممِ ولا يرتابُ في بُطلانِه عاقلٌ . ﴿ وادع ﴾ أي وادعُهم أو وادعُ النَّاسَ كافَّةً على أنَّهم داخلون فيهم دُخولاً أوليًّا ﴿ إلى ربِّكَ ﴾ إلى توحيدِه وعبادتِه حسبما بُيِّن لهم في منسكِهم وشريعتِهم ﴿ إنَّكَ لعلى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي طريقٍ موصِّلٍ إلى الحقِّ سويٍّ ، والمرادُ به إما الدِّينُ والشَّريعةُ أو

أدلَّتُهما .

﴿ وَإِن جادلوك ﴾ بعد ظهورِ الحقّ بما ذُكر من التَّحقيق ولزومِ الحُجَّةِ عليهم ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم على سبيل الوعيدِ ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأباطيلِ التي من جُملتها المجادلةُ . ﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ يفصل بين المؤمنين منكُم والكافرينَ ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ بالثَّوابِ والعقابِ كما فصَل في الدُّنيا بالحججِ والآياتِ ﴿ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمرِ الدِّينِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(120/528)

وقال الآلوسى :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ كلام مستأنف جىء به لزجر معاصريه عليه الصلاة والسلام من أهل الأديان السماوية عن منازعته عليه الصلاة والسلام ببيان حال ما تمسكوا به من الشرائع وإظهار خطئهم في النظر أي لكل أمة معينة من الأمم الخالية والباقية ﴿ جَعَلْنَا ﴾ وضعنا وعيناً ﴿ مَنسَكًا ﴾ أي شريعة خاصة ، وتقديم الجار والمجرور على الفعل للقصر لا لأمة أخرى منهم ، والكلام نظير قولك لكل من فاطمة وزينب وهند وحفصة أعطيت ثوباً خاصاً إذا كنت أعطيت فاطمة ثوباً أحمر وزينب ثوباً أصفر وهنداً ثوباً أسود وحفصة

ثوباً أبيض فإنه بمعنى لفاطمة أعطيت ثوباً أحمر لا لأخرى من أخواتها ولزينب أعطيت ثوباً أصفر لا لأخرى منهن وهكذا ، وحاصل المعنى هنا عينا كل شريعة لأمة معينة من الأمم بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى لا استقلالاً ولا اشتراكاً ، وقوله تعالى : ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ صفة لمنسكاً مؤكدة للقصر ، والضمير لكل أمة باعتبار خصوصها أي تلك الأمة المعينة ناسكون به وعاملون لا أمة أخرى ؛ فالأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام منسكهم ما في التوراة هم عاملون به لا غيرهم ، وأما الأمة الموجودة عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم من الموجودين إلى يوم القيامة فهم أمة واحدة منسكهم ما في القرآن ليس إلا ، والفاء في قوله سبحانه : ﴿ فَلاَ ينازعنك فِى الأمر ﴾ أي أمر الدين لترتيب النهي على ما قبلها فإن تعيينه تعالى لكل أمة من الأمم التي من جملتها أمته عليه الصلاة والسلام شريعة مستقلة بحيث لا تتخطى أمة منهم ما عين لها موجب لطاعة هؤلاء له صلى الله عليه وسلم وعدم منازعتهم إياه في أمر الدين زعماً منهم أن شريعتهم ما عين لآبائهم مما في التوراة والإنجيل فإن ذلك شريعة لمن مضى قبل انتساخه وهؤلاء أمة مستقلة شريعتهم ما في القرآن فحسب ، والظاهر أن المراد نهيهم حقيقة عن النزاع في ذلك .

(121/528)

واختار بعضهم كونه كناية عن نهيه صلى الله عليه وسلم عن الالتفات إلى نزاعهم المبني على زعمهم المذكور لأنه أنسب بقوله تعالى الآتي ﴿ وادع ﴾ الخ ، وأمر الأنسبية عليه ظاهر إلا أنه في نفسه خلاف الظاهر ، وقال الزجاج : هو نهي له عليه الصلاة والسلام عن منازعتهم كما تقول : لا يضاربنك زيد أي لا تضاربنه وذلك بطريق الكناية ، وهذا إنما يجوز على ما قيل وبحث فيه في باب المفاعلة للتلازم فلا يجوز في مثل لا يضربنك زيد أن تريد لا تضربنه .

وتعقب بأنه لا يساعده المقام .

وقرىء ﴿ فَلاَ ينازعنك ﴾ بالنون الخفيفة .

وقرأ أبو مجلز .

ولاحق بن حميد ﴿ فَلاَ ينازعنك ﴾ بكسر الزاي على أنه من النزع بمعنى الجذب كما في "البحر" ، والمعنى كما قال ابن جني فلا يستخفنك عن دينك إلى أديانهم فتكون بصورة المنزوع عن شيء إلى غيره .

وفي "الكشاف" أن المعنى أثبت في دينك ثباتاً لا يطمعون أن يجذبوك ليزيلوك عنه ، والمراد زيادة التثبيت له عليه الصلاة والسلام بما يهيج حميته ويلهب غضبه لله تعالى ولدينه ومثله كثير في القرآن .

وقال الزجاج : هو من نازعته فنزعته أنزعه أي غلبته ، فالمعنى لا يغلبنك في المنازعة والمراد بها منازعة الجدال يعني أن ذلك من باب المغالبة ، لكن أنت تعلم أنها عند الجمهور تقال في كل فعل فاعلته ففعلته أفعله بضم العين ولا تكسر إلا شذوذاً ، وزعم الكسائي ورده العلماء أن ما كان عينه أو لامه حرف حلق لا يضم بل يترك على ما كان عليه فيكون ما هنا على توجيه الزجاج شاذاً عند الجمهور .

(122/528)

وقال سيبويه : كما في "المفصل" وليس في كل شيء يكون هذا أي باب المغالبة ألا ترى أنك تقول : نازعني فنزعته استغنى عنه بغلبته ، ثم إن المراد من لا يغلبنك في المنازعة لا تقصر في منازعتهم حتى يغلبوك فيها ، وفيه مبالغة في التثبيت فليس هناك نهي له صلى الله عليه وسلم عن فعل غيره ، هذا وما ذكرنا من تفسير المنسك بالشريعة هو رواية عطاء عن ابن عباس واختاره القفال ، وقال الإمام : هو الأقرب ، وقيل : هو مصدر بمعنى النسك أي العبادة ، قال ابن عطية : يعطي ذلك ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ وقيل : هو اسم زمان ، وقيل : اسم مكان ، وكان الظاهر ناسكون فيه إلا أنه اتسع في ذلك ، وقال مجاهد : هو الذبح . وأخرج ذلك الحاكم وصححه .

والبيهقي في الشعب عن علي بن الحسن رضي الله تعالى عنهما ؛ وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وعبد بن حميد عن عكرمة ، وجعل ضمير ﴿ ينازعنك ﴾ للمشركين ، والأمر المتنازع فيه أمر الذبائح لما ذكر من أن الآية نزلت بسبب قول الخزاعيين بديل بن ورقاء .

وبشر بن سفيان .

ويزيد بن خنيس للمؤمنين ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله تعالى .

ومنهم من اقتصر على جعل محل النزاع أمر النسائك وجعله عبارة عن قول الخزاعيين المذكور .

وتعقبه شيخ الإسلام بأنه مما لا سبيل إليه أصلاً كيف لا وأنه يستدعي أن يكون أكل الميتة وسائر ما يدين به المشركون من الأباطيل من المناسك التي جعلها الله تعالى لبعض الأمم ولا يرتاب في بطلانه عاقل .

وأجيب بأن المعنى عليه لا ينازعنك المشركون في أمر النسائك فإنه لكل أمة شريعة شرعناها وأعلمناك بها فكيف ينازعون بما ليس له عين ولا أثر فيها ، وقيل : المعنى عليه لا تلتفت إلى نزاع المشركين في أمر الذبائح فإنا جعلنا لكل أمة من أهل الأديان ذبحاهم ذابحوه .

وحاصله لا تلتفت إلى ذلك فإن الذبح شرع قديم للأمم غير مختص بأمتك وهذا مما لا شك في صحته ، ومن قال بصحة الآثار وعض عليها بالنواجذ لا يكاد يجد أولى منه في بيان حاصل الآية على ما تقتضيه ، ومن لم يكن كذلك ورأى أن الآية متى احتملت معنى جزلاً لا محذور فيه قيل به وإن لم يذكره أحد من السلف فعليه بما ذكرناه أولاً في تفسير الآية ، وأياً ما كان فالظاهر أنه إنما لم تعطف هذه الجملة كما عطف قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ﴾ [الحج : 34] الخ لضعف الجامع بينها وبين ما تقدمها من الآيات بخلاف ذلك .

وفي "الكشف" بياناً لكلام الكشاف في توجيه العطف هناك وتركه هنا أن الجامع هناك قوي مقتض للعطف فإن قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا ﴾ [الحج : 33] أي في الشعائر منافع دينية ودنيوية كوجوب نحرها منتهية إلى البيت العتيق كالإعادة لما في قوله تعالى : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ منافع لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسم الله فِى أَيَّامٍ معلومات ﴾ [الحج : 28] إلا أن فيه تخصيصاً بالمخاطبين فعطف عليه ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ [الحج : 34] للذكر لتتم الإعادة والغرض من هذا الأسلوب أن يبين أنه شرع قديم وأنه لم يزل متضمناً لمنافع جليلة في الدارين ، وأما فيما نحن فيه فأين حديث النسائك من حديث تعداد الآيات والنعم الدالة على كمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة ، ولعمري أن شرعية النسائك لكل

أمة وإن كانت من الرحمة والنعمة لكن النظر إلى المجانسة بين النعم وما سيق له الكلام فالحالة مقتضية للقطع ، وذكره ههنا لهذه المناسبة على نحو خفي ضيق اه ، وهو حسن وظاهره تفسير النسك بالذبح .

وذكر الطيبي أن ما تقدم عطف على قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شعائر الله ﴾ [الحج : 32] الخ وهو من تتمة الكلام مع المؤمنين أي الأمر ذلك والمطلوب تعظيم شعائر الله تعالى وليس هذا مما يختص بكم إذ كل أمة مخصوصة بنسك وعبادة .

(124/528)

وهذه الآية مقدمة نهى النبي صلى الله عليه وسلم عما يوجب نزاع القوم تسلية له وتعظيم لأمره حيث جعل أمره منسكاً ودينا يعني شأنك وشأن أمثالك من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ترك المنازعة مع الجهال وتمكينهم من المناظرة المؤدية إلى النزاع وملازمة الدعوة إلى التوحيد أو لكل أمة من الأمم الخالية المعاندة جعلنا طريقاً ودينا هم ناسكوه فلا ينازعنك هؤلاء المجادلة .

سمي دأبهم نسكاً لإيجابهم ذلك على أنفسهم واستمرارهم عليه تهكماً بهم ومسلاة لرسوله صلى الله عليه وسلم مما كان يلقى منهم ، وأما اتصاله بما سبق من الآيات فإن قوله

تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ [الحج : 55] يوجب القلع عن إنذار القوم والإياس منهم ومتاركتهم والآيات المتخللة كالتأكيد لمعنى التسلية فجيء بقوله تعالى :

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ ينازعنك ﴾ تحريضاً له عليه الصلاة والسلام على التأسي بالأنبياء السالفة في متاركة القوم والإمساك عن مجادلتهم بعد الإياس من إيمانهم وينصره قوله تعالى :

﴿ الله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ [الحج : 69] فالربط على طريقة الاستئناف وهو أقوى من الربط اللفظي .

والذي يدور عليه قطب هذه السورة الكريمة الكلام في مجادلة القوم ومعانديهم والنعي عليهم بشدة شكيمتهم ألا ترى كيف افتتحها بقوله سبحانه : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يجادل فِى الله ﴾ [الحج : 3] وكررها وجعلها أصلاً للمعنى المهتم به وكلما شرع في أمر كرإليه تثبيتاً لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم ومسلاة لصدره الشريف عليه الصلاة والسلام فلا يقال : إن هذه الآية واقعة مع أباعد عن معناها انتهى ، ولعمري أنه أبعد عن ربوع التحقيق وفسر الآية الكريمة بما لا يليق .

(125/528)

وقد تعقب في "الكشف" اتصاله بما ذكر بأنه لا وجه له فقد تخلل ما لا يصلح لتأكيد معنى التسلية المذكورة أعني قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ ﴾ [الحج : 60] الآيات لا سيما على ما آثره من جعلها في المقاتلين في الشهر الحرام ولو سلم فلا مدخل للاستئناف وهو تمهيد لما بعده أعني قوله تعالى : ﴿ فَلاَ ينازعنك ﴾ الخ ، وأما قوله والذي يدور عليه الخ فهو مسلم وهو عليه لا له فتأمل والله تعالى الموفق للصواب .

﴿ وادع ﴾ أي وادع هؤلاء المنازعين أو الناس كافة على أنهم داخلون فيهم دخولاً أولياً ﴿ إلى ربّكَ ﴾ إلى توحيده وعبادته حسبما بين في منسكهم وشريعتهم ﴿ إِنَّكَ لعلى هُدًى ﴾ أي طريق موصل إلى الحق ففيه استعارة مكنية وتخييليتها على ، وقوله تعالى : ﴿ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي سوي أو أحدهما تخييل والآخر ترشيح ، ثم المراد بهذا الطريق إما الدين والشريعة أو أدلتها ، والجملة استئناف في موضوع التعليل .

﴿ وَإِن جادلوك ﴾ في أمر الدين وقد ظهر الحق ولزمت الحجة ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم على سبيل الوعيد ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأباطيل التي من جملتها المجادلة فمجازيكم عليها ، وهذا إن أريد به الموادعة كما جزم به أبو حيان فهو منسوخ بآية القتال .

﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ تسلية له صلى الله عليه وسلم ؛ والخطاب عام للفريقين المؤمنين والكافرين وليس مخصوصاً بالكافرين كالذي قبله ولا داخلاً في حيز القول ، وجوز أن يكون داخلاً فيه على التغليب أي الله يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين ﴿ يَوْمَ القيامة ﴾

بالثواب والعقاب كما فصل في الدنيا بثبوت حجج الحق دون المبطل ﴿ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أي من أمر الدين ، وقيل الجدال والاختلاف في أمر الذبائح ، ومعنى الاختلاف ذهاب كل إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(126/528)

وقال القاسمى :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا ﴾

أي : وضعنا : ﴿ مَنْسَكاً ﴾ أي : شريعة ومتعبداً : ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ﴾ أي : في ذلك الجعل والوضع والحوار في تنوعه في كل أمة ، وعدم وحدته ، أو في أمر ما جئتهم به ، زعما بأنه يستغني عنه بما شرع قبله . لأنه جهل بحكمته تعالى في تكوين الأمم وتربيتها بالشرائع المناسبة لزمنها ومكانها ، وحياتها ومنشئها . ولذلك كانت هذه الشريعة أهدى الشرائع للامتنان بها ، حينما بلغ الإنسان أعلى طور الرشد ولذلك وجبت الدعوة إليها خاصة كما قال سبحانه : ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي : اثبت على دينك ثباتاً لا يطمعون أن يخدعوك عنه . أو معناه : ثابر على الدعوة إلى ما

أمرت به . فلا تضرك منازعتهم . وعلى الكل اتباعك وعدم مخالفتك ، لاستقرار الأمر على شرعتك . لأنها الطريق القويم .

هذا ، وقال ابن جرير : أصل المنسك في كلام العرب ، الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه ، لخير أو شر . يقال : إن لفلان منسكاً يعتاده , يراد مكاناً يغشاه ويألفه لخير أو شر . وقد اختلف أهل التأويل في معنى النسك هنا ، فقيل : عيداً . وقيل : إراقة الدم ثم استظهر أن المعنى إراقة الدم أيام النحر بمنى . لأن المناسك التي كان المشركون جادلوا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانت إراقة الدم في هذه الأيام ، أي : فلا ينازعك هؤلاء المشركون في ذبحك ومنسكك بقولهم : أتأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون الميتة التي قتلها الله) ؟ انتهى .

(127/528)

وعليه ، فيكون المراد بالجعل في قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا ﴾ الجعل القدريّ لا التشريعيّ . كما قال : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة : 148 [في المطبوع : 48]] ، أي : هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته . فلا تتأثر بمنازعتهم لك ، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ

إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ [القصص : 87] ، أشار له ابن كثير . ونقل الرازيّ عن ابن عباس ، في رواية عطاء ، أن المراد بالمنسك : الشريعة المنهاج . قال : وهو اختيار القفال ، لقوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة : 48] ، وهو الذي آثرناه أولاً لظهوره فيه . والله أعلم .

﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : من أمر الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 287 . 288 ﴾

(128/528)

وقال ابن عاشور :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

هذا متصل في المعنى بقوله : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم ﴾ [الحج : 34] الآية .

وقد فُصل بين الكلامين ما اقتضى الحال استطراده من قوله : ﴿ وبشر المحسنين إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ [الحج : 3738] إلى هنا ، فعاد الكلام إلى الغرض الذي في قوله

: ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله ﴾ [الحج : 34] الآية ليبنى عليه قوله : ﴿ فلا ينازعنك في الأمر ﴾ .

فهذا استدلال على توحيد الله تعالى بما سبق من الشرائع لقصد إبطال تعدد الآلهة ، بأن الله ما جعل لأهل كلّ ملة سبقت إلا مَنسكاً واحداً يتقرّبون فيه إلى الله لأنّ المتقرّب إليه واحد .

وقد جعل المشركون مناسك كثيرة فلكلّ صنم بيت يذبح فيه مثل الغبغب للعُزّى ، قال النّابغة:

وما هُريق على الأنصاب من جَسَد . . . . . .

(أي دم) .

وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكُروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا ﴾ [الحج : 34] كما تقدم آنفاً .

فالجملة استئناف .

والمناسبة ظاهرة ولذلك فُصلت الجملة ولم تعْطف كما عطفت نظيرتها المتقدمة .

والمنسَك بفتح الميم وفتح السين : اسم مكان النّسُك بضمهما كما تقدّم .

وأصل النُّسك العبادة ويطلق على القربان ، فالمراد بالنسك هنا مواضع الحج بخلاف المراد به في الآية السابقة فهو موضع القربان .

والضمير في ﴿ ناسكوه ﴾ منصوب على نزع الخافض ، أي ناسكون فيه .

وفي "الموطأ" : "أن قريشاً كانت تقف عند المَشعر الحرام بالمزدلفة بقُزح ، وكانت العرب وغيرهم يقفون بعَرفة فكانوا يتجادلون يقول هؤلاء : نحن أصوب ، ويقول هؤلاء : نحن أصوب ، فقال الله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ﴾ الآية ، فهذا الجدال فيما نرى والله أعلم وقد سمعت ذلك من أهل العلم أ هـ .

(129/528)

قال الباجي في "المنتقى" : "وهو قول ربيعة" .

وهذا يقتضي أن أصحاب هذا التفسير يرون الآية قد نزلت بعد فرض الحج في الإسلام وقبل أن يمنع المشركون منه ، أي نزلت في سنة تسع ، والأظهر خلافه كما تقدم في أول السورة .

وفرّع على هذا الاستدلال أنهم لم تبق لهم حجة ينازعون بها النبي صلى الله عليه وسلم في شأن التوحيد بعد شهادة الملل السابقة كلها ، فالنهي ظاهره موجّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأن ما أعطيه من الحجج كافٍ في قطع منازعة معارضيه ، فالمعارضون هم المقصود بالنهي ، ولكن لما كان سبب نهيهم هو ما عند الرسول صلى الله عليه وسلم من

الحجج وُجه إليه النهي عن منازعتهم إياه كأنه قيل : فلا تترك لهم ما ينازعونك به ، وهو من باب قول العرب : لا أعْرِفَنّك تفعل كذا ، أي لا تَفْعل فأعرِفك ، فجعل المتكلم النهي موجهاً إلى نفسه ، والمراد نهي السامع عن أسبابه ، وهو نهي للغير بطريق الكناية .

وقال الزجاج : هو نهي للرسول عن منازعتهم لأن صيغة المفاعلة تقتضي حصول الفعل من جانبي فاعله ومفعوله ، فيصحّ نهي كل من الجانبين عنه .

وإنما أسند الفعل هنا لضمير المشركين مبالغة في نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن منازعته إياهم التي تفضي إلى منازعتهم إياه فيكون النهي عن منازعته إياهم كإثبات الشيء بدليله .

وحاصل معنى هذا الوجه أنه أمر للرسول بالإعراض عن مجادلتهم بعد ما سيق لهم من الحجج .

واسم ﴿ الأمر ﴾ هنا مجمل مراد به التوحيدُ بالقرينة ، ويحتمل أن المشركين كانوا ينازعون في كونهم على ضلال بأنهم على ملّة إبراهيم وأن النبي صلى الله عليه وسلم قرر الحَجّ الذي هو من مناسكهم ، فجعلوا ذلك ذريعة إلى ادعاء أنهم على الحق وملّة إبراهيم ، فكان قوله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ﴾ كشفاً لشبهتهم بأن الحج منسك حقّ ، وهو رمز التوحيد ، وأن ما عداه باطل طارىء عليه فلا ينازعُنّ في أمر الحجّ بعد هذا .

وهذا المحمل هو المناسب لتناسق الضمائر العائدة على المشركين مما تقدم إلى قوله ﴿ وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾ [الحج : 72] ، ولأن هذه السورة نزل بعضها بمكة في آخر مُقام النبي صلى الله عليه وسلم بها وبالمدينة في أول مُقامه بها فلا منازعة بين النبي وبين أهل الكتاب يومئذ ، فيبعد تفسيرُ المنازعة بمنازعة أهل الكتاب .

وقوله ﴿ وادع إلى ربك ﴾ عطف على جملة ﴿ فلا ينازعنك في الأمر ﴾ .

عطف على انتهاء المنازعة في الدين أمرٌ بالدوام على الدعوة وعدم الاكتفاء بظهور الحجّة لأن المُكابرة تجافي الاقتناع ، ولأنّ في الدوام على الدعوة فوائد للناس أجمعين ، وفي حذف مفعول ﴿ ادع ﴾ إيذان بالتعميم .

وجملة ﴿ إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ تعليل للدوام على الدعوة وأنها قائمة مقام فاء التعليل لا لردّ الشك .

و﴿ على ﴾ مستعارة للتمكن من الهدى .

ووصف الهدى بالمستقيم استعارة مكنية ؛ شبه الهُدى بالطريق الموصل إلى المطلوب ورُمز إليه بالمستقيم لأن المستقيم أسرع إيصالاً ، فدين الإسلام أيسر الشرائع في الإيصال إلى الكمال النفساني الذي هو غاية الأديان .

وفي هذا الخبر تثبيت للنبيء صلى الله عليه وسلم وتجديد لنشاطه في الاضطلاع بأعباء

الدعوة .

﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68) ﴾

عطف على جملة ﴿ فلا ينازعنك في الأمر ﴾ [الحج : 67] .

والمعنى : إن تبيّن عدم اقتناعهم بالأدلة التي تقطع المنازعة وأبوا إلا دوام المجادلة تشغيباً واستهزاء فقل : الله أعلم بما تعملون .

وفي قوله : ﴿ الله أعلم بما تعملون ﴾ تفويض أمرهم إلى الله تعالى ، وهو كناية عن قطع المجادلة معهم ، وإدماج بتعريض بالوعيد والإنذار بكلام موجّه صالح لما يتظاهرون به من تطلب الحجّة : ولما في نفوسهم من إبطان العناد كقوله تعالى : ﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ [السجدة : 30] .

(131/528)

والمراد بـ ﴿ ما تعملون ﴾ ما يعملونه من أنواع المعارضة والمجادلة بالباطل ليُدحضوا به الحق وغير ذلك .

وجملة ﴿ الله يحكم بينكم يوم القيامة ﴾ كلام مستأنف ليس من المقول ، فهو خطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم وليس خطاباً للمشركين بقرينة قوله ﴿ بينكم .

﴿ والمقصود تأييد الرسول والمؤمنين .

وما كانوا فيه يختلفون : هو ما عبر عنه بالأمر في قوله ﴿ فلا ينازعنك في الأمر ﴾ [الحج : 67] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(132/528)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ .

الأظهر في معنى قوله ﴿ مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ أي متعبداً مهم متعبدون فيه ، لأن أصل النسك التعبد وقد بين تعالى أن منسك كل أمة فيه التقرب إلى الله بالذبح ، فهو فرد من أفراد النسك صرح القرآن بدخوله في عمومه . وذلك من أنواع البيان الذي تضمنها هذا الكتاب المبارك .

والآية التي بين الله فيها ذلك هي قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِّيَذْكُرُواْ اسم الله على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام فإلهكم إله وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُواْ ﴾ [الحج : 34] الآية وقوله ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً ﴾ في الموضعين قرأه حمزة والكسائي بكسر السين والباقون

بفتحها .

قوله تعالى : ﴿ وادع إلى ربّك إنّك لعلى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

(133/528)

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة : أن يدعو الناس إلى ربهم أي إلى طاعته ، وطاعة رسله ، وأخبره فيها أنه على صراط مستقيم : أي طريق حق واضح لا اعوجاج فيه ، وهو دين الإسلام الذي أمره أن يدعو الناس إليه وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الأمرين المذكورين ، جاء واضحاً في مواضع أخر كقوله في الأول منهما ﴿ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ الله بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وادع إلى ربّك وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [القصص : 87] وقوله تعالى ﴿ فَلِذَلِكَ فادع واستقم كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [الشورى : 15] الآية وقوله تعالى ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [النحل : 125] وأخبر جل وعلا أنه امتثل الأمر بدعائهم إلى ربهم في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المؤمنون : 73] وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : 52] وكقوله في الأخير ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّكَ عَلَى الحق المبين ﴾ [النمل : 79] وقوله ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ على شَرِيعَةٍ مِّنَ الأمر فاتبعها ﴾ [الجاثية : 18] الآية وقوله

تعالى ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ [الفتح : 2] . والآيات بمثل هذا كثيرة .

وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68)

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة : أنه إن جادله الكفار : أي خاصموه بالباطل وكذبوه ، أن يقول لهم : الله أعلم بما تعملون .

وهذا القول الذي أمر به تهديد لهم فقد تضمنت هذه الآية أمرين :

أحدهما : أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يهددهم بقوله : الله أعلم بما تعملون : أي من الكفر ، فمجازيكم عليه أشد الجزاء .

الثاني : الإعراض عنهم ، وقد أشار تعالى للأمرين اللذين تضمنتهما هذه الآية في غير هذا الموضع .

(134/528)

أما إعراضه عنهم عند تكذيبهم له بالجدال الباطل فمن المواضع التي أشير له فيها قوله تعالى ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : 41] .

وأما تهديدهم فقد أشار له في مواضع كقوله ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأحقاف : 8] وقوله ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ القوم المجرمين ﴾ [الأنعام : 147] فقوله ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ ﴾ الآية فيه أشد الوعيد للمكذبين ، كما قال ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : 15] في مواضع متعددة ، وهم إنما يكذبونه بالجدال ، والخصام بالباطل . وقد أمره الله في غير هذا الموضع أن يجادلهم بالتي هي أحسن وذلك في قوله ﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] وقوله ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : 46] وبين له أنهم لا يأتونه بمثل ليحتجوا عليه به بالباطل ، إلا جاءه الله بالحق الذي يدمغ ذلك الباطل ، مع كونه أحسن تفسيراً وكشفاً وإيضاحاً للحقائق وذلك في قوله ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بالحق وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ [الفرقان : 33] . انتهى انتهى . اهـ

﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(135/528)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

الحق – سبحانه وتعالى – خلق آدم عليه السلام خليفة له في الأرض ، وأجرى له تدريباً

على مهمته بالأمر الإلهي والنهي الإلهي ، وأخبره بعداوة الشيطان له ولذريته ، وحذَّره أن يتبع خطواته ، وقد انتهت هذه التجربة بنزول آدم من الجنة إلى الأرض ليباشر مهمته كخليفة لله في أرضه على أنْ يظلَّ على ذِكْر من تجربته مع الشيطان . وقد سخَّر الله له كل شيء في الوجود يخدمه ويعمل من أجله .

ثم أنزل الله عليه منهجاً ، يعمل به لتستقيم حركة حياته وحياة ذريته ، وذكَّره بالمنهج التدريبي السابق الذي كلَّفه به في الجنة ، وما حدث له لما خالف منهج ربه ، حيث ظهرت عورته : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة . . ﴾ [الأعراف : 22] .

كذلك إنْ خالفت هذا المنهج الإلهي في الدنيا ستظهر عوراتكم لذلك إذا رأيت أيّ عورة في المجتمع في أيّ ناحية : في الاجتماع ، في الاقتصاد ، في التربية ، فاعلم أن حكماً من أحكام الله قد عُطِّل ، فظهرت سوأة من سوءات المجتمع ؛ لأن منهج الله هو قانون الصيانة الذي يحميك وينظم حياتك لتؤدي مهمتك في الحياة .

كما لو دخلتَ بيتك فوجدتَ آلة من آلات البيت لا تؤدي مهمتها ، فتعلم أن بها عطلاً فتذهب بها إلى المهندس المختص بصيانتها ، كذلك إن تعطل في حياتكم شيء عن أداء مهمته فردُّوه إلى صاحب صيانته إلى الله وإلى الرسول ، وهذا منطق حازم يعترف به الجميع المؤمن والكافر أن ترد الصنعة إلى صانعها ، وإلى العالِم بقانون صيانتها ، وأنت لم يدّع أحد أنه خلقك ، فحين يحدث فيك خَلَل ، فعليك أنْ تذهبَ إلى ربك وخالقك .

لذلك "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة" ، ومعنى "حزبه أمر" يعني : شيء فوق طاقته وأسبابه ، يُهرَع إلى الصلاة ليعرض نفسه على ربه عز وجل ، فإنْ وجدتَ في نفسك خللاً في أي ناحية ، فما عليك إلا أنْ تتوضأ ، وتقف بين يدي ربك ليصلح ما تعطل فيك .

وإن كان المهندس يُصلح لك الآلة بشيء مادي ، ولو قطعة صغيرة من السلك ، فإن ربك عز وجل غَيْب ، وعلاجه أيضاً غَيْب يأتيك من حيث لا تدري .

ومنهج الله الذي وضعه لصيانة خَلْقه فيه أصول وفيه فروع ، الأصول : أن تؤمن بالإله الواحد الفاعل المختار ، وهذه قاعدة ما اختلف عليها أيٌّ من رسالات السماء أبداً ، كما يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ . . ﴾ [الشورى : 13] .

فهذه أصول لا يختلف عليها دين من الأديان ، لكن لما كان الناس منثورين في شتى بقاع الأرض ، تعيش كل جماعة منهم منعزلةً عن الأخرى لبُعْد المسافات وانعدام وسائل الاتصال والالتقاء التي نراها اليوم ، والتي جعلتْ العالم كله قرية واحدة ، ما يحدث في أقصى

الشرق تراه وتسمع به في أقصى الغرب ، وفي نفس الوقت .

لما عاش الناس هذه العزلة لا يدري أحد بأحد لدرجة أنهم كانوا منذ مائتي عام يكتشفون قارات جديدة .

وقد نشأ عن هذه العزلة أنْ تعددت الداءات بتعدد الجماعات ، فكان الرسول أو النبي يأتي ليعالج الداءات في جماعة بعينها يُبعَث إلى قومه خاصة ، فهذا ليعالج مسألة الكيل والميزان ، وهذا ليعالج طغيان المال ، وهذا ليعالج انحراف الطباع وشذوذها ، وهذا ليعالج التعصب القبلي .

أما رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فجاءت في بداية التقاء الجماعات هنا وهناك ، فكانت رسالته صلى الله عليه وسلم عامة للناس كافة ، وتجد أصول الرسالات عند موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام أصولاً واحدة ، أمّا الفروع فتختلف باختلاف البيئات .

(137/528)

لكن ، لما كان في علمه تعالى أن هذه العزلة ستنتهي ، وأن هذه البيئات ستجتمع وتلتقي على أمر واحد وستتحد فيها الداءات ؛ لذلك أرسل الرسول الخاتم لهم جميعاً على

امتداد الزمان والمكان .

وفي هذه الآية : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ . . ﴾ [الحج : 67] أي : أن الحق سبحانه جعل لكل أمة من الأمم التي بعث فيها الرسل مناسك تناسب أقضية زمانهم ؛ لأنهم كانوا في عزلة بعضهم عن بعض ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً . . ﴾ [المائدة : 48] فالشرائع تختلف في الفروع المناسبة للزمان وللمكان وللبيئة ، أما الأخلاق والعقائد فهي واحدة ، فالله عز وجل إله واحد في كل ديانات السماء ، والكذب مُحرَّم في كل ديانات السماء لم يأْتِ نبي من الأنبياء ليبيح لقومه الكذب .

والمنسك : المنهج التعبدي ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الأنعام : 162] .

﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ . . ﴾ [الحج : 67] يعني : فاعلوه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأمر . . ﴾ [الحج : 67] كأنْ يقولوا : أنت رسول ونحن أيضاً نتبع رسولاً ، له منهج وله شريعة ، نعم : لكن هذه شريعة خاتمة جاءت مهيمنة على كل الشرائع قبلها ، ومناسبة لمستجدّات الأمور .

لذلك يُطمئن الحق – تبارك وتعالى – رسوله صلى الله عليه وسلم – بعدها : ﴿ وادع إلى رَبِّكَ إِنَّكَ لعلى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج : 67] يعني : أطمئن ، فأنت على الحق وادْعُ إلى

ربك ؛ لأنك على هدى مستقيم سيصل إليهم إنْ لم يكن إيماناً فسيكون إصلاحاً وتقنيناً بشرياً تلجئهم إليه أحداث الحياة ومشاكلها ، فلن يجدوا أفضل من شرع الله يحكمون به ، وإنْ لم يؤمنوا .

(138/528)

وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : لا تنازعهم ولا ينازعونك ، وخُذ ما أمرك الله به : ﴿ فاصدعِ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ [الحجر : 94] الذين يجادلونك وينازعونك في الرسالة ، وسوف تحدث لهم أقضية بقدر ما يُحدِثون من الفجور ويلجئون إلى شرعك وقانونك ليحلوا به مشاكلهم .

والهدى وُصِف بأنه مستقيم ، لأنه هدى من الله صنعه لك ، هدى الخالق الذي يعلم ملَكات النفس الإنسانية كلها ، وشرع لكل ملكة ما يناسبها ، وأحداث الحياة ستضطرهم إلى ما قنن الله لخلافته في الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ الله أَعْلَمُ . . ﴾

الجدل : مأخوذ من جَدْل الحبل بعضه على بعض لتقويته ، وإنْ كانت خيطاً رفيعاً نبرمه فنعطيه سُمْكاً وقوة ؛ لذلك الخيط حين نبرمه يقلّ في الطول ؛ لأن أجزاءه تتداخل فيكون

أقوى ، فالجدْل من تمتين الشيء وتقويته ، وكذلك الجدال ؛ فهو محاولة تقوية الحجة أمام الخَصْم .

وفي آية أخرى : ﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . ﴾ [النحل : 125] فالمعنى : إنْ جادلوك بعد التي هي أحسن فقُلْ ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحج : 68] يعني : ردهم إلى الله واحتكم إليه ؛ لذلك جاء بعدها : ﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القيامة . . ﴾ لاحظ أن الحق سبحانه لم يقُلْ : يحكم بيننا وبينكم كما يقتضي المعنى ؛ لأنكما طرفان تتجادلان . وكأن الحق – تبارك وتعالى – يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : أتركهم فسوف يختلفون هم فيما بينهم ، ولن يظل الخلاف معك ؛ لأن الخلاف في شيء واحد ينشأ عن هوى النفس ، وهوى النفس ينشأ من الحرص على السلطة الزمنية ، يعني : أرحْ نفسك ، فربُّك سيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(139/528)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي المليح قال : الأمة ما بين الأربعين إلى المائة فصاعداً .

وأخرج أحمد والحاكم ، وصححه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن علي بن الحسين ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ﴾ قال : ذبحاً هم ذابحوه .

حدثني أبو رافع " أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان إذا ضحى : اشترى كبشين سمينين أملحين أقرنين ، فإذا خطب وصلى ذبح احدهما ، ثم يقول : " اللهم هذا عن أمتي جميعاً من شهد لك بالتوحيد ولي بالبلاغ " ، ثم أتى بالآخر فذبحه وقال : " اللهم هذا عن محمد وآل محمد " ثم يطعمهما المساكين ، ويأكل هو وأهله منهما . فمكثنا سنتين قد كفانا الله الغرم والمؤنة ، ليس أحد من بني هاشم يضحي .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ هم ناسكوه ﴾ يعني هم ذابحوه ﴿ فلا ينازعنك في الأمر ﴾ يعني في أمر الذبائح .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ﴾ قال ذبحاً هم ذابحوه .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ منسكاً هم ناسكوه ﴾ قال : اهراقه دم الهدي .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً ﴾ قال : ذبحاً

وحجاً .

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ فلا ينازعنك في الأمر ﴾ قول أهل الشرك . أما ما ذبح الله بيمينه فلا تأكلون ، وأما ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مقاتل رضي الله عنه ﴿ وادع إلى ربك ﴾ قال : إلى دين ربك ﴿ إنك لعلى هدى ﴾ قال : دين مستقيم ﴿ وإن جادلوك ﴾ يعني في الذبائح .

وأخرج ابن المنذر ، عن جريج ﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴾ لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(140/528)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ :

هذه الجملةُ صفةٌ لـ مَنْسَكاً . وقد تقدَّم أنه يُقْرَأُ بالفتح والكسر . وتقدَّم الخلافُ فيه : هل هو مصدرٌ أو مكانٌ ؟ وقال ابنُ عطية : " ناسِكوه يُعطي أنَّ المَنْسَك المصدرُ ، ولو كان مكاناً لقال : ناسِكون فيه " يعني أنَّ الفعلَ لا يتعدى إلى ضمير الظرفِ إلاَّ بواسطةِ " في " .

وما قاله غيرُ لازمٍ ؛ لأنه قد يُتَّسع في الظرف فيجري مجرى المفعولِ به ، فيصِلُ الفعلُ إلى ضميرِه بنفسه ، وكذا ما عَمِلَ عَمَلَ الفعل . ومن الاتّساع في ظرفِ الزمان قوله :

3398 ويومٍ شَهِدْنَاه سُلَيْمَى وعامراً . . . قليلٍ سوى الطَّعْنِ النِّهالِ نوافِلُهْ

ومن الاتّساع في ظرفِ المكان قولُه :

3399 ومَشْرَبٍ أَشْرَبُه وَشِيْلِ . . . لا أَجِنِ الطَّعْمِ ولا وَبِيْلِ

يريد : أشرب فيه .

قوله : ﴿ فَلاَيُنَازِعُنَّكَ ﴾ وقُرِىء بالنون الخفيفة . وقرأ أبو مجلز : " فلا يَنْزِعُنَّك " مِنْ كذا أي : قَلَعْتُه منه . وقال الزجاج : " هو مِنْ نازَعْتُه فَنَزَعْته أَنْزَعُه أي : غَلَبْتُهُ في المنازَعَة " . ومجيءُ هذهِ الآيةِ كقولِه تعالى : ﴿ فَلاَيَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ وقولهم : لا أُرَيَنَّك ههنا . وهنا جاء قولُه ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من غير واوِ عطفٍ ، بخلافِ ما تَقَدَّمَ مِنْ نظيرِتها فإنها بواوِ عطفٍ . قال الزمخشري : " لأنَّ " تلك " وَقَعَتْ مع ما يُدانيها ويناسِبُها من الآيِ الواردةِ في أمر النسائِكِ ، فَعُطِفَتْ على أخواتها ، وأمَّا هذه فواقعةٌ مع أباعدَ مِنْ معناها فلم تجد مَعْطَفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 303.304 ﴾

(141/528)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

جَعَلَ لكلِّ فريقٍ شِرْعةً هم واردوها ، ولكلِّ جماعةٍ طريقةً هم سالكوها .

وجعل لكلِّ مقام سُكَّانَه ، ولكلِّ محلٍّ قُطَّانَه ، فقد ربط كُلاًّ بما هو أهلٌ له ، وأوصل كلاًّ إلى ما جعله محلاًّ له ؛ فبِساط التَّعَبُّدِ موطوءٌ بأَقدامِ العابدين ، ومشاهد الاجتهاد معمورةٌ بأصحاب التكلف من المجتهدين ، ومجالسُ أصحابِ المعارفِ مأنوسةٌ بلزوم العارفين ، ومنازلُ المحبين مأهولةٌ بحضور الواجدين .

قوله : ﴿ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِى الأَمْرِ . . . ﴾ اشْهَدْ تصاريفَ الأقدار ، واعمل بموجِب التكليف ، وانتِه دون ما أُذِنْتَ له من المناهل .

وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68)

كِلْهُم إلينا عندما راموا من الجدال ، ولا تتكل على ما تختاره من الاحتيال ، واحذر جنوحَ قلبك إلى الاستعانة بالأمثال والأشكال ، فإنهم قوالبُ خاويةٌ ، وأشباحٌ عن المعاني خالية .

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69)

أَمَّا الأجانب فيقول لهم : ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 14] ،

وأمّا الأولياء فقومٌ منهم يحاسبهم حساباً يسيراً ، وأقوام مخصصون يقول لهم : بيني وبينكم حساب ؛ فلا جبريلَ يحكم بينهم ولا ميكائيل ، ولا نبيٌّ مرسَلٌ ، ولا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ .

﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ يحكم بينهم فيسأل عن أعماله جميعَ خصمائه ، ويأمر بإرضاء جميع غُرَمَائِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 559. 560 ﴾

(142/528)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان حفظ ما يقع بينهم على كثرتهم في طول الأزمان أمراً هائلاً ، أتبعه قوله : ﴿ ألم تعلم أن الله ﴾ بجلال عزه وعظيم سلطانه ﴿ يعلم ما في ﴾ ولما كان السياق لحفظ أحوال الثقلين

للحكم بينهم ، وكان أكثر ما يتخيل أن بعض الجن يبلغ استراق السمع من السماء الدنيا ، لم تدع حاجة إلى ذكر أكثر منها ، فأفرد معبراً بما يشمل لكونه جنساً - الكثير أيضاً فقال : ﴿ السماء والأرض ﴾ مما يتفق منهم ومن غيرهم من جميع الخلائق الحيوانات وغيرها .

ولما كان الإنسان محل النسيان ، لا يحفظ الأمور إلا بالكتاب ، خاطبه بما يعرف ، مع ما فيه من عجيب القدرة ، فقال : ﴿ إن ذلك ﴾ أي الأمر العظيم ﴿ في كتاب ﴾ كتب فيه كل شيء حكم بوقوعه قبل وقوعه وكتب جزاءه ؛ ولما كان جمع ذلك في كتاب أمراً بالنسبة إلى الإنسان متعذراً ، أتبعه التعريف بسهولته عنده فقال : ﴿ إن ذلك ﴾ أي علم ذلك الأمر العظيم بلا كتاب ، وجمعه في كتاب قبل كونه وبعده ﴿ على الله ﴾ أي الذي لا حد لعظمته ، وحده ﴿ يسير ﴾ .

(143/528)

ولما أخبر سبحانه أن الشك لا يزال ظرفاً لهم - لما يلقى الشيطان من شبهه في قلوبهم القابلة لذلك بما لها من المرض وما فيها من الفساد إلى إتيان الساعة ، وعقب ذلك بما ذكر من الحكم المفصلة ، والأحكام المشرفة المفضلة ، إلى أن ختم بأنه وحده الحكم في الساعة ، مرهباً من تمام علمه وشمول قدرته ، قال معجباً ممن لا ينفعه الموعظة ولا يجوز الواجب وهو

يوجب المحال ، عاطفاً على ﴿ ولا يزال ﴾ : ﴿ ويعبدون ﴾ أي على سبيل التجديد والاستمرار ﴿ من دون الله ﴾ أي من أدنى رتبة من رتب الذي قامت جميع الدلائل على احتوائه على جميع صفات الكمال ، وتنزهه عن شوائب النقص ﴿ ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ أي حجة واحدة من الحجج .

ولما كان قد يتوهم أن عدم إنزال السلطان لا ينفيه ، قال مزيلاً لهذا الوهم : ﴿ وما ليس لهم به علم ﴾ أي أصلاً ﴿ وما ﴾ أي والحال أنهم ما لهم ، ولكنه أظهر إشارة إلى الوصف الذي استحقوا به الهلاك فقال : ﴿ للظالمين ﴾ أي الذين وضعوا التعبد في غير موضعه بارتكابهم لهذا الأمر العظيم الخطر ؛ وأكد النفي واستغرق المنفي بإثبات الجار فقال : ﴿ من نصير ﴾ أي ينصرهم من الله ، لا مما أشركوه به ولا من غيره ، لا في مدافعة عنهم ولا في إثبات حجة لمذاهبهم ، فنفى أن يكون أحد يمكنه أن يأتي بنصرة تبلغ القصد بأن يغلب المنصور عليه ، وأما مطلق نصر لا يفيد بما تقدم من شبه الشيطان فلا .

(144/528)

ولما ذكر اعترافهم بما لا يعرف بنقل ولا عقل ، ذكر إنكارهم لما لا يصح أن ينكر فقال : ﴿ وإذا تتلى ﴾ أي على سبيل التجديد والمتابعة من أيّ تالٍ كان ﴿ عليهم آياتنا ﴾ أي

المسموعة على ما لها من العظمة والعلو ، حال كونها ﴿ بينات ﴾ لا خفاء بها عند من له بصيرة في شيء مما دعت إليه من الأصول والفروع ﴿ تعرف ﴾ بالفراسة في وجوههم - هكذا كان الأصل ، ولكنه أبدل الضمير بظاهر يدل على عنادهم فقال : ﴿ في وجوه الذين كفروا ﴾ أي تلبسوا بالكفر ﴿ المنكر ﴾ أي الإنكار الذي هو منكر في نفسه لما حصل لهم من الغيظ ؛ ثم بين ما لاح في وجوههم فقال : ﴿ يكادون يسطون ﴾ أي يوقعون السطوة بالبطش والعنف ﴿ بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ أي الدالة على أسمائنا الحسنى ، وصفاتنا العلى ، القاضية بوحدانيتنا ، مع كونها بينات في غاية الوضوح في أنها كلامنا ، لما فيها من الحكم والبلاغة التي عجزوا عنها .

ولما استحقوا - بإنكارهم وما أرادوه من الأذى لأولياء الله - النكال ، تسبب عنه إعلامهم بما استحقوه ، فقال مؤذناً بالغضب بالإعراض عنهم ، آمراً له - صلى الله عليه وسلم - بتهديدهم : ﴿ قل أفأنبئكم ﴾ أي أتعون فأخبركم خبراً عظيماً ﴿ بشر من ذلكم ﴾ الأمر الكبير من الشر الذي أردتموه بعباد الله التالين عليكم للآيات وما حصل لكم من الضجر من ذلك ، فكأنه قيلك ما هو ؟ فقيل : ﴿ النار ﴾ ثم استأنف قوله متهكماً بهم بذكر الوعد : ﴿ وعدها الله ﴾ العظيم الجليل ﴿ الذين كفروا ﴾ جزاء لهم على همهم هذا ، فبئس الموعد هي ﴿ وبئس المصير ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 176.174 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال من قبل ﴿ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ [الحج : 69] أتبعه بما به يعلم أنه سبحانه عالم بما يستحقه كل أحد منهم ، فيقع الحكم منه بينهم بالعدل لا بالجور فقال لرسوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السماء والأرض ﴾ وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ هو على لفظ الاستفهام لكن معناه تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والوعد له وإيعاد الكافرين بأن كل فعلهم محفوظ عند الله لا يضل عنه ولا ينسى .

المسألة الثانية :

الخطاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم والمراد سائر العباد ولأن الرسالة لا تثبت إلا بعد العلم بكونه تعالى عالماً بكل المعلومات إذ لو لم يثبت ذلك لجاز أن يشتبه عليه الكاذب بالصادق ، فحينئذ لا يكون إظهار المعجز دليلاً على الصدق ، وإذا كان كذلك استحال

أن لا يكون الرسول عالماً بذلك .

فثبت أن المراد أن يكون خطاباً مع الغير .

أما قوله : ﴿ إِنَّ ذلك فِى كتاب ﴾ ففيه قولان : أحدهما : وهو قول أبي مسلم أن معنى الكتاب الحفظ والضبط والشد يقال كتبت المزادة أكتبها إذا خرزتها فحفظت بذلك ما فيها ، ومعناه ومعنى الكتاب بين الناس حفظ ما يتعاملون به ، فالمراد من قوله : ﴿ إِنَّ ذلك فِى كتاب ﴾ أنه محفوظ عنده والتالي وهو قول الجمهور أن كل ما يحدثه الله في السموات والأرض فقد كتبه في اللوح المحفوظ قالوا وهذا أولى ، لأن القول الأول وإن كان صحيحاً نظراً إلى الاشتقاق لكن الواجب حمل اللفظ على المتعارف ، ومعلوم أن الكتاب هو ما تكتب فيه الأمور فكان حمله عليه أولى .

(146/528)

فإن قيل فقد يوهم ذلك أن علمه مستفاد من الكتاب وأيضاً فأي فائدة في ذلك الكتاب والجواب عن الأول : أن كتبه تلك الأشياء في ذلك الكتاب مع كونها مطابقة للموجودات من أدل الدلائل على أنه سبحانه غني في علمه عن ذلك الكتاب وعن الثاني : أن الملائكة ينظرون فيه ثم يرون الحوادث داخلة في الوجود على وفقه فصار ذلك دليلاً لهم زائداً على

كونه سبحانه عالماً بكل المعلومات .

أما قوله : ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ فمعناه أن كتبه جملة الحوادث مع أنها من الغيب مما يتعذر على الخلق لكنها بحيث متى أرادها الله تعالى كانت فعبر عن ذلك بأنه يسير ، وإن كان هذا الوصف لا يستعمل إلا فينا من حيث تسهل وتصعب علينا الأمور ، وتعالى الله عن ذلك ثم بين سبحانه ما يقدم الكفار عليه مع عظيم نعمه ، ووضوح دلائله .

فقال : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ فبين أن عبادتهم لغير الله تعالى ليست مأخوذة عن دليل سمعي وهو المراد من قوله : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا ﴾ ولا عن دليل عقلي وهو المراد من قوله : ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ وإذا لم يكن كذلك فهو عن تقليد أو جهل أو شبهة ، فوجب في كل قول هذا شأنه أن يكون باطلاً ، فمن هذا الوجه يدل على أن الكافر قد يكون كافراً ، وإن لم يعلم كونه كافراً ، ويدل أيضاً على فساد التقليد .

أما قوله : ﴿ وَمَا للظالمين مِن نَّصِيرٍ ﴾ ففيه وجهان : أحدهما : أنهم ليس لهم أحد ينتصر لهم من الله كما قد تتفق النصرة في الدنيا والثاني : ما لهم في كفرهم ناصر بالحجة فإن الحجة ليست إلا للحق ، واحتجت المعتزلة بهذه الآية في نفي الشفاعة والكلام عليه معلوم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعني من تقدم ذكره وهذه الآيات هي القرآن ، ووصفها بأنها بينات لكونها متضمنة للدلائل العقلية وبيان الأحكام ، فبين أنهم مع جهلهم إذا نبهوا على الأدلة وعرضت عليهم المعجزة ظهر في وجوههم المنكر والمراد دلالة الغيظ والغضب ، قال صاحب "الكشاف" المنكر الفظيع من التهجم والفجور والنشوز والإنكار ، كالمكرم بمعنى الإكرام وقرىء تعرف على ما لم يسم فاعله ، وللمفسرين في المنكر عبارات : أحدها : قال الكلبي تعرف في وجوههم الكراهية للقرآن ثانيها : قال ابن عباس رضي الله عنهما : التجبر والترفع وثالثها : قال مقاتل أنكروا أن يكون من الله تعالى .

أما قوله تعالى : ﴿ يكادون يَسْطُونَ ﴾ فقال الخليل والفراء والزجاج : السطو شدة البطش والوثوب ، والمعنى يهمون بالبطش والوثوب تعظيماً لإنكار ما خوطبوا ، به فحكى تعالى عظيم تمردهم على الأنبياء والمؤمنين ثم أمر رسوله بأن يقابلهم بالوعيد فقال : ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّ مِّن ذلكم النار ﴾ قال صاحب "الكشاف" قوله : ﴿ مِّن ذلكم ﴾ أي من غيظكم على الناس وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلى عليكم ، فقوله : ﴿ مِّن ذلكم ﴾ فيه وجهان : أحدهما : المراد أن الذي ينالكم من النار التي تكادون تقتحمونها بسوء فعالكم أعظم مما ينالكم عند تلاوة هذه الآيات من الغضب ومن هذا الغم والثاني : أن يكون المراد بشر من ذلكم ما تهمون به فيمن يحاجكم فإن أكبر

ما يمكنكم فيه الإهلاك ثم بعده مصيرهم إلى الجنة وأنتم تصيرون إلى النار الدائمة التي لا فرج لكم عنها ، وأما ﴿ النار ﴾ فقال صاحب "الكشاف" قرىء ﴿ النار ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كأن قائلاً يقول ما شر من ذلك ؟ فقيل النار أي هو النار .

وبالنصب على الاختصاص وبالجر على البدل من شر .

(148/528)

ثم بين سبحانه أنه وعدها الذين كفروا إذا ماتوا على كفرهم وهو بئس المصير ، قال صاحب "الكشاف" ﴿ وَعَدَهَا الله ﴾ استئناف كلام ويحتمل أن تكون النار مبتدأ ووَعَدَهَا خبراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 58 . 59 ﴾

(149/528)

وقال ابن عطية :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

(150/528)

لما أخبر تعالى في الآية قبلها أنه يحكم بين الناس يوم القيامة فيما اختلفوا فيه أتبع ذلك الخبر بأن عنده علم كل شيء ليقع الحكم في معلوم ، فخرجت العبارة على طريق التنبيه على علم الله تعالى وإحاطته و﴿ إن ذلك ﴾ كله ﴿ في كتاب ﴾ وهو اللوح المحفوظ وقوله : ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ ، يحتمل أَن تكون الإشارة إلى كون ذلك في كتاب وكونه معلوماً ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى الحكم في الاختلاف . ثم ذكر تعالى على جهة التوبيخ فعل الكفرة في أنهم ﴿ يعبدون ﴾ من الأصنام ﴿ من دون الله ما لم ينزل ﴾ الله فيه حجة ولا برهاناً . و" السلطان " ، الحجة حيث وقع في القرآن ، وقوله ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ ، توعد ، والضمير في ﴿ عليهم ﴾ عائد على كفار قريش ، والمعنى أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن من النبي عليه السلام أو من أحد من أصحابه وسمعوا ما فيه من رفض آلهتهم والدعاء إلى التوحيد عرفت المساءة في وجوههم والمنكر من معتقدهم وعداوتهم وأنهم يريدون ويتسرعون إلى السطوة بالتالي ، والمعنى أنهم ﴿ يكادون يسطون ﴾ دهرهم أجمع ، وأما في الشاذ من الأوقات فقد سطا بالتالين نحو ما فعل بعبد الله بن مسعود وبالنبي عليه السلام حين أغاثه ، وحل الأمر أبو بكر ، وبعمر حين أجاره العاصي بن وائل وأبي ذر وغير ذلك ، والسطو إيقاع بمباطشة أو أمر بها ، ثم أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم على جهة الوعيد والتقريع ﴿ أأنبئكم ﴾ أي أخبركم ﴿ بشر من ذلكم ﴾ والإشارة ب ﴿ ذلك

﴿ إلى السطو ثم ابتدأ ينبىء كأن قائلاً قال له وما هو قال ﴿ النار ﴾ أي نار جهنم ، وقوله ﴿ وعدها الله الذين كفروا ﴾ ، يحتمل أن يكون أراد أن الله تعالى وعدهم بالنار فيكون الوعد في الشر ونحو ذلك لما نص عليه ، ولم يجىء مطلقاً ، ويحتمل أن يكون أراد أن الله تعالى وعد النار بأن يطعمها الكفار فيكون الوعد على بابه إذ الذي يقتضيه تسرعها إلى الكفار وقولها هل من مزيد ونحوه أن ذلك من مسارها ،

(151/528)

و ﴿ المصير ﴾ مفعل من صار إذا تحول من حال إلى حال ع ، ويقتضي كلام الطبري في هذه الآية أن الإشارة ب ﴿ بذلكم ﴾ هي إلى أصحاب محمد التالين ثم قال : ألا أخبركم بأكره إليكم من هؤلاء أنتم الذين وعدتم النار وأسند نحو هذا القول إلى قائل لم يسمه وهذا كله ضعيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(152/528)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ﴾

هذا استفهام يراد به التقرير ؛ والمعنى : قد علمتَ ذلك ، ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ يعني ما يجري في السموات والأرض ﴿ في كتاب ﴾ يعني : اللوح المحفوظ ، ﴿ إِن ذلك ﴾ أي : عِلْم الله بجميع ذلك ﴿ على الله يسير ﴾ سهل لا يتعذَّر عليه العلم به .

قوله تعالى : ﴿ ويَعْبُدون ﴾ يعني : كفار مكة ﴿ ما لم ينزّل به سلطاناً ﴾ أي : حُجة ﴿ وما ليس لهم به علْم ﴾ أنه إِله ، ﴿ وما للظالمين ﴾ يعني : المشركين ﴿ من نصير ﴾ أي : مانع من العذاب .

﴿ وإِذا تُتْلى عليهم آياتنا ﴾ يعني : القرآن ؛ والمنكر ها هنا بمعنى الإِنكار ، فالمعنى : أثر الإِنكار من الكراهة ، وتعبيسُ الوجوه ، معروف عندهم .

﴿ يكادون يَسْطُون ﴾ أي : يبطشون ويُوقِعون بمن يتلو عليهم القرآن من شدَّة الغيظ ، يقال : سطا عليه ، وسطا به : إِذا تناوله بالعنف والشدة .

﴿ قل ﴾ لهم يا محمد : ﴿ أفأنبِّئكم بشرٍّ مِنْ ذلكم ﴾ أي : بأشدَّ عليكم وأكره إِليكم من سماع القرآن ، ثم ذكر ذلك فقال : ﴿ النارُ ﴾ أي : هو النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السمآء والأرض ﴾

أي وإذ قد علمت يا محمد هذا وأيقنت فاعلم أنه يعلم أيضاً ما أنتم مختلفون فيه فهو يحكم بينكم .

وقد قيل : إنه استفهام تقرير للغير .

﴿ إِنَّ ذلك فِي كِتَابٍ ﴾ أي كلّ ما يجري في العالَم فهو مكتوب عند الله في أم الكتاب .

﴿ إِنَّ ذلك عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ أي إن الفصل بين المختلفين على الله يسير .

وقيل : المعنى إن كتاب القلم الذي أمره أن يكتب ما هو كائِن إلى يوم القيامة على الله يسير .

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ يريد كفار قريش .

﴿ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ﴾ أي حجة وبرهاناً .

وقد تقدم في "آل عمران" .

﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ يعني القرآن .

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر ﴾ أي الغضب والعُبوس .

﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ ﴾ أي يبطشون .

والسطوة شدّة البطش ؛ يقال : سطا به يسطو إذا بطش به ؛ كان ذلك بضرب أو بشتم ، وسطا عليه .

﴿ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ .

وقال ابن عباس : يسطون يبسطون إليهم أيديهم .

محمد بن كعب : أي يقعون بهم .

الضحاك : أي يأخذونهم أخذاً باليد ، والمعنى واحد .

وأصل السَّطْو القهر .

والله ذو سطوات ؛ أي أخذات شديدة .

﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذلكم النار ﴾ أي أكره من هذا القرآن الذي تسمعون هو النار .

فكأنهم قالوا : ما الذي هو شر ؛ فقيل هو النار .

وقيل : أي هل أنبئكم بشر مما يلحق تالي القرآن منكم ، هو النار ؛ فيكون هذا وعيداً لهم على سطواتهم بالذين يتلون القرآن .

ويجوز في "النار" الرفع والنصب والخفض ؛ فالرفع على هو النار ، أو هي النار .

والنصب بمعنى أعني ، أو على إضمار فعل مثل الثاني ، أو يكون محمولاً على المعنى ؛ أي أعرفكم بشر من ذلكم النار .

والخفض على البدل .

﴿ وَعَدَهَا اللهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ في القيامة .

﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ أي الموضع الذي يصيرون إليه وهو النار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(155/528)

وقال أبو حيان :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

السطو : القهر .

وقال ابن عيسى : السطوة إظهار ما يهول للإخافة .

لما تقدم ذكر الفصل بين الكفار والمؤمنين يوم القيامة أعقب تعالى أنه عالم بجميع ﴿ ما في السماء والأرض ﴾ فلا تخفى عليه أعمالكم و ﴿ إن ذلك في كتاب ﴾ قيل : هو أم الكتاب الذي كتبه الله قبل خلق السموات والأرض ، كتب فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة .

وقيل : الكتاب اللوح المحفوظ .

والإشارة بقوله ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ قيل : إلى الحكم السابق ، والظاهر أنه إشارة إلى حصر المخلوقات تحت علمه وإحاطته .

وقال الزمخشري : ومعلوم عند العلماء بالله أنه يعلم كل ما يحدث في السموات والأرض وقد كتبه في اللوح قبل حدوثه ، والإحاط بذلك وإثباته وحفظه عليه يسير لأن العالم الذات لا يتعذر عليه ولا يمتنع تعلق بمعلوم انتهى .

وفي قوله لأن العالم الذات فيه دسيسة الاعتزال لأن من مذهبهم نفي الصفات فهو عالم لذاته لا يعلم عندهم .

﴿ ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ أي حجة وبرهاناً سماوياً من جهة الوحي والسمع ﴿ وما ليس لهم به علم ﴾ أي دليل عقلي ضروري أو غيره .

﴿ وما للظالمين ﴾ أي المجاوزين الحد في عبادة ما لا يمكن عبادته ﴿ من نصير ﴾ ينصرهم فيما ذهبوا إليه أو إذا حل بهم العذاب .

(156/528)

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ أي يتلوه الرسول أو غيره ﴿ آياتنا ﴾ الواضحة في رفض آلهتهم ودعائهم إلى توحيد الله وعبادته ﴿ تعرف في وجوه الذين كفروا ﴾ أي الذين

ستروا الحق وغطوه وهو واضح بين والمنكر مصدر بمعنى الإنكار .

ونبه على موجب المنكر وهو الكفر وناب الظاهر مناب المضمر كأنه قيل : تعرف في وجوههم لكنه نبه على العلة الموجبة لظهور المنكر في وجوههم ، والمنكر المساءة والتجهم والبسور والبطش الدال ذلك كله على سوء المعتقد وخبث السريرة ، لأن الوجه يظهر فيه الترح والفرح اللذان محلهما القلب .

﴿ يكادون يسطون ﴾ أي هم دهرهم بهذه الصفة فهم يقاربون ذلك طول زمانهم ، وإن كان قد وقع منهم سطو ببعض الصحابة في شاذ من الأوقات .

قال ابن عباس : ﴿ يسطون ﴾ يبسطون إليهم .

وقال محمد بن كعب : يقعون بهم .

وقال الضحاك : يأخذونهم أخذاً باليد والمعنى واحد .

وقرأ عيسى بن عمر يعرف مبنياً للمفعول المنكر ووقع ﴿ قل ﴾ هل أنبئكم ﴿ بشر من ذلكم ﴾ وعيد وتقريع والإشارة إلى غيظهم على التالين وسطوهم عليهم ، أو إلى ما أصابهم من الكراهة والبسور بسبب ما تلي عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾

استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله ، والاستفهامُ للتَّقرير أي قد علمتَ ﴿ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السماء والأرض ﴾ فلا يخفى عليه شيءٌ من الأشياء التي من جُملتها ما يقوله الكَفَرةُ وما يعملونَهُ ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي ما في السَّماءِ والأرضِ ﴿ فِى كتاب ﴾ هو اللَّوحُ قد كُتب فيه قبل حدوثِه فلا يُهمنَّك أمرُهم مع علمِنا به وحفظِنا له ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي ما ذُكر من العلمِ والإحاطةِ به وإثباتِه في اللَّوحِ أو الحكم بينكم ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ فإنَّ علمَه وقدرتَه مُقتضى ذاتِه فلا يَخْفى عليه شيءٌ ولا يعسرُ عليه مقدورٌ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ حكايةٌ لبعض أباطيلِ المشركينَ وأحوالِهم الدَّالَّةِ على كمال سخافةِ عقولِهم وركاكةِ آرائِهم من بناء أمرِ دينِهم على غيرِ مَبْنى من دليلٍ سمعيَ أو عقليَ وإعراضِهم عمَّا أُلقي عليهم من سلطانٍ بيِّنٍ هو أساسُ الدِّينِ وقاعدتُه أشدَّ إعراضٍ أي يعبدُون متجاوزينَ عبادةَ الله ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ ﴾ أي بجوازِ عبادتِه ﴿ سلطانا ﴾ أي حجَّةً ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ ﴾ أي بجواز عبادتِه ﴿ عِلْمٍ ﴾ من ضرورة العقلِ أو استدلاله ﴿ وَمَا للظالمين ﴾ أي الذينَ ارتكبُوا مثل هذا الظُّلمِ العظيمِ الذي يقضي ببطلانِه وكونِه

ظُلماً بديهةُ العقولِ ﴿ مِن نَّصِيرٍ ﴾ يساعدُهم بنصرةِ مذهبِهم وتقريرِ رأيهم أو بدفعِ العذابِ الذي يعتريهم بسببِ ظلمِهم .

(158/528)

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ عطفٌ على يعبدونَ وما بينهما اعتراضٌ . وصيغة المضارعِ للدّلالةِ على الاستمرارِ التَّجدُّدِي ﴿ بينات ﴾ أي حالَ كونِها واضحاتِ الدّلالةِ على العقائدِ الحَقَّةِ والأحكامِ الصَّادقةِ أو على بُطلانِ ما هم عليه من عبادةِ الأصنامِ أو على كونِها من عند الله عزَّ وجلَّ ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر ﴾ أي الإنكارَ كالمُكرَمِ بمعنى الإكرامِ أو الفظيعَ من التَّجهمِ والبُسورِ أو الشَّرِّ الذي يقصدونَهُ بظهورِ مخايلِه من الأوضاعِ والهيئاتِ وهو الأنسبُ بقوله تعالى : ﴿ يكادون يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ أي يَبْطُشون ويبطِشُون بهم من فرطِ الغيظِ والغضبِ لأباطيلَ أخذُوها تقليداً وهل جهالةٌ أعظمُ وأطمُّ من أنْ يعبدُوا ما لا يوهم صحَّةَ عبادتِه شيءٌ ما أصلاً بل يقضي ببطلانِها العقلُ والنَّقلُ ويظهروا لمن يهديهم إلى الحقِّ البيِّنِ بالسُّلطانِ المُبينِ مثلَ هذا المنكرِ الشَّنيعِ كلاًّ ولهذا وضعَ الذين كفروا موضعَ الضَّميرِ .

﴿ قُلْ ﴾ ردّاً عليهم وإقناطاً عما يقصدونَه من الإضرارِ بالمسلمينَ ﴾ أَفَأُنَبِّئُكُم ﴾ أي

أأخاطبُكم فأخبرُكم ﴿ بِشَرّ مّن ذلكم ﴾ الذي فيكم من غيظكم على التَّالينَ وسطوتكم بهم أو مما تبغونَهم من الغوائلِ أو مما أصابكم من الضَّجرِ بسبب ما تلَوه عليكم ﴿ النار ﴾ أي هو النَّارُ على أنَّه جوابٌ لسؤال مقدَّرٍ كأنَّه قيل : ما هُو ؟ وقيل : هو مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى : ﴿ وَعَدَهَا الله الذين كَفَرُواْ ﴾ وقُرِىء النَّارَ بالنَّصبِ على الاختصاص وبالجرّ بدلاً من شرَ فتكون الجملةُ الفعليةُ استئنافاً كالوجهِ الأول أو حالاً من النَّارِ بإضمار قَدْ ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(159/528)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾

استئناف مقرر لمضمون ما قبله ، والاستفهام للتقرير أي قد علمت ﴿ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِى السماء والأرض ﴾ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء التي من جملتها أقوال الكفرة وأعمالهم ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي ما في السماء والأرض ﴿ فِى كتاب ﴾ هو كما روي عن ابن عباس اللوح المحفوظ ، وذكر رضي الله تعالى عنه أن طوله مسيرة مائة عام وأنه كتب فيه ما هو كائن في علم الله تعالى إلى يوم القيامة ، وأنكر ذلك أبو مسلم وقال : المراد من الكتاب

الحفظ والضبط أي أن ذلك محفوظ عنده تعالى ، والجمهور على خلافه ، والمراد من الآية أيضاً تسليته عليه الصلاة والسلام كأنه قيل إن الله يعلم الخ فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي ما ذكر من العلم والإحاطة بما في السماء والأرض وكتبه في اللوح والحكم بينكم ، وقيل ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الحكم فقط ، وقيل إلى العلم فقط ، وقيل إلى كتب ذلك في اللوح ، ولعل كونه إشارة إلى الثلاثة بتأويل ما ذكر أولى ﴿ عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ فإن علمه وقدرته جل جلاله مقتضى ذاته فلا يخفى عليه شيء ولا يعسر عليه مقدور ، وتقديم الجار والمجرور لمناسبة رؤوس الآي أو للقصر أي يسير عليه جل وعلا لا على غيره .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ حكاية لبعض أباطيل المشركين وأحوالهم الدالة على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم وهي بناء أمرهم على غير مبنى دليل سمعي أو عقلي وإعراضهم عما ألقى إليهم من سلطان بين هو أساس الدين أي يعبدون متجاوزين عبادة الله تعالى ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ ﴾ أي بجواز عبادته ﴿ سلطانا ﴾ أي حجة ، والتنكير للتقليل ، وهذا إشارة إلى الدليل السمعي الحاصل من جهة الوحي .

(160/528)

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ إشارة إلى الدليل العقلي أي ما ليس لهم بجواز عبادته علم من ضرورة العقل أو استدلاله ، والحاصل يعبدون من دون الله ما لا دليل من جهة السمع ولا من جهة العقل على جواز عبادته ، وتقديم الدليل السمعي لأن الاستناد في أكثر العبادات إليه مع أن التمسك به في هذا المقام أرجى في الخلاص إن حصل لوم من التمسك بالدليل العقلي ، وإن شككت فارجع إلى نفسك فيما إذا لامك شخص على فعل فإنك تجدها مائلة إلى الجواب بأني فعلت كذا لأنك أخبرتني برضاك بأن أفعله أكثر من ميلها إلى الجواب بأني فعلته لقيام الدليل العقلي وهو كذا على رضاك به وإنكار ذلك مكابرة ، وقد يقال : إنما قدم هنا ما يشير إلى الدليل السمعي لأنه إشارة إلى دليل سمعي يدل على جواز تلك العبادة منزل من جهته تعالى غير مقيد بقيد بخلاف ما يشير إلى الدليل العقلي فإن فيه إشارة إلى دليل عقلي خاص بهم ، وحاصله أن التقديم والتأخير للإطلاق والتقييد وإن لم يكونا لشيء واحد فافهم ، وقال العلامة الطيبي : في اختصاص الدليل السمعي بالسلطان والتنزيل ومقابله بالعلم دليل واضح على أن الدليل السمعي هو الحجة القاطعة وله القهر والغلبة وعند ظهوره تضمحل الآراء وتتلاشى الأقيسة ومن عكس ضل الطريق وحرم التوفيق وبقي متزلزلاً في ورطات الشبه ؛ وإن شئت فانظر إلى التنكير في ﴿ سلطانا وَعَلَّمَ ﴾ وقسهما على قول الشاعر

: له حاجب في كل أمر يشينه . . .

وليس له عن طالب العرف حاجب

(161/528)

لتعلم الفرق إلى آخر ما قال ، ومنه يعلم وجه للتقديم واحتمال آخر في تنوين ﴿ سلطانا ﴾ غير ما قدمنا ، وظاهره أن الدليل السمعي يفيد اليقين مطلقاً وأنه مقدم على الدليل العقلي ، ومذهب المعتزلة وجمهور الأشاعرة أنه لا يفيد اليقين مطلقاً لتوقف ذلك على أمور كلها ظنية فتكون دلالته أيضاً ظنية لأن الفرع لا يزيد على الأصل في القوة ، والحق أنه قد يفيد اليقين في الشرعيات دون العقليات بقرائن مشاهدة أو متواترة تدل على انتفاء الاحتمالات .

وذكر الفاضل الرومي في حواشيه على شرح المواقف بعد بحث أن الحق أنه قد يفيد اليقين في العقليات أيضاً وأما أنه مقدم على الدليل العقلي فالذي عليه علماؤنا خلافه ، وأنه متى عارض الدليل العقلي الدليل السمعي وجب تأويل الدليل السمعي إلى ما لا يعارضه الدليل العقلي إذ لا يمكن العمل بهما ولا بنقيضهما ، وتقديم السمع على العقل إبطال للأصل بالفرع وفيه إبطال الفرع وإذا أدى إثبات الشيء إلى إبطاله كان مناقضاً لنفسه وكان باطلاً لكن

ظاهر كلام محيي الدين بن العربي قدس سره في مواضع من فتوحاته القول بأنه مقدم .

ومن ذلك قوله في الباب الثلاثمائة والثمانية والخمسين من أبيات

: كل علم يشهد الشرع له . . .

هو علم فبه فلتعتصم وإذا خالفه العقل فقل

طورك الزم ما لكم فيه قدم . . .

وقوله في الباب الأربعمائة والاثنين والسبعين

: على السمع عولنا فكنا أولى النهي . . .

ولا علم فيما لا يكون عن السمع

إلى غير ذلك وهو كأكثر كلامه من وراء طور العقل ﴿ وَمَا للظالمين ﴾ أي وما لهم إلا أنه عدل إلى الظاهر تسجيلاً عليهم بالظلم مع تعليل الحكم به ، وجوز أن لا يكون هناك عدول ، والمراد ما يعمهم وغيرهم ودخولهم أولى ، و﴿ مِنْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ مِن نَّصِيرٍ ﴾ سيف خطيب ، والمراد نفى أن يكون لهم بسبب ظلمهم من يساعدهم في الدنيا بنصرة مذهبهم وتقرير رأيهم ودفع ما يخالفه وفي الآخرة بدفع العذاب عنهم .

(162/528)

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ عطف على ﴿ يَعْبُدُونَ ﴾ [الحج : 71] وما بينهما اعتراض ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددي ، وقوله تعالى : ﴿ بينات ﴾ حال من الآيات أي واضحات الدلالة على العقائد الحقة والأحكام الصادقة أو على بطلان ما هم عليه من عبادة غير الله تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي في وجوههم ، والعدول على نحو ما تقدم ، والخطاب إما لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم أو لمن يصح أن يعرف كائناً من كان ﴿ المنكر ﴾ أي الإنكار على أنه مصدر ميمي ، والمراد علامة الإنكار أو الأمر المستقبح من التجهم والبسور والهيئات الدالة على ما يقصدونه وهو الأنسب بقوله تعالى : ﴿ يكادون يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ أي يثبون ويبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب لأباطيل أخذوها تقليداً ، ولا يخفى ما في ذلك من الجهالة العظيمة ، وكان المراد أنهم طول دهرهم يقاربون ذلك وإلا فقد سطوا في بعض الأوقات ببعض الصحابة التالين كما في "البحر" ، والجملة في موقع الحال من المضاف إليه ، وجوز أن يكون من الوجوه على أن المراد بها أصحابها وليس بالوجه .

وقرأ عيسى بن عمر ﴿ يُعْرَفُ ﴾ بالبناء للمفعول ﴿ المنكر ﴾ بالرفع ﴿ قُلْ ﴾ على وجه الوعيد والتقريع ﴿ أَفَأُنَبِّئُكُم ﴾ أي أخاطبكم أو أتسمعون فأخبركم ﴿ بِشَرّ مّن ذلكم ﴾ الذي فيكم من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلى عليكم ﴿ النار ﴾ أي هو أو هي النار على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة

جواب لسؤال مقدر كأنه قيل : ما هو ؟ وقيل هو مبتدأ خبره قوله تعالى :

﴿ وَعَدَهَا اللهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ وهو على الوجه الأول جملة مستأنفة ، وجوز أن يكون خبراً بعد خبر .

وقرأ ابن أبي عبلة .

وإبراهيم بن يوسف عن الأعشى .

(163/528)

وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ النار ﴾ بالنصب على الاختصاص ، وجملة ﴿ وَعَدَهَا ﴾ الخ مستأنفة أو حال من ﴿ النار ﴾ بتقدير قد أو بدونه على الخلاف ، ولم يجوزوا في قراءة الرفع الحالية على الأعراب الأول إذ ليس في الجملة ما يصح عمله في الحال .

وجوز في النصب أن يكون من باب الاشتغال وتكون الجملة حينئذٍ مفسرة .

وقرأ ابن أبي إسحاق .

وإبراهيم بن نوح عن قتيبة ﴿ النار ﴾ بالجر على الإبدال من شر ، وفي الجملة احتمالا الاستئناف والحالية ، والظاهر معنى أن يكون الضمير في ﴿ وَعَدَهَا ﴾ هو المفعول الثاني والأول الموصول أي وعد الذين كفروا إياها ، والظاهر لفظاً أن يكون المفعول الأول والثاني

الموصول كأن النار وعدت بالكفار لتأكلهم ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ النار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(164/528)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

عاد سبحانه إلى بيان أمر التكاليف مع الزجر لمعاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الأديان عن منازعته فقال : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً ﴾ أي لكلّ قرن من القرون الماضية وضعنا شريعة خاصة ، بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى ، وجملة : ﴿ وَهُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ صفة ل ﴿ منسكاً ﴾ ، والضمير لكل أمة ، أي تلك الأمة هي العاملة به لا غيرها ، فكانت التوراة منسك الأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى ، والإنجيل منسك الأمة التي من مبعث عيسى إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

والقرآن منسك المسلمين ، والمنسك : مصدر لا اسم مكان كما يدلّ عليه : ﴿ هم ناسكوه ﴾ ، ولم يقل : ناسكون فيه .

وقيل : المنسك : موضع أداء الطاعة ، وقيل : هو الذبائح ، ولا وجه للتخصيص ، ولا اعتبار بخصوص السبب ، والفاء في قوله : ﴿ فَلاَ ينازعنك فِي الأمر ﴾ لترتيب النهي على ما قبله ، والضمير راجع إلى الأمم الباقية آثارهم ، أي : قد عينا لكل أمة شريعة ، ومن جملة الأمم هذه الأمة المحمدية ، وذلك موجب لعدم منازعة من بقي منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومستلزم لطاعتهم إياه في أمر الدين ، والنهي إما على حقيقته ، أو كناية عن نهيه عن الالتفات إلى نزاعهم له .

قال الزجاج : إنه نهي له صلى الله عليه وسلم عن منازعتهم ، أي لا تنازعهم أنت ، كما تقول لا يخاصمك فلان أي : لا تخاصمه ، وكما تقول لا يضاربنك فلان ، أي لا تضاربه ، وذلك أن المفاعلة تقتضي العكس ضمناً ، ولا يجوز لا يضربنك فلان وأنت تريد : لا تضربه .

وحكي عن الزجاج أنه قال في معنى الآية : فلا ينازعنك ، أي فلا يجادلنك .

قال : ودلّ على هذا ﴿ وَإِن جادلوك ﴾ وقرأ أبو مجلز : " فلا ينزعنك في الأمر " أي لا يستخفنك ولا يغلبنك على دينك .

(165/528)

وقرأ الباقون : ﴿ ينازعنك ﴾ من المنازعة ﴿ وادع إلى ربّكَ ﴾ أي وادع هؤلاء المنازعين ، أو ادع الناس على العموم إلى دين الله وتوحيده والإيمان به ﴿ إِنَّكَ لعلى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي طريق مستقيم لا اعوجاج فيه .

﴿ وَإِن جادلوك ﴾ أي وإن أبوا إلا الجدال بعد البيان لهم وظهور الحجة عليهم ﴿ فَقُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي فكل أمرهم إلى الله وقل لهم هذا القول المشتمل على الوعيد ﴿ الله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أي بين المسلمين والكافرين ﴿ يَوْمَ القيامة فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين فيتبين حينئذٍ الحق من الباطل ، وفي هذه الآية تعليم لهذه الأمة بما ينبغي لهم أن يجيبوا به من أراد الجدال بالباطل وقيل : إنها منسوخة بآية السيف .

وجملة ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ مستأنفة مقرّرة لمضمون ما قبلها .

والاستفهام للتقرير ، أي قد علمت يا محمد وتيقنت ﴿ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السماء والأرض ﴾ ومن جملة ذلك ما أنتم فيه مختلفون ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ الذي في السماء والأرض من معلوماته ﴿ فِى كتاب ﴾ أي مكتوب عنده في أمّ الكتاب ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ أي إن الحكم منه سبحانه بين عباده فيما يختلفون فيه يسير عليه غير عسير ، أو إن إحاطة علمه بما في السماء والأرض يسير عليه .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا ﴾ هذا حكاية لبعض فضائحهم ، أي إنهم يعبدون أصناماً لم يتمسكوا في عبادتها بحجة نيرة من الله سبحانه ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ من دليل عقل يدلّ على جواز ذلك بوجه من الوجوه ﴿ وَمَا للظالمين مِن نَّصِيرٍ ﴾ ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله ، وقد تقدّم الكلام على هذه الآية في آل عمران ، وجملة : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيِّنَاتٍ ﴾ معطوفة على يعبدون ، وانتصاب بينات على الحال ، أي حال كونها واضحات ظاهرات الدلالة ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر ﴾ أي الأمر الذي ينكر ، وهو غضبهم وعبوسهم عند سماعها ، أو المراد بالمنكر : الإنكار ، أي تعرف في وجوههم إنكارها .

وقيل : هو التجبر والترفع ، وجملة : ﴿ يكادون يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : ما ذلك المنكر الذي يعرف في وجوههم ؟ فقيل : يكادون يسطون ، أي يبطشون ، والسطوة : شدّة البطش ، يقال : سطا به يسطو إذا بطش به بضرب ، أو شتم ، أو أخذ باليد ، وأصل السطو : القهر .

وهكذا ترى أهل البدع المضلة إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز ، أو من السنة الصحيحة مخالفاً لما اعتقده من الباطل والضلالة رأيت في وجهه من المنكر ما لو تمكن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركين ، وقد رأينا وسمعنا

من أهل البدع ما لا يحيط به الوصف ، والله ناصر الحقّ ومظهر الدين وداحض الباطل ودامغ البدع وحافظ المتكلمين بما أخذه عليهم ، المبينين للناس ما نزل إليهم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ثم أمر رسوله أن يردّ عليهم .

(167/528)

فقال : ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم ﴾ أي أخبركم ﴿ بِشَرّ مّن ذلكم ﴾ الذي فيكم من الغيظ على من يتلو عليكم آيات الله ومقاربتكم للوثوب عليهم ، وهو النار التي أعدّها الله لكم ، فالنار مرتفعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : ما هذا الأمر الذي هو شرّ مما نكابده ونناهده عند سماعنا ما تتلوه علينا ؟ فقال : هو ﴿ النار وَعَدَهَا الله الذين كَفَرُواْ ﴾ وقيل : إن ﴿ النار ﴾ مبتدأ وخبره جملة : ﴿ وعدها الله الذين كفروا ﴾ وقيل : المعنى : أفأخبركم بشرّ مما يلحق تالي القرآن منكم من الأذى والتوعد لهم والتوثب عليهم ؟ وقرىء " النار " بالنصب على تقدير : أعني .

وقرىء بالجرّ بدلاً من شرّ ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ أي الموضع الذي تصيرون إليه ، وهو النار .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ قال : يعني : هم ذابحوه

﴿ فَلاَ ينازعنك فِى الأمر ﴾ يعني : في أمر الذبح .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة نحوه .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه أيضاً .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : ﴿ فَلاَ ينازعنك فِى الأمر ﴾ قول أهل الشرك : أما ما ذبح الله بيمينه فلا تأكلوه ، وأما ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : خلق الله اللوح المحفوظ لمسيرة مائة عام ، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش : اكتب ، قال : ما أكتب ؟ قال : علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة ، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة ، فذلك قوله للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السماء والأرض ﴾ يعني : ما في السموات السبع والأرضين السبع .

﴿ إِنَّ ذلك ﴾ العلم ﴿ فِي كتاب ﴾ يعني : في اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يخلق السموات والأرضين ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ يعني : هين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ يكادون يَسْطُونَ ﴾ يبطشون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(168/528)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

استئناف لزيادة تحقيق التأييد الذي تضمنه قوله ﴿ الله يحكم بينكم يوم القيامة ﴾ [الحج : 69] ، أي فهو لا يفوته شيء من أعمالكم فيجازي كلاً على حساب عمله ، فالكلام كناية عن جزاء كل بما يليق به .

و ﴿ ما في السماء والأرض ﴾ يشمل ما يعمله المشركون وما كانوا يخالفون فيه .

والاستفهام إنكاري أو تقريري ، أي أنك تعلم ذلك ، وهذا الكلام كناية عن التسلية أي فلا تضق صدراً مما تلاقيه منهم .

وجملة ﴿ إن ذلك في كتاب ﴾ بيان للجملة قبلها ، أي يعلم ما في السماء والأرض علماً مفصلاً لا يختلف ، لأنّ شأن الكتاب أن لا تتطرق إليه الزيادة والنُقصان .

واسم الإشارة إلى العمل في قوله ﴿ الله أعلم بما تعملون ﴾ أو إلى (مَا) في قوله : ﴿ ما كنتم فيه تختلفون ﴾ [الحج : 69] .

والكتاب هو ما به حفظ جميع الأعمال : إما على تشبيه تمام الحفظ بالكتابة ، وإما على الحقيقة ، وهو جائز أن يجعل الله لذلك كتاباً لائقاً بالمغيبات .

وجملة ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ بيان لمضمون الاستفهام من الكتابة عن الجزاء .

واسم الإشارة عائد إلى مضمون الاستفهام من الكناية فتأويله بالمذكور .

ولك أن تجعلها بياناً لجملة ﴿ يعلم ما في السماء والأرض ﴾ واسم الإشارة عائد إلى العلم المأخوذ من فعل ﴿ يعلم ، ﴾ أي أن علم الله بما في السماء والأرض لله حاصل دون اكتساب ، لأن علمه ذاتي لا يحتاج إلى مطالعة وبحث .

وتقديم المجرور على متعلّقه وهو ﴿ يسير ﴾ للاهتمام بذكره للدلالة على إمكانة في جانب علم الله تعالى .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾

يجوز أن يكون الواو حرف عطف وتكون الجملة معطوفة على الجملة السابقة بما تفرّع عليها عطف غرض على غرض .

(169/528)

ويجوز أن يكون الواو للحال والجملة بعدها حالاً من الضمير المرفوع في قوله ﴿ جادلوك ﴾ [الحج : 68] ، والمعنى : جادلوك في الدين مستمرين على عبادة ما لا يستحق العبادة بعدما رأوا من الدلائل ، وتتضمن الحال تعجيباً من شأنهم في مكابرتهم وإصرارهم .

والإتيان بالفعل المضارع المفيد للتجدّد على الوجهين لأن في الدلائل التي تحفّ بهم والتي

ذُكّروا ببعضها في الآيات الماضية ما هو كاف لإقلاعهم عن عبادة الأصنام لو كانوا يريدون الحق .

و﴿ من دون ﴾ يفيد أنهم يُعرضون عن عبادة الله ، لأن كلمة ﴿ دون ﴾ وإن كانت اسماً للمباعَدة قد يصدق بالمشاركة بين ما تضاف إليه وبين غيره .

فكلمة (دون) إذا دخلت عليها (مِن) صارت تفيد معنى ابتداء الفعل من جانب مباعد لما أضيف إليه (دون) .

فاقتضى أن المضاف إليه غيرُ مشارك في الفعل .

فوجه ذلك أنهم لما أشربت قلوبهم الإقبال على عبادة الأصنام وإدخالها في شؤون قرباتهم حتى الحج إذ قد وضعوا في شعائره أصناماً بعضها وضعوها في الكعبة وبعضها فوق الصفا والمروة جعلوا كالمعطلين لعبادة الله أصلاً .

والسلطان : الحجة .

والحجة المنزّلة : هي الأمر الإلهي الوارد على أَلْسنة رسله وفي شرائعه ، أي يعبدون ما لا يجدون عذراً لعبادته من الشرائع السالفة : وقصارى أمرهم أنهم اعتذروا بتقدم آبائهم بعبادة أصنامهم ، ولم يدّعوا أن نبيئاً أمر قومه بعبادة صنم ولا أن ديناً إلهياً رخص في عبادة الأصنام .

و﴿ ما ليس لهم به علم ﴾ ، أي ليس لهم به اعتقاد جازم لأنّ الاعتقاد الجازم لا يكون إلاّ

عن دليل ، والباطل لا يمكن حصول دليل عليه .

وتقديم انتفاء الدليل الشرعي على انتفاء الدليل العقلي لأنّ الدليل الشرعي أهمّ .

و﴿ ما ﴾ التي في قوله ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ نافية .

والجملة عطف على جملة ﴿ ويعبدون من دون الله ﴾ أي يَعبدون ما ذكر وما لهم نصير فلا تنفعهم عبادة الأصنام .

(170/528)

فالمراد بالظالمين المشركون المتحدّث عنهم ، فهو من الإظهار في مقام الإضمار للإيماء إلى أن سبب انتفاء النصير لهم هو ظلمهم ، أي كفرهم .

وقد أفاد ذلك ذهاب عبادتهم الأصنام باطلاً لأنهم عبدوها رجاء النصر .

ويفيد بعمومه أن الأصنام لا تنصرهم فأغنى عن موصول ثالث هو من صفات الأصنام كأنه قيل : وما لا ينصرهم ، كقوله تعالى : ﴿ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ﴾ [الأعراف : 197] .

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بينات تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر يكادون يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ .

عطف على جملة ﴿ ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ [الحج : 71] لبيان جُرم آخر من أجرامهم مع جُرم عبادة الأصنام ، وهو جرم تكذيب الرسول والتكذيب بالقرآن .

والآيات هي القرآن لا غيره من المعجزات لقوله ﴿ وإذا تتلى عليهم ﴾ .

والمنكر : إما الشيء الذي تُنكره الأنظار والنفوس فيكون هنا اسماً ، أي دلائل كراهيتهم وغضبهم وعزمهم على السوء ، وإما مصدر ميمي بمعنى الإنكار كالمُكْرم بمعنى الإكرام .

والمَحْملان آيلان إلى معنى أنهم يلوح على وجوههم الغَيْظ والغضب عند ما يُتلى عليهم القرآن ويُدعون إلى الإيمان .

وهذا كناية عن امتلاء نفوسهم من الإنكار والغيظ حتى تجاوز أثرُه بواطنهم فظهر على وجوههم .

كما في قوله تعالى : ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ [المطففين : 24] كناية عن وفرة نعيمهم وفرط مسرّتهم به .

ولأجل هذه الكناية عدل عن التصريح بنحو : اشتدّ غيظهم ، أو يكادون يتميزون غيظاً ، ونحو قوله : ﴿ قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ [النحل : 22] .

وتقييد الآيات بوصف البينات لتفظيع إنكارها إياها ، إذ ليس فيها ما يعذر به منكروها .

والخطاب في قوله ﴿ تعرف ﴾ لكلّ من يصلح للخطاب بدليل قوله ﴿ بالذين يتلون عليهم

آياتنا ﴾ .

والتعبير بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ إظهار في مقام الإضمار .

(171/528)

ومقتضى الظاهر أن يكون ﴿ تعرف في وجوه الذين كفروا ﴾ ، أي وجوه الذين يعبدون من دون الله ما لم يُنزّل به سلطاناً ، فخولف مقتضى الظاهر للتسجيل عليهم بالإيماء إلى أن علّة ذلك هو ما يبطنونه من الكفر .

والسُّطُوّ : البطش ، أي يقاربون أن يصولوا على الذين يتلون عليهم الآيات من شدّة الغضب والغيظ من سماع القرآن .

﴿ والذين يتلون ﴾ يجوز أن يكون مراداً به النبي صلى الله عليه وسلم من إطلاق اسم الجمع على الواحد كقوله : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ﴾ [الفرقان : 37] ، أي كذّبوا الرسول .

ويجوز أن يراد به من يقرأ عليهم القرآن من المسلمين والرسول ، أما الذين سطوا عليهم من المؤمنين فلعلهم غير الذين قرأوا عليهم القرآن ، أو لعلّ السطو عليهم كان بعد نزول هذه الآية فلا إشكال في ذكر فعل المقاربة .

وجملة ﴿ يكادون يسطون ﴾ في موضع بدل الاشتمال لجملة ﴿ تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ﴾ لأن الهمّ بالسطو مما يشتمل عليه المنكر .

﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

استئناف ابتدائي يفيد زيادة إغاظتهم بأن أمرَ الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يتلو عليهم ما يفيد أنهم صائرون إلى النار .

والتفريع بالفاء ناشىء من ظهور أثر المنكر على وجوههم فجعل دلالة ملامحهم بمنزلة دلالة الألفاظ .

ففرع عليها ما هو جواب عن كلام فيزيدهم غيظاً .

ويجوز كون التفريع على التلاوة المأخوذة من قوله ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ ، أي اتل عليهم الآيات المنذرة والمبيّنة لكفرهم ، وفرع عليها وعيدهم بالنار .

والاستفهام مستعمل في الاستئذان ، وهو استئذان تهكمي لأنه قد نبأهم بذلك دون أن ينتظر جوابهم .

وشرّ : اسم تفضيل ، أصله أشرّ : كثر حذف الهمزة تخفيفاً ، كما حذفت في خير بمعنى أخير .

والإشارة بـ ﴿ ذلكم ﴾ إلى ما أثار مُنكَرهم وحفيظتهم ، أي بما هو أشد شرّاً عليكم في نفوسكم مما سمعتموه فأغضبكم ، أي فإن كنتم غاضبين لما تُلي عليكم من الآيات فازدادوا غضباً بهذا الذي أَنَبّئكم به .

وقوله ﴿ النّار ﴾ خبر مبتدأ محذوف دل عليه قوله ﴿ بشر من ذلكم ﴾ .

والتقدير : شرّ من ذلكم النّارُ .

فالجملة استئناف بياني ، أي إن سألتم عن الذي هو أشدّ شراً فاعلموا أنه النار .

وجملة ﴿ وعدها الله ﴾ حال من النّار ، أو هي استئناف .

والتعبير عنهم بقوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ إظهار في مقام الإضمار ، أي وعدها الله إياكم لكفركم .

﴿ وبئس المصير ﴾ أي بئس مصيرهم هي ، فحرف التعريف عوض عن المضاف إليه ، فتكون الجملة إنشاء ذمّ معطوفة على جملة الحال على تقدير القول .

ويجوز أن يكون التعريف للجنس فيفيد العموم ، أي بئس المصير هي لمن صار إليها ، فتكون الجملة تذييلاً لما فيها من عموم الحكم للمخاطبين وغيرهم وتكون الواو اعتراضية تذييلية .

أعقبت تضاعيف الحجج والمواعظ والإنذارات التي اشتملت عليها السورة مما فيه مقنع

للعلم بأن إله الناس واحد وأن ما يُعبد من دونه باطل ، أعقبت تلك كلها بمثَل جامع لوصف حال تلك المعبودات وعابديها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(173/528)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

هذه قضية حكم بها الحق سبحانة لنفسه ، ولم يدَّعِها أحد ، فلا يعلم ما في السماء والأرض إلا الله ، وهذه الآية جاءت بعد الحكم في المنازعة فربما اعترض أحد وقال : ما دام الأمر من الله أحكاماً تنظم حركة الحياة وقد جاء كل رسول بها ، فما ضرورة أنْ يجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس كافة .

وقلنا : إن الدين نوعان : نوع لا يختلف باختلاف الرسل والأمم والعصور ، وهذا في القضايا العامة الشاملة التي لا تتغير ، وهي العقائد والأصول والأخلاق ، ونوع آخر يختلف باختلاف العصور والأمم ، فيأتي الحكم مناسباً لكل عصر ، ولكل أمة .

وما دام الحق سبحانه هو الذي سيحكم بين الطرفين قال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السمآء والأرض . . ﴾ [الحج : 70] أعلم كل شيء كائن في الوجود ظاهره وباطنه ،

فأنا أحكُم عن علم وعن خبرة .

﴿ إِنَّ ذلك فِي كِتَابٍ . . ﴾ [الحج : 70] والعلم شيء ، والكتاب شيء آخر ، فما دام الله تعالى يعلم كل شيء ، وما دام سبحانه لا يضل ولا ينسى ، فما ضرورة الكتاب ؟

قالوا : الكتاب يعني به اللوح المحفوظ الذي يحوي كل شيء .

وفي آية أخرى قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ [عبس : 11 - 15] .

حتى القرآن نفسه في ذلك الكتاب : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : 21 - 22] .

(174/528)

وقال تعالى : ﴿ يَمْحُواْ اللهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ [الرعد : 39] ويقول تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : 59] .

فضرورة الكتاب ليدلّك وليدلّ الملائكة المطَّلعين على أن الأشياء التي تحدث مستقبلاً

كتبها الله أزلاً ، فالذي كتب الشيء قبل أنْ يكون ، ثم جاء الشيء موافقاً لما أكبر دليل على عِلْمه وإحاطته .

إذن : مجيء الكتاب لا ليساعدنا على شيء ، إنما ليكون حُجَّة عليك ، فيقال لك : ﴿ اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 14] ها هو تاريخك ، وها هي قصتك ، ليس كلاماً من عندنا ، وإنما فعلْك والحجة عليك .

وعِلْم الله تعالى في قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السمآء والأرض . . ﴾ [الحج : 70] يحمل الوعد والوعيد في وقت واحد ، وهذا من عجائب الأداء القرآني ، أنْ يعطي الشيء ونقيضه ، كيف ؟ هَبْ أن عندك ولديْن اعتدى أحدهما على الآخر في غَيبتك ، فلما عُدْتَ أسرعا بالشكوى ، كل من صاحبه ، فقلتَ لهما : اسكتا لا أسمع لكما صوتاً .

وقد عرفت ما حدث وسأرتب لكل منكما ما يناسبه وما يستحقه على وَفْق ما علمت ، لا شكَّ عندها أن المظلوم سيفرح ويستبشر ، وأن الظالم سيخاف ويتغير لونه .

إذن : فعلم الله بكل شيء في السماء والأرض وإحاطته سبحانه بما يجري بين خَلْقه وَعْد للمحق ، ووعيد للمبطل .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً . . ﴾

كأن العبادة – وهي : طاعة أمر واجتناب نهي – يجب أن تكون صادرة من أعلى منا جميعاً ، فليس لأحد منا أن يُشرِّع للآخر ، فيأمره أو ينهاه ؛ لأن الأمر من المساوى لك لا مُرجح له ، وله أنْ يقول لك : لماذا أنت تأمر وأنا أطيع ؟ أما إنْ جاء الأمر من أعلى منك فأنت تطيع بلا اعتراض ، ومعك الحجة أن الأمر من أعلى منك فأنت تطيع بلا اعتراض ، ومعك الحجة أن الأمر من أعلى ، تقول : أبي أمرني بكذا وكذا ، أو ربي أمرني بكذا وكذا ، أو نهاني عن كذا وكذا .

إذن : كل دليل على حكم الفعل أو الترك لا بُدَّ أنْ يكون مصدره من الحق سبحانه وتعالى ، فهو الأعلى مني ومنك ، وإذا انصعْتَ لأمره ونهيه فلا حرجَ عليَّ ولا ضرر ؛ لأنني ما انصعت لمساوٍ إنما انصعت لله الذي أنا وأنت عبيد له ، ولا غضاضةَ في أن نتبع حكمه .

لذلك في حِكَم أهل الريف يقولون : (اللي الشرع يقطع صباعه مَيْخُرش دم) لماذا ؟ لأنك ما قطعته أنت إنما قطعه الله ، فليس الأمر تسلط أو جبروت من أحد ، وليس فيه مذلّة ولا استكانة لأحد .

ومعنى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ . . ﴾ [الحج : 71] يعني : يعبدون غيره تعالى ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا . . ﴾ [الحج : 71] السلطان : إما سلطان قَهْر ، أو سلطان حجة ، سلطان القهر أن يقهرك ويجبرك على ما لم تُرِدْ فِعْله ، أما سلطان الحجة فيقنعك ويُثبِت لك

بالحجة أن تفعل باختيارك ، وهذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله ليس لها سلطان ، لا قَهْر ولا حُجّة .

لذلك ؛ في جدل إبليس يوم القيامة للذين اتبعوه يقول لهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لي . . ﴾ [إبراهيم : 22] يعني : كنتم على إشارة فاستجبتم لي ، وليس لي عليكم سلطان ، لا قوة أقهركم بها على المعصية ، ولا حجة أقنعكم بها .

(176/528)

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ . . ﴾ [الحج : 71] يعني : علم الاجتهاد الذي يستنبط الأحكام من الحكم المُجْمل الذي يُنزله الحق تبارك وتعالى ، وهذه هي حجة العلم التي قال الله تعالى عنها : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرسول وإلى أُوْلِي الأمر مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ . . ﴾ [النساء : 83] يعني : أهل العلم .

إذن : العبادة لا بُدَّ أن تكون بسلطان من الله نصاً قاطعاً وصريحاً لا يحتمل الجدل ، وإما أنْ تكونَ باجتهاد أُولِي العلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [الحج : 71] لم يقُلْ سبحانه : لن ينتصر

الظالمون ، ولم ينْفِ عنهم النصر ؛ لأن هذه مسألة مُسلمة إنما لا يفزع لنصرتهم أحد ، فلن ينتصروا ولن ينصرهم أحد ، ولا يفزع أحد لينصر أحداً إلا إذا كان المنصور ضعيفاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر . . ﴾ .

تصور هذه الآية حال الكفار عند سماعهم لكتاب الله وآياته من رسول الله أو صحابته ، فإذا سمعوها ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر . . ﴾ [الحج : 72] أي : الكراهية تراها وتقرؤها في وجوههم عُبُوساً وتقطيباً وغضباً وانفعالاً ، ينكر ما يسمعون ، ويكاد أن يتحول الانفعال إلى نزوع غضبي يفتك بمَنْ يقرأ القرآن لما بداخلهم من شر وكراهية لما يتلى عليهم .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتنا . . ﴾ [الحج : 72] والسَّطْو : الفَتْك والبطش ؛ لأن العمل الوجداني الذي يشغل نفوسهم يظهر أولاً على وجوههم انفعالاً يُنبيء بشيء يريدون إيقاعه بالمؤمنين ، ثم يتحول الوجدان إلى نزوع حركي هو الفتك والبطش .

(177/528)

(قُلْ) في الرد عليهم : ماذا يُغضِبكم حتى تسطوا علينا وتكرهوا ما نتلو عليكم من كتاب الله . والغيظ والكراهية عند سماعهم القرآن دليل على عدم قدرتهم على الرد بالحجة ، وعدم قدرتهم أيضاً على الإيمان ؛ لذلك يتقلَّبون بين غيظ وكراهية .

لذلك يخاطبهم بقوله : ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذلكم النار وَعَدَهَا الله الذين كَفَرُواْ . . ﴾ [الحج : 72] يعني : مالي أراكم مغتاظين من آيات الله كارهين لها الآن ، والأمر ما يزال هيِّناً ؟ أمجرد سماع الآيات يفعل بكم هذا كلّه ؟ فما بالكم حينما تباشرون النار في الآخرة ، الغيظ الذي تظنونه شرّاً فتسطُون علينا بسببه أمر بسيط ، وهناك أشرّ منه ينتظركم ﴿ النار وَعَدَهَا الله الذين كَفَرُواْ . . ﴾ [الحج : 72]

وما أشبه هذا بموقف الصِّدِّيق أبي بكر حينما أوقف صناديد قريش بالباب ، وقدّم عليهم المستضعفين من المؤمنين ، فغضبوا لذلك وورِمَتْ أنوفهم ، فقال لهم : أَوَرِمتْ أنوفكم أنْ قدمتهم عليكم الآن ، فكيف بكم حين يُقدمهم الله عليكم في دخول الجنة ؟

وكلمة ﴿ وَعَدَهَا . . ﴾ [الحج : 72] الوعد دائماً يكون بالخير ، أما هنا فاستُعملَتْ على سبيل الاستهزاء بهم والتقليل من شأنهم ، كما قال في آية أخرى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانشقاق : 24] فساعةَ أن يسمع البُشْرى يستشرف للخير ، فيفاجئه العذاب ، فيكون أنكَى له .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه . . ﴾ [

الكهف : 29] لأن انقباض النفس ويأسها بعد بوادر الانبساط أشدّ من العذاب ذاته .

وقوله : ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ [الحج : 72] أي : ساءت نهايتكم ومرجعكم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(178/528)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خلق الله اللوح المحفوظ لمسيرة مائة عام ، وقال : للقلم - قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش - اكتب قال : ما أكتب ؟ قال : علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة ، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة فذلك قوله للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ﴾ يعني ما في السموات السبع والأرضين السبع ﴿ إن ذلك ﴾ العلم ﴿ في كتاب ﴾ يعني في اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يخلق السموات والأرضين ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ يعني هين .

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سيفتح الله على أمتي باباً من القدر في آخر الزمان لا يسده شيء ، ويكفيكم من ذلك أن تقولوا : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ " .

وأخرج اللالكائي في السنة من طريق آخر ، عن سليمان بن جعفر القرشي مرفوعاً مثله مرسلاً .

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يكادون يسطون ﴾ قال : يبطشون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ يكادون يسطون ﴾ قال : يبطشون . كفار قريش ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(179/528)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾

قوله : ﴿ تَعْرِفُ ﴾ : العامَّةُ على " تَعْرِف " خطاباً مبنياً للفاعل . " المُنْكَرَ " مفعول به . وعيسى بن عمر " يُعْرَفُ " بالياءِ من تحتُ مبنياً للمفعول ، و " المنكرُ " مرفوعٌ قائمٌ مقامَ الفاعلِ . والمُنْكَرُ اسمُ مصدرٍ بمعنى الإِنكارِ . وقوله : ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ من إقامةِ الظاهرِ مُقامَ المضمرِ للزيادةِ عليهم بذلك .

قوله : ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ ﴾ هذه حالٌ : إمَّا مِنَ الموصولِ ، وإنْ كان مضافاً إليه ، لأنَّ المضافَ جزؤُه ، وإمَّا من الوجوه لأنها يُعَبَّر بها عن أصحابِها ، كقوله : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ [عبس : 40] ثم قال : " أولئك هم " . و " يَسْطُون " ضُمِّن معنى يَبْطِشُون فيعدى تعديَته ، وإلاَّ فهو متعدٍّ بـ على يُقال : سَطا عليه . وأصلُه القهرُ والغَلَبَةُ . وقيل : إظهارُ ما يُهَوِّلُ للإِخافةِ . ولفلان سَطْوَةٌ أي : تَسَلُّطٌ وقهرٌ .

قوله : " النار " يُقرأ بالحركاتِ الثلاث : فالرفعُ مِنْ وجهين . أحدُهما : الرفعُ على الابتداءِ ، والخبرُ الجملةُ مِنْ " وَعَدَها الله " والجملةُ لا محلَّ لها فإنها مفسِّرةٌ للشرِّ المتقدِّمِ . كأنه قيل : ما شرٌّ من ذلك ؟ فقيل : النارُ وعدها الله . والثاني : أنها خبرُ مبتدأ مضمرٍ كأنه قيل : ما

شرٌّ من ذلك ؟ فقيل : النارُ أي : هو النارُ ، وحينئذٍ يجوزُ في " وعدها الله " الرفعُ على كونِها خبراً بعد خبرٍ .

(180/528)

وأُجيز أن تكون بدلاً من " النار " . وفيه نظرٌ : من حيث إنَّ المُبْدَلَ منه مفردٌ . وقد يُجاب عنه : بأنَّ الجملةَ في تأويلِ مفردٍ ، وتكونُ بدلَ اشتمالٍ . كأنه قيل النارُ وعدها اللهُ الكفارَ . وأجيز أن تكونَ مستأنفةً لا محلَّ لها . ولا يجوزُ أَنْ تكونَ حالاً . قال أبو البقاء : " لأنه ليس في الجملةِ ما يَصْلُح أَنْ يَعْمَلَ في الحال " . وظاهرُ نَقْلِ الشيخ عن الزمخشري أنه يُجيز كونَها حالاً فقال : " وأجاز الزمخشريُّ أَنْ تكونَ " النار " مبتدأً ، و " وعدَها " خبرٌ ، وأَنْ يكونَ حالاً على الإعرابِ الأول " . انتهى . والإعرابُ الأولُ هو كونُ " النار " خبرَ مبتدأ مضمرٍ . والزمخشريُّ لم يجعَلْها حالاً إلاَّ إذا نَصَبْتَ " النار " أو جَرَرْتَها بإضمار " قد " هذا نصُّه . وإنما مَنَعَ ذلكِ لِما تقدَّم من قولِ أبي البقاء ، وهو عدمُ العاملِ .

والنَصبُ وهو قراءةُ زيدِ بن علي وابن أبي عبلة من ثلاثةِ أوجهٍ ، أحدها : أنها منصوبةٌ بفعلٍ مقدرٍ يُفَسِّره الفعلُ الظاهرُ ، والمسألةُ من الاشتغال . الثاني : أنها منصوبةٌ على الاختصاصِ ، قاله الزمخشري . الثالث : أن ينتصبَ بإضمارِ أعني ، وهو قريبٌ مِمَّا قبله أو

هو هو .

/ والجرُّ وهو قراءةُ ابن أبي إسحاق وإبراهيم بن نوح على البدل مِنْ " شر " .

والضميرُ في " وعدها " .

(181/528)

قال الشيخ : " الظاهرُ أنَّه هو المفعولُ الأولُ على أنَّه تعالى وَعَدَ النارَ بالكفار أن يُطْعِمَها إيَّاهم ، ألا ترى إلى قولِه تعالى : ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] ويجوز أَنْ يكونَ الضميرُ هو المفعولَ الثاني ، و ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ هو المفعولَ الأول كما قال : ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ والمنافقات والكفار نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة : 68] . قلت : ينبغي أن يتعيَّنَ هذا الثاني ؛ لأنَّه متى اجتمع بعدما يتعدَّى إلى اثنين شيئان ليس ثانيهما عبارةً عن الأول ، فالفاعلُ المعنويُّ رتبتُه التقديمُ وهو المفعولُ الأولُ . ونعني بالفاعلِ المعنويِّ مَنْ يتأتَّى منه فِعْلٌ . فإذا قلتَ : وَعَدْتُ زيداً ديناراً فالدينار هو المفعول ؛ لأنه لا يتأتَّى من فِعْلٌ ، وهو نظير : " أعطيت زيداً درهماً " ف " زيدٌ " هو الفاعل لأنه آخذُ للدرهم .

قوله : ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ المخصوصُ محذوفٌ . تقديرُه : وبئس المصيرُ هي النارُ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 304 . 307 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70) ﴾

يعلم السِّرَّ والنجوى ، وما تكون حاجةُ العبدِ له أَمَسَّ وأقوى ، وبكلِّ وجهٍ هو بالعبد أَوْلى ، وله أن يحمل له النُّعْمى ، ويزيل عنه البَلْوى ، ولا يسمع منه الشكوى ، فله الحُكْمُ تبارك وتعالى .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71)

الآية تشير أَنَّ مَنْ جملة خواصِّه أفرده – سبحانه – ببرهان ، وأَيَّده ببيان ، وأعزَّه بسلطان . ومَنْ لا سلطانَ له يمتد إليه قَهْرُه ، ومن لا برهان له ينبسط عنه – إلى غيره – نورُه ، فهو بمَعزِلٍ عن جملته .

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾

لِسَمَاعِ الخطاب أَثَرٌ في القلوبِ من الاستبشارِ والبهجة ، أو الإنكار والوحشةِ . ثم ما تخامره السرائرُ يلوحُ على الأسِرّةِ في الظاهر ؛ فكانت الآياتُ عند نزولِها إذا تُلِيَتْ على الكافر يلوح على وجوهِهم دُخَانُ ما تنطوي عليه قلوبُهم من ظلماتِ التكذيب ، فما كان يقع عليهم طَرْفٌ إلاَّ نَبَّأَ عن جحودهم ، وعادت إلى القلوب النُّبُوءَةُ عن إقلاعهم .

ثم أخبر أنَّ الذي هم بصَدَدِه في الآخرةِ من أليم العقوبةِ شرٌّ بكل وجهٍ لهم مِمَّا يعود إلى الرائين لهم عند شهودهم . وإنّ المناظِرَ الوضيئة للرائين مُبْهِجةٌ ، والمناظِرَ المُنْكَرَة للناظرين إليها موحِشَة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 560. 561 ﴾

(183/528)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والعشرون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/529)

الجزء التاسع والعشرون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 73 ﴾ من سورة الحج

وحتى الآية ﴿ 78 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/529)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ

(73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر تعالى عن أنه لا حجة لعابد غيره ، وهدد من عاند ، أتبعه بأن الحجة قائمة على أن ذلك الغير في غاية الحقارة ، ولا قدرة له على دفع ما هدد به عابدوه ولا على غيره ، فكيف بالصلاحية لتلك الرتبة الشريفة ، والخطة العالية المنيفة ، فقال منادياً أهل العقل منبهاً تنبيهاً عاماً : ﴿ يا أيها الناس ﴾ .

ولما كان المقصود من المثل تعقله لا قائله ، بني للمفعول قوله : ﴿ ضرب مثل ﴾ حاصله أن من عبدتموه أمثالكم ، بل هم أحقر منكم ﴿ فاستمعوا ﴾ أي أنصتوا متدبرين ﴿ له ﴾ ثم فسره بقوله : ﴿ إن الذين تدعون ﴾ أي في حوائجكم ، وتجعلونهم آلهة ﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الأعلى من هذه الأصنام التي أنتم بها مغترون ، ولما تدعون فيها مفترون ، لأن سلب القدرة عنها يبين أنها في أدنى المراتب ﴿ لن يخلقوا ذباباً ﴾ أي لا قدرة لهم على ذلك الآن ، ولا يتجدد لهم هذا الوصف أصلاً في شيء من الأزمان ، على حال من الأحوال ، مع صغره ، فكيف بما هو أكبر منه ﴿ ولو اجتمعوا ﴾ أي الذين زعموهم شركاء ﴿ له ﴾ أي الخلق ، فهم في هذا أمثالكم ﴿ وإن ﴾ أي وأبلغ من هذا أنهم عاجزون عن مقاومة الذباب فإنه إن ﴿ يسلبهم الذباب ﴾ أي الذي تقدم أنه لا قدرة لهم على خلقه وهو في غاية

الحقارة ﴿ شيئاً ﴾ من الأشياء جل أو قل مما تطلونهم به من الطيب أو تضعونه بين أيديهم من الأكل أوغيره ﴿ لا يستنقذوه ﴾ أي يوجدوا خلاصه أو يطلبوه ﴿ منه ﴾ فهم في هذا أحقر منكم ، وجهة التمثيل به في الاستلاب الوقاحة ، ولهذا يجوز عند الإبلاغ في الذب ، فلو كانت وقاحته في الأسد لم ينج منه أحد ، ولكن اقتضت الحكمة أن تصحب قوة الأسد النفرة ، ووقاحة الذباب الضعف ، وهو واحد لا جمع ، ففي الجمع بين العباب والمحكم أن ابن عبيدة قال : إنه الصواب ، ثم قال : وفي "كتاب ما تلحن فيه العامة" لأبي عثمان المازني : ويقال : هذا ذباب واحد ، وثلاثة أذّبة ، لأقل العدد ولأكثره ذباب ، وقول الناس : ذبابة - خطأ ، فلا تقله - .

(5/529)

ولما كان هذا ربما أفهم قوة الذباب ، عرف أن المقصود غير ذلك بقوله ، فذلكة للكلام من أوله : ﴿ ضعف الطالب ﴾ أي للاستنقاذ من الذباب ، وهو الأصنام وعابدوها ﴿ والمطلوب ﴾ أي الذباب والأصنام ، اجتمعوا في الضعف وإن كان الأصنام أضعف بدرجات .

ولما أنتج هذا جهلهم بالله ، عبر عنه بقوله : ﴿ ما قدروا الله ﴾ أي الذي له الكمال كله

﴿ حق قدره ﴾ في وصفهم بصفته غيره كائناً من كان ، فكيف وهو أحقر الأشياء .

ولما كان كأنه قيل : ما قدره ؟ قال : ﴿ إن الله ﴾ أي الجامع لصفات الكمال ﴿ لقوي ﴾ على خلق كل ممكن ﴿ عزيز ﴾ لا يغلبه شيء ، وهو يغلب كل شيء بخلاف أصنامهم وغيرها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 176 . 177 ﴾

(6/529)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾

اعلم أنه سبحانه لما بين من قبل أنهم يعبدون من دون الله ما لا حجة لهم فيه ولا علم ، ذكر في هذه الآية ما يدل على إبطال قولهم .

أما قوله تعالى : ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ ففيه سؤالات :

السؤال الأول : الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلاً ؟ والجواب : لما كان المثل في الأكثر نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل ما كان كذلك مثلاً .

السؤال الثاني : قوله : ﴿ ضُرِبَ ﴾ يفيد فيما مضى والله تعالى هو المتكلم بهذا الكلام

ابتداء ؟ الجواب : إذا كان ما يورد من الوصف معلوماً من قبل جاز ذلك فيه ، ويكون ذكره بمنزلة إعادة أمر قد تقدم .

أما قوله : ﴿ فاستمعوا لَهُ ﴾ أي تدبروه حق تدبره لأن نفس السماع لا ينفع ، وإنما ينفع التدبر .

(7/529)

واعلم أن الذباب لما كان في غاية الضعف احتج الله تعالى به على إبطال قولهم من وجهين :

الأول : قوله : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ﴾ قرىء يدعون بالياء والتاء ويدعون مبنياً للمفعول ﴿ وَلَنْ ﴾ أصل في نفي المستقبل إلا أنه ينفيه نفياً مؤكداً فكأنه سبحانه قال : إن هذه الأصنام وإن اجتمعت لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها ، فكيف يليق بالعاقل جعلها معبوداً ، فقوله : ﴿ وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ﴾ نصب على الحال كأنه قال يستحيل أن يخلقوا الذباب حال اجتماعهم فكيف حال انفرداهم

والثاني : أن قوله : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ كأنه سبحانه قال : أترك أمر الخلق والإيجاد وأتكلم فيما هو أسهل منه ، فإن الذباب إن سلب منها شيئاً ، فهي لا تقدر على استنقاذ ذلك الشيء من الذباب ، واعلم أن الدلالة الأولى صالحة لأن

يتمسك بها في نفي كون المسيح والملائكة آلهة ، أما الثانية فلا ، فإن قيل هذا الاستدلال إما أن يكون لنفي كون الأوثان خالقة عالمة حية مدبرة ، أو لنفي كونها مستحقة للتعظيم والأول : فاسد لأن نفي كونها كذلك معلوم بالضرورة ، فأي فائدة في إقامة الدلالة عليه وأما الثاني : فهذه الدلالة لا تفيده لأنه لا يلزم من نفي كونها حية أن لا تكون معظمة ، فإن جهات التعظيم مختلفة ، فالقوم كانوا يعتقدون فيها أنها طلسمات موضوعة على صورة الكواكب ، أو أنها تماثيل الملائكة والأنبياء المتقدمين ، وكانوا يعظمونها على أن تعظيمها يوجب تعظيم الملائكة ، وأولئك الأنبياء المتقدمين والجواب : أما كونها طلسمات موضوعة على الكواكب بحيث يحصل منها الإضرار والانتفاع ، فهو يبطل بهذه الدلالة فإنها لما لم تنفع نفسها في هذا القدر وهو تخليص النفس عن الذبابة فلأن لا تنفع غيرها أولى ، وأما أنها تماثيل الملائكة والأنبياء المتقدمين ، فقد تقرر في العقل أن تعظيم غير الله

(8/529)

تعالى ينبغي أن يكون أقل من تعظيم الله تعالى ، والقوم كانوا يعظمونها غاية التعظيم ، وحينئذ كان يلزم التسوية بينها وبين الخالق سبحانه في التعظيم ، فمن ههنا صاروا مستوجبين للذم والملام .

أما قوله تعالى : ﴿ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ ففيه قولان : أحدهما : المراد منه الصنم والذباب فالصنم كالطالب من حيث إنه لو طلب أن يخلقه ويستنقذ منه ما استلبه لعجز عنه والذباب بمنزلة المطلوب الثاني : أن الطالب من عبد الصنم ، والمطلوب نفس الصنم أو عبادتها ، وهذا أقرب لأن كون الصنم طالباً ليس حقيقة بل هو على سبيل التقدير ، أما ههنا فعلى سبيل التحقيق لكن المجاز فيه حاصل لأن الوثن لا يصح أن يكون ضعيفاً ، لأن الضعف لا يجوز إلا على من يصح أن يقوى ، وههنا وجه ثالث وهو أن يكون معنى قوله : ﴿ ضَعُفَ ﴾ لا من حيث القوة ولكن لظهور قبح هذا المذهب ، كما يقال للمرء عند المناظرة : ما أضعف هذا المذهب وما أضعف هذا الوجه .

أما قوله : ﴿ مَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه ، حيث جعلوا هذه الأصنام على نهاية خساستها شريكة له في المعبودية ، وهذه الكلمة مفسرة في سورة الأنعام ، وهو قوي لا يتعذر عليه فعل شيء وعزيز لا يقدر أحد على مغالبته ، فأي حاجة إلى القول بالشريك .

قال الكلبي في هذه الآية ونظيرها في سورة الأنعام : إنها نزلت في جماعة من اليهود وهم مالك ابن الصيف وكعب بن الأشرف وكعب بن أسد وغيرهم لعنهم الله ، حيث قالوا إنه سبحانه لما فرغ من خلق السموات والأرض أعيا من خلقها فاستلقى واستراح ووضع

إحدى رجليه على الأخرى ، فنزلت هذه الآية تكذيباً لهم ونزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : 38] .

(9/529)

واعلم أن منشأ هذه الشبهات هو القول بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله تعالى عن مشابهة سائر الذوات خلاف ما يقوله المشبهة ، وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات خلاف ما يقوله الكرامية ، وتنزيه أفعاله عن مشابهة سائر الأفعال ، أعني الغرض والداعي واستحقاق المدح والذم خلاف ما تقوله المعتزلة ، قال الإمام أبو القاسم الأنصاري رحمه الله ، فهو سبحانه جبار النعت عزيز الوصف فالأوهام لا تصوره والأفكار لا تقدره والعقول لا تمثله والأزمنة لا تدركه والجهات لا تحويه ولا تحده ، صمدي الذات سرمدي الصفات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 59 . 61 ﴾

(10/529)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾

لأن حجج الله عليهم بضرب الأمثال لهم أقرب لأفهامهم : فإن قيل فأين المثل المضروب ؟

ففيه وجهان :

أحدهما : أنه ليس هنا مثل ومعنى الكلام أنهم ضربوا لله مثلاً في عبادته غيره ، قاله الأخفش .

الثاني : أنه ضرب مثلهم كمن عبد من لا يخلق ذباباً ، قاله ابن قتيبة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه

: أحدها : أنهم الأوثان الذين عبدوهم من دون الله .

الثاني : أنهم السادة الذين صَرَفُوهُم عن طاعة الله .

الثالث : أنهم الشياطين الذين حملوهم على معصية الله .

﴿ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ ليعلمهم أن العبادة إنما تكون للخالق المنشىء دون المخلوق المنشأ ، وخص الذباب لأربعة أمور تخصه : لمهانته وضعفه واستقذاره وكثرته ، وسُمِّي ذباباً لأنه يُذَبُّ احتقاراً واستقذاراً .

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : إفساده لثمارهم وطعامهم حتى يسلبهم إياها .

والثاني : أَلَمُهُ في قرض أبدانهم ، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته فكيف يكونون آلهة معبودين وأرباباً مُطَاعين وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان .

ثم قال : ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون عائداً إلى العَابِد والمَعْبُود ، فيكون في معناه وجهان :

أحدهما : أن يكون عائداً إلى العابد والمعبود .

الثاني : قهر العابد والمعبود .

والاحتمال الثاني : أن يكون عائداً للسالب فيكون في معناه وجهان :

أحدهما : ضعف للسالب عن القدرة والمسلوب عن النُصْرَة .

الثاني : ضعف السالب بالمهانة والمسلوب بالاستكانة .

﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

(11/529)

: أحدها : ما عظموه حق عظمته ، قاله الفراء .

الثاني : ما عرفوه حق معرفته ، قاله الأخفش .

الثالث : ما وصفوه حق صفته ، قاله قطرب . قال ابن عباس : نزلت في يهود المدينة حين قالوا استراح الله في يوم السبت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(12/529)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾

الخطاب بقوله ﴿ يا أيها الناس ﴾ قيل هو خطاب يعم العالم ، وقيل هو خطاب للمؤمنين حينئذ الذين أراد الله تعالى أن يبين عندهم خطأ الكافرين ولا شك أن المخاطب هم ولكنه خطاب يعم جميع الناس .

(13/529)

متى نظره أحد في عبادة الأوثان توجه له الخطاب واختلف المتأولون في فاعل ، ﴿ ضرب ﴾ ، من هو فقالت فرقة : المعنى ﴿ ضرب ﴾ أهل الكفر مثلاً لله أصنامهم وأوثانهم فاستمعوا أنتم أيها الناس لأمر هذه الآلهة ، وقالت فرقة : ﴿ ضرب ﴾ الله مثلاً لهذه

الأصنام وهو كذا وكذا ، فالمثال والمثل في القول الأول هي الأصنام والذي جعل له المثال الله تعالى ، والمثال في التأويل الثاني هو في الذباب وأمره والذي جعل له هي الأصنام ، ومعنى ﴿ ضرب ﴾ أثبت وألزم وهذا كقوله ﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ [آل عمران : 112] ، وكقولك ضربت الجزية ، وضرب البعث ، ويحتمل أن يكون " ضرب المثل " من الضريب الذي هو المثل ومن قولك هذا ضرب هذا فكأنه قال مثل مثل ، وقرأت فرقة " يدعون " بالياء من تحت والضمير للكفار ، وقرأت فرقة "يُدعون " بالياء على ما لم يسم فاعله والضمير للأصنام ، وبدأ تعالى ينفي الخلق والاختراع عنهم من حيث هي صفة ثابتة له مختصة به ، فكأنه قال ليس لهم صفتي ثم ثنى بالأمر الذي بلغ بهم غاية التعجيز ، وذكر تعالى أمر سلب الذباب لأنه كان كثيراً محسوساً عند العرب ، وذلك أنهم كانوا يضمخون أوثانهم بأنواع الطيب فكان الذباب يذهب بذلك وكانوا متألمين من هذه الجهة فجعلت مثلاً ، و" الذباب " جمعه أذبة في القليل وذبان في الكثير كغراب وأغربة وغربان ولا يقال ذبابات إلا في الديون لا في الحيوان ، واختلف المتأولون في قوله تعالى ، ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ ، فقالت فرقة أراد ب ﴿ الطالب ﴾ الأصنام وب ﴿ المطلوب ﴾ الذباب ، أي أنهم ينبغي أن يكونوا طالبين لما يسلب من طيبهم على معهود الأنفة من الحيوان ، وقالت فرقة معناه ضعف الكفار في طلبهم الصواب والفضيلة من جهة الأصنام ، وضعف الأصنام في إعطاء ذلك وإنالته ع ويحتمل أن يريد ﴿ ضعف الطالب ﴾ وهو الذباب في استلابه ما

على الأصنام وضعف الأصنام في أن لا منفعة لهم وعلى كل قول ، فدل ضعف الذباب الذي هو محسوس مجمع

(14/529)

عليه وضعف الأصنام عن هذا المجمع على ضعفه على أن الأصنام في أحط رتبة واخس منزلة ، وقوله ﴿ ما قدروا الله حق قدره ﴾ ، خطاب للناس المذكورين ، والضمير في ﴿ قدروا ﴾ للكفار والمعنى ما وفوه حقه من التعظيم والتوحيد ثم أخبر بقوة الله وعزته وهما صفتان مناقضتان لعجز الأصنام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(15/529)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضُرب مَثَل ﴾

قال الأخفش : إن قيل : أين المَثَل ؟

فالجواب : أنه ليس ها هنا مثَل ، وإنما المعنى : يا أيها الناس ضُرب لي مَثَل ، أي : شبّهت بي

الأوثان ﴿ فاستمعوا ﴾ لهذا المثل .

وتأويل الآية : جعل المشركون الأصنام شركائي فعبدوها معي فاستمِعوا حالها ؛ ثم بيَّن ذلك بقوله : ﴿ إِن الذين تدْعُون ﴾ أي : تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ ، وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وابن أبي عبلة : "يدعون" بالياء المفتوحة .

وقرأ ابن السميفع ، وأبو رجاء ، وعاصم الجحدري : "يُدْعون" بضم الياء وفتح العين ، يعني : الأصنام ، ﴿ لن يَخْلُقوا ذُباباً ﴾ والذباب واحد ، والجمع القليل : أذِبَّة ، والكثير : الذِّبّان ، مثل : غُراب وأَغْرِبة وغِرْبان ؛ وقيل : إنما خص الذُّباب لمهانته واستقذاره وكثرته .

﴿ ولو اجتمعوا ﴾ يعني : الأصنام ﴿ له ﴾ أي : لخَلْقِه ، ﴿ وإن يَسلبهم ﴾ يعني : الأصنام ؛ قال ابن عباس : كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران فيجفّ ، فيأتي الذباب فيختلسه .

وقال ابن جريج : كانوا إذا طيَّبوا أصنامهم عجنوا طيبهم بشيء من الحلواء ، كالعسل ونحوه ، فيقع عليها الذباب فيسلبها إياه ، فلا تستطيع الآلهة ولا مَنْ عبَدها أن يمنعه ذلك .

وقال السدي : كانوا يجعلون للآلهة طعاماً ، فيقع الذباب عليه فيأكل منه .

قال ثعلب : وإنما قال : ﴿ لا يستنقذوه منه ﴾ فجعل أفعال الآلهة كأفعال الآدميين ، إذ كانوا يعظِّمونها ويذبحون لها وتُخاطَب ، كقوله : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ [

النمل : 18] لَمَّا خاطبهم جعلهم كالآدميين ، ومثله : ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ [يوسف : 4] ، وقد بيَّنَّا هذا المعنى في [الأعراف : 191] عند قوله تعالى : ﴿ وهم يُخْلَقون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الطالب : الصنم ، والمطلوب : الذباب .

رواه عطاء عن ابن عباس .

(16/529)

والثاني : الطالب : الذباب يطلب ما يسلبُه من الطيِّب الذي على الصنم ، والمطلوب : الصنم يطلب الذباب منه سَلْبَ ما عليه ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : الطالب : عابد الصنم يطلب التقرُّب بعبادته ، والمطلوب : الصنم ، هذا معنى قول الضحاك ، والسدي .

قوله تعالى : ﴿ ما قَدَرُوا اللهَ حق قدره ﴾ أي : ما عظّموه حق عظمته ، إذ جعلوا هذه الأصنام شركاء له ﴿ إن اللهَ لقويّ ﴾ لا يُقْهَر ﴿ عزيز ﴾ لا يُرَام . انتهى انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ ﴾

هذا متصل بقوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ﴾ .

وإنما قال : "ضُرِب مَثَلٌ" لأن حجج الله تعالى عليهم بضرب الأمثال أقربُ إلى أفهامهم .

فإن قيل : فأين المثل المضروب ؛ ففيه وجهان : الأوّل : قال الأخفش : ليس ثَمّ مثل ، وإنما المعنى ضربوا لي مثلاً فاستمعوا قولهم ؛ يعني أن الكفار جعلوا لله مثلاً بعبادتهم غيره ؛ فكأنه قال جعلوا لي شبيهاً في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشبه .

الثاني : قول القُتَبيّ : وأن المعنى يا أيها الناس ، مَثَلُ من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذباباً وإن سلبها الذباب شيئاً لم تستطع أن تستنقذه منه .

وقال النحاس : المعنى ضرب الله عز وجل ما يُعبد من دونه مثلاً ، قال : وهذا من أحسن ما قيل فيه ؛ أي بيّن الله لكم شبهاً ولمعبودكم .

﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ قراءة العامة "تدعون" بالتاء .

وقرأ السُّلَمِيّ وأبو العالِية ويعقوب "يدعون" بالياء على الخبر .

والمراد الأوثان الذين عبدوهم من دون الله ، وكانت حول الكعبة ، وهي ثلثمائة وستون صنماً .

وقيل : السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله عز وجل .

وقيل : الشياطين الذين حملوهم على معصية الله تعالى ؛ والأوّل أصْوب .

﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً ﴾ الذباب اسم واحد للذكر والأنثى ، والجمع القليل أذَّبة والكثير ذِبّان ؛ على مثل غُراب وأغْربة وغِرْبان ؛ وسُمّي به لكثرة حركته .

الجوهري : والذباب معروف الواحدة ذُبابة ، ولا تقل ذِبّانة .

والمِذَبّة ما يُذَبّ به الذباب .

وذُبَاب أسنان الإبل حَدّها .

وذُباب السيف طَرفه الذي يضرب به .

وذُباب العين إنسانها .

والذُّبَابة البقية من الدَّين .

وذَبّب النهار إذا لم يبق منه إلا بقية .

والتذبذب التحرك .

والذَّبْذَبة نَوْس الشيء المعلّقِ في الهواء .

والذَّبْذَب الذكر لتردّده .

وفي الحديث : " مَن وُقِيَ شَرّ ذَبْذَبِه " (وهذا مما لم يذكره ، أعني قوله : وفي الحديث) .

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ الاستنقاذ والإنقاذ التخليص .

قال ابن عباس : كانوا يَطْلُون أصنامهم بالزّعفران فتجِفّ فيأتي فيختلسه .

وقال السُّدِّي : كانوا يجعلون للأصنام طعاماً فيقع عليه الذباب فيأكله .

﴿ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ قيل ؛ الطالب الآلهةُ والمطلوب الذباب .

وقيل بالعكس .

وقيل : الطالب عابدُ الصنم والمطلوبُ الصنم ؛ فالطالب يطلب إلى هذا الصنم بالتقرّب إليه ، والصنم المطلوب إليه .

وقد قيل : "وإنْ يَسْلُبْهم الذّبابُ شيئاً" راجع إلى ألمه في قرص أبدانهم حتى يسلبهم الصبر لهم والوقار معها .

وخصّ الذباب لأربعة أمور تخصه : لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته ؛ فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيّته فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأرباباً مطاعين .

وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان .

قوله تعالى : ﴿ مَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عظّموه حق عظمته ؛ حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له .

وقد مضى في "الأنعام" .

﴿ إِنَّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(19/529)

وقال أبو حيان :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾

الذباب : الحيوان المعروف يجمع على ذباب بكسر الذال وضمها ، وعلى ذبّ والمَذبَّة ما يطرد به الذباب ، وذباب السيف طرفه والعين إنسانها ، وأسنان الإبل .

سلبت الشيء : اختطفته بسرعة .

استنقذ : استفعل بمعنى أفعل أي أنقذ نحو أبل واستبل .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾

لما ذكر تعالى أن الكفار يعبدون ما لا دليل على عبادته لا من سمع ولا من عقل ويتركون

عبادة من خلقهم ، ذكر ما عليه معبوداتهم من انتفاء القدرة على خلق أقل الأشياء بل على ردّ ما أخذه ذلك الأقل منه ، وفي ذلك تجهيل عظيم لهم حيث عبدوا من هذه صفته لقوله ﴿ إن الذين تدعون ﴾ بتاء الخطاب .

وقيل : خطاب للمؤمنين أراد الله أن يبين لهم خطأ الكافرين فيكون ﴿ تدعون ﴾ خطاباً لغيرهم الكفار عابدي غير الله .

وقيل : الخطاب عام يشمل من نظر في أمر عبادة غير الله ، فإنه يظهر له قبح ذلك .

و ﴿ ضُرب ﴾ مبني للمفعول ، والظاهر أن ضارب المثل هو الله تعالى ، ضرب مثلاً لما يعبد من دونه أي بين شبهاً لكم ولمعبودكم .

وقيل : ضارب المثل هم الكفار ، جعلوا مثلاً لله تعالى أصنامهم وأوثانهم أي فاسمعوا أنتم أيها الناس لحال هذا المثل ونحوه ما قال الأخفش قال : ليس ههنا ﴿ مثل ﴾ وإنما المعنى جعل الكفار لله مثلاً .

وقيل : هو ﴿ مثل ﴾ من حيث المعنى لأنه ﴿ ضرب مثل ﴾ من يعبد الأصنام بمن يعبد ما لا يخلق ذباباً .

وقال الزمخشري : فإن قلت : الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلاً ؟ قلت : قد سميت الصفة أو القصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم انتهى .

وقرأ الجمهور ﴿ تدعون ﴾ بالتاء .

وقرأ الحسن ويعقوب وهارون والخفاف ومحبوب عن أبي عمرو بالياء وكلاهما مبني للفاعل .

وقرأ اليماني وموسى الأسواري بالياء من أسفل مبنياً للمفعول .

(20/529)

وقال الزمخشري ﴿ لن ﴾ أخت لا في نفي المستقبل إلاّ أن تنفيه نفياً مؤكداً ، وتأكيده هنا الدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل مناف لأحوالهم كأنه قال : محال أن يخلقوا انتهى .

وهذا القول الذي قاله في ﴿ لن ﴾ هو المنقول عنه أن ﴿ لن ﴾ للنفي على التأبيد ، ألا تراه فسر ذلك بالاستحالة وغيره من النحاة يجعل ﴿ لن ﴾ مثل لا في النفي ألا ترى إلى قوله ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ كيف جاء النفي بلا وهو الصحيح ، والاستدلال عليه مذكور في النحو .

وبدأ تعالى بنفي اختراعهم وخلقهم أقل المخلوقات من حيث إنّ الاختراع صفة له تعالى ثابتة مختصة لا يشركه فيها أحد ، وثنى بالأمر الذي بلغ بهم غاية التعجيز وهو أمر سلب

﴿ الذباب ﴾ وعدم استنقاذ شيء مما ﴿ يسلبهم ﴾ وكان الذباب كثيراً عند العرب ، وكانوا يضمخون أوثانهم بأنواع الطيب فكان الذباب يذهب بذلك .

وعن ابن عباس : كانوا يطلونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها فيدخل الذباب من الكوى فيأكله .

وموضع ﴿ ولو اجتمعوا له ﴾ قال الزمخشري : نصب على الحال كأنه قال مستحيل : أن يخلقوا الذباب مشروطاً عليهم اجتماعهم جميعاً لخلقه ، وتعاونهم عليه انتهى .

وتقدم لنا الكلام على نظير ﴿ ولو ﴾ هذه ، وتقرر أن الواو فيه للعطف على حال محذوفة ، كأنه قيل ﴿ لن يخلقوا ذباباً ﴾ على كل حال ولو في هذه الحال التي كانت تقتضي أن يخلقوا لأجل اجتماعهم ، ولكنه ليس في مقدورهم ذلك .

﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ قال ابن عباس : الصنم والذباب ، أي ينبغي أن يكون الصنم طالباً لما سلب من طيبهم على معهود الأنفة في الحيوان .

وقيل ﴿ المطلوب ﴾ الآلهة و ﴿ الطالب ﴾ الذباب فضعف الآلهة أن لا منعة لهم ، وضعف الذباب في استلابه ما على الآلهة .

وقال الضحاك : العابد والمعبود فضعف العابد في طلبهم الخير من غير جهته ، وضعف المعبود في إيصال ذلك لعابده .

وقال الزمخشري : وقوله ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف ، ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف لأن الذباب حيوان وهو جماد وهو غالب ، وذاك مغلوب والظاهر أنه إخبار بضعف الطالب والمطلوب .

وقيل : معناه التعجب أي ما أضعف الطالب والمطلوب

.

﴿ ما قدروا الله حق قدره ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته حيث عبدوا من هو منسلخ عن صفاته وسموه باسمه ، ولم يؤهلوا خالقهم للعبادة ثم ختم بصفتين منافيتين لصفات آلهتهم من القوة والغلبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(22/529)

وقال أبو السعود :

﴿ يا أَيُّهَا الناس ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾

أي بُيِّن لكم حالٌ مستغربةٌ أو قصَّةٌ بديعةٌ رائعةٌ حقيقةٌ بأنْ تُسمَّى مثلاً وتسيرَ في الأمصارِ والأعصارِ أو جُعل لله مثلٌ أي مثل في استحقاقِ العبادةِ وأُريد بذلك ما حُكي عنهم من

عبادِتهم للأصنامِ ﴿ فاستمعوا لَهُ ﴾ أي للمثلِ نفسِه استماعَ تدبرٍ وتفكُّرٍ أو فاستمعُوا لأجلِه ما أقولُ فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ الخ ، بيانٌ للمثلِ وتفسيرٌ له على الأوّلِ وتعليلٌ لبطلان جعلهم الأصنامَ مثلَ الله سبحانه في استحقاق العبادةِ على الثَّاني وقُرِىء بياء الغَيبةِ مبنيًّا للفاعلِ ومبنيًّا للمفعولِ والرَّاجع إلى الموصولِ على الأولين محذوفٌ ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً ﴾ أي لن يقدروا على خلقه أبداً مع صغره وحقارتِه فإنَّ (لن) بما فيها من تأكيد النَّفيِ دالَّةٌ على مُنافاة ما بين المنفيِّ والمنفيِّ عنه ﴿ وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ﴾ أي لخلقه وجواب لو محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه والجملةُ معطوفةٌ على شرطيةٍ أُخرى محذوفةٍ ثقةً بدلالة هذه عليها أي لو لم يجتمعوا عليه لن يخلقُوه ولو اجتمعُوا له لن يخلقُوه كما مرَّ تحقيقُه مراراً وهما في موضع الحالِ كأنَّه قيل : لن يخلقُوا ذُباباً على كلِّ حالٍ ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً ﴾ بيان لعجزهم عن الامتناع عمَّا يفعل بهم الذُّبابُ بعد بيانِ عجزِهم عن خلقِه أي إنْ يأخذِ الذُّبابُ منهم شيئاً ﴿ لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ مع غايةِ ضعفِه ولقد جُهلوا غايةَ التَّجهيلِ في إشراكِهم بالله القادرِ على جميع المقدوراتِ المتفرّدِ بإيجاد كافةِ الموجوداتِ تماثيلَ هي أعجزُ الأشياءِ وبين ذلك بأنَّها لا تقدرُ على أقل الأحياءِ وأذلِها ولو اتَّفقُوا عليه بل لا تقوى على مقاومةِ هذا الأقلِ الأذلِّ وتعجز عن ذبِّه عن نفسِها واستنقاذِ ما يختطفُه منها .

قيل : كانُوا يطيّبونها بالطِّيبِ والعسلِ ويُغلقون عليها الأبوابَ فيدخل الذُّبابُ من الكُوى فيأكُله ﴿ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ أي عابدُ الصَّنمِ ومعبودُه أو الذُّبابُ الطَّالبُ لما يسلبُه من الصَّنمِ من الطِّيبِ والصَّنمُ المطلوبُ منه ذلك أو الصَّنمُ والذُّبابُ كأنَّه يطلبه ليستنقذَ منه ما يسلبه ولو حقَّقتَ وجدتَ الصَّنمَ أضعفَ من الذُّبابِ بدرجاتٍ وعابدَه أجهلَ من كلِّ جاهلٍ وأضلَّ من كلِّ ضالَ .

﴿ مَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عرفُوه حقَّ معرفتِه حيث أشركُوا به وسمَّوا باسمه ما هو أبعدُ الأشياءِ عنه مناسبةً ﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ ﴾ على خلق الممكناتِ بأسرها وإفناءِ الموجوداتِ عن آخرها ﴿ عَزِيزٌ ﴾ غالبٌ على جميع الأشياءِ وقد عرفتَ حالَ آلهتِهم المقهورةِ لأذلها العجزة عن أقلها والجملةُ تعليلٌ لما قبلها من نفيِ معرفتهم له تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(24/529)

وقال الآلوسى :

﴿ يا أَيُّهَا الناس ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾

أي بين لكم حال مستغربة أو قصة بديعة رائقة حقيقة بأن تسمى مثلاً وتسير في الأمصار والأعصار ، وعبر عن بيان ذلك بلفظ الماضي لتحقق الوقوع ، ومعنى المثل في الأصل المثل ثم خص بما شبه بمورده من الكلام فصار حقيقة ثم استعير لما ذكر ، وقيل المثل على حقيقته و﴿ ضُرِبَ ﴾ بمعنى جعل أي جعل لله سبحانه شبه في استحقاق العبادة وحكي ذلك عن الأخفش ، والكلام متصل بقوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا ﴾ [الحج : 71] ﴿ فاستمعوا لَهُ ﴾ أي للمثل نفسه استماع تدبر وتفكر أو لأجله ما أقول فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ إلى آخره بيان للمثل وتفسير له على الأول وتعليل لبطلان جعلهم معبوداتهم الباطلة مثلاً لله تعالى شأنه في استحقاق العبادة على الثاني ، ومنهم من جعله على ما ذكرنا وعلى ما حكي عن الأخفش تفسيراً أما على الأول فللمثل نفسه بمعناه المجازي وأما على الثاني فلحال المثل بمعناه الحقيقي ، فإن المعنى جعل الكفار لله مثلاً فاستمعوا لحاله وما يقال فيه ، والحق الذي لا ينكره إلا مكابر أن تفسير الآية بما حكى فيه عدول عن المتبادر .

والظاهر أن الخطاب في ﴿ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس ﴾ لجميع المكلفين لكن الخطاب في ﴿ تَدْعُونَ ﴾ للكفار .

واستظهر بعضهم كون الخطاب في الموضعين للكفار والدليل على خصوص الأول الثاني ، وقيل هو في الأول للمؤمنين ناداهم سبحانه ليبين لهم خطأ الكافرين ، وقيل هو في الموضعين

عام وأنه في الثاني كما في قولك : أنتم يا بني تميم قتلتم فلاناً وفيه بحث .

وقرأ الحسن .

ويعقوب .

وهارون .

والخفاف .

(25/529)

ومحبوب عن أبي عمرو ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ بالياء التحتية مبنياً للفاعل كما في قراءة الجمهور .

وقرأ اليماني .

وموسى الأسواري ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ بالياء من تحت أيضاً مبنياً للمفعول ، والراجع للموصول على القراءتين السابقتين محذوف ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً ﴾ أي لا يقدرون على خلقه مع صغره وحقارته ، ويدل على أن المراد نفي القدرة السباق مع قوله تعالى : ﴿ وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ﴾ أي لخلقه فإن العرف قاض بأنه لا يقال : لن يحمل الزيدون كذا ولو اجتمعوا لحمله إلا إذا أريد نفي القدرة على الحمل ، وقيل جاء ذلك من النفي بلن فإنها مفيدة لنفي مؤكد فتدل على منافاة بين المنفى وهو الخلق والمنفى عنه وهو المعبودات الباطلة فتفيد عدم

قدرتها عليه ، والظاهر أن هذا لا يستغنى عن معونة المقام أيضاً ، وأنت تعلم أن في إفادة لن النفي المؤكد خلافاً ؛ فذهب الزمخشري إلى إفادتها ذلك وأن تأكيد النفي هنا للدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل وقال في أنموذجه بإفادتها التأبيد .

وذهب الجمهور وقال أبو حيان : هو الصحيح إلى عدم إفادتها ذلك وهي عندهم أخت لا لنفي المستقبل عند الإطلاق بدون دلالة على تأكيد أو تأبيد وأنه إذا فهم فهو من خارج وبواسطة القرائن وقد يفهم كذلك مع كون النفي بلا فلو قيل هنا لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له لفهم ذلك ، ويقولون في كل ما يستدل به الزمخشري لمدعاه : إن الإفادة فيه من خارج ولا يسلمون أنها منها ولن يستطيع إثباته أبداً .

(26/529)

والانتصار بأن سيفعل في قوة مطلقة عامة ولن يفعل نقيضه فيكون في قوة الدائمة المطلقة ولا يتأتى ذلك إلا بإفادة لن التأبيد ليس بشيء أصلاً كما لا يخفى ، وكأن الذي أوقع الزمخشري في الغفلة فقال ما قال اعتماداً على ما لا ينتهض دليلاً شدة التعصب لمذهبه الباطل واعتقاده العاطل نسأل الله تعالى أن يحفظنا من الخذلان ، والذباب اسم جنس ويجمع على أذبة وذبان بكسر الذال فيهما وحكى في البحر ضمها في ذبان أيضاً ، وهو مأخوذ من

الذب أي الطرد والدفع أو من الذب بمعنى الاختلاف أي الذهاب والعود وهو أنسب بحال الذباب لما فيه من الاختلاف حتى قيل : إنه منحوت من ذب آب أي طرد فرجع ، وجواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والجملة معطوفة على شرطية أخرى محذوفة ثقة بدلالة هذه عليها أي لو لم يجتمعوا له ويتعاونوا عليه لن يخلقوه ولو اجتمعوا له وتعاونوا عليه لن يخلقوا وهما في موضع الحال كأنه قيل : لن يخلقوا ذباباً على كل حال .

وقال بعضهم : الواو للحال ﴿ وَلَوْ اجتمعوا لَهُ ﴾ بجوابه حال ، وقال آخرون : إن ﴿ لَوْ ﴾ هنا لا تحتاج إلى جواب لأنها انسلخت عن معنى الشرطية وتمحضت للدلالة على الفرض والتقدير ، والمعنى لن يخلقوا ذباباً مفروضاً اجتماعهم ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً ﴾ بيان لعجزهم عن أمر آخر دون الخلق أي وإن يأخذ الذباب منها شيئاً ﴿ لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ أي لا يقدروا على استنقاذه منه مع غاية ضعفه .

والظاهر أن استنقذ بمعنى نقذ ، وفي الآية من تجهيلهم في إشراكهم بالله تعالى القادر على جميع الممكنات المتفرد بإيجاد كافة الموجودات عجزة لا تقدر على خلق أقل الأحياء وأذلها ولو اجتمعوا له ولا على استنقاذ ما يختطفه منهم ما لا يخفى .

(27/529)

والآية وإن كانت نازلة في الأصنام فقد كانوا كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يطلونها بالزعفران ورؤسها بالعسل ويغلقون عليها فيدخل الذباب من الكوى فيأكله ، وقيل : كانوا يضمخونها بأنواع الطيب فكان الذباب يذهب بذلك إلا أن الحكم عام لسائر المعبودات الباطلة .

﴿ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ تذييل لما قبل اختبار أو تعجب والطالب عابد غير الله تعالى والمطلوب الآلهة كما روي عن السدى .

والضحاك ، وكون عابد ذلك طالباً لدعائه إياه واعتقاده نفعه ، وضعفه لطلبه النفع من غير جهته ، وكون الآخر مطلوباً ظاهراً كضعفه ، وقيل الطالب الذباب يطلب ما يسلبه عن الآلهة والمطلوب الآلهة على معنى المطلوب منه ما يسلب .

وروي ابن مردويه .

وابن جرير .

وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما واختاره الزمخشري أن الطالب الأصنام والمطلوب الذباب ، وفي هذا التذييل حينئذ ايهام التسوية وتحقيق أن الطالب أضعف لأنه قدم عليه أن هذا الخلق الأقل هو السالب وذلك طالب خاب عن طلبته ولما جعل السلب المسلوب لهم وأجراهم مجرى العقلاء أثبت لهم طلباً ولما بين أنهم أضعف من أذل الحيوانات نبه به على مكان التهكم بذلك .

ومن الناس من اختار الأول لأنه أنسب بالسياق إذ هو لتجهيلهم وتحقير ءالهتهم فناسب إرادتهم وآلهتهم من هذا التذييل .

﴿ مَا قَدَرُواْ اللهَ قَدْرِهِ ﴾

قال الحسن . والفراء : أي ما عظموه سبحانه حق تعظيمه فإن تعظيمه تعالى حق تعظيمه أن يوصف بما وصف به نفسه ويعبد كما أمر أن يعبد وهؤلاء لم يفعلوا ذلك فانهم عبدوا من دونه من لا يصلح للعبادة أصلاً وفي ذلك وصفه سبحانه بما نزه عنه سبحانه من ثبوت شريك له عز وجل .

(28/529)

وقال الأخفش : أي ما عرفوه حق معرفته فإن معرفته تعالى حق معرفته التصديق به سبحانه موصوفاً بما وصف به نفسه وهؤلاء لم يصدقوا به كذلك لشركهم به وعبادتهم من دونه من سمعت حاله ، وقيل : حق المعرفة أن يعرف سبحانه بكنهه وهذا هو المراد في قوله عليه الصلاة والسلام : " سبحانك ما عرفناك حق معرفتك " .

وأنت تعلم أن الظاهر أن قوله تعالى : ﴿ مَا قَدَرُواْ ﴾ الخ أخبار عن المشركين وذم لهم ومتى كان المراد منه نفي المعرفة بالكنه كان الأمر مشتركاً بينهم وبين الموحدين فإن المعرفة

بالكنه لم تقع لأحد من الموحدين أيضاً عند المحققين ويشير إلى ذلك الخبر المذكور لدلالته على عدم حصولها لأكمل الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام وإذا لم تحصل له صلى الله عليه وسلم فعدم حصولها لغيره بالطريق الأولى ، واحتمال حمل المعرفة المنفية فيه على اكتناه الصفات لا يخفى حاله ، وكذا احتمال حصول المعرفة بالكنه له عليه الصلاة والسلام بعد الأخبار المذكور ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " تفكروا في آلاء الله تعالى ولا تفكروا في ذاته فانكم لن تقدروا قدرة " .

والظاهر عموم الحكم دون اختصاصه بالمخاطبين إذ ذاك ، وقول الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك ، وقول علي كرم الله تعالى وجهه متماً له بيتاً :

والبحث عن سر ذات الله إشراك بل قال حجة الإسلام الغزالي .

وشيخه إمام الحرمين .

والصوفية .

والفلاسفة بامتناع معرفته سبحانه بالكنه .

ونقل عن أرسطوا أنه قال في ذلك : كما تعتري العين عند التحديق في جرم الشمس ظلمة وكدورة تمنعها عن تمام الأبصار كذلك تعتري العقل عند إرادة اكتناه ذاته تعالى حيرة ودهشة تمنعه عن اكتناهه سبحانه .

ولا يخفى أنه لا يصلح برهاناً للامتناع وغاية ما يقال : إنه خطابي لا يحصل به إلا الظن الغير الكافي في مثل هذا المطلب ، ومثله الاستدلال بأن جميع النفوس المجردة البشرية وغيرها مهذبة كانت أو لا أنقص تجرداً وتنزهاً من الواجب تعالى والأنقص يمتنع له اكتناه من هو أشد تجرداً وتنزهاً منه كامتناع اكتناه الماديات للمجردات ، وكذا الاستدلال بكونه تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد فيمتنع إدراكه كما يمتنع إدراك البصر ما اتصل به ، وأحسن من ذلك كله ما قيل : إن معرفة كنهه ليست بديهية بالضرورة بالنسبة إلى شخص وإلى وقت فلا تحصل لأحد في وقت بالضرورة فتكون كسبية والكسب إما نحد تام أو ناقص وهو محال مستلزم لتركب الواجب لوجوب تركب الحد من الجنس القريب أو البعيد ومن الفصل مع أن الحد الناقص لا يفيد الكنه ، وأما الحد البسيط بمفرد فمحال بداهة فإن ذلك المفرد إن كان عين ذاته يلزم توقف معرفة الشيء على معرفة نفسه من غير مغايرة بينهما ولو بالإجمال والتفصيل كما في الحد المركب مع حده التام ، وإن كان غيره فلا يكون حداً بل هو رسم أو مفهوم آخر غير محمول عليه وإما برسم تام أو ناقص ولا شيء منهما مما يفيد الكنه بالضرورة .

(30/529)

واعترض بأن عدم إمكان البداهة بالنسبة إلى جميع الأشخاص وإلى جميع الأوقات يحتاج إلى دليل فربما تحصل بعد تهذيب النفس بالشرائع الحقة وتجريدها عن الكدورات البشرية والعوائق الجسمانية ، ولو سلمنا عدم إمكان البداهة كذلك فلنا أن نختار كون المعرفة مما تكتسب بالحد التام المركب من الجنس والفصل وغاية ما يلزم منه التركب العقلي وليس بمحال إلا إن قلنا بأنه يستلزم التركب الخارجي المستلزم للاحتياج إلى الأجزاء المنافي لوجوب الوجود ، ونحن لا نقول بذلك لأن المختار عند جمع أن أجزاء الماهية مأخوذة من أمر واحد بسيط وهي متحدة ماهية ووجوداً فتكون أموراً انتزاعية لا حقيقية فلا استلزام ، نعم يكون ذلك إن قلنا : إلا الاجزاء مأخوذة من أمور متغايرة بحسب الخارج لكن لا نقول به لأنه إن قيل حينئذ بتغاير الأجزاء أنفسها ماهية ووجوداً كما ذهب إليه طائفة يرد لزوم عدم صحة الحمل بينها ضرورة أن الموجودين بوجودين متغايرين لا يحمل أحدهما على الآخر كزيد وعمرو ، وإن قيل بتغايرها ماهية لا وجوداً ليصح الحمل كما ذهب إليه طائفة أخرى يرد لزوم قيام الوجود الواحد بالشخص بموجودات متعددة متغايرة بالماهية ، ولو سلمنا الاستلزام بين التركب العقلي والتركب الخارجي فلنا أن نقول : لا نسلم أنه لا شيء من الرسم مما يفيد الكنه بالضرورة كيف وهو مفيد فيما إذا كان الكنه لازماً للرسم لزوماً بيناً بالمعنى الأخص بل يمكن إفادة كل رسم إياه على قاعدة الأشعري من استناد جميع

الممكنات إليه تعالى بلا شرط وإن لم تقع تلك الإفادة أصلاً إذ الكلام في امتناع حصول الكنه بالكسب كذا قالوا .

(31/529)

واستدّل الملاّ صدرا على نفي الأجزاء العقلية له تعالى بأن حقيقته سبحانه انية محضة ووجود بحت فلو كان له عز وجل جنس وفصل لكان جنسه مفتقراً إلى الفصل لا في مفهومه ومعناه بل في أن يوجد ويحصل بالفعل فحينئذ يقال : ذلك الجنس لا يخلو إما أن يكون وجوداً محضاً أو ماهية غير الوجود ، فعلى الأول يلزم أن يكون ما فرضنا فصلاً ليس بفصل إذ الفصل ما به يوجد الجنس وهذا إنما يتصور إذا لم يكن حقيقة الجنس حقيقة الوجود ، وعلى الثاني يلزم أن يكون الواجب تعالى ذا ماهية وقد حقق أن نفس الوجود حقيقته بلا شوب ، وأيضاً لو كان له تعالى جنس لكان مندرجاً تحت مقولة الجوهر وكان أحد الأنواع الجوهرية فيكون مشاركاً لسائرها في الجنس ؛ وقد برهن على إمكانها وحقق أن إمكان النوع يستلزم إمكان الجنس المستلزم لإمكان كل واحد من أفراد ذلك الجنس من حيث كونه مصداقاً له إذ لو امتنع الوجود على الجنس من حيث هو جنس أي مطلقاً لكان ممتنعاً على كل فرد فإذا يلزم من ذلك إمكان الواجب تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، ومبني هذا أن حقيقة

الواجب تعالى هو الوجود البحت وهو مما ذهب الحكماء وأجلة من المحققين ، وليس المراد من هذا الوجود المعنى المصدري الذي لا يجهله أحد فإنه مما لا شك في استحالة كونه حقيقة الواجب سبحانه بل هو بمعنى مبدأ الآثار على ما حققه الجلال الدواني وأطال الكلام فيه في حواشيه على شرح التجريد وفي شرحه للهياكل النورية وفي غيرهما من رسائله ، وللملا صدرا في هذا المقام والبحث في كلام الجلال كلام طويل عريض وقد حقق الكلام بطرز آخر يطلب من كتابه الأسفار بيد أنا نذكر هنا من كلامه سؤالاً وجواباً يتعلقان فيما نحن فيه فنقول :

(32/529)

قال فإن قلت : كيف يكون ذات الباري سبحانه عين حقيقة الوجود والوجود بديهي التصور وذات الباري مجهول الكنه ؟ قلت : قد مر أن شدة الظهور وتأكد الوجود هناك مع ضعف قوة الإدراك وضعف الوجود ههنا صاراً منشأين لاحتجابه تعالى عنا وإلا فذاته تعالى في غاية الإشراق والإنارة ، فإن رجعت وقلت : إن كان ذات الباري نفسه الوجود فلا يخلو إما أن يكون الوجود حقيقة الذات كما هو المتبادر أو يكون صادقاً عليها صدقاً عرضياً كما يصدق عليه تعالى مفهوم الشيء ، وعلى الأول إما أن يكون المراد به هذا

المعنى العام البديهي التصور المنتزع من الموجودات أو معنى آخر والأول ظاهر الفساد والثاني يقتضي أن يكون حقيقته تعالى غير ما يفهم من لفظ الوجود كسائر الماهيات غير أنك سميت تلك الحقيقة بالوجود كما إذا سمي إنسان بالوجود ومن البين أنه لا أثر لهذه التسمية في الأحكام وأن هذا القسم راجع إلى الواجب ليس الوجود الذي الكلام فيه ويلزم أن يكون الواجب تعالى ذا ماهية وقد برهن أن كل ذي ماهية معلول ، وعلى الثاني وهو أن يصدق عليه تعالى صدقاً عرضياً فلا يخفى أن ذلك لا يغنيه عن السبب بل يستدعي أن يكون موجوداً ولذلك ذهب جمهور المتأخرين من الحكماء إلى أن الوجود معدوم فأقول .

(33/529)

منشأ هذا الاشكال حسبان أن معنى كون هذا العام المشترك عرضياً أن للمعروض موجودية وللعارض موجودية أخرى كالماشي بالنسبة إلى الحيوان والضاحك بالقياس إلى الإنسان وليس كذلك بل هذا المفهوم عنوان وحكاية للوجودات العينية ونسبته إليها نسبة الإنسانية إلى الإنسان والحيوانية إلى الحيوان فكما أن مفهوم الإنسانية صح أن يقال : إنها عين الإنسان لأنها مرآة لملاحظته وحكاية عن جهته صح أن يقال : إنها غيره لأنها أمر نسبي والإنسان ماهية جوهرية ، وبالجملة الوجود ليس كالامكان حتى لا يكون بإزائه شيء

يكون المعنى المصدري حكاية عنه بل كالسواد الذي قد يراد به نفس المعنى النسبي أعنى الأسودية وقد يراد به ما يكون به الشيء أسود أعني الكيفية المخصوصة فكما أن السواد إذا فرض قيامه بذاته صح أن يقال ذاته عين الأسودية وإذا فرض جسم متصف به لم يجز أن يقال إن ذاته عين الأسودية مع أن هذا الأمر لكونه اعتباراً ذهنياً زائد على الجميع ، إذا تقرر هذا قلنا في الجواب في الترديد الأول : نختار الشق الأول وهو أن الوجود حقيقة الذات قولك في الترديد الثاني إما أن يكون ذلك الوجود ما يفهم من لفظ الوجود الخ نختار منه ما بإزاء ما يفهم من هذا اللفظ أعني حقيقة الوجود الخارجي الذي هذا المفهوم حكاية عنه فإن للوجود عندنا حقيقة في كل موجود كما أن للسواد حقيقة في كل أسود لكن في بعض الموجودات مخلوط بالنقائص والاعدام وفي بعضها ليس كذلك وكما أن السوادات متفاوتة في السوادية بعضها أقوى وأشد وبعضها أضعف وأنقص كذلك الموجودات بل الوجودات متفاوتة في الموجودية كما لا ونقصاناً ، ولنا أيضاً أن نختار الشق الثاني من شقي الترديد الأول إلا أن هذا المفهوم الكلي وإن كان عرضياً بمعنى أنه ليس له بحسب كونه مفهوماً عنوانياً وجود في الخارج حتى يكون عيناً لشيء لكنه حكاية عن نفس حقيقة الوجود القائم بذاته وصادق عليه بحيث يكون منشأ صدقه ومصداق حمله عليها نفس تلك

الحقيقة لا شيئاً آخر يقوم به كسائر العرضيات في صدقها على الأشياء فصدق هذا المفهوم على الوجود الخاص يشبه صدق الذاتيات من هذه الجهة ، فعلى هذا لا يرد علينا قولك : صدق الوجود عليه لا يغنيه عن السبب لأنه لم يكن يغنيه عن السبب لو كان موجوديته بسبب عروض هذا المعنى أو قيام حصة من الوجود وليس كذلك بل ذلك الوجود الخاص بذاته موجود كما أنه بذاته وجود سواء حمل عليه مفهوم الوجود أو لم يحمل ، والذي ذهب الحكماء إلى أنه معدوم ليس هو الوجودات الخاصة بل هذا الأمر العام الذهني الذي يصدق على الاينات والخصوصيات الوجودية انتهى ، وما أشار إليه من تعدد الوجودات قال به المشاؤون وهي عند الأكثرين حقائق متخالفة متكثرة بأنفسها لا بمجرد عارض الإضافة إلى الماهيات لتكون متماثلة الحقيقة ولا بالفصول ليكون الوجود المطلق جنساً لها ، وقال بعضهم بالاختلاف بالحقيقة حيث يكون بينها من الاختلاف ما بالتشكيك كوجود الواجب ووجود الممكن وكذا وجود المجردات ووجود الأجسام ؛ وقالت طائفة من الحكماء المتألهين إنه ليس في الخارج الا وجود واحد شخصي مجهول الكنه وهو ذات الواجب تعالى شأنه وأما الممكنات المشاهدة فليس لها وجود بل ارتباط بالوجود الحقيقي الذي هو الواجب بالذات ونسبة إليه ، نعم يطلق عليها أنها موجودة بمعنى أن لها نسبة إلى الواجب تعالى فمفهوم الموجود أعم من الوجود القائم بذاته ومن الأمور المنتسبة إليه نحواً من

الانتساب وصدق المشتق لا ينافي قيام مبدأ الاشتقاق بذاته الذي مرجعه إلى عدم قيامه بالغير ولا كون ما صدق عليه أمراً منتسباً إلى المبدأ لا معروضاً له بوجه من الوجوه كما في الحداد والمشمس على أن أمر اطلاق أهل اللغة وأرباب اللسان لا عبرة به في تصحيح الحقائق ، وقالوا : كون المشتق في المعقولات الثانية والبديهيات الأولية لا يصادم كون المبدأ حقيقة متأصلة متشخصة مجهولة الكنه وثانوية المعقول وتأصله قد يختلف بالقياس إلى الأمور

(35/529)

ولا يخفى ما فيه من الأنظار ، ومثله ما دار على السنة طائفة من المتصوفة من أن حقيقة الواجب المطلق تمسكاً بأنه لا يجوز أن يكون عدماً أو معدوماً وهو ظاهر ولا ماهية موجودة بالوجود أو مع الوجود تعليلاً أو تقييداً لما في ذلك من الاحتياج والتركيب فتعين أن يكون وجوداً وليس هو الوجود الخاص لأنه إن أخذ مع المطلق فمركب أو مجرد المعروض فمحتاج ضرورة احتياج المقيد إلى المطلق ، ومتمسكهم هذا أوهن من بيت العنكبوت ، والذي حققته من كتب الشيخ الأكبر قدس سره وكتب أصحابه أن الله سبحانه ليس عبارة عن الوجود المطلق بمعنى الكلي الطبيعي الموجود في الخارج في ضمن أفراده ولا

بمعنى أنه معقول في النفس مطابق لكل واحد من جزئياته في الخارج على معنى أن ما في النفس لو وجد في أي شخص من الأشخاص الخارجية لكان ذلك الشخص بعينه من غير تفاوت أصلاً بل بمعنى عدم التقيد بغيره مع كونه موجوداً بذاته ، ففي الباب الثاني من الفتوحات أن الحق تعالى موجود بذاته لذاته مطلق الوجود غير مقيد بغيره ولا معلول من شيء ولا علة لشيء بل هو خالق المعلولات والعلل .

والملك القدوس الذي لم يزل .

وفي النصوص للصدر القونوي تصور اطلاق الحق يشترط فيه أن يتعقل بمعنى أنه وصف سلبي لا يمعنى أنه اطلاق ضده التقييد بل هو إطلاق عن الوحدة والكثرة المعلومتين وعن الحصر أيضاً في الإطلاق والتقييد وفي الجمع بين كل ذلك والتنزيه عنه فيصح في حقه كل ذلك حال تنزهه عن الجميع .

وذكر بعض الأجلة أن الله تعالى عند السادة الصوفية هو الوجود الخاص الواجب الوجود لذاته القائم بذاته المتعين بذاته الجامع لكل كمال المنزه عن كل نقص المتجلي فيما يشاء من المظاهر مع بقاء التنزيه ثم قال : وهذا ما يقتضيه أيضاً قول الأشعري بأن الوجود عين الذات مع قوله الأخير في كتابه الأبانة بإجراء المتشابهات على ظواهرها مع التنزيه بليس كمثله شيء .

وتحقيق ذلك أنه قد ثبت بالبرهان أن الواجب الوجود لذاته موجود فهو إما الوجود المجرد عن الماهية المتعين بذاته أو الوجود المقترن بالماهية المتعين بحسبها أو الماهية المعروضة للوجود المتعين بحسبها أو المجموع المركب من الماهية والوجود المتعين بحسبها لا سبيل إلى الرابع لأن التركيب من لوازمه الاحتياج ولا إلى الثالث لاحتياج الماهية في تحققها الخارجي إلى الوجود ولا إلى الثاني لاحتياج الوجود إلى الماهية في تشخصه بحسبها والاحتياج في الجميع ينافي الوجوب الذاتي فتعين الأول فالواجب سبحانه الموجود لذاته هو الوجود المجرد عن الماهية المتعين بذاته ، ثم هو إما أن يكون مطلقاً بالإطلاق الحقيقي وهو الذي لا يقابله تقييد القابل لكل إطلاق وتقييد وإما أن يكون مقيداً بقيد مخصوص لا سبيل إلى الثاني لأن المركب من القيد ومعروضه من لوازمه الاحتياج المنافي للوجوب الذاتي فتعين الأول فواجب الوجود لذاته هو الوجود المجرد عن الماهية القائم بذاته المتعين بذاته المطلق بالإطلاق الحقيقي ، وأهل هذا القول ذهبوا إلى أنه ليس في الخارج إلا وجود واحد وهو الوجود الحقيقي وأنه لا موجود سواه وماهيات الممكنات أمور معدومة متميزة في أنفسها تميزاً ذاتياً وهي ثابتة في العلم لم تشم رائحة الوجود ولا تشمه أبداً لكن تظهر أحكامها في الوجود المفاض وهو النور المضاف ويسمى العماء والحق المخلوق به وهؤلاء هم المشهورون بأهل الوحدة ، ولعل القول الذي نقلناه عن بعض الحكماء المتألهين يرجع إلى

قولهم وهو طور ما وراء طور العقل وقد ضل بسببه أقوام وخرجوا من ربقة الإسلام ، وبالجملة إن القول بأن حقيقة الواجب تعالى غير معلومة لأحد علماً اكتناهياً احاطياً عقلياً أو حسياً مما لا شبهة عندي في صحته وإليه ذهب المحققون حتى أهل الوحدة ، والقول بخلاف ذلك المحكى عن بعض المتكلمين لا ينبغي أن يلتفت إليه أصلاً ، ولا أدري هل تمكن معرفة الحقيقة أولا تمكن ولعل القول

(37/529)

بعدم إمكانها أوفق بعظمته تعالى شأنه وجل عن إحاطة العقول سلطانه ، وأما شهود الواجب بالبصر ففي وقوعه في هذه النشأة خلاف بين أهل السنة وأما في النشأة الآخرة فلا خلاف فيه سوى أن بعض الصوفية قالوا : إنه لا يقع إلا باعتبار مظهر ما وأما باعتبار الإطلاق الحقيقي فلا ، وأما شهوده سبحانه بالقلب فقد قيل بوقوعه في هذه النشأة لكن على معنى شهود نوره القدسي ويختلف ذلك باختلاف الاستعداد لا على معنى شهود نفس الذات والحقيقة ومن ادعى ذلك فقد اشتبه عليه الأمر فادعى ما ادعى .

هذا ومن الناس من قال : لا مانع من أن يراد من ﴿ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ حق معرفته ويراد من حق معرفته المعرفة بالكنه وكونها غير حاصلة لأحد مؤمناً كان أو غيره لا يضر فيما نحن

فيه لأن المراد إثبات عظمته تعالى المنافية لما عليه المشركون وكونه سبحانه لا يعرف أحد كنه حقيقته يستدعي العظمة على أتم وجه فتأمل جميع ذلك والله تعالى الموفق للصواب .

﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ ﴾ على جميع الممكنات ﴿ عَزِيزٌ ﴾ غالب على جميع الأشياء وقد علمت حال آلهتهم المقهورة لأذل العجزة ، والجملة في موضع التعليل لما قبلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(38/529)

وقال القاسمى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ ﴾

أي : بُيِّنَ : ﴿ مَثَلٌ ﴾ أي : حال مستغرب : ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ أي : تدبروه حق تدبره . فإن الاستماع بلا تدبر وتعقل لا ينفع : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ يعني : الأصنام : ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ أي : لخلقه متعاونين . وتخصيصه الذباب ، لمهانته وضعفه واستقذاره . وهذا من أبلغ ما أنزل في تجهيل المشركين . حيث وصفوا بالإلهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها ، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها ، صوراً وتماثيل ، يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله ، ولو اجتمعوا

لذلك : ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ أي : هذا الخلق الأقل الأذل ، لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه ، لم يقدروا : ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ ﴾ أي : الصنم يطلب ما سلب منه : ﴿ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ أي : الذباب بما سلب . وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف . ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف . فإن الذباب حيوان وهو جماد . وهو غالب وذلك مغلوب . وجوز أن يراد بالطالب عابد الصنم ، وبالمطلوب معبوده . قيل : وهو أنسب بالسياق لأنه لتجهيلهم وتحقير معبوداتهم . فناسب إرادتهم والأصنام من هذا التذييل . واختار الوجه الأول الزمخشري . لما فيه من التهكم ، بجعل الصنم طالباً على الفرض تهكماً وأنه أضعف من الذباب لأنه مسلوب وجماد ، وذلك حيوان بخلافه .

وهذه الجملة التذييلية إخبار أو تعجب . وقوله تعالى : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي : ما عرفوه حق معرفته ، حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي : قادر وغالب . فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهاً به . أو لقويّ بنصر أوليائه ، عزيز ينتقم من أعدائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 289 ﴾

(39/529)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾

والخطاب بـ ﴿ يا أيها الناس ﴾ للمشركين لأنهم المقصود بالردّ والزجر وبقرينة قوله : ﴿ إن الذين تدعون ﴾ على قراءة الجمهور ﴿ تدعون ﴾ بتاء الخطاب .

فالمراد بـ ﴿ الناس ﴾ هنا المشركون على ما هو المصطلح الغالب في القرآن .

ويجوز أن يكون المراد بـ ﴿ الناس ﴾ جميعَ الناس من مسلمين ومشركين .

وفي افتتاح السورة بـ ﴿ يا أيها الناس ﴾ وتنهيتها بمثل ذلك شبه بردّ العجز على الصدر .

ومما يزيده حسناً أن يكون العجز جامعاً لما في الصدر وما بَعده ، حتى يكون كالنتيجة للاستدلال والخلاصةِ للخطبة والحَوصلة للدرس .

وضرب المثل : ذِكرهُ وبيانُه ؛ استعير الضرب للقول والذكر تشبيهاً بوضع الشيء بشدّة ، أي ألقي إليكم مثَل .

وتقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ أن يضرب مثلاً ما ﴾ في [سورة البقرة : 26] .

وبني فعل ﴿ ضُرب ﴾ بصيغة النائب فلم يذكر له فاعل بعكس ما في المواضع الأخرى التي صُرّح فيها بفاعل ضَرْب المثل نحو قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما ﴾ في [سورة البقرة : 26] و ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً ﴾ في [سورة النحل : 75

] و﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً ﴾ في [سورة الزمر : 29] و﴿ ضرب الله مثلاً رجلين ﴾ في [سورة النحل : 76] .

إذ أسند في تلك المواضع وغيرها ضَرب المثل إلى الله ، ونحو قوله : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ في [سورة النحل : 74] .

و﴿ ضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ﴾ في [سورة يس : 78] ، إذ أسند الضرب إلى المشركين ، لأنّ المقصود هنا نسج التركيب على إيجاز صالح لإفادة احتمالين:

أحدهما : أن يقدّر الفاعل الله تعالى وأن يكون المثَل تشبيهاً تمثيلياً ، أي أوضح الله تمثيلاً يوضح حال الأصنام في فرط العجز عن إيجاد أضعف المخلوقات كما هو مشاهد لكلّ أحد .

(40/529)

والثاني : أن يقدّر الفاعل المشركين ويكون المثَل بمعنى المُماثل ، أي جعلوا أصنامهم مُماثلة لله تعالى في الإلهية .

وصيغة الماضي في قوله ﴿ ضُرب ﴾ مستعملة في تقريب زَمن الماضي من الحال على الاحتمال الأول ، نحو قوله تعالى : ﴿ لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً ﴾ [النساء : 9] ،

أي لو شارفوا أن يَتركوا ، أي بعد الموت .

وجملة ﴿ إن الذين تدعون من دون الله ﴾ إلى آخرها يجوز أن تكون بياناً لفعل ﴿ ضُرب ﴾ على الاحتمال الأول في التقدير ، أي بين تمثيل عجيب .

ويجوز أن تكون بياناً للفظ ﴿ مثَل ﴾ لما فيها من قوله : ﴿ تدعون من دون الله ﴾ على الاحتمال الثاني .

وفرع على ذلك المعنى من الإيجاز قوله : ﴿ فاستمعوا له ﴾ لاسترعاء الأسماع إلى مُفاد هذا المثَل مما يبطل دعوى الشركة لله في الإلهية ، أي استمعوا استماع تَدبّر .

فصيغة الأمر في ﴿ استمعوا له ﴾ مستعملة في التحريض على الاحتمال الأول ، وفي التعجيب على الاحتمال الثاني .

وضمير ﴿ له ﴾ عائد على المثَل على الاحتمال الأول لأنّ المثل على ذلك الوجه من قبيل الألفاظ المسموعة ، وعائدٌ على الضّرب المأخوذ من فعل ﴿ ضُرب ﴾ على الاحتمال الثاني على طريقة

﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : 8] ، أي استمعوا للضرب ، أي لما يدلّ على الضرب من الألفاظ ، فيقدر مُضاف بقرينة ﴿ استمعوا ﴾ لأن المسموع لا يكون إلاّ ألفاظاً ، أي استمعوا لما يدلّ على ضرب المثل المتعجّب منه في حماقة ضاربيه .

واستعملت صيغة الماضي في ﴿ ضُرب ﴾ مع أنه لمَّا يُقَلْ لتقريب زمن الماضي من الحال

كقوله : ﴿ لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً ﴾ [النساء : 9] ، أي لو قاربوا أن يتركوا ، وذلك تنبيه للسامعين بأن يتهيأوا لتلقي هذا المثل ، لما هو معروف لدى البلغاء من استشرافهم للأمثال ومواقعها .

(41/529)

والمَثل : شاع في تشبيه حالة بحالة ، كما تقدّم في قوله ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ في [سورة البقرة : 17] ، فالتشبيه في هذه الآية ضمني خفيّ ينبىء عنه قوله : ﴿ ولو اجتمعوا له ﴾ وقوله ﴿ لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ .

فشُبهت الأصنام المتعددة المتفرقة في قبائل العرب وفي مكّة بالخصوص بعظماء ، أي عند عابديها .

وشبهت هيئتها في العجز بهيئة ناس تعذّر عليهم خلق أضعف المخلوقات ، وهو الذباب ، بلْهَ المخلوقات العظيمة كالسماوات والأرض .

وقد دلّ إسناد نفي الخلق إليهم على تشبيههم بذوي الإرادة لأنّ نفي الخلق يقتضي محاولة إيجاده ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ أموات غير أحياء ﴾ كما تقدم في [سورة النحل : 21] .

ولو فرض أن الذباب سلبهم شيئاً لم يستطيعوا أخذه منه ، ودليل ذلك مشاهدة عدم تحركهم ، فكما عجزت عن إيجاد أضعف الخلق وعن دفع أضعف المخلوقات عنها فكيف تُوسم بالإلهية ، ورمز إلى الهيئة المشبه بها بذكر لوازم أركان التشبيه من قوله ﴿ لن يخلقوا ﴾ وقوله ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئاً ﴾ إلى آخره ، لا جرم حصل تشبيه هيئة الأصنام في عجزها بما دون هيئة أضعف المخلوقات فكانت تمثيلية مكنية .

وفسر صاحب "الكشاف" المثل هنا بالصفة الغريبة تشبيهاً لما ببعض الأمثال السائرة . وهو تفسير بما لا نظير له ولا استعمال يعضده اقتصاداً منه في الغوص عن المعنى لا ضُعفاً عن استخراج حقيقة المثل فيها وهو جُذَيعُها المحكّك وعُذيقها المرجب ولكن أحسبه صادف منه وقت سرعة في التفسير أو شغلاً بأمر خطير ، وكم ترك الأول للأخير .

وفرع على التهيئة لتلقي هذا المثل الأمر بالاستماع له وإلقاء الشراشر لوعيه وترقب بيان إجماله توخيّاً للتفطّن لما يتلى بعد .

وجملة ﴿ إن الذين تدعون ﴾ الخ بيان ل ﴿ مثل ﴾ على كلا الاحتمالين السابقين في معنى ﴿ ضرِب مَثل ﴾ ، فإن المثَل في معنى القول فصحّ بيانه بهذا الكلام .

(42/529)

وأكد إثبات الخبر بحرف توكيد الإثبات وهو (إن) ، وأكد ما فيه من النفي بحرف توكيد النفي (لَن) لتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين لمضمون الخبر ، لأنّ جعلهم الأصنام آلهة يقتضي إثباتهم الخلق إليها وقد نفي عنها الخلق في المستقبل لأنه أظهر في إقحام الذين ادعوا لها الإلهية لأنّ نفي أن تخلق في المستقبل يقتضي نفي ذلك في الماضي بالأحرى لأن الذي يفعل شيئاً يكون فعله من بعد أيسر عليه .

وقرأ الجمهور ﴿ تَدْعُون ﴾ بتاء الخطاب على أن المراد بالنّاس في قوله : ﴿ يا أيها الناس ﴾ خصوصَ المشركين .

وقرأه يعقوب بياء الغيبة على أن يقصد بـ ﴿ يا أيها الناس ﴾ جميع الناس وأنّهم عُلِموا بحال فريق منهم وهم أهل الشرك .

والتقدير : إن الذين يدعون هم فريق منكم .

والذّباب : اسم جمعِ ذبابة ، وهي حشرة طائرة معروفة ، وتجمع على ذِبّان بكسر الذال وتشديد النون ولا يُقال في العربية للواحدة ذِبّانة .

وذكر الذّباب لأنه من أحقر المخلوقات التي فيها الحياة المشاهدة .

وأما ما في الحديث في المصورين قال الله تعالى : "فليخلقوا حبة وليخلقوا ذرة" فهو في سياق التعجيز لأنّ الحبّة لا حياة فيها والذرة فيها حياة ضعيفة .

وموقع ﴿ لو اجتمعوا له ﴾ موقع الحال ، والواو واو الحال ، و(لو) فيه وصلية .

وقد تقدّم بيان حقيقتها عند قوله : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ في [سورة آل عمران : 91] .

أي لن يستطيعوا ذلك الخلق وهم مفترقون ، بل ولو اجتمعوا من مفترق القبائل وتعاونوا على خلق الذباب لن يخلقوه .

والاستنقاذ : مبالغة في الإنقاذ مثل الاستحياء والاستجابة .

وجملة ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ تذييل وفذلكة للغرض من التمثيل ، أي ضعف الداعي والمدعو ، إشارة إلى قوله : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ﴾ الخ ، أي ضعفتم أنتم في دعوتهم آلهة وضعفت الأصنام عن صفات الإله .

وهذه الجملة كلام أرسل مثلاً ، وذلك من بلاغة الكلام .

(43/529)

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74) ﴾

تذييل للمثل بأن عبادتهم الأصنام مع الله استخفاف بحق إلهيته تعالى إذ أشركوا معه في أعظم الأوصاف أحقر الموصوفين ، وإذ استكبروا عند تلاوة آياته تعالى عليهم ، وإذ هموا بالبطش برسوله .

والقَدر : العظمة ، وفعل قَدر يفيد أنه عامل بقَدره .

فالمعنى : ما عظموه حق تعظيمه إذ أشركوا معه الضعفاء العجز وهو الغالب القوي .

وقد تقدّم تفسيره في قوله ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ في [سورة الأنعام : 91] .

وجملة ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ تعليل لمضمون الجملة قبلها ، فإن ما أشركوهم مع الله في العبادة كل ضعيف ذليل فما قدروه حق قدره لأنه قوي عزيز فكيف يشاركه الضعيف الذليل .

والعدول عن أن يقال : ما قَدرتم الله حقّ قدره ، إلى أسلوب الغيبة ، التفات تعريضاً بهم بأنّهم ليسوا أهلاً للمخاطبة توبيخاً لهم ، وبذلك يندمج في قوله : ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ تهديد لهم بأنه ينتقم منهم على وقاحتهم .

وتوكيد الجملة بحرف التوكيد ولام الابتداء مع أن مضمونها مما لا يختلف فيه لتنزيل علمهم بذلك منزلة الإنكار لأنهم لم يَجروا على موجَب العلم حين أشركوا مع القوي العزيز ضعفاء أذلة .

والقويّ : من أسمائه تعالى .

وهو مستعمل في القدرة على كلّ مراد له .

والعزيز : من أسمائه ، وهو بمعنى : الغالب لكلّ معاند . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(44/529)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ مَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ .

أي : ما عظموه حق عظمته حين عبدوا معه من لا يقدر على خلق ذباب ، وهو عاجز أن يسترد من الذباب ما سلبه الذباب منه ، كالطيب الذي يجعلونه على أصنامهم ، إن سلبها الذباب منه شيئاً لا تقدر على استنقاذه منه ، وكونهم لم يعظموا الله حق عظمته ، ولم يعرفوه حق معرفته ، حيث عبدوا معه من لا يقدر على جلب نفع ، ولا دفع ضر . ذكره تعالى في غير هذا الموضع كقوله في الأنعام ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 91] وكقوله في الزمر ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : 67] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(45/529)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾

قُلْنا : الضرب إيقاع شيء على شيء بقوة ، ومنه نقول : ضربنا الدينار يعني : بعد أن كان قطعة من الذهب أو الفضة مثلاً أصبح عملةً معروفة متداولة .

والمثل : تشبيه شيء غير معلوم بشيء آخر معلوم وعجيب وبديع يَعْلَق في الذهن ، كما نصف لك إنساناً لم تَرَهُ بإنسان تعرفه . نقول هو مثل فلان . وهكذا كل التشبيهات : شيء تريد أن تعلمه للمخاطب وهو لا يعلمه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي استوقد نَاراً فَلَمَّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة : 17]

وقوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذِّلِكَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فاقصص القصص لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 176]

وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 41] .

إذن : الأمثال : إعلام بشيء معلوم ليصل العلم فيه إلى شيء مجهول ، وكلمة (مثَل) استقلَّتْ بأن يكون المثَل بديعاً في النسج ، بليغاً موجزاً ، بحيث تتناقله الألسنة بسرعة في

كلمات معدودة .

فلو وجدَت مثلاً تلميذاً مُهملاً تكاسل طوال العام ، ولم يذاكر ، فلما حضر الامتحان راح يجتهد في المذاكرة ، فتقول له : (قبل الرماء تملأ الكنائن) يعني : قبل أنْ تصطاد بالسهام يجب أنْ تُعِدّها أولاً وتملأ بها كنانتك ، فهذا مثَلٌ يُضرَب للاستعداد للأمر قبل حلوله .

ومن أمثلة أهل الريف يقولون : (أعْطِ العيش لخبازه ولو يأكل نصفه) ويُضرب لمن يجعل الصنعة عند غير صانعها والمتخصص فيها .

(46/529)

ويقولون فيمَنْ يُقصّر في الأمر المنوط به : (باب النجار مخلع) .

وحين ترسل مَنْ يقضي لك حاجة فيفلح فيها ويأتي بالنتيجة المرجوة يقول لك : (أبدى المخْضُ عن الزبد) والمخضُ عملية خَضِّ اللبن في القِرْبة لفَصْل الزُّبْد عن اللبن .

وهكذا ، المثل قَوْل موجز بليغ قيل في مناسبته ، ثم استعمله الناس لِخِفَّته وجماله وبلاغته في المواقف المشابهة ، والمثَل يظل على حالة الأول لا يغير ، ويجب الالتزام بنصّه مع المفرد والمثنى والجمع ، ومع المذكر والمؤنث ، فمثلاً إنْ أرسلتَ رسولاً يقضي لك حاجة ، فعندما يعود تقول له : (ما وراءك يا عصام) هكذا بالكسر في خطاب المؤنث مع أنه رجل

، لماذا ؟ لأن المثَل قيل أول ما قيل لمؤنث ، فظلَّ على هذه الصيغة من التأنيث حتى ولو كان المخاطَبُ مذكَّراً .

وقصة هذا المثَل أن الحارث ملك كندة أراد أن يتزوج أم إياس ، وبعثَ مَنْ تخطبها له ، وكان اسمها عصام ، فلما ذهبت إليها قالت لها أمها : إن فلانة جاءت تخطبك لفلان ، فلا تخفي عنها شيئاً ، ودعيها تشمُّك إنْ أرادت ، وناطقيها فيما استنطقتْك به ، فلما دخلتْ على الفتاة وأرادت أن ترى جسمها خلعتْ ثوبها ، وكشفتْ عن جسمها ، فقالت المرأة : (ترك الخداع من كشف القناع) فسارت مثلاً ، ثم عادت إلى الحارث فاستقبلها متعجلاً ردَّها فقال : (ما وراءكِ يا عصام) يعني : ما الخبر ؟ فظلَّ المثل هكذا للمؤنث ، وإن خُوطِب به المذكر .

والحق – تبارك وتعالى – يضرب لكم هذا المثل ويقول : خذوه في بالكم ، وانتبهوا له ، وافتحوا له آذانكم جيداً واعقلوه ؛ لأنه سينفعكم في علاقتكم برسول الله وبالمؤمنين .

(47/529)

والخطاب هنا مُوجَّه للناس كافّة ، لم يخُصّ أحداً دون أحد : ﴿ يا أَيُّهَا الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ . . ﴾ [الحج : 73] فلم يقُل يا أيها المؤمنون ؛ لأن هذا المثَل مُوجَّه إلى

الكفار ، فالمؤمنون ليسوا في حاجة إليه ﴿ فاستمعوا لَهُ . . ﴾ [الحج : 73] يعني : انصتوا وتفهَّموا مراده ومرماه ، لتسيروا في حركتكم على وَفْق ما جاء فيه ، وعلى وَفْق ما فهمتم من مغزاه .

فما هو هذا المثَل ؟

﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ . . ﴾ [الحج : 73] .

أي : الذين تعبدونهم وتتجهون إليهم من دون الله ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً . . ﴾ [الحج : 73] وهو أصغر المخلوقات ﴿ وَلَوِ اجتمعوا لَهُ . . ﴾ [الحج : 73] يعني : تضافرَتْ جهودهم ، واجتمع أمرهم جميعاً لا واحداً واحداً ، وهذا ترقٍّ في التحدي ، حيث زاد في قوة المعاند .

كما ترقَّى القرآن في تحدِّي العرب ، فتحداهم أولاً بأنْ يأتوا بمثل القرآن ، ولأن القرآن كثير تحدّاهم بعشر سور فما استطاعوا ، فتحدَّاهم بسورة واحدة فلم يستطيعوا .

ثم يترقى في التحدي فيقول : اجمعوا كل فصحائكم وبلغائكم ، بل والجن أيضاً يساعدونكم ولن تستطيعوا : ﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ . . ﴾ [الإسراء : 88] .

وقوله تعالى : ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً . . ﴾ [الحج : 73] جاءت بنفي المستقبل فلم يقُلْ مثلاً : لم يخلقوا ، فالنفي هنا للتأبيد ، فهم ما استطاعوا في الماضي ، ولن يستطيعوا أيضاً

فيما بعد حتى لا يظن أحد أنهم ربما تمكّنوا من ذلك في مستقبل الأيام ، ونفي الفعل هكذا على وجه التأبيد ؛ لأنك قد تترك الفعل مع قدرتك عليه ، إنما حين تتحدَّى به تفعل لتردّ على هذا التحدِّي ، فأوضح لهم الحق سبحانه أنهم لم يستطيعوا قبل التحدي ، ولن يستطيعوا بعد التحدي .

(48/529)

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ . . ﴾ [الحج : 73] فقد تقول : إن عملية الخَلْق هذه عملية صعبة لا يُتحدَّى بها ، لذلك تحداهم بما هو أسهل من الخَلْق ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ . . ﴾ [الحج : 73] وهل يستطيع أحد أن يُعيد ما أخذه الذباب من طعامه على جناحيه أو رجله أو خرطومه ؟

وكانوا يذبحون القرابين عند الأصنام ، ويضعون أمامها الطعام ليباركوه ، فكانت الدماء تسيل عندها وتتناثر عليها ، فيحطّ عليها الذباب ، ويأخذ من هذه الدماء على أَرْجُله النحيفة هذه أو على أجنحته أو على خرطومه ، فتحدَّاهم أن يعيدوا من الذباب ما أخذه ، وهذه مسألة أسهل من مسألة الخَلْق .

ولك أنْ تُجرِّب أنت هذه العملية ، إذا وقع ذباب على العسل الذي أمامك ، فلا بُدَّ أن

يأخذ منه شيئاً ولو كان ضئيلاً لا يُدرَك ولا يُوزَن ولا تكاد تراه ، لكن أتستطيع أنْ تُمسِك الذبابة وتردّ ما أخذتْ منك ؟

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : 73] يعني : كلاهما ضعيف ، فالذباب في ذاته ضعيف وهم كذلك ضعفاء ، بدليل أنهم لن يقدروا على هذه المسألة ، لكن هناك ضعيف يدَّعي القوة ، وضعيف قوته في أنه مُقِرٌّ بضعفه ، فالذباب وإنْ كان ضعيفاً إلا أن الله تعالى قال فيه : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . ﴾ [البقرة : 26] يعني : ما فوقها في الصِّغر ، ليس المراد ما فوقها في الكبر كالعصفور مثلاً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ مَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ . . ﴾

يعني : هؤلاء الكفار الذين عبدوا من دون الله آلهة لا تستطيع أن تخلق ذباباً ، ولا تستطيع حتى أنْ تردَّ من الذباب ما أخذه ، هؤلاء ما عرفوا لله قدره ، ولو عرفوا قَدْر الله ما عبدوا غيره .

(49/529)

والقَدْر : يعني مقدار الشيء ، وقلنا : إن مقادير الأشياء تختلف حسب ما تريده من معرفة المقادير ، فالطول مثلاً له مقياس يُقَاس به مقدار الطول ، لكن هذا المقياس يختلف باختلاف المقيس ، فإنْ أردتَ أنْ تقيسَ المسافة بين القاهرة والأسكندرية مثلاً لا تستخدم المللي أو السنتيمتر ولا حتى المتر ، إنما تستخدم الكيلومتر ، فإنْ أردت شراء قطعة من القماش تقول متر ، أما إنْ أردتَ صورة شخصية تقول سنتيمتر .

إذن : لكل شيء مقدار يُقدَّر به ، ومعيار يُقاس به ، فإنْ أردتَ المسافة تقيس الطول ، فإنْ أردت المساحة تقيس الطول في العرض ، فإنْ أردتَ الحجم تقيس الطول في العرض في الارتفاع ، الطول بالمتر والمساحة بالمتر المربع ، والحجم بالمتر المكعب . كذلك في الوزن تُقدِّره بالكيلو أو الرطل أو الجرام . . إلخ .

وقدر تأتي بمعنى : ضيَّق ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ . . ﴾ [الفجر : 16] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ آتَاهُ الله . . ﴾ [الطلاق : 7] .

والمقدار كما يكون في الماديات يكون أيضاً في المعنويات ، فمثلاً تعبر عن الزيادة المادية تقول : فلان كبر يعني شَبَّ وزاد ، أما في المعنويات فيقول الحق سبحانه : كَبُر ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . . ﴾ [الكهف : 5] يعني : عَظُمتْ .

والحق – تبارك وتعالى – ليس مادة ؛ لأنه سبحانه فوق المادة ، فمعنى المقدار في حقه تعالى عظمته في صفات الكمال فيه ﴿ مَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ . . ﴾ [الحج : 74] ما عظّموه حَقَّ التعظيم الذي ينبغي له ، وما عرفوا قَدْره ، ولو عرفوا ما عبدوا غيره ، ولا عبدوا أحداً معه من هذه الآلهة التي لا تخلق ذباباً ، ولا حتى تسترد ما أخذه منهم الذباب ، فكيف يُسَوُّون هؤلاء بالله ويقارنونهم به عز وجل ؟ إنهم لو عرفوا لله تعالى قَدْره لاستحيوا من ذلك كله .

ثم تُذَيَّل الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : 74] فما مناسبة هاتين الصفتين للسياق الذي نحن بصدده ؟

قالوا : لأن الحق – سبحانه وتعالى – تكلَّم في المثَل السابق عَمَّنْ انصرفوا عن عبادته سبحانه إلى عبادة الأصنام وقال : ﴿ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : 73] فقال في مقابل هذا الضعف إن الله لقويٌّ ، قوة عن العابد ؛ لأنه ليس في حاجة إلى عبادته ، وقوة عن المعبود لأنه لو شاء حَطَّمه ، وما دُمْتم انصرفتم عن الله وعبدتم غيره ، فهذا فيه مُضارَّة ، وكأن هناك معركة ، فإنْ كان كذلك فالله عزيز لا يغالب .

والآية : ﴿ مَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ . . ﴾ [الحج : 74] وردتْ في عدة مواضع في كتاب الله ، منها :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ . . ﴾ [الأنعام : 91] فلم يعرفوا لله تعالى قَدْره لأنهم اتهموه ، وله سبحانه كمال العدل ، فكيف يُكلف عباده بعبادته ، ولا يبلغهم برسول ؟ وهو سبحانه القائل : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

(51/529)

فحين يقولون : ﴿ مَآ أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ . . ﴾ [الأنعام : 91] كأنهم يصِفُون الحق سبحانه بأنه يُعذِّب الناس دون أنْ يُبلِّغهم بشيء . ويردّ عليهم في هذه المسألة : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذي جَآءَ بِهِ موسى . . ﴾ [الأنعام : 91] .

وفي موضع آخر : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ . . ﴾ [الزمر : 67] .

ونقول : قَدَّرَه حَقَّ قدره ، وقَدَره قَدْره ، كأن الأمور تختلف في تقدير الأشياء ، فمثلاً تنظر إلى حجرة فتقول : هذه تقريباً 5×4 هذا تقدير إجمالي تقريبي ، إنما إنْ أخذت المقياس

وقدَّرْتَ تقديراً حقيقياً ، فقد تزيد أو تنقص ، فالأول تقول : قدَّرْت الحجرة قَدْرها .

والآخر تقول : قدرت الحجرة حَقَّ قَدرها .

وعليه فإنك إنْ أردت أنْ تُقدّرِ الله تعالى حَقَّ قَدْره فإنك تقدّره على قَدْر استيعاب العقل البشري ، إنما قَدْره تعالى حقيقة فلا تحيط به ؛ لأن كمالاته تعالى لا تتناهى ولا تُدرَك إدراكاً تاماً .

ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه عن علم اليقين وعين اليقين وحقِّ اليقين . ولما نزل قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ . . ﴾ [آل عمران : 102] قال بعض الصحابة : ومَنْ يقدر على ذلك إنها مسألة صعبة أن نتقي الله التقوى الكاملة التي يستحقها عز وجل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم . . ﴾ [التغابن : 16] ونزلت : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا . . ﴾ [البقرة : 286] .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أثنى على الله تعالى يقول : " سبحانك ، لا نحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك " .

(52/529)

لماذا ؟ لأنه لا يملك أحد مهما أُوتِي من بلاغة الأسلوب أنْ يُثني على الله الثناء المناسب الذي يليق به سبحانه ، ومن رحمة الله تعالى بعباده أن تحمل عنهم هذه المسألة فأثنى الحق سبحانه على نفسه ، وعلَّمنا كيف نثني عليه سبحانه ، فإذا ما تحدث البليغ وأثنى على الله بفنون القول والثناء ، فإن العييَّ الذي لا يجيد الكلام يطمئن حيث يُثني على ربه بما علمه من الثناء ، وما وضعه من صيغ يقولها الفيلسوف ، ويقولها راعي الشاة .

ولولا أن الله تعالى علَّمنا صيغة الحمد في سورة الفاتحة فقال : ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] ما تعلمنا هذه الصيغة ، فتعليم الله لعباده صيغة الحمد في ذاتها نعمة تستحق الحمد ، والحمد يستحق الحمد ، وهكذا في سلسلة لا تنتهي ، ليظل الحق – تبارك وتعالى – محموداً دائماً ، ويظل العبد حاملاً دائماً .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مسألة الألوهية وما ينبغي لها من صفات الكمال المطلق ، وحذر أنْ نُدخِل عليها ما ليس منها وما لا يستحقها ، وهذه قمة العقائد ، وبعد أن نؤمن بالإلهيات بهذا الصفاء ونُخلِّص إيماننا من كل ما يشوبه لا بُدَّ من البلاغ عن هذه القوة الإلهية التي آمنا بها ، والبلاغ يكون بإرسال الرسل .

لذلك قال سبحانه : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس . . ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ﴾

حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل ويتدبره حق تدبره فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضره والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه فكيف ما هو أكبر منه ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئا مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذوه منه فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات وأن يصمد إلى الرب في جميع الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإجابة الدعوات

فأعطوها صورا وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الآلهة الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه

(54/529)

وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء إلاهيتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئا واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك ولم يقدروا عليه ثم سوى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله ضعف الطالب والمطلوب قيل الطالب العابد والمطلوب المعبود فهو عاجز متعلق بعاجز وقيل هو تسوية بين السالب والمسلوب وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز وعلى هذا فقيل الطالب الإله الباطل والمطلوب الذباب يطلب منه ما استلبه منه وقيل الطالب الذباب والمطلوب الإله فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه والصحيح أن اللفظ يتناول الجميع فضعف العابد والمعبود والمستلب والمستلب فمن جعل هذا إلها مع القوي العزيز فما قدره حق قدره ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حق تعظيمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أعلام الموقعين حـ 1 صـ 182.181 ﴾

(55/529)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾

أخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ﴾ قال : نزلت في صنم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿ ضعف الطالب ﴾ آلهتكم ﴿ والمطلوب ﴾ الذباب .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في قوله : ﴿ لن يخلقوا ذباباً ﴾ يعني الصنم لا يخلق ذباباً ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئاً ﴾ يقول : يجعل للأصنام طعام ، فيقع عليه الذباب ، فيأكل منه ، فلا يستطيع أن يستنقذه منه ، ثم رجع إلى الناس وإلى الأصنام ﴿ ضعف الطالب ﴾ الذي يطلب إلى هذا الصنم ، الذي لا يخلق ذباباً ولا يستطيع أن يستنقذ ما سلب منه ﴿ و ﴾ ضعف ﴿ المطلوب ﴾ إليه . الذي لا يخلق ذباباً ولا يستنقذ ما سلب منه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الذين تدعون من دون الله ﴾ إلى قوله : ﴿ لا يستنقذوه منه ﴾ قال : الأصنام . ذلك الشيء من

الذباب .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد – رضي الله عنه – في قوله : ﴿ ما قدروا الله حق قدره ﴾ قال : حين يعبدون مع الله ما لا ينتصف من الذباب .

(56/529)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والبيهقي في شعب الإيمان ، عن طارق بن شهاب رضي الله عنه قال : قال سلمان : دخل رجل الجنة في ذباب ، ودخل رجل النار في ذباب . قالوا : وما الذباب ؟ فرأى ذباباً على ثوب إنسان فقال : هذا الذباب . قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : مر رجلان مسلمان على قوم يعكفون على صنم لهم ، لا يجاوزه أحد حتى يقرب له شيئاً ، فقالوا لهما : قربا لصنمنا قرباناً . قالا : لا نشرك بالله شيئاً . قالوا : قربا ما شئتما ولو ذباباً . فقال أحدهما لصاحبه : ما ترى قال أحدهما : لا أشرك بالله شيئاً . فقتل فدخل الجنة . فقال الآخر : بيده على وجهه ، فأخذ ذباباً فألقاه على الصنم ، فخلوا سبيله ، فدخل النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(57/529)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ :

قال الأخفش : " ليس هنا مَثَلٌ ، وإنما المعنى : جَعَلَ الكفارُ للهِ مثلاً " وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : الذي جاء به ليس مَثَلاً فكيف سَمَّاه مَثَلاً ؟ قلت : قد سُمِّيَتِ الصفةُ والقصةُ الرائعةُ المتلقَّاةُ بالاستحسانِ والاستغرابِ مثلاً ؛ تشبيهاً لها ببعض الأمثالِ المسيَّرةِ لكونِها مستغربةً مستحْسنةً " . وقال غيره : هو مَثَلٌ " من حيث المعنى ؛ لأنه ضُرِب مثلُ مَنْ يعبد الأصنامَ بمن يعبد ما لا يخلقُ ذُباباً " .

وقرأ العامَّةُ " تَدْعُون " بتاء الخطاب . والحسن ويعقوب وهارون ومحبوب عن أبي عمرو بالياء من تحت . وهو في كلتيهما مبنيٌّ للفاعل . وموسى الأسواري واليماني : "يُدْعَوْن " بالياء مِنْ أسفل مبنياً للمفعول .

قوله : ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ﴾ جعل الزمخشري نَفْي " لن " للتأبيد وقد تقدَّم البحث معه في ذلك . والذبابُ معروفٌ . ويُجمع على ذِبَّان وذُبَّان بكسر الذال وضمِّها وعلى ذُبّ . والمِذَبَّة ما يُطْرَدُ بها الذبابُ . وهو اسمُ جنسٍ واحدته ذُبابة ، يقع للمذكورِ والمؤنثِ فيفرَّقُ بالوصف .

قوله : ﴿ وَلَو اجتمعوا لَهُ ﴾ قال الزمخشري : " نصبٌ على الحال كأنه قال : يَسْتحيل خَلْقُهم الذبابَ مشروطاً [عليهم] اجتماعُهم جميعاً لخَلْقِه وتعاونُهم عليه " وقد تقدم غيرَ مرة أنَّ هذه الواوَ عاطفةٌ هذه الجملةَ الحاليةَ على حال محذوفةٍ أي : انتفى خَلْقُهم الذبابَ على كلِّ حال ، ولو في هذه الحالِ المقتضيةِ لخَلْقِهم لأجلِ الذباب ، أو لأجلِ الصنَمِ .

(58/529)

والسَّلْبُ : اختطافُ الشيءِ بسرعة . يُقال : سَلَبَه نِعْمَتَه . والسلَبُ : ما على القتيل . وفي الحديث : " مَنْ قتل قتيلاً فله سَلَبُه " والاستنقاذ : استفعالٌ بمعنى الإفعال يقال : أنقذه مِنْ كذا أي : أنجاه منه ، وخَلَّصه . ومثله أَبَلَّ المريضُ واسْتَبَلَّ وقوله : " ضَعُفَ الطالبُ " قيل هو إخبار . وقيل : هو تعجُّبٌ والأول أُظهرُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 307.308 ﴾

(59/529)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾

نَبه الأفكارَ المُشتَّتَةَ ، والخواطرَ المتفرقة على الاستجماعِ لِسماع ما أراد تضمينه فيها ؛ فاستحضرها فقال : ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ . . . ﴾ .

ثم بيَّنَ المعنى فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي وتسمونها آلهة أنها للعبادة مستحقة لن يخلقوا بأجمعهم مذباباً ، ولا دونَ ذلك . وإنْ يسلبهم الذبابُ شيئاً بأن يقع على طعام لهم فليس في وسعهم استنقاذهم ذلك منه ، ومَنْ كان بهذه الصفة فَسَاءَ المَثَلُ مَثلُهم ، وضَعُفَ وصفُهم ، وقَلَّ خَطَرُهم .

ويقال إن الذي لا يقاوم ذباباً فيصير به مغلوباً فأَهْوِن بِقَدْرِه !

مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74)

ما عرفوه حقَّ معرفته ، ولا وصفوه بجلال ما يستحقه من النعوت . ومَنْ لم يكن في عقيدته نَقْضٌ لِمَا يستحيل في وصفه – سبحانه – لم تُباشِرْ خلاصةُ التوحيدِ سِرَّه ، وهو في تَرَجُّم فِكْرٍ ، وتجويز ظنٍ ، وخَطَرَ تَعَسُّف ، يقعُ في كل وهدة من الضلال .

ويقال العوامُ اجتهادُهم في رَفْضِهم الأعمالَ الخبيثَةَ خوفاً من الله ، والخواص جهدهم في نَقْضِ عقيدتهم للأوصافِ التي تَجِلُّ عنها الصمدية ، وبينهما (. . . .) بعيد .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ : قوي أي قادر على أن يُخلقَ مَنْ هو فوقهم في التحصيل وكمال العقول . ﴿ عَزِيزٌ ﴾ : أي لا يُقَدِّرُ أحدٌ قَدْرَه – إلا بما يليق بصفة البشر – بِقَدرٍ من العرفان .

ويقال مَنْ وَجَدَ السبيلَ إليه فليس النعت له إلا بوصفِ القُصُور ، ولكنْ كلٌّ بِوَجْدِه مربوطٌ ، وبجدِّه في همته موقوف ، والحق سبحانه عزيز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 562 ﴾

(60/529)

قوله تعالى ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نصب الدليل على أن ما دعوه لا يصلح أن يكون شيء منه إلهاً بعد أن أخبر أنه لم ينزل إليهم حجة بعبادتهم لهم ، وختم بما له سبحانه من وصفي القوة والعزة بعد أن أثبت أن له الملك كله ، تلا ذلك بدليله الذي تقتضيه سعة الملك وقوة السلطان من إنزال الحجج على

ألسنة الرسل بأوامره ونواهيه الموجب لإخلاص العبادة له المقتضي لتعذيب تاركها ، فقال : ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ يصطفي ﴾ أي يختار ويخلص ﴿ من الملائكة رسلاً ﴾ إلى ما ينبغي الإرسال فيه من العذاب والرحمة ، فلا يقدر أحد على صدهم عما أرسلوا له ، ولا شك أن قوة الرسول من قوة المرسل ﴿ ومن الناس ﴾ أيضاً رسلاً يأتون عن الله بما يشرعونه لعباده ، لتقوم عليهم بذلك حجة النقل ، مضمومة إلى سلطان العقل ، فمن عاداهم خسر وإن طال استدراجه .

ولما كان ذلك لا يكون إلا بالعلم ، قال : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الجلال والجمال ﴿ سميع ﴾ أي لما يمكن أن يسمع من الرسول وغيره ﴿ بصير ﴾ أي مبصر عالم بكل ما يمكن عقلاً أن يبصر ويعلم ، بخلاف أصنامهم .

(61/529)

ولما كان المتصف بذلك قد يكون وصفه مقصوراً على بعض الأشياء ، أخبر أن صفاته محيطة فقال : ﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ أي الرسل ﴿ وما خلفهم ﴾ أي علمه محيط بما هم مطلعون عليه وبما غاب عنهم ، فلا يفعلون شيئاً إلا بإذنه ، فإنه يسلك من بين أيديهم ومن خلفهم رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وإن ظن الجاهلون غير ذلك ، لاحتجابه

سبحانه وتعالى في الأسباب ، فلا يقع في فكر أصلاً أن المحيط علماً بكل شيء الشامل القدرة لكل شيء يكل رسولاً من رسله إلى نفسه ، فيتكلم بشيء لم يرسله به ، ولا أنه يمكن شيطاناً أو غيره أن يتكلم على لسانه بشيء ، بل كل منهم محفوظ في نفسه ﴿ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ [النجم : 3 ، 4] محفوظ عن تلبيس غيره ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : 9] ﴿ وإلى الله ﴾ أي الذي لا كفوء له ، وحده ﴿ ترجع ﴾ أي بغاية السهولة بوعد فصل لا بد منه ﴿ الأمور ﴾ يوم يتجلى لفصل القضاء ، فكيون أمره ظاهراً لا اخفاء فيه ، ولا يصدر شيء من الأشياء إلا على وجه العدل الظاهر لكل أحد أنه منه .

ولا يكون لأحد التفات إلى غيره ، والذي هو بهذه الصفة له أن يشرع ما يشاء ، وينسخ من الشروع ما يشاء ، ويحكم بما يريد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 177 . 178 ﴾

(62/529)

فصل

قال الفخر :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾

اعلم أنه سبحانه لما قدم ما يتعلق بالإلهيات ذكر ههنا ما يتعلق بالنبوات ، قال مقاتل : قال الوليد بن المغيرة : أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وههنا سؤالان :

السؤال الأول : كلمة ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض فقوله : ﴿ اللهُ يَصْطَفِى مِنَ الملائكة رُسُلاً ﴾ يقتضي أن تكون الرسل بعضهم لا كلهم ، وقوله : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ [فاطر : 1] يقتضي كون كلهم رسلاً فوقع التناقض والجواب : جاز أن يكون المذكور ههنا من كان رسلاً إلى بني آدم ، وهم أكابر الملائكة كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والحفظة صلوات الله عليهم ، وأما كل الملائكة فبعضهم رسل إلى البعض فزال التناقض .

السؤال الثاني : قال في سورة الزمر : ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ [الزمر : 4] فدل على أن ولده يجب أن يكون مصطفى ، وهذه الآية دلت على أن بعض الملائكة وبعض الناس من المصطفين ، فيلزم بمجموع الآيتين إثبات الولد والجواب : أن قوله : ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى ﴾ يدل على أن كل ولد مصطفى ، ولا يدل على أن كل مصطفى ولد ، فلا يلزم من دلالة هذه الآية على وجود مصطفى كونه ولداً ، وفي هذه الآية وجه آخر ، وهو أن المراد تبكيت من عبد غير الله تعالى من الملائكة ، كأنه سبحانه أبطل في الآية الأولى قول عبدة الأوثان .

وفي هذه الآية أبطل قول عبدة الملائكة ، فبين أن علو درجة الملائكة ليس لكونهم آلهة ، بل لأن الله تعالى اصطفاهم لمكان عبادتهم ، فكأنه تعالى بين أنهم ما قدروا الله حق قدره أن جعلوا الملائكة معبودين مع الله ، ثم بين سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أنه يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون ، ولذلك أتبعه بقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ فقال بعضهم ما تقدم في الدنيا وما تأخر ، وقال بعضهم : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أمر الآخرة ، ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أمر الدنيا ، ثم أتبعه بقوله : ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمور ﴾ فقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ إشارة إلى العلم التام وقوله : ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمور ﴾ إشارة إلى القدرة التامة والتفرد بالإلهية والحكم ، ومجموعهما يتضمن نهاية الزجر عن الإقدام على المعصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 61.62 ﴾

(64/529)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : ما بين أيديهم : ما كان قبل خلق الملائكة والأنبياء ، وما خلفهم : ما يكون بعد خلقهم ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : ما بين أيديهم : أول أعمالهم ، وما خلفهم آخر أعمالهم ، قاله الحسن .

الثالث : ما بين أيديهم من أمر الآخرة وما خلفهم من أمر الدنيا ، قاله يحيى بن سلام .

ويحتمل رابعاً : ما بين أيديهم : من أمور السماء ، وما خلفهم : من أمور الأرض . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(65/529)

وقال ابن عطية :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) ﴾

روي أن هذه الآية إلى قوله ﴿ الأمور ﴾ نزلت بسبب قول الوليد بن المغيرة أأنزل عليه الذكر من بيننا الآية فأخبر ﴿ الله ﴾ تعالى أنه ﴿ يصطفي ﴾ أي يختار ﴿ من الملائكة رسلاً ﴾ إلى الأنبياء وغيرهم حسبما ورد في الأحاديث ﴿ ومن الناس ﴾ وهم الأنبياء المبعثون لإصلاح الخلق الذين اجتمعت لهم النبوءة والرسالة . وقوله ﴿ ما بين أيديهم وما

خلفهم ﴾ عبارة عن إحاطة بهم وحقيقتها ما قبلهم من الحوادث وما بعدهم ، و ﴿ الأمور ﴾ ، جمع أمر ليس يراد به المصدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(66/529)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسُلاً ﴾

كجبريل وميكائيل وإِسرافيل ومَلَك الموت ، ﴿ ومن الناس ﴾ الأنبياءَ المرسلين ، ﴿ إِن الله سميع ﴾ لمقالة العباد ﴿ بصير ﴾ بمن يتخذه رسولاً .

وزعم مقاتل أن هذه الآية نزلت حين قالوا : ﴿ أَأُنزِلَ عليه الذِّكْرُ مِنْ بيننا ﴾ [ص : 8] .

قوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ الإِشارة إِلى الذين اصطفاهم ؛ وقد بيَّنَّا معنى ذلك في آية الكرسي [البقرة : 255] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(67/529)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس ﴾

ختم السورة بأن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم لتبليغ الرسالة ؛ أي ليس بعثه محمداً أمراً بِدِعيًّا .

وقيل : إن الوليد بن المغيرة قال : أو أنزل عليه الذكر من بيننا ؛ فنزلت الآية .

وأخبر أن الاختيار إليه سبحانه وتعالى .

﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوال عباده .

﴿ بَصِيرٌ ﴾ بمن يختاره من خلقه لرسالته .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يريد ما قدموا .

﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ يريد ما خلفوا ؛ مثل قوله في ياس : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الموتى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ ﴾ [ياس : 12] يريد ما بين أيديهم "وآثارهم" يريد ما خلفوا .

﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(68/529)

وقال أبو حيان :

﴿ الله يصطفي ﴾ الآية نزلت بسبب قول الوليد بن المغيرة ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ الآية ، وأنكروا أن يكون الرسول من البشر فرد الله عليهم بأن رسله ملائكة وبشر ، ثم ذكر أنه عالم بأحوال المكلفين لا يخفى عليه منهم شيء وإليه مرجع الأمور كلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(69/529)

وقال أبو السعود :

﴿ اللهُ يَصْطَفِى مِنَ الملائكة رُسُلاً ﴾

يتوسَّطون بينَه تعالى وبينَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ بالوحيِ ﴿ وَمِنَ الناس ﴾ وهم المختصُّون بالنُّفوسِ الزَّكيَّةِ المؤيِّدونَ بالقُوَّةِ القدسيةِ المتعلِّقون بكلا العالمينِ الرُّوحانيِّ والجُسمانيِّ يتلقَون من جانبٍ ويلقون إلى جانبٍ ولا يعوقهم التَّعلقُ بمصالحِ الخلقِ عن التَّبتل إلى جانب الحقِّ فيدعونَهم إليه تعالى بما أنزل عليهم ويعلِّمونهم شرائعَه وأحكامَه كأنَّه تعالى لمَّا قرَّر وحدانيَّتَه في الأُلوهية ونفى أنْ يشاركَه فيها شيءٌ من الأشياء بيَّن أنَّ له عباداً مُصطفَين للرِّسالة يُتوسل بإجابتهم والاقتداءِ بهم إلى عبادته عزَّ وجلَّ وهو أعلى الدَّرجاتِ وأقصى الغاياتِ

لمن عداه من الموجوداتِ تقريراً للنُّبوة وتزييفاً لقولِهم : ﴿ لَوْ شَاء الله لأَنزَلَ ملائكة ﴾ وقولهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى ﴾ وقولهم : الملائكةُ بناتُ الله وغيرِ ذلك من الأباطيلِ ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ عليم بجميعِ المسموعاتِ والمبصراتِ فلا يَخْفى عليه شيءٌ من الأقوالِ والأفعال .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾ لا إلى أحدٍ غيرِه لا اشتراكاً ولا استقلالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(70/529)

وقال الآلوسى :

﴿ الله يَصْطَفِى ﴾

أي يختار ﴿ مِنَ الملائكة رُسُلاً ﴾ يتوسطون بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام بالوحي ﴿ وَمِنَ الناس ﴾ أي ويصطفى من الناس رسلاً يدعون من شاء إليه تعالى ويبلغونهم ما نزل عليهم والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته ، وتقديم رسل الملائكة عليهم السلام لأنهم وسائط بينه تعالى وبين رسل الناس ، وعطف ﴿ مِنَ الناس ﴾ على ﴿ مِنَ الملائكة ﴾ وهو مقدم تقدير على ﴿ رُسُلاً ﴾ فلا حاجة إلى التقدير وإن كان رسل كل موصوفة بغير

صفة الآخرين كما أشرنا إليه ، وقيل : إن المراد الله يصطفي من الملائكة رسلاً إلى سائرهم في تبليغ ما كلفهم به من الطاعات ومن الناس رسلاً إلى سائرهم في تبليغ ما كلفهم به أيضاً وهذا شروع في إثبات الرسالة بعد هدم قاعدة الشرك وردم دعائم التوحيد .

وفي بعض الأخبار أن الآية نزلت بسبب قول الوليد بن المغيرة ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ [ص : 8] الآية وفيها رد لقول المشركين الملائكة بنات الله ونحوه من أباطيلهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ بجميع المسموعات ويدخل في ذلك أقوال الرسل ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بجميع المبصرات ويدخل في ذلك أحوال المرسل إليهم ، وقيل : إن السمع والبصر كناية عن عمله تعالى بالأشياء كلها بقرينة

قوله سبحانه :

(71/529)

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ لأنه كالتفسير لذلك ، ولعل الأول أولى ، وهذا تعميم بعد تخصيص ، وضمير الجمع للمكلفين على ما قيل : أي يعلم مستقبل أحوالهم وماضيها ، وعن الحسن أول أعمالهم وآخرها ، وعن علي بن عيسى أن الضمير لرسل الملائكة والناس والمعنى عنده يعلم ما كان قبل خلق الرسل وما يكون بعد خلقهم ﴿ وَإِلَى اللَّهِ

تُرْجَعُ الامور ﴾ كلها لا إلى غيره سبحانه لا اشتراكاً ولا استقلالاً لأنه المالك لها بالذات فلا يسئل جل وعلا عما يفعل من الاصطفاء وغيره كذا قيل ، ويعلم منه أنه مرتبط بقوله تعالى : ﴿ اللهُ يَصْطَفِى ﴾ [الحج : 75] الخ وكذا وجه الارتباط ، ويجوز أن يكون مرتبطاً بقوله سبحانه : ﴿ يَعْلَمْ ﴾ الخ على معنى واليه تعالى ترجع الأمور يوم القيامة فلا أمر ولا نهي لأحد سواه جل شأنه هناك فيجازي كلا حسبما علم من أعماله ولعله أولى مما تقدم ويمكن أن يقال : هو مرتبط بما ذكر لكن على طرز آخر وهو أن يكون إشارة إلى تعميم آخر للعلم أي إليه تعالى ترجع الأمور كلها لأنه سبحانه هو الفاعل لها جميعاً بواسطة وبلا واسطة أو بلا واسطة في الجميع على ما يقوله الأشعري فيكون سبحانه عالماً بها .

ووجه ذلك على ما قرره بعضهم أنه تعالى عالم بذاته على أتم وجه وذاته تعالى علة مقتضية لما سواه والعلم التام بالعلة أو بجهة كونها علة يقتضي العلم التام بمعلولها فيكون علمه تعالى بجميع ما عداه لازماً لعلمه بذاته كما أن وجود ما عداه تابع لوجود ذاته سبحانه وفي ذلك بحث طويل عريض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(72/529)

وقال ابن عاشور :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾

لما نفَت الآيات السابقة أن يكون للأصنام التي يعبدها المشركون مزية في نصرهم بقوله : ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ [الحج : 71] ، وقوله : ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : 73] ونعى على المشركين تكذيبهم الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ [الحج : 72] ، وقد كان من دواعي التكذيب أنهم أحالوا أن يأتيهم رسول من البشر : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ [الأنعام : 8] أي يصاحبه ، ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ [الفرقان : 21] أعقب إبطال أقوالهم بأن الله يصطفي من شاء اصطفاءه من الملائكة ومن الناس دون الحجارة ، وأنه يصطفيهم ليرسلهم إلى الناس ، أي لا ليكونوا شركاء ، فلا جرح أبطلَ قولُه ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً من الناس ﴾ جميعَ مزاعمهم في أصنامهم .

فالجملة استئناف ابتدائي ، والمناسبة ما علمت .

وتقديم المسند إليه وهو اسم الجلالة على الخبر الفعلي في قوله ﴿ الله يصطفي ﴾ دون أن يقول : نصطفي ، لإفادة الاختصاص ، أي الله وحده هو الذي يصطفي لا أنتم تصطفون وتنسبون إليه .

والإظهار في مقام الإضمار هنا حيث لم يقل : هو يصطفي من الملائكة رسلاً ، لأن اسم الجلالة أصله الإله ، أي الإله المعروف الذي لا إله غيره ، فاشتقاقه مشير إلى أن مسماه جامع كل الصفات العلى تقريراً للقوّة الكاملة والعزّة القاهرة .

وجملة ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ تعليل لمضمون جملة ﴿ الله يصطفي ﴾ لأن المحيط علمه بالأشياء هو الذي يختص بالاصطفاء .

وليس لأهل العقول ما بلغت بهم عقولهم من الفطنة والاختيار أن يطلعوا على خفايا الأمور فيصطفوا للمقامات العليا من قد تخفَى عنهم نقائصهم بله اصطفاء الحجارة الصمّاء .

(73/529)

والسميع البصير : كناية عن عموم العلم بالأشياء بحسب المتعارف في المعلومات أنها لا تعدو المسموعات والمبصرات .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76) ﴾

جملة مقرِّرة لمضمون جملة ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ [الحج : 75] وفائدتها زيادة على التقرير أنها تعريض بوجوب مراقبتهم ربَّهم في السر والعلانية لأنه لا تخفى عليه خافية .

و﴿ ما بين أيديهم ﴾ مستعار لما يظهرونه ، ﴿ وما خلفهم ﴾ هو ما يخفونه لأن الشيء

الذي يظهره صاحبه يجعله بين يديه والشيء الذي يُخفيه يجعله وراءه .

ويجوز أن يكون ﴿ ما بين أيديهم ﴾ مستعاراً لما سيكون من أحوالهم لأنها تشبه الشيء الذي هو تجاه الشخص وهو يمشي إليه ، ﴿ وما خلفهم ﴾ مستعاراً لما مضى وعبَر من أحوالهم لأنها تشبه ما تركه السائر وراءه وتجاوزه .

وضمير ﴿ أيديهم ﴾ و﴿ خلفهم ﴾ عائدان : إما إلى المشركين الذين عاد إليهم ضمير ﴿ فلا ينازعنك في الأمر ﴾ [الحج : 67] ، وإما إلى الملائكة والناس .

وإرجاع الأمور إرجاع القضاء في جزائها من ثواب وعقاب إليه يوم القيامة .

وبني فعل ﴿ تُرجع ﴾ إلى النائب لظهور من هو فاعل الإرجاع فإنه لا يليق إلاّ بالله تعالى ، فهو يُمهل الناس في الدنيا وهو يُرجع الأمور إليه يوم القيامة .

وتقديم المجرور لإفادة الحصر الحقيقي ، أي إلى الله لا إلى غيره يرجع الجزاء لأنه ملك يوم الدين .

والتعريف في ﴿ الأمور ﴾ للاستغراق ، أي كل أمر .

وذلك جمع بين البشارة والنذارة تبعاً لما قبله من قوله : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس ﴾ .

بين الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه يصطفي أي يختار رسلاً من الملائكة ، ومن الناس فرسل الناس لإبلاغ الوحين ورسل الملائكة لذلك أيضاً ، وقد يرسلهم لغيره ، وهذا الذي ذكره هنا من اصطفائه الرسل منهما جاء واضحاً في غير هذا الموضع ، كقوله في رسل الملائكة ﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السماوات والأرض جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً أولي أَجْنِحَةٍ مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ﴾ [فاطر : 1] الآية . وقوله في جبريل ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [التكوير : 19] ومن ذكره إرسال الملائكة بغير الوحي قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام : 61] وكقوله في رسل بني آدم ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : 124] وقوله ﴿ تِلْكَ الرسل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴾ [البقرة : 253] الآية ، وقوله ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾ [النحل : 36] الآية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾

إذن : المرحلة الثانية في الإيمان بعد الإيمان بالقمة الإلهية الإيمان بالرسل ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس . . ﴾ [الحج : 75] .

والاصطفاء : اختيار نخبة من كثير ، واختيار القليل من الكثير دليل على أنها الخلاصة والصفوة ، كما يختلف الاصطفاء باختلاف المصطفي ، فإنْ كان المصطفِي هو الله تعالى فلا بُدَّ أنْ يختار خلاصة الخلاصة .

والاصطفاء سائر في الكون كله ، يصطفي من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفي من الزمان ، ويصطفي من المكان ، كما اصطفى رمضان من الزمان ، والكعبة من المكان . ولم يجعل الحق سبحانه الاصطفاء لتدليل المصطفى على غيره ، إنما ليُشيع اصطفاءَه على خَلْق الله ، فما اصطفى رمضان على سائر الزمن – لا ليدلل رمضان – إنما لتأخذ منه شحنة تُقوّي روحك ، وتُصفِّيها بقية الأيام ، لتستفيد من صالح عملك فيها .

وقد يتكرر الاصطفاء مع اختلاف متعلق الاصطفاء ؛ لذلك وقف المستشرقون عند قول الله تعالى : ﴿ يامريم إِنَّ الله اصطفاك وَطَهَّرَكِ واصطفاك على نِسَآءِ العالمين ﴾ [آل عمران : 42] .

يقولون : ما فائدة تكرار الاصطفاء هنا ؟ ولو تأملنا الآية لوجدنا فَرْقاً بين الاصطفاء الأول والآخر : الاصطفاء الأول اصطفاء ؛ لأنْ تكوني عابدة تقية متبتلة منقطعة في محرابك لله ، أما الاصطفاء الآخر فاصطفاء على نساء العالمين جميعاً ، بأن تكوني أماً لمولود بلا أب ، فمُتعلِّق الاصطفاء – إذن – مختلف .

وتنقسم الملائكة في مسألة الاصطفاء إلى ملائكة مُصْطفاة ، وملائكة مُصْطَفًى منها . وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً . . ﴾ [فاطر : 1] يعني : كلهم لهم رسالة مع عوالم أخرى غيرنا .

(76/529)

أما في الآية التي معنا ، فالكلام عن الملائكة الذين لهم صلة بالإنسان أمثال جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، والحفظة الكاتبين والمكلفين بحفظ الإنسان ، فالله تعالى يصطفي هؤلاء ، أما الباقون منهم فالله مصطفيهم لعبادته فهم مُهيّمون لا يدرون عن هذا الخلق شيئاً ، وهم الملائكة العالون الذين قال الله عنهم في الحديث عن إبليس : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ [ص : 75] يعني : الذين لم يشملهم الأمر بالسجود ؛ لأن لهم مهمة أخرى . ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : 75] السمع يتعلق بالأصوات ،

والبصر يتعلق بالأفعال ، وهما كما قلنا عُمْدة الحواسّ كلها ، والحق سبحانه في قوله : ﴿ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : 75] يُبيّن لنا أن رسله سيُوَاجَهُون بأقوال تؤذيهم واستهزاء ، وسيُقَابلون بأفعال تعرقل مسيرة دعوتهم ، فليكُنْ هذا معلوماً حتى لا يفُتّ في عَضُدهم ، وأنا معهم سميع لما يُقال ، بَصير بما يفعل ، فهُمْ تحت سمعي وبصري وكلاءتي .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76) ﴾

﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الحج : 76] ما أمامهم ، ويعلم أيضاً ما خلفهم ، فليعمل الإنسان ما يشاء ، فعِلْم الله محيط به .

﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ [الحج : 76] فالمرجع في النهاية إليه سبحانه ، فالحق – تبارك وتعالى – لم يخلق خَلْقه ليتركهم هَمَلاً ، إنما خلقهم لحكمة ، وجعل لهم نهاية يُجازَي فيها كُلٌّ بعمله ، فمَن تعب ونصب في سبيل دعوة الله وتحمّل المشاقّ في مساندة رسل الله فله جزاؤه ، ومَنْ جابههم وعاندهم سواء بالأقوال السَّابّة الشاتمة المستهزئة ، أو بالأفعال التي تعوق دعوتهم ، فله أيضاً ما يستحق من العقاب .

(77/529)

وبعد أن حدّثنا ربنا عز وجل عن الإلهيات وعن الرسل التي تُبلِّغ عنه سبحانه ، يُحدثنا عن المنهج الذي سيأتون به لينظم حركة حياتنا ، هذا المنهج موجز في افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهو لا يشمل في أوامره ونواهيه كل حركات الحياة . فالأوامر والنواهي محصورة في عِدَّة أمور ، والباقي مباح ؛ لأن الله تعالى وضع الأوامر والنواهي في الأصول التي تعصم حركة الحياة من الأهواء والنزوات ، وترك الباقي لاختيارك تفعله على أيِّ وجه تريد .

لذلك نرى العلماء يجتهدون ويختلفون في مثل هذه الأمور التي تركها الله لنا ، ولو أراد سبحانه لأنزل فيها حكماً محكماً ، لا يختلف عليه أحد . ولك أن تقول : ولماذا ترك الحق سبحانه هذه الأمور تتضارب فيها الأقوال ، وتختلف فيها الآراء ، وتحدث فيها نزاعات بين الناس ؟

قالوا : هذا مراد الله ؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان مُسخَّراً في أشياء ، ومختاراً في أشياء أخرى ، فللناس أن يتركوا المجتهد يجتهد ما وسعه الاجتهاد ، ثم يحكمون على ما وصل إليه أنه حق ، وآخر يجتهد ويقررون أنه باطل ؛ لأن الله لو أراده على لون واحد لقاله ، إنما تركه محتملاً للآراء .

إذن : أراد سبحانه أن تكون هذه الآراء لأن الإنسان كما هو محكوم بقهر في كثير من الكونيات وله اختيار في بعض الأمور ، كذلك الحال في التكليف ، فهو مقهور في الأصول التي

لو حاد عنها يفسد العالم ، ومختار في أمور أخرى يصحّ فِعْلها ويصحّ تَرْكها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(78/529)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه في الآية قال : الذي ﴿ يصطفى ﴾ من الناس هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله اصطفى موسى بالكلام وإبراهيم بالخلة " .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن أنس رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : " موسى بن عمران صفي الله " .

(79/529)

وأخرج البغوي في معجمه والباوردي وابن قانع والطبراني وابن عساكر ، عن زيد بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد المدينة فجعل يقول : " أين فلان ؟ أين فلان ؟ " فلم يزل يتفقدهم ، وينصب إليهم حتى اجتمعوا عنده فقال : إني محدثكم فاحفظوه وعوه وحدثوا به من بعدكم ، إن الله اصطفى من خلقه خلقاً " ثم تلا هذه الآية ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ خلقاً يدخلهم الجنة " وإني مصطفٍ منكم من أحب أن اصطفيه ، ومؤاخ بينكم كما آخى الله بين الملائكة ، قم يا أبا بكر . فقام فجثا بين يديه . فقال : إن لك عندي يداً أن الله يجزيك بها ، فلو كنت متخذاً خليلاً ، لاتخذتك خليلاً ، فأنت مني بمنزلة قميصي من جسدي ، وحرك قميصه بيده . ثم قال : ادن يا عمر ، فدنا ثم قال : ادن يا عمر ، فدنا ثم قال : كنت شديد الثغب علينا أبا حفص ، فدعوت الله أن يعز الدين بك ، أو بأبي جهل ، ففعل الله ذلك لك ، وكنت أحبهما إليّ ، فأنت معي في الجنة ثالث ثلاثة من هذه الأمة . ثم تنحى وآخى بينه وبين أبي بكر ، ثم دعا عثمان بن عفان فقال : ادن يا عثمان ادن يا عثمان ، فلم يزل يدنو منه حتى ألصق ركبته بركبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم نظر اليه ثم نظر إلى السماء فقال : سبحان الله العظيم ثلاث مرات ، ثم نظر إلى عثمان فإذا ازراره محلولة ، فزرها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بيده ثم قال : اجمع عطفي ردائك على نحرك ،

فإن لك شأناً في أهل السماء ، أنت ممن يرد عليّ الحوض ، وأوداجه تشخب دماً فأقول من فعل هذا بك ؟ فتقول فلان . وذلك كلام جبريل ، وذلك إذا هتف من السماء : إلا أن عثمان أمير على كل خاذل . ثم دعا عبد الرحمن بن عوف فقال : ادن يا أمين الله والامين في السماء ، يسلط الله على مالك بالحق ، أما ان لك عندي دعوة وقد أخرتها . قال : خر لي يا رسول الله . قال : حملتني يا عبد الرحمن أمانة ، أكثر الله مالك وجعل

(80/529)

يحرك يده ثم تنحى ، وآخى بينه وبين عثمان ، ثم دخل طلحة والزبير فقال : ادنوا مني فدنوا منه فقال : " أنتما حواري كحواري عيسى ابن مريم " ثم آخى بينهما ، ثم دعا سعد بن أبي وقاص ، وعمار بن ياسر فقال : يا عمار ، قتلتك الفئة الباغية .

ثم آخى بينهما ، ثم دعا أبا الدرداء وسلمان الفارسي فقال : " يا سلمان أنت منا أهل البيت وقد آتاك الله العلم الأول ، والعلم الآخر ، والكتاب الأول ، والكتاب الآخر . ثم قال إلا أنشدك يا أبا الدرداء ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : إن تنقدهم ينقدوك وإن تتركهم لا يتركوك ، وإن تهرب منهم يدركوك ، فاقرضهم عرضك ليوم فقرك " فآخى بينهما ، ثم نظر في وجوه أصحابه فقال : " ابشروا وقروا عيناً ، فأنتم أول من يرد عليّ الحوض ، وأنتم في أعلى

الغرف " . ثم نظر إلى عبد الله بن عمر ، فقال : الحمد لله الذي يهدي من الضلالة ، فقال علي : يا رسول الله ، ذهب روحي وانقطع ظهري حين رأيتك فعلت ما فعلت بأصحابك غيري ! فإن كان من سخط علي ، فلك العتبى والكرامة . فقال : " والذي بعثني بالحق ، ما أخرتك إلا لنفسي فأنت عندي بمنزلة هارون من موسى ووارثي . فقال : يا رسول الله ، ما أرث منك ؟ قال : ما ورثت الأنبياء . قال : وما ورثت الأنبياء قبلك ؟ قال : كتاب الله وسنة نبيهم ، وأنت معي في قصري في الجنة ، مع فاطمة ابنتي وأنت أخي ورفيقي ، ثم تلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هذه . الآية ﴿ إخواناً على سرر متقابلين ﴾ . الأخلاء في الله ينظر بعضهم إلى بعض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(81/529)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ اللهَ يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس ﴾ : قيل : تقديرُه : ومن الناسِ رسلاً . ولا حاجةَ لذلك ، بل قوله ﴿ وَمِنَ الناس ﴾ مقدَّرُ التقديمِ أي : يصطفي من الملائكة ، ومن الناس رسلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 309 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) ﴾

الاجتباء والاصطفاءُ من الحق سبحانه بإثبات القَدْرِ ، وتخصيص الطَّوْلِ ، وتقديمهم على أشكالهم في المناقب والمواهب .

ثم بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ ؛ فالفضيلةُ بحقّ المُرْسِلِ ، لا لخصوصيةٍ في الخِلْقةِ في المُرْسَلِ .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76) ﴾

يعلم حالَهم ومآلَهم ، وظاهرهَم وباطنهم ، ويومَهم وغدَهم ، ويعلم نَقْضَهم عَهْدَهم ؛ فإليه مُنْقَلَبُهم ، وفي قبضتِه تَقَلُّبُهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 563 ﴾

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أثبت سبحانه أن الملك والأمر له وحده ، وأنه قد أحكم شرعه ، وحفظ رسله ، وأنه يمكن لمن يشاء أيّ دين شاء ، وختم ذلك بما يصلح للترغيب والترهيب ، وكانت العادة جارية بأن الملك إذا برزت أوامره وانبثت دعاته ، أقبل إليه مقبلون ، خاطب المقبلين إلى دينه ، وهم الخلص من الناس ، فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي قالوا : آمنا ﴿ اركعوا ﴾ تصديقاً لقولكم ﴿ واسجدوا ﴾ أي صلوا الصلاة التي شرعتها للآدميين ، فإنها رأس العبادة ، لتكون دليلاً على صدقكم في الإقرار بالإيمان ، وخص هذين الركنين في التعبير عن الصلاة بهما ، لأنهما – لمخالفتهما الهيئات المعتادة – هما الدالان على الخضوع ، فحسن التعبير بهما عنها جداً في السورة التي جمعت جميع الفرق الذين فيهم من يستقبح – لما غلب عليه من العتو – بعض الهيئات الدالة على ذل .

ولما خص أشرف العبادة ، عم بقوله : ﴿ واعبدوا ﴾ أي بأنواع العبادة ﴿ ربكم ﴾ المحسن إليكم بكل نعمة دنيوية ودينية .

ولما ذكر عموم العبادة ، أتبعها ما قد يكون أعم منها مما صورته صورتها ، وقد يكون بلا نية ، فقال : ﴿ وافعلوا الخير ﴾ أي كله من القرب كصلة الأرحام وعيادة المرضى ونحو ذلك ، من معالي الأخلاق بنية وبغير نية ، حتى يكون ذلك لكم عادة فيخف عليكم عمله لله ، وهو قريب من " ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا " قال أبو حيان : بدأ بخاص ثم بأعم .

﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي ليكون حالكم حال من يرجو الفلاح ، وهو الفوز بالمطلوب ؛ قال ابن القطاع : أفلح الرجل : فاز بنعيم الآخرة ، وفلح أيضاً لغة فيه .

وفي الجمع بين العباب والمحكم : الفلح والفلاح : الفوز والبقاء وفي التنزيل ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] أي نالوا البقاء الدائم ، وفي الخبر : أفلح الرجل : ظفر .

ويقال لكل من أصاب خيراً : مفلح .

(84/529)

ولما كان الجهاد أساس العبادة ، وهو – مع كونه حقيقة في قتال الكفار – صالح لأن يعم كل أمر بمعروف ونهي عن منكر بالمال والنفس بالقول والفعل بالسيف وغيره ، وكل اجتهاد في

تهذيب النفس وإخلاص العمل ، ختم به فقال : ﴿ وجاهدوا في الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له في كل ما ينسب إليه سبحانه ، لا يخرج منه شيء عنه كما لا يخرج شيء من المظروف عن الظرف ﴿ حق جهاده ﴾ باستفراغ الطاقة في إيقاع كل ما أمر به من الجهاد العدو والنفس على الوجه الذي أمر به من الحج والغزو وغيرهما جهاداً يليق بما أفهمته الإضافة إلى ضميره سبحانه من الإخلاص والقوة ، فإنه يهلك جميع من يصدكم عن شيء منه .

ولما أمر سبحانه بهذه الأوامر ، أتبعها بعض ما يجب به شكره ، وهو كالتعليل لما قبله ، فقال : ﴿ هو اجتباكم ﴾ أي اختاركم لجعل الرسالة فيكم والرسول منكم وجعله أشرف الرسل ، ودينه أكرم الأديان ، وكتابه أعظم الكتب ، وجعلكم - لكونكم أتباعه - خير الأمم ﴿ وما جعل عليكم في الدين ﴾ الذي اختاره لكم ﴿ من حرج ﴾ أي ضيق يكون به نوع عذر لمن توانى في الجهاد الأصغر والأكبر كما جعل على من كان قبلكم كما تقدم ذكره بعضه في البقرة وغيرها ، أعني ﴿ ملة ﴾ .

(85/529)

ولما كان أول مخاطب بهذا قريشاً ، ثم مضر ، وكانوا كلهم أولاد إبراهيم عليه الصلاة والسلام حقيقة ، قال : ﴿ أبيكم إبراهيم ﴾ أي الذي ترك عبادة الأصنام ونهى عنها ، ووحد الله وأمر بتوحيده ، يا من تقيدوا بتقليد الآباء ! فالزموا دينه لكونه اباً ، ولكوني أمرت به ، وهو أب لبعض المخاطبين من الأمة حقيقة ، ولبعضهم مجازاً بالاحترام والتعظيم ، فيعم الخطاب الجميع ، ولذلك حثهم على ملته بالتعليل بقوله : ﴿ هو ﴾ أي إبراهيم عليه السلام ﴿ سمّاكم المسلمين ﴾ في الأزمان المتقدمة ﴿ من قبل ﴾ أي قبل إنزال هذا القرآن ، فنوّه بذكركم والثناء عليكم في سالف الدهر وقديم الزمان فكتب ثناءه في كتب الأنبياء يتلى على الأحبار والرهبان ، وسماكم أيضاً مسلمين ﴿ وفي هذا ﴾ الكتاب الذي أنزل عليكم من بعد إنزال تلك الكتب كما أخبرتكم عن دعوته في قوله ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ [البقرة : 128] لأنه بانتفاء الحرج يطابق الاسم المسمى ، ويجوز – ولعله أحسن – أن يكون ﴿ هو سمّاكم ﴾ تعليلاً للأمر بحق الجهاد بعد تعليله بقوله ﴿ هو اجتباكم ﴾ فيكون الضمير لله تعالى ، ويشهد له بالحسن قراءة أبي - رضى الله عنهم - بالجلالة عوضاً عن الضمير ، أي أن كل أمة تسمت باسم من تلقاء نفسها ، والله تعالى خصكم باسم الإسلام مشتقاً له من اسمه ﴿ السلام ﴾ [الحشر : 3] مع ما خصكم به من اسم الإيمان اشتقاقاً له من اسمه المؤمن ، فأثبت لكم هذا الاسم في كتبه ، واجتباكم لاتباع رسوله .

ولما كان الاسم إذا كان ناشئاً عن الله تعالى سواء كان بواسطة نبي من أنبيائه أو بغير واسطة يكن مخبراً عن كيان المسمى ، وكان التقدير : رفع عنكم الحرج وسماكم بالإسلام لتكونوا أشد الأمم انقياداً لتكونوا خيرهم ، علل هذا المعنى بقوله : ﴿ ليكون الرسول ﴾ يوم القيامة ﴿ شهيداً عليكم ﴾ لأنه خيركم ، والشهيد يكون خيراً ولكون السياق لإثبات مطلق وصف الإسلام فقط ، لم يقتض الحال تقديم الظرف بخلاف آية البقرة ، فإنها لإثبات ما هو أخص منه ﴿ وتكونوا ﴾ بما في جبلاتكم من الخير ﴿ شهداء على الناس ﴾ بأن رسلهم بلغتهم رسالات ربهم ، لأنكم قدرتم الرسل حق قدرهم ، ولم تفرقوا بين أحد منهم ، وعلمتم أخبارهم من كتابكم على لسان رسولكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فبذلك كله صرتم خيرهم ، فأهلتم للشهادة وصحت شهادتكم وقبلكم الحكم العدل ، وقد دل هذا على أن الشهادة غير المسلم ليست مقبولة .

ولما ندبهم لأن يكونوا خير الناس ، تسبب عنه قوله : ﴿ فأقيموا ﴾ أي فتسبب عن إنعامي عليكم بهذه النعم وإقامتي لكم في هذا المقام الشريف أني أقول لكم : أقيموا ﴿ الصلاة ﴾

التي هي زكاة قلوبكم ، وصلة ما بينكم وبين ربكم ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ التي هي طهرة أبدانكم ، وصلة ما بينكم وبين إخوانكم ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال .

(87/529)

في جميع ما أمركم به ، من المناسك التي تقدمت وغيرها لتكونوا متقين ، فيذب عنكم من يريد أن يحول بينكم وبين شيء منها ويقيكم هول الساعة ؛ ثم علل أهليته لاعتصامهم به بقوله : ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ مولاكم ﴾ أي المتولي لجميع أموركم ، فهو ينصركم على كل من يعاديكم ، بحيث تتمكنون من إظهار هذا الدين من مناسك الحج وغيرها ؛ ثم علل الأمر بالاعتصام وتوحده بالولاية بقوله : ﴿ فنعم المولى ﴾ أي هو ﴿ ونعم النصير ﴾ لأنه إذا تولى أحداً كفاه كل ما أهمه ، وإذا نصر أحداً أعلاه على كل من خاصمه " ولا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته " – الحديث ، " إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت " وهذا نتيجة التقوى ، وما قبله من أفعال الطاعة دليلها .

فقد انطبق آخر السورة على أولها .

ورد مقطعها على مطلعها – والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وهو الهادي للصواب . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 178 . 181 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾

اعلم أنه سبحانه لما تكلم في الإلهيات ثم في النبوات أتبعه بالكلام في الشرائع وهو من أربع أوجه أولها : تعيين المأمور وثانيها : أقسام المأمور به وثالثها : ذكر ما يوجب قبول تلك الأوامر ورابعها : تأكيد ذلك التكليف .

أما النوع الأول : وهو تعيين المأمور فهو قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وفيه قولان : أحدهما : المراد منه كل المكلفين سواء كان مؤمناً أو كافراً ، لأن التكليف بهذه الأشياء عام في كل المكلفين فلا معنى لتخصيص المؤمنين بذلك والثاني : أن المراد بذلك المؤمنون فقط أما أولاً : فلأن اللفظ صريح فيه ، وأما ثانياً : فلأن قوله بعد ذلك ﴿ هُوَ اجتباكم ﴾ وقوله : ﴿ هُوَ سماكم المسلمين ﴾ وقوله : ﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ كل ذلك لا يليق إلا بالمؤمنين .

أقصى ما في الباب أن يقال لما كان ذلك واجباً على الكل فأي فائدة في تخصيص المؤمنين ؟

لكنا نقول تخصيصهم بالذكر لا يدل على نفي ذلك عما عداهم بل قد دلت هذه الآية على كونهم على التخصيص مأمورين بهذه الأشياء ودلت سائر الآيات على كون الكل مأمورين بها .

ويمكن أن يقال فائدة التخصيص أنه لما جاء الخطاب العام مرة بعد أخرى ثم إنه ما قبله إلا المؤمنون خصهم الله تعالى بهذا الخطاب ليكون ذلك كالتحريض لهم على المواظبة على قبوله وكالتشريف لهم في ذلك الإقرار والتخصيص .

(89/529)

أما النوع الثاني : وهو المأمور به فقد ذكر الله أموراً أربعة : الأول : الصلاة وهو المراد من قوله : ﴿ اركعوا واسجدوا ﴾ وذلك لأن أشرف أركان الصلاة هو الركوع والسجود والصلاة هي المختصة بهذين الركنين فكان ذكرهما جارياً مجرى ذكر الصلاة وذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن الناس في أول إسلامهم كانوا يركعون ولا يسجدون حتى نزلت هذه الآية الثاني : قوله : ﴿ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ﴾ وذكروا فيه وجوهاً : أحدها : اعبدوه ولا تعبدوا غيره وثانيها : واعبدوا ربكم في سائر المأمورات والمنهيات وثالثها : افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة لأنه لا يكفي أن يفعل فإنه ما لم يقصد به عبادة

الله تعالى لا ينفع في باب الثواب فلذلك عطف هذه الجملة على الركوع والسجود الثالث :

قوله تعالى : ﴿ وافعلوا الخير ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد به صلة الرحم ومكارم الأخلاق والوجه عندي في هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة والعبادة نوع من أنواع فعل الخير ، لأن فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء وحسن القول للناس فكأنه سبحانه قال كلفتكم بالصلاة بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات .

أما قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فقيل معناه لتفلحوا ، والفلاح الظفر بنعيم الآخرة ، وقال الإمام أبو القاسم الأنصاري لعل كلمة للترجية فإن الإنسان قلما يخلو في أداء الفريضة من تقصير وليس هو على يقين من أن الذي أتي به هل هو مقبول عند الله تعالى والعواقب أيضاً مستورة "وكل ميسر لما خلق له" الرابع : قوله تعالى : ﴿ وجاهدوا فِى الله حَقَّ جهاده ﴾ قال صاحب "الكشاف" ﴿ فِى الله ﴾ أي في ذات الله ، ومن أجله .

(90/529)

يقال هو حق عالم وجد عالم أي عالم حقاً وجداً ومنه ﴿ حَقَّ جهاده ﴾ وههنا سؤالات :

السؤال الأول : ما وجه هذه الإضافة وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه كما قال : ﴿ وجاهدوا فِى الله حَقَّ جهاده ﴾ ؟ والجواب : الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص ، فلما كان الجهاد مختصاً بالله من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت الإضافة إليه .

السؤال الثاني : ما هذا الجهاد ؟ الجواب : فيه وجوه : أحدها : أن المراد قتال الكفار خاصة ، ومعنى ﴿ حَقَّ جهاده ﴾ أن لا يفعل إلا عبادة لا رغبة في الدنيا من حيث الاسم أو الغنيمة والثاني : أن يجاهدوا آخراً كما جاهدوا أولاً فقد كان جهادهم في الأول أقوى وكانوا فيه أثبت نحو صنعهم يوم بدر ، روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال لعبد الرحمن بن عوف : أما علمت أنا كنا نقرأ ﴿ وجاهدوا فِى الله حَقَّ جهاده ﴾ في آخر الزمان كما جاهدتموه في أوله ، فقال عبد الرحمن ومتى ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال إذا كانت بنو أمية الأمراء وبنو المغيرة الوزراء ، واعلم أنه يبعد أن تكون هذه الزيادة من القرآن وإلا لنقل كنقل نظائره ، ولعله إن صح ذلك عن الرسول فإنما قاله كالتفسير للآية ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ : وجاهدوا في الله حق جهاده كما جاهدتم أول مرة .

فقال عمر من الذي أمرنا بجهاده ؟ فقال قبيلتان من قريش مخزوم وعبد شمس ، فقال صدقت والثالث : قال ابن عباس : حق جهاده ، لا تخافوا في الله لومة لائم والرابع : قال

الضحاك : واعملوا لله حق عمله والخامس : استفرغوا وسعكم في إحياء دين الله وإقامة حقوقه بالحرب باليد واللسان وجميع ما يمكن وردوا أنفسكم عن الهوى والميل والوجه السادس : قال عبد الله ابن المبارك : حق جهاده ، مجاهدة النفس والهوى .

(91/529)

ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك قال : " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " والأولى أن يحمل ذلك على كل التكاليف ، فكل ما أمر به ونهى عنه فالمحافظة عليه جهاد .

السؤال الثالث : هل يصح ما نقل عن مقاتل والكلبي أن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ [التغابن : 16] كما أن قوله : ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : 102] منسوخ بذلك ؟ الجواب : هذا بعيد لأن التكليف مشروط بالقدرة لقوله تعالى : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهِ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : 286] فكيف يقول الله وجاهدوا في الله على وجه لا تقدرون عليه ، وكيف وقد كان الجهاد في الأول مضيقاً حتى لا يصح أن يفر الواحد من عشرة ، ثم خففه الله بقوله : ﴿ الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ ﴾ [الأنفال : 66] أفيجوز مع ذلك أن يوجبه على وجه لا يطاق حتى يقال إنه منسوخ .

النوع الثالث : بيان ما يوجب قبول هذه الأوامر وهو ثلاثة : الأول : قوله : ﴿ هُوَ اجتباكم ﴾ ومعناه أن التكليف تشريف من الله تعالى للعبد ، فلما خصكم بهذا التشريف فقد خصكم بأعظم التشريفات واختاركم لخدمته والاشتغال بطاعته ، فأي رتبة أعلى من هذا ، وأي سعادة فوق هذا ، ويحتمل في اجتباكم خصكم بالهداية والمعونة والتيسير .

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ فهو كالجواب عن سؤال يذكر وهو أن التكليف وإن كان تشريفاً واجباً كما ذكرتم لكنه شاق شديد على النفس ؟ فأجاب الله تعالى عنه بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ روي أن أبا هريرة رضي الله عنه قال كيف قال الله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ مع أنه منعنا عن الزنا والسرقة ؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : بلى ولكن الإصر الذي كان على بني إسرائيل وضع عنكم ، وههنا سؤالات :

(92/529)

السؤال الأول : ما الحرج في أصل اللغة ؟

الجواب : روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لبعض هذيل ما تعدون الحرج فيكم ؟ قال الضيق ، وعن عائشة رضي الله عنها : " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن ذلك فقال الضيق "

السؤال الثاني : ما المراد من الحرج في الآية ؟

الجواب : قيل هو الإتيان بالرخص ، فمن لم يستطع أن يصلي قائماً فليصل جالساً ومن لم يستطع ذلك فليؤم ، وأباح للصائح الفطر في السفر والقصر فيه .

وأيضاً فإنه سبحانه لم يبتل عبده بشيء من الذنوب إلا وجعل له مخرجاً منها إما بالتوبة أو بالكفارة ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما "أنه من جاءته رخصة فرغب عنها كلف يوم القيامة أن يحمل ثقل تنين حتى يقضي بين الناس" وعن النبي صلى الله عليه وسلم " إذا اجتمع أمران فأحبهما إلى الله تعالى أيسرهما " وعن كعب : أعطى الله هذه الأمة ثلاثاً لم يعطهم إلا للأنبياء : "جعلهم شهداء على الناس ، وما جعل عليهم في الدين من حرج ، وقال أدعوني أستجب لكم" .

السؤال الثالث : استدلت المعتزلة بهذه الآية في المنع من تكليف مالا يطاق ، فقالوا : لما خلق الله الكفر والمعصية في الكافر والعاصي ثم نهاه عنهما كان ذلك من أعظم الحرج وذلك منفي بصريح هذا النص والجواب : لما أمره بترك الكفر وترك الكفر يقتضي انقلاب علمه جهلاً فقد أمر الله المكلف بقلب علم الله جهلاً وذلك من أعظم الحرج ، ولما استوى القدمان زال السؤال .

الموجب الثاني : لقبول التكليف قوله : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سماكم المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ وفي نصب الملة وجهان : أحدهما : وهو قول الفراء أنها منصوبة بمضمون ما تقدمها كأنه قيل وسع دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم ، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه والثاني : أن يكون منصوباً على المدح والتعظيم أي أعني بالدين ملة أبيكم إبراهيم ، واعلم أن المقصود من ذكره التنبيه على أن هذه التكاليف والشرائع هي شريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

والعرب كانوا محبين لإبراهيم عليه السلام لأنهم من أولاده ، فكان التنبيه على ذلك كالسبب لصيرورتهم منقادين لقبول هذا الدين وههنا سؤالات :

السؤال الأول : لم قال : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم ﴾ ولم يدخل في الخطاب المؤمنون الذين كانوا في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يكن من ولده ؟

والجواب : من وجهين :

أحدهما : لما كان أكثرهم من ولده كالرسول ورهطه وجميع العرب جاز ذلك وثانيهما : وهو قول الحسن أن الله تعالى جعل حرمة إبراهيم عليه السلام على المسلمين كحرمة الوالد على ولده ، ومنه قوله تعالى ﴿ النبى أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب : 6] فجعل حرمته كحرمة الوالد على الولد ، وحرمة نسائه كحرمة الوالدة على ما قال تعالى :

﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب : 6] .

السؤال الثاني : هذا يقتضي أن تكون ملة محمد كملة إبراهيم عليهما السلام سواء ، فيكون الرسول ليس له شرع مخصوص ويؤكده قوله تعالى : ﴿ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم ﴾ [النحل : 123] ،

الجواب : هذا الكلام إنما وقع مع عبدة الأوثان ، فكأنه تعالى قال : عبادة الله وترك الأوثان هي ملة إبراهيم فأما تفاصيل الشرائع فلا تعلق لها بهذا الموضع .

(94/529)

السؤال الثالث : ما معنى قوله تعالى : ﴿ هُوَ سماكم المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ ؟

الجواب : فيه قولان : أحدهما : أن الكناية راجعة إلى إبراهيم عليه السلام (1) ، فإن لكل نبي دعوة مستجابة وهو قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة : 128] فاستجاب الله تعالى له فجعلها أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وروي أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الله تعالى سيبعث محمداً بمثل ملته وأنه ستسمى أمته بالمسلمين والثاني : أن الكناية راجعة إلى الله تعالى في قوله : ﴿ هُوَ اجتباكم ﴾ فروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : "إن الله سماكم

المسلمين من قبل" أي في كل الكتب ، وفي هذا أي في القرآن .

وهذا الوجه أقرب لأنه تعالى قال : ﴿ لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ فبين أنه سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق إلا بالله ، ويدل عليه أيضاً قراءة أبي بن كعب ﴿ الله سماكم ﴾ والمعنى أنه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن ، وفي القرآن أيضاً بين فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم ، لأجل الشهادة المذكورة .

فلما خصكم الله بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه .

وهذا هو العلة الثالثة : الموجبة لقبول التكليف ، وأما الكلام في أنه كيف يكون الرسول شهيداً علينا ، وكيف تكون أمته شهداء على الناس ؟ فقد تقدم في سورة البقرة ، وبينا أنه أخذ منه ما يدل على أن الإجماع حجة .

---

(1) من لطائف ما يذكر : أننى صليت الفجر فى أحد المساجد الكبرى بالقاهرة ، والتقيت بعد الصلاة بفضيلة العلامة الشيخ : ممدوح سعودى ـ حفظه الله ـ فأدنانى منه من غير سابق معرفة ، وقد أجرى الله على يديه بعض الكرامات فى مجلسه المبارك ، ولما قرأ أحد الحاضرين قوله تعالى ﴿ هُوَ سماكم المسلمين مِن قَبْلُ ﴾

قال الشيخ : أكثر الناس يقولون : الضمير يعود على إبراهيم ـ عليه السلام ـ

والصواب أنه يعود على الله ـ تعالى ـ لأن الله تعالى قال فى أول الآية ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ وقال

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ﴾ ولأن الإسلام موجود قبل إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال تعالى على لسان نوح ـ عليه السلام ـ فى سورة يونس ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) ﴾

ثم قال الشيخ : بلغ عنى هذا الكلام ، وكان المجلس من المجالس النادرة فى حياتى .

(95/529)

النوع الرابع : شرح ما يجري مجرى المؤكد لما مضى ، وهو قوله : ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ ويجب صرفها إلى المفروضات لأنها هي المعهودة ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي بدلائله العقلية والسمعية وألطافه وعصمته ، قال ابن عباس : "سلوا الله العصمة عن كل المحرمات" وقال القفال : اجعلوا الله عصمة لكم مما تحذرون هو مولاكم وسيدكم المتصرف فيكم فنعم المولى ونعم البصير ، فكأنه سبحانه قال أنا مولاك بل أنا ناصرك وحسبك ، واعلم أن المعتزلة احتجوا بهذه الآيات من وجوه : أحدها : أن قوله : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ ﴾ يدل على أنه سبحانه أراد الإيمان من الكل ، لأنه تعالى لا يجعل الشهيد على عباده إلا من كان عدلاً مرضياً ، فإذا أراد أن تكونوا شهداء على الناس فقد أراد تكونوا جميعاً صالحين عدولاً ، وقد علمنا أن منهم فاسقاً ، فدل ذلك على أن الله تعالى أراد من

الفسق كونه عدلاً وثانيها : قوله : ﴿ واعتصموا بالله ﴾ وكيف يمكن الاعتصام به مع أن الشر لا يوجد إلا منه ؟ وثالثها : قوله : ﴿ فَنِعْمَ المولى ﴾ لأنه لو كان كما يقوله أهل السنة من أنه خلق أكثر عباده ليخلق فيهم الكفر والفساد ثم يعذبهم لما كان نعم المولى ، بل كان لا يوجد من شرار الموالي أحد إلا وهو شر منه .

فكان يجب أن يوصف بأنه بئس المولى وذلك باطل فدل على أنه سبحانه ما أراد من جميعهم إلا الصلاح .

فإن قيل لم لا يجوز أن يكون نعم المولى للمؤمنين خاصة كما أنه نعم النصير لهم خاصة ؟ قلنا إنه تعالى مولى المؤمنين والكافرين جميعاً فيجب أن يقال إنه نعم المولى للمؤمنين وبئس المولى للكافرين .

فإن ارتكبوا ذلك فقد ردوا القرآن والإجماع وصرحوا بشتم الله تعالى ، ورابعها : أن قوله : ﴿ سماكم المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ يدل على إثبات الأسماء الشرعية وأنها من قبل الله تعالى لأنها لو كانت لغة لما أضيفت إلى الله تعالى على وجه الخصوص .

(96/529)

والجواب : عن الأول وهو قوله كونه تعالى مريداً لكونه شاهداً يستلزم كونه مريداً لكونه عدلاً ، فنقول : إن كانت إرادة الشيء مستلزمة لإرادة لوازمه فإرادة الإيمان من الكافر توجب أن تكون مستلزمة لإرادة جهل الله تعالى فيلزم كونه تعالى مريداً لجهل نفسه .

وإن لم يكن ذلك واجباً سقط الكلام .

وأما قوله : ﴿ واعتصموا بالله ﴾ فيقال هذا أيضاً وارد عليكم فإنه سبحانه خلق الشهوة في قلب الفاسق وأكدها وخلق المشتهي وقربه منه ورفع المانع ثم سلط عليه الشياطين من الإنس والجن وعلم أنه لا محالة يقع في الفجور والضلال ، وفي الشاهد كل من فعل ذلك فإنه يكون بئس المولى ، فإن صح قياس الغائب على الشاهد فهذا لازم عليكم وإن بطل سقط كلامكم بالكلية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 62. 66 ﴾

(97/529)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبْرَاهِيمَ ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَاتَّبِعُوا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبْرَاهِيمَ ، وَلِذَلِكَ نُصِبَ . قَالَ بَعْضُهُمْ : نُصِبَ ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ كَمِلَّةِ أَبِيكُمْ ، إلَّا أَنَّهُ لَمَّا حُذِفَ الْجَارُّ اتَّصَلَ الِاسْمُ بِالْفِعْلِ

فَنُصِبَ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ عَلَيْنَا اتِّبَاعَ شَرِيعَةِ إبْرَاهِيمَ إلَّا مَا ثَبَتَ نَسْخُهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقِيلَ : إنَّهُ إنَّمَا قَالَ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبْرَاهِيمَ ؛ لِأَنَّهَا دَاخِلَةٌ فِي مِلَّةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى أَنَّهُ كَمِلَّةِ أَبِيكُمْ إبْرَاهِيمَ ، فَإِنَّهُ يَعْنِي أَنَّ الْجِهَادَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ كَمِلَّةِ أَبِيكُمْ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ لِأَنَّهُ جَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ : " جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ " .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا : " لَا تَخَافُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، وَهُوَ الْجِهَادُ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ " .

وَقَالَ الضَّحَّاكُ : " يَعْنِي اعْمَلُوا بِالْحَقِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " مِنْ ضِيقٍ " .

وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ .

(98/529)

وَيُحْتَجُّ بِهِ فِي كُلِّ مَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَوَادِثِ أَنَّ مَا أَدَّى إلَى الضِّيقِ فَهُوَ مَنْفِيٌّ وَمَا أَوْجَبَ التَّوْسِعَةَ فَهُوَ أَوْلَى ، وَقَدْ قِيلَ : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أَنَّهُ مِنْ ضِيقٍ لَا

مَخْرَجَ مِنْهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مِنْهُ مَا يُتَخَلَّصُ مِنْهُ بِالتَّوْبَةِ وَمِنْهُ مَا تُرَدُّ بِهِ الْمَظْلِمَةُ ، فَلَيْسَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ مَا لَا سَبِيلَ إِلَى الْخَلَاصِ مِنْ عُقُوبَتِهِ .

وَقَوْلُهُ ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الْخِطَابُ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ رَاجِعًا بِنَسَبِهِ إِلَى أَوْلَادِ إِبْرَاهِيمَ ، فَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّ حُرْمَةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَحُرْمَةِ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ وَفِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ : " وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ : " يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ " .

وَقِيلَ : إنَّ إِبْرَاهِيمَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَك ﴾ وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : " مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ وَفِي الْقُرْآنِ " .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ عُدُولٌ مَرْضِيُّونَ ، وَفِي ذَلِكَ بُطْلَانُ طَعْنِ الطَّاعِنِينَ عَلَيْهِمْ ؛ إذْ كَانَ اللَّهُ لَا يَجْتَبِي إلَّا أَهْلَ طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ مَرْضَاتِهِ ، وَفِي ذَلِكَ مَدْحٌ لِلصَّحَابَةِ الْمُخَاطَبِينَ بِذَلِكَ وَدَلِيلٌ عَلَى طَهَارَتِهِمْ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى صِحَّةِ إجْمَاعِهِمْ ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ : لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ أَطَاعَ فِي تَبْلِيغِهِ وَعِصْيَانِ مَنْ عَصَى وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ فِيمَا بَلَّغْتُمُوهُمْ مِنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ فَبَدَأَ بِمَدْحِهِمْ وَوَصْفِهِمْ بِالْعَدَالَةِ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ شُهَدَاءُ وَحُجَّةٌ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ ، كَمَا قَالَ هُنَا : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ رُبَّمَا يَحْتَجُّ بِهِ الْمُحْتَجُّ فِي إيجَابِ قُرْبَةٍ مُخْتَلَفٍ فِي وُجُوبِهَا ، وَهَذَا عِنْدَنَا لَا يَصِحُّ الِاحْتِجَاجُ بِهِ فِي إيجَابِ شَيْءٍ وَلَا يَصِحُّ اعْتِقَادُ الْعُمُومِ فِيهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(100/529)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ ﴾ .

حَمَلَهَا كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُنَا لَهُ قَوْمٌ عَلَى أَنَّهَا سَجْدَةُ تِلَاوَةٍ ، فَسَجَدُوهَا .

وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ سُجُودُ الصَّلَاةِ ، فَقَصَرُوهُ عَلَيْهِ .

وَرَأَى عُمَرُ أَنَّهَا سَجْدَةُ تِلَاوَةٍ .

وَإِنِّي لَأَسْجُدُ بِهَا وَأَرَاهَا كَذَلِكَ ؛ لِمَا رَوَى ابْنُ وَهْبٍ وَغَيْرُهُ عَنْ مَالِكٍ ، عَنْ نَافِعٍ أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ أَخْبَرَهُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَرَأَ سُورَةَ الْحَجِّ ، فَسَجَدَ فِيهَا السَّجْدَتَيْنِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ فُضِّلَتْ بِسَجْدَتَيْنِ .

قَالَ مَالِكٌ : وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ قَالَ : رَأَيْت ابْنَ عُمَرَ يَسْجُدُ فِي سُورَةِ الْحَجِّ سَجْدَتَيْنِ .

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ أَكْثَرَ الْخَلْقِ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُدْوَةً .

رَوَى عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ ﴿ قُلْت لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفِي سُورَةِ الْحَجِّ سَجْدَتَانِ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

وَمَنْ لَمْ يَسْجُدْهُمَا لَا يَقْرَأْهُمَا ﴾ ، رَوَاهُ وَهْبُ بْنُ لَهِيعَةَ عَنْ مُسَرِّحِ بْنِ هَاعَانَ عَنْهُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : الْحَرَجُ هُوَ الضِّيقُ ، وَمِنْهُ الْحَرَجَةُ ، وَهِيَ الشَّجَرَاتُ

الْمُلْتَفَّةُ لَا تَسْلُكُ ؛ لِالْتِفَافِ شَجَرَاتِهَا ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ التَّفْسِيرُ فِيهِ مِنْ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

(101/529)

رُوِيَ أَنَّ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ جَاءَ فِي نَاسٍ مِنْ قَوْمِهِ إلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ، فَسَأَلَهُ عَنْ الْحَرَجِ ، فَقَالَ : أَوَلَسْتُمْ الْعَرَبَ ؟ فَسَأَلُوهُ ثَلَاثًا .

كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ : أَوَلَسْتُمْ الْعَرَبَ ، ثُمَّ قَالَ : ادْعُ لِي رَجُلًا مِنْ هُذَيْلٍ ، فَقَالَ لَهُ : مَا الْحَرَجُ فِيكُمْ ؟ قَالَ : الْحَرَجَةُ مِنْ الشَّجَرَةِ : مَا لَيْسَ لَهُ مَخْرَجٌ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ذَلِكَ الْحَرَجُ ، وَلَا مَخْرَجَ لَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي مَحَلِّ النَّفْيِ : وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ يَسَارٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ قَالَ : هَذَا فِي تَقْدِيمِ الْأَهِلَّةِ وَتَأْخِيرِهَا بِالْفِطْرِ ، وَالْأَضْحَى ، وَفِي الصَّوْمِ .

وَثَبَتَ صَحِيحًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : تَقُولُ : مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، إنَّمَا ذَلِكَ سَعَةُ الْإِسْلَامِ : مَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ التَّوْبَةِ وَالْكَفَّارَاتِ .

وَقَالَ عِكْرِمَةُ : أُحِلَّ لَكُمْ مِنْ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ .

قَالَ الْقَاضِي : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ .

وَقَدْ كَانَتْ الشَّدَائِدُ وَالْعَزَائِمُ فِي الْأُمَمِ ، فَأَعْطَى اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ مِنْ الْمُسَامَحَةِ وَاللِّينِ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا قَبْلَهَا فِي حُرْمَةِ نَبِيِّهَا ، وَرَحْمَةِ نَبِيِّهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهَا ﴾ .

فَأَعْظَمُ حَرَجٍ رَفْعُ الْمُؤَاخَذَةِ بِمَا نُبْدِي فِي أَنْفُسِنَا وَنُخْفِيهِ ، وَمَا يَقْتَرِنُ بِهِ مِنْ إصْرٍ وُضِعَ ، كَمَا بَيَّنَّا مِنْ قَبْلُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَغَيْرِهَا .

(102/529)

وَمِنْهَا التَّوْبَةُ بِالنَّدَمِ ، وَالْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَالِاسْتِغْفَارُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ .

وَقِيلَ لِمَنْ قَبْلَنَا : ﴿ فَتُوبُوا إلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ ، وَلَوْ ذَهَبْت إلَى تَعْدِيدِ نِعَمِ اللَّهِ فِي رَفْعِ الْحَرَجِ لَطَالَ الْمَرَامُ .

وَمِنْ جُمْلَتِهِ أَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُنَا تَعَالَى إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ أَيْضًا فِيمَا قَبْلَ ذَلِكَ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَغَيْرِهِ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَفَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ ، فَجَعَلُوا يَسْأَلُونَهُ ، فَقَالَ رَجُلٌ : لَمْ أَشْعُرْ فَحَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ .

قَالَ : اذْبَحْ ، وَلَا حَرَجَ .

فَجَاءَ آخَرُ ، فَقَالَ : لَمْ أَشْعُرْ فَنَحَرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ فَقَالَ : ارْمِ وَلَا حَرَجَ .

فَمَا سُئِلَ يَوْمَهُ عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ وَلَا أُخِّرَ إلَّا قَالَ : افْعَلْ وَلَا حَرَجَ ﴾ .

فَأَعْجَبُ لِمَنْ يَقُولُ : إنَّ الدَّمَ عَلَى مَنْ قَدَّمَ الْحَلْقَ عَلَى النَّحْرِ ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ : وَلَا حَرَجَ ، وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِي هَذِهِ النَّازِلَةُ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ ، كَانَ مَعِي مَا اسْتَيْسَرَ مِنْ الْهَدْيِ ، فَلَمَّا رَمَيْت جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ ، وَانْصَرَفْت إلَى النَّحْرِ جَاءَ الْمُزَيِّنُ وَحَضَرَ الْهَدْيَ ، فَقَالَ أَصْحَابِي : نَنْحَرُ وَنَحْلِقُ ، فَحَلَقْت ، وَلَمْ أَشْعُرْ قَبْلَ النَّحْرِ ، وَمَا تَذَكَّرْت إلَّا وَجُلُّ شَعْرِي قَدْ ذَهَبَ بِالْمُوسَى ، فَقُلْت : دَمٌ عَلَى دَمٍ ، لَا يَلْزَمُ ، وَرَأَيْت بَعْدَ ذَلِكَ الِاحْتِيَاطَ لِارْتِفَاعِ الْخِلَافِ .

(103/529)

وَالْحَقُّ هُوَ الْأَوَّلُ ، فَهُوَ الْمَعْقُولُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : إذَا تَعَارَضَ دَلِيلَانِ أَحَدُهُمَا بِالْحَظْرِ ، وَالْآخَرُ بِالْإِبَاحَةِ ، فَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ مَالَ إلَى الِاسْتِظْهَارِ ، وَقَالَ : يُقَدَّمُ دَلِيلُ الْحَظْرِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : يُقَدَّمُ دَلِيلُ الْإِبَاحَةِ ، وَيَخْتَلِفُ فِي ذَلِكَ مَقَاصِدُ مَالِكٍ ، إلَّا فِي بَابِ الرِّبَا ،

فَيُقَدَّمُ دَلِيلُ الْحَظْرِ ، وَذَلِكَ مِنْ فِقْهِهِ الْعَظِيمِ .

وَكَذَلِكَ لَوْ قَامَ دَلِيلٌ عَلَى زِيَادَةِ رُكْنٍ فِي الْعِبَادَةِ ، أَوْ شَرْطٍ ، وَقَامَ الدَّلِيلُ عَلَى إسْقَاطِهِ ، فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ أَيْضًا فِيهِ ؛ فَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ أَخَذَ بِالِاحْتِيَاطِ ، وَقَضَى بِزِيَادَةِ الرُّكْنِ وَالشَّرْطِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ بِالْخِفَّةِ ، وَقَالَ بِدَلِيلِ الْإِسْقَاطِ ، وَلَمْ يُعَوِّلْ مَالِكٌ هَاهُنَا عَلَى أَقْوَى الدَّلِيلَيْنِ : كَانَ بِزِيَادَةٍ أَوْ بِإِسْقَاطٍ ، وَرَأْيُهُ هُوَ الَّذِي نَرَاهُ ، وَقَدْ مَهَّدْنَاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ، فَهُنَالِكَ يُنْظَرُ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : إذَا كَانَ الْحَرَجُ فِي نَازِلَةٍ عَامًّا فِي النَّاسِ فَإِنَّهُ يَسْقُطُ ، وَإِذَا كَانَ خَاصًّا لَمْ يُعْتَبَرْ عِنْدَنَا ، وَفِي بَعْضِ أُصُولِ الشَّافِعِيِّ اعْتِبَارُهُ ، وَذَلِكَ يُعْرَضُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ؛ فَمِنْهُ خُذُوهُ بِعَوْنِ اللَّهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(104/529)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾

قال السدي : اعملوا لله حق عمله ، وقال الضحاك أن يطاع فلا يعصى ويُذْكر فلا يُنْسَى ويُشْكر فلا يُكْفَر . وهو مثل قوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : 102

].

واختلف في نسخها على قولين :

أحدهما : أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : 16] .

والثاني : أنها ثابتة الحكم لأن حق جهاده ما ارتفع معه الحرج ، روى سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خَيْرُ دِيْنِكُمْ أَيسَرَهُ ". ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ أي اختاركم لدينه

. ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ يعني من ضيق ، وفيه خمسة أوجه :

أحدها : أنه الخلاص من المعاصي بالتوبة .

الثاني : المخرج من الأيمان بالكفارة .

الثالث : أنه تقديم الأهلة وتأخيرها في الصوم والفطر والأضحى ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنه رخص السفر من القصر والفطر .

الخامس : أنه عام لأنه ليس في دين الإسلام ما لا سبيل إلى الخلاص من المأثم فيه .

﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمُ ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : أنه وسع عليكم في الدين كما وسع ملة أبيكم إبراهيم .

الثاني : وافعلوا الخير كفعل أبيكم إبراهيم .

الثالث : أن ملة إبراهيم وهي دينه لازمة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وداخلة في

دينه . الرابع : أن علينا ولاية إبراهيم وليس يلزمنا أحكام دينه .

﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هذَا ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أن الله سماكم المسلمين من قبل هذا القرآن وفي هذا القرآن ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثاني : أن إبراهيم سماكم المسلمين ، قاله ابن زيد احتجاجاً بقوله تعالى : ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ [البقرة : 128] .

﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ فيه وجهان

(105/529)

: أحدهما : ليكون الرسول شهيداً عليكم في إبلاغ رسالة ربه إليكم ، وتكونوا شهداء على الناس تُبَلِغُونَهُم رسالة ربهم كما بلغتم إليهم ما بلغه الرسول إليكم .

الثاني : ليكون الرسول شهيداً عليكم بأعمالكم وتكونوا شهداء على الناس بأن رُسُلَهُم قد بَلَّغُوهم .

﴿ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ ﴾ يعني المفروضة

. ﴿ وَءَاتُواْ الزَّكَاةِ ﴾ يعنى الواجبة

. ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : امتنعوا بالله ، وهو قول ابن شجرة .

والثاني : معناه تمسّكوا بدين الله ، وهو قول الحسن .

﴿ هُوَ مَوْلاَكُمْ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : مَالِكُكُم .

الثاني : وليكم المتولي لأموركم .

﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ أي فنعم المولى حين لم يمنعكم الرزق لما عصيتموه ، ونعم النصير حين أعانكم لما أطعتموه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(106/529)

وقال ابن عطية :

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ اركعوا واسجدوا ﴾

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بعبادته وخص " الركوع والسجود " بالذكر تشريفاً للصلاة ، واختلف الناس هل في هذه الآية سجدة ؟ ومذهب مالك أنه لا يسجد هنا ، وقوله ﴿ وافعلوا الخير ﴾ ، ندب ، فيما عدا الواجبات التي صح وجوبها من غير هذا الموضع ،

وقوله ﴿ لعلكم ﴾ ترجٍّ في حق المؤمنين كقوله ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ [طه : 44] و" الفلاح " في هذه الآية نيل البغية وبلوغ الأمل .

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾

(107/529)

قالت فرقة : هذه آية أمر الله تعالى فيها الجهاد في سبيله وهو قتال الكفار ، وقالت فرقة : بل هي أعم من هذا وهو جهاد النفس وجهاد الكافرين وجهاد الظلمة وغير ذلك ، أمر الله تعالى عباده بأن يفعلوا ذلك في ذات الله حق فعله ع والعموم حسن وبين أن عرف اللفظة تقتضي القتال في سبيل الله ، وقال هبة الله وغيره : إن قوله ﴿ حق جهاده ﴾ وقوله في الأخرى ، ﴿ حق تقاته ﴾ [آل عمران : 102] منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة ع ومعنى الاستطاعة في هذه الأوامر هو المراد من أول الأمر فلم يستقر تكليف بلوغ الغاية شرعاً ثابتاً فيقال إنه نسخ بالتخفيف ، وإطلاقهم النسخ في هذا غير محدق ، و ﴿ اجتباكم ﴾ معناه تخيركم ، وقوله ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ معناه من تضييق يريد في شرعة الملة ، وذلك أنها حنيفية سمحة ليست كشدائد بني إسرائيل وغيرهم بل فيها التوبة والكفارات والرخص ونحو هذا مما كثر عده ، والحرجة الشجر

الملتف المتضايق ، ورفع الحرج لجمهور هذه الأمة ولمن استقام على منهاج الشرع ، وأما السلابة والسرّاق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين ، وليس في الشرع أعظم حرجاً من إلزام ثبوت رجل لاثنين في سبيل الله ومع صحة اليقين وجودة العزم ليس بحرج ، وقوله ﴿ ملة ﴾ ، نصب بفعل مضمر تقديره بل جعلها أو نحوه من أفعال الإغراء ، وقال الفراء هو نصب على تقدير حذف الكاف كأنه قال كلمة وقيل هو كما ينصب المصدر ، وقوله ﴿ هو سماكم ﴾ ، قال ابن زيد الضمير ل ﴿ إبراهيم ﴾ والإشارة إلى قوله ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ [البقرة : 128] ، وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد الضمير لله تعالى ، و ﴿ من قبل ﴾ ، معناه في الكتب القديمة ﴿ وفي هذا ﴾ ، في القرآن ، وهذه اللفظة تضعف قول من قال : الضمير ل ﴿ إبراهيم ﴾ ولا يتوجه إلا على تقدير محذوف من الكلام مستأنف ، وقوله ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم ﴾ أي بالتبليغ ، وقوله ﴿ وتكونوا شهداء

(108/529)

على الناس ﴾ أي بتبليغ رسلهم إليهم على ما أخبركم نبيكم ، وأسند الطبري إلى قتادة أنه قال : أعطيت هذه الأمة ما لم يعطه إلا نبي ، كان يقول للنبي أنت شهيد على أمتك وقيل لهذه

﴿ وتكونوا شهداء على الناس ﴾ ، وكان يقال للنبي ليس عليك حرج وقيل لهذه ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ ، وكان يقول للنبي سل تعط وقيل لهذه ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ [غافر : 60] أمر تعالى ب ﴿ الصلاة ﴾ المفروضة أن تقام ويدام عليها بجميع حدودها ، وب ﴿ الزكاة ﴾ أن تؤدي كما أنعم عليكم ، فافعلوا كذا ثم أمر ب " الاعتصام بالله " أي بالتعلق به والخلوص له وطلب النجاة منه ، ورفض التوكل على سواء ، و ﴿ المولى ﴾ في هذه الآية الذي يليكم نصره وحفظه وباقي الآية بين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(109/529)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ اركعوا واسجدوا ﴾

قال المفسرون : المراد : صلُّوا ، لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود ، ﴿ واعبُدوا ربّكم ﴾ أي : وحِّدوه ﴿ وافعلوا الخير ﴾ يريد : أبواب المعروف ﴿ لعلَّكم تُفْلِحون ﴾ أي : لكي تسعدوا وتبقوا في الجنة .

فصل

لم يختلف أهل العلم في السجدة الأولى من (الحج) واختلفوا في هذه السجدة الأخيرة ؛ فروي عن عمر ، وابن عمر ، وعمَّار ، وأبي الدرداء ، وأبي موسى ، وابن عباس : أنهم قالوا : في (الحج) سجدتان ، وقالوا : فضّلت هذه السورة على غيرها بسجدتين ، وبهذا قال أصحابنا ، وهو مذهب الشافعي رضي الله عنه .

وروي عن ابن عباس أنه قال : في (الحج) سجدة ، وبهذا قال الحسن ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وإِبراهيم ، وجابر بن زيد ، وأبو حنيفة وأصحابه ، ومالك ؛ ويدل على الأول ما " روى عقبة بن عامر ، قال : قلت : يا رسول الله أفي (الحج) سجدتان ؟ قال : "نعم ، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما" " .

فصل

واختلف العلماء في عدد سجود القرآن ، فروي عن أحمد روايتان ، إِحداهما : أنها أربع عشرة سجدة .

وبه قال الشافعي ، والثانية : أنها خمس عشرة ، فزاد سجدة [ص : 24] .

وقال أبو حنيفة : هي أربع عشرة ، فأخرج التي في آخر (الحج) وأبدل منها سجدة [ص : 24] .

فصل

وسجود التلاوة سُنَّة ، وقال أبو حنيفة : واجب .

ولا يصح سجود التلاوة إلا بتكبيرة الإحرام والسلام ، خلافاً لأصحاب أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي .

ولا يجزىء الركوع عن سجود التلاوة ، وقال أبو حنيفة : يجزىء .

ولا يسجد المستمع إذا لم يسجد التالي ، نص عليه أحمد رضي الله عنه .

وتكره قراءة السجدة في صلاة الإخفات ، خلافاً للشافعي .

قوله تعالى : ﴿ وجاهِدوا في الله ﴾ في هذا الجهاد ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه فِعل جميع الطاعات ، هذا قول الأكثرين .

والثاني : أنه جهاد الكفار ، قاله الضحاك .

(110/529)

والثالث : أنه جهاد النفس والهوى ، قاله عبد الله بن المبارك .

فأما حق الجهاد ، ففيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنَّه الجِدُّ في المجاهدة ، واستيفاء الإمكان فيها .

والثاني : أنه إخلاص النِّيَّة لله عز وجل .

والثالث : أنه فِعل ما فيه وفاء لحق الله عز وجل .

فصل

وقد زعم قوم أن هذه الآية منسوخة ، واختلفوا في ناسخها على قولين .

أحدهما : قوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ [البقرة : 286] .

والثاني : قوله : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن : 16] .

وقال آخرون : بل هي مُحْكَمَةٌ ، ويؤكده القولان الأولان في تفسير حق الجهاد ، وهو الأصح ، لأن الله تعالى لا يكلِّف نفساً إلا وسعها .

قوله تعالى : ﴿ هو اجتباكم ﴾ أي : اختاركم واصطفاكم لدينه .

والحرج : الضِّيق ، فما من شيء وقع الإنسان فيه إلا وجد له في الشرع مَخرجاً بتوبة أو كفارة أو انتقال إلى رخصة ونحو ذلك .

وروي عن ابن عباس أنه قال : الحرج : ما كان على بني إسرائيل من الإصر والشدائد ، وضعه الله عن هذه الأمة .

قوله تعالى : ﴿ مِلَّةَ أبيكم ﴾ قال الفراء : المعنى : وسّع عليكم كملَّة أبيكم ، فإذا ألقيتَ الكاف نصبتَ ، ويجوز النصب على معنى الأمر بها ، لأن أول الكلام أمر ، وهو قوله : "اركعوا واسجدوا" والزموا ملَّة أبيكم .

فإن قيل : هذا الخطاب للمسلمين ، وليس إبراهيم أباً لكلِّهم .

فالجواب : أنه إن كان خطاباً عامّاً للمسلمين ، فهو كالأب لهم ، لأن حرمته وحقَّه عليهم

كحق الولد ، وإِن كان خطاباً للعرب خاصة ، فإبراهيم أبو العرب قاطبة ، هذا قول المفسرين .

والذي يقع لي أن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن إِبراهيم أبوه ، وأُمَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم داخلة فيما خوطب به رسول الله .

قوله تعالى : ﴿ هو سمّاكم المسلمين ﴾ في المشار إِليه قولان .

(111/529)

أحدهما : أنه الله عز وجل ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والجمهور ؛ فعلى هذا في قوله : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ قولان .

أحدهما : من قبل إِنزال القرآن سمّاكم بهذا في الكتب التي أنزلها .

والثاني : "مِنْ قَبْلُ" أي : في أُمّ الكتاب ، وقوله : ﴿ وفي هذا ﴾ أي : في القرآن .

والثاني : أنه إِبراهيم عليه السلام حين قال : ﴿ ومِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ [البقرة : 128] ؛ فالمعنى : من قَبْل هذا الوقت ، وذلك في زمان إِبراهيم عليه السلام ، وفي هذا الوقت حين قال : ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة ﴾ ، هذا قول ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ ليكونَ الرسولُ ﴾ المعنى : اجتباكم وسمّاكم ليكون الرسول ، يعني محمداً

صلى الله عليه وسلم ﴿ شهيداً عليكم ﴾ يوم القيامة أنه قد بلَّغكم ؛ وقد شرحنا هذا المعنى في [البقرة : 143] إلى قوله : ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بالله ﴾ قال ابن عباس : سَلُوه أن يَعْصِمكم من كل ما يُسخط ويُكْرَه .

وقال الحسن : تمسّكوا بدين الله .

وما بعد هذا مشروح في [الأنفال : 40] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(112/529)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اركعوا واسجدوا ﴾

تقدّم في أوّل السورة أنها فضلت بسجدتين ، وهذه السجدة الثانية لم يرها مالك وأبو حنيفة من العزائم ؛ لأنه قرن الركوع بالسجود ، وأن المراد بها الصلاةُ المفروضة ؛ وخصّ الركوع والسجود تشريفاً للصلاة .

وقد مضى القول في الركوع والسجود مبيَّناً في "البقرة" والحمد الله وحده .

قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ﴾ أي امتثلوا أمره .

﴿ وافعلوا الخير ﴾ نَدْب فيما عدا الواجبات التي صح وجوبها من غير هذا الموضع .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾

قيل : عنى به جهاد الكفار .

وقيل : هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به ، والانتهاء عن كل ما نهى الله عنه ؛ أي جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردّها عن الهوى ، وجاهدوا الشيطان في ردّ وسوسته ، والظَّلمةَ في رد ظلمهم ، والكافرين في ردّ كفرهم .

قال ابن عطية : وقال مقاتل وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ [التغابن : 16] .

وكذا قال هبة الله : إن قوله "حَقَّ جِهاده" وقولَه في الآية الأخرى : "حَقَّ تُقَاتِهِ" منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة في هذه الأوامر .

ولا حاجة إلى تقدير النسخ ؛ فإن هذا هو المراد من أوّل الحكم ؛ لأن "حق جهاده" ما ارتفع عنه الحرج .

وقد روى سعيد بن المسيّب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خيرُ دينكم أيسَرُه " وقال أبو جعفر النحاس .

وهذا مما لا يجوز أن يقع فيه نسخ ؛ لأنه واجب على الإنسان ، كما روى حَيْوَة بن شُرَيح يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " المجاهد من جاهد نفسه لله عز وجل " وكما روى أبو غالب عن أبي أمامة " أن رجلاً سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم : أيّ الجهاد أفضل ؟ عند الجمرة الأولى فلم يجبه ، ثم سأله عند الجمرة الثانية فلم يجبه ، ثم سأله عند جمرة العقبة ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أين السائل ؟" فقال أنا ذا ، فقال عليه السلام : "كلمةُ عَدْل عند سلطان جائر" " .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ اجتباكم ﴾ أي اختاركم للذبّ عن دينه والتزام أمره ؛ وهذا تأكيد للأمر بالمجاهدة ، أي وجب عليكم أن تجاهدوا لأن الله اختاركم له .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي من ضِيق .

وقد تقدّم في "الأنعام" .

وهذه الآية تدخل في كثير من الأحكام ؛ وهي مما خص الله بها هذه الأمة .

روى معمر عن قتادة قال : أعطِيتْ هذه الأمة ثلاثاً لم يُعْطَها إلا نبيّ : كان يقال للنبيّ اذهب فلا حرج عليك ، وقيل لهذه الأمة : ﴿ وما جعل عليكم في الدّين من حرج ﴾ .

والنبيّ شهيد على أمته ، وقيل لهذه الأمة : ﴿ لتكونوا شُهَدَاءَ على الناس ﴾ .

ويقال للنبيّ : سلْ تُعْطَه ، وقيل لهذه الأمة : ﴿ ادعوني أستجِبْ لكم ﴾ .

الثانية : واختلف العلماء في هذا الحَرَج الذي رفعه الله تعالى ؛ فقال عكرمة : هو ما أحِلّ من النساء مَثْنَى وثلاثَ ورُباع ، وما ملكتْ يَمينك .

وقيل : المراد قصر الصلاة ، والإفطارُ للمسافِر ، وصلاةُ الإيماء لمن لا يقدر على غيره ، وحَطُّ الجهاد عن الأعمى والأعرج والمريض والعَدِيم الذي لا يجد ما ينفق في غَزْوه ، والغَرِيم ومن له والدان ، وحَطّ الإصْر الذي كان على بني إسرائيل .

وقد مضى تفصيل أكثر هذه الأشياء .

(114/529)

وروي عن ابن عباس والحسن البصري أن هذه في تقديم الأهِلّة وتأخيرها في الفطر والأضحى والصوم ؛ فإذا أخطأت الجماعة هلال ذي الحجة فوقفوا قبل يوم عرفة بيوم أو وقفوا يوم النحر أجزأهم ، على خلاف فيه بيناه في كتاب المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس رضي الله عنه .

وما ذكرناه هو الصحيح في الباب .

وكذلك الفطر والأضحى ؛ لما رواه حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن المُنْكَدِر عن أبي

هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فِطركم يوم تُفْطِرون وأضحاكم يوم تضحون " خرجه أبو داود والدّارَقُطْنِيّ ، ولفظه ما ذكرناه .

والمعنى : باجتهادكم من غير حرج يلحقكم .

وقد روى الأئمة أنه عليه السلام سئل يوم النحر عن أشياء ، فما يُسأل عن أمر مما ينسى المرء أو يجهل من تقديم الأمور بعضها قبل بعض وأشباهها إلا قال فيها : " افعل ولا حرج " .

الثالثة : قال العلماء : رفع الحَرَج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع ، وأما السلاّبة والسُّرّاق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج ، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدّين ، وليس في الشرع أعظم حرجاً من إلزام ثبوت رجل لاثنين في سبيل الله تعالى ؛ ومع صحة اليقين وجودة العزم ليس بحرج .

قوله تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ ﴾ قال الزجاج : المعنى اتبعوا ملة أبيكم .

الفرّاء : انتصب على تقدير حذف الكاف ؛ كأنه قال كمِلّة .

وقيل : المعنى وافعلوا الخير فعل أبيكم ، فأقام الفعل مقام الملة .

وإبراهيم هو أبو العرب قاطبة .

وقيل : الخطاب لجميع المسلمين ، وإن لم يكن الكل من ولده ؛ لأن حرمة إبراهيم على المسلمين كحرمة الوالد على الولد .

﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ قال ابن زيد والحسن : "هو" راجع إلى إبراهيم ؛

والمعنى : هو سماكم المسلمين من قبل النبيّ صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَفِي هذا ﴾ أي وفي حكمه أن من اتبع محمداً صلى الله عليه وسلم فهو مسلم .

(115/529)

قال ابن زيد : وهو معنى قوله : ﴿ رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة : 128] .

قال النحاس : وهذا القول مخالف لقول عظماء الأمة .

روى علّي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : سماكم الله عز وجل المسلمين من قبلُ ، أي في الكتب المتقدمة وفي هذا القرآن ؛ قاله مجاهد وغيره .

﴿ لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ أي بتبليغه إياكم .

﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس ﴾ أن رسلهم قد بلّغتهم ؛ كما تقدّم في "البقرة" .

﴿ فَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة واعتصموا بالله هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير ﴾ قد تقدم مستوفًى والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(116/529)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تعالى أنه اصطفى رسلاً من البشر إلى الخلق أمرهم بإقامة ما جاءت به الرسل من التكاليف وهو الصلاة قيل : كان الناس أول ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود ، فأمروا أن تكون صلاتهم بكوع وسجود واتفقوا على مشروعية السجود في آخر آية

﴿ ألم تر أن الله يسجد له ﴾ وأما في هذه الآية فمذهب مالك وأبي حنيفة أنه لا يسجد فيها ، ومذهب الشافعي وأحمد أنه يسجد فيها وبه قال عمر وابنه عبد الله وعثمان وأبو الدرداء وأبو موسى وابن عباس ﴿ واعبدوا ربكم ﴾ أي افردوه بالعبادة ﴿ وافعلوا الخير ﴾ قال ابن عباس : صلة الأرحام ومكارم الأخلاق ، ويظهر في هذا الترتيب أنهم أمروا أولاً بالصلاة وهي نوع من العبادة ، وثانياً بالعبادة وهي نوع من فعل الخير ، وثالثاً بفعل الخير وهو أعم من العبادة فبدأ بخاص ثم بعام ثم بأعم .

﴿ وجاهدوا في الله ﴾ أمر بالجهاد في دين الله وإعزاز كلمته يشمل جهاد الكفار والمبتدعة وجهاد النفس .

وقيل : أمر بجهاد الكفار خاصة ﴿ حق جهاده ﴾ أي استفرغوا جهدكم وطاقتكم في ذلك ، وأضاف الجهاد إليه تعالى لما كان مختصاً بالله من حيث هو مفعول لوجهه ومن أجله

، فالإضافة تكون بأدنى ملابسة .

قال الزمخشري : ويجوز أن يتسع في الظرف كقوله :

ويوم شهدناه سليماً وعامراً . . .

انتهى .

يعني بالظرف الجار والمجرور ، كأنه كان الأصل حق جهاد فيه فاتسع بأن حذف حرف الجر وأضيف جهاد إلى الضمير .

و ﴿ حق جهاده ﴾ من باب هو حق عالم وجد عالم أي عالم حقاً وعالم جداً .

وعن مجاهد والكلبي أنه منسوخ بقوله ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ ﴿ هو اجتباكم ﴾ أي اختاركم لتحمل تكليفاته وفي قوله ﴿ هو ﴾ تفخيم واختصاص ، أي هو لا غيره .

﴿ من حرج ﴾ من تضييق بل هي حنيفية سمحة ليس فيها تشديد بني إسرائيل بل شرع فيها التوبة والكفارات والرخص .

(117/529)

وانتصب ﴿ ملة أبيكم ﴾ بفعل محذوف ، وقدره ابن عطية جعلها ﴿ ملة ﴾ وقال الزمخشري : نصب الملة بمضمون ما تقدّمها كأنه قيل وسع دينكم توسعة ملة أبيكم ، ثم

حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه أو على الاختصاص أي أعني بالدين ﴿ ملة أبيكم ﴾ كقوله : الحمد لله الحميد ، وقال الحوفي وأبو البقاء : اتبعوا ملة إبراهيم .

وقال الفراء : هو نصب على تقدير حذف الكاف ، كأنه قيل كلمة ﴿ أبيكم ﴾ بالإضافة إلى أبيه الرسول ، وأمة الرسول في حكم أولاده فصار أباً لأمته بهذه الوساطة .

وقيل : لما كان أكثرهم من ولده كالرسول ورهطه وجميع العرب طلب الأكثر فأضيف إليهم .

وجاء قوله ﴿ ملة ﴾ ﴿ إبراهيم ﴾ باعتبار عبادة الله وترك الأوثان وهو المسوق له الآيات المتقدمة ، فلا يدل ذلك على الاتباع في تفاصيل الشرائع .

والظاهر أن الضمير في ﴿ هو سماكم ﴾ عائد على ﴿ إبراهيم ﴾ وهو أقرب مذكور ولكل نبيّ دعوة مستجابة ودعا إبراهيم فقال ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ فاستجاب الله له فجعلها أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وقاله ابن زيد والحسن .

وقيل : يعود ﴿ هو ﴾ إلى الله وهو قول ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك .

وعن ابن عباس : إن الله ﴿ سماكم المسلمين من قبل ﴾ أي في كل الكتب ﴿ وفي هذا ﴾ أي القرآن ، ويدل على أن الضمير لله قراءة أبيّ الله سماكم .

قال ابن عطية : وهذه اللفظة يعني قوله ﴿ وفي هذا ﴾ تضعيف قول من قال الضمير

لإبراهيم ، ولا يتوجه إلاّ على تقدير محذوف من الكلام مستأنف انتهى .

وتقدير المحذوف وسميتم في هذا القرآن المسلمين ، والمعنى أنه فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم .

﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم ﴾ أنه قد بلغكم ﴿ وتكونوا شهداء على الناس ﴾ بأن الرسل قد بلغتهم ، وإذ قد خصكم بهذه الكرامة والأثرة فاعبدوه وثقوا به ولا تطلبوا النصرة والولاية إلاّ منه فهو خير مولى وناصر .

وعن قتادة أعطيت هذه الأمة ما لم يعطه إلاّ نبي .

(118/529)

قيل للنبي : أنت شهيد على أمتك .

وقيل له : ليس عليك حرج .

وقيل له : سل تعط .

وقيل : لهذه الأمة : ﴿ وتكونوا شهداء على الناس ﴾ وقيل لهم ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ وقيل لهم ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ ﴿ واعتصموا ﴾ قال ابن

عباس سلوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يكره .

وقال الحسن تمسكوا بدين الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(119/529)

وقال أبو السعود :

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ اركعوا واسجدوا ﴾

أي في صلواتِكم أمرَهم بهما لمَا أنَّهم ما كانُوا يفعلونَهما أوَّلَ الإسلامِ أو صلُّوا عبر عن الصَّلاةِ بهما لأنَّهما أعظمُ أركانِها أو اخضعُوا لله تعالى وخِرُّوا له سُجدًا ﴿ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ﴾ بسائر ما تعبَّدكم به ﴿ وافعلوا الخير ﴾ وتحرَّوا ما هو خيرٌ وأصلحُ في كلِّ ما تأتون وما تذرونَ كنوافلِ الطَّاعاتِ وصلةِ الأرحامِ ومكارمِ الأخلاقِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي افعلُوا هذه كلَّها وأنتُم راجُون بها الفلاحَ غيرَ متيقنينَ له واثقينَ بأعمالكم . والآيةُ آيةُ سجدةٍ عند الشَّافعيِّ رحمه الله لظاهر ما فيها من الأمر بالسُّجود ولقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " فُضِّلتْ سورةُ الحجِّ بسجدتينِ مَن لم يسجدْهُما فلا يقرأها " .

﴿ وجاهدوا فِى الله ﴾

(120/529)

أي لله تعالى ولأجلِه أعداءَ دينِه الظاهرة كأهلِ الزَّيغِ والباطنةِ كالهَوَى والنَّفسِ وعنه عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه رجعَ من غزوةِ تبوكَ فقال : " رجعنا من الجهادِ الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ " ﴿ حَقَّ جهاده ﴾ أي جهاداً فيه حقًّا خالصاً لوجهه فعكسَ وأضيف الحقُّ إلى الجهادِ مبالغةً كقولِك : هو حقٌّ عالمٌ وأُضيف الجهادُ إلى الضَّميرِ اتّساعاً أو لأنَّه مختصٌّ به تعالى من حيثُ أنَّه مفعولٌ لوجهِه ومن أجلِه ﴿ هُوَ اجتباكم ﴾ أي هو اختارَكُم لدينِه ونصرتِه لا غيرُه وفيه تنبيهٌ على ما يقتضي الجهادَ ويدعُو إليه ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي ضيقٍ بتكليف ما يشقُّ عليكم إقامتُه إشارة إلى أنَّه لا مانعَ لهم عنْهُ ولا عذرَ لهم في تركِه أو إلى الرُّخصةِ في إغفالِ بعضِ ما أمرَهم به حيث يشقُّ عليهم لقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " إذا أمرتُكم بشيءٍ فأتُوا منه ما استطعتُم " وقيل : ذلك بأنْ جعلَ لهم من كلِّ ذنبٍ مخرجاً بأنْ رخَّص لهم في المضايقِ وفتحَ لهم بابَ التَّوبةِ وشرَعَ لهم الكفَّاراتِ في حقوقِه والأروشَ والدِّياتِ في حقوقِ العبادِ ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم ﴾ نُصب على المصدرِ بفعلٍ دلَّ عليه مضمونُ ما قبلَه بحذفِ المضافِ أي وسع عليكم دينَكم توسعةَ ملَّةِ أبيكم أو على الإغراءِ أو على الاختصاصِ وإنَّما جعله أباهم لأنَّه أبُو رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وهو كالأبِ لأمَّتِه من حيثُ أنَّه سببٌ لحياتِهم الأبديَّةِ ووجودِهم على الوجه المعتدِّ به في

الآخرةِ أو لأنَّ أكثرَ العربِ كانُوا من ذُرِّيته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فغُلِّبُوا على غيرِهم ﴿ هُوَ سماكم المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ في الكتبِ المُتقدِّمةِ .

(121/529)

﴿ وَفِى هذا ﴾ أي في القرآنِ والضَّميرُ لله تعالى ويُؤيِّده أنَّه قُرِىء الله سمَّاكُم ، أو لإبراهيمَ وتسميتُهم بالمسلمينَ في القُرآن وإنْ لم تكُنْ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانت بسببِ تسميته من قبلُ في قوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ وقيل : وفي هذا تقديرُه : وفي هذا بيانُ تسميتِه إيَّاكم المسلمينَ ﴿ لِيَكُونَ الرسول ﴾ يومَ القيامةِ متعلِّقٌ بسمَّاكُم ﴿ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ بأنَّه بلَّغكُم فيدلُّ على قبولِ شهادتِه لنفسِه اعتماداً على عصمتِه أو بطاعة مَن أطاعَ وعصيانِ مَن عصى ﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ بتبليغِ الرُّسلِ إليهم ﴿ أَءشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ ﴾ أي فتقرَّبُوا إلى الله بأنواعِ الطَّاعاتِ . وتخصيصُهما بالذِّكرِ لإنافتِهما وفضلِهما . ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي ثقُوا به في مجامعِ أمورِكم ولا تطلبُوا الإعانةَ والنُّصرةَ إلاَّ منْه ﴿ هُوَ مولاكم ﴾ ناصرُكم ومتولِّي أمورِكم ﴿ فَنِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير ﴾ هو إذْ لا مثلَ له في الوَلايَةِ والنُّصرةِ بل لا وليَّ ولا نصيرَ في الحقيقةِ سواهُ عزَّ وجلَّ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ اركعوا واسجدوا ﴾

أي صلوا وعبر عن الصلاة بهما لأنهما أعظم أركانها وأفضلها والمراد أن مجموعهما كذلك وهو لا ينافي تفضيل أحدهما على الآخر ولا تفضيل القيام أو السجود على كل واحد واحد من الأركان ، وقيل : المعنى اخضعوا لله تعالى وخروا له سجداً ، وقيل : المراد الأمر بالركوع والسجود بمعناهما الشرعي في الصلاة فإنهم كانوا في أول إسلامهم يركعون في صلاتهم بلا سجود تارة ويسجدون بلا ركوع أخرى فأمروا بفعل الأمرين جميعاً فيها حكاه في البحر ولم نره في أثر يعتمد عليه ، وتوقف فيه صاحب المواهب وذكره الفراء بلا سند ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ﴾ بسائر ما تعبدكم سبحانه به كما يؤذن به ترك المتعلق ، وقيل : المراد أمرهم بأداء الفرائض .

وقوله تعالى : ﴿ وافعلوا الخير ﴾ تعميم بعد تخصيص أو مخصوص بالنوافل وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه أمر بصلة الأرحام ومكارم الأخلاق ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ في موضع الحال من ضمير المخاطبين أي افعلوا كل ذلك وأنتم راجون به الفلاح غير

متيقنين به واثقين بأعمالكم ، والآية آية سجدة عند الشافعي .

وأحمد .

وابن المبارك .

واسحق رضي الله تعالى عنهم لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ولما تقدم عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال قلت : يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين ؟ قال : " نعم فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما " وبذلك قال علي كرم الله تعالى وجهه .

وعمر .

وابنه عبد الله .

وعثمان .

وأبو الدرداء .

وأبو موسى .

وابن عباس في إحدى الروايتين عنه رضي الله تعالى عنهم ، وذهب أبو حنيفة .

ومالك .

والحسن .

وابن المسيب .

وابن جبير .

(123/529)

وسفيان الثوري رضي الله تعالى عنهم إلى أنها ليست آية سجدة ، قال ابن الهمام : لأنها مقرونة بالأمر بالركوع والمعهود في مثله من القرآن كونه أمراً بما هو ركن للصلاة بالاستقراء نحو ﴿ واسجدى واركعى ﴾ [آل عمران : 43] وإذا جاء الاحتمال سقط الاستدلال ، وما روي من حديث عقبة قال الترمذي : إسناده ليس بالقوي وكذا قال أبو داود .

وغيره انتهى .

وانتصر الطيبي لإمامه الشافعي رضي الله تعالى عنه فقال : الركوع مجاز عن الصلاة لاختصاصه بها وأما السجود فلما لم يختص حمل على الحقيقة لعموم الفائدة ولأن العدول إلى المجاز من غير صارف أو نكتة غير جائز والمقارنة لا توجب ذلك ، وتعقبه صاحب الكشف بأن للقائل أن يقول : المقارنة تحسن ذلك ، وتوافق الأمرين في الفرضية أو الإيجاب على المذهبين من المقتضيات أيضاً ، ثم رجع إلى الانتصار فقال : الحق إن السجود حيث ثبت ليس من مقتضى خصوص تلك الآية لأن دلالة الآية غير مقيدة بحال التلاوة بل إنما ذلك

بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم أو قوله فلا مانع من كون الآية دالة على فرضية سجود الصلاة ومع ذلك تشرع السجدة عند تلاوتها لما ثبت من الرواية الصحيحة ، وفيه أنه إن أراد أن ما ثبت دليل مستقل على مشروعيتها من غير مدخل للآية فذلك على ما فيه مما لم يقله الشافعي ولا غيره ، وإن أراد أن الآية تدل على ذلك كما تدل على فرضية سجود الصلاة وما ثبت كاشف عن تلك الدلالة فذلك قول بخفاء تلك الدلالة والتزام أن الأمر بالسجود لمطلق الطلب الشامل لما كان على سبيل الإيجاب كما في طلب سجود الصلاة ولما كان على سبيل الندب كما في طلب سجود التلاوة فإنه سنة عند الشافعي رضي الله تعالى عنه ولعله يتعين عنده ذلك ولا محذور فيها بل لا معدل عنه إن صح الحديث لكن قد سمعت آنفاً ما قيل فيه ، ولك أن تقول : إنه قد قوى بما أخرجه أبو داود .

وابن ماجه .

(124/529)

وابن مردويه والبيهقي عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل .

وفي سورة الحج سجدتان وبعمل كثير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم الظاهر في كونه

عن سماع منه صلى الله عليه وسلم أو رؤية لفعله ذلك .

﴿ وجاهدوا فِى الله ﴾

أي لله تعالى أو في سبيله سبحانه ، والجهاد كما قال الراغب استفراغ الوسع في مدافعة العدو وهو ثلاثة أضرب .

مجاهدة العدو الظاهر كالكفار .

ومجاهدة الشيطان .

ومجاهدة النفس وهي أكبر من مجاهدة العدو الظاهرة كما يشعر به ما أخرج البيهقي وغيره عن جابر قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم غزاة فقال : " قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قيل وما الجهاد الأكبر ؟ قيل وما الجهاد الأكبر ؟ قال : "مجاهدة العبد هواه " وفي إسناده ضعف مغتفر في مثله .

والمراد هنا عند الضحاك جهاد الكفار حتى يدخلوا في الإسلام ، ويقتضي ذلك أن تكون الآية مدنية لأن الجهاد إنما أمر به بعد الهجرة .

وعند عبد الله بن المبارك جهاد الهوى والنفس ، والأولى أن يكون المراد به ضروبه الثلاثة وليس ذلك من الجمع بين الحقيقة والمجاز في شيء ، وإلى هذا يشير ما روى جماعة عن الحسن أنه قرأ الآية وقال : إن الرجل ليجاهد في الله تعالى وما ضرب بسيف ، ويشمل ذلك جهاد المبتدعة والفسقة فإنهم أعداء أيضاً ويكون بزجرهم عن الابتداع والفسق ﴿ حَقَّ

جهاده ﴾ أي جهاداً فيه حقاً فقدم حقاً وأضيف على حد جرد قطيفة وحذف حرف الجر وأضيف جهاد إلى ضميره تعالى على حد قوله

: ويوم شهدناه سليماً وعامراً . . .

(125/529)

وفي "الكشاف" الإضافة تكون لأدنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصاً بالله تعالى من حيث أنه مفعول لوجهه سبحانه ومن أجله صحت إضافته إليه ، وأياً ما كان فنصب ﴿ حَقّ ﴾ على المصدرية ، وقال أبو البقاء : إنه نعت لمصدر محذوف أي جهاداً حق جهاهد ، وفيه أنه معرفة فكيف يوصف به النكرة ولا أظن أن أحداً يزعم أن الإضافة إذا كانت على الاتساع لا تفيد تعريفاً فلا يتعرف بها المضاف ولا المضاف إليه ، والآية تدل على الأمر بالجهاد على أتم وجه بأن يكون خالصاً لله تعالى لا يخضى فيه لومة لائم وهي محكمة .

ومن قال كمجاهد .

(126/529)

والكلبي : إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ [التغابن : 16] فقد أراد بها أن يطاع سبحانه فلا يعصى أصلاً وفيه بحث لا يخفى ، وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه قال : قال لي عمر رضي الله تعالى عنه ﴿ ألسنا كنا نقرأ وجاهدوا في الله حق جهاده في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله ﴾ ؟ قلت : بلى فمتى هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : إذا كانت بنو أمية الأمراء وبنو المغيرة الوزراء ، وأخرجه البيهقي في الدلائل عن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه قال : قال عمر لعبد الرحمن بن عوف فذكره ، ولا يخفى عليك حكم هذه القراءة ، وقال النيسابوري : قال العلماء لو صحت هذه الرواية فلعل هذه الزيادة من تفسيره صلى الله عليه وسلم وليست من نفس القرآن وإلا لتواترت وهو كما ترى ﴿ الذين ءامَنُواْ اركعوا واسجدوا وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وافعلوا الخير لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وجاهدوا فِى الله حَقَّ جهاده هُوَ اجتباكم ﴾ أي هو جل شأنه اختاركم لا غيره سبحانه ، والجملة مستأنفة لبيان علة الأمر بالجهاد فإن المختار إنما يختار من يقوم بخدمته ومن قربه العظيم يلزمه دفع أعدائه ومجاهدة نفسه بترك ما لا يرضاه ففيها تنبيه على المقتضى للجهاد ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين ﴾ أي في جمع أموره ويدخل فيه الجهاد دخولاً أولياً ﴿ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي ضيق بتكليف ما

يشتد القيام به عليكم إشارة إلى أنه لا مانع لهم عنه ، والحاصل أنه تعالى أمرهم بالجهاد وبين أنه لا عذر لهم في تركه حيث وجد المقتضى وارتفع المانع .

(127/529)

ويجوز أن يكون هذا إشارة إلى الرخصة في ترك بعض ما أمرهم سبحانه به حيث شق عليهم لقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم " فانتفاء الحرج على هذا بعد ثبوته بالترخيص في الترك بمقتضى الشرع وعلى الأول انتفاء الحرج ابتداء ، وقيل : عدم الحرج بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجاً بأن رخص لهم في المضايق وفتح عليهم باب التوبة وشرع لهم الكفارات في حقوقه والأروش والديات في حقوق العباد ، ولا يخفى أن تعميمه للتوبة ونحوها خلاف الظاهر وإن روى ذلك من طريق ابن شهاب عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما :

وفي "الحواشي الشهابية" أن الظاهر أن حق جهاده تعالى لما كان متعسراً ذيله بهذا ليبين أن المراد ما هو بحسب قدرتهم لا ما يليق به جل وعلا من كل الوجوه .

وذكر الجلال السيوطي أن هذه الآية أصل قاعدة المشقة تجلب التيسير وهو أوفق بالوجه الثاني فيها .

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم ﴾ نصب على المصدرية بفعل دل عليه ما قبله من نفي الحرج بعد حذف مضاف أي وسع دينكم توسعة ملة أبيكم أو على الاختصاص بتقدير أعني بالدين ونحوه وإليهما ذهب الزمخشري ، وقال الحوفي .

وأبو البقاء : نصب على الإغراء بتقدير اتبعوا أو الزموا أو نحوه ، وقال الفراء : نصب بنزع الخافض أي كملة أبيكم ، والمراد بالملة إما يعم الأصول والفروع أو ما يخص الأصول فتأمل ولا تغفل ، و﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ منصوب بمقدر أيضاً أو مجرور بالفتح على أنه بدل أو عطف بيان ، وجعله عليه السلام أباهم لأنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كالأب لأمته من حيث أنه سبب لحياتهم الأبدية ووجودهم على الوجه المعتد به في الآخرة أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته عليه السلام فغلبوا على جميع أهل ملته صلى الله عليه وسلم ﴿ هُوَ ﴾ أي الله تعالى كما روى عن ابن عباس .

ومجاهد والضحاك .

وقتادة .

(128/529)

وسفيان ، ويدل عليه ما سيأتي بعد في الآية وقراءة أبي رضي الله تعالى عنه ﴿ الله ﴾ ﴿ سماكم المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل نزول القرآن وذلك في الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل ﴿ وَفِى هذا ﴾ أي في القرآن ، والجملة مستأنفة ، وقيل إنها كالبدل من قوله تعالى : ﴿ هُوَ اجتباكم ﴾ ولذا لم تعطف ، وعن ابن زيد .

والحسن أن الضمير لإبراهيم عليه السلام واستظهره أبو حيان للقرب وتسميته إياهم بذلك من قبل في قوله : ﴿ رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة : 128] وقوله هذا سبب لتسميتهم بذلك في هذا لدخول أكثرهم في الذرية فجعل مسمياً لهم فيه مجازاً ، ويلزم عليه الجمع بين الحقيقة والمجاز وفي جوازه خلاف مشهور ، وقال أبو البقاء : المعنى على هذا وفي هذا بيان تسميته إياكم بهذا الاسم حيث حكى في القرآن مقالته ، وقال ابن عطية : يقدر عليه وسميتكم في هذا المسلمين ، ولا يخفى ما في كل ذلك من التكلف .

واستدل بالآية من قال : إن التسمية بالمسلمين مخصوص بهذه الأمة وفيه نظر .

(129/529)

﴿ لِيَكُونَ الرسول ﴾ يوم القيامة ﴿ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ أنه قد بلغكم ، ويدل هذا القول منه تعالى على قبول شهادته عليه الصلاة والسلام لنفسه اعتماداً على عصمته ولعل هذا من خواصه صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم وإلا فالمعصوم يطالب في الدنيا بشاهدين إذا ادعى شيئاً لنفسه كما يدل على ذلك قصة الفرس وشهادة خزيمة رضي الله تعالى عنه ، وأيضاً لو كان كل معصوم تقبل شهادته لنفسه في ذلك اليوم لما احتيج إلى شهادة هذه الأمة على الأمم حين يشهد عليهم أنبياؤهم فينكرون كما ذكر ذلك كثير من المفسرين في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ ورد أنه يؤتى بالأمم وأنبيائهم فيقال لأنبياءهم : هل بلغتم أممكم ؟ فيقولون : نعم بلغناهم فينكرون فيؤتى بهذه الأمة فيشهدون أنهم قد بلغوا فتقول الأمم لهم : من أين عرفتم ؟ فيقولون : عرفنا ذلك باخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق أو شهيداً عليكم بإطاعة من أطاع وعصيان من عسى ، ولعل علمه صلى الله عليه وسلم بذلك بتعريف الله تعالى بعلامات تظهر له في ذلك الوقت تسوغ له عليه الصلاة والسلام الشهادة ، وكون أعمال أمته تعرض عليه عليه الصلاة والسلام وهو في البرزخ كل أسبوع أو أكثر أو أقل إذا صح لا يفيد العلم بأعيان ذوي الأعمال المشهود عليهم وإلا أشكل ما رواه أحمد في مسنده .

والشيخان عن أنس .

وحذيفة قالا : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليردن على ناس من أصحابي الحوض

حتى إذا رأيتهم وعرفتهم اختلجوا دوني فأقول : يا رب أصيحابي أصيحابي فيقال لي : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك "

(130/529)

وربما أشكل هذا على تقدير صحة حديث العرض سواء أفاد العلم بالأعيان أم لا ، وإذا التزم صحة ذلك الحديث وأنه صلى الله عليه وسلم لم يستحضر أعمال أولئك الأقوام حين عرفهم فقال ما قال وأن المراد من من إنك لا تدري الخ مجرد تعظيم أمر ما أحدثوه بعد وفاته عليه الصلاة والسلام لا نفي العلم به يبقى من مات من أمته طائعاً أو عاصياً في زمان حياته صلى الله عليه وسلم ولم يكن علم بحاله أصلاً كمن آمن ومات ولم يسمع صلى الله عليه وسلم به فإن عرض الأعمال في حقه لم يجيء في خبر أصلاً ، والقول بعدم وجود شخص كذلك بعيد ، ومن زعم أنه صلى الله عليه وسلم يعلم أمته ويعرفهم واحداً واحداً حياً وميتاً ولذا ساغت شهادته عليهم بالطاعة والمعصية يوم القيامة لم يأت بدليل ، والآية لا تصلح دليلاً له إلا بهذا التفسير وهو خل البحث ، على أن في حديث الإفك ما يدل على خلافه .

وزعم بعضهم أن معرفته صلى الله عليه وسلم للطائع والعاصي من أمته لما أنه يحضر

سؤالهم في القبر عنه عليه الصلاة والسلام كما يؤذن بذلك ما ورد أنه يقال للمقبور : ما تقول في هذا الذي بعث إليكم ؟ واسم ازشارة يستدعي مشاراً إليه محسوساً مشاهداً وهو كما ترى .

واختار بعض أن الشهادة بذلك على بعض الأمة وهم الذين كانوا موجودين في وقته صلى الله عليه وسلم وعلم حالهم من طاعة وعصيان .

(131/529)

والخطاب في ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ إما خاص بهم أو عام على سبيل التغليب وفيه ما فيه فتدبر ، وقيل على في ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ بمعنى اللام كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النصب ﴾ [المائدة : 3] فالمعنى شهيداً لكم ، والمراد بشهادته لهم تزكيته إياهم إذا شهدوا على الأمم ولا يخفى بعده ، واللام متعلقة بسماكم على الوجهين في الضمير وهي للعاقبة على ما قيل ، وقال الخفاجي : لا مانع من كونها للتعليل فإن تسمية الله تعالى أو إبراهيم عليه السلام لهم بالمسلمين حكم بإسلامهم وعدالتهم وهو سبب لقبول شهادة الرسول عليه الصلاة والسلام الداخل فيهم دخولاً أولياً وقبول شهادتهم على الأمم وفيه نوع خفاء .

﴿ فَأَقِيمُواْ الصلاة وَءاتُواْ الزكواة ﴾ أي فتقربوا إليه تعالى لما خصكم بهذا الفضل

والشرف بأنواع الطاعات ، وتخصيص هذين الأمرين بالذكر لا نافتهما وفضلهما ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي ثقوا به تعالى في جميع أموركم ﴿ هُوَ ﴾ ناصركم ومتولى أموركم ﴿ مولاكم فَنِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير ﴾ هو إذ لا مثل له تعالى في الولاية والنصرة فإن من تولاه لم يضع ومن نصره لم يخذل بل لا ولي ولا ناصر في الحقيقة سواه عز وجل ، وفي هذا إشارة إلى أن قصارى الكمال الاعتصام بالله تعالى وتحقيق مقام العبودية وهو وراء التسمية والاحتباء ، وجوز أن يكون ﴿ هُوَ مولاكم ﴾ تتميماً للاجتباء وليس بذاك هذا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(132/529)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ يأَيُّهَا الناس ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ هذا متصل بقوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا ﴾ [الحج : 71] قال الأخفش : ليس ثم مثل ، وإنما المعنى : ضربوا لي مثلاً ﴿ فاستمعوا ﴾ قولهم ، يعني : أن الكفار جعلوا لله مثلاً بعبادتهم غيره ، فكأنه قال : جعلوا لي شبهاً في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشبه .

وقال القتيبي : إن المعنى : يا أيها الناس ، مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذباباً ، وإن

سلبها شيئاً لم تستطع أن تستنقذه منه .

قال النحاس : المعنى ضرب الله عزّ وجلّ لما يعبدونه من دونه مثلاً .

قال : وهذا من أحسن ما قيل فيه ، أي بين الله لكم شبهاً ولمعبودكم .

وأصل المثل : جملة من الكلام متلقاة بالرضا والقبول ، مسيرة في الناس مستغربة عندهم ، وجعلوا مضربها مثلاً لموردها ، ثم قد يستعيرونها للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لكونها مماثلة لها في الغرابة كهذه القصة المذكورة في هذه الآية .

والمراد بما يدعونه من دون الله : الأصنام التي كانت حول الكعبة وغيرها .

وقيل : المراد بهم : السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله لكونهم أهل الحلّ والعقد فيهم .

وقيل : الشياطين الذين حملوهم على معصية الله ، والأوّل أوفق بالمقام وأظهر في التمثيل ، والذباب : اسم للواحد يطلق على الذكر والأنثى ، وجمع القلة أذبة ، والكثرة ذبان مثل غراب وأغربة وغربان .

وقال الجوهري : الذباب معروف ، الواحد ذبابة .

والمعنى : لن يقدروا على خلقه مع كونه صغير الجسم حقير الذات ، وجملة : ﴿ وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ﴾ معطوفة على جملة أخرى شرطية محذوفة ، أي لو لم يجتمعوا له لن يخلقوه ولو اجتمعوا له ، والجواب محذوف والتقدير : لن يخلقوه وهما في محل نصب على الحال ، أي لن يخلقوه على كلّ حال .

ثم بين سبحانه كمال عجزهم وضعف قدرتهم فقال : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ أي إذا أخذ منهم الذباب شيئاً من الأشياء لا يقدرون على تخليصه منه لكمال عجزهم وفرط ضعفهم ، والاستنقاذ والإنقاذ : التخلص ، وإذا عجزوا عن خلق هذا الحيوان الضعيف ، وعن استنقاذ ما أخذه عليهم ؛ فهم عن غيره مما هو أكبر منه جرماً وأشدّ منه قوّة ؛ أعجز وأضعف ، ثم عجب سبحانه من ضعف الأصنام والذباب ، فقال : ﴿ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ فالصنم كالطالب من حيث إنه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنقاذ ما سلبه منه ، والمطلوب : الذباب .

وقيل : الطالب عابد الصنم ، والمطلوب : الصنم ، وقيل : الطالب : الذباب ، والمطلوب : الآلهة .

ثم بين سبحانه أن المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة عاجزة إلى هذه الغاية في العجز ، ما عرفوا الله حقّ معرفته فقال : ﴿ مَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عظموه حقّ تعظيمه ولا عرفوه حقّ معرفته ، حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له مع كون حالها هذا الحال ، وقد تقدّم في الأنعام ﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ ﴾ على خلق كل شيء ﴿ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا

يغالبه أحد ، بخلاف آلهة المشركين ، فإنها جماد لا تعقل ولا تنفع ولا تضرّ ولا تقدر على شيء .

(134/529)

ثم أراد سبحانه أن يردّ عليهم ما يعتقدونه في النبوّات والإلهيات فقال : ﴿ اللهُ يَصْطَفِى مِنَ الملائكة رُسُلاً ﴾ كجبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل ويصطفي أيضاً رسلاً ﴿ مِنَ الناس ﴾ وهم الأنبياء ، فيرسل الملك إلى النبيّ ، والنبيّ إلى الناس ، أو يرسل الملك لقبض أرواح مخلوقاته ، أو لتحصيل ما ينفعهم ، أو لإنزال العذاب عليهم ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوال عباده ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بمن يختاره من خلقه ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي ما قدّموا من الأعمال وما يتركونه من الخير والشرّ كقوله تعالى : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَارَهُمْ ﴾ [ياس : 12] .

﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ لا إلى غيره .

ولما تضمن ما ذكره من أن الأمور ترجع إليه ، الزجر لعباده عن معاصيه ، والحضّ لهم على طاعاته ؛ صرح بالمقصود فقال : ﴿ يأَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ اركعوا واسجدوا ﴾ أي صلوا الصلاة التي شرعها الله لكم ، وخصّ الصلاة لكونها أشرف العبادات ، ثم عمّم فقال : ﴿

وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ﴾ أي افعلوا جميع أنواع العبادة التي أمركم الله بها ﴿ وافعلوا الخير ﴾ أي ما هو خير، وهو أعم من الطاعة الواجبة والمندوبة.

وقيل: المراد بالخير هنا: المندوبات.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي إذا فعلتم هذه كلها رجوتم الفلاح.

وهذه الآية من مواطن سجود التلاوة عند الشافعي ومن وافقه، لا عند أبي حنيفة ومن قال بقوله، وقد تقدّم أن هذه السورة فضلت بسجدتين، وهذا دليل على ثبوت السجود عند تلاوة هذه الآية.

(135/529)

ثم أمرهم بما هو سنام الدين وأعظم أعماله، فقال: ﴿ وجاهدوا فِي الله ﴾ أي في ذاته ومن أجله، والمراد به الجهاد الأكبر، وهو الغزو للكفار ومدافعتهم إذا غزوا بلاد المسلمين، وقيل: المراد بالجهاد هنا: امتثال ما أمرهم الله به في الآية المتقدّمة، أو امتثال جميع ما أمر به ونهى عنه على العموم، ومعنى ﴿ حَقَّ جهاده ﴾: المبالغة في الأمر بهذا الجهاد؛ لأنه أضاف الحق إلى الجهاد، والأصل إضافة الجهاد إلى الحق، أي جهاداً خالصاً لله، فعكس ذلك لقصد المبالغة، وأضاف الجهاد إلى الضمير اتساعاً، أو لاختصاصه به سبحانه من

حيث كونه مفعولاً له ومن أجله .

وقيل : المراد ﴿ بحق جهاده ﴾ : هو أن لا تخافوا في الله لومة لائم .

وقيل : المراد به استفراغ ما في وسعهم في إحياء دين الله .

وقال مقاتل والكلبي : إن الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ [التغابن : 16] .

كما أن قوله : ﴿ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : 102] منسوخ بذلك ، ورد ذلك بأن التكليف مشروط بالقدرة ، فلا حاجة إلى المصير إلى النسخ .

ثم عظم سبحانه شأن المكلفين بقوله : ﴿ هُوَ اجتباكم ﴾ أي اختاركم لدينه ، وفيه تشريف لهم عظيم .

ثم لما كان في التكليف مشقة على النفس في بعض الحالات قال : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي من ضيق وشدّة .

وقد اختلف العلماء في هذا الحرج الذي رفعه الله ، فقيل : هو ما أحله الله من النساء مثنى وثلاث ورباع وملك اليمين .

وقيل : المراد : قصر الصلاة ، والإفطار للمسافر ، والصلاة بالإيماء على من لا يقدر على غيره ، وإسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض ، واغتفار الخطأ في تقديم الصيام وتأخيره لاختلاف الأهلة ، وكذا في الفطر والأضحى .

وقيل : المعنى : أنه سبحانه ما جعل عليهم حرجاً بتكليف ما يشق عليهم ، ولكن كلفهم بما يقدرون عليه ، ورفع عنهم التكاليف التي فيها حرج ، فلم يتعبدهم بها كما تعبد بها بني إسرائيل .

وقيل : المراد بذلك : أنه جعل لهم من الذنب مخرجاً بفتح باب التوبة وقبول الاستغفار والتكفير فيما شرع فيه الكفارة والأرش ، أو القصاص في الجنايات ، وردّ المال أو مثله أو قيمته في الغصب ونحوه .

والظاهر أن الآية أعمّ من هذا كله ، فقط حطّ سبحانه ما فيه مشقة من التكاليف على عباده : إما بإسقاطها من الأصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم ، أو بالتخفيف وتجويز العدول إلى بدل لا مشقة فيه ، أو بمشروعية التخلص عن الذنب بالوجه الذي شرعه الله ، وما أنفع هذه الآية وأجلّ موقعها وأعظم فائدتها ، ومثلها قوله سبحانه : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ [التغابن : 16] ، وقوله : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر ﴾ [البقرة : 185] .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الذين مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ

طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [البقرة: 286].

وفي الحديث الصحيح أنه سبحانه قال: "قد فعلت" كما سبق بيانه في تفسير هذه الآية، والأحاديث في هذا كثيرة.

وانتصاب ملة في ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم ﴾ على المصدرية بفعل دلّ عليه ما قبله أي وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم.

وقال الزجاج: المعنى اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم.

وقال الفراء: انتصب على تقدير حذف الكاف، أي كملة، وقيل: التقدير: وافعلوا الخير كفعل أبيكم إبراهيم، فأقام الملة مقام الفعل.

وقيل: على الإغراء.

(137/529)

وقيل: على الاختصاص، وإنما جعله سبحانه أباهم لأنه أبو العرب قاطبة، ولأن له عند غير العرب الذين لم يكونوا من ذريته حرمة عظيمة كحرمة الأب على الابن لكونه أبا لنبيهم صلى الله عليه وسلم: ﴿ هُوَ سماكم المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ أي في الكتب المتقدّمة ﴿ وَفِي هذا ﴾ أي القرآن، والضمير لله سبحانه.

وقيل : راجع إلى إبراهيم .

والمعنى : هو ، أي إبراهيم ، سماكم المسلمين من قبل النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا ، أي في حكمه ، أن من اتبع محمداً فهو مسلم .

قال النحاس : وهذا القول مخالف لقول علماء الأمة .

ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ أي بتبليغه إليكم ﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ أن رسلهم قد بلغتهم ، وقد تقدّم بيان معنى هذه الآية في البقرة .

ثم أمرهم بما هو أعظم الأركان الإسلامية فقال : ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وتخصيص الخصلتين بالذكر لمزيد شرفهما ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي اجعلوه عصمة لكم مما تحذرون ، والتجؤوا إليه في جميع أموركم ، ولا تطلبوا ذلك إلاّ منه ﴿ هُوَ مولاكم ﴾ أي ناصركم ومتولي أموركم دقيقها وجليلها ﴿ فَنِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير ﴾ أي لا مماثل له في الولاية لأموركم والنصرة على أعدائكم .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ واعتصموا بالله ﴾ : تمسكوا بدين الله .

وقيل : ثقوا به تعالى .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ يأَيُّهَا الناس ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ قال : نزلت في صنم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ قال : الطالب آلهتهم ، والمطلوب الذباب .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ قال : لا تستنقذ الأصنام ذلك الشيء من الذباب .

(138/529)

وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله اصطفى موسى بالكلام ، وإبراهيم بالخلة " وأخرج أيضاً عن أنس وصححه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " موسى بن عمران صفي الله " وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال لي عمر : ألسنا كنا نقرأ فيما نقرأ : وجاهدوا في الله حق جهاده في آخر الزمان كما جاهدتم في أوّله ؟ قلت : بلى فمتى هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : إذا كانت بنو أمية الأمراء ، وبنو المغيرة الوزراء .

وأخرجه البيهقي في الدلائل عن المسور بن مخرمة قال : قال عمر لعبد الرحمن بن عوف فذكره .

وأخرج الترمذي وصححه وابن حبان وابن مردويه والعسكري في الأمثال عن فضالة بن

عبيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله " وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة ؛ أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ قال : " الضيق " وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد قال : قال أبو هريرة لابن عباس : أما علينا في الدين من حرج في أن نسرق أو نزني ؟ قال : بلى ، قال : فما جعل عليكم في الدين من حرج ، قال : الإصر الذي كان على بني إسرائيل وضع عنكم .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن شهاب أن ابن عباس كان يقول : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ توسعة الإسلام ، ما جعل الله من التوبة والكفارات .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن يسار عن ابن عباس : ﴿ مَّا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ قال : هذا في هلال رمضان إذا شكّ فيه الناس ، وفي الحج إذا شكوا في الأضحى ، وفي الفطر وأشباهه .

(139/529)

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير : أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال : ادع لي رجلاً من هذيل ، فجاءه فقال : مما الحرج فيكم ؟ قال :

الحرجة من الشجر التي ليس فيها مخرج ، فقال ابن عباس : الذي ليس له مخرج .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، والبيهقي في سننه من طريق عبيد الله بن أبي يزيد ، أن ابن عباس سئل عن الحرج فقال : ها هنا أحد من هذيل ؟ قال رجل : أنا ، فقال : ما تعدّون الحرجة فيكم ؟ قال : الشيء الضيق ، قال : هو ذاك .

وأخرج البيهقي في سننه عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر قال : قرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ ثم قال لي : ادع لي رجلاً من بني مدلج ، قال عمر : ما الحرج فيكم ؟ قال : الضيق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ في قوله : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ ﴾ قال : دين أبيكم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ سماكم المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ قال الله عزّ وجلّ : سماكم .

وروي نحوه عن جماعة من التابعين .

وأخرج الطيالسي وأحمد ، والبخاري في تاريخه ، والترمذي وصححه ، والنسائي وأبو يعلى وابن خزيمة وابن حبان والبغوي والبارودي وابن قانع والطبراني والحاكم وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان عن الحارث الأشعري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من دعا بدعوة الجاهلية فإنه من جثي جهنم " ، قال رجل : يا رسول الله وإن صام وصلى ؟

قال : " نعم ، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله " . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(140/529)

وقال القاسمي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾

أي : صلوا . وعبر عن الصلاة بهما ، لأنهما أعظم أركانها . أو اخضعوا له تعالى ، وخروا له سجداً ، لا لغيره : ﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ أي : تحروه . كصلة الأرحام ومواساة الأيتام والحض على الإطعام والاتصاف بمكارم الأخلاق : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي : لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة .

تنبيهات :

الأول : لم يختلف العلماء في السجدة الأولى من هذه السورة . واختلفوا في السجدة الثانية – هذه – فروي عن عمر وعلي وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأبي الدرداء وأبي موسى ؛ أنهم قالوا : في الحج سجدتان . وبه قال ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق ، يدل عليه ما روي عن عقبة بن عامر قال : قلت : يا رسول الله أفي الحج سجدتان ؟ قال :

< نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما > . أخرجه الترمذي وأبو داود . وعن عُمَر بن الخطاب أنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين وقال : إن هذه السورة فضلت بسجدتين . أخرجه مالك في " الموطأ " وذهب قوم إلى أن الحج سجدة واحدة ، وهي الأولى ، وليست هذه بسجدة وهو قول الحسن وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وسفيان الثوريّ وأبي حنيفة ومالك . بدليل أنه قرن السجود بالركوع . فدل ذلك أنه سجدة صلاة ، لا سجدة تلاوة – كذا في " لباب التأويل " أي : لأن المعهود في مثله من كل آية ، قرن الأمر بالسجود فيها بالركوع ، كونه أمراً بما هو ركن للصلاة ، بالاستقراء نحو : ﴿ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي ﴾ [آل عِمْرَان : 43] ، وإذا جاء الاحتمال سقط الاستدلال .

وما روي من الحديث المذكور ، قال الترمذيّ رحمه الله : إسناده ليس بالقويّ . وكذا قال غيره كما في " شرح الهداية " لابن الهمام .

(141/529)

قال الخفاجيّ : لكن يرد عليه ما في " الكشف " أن الحق أن السجود حيث ثبت ، ليس من مقتضى خصوص في تلك الآية ، لأن دلالة الآية غير مقيدة بحال التلاوة البتة . بل إنما ذلك بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قوله . فلا مانع من كون الآية دالة على فرضية

سجود الصلاة . ومع ذلك يشرع السجود عند تلاوتها ، لما ثبت من الرواية فيه .

الثاني : قال في " اللباب " اختلف العلماء في عدّة سجود التلاوة . فذهب الشافعي وأحمد وأكثر أهل العلم إلى أنها أربع عشرة سجدة . لكن الشافعي قال : في الحج سجدتان . وأسقط سجدة ص . وقال أبو حنيفة في الحج سجدة . وأثبت سجدة ص وبه قال أحمد ، في إحدى الروايتين عنه . فعنده أن السجدات خمس عشرة سجدة . وذهب قوم إلى أن المفصل ليس فيه سجود . يروى ذلك عن أبيّ بن كعب وابن عباس . وبه قال مالك .

فعلى هذا يكون سجود القرآن إحدى عشرة سجدة . يدل عليه ما روي عن أبي الدرداء ؛ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : < في القرآن إحدى عشرة سجدة > . أخرجه أبو داود وقال : إسناده واه . ودليل من قال : في القرآن خمس عشرة سجدة ما روي عن عَمْرو بن العاص قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن خمس عشرة سجدة . منها ثلاث في المفصل . وفي سورة الحج سجدتان أخرجه أبو داود . وصح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في : ﴿ اقرأ ﴾ و : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ أخرجه مسلم . انتهى .

والخمس عشرة : في الأعراف ، والرعد ، والنحل ، والإسراء ، ومريم ، والحج ، والفرقان ، والنمل ، والم تنزيل ، وص ، وحم ، والسجدة ، والنجم , والانشقاق ، واقرأ .

والمفصل من سورة الحجرات إلى آخر القرآن ، في أصح الأقوال . سمي مفصلاً لكثرة الفصل بين سوره .

(142/529)

الثالث : سجود التلاوة سنة للقارئ والمستمع . وبه قال مالك والشافعي وأحمد . لقول ابن عمر : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ علينا السورة فيها السجدة ، فيسجد ونسجد معه ، حتى ما يجد أحدنا موضعاً لجبهته . رواه الشيخان .

وقال عمر : إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء . رواه البخاري وقوله تعالى :

(143/529)

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾

عامٌّ في جهاد الكفار والظلمة والنفس . وحق منصوب على المصدرية . والأصل جهاداً فيه حقاً فعكس ، وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة ، ليدل على أن المطلوب القيام بمواجبه وشرائطه على وجه التمام والكمال بقدر الطاقة . وعن الرضيّ : إن كلّ وجدّ وحقّ إذا

وقعت تابعة لاسم جنس ، مضافة لمثل متبوعها لفظاً ومعنى ، نحو : أنت عالم كلّ عالم أو جدّ عالم أو حق عالم أفادت أنه تجمع فيه من الخلال ما تفرّق في الكل . وأن ما سواه باطل أو هزل . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ أي : اختاركم لدينه ولنصرته . وفيه تنبيه على المقتضى للجهاد والداعي إليه . لأن المختار إنما يختار من يقوم بخدمته . وهي بما ذكر . ولأن من قرّبه العظيمُ ، يلزمه دفع أعدائه ومجاهدة نفسه ، بترك ما لا يرضاه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي : في جميع أمور الدين من ضيق ، بتكليف ما يشق القيام به . كما كان على من قبلنا ، فالتعريف في الدين للاستغراق . قال في " الإكليل " : هذا أصل القاعدة " المشقة تجلب التيسير " : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ منصوب على المصدرية ، بفعل دل عليه ما قبله من نفي الحرج . بعد حذف مضاف أي : وسع دينكم توسيع ملة أبيكم إبراهيم . أو على الإغراء بتقدير : اتبعوا أو الزموا , أو الاختصاص بتقدير : أعني ونحوه . أو هو بدل أو عطف بيان مما قبله . فيكون مجروراً بالفتح ، أفاده الشهاب . قال القاضي ؛ وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو كالأب لأمته ، من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية . أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته . فغلبوا على غيرهم .

وقال القاشاني : معنى أبوّته كونه مقدماً في التوحيد ، مفيضاً على كل موحد ، فكلهم من أولاده . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة . والجملة مستأنفة . وقيل : إنها كالبدل من قوله : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ ولذا لم يعطف : ﴿ وَفِي هَذَا ﴾ أي : القرآن . أي : فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم وقيل : الضمير لإبراهيم عليه السلام .

قال القاضي : وتسميتهم بمسلمين في القرآن ، وإن لم يكن منه ، كان بسبب تسميته من قبل ، في قوله : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ [البقرة : 128] ، أي : لدخول أكثرهم في الذرية . فجعل مسمياً لهم مجازاً ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ أي : بأنه قد بلغكم رسالات ربكم : ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي : بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ أي : وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة ، فاعبدوه وأنفقوا مما آتاكم بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ، وثقوا به ، ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا منه ، فهو خير مولى وناصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 290 . 293 ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77) ﴾

التفسير :

بهاتين الآيتين الكريمتين تختم السورة الكريمة . . وبهذا الختام ، يلتقى بدؤها مع ختامها ، كما يلتقى ختامها مع بدء السورة التي بعدها ، وهى سورة « المؤمنون » .

فقد بدأت السورة هكذا : « يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . . »

إنه نذير صارخ للناس جميعا ، أن يأخذوا لأنفسهم من هذا اليوم العظيم ، وأن يعملوا على ما ينجيهم من أهواله المهولة المفزعة . .

وقد استجاب أناس لهذا النّداء ، فآمنوا باللّه ، وسعوا إلى مرضاته ، ليخلصوا بأنفسهم من شر هذا اليوم العظيم . .

ثم كانت السورة كلها بعد ذلك ، دعوة إلى اللّه ، وإلى كشف الطريق إليه ، وإرسال النذير بعد النذير ، إلى الضالين ، والمشركين ، الذين أمسكوا على ما فى قلوبهم من كفر وضلال .

ثم كانت حصيلة هذه النّذر ، هؤلاء المؤمنين الذين دخلوا فى دين اللّه ، واستجابوا لرسول اللّه . . فكان أن دعاهم اللّه سبحانه وتعالى إليه ، وخصّهم بخطابه ، ورفدهم بوصاياه ،

ليثبتوا على الإيمان ، وليعملوا على طريق الإيمان ، وليغرسوا فى مغارسه .

فقال سبحانه ، مخاطبا عباده المؤمنين :

(146/529)

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . . ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، فليس الإيمان بالله مجرد كلمة ينطق بها اللسان ، وإنما الإيمان : قول ، وعمل ، إقرار باللسان ، واعتقاد فى القلب ، وعمل بالجوارح . .

فالدعوة إلى الركوع والسجود - وهما من أركان الصلاة - دعوة إلى الصلاة ، وأمر بإقامتها كاملة ، وأدائها على وجهها ، وما تقضى به من ولاء وخشوع لله ربّ العالمين : « ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا » . . فالركوع والسجود ليسا مجرد حركتين من حركات الجسد ، وإنما هما - قبل كل شىء - خضوع بالقلب ، وخشوع بالنفس ، وتسربل بحال من الرهبة والخشية لله ، بحيث يجد الإنسان لهذه الرهبة والخشية ما يندكّ به بناؤه الجسدى ، فيركع تحت وطأة هذا الحمل الثقيل .

ثم لا يلبث أن يهوى ساجدا حتى يضع جبهته على الأرض . . وهنا يجد الرضا من ربّه ، والكرامة والتكريم من سيده . . فيدعوه إلى أن يرفع وجهه عن هذا التراب الذي لصق به

. .

وهكذا ، يظل المصلّى بين يدى اللّه ، فى ركوع وسجود ، وفى خفض ورفع ، حتى يختم صلاته ، وهو متمكن على هذه الأرض ، مسئول عليها استيلاء ذى السلطان على سلطانه ! وقوله تعالى : « وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ » هو أمر بالعبادة مطلقا ، فيما فرض اللّه من عبادات غير الصلاة ، كالصوم ، والزكاة ، والحج ، وفيما أمر به من ذكره تعالى ، والجهاد فى سبيله ، والسعى فى طلب الرزق . . فكلها عبادات وطاعات وقربات . .

وقوله تعالى : « وَافْعَلُوا الْخَيْرَ » هو أمر بكل خير ، وراء هذه العبادات ، من الإحسان إلى الناس بالقول والعمل ، ومن الحكم بين الناس بالعدل ، ومن أداء الأمانات إلى أهلها . . إلى غير ذلك ما هو خير وحسن ، ومعروف .

(147/529)

وفى قوله تعالى : « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » إشارة إلى أن هذه الأعمال كلها ، ـ وعلى رأسها الإيمان باللّه ـ هى مما ترجى به النجاة ، من عذاب اللّه ، والفوز برضوانه . .

إنها مجرّد وسائل يتوسل بها الإنسان إلى ربه . . أما إنجاح هذه الوسائل وتقبلها من صاحبها ، فذلك أمره إلى اللّه ، وإلى مشيئة اللّه فى عبده . . وهذا هو السرّ فى تصدير

الخبر بحرف التمنّي « لعل » . . إذ ليس لأحد على اللّه حق يطالبه به . . وإنما اللّه سبحانه وتعالى هو الذي يطلب ، وعلى عباده أن يمتثلوا ، ويؤدوا ما طلب منهم ، وأن يكونوا بعد ذلك على رجاء من القبول والرضا . .

قوله تعالى :

« وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ »

.

هو عطف على ما جاء فى الآية السابقة من أمر بالركوع والسجود وعبادة اللّه وفعل الخير . .

والجهاد وإن كان مما تضمنه هذا الأمر ، إذ هو من عبادة اللّه ، ومن فعل الخير معا فقد خصّ بالذكر هنا لما له من مقام كبير ، بين العبادات وأفعال الخير ، ولما فيه من مخاطرة بالنفس ، والمال ، وهما أعلى ما يملك الإنسان ، وأولى ما يحرص عليه ويضنّ به .

. وفى قوله تعالى : « حَقَّ جِهادِهِ » تأكيد لهذا الجهاد ، وبيان للصفة التي يكون عليها ، وهو

أن يكون خالصا لله ، وفى سبيل الله ، لا يبتغى به شىء غير وجه الله . . وهنا يكون البذل للمال والنفس هيّنا ، إذا نظر إليه فى مقابل ثواب الله ، وابتغاء رضوانه .

(148/529)

ـ وفى قوله تعالى : « وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ » بتعدية الجهاد بحرف الجر « فى » إلى لفظ الجلالة ، « الله » وإلى سبيل الله ، كما جرى ذلك فى الأسلوب القرآنى ـ فى هذا ما يشير إلى قدر الجهاد ، وإلى أنه لله وحده ، ومن أجل ذاته سبحانه ـ ولوجهه خاصة ـ فحرف الجر هنا للسببية . .

ومن جهة أخرى ، فإن الجهاد فى الله هو جهاد عام ، يشمل الجهاد فى سبيله وغيره ، كالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ومجاهدة النفس ، ونحو هذا ، مما يعلى كلمة الله ، ويقيم دعائم الحق ، ويثبت أركانه . . وهذا مثل قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » . (69 : العنكبوت) ـ

وقوله تعالى : « هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » هو تعليل للأمر بالجهاد ، وداعية إلى امتثال هذا الأمر ، لأنه صادر من الله الذي « اجتبى » أي اختار هذه الأمة . . واصطفاها من بين الأمم لحمل رسالة الإسلام ، آخر الرسالات ، وأكملها ، فهم لهذا

مطالبون بأن يكونوا رسلا يحملون دعوة الإسلام ، وجنودا يدافعون عنها ، ويبذلون النفس والمال فى سبيلها . . إنها أمانة ، هم أهل لحملها ، إذ قد اجتباهم اللّه لها ، وخصّهم بها . .

ثم إن هذه الرسالة - رسالة الإسلام - مع ما فيها من دعوة إلى بذل النفس والمال ، بالجهاد فى سبيل اللّه - فإنها رسالة قائمة على الرحمة والعدل ، ليس فيها حرج ومشقة على أهلها ، إذ أن من أسسها العامة أنه « لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا » . . وأن كل إنسان يحمل من تكاليفها وأوامرها قدر ما يستطيع ، وفى هذا القدر تحقيق لأدنى المطلوب . .

(149/529)

ففى باب الجهاد مثلا ، يبدأ الجهاد بمجاهدة النفس ، وكفها عن المحرمات ، وردّها عن الأهواء والشهوات ، وهذا وإن كان الجهاد الأكبر ، كما سماه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فإنه قريب من كل إنسان . . إنه أقرب شىء إليه ، لا يتكلّف له مالا ، ولا يبذل له نفسا . . ومع هذا فهو درجات . . يبدأ بالكف عن الكبائر ، وينتهى بالانتهاء عن اللّمم والصغائر . .

ومن الجهاد مثلا . . الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . فهو مجاهدة بالقلب وباللسان ،

لا بالنفس ولا بالمال . .

وفى باب الجهاد كذلك ، رفع اللّه الحرج عن الضعفاء والمرضى ، وأصحاب العاهات ، ونحوهم ، وأعفاهم من الجهاد بأنفسهم . . « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى ، وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (91 : التوبة) . .

وقل مثل هذا فى جميع أوامر الشريعة وأحكامها . . إنها شريعة قائمة على اليسر ورفع الحرج ، وفى هذا يقول اللّه تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » (16 : التغابن) أي فى حدود ما تحتمل أنفسكم ، وما تتسع له طاقاتكم . .

وفى الحديث الشريف : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » . . وفى الحديث أيضا : « إن هذا الدين ذلول لا يركب إلا ذلولا » أي إن هذا الدين سمح سهل ، لا ينتفع به إلا إذا أخذ سمحا سهلا ، تتقبله النفوس ، وتنشرح له الصدور . . شأنه فى هذا شأن الطعام ، لا يفيد منه الجسم ، إلا إذا طابت له النفس ، واشتهته ، واستساغت طعمه ، واستطابت مضغه وبلعه . .

وفى الحديث أيضا : « لا تبغّض إلى نفسك عبادة اللّه » وذلك بالقسوة عليها ، وبحملها على ما هو شاق ، وبين يديها القريب الميسور ! وفى الحديث : « ما خيّر الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه بين أمرين ، إلا اختار أيسرهما » . .

ـ وقوله تعالى : « مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ » . . الملة ، الشريعة ، وهى منصوبة على الإغراء . . أي الزموا هذه الملة ، ملة أبيكم إبراهيم .

ـ وقوله تعالى : « هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ » أي أنه هو الذي طلب من اللّه أن تكون من ذريته تلك الأمة المسلمة التي هى أنتم . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : « رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ » (128 : البقرة) .

فالداعيان ، هما إبراهيم وإسماعيل ، ودعوتهما ، هى أن يكونا مسلمين للّه وأن يجعل منهما ـ أي من إبراهيم ، وإسماعيل ـ أمة مسلمة . . وأن يبعث فيهم رسولا منهم كما يقول اللّه تعالى على لسانيهما بعد ذلك : « رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (129 : البقرة) . .

فالنبىّ صلى اللّه عليه وسلم ، هو « دعوة إبراهيم » ـ كما قال صلى اللّه عليه وسلم : « أنا دعوة إبراهيم » . . وكذلك أبناء إبراهيم من ذرية إسماعيل ، هم الأمة المسلمة ، وهم الدعوة المستجابة لإبراهيم . .

قوله تعالى :

« وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ » .

الإشارة هنا بهذا ، إلى قوله تعالى : « هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »

أي وفى هذا الاجتباء ، ورفع الحرج عنكم ، سبب لأن يكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس . .

وشهادة الرسول على أمته ، هو أن يشهد بأنه بلّغ رسالته فيهم ، ودعاهم إلى الإيمان باللّه ، وإلى الاستقامة على ما شرع اللّه لهم من عبادات وأحكام . .

وهو بهذه الشهادة يدين كلّ من أبى وقصّر . .

(151/529)

أما شهادة هذه الأمة على الناس ، فهى مثل شهادة الرسول عليهم . .

أي أنهم بمنزلة الرسول فى الناس ، يدعونهم إلى اللّه ، ويبلغونهم رسالة الإسلام ، وهم بهذه الشهادة يدينون كلّ من أبى الاستجابة لهم ، والدخول فى دين اللّه معهم . .

وهذه المنزلة التي رفع اللّه بها قدر هذه الأمة ، وأعلى بها شأنها فى الناس ، وجعل لها بها ما للرسل فى أقوامهم - هذه المنزلة العالية الرفيعة ، هى أمانة ، لا يحملها إلا أولو العزم من

الناس ، ومن هنا كان واجبا على كل مسلم أن ينهض بحمل هذا العبء ، وأن يرى الناس منه ، فى قوله وعمله ، من استقامة الخلق ، واعتدال السلوك ما يرى الناس فى الأنبياء والرسل . .

فيا ليت قومى يعلمون هذا الشرف العظيم ، الذي قلده اللّه سبحانه وتعالى إياهم ، وهذا الواجب الكريم الذي أناطه بهم ، وهذا المقام الرفيع الذي أقامهم على الناس فيه . . ! !

إن أي مسلم لا يرى - بعمله ، وعلمه ، وقدره فى الناس - أنه فى مكان القيادة من المجتمع الإنسانى ، فهو ليس من الإسلام فى شىء . . إنه لن يكون فى المسلمين الذين يشهدون على الناس يوم القيامة .

وقوله تعالى : « فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ » .

هو تذكير برسالة المسلم ، وبتلك المؤهلات التي يحقق بها هذه الرسالة ، ويكون من الشهداء على الناس . . وذلك بأن يقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، وأن يعتصم باللّه ، ويجعل وجوده كلّه للّه ، وباللّه . . وذلك هو الذي يضمن له علوّا ، ونصرا وعزّا . . « وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 9 صـ 1102 . 1109 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾

لما كان خطاب المشركين فاتحاً لهذه السورة وشاغلاً لمعظمها عدَا ما وقع اعتراضاً في خلال ذلك ، فقد خوطب المشركون بـ ﴿ يا أيها الناس ﴾ أربع مرات ، فعند استيفاء ما سيق إلى المشركين من الحجج والقوارع والنداء على مساوي أعمالهم ، خُتمت السورة بالإقبال على خطاب المؤمنين بما يُصلح أعمالهم وينوّه بشأنهم .

وفي هذا الترتيب إيماء إلى أن الاشتغال بإصلاح الاعتقاد مقدم على الاشتغال بإصلاح الأعمال .

والمراد بالركوع والسجود الصلوات .

وتخصيصهما بالذكر من بين أعمال الصلاة لأنهما أعظم أركان الصلاة إذ بهما إظهار الخضوع والعبودية .

وتخصيص الصلاة بالذكر قبل الأمر ببقية العبادات المشمولة لقوله ﴿ واعبدوا ربكم ﴾ تنبيه على أنّ الصلاة عماد الدين .

والمراد بالعبادة : ما أمر الله النّاس أن يتعبدوا به مثل الصيام والحج .

وقوله ﴿ وافعلوا الخير ﴾ أمر بإسداء الخير إلى الناس من الزكاة ، وحسن المعاملة كصلة

الرّحِم ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وسائر مكارم الأخلاق ، وهذا مجمل بينته وبينت مراتبه أدلة أخرى .

والرجاء المستفاد من ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ مستعمل في معنى تقريب الفلاح لهم إذا بلغوا بأعمالهم الحدّ الموجب للفلاح فيما حدّد الله تعالى ، فهذه حقيقة الرجاء .

وأما ما يستلزمه الرجاء من تردّد الراجي في حصول المرجو فذلك لا يخطر بالبال لقيام الأدلة التي تُحِيل الشكّ على الله تعالى .

واعلم أن قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ إلى ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ اختلف الأيّمة في كون ذلك موضع سجدة من سجود القرآن .

والذي ذهب إليه الجمهور أن ليس ذلك موضع سجدة وهو قول مالك في "الموطأ" و"المدوّنة" ، وأبي حنيفة ، والثوري .

(153/529)

وذهب جمع غفير إلى أن ذلك موضع سجدة ، وروى الشافعي ، وأحمد ، وإسحاق ، وفقهاء المدينة ، ونسبه ابن العربي إلى مالك في رواية المدنيين من أصحابه عنه .

وقال ابن عبد البر في "الكافي" : "ومن أهل المدينة قديماً وحديثاً من يرى السجود في الثانية

من الحجّ قال : وقد رواه ابن وهب عن مالك" .

وتحصيل مذهبه أنها إحدى عشرة سجدة ليس في المفصّل منها شيء" ، فلم ينسبه إلى مالك إلا من رواية ابن وهب ، وكذلك ابن رشد في "المقدمات" : فما نسبه ابن العربي إلى المدنيين من أصحاب مالك غريب .

وروى الترمذي عن ابن لهيعة عن مِشْرَح

عن عقبة بن عامر قال : " قلت يا رسول الله فُضلت سورة الحجّ لأنّ فيها سجدتين ؟ قال : نعم ، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما " أ هـ .

قال أبو عيسى : هذا حديث إسناده ليس بالقويّ انتهى انتهى . ا هـ ، أي من أجل أن ابن لهيعة ضعّفه يحيى بن مَعين ، وقال مسلم : تركه وكيع ، والقطّان ، وابن مهدي .

وقال أحمد : احترقت كتبه فمن روى عنه قديماً (أي قبل احتراق كِتبه) قُبل .

﴿ وجاهدوا فِي الله حَقَّ جهاده هُوَ اجتباكم ﴾

الجهاد بصيغة المفاعلة حقيقة عرفية في قتال أعداء المسلمين في الدّين لأجل إعلاء كلمة الإسلام أو للدفع عنه كما فسرّه النبي صلى الله عليه وسلم " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " .

وأن ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حين قفل من غزوة تبوك قال لأصحابه : " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " وفسّره لهم بمجاهدة العبد هواه ، فذلك

محمول على المشاكلة بإطلاق الجهاد على منع داعي النفس إلى المعصية .

ومعنى (في) التعليل ، أي لأجل الله ، أي لأجل نصر دينه كقول النبي صلى الله عليه وسلم " دخلت امرأة النار في هِرّة " أي لأجل هِرة ، أي لعمل يتعلق بهرّة كما بيّنه بقوله : " حَبَسَتْها لا هِيَ أطعمتها ولا هي أرسلتها ترمم من خشاش الأرض حتى ماتت هزلاً " .

(154/529)

وانتصب ﴿ حق جهاده ﴾ على المفعول المطلق المبيّن للنوع ، وأضيفت الصفة إلى الموصوف ، وأصله : جهادَه الحقّ ، وإضافة جهاد إلى ضمير الجلالة لأدنى ملابسة ، أي حق الجهاد لأجله ، وقرينة المراد تقدّم حرف (في) كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ [آل عمران : 102] .

والحق بمعنى الخالص ، أي الجهاد الذي لا يشوبه تقصير .

والآية أمر بالجهاد ، ولعَلّها أول آية جاءت في الأمر بالجهاد لأنّ السورة بعضها مكي وبعضها مدنيّ ولأنه تقدم آنفاً قوله : ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله ﴾ [الحج : 60] ، فهذا الآن أمر بالأخذ في وسائل النصر ، فالآية نزلت قبل وقعة بدر لا محالة .

﴿ هُوَ اجتباكم وَمَا جعَلَ عَلَيْكمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سماكم المسلمين مِن قَبْلُ وَفِى هذا لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس ﴾

جملة ﴿ هو اجتباكم ﴾ إن حملت على أنها واقعة موقع العلة لما أمروا به ابتداء من قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ [الحج : 77] الخ ، أي لأنه لما اجتباكم ، كان حقيقاً بالشكر له بتلك الخصال المأمور بها .

والاجتباء : الاصطفاء والاختبار ، أي هو اختاركم لتلقي دينه ونشره ونصره على معانديه .

فيظهر أن هذا موجّه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصالة ويشركهم فيه كل من جاء بعدهم بحكم اتّحاد الوصف في الأجيال كما هو الشأن في مخاطبات التشريع .

وإن حمل قوله ﴿ هو اجتباكم ﴾ على معنى التفضيل على الأمم كان ملحوظاً فيه تفضيل مجموع الأمة على مجموع الأمم السابقة الراجع إلى تفضيل كل طبقة من هذه الأمة على الطبقة المماثلة لها من الأمم السالفة .

وقد تقدم مثل هذين المحملين في قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ [آل عمران : 110] .

وأعقب ذلك بتفضيل هذا الدّين المستتبع تفضيل أهله بأن جعله ديناً لا حرج فيه لأنّ ذلك يسهل العمل به مع حصول مقصد الشريعة من العمل فيسعد أهله بسهولة امتثاله ، وقد امتنّ الله تعالى بهذا المعنى في آيات كثيرة من القرآن ، منها قوله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة : 185] .

ووصفِهِ الدين بالحنيف ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم "بُعِثت بالحنيفيّة السّمحة" .

والحرج : الضيق ، أطلق على عسر الأفعال تشبيهاً للمعقول بالمحسوس ثمّ شاع ذلك حتى صار حقيقة عُرفية كما هنا .

والمِلّة : الدين والشريعة .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ في [سورة النحل : 123] .

وقوله : ﴿ واتبعت ملة آباءي ﴾ في [سورة يوسف : 38] .

وقوله ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ زيادة في التنويه بهذا الدّين وتحْضيض على الأخذ به بأنه اختص بأنه دين جاء به رسولان إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم وهذا لم يستتب لدين آخر ، وهو معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم " أنا دعوة أبي إبراهيم " أي بقوله : ﴿ ربّنا وابْعَث فيهم رسولاً منهم ﴾ [البقرة : 129] ، وإذ قد كان هذا هو المقصود

فمحمل الكلام أنّ هذا الدّين دين إبراهيم ، أي أنّ الإسلام احتوى على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

ومعلوم أن للإسلام أحكاماً كثيرة ولكنه اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من الشرائع الأخرى من دين إبراهيم ، جعل كأنه عين ملّة إبراهيم ، فعلى هذا الاعتبار يكون انتصاب ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ على الحال من ﴿ الدّين ﴾ باعتبار أن الإسلام حوى ملّة إبراهيم .

(156/529)

ثم إن كان الخطاب موجّهاً إلى الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم فإضافة أبوة إبراهيم إليهم باعتبار غالب الأمة ، لأنّ غالب الأمة يومئذ من العرب المُضَرية وأمّا الأنصار فإن نسبهم لا ينتمي إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنّهم من العرب القحطانيين ؛ على أن أكثرهم كانت لإبراهيم عليهم ولادة من قِبل الأمهات .

وإن كان الخطاب لعموم المسلمين كانت إضافة أبوة إبراهيم لهم على معنى التشبيه في الحُرمة واستحقاق التعظيم كقوله تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب : 6] ، ولأنه أبو النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومحمد له مقام الأبوة للمسلمين وقد قرىء قوله

تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب : 6] بزيادة وهو أبوهم .

ويجوز أن يكون الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم على طريقة التعظيم كأنه قال : ملّة أبيك إبراهيم .

والضمير في ﴿ هو سماكم المسلمين ﴾ عائد إلى الجلالة كضمير ﴿ هو اجتباكم ﴾ فتكون الجملة استئنافاً ثانياً ، أي هو اجتباكم وخصّكم بهذا الاسم الجليل فلم يعطه غيركم ولا يعود إلى إبراهيم .

و ﴿ قبْلُ ﴾ إذا بني على الضم كان على تقدير مضاف إليه منوي بمعناه دون لفظه .

والاسم الذي أضيف إليه ﴿ قبلُ ﴾ محذوف ، وبني ﴿ قبلُ ﴾ على الضم إشعاراً بالمضاف إليه .

والتقدير : من قبل القرآن .

والقرينة قوله ﴿ وفي هذا ﴾ ، أي وفي هذا القرآن .

والإشارة في قوله ﴿ وفي هذا ﴾ إلى القرآن كما في قوله تعالى : ﴿ ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ [الأحقاف : 4] ، أي وسماكم المسلمين في القرآن .

وذلك في نحو قوله : ﴿ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [آل عمران : 64] وقوله : ﴿ وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ [الزمر : 12] .

واللاّم في قوله ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم ﴾ يتعلّق بقوله ﴿ اركعوا واسجدوا ﴾ [الحج : 77] أو بقوله ﴿ اجتباكم ﴾ أي ليكون الرسول ، أي محمد عليه الصلاة والسلام شهيداً على الأمة الإسلامية بأنها آمنت به ، وتكون الأمة الإسلامية شاهدة على النّاس ، أي على الأمم بأن رسلهم بلغوهم الدعوة فكفر بهم الكافرون .

ومن جملة الناس القوم الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم

وقدمت شهادة الرسول للأمة هنا ، وقدمت شهادة الأمة في آية [البقرة : 143] ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ لأن آية هذه السورة في مقام التنويه بالدّين الذي جاء به الرسول .

فالرسول هنا أسبق إلى الحضور فكان ذكر شهادته أهم ، وآية البقرة صُدّرت بالثناء على الأمّة فكان ذكر شهادة الأمة أهمّ .

﴿ فَأَقِيمُواْ الصلاة وَءَاتُواْ الزكواة واعتصموا بالله هُوَ مولاكم فَنِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير ﴾ تفريع على جملة ﴿ هو اجتباكم ﴾ وما بعدها ، أي فاشكروا الله بالدوام على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله .

والاعتصام : افتعال من العَصْم ، وهو المنع من الضُرّ والنجاةُ ، قال تعالى : ﴿ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله ﴾ [هود : 43] ، وقال النابغة:

يظل من خوفه الملاحُ مُعتصماً . . .

بالخيزرانة بعد الأين والنجد

والمعنى : اجعلوا الله ملجأكم ومنجاكم .

وجملة ﴿ هو مولاكم ﴾ مستأنفة معلّلة للأمر بالاعتصام بالله لأنّ المولى يُعتصم به ويُرجع إليه لعظيم قدرته وبديع حكمته .

والمولى : السيد الذي يراعي صلاح عبده .

وفرع عليه إنشاء الثناء على الله بأنه أحسن مولى وأحسن نصير .

أي نِعم المدبر لشؤونكم ، ونِعم الناصر لكم .

ونصير : صيغة مبالغة في النصر ، أي نِعم المولى لكم ونِعم النصير لكم .

وأما الكافرون فلا يتولاّهم تولي العناية ولا ينصرهم .

(158/529)

وهذا الإنشاء يتضمّن تحقيق حسن ولاية الله تعالى وحسن نصره .

وبذلك الاعتبار حسن تفريعه على الأمر بالاعتصام به .

وهذا من براعة الختام ، كما هو بَيّن لذوي الأفهام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 17 صـ ﴾

(159/529)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ اجتباكم ﴾ .

أي اصطفاكم ، واختاركم يا أمة محمد .

ومعنى هذه الآية أوضحه بقوله ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 110] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ .

الحرج : الضيق كما أوضحناه في أول سورة الأعراف .

وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة : أن هذه الحنيفية السمحة التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أنها مبنية على التخفيف والتيسير ، لا على الضيق والحرج . وقد

رفع الله فيها الآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا .

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ذكره جل وعلا في غير هذا الموضع كقوله تعالى ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر ﴾ [البقرة : 185] وقوله ﴿ يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسان ضَعِيفاً ﴾ [النساء : 28] وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ، وابن عباس أن النَّبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ خواتم سورة البقرة " ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا قال الله قد فعلت " في رواية ابن عباس . وفي رواية أبي هريرة قال : نعم . ومن رفع الحجر في هذه الشريعة الرخصة في قصر الصلاة في السفر والإفطار في رمضان فيه ، وصلاة العاجز عن القيام قاعداً وإباحة المحظور للضرورة كما قال تعالى ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ ﴾ [الأنعام : 119] الآية إلى غير ذلك من أنواع التخفيف والتيسير ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة والآيات التي ذكرنا معها من رفع الحرج ، والتخفيف في شريعة نبينا صلى الله عليه وسلم ، هو إحدى القواعد الخمس ، التي بنى عليها الفقه الإسلامي وهي هذه الخمس .

الأولى : الضرر يزال ومن أدلتها حديث : " لا ضرر ولا ضرار " .

(160/529)

الثانية : المشقة تجلب التيسير : وهي التي دل عليها قوله هنا ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ وما ذكرنا في معناها من الآيات .

الثالثة : لا يرفع يقين بشك ، ومن أدلتها حديث " من أحس بشيء في دبره في الصلاة وأنه لا يقطع الصلاة حتى يسمع صوتاً أو يشم ريحاً " لأن تلك الطهارة المحققة لم تنقض بتلك الريح المشكوك فيها .

الرابعة : تحكيم عرف الناس المتعارف عندهم في صيغ عقودهم ومعاملاتهم ، ونحو ذلك . واستدل لهذه بعضهم بقوله ﴿ وَأْمُرْ بالعرف ﴾ [الأعراف : 199] الآية .

الخامسة : الأمور تبع المقاصد ، ودليل هذه حديث " إنما الأعمال بالنيات " الحديث .

وقد اشار في مراقي السعود في كتاب الاستدلال إلى هذه الخمس المذكورات بقوله :

قد أسس الفقه على رفع الضرر . . . وأن ما يشق يجلب الوطر

ونفى رفع القطع بالشك وأن . . . يحكم العرف وزاد من ظن

كون الأمور تبع المقاصد . . . مع التكلف ببعض وارد

قوله تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

قال بعضهم : هو منصوب بنزع الخافض ، ومال إليه ابن جرير : أي ما جعل عليكم في دينكم من ضيق ، كملة إبراهيم ، وأعربه بعضهم منصوباً بمحذوف : أي الزموا ملة أبيكم إبراهيم ، ولا يبعد أن يكون قوله ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ شاملاً لما ذكر قبله من الأوامر في قوله

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اركعوا واسجدوا وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وافعلوا الخير لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ [الحج : 77-78] .

ويوضح هذا قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي ربي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ [الأنعام : 161] والدين القيم الذي هو ملة إبراهيم : شامل لما ذكر كله .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ وَفِي هذا ﴾ .

(161/529)

اختلف في مرجع الضمير الذي هو لفظ هو من قوله ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ ﴾ فقال بعضهم الله هو الذي سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ، وهذا القول مروى عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد وعطاء ، والضحاك ، والسدي ، من قبل وفي هذا ، وهذا القول مروى عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد وعطاء ، والضحاك ، والسدي ، ومقاتل بن حيان ، وقتادة . كما نقله عنهم ابن كثير . وقال بعضهم : هو أي إبراهيم سماكم المسلمين ، واستدل لهذا بقول إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة : 128] وبهذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، كما نقله عنهم ابن كثير . وقد قدمنا أن من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً وتكون في الآية قرينة تدل على عدم

صحة ذلك القول . وجئنا بأمثلة كثيرة في الترجمة ، وفيما مضى من الكتاب ، وفي هذه الآيات قرينتان تدلان على أن قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم غير صواب .

إحداهما : أن الله قال ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ وَفِي هذا ﴾ أي القرآن ، ومعلوم أن إبراهيم لم يسمهم المسلمين في القرآن ، لنزوله بعد وفاته بأزمان طويلة كما نبه على هذا ابن جرير .

القرينة الثانية : أن الأفعال كلها في السياق المذكور راجعة إلى الله ، لا إلى إبراهيم فقوله ﴿ هُوَ اجتباكم ﴾ أي الله وما جعل عليكم في الدين من حرج : أي الله هو سماكم المسلمين : أي الله .

فإن قيل : الضمير يرجع إلى أقرب مذكور ، وأقرب مذكور للضمير المذكور : هو إبراهيم . فالجواب أن محل رجوع الضمير إلى أقرب مذكور محله ما لم يصرف عنه صارف ، وهنا قد صرف عنه صارف ، لأن قوله وفي هذا يعني القرآن ، دليل على أن المراد بالذي سماهم المسلمين فيه : هو الله لا إبراهيم ، وكذلك سياق الجمل المذكورة قبله نحو ﴿ هُوَ اجتباكم وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ يناسبه أن يكون هو سماكم : أي الله المسلمين .

(162/529)

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية بعد أن ذكر : أن الذي سماهم المسلمين من قبل وفي هذا : هو الله ، لا إبراهيم ما نصه :

قلت : وهذا هو الصواب لأنه تعالى قال ﴿ هُوَ اجتباكم وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ملة إبراهيم أبيهم الخليل ، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها ، والثناء عليها في سالف الدهر ، وقديم الزمان في كتاب الأنبياء ، تتلى على الأحبار والرهبان فقال ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذا القرآن .

وفي هذا روى النسائي عند تفسير هذه الآية : أنبأنا هشام بن عمار ، حدثنا محمد بن شعيب ، أنبأنا معاوية بن سلام أن أخاه زيد بن سلام ، أخبره عن أبي سلام أنه أخبره قال : أخبرني الحارث الأشعري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من دعا دعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم ، قال رجل : يا رسول الله ، وإن صام وإن صلى ؟ قال : نعم وإن صام وإن صلى ، فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله " وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : 21] اه من تفسير ابن كثير .

وقال ابن كثير في تفسير سورة البقرة : إن الحديث المذكور فيه أن الله هو الذي سماهم

المسلمين المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس ﴾ .

(163/529)

يعني : إنما اجتباكم ، وفضلكم ونوه باسمكم المسلمين من قبل نزول كتابكم ، وزكاكم على ألسنة الرسل المتقدمين ، فسماكم فيها المسلمين ، وكذلك سماكم في هذا القرآن . وقد عرف بذلك أنكم أمة وسط عدول خيار مشهود بعدالتكم ، لتكونوا شهداء على الناس يوم القيامة ، أن الرسل بلغتهم رسالات ربهم ، حين ينكر الكفار ذلك يوم القيامة ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ، أنه بلغكم ، وقيل : شهيداً على صدقكم فيما شهدتم به للرسل على أممهم من التبليغ .

وهذا المعنى المذكور هنا ذكره الله جل وعلا في قوله ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة : 143] وقال فيه صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ﴾ [الفتح : 8] الآية . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(164/529)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾

النداء في ضَرْب المثل السابق كان للناس كافَّة ؛ لأنه يريد أنْ يَلفِت عُبَّاد الأصنام إلى هذا المثَل ، ويُسْمعهم إياه ، أمَّا هنا فالكلام عن منهج ودستور مُوجَّه ، خاصّة إلى الذين آمنوا ، لأنه لا يُكلَّف بالحكم إلا مَنْ آمن به ، أما مَنْ كفر فليس أَهْلاً لحمل هذه الأمانة ؛ لذلك تركه ولم ينظم له حركة حياته . وكما قلنا في رجل المرور أنه يساعد مَن استعان به ووثق فيه ، فيدلّه ويرشده ، أما مَنْ شكَّ في كلامه وقلّل من شأنه يتركه يضل في مفترق الطرق .

فإذا ناداك ربك بما يكلفك به ، فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ آمِنُواْ . . ﴾ [النساء : 136] .

وقد اعترض على أسلوب القرآن في هذه الآية بعض الذين يأخذون الآيات على ظاهرها ، يقولون : كيف يخاطبهم بيا أيها الذين آمنوا ثم يقول : آمِنوا ، كيف وهم يؤمنون بالفعل ؟

قالوا : المراد يا أيها الذين آمنوا قبل سماع الحكم الجديد ظَلُّوا على إيمانكم في الحكم الجديد ، واستمِرّوا على إيمانكم ؛ لذلك إذا طلبتَ شيئاً ممَّنْ هو موصوف به فاعلم أن المراد الدوام عليه .

كما أن هناك فَرْقاً بين الإيمان بالحكم وبين تنفيذ الحكم ، فقد تؤمن بالحكم أنه من الله ولا

تشكّ فيه ولا تعترض عليه ، لكنك لا تنفذه وتعصاه ، فمثلاً في الحج يقول تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ . . ﴾ [آل عمران : 97] الذي لله تعالى على عباده أنْ يحجوا البيت ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً . . ﴾ [آل عمران : 97] وهذا شرط ضروري ، فلا تكليفَ بلا استطاعة ، ثم يقول : ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ [آل عمران : 97] .

فهل يعني هذا أن مَنْ لم يحج فهو كافر ؟

(165/529)

قالوا : لا ، لأن المراد : لله على الناس حكم يعتقده المؤمن ، بأن لله على الناس حج البيت ، فمن اعتقد هذا الاعتقاد فهو مؤمن ، أما كونه ينفذه أو لا ينفذه هذه مسألة أخرى .

ثم يبدأ أول ما يبدأ في التكليف بمسألة الصلاة : ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ . . ﴾ [الحج : 77] لقد جاء الرسل من عند الله بتكاليف كثيرة ، لكن خَصَّ هنا الصلاة لأنها التكليف الذي يتكرر كل يوم خمس مرات ، أما بقية التكاليف فهي موسمية : فالصوم شهر في العام كله ، والحج مرة في العمر كله لمن استطاع ، والزكاة عند خروج المحصول لمن يملك النصاب أو عند حلول الحَوْل .

إذن : تختلف فريضة الصلاة عن باقي الفرائض ؛ لذلك خَصَّها رسول الله صلى الله عليه

وسلم في قوله : " العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمَنْ تركها فقد كفر " .

ويقول : " الصلاة عماد الدين " .

وخصَّها الحق – تبارك وتعالى – بظرف تشريعي خاص ، حيث فُرِضت الصلاة بالمباشرة ، وفُرِضت باقي الفرائض بالوحي .

وضربنا لذلك مثلاً – ولله المثل الأعلى – قلنا : إن رئيس العمل يمكن أن يرسل لك ورقة يقول : افعل كذا وكذا ، فإنْ كان أمراً هاماً اتصل بك تليفونياً ، وأخبرك بما يريد لأهميته ، فإنْ كان الأمر أهم من ذلك وجاء من جهة أعلى يقول لك : تعال عندي لأمر هام ، ويُكلِّفك به مباشرة ، وكذلك على حسب الأهمية يوجد ظرف التشريع .

فالصلاة لم تأت بالوحي كباقي الفرائض ، إنما جاءت مباشرة من المُوحِي سبحانه وتعالى ؛ لأنها ستكون صلة بين العبد وربه ، فشاء أن يُنزّهَها حتى من هذه الواسطة ، ثم ميَّزها على غيرها من التكاليف ، فجعلها الفريضة التي لا تسقط عن المسلم بحال أبداً . فقد تكون فقيراً فلا تلزمك الزكاة ، وغير مستطيع فلا يلزمك حج ، ومريض أو مسافر فلا يلزمك صوم .

(166/529)

أما الصلاة فلا يُسقِطها عنك شيء من هذا كله ، فإنْ كنت غير قادر على القيام فلك أنْ تُصلِّي قاعداً أو مضطجعاً أو راقداً ، تشير بطرفك لركوعك وسجودك ، ولو حتى تجري أفعال الصلاة على قلبك ، المهم أن تظلّ ذاكراً لربك متصلاً به ، لا يمر عليك وقت إلا وهو سبحانه في بالك .

وقلنا : إن ذكر الله في الأذان والإقامة والصلاة ذِكْر دائم في كل الوقت لا ينقطع أبداً ، فحين تصلي أنت الصبح مثلاً غيرك يصلي الظهر ، وحين تركع غيرك يسجد ، وحين تقول : بسم الله الرحمن الرحيم . غيرك يقول : الحمد لله رب العالمين . . الخ .

فهي عبادة متداخلة دائمة لا تنقطع أبداً ؛ لذلك يقول أحد أهل المعرفة مخاطباً الزمن : يا زمن فيك كل الزمن . يعني : في كل جزئية من الزمن الزمن كله ، كأنه قال : يا ظُهْر ، وفيك العصر ، وفيك المغرب ، وفيك العشاء ، وهكذا العالم كله يدور بعبادة لله لا تنتهي .

وذكر من الصلاة الركوع والسجود ؛ لأنهما أظهر أعمال الصلاة ، لكن الركوع والسجود حركات يؤديها المؤمن المخلص ، ويؤديها المنافق ، وقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يُميِّز هذا من هذا ، فقال : ﴿ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ . . ﴾ [الحج : 77] .

فليست العبرة في حركات الركوع والسجود ، إنما العبرة في التوجّه بها إلى الله ، وإخلاص النية فيها لله ، وإلا أصبحت الصلاة مجرد حركات لا تعدو أن تكون تمارين رياضية كما

يحلو للبعض أن يقول : الصلاة فيها تمارين رياضية تُحرِّك كل أجزاء الجسم ، نعم هي كما تقولون رياضة ، لكنها ليست عبادة ، العبادة أن تؤديها لأن الله تعالى أمرك بها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وافعلوا الخير لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج : 77] .

(167/529)

والخير كلمة عامة تشمل كل أوامر التكليف ، لكن جاءت مع الصلاة على سبيل الإجمال ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فالخير – إذن – كلمة جامعة لكل ما تؤديه وظائف المناهج من خير المجتمع ؛ لأن المنهج ما جاء إلا لينظم حركة الحياة تنظيماً يتعاون ويتساند لا يتعاند ، فإنْ جاء الأمر على هذه الصورة سَعِد المجتمع بأَسْره .

ولا تنْسَ أن المنهج حين يُضيِّق عليك ويُقيِّد حركتك يفعل ذلك لصالحك أنت ، وأنت المستفيد من تقييد الحركة ؛ لأن ربك قيّد حركتك وضيَّق عليك حتى تُلحِق الشر بالآخرين ، وفي الوقت نفسه ضيّق على الآخرين جميعاً أن يتحركوا بالشر ناحيتك ، وأنت واحد وهم كثير ، فمن أجل تقييد حركتك قيّد لك حركة الناس جميعاً ، فمَنِ الكاسب في هذه المسألة .

الشرع قال لك : لا تسرق وأنت واحد وقال للناس جميعاً : لا تسرقوا منه ، وقال لك : غُضّ

بصرك عن محارم الغير وأنت واحد . وقال لكل غير : غُضُّوا أبصاركم عن محارم فلان ، فكل تكليف من الله للخَلْق يعود عليك .

فالمعنى : ﴿ وافعلوا الخير ﴾ [الحج : 77] أي : الذي لا يأتي منه فساد أبداً ، وما دامت الحركات صادرة عن مراد لهوى واحد فإنها تتساند وتتعاون ، فإنْ كان لك هوى ولغيرك هوى تصادمتْ الأهواء وتعاندت ، والخير : كل ما تأمر به التكاليف المنهجية الشرعية من الحق تبارك وتعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج : 77] لكن ، أين سيكون هذا الفَلاَح : في الدنيا أم في الآخرة ؟

(168/529)

الفلاَح يكون في الدنيا لمن قام بشرع الله والتزم منهجه وفعل الخير ، فالفَلاح ثمرة طبيعية لمنهج الله في أيِّ مجتمع يتحرك أفرادُه في اتجاه الخير لهم وللغير ، مجتمع يعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " وعندها لن ترى في المجتمع تزاحماً ولا تنافراً ولا ظلماً ولا رشوة . . الخ هذا الفلاح في الدنيا ، ثم يأتي زيادة على فلاح الدنيا فلاح الآخرة .

إذن : لا تظنوا التكاليف الشرعية عِبْئاً عليكم ؛ لأنها في صالحكم في الدنيا ، وبها فلاح دنياكم ، ثم يكون ثوابها في الآخرة مَحْض الفضل من الله .

وقد نبهنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه المسألة فقال : " لا يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أنْ يتغمّدني الله برحمته " ذلك لأن الإنسان يفعل الخير في الدنيا لصالحه وصالح دنياه التي يعيشها ، ثم ينال الثواب عليها في الآخرة من فضل الله كما قال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ . . ﴾ [النساء : 173] .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج : 77] نعرف أن لعل أداة للترجي ، وهو درجات بعضها أرْجى من بعض ، فمثلاً حين تقول : لعل فلاناً يعطيك ، فأنت ترجو غيرك ولا تضمن عطاءه ، فإنْ قلت : لعلِّي أعطيك . فالرجاء – إذن – في يدك ، فهذه أرجى من سابقتها ، لكن ما زلنا أنا وأنت متساويين ، وربما أعطيك أولاً ، إنما حين تقول : لعل الله يعطيك فقد رجوْتَ الله ، فهذه أرجى من سابقتها ، فإذا قال الله تعالى بذاته : لعلي أعطيك فهذا أقوى درجات الرجاء وآكدها ؛ لأن الوعد من الله والرجاء فيه سبحانه لا يخيب .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجتباكم وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ . . ﴾

معنى ﴿ حَقَّ جِهَادِهِ . . ﴾ [الحج : 78] كالذي قلناه في ﴿ مَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الحج : 74] لأن الجهاد أيضاً يحتاج إلى إخلاص ، وأنْ تجعل الله في بالك ، فربما خرجتَ لمجرد أن تدفع اللوم عن نفسك وحملتَ السلاح فعلاً ودخلت المعركة ، لكن ما في بالك أنها لله وما في بالك إعلاء كلمة الله ، كالذي يقاتل للشهرة وليرى الناس مكانته ، أو يقاتل طمعاً في الغنائم ، أو لأنه مغتاظ من العدو وبينه وبينه ثأر ، ويريد أن ينتقم منه ، هذه وغيرها أمور تُخرِج القتال عن هدفه وتُفرغه من محتواه .

لذلك لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فمَنْ في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " " وهذا هو حق الجهاد ، وأنت فيه حكَم على نفسك ، لأن ميزان ذلك في يدك

. وقد تسأل : ولماذا الجهاد ؟ قالوا : لأنك إذا انتفعتَ بالمنهج تطبيقاً له بعد التحقيق الذي أتى به الرسل تنفع نفسك ، لكن ربك – عز وجل – يريد أنْ يُشيع النفع لمن معك أيضاً ، وهذا لا يتأتّى إلا بالجهاد بالنفس أو المال أو أي شيء محبوب ، وإلا فكيف ستربح الصفقة التي قال الله تعالى عنها : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة . . ﴾ [التوبة : 111] .

وكما أن للجنود في ساحة القتال مهمة ، كذلك لمن قعد ولم يخرج مهمة : الجندي حين يقتحم الأهوال والمخاطر ويُعرِّض نفسه للموت ، فهذا يعني أنه دخل المعركة وما عرَّض نفسه للموت ، فهذا يعني أنه ما دخل المعركة وما عرَّض نفسه للقتل إلا وهو واثق تمام الثقة ، أن ما يذهب إليه بالقتل خير مما يناله بالجُبْن ، وهذا يشجع الآخرين ويحثّهم على القتال .

(170/529)

لذلك ، في غزوة بدر لما سمع الصحابي كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أجر الشهيد وكان في فمه تمرة يمصُّها ، فقال : يا رسول الله ، أليس بيني وبين الجنة إلا أنْ أُقتل في سبيل الله ؟ قال : نعم ، فألقى التمرة من فيه وخرج لتوِّه إلى الجهاد لأنه واثق تمام الثقة أن ما سيذهب إليه بالشهادة خير مما ترك .

أما الذين بَقَوْا ولم يخرجوا ، فمهمتهم أن يحملوا المنهج ، وأنْ يحققوه ، وإلا لو خرج الجميع إلى القتال واستشهدوا جميعاً ، فمَنْ يحمل منهج الله وينشره ؟

وجاءت كلمة الجهاد عامة لتشمل كل أنواع الجهاد ، فإذا ما أثمر الجهاد ثمرته وتغلبنا على الكفر فلم يَعُدْ هناك كفار ، أو خَلَّوْا طريق دعوتنا وتركونا ، وأحبوا أنْ يعيشوا في بلادنا أهل ذمة ، فلا داعي – إذن – للقتال ، ويتحول الجهاد إلى ميدان آخر هو جهاد النفس .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ هُوَاجتباكم . . ﴾ [الحج : 78] يعني : اختاركم واصطفاكم لتكونوا خير أمة أُخرجت للناس ، وثمن هذا الاجتباء أن نكون أهلاً له ، وعلى مستوى مسئوليته ، وأنْ نحقق ما أراده الله منّا .

كما ننصح جماعة من أهل الدعوة الذين حملوا رايتها ، نقول لهم : لقد اختاركم الله ، فكونوا أَهْلاً لهذا الاختيار ، واجعلوا كلامه تعالى في محلّه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ . . ﴾ [الحج : 78] يعني : ما اجتباكم ليُعنتكم ، أو ليُضيِّق عليكم ، أو ليُعسِّر عليكم الأمور ، إنما جعَل الأمر كله يُسْر ، وشرعه على قَدْر الاستطاعة ، ورخَّص لكم ما يُخفِّف عنكم ، ويُذهِب عنكم الحرج والضيق ، فمَنْ لم يستطع القيام صلى قاعداً ، ومَنْ كان مريضاً أفطر ، والفقير لا زكاة عليه ولا حج . . الخ .

كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَلَوْ شَآءَ الله لأَعْنَتَكُمْ . . ﴾ [البقرة : 220] لكنه سبحانه ما أعنتكم ولا ضيَّق عليكم ، وما كلَّفكم إلا ما تستطيعون القيام به .

(171/529)

وقوله تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحج : 78] كلمة (ملة) جاءت هكذا بالنصب ، لأنها مفعول به لفعل تقديره : (الزموا) مِلة أبيكم إبراهيم ؛ لأنكم دعوته حين قال : ﴿ رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ . . ﴾ [البقرة : 128]

ومن دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ . . ﴾ [البقرة : 129] لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبُشْرى عيسى " .

يعني : من ذريته وذرية ولده إسماعيل ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا . . ﴾ [البقرة : 128] أعطنا التكاليف ، وكأنه مُتشوّق إلى تكاليف الله ، وهل يشتاق الإنسان للتكليف إنْ كان فيه ضيق أو مشقة ؟

وكذلك كان صحابة النبي صلى الله عليه وسلم يعشقون تكاليف الإسلام ، ويسألون عنها رسول الله رغم قوله لهم : " ذروني ما تركتكم " إلا أنهم كانوا يسألون عن أمور الدين ليبنوا حياتهم الجديدة ، لا على ما كانت الجاهلية تفعله ، بل على ما أمر به الإسلام .

ولنا مَلْحظ في قوله تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ . . ﴾ [الحج : 78] .

نقول : الإسلام انقياد عَقَديٌّ للجميع ، وفي أمة الإسلام مَنْ ليس من ذرية إبراهيم ، لكن إبراهيم عليه السلام أبٌ لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، والرسول أب لكل مَنْ آمن

به ؛ لأن أبوة الرسول أبوة عمل واتباع ، كما جاء في قول الله تعالى في قصة نوح عن ابنه : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ . . ﴾ [هود : 46] .

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم أباً لكل مَنْ آمن به سَمَّى الله زوجاته أمهات للمؤمنين ، فقال سبحانه : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ . . ﴾ [الأحزاب : 6] .

(172/529)

وما دامت الأزواج أمهات ، فالزوج أب ، وبناءً على هذه الصلة يكون إبراهيم عليه السلام أباً لأمة الإسلام ، وإنْ كان فيهم مَنْ ليس من سلالته .

ونجد البعض مِمَّنْ يحبون الاعتراض على كلام الله يقولون في مسألة أبوة الرسول لأمته : لكن القرآن قال غير ذلك ، قال في قصة زيد بن حارثة :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ . . ﴾ [الأحزاب : 40] فنفى أن يكون محمد أباً لأحد ، وفي هذا ما يناقض كلامكم .

نقول : لو فهمتم عن الله ما اعترضتُم على كلامه ، فالله يقول : ما كان محمد أباً لأحد كم ، بل هو أب للجميع ، فالمنفيّ أن يكون رسول الله أباً لواحد ، لا أن يكون أباً لجميع أمته . وقال

بعدها : ﴿ ولكن رَّسُولَ الله . . ﴾ [الأحزاب : 40] وما دام رسول الله ، فهو أب للكل .

ثم يقول تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ . . ﴾ [الحج : 78] يعني : إبراهيم عليه السلام سماكم المسلمين ، فكأن هذه مسألة واضحة وأمْر معروف أنكم مسلمون منذ إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس . . ﴾ [الحج : 78] .

وفي موضع آخر يحدث تقديم وتأخير ، فيقول سبحانه : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة : 143] .

لماذا ؟ قالوا : لأن رسول الله بلَّغ رسالة الله ، وأشهد الله على ذلك حين قال : " اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد " أشهد أنِّي بلغتُ ، وهو صلى الله عليه وسلم يريد من أمته أن يكون كل شخص فيها حاملاً لهذه الرسالة ، مُبلِّغاً لها حتى يسمع كلام الرسول مَنْ لم يحضره ولم يَرَهُ ، وهكذا يكون الرسول شهيداً على مَنْ آمن به ، ومَنْ آمن شهيداً على مَنْ بلّغه .

(173/529)

لذلك من شرف أمة محمد أولاً أنه لا يأتي بعده رسول ؛ لأنهم مأمونون على منهج الله ، وكأن الخير لا ينطفيء فيهم أبداً . وقلنا : إن الرسل لا يأتون إلا بعد أنْ يعُمَّ الفساد ، ويفقد الناس المناعة الطبيعية التي تحجزهم عن الشر ، وكذلك يفقدها المجتمع كله فلا ينهى أحد أحداً عن شر ؛ عندها يتدخل الحق سبحانه برسول ومعجزة جديدة ليُصلح ما فسد .

فختام الرسالات بمحمد صلى الله عليه وسلم شهادة أن الخير لا ينقطع من أمته أبداً ، ومهما انحرف الناس سيبقى جماعة على الجادة يحملون المنهج ويتمسكون به ويكونون قدوة لغيرهم . لذلك حدَّد رسول الله هذه المسألة فقال : " الخير فيَّ حصراً ، وفي أمتي نثراً " فالخير كله والكمال كله في شخص رسول الله ، ومنثور في أمته .

ثم يعود السياق إلى الأمر بالصلاة : ﴿ فَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة . . ﴾ [الحج : 78] لأنها الفريضة الملازمة للمؤمن ، وفيها إعلاء الولاء المكرر في اليوم خمس مرات ، وبها يستمر ذِكْر الله على مدى الزمن كله لا ينقطع أبداً في لحظة من لحظات الزمن حين تنظر إلى العالم كله ، وتضم بعضه إلى بعض .

والمتأمل في الزمن بالنسبة للحق – تبارك وتعالى – يجده دائماً لا ينقطع ، فاليوم مثلاً عندنا أربع وعشرون ساعة ، واليوم عند الله ألف سنة مما تعدُّون ، واليوم في القيامة خمسون ألف سنة ، وهناك يوم اسمه يوم الآن أي : اللحظة التي نحن فيها ، وهو يوم الله الذي قال عنه : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : 29] لذلك يقول : ما شغل ربك الآن وقد صحَّ أن

القلم قد جَفَّ ؟ قال : " أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ، ويضع آخرين " .

فيوم الآن يوم عام ، لا هو يوم مصر ، ولا يوم سوريا ، ولا يوم اليابان إذن : في كل لحظة يبدأ لله يوم ينتهي يوم ، فيومه تعالى مستمر لا ينقطع .

(174/529)

ونقرأ في الحديث النبوي الشريف : " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسِيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسيء الليل " .

نهار مَنْ ؟ وليل مَنْ ؟ فالنهار والليل في الزمن دائم لا ينقطع ، وفي كل لحظة من لحظات الزمن ينتهي يوم ويبدأ يوم ، وينتهي ليل ويبدأ ليل . إذن : فالله تعالى يده مبسوطة دائماً لا يقبضها أبداً ، كما قال سبحانه : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ . . ﴾ [المائدة : 64]

ثم يقول سبحانه : ﴿ واعتصموا بالله ﴾ [الحج : 78] الجئوا إليه في الشدائد ، وهذا يعني أنكم ستُواجهون وتُضطهدون ، فما من حامل منهج لله إلا اضُطهد ، فلا يؤثر فيكم هذا ولا يفُتُّ في عَضُدكم ، واجعلوا الله ملجأكم ومعتصمكم في كل شدة تداهمكم ، كما قال سبحانه : ﴿ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ [هود : 43] .

واعتصامكم بالله أمر لا تأتون إليه بأنفسكم إنما ﴿ هُوَ مَوْلَاكُمْ ﴾ [الحج : 78] يعني : المتولّي لشأنكم ، وما دام هو سبحانه مولاكم ﴿ فَنِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(175/529)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا ﴾ قال إنما هي أدب وموعظة .

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾

أخرج ابن مردويه ، عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال لي عمر ألسنا كنا نقرأ فيما نقرأ ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله قلت : بلى . فمتى هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : إذا كانت بنو أمية الأمراء ، وبنو المغيرة الوزراء .

وأخرجه البيهقي في الدلائل عن المسور بن مخرمة . قال : قال عمر لعبد الرحمن بن عوف

فذكره .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الضحاك رضي الله عنه في قوله : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ قال : جاهدوا عدو محمد حتى يدخلوا في الإسلام .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنه ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ قال : ان الرجل ليجاهد في الله حق جهاده وما ضرب بسيف .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مقاتل رضي الله عنه ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ يعني العمل أن يجتهدوا فيه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي رضي الله عنه ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ قال : يطاع فلا يعصى .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج – رضي الله عنه – ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ قال : لا تخافوا في الله لومة لائم ﴿ هو اجتباكم ﴾ قال : استخلصكم .

وأخرج ابن مردويه ، عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه ، " عن عائشة – رضي الله عنها – أنها

سألت النبي – صلى الله عليه وسلم – عن هذه الآية ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ قال : من ضيق " .

(176/529)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن محمد قال : قال أبو هريرة لابن عباس أما علينا في الدين من حرج ؛ في أن نسرق أو نزني قال : بلى . قال : ﴿ فما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ قال : الأصر الذي كان على بني إسرائيل وضع عنكم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، من طريق ابن شهاب ، أن ابن عباس كان يقول : في قوله : ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ توسعة الإسلام ؛ ما جعل الله من التوبة ومن الكفارات .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن بشار ، عن ابن عباس ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ قال : هذا في هلال رمضان ؛ إذا شك فيه الناس ، وفي الحج ، إذا شكوا في الهلال ، وفي الأضحى وفي الفطر وفي أشباهه .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير أن ابن عباس سئل ، عن الحرج ؟ فقال : ادعوا لي رجلاً من هذيل فجاءه فقال : ما الحرج فيكم ؟ فقال : الحرجة من الشجر التي ليس لها مخرج .

فقال ابن عباس : هذا الحرج الذي ليس له مخرج .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في سننه من طريق عبيد الله بن أبي يزيد ، ان ابن عباس سئل عن الحرج ؟ فقال : ههنا أحد من هذيل ؟ فقال رجل : أنا . فقال : ما تعدون الحرجة فيكم ؟ قال : الشيء الضيق . قال : هو ذاك .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة قال : الحرج الضيق لم يجعله ضيقاً ، ولكنه جعله واسعاً ﴿ أحل لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ ﴿ وحرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ .

وأخرج محمد بن يحيى الذهلي في الزهريات وابن عساكر ، عن ابن شهاب قال : سأل عبد الملك بن مروان علي بن عبد الله ، عن هذه الآية ؟ ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ فقال علي بن عبد الله : الحرج ، الضيق ؛ جعل الله الكفارات مخرجاً من ذلك . سمعت ابن عباس يقول ذلك .

(177/529)

وأخرج البيهقي في سننه ، عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر قال : قرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ ثم قال : ادعوا لي رجلاً من بني مدلج .

قال عمر : ما الحرج فيكم ؟ قال : الضيق .

وأخرج أحمد ، عن حذيفة بن اليمان قال : غاب عنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوماً فلم يخرج حتى ظننا أن لن يخرج ، فلما خرج سجد سجدة ، فظننا أن نفسه قد قبضت ! فلما رفع رأسه قال : " إن ربي عز وجل إستشارني في أمتي ماذا أفعل بهم ؟ فقلت : ما شئت أي رب ؛ هم خلقك وعبادك ، فاستشارني الثانية ؟ فقلت له كذلك ، فقال : لا أخزيك في أمتك يا محمد ، وبشرني : إن أول من يدخل الجنة من أمتي معي سبعون ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً ليس عليهم حساب . ثم أرسل إلي ادع تجب ، وسل تعط ، فقلت لرسوله : أو معطي ربي سؤلي ؟ قال : ما أرسلني إليك إلا ليعطيك . ولقد أعطاني ربي عز وجل ولا فخر ، وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر ، وأنا أمشي حياء ، وأعطاني أن لا تجوع أمتي ولا تغلب ، وأعطاني الكوثر ، فهو نهر في الجنة يسيل في حوضي ، وأعطاني العز والنصر والرعب ، يسعى بين يدي أمتي شهراً ، وأعطاني : أني أول الأنبياء أدخل الجنة ، وطيب لي ولأمتي الغنيمة ، وأحل لنا كثيراً ممن شدد على من قبلنا ، ولم يجعل علينا من حرج ، فلم أجد لي شكراً إلا هذه السجدة " .

(178/529)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مقاتل بن حيان في قوله : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ يقول : لم يضيق الدين عليكم ، ولكن جعله واسعاً لمن دخله ، وذلك أنه ليس مما فرض عليهم فيه ، إلا ساق إليهم عند الاضطرار رخصة ؛ والرخصة في الدنيا فيها وسع عليهم رحمة منه ، إذا فرض عليهم الصلاة في المقام أربع ركعات ، وجعلها في السفر ركعتين وعند الخوف من العدو ركعة ، ثم جعل في وجهة رخصة ؛ أن يومىء إيماء أن لم يستطيع السجود ، في أي نحو كان وجهه ، لمن تجاوز عن السيئات منه والخطأ ، وجعل في الوضوء والغسل رخصة ، إذا لم يجد الماء أن يتيمموا الصعيد ، وجعل الصيام على المقيم واجباً ، ورخص فيه للمريض ، والمسافر عدة من أيام أخر ، فمن لم يطق فإطعام مسكين مكان كل يوم ، وجعل في الحج رخصة ؛ إن لم يجد زاداً أو حملاناً أو حبس دونه ، وجعل في الجهاد رخصة ؛ إن لم يجد حملاناً أو نفقة ، وجعل عند الجهد والاضطرار من الجوع : أن رخص في الميتة والدم ولحم الخنزير قدر ما يرد نفسه ؛ لا يموت جوعاً في أشباه هذا في القرآن ، وسعة الله على هذه الأمة رخصة منه ساقها إليهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السدي في قوله : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ قال : دين أبيكم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق ، عن ابن عباس في قوله ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ قال الله عز وجل ﴿ سماكم ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله : ﴿

هو سماكم المسلمين ﴾ قال الله عز وجل ﴿ سماكم من قبل ﴾ قال الكتب كلها ﴿ وفي الذكر ﴾ ﴿ وفي هذا ﴾ ، قال : القرآن .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ هو سماكم ﴾ قال الله ﴿ سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ﴾ أي في كتابكم : ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم ﴾ أنه قد بلغكم ﴿ وتكونوا شهداء على الناس ﴾ أن رسلهم قد بلغتهم .

(179/529)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن سفيان في قوله : ﴿ هو سماكم المسلمين ﴾ قال الله عز وجل ﴿ من قبل ﴾ قال : في التوراة والإنجيل ﴿ وفي هذا ﴾ قال : القرآن ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم ﴾ قال : ﴿ بأعمالكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ قال : على الأمم بأن الرسل قد بلغتهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في الآية قال : لم يذكر الله بالإسلام والإيمان غير هذه الأمة ، ذكرت بهما جميعاً ولم يسمع بأمة ذكرت بالإسلام والإيمان غيرها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في قوله : ﴿ هو سماكم المسلمين ﴾ قال إبراهيم : ألا ترى إلى قوله ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ الآية : كلها .

وأخرج الطيالسي وأحمد وابن حبان والبخاري في تاريخه والترمذي وصححه والنسائي والموصلي وابن خزيمة وابن حبان والبوردي وابن قانع والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الشعب ، عن الحارث الأشعري ، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " " من دعا بدعوى الجاهلية ، فإنه من جثاء جهنم " قال رجل : يا رسول الله ، وإن صام وصلّى ؟ قال : نعم . " فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله " " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عبد الله بن يزيد الأنصاري قال : تسموا بأسمائكم التي سماكم الله بها : بالحنيفية والإسلام والإيمان .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وإسحق بن راهويه في مسنده ، عن مكحول : أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " تسمى الله باسمين ، سمى بها أمتي : هو السلام ، وسمى أمتي المسلمين ، وهو المؤمن ، وسمى أمتي المؤمنين ، والله تعالى أعلم " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(180/529)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾

قوله : ﴿ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ منصوباً على المصدرِ . وهو واضح . وقال أبو البقاء : " ويجوز أَنْ يكونَ نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ أي : جهاداً حَقَّ جهادِه " وفيه نظر من حيث إنَّ هذا معرفةٌ فكيف يُجعل صفةً لنكرةٍ ؟ قال الزمخشريُّ : " فإنْ قلتَ : ما وَجْهُ هذه الإِضافةِ ، وكان القياسُ حَقَّ الجهادِ فيه ، أو حَقَّ جهادِكم فيه . كما قال : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ ﴾ ؟ قلت : الإِضافةُ تكون بأدنى ملابسةٍ واختصاصٍ ، فلمَّا كان الجهادُ / مختصاً بالله من حيث إنه مفعولٌ من أجلِه ولوجهِه صحَّتْ إضافتُه إليه . ويجوز أن يُتَّسَعَ في الظرف كقولِه :

3400 ويومٍ شَهِدْناه سليمى وعامِراً . . . . . .

. . . . .

يعني بالظرفِ الجارَّ والمجرورَ ، كأنه كان الأصلُ : حَقَّ جهادٍ فيه ، فحذف حرفَ الجرِّ وأُضيف المصدرُ للضميرِ ، وهو من باب " هو حقُّ عالمٍ وجِدُّ عالمٍ " أي : عالِمٌ حقاً وعالِمٌ جدّاً .

قوله : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ ﴾ فيه أوجهٌ أحدُها : أنها منصوبةٌ ب " اتَّبِعوا " مضمراً قاله الحوفي ، وتبعه أبو البقاء . الثاني : أنها على الاختصاصِ أي : أعني بالدين ملةَ أبيكم . الثالث : أنها منصوبةٌ بما تقدَّمها ، كأنه قال : وَسَّع دينَكم تَوْسِعَةً ملَّةِ أبيكم ، ثم حُذِف المضافُ ، وأُقيم المضافُ إليه مُقامَه . قاله الزمخشري . الرابع : أنه منصوبٌ ب " جَعَلها " مُقَدراً ، قاله ابن عطية . الخامس : أنها منصوبةٌ على حَذْف كافِ الجرِّ أي كملَّةِ إبراهيمَ ، قاله الفراء . وقال أبو البقاء قريباً منه . فإنه قال : " وقيل : تقديرُه : مثلَ ملةِ ؛ لأن المعنى : سَهَّل عليكم الدينَ مثلَ ملةِ أبيكم ، فَحُذِفَ المضافُ وأُقيم المضافُ إليه مُقامه " . وأَظْهَرُ هذه الثالثُ . و " إبراهيم " بدلٌ أو بيانٌ ، أو منصوبٌ بأَعْني .

قوله : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ ﴾ في هذا الضميرِ قولان ، أحدهما : أنه عائدٌ على " إبراهيم " فإنه أقربُ مذكورٍ . إلاَّ أنَّ ابنَ عطيةَ قال : " وفي هذه اللفظةِ يعني قولَه " وفي هذا " ضَعْفُ قَوْلِ مَنْ قال : الضمير لإبراهيم . ولا يَتَوَجَّه إلاَّ بتقديرِ محذوفٍ من الكلامِ مستأنفٍ " انتهى . ومعنى " ضَعْف قولِ مَنْ قال بذلك " أنَّ قوله " وفي هذا " عطفٌ على " مِنْ قبلُ " ، و " هذا " إشارةٌ إلى القرآن المشارَ إليه إنما نزل بعد إبراهيم بمُدَدٍ طِوالٍ ؛ فلذلك ضَعُفَ قولُه . وقوله : " إلاَّ بتقديرِ محذوفٍ " الذي ينبغي أَنْ يقدَّرَ : وسُمِّيْتُم في هذا القرآن المسلمين . وقال أبو البقاء : " قيل الضميرُ لإبراهيم ، فعلى هذا الوجهِ يكونُ قولُه " وفي هذا " أي : وفي هذا

القرآن سببُ تسميتِهم " . والثاني : أنه عائدٌ على اللهِ تعالى ويَدُلُّ له قراءةُ أُبَيّ : " الله سَمّاكم " بصريح الجلالةِ أي : سَمّاكم في الكتبِ السالفةِ وفي هذا القرآنِ الكريمِ أيضاً .

(182/529)

قوله : ﴿ لِيَكُونَ الرسول ﴾ متعلقٌ بسَمّاكم .

وقوله : ﴿ فَنِعْمَ المولى ﴾ أي : اللهُ . وحَسَّن حذفَ المخصوصِ وقوعُ الثاني رأسَ آيةٍ وفاصلةٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 309 . 311 ﴾

(183/529)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77) ﴾

الركوعُ والسجودُ والعبادةُ كُلُّها بمعنى الصلاة ؛ لأنَّ الصلاةَ تشتمل على هذه الأفعال جميعها

، ولكنْ فَرْقَها في الذكر مراعاةً لقلبكَ من الخوف عند الأمر بالصلاة ؛ فقَسَّمها ليكونَ مع كلِّ لفظٍ ومعنى نوعٌ من التخفيف والترفيه ، ولقلوبِ أهل المعرفةِ في كل لفظةٍ راحة جديدة .

ويقال لَوَّنَ عليهم العبادةَ ، وأَمَرَهم بها ، ثم جميعُها عبادةٌ واحدةٌ ، ووَعَدَ عليها من الثوابِ الكثيرِ ما تقْصُرُ عن عِلْمه البصائر .

ويقال عَلِمَ أَنَّ الأحبابَ يُحِبُّون سماعَ كلامِه فَطَوَّلَ عليهم القولَ إلى آخر الآية ؛ ليزدادوا عند سماع ذلك أُنسَاً على أُنسٍ ، ورَوْحَاً على روْح ، ومُعَادُ خطابِ الأحبابِ وهو رَوْحُ رُوحهم وكمالُ راحتهم .

ثم قال بعد هذا : ﴿ وَافْعَلُوا الخَيْرَ ﴾ فأدخل فيه جميعَ أنواع القُرَبِ .

وقوله جلّ ذكره : ﴿ وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ .

﴿ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ : حق الجهاد ما وافق الأمر في القَدْرِ والوقتِ والنوع ، فإذا حَصَلَتْ في شيءٍ منه مخالفةٌ فليس حَقَّ جهاده .

ويقال المجاهدة على أقسام : مجاهدةٌ بالنَّفْسِ ، ومجاهدةٌ بالقلبِ ، ومجاهدةٌ بالمال .

فالمجاهدةُ بالنفس ألا يَدَّخِرَ العبدُ ميسوراً إلا بَذَلَه في الطاعة بتحمل المشاق ، ولا يطلب الرخص والإرفاق . والمجاهدةُ بالقلب صَوْنُه عن الخواطرِ الرديئةِ مثل الغفلة ، والعزمُ على المخالفات ، وتذكرُ ما سَلَفَ أيام الفترة والبطالات . والمجاهدة بالمال بالبذل والسخاء ثم بالجود والإيثار .

ويقال حق الجهاد الأخذ بالأشق ، وتقديم الأشق على الأسهل – وإنْ كان في الأَخَفِّ أيضاً حق .

ويقال حق الجهاد ألا يَفْتُرَ العبدُ عن مجاهدةِ النَّفْس لحظةً ، قال قائلُهم :

(184/529)

يا رَبِّ إنَّ جهادي غيرُ مُنْقَطِعٍ . . . فكلُّ أرضٍ لي ثَغْرُ طرسوس

قوله جلّ ذكره : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ .

يحتمل أن يقول من حق اجتبائه إياكم أَنْ تُعَظِّمُوا أَمْرَ مولاكم .

ويحتمل أن يقال هو الذي اجتباكم ، ولولا أنه اجتباكم لَمَا جَاهَدْتُم ، فلاجتبائه إياك وَفَّقَكَ حتى جاهدتَ .

ويقال عَلَم ما كنت تفعله قبل أَنْ خَلَقَكَ ولم يمنعه ذلك مِنْ أَنْ يَجْتَبِيكَ ، وكذلك إنْ رأى ما فَعَلْتَ فلا يمنعه ذلك أَنْ يتجاوزَ عنك ولا يعاقبك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ .

الشرع مبناه على السهولة ، والذي به تصل إلى رضوانه وتستوجب جزيلَ فضله وإحسانه ، وتتخلَّص به من أليم عقابه وامتحانه – يسيرٌ من الأمر لا يستغرق كُنْه إمكانك ؛ بمعنى أَنَّك

إن أَرَدْتَ فِعْلَه لَقَدَرْتَ عليه ، وإنْ لم توصَفْ في الحال بأَنَّك مستطيعٌ ما ليس بموجودٍ فيك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

أي اتَّبعوا والزَمُوا مِلَّةَ أبيكم إبراهيم عليه السلام في البَذْلِ والسخاء والجود والخلة والإحسان .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ اللَّهُ هو الذي اجتباكم ، وهو الذي بالإسلام والعرفان سَمَّاكم المسلمين . وقيل إبراهيم هو الذي سماكم المسلمين بقوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة : 128] قوله : ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ ، نَصَبَ الرسولَ بالشهادة علينا ، وأمره بالشفاعة لأمته ، وإنما يشهد علينا بمقدار ما يُبْقى للشفاعة موضعاً ومحلاً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ .

وتلك الشهادة إنما نؤديها لله ، ومَنْ كانت له شهادة عند أحد – وهو كريم – فلا يجرح شاهده ، بل يسعى بما يعود إلى تزكية شهوده .

(185/529)

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ .

أقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ بحكم الإتمام ، ونعت الاستدامة ، وجميل الاستقامة .

والاعتصامُ بالله التبري من الحول والقوة والنهوض بعبادة الله بالله لله يقال الاعتصام بالله التمسكُ بالكتاب والسنة . ويقال الاعتصامُ بالله حُسْنُ الاستقامة بدوام الاستعانة .

﴿ هُوَ مَوْلَاكُمْ ﴾ : سيدكم وناصركم والذي لا خلف عنه .

﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ نِعْمَ المولى : إخبارُ عن عظمته ، ونعم النصير : إخبارُ عن رحمته .

ويقال إن قال لأيوب : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ [ص : 44] ولسليمان : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ [ص : 30] فلقد قال لنا : ﴿ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ ، ومدحه لنفسه أعزُّ وأجلُّ من مدحه لك .

ويقال : ﴿ نِعْمَ الْمَوْلَى ﴾ : بَدَأَكَ بالمحبة قبل أنْ أحببتَه ، وقبل أن عَرَفْتَه أو طَلَبْتَه أو عَبَدتَه .

﴿ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ : إذا انصرف عنكَ جمع مَنْ لَكَ فلا يدخل القبرَ معك أحدٌ كان ناصِرَك ، ولا عند السؤال أو عند الصراط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 566.563 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ ذلك وَمَنْ عَاقَبَ ﴾

قال مقاتل : وذلك أن مشركي العرب لقوا المسلمين في الشهر الحرام ، فكره المسلمون القتال ، فقاتلهم المشركون فبغوا عليهم ، فنصر الله المسلمين عليهم .

فوقع في أنفس المؤمنين من القتال في الشهر الحرام ، فنزل : ﴿ ذلك وَمَنْ عَاقَبَ ﴾ ؛ يقول : هذا جزاء من عاقب ﴿ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ ؛ وقال بعضهم : ذلك يعني : ما وصفنا من صفة أهل الجنة وأهل النار ، فهو كذلك .

فقد تم الكلام ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ ﴾ ابتداء الكلام بمثل ما عوقب به في الدنيا ؛ وقال الكلبي : الرجل يقتل وله الحميم ، فله أن يقتل به قاتله .

﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ الله ﴾ على من بغى عليه ؛ ويقال : إذا زاد على القتل لينصرنه الله ؛ ويقال : إن الرجل إذا وجب له القصاص ، فله أن يقتل أو يأخذ الدية .

فإن أخذ أكثر من حقه بالقتل وأخذ الدية ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ ، أي ظلم عليه ، يعني :

غضب عليه أولياء المقتول باستيفاء حقه ، فجنوا عليه ؛ لينصرنه الله ، أي له أن يطلب بجنايته ؛ ويقال له : إذا ظلم على ولي المقتول بالاستطالة بالقتل ، أو بأخذ الدية لينصرنه الله بأخذ حقه .

﴿ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ بقتالهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ ذلك ﴾ ، يعني : ذلك القدرة ﴿ ذلك بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ الليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى الليل وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ .

ثم قال : ﴿ ذلك ﴾ ، يعني : هذا الذي ذكر من صفته وقدرته ، ﴿ بِأَنَّ اللهَ ﴾ ؛ يعني : لعلموا أن الله ﴿ هُوَ الحق ﴾ ، وأن عبادته الحق ، ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الباطل ﴾ ؛ ولا يقدرون على شيء .

﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العلى الكبير ﴾ ؛ يعني : هو أعلى وأكبر من أن يعدل به الباطل .

(187/529)

قرأ ابن عامر : ﴿ ثُمَّ قُتِلُواْ ﴾ بالتشديد ، وقرأ الباقون بالتخفيف ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ ﴾ بالياء بلفظ المغايبة ، وقرأ الباقون بالتاء ، وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلاً ﴾ بنصب الميم

، وقرأ الباقون بالضم .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ ، يعني : المطر .

﴿ فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾ ، يعني : تصير الأرض مخضرة بالنبات ؛ ويقال : ذات خضرة .

﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ ﴾ باستخراج النبات ، ﴿ خَبِيرٌ ﴾ ؛ أي عليم به وبمكانه .

ثم قال عز وجل : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ من الخلق .

﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغنى ﴾ عن الخلق وعن عبادتهم ، ﴿ الحميد ﴾ ؛ يعني : المحمود في أفعاله .

قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم ﴾ ، يعني : ذلل لكم ﴿ مَّا فِى الأرض والفلك تَجْرِى ﴾ ، يعني : تسير ﴿ فِى البحر بِأَمْرِهِ ﴾ ، يعني : بإذنه .

وروي عن عبد الرحمن الأعرج أنه قرأ : ﴿ الفلك ﴾ بضم الكاف على معنى الابتداء ، وقراءة العامة بالنصب لوقوع التسخير عليها ، يعني : سخر لكم الفلك ؛ ويقال صار نسباً بمنطلق على أن تعني أن الفلك تجري .

ثم قال : ﴿ وَيُمْسِكُ السماء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض ﴾ ، يعني : لكيلا تقع على الأرض ؛ ويقال : كراهية أن تقع على الأرض ، ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ ، يعني : بأمره يوم القيامة .

﴿ إِنَّ اللهَ بالناس لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، يعني : رحيم مع شركهم ومعصيتهم ، حيث يرزقهم

في الدنيا ولم يعاقبهم في العاجل .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَهُوَ الذى أَحْيَاكُمْ ﴾ ، يعني : خلقكم ولم تكونوا شيئاً ، ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ في الدنيا ، ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ للبعث .

﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ﴾ ، أي كفور لنعمه لا يشكره ولا يطيعه .

(188/529)

قوله عز وجل : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ ، يعني : لكل قوم ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ ، يعني : مذبحاً .

﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ ، يعني : ذابحوه ؛ وفي منسك من الاختلاف ما سبق .

﴿ فَلاَ ينازعنك فِى الأمر ﴾ ، لا يخالفنك في أمر الذبيحة .

نزلت في قوم من خزاعة قالوا : ما ذبح الله ، فهو أحل مما ذبحتم ؛ وقال الزجاج : المعنى فيه ، أي فلا يجادلنك ولا تجادلهم ، والدليل عليه وإن جادلوك ؛ ويقال : فلا ينازعنك في الأمر ، يعني : لا يغلبونك في المنازعة .

﴿ وادع إلى رَبِّكَ ﴾ ، يعني : ادع الخلق إلى معرفة ربك ، وإلى توحيد ربك .

﴿ إِنَّكَ لعلى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، يعني : على دين مستقيم .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِن جادلوك ﴾ ، يعني : إن حاججوك في أمر الذبيحة والتوحيد ، ﴿

فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ؛ يعني : عالماً بأعمالكم فيجازيكم ، وذلك قوله : ﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ ، يقضي بينكم ﴿ يَوْمَ القيامة فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين والذبيحة .

قال عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ يا محمد ، ﴿ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السموات والأرض إِنَّ ذلك فِى كتاب ﴾ ، يعني : إن ذلك العلم مكتوب في اللوح المحفوظ .

﴿ إِنَّ ذلك فِى كتاب ﴾ يعني : إن كتابته .

﴿ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يعني : هين حال حفظه على الله ، أي كتابته على الله يسير .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا ﴾ ، يعني : عذر ولا حجة .

قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ ﴾ بالتخفيف ، والباقون بالتشديد .

﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ، يعني : ليس لهم بذلك حجة من المعقول .

﴿ وَمَا للظالمين مِن نَّصِيرٍ ﴾ ، أي مانع يمنعهم من العذاب .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيِّنَاتٍ ﴾ ، يعني : يعرض عليهم القرآن .

﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر ﴾ ، يعني : الغم والحزن والكراهية .

﴿ يكادون يَسْطُونَ ﴾ ، أي هموا لو قدروا يضربون ويبطشون أشد البطش ﴿ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ ، يعني : يقرؤون عليهم القرآن ؛ وقال القتبي : ﴿ يَسْطُونَ ﴾ أي يتناولونهم بالمكروه من الضرب والشتم ؛ ويقال : ﴿ يَسْطُونَ ﴾ يعني : يفرطون عليهم ، والسطوة العقوبة .

﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّ مّن ذلكم النار ﴾ ، يعني : بأشد وأسوأ من ضربكم وبطشكم ؛ ويقال : إنهم كانوا يعيرون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ببذاذة حالهم ورثاثتها . قال الله تعالى : قل لهم يا محمد : أفأنبئكم بشر من ذلك يعني : مما قلتم للمؤمنين ؟ قالوا : ما هي ؟ قال : النَّارُ .

﴿ وَعَدَهَا الله الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : للكافرين .

قوله : ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ صاروا إليه .

قوله عز وجل : ﴿ المصير يا أَيُّهَا الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ ﴾ يعني : بين ووصف شبه به لآلهتكم ، أي أجيبوا عنه ؛ وقال بعضهم : ليس هاهنا مثل ، وإنما أراد به قطع الشغب لأنهم كانوا يقولون : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرءان والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : 26] ، فقال : يا أيها الناس ضرب مثل ، فاصغوا إليه استماعاً للمثل .

فأوقع في أسماعهم عيب آلهتهم ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ ، ويقال مثلكم مثل من عبد آلهة ، ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً ﴾ ، أي يقدروا على خلق الذباب ؛ ويقال : المثل في الآية لا غير ، وهو قوله : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً ﴾ ، أي لن يقدروا أن يخلقوا ذباباً من الذباب في المثل .

﴿ وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ﴾ ، أي على تخليقه .

ثم ذكر من أمرها ما هو أضعف من خلق الذباب ، فقال : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً ﴾ ، وذلك أنَّهم كانوا يلطخون العسل على فم الأصنام ، فيجيء الذباب فيسلب منها ما لطخوا عليها .

(190/529)

﴿ لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ ، أي لا يقدرون أن يستنقذوا من الذباب ما أخذ منهم .

﴿ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ ، يعني : الذباب والصنم ؛ ويقال : ضعف العابد والمعبود .

قوله عز وجل : ﴿ مَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ، أي ما عظموا الله حق عظمته ، حين أشركوا به غيره ولم يوحدوه ؛ ويقال : ما وصفوه حق صفته ؛ ويقال : ما عرفوه حق معرفته

كما ينبغي .

وقال ابن عباس : نزلت الآية في يهود المدينة ، حين قالوا : خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ثم استلقى فاستراح ووضع إحدى رجليه على الأخرى ، وكذب أعداء الله ، فنزل ﴿ مَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ .

﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، أي قوي في أمره ، ﴿ عَزِيزٌ ﴾ ؛ يعني : منيع في ملكه ، ومعبودهم لا قوة له ولا منفعة ؛ ويقال : إن الله لقوي على عقوبة من جعل له شريكاً ، عزيز للانتقام منهم .

قوله عز وجل : ﴿ اللهُ يَصْطَفِى مِنَ الملائكة رُسُلاً ﴾ ؛ قيل : جبريل ، وإسرافيل ، وميكائيل ، وملك الموت ، والحفظة الذين يكتبون أعمال بني آدم .

﴿ وَمِنَ الناس ﴾ ، يعني : ويختار من الناس مثل ، منهم محمد ، وعيسى ، وموسى ، ونوح عليهم السلام فجعلهم أنبياء ورسلاً إلى خلقه .

﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ ، سميع لمقالتهم ، بصير بمن يتخذه رسولاً ؛ وذلك أن الوليد بن المغيرة قال : أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ فأخبر الله تعالى أنه سميع مقالة من يكفر ، بصير بمن يصلح للرسالة فيختاره ويجعله رسولاً .

ثم قال عز وجل : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ، يعني : من أمر الآخرة وأمر الدنيا .

﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الامور ﴾ ، يعني : عواقب الأمور في الآخرة ؛ ويقال : معناه منه بدأ وإليه يرجع .

(191/529)

قوله عز وجل : ﴿ الامور يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ اركعوا واسجدوا ﴾ ، يعني : صلوا لله تعالى ؛ وقال : بعض الناس يسجد في هذا الموضع ، يذكر ذلك عن عمر وابن عمر ؛ وروي عن ابن عباس أنه قال : السجدة في الحج في الأولى منهما ، وهذا قول أهل العراق ، لأن السجدة سجدة الصلاة ، بدليل أنها مقرونة بالركوع .

معناه : اركعوا واسجدوا في الصلوات المفروضات والتطوع ؛ وروي عن ابن عباس أنه قال : أول ما أسلموا ، كانوا يسجدون بغير ركوع ، فأمرهم الله تعالى بأن يركعوا ويسجدوا .

ثم قال : ﴿ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ﴾ ، أي وحدوه وأطيعوه ، ﴿ وافعلوا الخير ﴾ ؛ أي أكثروا من الطاعات والخيرات ما استطعتم ، وبادروا إليها ؛ ويقال : التسبيحات .

﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، يعني : تنجون من عذاب الله تعالى .

قوله عز وجل : ﴿ وجاهدوا فِى الله حَقَّ جهاده ﴾ ، يعني : اعملوا لله عز وجل حق عمله ؛ ويقال : جاهدوا في طاعة الله عز وجل وطلب مرضاته ؛ وقال الحسن : ﴿ حَقَّ

جهاده ﴾ أن تؤدي جميع ما أمرك الله عز وجل به ، وتجتنب جميع ما نهاك الله عنه ، وأن تترك رغبة الدنيا لرهبة الآخرة .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً سأله ، فقال : أي الجهاد أفضل ؟ فقال : كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ السُّلْطَانِ .

ثم قال : ﴿ هُوَ اجتباكم ﴾ ، يعني : اختاركم واصطفاكم .

(192/529)

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ ، يعني : في الإسلام من ضيق ، ولكن جعله واسعاً ولم يكلفكم مجهود الطاقة ، وإنما كلفكم دون ما تطيقون ؛ ويقال : وضع عنكم إصركم والأغلال التي كانت عليكم ؛ ويقال : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ وهو ما رخص في الإفطار في السفر ، والصلاة قاعداً عند العلة ؛ وقال قتادة : أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم يعطها إلا نبي ، كان يقال للنبي صلى الله عليه وسلم : اذهب فليس عليك من حرج ، وقال لهذه الأمة ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ ؛ وكان يقال للنبي صلى الله عليه وسلم : أنت شهيد على قومك ، وقال لهذه الأمة : ﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ ؛ وكان يقال للنبي صلى الله عليه وسلم : سل تعط ، وقال لهذه الأمة : ﴿

وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخرين ﴾ [غافر : 60] .

ثم قال : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم ﴾ ، قال الزجاج : إنما صار منصوباً ، لأن معناه اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم .

قال : وجائز أن يكون وافعلوا الخير فعل أبيكم إبراهيم ؛ ويقال : معناه ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ ولكن جعل لكم ملة سمحة سهلة كملة أبيكم إبراهيم .

﴿ هُوَ سماكم المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ ، يعني : الله تعالى سماكم المسلمين ؛ ويقال : إبراهيم سماكم ، أي من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ؛ ويقال : إبراهيم سماكم المسلمين يا أمة محمد ؛ والطريق الأول أصح ، لأنه قال : من قبل هذا القرآن .

﴿ وَفِى هذا ﴾ ، يعني : القرآن ، الله سماكم المسلمين في سائر الكتب من قبل هذا القرآن .

(193/529)

وفي هذا القرآن ، ﴿ لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم على أمته بأنه بلغهم الرسالة بالتصديق لهم ﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ ؛ يعني

: على سائر الأمم أن الرسل قد بلغتهم ؛ وقال مقاتل : ﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ ، يعني : للناس ، يعني : للرسل على قومهم ، كقوله : وما ذبح على النصب أي المنصب .

ثم قال : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ﴾ ، يعني : أقروا بها وأتموها ، ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ ؛ يعني : أقروا بها وأدوها .

ثم قال : ﴿ واعتصموا بالله ﴾ ، يعني : وثقوا بالله إذا فعلتم ذلك ، ويقال : معناه تمسكوا بتوحيد الله ، وهو قول لا إله إلا الله .

﴿ هُوَ مولاكم ﴾ ، أي وليكم وناصركم وحافظكم .

﴿ فَنِعْمَ المولى ﴾ ، يعني : نعم الحافظ ، ﴿ وَنِعْمَ النصير ﴾ ؛ يعني : نعم المانع لكم برحمته ؛ والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 467.472 ﴾

(194/529)

وقال الثعلبي :

﴿ ذلك وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ الله إِنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾

نزلت في قوم من المشركين لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرّم ، فكره المسلمون قتال

المشركين وسألوهم أن يكفّوا عن القتال من أجل الأشهر الحرم فأبى المشركون وقاتلوهم فذلك بغيهم عليه ، وثبت المسلمون لهم فنُصروا عليهم ، فأنزل الله سبحانه هذه الآيات ، والعقاب الأول بمعنى الجزاء .

﴿ ذلك ﴾ يعني هذا الذي أنصر المظلوم بأنّي القادر على ما أشاء ، فمن قدرته أنّه ﴿ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل وَأَنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ ﴾ بالياء بصري كوفي غير أبي بكر ، الباقون : بالتاء ﴿ مِن دُونِهِ هُوَ الباطل وَأَنَّ الله هُوَ العلي ﴾ فلا شيء أعلى منه ولأنّه تعالى عن الأشباه والأشكال ﴿ الكبير ﴾ العظيم الذي كلّ شيء دونه فلا شيء أعظم منه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾ بالنبات ، رفع فتصبح لأن ظاهر الآية استفهام ومعناه الخبر ، مجازها : اعلم يا محمّد أن الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرّة ، وإن شئت قلت : قد رأيت أنَّ الله أنزل من السماء ماءً ، كقول الشاعر :

ألم تسألِ الربع القديم فينطق . . . وهل تخبرنك اليوم بيداء سملق

معناه : قد سألته فنطق .

﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَّهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغني الحميد * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأرض والفلك تَجْرِي فِي البحر بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض ﴾ يعني لكيلا تسقط على الأرض ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَهُوَ الذي أَحْيَاكُمْ ﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم وفناء أعماركم ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ للثواب والعقاب ﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ﴾ لجحود لما ظهر من الآيات والدلالات .

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً ﴾ مألفاً يألفونه وموضعاً يعتادونه لعبادة الله ، وأصل المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد لعمل خير أو شرّ يقال : إن لفلان منسكاً أي مكاناً يغشاه ويألفه للعبادة ، ومنه مناسك الحج لتردّد الناس إلى الأماكن التي تعمل فيها أعمال الحج والعمرة . وقال ابن عباس : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً ﴾ أي عيداً . وقال مجاهد وقتادة : موضع قربان يذبحون فيه ، غيرهم : أراد جميع العبادات .

﴿ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأمر ﴾ أي في أمر الذبح ، نزلت في بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن الخنيس قالوا لأصحاب رسول الله (عليه السلام) : ما لكم تأكلون ما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون ما قتله الله ؟" .

﴿ وادع إلى ربّك ﴾ دين ربّك ﴿ إنّك لعلى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ * وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون * الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ فتعرفون حينئذ المحقّ من المبطل والاختلاف ذهاب كلّ واحد من الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر ، وهذا أدب حسنٌ علّم الله سبحانه فيمن جادل على سبيل التعنّت والمراء كفعل السفهاء أن لا يجادل ولا يناظر ، ويدفع بهذا القول الذي علّمه الله سبحانه لنبيّه (عليه السلام) .

﴿ ألم تعلم أنّ الله يعلم ما في السماء والأرض إنّ ذلك ﴾ كلّه ﴿ في كتاب ﴾ يعني اللوح المحفوظ ﴿ إنّ ذلك ﴾ يعني علمه تعالى بجميع ذلك ﴿ على الله يسيرٌ * ويعبدون من دون الله ما لم ينزّل به سلطانا وما ليس لهم به علمٌ وما للظّالمين ﴾ الكافرين ﴿ من نصيرٍ ﴾ يمنعهم من عذاب الله .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ﴾ بيّن ذلك في وجوههم بالكراهة والعبوس .

﴿ يكادون يسطون ﴾ يقعون ويبطشون ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ وأصل السطو : القهر .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهم ﴿ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذلكم ﴾ أي بشرّ لكم وأكره إليكم من هذا القرآن الذي تسمعون ﴿ النار ﴾ أي هي النار ﴿ وَعَدَهَا الله الذين كَفَرُواْ وَبِئْسَ المصير ﴾ .

﴿ يا أيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ معنى ضرب : جعل ، كقولهم : ضرب السلطان البعث على الناس ، وضرب الجزية على أهل الذمّة أي جعل ذلك عليهم ، ومنه قوله ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة ﴾ [البقرة : 61] والمثل حالة ثابتة تشبه بالأُولى في الذكر الذي صار كالعلم ، وأصله الشبه ، ومعنى الآية : جعل لي المشركون الأصنام شركائي فعبدوها معي .

(197/529)

﴿ فاستمعوا لَهُ ﴾ حالها وصفتها التي بيّنت وشبّهتها بها ، ثم بيّن ذلك فقال عزَّ من قائل ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ قراءة العامة بالتاء ، وروى زيد عن يعقوب يدعون بالياء ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً ﴾ في صغره وقلّته لأنّها لا تقدر على ذلك ﴿ وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ﴾ لخلقه ، والذباب واحد وجمعها القليل أذبنة والكثير ذبّان ، مثل غراب وأغربة وغربان ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ﴾ يعني الأصنام ، أخبر عنها بفعل ما يعقل ، وقد مضت هذه المسألة ، يقول :

وإن يسلبهم ﴿ الذباب شَيْئاً ﴾ مما عليهم ﴿ لاَّ ﴾ يقدرون أن ﴿ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ .

قال ابن عباس : الطالب الذباب والمطلوب الصنم ، وذلك أن الكفّار كانوا يلطّخون أصنامهم بالعسل في كلّ سنة ثم يغلقون عليها أبواب البيوت فيدخل الذبّان في الكوى فيأكل ذلك العسل وينقيها منه فإذا رأوا ذلك قالوا : أكلت آلهتنا العسل .

الضحّاك : يعني العابد والمعبود .

ابن زيد وابن كيسان : كانوا يحلّون الأصنام باليواقيت واللآلي وأنواع الجواهر ويطيّبونها بألوان الطيب ، فربما يسقط واحد منها أو يأخذها طائر أو ذباب فلا تقدر الآلهة على استردادها ، فالطالب على هذا التأويل الصنم والمطلوب الذباب والطائر .

﴿ مَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عظّموا الله حقّ تعظيمه ، ولا عرفوه حقّ معرفته ولا وصفوه حقّ صفته إذ أشركوا به مالا يمتنع من الذباب ولا ينتصف به .

﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * اللهُ يَصْطَفِي ﴾ يختار ﴿ مِنَ الملائكة رُسُلاً ﴾ كجبرئيل وميكائيل وغيرهما ﴿ وَمِنَ الناس ﴾ أيضاً رسلاً مثل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء صلوات الله عليهم ، يقال : نزلت هذه الآية لمّا قال المشركون ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ [القمر : 25] فأخبر أن الاختيار إليه ، يختار من يشاء من خلقه .

﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لقولهم ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بمن يختاره لرسالته .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني ما كان بين أيدي ملائكته ورسله قبل أن يخلقهم .

﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم .

وقال الحسن : ما بين أيديهم ما عملوه ، وما خلفهم ما هم عاملون ممّا لم يعملوه بعد .

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اركعوا واسجدوا وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وافعلوا الخير لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

أخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف قال : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدّثنا محمد بن يحيى قال : وفيما قرأت على عبد الله بن نافع ، وحدّثني مطرف بن عبد الله عن مالك عن نافع أنّ رجلاً من أهل مصر أخبر عبد الله بن عمر أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين ثمَّ قال : انَّ هذه السورة فضلّت بسجدتين .

وبإسناده عن مالك عن عبد الله بن دينار أنّه قال : رأيت عبد الله بن عمر سجد في الحج سجدتين .

وأخبرنا أبو بكر الجوزقي قال : أخبرنا أبو العباس الدعولي قال : حدّثنا ابن أبي خيثمة قال : حدّثنا أبو سلمة الخزاعي منصور بن سلمة قال : حدّثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد

عن صفوان بن مهران أن أبا موسى قرأ على منبر البصرة سورة الحج ، فنزل فسجد فيها سجدتين .

وحدّثنا أبو محمد المخلّدي قال : أخبرنا عبد الله بن محمد بن مسلم قال : حدّثنا محمد ابن مسلم بن دارة قال : حدّثنا محمد بن موسى بن أعين قال : قرأت على أبي عن عمرو بن الحرث عن ابن لهيعة ان شريح بن عاها حدّثه عن عقبة بن عامر قال : قلت : يا رسول الله في سورة الحج سجدتان ؟ قال : نعم إن لم تسجدهما فلا تقرأهما .

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ يعني وجاهدوا في سبيل الله أعداء الله حق جهاده ، وهو استفراغ الطاقة فيه ، قاله ابن عباس ، وعنه أيضاً : لا تخافوا في الله لومة لائم وذلك حق الجهاد .

(199/529)

وقال الضحاك ومقاتل : يعني اعملوا لله بالحقّ حقّ عمله ، واعبدوه حقّ عبادته .

عبد الله بن المبارك : هو مجاهدة النفس والهوى وذلك حقّ الجهاد ، وهو الجهاد الأكبر على ما روي في الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رجع من بعض غزواته : " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " .

﴿ هُوَاجتباكم ﴾ اختاركم لدينه ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ ضيق فلا يبتلي المؤمن بشيء من الذنوب إلاّ جعل له منه مخرجاً بعضها بالتوبة وبعضها بالقصاص وبعضها برد المظالم وبعضها بأنواع الكفّارات ، فليس في دين الإسلام ما لا يجد العبد سبيلاً إلى الخلاص من العقاب فيه ، ولا ذنب يذنبه المؤمن إلاّ وله منه في دين الإسلام مخرج ، وهذا معنى رواية علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه حين سأله عبد الملك بن مروان عن هذه الآية فقال : جعل الله الكفارات مخرجاً من ذلك ، سمعت ابن عباس يقول ذلك .

وقال بعضهم : معناه وما جعل عليكم في الدين من ضيق في أوقات فروضكم مثل هلال شهر رمضان والفطر والأضحى ووقت الحج إذا التبست عليكم وشكّ الناس فيها ، ولكنّه وسّع ذلك عليكم حتى تتيقّنوا محلها ﴿ مِّلَّةَ ﴾ أبيكم أي كملّة ﴿ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ نصب بنزع حرف الصفة ، عن الفرّاء ، غيره : نصب على الاغراء أي الزموا واتّبعوا ملّة أبيكم إبراهيم ، وإنّما أمركم باتباع ملّة إبراهيم لأنّها داخلة في ملّة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأمّا وجه قوله سبحانه "ملّة أبيكم" وليس جميعهم يرجع إلى ولادة إبراهيم فإنّ معناه : إنّ حرمة إبراهيم على المسلمين كحرمة الوالد ، كما قال سبحانه ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : 6] وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنّما أنا لكم مثل الوالد " ، وهذا معنى قول الحسن البصري (رحمه الله) .

﴿ هُوَ ﴾ يعني الله سبحانه وتعالى ﴿ سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ يعني من قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة ﴿ وَفِي هذا ﴾ الكتاب هذا قول أكثر المفسرين .

وقال ابن زيد : هو راجع إلى إبراهيم (عليه السلام) يعني أنّ إبراهيم سمّاكم المسلمين من قبل أي من قبل هذا الوقت في أيام إبراهيم ﴿ وَفِى هذا ﴾ الوقت ، قال : وهو قول إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة : 128] والقول الأول أولى بالصواب .

﴿ لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ أن قد بلّغكم ﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس ﴾ أن رسلهم قد بلّغتهم ﴿ فَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة واعتصموا بالله ﴾ وثقوا بالله وتوكّلوا عليه .

وقال الحسن : تمسّكوا بدين الله الذي لطف به لعباده .

﴿ هُوَ مَوْلاَكُمْ ﴾ وليّكم وناصركم ومتولي أمركم ﴿ فَنِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 31.36 ﴾

وقال الزمخشري :

﴿ ذِلكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60) ﴾

تسمية الابتداء بالجزاء لملابسته له من حيث أنه سبب وذاك مسبب عنه كما يحملون النظير على النظير والنقيض على النقيض للملابسة . فإن قلت : كيف طابق ذكر العفوّ الغفور هذا الموضع ؟ قلت : المعاقب مبعوث من جهة اللّه عزّ وجلّ على الإخلال بالعقاب ، والعفو عن الجاني – على طريق التنزيه لا التحريم – ومندوب إليه ، ومستوجب عند اللّه المدح إن آثر ما ندب إليه وملك سبيل التنزيه ، فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب ، ولم ينظر في قوله تعالى فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى ، وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ : فإنّ اللّه لعفو غفور ، أى : لا يلومه على ترك ما بعثه عليه ، وهو ضامن لنصره في كرته الثانية من إخلاله بالعفو وانتقامه من الباغي عليه . ويجوز أن يضمن له النصر على الباغي ، ويعرّض مع ذلك بما كان أولى به من العفو ، ويلوّح به بذكر هاتين الصفتين . أو دلّ بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة . لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضدّه .

[سورة الحج (22) : آية 61]

ذِلكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61)

ذِلكَ أى ذلك النصر بسبب أنه قادر . ومن آيات قدرته البالغة أنه يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى عليه ما يجرى فيهما على أيدى عباده من الخير والشر والبغي والإنصاف ، وأنه سَمِيعٌ لما يقولون بَصِيرٌ بما يفعلون . فإن قلت : ما معنى إيلاج أحد الملوين في الآخر ؟ قلت : تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذاك بغيبوبة الشمس . وضياء ذاك في مكان ظلمة هذا بطلوعها ، كما يضيء السرب «1»

---

(1) . قوله «كما يضيء السرب» السرب - بالفتح - : الطريق . والسرب - بالتحريك - : بيت في الأرض .

أفاده الصحاح . (ع)

(202/529)

بالسراج ويظلم بفقده . وقيل : هو زيادته في أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات .

[سورة الحج (22) : آية 62]

ذِلكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62)

وقرئ يَدْعُونَ بالتاء والياء . وقرأ اليماني . وأن ما يدعون ، بلفظ المبنى للمفعول ، والواو راجعة إلى «ما» لأنه في معنى الآلهة ، أى : ذلك الوصف بخلق الليل والنهار والإحاطة بما يجرى فيهما وإدراك كل قول وفعل ، بسبب أنه اللّه الحق الثابت إلهيته ، وأن كل ما يدعى إلها دونه باطل الدعوة ، وأنه لا شيء أعلى منه شأنا وأكبر سلطانا .

[سورة الحج (22) : الآيات 63 إلى 64]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64)

قرئ مُخْضَرَّةً أى ذات خضر ، على مفعلة ، كمقبلة ومسبعة . فإن قلت : هلا قيل : فأصبحت ؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع ؟ قلت : لنكتة فيه ، وهي إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان ، كما تقول : أنعم علىّ فلان عام كذا ، فأروح وأغدو شاكرا له . ولو قلت : فرحت وغدوت ، لم يقع ذلك الموقع . فإن قلت : فما له رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام ؟ قلت : لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض ، لأنّ معناه إثبات الاخضرار ، فينقلب بالنصب إلى نفى الاخضرار ، مثاله أن تقول لصاحبك : ألم تر أنى أنعمت عليك فتشكر : إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك تفريطه فيه ، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر . وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله لَطِيفٌ واصل علمه أو فضله إلى كل شيء خَبِيرٌ بمصالح الخلق ومنافعهم .

[سورة الحج (22) : الآيات 65 إلى 66]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (66)

ما فِي الْأَرْضِ من البهائم مذللة للركوب في البر، ومن المراكب جارية في البحر، وغير

(203/529)

ذلك من سائر المسخرات. وقرئ وَالْفُلْكَ بالرفع على الابتداء أَنْ تَقَعَ كراهة أن تقع إِلَّا بمشيئته أَحْياكُمْ بعد أن كنتم جمادا ترابا، ونطفة، وعلقة، ومضغة لَكَفُورٌ لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم.

[سورة الحج (22) : آية 67]

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (67)

هو نهى لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، أى: لا تلتفت إلى قولهم ولا تمكنهم من أن ينازعوك. أو هو زجر لهم عن التعرض لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالمنازعة في الدين

وهم جهال لا علم عندهم وهم كفار خزاعة. روى أن بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهما قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله اللّه! يعنون الميتة. وقال الزجاج: هو نهى له صلى اللّه عليه وسلم عن منازعتهم، كما تقول: لا يضار بنك فلان، أى:

لا تضاربه. وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون إلا بين اثنين فِي الْأَمْرِ في أمر الدين. وقيل: في أمر النسائك، وقرئ: فلا ينزعنك، أى اثبت في دينك ثباتا لا يطمعون أن يجذبوك ليزيلوك عنه. والمراد: زيادة التثبيت للنبي صلى اللّه عليه وسلم بما يهيج حميته ويلهب غضبه للّه ولدينه.

ومنه قوله وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ، وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ. وهيهات أن ترتع همة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حول ذلك الحمى، ولكنه وارد على ما قلت لك من إرادة التهييج والإلهاب. وقال الزجاج: هو من نازعته فنزعته أنزعه، أى: غلبته، أى: لا يغلبنك في المنازعة. فإن قلت: لم جاءت نظيرة هذه الآية «1» معطوفة بالواو وقد نزعت عن هذه؟ قلت: لأنّ تلك وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الاى الواردة في أمر النسائك، فعطفت على أخواتها. وأما هذه فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفا.

[سورة الحج (22): آية 68]

وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (68)

أى : وإن أبوا للجاجهم إلا المجادلة بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع ، فادفعهم بأن اللّه أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به . وهذا وعيد وإنذار ، ولكن برفق ولين .

[سورة الحج (22) : الآيات 69 إلى 70]

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70)

---

(1) . قوله «نظيرة هذه الآية» هي قوله تعالى وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ الخ . (ع)

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ خطاب من اللّه للمؤمنين والكافرين ، أى : يفصل بينكم بالثواب والعقاب ومسلاة للنبي صلى اللّه عليه وسلم مما كان يلقى منهم ، وكيف يخفى عليه ما يعملون ، ومعلوم عند العلماء باللّه أنه يعلم كل ما يحدث في السماوات والأرض ، وقد كتبه في اللوح قبل حدوثه .

والإحاطة بذلك وإثباته وحفظه عليه يَسِيرٌ لأن العالم الذات لا يتعذر عليه ولا يمتنع تعلق بمعلوم «1» .

[سورة الحج (22) : آية 71]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71)

وَيَعْبُدُونَ ما لم يتمسكوا في صحة عبادته ببرهان سماوي من جهة الوحى والسمع ، ولا ألجأهم إليها علم ضروري ، ولا حملهم عليها دليل عقلى وَما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوّب مذهبهم .

[سورة الحج (22) : آية 72]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72)

الْمُنْكَرَ الفظيع من التجهم والبسور «2» . أو الإنكار ، كالمكرم بمعنى الإكرام . وقرئ يعرف . والمنكر . والسطو : الوثب والبطش . قرئ النَّارُ بالرفع على أنه خبر مبتدإ محذوف ، كأنّ قائلا قال : ما هو ؟ فقيل : النار ، أى : هو النار . وبالنصب على الاختصاص .

وبالجرّ على البدل من بِشَرٍّ مِنْ ذِلِكُمُ من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم. أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلى عليكم وَعَدَهَا اللَّهُ استئناف كلام. ويحتمل أن تكون النَّارُ مبتدأ ووَعَدَهَا خبرا، وأن يكون حالا عنها إذا نصبتها أو جررتها بإضمار «قد».

---

(1). قال محمود: «معناه أن اللّه عالم بالذات لا يتعذر عليه تعلق بمعلوم» قال أحمد: وقد تقدم مثله وأنكرنا عليه تحميله القرآن ما لا يحتمله، فان الأعلم في اللغة: ذو العلم الزائد المفضل على علم غيره، فكيف يفسر بما ينفى صفة العلم البتة؟ هب أن الأدلة العقلية لا وجود لها، واللّه الموفق للصواب.

(2). قوله «التجهم والبسور» كل منهما: كلوح الوجه. أفاده الصحاح. (ع)

[سورة الحج (22): آية 73]

يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73)

فإن قلت: الذي جاء به ليس بمثل، فكيف سماه مثلا؟ قلت: قد سميت الصفة أو القصة

الرائعة الملتقاة بالاستحسان والاستغراب : مثلا ، تشبيها لها ببعض الأمثال المسيرة ، لكونها مستحسنة مستغربة عندهم . قرئ تَدْعُونَ بالتاء والياء ، ويدعون : مبنيا للمفعول لَنْ أخت «لا» في نفى المستقبل ، إلا أن «لن» تنفيه نفيا مؤكدا ، وتأكيده ها هنا الدلالة «1» على أن خلق الذباب منهم مستحيل مناف لأحوالهم ، كأنه قال : محال أن يخلقوا . فإن قلت : ما محل وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ؟ قلت : النصب على الحال ، كأنه قال : مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم جميعا لخلقه وتعاونهم عليه ، وهذا من أبلغ ما أنزله اللّه في تجهيل قريش واستركاك عقولهم ، والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه «2» حيث وصفوا بالإلهية - التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها ، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها - صورا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره ، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا . وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم : أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا . وقوله ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف . ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف ، لأن الذباب حيوان ، وهو جماد ، وهو غالب وذاك مغلوب . وعن ابن عباس : أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورءوسها بالعسل ويغلقون عليها الأبواب ، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله .

[سورة الحج (22) : آية 74]

ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74)

ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ أى ما عرفوه حق معرفته ، حتى لا يسموا باسمه من هو منسلخ عن صفاته بأسرها ، ولا يؤهلوه للعبادة ، ولا يتخذوه شريكا له : إن اللّه قادر غالب ، فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيها به ؟

[سورة الحج (22) : الآيات 75 إلى 76]

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76)

---

(1) . قوله «الدلالة» لعله «للدلالة» كعبارة النسفي ، (ع)

(2) . قوله «إن الشيطان قد خزمهم بخزائمه» في الصحاح ، خزمت البعير بالخزامة ، وهي حلقة من شعر تجعل في وترة أنفه ، يشد فيها الزمام . (ع)

هذا ردّ لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر ، وبيان أن رسل اللّه على ضربين : ملائكة وبشر ، ثم ذكر أنه تعالى درّاك للمدركات ، عالم بأحوال المكلفين ما مضى منها وما غبر ، لا تخفى عليه منهم خافية . وإليه مرجع الأمور كلها ، والذي هو بهذه الصفات ، لا

يسأل عما يفعل ، وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدابيره واختيار رسله .

[سورة الحج (22) : آية 77]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77)

للذكر شأن ليس لغيره من الطاعات . وفي هذه السورة دلالات على ذلك ، فمن ثمة دعا المؤمنين أولا إلى الصلاة التي هي ذكر خالص ، ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج والغزو ، ثم عمّ بالحث على سائر الخيرات . وقيل : كان الناس أوّل ما أسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود ، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود . وقيل : معنى وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ اقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه اللّه . وعن ابن عباس في قوله وَافْعَلُوا الْخَيْرَ صلة الأرحام ومكارم الأخلاق لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح طامعون فيه ، غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم ، وعن عقبة بن عامر رضى اللّه عنه قال : قلت يا رسول اللّه في سورة الحج سجدتان ؟ قال : «نعم ، إن لم تسجدهما فلا تقرأهما «1»» وعن عبد اللّه ابن عمر رضى اللّه عنهما فضلت سورة الحج بسجدتين . وبذلك احتج الشافعي رضى اللّه عنه ، فرأى سجدتين في سورة الحج . وأبو حنيفة وأصحابه رضى اللّه عنهم لا يرون فيها إلا سجدة واحدة ، لأنهم يقولون : قرن السجود بالركوع ، فدل ذلك على أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة .

[سورة الحج (22) : آية 78]

وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)

---

(1) . لم أره بصيغة المواجهة . وإنما أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد والدارقطني والطبراني والحاكم . كلهم من رواية ابن لهيعة عن فرج بن ماهان عن عقبة بلفظ «و من لم يسجدهما فلا يقرأهما» قال الترمذي : إسناده ليس بالقوى .

(207/529)

وَجاهِدُوا أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رجع من بعض غزواته فقال «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر «1»» فِي اللَّهِ أى في ذات الله ومن أجله . يقال : هو حق عالم ، وجدّ عالم ، أى : عالم حقا وجدا .

ومنه حَقَّ جِهادِهِ . فإن قلت : ما وجه هذه الإضافة ، وكان القياس : حق الجهاد فيه . أو حق جهادكم فيه ، كما قال وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ ؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابسة

واختصاص ، فلما كان الجهاد مختصا باللّه من حيث أنه مفعول لوجهه ومن أجله ، صحت إضافته إليه . ويجوز أن يتسع في الظرف كقوله :

ويوما شهدناه سليما وعامرا «2»

اجْتَباكُمْ اختاركم لدينه ولنصرته وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ فتح باب التوبة للمجرمين ، وفسح بأنواع الرخص والكفارات والديات والأروش . ونحوه قوله تعالى يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وأمّة محمد صلى اللّه عليه وسلم هي الأمة المرحومة الموسومة بذلك في الكتب المتقدمة .

نصب الملة بمضمون ما تقدّمها . كأنه قيل : وسع دينكم توسعة ملة أبيكم ، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . أو على الاختصاص ، أى : أعنى بالدين ملة أبيكم كقولك : الحمد للّه الحميد . فإن قلت : لم يكن إِبْراهِيمَ أبا للأمّة كلها . قلت : هو أبو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فكان أبا لأمته ، لأنّ أمة الرسول في حكم أولاده هُوَ يرجع إلى اللّه تعالى : وقيل :

إلى إبراهيم . ويشهد للقول الأوّل قراءة أبىّ بن كعب : اللّه سماكم مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا أى من قبل القرآن في سائر الكتب وفي القرآن ، أى : فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ أنه قد بلغكم وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ بأنّ الرسل قد بلغتهم . وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة ، فاعبدوه وثقوا به ولا تطلبوا النصرة والولاية إلا

منه ، فهو خير مولى وناصر .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الحج أعطى من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي «3»» . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 3 صـ 167.173 ﴾

---

(1) . هكذا ذكره الثعلبي بغير سند ، وأخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر ، قال «قدم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قوم غزاة . فقال : قدمتم بخير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قيل : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : مجاهدة العبد هواه» قال : فيه ضعف ، قلت : هو من رواية عيسى بن إبراهيم عن يحيى بن يعلى عن ليث ابن أبى سليم ، والثلاثة ضعفاء ، وأورده النسائي في الكنى من قول إبراهيم بن أبى عبلة ، أحد التابعين من أهل الشام .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 408 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(3) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبى بن كعب بالإسناد المذكور في سورة آل عمران .

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ ﴿ ذلك ﴾

أي الأمر ذلك الذي قصصنا عليك ﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ يعني جازى الظالم بمثل ظلمه وقيل يعني قاتل المشركين كما قاتلوه ﴿ ثم بغى عليه ﴾ يعني ظلم بإخراجه من منزله يعني ما أتاه المشركون من البغي على المسلمين حتى أحوجوهم إلى مفارقة أوطانهم نزلت في قوم من المشركين أتوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا في المحرم فكره المسلمون قتالهم وسألوهم أن يكفوا عن القتال من أجل الشهر الحرام فأبى المشركون وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون فنصرهم الله عليهم فذلك قوله تعالى ﴿ لينصرنه الله إن الله لعفو ﴾ يعني عن مساوي المؤمنين ﴿ غفور ﴾ يعني لذنوبهم ﴿ ذلك ﴾ النصر ﴿ بأن الله ﴾ القادر على ما يشاء فمن قدرته أنه ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ في معنى هذا الإيلاج قولان ، أحدهما : أنه يجعل ظلمه الليل ما كان ضياء النهار وذلك بغيبوبة الشمس ويجعل ضياء النهار مكان ظلمة الليل بطلوع الشمس .

القول الثاني : هو ما يزيد في أحدهما وينقص من الآخر من الساعات وذلك لا يقدر عليه إلا الله تعالى ﴿ وأن الله سميع بصير ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي ذو الحق في قوله وفعله ، ودينه حق وعبادته حق ﴿ وأن ما يدعون ﴾ يعني المشركين ﴿ من دونه هو الباطل ﴾

يعني الأصنام التي ليس عندها ضر ولا نفع ﴿ وأن الله هو العلي ﴾ أي العالي على كل شيء ﴿ الكبير ﴾ أي العظيم في قدرته وسلطانه .

(209/529)

قوله عزّ وجلّ ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ﴾ يعني بالنبات ﴿ إن الله لطيف ﴾ يعني باستخراج النبات من الأرض رزقاً للعباد والحيوان ﴿ خبير ﴾ يعني بما في قلوب العباد إذا تأخر المطر عنهم ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ يعني عبيداً وملكاً ﴿ وإن الله لهو الغني الحميد ﴾ يعني الغني عن عباده الحميد في أفعاله ﴿ ألم تر أنّ الله سخر لكم ما في الأرض ﴾ يعني الدواب التي تركب في البر ﴿ والفلك ﴾ أي وسخر لكم السفن ﴿ تجري في البحر بأمره ﴾ يعني سخر لها الماء والرياح ولولا ذلك ما جرت ﴿ ويمسك السماء أن تقع ﴾ أي لكيلا تسقط ﴿ على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ يعني أنه أنعم بهذه النعم الجامعة بمنافع الدنيا والدين وقد بلغ الغاية في الإنعام والإحسان فهو إذن رؤوف رحيم بكم ﴿ وهو الذي أحياكم ﴾ أي أنشأكم ولم تكونوا شيئاً ﴿ ثم يميتكم ﴾ أي عند انقضاء آجالكم ﴿ ثم يحييكم ﴾ أي يوم البعث للثواب والعقاب ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ أي لجحود لنعم الله عزّ وجلّ .

قوله تعالى ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً ﴾ قال ابن عباس شريعة ﴿ هم ناسكوه ﴾ هم عاملون بها وعنه أنه قال عيداً وقيل موضع قربان يذبحون فيه وقيل موضع عبادة ﴿ فلا ينازعنك في الأمر ﴾ أي في أمر الذبائح نزلت في بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لأصحاب النبيّ (صلى الله عليه وسلم) : ما لكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون مما قتله الله ؟ وقيل معناه لا تنازعهم أنت .

قوله تعالى ﴿ وادع إلى ربك ﴾ أي إلى الإيمان به وإلى دينه ﴿ إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ أي على دين واضح قويم ﴿ وإن جادلوك ﴾ يعني خاصموك في أمر الذبح وغيره ﴿ فقل الله أعلم بما تعملون ﴾ أي من التكذيب ﴿ الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ يعني فتعلمون حينئذٍ الحق من الباطل وقيل حكم يوم القيامة يتردّد بين جنة وثواب لمن قبل وبين نار وعقاب لمن رد وأبى .

(210/529)

قوله عزّ وجلّ ﴿ ألم تعلم ﴾ الخطاب للنبيّ (صلى الله عليه وسلم) ويدخل فيه الأمة ﴿ أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب ﴾ يعني في اللوح المحفوظ ﴿ إن ذلك ﴾ يعني علمه بجميعه ﴿ على الله يسير ﴾ أي هين وقيل : إن كتب الحوادث مع أنها من

الغيب على الله يسير ﴿ ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ يعني حجة ظاهرة من دليل سمعي ﴿ وما ليس لهم به علم ﴾ يعني أنهم فعلوا ما فعلوه عن جهل لا عن علم ولا دليل عقلي ﴿ وما للظالمين ﴾ يعني المشركين ﴿ من نصير ﴾ يعني مانع يمنعهم من العذاب .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ يعني القرآن وصفه بذلك لأنه فيه بيان الأحكام والفصل بين الحلال والحرام ﴿ تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ﴾ يعني الإنكار والكراهية يتبين ذلك في وجوههم ﴿ يكادون يسطون ﴾ يعني يقعون ويبسطون إليكم أيديهم بالسوء وقيل يبطشوه ﴿ بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ أي بمحمد وأصحابه من شدة الغيظ ﴿ قل ﴾ يعني قل لهم يا محمد ﴿ أفأنبئكم بشر من ذلكم ﴾ يعني بشر لكم وأكره إليكم من هذا القرآن الذي تستمعون ﴿ النار ﴾ يعني هي النار ﴿ وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾ قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل ﴾ فإن قلت الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلاً .

قلت لما كان المثل في الأكثر نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل كلام كان كذلك مثلاً .

(211/529)

وقال في الكشاف قد سميت الصفة والقصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مسيرة عندهم مستحسنة مستغربة ﴿ فاستمعوا له ﴾ يعني تدبروه حق تدبره فإنّ الاستماع بلا تدبر وتعقل لا ينفع والمعنى جعل لي شبيه وشبه به الأوثان أي جعل المشركون الأصنام شركائي يعبدونها ثم بين حالها وصفتها فقال تعالى ﴿ إن الذين تدعون من دون الله ﴾ يعني الأصنام ﴿ لن يخلقوا ذباباً ﴾ يعني واحداً في صغره وضعفه وقلته لأنها لا تقدر على ذلك ﴿ ولو اجتمعوا له ﴾ يعني لخلقه ، والمعنى أن هذه الأصنام لو اجتمعت لم يقدروا على خلق ذبابة على ضعفها وصغرها فكيف يليق بالعاقل جعلها معبوداً له ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴾ قال ابن عباس : كانوا يطلون الأصنام بالزعفران فإذا جف جاء الذباب فاستلبه منه .

وقيل : كانوا يضعون الطعام بين أيدي الأصنام فيقع الذباب عليه ويأكل منه ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ قال ابن عباس الطالب الذباب يطلب ما يسلب من الطيب الذي على الصنم والمطلوب هو الصنم وقيل الطالب الصنم والمطلوب الذباب أي لو طلب الصنم أن يخلق الذباب لعجز عنه وقيل الطالب عابد الصنم والمطلوب هو الصنم ﴿ ما قدروا الله حق قدره ﴾ يعني ما عظموه حق عظمته وما عرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق صفته حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾

يعني غالب لا يقهر .

قوله عزّ وجلّ ﴿ الله يصطفي من الملائكة ﴾ يعني يختار من الملائكة ﴿ رسلاً ﴾ جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وغيرهم ﴿ ومن الناس ﴾ يعني يختار الله من الناس رسلاً مثل إبراهيم وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء والرسل صلّى الله عليهم أجمعين .

نزلت حين قال المشركون أأنزل عليه الذكر من بيننا فأخبر الله تعالى أن الاختيار إليه يختار من يشاء من عباده لرسالته ﴿ إن الله سميع ﴾ يعني بأقوالهم ﴿ بصير ﴾ يعني لأفعالهم لا تخفى عليه خافية .

(212/529)

قوله تعالى ﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ قال ابن عباس : ما قدموا ﴿ وما خلفهم ﴾ يعني ما خلفوا وقيل يعلم ما عملوا ما هم عاملون وقيل يعلم ما بين أيدي ملائكته ورسله قبل أن يخلقهم ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ يعني في الآخرة .

قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ يعني صلوا لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود ﴿ واعبدوا ربكم ﴾ يعني وحدوه وقيل أخلصوا له العبادة ﴿ وافعوا الخير ﴾ قال ابن عباس : صلة الأرحام ومكارم الأخلاق وقيل فعل الخير ينقسم إلى خدمة

المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله تعالى وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة وحسن القول غير ذلك من أعمال البر ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ يعني لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة .

فصل : في حكم سجود التلاوة هنا

لم يختلف العلماء في السجدة الأولى من هذه السورة واختلفوا في السجدة الثانية فروي عن عمر وعلي وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأبي الدرداء وأبي موسى أنهم قالوا في الحج سجدتان وبه قال ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق ، يدل عليه ما روي عن عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله في الحج سجدتان قال : " نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما " أخرجه الترمذي وأبو داود .

وعن عمر بن الخطاب أنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين وقال : إن هذه السورة فضلت بسجدتين .

أخرجه مالك في الموطأ وذهب قوم إلى أنّ في الحج سجدة واحدة وهي الأولى وليس هذه بسجدة وهو قول الحسن وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبي حنيفة ومالك بدليل أنه قرن السجود بالركوع فدل ذلك أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة واختلف العلماء في عدة سجود التلاوة .

فذهب الشافعي وأحمد وأكثر أهل العلم إلى أنها أربع عشرة سجدة لكن الشافعي قال في الحج سجدتان وأسقط سجدة ص .

(213/529)

وقال أبو حنيفة في الحج سجدة وأثبت سجدة ص وبه قال أحمد في إحدى الروايتين عنه فعنده أن السجدات خمس عشرة سجدة .

وذهب قوم إلى أن المفصل ليس فيه سجود يروى ذلك عن أبيّ بن كعب وابن عباس وبه قال مالك فعلى هذا يكون سجود القرآن إحدى عشرة سجدة يدل عليه ما روي عن أبي الدرداء أنّ النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال : " في القرآن إحدى عشرة سجدة " أخرجه أبو داود وقال إسناده واه .

ودليل من قال في القرآن خمس عشرة سجدة ما روي عن عمرو بن العاص قال : أقرأني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في القرآن خمس عشرة سجدة منها ثلاث في المفصل وهي سورة الحج سجدتان .

أخرجه أبو داود وصح من حديث أبي هريرة قال : " سجدنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في اقرأ وإذا السماء انشقت " أخرجه مسلم وسجود التلاوة سنة للقارىء

والمستمع .

وبه قال الشافعي وقال أبو حنيفة هو واجب .

(214/529)

قوله عزّ وجل : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ أي جاهدوا في سبيل الله أعداء الله ومعنى حق جهاده هو استفراغ الطاقة فيه قال ابن عباس : وعنه قال لا تخافوا في الله لومة لائم فهو حق الجهاد كما تجاهدون في سبيل الله لا تخافون لومة لائم وقيل معناه اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته قيل نسخها قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وقال أكثر المفسرين حق الجهاد أن يكون بنية صادقة خالصه لله ولتكون كلمة الله هي العليا بدليل قوله (صلى الله عليه وسلم) : " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري وقيل مجاهدة النفس والهوى هو حق الجهاد وهو الجهاد الأكبر روي أنّ النبيّ صلى الله عليه سلم لما رجع من غزوة تبوك قال : " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " ذكره البغوي بغير سند قيل أراد بالأصغر جهاد الكفار وبالأكبر جهاد النفس ﴿ هو اجتباكم ﴾ يعني اختاركم لدينه والاشتغال بخدمته وعبادته وطاعته فأي رتبة أعلى من هذا وأي سعادة فوق هذا ﴿

وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ أي ضيق وشدة وهو أن المؤمن لا يبتلى بشيء من الذنوب إلا جعل الله له منه مخرّجاً بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص وبعضها بأنواع الكفارات من الأمراض والمصائب وغير ذلك فليس في دين الإسلام ما لا يجد العبد فيه سبيلاً إلى الخلاص من الذنوب ومن العقاب لمن وفق .

وقيل : معناه رفع الضيق في أوقات فروضكم مثل هلال شهر رمضان والفطر ووقت الحج إذا التبس عليكم وسع ذلك عليكم حتى تتيقنوا .

وقيل : معناه الرخص عند الضرورات كقصر الصلاة والفطر في السفر والتيمم عند عدم الماء وأكل الميتة عند الضرورة والصلاة قاعداً والفطر مع العجز بعذر المرض ونحو ذلك من الرخص التي رخص الله لعباده ، قيل أعطى الله هذه الأمة خصلتين لم يعطهما أحداً غيرهم جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم في الدين من حرج .

(215/529)

وقال ابن عباس : الحرج ما كان على بني إسرائيل من الآصار التي كانت عليهم وضعها الله عن هذه الأمة ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ لأنها داخلة في ملة محمد صلّى الله عليه وسلم .

فإن قلت لم يكن إبراهيم أباً للأمة كلها فكيف سماه أباً في قوله ﴿ ملة إبيكم إبراهيم ﴾ .

قلت إن كان الخطاب للعرب فهو أبو العرب قاطبة وإن كان الخطاب للمسلمين فهو أبو المسلمين .

والمعنى وجوب احترامه وحفظ حقه يجب كما يجب احترام الأب فهو كقوله ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إنما أنا لكم كالوالد "

وفي قوله ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ قولان أحدهما : أن الكناية ترجع إلى الله تعالى يعني أن الله سماكم المسلمين في الكتب القديمة من قبل نزول القرآن

القول الثاني : أن الكناية راجعة إلى إبراهيم يعني أنّ إبراهيم سماكم المسلمين في أيامه من قبل هذا الوقت وهو قوله ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ فاستجاب الله دعاءه فينا ﴿ وفي هذا ﴾ أي وفي القرآن سماكم المسلمين ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم ﴾ يوم القيامة أن قد بلغكم ﴿ وتكونو شهداء على الناس ﴾ أي تشهدون يوم القيامة على الأمم أن رسلهم قد بلغتهم ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله ﴾ يعني ثقوا به وتوكلوا عليه وقيل تمسكوا بدين الله .

وقال ابن عباس : سلوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يكره وقيل معناه ادعوا ربكم أن يثبتكم على دينه .

وقيل : الاعتصام هو التمسك بالكتاب والسنة ﴿ هو مولاكم ﴾ يعني وليكم وناصركم

وحافظكم ﴿ فنعم المولى ونعم النصير ﴾ أي الناصر لكم والله تعالى أعلم . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 25.30 ﴾

(216/529)

وقال النسفى :

﴿ ذلك ﴾ أي الأمر ذلك وما بعده مستأنف ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ سمي الابتداء بالجزاء عقوبة لملابسته له من حيث إنه سبب وذلك مسبب عنه ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ الله ﴾ أي من جازى بمثل ما فعل به من الظلم ثم ظلم بعد ذلك فحق على الله أن ينصره ﴿ إِنَّ الله لَعَفُوٌّ ﴾ يمحو آثار الذنوب ﴿ غَفُورٌ ﴾ يستر أنواع العيوب .

وتقرير الوصفين بسياق الآية أن المعاقب مبعوث من عند الله على العفو وترك العقوبة بقوله ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله ﴾ [الشورى : 40] ﴿ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ للتقوى ﴾ [البقرة : 237] فحيث لم يؤثر ذلك وانتصر فهو تارك للأفضل وهو ضامن لنصره في الكرة الثانية إذا ترك العفو وانتقم من الباغي ، وعرف مع ذلك بما كان أولى به من العفو بذكر هاتين الصفتين ، أو دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده كما قيل "العفو عند القدرة" .

﴿ ذلك بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ الليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى الليل وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أي ذلك النصر للمظلوم بسبب أنه قادر على ما يشاء ، ومن آيات قدرته أنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل أي يزيد من هذا في ذلك ومن ذلك في هذا ، أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والإنصاف ، وأنه سميع لما يقولون ولا يشغله سمع عن سمع وإن اختلفت في النهار الأصوات بفنون اللغات ، بصير بما يفعلون ولا يستر عنه شيء بشيء في الليالي وإن توالت الظلمات .

(217/529)

﴿ ذلك بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ ﴾ عراقي غير أبي بكر ﴿ مِن دُونِهِ هُوَ الباطل وَأَنَّ اللهَ هُوَ العلي الكبير ﴾ أي ذلك الوصف بخلقه الليل والنهار وإحاطته بما يجري فيهما وإدراكه قولهم وفعلهم بسبب أن الله الحق الثابت إلاهيته وأن كل ما يدعى إلهاً دونه باطل الدعوة وأنه لا شيء أعلى منه شأناً وأكبر سلطاناً .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ مطراً ﴿ فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾ بالنبات بعد ما كانت مسودة يابسة وإنما صرف إلى لفظ المضارع ولم يقل فأصبحت ليفيد بقاء أثر المطر زمان بعد زمان كما تقول "أنعم عليّ فلان فأروح وأغدوا شاكراً له" ولو قلت

"فرحت وغدوت" لم يقع ذلك الموقع .

وإنما رفع ﴿ فتصبح ﴾ ولم ينصب جواباً للاستفهام لأنه لو نصب لبطل الغرض ، وهذا لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار كما تقول لصاحبك "ألم تراني أنعمت عليك فتشكر" ، إن نصبته نفيت شكره وشكوت من تفريطه فيه ، وإن رفعته أثبت شكره ﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ ﴾ واصل عمله أو فضله إلى كل شيء ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بمصالح الخلق ومنافعهم أو اللطيف المختص بدقيق التدبير والخبير المحيط بكل قليل وكثير .

(218/529)

﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ مُلكاً وملكاً ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغني ﴾ المستغني بكمال قدرته بعد فناء ما في السماوات وما في الأَرض ﴿ الحميد ﴾ المحمود بنعمته قبل ثناء من في السماوات ومن في الأرض ﴿ الم * تَرَى أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأرض ﴾ من البهائم مذللة للركوب في البر ﴿ والفلك تَجْرِى فِى البحر بِأَمْرِهِ ﴾ أي ومن المراكب جارية في البحر ، ونصب ﴿ الفلك ﴾ عطفاً على "ما" و ﴿ تجري ﴾ حال لها أي وسخر لكم الفلك في حال جريها ﴿ وَيُمْسِكُ السماء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض ﴾ أي يحفظها من أن تقع ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ بأمره أو بمشيئته ﴿ إِنَّ اللهَ بالناس لَرَؤُوفٌ ﴾ بتسخير ما في الأرض ﴿

رَّحِيمٌ ﴾ بإمساك السماء لئلا تقع على الأرض ، عدد آلائه مقرونة بأسمائه ليشكروه على آلائه ويذكروه بأسمائه .

وعن أبي حنيفة رحمه الله أن اسم الله الأعظم في الآيات الثمانية يستجاب لقرائتها ألبتة

.

﴿ وَهُوَ الذى أَحْيَاكُمْ ﴾ في أرحام أمهاتكم ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ لإيصال جزائكم ﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ﴾ لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم ودفع عنه من صنوف النقم ، أو لا يعرف نعمة الإنشاء المبدئ للوجود ولا الإفناء المقرب إلى الموعود ولا الإحياء الموصل إلى المقصود ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أهل دين ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ مر بيانه وهو رد لقول من يقول إن الذبح ليس بشريعة الله إذ هو شريعة كل أمة ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ عاملون به ﴿ فَلاَ ينازعنك ﴾ فلا يجادلنك والمعنى فلا تلتفت إلى قولهم ولا تمكنهم من أن ينازعوك ﴿ فِى الأمر ﴾ أمر الذبائح أو الدين .

نزلت حين قال المشركون للمسلمين : ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله يعني الميتة ﴿ وادع ﴾ الناس ﴿ إلى رَبِّكَ ﴾ إلى عبادة ربك ﴿ إِنَّكَ لعلى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ طريق قويم .

ولم يذكر الواو في ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ بخلاف ما تقدم لأن تلك وقعت مع ما يناسبها من الآي الواردة في أمر النسائك فعطفت على أخواتها ، وهذه وقعت مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفا

.

﴿ وَإِن جادلوك ﴾ مراء وتعنتاً كما يفعله السفهاء بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع وجدال ﴿ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي فلا تجادلهم وادفعهم بهذا القول ، والمعنى أن الله أعلم بأعمالكم وما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به ، وهذا وعيد وإنذار ولكن برفق ولين وتأديب يجاب به كل متعنت ﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ هذا خطاب من الله للمؤمنين والكافرين أي يفصل بينكم بالثواب والعقاب ، ومسلاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما كان يلقى منهم .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السماء والأرض ﴾ أي كيف يخفى عليه ما تعملون ومعلوم عند العلماء بالله أنه يعلم كل ما يحدث في السماوات والأرض ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ الموجود فيهما ﴿ فِى كتاب ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ أي علمه بجميع ذلك عليه يسير .

ثم أشار إلى جهالة الكفار لعبادتهم غير المستحق لها بقوله ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ ﴾ ﴿ ينْزل ﴾ مكي وبصري ﴿ سلطانا ﴾ حجة وبرهاناً ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي لم يتمسكوا في عبادتهم لها ببرهان سماوي من جهة الوحي ولا حملهم عليها دليل عقلي ﴿ وَمَا للظالمين مِن نَّصِيرٍ ﴾ وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوب مذهبهم ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بَيّنَاتٍ ﴾ يعني القرآن ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر ﴾ الإنكار بالعبوس والكراهة والمنكر مصدر ﴿ يكادون يَسْطُونَ ﴾ يبطشون والسطو الوثب والبطش ﴿ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ هم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ﴿ قُلْ أَفَأُنَبّئُكُم بِشَرّ مّن ذلكم ﴾ من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلي عليكم ﴿ النار ﴾ خبر مبتدأ محذوف كأن قائلاً قال : ما هو ؟ فقيل : النار أي هو النار ﴿ وَعَدَهَا الله الذين كَفَرُواْ ﴾ استئناف كلام ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ النار .

ولما كانت دعواهم بأن لله تعالى شريكاً جارية في الغرابة والشهرة مجرى الأمثال المسيرة قال الله تعالى :

﴿ يأَيُّهَا الناس ضُرِبَ ﴾ بين ﴿ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ ﴾ لضرب هذا المثل ﴿ أَنَّ الذين تَدْعُونَ ﴾ ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ سهل ويعقوب ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ آلهة باطلة ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً ﴾ "لن" تأكيد نفي المستقبل وتأكيده هنا للدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل كأنه قال : محال أن يخلقوا .

(221/529)

وتخصيص الذباب لمهانته وضعفه واستقذاره ، وسمي ذباباً لأنه كلما ذب لاستقذاره آب لاستكباره ﴿ وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ﴾ لخلق الذباب ومحله النصب على الحال كأنه قيل : مستحيل منهم أن يخلقوا الذباب مشروطاً عليهم اجتماعهم جميعاً لخلقه وتعاونهم عليه ، وهذا من أبلغ ما أنزل في تجهيل قريش حيث وصفوا بالإلاهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها والإحاطة بالمعلومات عن آخرها صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله لو اجتمعوا لذلك ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً ﴾ ﴿ شَيْئاً ﴾ ثاني مفعولي ﴿ يَسْلُبْهُمُ ﴾ ﴿ لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ أي هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل فإذا سلبه

الذباب عجز الأصنام عن أخذه ﴿ ضَعُفَ الطالب ﴾ أي الصنم بطلب ما سلب منه ﴿ والمطلوب ﴾ الذباب بما سلب وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف ، ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف فإن الذباب حيوان وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب ﴿ مَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ما عرفوه حق معرفته حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف شريكاً له ﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي إن الله قادر وغالب فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهاً به ، أو لقوي بنصر أوليائه عزيز ينتقم من أعدائه .

﴿ اللهُ يَصْطَفِى ﴾ يختار ﴿ مِنَ الملائكة رُسُلاً ﴾ كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم ﴿ وَمِنَ الناس ﴾ رسلاً كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم عليهم السلام .

وهذا رد لما أنكروه من أن يكون الرسول من البشر ، وبيان أن رسل الله على ضربين ملك وبشر .

(222/529)

وقيل : نزلت حين قالوا ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا ﴾ [القمر : 25] ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لقولهم ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بمن يختاره لرسالته ، أو سميع لأقوال الرسل فيما تقبله العقول بصير

بأحوال الأمم في الرد والقبول ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ما مضى ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ما لم يأت أو ما عملوه وما سيعملوه أو أمر الدنيا وأمر الآخرة ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ أي إليه مرجع الأمور كلها ، والذي هو بهذه الصفات لا يسئل عما يفعل وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدابيره واختيار رسله ﴿ ترجع ﴾ شامي وحمزة وعلي .

﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ اركعوا واسجدوا ﴾ في صلاتكم ، وكان أول ما أسلموا يصلون بلا ركوع وسجود فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود ، وفيه دليل على أن الأعمال ليست من الإيمان وأن هذه السجدة للصلاة لا للتلاوة ﴿ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ﴾ واقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه الله لا الصنم ﴿ وافعلوا الخير ﴾ قيل : لما كان للذكر مزية على غيره من الطاعات دعا المؤمنين أولاً إلى الصلاة التي هي ذكر خالص لقوله تعالى ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ [طه : 14] ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج وغيرهما ، ثم عم بالحث على سائر الخيرات .

وقيل : أريد به صلة الأرحام ومكارم الأخلاق ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي كي تفوزوا أو افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم .

﴿ وجاهدوا ﴾ أمر بالغزو أو مجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر أو هو كلمة حق عند أمير جائر ﴿ فِى الله ﴾ أي في ذات الله ومن أجله ﴿ حَقَّ جهاده ﴾ وهو أن لا يخاف في الله لومة لائم .

يقال : هوحق عالم وجد عالم أن عالم حقاً وجداً ومنه ﴿ حق جهاده ﴾ وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه لكن الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص ، فلما كان الجهاد مختصاً بالله من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت إضافته إليه .

(223/529)

ويجوز أن يتسع في الظرف كقوله

ويوم شهدناه سليماً وعامراً . . .

﴿ هُوَاجتباكم ﴾ اختاركم لدينه ونصرته ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ ضيق بل رخص لكم في جميع ما كلفكم من الطهارة والصلاة والصوم والحج بالتيمم وبالإيماء وبالقصر والإفطار لعذر السفر والمرض وعدم الزاد والراحلة .

﴿ مّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم ﴾ أي اتبعوا ملة أبيكم ، أو نصب على الاختصاص أي أعني بالدين ملة أبيكم .

وسماه أباً وإن لم يكن أباً للأمة كلها ، لأنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أباً لأمته لأن أمة الرسول في حكم أولاده قال عليه السلام " إنما أنا لكم مثل الوالد " ﴿ هُوَ سماكم المسلمين ﴾ أي الله بدليل قراءة أبيّ : ﴿ الله سماكم المسلمين ﴾ ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ في

الكتب المتقدمة ﴿ وَفِى هذا ﴾ أي في القرآن أي فضلكم على سائر الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم ﴿ لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ أنه قد بلغكم رسالة ربكم ﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ بواجباتها ﴿ وءاتوا الزكاة ﴾ بشرائطها ﴿ واعتصموا بالله ﴾ وثقوا بالله وتوكلوا عليه لا بالصلاة والزكاة ﴿ هُوَ مولاكم ﴾ أي مالككم وناصركم ومتولي أموركم ﴿ فَنِعْمَ المولى ﴾ حيث لم يمنعكم رزقكم بعصيانكم ﴿ وَنِعْمَ النصير ﴾ أي الناصر هو حيث أعانكم على طاعتكم وقد أفلح من هو مولاه وناصره والله الموفق للصواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 108.113 ﴾

(224/529)

وقال البيضاوى:

﴿ ذلك ﴾ أي الأمر ذلك. ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ ولم يزد في الاقتصاص، وإنما سمي الإبتداء بالعقاب الذي هو الجزاء للازدواج أو لأنه سببه. ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة. ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ الله ﴾ لا محالة. ﴿ إِنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ للمنتصر حيث اتبع هواه في الانتقام وأعرض عما ندب الله إليه بقوله ولَمن صبر وغفران ذلك لَمِنْ

عزمِ الأُمورِ وفيه تعريض بالحث على العفو والمغفرة ، فإنه تعالى مع كمال قدرته وتعالى شأنه لما كان يعفو ويغفر فغيره بذلك أولى ، وتنبيه على أنه تعالى قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده .

﴿ ذلك ﴾ أي ذلك النصر . ﴿ ذلك بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الَّيْلِ ﴾ بسبب أن الله تعالى قادر على تغليب الأمور بعضها على بعض ، جار عادته على المداولة بين الأشياء المتعاندة ومن ذلك إيلاج أحد المَلَوَيْنِ في الآخر ، بأن يزيد فيه ما ينقص منه ، أو بتحصيل ظلمة الليل في مكان ضوء النهار بتغييب الشمس وعكس ذلك باطلاعها . ﴿ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع قول المعاقب والمعاقب . ﴿ بَصِيرٌ ﴾ يرى أفعالهما فلا يهملهما .

﴿ ذلك ﴾ الوصف بكمال القدرة والعلم . ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحق ﴾ الثابت في نفسه الواجب لذاته وحده ، فإن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان أن يكون مبدأ لكل ما يوجد سواه عالماً بذاته وبما عداه ، أو الثابت الإلهية ولا يصلح لها إلا من كان قادراً عالماً . ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ إلهاً ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو بكر بالتاء على مخاطبة المشركين ، وقرأ بالبناء للمفعول فتكون الواو لما فإنه في معنى الآلهة . ﴿ هُوَ الباطل ﴾ المعدوم في حد ذاته ، أو باطل الألوهية . ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العلي ﴾ على الأشياء . ﴿ الكبير ﴾ على أن يكون له شريك لا شيء أعلى منه شأناً وأكبر منه سلطاناً .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاءً ﴾ استفهام تقرير ولذلك رفع . ﴿ فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾ عطف على ﴿ أَنزَلَ ﴾ إذ لو نصب جواباً لدل على نفي الاخضرار كما في قولك : ألم تر أني جئتك فتكرمني ، والمقصود إثباته وإنما عدل به عن صيغة الماضي للدلالة على بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان . ﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ ﴾ يصل علمه أو لطفه إلى كل ما جل ودق . ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بالتدابير الظاهرة والباطنة .

﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ خلقاً وملكاً . ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغني ﴾ في ذاته عن كل شيء . ﴿ الحميد ﴾ المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأرض ﴾ جعلها مذللة لكم معدة لمنافعكم . ﴿ والفلك ﴾ عطف على ﴿ مَا ﴾ أو على اسم ﴿ أَنَّ ﴾ ، وقرىء بالرفع على الابتداء . ﴿ تَجْرِي فِى البحر بِأَمْرِهِ ﴾ حال منها أو خبر . ﴿ وَيُمْسِكُ السماء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض ﴾ من أن تقع أو كراهة بأن خلقها على صورة متداعية إلى الاستمساك . ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ إلا بمشيئته وذلك يوم القيامة ، وفيه رد لاستمساكها بذاتها فإنها مساوية لسائر الأجسام في الجسمية فتكون قابلة للميل الهابط قبول غيرها . ﴿ إِنَّ اللهَ بالناس لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث هيأ لهم أسباب الاستدلال وفتح عليهم أبواب المنافع ودفع عنهم أنواع المضار .

﴿ وَهُوَ الذى أَحْيَاكُمْ ﴾ بعد أن كنتم جماداً عناصر ونطفاً . ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ إذا جاء

أجلكم . ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ في الآخرة . ﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ﴾ لجحود لنعم الله مع ظهورها .

(226/529)

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أهل دين . ﴿ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ متعبداً أو شريعة تعبدوا بها ، وقيل عيدا . ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ ينسكونه . ﴿ فَلاَ ينازعنك ﴾ سائر أرباب الملل . ﴿ فِي الأمر ﴾ في أمر الدين أو النسائك لأنهم بين جهال وأهل عناد ، أو لأن أمر دينك أظهر من أن يقبل النزاع ، وقيل المراد نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الالتفات إلى قولهم وتمكينهم من المناظرة المؤدية إلى نزاعهم ، فإنها إنما تنفع طالب الحق وهؤلاء أهل مراء ، أو عن منازعتهم كقولك : لا يضار بك زيد ، وهذا إنما يجوز في أفعال المبالغة للتلازم ، وقيل نزلت في كفار خزاعة قالوا للمسلمين : ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله ، وقرىء ﴿ فَلاَ ينزعنك ﴾ على تهييج الرسول والمبالغة في تثبيته على دينه على أنه من نازعته فنزعته إذا غلبته . ﴿ وادع إلى رَبِّكَ ﴾ إلى توحيده وعبادته . ﴿ إِنَّكَ لعلى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ طريق إلى الحق سوي .

﴿ وَإِن جادلوك ﴾ وقد ظهر الحق ولزمت الحجة . ﴿ فَقُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من

المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليها ، وهو وعيد فيه رفق .

﴿ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين بالثواب والعقاب . ﴿ يَوْمَ القيامة ﴾ كما فصل في الدنيا بالحجج والآيات . ﴿ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السماء والأرض ﴾ فلا يخفى عليه شيء . ﴿ إِنَّ ذلك فِي كتاب ﴾ هو اللوح كتبه فيه قبل حدوثه فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له . ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ إن الإِحاطة به وإثباته في اللوح المحفوظ ، أو الحكم بينكم . ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ لأن علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على سواء .

(227/529)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا ﴾ حجة تدل على جواز عبادته . ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ حصل لهم من ضرورة العقل أو استدلاله . ﴿ وَمَا للظالمين ﴾ وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم . ﴿ مِن نَّصِيرٍ ﴾ يقرر مذهبهم أو يدفع العذاب عنهم .

﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ من القرآن . ﴿ بينات ﴾ واضحات الدلالة على العقائد الحقية والأحكام الإلهية . ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر ﴾ الانكار لفرط

نكيرهم للحق وغيظهم لأباطيل أخذوها تقليداً ، وهذا منتهى الجهالة وللإشعار بذلك وضع الذين كفروا موضع الضمير أو ما يقصدونه من الشر ﴿ يكادون يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ يثبون ويبطشون بهم . ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّ مّن ذلكم ﴾ من غيظكم على التالين وسطوتكم عليهم ، أو مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلوا عليكم . ﴿ النار ﴾ أي هو النار كأنه جواب سائل قال : ما هو ، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره : ﴿ وَعَدَهَا الله الذين كَفَرُواْ ﴾ وقرىء بالنصب على الاختصاص وبالجر بدلاً من شر فتكون الجملة استئنافاً كما إذا رفعت خبراً أو حالاً منها . ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ النار .

(228/529)

﴿ يأَيُّهَا الناس ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ بين لكم حال مستغربة أو قصة رائعة ولذلك سماها مثلاً ، أو جعل لله مثل أي مثل في استحقاق العبادة . ﴿ فاستمعوا لَهُ ﴾ للمثل أو لشأنه استماع تدبر وتفكر . ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ يعني الأصنام ، وقرأ يعقوب بالياء وقرىء مبنياً للمفعول والراجع إلى الموصول محذوف على الأولين . ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً ﴾ لا يقدرون على خلقه مع صغره لأن ﴿ لَنْ ﴾ بما فيها من تأكيد النفي دالة على منافاة ما بين المنفي والمنفي عنه ، و ﴿ الذباب ﴾ من الذب لأنه يذب وجمعه أذبة وذبان . ﴿ وَلَوِ

اجتمعوا لَهُ ﴾ أي للخلق هو بجوابه المقدر في موضع حال جيء به للمبالغة ، أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه فكيف إذا كانوا منفردين . ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ جهلهم غاية التجهيل بأن أشركوا إلهاً قدر على المقدورات كلها وتفرد بإيجاد الموجودات بأسرها تماثيل هي أعجز الأشياء ، وبين ذلك بأنها لا تقدر على خلق أقل الأحياء وأذلها ولو اجتمعوا له ، بل لا تقوى على مقاومة هذا الأقل الأذل وتعجز عن ذبه عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه من عندها . قيل كانوا يطلونها بالطيب والعسل ويغلقون عليها الأبواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله . ﴿ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ عابد الصنم ومعبوده ، أو الذباب يطلب ما يسلب عن الصنم من الطيب والصنم يطلب الذباب منه السلب ، أو الصنم والذباب كأنه يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه ولو حققت وجدت الصنم أضعف بدرجات .

﴿ مَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ما عرفوه حق معرفته حيث أشركوا به وسموا باسمه ما هو أبعد الأشياء عنه مناسبة . ﴿ إِنَّ اللّهَ لَقَوِيٌّ ﴾ على خلق الممكنات بأسرها . ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يغلبه شيء وآلهتهم التي يعبدونها عاجزة عن أقلها مقهورة من أذلها .

(229/529)

﴿ اللهُ يَصْطَفِى مِنَ الملائكة رُسُلاً ﴾ يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحي . ﴿ وَمِنَ الناس ﴾ يدعون سائرهم إلى الحق ويبلغون إليهم ما نزل عليهم ، كأنه لما قرر وحدانيته في الألوهية ونفى أن يشاركه غيره في صفاتها بين أن له عباداً مصطفين للرسالة يتوسل بإجابتهم والإِقتداء بهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى ، وهو أعلى المراتب ومنتهى الدرجات لمن سواه من الموجودات تقريراً للنبوة وتزييفاً لقولهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ والملائكة بنات الله تعالى ، ونحو ذلك . ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ مدرك للأشياء كلها .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ عالم بواقعها ومترقبها . ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمور ﴾ وإليه ترجع الأمور كلها لأنه مالكها بالذات لا يسأل عما يفعل من الاصطفاء وغيره وهم يسألون .

(230/529)

﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ اركعوا واسجدوا ﴾ في صلاتكم ، أمرهم بهما لأنهم ما كانوا يفعلونها أول الإِسلام ، أو صلوا وعبر عن الصلاة بهما لأنهما أعظم أركانها ، أو اخضعوا لله وخروا له سجداً . ﴿ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ﴾ بسائر ما تعبدكم به . ﴿ وافعلوا الخير ﴾

وتحروا ما هو خير وأصلح فيما تأتون وتذرون كنوافل الطاعات وصلة الأرحام ومكارم الأخلاق . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي افعلوا هذه كلها وأنتم راجون الفلاح غير متيقنين له واثقين على أعمالكم ، والآية آية سجدة عندنا لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ولقوله عليه الصلاة والسلام " فضلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما فلا يقرؤها " ﴿ وجاهدوا فِى الله ﴾ أي لله ومن أجله أعداء دينه الظاهرة كأهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس . وعنه عليه الصلاة والسلام أنه رجع من غزوة تبوك فقال " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " ﴿ حَقَّ جهاده ﴾ أي جهاداً فيه حقاً خالصاً لوجهه فعكس وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة كقولك : هو حق عالم ، وأضيف الجهاد إلى الضمير اتساعاً أو لأنه مختص بالله من حيث إنه مفعول لوجه الله تعالى ومن أجله . ﴿ هُوَ اجتباكم ﴾ اختاركم لدينه ولنصرته ، وفيه تنبيه على المقتضى للجهاد والداعي إليه وفي قوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي ضيق بتكليف ما يشتد القيام به عليكم ، إشارة إلى أنه لا مانع لهم عنه ولا عذر لهم في تركه ، أو إلى الرخصة في إغفال بعض ما أمرهم به من حيث شق عليهم لقوله عليه الصلاة والسلام " إذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم " وقيل ذلك بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجاً بأن رخص لهم في المضايق وفتح عليهم باب التوبة ، وشرع لهم الكفارات في حقوقه والأروش والديات في حقوق العباد ﴿

مّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم ﴾ منتصبة على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبلها بحذف المضاف أي : وسع دينكم توسعة ملة أبيكم ، أو على الإِغراء أو

(231/529)

على الاختصاص ، وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كالأب لأمته من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية ووجودهم على الوجه المعتد به في الآخرة ، أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته فغلبوا على غيرهم .

﴿ هُوَ سماكم المسلمين مِن قَبْلُ ﴾ من قبل القرآن في الكتب المتقدمة . ﴿ وَفِى هذا ﴾ وفي القرآن ، والضمير لله تعالى ويدل عليه أنه قرىء "الله سماكم" ، أول ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وتسميتهم بمسلمين في القرآن وإن لم تكن منه كانت بسبب تسميته من قبل في قوله ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ وقيل وفي هذا تقديره وفي هذا بيان تسميته إياكم مسلمين . ﴿ لِيَكُونَ الرسول ﴾ يوم القيامة متعلق بسماكم . ﴿ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ بأنه بلغكم فيدل على قبول شهادته لنفسه اعتماداً على عصمته ، أو بطاعة من أطاع وعصيان من عصى . ﴿ وَتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ بتبليغ الرسل إليهم . ﴿ فَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكوة ﴾ فتقربوا إلى الله تعالى بأنواع الطاعات لما خصكم بهذا الفضل والشرف . ﴿ واعتصموا

بالله ﴾ وثقوا به في مجامع أموركم ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه . ﴿ هُوَ مولاكم ﴾ ناصركم ومتولي أموركم ﴿ فَنِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير ﴾ هو إذ لا مثل له سبحانه في الولاية والنصرة ، بل لا مولى ولا نصير سواه في الحقيقة . عن النبي عليه الصلاة والسلام " من قرأ سورة الحج أعطي من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 137 . 145 ﴾

(232/529)

وقال ابن جزى :

﴿ ذلك ﴾ تقديره هنا : الأمر ذلك كما يقول الكاتب هذا وقد كان كذا إذا أراد أن يخرج إلى حديث آخر .

﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ سمى الابتداء عقوبة باسم الجزاء عليها تجوّزاً كما تسمى العقوبة أيضاً باسم الذنب ووعد بالنصر لمن بغى عليه ﴿ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ إن قيل ما مناسبة هذين الوصفين للمعاقبة ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما أن في ذكر هذين الوصفين إشعار بأن العفو أفضل من العقوبة ، فكأنه حض على العفو ، والثاني أن في ذكرهما إعلاماً بعفو الله عن المعاقب حين عاقب ، ولم يأخذ بالعفو الذي هو أولى .

﴿ ذلك بِأَنَّ الله يُولِجُ الليل ﴾ أي ذلك النصر بسبب أن الله قادر ، ومن آيات قدرته أنه ﴿ يُولِجُ الليل فِي النهار ويُولِجُ النهار فِي الليل ﴾ ومعنى الإيلاج هنا أنه يدخل ظلمة هذا في مكان ضوء هذا ، ويدخل ضوء هذا مكان ظلمة هذا ، وقيل : الإيلاج هو ما ينقص من أحدهما ويزيد في الآخر .

(233/529)

﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ أي ذلك الوصف الذي وصف الله به هو بسبب أنه الحق ﴿ فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾ تصبح هنا بمعنى تصير ، وفهم بعضهم أنه أراد صبيحة ليلة المطر ، فقال : لا تصبح الأرض مخضرة إلا بمكة ، والبلاد الحارة ، وأما على معنى تصير ، فذلك عام في كل بلد ، والفاء للعطف ، وليست بجواب ، ولو كانت جواباً لقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ لنصبت الفعل ، وكان المعنى نفي خضرتها وذلك خلاف المقصود ، وإنما قال ﴿ تُصْبِحُ ﴾ بلفظ المضارعة ليفيد بقاءها كذلك مدة ﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأرض ﴾ يعني البهائم والثمار والمعادن وغير ذلك ﴿ أَن تَقَعَ ﴾ في موضع مفعول على تقدير عن أن تقع ، وقال الزمخشري : كراهة أن تقع فهو مفعول من أجله ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ يحتمل أن يريد يوم القيامة ، فجعل طي السماء كوقوعها أو يريد بإذنه لو شاء متى شاء ﴿ ا أَحْيَاكُمْ ﴾ أي

أوجدكم بعد العدم ، وعبّر عن ذلك بالحياة ؛ لأن الإنسان قبل ذلك تراب فهو جماد بلا روح ، ثم أحياه بنفخ الروح ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ يعني الموت المعروف ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ يعني البعث ﴿ لَكَفُورٌ ﴾ أي جحود للنعمة ﴿ مَنسَكاً ﴾ هو اسم مصدر لقوله : ﴿ نَاسِكُوهُ ﴾ ولو كان اسم مكان لقال ناسكون فيه ﴿ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ ﴾ ضمير الفاعل للكفار ، والمعنى : أنه لا ينبغي منازعة النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن الحق قد ظهر بحيث لا يسع النزاع فيه ، فجاء الفعل بلفظ النهي والمراد غير النهي ، وقيل : إن المعنى لا تنازعهم فينازعونك ، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه ، ويحتمل أن يكون نهياً لهم عن المنازعة على ظاهر اللفظ ﴿ فِي الأمر ﴾ أي في الدين الشريعة أو في الذبائح ﴿ وادع إلى رَبِّكَ ﴾ أي ادع الناس إلى عبادة ربك .

(234/529)

﴿ وَإِن جَادَلُوكَ ﴾ الآية : تقتضي موادعة منسوخة بالقتال ﴿ إِنَّ ذلك فِي كِتَابٍ ﴾ يعني اللوح المحفوظ ، والإشارة بذلك إلى معلومات الله ﴿ إِنَّ ذلك عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ يحتمل أن تكون الإشارة بذلك إلى كتب المعلومات في الكتاب ، أو إلى الحكم في الاختلاف والأول أظهر ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ﴾ يعني الأصنام ؛ والسلطان هنا : الحجة والبرهان ، وما

ليس لهم به علم : قيل : إنه يعني ما ليس لهم به علم ضروري ، فنفى أولاً البرهان النظري ، ثم العلم الضروري ، وليس اللفظ بظاهر في هذا المعنى ، بل الأحسن نفي العلم الضروري والنظري معاً ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر ﴾ أي الإنكار لما يسمعون فالمنكر مصدر : كالمكرم بمعنى الإكرام ويعرف ذلك في وجوههم بعبوسها وإعراضها ﴿ يَسْطُونَ ﴾ من السطوة وهي سرعة البطش ﴿ النار وَعَدَهَا الله ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ النار ﴾ مبتدأ ، و ﴿ وَعَدَهَا الله ﴾ خبراً أو يكون النار خبر ابتداء مضمر كأنّ قائلاً قال : ما هو ، فقيل : هو النار ، ويكون وعدها الله استئنافاً وهذا أظهر ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ أي ضربه الله لإقامة الحجة على المشركين ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً ﴾ تنبيه بالأصغر على الأكبر من باب أولى وأحرى : والمعنى أن الأصنام التي تعبدونها لا تقدر على خلق الذباب ولا غيره ، فكيف تُعبد من دون الله الذي خلق كل شيء ، ثم أوضح عجزهم بقوله ﴿ وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ﴾ أي لو تعاونوا على خلق الذباب لم يقدروا عليه ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ بيان أيضاً لعجز الأصنام بحيث لو اختطف الذباب منهم شيئاً لم يقدروا على استنقاذه منه على حال ضعفه ، وقد قيل : إن المراد بما يسلب الذباب منهم الطيب الذي كانت تجعله العرب على الأصنام واللفظ أعم من ذلك ﴿ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ المراد بالطالب الأصنام وبالمطلوب الذباب ، لأن الأصنام تطلب من الذباب ما

سلبته منها . وقيل : الطالب الكفار والمطلوب الأصنام . لأن الكفار يطلبون الخير منهم .

﴿ مَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه .

﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس ﴾ ردّ على من أنكر أن يكون الرسول من البشر .

﴿ اركعوا واسجدوا ﴾ في هذه الآية سجدة عند الشافعي ون غيره للحديث الصحيح الوارد في ذلك خلافاً للمالكية ﴿ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ﴾ عموم في العبادة بعد ذلك الصلاة التي عبر عنها بالركوع والسجود ، وإنما قدمها لأنها أهم العبادات ﴿ وافعلوا الخير ﴾ قيل : المراد صلة الرحم ، وقال ابن عطية : هي في الندب فيما عدا الواجبات واللفظ أعم من ذلك كله .

(236/529)

﴿ وَجَاهِدُوا فِي الله ﴾ يحتمل أن يريد جهاد الكفار ، أو جهاد النفس والشيطان أو الهوى ، أو العموم في ذلك ﴿ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ قيل : إنه منسوخ كنسخ حق تقاته بقوله : ﴿ مَا استطعتم ﴾ [الأنفال : 60 ، التغابن : 16] وفي ذلك نظر ، وإنما أضاف الجهاد إلى

الله ليبين بذلك فضله واختصاصه بالله ﴿ اجتباكم ﴾ أي اختاركم من بين الأمم ﴿ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي مشقة ، وأصل الحرج الضيق ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ انتصب ملة بفعل مضمر تقديره : أعني بالدين ملة إبراهيم أو التزموا ملة إبراهيم وقال الفراء : انتصب على تقدير حذف الكاف كأنه قال كلمة ، وقال الزمخشري : انتصب بمضمون ما تقدم : كأنه قال : وسع عليكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم ، ثم حذف المضاف ، فإن قيل : لم يكن إبراهيم للمسلمين كلهم ، فالجواب : أنه كان أباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أباً لأمته لأن أمة الرسول في حكم أولاده ، ولذلك قرىء ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : 6] ، " وهو أب لهم " وأيضاً فإن قريشاً وأكثر العرب من ذرية إبراهيم ، وهم أكثر الأمة فاعتبرهم دون غيرهم ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ ﴾ الضمير لله تعالى ، ومعنى ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من الكتب المتقدمة . وفي هذا أي في القرآن ، وقيل الضمير لإبراهيم والإشارة إلى قوله : ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، ومعنى من قبل على هذا : من قبل وجودكم ، وهنا يتم الكلام على هذا القول ويكون قوله ﴿ وَفِي هذا ﴾ مستأنفاً : أي وفي هذا البلاغ ، والقول الأول أرجح وأقل تكلفاً ، ويدل عليه قراءة أبي بن كعب : الله سماكم المسلمين ﴿ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ تقدم معنى هذه الشهادة في البقرة ﴿ فَأَقِيمُواْ الصلاة ﴾ الظاهر أنها المكتوبة لاقترانها مع الزكاة ﴿ هُوَ مَوْلاَكُمْ ﴾ معناه هنا : وليكم وناصركم ؛ بدلالة ما بعد ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 45 . 48 ﴾

(237/529)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾

(238/529)

التفسير : إن من جملة نعم الله تعالى على عباده تسخير الأرضيات وتذليلها لهم ، فلا اصلب من الحديد والحجر ، ولا أشد نكاية من النار وقد سخرها للإنسان وسخر لهم الأنعام ايضاً ينتفعون بها بالأكل والركوب والحمل عليها والانتفاع بالنظر إليها ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ [الغاشية : 17] وسخر لهم الدواب ، وغيرها وخسر لهم الفلك حال كونها جارية بأمره وهو تهيئة الأسباب المعاونة ودفع الأشياء المضادة لسهولة جريها . ولا ريب أن الانتفاع بالأرضيات لا يتأتى إلا بعد الأمن من وقوع السماء على الأرض ، فمّن الله تعالى على المكلفين بأن حفظها كيلا تقع أو كراهة أن تقع

على الأرض وذلك بمحض الإقتدار عند أهل الظاهر ، أو بأن جعل طبعها هو الإحاطة بما في ضمنها إذ لا خفة فيها ولا ثقل ولهذا خصت بالحركة على المركز . وفي قوله ﴿ إلا بإذنه ﴾ إشارة إلى أن الأفلاك ستنخرق وتنشق فتقع على الأرض ، ويحتمل أ ، يقال : توقيف الوقوع على الإذن لا يوجب حصول الإذن ، فالانخراق والانشقاق لا يستفاد من هذه الآية . ثم ذكر الإنسان مبدأه ومعاده فقال ﴿ وهو الذي أحياكم نظيره قوله في أول البقرة ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ [الآية : 28] وقد سبق هنالك . وفي قوله ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ زجر لهم عن الكفران بطريق التوبيخ . وعن ابن عباس أنه الكافر . وبعضهم جعله أخص فقال : هو ابو جهل وأضرابه ، والأولى إرادة الجنس ، ثم عاد إلى بيان أن أمر التكاليف مستقر على ما في هذه الشريعة فقال ﴿ لكل أمة ﴾ الآية . قال في الكشاف : إنما فقد العاطف ههنا بخلاف نظرائها في السورة لأن تلك مناسبة لما تقدمها في هذه مباينة لها . قلت : وذلك لأن من ههنا إلى آخر السورة عوداً بعد ذكر المعاد إلى الوسط الذي هو حالة التكليف ، والأقرب أن المنسك في هذه الآية هو الشريعة كقوله

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ [المائدة : 48] وهو قول ابن عباس في رواية عطاء . وقيل : أراد مكاناً معيناً وزماناً لأداء الطاعات . وقال مجاهد : هو الذبائح ولا وجه للتخصيص ههنا والأمة أعم من أن تكون قد بقيت آثارهم أو لم تبق . أما الضمير في قوله ﴿ فلا ينازعنك ﴾ فلا بد من رجوعه إلى الأمم الباقية آثارهم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الزجاج : إنه نهي له عن منازعتهم كما تقول " لا يضاربنك فلان " أي لا تضار به . وذلك أن المفاعلة تقتضي العكس ضمناً . وقال في الكشاف : هو نهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم اي لا تلتفت إلى قولهم ولا تمكنهم من أن ينازعوك ، أو هو زجر لهم عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنازعة في أمر الدين وكانوا يقولون في الميتة " مال كم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله " . ومنه يعلم استقرار أمر الديانة على هذه الشريعة وأن على كل أمة من الأمم التي بقيت منها بقية أن يتبعوه ويتركوا مخالفته فلذلك قال : ﴿ وأدع إلى ربك ﴾ أي لا تخص بالدعوة أمة دون أمة فإن كلهم أمتك ﴿ إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ أي على دين وسط دليل ظاهر . وإن أبوا إلا الجدال فكل أمرهم إلى الله قائلاً ﴿ الله أعلم بما تعملون ﴾ وفيه وعيد وإنذار مخلوط برفق ولكن ﴿ الله يحكم بينكم ﴾ أي يفصل بين المؤمنين والكافرين منكم ، ويحتمل أن يكون من تتمة المقول وأن يكون ابتداء خطاب من الله سبحانه للأمم . ﴿ ألم تعلم ﴾ خطاب لكل عالم أو للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد تقوية قلبه وإلا فالرسالة لا تكون إلا بعد العلم بكونه

تعالى عالماً بكل المعلومات وإلا اشتبه عليه الصادق بالكاذب . ﴿ إن ذلك ﴾ الذي ذكر وهو كل ما في السماء والأرض ﴿ في كتاب ﴾ قال أبو مسلم : أراد به الحفظ والضبط كالشيء المكتوب ، والجمهور على أنه حقيقة وقد كتبه في اللوح قبل حدوثه . ولعل في تلك الكتابة لطفاً للملائكة لأن مطابقة تلك الأشياء المكتوبة لما سيحدث

(240/529)

إلى الأبد من أدل دليل على كونه عالم الذات ولذلك قال ﴿ إن ذلك ﴾ الكتب ﴿ على الله يسير ﴾ وهذا تصوير لضده وهو صعوبة مثل ذلك على غيره وإلا فلا مدخل لليسر والصعوبة في كمال قدرته .

وحين بين كمال ألوهيته قطع شأن أهل الشرك بقوله ﴿ ويعبدون ﴾ الآية والمراد أنهم لم يتمسكوا في صحة عبادته بدليل سمعي ولا علم ضروري وقوله ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ الظلم الشرك ، والصنرة إما بالشفاعة أو بالحجة ولا حجة إلا للحق وهو كقوله في آخر آل عمران ﴿ وما للظالمين من انصار ﴾ [الآية : 192] وقد مر . والمنكر دلائل الغيظ والحنق .

(241/529)

وقال جار الله : وهو الفظيع من التجهم والبسور أو هو الإنكار كالمكرم بمعنى الإكرام وقال الكلبي : اراد أنهم كرهوا القرآن مع وضوح دلائلة . وقال ابن عباس : هو التجبر والترفع . وقال مقاتل : أنكروا أن يكون من الله تعالى . السطو الوثب والبطش أي يهمون بالبطش والوثوب لعظم إنكار ما تلي عليهم . وقوله ﴿ من ذلكم ﴾ إشارة إلى غيظهم على التالين أو إلى همهم . ثم إنه كأن سائلاً قائلاً ما ذلك الشر فقيل ﴿ النار ﴾ اي هو النار . قلت : وذلك أن حرارة الغيظ والسطو تشبه حرارة النار ولكن هذه أقوى ولا سيما نار جهنم . ثم استأنف للنار حكماً فقال ﴿ وعدها ﴾ الآية . ويحتمل أن تكون ﴿ النار ﴾ مبتدأ و﴿ وعدها ﴾ خبراً . ثم ضرب للاصنام مثلا فقال ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل ﴾ إنما قال بلفظ الماضي لأنه معلوم من قبل لكل ذي عقل . والمثل بمعنى المثل استعاروه لجملة من الكلام مستغربة مستفصحة متلقاة بالرضا والقبول أهل للتسيير والإرسال وذلك أنهم جعلوا مضربها مثلاً لموردها ، ثم استعاروا هذا المستعار للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة لتماثلها في الغرابة وهذا هو الذي قصد في الآية : ﴿ فاستمعوا له ﴾ أي تدبروه وحق له ذلك فإن السماع المجرد لا نفع له . قال جار الله : محل ﴿ ولو اجتمعوا له ﴾ نصب على الحال كأنه قال مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطاً عليهم اجتماعهم جميعاً فكيف لو انفردوا ؟ وأقول : الظاهر أن " لو " هذه للمبالغة وجوابه محذوف لدلالة ما تقدم عليه

تقديره ، ولو اجتمعوا لخلق الذباب لن يخلقوه ايضاً ، وليس من شرط كل جملة أن يكون لها محل . ثم زاد لعجزهم وضعفهم تأكيداً بقوله ﴿ وإن يسلبهم الذباب ﴾ الاية . بمعنى أترك أمر الخلق والإيجاد وتكلم فيما هو أسهل من ذلك ، إن هذا الحيوان الضعيف الذي لا قدرة لهم على خلقه لو سلب منهم شيئاً لم يقدروا أيضاً على استخلاص ذلك الشيء منه . عن ابن عباس أنهم كانوا يطلون الأصنام بالزعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها

(242/529)

الأبواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله . وقيل : سمي الذباب ذباباً كلما ذب آب . ثم عجب من ضعف الأصنام والذباب بقوله ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ فالصنم كالطالب من حيث إنه يطلب خلق الذباب أو يطلب استنفاذ ما سلبه منه . وقيل : الطالب عابد الصنم والمطلوب هو الصنم أو عبادته ، ويجوز أن يكون الطالب هو السالب والمطلوب المسلوب منه .

ثم بين أن المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة بهذه المثابة ﴿ ما قدروا الله حق قدره ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته وقد مر مثله في " الأنعام " . ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ قادر غالب فكيف يسوِّي بينه وبين العاجز المغلوب في العبادة وهي نهاية التعظيم . وذلك أنهم لو

إعتقدوا كون تلك الأصنام طلسمات موضوعة على الكواكب فإذا لم تنفع نفسها في المقدار المذكور فلأن لا تنفع غيرها أولى ، وإن اعتقدوا أنها تماثيل الملائكة أو الأنبياء فلا يليق بها غاية الخضوع التي يستحقها خالق الكل .

(243/529)

وحين رد على أهل الشرك معتقدهم في الإلهيات أراد أن يرد عليهم عقيدتهم في النبوّات وهي أن الرسول لا يكون بشراً فقال ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ فالملك رسول إلى النبي والنبي رسول إلى سائر البشر قاله مقاتل . ههنا سؤالات : الأول أن " من " للتبعيض فتفيد الآية أن بعض الملائكة رسل فيكون مناقضاً لقوله ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ [فاطر : 1] والجواب أن الموجبة الجزئية لا تناقض الموجبة الكلية ، أو أراد بهذا البعض من هو رسول إلى بني آدم وهو أكابر الملائكة ولا يبعد أن يكون بعض الملائكة رسلاً إلى بعض آخر منهم . وثانيهما أنه قال في موضع آخر ﴿ لو اراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ [الزمر : 4] وقد نص في هذه الآية أن بعض الناس مصطفى فيلزم من مجموع الآيتين أنه قد اصطفى ولداً . والجواب أن تلك الآية دلت على أن كل ولد مصطفى ولكن لا يلزم من هذه الآية أن كل مصطفى ولد فمن أين يحصل ما

ادعيت ؟ والتحقيق أن الموجبتين في الشكل الثاني لا ينتجان هذا ، ويحتمل أن تكون هذه الآية مسوقة للرد على عبدة الملائكة كما كانت الآية المتقدمة للرد على عبدة الأصنام إذ يعلم من هذا أن علو درجة الملائكة ليس لكونهم آلهة بل لأن الله اصطفاهم للرسالة حين كانوا أمناء على وحيه لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(244/529)

ثم بين علو شأنه وكمال علمه وإحاطته بأحوال المكلفين ما مضى منها وما غبر ، وأن مرجع الأمور كلها إليه ، وفي كل زجر عن الإقدام على المعصية وبعث الجد في الطاعة فلا جرم صرح بالمقصود قائلاً ﴿ يا ايها الذين آمنوا ﴾ والظاهر أنه خطاب مختص بالمؤمنين ويؤكده قوله بعد ذلك ﴿ هو اجتباكم ﴾ ﴿ هو سماكم المسلمين ﴾ وقيل : عام لكل المكلفين لأن المأمورات بعده لا تختص ببعض الناس دون بعض والتخصيص بالذكر للتشريف فإنهم الذين قبلوا الخطاب . ودل بالركوع والسجود على الصلاة لأنهما ركنان معتبران . وقيل : كان الناس أول ما اسلموا يسجدون بلا ركوع ويركعون بلا سجود ، فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود ذكره ابن عباس . قال جار الله : عن عقبة بن عامر قال : قلت : يا رسول الله في سورة الحج سجدتان ؟ قال : نعم أن لم تسجدهما فلا تقرأهما . وعن عبد الله

بن عمر : فضلت سورة الحج بسجدتين . وهو مذهب الشافعي . وأما أبو حنيفة فلا يرى هذه سجدة لأنه قرن الركوع بالسجود قال : فدل ذلك على أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة ، قدم الصلاة لأنها أشرف العبادات ثم عمم فأمر بالعبادة مطلقاً ، ثم جعل الأمر أعم وهو فعل الخيرات الشامل للنوعين التعظيم لأمر الله والشفعة على خلق الله كأنه قال : كلفتكم الصلاة بل كلفتكم ما هو أعم منها وهو العبادة ، بل كلفتكم أعم وهو فعل الخيرات على الإطلاق .

(245/529)

وقيل : معناه واعبدوا ربكم اقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه الله عز وجل . وعن ابن عباس أن فعل الخير صلة الأرحام ومكارم الأخلاق . ومعنى ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ افعلوا كل ذلك راجين الفلاح وهو الظفر بنعيم الآخرة لا متيقنين ذلك فإن الإنسان قلما يخلو في أداء فرائضه من تقصير والعواقب أيضاً مستورة . ثم أمر بخلاف النفس والهوى في جميع ما ذكر وهو الجهاد الأكبر فقال ﴿ وجاهدوا في الله ﴾ اي في ذاته ومن أجله ﴿ حق جهاده ﴾ اي حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه فإضافة الجهاد إلى الله من قبيل التوسعة ولأدنى ملابسة من حيث إن الجهاد فعل لوجهه . وقيل : هو امر بالغزو ، أمروا أن يجاهدوا آخرا

كما جاهدوا أولاً فقد كان جهادهم في الأول أقوى وكانوا فيه أثبت نحو صنيعهم يوم بدر .

وعن عمر أنه قال لعبد الرحمن بن عوف : أما علمت أنا كنا نقرأ ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله ؟ فقال عبد الرحمن : ومتى ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إذا كانت بنو أمية الأمراء وبنو المغيرة الوزراء . قال العلماء : لو صحت هذه الرواية فلعل هذه الزيادة من تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم ليست من نفس القرآن وإلا لتواترت . وإما عبارات المفسرين فعن ابن عباس : حق جهاده أي لا تخافوا في الله لومة لائم . وقال الضحاك : اعملوا لله حق عمله . وقال آخرون : استفرغوا ما في وسعكم في إحياء دين الله وإقامة حدوده باليد واللسان وجميع ما يمكن ، وردوا أنفسكم عن الهوى والميل . وعن مقاتل والكلبي : أن الآية منسوخة بقوله ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن : 16] كما أن قوله ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ [آل عمران : 102] منسوخ بذلك . وضعف بأن التكليف مشروط بالقدرة فلا حاجة إلى التزام النسخ . ثم عظم شأن المكلفين بقوله ﴿ هو اجتباكم ﴾ أي اختاركم لدينه ونصرته وفيه تشريف كقوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ [البقرة : 143] ثم كان لقائل أن يقول : التكليف وإن كان تشريفاً إلا

أن فيه مشقة على النس فقال ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ اي ضيق وشدة وذلك أنه فتح باب التوبة ووسع على المكلفين بأنواع الرخص والكفارات والديات والأروش . يروى أن أبا هريرة قال : كيف قال سبحانه ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ مع أنا منعنا عن الزنا والسرقة ؟ فقال ابن عباس : بلى ولكن الإصر الذي كان علي بني إسرائيل وضع عنكم . قالت المعتزلة : لو خلق الله فيه الكفر ثم نهاه عنه كان ذلك من أعظم الحرج .

وعورض بأنه نهاه عن الكفر مع أنه علم ذلك منه ، وكأنه أمره بقلب علم الله جهلاً وهو أعظم الحرج .

(247/529)

ثم أثنى على هذه الأمة بقوله ﴿ ملة أبيكم ﴾ أي أعني ملة أبيكم ، ويجوز أن ينتصب بمضمون ما تقدم كأنه قيل : وسع دينكم توسعة ملة ابيكم فأقام المضاف إليه مقام المضاف ، وإنما كان إبراهيم أبا هذه الأمة لأنه أبو الرسول صلى الله عليه وسلم وكل نبي أبو أمته . والمراد أن التوحيد والحنيفية هي مما شرعه إبراهيم . ﴿ هو ﴾ أي الله أو إبراهيم ﴾

سماكم المسلمين من قبل ﴾ اي في سائر الكتب أو في قوله ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ [البقرة : 128] ﴿ وفي هذا ﴾ القرآن أما إن كان المسمى هو الله فظاهر ، وأما إن كان هو إبراهيم فلعله أراد أن حكاية دعائه مذكورة في القرآن . وقوله ﴿ ليكون الرسول ﴾ متعلق بقوله ﴿ هو اجتباكم ﴾ اي فضلكم على الأمم لهذا الغرض نظيره قوله في البقرة ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا ﴾ [الآية : 143] والأصل تقديم الأمة كما في " البقرة " لأن الخطاب معهم وليقع الختم على شهادة الرسول كما هو الواقع إلا أنه عكس الترتيب في هذه السورة ليناط به قوله ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ والمراد إذ خصكم بهذه الكرامة فاعبدوه واعتصموا بدلائله العقلية والسمعية أو بألطافه وعنايته . قال ابن عباس : سلوا الله العصمة عن كل المحرمات . وقال آخرون : اجعلوه عصمة لكم مما تحذرون فهو خير مولى وناصر . استدلت المعتزلة بالآية في قولهم إنه يريد الإيمان من الكل من وجوه : الأول أنه أراد أن يكونوا شهداء ولن يكونوا كذلك إلا إذا آمنوا ، الثاني أنه لا يمكن الاعتصام به إلا إذا لم يوجد منه الشر ألبتة . الثالث أنه لو خلق في عبادة الكفر والمعاصي لم يكن نعم المولى . وأجيب بعد تسليم إرادة الإيمان من الكل أن إرادة الشيء إن كانت مستلزمة لإرادة لوازمه فإرادة الإيمان من الكفار تستلزم أن يكون الله تعالى مريداً لجهل نفسه . وإن لم تستلزم فقد سقط السؤال وايضاً الاعتصام به إنما يكون منه كقوله " أعوذ بك منه " وايضاً إنه خلق الشهوة في قلب الفاسق وخلق المشتهي

وقربه منه ودفع المانع وسلط عليه شياطين الإنس والجن ، فلو لم تكن كل هذه مقتضية لكونه بئس المولى لم يكن خلق الكفر أيضاً مقتضياً لذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 104.98 ﴾

(248/529)

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر المقرّر من صفات الله تعالى الذي قصصناه عليك ﴿ ومن عاقب ﴾ أي : جازى من المؤمنين ﴿ بمثل ما عوقب به ﴾ ظلماً من المشركين أي : قاتلهم كما قاتلوه في الشهر الحرام ﴿ ثم بغي عليه ﴾ أي : ظلم بإخراجه من منزله ، قال مقاتل : نزلت في قوم من المشركين أتوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من محرم ، فقال بعضهم لبعض : إنّ أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام ، فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون وكرهوا قتالهم وسألوهم أن يكفوا عن القتال لأجل الشهر الحرام ، فأبى المشركون ، فقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم ، وثبت المسلمون لهم فنصرهم الله تعالى عليهم فذلك قوله تعالى : ﴿ لينصرنّه الله ﴾ أي : الذي لا كفء له ﴿ إنّ الله ﴾ أي : الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ لعفو ﴾ عن المؤمنين ﴿ غفور ﴾ لهم .

فإن قيل : لم سمى ابتداءً فعلهم عقوبة مع أن العقاب من العقب وهو منتف في الابتداء ؟

أجيب : بأنه أطلق عليه ذلك للتعلق الذي بينه وبين الثاني كقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ (الشورى ،)

﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ (النساء ،) ، وكما في قوله : كما تدين تدان .

فإن قيل : كيف طابق ذكر العفو الغفور في هذا الموضع مع أنّ ذلك الفعل جائز للمؤمنين ؛ لأنهم مظلومون ؟

أجيب : بأن المنتصر لما اتبع هواه في الانتقام ، وأعرض عما ندب الله تعالى له بقوله تعالى :

﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ (الشورى ،)

وبقوله تعالى : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ (الشورى ،)

وبقوله تعالى : ﴿ وأن تعفو أقرب للتقوى ﴾ (البقرة ،) ، فكان في إعراضه عما ندب إليه نوع إساءة أدب فكأنه تعالى قال : عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها له ، فإني أنا الذي أذنت له فيها ، وفي ذكر العفو تنبيه على أنه تعالى قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضدّه

﴿ ذلك ﴾ أي : النصر ﴿ بأنّ الله ﴾ أي : المتصف بجميع صفات الكمال ﴿ يولج ﴾ أي : يدخل لأجل مصالح العباد المسيء والمحسن ﴿ الليل في النهار ﴾ فيمحو ظلامه بضيائه ، ولو شاء الله تعالى مؤاخذة الناس لجعله سرمداً فتعطلت مصالح النهار ﴿ ويولج النهار في الليل ﴾ فينسخ ضياءه بظلامه ولولا ذلك لتعطلت مصالح الليل ، أو بأنّ يدخل كلاً منهما في الآخر فيزيد به وذلك من أثر قدرته التي بها النصر ﴿ وأنّ الله ﴾ بجلاله وعظمته ﴿ سميع ﴾ لكل ما يقال ﴿ بصير ﴾ لكل ما يفعل ، دائم الاتصاف بذلك ، فهو غير محتاج إلى سكون الليل ليسمع ، ولا لضياء النهار ليبصر ؛ لأنه سبحانه وتعالى منزه عن الأغراض ، ولما وصف تعالى نفسه بما ليس لغيره علله بقوله تعالى:

﴿ ذلك ﴾ أي : الاتصاف بتمام القدرة وشمول العلم ﴿ بأنّ الله ﴾ أي : القادر على كل ما أراد ﴿ هو ﴾ وحده ﴿ الحق ﴾ أي : الثابت الواجب الوجود ﴿ وأنّ ما يدعون ﴾ أي : يعبد المشركون ﴿ من دونه ﴾ وهو الأصنام ﴿ هو الباطل ﴾ الزائل ، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة بالتاء على الخطاب للمشركين ، والباقون بالياء على الغيبة ، وأنّ هذه مقطوعة من ما في الرسم ﴿ وأنّ الله ﴾ لكونه هو الحق الذي لا كفء له ﴿ هو ﴾ وحده ﴿ العليّ ﴾ أي : العالي على كل شيء بقدرته ﴿ الكبير ﴾ وكل ما سواه سافل حقير تحت قهره وأمره ، ثم إنه سبحانه وتعالى استدل على كمال قدرته بأمور ستة:

الأول : قوله تعالى:

﴿ ألم ترَ ﴾ أي : أيها المخاطب ﴿ أنّ الله ﴾ أي : المحيط قدرة وعلماً ﴿ أنزل من السماء ماءً ﴾ أي : مطراً بأنّ يرسل رياحاً فتثير سحاباً ، فيمطر على الأرض الماء ﴿ فتصبح الأرض ﴾ أي : بعد أنّ كانت مسودّة يابسة ميتة جامدة ﴿ مخضرة ﴾ حية يانعة مهتزة نامية بما فيه رزق العباد وعمارة البلاد فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿ فتصبح ﴾ ، ولم يقل : فأصبحت ؟

(250/529)

أجيب : بأنّ ذلك لنكتة وهي إفادة بقاء المطر زماناً بعد زمان كما تقول : أنعم عليّ فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكراً له ، ولو قلت : فرحت وغدوت شاكراً له لم يقع ذلك الموقع .

فإن قيل : لم رفع ولم ينصب جواباً للاستفهام ؟

أجيب : بأنه لو نصب لأعطى عكس ما هو الغرض ؛ لأنّ معناه أنبتت الأخضر فينقلب بالنصب إلى نفي الأخضر ، ووجه ذلك : بأنّ النصب بتقدير أنّ وهو علم للاستقبال فيجعل الفعل مترقباً والرفع جزم بإثباته مثاله أنّ تقول لصاحبك : ألم ترَ أني أنعمت عليك فتشكر ، فإن نصبته فأنت ناف لشكره شاك في تفريطه فيه ، وإن رفعته فأنت مثبت لشكره ، وهذا وأمثاله مما يجب أنّ يتنبه له من اتسم بالعلم في علم الإعراب ، وتوقير أهله

﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له تمام النعم وكمال العلم ﴿ لطيف ﴾ بعباده في إخراج النبات بالماء ﴿ خبير ﴾ أي : بمصالح الخلق ومنافعهم ، فإنه مطلع على السرائر ، وإن دقت فلا يستبعد عليه إحياء من أراد بعد موته ، وقال ابن عباس : لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط .

الأمر الثاني : قوله تعالى:

﴿ له ما في السموات ﴾ أي : التي أنزل منها الماء ﴿ وما في الأرض ﴾ أي : التي استقر فيها ملكاً وخلقاً ﴿ وإنّ الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة التامة ﴿ لهو ﴾ أي : وحده ﴿ الغني ﴾ في ذاته عن كل شيء ﴿ الحميد ﴾ أي : المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله .

الأمر الثالث : قوله تعالى:

﴿ ألم ترَ ﴾ أي : أيها المخاطب ﴿ أنّ الله ﴾ ذا الجلال والإكرام ﴿ سخر لكم ﴾ فضلاً منه ﴿ ما في الأرض ﴾ كله من مسالكها وفجاجها ، وما فيها من حيوان وجماد وزرع وثمار ، فلولا تسخيره تعالى الإبل والبقر مع قوتهما حتى ذللهما للضعيف من الناس لما انتفع بهما أحد منهم .

الأمر الرابع : قوله تعالى : ﴿ والفلك ﴾ أي : وسخر لكم الفلك أي : السفن ، ثم بيّن تسخيرها بقوله : ﴿ تجري في البحر ﴾ العجاج المتلاطم بالأمواج بريح طيبة للركوب والحمل ﴿ بأمره ﴾ أي : بإذنه .

الأمر الخامس : قوله تعالى : ﴿ ويمسك السماء ﴾ أي : كراهة ﴿ أنّ تقع على الأرض ﴾ التي تحتها مع علوها وعظمها وكونها بغير عمد فتهلكوا ﴿ إلا بإذنه ﴾ أي : بمشيئته ، فيقع ذلك يوم القيامة حين يريد طي هذا العالم وإيجاد عالم البقاء ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له الخلق والأمر ﴿ بالناس ﴾ أي : على ظلمهم ﴿ لرؤوف ﴾ أي : بما يحفظ من سرائرهم ﴿ رحيم ﴾ أي : حيث هيأ لهم أسباب الاستدلال وفتح لهم أبواب المنافع ، ودفع عنهم أبواب المضار .

﴿ وهو ﴾ أي : وحده ﴿ الذي أحياكم ﴾ أي : عن الجمادية بعد أنّ أوجدكم من العدم ﴿ ثم يميتكم ﴾ أي : عند انقضاء آجالكم ليكون الموت واعظاً لأولي البصائر منكم ﴿ ثم يحييكم ﴾ أي : يوم البعث للثواب والعقاب وإظهار العدل في الجزاء ﴿ إن الإنسان ﴾ أي : المشرك ﴿ لكفور ﴾ أي : لبليغ الكفر حيث لم يشكر على هذه النعم المحيطة به فيوحد الله تعالى ، وقال ابن عباس : هو الأسود بن عبد الأسد ، وأبو جهل ، والعاص بن وائل ، وأبيّ بن خلف ، قال الرازي : والأولى تعميمه في كل المنكرين .

﴿ لكل أمة ﴾ أي : في كل زمان ﴿ جعلنا منسكاً ﴾ قال ابن عباس : شريعة يتعبدن بها ﴿ هم ناسكوه ﴾ أي : عاملون بها ، وروي عنه أنه قال : عيداً ، وقال مجاهد وقتادة : موضع قربان يذبحون فيه ، وقيل : موضع عبادة ، وقرأ حمزة والكسائي : منسكاً ، بكسر السين ، والباقون بفتحها ﴿ فلا ينازعنك في الأمر ﴾ أي : أمر الذبائح ، نزلت في بديل بن ورقاء ، وبشر بن سفيان ، ويزيد بن خنيس قالوا لأصحاب النبيّ : صلى الله عليه وسلم ما لكم تأكلون مما تقتلون ، ولا تأكلون مما قتله الله تعالى ؟ يعنون الميتة ، وقال الزجاج : هو نهي له صلى الله عليه وسلم عن منازعتهم كما تقول : لا يضاربنك فلان أي : فلا تضاربه ، وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون إلا بين اثنين معناه لا تنازعهم أنت ﴿ وادع ﴾ أي : أوقع الدعوة لجميع الخلق ﴿ إلى ربك ﴾ المحسن إليك أي : إلى دينه ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنك ﴾ مؤكداً له بحسب ما عندهم من الإنكار ﴿ لعلى هدى ﴾ أي : دين واضح ﴿ مستقيم ﴾ هو دين الإسلام .

﴿ وإن جادلوك ﴾ أي : في أمر الدين بعد أنّ ظهر الحق ولزمت الحجة ﴿ فقل الله ﴾ أي : الملك المحيط بالعز والعلم ﴿ أعلم بما تعملون ﴾ من المجادلة الباطلة وغيرها ، فيجازيكم عليه وهذا وعيد فيه رفق ، وكان ذلك قبل الأمر بالقتال ، ولما أمر الله تعالى بالإعراض عنهم ، وكان ذلك شديداً على النفس لتشوقها إلى النصرة رجاه في ذلك بقوله تعالى

مستأنفاً تحذيراً لهم:

﴿ الله ﴾ أي : الذي لا كفء له ﴿ يحكم بينكم ﴾ أي : بينك مع اتباعك وبينهم ﴿ يوم القيامة ﴾ الذي هو يوم التغابن ﴿ فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ من أمر الدين ومن نصر ذلك اليوم لم يبال بما حلّ به ، فهو كقوله : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ (الشعراء ،)

؛ قال البغوي : والاختلاف ذهاب كل واحد من الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر .

(253/529)

﴿ ألم تعلم أنّ الله ﴾ بجلال عزه وعظيم سلطانه ﴿ يعلم ما في السماء والأرض ﴾ فلا يخفى عليه شيء ﴿ إن ذلك ﴾ أي : ما ذكر ﴿ في كتاب ﴾ كتب فيه كل شيء حكم بوقوعه قبل وقوعه ، وكتب جزاؤه وهو اللوح المحفوظ ﴿ إن ذلك ﴾ أي : علم ما ذكر ﴿ على الله ﴾ وحده ﴿ يسير ﴾ أي : سهل ؛ لأنّ علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على السواء .

﴿ ويعبدون ﴾ أي : المشركون على سبيل التجدّد والاستمرار ﴿ من دون الله ﴾ أي : من أدنى رتبة من رتبه الذي قامت جميع الدلائل على احتوائه على جميع صفات الكمال

وتنزيهه عن شوائب النقص ﴿ ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ أي : حجة واحدة من الحجج وهو الأصنام ﴿ وما ليس لهم به علم ﴾ حصل لهم من ضرورة العقل واستدلاله بالحجة ﴿ وما للظالمين ﴾ أي : الذين وضعوا التعبد في غير موضعه لارتكابهم لهذا الأمر العظيم الخطر ، وأكد النفي واستغرق المنفي بإثبات الجار ، فقال تعالى : ﴿ من نصير ﴾ أي : ينصرهم من الله لا مما أشركوه به ولا من غيره فيدفع عنهم عذابه أو يقرّر مذهبهم .

(254/529)

﴿ وإذا تتلى ﴾ أي : على سبيل التحذير والمبالغة من أيّ تال كان ﴿ عليهم آياتنا ﴾ أي : من القرآن حال كونها ﴿ بينات ﴾ لا خفاء فيها عند من له بصيرة في شيء مما دعت إليه من الأصول والفروع ﴿ تعرف في وجوه الذين كفروا ﴾ أي : تلبسوا بالكفر ﴿ المنكر ﴾ أي : الإنكار الذي هو منكر في نفسه ، فيظهر أثره في وجوههم من الكراهة والعبوس لما حصل لهم من الغيظ ، ثم بيّن ما لاح في وجوههم بقوله تعالى : ﴿ يكادون يسطون ﴾ أي : يوقعون السطوة بالبطش والعنف ﴿ بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ أي : الدالة على أسمائنا الحسنى وصفاتنا العليا القاضية بوحدانيتنا مع كونها بينات في غاية الوضوح في أنها كلامنا لما فيها من الحكم والبلاغة التي عجزوا عنها ، ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم

أنّ يقابلهم بالوعيد بقوله تعالى: ﴿قل أفأنبئكم﴾ أي: أفأخبركم خبراً عظيماً ﴿بشر من ذلكم﴾ بأكره إليكم من القرآن المتلوّ عليكم، وقوله تعالى: ﴿النار﴾ كأنه جواب سائل قال: ما هو؟ فقيل: النار، أي: هو النار، ويجوز أنّ تكون مبتدأ خبره ﴿وعدها الله الذين كفروا﴾ جزاء لهم فبئس الموعد هي ﴿وبئس المصير﴾ أي: النار، ولما بين تعالى أنه لا حجة لعابد غيره اتبعه بأنّ الحجة قائمة على أنّ ذلك الغير في غاية الحقارة، فقال تعالى منادياً أهل العقل منبهاً تنبيهاً عاماً:

﴿يا أيها الناس ضرب مثل﴾ حاصله أنّ من عبدتموه من الأصنام أحقر منكم ﴿فاستمعوا﴾ أي: أنصتوا ﴿له﴾ وتدبروه، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿إن الذين تدعون﴾ أي: تعبدون وتدعونهم في حوائجكم وتجعلونهم آلهة ﴿من دون الله﴾ أي: الملك الأعلى من هذه الأصنام التي أنتم بها مغترّون ﴿لن يخلقوا ذباباً﴾ أي: لا قدرة لهم على ذلك في زمن من الأزمان على حال من الأحوال مع صغره فكيف بما هو أكبر منه ﴿ولو اجتمعوا﴾ أي: الذين زعمتموهم شركاء ﴿له﴾ أي: الخلق فهم في هذا أمثالكم.

(255/529)

تنبيه : ﴿ محل ولو اجتمعوا له ﴾ النصب على الحال كأنه قال تعالى : يستحيل أنّ يخلقوا الذباب مشروطاً عليهم اجتماعهم لخلقه وتعاونهم عليه ، وهذا من أبلغ ما أنزل الله تعالى في تجهيل قريش واستركاك عقولهم ، والشهادة على أنّ الشيطان قد خدعهم بخداعه حيث وصفوا بالإلهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها والإحاطة بالمعلومات عن آخرها صوراً وتماثيل يستحيل منها أنّ تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله وأصغره وأحقره ، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم أنّ هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أنّ يستخلصوه منه لم يقدروا كما قال تعالى : ﴿ وإن يسلبهم الذباب ﴾ أي : الذي تقدّم أنهم لا قدرة لهم على خلقه ، وهو غاية في الحقارة ﴿ شيئاً ﴾ أي : من الأشياء جل أو قل ﴿ لا يستنقذوه منه ﴾ لعجزهم ، فكيف يجعلونهم شركاء لله ؟ هذا أمر مستغرب عبر عنه بضرب مثل .

تنبيه : الذباب مفرد وجمعه القليل : أذبة ، والكثير : ذبان مثل غراب وأغربة وغربان ، وعن ابن عباس أنهم كانوا يطلون الأصنام بالزعفران ورؤوسها بالعسل ، ويغلقون عليها الأبواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله . وعن ابن زيد : كانوا يحلون الأصنام باليواقيت واللآلىء ، وأنواع الجواهر ويطيبونها بألوان الطيب فربما يسقط شيء منها فيأخذه طائر أو ذباب فلا تقدر الآلهة على استرداده منه ﴿ ضعف الطالب ﴾ قال الضحاك : هو العابد ﴿ والمطلوب ﴾ المعبود ، وقال ابن عباس : الطالب الذباب يطلب ما يسلب من الطيب

الذي على الصنم ، والمطلوب هو الصنم ، وقيل : على العكس الطالب الصنم ، والمطلوب الذباب ، أي : لو طلب الصنم أنّ يخلق الذباب لعجز عنه ، ولما أنتج هذا جهلهم بالله عز وجل عبّر عنه بقوله تعالى:

(256/529)

﴿ ما قدروا الله ﴾ أي : الذي له الكمال كله ﴿ حق قدره ﴾ أي : ما عظموه حق تعظيمه ، وما عرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق صفته حيث أشركوا به ما لا يمتنع عن الذباب ولا ينتصف منه ﴿ إنّ الله ﴾ أي : الجامع لصفات الكمال ﴿ لقويّ ﴾ على خلق الممكنات بأسرها ﴿ عزيز ﴾ أي : لا يغلبه شيء وآلهتهم التي يعبدونها عاجزة عن أقلها مقهورة من أذلها ؛ قال الكلبي في هذه الآية وفي نظيرها في سورة الإنعام أنها نزلت في جماعة من اليهود مالك بن الصيف ، وكعب بن الأشرف ، وكعب بن أسد ، وغيرهم حيث قالوا : إنّ الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض وأجناس خلقها استلقى واستراح ووضع إحدى رجليه على الأخرى فنزلت هذه الآية تكذيباً لهم ، ونزل قوله تعالى : ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ (ق ،)

؛ قال الرازي : واعلم أنّ منشأ هذه الشبهة هو القول بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله تعالى

عن مشابهة سائر الذوات خلاف ما يقوله المشبهة ، وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات خلاف ما يقوله الكرامية ، وتنزيه أفعاله عن مشابهة سائر الأفعال أعني عن الغرض والدواعي واستحقاق المدح والذم خلاف ما يقوله المعتزلة ، قال أبو القاسم الأنصاري رحمه الله تعالى : فهو سبحانه وتعالى خير النعت عزيز الوصف ، فالأوهام لا تصوّره والأفكار لا تقدره ، والعقول لا تمثله والأزمنة لا تدركه والجهات لا تحويه ولا تحدّه ، صمديّ الذات سرمديّ الصفات . ٧

ولما ذكر سبحانه وتعالى ما يتعلق بالإلهيات ذكر ما يتعلق بالنبوّات بقوله تعالى:

﴿ الله ﴾ أي : الملك الأعلى ﴿ يصطفي ﴾ أي : يختار ويختص ﴿ من الملائكة رسلاً ﴾ كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم الصلاة والسلام ﴿ ومن الناس ﴾ كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم نزلت حين قال المشركون : ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ (ص ،)

فأخبر تعالى أنّ الاختيار إليه يختار من يشاء من خلقه ﴿ إنّ الله ﴾ أي : الذي له الجلال والجمال ﴿ سميع ﴾ لمقالتهم ﴿ بصير ﴾ بمن يتخذه رسولاً .

(257/529)

﴿ يعلم ما بين أيديهم ﴾ أي : الرسل ﴿ وما خلفهم ﴾ أي : علمه محيط بما هم مطلعون عليه ، وبما غاب عنهم ، فلا يفعلون شيئاً إلا بإذنه ﴿ وإلى الله ﴾ أي : وحده تعالى ﴿ ترجع ﴾ بغاية السهولة ﴿ الأمور ﴾ يوم يتجلى لفصل القضاء فيكون أمره ظاهراً لا خفاء فيه ، ولا يصدر شيء من الأشياء إلا على وجه العدل الظاهر لكل أحد ، ولا يكون لأحد التفات إلى غيره ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بفتح التاء وكسر الجيم ، والباقون بضم التاء وفتح الجيم ، ولما أثبت سبحانه وتعالى أنّ الملك والأمر له وحده خاطب المقبلين على دينه وهم الخلص من الناس بقوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي : تلبسوا بالإيمان ﴿ اركعوا ﴾ تصديقاً لإيمانكم ﴿ واسجدوا ﴾ أي : صلوا الصلاة التي شرعتها لكم فإنها رأس العبادة ليكون دليلاً على صدقكم في الإقرار بالإيمان .

(258/529)

تنبيه : إنما خص هذين الركنين في التعبير عن الصلاة لأنهما لمخالفتهما الهيئات المعتادة هما الدالان على الخضوع ، فحسن التعبير بهما ، وذكر عن ابن عباس أنّ الناس كانوا في أوّل الإسلام يركعون ولا يسجدون ، وقيل : كان الناس أوّل ما أسلموا يسجدون بلا ركوع

ويركعون بلا سجود حتى نزلت هذه الآية ، ولما خص أفضل العبادة عمم بقوله تعالى : ﴿ واعبدوا ﴾ أي : بأنواع العبادة ﴿ ربكم ﴾ أي : المحسن إليكم بكل نعمة دينية ودنيوية ، ولما ذكر عموم العبادة أتبعها ما قد يكون أعم منها مما صورته صورتها ، أو قد يكون بلا نية ، فقال : ﴿ وافعلوا الخير ﴾ أي : كله من القرب كصلة الأرحام وعيادة المريض ونحو ذلك من معالي الأخلاق بنية وبغير نية حتى يكون لكم ذلك عادة فيخف عليكم عمله لله تعالى ؛ قال أبو حيان : بدأ تعالى بخاص وهو الصلاة ، ثم بعام وهو : واعبدوا ربكم ، ثم بأعمّ وهو : وافعلوا الخير ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي : افعلوا هذا كله وأنتم راجون الفلاح وهو الفوز بالبقاء في الجنة طامعون فيه غر مستيقنين ، ولا تتكلوا على أعمالكم ، وقال الإمام أبو القاسم الأنصاريّ : لعل كلمة ترج تشعر بأنّ الإنسان قلما يخلو في أداء فريضة من تقصير ، وليس هو على يقين من أنّ الذي أتى به مقبول عند الله والعواقب مستورة وكلٌّ ميسر لما خلق له .

(259/529)

تنبيه : اختلف في سجود التلاوة عند قراءة هذه الآية فذهب قوم إلى أنه يسجد عندها ، وهو قول عمر وعليّ وابن عمر وابن مسعود وابن عباس ، وبه قال ابن المبارك والشافعي

وأحمد وإسحاق لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود وقول البيضاوي ولقوله صلى الله عليه وسلم "فضلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما فلا يقرأهما" حديث ضعيف رواه الترمذي وضعفه ، وذهب قوم إلى أنه لا يسجد وهو قول سفيان الثوري ، وقول أبي حنيفة وأصحابه ؛ لأنهم يقولون : قرن السجود بالركوع في ذلك ، فدل ذلك على أنها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة ، ولما كان الجهاد أساس العبادة وهو مع كونه حقيقة في جهاد الكفار صالح لأنّ يعم كل أمر بمعروف ونهي عن منكر بالمال والنفس بالقول والفعل ، بالسيف وغيره وكل جهاد في تهذيب النفس وإخلاص العمل ختم به فقال تعالى:

﴿ وجاهدوا في الله ﴾ أي : لله ومن أجله أعداء دينه الظاهرة كأهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس ، وقول البيضاوي : وعنه عليه الصلاة والسلام أنه رجع من غزوة تبوك فقال : "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" . حديث رواه البيهقي وضعف إسناده ، وقال غيره : لا أصل له ، قيل : أراد بالأصغر جهاد الكفار وبالأكبر جهاد النفس ﴿ حق جهاده ﴾ أي : باستفراغ الطاقة في كل ما أمر به من جهاد العدوّ والنفس على الوجه الذي أمر به من الحج والغزو وغيرهما .

فإن قيل : ما وجه هذه الإضافة ، وكان القياس في حق الجهاد في الله أو حق جهادكم في الله ، كما قال تعالى : ﴿ وجاهدوا في الله ﴾ ؟

أجيب : بأنّ الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص ، فلما كان الجهاد مختصاً بالله من حيث أنه مفعول لأجله صحت إضافته إليه ، وعن مجاهد عن الكلبي أنّ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ (التغابن ،) ، ولما أمر الله تعالى بهذه الأوامر أتبعها ببعض ما يجب به شكره وهو كالتعليل لما قبله فقال تعالى : ﴿ هو اجتباكم ﴾ أي : اختاركم لدينه ولنصرته ، وجعل الرسالة فيكم والرسول منكم وجعله أشرف الرسل ، ودينه أشرف الأديان ، وكتابه أعظم الكتب ، وجعلكم لكونكم أتباعه خير الأمم ﴿ وما جعل عليكم في الدين ﴾ أي : الذي اختاره لكم ﴿ من حرج ﴾ أي : من ضيق وشدّة وهو أنّ المؤمن لا يبتلى بشيء من الذنوب إلا جعل الله تعالى له منه مخرجاً بعضها بالتوبة وبعضها بردّ المظالم والقصاص ، وبعضها بأنواع الكفارات من الأمراض والمصائب وغير ذلك ، فليس في دين الإسلام ما لا يجد العبد سبيلاً إلى الخلاص من الذنوب ومن العقاب لمن وفقه الله تعالى وسهله عند الضرورات كالقصر والتيمم وأكل الميتة والفطر للمريض والمسافر ، وغير ذلك ؛ قال صلى الله عليه وسلم "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" رواه البخاري ، وعن ابن عباس أنه قال : الحرج ما كان على بني إسرائيل من الآصار التي كانت عليهم وضعها الله تعالى عن هذه الأمة ، وقوله تعالى : ﴿ ملة أبيكم ﴾ نصب بنزع الخافض وهو الكاف أو على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبله بحذف

المضاف أي : وسع دينكم توسعة ملة أبيكم أو على الإغراء أي : اتبعوا ملة أبيكم ، أو على الاختصاص أي : أعني بالدين ملة أبيكم كقولك : الحمد لله الحميد ، وقوله تعالى : ﴿ إبراهيم ﴾ عطف بيان .

فإن قيل : لم كان إبراهيم أباً للأمة كلها ؟

(261/529)

أجيب : بأنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أباً لأمّته ؛ لأنّ أمّة الرسول في حكم أولاده . واختلف في عود ضمير ﴿ هو ﴾ على قولين أحدهما أنه يعود على إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وأنّ لكل نبيّ دعوة مستجابة ، ودعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ ، فاستجاب الله تعالى له فجعلها محمداً صلى الله عليه وسلم وأمّته ، والثاني : أنه يعود على الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ هو اجتباكم ﴾ ، وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال إن الله تعالى ﴿ سمّاكم المسلمين من قبل ﴾ أي : في كل الكتب المنزلة التي نزلت قبل إنزال هذا القرآن ﴿ وفي هذا ﴾ أي : وسماكم في هذا القرآن الذي أنزل عليكم من بعد إنزال تلك الكتب ، وهذا القول كما قال الرازي : أقرب لأنه تعالى قال : ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم ﴾ أي : يوم القيامة أنه

بلغكم ﴿ وتكونوا شهداء على الناس ﴾ أي : أنّ رسلهم بلغتهم ، فبيّن أنه تعالى سمّاهم بذلك لهذا الغرض ، وهذا لا يليق إلا بالله تعالى ، وإنما كانوا شهداء على الناس لسائر الأنبياء ؛ لأنهم لم يفرقوا بين أحد منهم وعلموا أنّ أخبارهم من كتابهم على لسان نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم فلذلك صحت شهادتهم وقبلها الحكم العدل وعن كعب أعطيت هذا الأمة ثلاثاً لم يعطهن إلا الأنبياء : جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم في الدين من حرج ، وقال تعالى : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ ، وعن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال : لم يذكر الله بالإيمان والإسلام غير هذه الأمّة ذكرها بهما وكرّرهما جميعاً ، ولم يسمع بأمة ذكرت بالإسلام والإيمان غيرها وعن مكحول أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "تسمى الله عز وجل باسمين سمى بهما أمّتي ؛ هو السلام وسمى أمتي المسلمين ، وهو المؤمن وسمى أمتي المؤمنين" .

(262/529)

تنبيه : في الآية دليل على أنّ شهادة غير المسلم ليست مقبولة ، ولما ندبهم تعالى ليكونوا خير الأمم تسبب عن ذلك قوله تعالى : ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ التي هي أركان قلوبكم وصلة ما بينكم وبين ربكم أي : داوموا عليها ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ التي هي طهرة أبدانكم ، وصلة

بينكم وبين إخوانكم ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال في جميع ما أمركم به من المناسك التي تقدمت وغيرها ، ثم علل تعالى أهليته بقوله تعالى : ﴿ هو ﴾ أي : وحده ﴿ مولاكم ﴾ أي : المتولي لجميع أموركم فهو ينصركم على كل من يعاديكم بحيث أنّ تتمكنوا من إظهار هذا الدين من مناسك الحج وغيرها ، ثم علل الأمر بالاعتصام وتوحده بالولاية بقوله تعالى : ﴿ فنعم المولى ﴾ أي : هو ﴿ ونعم النصير ﴾ أي : الناصر لكم لأنه تعالى إذا تولى أحداً كفاه كل ما أهمه وإذا نصر أحد أعلاه عن كل من خاصمه "ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببت الحديث إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، وهذا نتيجة التقوى ، وما قبله من أفعال الطاعة دليلها فقد انطبق آخر السورة على أوّلها ورد مقطعها على مطلعها ، وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة الحج أعطي من الأجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 4 صـ 313 . 323 ﴾

(263/529)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) ﴾

انتهى الدرس الماضي ببيان عاقبة المؤمنين والمكذبين يوم يكون الملك لله وحده . وذلك في سياق نصرة الله لرسله ، وصيانته لدعوته ، وثوابه لمن يؤمن بها ، وعقابه لمن يكذبها .

فالآن يبدأ هذا الدرس بالحديث عن المهاجرين ، بعدما سبق الإذن لهم بالقتال ، دفاعاً عن عقيدتهم ، وعن عبادتهم ، ودفعاً للظلم عن أنفسهم ، وقد أخرجوا من ديارهم بغير حق ، ولم تكن جريرتهم إلا أن يقولوا : ربنا الله ، ويبين ما أعده لهم من عوض عما تركوا من ديار وأموال . .

ثم يتحدث بصفة عامة في صورة حكم عام عمن يقع عليهم الاعتداء فيردون عليه بمثله ، ثم يقع عليهم البغي والعدوان ، فيعدهم نصر الله في صيغة التوكيد .

ويعقب على هذا الوعد الوثيق باستعراض دلائل القدرة التي تضمن تحقيق ذلك الوعد الوثيق . . وهي دلائل كونية تتجلى في صفحات الكون ونواميس الوجود ؛ وتوحي بأن نصر الله للمظلومين الذين يدفعون عن أنفسهم ، ويعاقبون بمثل ما وقع عليهم ، ثم يقع عليهم البغي . . سنة كونية ترتبط بنواميس الوجود الكبرى . .

وعندئذ يتوجه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن لكل أمة منهجاً هي

مأمورة به ومهيأة لنهجه ، فلا يشغل نفسه بجدال المشركين ، ولا يدع لهم فرصة لينازعوه في منهجه . فإن جادلوه فليكل أمرهم إلى الله ، الذي يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، فهو أعلم بحقيقة ما هم عليه ، وهو الذي يعلم ما في السماء والأرض .

ويعرّض بعبادتهم ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم ؛ وبقسوة قلوبهم ونفورهم من سماع كلمة الحق ، حتى ليكادون يبطشون بالذين يتلون عليهم آيات الله . ويهددهم إزاء همهم بالسطو على دعاة الحق بالنار التي جعلها الله مصيرهم ووعدهم بها وعداً لا بد آت !

(264/529)

ثم يعلن في صورة بيان عام شامل للخليقة عن ضعف من يدعونهم من دون الله . ويصور ضعفهم في صورة زرية لا مبالغة فيها . ولكنها بطريقة عرضها تجسم الضعف المزري .

فهي صورة من لا يقدرون على منازلة الذباب ، ولا على استنقاذ ما يسلبهم إياه الذباب . . وهم آلهة كما يدعي لهم المشركون !

وينتهي الدرس وتنتهي السورة معه بتوجيه الخطاب إلى الأمة المؤمنة لتنهض بتكاليفها .

وهي تكاليف الوصاية على البشرية . مستعدة لها بالركوع والسجود والعبادة وفعل الخير ،

مستعينة عليها بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله . .

﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ، ثم قتلوا أو ماتوا ، ليرزقنَّهم الله رزقاً حسناً ، وإن الله لهو خير الرازقين . ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ، وإن الله لعليم حليم ﴾ . .

والهجرة في سبيل الله تجرد من كل ما تهفو له النفس ، ومن كل ما تعتز به وتحرص عليه : الأهل والديار والوطن والذكريات ، والمال وسائر أعراض الحياة .

وإيثار العقيدة على هذا كله ابتغاء رضوان الله ، وتطلعاً إلى ما عنده وهو خير مما في الأرض جميعاً .

والهجرة كانت قبل فتح مكة وقيام الدولة الإسلامية . أما بعد الفتح فلم تعد هجرة . ولكن جهاد وعمل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فمن جاهد في سبيل الله وعمل كان له حكم الهجرة ، وكان له ثوابها " .

(265/529)

﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ﴾ . . سواء لاقوا الله شهداء بالقتل ، أو لاقوه على فراشهم بالموت . فلقد خرجوا من ديارهم وأموالهم في سبيله مستعدين لكل مصير ، واستروحوا الشهادة في هجرتهم عن أي طريق ، وضحوا

بكل عرض الحياة وتجردوا بهذا الله . فتكفل الله لهم بالعوض الكريم عما فقدوه : ﴿ ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ، وإن الله لهو خير الرازقين ﴾ . . وهو رزق أكرم وأجزل من كل ما تركوا : ﴿ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ﴾ فقد خرجوا مخرجاً يرضي الله ، فتعهد لهم الله بأن يدخلهم مدخلاً يرضونه . وإنه لمظهر لتكريم الله لهم بأن يتوخى ما يرضونه فيحققه لهم ، وهم عباده ، وهو خالقهم سبحانه . ﴿ وإن الله لعليم حليم ﴾ . . عليم بما وقع عليهم من ظلم واذى ، وبما يرضي نفوسهم ويعوضها . حليم يمهل . ثم يوفي الظالم والمظلوم الجزاء الأوفى . .

فأما الذين يقع عليهم العدوان من البشر فقد لا يحلمون ولا يصبرون ، فيردون العدوان ، ويعاقبون بمثل ما وقع عليهم من الأذى . فإن لم يكف المعتدون ، وعاودوا البغي على المظلومين تكفل الله عندئذ بنصر المظلومين على المعتدين :

﴿ ذلك . ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله . إن الله لعفو غفور ﴾ وشرط هذا النصر أن يكون العقاب قصاصاً على اعتداء لا عدواناً ولا تبطراً ؛ وألا يتجاوز العقاب مثل ما وقع من العدوان دون مغالاة .

ويعقب على رد الاعتداء بمثله بأن الله عفو غفور . فهو الذي يملك العفو والمغفرة . أما البشر فقد لا يعفون ولا يغفرون ، وقد يؤثرون القصاص ورد العدوان . وهذا لهم بحكم بشريتهم ولهم النصر من الله .

بعد ذلك يربط السياق بين وعد الله بالنصر لمن يعاقب بمثل ما عوقب به ثم يقع عليه البغي . . يربط بين هذا الوعد وسنن الله الكونية الكبرى ، التي تشهد بقدرة الله على تحقيق وعده ، كما تشهد بدقة السنن الكونية المطردة مما يوحي بأن ذلك النصر هو إحدى هذه السنن التي لا تتخلف .

﴿ ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، وأن الله سميع بصير ﴾ . . وهي ظاهرة طبيعية تمر بالبشر صباحاً ومساء ، وصيفاً وشتاء . الليل يدخل في النهار عند المغيب ، والنهار يدخل في الليل عند الشروق .

والليل يدخل في النهار وهو يطول في مدخل الشتاء ، والنهار يدخل في الليل وهو يمتد عند مطلع الصيف . . ويرى البشر هذه الظاهرة وتلك من إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل فينسيهم طول رؤيتها وطول ألفتها ما وراءها من دقة النواميس واطرادها . فلا تختل مرة ، ولا تتوقف مرة . وهي تشهد بالقدرة الحكيمة التي تصرف هذا الكون وفق تلك النواميس .

والسياق يوجه النظر إلى تلك الظاهرة الكونية المكرورة التي يمر عليها الناس غافلين . ليفتح

بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة ، وهي تطوي النهار من جانب وتسدل الليل من جانب . . وهي تطوي الليل من جانب وتنشر النهار من جانب . في دقة عجيبة لا تختل ، وفي اطراد عجيب لا يتخلف . . وكذلك نصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يدفع عن نفسه العدوان . . إنه سنة مطردة كسنة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل . فكذلك يزوي الله سلطان المتجبرين وينشر سلطان العادلين . فهي سنة كونية كتلك السنة ، يمر عليها الناس غافلين ، كما يمرون على دلائل القدرة في صفحة الكون وهم لا يشعرون !

ذلك مرتبط بأن الله هو الحق . فالحق هو المسيطر على نظام هذا الكون . وكل ما دون الله باطل يختل ويتخلف ولا يطرد أو يستقيم .

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾ . .

(267/529)

وذلك تعليل كاف وضمان كاف لانتصار الحق والعدل ، وهزيمة الباطل والبغي . وهو كذلك ضمان لاطراد سنن الكون وثباتها ، وعدم تخلخلها أو تخلفها . ومن هذه السنن انتصار الحق وهزيمة البغي .

والله أعلى من الطغاة ، وأكبر من الجبارين : ﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾ . . فلن يدع البغي يستعلي والظلم يستطيل .

ويستطرد السياق في استعراض دلائل القدرة في مشاهد الكون المعروضة للناس في كل حين :

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فتصبح الأرض مخضرة ؟ إن الله لطيف خبير ﴾ .

ونزول الماء من السماء ، ورؤية الأرض بعده مخضرة بين عشية وصباح . . ظاهرة واقعة مكرورة . قد تذهب الألفة بجدتها في النفوس . فأما حين يتفتح الحس الشاعر ، فإن هذا المشهد في الأرض يستجيش في القلب شتى المشاعر والأحاسيس . وإن القلب ليحس أحياناً أن هذا النبت الصغير الطالع من سواد الطين ، بخضرته وغضارته ، أطفال صغار تبسم في غرارة لهذا الوجود الشائق البهيج ، وتكاد من فرحتها بالنور تطير !

والذي يحس على هذا النحو يستطيع أن يدرك ما في التعقيب بقوله : ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ . . من لطف وعمق ومشاكلة للون هذا الإحساس ، ولحقيقة ذلك المشهد وطبيعته . فمن اللطف الإلهي ذلك الدبيب اللطيف . دبيب النبتة الصغيرة من جوف الثرى ، وهي نحيلة ضئيلة ، ويد القدرة تمدها في الهواء ، وتمدها بالشوق إلى الارتفاع على جاذبية الأرض وثقلة الطين .

. وبالخبرة الإلهية يتم تدبير الأمر في إنزال الماء بقدر في الوقت المناسب وبالقدر المطلوب

ويتم امتزاج الماء بالتربة ، وبخلايا النبات الحية المتطلعة إلى الانطلاق والنور !

والماء ينزل من سماء الله إلى أرضه ، فينشئ فيها الحياة ، ويوفر فيها الغذاء والثراء . . والله المالك لما في السماء والأرض ، غني عما في السماء والأرض . وهو يرزق الأحياء بالماء والنبات ، وهو الغني عنهم وعما يرزقون :

﴿ إن الله لهو الغني الحميد ﴾ .

(268/529)

فما به سبحانه من حاجة إلى من في السماء والأرض ، أو ما في السماء والأرض فهو الغني عن الجميع . . وهو المحمود على آلائه ، المشكور على نعمائه ، المستحق للحمد من الجميع .

ويستطرد السياق مرة أخرى إلى استعراض دلائل القدرة المعروضة للناس في كل حين :

﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ، والفلك تجري في البحر بأمره . ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه . إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ . .

وفي هذه الأرض كم من قوة وكم من ثروة سخرها الله لهذا الإنسان ؛ وهو غافل عن يد الله ونعمته التي يتقلب فيها بالليل والنهار !

لقد سخر الله ما في الأرض لهذا الإنسان ، فجعل نواميسها موافقة لفطرته وطاقاته . ولو اختلفت فطرة الإنسان وتركيبه عن نواميس هذه الأرض ما استطاع الحياة عليها ، فضلاً على الانتفاع بها وبما فيها . . لو اختلف تركيبه الجسدي عن الدرجة التي يحتمل فيها جو هذه الأرض ، واستنشاق هوائها ، والتغذي بطعامها والارتواء بمائها لما عاش لحظة . ولو اختلفت كثافة بدنه أو كثافة الأرض عما هي عليه ما استقرت قدماه على الأرض ، ولطار في الهواء أو غاص في الثرى . . ولو خلا وجه هذه الأرض من الهواء أو كان هذا الهواء أكثف مما هو أو أخف لاختنق هذا الإنسان أو لعجز عن استنشاق الهواء مادة الحياة ! فتوافق نواميس هذه الأرض وفطرة هذا الإنسان هو الذي سخر الأرض وما فيها لهذا الإنسان . وهو من أمر الله .

(269/529)

ولقد سخر الله له ما في الأرض مما وهبه من طاقات وإدراكات صالحة لاستغلال ثروات هذه الأرض ، وما أودعه الله إياها من ثروات وطاقات ظاهرة وكامنة ؛ يكشف منها الإنسان واحدة بعد واحدة وكلما احتاج إلى ثروة جديدة فض كنوزاً جديدة . وكلما خشي أن ينفذ رصيده من تلك الكنوز تكشف له منها رصيد جديد . . وها هو ذا اليوم

لم يستنفذ بعد ثروة البترول وسائر الفلزات ثم فتح له كنز الطاقة الذرية والطاقة الإيدروجينية . وإن يكن بعد كالطفل يعبث بالنار فيحرق نفسه بها ويحرق سواه ، إلا حين يهتدي بمنهج الله في الحياة ، فيوجه طاقاتها وثرواتها إلى العمران والبناء ، ويقوم بالخلافة في الأرض كما أرادها الله !

﴿ والفلك تجري في البحر بأمره ﴾ .

. فهو الذي خلق النواميس التي تسمح بجريان الفلك في البحر . وعلم الإنسان كيف يهتدي إلى هذه النواميس ، فيسخرها لمصلحته وينتفع بها هذا الانتفاع . ولو اختلفت طبيعة البحر أو طبيعة الفلك . أو لو اختلفت مدارك هذا الإنسان . . ما كان شيء من هذا الذي كان !

﴿ ويمسك السمآء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ . . وهو الذي خلق الكون وفق هذا النظام الذي اختاره له ؛ وحكم فيه تلك النواميس التي تظل بها النجوم والكواكب مرفوعة متباعدة ، لا تسقط ولا يصدم بعضها بعضاً . .

وكل تفسير فلكي للنظام الكوني ما يزيد على أنه محاولة لتفسير الناموس المنظم للوضع القائم الذي أنشأه خالق هذا النظام . وإن كان بعضهم ينسى هذه الحقيقة الواضحة ، فيخيل إليه أنه حين يفسر النظام الكوني ينفي يد القدرة عن هذا الكون ويستبعد آثارها ! وهذا وهم عجيب وانحراف في التفكير غريب . فإن الاهتداء إلى تفسير القانون على فرض صحته

والنظريات الفلكية ليست سوى فروض مدروسة لتفسير الظواهر الكونية تصح أو لا تصح ، وتثبت اليوم وتبطل غداً بفرض جديد لا ينفي وجود واضع القانون . وأثره في إعمال هذا القانون . .

(270/529)

والله سبحانه ﴿ يمسك السماء أن تقع على الأرض ﴾ بفعل ذلك الناموس الذي يعمل فيها وهو من صنعه . ﴿ إلا بإذنه ﴾ وذلك يوم يعطل الناموس الذي يُعمله لحكمة ويعطله كذلك لحكمة .

وينتهي السياق في استعراض دلائل القدرة ودقة الناموس بالانتقال من الكون إلى النفس ؛ وعرض سنن الحياة والموت في عالم الإنسان :

﴿ وهو الذي أحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، إن الإنسان لكفور ﴾ . .

والحياة الأولى معجزة ، تتجدد في كل حياة تنشأ آناء الليل وأطراف النهار . وسرها اللطيف ما يزال غيباً يحار العقل البشري في تصور كنهه . . وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر . .

والموت سر آخر يعجز العقل البشري عن تصور كنهه ، وهو يتم في لحظة خاطفة ، والمسافة

بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة عريضة ضخمة . . وفيه مجال فسيح للتأمل والتدبر . .

والحياة بعد الموت وهي غيب من الغيب ، ولكن دليله حاضر من النشأة الأولى . . وفيه مجال كذلك للتأمل والتدبر . .

ولكن هذا الإنسان لا يتأمل ولا يتدبر هذه الدلائل والأسرار : ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ . .

والسياق يستعرض هذه الدلائل كلها ، ويوجه القلوب إليها في معرض التوكيد لنصرة الله لمن يقع عليه البغي وهو يرد عن نفسه العدوان . وذلك على طريقة القرآن في استخدام المشاهد الكونية لاستجاشة القلوب ، وفي ربط سنن الحق والعدل في الخلق بسنن ونواميس الوجود . .

وحين يصل السياق إلى هذا المقطع من عرض دلائل القدرة في مشاهد الكون الكبرى يتوجه بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمضي في طريقه ، غير ملتفت إلى المشركين وجدالهم له ؛ فلا يمكنهم من نزاعه في منهجه الذي اختاره الله له ، وكلفه تبليغه وسلوكه .

(271/529)

﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ، فلا ينازعنك في الأمر ، وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم . وإن جادلوك فقل : الله أعلم بما تعملون . الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون . ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ؟ إن ذلك في كتاب . إن ذلك على الله يسير ﴾ . .

إن لكل أمة منهجاً وطريقة في الحياة والتفكير والاعتقاد . هذا المنهج خاضع لسنن الله في تصريف الطبائع والقلوب وفق المؤثرات والاستجابات . وهي سنن ثابته مطردة دقيقة . فالأمة التي تفتح قلوبها لدواعي الهدى ودلائله في الكون والنفس هي أمة مهتدية إلى الله بالاهتداء إلى نواميسه المؤدية إلى معرفته وطاعته . والأمة التي تغلق قلوبها دون تلك الدواعي والدلائل أمة ضالة تزداد ضلالاً كلما زادت اعراضاً عن الهدى ودواعيه . . وهكذا جعل الله لكل أمة منسكاً هم ناسكوه ، ومنهجاً هم سالكوه . . فلا داعي إذن لأن يشغل الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه بمجادلة المشركين ، وهم يصدون أنفسهم عن منسك الهدى ، ويمعنون في منسك الضلال . والله يأمره ألا يدع لهم فرصة لينازعوه أمره ، ويجادلوه في منهجه . كما يأمره أن يمضي على منهجه لا يتلفت ولا ينشغل بجدل المجادلين . فهو منهج مستقيم : ﴿ وادع ربك إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ . .

فليطمئن إذن على استقامة منهجه . واستقامته هو على الهدى في الطريق : فإن تعرض القوم لجداله فليختصر القول . فلا ضرورة لإضاعة الوقت والجهد :

﴿ وإن جادلوك فقل : الله أعلم بما تعملون ﴾ .

فإنما يجدي الجدل مع القلوب المستعدة للهدى التي تطلب المعرفة وتبحث حقيقة عن الدليل . لا مع القلوب المصرة على الضلال المكابرة التي لا تحفل كل هذا الحشد من الدواعي والدلائل في الأنفس والآفاق وهي كثيرة معروضة للأنظار والقلوب . . فليكلهم إلى الله .

فهو الذي يحكم بين المناسك والمناهج وأتباعها الحكم الفاصل الأخير :

﴿ والله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ . .

(272/529)

وهو الحكم الذي لا يجادل فيه أحد ، لأنه لا جدال في ذلك اليوم ، ولا نزاع في الحكم الأخير ! والله يحكم بعلم كامل ، لا يند عنه سبب ولا دليل ، ولا تخفى عليه خافية في العمل والشعور . وهو الذي يعلم ما في السماء والأرض كله ؛ ومن ضمنه عملهم ونياتهم وهو بها محيط :

﴿ الم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض . إن ذلك في كتاب . إن ذلك على الله يسير ﴾ . وعلم الله الكامل الدقيق لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض ، ولا يتأثر بالمؤثرات التي تنسى وتمحو . فهو كتاب يضم علم كل شيء ويحتويه .

وإن العقل البشري ليصيبه الكلال ، وهو يتأمل مجرد تامل بعض ما في السماء والأرض ، ويتصور إحاطة علم الله بكل هذا الحشد من الأشياء والأشخاص ، والأعمال والنيات والخواطر والحركات ، في عالم المنظور وعالم الضمير .

ولكن هذا كله ، بالقياس إلى قدرة الله وعلمه شيء يسير : ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ . . وبعد أن يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ألا يدع للمشركين فرصة لمنازعته في منهجه المستقيم ، يكشف عما في منهج المشركين من عوج ، وعما فيه من ضعف ، وعما فيه من جهل وظلم للحق ؛ ويقرر أنهم محرومون من عونه تعالى ونصرته . وهم بذلك محرومون من النصير :

﴿ ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ، وما ليس لهم به علم . وما للظالمين من نصير ﴾ .

وما لوضع ولا لشرع من قوة إلا أن يستمد قوته من الله . فما لم ينزل به الله من عنده قوة ، هو ضعيف هزيل ، خلو من عنصر القوة الأصيل .

وهؤلاء إنما يعبدون آلهة من الأصنام والأوثان ، أو من الناس أو الشيطان . . وهذه كلها لم ينزل الله بها قوة من عنده ، فهي محرومة من القوة . وهم لا يعبدونها عن علم ولا دليل يقتنعون به ، إنما هو الوهم والخرافة . وما لهم من نصير يلجأون إليه وقد حرموا من نصرة الله العزيز القدير .

وأعجب شيء أنهم وهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ، وما ليس لهم به علم . لا يستمعون لدعوة الحق ، ولا يتلقون الحديث عنها بالقبول . إنما تأخذهم العزة بالإثم ، ويكادون يبطشون بمن يتلون عليهم كلام الله : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ . .

إنهم لا يناهضون الحجة بالحجة ، ولا يقرعون الدليل بالدليل إنما هم يلجأون إلى العنف والبطش عندما تعوزهم الحجة ويخذلهم الدليل . وذلك شأن الطغاة دائماً يشتجر في نفوسهم العتو ، وتهيج فيهم روح البطش ، ولا يستمعون إلى كلمة الحق لأنهم يدركون أن ليس لهم ما يدفعون به هذه الكلمة إلا العنف الغليظ !

ومن ثم يواجههم القرآن الكريم بالتهديد والوعيد : ﴿ قل : أفأنبئكم بشر من ذلكم ؟ ﴾ بشر من ذلكم المنكر الذي تنطوون عليه ، ومن ذلك البطش الذي تهمون به . . ﴿ النار ﴾ . . وهي الرد المناسب للبطش والمنكر ﴿ وبئس المصير ﴾ . .

ثم يعلن في الآفاق ، على الناس جميعاً ، إعلاناً مدوياً عاماً . . يعلن عن ضعف الآلهة المدعاة ؛ الآلهة كلها التي يتخذها الناس من دون الله . ومن بينها تلك الآلهة التي يستنصر

بها أولئك الظالمون ، ويركن إليها أولئك الغاشمون . يعلن عن هذا الضعف في صورة مثل معروض للأسماع والأبصار ، مصور في مشهد شاخص متحرك ، تتملاه العيون والقلوب . . مشهد يرسم الضعف المزري ويمثله أبرع تمثيل :

﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ .

.

(274/529)

إنه النداء العام ، والنفير البعيد الصدى : ﴿ يا أيها الناس ﴾ . . فإذا تجمع الناس على النداء أعلنوا أنهم أمام مثل عام يضرب ، لا حالة ولا مناسبة حاضرة : ﴿ ضرب مثل فاستمعوا له ﴾ . . هذا المثل يضع قاعدة ، ويقرر حقيقة . ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ . . كل من تدعون من دون الله من آلهة مدعاة . من أصنام وأوثان ، ومن أشخاص وقيم وأوضاع ، تستنصرون بها من دون الله ، وتستعينون بقوتها وتطلبون منها النصر والجاه . . كلهم ﴿ لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا به ﴾ . .

والذباب صغير حقير ؛ ولكن هؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرون ولو اجتمعوا وتساندوا

على خلق هذا الذباب الصغير الحقير !

وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل . لأن الذباب يحتوي على ذلك السر المعجز سر الحياة . فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل . . ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل ! دون أن يخل هذا بالحقيقة في التعبير . وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب !

ثم يخطو خطوة أوسع في إبراز الضعف المزري : ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴾ . . والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه ، سواء كانت أصناماً أو أوثاناً أو أشخاصاً ! وكم من عزيز يسلبه الذباب من الناس فلا يملكون رده . وقد اختير الذباب بالذات وهو ضعيف حقير . وهو في الوقت ذاته يحمل أخطر الأمراض ويسلب أغلى النفائس : يسلب العيون والجوارح ، وقد يسلب الحياة والأرواح . . إنه يحمل ميكروب السل والتيفود والدوسنتاريا والرمد . . ويسلب ما لا سبيل إلى استنقاذه وهو الضعيف الحقير ! .

(275/529)

وهذه حقيقة أخرى كذلك يستخدمها الأسلوب القرآني المعجز . . ولو قال : وإن تسلبهم السباع شيئاً لا يستنقذوه منها . . لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف . والسباع لا تسلب شيئاً أعظم مما يسلبه الذباب ! ولكنه الأسلوب القرآني العجيب !

ويختم ذلك المثل المصور الموحي بهذا التعقيب : ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ . ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال ، وما أوحى به إلى المشاعر والقلوب !

وفي أنسب الظروف . . والمشاعر تفيض بالزراية والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة يندد بسوء تقديرهم لله ، ويعرض قوة الله الحق الحقيق بأنه إله :

﴿ ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوي عزيز ﴾ . .

ما قدروا الله حق قدره ، وهم يشركون به تلك الآلهة الكليلة العاجزة التي لا تخلق ذباباً ولو تجمعت له . بل لا تستنقذ ما يسلبها الذباب إياه !

ما قدروا الله حق قدره ، وهم يرون آثار قدرته ، وبدائع مخلوقاته ، ثم يشركون به من لا يستطيعون خلق الذباب الحقير !

ما قدروا الله حق قدره ، وهم يستعينون بتلك الآلهة العاجزة الكليلة عن استنقاذ ما يسلبها إياه الذباب ، ويدعون الله القوي العزيز .

.

إنه تقرير وتقريع في أشد المواقف مناسبة للخشوع والخضوع !

وهنا يذكر أن الله القوي العزيز يختار رسله من الملائكة إلى الأنبياء . ويختار رسله من البشر إلى الناس . وذلك عن علم وخبرة وقدرة :

﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس . إن الله سميع بصير . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . وإلى الله ترجع الأمور ﴾ .

فعن صاحب القوة العزيز الجناب يصدر الاختيار للملائكة والرسل . ومن لدن القوي العزيز جاء محمد صلى الله عليه وسلم جاء بسلطان من عند القوي العزيز الذي اختاره واصطفاه . فأنّى يقف له من يركنون إلى تلك الآلهة العاجزة الضعيفة المزدراة ؟ !

﴿ إن الله سميع بصير ﴾ . . فهو يسمع ويرى فيعلم ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ علماً شاملاً كاملاً ، لا يند عنه حاضر ولا غائب ، ولا قريب ولا بعيد .

(276/529)

﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ . . فهو الحكم الأخير ، وله السيطرة والتدبير .

والآن وقد كشف عما في منسك المشركين من سخف وضعف ؛ وعما في عبادتهم من قصور وجهل : الآن يتوجه بالخطاب إلى الأمة المسلمة ، لتنهض بتكاليف دعوتها ، وتستقيم على نهجها العريق القويم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ، واعبدوا ربكم ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم ؛ وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم . هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس . فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير ﴾ . .

وفي هاتين الآيتين يجمع المنهاج الذي رسمه الله لهذه الأمة ، ويلخص تكاليفها التي ناطها بها ، ويقرر مكانها الذي قدره لها ، ويثبت جذورها في الماضي والحاضر والمستقبل ، متى استقامت على النهج الذي أراده لها الله .

إنه يبدأ بأمر الذين آمنوا بالركوع والسجود . وهما ركنا الصلاة البارزان . ويكني عن الصلاة بالركوع والسجود ليمنحها صورة بارزة ، وحركة ظاهرة في التعبير ، ترسمها مشهداً شاخصاً ، وهيئة منظورة . لأن التعبير على هذا النحو أوقع أثراً وأقوى استجاشة للشعور .

ويثني بالأمر العام بالعبادة . هي أشمل من الصلاة . فعبادة الله تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها كذلك كل عمل وكل حركة وكل خالجة يتوجه بها الفرد إلى الله . فكل نشاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب به إلى الله . حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات . وما عليه إلا أن يذكر

الله الذي أنعم بها ، وينوي بها أن يتقوى على طاعته وعبادته فإذا هي عبادات وحسنات ، ولم يتحول في طبيعتها شيء ، ولكن تحول القصد منها والاتجاه !

ويختم بفعل الخير عامة ، في التعامل مع الناس بعد التعامل مع الله بالصلاة والعبادة .

.

(277/529)

يأمر الأمة المسلمة بهذا رجاء أن تفلح . فهذه هي أسباب الفلاح . . العبادة تصلها بالله فتقوم حياتها على قاعدة ثابتة وطريق واصل . وفعل الخير يؤدي إلى استقامة الحياة ، الجماعية على قاعدة من الإيمان وأصالة الاتجاه .

فإذا استعدت الأمة المسلمة بهذه العدة من الصلة بالله واستقامة الحياة ، فاستقام ضميرها واستقامت حياتها . . نهضت بالتبعة الشاقة :

﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ . . وهو تعبير شامل جامع دقيق ، يصور تكليفاً ضخماً ، يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الذخيرة وذلك الإعداد . .

﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ . . والجهاد في سبيل الله يشمل جهاد الأعداء ، وجهاد النفس ، وجهاد الشر والفساد . . كلها سواء . .

﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ . . فقد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة ، واختاركم لها من بين عباده : ﴿ هو اجتباكم ﴾ . . وإن هذا الاختيار ليضخم التبعة ، ولا يجعل هنالك مجالاً للتخلي عنها أو الفرار ! وإنه لإكرام من الله لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء !

وهو تكليف محفوف برحمة الله : ﴿ وما جعلنا عليكم في الدين من حرج ﴾ . . وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته . ملحوظ في تلبيته تلك الفطرة . وإطلاق هذه الطاقة ، والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء . فلا تبقى حبيسة كالبخار المكتوم . ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغشيم !

وهو منهج عريق أصيل في ماضي البشرية ، موصول الماضي بالحاضر : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ وهو منبع التوحيد الذي اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم عليه السلام فلم تنقطع من الأرض ، ولم تفصل بينها فجوات مضيعة لمعالم العقيدة كالفجوات التي كانت بين الرسالات قبل إبراهيم عليه السلام .

وقد سمى الله هذه الأمة بالمسلمين . سماها كذلك من قبل وسماها كذلك القرآن : ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ﴾ . .

والإسلام إسلام الوجه والقلب لله وحده بلا شريك . فكانت الأمة المسلمة ذات منهج واحد على تتابع الأجيال والرسل والرسالات . حتى انتهى بها المطاف إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وحتى سلمت إليها الأمانة ، وعهد إليها بالوصاية على البشرية . فاتصل ماضيها بحاضرها بمستقبلها كما أرادها الله : ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهدآء على الناس ﴾ . . فالرسول صلى الله عليه وسلم يشهد على هذه الأمة ، ويحدد نهجها واتجاهها ، ويقرر صوابها وخطأها . وهي تشهد على الناس بمثل هذا ، فهي القوّامة على البشرية بعد نبيها ؛ وهي الوصية على الناس بموازين شريعتها ، وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة . ولن تكون كذلك إلا وهي أمينة على منهجها العريق المتصل الوشائج ، المختار من الله .

(279/529)

ولقد ظلت هذه الأمة وصية على البشرية طالما استمسكت بذلك المنهج الإلهي وطبقته في حياتها الواقعية .

حتى إذا انحرفت عنه ، وتخلت عن تكاليفه ، ردها اللّه عن مكان القيادة إلى مكان التابع

في ذيل القافلة .

وما تزال . ولن تزال حتى تعود إلى هذا الأمر الذي اجتباها له اللّه .

هذا الأمر يقتضي الاحتشاد له والاستعداد . . ومن ثم يأمرها القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام باللّه :

«فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ . هُوَ مَوْلاكُمْ . فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ» . .

فالصلاة صلة الفرد الضعيف الفاني بمصدر القوة والزاد . والزكاة صلة الجماعة بعضها ببعض والتأمين من الحاجة والفساد . والاعتصام باللّه العروة الوثقى التي لا تنفصم بين المعبود والعباد .

بهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية التي اجتباها لها اللّه . وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التي تعارف الناس على أنها مصادر القوة في الأرض . والقرآن الكريم لا يغفل من شأنها ، بل يدعو إلى إعدادها . ولكن مع حشد القوى والطاقات والزاد الذي لا ينفد ، والذي لا يملكه إلا المؤمنون باللّه .

(280/529)

فيوجهون به الحياة إلى الخير والصلاح والاستعلاء .

إن قيمة المنهج الإلهي للبشرية أنه يمضي بها قدما إلى الكمال المقدر لها في هذه الأرض ولا يكتفي بأن يقودها للذائذ والمتاع وحدهما كما تقاد الأنعام .

وإن القيم الإنسانية العليا لتعتمد على كفاية الحياة المادية ، ولكنها لا تقف عند هذه المدارج الأولى . وكذلك يريدها الإسلام في كنف الوصاية الرشيدة ، المستقيمة على منهج الله في ظل الله . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2436 . 2447 ﴾

(281/529)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ سخر لكم ما ﴾ في أرض البشرية من الصفات الحيوانية والشيطانية ، وسخر فلك الواردات المغيبة تجري في بحر القلب ، ويمسك القلب أن تقع على ارض النفس بأن تتصف بصفاتها ﴿ إلا بإذنه ﴾ بقدر ما أباحه الشرع من ضروريات المأكول والملبوس وغيرهما ﴿ وهو الذي أحياكم ﴾ بازدواج الروح إلى القالب ﴿ ثم يميتكم ﴾ عن صفات البشرية ﴿ ثم يحييكم ﴾ بنور الصفات الرحمانية ﴿ فلا ينازعنك ﴾ في أمرك

فإن لك مع الله وقتاً لا يسعك فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ولكل قوم رتبة لا يتجاوزونها ﴿ إن الذين يدعون من دون الله ﴾ كالأصنام الظاهرة والباطنة لن يطلعوا على كيفية خلق الذباب ، وإن يسلبهم ذباب هواجس النفس شيئاً من صفاء القلب وجمعية الوقت ﴿ ضعف الطالب ﴾ وهو القلب غير المؤيد بنور الإيمان ﴿ والمطلوب ﴾ وهو النفس والشيطان ﴿ اركعوا ﴾ بالنزول عن مرتبة الإنسانية إلى خضوع الحيوانية :

﴿ ومنهم من يمشي على أربع ﴾ [النور : 45] ﴿ واسجدوا ﴾ بالنزول إلى مرتبة الحيواينة ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ [الرحمن : 6] ﴿ واعبدوا ربكم ﴾ بجعل الطاعة خالصة له ﴿ وافعلوا الخير ﴾ بمراقبة الله في جميع أحوالكم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ بالوصال . ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ فجهاد النفس بتزكيتها بأداء الحقوق وترك الحظوظ ، وجهاد القلب بتصفيته وقطع تعلقه عن الكونين ، وجهاد الروح بتحليته بإفناء الوجود في وجوده ﴿ هو اجتباكم ﴾ لهذه الكرامات من بين سائر البريات ولولا أنه اجتباكم ما اهتديتم إليه كما قيل :

(282/529)

فلولاكم ما عرفنا الهوى . . . وما جعل عليكم في دين العشاق . وهو السير إلى الله من ضيق " من تقرَّب إلي شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً " والسير إلى الله من سنة إبراهيم ﴿ إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ [الصافات : 99] ﴿ هو سماكم المسلمين ﴾ في الأزل وهو في هذا الطور . وإنما قدم الرسول لأن روحه في طرف الأزل مقدم " أول ما خلق الله روحي " فهو مشرف وقتئذ على أرواح أمته وبعد ذلك خلقت أرواح أمته مشرفين على أرواح غيرهم . وفي سورة البقرة اعتبر طرف الأبد فوقع الختم على الرسول وعلى شهادته ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ بدوام السير والعروج إلى الله والتعظيم لأمره ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ بدعوة الخلق إلى الله والشفقة عليهم ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ حتى تصلوا إليه هو متولي أفنائكم عنكم ﴿ فنعم المولى ﴾ في إفناء وجودكم ﴿ ونعم النصير ﴾ في إبقائكم بربكم والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين وذرياته وسلم تسليماً كثيراً دائماً ابداً إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 104 105. ﴾

(283/529)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذين ءامَنُواْ ﴾ كيد عدوهم من الشيطان والنفس ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج : 38] ويدخل في ذلك الشيطان والنفس ، وصدق الوصفين عليهما ظاهر جداً بل لا خوان ولا كفور مثلهما ﴿ الذين إِنْ مكناهم فِى الأرض أَقَامُواْ الصلاة ﴾ [الحج : 41] الخ فيه إشارة إلى حال أهل التمكين وأنهم مهديون هادون فلا شطح عندهم ولا يضل أحد بكلماتهم ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أهلكناها وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [الحج : 45] قيل : في القرية الظالمة إشارة إلى القلب الغافل عن الله تعالى ، وفي البئر المعطلة إشارة إلى الذهن الذي لم يستخرج منه الأفكار الصافية ، وفي القصر المشيد إشارة إلى البدن المشتمل على حجرات القوى .

﴿ فَإِنَّهَا لاَ تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [الحج : 46] فيه إشارة إلى سوء حال المحجوبين المنكرين فإن قلوبهم عمى عن رؤية أنوار أهل الله تعالى فإن لهم أنواراً لا ترى إلا بعين القلب وبهذه العين تدرك حقائق الملك ودقائق الملكوت ، وفي الحديث : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى " ﴿ فِى الصدور وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : 47] قد تقدم الكلام في اليوم وانقسامه فتذكر ﴿ فالذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ

﴿ أي ستر عن الأغيار من أن يقفوا على حقيقتهم كما يشير ما يروونه من الحديث القدسي " أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم أحد غيري " ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحج : 50] وهو العلم اللدني الذي به غداء الأرواح.

(284/529)

وقال بعضهم : رزق القلوب حلاوة العرفان ورزق الأسرار مشاهدة الجمال ورزق الأرواح مكاشفة الجلال وإلى هذا الرزق يشير عليه الصلاة والسلام بقوله : " أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني " والإشارة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : 52] الآيات على قول من زعم صحة حديث الغرانيق إلى أنه ينبغي أن يكون العبد فناء في إرادة مولاه عز وجل وإلا ابتلى الشيطان ليتأدب ولا يبقى ذلك التلبيس لمنافاته الحكمة ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ عن أوطان الطبيعة في طلب الحقيقة ﴿ ثُمَّ قُتِلُواْ ﴾ بسيف الصدق والرياضة ﴿ أَوْ مَاتُواْ ﴾ بالجذبة عن أوصاف البشرية ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ [الحج : 58] رزق دوام الوصلة كما قيل : أو هو كالرزق الكريم ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾

[الحج : 60] فيه إشارة إلى نصر السالك الذي عاقب نفسه بالمجاهدة بعد أن عاقبته بالمخالفة ثم ظلمته باستيلاء صفاتها ﴿ وَإِن جادلوك فَقُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحج : 68] أخذ الصوفية منه ترك الجدال مع المنكرين .

(285/529)

وذكر بعضهم أن الجدال معهم عبث كالجدال مع العنين في لذة الجماع ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا بينات تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر ﴾ [الحج : 72] الآية فيه إشارة إلى ذم المتصوفة الذين إذا سمعوا الآيات الرادة عليهم ظهر عليهم التهجم والبسور وهم في زماننا كثيرون فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً ﴾ [الحج : 73] الخ إشارة إلى ذم الغالين في أولياء الله تعالى حيث يستغيثون بهم في الشدة غافلين عن الله تعالى وينذرون لهم النذور والعقلاء منهم يقولون : إنهم وسائلنا إلى الله تعالى وإنما ننذر لله عز وجل ونجعل ثوابه للولي ، ولا يخفى أنهم في دعواهم الأولى أشبه الناس بعبدة الأصنام القائلين إن ﴿ ما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] ، ودعواهم الثانية لا بأس بها لو لم يطلبوا منهم بذلك شفاء مريضهم أو رد غائبهم أو نحو ذلك ، والظاهر من حالهم الطلب ، ويرشد إلى ذلك أنه لو قيل : انذروا لله تعالى

واجعلوا ثوابه لوالديكم فإنهم أحوج من أولئك الأولياء لم يفعلوا ، ورأيت كثيراً منهم يسجد على أعتاب حجر قبور الأولياء ، ومنهم من يثبت التصرف لهم جميعاً في قبورهم لكنهم متفاوتون فيه حسب تفاوت مراتبهم ، والعلماء منهم يحصرون التصرف في القبور في أربعة أو خمسة وإذا طولبوا بالدليل قالوا : ثبت ذلك بالكشف قاتلهم الله تعالى ما أجهلهم وأكثر افترائهم ، ومنهم من يزعم أنهم يخرجون من القبور ويتشكلون بأشكال مختلفة ، وعلماؤهم يقولون : إنما تظهر أرواحهم متشكلة وتطوف حيث شاءت وربما تشكلت بصورة أسد أو غزال أو نحوه وكل ذلك باطل لا أصل له في الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة ، وقد أفسد هؤلاء على الناس دينهم وصاروا ضحكة لأهل الأديان المنسوخة من اليهود والنصارى وكذا لأهل النحل والدهرية ، نسأل الله تعالى العفو والعافية .

(286/529)

﴿ وجاهدوا فِي اللهِ حَقَّ جهاده ﴾

شامل لجميع أنواع المجاهدة ، ومنها جهاد النفس وهو بتزكيتها بأداء الحقوق وترك الحظوظ ، وجهاد القلب بتصفيته وقطع تعلقه عن الكونين ، وجهاد الروح بإفناء الوجود ، وقد قيل : وجودك ذنب لا يقاس به ذنب . . .

﴿ واعتصموا بالله ﴾ تمسكوا به جل وعلا في جميع أحوالكم ﴿ هُوَ مولاكم ﴾ على الحقيقة ﴿ فَنِعْمَ المولى ﴾ في إفناء وجودكم ﴿ وَنِعْمَ النصير ﴾ [الحج: 78] في إبقائكم، وما أعظم هذه الخاتمة لقوم يعقلون وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 17 صـ ﴾

(287/529)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة الحج (22) : آية 38]

إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38)

الإعراب:

(عن الذين) متعلّق بـ (يدافع)، (لا) نافية (كفور) نعت لخوّان مجرور.

جملة: "إنّ اللّه يدافع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يدافع . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "إنّ اللّه لا يحبّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " لا يحبّ . . . " في محلّ رفع خبر إنّ الثاني .

[سورة الحج (22) : الآيات 39 إلى 41]

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)

الإعراب :

(للذين) الجارّ والمجرور نائب الفاعل للمبنيّ للمجهول أذن (يقاتلون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . و(الواو) نائب الفاعل ، وكذلك (الواو) في ظلموا .

والمصدر المؤوّل (أنّهم ظلموا . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أذن) ، و(الباء) سببيّة ، وأذن لهم بالقتال .

(الواو) عاطفة (على نصرهم) متعلّق بـ (قدير) و(اللام) هي المزحلقة للتوكيد .

جملة : " أذن للذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يقاتلون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ظلموا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " إنّ اللّه . . . لقدير " لا محلّ لها معطوفة على جملة أذن .

(الذين) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم " 1 " ، و(الواو) في (أخرجوا) نائب الفاعل (من ديارهم) متعلّق بـ (أخرجوا) ، (بغير) متعلّق بحال من نائب الفاعل " 2 " ، (إلّا) أداة استثناء . .

والمصدر المؤوّل (أن يقولوا . . .) في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع " 3 " .

(الواو) استئنافيّة (لولا) حرف امتناع لوجود (دفع) مبتدأ مرفوع خبره محذوف تقديره موجود (الناس) مفعول به للمصدر دفع (بعضهم) بدل من الناس منصوب (ببعض) متعلّق بـ (دفع) ، (اللام) واقعة في جواب لولا (صوامع) نائب الفاعل لفعل هدّمت (فيها) متعلّق بـ (يذكر) ، (اسم) نائب الفاعل لفعل يذكر (كثيرا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي ذكرا كثيرا (الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (ينصرنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع (من) اسم موصول مفعول به في محلّ نصب (إنّ اللّه لقويّ) مثل إنّ اللّه . . لقدير (عزيز) خبر ثان .

وجملة : " (هم) الذين أخرجوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) يجوز أن يكون في محلّ جرّ بدلا من الموصول السابق (عن الذين آمنوا) – الآية 38 – ، أو من الموصول الثاني (للذين يقاتلون) – الآية 39 . . ويجوز أن يكون في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره أعني . [. . . . .]

(2) يعني مظلومين .

(3) استثني القول من الإخراج . . والسيوطيّ جعل الاستثناء مفرّغا بالتقدير أي : ما أخرجوا من ديارهم بأيّ شيء إلّا بقولهم ربّنا اللّه ، فالمصدر المؤوّل في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف .

(289/529)

وجملة : " أخرجوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يقولوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " ربّنا اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لولا دفع اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هدّمت صوامع . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يذكر فيها اسم اللّه " في محلّ رفع نعت لمساجد وما قبلها .

وجملة : " ينصرنّ اللّه . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " ينصره . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " إنّ اللّه لقويّ . . . " لا محلّ لها في حكم التعليل .

(الّذين) يجوز فيه ما جاز في سابقه (مكّنّاهم) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط (في الأرض) متعلّق بـ (مكّنّاهم) ، (عن المنكر) متعلّق بـ (نهوا) ، (الواو) استئنافيّة (للّه) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم . .

وجملة : " (هم) الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إن مكّنّاهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أقاموا . . . " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء " 1 " .

وجملة : " آتوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقاموا .

وجملة : " أمروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقاموا .

وجملة : " نهوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقاموا وجملة : " للّه عاقبة الأمور . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(صوامع) جمع صومعة ، اسم للبناء المرتفع المحدّب الأعلى ، وزنه فوعلة ، وهو مكان لعبادة الرهبان وقيل متعبّد الصابئين . ووزن صوامع فواعل .

---

(1) فعل (أقاموا) ماض في محلّ جزم جواب الشرط.

الجدول ج 17 ، ص : 121

(بيع) ، جمع بيعة ، اسم لمكان عبادة النصارى في البلدان ، وزنه فعلة بفتح فسكون ، ووزن بيع فعل بكسر ففتح.

(صلوات) ، جمع صلاة اسم للكنيسة ، وقيل هي كلمة معرّبة أصلها بالعبرانيّة صلوثا فتح الصاد والثاء بالقصر.

(290/529)

(نهوا) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله نهاوا - بالألف الفارقة - التقى ساكنان لام الكلمة وضمير الفاعل حذفت اللام وفتح ما قبلها دلالة عليها ، وزنه فعوا بفتح الفاء والعين.

الفوائد

1 - لولا :

مرّ معنا أن " لولا ولوما " لهما استعمالان :

الأول : أن يدلّا على امتناع جوابهما لوجود تاليهما ، وفي هذه الحالة تختصان بالجمل الاسمية ، كما في هذه الآية " وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ " إلخ.

الثاني : أن تدلا على التخصيص ، وفي هذه الحالة تختصان بالجمل الفعلية ، نحو " لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ " .

ملاحظة : المبتدأ بعد " لولا الامتناعية " يجب حذف خبره ، لأنه معلوم من سياق الكلام ، وكذلك فجواب لولا ممتنع بسبب وجود اسمها ، فقد امتنع هدم الصوامع والبيع والمساجد ، بسبب وجود دفع اللّه الناس بعضهم ببعض ملاحظة ثانية :

تتساوى " لولا ولوما " في التخصيص واختصاصهما بالأفعال " هلّا وأّلا وألا " .

وثمة استثناءات نادرة لهذه الأدوات ، أضربنا عن ذكرها للإيجاز . .

2 – الجهاد في الإسلام :

الأحاديث في الجهاد كثيرة منها :

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه : سئل رسول (صلى اللّه عليه وآله وسلم) أي العمل أفضل ؟ قال : إيمان باللّه ورسوله ؟ قيل ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل اللّه . قيل : ثم ماذا ؟ قال : حجّ مبرور . رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن خزيمة في صحيحة .

وعن معاذ بن جبل : أنه سأل رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) وهما في طريقهم إلى غزوة تبوك : فقال : يا رسول اللّه ، ائذن لي أن أسألك عن كلمة أمرضتني وأسقمتني وأحزنتني . فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) : سل عما شئت ، قال : يا نبي اللّه ، حدثني بعمل يدخلني الجنة ، لا أسألك عن شيء غيره .

قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) : بخ بخ بخ ، لقد سألت العظيم ، ثلاثا . وإنه ليسير على من أراد اللّه به الخير ، كررها ثلاثا . . فلم يحدثه بشيء إلا أعاده رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) ثلاث مرات ، حرصا لكيما يتقنه عنه ، فقال نبي اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) : تؤمن باللّه واليوم الآخر .

وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتعبد اللّه وحده ، لا تشرك به شيئا ، حتى تموت وأنت على ذلك ، قال رسول اللّه : أعد لي ، فأعادها ثلاث مرات ، ثم قال نبي اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) : إن شئت يا معاذ حدثتك برأس هذا الأمر ، وقوام هذا الأمر ، وذروة السنام .

فقال معاذ :

بلى يا رسول اللّه ، حدثني بأبي أنت وأمي ، فقال نبي اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) : إن رأس هذا الأمر أن تشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن قوام هذا الأمر إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإن ذروة السنام فيه ، الجهاد في سبيل اللّه ، إنما أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويشهدوا أن لا إله إلا اللّه . وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، فإذا فعلوا ذلك ، فقد اعتصموا وعصموا

دماءهم وأموالهم ، إلا بحقها ، وحسابهم على اللّه .

وقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) : والذي نفس محمد بيده ، ما شجب وجه ، ولا اغبرت قدم ، في عمل تبتغي به درجات الآخرة ، بعد الصلاة المفروضة ، كجهاد في سبيل اللّه ، ولا ثقل ميزان عبد ، كدابة تنفق في سبيل اللّه ، أو يحمل عليها في سبيل اللّه . .

[سورة الحج (22) : الآيات 42 إلى 44]

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (44)

(292/529)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (قبلهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (كذّبت) ، وأنّث الفعل للمعنى الذي يحمله قوم نوح أي قبيلته أو أمّته (قوم) فاعل كذّبت مرفوع (عاد) معطوف على قوم بالواو مرفوع (موسى) نائب الفاعل لفعل (كذّب) مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الفاء) عاطفة (للكافرين) متعلّق بـ (أمليت) ، (الفاء) استئنافيّة (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب خبر كان (نكير) اسم كان مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على

الراء لاشتغال المحلّ بحركة الياء المحذوفة للتخفيف بسبب فواصل الآي ، و(الياء) المحذوفة ضمير مضاف إليه .

جملة : "يكذّبوك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كذّبت . . قوم نوح " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : "كذّب موسى " في محلّ جزم معطوفة على جملة كذّبت . . قوم .

وجملة : " أمليت . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " أخذتهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أمليت .

وجملة : "كان نكير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(نكير) ، مصدر بمعنى الإنكار من (نكره) . . وزنه فعيل .

[سورة الحج (22) : آية 45]

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (كأيّن) اسم كناية عن العدد مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (من قرية) تمييز كأيّن (الواو) حاليّة (على عروشها) متعلّق بـ (خاوية) ، (الواو) عاطفة في الموضعين

(بئر) معطوف على قرية مجرور " 2 " ، وكذلك (قصر) .

جملة : "كأيّن من قرية . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " أهلكناها . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (كأيّن) .

وجملة : " هي ظالمة . . . " في محلّ نصب حال من الضمير الغائب في (أهلكناها) .

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا به لفعل محذوف يفسّره فعل أهلكناها ، فيكون نصبه على الاشتغال ، والجملة المذكورة تفسيريّة .

(2) أي وكأيّ من بئر معطّلة أبطلنا الاستقاء منها بموت المستقين ، ومثله كأيّ من قصر أخليناه من ساكنيه .

وجملة : " هي خاوية . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أهلكناها .

الصرف :

(بئر) ، اسم جامد للحفيرة التي يستخرج منها الماء ، وزنه فعل بكسر فسكون بمعنى المفعول كذبح وهو مأخوذ من بأر الأرض أي حفرها .

(معطّلة) ، مؤنّث معطّل ، اسم مفعول من عطّل الرباعيّ ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح

العين .

(مشيد) ، اسم مفعول من شاد يشيد ، فيه إعلال بحذف واو مفعول ، أصله مشيود ، ثمّ سكّنت الياء ونقلت حركتها إلى الشين فالتقى ساكنان فحذفت الواو ، ثمّ كسرت الشين لتناسب الياء فصار مشيد وزنه مفعل بفتح الميم وكسر الفاء وسكون العين .

الفوائد

- وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ :

ثمة قولان ، حول البئر والقصر المشار إليهما ، أحدهما : أنهما خاصان ، فقد روي

أن هذه البئر نزل عليها نبي اللّه صالح ، مع أربعة آلاف نفر ، ممن آمنوا معه ، وقد نجاهم اللّه تعالى من العذاب . وقد بنوا لهم بلدة ، وأقاموا بها زمانا ، ثم كفروا وعبدوا الأوثان ، وقتلوا رسول اللّه الذي أرسل إليهم ، فأهلكهم اللّه ، وعطّل بئرهم ، وخرب قصورهم .

وثانيهما : أن هذا البئر ، وذاك القصر ، هما عامان ، أي كم من قرية أهلكتها ، وكم من بئر عطلناها ، وكم من قصر مشيد تفرق عنه ساكنوه .

[سورة الحج (22) : آية 46]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام بمعنى الأمر (الفاء) عاطفة (في الأرض) متعلّق بـ (يسيروا) ، (الفاء) فاء السببيّة (تكون) مضارع ناقص – ناسخ – منصوب بأن مضمرة بعد الفاء (لهم) متعلّق بخبر مقدّم (قلوب) اسم تكون مرفوع .

والمصدر المؤوّل (أن تكون . .) في محلّ رفع معطوف على مصدر مأخوذ من الكلام المتقدّم أي : أثمّة سير في الأرض فوجود قلوب عاقلة . . . " 1 " .

(بها) متعلّق بـ (يعقلون) و(بها) الثاني متعلّق بـ (يسمعون) ، (الفاء) تعليليّة ، والضمير في (إنّها) هو ضمير الشأن اسم إنّ (لا) نافية (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك مهمل (التي) اسم موصول في محلّ رفع نعت للقلوب (في الصدور) متعلّق بمحذوف صلة الموصول التي . . .

---

(1) يجوز أن يكون التقريع بعطف منفيّ على المنفيّ أي أثمّة عدم سير فعدم وجود قلوب عاقلة . .

الجدول ج 17 ، ص : 126

جملة : " يسيروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مستأنفة مقدّرة أي :

أغفلوا فلم يسيروا " 1 " .

وجملة : " تكون لهم قلوب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يعقلون . . . " في محلّ رفع نعت لقلوب .

وجملة : " يسمعون . . . " في محلّ رفع نعت لآذان .

وجملة : " إنّها لا تعمى الأبصار . . . " لا محلّ لها استئنافيّة فيها معنى التعليل .

وجملة : " لا تعمى الأبصار . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " تعمى القلوب . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر .

[سورة الحج (22) : آية 47]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (بالعذاب) متعلّق بـ (يستعجلونك) ، .

(الواو) عاطفة - أو اعتراضيّة - (عند) ظرف منصوب متعلّق بنعت لـ (يوما) ، (كألف) متعلّق بخبر إنّ (ما) حرف مصدريّ . .

والمصدر المؤوّل (ما تعدّون) في محلّ جرّ متعلّق بنعت لـ (ألف سنة) .

---

(1) يجوز أن تكون الفاء استئنافيّة ، وجملة يسيروا استئنافيّة .

[سورة الحج (22) : آية 48]

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كأيّن من قرية أمليت) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (الواو) حاليّة (إليّ) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (المصير) .

جملة : "كأيّن من قرية) لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أمليت لها " في محلّ رفع خبر المبتدأ (كأيّن) .

وجملة : " هي ظالمة " في محلّ نصب حال .

وجملة : " أخذتها . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أمليت لها .

وجملة : " إليّ المصير " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة الحج (22) : الآيات 49 إلى 51]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (51)

الإعراب :

(أيّها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب ، و(ها) للتنبيه (الناس) بدل من أيّ - أو عطف بيان - تبعه في الرفع لفظا (لكم) متعلّق بـ (نذير) خبر المبتدأ أنا .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " النداء وجوابها . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنا لكم نذير . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

(الفاء) عاطفة تفريعيّة (الذين) موصول مبتدأ في محلّ رفع (لهم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (مغفرة) .

وجملة : " الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

---

(1) في الآية (45) من هذه السورة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " لهم مغفرة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

(الواو) عاطفة (الذين) مبتدأ (في آياتنا) متعلّق بـ (سعوا) بتضمينه معنى هدّموا ، أو اجتهدوا في إبطالها (معاجزين) حال من فاعل سعوا ، منصوب وعلامة النصب الياء (أولئك) اسم إشارة مبتدأ خبره (أصحاب) مرفوع.

وجملة : " الذين سعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الذين آمنوا . .

وجملة : " سعوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أولئك أصحاب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

الصرف :

(سعوا) ، فيه إعلال بالحذف أصله : سعاوا ، التقى ساكنان فحذفت الألف وفتح ما قبل الواو دلالة عليها ، وزنه فعوا بفتح الفاء والعين.

(معاجزين) ، جمع معاجز ، اسم فاعل من عاجز الرباعيّ ، وزنه مفاعل بضمّ الميم وكسر العين.

[سورة الحج (22) : الآيات 52 إلى 54]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى

صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (54)

الجدول ج 17 ، ص : 129

الإعراب :

(297/529)

(الواو) استئنافيّة (من قبلك) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (رسول) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (لا) زائدة لتأكيد النفي (نبيّ) معطوف على رسول لفظا مجرور (إلّا) أداة حصر " 1 " ، (في أمنيّته) متعلّق بـ (ألقى) بتضمينه معنى أثّر أو تحكّم (الفاء) عاطفة (ما) حرف مصدريّ " 2 " ، (آياته) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسر .

جملة : " ما أرسلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه " في محلّ جرّ - أو نصب على المحلّ - نعت لنبيّ " 3 " .

وجملة : " تمنّى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ألقى الشيطان . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ينسخ اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب .

وجملة : " يلقي الشيطان . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الحرفيّ أو الاسميّ .

والمصدر المؤوّل (ما يلقي . . .) في محلّ نصب مفعول به وجملة : " يحكم اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينسخ اللّه .

وجملة : " اللّه عليم حكيم . . . " لا محلّ لها استئناف اعتراضيّ .

(اللام) للتعليل ، والفعل منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل هو

---

(1) أو أداة استثناء ، والشرط وفعله وجوابه في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع ، وهو اختيار أبي البقاء .

(2) أو اسم موصول مفعول به ، والعائد محذوف .

(3) أجاز الجمل أن تكون في محلّ نصب حال من نبيّ أو من رسول . . ولكنّ الجملة الشرطيّة المصدّرة بـ (إذا) يضعف مجيئها حالا .

(298/529)

أي اللّه (ما يلقي الشيطان) مثل الأولى (فتنة) مفعول به ثان منصوب (للذين) متعلّق بنعت لفتنة (في قلوبهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (مرض) ، (القاسية) معطوف على الموصول الذين بالواو (قلوبهم) فاعل لاسم الفاعل القاسية ، مرفوع .

والمصدر المؤوّل (أن يجعل . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يحكم) ، أو بـ (ينسخ) .

(الواو) استئنافيّة (اللام) المزحلقة للتوكيد (في شقاق) متعلّق بخبر إنّ .

وجملة : " يجعل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يلقي الشيطان . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) أو الاسميّ .

والمصدر المؤوّل (ما يلقي . . .) في محلّ نصب مفعول به أوّل عامله يجعل .

وجملة : " في قلوبهم مرض . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " إنّ الظالمين لفي شقاق . . . " لا محلّ لها استئناف اعتراضيّ .

(الواو) عاطفة (ليعلم) مثل ليجعل (أوتوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . و(الواو) نائب الفاعل (العلم) مفعول به منصوب (من ربّك) متعلّق بحال من الحقّ (الفاء) عاطفة في الموضعين (يؤمنوا) مضارع منصوب معطوف على يعلم .

والمصدر المؤوّل (أن يعلم . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بما تعلّق به المصدر السابق (أن يجعل . . .)

والمصدر المؤوّل (أنّه الحق . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يعلم .

(له) متعلّق بـ (تخبت) ، (الواو) استئنافيّة (اللام) مزحلقة للتوكيد (هاد)

الجدول ج 17 ، ص : 131

خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدّرة على الياء المحذوفة رسما " 1 " ، (الذين) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (إلى صراط) متعلّق بـ (هادي) .

وجملة : " يعلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " أوتوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يؤمنوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعلم .

وجملة : " تخبت له قلوبهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤمنوا .

وجملة : " إنّ اللّه لهادي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

الفوائد

- قوله تعالى : أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ :

---

(1) لأنّها تسقط في القراءة وصلا ، أو لتناسب قراءة التنوين .

" مشكلة الغرانيق " ليس لنا أن نمرّ على هذه القصة ، مرور الكرام على مآدب اللئام ، لما لها من علاقة صميمة في جوهر العقيدة الإسلامية . وسوف نتناول منها اللب ، ونترك القشور ، تمشيا مع خطة الكتاب .

أ - زعم الراوي لهذه الأسطورة أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) تمنّى أن لا ينزل

عليه من الوحي ما ينفّر قريشا ، طمعا في إسلامهم ، حتى نزلت سورة " النجم " ، فأخذ يتلوها في نادي قريش ، على مسمع منهم ، حتى بلغ قوله " وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى " ، فألقى الشيطان على لسانه ما يتجاوب مع أمنيته التي تمناها ، فقال : " تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى " فلما سجد في آخرها ، سجد معه جميع من في النادي ، وطابت نفوسهم . وإليك آراء العلماء حول هذه الرواية :

1 – الرازي طعن في هذه الرواية ، وأيّد كلامه بحديث البخاري الذي ذكر قصة السجود ولم يذكر الغرانيق .

2 – ابن العربي يرد على الطبري ، والقاضي عياض يؤيده ، فيقولان " هذا الحديث لم يخرجه أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ، مع ضعف نقلته ، واضطراب رواياته ، وانقطاع أسانيده . ومن حكيت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين لم يسندها أحد منهم ، ولا رفعها إلى صحابي . وأكثر الطرق عنهم ضعيفة واهية . فهذا أمر مردود أيضا . .

3 – قيل : لعل ذلك كان توبيخا للكفار ، فأجاز القاضي عياض ذلك ، شريطة وجود القرينة الدالة على ذلك .

4 – قيل : إن قريشا كانت تلغي وتهوش على الرسول قراءة القرآن ، فحاولوا خلط كلامهم

بكلام الرسول (صلى اللّه عليه وآله وسلم) ، وقد نسب ذلك إلى الشيطان لأنه من وراء ألسنتهم .

(300/529)

---

5 – قيل : بأن الشيطان انتهز فرصة ترتيل الرسول للقرآن ، وتلك الفواصل والسكتات التي كان يسكتها بها بين الآية والآية ، فانتهز الشيطان فرصة سكوته ، وقرأ الكلمات المذكورة .

وقد ارتضى القاضي عياض هذا الوجه من التفسير والتعليل . .

6 – قال القسطلاني في شرح البخاري : وقد طعن في هذه القصة غير واحد من الأئمة .

وقال ابن إسحاق وقد سئل عنها : " هي من وضع الزنادقة " .

7 – يقول القاضي عياض : قد قامت الحجة واجتمعت الأمة على عصمته (صلى اللّه عليه وآله وسلم) ونزاهته عن هذه الرذيلة .

8 – لم يسمع من المشركين أو المنافقين أو اليهود من اتخذ من هذه القصة سلاحا يناهض به الإسلام ويعارض به رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلم) . فتبصّر عصمك اللّه من الزلل .

9 – رفض العالم الهندي محمد علي قول الواقدي والطبري وأيد رواية ابن إسحاق

والبخاري ، وهما أولى بالتصديق والتحقيق ، وقال : إن هذه القصة لا أصل لها من الحقيقة .

10 - يقول الامام محمد عبده :

هذا الزعم للقصة ، من أقبح ما يتصوره متصور في اختصاص اللّه تعالى لأنبيائه ، واختيارهم من خاصة أوليائه ، فلندع هذا الهذيان ، لأنه لا يقبل في عقل ولا نقل ، إلى أن يقول :

لو صح ما قاله نقلة قصة الغرانيق لارتفعت الثقة بالوحي ، وانتقض الاعتماد عليه ، ولانهدم أعظم ركن للشرائع الإلهية ، وهو العصمة . ووصف العرب لآلهتهم بالغرانيق العلى ما عرف عنهم ، لا في شعرهم ، ولا في نثرهم .

11 - إن سائر ما ورد في المعاجم ، من معان للغرنوق ، لا تقبله العرب وصفا لأوثانهم ، ولا يقبله بلغاؤهم . وعليه لا نعتقد ذلك الكلام إلا من مفتريات الأعاجم ، ومختلقات الملبسين ، فراج ذلك على من يغريه الولوع بالرواية عما تقتضيه الدراية . .

" رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا "

[سورة الحج (22) : آية 55]

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لا يزال) مضارع ناقص ناسخ مرفوع (في مرية) متعلّق بمحذوف خبر لا يزال (منه) متعلّق بمحذوف نعت لـ (مرية) (حتّى) حرف غاية وجرّ (تأتيهم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى (بغتة) مصدر في موضع الحال " 1 " .

والمصدر المؤوّل (أن تأتيهم) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به (في مرية) .

جملة : " لا يزال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " تأتيهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يأتيهم عذاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تأتيهم .

الصرف :

(عقيم) ، صفة مشبّهة من عقم يعقم باب نصر أو باب فرح

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر ملتق مع الفعل بالمعنى أي تبغتهم الساعة بغتة .

أو باب كرم ، وزنه فعيل " 1 " .

البلاغة

الاستعارة :

في قوله تعالى " أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ " المراد به يوم حرب يقتلون فيه ، ووصف بالعقيم ، لأن أولاد النساء يقتلون فيه ، فيصرن كأنهنّ عقم ، لم يلدن ، أو لأن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب ، فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم ، وفيه على الأول مجاز في الإسناد ومجاز في المفرد من جعل الثكل عقما ، وكذا على الثاني ، لأن الولود والعقيم هي الحرب على سبيل الاستعارة بالكناية ، فإذا وصف يوم الحرب بذلك كان مجازا في الاسناد ، وقيل : هو الذي لا خير فيه . يقال : ريح عقيم إذا لم تنشئ مطرا ولم تلقح شجرا ، وفيه على هذا استعارة تبعية لأن ما في اليوم من الصفة المانعة من الخير جعل بمنزلة العقم .

[سورة الحج (22) : الآيات 56 إلى 59]

---

(1) وفي الكلام استعارة مكنيّة حيث شبّه اليوم بالمرأة التي لا تلد ، وحذف المشبّه به واستعيض منه بشيء من لوازمه بقوله عقيم . [. . . . .]

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (57) وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59)

الإعراب :

التنوين في (يومئذ) عوض من جملة محذوفة أي يوم يؤمنون

أو يوم تزول مريتهم ، وتعلّق الظرف بالاستقرار الذي تعلّق به (للّه) أي في الخبر (بينهم)

ظرف منصوب متعلّق بـ (يحكم) ، (الفاء) عاطفة للتقسيم والتفريع (في جنّات) متعلّق بخبر

المبتدأ (الذين) .

جملة : " الملك . . للّه) لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يحكم بينهم " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يحكم . . .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا .

(بآياتنا) متعلّق بـ (كذّبوا) ، (الفاء) في أولئك زائدة لمشابهة المبتدأ للشرط (أولئك) اسم إشارة في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة : لهم عذاب (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (عذاب) .

وجملة : " الذين كفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الذين آمنوا .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : "كذّبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كفروا .

وجملة : " أولئك لهم عذاب " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين كفروا) .

وجملة : " لهم عذاب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

(الواو) عاطفة (الذين) اسم موصول في محلّ رفع مبتدأ (في سبيل) متعلّق بحال من فاعل هاجروا (قتلوا) ماض مبنيّ للمجهول . . و(الواو) نائب الفاعل (أو) حرف عطف (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (يرزقنّهم) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . و(النون) نون التوكيد ، و(هم) ضمير مفعول به (رزقا) مفعول به ثان منصوب " 2 " ، (الواو) استئنافيّة – أو اعتراضيّة – (اللام)

---

(1) أو في محل نصب حال من لفظ الجلالة ، ولكنّ العامل ضعيف .

(2) إذا كان بمعنى المرزوق منه . . وهو مفعول مطلق إن قصد به مطلق الحدث .

المزحلقة للتوكيد . . .

وجملة : " الذين هاجروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الذين كفروا . .

وجملة : " هاجروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث .

وجملة : " قتلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هاجروا . .

وجملة : " ماتوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قتلوا .

وجملة : " يرزقنّهم اللّه . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة مع جوابها في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين هاجروا) .

وجملة : " إنّ اللّه لهو . . . " لا محلّ لها تعليليّة – أو اعتراضيّة بين البدل والمبدل منه .

وجملة : " هو خير . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(ليدخلنّهم) مثل ليرزقنّهم (مدخلا) مفعول به منصوب " 1 " ، (الواو) استئنافيّة . .

وجملة : " يدخلنّهم . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم والجواب لا محلّ لها استئنافيّة . . أو بدل من القسم الأوّل وجوابه .

وجملة : " يرضونه . . . " في محلّ نصب نعت لـ (مدخلا) .

وجملة : " إنّ اللّه لعليم . . . " لا محلّ لها في حكم التعليل .

[سورة الحج (22) : الآيات 60 إلى 62]

---

(1) هذا إن كان اسم مكان . . وهو مفعول مطلق إن كان مصدرا ميميّا .

(305/529)

ذِلكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62)

الإعراب :

(ذلك) اسم إشارة في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر أو الشأن (الواو) استئنافيّة (من) اسم موصول مبتدأ " 1 " ، (بمثل) متعلّق بـ (عاقب) ، (ما) موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه ، ونائب الفاعل للمبنيّ للمجهول (عوقب) ضمير مستتر يعود على من ، (به) متعلّق بـ (عوقب) ، (عليه) نائب الفاعل للمبنيّ للمجهول (بغي) ، (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (ينصرنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع (إنّ اللّه لعفوّ) مثل إنّ اللّه لعليم " 2 " .

جملة : " (الأمر) ذلك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من عاقب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عاقب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " عوقب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " بغي عليه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عاقب .

وجملة : " ينصرنّه اللّه . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر ، وجملة القسم وجوابه في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " ، وجملة : " إنّ اللّه لعفوّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو هو اسم شرط مبتدأ خبره جملة عاقب . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم لينصرنّه .

(2 ، 3) في الآية السابقة (59) .

(ذلك) مبتدأ خبره (بأنّ اللّه . . .) ، (في النهار) متعلّق بـ (يولج) ، وكذلك (في الليل) بـ (يولج) الثاني .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يولج . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بخبر المبتدأ (ذلك) .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه سميع) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل الأول .

وجملة : " ذلك بأنّ اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة .

وجملة : " يولج الليل . . . " في محلّ رفع خبر أنّ (الأول) .

وجملة : " يولج النهار . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يولج الليل .

(ذلك بأنّ اللّه هو الحقّ) مثل ذلك بأنّ اللّه يولج (هو) ضمير منفصل مبتدأ خبره (الحقّ) ، (الواو) عاطفة (ما) موصول في محلّ نصب اسم أنّ (من دونه) متعلّق بحال من المفعول المحذوف (هو) مبتدأ خبره (الباطل) ، (الواو) عاطفة (أنّ اللّه هو العليّ) مثل أنّ اللّه هو الحقّ .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه هو الحقّ) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بخبر المبتدأ (ذلك) .

والمصدر المؤوّل (أنّ ما يدعون . . .) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل (أنّ اللّه هو الحقّ) .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه هو العليّ) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل (أنّ اللّه هو الحقّ) .

وجملة : " ذلك بأنّ اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة مؤكّدة للتعليل .

وجملة : " هو الحقّ . . . " في محلّ رفع خبر (أنّ) الثالث .

وجملة : " يدعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " هو الباطل . . . " في محلّ رفع خبر (أنّ) الرابع .

وجملة : " هو العليّ . . . " في محلّ رفع خبر (أنّ) الخامس .

[سورة الحج (22) : آية 63]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام وهو بمعنى الإخبار وعلامة الجزم في (تر) حذف حرف العلّة (من السماء) متعلّق بـ (أنزل) ، (الفاء) عاطفة " 1 " .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه أنزل . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ترى .

جملة : " لم تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنزل . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " تصبح الأرض . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أنزل " 2 " .

وجملة : " إنّ اللّه لطيف . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(مخضّرة) ، مؤنّث مخضرّ ، اسم مفعول من اخضرّ الخماسيّ ، ويحتمل أن يكون اسم فاعل إذا أسندنا عمل الاخضرار إلى الأرض نفسها ، وزنه مفعلّ بضمّ الميم ولم تظهر الفتحة على اللام الأولى بسبب التضعيف .

البلاغة

عطف المضارع المستقبل على الماضي :

في قوله تعالى " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً "

---

(1) الفاء هنا ليست فاء السببيّة لأنّ إصباح الأرض مخضرّة لا يتسبّب عن الرؤية وإنّما يتسبّب عن نزول المطر نفسه . ثمّ إنّ الاستفهام معناه الإخبار والتقرير أي قد رأيت أنّ اللّه أنزل ، . .

(2) تصبح بمعنى أصبحت أو لدلالة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان كما يقول الزمخشري . .

والجملة عند أبي البقاء خبر لمبتدأ محذوف هو ضمير القصة المقدّر والجملة الاسميّة مستأنفة .

(307/529)

العدول عن الماضي إلى المضارع لإفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان ، كما تقول : أنعم عليّ فلان عام كذا ، فأروح وأغدو شاكرا له . ولو قلت : فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع ، أو لاستحضار الصورة البديعة .

الفوائد

1 – قوله تعالى فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً قال ابن هشام في المغني :

وقيل : الفاء في هذه الآية للسببية ، وفاء السببية لا تستلزم التعقيب ، بدليل قولنا : إن يسلم فهو يدخل الجنة ، ألم تر أن بينهما من المهلة ما بينهما .

2 – آثار قدرته تعالى : ذكر الرازي منها ستة أشياء :

أ – إنزال الماء من السماء ، وما ينشأ عنه من اخضرار الأرض .

(308/529)

ب – عموم ملك اللّه بقوله : له ما في السموات وما في الأرض .

ج – تذليل سائر ما في الأرض ، من نبات وحيوان ، للإنسان للانتفاع به .

د – تسخير الفلك بالماء ، وتسخير الرياح ، ولولا هما لما استطاع الإنسان الانتقال من مكان إلى مكان والماء بينهما ، بل كانت تقف السفينة بهم أو تغوص .

و – إمساك السماء وما فيها من أفلاك وأجرام أن تقع على الأرض ، فتذهب بسائر تلك النعم .

ز – الإحياء فالإماتة فالإحياء ، ففي الإحياء الأول أنعمه علينا في الدنيا ، والإحياء الثاني وأنعمه في الآخرة .

[سورة الحج (22) : آية 64]

لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64)

الإعراب :

(له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ما) الاسم الموصول ، (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة ما (في الأرض) متعلّق بمحذوف صلة ما الثاني (الواو) عاطفة (اللام) هي المزحلقة للتوكيد (الحميد) خبر ثان مرفوع.

جملة : "له ما في السموات . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : "إنّ اللّه . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة : "هو الغنيّ . . . "في محلّ رفع خبر إنّ.

[سورة الحج (22) : آية 65]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (65)

الإعراب :

(ألم تر أنّ اللّه سخّر) مثل ألم تر أنّ اللّه أنزل " 1 " ، (لكم) متعلّق بـ (سخّر) ، (في الأرض) متعلّق بمحذوف صلة ما (الواو) عاطفة (الفلك) معطوفة على (ما) منصوب " 2 " ، (في البحر) متعلّق بـ (تجري) ، (بأمره) متعلّق بحال من فاعل تجري أي متلبّسة أو مسيّرة.

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه سخّر . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ترى .

والمصدر المؤوّل (أن تقع . . .) في محلّ نصب مفعول لأجله بحذف مضاف أي خشية وقوعها " 3 " .

(على الأرض) متعلّق بـ (تقع) ، (إلّا) أداة حصر " 4 " ، ويقدّر النفي قبلها بفعل يمنع أي لا يترك (بإذنه) متعلّق بحال و(الباء) للملابسة " 5 " ، (بالناس)

---

(1) في الآية (63) من هذه السورة .

(2) يجوز عطفه على لفظ الجلالة ، وجملة تجري حينئذ خبر .

(3) يجوز نصب لمصدر المؤوّل على البدليّة من السماء ، بدل اشتمال ، أي يمسك وقوع السماء أي يمنع وقوعها .

(4) أو أداة استثناء لاستثناء مفرّغ .

(5) أي هو مستثنى من عموم الأحوال . . أي يمسك السماء أن تقع في كلّ حال إلّا في حال إذنه .

متعلّق بـ (رؤف) ، (رحيم) خبر ثان لـ (إنّ) .

جملة : " لم تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سخّر . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " تجري . . . " في محلّ نصب حال من الفلك " 1 " .

وجملة : " يمسك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تقع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " إنّ اللّه . . لرؤوف . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(تقع) ، فيه إعلال بالحذف فهو مضارع المثال وقع باب فتح ، وزنه تعل بفتحتين .

[سورة الحج (22) : آية 66]

وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (66)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (الذي) خبر المبتدأ هو (ثمّ) حرف عطف في الموضعين (اللام) المزحلقة للتوكيد جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أحياكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يميتكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة: "يحييكم . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة يميتكم.

وجملة: "إنّ الإنسان لكفور "لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أو هي معطوفة على جملة سخّر - فهي في المعنى خبر - إذا عطف (الفلك) على لفظ الجلالة اللّه.

(310/529)

[سورة الحج (22) : الآيات 67 إلى 69]

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (67) وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69)

الإعراب:

(لكلّ) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعلنا (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (ينازعنّك) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون فهو من الأفعال الخمسة . . . و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، و(النون) نون التوكيد (في الأمر) متعلّق بـ (ينازعنّك)، (الواو) عاطفة (إلى ربّك) متعلّق بـ (ادع) بحذف مضاف أي إلى دين ربّك

(اللام) المزحلقة للتوكيد (على هدى) متعلّق بخبر إنّ (مستقيم) نعت لهدى مجرور .

جملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هم ناسكوه . . . " في محلّ نصب نعت لـ (منسكا) .

وجملة : " لا ينازعنّك . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر . . أي إن ناقشوك في أمر الشريعة فلا ينازعنّك – أي لا تنازعهم – وجملة : " ادع . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا ينازعنّك .

وجملة : " إنّك لعلى هدى . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

(الواو) عاطفة (جادلوك) فعل ماض مبنيّ على الضمّ في محلّ جزم فعل الشرط . و(الواو) فاعل ، و(الكاف) مفعول به (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ما) حرف مصدريّ " 1 " .

---

(1) أو اسم موصول ، والعائد محذوف أي تعملونه . [. . . . .]

(311/529)

والمصدر المؤوّل (ما تعملون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أعلم) أي عالم وجملة : " إن جادلوك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الشرط المقدّرة ناقشوك .

وجملة : " قل . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " اللّه أعلم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) أو الاسميّ .

(بينكم) ظرف منصوب متعلّق بـ (يحكم) ، وكذلك (يوم) ، (ما) اسم موصول في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق بـ (يحكم) ، (فيه) متعلّق بـ (تختلفون) .

وجملة : " اللّه يحكم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يحكم بينكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " كنتم فيه تختلفون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تختلفون " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(ناسكوه) ، جمع ناسك ، اسم فاعل من نسك الثلاثيّ ، وزنه فاعل ، وقد حذفت النون من الجمع للإضافة .

الفوائد

- وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ " الجدل في الإسلام " :

كثيرة هي الآيات التي تعرضت للجدل ، مرة بهذا الاسم ، ومرة بالحجاج ، وعلى العموم يدعونا اللّه لنجادل بالتي هي أحسن . ومرة يدعونا لنعرض عن الجاهلين .

وقد اختلف أئمة المذاهب حول الجدل والحجاج .

أ- مالك كان يمقت الجدل والمناظرة ، ويرى أن العلم أزمع من أن يتخذ سبيلا للمصاولة والمطاولة . . وقد قال مرة للخليفة الرشيد ، وقد طلب إليه أن يناظر أحد الفقهاء ، فاستعفى أمير المؤمنين من ذلك قائلا : لا يجوز أن تتخذ العلم

كتحريش الديكة . . أو تهويش الكلاب .

ب - الإمام الشافعي ، كان يناظر في سبيل إظهار الحقيقة ، وكان يقول : ما ناظرت أحدا إلا وتمنيت أن يظهر اللّه الحق على لسانه . وكان هادئا لينا متريثا في مناظراته ومخلصا في مجادلاته .

(312/529)

ج - الإمام أبو حنيفة ، فتح باب المناظرة على مصراعيه ، حتى أصبحت مدرسته مدرسة أصحاب الرأي .

د - الامام أحمد بن حنبل ، لم يبح لنفسه أن يلج باب الجدال قط ، وكل كانت له أسباب ودوافع رضي اللّه عنهم أجمعين .

[سورة الحج (22) : آية 70]

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70)

الإعراب :

(ألم تعلم أن اللّه يعلم) مثل ألم تر أن اللّه أنزل " 1 " ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة ما ، والإشارة (ذلك) إلى الموجود في السماء والأرض (في كتاب) متعلّق بخبر إنّ ، والإشارة (ذلك) الثاني إلى علم اللّه (على اللّه) متعلّق بـ (يسير) .

جملة : " تعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يعلم . . . " في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي تعلم .

وجملة : " أنّ ذلك في كتاب " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " إنّ ذلك . . يسير " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) في الآية (63) من هذه السورة .

[سورة الحج (22) : الآيات 71 إلى 72]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ

(71) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من دون) متعلّق بحال من الموصول ما ، وفاعل (ينزّل) ضمير يعود على لفظ الجلالة (به) متعلّق بـ (ينزّل) " 1 " ، (ما) الثاني موصول معطوف على ما الأول في محلّ نصب (لهم) متعلّق بخبر ليس (به) متعلّق بحال من (علم) وهو اسم ليس (الواو) حاليّة – أو استئنافيّة – (للظالمين) متعلّق بخبر مقدّم (نصير) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر .

جملة : " يعبدون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لم ينزّل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة : " ليس لهم به علم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " ما للظالمين من نصير " في محلّ نصب حال " 2 " .

(الواو) عاطفة (عليهم) متعلّق بالفعل المبنيّ للمجهول (تتلى) ، (بيّنات) حال من نائب الفاعل آياتنا (في وجوه) متعلّق بـ (تعرف) ، (بالذين) متعلّق بـ (يسطون) بتضمينه معنى يبطشون (عليهم) متعلّق بـ (يتلون) ، (الهمزة)

---

(1) أو بمحذوف حال من (سلطانا) – نعت تقدّم على المنعوت –

(2) أو استئنافيّة لا محلّ لها .

الجدول ج 17 ، ص : 147

للاستفهام (الفاء) عاطفة (بشّر) متعلّق بـ (أنبّئكم) ، (من ذلكم) متعلّق بـ (شرّ) ، (النار) مبتدأ خبره جملة وعدها " 1 " ، و(الهاء) في (وعدها) المفعول الثاني (الذين) هو المفعول الأول " 2 " ، (الواو) استئنافيّة (بئس) ماض جامد لإنشاء الذمّ ، والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره هي أي النار .

وجملة : " تتلى . . . آياتنا " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تعرف . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يكادون . . . " في محلّ نصب حال من الموصول " 3 " .

وجملة : " يسطون . . . " في محلّ نصب خبر يكادون .

وجملة : " يتلون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . . والجملة استئناف بيانيّ ، وجملة وعدها خبر ثان للمبتدأ هو .

(2) يصحّ أن يكون الموصول المفعول الثاني إذا كانت النار هي الآكلة والكافرون مأكولون .

(3) المضاف جزء من المضاف إليه . . ويجوز أن تكون حالا من وجوه لأنّها أصحابها .

(314/529)

وجملة : " أفأنبّئكم . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقدّر هو مقول القول أي أأخاطبكم فأنبئكم .

وجملة : " النار وعدها . . . " لا محلّ لها تفسر الشرّ . . أو استئناف بيانيّ .

وجملة : " وعدها . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (النار) .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث .

وجملة : " بئس المصير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(يسطون) ، بمعنى يغلبون أو يقهرون ، فيه إعلال بالحذف أصله يسطوون - بواوين - التقى ساكنان فحذف حرف العلّة لام الكلمة فأصبح يسطون ، وزنه يفعون .

[سورة الحج (22) : الآيات 73 إلى 74]

يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ

اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74)

الإعراب :

(أيّ) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب . . و(ها) حرف تنبيه (الناس) بدل من أيّ - أو عطف بيان - تبعه في الرفع لفظا (الفاء) رابطة بين المسبّب والسبب (له) متعلّق بـ (استمعوا) ، (من دون) متعلّق بحال من العائد المحذوف أي تعبدونه كائنا من دون اللّه (الواو) حاليّة (لو) حرف شرط غير جازم (له) متعلّق بـ (اجتمعوا) ، (الواو) عاطفة (شيئا) مفعول به منصوب (يستنقذوه) مضارع مجزوم جواب الشرط وعلامة الجزم حذف النون (منه) متعلّق بـ (يستنقذوه) .

(315/529)

جملة : " النداء : يا أيّها الناس . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ضرب مثل . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " استمعوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أردتم العبرة فاستمعوا .

وجملة : " إنّ الذين تدعون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تدعون من دون اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لن يخلقوا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " اجتمعوا . . . " في محلّ نصب حال . . وجواب (لو) محذوف يفسّره المذكور قبله أي : لن يخلقوا ذبابا .

وجملة : " إن يسلبهم الذباب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ الذين تدعون .

وجملة : " لا يستنقذوه . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " ضعف الطالب . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تقريريّ – (ما) نافية (حقّ) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مضاف إلى المصدر ، منصوب (اللام) المزحلقة للتوكيد .

وجملة : " ما قدروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ اللّه لقويّ . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(ذبابا) ، اسم جنس واحدته ذبابة زنة فعالة ، ويجمع على ذبّان بكسر الذال وضمّها وتشديد الباء ، وعلى أذبّة زنة أغربة ، وهو مأخوذ من ذبّ إذا طرد وآب إذا رجع .

(الطالب) ، اسم فاعل من طلب الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(المطلوب) ، اسم مفعول من طلب الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

الفوائد

1 - المثل في القرآن :

(316/529)

نوهنا مرارا عن دور المثل في القرآن الكريم . ونعود هنا لنقف عند هذه الآية التي تقارن بين قدرة الآلهة المزعومة ، سواء أكانت إنسانا أم حيوانا أم جمادا ، وعجزها عن خلق ذبابة واحدة ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وبين قدرة الذباب الذي هو من أضعف خلق اللّه ، ولكن قد يسطوا على ما في حوزة الإنسان وسائر تلك الآلهة ، فيسلبها بعضها ، ويقف ذلك المسلوب عاجزا أمام الذباب ، لا يستطيع أن يستنقذ ما سلب منه .

أليس من الحق ، أن نصف السالب والمسلوب بالضعف ؟ ! ولعل هذه الآية قد أوحت لذلك الفيلسوف الغربي أن يقول : لقد عجز العلم حتى اليوم أن يكشف حقيقة ذبابة . . وقد استلهم إيمانه بالقدرة القادرة المهيمنة على هذا الوجود ، من خلال دقة مخلوقات اللّه ، وعجز الإنسان وعلمه عن إدراك سر الحياة لدى أضعف الأحياء من مخلوقات اللّه ، وما أروع قوله تعالى في ختام هذه الآية " ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . ما

قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ " وهكذا نجد أن المثل من جهة ، والحوار من جهة ثانية ، والقصة من جهة ثالثة ، والصور المشخصة ذات الحياة والحركة ، كلها من جملة العناصر المكونة لأسلوب القرآن الكريم وبلاغته وإعجازه .

2 – جدّة اختراع المعاني :

هو أن يخترع الشاعر أو الكاتب معنى لم يسبق إليه ، فقوله تعالى " إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً " هي من أبلغ ما أنزل اللّه في تجهيل الكافرين وتقريعهم والاستخفاف بعقولهم ، لغرابة التمثيل الذي تضمن الإفراط في المبالغة مع كونها ملازمة للحق والواقع .

(317/529)

فقد اقتصر سبحانه على ذكر أضعف المخلوقات وأقلها سلبا لما تسلبه ، وتعجيز كل من دونه ، عن خلق مثله ، مع التضافر والاجتماع ، ثم عدل عن رتبة الخلق ، لما فيه من تعجيز ، إلى استنقاذ النزر القليل ، الذي يسلبه الذباب ، فقد تدرج في النزول على ما تقضيه خطة البلاغة في الترتيب .

ولجدّة الاختراع في المعاني ، لدى الشعراء والأدباء ، بحث طريف ومفيد غاية الفائدة . ولو لا مخافة الخروج عن خطتنا في الإيجاز ، لعرضنا عليك أضغاثا من عيون اختراعات أبي

تمام والمتنبي وابن الرومي والجاحظ وغيرهما كثير ، فإن كنت من فرسان هذا الميدان ، فعليك بدواوين هؤلاء .

[سورة الحج (22) : الآيات 75 إلى 76]

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76)

الإعراب :

(من الملائكة) متعلّق بـ (يصطفي) ، وكذلك (من الناس) ، (بصير) خبر ثان مرفوع جملة : " اللّه يصطفى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يصطفي . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " إنّ اللّه سميع . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تقريريّ - (ما) اسم موصول مفعول به في محلّ نصب (بين) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (ما خلفهم) مثل ما بين . . ومعطوف عليه (الواو) عاطفة (إلى اللّه) متعلّق بالمبنيّ للمجهول (ترجع) . .

وجملة : " يعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " ترجع الأمور " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعلم .

الصرف :

(يصطفي) ، فيه إبدال تاء الافتعال إلى طاء لمجيئها بعد الصاد ، وأصله يصتفي .

[سورة الحج (22) : الآيات 77 إلى 78]

---

(1) أو في محلّ رفع خبر ثالث للحرف المشبّه بالفعل إنّ . .

(318/529)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77) وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)

الإعراب :

(يا أيها الذين آمنوا) مثل يا أيها الناس " 1 " ، (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة . .

جملة : " يأيها الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " اركعوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اسجدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " اعبدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " لعلّكم تفلحون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " تفلحون " في محلّ رفع خبر لعلّكم .

(الواو) عاطفة (في اللّه) متعلّق بـ (جاهدوا) بحذف مضافين أي في إقامة دين اللّه (حق جهاده) مثل حقّ قدره " 2 " ، (الواو) عاطفة (ما) نافية (عليكم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعل (في الدين) متعلّق بـ (جعل) " 3 " ، (حرج) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به أوّل عامله جعل (ملّة) مفعول به لفعل محذوف تقديره اتّبعوا " 4 " ، وعلامة الجرّ في (أبيكم) الياء (إبراهيم) عطف بيان لأبيكم مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (المسلمين) مفعول به ثان عامله سمّاكم ، وعلامة النصب الياء (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق بـ (سمّاكم) " 5 " ، (في هذا) متعلّق بـ (سمّاكم) ،

---

(1) في الآية (73) من هذه السورة .

(2) في الآية (74) من هذه السورة .

(3) أو متعلّق بحال من حرج ، أو بحال من الضمير في (عليكم) .

(4) أو منصوب بمضمون ما تقدّمه بحذف مضاف ، كأنّه قال وسع دينكم توسعة ملّة أبيكم فهو مفعول مطلق لفعل محذوف . . . والسيوطي تبع الفرّاء بجعله منصوبا على نزع

الخافض وهو الكاف ، وأبو البقاء جعله حالا بحذف مضاف أي مثل ملّة أبيكم .

(5) وبني على الضمّ لانقطاعه عن الإضافة لفظا أي من قبل هذا الكتاب . .

(319/529)

والإشارة إلى القرآن (اللام) لام التعليل (يكون) مضارع ناقص ناسخ منصوب بأن مضمرة بعد اللام (عليكم) متعلّق بـ (شهيدا) ، (تكونوا) معطوف على يكون منصوب ، وعلامة النصب حذف النون (على الناس) متعلّق بـ (شهداء) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (باللّه) متعلّق بـ (اعتصموا) ، (الفاء) استئنافيّة ، والمخصوص بالمدح لفعلي المدح محذوف تقديره هو أي اللّه .

وجملة : " جاهدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " هو اجتباكم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " اجتباكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

(320/529)

وجملة : " ما جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو اجتباكم " 1 " .

وجملة : " (اتّبعوا) ملّة أبيكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّة " 2 " .

وجملة : " هو سمّاكم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " سمّاكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

وجملة : " يكون الرسول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أن يكون . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (سمّاكم) .

وجملة : " تكونوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على صلة الموصول الحرفيّ .

وجملة : " أقيموا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن كنتم أهلا لهذه التسمية فأقيموا . . .

وجملة : " آتوا . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة أقيموا .

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها أيضا .

(2) من حالات نصب (ملّة) كونه منصوبا بفعل محذوف تقديره أعني ، فكأنّ ثمّة سؤال مقدّر بعد قوله تعالى : ما جعل عليكم في الدين من حرج . . أيّ دين هو ، فالجواب : أعني ملّة أبيكم . . فالجملة على هذا استئناف بيانيّ . [. . . . .]

وجملة : " اعتصموا . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة أقيموا .

وجملة : " هو مولاكم . . . " في محلّ نصب حال من لفظ الجلالة .

وجملة : " نعم المولى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نعم النصير . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نعم المولى . .

الصرف :

(جهاد) ، مصدر سماعيّ لفعل جاهد الرباعيّ ، وزنه فعال بكسر الفاء ، أمّا المصدر القياسيّ فهو مجاهدة وزنه مفاعلة بفتح الفاء وفتح العين .

(سمّاكم) ، فيه إعلال بالقلب أصله سمّيكم ، تحركت الياء بعد فتح قلبت ألفا وزنه فعّلكم .

الفوائد

- وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .

رفع الحرج في الإسلام :

اتخذ هذا العنوان بعض الأئمة المجتهدين أصلا من أصول الفقه في الإسلام ، وقد استندوا في قرارهم هذا ، إلى نصوص كثيرة مثبوته في القرآن الكريم ، كقوله تعالى :

" إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً " . وهذه الآية التي نحن بصددها " وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ " . وقوله تعالى " لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها " وقوله " رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ " . وقصر الصلاة في السفر ، وإباحة الإفطار في رمضان لمن كان مريضا أو على سفر ، إلخ . وفي الحديث الشريف

قوله (صلى اللّه عليه وآله وسلم) : " ما خيّرت بين أمرين إلا اخترت أيسرهما "

و

قوله " يسروا ولا تعسروا . إلخ "

ومنعه صحابته أن يتشادوا في الدين ، و

قوله صلى اللّه عليه وآله وسلم (أما واللّه إني لأخشاكم للّه ، وأتقاكم له لكني : أصوم ، وأفطر ، وأصلي ، وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي مني) .

ومثل ذلك كثير نجده في كتب السيرة والكتب الصحاح .

المجتهدين ما معناه " من السهل على كل إنسان أن يتشدّد في الدين ما شاء ، وأن يصدر الأحكام المضيقة على المسلمين ، وليس في ذلك كبير فائدة . ولكن المطلوب ، والذي لا

يضطلع به إلا كل ذي قدرة متفوقة ، وعقل راجح ، هو التسهيل على المسلمين ، وإيجاد المخارج من المآزق ، والحلول الناجعة ، للشؤون الطارئة ، والمشاكل المستحدثة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجدول حـ 17 صـ 118.156 ﴾

(323/529)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) جملة مستأنفة مسوقة لتأكيد البشرى للمؤمنين بالنصر المحتوم وإن اللّه ان واسمها وجملة يدافع خبر وعن الذين متعلقان بيدافع وجملة آمنوا صلة ومفعول يدافع محذوف تقديره : عوادي المشركين وغوائلهم ، وجملة إن الذين تعليل للجملة السابقة وان واسمها وجملة لا يحب خبرها وكل خوان مفعول به وكفور صفة لخوان .

[سورة الحج (22) : الآيات 39 إلى 41]

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ

(40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)

اللغة :

(صَوَامِعُ) : الصوامع جمع صومعة وصومع وهو جبل أو مكان مرتفع يسكنه الراهب أو المتعبد قصد الانفراد ثم أطلقت الكلمة على الدير ، والصومعة أيضا : العقاب والبرنس وأعلى كل جبل إذا كان مستدقّ الرأس .

(بِيَعٌ) : جمع بيعة بكسر الباء المعبد للنصارى واليهود والجمع بيع وبيعات بكسر الباء وفتح الياء وبيعات بكسر الباء وسكون الياء .

(324/529)

(وَصَلَوَاتٌ) : بفتح الصاد واللام جمع صلاة وسميت الكنيسة صلاة لأنه يصلّى فيها وقيل هي كلمة معربة أصلها بالعبرية صلوثا بفتح الصاد والثاء المثلثة كما في الخفاجي على البيضاوي قال : وبه قرىء في الشواذ ومعناه في لغتهم المصلى فلا يكون مجازا .

الاعراب :

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) الجملة مستأنفة مسوقة للإذن

بقتال المشركين ، كان المؤمنون يأتون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يشكون فيقول لهم اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال حتى هاجر فنزلت هذه الآية وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهي عنه في نيف وسبعين آية .

(325/529)

و أذن فعل ماضي مبني للمجهول والمأذون فيه محذوف للعلم به أي أذن للذين يقاتلون في القتال وللذين متعلقان بأذن وجملة يقاتلون صلة ويقاتلون مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وبأنهم متعلقان بأذن أيضا والباء للسببية أي بسبب ظلمهم وجملة ظلموا خبر أنهم وإن اللّه على نصرهم لقدير الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة للوعد لهم بالنصر على طريق الرمز والكناية ، وان واسمها وقدير خبرها واللام المزحلقة وعلى نصرهم متعلقان بقدير . (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) الذين نعت أو بدل من الموصول الأول ، ولك أن ترفعه على أنه خبر لمبتدأ محذوف تنويها بقدرهم ورفعا لشأنهم ، وجملة أخرجوا صلة والواو نائب فاعل ومن ديارهم متعلقان بأخرجوا وبغير حق حال وإلا أداة استثناء وأن يقولوا المصدر المؤول مستثنى منقطع في محل نصب واختار الزمخشري وغيره أن يكون الاستثناء مفرغا لوجود النفي بغير فإلا أداة حصر وان يقولوا في محل جر

على الابدال من حق أي بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتمكين لا موجب الإخراج والتسيير ومثله " هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ " وربنا مبتدأ واللّه خبر والجملة في محل نصب مقول القول . (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً) الواو استئنافية ولو لا حرف امتناع لوجود متضمن معنى الشرط ودفع اللّه مبتدأ محذوف الخبر وجوبا والناس مفعول به لدفع لأنه مصدر مضاف إلى فاعله وهو اللّه والمعنى ولو لا أن دفع اللّه الناس بعضهم ببعض لغلب المفسدون وتعطلت المصالح ويقل عمله عكسه وهو أن يضاف المصدر إلى مفعوله ثم يأتي فاعله مرفوعا كقول الاقيشر الاسدي :

(326/529)

أفنى تلادي وما جمعت من نشب قرع القواقيز أفواه الأباريق

فقرع بالقاف والعين المهملة مرفوع على الفاعلية بأفنى وهو مصدر مضاف إلى مفعوله وهو القواقيز بقافين وزاي معجمة : أقداح يشرب بها الخمر واحدها قاقوزة بزاءين معجمتين فجمعها قوازيز ، وأفواه فاعل المصدر وهو جمع فم وأصله فوه فلذلك ردت في الجمع على أنه روي البيت بنصب الأفواه فيكون من القسم الأول .

وبعضهم بدل بعض من الناس وببعض متعلق بدفع واللام واقعة في جواب لو لا وهدمت فعل ماض مبني للمجهول وصوامع نائب فاعل وبيع وصلوات ومساجد عطف على صوامع وأخر ذكر المساجد لأن الصوامع والبيع والكنائس أقدم منها في الوجود وجملة يذكر صفة للمواضع المذكورة وفيها متعلقان بيذكر واسم اللّه نائب فاعل وكثيرا صفة لمصدر محذوف أي ذكرا كثيرا أو صفة لظرف محذوف أي وقتا كثيرا . (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) الواو استئنافية واللام موطئة للقسم وينصرن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة . واللّه فاعل ومن موصول مفعول به وجملة ينصره صلة وجملة ان وما بعدها تأكيد لتعليل النصر واللّه اسمها واللام المزحلقة وقوي خبرها الأول وعزيز خبرها الثاني . (الَّذِينَ إِنْ
مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ)

(327/529)

الذين بدل من الذين السابقة أو نعت ثان للذين الأولى أو خبر لمبتدأ محذوف ولك وجه آخر وهو أن تعربها بدلا من " من ينصره " ذكر هذا الوجه الزجاج قال : أي لينصرن اللّه الذين إن مكناهم ، وإن شرطية ومكناهم فعل ماض وفاعل ومفعول به وهو في محل جزم فعل

الشرط وفي الأرض متعلقان بمكناهم وأقاموا فعل ماض وفاعل وهو في محل جزم جواب الشرط والصلاة مفعول به وما بعده عطف عليه . (وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ) الواو استئنافية أو عاطفة ولله خبر مقدم وعاقبة الأمور مبتدأ مؤخر .

الفوائد :

الجهاد ذروة سنام الإسلام :

والأحاديث في الجهاد كثيرة نورد منها ما يسمو إلى ذروة البلاغة جريا على نهجنا في هذا الكتاب فعن أبي هريرة رضي اللّه عنه : سئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أي العمل أفضل ؟ قال : إيمان باللّه ورسوله قيل : ثم ماذا ؟ قال الجهاد في سبيل اللّه ، قيل : ثم ماذا ؟ قال :

حجّ مبرور " رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن خزيمة في صحيحه .

وعن معاذ بن جبل رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خرج بالناس قبل غزوة تبوك فلما أن صبح صلى بالناس صلاة الصبح ثم إن الناس ركبوا فلما أن طلعت الشمس نعس الناس على إثر الدّلجة ولزم معاذ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يتلو إثره والناس تفرقت بهم ركابهم على جوادّ الطرق تأكل وتسير فبينا معاذ على إثر رسول اللّه صلى

اللّه عليه وسلم وناقته تأكل مرة وتسير أخرى عثرت ناقة معاذ فحنكها بالزمام فهبت حتى

نفرت منها ناقة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثم ان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كشف عنه قناعه فالتفت فإذا ليس في الجيش أدنى اليه من معاذ فناداه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال :

يا معاذ فقال لبيك يا رسول اللّه قال : ادن دونك فدنا منا حتى لصقت راحلتاهما إحداهما بالأخرى فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

(328/529)

ما كنت أحسب الناس منا بمكانهم من البعد فقال معاذ : يا نبيّ اللّه نعس الناس فتفرقت ركابهم ترتع وتسير فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : وأنا كنت ناعسا فلما رأى معاذ بشر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وخلوته له فقال : يا رسول اللّه : ائذن لي أن أسألك عن كلمة أمرضتني وأسقمتني وأحزنتني فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

سل عما شئت ، قال : يا نبي اللّه حدثني بعمل يدخلني الجنة لا أسألك عن شيء غيره ؟

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : بخ بخ بخ لقد سألت لعظيم ثلاثا وإنه ليسير على من أراد اللّه به الخير ، وانه ليسير على من أراد اللّه به الخير وإنه ليسير على من أراد اللّه به الخير فلم يحدثه بشيء إلا أعاده رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثلاث مرات حرصا لكيما

يتقنه عنه فقال نبي اللّه صلى اللّه عليه وسلم : تؤمن باللّه واليوم الآخر وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتعبد اللّه وحده لا تشرك به شيئا حتى تموت وأنت على ذلك ، قال يا رسول اللّه أعد لي فأعادها ثلاث مرات ثم قال نبي اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إن شئت يا معاذ حدثتك برأس هذا الأمر وقوام هذا الأمر وذروة السّنام ؟ فقال معاذ : بلى يا رسول اللّه حدثني بأبي أنت وأمي فقال نبي اللّه صلى اللّه عليه وسلم إن رأس هذا

(329/529)

الأمر : أن تشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وإن قوام هذا الأمر : إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وان ذروة السّنام منه الجهاد في سبيل اللّه ، انما أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويشهدوا أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله فاذا فعلوا ذلك فقد اعتصموا وعصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على اللّه وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والذي نفس محمد بيده ما شحب وجه ولا اغبرّت قدم في عمل تبتغى به درجات الآخرة بعد الصلاة المفروضة كجهاد في سبيل اللّه ولا ثقّل ميزان عبد كدابّة تنفق في سبيل اللّه أو يحمل عليها في سبيل اللّه .

[سورة الحج (22) : الآيات 42 إلى 46]

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

اللغة :

(بِئْرٍ) : في المختار : " بأر بئرا بهمزة بعد الباء حفرها ربا به قطع " والبئر فعل بمعنى مفعول كالذبح بمعنى المذبوح حفرة في الأرض عظيمة يستقى منها الماء والجمع آبار وأبآر وبئار وأبؤر وهي مؤنثة . وفي الأساس : " الفاسق من ابتأر ، والفويسق من ابتهر يقال : ابتأرت الجارية إذا قال فعلت بها وهو صادق وابتهرتها إذا قال ذلك وهو كاذب وأنشد الكميت :

قبيح بمثلي نعت الفتا ة إما ابتهارا وإما ابتئارا

(مُعَطَّلَةٍ) متروكة بموت أهلها مع أنها عامرة فيها الماء ومعها آلات الاستقاء .

(مَشِيدٍ) : مرتفع مجصص من شاد البناء أي رفعه ويقال شيّد وأتى به في النساء من شيّد لأنه هناك وقع بعد جمع أما هنا فقد وقع بعد مفرد فناسب التخفيف .

الاعراب :

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية النبي صلى اللّه عليه وسلم وانه ليس بأوحدي في التكذيب ، وإن شرطية ويكذبوك فعل الشرط والواو فاعل والكاف مفعول به ، فقد الفاء رابطة للجواب لاتصاله بقد وقد حرف تحقيق وكذبت فعل ماض والتاء تاء التأنيث الساكنة والجملة في محل جزم جواب الشرط وقبلهم ظرف زمان متعلق بكذبت وقوم

نوح فاعل وعاد وثمود معطوفان على قوم وأنّث القوم باعتبار معنى الأمة أو القبيلة ولم يقل قوم عاد وثمود استغناء بشهرتهما بهذين الاسمين . (وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ) عطف على ما تقدم .

)

وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ) وأصحاب مدين عطف وعدل عن قوم شعيب لأن أصحاب مدين أعرق من أصحاب الأيكة في التكذيب فلذلك خصهم بالذكر ، وكذب فعل ماض مبني للمجهول وموسى نائب فاعل وخالف في الكلام فلم يقل قوم موسى لأنه لما صدر الكلام بحكاية تكذيبهم ثم عدد أصناف المكذبين وطوائفهم ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام حسن تكريره ليلي قوله فأمليت فيتصل المسبب بالسبب كما قال في آية " ق " بعد تعديدهم : "كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ " فربط العقاب والوعيد ووصلهما بالتكذيب بعد أن جدد ذكره ، فأمليت : الفاء عاطفة وأمليت فعل وفاعل وللكافرين متعلقان بأمليت . (ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وأخذتهم فعل وفاعل ومفعول به ، فكيف الفاء عاطفة وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم ونكير اسم كان أي إنكاري فحذفت الياء والنكير مصدر بمعنى الإنكار والتغيير حيث أبدلهم بالنعمة نقمة وبالحياة هلاكا وبالبناء خرابا وسيأتي معنى الاستفهام في باب البلاغة . (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ) الفاء استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد ما تقدم بضرب الأمثلة والشواهد وكأين خبرية ومحلها الرفع على الابتداء ومن قرية تمييز كأين وقد تقدم تحقيقه وجملة أهلكناها من الفعل والفاعل والمفعول به خبر كأين ويجوز نصب كأين على الاشتغال بفعل محذوف يفسره

أهلكناها فتكون جملة أهلكناها مفسرة ، وهي ظالمة الواو للحال وهي مبتدأ وظالمة خبر والجملة نصب على الحال . (فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)

(332/529)

الفاء عاطفة وهي مبتدأ وخاوية خبر والجملة معطوفة على جملة أهلكناها وعلى عروشها إما متعلقان بخاوية فيكون المعنى انها ساقطة على سقوفها أي خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف واما أن يكون خبرا ثانيا لهي كأنه قيل هي خالية وهي على عروشها أي قائمة مطلة على عروشها بمعنى أن السقوف سقطت إلى الأرض فصارت في سمت الحيطان وبقيت الحيطان مواثل باهتة مشرفة على السقوف الساقطة وكلا التقديرين جميل ووارد ، وبئر عطف على قرية أي وكم من بئر ، ومعطلة صفة لبئر وقصر مشيد عطف أيضا وهل هي بئر معينة وقصر معين أم هما واردان مورد المثل ، سيأتي الكلام عن هذا كله في باب الفوائد . (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها) الهمزة للاستفهام الانكاري إن كانوا قد سافروا أو للحث على السفر ليروا مصارع من تقدمهم ، والفاء عاطفة على مقدر يقتضيه المقام أي

أغفلوا وأهملوا وسافروا فلم ينتفعوا ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ويسيروا فعل مضارع مجزوم بلم والواو فاعله وفي الأرض متعلقان بيسيروا فتكون الفاء للسببية وتكون فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية ولهم خبر تكون المقدم وقلوب اسمها المؤخر وجملة يعقلون صفة لقلوب وبها متعلقان بيعقلون وأو حرف عطف وآذان عطف على قلوب وجملة يسمعون بها صفة لآذان وواضح أن التفريع على المنفي يوجب النفي أيضا .

(فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) الفاء للتعليل وان واسمها والضمير يعود على القصة أو الشأن وجملة لا تعمى الأبصار خبر ولكن الواو عاطفة ولكن حرف استدراك أهمل لأنه خفف وتعمى القلوب فعل مضارع وفاعل والتي صفة القلوب وفي الصدور متعلقان بمحذوف صلة الموصول وسيأتي سر قوله في الصدور في باب البلاغة .

البلاغة :

(333/529)

---

1 - الاستفهام في قوله تعالى " فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ " معناه التقرير وهو حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه ويماري فيه ، ويلجأ إلى المكابرة والسفسطة في مخالفته ، وقال أبو حيان : "

ويصحب هذا الاستفهام معنى التعجب فكأنه قيل ما أشد ما كان انكاري عليهم " وهذا واضح أيضا فالاستفهام إذن للتقرير التعجبي .

2- الانفصال في قوله تعالى " وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ " فإن لقائل أن يقول ان القلوب لا تكون إلا في الصدور فأية فائدة في ذكر ما هو متعارف وكائن لأنه معلوم والانفصال عن ذلك أن يقال ان المتعارف ان العمى الحقيقي مكانه البصر لأنه إصابة الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب مجاز فلما أريد نقله من الحقيقة إلى المجاز كان الكلام بمثابة إثبات ما هو خلاف المتعارف وما هو الأصل فاحتاج إلى زيادة تعيين ليتقرر أن العمى مكانه هو القلوب لا الأبصار كما تقول ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك فقوله بين فكيك تقرير لما ادعيته للسانه ونفي المضاء عن السيف وهو المتعارف وهذا من أوابد البيان فافهمه ، وجملة الأمر ان الخلل ليس في مشاعرهم فهي سليمة لا عيب فيها وإنما الخل الف

ار المشيد : قيل هما خاصان قال الخطيب الشربيني في تفسيره : " روي أن هذه البئر نزل عليها صالح مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم اللّه تعالى من العذاب وهي بحضرموت وإنما سميت بذلك لأن صالحا حضرها حين مات وثم بلدة عبد البئر اسمها حاضورا بناها قوم صالح وأمّروا عليهم جلهس بن جلاس وأقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما وأرسل اللّه إليهم حنظلة بن صفوان نبيا فقتلوه فأهلكهم اللّه تعالى وعطل بئرهم وخرب

قصورهم والأولى أن تكون البئر عامة وأن يكون القصر عاما أي كم من قرية أهلكناها وكم من بئر عطلناها من سقاتها وكم من قصر مشيد تفرق عنه أهلوه وتحمل عنه ساكنوه.

]

(334/529)

سورة الحج (22) : الآيات 47 إلى 53]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48) قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (51)

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (53)

الاعراب:

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) الواو عاطفة ويستعجلونك فعل مضارع

وفاعل ومفعول به وبالعذاب متعلقان بيستعجلونك أي يطلبون عجلتك على سبيل الاستهزاء والواو عاطفة ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويخلف فعل مضارع منصوب بلن والله فاعل ووعده مفعول به . (وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) الواو للحال وان واسمها وعند ربك الظرف متعلق بمحذوف حال والكاف خبر إن ومما صفة لسنة وجملة تعدون صلة واقتصر في التشبيه على الألف لأن الألف منتهى العدد بلا تكرار وأيام الشدائد مستطالة على حد قول الشاعر :

فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار

)

(335/529)

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ) الواو عاطفة قال الزمخشري في كشافه : " فإن قلت لم عطفت الأولى بالفاء وهذه بالواو ؟ قلت الأولى وقعت بدلا من قوله " فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ " وأما هذه فحكمها حكم الجملتين المعطوفتين بالواو أعني قوله " وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ " و " إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ " وكأين خبرية في محل رفع مبتدأ ومن قرية في محل نصب تمييز كأين وجملة أمليت لها صفة لقرية والواو

حالية وهي مبتدأ وظالمة خبر والجملة في محل نصب على الحال ثم أخذتها عطف على أمليت وإليّ الواو عاطفة أو حالية وإليّ خبر مقدم والمصير مبتدأ مؤخر . (قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ) يا حرف نداء وأيها منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب على النداء والهاء للتنبيه والناس بدل من أي وإنما

(336/529)

كافة ومكفوفة وأنا مبتدأ ونذير خبر ومبين صفة . (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) الفاء تفريعية والذين مبتدأ وجملة آمنوا صلة وعملوا عطف على آمنوا والصالحات مفعول به ولهم خبر مقدم ومغفرة مبتدأ مؤخر ورزق عطف على مغفرة وكريم صفة لرزق وجملة لهم مغفرة خبر الذين . (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ) الواو عاطفة والذين مبتدأ وجملة سعوا صلة وفي آياتنا متعلقان بسعوا ومعنى السعي في الآيات إفسادها وتزييفها وإبطالها يقال سعيت في أمر فلان إذا أصلحته أو أفسدته بهذا السعي ومعاجزين حال أي مسابقين في زعمهم وتقديرهم قد سولت لهم أنفسهم أنهم يستطيعون إبطالها وصرف الناس عن اتباعها فالمفاعلة لا تخلو من معنى الظن والاعتقاد بالنسبة إليهم ، وأولئك مبتدأ وأصحاب الجحيم خبره والجملة خبر الذين . (

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة للشروع في تسلية ثانية للنبي صلى اللّه عليه وسلم ، وما نافية وأرسلنا فعل وفاعل ومن قبلك متعلقان بأرسلنا ومن لابتداء الغاية ومن رسول من زائدة ورسول مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به لأرسلنا ولا نبي عطف على من رسول وإلا أداة حصر وإذا ظرف مستقبل وجملة تمنى في محل جر بإضافة الظرف وجملة ألقى الشيطان لا محل لها والجملة الشرطية بعد إلا تحتمل وجوها أرجحها أن تكون في محل جر صفة لرسول على اللفظ والنصب على المعنى ويجوز أن تكون حالا ولك أن تجعل الاستثناء منقطعا فتكون إلا أداة استثناء والجملة نصب على الاستثناء وفي أمنيته متعلقان بألقى وسيأتي معنى هذا الإلقاء وقصة سبب النزول في باب الفوائد ، وقد استشكل أبو حيان مجيء جملة ظاهرها الشرط بعد إلا وهو إذا تمنى ألقى ،

(337/529)

وأجاب عن ذلك بأن إذا جردت للظرفية ولا شرط فيها وفصل بها بين إلا والفعل الذي هو ألقى وهو فصل جائز فيكون إلا قد وليها ماض في التقدير ووجه شرط وهو تقدم فعل قبل إلا وهو أرسلنا قال ابن هشام : والذي يظهر انما هو فيما إذا ولي إلا لفظ الفعل وهذا لم يقع

في الآية فلا إشكال ولا حاجة لتأويل إذا بأنها خرجت عن الشرطية .

(فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) الفاء استئنافية وينسخ اللّه فعل مضارع وفاعل وما مفعول به وجملة يلقي الشيطان صلة ثم حرف عطف ويحكم اللّه فعل وفاعل وآياته مفعول به واللّه عليم حكيم جملة اعتراضية مؤلفة من مبتدأ وخبريه .

)

لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ) اللام للتعليل والفعل بعدها منصوب بأن مضمرة وهي متعلقة بيحكم أي ثم يحكم اللّه آياته ليجعل ويجوز أن تتعلق بينسخ وما موصولية أو مصدرية وهي على كل حال مفعول به أول وجملة يلقي الشيطان صلة وفتنة مفعول به ثان وللذين صفة لفتنة وفي قلوبهم خبر مقدم ومرض مبتدأ مؤخر والجملة صلة للذين والقاسية عطف على الذين وقلوبهم فاعل القاسية ومن المفيد أن نذكر أن ال في القاسية موصولة والقاسية صفتها وأنثها لأن مرفوعها وهو قلوبهم مؤنث مجازي . (وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ) الواو حالية أو استئنافية وإن واسمها واللام المزحلقة وفي شقاق خبرها وبعيد صفة لشقاق .

الفوائد :

أسطورة الغرانيق :

نعرض الآن لمسألة شغلت علماء المسلمين في القديم والحديث ، واستأثرت باهتمام الكثيرين منهم لخطورتها ، وجسامة ما تنطوي عليه

(338/529)

من أمور لا يجوز للباحث أن يمرّ بها مرور الراكب العجلان ، فهي تمسّ جوهر العقيدة ، وتتعلق بعصمة صاحب الرسالة ، فإلقاء الكلام على عواهنه فيها من غير تمعن ولا تمحيص لا يجوز بحال وسنعمد إلى سرد الأسطورة على علاتها وكما نقلها المفسرون من غير تفنيد لها أو اثارة للشكوك حولها ، وكثر تناقلها حتى أصبحت حديث السمر تروّح به النفس ويزجى بها الفراغ والناس بطبعهم ميالون إلى كل غريب وهذه هي الاسطورة : لما رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إعراض قومه عنه ، لعيبه أصنامهم وزرايته بآلهتهم ، أخذه الضجر من هذا الإعراض ، ولحرصه على إسلامهم وتهالكه عليه تمنى أن لا ينزل عليه ما ينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة " وَالنَّجْمِ إِذا هَوى " وهو في نادي قومه وذلك التمني في نفسه فأخذ يقرؤها فلما بلغ قوله : " وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى " " أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ " التي تمناها بأن وسوس له بما شيعها به فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى

أن قال : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ، وروى الغرانقة ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبه اليه وقيل نبهه جبريل عليه السلام أو تكلم الشيطان بذلك فأسمعه الناس فلما سجد في آخرها سجد معه جميع من في النادي وطابت نفوسهم وكان تمكين الشيطان من ذلك محنة من اللّه وابتلاء زاد المنافقون به شكا وظلمة والمؤمنون نورا وإيقانا . وفيما يلي طائفة من أقوال العلماء والمفسرين فقال الرازي ما خلاصته :

(339/529)

هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، ثم تكلم في أن رواة هذه القصة مطعونون وأيضا فقد روى البخاري في صحيحه أنه عليه الصلاة والسلام قرأ سورة النجم وسجد معه المسلمون والمشركون والانس والجن وليس فيه حديث الغرانيق بل روي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتة حديث الغرانيق ولا شك أن من جوز على الرسول تعظيم الأوثان فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان ولو جوّزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك أي مما ألقاه الشيطان على لسانه ويبطل قوله تعالى : " يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ " فانه لا فرق في العقل بين النقصان من الوحي وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه

النقلية والعقلية عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة وقد قيل : إن هذه القصة من وضع الزنادقة لا أصل لها . ا ه كلام الرازي .

أما شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني شارح البخاري فقد نبه في فتح الباري على البخاري على ثبوت أصلها وقال سامحه اللّه : " أخرج ابن أبي حاتم والطبري وابن المنذر من طرق عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمكة والنجم فلما بلغ : " أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ، وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى " ألقى الشيطان على لسانه : " تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى " فقال المشركون : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فلما ختم السورة سجد وسجدوا فكبر ذلك على النبي فنزل تسلية له " وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ " أي في قراءته بين كلماته .

(340/529)

وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة فقال في إسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب ثم ساق الحديث المذكور وقال البزار : لا يروى إلا متصلا بهذا الاسناد وتفرد بوصله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور .

وأوردها الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس . ومعناهم كلهم في ذلك واحد وكل من طرقها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإما منقطع ولكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلا مع أن لها طريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيح ، أحدهما ما أخرجه الطبري عن طريق يونس بن زيد عن ابن شهاب ، حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فذكر نحوه ، والثاني ما أخرجه من طريق المعتمر بن سليمان وحماد بن سلمة كلاهما عن داود بن أبي هند عن أبي العالية .

وقال ابن حجر العسقلاني في معرض رده على القاضي أبي بكر ابن العربي : " وقد تجرأ ابن العربي كعادته فقال : ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة لا أصل لها وهو إطلاق مردود عليه وكذا قول القاضي عياض : هذا الحديث لم يخرجه أهل الصحة ولا رواة ثقة بسند سليم متصل مع ضعف نقلته واضطراب رواياته وانقطاع أسانيده وكذا قول عياض أيضا : ومن حكيت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صحابي وأكثر الطرق عنهم في ذلك ضعيفة واهية فهذا مردود أيضا .

وتتمة كلام القاضي عياض تدل على مدى تحرره من غائلة التقليد ومحاولته تمحيص الحقائق قال : " وقد بين البزار أن الحديث لا يعرف طريق يجوز ذكره إلا من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير مع الشك

الذي وقع في وصله وأما الكلبي فلا تجوز الرواية عنه لقوة ضعفه ثم رده من طريق النظر بأن ذلك لو وقع لارتد كثير ممن أسلم قال : ولم ينقل ذلك " .

(341/529)

قال الحافظ بن حجر : " وجميع ذلك لا يتمشى مع قواعد المحدثين فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دلّ ذلك على أن لها أصلا وقد ذكرنا أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتجّ بالمرسل وكذا من لا يحتجّ به لاعتضاد بعضها ببعض وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر وهو قوله : ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى ، فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره لأنه يستحيل عليه صلى اللّه عليه وسلم أن يزيد في القرآن عمدا ما ليس فيه وكذا سهوا إذ كان مغايرا لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته " ومضى قائلا : " وقد سلك العلماء في ذلك التأويل مسالك نحو السبعة فقيل جرى ذلك على لسانه حين أصابته سنة من النوم وهو لا يشعر فلما أعلمه اللّه بذلك أحكم آياته وهذا أخرجه الطبري عن قتادة " .

ورد القاضي عياض بأنه لا يصح لكونه لا يجوز على النبي ذلك ولا ولاية للشيطان عليه في النوم .

وقيل : ان الشيطان ألجأه إلى أن قال ذلك بغير اختيار . ورده ابن العربي بقوله تعالى حكاية عن الشيطان " وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ . . . الآية " قال : فلو كان للشيطان قوة على ذلك لما بقي لأحد قوة على طاعة .

وقيل : ان المشركين كانوا إذا ذكروا آلهتهم وصفوها بذلك فعلق ذلك بحفظه صلى اللّه عليه وسلم فجرى على لسانه سهوا . وقد رد القاضي عياض ذلك فأجاد .

وقيل : لعله قال ذلك توبيخا للكفار ، قال القاضي عياض وهذا جائز إذا كان هناك قرينة تدل على المراد ولا سيما وقد كان الكلام في ذلك الوقت في الصلاة جائزا والى هذا نحا الباقلاني .

(342/529)

وقيل : انه لما وصل إلى قوله " وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى " خشي المشركون أن يأتي بعدها بشيء يذم آلهتهم به كعادته إذا ذكرها فبادروا إلى ذلك الكلام فخلطوه في تلاوة النبي صلى اللّه عليه وسلم على عادتهم في قولهم : " لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ " أي أظهروا اللغو برفع الأصوات تخليطا وتشويشا عليه ونسب ذلك إلى الشيطان لكونه الحامل لهم عليه أو

المراد بالشيطان شيطان الانس .

وقيل : المراد بالغرانيق العلا الملائكة وكان الكفار يقولون :

الملائكة بنات اللّه ويعبدونها فنسق ذكر الكل ليرد عليهم بقوله " أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى "

فلما سمعه المشركون حملوه على الجميع وقالوا قد عظم آلهتنا ورضوا بذلك فنسخ تينك

الكلمتين وهما قوله : تلك الغرانيق العلا ، وان شفاعتهن لترتجى وأحكم آياته .

وقيل : كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يرتل القرآن فترصّده الشيطان في سكتة من

السكتات ونطق بتلك الكلمات محاكيا صوت النبي صلى اللّه عليه وسلم بحيث سمعه من

دنا اليه فظنها من قول النبي وأشاعها . قال القاضي عياض وهذا أحسن الوجوه وهو الذي

يظهر ترجيحه ويؤيده ما روي عن ابن عباس في تفسير تمنى بتلا وكذا استحسن ابن العربي

هذا التأويل وقال : معنى قوله في أمنيته أي في

تلاوته فأخبر تعالى في هذه الآية أن سنة اللّه في رسله إذا قالوا قولا زاد الشيطان فيه من قبل

نفسه فهذا نصّ في أن الشيطان زاد في قول النبي صلى اللّه عليه وسلم أن النبي صلى اللّه

عليه وسلم قاله لأنه معصوم .

قال في فتح الباري : " وقد سبق إلى ذلك الطبري مع جلالة قدره وسعة علمه وشدة

ساعده في النظر فصوب هذا المعنى " ا ه .

ما ما ورد في صحيح البخاري بصدد هذه القصة فهو : " وقال ابن عباس في " إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ " إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه فيبطل اللّه ما يلقي الشيطان ويحكم اللّه آياته ، ويقال أمنيته قراءته " الأماني يقرءون ولا يكتبون " فتراه حكى تفسير الأمنية بالقراءة بلفظ يقال بعد ما فسرها في الحديث رواية عن ابن عباس ، وهذا يدل على المغايرة بين التفسيرين ، فما يدعيه الشراح أن الحديث في رأي ابن عباس بمعنى التلاوة يخالف ظاهر العبارة ، ثم حكايته تفسير الامنية بمعنى القراءة بلفظ يقال يفيد انه غير معتبر عنده وسيأتي ان المراد بالحديث حديث النفس .

وقال القسطلاني في شرح البخاري : " وقد طعن في هذه القصة غير واحد من الأئمة حتى قال ابن اسحق وقد سئل عنها : هي من وضع الزنادقة " وكفى في انكار حديث أن يقول فيه ابن اسحق أنه من وضع الزنادقة مع حال ابن اسحق المعرفة عند المحدثين .

وهذا نص ما قاله القاضي عياض : " والذي ورد في الصحيح أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قرأ والنجم " وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس وقد يكون ذلك لبلاغة السورة وشدة قرعها وعظم وقعها " ثم قال القاضي : " قد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته صلى اللّه عليه وسلم ونزاهته عن هذه الرذيلة " .

أما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير اللّه وهو كفر أو أن يتسوّد عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبي صلى اللّه عليه وسلم أن من القرآن ما ليس منه وحتى يفهمه جبريل عليه السلام وذلك كله ممتنع في حقه صلى اللّه عليه وسلم أو يقول ذلك النبي صلى اللّه عليه وسلم من قبل نفسه عمدا وذلك كفرا وسهوا وهو معصوم من هذا كله وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته صلى اللّه عليه وسلم من جريان الكفر على لسانه أو قلبه لا عمدا ولا سهوا أو أن يشتبه عليه ما يلقيه الملك بما يلقي الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل ، أو أن يتقول على اللّه – لا عمدا ولا سهوا – ما لم ينزل عليه وقد قال اللّه تعالى : " وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ " وقال " إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً " .

ووجه ثان وهو استحالة هذه القصة نظرا وعرفا وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الالتئام متناقض الأقسام ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم ولما كان النبي صلى اللّه عليه وسلم ومن بحضرته من المسلمين ، وصناديد المشركين ممن يخفى عليه

ذلك وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه .

ووجه ثالث انه علم من عادة المنافقين ، ومعاندة المشركين ، وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة وتخليط العدو على النبي صلى اللّه عليه وسلم لأقل فتنة ، وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة ، وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة ، ولم يحك أحد في هذه القصة شيئا سوى هذه الرواية الضعيفة

(345/529)

الأصل ، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة ، ولأقامت اليهود عليهم الحجة ، كما فعلوا مكابرة في قصة الإسراء ، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت ، ولا تشغيب للمعادي حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت ، وما ورد عن معاند فيها كلمة ولا عن مسلم بسببها بنت شفة فدل على بطلها ، واجتثاث أصلها ، ولا شك في إدخال بعض شياطين الانس والجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين ، ليلبس به على بعض ضعفاء المسلمين .

ووجه رابع : ذكر الرواة لهذه القصة أن فيها نزلت : " وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ " الآيتان ، هاتان الآيتان تردّان الخبر الذي رووه لأن اللّه تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري ولولا أن ثبته لكاد يركن إليهم شيئا قليلا ، فمضمون هذا ومفهومه أن اللّه عصمه من أن يفتري وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا فكيف كثيرا وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وانه صلى اللّه عليه وسلم قال : افتريت على اللّه وقلت ما لم يقل وهي تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له ؟ وهذا مثل قوله تعالى في الآية الأخرى : " وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ "

قال القشيري : ولقد طالبته قريش وثقيف إذ مرّ بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ووعدوه الإيمان به إن فعل فما فعل ولا كان ليفعل ، قال ابن الانباري :

" ما قارب الرسول ولا ركن " .

أما ما ذكره ابن حجر من أن القصة رويت مرسلة من ثلاث طرق على شرط الصحيح وانه يحتج بها إلخ ما سبق فقد ذهب عليه أن العصمة من العقائد التي يطلب فيها اليقين فالحديث الذي يفيد خرمها ونقضها

لا يقبل على أي وجه جاء وقد عد الأصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة من الأخبار التي يجب القطع بكذبها ، هذا لو فرض اتصال الحديث فما ظنك بالمراسيل ؟ وانما الخلاف في الاحتجاج بالمرسل وعدم الاحتجاج به فيما هو من قبيل الأعمال وفروع الأحكام لا في أصول العقائد ومعاقد الإيمان بالرسل وما جاءوا به فهي هفوة من ابن حجر يغفرها اللّه له . وقد استغل بروكلمان المستشرق الألماني الشهير هذه الرواية فنقلها بأمانة واعتبرها من المسائل المفروغ من إثباتها وذلك في كتابه " تاريخ الشعوب الاسلامية " الذي أخرجه للناس عام 1939 للميلاد فقال في الحديث عن محمد : " ولكنه على ما يظهر اعترف في السنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث اللواتي كان مواطنوه يعتبرونها بنات اللّه ولقد أشار إليهن في احدى الآيات الموحاة اليه بقوله :

تلك الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن ترتجى ، أما بعد ذلك حين قوي شعور النبي بالوحدانية فلم يعترف بغير الملائكة شفعاء عند اللّه ، وجاءت السورة الثالثة والخمسون وفيها إنكار لأن تكون الآلهة الثلاث بنات اللّه ، ولم يستطع التقليد المتأخر أن يعتبر ذلك التسليم إلا تحولا أغراه به الشيطان ولذلك أرجئت حوادثه إلى أشد الأوقات ضيقا في مكة ثم ما لبث أن أنكره وتبرأ منه في اليوم التالي " هذا ما ذكره بروكلمان وهو ينضح بالتعصب وينادي على نفسه بالافتئات ولم يقتصر الأمر على بروكلمان وحده فكثير من المبشرين وبعض المستشرقين تشبثوا بهذه الرواية وزعموا أن الرسول فعل ذلك لما قاومه المشركون بمكة

فأحب أن يتقرب منهم فمدح آلهتهم ثم عدوا عمله هذا تراخيا عن تشدده في التوحيد ومهاجمة الأصنام ، هذا وقد تصدى لهم كثيرون من علماء المسلمين في العصر الحديث ففندوا افتراءاتهم وطوحوا

(347/529)

بأراجيفهم ، وحسبنا أن نلمع إلى اثنين من كبار هؤلاء العلماء ملخصين ما قالاه ضاربين صفحا عن التطويل فيما لا يتفق مع منهاج الكتاب .

خلاصة ما كتبه العالم الهندي محمد علي :

" إن هذه الرواية وردت عند الواقدي وعند الطبري ومع ذلك فانها لا ظل لها من الحقيقة فإن كل عمل من أعمال رسول اللّه مناقض لمثل هذا الاتجاه ، أضف إلى ذلك أن الواقدي معروف بسرد الاسرائيليات وبسرد الخرافات وكذلك الطبري معروف بالجمع الكثير واستقصاء الروايات مهما كان حظها من الصحة ، على أننا لو رجعنا إلى رواية محمد ابن اسحق أو إلى صحيح البخاري وهو الذي لم يغادر من حياة الرسول شيئًا إلا ذكره لم نر لقصة الغرانيق أثرا وابن اسحق جاء قبل الواقدي بأربعين سنة وقبل الطبري بنحو مائة وخمسين سنة أو تزيد ، أما البخاري فقد كان معاصرا للواقدي ومع ذلك لم يذكر هذه

القصة ثم ان الواقدي معروف عند المحدثين بأنه يضع الأحاديث وانه غير ثقة فيما يروي وكذلك لم يذكرها أحد من رواة الحديث .

وإذا عدنا إلى قراءة الآيات نفسها بالتسلسل وجدناها : " أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى ، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى ؟ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى ، إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى " فليس من المعقول أن تحشر بين هذه الآيات المتتالية آية مناقضة لها في أصل العقيدة الاسلامية وصلب دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وهنا لك تفاصيل كثيرة في نقض هذه الرواية لا جدوى من ذكرها " .

(348/529)

هذا ما ذكره العالم الهندي مولانا محمد علي وهو كاف في الرد على هؤلاء المستشرقين الذين ينظرون إلى نبوة محمد نظرة مادية مجردة من الإيحاء الإلهي وما ذلك إلا من قبيل التعصب الديني المبني على عداء سياسي انهم ينكرون أن يكون محمد ذا نبوة صحيحة بينما هم يقرون بهذه النبوة نفسها لجميع أنبياء بني إسرائيل .

خلاصة البحث الجليل الذي كتبه الامام محمد عبده :

والآن آن لنا أن نلخص البحث الممتع الذي كتبه الامام الشيخ محمد عبده وفيه قطعت جهيزة قول كل خطيب :

" لا يخفى على كل من يفهم العربية وقرأ شيئا من القرآن أن قوله تعالى " وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ . . . الآيات " يحكي قدرا قدر للمرسلين كافة لا يعدونه ولا يقفون دونه ويصف شنشنة عرفت فيهم وفي أممهم فلو صح ما قال أولئك المفسرون لكان المعنى أن جميع الأنبياء والمرسلين قد سلط الشيطان عليهم فخلط في الوحي المنزل إليهم ولكنه بعد هذا الخلط ينسخ اللّه كلام الشيطان ويحكم اللّه آياته وهذا من أقبح ما يتصور متصور في اختصاص اللّه تعالى لأنبيائه واختيارهم من خاصة أوليائه فلندع هذا الهذيان ولنعد إلى ما نحن بصدده " وبعد أن أفاض الأستاذ الامام في ذكر اللّه لنبيه أحوال الأنبياء والمرسلين قبله ليبين له سنته فيهم وانه لم يبعث واحد منهم في أمة إلا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف قال " فعلى هذا المعنى الذي يتفق مع ما لقيه الأنبياء جميعا يجب أن تفسر الآية وذلك يكون على وجهين :

الأول :

أن يكون تمنى بمعنى قرأ والأمنية بمعنى القراءة وهو معنى قد

يصح وقد ورد استعمال اللفظ فيه قال حسان بن ثابت في عثمان رضي اللّه عنهما :

تمنى كتاب اللّه أول ليلة وآخره لاقى حمام المقادر

غير أن الإلقاء لا يكون على المعنى الذي ذكروه بل على المعنى المفهوم من قولك : ألقيت في حديث فلان إذا أدخلت فيه ما ربما يحتمله لفظه ولا يكون قد أراده أو نسبت اليه ما لم يقله تعللا بأن ذلك الحديث المذكور يؤدي اليه وذلك من عمل المعاجزين الذين ينصبون أنفسهم لمحاربة الحق ، يتبعون الشبهة ، ويسعون وراء الريبة ، فالإلقاء بهذا المعنى دأبهم ونسبة الإلقاء إلى الشيطان لأنه مثير الشبهات بوساوسه مفسد القلوب بدسائسه ، وكل ما يصدر من أهل الضلال ينسب اليه ويكون المعنى : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا حدث قومه عن ربه أو تلا وحيا أنزل اليه فيه هدى لهم قام في وجهه مشاغبون يحولون ما يتلوه عليهم عن المراد منه ويتقولون عليه ما لم يقله ، وينشرون ذلك بين الناس ليبعدوهم عنه ويعدلوا بهم عن سبيله ثم يحق اللّه الحق ويبطل الباطل ، ولا زال الأنبياء يصبرون على ما كذبوا وأوذوا ويجاهدون في الحق ولا يعتدون بتعجيز المعجزين ولا بهزء المستهزئين إلى أن يظهر الحق بالمجاهدة ، وينتصر على الباطل بالمجالدة فينسخ اللّه تلك الشبهة ويجتثها من أصولها ويثبت آياته ويقررها وقد وضع اللّه هذه السنة في الناس ليتميز الخبيث من الطيب فيفتتن الذين في قلوبهم مرض وهم ضعفاء العقول بتلك الشبه والوساوس فينطلقون وراءها

ويفتتن بها القاسية قلوبهم من أهل العناد والمجاحدة فيتخذونها سندا يعتمدون عليه في جدلهم ثم يتمحص الحق عند الذين أوتوا العلم ، ويخلص لهم بعد ورود كل شبهة عليه فيعلموا انه الحق من ربك

فيصدقوا به فتخبت وتطمئن قلوبهم والذين أوتوا العلم هم الذين رزقوا قوة التمييز بين البرهان القاطع الذي يستقر بالعقل في قرارة اليقين وبين المغالطات وضروب السفسطة التي تطيش بالفهم ، وتطير به مع الوهم ، وتأخذ بالعقل تارة ذات الشمال وأخرى ذات اليمين .

الثاني :

(350/529)

ان التمني على معناه المعروف وكذلك الأمنية وهي أفعولة بمعنى المنية وجمعها أماني كما هو مشهور وقال أبو العباس أحمد بن يحيى :

التمني حديث النفس بما يكون وبما لا يكون والتمني سؤال الرب وفي الحديث : " إذا تمنى أحدكم فليتكثر فإنما يسأل ربه " وفي رواية فليكثر ، قال ابن الأثير : التمني تشهي حصول الأمر المرغوب فيه وحديث النفس بما يكون وما لا يكون . وقال أبو بكر : تمنيت الشيء إذا قدرته وأحببت أن يصير لي ، وكل ما قيل في معنى التمني على هذا الوجه فهو يرجع إلى

ما ذكرنا ويتبعه معنى الأمنية . ما أرسل اللّه من رسول ولا نبي ليدعو قوما إلى هدى جديد أو شرع سابق شرعه لهم ويحملهم على التصديق بكتاب جاء به نفسه إن كان رسولا أو جاء به غيره ان كان نبيا بعث ليحمل الناس على اتباع من سبقه إلا وله أمنية في قومه وهي أن يتبعوه وينحازوا إلى ما يدعوهم اليه وما يستشفوا من دائهم بدوائه ، ويعصوا أهواءهم بإجابة ندائه ، وما من رسول أرسل إلا وقد كان أحرص على إيمان أمته وتصديقهم برسالته منه على طعامه الذي يطعم وشرابه الذي يشرب وسكنه الذي يسكن اليه ويغدو عنه ويروح عليه وقد كان نبينا صلى اللّه عليه وسلم من ذلك في المقام الأعلى والمكان الأسمى قال اللّه تعالى : " فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً " وقال : " وما أكثر الناس ولو حرصت

(351/529)

بمؤمنين " وقال : " أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " وفي الآيات مما يطول سرده مما يدل على أمانيه صلى اللّه عليه وسلم المتعلقة بهداية قومه وإخراجهم من ظلمات ما كانوا فيه إلى نور ما جاء به ، وما من رسول ولا نبي إذا تمنى هذه الأمنية السامية إلا ألقى الشيطان في سبيله العثرات وأقام بينه وبين مقصده العقبات ووسوس في صدور الناس

وسلبهم الانتفاع بما وهبوا من قوة العقل والإحساس فثاروا في وجهه وصدوه عن قصده وعاجزوه حتى لقد يعجزونه ، وجادلوه بالقول والسلاح حتى لقد يقهرونه ، فإذا ظهروا عليه والدعوة في بدايتها وسهل عليهم إيذاؤه وهو قليل الأتباع ضعيف الأنصار ظنوا الحق من جانبهم وكان فيما ألقوه من العوائق بينه وبين ما عمد اليه فتنة لهم ، غلبت سنة اللّه في أن يكون الرسل من أواسط قومهم أو من المستضعفين فيهم ليكون العامل في الإذعان بالحق محض الدليل ، وقوة البرهان ، وليكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن يدعى اليه على قبوله ولكيلا يشارك الحق الباطل في رسائله ويشاركه في نصب شراكه وحبائله أنصار الباطل في كل زمان ، هم أهل القوة والأنفة والجاه والاعتزاز بالأموال والأولاد والعشيرة والأعوان والغرور بالزخارف ، والزهو بكثرة المعارف ، وتلك الخصال انما تجتمع كلها أو بعضها في الرؤساء وذوي المكانة من الناس فتذهلهم عن أنفسهم وتصرف نظرهم عن سبيل رشدهم ، فإذا دعا إلى الحق داع عرفته القلوب النقية من أوضار هذه الفواتن ، وفزعت اليه النفوس الصافية والعقول المستعدة لقبوله بخلوصها من هذه الشواغل ، وقلما توجد الا عند الضعفاء وأهل المسكنة فإذا التف هؤلاء حول الداعي ، وظاهروه على دعوته قام أولئك المغرورون يقولون : " ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين "

فإذا استدرجهم اللّه على سنته وجعل الجدال بينهم وبين المؤمنين سجالا افتتن الذين في قلوبهم مرض من أشياعهم ، وافتتنوا بما أصابوا من الظفر في دفاعهم ولكن اللّه غالب على أمره فيمحق ما ألقاه الشيطان من هذه الشبهات ويرفع هذه الموانع وتلك العقبات ويهب السلطان لآياته فيحكمها ويثبت دعائمها وينشىء من ضعف أنصارها قوة ، ويخلف لهم من ذلهم عزة وتكون كلمة اللّه هي العليا ، وكلمة الشيطان هي السفلى " فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض " .

خاتمة هامة للأستاذ الامام :

" ولو صح ما قاله نقلة قصة الغرانيق لارتفعت الثقة بالوحي وانتقض الاعتماد عليه كما قاله البيضاوي وغيره ولكان الكلام في الناسخ كالكلام في المنسوخ يجوز أن يلقي الشيطان فيه ما يشاء ولانهدم أعظم ركن للشرائع الإلهية وهو العصمة وما يقال من المخرج في ذلك ينفر منه الذوق ولا ينظر اليه العقل على أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق العلى لم يرد لا في نظمهم ولا في خطبهم ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جاريا على ألسنتهم إلا ما جاء في معجم ياقوت غير مسند ولا معروف بطريق صحيح وهذا يدل على أن القصة من اختراع الزنادقة كما قال ابن اسحق وربما كانت منشأ ما أورده ياقوت ولا يخفى أن الغرنوق والغرنيق لم يعرف في اللغة إلا اسما لطائر مائي أسود أو أبيض أو هو اسم الكركي أو طائر

يشبهه ، والغرنيق بالضم كزنبور وقنديل وسموءل وفردوس وقرطاس وعلابط معناه الشاب الأبيض الجميل وتسمى الخصلة من الشعر المفتلة الغرنوق كما يسمى به ضرب من الشجر ويطلق الغرنوق والغرانق على ما يكون في أصل العوسج اللين النبات ولا يقال لمة غرانقة وغرانقية أي ناعمة تضيئها

(353/529)

الريح أو الغرنوق الناعم المستتر من النبات إلخ ولا شيء من هذه المعاني يلائم الإلهام والأصنام حتى يطلق عليها في فصيح القول الذي يعرض على ملوك البلاغة وأمراء الكلام فلا أظنك تعتقد إلا أنها من مفتريات الأعاجم ومختلقات الملبسين ممن لا يميز بين حر الكلام ، وما استعبد منه لضعفاء الأحلام ، فراج ذلك على من يذهله الولوع بالرواية ، عما تقتضيه الدراية ، " ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب " .

[سورة الحج (22) : الآيات 54 إلى 60]

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (57) وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58)

لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60)

الاعراب :

)

(354/529)

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ) الواو عاطفة وليعلم عطف على ليجعل وقد تقدم تعليق ليجعل والذين فاعل وجملة أوتوا العلم صلة والعلم مفعول به ثان لأوتوا وأنه الحق سدت مسد مفعولي يعلم ومن ربهم حال فيؤمنوا عطف على يعلم وبه متعلقان بيؤمنوا . (فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) فتخبت عطف على فيؤمنوا به وله متعلقان بتخبت أي تطمئن له قلوبهم وقلوبهم فاعل والواو استئنافية وان واسمها ولهاد اللام المزحلقة وهاد خبر إن والذين مفعول هاد لأنه اسم فاعل

وجملة آمنوا صلة والى صراط مستقيم متعلقان بهاد . (وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ)

الواو عاطفة على ما تقدم ليستكمل شرح حال الكافرين ويستوفيها ولا يزال فعل مضارع ناقص والذين كفروا اسمها وفي مرية خبرها ومنه صفة لمرية وهي بكسر الميم وضمها والضمير يعود إلى القرآن أو إلى الرسول أو إلى ما ألقاه الشيطان . (حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) حتى حرف غاية وجر وتأتيهم مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والهاء مفعول به والساعة فاعل وبغتة حال وأو حرف عطف ويأتيهم عطف على تأتيهم وعذاب يوم فاعل وعقيم صفة .

)

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) الملك مبتدأ ويومئذ ظرف مضاف إلى مثله وهو متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الخبر وهو للّه والتنوين عوض عن محذوف تقديره يوم يؤمنون أو يوم تزول حربتهم وجملة يحكم بينهم مستأنفة كأنها وقعت جوابا لسؤال مقدر تقديره ماذا يصنع بهم فقيل يحكم بينهم ولا يبعد أن تكون حالا من اسم اللّه والظرف متعلق بيحكم . (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) الفاء

عاطفة للتفريع والذين مبتدأ وجملة آمنوا صلة وجملة وعملوا الصالحات عطف على جملة آمنوا وفي جنات النعيم خبر . (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) والذين مبتدأ أيضا وجملة كفروا صلة وجملة كذبوا بآياتنا عطف على جملة كفروا فأولئك الفاء رابطة لما في الموصول من رائحة الشرط وأولئك مبتدأ ولهم خبر مقدم وعذاب مهين مبتدأ مؤخر والجملة خبر أولئك وجملة أولئك إلخ خبر الذين .

)

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا) (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا) قتلوا أو ماتوا عطف على قتلوا ، ليرزقنهم اللام موطئة للقسم ويرزقنهم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء مفعول به والله فاعل ورزقا مفعول مطلق وحسنا صفة والجملة القسمية وجوابها خبر الذين وهذا أولى من تقدير خبر . (وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) الواو عاطفة وان واسمها واللام المزحلقة وهو مبتدأ وخير الرازقين خبر هو والجملة خبر إن . (لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ) اللام موطئة للقسم وجملة يدخلنهم جواب القسم وجملة القسم وجوابه بدل من الجملة القسمية الأولى أو هي مستأنفة والهاء مفعول به ومدخلا مفعول مطلق لأنه مصدر ميمي وجملة يرضونه صفة لمدخلا ، وان الله لعليم حليم الواو عاطفة وان واسمها واللام المزحلقة وعليم حليم خبر ان لإن . (ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ

ما عُوقِبَ بِهِ) ذلك خبر مبتدأ محذوف وقد تقدم اعراب نظيره والواو استئنافية ومن اسم شرط جازم أو موصوله مبتدأ وعاقب فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وبمثل متعلقان بعاقب وما موصول مضاف اليه وجملة عوقب به صلة .

(356/529)

(ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) ثم بغي عليه عطف على عاقب واللام موطئة للقسم والجملة القسمية خبر من وجملة ان اللّه لعفو غفور تعليلية لا محل لها .

البلاغة :

(يَوْمٍ عَقِيمٍ) : استعارة مكنية فقد شبه ما لا خير فيه من الزمان بالنساء العقم أو لأن يوم الحرب يقتل فيه أولاد النساء فيصرن كأنهن عقم لم يلدن .

]

سورة الحج (22) : الآيات 61 إلى 65]

ذِلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ذِلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) لَهُ ما فِي

السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (65)

الاعراب :

(357/529)

(ذِلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) الجملة مستأنفة لتقرير قدرته تعالى على النصر وان من قدر على إيلاج الليل والنهار وإيلاج النهار في الليل وغير ذلك من روائع قدرته قادر ولا شك على النصر ، وذلك مبتدأ والاشارة إلى النصر الموعود وبأن اللّه خبره والباء للسببية وجملة يولج الليل في النهار خبر ان وجملة ويولج النهار في الليل عطف على الجملة الاولى وان اللّه سميع بصير عطف أيضا على بأن اللّه إلخ ومعنى إيلاج الليل في النهار وبالعكس تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذاك وبالعكس .

(ذل

)

إِنَّ اللَّه أن تكون بدل اشتمال من السماء أي ويمسك وقوعها بمعنى يمنعه وعلى الأرض

متعلقان بتقع وإلا أداة حصر لأن الكلام غير موجب أو في قوة النفي أي لا يتركها تقع في حالة من الأحوال فهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال فقوله باذنه متعلقان بمحذوف حال أي ملتبسة بمشيئته تعالى واذنه والباء للملابسة .

(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ) الجملة تعليلية وان واسمها وبالناس متعلقان برءوف واللام المزحلقة ورءوف خبر أول ورحيم خبر ثان .

البلاغة :

في قوله تعالى : " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً " عطف المضارع المستقبل على الماضي ولم يقل فأصبحت عطفا على أنزل وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان فانزال الماء مضى وجوده واخضرار الأرض باق لم يمض وهذا كما تقول أنعم على فلان فأروح وأغدو شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت شاكرا له لم يقع ذلك الموقع لأنه يدل على ماض قد كان وانقضى وهذا موضع جدير بالتأمل .

والسؤال الوارد هنا لم لم ينصب فتصبح جوابا للاستفهام ؟

و الجواب لو نصب لأعطى عكس ما هو الغرض لأن معناه اثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار مثاله أن تقول لصاحبك :

ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك تفريطه فيه وان رفعته فأنت مثبت للشكر . قال سيبويه : وسألته (يعني الخليل) عن " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً " فقال هذا واجب وهو تنبيه كأنك قلت أتسمع أنزل اللّه من السماء ماء فكان كذا وكذا " قال ابن خروف في شرح كتاب سيبويه :

"

وقوله فقال هذا واجب وقوله فكان كذا يريد أنهما ماضيان وفسر الكلام بأن تسمع ليريك أنه لا يتصل بالاستفهام لضعف حكم الاستفهام فيه " وقال بعض شراح الكتاب : " فتصبح لا يمكن نصبه لأن الكلام واجب ألا ترى أن المعنى أن اللّه أنزل الماء فالأرض هذه حالها " وقال الفراء " وانما عبر بالمضارع لأن فيه تصويرا للهيئة التي الأرض عليها والحالة التي لابست الأرض والماضي يفيد انقطاع الشيء وهذا كقول جحدر

ابن معونة العكلي يصف حاله مع أشد نازلة في قصة جرت له مع الحجاج بن يوسف :

يسمو بناظرتين تحسب فيهما لما أجالهما شعاع سراج

لما نزلت بحصن أزبر مهضر للقرن أرواح العدا مجاج

فأكر أحمل وهو يقعي باسته فاذا يعود فراجع أدراجي

وعلمت اني إن أبيت نزاله أني من الحجاج لست بناج

فقوله : فأكر تصوير للحالة التي لابسها .

وقال ابن هشام في المغني : " وقيل الفاء في هذه الآية للسببية وفاء السببية لا تستلزم التعقيب بدليل صحة قولك إن يسلم فهو يدخل الجنة ومعلوم ما بينهما من المهلة " .

بحث ممتع للرازي :

وللامام الرازي بحث جيد هنا يمكن تلخيصه بما يلي :

" ذكر هنا من آثار قدرته ستة أشياء :

(359/529)

1- إنزال الماء الناشئ عنه اخضرار الأرض وفسر الرؤية بالعلم دون الابصار لأن الماء وان كان مرئيا إلا أن كون اللّه منزلا له من السماء غير مرئي وقال فتصبح الأرض دون أصبحت لإفادته بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان .

2- قوله : " له ما في السموات وما في الأرض " ومن جملته خلق المطر والنبات نفعا للحيوان مع أن اللّه لا يحتاج لذلك ولا ينتفع به .

3- تسخير ما في الأرض أي ذلل لكم ما فيها كالحجر والحديد والنار لما يراد منها والحيوان

للأكل والركوب والحمل عليه والنظر اليه .

4- تسخير الفلك بالماء والرياح فلولا أن اللّه سخرها لكانت تغوص أو تقف .

5- إمساك السماء لأن النعم المتقدمة لا تكمل إلا به والسماء جرم ثقيل وما كان كذلك لا بد له من السقوط لو لا مانع يمنع منه وهو القدرة فأمسكها اللّه بقدرته لئلا تقع فتبطل النعم التي امتن بها علينا .

6- الإحياء ثم الإماتة ثم الإحياء . نبه بهذا على أن هذه النعم لمن أحياه اللّه فنبه بالاحياء الاول على انعامه في الدنيا بكل ما تقدم ونبه بالإماتة والإحياء ثانيا على إنعامه علينا في الآخرة .

[سورة الحج (22) : الآيات 66 إلى 70]

وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (66) لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (67) وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70)

اللغة :

(مَنْسَكاً) : بفتح السين وكسرها شريعة لأنه مأخوذ من النسيكة وهي العبادة . وقد تقدم الكلام مستوفيا عن هذه المادة .

الاعراب :

(

وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لنهي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن الالتفات إلى قولهم وتمكينهم من منازعته تثبيتا له وحفزا لهمته على المضي في الأمر الذي عهد اللّه اليه به ، وهو مبتدأ والذي خبر وجملة أحياكم صلة ثم حرف عطف للتراخي ويميتكم فعل وفاعل ومفعول به أي عند انتهاء الآجال ، ثم حرف عطف وتراخ أيضا ويحييكم فعل مضارع مرفوع والكاف مفعوله أي عند البعث وجملة إن الإنسان لكفور مستأنفة تفيد التعليل لعدم الاعتبار والتبصر بعد هذه العبر والدلائل وان واسمها واللام المزحلقة وكفور خبرها . (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ) لكل أمة مفعول ثان مقدم لجعلنا ومنسكا هو المفعول الاول والجملة مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها ولذلك لم يأت بالواو الاستئنافية وهي مسوقة لزجر منازعيه من أهل الأديان السماوية وهم مبتدأ وناسكوه خبر والجملة الاسمية صفة لمنسكا والفاء الفصيحة ولا ناهية

وينازعنك فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون لتوالي الأمثال والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين هي واو الجماعة في محل

(361/529)

رفع فاعل والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة ولم تؤثر في بناء المضارع لأنه لم تباشره وقد مرت لها نظائر والكاف مفعول به وفي الأمر متعلقان بينازعنك وادع فعل أمر وفاعله أنت والى ربك متعلقان بادع على حذف مضاف أي إلى دينه وسبيله وجملة انك لعلى هدى مستقيم تعليلية لا محل لها وان واسمها واللام المزحلقة وعلى هدى خبرها ومستقيم صفة لهدى . (وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ) الواو عاطفة وان شرطية وجادلوك فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والواو فاعل والكاف مفعول به ، فقل الفاء رابطة وقل فعل أمر والله مبتدأ وأعلم خبر والجملة مقول القول وجملة فقل جواب الشرط وبما متعلقان بأعلم وتعملون صلة . (اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) جملة مستأنفة مسوقة لتسلية النبي مما كان يلقى والله مبتدأ وجملة يحكم خبر وبينكم ظرف متعلق بيحكم ويوم القيامة متعلق بيحكم أيضا وفيما متعلقان بمحذوف حال وجملة كنتم صلة وكان واسمها وفيه متعلقان بتختلفون وجملة تختلفون خبر كنتم . (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي

السَّماءِ وَالْأَرْضِ) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتعلم فعل مضارع مجزوم وفاعله مستتر تقديره أنت وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي يعلم وان واسمها وجملة يعلم خبرها وما مفعول به وفي السماء صلة ما والأرض عطف على السماء . (إِنَّ ذِلكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذِلكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) جملتان تعليليتان لما سبق وان واسمها وفي كتاب خبرها وإن واسمها ويسير خبرها وعلى اللّه متعلقان بيسير .

[سورة الحج (22) : الآيات 71 إلى 74]

(362/529)

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72) يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74)

اللغة :

(يَسْطُونَ) : يبطشون والسطو الوثب والبطش ولذلك عدي بالباء وإلا فهو يتعدى بعلى يقال سطا عليه وأصله القهر والغلبة وفي الأساس " وسطا بقرنه وعلى قرنه وثب عليه وبطش به ، والفحل يسطو على طروقته ومن المجاز : سطا الماء كثر وزخر ، وما سطوت في طعام أحد : ما تناولته ولهم أيد سواط عواط قال المتنخّل يصف خمرا :

ركود في الإناء لها حميّا تلذّ بأخذها الأيدي السواطي

وللسين مع الطاء فاء وعينا للكلمة صفة الامتداد ، تقول رأيتهم قاعدين على المساطب وهي الدكاكين الممتدة حول رحبة المسجد وبات فلان على المسطبة وتقول : كم أبات هذا البيت رجالا على المساطب ، وأوقعهم في المتالف والمعاطب تريد فسر في بلاد اللّه ، وتقول : إما أن يبيتك على المسطبة ، أو يرفعك إلى المسطبة وهي المجرّة ، وسطح الشيء :

(363/529)

بسطه وسواه ومنه سطح الخبز بالمسطح وهو المحور وسطح الثريدة في الصحفة ومنه سطح البيت وسطح مسطح : مستو وأنف مسطح منبسط جدا وبسط لنا المسطح والمساطح وهو الحصير من الخوص وضربه فسطحه إذا بطحه على قفاه ممتدا فانسطح وهو سطيح ومنسطح وبه سمي سطيح وضربه بالمسطح وهو عمود الخباء وشرب من

السطيحة وهي المزادة ، وسطر واستطر كتب وكتب سطرا من كتابه وسطرا وأسطرا وسطورا وأسطارا وهو مسيطر علينا ومتسيطر ، ونار ساطعة ممتدة ونور ساطع وسطع الفجر وسطع الغبار سطوعا وسطع البعير والظليم مدّ عنقه إلى السماء قال ذو الرمة يصف ظليما :

يظلّ مختضعا طورا فتنكره حينا ويسطع أحيانا فينتسب

وسطع بيديه رفعهما مصفقا بهما ومن المجاز سطعت رائحة المسك وأعجبني سطوع رائحته ، واغتسلت بالسّطل والسّيطل وهما القدس الذي يتطهر به في الحمّام ، وحرك النار بالاسطام وسيف مصقول السّطام وهو الحدّ وأنشد سيبويه لكعب بن جعيل :

وأبيض مصقول السطام مهنّدا وذا حلق من نسج داود مسردا

ومن المجاز ليل طما أسطمّه وهو في أسطمّة قريش في وسطهم وعاد الملك في اسطمّه : في أصله ، قال :

يا ليتها قد خرجت من فمّه حتى يعود الملك في اسطمّه

والعرب سطام الناس .

(الذُّبابُ) : اسم جنس واحده ذبابة يقع على المذكر والمؤنث ويجمع على ذبّان بالكسر كغربان وذبان بالضم كقضبان وعلى أذبّة كأغربة وهو أجهل الحيوانات لانه يرمي نفسه في المهلكات ومدة عيشه أربعون يوما وأصل خلقته من العفونات ثم يتوالد بعضه من بعض يقع

روثه على الشيء الأبيض فيرى أسود وعلى الأسود فيرى أبيض ، والذباب مأخوذ من ذب إذا طرد وآب إذا رجع لأنك تذبه فيرجع عليك وقد ذكره امرؤ القيس في شعره قال :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

عصافير وذبّان ودود وأجرأ من مجلّحة الذئاب

وسيأتي بحث مسهب عنه في باب البلاغة .

الاعراب :

(364/529)

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً) الواو استئنافية والجملة مستأنفة ويعبدون فعل مضارع والواو فاعل ومن دون اللّه حال وما موصول مفعول به وجملة لم ينزل صلة ما وبه حال لأنه كان في الأصل صفة لسلطانا وسلطانا مفعول به . (وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) وما عطف على ما الاولى وجملة ليس صلة ولهم

خبر ليس المقدم وبه متعلقان بعلم وعلم اسم ليس المؤخر وما الواو عاطفة وما نافية وللظالمين خبر مقدم ومن حرف جر زائد ونصير مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر .

(وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ) الواو عاطفة وإذا

ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة تتلى في محل جر بإضافة إذا إليها وتتلى فعل مضارع مبني للمجهول وعليهم متعلقان بتتلى وآياتنا نائب فاعل وبينات حال وجملة تعرف لا محل لها لأنها جواب إذا وفي وجوه متعلقان بتعرف والذين مضاف اليه وجملة كفروا صلة والمنكر مفعول به وفيه وضع الظاهر موضع المضمر وهو الذين كفروا تشنيعا عليهم وتسجيلا للشهادة عليهم بالكفر . (يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا) جملة يكادون حال من الموصول وان كان مضافا لأن المضاف جزؤه ويجوز أن يكون حالا من وجوه لأن المراد بها أصحابها ويكادون من أفعال المقاربة ، والواو اسمها وجملة يسطون خبرها وبالذين متعلقان بيسطون وجملة يتلون صلة وعليهم متعلقان بيتلون وآياتنا مفعول به .

)

(365/529)

قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ) قل فعل أمر والفاعل مستتر تقديره أنت والجملة مستأنفة ، أفأنبئكم الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة على محذوف أي أخاطبكم فأنبئكم وأنبئكم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وبشر متعلقان بأنبئكم ومن ذلكم متعلقان بشر والنار

خبر لمبتدأ محذوف ، أو النار مبتدأ وخبره جملة وعدها والجملة لا محل لها لأنها مفسرة لشر . (وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) جملة وعدها اللّه إما خبر ثان واما خبر النار ووعدها اللّه فعل ومفعول به أول وفاعل والذين كفروا مفعول به ثان لوعدها ويجوز أن يكون الضمير هو المفعول الثاني والذين كفروا هو المفعول الاول ولعل هذا أرجح لسر سيأتي في باب الفوائد وبئس المصير فعل وفاعل والمخصوص بالذم

(366/529)

محذوف أي هي . (يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ) كلام مستأنف مسوق لضرب المثل وهو إن يكن أشبه بالقصة إلا انه في سيرورته واستغرابه سمي مثلا ، يا أيها الناس تقدم اعرابها كثيرا وضرب مثل فعل ماض مبني للمجهول ونائب فاعل ، فاستمعوا الفاء الفصيحة واستمعوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وله متعلقان باستمعوا . (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) الجملة مفسرة للمثل وان واسمها وجملة تدعون صلة ومن دون اللّه حال وجملة لن يخلقوا ذبابا خبر ان وذبابا مفعول به ولو الواو عاطفة على محذوف هو حال أي انتفى خلقهم الذباب على كل حال ولو في هذه الحال التي اجتمعوا لها ولو شرطية واجتمعوا فعل وفاعل وله متعلقان باجتمعوا . (وَإِنْ

يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) الواو عاطفة وان شرطية ويسلبهم فعل الشرط والهاء مفعول به والذباب فاعل وشيئا مفعول به ثان ولا نافية ويستنقذوه جواب الشرط والواو فاعل والهاء مفعول به ومنه متعلقان بيستنقذوه وجملة ضعف الطالب والمطلوب حال . و(ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) الواو استئنافية مسوقة للرد على أحبار اليهود ورؤسائهم الذين قالوا ان اللّه فقير ونحن أغنياء وما نافية وقدروا فعل وفاعل ولفظ الجلالة مفعول به وحق قدره مفعول مطلق وجملة ان اللّه تعليل لما تقدم وان واسمها واللام المزحلقة وقوي خبر إن الاول وعزيز خبر إن الثاني .

البلاغة :

سلامة الاختراع :

وهو أن يخترع الشاعر أو الكاتب معنى لم يسبق اليه ولم يتبع

(367/529)

فيه فقوله تعالى " إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً " الآية من أبلغ ما أنزله اللّه في تجهيل الكافرين واستركاك عقولهم لغرابة التمثيل الذي تضمن الافراط في المبالغة مع كونها جارية على الحق خارجة مخرج الصدق وذلك حين اقتصر سبحانه على ذكر أضعف

المخلوقات وأقلها سلبا لما تسلبه وتعجيز كل من دونه سبحانه كائنا من كان عن خلق مثله مع التضافر والاجتماع ثم نزل في التمثيل عن رتبة الخلق إذ هما مما يعجز عن مثلهما كل قادر غير اللّه عز وجل إلى استنقاذ النزر التفه الذي يسلبه هذا الخلق الضعيف على ضعفه ويعجز كل قادر من المخلوقين عن استنقاذه منه فتنقل في النزول في التمثيل على ما تقتضيه البلاغة على الترتيب في هذا المكان ، لما علم سبحانه انه لا مبالغة في تعجيزهم عن الخلق والاختراع الذي لا يدعيه جبار ولا يتعاطاه من المخلوقين أحد وإن أوتي قدرة وأعطي قوة وكان فيه من التغالي بالكفر والجهل ما يدعي معه الالهية وينتحل الربوبية ، فنزل بهم إلى استنقاذ ما يسلبه هذا المخلوق الضعيف على ضعفه وقوتهم ليريهم عجزهم فتستيقنه نفوسهم وإن لم تقرّ به ألسنتهم فجاء بما يقضي الظاهر أنه أيسر من الخلق وهو الحقيقة مثله في العمر فإن الظفر بنفس هذا المخلوق أيسر من الظفر بما يسلبه فاستنقاذ ما يسلبه في العجز عنه مثل خلقه ولم يسمع مثل هذا التمثيل في بابه لأحد قبل نزول الكتاب العزيز .

هذا وقد قسم علماء البيان سلامة الاختراع إلى ضربين :

أولهما : يبتدعه صاحبه من غير أن يقتدي فيه بمن سبقه وهذا الضرب يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، وينتبه له عند الأمور الطارئة فمن ذلك ما ورد في شعر لأبي تمام في قصيدة له يمدح بها المعتصم باللّه ويذكر حرق الافشين ومطلعها :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

وفيها يخترع وصف المصلبين فيقول :

(368/529)

بكروا وأسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النّجّار

لا يبرحون ومن رآهم خالهم أبدا على سفر من الأسفار

وهذا المعنى مما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، والخاطر في مثل هذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع من غير كبير كلفة لشاهد الحال الحاضرة ، ومما قاله فيها في صفة من أحرق بالنار :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سرّ الزناد الواري

نارا يساور جسمه من حرها لهب كما عصفرت شقّ إزار

طارت لها شعل يهدّم لفحها أركانه هدما بغير غبار

فصّلن منه كلّ مجمع مفصل وفعلن فاقرة بكل فقار

مشبوبة رفعت لأعظم مشرك ما كان يرفع ضوءها للساري

صلى لها حيا وكان وقودها ميتا ويدخلها مع الفجار

وقد ذيل البحتري على ما ذكره أبو تمام في وصف المصلبين فقال :

كم عزيز أباده فغدا يركب عودا مركّبا في عود

أسلمته إلى الرقاد رجال لم يكونوا عن وترهم برقود

تحسد الطير فيه ضبع البوادي وهو في غير حالة المحسود

غاب عن صحبه فلا هو موجود لديهم وليس بالمفقود

وكأن امتداد كفيه فوق الجذع في محفل الردى المشهود طائر مدّ مستريحا جناحيه

استراحات متعب مكدود

أخطب الناس راكبا فإذا أرجل خاطبت منه عين البليد

ومن هذا الضرب ما جاء في شعر أبي الطيب المتنبي في وصفه الحمى :

وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي

كأن الصبح يطردها فتجري مدامعها بأربعة سجام

أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام

ومن بديع ما أتى به في هذا الموضع أن سيف اللّه بن حمدان كان مخيما بأرض ديار بكر على مدينة ميا فارقين ، فعصفت الريح بخيمته فتطيّر الناس لذلك وقالوا فيه أقوالا فمدحه أبو

الطيب بقصيدة يعتذر فيها عن سقوط الخيمة أولها :

أينفع في الخيمة العذّل وتشمل من دهرها يشمل

(369/529)

ومما أحسن فيه غاية الإحسان وعدّ من أوابده التي لا تبلى قوله :

تضيق بشخصك أرجاؤها ويركض في الواحد الجحفل

وتقصر ما كنت في جوفها وتركز فيها القنا الذّبل

وكيف تقوم على راحة كأن البحار لها أنمل

فليت وقارك فرّقته وحملت أرضك ما تحمل

فصار الأنام به سادة وسدتهم بالذي يفضل

رأت لون نورك في لونها كلون الغزالة لا يغسل

وأنّ لها شرفا باذخا وأن الخيام بها تخجل

فلا تنكرنّ لها صرعة فمن فرح النفس ما يقتل

ولو بلّغ الناس ما بلّغت لخانتهم حولك الأرجل

ولما أمرت بتطنيبها أشيع بأنك لا ترحل

فما اعتمد اللّه تقويضها ولكن أشار بما تفعل

وعرّف انك من همه وأنك في نصره ترفل

فما العاندون وما أمّلوا وما الحاسدون وما قوّلوا

هم يطلبون فمن أدركوا ؟ وهم يكذبون فمن يقبل ؟

وهم يتمنّون ما يشتهون ومن دونه جدّك المقبل

والمعاني المخترعة فيها واضحة للعيان وكفى المتنبي فضلا أن يأتي بمثلها .

وفي كتاب الروضة لأبي العباس المبرد ، وهو كتاب جمعه واختار فيه أشعار شعراء بدأ فيه بأبي نواس ثم بمن كان في زمانه فقال مما أورده من شعره : وله معنى لم يسبق اليه بإجماع وهو قوله :

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس

قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدّريها بالقسيّ الفوارس

فللراح ما زرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

فالمعنى مخترع ولكنه – كما يقول الجاحظ – من المعاني المشاهدة فإن هذه الخمر لم تحمل إلا ماء يسيرا وكانت تستغرق صور هذه الكأس إلى مكان جيوبها وكان الماء فيها قليلا بقدر القلانس التي على رؤوسها وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر .

وثانيهما : المعاني التي تستخرج من غير شاهد حال متصورة فانها أصعب منالا مما

يستخرج بشاهد الحال وقد قيل : إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعاني وقد عدت معانيه المبتدعة فوجدت ما يزيد على عشرين معنى :

فمن ذلك قوله :

(370/529)

يا أيها الملك النائي برؤيته وجوده لمراعي جوده كثب

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا إن السماء ترجّى حين تحتجب

وكذلك قوله في الهجاء :

وأنت تدير قطب رحى عليا ولم نر للرحى العلياء قطبا

ترى ظفرا بكل صراع قرن إذا ما كنت أسفل منه جنبا

وكذلك قوله :

وإذا أراد اللّه نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وكذلك له في الشيب :

شعلة في المفارق استودعتني في صميم الفؤاد ثكلا صميما

يستثير الهموم ما اكتنّ منها صعدا وهي تستثير الهموما

على أن ابن الرومي فاق شعراء العربية جميعا في خلق الأشكال للمعاني المجردة أو خلق الرموز لبعض الاشكال المحسوسة بل فاق بها شعراء الدنيا جميعا . استمع لوصفه لحركة الرقاق في يد الخباز :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

ووصفه للحركة البطيئة في سير السحائب :

سحائب قيست في البلاد فألفيت غطاء على أغوارها ونجودها

حدتها النّعامى مثقلات فأقبلت تهادى ، رويدا ، سيرها كركودها

وله :

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله وأطال فيه فقد أراد هجاءه

لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه

وله قوله الممتع :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرنّ من الصحاب

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام والشراب

وكذلك قوله :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه منها وانها لأوسع مما كان فيه وأرغد

إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما هو لاق من أذاها يهدد

قول جامع للجاحظ :

(371/529)

وللجاحظ فصل ممتع انتهى فيه إلى وصف الذباب الذي نحن بصدد الحديث عنه قال : " ولا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام وفي معنى غريب عجيب أو في معنى شريف كريم أو في بديع مخترع إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه إن هو لم يقدر على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى

ويجعل نفسه شريكا فيه كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه ، أو لعله يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط وقال انه خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بال الأول هذا إذا قرعوه به إلا ما كان من عنترة في صفة الذباب فإنه وصفه فأجاد وصفه فتحامى معناه

جميع الشعراء فلم يعرضوا له قال عنترة :

جادت عليها كلّ عين ثرّة فتركن كل حديقة كالدرهم

فترى الذباب بها يغني وحده هزجا كفعل الشارب المترّنم

غردا يحكّ ذراعه بذراعه فعل المكبّ على الزناد الأجذم

يريد فعل الأقطع المكب على الزناد ، والأجذم المقطوع اليدين فوصف الذباب إذا كان واقعا ثم حك إحدى يديه بالأخرى فشبهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين يقدح بعودين ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك " .

قصة قاضي البصرة :

وبعد أن تحدث الجاحظ طويلا كعادته في الاستطراد عن الذباب روى قصة قاضي البصرة وهي طويلة تصور إلحاح الذباب وقدرته على العض وهي مثبتة في كتاب الحيوان للجاحظ فليرجع اليه من شاء .

الفوائد :

متى اجتمع بعد ما يتعدى إلى اثنين شيئان ليس ثانيهما عبارة عن الأول فالفاعل المعنوي رتبته التقديم وهو المفعول الأول ويعني بالمفعول

الأول من يتأتى منه فعل فإذا قلت : وعدت زيدا دينارا فالدينار هو المفعول الثاني لأنه لا

يتأتى من فعل وهو نظير أعطيت زيدا درهما فزيد هو الفاعل لأنه آخذ للدرهم.

[سورة الحج (22) : الآيات 75 إلى 78]

(372/529)

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77) وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)

الإعراب:

(اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) جملة مستأنفة مسوقة لتقرير اصطفائه تعالى الرسل والله مبتدأ وجملة يصطفي خبر ومن الملائكة حال لأنه كان في الأصل صفة لرسلا وتقدم عليه ولك أن تعلقه بيصطفي ورسلا مفعول به ومن الناس عطف على من

الملائكة وحذف من الثاني لدلالة الاول عليه أي ويصطفي من الناس رسلا وجملة إن اللّه سميع بصير تعليلية لما تقدم أي سميع لما يقولونه بصير بمن يتخذه رسولا وان واسمها وسميع خبرها الاول وبصير خبرها الثاني . (يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) جملة يعلم خبر ثالث أو مستأنفة ويعلم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو وما موصول مفعول به وبين أيديهم الظرف متعلق بمحذوف صلة وما خلفهم عطف على ما بين أيديهم والى اللّه الواو عاطفة والى اللّه متعلقان بترجع وترجع فعل مضارع مبني للمجهول والأمور نائب فاعل .

)

(373/529)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ) يا أيها الذين آمنوا تقدم اعرابها وجملة آمنوا صلة واركعوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل واسجدوا عطف على اركعوا واعبدوا ربكم عطف أيضا . (وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) وافعلوا الخير عطف على ما تقدم وجملة لعلكم تفلحون حال من الواو في اركعوا وما عطف عليه أي افعلوا هذه الأمور حال كونكم راجين الفلاح . (وَجاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ) وجاهدوا عطف

أيضا وفي اللّه متعلقان بجاهدوا ولا بد من حذف مضاف بعد حذف مفعول جاهدوا أي جاهدوا أعداءكم في ذات اللّه ومن أجله ففي للسببية وحق جهاده مفعول مطلق .

(هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) هو مبتدأ وجملة اجتباكم أي اختاركم خبر والجملة حال من اللّه وما الواو عاطفة وما نافية وجعل فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو وعليكم متعلقان بمحذوف مفعول به ثان لجعل وفي الدين حال ومن حرف جر زائد وحرج مجرور لفظا منصوب محلا لأنه مفعول جعل الأول .

(مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا) ملة في نصبها أوجه أظهرها ما ذكره الزمخشري ونصه : " نصب الملة بمضمون ما تقدمها كأنه قيل وسع دينكم توسعة ملة أبيكم ثم حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ويجوز نصبها على الاختصاص أي أخص بالدين ملة أبيكم " أو بتقدير فعل مضمر تقديره اتبعوا وهناك أوجه أخرى لا تخرج عن هذه الأوجه ، وأبيكم مضاف اليه وابراهيم بدل من أبيكم وهو مبتدأ وجملة سماكم خبر والجملة حال من ابراهيم وسماكم فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول والمسلمين مفعول به ثان ومن قبل حال أي من قبل هذا الكتاب وفي هذا عطف على من قبل أي وفي هذا القرآن .

)

لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) اللام للتعليل وقيل للعاقبة ويكون فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام واللام ومدخولها متعلقة بسماكم والرسول اسم يكون وشهيدا خبر يكون وعليكم متعلقان بشهيدا وتكونوا شهداء على الناس عطف على نظيرتها . (فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ) الفاء الفصيحة وأقيموا الصلاة فعل أمر وفاعل ومفعول به وما بعده عطف عليه . (هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) الجملة حالية من اللّه وهو مبتدأ ومولاكم خبر فنعم المولى الفاء استئنافية ونعم فعل ماض جامد لانشاء المدح والمولى فاعل والمخصوص بالمدح محذوف أي هو ، ونعم النصير عطف على نعم المولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 6 صـ 493.436﴾

(375/529)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَولَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الثلاثون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/530)

الجزء الثلاثون بعد الخمسمائة

(سورة المؤمنون)

(4/530)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المؤمنون)

(5/530)

" فصل فى فضل السّورة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

يذكر فيه من الأَحاديث الواهية حديث أُبى : مَنْ قرأَ سورة المؤمنين بشَّرته الملائكة بالرَّوح ، والرَّيحان ، وما تقرُّ به عَيْنُه عند نزول مَلَك الموت ، ويروى : إنَّ أَوّل هذه السّورة وآخرها من كنوز العرش من علم بثمان آيات من أَولها ، واتَّعظ بأَربع آيات مِن آخرها ؛ فقد نجا ، وأَفلح ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها تقبل الله منه صلاته ، وصيامه ، وأَفلح ؛ وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها تقبل الله منه صلاته ، وصيامه ، وجَعَله فى الجنَّة رفيق إِيماعيل ، وله بكل آية قرأَها مثل ثُواب إِسماعيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 333 ﴾

(6/530)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . قد أفلح المؤمنون)

السّورة مكّية إجماعا .

وعدد آياتها مائة وثمانية عشر عند الكوفيّين ، وتسعة عشر عند الباقين .

وكلماتها أَلف ومائتان وأَربعون .

وحروفها أَربعة آلاف وثمانمائة وواحد .

المختلف فيها ﴿ وَأَخَاهُ هَارُوْنَ ﴾ .

مجموع فواصل آياتها (من) .

وسميت سورة المؤمنين لافتتاحها بفلاح المؤمنين .

مقصود السّورة ومعظم ما اشتملت عليه : الفتوى بفلاح المؤمنين ، والدّلالة على أَخلاق أَهل الإِسلام ، وذكر العجائب فى تخليق الأَولاد فى الأَرحام ، والإِشارة إلى الموت والبعث ، ومِنَّة الحق على الخلق بإنبات الأَشجار ، وإظهار الأَنهار ، وذكر المراكب ، والإِشارة إلى هلاك قوم نوح ، ومَذَمّة الكفَّار ، وأَهل الإِنكار ، وذكر عيسى ومريم ، وإِيوائهما إلى رَبْوة ذات قرار ، وإِمهال الكُفَّار فى المعاصى ، والمخالفات ، وبيان حال المؤمنين فى العبادات ،

والطَّاعات ، وبيان حُجّة التَّوحيد وبرهان النبوّات ، وذلّ الكفَّار بعد الممات ، وعجْزهم فى جهنَّم حال العقوبات ، ومكافأتهم فى العقبى على حسب المعاملات ، فى الدّنيا فى جميع الحالات ، وتهديد أَهل اللَّهو ، واللَّغو ، والغَفَلات ، وأَمر الرّسول بدعاءِ الأَمّة ، وسؤال المغفرة لهم والرّحمات ، فى قوله : ﴿ رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

النَّاسخ والمنسوخ :

المنسوخ فيها آيتان ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ ﴾ م آية السّيف ن ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ م آية السّيف ن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 329.330 ﴾

(7/530)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة المؤمنون

292 - مسألة :

قوله تعالى : (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13)) الآيات . عطف الأولين بثم ، والثلاثة الأخر بالفاء .

جوابه :

أن الإنسان : آدم ، والمجعول : بنوه بعده ، والمراد الجنس ، لأن آدم عليه السلام لم يكن نطفة قط ، ثم ذكر خلقه بعده من النطفة كما ذكر .

293 – مسألة :

قوله تعالى : (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) وظاهره الاشتراك في الخلق وفى فاطر : (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ) ؟ .

جوابه :

أن المراد بالخلق : التقدير ، ويطلق الخلق على التقدير لغة ومنه قوله تعالى : (وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا) لكن عند الإطلاق مختص بالله تعالى كالرب يطلق على رب المال والدار وعند الإطلاق لله تعالى .

290 – مسألة :

قوله تعالى : (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ) وقال تعالى بعده في قصة هود (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا) فقدم الجار والمجرور ثانيا .

جوابه :

أن الجار في قصة نوح عليه السلام – جاء بعد تمام

الصلة والانتقال إلى المقول فما فصل بين متلازمين ، ولو

أخره في قصة هود عليه السلام لفصل بين الصلة وتمامها

المعطوف عليها لأن قوله تعالى : (وكذبوا) من تمام الصلة .

295 - مسألة :

قوله تعالى : (فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41)) معرفا ، وقال

بعده : (فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (44)) منكرا ؟ .

جوابه :

أن القرن الأول معروف أنهم قوم هود لقوله تعالى : (مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا) ، وأول قرن بعد نوح :

قوم هود .

وقوله تعالى : (قُرُونًا آخَرِينَ) غير معروفين بأعيانهم

فجاء بلفظ التنكير بقوله تعالى : (لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) لأن عدم

الإيمان هي الصفة العامة لجميعهم .

296 - مسألة :

قوله تعالى : (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) وقال تعالى : (قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)الآية . فما وجه فسادهما باتباع الحق أهواءهم ؟ .

جوابه :

أي لو كان الحق كما يقولون من تعدد الآلهة لفسدت

السموات والأرض ، وهو معنى قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) .

297 – مسألة :

قوله تعالى : (لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ) وفى النمل : (لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ) قدم (نَحْنُ) هنا ، وأخره في النمل ؟ .

جوابه :

لما تقدم هنا ذكر آبائهم بقوله تعالى : (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81)

وهم آباؤهم ناسب ذلك تقديم المؤكد وهو (نحن) ليعطف عليه "الآباء" المقدم ذكرهم ، ثم تأخير المفعول الموعود لهم جميعا وهو (هَذَا) .

وآية النمل لم يذكر فيها (الْأَوَّلُونَ) بل قال : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) الآية ، فناسب تقديم المفعول لموعود ، ثم ذكر المؤكد ليعطف عليه ، ثم لم يذكر أولا ، وحاصله تقديم من تقدم ذكره أهم وأنسب ، وتقديم المفعول الموعود ، وتأخير من

لم يذكر أهم وأنسب .

298 - مسألة :

قوله تعالى : (فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101)

وقال تعالى أيضا : (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34)) الآية . وقال تعالى : (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25)) .

جوابه :

أنه لا أنساب بينهم تنفع كما كانت تنفع في الدنيا .

ووجه آخر : أن في القيامة مواطن كما تقدم ، ففي بعضها لا يتساءلون لاشتغالهم كل بنفسه ، وفى بعضها يتساءلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 265.269 ﴾

(9/530)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (فواكه) بالجمع و (منها) بالواو ، وفى الزّخرف ﴿ فَاكِهَةٌ ﴾ على التوحيد ﴿ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ بغير واو .

راعى فى السّورتين لفظ الجَنَّة .

وكانت فى هذه (جنّات) بالجمع فقال : (فواكه) بالجمع ، وفى الزخرف : ﴿ وَتِلْكَ الجَنَّةُ ﴾ بلفظ التوحيد ، وإن كانت هذه جنَّة الخُلْد لكن راعى اللَّفظ فقال ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾

وقال فى هذه السّورة ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ بزيادة الواو ؛ لأَنَّ تقدير الآية : منا تَدَّخِرُون ، ومنها تأكلون ، ومنها تبيعون ، وليست كذلك فاكهة الجَنَّة ، فإنها للأَكل فقط .

فذلك قال : ﴿ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ووافق هذه السورة ما بعدها أَيضاً ، وهو قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيْرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُوْنَ ﴾ فهذا للقرآن معجزة وبرهان .

قوله : ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ ﴾ وبعده ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ فقُدِّم (مِن قومه) فى الآية الأُخرى ، وأُخِّر فى الأُولى ؛ لأَنَّ صلة (الذين) فى الأُولى اقتصرتْ على الفعل وضمير الفاعل ، ثمَّ ذكر بعده الجارّ والمجرور ثم ذكر المفعول وهو المَقُول ، وليس كذلك فى الأُخرى ، فإن صلة الموصول طالت بذكر الفاعل والمفعول والعطف عليه مَرّة بعد أُخرى ، فقدّم الجارّ والمجرور ؛ لأَنَّ تأخيره يلتبس ، وتوسيطه ركيك ، فخُصَّ بالتقدم .

(10/530)

قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً ﴾ (وفى حم السجدة : (﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً ﴾) لأَنَّ فى هذه السّورة تقدّم ذكر الله ، وليس فيه ذكر الرّب ، وفى السّجدة تقدّم ذكر (ربّ العالمين) سابقا على ذكر لفظ الله ، فصرّح فى هذه السورة بذكر الله ، وهناك بذكر الرَّب ؛ لإضافته إلى العالمين وهم من جملتهم ، فقالوا إمَّا اعتقاداً وإمَّا استهزاءً : لو شاءَ ربنا لأَنزل ملائكة ، فأَضافوا الربّ إليهم .

قوله : ﴿ وَاعْمَلُواْ صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ ، وفى سبأ ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ كلاهما من وصف الله سبحانه ، وخصّ كلّ سورة بما وافق فواصل الآى .

قوله : ﴿ فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ بالأَلف واللاَّم ، وبعده : ﴿ لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؛ لأَنَّ الأَوَّل لقوم صالح ، فعرّفهم بدليل قوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ ، والثانى نكرة ، وقبله ﴿ قُرُوناً آخَرِينَ ﴾ وكانوا منكَّرين ، ولم يكن معهم قرينة عُرِفوا بها ، فخُصّوا بالنّكرة .

قوله : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا هذا مِن قَبْلُ ﴾ ، وفى النمل ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هذا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ لأَنَّ ما فى [هذه] السّورة على القياس ؛ فإنَّ الضَّمير المرفوع المتَّصل لا يجوز العطفُ عليه ، حتى يؤكَّد بالضمير المنفصل ، فأَكَّد (وعدنا نحن) ثم عُطِف عليه (آباؤنا) ، ثم ذكر المفعول ، وهو (هذا) وقُدِّمَ فى النمل المفعول موافقة لقوله (ترابا) لأَنَّ القياس فيه أَيضاً : كنَّا نحن وآباؤنا ترابا (فقدّم "ترابا" ليسُدّ مسدّ نحن وكانا متوافقين .

(11/530)

قوله : ﴿ سَيَقُوْلُوْنَ للهِ ﴾ ، وبعده : ﴿ سَيَقُوْلُوْنَ للهِ ﴾ وبعدهُ : ﴿ سَيَقُوْلُوْنَ للهِ ﴾ الأَوّل جواب لقوله ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ جواب مطابق لفظاً ومعنًى لأَنَّه قال فى السّؤال : (قل لمن) فقال فى الجواب : (لله) وأَمَّا الثانى والثالث فالمطابقة فيهما فى المعنى ؛ لأَنَّ القائلِ إذا قال لك : مَنْ مالِك هذا الغلام ؟ فلك أَن تقول : زيدٌ ، فيكون مطابقاً لفظاً ومعنى .

ولك أَ تقول لزيد ، فيكون مطابقاً للمعنى .

ولهذا قرأَ أَبو عمرو الثَّانى والثَّالث : (الله) (الله) ؛ مراعاة للمطابقة .

قوله ﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ وقبله : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ ليس بتكرار ؛ لأَنَّ الأَوَّل فى الدنيا عند نزول العذاب وهو الجَدْب عند بعضهم ، ويومُ بدر عند البعض ، والثانى فى القيامة ، وهم فى الجحيم ؛ بدليل قوله : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 330 . 333 ﴾

(12/530)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة المؤمنين

328 – قوله تبارك وتعالى لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون 19 بالجمع وبالواو وفي الزخرف فاكهة 73 على التوحيد منها تأكلون 73 بغير واو راعى في السورتين لفظ الجنة فكانت هذه جنات بالجمع فقال فواكه 19 بالجمع وفي الزخرف وتلك الجنة 72 بلفظ التوحيد وإن كانت هذه جنة الخلد لكن راعى اللفظ فقال فيها فاكهة 73

وقال في هذه السورة ومنها تأكلون 19 بزيادة الواو لأن تقدير الآية منها تدخرون ومنها تبيعون وليس كذلك فاكهة الجنة فإنها للأكل فحسب فلذلك قال في الزخرف منها تأكلون 73 ووافق هذه السورة ما بعدها أيضا وهو قوله ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون 21 فهذا القرآن معجزة وبرهان

329 – قوله فقال الملأ للذين كفروا من قومه 24 وبعده وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في

الحياة الدنيا 33 فقدم من قومه في الآية الأخرى وفي الأولى أخر لأن صلة الذين في الأولى اقتصرت على الفعل وضمير الفاعل ثم ذكر بعده الجار والمجرور ثم ذكر المفعول وهو المقول وليس كذلك في الأخرى فإن صلة الموصول طالت بذكر الفاعل والمفعول والعطف عليه مرة بعد أخرى فقدم الجار والمجرور ولأن تأخيره ملتبس وتوسطه ركيك فخص بالتقديم

330 - قوله ولو شاء الله لأنزل ملائكة 24 وفي حم فصلت ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة 14 لأن في هذه السورة تقدم ذكر الله وليس فيه ذكر الرب

وفي فصلت تقدم ذكر رب العالمين سابقا على ذكر الله فصرح في هذه السورة بذكر الله وهناك بذكر الرب لإضافته إلى العالمين وهم جملتهم فقالوا إما اعتقادا وإما استهزاء لو شاء ربنا لأنزل ملائكة 14 فأضافوا الرب إليهم

331 - قوله واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم 51 وفي سبأ إني بما تعملون بصير 11 كلاهما من وصف الله سبحانه وتعالى وخص كل سورة بما وافق فواصل الآى

(13/530)

---

332 - قوله فبعدا للقوم الظالمين 41 بالألف واللام وبعده لقوم لا يؤمنون 44 لأن الأول لقوم صالح فعرفهم بدليل قوله فأخذتهم الصيحة 41 والثاني نكرة وقبله قرونا آخرين 42 فكانوا منكرين ولم يكن معهم قرينة عرفوا بها فخصهم بالنكرة

333 - قوله لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل 83 وفي النمل لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل 68 لأن ما في هذه السورة على القياس فإن الضمير المرفوع المتصل لا يجوز العطف عليه حتى يؤكد بالمنفصل فأكد وعدنا نحن ثم عطف عليه آباؤنا ثم ذكر المفعول

وهو هذا

وقدم في النمل المفعول موافقة لقوله ترابا 67 لأن القياس فيه أيضا كنا نحن وآباؤنا ترابا فقدم ترابا ليسد مسد نحن فكانا لفقين

334 - قوله سيقولون لله 85 وبعده سيقولون لله 87 وبعده سيقولون لله 89 الأول جواب لقوله قل لمن الأرض ومن فيها 84 جواب مطابق لفظا ومعنى لأنه قال في السؤال قل لمن فقال في الجواب لله

وأما الثاني والثالث فالمطابقة فيهما في المعنى لأن القائل إذا قال لك من مالك هذا الغلام فإن لك أن تقول زيد فيكون مطابقا لفظا ومعنى ولك أن تقول لزيد فيكون مطابقا للمعنى ولهذا قرأ أبو عمرو الثاني والثالث الله الله مراعاة للمطابقة

335 - قوله ألم تكن آياتي تتلى عليكم 105 وقبله قد كانت آياتي تتلى عليكم 66 ليس بتكرار لأن الأول في الدنيا عند نزول العذاب وهو الجدب عند بعضهم ويوم بدر عند بعضهم والثاني في القيامة وهم في الجحيم بدليل قوله ربنا أخرجنا منها 107 . انتهى انتهى . اهـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 147 . 150﴾

(14/530)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

سورة المؤمنون

تمهيد :

هى سورة مكية نزلت قبل الهجرة ، وعدد آياتها 118 (ثمانى عشرة ومائة آية) ، قيل إنها نزلت بعد سورة الأنبياء ، وقد ابتدأت بأوصاف المؤمنين الذين كتب الله تعالى لهم الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) ،

ثم بين سبحانه أن رعاية الأمانة والعهد من أوصاف أهل الإيمان ، وأشار إلى أن الذين وصفوا بهذه الأوصاف هم (الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون .

وبين سبحانه أصل خلق الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعله سبحانه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلق النطفة علقة ، ثم خلق من العلقة مضغة ، فخلق من المضغة عظاما ، فكسا العظام لحما ، ثم أنشأه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)

ولقد بين بعد ذلك خلق الكون ، فأنشأ فوق الأرض سبع طرائق ، (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا علىٰ ذهاب به لقادرون ، ثم بين سبحانه نعمه تعالى فيما أنشأ به الماء من جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه ومنها

تأكلون ، ثم ذكر ما أنعم الله به من شجرة الزيتون التى تنبت فى سيناء ، وبين " نعم الله تعالى فى الأنعام ، والعبرة فى أنه سبحانه وتعالى يسقينا ما فى بطونها ، وما فيها من منافع ، ونأكل من لحمها .

(15/530)

وذكر سبحانه وتعالى خبر قوم نوح وكفرهم وما آل إليه أمرهم بعد أن صنع الفلك ونجا هو وأهله ومن اتبعه ، ثم بين سبحانه أنه بعد أن أغرق قوم نوح أنشأ من بعدهم قرنا اخرين ، وأرسل فيهم رسولا وكذبوه ، وكان ما سوغوه لأنفسهم من كفر أنه بشر مثلهم ، وأنه ينذرهم بالبعث ، فقالوا : (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37) .

ورموا رسولهم بالكذب وقالوا : (إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين ، فاتجه رسولهم إلى ربه يستنصر به ، قال : (قال رب انصرني بما كذبون قال عما قليل

ليصبحن نادمين .

ثم بين بعد ذلك ما نزل بهم من عذاب ساحق (فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين .

بعد ذلك أشار الله تعالى إلى قصة موسى وهارون وإرسالهما (إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين ، استغربوا أن يؤمنوا لموسى وهارون ، وقومهما مستعبدون لهم ، فكذبوهما ، وكانوا من المهلكين ، (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50) .

وبعد ذلك وجه الله تعالى خطابه للرسل عامة فقال : (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52)

ولنبين بذلك وحدة الرسالة الإلهية ، ولكن الناس تقطعوا أمرهم وكل حزب بما لديهم فرحون ، واغتر الأكثرون بما أوتوا من مال وبنين ، (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (56) .

(16/530)

ويذكر سبحانه حال المؤمنين الذين اتبعوا الرسل : (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (62) .

ويبين سبحانه بعد ذلك ظلم الظالين ، وأنهم فى غمرة من هذا القرآن ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ، وأن الترف هو الذى أفسد نفوسهم (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (64) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (65) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (67) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (70) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (74) .

(17/530)

وإن الرحمة تطغيهم ، وكشف الضر يعميهم ، (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ، وإنهم يتحيرون إذا أنزل الله تعالى عليهم

عذابا .

ومن بعد ذلك يبين سبحانه فضل الإنشاء ، وقدرته فى الإحياء والإماتة ، واختلاف الليل والنهار : (أفلا تتقون) ، بل قالوا مثل ما قال الأولون : (قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83) .

يوجه سبحانه وتعالى أنظارهم إلى خلق السموات والأرض وما فيهما ، ومن رب السموات السبع والأرض ورب العرش ، ومن بيده ملكوت كل شىء وهو يجير

ولا يجار عليه وسيقولون فى كل هذه الأسئلة المنبهة بأنها لله سبحانه وتعالى : (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (92) .

وقد أمر الله تعالى بأن يدعوهم هو ومن تبعه (قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95) ، ويأمرهم سبحانه بالدعوة إلى الحق بالتى هى أحسن ولا يحاربهم فى حمقهم (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100) .

ثم يذكر بعد ذلك يوم القيامة ، وكيف يبتدئ بالنفخ فى الصور (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) ،

ويبين لهم كيف كذبوا بآيات الله ويجيبون مدعين ، (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) ،

ويتجهون إلى ربهم طالبين أن يخرجهم ، وأنهم لا يعودون ، فيجابون : (اخسئوا فيها ولا تكلمون .

(19/530)

ويبين سبحانه وتعالى فريق الصالحين ، وأنهم يعاملون بما قدموا ، (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111) .

ويبين سبحانه أن أمد الدنيا قصير فى علم الله مهما يطل فى علم الناس ، وإنهم لا يحسون معدود ما يلبثون فى الدنيا ، (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114) .

وقد بين الله تعالى حكمة البعث فقال : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) .

وختم سبحانه وتعالى السورة ببيان واسع سلطانه ، وكفر من يشرك به فقال عز من قائل : (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 5039 . 5043 ﴾

(20/530)

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة المؤمنين

ويقال سورة المؤمنون .

فالأول على اعتبار إضافة السورة إلى المؤمنين لافتتاحها بالإخبار عنهم بأنهم أفلحوا .

ووردت تسميتها بمثل هذا فيما رواه النسائي : عن عبد الله بن السائب قال : " حضرت رسول الله يوم الفتح فصلى في قبل الكعبة فخلع نعليه فوضعهما عن يساره فافتتح سورة المؤمنين فلما جاء ذكر موسى أو عيسى أخذته سعلة فركع " .

والثاني على حكاية لفظ ﴿ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الواقع أولها في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فجعل ذلك اللفظ تعريفا للسورة .

وقد وردت تسمية هذه السورة سورة المؤمنين في السنة .

روى أبو داود : عن عبد الله بن السائب قال : " صلى بنا رسول الله الصبح بمكة فاستفتح سورة المؤمنين حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون أو ذكر موسى وعيسى أخذت النبي سعلة فحذف فركع " .

ومما جرى على الألسنة أن يسموها سورة قد أفلح .

ووقع ذلك في كتاب الجامع من العتبية في سماع ابن القاسم .

قال ابن القاسم : أخرج لنا مالك مصحفا لجده فتحدثنا أنه كتبه على عهد عثمان بن عفان وغاشيته من كسوة الكعبة فوجدنا .

.

إلى أن قال .

.

وفي قد أفلح كلها الثلاث لله أي خلافا لقراءة : سيقولون الله .

ويسمونها أيضا سورة الفلاح .

وهي مكية بالاتفاق .

ولا اعتداد بتوقف من توقف في ذلك بأن الآية التي ذكرت فيها الزكاة وهي قوله : ﴿ وَالَّذِينَ

هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ تعين أنها مدنية ؛ لأن الزكاة فرضت في المدينة .

فالزكاة المذكورة فيها هي الصدقة لا زكاة النصب المعينة في

(21/530)

الأموال .

وإطلاق الزكاة على الصدقة مشهور في القرآن .

قال تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [فصلت : 7,6] وهي من سورة مكية بالاتفاق ، وقال : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ [مريم : 55,54] ولم تكن زكاة النصب مشروعة في زمن إسماعيل .

وهي السورة السادسة والسبعون في عداد نزول سور القرآن نزلت بعد سورة ﴿ الطور ﴾ وقبل سورة ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ .

وآياتها مائة وسبع عشرة في عد الجمهور .

وعدها أهل الكوفة مائة وثمان عشرة ، فالجمهور عدوا ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ آية ، وأهل الكوفة عدوا ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾

[المؤمنون : 11,10] آية وما بعدها آية أخرى ، كما يؤخذ من كلام أبي بكر ابن العربي في العارضة في الحديث الذي سنذكره عقب تفسير قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

أغراض السورة

هذه السورة تدور آيها حول محور تحقيق الوحدانية وإبطال الشرك ونقض قواعده ، والتنويه بالإيمان وشرائعه .

فكان افتتاحها بالبشارة للمؤمنين بالفلاح العظيم على ما تحلوا به من أصول الفضائل الروحية والعملية التي بها تزكية النفس واستقامة السلوك .

وأعقب ذلك بوصف خلق الإنسان أصله ونسله الدال على تفرد الله تعالى بالإلهية لتفرده بخلق الإنسان ونشأته ليبتدئ الناظر بالاعتبار في تكوين ذاته ثم بعدمه بعد الحياة .

ودلالة ذلك الخلق على إثبات البعث بعد الممات وأن الله لم يخلق الخلق سدى ولعبا .

وانتقل إلى الاعتبار بخلق السماوات ودلالته على حكمة الله تعالى .

وإلى الاعتبار والامتنان بمصنوعات الله تعالى التي أصلها الماء الذي به حياة ما في هذا العالم من الحيوان والنبات وما في ذلك من دقائق الصنع ، وما في الأنعام من المنافع ومنها الحمل .

ومن تسخير المنافع للناس وما أوتيه الإنسان من آلات الفكر والنظر .

وورد ذكر الحمل على الفلك فكان منه تخلص إلى بعثه نوح وحدث الطوفان .

وانتقل إلى التذكير ببعثة الرسل للهدى والإرشاد إلى التوحيد والعمل الصالح ، وما تلقاها به أقوامهم من الإعراض والطعن والتفرق ، وما كان من عقاب المكذبين ، وتلك أمثال لموعظة المعرضين عن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فأعقب ذلك بالثناء على الذين آمنوا واتقوا .

وبتنبيه المشركين على أن حالهم مماثل لأحوال الأمم الغابرة وكلمتهم واحدة فهم عرضة لأن يحل بهم ما حل بالأمم الماضية المكذبة .

وقد أراهم الله مخائل العذاب لعلهم يقلعون عن العناد فأصروا على إشراكهم بما ألقى الشيطان في عقولهم .

وذكروا بأنهم يقرون إذا سئلوا بأن الله مفرد بالربوبية ولا يجرون على مقتضى إقرارهم أنهم سيندمون على الكفر عندما يحضرهم الموت وفي يوم القيامة .

وبأنهم عرفوا الرسول وخبروا صدقه وأمانته ونصحه المجرد عن طلب المنفعة لنفسه الإ ثواب الله فلا عذر لهم بحال في إشراكهم وتكذيبهم الرسالة ، ولكنهم متبعون أهواءهم معرضون عن الحق .

وما تخلل ذلك من جوامع الكلم .

وختمت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يغض عن سوء معاملتهم ويدفعها بالتي هي أحسن ، ويسأل المغفرة للمؤمنين ، وذلك هو الفلاح الذي ابتدئت به السورة . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ 5.7 ﴾

(23/530)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بالسورة هذه سورة "المؤمنون" . . اسمها يدل عليها . ويحدد موضوعها . . فهي تبدأ بصفة المؤمنين , ثم يستطرد السياق فيها إلى دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق . ثم إلى حقيقة الإيمان كما عرضها رسل الله – صلوات الله عليهم – من لدن نوح – عليه السلام – إلى محمد خاتم الرسل والنبيين ; وشبهات المكذبين حول هذه الحقيقة واعتراضاتهم عليها , ووقوفهم في وجهها , حتى يستنصر الرسل بربهم , فيهلك المكذبين , وينجي المؤمنين . . ثم يستطرد إلى اختلاف الناس – بعد الرسل – في تلك الحقيقة الواحدة التي لا تتعدد . . ومن هنا يتحدث عن موقف المشركين من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويستنكر هذا الموقف الذي ليس له مبرر . . وتنتهي السورة بمشهد من مشاهد القيامة يلقون فيه عاقبة

التكذيب , ويؤنبون على ذلك الموقف المريب , يختم بتعقيب يقرر التوحيد المطلق والتوجه إلى الله بطلب الرحمة والغفران . .

فهي سورة "المؤمنون" أو هي سورة الإيمان , بكل قضاياه ودلائله وصفاته . وهو موضوع السورة ومحورها الأصيل .

ويمضي سياق السورة في أربعة أشواط:

يبدأ الشوط الأول بتقرير الفلاح للمؤمنين: (قد أفلح المؤمنون) . . ويبين صفات المؤمنين هؤلاء الذين كتب لهم الفلاح . . ويثني بدلائل الإيمان في الأنفس والآفاق , فيعرض أطوار الحياة الإنسانية منذ نشأتها الأولى إلى نهايتها في الحياة الدنيا متوسعا في عرض أطوار الجنين , مجملا في عرض المراحل الأخرى . . ثم يتابع خط الحياة البشرية إلى البعث يوم القيامة . . وبعد ذلك ينتقل من الحياة الإنسانية إلى الدلائل الكونية: في خلق السماء , وفي إنزال الماء , وفي إنبات الزرع والثمار . ثم إلى الأنعام المسخرة للإنسان ; والفلك التي يحمل عليها وعلى الحيوان .

(24/530)

فأما الشوط الثاني فينتقل من دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق إلى حقيقة الإيمان . حقيقته الواحدة التي توافق عليها الرسل دون استثناء : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . . قالها نوح – عليه السلام – وقالها كل من جاء بعده من الرسل , حتى انتهت إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) وكان اعتراض المكذبين دائما : (ما هذا إلا بشر مثلكم !) . . (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) . . وكان اعتراضهم كذلك: (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ?) . . وكانت العاقبة دائما أن يلجأ الرسل إلى ربهم يطلبون نصره , وأن يستجيب الله لرسله , فيهلك المكذبين . . وينتهي الشوط بنداء للرسل جميعا : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا , إني بما تعملون عليم , وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) .

والشوط الثالث يتحدث عن تفرق الناس – بعد الرسل – وتنازعهم حول تلك الحقيقة الواحدة . التي جاءوا بها : (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا , كل حزب بما لديهم فرحون) . وعن غفلتهم عن ابتلاء الله لهم بالنعمة , واغترارهم بما هم فيه من متاع . بينما المؤمنون مشفقون من خشية ربهم , يعبدونه ولا يشركون به , وهم مع ذلك دائمو الخوف والحذر (وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) . . وهنا يرسم مشهدا لأولئك الغافلين المغرورين يوم يأخذهم العذاب فإذا هم يجأرون ; فيأخذهم التوبيخ والتأنيب: (قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون , مستكبرين به سامرا تهجرون) . . ويستنكر

السياق موقفهم العجيب من رسولهم الأمين , وهم يعرفونه ولا ينكرونه ; وقد جاءهم بالحق لا يسألهم عليه أجرا . فماذا ينكرون منه ومنا لحق الذي جاءهم به ? وهم يسلمون بملكية الله لمن في السماوات والأرض , وربوبيته للسماوات والأرض , وسيطرته على كل شيء في السماوات والأرض . وبعد هذا التسليم هم ينكرون البعث , ويزعمون لله ولدا سبحانه ! ويشركون به آلهة أخرى (فتعالى عما يشركون) .

(25/530)

والشوط الأخير يدعهم وشركهم وزعمهم ; ويتوجه بالخطاب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يدفع السيئة بالتي هي أحسن , وأن يستعيذ بالله من الشياطين , فلا يغضب ولا يضيق صدره بما يقولون . . وإلى جوار هذا مشهد من مشاهد القيامة يصور ما ينتظرهم هناك من عذاب ومهانة وتأنيب . . وتختم السورة بتنزيه الله سبحانه: (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) . وبنفي الفلاح عن الكافرين في مقابل تقرير الفلاح في أول السورة للمؤمنين: (ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه , إنه لا يفلح الكافرون) . وبالتوجه إلى الله طلبا للرحمة والغفران: (وقل: رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) .

جو السورة كلها هو جو البيان والتقرير , وجو الجدل الهادىء , والمنطق الوجداني , واللمسات الموحية للفكر والضمير . والظل الذي يغلب عليها هو الظل الذي يلقيه موضوعها . . الإيمان . . ففي مطلعها مشهد الخشوع في الصلاة:(الذين هم في صلاتهم خاشعون) . وفي صفات المؤمنين في وسطها :(والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) . . وفي اللمسات الوجدانية:(وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) .

وكلها مظللة بذلك الظل الإيماني اللطيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 4 صـ 2452 2453.﴾

(26/530)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة المؤمنون

من السور المكية وآياتها ثماني عشرة ومائة آية

بين يدي السورة

* سورة " المؤمنون " من السور المكية التي تعالج أصول الدين من (التوحيد والرسالة ،

والبعث) سميت بهذا الإسم الجليل " المؤمنون " تخليدا لهم وإشادةً بمآثرهم وفضائلهم الكريمة ، التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنات النعيم .

* عرضت السورة الكريمة لدلائل القدرة والوحدانية ، مصورة في هذا الكون العجيب ، في (الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، ثم في خلق السموات البديعة ذات الطرائق ، وفي الآيات الكونية المنبثة فيما يشاهده الناس في العالم المنظور ، من أنواع النخيل والأعناب ، والزيتون والرمان ، والفواكه والثمار ، والسفن الكبيرة التي تمخر عباب البحار) وغير ذلك من الآيات الكونية الدالة على وجود الله جل وعلا .

* وقد عرضت السورة لقصص بعض الأنبياء ، تسلية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، عما يلقاه من أذى المشركين ، فذكرت قصة نوح ، ثم قصة هود ، ثم قصة موسى ، ثم قصة مريم البتول وولدها عيسى ، ثم عرضت لكفار مكة وعنادهم ومكابرتهم للحق بعدما سطع سطوع الشمس في رابعة النهار ، وأقامت الحجج والبراهين على البعث والنشور ، وهو المحور الذي تدور عليه السورة ، وأهم ما يجادل فيه المبطلون ، فقصمت ببيانها الساطع ظهر الباطل .

* وتحدثت السورة عن الأهوال والشدائد التي يلقاها الكفار وقت الإحتضار ، وهم في سكرات الموت ، وقد تمنوا العودة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من صالح العمل ، ولكن هيهات فقد انتهى الأجل ، وضاع الأمل .

* وختمت السورة بالحديث عن يوم القيامة حيث ينقسم الناس إلى فريقين : سعداء ، وأشقياء ، وينقطع الحسب والنسب ، فلا ينفع إلا الإيمان والعمل الصالح ، وسجلت المحاورة بين المَلِكِ الجبار ، وبين أهل النار وهم يصطرخون فيها فلا يغاثون ولا يجابون ! ! قال الله تعالى : [قد أفلح المؤمنون . .] إلى قوله [وعليها وعلى الفلك تحملون] . من آية (1) إلى نهاية آية (22) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 302 ﴾

(27/530)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة المؤمنون

الفلاح : الظفر بالمراد ، وأفلح : دخل فى الفلاح كأبشر دخل فى البشارة ، والمؤمن : هو المصدّق بما جاء عن ربه على لسان نبيه من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ، والخاشع : هو الخاضع المتذلل مع خوف وسكون للجوارح ، واللغو : هجر القول وقبيحه ، والزكاة : تزكية النفس وطهارتها بفعل العبادة المالية . والفرج : سوءة الرجل والمرأة ، وحفظه : التعفف عن الحرام ، وابتغى : طلب ، وراء ذلك : أي غير ذلك ، والعادون : أي المتناهون

فى العدوان ومجاوزة الحدود الشرعية ، والأمانات :

واحدها أمانة ، وهى ما ائتمن المرء عليه من قبل اللّه كالتكاليف الشرعية أو من قبل الناس كالأموال المودعة لديه والنذور والعقود ونحوها ، والعهد : ما عقده الإنسان على نفسه مما يقربه إلى ربه ، وما أمر به اللّه كما قال : " الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنا " والرعي : الحفظ .

والراعي : القائم على الشيء لحفظه وإصلاحه ، يحافظون : أي يواظبون عليها ،

والفردوس : أعلى الجنة .

السلالة : ما سلّ من الشيء واستخرج منه ، وتارة تكون مقصودة كخلاصات الأشياء كالزّبد من اللبن ، وتارة تكون غير مقصودة كقلامة الظفر وكناسة البيت

وقرار : أي مستقر ، مكين : أي متمكن ، والعلقة : الدم الجامد ، والمضغة : قطعة اللحم قدر ما يمضغ ، تبارك اللّه : أي تعالى وتقدس .

(28/530)

الطرائق : السموات واحدها طريقة أي مطروق بعضها فوق بعض من قولهم طارق بين ثوبين : إذا لبس ثوبا فوق ثوب ، قال الخليل والزجاج : وهذا كقوله " أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً " وقوله : " اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ

بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً " والخلق : أي المخلوقات التي منها السموات السبع ، غافلين : أي مهملين أمرها كما قال : "يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " .

السماء : هنا السحاب ، بقدر : أي بتقدير خاص وهو مقدار كفايتهم ، فأسكناه فى الأرض : أي جعلناه ثابتا قارا فيها ، والذهاب : الإزالة إما بإخراجه من المائية أو بتغويره فى الأرض بحيث لا يمكن استخراجه ، والشجرة : هى الزيتون ، وطور سيناء : هو جبل الطور الذي ناجى فيه موسى ربه ، ويسمى طور سينين أيضا ، والصبغ : ما يصبغ فيه الخبز أي يغمس فيه للائتدام ، قال فى المغرب : يقال صبغ الثوب بصبغ حسن ، وصباغ حسن ، ومنه الصّبغ والصباغ من الإدام ، لأن الخبز يغمس فيه ويلوّن به كالخل والزيت .

الملأ : أشراف القوم ، يتفضل : أي يدعى الفضل والسيادة ، جنة : أي جنون ، فتربصوا : أي انتظروا ، بأعيننا : أي بحفظنا ورعايتنا ، وفار : نبع ، والتنور : وجه الأرض ، استويت : أي علوت ، لآيات : أي عبرا ، لمبتلين : أي لمختبرين ممتحنين لهم : أي لمعاملتهم معاملة من يختبر .

القرن : الأمة ، والمراد بهم عاد قوم هود لقوله تعالى فى سورة الأعراف :

" وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ " أترفناهم : أي وسّعنا عليهم وجعلناهم فى ترف ونعيم ، لخاسرون : أي لمغبونون فى آرائكم ، إذ أنكم أذللتم أنفسكم لعبادة من هو دونكم ، هيهات : أي بعد ، ما توعدون : هو البعث والحساب ، بمؤمنين :

أي بمصدقين ، عما قليل : أي بعد زمان قليل ، ليصبحنّ : أي ليصيرنّ ، والصيحة :

العذاب الشديد كما قال :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خرّوا لشدتها على الأذقان

والغثاء : ما يحمله السيل من الورق والعيدان البالية التي لا ينتفع بها ، بعدا :

أي هلاكا

تترى ، من المواترة : وهى التتابع بين الأشياء مع فترة ومهلة بينها قاله الأصمعى .

أحاديث : واحدها أحدوثة ، وهى ما يتحدث به تعجبا منه وتلهيا به ، وقد جمعت العرب ألفاظا على أفاعيل كأباطيل وأقاطيع ، وقال الزمخشري : الأحاديث اسم جمع للحديث ومنه أحاديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولكن الجمهور على أنه جمع كما علمت

الآيات : هى الآيات التسع التي سبقت فى سورة الأعراف ، والسلطان : الحجة عالين : أي متكبرين ، عابدون : أي خدم منقادون ، قال أبو عبيدة : العرب تسمى كل من دان للملك عابدا ، وقال المبرد : العابد : المطيع الخاضع ، الكتاب : هو التوراة

الآية : الحجة والبرهان ، وآويناهما : أي جعلنا مأواهما ومنزلهما الربوة : وهى ما ارتفع من الأرض دون الجبل ، ذات قرار : أي ذات استقرار للناس لما فيها من الزرع والثمار ، ومعين : أي ماء جار

الطيبات : ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه ، أمتكم : أي ملتكم وشريعتكم ، فتقطعوا : أي قطّعوا ومزّقوا ، أمرهم : أي أمر دينهم ، زبرا : أي قطعا واحدها زبور ، فذرهم : أي فدعهم واتركهم ، وأصل الغمرة الماء الذي يغمر القامة ويسترها والمراد بها الجهالة ، حتى حين : أي إلى أن يموتوا فيستحقوا العذاب ، نمدهم :

أي نعطيه مددا لهم .

(30/530)

الخشية : الخوف من العقاب ، والإشفاق نهاية الخوف والمراد لازمه ، وهو دوام الطاعة ، والآيات : هى الآيات الكونية فى الأنفس والآفاق والآيات المنزلة ، وجلة :

أي خائفة ، سابقون : أي ظافرون بنيلها .

الوسع : ما يتسع على الإنسان فعله ولا يضيق عليه ، والكتاب : هو صحائف الأعمال ، بالحق : أي بالصدق .

الغمرة : الغفلة والجهالة ، من دون ذلك : أي غير ذلك ، والمترف : المتوسع فى النعمة ، وجأر الرجل : صلح ورفع صوته ، لا تنصرون : أي لا يجيركم أحد ولا ينصركم ، تنكصون : أي تعرضون عن سماعها ، وأصل النكوص : الرجوع على الأعقاب (العقب مؤخر الرّجل) ورجوع الشخص على عقبه : رجوعه فى طريقه الأولى كما يقال رجع عوده على بدئه ، سامرا : أي تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه ، والهجر (بالضم) الهذيان ، والجنّة : الجنون ، والذكر : القرآن الذي هو فخرهم ، عن ذكرهم : أي فخرهم ، خرجا : أي جعلا وأجرا ، صراط مستقيم : أي طريق لا عوج فيه ، لناكبون : أي عادلون عن طريق الرشاد ، يقال نكب عن الطريق : إذا زاغ عنه ، لج فى الأمر : تمادى فيه ، يعمهون : أي يتحيرون ويترددون فى الضلال ، واستكانوا : خضعوا وذلوا ، وما يتضرعون : أي يجددون التضرع والخضوع ، مبلسون :

أي متحيرون آيسون من كل خير .

ذرأكم فى الأرض : أي خلقكم وبثكم فيها ، اختلاف الليل والنهار : تعاقبهما من قولهم : فلان يختلف إلى فلان : أي يتردد عليه بالمجيء والذهاب .

الأساطير : الأكاذيب واحدها أسطورة كأحدوثة وأعجوبة ، قاله المبرد وجماعة .

تتقون : أي تحذرون عقابه ، الملكوت : الملك والتدبير ، يجير : أي يغيث ، من قولهم أجرت فلانا من فلان إذا أنقذته منه ، ولا يجار عليه : أي لا يعين أحد منه أحدا ، تسحرون : أي تخدعون وتصرفون عن الرشد .

(31/530)

الهمزات : الوساوس المغرية بمخالفة ما أمرنا به ، واحدها همزة ، وأصل الهمز النخس والدفع بيد أو غيرها ، ومنه مهماز الرائض (حديدة توضع فى مؤخر الرحل ينخس بها الدابة لتسرع) كلا : كلمة تستعمل للردع والزجر عن حصول ما يطلب ، من ورائهم : أي من أمامهم ، برزخ : أي حاجز بينهم وبين الرجعة .

الصور واحدها صورة نحو بسر وبسرة : أي نفخت فى الأجساد أرواحها ، ولا يتساءلون : أي لا يسأل بعضهم بعضا ، موازينه : أي موزوناته وهى حسناته ، المفلحون : أي الفائزون ، خسروا أنفسهم : أي غبنوها ، تلفح : أي تحرق ، كالحون : أي عابسون متقلصو الشفاه ، الشقوة والشقاوة : سوء العاقبة ، وهى ضد السعادة ، اخسئوا : أي اسكتوا سكوت ذلة وهوان ، سخريا : أي هزوا ، ذكرى : أي خوف عقابى .

اللبث : الإقامة ، العادّين : الحفظة العادين لأعمال العباد وأعمارهم ، والعبث : ما خلا من الفائدة الحق : أي الثابت الذي لا يبيد ولا يزول ملكه ، والعرش : هو مركز تدبير العالم ، ووصفه بالكريم لشرفه ، وكل ما شرف فى جنسه يوصف بالكرم كما فى قوله : " وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ " وقوله : " وَقُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً " يدعو : يعبد ، حسابه : أي جزاؤه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 18 صـ 4 . 61 ﴾ . باختصار .

(32/530)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة المؤمنون

وهي مكية

1 - من ذلك قول الله جل وعز قد أفلح المؤمنون آية 1 أي قد نالوا الفلاح وهو دوام البقاء في الجنة 2 - ثم قال جل وعز الذين هم في صلاتهم خاشعون آية 2 قال إبراهيم وقتادة الخشوع في القلب قال إبراهيم وهو السكون وقال قتادة وهو الخوف وغض البصر في الصلاة قال مجاهد هو السكون والخشوع عند بعض أهل اللغة في القلب والبصر كأنه تفريغ القلب

للصلاة والتواضع باللسان والفعل

قال أبو جعفر وقول مجاهد وإبراهيم في هذا حسن وإذا سكن الإنسان تذلل ولم يطمح ببصره ولم يحرك يديه فأما وضع البصر موضع السجود فتحديد شديد وقد روى عن علي عليه السلام الخشوع ان لا يلتفت في الصلاة وحقيقته المنكسر قلبه إجلالا لله ورهبة منه ليؤدي ما يجب عليه 3 – ثم قال جل وعز والذين هم عن اللغو معرضون آية 3

قال الحسن عن المعاصي قال أبو جعفر واللغو عند أهل اللغة ما يجب أن يلغى

أي يطرح ويترك من اللعب والهزل والمعاصي أي شغلهم الجد عن هذا 4 – ثم قال جل وعز والذين هم للزكاة فاعلون آية 4 أي مؤدون ومدح الله جل وعز من أخرج من ماله الزكاة وإن لم يخرج منها غيرها 5 – ثم قال جل وعز والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين آية 6 5

قال الفراء أي إلا من اللاتي أحل الله جل وعز لهم الأربع لا تجاوزه أو ما ملكت أيمانهم في موضع خفض معطوفه على

أزواجهم وما مصدر أي ينكحون ما شاءوا من الأماء حفظوا فروجهم إلا من هذين 6 – ثم قال جل وعز فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون آية 7 أي فمن طلب سوى أربع نسوة وما ملكت يمينه فأولئك هم العادون أي الجائرون إلى ما لا يحل الذين قد تعدوا 7 – ثم قال جل وعز والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون آية 8 أي حافظون

يقال رعيت الشئ اي قمت بصلاحه ومنه فلان يرعى ما بينه وبين فلان 8 - ثم قال تعالى والذين هم على صلواتهم يحافظون آية 9

قال مسروق اي يصلونها لوقتها وليس من جهة الترك لأن الترك كفر 9 - ثم قال جل وعز أولئك هم الوارثون آية 10 يقال إنما الوارث من ورث ما كان لغيره فكيف يقال لمن دخل الجنة وارث ففي هذا أجوبة يستغنى عن ذكرها بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم روى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى أولئك هم الوارثون قال ليس من أحد إلا له منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإن هو أدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى أولئك هم الوارثون

10 - ثم قال جل وعز الذين يرثون الفردوس هو فيها خالدون آية 11 في حديث سعيد عن قتادة عن أنس مرفوعا والفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها ثم قال هم فيها خالدون فأنث على معنى الجنة 11 - ثم قال جل وعز ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين آية 12 قال قتادة استل آدم صلى الله عليه وسلم من طين

وقال غيره إنما قيل لآدم سلالة لأنه سل من كل تربة ويقال للولد سلالة أبيه وهو فعالة من

انسل وفعالة تاتي للقليل من الشئ

نحو القلامة والنخالة وقد قيل إن السلالة إنما هي نطفة آدم صلى الله عليه وسلم كذا قال مجاهد وهو أصح ما قيل فيه ولقد خلقنا ابن آدم من سلالة آدم وآدم هو الطين لأنه خلق منه 12 - ويدل على ذلك قوله عز وجل ثم جعلناه نطفة في قرار مكين آية 13 ولم يصر في قرار مكين إلا بعد خلقه في صلب الفحل وقوله تعالى ثم جعلنا نطفة في قرار مكين يراد ولده م خلقنا النطفة علقة وهي واحدة العلق وهو الدم قبل أن ييبس فخلقنا العلقة مضغة المضغة القطعة الصغيرة من اللحم مقدار ما يمضغ كما يقال غرفة لمقدار ما يغرف وحسوة لمقدار ما يحسى

13 - ثم قال جل وعز فخلقنا المضغة عظاما آية 14 ويقرأ عظما وهو واحد يدل على جمع لأنه قد علم أن للإنسان عظاما

(34/530)

فكسونا العظام لحما ويجوز العظم على ذلك 14 - وقوله جل وعز ثم أنشأناه خلقا آخر آية 14 روى عطاء عن ابن عباس والربيع بن أنس عن أبي العالية وسعيد عن قتادة عن الحسن وعلي بن الحكم عن الضحاك في قوله ثم أنشأناه خلقا آخر قالوا نفخ فيه الروح وروى

هشيم عن منصور عن الحسن ثم أنشاناه

خلقا آخر قال ذكرا وأنثى وروي عن الضحاك قال الأسنان وخروج الشعر قال أبو جعفر

واولى ما قيل فيه أنه نفخ الروح فيه لأنه يتحول عن تلك المعاني إلى أن يصير إنسانا والهاء في

أنشأناه تعود على الإنسان أو على ذكر العظام والمضغة والنطفة أي أنشأنا ذلك وقوله ثم

إنكم بعد ذلك لميتون ونقول في هذا المعنى لمائتون 15 - وقوله جل وعز ولقد خلقنا

فوقكم سبع طرائق آية 17 قال أبو عبيدة أي سبع سموات

وحكى غيره أنه يقال طارقت الشئ أي جعلت بعضه فوق بعض فقيل للسموات طرائق لأن

بعضها فوق بعض 16 - وقوله جل وعز وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض

آية 18

معنى فأسكناه في الأرض جعلناه فيها ثابتا كما روي أربعة أنهار من الجنة في الدنيا الفرات

ودجلة وسيحان وجيحان قرئ على أبي يعقوب إسحق بن إبراهيم بن يونس عن جامع بن

سوادة قال حدثنا سعيد بن سابق قال حدثنا مسلمة بن علي عن مقاتل بن حيان عن

عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم أنزل الله جل وعز من الجنة خمسة

أنهار سيحون وهو نهر الهند وجيحون وهو نهر بلخ ودجلة والفرات وهما

نهرا الفرات والنيل وهو نهر مصر أنزلهما الله جل وعز من غير واحدة من عيون الجنة في أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل صلى الله عليه وسلم فاستودعها الجبال واجراها في الأرض وجعل فيها منافع للناس من أصناف معايشهم وذلك قوله جل وعز وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله جل وعز جبريل عليه السلام فرفع من الأرض القرآن والعلم وهذه الأنهار الخمسة فيرفع ذلك إلى السماء وذلك قوله تعالى وإنا على ذهاب به لقادرون فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض إلى السماء فقد أهلها خير الدين والدنيا والآخرة 17 - وقوله جل وعز وشجرة تخرج من طور سيناء آية 20 المعنى وأنشأنا شجرة قال أبو عبيدة الطور الجبل وسيناء اسم

وقال الضحاك سيناء الحسن

قال أبو جعفر والمعروف أن سينا اسم الموضع 18 - ثم قال جل وعز تنبت بالدهن آية 20 ويقرأ تنبت بالدهن وفيه ثلاثة أقوال أحدها أن الباء زائدة وهذا مذهب أبي عبيدة كما قال الشاعر * هن الحرائر لا ربات أحمرة سوء المحاجر لا يقرأن بالسور *

وقيل الباء متعلقة بالمصدر الذي دل عليه الفعل فقيل نبت وأنبت بمعنى كما قال الشاعر رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطينا لهم حتى إذا أنبت البقل * وهذا القول مذهب

الفراء وأبي إسحاق ومعنى تنبت بالدهن وتنبت بالدهن عندهما واحد والمعنى تنبت ومعها الدهن كما تقول جاء فلان بالسيف أي ومعه السيف 19 - ثم قال جل وعز وصبغ للآكلين آية 20 وصبغ وصباغ بمعنى واحد قال قتادة يعني الزيتون

(36/530)

---

20 - وقوله جل وعز إن هو إلا رجل به جنة آية 25 جنة أي جنون فتربصوا به حتى حين قال الفراء ليس يراد بالحين وقت بعينه انما هو كما تقول دعه إلى يوم ما 21 - وقوله جل وعز وقل رب أنزلني منزلا مباركا آية 29 منزل وإنزال واحد والمنزل موضع النزول والمنزل بمعنى النزول كما تقول جلس مجلسا والمجلس الموضع الذي يجلس فيه 22 - وقوله جل وعز وأترفناهم في الحياة الدنيا آية 33

معناه وسعنا عليهم حتى صاروا يؤتون بالترفه وهي مثل التحفة 23 - وقوله جل وعز أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون آية 35 قال سيبويه وهما جاء مبدلا من هذا الباب قوله تعالى أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون يذهب إلى أن أن الثانية مبدلة من الأولى وأن المعنى عنده أيعدكم أنكم مخرجون إذا متم قال سيبويه وكذلك أريد بها وجيء ب أن الأولى لتدل على وقت الإخراج والفراء والجرمي وابو

العباس يذهبون إلى

أن الثانية مكررة للتوكيد لما طال الكلام كان تكريرها حسنا

وسلم والأخفش يذهب إلى أن الثانية في موضع رفع بفعل مضمر دل عليه إذا والمعنى

أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما يحدث إخراجكم كما تقول اليوم القتال والمعنى

عنده اليوم يحدث القتال ويقع القتال قال الفراء وفي قراءة ابن مسعود أيعدكم إذا متم وكنتم

ترابا وعظاما عنه إنكم مخرجون قال أبو إسحاق ويجوز أيعدكم إنكم إذا متم وكنتم ترابا

وعظاما إنكم مخرجون لأن معنى أيعدكم أيقول لكم 24 - وقوله جل وعز هيهات هيهات

لما توعدون آية 36 قال قتادة أي للبعث قال أبو جعفر العرب تقول هيهات هيهات لما قلت

وهيهات ما قلت

فمن قال هيهات لما قلت فتقديره البعد لما قلت ومن قال هيهات ما قلت فتقديره البعيد ما

قلت وفي هيهات لغات ليس هذا موضع ذكرها 25 - ثم قال جل وعز إن هي إلا حياتنا

الدنيا نموت ونحيا آية 37 يقال كيف قالوا نموت ونحيا وهم لا يقرون بالبعث

(37/530)

ففي هذا أجوبة أ منها في الآية تقديم وتاخير والمعنى ما هي إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت كما قال تعالى واسجدي واركعي

ب ومنها أن المعنى نموت ويحيا أولادنا ج وجواب ثالث وهو ان يكون المعنى نكون مواتا أي نطفا ثم نحيا في الدنيا 26 – وقوله جل وعز قال عما قليل ليصبحن نادمين آية 40 والمعنى عن قليل وما زائدة للتوكيد 27 – وقوله جل وعز فجعلناهم غثاء آية 41 والمعنى فأهلكناهم وفرقناهم والغثاء ما علا الماء من ورق الشجر والقمش لأنه يتفرق ولا ينتفع به 28 – وقوله جل وعز ثم أرسلنا رسلنا تترى آية 44 قال أبو عبيدة أي بعضها في إثر بعض قال أبو جعفر وهذا قول أكثر أهل اللغة إلا الأصمعي فإنه قال تترى من واترت عليه الكتب أي بينها مهلة

وتترى الأصل فيه من الوتر وهو الفرد فمن قال تترى بالتنوين فالأصل عنده وترا ثم أبدل من الواو تاء كما يقال تالله بمعنى والله

ومن قرأ تترى بلا تنوين فالمعنى عنده كهذا إلا أنه جعلها ألف تأنيث ويقال تتر كما يقال وتر والمعنى أرسلناهم فردا فردا إلا أنه قد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ثم أرسلنا رسلنا تترى قال يقول يتبع بعضها بعضا 29 – وقوله جل وعز وجعلناهم أحاديث آية 44 قال أبو عبيدة أي مثلنا بهم ولا يقال في الخير جعلته حديثا 30 – وقوله جل وعز وجعلنا ابن مريم وأمه آية آية 50 قال قتادة ولدته من غير أب قال أبو جعفر ولم يقل آيتين لأن الآية

فيهما واحدة ويجوز أن يكون مثل قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه 31 - وقوله تعالى وأويناهما إلى ربوة آية 50

روى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله جل وعز وآويناهما إلى ربوة قال نبئت أنها دمشق قال أبو جعفر وكذا المعروف من قراءة ابن عباس إلى ربوة ويقال ربوة بفتح الراء ويقال رباوة بفتح الراء

(38/530)

والألف وقرأ بها الأشهب العقيلي ويقال رباوة بالألف وضم الراء ويقال رباوة بكسر الراء ومعناه المرتفع من كل شئ ومعنى الربوة ما ارتفع من الأرض يقال ربا إذا ارتفع وزاد ومنه الربا في البيع وقد اختلف في معنى هذا الحرف فقال ابن عباس ما ذكرناه وكذلك روى يحيي بن سعيد عن سعيد بن بن المسيب

وآويناهما إلى ربوة قال دمشق وروى معمر عن قتادة قال بيت المقدس وقال كعب الأحبار بيت المقدس أقرب إلى السماء بثمانية عشر ميلا وقال وهب بن منبه مصر وروى سالم الأفطس عن سعيد بن جبير وآويناهما إلى ربوة قال النشز من الأرض وقال الضحاك ما ارتفع من الأرض وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الربوة ههنا الرملة فاما ابن زيد

فقال إلى ربوة من ربى مصر قال وليس الربى إلا بمصر والماء حين يرسل تكون الربى عليها القرى ولولا

الربى غرقت تلك القرى قال أبو جعفر والصواب أن يقال إنها مكان مرتفع ذو

استواء وماء ظاهر 32 - ثم قال تعالى ذات قرار ومعين آية 50 قال قتادة ذات ماء وثمار

وروى سالم عن سعيد بن جبير ذات قرار مستوية معين ماء ظاهر وروى علي بن الحكم

عن الضحاك ومعين قال الماء الجاري

قال أبو جعفر معنى ذات قرار في اللغة يستقر فيها والذي قال سعيد بن جبير حسن ومعين

فيه ثلاث تقديرات إحداهن أن يكون مفعولا قال أبو إسحاق هو الماء الجاري في العيون

فالميم على هذا زائدة كزيادتها في مبيع وكذلك الميم زائدة في قول من قال إنه الماء الذي يرى

بالعين وقيل إنه فعيل بمعنى مفعول قال علي بن سليمان يقال معن الماء إذا جرى وكثر فهو

معين وممعون قال وأنشدني محمد بن يزيد بيتا لم يحفظ منه إلا قوله وماء ممعون قال ويقول معين

ومعن كما يقال رغيف ورغف

والقول الثالث حدثناه محمد بن الوليد عن أحمد بن

(39/530)

يحيي عن ابن الأعرابي قال معن الماء يمعن معونا جرى وسهل وأمعن أيضا وأمعنته أنا ومياه معنان 33 – وقوله جل وعز يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا آية 51 قال أبو إسحق هذا مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ودل الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا أي كلوا من الحلال 34 – وقوله جل وعز وأن هذه أمتكم أمة واحدة آية 52 المعنى ولأن أي ولأن دينكم دين واحد وهو الإسلام فاتقون

35 – ثم خبر أن قوما فرقوا أديانهم فقال جل وعز فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا آية 53 قال قتادة أي كتبا

قال الفراء أي صاروا يهود ونصارى وقرأ الأعمش فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا وهو جمع زبرة أي قطعا وفرقا 36 – ثم قال جل وعز كل حزب بما لديهم فرحون آية 53 أي معجبون

37 – ثم قال تعالى فذرهم في غمرتهم حتى حين آية 54

قال قتادة في غمرتهم أي في جهالتهم حتى حين قال مجاهد حتى الموت 38 – ثم قال تعالى أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع

لهم في الخيرات آية 56 55 الخبر محذوف والمعنى نسارع لهم به وهذا قول أبي إسحق ولهشام الضرير فيه قول وهو أن ما هي الخيرات فصار المعنى نسارع لهم فيه بغير حذف أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين مجازاة لهم وخير وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة يسارع لهم في

الخيرات بالياء وكسر الراء 3 وهذا يجوز أن يكون على غير حذف أي يسارع لهم الأمداد ويجوز أن يكون فيه حذف ويكون المعنى يسارع الله لهم به في الخيرات 39 - وقوله جل وعز إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون إلى قوله جل وعز والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة آية 60 57 قال عبد الرحمن بن سعيد الهمذاني عن عائشة رضي الله عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أهو الرجل يزني أو يسرق أو يشرب الخمر فقال لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يتقبل منه

(40/530)

وروى ابن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس في قوله جل وعز والذين يؤتون ما آتوا قال يعطون ما أعطوا قال أبو جعفر هكذا روي هذا وهكذا معنى يؤتون يعطون ولكن المعروف من قراءة ابن عباس والذين يأتون ما أتوا وهي القراءة المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن عائشة ومعناها يعملون ما عملوا كما روي في الحديث 40 - وقوله جل وعز أنهم إلى ربهم راجعون آية 60

قال الفراء المعنى من أنهم وقال أبو حاتم المعنى لأنهم إلى ربهم راجعون 41 - ثم قال تعالى

أولئك يسارعون في الخيرات آية 61 قال أبو جعفر سارع وأسرع بمعنى واحد إلا 42 - ثم قال جل وعز وهم لها سابقون آية 61 فيه ثلاثة أقوال المعنى وهم إليها سابقون كما قال بأن ربك أوحى لها أي أوحى إليها وأنشد سيبويه تجانف عن جو اليمامة ناقتي * وما قصدت من أهلها لسوائكا * وقيل معنى وهم لها من أجلها أي من أجل

اكتسابها كما تقول أنا أكرم فلانا لك أي من أجلك وقيل لما قال وهم لها سابقون دل على السبق كأنه

قال سبقهم لها 43 - وقوله جل وعز بل قلوبهم في غمرة من هذا آية 63 أي في غفلة وغطاء متحيرة ويقال غمره الماء إذا غطاه ونهر غمر يغطي من دخله ورجل غمر تغمره آراء الناس وقيل غمرة لأنها تغطي الوجه ومنه دخل في غمار الناس في قول من قاله معناه فيما يغطيه من الجمع وقوله من هذا فيه قولان

أحدهما أن مجاهد قال بل قلوبهم في عماية من القرآن فعلى قول مجاهد هذا إشارة إلى القرآن وقال قتادة وصف أهل البر فقال والذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين والذين ثم وصف أهل الكفر فقال بل قلوبهم في غمرة من هذا فالمعنى على قول قتادة من هذا البر 44 - ثم قال تعالى ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون آية 63 فيه قولان أحدهما أن الحسن قال ولهم أعمال ردية لم يعملوها وسيعملونها فيه

قال مجاهد أي لهم خطايا لا بد أن يعملوها ب وقال قتادة رجع إلى أهل البر فقال ولهم أعمال من دون ذلك قال أي سوى ما عدد 45 – وقوله جل وعز حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجارون آية 64 قال قتادة اي يجزعون وحكى أهل اللغة جأر يجأر إذا رفع صوته قال مجاهد والضحاك العذاب الذي أخذوا به السيف قال مجاهد يوم بدر 46 – وقوله جل وعز قد كانت آياتي تتلى عليكم آية 66 قال الضحاك قبل أن تعذبوا بالقتل 47 – ثم قال تعالى فكنتم على أعقابكم تنكصون آية 66 قال مجاهد تستأخرون 48 – ثم قال تعالى مستكبرين به آية 67 قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والحسن وأبو مالك مستكبرين بالحرم قال أبو مالك لأمنهم والناس يتخطفون حولهم قال أبو جعفر وقيل مستكبرين بالقرآن أي يحضرهم عند قراءته استكبار

والقول الأول أولى والمعنى إنهم يفتخرون بالحرم فيقولون نحن أهل حرم الله عز وجل

49 – ثم قال تعالى سامرا تهجرون آية 67 قال أبو العباس يقال للجماعة يجتمعون للحديث سامر وسمار فسامر كما تقول باقر لجماعة البقر وجامل لجماعة الجمال أي يجتمعون للسمر وأكثر ما يستعمل سامر للذين يسمرون ليلا قال أبو العباس وأصل هذا من قولهم لا أكلمه السمر والقمر أي الليل والنهار وقال الثوري يقال لظل القمر السمر قال أبو إسحق ومنه السمرة في اللون ويقال له الفخت ومنه فاخته

قال أبو جعفر وفي قوله تهجرون قولان قال الحسن تهجرون نبي وكتابي وقال غيره تهجرون تهذون يقال هجر المريض يهجر هجر إذا هذى وقرأ ابن عباس تهجرون بضم التاء وكسر الجيم وقال يسمورن صلى برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون الهجر

وقال عكرمة تهجرون تشركون وقال الحسن تسبون النبي صلى الله عليه وسلم وقال مجاهد تقولون القول السيئ في القرآن

(42/530)

قال أبو جعفر هذه الأقوال متقاربة يقال أهجر يهجر إذا نطق بالفحش وقال الخني وقال والإسم منه الهجر ومعناه أنه تجاوز ومنه قيل الهاجرة إنما هو تجاوز الشمس من المشرق إلى المغرب وقرأ أبو رجاء سمارا وهو جمع سامر كما قال الشاعر فقالت سباك الله إنك فاضحي ألست ترى السمار والناس أحوالي 50 - ثم قال جل وعز أفلم يدبروا القول آية 68 أي القرآن

51 - وقوله جل وعز ولو اتبع الحق أهواءهم آية 71 روى سفيان عن إسماعيل عن أبي صالح ولو اتبع الحق قال الله عز وجل وقيل المعنى بل جاءهم بالقرآن ولو اتبع القرآن أهواءهم أي لو نزل بما يحبون لفسدت السموات والأرض ومن فيهن 52 - ثم قال الله تعالى

بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون آية 71 روى معمر عن قتادة بذكرهم قال بالقرآن

قال أبو جعفر والمعنى على قوله بل آتيناهم بما لهم فيه ذكر ما يوجب الجنة لو اتبعوه

وقيل الذكر ههنا الشرف 53 - وقوله جل وعز أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير آية 72 قال الحسن خرجا أي أجزأ قال أبو حاتم الخراج الجعل والخراج العطاء إن شاء الله أو نحو ذلك 54 - وقوله جل وعز وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون آية 74 روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال يقول عن الصراط لناكبون عن الحق لعادولون أنه قال أبو جعفر والصراط في اللغة الطريق المستقيم

ويقال نكب عن الحق إذا عدل عنه والمعنى إنهم عن القصد لعادلون 55 - وقوله جل وعز ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون آية 76 ولقد أخذناهم بالعذاب أي بالخوف ونقص الأموال والأنفس فما استكانوا لربهم أي فما خضعوا 56 - وقوله جل وعز حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد

آية 77 قيل يعني الجوع وقيل السيف إذا هم فيه مبلسون أي متحيرون يائسون من الخير 57 - قوله تعالى وله اختلاف الليل والنهار آية 80

قال الفراء معنى وله اختلاف الليل والنهار هو خالقها كما تقول لك الأجر والصلة 58 –

وقوله جل وعز قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله آية 84 هذه الآية لا

اختلاف فيها واللتان بعدها يقرؤهما أبو عمرو سيقولون الله وأكثر القراء يقرءون سيقولون

لله فمن قرأ سيقولون لله جاء بالجواب على اللفظ ومن قرأ سيقولون لله جاء به على المعنى

كما يقال لمن هذه الدار فيقول لزيد على اللفظ وصاحبها زيد على المعنى

ومن صاحب هذه الدار فيقول زيد على اللفظ ولزيد فيجزئك عن ذلك ويجوز في الأولى

سيقلون وهو الله في العربية 59 – وقوله جل وعز وهو يجير ولا يجار عليه آية 88 أي وهو

يجير من عذابه ومن خلقه ولا يجير عليه أحد

من خلقه 60 – وقوله جل وعز قل فأنى تسحرون آية 89 معنى فأنى تسحرون فأنى

تصرفون عن الحق 61 – وقوله جل وعز ما أتخذ الله من ولد وما كان معه من أله إذا

لذهب كل إله بما خلق آية 91 في الكلام حذف أي لو كانت معه آلهة لانفرد كل إله بخلقه

ولعلا بعضهم على بعض اي لغالب بعضهم بعضا 62 – وقوله جل وعز قل ربي إما تريني ما

يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين آية 94 93 النداء معترض والمعنى إما تريني ما

يوعدون فلا تجعلني في القوم الظالمين 63 – وقوله جل وعز ادفع بالتي هي أحسن السيئة آية

96 قال مجاهد وعطاء وقتادة يعني السلام إذا لقيته فسلم عليه

64 - وقوله جل وعز وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين آية 97 أصل الهمز النخس والدفع وقيل فلان همزة كأنه ينخس من عابه فهمز الشيطان مسه ووسوسته

65 - وقوله جل وعز حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون آية 99 يعني المذكورين الذين لا يؤمنون بالبعث قال رب ارجعون ولم يقل ارجعن فخاطب على ما يخبر الله جل وعز به عن نفسه كما قال إنا نحن نحي الموتى وفيه معنى التوكيد والتكرير 66 - وقوله جل وعز كلا إنها كلمة هو قائلها آية 100

(44/530)

كلا ردع وزجر وتنبيه 67 - ثم قال جل وعز ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون آية 100 قال أبو عبيدة أي من أمامهم قال مجاهد البرزخ حجاب بين الموت والرجوع إلى الدنيا قال الضحاك هو ما بين الدنيا والآخرة قال أبو جعفر والعرب تسمي كل حاجز بين شيئين برزخا كما قاله سبحانه بينهما برزخ لا يبغيان

68 - وقوله جل وعز فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون قال أبو عبيدة هو جمع صورة قال أبو جعفر يذهب إلى ان المعنى فإذا نفخ في صور الناس الأرواح وهذا غلط عند أهل التفسير واللغة روى أبو الزعراء عن عبد الله بن

مسعود فإذا نفخ في الصور قال في القرن روى عطية عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر قال المسلمون يا رسول الله فما نقول قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل عليه توكلنا ولا يعرف أهل اللغة في جمع صورة إلا صورا ولو كان جمع صورة لكان ثم نفخ فيها إلا على بعد من الكلام

قال أبو جعفر وهذه الاية مشكلة لأنه قال جل وعز فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون وقال في موضع آخر واقبل بعضهم على بعض يتساءلون والجواب عن هذا وهو معنى قول عبد الله بن عباس وان خالف بعض لفظه والمعنى واحد أنه إذا نفخ في الصور أول نفخة تقطعت الأرحام وصعق من في السموات ومن في الأرض وشغل بعض الناس عن بعض بأنفسهم فعند ذلك لا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون قال أبو جعفر ومعنى يومئذ 6 في قوله فلا انساب بينهم يومئذ كما تقول أنا اليوم كذا أي في هذا الوقت لا تريد وقتا بعينه 69 - وقوله جل وعز تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون

آية 104

(45/530)

روى أبو الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال الكالح صلى الله عليه وسلم الذي قد بدت أسنانه وتقلصت شفته كالرأس المشيط بالنار 70 - وقوله جل وعز قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا آية 106 قال مجاهد أي التي كتبت علينا 71 - وقوله جل وعز قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون آية 108 يقال خسأته إذا باعدته بانتهار 72 - وقوله جل وعز فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري آية 110 قال الحسن وقتادة وأبو عمرو بن العلاء وهذا معنى ما قالو السخري بالضم ما كان من جهة السخرة والسخري بالكسر ما كان من الهزؤ 73 - وقوله جل وعز إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون آية 111 أي لأنهم ويجوز أن يكون المعنى إني جزيتهم الفوز 74 - وقوله جل وعز قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين آية 113 قال مجاهد فاسأل العادين الملائكة وقال قتادة أي الحساب 75 - وقوله جل وعز ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به آية 117 قال مجاهد أي لا بينة له به انتهت سورة المؤمنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 4 صـ 141 . 190 ﴾

(46/530)

وقال الفراء :

ومن سورة المؤمنين

قوله : وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ [5] إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ [6] المعنى : إلّا من أزواجهم اللاتي أحلّ اللّه لهم من الأربع لا تجاوز .

وقوله : (أَوْ ما مَلَكَتْ أَيمانُهُمْ) (ما) فى موضع خفض . يقول : ليس عليهم فى الإماء وقت «1» ، ينكحون ما شاءوا . فذلك قوله : حفظوا فروجهم إلّا من هذين (فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) فيه . يقول : غير مذنبين .

وقوله : الْفِرْدَوْسَ [11] قال الكلبىّ : هو البستان بلغة الروم . قال الفراء : وهو عربى أيضا .

العرب تسمى البستان الفردوس . وقوله : [من سلالة] [12] والسّلالة التي تسلّ من كلّ تربة .

---

(1) أي حد . يقال : وقت الشيء إذا بين حده ومقداره .

وقوله : فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً [14] و(العظم «1») وهى فى قراءة عبد اللّه (ثم جعلنا «2» النطفة عظما وعصبا فكسوناه لحما) فهذه حجّة لمن قال : عظما وقد قرأها بعضهم (عظما) .

وقوله : (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ) يذهب إلى الإنسان وإن شئت : إلى العظم والنطفة» والعصب ، تجعله كالشىء الواحد .

وقوله : بَعْدَ ذِلكَ لَمَيِّتُونَ [15] تقرأ (لَمَيِّتُونَ) و(لمائتون «4») وميّتون أكثر ، والعرب تقول لمن لم يمت : إنك ميّت «5» عن قليل ومائت . ولا يقولون للميت الذي قد مات ، هذا مائت إنما يقال فى الاستقبال ، ولا يجاوز به الاستقبال . وكذلك يقال : هذا سيّد قومه اليوم ، فإذا أخبرت أنه يكون سيّدهم عن قليل قلت : هذا سائد قومه عن قليل وسيّد . وكذلك الطمع ، تقول : هو طامع فيما قبلك غدا . فإذا 123 ب وصفته بالطمع قلت : هو طمع . وكذلك الشريف تقول : إنه لشريف قومه «6» ، وهو شارف عن قليل . وهذا الباب كلّه فى العربية على ما وصفت لك «7» .

وقوله : وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ [17] يعنى السموات كلّ سماء طريقة (وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ) عمّا خلقنا (غافِلِينَ) يقول : كنا له حافظين .

وقوله : وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ [20] وهى شجرة الزيتون (تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ) وقرأ الحسن (تنبت بالدهن) وهما لغتان يقال نبتت وأنبتت كقول زهير :

(1) هذه قراءة لابن عامر وأبى بكر .

(2) فى الطبري : «خلقنا» .

(3) أخذت فى ا عن (العصب) .

(4) هى قراءة زيد بن على وابن أبى عبلة وابن محيصن كما فى البحر 6/ 399

(5) أخرى في ا عن (مائت) .

(6) ا : «القوم» .

(7) سقط فى ث ، ب . [. . . . .]

(48/530)

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم قطينا لهم حتّي إذا أنبت البقل «1»

(ونبت) «2» وهو كقولك : مطرت السماء وأمطرت . وقد قرأ أهل «3» الحجاز .

(فَأَسْرِ «4» بِأَهْلِكَ) موصولة من سريت . وقراءتنا (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) (من أسريت) وقال اللّه (سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا) (وهو «5» أجود) وفى قراءة عبد اللّه (تخرج الدهن) .

وقوله : (وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ) يقول : (الآكلون يصطبغون «6» بالزيت . ولو كان (وصبغا) على

(وصبغا أنبتناه) فيكون . بمنزلة قوله (إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ وَحِفْظاً «7») . وذلك أن الصّبغ هو الزيت بعينه . ولو كان خلافه لكان خفضا لا يجوز غيره . فمن ذلك أن تقول : مررت بعبد اللّه ورجلا ما شئت من رجل ، إذا جعلت الرجل من صفة عبد اللّه نصبته . وإن كان خلافه خفضته لأنك تريد : مررت بعبد اللّه وآخر . وقرأ أهل «8» الحجاز (سيناء) بكسر السّين والمدّ ، وقرأ عاصم وغيره (سيناء) ممدودة مفتوحة السّين . والشجرة منصوبة بالردّ على الجنات ، ولو كانت مرفوعة إذ لم يصحبها الفعل كان صوابا ، كمن قرأ (وَحُورٌ عِينٌ «9») أنشدنى بعضهم :

---

(1) من قصيدة فى مدح هرم بن سنان وقومه . وقبله :

إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت وقال كرام المال فى السنة الأكل

والشهباء : البيضاء من الجدب لكثرة الثلج ليس فيها نبات . والقطين : الساكن النازل فى الدار ، يكون للواحد والجمع كما فى البيت . يقول : إن ذوى الحاجات يقصدونهم فى زمن الجدب ، حتى يأتى الربيع وينبت البقل .

(2) هذه رواية فى البيت وقد سقط هذا فى ش .

(3) هم نافع وابن كثير وأبو جعفر .

(4) الآية 65 سورة الحجر .

(5) سقط فى ش ، ب .

(6) أي يتخذونه إداما . والصبغ : الإدام المائع كالخل والزيت .

(7) الآيتان 6 ، 7 سورة الصافات .

(8) هم نافع وابن كثير وأبو جعفر . وقرأ بالكسر أيضا أبو عمرو البصري .

(9) الآية 22 سورة الواقعة . يريد المؤلف أن التقدير : ولهم حور عين . وهو وجه فى الآية . والرفع قراءة حمزة والكسائي وأبى جعفر . وقرأ الباقون بالجر .

(49/530)

ومن يأت ممشانا يصادف غنيمة سوارا وخلخالا وبرد مفوّف «1»

كأنه قال : ومع ذلك برد مفوّف . وأنشدنى آخر :

هزئت حميدة أن رأت بي رتّة وفما به قصم وجلد أسود «2»

كأنه قال : ومع ذلك جلد «3» أسود .

وقوله : جِنَّةٌ [25] هو الجنون . وقد يقال للجن الجنّة ، فيتّفق الاسم والمصدر .

وقوله (فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ) لم يرد بالحين حين موقّت . وهو فى المعني كقولك . دعه إلى يوم «4» ولم ترد : إلى يوم معلوم واحد من ذى «5» قبل : ولا إلى مقدار يوم معلوم . إنما هو كقولك إلى يوم ما .

وقوله : وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ [33] المعنى ممّا تشربون منه . وجاز حذف (منه) لأنك تقول : شربت من مائك «6» . فصارت (ما تشربون) بمنزلة شرابكم . ولو حذفت (من «7») (تأكلون) «منه» كان صوابا .

وقوله : أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ [35] أعيدت (أنكم) مرّتين ومعناهما «8» واحد . إلّا أن ذلك حسن لمّا فرقت بين (أنكم) وبين خبرها بإذا . وهى فى قراءة عبد اللّه (أيعدكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) وكذلك تفعل «9» بكل اسم أوقعت عليه (أنّ) بالظنّ وأخوات الظنّ ، ثم اعترض عليه الجزاء دون خبره . فإن

---

(1) ش . «ممسانا» والبرد المفوف : الرقيق .

(2) الرتة : حبسة فى اللسان . وعن المبرد : هى كالريح تمنع الكلام فاذا جاء شىء منه اتصل كما فى المصباح . والقصم :

انكار السن . يقال : رجل أقصم الثنية إذا كان منكسرها من النصف .

(3) ش . «جلدى» .

(4) سقط فى ا .

(5) ا فيما يستانف ويجىء من الأيام . [. . . . .]

(6) ا : «شرابك» .

(7) ش ، ب : «منه مما تأكلون»

(8) ا : «معناها» .

(9) ا : «فافعل» .

(50/530)

شئت كرّرت اسمه ، وإن شئت حذفته/ 124 ا أوّلا وآخرا . فتقول : أظنّ أنك إن خرجت أنك نادم . فإن حذفت (أنك) الأولى أو الثانية صلح . وإن ثبتتا صلح . وإن لم تعرض بينهما بشيء لم يجز . فحطأ أن تقول أظن أنك أنك نادم «1» إلّا أن تكرّر كالتوكيد .

وقوله : هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ [36] لو لم تكن فى (ما) اللام كان صوابا . ودخول اللام عربىّ . ومثله فى الكلام هيهات لك ، وهيهات أنت منّا ، وهيهات لأرضك .

قال الشاعر «2» :

فأيهات أيهات العقيق ومن به وأيهات وصل بالعقيق نواصله

فمن لم يدخل اللام رفع الاسم . ومعنى هيهات بعيد كأنه قال : بعيد (لِما تُوعَدُونَ) «3» وبعيد العقيق وأهله . ومن أدخل اللام قال هيهات أداة ليست بمأخوذة من فعل بمنزلة بعيد وقريب ، فأدخلت لها اللام كما يقال : هلمّ لك إذ لم تكن مأخوذة من فعل . فإذا قالوا : أقبل

لم يقولوا : أقبل لك لأنه يحتمل ضمير الاسم .

فإذا وقفت على هيهات وقفت بالتاء «4» فى كلتيهما لأنّ من العرب من يخفض التاء ، فدلّ ذلك على أنها ليست بهاء التأنيث «5» فصارت بمنزلة دراك «6» ونظار . ومنهم من يقف على الهاء لأنّ من شأنه نصبها فيجعلها كالهاء . والنصب الذي فيهما «7» أنهما أداتان جمعتا فصارتا بمنزلة خمسة عشر . وإن

---

(1) ا : «قادم» .

(2) أي جرير . وأيهات لغة فى هيهات . وقوله : «وصل» فى ا : «حبا» وكأنه مصحف عن «حب» أي : أي محبوب . وانظر ديوانه طبعة بيروت 385

(3) آخر فى ا عن «أهله»

(4) ا : «على التاء»

(5) ا : «تأنيث»

(6) دراك اسم فعل أمر بمعنى أدرك ، ونظار كذلك اسم فعل أمر بمعنى انتظر

(7) أي فى هيهات هيهات . وفى ا : «فيها»

قلت إنّ كل واحدة مستغنية بنفسها يجوز الوقوف عليها فإن نصبها كنصب قوله «1» :

قمت ثمّت جلست ، وبمنزلة قول الشاعر «2» :

ماويّ بل ربّتما غارة شعواء كاللذعة بالميسم

فنصب هيهات بمنزلة هذه الهاء التي فى ربّت لأنها دخلت على ربّ وعلى ثمّ ، وكانا أداتين ، فلم يغيّرهما عن أداتهما فنصبا «3» . قال الفراء : واختار «4» الكسائي الهاء ، وأنا أقف على التاء .

وقوله : فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً [41] كغثاء الوادي يبّسا «5» بالعذاب .

وقوله : ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا [44] أكثر العرب على ترك التنوين ، تنزّل بمنزلة تقوى ومنهم من نوّن فيها وجعلها ألفا كألف الإعراب ، فصارت فى تغيّر «6» واوها بمنزلة التراث والتجاه . وإن شئت جعلت بالياء منها كأنها أصليّة «7» فتكون بمنزلة المعزى تنوّن ولا تنوّن «8» .

ويكون الوقوف «9» عليها حينئذ بالياء وإشارة «10» إلى الكسر . وإن جعلتها ألف إعراب لم تشر لأنك لا تشير إلى ألفات الإعراب بالكسر ، ولا تقول رأيت زيدى «11» ولا عمرى .

وقوله : وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ [50] الربوة : ما ارتفع من الأرض . وقوله : (ذاتِ قَرارٍ)

---

(1) ا : قولك»

(2) هو ضمرة بن ضمرة النهشلي كما فى شواهد العيني فى مبحث حروف الجر .

وماوى مرخم ماوية اسم امرأة .

والغارة الشعواء : الفاشية المتفرقة . والميسم : الأداة يكوى بها

(3) ا : «فنصبت» [. . . . .]

(4) فى ا : «وكان الكسائي يختار الوقوف على الهاء ، وأنا أختار التاء فى الوقف على هيهات» .

(5) جمع يابس

(6) يريد أن التاء أصلها واو فأبدلت تاء كما فى تاءى التراث والتجاه أصلهما واو

(7) أي ملحقة

(8) إنما يترك التنوين إذا قدرت الألف للتأنيث ولم تجعل كالأصلية .

(9) ا : «الوقف»

(10) يريد الإماتة

(11) كتبت الألف فيهما ياء للامالة كما يكتب الفتى والندى . ورسما فى ا : «زيدا وعمرا» وكتب فوق كل «منهما : بمال»

منبسطة وقوله (وَمَعِينٍ) : الماء الظاهر والجاري . ولك أن تجعل المعين مفعولا من العيون ، وأن تجعله فعيلا من الماعون ويكون أصله المعن . قال الفراء : (المعن «1» الاستقامة) ، وقال عبيد بن الأبرص :

واهية أو معين معن أو هضبة دونها لهوب «2»

وقوله : يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ [51] أراد النبىّ «3» فجمع كما يقال فى الكلام للرجل الواحد : أيها 124 ب القوم كفّوا عنا أذاكم . ومثله (الَّذِينَ «4» قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ) الناس واحد (معروف كان «5» رجلا من أشجع يقال له نعيم ابن مسعود) .

وقوله : وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ [52] قرأها عاصم «6» والأعمش بالكسر على الائتناف «7» .

وقرأها أهل الحجاز والحسن (وأنّ هذه أمّتكم) والفتح على قوله (إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وعليم «8» بأن هذه أمتكم . فموضعها خفض لأنها مردودة على (ما) وإن شئت كانت منصوبة بفعل مضمر كأنك قلت : واعلم هذا .

وقوله : فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ [53] : فرّقوه . تفرّقوا يهود ونصارى . ومن قال (زُبُراً)

(1) سقط فى ا

(2) من معلقته . وقبله فى وصف دمعه :

عيناك دمعاهما سروب كأن شأنيهما شعيب

وسروب : جار . . والشأن : مجرى الدمع . والشعيب : القربة المنشقة ، فقوله :

«واهية» وصف «شعيب» واللهوب جمع لهب وهو مهواة ما بين الجبلين . يشبه مجارى

دمعه بقربة واهية منشقة أو ماء حار أو ماء هضبة عالية ودونها مهاو ومهابط

(3) فى الطبري أنه عيسى عليه السلام

(4) الآية 173 سورة آل عمران

(5) فى ا : «وهو نعيم بن مسعود كان رجلا من أشجع» :

(6) وكذلك حمزة والكسائي وخلف [. . . . .]

(7) ا : «الاستئناف»

(8) سقط فى ا

أراد : قطعا مثل قوله (آتُونِي «1» زُبَرَ الْحَدِيدِ) والمعنى فى زبر وزبر واحد «2» . واللّه أعلم . وقوله (كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) يقول : معجبون بدينهم . يرون أنهم على الحقّ .

وقوله : فذرهم فى غمرتهم حتّى حين) : فى جهالتهم .

وقوله : أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ [55] (ما) فى موضع الذي ، وليست بحرف واحد .

وقوله : نُسارِعُ لَهُمْ [56] يقول : أيحسبون أن ما نعطيهم فى هذه الدنيا من الأموال والبنين أنا جعلناه لهم ثوابا . ثم قال (بَلْ لا يَشْعُرُونَ) أنّما هو استدراج منّا لهم :

وقوله : وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا [60] الفرّاء على رفع الياء ومدّ الألف فى (آتَوْا) حدّثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال : حدّثنى مندل قال حدّثنى عبد الملك عن عطاء عن عائشة أنها قرأت أو قالت ما كنا نقرأ إلّا (يأتون ما أتوا) وكانوا أعلم باللّه من أن توجل قلوبهم .

قال الفراء يعنى به الزكاة تقول : فكانوا أتقى للّه من أن يؤتوا زكاتهم وقلوبهم وجلة .

وقوله (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ) : وجلة «3» من أنّهم . فإذا ألقيت (من) نصبت . وكل شىء فى القرآن حذفت منه خافضا فإن الكسائىّ كان يقول : هو خفض على حاله . وقد فسّرنا أنه نصب إذا فقد الخافض .

وقوله : أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ [61] يبادرون بالأعمال (وَهُمْ لَها سابِقُونَ) يقول :

إليها سابقون . وقد يقال (وَهُمْ لَها سابِقُونَ) أي سبقت لهم السّعادة .

---

(1) الآية 96 سورة الكهف

(2) أي كلاهما جمع زبرة بمعنى قطعة

(3) يريد أن الكلام على تقدير من داخلة على (أنهم)

(54/530)

وقوله : وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ [63] يقول : أعمال منتظرة ممّا سيعملونها ، فقال (مِنْ دُونِ ذلِكَ) .

وقوله : يَجْأَرُونَ [64] : يضجّون . وهو الجؤار .

وقوله : عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ [66] وفى قراءة عبد اللّه (على أدباركم تنكصون) يقول :

ترجعون وهو النكوص .

وقوله : مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ [67] «1» (الهاء للبيت العتيق) تقولون : نحن أهله ، وإذا كان الليل وسمرتم هجرتم القرآن والنبىّ فهذا من الهجران ، أي تتركونه وترفضونه . وقرأ ابن عباس «2» (تَهْجُرُونَ) من أهجرت . والهجر أنهم كانوا يسبّون النبىّ صلى اللّه عليه

وسلم إذا خلوا حول البيت ليلا . وإن «3» قرأ قارئ (تَهْجُرُونَ) يجعله كالهذيان ، يقال : قد هجر الرجل فى منامه إذا هذى ، أي إنكم تقولون فيه ما ليس فيه ولا يضرّه فهو كالهذيان .

وقوله : أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ [69] أي نسب رسولهم .

وقوله : وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ [71] يقال : إن الحقّ هو اللّه . ويقال : إنه التنزيل ، لو نزل بما يريدون (لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) قال الكلبىّ (وَمَنْ فِيهِنَّ) من خلق . وفى قراءة عبد اللّه (لفسدت السّماوات والأرض وما بينهما) وقد يجوز فى العربيّة أن يكون ما فيهما ما بينهما 125 الآن السماء كالسقف على الأرض ، وأنت قائل : فى البيت كذا وكذا ، وبين أرضه وسمائه كذا وكذا ، فلذلك جاز أن تجعل الأرض والسّماء كالبيت .

وقوله (بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ) : بشرفهم .

---

(1) ا : «البيت العتيق»

(2) وهى قراءة نافع ، وافقه ابن محيصن

(3) جواب الشرط محذوف أي كان مصيبا ، مثلا .

وقوله : أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً «1» [72] يقول : على ما جئت به ، يريد : أجرا ، فأجر ربّك خير .

وقوله : لَناكِبُونَ [74] يقول : لمعرضون عن الدين . والصراط ها هنا الدين .

وقوله : وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ [80] يقول : هو الذي جعلهما مختلفين ، كما تقول فى الكلام :

لك الأجر والصلة أي إنك تؤجر «2» وتصل .

وقوله : قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [84] (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ [85] هذه «3» لا مسألة فيها لأنه قد استفهم بلام فرجعت فى خبر المستفهم . وأمّا الأخريان فإنّ أهل المدينة وعامّة أهل الكوفة يقرءونها (للّه) ، (للّه) وهما فى قراءة أبىّ كذلك (للّه) (للّه) (للّه) ثلاثهنّ . وأهل البصرة يقرءون الأخريين (اللّه) (اللّه) وهو فى العربيّة أبين لأنه مردود مرفوع ألا ترى

[أن] قوله : (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ) مرفوع لا خفض فيه ، فجرى جوابه على مبتدأ به . وكذلك هى فى قراءة عبد اللّه (للّه) (اللّه) . والعلّة فى إدخال اللام فى الأخريين فى قول أبىّ وأصحابه أنك لو قلت لرجل : من مولاك ؟ فقال : أنا لفلان ، كفاك من أن يقول : مولاى فلان . فلمّا كان المعنيان واحدا أجرى ذلك فى كلامهم . أنشدنى بعض بنى عامر :

وأعلم أننى سأكون رمسا إذا سار النواجع لا يسير

(يعنى»

الرمس)

فقال السّائلون لمن حفرتم فقال المخبرون لهم : وزير

---

(1) أثبت (خراجا) كما فى الكتاب . وهى قراءة حمزة والكسائي وخلف . وقراءة غيرهم (حرجا)

(2) كذا وقد يكون : «تأجر»

(56/530)

فرفع أراد : الميت وزير .

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ . . . ﴾ :

تُصْرفون . ومثله تؤفكون . أُفِك وسُحر وصُرف سَوَاء .

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ . . . ﴾

إذاً جَواب لكلام مضمر . أى لو كانت مَعَهُ آلهة ﴿ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ اله بِمَا خَلَقَ ﴾ يقول: لاعتزل كلُّ إله بخَلْقه ، ﴿ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ ﴾ يقول: لبغى بعضهم على بعض ولغلب بعضهم بَعْضاً .

﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

وقوله: ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ . . . ﴾

وجه الكلام الرفع على الاستئناف . الدليل عَلى ذلكَ دخول الفاء فى قوله ﴿ فتَعالىَ ﴾ ولو خفضت لكان وَجْهُ الكلام أن يكون (وتعالى) بالواو ؛ لأنه إذا خفض إنما أراد : سُبْحانَ الله عَالم الغيب والشهادة وتعالَى . فدلّ دخول الفاء أنه أراد : هو عَالم الغيب والشهادة فتعالى ؛ ألا ترى أنك تقول: مررت بعبد الله المحسن وأحسنت إليه . ولو رفعت (المحسن) لم يكنْ بالواو ؛ لانك تريد : هو المحسن فأَحْسنتُ إلَيْه . وقد يكون الخفض فى (عَالِم) تتبعه مَا قبله وإنْ كانَ بالفَاء ؛ لأنّ العرب قد تستأنف بالفاء كما يستأنفون بالواو .

﴿ رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

وقوله: ﴿ رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِي . . . ﴾

هذه الفاء جواب للجزاء لقوله (إِمَّا تُرِيَنِّي) اعترض النداء بينهما كما : تقول إن تأتنى يا زيد فعجّل . ولو لم يكن قبله جزاء لم يجز أن تقول : يا زيد فقم ، ولا أن تقول يا ربّ فاغفر لى لأنّ النداء مستأنف ، وكذلك الأمر بعده مستأنف لا تدخله الفاء ولا الواو .

لا تقول : يا قوم فقوموا ، إلا أن يكون جوابا لكلام قبله ، كقول قائل : قد أقيمت الصّلاة ، فتقول : يا هؤلاء فقوموا . فهذا جوازه .

وقوله : قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ [99] فجعل الفعل كأنه لجميع «3» وإنما دعا ربه . فهذا ممّا جرى على

---

(1) الرفع لنافع وأبى بكر وحمزة والكسائي وخلف وأبى جعفر . والخفض للباقين

(2) ا : «مما»

(3) ا : «لجمع»

(57/530)

ما وصف اللّه به نفسه من قوله (وقد خلقناك «1» من قبل) فى غير مكان من القرآن . فجرى هذا على ذلك .

وقوله : وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ [100] البرزخ من يوم يموت إلى يوم يبعث . وقوله (وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً) يقول حاجزا . والحاجز والمهلة متقاربان فى المعنى ، وذلك أنك تقول : بينهما حاجز أن يتزاورا ، فتنوى بالحاجز المسافة البعيدة ، وتنوى الأمر المانع ، مثل اليمين والعداوة . فصار المانع فى المسافة كالمانع فى الحوادث ، فوقع عليهما البرزخ .

وقوله : قالُوا ربَّنا «2» غَلَبَتْ عَلَيْنا شقاوتنا [106] حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدّثنى شريك عن أبى إسحاق (وقيس «3») عن أبى إسحاق ، وزهير ابن معاوية أبو خيثمة الجعفىّ عن أبى إسحاق عن عبد اللّه بن مسعود أنه قرأ (شقاوتنا «4») بألف وفتح الشين . قيل للفراء أأخبرك زهير ؟ فقال : يا هؤلاء إنى لم أسمع «5» من زهير شيئا . وقرأ أهل المدينة وعاصم (شِقْوَتُنا) وهى كثيرة .

أنشدنى أبو ثروان :

كلّف من عنائه وشقوته بنت ثمانى عشرة من حجّته «6»

قال الفراء : لولا عبد اللّه ما قرأتها إلا (شِقْوَتُنا) .

---

(1) الآية 9 سورة مريم . وقد أورد المؤلف قراءة حمزة والكسائي وقد وافقهما الأعمش . أما الباقون فقراءتهم «خلقتك» . وقوله : «فى غير مكان من القرآن» فكأنه يريد لفظ (خلقنا) فهو الذي يتكرر في القرآن واقعا على الإنسان أو على غيره .

(2) الآية 106 سورة المؤمنون

(3) ا : «قال الفراء : وحدثنا قيس» . وهذه أسانيد عن أبى إسحاق . والظاهر أنه السبيحى عمرو بن عبد اللّه من التابعين . وكانت وفاته سنة 127 كما فى الخلاصة

(4) هذه قراءة حمزة والكسائي وخلف وافقهم الحسن والأعمش . والباقون (شِقْوَتُنا)

بكسر الشين وإسكان القاف بلا ألف

(5) كانه يستجيز فى (حدثنى) أن يكون الحديث بالواسطة

(6) يرد هذا الرجز فى كتب النحو فى مبحث العدد . وفي العيني أنه قيل إن قائله نفيع بن طارق . وقوله . «من حجته» ففى كتابة يس على التصريح ما يفيد أن المراد : فى حجته أي أنه علقها حين كان فى الحج

(58/530)

وقوله : سِخْرِيًّا (110) و(سخريّا) . وقد قرىء «1» بهما جميعا . والضمّ أجود . قال الذين كسروا ما كان من السّخرة «2» فهو مرفوع ، وما كان من الهزؤ فهو مكسور .

وقال الكسائي : سمعت العرب تقول : بحر لجّى ولجّى ، ودرىّ ودرىّ منسوب إلى الدّرّ ، والكرسىّ والكرسىّ . وهو كثير . وهو فى مذهبه بمنزلة قولهم العصىّ «3» والعصىّ والأسوة والإسوة .

وقوله : أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ (111) كسرها «4» الأعمش على الاستئناف ، ونصبها من سواه على :

إنى جزيتهم الفوز بالجنّة ، فأنّ فى موضع نصب . ولو جعلتها نصبا من إضمار الخفض

جزيتهم لأنهم «5» هم الفائزون بأعمالهم فى السّابق .

وقوله : لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (113) أي لا ندرى (فاسأل) الحفظة هم العادّون .

وقوله : قل كم لبثتم (112) قراءة أهل «6» المدينة (قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ) وأهل الكوفه (قل كم لبثتم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 231. 243 ﴾

---

(1) الضم لنافع وحمزة والكسائي وأبي جعفر وخلف وافقهم الأعمش ، والكسر للباقين .

(2) أي الاستعباد وتكليف المشاق . [. . . . .]

(3) أي فى جمع العصا .

(4) الكسر لحمزة والكسائي ، والفتح للباقين .

(5) كذا . والأولى : «بأنهم» .

(6) قرأ (قل) ابن كثير وحمزة والكسائي . وافقهم ابن محيصن والأعمش . وقرأ الباقون (قال) .

(59/530)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة المؤمنون

(قد أفلح المؤمنون) [1] عن ابن عباس: فازوا بما طلبوا ، ونجوا عما هربوا . (خاشعون) [2] خائفون بالقلب ، ساكنون بالجوارح. (للزكاة فاعلون) [4] لما كانت الزمان توجب زكاء المال ، كان لفظ الفعل أليق به من لفظ الأداء والإخراج. والفردوس: أعلى الجنان ، قال[ـه] قطرب ، واستشهد بقول ذي الرمة: 813- يا صاحبي انظرا [آوا كما] درج عال وظل من الفردوس ممدود

814- هل تبصران حمولاً بعدما اشتملت من دونهن جبال الأشيم القود . (من سلالة) [12] أي: سل كل إنسان من ظهر أمه . (من طين) من آدم عليه السلام ، وسلالة كل شيء وسليلته: خلاصته . قالت امرأة: 815- وهل هند إلا مهرة عربية سليلة أفراس تجللها بغل

816- فإن [نتجت] مهراً كريماً [فبالحرى] وإن يك إقراف فما أنجب البغل . والنطفة: الماء الذي منه الولد ، وأصله: الماء الصافي . قال عمارة: 817- لن يلبث التخشين نفساً كريمة عريكتها أن يستمر مريرها 818- وما النفس إلا نطفة في قرارة إذا لم يكدر كان [صفواً] غديرها /

والعلقة: الدم الطري . قال أبو محجن الثقفي:

819- هل أطعن الطعنة النجلاء عن عرض وأكتم السر فيه ضربة العنق 820-

وأشهد المأزق المخشي غمته وعامل الرمح أرويه من العلق . والمضغة: القطعة من اللحم ،

قال زهير: 821- تلجلج مضغة فيها أنيض أصلت فهي فوق الكشح أداء 822-

[غصصت] بنيئها وبشمت منها وعندي -لو طلبت- لها شفاء

وجمعت [العظام] مع إفراد أخواتها المتقدمة، لاختلافها بين صغير وكبير، ومدور وطويل، وصلب وغضروف. (ثم أنشأناه خلقاً ءاخر) [14] بنفخ الروح فيه. وقيل: بإنبات الشعر والأسنان.

وقيل: إن ذلك الإنشاء هو في السنة الرابعة، لأن المولود في سني [التربية يعد] في حد النقصان، والتهيؤ للتمام، والشيء قبل التمام في حيز العدم. ولهذا إن المبرزين في علم الفراسة والتنجيم، لا ينظرون في أخلاق

(60/530)

الطفل وأحواله، ولا يصححون مواقع النجوم على ميلاده إلا في السنة الرابعة، فيأخذون الطالع وصور الكواكب من هناك. (سبع طرائق) [17] سبع سموات، لأنها طريق الملائكة. وقيل: لأنها طباق بعضها فوق بعض، يقال: أطرقت النعل إذا خصفتها، وأطبقت بعضها على بعض، قال تأبط شراً: 823- بادرت قنتها صحبي وما كسلوا حتى نميت [إليها] بعد إشراق 824- بشرثة خلق يوقى البنان بها شددت فيها سريحاً

بعد إطراق .

(سيناء) [20] على وزن فيعال ، نحو ديار وقيام . وسيناء ، وسيناه على وزن فيعال ، /مثل: ديماس وقيراط ، والفتح أقوى ، لأنه لا فعلاء غير منصرف .

وقيل: بل الكسر ، كقوله: (وطور سينين) . (تنبت بالدهن) [20] قيل: إن الباء زائدة ، وتكثر زيادتها في كلامهم ، مثل قول الهذلي: 825- ألا يا فتى ما نازل القوم واحداً بنعمان لم يخلق ضعيفاً [منتراً] 826- أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

أي: عضته الحرب . وقال آخر: 827- قد هراق الماء في أجوافها وتطايرن بأشتات شقق 828- وأثار النقع في أكسايها مثل ما شقق سربال ما خلق . أي: تطايرن أشتاتاً . وعندنا لا يحكم لشيء [بكونه] زيادة ، وله معنى ما ، وللباء ها هنا معاني صحيحة: أحدها : أن تقديره تنبت ما تنبت والدهن فيها ، كقول ثعلبة بن حرز: 829- ومستنة كاستنان [الخروف] قد قطع الحبل بالمرود

830- دفوع الأصابع ضرح الشموس نجلاء مؤيسة العود . والمعنى: أنه قطعه والمرود فيه . والثاني: أن إنباتها الدهن بعد إنبات الثمر الذي يخرج الدهن منه ، فلما كان الفعل في المعنى تعلق بمفعولين يكونان في حال بعد حال ، وهما الثمر والدهن ، احتاج إلى تقويته

بالباء . والثالث: [أن] أنبت جاء لازماً مثل نبت ، فيعدى بحرف الصفة . قال زهير:

831- رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطيناً لهم حتى إذا أنبت البقل .

(61/530)

وروى ابن درستويه: أن الدهن: المطر اللين . (وصبغ) [20] إدام . قال/عليه السلام: "الزيت [من] شجرة مباركة فائتدموا به وادهنوا" . (يتفضل عليكم) [24] يكون أفضل منكم . قال القطامي: 832- بنو [القرم] الذي علمت معد تفضل فوقها سعة وباعا . و(اصنع الفلك بأعيننا) [27] على ما نمثله لك بالوحي . وقيل: معناه أن يصنعه وهو واثق بحفظ الله له ، ورؤيته إياه ، فلا يخاف قومه . والسلوك: لازم ومتعد .

(عما قليل) [40]

"ما" -في مثل هذا- لتقريب المدى ، أو تقليل الفعل ، كقولك: بسبب ما ، أي: بسبب وإن قل . (فجعلناهم غثاء) [41] هلكى ، كما يحتمله الماء من الزبد والورق البالي . (فبعداً) إهلاكاً على طريق الدعاء عليهم . قال عبد يغوث: 833- يقولون لا تبعد وهم يدفنونني وأين مكان البعد إلا مكانيا .

(تترا) [44] متواتراً ، متراصفاً ، وأصله: وترى ، من وتر القوس لاتصاله ، كأنه واترنا

رسلنا تترى ، فجاء على غير لفظ الفعل . (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) [52] أي: ملتكم وطريقتكم في توحيد الله وأصول الشرائع ، طريقة واحدة . وفتح (أن) على تقدير: "ولأن هذه أمتكم" ، أي: فاتقون لهذا . هذا قول الخليل . وقال الأخفش: العامل فيما بعد قليل ضعيف ، ولكن فتحها بالعطف على "ما" ، (إني بما تعملون عليم) ، "وبأن هذه" . ويجوز فتحها بفعل مضمر ، أي: واعلموا أن هذه .

وانتصاب (أمة واحدة) على الحال . (فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً) [53] أي: افترقوا في دينهم فرقاً ، كل ينتحل كتاباً ينسبه إلى نبيه . (وهم لها سابقون) [61] أي: لأجلها سبقوا الناس . (تنكصون) [66] ترجعون إلى الكفر . (مستكبرين به) [67] بالحرم ، أي: بلغ أمركم أنكم تسمرون بالبطحاء/لا تخافون أحداً . وتوحيد (سامراً) على معنى المصدر ، أي: تسمرون سمراً ، كقولك:

(62/530)

قوموا قائماً ، أي: قياماً . ويجوز حالاً للحرم ، لأن السمر في اللغة: ظلمة الليل ، تقول العرب: حلف بالسمر والقمر . (تهجرون) [67] تقولون الهجر ، وهو الهذيان ، مثل كلام الموسوس والمحموم . و(تهجرون) من الإهجار ، وهو الإفحاش في القول . (بل أتيناهم

بذكرهم) [71] أي: بشرفهم لكون رسولهم منهم، والقرآن بلسانهم.

(فما استكانوا لربهم) [76] أي: بالجدب الذي أصابهم بدعائه عليه السلام. (باباً ذا عذاب شديد) [77] يعني يوم بدر. (سيقولون لله) [87، 89] جاء في الثاني والثالث على صورة الكلام الأول، تقريراً وتوكيداً.

وخرج الجواب على المعنى دون اللفظ، فإن معنى قوله: (من رب السموات والأرض): لمن ملكهما وتدبيرهما. وأنشد الفراء: 834- وأعلم أنني سأكون رمساً إذا سار النواعج لا أسير 835- فقال السائلون [لمن حفرتم] فقال المخبرون لهم وزير. أي: فيقولون لوزير - وهو اسمه- حفرناه. (ومن ورائهم برزخ) [100] أي: ومن أمامهم حاجز وهو ما بين الدنيا والآخرة. وقيل: إنه ما بين الموت والبعث.

وقال مجاهد: وهو الحاجز بين الميت وبين الرجوع إلى الدنيا. (ولا يتساءلون) [101] أي: عن أنسابهم ومعارفهم، لاشتغال كل واحد بنفسه. وقيل: إنه تساءل أن يحمل بعضهم عن بعض، ولكنهم يتساءلون عن حالهم، وعما عمهم من البلاء سؤال العاني المعذب من لقيه في مثل حاله، كما قال عز وجل: (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون). وهذا التساؤل في مواقف/الأمن بعد زوال الدهش والأهوال، بدليل ما اتصل به من قوله: (قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين) واللفح: إصابة سموم النار. والكلوح: تقلص الشفتين عن الأسنان.

(اخسئوا) [108] [اسكتوا] . وقيل: ابعدوا بعد الكلب . (سخرياً) [110] بالكسر هزءاً . وبالضم -كما هو في الزخرف- سخرة وعبودة .

(قال إن لبثتم إلا قليلاً) [114] أي: في الدنيا ، أو في القبور بالإضافة إلى طول لبثكم في النار .

[تمت سورة المؤمنون] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 966.988 ﴾

(63/530)

وقال الأخفش :

سورة (المؤمنون)

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

وقال ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ لأن الخالقين هم الصانعون . وقال الشاعر: [من الكامل وهو الشاهد الثالث والخمسون بعد المئتين]:

* وَأَرَاكَ تَغْرِي ما خَلَقْتَ وَبَعْضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثم لا يَغْرِي *

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴾

وقال ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ ﴾ على "فَأَنْشَأْنَا جَنَّاتٍ" ﴿ وَشَجَرَةً ﴾ .

﴿ وَإِنَّ هَاذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾

قال ﴿ وَإِنَّ هَاذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ فنصب ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على الحال . وقرأ بعضهم ﴿ أُمَّتَكُم أُمَّةٌ واحدةٌ ﴾ على البدل ورفع ﴿ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ على الخبر .

﴿ أُوْلَائِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾

وقال ﴿ هُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ يقول: مِنْ أَجْلَها .

﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾

وقال ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ من "جَأَرَ" "يَجْأَرُ" "جُؤارا" و"جَأْرا" .

﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾

وقال ﴿ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ و ﴿ تَنكُصُون ﴾ مثل ﴿ يَعْكِفُون ﴾ و ﴿ يعكِفون ﴾ [154] .

﴿ قَالَ اخْسَئُواْ فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾

وقال ﴿ اخْسَئُواْ فِيهَا ﴾ لأَنَّها من "خَسَأَ" "يَخْسَأُ" تقول: "خَسَأْتُهُ" فـ"خَسَأَ" .

﴿ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

وقال ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي: مَا لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلا . وفي حرف ابن مسعود ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ لَقَلِيلاً ﴾ . وقال الشاعر: [من الكامل وهو الشاهد الرابع والخمسون بعد المئتين]:

هَبَلَتْكَ أُمُّكَ إِنْ قَتَلْتَ لَمُسْلِماً * وَجَبَتْ عَلَيْكَ عُقُوبَةُ المُتَعَمِّدِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 454.455 ﴾

(65/530)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة المؤمنون

مكية كلها

3 - اللَّغْوِ باطل الكلام والمزاح.

10 - أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ قال مجاهد : هو البستان المخصوص بالحسن ، بلسان الرّوم .

11 - ثم قال : هُمْ فِيها خالِدُونَ فأنث . ذهب إلى الجنة .

12 - مِنْ سُلالَةٍ قال قتادة : استلّ آدم من طين ، وخلقت ذريته من ماء مهين . ويقال للولد

: سلالة أبيه ، وللنّطفة : سلالة ، وللخمر :

سلالة . ويقال : إنما جعل آدم من سلالة ، لأنه سلّ من كل تربة .

14 - عَلَقَةً واحدة العلق ، وهو الدم .

و(المضغة) اللّحمة الصغيرة . سميت بذلك لأنها بقدر ما يمضغ ، كما قيل غرفة ، بقدر ما يغرف .

ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ أي خلقناه بنفخ الروح فيه خلقا آخر .

17 - سَبْعَ طَرَائِقَ سبع سموات كل سماء طريقة . ويقال : هي الأفلاك كلّ واحد طريقة . وإنما سميت طرائق بالتّطارق ، لأن بعضها فوق

(66/530)

بعض . يقال : طارقت الشيء ، إذا جعلت بعضه فوق بعض . يقال : ريش طرائق .

20 - وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ مثل الصّباغ . كما يقال : دبغ ودباغ لبس ولباس .

27 - فَاسْلُكْ فِيهَا أي أدخل فيها . يقال : سلكت الخيط في الإبرة وأسلكته .

33 - وأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وسّعنا عليهم حتى أترفوا ، والتّرفه [منه] ، ونحوها : التّحفة ، كأن المترف هو الذي يتحف .

41 - فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً أي هلكي كالغثاء ، وهو ما علا السّيل من الزّبد [والقمش] لأنه يذهب ويتفرق .

44 - ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا أي تتابع بفترة بين كل رسولين وهو من التّواتر . والأصل وتري . فقلبت الواو كما قلبوها في التّقوي ، والتّخمة ، والتّكلان .

وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ أخبارا وعبرا .

50 - وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً أي علما ودليلا .

و(الرّبوة) الارتفاع . وكلّ شيء ارتفع او زاد ، فقد ربا ، ومنه الرّبا في البيع .

ذاتِ قَرارٍ يستقرّ بها للعمارة .

وَمَعِينٍ ماء ظاهر . يقال : هو مفعول من العين . كأن أصله معيون . كما هو يقال : ثوب مخيط ، وبرّ مكيل .

51 - يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ خوطب به النبي ، صلّى اللّه عليه وسلّم ، وحده على مذهب العرب في مخاطبة الواحد خطاب الجمع .

(67/530)

52 - وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً أي دينكم دين واحد ، وهو الإسلام . والأمة تنصرف [علي وجوه] قد بينتها في «تأويل المشكل» .

53 - فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ أي اختلفوا في دينهم .

زُبُراً بفتح الباء جمع زبرة ، وهي القطعة . ومن قرأ «زبرا» فإنه جمع زبور ، أي كتبا .

56 - نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ أي نسرع . يقال : سارعت إلى حاجتك وأسرعت .

63 - بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا أي في غطاء وغفلة .

وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ قال قتادة : ذكر اللّه .

الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ثم قال للكفار بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا ثم رجع الى المؤمنين فقال :

وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ أي من دون الأعمال التي عدّد هُمْ لَها عامِلُونَ .

يَجْأَرُونَ : أي يضجّون ويستغيثون باللّه .

66 - عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ أي ترجعون القهقري .

67 - مُسْتَكْبِرِينَ يعني بالبيت تفخرون به ، وتقولون : نحن أهله وولاته .

سامِراً أي متحدثين ليلا .

و(السّمر) : حديث الليل . وأصل السّمر : الليل . قال ابن أحمر :

من دونهم إن جئتهم سمرا أي ليلا . ويقال : هو جمع سامر . كما يقال : طالب وطلب وحارس وحرس . ويقال : هذا سامر الحيّ ، يراد المتحدثون منهم ليلا . وسمر الحي .

(68/530)

(تهجرون) تقولون هجرا من القول . وهو اللغو منه والهذيان . وقرأ ابن عباس : «تهجرون» - بضم التاء وكسر الجيم - وهذا من الهجر وهو السّب والإفحاش في المنطق . يريد سبهم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ومن اتبعه .

68 - أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أي يتدبّروا القرآن .

71 - بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ أي بشرفهم .

72 - أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً أي خراجا ، فهم يستثقلون ذلك .

فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ أي رزقه .

74 - عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ أي عادلون ، يقال : نكب عن الحق : أي عدل عنه .

76 - وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ يريد : نقص الأموال والثمرات .

فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ أي ما خضعوا .

77 - حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ يعني الجوع .

إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ أي يائسون من كل خير .

89 - فَأَنَّى تُسْحَرُونَ أي تخدعون وتصرفون عن هذا .

96 - ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [أي] الحسنى من القول . قال قتادة : سلّم عليه إذا لقيته .

97 - وهَمَزاتِ الشَّياطِينِ نخسها وطعنها . ومنه قيل [للغائب :

همزة] كأنه يطعن وينخس إذا عاب .

100 - و(البرزخ) ما بين الدنيا والآخرة [وكل شيء بين شيئين] فهو برزخ. ومنه قوله في

البحرين : وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً [سورة الفرقان آية :

53] أي حاجزا .

(69/530)

---

110 - فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا - بكسر السين - أي تسخرون منهم وسخريا - بضمها -

تسخّرونهم ، من السّخرة حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي أي شغلكم أمرهم عن ذكري .

113 - فَسْئَلِ الْعادِّينَ أي الحسّاب .

117 - لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ أي لا حجّة له به ولا دليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل

القرآن صـ 253. 257 ﴾

وقال الغزنوى :

ومن سورة المؤمنين

1 قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ : فازوا بما طلبوا ونجوا عما هربوا «1» .

2 خاشِعُونَ : خائفون بالقلب ، ساكنون بالجوارح . والخشوع في الصلاة بجمع الهمّة لها ، والإعراض عمّا سواها ، ومن الخشوع أن لا يجاوز بنظره موضع سجوده .

و«اللّغو» «2» : كلّ سلام ساقط حقّه أن يلغى «3» ، يقال : لغيت ألغى [66/أ] ولغوت/ ألغو «4» .

4 لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ : لما كانت الزكاة توجب زكاء المال كان لفظ الفعل أليق به من لفظ الأداء والإخراج .

10 أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ : قال عليه السلام «5» : «ما منكم إلّا وله

---

(1) ذكر المؤلف هذا القول في كتابه وضح البرهان : 2/ 95 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

ونقل الماوردي في تفسيره : 3/ 92 عن ابن عباس قال : «المفلحون الذين أدركوا ما طلبوا

ونجوا من شر ما منه هربوا» .

(2) من قوله تعالى : وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ [آية : 3] .

(3) معاني القرآن للزجاج : 4/ 6 ، ومعاني النحاس : (4/ 442 ، 443) ، وزاد المسير :

5/ 460 ، والبحر المحيط : 6/ 395 .

(4) اللسان : 15/ 250 (لغا) .

(5) أخرج نحوه ابن ماجة في سننه : 2/ 1453 ، كتاب الزهد ، باب «صفة الجنة» عن أبي هريرة رضي اللّه عنه مرفوعا .

وصحيح البوصيري إسناده في مصباح الزجاجة : 2/ 361 ، وأخرجه الطبري في تفسيره :

18/ 6 .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 90 ، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في كتاب «البعث» عن أبي هريرة مرفوعا .

منزلان فإن مات على الضّلال ورث منزله في الجنة أهل الجنّة ، وإن مات على الإيمان ورث منزله في النّار أهل النّار» .

12 مِنْ سُلَالَةٍ : سلّ كلّ إنسان من ظهر أبيه «1» .

مِنْ طِينٍ : من آدم «2» عليه السلام .

وجمعت العظام مع إفراد أخواتها لاختلافها «3» بين صغير وكبير ، ومدوّر وطويل ، وصلب وغضروف .

14 ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ : بنفخ الروح فيه «4» ، أو بنبات الشّعر والأسنان «5» ، أو بإعطاء العقل والفهم «6» .

وقيل «7» : حين استوى شبابه .

---

(1) والسّلّ : انتزاع الشيء وإخراجه في رفق . والسليل : الولد ، سمي سليلا لأنه خلق من السلالة .

اللسان : (11/ 338 ، 339) (سلل) . [. . . . .]

(2) رجحه الطبري في تفسيره : 18/ 8 ، والنحاس في معانيه : 4/ 447 ، وقال : «و هو أصح ما قيل فيه ، ولقد خلقنا ابن آدم من سلالة آدم ، وآدم هو الطين لأنه خلق منه» .

وانظر زاد المسير : 5/ 462 ، وتفسير القرطبي : 12/ 109 .

(3) في قوله تعالى : ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً . . . [آية : 14] .

(4) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 296 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : (18/ 9 ، 10) عن ابن عباس ، وعكرمة ، والشعبي ، ومجاهد ، وأبي العالية ، والضحاك ، وابن زيد . ورجح الطبري هذا القول ، وكذا النحاس في معانيه : 4/ 449 .

(5) ذكره الزجاج في معاني القرآن : 4/ 9 ، والنحاس في معانيه : 4/ 449 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 463 ، والقرطبي في تفسيره : 12/ 110 عن الضحاك .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 92 ، وعزا إخراجه إلى عبد بن حميد عن الضحاك .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 95 ، والبغوي في تفسيره : 3/ 304 عن قتادة .

(6) نص هذا القول في زاد المسير : 5/ 463 عن الثعلبي .

وذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 95 دون عزو .

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 18/ 10 عن مجاهد .

وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 463 ، والقرطبي في تفسيره : 12/ 110 إلى ابن عمر ، ومجاهد .

وقيل «1» : بل ذلك الإنشاء في السّنة الرابعة لأنّ المولود في سني التربية يعدّ في حيّز النقصان ، والشّيء قبل التمام في حدّ العدم .

17 سَبْعَ طَرائِقَ : سبع سموات لأنها طرائق الملائكة»

، أو لأنها طباق بعضها على بعض . أطرقت النّعل : خصفتها «3» ، وأطبقت بعضها على بعض .

20 سَيْناءَ : فيعال «4» من السّناء ، ك «ديّار» ، و«قيّام» . وسيناء «5»

---

(1) تفسير البغوي : 3/ 304 ، وزاد المسير : 5/ 463 .

وعقّب ابن عطية رحمه اللّه على هذه الأقوال بقوله : «و هذا التخصيص كله لا وجه له ، وإنما هو عام في هذا وغيره من وجوه النطق والإدراك وحسن المحاولة هو بها آخر ، وأول رتبة من كونه آخر هو نفخ الروح فيه ، والطرف الآخر من كونه آخر تحصيله المعقولات إلى أن يموت» اه .

وانظر تفسير القرطبي : 12/ 110 .

(2) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 95 ، وقال : «قاله ابن عيسى» .

وانظر هذا القول في تفسير البغوي : 3/ 305 ، وتفسير القرطبي : 12/ 111 ، والبحر المحيط : 6/ . 400

(3) ينظر الصحاح : 4/ 1516 ، واللسان : 10/ 219 (طرق) .

(4) على قراءة عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي بفتح السين .

السبعة لابن مجاهد : 445 ، وحجة القراءات : 484 ، والتبصرة لمكي : . 269

و«السّناء» : المجد والشرف .

ينظر اللسان : 14/ . 403

(5) على قراءة الكسر وهي لابن كثير ، ونافع ، وأبي عمرو ، كما في السبعة : 444 ، والتيسير للداني : 159 .

ولم أقف على من ذكر أن «سيناء» على وزن «فيعال» .

قال الزجاج في معانيه : 4/ 10 : «يقرأ : مِنْ طُورِ سَيْناءَ بفتح السين ، وبكسر السين ، . . . فمن قال «سينا» فهو على وصف صحراء ، لا ينصرف ، ومن قال «سيناء» – بكسر السين – فليس في الكلام على وزن «فعلاء» على أن الألف للتأنيث ، لأنه ليس في الكلام ما فيه ألف التأنيث على وزن «فعلاء» ، وفي الكلام نحو «علباء» منصرف ، إلّا أن «سيناء» ها هنا اسم للبقعة فلا ينصرف» .

وانظر الكشف لمكي : (2/ 126 ، 127) .

فيعال. ك «ديماس» «1» و«قيراط».

تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ: تنبت ما تنبت والدهن فيها «2».

وذكر ابن درستويه «3»: أن الدّهن: المطر اللين «4». ومن فتح التاء «5» فمعناه: تنبت وفيها دهن، تقول: جاء زيد بالسّيف، أي: سيفه معه «6».

24 يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ: يكون أفضل منكم.

27 واصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا: أي: تصنعه وأنت واثق بحفظ اللّه له ورؤيته إياه فلا تخاف.

36 هَيْهاتَ: بعد الأمر جدا حتى امتنع. وبني لأنّها بمنزلة الأصوات غير مشتقة من فعل «7».

---

(1) الديماس: الكن والحمام.

الصحاح: 3/ 930 (دمس)، والنهاية لابن الأثير: 2/ 133.

(2) هذا المعنى على قراءة «تنبت» بضم التاء وهي لابن كثير، وأبي عمرو.

ينظر توجيه هذه القراءة في الكشف لمكي: 2/ 127.

(3) ابن درستويه: (258 - 347 ه).

هو عبد اللّه بن جعفر بن محمد بن درستويه ، من أئمة اللغة في بغداد في عصره .

صنف تصحيح الفصيح ، والإرشاد في النحو ، وأخبار النحويين ، ونقض كتاب العين

. . .

وغير ذلك .

وضبط ابن ماكولا في الإكمال : 3/ 322 درستويه بفتح الدال والراء . وفي الأنساب للسمعاني : 5/ 299 بضم الدال المهملة والراء وسكون السين المهملة وضم التاء .

وانظر ترجمته في تاريخ بغداد : 9/ 428 ، وإنباه الرواة : 2/ 113 ، وسير أعلام النبلاء

:

15/ 531 . [. . . . .]

(4) ينظر قوله المذكور هنا في تفسير الماوردي : 3/ 96 ، وتفسير القرطبي : 12/ 116 .

(5) قراءة عاصم ، ونافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 445 ، وحجة القراءات : 484 ، والتبصرة لمكي : 269 .

(6) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 4/ 10 ، وانظر معاني القرآن للنحاس : 4/ 453 ، ومشكل إعراب القرآن لمكي : 2/ 499 ، والكشاف : 3/ 29 .

(7) قال النحاس في إعراب القرآن : 3/ 114 : «وبنيت على الفتح وموضعها رفع لأن

المعنى البعد لأنها لم يشتق منها فعل فهي بمنزلة الحروف فاختير لها الفتح لأن فيها هاء التأنيث ، فهي بمنزلة اسم ضمّ إلى اسم ، ك «خمسة عشر» . . . » .

وانظر المحرر الوجيز : 10/ 354 ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 184 .

(74/530)

---

40 عَمَّا قَلِيلٍ : «ما» في مثله لتقريب المدى «1» ، أو تقليل الفعل ، كقوله بسبب ما ، أي : بسبب وإن قلّ .

41 فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً : هلكى ، كما يحتمله الماء من الزبد والورق البالي «2» .

فَبُعْداً : هلاكا ، على طريق الدعاء عليهم ، أو بعدا لهم من رحمة اللّه ، فيكون بمعنى اللّعنة «3» .

44 تَتْرا : متواترا . وأصله : وتر ، من وتر القوس لاتصاله «4» .

آيَةً : حجة على اختراع الأجسام من غير شيء ، كاختراع عيسى من [66/ ب] غير أب وحمل أمه/ إياه من غير فحل «5» .

إِلى رَبْوَةٍ : الرّملة من فلسطين «6» .

---

(1) البحر المحيط : 6/ 405 .

(2) ينظر هذا المعنى في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 297 ، وتفسير الطبري : 18/ 22 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 13 ، ومعاني النحاس : 4/ 458 .

(3) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 97 ، والقرطبي في تفسيره : 12/ 134 .

(4) عن تفسير الماوردي : 3/ 97 ، وانظر اللسان : 5/ 278 (وتر) .

(5) ذكر نحوه الطبري في تفسيره : 18/ 25 ، وانظر معاني الزجاج : 4/ 14 ، وتفسير الماوردي : 3/ 98 .

(6) أخرج عبد الرزاق هذا القول في تفسيره : 357 عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه ، وكذا أخرجه الطبري في تفسيره : 18/ 26 .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 101 وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وأبي نعيم ، وابن عساكر عن أبي هريرة رضي اللّه عنه .

واستبعد الطبري هذا القول ، فقال : «لأن الرملة لا ماء بها معين ، واللّه تعالى ذكره وصف هذه الربوة بأنها ذات قرار ومعين» .

وقال النحاس في معانيه : 4/ 463 : «والصواب أن يقال : إنها مكان مرتفع ، ذو استواء ، وماء ظاهر» .

ذاتِ قَرارٍ : استواء يستقر عليها . وقيل «1» : ثمارا ، أي : لأجل الثمار يستقرّ فيها .

وَمَعِينٍ : مفعول عنته أعينه «2» ، أو هو «فعيل» من معن «يمعن» ، وهو الماعون للشيء القليل «3» .

52 وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً : سأل سهولة ملتكم وطريقتكم في التوحيد وأصول الشرائع . وفتح أن «4» على تقدير : ولأنّ هذه أمّتكم ، أي : فاتقون لهذا «5» ، وانتصاب أُمَّةً على الحال .

53 فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً : افترقوا في دينهم فرقا ، كلّ ينتحل كتابا ويدّعي نبيا .

وعن الحسن «6» : قطّعوا كتاب اللّه قطعا وحرفوه .

وهو في قراءة : زُبُراً «7» ظاهر ، أي : قطعا جمع

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 18/ 28 عن قتادة ، وعقب عليه بقوله : «و هذا القول الذي قاله قتادة في معنى ذاتِ قَرارٍ وإن لم يكن أراد بقوله : إنها إنما وصفت بأنها ذات قرار لما فيها من الثمار ، ومن أجل ذلك يستقر فيها ساكنوها ، فلا وجه له نعرفه» .

(2) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 237 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 297 ، وتفسير الطبري : 18/ 28 ، ومعاني القرآن للنحاس : 4/ 464 .

(3) ذكره الطبري في تفسيره : 18/ 28 ، والزجاج في معانيه : 4/ 15 ، واستبعده بقوله : وهذا بعيد لأن «المعن» في اللغة الشيء القليل ، والماعون هو الزكاة ، وهو «فاعول» من المعن ، وإنما سميت الزكاة بالشيء القليل ، لأنه يؤخذ من المال ربع عشره ، فهو قليل من كثير» .

(4) وهي قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبي عمرو ، كما في السبعة لابن مجاهد : 446 ، وحجة القراءات : 488 ، والتبصرة لمكي : 270 . [. . . . .]

(5) ذكر المؤلف – رحمه اللّه – هذا القول في كتابه وضح البرهان : 2/ 102 عن الخليل .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 4/ 15 ، والتبيان للعكبري : 2/ 956 .

(6) أورد السيوطي هذا المعنى في الدر المنثور : 6/ 103 عن الحسن ، وعزا إخراجه إلى عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه .

(7) بضم الزاي وفتح الباء ، وهي قراءة شاذة .

انظر غرائب التفسير للكرماني : 2/ 779 .

ونسبها النحاس في معاني القرآن : 4/ 466 إلى الأعمش ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 10/ 367 إلى أبي عمرو ، والأعمش ، وكذا القرطبي في تفسيره : 12/ 130 ، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير : 5/ 478 إلى ابن عباس ، وأبي عمران الجوني .

وأشار الطبري – رحمه اللّه – إلى هذه القراءة فقال : «وقرأ ذلك عامة قراء الشام . . .

بمعنى : فتفرقوا أمرهم بينهم قطعا كزبر الحديد ، وذلك القطع منها واحدتها «زبرة» من

قول اللّه : آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ فصار بعضهم يهودا ، وبعضهم نصارى .

والقراءة التي نختار في ذلك قراءة من قرأه بضم الزاي والباء لإجماع أهل التأويل في تأويل ذلك

على أنه مراد به الكتب ، فذلك يبين عن صحة ما اخترنا في ذلك لأن «الزبر» هي الكتب ،

يقال منه : زبرت الكتاب : إذا كتبته» اه . انظر تفسيره : 18/ 30 .

(76/530)

«زبرة» «1» . ك «برمة» و«برم»» .

56 نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ : نقدّم لهم ثواب أعمالهم لرضانا عنهم ! ! .

بَلْ : لا ، بل للاستدراج والابتلاء .

61 وَهُمْ لَها سابِقُونَ : لأجلها سبقوا الناس ، أو سبقوا إلى الجنّة «3» .

63 وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ : من دون ما ذكروا بها من أعمال البرّ .

66 تَنْكِصُونَ : ترجعون إلى الكفر .

67 مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ : أي : بالحرم «4» ، أي : بلغ أمركم أنكم تسمرون

(1) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 60 ، وغريب القرآن لليزيدي : 266 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 298 ، والكشاف : 3/ 34 .

(2) في اللسان : 12/ 45 (برم) : «والبرمة : قدر من حجارة ، والجمع برم وبرام وبرم» .

(3) ذكر الماوردي هذين الوجهين في تفسيره : 3/ 100 .

وقال الزجاج في معانيه : 4/ 17 : «فيه وجهان ، أحدهما : معناه إليها سابقون ، كما قال :

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها ، أي : أوحى إليها .

ويجوز : وَهُمْ لَها سابِقُونَ ، أي : من أجل اكتسابها ، كما تقول : أنا أكرم فلانا لك ، أي : من أجلك» .

(4) ذكره الفراء في معاني القرآن : 2/ 239 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 298 .

وأخرجه الطبري في تفسيره : (18/ 38 ، 39) عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وسعيد ابن جبير ، وقتادة ، والضحاك .

بالبطحاء لا تخافون ، وتوحيد سامِراً على المصدر «1» ، أي : تسمرون سمرا كقولك : قوموا قائما ، ويجوز حالا للحرم «2» لأنّ السمر ظلّ القمر «3» ، يقال : جاء بالسّمر والقمر ، أي : بكل شيء .

ويجوز السّامر جمعا «4» ، كالحاضر للحيّ الحلول «5» ، والباقر والجامل جمع البقر والإبل .

تَهْجُرُونَ : أي : القرآن . أو تقولون الهجر وهو البهتان «6» .

و«تهجرون» «7» من الإهجار ، وهو الإفحاش في القول «8» ، وفي الحديث «9» : «إذ طفتم بالبيت فلا تلغوا ولا تهجروا» .

71 بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ : بشرفهم ، بالرسول منهم ، والقرآن بلسانهم «10» .

---

(1) التبيان للعكبري : 2/ 958 .

(2) مشكل إعراب القرآن لمكي : 2/ 504 ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 187 ، والتبيان للعكبري : 2/ 958 .

(3) ذكره الزجاج في معانيه : 4/ 18 ، وكذا النحاس في معاني القرآن : 4/ 475 .

(4) وهو قول المبرد في الكامل : 2/ 799 ، وقال : «وهم الجماعة يتحدثون ليلا» .

وانظر معاني القرآن للنحاس : 4/ 475 ، وتهذيب اللّغة للأزهري : 4/ 199 ،

واللسان :

4/ 197 (سمر) .

(5) في تهذيب اللغة : 4/ 199 : «والعرب تقول : حيّ حاضر بغير هاء إذا كانوا نازلين

على ماء عدّ . . .» .

(6) عن معاني القرآن للزجاج : 4/ 18 .

(7) بضم التاء وكسر الجيم ، وهي قراءة نافع كما في السبعة لابن مجاهد : 446 ، وحجة

القراءات : 489 ، والتبصرة لمكي : 270 . [. . . . .]

(8) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 299 ، والكشف لمكي : 2/ 129 ،

والنهاية :

5/ 246 ، واللسان : 5/ 251 (هجر) .

(9) ذكره أبو عبيد في غريب الحديث : 2/ 64 موقوفا على أبي سعيد الخدري رضي

اللّه عنه .

وهو - أيضا - في غريب الحديث لابن الجوزي : 2/ 489 ، والنهاية : 5/ 246 .

قال ابن الأثير : «يروى بالضم والفتح» .

(10) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 3/ 103 .

وانظر معاني القرآن للفراء : 2/ 239 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 299 ، وتفسير الطبري : 18/ 43 ، ومعاني الزجاج : 4/ 19 .

(78/530)

---

76 فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ : بالجدب الذي أصابهم بدعائه عليه السلام «1» .

77 باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ : يوم بدر «2» .

87 سيقولون اللّه : لمطابقة السؤال في مَنْ ، وذكر أنه في مصاحف الأمصار بغير ألف ، إلّا مصحف أهل البصرة «3» ، فيكون على المعنى كقولك : من مولاك ؟ فيقول : لفلان «4» .

---

(1) ثبت ذلك في أثر أخرجه النسائي في تفسيره : 2/ 100 (السنن الكبرى) عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، وكذا الطبري في تفسيره : (18/ 44 ، 45) ، والطبراني في المعجم الكبير :

11/ 370 حديث رقم (12038) .

وأخرجه الحاكم في المستدرك : 2/ 394 ، كتاب التفسير ، وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول :

362 ، والبيهقي في دلائل النبوة : 4/ . 81

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 111 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 18/ 45 عن ابن عباس ، وابن جريج .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 104 ، عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 112 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما .

قال ابن عطية في المحرر الوجيز : 10/ 389 : «و «العذاب الشديد» إمّا يوم بدر بالسيوف كما قال بعضهم ، وإما توعد بعذاب غير معين ، وهو الصواب لما ذكرناه من تقدم بدر للمجاعة» .

(3) قرأ أبو عمرو بن العلاء البصري ، من السبعة ، ويعقوب من القراء العشرة بإثبات الألف في لفظ الجلالة ، وقرأ الباقون : لِلَّهِ بغير ألف .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 447 ، وحجة القراءات : 490 ، والتبصرة لمكي : 270 ، والغاية في القراءات العشر لابن مهران : 216 ، والنشر : 3/ 206 .

وأورد الطبري – رحمه اللّه – القراءتين ثم قال : «و الصواب من القراءة في ذلك أنهما قراءتان قد قرأ بهما علماء من القراء متقاربتا المعنى ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب ، غير

أني مع ذلك أختار جميع ذلك بغير ألف ، لإجماع خطوط مصاحف الأمصار على ذلك ، سوى خط مصحف أهل البصرة» .

(تفسير الطبري : 18/ 48) .

(4) ينظر هذا المعنى في تفسير الطبري : (18/ 47 ، 48) ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 20 .

(79/530)

---

97 هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ : دفعهم/ بالإغواء إلى المعاصي .

100 وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ : من أمامهم حاجز ، وهو ما بين الدنيا والآخرة «1» أو ما بين الموت والبعث «2» .

101 وَلَا يَتَسَاءَلُونَ : أن يحمل بعضهم عن بعض ، ولكن يتساءلون عن حالهم وما عمّهم من البلاء ، كقوله «3» : فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ .

وسألت عائشة رضي اللّه عنها : يا رسول اللّه أإنا نتعارف ؟ فقال :

«ثلاث مواطن تذهل فيها كلّ نفس : حين يرمى إلى كلّ إنسان كتابه ، وعند الموازين ، وعلى جسر جهنم» «4» .

و«اللّفح» «5» : إصابة سموم النّار «6» ، و«الكلوح» : تقلّص الشفتين عن الأسنان «7» .

---

(1) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 62 ، واليزيدي في غريب القرآن : 268 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 300 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 18/ 53 عن الضحاك .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 18/ 53 عن مجاهد ، وابن زيد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 105 عن ابن زيد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 115 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة ، وهناد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وأبي نعيم عن مجاهد .

(3) سورة الصافات ، آية : 50 .

(4) لم أقف عليه بهذا اللفظ ، وأخرج - نحوه - الإمام أحمد في مسنده : 6/ 110 ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد : (10/ 361 ، 362) ثم قال : رواه أحمد ، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف ، وقد وثّق ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(5) من قوله تعالى : تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيها كالِحُونَ [آية : 104] .

(6) ينظر المفردات للراغب : 452 .

(7) ورد هذا المعنى في حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : 3/ 88 عن أبي سعيد

الخدري رضي اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته» .

وأخرجه - أيضا - الترمذي في سننه : 5/ 328 ، كتاب التفسير ، باب «ومن سورة المؤمنون» ، وقال : «هذا حديث حسن صحيح غريب» .

والحاكم في المستدرك : 2/ 395 ، كتاب التفسير ، وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 118 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في «صفة النار» ، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعا .

وانظر تفسير الطبري : (18/ 55 ، 56) ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 23 .

[. . . . .]

(80/530)

---

108 اخْسَؤُا : اسكتوا وابعدوا . خسأته فخسأ وخسئ وانخسأ «1» .

114 إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا : في الدنيا ، أو في القبور بالإضافة إلى لبثهم في النّار «2» . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 584.594 ﴾

(1) ينظر تفسير الطبري : 18/ 59 ، ومعاني الزجاج : 4/ 24 ، ومعاني النحاس : 4/ 488 .

(2) أورد الماوردي القولين في تفسيره : 3/ 106 دون عزو .

وانظر تفسير البغوي : 3/ 319 ، وزاد المسير : 5/ 495 ، وتفسير القرطبي : 12/ 155 .

(81/530)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة المؤمنين

عدد 24 - 74 و23

نزلت بمكة بعد سورة الأنبياء ، وهي مئة وثماني عشرة آية ، وثمنمئة وأربعون كلمة ، وأربعة آلاف وثمنمئة حرف وحرفان ، لا يوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدئت به ، ولا مختومة بما ختمت به من الجمل ، ولا مثلها في عدد الآي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ" 1 فازوا وظفروا بمطلوبهم وخلصوا ونجوا مما يرهبون ،

وهؤلاء المفلحون هم "الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ" 2 للّه خاضعون لهيبته خائفون منه متذللون إليه طلبا لقبولها منهم .

مطلب الخشوع في الصلاة والمحافظة عليها والزكاة ولزوم أدائها والأمانة والعهد والحكم الشرعي فيهما :

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي اللّه عنها وعن أبيها قالت : سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة ، فقال اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد .

وأخرج أبو داود والنسائي عن أبي ذر رضي اللّه عنه عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : لا يزال اللّه مقبلا على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت ، فإذا التفت انصرف عنه .

ولهذا أجمعت الفقهاء على أن وقوع ثلاث حركات متوالية من المصلي تبطل صلاته .

وقد حذر حضرة الرسول من العبث في الصلاة ، فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم مما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم ! فاشتد قوله في ذلك ، حتى قال لينتهينّ عن ذلك أو لتخطفنّ أبصارهم .

واعلم أن الخشوع هو جمع الهمة والإعراض عن سوى اللّه والتدبر فيما يجري على لسانه من

القراءة والذكر ، لأن من لا يتدبر القراءة لا يعرف معناها ، ومن لم يعرف معناها لا يخشع لها ، ومن لا يخشع لها فكأنه لم يقرأ .

(82/530)

وأعلم أن المصلي إذا عرف نفسه أنه واقف بين يدي اللّه العظيم بالغ في الخشوع والخضوع والخوف ، فقد ذكر البغوي أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أبصر رجلا يعبث بلحيته في الصلاة ، فقال لو خشع قلبه لخشعت جوارحه .

وأخرج الحكيم الترمذي من طريق القاسم بن محمد عن أسماء بنت أبي بكر عن أم رومان والدة عائشة رضي اللّه عنها قالت : رآني أبو بكر أتميل في صلاتي فزجرني زجرة كدت أنصرف من صلاتي ، ثم قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول إذا قام أحدكم في الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميّل تميل اليهود ، فإن سكون الأطراف في الصلاة من تمام الصلاة .

ومن الخشوع عدم كفّ الثوب والتمطي والتثاؤب والتغطية للفم والسدل والفرقعة والتشبيك وتقليب ما يسجد عليه ، ومهما أمكن أن لا يخطر في قلبه غير ما هو فيه ، وان يتعلق بالآخرة ، لأن الخشوع محله القلب ويظهر عدمه بحركات الجوارح وهو من السنن

المؤكدة في الصلاة .

وقال بعض العلماء بوجوبه وفرضيته .

قال تعالى "وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ" هو كل كلام ساقط من هزل وشتم وكذب وما لا يعتد به من الكلام ، والذي يصدر عن غير رويّة وفكر باطلا أو غير باطل .

راجع ما بيناه في هذه في الآية 72 من سورة الفرقان ج 1 وفي الآية 67 من سورة الأنعام المارة ، وله صلة في الآية 11 من سورة النور في ج 3 ، "مُعْرِضُونَ" 3 في عامة أوقاتهم وفي الصلاة خاصة ليحصل لهم فيها الفعل والترك الشاقّين على النفس

(83/530)

اللذين هما قاعدتا التكليف وبناؤه "وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ" 4 مداومون عليها محافظون على أوقاتها وأدائها ، ولا محل للقول بأن الزكاة لم تفرض بعد ، لأن السورة مكية وقد فرضت في المدينة ، وإن القصد هنا هو تزكية النفس من الأفعال المشينة لها وأنها على حد قوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى) الآية من سورة الأعلى في ج 1 ، وقوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) الآية من سورة والشمس المارة في ج 1 أيضا لأن القرآن يفسر بعضه بعضا ، ولا ينبغي العدول عن ظاهره وعن تفسير بعضه لبعض ما أمكن ، وان معنى هذه الآيات على

هذا هو فعل ما تزكى به النفس من المناقب واجتناب ما يشينها من المثالب كلها ليستوجبوا تزكية اللّه تعالى لهم وتطهيرهم من الذنوب والنقائص والعيوب ، لأن المراد وصفهم بالزكاة المطلقة التي هي عبادة مالية ، وقد ذكرنا غير مرة عند ذكر لفظ الزكاة أي القصد منها ما كان متعارفا عندهم إنفاته قبل الإسلام غير الزكاة المفروضة على هذه الأمة ، لأن العرب كانت تزكي زكاة تلقتها عن أوائلهم ، قال أمية بن الصلت :

المطعمون الطعام في السنة الأزمة والفاعلون المزكوات

(84/530)

و لم يرد عليه أحد ، فلو لم تكن معروفة عندهم لردوا عليه لأنهم لا يسكتون إذا سمعوا غير الواقع ، وتفسير ما نحن فيه بمعنى الآيتين المذكورتين آنفا بعيد ، لأنهما ليستا مما نحن فيه ، ولأن اقتران وصفهم بالصلاة التي هي عبادة بدنية ينادى على أن المراد وصفهم بأداء الزكاة التي هي عبادة مالية ، وعليه يكون المعنى الفاعلون لأدائها لمستحقيها بأوقاتها عن طيب نفس طلبا لثوابها ، وعلى هذا فلا يقال أيضا إن حضرة الرسول وأصحابه طيلة وجودهم في مكة لم يزكوا مع توالي نزول الآيات التي هي من هذا القبيل عليهم ، بل كانوا يزكون ، لأن الرسول كان فيما لم يؤمر به يجري فيه على طريقة إبراهيم عليه السلام وشريعته ، وهل يمكن

أن يقال لا زكاة في شريعة من الشرائع ؟ كلا ، ولكنهم كانوا يتصدقون بما يتيسر لهم من جهدهم ، لأن أكثرهم فقراء معدمون ، ولذلك لم يشتهر عنهم فعل الزكاة في مكة .

هذا ، ولفظ الزكاة يصرف على إنفاق المال حقيقة ، وصرفها لغير هذا المعنى مجاز ، ولا يعدل عن الحقيقة إلا إذا تعذرت ، وهي غير متعذرة هنا .

قال تعالى "وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ"

5 عن كل ما حرم اللّه قاصرون على ما أحله لهم والفرج مطلق الشق بين الشيئين ، ثم أطلق على سوءتي الرجل والمرأة ، وحفظهما التعفف عن الحرام ، ثم استثنى جل شأنه فقال "إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيمانُهُمْ" من الجواري والإماء ملكا حقيقيا ، لأنه من الحلال .

وهذه الآية خاصة بالرجال بحسب الظاهر ، لأن النساء لا يسوّغ لهن ذلك ، فلا يجوز أن يستمتعن بما ملكت أيمانهن من العبيد والإماء بالإجماع .

أخرج عبد الرزاق عن قتادة قال :

تسرّت امرأة غلاما ، فذكرت لعمر رضي اللّه عنه ، فسألها ما حملك على هذا ؟

فقالت كنت أرى أنه يحل لي ما يحل للرجال من ملك اليمين ، فاستشار عمر رضي اللّه عنه أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فقالوا تأولت كتاب اللّه على غير تأويله (أي لا حدّ عليها لأن التأويل يدرا الحد ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم ادرءوا الحدود بالشبهات) فقال رضي اللّه عنه لا جرم لا أحلك لحر بعده أبدا .

أي أنه جعل عقابها ذلك ودرأ عنها الحدّ وأمر العبد أن لا يقربها .

واعلم أن المرأة إذا كانت متزوجة بعبد فملكته وأعتقته حالة الملك انفسخ النكاح عند فقهاء الأمصار .

وقال النخعي والشعبي وعيد ابن عبد اللّه بن عقبة : يبقيان على نكاحهما .

والمراد بما ملكت أيمانهم السريات الأناثي فقط ، إذ أجمعوا على عدم حل وطء المملوك الذكر ، وإنما عبر عنهن بما دون من إما لعدم اختصاص ما لغير العقلاء لأنهم على الغالب فيهم ، أو لأنهن مثل السلع يبعن ويشترين لعدم الاكتراث بهن أو لأنوثتهن المنبئة عن قلة عقولهن أجرين مجرى غير العقلاء ، هذا إذا كن من الروم والجركس ونحوهم ، أما إذا كن من الزنج والحبش وشبههم فإنهن من نوع البهائم وما نوع البهائم عنهن ببعيد – إلا إذا زكّتهن الهداية – فلا غرو إذا عبر عنهن بما "فَإِنَّهُمْ" إذا لم يحفظوا فروجهم عن إمائهم وجواريهم الإناث "غَيْرُ مَلُومِينَ" 6 على جماعهم هذا الصنف من الإماء والجواري للإذن فيه ، لأن كل ما أذن فيه لا يلام فاعله عليه "فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ" ولم يقتصر على أزواجه وسراريه

وتعدى إلى غير ذلك والعياذ بالله "فَأُولَئِكَ هُمُ العادُونَ" 7 المبالغون في العدوان المتجاوزون حدود اللّه ، لأن هذه الآية دالة على تحريم ما عدا ذلك من الاستمناء باليد وبالدبر من الصنفين وإتيان الحيوانات وكل ما لم يأذن به الشرع .

(86/530)

واعلم أن من قال إن هذه الآية ناسخة لآية المتعة المزعومة في الآية 24 من سورة النساء لا ثقة بقوله ، لأن هذه مكية متقدمة عليها بالنزول ، وتلك الآية مدنية متأخرة عنها ، والمقدم لا ينسخ المؤخر قولا واحدا .

وكذلك القول في الآية 10 من سورة المعارج الآتية لا تكون ناسخة لها للعلة ذاتها والسبب نفسه .

وعلى من يدعي العلم ويقول بالنسخ أن يتثبت من معرفة أحواله وقواعده ثم يقول ، لا انه رجما بالغيب بادىء الرأي ، فيعرض نفسه للقدح والوصم بجرأته على كتاب اللّه المنزه عن كل ثلب .

ولنا بحث في المتعة نبديه إن شاء اللّه في تفسير آية النساء المذكورة أعلاه فراجعه .

قال تعالى "وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ" 8 محافظون لما ائتمنوا عليه من مال وغيره

مراعين به حق اللّه مؤدين له لأربا به حال طلبهم كما استلموه منهم ، إذ لا يجوز لهم التصرف بالأمانة ، وموفون بما عاهدوا اللّه عليه قبل وبعهدهم لرسوله صلّى اللّه عليه وسلم ، ولما عقدوا ويعقدوا بينهم من العهود للمؤمنين وغيرهم مهما كان دينهم ، لأن الوفاء بالعهد واجب لأي كان ، راجع الآية 34 من سورة الإسراء ج 1 والآية 91 فما بعدها من سورة النحل المارة ، وأصل الرعي حفظ الحيوان ، ثم استعير للحفظ مطلقا .

والأمانة منها ما يكون بين العبد وربه كالوضوء والصلاة والصوم وغسل الجنابة وغيرها مما أوجبه اللّه تعالى على عباده مثل البر باليمين ، وما يتعلق بالأقوال التي تحرم بها النساء والإماء ويعتق بها الجواري والعبيد لأنه مؤتمن في ذلك فيما بينه وبين ربه ، قال تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ) الآية 37 من الأنفال في ج 3 ، وقال عليه الصلاة والسلام أعظم الناس خيانة من لم يتم صلاته .

وجاء عن ابن مسعود : أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة .

(87/530)

ومنها ما يكون بين الناس أنفسهم كالودائع والعقود والضائع والأسرار فيجب المحافظة عليها والوفاء بها ، إذ لا فرق بين من يفشي سرا ائتمن عليه ، وبين من يختلس مالا استودعه .

الحكم الشرعي :

وجوب حفظ الأمانة بالمحل الذي يحفظ به ماله من جنسها ، وإذا لم يفعل وطرأ عليها طارئ فإنه يعد مقصرا شرعا ويضمنها إذا سرقت أو تلفت ، ويصدق بردّها بقوله دون حاجة لإقامة حجة ، وإن أقامها براءة لذمته جاز ، وليس للمودع تكليف الوديع بينة على الردّ لأنه استلمها بلا بينة ، ولأن المقصود منه الأمانة ، إذ لا ينبغي لصاحب المال أن يودع ماله إلا عند من اشتهر بالأمانة والديانة وحصلت له الثقة به ، فإذا أودعها عند من ليس من أهلها وأنكرها عليه فلا يلومن إلا نفسه ، لأنه هو الجاني عليها ، وليس للوديع أن يودعها عند غيره بغير إذن المودع أو تفويضه ، فإن فعل ضمن أيضا .

قال تعالى "وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ" 9 بأن يؤدوها بأوقاتها بطهر كامل ويتموا أركانها وشروطها بوجه أكمل ، ولا يعد هذا تكرارا لأنه تعالى وصف أولا الصلاة بالخشوع وأخيرا بالمحافظة ، والمحافظة غير الخشوع ، ولأنها أعظم أركان الدين خصت بمزيد الاعتناء فذكرت مرتين .

الحكم الشرعي : في تاركها كلا الحبس والتفسيق ، وعمدا تهاونا وجحودا لفرضيتها الكفر والقتل حدا ، ولا عذر في تركها ما قدر العبد أن يؤديها ولو بالإيماء ، ويكفي في ذلك لعن تاركها من قبل حضرة الرسول ونفي الأمانة عنه ، ومن لم يحافظ على أركانها وشروطها كان كمن لم يقمها ولم يحافظ عليها ، قال عليه الصلاة والسلام إذا أحسن العبد الوضوء

وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت حفظك اللّه كما حافظت علي وشفعت لصاحبها ، وإذا أضاعها (أي لم يقم بشروطها) قالت أضاعك اللّه كما ضيعتني وتلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها .

(88/530)

أي يوم القيامة إذ تمثل العبادات والأعمال وتجسم "أُولَئِكَ" الذي هذه صفاتهم وهذا شأنهم "هُمُ الْوارِثُونَ" 10 الأخلاق الحميدة والأفعال المجيدة في الدنيا

وهم "الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ" أعلى مراتب الجنة "هُمْ فِيها خالِدُونَ" 11 أبدا ، أخرج الترمذي عن عبادة بن الصامت أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : إن في الجنة مئة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ، ومن فوقها يكون العرش ، فإذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس .

وأخرج أيضا عن عمر بن الخطاب قال :

كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل ، فأنزل اللّه عليه يوما فمكث ساعة ثم سرّي عنه ، فقرأ (قد أفلح المؤمنون) إلى عشر آيات من أولها وقال من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة .

ثم استقبل القبلة

ورفع يديه وقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، اللهم أرضنا وارض عنا .

مطلب مراتب الخلق ، وتعداد نعم اللّه على خلقه :

(89/530)

قال تعالى "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ" آدم عليه السلام بدليل قوله "مِنْ سُلالَةٍ" أي خلاصة "مِنْ طِينٍ" 12 معجون من أنواع تراب الأرض ، ولذلك ترى أولاده الأبيض والأحمر والأسود والأصفر وما بينهما ، والمؤمن والمنافق والكافر والمرائي والمداهن وما بينهما "ثُمَّ جَعَلْناهُ" أي الإنسان "نُطْفَةً" ماء قليلا نحو النقطة من مائي الرجل والمرأة والمراد نسل آدم ، لأنه المخلوق من النطفة لا آدم نفسه "فِي قَرارٍ مَكِينٍ" 13 حصين وهو الرحم لا يتسرب إليه غيرها "ثُمَّ خَلَقْنَا" وسط ذلك الرحم المحرز المصون بتلك "النُّطْفَةَ" فصيرناها "عَلَقَةً" قطعة دم جامد "فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ" المذكورة وصيرناها في مقرها "مُضْغَةً" قطعة لحم صغيرة "فَخَلَقْنَا" تلك "الْمُضْغَةَ" نفسها بأن أحلناها "عِظاماً" وعروقا داخل مقرها المذكور "فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً" سترناها به ، ولذلك قال كسونا لأن اللحم كالكسوة للعظم والعرق

، إذ تتداخل به وتمتد لربط المفاصل بصورة محكمة من فعل الحكيم القدير "ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ" بسبب نفخ الروح فيه وصيرورته حيوانا سميعا بصيرا ناطقا بعد أن كان جمادا ، فهو مباين لحالته الأولى ، ولذلك قال تعالى (خَلْقاً آخَرَ) وفي العطف بثم المفيدة للتراخي إعلام بأن ما بين كل حالة وأخرى احتياج إلى الزمن ، وهو كذلك لما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال حدثنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وهو الصادق المصدوق أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث إليه ملك بأربع كلمات : يكتب رزقه وأجله وشقي أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فو اللّه الذي لا إله إلا هو إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة (فيما يبدو للناس) حتى ما يكون بينه وبينها ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن

(90/530)

أحدكم ليعمل بعمل أهل النار (فيما يبدو للناس)

حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .

واعلم أن جملة فيما يبدو للناس لم تكن في هذا الحديث ، وإنما هي في حديث آخر رواه

البخاري ، ولذلك جعلناها بين قوسين ، ورويا عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال وكل اللّه بالرحم ملكا فيقول أي رب نطفة ، أي رب علقة ، أي رب مضغة ، فإذا أراد اللّه تعالى أن يقضي خلقها ، قال يا رب أذكرا أم أنثى أسقي أم سعيد ، في الرزق ، في الأجل ، فيكتب له ذلك في بطن أمه قال تعالى "فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" 14 المبدعين المصورين المقتدرين الموجدين ، وقد ذكرنا مراتب الخلق في الآية 64 من سورة المؤمن والآية 14 من سورة الأحقاف المارتين فراجعهما .

"ثُمَّ إِنَّكُمْ" أيها الناس "بَعْدَ ذَلِكَ" الخلق وخروجكم من الرحم واستيفاء آجالكم في الدنيا "لَمَيِّتُونَ" 15 ومفارقون هذه الأرض التي نشأتم عليها فتدفنون فيها أو فيما فيها "ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" بعد انقضاء أجلكم في البرزخ كما هو مقدر أزلا "تُبْعَثُونَ" 16 أحياء كما كنتم في الدنيا فتساقون إلى الوقف وتحشرون فيه فتحاسبون وتجازون على ما عملتموه الخير بأحسن منه والشر بمثله ، فعلى العاقل أن يتهيأ للموت لأن أمرا لا تدري متى يغشاك يجب أن تستعد له قبل أن يفاجئك قال تعالى "وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ" سموات سميت طرائق لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم "وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ" 17 لاهين ولا ساهين عن أقوالهم وأفعالهم ، بل كنا ولا نزال متيقظين لحفظ أعمالهم ونحصيها عليهم كما نحفظهم في حياتهم حتى يبلغوا أجلهم وما قدر إليهم في الدنيا ويستوفونه كاملا .

قال تعالى "وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ" لحاجة البشر وزروعهم وأنعامهم ومنافعهم "فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ" وجعلناه ينابيع عيونا وأنهارا متنوعة ، ونظير هذه الآية بالمعنى الآية 22 من الزمر المارة "وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ" 18 كقدرتنا على إنزاله وإسلاكه في الأرض والإعادة أهون من الابتداء لأنه إبداع على غير مثال سابق والإعادة إرجاع الشيء لأصله وهو سهل على كل مبدع "فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ"

19 شتاء وصيفا رطبا ويابسا "وَشَجَرَةً" أنشأناها لكم أيضا "تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ" جبل بفلسطين ملتف بالأشجار وكل ما هو كذلك يسمى سينا "تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ" الزيت لأن ثمرها الزيتون والدهن يعصر منه فكأنها نبتت به "وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ" 20 أدام يصبغ الخبز بصفاره الصافي البديع ، قالوا

إن أول شجرة ثبتت في الأرض بعد الطوفان هي الزيتون ، وقالوا إنها تعيش ثلاثة آلاف سنة ، ويدل على هذا تأخر إعطائها الثمر ، والزيتون الموجود الآن بقضاء الزوية يسمّونه الروماني ، ويقولون إنهم تلقوه عن أجدادهم الذين لا يعرفون تاريخ زرعه ، وإذا أنعم الإنسان النظر فيه يصدق عقلا بأنه من زرع الرومان الذين كانوا في تلك المنطقة لما يرى من كبر أشجاره وتعميرها ، ومن موقعه وأرضه والله أعلم .

قال تعالى بعد أن عدد هذه الصفات العشر التي ينبغي أن يتحلّى بها الإنسان وبيّن أحوال خلقه ومآلهم وعودهم إلى خالقهم وأفهمهم بأنه كما كان أصل الإنسان من الماء فكذلك الأشجار أصلها من الماء ، وبين ما أودعه في السموات والأرض من منافع إليه ، ذكر ما خلقه أيضا لأجله فقال "وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها" إذ نخرج لكم منها لبنا خالصا ، راجع الآية 66 من سورة النحل المارة وقد بين فيها سبب تذكير الضمير هناك وتأنيثه هنا "وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ" جليلة من ثماد ودثار وظلال ولباس وزينة ورياش "وَمِنْها تَأْكُلُونَ" 21 وتشربون أيضا ، وقد حذف الشرب لدلالة الأكل عليه عَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ"

32 برا وبحرا ، وتقدم أيضا في الآية 6 من سورة النحل ما يتعلق بهذا فراجعه ، كما بينّا ما يتعلق بالسماوات في الآية 45 من سورة الذاريات المارة ، وسيأتي لها بحث في الآية 12 من سورة النبأ الآتية والآية 25 من سورة النازعات والآية 5 من سورة والشمس الآتيتين وفيها ما يرشدك إلى المواضع الأخرى .

قال تعالى "وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا

تَتَّقُونَ" 13 عقابه ، تأكلون رزقه وتعبدون غيره "فَقَالَ الْمَلَأُ" أشراف قومه لأن أكثر ما يصيب الضعفاء

(93/530)

بذنوب الأكابر لأنهم القادة والسادة وإليهم الأمر والنهي طلبا لما عندهم من المال والجاه ، ثم فسر الملأ بقوله "الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا" نوح وقومه الذين يدعونكم إلى عبادة ربهم "إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ" بدعوته لتكون الرياسة له عليكم وتكونوا أتباعا له "وَلَوْ شاءَ اللَّهُ" أن يرسل أحدا لدعوة خلقه إلى عبادته كما يزعم نوح "لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً" يدعونهم إليه لا بشرا مثلنا "ما سَمِعْنا بِهذا" الذي يدعو إليه نوح "فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ" 24 ولم ينقل لنا عنهم أحد شيئا من هذا "إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ" فلا تسمعوا قوله أيها الناس اتركوه وشأنه "فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ" 25 موته أو إلى أن يتبين لكم حاله عند صحوه من جنونه فإذا أصر على قوله قتلناه ، فلما سمع هذا منهم ويس من إيمانهم دعا ربه بإهلاكهم ، فأهلكهم كما قدمنا في القصة الواردة في الآية 26 من سورة نوح المارة .

(94/530)

وفيها ما يرشدك إلى توضيحها في الآية 35 من سورة هود ، وقال تعالى حاكيا عن نبيه بما معناه بالآية 37 من سورة الفرقان في ج 1 "قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ 26 فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا" على مرأى منا "وَوَحْيِنا" بكيفية صنع السفينة "فَإِذا جاءَ أَمْرُنا" بعذاب قومك غرقا "وَفارَ التَّنُّورُ" تقدم بيانه ومكانه وكيفية الغرق ومدته ومكان السفينة ومرساها في الآية المذكورة في سورة هود فما بعدها "فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ" من أصناف الحيوان "زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ" ومن آمن بك احملهم معك "إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ" فلا تحمله معك وهم زوجته واعلة وابنه كنعان كما مر أيضا هناك "وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا" من قومك "إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ" 27 جميعا حيث حق القول عليهم مر تفسير مثلها في الآية 37 من سورة هود أيضا "فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" 28 أنفسهم بكفرهم وعصيانهم "وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ" 29 لأنا ضيوفك فهيئ لنا مكانا ، من خيراتك ، وكثر لنا نسلنا

فيه نكثر من عبادتك ، وإنما وصفه بالأخيرية لأن المضيف يكرم أضيافه ويحتاط بأمرهم ، ولكن لا يقدر أن يكلأهم في سائر أحوالهم ويدفع عنهم المكاره في تقلّباتهم مثل الإله القادر على ذلك وغيره "إِنَّ فِي ذلِكَ" إنجاء نوح ومن معه وإغراق قومه وابنه وزوجته "لَآياتٍ"

عظيمات دالات على كمال القدرة وموجبات العظة والعبرة "وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ" 30 الناس ومختبريهم وممتحنيهم بإرسال الرسل لتنظر هل يسمعون لهم او يعرضون عنهم ، وهذا بالنسبة للخلق ، وأما الخالق فهو عالم بذلك قبل كونه .

(95/530)

وإن هنا مخففة من الثقيلة ، واللام فيها بعدها اللام الفارقة بين النافية والمخففة ، وما قيل إنها نافية فليس بشيء ، لأن النافية لا يليها اللام والجملة حالية

"

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ" 31 هم قوم عاد "فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ" هود عليه السلام فقال لهم "أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ" 32 الله ولا تخافون أن يهلككم كما أهلك قوم نوح قبلكم "وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ" وحضورهم لدينا بالموقف العظيم وجحدوا الحساب والعقاب "وَأَتْرَفْناهُمْ" نعّمناهم ووسعنا عليهم "فِي الْحَياةِ الدُّنْيا" وبلغناهم آجالهم وما قدر لهم فيها ، ومقول القول "ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ" 33 منه حذف من الثاني بدلالة الأول يريدون أن الرسل لا تكون من البشر بل من الملائكة كما قال من قبلهم إذ

تشابهت قلوبهم ، فكل ما نطق به الأوائل تدرج إلى الأواخر فتكلموا به ، ولهذا قالوا الكفر ملّة واحدة ، أي من حيث الأصول ، وقال أيضا بعضهم لبعض "وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ" 34 مكانتكم وسطوتكم ، وهذا هو المانع الحقيقي لهم ولغيرهم من الإيمان باللّه ورسله ، أعماهم اللّه أنفوا من الانقياد إلى من هو مثلهم في الأصل وقد شرفه اللّه بالرسالة وعبدوا أعجز منهم لأجل الدنيا ، ولو اهتدوا بهدى أنبيائهم لربحوا الدنيا والآخرة ، لأن الأنبياء لا يريدون الرياسة التي هي من شأنهم ، ولم يقصدوا بدعوتهم التفوق عليهم ،

وقال أيضا بعضهم لبعض غافلين عن كيفية إيجادهم "أَيَعِدُكُمْ" هذا الرسول

(96/530)

"أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ" 35 من قبوركم أحياء كما كنتم في الدنيا "هَيْهاتَ هَيْهاتَ" أي بعد بعدا بعيدا "لِما تُوعَدُونَ" 36 من البعث بعد الموت وإكسابكم حياة ثانية ، خذلهم اللّه نسوا خلقهم من العدم على طريقة الإبداع وجحدوا إعادتهم لحالتهم الأولى وقالوا عتوا وعنادا "إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا" لا حياة بعدها أبدا "نَمُوتُ وَنَحْيا" أي أيعقل أن نموت ثم نحيا ؟ كلا لا صحة لهذا ، والمعنى على ما ذكره

المفسرون نحيا ونموت على أن العطف بالواو لا يفيد ترتيبا ولا تعقيبا ، للعلم بأن الإحياء أولا ثم الإماتة ، وأرى أن الأول أولى لقولهم "وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ" 37 بعد موتنا أبدا "إِنْ هُوَ" وقالوا أيضا ما هذا الذي يدعوكم إلى هذه الدعوة المبتدعة "إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً" بقوله بوجود حياة أخرى "وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ" 38 بمصدقين اختلاقه وافتراءه ولا نسمع لقوله ، ولما أيس منهم دعى عليهم "قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ" 39 فأجاب الله دعاءه "قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ" 40 على تكذيبهم لك "فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ" من السيد جبريل عليه السلام فتصدعت لهولها قلوبهم فأهلكوا جميعا ، قال الشاعر :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذقان

قال تعالى "فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً" بتخفيف الثاء أي يابسين كالأوراق والعيدان التي يجرفها السيل وبالتشديد أيضا ، قال امرئ القيس :

كأن ذرى رأس المجيمر غدوة من السيل والغثّاء فلكة مغزل

والمجيمر جبل من جبال بني أسد "فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" 41 أي هلاكا ، من المصادر المنصوبة بأفعال لا ينطق بها ولا تكتب ولا يستعمل إظهارها .

(97/530)

"ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ" 42 أيضا وأرسلنا إليهم رسلا فكذبوهم ، وهذه كالتسلية لحضرة الرسول محمد صلّى اللّه عليه وسلم لئلا يضيق صدره من تكذيب قومه ليتأسى بمن قبله وقبلهم ، وكل من هذه القرون أهلكت بأجلها المعين لها في علم اللّه المقدر على تكذيبهم لرسلهم أيضا ، لقوله تعالى "ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها" المقدر لإهلاكها "وَما يَسْتَأْخِرُونَ" 43 عنه لحظة واحدة "ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا" واحدا بعد واحد متتابعين غير متواصلين إذ جعلنا بين كل رسول وآخر فترة ، بأن كان إرسال كل رسول متأخرا عن إنشاء قرن مخصوص به كما يدل عليه قوله "كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً" بالإهلاك "وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ" لمن بعدهم يتسامرون بشأنهم "فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ" 44 باللّه ولا يصدقون رسله "ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَأَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ" 45 واضح بقوة وحجة وبرهان عظيم

(98/530)

"إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا" عليهما وأنفوا منهما وتعاظموا "وَكانُوا قَوْماً عالِينَ" 46 بزعمهم على غيرهم وذى سلطان أكبر من غيرهم "فَقالُوا" على طريق الاستفهام الإنكاري "أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ" 47 أي كيف يكون ذلك وهل يتبع الأعلى

الأدنى منه ؟ كلا ، وهذه الجملة حالية ، وكان عندهم أن كل من دان لملك فهو عابد له ، وعند العرب كذلك "فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ" 48 غرقا ، وتقدمت قصص هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم ، وكيفية دعوتهم وإهلاكهم في الآية 59 فما بعدها من سورة الأعراف ج 1 فراجعها ، "وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ" أي قومه "يَهْتَدُونَ" 49 فمنهم من هدى اللّه ومنهم من حقت عليه الضلالة "وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً" دالة على قدرتنا لأنا أوجدناه من غير أب ، ولم يقل آيتين للسبب الذي أشرنا إليه في الآية 91 من سورة الأنبياء المارة ، ولما عرب هو وأمه إلى مصر خشية تسلط أعدائه عليه حفظناهما منهم "وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ" مكان مرتفع في مصر قرب النيل .

مطلب هجرة مريم بعيسى عليهما السلام إلى مصر ، وأن الذي أمر اللّه به الأنبياء أمر به المؤمنين ، وأن أصول الدين متساوية :

وذلك أنه عليه السلام بعد أن أتت به أمه من بيت لحم محل ولادته إلى قريتها الناصرة وأظهر اللّه له المعجزات ، كان الجبار هيدروس أمر بقتل الأطفال الذين ولدوا في بيت لحم ، لما أخبر أن منهم من يصير سببا لخراب ملكه ، كما فعل قبله النمروذ وفرعون ، وعلمت أمه أنه يريد قتله انتدبت الرجل الصالح يوسف النجار وهربها إلى مصر .

وليس المراد بهذه الربوة بيت لحم إذ لا ماء جار فيها كما أشرنا إليه في الآية 24 من سورة مريم في ج 1 ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى (وَآوَيْنَاهُمَا) إلخ يعني لمصر ، لأنها خزائن الأرض كلها وسلطانها سلطان الأرضين كلها ، ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام (اجعلني على خزائن الأرض) الآية 55 من سورته المارة ، ففعل فأغاث الناس بمصر وخزائنها .

ولم يذكر اللّه تعالى مدينة بعينها بمدح إلا مكة ومصر ، وهذا هو الصحيح ، واللّه أعلم .

إذ ليس المراد هنا محل الولادة ، بل محل الهجرة ، لأن اللّه تعالى أخبر في هذه الآية بأنه هو وأمه ، وأنها لما ذهبت به إلى بيت لحم لم يكن مولودا حتى ينوه به وبقي في مصر حتى بلغ أشده أتى به وأمه إلى الأرض المقدسة ليبث دعوته في قريته الناصرة وما حولها .

قالوا إن قرية الناصرة وصخرة بيت المقدس أقرب مواقع الأرض المقدسة من السماء بثمانية عشر ميلا ، ومن هذه القربة اشتق اسم النصارى "ذاتِ قَرارٍ" من الأرض "وَمَعِينٍ" 50 ماء جار هو نهر النيل ، ومن ظن أن هذه الآية تدل على محل الولادة لا على محل الهجرة ، فسر (السرى) في سورة مريم بجدول ماء من حيث لا جدول ماء هناك كما ذكرناه فيها ، وإنما هذا المعين في المحل الذي آواهما إليه كما أشرنا إليه أعلاه .

هذا ولما أنهى ما قصه اللّه على رسوله من أخبار بعض الأنبياء وأممهم ، شرع يخاطبه ضمن

الرسل كافة بأن يداوم على ما هو عليه بقوله "يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً" لأنفسكم وأممكم والناس أجمعين ، وهم لا شك يعملون ذلك كله ، وإنما المراد أمرهم بالدوام على ما هم عليه ، وعدم الالتفات لتكذيب أقوامهم ومخالفتهم لهم "إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ" 51 ويجوز أن يراد بهذا الخطاب أقوامهم أيضا لما فيه من معنى التحذير ، على أن الخطاب للرسل خطاب لأقوامهم .

(100/530)

روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن اللّه تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن اللّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) الآية ، وقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمدّ بصره إلى السماء ، يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب ؟ .

وذلك لأن أكل الحلال من شروط الاستجابة التي لا بد منها ، كما سيأتي في الآية 186 من سورة البقرة في ج 3 ، فكيف إذا كان كلّه حراما أيستجاب له ؟ كلا ثم كلا .

إلا أن يشاء اللّه القائل "إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً" تقدم مثلها في الآية 92 من سورة الأنبياء

المارة ، وقال تعالى (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً) الآية 13 من سورة الشورى المارة ، وقال تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) الآية 163 من سورة النساء في ج 3 ، فيفهم من هذا ومما قدمناه في آية الأنبياء ، أن الشرائع كلها من حيث أصول الإيمان كالاعتراف بالوحدانية للّه وإرسال الرسل والمعاد واحدة لا فرق بينها أصلا ، وهو كذلك ، لأن الاختلاف الحاصل عبارة عما يتعلق في هذه الأصول مما هو رحمة وتخفيف للأمة بما يوافق العصور وأهلها ، وفي الفروع المتعلقة بأنواع العبادات المالية والبدنية والمشتركة ، قال تعالى (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها) الآية 107 من البقرة في ج 3 ، ومن هنا أخذت قاعدة : تتبدل الأحكام بتبدل الأزمان ، ومنها قاعدة تعديل القوانين الموقتة بما يوافق المصلحة للدولة والأمة ، وقدمنا ما يتعلق في هذا في الآية 13 من سورة الشورى فراجعها .

(101/530)

"وَأَنَا رَبُّكُمْ" الإله الواحد الذي لا رب غيره "فَاتَّقُونِ" 52 لا تخالفوا أمري وأمر النبي المرسل إليكم من قبلي إذ يبلغكم كلامي الذي هو من حيث الأس واحد أيضا ، "فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً" قطعا مختلفة وأديانا متفرقة وصار "كُلُّ حِزْبٍ" منهم "بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ" 53

لزعمهم أن ما هم عليه هو الحق ، وما سواء باطل ، لأنهم لم يتفقوا على ما أمروا به من قبل الرسل مما هو متعلق بأمر الدين ، فتفرقوا وتعادوا من أجل هذا التحزب ، وهكذا مصير كل أمة تتحزّب وتتفرق ، ولهذا أمر الرسول بجمع الكلمة ، وقال : الجماعة رحمة والفرقة عذاب ، راجع الآية 30 من سورة المؤمن المارة ، لأن الدين في الأصل كله واحد كما أن الرب واحد ، وما يأتيهم من قبل الرسل واحد ، لأنه من الرب

الواحد ، وهذه الآية تشعر بذمّهم لأنهم آمنوا ببعض ما في كتبهم وكفروا ببعض ، فسببوا تشتيت الكلمة وانحاز كل منهم إلى جهة ترمي بخلاف ما عليه الحزب الآخر .

وتؤذن هذه الآيات بأن قوم محمد صلّى اللّه عليه وسلم تقولوا فيه الأقاويل ، واختلفوا فيما بينهم بشأنه وشأن كتابه وربه عز وجل ، فاتبعوا الباطل وعملوا عن الحق الذي جاءهم به .

وإذا كان هذا شأنهم يا حبيبي "فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ" غفلتهم وجهلهم وعماهم "حَتَّى حِينٍ" 54 انقضاء الأجل المضروب لهم "أَيَحْسَبُونَ" المؤمنون من قومك "أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ" نمنح به هؤلاء الكفرة "مِنْ مالٍ وَبَنِينَ" 55 في هذه الدنيا هو خير لهم ؟ كلا ، قال تعالى (فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ) الآية 55 من سورة التوبة ج 3 ، وإذا كان هذا شأنهم فاعلم يا سيد المرسلين أنا نحن إله الكل وإنّا كنا ولا زلنا

"نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ" لا لرضانا عنهم بل لنستدرجهم بها ولينهمكوا في معاصيهم ونزداد سخطا عليهم (إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً) الآية 178 من آل عمران في ج 3 "بَلْ لا يَشْعُرُونَ" 56 أن ذلك لشرهم لأنهم أشباه البهائم يصرفون وجودهم لشهواتهم ولا يتأملون فيما ينفعهم ويضرهم ، والاستدراك في قوله أيحسبون أي لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتدبروا عاقبة أمرهم ويعملوا ما ندر لهم من الخير ، هل هو استدراج أو مسارعة في الخير ؟ وهذه الآية على حدّ قوله تعالى (وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ) الآية المكررة في سورة التوبة من ج 3 ، وهي حجة على القائلين أن اللّه تعالى لا يفعل إلا ما هو الأصلح للعبد ، لأنها تصرح أن هذا العمل الذي أراده اللّه لهؤلاء ليس بأصلح لهم في دينهم ؟

وقد ألمعنا لهذه الآية في الآية 19 من سورة الأنعام المارة ، وفيها ما يرشدك لمراجعة المواضع المفصل بها هذا البحث فراجعها ، قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ" 57 خائفون وجلون "وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ" 58 إيمانا تاما محصنا لا يجادلون فيها ولا يشكون ولا يحصل لهم ريب أو مرية في شيء منها "وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ" 59 به أحدا ولا شيئا "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ" يفعلون "ما آتَوْا" من الأعمال "وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ"

خائفة من اللّه أن يعذبهم عليها لأنهم موقنون "أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ" 60 وأنه يجازيهم على أفعالهم فتبقى قلوبهم مشغولة بخوف اللّه من تلك الأفعال التي علموا أنها غير مرضية ، وشكهم في عدم قبول أعمالهم الصالحة وشوبها بالرياء ، وخوفهم هذا ندم وتوبة ، فلا يبعد أن يتجاوز عنهم ولا يعاقبهم عليها بمنه وفضله "أُولئِكَ" المتصفون بهذه الصفات الحسنة لا المتقدمون الموسومون بضدها هم "يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ" الأعمال الصالحة التي تعود عليهم بالخير من ربهم "وَهُمْ لَها سابِقُونَ" 61 لأنها توصلهم إلى الجنة مقر أهل الخير ، ولهذا فإنهم مبادرون لها "وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها" لأن الدّين الذي كلفتم به لا حرج به عليكم ، وإنما تعملون منه ما تستطيعون فمن لم يكن ذا مال لا يكلف بالصدقة والحج ، والعاجز لا يكلف بالجهاد والصوم ، ومن لا يقدر على القيام في الصلاة فيصلي قاعدا أو مضطجعا ، ومن كان في سفر فله أن يفطر في الصوم ويقصر في الصلاة وأركان الدين ، عبارة عن هذه لا غير ، وكلها لا حرج فيها ، أما أصل الدين وهو كلمة الشهادة والاعتراف بالرسل والمعاد فلا عسر فيها على أحد البتة ، لأنها عبارة عن النطق باللسان والإيقان في القلب ، وإذا عجز عن النطق اكتفى بالإيقان القلبي ، والإشارة من الأخرس كافية ، وقد شرع اللّه تعالى

الرخص لعباده فيما يأتون ويذرون ، راجع الآية 105 من سورة النحل المارة "وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ" بينا فيه الأعمال الصالحة الخالصة من المشوبة والقادر من العاجز والمكلّف من غيره بيانا كافيا شافيا ، فلا حجة لكم أيها الناس بعده ، وعندنا كتاب مثبت فيه ما يقع منكم من المناقب والمثالب ، وسينال ما فيه من ثواب وعقاب "وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ" 62 شيئا فلا يزاد في عمل عامل ولا ينقص منه ، ولا يعاقب العاجز فيما يسبقه به القادر من الأعمال الحسنة .

(104/530)

قال تعالى "بَلْ قُلُوبُهُمْ" هؤلاء الكفرة "فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا" الكتاب المنزل إليك يا سيد الرسل غافلون عما تتلوه عليهم من أحكامه جاهلون معناه عمون عن مغزاه ، فهم عن كتاب أعمالهم أغفل وأجهل وأعمه "وَلَهُمْ أَعْمالٌ" أخر خبيثة غير ما ذكرناه "مِنْ دُونِ ذلِكَ" الذي ذكر وأسفل منه وهي فنون كفرهم ومعاصيهم العظيمة كطعنهم بالقرآن والنبوة وإنكارهم البعث والسخرية بنا بجعلهم لنا شريكا وولدا وصاحبة ، أخرج ابن المنذر عن ابن عباس أن المراد بالغمرة الكفر والشك وان ذلك إشارة إلى هذا المذكور ، والمعنى أن لهم أعمالا دون الكفر .

وأخرج ابن جرير عن قتادة إن ذلك كهذا إشارة إلى ما وصف به المؤمنين من الأعمال الصالحة أي لهم أعمال متخطية لما وصف به المؤمنون ، أي أهذا وما وصفوا به مما وقع في حيّز الصلاة فما بعدها ، وهذا غاية في الذم "هُمْ لَهَا عامِلُونَ" 63 معتادون عليها لا يتركونها لسابق شقائهم ، وهم لا يزالون على أحوالهم القبيحة لا يتذكرون عاقبة أمرهم "حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ" المترفون والرؤساء والأغنياء والقادة "يَجْأَرُونَ" 64 يستغيثون ويضجّون جزعا ، فإذا ذاك يحسون بما يراد بهم ويقال لهم "لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ" ولا تجزعوا وتضجروا فإنه لا ينفعكم ، لأنكم لم تعملوا خيرا لتجدوا من ينصركم لأجله "إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ" 65 لعدم تقديمكم لنا عملا يوجب نصرتكم ، ولم تطلبوا النّصر منا في الدنيا لنغيثكم ونرحمكم في هذه الدار ، وإذ لم تفعلوا فاطلبوها من أوثانكم الذين كنتم تزعمون أنهم يشفعون لكم

(105/530)

"قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ" من قبل رسلي أنه لا إله غيري فاعبدوني واسمعوا قول رسلي ، فأبيتم وأرادت رسلنا تقديمكم إلينا بالأعمال الصالحة "فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ" 66 ترجعون القهقرى لا تلتفتون إليهم ولا إلى ما جاءوكم به ، والنكوص المشي

إلا الوراء وهي أقبح مشية ، إذ لا يرى ما ورائه ، الذي هو أمامه ، والمعنى أنكم كنتم تتأخرون عن قبول الإيمان حال كونكم "مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ" متعظمين بالبيت الحرام ، لأنكم سكانه وأهله ، وذلك أنهم كانوا يقولون نحن سكان بيت اللّه وجيرانه وأهل حرمه ، لا يظهر علينا أحد ، ولا نخاف من أحد ، ولو كانوا لم يستكبروا وأطاعوا وأذعنوا لمن أرسلنا إليهم لما خافوا ، ولكنهم استكبروا وكفروا فلم ينفعهم البيت ، لأنه قد يشفع لمن آمن بربه وصدق رسله .

هذا وعود الضمير إلى غير مذكور جائز إذا كان مشهورا متعارفا راجع (إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) وقوله تعالى (حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ) الآية 32 من

سورة ص ج 1 فإن الضمير يعود في الأول للقرآن ، وفي الثاني للشمس لمعلوميتهما مع عدم سبق ذكرهما استغناء بالمشهور المتعارف دون حاجة للتبينة إليهما .

وقيل إن الضمير في هذه الآية يعود إلى القرآن المشتمل على الآيات الوارد ذكرها في قوله (قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ) أول الآية 66 المارة ، والأول أظهر ، وهو مروي عن ابن عباس .

وان افتخارهم بالبيت وترنمهم بأنهم خدامه وقوامه ، وأنهم الآمنون به من الناس ، والناس يخافون من غيرهم أشهر من أن يذكر .

وقال بعض المفسرين بعود الضمير لحضرة الرسول وليس بشيء ، لأنهم لا يعترفون به ، فكيف يعتزون به ويستكبرون ، ولو كان مرادا هو أو القرآن لقالوا عنه لا به واللّه أعلم .

ولأنهم نافرون من اللّه ورسوله وكل منهم يمضي نهاره وليله "سامِراً" لأنهم كانوا طيلة أوقاتهم يسمرون بالطعن في آيات اللّه ورسوله ويتحازرون عليها أهي سحر أم شعر أم كهانة إلى غير ذلك .

والسمر يطلق على حديث الليل فقط ، ولفظ سامر جاء حالا ثانية بعد مستكبرين "تَهْجُرُونَ" 67 الأيمان بها وبمن جاءكم بها من هجر إذا هذر وتكلم بما لا يعلم ، أو ترك وأعرض ، أو من أهجر إذا أفحش بالقول ، وخير الثلاث الوسط ، لأنه أكثر مناسبة بالمعنى .

مطلب توبيخ الكفرة على الطعن بحضرة الرسول مع علمهم بكماله وشرفه وخطبة أبي طالب :

قال تعالى "أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ" الذي ذكر في تلك الآيات ويستدلوا بها على صدق الذي جاءهم بها ؟ والاستفهام لإنكار الواقع واستقباحه ، أي فعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر لأنهم لم يتدبروا معاني تلك الآيات المنزلة لخيرهم ، ولم يعلموا ما فيها من الإعجاز حتى يؤمنوا بأنها الحق من ربهم .

"أَمْ" منقطعة بمعنى بل للإضراب والانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى توبيخ آخر ، والاستفهام هنا لإنكار الوقوع ، أي بل "جاءَهُمْ" من الآيات "ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ" 68 ولذلك استبعدوها وأنكروها فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال ، مع أن إرسال الرسل وإنزال الآيات على البشر سنة قديمة له تعالى لا تكاد تنكر ، وان ما جاءهم به محمد من جنس ما جاء به الأنبياء قبله لأممهم .

ثم انتقل إلى توبيخ

ثالث والاستفهام فيه لإنكار الوقوع أيضا فقال "أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ" وهو معروف عندهم بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق ووفور العقل وشرف النسب وعزة الحسب والوفاء بالوعد والعهد والصدق وغيرها من الآداب الحسنة "فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ" 69 أي أيقدرون أن ينكروه مع وضوحه عندهم ومعلوميته بالأخلاق الفاضلة .

(107/530)

وفي هذه الآية دليل قاطع على أنهم يعرفون محمد صلّى اللّه عليه وسلم بأنه على غاية من الكمال ونهاية من الوقار ، ولو لا ذلك لأنكروا على أبي طالب خطبته التي قرأها يوم عقد نكاحه على خديجة رضي اللّه عنها بحضور رؤساء قريش ، إذ قال فيها : الحمد للّه الذي

جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وضئضىء معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا خدمة بيته ، وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم ان ابن أخي محمد بن عبد اللّه لا يوازن برجل إلا رجح به ، فإن كان في المال قلّة فإن المال ظل زائل وأمر حائل ، ومحمد من قد عرفتم قرابته ، وقال وهو واللّه بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل إلخ .

ولم ينكر أحد منهم شيئا من ذلك إلا بعد ادعائه الرسالة ، حسدا وبغيا وخوفا على الرياسة التي لهم شيء منها .

(108/530)

قال تعالى "أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ" أي ليس الأمر كما يقولون إن ما جاءهم به عبارة عن سحر وكهانة وغيرهما ، وإنما "جاءَهُمْ بِالْحَقِّ" الذي لا محيد عنه وهو التوحيد للإله ودين الإسلام ودين إبراهيم عليه السلام الذي تضمنته تلك الآيات الدالة على صدقه وأمانته ، وقد اشتهر عندهم بالأمين "وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ" 70 لأن جبلّتهم مطبوعة على الكذب ، وطبيعتهم مجبولة على الزيغ ، وإنما قال أكثرهم لأن منهم من يعرف أحقية ذلك كله ، وإنما لم يعترف به حذرا من تعيير قومه لا كراهة به ، وعليه فيكون أقلهم تاركا للإيمان أنفة

واستكبارا عنه وخوفا من توبيخ قومه ، وأن يقولوا له صبوت أي تركت دين آبائك ، وانك احتجت لطعام محمد وغير ذلك مما مر في الآية 14 من سورة فصلت المارة ، كراهة لحضرته المقدسة تبعا لأهوائهم "وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ" فيما يعتقدون من الشرك وغيره "لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ" وهذه الآية قريبة في المعنى لقوله تعالى (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا) الآية 22 من

سورة الأنبياء المارة "وَمَنْ فِيهِنَّ" لفسد أيضا ، وقد خص العقلاء لأن غيرهم تبع لهم ، وهذا أيضا انتقال التوبيخ خامس .

قال تعالى "بَلْ" لم نتّبع أهواءهم ولكن "أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ" قرآنهم على يد رسولهم ، وقد أضافه إليهم لأنه منزل لهم "فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ" المختص بهم "مُعْرِضُونَ" 71 وهو فخرهم وشرفهم ، قال تعالى (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) الآية 44 من الزخرف المارة ، وفيها معنى الاستفهام ، أي المعرضون عن ذكرهم الذي آتيناه إياهم وهو مجدهم وعزهم ، كيف يكون ذلك منهم بل يجب أن يتمسكوا به ويعضوا عليه بالنواجذ ، لا أن يعرضوا عنه ، وهذا انتقال سابع لتوبيخ آخر .

(109/530)

قال تعالى "أَمْ" متعلق بقوله (أم يقولون به جنّة) أي يزعمون أنك يا محمد "تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً" أجرا وجعلا على أداء الرسالة بمقابل نصحك لهم وإرشادهم إلى الحق ولذلك لا يؤمنون بك ، كلا لا نطلب منهم شيئا على أداء وحي ربك "فَخَراجُ رَبِّكَ" يا محمد أي رزقه "خَيْرٌ" لك من الدنيا ، وثوابه في الآخرة أخير مما يتصورونه لسعته ودوامه وعدم وجود المنّة فيه . والخراج بإزاء الدخل يقال لكل ما تخرجه إلى غير ذلك ، وهو في الأصل ضريبة الأراضي المعطاة إلى الدول ، ففيه إشعار بالكثرة واللزوم بالنسبة إليه تعالى ، ولذلك عبّر اللّه به عنه ، وقرىء خرجا وهما في المعنى سواء "وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ" 72 لك في الدنيا والآخرة "وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ" يا سيد الرسل بلا مقابل "إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ" 73 بوصلهم إلى الجنة دائمة النعيم "وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ" وينكرون البعث والحساب والعقاب والثواب ، كقومك وأمثالهم لا يميلون إلى دعوتك السامية المستقيمة لأنهم "عَنِ الصِّراطِ" المؤدي الدين الحق المنتهي لرضاء اللّه القائد لجنانه "لَناكِبُونَ" 74 عادلون عنه مائلون إلى الاعوجاج "وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا" لتمادوا لأن اللجاج التناهي في الخصومة والتمادي في العناد أي لبقوا "فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ" 75 لم ينزعوا عنه ولم يتركوه ، والعمه عمى القلب والتردد في الأمر والحيرة في الهوى ، كمن يضل عن الطريق لا يدري أين يتوجه ، فلا رأي له ولا دراية .

مطلب إصابة قريش بالقحط ثلاث مرات ، واعترافهم بقدرة اللّه وإصرارهم على عبادة غيره ، ومتعلقات برهان التمانع :

(110/530)

قال تعالى "وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ" قريشا قوم محمد "بِالْعَذَابِ" القحط ليرجعوا إلى اللّه وهو أشد عذاب الدنيا "فَمَا اسْتَكَانُوا" ما خضعوا ولا لجأوا "لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ" 76 إليه ليكشفه عنهم بل أصروا على كفرهم .

وسبب نزول هذه الآية أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم كان يصلي في مكة في الحرم الشريف فألقى عليه بعض المشركين سلى جزور ، فقال اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف .

فأصابهم القحط ، فقال أبو سفيان تزعم يا محمد أنك بعثت رحمة للعالمين ، فقال بلى ، فقال أنشدك اللّه والرحم ، فإن قومك أكلت القد والعظام وأنهكهم الضر ، فادع اللّه أن يكشف عنهم ، فدعا فأنزل اللّه هذه الآية استشهادا على عدم خضوعهم وعلى دوامهم على حالتهم لقوله تعالى (وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) وهذا القحط غير القحط الذي وقع بمكة بعد الهجرة كما ذكره السيد برهان الدين الحلبي في سيرته ، وهذا غير الجوع الذي أصابهم

بسبب منع ثمامة بن أثال الحنفي الميرة عنهم حينما جاءت به سرية محمد بن مسلمة التي بعثها صلّى اللّه عليه وسلم إلى بني بكر بن كلاب ، فأسلم بعد أن امتنع ثلاثة أيام ، ثم خرج معتمرا فلما قدم بطن مكة لبّى ، وهو أول من دخلها ملبيا .

ومن هنا قال الحنفي :

ومنا الذي لبّى بمكّة معلنا برغم أبى سفيان بالأشهر الحرم

فأخذته قريش وأتبوه على تغيير دينه ، فقال لهم اتبعت خير دين ، دين محمد الأمين صلّى اللّه عليه وسلم .

ثم قال واللّه لا يصلكم حبة من اليمامة حتى يأذن رسول اللّه ، ثم منع الميرة عن أهل مكة .

فكتبت قريش إلى رسول اللّه وهو في المدينة تستغيث به مما أصابها من الجوع ، فأذن لثمامة أن يمتاروا ، وهذه الحادثة قبل الفتح ، وعلى هذا يكون القحط أصاب قريشا ثلاث مرات واللّه أعلم .

(111/530)

قال تعالى "حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ" فيما يستقبل من الزمن وهو إنزال السيف فيهم وأمر الرسول بقتالهم وقسرهم وإجلائهم "إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ" 77 آيسون

خائبون متحيّرون .

وفي هذه الآية دلالة على قرب الهجرة وفتح الباب

الذي سيكون بعدها ، إذ أشار اللّه عنها ثلاث مرات ، وسيأتي الإذن بها في ذكرها رابعا كما ستعلمه بعد .

قال تعالى "وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ" لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا ولكنكم "قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ" 78 اللّه على نعمه ولم تصرفوها لما خلقت لها ولم تقدروها حق قدرها ولم تؤدوا شكرها لخالقها ، وإذ نفى عنهم قليل الشكر ، فالكثير منتف من باب أولى .

(112/530)

ولفظ ما يدل على أنهم يشكرون شكرا لا يذكر لقلته "وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ" خلقكم وبثكم "فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" 79 يوم القيامة للحساب والجزاء "وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ" لا لغيره "اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ" في الزيادة والنقص ، والظلمة والضياء ، والحر والقر ، ونعمة الاستراحة في الأول وطلب العمل في الثاني "أَفَلا تَعْقِلُونَ" 80 صنائع اللّه ومنافعه التي أسداها إليكم فتستدلوا بها على عظمته ، وتشكروه حق شكره ، وتؤمنوا باللّه

ورسوله "بَلْ قالُوا" وهذا انتقال ثمن ، أي قال هؤلاء الكفرة مع توالي نعمنا عليهم "مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ" 81 وهو أي قول الأقدمين "قالُوا أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُرابًا وَعِظامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ" 82 بعد ذلك ، استفهام إنكار وتعجب معرضين عن التفكر والتدبر جانحين عن الاتعاظ والاعتبار قائلين كيف يكون هذا ؟ وإنما "لَقَدْ وُعِدْنا" بالحياة بعد الموت "نَحْنُ" من قبلك يا محمد "وَآباؤُنا" من قبل وعدوا من قبل أمثالك "هذا" الوعد نفسه "مِنْ قَبْلُ" أن توعدنا أنت ، وإذ لم نقف له على حقيقة فنقول لك "إِنْ هذا" الوعد ما هو بالوعد الحق وما هو "إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ" 83 وخرافاتهم الواهية لا غير ، ومن هنا يقال في ضرب المثل حديث خرافة .

ونظير هذه الآية الآية 67 من سورة النمل في ج 1 .

وخرافة هذا قيل إنه استهوته الجن سنين فلما تركته صار يحدث قومه بما رأى من عجائبهم بما لا تصدقه عقولهم ، ولهذا صاروا كلما سمعوا شيئا لا يعقلونه يقولون حديث خرافة .

هذا وبالنظر لظاهر الآية قد يفهم أنه جاء لآبائهم رسل وردوا عليهم بما ردوا به على محمد مع أنه لم يأتهم رسول ما بعد إسماعيل الذي لم يره آباؤهم ، وإنما قالوا ما قالوا بالنسبة لما سمعوه من أخبار الأمم الماضية المكررة

سيرهم لديهم ، لأن شأنهم في الأخذ والرّد شأنهم .

قال تعالى "قُلْ" يا سيد الرسل على طريق الاستفهام لقومك "لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها" من الخلائق والنبات والمعادن والمياه "إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" 84 وتدعون العلم ؟ فإنهم لا شك "سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ" لهم بعد إقرارهم هذا "أَفَلا تَذَكَّرُونَ" 85 أنكم من جملة من عليها ، وإنكم مملوكون للّه ، وأنه قادر على إبادتها كما خلقها ، فتعلمون أنه قادر على إعادتكم بعد موتكم فتتعظون وتؤمنون

"قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ" 86 فإنهم مضطرون وملجئون بأن "سَيَقُولُونَ لِلَّهِ" مربوبة ومملوكة "قُلْ" لهم بعد اعترافهم "أَفَلا تَتَّقُونَ" 87 خالقها أن يسلط عليكم من فيها من الملائكة وما فيها من الصواعق والبرق والبرد ، فيهلككم دفعة واحدة ، لعبادتكم غيره ، أفلا تستدلون بأن من يقدر على خلق ذلك يقدر على إعادة الأموات أحياء "قُلْ" يا أكمل الرسل لقومك على طريق التعجيز ثالثا "مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ" في السموات والأرض من نام وغيره "وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ" يؤمن كل أحد من خوفه ولا يقدر أحد أن يؤمن من أخافه ولا يخيف من آمنه ، وهو يغيث من استجار به ، ويكشف ضره إن شاء "إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" 88 أحدا يقدر على مثل هذا ، فاذكروه لنا أيها الناس ، وانهم حتما "سَيَقُولُونَ" ان هذه الخصوصية "لِلَّهِ" وحده فقط "قُلْ" لهم إذا كنتم تعترفون

بذلك كله "فَأَنَّى تُسْحَرُونَ" 89 وتخدعون وكيف تنصرفون عن الحق إلى الباطل ، وما ذلك إلا لأنكم لا تنتفعون بحواسكم إذ لا تحسنون استعمالها والوقوف على ما تدل عليه ، ولا تعلمون إلا مظاهر الأشياء .

(114/530)

وقرىء في الآيتين الأخيرتين (اللّه) بلا حرف الجر وهي قراءة على الظاهر ، وباللام على المعني ، وكلاهما جائز ، فلو قيل لك من صاحب هذه الدار فقلت زيد كان جوابا عن لفظ السؤال ، ولو قلت لزيد كان على المعنى ، لأن معنى من صاحب هذه الدار لمن هي فيصح المعنى ، وقد أنشد الزجاج على الأول :

وقال السائلون لمن حضرتم فقال المخبرون لهم وزير

وأنشد صاحب المطالع للثاني :

إذا قيل من رب المزالف والقرى ورب الجياد الجرد قلت لخالد

وتشير هذه الآيات الثلاث لتقريعهم وتوبيخهم على عبادة غير اللّه المالك لهذه الأشياء المتصرف بها القادر على كل شيء ، وتنبيه على أن الفاعل لتلك قادر على إحيائهم بعد

موتهم ، وأن إنكارهم وجحودهم ما هو إلا محض عناد وعتو بعد اعترافهم بأن اللّه تعالى الخالق المالك للسموات والأرض ومن فيهما وعليهما وتحتها وفوقهما .

(115/530)

قال تعالى "بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ" هذا إضراب عن قولهم أن الإخبار بإيجاد البعث من أساطير الأولين ، أي إننا يا سيد الرسل لم نأتهم بما فاهوا به ، وإنما أتيناهم بالصدق وأخبرناهم بما أخبرناهم بالحق "وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ" 90 في جحودهم ونسبة الولد والصاحبة والشريك ، ولهذا أكد فريتهم هذه بقوله "مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ" فكيف ينسبون إليه الملائكة بأنها بناته كما نسب اليهود والنصارى بنوة عزيز والمسيح إليه من تلقاء أنفسهم أيضا ، تعالى عن ذلك ، ثم أكد الجهة الأخرى بقوله "وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ" آخر قط فهو المتفرد بتدبير ملكه المبرأ عن المعين ، فكيف ينسبون له الشريك ؟ وقد قال إنما هو إله واحد ، وقال وأمتكم واحدة ، ونهى عن التفرق في الدين ، ونهى عن الاختلاف فيما جاءت به الرسل ، لأن طريقتهم واحدة ، وأصل الدين الذي أمروا باتباعه واحد ، والمرسل والشارع الحقيقي هو الواحد واحد ، راجع الآية 52 المارة والآية 59 من سورة الأنعام المارة وما ترشدك إليه والآية 59 من سورة الأنبياء المارة أيضا ، ثم علل ذلك بقوله جل قوله "إِذاً" لو كان كما

يزعمون من وجود الشريك "لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِما خَلَقَ" ليختص به منفردا عن الآخر ولا يشركه فيه ، ولا يرضى الانقياد لغيره ، ولامتاز ملك كل منهما عن الآخر ومنعه من الاستيلاء عليه "وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ" في الخلق والقدرة والعظمة وغالبه عليها ليكون أكبر منه ولبسط سلطانه عليه كما يفعل ملوك الدنيا ، وإذ لم ير شيئا من ذلك ولا أثر للتمايز والتغالب والتعاظم في الملك مما يقع لملوك الدنيا .

فاعلموا أيها الناس أنما هو إله واحد بيده ملكوت كل شيء في السماء والأرض ، راجع الآية 22 من الأنبياء المارة في برهان التمانع ، ثم نزّه ذاته الطاهرة عن تقولاتهم هذه كلها بقوله

(116/530)

"سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ" 91 الحضرة الإلهية المقدسة مما هو من شأن البشر .

وهذه الآية في معرض الجواب لمن حاجّ حضرة الرسول من المشركين ، فلا محل للقول بأن (إذا) لا تدخل إلا على كلام مشتمل على الجواب والجزاء ، لأن قوله لذهب وقع جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل ، لأن الشرط محذوف تقديره ولو كان معه آلهة ، وإنما حذف لدلالة قوله (وما كان معه من إله) تأمل .

ثم وصف اللّه نفسه المقدسة عن تفوهاتهم بقوله "عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ" 92 وتبرأ عما لا يليق به ، ويا خاتم الرسل "قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي" في حياتي الدنيا "ما يُوعَدُونَ" 93 به من العذاب الذي ستنزله عليهم يا "رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" 94 منهم فتعذبني بعذابهم ، أي إذا أردت أن توقع بهم عذابك فنجني من بينهم كما نجيت أنبياءك ومن آمن بهم من بين أقوامهم الكافرين ، وهذا إظهار للعبودية ، لأن النبي له أن يسأل ربه ما علم أنه يفعله ويستغيث به مما علم أنه لا يفعله تواضعا ، قال تعالى مجيبا لنبيّه "وَإِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ" 95 وهو جواب أيضا على إنكارهم موعد نزول العذاب وضحكم منه

ولكن يا سيد الرسل "ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" بالخصلة التي هي أرفق وأوفق ، وذلك بأن تصبر على أذاهم وتعرض عن معاداتهم وتصفح عن طلب تعذيبهم الآن ، ومفعول ادفع "السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ" 96 به ألوهيتنا وينعتون نبوّتنا ، وهذه الآية ليست منسوخة بآية السيف الآتية بعد كما قاله بعض المفسرين ، لأن المداراة مطلوبة في مثل هذا ، ومحثوث عليها في كل الأحوال ، ما لم تثلم بالدين ، لا سيما إذا كان هناك أمل مرتقب بقبولهم النصح ورجوعهم عن الغي ، أي اجعل يا محمد جواب إساءتهم لك إحسانا ، ولا يهمنّك شأنهم .

ولما أن أشار اللّه تعالى لنبيه بأن يقابل إساءتهم بالإحسان وهو بمثابة النهي عن مقابلة السيئة بالسيئة ، أتبعه بما يقوي لبّه ، وزيادة على ذلك الالتجاء إليه بقوله عزّ قوله "وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ" 97 نزعاتهم ووساوسهم ، لأنهم يحثون الناس على السيئات والهمز الدفع والتحريك كالهز والأز ، ومنه مهماز الرائض ، أي أن الشيطان يهمز الناس على فعل الشر كما تهمز الراضة الدواب حثالها على الشيء .

وقيل أيضا يا سيد الرسل "وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ" 98 أمرا من أموري كي لا تساق نفسي إلا إلى الخير كما خلقت له ، وهذا إخبار من اللّه بأن يكف عن قومه ويصبر على أذاهم ويديم لهم النصح حتى حين الوقت المقدر لإيمان من يؤمن وإصرار من يصر .

ثم أخبره بما يكون مصيرهم فقال "حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ" 99 إلى الدنيا وقد جمع الضمير لما هو شائع لدى العرب أن يخاطبوا الواحد بلفظ الجمع تعظيما وتبجيلا كيف والمخاطب هو رب المخاطبين .

وعلى هذا قوله :

ألا فارحموني يا آل محمد فإن لم أكن أهلا فأنت له أهل

وقول الآخر :

وإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

النقاخ الماء البارد ، والبرد النوم .

ثم علل طلبه بقوله "لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ" الفرصة بالدنيا وضيعتها فأعدني يا رب إلى المحل الذي تركته في الدنيا لأتدارك ما فات مني ، وهيهات ، قال قتادة ما تمنى أن يرجع إلى أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضي الشهوات ولكن تمنى ان رجع ليعمل بطاعة اللّه ، فرحم اللّه امرأ عمل في دنياه ما يتمناه الكافر إذا نزل به العذاب .

قال تعالى "كَلَّا" لا سبيل لك للرجوع .

(118/530)

وكلا أداة زجر وردع ، راجع بحثها مفصلا في الآية 14 من سورة الشعراء في ج 1 ، وهذه الكلمة التي يطلب فيها الرجعة "إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها" لا محالة ، وكل كافر سيقولها في ذلك الوقت بسبب استيلاء الحسرة والندم على أمثالهم ، ولكنهم لا يجابون ، لأن الوقت ليس بوقت إجابة ، ولو أجابهم لما بقي للنار نصيب من أحد ، لأن كل أهلها يقولها ، وكيف يرجعون إلى الدنيا "وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ" حاجز حائل بينهم وبين الرجوع ، باق مستقر "إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ" 100 من قبورهم ، وليس معنى الغاية أنهم يرجعون إلى الدنيا بعد البعث ، وإنما هو إقناط كلي للعلم أنه لا رجعة بعد الموت إلى الدنيا ، وإنما مصيرهم بعده إلى الآخرة "فَإِذا

نُفِخَ فِي الصُّورِ" تقدم ما فيه في الآية 67 من سورة الزمر المارة .

مطلب في التقاطع وعدم الالتفات إلى الأقارب والأحباب والمحبة النافعة وغيرها :

"فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ" بل فيه يفر المرء من أخيه وابنه وأبيه وصاحبته ، ولا ينفع فية أحد أحدا إلا من يؤهله اللّه للشفاعة فإنه يشفع لمن يشاء "وَلا يَتَساءَلُونَ" 101 سؤال تواصل وتوادد وتحابب وتخالل كما كانوا في الدنيا لأن كلّا مشغول بنفسه .

وقد يقع سؤال عتاب وخصام ومجادلة بين العابدين والمعبودين والشيطان وأتباعه واخوان السوء ، راجع الآية 67 من سورة الزمر والآية 21 من سورة إبراهيم والآية 47 من سورة الزخرف في هذا البحث .

وهذه النفخة هي النفخة الثانية التي يقع بعدها البعث والنشور والحساب بدليل سياق الآية نفسها والآيات بعدها .

(119/530)

قال ابن مسعود إنها النفخة الثانية ، قال يؤخذ بيد العبد والأمة يوم القيامة فينصب على رءوس الأولين والآخرين ، ثم ينادي مناد هذا فلان بن فلان فمن كان له قبله حق فليأت إلى حقه ، فيفرح المؤمن أن يكون له الحق على والده وولده أو زوجته أو أخيه فيأخذ منه ، ثم

قرأ (فلا أنساب بينهم) الآية .

وقال ابن عباس في رواية أخرى إنها النفخة الثانية (فلا أنساب بينهم) الآية ، أي لا يتفاخرون يومئذ بالأنساب كما كانوا يتفاخرون في الدنيا بها ولا يتساءلون سؤال تواصل أو سؤال تعرف ، كقول الإنسان للآخر من أنت ؟ ومن أي قبيلة أو قرية ؟ راجع الآية 66 من سورة الزخرف والآية 31 من سورة إبراهيم المارتين .

وحكم هذه الآية عام ، وقيل خاص بالكفرة بدليل سياق الآية .

وما أخرجه البزار والطبراني والبيهقي وأبو نعيم والحاكم والضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي .

وأخرج جماعة نحوه عن مسور بن مخرمة مرفوعا .

وأخرج نحوه ابن عساكر عن ابن عمر مرفوعا .

وهو خبر مقبول لا يرده إلا من في قلبه شائبة ، ونسبه بالنسبة للمؤمنين فقط .

وإذا كان المراد نفي الالتفات إلى الأنساب بعد النفخة الثانية فتكون للعموم ، لأن كلا فيها مشغول بنفسه ، أما بعدها فخاصة بالكفرة لأن المؤمنين يشفع بعضهم لبعض كما مر ، أما آية الصافات 27 المارة وهي قوله تعالى (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) فلا ترد على هذه ، لأن ذلك السؤال

سؤال محاججة وجدال كما مر ، وقد أرشدناك إلى المواقع الموجود فيها هذا البحث فراجعها .

واعلم أن يوم القيامة طويل وله أحوال مختلفة ومواطن متباينة بعضها مع بعض ، يشتد فيه الخوف والفزع فيشتغلون بها عن السؤال ، وفي بعضها يتخاصمون ، وفي بعضها يسكتون . وقد ألمعنا إلى ذلك هناك أيضا بصورة مفصلة فراجعها .

(120/530)

قال تعالى "فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ" في ذلك اليوم "فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" 102 الفائزون الناجحون فيه "وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ" وغبنوا فيه فهم "فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ" 103 لا خروج لهم منها "تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيها كالِحُونَ" 104 بادية أسنانهم كاشرون لتقلص شفاههم من الإحراق عابسون والعياذ بالله ، وعند ما يستغيثون يقال لهم "أَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ" على لسان رسلي في الدنيا يحذرونكم فيها من هول هذا اليوم "فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ" 105 ولم تلتفتوا إليها ولا إلى الرسل ولم تصغوا لإرشادهم ونصحهم ،

فاعترفوا واعتذروا بما ذكره الله بقوله "قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا" بسبب أعمالنا

السيئة "وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ" 106 في الدنيا مجانبين الحق معرضين عن الهدى ، غير ملتفتين إلى الرسل "رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها" من جهنم "فَإِنْ عُدْنا" إلى ما كنا عليه من الضلال بعد الآن "فَإِنَّا ظالِمُونَ" 107 أنفسنا مستحقون هذا العذاب ، فيجيبهم الربّ جل جلاله بقوله العظيم الزاجر "قالَ اخْسَؤُا فِيها" أيها الكفرة وابعدوا عن هذا القول كما تقول للكلب إذا تبعك أو نبح عليك اخسأ ، والمعنى اسكتوا وابقوا فيها أذلاء مهانين لا سبيل لكم إلى الخروج ، فانزجروا عن هذه المقالة "وَلا تُكَلِّمُونِ" 108 بعدها في رفع العذاب ، لأنكم مخلدون فيه ، وهذا آخر كلام أهل النار إذ انقطع رجاؤهم .

(121/530)

روي عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أن أهل جهنم يدعون مالكا خازن جهنم أربعين يوما (يا مالك ليقض علينا ربك) فلا يجيبهم ، ثم يقول بعد تلك المدة وهم ينتظرون جوابه (إنكم ماكثون) فيها كما في الآية 77 من سورة الزخرف المارة ، ثم ينادون ربهم يقولون بنفس الآية ، فيدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ، ثم يردّ عليهم (اخسؤا فيها) الآية ، فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة ان كان إلا الزفير

والشهيق .

أخرجه الترمذي بمعناه عن أبي داود ، وذكره البغوي بغير سند .

قال تعالى ناعيا على هؤلاء الكفرة بعض ما كانوا يعملونه في الدنيا وهو "إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ" أمامكم في الدنيا "رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ 109 فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا" على مقالتهم هذه واستهزأتم بهم "حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي" بتشاغلكم بالهزء بهم فتركتموني ولم تذكروني ولم تنتبهوا وتتيقظوا وتهابوا عذابي وتخافوا عقابي في مثل هذا اليوم "وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ" 110 استهزاء بهم ، نزلت هذه الآية في كفار قريش الذين كانوا يسخرون بفقراء المؤمنين الموصوفين في هذه الآية .

(122/530)

قال تعالى "إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا" على أذاكم وإهانتكم لهم في الدنيا "أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ" 111 اليوم برضائي وجنتي ، ثم التفت جل شأنه يخاطب الكفرة بعد اجتماعهم في الموقف "قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ" أحياء في الدنيا وأمواتا في البرزخ الذي دفنتم فيه "عَدَدَ سِنِينَ" 112 كم هنا منعوتة بلبثتم وعدد تمييز "قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ" وهذا بالنظر لطول يوم القيامة وعظم هوله وشدة فزعه وإلا فلبثهم في الدنيا أعواما كثيرة وفي البرزخ أكثر وأكثر ، ثم انهم لما رأوا قولهم هذا غير موافق للواقع قالوا لا نعلم

"فَسْئَلِ الْعادِّينَ" 113 الحفظة الموكلين بنا وإنما عرفوهم عادين لمدتهم لما تبين لهم من الصحف التي نشروها بإحصاء أعمالهم فقالوا هؤلاء الذين جمعوا أقوالنا وأفعالنا يعرفون مدة لبثنا "قالَ" تعالى قوله "إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا" في الدنيا والبرزخ في جنب ما ستلبثونه اليوم "لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" 114 قدره أو تعلمون عاقبة أمركم لما اغتررتم في الدنيا لأنها لا تعد كمية ولا كيفية بجنب الأخرى ، ثم طفق يوبخهم فقال "أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً" لعبا أو باطلا ولهوا "وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ" 115 بل تكونون هباء سبهللا ، كلا ، بل خلقناكم لحكمة وليكون مصيركم إلينا .

روى البغوي بسنده عن الحسن قال : إن رجلا مصابا مرّ به على ابن مسعود فرقاه في أذنه (أ فحسبتم) الآية إلى آخر السورة ، فبرىء فقال صلّى اللّه عليه وسلم بماذا رقيته في أذنه ، فأخبره فقال صلّى اللّه عليه وسلم والذي نفسي بيده لو أن رجلا

موقنا قرأها على جبل لزال .

(123/530)

ثم نزه نفسه المنزهة عما وصفه به المشركون فقال "فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ" 116 وصفه بالكريم ، لأن الرحمات تنزل على عباده من قبله وهو أعظم

مخلوقات اللّه تعالى ، راجع الآية 7 من سورة يونس المارة "وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ" ولا حجة ولا دليل ، وإنما هو اختلاق من نفسه ، وهذا الكافر الذي يقول هذه المقالة القبيحة "فَإِنَّما حِسابُهُ" عليها وجزاؤه يكون في الآخرة "عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ" 117 بها بل يخيبون ويشقون ويخسئون "وَقُلْ" يا سيد الرسل "رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ" 118 لأن من أدركته رحمتك أغنته عن رحمة من سواك ورحمة الغير لا تغني عن رحمتك .

واعلم أنه تعالى بعد أن بين أنه هو الملك الحق وأن لا رب غيره أردفه ببيان أن من ادعى ربا غيره فقد افترى باطلا ، ثم أتبعه بأن من جرؤ على ذلك الذي لا بينة له عليه فجزاؤه العقاب الأليم ، إذ قال (إنما حسابه عند ربه) إلخ وناهيك به محاسب .

أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن أبي بكر رضي اللّه عنه قال : يا رسول اللّه علمني دعاء أدعوه في صلاتي ، قال قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم .

هذا واللّه أعلم ، واستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 339 . 369 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والثلاثون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى والثلاثون بعد الخمسمائة

فصل فى الوقف والابتداء

(4/531)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة المؤمنون

مكية

قد أفلح المؤمنون تام إن جعل الذين مبتدأ خبره أولئك هم الوارثون والا فجائز وعلى الأول فخاشعون وما بعده من المعطوفات جائز وعلى الثاني كاف ولا يؤثر في ذلك كون كل منها معطوفا أو نعتا لانه رأس آية الوارثون تام على القول بأن ما بعده مبتدأ وخبرا وليس بوقف إن جعل نعتا له وعليه فقوله يرثون الفردوس تام على القبول بان ما بعده مبتدأ وعلى القول بأنه حال فليس بوقف هم فيها خالدون تام من طين كاف في قرار مكين صالح العظام لحما خلقا آخر كاف وكذا أحسن الخالقين ولميتون تعبثون تام وفي الثاني كاف لقادرون كاف للاكلين حسن وقال أبو عمرو تام لعبرة صالح مما في بطونها كاف كثيرة جائز وكذا تأكلون

تحملون تام من اله غير جائز أفلا تتقون كاف أن يتفضل عليكم مفهوم في أبائنا الأولين صالح ولا أحبه وانما جاز لانه رأس آية حتى حين كاف كذبون وحينا ومن كل زوجين أثنين وأهلك أكفى مما قبله على ما مر فيه في سورة هود الا من سبق عليه القول منهم كاف وكذا مرقون الظالمين حسن المنزلين كاف وكذا المبتلين وقرنا آخرين من اله غيره جائز أفلا تتقون حسن مما تشربون صالح وكذا الخاسرون ومخرجون ولما توعدون بمبعوثين بمؤمنين حسن وكذا بما كبون نادمين كاف وكذا غثاء والظالمين قرونا آخرين حسن يستأخرون كاف وكذا تترى وكذبوه وأحاديث لا يؤمنون حسن عالين كاف وكذا عابدون من المهلكين تام يهتدون حسن آية كاف ومعين تام صالحا جائز عليم تام لمن قرأ وان هذه بكسر الهمزة وليس بوقف لم قرا بفتحها عطفا على ما فان نصب باضمار فعل نحو واعلموا إن هذه أمتكم كان الوقف على عليم جائزا فاتقون كاف زبرا تام فرحون كاف حتى حسن في الخيرات لا يشعرون تام وكذا سابقون وما بينهما من رؤس الآى جائز لطول الكلام ولكون منها رأس آية الا وسعها كاف لا يظلمون صالح من هذا حسن إن جعل ما بعده كناية عن الكفار وتام إن جعل ذلك كناية عن المؤمنين لها عاملون حسن يجأرون كاف كارهون حسن مستكبرين به

(5/531)

كاف معرضون صالح كذا مستقيم ولنا كبون ويعمهون وما يتضرعون كاف مبلسون حسن وقال أبو عمرو تام والافئدة كاف ما تشكرون حسن وكذا تحشرون ويحيى ويميت والنهار تام أفلا تعقلون حسن الاولون صالح وكذا لمبعوثون هذا من قبل كاف أساطير الاولين تام تعلمون كاف لله في الثلاثة صالح وقال أبو عمرو كاف تذكرون تام العظيم كاف تتقون تام تعلمون كاف تسحرون حسن لكاذبون تام من اله صالح وكذا بما خلق على بعض حسن عما يصفون تام لمن قرأ عالم بالرفع وكاف لمن قرأه بالجر يشركون تام ما يوعدون حسن الظالمين تام لقادرون حسن وكذا أحسن السيئة وبما يصفون وقال أبو عمرو في الأولين كاف أن يحضرون كاف كلا حسن وقال أبو عمرو تام لانها بمعنى الرد لما قبلها وجوز بعضهم إنها بمعنى حقا فيوقف على ما قبلها ويبتدأ بها هو قائلها حسن يبعثون كاف وكذا ولا يتساءلون والمفلحون وخالدون كالحون تام تكذبون حسن ضالين كاف وكذا ظالمون ولا تكلمون حسن الراحمين ليس بوقف لان ما بعده من تمام الكلام قبله تضحكون حسن وقال أبو عمرو كاف بما صبروا كاف لمن كسر همزة انهم وليس بوقف لمن فتحها الفائزون كاف وكذا عدد سنين والعادين وقال أبو عمرو في الاول والثالث تام تعلمون حسن لا ترجعون تام وكذا الكريم عند ربه كاف الكافرين تام وكذا آخر السورة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ 532.523 ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة المؤمنون

مكية مائة آية وثمان عشرة آية في الكوفي وتسع عشرة في عد الباقين اختلافهم في آية واحدة وأخاه هارون لم يعدّها الكوفي وكلمها ألف وثمانمائة وأربعون كلمة وحروفها أربعة آلاف وثمانمائة وحرفان وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع موضعان وفار التنور ذا عذاب شديد

قد أفلح المؤمنون (تام) إن جعل الذين مبتدأ خبره أولئك هم الوارثون وكذا إن جعل خبر مبتدأ محذوف تقديره هم الذين وكذا إن نصب بتقدير أعني وعلى الأول لا وقف من قوله خاشعون إلى الوارثون ومن حيث كونها رؤوس آيات يجوز ولا يؤثر فيها كون كل منها معطوفاً أو نعتاً أو بدلاً لأنَّ الوقف على رؤوس الآيات سنة متبعة كما تقدم

الفردوس (تام) إن جعل ما بعده جملة مستقلة من مبتدأ وخبر ، وليس بوقف إن جعل في موضع نصب حالاً

خالدون (تام) في الحديث ما منكم من أحد إلاَّ له منزلان ، منزل في الجنة ومنزل في النار ، فإن مات ودخل النار ورث منزله أهل الجنة ، وذلك قوله هم الوارثون ذكره البغوي بغير سند .

من طين (كاف) والمراد بالإنسان آدم دون ذريته لأَّنه انسل من طين ، وقوله جعلناه نطفة عائد على ذريته وإن كان لم يذكر لشهرته ، وليس عائداً على آدم لأَّنه لم يخلق من نطفة بل انسل من الطين أي استخرج منه ، قال أمية بن أبي الصلت :

خلق البرية من سلالة منتن وإلى السلالة كلها سنعود .

في قرار مكين (جائز) ومثله لحماً وكذا آخر .

الخالقين (كاف) ومثله لميتون .

تبعثون (تام) .

طرائق (حسن)

غافلين (كاف)

في الأرض (حسن)

لقادرون (كاف)

وأعناب (جائز) ومثله كثيرة

ومنها تأكلون (كاف) على أنَّ قوله وشجرة منصوب بفعل مضمر تقديره وأنشأنا شجرة أو أنبتنا شجرة وليس بوقف إن عطفت شجرة على جنات ، وحينئذ لا يوقف على وأعناب ولا على كثيرة ولا على تأكلون .

للآكلين (تام)

لعبرة (حسن) وقيل كاف على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده متعلقاً بما قبله .

في بطونها (حسن) ومثله كثيرة

تأكلون (جائز)

تحملون (تام)

اعبدوا الله (حسن) ومثله من إله غيره على القراءتين جره نعتاً لا على اللفظ ورفعه نعتاً له على المحل

تتقون (كاف) ورسموا الملؤا هنا بواو وألف بعد اللام كما ترى .

مثلكم ليس بوقف لأنَّ قوله يريد صفة بشر فلا يقطع عنه .

أن يتفضل عليكم (حسن)

ملائكة (جائز) للابتداء بالنفي

الأولين (كاف) على استئناف ما بعده

به جنة (جائز)

حتى حين (كاف) ومثله كذَّبون

ووحينا (حسن)

التنور ليس بوقف لأنَّ قوله فاسلك جواب فإذا وليس رأس آية

وأهلك وصله أولى لأنَّ حرف الاستثناء هو الذي به يصح معنى الكلام فما بعده كالعلة لما

قبله ومنهم من وقف على زوجين اثنين ثم قال وأهلك أي وأهلك الله من الهلاك جميع

الخلائق إلاَّ من سبق عليه القول منهم فما بعد الاستثناء خارج مما قبله يعني إبليس .

القول منهم (كاف)

ظلموا (جائز) لأنَّ إنَّهم كالتعليل لما قبلها .

مغرقون (كاف) ومثله من القوم الظالمين على استئناف ما بعده وجائز إن عطف على ما

قبله .

خير المنزلين (كاف) .

لآيات (جائز)

لمبتلين (كاف) ومثله قرناً آخرين .

رسولاً منهم ليس بوقف .

من إله غيره (حسن) وقيل كاف على استئناف ما بعده .

تتقون (كاف) ولا وقف من قوله وقال الملأ من قومه إلى مما تشربون فلا يوقف على بلقاء

الآخرة لعطف ما بعده على ما قبله ولا على وأترفناهم في الحياة الدنيا لأنَّ قوله ما هذا مقول الذين كفروا فلا يفصل بين القول والمقول ولا على بشر مثلكم لأنَّ ما بعده صفة بشر فلا يقطع منه .

مما تشربون (كاف) ومثله الخاسرون .

وعظاما ليس بوقف لأنَّ قوله إنَّكم مخرجون متعلق بما قبله .

(8/531)

مخرجون (جائز) وقيل لا وقف إلى بمؤمنين لأنَّ الكلام مقول الكفار فلا يقطع بعه عن بعض وإنَّ هيهاتَ هيهات إنكار واستبعاد للبعث بعد أن ماتوا بقولهم وما نحن له بمؤمنين أي بمصدقين وفي هيهات لغات

إحداها هيهاتَ بفتح التاء فيهما

الثانية هيهات هيهاتُ بضم التاء فيهما

الثالثة هيهات هيهاتِ بكسر التاء فيهما

الرابعة هيهات هيهاتْ بسكون التاء فيهما

الخامسة هيهات هيهاتٍ بالكسر والتنوين بتقديره نكره لأنَّ أسماء الأفعال ما نون منها كان

نكرة وما لم ينون كان معرفة نحو صهْ بالسكون وصهٍ بالتنوين

السادسة هيهات هيهاتٌ بالرفع والتنوين

السابعة هيهاتاً هيهاتاً بالنصب والتنوين .

توعدون (جائز) ومثله بمبعوثين .

بمؤمنين (كاف) لأنَّه آخر كلام الكفار وليس من قوله وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا إلى قوله وما نحن له بمؤمنين وقف يختار لأنَّ ما بينهما حكاية عن قول الكفار ويجوز الوقف فيما بينهما على رؤوس الآي .

بما كذّبون (حسن)

نادمين (كاف)

بالحق ليس بوقف لمكان الفاء

غثاءً (حسن)

الظالمين (كاف) ومثله قروناً آخرين وكذا يستأخرون وثم لترتيب الأخبار فيبتدأ بها إذا جاءت في أول قصة أخرى كما هنا

تترى (حسن) لأنّ كلما يبتدأ بها

كذبوه (تام) عند الأخفش .

بعضاً (جائز)

أحاديث (حسن)

لا يؤمنون (تام)

مبين ليس بوقف لأنّ حرف الجر وما بعده موضعه نصب بأرسلنا فهو متصل به .

قوماً عالين (كاف)

مثلنا (جائز)

عابدون (كاف)

من المهلكين (تام)

يهتدون (كاف) على استئناف ما بعده خبراً آخر وجائز إن عطف على ما قبله .

آية (كاف) وإنَّما قال آية ولم يقل آيتين لأنَّها قصة واحدة وهي ولادتها له من غير ذكر .

(9/531)

ومعين (تام) للابتداء بيا النداء بناءً على أنَّ ما بعده خطاب لنبينا وحده كقوله الذين قال لهم الناس وهو نعيم بن مسعود الأشجعي وحده ليدل بذلك على أنَّ الرسل أمروا بأكل الطيبات وهو الحلال الذي طيبه الله لآكليه وليس بوقف لمن قال إنَّ خطاب لعيسى ابن مريم واحتج بما روي أنَّ عيسى كان يأكل من غزل أمه ومن حيث كونه رأس آية يجوز

صالحين (جائز) وقيل كاف .

عليم (تام) لمن قرأ وإنَّ هذه بكسر الهمزة عطفاً على إنِّي وهو حمزة والكسائي وعاصم ، وليس بوقف لمن قرأ بفتحها عطفاً على بما فتكون إنَّ في موضع خفض والتقدير عليم بأنَّ هذه وبها قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وإن نصبت بإضمار فعل نحو واعلموا أنَّ فتكون أنَّ في موضع نصب كان الوقف على عليم جائزاً .

أمة واحدة (كاف) على استئناف ما بعده

فاتقون (كاف)

زبراً (حسن)

فرحون (أحسن منه)

حتى حين (كاف) وقد اختلف في ما من إنَّما هل هي مصدرية حرف واحد أو موصولة فهي حرفان فعلى أنَّها مصدرية حرف واحد هو مذهب الكسائي رواه خلف عنه وعليه يوقف على بنين لأنَّه قد حصل بعد فعل الحسبان نسبة من مسند ومسند إليه نحو حسبت إنَّما ينطلق زيد وإنَّما يضرب بكر فينسبك منها ومما بعدها مصدر هو اسم إنَّ والجملة خبر إنَّ وقيل لا يوقف على بنين لأنَّ نسارع خبر إنَّ على أنَّ إنَّما حرفان وما بمعنى الذي بدليل عود الضمير من به إليها وهي اسم إنَّ وصلتها نمدهم ومن مال حال من الموصول أو بيان له ونسارع خبر إنَّ والعائد محذوف أي نسارع لهم به أو فيه قاله أبو اسحق وهشام بن

معاوية الضرير كما تقول أبو سعيد رويت عن الخدري تريد رويت عنه فأظهرت الهاء

فقلت عن الخدري قال الشاعر :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغّص الموت ذا الغنى والفقيرا

(10/531)

أي لا أرى الموت يسبقه شيء فأظهر الهاء وقول من قال إنَّ يحسبون يتعدى لمفعولين وأن نسارع لهم المفعول الثاني والتقدير أيحسبون أنّ إمدادنا لهم بالمال والبنين مسارعة منا لهم في الخيرات فغلط ومخالفة لقول أبي حاتم إنَّ إنّ إذا وقعت بعد حسب وأخواتها لم تحتج إلى مفعول ثان قال تعالى يحسب أنَّ ماله أخلده وهنا قد نابت أنَّ عن المفعولين فأنّ كافية عن اسم يحسبون وخبرها فلا يؤتى بمفعول ثان بعد أنَّ وقرأ إنَّما بكسر الهمزة على الاستئناف وعليها فمفعولا حسب محذوفان اقتصاراً أو اختصاراً وقرأ يسارع بالتحتية أي يسارع الله أو يسارع لهم الذي يمدون به و قرئ يسارع بالتحتية مبنياً للمفعول وفي الخيرات نائب الفاعل والجملة خبر إنَّ والعائد محذوف أي يسارع لهم به و قرئ نسرع لهم بالنون من أسرع والحذف اختصاراً ما كان لدليل والحذف اقتصاراً ما كان لغير دليل وهذا غاية في بيان هذا الوقف ولله الحمد .

في الخيرات (كاف)

بل لا يشعرون (تام) وهو إضراب عن الحسبان المستفهم عنه استفهام تقريع ولا وقف من قوله إنَّ الذين هم من خشية ربهم إلى راجعون لأنَّ أولئك يسارعون خبر إنَّ الذين هم من خشية ربهم وما بينهما من رؤوس الآي جائز لطول الكلام والنفس يضيق عن بلوغ التمام فلا يوقف على مشفقون ولا على يؤمنون ولا على لا يشركون ولا على راجعون لعطف الأسماء المنصوبة على اسم إنَّ .

سابقون (تام)

إلاَّ وسعها (حسن) ومثله ينطق بالحق

لا يظلمون (كاف)

من هذا (حسن) إن جعل الضمير في ولهم أعمال للكفار وتام إن جعل كناية عن المؤمنين للفصل بين الكفار والمسلمين .

عاملون (كاف) ومثله يجأرون .

لا تجأروا اليوم (حسن) وكذا لا تنصرون

تتلى عليكم (حسن)

تنكصون (كاف) إن نصب مستكبرين حالا من فاعل تهجرون وليس بوقف إن جعل حالاً من الضمير في تنكصون ووقف أبو حاتم على مستكبرين على أنَّ الضمير في به يرجع إلى البيت واستكبارهم به أَنَّهم أحق به من غيرهم وأَنَّهم ولاته يفتخرون بذلك وكذا إن جعل من صلة سامراً لأَنَّهم كانوا يسمرون حول البيت بذكر القرآن والطعن فيه ولا يطوفون بالبيت ومن جعل الضمير في به يرجع إلى القرآن وقف على تنكصون أي يجعلون سمرهم وحديثهم في القرآن ثم يبتدأ مستكبرين به أي بالقرآن واستكبارهم به أَنَّهم إذا سمعوه كذبوه وطعنوا فيه .

تهجرون (تام)

الأولين (كاف) ومثله منكرون وكذا جنة

بالحق (حسن)

كارهون (كاف) وكذا من فيهن

بذكرهم (حسن)

معرضون (صالح)

خرجاً (جائز)

خير الرازقين (كاف) ومثله مستقيم وكذا لناكبون ويعمهون وما يتضرعون .

مبلسون (تام)

والأفئدة (كاف) وكذا ما تشكرون

في الأرض (حسن)

تحشرون (كاف)

ويميت (حسن) ومثله النهار .

أفلا تعقلون (تام)

الأولون (حسن) ومثله لمبعوثون

هذا من قبل (كاف)

أساطير الأولين (تام)

تعلمون (حسن)

لله (أحسن) منه وقال أبو عمرو كاف

تذكرون (كاف)

العظيم (حسن)

سيقولون لله (أحسن منه)

تتقون (كاف)

تعلمون (حسن)

سيقولون لله (أحسن منه)

تسحرون (كاف)

بالحق (جائز)

لكاذبون (تام)

من إله (جائز) لأنّه نفي عام يفيد استغراق الجنس ولهذا جاء إذن لذهب كل إله بما خلق

على بعض (كاف) للابتداء بالتنزيه

يصفون (تام) لمن قرأ عالم بالرفع وهو نافع وحمزة والكسائي على أنَّه خبر مبتدأ محذوف أي

هو عالم وجائز لمن قرأ بالجر وهم الباقون

يشركون (تام)

ما يوعدون ليس بوقف لأنَّ قوله فلا تجعلني جواب الشرط وهو إما لأنَّها كلمتان إن التي

للشرط ودخلت عليها ما وهذه خلاف إما التي للعطف فإنَّها كلمة واحدة ورب منادى

معترض بين الشرط وجوابه

الظالمين (تام)

لقادرون (كاف)

السيئة (حسن) والمراد بالتي هي أحسن شهادة أن لا إله إلاَّ الله والسيئة الشرك

بما يصفون (كاف)

أن يحضرون (تام) ومثله كلا لأنها بمعنى الردع والزجر عن طلب الرجوع إلى الدنيا وفي الحديث إذا عاين المؤمن قالت له الملائكة نرجعك فيقول إلى دار الهموم والأحزان بل قدوماً إلى الله تعالى وأما الكافر فيقول ارجعون لعلي أعمل صالحاً فلا يجاب لما سأل ولا يغاث هو قائلها (حسن)

يبعثون (تام) ومثله ولا يتساءلون والمفلحون وخالدون على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده جملة في موضع الحال مما قبله

كالحون (تام)

تكذبون (حسن) ومثله شقوتنا

ضالين (كاف) ومثله ظالمون وكذا ولا تكلمون

وارحمنا (جائز)

الراحمين ليس بوقف لمكان الفاء بعده

ذكرى (حسن) أي شغلكم الاستهزاء بعمار وسلمان و بلال لا أنّ المؤمنين أنسوهم ذكر الله

تضحكون (كاف) ومثله بما صبروا لمن كسر همزة إنهم على الاستئناف وهي قراءة

الكوفيين إلا عاصماً وليس بوقف لمن فتحها لأنها متعلقة بما قبلها إذ هي المفعول الثاني

لجزيت بتقدير إني جزيتهم اليوم بصبرهم الفوز بالجنة مع الأمن من الأهوال فلا يقطع ذلك

الفائزون (تام)

عدد سنين (جائز) وقيل كاف

أو بعض يوم (جائز)

العادين (تام) ومثله تعلمون للابتداء بالاستفهام

عبثاً ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

لا ترجعون (تام)

الملك الحق (حسن) ومثله ألا هو إن رفع رب على الابتداء أو خبر مبتدأ محذوف وليس

بوقف إن رفع بدلاً من هو

الكريم (تام)

آخر ليس بوقف لأنَّ ما بعده صفة لها فلا يفصل بينهما بالوقف وكذا لا يوقف على لا برهان

له به لأن الفاء في فإنَّما جواب من

عند ربه (كاف)

الكافرون (تام)

وارحم (جائز)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 523.532 ﴾

(13/531)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة المؤمنون 1 :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "عَظْمًا" ، واحدًا "فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ"2 جماعة - السلمي وقتادة والأعرج

والأعمش . واختلف عنهم .

وقرأ : "عِظَامًا" جماعةٌ "فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ3" واحدا - مجاهد .

قال أبو الفتح : أما من وحد فإنه ذهب إلى لفظ إفراد الإنسان والنطفة والعلقة ، ومن جمع

فإنه أراد أن هذا أمر عام في جميع الناس . وقد شاع عنهم وقوع المفرد في موضع الجماعة .

نحو قول الشاعر :

كُلُوا في بعضِ بَطْنِكُمُ تَعِفُّوا فإنَّ زَمَانَكُمُ زَمَنُ خَمِيصُ4

وقول طفيل :

في حَلْقِكُمْ عَظْمٌ وقد شَجينَا 5

وهو كثير وقد ذكرناه . إلا أن من قدم الإفراد ثم عقب بالجمع أشبه لفظا ؛ لأنه جاور بالواحد لفظ الواحد الذي هو "إنسان" و"سلالة" و"نطفة" و"علقة" "ومضغة" . ثم عقب بالجماعة ؛ لأنها هي الغرض . ومن قدم الجماعة بادر إليها إذ كانت هي المقصود . ثم عاد فعامل اللفظ المفرد بمثله . والأول أحرى 6 على قوانينهم . ألا تراك تقول : من قام وقعدوا

---

1 لم يثبت البسملة هنا في نسختي الأصل .

2 يريد أن هؤلاء قرءوا : "فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَمًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا" في قوله تعالى : ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ﴾ سورة المؤمنون : 14 وجماعة بمعنى جمع .

3 يريد أن قراءة مجاهد : "فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَمَ لَحْمًا" .

4 روي : تعيشوا مكان تعفوا . والخميص : الجائع . وأراد بوصف الزمن به أن أهله جياع ؛ فالوصف للزمن والمعنى لأهله . كانوا يتلصصون ويتغاورون في زمن قحط ، فقال لهم ذلك . والبيت من شواهد سيبويه الخمسين . الكتاب : 1 : 108 ، والخزانة : 2 : 379 ، والكشاف في تفسير آية ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ .

5 المحتسب : 1 : 246 .

6 في ك : أحرى ، وهو تحريف .

(14/531)

إخوتك فيحسن لانصرافه عن اللفظ إلى المعنى ، وإذا قلت : من قاموا وقعد إخوتك ، ضعف لأنك قد انتحيت بالجمع على المعنى وانصرفت عن اللفظ ؟ فمعاودة اللفظ بعد الانصراف عنه تراجع وانتكاث ، فاعرفه وابن عليه فإنه كثير جدا .

ومن ذلك قراءة الزهري والحسن والأعرج : "تُنْبَتُ" 1 ، برفع التاء ، ونصب الباء .

وفي قراءة عبد الله : "تَخْرُجُ بِالدُّهْنِ" .

قال أبو الفتح : الباء هنا في معنى الحال ، أي : تنبت وفيها دهنها ، فهو كقولك : خرج بثيابه . أي وثيابه عليه ، وسار الأمير في غلمانه ، أي وغلمانه معه ، وكأنه قال : خرج لابسا ثيابه ، وسار مستصحبا غلمانه ، وكذلك قول الهذلي [107ظ] .

يَعْثُرْنَ في حَدِّ الظِّباتِ كأنَّما كُسِيَتْ بُرُودَ بني تَزِيدَ الأذرُعُ2

أي : يعثرن كابيات3 في حد الظبات ، أو مجروحات في حد الظبات . ومثله ما أنشده الأصمعي من قوله :

وَمُسْتَنَّةٍ كاسِتِنانِ الخَرُوف قد قَطَعَ الحَبْلَ بالمِرْوَدِ 4

أي : قطع الحبل ومرودُه فيه ، أي : متصلا به مِرْوَدُه ، فكذلك قوله : "تُنْبَتُ بِالدُّهْنِ" ،

---

1 سورة المؤمنون : 20 .

2 البيت لأبي ذؤيب . ويروى "علق النجيع" مكان "حد الظبات" ، و"أبي يزيد" مكان "بني تزيد" . والعلق : قطع الدم ، جمع علقة . والنجيع : الدم الطري . والظبات : جمع ظبة ، وهي طرف النصل . وتزيد : هو تزيد بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، تنسب إليهم البرود التزيدية . وأبو يزيد : تاجر كان يبيع العصب بمكة . وضمير يعثرن لحمر الوحش . وشبه طرائق الدم على أذرعهن بطرائق تلك البرود ، لأنها برود تضرب إلى الحمرة . ديوان الهذليين : 1 : 1 ، واللسان "نبت" .

3 كابيات : وصف من كبا ، أي : انكب وجهه .

4 لرجل من بني الحارث ، وبعده :

دفوع الأصابع ضرح الشموس نجلاء مؤيسة العود

ومستنة : وصف من استن : إذا انطلق ، ويريد بها طعنة فار منها الدم وسال . والخروف : والد الفرس إذا بلغ ستة أشهر أو سبعة . والمرود : الوتد . والضرح : الدفع . والشموس من الخيل : الذي يمنع ظهره ، ولا يكاد يستقر . ويريد أن هذه الطعنة قد فار منها الدم وسال على المطعون كما يمر المهر الشموس أفلت من الوتد . وإذا وضعت الأصابع على الدم الفائر

منها دفعها كما يدفع الشموس برجله ، حتى لقد يئس العود من صلاحها . اللسان : "خرف ، نبت" .

(15/531)

أي : تنْبُتُ ودهنها فيها ، وكذلك من قرأ : "تَنْبُتُ" ، أي : تنبت على هذه الحال ، وكذلك أيضا من قرأ : "تَنْبِتُ بِالدُّهْنِ" قد حذف مفعولها ، أي : تنبت ما تنبته ودهنها فيها

وذهبوا في قول زهير :

حتَّى إذا أَنْبَتَ البَقْلُ 1

إلى أنه في معنى نَبَتَ وأنها لغة : فَعَلْت وأفْعَلَت . وقد يجوز أن يكون على هذا أي : محذوف المفعول ، أي : حتى إذا أنبتَ البقلُ ثمرَهُ . ونحن نعلم أيضا أن الدهن لا ينبِت الشجرة ، وإنما ينبتها الماء . ويؤكد ذلك أيضا قراءة عبد الله : "تَخْرُجُ بالدُّهنِ" ، أي : تخرج من الأرض ودهنها فيها .

فأما من ذهب إلى زيادة الباء ، أي : تنبِت الدهن ، فمضعوف المذهب ، وزائد حرفا لا حاجة به إلى اعتقاد زيادته مع ما ذكرناه من صحة القول عليه ، وكذلك قول عنترة :

شَرِبَتْ بماءِ الدَّحْرُضَيْنِ 2

ليس عندنا على زيادة الباء ، وإنما هو على شربت في هذا الموضع ماء ، فحذف المفعول .

وما أكثر وأعذب وأعرب حذف المفعول وأدله على قوة الناطق به !

---

1 البيت بتمامه :

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم قطينا لهم حتى إذا أنبت البقل

وقبله :

إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت ونال كرام الناس في السنة الأكل

ويروى : الحمراء مكان الشهباء . والحجرة مكان السنة ، وروي مكانها أيضا الأزمة .

والسنة الشهباء : هي البيضاء ليس فيها نبت لكثرة ثلجها . والحجرة : السنة الشديدة

تحجر الناس ، أي : تدخلهم بيوتهم لكثرة ثلجها . والأكل : يريد أنهم لا يجدون لبنا يشربون

لأن الماشية لا تنتج ، فينحرون الإبل ويأكلون لحومها . والقطين : الساكن النازل في الدار .

يريد أن الناس يقيمون بينهم زمن الجدب حتى يخصبوا . الديوان : 11 واللسان : "نبت"

2 بعض قوله في المعلقة :

شربت بما الدحرضين فأصبحت زوراء تنفر عن حياض الديلم

والدحرضين : الدحرض ووسيع ، وهما ماءان ، وقد ثناهما الشاعر على سبيل

التغليب . وهو خلاف تفسير المؤلف . وزوراء مائلة . وحياض الديلم : يعنى مياه الديلم .

وقيل : أن العرب تسمى الأعداء ديلما ، لأن الديلم صنف من أعدائها . يريد أن ناقته

شربت من مياه الدحرضين ، فأصبحت تنفر عن مياه الديلم أو مياه الأعداء . الديوان : 124 ، وشرح المعلقات السبع للزوزني : 142 .

(16/531)

ومن ذلك قراءة أبي جعفر يزيد : "لَعِبْرَةً تَسْقِيكُمْ" 1 .

قال أبو الفتح : ليس قوله : "تَسقيكم" صفة ، لعبرة كقولك : لعبرة2 ساقية . ألا ترى أنه ليست العبرة الساقية ، إنما هناك حض وبعث على الاعتبار بسقياها لنا أو بسقيا الله "سبحانه" إيانا منها ؟ فالوقف إذاً على قوله : "لعبرة" ، ثم استأنف "تعالى" تفسير العبرة ، فقال : "تسقيكم" هي ، أو ﴿ نُسْقِيكُمْ ﴾ نحن "مِمَّا فِي بُطُونِهَا" . وقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ أحد ما يدل على قوة شبه الظرف بالفعل . ألا تراه معطوفا على قوله : ﴿ نُسْقِيكُمْ ﴾ ؟ والعطف نظير التثنية ، والتثنية تقتضي تساوي حال الاسمين وتشابههما . ومثله في ذلك3 قول الآخر أخبرنا به أبو بكر محمد بن الحسن عن أبي العباس أحمد 4 بن يحيى ثعلب :

زَمَانَ عَلَيَّ غُرابٌ غُدافٌ فَطَيَّرَهُ الشيْبُ عَنِّي فَطَارَا 5

فعطف "طيره" على "علي" وهو ظرف .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ 6 ، فوجود معنى الشرط في الظرف أقوى دليل على قوة شبهه بالفعل ؛ لأن الشرط لا يصح إلا به . وسوغ ذلك أيضا أن قوله : "نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا" في معنى قوله : لكم في بطونها سقيا ، ولكم فيها منافع .

ومن ذلك قراءة أبي جعفر والثقفي : "هَيْهَاتِ هَيْهَاتِ" 7 ، بكسر التاء غير منونة .

وقرأ : "هَيْهَاتٍ هَيْهَاتٍ" عيسى بن عمر :

وقرأ : "هَيْهَاتٌ هَيْهَاتٌ" رفع منون – أبو حيوة .

وقرأ : "هَيْهَاتْ هَيْهَاتْ" مرسلة التاء 8 عيسى الهمداني ، ورويت عن أبي عمرو .

---

1 سورة المؤمنون : 21 .

2 في ك : عبرة .

3 في ك : ومثله قول الآخر .

4 في ك : يحيى بن أحمد ، تحريف .

5 لأبي حية النميري . وقبله :

زمان الصبا ، ليت أيامنا وجعن لنا الصالحات القصارا

والغداف : الأسود ، وأصله الشعر الطويل الأسود . يريد أن شعره كان أسود زمن الشباب ، وأن الشيب أزال سواده . وانظر الخصائص : 1 : 107 ، واللسان : "غرب" .

6 سورة النحل : 53 .

7 سورة المؤمنون : 36 .

8 يريد مفتوحتها .

(17/531)

قال أبو الفتح : أما الفتح – وهي قراءة العامة – فعلى أنه واحد ، وهو [108و] اسم سمي به الفعل في الخبر ، وهو اسم "بَعُدَ" ، كما أن شتان اسم "افترق" وأوَّتَاه اسم "أتألم" ، وأُفّ اسم "أتضجر" وقد ذكرنا في "أفّ" طرفا صالحا من هذا الحديث1 .

ومن كسر فقال : "هيهاتٍ" منونا أو غير منون فهو جمع هيهات وأصله2 هيْهيات : إلا أنه حذف الألف ، لأنها في آخر اسم غير متمكن3 ، كما حذفت ياء الذي في التثنية إذا قلت : اللذان وألف ذا إذا قلت : ذان .

ومن نون ذهب إلى التنكير ، أي : بُعْدًا بُعْدًا .

ومن لم ينون ذهب إلى التعريف ، أراد : البُعْد البُعْد .

ومن فتح وقف بالهاء ؛ لأنها كهاء أرْطَاة4 وسِعْلَاة5 .

ومن كسر كتبها بالتاء ؛ لأنها جماعة ، والكسرة في الجماعة بمنزلة الفتحة في الواحد ، كما أن سقوط النون من ضربا بمنزلة الفتحة في ضرب طردا على سقوط النون في لن يضربا

بمنزلة الفتحة في أن يضرب . فلفظ البناء في هذا كلفظ الإعراب .

ومن قال : "هيهاةٌ هيهاةٌ" فإنه يكتبها بالهاء ؛ لأن أكثر القراءة "هَيْهَاةَ" بالفتح ، والفتح يدل على الإفراد ، والإفراد بالهاء كهاء أرطاة وعَلْقَاة6 ، غير أن من رفع فقال : "هيهاةٌ" فإنه يحتمل أمرين :

أحدهما أن يكون أخلصها اسما معربا فيه معنى البعد ، ولم يجعله اسما للفعل فيبنيه كما بنى الناس غيره ، وقوله : ﴿لِمَا تُوعَدُون﴾ خبر عنه ، كأنه قال : البعد لوعدكم ، كما يقول القائل : الخلف لموعدك ، والضلال لإرشادك ، والخيبة لانتجاعك .

والآخر أن تكون مبنية على الضم ، كما بنيت نحن عليه ، وكما بنيت حَوْبُ7 عليه في الزجر ، ثم اعتقد في التنكير فلحقه التنوين على ما مضى . ونحو من ذلك ما حُكي عن بعضهم من ضمة نون التثنية في الزيدانُ والعمرانُ .

---

1 انظر الصفحة 18 من هذا الجزء .

2 أي "هيهات" الجمع .

3 وحينئذ قلبت الياء ألفا ، لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ولم يكن ثمة سبيل إلى قلبها قبل حذف الألف ، لأنها لام فلا تقلب إذا كان بعدها ألف . وانظر التصريح .

4 الأرطاة : واحدة الأرطى ؛ وهو شجر نوره كنور الخلاف ، وثمره كالعناب ، مر تأكله الإبل ، غض ، وعروقه حمر .

5 السعلاة : الغول .

6 العلقاة : نبت ، كأنه واحد علقى كسكرى .

7 أصل الحوب : الجمل ، ثم كثر حتى صار زجرا له ، فقالوا : حوب ، مثلث الباء .

(18/531)

وأما "هيهاتْ هيهاتْ" ، ساكنة بالتاء فينبغي أن يكون جماعة ، وتكتب بالتاء ؛ وذلك أنها لو كانت هاء كهاء علقاة وسماناة 1 للزم في الوقف عليها أن يلفظ بالهاء كما يوقف مع الفتح فيقال : هَيْهَاه هَيْهَاه ، فبقاء التاء في الوقف في السكون دليل على أنها تاء ، وإذا كانت تاء فهي للجماعة ، وهو أمثل من أن يعتقد فيها أنها أجريت في الوقف مجراها في الوصل من كونها تاء كقولنا : عليه السلام والرحمتْ ، وقوله :

بلْ جَوْزِ تيهَاءَ كَظَهْرِ الحَجَفَتْ 2

لقلة هذا وكثرة الأول ، وكذلك يقف الكسائي عليه ، وهو عندي حسن لما ذكرته .

وعذر من وقف بالتاء كونها في أكثر الأمر مصاحبة للأخرى من بعدها ، ولأنها أيضا تشبه الفعل ، والفعل أبدا متطاول على الفاعل ، وهذا طريق الوصل ، ولأن الضمير فيها لم يؤكد قط ، فأشبهت الفعل الذي لا ضمير فيه ، فكان ذلك أدعى في اللفظ إلى إدراجها بالتوقع

له3 :

والذي حسن الوقوف عليها حتى نطق بالهاء فيها ما أذكره لك ، وهو أن هيهاهْ جارية مجرى الفعل في اقتضائها [108ظ] الفاعل ، فإذا قال : هيهاتَ ، فكأنه قال : بعُد بعثكُم ، بعُد إنشاؤكم ، بعُد إخراجكم . فإذا وقف عليه أعلم أن فيه فاعلا مضمرا وأن الكلمة قد استقلت بالضمير الذي فيها ، وإذا وصلها بالأخرى أوهم حاجة الأولى إلى الآخرة فآذن بالوقوف عليها باستقلالها وغنائها عن الأخرى من بعدها ، فافهم ذلك . ولا يجوز أن يكون قوله4 : ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ هو الفاعل ؛ لأن حرف الجر لا يكون فاعلا ، ولا يحسن اعتقاد زيادة اللام هنا

---

1 السماناة : طائر ، وجمعه سمانى أو السمانى للواحد والجمع .

2 لسؤر الذئب ، وبعده :

قطعتها إذا المها تجوفت مآرنا إلى ذراها أهدفت

والجوز : الوسط . والتيهاء : المفازة التي يتيه فيها سالكها ، أي يتحير . وبل جوز تيهاء ، أي رب جوز تيهاء . والجحفة : الترس من جلد ، شبه به التيهاء في الملاسة والخلو من الأعلام . وذكر الوسط ليدل بتوسطه إياها على قوته وجلادته . والمها : جمع مهاة ، وهي البقرة الوحشية . والمآرن : أصلها المآرين : جمع المئران ، وهو كناس الوحش . وذراها " ظلها . وأهدفت : لجأت ، وأصل الأهداف : الدنو والاستقبال . وروى مآزقا مكان مآرنا .

وانظر الخصائص : 1 : 304 ، وشرح شواهد الشافية : 200 ، واللسان : "جحف" .

3 سقطت "له" في ك .

4 قوله ساقطة في ك .

(19/531)

حتى كأنه قال : بَعُدَ ما توعدون ؛ لأنه لم تؤلف زيادة اللام في نحو هذا ، وإنما زيدت في الموضع الذي الغرض بزيادتها فيه تمكين معنى الإضافة ، كقوله :

يا بُؤْس للحربِ التي وَضَعَتْ أراهِطَ فاستراحُوا 1

وكقوله :

يا بؤسَ للجهْلِ ضرَّارًا لأقْوَام2

وإذا لم يكن لها بد من الفاعل ولم يكن الظاهر بعدها فاعلا لها ففيها ضمير فاعل لا محالة ، وهو ما قدمنا ذكره3 . ومما نون وهو مبني على الضم قوله :

سَلامُ اللهِ يا مَطَرٌ عَلَيْها وَلَيْسَ عَلَيْكَ يا مَطَرُ السلامُ4

ومنه قولهم في الضجر : أفٌّ فيمن ضم ونون ، ويؤنسك باستعمالهم من هذا اللفظ اسما معربا قول رؤبة :

هَيْهَاتَ من مُنْخَرِقٍ هَيْهَاؤه5

فكأنه قال : بَعُدَ بُعْدُهُ ، وهو كقولهم : جُنَّ جُنُونُه ، وضَلَّ ضَلالُه ، وقولهم : موتٌ مائتٌ ، وشعرٌ شاعرٌ على طريقة المبالغة . وهيهاؤه إذاً فِعْلالُه ، كزِلْزَاله وقِلْقَالِه ، والهمزةُ فيه منقلبةٌ عن ياء ، لأنه من باب6 حَاحَيْتُ وعاعَيْتُ . وقريب من لفظه ومعناه ما أنشدَنَاه أبو علي من قولِ بعضهم :

فَأَرْفَعُ الجفنَةَ بِالْهَيهِ الرثعْ7

---

1 لسعد بن مالك بن ضبيعة ، جد طرفة بن العبد ، من قصيدة في هجاء حنيفة وعجل ويشكر من بكر ، لتخليهم عن حرب بكر وتغلب انظر ذيل الأمالي : 28 ، والخصائص : 3 : 106 .

2 المحتسب : 1 : 251 .

3 قبلها : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ ، فضمير الفاعل "هو" يعود على إخراجكم . وانظر البحر : 6 : 405 .

4 للأحوص الأنصاري . ويروى من خبر الشاهد أن الأحوص كان يهوى أخت امرأته ، ويكتم ذلك ، وينسب فيها ولا يفصح ، فتزوجها مطر ، فغلبه الأمر ، وقال الشعر الذي منه هذا البيت . وانظر أمالي الزجاجي : 81 ، والكتاب : 1 : 313 والخزانة : 1 : 294 .

5 للعجاج، ويروى "من" مكان "في" . وانظر الديوان : 4 ، والخصائص : 3 : 43 .

6 باب ساقطة في ك .

7 قبله :

قد أخصم الخصم وآتي بالربع

وأخصم الخصم : أغلبه في الخصومة . والربع : بضم الباء ، يريد به ربع الغنيمة . وروي بفتحها ، وهو : الفصيل ينتج في الربيع وهو أول النتاج ؛ وجمعه رباع . ومعنى آتي به : أقتاده وأسوقه . والرتع : الدنيء الشره الحريص . يريد أنه يدنيه ويطعمه على دنس ثيابه دناءته . وذكر ابن الأعرابي له تفسيرا آخر وانظر اللسان "رثع" "وهيه" .

(20/531)

فَالْهَيْهُ : المرقّع من الناس المرذول الذي يقال له في إبعاده : هَيْهْ . فسمي بالصوت الذي يقال ، كما قال الآخر

إذَا حَمَلْتُ بِزَّتِي عَلَى عَدَسْ فَما أُبالِي مَن مَضَى ومَن جَلَسْ 1

يعني البَغْل ؛ لأنه يقال له في الزجر : عَدَسْ . قال :

عَدَسْ ما لِعَبادٍ عليكَ إمارَةٌ نَجَوْتِ وهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ 2

فَالْهَيْهُ – كما ترى – ثلاثي ، وهيهات – على ما مضى – رباعي ، فاللفظان أخوان ، والمعنيان متقاربان ؛ لأن هيهاة اسم بَعُدَ وهَيْهْ زجرٌ3 وإبعادٌ ونظير هَيْهْ وهَيْهَاهْ قولهم : سَلِسَ وسَلْسَلَ ، وقَلِقَ وقَلْقَلَ ، وجَرِجَ4 وجَرْجَرَ . وسألني أبو علي يوما فقال : أي شيء مثل غَوْغاء وغَوْغَاء ؟ فقلت له : قولهم للمنخوب5 : هُوهٌ وهَوْهَاءةٌ . وينبغي أن يضاف إلى ذلك ما ذكرناه الآن من قولهم : هَيْه وهَيْهَاتْ .

ومن ذلك قراءة الحر النحوي : "نُسْرِعُ لَهُمْ"6 ، وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة7 : "يُسَارِعُ لهم" ، وروي عنه أيضا : "يُسَارَعُ لهم" بفتح الراء ، والذي قبله بكسر الراء وقراءة الناس : "نُسَارِعُ" بالنون والألف .

---

1 يروى بين البيتين :

على التي بين الحمار والفرس

والبزة : السلاح . وانظر الخزانة : 2 : 517 .

2 ليزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري ، وكان يزيد حليفا لقريش ، فلما ولي سعيد بن عثمان بن عفان خراسان استصحبه ؛ فلم يصحبه يزيد ، وصحب زياد بن أبي سفيان فلم يحمده ، وأتى عباد بن زياد فكان معه . وكان عباد طويل اللحية عريضها ، فركب ذات يوم وابن مفرغ معه في موكب ، فهبت الريح فنفشت لحية عباد فقال ابن مفرغ :

ألا ليت اللحى كانت حشيشا فترعاها خيول المسلمينا

فبلغ ذلك عبادا فحقد عليه وجفاه ، فهجاه يزيد ، فأخذه عبيد الله بن زياد وحبسه وعذبه في خبر طويل . وانظر الخزانة : 2 : 514 .

3 ساقطة في ك .

4 جرج الخاتم في أصبعه : جال ، وقلق لسعته .

5 رجل منخوب : جبان .

6 سورة المؤمنون : 56 .

7 هو عبد الرحمن بن أبي بكرة الثقفي ، أول مولود بالبصرة روى عن أبيه ، وروى عنه ابن سيرين وجماعة . وثقه أحمد . مات سنة 136 . خلاصة تذهيب الكمال : 137 ، وتهذيب التهذيب : 7 : 415 .

(21/531)

قال أبو الفتح : هنا على قراءة الكافة إلا عبد الرحمن ضمير محذوف ، أي : أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نُسارِع لهم به في الخيرات ، أو نُسْرِع لهم به ، أو يُسارَعُ [109و] لهم به في الخيرات ؟ فحذفت "به" للعلم بها ، كما حذف الضمير في قولهم : السمن مَنَوَان بدرهم ، أي : منوان منه بدرهم ، فكأن "به" المتقدمة في الصلة من قوله : ﴿ نُمِدُّهُمْ بِهِ ﴾

صارت عوضا من اللفظ بها ثانية . ومعناه أنا لا نقدمه لهم إرادة للخير ، بل هو إملاء واستدراج لهم كقوله جل وعز 1 : ﴿ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ ﴾ 2 ، إلى آخر ذلك وغيره من الآي في معناه .

وأما قراءة عبد الرحمن بن أبي بكرة "يُسَارِعُ" بكسر الراء ، وبالياء فلا حاجة به إلى تقدير حذف الضمير ؛ لأن في الفعل ضميرا يعود على "ما" من قوله : ﴿ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ ﴾ .

ومن ذلك قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة وابن عباس وقتادة والأعمش : "يَأْتُونَ مَا أَتَوْا" 3 قصرا .

قال أبو الفتح : قال أبو حاتم – فيما روينا عنه – يأتون ما أتوا ، قصرا ، أي : يعملون العمل وهم يخالفونه ويخافون لقاء الله ومقام الله ، قال : ومعنى قوله : ﴿ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ﴾ يعطون الشيء فيشفقون ألا يقبل منهم . وحُكي عن إسماعيل بن خلف قال : دخلت مع عبيد الله بن عمير الليثي على عائشة "رضي الله عنه" ، فرحبت به ، فقال لها : جئتك لأسالك عن آية في القرآن . قالت : أي آية هي ؟ فقال : "الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا" ، أو ﴿ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ﴾ ؟ فقالت : أيتهما أحب إليك ؟ قال : فقلت : لأن تكون "يَأْتُونَ مَا أَتَوْا" أحب إلي من الدنيا جميعا ، فقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يأتون ما أتوا" ولكن الهجاءَ حُرّف 4 .

---

1 في ك : عز وجل .

2 سورة الزخرف : 33 .

3 سورة المؤمنون : 60 .

4 ورد هذا الخبر في تفسير الطبري "18 : 26" ولم يعقب عليه كما على دعوى خطأ الكاتب في : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاة ﴾ من آية ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ . . ﴾ . =

(22/531)

ومن ذلك قراءة الحر : "أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

" 1 ، أي يكونون سراعا .

قال أبو الفتح : يقال سُرِع إلى الشيء وأسرع إليه ، وقوله : "يُسْرِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ" ، أي : يكونون سراعا إليها وفي عملها . وأما "يُسَارِعُون" فيسابقون ، فمفعوله إذاً محذوف ، أي يُسارِعُون مَنْ يُسَارِعُهم إليها ، كقولك : يُسابِقُون إليها وفيها ، أي يُسابِقُون مَنْ يُسابِقُهم إليها .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود وابن عباس وعكرمة : "سُمَّرًا يُهَجِّرُونَ" 2 .

وروي عن ابن محيص : "سُمَّرًا يُهْجِرُونَ" .

قال أبو الفتح : السمَّرُ جمع سامِر ، والسامِرُ : القوم يَسْمُرُون3 ، أي : يتحدثون ليلا .

قال ذو الرمة :

وكَمْ عَرَّسَتْ بَعْدَ السُّرَى مِنْ مُعَرَّسٍ بِهِ مِنْ عَزِيفِ الجنِّ أصواتُ سَامِرِ4

وروينا عن قطرب أن السامر قد يكون واحدا وجماعة وأما "يُهْجَرُون" ، بسكون الهاء ، وضم الياء فتفسيره : يفحشون القول ، يقال : هَجَرَ الرجلُ في منطقِهِ ، إذا هذى ، وأَهْجَرَ : أفحش . قال الشماخ :

=انظر في هذا تفسير الطبري "9 : 394 - 398" طبعة المعارف .

ولو كان الأمر في قراءة "يُؤْتُونَ مَا آتَوْا" أمر تحريف لا رواية ما غفل القراء عنه ، ولا فاتهم التنبيه عليه ، فغيرتهم على القرآن وتحريهم وجه الصواب فيه مما لا خلاف فيه ولا مزيد عليه .

ولا ندري أَوَقَعَ هذا التحريف في جميع المصاحف أم في بعض دون بعض ؟ فإن كان فيها كلها فما هو بتحريف إذاً ، ولكنه التواطؤ والاتفاق . وإن يكن في بعض دون بعض فكيف تعاقب القراء على التحريف وكثر قراؤه حتى كانوا الكثرة الكاثرة ، وقلَّ قراء الصواب حتى كانوا القلة الضئيلة ؟

وإذا كان التحريف بعد هذا محتملا في "آتوا" لأن الفرق يسير بين رسم الهمزة ممدودة ورسمها مقصورة فإنه يبدو بعيدا "يؤتون" لأن الفرق بينها وبين "يأتون" هو الفرق بين حرفين

لا يتشابهان في الرسم من قريب أو بعيد ، ولا يعقل أن تسأل عائشة إسماعيل هذا السؤال ، لأن القرآن توقيف ، فكيف تحكم فيه الأهواء ؟

1 سورة المؤمنون : 61 .

2 سورة المؤمنون : 67 .

3 في ك : يسمرون ليلا أي : يتحدثون .

4 روي "كلام" مكان "عزيف" . والتعريس : النزول آخر الليل للنوم والاستراحة . يتحدث عن الناقة وأنها كثيرا ما تقضي الليل في السرى . وانظر الديوان : 292 .

(23/531)

كَمَا جِدَةِ الأَعْرافِ قالَ ابنُ ضَرَّةٍ عَلَيْها كَلَامًا جارَ فيهِ وأَهْجَرًا 1

وقال الحسن في "تَهْجُرُونَ" أي : تهجرون كتابي ونبيي . وأما "تُهْجِّرُونَ" فينبغي والله أعلم أن يكون تكثرون من الهجر ، وهو الهذيان ، أو هجر النبي "صلى الله عليه وسلم" وكتاب الله ، أو تكثرون من الإهجار ، وهو إفحاش القول ؛ لأن فَعَّلَ تأتي للتكثير .

وروينا عن أبي حاتم قال : قرأ "سُمَّارًا" أبو رجاء ، فهذا ككاتِب وكُتّاب [109ظ] ، وشارب وشُرّاب . ولو ذهب ذاهب إلى أن معنى "تُهْجِّرُونَ" ، أي تكثرون من الهذيان

حتى تكونوا – وأنتم في سواد الليل لقلة احتشامكم لظهور ذاك عليكم – كأنكم مهجّرون ، أي : مبادون به غير مسايرين له ، كالذي يهجّر في مسيره ، أي : يسير في الهاجرة ، فهذا كقولك لصاحبك : أنت مساترا معلن ، وأنت محسنا مسيءٌ ، أي : أنت في حال مساترتك معلن ، وأنت في حال إحسانك عندي مسيء – لكان وجها .

ومن ذلك قراءة يحيى : "وَلَوُ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ"2 ، بضم الواو .

قال : الضم في هذه الواو قليل ، وإنما بابها الكسر كقراءة الجماعة ، غير أن من ضمها شبهها – لسكونها وانفتاح ما قبلها – بواو الجمع ، كقول الله تعالى : ﴿ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ ﴾ 3 ، كما شبه بعضهم واو الجمع هذه بها فقرأ : "اشْتَرَوِا الضَّلاَلَةَ" ، ومثل ضم هذه الواو ضم واو قوله5 : . . . . .

---

1 قبله :

كأن ذراعيها ذراعا مدلة بعيد السباب حاولت أن تعذرا

وروي "مبرأة الأخلاق" مكان "كماجدة الأعراق" ، وهي الرواية المشهورة . وروي أيضا "ممجدة" مكان "كماجدة" . وتعذر : تعتذر . يقول : كأن ذراعي هذه الناقة في حسنهما وحسن حركتها ذراعا امرأة مدلة بحسن ذراعيها أظهرتهما بعد السباب لمن قال فيها من العيب ما ليس فيها وهو ابن ضرتها . انظر اللسان "هجر" ؛ والديوان ، نسخة بالآلة الكاتبة بمكتبة دار العلوم .

2 سورة المؤمنون : 71 .

3 سورة البقرة : 16 .

4 انظر المحتسب : 1 : 54 .

5 في الأصل بعد كلمة "قوله" كلمة "مبيض" .

(24/531)

وقرأ بعضهم : "اشْتَرَوَا الضَّلالَةَ" بفتح الواو ، كل ذلك لالتقاء الساكنين . فمن كسر فعلى أصل حركة التقاء الساكنين ، ومن ضم فلأجل واو الجمع . ومن فتح تبلَّغ بالفتحة لخفتها .

ومن ذلك قراءة قتادة : "بَلْ أَتَيْنَاهُمْ نُذَكِّرهم" ، "بل أَتيتَهم بِذِكْرِهِمْ" ، و"بل أَتيتُهم بذِكْرِهِمْ" ، بكلٍّ قد قرئ ، وذلك أنه إذا أتاهم بذكرهم فإنه قد ذكرهم به ، فالمعنى إذاً واحد .

ومن ذلك قراءة أُبي : "وَلا تكَلِّمُونِ أَنَّهُ"2 ، بفتح الألف .

قال هارون : كيف شئت "إنَّه" ، و"أَنّه" .

وفي قراءة ابن مسعود : "وَلا تُكَلِّمُونِ كَانَ فَرِيقٌ" ، بغير "أنه" .

وقال يونس عن هارون في حرف أُبي : "وَلا تُكَلِّمُونِ أَنْ كَانَ فَرِيقٌ" .

قال أبو الفتح : قراءة ابن مسعود : "كان فَرِيقٌ" بغير "أنه" تشهد للكسر ؛ لأنه موضع

استئناف ، والكسر أحق بذلك . والقراءة "أَنْ كَانَ فَرِيقٌ" تشهد لـ "أنه" ، ألا ترى أن معناه : ولا تكلمون لأنه كان فريقٌ كذا .

ومن ذلك قراءة الحسن وقتادة : "عِنْدَ رَبِّهِ أَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ"3 ، بفتح الألف .

قال أبو الفتح : معناه – والله أعلم – أن4 حسابه يؤخر إلى أن يلقى ربه ؛ فيحاسب حينئذ . وذلك أنه لا تنفع فيه الموعظة ولا التذكير في الدنيا ؛ فيؤخر الحساب إلى أن يحاسب عند ربه لعدم انتفاعه بالوعظ5 له والتضييق عليه في الدنيا ، وهذا كقوله "عز اسمه" : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾6 . انتهى انتهى . اهـ

﴿ المحتسب حـ2 صـ86.97 ﴾

---

1 سورة المؤمنون : 71 .

2 سورة المؤمنون : 108 .

3 سورة المؤمنون : 117 .

4 في ك : حسابه : بدون "أن" .

5 سورة الطور : 45 ، وفي الأصل ﴿ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ . وهذه من الآية المذكورة . ومن آيتي ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ في الزخرف : 83 ، والمعارج : 42 .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة المؤمنون

مكية آيها مائة وثمان عشرة كوفي وحمصي وتسع عشرة في الباقي خلافها آية وأخاه هارون تركها غيرهما مشبهة الفاصلة ثلاث مما تأكلون وفار التنور عذاب شديد القراآت نقل حركة همزة قد أفلح إلى الدال قبلها ورش من طريقيه على قاعدته كحمزة وقفا مع السكت وعدمه وإهماله وصلا وورد الوجهان أيضا عن ابن ذكوان وحفص وإدريس وصلا ووقفا كما مر في بابه

وأمال (فمن ابتغى) الآية 7 هنا وسأل حمزة الآية 31 والكسائي وخلف بالفتح والصغرى الأزرق

واختلف في (لأماناتهم) الآية 8 هنا والمعارج الآية 32 فابن كثير بغير ألف فيهما على الإفراد وافقه ابن محيصن والباقون بالألف على الجمع وخرج بالقيد النساء والأنفال الجمع على جمعها

واختلف في ﴿ صلاتهم يحافظون ﴾ الآية 9 وهو الثاني هنا فحمزة والكسائي وخلف

بالإفراد على إرادة الجنس وافقهم الأعمش والباقون بالجمع على إرادة الخمس أو غيرها كالرواتب وخرج بالثاني الأول وهو قوله تعالى ( ) في صلاتهم خاشعون ( ) المتفق على إفراده كالأنعام والمعارج

واختلف في ( ) عظاما فكسونا العظام (الآية 14 فابن عامر وابو بكر بفتح العين وإسكان الظاء بلا ألف فيهما على التوحيد إرادة للجنس على حد وهن العظم مني وافقهما في الأول المطوعي والباقون بالجمع فيهما على الأصل على حد وانظر إلى العظام

واختلف في ( ) طور سيناء ( ) الآية 20 فنافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بكسر السين بالهمز كحرباء لغة بني كنانة وهو جبل موسى عليه السلام بين أيلة ومصر وقيل بفلسطين ومنع صرفه قيل للتأنيث المعنوي والعلمية لأنه اسم بقعة بعينها وقيل للعجمه معها وافقهم ابن محيصن واليزيدي وعن المطوعي كسر السين والتنوين بلا مد على وزن دينا والباقون بالفتح والهمزة لغة أكثر العرب ومنع الصرف حينئذ لألف التأنيث

(26/531)

اللازمة فوزنه فعلاء كصفراء لإفعلال إذ ليس في كلامهم كما قاله البيضاوي

واختلف في ( ) تنبت بالدهن ( ) الآية 20 فابن كثير وابو عمرو ورويس بضم التاء وكسر

الموحدة مضارع أنبت بمعنى نبت فيكون لازما وقيل معدى بالهمزة وبالدهن مفعوله والباء زائدة أو حال والمفعول محذوف أي تنبت زيتونها أو جناها ومعه الدهن وافقهم ابن محيصن واليزيدي والباقون بفتح التاء وضم الباء مضارع نبت لازم وبالدهن حال الفاعل أي تنبت ملتبسة بالدهن وعن المطوعي صبغا بالنصب عطفا على موضع بالدهن والجمهور على الجر نسقا على الدهن قيل إنها أعني شجرة الزيتون أول شجرة نبتت بعد الطوفان

وقرأ (نسقيكم) الآية 21 بالنون المفتوحة نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب وأبو جعفر بالتاء من فوق مفتوحة على التأنيث والباقون بالنون المضمومة وسبق توجيه ذلك بالنحل

وقرأ ( ) من إله غيره ( ) الآية 23 بخفض الراء وكسر الهاء بعدها الكسائي وأبو جعفر والباقون بالرفع وقف حمزة وهشام بخلفه على ﴿ فقال الملؤا) ﴾ في قصة نوح المرسوم بالواو كثلاثة النمل بإبدال الهمزة ألفا على القياس وبتخفيفها بحركة نفسها فتبدل واوا مضمومة فإذا سكنت للوقف اتحد معه اتباع الرسم وتجوز الإشارة بالروم والإشمام فهذه أربعة والخامس بين بين على تقدير روم الحركة الهمزة وأثبت الياء في (كذبون) معا في الحالين يعقوب وأما حكم همزتي جاء أمرنا فسبق قريبا آخر السابقة في السماء ان

وقرأ ( ) من كل (بالتنوين حفص وذكر بهود

واختلف في ( ) أنزلني منزلا (الآية 29 فأبو بكر بفتح الميم وكسر الزاي أي مكان نزول والباقون بضم الميم وفتح الزاي فيجوز أن يكون مصدرا أو مكانا أي إنزالا أو موضع إنزال وكسر نون ( ) أن اعبدوا (أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب ومر قريبا ( ) إله غيره (للكسائي وأبو جعفر ووقف حمزة وهشام بخلفه علي ( ) وقال الملأ من قومه ( ) المرسوم بالألف كالأعراف بإبدال الهمزة ألفا وبتسهيلها بين بين على الروم

وقرأ (متم) الآية 35 بكسر الميم نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف والباقون بالضم واختلف في ( ) هيهات هيهات ( ) الآية 36 معا فأبو جعفر بكسر التاء من غير تنوين فيهما لغة تميم وأسد ورويت عن شيبة وغيره والباقون بالفتح فيهما بلا تنوين أيضا لغة الحجاز وهو اسم فعل لا يتعدى يرفع الفاعل ظاهرا أو مضمرا وهنا لم يظهر تقديره هو أي إخراجكم ولام لما للبيان كهي في سقيا لك يا ابنت المستبعد ووقف عليها بالهاء البزي وقنبل بخلفه والكسائي والباقون بالتاء وهو الذي لقنبل في الشاطبية وغيرها ولم يذكر الخلف عنه الأول في العنوان والتذكرة والتحليص

وقرأ (رسلنا) الآية 44 بإسكان السين أبو عمرو

واختلف في ﴿ تترى ﴾ الآية 44 فابن كثير وابو عمرو وابو جعفر بالتنوين منصرفا فقيل وزنه فعل كنصر والألف بدل من التنوين ورد ذلك بأنه لم يحفظ جريان حركة الإعراب على رأيه فيقال هذا تتر ورأيت تترا ومررت بتتر وقيل ألفه للإلحاق بجعفر كهي في أرطي فلما نون ذهبت للساكنين قال في الدار هذا أقرب لو قبله ولكن يلزم منه وجود ألف الإلحاق في المصادر وهو نادر وافقهم اليزيدي وعلى الأول لا تمال في قف لأبي عمرو لأن ألفها حينئذ كألف عوجا وأمتا قال الداني وعليه القراء وأهل الأداء على الثاني تمال له والمقروء به هو الأول فقد قال في النشر بعد ذكره ما تقدم ونصوص أكثر أئمتنا تقضي فتحها لأبي عمرو وإن كانت للإلحاق من أجل رسمها بالألف فقط شرط مكي وابن بليمة وصاحب العنوان وغيرهم في إمالة ذوات الراء له تكون الألف مرسومة ياء ولا يريدون بذلك إلا إخراج تترا انتهى والباقون بالألف بلا تنوين لأنه مصدر مؤنث كدعوى وأمالها منهم حمزة والكسائي وخلف في الحالين وقللها الأزرق بخلفه قال أبو حيان وهو منصوب على الحال أي متواترين واحدا بعد واحد وسهل الهمزة الثانية كالواو من جاء أمة نافع وابن كثير وابو عمرو وأبو جعفر ورويس وليس في القرآن مضمومة بعد مفتوحة من كلمتين غيرهما ومر إمالة جاء لحمزة وخلف وابن ذكوان وهشام بخلفه

وقرأ (ربوة) الآية 50 بفتح الراء عامر وعاصم وعن المطوعي كسرها

واختلف في ( ) وإن هذه أمتكم (الآية 52 فنافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بفتح الهمزة وتشديد النون على تقدير اللام أي ولأن وافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن وقرأ ابن عامر وحده بفتح الهمزة وتخفيف النون على أنها المخففة من الثقيلة وهذه رفع وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بكسر الهمزة وتشديد النون على الاستئناف أو عطفا على أن وافقهم الأعمش وأمة منصوب على الحال في القراآت الثلاث ضم هاء لديهم حمزة ويعقوب وأثبت ياء (فاتقون) في الحالين يعقوب

(29/531)

وقرأ (أيحسبون) الآية 55 بفتح السين وابن عاصم وحمزة وأبو جعفر

وأمال (نسارع) و (يسارعون) و (طغيانهم) الدوري عن الكسائي وعن ابن محيصن

﴿ سمرا ﴾ بضم السين بلا ألف بعدها وفتح الميم مشددة جمع سامر وهو مقيس وقرأ به جماعة لكن الأفصح الإفراد قراءة الجمهور لأنه يقع على ما فوق الواحدة تقول قوم سامر

واختلف في (تهجرون) الآية 67 فنافع بضم التاء وكسر الجيم من أهجر

إهجارا أي أفحش في منطقة وافقه ابن محيصن والباقون بفتح التاء وضم الجيم أما من الهجر بسكون الجيم القطع والصدأ والهجر بفتحها وهو الهذيان

وقرأ ﴿ خراجا) ﴾ الآية 72 الأول بفتح الراء وألف بعدها حمزة والكسائي وخلف والباقون بإسكان الراء بلا ألف

وقرأ ﴿ فخرج ربك ﴾ الآية 72 بإسكان الراء ابن عامر والباقون بالألف بعد الراء المفتوحة

وقرأ (صراط) الآية 73 بالسين قنبل من طريق ابن مجاهد ورويس وبالإشمام خلف عن حمزة

وقرأ) أئذا متنا ( ) أئنا لمبعوثون ( ) الآية 82 بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني نافع والكسائي ويعقوب وكل في الاستفهام على أصله فقالون بالتسهيل والمد وورش ورويس بالتسهيل والقصر والكسائي وروح بالتحقيق والقصر وقرأ الإخبار في الأول والاستفهام في الثاني ابن عامر وأبو جعفر وكل على أصله فابن عامر بالتحقيق والقصر إلا أن أكثر الطرق عن هشام على المد كما في الشاطبية وفاقا لسائر المغاربة وأبو جعفر بالتسهيل والمد والباقون بالاستفهام فيهما فابن كثير بتسهيلهما مع القصر وأبو عمرو بتسهيلهما مع المد وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بتحقيقهما مع القصر وقرأ (تذكرون) بتخفيف الذال وحفص وحمزة والكسائي وخلف وعن ابن محيصن ( ) ورب العرش العظيم ( ) برفع الميم نعتا لرب

واختلف في ﴿ سيقولون الله) ﴾ الآية 87 89 الأخيرين فأبو عمرو ويعقوب بإثبات ألف الوصل قبل اللام ورفع هاء الجلالتين والابتداء بهمزة مفتوحة لمطابقة الجواب السؤال حينئذ لفظا لأن المسؤول به مرفوع المحل وهو من فجاء جوابه مرفوعا مبتدأ لخبر محذوف تقديره الله ربهما بيده وافقهما اليزيدي والباقون ( ) لله (بغير ألف وجر الهاء فيهما جواب على المعنى لأنه لا فرق بين من رب السموات وبين لمن السموات كقولك من رب هذه الدار فيقال زيد وإن شئت قلت لزيد وخرج الأول المتفق على أنه لله بغير ألف موافقة للرسم وقرأ ( ) قل من بيده (باختلاس كسرة الهاء رويس والباقون بالإشباع

وأمال (فأنى) حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق والدوري عن أبي عمرو بخلفهما واتفقوا على فتح (ولعلا بعضهم) لكونه ثلاثيا واويا مرسوما بالألف كما مر

واختلف في ( ) عالم الغيب (الآية 92 فنافع وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف وأبو جعفر برفع الميم على القطع أي هو عالم وافقهم الحسن والمطوعي واختلف عن رويس في الابتداء فروى الجوهري وابن مقسم عن التمار الرفع في الابتداء وكذا روى أبو العلاء والكارزيني كلاهما عن النخاس بالمعجمة عنه وروى باقي أصحاب رويس الخفض في الحالين وبه قرأ الباقون صفة لله تعالى كأنه محض الإضافة فتعرف المضاف قاله الزمخشري وتقدم إمالة فتعالى وتقليلها وأثبت ياء (يحضرون) وكذا باء (ارجعون) في الحالين يعقوب

وفتح ياء لعلي أعمل نافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر وابو جعفر وأدغم ( ) فلا أنساب بينهم ( ) رويس كأبي عمرو وكذا روح من المصباح

(31/531)

واختلف في قوله (شقوتنا) الآية 106 فحمزة والكسائي وخلف بفتح الشين والقاف وألف بعدها وافقهم الحسن والأعمش والباقون بكسر الشين وإسكان القاف بلا ألف وهما مصدران بمعنى واحد وهي سوء العاقبة أو الهوى وقضاء اللذات لأنه يؤدي إلى الشقوة وأطلق اسم المسبب على السبب وأثبت ياء ( ) ولا تكلمون ( ) في الحالين يعقوب وأظهر ذال (فاتخذتموهم) ابن كثير وحفص ورويس بخلفه

واختلف في (سخريا) الآية 110 هنا وص الآية 63 فنافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم السين فيهما وافقهم الأعمش والباقون بكسرها فيهما وهما لغتان بمعنى واحد مصدرا سخر منه استهزأ به وسخره استبعده لأنهم سخروهم في العمل وسخروا منهم استهزؤا وقيل الضم من العبودية ومنه السخرة والكسر من الاستهزاء ومنه السخر والياء في سخريا للنسب للدلالة على قوة الفعل فالسخري أقوى من السخر وأجمعوا على ضم السين في حرف الزخرف لأنه من السخرة إلا ما نقل عن ابن محيصن من كسره

واختلف في ( ) إنهم هم (الآية 111 فحمزة والكسائي بكسر الهمزة على الاستئناف وثاني مفعولي جزيتهم محذوف أي الخبر أو النعيم أو نحوه والباقون بالفتح مفعول ثان لجزيتهم أي جزيتهم فوزهم أو بتقدير لأنهم أو بأنهم

واختلف في ( ) قال كم لبثتم ( ) الآية 112 فابن كثير وحمزة والكسائي بغير ألف على الأمر وافقهم ابن محيصن والأعمش والباقون بألف على الخبر عن الله أو الملك وأدغم ثاء (لبثتم) أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وذكر الخلاف فيه عن ابن ذكوان في الأصل ولعله سبق قلم أو اشتباه بأورثتموها

وقرأ ﴿ فسئل ﴾ الآية 113 بنقل حركة الهمز إلى السين ابن كثير والكسائي وخلف عن نفسه وعن الحسن العادين بتخفيف الدال جمع عاد اسم فاعل من عدا

واختلف في ( ) قال إن لبثتم (الآية 114 أيضا فقرأ حمزة والكسائي بغير ألف على الأمر وافقهما الأعمش والباقون قال على الخبر

(32/531)

وقرأ (لا ترجعون) الآية 115 ببنائه للفاعل حمزة والكسائي ويعقوب وخلف ومر بالبقرة وعن ابن محيصن الكريم برفع الميم نعت رب وعن الحسن إنه لا يفلح بفتح الياء وقال في الدر

كالبحر بفتح الياء واللام مضارع فلح بمعنى أفلح

المرسوم عظما فكسونا العظم بحذف الألف فيهما وكذا أولى سمرا وكتبوا صورة الهمز في الملوا في قصة نوح كثلاثة النمل واوا مع زيادة ألف بعدها وكتبوا تترا بالألف وكتبوا في الإمام والبصري الله قل أفلا تتقون الله قل فأنى تسحرون بألف أول الجلالتين وفي الحجازي والكوفي والشامي بحذف الألف فيهما وفي الكوفي قال كم لبثتم وقال إن قل بلا ألف فيهما وفي مصاحف مكة والمدينة والشام والبصرة قال بالألف فيهما

المقطوع والموصول اتفقوا على قطع من عما بعدها في نحو مال وبنين ومن مارج ومن ماء وعلى وصلها بمن الموصولة نحو ممن افترى وممن كذب وممن دعا واختلف في قطع كلما جاء أمة وكتبوا هيهات بالتاء فيهما اتفاقا ياء الإضافة واحدة) لعلي أعمل (الآية 100 والزوائد ست ( ) بما كذبون ( ) معا (فاتقون يحضرون ارجعون ولا تكلمون) الآية 110 26 39 52 92 99 108 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ 402. 407﴾

(33/531)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة المؤمنون "

" في صلاتهم " أجمعوا على قراءته بالتوحيد ولا يخفى تغليظ لامه لورش .

" غير " أنشأناه ، لقادرون ، كثيرة . لعبرة ، ظلموا ، فيهم ، لخاسرون كله جلي .

" لأماناتهم " قرأ المكي بغير ألف بعد النون على الإفراد ، والباقون بالألف على الجمع .

" على صلواتهم " قرأ الأخوان وخلف بغير واو بعد اللام على التوحيد وغيرهم بواو بعدها على الجمع وغلظ ، ورش اللام .

" عظاما ، العظام " قرأ الشامي وشعبة بفتح العين وإسكان الظاء من غير ألف على التوحيد فيهما ، والباقون بكسر العين وفتح الظاء وألف بعدها على الجمع .

" لميتون " لا خلاف بين العشرة في تشديد يائه .

سيناء . كسر السين المدنيان والمكي والبصري ، وفتحها سواهم .

" تنبت " قرأ المكي والبصري ورويس بضم التاء وكسر الباء ، والباقون بفتح التاء وضم الباء .

" نسقيكم " تقدم في سورة النحل .

" إله غيره " تقدم في سورتي الأعراف وهود .

" الملؤا " رسمت الهمزة على واو ، ففيه لهشام وحمزة وقفا الإبدال ألفا والتسهيل بالروم

والإبدال واوا مع السكون والإشمام والروم .

"كذبون " أثبت يعقوب الياء في الحالين ، وحذفها غيره كذلك .

" جاء أمرنا " مثل: السماء أن تقع في الحج لجميع القراء .

"كل زوجين " قرأ حفص بتنوين كل ، وغيره بلا تنوين .

" منزلا " قرأ شعبة بفتح الميم وكسر الزاي ، وغيره بضم الميم وفتح الزاي .

أن اعبدوا الله " سبق مثله مرارا .

" الملأ " رسمت الهزة على الألف ففيه لهشام وحمزة وقفا الإبدال ألفا والتسهيل بالروم فقط .

" متم "كسر الميم نافع وحفص والأخوان وخلف ، وضمها غيرهم .

" مخرجون " آخر الربع .

الممال

ابتغى ، ونجانا بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . قرار بالإمالة للبصري والكسائي وخلف في اختياره والتقليل لورش وحمزة . شاء وجاء لابن ذكوان وحمزة وخلف الدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

المدغم

" الكبير " القيامة ، تبعثون ، قال رب .

" هيهات معا " قرأ أبو جعفر بكسر التاء فيهما ، والباقون بفتحها ، ووقف عليهما بالهاء البزي والكسائي ، والباقون بالتاء .

" بمؤمنين " كذبون ، أنشأنا ، يستأخرون . فاتقون ، لديهم ، فيهن ، الخيرات ، أيحسبون من خشية ، يظلمون ، مترفيهم ، منكرون ، صراط: سامرا ، جلي .

" رسلنا " أسكن السين أبو عمرو وضمها غيره .

" تترا " قرأ المكي والبصري وأبو جعفر بالتنوين وصلا وبإبداله ألفا وقفا ، والباقون بحذفه وصلا ووقفا .

" جاء أمة " سهل الثانية بين بين المدنيان والمكي والبصري ورويس وحققها الباقون .

" ربوة " فتح الراء الشامي وعاصم ، وضمها سواهما .

" وإن هذه " قرأ الكوفيون بكسر الهمزة وتشديد النون ، والشامي بفتح الهمزة وتخفيف النون ، والباقون بفتح الهمزة وتشديد النون .

" يجأرون " نقل حمزة وقفا حركة الهمزة إلى الجيم وحذف الهمزة .

" تهجرون " قرأ نافع بضم التاء وكسر الجيم ، وغيره بفتح التاء وضم الجيم .

" خراجا ، فخراج " قرأ الشامي بإسكان الراء وحذف الألف فيهما ، والأخوان وخلف بفتح الراء وإثبات الألف فيهما ، والباقون في الأول كابن عامر ، وفي الثاني كحمزة ومن معه .

" لناكبون " آخر الربع .

الممال

الدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، افترى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش .

(35/531)

" تترى " بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش ، لأنهم لا يقرءون بالتنوين فالألف عندهم ألف تأنيث مثل الذكرى . وأما البصري فإن وصل فلا إمالة له قطعا ، وإن وقف كان له وجهان الإمالة والفتح . وجمهور العلماء على الثاني نظرا لأن الألف مبدلة من التنوين كأف همسا وعوجا ، قال في النشر : ونصوص أئمتنا تقتضي فتحها لأبي عمرو ، انتهى . جاء وجاءهم معا لابن ذكوان وخلف وحمزة . موسى وموسى الكتاب لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، قرار بالإمالة للبصري والكسائي وخلف

في اختياره ، وبالتقليل لورش وحمزة ، نسارع ويسارعون لدوري الكسائي ، تتلى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الكبير " وما نحن له قال رب ، وأخاه هرون ، أنؤمن لبشرين ، وبنين نسارع

" فتحنا " أجمعوا على تخفيف تائه .

" عليهم ، فيه ، وهو ، وإليه ، أساطير ، لقادرون ، خسروا ، خير ، الكافرون ، ومن خفت ، كله جلي .

" أئذا متنا أئنا " قرأ نافع والكسائي ويعقوب بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني وكل على أصله فقالون بالتسهيل والإدخال ، وورش ورويس بالتسهيل بلا إدخال ، والكسائي وروح بالتحقيق بلا إدخال ، والشامي وأبو جعفر بالإخبار في الأول .

والاستفهام في الثاني ، وكل على أصله فهشام بالتحقيق والإدخال وابن ذكوان بالتحقيق بلا إدخال ، وأبو جعفر بالتسهيل والإدخال ، والباقون بالاستفهام فيهما وكل على أصله أيضا فالمكي بالتسهيل والقصر ، وأبو عمرو بالتسهيل والمد ، وعاصم وحمزة وخلف بالتحقيق والقصر

" متنا " سبق حكمه قريبا .

" تذكرون " خفف الذال حفص والأخوان وخلف ، وشددها سواهم .

" سيقولون الله " الثاني والثالث ؛ قرأ البصريان بزيادة همزة وصل وفتح اللام وتفخيمه ورفع الهاء من لفظ الجلالة فيهما ، والباقون بحذف همزة الوصل وبلام مكسورة ولام مفتوحة مرققة وخفض الهاء من لفظ الجلالة فيهما ، ولا خلاف بينهم في الأول ، وهو: سيقولون لله قل أفلا تذكرون أنه بلام مكسورة وأخرى مفتوحة رقيقة مع خفض الهاء .

" بيده " قرأ رويس بحذف الصلة من الهاء ، والباقون بإثباتها .

" عالم الغيب " قرأ المكي والبصريان والشامي وحفص بخفض الميم ، والباقون برفعها .

" يحضرون " أثبت الياء في الحالين يعقوب وحذفها كذلك ومثله ارجعون ، ولا تكلمون .

" جاء أحدهم " سبق مثله في النساء وغيرها .

" لعلي أعمل " أسكن الياء يعقوب والكوفيون ، وفتحها غيرهم .

" شقوتنا " قرأ الأخوان وخلف بفتح الشين والقاف وألف بعدها ، والباقون بكسر الشين وسكون القاف .

" اخسئوا " ثلاثة البدل لورش لا تخفى ، ولحمزة فيه وقفا التسهيل والحذف .

" سخريا " قرأ المدنيان والأخوان وخلف بضم السين ، والباقون بكسرها .

" أنهم هم " قرأ الأخوان بكسر الهمزة ، وغيرهما بفتحها .

" قال كم " قرأ المكي والأخوان بضم القاف وإسكان اللام على الأمر ، والباقون بفتح القاف واللام وألف بينهما على الماضى .

" فسأل " قرأ بالنقل المكي والكسائي وخلف في اختياره ، والباقون بالتحقيق .

" قال إن " قرأ الأخوان بلفظ الأمر ، والباقون بلفظ الماضى .

" ترجعون " قرأ الأخوان ويعقوب وخلف بفتح التاء وكسر الجيم ، والباقون بضم التاء وفتح الجيم .

" الراحمين " آخر السورة ، وآخر الربع .

الممال

" طغيانهم " لدوري الكسائي ، النهار للبصري والدوري بالإمالة ، ولورش بالتقليل ، فأنى بالإمالة للأصحاب والتقليل لدوري البصري وورش بخلف عنه . فتعالى معا لدى الوقف على الثاني ، وتتلى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه . جاء لابن ذكوان وحمزة وخلف ، ولا إمالة في ولعلا لكونه واويا .

المدغم

" الصغير " " فاغفر لنا " للبصري بخلف عن الدوري ، فاتخذتموهم لغير المكي وحفص ورويس ، لبثتم معا للبصري والشامي والأخوين وأبي جعفر .

" الكبير " أعلم بما " قال رب " أنساب بينهم . عدد سنين . آخر لا برهان ، ووافق رويس السوسي على إدغام أنساب بينهم ، ولكن مع المد المشبع ، ولا إدغام في لا برهان له وسيقولون لله ، ولا في اليوم بما ، لسكون ما قبل النون في الأولين ؛ وما قبل الميم في الأخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 222 . 226 ﴾

(38/531)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة المؤمنون

قوله تعالى ﴿ لأماناتهم ﴾ يقرا بالتوحيد والجمع فمن وحد استدل بقوله وعهدهم ولم يقل وعهودهم ومن جمع استدل بقوله ﴿ أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾

قوله تعالى ﴿ على صلواتهم ﴾ فالحجة لمن وحد أنه أجتزأ بالواحد عن الجميع كما قال

تعالى ﴿ أو الطفل ﴾ والحجة لمن جمع أنه أراد الخمس المفروضات والنوافل المؤكدات وقد ذكر معنى الصلاة في براءة

قوله تعالى ﴿ فكسونا العظام لحما ﴾ يقرأ بالتوحيد والجمع على ما ذكرنا في قوله ﴿ صلواتهم ﴾

قوله تعالى ﴿ سيناء ﴾ يقرا بكسر السين وفتحها وهما لغتان واصله سرياني فالحجة لمن كسر قوله تعالى ﴿ وطور سينين ﴾ والحجة ل من فتح أنه يقول لم يأت عن العرب صفة في هذا الوزن إلا بفتح أولها كقولهم حمراء وصفراء فحملته على الأشهر من الفاظهم ومعناه ينبت الثمار

قوله تعالى ﴿ تنبت بالدهن ﴾ يقرأ بضم التاء وكسر الباء وبفتح التاء وبضم الباء فالحجة لمن ضم التاء أنه أراد تخرج الدهن ولم يتعد بالباء لأن أصل النبات الإخراج والحجة لمن فتح التاء أنه اراد أن نباتها بالدهن وهو كلام العرب إذا أثبتوا الألف في الماضي خزلوا الباء وإذا خزلوا الألف أثبتوا الباء وعلة ذلك أن نبت فعل لا يتعدى إلا بواسطة فوصلوه بالباء ليتعدى وأنبت فعل يتعدى بغير واسطة فغنوا عن الباء فيه

قوله تعالى ﴿ نسقيكم ﴾ بضم النون وفتحها وقد ذكرت علته في النحل

قوله تعالى ﴿ منزلا مباركا ﴾ يقرأ بضم الميم وفتحها على ما تقدم من ذكر العلة فيه

قوله تعالى ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ يقرأ بالإضافة والتنوين وعلته مستقصاة في هود

قوله تعالى ﴿ تترا ﴾ يقرأ بالتنوين وتركه فالحجة لمن نون أنه جعله مصدرا من قولك وترا يتر وترا ثم أبدل من الواو تاء كما أبدلوها في تراث ودليل ذلك كتابتها في السواد بألف وكذلك الوقوف عليه بألف ولا تجوز الإمالة فيه إذا نون وصلا ولا وقفا لأنه جعل الألف فيه ألف إلحاق كما جعلوها في أرطى ومعزى والحجة لمن لم ينون أنه جعلها ألف التأنيث كمثل سكرى ففي هذه القراءة تجوز فيها الإمالة والتفخيم وصلا ووقفا

قوله تعالى ﴿ زبرا ﴾ يقرأ بضم الباء وفتحها وقد ذكرت علته

قوله تعالى ﴿ نسارع لهم ﴾ أماله الكسائي لمكان كسرة الراء وفخمه الباقون

قوله تعالى ﴿ إلى ربوة ﴾ يقرأ بضم الراء وفتحها وقد ذكرت علته في البقرة

قوله تعالى ﴿ وإن هذه أمتكم ﴾ يقرأ بفتح الهمزة وكسرها وبتخفيف النون وبشديدها مع الفتح فالحجة لمن فتح أنه رده على قوله ﴿ إني بما تعملون عليم ﴾ وبأن هذه أو لأن هذه والحجة لمن كسر أنه جعل الكلام تاما عند قوله ﴿ عليم ﴾ ثم

سورة المؤمنين استأنف إن فكسرها وقد ذكرت العلة في تشديد النون وتخفيفها في هود

قوله تعالى ﴿ تهجرون ﴾ يقرا بفتح التاء وضم الجيم وبضم التاء وكسر الجيم فالحجة لمن

فتح التاء أنه أراد به هجران المصادمة لتركهم سماع القرآن والإيمان به والحجة لمن ضم أنه جعله من قولهم أهجر المريض إذا أتى بما لا يفهم عنه ولا تحته معنى يحصل لأنهم كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه وتكلموا بالفحش وهذوا وسبوا فقال الله عز وجل ﴿ مستكبرين به ﴾ قيل بالقرآن وقيل بالبيت العتيق

(40/531)

قوله تعالى ﴿ سيقولون لله ﴾ في الثلاثة مواضع فالأولى لا خلف فيها والأخريان تقرآن بلام الإضافة والخفض وبطرحها والرفع فالحجة لمن قرأهما بلام الإضافة أنه رد آخر الكلام على أوله فكأنه قال هي لله ودليلهم أنهما في الإمام بغير ألف والحجة لمن قرأهما بالألف أنه أراد بهن الله قل هو الله وترك الأولى مردودة على قوله لمن الأرض قل لله والأمر بينهما قريب ألا ترى لو سأل سائل من رب هذه الضيعة فإن قلت فلان أردت ربها وإن قلت لفلان أردت هي لفلان وكل صواب ومن كلام العرب

قوله تعالى ﴿ خرجا فخراج ربك ﴾ مذكور بعلله في الكهف ولا خلف في الثانية أنها بالألف لأنها به مكتوبة في السواد

قوله تعالى ﴿ عالم الغيب ﴾ يقرا بالرفع والخفض

فالرفع بالابتداء والخفض بالرد على قوله ﴿ سبحان الله ﴾ عالم الغيب

قوله تعالى ﴿ غلبت علينا شقوتنا ﴾ يقرأ بكسر الشين من غير ألف وبفتح الشين وإثبات الألف وكلاهما مصدران أو اسمان مشتقان من الشقاء فأما الشقاوة فكقولهم سلم سلامة وأما الشقوة فكقولهم فديته فدية

قوله تعالى ﴿ سخريا ﴾ يقرأ بكسر السين وضمها فالحجة لمن كسر أنه أخذه من السخريا والحجة لمن ضم أنه أخذه من السخرة وكذلك التي في صاد فأما التي في الزخرف فبالضم لا غير

قوله تعالى ﴿ أنهم هم الفائزون ﴾ يقرأ بفتح الهمزة وكسرها فالحجة لمن فتح أنه اراد الاتصال بقوله ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾ لأنهم والحجة لمن كسر أنه جعل الكلام تاما عند قوله ﴿ بما صبروا ﴾ ثم ابتدأ إن فكسرها

قوله تعالى ﴿ قال كم لبثتم ﴾ ﴿ قال إن لبثتم ﴾ يقرآن بإثبات الألف وحذفها وبالحذف في الأول والإثبات في الثاني فالحجة لمن أثبت أنه أتى به على الخبر والحجة لمن حذف أنه أتى به على الأمر ويقرآن أيضا بالإدغام للمقاربة وبالإظهار على الأصل

قوله تعالى ﴿ وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ يقرأ بضم التاء على معنى تردون وبفتحها على معنى تصيرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 255 . 259 ﴾

وقال ابن زنجلة :

23 – سورة المؤمنين والذين هم لأمنتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلوتهم يحافظون 8و9

قرأ ابن كثير وحده لأمانتهم على التوحيد وحجته قوله

وعهدهم راعون ولم يقل وعهودهم وقال بعض النحويين وجه الإفراد أنه مصدر واسم جنس فيقع على الكثرة وإن كان مفردا في اللفظ ومن هذا قوله كذلك زينا لكل أمة عملهم فأفرد

وقرأ الباقون لأماناتهم وحجتهم إجماع الجميع على قوله إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى

قرأ حمزة والكسائي والذين هم على صلاتهم يحافظون على التوحيد وحجتهما إجماع الجميع على التوحيد في سورة الأنعام و سأل سائل عند قوله والذين هم على صلاتهم دائمون فردا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه

وقرأ الباقون على صلواتهم على الجمع وحجتهم أن هذه مكتوبة بالمصحف بواو و كذلك في براءة و هود فكان هذا دليلا على الجمع وكتبوا ما عدا هذه الثلاث الصلاة بألف من غير واو ولم يكتبوا الألف بعد الواو اختصارا وإيجازا وقد روي في التفسير أنه عنى الصلوات

الخمس فجعلوها جمعا لذلك

فخلقنا المضغة عظما فكسونا العظم لحما 14

قرأ ابن عامر وأبو بكر عظما فكسونا العظم لحما على التوحيد لأن العظم يجزئ عن العظام

قال الله عز و جل ثم يخرجكم طفلا أراد أطفالا وحجتهما في الاية فكسونا العظم لحما ولم

يقل لحوما لأن لفظ الواحد قد علم أنه يراد به الجمع

وقرأ الباقون عظاما فكسونا العظام على الجمع وحجتهم قوله تعالى من يحيي العظام وهي

رميم وقوله أئذا كنا عظاما نخرة فالجمع أشبه بما جاء في التنزيل

وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين 20

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو من طور سيناء بكسر السين وحجتهم قوله وطور سينين

والسيناء والسينين الحسن وكل جبل نبتت الثمار فيه فهو سينين

وقرأ الباقون سيناء بالفتح وهما لغتان أصله سرياني قال مجاهد الطور الجبل والسيناء

الحجارة المباركة

(42/531)

قرأ ابن كثير وأبو عمرو تنبت بالدهن بضم التاء وقرأ

الباقون بالفتح قال الفراء هما لغتان يقال نبت الشجر وأنبت قال الشاعر . . . رأيت ذوي

الحاجات حول بيوتها . . . قطينا لهم حتى إذا انبت البقل . . .

وهو كقوله فأسر بأهلك بوصل الألف وبقطعها ومعنى تنبت بالدهن أي تنبت وفيها دهن

ومعها صبغ كما تقول جاءني زيد بالسيف تريد جاءني ومعه السيف وقال قوم من قرأ

تنبت بالرفع فالباء زائدة وقالوا إن نبت وأنبت في معنى واحد

وإن لك في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها 21

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم بفتح النون وقرأ الباقون بالرفع

قال سيبويه والخليل سقيته كقوله ناولته فشرب وأسقيته جعلت له سقيا وقال آخرون

سقى وأسقى لغتان وأنشدوا

سقى قومي بني مجد وأسقى . . . نميرا والقبائل من هلال . . .

فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك 27

قرأ حفص من كل زوجين منونا أراد من كل شيء فحذف كما حذف من قوله كل أتوه و

زوجين معفول به و اثنين وصف له وتقدير الكلام اسلك فيها زوجين اثنين من كل أي من كل

جنس ومن كل الحيوان كما قال ولكل وجهة أي ولكل إنسان قبلة لأن كلا وبعضا يقتضيان

مضافا إليهما

وقرأ الباقون من كل زوجين مضافا أضافوا كلا إلى زوجين و اثنين مفعول به

وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين 29

قرأ أبو بكر وقل رب أنزلني منزلا بفتح الميم وكسر الزاي جعله اسما للمكان كأنه قال أنزلني دارا مباركة و المنزل اسم لكل ما نزلت فيه

وقرأ الباقون منزلا بضم الميم وفتح الزاي جعلوه مصدرا بمعنى الإنزال تقول أنزلته إنزالا مباركا ومنزلا

ثم أرسلنا رسلنا تترا 44

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ثم أرسلنا رسلنا تترى منونا وقرأ الباقون تترى فعلى

(43/531)

ومعنى تترى من المواترة والمواترة أن يتبع الخبر الخبر والكتاب الكتاب ولا يكون بين ذلك فصل كثير قال الأصمعي المواترة من واترت الخبر أتبعت بعضه بعضا وبين الخبر هنيهة وقال غيره المواترة المتابعة وجاء في التفسير تترى يتبع بعضه بعضا وقال الزجاج وأصل هذا كله الوتر وهو الفرد أي جعلت كل واحد بعد صاحبه فردا فردا

فمن قرأ بالتنوين فمعناه وترا فأبدل التاء من الواو كما قالوا التكلان من الوكالة و تجاه وإنما هو

وجاه وحجته ذكرها اليزيدي فقال هي من وترت والدليل على ذلك أنها كتبت بالألف وهي لغة قريش ولو كانت من ذوات الياء لكانت مكتوبة بالياء تترى كما كتبوا يخشى ويرعى بالياء فذهب اليزيدي إلى أنها بمعنى المصدر وأن الألف التي بعد الراء عوض من التنوين في الوقف من قوله وتر يتر وترا مثل ضرب يضرب ضربا فإن قيل فأين الفعل الذي هو صدره قلت صدر هذا المصدر عن معنى الفعل لا عن لفظه كأنه حين قال ثم أرسلنا رسلنا

قال وترنا رسلنا فجعل تترا صادرا عن غير لفظ الفعل

وحجة من لم ينون أن الألف التي بعد الراء ألف تأنيث فتقول تترى على وزن فعلى مثل شكوى و هذا هو الأقيس ألا تصرف لأن المصادر تلحق أواخرها ألف التأنيث كالدعوى والشورى والذكرى ونحوها

وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين 50

قرأ عاصم وابن عامر إلى ربوة بالفتح وقرأ الباقون بالرفع وهما لغتان

وإن هذه أمتكم أمة واحدة 52

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأن هذه أمتكم بفتح الألف وقرأ أهل الكوفة وإن بكسر الألف

وقرأ ابن عامر وإن بالخفيف وهي مخففة من إن فمن فتح كان المعنى في قول الخليل إنه يحمل

على الجار التقدير لأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقوني لهذا ومثل ذلك عنده قوله وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أي لأن المساجد له فلا تدعوا مع الله أحدا وكذلك قوله لإيلاف قريش كأنه قال فليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف قريش

وقال قوم إنها مردودة على ما وتقدير الكلام أي إني بما

(44/531)

تعملون عليم وبأن هذه أمتكم ومن كسر جعل إن استئنافا وابتداءا خبر من الله جل وعزلا مستكبرين به سمرا تهجرون 68

قرأ نافع سامرا تهجرون بضم التاء وكسر الجيم من أهجر يهجر إذا هذى فمعنى تهجرون أي تهذون وقالوا أهجر المريض إذا تكلم بما لا يفهم فكان الكفار إذا سمعوا قراءة رسول الله صلى الله عليه تكلموا بالفحش وسبوا النبي صلى الله عليه فقال جل وعز مستكبرين به أي بالقرآن أي يحدث لكم بتلاوته عليكم استكبارا سامرا تهجرون قال ابن عباس تأتون بالهجر والهذيان وما لا خير فيه وفي الحديث في زيارة القبور

زوروها ولا تقولوا هجرا ويجوز أن تكون الهاء للبيت العتيق سامر وجمعه سمار وهم الذين يتحدثون بالليل في السمر والسمر ظل القمر

وقرأ الباقون بفتح التاء المعنى أنكم تهجرون النبي صلى الله عليه وآياتي وما يتلى عليكم من كتابي فشبه الله تعالى من ترك القرآن والعمل به كالهاجر لرشده

أم تسئلهم خرجا فخراج ربك خير 72

قرأ حمزة والكسائي أم تسألهم خراجا فخراج ربك جميعا بالألف وقرأ ابن عامر جميعا بغير ألف

وقرأ الباقون أم تسألهم خرجا بغير ألف فخراج بالألف

قال السدي أم تسألهم خراجا أي رزقا فخراج ربك خير أي رزق ربك خير قال ومن قرأ خرجا أراد جعلا وقال آخرون الخرج الجعل والخراج العطاء وقال آخرون الخرج والخراج بمعنى واحد

سيقولون لله 87 و89

قرأ أبو عمرو سيقولون الله سيقولون الله بالألف فيهما ولم يختلفوا في الأولى

وقرأ الباقون لله لله

(45/531)

من قرأ سيقولون الله فهو على جواب السؤال إذ قال قبلها من رب السموات السبع 86

فالجواب الله وأما من قال لله فعلى المعنى وذلك أنه إذا قال من مالك هذه الدار فقال في جوابه لزيد فقد أجابه على المعنى دون ما يقتضيه اللفظ والذي يقتضيه من مالك هذه الدار أن يقال في جوابه زيد وإذا قال لزيد فقد حمله على المعنى وإنما استقام هذا لأن معنى من مالك هذه الدار و لمن هذه الدار واحد فلذلك حملت تارة على اللفظ وتارة على المعنى والجواب على اللفظ

هو الوجه لأنك إذا قلت من صاحب هذه الدار فأجبت زيد لكان جوابا على لفظ السؤال ولو قلت في جواب من صاحب هذه الدار لزيد لجاز لأن معنى من صاحب هذه الدار معنى لمن هذه الدار

سبحن الله عما يصفون علم الغيب فتعلى عما يشركون 91 و92

قرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو بكر عالم بالرفع وقرأ الباقون عالم بالخفض رد على قوله سبحان الله عالم الغيب فأما الرفع فعلى أن يكون خبر ابتداء محذوف كأنه قال هو عالم

قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا 106

قرأ حمزة والكسائي شقاوتنا بالألف وفتح الشين وقرأ الباقون شقوتنا بكسر الشين من غير ألف وهما مصدران تقول شقي من الشقاوة والشقوة والشقوة كالفطنة و الشقاوة كالسعادة

فاتخذتموهم سخريا 110

قرأ طنافع وحمزة والكسائي سخريا بالضم وفي ص

مثله وقرأ الباقون بالكسر

وقال الخليل هما لغتان وقال آخرون بل ما كان في الاستهزاء فهو بالكسر وما كان من جهة السخري فهو بالضم والكسر أحسن لاتباع الكسرة ويقوي الكسرة قوله بعدها وكنتم منهم تضحكون والضحك بالهزء أشبه وحجة الرفع اجماع الجميع على الرفع في سورة الزخرف ليتخذ بعضهم بعضا سخريا 32 فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى

إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون 111

قرأ حمزة والكسائي إنهم هم الفائزون بكسر الألف وقرأ الباقون بالفتح

(46/531)

والفتح على وجهين أحدهما أن يكون أنهم في موضع المفعول الثاني لأن جزيت تتعدى إلى مفعولين قال الله جل الله وعز وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ويجعل أنهم في موضع نصب على تاويل إني جزيتهم اليوم بما صبروا الفوز يعني الجنة وإن شئت لم تأت بالمفعول الثاني في جزيت فكان معناه أثبتهم ولم تذكر ما أثبتهم ثم قلت لأنهم هم الفائزون بأعمالهم السابقة قال محمد بن يزيد التفسير الأول أجود لأن الفوز هو الجزاء وليس بعلة للجزاء ومن كسر إن

يقول إن الكلام متناه عند قوله بما صبروا ثم أخبر فقال إنهم هم الفائزون قال أبو عبيد هذا مدح من الله لهم

قل كم لبثتم في الأرض عدد سنين قل إن لبثتم إلا قليلا 112 و114

قرأ حمزة والكسائي قل كم لبثتم في الأرض قل إن لبثتم بغير ألف فيهما على الأمر ودخل ابن كثير معهما في الأول

وقرأ الباقون قال قال على الخبر عما هو قائل أو من أحب من عباده أو ملائكته للمبعوثين يوم القيامة سائلا لهم عن لبثهم بعد وفاتهم وهو فعل منتظر وجرى بمعنى المضي لأن أخبار القيامة وإن كانت لم تأت بعد فهي بمنزلة ما قد مضى إذ ليس فيما مضى شك في كونه و وجوبه فجعلت أخبار القيامة في التحقيق كما قد مضى

وحجة من قرأ قل أن المعنى في ذلك أن أهل النار قيل لهم قولوا كم لبثتم في الأرض عدد سنين على الأمر لهم بأن يقولوا ذلك فأخرج الكلام على وجه الأمر به للواحد والمراد الجماعة إذ كان المعنى مفهوما والعرب تخاطب الواحد ومرادهم خطاب جماعة إذا عرف المعنى كقوله يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم وإنك كادح والمعنى مخاطبة جميع الناس

أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون 115

قرأ حمزة والكسائي وأنكم إلينا لا ترجعون بنصب التاء وكسر الجيم وحجتهم قوله وإنا إليه راجعون

وقرأ الباقون ترجعون بضم التاء وحجتهم قوله وإليه تقلبون وثم إلى ربهم يحشرون . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 482.494 ﴾

(47/531)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة المؤمنون 23

مكية ولا نظير لها في عددها

وكلمها ألف وثماني مئة وأربعون كلمة

وحروفها أربعة آلاف وثماني مئة وحرفان

وهي مئة وثماني عشرة آية في الكوفي وتسع عشر آية في عدد الباقين

اختلافها آية (﴿ وأخاه هارون ﴾) لم يعدها الكوفي وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع موضعان (﴿ وفار التنور ﴾ بابا ذا عذاب شديد) ورؤوس الآي

المؤمنون

1 خاشعون

2 معرضون

3 فاعلون

4 حافظون

5 ملومين

6 العادون

7 راعون

8 يحافظون

9 الوارثون

10 خالدون

11 طين

12 مكين

13 الخالقين

14 لميتون

15 تبعثون

16 غافلين

17 لقادرون

18 تأكلون

19 للآكلين

20 تأكلون

21 تحملون

22 تتقون

23 الأولين

24 حتى حين

25 كذبون

26 مغرقون

27 الظالمين

28 المنزلين

29 لمبتلين

30 آخرين

31 تتقون

32 تشربون

33 لخاسرون

34 مخرجون

35 توعدون

36 بمبعوثين

37 بمؤمنين

38 كذبون

39 نادمين

40 الظالمين

41 آخرين

42 يستأخرون

43 لا يؤمنون

44 وهارون

* مبين

45 عالين

46 عابدون

47 المهلكين

48 يهتدون

49 ومعين

50 عليم

51 فاتقون

52 فرحون

53 حتى حين

54 وبنين

55 لا يشعرون

56 مشفقون

57 يؤمنون

58 لا يشركون

59 راجعون

60 سابقون

61 لا يظلمون

62 عاملون

63 يجأرون

64 لا تنصرون

65 تنكصون

66 تهجرون

67 الأولين

68 منكرون

69 كارهون

70 معرضون

71 الرازقين

72 مستقيم

73 لناكبون

74 يعمهون

75 يتضرعون

76 مبلسون

77 تشكرون

78 تحشرون

79 تعقلون

80 الأولون

81 لمبعوثون

82 الأولين

83 تعلمون

84 .

(48/531)

تذكرون

85 العظيم

86 تتقون

87 تعلمون

88 تسحرون

89 لكاذبون

90 يصفون

91 يشركون

92 يوعدون

93 الظالمين

94 لقادرون

95 يصفون

96 الشياطين

97 يحضرون

98 ارجعون

99 يبعثون

100 يتساءلون

101 المفلحون

102 خالدون

103 كالحون

104 تكذبون

105 ضالين

106 ظالمون

107 تكلمون

108 الراحمين

109 تضحكون

110 الفائزون

111 سنين

112 العادين

113 تعلمون

114 لا ترجعون

115 الكريم

116 الكافرون

117 الراحمين

118 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 191.192﴾

(49/531)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (قد أفلح) من ألقى حركة الهمزة على الدال وحذفها فعلته أن الهمزة بعد حذف حركتها صيرت ألفا ثم حذفت لسكونها وسكون الدال قبلها في الأصل ، ولا يعتد بحركة الدال لأنها عارضة .

قوله تعالى (إلا على أزواجهم) في موضع نصب يحافظون على المعنى ، لأن المعنى صانوها عن كل فرج إلا عن فروج أزواجهم ، وقيل هو حال: أي حفظوها في كل حال إلا في هذه الحال ، ولايجوز أن يتعلق ب (ملومين) لأمرين: أحدهما أن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها . والثانى أن المضاف إليه لا يعمل فيما قبله ، وإنما تعلقت على يحافظون على المعنى ، ويجوز أن تتعلق بفعل دل عليه ملومين: أي إلا على أزواجهم لا يلامون .

قوله تعالى (لأماناتهم) يقرأ بالجمع لأنها كثيرة كقوله تعالى " أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها " وعلى الإفراد لأنها جنس فهى في الإفراد كعهدهم ، ومثله (صلواتهم) في الإفراد والجمع .

قوله تعالى (هم فيها خالدون) الجملة حال مقدرة ، إما من الفاعل أو المفعول .

قوله تعالى (من سلالة) يتعلق بخلقنا ، و (من طين) بمحذوف لأنه صفة لسلالة ، ويجوز أن يتعلق بمعنى سلالة لأنها بمعنى مسلولة .

قوله تعالى (خلقنا النطفة علقة) خلقنا بمعنى صيرنا ، فلذلك نصب مفعولين (العظام) بالجمع على الأصل ، وبالإفراد لأنه جنس (أحسن الخالقين) بدل أو خبر مبتدأ محذوف ، وليس بصفة لأنه نكرة وإن أضيف ، لأن المضاف إليه عوض عن " من " وهكذا جميع باب أفعل منك .

قوله تعالى (بعد ذلك) العامل فيه (ميتون) واللام ها هنا لا تمنع العمل .

قوله تعالى (به) متعلق بذهاب ، وعلى متعلقة ب (قادرون) .

(50/531)

قوله تعالى (وشجرة) أي وأنشأنا شجرة ، فهو معطوف على جنات (سيناء) يقرأ بكسر السين ، والهمزة على هذا أصل مثل حملاق وليست للتأنيث ، إذ ليس في الكلام مثل سيناء ، ولم ينصرف لأنه اسم بقعة ففيه التعريف والتأنيث ، ويجوز أن تكون فيه العجمة أيضا ، ويقرأ بفتح السين والهمزة على هذا للتأنيث ، إذ ليس في الكلام فعلال بالفتح ، وما حكى الفراء من قولهم ناقة فيها جزعال لا يثبت ، وإن ثبت فهو شاذ لا يحمل عليه .

قوله تعالى (تنبت) يقرأ بضم التاء وكسر الباء .

وفيه وجهان: أحدهما هو متعد والمفعول محذوف تقديره: تنبت ثمرها أو جناها ، والباء

على هذا حال من المحذوف أي وفيه الدهن كقولك خرج زيد بثيابه ، وقيل الباء زائدة فلا حذف إذا ، بل المفعول الدهن .

والوجه الثاني هو لازم يقال: نبت البقل وأنبت بمعنى ، فعلى هذا الباء حال ، وقيل هي مفعول: أي تنبت بسبب الدهن ، ويقرأ بضم التاء وفتح الباء وهو معلوم ، ويقرأ بفتح التاء وضم الباء وهو كالوجه الثاني المذكور (وصبغ) معطوف على الدهن ، وقرئ في الشاذ بالنصب عطفا على موضع بالدهن .

قوله تعالى (نسقيكم) يقرأ بالنون ، وقد ذكر في النحل ، وبالتاء وفيه ضمير الانعام وهو مستأنف .

قوله تعالى (بأعيننا) في موضع الحال: أي محفوظة ، و (من كل زوجين اثنين) قد ذكر في هود .

قوله تعالى (منزلا) يقرأ بفتح الميم وكسر الزاى وهو مكان: أو مصدر نزل وهو مطاوع أنزلته ، ويقرأ بضم الميم وفتح الزاى ، وهو مصدر بمعنى الإنزال ، ويجوز أن يكون مكانا كقولك أنزل المكان فهو منزل (وإن كنا) أي وإنا كنا فهى مخففة من الثقيلة ، وقد ذكرت في غير موضع .

قوله تعالى (أيعدكم أنكم إذا متم) في إعراب هذه الآية أوجه: أحدها أن اسم " أن " الأولى

محذوف أقيم مقام المضاف إليه تقديره: أن إخراجكم ، وإذا هو الخبر ، و (أنكم مخرجون) تكرير ، لأن " أن " وما عملت فيه للتوكيد ، أو للدلالة على المحذوف .

(51/531)

والثاني أن اسم " أن " الكاف والميم ، وذا شرط ، وجوابها محذوف تقديره: إنكم إذا متم يحدث أنكم مخرجون ، فإنكم الثانية وما عملت فيه فاعل جواب إذا ، والجملة كلها خبر أن الأولى .

والثالث أن خبر الأولى مخرجون ، وأن الثانية مكررة وحدها توكيد ، وأجاز ذلك لما طال الكلام كما جاز ذلك في المكسورة في قوله تعالى " ثم إن ربك للذين هاجروا - و - إن ربك للذين عملوا السوء " وقد ذكر في النحل .

والرابع أن خبر " أن " الأولى محذوف لدلالة خبر الثانية عليه ، ولايجوز أن يكون إذا خبر الأولى ، لأنها ظرف زمان ، واسمها جثة ، وأما العامل

في إذا فمحذوف ، فعلى الوجه الأول يكون المقدر من الاستقرار ، وعلى الوجه الثاني يعمل فيها جوابها المحذوف ، وعلى الثالث والرابع يعمل فيها ما دل عليه خبر الثانية ، ولا يعمل فيها متم لإضافتها إليه .

قوله تعالى (هيهات) هو اسم للفعل ، وهو خبر واقع موقع بعد .

وفى فاعله وجهان: أحدهما هو مضمر تقديره: بعد التصديق لما توعدون ، أو الصحة أو الوقوع ونحو ذلك .

والثانى فاعله " ما " واللام زائدة: أي بعد ما توعدون من البعث .

وقال قوم: هيهات بمعنى البعد فموضعه مبتدأ ، ولما توعدون الخبر وهو ضعيف وهيهات على الوجه الأول لا موضع لها ، وفيها عدة قراءات الفتح بلا تنوين على أنه مفرد ، وبالتنوين على إرادة التكثير ، وبالكسر بلا تنوين وبتنوين على أنه جمع تأنيث والضم بالوجهين شبه بقبل وبعد ويقرأ هيهاه بالهاء وقفا ووصلا ، ويقرأ أيهاه بإبدال الهمزة من الهاء الأولى .

قوله تعالى (عما قليل) " ما " زائدة ، وقيل هي بمعنى شئ أو زمن ، وقيل بدل منها ، وفى الكلام قسم محذوف جوابه (ليصبحن) وعن يتعلق بيصبحن ، ولم تمنع اللام ذلك كما منعتها لام الابتداء ، وأجازوا زيد لأضربن ، لأن اللام للتوكيد فهى مثل قد ، ومثل لام التوكيد في خبر إن كقوله " بلقاء ربهم لكافرون " وقيل اللام هنا تمنع من التقديم إلا في الظروف فأنه يتوسع فيها .

(52/531)

قوله تعالى (تترى) التاء بدل من الواو لأنه من المواترة وهى المتابعة ، وذلك من قولهم جاءوا على وتيرة واحدة: أي طريقة واحدة ، وهو نصب على الحال:

أي متتابعين ، وحقيقته أنه مصدر في موضع الحال ، وقيل هو صفة لمصدر محذوف أي إرسالا متواترا .

وفى ألفها ثلاثة أوجه: أحدها هي للإلحاق بجعفر كالألف في أرطى ولذلك تؤنث في قول من صرفها .

والثانى هي بدل من التنوين .

والثالث هي

للتأنيث مثل سكرى ، ولذلك لاتنون على قول من منع الصرف .

قوله تعالى (هارون) هو بدل من أخاه .

قوله تعالى (مثلنا) إنما لم يثن لأن مثلا في حكم المصدر ، وقد جاءت تثنيته وجمعه في قوله " يرونهم مثليهم " وفى قوله تعالى " ثم إلا يكونوا أمثالكم " وقيل إنما وحد لأن المراد المماثلة في البشرية وليس المراد الكمية ، وقيل اكتفى بالواحد عن الاثنين .

قوله تعالى (وأمه آية) قد ذكر في الأنبياء .

قوله تعالى (ومعين) فيه وجهان: أحدهما هو فعيل من المعن وهو الشئ القليل ومنه الماعون ، وقيل الماعون الماء فالميم أصل .

والثانى الميم زائدة ، وهو من عنته إذا أبصرته بعينك وأصله معيون .

قوله تعالى (وإن هذه) يقرأ بفتح الهمزة .

وفيه ثلاثة أوجه: أحدها تقديره: ولأن ، واللام المقدرة تتعلق بفاتقون: أي فاتقون ، لأن هذه وموضع إن نصب أو جر على ما حكينا من الاختلاف في غير موضع .

والثانى أنه معطوف على ما قبله تقديره: إنى بما تعملون عليم وبإن هذه .

والثالث أن في الكلام حذفا : أي واعلموا أن هذه ويقرأ بتخفيف النون وهى مخففة من الثقيلة ، ويقرأ بالكسر على الاستئناف ، و (أمتكم أمة واحدة) قد ذكر في الأنبياء ، وكذلك (فتقطعوا أمرهم بينهم) و (زبرا) بضمتين جمع زبور مثل رسول ورسل ، ويقرأ بالتسكين على هذا المعنى ، ويقرأ بفتح الباء ، وهو جمع زبرة وهى القطعة أو الفرقة ، والنصب على موجه الأول على الحال من أمرهم: أي مثل كتب ، وقيل من ضمير الفاعل ، وقيل هو مفعول ثان لتقطعوا ، وعلى الوجه الثاني هو حال من الفاعل .

(53/531)

قوله تعالى (إن ما) بمعنى الذى ، وخبر إن (نسارع لهم) والعائد محذوف أي نسارع لهم به أو فيه ، ولايجوز أن يكون الخبر من مال لأنه كان من مال فلا

يعاب عليهم ذلك ، وإنما يعاب عليهم اعتقادهم أن تلك الأموال خير لهم ، ويقرأ نسارع بالياء والنون ، وعلى ترك تسمية الفاعل ونسرع بغير ألف .

قوله تعالى (ما آتوا) " ما " بمعنى الذى ، والعائد محذوف: أي يعطون مايعطون ويقرأ أتوا بالقصر: أي ماجاءوه (أنهم) أي وجلة من رجوعهم إلى ربهم ، فحذف حرف الجر .

قوله تعالى (وهم لها) أي لأجلها ، وقيل التقدير: وهم يسابقونها : أي يبادرونها فهى في موضع المفعول ، ومثله و (هم لها عاملون) أي لأجلها وإياها يعملون .

قوله تعالى (إذا) هي للمفاجأة: وقد ذكر حكمها .

قوله تعالى (على أعقابكم) هو حال من الفاعل في (تنكصون) وقوله تعالى (مستكبرين) حال أخرى ، والهاء في (به) للقرآن العظيم ، وقيل للنبى عليه الصلاة والسلام ، وقيل لامر الله تعالى ، وقيل للبيت ، فعلى هذا القول تكون متعلقة ب (سامرا) أي تسمرون حول البيت ، وقيل بالقرآن ، وسامرا حال أيضا ، وهو مصدر كقولهم قم قائما ، وقد جاء من المصادر لفظ اسم الفاعل نحو العاقبة والعافية ، وقيل هو واحد في موضع الجمع ، وقرئ سمرا جمع سامر مثل شاهد وشهد ، و (تهجرون) في موضع الحال من الضمير في سامرا ، ويقرأ بفتح التاء ، من قولك هجر يهجر ، إذا هذى .

وقيل يهجرون القرآن ، ويقرأ بضم التاء وكسر الجيم من أهجر إذا جاء بالهجر وهو الفحش ، ويقرأ بالتشديد وهو في معنى المخفف .

قوله تعالى (خرجا) يقرأ بغير ألف في الأول ، وبألف في الثاني ، ويقرأ بغير ألف فيهما ، وبألف فيهما وهما بمعنى ، وقيل الخرج الأجرة ، والخراج ما يضرب على الأرض والرقاب .

قوله تعالى (عن الصراط) يتعلق ب (ناكبون) ولا تمنع اللام من ذلك .

قوله تعالى (فما استكانوا) قد ذكر في آل عمران بما فيه من الاختلاف .

قوله تعالى (قليلا ما تشكرون) قد ذكر في أول الأعراف .

(54/531)

قوله تعالى (سيقولون لله) الموضع الأول باللام في قراءة الجمهور ، وهو جواب ما فيه اللام ، وهو قوله تعالى " لمن الأرض " وهو مطابق للفظ والمعنى ، وقرئ بغير لام حملا على المعنى ، لأن معنى " لمن الأرض " من رب الأرض ، فيكون الجواب الله أي هو الله ، وأما الموضعان الآخران فيقرآن بغير لام على اللفظ وهو جواب قوله تعالى " من رب السموات – من بيده ملكوت " باللام على المعنى ، لأن المعنى في قوله " من رب السموات " لمن السموات .

قوله تعالى (عالم الغيب) يقرأ بالجر على الصفة أو البدل من اسم الله تعالى قبله ، وبالرفع : أي هو عالم .

قوله تعالى (فلا تجعلني) الفاء جواب الشرط وهو قوله تعالى " إما ترينى " والنداء معترض

بينهما ، و (على) تتعلق ب (قادرون) .

قوله تعالى (ارجعون) فيه ثلاثة أوجه: أحدها أنه جمع على التعظيم كما قال تعالى " إنا نحن نزلنا الذكر " وكقوله تعالى " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا " .

والثاني أنه أراد يا ملائكة ربي ارجعون .

والثالث أنه دل بلفظ الجمع على تكرير القول فكأنه قال ارجعني ارجعني .

قوله تعالى (يومئذ) العامل في ظرف الزمان العامل في بينهم وهو المحذوف ، ولايجوز أن يعمل فيه أنساب لأن اسم " لا " إذا بني لم يعمل .

قوله تعالى (شقوتنا) يقرأ بالكسر من غير ألف ، وبالفتح مع الألف وهما بمعنى واحد .

قوله تعالى (سخريا) هو مفعول ثان والكسر والضم لغتان ، وقيل الكسر بمعنى الهزل والضم بمعنى الإذلال من التسخير ، وقيل بعكس ذلك .

قوله تعالى (إنهم) يقرأ بالفتح على أن الجملة في موضع مفعول ثان ، لأن جزى يتعدى إلى اثنين كما قال تعالى " وجزاهم بما صبروا جنة " .

وفيه وجه آخر ، وهو أن يكون على تقدير لأنهم أو بأنهم: أي جزاهم بالفوز على صبرهم ، ويقرأ بالكسر على الاستئناف .

قوله تعالى (قال كم لبثتم) يقرأ على لفظ الماضي: أي قال السائل لهم ، وعلى لفظ الأمر: أي يقول الله للسائل قل لهم ، وكم ظرف للبثتم أي كم سنة أو نحوها و (عدد) بدل من كم: ويقرأ شاذا عدد بالتنوين ، و (سنين) بدل منه ، و (العادين) بالتشديد من العدد ، وبالتخفيف على معنى العادين: أي المتقدمين كقولك: هذه بئر عادية: أي سل من تقدمنا ، وحذف إحدى ياءى النسب كما قالوا الأشعرون ، وحذفت الأخرى لالتقاء الساكنين ، (إلا قليلا) أي زمنا قليلا أو لبثا قليلا ، وجواب " لو " محذوف: أي لو كنتم تعلمون مقدار لبثكم من الطول لما أجبتم بهذه المدة ، و (عبثا) مصدر في موضع الحال أو مفعول لأجله ، و (رب العرش الكريم) مثل قوله تعالى في البقرة " لاإله إلا هو الرحمن الرحيم " وقد ذكر .

قوله تعالى (لا برهان له به) صفة لإله ، والجواب (فإنما حسابه) وقوله (إنه لا يفلح) بالكسر على الاستئناف ، وبالفتح على تقدير بأنه: أي يجازى بعدم الفلاح ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 147 . 153 ﴾

(56/531)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة المؤمنون

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 1 الى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ (4)

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (5) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (7)

(57/531)

"قَدْ" حرف تحقيق "أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ" ماض وفاعله المرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة ابتدائية "الَّذِينَ" اسم موصول صفة للمؤمنون "هُمْ" مبتدأ "فِي صَلاتِهِمْ" متعلقان بالخبر بعدهما "خاشِعُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة صلة لا محل لها من الإعراب "وَالَّذِينَ" الواو عاطفة والذين معطوف على الذين قبله "هُمْ" مبتدأ "عَنِ اللَّغْوِ" متعلقان بالخبر المؤخر "مُعْرِضُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة صلة

"وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ" الذين معطوف على ما سبق وهم مبتدأ خبره فاعلون والجار والمجرور متعلقان به والجملة صلة "وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ" والذين معطوفة على الذين قبلها وهم مبتدأ وحافظون خبره والجار والمجرور متعلقان بالخبر والجملة صلة "إِلَّا" أداة حصر "عَلى أَزْواجِهِمْ" متعلقان بحافظون الهاء مضاف إليه والميم للجمع "أَوْ" عاطفة "ما" موصولية معطوفة على أزواجهم "مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ" ماض وفاعله والتاء للتأنيث والهاء في محل جر مضاف إليه والميم للجمع والجملة صلة "فَإِنَّهُمْ" الفاء تعليلية وإن واسمها والجملة تعليلية لا محل لها "غَيْرُ" خبر "مَلُومِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم "فَمَنِ" الفاء استئنافية ومن شرطية جازمة "ابْتَغى" ماض في محل جزم فعل الشرط وفاعله مستتر "وَراءَ" ظرف مكان أو ومفعول به "ذلِكَ" ذا اسم إشارة مضاف إليه واللام للبعد والكاف للخطاب "فَأُولئِكَ" الفاء رابطة للجواب أولئك مبتدأ أولاء اسم إشارة في محل رفع مبتدأ والجملة في محل جزم جواب الشرط "هُمُ العادُونَ" مبتدأ وخبر والجملة خبر أولئك.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 8 الى 11]

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ (9) أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ (11)

"وَالَّذِينَ" الواو عاطفة واسم الموصول معطوف على ما قبله "هُمْ" مبتدأ "لِأَمانَاتِهِمْ" متعلقان براعون "وَعَهْدِهِمْ" معطوف على عهدهم والهاء مضاف إليه "راعُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم "وَالَّذِينَ" اسم الموصول معطوف على ما سبق "هُمْ" مبتدأ "عَلى صَلَواتِهِمْ" متعلقان بيحافظون والهاء مضاف إليه والجملة صلة "يُحافِظُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبرهم "أُولئِكَ" اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ والكاف للخطاب "هُمُ" مبتدأ "الْوارِثُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة خبر أولئك وجملة أولئك إلخ مستأنفة "الَّذِينَ" موصول في محل رفع صفة للوارثون أو مبتدأ "يَرِثُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والجملة صلة لا محل لها من الإعراب "الْفِرْدَوْسَ" مفعول به منصوب "هُمْ" مبتدأ "فِيها" متعلقان بخالدون "خالِدُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة استئنافية لا محل لها من الإعراب أو خبر الذين في محل رفع.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 12 الى 16]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ

أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)

(59/531)

"وَلَقَدْ" الواو مستأنفة واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "خَلَقْنَا" ماض وفاعله. "الْإِنْسَانَ" مفعول به "مِنْ سُلَالَةٍ" متعلقان بخلقنا "مِنْ طِينٍ" متعلقان بصفة لسلالة والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "ثُمَّ" حرف عطف "جَعَلْنَاهُ" ماض وفاعله ومفعول به أول "نُطْفَةً" مفعول به ثان "فِي قَرَارٍ" متعلقان بمحذوف صفة "مَكِينٍ" صفة قرار "ثُمَّ" عاطفة "خَلَقْنَا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "النُّطْفَةَ" مفعول به أول "عَلَقَةً" مفعول به ثان "فَخَلَقْنَا" الفاء عاطفة وماض وفاعله "الْعَلَقَةَ مُضْغَةً" مفعولان لخلقنا "فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا" الجملة معطوفة وإعرابها كسابقتها "فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا" إعرابها مثل سابقتها "ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا" إعرابها كسابقها "آخَرَ" صفة خلقنا "فَتَبَارَكَ" الفاء استئنافية وماض والجملة مستأنفة "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "أَحْسَنُ" بدل والجملة مستأنفة "الْخَالِقِينَ" مضاف اليه مجرور بالياء "ثُمَّ" عاطفة "إِنَّكُمْ" حرف مشبه بالفعل والكاف اسمها "بَعْدَ" ظرف زمان متعلق بميتون "ذَلِكَ" اسم إشارة مبني على السكون في محل جر

بالإضافة واللام للبعد والكاف للخطاب "لَمَيِّتُونَ" اللام المزحلقة ميتون خبر إن مرفوع بالواو والجملة معطوفة "ثُمَّ" عاطفة "إِنَّكُمْ" إن واسمها والجملة معطوفة "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بتبعثون "الْقِيامَةِ" مضاف اليه "تُبْعَثُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة في محل رفع خبر إن.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 17 الى 20]

(60/531)

وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ (17) وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ (18) فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (19) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (20)

"وَلَقَدْ" الواو استئنافية وقد حرف تحقيق واللام واقعة في جواب قسم محذوف "خَلَقْنا" ماض وفاعله "فَوْقَكُمْ" ظرف مكان متعلق بخلقنا والكاف في محل جر بالإضافة "سَبْعَ" مفعول به "طَرائِقَ" مضاف اليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لانه ممنوع من الصرف "وَما كُنَّا" الواو واو الحال وما نافية كنا ماض ناقص ونا اسمها "عَنِ الْخَلْقِ" متعلقان بغافلين

"غافِلِينَ" خبر كان منصوب بالياء والجملة في محل نصب حال "وَأَنْزَلْنا" الواو عاطفة ماض وفاعله "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بأنزلنا . "ماءً" مفعول

(61/531)

به "بِقَدَرٍ" متعلقان بأنزلنا والجملة معطوفة "فَأَسْكَنَّاهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بأسكناه "وَإِنَّا" واو الحال وإن واسمها "عَلى ذَهابٍ" متعلقان بقادرون "بِهِ" متعلقان بذهاب "لَقادِرُونَ" اللام لام المزحلقة وقادرون خبر مرفوع بالواو والجملة حالية "فَأَنْشَأْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "لَكُمْ بِهِ" كلاهما متعلقان بأنشأنا "جَنَّاتٍ" مفعول به منصوب وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم "مِنْ نَخِيلٍ" متعلقان بصفة محذوفة "وَأَعْنابٍ" عطف "لَكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر "فِيها" متعلقان بالخبر المحذوف "فَواكِهُ" مبتدأ مؤخر والجملة صفة ثانية لجنات "كَثِيرَةٌ" صفة فواكه "وَمِنْها" الواو عاطفة ومتعلقان بتأكلون "تَأْكُلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والجملة معطوفة "وَشَجَرَةً" معطوفة على جنات "تَخْرُجُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة شجرة "مِنْ طُورِ" متعلقان بتخرج "سَيْناءَ" مضاف اليه "تَنْبُتُ" مضارع فاعله مستتر "بِالدُّهْنِ" متعلقان بمحذوف حال والجملة صفة ثانية لشجرة

"وَصِبْغٍ" معطوف على دهن "لِلْآكِلِينَ" متعلقان بصبغ .

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 21 الى 23]

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (21) وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (23)

(62/531)

"وَإِنَّ" الواو استئنافية وإن حرف مشبه بالفعل "لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ" متعلقان بخبر محذوف "لَعِبْرَةً" اللام لام الابتداء للتوكيد وعبرة اسم إن مؤخر والجملة مستأنفة "نُسْقِيكُمْ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر والكاف مفعول به "مِمَّا" من حرف جر ما موصولية متعلقان بنسقيكم "فِي بُطُونِها" متعلقان بمحذوف صلة والهاء في محل جر بالإضافة والجملة مستأنفة "وَلَكُمْ فِيها" كلاهما متعلقان بالخبر المحذوف "مَنافِعُ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة "كَثِيرَةٌ" صفة لمنافع "وَمِنْها" الواو عاطفة ومتعلقان بتأكلون "تَأْكُلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "عَلَيْها" الواو عاطفة عليها متعلقان بتحملون "عَلَى الْفُلْكِ"

معطوفان على ما قبلهما متعلقان بتحملونُ حْمَلُونَ"

مضارع مبني للمجهول مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو نائب فاعل والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها "وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب قسم مقدر وقد حرف تحقيق "أَرْسَلْنا نُوحاً" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "إِلى قَوْمِهِ" متعلقان بأرسلنا والهاء في محل جر بالإضافة. "فَقالَ" الفاء عاطفة وماض فاعله مستتر "يا قَوْمِ" يا أداة نداء قوم منادى منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم "اعْبُدُوا اللَّهَ" أمر وفاعله ولفظ الجلالة مفعوله والجملة مقول القول "ما لَكُمْ" ما نافية ولكم متعلقان بالخبر المقدم "مِنْ إِلهٍ" من حرف جر زائد

إله مبتدأ مجرور لفظا مرفوع محلا "غَيْرُهُ" صفة لإله "أَفَلا" الهمزة للاستفهام ولا نافية

"تَتَّقُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مقول القول.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 24 الى 25]

(63/531)

فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ

حَتَّى حِينٍ (25)

"فَقَالَ الْمَلَأُ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع صفة الملأ "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ قَوْمِهِ" متعلقان بمحذوف حال والهاء مضاف إليه "ما هذا" ما نافية والها للتنبيه وذا اسم الإشارة في محل رفع مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "بَشَرٌ" خبر المبتدأ "مِثْلُكُمْ" صفة والكاف مضاف اليه والجملة مقول القول. "يُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة ثانية لبشر "أَنْ يَتَفَضَّلَ" أن ناصبة ومضارع منصوب أن وما بعدها من اسم وخبر في محل نصب مفعول به ليريد "عَلَيْكُمْ" متعلقان بيتفضل "وَلَوْ" الواو استئنافية لو حرف شرط غير جازم. "شاءَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة مستأنفة "لَأَنْزَلَ" اللام واقعة في جواب الشرط وماض فاعله مستتر "مَلائِكَةً" مفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب لو "ما سَمِعْنا" ما نافية سمعنا ماض وفاعل "بِهذا" ذا اسم إشارة متعلقان بسمعنا "فِي آبائِنَا" متعلقان بمحذوف حال ونا مضاف اليه "الْأَوَّلِينَ" صفة آبائنا مجرورة بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة مقول القول "إِنْ هُوَ" إن نافية هو مبتدأ "إِلَّا رَجُلٌ" إلا أداة حصر ورجل خبر والجملة مقول القول. "بِهِ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم "جِنَّةٌ" مبتدأ مؤخر والجملة في محل رفع صفة رجل. "فَتَرَبَّصُوا" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة لا محل لها لانها جواب شرط

غير جازم "بِهِ" متعلقان بتربصوا "حَتَّى حِينٍ" متعلقان بتربصوا

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 26 الى 27]

(64/531)

قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (26) فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (27)

"قالَ" ماض فاعله مستتر "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة وهو منصوب والجملة مقول القول "انْصُرْنِي" فعل دعاء والفاعل مستتر والنون للوقاية وياء المتكلم مفعول به "بِما" مصدرية في محل جر "كَذَّبُونِ" ماض مبني على الضم والواو فاعل والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة مفعول به "فَأَوْحَيْنا" الفاء استئنافية وماض وفاعله "إِلَيْهِ" متعلقان بأوحينا ، والجملة مستأنفة "أَنِ" حرف تفسير "اصْنَعِ" أمر فاعله مستتر "الْفُلْكَ" مفعول به والجملة مفسرة لا محل لها من الإعراب "بِأَعْيُنِنا" متعلقان بحال محذوفة ونا في محل جر بالإضافة "وَوَحْيِنا" معطوف على ما سبق ونا في محل جر بالإضافة "فَإِذا" ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه "جاءَ أَمْرُنا" ماض وفاعله ونا

مضاف إليه والجملة مضاف إليه "وَفارَ التَّنُّورُ" ماض وفاعله والجملة معطوفة "فَاسْلُكْ" الفاء واقعة في جواب إذا وأمر وفاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جملة جواب شرط غير جازم "فِيها" متعلقان باسلك "مِنْ كُلٍّ" متعلقان بمحذوف حال "زَوْجَيْنِ" مضاف اليه مجرور بالياء لأنه مثنى "اثْنَيْنِ" مفعول به "وَأَهْلَكَ" معطوف على كل والكاف مضاف اليه "إِلَّا" أداة استثناء "مِنْ" اسم موصول في محل نصب على الاستثناء "سَبَقَ" ماض مبني على الفتح "عَلَيْهِ" متعلقان بسبق "الْقَوْلُ" فاعل "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف حال.

(65/531)

"وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تُخاطِبْنِي" مضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر والنون للوقاية وياء المتكلم مفعول به والجملة معطوفة "فِي الَّذِينَ" الذين اسم موصول في محل جر متعلقان بتخاطبني "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة. "إِنَّهُمْ" إن واسمها "مُغْرَقُونَ" خبر مرفوع بالواو والجملة تعليل لا محل لها من الإعراب.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 28 الى 30]

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

(28) وَقُلْ رَبِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29) إِنَّ فِي ذِلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30)

(66/531)

"فَإِذَا" الفاء استئنافية إذا ظرفية شرطية "اسْتَوَيْتَ" ماض وفاعله والجملة مضاف اليه "أَنْتَ" ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع توكيد لضمير الفاعل في استويت "وَمَنْ" الواو عاطفة واسم موصول معطوف على فاعل استويت "مَعَكَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول والكاف في محل جر بالإضافة. "عَلَى الْفُلْكِ" متعلقان باستويت والجملة مستأنفة "فَقُلِ" الفاء واقعة في جواب إذا وأمر فاعله مستتر. "الْحَمْدُ" مبتدأ "لِلَّهِ" لفظ الجلالة متعلقان بمحذوف خبر والجملة مقول القول "الَّذِي" اسم موصول بدل من لفظ الجلالة "نَجَّانَا" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر وفاعله مستتر ونا مفعول به والجملة صلة الموصول لا محل لها. "مِنَ الْقَوْمِ" متعلقان بنجانا "الظَّالِمِينَ" صفة مجرورة بالياء لأنه جمع مذكر سالم "وَقُلْ" الواو استئنافية وأمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة وهو منصوب على النداء والجملة مقول القول. "أَنْزِلْنِي" فعل دعاء فاعله مستتر تقديره أنت والنون للوقاية وياء المتكلم مفعول به "مُنْزَلًا" مفعول به

مطلق . "مُبارَكاً" صفة له "وَأَنْتَ" الواو حالية أنت مبتدأ "خَيْرُ" خبر "الْمُنْزِلِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء والجملة في محل نصب حال "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" ذا اسم إشارة في محل جر متعلقان بمحذوف خبر إن المقدم واللام للبعد والكاف للخطاب "لَآياتٍ" اللام المزحلقة وآيات اسم إن المنصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة مستأنفة "وَإِنْ" إنّ مخففة مهملة "كُنَّا" ماض ناقص ونا اسمها "لَمُبْتَلِينَ" اللام الفارقة بين النفي والإثبات ومبتلين خبر كان منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم .

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 31 الى 34]

(67/531)

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (31) فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (32) وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (34)

(68/531)

"ثُمَّ" عاطفة "أَنْشَأْنَا" ماض وفاعله "مِنْ بَعْدِهِمْ" متعلقان بأنشأنا والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "قَرْناً" مفعول به ، "آخَرِينَ" صفة قرنا "فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ" الفاء عاطفة وماض وفاعله "فِيهِمْ" متعلقان بأرسلنا "رَسُولًا" مفعول به "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف صفة لرسولا والجملة معطوفة "أَنِ" مفسرة "اعْبُدُوا اللَّهَ" أمر وفاعله ولفظ الجلالة مفعوله والجملة مفسرة "ما" نافية "لَكُمْ" متعلقان بالخبر المحذوف "مِنْ" حرف جر زائد "إِلهٍ" مبتدأ مجرور لفظا مرفوع محلا والجملة مستأنفة "غَيْرُهُ" صفة لإله "أَفَلا" الهمزة للاستفهام ولا نافية "تَتَّقُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "وَقالَ الْمَلَأُ" ماض وفاعله والجملة معطوفة "مِنْ قَوْمِهِ" متعلقان بمحذوف حال والهاء مضاف إليه "الَّذِينَ" اسم موصول في محل جر صفة لقومه "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَكَذَّبُوا" معطوف على ما قبله وإعرابه مثله "بِلِقاءِ" متعلقان بكذبوا "الْآخِرَةِ" مضاف إليه "وَأَتْرَفْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "فِي الْحَياةِ" متعلقان بأترفناهم "الدُّنْيا" صفة للحياة مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "ما هذا" ما نافية والها للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ "إِلَّا بَشَرٌ" إلا أداة حصر وبشر خبر "مِثْلُكُمْ" صفة لبشر والجملة مقول القول "يَأْكُلُ" مضارع والفاعل مستتر والجملة صفة ثانية "مِمَّا" من حرف جر وما الموصولية متعلقان بيأكل "تَأْكُلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة . "مِنْهُ" متعلقان بتأكلون "وَيَشْرَبُ

مِمَّا تَشْرَبُونَ" معطوفة على ما قبله وإعرابه مثله "وَلَئِنْ" الواو عاطفة واللام موطئة للقسم المحذوف وإن حرف شرط جازم "أَطَعْتُمْ" ماض وفاعله والجملة ابتدائية "بَشَراً" مفعول به "مِثْلَكُمْ" صفة والكاف مضاف إليه "إِنَّكُمْ" إن واسمها "إِذاً" حرف جواب "لَخاسِرُونَ"

(69/531)

اللام لام المزحلقة وخبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة جواب قسم لا محل له من الإعراب.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 35 الى 39]

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (35) هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (39)

"أَيَعِدُكُمْ" الهمزة للاستفهام ومضارع فاعله مستتر والكاف مفعول به والجملة مستأنفة "أَنَّكُمْ" أن واسمها وما بعدها في محل نصب مفعول به ثان ليعدكم "إِذا" ظرف زمان متعلق بمخرجون "مِتُّمْ" فعل ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "وَكُنْتُمْ" الواو عاطفة وكان واسمها "تُراباً" خبر والجملة معطوفة

"وَعِظاماً" معطوفة على ترابا "أَنَّكُمْ" توكيد لأنكم الأولى "مُخْرَجُونَ" خبر أنكم الأولى مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم "هَيْهاتَ" اسم فعل ماض "هَيْهاتَ" توكيد "لِما" اللام زائدة وما موصولية فاعل هيهات "تُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة "إِنْ" حرف نفي "هِيَ" مبتدأ "إِلَّا حَياتُنَا" إلا أداة حصر وحياتنا خبر المبتدأ ونا مضاف إليه "الدُّنْيا" صفة مجرورة بالكسرة المقدرة على الآلف للتعذر "نَمُوتُ" مضارع فاعله مستتر والجملة حال "وَنَحْيا" معطوف على نموت وهو مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر وفاعله مستتر "وَما" الواو عاطفة وما نافية حجازية تعمل عمل ليس "نَحْنُ" اسم ما في محل رفع "بِمَبْعُوثِينَ" الباء زائدة وخبر مجرور لفظا منصوب محلا والجملة معطوفة "إِنْ" حرف نفي "هُوَ" مبتدأ "إِلَّا رَجُلٌ" أداة حصر ورجل خبر هو "افْتَرى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر فاعله مستتر "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بافترى "كَذِباً" مفعول به والجملة صفة لرجل "وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ" معطوفة على وما نحن بمبعوثين وإعرابها مثلها "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة وهو منصوب على النداء وحذفت ياء المتكلم للتخفيف والجملة مقول

القول "انْصُرْنِي" فعل دعاء والنون للوقاية والياء مفعول به والفاعل محذوف والجملة مقول القول "بِما كَذَّبُونِ" متعلقان بانصرني وماض وفاعله والنون للوقاية وحذفت ياء المتكلم للتخفيف. والجملة صلة لا محل لها.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 40 الى 43]

(71/531)

قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ (40) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41) ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ (42) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (43)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "عَمَّا" عن حرف جر وما اسم موصول متعلقان بليصبحن "قَلِيلٍ" مضاف إليه "لَيُصْبِحُنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع ناقص مرفوع وواو الجماعة المحذوفة اسمها ونون التوكيد حرف لا محل له من الإعراب "نادِمِينَ" خبر منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "فَأَخَذَتْهُمُ" الفاء استئنافية وماض والتاء للتأنيث والهاء مفعول به مقدم "الصَّيْحَةُ" فاعل مؤخر والجملة استئنافية. "بِالْحَقِّ" متعلقان بحال محذوفة "فَجَعَلْناهُمْ" ماض وفاعله

ومفعوله الأول "غُثاءً" مفعوله الثاني والجملة معطوفة "فَبُعْداً" الفاء عاطفة ومفعول مطلق لفعل محذوف "لِلْقَوْمِ" متعلقان ببعدا "الظَّالِمِينَ" صفة مجرورة بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة جواب قسم لا محل لها "ثُمَّ" عاطفة "أَنْشَأْنا" ماض وفاعله "مِنْ بَعْدِهِمْ" متعلقان بأنشأنا والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "قُرُوناً" مفعول به "آخَرِينَ" صفة منصوبة بالياء لأنه جمع مذكر سالم "ما تَسْبِقُ" ما نافية ومضارع "مِنْ أُمَّةٍ" من حرف جر زائد وفاعل مجرور لفظا مرفوع محلا والجملة مستأنفة "أَجَلَها" مفعول به والهاء مضاف إليه "وَما" الواو عاطفة وما معطوفة على ما سبق "يَسْتَأْخِرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 44 الى 47]

(72/531)

ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (44) ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَأَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (45) إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً عالِينَ (46) فَقالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ (47)

["ثُمَّ" عاطفة "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "رُسُلَنا" مفعول به ونا مضاف اليه "تَتْرا" حال منصوبة بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر "كُلَّ ما" ظرف يتضمن معنى الشرط "جاءَ" ماض "أُمَّةً" مفعول به "رَسُولُها" فاعل مؤخر والهاء مضاف إليه والجملة مضاف إليه "كَذَّبُوهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب كلما لا محل لها من الإعراب "فَأَتْبَعْنا" الفاء عاطفة وماض وفاعله "بَعْضَهُمْ" مفعول به أول والهاء مضاف إليه "بَعْضاً" مفعول به ثان والجملة معطوفة "وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعولاه والجملة معطوفة "فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ" سبق إعرابها في الآية 41 وجملة لا يؤمنون صفة لقوم ["ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى" ماض وفاعله ومفعوله المنصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر والجملة معطوفة "وَأَخاهُ" الواو عاطفة أخاه معطوف على موسى منصوب بالألف لانه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه "هارُونَ" بدل من أخاه "بِآياتِنا" متعلقان بأرسلنا ونا مضاف اليه "وَسُلْطانٍ" معطوف على آيات "مُبِينٍ" صفة ["إِلى فِرْعَوْنَ" متعلقان بأرسلنا وفرعون مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "وَمَلَائِهِ" معطوف على فرعون بالكسرة والهاء مضاف اليه "فَاسْتَكْبَرُوا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة

معطوفة "وَكانُوا" كان واسمها "قَوْماً" خبر "عالِينَ" صفة قوما منصوبة بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة معطوفة ["فَقالُوا" الفاء استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَنُؤْمِنُ" الهمزة للاستفهام ومضارع فاعله مستتر "لِبَشَرَيْنِ" متعلقان بنؤمن والجملة مقول القول "مِثْلِنا" صفة ونا مضاف اليه "وَقَوْمُهُما" الواو واو الحال ومبتدأ والهاء مضاف "لَنا" متعلقان بعابدون "عابِدُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة حالية.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 48 الى 53]

(74/531)

فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49)
وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ (50) يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51) وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52)
فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53)

["فَكَذَّبُوهُما" الفاء عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "فَكانُوا" الفاء عاطفة وكان واسمها "مِنَ الْمُهْلَكِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة معطوفة ["وَلَقَدْ"

الواو استئنافية واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "آتَيْنا مُوسَى"
ماض وفاعله ومفعوله الأول "الْكِتابَ" مفعول به ثان والجملة مستأنفة "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها
والجملة تعليل لا محل لها "يَهْتَدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لعل وجملة
جواب القسم لا محل لها ["وَجَعَلْنَا" الواو استئنافية وماض وفاعله "ابْنَ"

(75/531)

مفعول به أول "مَرْيَمَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لانه ممنوع من الصرف "وَأُمَّهُ" معطوفة على
ابن والهاء مضاف إليه "آيَةً" مفعول به ثان والجملة مستأنفة "وَآوَيْناهُما" الواو عاطفة
وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "إِلى رَبْوَةٍ" متعلقان بآويناهما "ذاتِ" صفة لربوة
"قَرارٍ" مضاف إليه "وَمَعِينٍ" معطوفة على قرار ["يا أَيُّهَا" يا أداة نداء أيها نكرة مقصودة
مبنية على الضم في محل نصب والها للتنبيه "الرُّسُلُ" بدل "كُلُوا" أمر مبني على حذف النون
وفاعله والألف للتفريق والجملة لا محل لها لأنها مستأنفة "مِنَ الطَّيِّباتِ" متعلقان بكلوا
"وَاعْمَلُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "صالِحاً" صفة لموصوف محذوف تقديره اعملوا
عملا صالحا "إِنِّي" إن واسمها "بِما" متعلقان بعليم. "تَعْمَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة
صلة "عَلِيمٌ" خبر إن ["وَإِنَّ" الواو استئنافية وإن حرف مشبه بالفعل "هذِهِ" اسم إشارة

مبني على الكسر في محل نصب اسم إن والها للتنبيه "أُمَّتُكُمْ" خبر إن والكاف في محل جر بالإضافة والجملة مستأنفة "أُمَّةً" حال "واحِدَةً" صفة أمة "وَأَنَا" الواو حالية ومبتدأ "رَبُّكُمْ" خبر والكاف في محل جر بالإضافة والجملة حالية "فَاتَّقُونِ" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعل والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة مفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ["فَتَقَطَّعُوا" الفاء استئنافية وماض والواو فاعله "أَمْرَهُمْ" مفعول به والهاء في محل جر بالإضافة "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق بتقطعوا والجملة مستأنفة لا محل لها "زُبُراً" حال "كُلُّ" مبتدأ مستأنفة "حِزْبٍ" مضاف إليه "بِما" ما اسم موصول متعلقان بفرحون "لَدَيْهِمْ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة والهاء في محل جر بالإضافة "فَرِحُونَ" خبر المبتدأ مرفوع بالواو والجملة لا محل لها من الإعراب.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 54 الى 59]

(76/531)

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (54) أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ (55) نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ (56) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58)

وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ (59)

["فَذَرْهُمْ" الفاء الفصيحة وأمر مبني على السكون فاعله مستتر تقديره أنت والهاء مفعول به "فِي غَمْرَتِهِمْ" متعلقان بذرهم والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "حَتَّى حِينٍ" متعلقان بذرهم ["أَيَحْسَبُونَ" الهمزة للاستفهام ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "أن" حرف مشبه بالفعل "ما" ما اسم موصول في محل نصب اسمها وأن واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي حسب "نُمِدُّهُمْ" مضارع والفاعل مستتر والهاء مفعول به "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "مِنْ مالٍ" متعلقان بمحذوف حال "وَبَنِينَ" معطوف على مال مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ["نُسارِعُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر أن "لَهُمْ" متعلقان بنسارع "فِي الْخَيْراتِ" متعلقان بمحذوف حال "بَلْ" حرف إضراب "لا يَشْعُرُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم ["إِنَّ الَّذِينَ" إن واسم الموصول اسمها والجملة مستأنفة "هُمْ" مبتدأ "مِنْ خَشْيَةِ" متعلقان

(77/531)

بمشفقون. "رَبِّهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف اليه "مُشْفِقُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة صلة الموصول. ["وَالَّذِينَ" معطوفة على الذين الأولى "هُمْ" مبتدأ "بِآياتِ" متعلقان بيؤمنون "رَبِّهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر ["وَالَّذِينَ" معطوفة على الذين السابقة "هُمْ" مبتدأ "بِرَبِّهِمْ" متعلقان بيشركون والهاء مضاف اليه "لا يُشْرِكُونَ" لا نافية يشركون مضارع والواو فاعل والجملة خبر.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 60 الى 63]

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ (60) أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ (61) وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (62) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ (63)

(78/531)

["وَالَّذِينَ" معطوفة على الذين السابقة "يُؤْتُونَ" مضارع والواو فاعله "ما" موصولية مفعول به "آتَوْا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَقُلُوبُهُمْ" الواو واو الحال ومبتدأ والهاء مضاف إليه

"وَجِلَةٌ" خبر والجملة حالية "أَنَّهُمْ" أن واسمها "إِلى رَبِّهِمْ" متعلقان براجعون والجملة تعليل لا محل لها "راجِعُونَ" خبر ["أُولئِكَ" اسم إشارة مبتدأ والكاف للخطاب والجملة من المبتدأ والخبر خبر الذين من الآية 58 "يُسارِعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر أولئك "فِي الْخَيْراتِ" متعلقان بيسارعون "وَهُمْ" الواو عاطفة ومبتدأ والجملة معطوفة "لَها" متعلقان بسابقون "سابِقُونَ" خبر مرفوع بالواو ["وَلا" الواو استئنافية ولا نافية "نُكَلِّفُ" مضارع فاعله مستتر والجملة استئنافية "نَفْساً" مفعول به أول "إِلَّا وُسْعَها" أداة حصر ومفعول به ثان والهاء في محل جر بالإضافة "وَلَدَيْنا" الواو حالية وظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم "كِتابٌ" مبتدأ مؤخر والجملة حالية "يَنْطِقُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة لكتاب "بِالْحَقِّ" متعلقان بينطق "وَهُمْ" الواو استئنافية ومبتدأ والجملة مستأنفة "لا يُظْلَمُونَ" لا نافية ومضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر ["بَلْ" حرف إضراب "قُلُوبُهُمْ" مبتدأ والهاء مضاف إليه "فِي غَمْرَةٍ" متعلقان بالخبر المحذوف "مِنْ هذا" ذا اسم إشارة مجرور بمن ومتعلقان بصفة لغمرة "وَلَهُمْ" الواو عاطفة متعلقان بخبر مقدم محذوف "أَعْمالٌ" مبتدأ والجملة معطوفة "مِنْ دُونِ" متعلقان بمحذوف صفة لأعمال "ذلِكَ" اسم إشارة في محل جر مضاف اليه واللام للبعد والكاف للخطاب "هُمْ" مبتدأ "لَها" متعلقان بعاملون "عامِلُونَ" خبر مرفوع بالواو والجملة مؤكدة لما قبلها . أو صفة

أعمال.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 64 الى 68]

(79/531)

حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ (64) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ (65) قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ (66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ (67) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68)

["حَتَّى" حرف ابتداء "إِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط "أَخَذْنا" ماض وفاعله والجملة مضاف اليه "مُتْرَفِيهِمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "بِالْعَذابِ" متعلقان بأخذنا "إِذا هُمْ" إذا الفجائية وهم مبتدأ

(80/531)

و الجملة جواب الشرط لا محل لها "يَجْأَرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر ["لا تَجْأَرُوا" لا ناهية ومضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والجملة مقول القول "الْيَوْمَ" ظرف زمان متعلق بتجأروا "إِنَّكُمْ" إن واسمها والجملة تعليل "مِنَّا" متعلقان بتنصرون "لا تُنْصَرُونَ" لا نافية ومضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر إن ["قَدْ كانَتْ" قد حرف تحقيق وكان والتاء للتأنيث "آياتِي" اسم كان مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف إليه والجملة تعليل "تُتْلى" مضارع مبني للمجهول مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر ونائب الفاعل مقدر والجملة خبر كان "عَلَيْكُمْ" متعلقان بتتلى "فَكُنْتُمْ" الفاء عاطفة وكان واسمها والجملة معطوفة "عَلى أَعْقابِكُمْ" متعلقان بمحذوف حال من فاعل تنكصون "تَنْكِصُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر ["مُسْتَكْبِرِينَ" حال منصوبة بالياء لأنها جمع مذكر سالم "بِهِ" متعلقان بمستكبرين "سامِراً" حال "تَهْجُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة حالية ["أَفَلَمْ" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية ولم جازمة "يَدَّبَّرُوا" مضارع مجزوم والواو فاعل "الْقَوْلَ" مفعول به والجملة مستأنفة "أَمْ" عاطفة "جاءَهُمْ" ماض ومفعوله "ما لَمْ" ما اسم موصول فاعل ولم حرف جزم "يَأْتِ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة فاعله مستتر "آباءَهُمُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "الْأَوَّلِينَ" صفة لآباءهم منصوبة

بالياء والجملة صلة الموصول.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 69 الى 72]

(81/531)

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (70) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72)

["أَمْ" عاطفة "لَمْ يَعْرِفُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل "رَسُولَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف اليه والجملة معطوفة "فَهُمْ" الفاء عاطفة هم مبتدأ "لَهُ" متعلقان بمنكرون "مُنْكِرُونَ" خبر والجملة معطوفة ["أَمْ" عاطفة "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "بِهِ" متعلقان بخبر مقدم "جِنَّةٌ" مبتدأ مؤخر والجملة مقول القول "بَلْ" حرف إضراب "جاءَهُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال "وَأَكْثَرُهُمْ" الواو حالية ومبتدأ والهاء مضاف اليه "لِلْحَقِّ" متعلقان بكارهون "كارِهُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة حالية ["وَلَوِ" الواو استئنافية لو حرف شرط

غير جازم "اتَّبَعَ الْحَقُّ" ماض وفاعله "أَهْواءَهُمْ" مفعول به والهاء في محل جر بالإضافة والجملة لا محل لها لأنها ابتدائية "لَفَسَدَتِ" اللام واقعة في جواب لو وماض والتاء للتأنيث "السَّماواتُ" فاعل والجملة لا محل لها جواب لو "وَالْأَرْضُ" معطوفة على السموات "وَمَنْ" اسم موصول مبني على السكون معطوف على السموات "فِيهِنَّ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول والنون حرف دال على جماعة الإناث "بَلْ" حرف إضراب "أَتَيْناهُمْ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة

(82/531)

معطوفة "بِذِكْرِهِمْ" متعلقان بأتيناهم والهاء في محل جر بالإضافة "فَهُمْ" الفاء عاطفة وهم مبتدأ "عَنْ ذِكْرِهِمْ" متعلقان بمعرضون والهاء في محل جر بالإضافة "مُعْرِضُونَ" خبر المبتدأ مرفوع بالواو والجملة معطوفة ["أَمْ تَسْأَلُهُمْ" حرف عطف ومضارع والفاعل مستتر والهاء مفعول به أول "خَرْجاً" مفعول به ثان والجملة معطوفة "فَخَراجُ" الفاء تعليلية ومبتدأ وهو مضاف "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف في محل جر بالإضافة "خَيْرٌ" خبر المبتدأ والجملة تعليل لا محل لها "وَهُوَ" الواو واو الحال هو ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ "خَيْرٌ" خبر والجملة حالية "الرَّازِقِينَ" مضاف اليه مجرور بالياء .

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 73 الى 77]

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ (74) وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ (76) حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77)

(83/531)

["وَإِنَّكَ" الواو واو الحال إنك حرف مشبه بالفعل والكاف اسمها والجملة حالية "لَتَدْعُوهُمْ" اللام لام المزحلقة ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل والفاعل مستتر تقديره أنت والهاء مفعول به والجملة في محل رفع خبر إن "إِلى صِراطٍ" متعلقان بتدعوهم "مُسْتَقِيمٍ" صفة صراط ["وَإِنَّ" الواو حرف عطف وإن حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسم إن "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "بِالْآخِرَةِ" متعلقان بيؤمنون "عَنِ الصِّراطِ" متعلقان بناكبون. "لَناكِبُونَ" اللام لام المزحلقة وخبر إن ["وَلَوْ" الواو استئنافية لو حرف شرط غير جازم "رَحِمْناهُمْ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة الفعلية لا محل لها لأنها ابتدائية

"وَكَشَفْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "ما" اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به "بِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة "مِنْ ضُرٍّ" متعلقان بمحذوف حال "لَلَجُّوا" اللام واقعة في جواب لو وماض مبني على الضم والواو فاعله والجملة جواب لولا لا محل لها "فِي طُغْيانِهِمْ" متعلقان بلجوا "يَعْمَهُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حالية ["وَلَقَدْ" الواو حالية واللام واقعة في جواب قسم وقد حرف تحقيق "أَخَذْناهُمْ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة جواب قسم لا محل لها "بِالْعَذابِ" متعلقان بأخذناهم "فَمَا" الفاء حرف عطف وما نافية "اسْتَكانُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "لِرَبِّهِمْ" متعلقان باستكانوا والهاء في محل جر بالإضافة "وَما" الواو عاطفة وما نافية "يَتَضَرَّعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة معطوفة ["حَتَّى" حرف ابتداء لا محل له "إِذا" ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه "فَتَحْنا" ماض وفاعل والجملة في محل جر بالإضافة "عَلَيْهِمْ" متعلقان بفتحنا "بابا" مفعول به "ذا" صفة بابا منصوبة بالألف

(84/531)

لأنه من الأسماء الخمسة "عَذابٍ" مضاف إليه "شَدِيدٍ" صفة عذاب "إِذا" الفجائية "هُمْ" مبتدأ "فِيهِ" متعلقان بمبلسون "مُبْلِسُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة لا محل لها جواب الشرط.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 78 الى 83]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (80) بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ (81) قالُوا أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82)

لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83)

(85/531)

["وَهُوَ" الواو استئنافية وهو ضمير منفصل مبتدأ والجملة استئنافية "الَّذِي" اسم موصول خبر "أَنْشَأَ" ماض وفاعله مستتر "لَكُمُ" متعلقان بأنشأ والجملة صلة "السَّمْعَ" مفعول به "وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ" معطوفة على ما سبق "قَلِيلًا" نائب مفعول مطلق "ما تَشْكُرُونَ" ما مصدرية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة في تأويل مصدر فاعل قليلا]

"وَهُوَ الَّذِي" الواو عاطفة ومبتدأ واسم الموصول خبره والجملة معطوفة "ذَرَأَكُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بذرأكم "وَإِلَيْهِ" الواو عاطفة إليه متعلقان بتحشرون "تُحْشَرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة ["وَهُوَ" الواو استئنافية ومبتدأ "الَّذِي" اسم موصول خبر والجملة مستأنفة "يُحْيِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر والجملة صلة "وَيُمِيتُ" معطوف على يحيي وإعرابها مثله "وَلَهُ" الواو عاطفة ومتعلقان بخبر مقدم محذوف "اخْتِلافُ" مبتدأ مؤخر "اللَّيْلِ" مضاف إليه "وَالنَّهارِ" معطوف على الليل "أَفَلا" الهمزة للاستفهام الفاء استئنافية ولا نافية "تَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة ["بَلْ" حرف إضراب "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مِثْلَ" مفعول به "ما" اسم موصول في محل جر بالإضافة "قالَ الْأَوَّلُونَ" ماض وفاعله المرفوع بالواو والجملة صلة ["قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَإِذا" الهمزة للاستفهام إذا ظرف يتضمن معنى الشرط "مِتْنا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "وَكُنَّا" الواو عاطف . ة وكان واسمها والجملة معطوفة "تُرابًا" خبر "وَعِظاماً" معطوفة على ترابا . "أَإِنَّا" الهمزة للاستفهام وإن واسمها "لَمَبْعُوثُونَ" اللام المزحلقة وخبر مرفوع بالواو والجملة مقول القول ["لَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم وقد

حرف تحقيق "وُعِدْنا" ماض مبني للمجهول ونا نائب فاعل "نَحْنُ" توكيد لنائب الفاعل نا "وَآباؤُنا" معطوفة على نائب الفاعل "هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة مفعول به "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بوعدنا "إِنْ" حرف نفي لا عمل له "هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "أَساطِيرُ" خبر "الْأَوَّلِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم وجملة جواب القسم لا محل لها .

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 84 الى 89]

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89)

(87/531)

["قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لِمَنِ" اللام حرف جر ومن اسم موصول متعلقان بخبر مقدم "الْأَرْضُ" مبتدأ مؤخر والجملة مقول القول "وَمَنْ" الواو عاطفة من اسم موصول

معطوف على الأرض "فِيها" متعلقان بمحذوف صلة "إِنْ" حرف شرط جازم "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة ابتدائية لا محل لها "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر وجواب الشرط محذوف ["سَيَقُولُونَ" السين للاستقبال ومضارع مرفوع والواو فاعل والجملة مستأنفة "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بخبر محذوف والمبتدأ محذوف تقديره هي للّه والجملة مقول القول "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَفَلا الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة ولا نافية "تَذَكَّرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة مقول القول ["قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملوع بثبوت النون والجملة مقول القول ["قُلْ" أمر فاعله مستتر "مَنْ" اسم استفهام مبتدأ وجملته مقول القول "بِيَدِهِ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم والهاء مضاف إليه "مَلَكُوتُ" مبتدأ مؤخر والجملة خبر للمبتدأ من "كُلِّ" مضاف إليه "شَيْءٍ" مضاف إليه "وَهُوَ" الواو حالية هو مبتدأ والجملة حالية "يُجِيرُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "وَلا" الواو عاطفة لا نافية "يُجارُ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل محذوف "عَلَيْهِ" متعلقان بيجار "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة ابتدائية "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر وجواب الشرط محذوف .

["سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ" سبق إعرابها "فَأَنَّى" الفاء زائدة وأنى اسم استفهام حال "تُسْحَرُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة مقول القول .

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 90 الى 93]

(88/531)

بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (92) قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ (93)

["بَلْ" حرف إضراب "أَتَيْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال "وَإِنَّهُمْ" الواو حالية وإن واسمها "لَكاذِبُونَ" خبر مرفوع بالواو واللام المزحلقة والجملة حالية ["مَا" نافية

(89/531)

"اتَّخَذَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله "مِنْ" حرف جر زائد "وَلَدٍ" مفعول به محلا "وَما" الواو عاطفة وما نافية "كانَ" ماض ناقص "مَعَهُ" ظرف مكان متعلق بالخبر المحذوف والهاء مضاف اليه والجملة معطوفة "مِنْ" حرف جر زائد "إِلهٍ" اسم كان مجرور لفظا مرفوع محلا "إِذاً" حرف جواب "لَذَهَبَ كُلُّ" اللام واقعة في جواب لو وماض وفاعله "إِلهٍ"

مضاف إليه "بِما" ما موصولية ومتعلقان بذهب "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "وَلَعَلا" معطوف على ذهب "بَعْضُهُمْ" فاعل علا والهاء مضاف إليه "عَلى بَعْضٍ" متعلقان بعلا "سُبْحانَ" مفعول مطلق لفعل محذوف وجملته مستأنفة "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "عَمَّا" عن حرف جر وما اسم موصول متعلقان بسبحان "يَصِفُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة ["عالِمِ" بدل من لفظ الجلالة "الْغَيْبِ" مضاف إليه "وَالشَّهادَةِ" معطوفة على الغيب "فَتَعالى" الفاء استئنافية وماض فاعله مستتر والجملة استئنافية "عَمَّا" سبق إعرابها "يُشْرِكُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة ["قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة وهو منصوب على النداء بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف والجملة مقول القول "إِمَّا" مؤلفة من إن الشرطية وما الزائدة "تُرِيَنِّي" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم فعل الشرط والنون للوقاية والياء مفعول به أول والفاعل مستتر "ما" اسم موصول مفعول به ثان "يُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 94 الى 99]

رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ (95)
ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ (96) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ
الشَّياطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98)
حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99)
["رَبِّ" سبق إعرابها "فَلا" الفاء واقعة في جواب الشرط ولا ناهية "تَجْعَلْنِي" مضارع
مجزوم بلا الناهية والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة في محل جزم جواب الشرط "فِي
الْقَوْمِ" متعلقان بتجعلني "الظَّالِمِينَ" صفة لقوم مجرورة بالياء . ["وَإِنَّا" الواو استئنافية وإن
واسمها والجملة استئنافية "عَلى" حرف جر "أَنْ" حرف مصدري ونصب "نُرِيَكَ"
مضارع منصوب والكاف مفعول به أول وأن وما بعدها في تأويل مصدر محله جر بعلى
ومتعلقان بقادرون "ما" اسم موصول مفعول به ثان "نَعِدُهُمْ" مضارع فاعله مستتر والهاء
مفعول به والجملة صلة "لَقادِرُونَ" اللام لام المزحلقة وخبر إنا المرفوع بالواو ["ادْفَعْ" أمر
فاعله مستتر والجملة استئنافية . "بِالَّتِي" اسم موصول ومتعلقان بادفع "هِيَ أَحْسَنُ"
مبتدأ وخبر والجملة صلة "السَّيِّئَةَ" مفعول به "نَحْنُ" مبتدأ "أَعْلَمُ" خبر والجملة حالية
"بِما" متعلقان بأعلم "يَصِفُونَ" مضارع مرفوع والجملة صلة والواو فاعل ["وَقُلْ" الواو

عاطفة وأمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة. "رَبِّ" منادى مضاف "أَعُوذُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مقول القول ومعنى أعوذ أستجير

(91/531)

"بِكَ" متعلقان بأعوذ "مِنْ هَمَزاتِ" متعلقان بأعوذ "الشَّياطِينِ" مضاف إليه ["وَأَعُوذُ" الواو عاطفة ومضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "بِكَ" متعلقان بأعوذ "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف "أَنْ يَحْضُرُونِ" أن ناصبة ومضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والنون للوقاية والياء المحذوفة مفعول به ["حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط "جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة مضاف إليه "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "رَبِّ" منادى مضاف "ارْجِعُونِ" فعل دعاء مبني على حذف النون والواو فاعله والياء المحذوفة مفعول به والجملة مقول القول.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 100 الى 102]

لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ

(100) فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102)

(92/531)

["لَعَلِّي" لعل واسمها والجملة تعليل "أَعْمَلُ" مضارع فاعله مستتر "صالِحاً" مفعول به والجملة خبر لعل "فِيما" ما موصولية ومتعلقان بصالحا "تَرَكْتُ" ماض وفاعله والجملة صلة "كَلَّا" حرف زجر "إِنَّها كَلِمَةٌ" إن واسمها وخبرها والجملة مستأنفة "هُوَ قائِلُها" مبتدأ وخبر والجملة صفة كلمة والهاء مضاف اليه "وَمِنْ وَرائِهِمْ" متعلقان بخبر مقدم محذوف والهاء مضاف إليه "بَرْزَخٌ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "إِلى يَوْمِ" متعلقان بصفة محذوفة لبرزخ "يُبْعَثُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة مضاف إليه ["فَإِذا" الفاء استئنافية وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "نُفِخَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "فِي الصُّورِ" متعلقان بنفخ والجملة مضاف إليه "فَلا" الفاء واقعة في جواب إذا ولا نافية للجنس تعمل عمل إن "أَنْسابَ" اسمها "بَيْنَهُمْ" متعلقان بالخبر المحذوف "يَوْمَئِذٍ" ظرف مضاف إلى مثله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَلا" الواو عاطفة لا نافية "يَتَساءَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة . ["فَمَنْ"

الفاء استئنافية ومن شرطية جازمة مبتدأ "ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ" ماض وفاعله والتاء للتأنيث والهاء مضاف إليه. "فَأُولئِكَ" الفاء رابطة للجواب وأولاء مبتدأ واللام للبعد الكاف للخطاب "هُمُ الْمُفْلِحُونَ" مبتدأ وخبر والجملة خبر أولئك وجملتا الشرط والجواب خبر فمن.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 103 الى 106]

وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيها كالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (105) قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ (106)

(93/531)

["وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ" إعرابها كإعراب سابقتها "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع خبر

أولئك والجملة في محل جزم جواب الشرط "خَسِرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها "أَنْفُسَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "فِي جَهَنَّمَ" متعلقان بالخبر المقدم وجهنم مجرورة بالفتحة لأنها ممنوعة من الصرف "خالِدُونَ" مبتدأ مؤخر والجملة بدل من صلة الموصول]

"تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ" مضارع ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة مستأنفة "وَهُمْ" الواو حالية هم مبتدأ "فِيها" متعلقان بكالحون "كالِحُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة حالية ["أَلَمْ" الهمزة للاستفهام لم جازمة "تَكُنْ" مضارع ناقص "آياتِي" اسم تكن مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف اليه والجملة مقول القول لقال المحذوفة "تُتْلى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة خبر "عَلَيْكُمْ" متعلقان بتتلى "فَكُنْتُمْ" الفاء عاطفة وكان واسمها "بِها" متعلقان بتكذبون والجملة معطوفة "تُكَذِّبُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كنتم ["قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "رَبَّنا" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب ونا مضاف اليه والجملة مقول القول "غَلَبَتْ" ماض والتاء للتأنيث "عَلَيْنا" متعلقان بالفعل "شِقْوَتُنا" فاعل ونا مضاف اليه والجملة مقول القول "وَكُنَّا قَوْماً" كان واسمها وخبرها والجملة معطوفة "ضالِّينَ" صفة منصوبة بالياء لأنها جمع مذكر سالم.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 107 الى 109]

رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ (107) قالَ اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ (108)
إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109)

["رَبَّنا" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب ونا مضاف إليه "أَخْرِجْنا" فعل دعاء وفاعله والجملة وما قبلها لا محل له من الإعراب لأنها ابتدائية "مِنْها" متعلقان بأخرجنا "فَإِنْ" الفاء عاطفة وإن شرطية "عُدْنا" ماض وفاعله والجملة ابتدائية "فَإِنَّا" الفاء رابطة للجواب وإنا حرف مشبه بالفعل ونا اسمها والجملة في محل جزم جواب الشرط "ظالِمُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم ["قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "اخْسَؤُا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مقول القول "فِيها" متعلقان باخسؤوا "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تُكَلِّمُونِ" مضارع مجزوم بحذف النون والنون للوقاية والياء المحذوفة مفعول به والجملة معطوفة ["إِنَّهُ" إن واسمها والجملة مقول القول "كانَ فَرِيقٌ" كان واسمها والجملة خبر "مِنْ عِبادِي" متعلقان بفريق "يَقُولُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كان "رَبَّنا" سبق إعرابها "آمَنَّا" ماض وفاعله والجملة مقول القول "فَاغْفِرْ لَنا" الفاء عاطفة وفعل دعاء فاعله مستتر والجملة معطوفة ولنا متعلقان باغفر "وَارْحَمْنا" معطوف على فاغفر ونا مفعول به "وَأَنْتَ" الواو حالية ومبتدأ "خَيْرُ" خبر "الرَّاحِمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 110 الى 113]

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ

الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ (111) قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112)
قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ (113)

(95/531)

"فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ" الفاء عاطفة ماض وفاعله والهاء مفعوله الأول والواو للإشباع والجملة معطوفة "سِخْرِيًّا" مفعول به ثان "حَتَّى" حرف غاية وجر "أَنْسَوْكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "ذِكْرِي" مفعول به ثان والياء مضاف إليه "وَكُنْتُمْ" الواو عاطفة وكان واسمها والميم علامة جمع الذكور والجملة معطوفة "مِنْهُمْ" متعلقان بتضحكون "تَضْحَكُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كان "إِنِّي" إن واسمها والجملة مستأنفة "جَزَيْتُهُمُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر إني "الْيَوْمَ" ظرف زمان متعلق بجزيتهم "بِما" الباء حرف جر ما مصدرية. "صَبَرُوا" ماض وفاعله وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالباء "أَنَّهُمْ" أن واسمها والجملة مستأنفة "هُمُ" ضمير فصل. "الْفائِزُونَ" خبر أنهم مرفوع بالواو "قالَ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "كَمْ" اسم استفهام ظرف زمان متعلق بلبثتم "لَبِثْتُمْ" ماض وفاعله والجملة مقول القول "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بلبثتم "عَدَدَ" تمييز "سِنِينَ" مضاف اليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "لَبِثْنا"

ماض وفاعله والجملة مقول القول "يَوْماً" ظرف زمان متعلق بلبثنا "أَوْ" حرف عطف "بَعْضَ" معطوف على يوما "يَوْمٍ" مضاف إليه "فَسْئَلِ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "الْعادِّينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة لا محل لها من الإعراب.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 114 الى 116]

قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116)

(96/531)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنْ لَبِثْتُمْ" إن شرطية وماض وفاعله "إِلَّا" أداة حصر "قَلِيلًا" صفة لمفعول مطلق محذوف والجملة مقول القول "لَوْ" حرف شرط غير جازم "أَنَّكُمْ" أن واسمها والجملة لا محل لها "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة خبر أنكم. "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كنتم "أَفَحَسِبْتُمْ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَنَّما" كافة ومكفوفة وهي وما بعدها في تأويل مصدر وسدت مسد مفعولي حسب "خَلَقْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله "عَبَثاً" حال أو مفعول لأجله والجملة مستأنفة "وَأَنَّكُمْ" الواو عاطفة وأن واسمها "إِلَيْنا" متعلقان بترجعون والجملة

معطوفة "لا تُرْجَعُونَ" لا نافية ومضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة خبر "فَتَعالَى اللَّهُ" الفاء استئنافية وماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة مستأنفة "الْمَلِكُ" صفة للّه "الْحَقُّ" صفة ثانية "لا إِلهَ" لا نافية للجنس تعمل عمل إن وإله اسمها "إِلَّا" أداة حصر "هُوَ" بدل "رَبُّ" خبر لا "الْعَرْشِ" مضاف إليه "الْكَرِيمِ" صفة.

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 117 الى 118]

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلها آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (117) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118)

(97/531)

"وَمَنْ" الواو استئنافية ومن شرطية مبتدأ "يَدْعُ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة وهو فعل الشرط وفاعله مستتر والجملة استئنافية. "مَعَ" ظرف مكان متعلق بيدع "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف اليه "إِلهاً" مفعول به "آخَرَ" صفة "لا بُرْهانَ" لا نافية للجنس وبرهان اسمها "لَهُ" متعلقان بالخبر المحذوف "بِهِ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة اعتراضية "فَإِنَّما" الفاء رابطة للجواب وإنما كافة ومكفوفة. "حِسابُهُ" مبتدأ والهاء مضاف اليه "عِنْدَ رَبِّهِ" ظرف متعلق بالخبر المحذوف ومضاف إليه والجملة في محل جزم جواب الشرط "إِنَّهُ" إن

واسمها "لا" نافية "يُفْلِحُ الْكافِرُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر إنه "وَقُلْ" الواو استئنافية وأمر فاعله مستتر والجملة استئنافية "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب على النداء وياء المتكلم محذوفة للتخفيف "اغْفِرْ" فعل دعاء فاعله محذوف وجملة الدعاء مقول القول "وَارْحَمْ" معطوف على اغفر وإعرابه مثله "وَأَنْتَ" الواو حالية أنت مبتدأ "خَيْرُ" خبر والجملة حالية "الرَّاحِمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 324. 342﴾

(98/531)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة الْمُؤْمِنُونَ

ذكر فِيهَا اثْنَي عشر حَدِيثا

827 - الحَدِيث الأول

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه كَانَ يُصَلِّي رَافعا بَصَره إِلَى السَّمَاء فَلَمَّا نزلت هَذِه الْآيَة رَمَى ببصره نَحْو مَسْجده

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه من حَدِيث مُحَمَّد بن سِيرِين عَن أبي هُرَيْرَة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ إِذا صَلَّى رفع بَصَره إِلَى السَّمَاء فَنزلت الَّذين هم فِي صلَاتهم خاشعون فطأطأ رَأسه

انْتَهَى وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ لَوْلَا خلاف فِيهِ عَلَى مُحَمَّد فقد قيل عَنهُ مُرْسلا وَلم يخرجَاهُ

انْتَهَى

وَهَذَا الْمُرْسل الَّذِي أَشَار إِلَيْهِ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي مراسيله عَن ابْن سِيرِين عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَّا أَنه قَالَ عوض رفع بَصَره إِلَى السَّمَاء نظر هَكَذَا وَهَكَذَا وَأخرجه الطَّبَرِيّ مُرْسلا كَذَلِك

وَرَوَاهُ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن علية عَن أَيُّوب عَن مُحَمَّد بن سِيرِين عَن أبي هُرَيْرَة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

828 - الْحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَبْصر رجلا يعبث بلحيته فِي الصَّلَاة فَقَالَ لَو خشع قلب هَذَا خَشَعت جوارحه) قلت رَوَاهُ أَبُو عبد الله التِّرْمِذِيّ الْحَكِيم فِي كِتَابه نَوَادِر الْأُصُول فِي الْأَصْل

السَّادِس وَالْأَرْبَعِينَ بعد الْمِائَتَيْنِ حَدثنَا صَالح بن مُحَمَّد حَدثنَا سُلَيْمَان بن عَمْرو عَن مُحَمَّد بن عجلَان عَن سعيد الْمَقْبُري عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه رَأَى رجلا يعبث بلحيته فِي الصَّلَاة فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام لَو خشع قلب هَذَا خَشَعت جوارحه) انْتَهَى

وَسليمَان بن عَمْرو هَذَا يشبه أَن يكون هُوَ أَبُو دَاوُد النَّخعِيّ فَإِنِّي لم أجد أحدا فِي هَذِه الطَّبَقَة غَيره وَقد اتَّفقُوا عَلَى ضعفه قَالَ ابْن عدي أَجمعُوا عَلَى أَنه يضع الْحَدِيث

829 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لما بلغ قَوْله خلقا آخر قَالَ عمر فَتَبَارَكَ الله أحسن الْخَالِقِينَ

فَنزلت

قلت رَوَى ابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره والواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول من طَرِيق أبي دَاوُد حَدثنَا حَمَّاد بن سَلمَة عَن عَلّي بن زيد بن جدعَان عَن أنس بن مَالك قَالَ قَالَ عمر بن الْخطاب وَافَقت رَبِّي فِي أَربع قلت يَا رَسُول الله لَو صلينَا خلف الْمقَام فَأَنْزل الله وَاتَّخذُوا من مقَام إِبْرَاهِيم مُصَلًّى وَقلت يَا رَسُول الله لَو اتَّخذت عَلَى نِسَائِك حِجَابا فَإِنَّهُ يدْخل عَلَيْك الْبر والفاجر فَأَنْزل الله تَعَالَى وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعا فَاسْأَلُوهُنَّ من وَرَاء حجاب

وَقلت لِأَزْوَاج النَّبِي لتَنْتَهُنَّ أَو لِيُبدلَهُ الله أَزْوَاجًا خيرا مِنْكُن فَأَنْزل الله عَسى ربه إِن طَلَّقَكُن أَن يُبدلهُ أَزْوَاجًا خيرا مِنْكُن ونزلت وَلَقَد خلقنَا الْإِنْسَان من سلالة من طين إِلَى قَوْله ثمَّ أَنْشَأْنَاهُ خلقا آخر فَقلت فَتَبَارَكَ الله أحسن الْخَالِقِينَ

فَنزلت

انْتَهَى

(100/531)

وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث بشر بن السّري حَدثنَا رَبَاح بن أبي مَعْرُوف عَن سَالم بن عجلَان الْأَفْطَس عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ لما نزلت وَلَقَد خلقنَا الْإِنْسَان من سلالة . . . إِلَى آخر الْآيَة قَالَ عمر فَتَبَارَكَ الله أحسن الْخَالِقِينَ فَنزلت فَتَبَارَكَ الله أحسن الْخَالِقِينَ

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط حَدثنَا مُحَمَّد بن عبد الله الْحَضْرَمِيّ حَدثنَا أَبُو عُبَيْدَة بن فُضَيْل بن عِيَاض حَدثنَا بشر بن السّري بِهِ

830 - الْحَدِيث الرَّابِع

رُوِيَ أَن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كَانَ يكْتب لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَنَطَقَ بقوله تَعَالَى فَتَبَارَكَ الله أحسن الْخَالِقِينَ قبل إِمْلَائِهِ فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام اكْتُبْ فَهَكَذَا أنزلت) فَقَالَ عبد الله إِن كَانَ مُحَمَّد يُوحَى إِلَيْهِ فَأَنَا نَبِي يُوحَى إِلَيّ فلحق بِمَكَّة كَافِرًا ثمَّ أسلم يَوْم الْفَتْح

قلت غَرِيب وَذكره الثَّعْلَبِيّ عَن ابْن عَبَّاس أَن عبد الله بن سعد . . . إِلَى آخِره

وَكَذَلِكَ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول ذكره عَن الْكَلْبِيّ عَن ابْن عَبَّاس وَقد تقدم فِي سُورَة الْأَنْعَام أَيضا

831 - قَوْله وَفِي قِرَاءَة النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَعَائِشَة يأْتون مَا آتوا

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك من حَدِيث يَحْيَى بن رَاشد الْفُرَات عَن خَالِد الْحذاء عَن عبد الله بن عبيد بن عُمَيْر عَن أَبِيه أَنه سَأَلَ عَائِشَة عَن قَوْله تَعَالَى وَالَّذين يُؤْتون مَا آتوا كَيفَ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَام يَقْرَأها يُؤْتون أَو

(101/531)

يأْتون قَالَت أَيهمَا أحب إِلَيْك قَالَ وَالَّذين يأْتون مَا آتوا قَالَت أشهد أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ يَقْرَأها وَكَذَلِكَ أنزلت انْتَهَى

وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجاهُ وَتعقبه الذهْنِي فِي مُخْتَصره بِيَحْيَى بن رَاشد وَقَالَ إِنَّه ضَعِيف

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن مُسلم الْمَكِّيّ حَدثنِي أَبُو خلف مولَى بني جمح أَن عبيد بن عُمَيْر سَأَلَ عَائِشَة . . . فَذكره

وَأعله ابْن كثير فِي تَفْسِيره بِإِسْمَاعِيل بن مُسلم قَالَ وَالْمعْنَى عَلَى الْقِرَاءَة الأولَى وَهِي قِرَاءَة السَّبْعَة لِأَنَّهُ قَالَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخيرَات وهم لَهَا سَابِقُونَ وَلَو كَانَ عَلَى الْقِرَاءَة الْأُخْرَى لَأَوْشَكَ أَلا يَكُونُوا من السَّابِقين بل من الْمُقْتَصِدِينَ أَو الْمُقَصِّرِينَ

انْتَهَى

832 - الْحَدِيث الْخَامِس

عَن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها أَنَّهَا قَالَت حِين قَرَأَ وَالَّذين يُؤْتونَ مَا آتوا وَقُلُوبهمْ وَجلة يَا رَسُول الله هُوَ الَّذِي يَزْنِي وَيسْرق وَيشْرب الْخمر وَهُوَ مَعَ ذَلِك يخَاف الله قَالَ لَا يَا ابْنة الصّديق وَلَكِن الَّذِي يُصَلِّي ويصوم وَيتَصَدَّق وَهُوَ عَلَى ذَلِك يخَاف الله أَلا يقبل مِنْهُ)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير وَابْن ماجة فِي الزّهْد من حَدِيث عبد الرَّحْمَن ابْن سعيد بن وهب الْهَمدَانِي عَن عَائِشَة قَالَت سَأَلت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن هَذِه الْآيَة وَالَّذين يُؤْتونَ مَا آتوا . . . الْآيَة قَالَت هم الَّذين يشربون الْخمر وَيَسْرِقُونَ قَالَ لَا يَا ابْنة

الصّديق وَلَكنهُمْ الَّذين يَصُومُونَ وَيصلونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وهم يخَافُونَ أَلا يقبل مِنْهُم أُولَئكَ الَّذين يُسَارِعُونَ فِي الْخيرَات

(102/531)

انْتَهَى وَسكت عَنهُ التِّرْمِذِيّ ثمَّ قَالَ وَقد رَوَى عبد الرَّحْمَن بن سعيد هَذَا الحَدِيث عَن أبي حَازِم عَن أبي هُرَيْرَة

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك كَذَلِك وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْعَاشِر بِسَنَدِهِ وَرَوَاهُ أَحْمد وَابْن أبي شيبَة وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسانيدهم

قَالَ ابْن عَسَاكِر فِي الْأَطْرَاف وَعبد الرَّحْمَن بن سعيد لم يدْرك عَائِشَة

انْتَهَى

وَله طَرِيق آخر رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره عَن جرير عَن لَيْث بن أبي سليم وهشيم عَن الْعَوام بن حَوْشَب جَمِيعًا عَن عَائِشَة أَنَّهَا سَأَلت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره

وَطَرِيق آخر عِنْد الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط عَن جرير عَن لَيْث عَن عمْرَة عَن عَائِشَة

وَحَدِيث أبي هُرَيْرَة الَّذِي أَشَار إِلَيْهِ التِّرْمِذِيّ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ أَيْضا حَدثنَا ابْن حميد واسْمه مُحَمَّد بن حميد الرَّازِيّ حَدثنَا الحكم بن بشير حَدثنَا عَمْرو بن قيس عَن عبد الرَّحْمَن بن سعيد الْهَمدَانِي عَن أبي حَازِم عَن أبي هُرَيْرَة أَن عَائِشَة قَالَت . . . فَذكره

833 - الْحَدِيث السَّادِس

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (اللَّهُمَّ اشْدُد وطأتك عَلَى مُضر وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِم سِنِين كَسِنِي يُوسُف) فَابْتَلَاهُمْ الله بِالْقَحْطِ حَتَّى أَكلُوا الْجِيَف وَالْكلاب وَالْعِظَام الْمُحْتَرِقَة وَالْقد وَالْأَوْلَاد

قلت هَذِه قِطْعَة من حَدِيث أخرجه الْبُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث ابْن مَسْعُود وَقد ذكره الْمُصَنّف فِي سُورَة الدُّخان وَسَيَأْتِي هُنَاك إِن شَاء الله تَعَالَى

834 - الْحَدِيث السَّابِع

(103/531)

قَالَ النَّبِي) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَا تسبوا مُضر وَلَا ربيعَة فَإِنَّهُمَا كَانَا مُسلمين وَلَا تسبوا قيسا فَإِنَّهُ كَانَ مُسلما وَلَا تسبوا الْحَارِث بن كَعْب وَلَا أَسد بن خُزَيْمَة وَلَا تَمِيم بن مر فَإِنَّهُم كَانُوا عَلَى الْإِسْلَام وَمَا شككتم فِيهِ من شَيْء فَلَا تشكوا فِي أَن تبعا كَانَ مُسلما)

قلت فِي أول الرَّوْض الْأنف للسُّهَيْلِي قَالَ وَفِي الحَدِيث الْمَرْفُوع لَا تسبوا مُضر وَلَا ربيعَة فَإِنَّهُمَا كَانَا مُؤمنين) ذكره الزُّبَيْر بن بكار

انْتَهَى

835 - قَوْله وَالْخطْبَة الَّتِي خطبهَا أَبُو طَالب فِي نِكَاح خَدِيجَة بنت خويلد كَفَى برغائها مناديا

836 - الحَدِيث الثَّامِن

رُوِيَ أَنه لما أسلم ثُمَامَة بن أَثَال الْحَنَفِيّ وَلحق بِالْيَمَامَةِ وَمنع الْميرَة من أهل مَكَّة وَأَخذهم الله بِالسِّنِينَ حَتَّى أَكلُوا العلهز جَاءَ أَبُو سُفْيَان إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ أَنْشدك الله وَالرحم أَلَسْت تزْعم أَنَّك بعثت رَحْمَة للْعَالمين قَالَ بَلَى) قَالَ فقد قتلت الْآبَاء بِالسَّيْفِ وَالْأَبْنَاء بِالْجُوعِ)

(104/531)

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي آخر بَاب حَدِيث الْإِفْك أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ حَدثنَا أَبُو قُتَيْبَة سَلمَة بن الْفضل الْآدَمِيّ حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن هَاشم حَدثنَا مُحَمَّد بن حميد الرَّازِيّ حَدثنَا أَبُو تُمَيْلة يَحْيَى بن وَاضح حَدثنَا عبد الْمُؤمن بن خَالِد الْحَنَفِيّ عَن علْبَاء بن

أَحْمَر عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس أَن ثُمَامَة بن أَثَال الْحَنَفِيّ لما أُتِي بِهِ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ أَسِير خَلى سَبيله فَأسلم وَلحق بِمَكَّة ثمَّ رَجَعَ فحال بَين أهل مَكَّة وَبَين الْميرَة من الْيَمَامَة حَتَّى أكلت قُرَيْش العلهز فجَاء إِلَيْهِ أَبُو سُفْيَان ابْن حَرْب فَنَاشَدَهُ الله وَالرحم أَلَسْت تزْعم أَنَّك بعثت رَحْمَة للْعَالمين قَالَ بلَى) فَقَالَ فقد قتلت الْآبَاء بالسَّيْفِ وَالْأَبْنَاء بِالْجُوعِ فَأَنْزل الله تَعَالَى وَلَقَد أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لربهم وَمَا يَتَضَرَّعُونَ انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنَا ابْن حميد بِهِ

وَرَوَاهُ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول من حَدِيث الْحُسَيْن بن وَاقد حَدثنَا يزِيد النَّحْوِيّ أَن عِكْرِمَة حَدثهُ عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لما أَتَى ثُمَامَة بن أَثَال الْحَنَفِيّ . . . فَذكره إِلَى آخِره

وَاخْتَصَرَهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير فَقَالَ أخبرنَا مُحَمَّد بن عقيل حَدثنَا عَلّي بن الْحُسَيْن بن وَاقد حَدثنَا أبي بِهِ قَالَ جَاءَ أَبُو سُفْيَان إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ يَا مُحَمَّد أنْشدك الله وَالرحم فقد أكلنَا العلهز يَعْنِي الْوَبرَة وَالدَّم فَأَنْزل الله تَعَالَى وَلَقَد أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا . . . الْآيَة

(105/531)

837 - قَوْله قَالَ أَبُو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه وليتكُمْ وَلست بِخَيْركُمْ

قلت أخرجه ابْن هِشَام فِي السِّيرَة عَن ابْن إِسْحَاق حَدثنِي الزُّهْرِيّ حَدثنِي أنس بن مَالك قَالَ لما بُويِعَ أَبُو بكر فِي السَّقِيفَة وَكَانَ الْغَد جلس أَبُو بكر عَلَى الْمِنْبَر فَقَامَ عمر فَتكلم قبل أبي بكر فَحَمدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثمَّ قَالَ يَا أَيهَا النَّاس إِنِّي كنت قلت لكم بالْأَمْس مقَالَة مَا وَجدتهَا فِي كتَاب الله وَلَا كَانَت عهدا عَهده رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَلَكِنِّي كنت أرَى أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سيد بر أمرنَا بقول يكون آخِرنَا وَإِن الله قد أَبْقَى فِيكُم كِتَابه الَّذِي بِهِ هدى الله وَرَسُوله فَإِن اعْتَصَمْتُمْ بِهِ هداكُمْ الله فَإِن الله قد جمع أَمركُم عَلَى خَيركُمْ صَاحب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ثَانِي اثْنَيْن إِذْ هما فِي الْغَار فَقومُوا فَبَايعُوهُ فَبَايع النَّاس أَبَا بكر بيعَة الْعَامَّة ثمَّ تكلم أَبُو بكر فَحَمدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثمَّ قَالَ أما بعد أَيهَا النَّاس فَإِنِّي قد وليت عَلَيْكُم وَلست بِخَيْركُمْ فَإِن أَحْسَنت فَأَعِينُونِي وَإِن أَسَأْت فقوموني الصدْق أَمَانَة وَالْكذب خِيَانَة والضعيف فِيكُم قوي عِنْدِي حَتَّى آخذ لَهُ حَقه وَالْقَوِي مِنْكُم ضَعِيف عِنْدِي حَتَّى آخذ مِنْهُ الْحق أَطِيعُونِي مَا أَطَعْت الله وَرَسُوله فَإِذا عصيت وَرَسُوله فَلَا طَاعَة لي عَلَيْكُم قومُوا إِلَى صَلَاتكُمْ يَرْحَمكُمْ الله

انْتَهَى

(106/531)

وَرَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي كِتَابه المؤتلف والمختلف وَفِي غرائب مَالك من حَدِيث فتيَان بن أبي السَّمْح حَدثنِي مَالك بن أنس عَن هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبِيه أَن أَبَا بكر خطب بعد وَفَاة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَحَمدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثمَّ قَالَ أما بعد فَإِنِّي وليتكُمْ وَلست بِخَيْركُمْ أَلا وَإِن أقواكم عِنْدِي الضَّعِيف حَتَّى آخذ لَهُ الْحق وَإِن أَضْعَفكُم عِنْدِي الْقوي حَتَّى آخذ مِنْهُ الْحق إِنَّمَا أَنا مُتبع وَلست بِمُبْتَدعٍ فَإِن أَنا أَحْسَنت فَأَعِينُونِي وَإِن زِغْت فقوموني أَقُول قولي هَذَا وَأَسْتَغْفِر الله لي وَلكم

انْتَهَى ثمَّ قَالَ تفرد بِهِ فتيَان عَن مَالك

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة أبي بكر أخبرنَا عبد الله بن مُوسَى أَنا هِشَام بن عُرْوَة أَظُنهُ عَن أَبِيه قَالَ لما ولي أَبُو بكر خطب النَّاس فَحَمدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثمَّ قَالَ أما بعد . . . إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي كتاب الْأَمْوَال حَدثنَا عَلّي بن هَاشم ابْن الْبَرِيد عَن هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبِيه قَالَ خطب أَبُو بكر فَحَمدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثمَّ قَالَ أما بعد فَإِنِّي وليت أَمركُم وَلست بِخَيْركُمْ وَلكنه نزل الْقُرْآن وَسن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَعلمنَا فَعلمنَا وَاعْلَمُوا أَيهَا النَّاس إِن أَكيس الْكيس التقَى وَإِن أعجز الْعَجز الْفُجُور وَإِن أقواكم

عِنْدِي الضَّعِيف . . . إِلَى آخِره

حَدثنَا عَلّي بن هَاشم عَن إِسْمَاعِيل بن أبي خَالِد عَن قيس بن أبي حَازِم عَن أبي بكر نَحوه

(107/531)

وَرَوَاهُ الْوَاقِدِيّ فِي آخر كتاب الْمَغَازِي حَدثنِي مُحَمَّد بن عبد الله عَن الزُّهْرِيّ عَن عبيد الله بن عبد الله بن عتبَة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ لي عمر هَل تَدْرِي يَا ابْن عَبَّاس مَا حملني عَلَى مَقَالَتي الَّتِي قلتهَا حِين توفّي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قلت لَا قَالَ قَوْله تَعَالَى وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أمة وسطا لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاس وَيكون الرَّسُول عَلَيْكُم شَهِيدا فوَالله إِن كنت لأَظُن أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سَيَبْقَى فِي أمته حَتَّى يشْهد عَلَيْهَا بآخر أَعمالهَا فَإِنَّهُ الَّذِي حملني عَلَى مَا قلت فَقَامَ أَبُو بكر تكلم فَحمدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثمَّ قَالَ أما بعد . . . إِلَى آخِره بِلَفْظ أبي عبيد

838 - الْحَدِيث التَّاسِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (إِذا عاين الْمُؤمن الْمَلَائِكَة قَالُوا نُرْجِعك إِلَى الدُّنْيَا فَيَقُول إِلَى دَار الهموم وَالْأَحْزَان بل قدومًا عَلَى الله وَأما الْكَافِر فَيَقُول رب ارْجِعُونِ . . . الْآيَة

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ حَدثنِي الْقَاسِم حَدثنَا الْحُسَيْن بن حجاج عَن ابْن جريج قَالَ قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لعَائِشَة إِذا عاين الْمُؤمن الْمَلَائِكَة) إِلَى آخِره

وَذكره الثَّعْلَبِيّ عَن عَائِشَة مَرْفُوعا من غير سَنَد

839 - الْحَدِيث الْعَاشِر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله تَعَالَى وهم فِيهَا كَالِحُونَ قَالَ تَشْوِيه النَّار فتتقلص شفته الْعليا حَتَّى تبلغ وسط رَأسه وَتَسْتَرْخِي شفته السُّفْلَى حَتَّى تبلغ سرته)

(108/531)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه من حَدِيث عبد الله بن الْمُبَارك أَنا سعيد بن يزِيد أَبُو شُجَاع عَن أبي السَّمْح عَن أبي الْهَيْثَم سُلَيْمَان بن عَمْرو عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ وهم فِيهَا كَالِحُونَ تَشْوِيه النَّار فتتقلص شفته الْعليا حَتَّى تبلغ وسط رَأسه وَتَسْتَرْخِي شفته السُّفْلَى حَتَّى تضرب سرته)

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث حسن صَحِيح غَرِيب

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْبَعْث والنشور

840 - الْحَدِيث الْحَادِي عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من قَرَأَ سُورَة الْمُؤْمِنُونَ بَشرته الْمَلَائِكَة بِالروحِ وَالريحَان وَمَا تقر بِهِ عينه عِنْد نزُول ملك الْمَوْت)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث شَبابَة بن سوار الْفَزَارِيّ حَدثنَا مخلد بن عبد الْوَاحِد عَن عَلّي بن زيد عَن عَطاء بن أبي مَيْمُونَة عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمَذْكُور فِي سُورَة يُونُس

841 - الْحَدِيث الثَّانِي عشر

رُوِيَ أَن سُورَة قد أَفْلح) أَولهَا وَآخِرهَا من كنوز الْعَرْش

من عمل بِثَلَاث آيَات من أَولهَا واتعظ بِأَرْبَع آيَات من آخرهَا فقد نجا وأفلح

قلت غَرِيب جدا

842 - الْحَدِيث الثَّالِث عشر

عَن عمر بن الْخطاب كَانَ عَلَيْهِ السَّلَام إِذا نزل عَلَيْهِ الْوَحْي يسمع عِنْده دوِي كَدَوِيِّ النَّحْل فَمكثْنَا سَاعَة فَاسْتقْبل الْقبْلَة ورفع يَدَيْهِ (اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تنْقصنَا وَأَكْرمنَا وَلَا تهنا وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمنَا وَآثرنَا وَلَا تُؤْثر علينا وَارْضَ عَنَّا وَأَرْضنَا) ثمَّ قَالَ لقد أنزلت عَلَّي عشر آيَات من أَقَامَهُنَّ دخل الْجنَّة)

ثمَّ قَرَأَ قد أَفْلح الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى ختم الْعشْر آيَات

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير وَالنَّسَائِيّ فِي الصَّلَاة من طَرِيق عبد الرَّزَّاق أَنا يُونُس بن سليم الصَّنْعَانِيّ عَن يُونُس بن يزِيد الْأَيْلِي عَن الزُّهْرِيّ عَن عُرْوَة ابْن الزُّبَيْر عَن عبد الرَّحْمَن بن عبد الْقَارِي قَالَ سَمِعت عمر بن الْخطاب يَقُول كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذا نزل عَلَيْهِ الْوَحْي سمع عِنْد وَجهه كَدَوِيِّ النَّحْل . . . إِلَى آخِره قَالَ النَّسَائِيّ هَذَا حَدِيث مُنكر لَا نعلم أحدا رَوَاهُ غير يُونُس بن سليم ويُونُس بن سليم لَا أعرفهُ

انْتَهَى

وَقَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله قَالَ أبي يُونُس بن سليم لَا أعرفهُ وَلَا يعرف هَذَا الحَدِيث من حَدِيث الزُّهْرِيّ

انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَرَوَاهُ أَحْمد وَعبد بن حميد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم وَرَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه فِي فَضَائِل الْقُرْآن كَذَلِك وَكَذَلِكَ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة والواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي ضعفَاهُ وَأعله بِيُونُس بن سليم وَقَال لَا يُتَابع عَلَيْهِ وَلَا يعرف إِلَّا بِهِ وَكَذَلِكَ ابْن عدي فِي الْكَامِل

(110/531)

وَتعقب الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره عَلَى الْحَاكِم بِتَصْحِيحِهِ إِيَّاه وَقَال سُئِل عبد الرَّزَّاق عَن شَيْخه يُونُس بن سليم فَقَال أَظُنهُ لَا شَيْء . انْتَهَى . انتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 2 صـ 399.410﴾

(111/531)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة المؤمنون

قوله تعالى : (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ) ، الآية/ 2 :

والمراد به عند المفسرين أن لا يتجاوز بصره مصلاه ، ولا يلتفت ولا يحرك يديه ، وقال عليه الصلاة والسلام : «اسكنوا في الصلاة ، وكفوا أيديكم في الصلاة» .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) ، الآية/ 3 :

اللغو : الباطل ، وجعل قتادة ذلك وصفا للمصلين ، أي إن المؤمن في الصلاة معرض عن اللغو والرفث .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ ، إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ) ، الآية/ 5 ، 6 :

يقتضي تحريم المتعة ، إذ ليست بزوجة ولا ملك يمين .

قوله : (إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ) .

لا بد أن يكون خطابا للرجال ، فإن المرأة لا تستحل بملك اليمين شيئا من أمر البضع .

(112/531)

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ) ، الآية/ 9 :

المحافظة عليها في الوقت ، ويحتمل أنهم يحافظون على مواقيتها وركوعها ، ومراعاة حدودها وشروطها .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) ، الآية/ 60 .

وروي عن عائشة أنها قالت : قلت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم :

(الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) أهو الرجل يشرب الخمر ويسرق ؟ فقال : «لا يا عائشة ، ولكنه ، الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه» «1» .

وقال الحسن : لقد أدركت أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم أشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها .

قوله تعالى : (أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ) ، الآية/ 61 .

مدح المسارعين .

قوله تعالى : (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ) ، الآية 67 .

اختلفوا في السمر ، فروى شعبة عن ابن المنهال بن أبي برزة عن النبي عليه الصلاة والسلام ، أنه كان يكره النوم قبلها ، والحديث بعدها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 285.286﴾

---

(1) أخرجه الفريابي وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الأيمان.

(113/531)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى:

«سورة المؤمنون» (23)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ» (2) أي لا تطمح أبصارهم ولا يلتفتون مكبون . .

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» (12) مجازها الولد والنطفة قالت بنت النّعمان بن بشير الأنصاريّة:

وهل كنت إلّا مهرة عربيّة سلالة أفراس تجلّلها بغل «1» [621]

فإن نتجت مهرا كريما فبالحرى وإن يك إقراف فمن قبل الفحل

تقول لزوجها روح بن زنباع الجذاميّ.

---

(1) . - 621: «بنت النعمان» اسمها هند انظر الأغانى 8/ 134 والسمط ص

179 - والبيتان فى السمط 179 والأول فى الطبري 18/ 6 واللسان (سلل) والقرطبي 12/ 109 .

(114/531)

ويقال : سليلة وقال :

يقذفن فى أسلائها بالسلائل

[623] وقال حسّان :

فجاءت به عضب الأديم غضنفرا سلالة فرج كان غير حصين

«1» [624] ويقال لبن غضنفر أي خائر غليظ والأسد سمّى غضنفر لكثافته وعظم هامته وأذنيه ، والغضنفر الغليظ من اللبن ومن كل شىء . .

«سَبْعَ طَرائِقَ» (17) مجازها أن كل شىء فوق شىء فهو طريقة من كل شىء والمعنى هاهنا السموات لأن بعضهن فوق بعض . .

«تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ» (20) مجازه تنبت الدهن والباء من حروف الزوائد وفى آية أخرى «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ» (22/ 25) مجازه يريد فيه إلحادا قال الراجز :

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج نضرب بالبيض ونرجو بالفرج

(1) . - 624 : ديوانه ص 422 - والطبري 18/ 16 ، 21/ 55 والقرطبي 11/ 109 ، واللسان (سلل) .

(115/531)

أي نرجو الفرج . .

«طُورِ سَيْناءَ» (20) الطور الجبل قال العجّاج :

دانى جناحيه من الطّور فمرّ

«1» [625] و«سَيْناءَ» اسم . .

«بِهِ جِنَّةٌ» (25) مجازها مجاز الجنون وهما واحد . .

«فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» (27) مجازها فاجعل واحمل وفى آية أخرى «ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ» (74/ 42) قال عدى بن زيد :

وكنت لزاز خصمك لم أعرّد وقد سلكوك فى يوم عصيب

«2» [329] وبعضهم يقول اسلك بالألف قال :

حتى إذا أسلكوهم فى قتائدة شلّاً كما تطرد الجمالة الشردا

«فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ» (28) مجازه إذا علوت على السفينة وفى آية أخرى: «عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى» (20/ 5) أي علا وقال آخرون: حتى إذا كنت أنت ومن معك فى الفلك، لأن «فى» و«على» واحد كقوله «وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ» (20/ 71) أي على جذوع النخل

---

(1). - 625: فى ديوانه ص 17 - والطبري 20/ 41 وشواهد الكشاف 149.

(2). - 329: من قصيدة فى الأغانى (الدار) 2/ 111 وشعراء الجاهلية 451 والبيت فى الطبري 18/ 12.

(116/531)

والفلك هاهنا السفينة وقد يقع على الواحد والجميع بلفظ واحد . .

«فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» (28) مرفوع لأنه حكاية يأمره أن يلفظ بهذا اللفظ ولم يعملوا فيه «قل خيرا» فينصبونه . .

«وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (33) مجازه وسعنا عليهم «1» فأترفوا فيها وبغوا وبطروا فكفروا وأعجبوا قال العجّاج:

«و قد أرانى بالديار مترفا

«2» [626].

«عَمَّا قَلِيلٍ» (40) مجازه عن قليل وما من حروف الزوائد فلذلك جروه وفى آية أخرى «إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها» (2/ 26) والعرب قد تفعل ذلك، قال النّابغة:

قالت ألا ليت ما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا ونصفه فقد

(42) ويقال فى المثل: ليت ما من العشب خوصة»

.

---

(1). - 4 «وسعنا عليهم»: أخذ البخاري تفسير أبى عبيدة هذا وأشار إليه ابن حجر بقوله:

وهو تفسير أبى عبيدة قال فى قوله تعالى: «و أترفناهم... وسعنا عليهم... إلخ» (فتح الباري 8/ 336).

(2). - 626: ديوانه 82.

(3). - 11 «ليت... خوصة»: لقد مر تخريج هذا المثل.

«فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً «1»» (41) وهو ما أشبه الزبد وما ارتفع على السيل وما أشبه ذلك مما لا ينتفع به فى شىء .

«ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا» (44) أي بعضهم فى أثر بعض ومنه قولهم :

جاءت كتبه تترى ، والوجه أن لا ينوّن فيها لأنها تفعّل وقوم قليل ينونون فيه لأنهم يجعلونه اسما ومن جعله اسما فى موضع تفعل لم يجاوز به ذلك فيصرفه . .

«وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ» (44) أي يتمثّل بهم فى الشر ولا يقال فى الخير :

جعلته حديثا .

«لَنا عابِدُونَ» (47) أي داينون مطيعون ، وكل من دان الملك فهو عابد له ومنه سمى أهل الخيرة العبّاد . .

«وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ» (50) تقديره أفعلنا وأوى هو على تقدير عوى ومعناه ضممنا وربوة يضمّ أولها ويكسر وهى النّجوة من الأرض ومنها قولهم :

فلان فى ربوة من قومه ، أي عزّ وشرف وعدد . .

«ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ» (50) أي تلك الربوة لها ساحة وسعة أسفل منها وذات معين أي ماء جار ظاهر بينهم .

(1) . - 1 «غثاء» أخذ البخاري تفسير هذه الآية لأبي عبيدة وأشار إليه ابن حجر وروى روايتين أخريين له أيضا (فتح الباري 8/ 338) .

(118/531)

«زُبُراً» (53) أي قطعا ، ومن قرأها زبرا - بفتح الباء - فإنه يجعل واحدتها زبرة كزبرة الحديد : القطعة .

«إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ» (64) أي يرفعون أصواتهم كما يجأر الثور ، قال عدى بن زيد :

إنّني واللّه فاسمع حلفى بأبيل كلما صلّى جأر

(423) .

«فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ» (66) يقال لمن رجع من حيث جاء : نكص فلان على عقبيه «1» . .

«سامِراً تَهْجُرُونَ» (67) مجازه : تهجرون سامرا «2» وهو من سمر الليل ، قال ابن أحمر :

من دونهم إن جئتهم سمرا عزف القيان ومجلس غمر

«3» [627] وسامر فى موضع «سمّار» بمنزل طفل فى موضع أطفال «4» .

---

(1) . - 6 - 7 «يقال . . . عقبيه» : أخذ البخاري تفسيره هذا (انظر فتح الباري 8/ 339) .

(2) . - 8 - 11 «سامرا . . . أطفال» : قال الطبري (18/ 26) وكان بعض البصريين يقول وحد ومعناه الجمع كما قيل طفل فى موضع أطفال ومما يبين عن صحة ما قلنا فى أنه موضع الوقت فوحد لذلك قول الشاعر : البيت .

(3) . - 627 : والبيت فى القرطبي 12/ 137 أيضا

(4) . - 629 : فى اللسان (حضر) .

(119/531)

«أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً» (72) أي إتاوة وغلّة كخرج العبد إلى مولاه ، أو الرعية إلى الوالي .

والخرج أيضا من السحاب ومنه يرى اشتقّ هذا أجمع قال أبو ذؤيب :

إذا همّ بالإقلاع هبّت له الصّبا وأعقب نوء بعدها وخروج

«1» [629] قال ابو عمرو الهذلي : إنما سمى خروجا الماء الذي يخرج منه . .

«عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ» (74) أي لعادلون ، يقال نكب عنه ، ويقال : نكب عن فلان ، أي عدل عنه ، ويقال : نكب عن الطريق ، أي عدل عنه . .

«قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ» (89) أي فكيف تعمون عن هذا وتصدون عنه ونراه من قوله :

سحرت أعيننا عنه فلم ينصره . .

«مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ» (97) وهمز الشيطان غمزه الإنسان وقمعه فيه .

---

(1) . - 629 : ديوانه ص 52 ، واللسان ، والتاج (خرج) . [. . . . .]

(120/531)

«وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ» (100) أي أمامهم وقدّامهم ، قال الشاعر :

أترجو بنو مروان سمعى وطاعتى وقومى تميم والغلاة ورائيا

(387) وما بين كل شيئين برزخ وما بين الدنيا والآخرة برزخ ، قال :

ومقدار ما بينى وبينك برزخ

(631) .

«فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا» (110) مكسورة الأولى لأنه من قولهم : يسخر منه ، وبعضهم يضم أوله ، لأنه يجعله من السخرة والتسخّر بهم .

«لا بُرْهَانَ» (117) لا بيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 62.55 ﴾

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «قد أفلح المؤمنون»

[سورة المؤمنون (23) : آية 12]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (12)

قوله سبحانه : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ [12] وهذه استعارة .

لأن حقيقة السلالة هى أن تسلّ الشيء من الشيء . فكأن آدم عليه السلام لما خلق من أديم الأرض كان كأنّه انسلّ منها ، واستخرج من سرها . وقد صار ذلك عبارة عن محض الشيء ومصاصه «1» ، وصفوته ولبابه . ليس أن هناك شيئا استل من شىء على الحقيقة .

وقد تسمّى النطفة سلالة على هذا المعنى . ويسمى ولد الرّجل سلالة أيضا على مثل ذلك .

[سورة المؤمنون (23) : آية 17]

وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ (17)

وقوله سبحانه : وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ ، وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ [17] .

وهذه استعارة . لأن المراد بالطرائق ها هنا السموات السبع ، مشبّهة بطرائق النّعل ،

وواحدتها : طريقة . وقد يجمع أيضا على طريق . فهى قطع الجلود يجعل بعضها فوق بعض

وينتظم بالخرز . ويقال : طارقت النعل . من ذلك .

[سورة المؤمنون (23) : آية 27]

فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (27)

وقوله سبحانه : اصْنَعِ «2» الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا [27] وهذه استعارة . والقول فيها

كالقول فى : وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي «3» . على حدّ سواء . فكأنه سبحانه قال :

واصنع الفلك بحيث نرعاك ونحفظك ، ونمنع منك من يريدك .

---

(1) المصاص من الشيء : خالصه . يقال : فلان مصاص قومه . إذا كان أخلصهم نسبا .

ومثله :

المصة . انظر القاموس المحيط واللسان .

(2) فى الأصل : «واصنع» بالواو . وهو تحريف من الناسخ .

(3) سورة طه . الآية رقم 39 . وقد تقدم الكلام عن هذه الآية فى سورة طه .

(122/531)

أو يكون المعنى : واصنع الفلك بأعين أوليائنا من الملائكة والمؤمنين . فإنا نمنعك بهم ، ونشدك بمعاضدتهم ، فلا يصل إليك من أرادك ، ولا تبلغك مرامى من كادك .

[سورة المؤمنون (23) : آية 41]

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41)

وقوله سبحانه : فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [41] وهذه استعارة .

والمراد بها - والله أعلم - أنه عاجلهم بالاستئصال والهلاك ، فطاحوا كما يطيح الغثاء إذا سال به السيل . والغثاء : ما حملت السيول فى ممرها من أضغاث النبات ، وهشيم الأوراق وما يجرى مجرى ذلك . فكأن أولئك القوم هلكوا ، ولم يحسّ لهم أثر ، كما لا يحسّ أثر ما طاح به السيل من هذه الأشياء المذكورة .

والعرب يعبرون عن هلاك القوم بقولهم : قد سال بهم السيل . فيجوز أن يكون قوله سبحانه : فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً . كناية عن الهلاك ، كما كنوا بقولهم : سال بهم السيل عن الهلاك .

والمعنى : فجعلناهم كالغثاء الطافح فى سرعة انجفاله «1» ، وهوان فقدانه .

[سورة المؤمنون (23) : الآيات 62 الى 63]

وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (62) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ (63)

وقوله سبحانه : وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ «2» لا يُظْلَمُونَ [62] . وهذه استعارة . والنطق لا يوصف به إلا من يتكلم بآلة .

وسمعت قاضى القضاة «3» أبا الحسن يجيب بذلك من يسأله : هل يجوز أن يوصف القديم تعالى بأنه ناطق ، كما يوصف بأنه يتكلم ؟ فمنع من ذلك ، وقال : ما قدمت ذكره . فوصف سبحانه القرآن بالنطق مبالغة فى وصفه بإظهار البيان . وإعلان البرهان ، وتشبيها باللسان الناطق ، فى الإبانة عن ضميره ، والكشف عن مستوره .

وقوله سبحانه : بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا [63] وهذه استعارة . والمراد

---

(1) الانجفال : الهرب فى إسراع . [. . . . .]

(2) فى الأصل : «فهم» بالفاء . وهو تحريف من الناسخ .

(3) تقدمت ترجمتنا له عند الكلام فى مجازات سورة الكهف .

بها أن القوم الذين قال سبحانه فيهم أمام هذه الآية هم الموصوفون بقوله تعالى : بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا أي فى حيرة تغمرها ، وغمة تسترها . والغمر جمع غمرة. وهو ما وقع الإنسان فيه من أمر مذهل ، وخطب مدلّه ، مشبه بغمرات الماء التي تغمر الواقع فيها ، وتأخذ بكظم «1» المغمور بها .

[سورة المؤمنون (23) : آية 71]

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71)

وقوله سبحانه : وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ [71] . وهذه استعارة. والمراد بها : ولو كان الحق موافقا لأهوائهم لعاد كلّ إلى ضلاله ، وأوقع كل فى بطله ، لأن الحق يدعو إلى المصالح والمحاسن . والأهواء تدعو إلى المفاسد والمقابح ، فلو اتبع الحقّ قائد الهوى لشمل الفساد ، وعمّ الاختلاط ، وخفضت أعلام الهداية ، ورفع «2» منار الغواية .

[سورة المؤمنون (23) : آية 103]

وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ (103)

وقوله سبحانه : وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ

[103] وهذه استعارة على أحد التأويلين . وهو أن يكون معنى الموازين هاهنا المعادلة بين الأعمال بالحق «3» . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 241.243 ﴾

---

(1) الكظم بفتح الكاف والظاء : مخرج النفس . جمعه أكظام وكظام .

(2) فى الأصل «و رفعت» وهو تحريف من الناسخ . لأن المنار مذكر .

(3) هنا قطعة ناقصة من الأصل تبلغ ورقة تقريبا من الآية رقم 103 من سورة المؤمنون ، إلى الآية 24 من سورة النور .

(124/531)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة المؤمنون

بين الأعمال وأجزيتها رباط وثيق ، فمستقبل الخير نضير ولو كان حاضره معنتا ، ومستقبل الشر سيئ وإن كان حاضره خادعا . والناس عادة معنيون بيومهم الحاضر ومستغرقون فيه . وذلك حجاب عن الحق ، وأحبولة يقع فيها الغافلون . وقد نزلت سورة المؤمنين لتعلق الأبصار بالآخرة ، وتطمئن المؤمنين إلى مستقبلهم الطيب . أما الكافرون فالويل لهم . .

وافتتحت السورة بهذه البشرى: " قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون . . " إلخ . عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه –: كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل ، فأنزل الله عليه يوما ، فمكث ساعة ثم سرى عنه فقرأ: "قد أفلح المؤمنون" إلى عشر آيات من أولها ، وقال: " من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة ، ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، اللهم أرضنا وارض عنا " . والآيات المذكورة مزيج من العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات ، وقد وعدت المستمسك بها بالفلاح . . وفى وسط السورة تكرار لهذا المعنى فى ثوب آخر: " إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون " . وظاهر أن الموصوفين بما ذكر هم المذكورون أول السورة ، الموعودون بالفلاح ، وكلا الموضعين يصور جانبا من سيرتهم ، ولونا من شمائلهم . أما الأشرار فإن سيرتهم وآخرتهم شرحتا فى آخر السورة شرحا مستفيضا ، كما ذكرت مصائرهم فى قصص الأمم البائدة ، وفى عرض الحديث عن أحوال المشركين أثناء مناقشتهم وتوبيخهم . .

والجزاء الموعود يجىء بعد فترة يقضيها البشر على ظهر الأرض ، يتم فيها تمحيصهم ، وتحصى عليهم أعمالهم وأحوالهم . . وقد وصفت هذه الفترة وصفا يبعث على الإيمان بالله والشعور بعظمته: " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين " كيف تخلقت هذه الأجسام من التراب ؟ كيف يتحول الغبار المركوم إلى بشر سوى ؟ كيف توضع خصائص النخلة فى النواة ، وخصائص الإنسان فى النطفة ؟ كيف تتجه قوانين الوراثة إلى غايتها على مر الأيام ، فإذا الطفل العاجز بشر عملاق ؟ . إن كل شىء يصرخ بعظمة الخالق الكبير ، ولكن الكافرين يحيون فى غفلة هائلة ، ومصيرهم كالح ! " ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون " . وعادت السورة بالناس إلى الماضى البعيد ، تحكى جحود الأوائل لفضل الله ، وتمردهم على هداياته ، وتكذيبهم لرسله ، فذكرت نوحا وقومه ، وهودا وقومه ، " ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين * ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون * ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون " . والأقوام التى رفضت الإيمان تعيش كثرتها فى المنطقة التى يقال لها الآن " الشرق الأوسط " كان نوح شمالى العراق ، وهبط إبراهيم من العراق إلى الحجاز ، ومر بمصر والشام ، وخرج موسى من وادى النيل يريد الفرار بقومه ، ومات فى التيه ، وولد عيسى بفلسطين وزار مصر ، وكان

صالح وشعيب شمال الجزيرة العربية ، وكان هود بالأحقاف فى اليمن . . إلخ . ويبدو لنا أن الناس فى هذه البلاد كانوا أقرب من غيرهم وعيا لرسالات السماء وحقائق الوحى ! ! فلما جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم مزق القدر شملهم ! هل كان المرسلون يكلفون الناس ما لا يطيقون ؟ كلا ، فليس يشق على الناس أن يدعوا الخبيث للطيب ويفعلوا الخير ! " يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون " . ولذلك قال بعدئذ : "

(126/531)

ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون " . ثم جاءت الرسالة العالمية بعد هذه الرسالات المحلية ، وساق محمد خلاصات الوحى الإلهى كفه لعرب الجزيرة فى قرآن كريم حوى الرسالة ومعجزتها معها .

ولكن العرب أول أمرهم رفضوا الإسلام وكذبوا نبيه ! وهم أعرف الناس بشرف محمد وأمانته ، وقد أشار أبو طالب لهذا حين قال: لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يُغرى لقول الأباطل ! ! ووصف القرآن موقفهم هذا بقوله: " أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون * أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق

وأكثرهم للحق كارهون " . وقد كلفتهم كراهية الحق ثمنا غاليا " حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون " فانهزموا فى معركة بدر هزيمة مخزية ، ورمى صناديد الكفر وأشياعهم فى بئر مظلمة . وقد كانوا من قبل يسمرون فى ناديهم بشتم الإسلام والسخرية من تعاليمه ، والنيل من المسلمين المستضعفين واستباحة حقوقهم . وفى مصارع كبراء قريش بعد عزهم القديم ، وترفهم الأثيم يقول شداد بن الأسود : وماذا بالقليب: قليب بدر – من الشيزى تزئن بالسنام وماذا بالقليب: قليب بدر – من القينات والشرب الكرام وهنا الشاعر كان على دين قومه فى الكفر بالبعث والجزاء ، ولذلك يقول مستهزئا : يحدثنا الرسول بأن سنحيا ! ! وكيف حياة أصداء وهام ؟ ويقول الله سبحانه وتعالى ردا على هذا كله: " بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون * ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون" . إيلام المرء قد يكون تطهيرا له ورفع درجة ، ويقع ذلك للصالحين والمجاهدين وأمثالهم كما جاء فى الحديث: " لا يصيب المسلم من هم ولا غم ولا وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه " . وقد يكون الإيلام تأديبا وتهذيبا وردا إلى حالة الاعتدال التى يتجاوزها المخطئ ، فإن للقوة صولة وللثروة

طغيانا . وقد يتطاول المرء فوق قدره ، لأن الرزق بسط له ، أو لأن جاهه اتسع ! . وقد كانت قريش شديدة الكبر على الحق ، لأن رغد العيش أبطرها حتى دعا الرسول عليها : " اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف " أى سبع سنوات عجاف . . .

(128/531)

ولاتزال ! أمواج الألم تغمر المخطئين حتى يرعووا ، وكلما تأخر صلاحهم ترادف البلاء عليهم ، لأنهم كما قال الله: " ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون " . ولقد مرت بقريش سنوات عضوض قيل: ألح عليهم الجوع حتى اسودت الآفاق فى عيونهم . . ومع ذلك ظلوا منتصبين نحو عشرين سنة يقاتلون الرسول ! وصحبه ! . ومازالوا كذلك حتى خارت قواهم ، وسقطت دولة الكفر فى أرضهم ، وقامت بدلها دولة الإيمان " حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون " . وسورة المؤمنين مكية ، وهذا التهديد لحمل القوم على الرشد ، ولكن القرآن الكريم يعود إلى سننه فى التعليم والإرشاد ومناشدة العقل الإنسانى على الوعى . ولذلك بدأ يذكر الناس بنعمة الله عليهم ، وكيف أوجدهم وسخر لهم الليل والنهار والشمس والقمر ، وكيف أنشأ لهم

السمع والأبصار والأفئدة ، وقد وجه لهم ثلاثة أسئلة تكشف التناقض فى شركهم ، والخلط فى تفكيرهم ، وتبعثهم على إخلاص التوحيد : " قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون ؟ . وهذه الأسئلة موجهة إلى المشركين الذين يعبدون الأصنام وهم يعلمون أنها لم تخلق أرضا ولا سماء ، ولم ترسل رزقا ولم تحدد أجلا . ولكن هذه الأسئلة نفسها توجه إلى فريق من أهل الكتاب ، يشوبون التوحيد بالتعديد ، ويختلقون مع الإله آلهة أخرى ما أنزل الله بها من سلطان . والواقع أن القرآن بنى الإيمان الصحيح على الوحدانية النقية التى تجعل ما عدا الله ملكا خالصا له ، وعبدا عانيا فى حضرته " ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون " . إن عقيدة التوحيد وليدة فكر ثاقب ،

(129/531)

وبرهان دامغ ، وما الشرك أو أبوة الله وبنوته ، إلا ظنون خامرت العقل وهو غافل ، وسكنت فيه وهو مخدر . ولما كان المرء قد يقع صريع شهوة غالبة ، أو ميراث جارف ، فيبقى على ضلاله وشروده ، فإن الله سبحانه أشعر الإنسان بأنه ليس بخالد فى هذه الدنيا ، إنه معمر فيها إلى حين ! فليخش الموت وما يتبعه ، فإنه سيندم ويتمنى لو كان عقل " حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون " . وطلب الرجوع إلى الدنيا لاستئناف حياة أشرف تكرر فى القرآن الكريم عشر مرات أو يزيد ، وهو دلالة حاسمة على أن المجرم يعترف بخطئه السابق ، ويرجو الله أن يتيح له فرصة أخرى للإصلاح ! . . وفى سورة المؤمنين تكرر هذا الطلب مرتين: مرة عند مجىء الموت ، ومرة عند الحساب " ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون " . ولعل هذا الطلب المتكرر يقنع جماهير من الناس تدين بعقيدة الجبر ، وتزعم أن الجزاء مكتوب ! لا سبب للإنسان فيه ! ! . وهؤلاء كثيرون فى أمتنا يعيشون بغير إرادة ، ويظلمون الإسلام بتماوتهم الغريب . وقد جاء ختام السورة تكذيبا لهؤلاء الكسالى ، وتقبيحا لأفعالهم: " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق " إن الله أعلى وأجل من أن يظلم أحدا من خلقه ! لقد منح آدم وبنيه الحياة فى هذه الدنيا ، وزودهم بعقل كاشف ووحى هاب . وبشر وأنذر ،

وأصح وأمرض ، ويسر وعسر ، كي يتعرف المرء على ربه في الحالين ، ويستعد للقائه بعمل صالح ، فإذا أبى إلا الشرود فالعقاب المرصد عدل ، ولا يسمع فيه عذر . . . وقد ذكرت السورة أن المرء الكافر عند الحساب ينسى الزمن ، ويذهب من عقله الماضي كله ، ولا تتماسك الحياة الأولى في ذاكرته إلا لحظات قصيرة مبهمة " قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا

(130/531)

يوما أو بعض يوم فاسأل العآدين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون " . ومرة أخرى يعود القرآن إلى بناء الإيمان على البرهان ، ويؤكد أن الدين ليس عقلا خرافيا يتبع الترهات ! إنه عقل يحترم الدليل ويحتبئ به . إن العقل مناط التكليف وسلم الارتقاء ، وأقرب الخلق إلى الدواب هم الكافرون بالله ، البعيدون عن هداه: " ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون * وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نحو تفسير موضوعي صـ 267 . 271 ﴾

(131/531)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والثلاثون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/532)

الجزء الثانى والثلاثون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة المؤمنون

وحتى الآية ﴿ 19 ﴾ من نفس السورة

(4/532)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/532)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة المؤمنين

أقول : وجه اتصالها بسورة الحج: أنه لما ختمها بقوله: (وافعلوا الخير لعلكُم تُفلِحون) وكان ذلك مجملاً ، فصَّله في فاتحة هذه السورة ، فذكر خصال الخير التي من فعلها فقد أفلح ، فقال: (قد أَفلحَ المؤمنون الذينَ هُم في صلاتِهم خاشعون)

ولما ذكر أول الحج قوله: (يا أَيها الناس إِن كنتُم في ريبٍ مِن البعثِ فإِنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) زاده هنا بياناً في قوله: (ولقد خَلقنا الإِنسانَ مِن سُلالةٍ مِن طين ثُم جعلناهُ نطفةً في قرارٍ مكين) فكل جملة أوجزَت هناك في القصد أطنب فيها هنا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أسرار ترتيب القرآن صـ 118 ﴾

(6/532)

قوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي له الأمر كله ، فلا راد لأمره (الرحمن) الذي من عموم رحمته الإبلاغ في البيان (الرحيم) الذي خص من أراد بالإيمان .

لما ختمت الحج بناء الذين آمنوا وأمرهم بأمور الدين خاصة وعامة ، وختم بالصلاة والزكاة

والعصمة به سبحانه موصفاً بما ذمر ، أوجب ذلك توقع المادين كل خير ، فابتدأت هذه بما يثمر الاعتصام به سبحانه في الصلاة وغيرها من خلال الدين في الدارين ، فقال تعالى مفتتحاً بحرف التوقع :

﴿ قد ﴾ وهي نقيضة لما تثبت المتوقع وتقرب الماضي من الحال ولما تنفيه ﴿ أفلح ﴾ أي فاز وظفر الآن بكل ما يريد ، ونال البقاء الدائم في الخير ﴿ المؤمنون ﴾ وعبر بالاسم إشارة إلى أن من أقر بالإيمان وعمل بما أمر به في آخر التي قبلها ، استحق الوصف الثابت لأنه اتقى وأنفق مما رزق فأفلح ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [الحشر : 9] ؛ ثم قيدهم بما يلزم من الصدق في الإيمان فقال : ﴿ الذين هم ﴾ أي بضمائرهم وظواهرهم ﴿ في صلاتهم ﴾ أضيفت إليهم ترغيباً لهم في حفظها ، لأنها بينهم وبين الله تعالى ، وهو غني عنها ، فهم المنتفعون بها ﴿ خاشعون ﴾ أي أذلاء ساكنون متواضعون مطمئنون قاصرون بواطنَهم وظواهرهم على ما هم فيه ؛ قال الرازي : خائفون خوفاً يملأ القلب حرمة ، والأخلاق تهذيباً ، والأطراف تأديباً ، أي خشية أن ترد عليهم صلاتهم ، ومن ذلك خفض البصر إلى موضع السجود ، قال الرازي : فالعبد إذا دخل في الصلاة رفع الحجاب ، وإذا التفت أرخى ، قال : وهو خوف ممزوج بتيقظ واستكانة ، ثم قد يكون في المعاملة إيثاراً ومجاملة وإنصافاً ومعدله ، وفي الخدمة حضوراً واستكانة .

وفي السر تعظيماً وحياء وحرمة ، والخشوع في الصلاة بجمع الهمة لها ، والإعراض عما

سواها ، وذلك بحضور القلب والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء ، وإذا كان هذا حالهم في الصلاة التي هي أقرب القربات .

فهم به فيما سواها أولى .

(7/532)

قال ابن كثير : والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها ، واشتغل بها عما عداها ، وآثرها على غيرها ، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين " وجعلت قرة عيني في الصلاة " رواه أحمد والنسائي عن أنس ـ رضى الله عنهم ـ " يا بلال ! أرحنا بالصلاة " – رواه أحمد عن رجل من أسلم ـ رضى الله عنهم ـ .

ولما كان كل من الصلاة والخشوع صاداً عن اللغو ، أتبعه قوله : ﴿ والذين هم ﴾ بضمائرهم التي تبعها ظواهرهم ﴿ عن اللغو ﴾ أي ما لا يعنيهم ، وهو كل ما يستحق أن يسقط ويلغى ﴿ معرضون ﴾ أي تاركون عمداً ، فصاروا جامعين فعل ما يعني وترك ما لا يعني .

ولما جمع بين قاعدتي بناء التكاليف : فعل الخشوع وترك اللغو ، وكان الإنسان محل العجز ومركز التقصير ، فهو لا يكاد يخلو عما لا يعنيه ، وكان المال مكفراً لما قصد من الإيمان فضلاً عما ذكر منها على سبيل اللغو ، فكان مكفراً للغو في غير اليمين من باب الأولى ﴿ خذ من

أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ [التوبة : 103] أتبعه قوله : ﴿ والذين هم ﴾ وأثبت اللام تقوية لاسم الفاعل فقال : ﴿ للزكاة ﴾ أي التزكية ، وهي إخراج الزكاة ، أو لأداء الزكاة التي هي أعظم مصدق للإيمان ﴿ فاعلون ﴾ ليجمعوا في طهارة الدين بين القلب والقالب والمال ؛ قال ابن كثير : هذه مكية ، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة ، والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب ، وأن أصل الزكاة كان واجباً بمكة كما قال تعالى في سورة الأنعام

﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ [الأنعام : 141] .

ولما أشار إلى أن بذل المال على وجهه طهرة ، وأن حبسه عن ذلك تلفة ، أتبعه الإيماء إلى أن بذل الفرج في غير وجهه نجاسة ، وحفظه طهرة .

(8/532)

فقال : ﴿ والذين هم لفروجهم ﴾ في الجماع وما داناه بالظاهر والباطن ﴿ حافظون ﴾ أي دائماً لا يتبعونها شهوتها ، بل هم قائمون عليها يذلونها ويضبطونها ، وذكرها بعد اللغو الداعي إليها وبذل المال الذي هو من أعظم أسبابها عظيم المناسبة ؛ ثم استثنى من ذلك فقال : ﴿ إلا على أزواجهم ﴾ اللاتي ملكوا أبضاعهن بعقد النكاح ، ولعلو الذكر عبر ب "

على " ﴿ أو ما ملكت أيمانهم ﴾ رقابة من السراري ، وعبر ب " ما " لقربهن مما لا يعقل لنقصهن عن الحرائر الناقصات عن الذكور ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ أي على بذل الفرج في ذلك إذا كان على وجهه .

ولما كان من لم يكتف بالحلال مكلفاً نفسه طلب ما يضره ، سبب عن ذلك قوله معبراً بما يفهم العلاج : ﴿ فمن ابتغى ﴾ أي تطلب متعدياً ﴿ وراء ذلك ﴾ العظيم المنفعة الذي وقع استثناؤه بزنى أو لواط أو استمناء يد أو بهيمة أو غيرها ﴿ فأولئك ﴾ البعيدون من الفلاح ﴿ هم العادون ﴾ أي المبالغون في تعدي الحدود ، لما يورث ذلك من اختلاط الأنساب ، وانتهاك الأعراض ، وإتلاف الأموال ، وإيقاد الشر بين العباد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 182.184 ﴾

(9/532)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ لأماناتهم ﴾ على التوحيد : ابن كثير ﴿ على صلاتهم ﴾ موحدة : حمزة وعلي وخلف . و ﴿ عظماً ﴾ ﴿ العظم ﴾ موحدين على إرادة الجنس أو على وضع

الواحد مكان الجمع لعدم اللبس : ابن عار وأبو بكر وحماد و ﴿ جبلة ﴾ الأول موحداً والثاني مجموعاً : زيد بن يعقوب . وروى القطعي عن أبي زيد بالعكس فيهما . الباقون مجموعين ﴿ سيناء ﴾ بكسر السين : أبو عمرو وأبو جعفر ونافع وابن كثير . الآخرون بفتحها . ﴿ تنبت ﴾ من الإنبات : ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب غير روح . الآخرون بفتح التاء وضم الباء من النبات . ﴿ تسقيكم ﴾ بفتح النون : نافع وابن عامر وسهل ويعقوب وأبو بكر وحماد . بالتاء الفوقانية : يزيد : الباقون بضم النون . ﴿ منزلاً ﴾ بفتح الميم وكسر الزاء : ابو بكر وحماد . الآخرون بضم الميم وفتح الزاء .

(10/532)

الوقوف : ﴿ المؤمنون ﴾ 5 لا ﴿ خاشعون ﴾ 5 لا ﴿ معرضون ﴾ 5 لا ﴿ فاعلون ﴾ 5 لا ﴿ حافظون ﴾ 5 ﴿ ملومين ﴾ 5 لاعتراض الاستثناء بين الأوصاف ولاستحقاق الشرط الابتداء ولطول الكلام وإلا فالآيتان من أوصاف المؤمنين ايضاً ﴿ العادون ﴾ 5 ج ﴿ راعون ﴾ 5 لا ﴿ يحافظون ﴾ 5 م وإلا لأوهم تخصيص الإرث بالمذكورين في الآيتين فقط ﴿ الوارثون ﴾ 5 لا ﴿ الفردوس ﴾ ط ﴿ خالدون ﴾ 5 ﴿ طين ﴾ ج 5 للعدول عن المظهر إلى كناية عن غير مذكور فإن المراد من الإنسان آدم ،

ومن الهاء في جعلناه جنس ولده مع عطف ظاهر ﴿ مكين ﴾ 5ج للعطف ﴿ لحماً ﴾ صلى وقد قيل للابتداء بإنشاء نفخ الروح تعظيماً ﴿ آخر ﴾ ط ﴿ الخالقين ﴾ 5 ط لأن " ثم " لترتيب الأخبار فإن بين الإحياء والإفناء مهلة ﴿ لميتون ﴾ 5ط لذلك ﴿ لقادرون ﴾ 5 للآية مع اتصال المعنى بلفظ الفاء ﴿ وأعناب ﴾ م لئلا يوهم أن الجار والمجرور وصف أعناب ﴿ تأكلون ﴾ 5 لا لأن شجرة مفعول ﴿ أنشأنا ﴾ ﴿ لآكلين ﴾ 5 ﴿ لعبرة ﴾ ط لأن الجملة بعدها ليست بصفة لها ﴿ تأكلون ﴾ 5 لا ﴿ تحملون ﴾ 5 ط ﴿ غيره ﴾ ط ﴿ تتقون ﴾ 5 ﴿ مثلكم ﴾ لا لأن قوله ﴿ يريد ﴾ صفة ﴿ بشر ﴾ ﴿ عليكم ﴾ ط ﴿ ملائكة ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتحاد المقول ﴿ الأولين ﴾ ج 5 للآية مع اجتناب الابتداء بقول الكفار مع اتحاد مقصود الكلام ﴿ حين ﴾ 5 ﴿ كذبون ﴾ 5 ﴿ التنور ﴾ 5 لا لأن ما بعده جواب فإذا ﴿ منهم ﴾ ج لعطف المتفقتين مع اعتراض الاستثناء ﴿ ظلموا ﴾ ج للابتداء بأن مع احتمال إضمار اللام والفاء للتعليل ﴿ مغرقون ﴾ 5 ﴿ الظالمين ﴾ 5 ﴿ المنزلين ﴾ 5 ﴿ المبتلين ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 107 . 108 ﴾

(11/532)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) ﴾

اعلم أنه سبحانه حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعاً لصفات سبع ، وقبل الخوض في شرح تلك الصفات لا بد من بحثين :

البحث الأول : أن ﴿ قَدْ ﴾ نقيضة لما فقد تثبت المتوقع ولما تنفيه ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة ، وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه .

البحث الثاني : الفلاح الظفر بالراد وقيل البقاء في الخير ، وأفلح دخل في الفلاح كأبشر دخل في البشارة ، ويقال أفلحه صيره إلى الفلاح ، وعليه قراءة طلحة بن مصرف أفلح على البناء للمفعول ، وعنه أفلحوا على لغة أكلوني البراغيث أو على الإبهام والتفسير .

الصفة الأولى : قوله : ﴿ المؤمنون ﴾ وقد تقدم القول في الإيمان في سورة البقرة .

الصفة الثانية : قوله : ﴿ الذين هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خاشعون ﴾ واختلفوا في الخشوع فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة ، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات ، ومنهم من جمع بين الأمرين وهو الأولى .

فالخاشع في صلاته لا بد وأن يحصل له مما يتعلق بالقلب من الأفعال نهاية الخضوع والتذلل للمعبود ، ومن التروك أن لا يكون ملتفت الخاطر إلى شيء سوى التعظيم ، ومما يتعلق بالجوارح أن يكون ساكناً مطرقاً ناظراً إلى موضع سجوده ، ومن التروك أن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ، ولكن الخشوع الذي يرى على الإنسان ليس إلا ما يتعلق بالجوارح فإن ما يتعلق بالقلب لا يرى ، قال : الحسن وابن سيرين كان المسلمون يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فلما نزلت هذه الآية طأطأ وكان لا يجاوز بصره مصلاه ، فإن قيل فهل تقولون إن ذلك واجب في الصلاة ؟ قلنا إنه عندنا واجب ويدل عليه أمور : أحدها : قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرءان أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : 24] والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ القرءان تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل : 4] معناه قف على عجائبه ومعانيه وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة لذكريا ﴾ [طه : 14] وظاهر الأمر للوجوب والغفلة تضاد الذكر فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيماً للصلاة لذكره وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُنْ مِّنَ الغافلين ﴾ [الأعراف : 205] وظاهر النهي للتحريم ورابعها : قوله : ﴿ حتى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : 43] تعليل لنهي السكران وهو مطرد في الغافل المستغرق المهتم بالدنيا وخامسها : قوله عليه السلام : " إنما الخشوع لمن تمسكن وتواضع "

وكلمة إنما للحصر ، وقوله عليه السلام : " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً " وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء ، وقال عليه السلام :

(13/532)

" كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب " وما أراد به إلا الغافل ، وقال أيضاً : " ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل " وسادسها : قال الغزالي رحمه الله : المصلي يناجي ربه كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ألبتة ، وبيانه أن الإنسان إذا أدى الزكاة حال الغفلة فقد حصل المقصود منها على بعض الوجوه ، وهو كسر الحرص وإغناء الفقير ، وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى التي هي عدوة الله تعالى .

فلا يبعد أن يحصل منه مقصوده مع الغفلة ، وكذا الحج أفعال شاقة ، وفيه من المجاهدة ما يحصل به الابتلاء سواء كان القلب حاضراً أو لم يكن .

أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود ، أما الذكر فإنه مناجاة مع الله تعالى .

فإما أن يكون المقصود منه كونه مناجاة ، أو المقصود مجرد الحروف والأصوات ، ولا شك في فساد هذا القسم فإن تحريك اللسان بالهذيان ليس فيه غرض صحيح .

فثبت أن المقصود منه المناجاة وذلك لا يتحقق إلا إذا كان اللسان معبراً عما في القلب من التضرعات فأي سؤال في قوله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] وكان القلب غافلاً عنه ؟ بل أقول لو حلف إنسان ، وقال : والله لأشكرن فلاناً وأثني عليه وأسأله حاجة .

(14/532)

ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعاني على لسانه في اليوم لم يبر في يمينه ولو جرى على لسانه في ظلمة الليل وذلك الإنسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير باراً في يمينه ، ولا يكون كلامه خطاباً معه ما لم يكن حاضراً بقلبه ، ولو جرت هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر في بياض النهار إلا أن المتكلم غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب عليه عند نطقه لم يصر باراً في يمينه ، ولا شك أن المقصود من القراءة الأذكار والحمد والثناء والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله تعالى ، فإذا كان القلب محجوباً بحجاب الغفلة وكان غافلاً عن جلال الله وكبريائه ، ثم إن لسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد ذلك عن القبول .

وأما الركوع والسجود فالمقصود منهما التعظيم ، ولو جاز أن يكون تعظيماً لله تعالى مع أنه

غافل عنه ، لجاز أن يكون تعظيماً للصنم الموضوع بين يديه وهو غافل عنه ، ولأنه إذا لم يحصل التعظيم لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس ، وليس فيها من المشقة ما يصير لأجله عماداً للدين ، وفاصلاً بين الكفر والإيمان ، ويقدم على الحج والزكاة والجهاد وسائر الطاعات الشاقة ، ويجب القتل بسببه على الخصوص ، وبالجملة فكل عاقل يقطع بأن مشاهدة الخواص العظيمة ليس أعمالها الظاهرة إلا أن ينضاف إليها مقصود هذه المناجاة ، فدلت هذه الاعتبارات على أن الصلاة لا بد فيها من الحضور وسابعها : أن الفقهاء اختلفوا فيما ينويه بالسلام عند الجماعة والانفراد ، هل ينوي الحضور أو الغيبة والحضور معاً .

(15/532)

فإذا احتيج إلى التدبر في معنى السلام الذي هو آخر الصلاة فلأن يحتاج إلى التدبر في معنى التكبير والتسبيح التي هي الأشياء المقصودة من الصلاة بالطريق الأولى ، واحتج المخالف بأن اشتراط الخضوع والخشوع على خلاف اجتماع الفقهاء فلا يلتفت إليه والجواب : من وجوه : أحدها : أن الحضور عندنا ليس شرطاً للإجزاء ، بل شرط للقبول ، والمراد من الإجزاء أن لا يجب القضاء ، والمراد من القبول حكم الثواب .

والفقهاء إنما يبحثون عن حكم الإجزاء لا عن حكم الثواب ، وغرضنا في هذا المقام هذا ، ومثاله في الشاهد من استعار منك ثوباً ثم رده على الوجه الأحسن ، فقد خرج عن العهدة واستحق المدح ، ومن رماه إليك على وجه الاستخفاف خرج عن العهدة ، ولكنه استحق الذم ، كذا من عظم الله تعالى حال أدائه العبادة صار مقيماً للفرض مستحقاً للثواب ، ومن استهان بها صار مقيماً للفرض ظاهراً لكنه استحق الذم وثانيها : أنا نمنع هذا الإجماع ، أما المتكلمون فقد اتفقوا على أنه لا بد من الحضور والخشوع ، واحتجوا عليه بأن السجود لله تعالى طاعة وللصنم كفر ، وكل واحد منهما يماثل الآخر في ذاته ولوازمه ، فلا بد من أمر لأجله صار السجود في إحدى الصورتين طاعة ، وفي الأخرى معصية ، قالوا وما ذاك إلا القصد والإرادة ، والمراد من القصد إيقاع تلك الأفعال لداعية الامتثال ، وهذه الداعية لا يمكن حصولها إلا عند الحضور ، فلهذا اتفقوا على أنه لا بد من الحضور ، أما الفقهاء فقد ذكر الفقيه أبو الليث رحمه الله في تنبيه الغافلين : أن تمام القراءة أن يقرأ بغير لحن وأن يقرأ بالتفكر .

وأما الغزالي رحمه الله فإنه نقل عن أبي طالب المكي عن بشر الحافي أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته .

وعن الحسن رحمه الله : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع .

وعن معاذ بن جبل : من عرف من على يمينه وشماله متعمداً وهو في الصلاة فلا صلاة له .

(16/532)

وروي أيضاً مسنداً قال عليه السلام : " إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها ، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها " وقال عبد الواحد بن زيد : أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل ، وادعى فيه الإجماع إذا ثبت هذا فنقول هب أن الفقهاء بأسرهم حكموا بالجواز ، أليس الأصوليون وأهل الورع ضيقوا الأمر فيها ، فهلا أخذت بالاحتياط فإن بعض العلماء اختار الإمامة ، فقيل له في ذلك فقال : أخاف إن تركت الفاتحة أن يعاتبني الشافعي ، وإن قرأتها مع الإمام أن يعاتبني أبو حنيفة ، فاخترت الإمامة طلباً للخلاص عن هذا الاختلاف ، والله أعلم .

(17/532)

الصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ والذين هُمْ عَنِ اللغو مُّعْرِضُونَ ﴾ وفي اللغو أقوال : أحدها : أنه يدخل فيه كل ما كان حراماً أو مكروهاً أو كان مباحاً ، ولكن لا يكون بالمرء إليه ضرورة وحاجة وثانيها : أنه عبارة عن كل ما كان حراماً فقط ، وهذا التفسير أخص من

الأول وثالثها : أنه عبارة عن المعصية في القول والكلام خاصة ، وهذا أخص من الثاني ورابعها : أنه المباح الذي لا حاجة إليه ، واحتج هذا القائل بقوله تعالى : ﴿ لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ باللغوِ فِى أيمانكم ﴾ [المائدة : 89] فكيف يحمل ذلك على المعاصي التي لا بد فيها من المؤاخذة ، واحتج الأولون بأن اللغو إنما سمي لغواً بما أنه يلغي وكل ما يقتضي الدين إلغاءه كان أولى باسم اللغو ، فوجب أن يكون كل حرام لغواً ، ثم اللغو قد يكون كفراً لقوله : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرءان والغوا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26] وقد يكون كذباً لقوله : ﴿ لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاغية ﴾ [الغاشية : 11] وقوله : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ [الواقعة : 25] ثم إنه سبحانه وتعالى مدحهم بأنهم يعرضون عن هذا اللغو والإعراض عنه ، هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه ، وعلى هذا الوجه قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] واعلم أنه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس الذين هما قاعدتا بناء التكليف وهو أعلم .

(18/532)

الصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ والذين هُمْ للزكواة فاعلون ﴾ وفي الزكاة قولان : أحدهما : قول أبي مسلم : أن فعل الزكاة يقع على كل فعل محمود مرضي ، كقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ [الأعلى : 14] وقوله : ﴿ فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم : 32] ومن جملته ما يخرج من حق المال ، وإنما سمى بذلك لأنها تطهر من الذنوب لقوله تعالى : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : 103] .

والثاني : وهو قول الأكثرين أنه الحق الواجب في الأموال خاصة وهذا هو الأقرب .

لأن هذه اللفظة قد اختصت في الشرع بهذا المعنى ، فإن قيل إنه لا يقال في الكلام الفصيح إنه فعل الزكاة ، قلنا قال صاحب "الكشاف" : الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى ، فالعين القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب إلى الفقير ، والمعنى فعل المزكى الذي هو التزكية وهو الذي أراده الله تعالى فجعل المزكين فاعلين له ولا يسوغ فيه غيره ، لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل .

ويقال لمحدثه فاعل ، يقال للضارب فاعل الضرب ، وللقاتل فاعل القتل ، وللمزكى فاعل الزكاة ، وعلى هذا الكلام كله يجوز أن يراد بالزكاة العين ، ويقدر مضاف محذوف وهو الأداء فإن قيل إن الله تعالى هناك لم يفصل بين الصلاة والزكاة ، فلم فصل ههنا بينهما بقوله : ﴿ والذين هُمْ عَنِ اللغو مُّعْرِضُونَ ﴾ ؟ قلنا لأن الإعراض عن اللغو من متممات الصلاة .

الصفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافظون * إِلاَّ على أزواجهم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ وفيه سؤالات :

(19/532)

السؤال الأول : لم لم يقل إلا عن أزواجهم الجواب : قال الفراء معناه إلا من أزواجهم وذكر صاحب "الكشاف" فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه في موضع الحال أي إلا والين على أزواجهم أو قوامين عليهن من قولك كان فلان على فلانة ، ونظيره كان زياد على البصرة أي والياً عليها ، ومنه قولهم فلانة تحت فلان ومن ثم سميت المرأة فراشاً .

والمعنى أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريهم وثانيها : أنه متعلق بمحذوف يدل عليه ﴿ غير ملومين ﴾ كأنه قيل يلامون إلا على أزواجهم أي يلامون على كل مباشرة إلا على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين عليه وهو قول الزجاج وثالثها : أن تجعله صلة لحافظين .

السؤال الثاني : هلا قيل من ملكت الجواب : لأنه اجتمع في السرية وصفان : أحدهما : الأنوثة وهي مظنة نقصان العقل والآخر كونها بحيث تباع وتشتري كسائر السلع ، فلاجتماع هذين الوصفين فيها جعلت كأنها ليست من العقلاء .

السؤال الثالث : هذه الآية تدل على تحريم المتعة على ما يروى عن القاسم بن محمد الجواب : نعم وتقريره أنها ليست زوجة له فوجب أن لا تحل له ، وإنما قلنا إنها ليست زوجة له لأنهما لا يتوارثان بالإجماع ولو كانت زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ﴾ [النساء : 12] وإذا ثبت أنها ليست بزوجة له وجب أن لا تحل له لقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ وهو أعلم .

(20/532)

السؤال الرابع : أليس لا يحل له في الزوجة وملك اليمين الاستمتاع في أحوال كحال الحيض وحال العدة وفي الأمة حال تزويجها من الغير وحال عدتها ، وكذا الغلام داخل في ظاهر قوله وتعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ والجواب : من وجهين : أحدهما : أن مذهب أبي حنيفة رحمه الله أن الاستثناء من النفي لا يكون إثباتاً واحتج عليه بقوله عليه السلام : " لا صلاة إلا بطهور ولا نكاح إلا بولي " فإن ذلك لا يقتضي حصول الصلاة بمجرد حصول الطهور وحصول النكاح بمجرد حصول الولي .

وفائدة الاستثناء صرف الحكم لا صرف المحكوم به فقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ ﴾ معناه أنه يجب حفظ الفروج عن الكل إلا في هاتين

الصورتين فإني ما ذكرت حكمهما لا بالنفي ولا بالإثبات الثاني : أنا إن سلمنا أن الاستثناء من النفي إثبات ، فغايته أنه عام دخله التخصيص بالدليل فيبقى فيما وراءه حجة .

أما قوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ العادون ﴾ يعني الكاملون في العدوان المتناهون فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 67. 71 ﴾

(21/532)

وقال الجصاص :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾

رَوَى ابْنُ عَوْنٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا صَلَّى رَفَعَ رَأْسَهُ إلَى السَّمَاءِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ نَكَّسَ رَأْسَهُ ﴾ .

وَرَوَى هِشَامٌ عَنْ مُحَمَّدٍ قَالَ : " لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ خَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ فَكَانَ الرَّجُلُ يُحِبُّ أَنْ لَا يُجَاوِزَ بَصَرُهُ مَوْضِعَ سُجُودِهِ " .

وَرُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ : " الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ أَنْ لَا يُجَاوِزَ بَصَرُهُ مَوْضِعَ سُجُودِهِ " .

وَرُوِيَ عَنْ إبْرَاهِيمَ وَمُجَاهِدٍ وَالزُّهْرِيِّ : " الْخُشُوعُ السُّكُونُ " .

وَرَوَى الْمَسْعُودِيُّ عَنْ أَبِي سِنَانٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ قَالَ : سُئِلَ عَلِيٌّ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ قَالَ : " الْخُشُوعُ فِي الْقَلْبِ وَأَنْ تَلِينَ كَتِفَكَ لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ وَلَا تَلْتَفِتُ فِي صَلَاتِك " وَقَالَ الْحَسَنُ : " خَاشِعُونَ خَائِفُونَ " .

(22/532)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْخُشُوعُ يَنْتَظِمُ هَذِهِ الْمَعَانِيَ كُلَّهَا مِنْ السُّكُونِ فِي الصَّلَاةِ وَالتَّذَلُّلِ وَتَرْكِ الِالْتِفَاتِ وَالْحَرَكَةِ وَالْخَوْفِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ اُسْكُنُوا فِي الصَّلَاةِ وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ فِي الصَّلَاةِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أُمِرْت أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْضَاءٍ وَأَنْ لَا أَكُفَّ شَعْرًا وَلَا ثَوْبًا ﴾ ، وَأَنَّهُ ﴿ نَهَى عَنْ مَسِّ الْحَصَى فِي الصَّلَاةِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إذَا قَامَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَإِنَّ الرَّحْمَةَ تُوَاجِهُهُ فَإِذَا الْتَفَتَ انْصَرَفَتْ عَنْهُ ﴾ .

وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ كَانَ يَلْمَحُ فِي الصَّلَاةِ وَلَا يَلْتَفِتُ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو تَوْبَةَ قَالَ :

(23/532)

حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ سَلَامٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ سَلَامٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلَامٍ قَالَ : حَدَّثَنِي السَّلُولِيُّ أَنَّهُ حَدَّثَهُ سَهْلُ بْنُ الْحَنْظَلِيَّةِ ﴿ أَنَّهُمْ سَارُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى قَوْلِهِ : مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ ؟ قَالَ أَنَسُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيُّ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : فَارْكَبْ فَرَكِبَ فَرَسًا لَهُ ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اسْتَقْبِلْ هَذَا الشِّعْبَ حَتَّى تَكُونَ فِي أَعْلَاهُ وَلَا يُغِرْنَ مِنْ قِبَلِكَ اللَّيْلَةَ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مُصَلَّاهُ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ : هَلْ أَحْسَسْتُمْ فَارِسَكُمْ ؟ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَحْسَسْنَاهُ ، فَثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي وَهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَى الشِّعْبِ حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ وَسَلَّمَ قَالَ : أَبْشِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ فَارِسُكُمْ ﴾ .

فَأَخْبَرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ كَانَ يَلْتَفِتُ إِلَى الشِّعْبِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ ، وَهَذَا عِنْدَنَا كَانَ عُذْرًا مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ لَمْ يَأْمَنْ مِنْ مَجِيءِ الْعَدُوِّ مِنْ تِلْكَ النَّاحِيَةِ ، وَالثَّانِي : اشْتِغَالُ قَلْبِهِ بِالْفَارِسِ إِلَى أَنْ طَلَعَ .

رُوِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَلْحَظُ فِي الصَّلَاةِ يَمِينًا وَشِمَالًا .

وَرَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ حُمَيْدٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ قَالَ : قِيلَ لِابْنِ عُمَرَ : إنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ إذَا صَلَّى لَمْ يَقُلْ هَكَذَا وَلَا هَكَذَا قَالَ : لَكِنَّا نَقُولُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَنَكُونُ مِثْلَ النَّاسِ .

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَلْتَفِتُ فِي الصَّلَاةِ ، فَعَلِمْنَا أَنَّ الِالْتِفَاتَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ أَنْ يُوَلِّيَ وَجْهَهُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، فَأَمَّا أَنْ يَلْحَظَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً فَإِنَّهُ غَيْرُ مَنْهِيٍّ عَنْهُ .

رَوَى

سُفْيَانُ عَنْ الْأَعْمَشِ قَالَ : "كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ إذَا قَامَ إلَى الصَّلَاةِ كَأَنَّهُ ثَوْبٌ مُلْقًى " .

وَرَوَى أَبُو مِجْلَزٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ قَالَ : "كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ إذَا قَامَ إلَى الصَّلَاةِ خَفَضَ فِيهَا صَوْتَهُ وَبَدَنَهُ وَبَصَرَهُ " .

وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ صَالِحٍ عَنْ زُبَيْرٍ الْيَامِيِّ قَالَ : "كَانَ إذَا أَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ كَأَنَّهُ خَشَبَةٌ " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ وَاللَّغْوُ هُوَ الْفِعْلُ الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ ، وَمَا كَانَ هَذَا وَصْفُهُ مِنْ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ فَهُوَ مَحْظُورٌ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " اللَّغْوُ الْبَاطِلُ " ، وَالْقَوْلُ الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ هُوَ الْبَاطِلُ ، وَإِنْ كَانَ الْبَاطِلُ قَدْ يُبْتَغَى بِهِ فَوَائِدُ عَاجِلَةٌ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ عَامًّا فِي الرِّجَالِ

وَالنِّسَاءِ ؛ لِأَنَّ الْمُذَكَّرَ وَالْمُؤَنَّثَ إذَا اجْتَمَعَا غَلَبَ الْمُذَكَّرُ كَقَوْلِهِ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ قَدْ أُرِيدَ بِهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ .

(25/532)

مِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ خَاصٌّ فِي الرِّجَالِ بِدَلَالَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ وَذَلِكَ لَا مَحَالَةَ أُرِيدَ بِهِ الرِّجَالُ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ الْأَوَّلُ عَامًّا فِي الْجَمِيعِ وَالِاسْتِثْنَاءُ خَاصٌّ فِي الرِّجَالِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ﴾ فَالْأَوَّلُ عُمُومٌ فِي الْجَمِيعِ وَالْعَطْفُ فِي بَعْضِ مَا انْتَظَمَهُ اللَّفْظُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ عَامٌّ لِدَلَالَةِ الْحَالِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ حِفْظُهَا مِنْ مُوَاقَعَةِ الْمَحْظُورِ بِهَا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ ﴾ يَقْتَضِي تَحْرِيمَ نِكَاحِ الْمُتْعَةِ ؛ إذْ لَيْسَتْ بِزَوْجَةٍ وَلَا مَمْلُوكَةِ يَمِينٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ .

فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ مَعْنَاهُ : غَيْرَ ذَلِكَ .

قَوْلُهُ : ﴿ الْعَادُونَ ﴾ يَعْنِي مَنْ يَتَعَدَّى الْحَلَالَ إلَى الْحَرَامِ ، فَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ إلَّا عَلَى

أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ الْجُمْلَةِ الْمَذْكُورَةِ لِحِفْظِ الْفُرُوجِ وَإِخْبَارٌ عَنْ إبَاحَةِ وَطْءِ الزَّوْجَةِ وَمِلْكِ الْيَمِينِ ، فَاقْتَضَتْ الْآيَةُ حَظْرَ مَا عَدَا هَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ فِي الزَّوْجَاتِ وَمِلْكِ الْأَيْمَانِ ، وَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى إبَاحَةِ وَطْءِ الزَّوْجَاتِ وَمِلْكِ الْيَمِينِ لِعُمُومِ اللَّفْظِ فِيهِنَّ .

(26/532)

إنْ قِيلَ : لَوْ كَانَ ذَلِكَ عُمُومًا فِي إبَاحَةِ وَطْئِهِنَّ لَوَجَبَ أَنْ يَجُوزَ وَطْؤُهُنَّ فِي حَالِ الْحَيْضِ وَوَطْءُ الْأَمَةِ ذَاتِ الزَّوْجَةِ وَالْمُعْتَدَّةِ مِنْ وَطْءٍ بِشُبْهَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

قِيلَ لَهُ : قَدْ اقْتَضَى عُمُومُ اللَّفْظِ إبَاحَةَ وَطْئِهِنَّ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ ، إلَّا أَنَّ الدَّلَالَةَ قَدْ قَامَتْ عَلَى تَخْصِيصِ مَنْ ذَكَرْت كَسَائِرِ الْعُمُومِ إذَا خُصَّ مِنْهُ شَيْءٌ لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ بَقَاءَ حُكْمِ الْعُمُومِ فِيمَا لَمْ يُخَصَّ ، وَمِلْكُ الْيَمِينِ مَتَى أُطْلِقَ عُقِلَ بِهِ الْأَمَةُ وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكَانِ ، وَلَا يَكَادُ يُطْلَقُ مِلْكُ الْيَمِينِ فِي غَيْرِ بَنِي آدَمَ ، لَا يُقَالُ لِلدَّارِ وَالدَّابَّةِ مِلْكُ الْيَمِينِ ، وَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ مِلْكَ الْعَبْدِ وَالْأَمَةِ أَخَصُّ مِنْ مِلْكِ غَيْرِهِمَا ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَمْلِكُ التَّصَرُّفَ فِي الدَّارِ بِالنَّقْضِ وَالْبِنَاءِ وَلَا يَمْلِكُ ذَلِكَ فِي بَنِي آدَمَ وَيَجُوزُ عَارِيَّةُ الدَّارِ وَغَيْرُهَا مِنْ الْعُرُوضِ وَلَا يَجُوزُ عَارِيَّةُ الْفُرُوجِ ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِي قَالَ : سَمِعْت عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ يُسْمَعُ عِنْدَ وَجْهِهِ كَدَوِيِّ النَّحْلِ ، فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ يَوْمًا ، فَلَبِثْنَا سَاعَةً ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا ، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا ، وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا ، وَآثِرْنَا وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا ، وَارْضِنَا وَارْضَ عَنَّا ثُمَّ قَالَ : أُنْزِلَ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حَتَّى خَتَمَ عَشْرَ آيَاتٍ ﴾ .

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ ، وَهُوَ صَحِيحٌ وَإِنْ كَانَ قَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ أَبُو عِيسَى وَقَطَعَهُ .

وَكَانَ سَبَبُ نُزُولِهَا فِي رِوَايَةِ مُحَمَّدٍ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُقَلِّبُ بَصَرَهُ فِي السَّمَاءِ إذَا صَلَّى ، فَنَزَلَتْ آيَةٌ ﴾ .

قَالَ مُحَمَّدٌ : إنْ لَمْ تَكُنْ ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ فَلَا أَدْرِي أَيَّةَ آيَةٍ هِيَ ؟ قَالَ

الْقَاضِي : هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ : وَهَذَا الْحَدِيثُ مَقْطُوعٌ مَظْنُونٌ ، فَمَقْصُودُهُ غَيْرُ مَقْطُوعٍ ، فَسُقْنَاهُ عَلَى حَالِهِ لَكُمْ حَتَّى نَكُونَ فِي مَعْرِفَتِهِ سَوَاءً مَعَكُمْ .

(28/532)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : هُوَ الْخُضُوعُ ، وَهُوَ الْإِخْبَاتُ ، وَالِاسْتِكَانَةُ ، وَهِيَ أَلْفَاظٌ مُتَرَادِفَةٌ أَوْ مُتَقَارِبَةٌ ، أَوْ مُتَلَازِمَةٌ ؛ ﴿ وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : خَضَعَ لَك سَوَادِي ، وَآمَنَ بِك فُؤَادِي ﴾ .

وَحَقِيقَتُهُ السُّكُونُ عَلَى حَالَةِ الْإِقْبَالِ الَّتِي تَأَهَّبَ لَهَا وَاحْتَرَمَ بِهَا بِالسِّرِّ فِي الضَّمِيرِ ، وَبِالْجَوَارِحِ فِي الظَّاهِرِ ؛ فَقَدْ ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَلْتَفِتُ فِي صَلَاتِهِ خَاشِعًا خَاضِعًا ﴾ ، وَكَذَلِكَ كَانَ أَبُو بَكْرٍ لَا يَلْتَفِتُ ، وَكَذَلِكَ كَانَ حَفِيدُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ .

قَالَ ابْنُ الْمُنْكَدِرِ لِعُرْوَةَ : لَوْ رَأَيْت قِيَامَ ابْنِ الزُّبَيْرِ يَعْنِي أَخَاهُ عَبْدَ اللَّهِ فِي الصَّلَاةِ لَقُلْت : غُصْنٌ تَصْفِقُهُ الرِّيَاحُ ، وَحِجَارَةُ الْمَنْجَنِيقِ تَقَعُ هَاهُنَا ، وَرَضْفٌ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : كَانَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إذَا قَامَ يُصَلِّي كَأَنَّهُ عُودٌ مِنْ الْخُشُوعِ .

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ : إنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ كَانَ يُصَلِّي فِي الْحِجْرِ مُرْخِيًا ثِيَابَهُ .

فَجَاءَ حَجَرُ الْخَذَّافِ ، فَذَهَبَ بِطَائِفَةٍ مِنْ ثَوْبِهِ ، فَمَا الْتَفَتَ ، وَكَذَلِكَ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ إذَا صَلَّى لَا يَتَحَرَّكُ مِنْهُ شَيْءٌ ؛ وَمِنْ هَاهُنَا قَالَ الْعُلَمَاءُ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : إنَّهُ يَضَعُ بَصَرَهُ فِي مَوْضِعِ سُجُودِهِ ؛ وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَالصُّوفِيَّةُ بِأَسْرِهِمْ ، فَإِنَّهُ أَحْضَرُ لِقَلْبِهِ ، وَأَجْمَعُ لِفِكْرِهِ .

(29/532)

قَالَ مَالِكٌ : إنَّمَا يَنْظُرُ أَمَامَهُ ، فَإِنَّهُ إنْ حَنَى رَأْسَهُ ذَهَبَ بَعْضُ الْقِيَامِ الْمَنْقُوضِ عَلَيْهِ فِي الرَّأْسِ ، وَهُوَ أَشْرَفُ الْأَعْضَاءِ مِنْهُ ، وَإِنْ أَقَامَ رَأْسَهُ وَتَكَلَّفَ النَّظَرَ بِبَصَرِهِ إلَى الْأَرْضِ فَتِلْكَ مَشَقَّةٌ عَظِيمَةٌ وَحَرَجٌ ، يَعْرِفُونَ ذَلِكَ بِالتَّجْرِبَةِ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ؛ وَإِنَّمَا أُمِرْنَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْجِهَةَ بِبَصَائِرِنَا

(30/532)

وَأَبْصَارِنَا ، أَمَّا إِنَّهُ أَفْضَلُ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ مَتَى قَدَرَ وَكَيْفَ قَدَرَ ، وَإِنَّمَا الْمَمْنُوعُ أَنْ يَرْفَعَ بَصَرَهُ فِي الصَّلَاةِ إِلَى السَّمَاءِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْمَرْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ السَّمَاءَ ، وَإِنَّمَا أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْجِهَةَ الْكَعْبِيَّةَ ، فَإِذَا رَفَعَ بَصَرَهُ فَهُوَ إِعْرَاضٌ عَنْ الْجِهَةِ الَّتِي أُمِرَ بِهَا ، حَتَّى ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ رَفْعِهِمْ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي الصَّلَاةِ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ ﴾ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : حَتَّى قَالَ عُلَمَاؤُنَا حِينَ رَأَوْا عَامَّةَ الْخَلْقِ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ سَالِمَةٌ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْخَطْفِ هَاهُنَا أَخْذُهَا عَنْ الِاعْتِبَارِ حِينَ يَمُرُّ بِآيَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ مُعْرِضٌ ، وَذَلِكَ أَشَدُّ الْخَطْفِ ، وَمِنْ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ بِرَفْعِ الْحَرَجِ الْإِذْنُ فِي أَنْ يَلْحَظَ يَمِينًا وَشِمَالًا ، وَإِنْ كَانَ يُصَلِّي بِبَصَرِهِ وَرَأْسِهِ دُونَ بَدَنِهِ ، أَذِنَ الشَّرْعُ فِيهِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : فَمِنْ مَرَاسِيلِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَلْمَحُ فِي الصَّلَاةِ ، وَلَا يَلْتَفِتُ ﴾ .

وَرَوَى مُعَاوِيَةُ بْنُ قُرَّةَ قَالَ : قِيلَ لِابْنِ عُمَرَ : إِنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ إِذَا صَلَّى لَمْ يَقُلْ هَكَذَا وَهَكَذَا . فَقَالَ : لَكِنَّا نَقُولُ هَكَذَا وَهَكَذَا ، وَنَكُونُ مِثْلَ النَّاسِ ؛ إِشَارَةً مِنْ ابْنِ عُمَرَ إِلَى أَنَّهُ تَكْلِيفٌ يَخْرُجُ إِلَى الْحَرَجِ .

(31/532)

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ قَالَ : الْإِقْبَالُ عَلَيْهَا .

وَقَالَ مُقَاتِلٌ : لَا يَعْرِفُ مَنْ عَلَى يَمِينِهِ ، وَلَا مَنْ عَلَى يَسَارِهِ .

صَلَّيْت الْمَغْرِبَ لَيْلَةً مَا بَيْنَ بَابِ الْأَخْضَرِ ، وَبَابِ حِطَّةٍ مِنْ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، وَمَعَنَا شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَغْرِبِيّ الزَّاهِدُ ، فَلَمَّا سَلَّمْنَا تَمَارَى رَجُلَانِ كَانَا عَنْ يَمِينِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْمَغْرِبِيِّ ؛ وَجَعَلَ أَحَدُهُمَا يَقُولُ لِلْآخَرِ : أَسَأْت صَلَاتَك ، وَنَقَرْت نَقْرَ الْغُرَابِ .

وَالْآخَرُ يَقُولُ لَهُ : كَذَبْت ؛ بَلْ أَحْسَنْت وَأَجْمَلْت .

فَقَالَ الْمُعْتَرِضُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الزَّاهِدِ : أَلَمْ يَكُنْ إلَى جَانِبِك ؛ فَكَيْفَ رَأَيْته يُصَلِّي ؟ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : لَا عِلْمَ لِي بِهِ ، كُنْت مُشْتَغِلًا بِنَفْسِي وَصَلَاتِي عَنْ النَّاسِ وَصَلَاتِهِمْ .

فَخَجِلَ الرَّجُلُ وَأُعْجِبَ الْحَاضِرُونَ بِالْقَوْلِ .

وَصَدَقَ شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الزَّاهِدُ ؛ لَوْ كَانَ لِصَلَاتِهِ قَدْرٌ ، أَوْ لَهُ بِهَا شُغْلٌ وَإِقْبَالٌ بِالْكُلِّيَّةِ لَمَا عَلِمَ مَنْ عَنْ يَمِينِهِ ، أَوْ عَنْ يَسَارِهِ فَضْلًا عَنْ مَعْرِفَتِهِ كَيْفِيَّةَ صَلَاتِهِ ، وَإِلَّا فَأَحَدُ الرَّجُلَيْنِ أَسَاءَ صَلَاتَهُ فِي حَذْفِ صِفَاتِهَا ، وَاخْتِصَارِ أَرْكَانِهَا ، وَهَذَا أَسَاءَ صَلَاتَهُ فِي الِاشْتِغَالِ بِصَلَاةِ هَذَا ، حَتَّى ذَهَبَ حِفْظُ صَلَاتِهِ وَخُشُوعُهَا .

وَنُكْتَةُ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ قَوْلَك : " اللَّهُ أَكْبَرُ " يُحَرِّمُ عَلَيْك الْأَفْعَالَ بِالْجَوَارِحِ ، وَالْكَلَامَ بِاللِّسَانِ ؛ وَنِيَّةَ الصَّلَاةِ تُحَرِّمُ عَلَيْك الْخَوَاطِرَ بِالْقَلْبِ ، وَالِاسْتِرْسَالَ عَنْ الْأَفْكَارِ ، إلَّا أَنَّ الشَّرْعَ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ ضَبْطَ الشَّرِّ مِنْ السِّرِّ يَفُوتُ طَوْقَ الْبَشَرِ سَمَحَ فِيهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانًا لَهُ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(33/532)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : مِنْ غَرِيبِ الْقُرْآنِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ الْعَشْرِ هِيَ عَامَّةٌ فِي الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، كَسَائِرِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ الَّتِي هِيَ مُحْتَمَلَةٌ لَهُمْ ، فَإِنَّهَا عَامَّةٌ فِيهِمْ ، إلَّا قَوْلَهُ : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ فَإِنَّهُ خِطَابٌ لِلرِّجَالِ خَاصَّةً دُونَ النِّسَاءِ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : ﴿ إلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ ، وَلَا إبَاحَةَ بَيْنَ النِّسَاءِ وَبَيْنَ مِلْكِ الْيَمِينِ فِي الْفَرْجِ ؛ وَإِنَّمَا عُرِفَ حِفْظُ الْمَرْأَةِ فَرْجَهَا مِنْ أَدِلَّةٍ أُخَرَ ، كَآيَاتِ الْإِحْصَانِ عُمُومًا وَخُصُوصًا ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَدِلَّةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : سَمِعْت حَرْمَلَةَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ : سَأَلْت مَالِكًا عَنْ الرَّجُلِ يَجْلِدُ عُمَيْرَةَ ، فَتَلَا هَذِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إلَّا عَلَى

أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ .

وَهَذَا ؛ لِأَنَّهُمْ يَكْنُونَ عَنْ الذَّكَرِ بِعُمَيْرَةَ ، وَفِيهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ : إذَا حَلَلْت بِوَادٍ لَا أَنِيسَ بِهِ فَاجْلِدْ عُمَيْرَةَ لَا دَاءٌ وَلَا حَرَجٌ وَيُسَمِّيهِ أَهْلُ الْعِرَاقِ الِاسْتِمْنَاءَ ، وَهُوَ اسْتِفْعَالٌ مِنْ الْمَنِيِّ . وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَلَى وَرَعِهِ يُجَوِّزُهُ ، وَيَحْتَجُّ بِأَنَّهُ إخْرَاجُ فَضْلَةٍ مِنْ الْبَدَنِ ؛ فَجَازَ عِنْدَ الْحَاجَةِ ، أَصْلُهُ الْفَصْدُ وَالْحِجَامَةُ .

(34/532)

وَعَامَّةُ الْعُلَمَاءِ عَلَى تَحْرِيمِهِ ، وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُدَانَ اللَّهُ إلَّا بِهِ .

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إنَّهُ كَالْفَاعِلِ بِنَفْسِهِ ، وَهِيَ مَعْصِيَةٌ أَحْدَثَهَا الشَّيْطَانُ وَأَجْرَاهَا بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى صَارَتْ قَبِيلَةً ، وَيَا لَيْتَهَا لَمْ تُقَلْ ، وَلَوْ قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى جَوَازِهَا لَكَانَ ذُو الْمُرُوءَةِ يُعْرِضُ عَنْهَا

لِدَنَاءَتِهَا .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قِيلَ : إنَّهَا خَيْرٌ مِنْ نِكَاحِ الْأَمَةِ .

قُلْنَا : نِكَاحُ الْأَمَةِ وَلَوْ كَانَتْ كَافِرَةً عَلَى مَذْهَبِ الْعُلَمَاءِ خَيْرٌ مِنْ هَذَا ، وَإِنْ كَانَ قَدْ قَالَ بِهِ

قَائِلٌ أَيْضًا ، وَلَكِنَّ الِاسْتِمْنَاءَ ضَعِيفٌ فِي الدَّلِيلِ عَارٌ بِالرَّجُلِ الدَّنِيءِ ، فَكَيْفَ بِالرَّجُلِ الْكَبِيرِ ،

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَالَ قَوْمٌ : هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ نِكَاحِ الْمُتْعَةِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ الْفَرْجَ إلَّا بِالنِّكَاحِ أَوْ بِمِلْكِ الْيَمِينِ ، وَالْمُتَمَتَّعَةُ لَيْسَتْ بِزَوْجَةٍ ، وَهَذَا يَضْعُفُ .

فَإِنَّا لَوْ قُلْنَا : إنَّ نِكَاحَ الْمُتْعَةِ جَائِزٌ فَهِيَ زَوْجَةٌ إلَى أَجَلٍ يَنْطَلِقُ عَلَيْهَا اسْمُ الزَّوْجَةِ .

وَإِنْ قُلْنَا بِالْحَقِّ الَّذِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ مِنْ تَحْرِيمِ نِكَاحِ الْمُتْعَةِ لَمَا كَانَتْ زَوْجَةً ، فَلَمْ تَدْخُلْ فِي الْآيَةِ ، وَبَقِيَتْ عَلَى أَصْلِ حِفْظِ الْفَرْجِ وَتَحْرِيمِهِ مِنْ سَبَبِهَا .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا ، وَهِيَ الثَّالِثَةُ : ﴿ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ ﴾ .

(35/532)

فَسُمِّيَ مَنْ نَكَحَ مَا لَا يَحِلُّ عَادِيًا ، وَأُوجِبَ عَلَيْهِ الْحَدُّ لِعُدْوَانِهِ ، وَاللَّائِطُ عَادٍ قُرْآنًا وَلُغَةً ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ فَوَجَبَ أَنْ نُقِيمَ الْحَدَّ عَلَيْهِ ؛ وَهَذَا ظَاهِرٌ لَا غُبَارَ عَلَيْهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(36/532)

وقال الماوردى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : معناه قد سعد المؤمنون ومنه قول لبيد :

فاعقلي إن كنت لم تعقلي . . . إنما أفلح من كان عقل

الثاني : أن الفلاح البقاء ومعناه قد بقيت لهم أعمالهم ، وقيل : إنه بقاؤهم في الجنة ، ومنه قولهم في الأذان : حي على الفلاح أي حي على بقاء الخير قال طرفة بن العبد :

أفبعدنا أو بعدهم . . . . . يرجى لغابرنا الفلاح

الثالث : أنه إدْراك المطالب قال الشاعر :

لو كان حي مدرك الفلاح . . . أدركه ملاعب الرماح

قال ابن عباس : المفلحون الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا . روى عمر بن الخطاب قال كان النبي صل الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن يسمع عند وجهه دويٌّ كدوي النحل ، فنزل عليه يوماً فلما سرى عنه استقبل القبلة ورفع يديه ثم قال : " اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلاَ تَنْقِصْنَا ، وَأَكْرِمْنَا وَلاَ تُهِنَّا ، وَأَعْطِنَا وَلاَ تَحْرِمْنَا ، وَآثِرْنَا وَلاَ تُؤْثِرْ عَلَينَا ، وَأَرْضِنَا وَارْضَ عَنَّا " ثم قال : " لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ عَشْرَ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ " ثم قرأ علينا ﴿

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى ختم العشر . روى أبو عمران الجوني قال قيل لعائشة ما كان خُلُق رسول الله صل الله عليه وسلم ؟ ، قالت أتقرأُون سورة المؤمنون ؟ قيل : نعم ، قالت اقرأُوا فقرىء عليها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى بَلَغَ ﴿ يَحَافِظُونَ ﴾ .

فقالت : هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : خائفون ، وهو قول الحسن ، وقتادة .

والثاني : خاضعون ، وهو قول ابن عيسى .

والثالث : تائبون ، وهو قول إبراهيم .

والرابع : أنه غض البصر ، وخفض الجناح ، قاله مجاهد .

(37/532)

الخامس : هو أن ينظر إلى موضع سجوده من الأرض ، ولا يجوز بصره مُصَلاَّهُ ، فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرفع بصره إلى السماء فنزلت : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ فصار لا يجوِّز بصره مُصَلاَّهُ .

فصار في محل الخشوع على هذه الأوجه قولان :

أحدهما : في القلب خاصة ، وهو قول الحسن وقتادة .

والثاني : في القلب والبصر ، وهو قول الحسن وقتادة .

قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : أن اللغو الباطل ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه الكذب ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه الحلف ، قاله الكلبي .

الرابع : أنه الشتم لأن كفار مكة كانوا يشتمون المسلمين فهو عن الإِجابة ، حكاه النقاش .

الخامس : أنها المعاصي كلها ، قاله الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(38/532)

وقال ابن عطية :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) ﴾

(39/532)

أخبر الله تعالى عن فلاح المؤمنين وأنهم نالوا البغية وأحرزوا البقاء الدائم ، وروي عن كعب الأحبار أن الله تعالى لما خلق جنة عدن قال لها تكلمي فقالت ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ ، وروي عن مجاهد أن الله تعالى لما خلق الجنة وأتقن حسنها قال ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ ، وقرأ طلحة بن مصرف " قد أفلحُ المؤمنون " بضم الحاء يريد قد أفلحوا ، وهي قراءة مردودة ، وروي عنه " قد أُفلِح " بضم الهمزة وكسر اللام ، ثم وصف تعالى هؤلاء المفلحين فقال ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ والخشوع التطامن وسكون الأعضاء والوقار ، وهذا إنما يظهر ممن في قلبه خوف واستكانة ، وروي عن بعض العلماء أنه رأى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال : لو خشع هذا خشعت جوارحه ، وروي أن سبب هذه الآية أن المسلمين كانوا يلتفتون في صلاتهم يمنة ويسرة فنزلت هذه الآية وأمروا أن يكون بصر المصلي حذاء قبلته أو بين يديه ، وفي الحرم إلى الكعبة ، وروي عن ابن سيرين وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلتفت في صلاته إلى السماء فنزلت الآية في ذلك ، و ﴿ اللغو ﴾ سقط القول وهذا يعم جميع ما لا خير فيه ويجمع آداب الشرع ، وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكأن الآية فيها موادعة ، وقوله ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ ذهب الطبري وغيره إلى أنها الزكاة المفروضة في الأموال ، وهذا بين ، ويحتمل اللفظ أن يريد ب " الزكاة " الفضائل كأنه أراد الأزكى من كل فعل ، كما قال تعالى ﴿ خيراً منه زكاة

وأقرب رحماً ﴾ [الكهف : 81] وقوله ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ صفة العفة ، وقوله ﴿ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ الآية ، يقتضي تحريم الزنا والاستمناء ومواقعة البهائم وكل ذلك في قوله ، ﴿ وراء ذلك ﴾ ويريد وراء هذا الحد الذي حد ، ومعنى ﴿ ما ملكت أيمانهم ﴾ من النساء ولما كان ﴿ حافظون ﴾ بمعنى محجزون حسن استعمال ﴿ على ﴾ ، و" العادي " الظالم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(40/532)

وقال ابن الجوزى :

سورة المؤمنين مكية في قول الجميع

روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لقد أُنزلت علينا عشر آيات من أقامهنَّ دخل الجنة ، ثم قرأ : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ إلى عشر آيات " ، رواه الحاكم أبو عبد الله في "صحيحه" .

وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله تعالى حاط حائط الجنة لَبِنَة من ذهب ولَبِنَة من فضة ، وغرس غرسها بيده فقال لها : تكلَّمي ،

فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال لها : طوبى لكِ منزل الملوك " قال الفراء : "قد" ها هنا يجوز أن تكون تأكيداً لفلاح المؤمنين ، ويجوز أن تكون تقريباً للماضي من الحال ، لأن "قد" تقرِّب الماضي من الحال حتى تُلحقَه بحكمه ، ألا تراهم يقولون : قد قامت الصلاة ، قبل حال قيامها ، فيكون معنى الآية : إن الفلاح قد حصل لهم وإنهم عليه في الحال .

وقرأ أُبيّ بن كعب ، وعكرمة ، وعاصم الجحدري ، وطلحة بن مصرِّف : "قد أُفْلِحَ" بضم الألف وكسر اللام وفتح الحاء ، على ما لم يُسمَّ فاعله .

قال الزجاج : ومعنى الآية : قد نال المؤمنون البقاء الدائم في الخير .

ومن قرأ : "قد أُفْلِحَ" بضم الألف ، كان معناه : قد أُصيروا إلى الفلاح .

وأصل الخشوع في اللغة : الخضوع والتواضع .

وفي المراد بالخشوع في الصلاة أربعة أقوال .

أحدها : أنه النظر إلى موضع السجود .

روى أبو هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى رفع بصره إلى السماء ، فنزلت : ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ فنكس رأسه .

وإلى هذا المعنى ذهب مسلم بن يسار ، وقتادة .

والثاني : أنه تركُ الالتفات في الصلاة ، وأن تُلين كنفك للرجل المسلم ، قاله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

والثالث : أنه السكون في الصلاة ، قاله مجاهد ، وإبراهيم ، والزهري .

والرابع : أنه الخوف ، قاله الحسن .

وفي المراد باللغو ها هنا خمسة أقوال .

(41/532)

أحدها : الشِّرك ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : الباطل ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : المعاصي ، قاله الحسن .

والرابع : الكذب ، قاله السدي .

والخامس : الشتم والأذى الذي كانوا يسمعونه من الكفار ، قاله مقاتل .

قال الزجاج : واللغو : كل لعب ولهو ، وكل معصية فهي مطَّرَحة مُلغاة .

فالمعنى : شغلهم الجِدُّ فيما أمرهم الله به عن اللغو .

قوله تعالى : ﴿ للزكاة فاعلون ﴾ أي : مؤدُّون ، فعبَّر عن التأدية بالفعل ، لأنه فعل .

قوله تعالى : ﴿ إلا على أزواجهم ﴾ قال الفراء : "على" بمعنى "مِنْ" .

وقال الزجاج : المعنى : أنهم يُلامون في إطلاق ما حُظر عليهم وأُمروا بحفظه ، إلا على

أزواجهم ﴿ أو ما ملكت أيمانهم ﴾ فإنهم لا يُلامون .

قوله تعالى : ﴿ فمن ابتغى ﴾ أي : طَلَب ﴿ وراء ذلك ﴾ أي : سوى الأزواج والمملوكات ﴿ فأولئك هم العادُون ﴾ يعني : الجائرين الظالمين ، لأنهم قد تجاوزوا إلى مالا يَحلُّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(42/532)

وقال أبو حيان :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) ﴾

السلالة :فعالة من سللت الشيء من الشيء إذا استخرجته منه وقال أمية خلق البرية من سلالة منتن . . .

وإلى السلالة كلها ستعود

والولد سلالة أبيه كأنه انسل من ظهر أبيه قال الشاعر

فجاءت به عصب الأديم غضنفرا . . .

سلالة فرج كان غير حصين

وهو بناء يدل على القلة كالقلامة والنحاتة

سيناء وسينون: اسمان لبقعة وجمهور العرب على فتح سين سيناء فالألف فيه للتأنيث كصحراء فيمتنع الصرف للتأنيث اللازم وكنانة تكسر السين فيمتنع الصرف للتأنيث اللازم أيضاً عند الكوفيين لأنهم يثبتون أن همزة فعلاء تكون للتأنيث وعند البصريين يمتنع من الصرف للعلمية والعجمة أو العلمية والتأنيث لأن ألف فعلاء عندهم لا تكون للتأنيث بل للإلحاق كعلباء ودرحاء قيل وهو جبل فلسطين وقيل بين مصر وأيلة

الدهن : عصارة الزيتون واللوز وما أشبههما مما فيه دسم والدهن بفتح الدال مسح الشيء بالدهن هيهات اسم فعل يفيد الاستبعاد فمعناها بعد وفيها لغات كثيرة ذكرناها في كتاب التكميل لشرح التسهيل ويأتي منها ما قرىء به إن شاء الله

الغثاء : الزبد وما ارتفع على السيل ونحو ذلك مما لا ينتفع به قاله أبو عبيد وقال الأخفش الغثاء والجفاء واحد وهو ما احتمله السيل من القذر والزبد وقال الزجاج البالي من ورق الشجر إذا جرى السيل خالط زبده انتهى وتشدد ثاؤه وتخفف ويجمع على أغثاء شذوذاً وروى بيت امرىء القيس من السيل والغثاء بالتخفيف والتشديد بالجمع

(43/532)

تترى : واحداً بعد واحد قال الأصمعي وبينهما مهلة وقال غيره المواترة التتابع بغير مهلة وتاؤه مبدلة من واو على غير قياس إذ أصله الوتر كتاء توجل وتيقور الأصل ووجل وويقور لأنه من الوجل والوقار وجمهور العرب على عدم تنوينه فيمتنع الصرف للتأنيث اللازم وكتابة تنونه وينبغي أن تكون الألف فيه للإلحاق كهي في علقي المنون وكتبه بالياء يدل على ذلك ومن زعم أن التنوين فيه كصبراً ونصراً فهو مخطىء لأنه يكون وزنه فعلاً ولا يحفظ فيه الإعراب في الراء فتقول تترى في الرفع وتترى في الجر لكن ألف الإلحاق في المصدر نادر ولا يلزم وجود النظير وقيل تترى اسم جمع كأسرى وشتى المعين الميم فيه زائدة ووزنه مفعول كمخيط وهو المشاهد جريه بالعين تقول عانه أدركه بعينه كقولك كبده ضرب كبده وأدخله الخليل في باب ع ي ن وقيل الميم أصلية من باب معن الشيء معانة كثر فوزنه فعيل وأجاز الفراء الوجهين وقال جرير :

إن الذين غدوا بلبك غادروا . . .

وشلاً بعينك ما يزال معينا

الغمرة : الجهالة ، ورجل غمر غافل لم يجرب الأمور وأصله الستر ومنه الغمر للحقد لأنه يغطي القلب والغمر للماء الكثير لأنه يغطي الأرض والغمرة الماء الذي يغمر القامة والغمرات الشدائد ورجل غامر إذا كان يلقي نفسه في المهالك ودخل في غمار الناس أي في زحمتهم

الجؤار : مثل الخوار جأر الثور يجأر صاح وجأر الرجل إلى الله تضرع بالدعاء قاله الجوهري وقال الشاعر يراوح من صلوات المليك فطوراً سجوداً وطوراً جؤاراً وقيل الجؤار الصراخ باستغاثة قال جأر ساعات النيام لربه

السامر : مفرد بمعنى الجمع يقال قوم سامر وسمر ومعناه سهر الليل مأخوذ من السمر وهو ما يقع على الشجر من ضوء القمر وكانوا يجلسون للحديث في ضوء القمر والسمير الرفيق بالليل في السهر ويقال له السمار أيضاً ويقال لا أفعله ما أسمر ابنا سمير والسمير الدهر وابناه الليل والنهار

(44/532)

نكب : عن الطريق ونكب بالتشديد إذا عدل عنه اللجاج في الشيء التمادي عليه

هذه السورة مكية بلا خلاف ، وفي الصحيح للحاكم عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : " لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة " ثم قرأ قد ﴿ أفلح المؤمنون ﴾ إلى عشر آيات .

ومناسبتها لآخر السورة قبلها ظاهرة لأنه تعالى خاطب المؤمنين بقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا ﴾ الآية وفيها ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ وذلك على سبيل الترجية فناسب ذلك قوله

﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ إخباراً بحصول ما كانوا رجوه من الفَلاح.

وقرأ طلحة بن مصرف وعمرو بن عبيد ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ بضم الهمزة وكسر اللام مبنياً للمفعول، ومعناه ادخلوا في الفلاح فاحتمل أن يكون من فلح لازماً أو يكون أفلح يأتي متعدياً ولازماً.

وقرأ طلحة أيضاً بفتح الهمزة واللام وضم الحاء.

قال عيسى بن عمر: سمعت طلحة بن مصرف يقرأ قد أفلحوا المؤمنون، فقلت له: أتلحن؟ قال: نعم، كما لحن أصحابي انتهى.

يعني أن مرجوعه في القراءة إلى ما روي وليس بلحن لأنه على لغة أكلوني البراغيث.

وقال الزمخشري: أو على الإبهام والتفسير.

وقال ابن عطية: وهي قراءة مردودة، وفي كتاب ابن خالويه مكتوباً بواو بعد الحاء، وفي اللوامح وحذفت واو الجمع بعد الحاء لالتقائهما في الدرج، وكانت الكتابة عليها محمولة على الوصل نحو ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ وقال الزمخشري: وعنه أي عن طلحة ﴿ أُفلحُ ﴾ بضمة بغير واو اجتزاء بها عنها كقوله:

فلو أن الأطباء كان حولي . . .

انتهى.

وليس بجيد لأن الواو في ﴿ أفلح ﴾ حذفت لالتقاء الساكنين وهنا حذفت للضرورة

فليست مثلها .

قال الزمخشري : قد تقتضيه لما هي تثبت المتوقع ولما تنفيه ، ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم ، فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه انتهى .

(45/532)

والخشوع لغة الخضوع والتذلل ، وللمفسرين فيه هنا أقوال : قال عمرو بن دينار : هو السكون وحسن الهيئة .

وقال مجاهد : غض البصر وخفض الجناح .

وقال مسلم بن يسار وقتادة : تنكيس الرأس .

وقال الحسن : الخوف .

وقال الضحاك : وضع اليمين على الشمال .

وعن عليّ : ترك الالتفات في الصلاة .

وعن أبي الدرداء : إعظام المقام وإخلاص المقال واليقين التام وجمع الاهتمام .

وفي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء ، فلما نزلت هذه

الآية رمى ببصره نحو مسجده ، ومن الخشوع أن تستعمل الآداب فيتوقى كف الثوب والعبث بجسده وثيابه والالتفات والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والتشبيك والاختصار وتقليب الحصى .

وفي التحرير : اختلف في الخشوع ، هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ومكملاتها على قولين ، والصحيح الأول ومحله القلب ، وهو أول علم يرفع من الناس قاله عبادة بن الصامت .

وقال الزمخشري : فإن قلت : لم أضيفت الصلاة إليهم ؟ قلت : لأن الصلاة دائرة بين المصلي والمصلى له ، فالمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عدته وذخيرته فهي صلاته ، وأما المصلى له فغني متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها .

﴿ اللغو ﴾ ما لا يعنيك من قول أو فعل كاللعب والهزل ، وما توجب المروءة اطراحه يعني أن بهم من الجد ما يشغلهم عن الهزل لما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعهم الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف انتهى .

(46/532)

وإذا تقدم معمول اسم الفاعل جاز أن يقوي تعديته باللام كالفعل ، وكذلك إذا تأخر لكنه مع التقديم أكثر فلذلك جاء ﴿ للزكاة ﴾ باللام ولو جاء منصوباً لكان عربياً والزكاة إن أريد بها التزكية صح نسبة الفعل إليها إذ كل ما يصدر يصح أن يقال فيه فعل ، وإن أريد بالزكاة قدر ما يخرج من المال للفقير فيكون على حذف أي لأداء الزكاة ﴿ فاعلون ﴾ إذ لا يصح فعل الأعيان من المزكى أو يضمن فاعلون معنى مؤدون ، وبه شرحه التبريزي .

وقيل ﴿ للزكاة ﴾ للعمل الصالح كقوله ﴿ خيراً منه زكاة ﴾ أي عملاً صالحاً قاله أبو مسلم .

وقيل : الزكاة هنا النماء والزيادة ، واللام لام العلة ومعمول ﴿ فاعلون ﴾ محذوف التقدير ﴿ والذين هم ﴾ لأجل تحصيل النماء والزيادة ﴿ فاعلون ﴾ الخير .

وقيل : المصروف لا يسمى زكاة حتى يحصل بيد الفقير .

وقيل : لا تسمى العين المخرجة زكاة ، فكان التغيير بالفعل عن إخراجه أولى منه بالأداء ، وفيه رد على بعض زنادقة الأعاجم الأجانب عن ذوق العربية في قوله : ألا قال مؤدُّون ، قال في التحرير والتحبير : وهذا كما قيل لا عقل ولا نقل ، والكتاب العزيز نزل بأفصح اللغات وأصحها بلا خلاف .

وقد قال أمية بن أبي الصلت :

المطعمون الطعام في السنة الأز . . .

مة والفاعلون للزكوات

ولم يرد عليه أحد من فصحاء العرب ولا طعن فيه علماء العربية ، بل جميعهم يحتجون به ويستشهدون انتهى .

(47/532)

وقال الزمخشري : وحمل البيت على هذا أصح لأنها فيه مجموعة يعني على أن الزكاة يراد بها العين وهو على حذف مضاف ، أي لأداء الزكوات ، وعلل ذلك بجمعها يعني أنها إذا أريد بها العين صح جمعها ، وإذا أريد بها التزكية لم تجمع لأن التزكية مصدر ، والمصادر لا تجمع وهذا غير مسلم بل قد جاء منها مجموعاً ألفاظ كالعلوم والحلوم والأشغال ، وأما إذا اختلفت فالأكثرون على جواز جمعها وهنا اختلفت بحسب متعلقاتها فإخراج النقد غير إخراج الحيوان وغير إخراج النبات والزكاة في قول أمية مما جاء جمعاً من المصادر ، فلا يتعدى حمله على المخرج لجمعه .

وحفظ لا يتعدى بعلى .

فقيل : على بمعنى من أي إلا من أزواجهم كما استعملت من بمعنى على في قوله ﴿ ونصرناه من القوم ﴾ أي على القوم قاله الفراء ، وتبعه ابن مالك وغيره والأولى أن يكون من

باب التضمين ضمن ﴿ حافظون ﴾ معنى ممسكون أو قاصرون ، وكلاهما يتعدى بعلى كقوله

﴿ أمسك عليك زوجك ﴾ وتكلف الزمخشري هنا وجوهاً .

فقال ﴿ على أزواجهم ﴾ في موضع الحال أي الأوّالين على أزواجهم أو قوّامين عليهن من قولك : كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلاناً ، ونظيره كان زياد على البصرة أي والياً عليها .

ومنه قولهم : فلان تحت فلان ومن ثم سميت المرأة فراشاً أو تعلق على بمحذوف يدل عليه غير ملومين ، كأنه قيل : يلامون ﴿ إلا على أزواجهم ﴾ أي يلامون على كل مباشر إلاّ على ما أطلق لهم ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ عليه أو يجعله صلة لحافظين من قولك احفظ عليّ عنان فرسي على تضمينه معنى النفي ، كما ضمن قولهم : نشدتك الله إلاّ فعلت بمعنى ما طلبت منك إلاّ فعلك انتهى .

يعني أن يكون حافظون صورته صورة المثبت وهو منفي من حيث المعنى ، أي والذين هم لم يحفظوا فروجهم إلا على أزواجهم ، فيكون استثناء مفرغاً متعلقاً فيه على بما قبله كما مثل بنشدتك الذي صورته صورة مثبت ، ومعناه النفي أي ما طلبت منك .

وهذه التي ذكرها وجوه متكلفة ظاهر فيها العجمة .

وقوله ﴿ أو ما ملكت ﴾ أريد بما النوع كقوله ﴿ فانكحوا ما طاب لكم ﴾ وقال الزمخشري : أريد من جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء وهم الإناث انتهى .

وقوله وهم الإناث ليس بجيد لأن لفظ هم مختص بالذكور ، فكان ينبغي أن يقول وهو الإناث على لفظ ما أو هن الإناث على معنى ما ، وهذا الاستثناء حد يجب الوقوف عنده ، والتسرّي خاص بالرجال ولا يجوز للنساء بإجماع ، فلو كانت المرأة متزوجة بعبد فملكته فاعتقته حالة الملك انفسخ النكاح عند فقهاء الأمصار .

وقال النخعي والشعبي وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة : يبقيان على نكاحهما وفي قوله ﴿ أو ما ملكت أيمانهم ﴾ دلالة على تعميم وطء ما ملك باليمين وهو مختص بالإناث بإجماع ، فكأنه قيل ﴿ أو ما ملكت أيمانهم ﴾ من النساء .

وفي الجمع بين الأختين من ملك اليمين وبين المملوكة وعمتها أو خالتها خلاف ، ويخص أيضاً في الآية بتحريم وطء الحائض والأَمة إذا زوجت والمظاهر منها حتى يكفر ، ويشمل قوله وراء ذلك الزنا واللواط ومواقعة البهائم والاستمناء ومعنى وراء ذلك وراء هذا الحد الذي حد من الأزواج ومملوكات النساء ، وانتصابه على أنه مفعول بابتغى أي خلاف ذلك .

وقيل : لا يكون وراء هنا إلاّ على حذف تقديره ما وراء ذلك .

والجمهور على تحريم الاستمناء ويسمى الخضخضة وجلد عميرة يكنون عن الذكر بعميرة ، وكان أحمد بن حنبل يجيز ذلك لأنه فضلة في البدن فجاز إخراجها عند الحاجة كالفصد والحجامة ، وسأل حرملة بن عبد العزيز مالكاً عن ذلك فتلا هذه الآية وكان جرى في ذلك كلام مع قاضي القضاة أبي الفتح محمد بن عليّ بن مطيع القشيري ابن دقيق العيد فاستدل على منع ذلك بما استدل مالك من قوله

(49/532)

﴿ فمن ابتغى وراء ذلك ﴾ فقلت له : إن ذلك خرج مخرج ما كانت العرب تفعله من الزنا والتفاخر بذلك في أشعارها ، وكان ذلك كثيراً فيها بحيث كان في بغاياهم صاحبات رايات ، ولم يكونوا ينكرون ذلك .

وأما جلد عميرة فلم يكن معهوداً فيها ولا ذكره أحد منهم في أشعارهم فيما علمناه فليس بمندرج في قوله ﴿ وراء ذلك ﴾ ألا ترى أن محل ما أبيح وهو نساؤهم بنكاح أو تسرٍّ فالذي وراء ذلك هو من جنس ما أحل لهم وهو النساء ، فلا يحل لهم شيء منهن إلاّ بنكاح أو تسر ، والظاهر أن نكاح المتعة لا يندرج تحت قوله ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك ﴾ لأنها ينطلق عليها اسم زوج .

وسأل الزهري القاسم بن محمد عن المتعة فقال : هي محرمة في كتاب الله وتلا ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ الآية ولا يظهر التحريم في هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(50/532)

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون * الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾

أخبر اللّه سبحانه عن فلاح المؤمنين ، وأنهم نالوا البُغْيَةَ ، وأحرزوا البقاءَ الدائم .

قلت : وعن عُمرَ بن الخطاب رضي اللّه عنه قال : "كان رَسُول اللّه صلى الله عليه وسلم إذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ ، يُسْمَعُ عِنْدَ وَجْهِهِ صلى الله عليه وسلم دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النحْلِ ، فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ يَوْماً ، فَمَكَثْنَا سَاعَةً ، وَسُرِّيَ عَنْهُ ، فَاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ ، زِدْنَا وَلاَ تَنْقُصْنَا ، وَأَكْرِمْنَا وَلاَ تُهِنَّا ، وَأَعْطِنَا وَلاَ تَحْرِمْنَا ، وَآثِرْنَا وَلاَ تُؤْثِرْ عَلَيْنَا ، وأَرْضِنَا وارض عَنَّا " ، ثُمَّ قَالَ : " أُنْزِلَتْ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الجَنَّةَ " ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ حتى ختم عشر آيات ؛ رواه الترمذي واللفظ له والنسائيُّ والحاكم في «المستدرك» ، وقال : صحيح الإسناد ، انتهى من «سلاح المؤمن» .

قلت : وقد نَصَّ بعض أئمتنا على وجوب الخشوع في الصلاة ، قال الغزاليُّ رحمه اللّه : ومِنْ مكائد الشيطان أن يَشْغَلَكَ في الصلاة بفكر الآخرة وتدبيرِ فِعْلِ الخيرات ؛ لتمتنعَ عن فَهْمِ ما تقرأه ، واعلم أَنَّ كلَّ ما أشغلك عن معاني قراءتك فهو وسواس ؛ فإنَّ حركة اللسان غيرُ مقصودة ؛ بل المقصود معانيها ، انتهى من «الإحياء» .

(51/532)

وروي عن مجاهد : أَنَّ اللّه تعالى لما خلق الجَنَّةَ ، وأتقن حُسْنَها قال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ ثم وصف تعالى هؤلاء المفلحين : فقال : ﴿ الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ والخشوع التطامُنُ ، وسكونُ الأعضاءِ ، والوقارُ ، وهذا إنَّما يظهر في الأعضاء مِمَّنْ في قلبه خوف واستكانة ؛ لأَنَّه إذا خشع قلبُه خشعت جوارِحُه ، ورُوِيَ أَنَّ سبب الآية أَنَّ المسلمين كانوا يلتفتون في صلاتهم يُمْنَةً ويُسْرَةً ؛ فنزلت هذه الآيةُ ، وأُمِرُوا أن يكون بصرِ المُصَلِّي حِذَاءَ قِبْلَتِه أو بين يديه ، وفي الحرم إلى الكعبة ، و ﴿ اللغو ﴾ : سقط القول ، وهذا يَعُمُّ جميع ما لا خيرَ فيه ، ويجمع آداب الشرع ، وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، أي : يُعْرِضُونَ عن اللغو ، وكأَنَّ الآية فيها موادعة .

﴿ والذين هُمْ للزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ ذهب الطبريُّ وغيره إلى : أَنَّها الزكاة المفروضة في الأموال

، وهذا بَيِّنٌ ، ويحتمل اللفظُ أَن يريد بالزكاة : الفضائلَ ، كأنه أراد الأزكى من كل فعل ؛ كما قال تعالى : ﴿ خَيْراً مِّنْهُ زكاة وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ [الكهف : 81] .

وقوله تعالى : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ هُمُ العادون ﴾ يقتضي تحريمَ الزِّنا والاستمناءِ ومواقعةِ البهائم ، وكُلُّ ذلك داخل في قوله : ﴿ وَرَآءَ ذلك ﴾ ويريد : وراءَ هذا الحَدِّ الذي حُدَّ ، والعادي : الظالم ، والأمانة والعهد يَجْمَعُ كُلَّ ما تحمَّله الإنسان من أمر دينه ودُنياه قولاً وفعلاً . وهذا يعمُّ معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك ، ورعاية ذلك حِفْظُهُ والقيام به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(52/532)

وقال أبو السعود :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾

الفلاحُ الفوزُ بالمرام والنجاةُ من المكروه ، وقيل : البقاءُ في الخير والإفلاحُ الدُّخولُ في ذلكَ كالإبشارِ الذي هو الدخولُ في البشارةِ وقد يجيءُ متعدياً بمعنى الإدخال فيه وعليه قراءةُ مَن قرأ على البناء للمفعول . وكلمةُ قد هاهنا لإفادةِ ثبوتِ ما كان متوقعَ الثُّبوتِ من قبلُ لا متوقعَ الإخبارِ به ضرورةَ أنَّ المتوقعَ من حال المؤمنينَ ثبوتُ الفلاحِ لهم لا الإخبارُ بذلك

فالمعنى قد فازوا بكلِّ خيرٍ ونجوا من كلِّ ضيرٍ حسبما كان ذلك متوقعاً من حالِهم فإنَّ إيمانَهم وما تفرَّعَ عليه من أعمالهم الصالحةِ من دواعي الفلاحِ بموجب الوعدِ الكريمِ خلا أنَّه إنْ أُريد بالإفلاح حقيقةُ الدُّخولِ في الفلاح الذي لا يتحققُ إلا في الآخرة فالإخبارُ به على صيغة الماضي للدّلالة على تحققه لا محالةَ بتنزيله منزلةَ الثابتِ وإنْ أُريد كونُهم بحالٍ تستتبعُه ألبتةَ فصيغةُ الماضي في محلِّها . وقُرِئَ أفلحُوا على الإبهامِ والتفسيرِ أو على أكلوني البراغيثُ . وقُرِئَ أفلحُ بضمة اكتفى بها عن الواوِ كما في قولِ من قال

(53/532)

ولو أنَّ الأطبَّا كانُ حَولي . . . والمرادُ بالمؤمنينَ إمَّا المصدّقون بما عُلمَ ضرورة أنَّه من دينِ نبينا صلى الله عليه وسلم من التَّوحيدِ والنبوةِ والبعثِ والجزاءِ ونظائرِها فقولُه تعالى : ﴿ الذين هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خاشعون ﴾ وما عُطف عليه صفاتٌ مخصصةٌ لهم وإما الآتون بفروعه أيضاً كما يُنبىء عنه إضافةُ الصَّلاة إليهم فهي صفاتٌ موضحةٌ أو مادحةٌ لهم حسب اعتبارِ ما ذُكر في حيز الصّلةِ من المعاني مع الإيمان إجمالاً أو تفصيلاً كما مرَّ في أوائل سُورة البقرة . والخشوعُ الخوفُ والتَّذلل أي خائفون من الله عزَّ وجلَّ متذلّلون له ملزمون أبصارَهم مساجدَهم . رُوي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان إذا صلَّى رفع بصره إلى السَّماءِ

فلمَّا نزلتْ رمى ببصره نحوَ مسجدِه . وأنَّه رأى مُصلّياً يعبث بلحيته فقال : " لو خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحُه " . ﴿ والذين هُمْ عَنِ اللغو ﴾ أي عمَّا لا يعنيهم من الأقوال والأفعال ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي في عامَّة أوقاتهم كما يُنبىء عنه الاسمُ الدَّالُّ على الاستمرار فيدخل في ذلك إعراضُهم عنه حالَ اشتغالِهم بالصَّلاةِ دخولاً أوليًّا ومدارُ إعراضهم عنه ما فيه من الحالة الدَّاعيةِ إلى الإعراض عنه لا مجرَّدَ الاشتغالِ بالجدِّ في أمور الدِّينِ كما قيل فإنَّ ذلك ربَّما يُوهم أنْ لا يكونَ في اللَّغوِ نفسه ما يزجرُهم عن تعاطيهِ وهو أبلغُ من أنْ يُقالَ لا يلهون من وجوه جعلِ الجملةِ اسميَّةً وبناءِ الحكم على الضَّميرِ والتَّعبيرِ عنه بالاسمِ وتقديمُ الصِّلةِ عليه ، وإقامةُ الإعراضِ مُقامَ التَّركِ ليدلَّ على تباعدهم عنه رأساً مباشرةً وتسبُّباً وميلاً وحضوراً فإنَّ أصلَه أنْ يكونَ في عرضٍ غيرِ عرضِه .

(54/532)

﴿ والذين هُمْ للزكواة فاعلون ﴾ وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصَّلاة للدِّلالة على أنَّهم بلغوا الغاية القاصية من القيام بالطَّاعات البدنيَّةِ والماليَّةِ والتَّجنبِ عن المحرَّمات وسائرِ ما تُوجب المروءةُ اجتنابَه . وتوسيطُ حديث الإعراضِ بينهما لكمال مُلابسته بالخشوع في الصَّلاةِ . والزَّكاةُ مصدر لأنَّه الأمرُ الصَّادرُ عن الفاعل لا المحلُّ الذي هو موقعُه ،

ومعنى الفعلِ قد مرَّ تحقيقُه في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ ويجوزُ أنْ يُراد بها العينُ على تقدير المضاف .

(55/532)

﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافظون ﴾ ممسكون لها فالاستثناءُ في قوله تعالى : ﴿ إلاَّ على أزواجهم ﴾ من نفي الإرسالِ الذي ينبىءُ على الحفظ أي لا يُرسلونها على أحدٍ إلاَّ على أزواجِهم وفيه إيذانٌ بأنَّ قوَّتهم الشَّهويَّة داعيةٌ لهم إلاَّ ما لا يخفى وأنَّهم حافظون لها من استيفاءِ مُقتضاها وبذلك يتحقَّقُ كمالُ العفَّةِ ويجوز أنْ تكون على بمعنى من وإليه ذهبَ الفرَّاءُ كما في قوله تعالى : ﴿ إذَا اكتالوا عَلَى الناس ﴾ أي حافظون لها من كلِّ أحدٍ إلا من أزواجِهم وقيل هي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من ضمير حافظون أي حافظون لها في جميعِ الأحوال إلاَّ حالَ كونهم والينَ أو قوَّامين على أزواجِهم وقيل بمحذوفٍ يدلُّ عليه غيرَ ملُومين كأنَّه قيل يُلامون على كلِّ مباشرٍ إلاَّ على ما أُطلق لهم فإنَّهم غيرُ ملومين . وحملُ الحفظِ على القصر عليهنَّ ليكونَ المعنى حافظون فروجَهم على الأزواجِ لا يتعداهُنَّ ثمَّ يقال غير حافظينَ إلا عليهنَّ تأكيداً على تأكيدٍ تكلُّفٌ على تكلُّف ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ أي سراريهم عبَّر عنهنَّ ب : (ما) إجراءً لهنَّ لمملوكيتهنَّ مُجرى غيرِ العُقلاءِ أو لأنوثتهنَّ المنبئةِ

عن القُصورِ . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ تعليلٌ لما يفيده الاستثناءُ من عدم حفظ فروجهم منهنَّ أي فإنَّهم غيرُ ملومين على عدم حفظِها منهنَّ .

(56/532)

﴿ فَمَنِ ابتغى وَرَاء ذلك ﴾ الذي ذُكر من الحدِّ المتَّسعِ وهو أربعٌ من الحرائرِ أو مَا شاء من الإماءِ ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ العادون ﴾ الكاملونَ في العُدوانِ المتناهُون فيه وليس فيه ما يدلُّ حتماً على تحريمِ المتعةِ حسبما نُقل عن القاسمِ بن محمَّدٍ فإنَّه قال : إنَّها ليستْ زوجةً له فوجبَ ألاَّ تحلَّ له أمَّا أنَّها ليستْ زوجةً له فلأنَّهما لا يتوارثانِ بالإجماعِ ولو كانتْ زوجةً له لحصل التَّوارثُ لقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزواجكم ﴾ فوجب أنْ لا تحلَّ لقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ على أزواجهم ﴾ لأنَّ لهم أنْ يقولوا إنَّها زوجةٌ له في الجُملةِ ، وأمَّا أنَّ كلَّ زوجةٍ ترثُ فهم لا يُسلِّمونها وأما ما قيل من أنَّه إنْ أُريد لو كانت زوجةً حالَ الحياةِ لم يُفدْ وإنْ أُريدَ بعد الموتِ فالملازمةُ ممنوعةٌ فليس له معنى محصَّلٌ . نعم لو عُكسَ لكان له وجهٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(57/532)

وقال الآلوسى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾

والفلاح الفوز بالمرام ، وقيل : البقاء في الخير والإفلاح الدخول في ذلك كالإبشار الذي هو الدخول بالبشارة ، وقد يجيء متعدياً وعليه قراءة طلحة بن مصرف .

وعمرو بن عبيد ﴿ أَفْلَحَ ﴾ بالبناء للمفعول ، و ﴿ قَدْ ﴾ لثبوت أمر متوقع وتحققه ، والظاهر أنه هنا الفلاح لأن قد دخلت على فعله وهو متوقع الثبوت من حال المؤمنين ، وجعله الزمخشري الإخبار بثباته وذلك لأن الفلاح مستقبل أبرز في معرض الماضي مؤكداً بقد دلالة على تحققه فيفيد تحقق البشارة وثباتها كأنه قيل : قد تحقق أن المؤمنين من أهل الفلاح في الآخرة ، وجوز أن يكون جملة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ جواب قسم محذوف وقد ذكر الزجاج في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ [الشمس : 9] أنه جواب القسم المذكور قبله بتقدير اللام .

وقرأ ورش عن نافع ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ بالقاء حركة الهمزة على الدال وحذفها لفظاً لالتقاء الساكنين كما قال أبو البقاء وهما الهمزة الساكنة بعد نقل حركتها والدال الساكنة بحسب الأصل لأنه لا يعتد بحركتها العارضة .

وقرأ طلحة أيضاً ﴿ قَدْ ﴾ بضم الهمزة والحاء والقاء واو الجمع وهي مخرجة على لغة

أكلوني البراغيث ، وقول ابن عطية هي قراءة مردودة مردود ، وعن عيسى بن عمر قال : سمعت طلحة يقرأ ﴿ قَدْ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ فقلت له : أتلحن ؟ قال : نعم كما لحن أصحابي ، ولعل مراده إن مرجع قراءتي الرواية ومتى صحت في شيء لا يكون لحناً في نفس الأمر وإن كان كذلك ظاهراً ، وإثبات الواو في الرسم مروى عن كتاب ابن خالويه . وفي "اللوامح" أنها حذفت في الدرج لالتقاء الساكنين وحملت الكتابة على ذلك فهي محذوفة فيها أيضاً ، ونظير ذلك ﴿ وَيَمْحُ الله الباطل ﴾ [الشورى : 24] وقد جاء حذف الواو لفظاً وكتابة والاكتفاء بالضمة الدالة عليها كما في قوله :

ولو أن الأطبا كان حولي . . .

وكان مع الأطباء الاساة

(58/532)

وهو ضرورة عند بعض النحاة ، والمراد بالمؤمنين قيل أما المصدقون بما علم ضرورة أنه من دين نبينا صلى الله عليه وسلم من التوحيد والنبوة والحشر الجسماني والجزاء ونظائرها فقوله تعالى :

﴿ الذين هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خاشعون ﴾ وما عطف عليه صفات مخصصة لهم ، وإما

الآتون بفروعه أيضاً كما ينبىء عنه إضافة الصلاة إليهم فهي صفات موضحة أو مادحة لهم ، وفي بعض الآثار ما يؤيد كونها مخصصة وجعل الزمخشري الإضافة للإشارة إلى أنهم هم المنتفعون بالصلاة دون المصلى له عز وجل ، والخشوع التذلل مع خوف وسكون للجوارح .

ولذا قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير .

وغيره خاشعون خائفون ساكنون .

وعن مجاهد أنه هنا غض البصر وخفض الجناح ، وقال مسلم بن يسار .

وقتادة : تنكيس الرأس ، ساكنون .

وعن مجاهد أنه هنا غض البصر وخفض الجناح ، وقال مسلم بن يسار .

وقتادة : تنكيس الرأس ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه ترك الالتفات .

وقال الضحاك : وضع اليمين على الشمال .

وعن أبي الدرداء إعظام المقام وإخلاص المقال واليقين التام وجمع الاهتمام ، ويتبع ذلك ترك الالتفات وهو من الشيطان فقد روى البخاري .

وأبو داود .

والنسائي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال : " هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة أنه قال في مرضه : أقعدوني أقعدوني فإن عندي وديعة أودعنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يلتفت أحدكم في صلاته فإن كان لا بد فاعلاً ففي غير ما افترض الله تعالى عليه " .

(59/532)

وترك العبث بثيابه أو شيء من جسده ، وإنكار منافاته للخشوع مكابرة ، وقد أخرج الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" لكن بسند ضعيف عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال : " لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه " وترك رفع البصر إلى السماء وإن كان المصلي أعمى وقد جاء النهي عنه ، فقد أخرج مسلم .

وأبو ادود .

وابن ماجه عن جابر بن سمرة قال : " قال النبي صلى الله عليه وسلم : لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم " وكان قبل نزول الآية غير منهي عنه ، فقد أخرج الحاكم وصححه .

وابن مردويه .

والبيهقي في سننه عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت ﴿ الذين هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خاشعون ﴾ فطأطأ رأسه ، وترك الاختصار وهو وضع اليد على الخاصرة وقد ذكروا أنه مكروه .

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم : " الاختصار في الصلاة راحة أهل النار " أي إن ذلك فعل اليهود في صلاتهم استراحة وهم أهل النار لا أن لهم فيها راحة كيف وقد قال تعالى : ﴿ لاَيُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف : 75] ومن أفعالهم أيضاً فيها التميل وقد جاء النهي عنه .

أخرج الحكيم الترمذي من طريق القاسم بن محمد عن أسماء بنت أبي بكر عن أم رومان والدة عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : رآني أبو بكر رضي الله تعالى عنه أتميل في صلاتي فزجرني زجرة كدت أنصرف عن صلاتي ثم قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا قام أحدكم في الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميل تميل اليهود فإن سكون الأطراف في الصلاة من تمام الصلاة " وقال في "الكشاف" : من الخشوع أن يستعمل الآداب وذكر من ذلك توقي كف الثوب والتمطي والتثاؤب والتغميض وتغطية الفم والسدل والفرقعة والتشبيك وتقليب الحصى .

وفي "البحر" نقلاً عن التحرير أنه اختلف في الشخوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ومكملاتها على قولين والصحيح الأول ومحله القلب اه ، والصحيح عندنا خلافه ، نعم الحق أنه شرط القبول لا الاجزاء .

وفي المنهاج وشرحه لابن حجر ويسن الخشوع في كل صلاته بقلبه بأن لا يحضر فيه غير ما هو فيه وإن تعلق بالآخرة وبجوارحه بأن لا يعبث بأحدها ، وظاهر أن هذا مراد النووي من الخشوع لأنه سيذكر الأول بقوله : ويسن دخول الصلاة بنشاط وفراغ قلب إلا أن يجعل ذلك سبباً له ولذا خصه بحالة الدخول .

وفي الآية المراد كل منهما كما هو ظاهر أيضاً ، وكان سنة لثناء الله تعالى في كتابه العزيز على فاعليه ولانتفاء ثواب الصلاة بانتفائه كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة ، ولأن لنا وجهاً اختاره جمع أنه شرط للصحة لكن في البعض فيكره الاسترسال مع حديث النفس والعبث كتسوية ردائه أو عمامته لغير ضرورة من تحصيل سنة أو دفع مضرة ، وقيل يحرم اه ، وللإمام في هذا المقام كلام طويل من أراده فليرجع إليه .

وتقديم الظرف قيل لرعاية الفواصل .

وقيل ليقرب ذكر الصلاة من ذكر الإيمان فإنهما أخوان وقد جاء إطلاق الإيمان عليها في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانكم ﴾ [البقرة : 143] وقيل للحصر على معنى

الذين هم في جميع صلاتهم دون بعضها خاشعون ، وفي تقديم وصفهم بالخشوع في الصلاة على سائر ما يذكر بعد ما لا يخفى من التنويه بشأن الخشوع ، وجاء أن الخشوع أول ما يرفع من الناس ، ففي خبر رواه الحاكم وصححه أن عبادة بن الصامت قال : يوشك أن تدخل المسجد فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً .

وأخرج ابن أبي شيبة .

وأحمد في الزهد ، والحاكم وصححه عن حذيفة قال : " أول ما تفقدون من دينكم الخشوع وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة وتنتقض عرى الإسلام عروة عروة " الخبر .

(61/532)

﴿ والذين هُمْ عَنِ اللغو ﴾ وهو ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال ، وعن ابن عباس تفسيره بالباطل ، وشاع في الكلام الذي يورد لا عن روية وفكر فيجري مجرى اللغاء وهو صوت العصافير ونحوها من الطير : وقد يسمى كل كلام قبيح لغواً ، ويقال فيه كما قال أبو عبيدة لغو ولغا نحو عيب وعاب ، وأنشد

: عن اللغا ورفث التكليم . . .

﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ في عامة أوقاتهم لما فيه من الحالة الداعية إلى الإعراض عنه مع ما فيهم

من الاشتغال بما يعنيهم ، وهذا أبلغ من أن يقال : لا يلهون من وجوه ، جعل الجملة اسمية دالة على الثبات والدوام ، وتقديم الضمير المفيد لتقوى الحكم بتكريره ، والتعبير في المسند بالاسم الدال كما شاع على الثابت ، وتقديم الظرف عليه المفيد للحصر ، وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على تباعدهم عنه رأساً مباشرة وتسبباً وميلاً وحضوراً فإن أصله أن يكون في عرض أي ناحية غير عرضه .

﴿ والذين هُمْ للزكاة فاعلون ﴾ الظاهر أن المراد بالزكاة المعنى المصدري أعني التزكية لأنه الذي يتعلق به فعلهم ، وأما المعنى الثاني وهو القدر الذي يخرجه المزكي فلا يكون نفسه مفعولاً لهم فلا بد إذا أريد من تقدير مضاف أي لأداء الزكاة فاعلون أو تضمين ﴿ فاعلون ﴾ معنى مؤدون وبذلك فسره التبريزي إلا أنه تعقب بأنه لا يقال فعلت الزكاة أي أديتها ، وإذا أريد المعنى الأول أدى وصفهم بفعل التزكية إلى أداء العين بطريق الكناية التي هي أبلغ ، وهذا أحد الوجوه للعدول عن والذين يزكون إلى ما في "النظم الكريم" .

وجميع ما مر آنفاً في بيان أبلغية ﴿ والذين هُمْ عَنِ اللغو مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : 3] من والذين لا يلهون جار هنا سوى الوجه الخامس اتفاقاً والرابع عند بعض لأن المقدم متعلق تعلق الجار والمجرور بما بعده كيف واللام زائدة لتقوية العمل من وجهين ، تقديم المعمول ، وكون العامل اسماً .

وقال بعض آخر : يمكن جريان مثله حيث قدم المعمول مع ضعف عامله لا للتخصيص بل لكونه مصب الفائدة ، ويجوز اعتبار التخصيص الإضافي أيضاً بالنسبة إلى الإنفاق فيما لا يليق ، ووصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة للدلالة على أنهم لم يألوا جهداً بالعبادة البدنية والمالية ، وتوسيط حديث الإعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة وإلا فأكثر ما تذكر هاتان العبادتان في القرآن معاً بلا فاصل .

وعن أبي مسلم أن الزكاة هنا بمعنى العمل الصالح كما في قوله تعالى : ﴿ خَيْراً مِّنْهُ زكواة ﴾ [الكهف : 81] واختار الراغب أن الزكاة بمعنى الطهارة واللام للتعليل ، والمعنى والذين يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكيهم الله تعالى أو ليزكوا أنفسهم ، ونقل نحوه الطيبي عن صاحب الكشف فقال : قال صاحب الكشف : معنى الآية الذين هم لأجل الطهارة وتزكية النفس عاملون الخير ، ويرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ﴾ [الأعلى : 14 ، 15] ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ [الشمس : 9] فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً ولا ينبغي أن يعدل عن تفسير بعضه ببعض ما أمكن ، وقال بعض الأجلة : إن اقتران ذلك بالصلاة ينادي على أن المراد وصفهم بأداء الزكاة الذي هو عبادة مالية ، وتنظير ما نحن فيه بالآيتين بعيد لأنهما ليستا من هذا القبيل في شيء ، وربما يقال :

الفصل بينهما يشعر بما اختاره الراغب ومن حذا حذوه ، وأيضاً كون السورة مكية والزكاة فرضت بالمدينة يؤيده لئلا يحتاج إلى التأويل بما مر فتدبر .

(63/532)

وأياً ما كان فالآية في أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة ، وقول بعض زنادقة الأعاجم الذين جرموا ذوق العربية : ألا قيل مؤدون بدل ﴿ فاعلون ﴾ من محض الجهل والحماقة التي أعيت من يداويها فإنه لو فرض أن القرآن وحاشا لله سبحانه كلام النبي صلى الله عليه وسلم فهو عليه الصلاة والسلام الذي مخضت له الفصاحة زبدها وأعطته البلاغة مقودها وكان صلى الله عليه وسلم بين مصاقع نقاد لم يألوا جهداً في طلب طعن ليستريحوا به من طعن الصعاد ، وقد جاء نظير ذلك في كلام أمية بن أبي الصلت قال

: المطعمون الطعام في السنة . . .

الأزمة والفاعلون للزكوات

ولم يرد عليه أحد من فصحاء العرب ولا أعابوه ، واختار الزمخشري في هذا حمل الزكاة على العين وتقدير المضاف دون الآية ، وعلل بجمعها وهو إنما يكون للعين دون المصدر . وتعقب بأنه قد جاء كثير من المصادر مجموعة كالظنون والعلوم والحلوم والأشغال وغير

ذلك ، وهي إذا اختلف فالأكثرون على جواز جمعها وقد اختلفت ههنا بحسب متعلقاتها فإن أخراج النقد غير إخراج الحيوان وإخراج الحيوان غير إخراج النبات فليحفظ .

(64/532)

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلاَّ على أزواجهم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ وصف لهم بالعفة وهو وإن استدعاه وصفهم بالإعراض عن اللغو إلا أنه جيء به اعتناء بشأنه ، ويجوز أن يقال : إن ما تقدم وإن استدعى وصفهم بأصل العفة لكن جيء بهذا لما فيه من الإيذان بأن قوتهم الشهوية داعية لهم إلى ما لا يخفى وأنهم حافظون لها عن استيفاء مقتضاها وبذلك يتحقق كمال العفة ، واللام للتقوية كما مر في نظيره ، و ﴿ على ﴾ متعلق بحافظون لتضمينه معنى ممسكون على ما اختاره أبو حيان والإمساك يتعدى بعلى كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ [الأحزاب : 37] وذهب جمع إلى اعتبار معنى النفي المفهوم من الإمساك ليصح التفريغ فكأنه قيل حافظون فروجهم لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم ، وقال بعضهم : لا يلزم ذلك لصحة العموم هنا فيصح التفريغ في الإيجاب .

وفي "الكشف" الوجه أن يقال : ما في الآية من قبيل حفظت على الصبي ماله إذا ضبطه

مقصوراً عليه لا يتعداه ، والأصل حافظون فروجهم على الأزواج لا تتعداهن ثم قيل غير حافظين إلا على الأزواج تأكيداً على تأكيد ، وعلى هذا تضمين معنى النفي الذي ذكره الزمخشري من السياق واستدعاء الاستثناء المفرغ ذلك ولم يؤخذ مما في الحفظ من معنى المنع والإمساك لأن حرف الاستعلاء يمنعه انتهى وفيه ما فيه .

ويا ليت شعري كيف عد حرف الاستعلاء مانعاً عن ذلك مع أن كون الإمساك مما يتعدى به أمر شائع ، وقال الفراء .

وتبعن ابن مالك .

(65/532)

وغيره : إن ﴿ على ﴾ هنا بمعنى من أي إلا من أزواجهم كما أن من بمعنى على في قوله تعالى : ﴿ ونصرناه مِنَ القوم ﴾ [الأنبياء : 77] أي على القوم ، وقيل هي متعلقة بمحذوف وقع حالاً من ضمير ﴿ حافظون ﴾ والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي حافظون لفروجهم في جميع الأحوال إلا حال كونهم والين وقوامين على أزواجهم من قولك : كان فلان على فلانة فمات عنها ، ومنه قولهم : فلانة تحت فلان ولذا سميت المرأة فراشاً أو متعلقة بمحذوف يدل علي ﴿ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ كأنه قيل يلامزن إلا على أزواجهم أي

يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين عليه ، وكلا الوجهين ذكرهما الزمخشري .

واعترض بأنهما متكلفان ظاهراً فيهما العجمة ، وأورد على الأخير أن إثبات اللوم لهم في أثناء المدح غير مناسب مع أنه لا يختص بهم ، وكون ذلك على فرض عصيانهم وهو مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ابتغى ﴾ [المؤمنون : 7] الخ لا يدفعه كما توهم ؛ ولا يجوز أن تتعلق بملومين المذكور بعد لما قال أبو البقاء من أن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها وأن المضاف إليه لا يعمل فيما قبله .

(66/532)

والمراد مما ملكت أيمانهم السريات ، والتخصيص بذلك للإجماع على عدم حل وطء المملوك الذكر ، والتعبير عنهم بما على القول باختصاصها بغير العقلاء لأنهن يشبهن السلع بيعاً وشراءً أو لأنهن لأنوثتهن المنبئة عن قلة عقولهن جاريات مجرى غير العقلاء ، وهذا ظاهر فيما إذا كن من الجركس أو الروم أو نحوهم فكيف إذا كن من الزنج والحبش وسائر السودان فلعمري إنهن حينئذٍ إن لم يكن من نوع البهائم فما نوع البهائم منهن ببعيد ، والآية خاصة بالرجال فإن التسري للنساء لا يجوز بالإجماع ، وعن قتادة قال تسرت امرأة غلاماً

فذكرت لعمر رضي الله تعالى عنه فسألها ما حملك على هذا ؟ فقالت : كنت أرى أنه يحل لي ما يحل للرجال من ملك اليمين فاستشار عمر فيها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : تأولت كتاب الله تعالى على غير تأويله فقال رضي الله تعالى عنه : لا جرم لا أحلك لحر بعده أبداً كأنه عاقبها بذلك ودرأ الحد عنها وأمر العبد أن لا يقربها ، ولو كانت المرأة متزوجة بعبد فملكته فاعتقته حالة الملك انفسخ النكاح عند فقهاء الأمصار .

وقال النخعي .

والشعبي .

وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة : يبقيان على نكاحهما ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ تعليل لما يفيده الاستثناء من عدم حفظ فروجهم من المذكورات أي فإنهم غير ملومين على ترك حفظها منهن .

وقيل الفاء في جواب شرط مقدر أي فإن بذلوا فروجهم لأزواجهم أو إمائهم فإنهم غير ملومين على ذلك ، والمراد بيان جنس ما يحل وطؤه في الجملة وإلا فقد قالوا : يحرم وطء الحائض والأمة إذا زوجت والمظاهر منها حتى يكفر وهذا مجمع عليه .

وفي الجمع بين الاختين من ملك اليمين وبين المملوكة وعمتها أو خالتها خلاف على ما في "البحر" ، وذكر الآمدي في الأحكام أن علياً كرم الله تعالى وجهه احتج على جواز الجمع بين الاختين في الملك بقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ .

﴿ فَمَنِ ابتغى وَرَاء ذلك ﴾ أي المذكور من الحد المتسع وهو أربع من الحرائر وما شاء من الإماء ، وانتصاب ﴿ وَرَاء ﴾ على أنه مفعول ﴿ أَبْتَغِى ﴾ أي خلاف ذلك وهو الذي ذهب إليه أبو حيان ، وقال بعض المحققين : إن ﴿ وَرَاء ﴾ ظرف لا يصلح أن يكون مفعولاً به وإنما هو سادس مسداً لمفعول به ، ولذا قال الزمخشري : أي فمن أحدث ابتغاء وراء ذلك ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ العادون ﴾ الكاملون في العدوان المتناهون فيه كما يشير إليه الإشارة والتعريف وتوسيط الضمير المفيد لجعلهم جنس العادين أو جميعهم ، وفي الآية رعاية لفظ ﴿ مِنْ ﴾ ومعناها ويدخل فيما وراء ذلك الزنا واللواط ومواقعة البهائم وهذا مما لا خلاف فيه .

واختلف في وطء جارية أبيح له وطؤها فقال الجمهور : هو داخل فيما وراء ذلك أيضاً فيحرم وهو قول الحسن .

وابن سيرين .

وروي ذلك عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ، فقد أخرج ابن أبي شيبة .

وعبد الرزاق عنه أنه سئل عن امرأة أحلت جاريتها لزوجها فقال : لا يحل لك أن تطأ فرجاً أي غير فرج زوجتك إلا فرجاً إن شئت بعت وإن شئت وهبت وإن شئت اعتقت ، وعن ابن عباس أنه غير داخل فلا يحرم ، فقد أخرج عبد الرزاق عنه رضي الله تعالى عنه قال : إذا أحلت امرأة الرجل أو ابنته أو أخته له جاريتها فليصبها وهي لها وهو قول طاوس ، أخرج عنه عبد الرزاق أيضاً أنه قال : هو أحل من الطعام فإن ولدت فولدها للذي أحلت له وهي لسيدها الأول ، وأخرج عن عطاء أنه قال : كان يفعل ذلك يحل الرجل وليدته لغلامه وابنه وأخيه وأبيه والمرأة لزوجها وقد بلغني أن الرجل يرسل وليدته لصديقه وإلى هذا ذهبت الشيعة ، والآية ظاهرة في رده لظهور أن المعارة للجماع ليست بزوجة ولا مملوكة وكذا قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَن لا تَعْدِلُواْ فواحدة أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ [النساء : 3] فإن السكوت في معرض البيان يفيد الحصر خصوصاً إذا كان المقام مقتضياً لذكر جميع ما لا يجب العدل فيه ، وفي عدم وجوب العدل تكون العارية أقدم من الكل إذ لا يجب فيها ألا تحمل منة مالك الفرج فقط وكذا قوله سبحانه : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ المحصنات المؤمنات وَمَا مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ [النساء : 25] إلى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ العنت مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النساء : 25] فإنه لو جازت العارية لما كان خوف العنت والحاجة إلى نكاح الإماء وإلى الصبر على ترك نكاحهن متحققاً ، ونحوه

قوله سبحانه : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الذين لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً حتى يُغْنِيَهُمُ الله مِن فَضْلِهِ ﴾ [النور : 33] فإنه لو كانت العارية جائزة لم يؤمر الذين لا يجدون نكاحاً بالاستعفاف ، ولعل الرواية السابقة عن ابن عباس غير صحيحة ، وكذا اختلف في المتعة فذهبت الشيعة أيضاً إلى جوازها ، ويرد عليهم بما ذكرنا من الآيات الظاهرة في

(69/532)

تحريم العارية ، وأخرج عبد الرزاق .

وأبو داود في ناسخه عن القاسم بن محمد أنه سئل عن المتعة فقال : هي محرمة في كتاب الله تعالى وتلا : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافظون ﴾ [المؤمنون : 5] الآية وقرر وجه دلالة الآية على ذلك أن المستمتع بها ليست ملك اليمين ولا زوجة فوجب أن لا تحل له أما أنها ليست ملك اليمين فظاهر وأما أنها ليست زوجة له فلأنهما لا يتوارثان بالإجماع ولو كانت زوجة لحصل التوارث لقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزواجكم ﴾ [النساء : 12] وتعقبه في "الكشف" بأن لهم أن يقولوا : إنها زوجة يكشف الموت عن بينونتها قبيله كما أنها تبين بانقضاء الأجل قضاءً لحق التعليق والتأجيل ، وحاصله منع استفسار في الملازمة إن أريد لو كانت زوجة حال الحياة لم يفد وإن أريد بعد الموت فالملازمة ممنوعة فإن قيل : لا

تبين بالموت كالنكاح المؤبد .

أجيب بأنه قياس في عين ما افترق النكاحان به وهو فاسد بالإجماع .

وتعقب هذا شيخ الإسلام لخفاء معناه عليه بأنه ليس للترديد معنى محصل ولو قيل : إن أريد لو كانت زوجة حال الحياة فالملازمة ممنوعة وإن أريد بعد الموت لم يفد لكان له وجه ، وقال هو في رد الاستدلال لهم أن يقولوا إنها زوجة له في الجملة وأما إن كل زوجة ترث فهم لا يسلمونه ، وقال بعضهم : الحق أن الآية دليل على الشيعة فإن ظاهر كلامهم أنها ليست بزوجة أصلاً حيث ينفون عنها لوازم الزوجية بالكلية من العدة والطلاق والإيلاء والظهار وحصول الإحصان وإمكان اللعان والنفقة والكسوة والتوارث ويقولون بجواز جمع ما شاء بالمتعة ولا شك أن نفي اللازم دليل نفي الملزوم .

(70/532)

وتعقب بأن هذا حق لو سلم أنهم ينفون اللوازم كلها لكنه لا يسلم ، ونفى بعض اللوازم لا يكفي في الرد عليهم إذا قالوا : إن الزوجية قسمان كاملة وغير كاملة إذ بنفي ذلك البعض إنما ينتفي القسم الأول وهو لا يضرهم ، وقيل : الذي يقتضيه الإنصاف أن الآية ظاهرة في تحريم المتعة فإن المستمتع بها لا يقال لها زوجة في العرف ولا يقصد منها ما هو السر في

مشروعية النكاح من التوالد والتناسل لبقاء النوع بل مجرد قضاء الوطر وتسكين دغدغة المنى ونحو ذلك ، وزعم أنه يتم الاستدلال بالآية بهذا الطرز على التحريم سواء نفيت اللوازم أم لم تنف كما هو مذهب بعض القائلين بالحل كما سنشير إليه إن شاء الله تعالى .

ولعل الأقرب إلى الإنصاف أن يقال : متى قيل بنفي اللوازم من حصول الإحصان وحرمة الزيادة على الأربع ونحو ذلك كانت الآية دليلاً على الحرمة لأن المتبادر من الزوجية فيها الزوجية التي يلزمها مثل ذلك وهو كاف في الاستدلال على مثل هذا المطلب الفرعي ، ومتى لم يقل بنفي اللوازم ولم يفرق بينها وبين النكاح المؤبد إلا بالتوقيت وعدمه لم تكن الآية دليلاً على التحريم ، هذا ولي ههنا بحث لم أر من تعرض له وهو أنه قد ذكر في "الصحيحين" أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم المتعة يوم خيبر ، وفي "صحيح مسلم" أنه عليه الصلاة والسلام حرمها يوم الفتح ، ووفق ابن الهمام بأنها حرمت مرتين مرة يوم خيبر ومرة يوم الفتح وذلك يقتضي أنها كانت حلالاً قبل هذين اليومين ، وقد سمعت آنفاً ما يدل على أن هذه الآية مكية بالاتفاق فإذا كانت دالة على التحريم كما سمعت عن القاسم بن محمد وروى مثله ابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والحاكم وصححه عن عائشة رضي الله تعالى عنها لزم أن تكون محرمة بمكة يوم نزلت الآية وهو قبل هذين اليومين فتكون قد حرمت ثلاث مرات ولم أر أحداً صرح بذلك ، وإذا التزمناه يبقى شيء آخر وهو عدم تمامية الاستدلال بها وحدها على تحريم المتعة لمن يعلم أنها أحلت بعد نزولها كما لا يخفى ، لا يقال : إن للناس في المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة ، الأول : أن المكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بالمدينة أم بمكة عام الفتح أم عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار ، الثاني : أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدني ما نزل بالمدينة وعلى هذا تثبت الواسطة فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني الثالث : أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة ، وحينئذ يمكن أن تكون هذه الآية مكية بالاصطلاح الثاني وتكون نازلة يوم الفتح يوم حرمت المتعة في المرة الثانية ولا يكون التحريم إلا مرتين ويكون استدلال من استدلوا بها من الصحابة والتابعين وغيرهم على التحريم وإن علموا أن المتعة أحلت بعد الهجرة في بعض الغزوات مما لا غبار عليه ، وإذا التزم هذا الاصطلاح في مكية جميع السورة المجمع عليها حسبما سمعت عن البحر ينحل إشكال حمل الزكاة على الزكاة الشرعية مع فرضيتها بالمدينة بأن يقال : إن أوائل السورة نزلت بعد فرضية الزكاة في المدينة عام الفتح في مكة لأنا نقول : لا شبهة في أنه يمكن كون الآية مكية بالاصطلاح الثاني وكونها نازلة يوم الفتح

وكذ كل يمكن كون كل السورة أو أغلبها مكياً بذلك الإصطلاح وكل ما بني على ذلك صحيح بناء عليه إلا أن المتبادر من المكي والمدني المعنى المصطلح عليه أولاً لأن الإصطلاح الأول أشهر الاصطلاحات الثلاثة كما قاله الجلال السيوطي في "الاتقان" .

(72/532)

فالظاهر من قولهم : إن هذه السورة مكية أنها نزلت قبل الهجرة بل قد صرح الجلال المذكور بأنها إلا ما استثنى منها مما سمعته مكية على الاصطلاح الأول دون الثاني ولا يجزم مثله بذلك إلا عن وقوف فما ذكر مجرد تجويز أمر لا يساعد على ثبوته صريح نقل بل النقل الصريح مساعد على خلافه وهو المرجع فيما نحن فيه .

فقد قال القاضي أبو بكر في الانتصار : إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين ، وكونهما قد يعرفان بالقياس على ما ذكره الجعبري وغيره مع عدم جدواه ليس بشيء ، نعم إذا جعل استدلال الصحابي أو التابعي المطلع على إباحة المتعة بعد الهجرة بها قولاً باستثنائها عن أخواتها من آيات السورة وحكماً عليها بنزولها بعد الهجرة دونهم فالأمر واضح ، وستطلع أيضاً إن شاء الله تعالى على ما يوجب استثناء غير ذلك ، وبالجملة متى قيل المدار في أمثال هذه المقامات صريح النقل تعين القول بأن الآية مكية بمعنى

أنها نزلت قبل الهجرة ، وأشكل الاستدلال بها على تحريم المتعة بعد تحليلها بعد الهجرة لكون دليل التحليل مخصصاً لعمومها ، ومذهب الأئمة الأربعة جواز تخصيص عموم القرآن بالسنة مطلقاً وهو المختار ويحتاج حينئذ إلى دليل غيرها على التحريم ، وبعد ثبوت الدليل تكون هي دليلاً آخر بمعونته وهذا الدليل الاخبار الصحيحة من تحريم رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها وقد تقدم بعضها ، وفي "صحيح مسلم" عنه عليه الصلاة والسلام : " كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء وقد حرم الله تعالى ذلك إلى يوم القيامة " .

(73/532)

وأخرج الحازمي بسنده إلى جابر قال : " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك حتى إذا كنا عند العقبة مما يلي الشام جاءت نسوة فذكرنا تمتعنا وهن يطفن في رحالنا فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليهن وقال : من هؤلاء النسوة ؟ فقلنا : يا رسول الله نسوة تمتعنا منهن فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرت وجنتاه وتمعر وجهه وقام فينا خطيباً فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم نهى عن المتعة فتوادعنا يومئذ الرجال والنساء ولم نعد ولا نعود إليها أبداً " وقد روى تحريمها عنه عليه الصلاة والسلام أيضاً علي كرم الله تعالى وجهه وجاء ذلك في "صحيح مسلم" ووقع على

ما قيل إجماع الصحابة على أنها حرام وصح عند بعض رجوع ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إلى القول بالحرمة بعد قوله بحلها مطلقاً أو وقت الاضطرار إليها ، واستدل ابن الهمام على رجوعه بما رواه الترمذي عنه أنه قال : إنما كانت المتعة في أول الإسلام كان الرجل يقدم البلد ليس له بها معرفة فيتزوج بقدر ما يرى أنه مقيم فتحفظ له متاعه وتصلح له شأنه حتى إذا نزلت الآية

﴿ إِلاَّ على أزواجهم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون : 6] .

(74/532)

قال ابن عباس : فكل فرج سواهما فهو حرام ، ولا أدري ما عنى بأول الإسلام فإن عنى ما كان في مكة قبل الهجرة أفاد الخبر أنها كانت تفعل قبل إلى أن نزلت الآية فإن كان نزولها قبل الهجرة فلا إشكال في الاستدلال بها على الحرمة لو لم يكن بعد نزولها إباحة لكنه قد كان ذلك ، وإن عنى ما كان بعد الهجرة أوائلها وأنها كانت مباحة إذ ذاك إلى أن نزلت الآية كان ذلك قولاً بنزول الآية بعد الهجرة وهو خلاف ما روى عنه من أن السورة مكية المتبادر منه الاصطلاح الأول ولعله يلتزم ذلك ؛ ويقال : إن استدلاله بالآية قول باستثنائها كما مر آنفاً أو يقال : إن هذا الخبر لم يصح ، ويؤيد هذا قول العلامة ابن حجر : أن حكاية الرجوع عن ابن

عباس لم تصح بل صح كما قال بعضهم عن جمع أنهم وافقوه في الحل لكن خالفوه فقالوا : لا يترتب على ذلك أحكام النكاح ، وبهذا نازع الزركشي في حكاية الاجماع فقال : الخلاف محقق وإن ادعى جمع نفيه انتهى .

ويفهم منه أن ابن عباس يدخل المستمتع بها في الأزواج وحينئذ لا تقوم الآية دليلاً عليه فتدبر .

ونسب القول بجواز المتعة إلى مالك رضي الله تعالى عنه وهو افتراء عليه بل هو كغيره من الأئمة قائل بحرمتها بل قيل إنه زيادة على القول بالحرمة يوجب الحد على المستمتع ولم يوجبه غيره من القائلين بالحرمة لمكان الشبهة .

وكذا اختلف في استمناء الرجل بيده ويسمى الخضخضة وجلد عميرة فجمهور الأئمة على تحريمه وهو عندهم داخل فيما وراء ذلك ، وكان أحمد بن حنبل يجيزه لأن المني فضلة في البدن فجاز إخراجها عند الحاجة كالفصد والحجامة ، وقال ابن الهمام : يحرم فإن غلبته الشهوة ففعل إرادة تسكينها به فالرجاء أن لا يعاقب .

(75/532)

ومن الناس من منع دخوله فيما ذكر ففي "البحر" كان قد جرى لي في ذلك كلام مع قاضي القضاة أبي الفتح محمد بن علي بن مطيع القشيري بن دقيق العيد فاستدل على منع ذلك بهذه الآية فقلت : إن ذلك خرج مخرج ما كانت العرب تفعله من الزنا والتفاخر به في أشعارها وكان ذلك كثيراً فيهم بحيث كان في بغايا هم صاحبات رايات ولم يكونوا ينكرون ذلك وأما جلد عميرة فلم يكن معهوداً فيهم ولا ذكره أحد منهم في شعر فيما علمناه فليس بمندرج فيما وراء ذلك انتهى ، وأنت تعلم أنه إذا ثبت أن جلد عميرة كناية عن الاستمناء باليد عند العرب كما هو ظاهر عبارة "القاموس" فالظاهر ان هذا الفعل كان موجوداً فيما بينهم وإن لم يكن كثيراً شائعاً كالزنا فمتى كان ذلك من أفراد العام لم يتوقف اندراجه تحته على شيوعه كسائر أفراده ، وفي الأحكام إذا كان من عادة المخاطبين تناول طعام خاص مثلاً فورد خطاب عام بتحريم الطعام نحو حرمت عليكم الطعام فقد اتفق الجمهور من العلماء على إجراء اللفظ على عمومه في تحريم كل طعام على وجه يدخل فيه المعتاد وغيره وإن العادة لا تكون منزلة للعموم على تحريم المعتاد دون غيره خلافاً لأبي حنيفة عليه الرحمة وذلك لأن الحجة إنما هي في اللفظ الوارد وهو مستغرق لكل مطعوم بلفظه ولا ارتباط له بالعوائد وهو حاكم على العوائد فلا تكون العوائد حاكمة عليه ، نعم لو كانت العادة في الطعام المعتاد أكله قد خصصت بعرف الاستعمال اسم الطعام بذلك الطعام كما

خصصت الدابة بذوات القوائم الأربع لكان لفظ الطعام منزلاً عليه دون غيره ضرورة تنزيل مخاطبة الشارع للعرب على ما هو المفهوم لهم من لغتهم .

(76/532)

والفرق أن العادة أولاً إنما هي مطردة في اعتياد أكل ذلك الطعام المخصوص فلا تكون قاضية على ما اقتضاه عموم لفظ الطعام ، وثانياً هي مطردة في تخصيص اسم الطعام بذلك الطعام الخاص فتكون قاضية على الاستعمال الأصلي اه ، ومنه يعلم أن الاستمناء باليد إن كان قد جرت عادة العرب على إطلاق ذلك عليه وجرت على إطلاقه على ما عداه من الزنا ونحوه لم يدخل ذلك الفعل في العموم عند الجمهور .

ومن الناس من استدل على تحريمه بشيء آخر نحو ما ذكره المشايخ من قوله صلى الله عليه وسلم : " ناكح اليد ملعون " وعن سعيد بن جبير عذب الله تعالى أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم ، وعن عطاء سمعت قوماً يحشرون وأيديهم حبالى وأظن أنهم الذين يستمنون بأيديهم والله تعالى أعلم ، وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من محله .

ولا يخفى أن كل ما يدخل في العموم تفيد الآية حرمة فعله على أبلغ وجه ؛ ونظير ذلك إفادة

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزنى ﴾ [الإسراء : 32] حرمة فعل الزنا فافهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(77/532)

لطيفة

قال ابن عجيبة :

الإشارة : قال القشيري : الفلاح : الفوزُ بالمطلوب ، والظَّفَرُ بالمقصود . والإيمان : انتسامُ الحقِّ في السريرة ، ومخامرة التصديق بخُلاصة القلب ، واستكمال التحقيق من تامور الفؤاد . والخشوع في الصلاة : إطراق السِّرِّ على بساط النَّجوى ، باستكمال نَعْتِ الهيبة ، والذوبانِ تحت سلطان الكشف ، والانمحاءِ عند غلبات التَّجلِّي .

(78/532)

قلت : كأنه فسر الفلاح والإيمان والخشوع بغايتهن ، فأول الفلاح : الدخول في حوز الإسلام بحصول الإيمان ، وغايته : إشراق شمس العرفان ، وأول الإيمان : تصديق القلب بوجود

الرب ، من طرق الاستدلال والبرهان ، وغايته : إشراق أسرار الذات على السريرة ، فيصير الدليل محل العيان ، فتَبتَهج السريرة بمخامرة الذوق والوجدان ، وأوا الخشوع : تدبر القول فيما يقول ، وحضوره عندما يفعل ، وغايته : غيبته عن فعله في شهود معبوده ، فينمحي وجود العبد عند تجلي أنوار الرب ، فتكون صلاته شكراً لا قهراً ، كما قال سيد العارفين صلى الله عليه وسلم : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

ولا تتحقق هذه المقامات إلا بالإعراض عن اللغو ، وهو كل ما يشغل عن الله ، وتزكية النفوس ببذلها في مرضاة الله ، وإمساك الجوارح عن محارم الله ، وحفظ الأنفاس والساعات ، التي هي أمانات عند العبد من الله .

قال في القوت : قال بعض العارفين : إن الله – عز وجل – إلى عبده سرّين يُسِرهما إليه ، يُوجده ذلك بإلهام يُلهَمهُ ، أحدهما : إذا وُلِد وخرج من بطن أمه ، يقول له : « عبدي ، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً ، واستودعتك عُمرك ، ائتمنتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة ، وانظر كيف تلقاني كما أخرجتك ، » وسِرٌ عن خروج روحه ، يقول له : « عبدي ، ماذا صنعت في أمانتي عندك ؟ هل حفظتها حتى تلقاني على العهد والرعاية ، فالقاك بالوفاء والجزاء ؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب ؟ » فهذا داخل في قوله عز وجل : ﴿ والذين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ وفي قوله عز وجل : ﴿ وَأَوْفُواْ بعهدي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة : 40] فعُمْر العبد أمانة عنده ، إن حفظه أدى الأمانة ،

وإن ضيَّعه فقد خان ، ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخائنين ﴾ [الأنفال : 58] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 563.564 ﴾

(79/532)

وقال القاسمي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي : دخلوا في الفوز الأعظم ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ أي : متذللون مع خوف وسكون للجوارح ، لاستيلاء الخشية والهيبة على قلوبهم ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ . أي : عن الفضول وما لا يعني من الأقوال والأفعال ، معرضون في عامة أوقاتهم ، لاستغراقهم بالجد .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ أي : للتجرد عن رذيلة البخل . قيل : السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ؟ وجوابه : إن الذي فرض بالمدينة إنما هو النصب والمقادير الخاصة . وإلا فأصل التفضل بالعفو مشروع في أوائل البعثة ، فلا حاجة إلى دعوى إرادة زكاة النفوس من الشرك والعصيان ، لعدم التبادر إليه .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ

﴿ لأنه الحق المأذون فيه ﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ أي : الكاملون في العدوان المرتكبونه على أنفسهم .

تنبيهات :

(80/532)

الأول : دلت الآية على تعليق فلاح العبد على حفظ فرجه ، وأنه لا سبيل له إلى الفلاح بدونه ، وتضمنت هذه الآية ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين . وأنه من الملومين . ومن العادين . ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع في اللوم . فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها ، أيسر من بعض ذلك . وقد أمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم . وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليها ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر ، جعل الأمر بغضّه مقدماً على حفظ الفرج . فإن الحوادث مبدؤها من النظر . كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر . ثم تكون نظرة ، ثم تكون خطرة ، ثم خطوة ، ثم خطيئة . ولهذا قيل : من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه : اللحظات ، والخطرات ، واللفظات . والخطوات . فينبغي للعبد أن يكون بوّاب نفسه على هذه الأبواب الأربعة . ويلازم الرباط على ثغورها

. فمنها يدخل عليه العدوّ ، فيجوس خلال الديار ويتبروا ما علوا تتبيراً .

الثاني : روي عن الإمام أحمد أنه قال : لا أعلم بعد القتل ذنباً أعظم من الزنى .

(81/532)

واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال : يا رسول الله أي : الذنب أعظم ؟ قال : < أن تجعل لله نداً وهو خلقك قال قلت : ثم أي : ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال قلت : ثم أي : ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك > . والنبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل . فإنه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعه وما هو أعظم كل نوع ، فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله نداً . وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه . وأعظم أنواع الزنى أن يزني بحليلة جاره . فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق . فالزنى بالمرأة التي لها زوج ، أعظم إثماً وعقوبة من الزنى بالتي لا زوج لها إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه ، لم يكن منه , وغير ذلك من أنواع أذاه . فهو أعظم إثماً وجرماً من الزنى بغير ذات الزوج فإذا كان زوجها جاراً له ، انضاف إلى ذلك سوء الجوار ، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى . وذلك من أعظم البوائق . وقد ثبت عن النبيّ صلى الله

عليه وسلم أنه قال : < لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه > . ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأته . فالزنى بمائة امرأة لازوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار . فإن كان أخاً له ، أو قريباً من أقاربه ، انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم . فإن كان الجار غائباً في طاعة الله ، كالصلاة وطلب العلم والجهاد ، تضاعف الإثم ، فإن اتفق أن تكون المرأة رحماً منه ، انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها .

فإن اتفق أن يكون الزاني محصناً ، كان الإثم أعظم . فإن كان شيخاً كان أعظم إثماً وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عند الله ، كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة ، تضاعف الإثم .

(82/532)

وعلى هذا ، فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة والله المستعان .

الثالث : أجمع المسلمون على أن حكم التلوّط مع المملوك كحكمه مع غيره ، ومن ظن أن تلوط الإنسان مع مملوكه جائز ، واحتجّ على ذلك بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا

مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ وقاس ذلك على أمته المملوكة ، فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد . فإن تاب وإلا قتل وضربت عنقه . وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره . في الإثم والحكم . أفاد هذا وما قبله بتمامه الإمام ابن القيم في " الجواب الكافي " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 295 . 297 ﴾

(83/532)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) ﴾

بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ سورة المؤمنون

ذكر جل وعلا في هذه الآيات التي ابتدأ بها أول هذه السورة علامات المؤمنين المفلحين فقال ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ أي فازوا وظفروا بخير الدنيا والآخرة .

وفلاح المؤمنين مذكور ذكراً كثيراً في القرآن كقوله ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ الله فَضْلاً كِبِيراً ﴾ [الأحزاب : 47] وقوله ﴿ الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ أصل الخشوع : السكون ، والطمأنينة ، والانخفاض ومنه قول نابغة ذبيان :

رماد ككحل العين لأياً أبينه . . . ونؤى كجذم الحوض أثلم خاشع

وهو في الشرع : خشية من الله تكون في القلب ، فتظهر آثارها على الجوارح .

وقد عد الله الخشوع من صفات الدين أعد لهم مغفرة وأجراً عظيماً في قوله في الأحزاب ﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ [الأحزاب : 35] إلى قوله ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : 35] .

وقد عد الخشوع في الصلاة هنا من صفات المؤمنين المفلحين ، الذين يرثون الفردوس ، وبين أن من لم يتصف بهذا الخشوع تصعب عليه الصلاة في قوله ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : 45] وقد استدل جماعة من أهل العلم بقوله ﴿ الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر حيث يسجد .

(84/532)

وقال صاحب الدر المنثور : وأخرج ابن مردويه ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في سننه ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت ﴿ الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ فطأطأ رأسه " اه منه .

وأكثر أهل العلم على أن المصلي ينظر إلى موضع سجوده ، ولا يرفع بصره . وخالف المالكية الجمهور ، فقالوا : إن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده ، واستدلوا لذلك

بقوله تعالى ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144] قالوا : فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء ، وذلك ينافي كمال القيام . وظاهر قوله تعالى ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ لأن المنحني بوجهه إلى موضع سجوده ، ليس بمول وجهه شطر المسجد الحرام ، والجمهور على خلافهم كما ذكرنا .

واعلم أن معنى أفلح : نال الفلاح ، والفلاح يطلق في لغة العرب على معنيين :

الأول : الفوز بالمطلوب الأكبر ، ومنه قول لبيد :

فاعقلي إن كنت لما تعقلي . . . ولقد أفلح من كان عقل

أي فاز من رزق العقل بالمطلوب الأكبر .

والثاني : هو إطلاق الفلاح على البقاء السرمدي في النعميم ، ومنه قول لبيد أيضاً في رجز له :

لو أن حياً مدرك الفلاح . . . لناله ملاعب الرماح

يعني مدرك البقاء ، ومنه بهذا المعنى قول كعب بن زهير ، أو الأضبط بن قريع :

لكل هم من الهوم سعه . . . والمسى والصبح لا فلاح معه

أي لا بقاء معه ، ولا شك أن من اتصف بهذه الصفات التي ذكرها الله في أول هذه السورة الكريمة دخل الجنة كما هو مصرح به في الآيات المذكورة ، وأن من دخل الجنة نال الفلاح بمعنييه المذكورين ، والمعنيان اللذان ذكرنا للفلاح بكل واحد منهما ، فسر بعض العلماء

حديث الأذان والإقامة في لفظة : حي على الفلاح .

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3)

(85/532)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن من صفات المؤمنين المفلحين : إعراضهم عن اللغو .

وأصل اللغو ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ، فيدخل فيه اللعب واللهو والهزل ، وما توجب المروءة تركه .

وقال ابن كثير ﴿ عَنِ اللغو مُّعْرِضُونَ ﴾ أي عن الباطل ، وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم ، والمعاصي كما قاله آخرون ، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال اه منه .

وما أثنى الله به على المؤمنين المفلحين في هذه الآية . أشار له في غير هذا الموضع كقوله ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] ومن مرورهم به كراماً إعراضهم عنه ، وعدم مشاركتهم أصحابه فيه وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [القصص : 55] الآية .

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4)

في المراد بالزكاة هنا وجهان من التفسير معروفان عند أهل العلم .

أحدهما : أن المراد بها زكاة الأموال ، وعزاه ابن كثير للأكثرين .

الثاني : أن المراد بالزكاة هنا : زكاة النفس أي تطهيرها من الشرك ، والمعاصي بالإيمان بالله ، وطاعته وطاعة رسله عليهم الصلاة والسلام ، وعلى هذا فالمراد بالزكاة كالمراد بها في قوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : 9-10] وقوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ [الأعلى : 14] . الآية وقوله ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾ [النور : 21] وقوله ﴿ خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً ﴾ [الكهف : 81] الآية وقوله ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكاة ﴾ [فصلت : 6-7] على أحد التفسيرين . وقد يستدل لهذا القول الأخير بثلاث قرائن .

(86/532)

الأولى : أن هذه السورة مكية ، بلا خلاف ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة كما هو معلوم . فدل على أن قوله ﴿ والذين هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ نزل قبل فرض زكاة الأموال المعروفة ، فدل على أن المراد به غيرها .

القرينة الثانية : هي أن المعروف في زكاة الأموال : أن يعبر عن أدائها بالإيتاء كقوله تعالى ﴿ وَآتُواْ الزكاة ﴾ [البقرة : 43] وقوله ﴿ وَإِيتَآءَ الزكاة ﴾ [الأنبياء : 73] ونحو ذلك .

وهذه الزكاة المذكورة هنا ، لم يعبر عنها بالإيتاء ، بل قال تعالى فيها ﴿ والذين هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ فدل على أن هذه الزكاة : أفعال المؤمنين المفلحين ، وذلك أولى بفعل الطاعات ، وترك المعاصي من أداء مال .

الثالثة : أن زكاة الأموال تكون في القرآن عادة مقرونة بالصلاة ، من غير فصل بينهما كقوله ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة ﴾ [البقرة : 43] وقوله ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة ﴾ [البقرة : 277] وقوله ﴿ وَإِقَامَ الصلاة وَإِيتَآءَ الزكاة ﴾ [الأنبياء : 73] وهذه الزكاة المذكورة هنا فصل بين ذكرها ، وبين ذكر الصلاة بجملة ﴿ والذين هُمْ عَنِ اللغو مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : 3] .

والذين قالوا المراد بها زكاة الأموال قالوا : إن أصل الزكاة فرض بمكة قبل الهجرة ، وأن الزكاة التي فرضت بالمدينة سنة اثنتين هي ذات النصب ، والمقادير الخاصة .

(87/532)

وقد أوضحنا هذا القول في الأنعام في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام : 141] وقد يستدل ، لأن المراد بالزكاة في هذه الآية غير الأعمال التي تزكى بها النفوس من دنس الشرك والمعاصي ، بأنا لو حملنا معنى الزكاة على ذلك ، كان شاملاً لجميع

صفات المؤمنين المذكورة في أول هذه السورة ، فيكون كالتكرار معها ، والحمل على التأسيس والاستقلال أولى من غيره ، كما تقرر في الأصول . وقد أوضحناه في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : 97] الآية والذين قالوا : هي زكاة الأموال قالوا : فاعلون أي مؤدون ، قالوا : وهي لغة معروفة فصيحة ، ومنها قول أمية بن أبي الصلت :

المطعمون الطعام في السنة الأز . . . مة والفاعلون للزكوات

وهو واضح ، بحمل الزكاة على المعنى المصدري بمعنى التزكية للمال ، لأنها فعل المزكي كما هو واضح . ولا شك أن تطهير النفس بأعمال البر ، ودفع زكاة المال كلاهما من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الجنة .

وقد قال ابن كثير رحمه الله : وقد يحتمل أن المراد بالزكاة ها هنا : زكاة النفس من الشرك ، والدنس إلى أن قال ويحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً وهو زكاة النفوس ، وزكاة الأموال فإنه من جملة زكاة النفوس ، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا والله أعلم . اه منه .

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7)

ذكر جل وعلا في هذه الآيات الكريمة : أن من صفات المؤمنين المفلحين الذين يرثون الفردوس ويخلدون فيها حفظهم لفروجهم : أي من اللواط والزنى ، ونحو ذلك ، وبين أن حفظهم فروجهم ، لا يلزمهم عن نسائهم الذين ملكوا الاستمتاع بهن بعقد الزواج أو بملك اليمين ، والمراد به التمتع بالسراري ، وبين أن من لم يحفظ فرجه عن زوجه أو سريته لا لوم عليه ، وأن من ابتغى تمتعاص بفرجه ، وراء ذلك غير الأزواج والمملوكات فهو من العادين : أي المعتدين المتعدين حدود الله ، المجاوزين ما أحله الله إلى ما حرمه .

وبين معنى العادين في هذه الآية قوله تعالى في قوم لوط : ﴿ أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : 165-166] وهذا الذي ذكره هنا أيضاً في سورة سأل سائل لأنه قال فيها في الثناء على المؤمنين ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذَلِكَ فأولئك هُمُ العادون ﴾ [المعارج : 29-31] .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى : اعلم أن ما في قوله ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ من صيغ العموم ، والمراد بها من وهي من صيغ العموم . فآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] وآية ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ ﴾ [المعارج : 1] تدل بعمومها المدلول عليه بلفظة ما ، في قوله ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ في الموضعين على جواز جمع الأختين بملك اليمين في التسري بهما معاً لدخولهما في عموم ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ وبهذا قال داود الظاهري ، ومن تبعه : ولكن قوله تعالى ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأختين ﴾ [النساء : 23] يدل بعمومه على منع جمع الأختين ، بملك اليمين ، لأن الألف واللام في الأختين صيغة عموم ، تشمل كل أختين . سواء كانتا بعقد أو ملك يمين ولذا قال عثمان رضي الله عنه ، لما سئل عن جمع الأختين بملك اليمين : أحلتهما آية ، وحرمتهما أخرى يعني بالآية المحللة ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ وبالمحرمة ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأختين ﴾ .

وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب وسنذكر هنا إن شاء الله المهم مما ذكرنا فيه ونزيد ما تدعو الحاجة إلى زيادته .

(90/532)

وحاصل تحرير المقام في ذلك : أن الآيتين المذكورتين بينهما عموم ، وخصوص من وجه ، يظهر للناظر تعارضهما في الصورة التي يجتمعان فيها كما قال عثمان رضي الله عنهما : أحلتهما آية ، وحرمتهما أخرى وإيضاحة أن آية : ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ﴾ تنفرد عن آية ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ في الأختين المجموع بينهما ، بعقد نكاح وتنفرد آية ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ في الأمة الواحدة ، أو الأمتين اللتين ليستا بأختين ، ويجتمعان في الجمع بين الأختين ، فعموم ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ﴾ يقتضي تحريمه ، وعموم ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ يقتضي إباحته ، وإذا تعارض الأعمان من وجه في الصورة التي يجتمعان فيها : وجب الترجيح بينهما ، والراجح منهما ، يقدم ويخصص به عموم الآخر ، كما أَشار له في مراقي السعود بقوله :

وإن يك العموم من وجه ظهر . . . فالحكم بالترجيح حتما معتبر

وإذا علمت ذلك فاعلم أن عموم ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ﴾ مرجح من خمسة أَوجه على عموم ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ :

الأول : منها أن عموم ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ﴾ نص في محل المدرك المقصود بالذات ، لأن السورة سورة النساء : وهي التي بين الله فيها من تحل منهن ، ومن لا تحل وآية ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ في الموضعين لم تذكر من أجل تحريم النساء ، ولا تحليلهن بل ذكر الله صفات المؤمنين التي يدخلون بها الجنة . فذكر من جملتها حفظ الفرج ، فاستطرد أنه لا يلزم

حفظه عن الزوجة والسرية . وقد تقرر في الأصول : أن أخذ الأحكام من مظانها أولى من أخذها ، لا من مظانها .

(91/532)

الوجه الثاني : أن آية ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ ليست باقية على عمومها بإجماع المسلمين ، لأن الأخت من الرضاع لا تحل بملك اليمين ، إجماعاً للإجماع على أن عموم أو ما ملكت أيمانهم يخصصه عموم ﴿ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرضاعة ﴾ [النساء : 23] وموطوءة الأب لا تحل بملك اليمين إجماعاً ، للإجماع على أن عموم ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ يخصصه عموم ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النسآء ﴾ [النساء : 22] الآية .

والأصح عند الأصوليين في تعارض العام الذي دخله التخصيص ، مع العام الذي لم يدخله التخصيص : هو تقديم الذي لم يدخله التخصيص ، وهذا هو قول جمهور أهل الأصول ، ولم أعلم أحداً خالف فيه ، إلا صفي الدين الهندي ، والسبكي .

وحجة الجمهور أن العام المخصص ، اختلف في كونه حجة في الباقي ، بعد التخصيص ، والذين قالوا : هو حجة في الباقي . قال جماعة منهم : هو مجاز في الباقي ، وما اتفق على أنه حجة ، وأنه حقيقة ، وهو الذي لم يدخله التخصيص أولى مما اختلف في حجيته ، وهل هو

حقيقة ، أو مجاز ، وإن كان الصحيح : أنه حجة في الباقي ، وحقيقة فيه ، لأن مطلق حصول الخلاف فيه يكفي في ترجيح غيره عليه ، وأما حجة صفي الدين الهندي والسبكي ، على تقديم الذي دخله التخصيص فهي أن الغالب في العام التخصيص ، والحمل على الغالب أولى ، وأن ما دخله التخصيص يبعد تخصيصه مرة أخرى ، بخلاف الباقي على عمومه .

الوجه الثالث : أن عموم ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ﴾ غير وارد في معرض مدح ولا ذم وعموم ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ وارد في معرض مدح المتقين ، والعام الوارد في معرض المدح أو الذم .

(92/532)

اختلف العلماء في اعتبار عمومه ، فأكثر العلماء : على أن عمومه معتبر كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : 13-14] فإنه يعم كل بر مع أن للمدح ، وكل فاجر مع أنه للذم قال في مراقي السعود :

وما أتى للمدح أو للذم . . . يعم عند جل أهل العلم

وخالف في ذلك بعض العلماء منهم : الإمام الشافعي رحمه الله ، قائلاً : إن العام الوارد في

معرض المدح، أو الذم لا عموم له، لأن المقصود منه الحث في المدح والزجر في الذم، ولذا لم يأخذ الإمام الشافعي بعموم قوله تعالى: ﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله ﴾ [التوبة: 34] في الحلي المباح، لأن الآية سيقت للذم، فلا تعم عنده الحلي المباح.

وإذا علمت ذلك، فاعلم أن العام الذي لم يقترن بما يمنع اعتبار عمومه أولى من المقترن بما يمنع اعتبار عمومه، عند بعض العلماء.

الوجه الرابع: أنا لو سلمنا المعارضة بين الآيتين، فالأصل في الفروج التحريم، حتى يدل دليل لا معارض له على الإباحة.

الوجه الخامس: أن العموم المقتضي للتحريم أولى من المقتضي للإباحة، لأن ترك مباح أهو من ارتكاب حرام.

فهذه الأوجه الخمسة يرد بها استدلال داود الظاهري، ومن تبعه على إباحته جمع الأختين بملك اليمين، محتجاً بقوله: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ ولكن داود يحتج بآية أخرى يعسر التخلص من الاحتجاج بها، بحسب المقرر في أصول الفقه المالكي والشافعي، وإيضاح ذلك أن المقرر في أصول الأئمة الثلاثة المذكورين أنه إن ورد استثناء بعد جمل متعاطفة، أو مفردات متعاطفة، أن الاستثناء المذكور يرجع لجميعها خلافاً لأبي حنيفة القائل يرجع إلى الجملة الأخيرة فقط، قال في مراقي السعود:

وكل ما يكون فيه العطف . . . من قبل الاستثنا فكلا يقفو

دون دليل العقل أو ذي السمع . . . . . الخ

(93/532)

وإذا علمت أن المقرر في أصول الأئمة الثلاثة المذكورين رجوع الاستثناء لكل المتعاطفات ، وأنه لو قال الواقف في صيغة وقفه : هو وقف على بني تميم وبني زهرة والفقراء إلا الفاسق منهم ، أنه يخرج من الوقف فاسق الجميع لرجوع الاستثناء إلى الجميع ، وأن أبا حنيفة وحده هو القائل برجوعه إلى الجملة الأخيرة فقط . ولذلك لم يقبل شهادة القاذف ، ولو تاب وأصلح ، وصار أعدل أهل زمانه لأن قوله تعالى ﴿ وَلاَ تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وأولئك هُمُ الفاسقون إِلاَّ الذين تَابُواْ ﴾ [النور : 4-5] يرجع عنده الاستثناء فيه للأخيرة فقط وهي ﴿ وأولئك هُمُ الفاسقون إِلاَّ الذين تَابُواْ ﴾ أي فقد زال عنهم اسم الفسق ، ولا يقبل رجوعه لقوله تعالى ﴿ وَلاَ تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً ﴾ إلا الذين تابوا ، فاقبلوا شهادتهم بل يقول : لا تقبلوا لهم شهادة أبداً مطلقاً بلا استثناء لاختصاص الاستثناء عنده بالجملة الأخيرة ، ولم يخالف أبو حنيفة أصوله في قوله ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلها آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان : 68] إلى قوله ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ

وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ [الفرقان : 70] الآية . فإن هذا الاستثناء راجع لجميع الجمل المتعاطفة قبله عند أبي حنيفة ، وغيره .

ولكن أبا حنيفة لم يخالف فيه أصله لأن الجمل الثلاث المذكورة جمعت في الجملة الأخيرة ، التي هي

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً ﴾ [الفرقان : 68] لأن الإشارة في قوله : ذلك راجعة إلى الشرك ، والقتل والزنى في الجمل المتعاطفة قبله فشملت الجملة الأخيرة معاني الجمل قبلها ، فصار رجوع الاستثناء لها وحدها ، عند أبي حنيفة ، على أصله المقرر : مستلزماً لرجوعه للجميع .

(94/532)

وإذا حققت ذلك فاعلم أن داود يحتج لجواز جمع الأختين بملك اليمين أيضاً ، برجوع الاستثناء في قوله ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ ﴾ لقوله ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ﴾ فيقول : قوله تعالى : ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ﴾ وقوله : ﴿ والمحصنات مِنَ النسآء ﴾ [النساء : 24] يرجع لكل منهما الاستثناء في قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ ﴾ فيكون المعنى : وحرم عليكم أن تجمعوا بين الأختين ، إلا ما ملكت أيمانكم فلا يحرم عليكم فيه

الجمع بينهما ، وحرمت عليكم المحصنات من النساء ، إلا ما ملكت أيمانكم ، فلا يحرم عليكم .

وقد أوضحنا معنى الاستثناء من المحصنات في محله من هذا الكتاب المبارك ، وبهذا تعلم أن احتجاج داود برجوع الاستثناء في قوله ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ﴾ جار على أصول المالكية والشافعية والحنابلة ، فيصعب عليهم التخلص من احتجاج داود هذا .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي أن الجواب عن استدلال داود المذكور من وجهين :

الأول منهما : أن في الآية نفسها قرينة مانعة من رجوع الاستثناء ، إلى قوله : ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ﴾ لما قدمنا من أن قوله ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أي بالسبي خاصة مع الكفر ، وأن المعنى والمحصنات من النساء ، إلا ما ملكت أيمانكم : أي وحرمت عليكم المتزوجات من النساء ، لأن المتزوجة لا تحل لغير زوجها إلا ما ملكت أيمانكم بالسبي مع الكفر فإن السبي يرفع حكم الزوجية عن المسبية ، وتحل لسابيها بعد الاستبراء كما قال الفرزدق :

وذات حليل أنكحتها رماحنا . . . حلال لمن يبنى بها لم تطلق

وإذا كان ملك اليمين في قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ في السبي خاصة كما هو مذهب الجمهور ، كان ذلك مانعاً من رجوعه إلى قوله : ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ﴾ لأن محل النزاع في ملك اليمين مطلقاً ، وقد قدمنا في سورة النساء أن قول من قال : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ مطلقاً ، وأن بيع الأمة طلاقها أنه خلاف التحقيق ، وأوضحنا الأدلة على ذلك .

الوجه الثاني : هو أن استقراء القرآن يدل على أن الصواب في رجوع الاستثناء لجميع الجمل المتعاطفة قبله أو بعضها ، يحتاج إلى دليل منفصل ، لأن الدليل قد يدل على رجوعه للجميع أو لبعضها ، دون بعض . وربما دل الدليل على عدم رجوعه للأخيرة التي تليه . وإذا كان الاستثناء ربما كان راجعاً لغير الجملة الأخيرة التي تليه ، تبين أنه لا ينبغي الحكم برجوعه إلى الجميع إلا بعد النظر في الأدلة . ومعرفة ذلك منها ، وهذا القول الذي هو الوقف عن رجوع الاستثناء إلى الجميع إلا بعد النظر في الأدلة .

ومعرفة ذلك منها ، وهذا القول الذي هو الوقف عن رجوع الاستثناء إلى الجميع أو بعضها المعين ، دون بعض ، إلا بدليل مروي عن ابن الحاجب من المالكية ، والغزالي من الشافعية ، والآمدي من الحنابلة ، واستقراء القرآن يدل على أن هذا القول هو الأصح ، لأن الله يقول ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرسول ﴾ [النساء : 59] الآية وإذا رددنا

هذه المسألة إلى الله ، وجدنا القرآن دالاً على صحة هذا القول ، وبه يندفع أيضاً استدلال داود .

(96/532)

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ ﴾ [النساء : 92] فالاستثناء راجع للدية ، فهي تسقط بتصدق مستحقها بها ، ولا يرجع لتحرير الرقبة قولاً واحداً ، لأن تصدق مستحق الدية بها لا يسقط كفارة القتل خطأ ، ومنها قوله تعالى : ﴿ فاجلدوهم ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وأولئك هُمُ الفاسقون إِلاَّ الذين تَابُواْ ﴾ [النور : 4-5] الآية فالاستثناء لا يرجع لقوله ﴿ فاجلدوهم ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ لأن القاذف إذا تاب لا تسقط توبته حد القذف .

وما يروى عن الشعبي من أنها تسقطه ، خلاف التحقيق الذي هو مذهب جماهير العلماء ومنها قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ واقتلوهم حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً إِلاَّ الذين يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ ﴾ [النساء : 89-90] .

(97/532)

فالاستثناء في قوله : ﴿ إِلاَّ الذين يَصِلُونَ إلى قَوْمٍ ﴾ الآية لا يرجع قولاً واحداً ، إلى الجملة الأخيرة ، التي تليه أعني قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ﴾ [النساء : 89] لأنه لا يجوز اتخاذ ولي ولا نصير من الكفار أبداً ، ولو وصلوا إلى قوم بينكم ، وبينهم ميثاق ، بل الاستثناء راجع للأخذ والقتل في قوله : ﴿ فَخُذُوهُمْ واقتلوهم ﴾ [النساء : 89] والمعنى : فخذوهم بالأسر واقتلوهم إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم ، وبينهم ميثاق ، فليس لكم أخذهم بأسر ، ولا قتلهم ، لأن الميثاق الكائن لمن وصلوا إليهم يمنع من أسرهم ، وقتلهم كما اشترطه هلال بن عويمر الأسلمي في صلحه مع النَّبي صلى الله عليه وسلم كما ذكروا أن هذه الآية : نزلت فيه وفي سراقة بن مالك المدلجي ، وفي بني جذيمة بن عامر وإذا كان الاستثناء ربما لم يرجع لأقرب الجمل إليه في القرآن العظيم : الذي هو في الطرف الأعلى من الإعجاز تبين أنه ليس نصاً في الرجوع إلى غيرها .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشيطان إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : 83] على ما قاله : جماعات من المفسرين ، لأنه لولا فضل الله ورحمته لاتبعوا الشيطان ، كلا بدون استثناء ، قليل أو كثير كما ترى .

واختلفوا في مرجع هذا الاستثناء ، فقيل : راجع لقوله : ﴿ أَذَاعُواْ بِهِ ﴾ [النساء : 83

] وقيل : راجع لقوله ﴿ لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : 83] وإذا لم يرجع للجملة التي تليه ، لم يكن نصاً في رجوعه لغيرها .

(98/532)

وقيل : إن هذا الاستثناء راجع للجملة التي تليه . وأن المعنى : ولولا فضل الله عليكم ورحمته بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم لاتبعتم الشيطان في الاستمرار ، على ملة آبائكم من الكفر ، وعبادة الأوثان إلا قليلاً كمن كان على ملة إبراهيم في الجاهلية ، كزيد بن نفيل وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل ، وأمثالهم .

وذكر ابن كثير أن عبد الرزاق روى عن معمر عن قتادة في قوله : ﴿ لاَتَّبَعْتُمُ الشيطان إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : 83] معناه : لاتبعتم الشيطان كلا ، قال : والعرب تطلق القلة ، وتريد بها العدم . واستدل قائل هذا القرآن بقول الطرماح بن حكيم يمدح يزيد بن المهلب :

أشم ندى كثير النوادي . . . قليل المثالب والقادحه

يعني : لا مثلبة فيه ، ولا قادحة . وهذا القول ليس بظاهر كل الظهور ، وإن كانت العرب تطلق في لغتها ، وتريد بها العدم كقولهم : مررت بأرض قليل بها الكراث والبصل ، يعنون لا كراث فيها ولا بصل . ومنه قول ذي الرمة :

أنيخت فألقت بلدة فوق بلدة . . . قليل بها الأصوات إلا بغامها

يريد : أن تلك الفلاة لا صوت فيها غير بغام ناقته . وقول الآخر :

فما بأس لو ردت علينا تحية . . . قليلاً لدى من يعرف الحق عابها

يعني لا عاب فيها : أي لا عيب فيها عند من يعرف الحق ، وأمثال هذا كثير في كلام العرب ، وبالآيات التي ذكرنا تعلم : أن الوقف عن القطع برجوع الاستثناء لجميع الجمل المتعاطفة قبله إلا لدليل ، هو الذي دل عليه القرآن في آيات متعددة ، وبدلالتها يرد استدلال داود المذكور أيضاً والعلم عند الله تعالى .

(99/532)

المسألة الثانية : اعلم أن أهل العلم أجمعوا على أن حكم هذه الآية الكريمة في التمتع بملك اليمين في قوله : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ خاص بالرجال دون النساء ، فلا يحل للمرأة أن تتسرى عبدها ، وتتمتع به بملك اليمين ، وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم ، وهو يؤيد قول الأكثرين : أن النساء لا يدخلن في الجموع المذكرة ، الصحيحة إلا بدليل منفصل ، كما أوضحنا أدلته في سورة الفاتحة ، وذكر ابن جرير أن امرأة اتخذت مملوكها ، وقالت : تأولت آية من كتاب الله ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ

﴿ فأتى بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال له ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : تأولت آية من كتاب الله عز وجل على غير وجهها ، قال : فضرب العبد ، وجز رأسه وقال : أنت بعده حرام على كل مسلم . ثم قال ابن كثير : هذا أثر غريب منقطع ، ذكره ابن جرير في تفسير أول سورة المائدة ، وهو ها هنا أليق وإنما حرمها عَلَى الرجال ، معاملة لها بنقيض قصدها ، والله أعلم .

وقال أبو عبد الله القرطبي : قد روى معمر عن قتادة قال : تسررت امرأة غلامها ، فذكر ذلك لعمر فسألها ما حملك على ذلك ؟ قالت : كنت أراه يحل لي بملك يميني ، كما تحل للرجل المرأة بملك اليمين ، فاستشار عمر في رجمها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : تأولت كتاب الله عز وجل على غير تأويله لا رجم عليها ، فقال عمر : لا جرم ، والله لا أحلك لحر بعده عاقبها بذلك ، ودرأ الحد عنها ، وأمر العبد ألا يقربها .

(100/532)

وعن أبي بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول : أنا حضرت عمر بن عبد العزيز جاءته امرأة بغلام لها وضيء ، فقالت : إني استسررته ، فمنعني بنو عمي عن ذلكن وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها ، فإنه عنى بني عمي فقال عمر : أتزوجت قبله ؟ قالت :

نعم . قال : أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة ، ولكن اذهبوا به فبيعوه إلى من يخرج به إلى غير بلدها اه . من القرطبي .

المسألة الثالثة : اعلم أنه لا شك في أن آية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] هذه التي هي ﴿ فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذلك فأولئك هُمُ العادون ﴾ تدل بعمومها على منع الاستمناء باليد المعروف ، بجلد عميرة ، ويقال له الخضخضة ، لأن من تلذذ بيده حتى أنزل منيه بذلك ، قد ابتغى وراء ما أحله الله ، فهو من العادين بنص هذه الآية الكريمة المذكورة هنا ، وفي سورة سأل سائل وقد ذكر ابن كثير : أن الشافعي ومن تبعه استدلوا بهذه الآية ، على منع الاستمناء باليد . وقال القرطبي : قال محمد بن عبد الحكم : سمعت حرملة بن عبد العزيز ، قال : سألت مالكاً عن الرجل يجلد عميرة فتلا هذه الآية ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ العادون ﴾ .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي أن استدلال مالك ، والشافعي وغيرهما من أهل العلم بهذه الآية الكريمة ، على منع جلد عميرة الذي هو الاستمناء باليد استدلال صحيح بكتاب الله ، يدل عليه ظاهر القرآن ، ولم يرد شيء يعارضه من كتاب ولا سنة ، وما روي عن الإمام أحمد مع علمه ، وجلالته وورعه من إباحة جلد عميرة مستدلاً على ذلك بالقياس قائلاً : هو إخراج فضلة من البدن تدعو الضرورة إلى إخراجها فجاوز ،

قياساً على الفصد والحجامة ، كما قال في ذلك بعض الشعراء :

إذا حللت بواد لا أنيس به . . . فاجلد عميرة لا عار ولا حرج

(101/532)

فهو خلاف الصواب ، وإن كان قائله في المنزلة المعروفة التي هو بها ، لأنه قياس يخالف ظاهر عموم القرآن ، والقياس إن كان كذلك رد بالقادح المسمى فساد الاعتبار ، كما أوضحناه في هذا الكتاب المبارك مراراً وذكرنا فيه قول صاحب مراقي السعود :

والخلف للنص أو إجماع دعا . . . فساد الاعتبار كل من وعى

فالله جل وعلا قال : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ ولم يستثن من ذلك ألبتة إلا النوعين المذكورين ، في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ وصرح برفع الملامة في عدم حفظ الفرج ، عن الزوجة ، والمملوكة فقط ثم جاء بصيغة عامة شاملة لغير النوعين المذكورين ، دالة على المنع هي قوله ﴿ فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذلك فأولئك هُمُ العادون ﴾ وهذا العموم لا شك أنه يتناول بظاهره ، ناكح يده ، وظاهر عموم القرآن ، لا يجوز العدول عنه ، إلا لدليل من كتاب أو سنة ، يجب الرجوع إليه .

أما القياس المخالف له فهو فاسد الاعتبار ، كما أوضحنا ، والعلم عند الله تعالى .

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية ، بعد أن ذكر بعض من حرم جلد عميرة ، واستدلالهم بالآية ما نصه : وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور ، حيث قال : حدثني علي بن ثابت الجزري ، عن مسلمة بن جعفر ، عن حسان بن حميد ، عن أنس بن مالك ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العاملين ويدخلهم النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ومن تاب تاب الله عليه : الناكح يده ، والفاعل والمفعول ، ومدمن الخمر ، والضارب والدية ، حتى يستغيثا ، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه ، والناكح حليلة جاره " اه .

(102/532)

ثم قال ابن كثير : هذا حديث غريب وإسناده فيه من لا يعرف لجهالته والله أعلم : انتهى منه ولكنه على ضعفه يشهد له في نكاح اليد ظاهر القرآن في الجملة ، لدلالته على منع ذلك ، وإنما قيل للاستمناء باليد : جلد عميرة ، لأنهم يكنون بعميرة عن الذكر .

لطيفة : قد ذكر في نوادر المغفلين ، أن مغفلاً كانت أمه تملك جارية تسمى عميرة فضربتها مرة ، فصاحت الجارية ، فسمع قوم صياحها ، فجاؤوا وقالوا ما هذا الصياح ؟ فقال لهم ذلك المغفل : لا بأس تلك أمي كانت تجلد عميرة .

المسألة الرابعة : اعلم أنا قدمنا في سورة النساء ، أن هذه الآية التي هي قوله تعالى : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ تدل بظاهرها على منع نكاح المتعة ، لأنه جل وعلا صرح فيها بما يعلم منه ، وجوب حفظ الفرج عن غير الزوجة والسرية ، ثم صحر بأن المبتغي وراء ذلك من العادين بقوله ﴿ فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذلك فأولئك هُمُ العادون ﴾ وأن المرأة المستمتع بها في نكاح المتعة ، ليست زوجة ، ولا مملوكة . أما كونها غير مملوكة فواضح . وأما الدليل على كونها غير زوجة ، فهو انتفاء لوازم الزوجية عنها كالميراث والعدة والطلاق والنفقة ، ونحو ذلك ، فلو كانت زوجة لورثت واعتدت ووقع عليها الطلاق ، ووجبت لها النفقة ، فلما انتفت عنها لوازم الزوجية علمنا أنها ليست بزوجة ، لأن نفي اللازم يقتضي نفي الملزوم بإجماع العقلاء .

فتبين بذلك أن مبتغى نكاح المتعة من العادين المجاوزين ما أحل الله إلى ما حرم ، وقد أوضحنا ذلك في سورة النساء بأدلة الكتاب والسنة ، وأن نكاح المتعة ممنوع إلى يوم القيامة ، وقد يخفى على طالب العلم معنى لفظة على في هذه الآية يعني قوله تعالى ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ ﴾ الآية لأن مادة الحفظ ، لا تتعدى إلى المعمول الثاني في هذا الموضوع بعلى فقيل : إن على بمعنى : عن .

(103/532)

والمعنى : أنهم حافظون فروجهم عن كل شيء ، إلا عن أزواجهم ، وحفظ قد تتعدى بعن .

وحاول الزمخشري الجواب عن الإتيان بعلى هنا فقال ما نصه : على أزواجهم في موضع الحال أي إلا واللين ، على أزواجهم ، أو قوامين عليهن من قولك : كان فلان على فلانة ، فمات عنها ، فخلف عليها فلان ، ونظيره : كان زياد على البصرة : أي والياً عليها ، ومنه قولهم : فلانة تحت فلان ، ومن ثمّة سميت المرأة فراشاً .

والمعنى : أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال ، إلا في تزوجهم أو تسريهم ، أو تعلق على بمحذوف يدل عليه غير ملومين ، كأنه قيل : يلامون إلا على أزواجهم أي يلامون على كل مباشرة إلا على ما أطلق لهم ، فإنهم غير ملومين عليه ، أو تجعله صلة لحافظين من قولك : احفظ على عنان فرسي على تضمينه ، معنى النفي كما ضمن قولهم : نشدتك بالله إلا فعلت بمعنى : ما طلبت منك إلا فعلك ا ه منه ولا يخفى ما فيه من عدم الظهور .

قال أبو حيان : وهذه الوجوه التي تكلفها الزمخشري ظاهر فيها العجمة ، وهي متكلفة ، ثم استظهر أبو حيان أن يكون الكلام من باب التضمين ، ضمن حافظون معنى : ممسكون أو قاصرون ، وكلاهما يتعدى بعلى كقوله : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ [الأحزاب : 37] والظاهر أن قوله هنا ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ مع أن المملوكات من جملة العقلاء ،

والعقلاء يعبر عنهم بمن لا بما هو أن الإماء لما كنّ يتصفن ببعض صفات غير العقلاء كبيعهن وشرائهن ، ونحو ذلك . كان ذلك مسوغاً لإطلاق لفظة ما عليهن ، والعلم عند الله تعالى .

وقال بعض أهل العلم : إن وراء ذلك ، هو مفعول ابتغى : أي ابتغى سوى ذلك . وقال بعضهم : إن المفعول به محذوف ، ووراء ظرف . أي فمن ابتغى مستمتعاً لفرجه ، وراء ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(104/532)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) ﴾

افتتاح بديع لأنه من جوامع الكلم فإن الفلاح غاية كل ساع إلى عمله ، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون ذكر متعلِّق بفعل الفلاح يقتضي في المقام الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب ، فكأنه قيل : قد أفلح المؤمنون في كل ما رغبوا فيه .

ولما كانت همة المؤمنين منصرفة إلى تمكن الإيمان والعمَلِ الصالح من نفوسهم كان ذلك إعلاماً بأنهم نجحوا فيما تعلقت به هممهم من خير الآخرة وللحق من خيْر الدنيا ، ويتضمن بشارة برضى الله عنهم ووعداً بأن الله مكمل لهم ما يتطلبونه من خير .

وأكد هذا الخبر بحرف (قد) الذي إذا دخل على الفعل الماضي أفاد التحقيق أي التوكيد ، فحرف (قد) في الجملة الفعلية يفيد مفاد (إنّ واللام) في الجملة الاسميَّة ، أي يفيد توكيداً قويّاً .

ووجه التوكيد هنا أن المؤمنين كانوا مؤملين مثل هذه البشارة فيما سبق لهم من رجاء فلاحِهم كالذي في قوله : ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ [الحج : 77] ، فكانوا لا يعرفون تحقق أنهم أتوا بما أرضى ربهم ويخافون أن يكونوا فرطوا في أسبابه وما علق عليه وعده إياهم ، بلْهَ أن يعرفوا اقتراب ذلك ؛ فلما أخبروا بأن ما ترجَّوه قد حصل حقق لهم بحرف التحقيق وبفعل المضي المستعمل في معنى التحقق .

فالإتيان بحرف التحقيق لتنزيل ترقبهم إياه لفرط الرغبة والانتظار منزلة الشك في حصوله ، ولعل منه : قد قامت الصلاة ، إشارة إلى رغبة المصلين في حلول وقت الصلاة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " أرِحْنَا بها يا بلال " وشأن المؤمنين التشوق إلى عبادتهم كما يشاهد في تشوق كثير إلى قيام رمضان .

وحُذِف المتعلق للإشارة إلى أنهم أفلحوا فلاحاً كاملاً .

والفلاح : الظفَر بالمطلوب من عمل العامل ، وقد تقدم في أول البقرة .

ونيط الفلاح بوصف الإيمان للإشارة إلى أنه السبب الأعظم في الفلاح فإن الإيمان وصف جامع للكمال لتفرع جميع الكمالات عليه .

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2)

إجراء الصفات على ﴿ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] بالتعريف بطريق الموصول وبتكريره للإيماء إلى وجه فلاحهم وعلتِهِ ، أي أن كل خصلة من هاته الخصال هي من أسباب فلاحهم .

وهذا يقتضي أن كل خصلة من هذه الخصال سبب للفلاح لأنه لم يقصد أن سبب فلاحهم مجموع الخصال المعدودة هنا فإن الفلاح لا يتم إلاّ بخصال أخرى مما هو مرجع التقوى ، ولكن لما كانت كل خصلة من هذه الخصال تنبىء عن رسوخ الإيمان من صاحبها اعتبرت لذلك سبباً للفلاح ، كما كانت أضدادها كذلك في قوله تعالى ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ [المدثر : 42 46] على أن ذكر عدة أشياء لا يقتضي الاقتصار عليها في الغرض المذكور .

والخشوع تقدم في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ في سورة البقرة (45) وفي قوله : ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ في سورة الأنبياء (90) .

وهو خوف يوجب تعظيم المخوف منه ، ولا شك أن الخشوع ، أي الخشوع لله ، يقتضي

التقوى فهو سبب فلاح .

وتقييده هنا بكونه في الصلاة لقصد الجمع بين وصفهم بأداء الصلاة وبالخشوع وخاصة إذا كان في حال الصلاة لأنّ الخشوع لله يكون في حالة الصلاة وفي غيرها ، إذ الخشوع محلّهُ القلب فليس من أفعال الصلاة ولكنه يتلبس به المصلي في حالة صلاته .

وذكر مع الصلاة لأن الصلاة أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوّته ولذلك قدمت ، ولأنه بالصلاة أعلق فإن الصلاة خشوع لله تعالى وخضوع له ، ولأن الخشوع لما كان لله تعالى كان أولى الأحوال به حال الصلاة لأن المصلي يناجي ربه فيشعر نفسه أنه بين يدي ربه فيخشع له .

وهذا من آداب المعاملة مع الخالق تعالى وهي رأس الآداب الشرعية ومصدر الخيرات كلها .

(106/532)

ولهذا الاعتبار قدم هذا الوصف على بقية أوصاف المؤمنين وجعل مواليا للإيمان فقد حصل الثناء عليهم بوصفين .

وتقديمُ في صلاتهم ﴾ على ﴿ خاشعون ﴾ للاهتمام بالصلاة للإيذان بأن لهم تعلقاً

شديداً بالصلاة لأن شأن الإضافة أن تفيد شدة الاتصال بين المضاف والمضاف إليه لأنها على معنى لاَم الاختصاص .

فلو قيل : الذين إذا صلوا خشعوا ، فات هذا المعنى ، وأيضاً لم يتأت وصفهم بكونهم خاشعين إلاّ بواسطة كلمة أخرى نحو : كانوا خاشعين .

وإلاّ يفتْ ما تدل عليه الجملة الاسميّة من ثبات الخشوع لهم ودوَامِهِ ، أي كون الخشوع خُلقاً لهم بخلاف نحو : الذين خشعوا ، فحصل الإيجاز ، ولم يفت الإعجاز .

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3)

العطف من عطف الصفات لموصوف واحد كقول بعض الشعراء وهو من شواهد النحو :

إلى المَلِكِ القرْمِ وابنِ الهُمام

وليث الكتيبة في المزدحم

وتكرير الصفات تقوية للثناء عليهم .

والقول في تركيب جملة ﴿ هم عن اللغو معرضون ﴾ كالقول في ﴿ هم في صلاتهم خاشعون ﴾ [المؤمنون : 2] ، وكذلك تقديم ﴿ عن اللغو ﴾ على متعلقه .

وإعَادَةُ اسم الموصول دون اكتفاء بعطف صلة على صلة للإشارة إلى أن كل صفة من الصفات موجبة للفلاح فلا يتوهم أنهم لا يفلحون حتى يجمعوا بين مضامين الصلاة كلها ، ولما في الإظهار في مقام الإضمار من زيادة تقرير للخبر في ذهن السامع .

واللغو : الكلام الباطل .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ في البقرة (225) ، وقوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ في سورة مريم (62) .

(107/532)

والإعراض : الصد أي عدم الإقبال على الشيء ، من العُرض بضم العين وهو الجانب ، لأن من يترك الشيء يوليه جانبه ولا يقبل عليه فيشمل الإعراضُ إعْرَاضَ السمع عن اللغو ، وتقدم عند قوله : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ﴾ في سورة النساء (63) ، وقوله : ﴿ وإذَا رَأَيتَ الَّذِينَ يَخوضُونَ في آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ في سورة الأنعام (68) ، وأهمه الإعراض عن لغو المشركين عند سماع القرآن ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فِيهِ لعلكم تغلبون ﴾ [فصلت : 26] وقال تعالى : ﴿ وإذا مَرّوا باللَّغْوِ مَرّوا كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] .

ويشمل الإعراض عن اللغو بالألسنة ، أي أن يَلْغُوا في كلامهم .

وعقب ذكر الخشوع بذكر الإعراض عن اللغو لأن الصلاة في الأصْل الدعاء ، وهو من الأقوال الصالحة ، فكان اللغو مما يخطر بالبال عند ذكر الصلاة بجامع الضدية ، فكان

الإعراض عن اللغو بمعنَيي الإعراض مما تقتضيه الصلاة والخشوع لأن من اعتاد القول الصالح تجنب القول الباطل ومن اعتاد الخشوع لله تجنب قول الزور ، وفي الحديث " إنّ العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم " .

والإعراض عن جنس اللغو من خُلق الجِدّ ومن تخلق بالجد في شؤونه كملت نفسه ولم يصدر منه إلاّ الأعمال النافعة ، فالجد في الأمور من خلق الإسلام كما أفصح عن ذلك قول أبي خراش الهذلي بذكر الإسلام :

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل

سوى العَدل شيئاً فاستراح العواذل . . .

والإعراض عنه يقتضي بالأولى اجتناب قول اللغو ويقتضي تجنب مجالس أهله .

واعلم أن هذا أدب عظيم من آداب المعاملة مع بعض الناس وهم الطبقة غير المحترمة لأن أهل اللغو ليسوا بمرتبة التوقير ، فالإعراض عن لغوهم رَبْءٌ عن التسفل معهم .

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4)

(108/532)

أصل الزكاة أنها اسم مصدر (زكَّى) المشدّد ، إذا طهَّرَ النفس من المذمات .

ثم أطلقت على إنفاق المال لوجه الله مجازاً لأن القصد من ذلك المال تزكية النفس أو لأن ذلك يزيد في مال المعطي .

فأطلق اسم المُسَبَّب على السبب .

وأصله قوله تعالى : ﴿ خُذْ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ [التوبة : 103] ، وأطلقت على نفس المال المنفَق من إطلاق اسم المصدر على المفعول لأنه حاصل به وهو المتعين هنا بقرينة تعليقه بـ ﴿ فاعلون ﴾ المقتضي أن الزكاة مفعول .

وأما المصدر فلا يكون مفعولاً به لفعل من مادة (ف .

ع .

ل) لأن صوغ الفعل من مادة ذلك المصدر يغني عن الإتيان بفعل مبْهم ونصبِ مصدره على المفعوليَّة به .

فلو قال أحد : فعلت مشياً ، إذا أراد أن يقول : مَشَيْتُ ، كان خارجاً عن تركيب العربية ولو كان مفيداً ، ولو قال أحد : فعلت ممَّا تريده ، لصح التركيب قال تعالى : ﴿ مَن فعلَ هذا بآلهتنا ﴾ [الأنبياء : 59] ، أي هذا المشاهَد من الكَسْر والحطم ، أي هذا الحاصل بالمصدر .

وليس المراد المصدر لأنه لا يشار إليه ولا سيما بعد غَيْبَةِ فاعله .

والمراد بالفعل هنا الفعل المناسب لهذا المفعول وهو الإيتاء ، فهو كقوله ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ [المائدة : 55] فلا حاجة إلى تقدير أداء الزكاة .

وإنما أوثر هنا الاسم الأعمّ وهو ﴿ فاعلون ﴾ لأن مادة (ف ع ل) مشتهرة في إسداء المعروف ، واشتق منها الفَعال بفتح الفاء ، قال محمد بن بشير الخارجي :

إن تنفق المال أو تكلَفْ مساعيَه

يَشْقُقْ عليك وتفعل دون ما فعلا . . .

وعلى هذا الاعتبار جاء ما نسب إلى أمية بن أبي الصلت :

المطعمون الطعام في السَّنَة الأز

مة والفاعلون للزكوات . . .

أنشده في "الكشاف" .

وفي نفسي من صحة نسبته تردد لأني أحسب استعمال الزكاة في معنى المال المبذول لوجه الله إلاّ من مصطلحات القرآن ، فلعل البيت مما نحل من الشعر على ألسنة الشعراء .

(109/532)

قال ابن قتيبة في كتاب "الشعر والشعراء" "وعلماؤنا لا يرون شعر أمية حجة على الكتاب" .

واللام على هذا الوجه لام التقوية لضعف العامل بالفرعيَّة وبالتأخير عن معموله .

وقال أبو مسلم والراغب : اللام للتعليل وجعلا الزكاة تزكية النفس .

ومعنى ﴿ فاعلون ﴾ فاعلون الأفعال الصالحات فحذف معمول ﴿ فاعلون ﴾ بدلالة علته عليه .

وفي "الكشاف" أن الزكاة هنا مصدر وهو فعل المزكي ، أي إعطاء الزكاة وهو الذي يحسن أن يتعلق بـ ﴿ فاعلون ﴾ لأنه ما من مصدر إلاّ ويعبر عن معناه بمادة فَعَلَ فيقال للضارب : فَاعل الضرب ، وللقاتل : فاعل القتل .

وإنما حاول بذلك إقامة تفسير الآية فغلَّب جانب الصناعة اللفظية على جانب المعنى وجوّز الوجه الآخر على شرط تقدير مضاف ، وكلا الاعتبارين غير ملتزَم .

وعقب ذكر الصلاة بذكر الزكاة لكثرة التآخي بينهما في آيات القرآن ، وإنما فصل بينهما هنا بالإعراض عن اللغو للمناسبة التي سمعتَ آنفاً .

وهذا من آداب المعاملة مع طبقة أهل الخصاصة وهي ترجع إلى آداب التصرف في المال .

والقول في إعادة الموصول وتقديم المعمول كما تقدم آنفاً .

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ

(6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7)

الحفظ : الصيانة والإمساك .

وحفظ الفرج معلوم ، أي عن الوطء ، والاستثناء في قوله : ﴿ إلاّ على أزواجهم ﴾ الخ استثناء من عموم متعلَّقات الحفظ التي دلّ عليها حرف ﴿ على ﴾ ، أي حافظونها على كل ما يُحفظ عليه إلاّ المتعلَّق الذي هو أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فضمن ﴿ حافظون ﴾ معنى عدم البذل ، يقال : احفظ علي عنان فرسي كما يقال : أمسكْ عليّ كما في آية ﴿ أمسِكْ عَلَيْكَ زَوجك ﴾ [الأحزاب : 37] .

والمراد حِل الصنفين من بين بقية أصناف النساء .

(110/532)

وهذا مجمل تبينه تفاصيل الأحكام في عدد الزوجات وما يحل منهن بمفرده أو الجمع بَيْنَهُ .

وتفاصيل الأحوال من حال حِل الانتفاع أو حال عدة فذلك كله معلوم للمخاطبين ، وكذلك في الإماء .

والتعبير عن الإماء باسم ﴿ ما ﴾ الموصولة الغالب استعمالها لغير العاقل جرى على خلاف الغالب وهو استعمال كثير لا يحتَاج معه إلى تأويل .

وقوله : ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ تصريح بزائد على حكم مفهوم الاستثناء ، لأن الاستثناء لم يدل على أكثر من كون عدم الحفظ على الأزواج والمملوكات لا يمنع الفلاح فأريد زيادة بيان أنه أيضاً لا يوجب اللوم الشرعي ، فيدل هذا بالمفهوم على أن عدم الحفظ على من سواهن يوجب اللوم الشرعي ليحذره المؤمنون .

والفاء في قوله : ﴿ فإنهم غيرُ ملومين ﴾ تفريع للتصريح على مفهوم الاستثناء الذي هو في قوة الشرط فأشبه التفريع عليه جواب الشرط فقرىء بالفاء تحقيقاً للاشتراط .

وزيد ذلك التحذير تقريراً بأن فرع عليه ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ لأن داعية غلبة شهوة الفرج على حفظ صاحبه إياه غريزة طبيعيَّة يُخشى أن تتغلَّب على حافظها ، فالإشارة بذلك إلى المذكور في قوله : ﴿ إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ أي وراء الأزواج والمملوكات ، أي غير ذينك الصّنفين .

وذُكرَ حفظ الفرج هنا عطفاً على الإعراض عن اللغو لأن من الإعراض عن اللغو تركَ اللغو بالأحرى كما تقدم آنفاً ؛ لأن زلة الصالح قد تأتيه من انفلات أحد هذين العضوين من جهة ما أُودع في الجبلة من شهوة استعمالهما فلذلك ضبطت الشريعة استعمالهما بأن يكون في الأمور الصالحة التي أرشدت إليها الديانة .

وفي الحديث : " من يضمن لي ما بين لَحْيَيْهِ وما بين رِجْلَيْهِ أضمن له الجنَّة " .

واللوم : الإنكار على الغير ما صدر منه من فعل أو قول لا يليق عند الملائم ، وهو مرادف

العذل وأضعف من التعنيف .

و﴿ وراء ﴾ منصوب على المفعول به .

(111/532)

وأصل الوراء اسم المكان الذي في جهة الظهر ، ويطلق على الشيء الخارج عن الحد المحدود تشبيهاً للمتجاوز الشيءَ بشيء موضوع خلف ظهر ذلك الشيء لأن ما كان من أعلاق الشخص يجعل بَيْنَ يَدَيْه وبمرأى منه وما كان غير ذلك ينبذ وراء الظهر ، وهذا التخيل شاع عنه هذا الإطلاق بحيث يقال : هو وراء الحد ، ولو كان مستقبله .

ثم توسع فيه فصار بمعنى (غير) أو (مَا عدا) كما هنا ، أي فمن ابتغوا بفروجهم شيئاً غير الأزواج وما ملكت أيمانهم .

وأتي لهم باسم الإشارة في قوله : ﴿ فأولئك هم العادون ﴾ لزيادة تمييزهم بهذه الخصلة الذميمة ليكون وصفهم بالعدوان مشهوراً مقرراً كقوله تعالى : ﴿ وأولئك هم المتقون ﴾ في سورة البقرة (177) ، والعادي هو المعتدي ، أي الظالم لأنه عدا على الأمر .

وتوسيط ضمير الفصل لتقوية الحكم ، أي هم البالغون غاية العدوان على الحدود الشرعية .

والقول في إعادة الموصول وتقديم المعمول كما مرّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(112/532)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) ﴾

لما قال الحق – تبارك وتعالى – في الآية قبل السابقة من سورة الحج ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . . ﴾ [الحج : 77] ولعلَّ تفيد الرجاء ، أراد سبحانه أن يؤكد هنا على فلاح المؤمنين فقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] وأن الرجاء من الله واقع ومؤكد ، لذلك جاء بأداة التحقيق ﴿ قَدْ ﴾ التي تفيد تحقُّق وقوع الفعل ، وهكذا تنسجم بداية سورة (المؤمنون) مع نهاية سورة (الحج) .

وقوله تعالى هناك ﴿ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج : 77] وهنا ﴿ أَفْلَحَ ﴾ [المؤمنون : 1] مادة (فلح) مأخوذة من فلاحة الأرض ، والفَلْح هو الشق ؛ لذلك قالوا : إن الحديد بالحديد يفلح ، وشَقُّ الأرض : إهاجتها وإثارتها بالحرث ، وهذه العملية هي أساس الزرع ، ومن هنا سُمِّي الزرع حَرْثاً في قوله سبحانه : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحياة الدنيا

وَيُشْهِدُ اللهَ على مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخصام * وَإِذَا تولى سعى فِي الأرض لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحرث والنسل ﴾ [البقرة : 204 - 205] .

ومعنى أفلح : فاز بأقصى ما تتطلع إليه النفس من خير .

والأرض حين تحرثها تكون خالية ليس فيها شيء يُهْلَك ، إذن : المراد بالحرث هنا الزرع الناتج عن عملية الحرث ، والتي لا بُدَّ منها كي تتم عملية الزراعة ؛ لأنك بالحرث تثير التربة ليتخللها الهواء ، فيزيد من خصوبتها وصلاحها لاستقبال البذرة ، وسبق أن تحدثنا عن عملية الإنبات ، وكيف تتم ، وأن النبات يتغذى على فَلْقتي البذرة إلى أن يصبح له جذر قوي يستطيع أن يمتصّ من التربة ، فإن أُلقيتَ البذرة في أرض صماء غير مثارة فإن الجذر يجد صعوبة في اختراق التربة والامتصاص منها .

(113/532)

فالحق - تبارك وتعالى - يعطينا صورة من واقعنا المشاهد ، ويستعير من فلاحة الأرض ليعبر عن فلاح المؤمن وفوزه بالنعيم المقيم في الآخرة ، فالفلاح يحرث أرضه ويسقيها ويرعاها فتعطيه الحبة بسبعمائة حبة ، وهكذا سيكون الجزاء في الآخرة : ﴿ مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ والله

يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 261] .

فإذا كانت الأرض المخلوقة لله عز وجل تعطي كل هذا العطاء ، فما بالك بعطاء مباشر من خالقك وخالق الأرض التي تعطيك ؟ وكما أن الفلاح إذا تعب واجتهد زاد محصوله ، كذلك المؤمن كلما تعب في العبادة واجتهد زاد ثوابه وتضاعف جزاؤه في الآخرة .

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2)

كان أول ظاهرية الفلاح في الصلاة ، وما يزال الحديث عنها موصولاً بما قاله ربنا في الآيات السابقة : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ اركعوا واسجدوا وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ . . ﴾ [الحج : 77] وقال بعدها : ﴿ فَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة . . ﴾ [الحج : 78] .

وهنا جعل أول وصف للمؤمنين الذين أفلحوا ﴿ الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : 2] فلم يقل مثلاً : مؤدون ؛ لأن أمر أداء الصلاة في حق المؤمنين مفروغ منه ، العبرة هنا بالهيئة والكيفية ، العبرة بالخشوع والخضوع وسكينة القلب وطمأنينته واستحضار الله الذي تقف بين يديه .

كما تقول لولدك : اجلس أمام المعلم باهتمام ، واستمع إليه بإنصات ، فأنت لا توصيه بالذهاب إلى المدرسة أو حضور الدرس ، فهذا أمر مفروغ منه ؛ لذلك تهتم بجوهر الموضوع والحالة التي ينبغي أن يكون عليها .

والخشوع أن يكون القلب مطمئناً ساكناً في مهمته هذه ، فلا ينشغل بشيء آخر غير الصلاة ؛ لأن الله ما جعل لرجل من قلبين في جوفه ، وما دام في حضرة ربه عز وجل فلا ينبغي أن ينشغل بسواه ، حتى إن بعض العارفين لمعنى الخشوع يقول : إن الذي يتعمد معرفة مَنْ على يمينه أو مَنْ على يساره في الصف تبطل صلاته .

ولما دخل سيدنا عمر – رضي الله عنه – على رجل يصلي ويعبث بلحيته ، فضربه على يده وقال : لو خشع قلبك لخشعتْ جوارحك .

ذلك لأن الجوارح تستمد طاقتها من القلب ومن الدم الذي يضخه فيها ، فلو شغل القلب عن الجوارح ما تحركت .

لذلك لما سأل أحد الفقهاء صوفياً : ما حكم مَنْ سها في صلاته ؟ قال : حكمه عندنا أم عندكم ؟ قال : ألنا عند ولكم عند ؟ قال : نعم ، عند الفقهاء مَنْ يسهو في الصلاة يجبره سجود السهو ، أما عندنا فمَنْ يسهو في الصلاة نقتله . يعني مسألة كبيرة .

ثم ألاَ يستحق منك ربك وخالقك أن تتفرغ له سبحانه على الأقل وقت صلاتك ، وهي خمس دقائق في كل وقت من الأوقات الخمسة ، وقد تركك باقي الوقت تفعل ما تشاء ؟ اتستكثر على ربك أن تُفرِّغ له قلبك ، وأن تستحضره سبحانه ، وهذه العملية في صالحك أنت قبل كل شيء ، في صالحك أن تكون في جلوة مع ربك تستمد منه سبحانه الطاقة

والمعونة ، وتتعرض لنفحاته وإشراقاته وتقتبس من أنواره وأسراره ؟

ومن حرص أهل التقوى على سلامة الصلاة وتمامها قال أحدهم لصاحبه الذي يحرص على أنْ يؤم الناس : لماذا تحرص على الإمامة وأنت تعرف أن طالب الولاية لا يُولَّى ؟ قال : نعم أحرص عليها لأخرج من الخلاف بين الشافعي الذي قال بقراءة الفاتحة خلف الإمام ، وأبي حنيفة الذي قال بأن قراءة الإمام قراءة للمأموم ، فأحرص على الإمامة حتى أقرأ أنا ، ولا أنشغل بهذا الخلاف .

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3)

(115/532)

اللغو : الكلام الذي لا فائدة منه ، ويُطلق أيضاً على كل فعل لا جدوى منه ، وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] لا يشغلون به ولا يأبهون له ، وحكى القرآن عن الكفار عند سماعهم القرآن قولهم : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لِهذا القرآن والغوا فِيهِ . . ﴾ [فصلت : 26] .

لذلك جعل الحق – تبارك وتعالى – من نعيم الجنة : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾ [الواقعة : 25 – 26] كأن من المعايب في الدنيا ومن مصائبها

أن نسمع فيها لغواً كثيراً لا فائدة منه ، وفي آية أخرى يقول عن خمر الآخرة التي لا تُذهب العقل ، ولا تجعل صاحبها يهذي بلغو الكلام : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور : 23] .

و﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : 3] الإعراض في الأصل تجنّب الشيء ، وهو صورة لحركة إباء النفس لشيء ما . وأهل المعرفة يضعون للغو مقياساً ، فيقولون : كل عمل لا تنال عليه ثواباً من الله فهو لغو .

لذلك احرص دائماً أن تكون حركتك كلها لله حتى تُثَابَ عليها ، كصاحبنا الذي دخل عليه رجل وقصده في قضاء أمر من الأمور وهو لا يملك هذا الأمر ، لكن أراد أنْ يستغل فرصة الخير هذه ، وأن يكون له ثواب حتى في حركة الامتناع عنه ، فرفع يده : اللهم إنه عبد قصد عبداً وأنا آخذ بيده وأقصد رباً ، فاجعل تصويب خطئه في قصدي تصويباً لقصدك . يعني : أنا وإنْ كنتُ لا أقدر على قضائها إلا أنني أدخل بها على الله من هذه الناحية .

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4)

الزكاة أولاً تطلق على معنى التطهير ، كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : 103] لأن الغفلة قد تصيب الإنسان حال جمع المال ، فيخالط ماله ما فيه شبهة مثلاً ، فيحتاج إلى تطهير ، وتطهير المال يكون بالصدقة منه .

والزكاة بمعنى النماء ، فبعد أن تُطهر المال تُنمّيه وتزيده ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس : 9] يعني : نَمِّى ملَكة الخير فيها ، ورقَّاها وصعَّدها بأن ينظر إلى العمل إنْ كان سينقص منك في الظاهر ، إلا أنه سيجلب لك الخير فيما بعد ، فترتقي بذلك ملكَات الخير في نفسك .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن الربا ، وهو الزيادة جمع المتناقضات في آية واحدة ، فالربا يزيد المال ويأخذ المرابي المائة مائة وعشراً ، في حين تنقص الزكاة من المال في الظاهر ، فالمائة بعد الزكاة تصبح سبعة وتسعين ونصفاً ، ثم تأتي الآية لتضع أمامك المقياس الحقيقي : ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الربا وَيُرْبِي الصدقات ﴾ [البقرة : 276] ، فالربا الذي تظنه زيادة هو مَحْقٌ ، والذي تظنه نقصاً هو بركة وزيادة ونماء .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم : 39] أي : الذين يضاعف الله لهم ويزيدهم .

وكما أمرنا ربنا – تبارك وتعالى – بالخشوع في الصلاة أمرنا كذلك في الزكاة ، فلم يقل : مؤدون . ولكن ﴿ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون : 4] وهذه من تربية مقامات العبادة في الإنسان ، فأنت حين تصلي ينبغي أن تخشع وتخضع في صلاتك لله ، وكذلك حين تُزكّي تُرقِّي ملكَة الخير في نفسك ، فحين تعمل وتسعى لا تعمل على قَدْر حاجتك ، وإنما على قَدْر طاقتك ، فتأخذ من ثمرة سَعْيك حاجتك ، وفي نيتك أن تُخرِج من الباقي زكاة مالك وصدقتك ، فالزكاة – إذن – في بالك وفي نيتك بدايةً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ . . ﴾ .

الفروج : جمع فَرْج ، والمقصود سَوْءَتَا كُلٍّ من الرجل والمرأة ، وقد أمر الله تعالى بحفظها على المهمة التي خُلقت من أجلها ، ومهمة هذه الأعضاء إما إخراج عادم الجسم من بول أو غائط ، أو العملية الجنسية وهدفها حِفْظ النسل ، وعلى الإنسان أن يحفظ فرجه على ما أحلّه له في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ . . ﴾ .

أي : يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم ؛ لأن الله أحلها ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ . . ﴾ [المؤمنون : 6] ومِلْك اليمين حلال لم يَعُد له موضع ، ولم يَعُد له وجود الآن ، وقد حرم هذا

القانون البشري الدولي ، فلم يعد هناك إماء كما كان قبل الإسلام ، فهذا حكم مُعطّل لم يَعُدْ له مدلول ، وفرق بين أن يُعطّل الحكم لعدم وجود موضوعه وبين أن يُلْغى الحكم ، فمِلْك اليمين حكم لم يُلْغ ، الحكم قائم إنما لا يوجد له موضوع .

ولتوضيح هذه المسألة : هَبْ أنك في مجتمع كله أغنياء ، ليس فيهم فقير ولا مستحق للزكاة عندها تقول : حكم الزكاة مُعطّل ، فهي كفريضة موجودة ، لكن ليس لها موضوع .

(118/532)

وبعض السطحيين يقولون : لقد ألغى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – سهام المؤلفة قلوبهم ، والحقيقة أنه ما ألغى ولا يملك أن يُلغي حكماً من أحكام الله ، إنما لم يجد أحداً من المؤلّفة قلوبهم ليعطيه ، فالحكم قائم لكن ليس له موضوع ، بدليل أن حكم تأليف القلوب قائم ومعمول به حتى الآن في بلاد المسلمين ، وكثيراً ما نحاول تأليف قلوب بعض الكُتّاب وبعض الجماعات لنعطفها نحو الإسلام ، خاصة وغيرنا يبذلون قصارى جهودهم في ذلك . إذن : فسَهْم المؤلفة قلوبهم ما زال موجوداً ويُعمل به .

كما نسمع مَنْ يقول : إن عمر – رضي الله عنه – عطَّل حَدَّ السرقة في عام الرمادة ، وهذا ادعاء مخالف للحقيقة ؛ لأنه ما عطّل هذا الحد إنما عطَّل نصاً وأحيا نصاً ؛ لأن القاعدة

الشرعية تقول : ادرأوا الحدود بالشبهات . وما دام قد سرق ليسُدَّ جَوْعته فلم يصل إلى نصاب السرقة ، فالسرقة تكون بعد قدر يكفي الضرورة .

ولقائل أن يقول : إذا دارت حرب بين المؤمنين والكافرين وأسروا منا وأسرنا منهم ، ألا يوجد حينئذ مِلْك اليمينِ ؟ نقول : نعم يوجد مِلْك اليمين ، لكن ستواجهك قوانين دولية ألزمتَ نفسك بها وارتضيتها تقول بمنع الرقِّ وعليك الالتزام بها ، لكن إنْ وُجِد الرقُّ فمِلْك اليمين قائم وموجود . وهذه المسألة يأخونها سُبّة في الإسلام ، وكيف أنه يبيح للسيد كذا وكذا من مِلْك يمينه .

وهذا المأخذ ناشيء عن عدم فهم هؤلاء للحكمة من مِلْك اليمين ، وأن كرامة المملوكة ارتفعت بهذه الإباحة ، فالمملوكة أُخِذت في حرب أو خلافه ، وكان في إمكان مَنْ يأخذها أن يقتلها ، لكن الحق سبحانه حمى دمها ، ونمَّى في النفس مسألة النفعية ، فأباح لمَنْ يأسرها أن ينتفع بها وأحلّها له أيضاً .

(119/532)

ولك أن تتصور هذه الأَمَة أو الأسيرة في بيت سيدها ومعه زوجة أو أكثر وهي تشاهد هذه العلاقات الزوجية في المجتمع من حولها ، إن من حكمة الله أن أباح لسيدها معاشرتها

؛ لأنها لن ترى لربة البيت بعد ذلك مزيّة عليها ؛ لأنهما أصبحا سواء ، فإذا ما حملتْ من سيدها فقد أصبحتْ حُرَّة بولدها ، وكأن الحق سبحانه يُسيِّر الأمور تجاه العِتْق والحرية .

ألاَ تراه بعد هذا يفتح باب العتق ويُعدِّد أسبابه ، فجعله أحد مصارف الزكاة وباباً من أبواب الصدقة وكفَّارة لبعض التجاوزات التي يرتكبها الإنسان .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون : 6] يعني : لا نمدحهم ولا نذمُّهم ، وكأن المسألة هذه في أضيق نطاق .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذلك . . ﴾

﴿ ابتغى ﴾ : طلب ، ﴿ وَرَآءَ ذلك ﴾ : غير ما ذكرناه من الأزواج ومِلْك اليمين .

وسبق أن ذكرنا أن كلمة ﴿ وَرَآءَ ﴾ استُعمْلت في القرآن لمعَان عدة ، فهي هنا بمعنى غير الأزواج ومِلْك اليمين . ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه : ﴿ . . وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذلكم ﴾ [النساء : 24] يعني : حرَّمْت عليكم كذا وكذا ، وأحلَّتُ لكم غير ما ذُكِر .

وتُستعمل وراء بمعنى بَعْد ؛ لأن الغيرية قد تتحد في الزمن ، فيوجد الاثنان في وقت واحد ، أمّا البعدية فزمنها مختلف ، كما قوله تعالى : ﴿ وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : 71] يعني : من بعده ؛ لأن الزمن مختلف

.

وتأتي وراء بمعنى : خلف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الذين أُوتُواْ الكتاب

لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران : 187] يعني : جعلوه خلف ظهورهم .

(120/532)

وتأتي وراء أيضاً بمعنى أمام ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ [الكهف : 79] ومعلوم أن الملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة تمرُّ به فيأخذها غَصْباً .

وقوله تعالى : ﴿ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ . . ﴾ [ابراهيم : 16] وجهنم أمامه ، وستأتي فيما بعد ، ولم تَمْضِ فتكون خلفه .

ومعنى : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ العادون . . ﴾ [المؤمنون : 7] أي : المعتدون المتجاوزون لما شُرِع لهم ، وربنا – تبارك وتعالى – حينما يُحذِّرنا من التعدي يُفرِّق بين التعدي في الأوامر ، والتعدي في النواهي ، فإنْ كان في الأوامر يقول : ﴿ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة : 229] . وإن كان في النواهي يقول : ﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة : 187] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(121/532)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

(122/532)

قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (المؤمنون : 1 – 11) ، وفي سورة المعارج : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا

مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ) (المعارج: 19 - 35) ، للسائل أن يسأل عما اختلف في هاتين السورتين من هذه الأوصاف بالتكرار فيهما والزيادة مع اتحاد مرماهما من ذكر

(123/532)

حِلي المؤمنون وأوصافهم التي بها نجاتهم بتوفيق الله إياهم؟ ففي الأولى: ذكر الخشوع في الصلاة، والإعراض عن اللغو، والتنصيص على الزكاة، ولم يرد إفصاح بهذه الخصال الثلاث في سورة المعارج، وفي سورة المعارج المداومة على الصلاة، وتعيين ذوي الحق في المال بأنهم السائل والمحروم، وذكر التصديق بيوم الدين، والدين الجواء، وذكر الإشفاق من عذاب ربهم وأنه غير مأمون، وذكر القيام بالشهادة، ولم يقع إفصاح بهذه الخصال الخمس من سورة المؤمنون، وتوارد على الاتفاق في السورتين التساوي على حفظ الفروج، وذكر الأمانة، والعهد والمحافظة على الصلاة، أربعتها، فهذه ثلاثة سؤالات: أحدها التكرر والاتفاق؟ والثاني وجه ما اختصت به سورة المؤمنون؟ والثالث (وجه) ما اختصت به

سورة المعارج؟

والجواب عن الأول : أن حفظ الفروج أحد الأصول الخمسة التي اتفقت فيها الشرائع ، ولم يخالف فيها أحد من العقلاء ، وهي : حفظ النفوس ، والأموال ، والفروج ، والعقول ، والأعراض .

وأما الأمانة فلا يتم حفظ هذه الخصال إلا بها ، فهي الأصل لتلك الأصول ، والضابط لجميع التكاليف ، وزمام الأديان ، وفي الحديث : (الدين الأمانة ولا دين لمن لا أمانة له) ، وهي التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبت عن حملها ، وهي بالجملة ملاك الدين .

وأما الوفاء بالعهد فلاحقٌ بالأمانة في نصاب التأكيد ، قال تعالى : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ) (الإسراء : 34) ، وتكرر الأمر بذلك لعظيم قدر الأمانة و (العهد) .

(124/532)

وأما المحافظة على الصلوات ، رعياً لأوقاتها ، وكيفية أدائها ، وما تنطوي عليه من جميع مطلوباتها ومتعلقاتها ، وما تستلزمه وتستتبعه حتى تكون ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فذلك كل الدين ، والمعبر به عن أخص صفات الناجين في قوله تعالى إخباراً عن جواب الهالكين : (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) (المدثر : 43) ، فموقع هذه الخصال الأربع وضمها لما

سواها من المطالب الإيمانية ، واشتمالها على جميعها ، أوجب تعيينها بالذكر ، ولم يكن ليحصل من ذكر غيرها ما حصل من التنصيص عليها فتكررت في السورتين ، ونص فيهما عليها لأنها أمهات لما سواها .

فإن قلت : فإن الزكاة شقيقة الصلاة في التأكيد لأنها أم العبادات المالية ، ولهذا قاتل أبو بكر مانعيها ورجع الصحابة ، رضي الله عنهم ، إلى قوله ، وقل ما يرد الأمر بالصلاة في كتاب الله إلا مقروناً به الأمر بالزكاة ، قال تعالى : (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ) (التوبة : 5) ، وهذا هو الذي تهدي إليه الصديق ، رضي الله عنه ، غير متذكر في الوقت والله أعلم للآية ، وإذا وضح ذلك فللقائل أن يقول : فلم لم تذكر مع أنها من الأمهات ؟

والجواب عن هذا – والله أعلم – أن وصف الحق بمعلوم في قوله : (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ) جار مجرى الإفصاح بذكر الزكاة ، إذ لا مطلوب معلوماً مقدراً في المال إلا الزكاة ، فقام الوصف مقام الإفصاح بذكرها .

والجواب عن السؤال الثاني ، وهو وجه ما خصت به آية المؤمنون ، وهو أنه افتتحها تعالى بقوله : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) ، والمفلح الظافر ببغيته ، ابتداء من أوصاف المفلحين بأجل خصالهم ، وهو خشوعهم في صلاتهم المنبئ بعظيم خوفهم الذي لا يمكن معه

تفريط ولا فتور في العبادة ، ثم قال : (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) ، ومن أعرض عن اللغو سلم من كل ما يشين دينه ، وحصل من هذا وما قبله ترك الممخالفات جملة ، ثم قال : (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ) (المؤمنون : 4) ، وهذه أخت الصلاة ، قال تعالى : (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ) (التوبة : 5) ، وقال بعد : (فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ) (التوبة : 11) ، وقد حصل بحصول هذه الخصائص ما به وصف المتقون في قوله : (يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) إلى قوله : (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (البقرة : 5) ، فوضح منه أن هذه أخص صفات من أفلح وفاز برضى الله سبحانه ، فهذا ما أوجب تخصيص هذه السورة بالإفصاح بهذه الأوصاف الثلاثة .

(126/532)

وأما ما خصت به سورة المعارج – وهو الجواب الثالث – إنه سبحانه لما وصف الإنسان بقوله : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا) (المعارج : 19) ، والهلوع الفزع الشديد يقال هلع بكسر ثانية فهو هلع وهلوع ، ثم ذكر سبحانه ما يثمره للإنسان هلعه فقال : (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا) (المعارج : 20) ، والجزع ضد الصبر ، (وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) (المعارج :

21) والمنع ضد الإعطاء وكلا الوصفين من الجزع والمنع مذموم ، مأمور شرعاً بضدهما من الصبر والإيثار ، وقد أثنى سبحانه على الصابرين والمؤثرين ، فالهلع من أرذل صفات الإنسان ، فذكر تعالى صفات من سلم منه ، وأنهم المداومون على صلاتهم ، لأن المداومة على الصلاة عنوان على تلقي الأوامر بالقبول والامتثال ، ولا يكون ذلك إلا عن يقين صادق ، وقد قال تعالى : (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ) (طه : 132) ، ومن تيقن أن خالقه تكفل له برزقه أجمل في الطلب ، وذهب عنه الجزع ، ومن علم الحق في ماله من زكاة مفروضة أو صدقة مندوب إليها لم يكن منوعاً للخير ، فإذا اتصف بما ذكر ، وكان ذلك عن تصديق يقيني بيوم حسابه ، وإشفاق من عذاب ربه وعقابه ، ولم يأمن المكر (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) (الأعراف : 99) ، فمن كان هكذا فليس بهلوع ، فلهذا استثنى من اتصف بهذه الصفات الجليلة عن مسببات الهلع من المنع والجزع ، فلهذا وجه تخصيص هذه السورة بالإفصاح بما خصت به من هذه الأوصاف مفحصاً به .

(127/532)

وإنما قلت : مفصحاً به لأن ما ذكر في هذه السورة مما لم يقع به إفصاح في سورة المؤمنون داخل تحت ما ذكر هناك ، كما أن ما أفصح به هناك داخل تحت ما ذكر مفصحاً به هنا . ألا ترى أن أفعال المكلفين من الأحكام الخمسة وهي : الواجب والمحظور والمندوب والمكروه والمباح ، كل ذلك داخل تحت ضابط الأمانة والوفاء بالعهد ، ومن أوفى بما عهد عليه الله في أمانة فقد أتى ووفي بجميع التكاليف الشرعية أخذاً وتركاً ، وكذا الصلاة الموصوفة تماماً وخشوعاً بأنها ناهية عن الفحشاء والمنكر ، إلا أن الإفصاح والتنصيص النطقي حكم ، عليه بنينا ما تقدم ، فقد وضحت النسبة فيما خصت به كل واحدة من السورتين ، ووجه ما اتفقنا في وروده مفصحاً به ، والله سبحانه أعلم .

وأما الشهادة فداخلة تحت الأمانة ، ووجه تخصيص هذه السورة بالإفصاح بها أنها الثانية في الترتيب الثابت ، فاستوفت وأكدت ما أشير إليه في الأخرى ، والله أعلم . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 364 . 367 ﴾

(128/532)

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [1 ، 2]

قيل : ما الخشوع ؟ قال : الخشوع علانية ، وهو الوقوف بين يدي الله تعالى على الإقامة على شروط آداب الآمر ، وهو تخليص الحركات والسكون عما سواه ، وأصل ذلك الخشية في السر ، فإذا أعطي الخشية ظهر الخشوع على ظاهره ، وهي من شروط الإيمان .

وقد حكي عن الحسن بن علي رضي الله عنه أنه إذا فرغ من وضوئه تغير لونه ، فقيل له في ذلك ، فقال : يحق على من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه .

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لمعاذ : « يا معاذ : إن المؤمن قد قيده القرآن عن كثير من هوى نفسه ، وحال بينه وبين أن يهلك فيما هوي بإذن الله ، إن المؤمن لذي الحق أسير .

يا معاذ : إن المؤمن يسعى في فكاك رقبته .

يا معاذ : إن المؤمن لا تسكن روعته ، ولا يؤمن اضطرابه حتى يخلف جسر جهنم .

يا معاذ : إن المؤمن يعلم أن عليه رقباء على سمعه وبصره ولسانه ويده ورجليه وبطنه وفرجه ، حتى اللمحة ببصره ، وفتات الطينة بإصبعه ، وكحل عينه ، وجميع سعيه ، التقوى رفيقه ، والقرآن دليله ، والخوف محجته ، والشوق مطيته ، والوجل شعاره ، والصلاة كهفه ، والصيام جنته ، والصدقة فكاكه ، والصدق وزيره ، والحياء أميره ، وربه من وراء ذلك بالمرصاد .

يا معاذ : إني أحب لك ما أحب لنفسي ، وأنهيت إليك ما أنهى إلي جبريل صلوات الله عليه ، فلا أعرفن أحداً يوافيني يوم القيامة أسعد بما آتاك الله تعالى منك » . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 109 ﴾

(129/532)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ : العامَّةُ على " أَفْلَحَ " مفتوحَ الهمزةِ والحاءِ فعلاً ماضياً مبنياً للفاعلِ . وورشٌ على قاعدتِه مِنْ نَقْلِ حركةِ الهمزةِ إلى الساكنِ قبلَها وحَذْفِها . وعن حمزةَ في الوقف خلفٌ : فرُوِيَ عنه كورشٍ ، وكالجماعة . وقال أبو البقاء : " مَنْ ألقى حركةَ الهمزةِ على الدالِ وحَذَفَها فَعِلَّتُه : أنَّ الهمزةَ بعد حَذْفِ حركتِها صُيِّرَتْ ألفاً ، ثم حُذِفَتْ لسكونِها وسكونِ الدالِ قبلها في الأصل . ولا يُعْتَدُّ بحركةِ الدال لأنها عارضةٌ " . وفي كلامِه نظرٌ من وجهين ، أحدهما : أنَّ اللغةَ الفصيحةَ في النقلِ حَذْفُ الهمزةِ من الأصلِ فيقولون : المَرَة والكَمَة في : المَرْأَة والكَمْأَة . واللغةُ الضعيفةُ فيه إبقاؤُها وتَدْبيرُها بحركةِ ما قبلَها فيقولون : المَراة والكَماة بمَدَّةٍ بدل الهمزةِ كراس وفاس فيمَنْ خفَّفَهما . فقولُه : "

صُيِّرَتْ ألفاً " ارتكابٌ لأضعفِ اللغتين .

الثاني : أنه وإنْ سُلِّمَ أنَّها صُيِّرَتْ ألفاً فلا نُسَلِّم أنَّ حَذْفَها لسكونِها وسكونِ الدالِ في الأصل ، بل حَذْفُها لساكنٍ محققٌ في اللفظِ وهو الفاء مِنْ " أفلح " ، ومتى وُجد سببٌ ظاهرٌ أُحيل الحُكْمُ عليه دونَ السبب المقدر .

(130/532)

وقرأ طلحة بن مصرف وعمرو بن عبيد " أُفْلِحَ " مبنياً للمفعول أي : دَخَلوا في الفلاح . فيُحتمل أَنْ يكونَ مِنْ أفلح متعدّياً . يقال : أَفْلحه أي : أصاره إلى الفلاح ، فيكون " أفلح " مستعملاً لازماً ومتعدّياً . وقرأ طلحة أيضاً " أَفْلَحُ " بفتح الهمزة واللام وضمِّ الحاء . وتخريجُها على أنَّ الأصلَ " أَفْلحوا المؤمنون " بلحاقِ علامةِ جمعٍ قبل الفاعلِ كلغة " أكلوني البراغيث " فيجيءُ فيها ما قَدَّمْتَه في قول : ﴿ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [المائدة : 71] ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ﴾ [الأنبياء : 3] قال عيسى : " سمعتُ طلحةَ يقرؤُها . فقلتُ له : أتلحنُ ؟ قال : نعم كما لحن أصحابي " يعني اتَّبَعْتُهم فيما قَرَأْتُ به . فإنْ لَحَنوا على سبيلِ فَرْضِ المُحالِ فأنا لاحنٌ تَبَعاً لهم . وهذا يدلُّ على شدّةِ اعتناءِ القدماءِ بالنَّقْلِ وضَبْطِه خلافاً لمن يُغَلِّطُ الرواةَ .

وقال ابن عطية : " وهي قراءةٌ مردودةٌ " . قلت : ولا أدري كيف يَرُدُّونها مع ثبوتِ مِثْلِها في القرآن بإجماع وهما الآيتان المتقدمتان ؟ وقال الزمخشري : " وعنه أي عن طلحة " أَفْلَحُ " بضمةٍ بغير واو ، اجتزاءً بها عنها كقوله :

3401 فلَوْ أنَّ الأَطِبَّا كانُ حَوْلِي . . . . . .

. . . . . .

وفيه نظرٌ مِنْ حيث إنَّ الواوَ لا تَثْبُتُ في مثلِ هذا دَرْجاً لئلاَّ يلتقي ساكنان ، فالحَذْفُ هنا لا بُدَّ منه فكيف يقول اجتزاءً عنها بها ؟ وأمَّا تنظيرُه بالبيتِ فليس بمطابقٍ ؛ لأنَّ حَذْفَها من الآيةِ ضروريٌّ ومن البيتِ ضرورةٌ . وهذه الواوُ لا يظهر لفظُها في الدَّرْجِ ، بل يظهرُ في الوقفِ وفي الخَطِّ .

(131/532)

وقد اختلف النَّقَلَةُ لقراءةِ طلحة : هل يُثبَتُ للواوِ صورةً ؟ ففي كتاب ابن خالويه مكتوباً بواو بعد الحاء ، وفي " اللوامح " : " وحُذِفَتْ الواوُ بعد الحاءِ لالتقائِهما في الدَّرج ، وكانت الكتابةُ عليها محمولةً على الوصلِ نحو : ﴿ وَيَمْحُ اللهُ الباطل ﴾ [الشورى : 24] . قلت : ومنه ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [العلق : 18] ، ﴿ صَالِ الجحيم ﴾ [الصافات : 163

] .

و" قد " هنا للتوقُّع . قال الزمخشري : " قد : نقيضةُ " لَمَّا " ، هي تُثْبِتُ المتوقَّعَ و " لَمَّا " تَنْفيه ، ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقِّعين لهذه البشارةِ ، وهي للإخبار بثباتِ الفَلاحِ لهم فَخُوطبوا بما دَلَّ على ثباتِ ما تَوَقَّعوه " .

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2)

قوله : ﴿ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ : الجارُّ متعلِّقٌ بما بعدَه وقُدِّمَ للاهتمام ، وحَسَّنه كونَ متعلَّقِه فاصلةً ، وكذلك فيما بعده مِنْ أخواته . وأُضِيْفَتْ الصلاةُ إليه لأنهم هم المُنْتَفِعون بها ، والمُصَلَّى له غَنِيٌّ عنها ، فلذلك أُضِيْفَتْ إليهم دونَه .

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6)

(132/532)

قوله : ﴿ لِلزَّكَاةِ ﴾ : اللامُ مزيدةٌ في المفعولِ لتقدُّمِه على عامِلِه ولكونِه فرعاً . والزكاةُ في الأصلِ مصدرٌ ، ويُطْلَقُ على القَدْرِ المُخْرَجِ من الأعْيانِ . قال الزمخشري : " اسمٌ مشتركٌ بين عَيْنٍ ومَعْنى ، فالعينُ : القَدْرُ الذي يُخْرِجُه المُزَكِّي مِنَ النِّصاب ، والمعنى : فِعْلُ المُزَكِّي ،

وهو الذي أراده الله فجعل المزكِّيْنَ فاعِلين له ولا يَسُوغ فيه غيرُه لأَنَّه ما مِنْ مصدرٍ إلاَّ يُعَبَّرُ عنه بالفِعْلِ . ويُقال لمُحَدِثِه فاعلٌ . تقول للضارب : فاعلُ الضَرْب ، وللقاتل فاعلُ القَتْل ، وللمزكِّي فاعلُ التَّزْكية ، وعلى هذا الكلامُ كله . والتحقيقُ في هذا أَنَّك تقولُ في جميع الحوادث : مَنْ فاعلُها ؟ فيُقال لك : الله أو بعضُ الخَلْق . ولم تمتنعِ الزكاةُ الدالَّةُ على العينِ أَنَ يتعلَّقَ بها [فاعلون] لخروجها مِنْ صحةِ أَنْ يتناولَها الفاعلُ ، ولكن لأنَّ الخَلْقَ ليسوا بفاعليها . وقد أنشدوا لأميةَ بن أبي الصلت :

3402 المُطْعِمُون الطعامَ في السَّنَة ال . . . أزمةِ والفاعلون للزكواتِ

ويجوز أن يُرادَ بالزكاة العَيْنُ ، ويُقَدَّرَ مضافٌ محذوفٌ وهو الأداءُ ، وحَمْلُ البيتِ على هذا أَصَحُّ لأنها فيه مجموعةٌ " . قلت : إنما أحوجَ أبا القاسمِ إلى هذا أنَّ بعضَهم زعم أنه يتعيَّنُ أَنْ تكونَ الزكاةُ هنا المصدرَ ؛ لأنه لو أراد العينَ لقال مُؤَدُّوْن ، ولم يقل فاعلون ، فقال الزمخشري : لم يمتنعْ ذلك لعدمِ صحةِ تناوُلِ فاعِلِ لها ، بل لأنَّ الخَلْقَ ليسوا بفاعِليها ، وإنما جَعَلَ الزكَواتِ في بيتِ أميةَ أعياناً لِجَمْعِها ؛ لأنَّ المصدر لا يُجْمع .

وناقشه الشيخ فقال : " يجوز أَنْ مصدراً وإنما جُمِعَ لاختلافِ أنواعِه " .

(133/532)

قوله : ﴿ إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنَّه متعلقٌ ب " حافِظون " على التضمين . يعني مُمْسِكين أو قاصِرين . وكلاهما يتعدى ب على . قال تعالى : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ [الأحزاب : 37] الثاني : أن " على " بمعنى " مِنْ " أي : إلاَّ مِنْ أزواجهم . ف " على " بمعنى " مِنْ " ، كما جاءَتْ " مِنْ " بمعنى " على " في قوله ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القوم ﴾ [الأنبياء : 77] ، وإليه ذَهَب الفراءُ . الثالث : أَنْ يكونَ في موضع نصبٍ على الحالِ . قال الزمخشري : أي إلاَّ والين على أزواجِهم أو / قَوَّامين عليهنَّ . مِنْ قولِك : كان فلان على فلانةَ فمات عنها ، فخلف عليها فلانٌ . ونظيرُه : كان زيادٌ على البصرة أي : والياً عليها . ومنه قولُهم : " ثلاثةٌ تحت فلان ، ومِنْ ثَمَّ سُمِّيَتْ المرأةُ فِراشاً " . الرابع : أنه متعلقٌ بمحذوفٍ يَدُلُّ عليه " غيرُ مَلومين " . قال الزمخشري : " كأنه قيل : يُلامُون إلاَّ على أزواجِهم أي : يلامون على كلِّ مباشِرٍ إلاَّ على ما أُطْلِقَ لهم فإنهم غيرُ ملومين عليه " . قلت : وإنما لم يَجْعَلْه متعلقاً ب " ملومين " لوجهين . أحدهما : أنَّ ما بعد " إنَّ " لا يَعْمل فيما قبلها .

والثاني : أنَّ المضافَ إليه لا يَعْمل فيما قبلَ المضاف ، ولفسادِ المعنى أيضاً .

الخامس : أَنْ يُجْعل صلةً لحافظين . قال الزمخشري : " مِنْ قولِك : احفَظْ عَلَيَّ عِنَانَ فرسي " ، على تضمينِه معنى النفي كما ضُمِّن قولُهم : " نَشَدْتُك باللهِ إلاَّ فَعَلْتَ " معنى : ما طَلَبْتُ منك إلاَّ فِعْلَك . يعني : أَنَّ صورتَه إثباتُ ومعناه نفيٌ .

قال الشيخ بعد ما ذكَرْتُه عن الزمخشري : " وهذه وجوهٌ متكلَّفةٌ ظاهرٌ فيها العُجْمَةُ " قلت : وأيُّ عُجْمَةٍ في ذلك ؟ على أنَّ الشيخَ جعلها متعلقةً ب " حافظون " على ما ذكره مِنَ التضمين . وهذا لا يَصِحُّ له إلاَّ بأَنْ يرتكبَ وجهاً منها : وهو التأويلُ بالنفيِ ك " نَشَدْتُك الله " لأنه استثناءٌ مفرغ ، ولا يكونُ إلاَّ بعد نفيٍ أو ما في معناه .

السادس : قال أبو البقاء : " في موضعِ نصبٍ ب حافِظُون " على المعنى ؛ لأنَّ المعنى : صانُوها عن كل فَرْجٍ إلاَّ عن فروجِ أزواجِهم " . قلت : وفيه شيئان ، أحدهما : تضمين " حافظون " معنى صانُوا ، وتضمينُ " على " معنى " عن " .

قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ ﴾ " ما " بمعنى اللاتي . وفي وقوعها على العقلاءِ وجهان ، أحدهما : أنها واقعةٌ على الأنواعِ كقوله : ﴿ فانكحوا مَا طَابَ ﴾ أي : أنواعَ . والثاني : قال الزمَخشري : " أُريد من جنسِ العقلاءِ ما يَجْري مجرى غيرِ العقلاءِ وهم الإِناثُ " .

قال الشيخ : " وقوله : " وهم " ليس بجيدٍ ؛ لأنَّ لفظَ " هم " مختصٌّ بالذكورِ ، فكان ينبغي أَنْ يقولَ : " وهو " على لفظ " ما " . أو " وهُنَّ " على معنى " ما " قلت : والجواب عنه : أن

الضميرَ عائدٌ على العقلاءِ ، فقوله " وهم " أي : والعقلاءُ الإِناث . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 313.319 ﴾

(135/532)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى أفلح)

أَصل المادّة للشقّ .

وسُمّى الفَلاّح لكونه يشق الأَرض .

وفى المثل : الحديدُ بالحديث يُفْلَح .

والفَلاَح : الظفر ، والفوز بالبُغْية .

وذلك ضربان : دينوىّ ، وأُخروىّ .

فالدّنيوى : نيل الأَسباب الَّتى بها تطِيب الحياة .

وهى البقاءُ ، والغِنى ، والعِزَّ .

والأُخروىّ : أَربعة أَشياءَ : بقاءٌ بلا فناءٍ ، وغنى بى فقرٍ ، وعزّ بلا ذُلٍّ وعلم بلا جهل .

لذلك قال صلَّى الله عليه وسلَّم : "اللهمّ لا عيش إلا عيش الآخرة" .

وقد وُعد الفَلاَحُ فى القرآن لأَربعة عشر :

الأَوّل للمتقين : ﴿ وَأُوْلَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

الثَّانى : لدُعاة الخير : ﴿ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُوْلَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

الثالث : لأَتْباع خاتم المرسلين : ﴿ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

الرّابع للمجاهدين ، والغُزاة ﴿ لَاكِنِ الرَّسُولُ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُوْلَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

الخامس : للمصلحين : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ .

السّادس : للمكثرين من صالحات الأَعمال : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

السّابع : للمطيعين ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ ﴾ إلى قوله : ﴿ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

الثامن : لأَرباب السّمْع والطَّاعة : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُواْ إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية .

التَّاسع : أَهل الإِخلاص واليقين ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ إلى آخر الآية .

العاشر : لأَهل الإِحسان : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

الحادى عشر : لحزب الله وأَهل طاعته ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

(136/532)

الثانى عشر : للأَسخياءِ الكرماءِ : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

الثَّالث عشر : المطهَّرون من الأَلواث : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ .

الرّابع عشر : للمؤدّين فرض الزَّكاة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ .

وأَمّا قوله : ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ فصحّ أَنَّهم قصدوا به الفَلاَح الدّنيوىّ .

وقول المؤذن : حَىّ على الفلاح أَى على الظَّفر الذى جعله الله لنا فى الصّلاة . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 180.182 ﴾

(137/532)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

الاسم اشتقاقه من السمو وللمسمى بهذا الاسم استحقاق العلو ، فالاسم اسم لسموه من القدم ، والحق حق لعلوه بحق القدم .

ويقال من عرف " بسم الله " سمت همته ، ومن عرفه وجد بقلبه ما لا يعرف سببه .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) ﴾

ظَفِرَ بالبُغْيَةِ وفاز بالطِّلْبَةِ مَنْ آمَنْ بالله .

و" الفَلاَحُ " : الفوزُ بالمطلوبِ والظَّفَرُ بالمقصود .

والإيمانُ انتسامُ الحقِّ في السريرة ، ومخامرةُ التصديقِ خلاصةَ القلب ، وستمكانُ التحقيقِ من تأمور الفؤاد .

والخشوعُ في الصلاة إطراقُ السِّرِّ على بِساطِ النَّجوى باستكمالِ نَعْتِ الهيبة ، والذوبانِ تحت سلطان الكشف ، والامتحاءِ عند غَلَبَاتِ التَّجلِّي .

ويقال أَدْرَكَ ثَمَرَاتِ القُرْبِ وفَازَ بكمالِ الأُنْسِ مَنْ وَقَفَ على بِساط النجوى بنعت الهيبة ، ومراعاةِ آداب الحضرة . ولا يَكْمل الأُنْسُ بلقاءِ المحبوب إلا عند فَقْدِ الرقيب . وأشدُّ الرقباء وأكثرهم تنغيصاً لأوان القرب النَّفْسُ ؛ فلا راحةَ للمُصَلِّي مع حضورِ نَفْسه ، فإذا خنس عن نَفْسِه وشاهِدِه عَدِمَ إحساسَه بآفاتِ نَفْسِه ، وطابَ له العيشُ ، وتَمَّتْ له النُّعْمَى ، وتَجلَّتَ له البُشْرى ، ووَجَدَ لذَّةَ الحياةِ .

وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3)

ما يَشغَلُ عن الله فهو سَهْوٌ، وما لي لله فهو حَشْوٌ، وما ليس بمسموعٍ من الله أو بمعقولٍ مع الله فهو لَغْوٌ، وما هو غير الحق سبحانه فهو كُفْرٌ، والتعريجُ على شيءٍ من هذا بُعْدٌ وهَجْرٌ.

ويقال ما ليس بتقريظِ الله ومَدْحِه من كلام خُلْقِه فكل ذلك لغو.

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4)

الزكاةُ النَّماءُ، ومَنْ عَمَلُه للنماءِ فأمارةُ ذلك أن يكونَ بنقصانه في نفْسِه عن شواهده ولا يبلغ العبدُ إلى كمالِ الوصفِ في العبودية إلا بذوبانه عن شاهده.

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6)

(138/532)

لفروجِهم حافظون ابتغاءَ نَسْلٍ يقوم بحقِّ اللَّهِ، ويقال ذلك إذا كان مقصودُه التعففَ والتصاونَ عن مخالفاتِ الإثم.

فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7)

أي مَنْ جَاوزَ قَصْدَ إيثار الحقوق، وجَنَحَ إلى جانب استيفاء الحظوظ. . . فقد تَعَدَّى

مَحَلَّ الأكابر ، وخالف طريقتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 568.566 ﴾

(139/532)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ذلك من الأمانات العظيمة ، أتبعه عمومها فقال : ﴿ والذين هم لأماناتهم ﴾ أي في الفروج وغيرها ، سواء كانت بينهم وبين الله كالصلاة والصيام وغيرهما ، أو في المعاني الباطنة كالإخلاص والصدق ، أو بينهم وبين خلق كالوادئع والبضائع ، فعلى العبد الوفاء بجميعها – قاله الرازي .

ولما كان العهد أعظم أمانة ، تلاها به تنبيهاً على عظمه فقال : ﴿ وعهدهم راعون ﴾ أي الحافظون بالقيام والرعاية والإصلاح .

ولما كانت الصلاة أجلّ ما عهد فيه من أمر الدين وآكد ، وهي من الأمور الخفية التي وقع الائتمان عليها ، لما خفف الله فيها على هذه الأمة بإيساع زمانها ومكانها ، قال : ﴿ والذين هم على صلواتهم ﴾ التي وصفوا بالخشوع فيها ﴿ يحافظون ﴾ أي يجددون تعهدها بغاية جدهم ، لا يتركون شيئاً من مفروضاتها ولا مسنوناتها ، ويجتهدون في كمالاتها ، وحّدت في قراءة حمزة والكسائي للجنس ، وجمعت عند الجماعة إشارة إلى أعدادها وأنواعها ، ولا يخفى ما في افتتاح هذه الأوصاف واختتامها بالصلاة من التعظيم لها ، كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة " .

(140/532)

ولما ذكر مجموع هذه الأوصاف العظيمة ، فخم جزاءهم فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي البالغون من الإحسان أعلى مكان ﴿ هم ﴾ خاصة ﴿ الوارثون ﴾ أي المستحقون لهذا الوصف المشعر ببقائهم بعد أعدائهم فيرثون دار الله لقربهم منه واختصاصهم به بعد إرثهم أرض الدنيا التي قارعوا عليها على قتلهم وضعفهم أعداءَنا الكفار على كثرتهم وقوتهم ، فكانت العاقبة فيها لهم كما كتبنا في الزبور ﴿ إن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ ﴿ لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ [إبراهيم : 13 ، 14] ﴿ الذين يرثون

الفردوس ﴾ التي هي أعلى الجنة ، وهي في الأصل البستان العظيم الواسع ، يجمع محاسن النبات والأشجار من العنب وما ضاهاه من كل ما يكون في البساتين والأودية التي تجمع ضروباً من النبت : فيحوزون منها بعد البعث ما أعد الله لهم فيها من المنازل وما كان أعد للكفار لو آمنوا أو لم يخرجوا بخروج أبويهم من الجنة ﴿ هم ﴾ خاصة ﴿ فيها ﴾ أي لا في غيرها ﴿ خالدون ﴾ وهذه الآيات أجمع ما ذكر في وصف المؤمنين ، روى الإمام أحمد في مسنده والترمذي في التفسير من جامعه عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهم ـ قال : " كان إذا نزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا ، ثم قال : لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى ختم العشر "

– ورواه النسائي في الصلاة وقال : منكر لا يُعرَف أحد رواه غير يونس بن سليم ويونس لا نعرفه ، وعزى أبو حيان آخر الحديث للحاكم في المستدرك .

(141/532)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : فصل في افتتاحها ما أجمل في قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير ﴾ [الحج : 77] وأعلم بما ينبغي للراكع والساجد التزامه من الخشوع ، ولالتحام الكلامين ما ورد الأول أمراً والثاني مدحه وتعريفاً بما به كمال الحال ، وكأنه لما أمر المؤمنين ، وأطمع بالفلاح جزاء لامتثاله ، كان مظنة لسؤاله عن تفصيل ما أمر به من العبادة وفعل الخير الذي به يكمل فلاحه فقيل له : المفلح من التزم كذا وكذا ، وذكر سبعة أضرب من العبادة هي أصول لما وراءها ومستتبعة سائر التكاليف ، وقد بسط حكم كل عبادة منها وما يتعلق بها في الكتاب والسنة ؛ ولما كانت المحافظة على الصلاة منافرة إتيان المأثم جملة ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] لذلك ما ختمت بها هذه العبادات بعد التنبيه على محل الصلاة من هذه العبادة بذكر الخشوع فيها أولاً ، واتبعت هذه الضروب السبعة بذكر أطوار سبعة يتقلب فيها الإنسان قبل خروجه إلى الدنيا فقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ – إلى قوله : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ وكأن قد قيل له : إنما كمل خلقك وخروجك إلى الدنيا بعد هذه التقلبات السبعة .

وإنما تتخلص من دنياك بالتزام هذه العبادات السبع ، وقد وقع عقب هذه الايات قوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ ولعل ذلك مما يقرر هذا الاعتبار ووارد لمناسبته – والله أعلم ، وكما أن صدر هذه السورة مفسر لما أجمل في الآيات قبلها فكذا الآيات بعد

مفصلة لمجمل ما تقدم في قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ﴾ [الحج : 5] وهذا كاف في التحام السورتين والله سبحانه المستعان - انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 184.186 ﴾

(142/532)

فصل

قال الفخر :

الصفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ والذين هُمْ لأماناتهم وَعَهْدِهِمْ راعون ﴾

قرأ نافع وابن كثير ﴿ لأماناتهم ﴾ واعلم أنه يسمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّوا الأمانات إِلَى أَهْلِهَا ﴾ [النساء : 58] وقال : ﴿ وَتَخُونُوا أماناتكم ﴾ [الأنفال : 27] وإنما تؤدي العيون دون المعاني فكان المؤتمن عليه الأمانة في نفسه والعهد ، ما عقده على نفسه فيما يقربه إلى ربه ويقع أيضاً على ما أمر الله تعالى به كقوله : ﴿ الذين قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا ﴾ [آل عمران : 183] والراعي القائم على الشيء لحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية ، ويقال من راعى هذا الشيء ؟ أي موليه .

واعلم أن الأمانة تتناول كل ما تركه يكون داخلاً في الخيانة وقد قال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ لاَ تَخُونُواْ الله والرسول وَتَخُونُواْ أماناتكم ﴾ [الأنفال : 27] فمن ذلك العبادات التي المرء مؤتمن عليها وكل العبادات تدخل في ذلك ، لأنها إما أن تخفى أصلاً كالصوم وغسل الجنابة وإسباغ الوضوء أو تخفى كيفية إتيانه بها وقال عليه السلام : " أعظم الناس خيانة من لم يتم صلاته " وعن ابن مسعود رضي الله عنه : " أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة " ومن جملة ذلك ما يلتزمه بفعل أو قول فيلزمه الوفاء به كالودائع والعقود وما يتصل بهما .

ومن ذلك الأقوال التي يحرم بها العبيد والنساء لأنه مؤتمن في ذلك ، ومن ذلك أن يراعى أمانته فلا يفسدها بغصب أو غيره ، وأما العهد فإنه دخل فيه العقود والأيمان والنذور ، فبين سبحانه أن مراعاة هذه الأمور والقيام بها معتبر في حصول الفلاح .

(143/532)

الصفة السابعة : قوله : ﴿ والذين هُمْ على صلواتهم يحافظون ﴾ وإنما أعاد تعالى ذكرها لأن الخشوع والمحافظة متغايران غير متلازمين ، فإن الخشوع صفة للمصلي في حال الأداء لصلاته والمحافظة إنما تصح حال ما لم يؤدها بكمالها .

بل المراد بالمحافظة التعهد لشروطها من وقت وطهارة وغيرهما والقيام على أركانها وإتمامها حتى يكون ذلك دأبه في كل وقت ، ثم لما ذكر الله تعالى مجموع هذه الأمور قال : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الوارثون * الذين يَرِثُونَ الفردوس هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ وههنا سؤالات :

السؤال الأول : لم سمى ما يجدونه من الثواب والجنة بالميراث ؟ مع أنه سبحانه حكم بأن الجنة حقهم في قوله : ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ [التوبة : 111] الجواب : من وجوه : الأول : ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أبين على ما يقال فيه وهو : أنه لا مكلف إلا أعد الله له في النار ما يستحقه إن عصى وفي الجنة ما يستحقه إن أطاع وجعل لذلك علامة .

فإذا آمن منهم البعض ولم يؤمن البعض صار منزل من لم يؤمن كالمنقول إلى المؤمنين وصار مصيرهم إلى النار الذي لا بد معه من حرمان الثواب كموتهم ، فسمى ذلك ميراثاً لهذا الوجه ، وقد قال الفقهاء إنه لا فرق بين ما ملكه الميت وبين ما يقدر فيه الملك في أنه يورث عنه كذلك قالوا في الدية التي تجب بالقتل إنها تورث مع أنه ما ملكها على التحقيق وذلك يشهد بما ذكرنا ، فإن قيل إنه تعالى وصف كل الذي يستحقونه إرثاً وعلى ما قلتم يدخل في الإرث ما كان يستحقه غيرهم لو أطاع .

قلنا لا يمتنع أنه تعالى جعل ما هو منزلة لهذا المؤمن بعينه منزلة لذلك الكافر لو أطاع لأنه عند ذلك كان يزيد في المنازل فإذا آمن هذا عدل بذلك إليه وثانيها : أن انتقال الجنة إليهم بدون محاسبة ومعرفة بمقاديره يشبه انتقال المال إلى الوارث وثالثها : أن الجنة كانت مسكن أبينا آدم عليه السلام فإذا انتقلت إلى أولاده صار ذلك شبيهاً بالميراث .

السؤال الثاني : كيف حكم على الموصوفين بالصفات السبع بالفلاح مع أنه تعالى ما تمم ذكر العبادات الواجبة كالصوم والحج والطهارة والجواب : أن قوله : ﴿ والذين هُمْ لأماناتهم وَعَهْدِهِمْ راعون ﴾ يأتي على جميع الواجبات من الأفعال والتروك كما قدمنا والطهارات دخلت في جملة المحافظة على الصلوات الخمس لكونها من شرائطها .

السؤال الثالث : أفيدل قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الوارثون ﴾ على أنه لا يدخلها غيرهم ؟ الجواب : أن قوله : ﴿ هُمُ الوارثون ﴾ يفيد الحصر لكنه يجب ترك العمل به لأنه ثبت أن الجنة يدخلها الأطفال والمجانين والولدان والحور العين ويدخلها الفساق من أهل القبلة بعد العفو ، لقوله تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48] .

السؤال الرابع : أفكل الجنة هو الفردوس ؟ الجواب : الفردوس هو الجنة بلسان الحبشة وقيل بلسان الروم ، وروى أبو موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "

الفردوس مقصورة الرحمن فيها الأنهار والأشجار " وروى أبو أمامة عنه عليه السلام أنه قال : " سلوا الله الفردوس فإنها أعلى الجنان ، وإن أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش "

(145/532)

السؤال الخامس : هل تدل الآية على أن هذه الصفات هي التي لها ولأجلها يكونون مؤمنين أم لا ؟ الجواب : ادعى القاضي أن الأمر كذلك بناء على مذهبه أن الإيمان اسم شرعي موضوع لأداء كل الواجبات ، وعندنا أن الآية لا تدل على ذلك ، لأن قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون * الذين هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خاشعون ﴾ مثل قد أفلح الناس الأذكياء العدول ، فإن هذا لا يدل على أن الزكاة والعدالة داخلان في مسمى الناس فكذا ههنا .

السؤال السادس : روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : " لما خلق الله تعالى جنة عدن قال لها تكلمي فقالت : قد أفلح المؤمنون "

وقال كعب : " خلق الله آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده ، ثم قال لها تكلمي فقالت : قد أفلح المؤمنون " وروي أنه عليه السلام قال : " إذا أحسن العبد الوضوء وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت حفظك الله كما حافظت علي ، وشفعت لصاحبها .

وإذا أضاعها قالت أضاعك الله كما ضيعتني وتلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها " الجواب : أما كلام الجنة فالمراد به أنها أعدت للمؤمنين فصار ذلك كالقول منها ، وهو كقوله تعالى : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] وأما أنه تعالى خلق الجنة بيده فالمراد تولى خلقها لا أنه وكله إلى غيره ، وأما أن الصلاة تثنى على من قام بحقها فهو في الجواز أبعد من كلام الجنة ، لأن الصلاة حركات وسكنات ولا يصح عليها أن تتصور وتتكلم فالمراد منه ضرب المثل كما يقول القائل للمنعم إن إحسانك إلي ينطق بالشكر .

(146/532)

السؤال السابع : هل تدل الآية على أن الفردوس مخلوقة ؟ الجواب : قال القاضي دل قوله تعالى : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ [الرعد : 35] على أنها غير مخلوقة فوجب تأويل هذه الآية ، كأنه تعالى قال إذا كان يوم القيامة يخلق الله الجنة ميراثاً للمؤمنين أو وإذا خلقها تقول على مثال ما تأولنا عليه قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾ [الأعراف : 50] وهذا ضعيف لأنه ليس إضمار ما ذكره في هذه الآية أولى من أن يضمر في قوله : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ [الرعد : 35] ثم إن أكلها دائم ، يوم القيامة ، وإذا تعارض هذان

الظاهران فنحن نتمسك في أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 133] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 71 . 73 ﴾

(147/532)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ السَّلَفِ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ يُحَافِظُونَ ﴾ قَالُوا : " فِعْلُهَا فِي الْوَقْتِ " .

وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَيْسَ التَّفْرِيطُ فِي النَّوْمِ إنَّمَا التَّفْرِيطُ أَنْ يَتْرُكَ الصَّلَاةَ حَتَّى يَدْخُلَ وَقْتُ الْأُخْرَى .

﴿ وَقَالَ مَسْرُوقٌ : " الْحِفَاظُ عَلَى الصَّلَاةِ فِعْلُهَا لِوَقْتِهَا " .

وَقَالَ إبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ " يُحَافِظُونَ دَائِمُونَ " .

وَقَالَ قَتَادَةُ : " يُحَافِظُونَ عَلَى وُضُوئِهَا وَمَوَاقِيتِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا مُرَاعَاتُهَا لِلتَّأْدِيَةِ فِي وَقْتِهَا عَلَى اسْتِكْمَالِ شَرَائِطِهَا ، وَجَمِيعُ الْمَعَانِي الَّتِي تَأَوَّلَ عَلَيْهَا السَّلَفُ الْمُحَافَظَةَ هِيَ مُرَادَةٌ بِالْآيَةِ ، وَأَعَادَ ذِكْرَ الصَّلَاةِ ؛ لِأَنَّهُ مَأْمُورٌ

بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا كَمَا هُوَ مَأْمُورٌ بِالْخُشُوعِ فِيهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(148/532)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ .

قَدْ قَدَّمْنَا وُجُوبَ حِفْظِ الْأَمَانَةِ وَالْعَهْدِ ، وَبَيَّنَّا قِيَامَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ فِيمَا مَضَى ، فَأَدِّ إلَى مَنْ ائْتَمَنَك ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَك ؛ وَكَذَلِكَ مَنْ نَقَضَ الْعَهْدَ فِيك فَلَا تَنْقُضْهُ فِيهِ ، وَمَنْ كَفَرَ بِاَللَّهِ عِنْدَك فَلَا تَكْفُرْ بِهِ عِنْدَهُ ، وَمَنْ غَدَرَ بِك فَلَا تَغْدِرْ بِهِ .

وَقَدْ أَوْضَحْنَا ذَلِكَ فِيمَا سَلَفَ فِي مَوَاضِعَ ، فَلْيُنْظَرْ فِيهَا ؛ وَلْيُجْمَعْ فِي الْقَلْبِ مِنْهَا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ .

قَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي حِفْظِ الصَّلَاةِ فِي نَفْسِهَا ، وَبَيَّنَّا الْمُحَافَظَةَ عَلَيْهَا بِإِدَامَةِ أَفْعَالِهَا فِي أَوْقَاتِهَا مَتَى تَكَرَّرَتْ مَفْرُوضَاتُهَا ، فَاعْلَمُوهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(149/532)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَا مِنْكُم إِلاَّ لَهُ مَنزِلاَنِ : مَنزِلٌ فِي الجَنَّةِ وَمَنزِلٌ فِي النَّارِ ، فَإِن مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ ، وَرِثَ أَهْلُ الجَنَّةِ مَنْزِلَهُ ، وإِنْ مَاتَ وَدَخَلَ الجَنَّةَ ، وَرِثَ أَهْلُ النَّارِ مَنزِلَهُ ، فَذلِكَ قولَه ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ " ثم بيَّن ما يرثون فقال : ﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ﴾ فيه خمسة أوجه

: أحدها : أنه اسم من أسماء الجنة ، قاله الحسن .

الثاني : أنه أعلى الجنان قاله قطرب .

الثالث : أنه جبل الجنة الذي تتفجر منه أنهار الجنة ، قاله أبو هريرة .

الرابع : أنه البستان وهو رومي معرب ، قاله الزجاج .

الخامس : أنه عربي وهو الكرم ، قاله الضحاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(150/532)

وقال ابن عطية :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) ﴾

قرأ جمهور الناس " لأماناتهم " بالجمع ، وقرأ ابن كثير " لأمانتهم " بالإفراد ، والأمانة العهد تجمع كل ما تحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً ، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك ، ورعاية ذلك حفظه والقيام به ، والأمانة أعم من العهد ، إذ كل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد ، وقد تعن أمانة فيما لم يعهد فيه تقدم ، وهذا إذا أخذناهما بنسبتهما إلى العبد ، فإن أخذناهما من حيث هما عهد الله إلى عباده وأمانته التي حملهم كانا في رتبة واحدة وقرأ الجمهور " صلواتهم " ، وقرأ حمزة والكسائي " صلاتهم " بالإفراد ، وهذا الإفراد اسم جنس فهو في معنى الجمع ، والمحافظة على الصلاة رقب أوقاتها والمبادرة إلى وقت الفضل فيها ، و﴿ الوارثون ﴾ يريد الجنة ، وروي من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكناً في الجنة ومسكناً في النار ، فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون منازل الكفار ويحصل الكفار في مساكنهم في النار ، ويحتمل أَن يسمي تعالى الحصول على الجنة وراثة من حيث حصلوها دون غيرهم ، فهو اسم مستعار على الوجهين ، و﴿ الفردوس ﴾ ، مدينة الجنة وهي جنة الأعناب ، واللفظة ، فيما قال مجاهد ، رومية عربت ، والعرب تقول للكروم فراديس ،

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم حارثة : " إنها جنان كثيرة وإن ابنك قد أصاب الفردوس الأعلى " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(151/532)

وقال ابن الجوزى :

﴿ والذين هم لأماناتهم ﴾

قرأ ابن كثير : "لأمانتهم" وهو اسم جنس ، والمعنى : للأمانات التي ائتُمنوا عليها ، فتارة تكون الأمانة بين العبد وبين ربِّه ، وتارة تكون بينه وبين جنسه ، فعليه مراعاة الكُلِّ .

وكذلك العهد .

ومعنى ﴿ راعون ﴾ : حافظون .

قال الزجاج : وأصل الرعي في اللغة : القيام على إِصلاح ما يتولاَّه الراعي من كل شيء .

قوله تعالى : ﴿ على صلواتهم ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "صلواتِهم" على الجمع .

وقرأ حمزة ، والكسائي : "صلاتِهم" على التوحيد ، وهو اسم جنس .

والمحافظة على الصلوات : أداؤها في أوقاتها .

قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ ذكر السدي عن أشياخه أن الله تعالى يرفع للكفار الجنة ، فينظرون إلى بيوتهم فيها لو أنهم أطاعوا ، ثم تقسم بين المؤمنين فيرِثونهم ، فذلك قوله : "أولئك هم الوارثون" .

وقد شرحنا هذا في [الأعراف : 43] عند قوله : ﴿ أُورثتموها ﴾ ، وشرحنا معنى الفردوس في [الكهف : 107] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(152/532)

وقال القرطبى فى الآيات السابقة :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) ﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ روى البَيْهَقِيّ من حديث أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لما خلق الله جنة عَدْن وغرس أشجارها بيده قال لها تكلّمي فقالت قد أفلح المؤمنون " وروى النّسائِيّ عن عبد الله بن السائب قال : حضرتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فصلّى في قِبَل الكعبة ، فخلع نعليه فوضعهما عن يساره فافتتح سورة المؤمنين ، فلما جاء ذكر موسى أو عيسى عليهما السلام أخذته سَعْلة فركع .

خرجه مسلم بمعناه .

وفي الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحي سُمع عند وجهه كدَوِيّ النحل ؛ وأنزل عليه يوما فمكثنا عنده ساعةً فسُرِّيَ عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال : "اللَّهُمَّ زِدْنا ولا تنقصنا وارضنا وارض عنّا ثم قال أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ قد أفلح المؤمنون" " حتى ختم عشر آيات ؛ صحّحه ابن العربي .

وقال النحاس : معنى "من أقامهن" من أقام عليهن ولم يخالف ما فيهن ؛ كما تقول : فلان يقوم بعمله .

ثم نزل بعد هذه الآيات فرض الوضوء والحج فدخل معهن .

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف "قد أُفْلح المؤمنون" بضم الألف على الفعل المجهول ؛ أي أُبْقُوا في الثواب والخير .

وقد مضى في أوّل "البقرة" معنى الفلاح لغةً ومعنى ، والحمد لله وحده .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ خَاشِعُونَ ﴾ روى المُعْتَمِر عن خالد عن محمد بن سِيرين قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم ينظر إلى السماء في الصلاة ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿ الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ .

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر حيث يسجد .

وفي رواية هُشيم : كان المسلمون يلتفتون في الصلاة وينظرون حتى أنزل الله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون * الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ ؛ فأقبلوا على صلاتهم وجعلوا ينظرون أمامهم .

وقد تقدم ما للعلماء في حكم المصلّي إلى حيث ينظر في "البقرة" عند قوله : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ﴾ [البقرة : 144] .

وتقدم أيضاً معنى الخشوع لغة ومعنى في البقرة أيضاً عند قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين ﴾ [البقرة : 45] .

والخشوع محله القلب ؛ فإذا خشع خشعت الجوارح كلّها لخشوعه ؛ إذ هو مَلِكُها ، حسبما بيّناه أوّل البقرة .

وكان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة وقام إليها يهاب الرحمنَ أن يمدّ بصره إلى شيء وأن يحدّث نفسه بشيء من الدنيا .

وقال عطاء : هو ألاّ يعبث بشيء من جسده في الصلاة .

" وأبصر النبيّ صلى الله عليه وسلم رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال : "لو خشع قلب

هذا لخشعت جوارحه" "

وقال أبو ذَرٍّ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه فلا يحركن الحصى " رواه الترمذي .

وقال الشاعر :

ألاَ في الصلاة الخيرُ والفضل أجمعُ . . .

لأن بها الآراب لله تخضعُ

وأوّل فرضٍ من شريعة ديننا . . .

وآخِر ما يبقى إذا الدّين يُرفع

فمن قام للتكبير لاقته رحمة . . .

وكان كعبدٍ بابَ مولاه يَقْرَعُ

وصار لربّ العرش حين صلاتِه . . .

نَجيًّا فيَا طُوباه لو كان يخشع

وروى أبو عمران الجَوْنِيّ قال : قيل لعائشة مَا كان خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قالت : أتقرؤون سورة المؤمنين ؟ قيل : نعم .

قالت : اقرؤوا ؛ فقرىء عليها "قد أفلح المؤمنون حتى بلغ يحافظون" .

وروى النَّسائيّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلحظ في صلاته يميناً وشمالاً ، ولا يلوي عنقه خلف ظهره .

(154/532)

وقال كعب بن مالك في حديثه الطويل : ثم أصلي قريباً منه يعني من النبيّ صلى الله عليه وسلم وأسارقه النظر ، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إليّ وإذا التفتّ نحوه أعرض عني . .

.

الحديث ؛ ولم يأمره بإعادة .

الثالثة : اختلف الناس في الخشوع ، هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ومكملاتها على قولين .

والصحيح الأوّل ، ومحله القلب ، وهو أوّل علم يرفع من الناس ؛ قاله عُبادة بن الصامت ، رواه الترمذي من حديث جُبير بن نُفير عن أبي الدّرداء ، وقال : هذا حديث حسن غريب .

وقد خرجه النّسائي من حديث جبير بن نفير أيضاً عن عوف بن مالك الأشجعِيّ من طريق صحيحة .

قال أبو عيسى : ومعاوية بن صالح ثقة عند أهل الحديث ، ولا نعلم أحداً تكلم فيه غير يحيى بن سعيد القَطّان .

قلت : معاوية بن صالح أبو عمرو ويقال أبو عمر الحضرمي الحمصي قاضي الأندلس ، سئل عنه أبو حاتم الرازي فقال : صالح الحديث ، يُكتب حديثه ولا يحتج به .

واختلف فيه قول يحيى بن معين ، ووثّقه عبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل وأبو زُرْعة الرازي ، واحتج به مسلم في صحيحه .

وتقدم في "البقرة" معنى اللغو والزكاة فلا معنى للإِعادة .

وقال الضحاك : إن اللغو هنا الشرك .

وقال الحسن : إنه المعاصي كلها .

فهذا قول جامع يدخل فيه قول من قال : هو الشرك ؛ وقولُ من قال هو الغناء ؛ كما روى مالك بن أنس عن محمد بن المُنْكَدِر ، على ما يأتي في "لُقْمان" بيانه .

ومعنى "فاعلون" أي مؤدّون ؛ وهي فصيحة ، وقد جاءت في كلام العرب .

قال أُمَيّة بن أبي الصَّلْت :

المطعمون الطعام في السنة الأزْ . . .

مة والفاعلون للزّكَواتِ

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ قال ابن العربي : "من غريب القرآن أن هذه الآيات العشر عامّةٌ في الرجال والنساء ، كسائر ألفاظ القرآن التي هي محتملة لهم فإنها عامّة فيهم ، إلا قوله : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ فإنما خاطب بها الرجال خاصة دون الزوجات ؛ بدليل قوله : ﴿ إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ .

وإنما عُرف حفظ المرأة فرجها من أدلة أخر كآيات الإحصان عموماً وخصوصاً وغير ذلك من الأدلّة" .

قلت : وعلى هذا التأويل في الآية فلا يحلّ لامرأة أن يطأها مَن تملكه إجماعاً من العلماء ؛ لأنها غير داخلة في الآية ، ولكنها لو أعتقته بعد مِلْكها له جاز أن يتزوّجها كما يجوز لغيره عند الجمهور .

وروي عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة والشَّعْبِيّ والنَّخَعِيّ أنها لو أعتقته حين ملكته كانا على نكاحهما .

قال أبو عمر : ولا يقول هذا أحد من فقهاء الأمصار ؛ لأن تملّكها عندهم يبطل النكاح بينهما ، وليس ذلك بطلاق وإنما هو فسخ للنكاح ؛ وأنها لو أعتقته بعد ملكها له لم يراجعها إلا بنكاح جديد ولو كانت في عدّة منه .

الخامسة : قال محمد بن عبد الحكم : سمعت حَرْملة بن عبد العزيز قال : سألت مالكاً عن الرجل يَجْلِد عُمَيرة ، فتلا هذه الآية ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إلى قوله العادون ﴾ .

وهذا لأنهم يَكْنُون عن الذَّكَر بعُمَيْرة ؛ وفيه يقول الشاعر :

إذا حَلَلتَ بوادٍ لا أنيس به . . .

فاجلد عُمَيرة لا داءٌ ولا حَرَجُ

ويسميه أهل العراق الاستمناء ، وهو استفعال من المَنِيّ .

وأحمد بن حنبل على ورعه يجوّزه ، ويحتج بأنه إخراج فضلة من البدن فجاز عند الحاجة ؛ أصله الفَصْد والحجامة .

وعامة العلماء على تحريمه .

(156/532)

وقال بعض العلماء : إنه كالفاعل بنفسه ، وهي معصية أحدثها الشيطان وأجراها بين الناس حتى صارت قِبلة ، ويا ليتها لم تُقَل ؛ ولو قام الدليل على جوازها لكان ذو المروءة يَعْرِض عنها لدناءتها .

فإن قيل : إنها خير من نكاح الأَمَة ؛ قلنا : نكاح الأمة ولو كانت كافرة على مذهب بعض العلماء خير من هذا ، وإن كان قد قال به قائل أيضاً ، ولكن الاستمناء ضعيف في الدليل عارٌ بالرجل الدنيء فيكف بالرجل الكبير .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ ﴾ قال الفَرّاء : أي من أزواجهم اللاتي أحل الله لهم لا يجاوزون .

﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ في موضع خفض معطوفة على "أزواجهم" و"ما" مصدرية . وهذا يقتضي تحريم الزنى وما قلناه من الاستمناء ونكاح المُتْعة ؛ لأن المتمتَّع بها لا تجري مجرى الزوجات ، لا ترث ولا تورث ، ولا يلحق به ولدها ، ولا يخرج من نكاحها بطلاق يستأنف لها ، وإنما يخرج بانقضاء المدّة التي عُقدت عليها وصارت كالمستأجرَة .

ابن العربي : إن قلنا إن نكاح المتعة جائز فهي زوجة إلى أجل ينطلق عليها اسم الزوجية . وإن قلنا بالحق الذي أجمعت عليه الأمة من تحريم نكاح المتعة لما كانت زوجة فلم تدخل في الآية .

قلت : وفائدة هذا الخلاف هل يجب الحدّ ولا يلحق الولد كالزنى الصريح أو يدفع الحدّ للشبهة ويلحق الولد ؛ قولان لأصحابنا .

وقد كان للمتعة في التحليل والتحريم أحوال ؛ فمن ذلك أنها كانت مباحة ثم حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم زَمَنَ خَيْبَر ، ثم حللّها في غَزاة الفتح ، ثم حرمها بعدُ ؛ قاله ابن

خُوَيْزمَنْدَاد من أصحابنا وغيرُه ، وإليه أشار ابن العربي .

وقد مضى في "النساء" القول فيها مستوفًى .

(157/532)

السابعة : قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذلك فأولئك هُمُ العادون ﴾ فسمّى من نكح ما لا يحل عادِيا ، وأوجب عليه الحدّ لعدوانه ، واللائط عادٍ قرآنا ولغة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ وكما تقدم في "الأعراف" ؛ فوجب أن يقام الحدّ عليهم ، وهذا ظاهر لا غبار عليه .

قلت : فيه نظر ، ما لم يكن جاهلاً أو متأوّلاً ، وإن كان الإجماع منعقداً على أن قوله تعالى : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ خصّ به الرجال دون النساء ؛ فقد روى مَعْمَر عن قتادة قال : تسرّرَت امرأة غلامها ؛ فذُكر ذلك لعمر فسألها : ما حملك على ذلك ؟ قالت : كنت أراه يحلّ لي بِمِلْك يميني كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين ؛ فاستشار عمر في رَجْمها أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : تأوّلتْ كتاب الله عزّ وجلّ على غير تأويله ، لا رجم عليها . فقال عمر : لا جَرَم ! والله لا أُحِلّك لحرّ بعده أبداً .

عاقبها بذلك ودرأ الحدّ عنها ، وأمر العبد ألاّ يقربها .

وعن أبي بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول : أنا حضرت عمر بن عبد العزيز جاءته امرأة بغلام لها وَضِيء فقالت : إني استسررته فمنعني بنو عمي عن ذلك ؛ وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها ؛ فانْهَ عني بني عمي ؛ فقال عمر : أتزوّجتِ قبله ؟ قالت : نعم ؛ قال : أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة ، ولكن اذهبوا به فبيعوه إلى من يخرج به إلى غير بلدها .

و"وَرَاءَ" بمعنى سِوى ، وهو مفعول ب"ابتغَى" أي من طلب سوى الأزواج والولائد المملوكة له .

وقال الزجاج : أي فمن ابتغى ما بعد ذلك ؛ فمفعول الابتغاء محذوف ، و"وَرَاءَ" ظرف .

و"ذَلِكَ" يشار به إلى كل مذكور مؤنثاً كان أو مذكراً .

﴿ فأولئك هُمُ العادون ﴾ أي المجاوزون الحدّ ؛ من عدا أي جاوز الحدّ وجازه .

(158/532)

الثامنة : قوله تعالى : ﴿ والذين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * والذين هُمْ على صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ قرأ الجمهور "لأماناتهم" بالجمع .

وابن كَثير بالإفراد .

والأمانة والعهد يجمع كلّ ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً .

وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيدَ وغيرَ ذلك ؛ وغاية ذلك حفظه والقيام به .

والأمانة أعم من العهد ، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد .

التاسعة : قرأ الجمهور "صَلَوَاتِهِمْ" وحمزة والكسائي "صلاتهم" بالإفراد ؛ وهذا الإفراد اسم جنس فهو في معنى الجمع .

والمحافظة على الصلاة إقامتُها والمبادرةُ إليها أوائلَ أوقاتها ، وإتمام ركوعها وسجودها .

وقد تقدم في "البقرة" مستوفًى .

ثم قال : ﴿ أولئك هُمُ الوارثون ﴾ أي من عمِل بما ذكر في هذه الآيات فهم الوارثون ؛ أي يرثون منازل أهل النار من الجنة .

وفي الخبر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " إن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكناً في الجنة ومسكناً في النار فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون منازل الكفار ويجعل الكفار في منازلهم في النار " خرجه ابن ماجه بمعناه .

عن أبي هريرة أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورِث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى : ﴿ أولئك هُمُ الوارثون ﴾ " إسناده صحيح .

ويحتمل أن يسمي الحصول على الجنة وراثة من حيث حصولها دون غيرهم ، فهو اسم مستعار على الوجهين : والفردوس رَبْوَة الجنة وأوسطها وأفضلها .

خرّجه الترمذيّ من حديث الرُّبَيِّع بنت النضر أم حارثة ، وقال : حديث حسن صحيح .

(159/532)

وفي حديث مسلم : " فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تُفْجَر أنهار الجنة " قال أبو حاتم محمد بن حِبّان : قوله صلى الله عليه وسلم : "فإنه أوسط الجنة" يريد أن الفردوس في وسط الجِنان في العرض وهو أعلى الجنة ؛ يريد في الارتفاع .

وهذا كله يصحح قول أبي هريرة : إن الفردوس جبل الجنة التي تتفجر منه أنهار الجنة .

واللفظة فيما قال مجاهد : رُومِية عُرّبت .

وقيل : هي فارسية عربت .

وقيل حبشية ؛ وإن ثبت ذلك فهو وِفاق بين اللغات .

وقال الضحاك : هو عربيّ وهو الكَرْم ؛ والعرب تقول للكروم فراديس .

﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فأنّث على معنى الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ والذين هُمْ لأماناتهم وَعَهْدِهِمْ راعون ﴾

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو في رواية لأمانتهم بالإفراد وباقي السبعة بالجمع ، والظاهر عموم الأمانات فيدخل فيها ما ائتمن تعالى عليه العبد من قول وفعل واعتقاد ، فيدخل في ذلك جميع الواجبات من الأفعال والتروك وما ائتمنه الإنسان قبل ، ويحتمل الخصوص في أمانات الناس .

والأمانة : هي الشيء المؤتمن عليه ومراعاتها القيام عليها لحفظها إلى أن تؤدى ، والأمانة أيضاً المصدر وقال تعالى ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها ﴾ والمؤدى هو العين المؤتمن عليه أو القول إن كان المؤتمن عليه لا المصدر .

وقرأ الإخوان على صلاتهم بالتوحيد ، وباقي السبعة بالجمع .

والخشوع والمحافظة متغايران بدأ أولاً بالخشوع وهو الجامع للمراقبة القلبية والتذلل بالأفعال البدنية ، وثنى بالمحافظة وهي تأديتها في وقتها بشروطها من طهارة المصلي وملبوسه ومكانه وأداء أركانها على أحسن هيئاتها ويكون ذلك دأبه في كل وقت .

قال الزمخشري : ووحدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت ، وجمعت آخراً لتفاد المحافظة على إعدادها وهي الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنازة والاستسقاء والكسوف والخسوف وصلاة الضحى والتهجد وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل .

﴿ أولئك ﴾ أي الجامعون لهذه الأوصاف ﴿ هم الوارثون ﴾ الأحقاء أن يسموا ورّاثاً دون من عداهم ، ثم ترجم الوارثين بقوله ﴿ الذين يرثون الفردوس ﴾ فجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لا تخفى على الناظر ، ومعنى الإرث ما مر في سورة مريم انتهى .

وتقدم الكلام في ﴿ الفردوس ﴾ في آخر الكهف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(161/532)

وقال أبو السعود :

﴿ والذين هُمْ لأماناتهم وَعَهْدِهِمْ ﴾

لما يُؤتمنون عليه ويُعاهدون من جهة الحقِّ أو الخلقِ ﴿ راعون ﴾ أي قائمون عليها حافظون لها على وجه الإصلاحِ . وقُرِىء لأمانتِهم .

﴿ والذين هُمْ على صلواتهم ﴾ المفروضةِ عليهم ﴿ يُحَافِظُونَ ﴾ يُواظبون عليها ويُؤدُّونها في أوقاتها . ولفظُ الفعلِ فيه لما في الصَّلاةِ من التَّجدُّدِ والتَّكرُّر وهو السرُّ في جمعها وليس فيه تكريرٌ لما أنَّ الخشوعَ في الصَّلاة غيرُ المحافظةِ عليها . وفصلُهما للإيذانِ بأنَّ كلاًّ منهما فضيلةٌ مستقلَّةٌ على حيالِها ولو قُرنا في الذِّكرِ لربَّما توهّم أنَّ مجموعَ الخشوعِ والمحافظةِ فضيلةٌ واحدةٌ .

﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى المؤمنين باعتبار اتّصافِهم بما ذُكر من الصّفاتِ . وإيثارُها على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلة المُشار إليه حِسًّا ، وما فيه من معنى البُعدِ للإيذانِ بعلوّ طبقتهم وبُعدِ درجتهم في الفضل والشَّرفِ أي أولئك المنعوتُون بالنُّعوت الجليلة المذكورةِ ﴿ هُمُ الوارثون ﴾ أي الأحِقَّاءُ بأنْ يُسمَّوا ورَّاثاً دون مَن عداهم ممَّن ورِثَ رغائب الأموال والذَّخائرِ وكرائمهما .

(162/532)

﴿ الذين يَرِثُونَ الفردوس ﴾ بيانٌ لما يرثونَه وتقييدٌ للوراثة بعد إطلاقها وتفسيرٌ لها بعد إبهامِها تفخيماً لشأنها ورفعها لمحلّها وهي استعارةٌ لاستحقاقهم الفِردوسَ بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعدُ الكريمُ للمبالغة فيه . وقيل إنَّهم يرثون من الكفَّارِ منازلهم فيها حيث

فوّتُوها على أنفسِهم لأَنَّه تعالى خلقَ لكلِّ إنسان منزلاً في الجنَّةِ ومنزلاً في النَّارِ . ﴿ هُمْ فِيهَا ﴾ أي في الفردوسِ . والتَّأنيثُ لأَنَّه اسمٌ للجنَّةِ أو لطبقتهم العُليا وهو البستان الجامعُ لأصناف الثَّمرِ . رُوي أَنَّه تعالى بَنَى جنَّة الفِردوسِ لبنةً من ذهبٍ ولَبنةً من فضَّةٍ وجعلَ خلالَها المسكَ الأذفرَ ، وفي روايةٍ ولبنةً من مسكٍ مذريَ وغرسَ فيها من جيّدِ الفاكهةِ وجيّدِ الرَّيحانِ . ﴿ خالدون ﴾ لا يخرجُون منها أبداً والجملة إمَّا مستأنفةٌ مقرّرةٌ لما قبلها وإمَّا حالٌ مقدَّرةٌ من فاعل يرثون أو مفعولِه إذ فيها ذِكرُ كلَ منهما . ومعنى الكلامِ لا يموتُون ولا يخرجون منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(163/532)

وقال الآلوسى :

﴿ والذين هُمْ لأماناتهم وَعَهْدِهِمْ راعون ﴾

قائمون بحفظها وإصلاحها ، وأصل الرعي حفظ الحيوان إما بغذائه الحافظ لحياته أو بذب العدو عنه ، ثم استعمل في الحفظ مطلقاً .

والأمانات جمع أمانة وهي في الأصل مصدر لكن أريد بها هنا ما ائتمن عليه إذ الحفظ للعين لا للمعنى وأما جمعها فلا يعين ذلك إذ المصادر قد تجمع كما قدمنا غير بعيد ، وكذا العهد

مصدر أريد به ما عوهد عليه لذلك ، والآية عند أكثر المفسرين عامة في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الناس كالتكاليف الشرعية والأموال المودعة والايمان والنذور والعقود ونحوها ، وجمعت الأمانة دون العهد قيل لأنها متنوعة متعددة جداً بالنسبة إلى كل مكلف من جهته تعالى ولا يكاد يخلو مكلف من ذلك ولا كذلك العد .

وجوز بعض المفسرين كونها خاصة فيما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الناس وليس بذاك ، ويجوز عندي أن يراد بالأمانات ما ائتمنهم الله تعالى عليه من الأعضاء والقوى ، والمراد برعيها حفظها عن التصرف بها على خلاف أمره عز وجل .

وأن يراد بالعهد ما عاهدهم الله تعالى عليه مما أمرهم به سبحانه بكتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، والمراد برعيه حفظه عن الإخلال به وذلك بفعله على أكمل وجه فحفظ الأمانات كالتخلية وحفظ العهد كالتحلية .

وكأنه جل وعلا بعد أن ذكر حفظهم لفروجهم ذكر حفظهم لما يشملها وغيرها ، ويجوز أن تعمم الأمانات بحيث تشمل الأوال ونحوها وجمعها لما فيها لمن التعدد المحصوص المشاهد فتأمل .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو في رواية ﴿ لأمانتهم ﴾ بالإفراد .

﴿ والذين هُمْ على صلواتهم ﴾ المكتوبة عليهم كما أخرج ابن المنذر عن أبي صالح .

وعبد بن حميد عن عكرمة ﴿ يُحَافِظُونَ ﴾ بتأديتها في أوقاتها بشروطها وإتمام ركوعها وسجودها وسائر أركانها كما روى عن قتادة .

(164/532)

وأخرج جماعة عن ابن مسعود أنه قيل له : إن الله تعالى يكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿ الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج : 23] ﴿ والذين هُمْ على صلواتهم يحافظون ﴾ [المعارج : 34] قال ذاك على مواقيتها قالوا : ما كنا نرى ذلك الأعلى فعلها وعدم تركها قال : تركها الكفر ، وقيل : المحافظة عليها المواظبة على فعلها على أكمل وجه .

وجيء بالفعل دون الاسم كما في سائر رؤس الآي السابقة لما في الصلاة من التجدد والتكرر ولذلك جمعت في قراءة السبعة ما عدا الأخوين وليس ذلك تكريراً لما وصفهم به أولاً من الخشوع في جنس الصلاة للمغايرة التامة بين ما هنا وما هناك كما لا يخفى .

وفي تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة تعظيم لشأنها ، وتقديم الخشوع للاهتمام به فإن الصلاة بدونه كلا صلاة بالاجماع وقد قالوا : صلاة بلا خشوع جسد بلا روح ، وقيل : تقديمه لعموم ما هنا له .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات وإيثارها على

الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلة المشار إليهم حساً ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتهم وبعد درجتهم في الفضل والشرف أي أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿ هُمُ الوارثون ﴾ أي الأحقاء أن يسموا وارثاً دون من عداهم ممن لم يتصف بتلك الصفات من المؤمنين ، وقيل : ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها .

﴿ الذين يَرِثُونَ الفردوس ﴾ صفة كاشفة أو عطف بيان أو بدل ، وإياما كان ففيه بيان لما يرثونه وتقييد للوراثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيداً ، والفردوس أعلا الجنان ، أخرج عبد بن حميد .

(165/532)

والترمذي وقال : حسن صحيح غريب عن أنس رضي الله تعالى عنه أن الربيع بنت نضير أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ابنها الحرث بن سراقة أصيب يوم بدر أصابه سهم غرب فقالت : أخبرني عن حارثة فإن كان أصاب الجنة احتسبت وصبرت وإن كان لم يصب الجنة اجتهدت في الدعاء فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنها جنان في جنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى والفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها " وعلى هذا

لا إشكال في الحصر على ما أشرنا إليه أولاً فإن غير المتصف بما ذكر من الصفات وإن دخل الجنة لا يرث الفردوس التي هي أفضلها ، وبتقدير إرثه إياها فهو ليس حقيقاً بأن يسمى وارثاً لما أن ذلك إنما يكون في الأغلب بعد كد ونصب ، وإرثهم إياها من الكفار حيث فوتوها على أنفسهم لأنه تعالى خلق لكل منزلاً في الجنة ومنزلاً في النا .

وأخرج سعيد بن منصور .

وابن ماجه .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وغيرهم عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزلة فذلك قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الوارثون ﴾ " وقيل الإرث استعارة للاستحقاق وفي ذلك من المبالغة ما فيه لأن ازرث أقوى أسباب الملك ، واختير الأول لأنه تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما صححه القرطبي ﴿ هُمْ فِيهَا ﴾ أي في الفردوس وهو على ما ذكره ابن الشحنة مما يؤنث ويذكر .

وذكر بعضهم أن التأنيث باعتبار أنه اسم للجنة أو لطبقتها العليا ، وقد تقدم لك تمام الكلام في الفردوس .

﴿ خالدون ﴾ لا يخرجون منها أبداً ، والجملة إما مستأنفة مقررة لما قبلها وإما حال مقدرة من فاعل ﴿ يَرِثُونَ ﴾ أو مفعوله كما قال أبو البقاء إذ فيها ذكر كل منهما ، ومعنى الكلام لا يموتون ولا يخرجون منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(166/532)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾

قال الفراء : " قد " ها هنا يجوز أن تكون تأكيداً لفلاح المؤمنين ، ويجوز أن تكون تقريباً للماضي من الحال ؛ لأن قد تقرّب الماضي من الحال حتى تلحقه بحكمه ، ألا تراهم يقولون : قد قامت الصلاة قبل حال قيامها ، ويكون المعنى في الآية : أن الفلاح قد حصل لهم وأنهم عليه في الحال ، والفلاح الظفر بالمراد والنجاة من المكروه .

وقيل : البقاء في الخير ، وأفلح إذا دخل في الفلاح ، ويقال : أفلحه : إذا أصاره إلى الفلاح ، وقد تقدّم بيان معنى الفلاح في أوّل البقرة .

وقرأ طلحة بن مصرف " قد أفلح " بضم الهمزة وبناء الفعل للمفعول .

وروي عنه أنه قرأ : " أفلحوا المؤمنون " على الإبهام والتفسير ، أو على لغة أكلوني

البراغيث .

ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله : ﴿ الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خاشعون ﴾ وما عطف عليه .

والخشوع منهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة ، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث ، وهو في اللغة السكون والتواضع والخوف والتذلل .

وقد اختلف الناس في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ؟ على قولين : قيل : الصحيح الأوّل ، وقيل : الثاني .

وادّعى عبد الواحد بن زيد إجماع العلماء على أنه ليس للعبد إلا ما عقل من صلاته ، حكاه النيسابوري في تفسيره .

قال : ومما يدل على صحة هذا القول قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرءان ﴾ [محمد : 24] .

والتدبر لا يتصوّر بدون الوقوف على المعنى ، وكذا قوله : ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه : 14] .

والغفلة تضادّ الذكر ، ولهذا قال : ﴿ وَلاَ تَكُنْ مِّنَ الغافلين ﴾ [الأعراف : 205] .

وقوله : ﴿ حتى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : 43] .

نهي للسكران والمستغرق في هموم الدنيا بمنزلته .

(167/532)

واللغو ، قال الزجاج : هو كل باطل ولهو وهزل ومعصية وما لا يجمل من القول والفعل ، وقد تقدم تفسيره في البقرة .

قال الضحاك : إن اللغو هنا الشرك .

وقال الحسن : إنه المعاصي كلها .

ومعنى إعراضهم عنه : تجنبهم له وعدم التفاتهم إليه ، وظاهره اتصافهم بصفة الإعراض عن اللغو في كل الأوقات ، فيدخل وقت الصلاة في ذلك دخولاً أوّلياً كما تفيده الجملة الإسمية ، وبناء الحكم على الضمير ، ومعنى فعلهم للزكاة : تأديتهم لها ، فعبر عن التأدية بالفعل لأنها مما يصدق عليه الفعل ، والمراد بالزكاة هنا : المصدر ؛ لأنه الصادر عن الفاعل ، وقيل : يجوز أن يراد بها العين على تقدير مضاف ، أي والذين هُم لتأدية الزكواة * فاعلون .

﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافظون ﴾ : الفرج يطلق على فرج الرجل والمرأة ، ومعنى حفظهم لها : أنهم ممسكون لها بالعفاف عما لا يحلّ لهم .

قيل : والمراد هنا : الرجال خاصة دون النساء ، بدليل قوله : ﴿ إِلاَّ على أزواجهم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ للإجماع على أنه لا يحل للمرأة أن يطأها من تملكه .

قال الفراء : إن " على " في قوله : ﴿ إِلاَّ على أزواجهم ﴾ بمعنى : " من " .

وقال الزجاج : المعنى : أنهم يلامون في إطلاق ما حظر عليهم فأمروا بحفظه إلا على أزواجهم ودلّ على المحذوف ذكر اللوم في آخر الآية .

والجملة في محل نصب على الحال .

وقيل : إن الاستثناء من نفي الإرسال المفهوم من الحفظ ، أي لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم .

وقيل : المعنى : إلا والين على أزواجهم وقوّامين عليهم من قولهم : كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان .

والمعنى : أنهم لفروجهم حافظون في جميع الأحوال إلا في حال تزوّجهم أو تسرّيهم ، وجملة : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ في محل جرّ عطفاً على أزواجهم ، و " ما " مصدرية .

(168/532)

والمراد بذلك : الإماء ، وعبر عنهنّ ب " ما " التي لغير العقلاء ؛ لأنه اجتمع فيهنّ الأنوثة المنبئة عن قصور العقل وجواز البيع والشراء فيهنّ كسائر السلع ، فأجراهن بهذين الأمرين مجرى غير العقلاء ، وجملة : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ تعليل لما تقدّم مما لا يجب عليهم حفظ فروجهم منه .

﴿ فَمَنِ ابتغى وَرَاء ذلك فأولئك هُمُ العادون ﴾ الإشارة إلى الزوجات وملك اليمين ، ومعنى العادون : المجاوزون إلى ما لا يحلّ لهم ، فسمى سبحانه من نكح ما لا يحلّ عادياً .

ووراء هنا بمعنى : سوى وهو مفعول ابتغى .

قال الزجاج : أي فمن ابتغى ما بعد ذلك فمفعول الابتغاء محذوف ، و ﴿ وراء ﴾ ظرف .

وقد دلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة ، واستدلّ بها بعض أهل العلم على تحريم الاستمناء لأنه من الوراء لما ذكر ، وقد جمعنا في ذلك رسالة سميناها " بلوغ المني في حكم الاستمنا " ، وذكرنا فيها أدلة المنع والجواز وترجيح الراجح منهما .

﴿ والذين هُمْ لأماناتهم وَعَهْدِهِمْ راعون ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ لأماناتهم ﴾ بالجمع . وقرأ ابن كثير بالإفراد .

والأمانة : ما يؤتمنون عليه ، والعهد : ما يعاهدون عليه من جهة الله سبحانه أو جهة عباده ، وقد جمع العهد والأمانة كل ما يتحمله الإنسان من أمر الدين والدنيا ، والأمانة أعمّ من

العهد ، فكل عهد أمانة ، ومعنى ﴿ راعون ﴾ : حافظون .

﴿ والذين هُمْ على صلواتهم يحافظون ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ صلواتهم ﴾ بالجمع .

وقرأ حمزة والكسائي : " صلاتهم " بالإفراد ، ومن قرأ بالإفراد فقد أراد اسم الجنس وهو في معنى الجمع .

والمحافظة على الصلاة إقامتها والمحافظة عليها في أوقاتها وإتمام ركوعها وسجودها وقراءتها والمشروع من أذكارها .

ثم مدح سبحانه هؤلاء فقال : ﴿ أولئك هُمُ الوارثون ﴾ أي الأحقاء بأن يسموا بهذا الاسم دون غيرهم .

(169/532)

ثم بين الموروث بقوله : ﴿ الذين يَرِثُونَ الفردوس ﴾ وهو أوسط الجنة ، كما صح تفسيره بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : أن من عمل بما ذكر في هذه الآيات فهو الوارث الذي يرث من الجنة ذلك المكان ، وفيه استعارة لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم .

وقيل : المعنى : أنهم يرثون من الكفار منازلهم حيث فرقوها على أنفسهم ؛ لأنه سبحانه

خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار .

ولفظ الفردوس لغة رومية معرّبة ، وقيل : فارسية .

وقيل : حبشية .

وقيل : هي عربية .

وجملة : ﴿ هُمْ فِيهَا خالدون ﴾ في محل نصب على الحال المقدّرة ، أو مستأنفة لا محل لها ، ومعنى الخلود : أنهم يدومون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ، وتأنيث الضمير مع أنه راجع إلى الفردوس لأنه بمعنى الجنة .

وقد أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والترمذي والنسائي وابن المنذر والعقيلي ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل ، والضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب قال : كان إذا أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي يسمع عند وجهه كدويّ النحل ، فأنزل الله عليه يوماً فمكثنا ساعة ، فسريّ عنه فاستقبل القبلة فقال : " اللّهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا " ، ثم قال : " لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة " ، ثم قرأ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ حتى ختم العشر .

وفي إسناده يونس بن سليم الصنعاني .

قال النسائي : لا نعرف أحداً رواه عن ابن شهاب إلا يونس بن سليم ويونس لا نعرفه .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد ، والنسائي وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن يزيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة : كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : كان خلقه القرآن ، ثم قالت : تقرأ سورة المؤمنين ؟ اقرأ : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى بلغ العشر ، فقالت : هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير ، والبيهقي في سننه عن محمد بن سيرين قال : نبئت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء ، فنزلت : ﴿ الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خاشعون ﴾ .

وأخرجه عبد الرزاق ، عنه ، وزاد : فأمره بالخشوع فرمى ببصره نحو مسجده .

وأخرجه عنه أيضاً عبد بن حميد ، وأبو داود في المراسيل ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في السنن بلفظ : كان إذا قام في الصلاة نظر هكذا وهكذا ، يميناً وشمالاً ، فنزلت : ﴿ الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خاشعون ﴾ فحنى رأسه .

وروي عنه من طرق مرسلاً هكذا .

وأخرجه الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عنه عن أبي هريرة ؛ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء ، فنزلت : ﴿ الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خاشعون ﴾ فطأطأ رأسه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن سيرين بلفظ : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون رؤوسهم وأبصارهم إلى السماء في الصلاة يلتفتون يميناً وشمالاً ، فأنزل الله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون * الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خاشعون ﴾ فمالوا برؤوسهم فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك في الصلاة ، ولم يلتفتوا يميناً وشمالاً .

(171/532)

وأخرج ابن المبارك في الزهد ، وعبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في سننه عن عليّ : أنه سئل عن قوله : ﴿ الذين هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خاشعون ﴾ قال : الخشوع في القلب ، وأن تلين كتفك للمرء المسلم ، وأن لا تلتفت في صلاتك .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ الذين هُمْ فِي

صَلاَتِهِمْ خاشعون ﴾ قال : خائفون ساكنون .

وقد ورد في مشروعية الخشوع في الصلاة والنهي عن الالتفات وعن رفع البصر إلى السماء أحاديث معروفة في كتب الحديث .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ والذين هُمْ عَنِ اللغو مُّعْرِضُونَ ﴾ قال : الباطل .

وأخرج عبد الرزاق ، وأبو داود في ناسخه عن القاسم بن محمد : أنه سئل عن المتعة فقال : إني لأرى تحريمها في القرآن ، ثم تلا : ﴿ والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافظون * إِلاَّ على أزواجهم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني عن ابن مسعود أنه قيل له : إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن : ﴿ الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج : 23] .

﴿ والذين هُمْ على صلاتهم يحافظون ﴾ قال : ذلك على مواقيتها ، قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على تركها ، قال : تركها كفر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ، والحاكم وصححه عن أبي هريرة في قوله : ﴿ أولئك هُمُ الوارثون ﴾ قال : يرثون مساكنهم ومساكن إخوانهم التي أعدت لهم لو أطاعوا الله .

وأخرج سعيد بن منصور وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا وله منزلان : منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : ﴿ أولئك هُمُ الوارثون ﴾ " وأخرج عبد بن حميد ، والترمذي وقال : حسن صحيح غريب عن أنس ، فذكر قصة ، وفيها أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها " ، ويدلّ على هذه الوراثة المذكورة هنا قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الجنة التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ [مريم : 63] .

وقوله : ﴿ تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 43] .

ويشهد لحديث أبي هريرة هذا ما في صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال ، فيغفرها الله لهم ، ويضعها على اليهود والنصارى " وفي لفظ له : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً ، فيقول : هذا فكاكك من النار " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾

أي : قائمون عليها بحفظها وإصلاحها . والآية تحتمل العموم في كل ما اؤتمنوا عليه وعوهدوا ، من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم . ولذا عدت الخيانة في الأمانة من آيات النفاق في الحديث المشهور .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي : يحافظون عليها . وذلك أن لا يسهوا عنها ويؤدّوها في أوقاتها ، ويقيموا أركانها ، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغي أن تتم به أوصافها . وليس هذا تكريراً لما وصفهم به أولاً . فإن الخشوع في الصلاة ، غير المحافظة عليها . وتقديم الخشوع اهتماماً به . حتى كأن الصلاة ، لا يعتد به بدونه ، أو لعموم هذا له . وفي تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة ، تعظيم لشأنها .

﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي : الجامعون لهذه الأوصاف : ﴿ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ﴾ أي : الجنة : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي : لا يخرجون منها أبداً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 297 ﴾

(174/532)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس : أنهم راعون لأماناتهم وعهدهم : أي محافظون على الأمانات ، والعهود . والأمانة تشمل : كل ما استودعك الله ، وأمرك بحفظه ، فيدخل فيها حفظ جوارحك من كل ما لا يرضي الله ، وحفظ ما ائتمنت عليه من حقوق الناس ، والعهود أيضاً تشمل : كل ما أخذ عليك العهد بحفظه ، من حقوق الله ، وحقوق الناس .

(175/532)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من حفظ الأمانات والعهود جاء مبيناً في آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ [النساء : 58] وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : 27]

وقوله تعالى في سأل سائل ﴿ والذين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [المعارج : 32] وقوله في العهد ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ العهد كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 34] وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ أَوْفُواْ بالعقود ﴾ [المائدة : 1] الآية . وقوله : ﴿ وَمَنْ أوفى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ الله فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الفتح : 10] وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ الله إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ [النحل : 91] وقد أوضحنا هذا في سورة الأنبياء في الكلام على قوله ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث ﴾ [الأنبياء : 78] الآية . وقوله : راعون : جمع تصحيح للراعي ، وهو القائم على الشيء ، بحفظ أو إصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية ، وفي الحديث "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" الحديث ، وقرأ هذا الحرف ابن كثير وحده : لأمانتهم بغير ألف بعد النون ، على صيغة الإفراد والباقون بألف بعد النون ، على صيغة الجمع مؤنث السالم .

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9)

(176/532)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس : أنهم يحافظون على صلواتهم والمحافظة عليها تشمل إتمام أركانها ، وشروطها ، وسننها ،

وفعلها في أوقاتها في الجماعات في المساجد ، ولأجل أن ذلك من أسباب نيل الفردوس أمر تعالى بالمحافظة عليها في قوله تعالى : ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ [البقرة : 238] الآية . وقال تعالى في سورة المعارج ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المعارج : 34] وقال فيها أيضاً ﴿ إِلاَّ المصلين الذين هُمْ على صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ [المعارج : 22-23] وذم وتوعد من لم يحافظ عليها في قوله ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ [مريم : 59] .

وقد أوضحنا ذلك في سورة مريم ، وقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الذين هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون : 4-5] الآية . وقال تعالى في ذم المنافقين ﴿ وَإِذَا قاموا إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى يُرَآءُونَ الناس ﴾ [النساء : 142] الآية . وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي العمل أحب إلى الله ؟ قال " الصلاة على وقتها " الحديث . وقد قدمناه والأحاديث في فضل الصلاة والمحافظة عليها كثيرة جداً ، ولكن موضوع كتابنا بيان القرآن بالقرآن ، ولا نذكر غالباً البيان من السنة ، إلا إذا كان في القرآن بيان غير وافٍ بالمقصود ، فنتمم البيان من السنة كما قدمناه مراراً . وذكرناه في ترجمة هذا الكتاب المبارك .

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن المؤمنين المتصفين بالصفات ، التي قدمناهم الوارثون ، وحذف مفعول اسم الفاعل الذي هو الوارثون ، لدلالة قوله : ﴿ الذين يَرِثُونَ الفردوس ﴾ عليه . والفردوس : أعلا الجنة ، وأوسطها ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن جل وعلا ، وعبر تعالى عن نيل الفردوس هنا باسم الوارثة .

وقد أوضحنا معنى الوارثة والآيات الدالة على ذلك المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الجنة التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ [مريم : 63] وقوله : ﴿ ونودوا أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 43] وقوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ [الزمر : 74] الآية في سورة مريم في الكلام على قوله : ﴿ تِلْكَ الجنة التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ [مريم : 63] فأغنى ذلك عن إعادته هنا ، وقرأ هذا الحرف : حمزة والكسائي : على صلاتهم بغير واو ، بصيغة الإفراد وقرأ الباقون : على صلواتهم بالواو المفتوحة بصيغة الجمع المؤنث السالم والمعنى واحد ، لأن المفرد الذي هو اسم جنس ، إذا أضيف إلى معرفة ، كان صيغة عموم كما هو معروف في الأصول . وقوله هنا : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي بلا انقطاع أبداً ، كما قال تعالى ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 108] أي غير مقطوع . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص : 54] وقال تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ

يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : 96] كما قدمناه مستوفى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(178/532)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) ﴾

هذه صفة أخرى من جلائل صفات المؤمنين تنحل إلىَ فضيلتين هما فضيلة أداء الأمانة التي يؤتمنون عليها وفضيلة الوفاء بالعهد .

فالأمانة تكون غالباً من النفائس التي يخشى صاحبها عليها التلف فيجعلها عند من يظن فيه حفظها ، وفي الغالب يكون ذلك على انفراد بين المؤتمِنِ والأمين ، فهي لنفاستها قد تغري الأمين عليها بأن لا يردها وبأن يجحدها ربها ، ولكون دفعها في الغالب عَرِيّاً عن الإشهاد تبعث محبتها الأمينَ على التمسك بها وعدم ردها ، فلذلك جعل الله ردّها من شعب الإيمان .

وقد جاء في الحديث عن حذيفة بن اليَمَان قال " حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأمانة نزلت في جَذْرِ قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة " وحدثنا عن

رفعها قال : " ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فَيَظَلّ أَثَرُها مثل أثر الوكْت ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المَجْل كجَمْرٍ دَحرجتَه على رِجلك فَنَفِطَ فتراه مُنْتَبِراً وليس فيه شيء فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة ، فيقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، ويقال للرجل : ما أعقله وما أظرفه وما أجلده وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان " أ هـ .

الوكت : سواد يكون في قِشر التمر .

والمَجْل : انتفاخ في الجلد الرقيق يكون شبه قِشر العِنبة ينشأ من مس النار الجلدَ ومن كثْرة العمل باليد وقوله : " مثقال حبة خردل من إيمان " هو مصدر آمنَه ، أي ومَا في قرارة نفسه شيء من إيمان الناس إيَّاه فلا يأتمنه إلاّ مغرور .

وقد تقدم الكلام على الأمانة في قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤَدوا الأمانات تِ إلى أهلها ﴾ في سورة النساء (58) .

وجمع ﴿ الأمانات باعتبار تعدد أنواعها وتعدد القائمين بالحفظ تنصيصاً على العموم .

(179/532)

وقرأ الجمهور : لأماناتهم ﴾ بصيغة الجمع ، وقرأه ابن كثير ﴿ لأمانتهم ﴾ بالإفراد باعتبار المصدر مثل ﴿ الذين هم في صَلاتهم خاشعون ﴾ [المؤمنون : 2] .

والعهد : التزام بين اثنين أو أكثر على شيء يعامِل كل واحد من الجانبين الآخرَ به .

وسمي عهداً لأنهما يتحَالفان بعهد الله ، أي بأن يكون الله رقيباً عليهما في ذلك لا يفيتهم المؤاخذة على تخلفه ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ في سورة البقرة (27) .

والوفاء بالعهد من أعظم الخلق الكريم لدلالته على شرف النفس وقوة العزيمة ، فإن المرأينِ قد يلتزم كل منهما للآخر عملاً عظيماً فيصادف أن يتوجه الوفاء بذلك الإلتزام على أحدهما فيصعب عليه أن يتجشم عملاً لنفع غيره بدون مقابل ينتفع به هو فتسول له نفسه الخَتْر بالعهد شحّاً أو خوراً في العزيمة ، فلذلك كان الوفاء بالعهد علامة على عظم النفس قال تعالى:

﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً ﴾ [الإسراء : 34] .

والرعي : مراقبة شيء بحفظه من التلاشي وبإصلاح ما يفسد منه ، فمنه رعي الماشية ، ومنه رَعي الناس ، ومنه أطلقت المراعاة على مَا يستحقه ذو الأخلاق الحميدة من حسن المعاملة .

والقائم بالرعي رَاع .

فرعي الأمانة : حفظها ، ولما كان الحفظ مقصوداً لأجل صاحبها كان ردها إليه أولى من حفظها .

ورعي العهد مجاز ، أي ملاحظته عند كل مناسبة .

والقول في تقديم ﴿ لأماناتهم وعهدهم ﴾ على ﴿ راعون ﴾ كالقول في نظايره السابقة ، وكذلك إعادة اسم الموصول .

والجمع بين رعْي الأمانات ورعْي العهد لأن العهد كالأمانة لأن الذي عاهدك قد ائتمنك على الوفاء بما يقتضيه ذلك العهد .

وذِكْرهما عقب أداء الزكاة لأن الزكاة أمانة الله عند الذين أنعم عليهم بالمال ، ولذلك سُميت : حقّ الله ، وحق المال ، وحق المسكين .

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9)

(180/532)

ثناء على المؤمنين بالمحافظة على الصلوات ، أي بعدم إضاعتها أو إضاعة بعضها ، والمحافظة مستعملة في المبالغة في الحفظ إذ ليست المفاعلة هنا حقيقيَّة كقوله تعالى : ﴿ حافظوا على الصلوات ﴾ [البقرة : 238] وتقدّم معنى الحفظ قريباً .

وجيء بالصلوات بصيغة الجمع للإشارة إلى المحافظة على أعدادها كلها تنصيصاً على العموم.

وإنما ذكر هذا مع ما تقدم من قوله: ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ [المؤمنون: 2] لأن ذكر الصلاة هنالك جاء تبعاً للخشوع فأريد ختم صفات مدحهم بصفة محافظتهم على الصلوات ليكون لهذه الخصلة كمالُ الاستقرار في الذهن لأنها آخر ما قرع السمع من هذه الصفات.

وقد حصل بذلك تكرير ذكر الصلاة تنويهاً بها، ورداً للعجز على الصدر تحسيناً للكلام الذي ذكرت فيه تلك الصفات لتزداد النفس قبولاً لسماعها ووعيها فتتأسى بها.

والقول في إعادة الموصول وتقديم المعمول وإضافة الصلوات إلى ضميرهم مثل القول في نظيره ونظائره.

وقرأ الجمهور ﴿ على صلواتهم ﴾ بصيغة الجمع، وقرأه حمزة والكسائي وخلف ﴿ على صلاتهم ﴾ بالإفراد.

وقد جمعت هذه الآية أصول التقوى الشرعية لأنها أتت على أعسر ما تُراض له النفس من أعمال القلب والجوارح.

فجاءت بوصف الإيمان وهو أساس التقوى لقوله تعالى: ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد: 17] وقوله: ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى

إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ [النور : 39] .

ثم ذكرت الصلاة وهي عماد التقوى والتي تنهى عن الفحشاء والمنكر لما فيها من تكرر استحضار الوقوف بين يدي الله ومناجاته .

وذكرت الخشوع وهو تمام الطاعة لأن المرء قد يعمل الطاعة للخروج من عهدة التكليف غيرَ مستحضر خشوعاً لربه الذي كلفه بالأعمال الصالحة ، فإذا تخلق المؤمن بالخشوع اشتدت مراقبتُه ربَّه فامتثل واجتنب .

فهذان من أعمال القلب .

(181/532)

وذكرت الإعراض عن اللغو ، واللغو من سوء الخلق المتعلق باللسان الذي يعسر إمساكه فإذا تخلق المؤمن بالإعراض عَنِ اللغو فقد سهل عليه ما هو دون ذلك .

وفي الإعراض عن اللغو خُلُق للسمع أيضاً كما علمتَ .

وذكرت إعطاء الصدقات وفي ذلك مقاومة داء الشح ﴿ ومن يُوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [التغابن : 16] .

وذكرت حفظ الفرج ، وفي ذلك خلق مقاومة اطراد الشهوة الغريزية بتعديلها وضبطها

والترفع بها عن حضيض مشابهة البهائم فمن تخلق بذلك فقد صار كبح الشهوة ملكة له وخُلقاً .

وذكرت أداء الأمانة وهو مظهر للإنصاف وإعطاء ذي الحق حقه ومغالبة شهوة النفس لأمتعة الدنيا .

وذكرت الوفاء بالعهد وهو مظهر لخلق العدل في المعاملة والإنصاف من النفس بأن يبذل لأخيه ما يحب لنفسه من الوفاء .

وذكرت المحافظة على الصلوات وهو التخلق بالعناية بالوقوف عند الحدود والمواقيت وذلك يجعل انتظام أمر الحياتين ملكة وخلقاً راسخاً .

وأنت إذا تأملت هذه الخصال وجدتها ترجع إلى حفظ ما من شأن النفوس إهماله مثل الصلاة والخشوع وترك اللغو وحفظ الفرج وحفظ العهد ، وإلى بذل ما من شأن النفوس إمساكه مثل الصدقة وأداء الأمانة .

فكان في مجموع ذلك أعمال ملكتي الفعلِ والترك في المهمات ، وهما منبع الأخلاق الفاضلة لمن تتبعها .

روى النسائي : أن عائشة قيل لها : كيف كان خُلق رسول الله ؟ قالت : كان خُلقه القُرآن .

وقرأت : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] حتى انتهت إلى قوله : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ .

(182/532)

وقد كان خُلق أهل الجاهليَّة على العكس من هذا ، فيما عدا حفظ العهد غالباً ، قال تعالى : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلاّ مُكاءً وتصدية ﴾ [الأنفال : 35] ، وقال في شأن المؤمنين مع الكافرين ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ [القصص : 55] ، وقال : ﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ [فصلت : 6 ، 7] ، وقد كان البغاء والزنى فاشيين في الجاهليَّة .

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)

جيء لهم باسم الإشارة بعد أن أجريت عليهم الصفات المتقدمة ليفيد اسمُ الإشارة أن جدارتهم بما سيذكر بعد اسم الإشارة حصلتْ من اتصافهم بتلك الصفات على نحو قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] بعد قوله : ﴿ هدًى للمتقين ﴾ إلى آخره في سورة البقرة (2) .

والمعنى : أولئك هم الأحقاء بأن يكونوا الوارثين بذلك .

وتوسيط ضمير الفصل لتقوية الخبر عنهم بذلك ، وحذف معمول ﴿ الوارثون ﴾ ليحصل إبهام وإجمال فيترقب السامع بيانه فبين بقوله : ﴿ الذين يرثون الفردوس ﴾ قصداً لتفخيم هذه الوراثة ، والإتيان في البيان باسم الموصول الذي شأنه أن يكون معلوماً للسامع بمضمون صلته إشارة إلى أن تعريف ﴿ الوارثون ﴾ تعريف العهد كأنه قيل : هم أصحاب هذا الوصف المعروفون به .

واستعيرت الوراثة للاستحقاق الثابت لأن الإرث أقوى الأسباب لاستحقاق المال ، قال تعالى : ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ [الزخرف : 72] .

والفردوس : اسم من أسماء الجنَّة في مصطلح القرآن ، أو من أسماء أشرف جهات الجنات ، وأصل الفردوس : البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر .

(183/532)

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأم حارثة بن سُراقة لمّا أصابه سهم غرب يوم بدر فقتله ، وقالت أمّه : إن كان في الجنَّة أصبرْ وأحتسِبْ فقال لها : " ويْحَكِكِ أهَبلْتِ أوَجَنَّةٌ واحدةٌ هي ، إنَّها لجِنان كثيرة وإنه لفي الفردوس " .

وقد ورد في فضل هذه الآيات حديث عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أُنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] حتى ختم عشر آيات " قال ابن العربي في "العارضة" : قوله : ﴿ الذين يرثون الفردوس ﴾ هي العاشرة ، رواه الترمذي وصححه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(184/532)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) ﴾

﴿ رَاعُونَ ﴾ : يعني يحافظون عليها ويراعونها بالتنفيذ ، والأمانة : كل ما استُؤمِنْت عليه ، وأول شيء استؤمِنتَ عليه عهد الإيمان بالله الذي أخذه الله عليك ، وما دُمْت قد آمنت بالإله فعليك أن تُنفِّذ أوامره .

إذن : هناك أمانة للحق وأمانة للخَلْق ، أمانة الحق التي قال الله تعالى عنها : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] .

فما دُمْتَ قد قبلت تحمُّل الأمانة ، فعليك الأداء .

أما العهد : فكل ما يتعهد به الإنسان في غير معصية ويلزمه الوفاء بما عاهد به ؛ لأنك حين تعاهد إنساناً على شيء فقد ربطْتَ حركته وقيدتها في دائرة إنفاذ هذا العهد ، فحين تقول لي : سأقابلك غداً في المكان الفلاني في الوقت الفلاني لعمل كذا وكذا ، فإنني سأُرتِّب حركة حياتي بناءً على هذا الوعد ، فإذا أخلفتَ وعدك فقد أطلقتَ نفسك في زمنك وتصرفت حسْب راحتك ، وقيَّدْت حركتي أنا في زمني وضيَّعت مصالحي ، وأربكت حركة يومي ؛ لذلك شدَّد الإسلام على مسألة خُلْف الوعد .

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9)

في الآيات السابقة تحدّث عن الصلاة من حيث هيئة الخشوع والخضوع فيها ، وهنا يذكر الصلاة من حيث أدائها والحفاظ عليها ؛ لأن الحفظ يعني أن تأخذ كل وقت من أوقات الصلاة بميلاده وميلاد الأوقات بالأذان ، لكن البعض يقولون : إن الوقت مُمْتدٌّ ، فالظهر مثلاً مُمْتد من أذان الظهر إلى قبل أذان العصر ، وهكذا في باقي الصلوات .

(185/532)

نقول : نعم هذا صحيح والوقت مُمتد ، لكن مَنْ يضمن لك الحياة إلى آخر الوقت ؟ مَنْ يضمن لك أن تصلي العشاء مثلاً قبل أذان الفجر ؟ نعم ، تظل غير آثم إلى آخر لحظة إذا تمكنتَ من الصلاة وصلَّيْتَ ، لكن هل تضمن هذا ؟ كالذي يستطيع أن يحج ، إلا أنه أخّر الحج إلى آخر أيامه ، فإنْ حج فلا شيء عليه ، لكنه لا يضمن البقاء إلى أنْ يحج ؛ لذلك يجب المبادرة بالحج عند أول استطاعة حتى لا تأثم إنْ فاتك وأنت قادر .

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10)

﴿ أولئك ﴾ [المؤمنون : 10] يعني : أصحاب الصفات المتقدمة ، وهم ستة أصناف : الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون .

هؤلاء هم الوارثون ، والإرْث : أَخْذ حق من غير عقد أو هبة ؛ لأن أَخْذ مال الغير لا بُدَّ أن يكون إما ببيع وعقد ، وإما هبة من صاحب المال . لذلك سألوا الوارث : أهذا حقك ؟ قال : نعم ، قالوا : فما صكُّك عليه ؟ يعني : أين العقد الذي أخذته به ؟ قال : عقدي وصَكّي : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء : 11] فهو عقد أوثق وأعلى من تعاقد البشر .

وما دام عقدي من الحق – تبارك وتعالى – فلا تقُلْ : إن الميراث مأخوذ بغير عقد ؛ لأنه قائم

على أوثق العقود ، وهو العقد من الله .

وكثيراً ما يخرج الناس في مسألة الميراث عما شرع الله حُباً في المال واستئثاراً به ، أو بخلاً على مَنْ جعل له الشرع نصيباً ، فمَنْ كان عنده البنون والبنات يعطي البنين ويحرم البنات ، ومَنْ كان عنده بنات يكتب لهُنَّ ما يملك حتى يحرم إخوته وأعمامهم من حقهم في ماله ، وهذا كثيراً ما يحدث في المجتمع .

(186/532)

ويجب عليك أن تتنبه لمسألة الميراث وتحترم شرع الله فيه وتقسيم الله للمال ، فقد وهبك الله المال وتركك تتصرف فيه طوال حياتك ، وليس لك أن تتصرف فيه أيضاً بعد موتك ، عليك أنْ تدعَ المال لصاحبه وواهبه يتصرف فيه ؛ لذلك قال الله تعالى عن الإرث : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ ﴾ [النساء : 11] يعني : ليست من أحد آخر ، وما دامت من الله فعليك أنْ تمتثل لها وتنفذها ، وحين تتأبَّى عليها فإنك تتأبَّى على الله وترفض قِسْمته .

والمتأمل في مسألة الإرث يجد الخير كل الخير فيما شرعه الله ، ومَنْ كان يحب البنين فليُعْط البنات حتى لا يفسد علاقة أولاده من بعده ، ويأتي إلينا بعض الرجال الذين أخذوا كل مال أبيهم وحَرَموا منه البنات ، يقولون : نريد أن نُصحِّح هذا الخطأ ونعيد القسمة على ما شرع

الله .

ونجد عند بعض الناس إشراقات إيمانية ، فإنْ رفض بعض الإخوة إعادة التقسيم على شرع الله يقول : أنا أتحمل ميراث أخواتي من مالي الخاص ، ومثل هؤلاء يفتح الله عليهم ويبارك لهم فيما بقي ؛ لأنهم جعلوا اعتمادهم على الله فيزيدهم من فضله ويُربي لهم القليل حتى يصير كثيراً ، أما مَنِ اعتمد على ما في يده فإن الله يكِلُه إليه .

ونعجب من الذي يجعل ماله للبنات ليحرم منه إخوته ، نقول له : أنت لستَ عادلاً في هذا التصرف ، يجب أن تعاملهم بالمثل ، فلو تركت بناتك فقراء لا مال لهن ، فمَنْ يعولهُنَّ ويرعاهن من بعدك ؟ يعولهن الأعمام .

إذن : لتكُنْ معاملة بالمثل .

والحق – تبارك وتعالى – حين يُورث هذه الأصناف يورثهم بفضله وكرمه ، وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : " لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته " .

(187/532)

أما قوله تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 32] فهذا خاص بمجرد دخول الجنة ، أما الزيادة فهي من فضل الله ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : 173] ومن أسمائه تعالى (الوارث) وقال : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ [الأنبياء : 89] فماذا يرث الحق سبحانه وتعالى مِنَّا ؟

لقد خلق الله الخَلْق ، وأعطى للناس أسباب ملكيته ، ووزَّع هذه الملكية بين عباده : هذا يملك كذا ، وهذا يملك كذا من فضل الله تعالى . فإذا كان يوم القيامة عاد المُلْك كله إلى صاحبه ، وكان الحق سبحانه وتعالى هو الوارث الوحيد يوم يقول : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

والله خير الوارثين ؛ لأن الوارث يأخذ ما ورثه لينتفع هو به ، لكن الحق سبحانه يرث ما تركه للغير ليعود خَيْره عليهم ويزيدهم ، ويعطيهم أضعافاً مضاعفة ، وإذا كان يعطيهم في الدنيا بأسباب فإنه في الآخرة يرث هذه الأسباب ، ويعطيهم من فضله بلا أسباب ، حيث تعيش في الجنة مستريحاً لا تعبَ ولا نصبَ ولا سَعْيَ ، وما يخطر ببالك تجده بين يديك دون أنْ تُحرِّك ساكناً .

إذن : البشر يرثون ليأخذوا ، أمّا الحق سبحانه فيرث ليعطي ؛ لذلك فهو خير الوارثين .

فأيُّ شيء يرثه المؤمنون الذين توفرت فيهم هذه الصفات ؟ يجيب الحق سبحانه : ﴿ الذين يَرِثُونَ الفردوس . . ﴾

إذن : الحق سبحانه ورَّثهم في الفانية ليعطيهم الفردوس الخالد في الآخرة ، والفردوس أعلى الجنة ، فورث الحق لينفع عباده ويُصعِّد النفع لهم ، ففي الدنيا كنا ننتفع بالأسباب ، وفي الآخرة ننتفع بغير أسباب ، الحق ورث ليعطي ، لا مِثْل ما أخذ إنما فوق ما أخذ ؛ لأننا نأخذ في الميراث ما يفنى ، ولله تعالى يعطينا في ميراثه ما يبقى .

لكن مِمَّنْ يرثون الفردوس ؟

(188/532)

قالوا : الحق – تبارك وتعالى – عندما خلق الخَلْق ، وجعل فيهم الاختيار بين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية رتَّبَ على ذلك أموراً ، فجعل الجنة على فرض أن الخَلْق كلهم مؤمنون ، بحيث لو دخلوا الجنة جميعاً ما كانت هناك أزمة أماكن ولا زحام ، وكذلك جعل النار على فرض أن الخَلْق كلهم كافرون ، فلو كفر الناس جميعاً لكان لكل منهم مكانه في النار .

وعليه فحين يدخل أهل الجنةِ الجنةَ يتركون أماكنهم في النار ، وحين يدخل أهل النارِ النارَ يتركّون أماكنهم في الجنة ، فيرث أهل النار الأماكن الشاغرة فيها ، ويرث أهل الجنة الأماكن الشاغرة فيها .

والفردوس أعلى مكان في الجنة ، لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول " إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة " ذلك ؛ لأن الفردوس جنة على أعلى رَبْوة في الجنة . يعني : في مكان مُميّز منها ، والعلو في مسألة المسكن والجنان أمر محبوب في الدنيا ، الناس يُحبون السُّكْنى في الأماكن العالية ، حيث نقاء الهواء ونقاء الماء ، أَلَا تراهم يزرعون في المرتفعات ، وإنْ كانت الأرض مستوية يجعلون فيها مصارف منخفضة تمتصُّ الماء الزائد الذي يفسد الزرع ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ [البقرة : 265] .

كذلك الأرض المرتفعة لا تُسْقَى بالماء الغمر ، إنما تُسْقَى من ماء السماء الذي يغسل الأوراق قبل أن يروي الجذور ، فيكون النبات على أفضل ما يكون ؛ لذلك يقول عنها رب العزة : ﴿ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ [البقرة : 265] .

ومعلوم أن الأوراق هي رئة النبات ، وعليها تقوم عملية التمثيل الضوئي التي يصنع منها النبات غذاءه ، فإذا ما سُدَّت مسام الأوراق وتراكم عليها الغبار فإن ذلك يُقلِّل من قدرة النبات على التنفس ، مثل الإنسان حينما يُصَاب بشيء في رئته تزعجه وتُقلِّل من كفاءته .

(189/532)

وفي الفردوس ميزة أخرى هي أن الحق سبحانه وتعالى هو الذي غرس شجرها بيده ، كما كرَّم آدم عليه السلام فخلقه بيده تعالى ، فقال : ﴿ يا إبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ . . ﴾ [ص : 75] .

ويُروى أن الحق – تبارك وتعالى – لما خلق الفردوس ، وغرس أشجارها بيده قال للفردوس : تكلمي ، فلما تكلمت الفردوس قالت : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] .

ثم يقول تعالى : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : 11] لأن نعيم الجنة باقٍ ودائم لا ينقطع ، وقد عرفنا أن نعيم الدنيا موقوت مهما أُوتِي الإنسان منه ، فإنه منقطع زائل ، إما أنْ يتركك بالفقر والحاجة ، وإما أنْ تتركه أنت بالموت ، لذلك يقول تعالى في نعيم الآخرة : ﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : 33] .

وهكذا نلحظ على استهلال هذه السورة أن الحق سبحانه بدأ بالكلام عن الفلاح في الآخرة كأنه قدَّم ثمرة الإيمان أولاً ، ووضع الجزاء بداية بين يديك كأنه سبحانه يقول لك : هذا جزاء مَنْ آمن بي واتبع منهجي . كما جاء في قوله تعالى في استهلال سورة (الرحمن) : ﴿ الرحمن * عَلَّمَ القرآن * خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان ﴾ [الرحمن : 1 – 4] كيف وقد خلق الله الإنسان أولاً ، ثم علَّمه القرآن ؟

قالوا : لأن الذي يصنع صنعة يضع لها قانونها ، ويُحدِّد لها مهمتها أولاً قبل أن يشرع في

صناعتها ، فمثلاً – ولله المثل الأعلى – الذي يصنع الثلاجة ، قبل أن يصنعها حدد عملها ومهمتها وقانون صيانتها والغاية منها .

والقرآن هو منهج الإنسان ، وقانون صيانته في حركة الحياة ؛ لذلك خلق الله المنهج ووضع قانون الصيانة قبل أن يخلق الإنسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(190/532)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها ﴾ والفردوس اسم يقال على جميع الجنة ويقال على أفضلها وأعلاها كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات وأصل الفردوس البستان والفراديس البساتين قال كعب هو البستان الذي فيه الاعناب وقال الليث الفردوس جنة ذات كروم يقال كرم مفردس أي معرش وقال الضحاك هي الجنة الملتفة بالأشجار وهو اختيار المبرد وقال الفردوس فيما سمعت من كلام العرب الشجر الملتف والأغلب عليه العنب وجمعه الفراديس قال ولهذا سمى باب

الفراديس بالشام وانشد لجرير

فقلت للركب إذ جد المسير بنا . . . يا بعد من باب الفراديس

وقال مجاهد هذا البستان بالرومية واختاره الزجاج فقال هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية قال وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين قال حسان وأن ثواب الله كل مخلد . . . جنان من الفردوس فيها يخلد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حادى الأرواح صـ 100.99 ﴾

(191/532)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) ﴾

أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والترمذي والنسائي وابن المنذر والعقيلي والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل والضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب قال : " كان إذا نزل على رسول الله صلى الله وعليه وسلم الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فأنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة ، فسري عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال : اللهم زدنا

ولا تُنْقِصْنَا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا ارضنا ، ثم قال : لقد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى ختم العشر " .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد والنسائي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن يزيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة ، كيف كان خلق رسول الله صلى الله وعليه وسلم ؟ قالت : كان خلقه القرآن . ثم قالت : تقرأ سورة المؤمنون ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ فقرأ حتى بلغ العشر فقالت : هكذا كان خلق رسول الله صلى الله وعليه وسلم " .

واخرج ابن عدي والحاكم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خلق الله جنة عدن ، وغرس أشجارها بيده وقال لها : تكلمي . فقالت ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ " .

وأخرج الطبراني في السنة وابن مردويه من حديث ابن عباس مثله .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ قال : قال كعب : لم يخلق الله بيده إلا ثلاثة : خلق آدم بيده ، والتوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده ثم قال : تكلمي . . فقالت : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ لما علمت فيها من الكرامة .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : لما غرس الله الجنة نظر إليها فقال : ﴿ قد أفلح المؤمنون

﴾ .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال : لما خلق الله الجنة قال ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ وأنزل الله به قرآناً .

(192/532)

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ يعني : سعد المصدقون بتوحيد الله .

وأخرج عبد بن حميد عن طلحة بن مصرف أنه كان يقرأ ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ برفع أفلح .

وأخرج عن عاصم أنه قرأ بنصب (أفلح) .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ قال : فازوا وسعدوا . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول لبيد :

فاعقلي إن كنت ما تعقلي . . . ولقد أفلح من كان عقل

الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2)

أخرج سعيد بن منصور وابن جرير والبيهقي في سننه عن محمد بن سيرين قال : نبئت أن رسول الله صلى الله وعليه وسلم كان إذا صلى يرفع بصره إلى السماء ، فنزلت ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في مراسيله وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه من وجه آخر عن ابن سيرين قال : "كان النبي صلى الله وعليه وسلم إذا قام في الصلاة نظر هكذا وهكذا يميناً وشمالاً ، فنزلت ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ فحنى رأسه ".

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين قال : " كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة ويلتفتون يميناً وشمالاً ، فأنزل الله ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ فقالوا برؤوسهم ، فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك في الصلاة ، ولم يلتفتوا يميناً ولا شمالاً " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة عن ابن سيرين قال "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما ينظر إلى الشيء في الصلاة فرفع بصره حتى نزلت آية ، إن لم تكن هذه فلا أدري ما هي ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ فوضع رأسه " .

(193/532)

وأخرج ابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم "كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء ، فنزلت ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ فطأطأ رأسه" .

وأخرج ابن مردوية عن ابن عمر في قوله ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ قال : كانوا إذا قاموا في الصلاة اقبلوا على صلاتهم ، وخفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم ، وعلموا أن الله يقبل عليهم فلا يلتفتون يميناً ولا شمالاً .

وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن علي أنه سئل عن قوله ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ قال : الخشوع في القلب ، وإن تلين كنفك للمرء المسلم ، وأن لا تلتفت في صلاتك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ قال : خائفون ، ساكنون .

وأخرج الحكيم الترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بكر الصديق قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تعوذوا بالله من خشوع النفاق . قالوا يا رسول الله وما خشوع النفاق ؟ قال : خشوع البدن ، ونفاق القلب " .

وأخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال : استعيذوا بالله من خشوع النفاق .

قيل له : وما خشوع النفاق ؟ قال : إن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : الخشوع في القلب هو الخوف ، وغض البصر في الصلاة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن إبراهيم ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ قال : الخشوع في القلب . وقال : ساكتون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ قال : كان خشوعهم في قلوبهم ، فغضوا بذلك أبصارهم ، وخفضوا لذلك الجناح .

(194/532)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الزهري ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ قال : هو سكون المرء في صلاته .

وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في الآية قال : الخشوع في الصلاة السكوت فيها .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن مجاهد عن عبد الله بن الزبير . أنه كان يقوم للصلاة كأنه عود ، وكان أبو بكر رضي الله عنه يفعل ذلك . وقال مجاهد : هو الخشوع في الصلاة .

واخرج الحكيم الترمذي من طريق القاسم بن محمد عن أسماء بنت أبي بكر عن أم رومان والدة عائشة قالت : رآني أبو بكر الصديق رضي الله عنه أتميل في صلاتي ، فزجرني زجرة كدت أنصرف من صلاتي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا قام أحدكم في الصلاة فليسكن أطرافه ، لا يتميل تميل اليهود فإن سكون الأطراف في الصلاة من تمام الصلاة " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنه رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال : لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه " .

وأخرج ابن سعد عن أبي قلابة قال : سألت مسلم بن يسار عن الخشوع في الصلاة فقال : تضع بصرك حيث تسجد .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري وأبو داود والنسائي عن عائشة قالت : " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال : هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة أنه قال في مرضه " اقعدوني ، اقعدوني ، فإن عندي

وديعة أودعتها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يلتفت أحدكم في صلاته ، فإن كان لا بد فاعلاً ففي غير ما افترض الله عليه " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة من طريق عطاء قال " سمعت أبا هريرة يقول : إذا صليت فإن ربك أمامك وأنت مناجيه فلا تلتفت . قال عطاء : وبلغني أن الرب يقول : يا ابن آدم إلى من تلتفت ؟ أنا خير لك ممن تلتفت إليه " .

(195/532)

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي الدرداء قال : إياكم والالتفات في الصلاة فإنه لا صلاة للملتفت ، وإذا غلبتم على تطوع فلا تغلبوا على المكتوبة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : إن الله لا يزال مقبلاً على العبد ما دام في صلاته ما لم يحدث ، أو يلتفت .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن منقذ قال : إذا قام الرجل إلى الصلاة أقبل الله عليه بوجهه ، فإذا التفت أعرض عنه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال : إذا قام الرجل في الصلاة أقبل الله عليه بوجهه ما لم يلتفت .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحكم قال : إن من تمام الصلاة أن لا تعرف من عن يمينك ولا من عن شمالك .

وأخرج الحاكم وصححه من طريق جبير بن نفير بن عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " نظر إلى السماء يوماً فقال : هذا أوان ما يرفع العلم ، فقال له رجل من الأنصار يقال له ابن لبيد : يا رسول الله ، كيف يرفع وقد أثبت في الكتب ، ووعته القلوب ؟ فقال : إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة ، ثم ذكر ضلالة اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله قال : فلقيت شداد بن أوس فحدثته فقال : صدق عوف ألا أخبرك بأول ذلك . قلتُ : بلى . قال : الخشوع حتى لا ترى خاشعاً " .

(196/532)

وأخرج الحاكم وصححه من طريق جبير بن نفير عن أبي الدرداء قال "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء فقال زياد بن لبيد : يا رسول الله وكيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن ؟ فوالله لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نساءنا وآباءنا فقال : ثكلتك أمك يا زياد ، إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة ، هذا التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى ، فماذا يغني

عنهم ، فلقيت عبادة بن الصامت فقلت له : ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء ؟ وأخبرته . فقال صدق وإن شئت لأحدِّثنَّكَ بأول علم يرفع من الناس ، الخشوع . يوشك أن تدخل المسجد فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحاكم وصححه عن حذيفة قال : أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة . ولَتَنْقُضَنَّ عُرا الإسلام عروة عروة ، ولْيُصَلِّيَنَّ النساء وهن حيض ، ولَتَسْلُكُنَّ طريق من كان قبلكم حذو القِذة بالقذة ، وحذو النعل بالنعل ، لا تخطو طريقهم ولا تخطىء بكم حتى تبقى فرقتان من فرق كثيرة تقول إحداهما : ما بال الصلاة الخمس ، لقد ضل من كان قبلنا إنما قال الله ﴿ أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ﴾ [هود : 144] لا تصلوا إلا ثلاثاً . وتقول الأخرى : إنما المؤمنون بالله كإيمان الملائكة لا فينا كافر ولا منافق حق على الله أن يحشرهما مع الدجال .

وأخرج أحمد عن أبي اليسر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " منكم من يصلي الصلاة كاملة ، ومنكم من يصلي النصف والثلث والربع حتى بلغ العشر " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وابن ماجة عن جابر بن سمرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لينتهين قوم يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أنس بن مالك " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم فاشتد في ذلك حتى قال : لينتهن عن ذلك أو لَتُخْطَفَنَّ أبصارُهم " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة قال : أما يخشى أحدكم إذا رفع بصره إلى السماء أن لا يرجع إليه بصره يعني وهو في الصلاة .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ قال : الباطل .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن الحسن في قوله ﴿ والذين هم عن اللغو ﴾ قال : عن المعاصي .

وأخرج ابن المبارك عن قتادة في قوله ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ قال : أتاهم والله من أمر الله ما وقذهم عن الباطل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ يعني :

الأموال ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ يعني : الفواحش ﴿ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ يعني . ولائدهم ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ قال : لا يلامون على جماع أزواجهم وولائدهم ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك ﴾ يعني : فمن طلب الفواحش بعد الأزواج والولائد طلب ما لم يحل ﴿ فأولئك هم العادون ﴾ يعني : المعتدين في دينهم ﴿ والذين هم لأماناتهم ﴾ يعني : بهذا ما ائتمنوا عليه فيما بينهم وبين الناس ﴿ وعهدهم ﴾ قال : يوفون العهد ﴿ راعون ﴾ قال : حافظوْن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ إلا على أزواجهم ﴾ يعني . إلا من امرأته ﴿ أو ما ملكت أيمانهم ﴾ قال : أمته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال : كل فرج عليك حرام إلا فرجين . قال الله ﴿ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ .

(198/532)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ يقول : من تعدى الحلال أصابه الحرام .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الرحمن في قوله ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم

العادون ﴾ قال : الزنا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن أبي مليكة قال : سئلت عائشة عن متعة النساء فقالت : بيني وبينكم كتاب الله وقرأت ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ فمن ابتغى وراء ما زوجه الله أو ملكه فقد عدا .

وأخرج عبد الرزاق وأبو داود في ناسخه عن القاسم بن محمد أنه سئل عن المتعة فقال : إني لا أرى تحريمها في القرآن ، ثم تلا ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة قال : تسرت امرأة غلاماً لها فذكرت لعمر رضي الله عنه فسألها : ما حملك على هذا ؟ فقالت : كنت أرى أنه يحل لي ما يحل للرجل من ملك اليمين . فاستشار عمر رضي الله عنه فيها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : تأولت كتاب الله غير تأويله . فقال عمر : لا جرم ، والله لا أُحِلُّكِ لحر بعده أبداً . كأنه عاقبها بذلك ودرأ الحد عنها ، وأمر العبد أن لا يقربها .

وأخرج عبد الرزاق عن أبي بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول : حضرت عمر بن عبد العزيز جاءته إمرأة من العرب بغلام لها رومي فقالت : إني استسريته فمنعني بنو عمي ، وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها ، فأبى علي بنو عمي فقال لها عمر : أتزوجت قبله ؟

قالت : نعم .

قال : أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة عن ابن عمر أنه سئل عن امرأة أحلت جاريتها لزوجها فقال : لا يحل لك أن تطأ فرجاً إلا فرجاً ، إن شئت بعت ، وإن شئت وهبت ، وإن شئت أعتقت .

(199/532)

وأخرج عبد الرزاق عن سعيد بن وهب قال : جاء رجل إلى ابن عمر فقال : إن أمي كانت لها جارية وأنها أحلتها إلي أطوف عليها . فقال : لا تحل لك إلا أن تشتريها أو تهبها لك .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن عباس قال : إذا أحلت امرأة الرجل ، أو ابنته ، أو أخته ، له جاريتها فليصبها وهي لها .

وأخرج عبد الرزاق عن طاوس أنه قال : هو أحل من الطعام ، فإن ولدت فولدها للذي أحلت له ، وهي لسيدها الأول .

وأخرج عبد الرزاق عن عطاء قال : كان يفعل يحل الرجل وليدته لغلامه ، وابنه ، وأخيه ، وأبيه ، والمرأة لزوجها ، ولقد بلغني أن الرجل يرسل وليدته إلى ضيفه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن سيرين قال : الفرج لا يعار .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال : لا يعار الفرج .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ قال : أي على وضوئها ، ومواقيتها ، وركوعها ، وسجودها .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن مسروق قال : ما كان في القرآن ﴿ يحافظون ﴾ فهو على مواقيت الصلاة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني عن ابن مسعود أنه قيل له : إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ [المعارج : 23] ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ قال : ذاك على مواقيتها . قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على تركها الكفر .

واخرج ابن المنذر عن أبي صالح في قوله ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ قال : المكتوبة . والذي في سأل ، التطّوع .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ قال : على المكتوبة .

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه عن أبي هريرة في قوله ﴿ الوارثون ﴾ قال : يرثون مساكنهم ومساكن إخوانهم التي أعدت لهم لو أطاعوا الله .

(200/532)

وأخرج سعيد بن منصور وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما منكم من أحد إلا وله منزلان ، منزل في الجنة ، ومنزل في النار . فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد عن أنس أن الربيع بنت النضر أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ابنها الحارث بن سراقة أصيب يوم بدر أصابه سهم غرب فقالت : أخبرني عن حارثة فإن كان أصاب الجنة احتسبت وصبرت ، وإن كان لم يصب الجنة اجتهدت في الدعاء ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا أم حارثة انها جنان في جنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى ، والفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها " . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(201/532)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8)

قوله : ﴿ لأَمَانَاتِهِمْ ﴾ : قرأ ابن كثير هنا وفي " سأل " " لأماناتِهم " بالتوحيد . والباقون بالجمع . وهما في المعنى واحد ؛ إذ المرادُ العمومُ والجمعُ أوفقُ . والأمانة في الأصلِ مصدرٌ ، ويُطْلق على الشيء المُؤْتَمَنِ عليه كقوله : ﴿ أَن تُؤَدُّواْ الأمانات إلى أَهْلِهَا ﴾ [النساء : 58] ﴿ وتخونوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ [الأنفال : 27] وإنما يؤدى ويُخان الأعيانُ لا المعاني ، كذا قال الزمخشري . أمَّا ما ذكره من الآيتين فَمُسَلَّم . وأمَّا هذا الآيةُ الكريمةُ فتحتمل المصدرَ ، وتحتمل العينَ .

وقرأ الأخَوان " على صلاتِهم " بالتوحيد . والباقون " صَلَواتهم " بالجمع . وليس في المعارج خلافٌ والإفرادُ والجمعُ كما تقدَّم في " أمانتهم " و " أماناتهم " . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : كيف كرَّرَ ذِكْرَ الصلاةِ أولاً وآخراً ؟ قلت : هما ذِكْران مختلفان ، وليس بتكريرٍ ، وُصِفُوا أولاً بالخشوعِ في صلاتهم ، وآخِراً بالمحافظةِ عليها " . ثم قال : " وأيضاً فقد وُحِّدَتْ أولاً لِيُفادَ الخُشوعُ في جنسِ الصلاةِ أيَّ صلاةٍ كانَتْ ، وجُمعت آخراً لتُفادَ المحافظةُ على أعدادِها ، وهي الصلواتُ الخمسُ والوِتْرُ والسُّنَنُ الراتبةُ " .

قلت : وهذا إنما يَتَّجِهُ في قراءةِ غير الأخَوين . وأمَّا الأخوانِ فإنهما أُفْرِدا أولاً وآخراً .

على أن الزمخشريَّ قد حَكَى الخلافَ في جَمْعِ الصلاة الثانية وإفرادِها بالنسبة إلى القراءة .

الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)

قوله : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ : يجوز في هذه الجملةِ أَنْ تكونَ مستأنفةً ، وأن تكونَ حالاً مقدرةً : إمَّا من الفاعلِ ب "يَرِثُون" ، وإمَّا مِنْ مفعولِه ؛ إذ فيها ذِكْرُ كلٍ منهما . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 319.320 ﴾

(202/532)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) ﴾

الأماناتُ مختلفةٌ ، وعند كلِّ أحدٍ أمانةٌ أخرى ، فقومٌ عندهم الوظائفُ بظواهرهم ، وآخرون عندهم اللطائفُ في سرائرهم ، ولقومٍ معاملاتُهم ، ولآخرين منازلاتُهم ، ولآخرين مواصلاتهم .

وكذلك عهودهم متفاوته فمنهم مَنْ عاهده ألا يَعْبُدَ سواه ، ومنهم مَنْ عَاهَدَهُ ألا يشهدَ في

الكونين سواه .

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9)

لا تصادفهم الأوقات وهم غير مستعدين ، ولا يدْعُوهم المُنَادِي وهم ليسوا بالباب ، فهم في الصف الأول بظواهرهم ، وكذلك في الصف الأول بسرائرهمْ .

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)

الإرث على حسب النَّسب ، وفي استحقاق الفردوسِ بوصف الإرثِ لِنَسَبِ الإيمان في الأصل ، ثم الطاعات في الفضل .

وكما في استحقاق الإرث تفاوتٌ في مقدار السهمان : بالفرض أو بالتعصيب – فكذلك في الطاعات ؛ فمنهم مَنْ هم في الفردوس بنفوسهم ، وفي الأحوال اللطيفة بقلوبهم ، ثم هم خالدون بنفوسهم وقلوبهم جميعاً لا يبرحون عن منال نفوسهم ولا (. . .) عن حالات قلوبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 568.569 ﴾

(203/532)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ

لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه الجنة المتضمن ذكرها للبعث ، استدل على القدرة عليه بابتداء الخلق للإنسان ، ثم لما هو أكبر منه من الأكوان ، وما فيهما من المنافع ، فلما ثبت ذلك شرع يهدد من استكبر عنه بإهلاك الماضين ، وابتدأ بقصة نوح عليه الصلاة والسلام لأنه أول ، ولأن نجاته كانت في الفلك المختوم به الآية التي قبله ، وفي ذلك تذكير بنعمة النجاة فيه لأن الكل من نسله ، فلما ثبت بالتهديد بإهلاك الماضين القدرة التامة بالاختيار ، خوف العرب مثل ذلك العذاب ، فلما تم زاجر الإنذار بالنقم شرع في الاستعطاف إلى الشكر بالنعم ، بتمييز الإنسان على سائر الحيوان ونحو ذلك ، ثم عاد إلى دلائل القدرة على البعث بالوحدانية والتنزه عن الشريك والولد - إلى آخرها ، ثم ذكر في أول التي بعدها على ما ذكر هنا من صون الفروج ، فذكر حكم من لم يصن فرجه وأتبعه ما يناسبه من توابعه .

(204/532)

ولما كان التقدير : فلقد حكمنا ببعث جميع العباد بعد الممات ، فريقاً منهم إلى النعيم ، وفريقاً إلى الجحيم ، فإنا قادرون على الإعادة وإن تمزقتم وصرتم تراباً فإنه تراب له أصل في الحياة ، كما قدرنا على البداءة فلقد خلقنا أباكم آدم من تراب الأرض قبل أن يكون للتراب أصل في الحياة ، عطف عليه قوله ، دلالة على هذا المقدر واستدلالاً على البعث مظهراً له في مقام العظمة ، مؤكداً إقامة لهم بإنكارهم للبعث مقام المنكرين : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ أي هذا النوع الذي تشاهدونه آنساً بنفسه مسروراً بفعله وحسه ﴿ من سلالة ﴾ أي شيء قليل ، بما تدل عليه الصيغة كالقلامة والقمامة ، انتزعناه واستخلصناه برفق ، فكان على نهاية الاعتدال ، وهي طينة آدم عليه الصلاة السلام ، سلّها – بما له من اللطف – ﴿ من طين ﴾ أي جنس طين الأرض ، روى الإمام أحمد وأبو داود والترميذي عن أبي موسى ـ رضى الله عنهم ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " إن الله خلق آدم عن قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب وبين ذلك " .

(205/532)

ولما ذكر سبحانه أصل الآدمي الأول الذي هو الطين الذي شرفه به لجمعه الطهورين ، وعبر فيه بالخلق لما فيه من الخلط ، لأن الخلق - كما مر عن الحرالي في أول البقرة : تقدير أمشاج ما يراد إظهاره بعد الامتزاج والتركيب صورة ، مع أنه ليس مما يجري على حكمة التسبيب التي نعهدها أن يكون من الطين إنسان ، أتبعه سبحانه أصله الثاني الذي هو أطهر الطهورين : الماء الذي منه كل شيء حي ، معبراً عنه بالجعل لأنه كما مر أيضاً إظهار أمر سبب وتصيير ، وما هو من الطين مما يتسبب عنه من الماء ويستجلب منه وهو بسيط لا خلط فيه فلا تخليق له ، وعبر بأداة التراخي لأن جعل الطين ماء مستبعد جداً فقال : ﴿ ثم جعلناه ﴾ أي الطين أو هذا النوع المسلول من المخلوق من الطين بتطوير أفراده ببديع الصنع ولطيف الوضع ﴿ نطفة ﴾ اي ماء دافقاً لا أثر للطين فيه ﴿ في قرار ﴾ أي من الصلب والترائب ثم الرحم ، مصدر جعل اسماً للموضع ﴿ مكين ﴾ أي مانع من الأشياء المفسدة .

ولما كان تصيير الماء دماً أمراً بالغاً خارجاً عن التسبيب ، وكانت النطفة التي هي مبدأ الآدمي تفسد تارة وتأخذ في التكون أخرى ، عبر بالخلق لما يخلطها به مما تكتسبه من الرحم عند التحمير وقرنه بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم ﴾ أي بعد تراخ في الزمان وعلو في الرتبة والعظمة ﴿ خلقنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ النطفة ﴾ أي البيضاء جداً ﴿ علقة ﴾ حمراء دماً عبيطاً شديد الحمرة جامداً غليظاً .

ولما كان ما بعد العلقة من الأطوار المتصاعدة مسبباً كل واحد منه عما قبله بتقدير العزيز العليم الذي اختص به من غير تراخ ، وليس تسببه من العادة التي يقدر عليها غيره سبحانه ، عبر بالفاء والخلق فقال : ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ أي قطعة لحم صغيرة لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿ فخلقنا المضغة ﴾ بتصفيتها وتصليبها بما سببنا لها من الحرارة والأمور اللطيفة الغامضة ﴿ عظاماً ﴾ من رأس ورجلين وما بينهما ﴿ فكسونا ﴾ بما لنا من قدرة الاختراع ، تلك ﴿ العظام لحماً ﴾ بما ولدنا منها ترجيعاً لحالها قبل كونها عظماً ، فسترنا تلك العظام وقويناها وشددناها بالروابط والأعصاب .

ولما كان التصوير ونفخ الروح من الجلالة بمكان أيّ مكان ، أشار إليه بقوله : ﴿ ثم أنشأناه ﴾ أي هذا المحدث عنه بعظمتنا ﴿ خلقاً آخر ﴾ أي عظيماً جليلاً متحركاً ناطقاً خصيماً مبيناً بعيداً من الطين جداً ؛ قال الرازي : وأصل النون والشين والهمزة يدل على ارتفاع شيء وسموه .

ولما كان هذا التفصيل لتطوير الإنسان سبباً لتعظيم الخالق : ﴿ فتبارك ﴾ أي ثبت ثباتاً لم يشبه شيء ، بأن حاز جميع صفات الكمال ، وتنزه عن كل شائبة نقص ، فكان قادراً على

كل شيء ، ولو داناه شيء من عجز لم يكن تام الثبات ، ولذلك قال : ﴿ الله ﴾ فعبر بالاسم العلم الجامع لجميع الأسماء الحسنى ؛ وأشار إلى جمال الإنسان بقوله : ﴿ أحسن الخالقين ﴾ أي المقدرين ، أي قدر هذا الخلق العجيب هذا التقدير ، ثم طوره في أطواره ما بين طفل رضيع ، ومحتلم شديد ، وشاب نشيط ، وكهل عظيم ، وشيخ هرم – إلى ما بين ذلك من شؤون لا يحيط بها إلا اللطيف الخبير .

(207/532)

ولما كانت إماتة ما صار هكذا – بعد القوة العظيمة والإدراك التام – من الغرائب ، وكان وجودها فيه وتكرارها عليه في كل وقت قد صيرها أمراً مألوفاً ، وشيئاً ظاهراً مكشوفاً ، وكان عتو الإنسان على خالقه وتمرده ومخالفته لأمره نسياناً لهذا المألوف كالإنكار له ، أشار إلى ذلك بقوله تعالى مسبباً مبالغاً في التأكيد : ﴿ ثم إنكم ﴾ ولما كان من الممكن ليس له من ذاته إلا العدم ، نزع الجار فقال : ﴿ بعد ذلك ﴾ أي الأمر العظيم من الوصف بالحياة والمد في العمر في آجال متفاوتة ﴿ لميتون ﴾ وأشار بهذا النعت إلى أن الموت أمر ثابت للإنسان حيّ في حال حياته لازم له ، بل ليس لممكن من ذاته إلا العدم .

ولما تقرر بذلك القدرة على البعث تقرراً لا يشك فيه عاقل ، قال نافياً ما يوهمه إعراء

الظرف من الجار : ﴿ ثم إنكم ﴾ وعين البعث الأكبر التام ، الذي هو محط الثواب والعقاب ، لأن من أقر بما هو دونه من الحياة في القبر وغيرها ، فقال : ﴿ يوم القيامة ﴾ أي الذي يجمع فيه جميع الخلائق ﴿ تبعثون ﴾ فنقصه عن تأكيد الموت تنبيهاً على ظهوره ، ولم يخله عن التأكيد لكونه على خلاف العادة ، وليس في ذكر هذا نفي للحياة في القبر عند السؤال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 186.189 ﴾

(208/532)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ﴾

اعلم أنه سبحانه لما أمر بالعبادات في الآية المتقدمة ، والاشتغال بعبادة الله لا يصح إلا بعد معرفة الإله الخالق ، لا جرم عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعاً :

النوع الأول : الاستدلال بتقلب الإنسان في أدوار الخلقة وأكوان الفطرة وهي تسعة :

المرتبة الأولى : قوله سبحانه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ ﴾

والسلالة الخلاصة لأنها تسل من بين الكدر ، فُعالة وهو بناء يدل على القلة كالقُلامة والقُمامة ، واختلف أهل التفسير في الإنسان فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومقاتل : المراد منه آدم عليه السلام فآدم سل من الطين وخلقت ذريته من ماء مهين ، ثم جعلنا الكناية راجعة إلى الإنسان الذي هو ولد آدم ، والإنسان شامل لآدم عليه السلام ولولده ، وقال آخرون : الإنسان ههنا ولد آدم والطين ههنا اسم آدم عليه السلام ، والسلالة هي الأجزاء الطينية المبثوثة في أعضائه التي لما اجتمعت وحصلت في أوعية المني صارت منياً ، وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مّن مَّاء مهِين ﴾ [السجدة : 7 ، 8] وفيه وجه آخر ، وهو أن الإنسان إنما يتولد من النطفة وهي إنما تتولد من فضل الهضم الرابع وذلك إنما يتولد من الأغذية ، وهي إما حيوانية وإما نباتية ، والحيوانية تنتهي إلى النباتية ، والنبات إنما يتولد من صفو الأرض والماء فالإنسان بالحقيقة يكون متولداً من سلالة من طين ، ثم إن تلك السلالة بعد أن تواردت على أطوار الخلقة وأدوار الفطرة صارت منياً ، وهذا التأويل مطابق للفظ ولا يحتاج فيه إلى التكلفات .

(209/532)

المرتبة الثانية : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جعلناه نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ ومعنى جعل الإنسان نطفة أنه خلق جوهر الإنسان أولاً طيناً ، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة في أصلاب الآباء فقذفه الصلب بالجماع إلى رحم المرأة فصار الرحم قراراً مكيناً لهذه النطفة والمراد بالقرار موضع القرار وهو المستقر فسماه بالمصدر ثم وصف الرحم بالمكانة التي هي صفة المستقر فيها كقولك طريق سائر أو لمكانتها في نفسها لأنها تمكنت من حيث هي وأحرزت .

المرتبة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً ﴾ أي حولنا النطفة عن صفاتها إلى صفات العلقة وهي الدم الجامد .

المرتبة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً ﴾ أي جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ كالغرفة وهي مقدار ما يغترف ، وسمى التحويل خلقاً لأنه سبحانه يفني بعض أعراضها ويخلق أعراضاً غيرها فسمى خلق الأعراض خلقاً لها وكأنه سبحانه وتعالى يخلق فيها أجزاء زائدة .

المرتبة الخامسة : قوله : ﴿ فَخَلَقْنَا المضغة عظاما ﴾ أي صيرناها كذلك وقرأ ابن عامر عظماً والمراد منه الجمع كقوله : ﴿ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ .

المرتبة السادسة : قوله تعالى : ﴿ فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ﴾ وذلك لأن اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة لها .

المرتبة السابعة : قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ أي خلقاً مبايناً للخلق الأول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيواناً وكان جماداً ، وناطقاً وكان أبكم ، وسميعاً وكان أصم ، وبصيراً وكان أكمه ، وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين ، ولا شرح الشارحين ، وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : هو تصريف الله إياه بعد الولادة في أطواره في زمن الطفولية وما بعدها إلى استواء الشباب ، وخلق الفهم والعقل وما بعده إلى أن يموت ، ودليل هذا القول أنه عقبه بقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ﴾ وهذا المعنى مروي أيضاً عن ابن عباس وابن عمر ، وإنما قال : ﴿ أنشأناه ﴾ لأنه جعل إنشاء الروح فيه ، وإتمام خلقه إنشاء له قالوا في الآية دلالة على بطلان قول النظام في أن الإنسان هو الروح لا البدن فإنه سبحانه بين أن الإنسان هو المركب من هذه الصفات ، وفيها دلالة أيضاً على بطلان قول الفلاسفة الذين يقولون إن الإنسان شيء لا ينقسم ، وإنه ليس بجسم .

أما قوله : ﴿ فَتَبَارَكَ الله ﴾ أي فتعالى الله فإن البركة يرجع معناها إلى الامتداد والزيادة ، وكل ما زاد على الشيء فقد علاه ، ويجوز أن يكون المعنى ، والبركات والخيرات كلها من

الله تعالى ، وقيل أصله من البروك وهو الثبات ، فكأنه قال والبقاء والدوام .

والبركات كلها منه فهو المستحق للتعظيم والثناء ، وقوله : ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ أي أحسن المقدرين تقديراً فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

(211/532)

قالت المعتزلة لولا أن الله تعالى قد يكون خالقاً لفعله إذا قدره لما جاز القول بأنه أحسن الخالقين ، كما لو لم يكن في عباده من يحكم ويرحم لم يجز أن يقال فيه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، والخلق في اللغة هو كل فعل وجد من فاعله مقدراً لا على سهو وغفلة ، والعباد قد يفعلون ذلك على هذا الوجه ، قال الكعبي هذه الآية ، وإن دلت على أن العبد خالق إلا أن اسم الخالق لا يطلق على العبد إلا مع القيد كما أنه يجوز أن يقال رب الدار ، ولا يجوز أن يقال رب بلا إضافة ، ولا يقول العبد لسيده هو ربي ، ولا يقال إنما قال الله تعالى ذلك لأنه سبحانه وصف عيسى عليه السلام بأنه يخلق من الطين كهيئة الطير لأنا نجيب عنه من وجهين : أحدهما : إن ظاهر الآية يقتضي أنه سبحانه ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ الذين هم جمع فحمله على عيسى خاصة لا يصح الثاني : أنه إذا صح وصف عيسى بأنه يخلق صح

وصف غيره من المصورين أيضاً بأنه يخلق ؟ وأجاب أصحابنا بأن هذه الآية معارضة بقول الله تعالى :

﴿ اللهُ خالقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : 62] فوجب حمل هذه الآية على أنه ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ في اعتقادكم وظنكم ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] أي هو أهون عليه في اعتقادكم وظنكم والجواب الثاني : هو أن الخالق هو المقدر لأن الخلق هو التقدير والآية تدل على أنه سبحانه أحسن المقدرين ، والتقدير يرجع معناه إلى الظن والحسبان ، وذلك في حق الله سبحانه محال ، فتكون الآية من المتشابهات والجواب الثالث : أن الآية تقتضي كون العبد خالقاً بمعنى كونه مقدراً ، لكن لم قلت بأنه خالق بمعنى كونه موجداً .

المسألة الثانية :

(212/532)

قالت المعتزلة الآية تدل على أن كل ما خلقه حسن وحكمة وصواب وإلا لما جاز وصفه بأنه أحسن الخالقين ، وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون خالقاً للكفر والمعصية فوجب أن يكون العبد هو الموجد لهما ؟ والجواب : من الناس من حمل الحسن على الإحكام والاتقان

في التركيب والتأليف ، ثم لو حملناه على ما قالوه فعندنا أنه يحسن من الله تعالى كل الأشياء لأنه ليس فوقه أمر ونهي حتى يكون ذلك مانعاً له عن فعل شيء .

المسألة الثالثة :

روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب هذه الآيات لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ خَلْقاً ءَاخَرَ ﴾ عجب من ذلك فقال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اكتب فهكذا نزلت " فشك عبد الله وقال إن كان محمد صادقاً فيما يقول فإنه يوحى إلي كما يوحى إليه ، وإن كان كاذباً فلا خير في دينه فهرب إلى مكة فقيل إنه مات على الكفر ، وقيل إنه أسلم يوم الفتح ، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " هكذا نزلت يا عمر .

" وكان عمر يقول : وافقني ربي في أربع ، في الصلاة خلف المقام ، وفي ضرب الحجاب على النسوة ، وقولي لهن : لتنتهن أو ليبدلنه الله خيراً منكن ، فنزل قوله تعالى : ﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أزواجا خَيْراً مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم : 5] والرابع قلت : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ فقال هكذا نزلت .

قال العارفون هذه الواقعة كانت سبب السعادة لعمر ، وسبب الشقاوة لعبد الله كما قال تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ [البقرة : 26] فإن قيل فعلى كل الروايات قد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن ، وذلك يقدح في كونه معجزاً كما ظنه عبد الله والجواب : هذا غير مستبعد إذا كان قدره القدر الذي لا يظهر فيه الإعجاز فسقطت شبهة عبد الله .

المرتبة الثامنة : قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ﴾ قرأ ابن أبي عبلة وابن محيصن ﴿ لمائتون ﴾ والفرق بين الميت والمائت ، أن الميت كالحي صفة ثابتة ، وأما المائت فيدل على الحدوث تقول زيد ميت الآن ومائت غداً ، وكقولك يموت ونحوهما ضيق وضائق في قوله : ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ [هود : 12] .

المرتبة التاسعة : قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ ﴾ فالله سبحانه جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه دليلين أيضاً على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع وههنا سؤالات :

السؤال الأول : ما الحكمة في الموت ، وهلا وصل نعيم الآخرة وثوابها بنعيم الدنيا فيكون ذلك في الأنعام أبلغ ؟ والجواب : هذا كالمفسدة في حق المكلفين لأنه متى عجل للمرء الثواب فيما يتحمله من المشقة في الطاعات صار إتيانه بالطاعات لأجل تلك المنافع لا

لأجل طاعة الله ، يبين ذلك أنه لو قيل لمن يصلي ويصوم إذا فعلت ذلك أدخلناك الجنة في الحال ، فإنه لا يأتي بذلك الفعل إلا لطلب الجنة ، فلاجرم أخره الله تعالى وبعده بالإماتة ثم الإعادة ليكون العبد عابداً لربه بطاعته لا لطلب الانتفاع .

(214/532)

السؤال الثاني : هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر لأنه قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ ﴾ ولم يذكر بين الأمرين الإحياء في القبر والإماتة والجواب : من وجهين : الأول : أنه ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة والثاني : أن الغرض من ذكر هذه الأجناس الثلاثة الإنشاء والإماتة والإعادة ، والذي ترك ذكره فهو من جنس الإعادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 74 . 76 ﴾

(215/532)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾

فيه قولان

: أحدهما : آدم استل من طين ، وهذا قول قتادة ، وقيل : لانه اسْتُلَ من قِبَل ربه .

والثاني : أن المعني به كل إنسان ، لأنه يرجع إلى آدم الذي خلق من سلالة من طين ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقيل : لأنه استل من نطفة أبيه ، والسلالة من كل شيء صفوته التي تستل منه ، قال الشاعر :

وما هند إلا مهرة عربية . . . سليلة أفراسٍ تجلّلها بغل

وقال الزجاج : السلالة القليل مما ينسل ، وقد تُسَمَّى ، المضغة سلالة والولد سلالة إما لأنهما صفوتان على الوجه الأول ، وإما لأنهما ينسلان على الوجه الثاني ، وحكى الكلبي : أن السلالة الطين الذي إذا اعتصرته بين أصابعك خرج منه شيء ، ومنه قول الشاعر :

طوت أحشاء مرتجةٍ لوقت . . . على مشج سلالته مهينُ

وحكى أبان بن تغلب أن السلالة هي التراب واستشهد بقول أمية بن أبي الصلت .

خلق البرية من سلالة منتن . . . وإلى السلالة كلها ستعود

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ النطفة هي ماء الذكر الذي يعلق منه الولد ، وقد ينطلق اسم النطفة على كل ماء ، قال بعض شعراء هذيل :

وأنهما لحرّابا حروب . . . وشرّابان بالنطف الظوامي

قوله تعالى : ﴿ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ يعني بالقرار الرحم ، ومكين : أي متمكن قد هيىء

لاستقراره فيه .

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ العلقة الدم الطري الذي خلق من النطفة سُمّيَ علقة لأنه أول أحوال العلوق .

﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ وهي قدر ما يمضغ من اللحم

. ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ﴾ وإنما بين الله أن الإنسان تنتقل أحوال خلقه ليعلم نعمته عليه وحكمته فيه ، وإن بعثه بعد الموت حياً أهون من إنشائه ولم يكن شيئاً .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : يعني بنفخ الروح فيه ، وهذا قول ابن عباس والكلبي .

(216/532)

والثاني : بنبات الشعر ، وهذا قول قتادة .

والثالث : أنه ذكر وأنثى ، وهذا قول الحسن .

والرابع : حين استوى به شبابه ، وهذا قول مجاهد .

ويحتمل وجهاً خامساً : أنه بالعقل والتمييز .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه لما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ . قال عمر بن الخطاب : فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(217/532)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ﴾

هذا ابتداء كلام والواو في أوله عاطفة جملة الكلام على جملة وإن تباينت في المعاني ، واختلف المفسرون في قوله ﴿ الإنسان ﴾ فقال قتادة وغيره : أراد آدم عليه السلام لأنه استل من الطين ع ويجيء الضمير في قوله ﴿ ثم جعلناه ﴾ عائداً على ابن آدم وإن كان لم يذكر لشهرة الأمر وأن المعنى لا يصلح إلا له ، نظير ذلك ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص : 32] وغيره ، وقال ابن عباس وغيره المراد بقوله ﴿ الإنسان ﴾ ابن آدم ، و ﴿ سلالة من طين ﴾ صفوة الماء ع وهذا على أنه اسم الجنس ويترتب فيه أَنه سلالة من حيث كان الكل عن آدم أو عن أبويه المتغذيين بما يكون من الماء والطين وذلك السبع الذي جعل الله رزق ابن آدم ، وسيجيء قول ابن عباس فيها إن شاء الله ، وعلى هذا يجيء قول ابن

عباس : إن " السلالة " هي صفوة الماء يعني المني ، وقال مجاهد ﴿ سلالة من طين ﴾ : مني آدم ع وهذا نبيل إذ آدم طين وذريته من سلالة ، وما يكون عن الشيء فهو سلالته ، وتختلف وجوه ذلك الكون فمنه قولهم للخمر سلالة لأنها سلالة العنب ومنه قول الشاعر : [الطويل]

إذا أنتجت منها المهار تشابهت . . . على العود إلا بالأنوف سلائله

ومن اللفظ قول هند بنت النعمان بن بشير :

سليلة أفراس تجللها بغل . . . ومنه قول الآخر [حسان بن ثابت] : [الطويل]

فجاءت به عضب الأديم غضنفراً . . . سلالة فرج كان غير حصين

(218/532)

وهذه الفرقة يترتب مع قولها عود الضمير في " جعلنا وأنشأنا " و ﴿ النطفة ﴾ تقع في اللغة على قليل الماء وعلى كثيره ، وهي هنا لمني ابن آدم ، و" القرار المكين " من المرأة هو موضع الولد ، و" المكين " المتمكن فكأن القرار هو المتمكن في الرحم ، و ﴿ العلقة ﴾ الدم الغريض ، و ﴿ المضغة ﴾ بضعة اللحم قدر ما يمضغ ، وقرأ الجمهور ﴿ عظاماً ﴾ في الموضعين ، وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر " عظماً " بالإفراد في الموضعين ، وقرأ

السلمي وقتادة والأعرج والأعمش بالإفراد أولاً وبالجمع في الثاني ، وقرأ مجاهد وأبو رجاء وإبراهيم بن أَبي بكير بعكس ذلك ، وفي قراءة ابن مسعود ، " ثم جعلنا المضغة عظاماً وعصباً فكسوناه لحماً " ، واختلف الناس في " الخلق الآخر " ، فقال ابن عباس والشعبي وأَبو العالية والضحاك وابن زيد : هو نفخ الروح فيه ، وقال ابن عباس أيضاً : خروجه إلى الدنيا ، وقال قتادة عن فرقة : نبات شعره ، وقال مجاهد : كمال شبابه وقال ابن عباس أيضاً : تصرفه في أمور الدنيا .

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا التخصيص كله لا وجه له وإنما هو عام في هذا وغيره من وجوه من النطق والإدراك وحسن المحاولة هو بها ﴿ آخر ﴾ ، وأول رتبة من كونه ﴿ آخر ﴾ هي نفخ الروح فيه ، والطرف الآخر من كونه ﴿ آخر ﴾ تحصيله المعقولات ، و" تبارك " مطاوع بارك فكأنها بمنزلة تعالى وتقدس من معنى البركة ، وهذه الآية يروى أن عمر بن الخطاب لما سمع صدر الآية إلى قوله ﴿ آخر ﴾ قال ﴿ فتبارك الله أَحسن الخالقين ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا أنزلت ، ويروى أن قائل ذلك معاذ بن جبل ، ويروى أَن قائل ذلك هو عبد الله بن أَبي سرح وبهذا السبب ارتد ، وقال أنا آتي بمثل ما يأتي به محمد وفيه نزلت :

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليَّ ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ [الأنعام : 93] ، الآية وقوله ﴿ أحسن الخالقين ﴾ معناه الصانعين يقال لمن صنع شيئاً خلقه ومنه قول الشاعر : [الكامل]

ولأنت تفري ما خلقت . . . وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

وذهب بعض الناس إلى نفي هذه اللفظة عن الناس ، فقال ابن جريج : إنما قال ﴿ الخالقين ﴾ لأَنه تعالى قد أذن لعيسى في أَن يخلق ، واضطرب بعضهم في ذلك ، ولا تنفى اللفظة عن البشر في معنى الصنع وإنما هي منفية الاختراع والإيجاد من العدم ، ومن هذه الآية قول ابن عباس لعمر حين سأل مشيخة الصحابة عن ليلة القدر فقالوا الله أعلم ، فقال عمر : ما تقول يا ابن عباس ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الله خلق السماوات سبعاً ، والأرضين سبعاً ، وخلق ابن آدم من سبع ، وجعل رزقه في سبع ، فأراها في ليلة سبع وعشرين ، فقال : آعجزكم أن تأتوا بمثل ما أتى به هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه وهذا الحديث بطوله في مسند ابن أَبي شيبة فأراد ابن عباس بقوله خلق ابن آدم من سبع هذه الآية ، وبقوله جعل رزقه في سبع قوله ﴿ فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأبّا ﴾ [عبس : 27] الآية السبع منها لابن آدم والأب للأنعام والقضب يأكله ابن آدم ويسمن منه النساء هذا قول ، وقيل القضب البقول لأنها تقضب فهي رزق ابن آدم ، وقيل

القضب والأب للأنعام والستة الباقية لابن آدم والسابعة هي الأنعام إذ هي من أعظم رزق ابن آدم .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ﴾

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من هذه الأحوال ، وقرأ ابن أَبي عبلة " لمايتون " بالألف ، و﴿ تبعثون ﴾ معناه من قبوركم أَحياء ، وهذا خبر بالبعث والنشور . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(220/532)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد خَلَقْنَا الإِنسانَ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه آدم عليه السلام .

وإِنما قيل : "مِنْ سُلالة" لأنه استُلَّ من كل الأرض ، هذا مذهب سلمان الفارسي ، وابن عباس في رواية ، وقتادة .

والثاني : أنه ابن آدم ، والسُّلالة : النطفة استُلَّت من الطين ، والطين : آدم عليه السلام ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

قال الزجاج : والسُّلالة : فُعالة ، وهي القليل مما يُنْسَل ، وكل مبنيٍّ على "فُعالة" يراد به القليل ، من ذلك : الفُضالة ، والنُّخَالة ، والقُلامة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جعلناه ﴾ يعني : ابن آدم ﴿ نُطْفَةً في قَرار ﴾ وهو الرَّحِم ﴿ مكين ﴾ أي : حريز ، قد هُيِّىءَ لاستقراره فيه .

وقد شرحنا في سورة [الحج : 5] معنى النُّطفة والعَلقة والمُضغة .

قوله تعالى : ﴿ فخَلَقْنا المُضغة عظاماً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : "عظاماً فكسونا العظام" على الجمع .

وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : "عَظْماً فكسونا العَظْم" على التوحيد .

قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأناه خَلْقاً آخر ﴾ وهذه الحالة السابعة .

قال عليّ عليه السلام : لا تكون موؤودة حتى تمرَّ على التارات السبع .

وفي محل هذا الإِنشاء قولان .

أحدهما : أنه بطن الأم .

ثم في صفة الإِنشاء قولان .

أحدهما : أنه نفخ الروح فيه ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال أبو العالية ، والشعبي ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك في آخرين .

والثاني : أنه جعْله ذكراً أو أنثى ، قاله الحسن .

والقول الثاني : أنه بعد خروجه من بطن أُمه .

ثم في صفة هذا الإِنشاء أربعة أقوال .

أحدها : أن ابتداء ذلك الإِنشاء أنه استُهِلَّ ، ثم دُلَّ على الثدي ، وعُلِّم كيف يبسط رجليه إِلى أن قعد ، إِلى أن قام على رجليه ، إِلى أن مشى ، إِلى أن فُطم ، إِلى أن بلغ الحُلُم ، إِلى أن تقلَّب في البلاد ، رواه العوفي عن ابن عباس .

(221/532)

والثاني : أنه استواء الشباب ، قاله ابن عمر ، ومجاهد .

والثالث : أنه خروج الأسنان والشَّعْر ، قاله الضحاك ، فقيل له : أليس يولَد وعلى رأسه الشعر ؟ فقال : وأين العانة والإِبط ؟ .

والرابع : أنه إِعطاء العقل والفهم ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ فتبارك الله ﴾ أي : استحق التعظيم والثناء .

وقد شرحنا معنى "تبارك" في [الأعراف : 54] ، ﴿ أحسنُ الخالِقين ﴾ أي : المصوِّرين والمقدِّرين .

والخَلْق في اللغة : التقدير .

وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وعنده عمر ، إلى قوله تعالى : ﴿ خَلْقاً آخر ﴾ ، فقال عمر : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد خُتمتْ بما تكلمتَ به يا ابن الخطاب " .

فإن قيل : كيف الجمع بين قوله : ﴿ أحسنُ الخالقين ﴾ وقوله : ﴿ هل مِنْ خالقٍ غيرُ الله ﴾ [فاطر : 3] ؟

فالجواب : أن الخلق يكون بمعنى الإيجاد ، ولا موجِد سوى الله ، ويكون بمعنى التقدير ، كقول زهير :

[ولأنت تَفْري ما خَلَقْتَ] وبَعْ . . .

ضُ القومِ يَخْلُقُ ثم لا يَفْري

فهذا المراد هاهنا ، أن بني آدم قد يصوِّرون ويقدِّرون ويصنعون الشيء ، فالله خير المصوِّرين والمقدِّرين .

وقال الأخفش : الخالقون هاهنا هم الصانعون ، فالله خير الخالقين .

قوله تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك ﴾ أي : بعد ما ذُكر من تمام الخَلْق ﴿ لميِّتون ﴾ عند انقضاء آجالكم .

وقرأ أبو رزين العقيلي ، وعكرمة ، وابن أبي عبلة : "لمائتون" بألف .

قال الفراء : والعرب تقول لمن لم يمت : إنك مائت عن قليل ، وميت ، ولا يقولون للميت الذي

قد مات : هذا مائت ، إنما يقال في الاستقبال فقط ، وكذلك يقال : هذا سيّد قومه اليوم ، فإذا أخبرتَ أنه يسودهم عن قليل ؛ قلتَ : هذا سائد قومه عن قليل ، وكذلك هذا شريف القوم ، وهذا شارف عن قليل ؛ وهذا الباب كلُّه في العربية على ما وصفتُ لك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(222/532)

وقال القرطبى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12)

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ الإنسان هنا آدم عليه الصلاة والسلام ؛ قاله قتادة وغيره ، لأنه استُلّ من الطين .

ويجيء الضمير في قوله : "ثم جعلناه" عائداً على ابن آدم ، وإن كان لم يُذكر لشهرة الأمر ؛ فإن المعنى لا يصلح إلا له .

نظير ذلك ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ [ص : 32] .

وقيل : المراد بالسلالة ابن آدم ؛ قاله ابن عباس وغيره .

والسلالة على هذا صفوة الماء ، يعني المنيّ .

والسلالة فُعالة من السَّل وهو استخراج الشيء من الشيء ؛ يقال : سللت الشعر من العجين ، والسيف من الغِمد فانسل ؛ ومنه قوله :

فُسلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ . . .

فالنطفة سُلالة ، والولد سَليل وسُلاَلة ؛ عنى به الماء يُسَلّ من الظهر سَلاًّ .

قال الشاعر :

فجاءت به عَضْبَ الأَدِيم غَضَنْفَراً . . .

سلالةَ فَرْجٍ كان غيرَ حصِين

وقال آخر :

وما هِنْدُ إلاّ مُهْرَةٌ عربيّة . . .

سليلةُ أفراسٍ تجلّلها بَغْل

وقوله : "من طين" أي أن الأصل آدم وهو من طين .

قلت : أي من طين خالص ؛ فأما ولده فهو من طين ومنِيّ ، حسبما بيناه في أول سورة الأنعام .

وقال الكَلْبِيّ : السلالة الطين إذا عصرته انسل من بين أصابعك ؛ فالذي يخرج هو السُّلالة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ نُطْفَةً ﴾ قد مضى القول في النُّطْفة والعَلَقة والمُضْغة وما في ذلك من

الأحكام في أول الحج ، والحمد لله على ذلك .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ اختلف الناس في الخلق الآخر ؛ فقال ابن عباس والشَّعْبِيّ وأبو العالية والضحاك وابن زيد : هو نفخ الروح فيه بعد أن كان جماداً .

وعن ابن عباس : خروجه إلى الدنيا .

وقال قتادة عن فرقة : نبات شعره .

الضحاك : خروج الأسنان ونباتُ الشعر .

مجاهد : كمال شبابه ؛ وروي عن ابن عمر .

(223/532)

والصحيح أنه عام في هذا وفي غيره من النطق والإدراك وحسن المحاولة وتحصيل المعقولات إلى أن يموت .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ يروى أن عمر بن الخطاب لما سمع صدر الآية إلى قوله : ﴿ خَلْقًا آخَرَ ﴾ قال فتبارك الله أحسن الخالقين ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هكذا أنزلت" .

وفي مسند الطَّيَالِسِيّ : ونزلت ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ الآية ؛ فلما

نزلت قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقين ؛ فنزلت ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ .

ويروى أن قائل ذلك معاذ بن جَبَل .

وروي أن قائل ذلك عبد الله بن أبي سَرْح ، وبهذا السبب ارتد وقال ؛ آتي بمثل ما يأتي محمد ؛ وفيه نزل ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ ﴾ [الأنعام : 93] على ما تقدم بيانه في "الأنعام" .

وقوله تعالى "تبارك" تفاعل من البركة .

﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ أتقن الصانعين .

يقال لمن صنع شيئاً خَلَقه ؛ ومنه قول الشاعر :

ولأنت تَفْرِي ما خلقتَ وبع . . .

ضُ القوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِي

وذهب بعض الناس إلى نفي هذه اللفظة عن الناس وإنما يضاف الخلق إلى الله تعالى .

وقال ابن جُرِيج : إنما قال : "أحسن الخالقين" لأنه تعالى قد أذن لعيسى عليه السلام أن يخلق ؛ واضطرب بعضهم في ذلك .

ولا تُنْفَى اللفظة عن البشر في معنى الصنع ؛ وإنما هي منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم .

الخامسة : من هذه الآية قال ابن عباس لعمر حين سأل مشيخة الصحابة عن ليلة القدر

فقالوا : الله أعلم ؛ فقال عمر : ما تقول يا ابن عباس ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى خلق السموات سبعاً والأَرضِين سبعاً ، وخلق ابن آدم من سبع وجعل رزقه في سبع ، فأراها في ليلة سبع وعشرين .

(224/532)

فقال عمر رضي الله عنه : أعجزكم أن تأتوا بمثل ما أتى هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه .

وهذا الحديث بطوله في مسند ابن أبي شيبة .

فأراد ابن عباس "خلق ابن آدم من سبع" بهذه الآية ، وبقوله : "وجعل رزقه في سبع" قوله : ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَآئِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ﴾ [عبس : 27 31] الآية .

السبع منها لابن آدم ، والأَبُّ للأنعام .

والقَضْبُ يأكله ابن آدم ويَسْمَن منه النساء ؛ هذا قول .

وقيل : القَضْب البقول لأنها تُقْضَبُ ؛ فهي رزق ابنِ آدم .

وقيل : القَضْب والأبّ للأنعام ، والستُّ الباقية لابن آدم ، والسابعةُ هي الأنعام ؛ إذ هي من

أعظم رزق ابن آدم .

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ﴾ أي بعد الخلق والحياة .

النحاس : ويقال في هذا المعنى لمائتون .

ثم أخبر بالبعث بعد الموت فقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(225/532)

وقال أبو حيان :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ الآية

لما ذكر تعالى أن المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة هم يرثون الفردوس فتضمن ذلك المعاد الأخروي ، ذكر النشأة الأولى ليستدل بها على صحة النشأة الآخرة .

وقال ابن عطية : هذا ابتداء كلام والواو في أوله عاطفة جملة كلام على جملة ، وإن تباينت في المعاني انتهى .

وقد بيّنا المناسبة بينهما ولم تتباين في المعاني من جميع الجهات .

و﴿ الإنسان ﴾ هنا .

قال قتادة وغيره ورواه عن سلمان وابن عباس آدم لأنه انسل من الطين ﴿ ثم جعلنا ﴾ عائد على ابن آدم وإن كان لم يذكر لشهرة الأمر وأن المعنى لا يصلح إلاّ له ونظيره ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ أو على حذف مضاف أي ثم جعلنا نسله .

وعن ابن عباس أيضاً أن ﴿ الإنسان ﴾ ابن آدم و﴿ سلالة من طين ﴾ صفوة الماء يعني المني وهو اسم جنس ، والطين يراد به آدم إذ كانت نشأة من الطين كما سمى عرق الثرى أو جعل من الطين لكونه سلالة من أبويه وهما متغذيان بما يكون من الطين .

وقال الزمخشري : خلق جوهر الإنسان أولاً طيناً ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة انتهى .

فجعل الإنسان جنساً باعتبار حالتيه لا باعتبار كل مردود منه و﴿ من ﴾ الأولى لابتداء الغاية و﴿ من ﴾ الثانية قال الزمخشري للبيان كقوله ﴿ من الأوثان ﴾ انتهى .

ولا تكون للبيان إلاّ على تقدير أن تكون السلالة هي الطين ، أما إذا قلنا أنه ما انسل من الطين فتكون لابتداء الغاية .

والقرار مكان الاستقرار والمراد هنا الرحم .

والمكين المتمكن وصف القرار به لتمكنه في نفسه بحيث لا يعرض له اختلال ، أو لتمكن من يحل فيه فوصف بذلك على سبيل المجاز كقوله طريق سائر لكونه يسار فيه ، وتقدم تفسير النطفة والعلقة والمضغة .

وقرأ الجمهور عظاماً و﴿ العظام ﴾ الجمع فيهما .

وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبان والمفضل والحسن وقتادة وهارون والجعفي ويونس عن أبي عمرو وزيد بن عليّ بالإفراد فيهما .

(226/532)

وقرأ السلمي وقتادة أيضاً والأعرج والأعمش ومجاهد وابن محيصن بإفراد الأول وجمع الثاني .

وقرأ أبو رجاء وإبراهيم بن أبي بكر ومجاهد أيضاً بجمع الأول وإفراد الثاني فالإفراد يراد به الجنس .

وقال الزمخشري : وضع الواحد موضع الجمع لزوال اللبس لأن الإنسان ذو عظام كثيرة انتهى .

وهذا لا يجوز عند سيبويه وأصحابنا إلاّ في الضرورة وأنشدوا :

كلوا في بعض بطنكم تعفوا . . .

ومعلوم أن هذا لا يلبس لأنهم كلهم ليس لهم بطن واحد ومع هذا خصوا مجيئه بالضرورة

﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ قال ابن عباس والشعبي وأبو العالية والضحاك وابن زيد ، هو

نفخ الروح فيه .

وقال ابن عباس أيضاً : خروجه إلى الدنيا .

وقالت فرقة : نبات شعره .

وقال مجاهد : كمال شبابه .

وقال ابن عباس أيضاً تصرفه في أمور الدنيا .

قال ابن عطية : وهذا التخصيص لا وجه له وإنما هو عام في هذا وغيره من وجود النطق والإدراك ، وأول رتبة من كونه آخر نفخ الروح وآخره تحصيله المعقولات إلى أن يموت انتهى . ملخصاً وهو قريب مما رواه العوفي عن ابن عباس ، ويدل عليه قوله بعد ذلك ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾ .

وقال الزمخشري ما ملخصه : ﴿ خلقاً آخر ﴾ مبايناً للخلق الأول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيواناً ناطقاً سميعاً بصيراً ، وأودع كل عضو وكل جزء منه عجائب وغرائب لا تدرك بوصف ولا تبلغ بشرح ، وقد احتج أبو حنيفة بقوله ﴿ خلقاً آخر ﴾ على أن غاصب بيضة أفرخت عنده يضمن البيضة ولا يرد الفرخ .

وقال ﴿ أنشأنا ﴾ جعل إنشاء الروح فيه وإتمام خلقه إنشاءً له .

قيل : وفي هذا رد على النظام في زعمه أن الإنسان هو الروح فقط ، وقد بيّن تعالى أنه

مركب من هذه الأشياء ورد على الفلاسفة في زعمهم أن الإنسان شيء لا ينقسم ، وتبارك فعل ماض لا يتصرف .

(227/532)

ومعناه تعالى وتقدس و ﴿ أحسن الخالقين ﴾ أفعل التفضيل والخلاف فيها إذا أضيفت إلى معرفة هل إضافتها محضة أم غير محضة ؟ فمن قال محضة أعرب ﴿ أحسن ﴾ صفة ، ومن قال غير محضة أعربه بدلاً .

وقيل : خبر مبتدأ محذوف تقديره هو أحسن الخالقين ، ومعنى ﴿ الخالقين ﴾ المقدرين وهو وصف يطلق على غير الله تعالى كما قال زهير :

ولأنت تفري ما خلقت وبع . . .

ض القوم يخلق ثم لا يفري

قال الأعلم : هذا مثل ضربه يعني زهيراً ، والخالق الذي لا يقدر الأديم ويهيئه لأن يقطعه ويخرزه والفري القطع .

والمعنى أنك إذا تهيأت لأمر مضيت له وأنفذته ولم تعجز عنه .

وقال ابن عطية : معناه الصانعين يقال لمن صنع شيئاً خلقه وأنشد بيت زهير .

قال : ولا تُنفي هذه اللفظة عن البشر في معنى الصنع إنما هي منفية بمعنى الاختراع .

وقال ابن جريج : قال ﴿ الخالقين ﴾ لأنه أذن لعيسى في أن يخلق وتمييز أفعل التفضيل محذوف لدلالة الخالقين عليه ، أي ﴿ أحسن الخالقين ﴾ خلقاً أي المقدرين تقديراً .

وروي أن عمر لما سمع ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ إلى آخره قال ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فنزلت .

وروي أن قائل ذلك معاذ .

وقيل : عبد الله بن أبي سرح ، وكانت سبب ارتداده ثم أسلم وحَسُنَ إسلامه .

وقرأ زيد بن عليّ وابن أبي عبلة وابن محيصن لمائتون بالألف يريد حدوث الصفة ، فيقال أنت مائت عن قليل وميت ولا يقال مائت للذي قد مات .

قال الفراء : إنما يقال في الاستقبال فقط وكذا قال ابن مالك ، وإذا قصد استقبال المصوغة من ثلاثي على غير فاعل ردت إليه ما لم يقدر الوقوع ، يعني إنه لا يقال لمن مات مائت .

وقال الزمخشري : والفرق بين الميت والمائت أن الميت كالحي صفة ثابتة ، وأما المائت فيدل على الحدوث ، تقول : زيد مائت الآن ومائت غداً كقولك : يموت ونحوها ضيق وضائق في قوله ﴿ وضائق به صدرك ﴾ انتهى .

والإشارة بقوله بعد ذلك إلى هذا التطوير والإنشاء ﴿ خلقاً آخر ﴾ أي وانقضاء مدّة حياتكم .

﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ ونبه تعالى على عظيم قدرته بالاختراع أولاً ، ثم بالإعدام ثم بالإيجاد ، وذكره الموت والبعث لا يدل على انتفاء الحياة في القبر لأن المقصود ذكر الأجناس الثلاثة الإنشاء والإماتة والإعادة في القبر من جنس الإعادة ومعنى ﴿ تبعثون ﴾ للجزاء فإن قلت : الموت مقطوع به عند كل أحد ، والبعث قد أنكرته طوائف واستبعدته وإن كان مقطوعاً به من جهة الدليل لإمكانه في نفسه ومجيء السمع به فوجب القطع به فما بال جملة الموت جاءت مؤكدة بأن وباللام ولم تؤكد جملة البعث بأن ؟ فالجواب : أنه بولغ في تأكيد ذلك تنبيهاً للإنسان أن يكون الموت نصب عينيه ولا يغفل عن ترقبه ، فإن مآله إليه فكأنه أكدت جملته ثلاث مرار لهذا المعنى ، لأن الإنسان في الحياة الدنيا يسعى فيها غاية السعي ، ويؤكد ويجمع حتى كأنه مخلد فيها فنبه بذكر الموت مؤكداً مبالغاً فيه ليقصر ، وليعلم أن آخره إلى الفناء فيعمل لدار البقاء ، ولم تؤكد جملة البعث إلاّ بأن لأنه أبرز في صورة المقطوع به الذي لا يمكن فيه نزاع ولا يقبل إنكاراً وإنه حتم لا بد من كيانه فلم يحتج إلى توكيد ثان ، وكنت سئلت لم دخلت اللام في قوله ﴿ لميتون ﴾ ولم تدخل في ﴿ تبعثون ﴾ فأجبت : بأن اللام مخلصة المضارع للحال غالباً فلا تجامع يوم القيامة ، لأن أعمال ﴿

تبعثون ﴾ في الظرف المستقبل تخلصه للاستقبال فتنافي الحال ، وإنما قلت غالباً لأنه قد جاءت قليلاً مع الظرف المستقبل كقوله تعالى

﴿ وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة ﴾ على أنه يحتمل تأويل هذه الآية وإقرار اللام مخلصة المضارع للحال بأن يقدر عامل في يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(229/532)

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ . . . ﴾ الآية : اخْتُلِفَ في قوله : «الإنسان» فقال قتادة وغيره أراد آدم – عليه السلام – ؛ لأنه استُلَّ من الطين .

وقال ابن عباس وغيره : المراد ابنُ آدم ، والقرارُ المكينِ من المرأة : هو مَوْضِعُ الولد ، والمكين : المُتَمَكِّنُ ، والعَلَقَةُ : الدَّمُ الغليظ ، والمُضْغَةُ : بضعة اللحم قدرَ ما يُمْضَغُ ، واختلف النَّاسُ في الخلق الآخر ، فقال ابنُ عباس وغيره : هو نفخ الرُّوح فيه .

وقال ابن عباس أيضاً : هو خروجه إلى الدنيا .

وقال أيضاً : تَصَرُّفُهُ في أمور الدنيا ، وقيل : هو نباتُ شعره .

قال *ع* : وهذا التخصيص كُلُّهُ لا وجهَ له ، وإنما هو عامٌّ في هذا وغيرِه : من وجوه النطق ، والإدراك ، وحُسْنِ المحاولة ، و ﴿ تَبَارَكَ ﴾ مطاوع بارك ، فكأنها بمنزلة تعالى وَتَقَدَّسَ من معنى البركة .

وقوله : ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ معناه : الصانعين : يقال لمن صنع شيئاً : خَلَقَهُ ، ، وذهب بعضُ الناس إلى نفي هذه اللفظة عن الناس ؛ فقال ابن جريج : إنَّما قال : ﴿ الخالقين ﴾ ؛ لأَنَّهُ تعالى أَذِنَ لعيسى في أَنْ يخلق ، واضطرب بعضُهم في ذلك .

قال *ع* : ولا تُنْفَى اللفظةُ عن البشر في معنى الصنع ؛ وإنما هي منفيَّةٌ بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم .

(230/532)

وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ﴾ أي : بعد هذا الأحوال المذكورة ، ويريد بالسبع الطرائق : السموات ، والطرائق : كُلِّ ما كان طبقاتٍ بعضه فوق بعض ؛ ومنه طارقت نعلي .

ويجوز أَنْ تكونَ الطرائق بمعنى المَبْسُوطاتِ ؛ من طرقت الشيء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾

شروعٌ في بيان مبدأ خلقِ الإنسانِ وتقلُّبِهِ في أطوارِ الخلقةِ وأدوارِ الفطرةِ بياناً إجماليًّا إثرَ بيانِ حال بعضِ أفرادِهِ السُّعداءِ . واللاَّمُ جوابُ قسمٍ والواوُ ابتدائيَّةٌ . وقيل عاطفةٌ على ما قبلَها ، والمرادُ بالإنسان الجنسُ أي وبالله لقد خلقنا جنسَ الإنسان في ضِمن خلقِ آدمَ عليه السَّلامُ خَلْقاً إجماليًّا حسبما تحقَّقته في سورة الحجِّ وغيرِها . وأمَّا كونُه مخلوقاً من سلالاتٍ جُعلتْ نُطَفاً بعد أدوارٍ وأطوارٍ فبعيدٌ ﴿ مِن سلالة ﴾ السُّلالةُ ما سُلَّ من الشَّيء واستُخرِجَ منه . فإن فُعالة اسمٌ لما يحصُل من الفعلِ فتارةً تكون مقصوداً منه كالخُلاصةِ وأُخرى غيرَ مقصودٍ منه كالقُلامةِ والكُناسةِ والسُّلالةُ من قبيلِ الأوَّلِ ، فإنَّها مقصودةٌ بالسَّلِّ . ومن ابتدائيةٌ متعلّقةٌ بالخلقِ . ومن في قوله تعالى : ﴿ مِن طِينٍ ﴾ بيانيَّةٌ متعلّقةٌ بمحذوف وقع صفةً لسُلالة أي خلقناهُ من سُلالةٍ كائنةٍ من طينٍ . ويجوز أنْ تتعلَّق بسُلالة على أنَّها بمعنى مسلولةٍ فهي ابتدائيةٌ كالأُولى . وقيل المرادُ بالإنسانِ آدمُ عليه السَّلامُ فإنَّه الذي خُلق من صفوةٍ سُلَّتْ من الطِّينِ وقد وقفت على التَّحقيق .

﴿ ثُمَّ جعلناه ﴾ أي الجنسَ باعتبار أفراده المغايرة لآدمَ عليه السَّلامُ أو جعلنا نسلَه على حذف المضاف إنْ أُريد بالإنسان آدمُ عليه السَّلامُ ﴿ نُّطْفَةٍ ﴾ بأن خلقناه منها أو ثمَّ جعلنا السُّلالةَ نُطفةً. والتَّذكيرُ بتأويل الجوهرِ أو المسلولِ أو الماءِ ﴿ فِى قَرَارٍ ﴾ أي مستقَرَ وهو الرَّحِمُ عبر عنها بالقرارِ الذي هو مصدرٌ مبالغةً. وقولُه تعالى: ﴿ مَّكِينٍ ﴾ وصفٌ لها بصفة ما استقرَّ فيها مثلُ: طريقٌ سائرٌ أو بمكانتها في نفسِها فإنَّها مكثتْ بحيث هي وأُحرزتْ.

(232/532)

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً ﴾ أي دماً جامداً بأن أحلنا النُّطفة البيضاءَ علقةً حمراءَ. ﴿ فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً ﴾ أي قطعةَ لحمٍ لا استبانة ولا تمايزَ فيها ﴿ فَخَلَقْنَا المضغة ﴾ أي غالبَها ومعظمها أو كلَّها ﴿ عظاما ﴾ بأنْ صلبناها وجعلناها عموداً للبدنِ على هيئاتٍ وأوضاعٍ مخصوصةٍ تقتضيها الحكمةُ ﴿ فَكَسَوْنَا العظام ﴾ المعهودة ﴿ لَحْماً ﴾ من بقية المضغةِ أو ممَّا أنبتنا عليها بقدرتنا ممَّا يصلُ إليها أي كسونا كلَّ عظمٍ من تلك العظام ما يليقُ به من اللَّحمِ على مقدارٍ لائقٍ به وهيئةٍ مناسبةٍ له. واختلافِ العواطفِ للتَّنبيه على تفاوتِ الاستحالاتِ. وجمعُ العظامِ لاختلافِهما. وقُرِىء على التَّوحيدِ فيهما اكتفاءً بالجنسِ

وبتوحيدِ الأوّلِ فقَطْ وبتوحيد الثّاني فحسب ﴿ ثُمَّ أنشأناه خَلْقاً ءَاخَرَ ﴾ هي صورةُ البدنِ أو الرُّوحِ أو القُوى بنفخه فيه ، أو المجموعُ وثمَّ لكمالِ التَّفاوتِ بين الخلقينِ واحتجَّ به أبو حنيفة رحمه الله على أنَّ من غصبَ بيضةً فأفرختْ عنده لزمه ضمانُ البيضةِ لا الفرخُ لأنَّه خلقٌ آخرُ .

(233/532)

﴿ فَتَبَارَكَ الله ﴾ فتعالى شأنُه في علمه الشّاملِ وقُدرتهِ الباهرة . والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لتربيةِ المهابة وإدخالِ الرَّوعة والإشعارِ بأنَّ ما ذُكر من الأفاعيلِ العجيبة من أحكام الأُلوهيَّةِ وللإيذانِ بأنَّ حقّ كلِّ مَن سمع ما فُصّل من آثار قُدرتهِ عزَّ وعلا أو لاحظَه أنْ يُسارعَ إلى التَّكلُّمِ به إجلالاً وإعظاماً لشؤونهِ تعالى . ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ بدلٌ من الجلالة وقيل نعتٌ بناء على أن الإضافة ليستْ لفظيَّةً وقيل خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي : هُو أحسنُ الخالقينَ خَلْقاً ، أي المقدّرين تقديراً ، حُذف المميّز لدلالة الخالقينَ عليه كما حُذف المأذونُ فيه في قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يقاتلون ﴾ لدلالة الصّلةِ عليه ، أي أحسنُ الخالقين خَلْقاً ، فالحُسنُ للخلقِ . قيلَ نظيرُه قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " إنَّ اللَّهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ " أي جميلٌ فعلُه فحُذف المضافُ وأقيم المضافُ إليه مقامَهُ فانقلبَ مرفُوعاً فاستكنَّ .

رُوي أنَّ عبدَ اللَّه بن أبي سَرْحٍ كان يكتبُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحيَ فلمَّا انتهى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى قوله خلقاً آخرَ سارع عبدُ اللَّه إلى النُّطقِ به قبل إملائه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فقال :

(234/532)

" اكتُبْهُ هكذا نزلتْ " فشكَّ عبدُ اللَّه فقال : إنْ كان محمَّدٌ يُوحى إليه فأنا كذلك فلحقَ بمكَّة كافراً ثمَّ أسلمَ يوم الفتحِ وقيل ماتَ على كُفرِه . ورَوى سعيدُ بنُ جُبيرٍ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال لمَّا نزلتْ هذه الآية : قال عمرُ رضي الله عنه : فتبارَكَ اللَّهُ أحسنُ الخالقين ، فقال رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : " هكذا نزلَ يا عمرُ " . وكان رضي الله عنه يفتخرُ بذلك ويقولُ : "وافقتُ ربِّي في أربعٍ ، الصَّلاةُ خلفَ المُقامِ وضربُ الحجابِ على النِّسوةِ . وقولي لهنَّ أو ليبدله الله خيراً منكنَّ فنزل قوله تعالى : ﴿ عسى ربُّهُ إن طلَّقكنَّ أن يُبْدِلَهُ ﴾ الآية ، والرابعُ فتبارَكَ اللَّهُ أحسنُ الخالقينَ" انظر كيفَ وقعتْ هذه الواقعةُ سبباً لسعادةِ عمرَ رضي الله عنه وشقاوة ابن أبي سَرْح حسبما قال تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ لا يقالُ فقد تكلَّم البشرُ ابتداءً بمثل نظمِ القرآن وذلك قادحٌ في إعجازه لما أنَّ الخارجَ عن قُدرة البشرِ ما كان مقدارَ أقصرِ السُّورِ على أنَّ إعجازَ هذه الآيةِ الكريمةِ

منوطٌ بما قبلها كما تُعربُ عنه الفاءُ فإنَّها اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك ﴾ أي بعد ما ذُكر من الأمورِ العجيبةِ حسبما يُنبىء عنه ما في اسمِ الإشارة مِن معنى البُعد المُشعرِ بعلوّ رُتبةِ المشارِ إليه وبُعد منزلتِهِ في الفضلِ والكمالِ وكونِهِ بذلك ممتازاً منزّلاً منزلةَ الأمور الحسيَّةِ ﴿ لَمَيِّتُونَ ﴾ لصائرونَ إلى الموتِ لا محالَة كما تُؤذِنُ به صيغةُ النَّعتِ الدَّالَّةِ على الثُّبوتِ دُون الحدوثِ الذي تُفيده صيغةُ الفاعلِ وقد قُرِىء لمائتون .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ أي عند النَّفخةِ الثَّانيةِ ﴿ تُبْعَثُونَ ﴾ من قبورِكم للحسابِ والمُجازاةِ بالثَّوابِ والعقابِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(235/532)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مِّن طِينٍ ﴾

لما ذكر سبحانه أولاً أحوال السعداء عقبه بذكر مبدئهم ومآل أمرهم في ضمن ما يعمهم وغيرهم وفي ذلك إعظام للمنة عليهم وحث على الاتصاف بالصفات الحميدة وتحمل مؤن التكليفات الشديدة أو لما ذكر إرث الفردوس عقبه بذكر البعث لتوقفه عليه أو لما حث

على عبادته سبحانه وامتثال أمره عقبه بما يدل على ألوهيته لتوقف العبادة على ذلك ولعل الأول أولى في وجه مناسبة الآية لما قبلها ، ويجوز أن يكون مجموع الأمور المذكورة ، واللام واقعة في جواب القسم والواو للاستئناف .

وقال ابن عطية : هي عاطفة جملة كلام على جملة وإن تباينتا في المعاني وفيه نظر ، والمراد بالإنسان الجنس ، والسلالة من سللت الشيء من الشيء إذا استخرجته منه فهي ما سل من الشيء واستخرج منه فإن فعالة اسم لما يحصل من الفعل فتارة تكون مقصودة منه كالخلاصة وأخرى غير مقصودة منه كالقلامة والكناسة والسلالة من قبيل الأول فإنها مقصودة بالسل .

(236/532)

وذكر الزمخشري أن هذا البناء يدل على القلة ، ومن الأولى ابتدائية متعلقة بالخلق ، ومن الثانية يحتمل أن تكون كذلك إلا أنها متعلقة بسلالة على أنها بمعنى مسلولة أو متعلقة بمحذوف وقع صفة لسلالة ، ويحتمل أن تكون على هذا تبعيضية وأن تكون بيانية ، وجوز أن يكون ﴿ مِن طِينٍ ﴾ بدلاً أو عطف بيان بإعادة الجار ، وخلق جنس الإنسان مما ذكر باعتبار خلق أول الأفراد وأصل النوع وهو آدم عليه السلام منه فيكون الكل مخلوقاً من ذلك

خلقاً إجمالياً في ضمن خلقه كما مر تحقيقه ، وقيل : خلق الجنس من ذلك باعتبار أنه مبدأ بعيد لأفراد الجنس فإنهم من النطف الحاصلة من الغذاء الذي هو سلالة الطين وصفوته ، وفيه وصف الجنس بوصف أكثر أفراده لأن خلق آدم عليه السلام لم يكن كذلك أو يقال ترك بيان حاله عليه السلام لأنه معلوم ، واقتصر على بيان حال أولاده وجاء ذلك في بعض الروايات عن ابن عباس ، وقيل المراد بالطين آدم عليه السلام على أنه من مجاز الكون ، والمراد بالسلالة النطفة وبالإنسان الجنس ووصفه بما ذكر باعتبار أكثر أفراده أو يقال كما قيل آنفاً ، ولا يخفى خفاء قرينة المجاز وعدم تبادر النطفة من السلالة ، وقيل المراد بالإنسان آدم عليه السلام وروى ذلك عن جماعة وما ذهبنا إليه أولاً أولى ، والضمير

﴿ ثُمَّ جعلناه نُطْفَةً ﴾ عائد على الجنس باعتبار أفراده المغايرة لآدم عليه السلام ، وإذا أريد بالإنسان أولاً آدم عليه السلام فالضمير على ما في "البحر" عائد على غير مذكور وهو ابن آدم ، وجاز لوضوح الأمر وشهرته وهو كما ترى أو على الإنسان والكلام على حذف مضاف أي ثم جعلنا نسله ، وقيل يراد بالإنسان أولاً آدم عليه السلام وعند عود الضمير عليه ما تناسل منه على سبيل الاستخدام ، ومن البعيد جداً أن يراد بالإنسان أفراد بني

آدم والضمير عائد عليه ويقدر مضاف في أول الكلام أي ولقد خلقنا أصلاً الإنسان الخ ، ومثله أن يراد بالإنسان الجنس أو آدم عليه السلام والضمير عائد على ﴿ سلالة ﴾ والتذكير بتأويل المسلول أو الماء أي ثم صيرنا السلالة نطفة .

والظاهر أن ﴿ نُّطْفَةٍ ﴾ في سائر الوجوه مفعولاً ثانياً للجعل على أنه بمعنى التصيير وهو على الوجه الأخير ظاهر ، وأما على وجه عود الضمير على الإنسان فلا بد من ارتكاب مجاز الأول بأن يراد بالإنسان ما سيصير إنساناً ، ويجوز أن يكون الجعل بمعنى الخلق المتعدي إلى مفعول واحد ويكون ﴿ نُّطْفَةٍ ﴾ منصوباً بنزع الخافض واختاره بعض المحققين أي ثم خلقنا الإنسان من نطفة كائنة ﴿ فِى قَرَارٍ ﴾ أي مستقر وهو في الأصل مصدر من قر يقر قراراً بمعنى ثبت ثبوتاً وأطلق على ذلك مبالغة ؛ والمراد به الرحم ووصفه بقوله تعالى : ﴿ مَّكِينٍ ﴾ أي متمكن مع أن التمكن وصف ذي المكان وهو النطفة هنا على سبيل المجاز كما يقال طريق سائر ، وجوز أن يقال : إن الرحم نفسها متمكنة ومعنى تمكنها أنها لا تنفصل لثقل حملها أولاً تمج ما فيها فهو كناية عن جعل النطفة محرزة مصونة وهو وجه وجيه .

(238/532)

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً ﴾ أي دماً جامداً وذلك بإفاضة اعراض الدم عليها فتصيرها دماً بحسب الوصف ، وهذا من باب الحركة في الكيف ﴿ فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً ﴾ أي قطعة لحم بقدر ما يمضغ لا استبانة ولا تمايز فيها ، وهذا التصيير على ما قيل بحسب الذات كتصيير الماء حجراً وبالعكس ، وحقيقته إزالة الصورة الأولى عن المادة وإفاضة صورة أخرى عليها وهو من باب الكون والفساد ولا يخلو ذلك من الحركة في الكيفية الاستعدادية فإن استعداد الماء مثلاً للصورة الأولى الفاسدة يأخذ في الانتقاص واستعداده للصورة الثانية الكائنة يأخذ في الاشتداد ولا يزال الأول ينقص والثاني يشتد إلى أن تنتهي المادة إلى حيث تزول عنها الصورة الأولى فتحدث فيها الثانية دفعة فتتوارد هذه الاستعدادات التي هي من مقولة الكيف على موضوع واحد ﴿ فَخَلَقْنَا المضغة ﴾ غالبها ومعظمها أو كلها ﴿ عظاما ﴾ صغاراً وعظاماً حسبما تقتضيه الحكمة وذلك التصيير بالتصليب لما يراد جعله عظاماً من المضغة ؛ وهذا أيضاً تصيير بحسب الوف فيكون من الباب الأول .

وفي كلام العلامة البيضاوي إشارة ما إلى مجموع ما ذكرنا وهو يستلزم القول بأن النطفة والعلقة متحدان في الحقيقة وإنما الاختلاف بالاعراض كالحمرة والبياض مثلاً وكذا المضغة والعظام متحدان في الحقيقة وإنما تلاختلاف بنحو الرخاوة والصلابة وأن العلقة والمضغة مختلفان في الحقيقة كما أنهما مختلفان بالإعراض .

والظاهر أنه تتعاقب في جميع هذه الأطوار على مادة واحدة صور حسب تعاقب الاستعدادات إلى أن تنتهي إلى الصورة الإنسانية ، ونحن نقول به إلى أن يقوم الدليل على خلافه فتدبر ﴿ فَكَسَوْنَا العظام ﴾ المعهودة ﴿ لَحْماً ﴾ أي جعلناه ساتراً لكل منها كاللباس ، وذلك اللحم يحتمل أن يكون من لحم المضغة بأن لم تجعل كلها عظاماً بل بعضها ويبقى البعض فيمد على العظام حتى يسترها ، ويحتمل أن يكون لحماً آخر خلقه الله تعالى على العظام من دم في الرحم .

وجمع ﴿ العظام ﴾ دون غيرها مما في الأطوار لأنها متغايرة هيئة وصلابة بخلاف غيرها ألا ترى عظم الساق وعظم الأصابع وأطراف الأضلاع ، وعدة العظام مطلقاً على ما قيل مائتان وثمانية وأربعون عظماً وهي عدة رحم بالجمل الكبير ، وجعل بعضهم هذه عدة أجزاء الإنسان والله تعالى أعلم .

وقرأ ابن عامر .

وأبو بكر عن عاصم .

وأبان .

والمفضل .

والحسن .

وقتادة .

وهرون والجعفي .

ويونس عن أبي عمرو ، وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما بإفراد ﴿ العظام ﴾ في الموضعين اكتفاء باسم الجنس الصادق على القليل والكثير مع عدم اللبس كما في قوله : كلوا في بعض بطنكم تعفوا . . .

واختصاص مثل ذلك بالضرورة على ما نقل عن سيبويه لا يخلو عن نظر ، وفي الإفراد هنا مشاكلة لما ذكر قبل في الأطوار كما ذكره ابن جني .

وقرأ السلمي .

وقتادة أيضاً .

والأعرج .

والأعمش .

ومجاهد .

وابن محيصن بإفراد الأول وجمع الثاني .

وقرأ أبو رجاء .

وإبراهيم بن أبي بكر .

ومجاهد أيضاً بجمع الأول وإفراد الثاني ﴿ ثُمَّ أَنشأناه خَلْقاً ءاخَرَ ﴾ مباينا للخلق الأول

مباينة ما أبعدها حيث جعل حيواناً ناطقاً سميعاً بصيراً وأودع كل عضو منه وكل جزء عجائب وغرائب لا تدرك بوصف ولا تبلغ بشرح ، ومن هنا قيل

: وتزعم أنك جرم صغير . . .

وفيك انطوى العالم الأكبر

وقيل الخلق الآخر الروح والمراد بها النفس الناطقة .

(240/532)

والمعنى أنشأنا له أو فيه خلقاً آخر ، والمتبادر من إنشاء الروح خلقها وظاهر العطف بثم يقتضي حدوثها بعد حدوث البدن وهو قول أكثر الإسلاميين وإليه ذهب أرسطو ، وقيل إنشاؤها نفخها في البدن وهو عند بعض عبارة عن جعلها متعلقة به ، وعند أكثر المسلمين جعلها سارية فيه ، وإذا أريد بالروح الروح الحيوانية فلا كلام في حدوثها بعد البدن وسريانها فيه ، وقيل : الخلق الآخر القوي الحساسة ، وقال الضحاك ويكاد يضحك منه فيما أخرجه عنه عبد بن حميد : الخلق الآخر الأسنان والشعر فقيل له : أليس يولد وعلى رأسه الشعر ؟ فقال : فأين العانة والإبط ، وما أشرنا إليه من كون ﴿ ثُمَّ ﴾ للترتيب الزماني هو ما يقتضيه أكثر استعمالاتها ، ويجوز أن تكون للترتيب الرتبي فإن الخلق الثاني

أعظم من الأول ورتبته أعلى .

وجاءت المعطوفات الأول بعضها بثم وبضعها بالفاء ولم يجيء جميعها بثم أو بالفاء مع صحة ذلك في مثلها للإشارة إلى تفاوت الاستحالات فالمعطوف بثم مستبعد حصوله مما قبله فجعل الاستبعاد عقلاً أرتبة بمنزلة التراخي والبعد الحسي لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب جداً وكذا جعل النطفة البيضاء السيالة دماً أحمر جامداً بخلاف جعل الدم لحماً مشابهاً له في اللون والصورة وكذا تصليب المضغة حتى تصير عظماً وكذا مد لحمها عليه ليستره كذا قيل ولا يخلو عن قيل وقال .

واستدل الإمام أبو حنيفة بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ ﴾ الخ على أن من غصب بيضة فأفرخت عنده لزمه ضمان البيضة لا الفرخ لأنه خلق آخر ، قال في "الكشف" : وفي هذا الاستدلال نظر على أصل مخالفيه لأن مباينته للأول لا تخرجه عن ملكه عندهم ، وقال "صاحب التقريب" : إن تضمينه للفرخ لكونه جزءاً من المغصوب لا لكونه عينه أو مسمى باسمه ، وفي هذا بحث وفي المسألة خلاف كثير وكلام طويل يطلب من كتب الفروع المبسوطة .

(241/532)

وقال الإمام : قالوا في الآية دلالة على بطلان قول النظام : إن الإنسان هو الروح لا البدن فإنه تعالى بين فيها أن الإنسان مركب من هذه الأشياء ، وعلى بطلان قول الفلاسفة : إن الإنسان لا ينقسم وإنه ليس بجسم وكأنهم أرادوا أن الإنسان هو النفس الناطقة والروح الأمرية المجردة فإنها التي ليست بجسم عندهم ولا تقبل الانقسام بوجه وليست داخل البدن ولا خارجة ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ ﴾ فتعالى وتقدس شأنه سبحانه في علمه الشامل وقدرته الباهرة ، و﴿ تبارك ﴾ فعل ماض لا يتصرف والأكثر إسناده إلى غير مؤنث ، والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة والاشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية وللإيذان بأن حق كل من سمع ما فصل من أرثار قدرته عز وجل أو لاحظه أن يسارع إلى التكلم به إجلالاً وإعظاماً لشؤونه جل وعلا ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ نعت للاسم الجليل ، وإضافة أفعل التفضيل محضة فتفيده تعريفاً إذا أضيف إلى معرفة على الأصح .

وقال أبو البقاء : لا يجوز أن يكون نعتاً لأنه نكرة وإن أضيف لأن المضاف إليه عوض عن من وهكذا جميع باب أفعل منك وجعله بدلاً وهو يقل في المشتقات أو خبر مبتدأ مقدر أي هو أحسن الخالقين والأصل عدم التقدير ، وتميز أفعل محذوف لدلالة الخالقين عليه أي أحسن الخالقين خلقاً فالحسن للخلق قيل : نظيره قوله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى جميل يحب الجمال " أي جميل فعله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعاً

فاستتر ، والخلق بمعنى التقدير وهو وصف يطلق على غيره تعالى كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير ﴾ [المائدة : 110] وقول زهير

: ولأنت تفري ما خلقت . . .

وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

وفي معنى ذلك تفسيره بالصنع كما فعل ابن عطية ، ولا يصح تفيره بالإيجاد عندنا إذ لا خالق بذلك المعنى غيره تعالى إلا أن يكون على الفرض والتقدير .

(242/532)

والمعتزلة يفسرونه بذلك لقولهم بأن العبد خالق لأفعاله وموجود لها استقلالاً فالخالق الموجد متعدد عندهم ، وقد تكفلت الكتب الكلامية بردهم .

ومن حسن خلقه تعالى اتقانه وأحكامه ، ويجوز أن يراد بالحسن مقابل القبح وكل شيء منه عز شأنه حسن لا يتصف بالقبح أصلاً من حيث أنه منه فلا دليل فيه للمعتزلة بأنه تعالى لا يخلق الكفر والمعاصي كما لا يخفى .

روى أن عبد الله بن سعيد بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأملى عليه صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ [المؤمنون : 12]

حتى إذا بلغ عليه الصلاة والسلام ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً ﴾ نطق عبد الله بقوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ الله ﴾ الخ قبل إملائه فقال له عليه الصلاة والسلام : هكذا نزلت فقال عبد الله : إن كان محمد نبياً يوحى إليه فأنا نبي يوحى إلي فارتد ولحق بمكة كافراً ثم أسلم قبل وفاته عليه الصلاة والسلام وحسن إسلامه ، وقيل : ما كافراً .

وطعن بعضهم في صحة هذه الرواية بأن السورة مكية وارتداده بالمدينة كما تقتضيه الرواية .

وأجيب بأنه يمكن الجمع بأن تكون الآية نازلة بمكة واستكتبها صلى الله عليه وسلم إياه بالمدينة فكان ما كان أو يلتزم كون الآية مدنية لهذا الخبر ، وقوله : إن السورة مكية باعتبار الأكثر وعلى هذا يكون اقتصار الجلال السيوطي على استثناء قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ مُّبْلِسُونَ ﴾ [المؤمنون : 64-77] قصوراً فتذكر .

وتروى هذه الموافقة عن معاذ بن جبل .

أخرج ابن راهويه .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والطبراني في "الأوسط" .

وابن مردويه عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال : "أملى على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12] إلى قوله تعالى : ﴿ خَلْقاً ءاخَرَ ﴾ فقال معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه ﴿ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ﴾ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له معاذ : مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : بها ختمت" ورويت أيضاً عن عمر رضي الله تعالى عنه ، أخرج الطبراني .

وأبو نعيم في فضائل الصحابة .

وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : لما نزلت ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ ﴾ إلى آخر الآية قال عمر رضي الله تعالى عنه : ﴿ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ﴾ فنزلت كما قال .

وأخرج ابن عساكر .

وجماعة عن أنس أن عمر رضي الله تعالى عنه كان يفتخر بذلك ويذكر أنها إحدى موافقاته الأربع لربه عز وجل ، ثم إن ذلك من حسن نظم القرآن الكريم حيث تدل صدور

كثير من آياته على إعجازها ، وقد مدحت بعض الأشعار بذلك فقيل

: قصائد إن تكن تتلى على ملاء . . .

صدورها علمت منها قوافيها

لا يقال : فقد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن الكريم وذلك قادح في إعجازه لما أن الخارج عن قدرة البشر على الصحيح ما كان مقدار أقصر سورة منه على أن إعجاز هذه الآية الكريمة منوط بما قبلها كما تعرب عنه الفاء فإنها اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك ﴾ أي بعد ما ذكر من الأمور العجيبة حسبما ينبىء عنه ما في اسم الإشارة من معنى البعد المشعر بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته في الفضل والكمال وكونه بذلك ممتازاً منزلاً منزلة الأمور الحسية ﴿ لَمَيِّتُونَ ﴾ أي لصائرون إلى الموت لا محالة كما يؤذن به اسمية الجملة وإن واللام وصيغة النعت الذي هو للثبوت ، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما .

وابن أبي عبلة .

وابن محيصن ﴿ لمايتون ﴾ وهو اسم فاعل يراد به الحدوث ، قال الفراء .

وابن مالك : إنما يقال مايت في الاستقبال فقط .

(245/532)

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ عند النفخة الثانية ﴿ تُبْعَثُونَ ﴾ من قبوركم للحساب والمجازاة بالثواب والعقاب ، ولم يؤكد سبحانه أمر البعث تأكيده لأمر الموت مع كثرة المترددين فيه والمنكرين له اكتفاء بتقديم ما يغني عن كثرة التأكيد ويشيد أركان الدعوى أتم تشييد من خلقه تعالى الإنسان من سلالة من طين ثم نقله من طور إلى طور حتى أنشأ خلقاً آخر يستغرق العجائب ويستجمع الغرائب فإن في ذلك أدل دليل على حكمته وعظيم قدرته عز وجل على بعثه وإعادته وأنه جل وعلا لا يهمل أمره ويتركه بعد موته نسياً منسياً مسقراً في رحم العدم كأن لم يكن شيئاً ، ولما تضمنت الجملة السابقة المبالغة في أنه تعالى شأنه أحكم خلق الإنسان وأتقنه بالغ سبحانه عز وجل في تأكيد الجملة الدالة على موته مع أنه غير منكر لما أن ذلك سبب لاستبعاد العقل إياه أشد استبعاد حتى يوشك أن ينكر وقوعه من لم يشاهده وسمع أن الله جل جلاله أحكم خلق الإنسان وأتقنه غاية الاتقان ، وهذا وجه دقيق لزيادة التأكيد في جملة الدالة على الموت وعدم زيادته في الجملة الدالة على

البعث لم أر أني سبقت إليه ، وقيل في ذلك : إنه تعالى شأنه لما ذكر في الآيات السابقة من التكليفات ما ذكر نبه على أنه سبحانه أبدع خلق الإنسان وقلبه في الأطوار حتى أوصله إلى طور هو غاية كماله وبه يصح تكليفه بنحو تلك التكليفات وهو كونه حياً عاقلاً سميعاً بصيراً وكان ذلك مستدعياً لذكر طوريقه فيه الجزاء على ما كلفه تعالى به وهو أن يبعث يوم القيامة فنبه سبحانه عليه بقوله ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ ﴾ فالمقصود الأهم بعد بيان خلقه وتأهله للتكليف بيان بعثه لكن وسط حديث الموت لأنه برزخ بين طوره الذي تأهل به للأعمال التي تستدعي الجزاء وبين بعثه فلا بد من قطعه للوصول إلى ذلك فكأنه قيل : أيها المخلوق العجيب الشأن إن ماهيتك وحقيقتك تفنى وتعدم ثم إنها بعينها من الأجزاء المتفرقة

(246/532)

والعظام البالية والجلود المتمزقة المتلاشية في أقطار الشروق والغرب تبعث وتنشر ليوم الجزاء لاثابة من أحسن فيما كلفناه به وعقاب من أساء فيه ، فالقرينة الثانية وهي الجملة الدالة على البعث لم تفتقر إلى التوكيد افتقار الأولى وهي الجملة الدالة على الموت لأنها كالمقدمة لها وتوكيدها راجع إليها ، ومنه يعلم سر نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب انتهى ،

وفيه من البعد ما فيه .

وقيل : إنما بولغ في القرينة الأولى التمادي المخاطبين في الغفلة فكأنهم نزلوا منزلة المنكرين لذلك وأخليت الثانية لوضوح أدلتها وسطوع براهينها ، قال الطيبي : هذا كلام حسن لو ساعد عليه النظم الفائق ، وربما يقال : إن شدة كراهة الموت طبعاً التي لا يكاد يسلم منها أحد نزلت منزلة شدة الإنكار فبولغ في تأكيد الجملة الدالة عليه ، وأما البعث فمن حيث أنه حياة بعد الموت لا تكرهه النفوس ومن حيث أنه مظنة للشدائد تكرهه فلما لم يكن حاله كحال الموت ولا كحال الحياة بل بين بين أكدت الجملة الدالة عليه تأكيداً واحداً .

وهذا وجه للتأكيد لم يذكره أحد من علماء المعاني ولا يضر فيه ذلك إذا كان وجيهاً في نفسه ، وتكرير حرف التراخي للإيذان بتفاوت المراتب ، وقد تضمنت الآية ذكر تسعة أطوار ووقع الموت فيها الطور الثامن ووافق ذلك أن من يولد لثمانية أشهر من حمله قلما يعيش ، ولم يذكر سبحانه طور الحياة في القبر لأنه من جنس الإعادة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 18 صـ ﴾

(247/532)

وقال القاسمي :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ ﴾ أي : ابتدأنا خلقه : ﴿ مِنْ سُلالَةٍ ﴾ أي : خلاصة : ﴿ مِنْ طِينٍ ﴾ أي : تراب خلط بماء فصار نباتاً فأكله إنسان فصار دماً ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ أي : بأن خلقناه منها ، أو ثم جعلنا السلالة نطفة بالتصفية : ﴿ فِي قَرَارٍ ﴾ أي : مستقر ، وهو رحم المرأة الذي نقل إليه : ﴿ مَكِينٍ ﴾ أي : متمكن لا يمجّ ما فيه .

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ أي : بالاستحالة من بياض إلى حمرة كالدم الجامد : ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ أي : قطعة لحم بقدر ما يمضغ : ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً ﴾ أي : بأن صلبناها وجعلناها عموداً للبدن ، على هيئات وأوضاع مخصوصة ، تقتضيها الحكمة : ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ﴾ أي : جعلناه محيطاً بها ساتراً لها كاللباس : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ﴾ أي : بتمييز أعضائه وتصويره ، وجعله في أحسن تقويم : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ ﴾ أي : تعاظم قدرة وحكمة وتصرفاً : ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ أي : المقدرّين .

فالخلق بمعنى التقدير كقوله :

~ ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفري

لا بمعنى الإيجاد . إذ لا خالق غيره ، إلا أن يكون على الفرض .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي : بعد ما ذكر من الأمور العجيبة وتحصيل هذه الكمالات : ﴿ لَمَيِّتُونَ ﴾ أي : لصائرون إلى الموت .

قال المهايميّ : والحكيم لا يتلف ما استكمله بأنواع التكميل ، ولذلك سيبعثه كما قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ أي : من قبوركم للحساب والمجازاة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 298. 299 ﴾

(248/532)

وقال الشيخ المراغى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ﴾

تفسير المفردات

السلالة : ما سلّ من الشيء واستخرج منه ، وتارة تكون مقصودة كخلاصات الأشياء كالزّبد من اللبن ، وتارة تكون غير مقصودة كقلامة الظفر وكناسة البيت

وقرار : أي مستقر ، مكين : أي متمكن ، والعلقة : الدم الجامد ، والمضغة : قطعة اللحم قدر ما يمضغ ، تبارك اللّه : أي تعالى وتقدس .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه أحوال السعداء المفلحين - قفّى على ذلك بذكر مبدئهم ومآل أمرهم وأمر غيرهم من بنى الإنسان ، وفى هذا إعظام للمنة ، وحث على الاتصاف بحميد

الصفات ، وتحمل مئونة التكاليف ، ثم ذكر أن كل ذلك منته إلى غاية هى يوم القيامة الذي تبعثون وتحاسبون فيه على أعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

الإيضاح

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ) أي ولقد خلقنا أصل هذا النوع وأول أفراده ، وهو آدم عليه السلام من صفوة طين لا كدر فيه .

ويرى جماعة من المفسرين : أن المراد بالإنسان هنا ولد آدم وهم يقولون : إن النطف تتوالد من الدم الحادث من الأغذية وهى إما حيوانية وإما نباتية ، والحيوانية تنتهى إلى نباتية ، والنبات يتوالد من صفو الأرض والماء ، فالإنسان على الحقيقة متوالد من سلالة من طين ، ثم تواردت على تلك السلائل أطوار الخلقة إلى أن صارت نطفا (ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ) أي ثم جعلنا نسله نطفا فى أصلاب الآباء ، ثم قذفت إلى الأرحام ، فصارت فى حرز حصين من وقت الحمل إلى حين الولادة .

ونحو الآية قول : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ » .

(ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً) أي ثم خولنا النطفة من صفتها الثانية إلى صفة العلقة وهى الدم الجامد .

(فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً) أي ثم جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي قطعة لحم بمقدار ما يمضغ .

(فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً) أي فصيرناها كذلك ، وميزنا بين أجزائها ، فما كان منها من العناصر الداخلة فى تكوين العظام جعلناه عظاما ، وما كان من مواد اللحم جعلناه لحما ، والمواد الغذائية شاملة لذلك ومنبثة فى الدم ، ومن ثم قال :

(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً) أي فجعلنا اللحم كسوة لها ، من قبل أنه يستر العظام ، فأشبه بالكسوة الساترة للجسم .

(ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ) مباينا للخلق الأول ، إذ نفخنا فيه الروح وجعلناه حيوانا بعد ما كان أشبه بالجماد ، ناطقا سميعا بصيرا ، وأودعنا فيه من الغرائب ظاهرها وباطنها ما لا يحصى .

وقد قال العلماء : إن جميع أعضاء الإنسان مقسمة تقسيما دقيقا على نسب معينة مقيسة بشبره ، فطوله ثمانية أشبار بشبره ، وإذا مدّ يديه إلى أعلى كان عشرة أشبار بقياسه ، وإذا مد يديه إلى الجانبين كان طولهما كطوله على السواء ، ومن ثمّ جعل المصريون أصل المقاييس الشبر ، وجعلوا كل ضلع من أضلاع الهرم الأكبر بالجيزة ألف شبر بشبر الإنسان .

(فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ) أي فتنزه ربنا جلت قدرته ، وهو أحسن المقدّرين المصورين .

(250/532)

عن أنس قال : قال عمر « وافقت ربى فى أربع ، قلت يا رسول اللّه لو صلينا خلف المقام فأنزل اللّه « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى » وقلت يا رسول اللّه لو اتخذت على نسائك حجابا ، فإنه يدخل عليك البرّ والفاجر فأنزل اللّه « إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ » وقلت لأزواج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لتنتهنّ أو ليبدلنه اللّه أزواجا خيرا منكن فنزلت « عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ » الآية ونزلت « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ - إلى قوله - ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ ، فقلت : فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ » فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : هكذا أنزلت يا عمر أخرجه الطيالسي .

(251/532)

(ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ) أي ثم إنكم بعد النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت .

(ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ) من قبوركم للحساب ثم المجازاة بالثواب والعقاب .

إذ يوفّى كل عامل جزاء عمله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

وخلاصة ما تقدم – إنه تعالى بعد أن ذكر أنه كلف عباده بما كلف – بين أن هذه التكاليف شكر من الإنسان لربه الذي أنشأه النشأة الأولى وقلّبه فى أطوار مختلفة حتى أوصله إلى طور هو غاية كماله ، فأصبح قادرا على تكليفه بتلك التكاليف ، ولا بد له من طور يستحق فيه الجزاء على ما كلّف به ، وهو طور البعث بعد الموت يوم القيامة .

ويقول الدكتور أحمد محمد كمال فى مجلة الدكتور ، إن كلمة (تراب) أو (طين) الواردة فى القرآن وردت بمعناها المجازى ، فالإنسان بل جميع الكائنات الحية تتركب كيميائيا من عناصر أولية جمعها الخالق سبحانه وتعالى وركبها فى شكل مادة كيميائية معقدة هى البروتوبلازم أي المادة الحيوية التي تتركب منها الخلايا والأنسجة الحيوانية والنباتية ، وهذه المادة الحيوية تتركب من عناصر الأكسجين والأيدروجين والكربون والأزوت والكبريت والفسفور والكالسيوم والصديوم والكلور والحديد والنحاس واليود إلخ .

فإذا نظرنا إلى التراب وقمنا بتحليل عينات منه وجدنا أنه يحتوى على نفس العناصر لأولية المذكورة .

وليس أدل على أن التعبير مجازى من أن جسم الإنسان أو الحيوان أو النبات عند ما يتحلل بعد الوفاة يتحول إلى رماد أو تراب بنفس العناصر .

(252/532)

ويقول الدكتور سالم محمد فى هذه المجلة إن الخلق فى قوله (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) ويكون إشارة إلى خلق آدم نفسه وقد يكون بمعنى أن النطفة فى كل من الذكر والأنثى ليدة عملية التغذية التي يتغذى بها الإنسان أو الجسم ، وأصل هذه التغذية ومنشؤها من تراب ، والنطفة هى الحيوان المنوي للذكر والبويضة للأنثى ، فإذا تم التلقيح بدأت البويضة فى الانقسام بدأ تطور العلقة وهى مجموعة من الخلايا الحية تنقسم إليها بويضة بعد تلقيحها .

وإنما سميت فى هذا الطور علقة للشبه الكبير بينها وبين علق الماء

وطور العلقة فى حياة الجنين يبلغ أربعة أسابيع ، ثم تتطور العلقة إلى مضغة للشبه الكبير بينها وبين قطعة اللحم الممضوغة ويبلغ طور المضغة بضعة أسابيع ، ثم يبدأ ظهور خلايا العظام ، فاللحم أي العضلات التي تكسو هذه العظام .

وقوله (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) أي انه من هذه الخلايا ومن هذه الأطوار المتعددة يخرج الله لنا هذه الصورة الإنسانية الجميلة التي تشهد بقدرة الخالق وعظمته .

وقوله (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ) فالقرار المكين هو الرحم ، ومن يدرس تشريح الرحم وموضعه المكين الأمين فى أسفل بطن المرأة ويرى ذلك الوعاء ذا الجدار المريض السميك ثم ترى هذه الأربطة العريضة والأربطة المستديرة ، وهذه الأجزاء من البريتون التي تشده إلى المثانة والمستقيم ، وكلها تحفظ توازن الرحم وتشد أزره ، وتحميه من الميل أو السقوط ، وتطول معه إذا ارتفع عند تقدم الحمل ، وتقصر إلى طولها الطبيعي تدريجا بعد الولادة .

وكذلك من يدرس تكوين الحوض عظامه يعرف جليا صدق قوله (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ) وكذلك فى الرحم سائل أمينوس داخل جيب المياه يعوم فيه الجنين بحرية ويدفع عن الجنين ما قد تلاقيه الأم من صدمات وهزات عنيفة قد تصل إليه فتؤذيه إن لم يهدىء هذا السائل من قوتها ويضعف من شدتها . ثم هو يحتفظ للجنين بحرارة مناسبة حيث أنه موصل ردىء للحرارة ، وكذلك هو يقوم بعملية تحديد عنق الرحم وتوسيعه وقت الولادة (القرن) كما يقوم بعملية التطهير أمام الجنين بما فيه من خواص مطهرة ، فكل ذلك يزيد الرحم مكنة وأمنا .

وهكذا يبدو أن مصير هذا الكتاب العجيب الخالد لا يفنى ، وأن معين العلم والإلهام فيه لا

يضمحل ولا يغيض ، وأن الدنيا ستظل تكشف فيه آفاقا بعد آفاق كلما تقدم العلم فتلقى ما بهذا الكتاب الكريم من إيحاءات وإشراقات (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 18 صـ 7 . 11 ﴾

(254/532)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ﴾

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أطوار خلقه الإنسان ونقله له ، من حال إلى حال ، ليدل خلقه بذلك على كمال قدرته واستحقاقه للعبادة وحده جل وعلا . وقد أوضحنا في أول سورة الحج معنى النطفة ، والعلقة ، والمضغة ، وبينا أقوال أهل العلم في المخلقة ، وغير المخلقة . والصحيح من ذلك وأوضحنا أحكام الحمل إذ سقط علقة أو مضغة هل تنقضي به عدة الحامل أو لا ؟ وهل تكون الأمة به أم ولد إن كان من سيدها أو لا ؟ إلى غير ذلك من أحكام الحمل الساقط ، ومتى يرث ، ويورث ، ومتى يصل عليه ، وأقوال أهل العلم في ذلك في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج : 5] الآيات . وسنذكر هنا ما لم نبينه هنالك مع ذكر الآيات التي لها تعلق

بهذا المعنى . أما معنى السلالة : فهي فعالة من سللت الشيء من الشيء ، إذا استخرجته منه ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت :

خلق البرية من سلالة منتن . . . وإلى السلالة كلها ستعود

والولد سلالة أبيه كأنه انسل من ظهر أبيه .

ومنه قول حسان رضي الله عنه :

فجاءت به عضب الأديم غضنفراً . . . سلالة فرج كان غير حصين

وبناء الاسم على الفعالة ، يدل على القلة كقلامة الظفر ، ونحاتة الشيء المنحوت ، وهي ما يتساقط منه عند النحت ، والمراد بخلق الإنسان من سلالة الطين : خلق أبيهم آدم منه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] .

(255/532)

وقد أوضحنا فيما مضى أطوار ذلك التراب ، وأنه لما بل بالماء صار طيناً ولما خمر صار طيناً لازباً يلصق باليد ، وصار حمأً مسنوناً . قال بعضهم : طيناً أسود منتناً ، وقال بعضهم : المسنون : المصور ، كما تقدم إيضاحه في سورة الحجر ، ثم لما خلقه من طين خلق منه

زوجه حواء ، كما قال في أول النساء ﴿ يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء : 1] وقال في الأعراف ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف : 189] وقال في الزمر : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر : 6] كما تقدم إيضاح ذلك كله ، ثم لما خلق الرجل والمرأة ، كان وجود جنس الإنسان منهما عن طريق التناسل ، فأول أطواره : النطفة ، ثم العلقة . الخ .

وقد بينا أغلب ذلك في أول سورة الحج ، وقوله هنا : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ يعني : بدأه خلق نوع الإنسان بخلق آدم ، وقوله ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ [المؤمنون : 13] أي بعد خلق آدم وحواء ، فالضمير في قوله : ثم جعلناه لنوع الإنسان ، الذي هو النسل لدلالة المقام عليه ، كقولهم : عندي درهم ونصفه : أي ونصف درهم آخر . كما أوضح تعالى هذا المعنى في سورة السجدة في قوله تعالى ﴿ ذلك عَالِمُ الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

[السجدة : 6-9] وأشار إلى ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : 20] وما ذكره هنا من أطوار خلقه الإنسان ، أمر كل مكلف أن ينظر فيه . والأمر المطلق ، يقتضي الوجوب إلا لدليل صارف عنه ، كما أوضحناه مراراً . وذلك في قوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 5-6] الآية . وقد أشار في آيات كثيرة ، إلى كمال قدرته بنقله الإنسان في خلقه من طور إلى طور ، كما أوضحه هنا وكما في قوله تعالى : ﴿ مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ [نوح : 13-14] وبين أن انصراف خلقه عن التفكر في هذا والاعتبار به مما يستوجب التساؤل والعجب ، وأن من غرائب صنعه وعجائب قدرته نقله الإنسان من النطفة ، إلى العلقة ، ومن العلقة إلى المضغة الخ . مع أنه لم يشق بطن أُمه بل هو مستتر بثلاث ظلمات : وهي ظلمة البطن ، وظلمة الرَّحِم ، وظلمة المشيمة المنطوية على الجنين ، وذلك في قوله جل وعلا : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الملك لا إله إِلاَّ هُوَ فَأَنى تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر : 6] فتأمل معنى قوله ﴿ فَأَنى تُصْرَفُونَ ﴾ أي عن هذه العجائب والغرائب ، التي فعلها فيكم ربكم ومعبودكم . وقال تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرحام كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 6] وقال : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [الحج : 5] ثم ذكر الحكمة فقال ﴿

لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ أي لنظهر لكم بذلك عظمتنا ، وكمال قدرتنا ، وانفرادنا بالإلهية واستحقاق العبادة ، وقال في

(257/532)

سورة المؤمن ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لتبلغوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً ﴾ [غافر : 67] وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ [القيامة : 36-40] والآيات بمثل هذا كثيرة ، وقد أبهم هذه الأطوار المذكورة في قوله ﴿ كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [المعارج : 39] وذلك الإبهام يدل على ضعفهم وعظمة خالقهم جل وعلا ، فسبحانه جل وعلا ما أعظم شأنه وما أكمل قدرته ، وما أظهر براهين توحيده ، وقد بين في آية المؤمنون هذه : أنه يخلق المضغة عظاماً ، وبين في موضع آخر : أنه يركب بعض تلك العظام مع بعض ، تركيباً قوياً ، ويشد بعضها مع بعض ، على أكمل الوجوه وأبدعها ، وذلك في قوله ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ [الإنسان : 28] الآية ، والأسر : شد العظام بعضها مع بعض ، وتآسير السرج ومركب المرأة السيور التي يشد بها ، ومنه قول

حميد بن ثور :

وما دخلت في الخدب حتى تنقضت . . . تآسير أعلى قده وتحطما

(258/532)

وفي صحاح الجوهري : أسر قتبه يأسره أسراً شدة بالأسار وهو القد ، ومنه سمي الأسير ، وكانوا يشدونه بالقد ، فقول بعض المفسرين واللغويين : أسرهم : أي خلقهم فيه قصور في التفسير ، لأن الأسر هو الشد القوي بالأسار الذي هو القد ، وهو السير المقطوع من جلد البعير ونحوه ، الذي لم يدبغ والله جل وعلا يشد بعض العظام ببعض ، شداً محكماً متماسكاً كما يشد الشيء بالقد ، والشد به قوي جداً . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ القرار هنا : مكان الاستقرار ، والمكين : المتمكن . وصف القرار به لتمكنه في نفسه بحيث لا يعرض له اختلال ، أو لتمكن من يحل فيه . قاله أبو حيان في البحر . وقال الزمخشري : القرار : المستقر ، والمراد به : الرحم وصفت بالمكانة التي هي صفة المستقر فيها ، أو بمكانتها في نفسها ، لأنها مكنت بحيث هي وأحرزت . وقوله تعالى في هذه الآية ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ﴾ [المؤمنون : 14] قال الزمخشري : أي خلقاً مبايناً للخلق الأول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيواناً ، وكان جماداً وناطقاً ، وكان أبكم

وسمعياًن وكان أصم وبصيراً ، وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره ، بل كل عضو من أعضائه وجزء من أجزائه عجائب فطرة ، وغرائب حكمة ، لا تدرك بوصف الواصف ، ولا بشرح الشارح . انتهى منه .

وقال القرطبي : اختلف في الخلق الآخر المذكور ، فقال ابن عباس ، والشعبي وأبو العالية ، والضحاك وابن زيد : " هو نفخ الروح فيه بعد أن كان جماداً " وعن ابن عباس : " خروجه إلى الدنيا " وقال قتادة : عن فرقة نبات شعره ، وقال الضحاك : خروج الأسنان ، ونبات الشعر ، وقال مجاهد : كمال شبابه . وري عن ابن عمر والصحيح ، أنه عام في هذا وفي غيره من النطق والإدراك ، وتحصيل المعقولات إلى أن يموت . ا ه منه .

(259/532)

والظاهر أن جميع أقوال أهل العلم في قوله ﴿ خَلْقاً آخَرَ ﴾ أنه صار بشراً سوياً بعد أن كان نطفة ، ومضغةً ، وعلقةً ، وعظاماً كما هو واضح .

مسألة

وقد استدل بهذه الآية الإمام أبو حنيفة رحمه الله ، على أن من غصب بيضة ، فأفرخت عنه أنه يضمن البيضة ، ولا يرد الفرخ ، لأن الفرخ خلق آخر سوى البيضة ، فهو غير ما

غصب ، وإنما يرد الغاصب ما غصب . وهذا الاستدلال له وجه من النظر ، والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى في هذه الآية ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ وقوله ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ ﴾ قال أبو حيان في البحر المحيط : تبارك : فعل ماضٍ لا ينصرف ، ومعناه : تعالى وتقدس . اه منه .

وقوله في هذه الآية ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ أي المقدرين والعرب تطلق الخلق وتريد التقدير . ومنه قول زهير :

ولأنت تفري ما خلقت وبعض . . . القوم يخلق ثم لا يفري

فقوله : يخلق ثم لا يفري : أي يقدر الأمر ، ثم لا ينفذه لعجزه عنه كما هو معلوم .

ومعلوم أن النحويين مختلفون في صيغة التفضيل إذا أضيفت إلى معرفة ، هل إضافتها إضافة محضة ، أو لفظية غير محضة ، كما هو معروف في محله ؟ فمن قال : هي محضة أعرب قوله ﴿ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ نعتاً للفظ الجلالة ، ومن قال : هي غير محضة أعربه بدلاً ، وقيل : خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو أحسن الخالقين . وقرأ هذين الحرفين ﴿ فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً ﴾ وقوله ﴿ فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ﴾ ابن عامر وشعبة عن عاصم عظماً : بفتح العين ، وإسكان الضاء من غير ألف بصيغة المفرد فيهما ، وقرأه الباقون : عِظَاماً بكسر العين وفتح الظاء ، وألف بعدها بصيغة الجمع ، وعلى قراءة ابن عامر وشبعة . فالمراد

بالعظم : العِظَام .

وقد قدمنا بإيضاح في أول سورة الحج وغيرها أن المفرد إن كان اسم جنس ، قد تطلقه العرب ، وتريد به معنى الجمع . وأكثرنا من أمثلته في القرآن ، وكلام العرب مع تعريفه وتنكيره وإضافته ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

(260/532)

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنهم بد أن أنشأهم خلقاً آخر ، فأخرج الواحد منهم من بطن أمه صغيراً ، ثم يكون محتلماً ، ثم يكون شاباً ، ثم يكون كهلاً ، ثم يكون شيخاً ، ثم هرماً أنهم كلهم صائرون إلى الموت من عمر منهم ومن لم يعمر ، ثم هم بعد الموت يبعثون أحياءً ، يوم القيامة للحساب والجزاء ، وهذا الموت والحياة المذكوران هنا كل واحد منهما له نظير آخر ، لأنهما إماتتان وإحياءتان ذكر من كل منهما واحدة هنا ، وذكر الجميع في قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : 28] وقوله : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ [غافر : 11] كما قدمنا إيضاحه في سورة الحج والبقرة ، وكل ذلك دليل على كمال قدرته ، ولزوم الإيمان به ،

واستحقاقه للعبادة وحده سبحانه وتعالى علواً كبيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

(261/532)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة من متفتح السورة إلى هذه الآية ، قد كانت عرضا ، مسعدا للمؤمنين المفلحين ، الذين آمنوا باللّه ، واستقاموا على طريقه المستقيم . . وفى مقابل هذا العرض كانت تتراءى صورة الضالين والغاوين ، الذين كفروا به ، وحادوا عن سواء السبيل . . وإلى هذه الصورة كانت تتطلع كثير من النفوس إلى هيئتها التي تكون عليها ، لو أنها أطلّت بوجهها ، وكشفت عن حال أصحابها ، كما كشفت الصورة السابقة عن المؤمنين ، وعن حالهم الطيبة المسعدة . . فالمؤمنون باللّه ينظرون إلى من خلّفوهم وراءهم على طريق الكفر والضلال ، ليروا ما صنع اللّه بهم . . وغير المؤمنين ، ينظرون إلى مكانتهم بعد أن رأوا المؤمنين ، وقد ورثوا جنات النعيم .

ولكن كان من رحمة اللّه بهؤلاء الضالين الغاوين ، أن حجب عنهم صورتهم السيئة المنكرة ،

ولم يكشف لهم عن المصير المشئوم الذي هم صائرون إليه ، إذا وقفوا حيث هم على موارد الضلال والغواية .

(262/532)

وبدلا من أن يكشف اللّه لهم عن حالهم السيئة ، وينزلهم منازل الهون والبلاء - دعاهم إليه ، ومنحهم فرصة أخرى ، يراجعون فيها أنفسهم ، ويتدبرون حالهم ، ويرجعون إلى اللّه من قريب ، ليكونوا فى المؤمنين المفلحين ، فعرض عليهم سبحانه وتعالى شيئا من مظاهر قدرته ، وعلمه ، وحكمته . . يجدونها - لو عقلوا - فى أقرب شىء إليهم . . فى أنفسهم ، وفى عجائب قدرة اللّه ، وبالغ حكمته . .

إذ أخرج من التراب هذا الإنسان ، السميع البصير ، العاقل ، الناطق ، الذي عمر هذه الأرض ، وتسلّط على حيوانها ونباتها وجمادها . .

ففى هذه النظرة التي ينظر بها الإنسان إلى نفسه ، وإلى أصل نشأته ، وتطوره فى الحياة ، وتنقله فى الخلق - فى هذه النظرة ، يرى الإنسان أن يدا حكيمة قادرة ، هى التي أوجدته ، وأخرجته على هذه الصورة ، التي لا وجه للشبه بينها وبين هذا التراب الهامد الذي ولدت منه . . فكيف لا يولى الإنسان وجهه إلى الذي فطره وصوّره ، وأقامه على هذا العالم

الأرضى خليفة للّه فيه ؟ وكيف لا يدين لخالقه ورازقه بالطاعة والولاء ؟ ثم كيف يعطى يديه ، ويسلم زمامه لأحجار ينحتها ، أو لحيوان يربيه ، أو لإنسان هو مخلوق مثله ؟ ذلك ضلال مبين .

وانحدار سريع إلى عالم التراب ، مع الهوام والحشرات ! قوله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ » .

(263/532)

السلالة : الأصل ، وكأنها السلسلة التي يمتد عليها أصل الشيء ، ويصل بين مبدئه وغايته ، وهذا يشير إلى أن الإنسان قد مرّ فى أطوار كثيرة بين عالم التراب ، وسار مسيرة طويلة فى سلسلة متصلة الحلقات . . من التراب إلى الطين ، ثم من الطين إلى الحمأ المسنون ، ثم من الحمأ المسنون إلى الصلصال ، كما يقول تعالى على لسان إبليس ـ لعنه اللّه ـ : « قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » (33 : الحجر) . . ثم من هذا الصلصال إلى عالم النبات . . من الطحالب . . إلى النخلة ، ثم من عالم النبات إلى الحيوان ، من الجرثومة . . إلى الإنسان . . !

وقد عرضنا لقضية خلق الإنسان فى الجزء الأول من هذا التفسير . .

قوله تعالى : « ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ » .

هو إشارة إلى أن هذا الإنسان الذي أخرجته القدرة الإلهية من بين هذا التراب بشرا سويّا ، ما هو إلا هذه النطفة التي اختصرت وجوده كله ، واشتملت على كل ما فى كيانه من قوى عاقلة ، ناطقة ، مبصرة ، سميعة ، مريدة ، فما النطفة إلا الإنسان مضمرا فى كيانها ، وما الإنسان إلا النطفة سابحا فى محيطها متحركا فى فلكها . .

والقرار المكين ، المودعة فيه النطفة ، هو الحبل المنوىّ ، الذي يمتد بين فقار الظهر ، وأضلاع الصدر ، كما يقول تعالى : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ » (5 ـ 7 : الطارق) .

وقد يكون القرار المكين ، هو الرحم الذي تستقرّ فيه النطفة . .

وبين خلق الإنسان من طين ، وبين جعله نطفة فى قرار مكين ، مقابلة ، بين نشأة الإنسان الأول من الطين ، وبين عملية التوالد ، التي هى وظيفة عضوية من وظائف هذا الإنسان . . فالنشأة الأولى ، من التراب . . وفى هذا التراب كانت تكمن جرثومة الإنسان الأول كما تكمن النطفة فى هذا القرار المكين من الإنسان . .

ولكن شتان بين نطفة ونطفة ! فالنطفة التي تخلّق منها الإنسان الأول كانت من مادة هذه الأرض كلها . . والمدى بعيد شاسع بين مادة الأرض ، وبين هذا الإنسان المتخلق من المادة . . ولهذا جاء التعبير القرآنى المعجز عن هذه العملية بلفظ « الخلق » : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ . . »

أما نطفة الإنسان ، وما يتخلّق من هذه النطفة من كائن بشرى مثل هذا الإنسان ، فالمسافة بينهما قريبة فى مرأى العين البشرية ، وفى مواجهة الشواهد الكثيرة لهذا . . فى عالم النبات والحيوان . . حيث تخرج الحبّة نباتا مثل هذا النبات الذي جاءت منه ، ويخرج الحيوان من نطفته حيوانا مثله . . ولهذا جاء التعبير القرآنى المعجز عن هذه العملية بلفظ جعل . « ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً » . .

والجعل دون الخلق ، إذ هو وظيفة من وظائف المخلوق ، وذلك مثل قوله تعالى :

« وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً » (8 . 11 النبأ) .

قوله تعالى : « ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً . . فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً . . فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً . . » فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً . . ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ . . فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ . »

تقصّ هذه الآية قصة « خلق » الإنسان ، ابتداء من النطفة ، التي جعلها اللّه سبحانه وتعالى فى قرار مكين . . هو الرّحم .

وهنا يتجلى الإعجاز القرآنى ، حتى ليكاد يلمس باليد ، إن عميت عنه العيون ، وزاغت عنه الأبصار ! فقد رأينا كيف فرق النظم القرآنى بين أمرين :

فأولا : جعل إيجاد الإنسان من الطين ، عملية خلق . . « خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ » .

وثانيا : جعل توالد الإنسان من النطفة عملية وظيفية ، تخضع لسنن ظاهرة يدركها الإنسان ، ويعمل على تحقيقها ، وقد عبر عنها القرآن بلفظ « جعل » . .

(265/532)

« ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ » .

وهنا فى هذه الآية - وهو موضع العجب والدّهش والانبهار لهذا الإعجاز - هنا تتحرك النطفة نحو غايتها إلى أن تكون مولودا بشرا . . يتنقّل من نطفة ، إلى علقة ، إلى مضغة ، إلى هيكل عظمى معرّى من اللحم . . إلى هيكل بشرى يكسوه اللحم . . إلى جنين . . ثم طفل . .

وهذه الأطوار ، هى فى الواقع انطلاقة لهذه النطفة ، وإظهار لما فى كيانها . . !

وعلى هذا ، فقد كان من المتوقع أن تكون هذه التحركات للنطفة من باب « الجعل » لا «

الخلق » لأن النطفة ذاتها « مجعولة » وكل ما تعطيه هو من « المجعول » أيضا . .

ولكن النظم القرآنى ، خالف هذا ، وجاء بالتعبير عن « الجعل » بلفظ « الخلق » .

فالنطفة لم تجعل علقة ، وإنما خلقت علقة . . « ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً . . »

والعلقة لم تجعل مضغة ، وإنما خلقت مضغة . . « فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً . . »

وهكذا المضغة ، لم تجعل عظاما ، وإنما خلقت عظاما . . « فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً . .

»

فما سر هذا ؟ بل ما أسرار هذا ؟ وماذا وراءه ؟

السرّ فى هذا - والله أعلم - أن كلّ عملية من هذه العمليات ، هى خلق جديد ، لا يملكه إلا الخالق جل وعلا ، وهو مما استأثر به سبحانه وتعالى وحده ، فسمّى ذاته « الخالق » وأبى على خلقه أن يشاركوه فى هذه الصفة . .

ومعنى هذا ، أنه لا يمكن للإنسانية كلها - وإن اجتمعت - أن تنتقل بالإنسان فى هذه الأطوار من طور إلى طور . . وأن قدرة الناس - ولو اجتمعت - لا تستطيع أن تنتقل بالنطفة إلى العلقة ، ولا بالعلقة إلى المضغة . . وهكذا . .

إنها جميعها - كما قرر القرآن - عمليات « خلق » ، استأثر بها الخالق . .

وإنها لمعجزة قرآنية متحدية ، قائمة على التحدي فى كل زمان ومكان . . وإنه لن يأتى

العلم أو العلماء - مهما بلغ العلم، واجتهد العلماء - بما يقف لهذه المعجزة المتحدية، على مدى الأزمان.

(266/532)

نقول هذا، لا لنحجر على العلم، ولا لنقف فى طريق العلماء، الذين يحاولون الوصول إلى «خلق» الكائن الحىّ.. بل نحن ندعو العلم، ونهيب بالعلماء أن يجروا فى هذا الميدان إلى غايته، وأن يتحدّوا هذه المعجزة المتحدية.. فتلك هى دعوة القرآن للكشف عن إعجازه، والدعوة إلى الإيمان بأنه تنزيل من ربّ العالمين..

وقد عرضنا لهذه القضية فى مبحث خاص، تحت عنوان: «الخالق وما خلق» فى تفسير الجزء السابع عشر، من القرآن الكريم..

- وفى قوله تعالى: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» إشارة إلى نفخة الروح فى الإنسان، بعد أن يتخلّق، ويتم تصويره على الصورة الإنسانية.. فهو قبل هذه النفخة كتلة من اللحم والعظم.. حتى إذا نفخ فيه الخالق من روحه، أصبح كائنا حيّا، ودخل فى عالم الإنسان!.

وقوله تعالى: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» هو تمجيد للّه، وتسبيح بجلاله وعظمته، يقولها الحق سبحانه وتعالى ممجدا ذاته، ويقولها الوجود كلّه، تسبيحا، وصلاة، وحمدا

للخالق المبدع المصوّر . .

قوله تعالى : « ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ » .

وهذه حقيقة واقعة ، يعلمها الناس ويقعون فى دائرة تجربتها . . فهى - والحال كذلك - فى غير حاجة إلى أن يخبر عنها ، ثم إذا كان لا بد من الإخبار بها ، فهى فى غير حاجة إلى توكيد . .

ولكن جاء القرآن مخبرا عنها ، ومؤكدا لها . . وذلك لأن الناس - وإن كانوا على علم واقع بهذه الحقيقة - ذاهلون عن الموت ، غافلون عنه ، حتى لكأنهم لن يموتوا أبدا . . فلقد غرّتهم الدنيا ، وألهاهم متاعها ، وشغلهم غرورها ، فكانت هذه النخسة من القرآن الكريم ، إيقاظا لهؤلاء النيام ، الذين هم فى غمرة ساهون ، والذين هم فى خوضهم يلعبون .

(267/532)

قوله تعالى : « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ » .

إن الموت ليس هو نهاية الإنسان ، بل إنه مرحلة من مراحل وجوده ، وموقف يتحول به من

عالم إلى عالم آخر . . فيه حساب وجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 2 صـ 1116.1123 ﴾

(268/532)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ﴾

الواو عاطفة غرضاً على غرض ويسمى عطف القصّة على القصّة ، فللجملة حكم الاستيناف لأنها عطف على جملة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] التي هي ابتدائية وهذا شروع في الاستدلال على انفراد الله تعالى بالخلق وبعظيم القدرة التي لا يشاركه فيها غيره ، وعلى أن الإنسان مربوب لله تعالى وحده ، والاعتبار بما في خلق الإنسان وغيره من دلائل القدرة ومن عظيم النعمة .

فالمقصود منه إبطال الشرك لأن ذلك الأصل الأصيل في ضلال المعرضين عن الدعوة المحمدية ، ويتضمن ذلك امتناناً على الناس بأنه أخرجهم من مهانة العدم إلى شرف الوجود وذلك كله ليَظهر الفرق بين فريق المؤمنين الذين جَروا في إيمانهم على ما يليق بالاعتراف بذلك وبين فريق المشركين الذين سلكوا طريقاً غير بينة فحادوا عن مقتضى الشكر

بالشركِ .

وتأكيد الخبر بلام القسم وحرف التحقيق مراعًى فيه التعريض بالمشركين المنزّلين منزلة من ينكر هذا الخبر لعدم جريهم على موجب العلم .

والخَلق : الإنشاء والصنع ، وقد تقدم في قوله : ﴿ قال كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾ في آل عمران (47) .

والمراد بالإنسان يجوز أن يكون النوعَ الإنساني ، وفسر به ابن عباس ومجاهد ، فالتعريف للجنس .

وضمير ﴿ جعلناه ﴾ عائد إلى الإنسان .

والسّلالة : الشيء المسلول ، أي المنتَزع من شيء آخر ، يقال : سَللت السيف ، إذا أخرجته من غمده ، فالسلالة خلاصة من شيء ، ووزن فُعَالة يؤذن بالقلة مثل القُلامة والصُبابة .

و﴿ من ﴾ ابتدائية ، أي خلقناه منفصلاً وآتيا من سلالة ، فتكون السلالة على هذا مجموع ماء الذكر والأنثى المسلول من دمهما .

وهذه السلالة هي ما يفرزه جهاز الهضم من الغذاء حين يصير دماً ؛ فدم الذكر حين يمر على غدتي التناسل (الأنثيين) تفرز منه الأنثيان مادة دُهنيَّة شحميَّة تحتفظ بها وهي التي تتحوّل إلى منيّ حين حركة الجماع ، فتلك السلالة مخرجة من الطين لأنها من الأغذية التي أصلها من الأرض .

ودم المرأة إذا مر على قناة في الرحم ترك فيها بويضات دقيقة هي بَذر الأجنة .

ومن اجتماع تلك المادة الدُهنية التي في الأنثيين مع البويضة من البويضات التي في قناة الرحم يتكوّن الجنين فلا جرم هو مخلوق من سُلالةٍ من طينٍ .

وقوله ﴿ ثم جعلناه نطفة في قرار مَكين ﴾ طور آخر للخلق وهو طور اختلاط السُلالتين في الرحم .

سميت سُلالة الذكر نطفة لأنها تنطُف ، أي تقطر في الرحم في قناة معروفة وهو القرار المكين .

ف ﴿ نطفةً ﴾ مَنصُوبٌ على الحال وقوله : ﴿ في قرار مكين ﴾ هو المفعول الثاني ل ﴿ جعلناه ﴾ .

و ﴿ ثم ﴾ للترتيب الرتبي لأن ذلك الجعل أعظم من خلق السلالة .

فضمير ﴿ جعلناه ﴾ عائد إلى الإنسان باعتبار أنه من السلالة ، فالمعنى : جعلنا السلالة في قرار مكين ، أي وضعناها فيه حفظاً لها ، ولذلك غُير في الآية التعبير عن فعل الخلق إلى

فعل الجعل المتعدي بـ (في) بمعنى الوضع .

والقرار في الأصل : مصدر قَرّ إذا ثبت في مكانه ، وقد سمي به هنا المكان نفسُه .

والمكين : الثابت في المكان بحيث لا يقلع من مكانه ، فمقتضى الظاهر أن يوصف بالمكين الشيءُ الحالّ في المكان الثابت فيه .

وقد وقع هنا وصفاً لنفس المكان الذي استقرت فيه النطفة ، على طريقة المجاز العقلي للمبالغة ، وحقيقتُه مكين حالُّه ، وقد تقدم قوله تعالى : ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب ثمّ من نطفة ﴾ في سورة الكهف (37) وقوله : ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ﴾ في سورة الحج (5) .

ويجوز أن يراد بالإنسان في قوله : ولقد خلقنا الإنسان ﴾ آدم .

(270/532)

وقال بذلك قتادة فتكون السّلالة الطينَةَ الخاصةَ التي كوّن الله منها آدم وهي الصلصال الذي ميزه من الطين في مبدإ الخليقة ، فتلك الطينة مسْلولة سلاّ خاصّاً من الطين ليتكوّن منها حيٌّ ، وعليه فضمير ﴿ جعلناه نطفة ﴾ على هذا الوجه عائد إلى الإنسان باعتبار كونه نسلاً لآدم فيكون في الضمير استخدام ، ويكون معنى هذه الآية كمعنى قوله تعالى : ﴿

وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ [السجدة : 7 ، 8] .

وحرف (ثم) في قوله : ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ للترتيب الرتْبي إذ كان خلق النطفة علقة أعجبَ من خلق النطفة إذ قد صُير الماء السائل دَماً جامداً فتغير بالكثافة وتبدل اللون من عوامل أودعها الله في الرحم .

ومن إعجاز القرآن العلمي تسمية هذا الكائن باسم العلَقة فإنه وضْع بديع لهذا الاسم إذ قد ثبت في علم التشريح أن هذا الجزء الذي استحالت إليه النطفة هو كائن له قوة امتصاص القوة من دم الأم بسبب التصاقه بعروق في الرحم تدفع إليه قوة الدم ، والعلقة : قطعة من دم عاقد .

والمضغة : القطعة الصغيرة من اللحم مقدار اللقمة التي تمضغ .

وقد تقدم في أول سورة الحج كيفية تخلق الجنين .

وعطف جَعل العَلقةِ مُضغةً بالفاء لأن الانتقال من العلقة إلى المضغة يشبه تعقيب شيء عن شيء إذ اللحم والدم الجامد متقاربان فتطورهما قريب وإن كان مكث كل طورٍ مدة طويلة .

وخلق المضغة عظاماً هو تكوين العظام في داخل تلك المضغة وذلك ابتداء تكوين الهيكل

الإنساني من عظم ولحم ، وقد دل عليه قوله : ﴿ فكسونا العظام لحماً ﴾ بفاء التفريع على الوجه الذي قرر في عطف ﴿ فخلقنا المضغة ﴾ بالفاء .

(271/532)

فمعنى ﴿ فَكَسَوْنا ﴾ أن اللحم كانَ كالكسوة للعظام ولا يقتضي ذلك أن العظام بقيت حيناً غير مكسوة ، وفي الحديث الصحيح : " إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثلَ ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملَك فَيَنْفُخُ فيه الروحَ " الحديث ، فإذا نُفخ فيه الروح فقد تهيأ للحياة والنماء وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ لأن الخلق المذكور قبله كان دون حياة ثم نشأ فيه خَلق الحياة وهي حالة أخرى طرأت عليه عبر عنها بالإنشاء .

وللإشارة إلى التفاوت الرتبي بين الخلقين عطف هذا الإنشاء بـ (ثم) الدالة على أصل الترتيب في عطف الجمل بـ (ثم) .

وهذه الأطوار التي تعرضت لها الآية سبعة أطوار فإذا تمت فقد صار المتخلِّق حياً ، وفي "شرح الموطأ" : "تناجى رجلان في مجلس عمر بن الخطاب وعليٌّ حاضر فقال لهما عمر : ما هذه المناجاة ؟ فقال أحدهما : إن اليهود يزعمون أن العزل هو الموءودة الصغرى ، فقال

علي : لا تكون موءودة حتَّى تمرّ عليها التارات السبع ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ الآية ، فقال عُمرُ لعليّ : صدقت أطال الله بقاءك" .

فقيل : إن عمر أول من دعا بكلمة "أطال الله بقاءك" .

وقرأ الجمهور ﴿ فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام ﴾ بصيغة جمع ﴿ العظام ﴾ فيهما .

وقرأه ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿ عظماً .

.

والعَظْمَ ﴾ بصيغة الإفراد .

وفُرع على حكاية هذا الخلق العجيب إنشاء الثناء على الله تعالى بأنه ﴿ أحسن الخالقين ﴾ أي أحسن المنشئين إنشاءً ، لأنه أنشأ ما لا يستطيع غيره إنشاءه .

ولما كانت دلالة خلق الإنسان على عظم القدرة أسبق إلى اعتبار المعتبر كان الثناء المعقب به ثناء على بديع قدرة الخالق مشتقاً من البركة وهي الزيادة .

وصيغة تفاعَل صيغة مطاوعة في الأصل ، وأصل المطاوعة قبول أثر الفعل ، وتستعمل في لازم ذلك وهو التلبس بمعنى الفعل تلبساً مكيناً لأن شأن المطاوعة أن تكون بعد معالجة الفعل فتقتضي ارتساخ معنى الفعل في المفعول القابل له حتى يصير ذلك المفعول فاعلاً فيقال : كسرته فتكسر ، فلذلك كان تفاعَل إذا جاء بمعنى فَعَل دالاًّ على المبالغة كما صرح به الرضيّ في "شرح الشافية" ، ولذلك تتفق صيغ المطاوعة وصيغ التكلف غالباً في نحو : تثنَّى .

وتكبَّرَ ، وتشامخ ، وتقاعس .

فمعنى ﴿ تبارك الله ﴾ أنه موصوف بالعظمة في الخير ، أي عظمةِ ما يقدره من خير للناس وصلاح لهم .

وبهذا الاعتبار تكون الجملة تذييلاً لأن ﴿ تبارك ﴾ لما حذف متعلقه كان عاماً فيشمل عظمة الخير في الخلق وفي غيره .

وكذلك حذف متعلق ﴿ الخالقين ﴾ يعم خلق الإنسان وخلق غيره كالجبال والسماوات .

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)

إدماج في أثناء تعداد الدلائل على تفرد الله بالخلق على اختلاف أصناف المخلوقات لقصد إبطال الشرك .

و﴿ ثم ﴾ للترتيب الرتبي لأن أهميَّة التذكير بالموت في هذا المقام أقوى من أهميَّة ذكر الخَلق لأن الإخبار عن موتهم توطئة للجملة بعده وهي قوله ﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ وهو المقصود .

فهو كقوله : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلُوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ [الملك : 2] .

وهذه الجملة لها حكم الجملة الابتدائية وهي معترضة بين التي قبلها وبين جملة : ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ [المؤمنون : 17] .

ولكون ﴿ ثم ﴾ لم تفد مهلة في الزمان هنا صرح بالمهلة في قوله بعد ذلك .

والإشارة إلى الخلق المبين آنفاً ، أي بعد ذلك التكوين العجيب والنماء المُحكم أنتم صائرون إلى الموت الذي هو تعطيل أثر ذلك الإنشاء ثم مصيرهُ إلى الفساد والاضمحلال .

(273/532)

وأكد هذا الخبر بـ (إن) واللام مع كونهم لا يرتابون فيه لأنهم لما أعرضوا عن التدبر فيما بعد هذه الحياة كانوا بمنزلة من ينكرون أنهم يموتون .

وتوكيد خبر ﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ لأنهم ينكرون البعث .

ويكون ما ذكر قبله من الخلق الأول دليلاً على إمكان الخلق الثاني كما قال تعالى : ﴿

أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خَلق جديد ﴾ [ق : 15] ، فلم يحتج إلى تقوية التأكيد بأكثر من حرف التأكيد وإن كان إنكارهم البعث قوياً .

ونقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات ، ونكتته هنا أن المقصود التذكير بالموت وما بعده على وجه التعريض بالتخويف وإنما يناسبه الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(274/532)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ﴾

سبق أن تكلمنا عن خَلْق الإنسان ، وعرفنا أن الخالق – عز وجل – خلق الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام من طين ، ومن أبعاضه خلق زوجه ، ثم بالتزاوج جاء عامة البشر كما قال تعالى : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً ﴾ [النساء : 1] .

ومسألة خَلْق السماء والأرض والناس مسألة احتفظ الله بها ، ولم يطلع عليها أحد ، كما قال سبحانه : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] .

فلا تُصْغ إلى هؤلاء المضلين في كل زمان ومكان ، الذين يدَّعون العلم والمعرفة ، ونسمعهم يقولون : إن العالم كان كتلة واحدة تدور بسرعة فانفصل عنها أجزاء كوَّنَت الأرض . . الخ وعن الإنسان يقولون : كان أصله قرداً ، إلى آخر هذه الخرافات التي لا أساس لها من الصحة .

لذلك أعطانا الله تعالى المناعة الإيمانية التي تحمينا أنْ ننساق خلف هذه النظريات ، فأخبرنا سبحانه خبر هؤلاء وحذرنا منهم ؛ لأنهم ما شهدوا شيئاً من الخَلْق ، ولم يتخذهم الله أعواناً فيقولون مثل هذا الكلام . إذن : هذا أمر استأثر الله بعلمه ، فلا تأخذوا علمه إلاَّ مما أخبركم الله به .

وكلمة الإنسان اسم جنس تطلق على المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، فكل واحد منا إنسان ، بدليل أن الله تعالى استثنى من المفرد اللفظ جمعاً في قوله تعالى : ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ . . ﴾ [العصر : 1 – 3] فاستثنى من المفرد الجماعة .

(275/532)

ومعنى ﴿ خَلَقْنَا ﴾ [المؤمنون : 12] أوجدنا من عدم ، وسبق أن قلنا : إن الله تعالى أثبت للبشر صفة الخَلْق أيضاً مع الفارق بين خَلْق الله من عدم وخَلْق البشر من موجود ، وخَلْق الله فيه حركة وحياة فينمو ويتكاثر ، أما ما يخلق البشر فيجمد على حاله لا يتغير ؛ لذلك وصف الحق سبحانه ذاته فقال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِين ﴾ [المؤمنون : 14] .

أما قَوْل القرآن حكايةً عن عيسى عليه السلام : ﴿ أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير . . ﴾ [آل عمران : 49] فهذه من خاصياته عليه السلام ، والإيجاد فيها بأمر من الله يُجريه على يد نبيه .

فالمعنى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان . . ﴾ [المؤمنون : 12] أي : الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام ﴿ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ . . ﴾ [المؤمنون : 12] والسلالة : خلاصة الشيء تُسَلُّ منه كما يُسَلُّ السيف من غِمْده أي : الجراب الذي يُوضَع فيه ، فالسيف هو الأداة الفتاكة الفاعلة ، أما الغِمْد فهو مجرد حافظ وحامل لهذا الشيء الهام .

فالسلالة – إذن – هي أجود ما في الشيء ، وقد خلق الله الإنسان الأول من أجود عناصر الطين وأنواعه ، وهي زُبْد الطين ، فلو أخذتَ قبضة من الطين وضغطتَ عليها بين أصابعك يتفلَّتْ منها الزبد ، وهو أجود ما في الطين ويبقى في قبضتك بقايا رمال وأشياء خشنة .

" ولما أحب سيدنا حسان بن ثابت أنْ يهجوَ قريشاً لمعاداتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إئذن لي يا رسول الله أنْ أَهْجُوهم من على المنبر فقال صلى الله عليه وسلم : أتهجوهم وأنا منهم ؟ فقال حسان : أسلُّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين " .

(276/532)

وتُطلَق السلالة على الشيء الجيد فيقولون : فلان من سلالة كذا ، وفلان سليل المجد .

يعني : في مقام المدح ، حتى في الخيل يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة ويُسجّلون لها شهادات ميلاد تثبت أصالة سلالتها ، ومن هنا جاءت شهرة الخيل العربية الأصيلة .

وقد أثبت العلم الحديث صِدْق هذه الآية ، فبالتحليل المعمليّ التجريبي أثبتوا أن العناصر المكوّنة للإنسان هي نفسها عناصر الطين ، وهي ستة عشر عنصراً ، تبدأ بالأكسوجين ، وتنتهي بالمنجنيز ، والمراد هنا التربة الطينية الخصْبة الصالحة للزراعة ؛ لأن الأرض عامة بها عناصر كثيرة قالوا : مائة وثلاثة عشر عنصراً .

ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13)

يعني : بعد أن جعلناه بشراً مُسْتوياً فيه روح جعلناه يتكاثر من نفسه ، وكما خلقناه من خلاصة الطين في الإنسان الأول نخلقه في النسْل من خلاصة الماء وأصفى شيء فيه ،

وهي النطفة ؛ لأن الإنسان يأكل ويشرب ويتنفس ، والدم يمتص خلاصة الغذاء ، والباقي يخرج على هيئة فضلات ، ثم يُصفَّى الدم ويرشح في الرئة وفي الكلى ، ومن خلاصة الدم تكون طاقة الإنسان وتكون النطفة التي يخلق منها الإنسان . إذن : فهو حتى في النطفة من سلالة مُنْتقاة .

والنطفة التي هي أساس خَلْق الإنسان تعيش في وسط مناسب هو السائل المنوي ، لذلك قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ﴾ [القيامة : 37] ثم جعلنا هذه النطفة ﴿ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون : 13] قرار : يعني مُستقر تستقر فيه النطفة ، والقرار المكين هو الرحم خلقه الله على هذه الهيئة ، فحصّنه بعظام الحوض ، وجعله مُعدّاً لاستقبال هذه النطفة والحفاظ عليها .

(277/532)

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14)

يقول العلماء : بعد أربعين يوماً تتحول هذه النطفة إلى علقة ، وسُمِّيَتْ كذلك لأنها تعلَق بجدار الرحم ، والعلماء يسمونها الزيجوت ، وهي عبارة عن بويضة مُخصَّبة ، وتبدأ في

أخذ غذائها منه .

ومن عجائب قدرة الله في تكوين الإنسان أن المرأة إذا لم تحمل ينزل عليها دم الحيض ، فإذا ما حملتْ لا ترى الحيض أبداً ، لماذا ؟ لأن هذا الدم ينزل حين لم تكُنْ له مهمة ولا تستفيد به الأم ، أمَا وقد حدث الحمل فإنه يتحول بقدرة الله إلى غذاء لهذا الجنين الجديد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً . . ﴾ [المؤمنون : 14] وهي قطعة صغيرة من اللحم على قَدْر ما يُمضَغ ، وسبق أن قلنا : إن المضغة تنقسم بعد ذلك إلى مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ . . ﴾ [الحج : 5] هذا على وجه التفصيل ، أما في الآية التي معنا فيُحدِّثنا عن أطوار الخلق عامة ، حتى لا نظن أن القرآن فيه تكرار كما يدَّعِي البعض .

المضْغة المخلَّقة هي التي يتكّون منها جوارح الإنسان وأعضاؤه ، وغير المخلَّقة تظل كما قلنا : احتياطياً لصيانة ما يتلف من الجسم ، كما يحدث مثلاً في الجروح وما شابه ذلك من عطب يصيب الإنسان ، فتقوم غير المخلَّقة بدورها الاحتياطي .

(278/532)

ثم يقول تعالى : ﴿ فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ . . ﴾ [المؤمنون : 14] لأنه كان في كل هذه الأطوار : النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، ثم العظام واللحم ما يزال تابعاً لأمة متصلاً بها ويتغذّى منها ، فلما شاء الله له أنْ يُولَد ينفصل عن أمه ليباشر حياته بذاته ؛ ولذلك نجد لحظة انفصال الجنين عن أمه في عملية الولادة مسألة صعبة ؛ لأنه سيستقبل حياة ذاتية تستلزم أن تعمل أجهزته لأول مرة ، وأول هذه الأجهزة جهاز التنفس .

ومن رحمة الله بالجنين أن ينزل برأسه أولاً ليستطيع التنفس ، ثم يخرج باقي جسمه بعد ذلك ، فإن حدث العكس ونزل برجليه فربما يموت ؛ لأنه انفصل عن تبعيته لأمه ، وليس له قدرة على التنفس ليحتفظ بحياته الذاتية الجديدة ؛ لذلك في هذه الحالة يلجأ الطبيب إلى إجراء عملية قيصرية لإنقاذ الجنين من هذا الوضع ، وقبل أن يختنق .

ولما كانت مسألة خَلْق الإنسان فيها كثير من العِبَر والآيات ودلائل القدرة طوال هذه المراحل التي يتقلّب فيها الإنسان ، ناسب أنْ تختم الآية بقوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] لأنك حين تقف وتتأمل قدرة الله في خَلْق الإنسان لا تملك إلا أنْ تقول : سبحان الله ، تبارك الله الخالق .

" لذلك يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قرأ هذه الآية سبق عمر فقال (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال صلى الله عليه وسلم للكاتب : اكتبها فقد نزلتْ "

، لأنها انفعال طبيعي لقدرة الله ، وعجيب صُنْعه ، وبديع خلقه ، وهذا نوع من التجاوب بين السليقة العربية واللسان العربي وبين أسلوب القرآن الذي جاء بلسان القوم .

(279/532)

ويقال : إن سيدنا معاذ بن جبل نطق بها أيضاً ، وكذلك نطق بها رجل آخر هو عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، مع اختلاف في نتيجة هذا النطق : لما نطق بها عمر ومعاذ رضي الله عنهما كان استحساناً وتعجباً ينتهي إلى الله ، ويُقِرّ له سبحانه بالقدرة وبديع الصُّنْع .

أما ابن أبي السرح فقد قالها كذلك تعجباً ، لكن لما وافق قولُه قولَ القرآن أُعْجِب بنفسه ، وادعى أنه يُوحَى إليه كما يُوحَى إلى محمد ، ولم لا وهو يقول كما يقول القرآن ، ومع ذلك هو ما يزال مؤدباً يدَّعي مجرد أنه يوحى إليه ، لكن زاد تعاليه وجَرَّه غرور إلى أنْ قال : سأنزل مثلما أنزل الله ، فليس ضرورياً وجود الله في هذه المسألة ، فارتدّ والعياذ بالله بسببها ، وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ الله . . ﴾ [الأنعام : 93] .

" وظل ابن أبي السرح إلى فتح مكة حيث شفع فيه عثمان رضي الله عنه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى رسول الله حِرْص عثمان عليه سكت ، ولم يقُلْ فيه شيئاً

، وعندها أخذه عثمان رضي الله عنه وانصرف ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته : " أما كان فيكم مَنْ يُجهز عليه ؟ " فقالوا : يا رسول الله لو أومأتَ لنا برأسك ؟ يعني : أشرْتَ إلينا بهذا ، انظر هنا إلى منطق النبوة ، قال صلى الله عليه وسلم : " لا ينبغي أن يكون لنبي خائنة الأعين " يعني : هذا تصرُّف لا يليق بالأنبياء ، فلو فعلتموها من أنفسكم كان لا بأس .

ثم بعد ذلك تحل بركة عثمان على ابن أبي السرح فيُؤمن ويَحْسُن إسلامه ، ثم يُولِّي مصر ، ويقود الفتوحات في إفريقيا ، ويتغلب على الضجة التي أثاروها في بلاد النوبة ، وكأن الله تعالى كان يدخره لهذا الأمر الهام .

(280/532)

وبعد هذه العجائب التي رأيناها في مراحل خَلْق الإنسان وخروجه إلى الحياة والإقرار لله تعالى بأنه أحسن الخالقين ، يُذكِّرنا سبحانه بأن هذه الحياة لن تدوم ، فيقول تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ﴾

ولك أنْ تسأل : كيف يُحدِّثنا الحق – تبارك وتعالى – عن مراحل الخَلْق ، ثم يُحدِّثنا مباشرة عن مراحل الموت والبعث ؟

نقول : جعلهما الله تعالى معاً لتستقبل الحياة وفي الذِّهْن وفي الذاكرة ما ينقض هذه الحياة ، حتى لا تتعالى ولا تغفل عن هذه النهاية ولتكُنْ على بالك ، فتُرتِّب حركة حياتك على هذا الأساس .

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الذي خَلَقَ الموت والحياةِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . . ﴾ [الملك : 1 – 2] كأنه سبحانه ينعى إلينا أنفسنا قبل أنْ يخلق فينا الحياة ، وقدَّم الموت على الحياة حتى الحياة وتستقبل قبلها الموت الذي ينقضها فلا تغتر بالحياة ، وتعمل لما بعد الموت .

وقد خاطب الحق – سبحانه وتعالى – نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] البعض يظن أن ميَّت بالتشديد يعني مَنْ مات بالفعل ، وهذا غير صحيح ، فالميِّت بتشديد الياء هو ما يؤول أمره إلى الموت ، وإنْ كان ما يزال على قيد الحياة ، فكلنا بهذا المعنى ميِّتون ، أمّا الذي مات بالفعل فهو ميْت بسكون الياء ، ومنه قول الشاعر :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ . . . إنما الميْتُ ميِّتُ الأَحْياءِ

ومعنى : ﴿ بَعْدَ ذلك ﴾ [المؤمنون : 15] يعني : بعد أطوار الخَلْق التي تقدمت من خَلْق الإنسان الأول من الطين إلى أنْ قال سبحانه : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] .

والمتأمل في هذه الآية وهي تُحدِّثنا عن الموت الذي لا ينكره أحد ولا يشكّ فيه أحد ، ومع ذلك أكدها الحق – تبارك وتعالى – بأداتين من أدوات التوكيد : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ﴾ [المؤمنون : 15] فأكّدها بإنّ وباللام ، ومعلوم أننا لا نلجأ إلى التوكيد إلا حين يواجهنا منكر ، فيأتي التأكيد على قَدْر ما يواجهك من إنكار ، أما خالي الذهن فلا يحتاج إلى توكيد .

تقول مثلاً لخالي الذهن الذي لا يشك في كلامك : يجتهد محمد ، فإنْ شك تؤكد له بالجملة الاسمية التي تفيد ثبوت واستقرار الصفة : محمد مجتهد ، وتزيد من تأكيد الكلام على قدر الإنكار ، فتقول : إن محمداً مجتهد ، أو إن محمداً لمجتهد ، أو والله إن محمداً لمجتهد . هذه درجات للتأكيد على حسْب حال مَنْ تخاطبه .

إذن : أكّد الكلام عن الموت الذي لا يشكّ فيه أحد ، فقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ﴾ [المؤمنون : 15] ومع ذلك لما تكلَّم عن البعث وهو محلّ الشك والإنكار قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ ﴾

ولم يقُلْ : لتبعثون كما قال ﴿ لَمَيِّتُونَ ﴾ [المؤمنون : 15] فكيف يؤكد ما فيه تصديق

وتسليم ، ولا يؤكد ما فيه إنكار ؟

قالوا : نعم ؛ لأن المتكلم هو الله تعالى ، الذي يرى غفلتكم عن الموت رغم وضوحه ، فلما غفلتم عنه كنتم كالمكذِّبين به المنكرين له ، لذلك أكد عليه ، لذلك يقال : " ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت " فالكل يعلم الموت ويعاينه ، لكن يبعده عن نفسه ، ولا يتصوّره في حقه .

(282/532)

أما البعث والقيامة فأدلتها واضحة لا يصح لأحد أنْ ينكرها ؛ لذلك جاءت دون توكيد : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : 16] فأدلة البعث أوضح من أن يقف العقل فيها أو ينكرها ؛ لذلك سأطلقها إطلاقاً دون مبالغة في التوكيد ، أمّا مَنْ يتشكك فيه أو ينكره ، فهذا نؤكد له الكلام ، فانظر إلى بصر الحق – سبحانه وتعالى – بعقليات خَلْقه وبنفوسهم ومَلَكَاتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(283/532)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ قال بدء آدم خلق من طين ﴿ ثم جعلناه نطفة ﴾ قال : ذرية آدم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ قال : هو الطين إذا قبضت عليه خرج ماؤه من بين أصابعك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة ﴾ قال : استل استلالاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ من سلالة ﴾ قال : السلالة صفو الماء الرقيق الذي يكون منه الولد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ من سلالة ﴾ قال : من مني آدم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن خالد بن معدان قال : الإنسان خلق من طين ، وإنما تلين القلوب في الشتاء .

وأخرج عبد الزراق وابن جرير عن قتادة في الآية قال : استل آدم من طين ، وخلقت ذريته من ماء مهين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : إن النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر فتمكث أربعين يوماً ثم تنحدر في الرحم فتكون علقة .

وأخرج الديلمي بسند واه عن ابن عباس مرفوعاً " النطفة التي يخلق منها الولد ترعد لها الأعضاء والعروق كلها ، إذا خرجت وقعت في الرحم " .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : سألنا ابن عباس عن العزل فقال : اذهبوا فاسألوا الناس ثم ائتوني واخبروني ، فسألوا ثم اخبروه أنهم قالوا أنها الموءودة الصغرى وتلا هذه الآية ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة ﴾ حتى فرغ منها ، ثم قال : كيف تكون من الموءودة حتى تمر على هذه الخلق ؟ .

وأخرج عبد الرزاق عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن عزل النساء فقال : ذلك الوأد الخفي .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن مسعود قال في العزل : هي الموءودة الخفية .

(284/532)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ فخلقنا المضغة عظاماً ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن قتادة أنه كان يقرأ " فخلقنا المضعة عظماً فكسونا العظام لحماً " .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ " فخلقنا المضغة عظما " بغير ألف " فكسونا العظم " على واحده .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ قال : نفخ فيه الروح .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي العالية ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ قال : جعل فيه الروح .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد وعكرمة مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ قال : حين استوى به الشباب .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك ﴿ ثم أشأناه خلقاً آخر ﴾ قال : الأسنان ، والشعر ، قيل أليس قد يولد وعلى رأسه الشعر ؟ قال : فأين العانة والإِبط ؟ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن صالح أبي الخليل قال : نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ إلى قوله ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ قال عمر ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فقال " والذي نفسي بيده إنها ختمت بالذي تكلمت يا عمر " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه قال : قال عزير : يارب أمرت الماء فجمد في وسط الهواء فجعلت منه سبعاً وسميتها السموات ، ثم أمرت الماء ينفتق على التراب ، وأمرت التراب أن يتميز من الماء فكان كذلك ، فسميت ذلك جميع الأرضين وجميع الماء البحار ، ثم خلقت من الماء أعمى عين بصرته ، ومنها أصم آذان أسمعته ، ومنها ميت أنفس أحييته ، خلقت ذلك بكلمة واحدة ، منها ما عيشه الماء ومنها ما لا صبر له على الماء خلقاً مختلفاً في الأجسام والألوان ، جنسته أجناساً ، وزوجته أزواجاً ، وخلقت أصنافاً ، وألهمته الذي خلقته ، ثم خلقت من التراب والماء دواب الأرض وماشيتها وسباعها ﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ﴾ [النور : 45] ومنهم العظم الصغير ثم وعظته بكتابك وحكمتك ، ثم قضيت عليه الموت لا محالة . ثم أنت تعيده كما بدأته وقال عزير : اللهم بكلمتك خلقت جميع خلقك فأتى على مشيئتك ، ثم زرعت في أرضك كل نبات فيها بكلمة واحدة وتراب واحد تسقى بماء واحد ، فجاء على مشيئتك ، ثم زرعت في أرضك كل نبات فيها بكلمة واحدة وتراب واحد تسقى بماء واحد ، فجاء على مشيئتك مختلفاً أكله ولونه وريحه وطعمه ، منه الحلو

، ومنه الحامض ، والمر ، والطيب ريحه ، والمنتن ، والقبيح ، والحسن ، وقال عزير : يارب إنما نحن خلقك وعمل يديك ، خلقت أجسادنا في أرحام أمهاتنا ، وصورتنا كيف تشاء بقدرتك . جعلت لنا أركاناً ، وجعلت فيها عظاماً ، وفتقت لنا أسماعاً وأبصاراً ، ثم جعلت لنا في تلك الظلمة نوراً ، وفي ذلك الضيق سعة ، وفي ذلك الفم روحاً ، ثم هيأت لنا من فضلك رزقاً متفاوتاً على مشيئتك ، لم تأن في ذلك مؤنة ولم تعي منه نصباً ، كان عرشك على الماء ، والظلمة على الهواء ، والملائكة يحملون عرشك ويسبحون بحمدك ، والخلق مطيع لك خاشع من خوفك لا يرى فيه نور إلا نورك ، ولا يسمع فيه صوت إلا سمعك ، ثم فتحت خزانة النور وطريق

(286/532)

الظلمة فكانا ليلاً ونهاراً يختلفان بأمرك .

وأخرج بن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن وهب بن منبه قال : خلق الله آدم كما شاء ومما شاء ، فكان كذلك ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ خلق من التراب والماء ، فمنه شعره ولحمه ودمه وعظامه وجسده ، فذلك بدء الخلق الذي خلق الله منه ابن آدم ، ثم جعلت فيه النفس فيها يقوم ويقعد ويسمع ويبصر ويعلم ما تعلم الدواب ، ويتقي ما تتقي ثم

جعلت فيه الروح ، فيه عرف الحق من الباطل ، والرشد من الغي ، وبه حذر وتقدم واستتر وتعلم ودبر الأمور كلها فمن التراب يبوسته ، ومن الماء رطوبته ، فهذا بدء الخلق الذي خلق الله منه ابن آدم كما أحب أن يكون ، ثم جعلت فيه من هذه الفطر الأربع أنواعاً من الخلق أربعة في جسد ابن آدم ، فهي قوام جسده وملاكه بإذن الله وهي : الْمِرَّةُ السوداء ، والْمِرَّةُ الصفراء ، والدم ، والبلغم ، فيبوسته وحرارته من النفس ومسكنها في الدم ، وبرودته من قبل الروح ومسكنه في البلغم ، فإذا اعتدلت هذه الفطر في الجسد فكان من كل واحد ربع كان جسداً كاملاً ، وجسماً صحيحاً ، أو إن كثر واحد منها على صاحبه قهرها وعلاها وأدخل عليها السقم من ناحيته ، وإن قل عنها وأخذ عنها غلبت عليه وقهرته ومالت به وضعفت عن قوتها وعجزت عن طاقتها وأدخل عليها السقم من ناحيته ، فالطبيب العالم بالداء يعلم من الجسد حيث أتي سقمه ، أمن نقصان أم من زيادة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي قال : إذا نمت النطفة أربعة أشهر بعث إليها ملك فنفخ فيها الروح في الظلمات الثلاث ، فذلك قوله ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ يعني نفخ الروح فيه .

(287/532)

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ يقول : خرج من بطن أمه بعد ما خلق فكان من بدء خلقه الآخر أن استهل ، ثم كان من خلقه أن دله على ثدي أمه ، ثم كان من خلقه أن علم كيف يبسط رجليه إلى أن قعد ، إلى أن حبا ، إلى أن قام على رجليه ، إلى أن مشى ، إلى أن فطم ، تعلم كيف يشرب ويأكل من الطعام ، إلى أن بلغ الحلم ، إلى أن بلغ أن يتقلب في البلاد .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ قال : يقول بعضهم هو نبات الشعر ، وبعضهم يقول : هو نفخ الروح .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ قال : يصنعون ، ويصنع الله والله خير الصانعين .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ قال : عيسى ابن مريم يخلق .

وأخرج الطيالسي وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربي في أربع . قلت : يا رسول الله لو صليت خلف المقام . فأنزل الله ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلًّى ﴾

[البقرة : 125] وقلت : يا رسول الله لو اتخذت على نسائك حجاباً فإنه يدخل عليك البر والفاجر . فأنزل الله ﴿ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ [

الأحزاب : 53] وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم : لتنتهن أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكن . فأنزلت ﴿ عسى ربه إن طلقكن ﴾ [التحريم : 5] . ونزلت ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ . إلى قوله ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ فقلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

(288/532)

وأخرج ابن راهويه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : أملى عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ إلى قوله ﴿ خلقاً آخر ﴾ فقال معاذ بن جبل فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له معاذ : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : إنها ختمت ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(289/532)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12)

قوله : ﴿ مِن سُلَالَةٍ ﴾ : فيه وجهان : أحدهما : وهو الظاهرُ أَنْ يتعلَّقَ ب خَلَقْنا و " مِنْ " لابتداءِ الغاية . والثاني : أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أَنَّها حالٌ من الإنسان . والسُّلالَةُ : فُعالة . وهو بناءٌ يَدُلُّ على القِلَّة كالقُلامة . وهي مِنْ سَلَلْتُ الشيءَ من الشيءِ أي استَخْرَجْتَه منه ، ومنه قولُهم : هو سُلالَةُ أبيه كأنه انْسَلَّ مِنْ ظَهْرِه وأُنْشِد :

3403 فجاءت به عَضْبَ الأَديمِ غَضَنْفَراً . . . سُلالةَ فَرْجٍ كان غيرَ حَصِيْنِ

وقال أمية بن أبي الصلت :

3404 خَلَقَ البَرِيَّةَ مِنْ سُلالةِ مُنْتِنٍ . . . وإلى السُّلالَةِ كلّها سَنعودُ

/ وقال الزمخشري : " السُّلالَةُ : الخُلاصة لأَنَّها تُسَلُّ من بين الكَدَر " . وهذه الجملةُ جوابُ قسمٍ محذوف . أي : والله لقد خَلَقْنا . وعُطِفَت على الجملةِ قبلَها لِما بينهما من المناسبةِ ؛ وهو أَنَّه تعالى لَمَّا ذَكر أنَّ المُتَّصِفين بتلك الأوصافِ يَرِثون الفردوسَ ، فتضَمَّنَ ذِكْرَ المعادِ الأُخْروي ، ذَكَرَ النشأةَ الأولى ليستدِلَّ بها على المَعَادِ ، فإن الابتداء في العادة أصعبُ من الإعادةِ كقوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] . وهذا أحسنُ مِنْ قولِ ابن عطية

: " هذا ابتداءُ كلامٍ ، والواو في أولِه عاطفةٌ جملةَ كلامٍ على جملةِ كلامٍ ، وإنْ تباينَتا في المعنى " لأنِّي قدَّمْتُ لك وَجْهَ المناسبة .

(290/532)

قوله : ﴿ مِّن طِينٍ ﴾ في " مِنْ " وجهان ، أحدهما : أنها لابتداءِ الغايةِ . والثاني : أنها لبيانِ الجنسِ . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ما الفرقُ بين " مِنْ " ومِنْ " ؟ قلت الأُوْلى للابتداءِ ، والثانيةُ للبيانِ كقولِه : ﴿ مِنَ الأوثان ﴾ . قال الشيخ : " ولا تكونُ للبيان ؛ إلاَّ إذا قلنا : إنَّ السُّلالةَ هي الطينُ . أمَّا إذا قُلْنا : إنه مِنْ أُنْسِل من الطين ف " مِنْ " لابتداءِ الغاية " .

وفيما تتعلَّق به " مِنْ " هذه أوجهٌ ، أحدُها : أنَّها تتعلَّقُ بمحذوفٍ إذ هي صفةٌ ل " سُلالة " . الثاني : أنَّها تتعلَّقُ بنفس " سُلالة " ؛ لأنها بمعنى مَسْلولة . الثالث : أنها تتعلَّقُ ب " خَلَقْنا " لأنها بدلٌ مِن الأولى ، إذا قلنا : إن السُّلالةَ هي نفسُ الطين .

ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13)

قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ : في هذا الضميرِ قولان ، أحدهما : أنه يعودُ للإنسانِ . فإنْ أُريد غيرُ آدمَ فواضحٌ ، ويكون خَلْقُه مِنْ سُلالةِ الطينِ خَلْقَ أصلِه وهو آدمُ ، فيكونُ على

حَذْفِ مضافٍ . وإن كان المرادُ به آدمَ فيكونُ الضميرُ عائداً على نَسْلِه أي : جَعَلْنا نَسْلَه فهو على حَذْفِ مضافٍ أيضاً . أو عاد الضميرُ على الإنسان اللائق به ذلك ، وهو نَسْلُ آدمَ ، فلفظُ الإنسانِ من حيث هو صالحٌ للأصلِ والفرعِ ، ويعود كلُّ شيءٍ لما يليقُ به . وإليه نحا الزمخشري .

قوله : ﴿ فِي قَرَارٍ ﴾ يجوزُ أَنْ يتعلَّقَ بالجَعْل ، وأَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه صفةٌ لـ " نُطْفَة " . والقَرار : المستقَرُّ وهو مَوْضِعُ الاستقرارِ . والمرادُ بها الرَّحِمُ . ووُصِفَتْ بـ " مَكِيْن " لمكانةِ التي هي صفةُ المُسْتَقِرِّ فيها ، لأحدِ معنيين : أمَّا على المجاز كطريقٍ سائر ، وإنما السائرُ مَنْ فيه ، وإمَّا لمكانتِها في نفسِها لأنها تمكَّنَتْ بحيث هي وأُحْرِزَتْ .

(291/532)

قوله : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً ﴾ : وما بعدها . ضَمَّنَ " خَلَق " معنى جَعَلَ التصييرية فتعَدَّت لاثنين كما تَضَمَّنَ جَعَلَ معنى خَلَق فيتعدَّى لواحدٍ نحوَ : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] .

قوله : ﴿ عِظَاماً ﴾ قرأ العامَّةُ " عِظاماً " و " العظام " بالجمع فيهما . وابن عامر وأبو بكر عن عاصم " عَظْماً " و " العظم " بالإفراد فيهما . والسُّلمي والأعرج والأعمش بإفرادِ

الأول وجَمْعِ الثاني . وأبو رجاء ومجاهد وإبراهيم ابن أبي بكر بجمع الأولِ وإفرادِ الثاني عكسَ ما قبله . فالجمعُ على الأصل لأنه مطابِقٌ لما يُراد به ، والإفرادُ للجنسِ كقولِه : ﴿ وَهَنَ العظم مِنّي ﴾ [مريم : 4] . وقال الزمخشري : " وَضَعَ الواحدَ موضع الجمعِ لزوالِ اللَّبْسِ لأنَّ الإنسانَ ذو عِظامٍ كثيرة " . قال الشيخ : " هذا عند سيبويه وأصحابِه لا يجوزُ إلاَّ في ضرورةٍ وأنشدوا :

3405 كُلوا في بَعْضِ بطنِكُم تَعِفُّوا . . . . . .

وإن كان مَعْلوماً أنَّ كلَّ واحدٍ له بطنٌ " . قلت : ومثله :

3406 لا تُنْكِروا القَتْلَ وقد سُبِيْنا . . . في حَلْقِكم عَظْمٌ وقد شُجينا

يريد : في حُلوقكم . ومثلُه قولُ الآخر :

3407 به جِيَفُ الحَسْرى فأمَّا عِظامُها . . . فبِيْضٌ وأمَّا جِلْدُها فصَلِيْبُ

يريد : جلودُها ، ومنه ﴿ وعلى سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] وقد تقدَّم طَرَفٌ مِنْ هذا .

قوله : ﴿ أَحْسَنَ الخالقين ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ . أحدها : أنه بدلٌ مِن الجلالة . الثاني : أنَّه نعتٌ للجلالة وهو أَوْلَى مِمَّا قبلَه ؛ لأن البدلَ بالمشتقِ يَقِلُّ . الثالث : أن يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ أي : هو أحسنُ . والأصلُ عدمُ الإِضمارِ . وقد مَنَع أبو البقاء أن يكونَ وصفاً قال : " لأنه نكرةٌ وإنْ أُضيف لمعرفةٍ ؛ لأنَّ المضافَ إليه عِوضٌ مِنْ " مِنْ " وهكذا جميعُ أَفْعَل منك " . قلت : وهذا بناءً منه على أحد القولين في أَفْعَلِ التفضيلِ إذا أُضيف : هل إضافتُه محضةٌ أم لا ؟ والصحيحُ الأول .

والخالقين أي : المقدّرين كقول زهير :

3408 ولأنتَ تَفْرِيْ ما خَلَقْتَ وبَعْ . . . ضُ القومِ يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِي

/والمميِّزُ لأَفْعَل محذوفٌ لدلالةِ المضافِ إليه عليه أي : أحسن الخالقين خَلْقاً أي : المقدّرين تقديراً كقوله : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ [الحج : 39] أي : في القِتال . حُذِف المأذونُ فيه لدلالةِ الصلةِ عليه .

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15)

(293/532)

قوله : ﴿ بَعْدَ ذلك ﴾ : أي : بعدما ذُكِر ، ولذلك أُفْرِد اسمُ الإشارة . وقرأ العامَّةُ " لَمَيِّتُون " . وزيد بن علي وابن أبي عبلة وابن محيصن " لَمائِتون " والفرقُ بينهما : أنَّ الميِّتَ يدلُّ على الثبوت والاستقرار ، والمائِت على الحدوثِ كضيِّق وضائق ، وفرِح وفارِح . فيُقالِ لِمَنْ سيموتُ : ميِّت ومائت ، ولمن مات : مَيِّت فقط دون مائت لاستقرارِ الصفةِ وثبوتِها وسيأتي مثلُه في الزمر إن شاء الله تعالى ، فإن قيل : الموتُ لم يَخْتَلِفْ فيه اثنان ، وكم مِنْ مخالفِ في البعثِ فلِمَ أَكَّد المُجْمَعَ عليه أبلغَ تأكيدٍ ، وتُرِك المختلَفُ فيه من تلك المبالغةِ في التأكيد ؟ فالجواب : أنَّ البعثَ لَمَّا تظاهَرَتْ أدلتُه وتضافَرَتْ أَبْرَزَ في صورةِ المُجْمَعِ عليه المستغني عن ذلك ، وأَنَّهم لَمَّا لم يعملوا للموتِ ولم يهتموا بأمورِه نُزِّلوا منزلةَ مَنْ يُنكره فأبرزهم في صورةِ المُنْكِرِ الذي استبعدوه كلَّ استبعادٍ .

وكان الشيخُ ، سُئِل عن ذلك . فأجاب بأنَّ اللامَ غالباً تُخَلِّص المضارعَ للحال ، ولا يمكنُ دخولُها في " تُبْعثون " لأنه مخلِّصٌ للاستقبال لعمِله في الظرف المستقبل . واعترض على نفسِه بقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ [النحل : 124] فإنَّ اللامَ دَخَلَتْ على المضارعِ العاملِ في ظرفٍ مستقبلٍ وهو يومُ القيامة . وأجاب بأنه خَرَجَ هذا بقوله " غالباً " أو بأنَّ العاملَ في يوم القيامة مقدرٌ ، وفيه نظرٌ لا يَخْفى ؛ إذ فيه تهيئةُ العاملِ للعملِ وقَطْعُه عنه .

و" بعد ذلك " متعلقٌ ب " مَيِّتون " ولا تَمْنَعُ لامُ الابتداءِ من ذلك . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 320 . 325 ﴾

(294/532)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ﴾

عَرَّفهم أصلَهم لئلا يُعْجَبُوا بِفْعِلِهم .

ويقال نَسَبَهُم لئلا يخرجوا عن حَدِّهم ، ولا يغلطوا في نفوسهم .

ويقال خَلَقَهم من سُلالَةٍ سُلَّتْ من كل بقعه ؛ فمنهم مَنْ طينته من جَرْدَةٍ أو من سَبْخَةٍ أو من سَهْلٍ ، أو من وَعْرٍ . . . ولذلك اختلفت أخلاقهم .

ويقال بَسَطَ عُذْرَه عند الكافة ؛ فإنَّ المخلوقَ من سلالة من طين . . . ما الذي يُنْتَظَرُ منه ؟ !

ويقال خلقهم من سلالة من طين ، والقَدْرُ للتربية لا للتربة .

ويقال خلقهم من سلالة ولكنَّ مَعْدِنْ المعرفةِ ومَرْتَعْ المحبةِ ومتعلقَّ العناية منه لهم ؛ قال تعالى

: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: 54] .

ويقال خَلَقَهم ، ثم من حال إلى حال نَقَلَهم ، يُغيِّر بهم ما شاء تغييره .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ﴾ .

قطرةٌ أجزاؤُها متماثِلةٌ ، ونُطْفَةٌ أبعاضُها متشاكِلة ، ثم جعل بعضها لحماً وبعضَها عَظْماً ، وبعضَها شَعْراً ، وبعضها ظُفراً ، وبعضها عَصَباً ، وبعضها جِلْداً ، وبعضها مُخّاً وبعضها عِرْقاً . ثم خَصّ كُلَّ عضوٍ بهيئةٍ مخصوصةٍ ، وكلَّ جُزْءٍ بكيفيةٍ معلومةٍ . ثم الصفاتُ التي للإنسان خَلَقَهَا متافوتةً ، من السَّمْع والبَصَرِ والفِكْرِ والغَضَبِ والقدرةِ والعلم والإرادةِ والشجاعةِ والحقد والجودِ والأوصافِ التي يتقاصر عنها الحَصْرُ والعَدُّ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

(295/532)

في التفاسير أنه صورة الوجه ، ويحتمل ما تركب فيه من الحياة ، واخْتُصَّ به السَّمْع والبصر والعقل والتمييز ، وما تفرَّد به بعضٌ منهم بمزايا في الإلهام العام للعقل وسائر الإدراكات .

ويقال : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ﴾ : وهو أَن هَيَّأهم لأحوالٍ عزيزةٍ يُظْهِرها عليهم بعد

بلوغهم ، إذا حصل لهم كما التمييز من فنون الأحوال ؛ فلقومٍ تخصيصٌ بزينة العبودية ، ولقومٍ تحرُّرٌ من رِقِّ البشرية ، ولآخرين تحقُّقٌ بالصفاتِ الصمدية بامتحائهم عن الإحساس بما هم عليه وبه من الأحوال التي هي أوصاف البشرية .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ .

خلق السمواتِ والأرضين بجملتها ، والعرشَ والكرسَّ ، مع المخلوقات من الجنة والنار بكليتها – ثم لَمَّا أخبر بذلك لم يعقبه بهذا التمدح الذي ذكره بعد نعت خَلْقِه بني آدم تخصيصاً لهم وتمييزاً ، وإفراداً لهم من بين المخلوقات .

ويقال إنْ لم يَقُلْ لَكَ إنَّكَ أحسنُ المخلوقاتِ في هذه الآية فلقد قال في آية أخرى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] .

ويقال إن لم تكن أنت أحسن المخلوقات وأحسن المخلوقين – ولم يُثْنِ عليك بذلك فلقد أثنى على نفسه بقوله : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ ، وثناؤه على نفسه وتمدحه بذلك أعزُّ وأجلُّ من أن يثني عليك .

ويقال لما ذكر نعتَك ، وتاراتِ حالِكَ في ابتداء خَلْقَك ، ولم يكن منك لسانُ شكرٍ ينطق ، ولا بيانُ مدحٍ ينطلق . . . نَابَ عنك في الثناء على نفسه ، فقال ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ .

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15)

أنشدوا :

آخر الأمر ما ترى . . . القبر واللحد والثرى

وأنشدوا :

حياتُنا عندنا قروضٌ . . . ونحن بعد الموت في التقاضي

لا بُدَّ مِنْ ، ردِّ ما اقترضنا . . . كلٌّ غريم بذاك راضي

(296/532)

ويقال نعاك إلى نفسك بقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ وكلُّ ما هو آتٍ فقريب .

ويقال كسر على أهلِ الغفلة سطوةَ غفلتهم ، وقلَّ دونهم سيفَ صولتهم بقوله : ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، وللجمادِ مُضاهون ، وعن المكنة والمقدرة والاستطاعة والقوة لَمُبْعَدُون ، وفي عِداد ما لا خَطَرَ له من الأمواتِ معدودون .

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)

فعند ذلك يتصل الحسابُ والعقابُ ، والسؤالُ والعتابُ ، ويتبين المقبولُ من المردودِ ، والموصولُ من المهجور .

ويومُ القيامة يومٌ خوَّفَ به العالَم حتى لو قيل للقيامة : ممن تخافين ؟ لقالت من القيامة . وفي

القيامة ترى الناسَ سُكَارَى حَيَارَى لا يعرفون أحوالَهم ، ولا يتحققون بما تؤول إليه أمورهم ، إلى أن يتبيَّنَ لكلِّ واحدٍ أَمْرُه ؛ خَيْرُه وشَرُّه : فيثقل بالخيرات ميزانُه ، أو يخف عن الطاعاتِ أو يخلو ديوانُهُ . وما بين الموت ولاقيامة : فإمَّا راحاتٌ مُتَّصِلَة ، أو آلام وآفاتٌ غير منفصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 569.572 ﴾

(297/532)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين لهم أن فكرهم فيهم يكفيهم ، ولاعتقاد البعث يعنيهم ، أتبعه دليلاً آخر بالتذكير بخلق ما هو أكبر منهم ، وبتدبيرهم بخلقه وخلق ما فيه من المنافع لاستبقائهم ، فقال :

﴿ ولقد خلقنا فوقكم ﴾ في جميع جهة الفوق في ارتفاع لا تدركونه حق الإدراك

﴿ سبع ﴾ ولإرادة التعظيم أضاف إلى جمع كثرة فقال : ﴿ طرائق ﴾ أي سماوات لا تتغير

عن حالتها التي دبرناها عليها إلى أن نريد ، وبعضها فوق بعض متطابقة ، وكل واحدة منها على طريقة تخصها ، وفيها طرق لكواكبها ؛ قال الإمام عبد الحق الإشبيلي في كتابه الواعي : سميت طرائق لأنها مطارقة بعضها في أثر بعض – انتهى .

وهذا من قولهم : فلان على طريقة – أي حالة – واحدة ، وهذا مطراق هذا ، أي تلوه ونظيره ، وريش طراق – إذا كان بعضه فوق بعض .

وقال ابن القطاع : وأطرق جناح الطائر – أي مبنياً للمجهول : ألبس الريش الأعلى الأسفل .

وقال أبو عبيد الهروي : وأطرق جناح الطير – إذا وقعت ريشة على التي تحتها فألبستها ، وفي ريشه طرق – إذا ركب بعضه بعضاً .

وقال الصغاني في مجمع البحرين : والطرق أيضاً بالتحريك في الريش أن يكون بعضها فوق بعض ، وقال ابن الأثير في النهاية : طارق النعل – إذا صيرها طاقاً فوق طاق وركب بعضها على بعض ، وفي القاموس : والطراق – ككتاب : كل خصفة يخصف بها النعل وتكون حذوها سواء وأن يقور جلد على مقدار الترس فيلزق بالترس ، وقال القزاز : يقال : ترس مُطرَق – إذا جعل له ذلك ، وقال الصغاني في المجمع : والمجان المطرقة التي يطرق بعضها على بعض كالنعل المطرقة – أي المخصوفة بعضها على بعض ، ويقال : أطرقت بالجلد والعصب ، أي ألبست ، وقال أبو عبيد : طارق النعل – إذا صير خصفاً فوق خصف ،

وقال في الخصف : هو إطباق طاق على طاق ، وأصل الخصف : الضم والجمع ، وقال القزاز : وطارقت بين النعلين والثوبين : جعلت أحدهما فوق الآخر – انتهى .

(298/532)

وأصل الطرق الضرب ، ومع كون السماوات مطارقة بعضها فوق بعض فهي طرق للملائكة يتنزلون فيها بأوامره سبحانه وتعالى .

ولما كان إهمال الشيء بعد إيجاده غفلة عنه ، وكان البعث إحداث تدبير لم يكن كما أن الموت كذلك ، بين أن مثل تلك الأفعال الشريفة عادته سبحانه إظهاراً للقدرة وتنزهاً عن العجز والغفلة فقال : ﴿ وما كنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ عن الخلق ﴾ أي الذي خلقناه وفرغنا من إيجاده وعن إحداث ما لم يكن ، بقدرتنا التامة وعلمنا الشامل ﴿ غافلين ﴾ بل دبرناه تدبيراً محكماً ربطناه بأسباب تنشأ عنها مسببات يكون بها صلاحه ، وجعلنا في كل سماء ما ينبغي أن يكون فيها من المنافع ، وفي كل أرض كذلك ، وحفظناه من الفساد إلى الوقت الذي نريد فيه طيّ هذا العالم وإبراز غيره ، ونحن مع ذلك كل يوم في شأن ، وإظهار برهان ، نعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، إذا شئنا أنفذنا السبب فنشأ عنه المسبب ، وإذا شئنا منعناه مما هيىء له

، فلا يكون شيء من ذلك إلا بخلق جديد ، فكيف يظن بنا أنا نترك الخلق بعد موتهم سدى ، مع أن فيهم المطيع الذي لم نوفه ثوابه ، والعاصي الذي لم ننزل به عقابه ، أم كيف لا نقدر على إعادتهم إلى ما كانوا عليه بعد ما قدرنا على إبداعهم ولم يكونوا شيئاً .

(299/532)

ولما ساق سبحانه هذين الدليلين على القدرة على البعث ، أتبعهما بما هو من جنسهما ومشاكل للأول منهما ، وهو مع ذلك دليل على ختام الثاني من أنه من أجلّ النعم التي يجب شكرها ، فقال : ﴿ وأنزلنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ من السماء ﴾ أي من جهتها ﴿ ماء بقدر ﴾ لعله – والله أعلم – بقدر ما يسقي الزروع والأشجار ، ويحيي البراري والقفار ، وما تحتاج إليه البحار ، مما تصب فيها الأنهار ، إذ لو كان فوق ذلك لأغرقت البحار الأقطار ، ولو كان دون ذلك لأدى إلى جفاف النبات والأشجار ﴿ فأسكنّاه ﴾ بعظمتنا ﴿ في الأرض ﴾ بعضه على ظهرها وبعضه في بطنها ، ولم نعمها بالذي على ظهرها ولم نغور ما في بطنها ليعم نفعه وليسهل الوصول إليه ﴿ وإنا ﴾ على ما لنا من العظمة ﴿ على ذهاب به ﴾ أي على إذهابه بأنواع الإذهاب بكل طريق بالإفساد والرفع والتغوير وغير ذلك ، مع إذهاب البركة التي تكون لمن كنا معه ﴿ لقادرون ﴾ قدرة هي في نهاية العظمة ، فإياكم

والتعرض لما يسخطنا .

ولما ذكر إنزاله ، سبب عنه الدليل القرب على البعث فقال : ﴿ فأنشأنا ﴾ أي فأخرجنا وأحيينا ﴿ لكم ﴾ خاصة ، لا لنا ﴿ به ﴾ أي بذلك الماء الذي جعلنا منه كل شيء حي ﴿ جنات ﴾ أي بساتين تجن - أي تستر - داخلها بما فيها ﴿ من نخيل وأعناب ﴾ صرح بهذين الصنفين لشرفهما ، ولأنهما أكثر ما عند العرب من الثمار ، سمي الأول باسم شجرته لكثرة ما فيهما من المنافع المقصودة بخلاف الثاني فإنه المقصود من شجرته ؛ وأشار إلى غيرهما بقوله : ﴿ لكم ﴾ أي خاصة ﴿ فيها ﴾ أي الجنات ﴿ فواكه كثيرة ﴾ ولكم فيها غير ذلك .

ولما كان التقدير : منها - وهي طرية - تتفكهون ، عطف عليه قوله : ﴿ ومنها ﴾ أي بعد اليبس والعصر ﴿ تأكلون ﴾ أي يتجدد لكم الأكل بالادخار ، ولعله قدم الظرف تعظيماً للامتنان بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 189 . 191 ﴾

(300/532)

فصل

قال الفخر :

النوع الثاني : من الدلائل الاستدلال بخلقة السموات وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق غافلين ﴾ [المؤمنون : 17] .

فقوله : ﴿ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ [المؤمنون : 17] أي سبع سموات وإنما قيل لها طرائق لتطارقها بمعنى كون بعضها فوق بعض يقال طارق الرجل نعليه إذا أطبق نعلاً على نعل وطارق بين ثوبين إذا لبس ثوباً فوق ثوب .

هذا قول الخليل والزجاج والفراء قال الزجاج هو كقوله : ﴿ سَبْعَ سموات طِبَاقاً ﴾ [نوح : 15] وقال علي بن عيسى سميت بذلك لأنها طرائق للملائكة في العروج والهبوط والطيران ، وقال آخرون لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها والوجه في إنعامه علينا بذلك أنه تعالى جعلها موضعاً لأرزاقنا بإنزال الماء منها ، وجعلها مقراً للملائكة ، ولأنها موضع الثواب ، ولأنها مكان إرسال الأنبياء ونزول الوحي .

أما قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق غافلين ﴾ [المؤمنون : 17] ففيه وجوه : أحدها : ما كنا غافلين بل كنا للخلق حافظين من أن تسقط عليهم الطرائق السبع فتهلكهم وهذا قول سفيان بن عيينة ، وهو كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السموات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ [فاطر : 41] وثانيها : إنما خلقناها فوقهم لننزل عليهم الأرزاق والبركات منها عن الحسن وثالثها : أنا خلقنا هذه الأشياء فدل خلقنا لها على كمال قدرتنا ثم بين كمال العلم بقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق غافلين ﴾ [المؤمنون : 17] يعني عن أعمالهم وأقوالهم

وضمائرهم وذلك يفيد نهاية الزجر ورابعها : وما كنا عن خلق السموات غافلين بل نحن لها حافظون لئلا تخرج عن التقدير الذي أردنا كونها عليه كقوله تعالى : ﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ [الملك : 3] .

(301/532)

واعلم أن هذه الآية دالة على كثير من المسائل : إحداها : أنها دالة على وجود الصانع فإن انقلاب هذه الأجسام من صفة إلى صفة أخرى تضاد الأولى مع إمكان بقائها على تلك الصفة يدل على أنه لابد من محول ومغير .

وثانيتها : أنها تدل على فساد القول بالطبيعة فإن شيئاً من تلك الصفات لو حصل بالطبيعة لوجب بقاؤها وعدم تغيرها ولو قلت إنما تغيرت تلك الصفات لتغير تلك الطبيعة افتقرت تلك الطبيعة إلى خالق وموجد وثالثتها : تدل على أن المدبر قادر عالم لأن الموجب والجاهل لا يصدر عنه هذه الأفعال العجيبة ورابعتها : تدل على أنه عالم بكل المعلومات قادر على كل الممكنات وخامستها : تدل على جواز الحشر والنشر نظراً إلى صريح الآية ونظراً إلى أن الفاعل لما كان قادراً على كل الممكنات وعالماً بكل المعلومات وجب أن يكون قادراً على إعادة التركيب إلى تلك الأجزاء كما كانت وسادستها : أن معرفة الله تعالى

يجب أن تكون استدلالية لا تقليدية وإلا لكان ذكر هذه الدلائل عبثاً .

النوع الثالث : الاستدلال بنزول الأمطار وكيفية تأثيراتها في النبات .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18) ﴾

اعلم أن الماء في نفسه نعمة وأنه مع ذلك سبب لحصول النعم فلا جرم ذكره الله تعالى أولاً ثم ذكر ما يحصل به من النعم ثانياً .

(302/532)

أما قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ ﴾ فقد اختلفوا في السماء فقال الأكثرون من المفسرين إنه تعالى ينزل الماء في الحقيقة من السماء وهو الظاهر من اللفظ ويؤكده قوله : ﴿ وَفِي السماء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : 22] وقال بعضهم المراد السحاب وسماه سماء لعلوه ، والمعنى أن الله تعالى أصعد الأجزاء المائية من قعر الأرض إلى البحار ومن البحار إلى السماء حتى صارت عذبة صافية بسبب ذلك التصعيد ، ثم إن تلك الذرات تأتلف وتتكون ثم ينزله الله تعالى على قدر الحاجة إليه ، ولولا ذلك لم ينتفع بتلك المياه لتفرقها في قعر الأرض ولا بماء البحار لملوحته ولأنه لا حيلة في إجراء مياه البحار على

وجه الأرض لأن البحار هي الغاية في العمق ، واعلم أن هذه الوجوه إنما يتمحلها من ينكر الفاعل المختار فأما من أقربه فلا حاجة به إلى شيء منها .

أما قوله تعالى : ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ فمعناه بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة في الزرع والغرس والشرب ، أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم .

أما قوله : ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الأرض ﴾ قيل معناه جعلناه ثابتاً في الأرض ، قال ابن عباس رضي الله عنهما أنزل الله تعالى من الجنة خمسة أنهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل ، ثم يرفعها عند خروج يأجوج ومأجوج ويرفع أيضاً القرآن .

أما قوله : ﴿ وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لقادرون ﴾ أي كما قدرنا على إنزاله فكذلك نقدر على رفعه وإزالته ، قال صاحب "الكشاف" وقوله : ﴿ على ذَهَابٍ بِهِ ﴾ من أوقع النكرات وأخرها للفصل .

والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه .

(303/532)

وفيه إيذان بكمال اقتدار المذهب وأنه لا يعسر عليه شيء وهو أبلغ في الإيعاد من قوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاء مَّعِينٍ ﴾ [الملك : 30] ثم إنه

سبحانه لما نبه على عظيم نعمته بخلق الماء ذكر بعده النعم الحاصلة من الماء فقال :

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جنات مّن نَّخِيلٍ وأعناب ﴾ وإنما ذكر تعالى النخيل والأعناب لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام ومقام الأدام ومقام الفواكه رطباً ويابساً وقوله : ﴿ لَّكُمْ فِيهَا فواكه كَثِيرَةٌ ﴾ أي في الجنات ، فكما أن فيها النخيل والأعناب ففيها الفواكه الكثيرة وقوله : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ قال صاحب "الكشاف" يجوز أن يكون هذا من قولهم فلان يأكل من حرفة يحترفها ومن صنعة يعملها يعنون أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه ، كأنه قال وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها تتعيشون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 23 صـ 76 . 78 ﴾

(304/532)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : هَذِهِ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ ، وَمِمَّا امْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِهِ ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْمِنَنِ الْمَاءُ

الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْأَبْدَانِ وَنَمَاءُ الْحَيَوَانِ .

وَالْمَاءُ الْمُنَزَّلُ مِنْ السَّمَاءِ عَلَى قِسْمَيْنِ : هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَأَخْبَرَ عَنْهُ بِأَنَّهُ اسْتَوْدَعَهُ فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلَهُ فِيهَا مُخْزُونًا لِسُقْيَا النَّاسِ ، يَجِدُونَهُ [عُدَّةً] عِنْدَ الْحَاجَةِ إلَيْهِ ، وَهُوَ مَاءُ الْأَنْهَارِ وَالْعُيُونِ ، وَمَا يُسْتَخْرَجُ مِنْ الْآبَارِ .

وَالْقِسْمُ الْآخَرُ هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ فِي كُلِّ وَقْتٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ الْآيَةَ ، أَهُوَ فِي الْخَرِيفِ فِيمَا بَلَغَك ، قَالَ : لَا وَاَللَّهِ ؛ بَلْ هَذَا فِي الْخَرِيفِ وَالشِّتَاءِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَنْزِلُ مَاؤُهُ مِنْ السَّمَاءِ إذَا شَاءَ ، ثُمَّ هُوَ عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرٌ .

قَالَ الْقَاضِي : هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ مَالِكٌ مُحْتَمَلٌ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَسْكَنَهُ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يُنَزِّلُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، فَيَكُونُ مِنْهُ غِذَاءٌ ، وَمِنْهُ اخْتِزَانٌ زَائِدٌ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ .

(305/532)

وَقَدْ قَالَ أَشْهَبُ : قَالَ مَالِكٌ : هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا يَعْنِي قَوْلَهُ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ ، وَقَوْلَهُ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾

يَعْنِي الْمَطَرَ ، ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ يَعْنِي النَّبَاتَ .

وَهَذَا يَكُونُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ، كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّي الْأَرْضَ مِنْ مَطَرٍ فِي عَامٍ أَوْ غَامِرٍ ، وَإِنَّهُ مَا نَزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءٌ إِلَّا

بِحِفْظِ مَلَكٍ مُوَكَّلٍ بِهِ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَاءِ الطُّوفَانِ ، فَإِنَّهُ خَرَجَ مِنْهُ مَا لَمْ يَحْفَظْهُ الْمَلَكُ ﴾ ، وَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ لِأَنَّ الْمَاءَيْنِ الْتَقَيَا عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ مَا كَانَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَزَلَ مِنْ السَّمَاءِ بِالْإِقْلَاعِ ، فَلَمْ تَمْتَصَّ الْأَرْضُ مِنْ قَطْرِهِ ، وَأَمَرَ الْأَرْضَ بِابْتِلَاعِ مَا خَرَجَ مِنْهَا فَقَطْ ، وَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ لَمْ تَشْرَبْ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ قَطْرَةً .

نُكْتَةٌ أُصُولِيَّةٌ : قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ : قَوْلُهُ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ ذَاتُ الْمَطَرِ ؛ لِأَنَّهَا تَرْجِعُ فِي كُلِّ عَامٍ إلَى الْحَالَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا مِنْ إنْزَالِ الْمَطَرِ مِنْهَا .

(306/532)

وَظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ كَمَا بَيَّنَّا أَنَّهَا تَرُدُّ مَا أَخَذَتْ مِنْ الْأَرْضِ مِنْ الْمَاءِ ؛ إذْ السَّحَابُ يَسْتَقِي مِنْ الْبَحْرِ ، وَأَنْشَدُوا فِي ذَلِكَ قَوْلَ الْهُذَلِيِّ : شَرِبْنَ بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَّعَتْ مَتَى لُجَجٌ لَهُنَّ نَئِيجُ يَعْنِي السَّحَابَ ، وَهَذِهِ دَعْوَى عَرِيضَةٌ طَوِيلَةٌ ، وَهِيَ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ جَائِزَةٌ ، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ لَا يُعْلَمُ بِالنَّظَرِ ، وَإِنَّمَا طَرِيقُهُ الْخَبَرُ ، وَلَمْ يَرِدْ بِذَلِكَ أَثَرٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ : يَعْنِي لَقَادِرُونَ عَلَى إذْهَابِ الْمَاءِ الَّذِي أَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ، فَيَهْلَكُ النَّاسُ بِالْعَطَشِ ، وَتَهْلَكُ مَوَاشِيهِمْ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ وَقَدْ قَالَ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فَهَذَا عَامٌّ فِي مَاءِ الْمَطَرِ وَالْمَاءِ الْمُخْتَزَنِ فِي أَرْضٍ ، فَصَارَتْ إحْدَى الْآيَتَيْنِ عَامَّةً وَهِيَ آيَةُ الطُّهُورِ .

وَالْآيَةُ

الْأُخْرَى خَاصَّةً وَهِيَ مَاءُ الْقَدْرِ الْمُسْكَنِ فِي الْأَرْضِ ، وَمِنْ هَاهُنَا قَالَ مَنْ قَالَ : إنَّ مَاءَ الْبَحْرِ لَا يُتَوَضَّأُ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا لَمْ يُخْبِرْ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أُنْزِلَ مِنْ السَّمَاءِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ﴾ ، وَهَذَا نَصٌّ فِيهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ خَمْسَةَ أَنْهَارٍ : سَيْحُونَ ، وَهُوَ نَهْرُ الْهِنْدِ وَجَيْحُونَ ، وَهُوَ نَهْرُ بَلْخٍ ، وَدِجْلَةَ ، وَالْفُرَاتِ ، وَهُمَا نَهَرَا الْعِرَاقِ ، وَالنِّيلَ وَهُوَ نَهْرُ مِصْرَ ، أَنْزَلَهَا اللَّهُ مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ مِنْ عُيُونِ الْجَنَّةِ فِي أَسْفَلِ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِهَا ، فَاسْتَوْدَعَهَا الْجِبَالَ ، وَأَجْرَاهَا فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ فِيهَا مَعَايِشَ لِلنَّاسِ فِي أَصْنَافِ مَعَايِشِهِمْ ﴾ ، وَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَرْسَلَ اللَّهُ جِبْرِيلَ فَرَفَعَ مِنْ الْأَرْضِ الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ ، وَهَذِهِ الْأَنْهَارَ الْخَمْسَةَ ؛ فَيَرْفَعُ ذَلِكَ إِلَى السَّمَاءِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ .

وَهَذَا جَائِزٌ فِي الْقُدْرَةِ إنْ صَحَّتْ بِهِ الرِّوَايَةُ .

[وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ سَيْحُونُ وَجَيْحُونُ وَالْفُرَاتُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ﴾ .

وَهَذَا تَفْسِيرُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ يَعْنِي بِهِ نَهْرًا يَجْرِي ، وَعَيْنًا تَسِيلُ ، وَمَاءً رَاكِدًا فِي جَوْفِهَا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ] .

(308/532)

وَإِنَّمَا الَّذِي فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ رَأَى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى ، وَذَكَرَ مَا أُنْشَأَ مِنْ الْمَاءِ وَمِنْ النَّبَاتِ ﴾ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(309/532)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾

أي سبع سموات ، وفي تسميتها طرائق ثلاثة أوجه

: أحدها : لأن كل طبقة على طريقة من الصنعة والهيئة .

الثاني : لأن كل طبقة منها طريق الملائكة ، قاله ابن عيسى .

الثالث : لأنها طباق بعضها فوق بعض ، ومنه أخذ طراق الفحل إذا أطبق عليها ما يمسكها ، قاله ابن شجرة ، فيكون على الوجه الأول مأخوذاً من التطرق ، وعلى الوجه

الثاني مأخوذاً من التطارق .

﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : غافلين عن حفظهم من سقوط السماء عليهم ، قاله ابن عيسى .

الثاني : غافلين عن نزول المطر من السماء عليهم ، قاله الحسن .

الثالث : غافلين ، أي عاجزين عن رزقهم ، قاله سفيان بن عيينة .

وتأول بعض المتعمقة في غوامض المعاني سبع طرائق : أنها سبع حجب بينه وبين ربه ، الحجاب الأول قلبه ، الثاني جسمه ، الثالث نفسه ، الرابع عقله ، الخامس علمه ، السادس إرادته ، السابع مشيئته توصله إن صلحت وتحجبه إن فسدت ، وهذا تكلف بعيد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(310/532)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ ﴾

و " الطريق " كل ما كان طبقات بعضه فوق بعض ، ومنه طارقت نعلي ، ويريد ب " السبع الطرائق " السماوات ، ويجوز أن تكون " الطرائق " بمعنى المبسوطات من طرقت الشيء ،

وقوله تعالى : ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ نفي عام في إتقان خلقهم وعن مصالحهم وعن أَعمالهم ، وقوله تعالى : ﴿ ماء بقدر ﴾ ، قال بعض العلماء أراد المطر ، وقال بعضهم إنما أراد الأنهار الأربعة سيحان وجيحان والفرات والنيل ، والصواب أن هذا كله داخل تحت الماء الذي أنزله الله تعالى ، وقال مجاهد : ليس في الأرض ماء إلا وهو من السماء ويمكن أَن يقيد هذا بالعذب وإلا فالأجاج ثابت في الأرض مع القحط والعذب يقل مع القحط ، وأيضاً فالأحاديث تقتضي الماء الذي كان قبل خلق السماوات والأرض ، ولا محالة أَن الله قد جعل في الأرض ماء وأنزل من السماء ماء ، وقوله ، ﴿ بقدر ﴾ ، أي على مقدار مصلح لأَنه لو كثر أهلك ، ﴿ فأنشأنا ﴾ ، معناه فأوجدنا وخلقنا ، وذكر تعالى " النخيل والأعناب " لأَنها ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهما قاله الطبري ، ولأنهما أيضاً أشرف الثمار فذكرها مثالاً تشريفاً لها وتنبيهاً عليها ، وقوله ﴿ لكم فيها ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على الجنات فيريد حينئذ جميع أنواع الفاكهة ، ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصة ، إذ فيها مراتب وأنواع والأول أعم لسائر الثمرات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(311/532)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد خَلَقْنَا فوقكم سبع طرائق ﴾

يعني : السموات السبع ، قال الزجاج : كل واحدة طريقة .

وقال ابن قتيبة : إنما سميت "طرائق" بالتَّطارق ، لأن بعضها فوق بعض ، يقال : طارقتُ الشيء : إذا جعلتَ بعضه فوق بعض .

قوله تعالى : ﴿ وما كُنَّا عن الخَلْق غافلين ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ما غفلنا عنهم إذ بنينا فوقهم سماءً أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب .

والثاني : ما كنا تاركين لهم بغير رزق ، فأنزلنا المطر .

والثالث : لم نغفُل عن حفظهم من أن تسقط السماء عليهم فتهلكهم .

قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً بِقَدَرٍ ﴾ يعلمه الله ، وقال مقاتل : بقدر ما يكفيهم للمعيشة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 5 صـ ﴾

(312/532)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾

قال أبو عبيدة : أي سبع سموات .

وحكي عنه أنه يقال : طارقتُ الشيء ، أي جعَلت بعضه فوق بعض ؛ فقيل للسموات طرائق لأن بعضها فوق بعض .

والعرب تسمّي كلّ شيء فوق شيء طَرِيقة .

وقيل : لأنها طرائق الملائكة .

﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق غَافِلِينَ ﴾ قال بعض العلماء : أي عن خلق السماء .

وقال أكثر المفسرين : أي عن الخلق كلهم من أن تسقط عليهم فتهلكهم .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى ﴿ وما كنا عنِ الخلقِ غافِلِين ﴾ أي في القيام بمصالحهم وحفظهم ؛ وهو معنى الحيّ القيوم ؛ على ما تقدم .

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18)

فيه أربع مسائل :

الأولى : هذه الآية من نعم الله تعالى على خلقه ومما امتنّ به عليهم ؛ ومن أعظم المنن الماءُ الذي هو حياة الأبدان ونماء الحيوان .

والماءُ المنزل من السماء على قسمين : هذا الذي ذكر الله سبحانه وتعالى وأخبر بأنه استودعه في الأرض ، وجعله فيها مختزناً لسقْي الناس يجدونه عند الحاجة إليه ؛ وهو ماء الأنهار والعيون وما يستخرج من الآبار وروي عن ابن عباس وغيره أنه إنما أراد الأنهار

الأربعة : سَيْحان وجَيْحان ونيل مصر والفُرات .

وقال مجاهد : ليس في الأرض ماء إلا وهو من السماء .

وهذا ليس على إطلاقه ، وإلا فالأُجَاج ثابت في الأرض ، فيمكن أن يقيّد قوله بالماء العذب ، ولا محالة أن الله تعالى قد جعل في الأرض ماء وأنزل من السماء ماء .

وقد قيل : إن قوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً ﴾ إشارةٌ إلى الماء العذب ، وأن أصله من البحر ، رفعه الله تعالى بلطفه وحسن تقديره من البحر إلى السماء ، حتى طاب بذلك الرفع والتصعيد ؛ ثم أنزله إلى الأرض ليُنتفع به ، ولو كان الأمر إلى ماء البحر لما انتفع به من ملوحته .

(313/532)

الثانية : قوله تعالى : ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ أي على مقدار مصلح ، لأنه لو كثر أهلك ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : 21] .

﴿ وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ يعني الماء المختزن .

وهذا تهديد ووعيد ؛ أي في قدرتنا إذهابه وتغويره ، ويهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم ؛ وهذا كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا أي غائرا فَمَن يَأْتِيكُمْ

بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: 30].

الثالثة: ذكر النحاس: قرىء على أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن يونس عن جامع بن سوادة قال: حدّثنا سعيد بن سابق قال حدّثنا مسلمة بن عليّ عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "أنزل الله عز وجل من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار سَيْحون وهو نهر الهند وجَيْحون وهو نهر بَلْخ ودِجلْة والفُرات وهما نهرا العراق والنيل وهو نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة في أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل عليه السلام فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم وذلك قوله جل ثناؤه: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأرض ﴾ فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله عز وجل جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم وجميع الأنهار الخمسة فيرفع ذلك إلى السماء فذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا".

الرابعة: كل ما نزل من السماء مختزناً كان أو غير مختزن فهو طاهر مطهر يغتسل به ويتوضأ منه؛ على ما يأتي في "الفرقان" بيانه.

فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19)

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَأَنْشَأْنَا ﴾ أي جعلنا ذلك سبب النبات ، وأوجدناه به وخلقناه .

وذكر تعالى النخيل والأعناب لأنها ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهما ؛ قاله الطبري .

ولأنها أيضاً أشرف الثمار ؛ فذكرها تشريفاً لها وتنبيهاً عليها .

﴿ لَّكُمْ فِيهَا ﴾ أي في الجنات .

﴿ فَوَاكِهُ ﴾ من غير الرطب والعنب .

ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصّة إذ فيها مراتب وأنواع ؛ والأوّل أعم لسائر الثمرات .

الثانية : من حلف ألا يأكل فاكهة ؛ ففي الرواية عندنا يحنث بالباقِلاَء الخضراء وما أشبهها .

وقال أبو حنيفة : لا يحنث بأكل القِثّاء والخيار والجزر ؛ لأنها من البقول لا من الفاكهة .

وكذلك الجوز واللوز والفستق ؛ لأن هذه الأشياء لا تُعدّ من الفاكهة .

وإن أكل تفاحاً أو خوخاً أو مشمشاً أو تيناً أو إجّاصاً يحنث .

وكذلك البِطّيخ ؛ لأن هذه الأشياء كلها تؤكل على جهة التفكّه قبل الطعام وبعده ؛ فكانت فاكهة .

وكذلك يابس هذه الأشياء إلا البطيخ اليابس لأن ذلك لا يؤكل إلا في بعض البلدان .

ولا يحنث بأكل البطيخ الهندي لأنه لا يعدّ من الفواكه .

وإن أكل عنباً أو رمّاناً أو رطباً لا يحنث .

وخالفه صاحباه فقالا يحنث ؛ لأن هذه الأشياء من أعز الفواكه ، وتؤكل على وجه التنعم .

والإفراد لها بالذكر في كتاب الله عز وجل لكمال معانيها ؛ كتخصيص جبريل وميكائيل من الملائكة .

واحتج أبو حنيفة بأن قال : عطف هذه الأشياء على الفاكهة مرة فقال : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن : 68] ومرة عطف الفاكهة على هذه الأشياء فقال : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس : 31] والمعطوف غير المعطوف عليه ، ولا يليق بالحكمة ذكر الشيء الواحد بلفظين مختلفين في موضع المنّة .

(315/532)

والعنب والرمان يُكتفى بهما في بعض البلدان فلا يكون فاكهة ؛ ولأن ما كان فاكهة لا فرق بين رطبه ويابسه ، ويابسُ هذه الأشياء لا يعد فاكهة فكذلك رطبها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 12 صـ ﴾

(316/532)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17) ﴾

لما ذكر تعالى ابتداء خلق الإنسان وانتهاء أمره ذكره بنعمه و﴿ سبع طرائق ﴾ السموات قيل لها طرائق لتطارق بعضها فوق بعض ، طارق النعل جعله على نعل ، وطارق بين ثوبين لبس أحدهما على الآخر قاله الخليل والفراء والزجّاج كقوله ﴿ طباقاً ﴾ وقيل : لأنها طرائق الملائكة في العروج .

وقيل : لأنها طرائق في الكواكب في مسيرها .

وقيل : لأن لكل سماء طريقة وهيئة غير هيئة الأخرى .

قال ابن عطية : ويجوز أن تكون الطرائق بمعنى المبسوطات من طرقت الشيء .

﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ نفى تعالى عنه الغفلة عن خلقه وهو ما خلقه تعالى فهو

حافظ السموات من السقوط وحافظ عباده بما يصلحهم ، أي هم بمرأى منا ندبرهم كما نشاء ﴿ بقدر ﴾ بتقدير منا معلوم لا يزيد ولا ينقص بحسب حاجات الخلق ومصالحهم ﴿ فأسكناه في الأرض ﴾ أي جعلنا مقره في الأرض .

وعن ابن عباس : أنزل الله من الجنة خمسة أنهار جيحون وسيحون ودجلة والفرات والنيل .

وفي قوله ﴿ فأسكناه في الأرض ﴾ دليل على أن مقر ما نزل من السماء هو في الأرض ، فمنه الأنهار والعيون والآبار وكما أنزله تعالى بقدرته هو قادر على إذهابه .

قال الزمخشري : ﴿ على ذهاب به ﴾ من أوقع النكرات وأحزها للمفصل والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه انتهى .

و﴿ ذهاب ﴾ مصدر ذهب ، والباء في ﴿ به ﴾ للتعدية مرادفة للهمزة كقوله ﴿ لذهب بسمعهم ﴾ أي لأذهب سمعهم .

وفي ذلك وعيد وتهديد أي في قدرتنا إذهابه فتهلكون بالعطش أنتم ومواشيكم ، وهذا أبلغ في الإيعاد من قوله ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ﴾ وقال مجاهد : ليس في الأرض ماء إلاّ وهو من السماء .

قال ابن عطية : ويمكن أن يقيد هذا بالعذاب وإلاّ فالأجاج نابت في الأرض مع القحط والعذب يقل مع القحط ، وأيضاً فالأحاديث تقتضي الماء الذي كان قبل خلق السموات والأرض ، ولا محالة أن الله قد جعل في الأرض ماء وأنزل من السماء انتهى .

وقيل : ما نزل من السماء أصله من البحر ، رفعه تعالى بلطفه وحسن تقديره من البحر إلى السماء حتى طاب بذلك الرفع والتصعيد ، ثم أنزله إلى الأرض لينتفع به ولو كان باقياً على حاله ما انتفع به من ملوحته .

ولما ذكر تعالى نعمة الماء ذكر ما ينشأ عنه فقال ﴿ فأنشأنا لكم به جنات ﴾ وخص هذه الأنواع الثلاثة من النخل والعنب والزيتون لأنها أكرم الشجر وأجمعها للمنافع ، ووصف النخل والعنب بقوله ﴿ لكم فيها ﴾ إلى آخره لأن ثمرهما جامع بين أمرين أنه فاكهة يتفكه بها ، وطعام يؤكل رطباً ويابساً رطباً وعنباً وتمراً وزبيباً ، والزيتون بأن دهنه صالح للاستصباح والاصطباغ جميعاً ، ويحتمل أن يكون قوله ﴿ ومنها تأكلون ﴾ من قولهم : فلان يأكل من حرفة يحترفها ، ومن صنعة يغتلها ، ومن تجارة يتربح بها يعنون أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه .

كأنه قال : وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها ترتزقون وتتعيشون قاله الزمخشري .

وقال الطبري : وذكر النخيل والأعناب لأنها ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهما ، والضمير في ﴿ ولكم فيها ﴾ عائد على الجنات وهو أعم لسائر الثمرات ، ويجوز أن يعود على النخيل والأعناب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 6 صـ ﴾

(318/532)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ ﴾

بيانٌ لخلقِ ما يحتاج إليه بقاؤُهم إثرَ بيانِ خلقِهم أي خلقنا في جهةِ العلوِّ من غيرِ اعتبارِ فوقيّتِها لهم لأنَّ تلك النّسبة إنما تعرَّض لها بعد خلقِهم ﴿ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ هي السموات السَّبعُ سُمّيتْ بها لأنَّها طُورق بعضُها فوق بعضٍ مُطارقةَ النَّعلِ فإنَّ كلَّ ما فوقه مثلُه فهو طريقةٌ أو لأنَّها طرائقُ الملائكةِ أو الكواكبِ فيها مسيرُها ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق ﴾ عن ذلك المخلوق الذي هو السموات أو عن جميع المخلوقاتِ التي هي من جُملتِها أو عن النَّاسِ . ﴿ غافلين ﴾ مُهملين أمرَها بل نحفظُها عن الزَّوال والاختلالِ وندبر أمرَها حتَّى تبلغَ مُنتهى ما قُدِّر لها من الكمال حسبما اقتضتْهُ الحكمةُ وتعلقتْ به المشيئةُ ويصل إلى ما في الأرض منافعُها كما ينبىءُ عنه قولُه تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء ﴾ هو المطرُ أو

الأنهار النّازلة من الجنّة قيل هي خمسة أنهار سيحُون نهرُ الهندِ وجيحونُ نهر بَلْخِ ودجلةُ والفراتُ نَهْرا العراقِ والنّيلُ نهرُ مصرَ أنزلها اللّهُ تعالى من عينٍ واحدةٍ من عيونِ الجنّةِ فاستودَعها الجبالَ وأجراها في الأرضِ وجعل فيها منافعَ للنّاسِ في فُنونِ معايشهم . ومن ابتدائيّةٌ متعلّقةٌ بأنزلنا وتقديمُها على المفعولِ الصّريحِ لما مرَّ مراراً من الاعتناء بالمقدَّمِ والتّشويقِ إلى المؤخّرِ والعدولِ عن الإضمارِ لأنّ الإنزالَ لا يُعتبر فيه عنوانُ كونها طرائقَ بل مجرّدُ كونها جهةَ العلوّ ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ بتقديرٍ لائقٍ لاستجلابِ منافعهم ودفعِ مضارّهم أو بمقدارِ ما علمنا من حاجاتهم ومصالحهم ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الأرض ﴾ أي جعلناه ثابتاً قارّاً فيها ﴿ وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ ﴾ أي إزالتِه بالإفسادِ أو التّصعيدِ أو التّغويرِ بحيثُ يتعذّرُ استنباطُه ﴿ لقادرون ﴾ كما كنّا قادرين على إنزالِه . وفي تنكيرِ ذهابٍ إيماءٌ إلى كثرةِ طُرقِه ومبالغةٌ في الإبعادِ به

(319/532)

ولذلك جعل أبلغ من قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاء مَّعِينٍ ﴾

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ ﴾ أي بذلك الماءِ .

﴿ جنات مّن نَّخِيلٍ وأعناب لَّكُمْ فِيهَا ﴾ في الجنَّاتِ ﴿ فواكه كَثِيرَةٌ ﴾ تتفكَّهون بها ﴿ وَمِنْهَا ﴾ من الجنَّاتِ ﴿ تَأْكُلُونَ ﴾ تغذياً أو تُرزقون وتحصّلُون معايشَكُم من قولهم فلانٌ يأكل من حرفتهِ ويجوز أي يعود الضميرانِ للنّخيلِ والأعنابِ أي لكم في ثمراتها أنواعٌ من الفواكه الرُّطبِ والعنب والتَّمرِ والزَّبيبِ والعصير والدِّبسِ وغير ذلك وطعام تأكلونه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(320/532)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ ﴾

بيان لخلق ما يحتاج إليه بقاؤهم إثر بيان خلقهم ، وقيل : استدلال على البعث أي خلقنا في جهة العلو من غير اعتبار فوقيتها لهم لأن تلك النسبة إنما تعرض بعد خلقهم ﴿ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ هي السموات السبع ، و ﴿ طَرَائِقَ ﴾ جمع طريقة بمعنى مطروقة من طرق النعل والخوافي إذا وضع طاقاتها بعضها فوق بعض قاله الخليل .

والفراء .

والزجاج ، فهذا كقوله تعالى : ﴿ طِبَاقاً ﴾ [الملك : 3] ولكل من السبع نسبة وتعلق

بالمطارقة فلا تغليب ، وقيل : جمع طريقة بمعناها المعروف وسميت السموات بذلك لأنها طرائق الملائكة عليهم السلام في هبوطهم وعروجهم لمصالح العباد أو لأنها طرائق الكواكب في مسيرها .

وقال ابن عطية : يجوز أن يكون الطرائق بمعنى المبسوطات من طرقت الحديد مثلا إذا بسطته وهذا لا ينافي القول بكريتها ، وقيل : سميت طرائق لأن كل سماء طريقة وهيئة غير هيئة الأخرى ، وأنت تعلم أن الظاهر أن الهيئة واحدة ، نعم أودع الله تعالى في كل سماء ما لم يودعه سبحانه في الأخرى فيجوز أن تكون تسميتها طرائق لذلك ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق ﴾ أي عن جميع المخلوقات التي من جملتها السموات السبع ﴿ غافلين ﴾ مهملين أمره بل نفيض على كل ما تقتضيه الحكمة ، ويجوز أن يراد بالخلق الناس ، والمعنى أن خلقنا السموات لأجل منافعهم ولسنا غافلين عن مصالحهم ، وأل على الوجهين للاستغراق وجوز أن تكون للعهد على أن المراد بالخلق المخلوق المذكور وهو السموات السبع أي وما كنا عنها غافلين بل نحفظها عن الزوال والاختلال وندبر أمرها ، والإظهار في مقام الإضمار للاعتناء بشأنه ، وإفراد الخلق على سائر الأوجه لأنه مصدر في الأصل أو لأن المتعدد عنده تعالى في حكم شيء واحد .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء ﴾ هو المطر عند كثير من المفسرين ، والمراد بالسماء جهة العلو أو السحاب أو معناها المعروف ولا يعجز الله تعالى شيء ، وكان الظاهر على هذا منها بدل ﴿ السماء ﴾ ليعود الضمير على الطرائق إلا أنه عدل عنه إلى الإضمار لأن الإنزال منها لا يعتبر فيه كونها طرائق بل مجرد كونها جهة العلو ، وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، وقوله تعالى : ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ صفة ﴿ مَاء ﴾ أي أنزلنا ماء متلبساً بمقدار ما يكفيهم في حاجهم ومصالحهم أو بتقدير لائق لاستجلاب منافعهم ودفع مضارهم ، وجوز على هذا أن يكون في موضع الحال من الضمير ، وقيل : هو صفة لمصدر محذوف أي إنزالاً متلبساً بذلك ، وقيل : في الجار والمجرور غير ذلك ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الأرض ﴾ أي جعلناه ثابتاً قاراً فيها ومن ذلك ماء العيون ونحوها ، ومعظم الفلاسفة يزعمون أن ذلك الماء من انقلاب البخار المحتبس في الأرض ماء إذا مال إلى جهة منها وبرد وليس لماء المطر دخل فيه ، وكونه من السماء باعتبار أن لأشعة الكواكب التي فيها مدخلاً فيه من حيث الفاعلية .

وقال ابن سينا في نجاته : هذه الأبخرة المحتبسة في الأرض إذا انبعث عيوناً أمدت البحار بصب الأنهاء إليها ثم ارتفع من البحار والبطائح وبطون الجبال خاصة أبخرة أخرى ثم قطرت ثانياً إليها فقامت بدل ما يتحلل منها على الدور دائماً .

وما في الآية يؤيد مال ذهب إليه أبو البركات البغدادي منهم فقد قال في المعتبر : إن السبب في العيون والقنوات وما يجري مجراها هو ما يسيل من الثلوج ومياه الأمطار لأنا نجدها تزيد بزيادتها وتنقص بنقصانها وإن استحالة ألاهوية والأبخرة المنحصرة في الأرض لا مدخل لها في ذلك فإن باطن الأرض في الصيف أشد برداً منه في الشتاء فلو كان ذلك سبب استحالتها لوجب أن تكون العيون والقنوات ومياه الآبار في الصيف أزيد وفي الشتاء أنقص مع أن الأمر بخلاف ذلك على ما دلت عليه التجربة انتهى ، واختار القاضي حسين المبيدي أن لكل من الأمرين مدخلاً ، واعترض على دليل أبي البركات بأنه لا يدل إلا على نفي كون تلك الاستحالة سبباً تاماً وأما على أنها لا مدخل لها أصلاً فلا .

والحق ما يشهد له كتاب الله تعالى فهو سبحانه أعلم بخلقه ، وكل ما يذكره الفلاسفة في أمثال هذه المقالات لا دليل لهم عليه يفيد اليقين كما أشار إليه شارح حكمة العين ، وقيل : المراد بهذا الماء ماء أنهار خمسة ، فقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" أنزل الله تعالى من الجنة إلى الألاض خمسة أنهار سيحون وهو نهر الهند وجيحون وهو

نهر بلخ .

ودجلة والفرات .

وهما نهرا العراق .

(323/532)

والنيل وهو نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل عليه السلام فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعلها منافع للناس في أصناف معايشهم وذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الأرض ﴾ فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام فرفع من الأرض القرآن والعلم كله والحجر من ركن البيت ومقام إبراهيم عليه السلام وتابوت موسى عليه السلام بما فيه وهذه الأنهار الخمسة فيرفع كل ذلك إلى السماء فذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّا على ذَهَابٍ لقادرون ﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدنيا والآخرة " ولا يخفي على المتتبع أن هذا الخبر أخرجه ابن مردويه .

والخطيب بسند ضعيف ، نعم حديث " أربعة أنهار من الجنة سيحان .

وجيحان وهما غير سيحون وجيحون لأنهما نهران بالعواصم عند المصيصة وطرسوس

وسيحون وجيحون نهر الهند وبلخ كما سمعت على ما قاله عبد البر والفرات .

والنيل " صحيح لكن الكلام في تفسير الآية بذلك .

وعن مجاهد أنه حمل الماء على ما يعم ماء المطر وماء البحر وقال : ليس في الأرض ماء إلا وهو من السماء ، وأنت تعلم أن الأوفق بالاخبار وبما يذكر بعد في الآية الكريمة كون المراد به ما عدا ماء البحر .

﴿ وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ ﴾ أي على إزالته بإخراجه عن المائية أو بتغويره بحيث يتعذر استخراجه أو بنحو ذلك ﴿ لقادرون ﴾ كما كنا قادين على إنزاله ، فالجملة في موضع الحال .

وفي تنكير ﴿ ذَهَابٍ ﴾ إيماء إلى كثرة طرقه لعموم النكرة وإن كانت في الإثبات وبواسطة ذلك تفهم المبالغة في الإثبات ، وهذه الآية أكثر مبالغة من قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاء مَّعِينٍ ﴾ [الملك : 30] .

(324/532)

وذكر صاحب التقريب ثمانية عشر وجهاً للأبلغية ، الأول أن ذلك على الفرض والتقدير ، وهذا الجزم على معنى أنه أدلة على تحقيق ما أوعد به وإن لم يقع .

الثاني التوكيد بأن .

الثالث اللام في الخبر .

الرابع أن هذه في مطلق الماء المنزل من السماء وتلك في ماء مضاف إليهم .

الخامس أن الغائر قد يكون باقياً بخلاف الذاهب .

السادس م في تنكير ﴿ ذَهَابٍ ﴾ من المبالغة .

السابع اسناده ههنا إلى مذهب بخلافه ثمت حيث قيل ﴿ غَوْرًا ﴾ [الملك : 30] .

الثامن ما في ضمير المعظم نفسه من الروعة .

التاسع ما في ﴿ قَادِرُونَ ﴾ من الدلالة على القدرة عليه والفعل الواقع من القادر أبلغ .

العاشر ما في جمعه .

الحادي عشر ما في لفظ ﴿ بِهِ ﴾ من الدلالة على أن ما يمسكه فلا مرسل له ، الثاني عشر إخلاؤه من التعقيب باطماه وهنالك ذكر الإتيان المطمع .

الثالث عشر تقديم ما فيه الإيعاد وهو الذهاب على ما هو كالمتعلق له أو متعلقة على المذهبين البصري والكوفي .

الرابع عشر ما بين الجملتين الاسمية والفعلية من التفاوت ثباتاً وغيره .

الخامس عشر ما في لفظ ﴿ أَصْبَحَ ﴾ من الدلالة على الانتقال والصيرورة .

السادس عشر أن الاذهاب ههنا مصرح به .

وهنالك مفهوم من سياق الاستفهام .

السابع عشر أن هنالك نفي ماء خاص أعني المعين بخلافه ههنا .

الثامن عشر اعتبار مجموع هذه الأمور التي يكفي كل منها مؤكداً .

ثم قال : هذا ما يحضرنا الآن والله تعالى أعلم اه .

وفي النفس من عد الأخير وجهاً شيء .

وقد يزاد على ذلك فيقال : التاسع عشر اخباره تعالى نفسه به من دون أمر للغير ههنا بخلافه هنالك فإنه سبحانه أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول ذلك .

العشرون عدم تخصيص مخاطب ههنا وتخصيص الكفار بالخطاب هنالك .

الحادي والعشرون التشبيه المستفاد من جعل الجملة حالاً كما أشرنا إليه فإنه يفيد تحقيق القدرة ولا تشبيه ثمت .

(325/532)

الثاني والعشرون إسناد القدرة إليه تعالى مرتين ، وقد زاد بعض أجلة أهل العصر العاصرين سلاف التحقيق من كلام أذهانهم الكريمة أكرم عصر أعني به ثالث الرافعي والنواوي أخي الملأ محمد أفندي الزهاوي فقال : الثالث والعشرون تضمين الايعاد هنا

إيعادهم بالأبعاد عن رحمة الله تعالى لأن ذهب به يستلزم مصاحبة الفاعل المفعول وذهاب الله تعالى عنهم مع الماء بمعنى ذهاب رحمته سبحانه عنهم ولعنهم وطردهم عنها ولا كذلك ما هناك .

الرابع والعشرون أنه ليس الوقت للذهاب معيناً هناك بخلافه في ﴿ إِنْ أَصْبَحَ ﴾ [الملك : 30] فإنه يفهم منه أن الصيرورة في الصبح على أحد استعمالي أصبح ناقصاً .

الخامس والعشرون أن جهة الذهاب به ليست معينة بأنها السفل .

السادس والعشرون ان الإيعاد هنا بما لم يبتلوا به قط بخلافه بما هنالك .

السابع والعشرون إن الموعد به هنا إن وقع فهم هالكون البتة .

الثامن والعشرون أنه لم يبق هنا لهم متشبث ولو ضعيفاً في تأميل امتناع الموعد به وهناك حيث أسند الأصباح غوراً إلى الماء ومعلوم إن الماء لا يصبح غوراً بنفسه كما هو تحقيق مذهب الحكيم أيضاً احتمل أن يتوهم الشرطية مع صدقها ممتنعة المقدم فيأمنوا وقوعه .

التاسع والعشرون أن الموعد به هنا يحتمل في بادي النظر وقوعه حالاً بخلافه هناك فإن المستقبل متعين لوقوعه لمكان ﴿ إن ﴾ وظاهر أن التهديد بمحتمل الوقوع في الحال أهول ومتعين الوقوع في الاستقبال أهون .

الثلاثون أن ما هنا لا يحتمل غير الإيعاد بخلاف ما هناك فإنه يحتمل ولو علم بعد أن يكون المراد به الامتنان بأنه ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ﴾ [الملك : 30] فلا يأتيكم بماء معين

سوى الله تعالى ، ويؤيده ما سن بعده من قول الله ربنا ورب العالمين انتهى فتأمل ولا تغفل والله تعالى الهادي لأسرار كتابه .

(326/532)

واختيرت المبالغة ههنا على ما قاله بعض المحققين لأن المقام يقتضيها إذ هو لتعداد آيات الآفاق والأنفس على وجه يتضمن الدلالة على القدرة والرحمة مع كمال عظمة المتصف بهما ولذا ابتدىء بضمير العظمة مع التأكيد بخلاف ما ثمت فإنه تتميم للحث على العبادة والترغيب فيها وهو كاف في ذلك .

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ ﴾ أي بذلك الماء وهو ظاهر فيما عليه السلف ، وقال الخلف : المراد أنشأنا عنده ﴿ جنات مّن نَّخِيلٍ وأعناب ﴾ قدمهما لكثرتهما وكثرة الانتفاع بهما لا سيما في الحجاز والطائف والمدينة ﴿ لَكُمْ فِيهَا ﴾ أي في الجنات ﴿ فواكه كَثِيرَةٌ ﴾ تتفكهون بها وتتنعمون زيادة على المعتاد من الغذاء الأصلي ، والمراد بها ما عدا ثمرات النخيل والأعناب .

﴿ وَمِنْهَا ﴾ أي من الجنات والمراد من زروعها وثمارها ، ومن ابتدائية وقيل إنها تبعيضية ومضمونها مفعول ﴿ تَأْكُلُونَ ﴾ والمراد بالأكل معناه الحقيقي .

وجوز أن يكون مجازاً أو كناية عن التعيش مطلقاً أي ومنها ترزقون وتحصلون معايشكم من قولهم فلان يأكل من حرفته ، وجوز أن يعود الضميران للنخيل والأعناب أي لكن في ثمراتها أنواع من الفواكه الرطب والعنب والتمر والزبيب والدبس من كل منهما وغير ذلك وطعام تأكلونه فثمرتهما جامعة للتفكه والغذاء بخلاف ثمرة ما عداهما وعلى هذا تكون الفاكهة مطلقة على ثمرتهما .

(327/532)

وذكر الراغب في الفاكهة قولين : الأول أنها الثمار كلها ، والثاني أنها ما عدا العنب والرمان ، وصاحب القاموس اختار الأول وقال : قول مخرج التمر والرمان منها مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن : 68] باطل مردود ، وقد بينت ذلك مبسوساً في اللامع المعلم العجاب اه ؛ وأنت تعلم أن للفقهاء خلافاً في الفاكهة فذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنها التفاح والبطيخ والمشمش والكمثري ونحوها لا العنب والرمان والرطب ، وقال صاحباه : المستثنيات أيضاً فاكهة وعليه الفتوى ، ولا خلاف كما في القهستاني نقلاً عن الكرماني في أن اليابس منها كالزبيب والتمر وحب الرمان ليس بفاكهة .

وفي الدر المختار أن الخلاف بين الإمام وصاحبيه خلاف عصر فالعبرة فيمن حلف لا يأكل

الفاكهة العرف فيحنث بأكل ما يعد فاكهة عرفاً ذكر ذلك الشمني وأقره الغزي ، ولا يخفى أن شيئاً واحداً يقال له فاكهة في عرف قوم ولا يقال له ذلك في عرف آخرين ، ففي النهر عن المحيط ما روي من أن الجوز واللوز فاكهة فهو في عرفهم أما في عرفنا فإنه لا يؤكل للتفكه اه ، ثم إني لم أر أحداً من اللغويين ولا من الفقهاء عد الدبس فاكهة فتدبر ولا تغفل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 18 صـ ﴾

(328/532)

وقال القاسمي :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾

أي : سبع سموات هي طرق للملائكة والكواكب فيها مسيرها .

قال بعض علماء الفلك في تفسير هذه الآية : أي : سبعة أفلاك ، للسبع سموات ، لكل سماء طريق تجري بما معها من الأقمار . قال : فلذلك دلنا الله سبحانه بأن العالم الشمسيّ ينقسم إلى سبع طرائق ، خلاف طريق الأرض الذي يعيّنه قوله تعالى : ﴿ فَوْقَكُمْ ﴾ فالمسافة ابتداء من منتصف البعد بين الشمس وعطارد تقريباً ، إلى منتهى فلك نبتون ، تنقسم إلى سبعة أقسام بحسب بعد كل سيار . كل قسم تجري فيه سماء بما معها . ويسمى هذا

الطريق فلكاً ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ أي : عن ذلك المخلوق ، الذي هو السموات ، أو جميع المخلوقات . فالتعريف على الأول ، عهديّ ، وعلى الثاني استغراقيّ . أي : ما كنا مهملين أمر الخلق ، بل نحفظه وندبر أمره حتى يبلغ منتهى ما قدر له من الكمال ، حسبما اقتضته الحكمة ، وتعلقت به المشيئة .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ أي : بتقدير يصلون معه إلى منفعتهم . أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم : ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : جعلناه قارّاً فيها ، يتفجر من الأماكن التي أراد سبحانه إحياءها كقوله : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الزمر : 21] ، ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ أي : إزالته بالتغوير وبغيره ، كما قدرنا على إنزاله . ففي تنكير ذهاب إيماء إلى كثرة طرقه ، ومبالغة في الإبعاد به .

قال الزمخشري : فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ، ويقيّدوها بالشكر الدائم ، ويخافوا نفارها ، إذا لم تشكر .

﴿ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا ﴾ أي : في الجنات : ﴿ فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 12 صـ 299 . 300 ﴾

(329/532)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17) ﴾

في قوله تعالى طرائق ، وجهان من التفسير :

أحدهما : أنها قيل لها طرائق ، لأن بعضها فوق بعض من قولهم : طارق النعل إذا صيرها طاقاً فوق طاق ، وركب بعضها عَلَى بعض ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "كأن وجوههم المجان المطرقة " أي التراس التي جعلت لها طبقات بعضها فوق بعض ، ومنه قول الشاعر يصف نعلاً له مطارقة :

وطراق من خلفهن طراق . . . ساقطات تلوي بها الصحراء

يعني : نعال الإبل ، ومنه قولهم : طائر طراق الريش ، ومطرقة إذا ركب بعض ريشه بعضاً ، ومنه قول زهير يصف بازياً :

أهوى لها أسفع الخدين مطرق . . . ريش القوادم لم تنصب له الشبك

وقول ذي الرمة يصف بازياً أيضاً :

طراق الخوافي واقع فوق ريعه . . . ندى ليله في ريشه يترقرق

وقول الآخر يصف قطاة :

سكاء مخطومة في ريشها طرق . . . سود قوادمها كدر خوافيها

فعلى هذا القول فقوله ﴿ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ يوضح معناه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ﴾ [نوح : 15] الآية ، وهذا قول الأكثر .

(330/532)

الوجه الثاني : أنها قيل لها طرائق ، لأنها طرق الملائكة في النزول والعروج ، وقيل : لأنها طرائق الكواكب في مسيرها ، وأما قول من قال قيل لها طرائق لأن الكل سماء طريقة ، وهيأة غير هيأة الأخرى وقول من قال : طرائق ؟ أي مبسوطات فكلاهما ظاهر البعد ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق غَافِلِينَ ﴾ قد قدمنا أن معناه كقوله ﴿ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض ﴾ [الحج : 65] لأن من يمسك السماء لو كان يغفل لسقطت فأهلكت الخلق كما تقدم إيضاحه وقال بعضهم ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق غَافِلِينَ ﴾ بل نحن القائمون بإصلاح جميع شؤونهم ، وتيسير كل ما يحتاجون إليه وقوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ يعني السموات ، مع عظمها فلا شك أنه قادر على خلق الإنسان كقوله تعالى ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [غافر : 57] وقوله تعالى : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء بَنَاهَا ﴾ [النازعات : 27] الآية . وقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس : 81] والآيات بمثل

هذا متعددة .

وقد قدمنا براهين البعث التي هذا البرهان من جملتها ، وأكثرنا من أمثلتها وهي مذكورة هنا ، ولم نوضحها هنا لأنا أوضحناها فيما سبق في النحل والبقرة . والعلم عند الله تعالى .

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18)

(331/532)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه أنزله من السماء ماء معظماً نفسه جل وعلا بصيغة الجمع المراد بها التعظيم وأن ذلك الماء الذي أنزله من السماء أسكنه في الأرض لينتفع به الناس في الآبار ، والعيون ، ونحو ذلك . وأنه جل وعلا قادر على إذهابه لو شاء أن يذهبه فيهلك جميع الخلق بسبب ذهاب الماء من أصله جوعاً وعطشاً وبين أنه أنزله بقدر أي بمقدار معين عنده يحصل به نفع الخلق ولا يكثره عليهم ، حتى يكون كطوفان نوح لئلا يهلكهم ، فهو ينزله بالقدر الذي فيه المصلحة ، دون المفسدة سبحانه جل وعلا ما أعظمه وما أعظم لطفه بخلقه . وهذه المسائل الثلاث التي ذكرها في هذه الآية الكريمة ، جاءت مبينة في غير هذا الموضع .

الأولى : التي هي كونه : أنزله بقدر أشار إليها في قوله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : 21] .

والثانية : التي هي إسكانه الماء المنزل من السماء في الأرض بينها في قوله جل وعلا ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض ﴾ [الزمر : 21] والينبوع : الماء الكثير وقوله : ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر : 22] على ما قدمنا في الحجر .

(332/532)

والثالثة : التي هي قدرته على إذهابه أشار لها في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك : 30] ويشبه معناها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ [النور : 43] فصرح بأن الودق الذي هو المطر يخرج من خلال السحاب الذي هو المزن ، وهو الوعاء الذي فيه الماء وبين أن السحابة تمتلئ من الماء حتى تكون ثقيلة لكثرة ما فيها من الماء في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ [الأعراف : 57] الآية فقوله : ثقالاً جمع ثقيلة ، وثقلها إنما هو بالماء الذي فيها وقوله تعالى : ﴿

وَيُنْشِئُ السحاب الثقال ﴾ [الرعد : 12] جمع سحابة ثقيلة .

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن الله يجمع الماء في المزن ، ثم يخرجه من خلال السحاب ، وخلال الشيء ثقوبه وفروجه التي هي غير مسدودة ، وبين جل وعلا أنه هو الذي ينزله ويصرفه بين خلقه كيف يشاء ، فيكثر المطر في بلاد قوم سنة ، حتى يكثر فيها الخصب وتتزايد فيها النعم ، ليبتلي أهلها في شكر النعمة ، وهل يعتبرون بعظم الآية في إنزال الماء ، ويقل المطر عليهم في بعض السنين ، فتهلك مواشيهم من الجدب ولا تنبت زروعهم ، ولا تثمر أشجارهم ، ليبتليهم بذلك ، هل يتوبون إليه ، ويرجعون إلى ما يرضيه .

وبين أنه مع الإنعام العام على الخلق بإنزال المطر بالقدر المصلح وإسكان مائه في الأرض ليشربوا منه هم ، وأنعامهم ، وينتفعوا به أبى أكثرهم إلا الكفر به ، وذلك في قوله تعالى :

(333/532)

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً طَهُوراً لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً ﴾ [الفرقان : 48-50] .

ولا شك أن من جملة من أبى منهم إلا كفوراً الذين يزعمون أن المطر لم ينزله منزل هو فاعل مختار ، وإنما نزل بطبيعته ، فالمنزل له عندهم : هو الطبيعة ، وأن طبيعة الماء التبخر ، إذا

تكاثرت عليه درجات الحرارة من الشمس أو الاحتكاك بالريح ، وأن ذلك البخار يرتفع بطبيعته . ثم يجتمع ، ثم يتقاطر . وأن تقاطره ذلك أمر طبيعي لا فاعل له ، وأنه هو المطر . فينكرون نعمة الله في إنزاله المطر وينكرون دلالة إنزاله على قدرة منزله ، ووجوب الإيمان به واستحقاقه للعبادة وحده ، فمثل هؤلاء داخلون في قوله ﴿ فأبى أَكْثَرُ الناس إِلاَّ كُفُوراً ﴾ [الفرقان : 50] بعد قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ .

(334/532)

وقد صرح في قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ ﴾ أنه تعالى ، هو مصرف الماء ، ومنزله حيث شاء كيف شاء . ومن قبيل هذا المعنى : ما ثبت في صحيح مسلم من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال " صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في أثر السماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أصبح من عبادي مؤمن بي ، وكافر بي : فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا ، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب " هذا لفظ مسلم رحمه الله في صحيحه ، ولا شك أن من قال : مطرنا ببخار كذا مسنداً ذلك للطبيعة ، أنه كافر بالله مؤمن بالطبيعة

والبخار . والعرب كانوا يزعمون أن بعض المطر أصله من البحر ، إلا أنهم يسندون فعل ذلك الفاعل المختار جل وعلا ، ومن أشعارهم في ذلك قول طرفة بن العبد :

لا تلمني إنها من نسوة . . . رقد الصيف مقاليت نزر

كبنات البحر يمأدن إذا . . . أنبت الصيف عساليج الخضر

فقوله : بنات البحر يعني : المزن التي أصل مائها من البحر .

وقول أبي ذؤيب الهذلي .

سقى أم عمرو كل آخر ليلة . . . حناتم غرما ؤهن نجيج

شربن بماء البحر ثم ترفعت . . . متى لجج خضر لهن نئيج

ولا شك أن خالق السموات والأرض جل وعلا ، هو منزل المطر على القدر الذي يشاء كيف يشاء سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19)

قد قدمنا الآيات الموضحة لما دلت عليه هذه الآية الكريمة في سورة النحل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ﴾ [النحل : 11] الآية وغيرها ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17) ﴾

انتقال من الاستدلال بخلق الإنسان إلى الاستدلال بخلق العوالم العلوية لأن أمرها أعجب ، وإن كان خلق الإنسان إلى نظره أقرب ، فالجملة عطف على جملة ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ [المؤمنون : 12] وإنما ذكر هذا عقب قوله : ﴿ ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون ﴾ [المؤمنون : 16] للتنبيه على أن الذي خلق هذا العالم العلوي ما خلقه إلاّ لحكمة ، وأن الحكيم لا يهمل ثواب الصالحين على حسناتهم ، ولا جزاء المسيئين على سيئاتهم ، وأن جعْله تلك الطرائق فوقنا بحيث نراها ليدلنا على أن لها صلة بنا لأن عالم الجزاء كائن فيها ومخلوقاته مُستقرة فيها ، فالإشارة بهذا الترتيب مثل الإشارة بعكسه في قوله : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلاّ بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إنّ يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾ [الدخان : 38 40] .

والطرائق : جمع طريقة وهي اسم للطريق تذكر وتؤنث ، والمراد بها هنا طرائق سير الكواكب السبعة وهي أفلاكها ، أي الخطوط الفرضية التي ضَبط الناس بها سُمُوتَ سَيْر الكواكب ، وقد أطلق على الكوكب اسم الطارق في قوله تعالى : ﴿ والسماء والطارق ﴾ [الطارق : 1] من أجل أنه ينتقل في سمت يسمى طريقة فإن السايرفي طريق يقال له :

طارق ، ولا شك أن الطرائق تستلزم سائرات فيها ، فكان المعنى : خلقنا سيَّارات وطرائقها .

وذِكر ﴿ فوقكم ﴾ للتنبيه على وجوب النظر في أحوالها للاستدلال بها على قدرة الخالق لها تعالى فإنها بحالة إمكان النظر إليها والتأمل فيها .

(336/532)

ولأن كونها فوق الناس مما سهل انتفاعهم بها في التوقيت ولذلك عقب بجملة ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ المشعر بأن في ذلك لطفاً بالخلق وتيسيراً عليهم في شؤون حياتهم ، وهذا امتنان ، فالواو في جملة ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ للحال ، والجملة في موضع الحال ، وفيه تنبيه للنظر في أن عالم الجزاء كائن بتلك العوالم قال تعالى : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ [الذاريات : 22] .

والخلق مفعول سمي بالمصدر ، أي ما كنا غافلين عن حاجة مخلوقاتنا يعني البشر ، ونفي الغفلة كناية عن العناية والملاحظة ، فأفاد ذلك أن في خلق الطرائق السماوية لِمَا خلقت له لطفاً بالناس أيضاً إذ كان نظام خلقها صالحاً لانتفاع الناس به في مواقيتهم وأسفارهم في البر والبحر كما قال : ﴿ وهو الذي جعل لكمُ النجومِ لتَهْتَدُوا بها في ظُلُمَاتِ البر والبحر ﴾ [

الأنعام : 97] .

وأعظم تلك الطرائق طريقة الشمس مع ما زادت به من النفع بالإنارة وإصلاح الأرض والأجساد ، فصار المعنى : خلقنا فوقكم سبع طرائق لحكمة لا تعلمونها وما أهملنا في خلقها رعْيَ مصالحكم أيضاً .

والعدول عن الإضمار إلى الإظهار في قوله : ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ دون أن يقال : وما كنا عنكم غافلين ، لما يفيده المشتق من معنى التعليل ، أي ما كنا عنكم غافلين لأنكم مخلوقاتنا فنحن نعاملكم بوصف الربوبيَّة ، وفي ذلك تنبيه على وجوب الشكر والإقلاع عن الكفر .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18) ﴾

مناسبة عطف إنزال ماء المطر على جملة ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرايق ﴾ [المؤمنون : 17] أن ماء المطر ينزل من صوب السماء ، أي من جهة السماء .

وفي إنزال ماء المطر دلالة على سعة العلم ودقيق القدرة ، وفي ذلك أيضاً منة على الخلق فالكلام اعتبارٌ وامتنان من قوله : ﴿ فأنشأنا لكم به جنات ﴾ إلى آخره .

ومعنى هذه الآية تقدّم في سورة الأنعام وسورة الرعد وسورة النحل .

وإنزال الماء هو إسقاطه من السحب ماءً وثَلجاً وبَرَداً على السهول والجبال .

والقدَر هنا : التقدير والتعيين للمقدار في الكَمّ وفي النَّوبة ، فيصح أن يحمل على صريحه ، أي بمقدار معيَّن مُناسب للإنعام به لأنه إذا أنزل كذلك حصل به الري والتعاقب ، وكذلكَ ذَوَبان الثلوج النازلة .

ويصح أن يقصد مع ذلك الكناية عن الضبط والإتقان .

وليس المراد بالقَدَر هنا المعنى الذي في قول النبي صلى الله عليه وسلم " وتؤمن بالقَدر خيرِه وشره " .

والإسكان : جعل الشيء في مسكن ، والمسكن : محل القرار ، وهو مفعل اسم مكان مشتق من السكون .

وأطلق الإسكان على الإقرار في الأرض على طريق الاستعارة .

وهذا الإقرار على نوعين : إقرار قصير مثل إقرار ماء المطر في القشرة الظاهرة من الأرض عقب نزول الأمطار على حسب ما تقتضيه غزارة المطر ورخاوة الأرض وشدةُ الحرارة أو شدةُ البرد ، وهو ما ينبت به النبات في الحرث والبقل في الربيع وتمتص منه الأشجار بعروقها فتثمر إثمارها وتخرج به عروق الأشجار وأصولها من البزور التي في الأرض .

ونوع آخر هو إقرار طويل وهو إقرار المياه التي تنزل من المطر وعن ذوب الثلوج النازلة فتتسرب إلى دواخل الأرض فتنشأ منها العيون التي تنبع بنفسها أو تُفَجَّر بالحفر آباراً .

وجملة ﴿ وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ معتَرضة بين الجملة وما تفرع عليها .

وفي هذا تذكير بأن قدرة الله تعالى صالحة للإيجاد والإعدام

وتنكير ﴿ ذهاب ﴾ للتفخيمِ والتعظيم .

ومعنى التعظيم هنا تعدد أحوال الذهاب به من تغويره إلى أعماق الأرض بانشقاق الأرض بزلزال ونحوه ، ومن تجفيفه بشدة الحرارة ، ومن إمساك إنزاله زمناً طويلاً .

(338/532)

وفي معناه قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمَن يأتيكم بماء معين ﴾ [الملك : 30] ، وفي "الكشاف" : "وهو (أي ما في هاته الآية) أبلغ في الإيعاد من قوله : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غَوراً فمن يأتيكم بماء معين ﴾ [الملك : 30] أ هـ .

فبيَّن صاحب "التقريب" للأبلغيَّة ثمانية عشر وجهاً :

الأول : أن ذلك على الفرض والتقدير وهذا على الجزم على معنى أنه أدل على تحقيق ما أوعد به وإن لم يقع .

الثاني : التوكيد بـ (إنّ) .

الثَّالث : اللام في الخبر .

الرابع : أن هذه في مطلق الماء المنزل من السماء وتلك في ماء مضاف إليهم .

الخامس : أن الغائر قد يكون باقياً بخلاف الذاهب .

السادس : ما في تنكير ﴿ ذهاب ﴾ من المبالغة .

السابع : إسناده ههنا إلى مُذهِب بخلافه ثَمَّت حيث قيل ﴿ غَوراً ﴾ [الملك : 30] .

الثامن : ما في ضمير المعظم نفسه من الروعة .

التاسع : ما في ﴿ قادرون ﴾ من الدلالة على القدرة عليه والفعلُ الواقع من القادر أبلغ .

العاشر : ما في جمعه .

الحادي عشر : ما في لفظ ﴿ به ﴾ من الدلالة على أن ما يُمسكه فلا مُرسل له .

الثاني عشر : إخلاؤه من التعقيب بإطماعٍ وهنالك ذكر الإتيان المطمع .

الثالث عشر : تقديم ما فيه الإيعاد وهو الذهاب على ما هو كالمتعلّق له أو متعلقُهُ على المذهبين البصري والكوفي .

الرابع عشر : ما بين الجملتين الاسميَّة والفعليَّة من التفاوت ثباتاً وغيره .

الخامس عشر : ما في لفظ ﴿ أصبح ﴾ [الملك : 30] من الدلالة على الانتقال والصيرورة .

السادس عشر : أن الإذهاب ههنا مصرح به وهنالك مفهوم من سياق الاستفهام .

السابع عشر : أن هنالك نفي ماء خاص أعني المَعين بخلافه ههنا .

الثامن عشر : اعتبار مجموع هذه الأمور التي يكفي كل منها مؤكداً .

وزاد الألوسي في "تفسيره" فقال:

التاسع عشر : إخباره تعالى نفسُه به من دون أمر للغير ههنا بخلافه هنالك فإنه سبحانه أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول ذلك .

(339/532)

العشرون : عدم تخصيص مخاطب ههنا وتخصيص الكفار بالخطاب هنالك .

الحادي والعشرون : التشبيه المستفادُ من جعل الجملة حالاً فإنه يفيد تحقيق القدرة ولا تشبيه ثمتَ .

الثاني والعشرون : إسناد القدرة إليه تعالى مرتين .

ونقل الألوسي عن عصريِّه المولى محمد الزهاوي وجوهاً وهي:

الثالث والعشرون : تضمين الإيعاد هنا إيعادهم بالإبعاد عن رحمة الله تعالى لأن (ذهب به) يستلزم مصاحبة الفاعل المفعول ، وذهاب الله تعالى عنهم مع الماء بمعنى ذهاب رحمته

سبحانه عنهم ولعنهم وطردهم عنها ولا كذلك ما هناك .

الرابع والعشرون : أنه ليس الوقت للذهاب معيّناً هنا بخلافه في ﴿ إن أصبح ﴾ [الملك : 30] فإنه يفهم منه أن الصيرورة في الصبح على أحد استعمالي (أصبح) ناقصاً .

الخامس والعشرون : أن جهة الذهاب به ليست معينة بأنها السفل (أي ما دل عليه لفظ غوراً) .

السادس والعشرون : أن الإيعاد هنا بما لم يبتَلوا به قط بخلافه بما هنالك .

السابع والعشرون : أن الموعدَ به هنا إن وقع فهم هالكون البتة .

الثامن والعشرون : أنه لم يبق هنا لهم متشبث ولو ضعيفاً في تأميل امتناع الموعَد به وهناك حيث أسند الإصباح غوراً إلى الماء ، ومعلوم أن الماء لا يصبح غوراً بنفسه كما هو تحقيق مذهب الحكيم ، أيضاً احتمل أن يتوهم الشرطية مع صدقها ممتنِعة المقدّم فيأمنوا وقوعه .

التاسع والعشرون : أن الموعَد به هنا يحتمل في بادىء النظر وقوعه حالاً بخلافه هناك فإن المستقبل متعيّن لوقوعه لمكان (إنْ) .

وظاهر أن التهديد بمحتمل الوقوع في الحال أهول ، ومتعين الوقوع في الاستقبال أهون .

الثلاثون : أن ما هنا لا يحتمل غير الإيعاد بخلاف ما هناك فإنه يحتمل ولو علم بُعد أن يكون المراد به الامتنان بأنه : إن أصبح ماؤكم غوراً فلا يأتيكم بماء معين سوى الله تعالى .

وأنا أقول : عُنِي هؤلاء النحارير ببيان التفاوت بين الآيتين ولم يتعرّض أحدهم للكشف عن وجه توفير الخصائص في هذه الآية دون الآية الأخرى مما يوازنها ، وليس ذلكِ لخلو الآية عن نكت الإعجاز ولا عجزِ الناظرين عن استخراج أمثالها ، ولكن ما يبيّن من الخصائص البلاغيَّة في القرآن ليس يُريد من يبينه أن ما لاح له ووُفق إليه هو قصارى ما أودعه الله في نظم القرآن من الخصائص والمعاني ولكنه مبلغ ما صادف لَوحُه للناظر المتدبر ، والعلماءُ متفاوتون في الكشف عنه على قدر القرائح والفهوم فقد يفاض على أحد من إدراك الخصائص البلاغيَّة في بعض الآيات ولا يفاض عليه مثله أو على مثله في غيرها .

وإنما يقصد أهل المعاني بإفاضة القول في بعض الآيات أن تكون نموذجاً لاستخراج أمثال تلك الخصائص في آيات أخرى كما فعل السكاكي في بيان خصائص قوله تعالى : ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءَك ﴾ [هود : 44] الآية من مبحث الفصاحة والبلاغة من "المفتاح" ، وأنه قال في منتهى كلامه "ولا تظنَّنَّ الآية مقصورة على ما ذكرتُ فلعل ما تركتُ أكثرُ مما ذكرت لأن المقصود لم يكن إلاّ الإرشادَ لكيفيَّة اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان" .

وقد نقول : إن آية سورة المؤمنين قصد منها الإنذار والتهديد بسلب تلك النعمة العظيمة ، وأما آية سُورة المُلك فالقصد منها الاعتبار بقدرة الله تعالى على سلبها ، فاختلاف المقامين له أثر في اختلاف المقتضيَات فكانت آية سورة المؤمنين آثر بوفرة الخصائص المناسبة لمقام

الإنذار والتهديد دون تعطيل لاستخراج خصائص فيها لعلنا نلم بها حين نَصل إليها .

على أن سورة الملك نزلت عقب نزول سورة المؤمنين وقد يتداخل نزول بعضها مع نزول بعض سورة المؤمنين ، فلما أشبعت آية سورة المؤمنين بالخصوصيات التي اقتضاها المقام اكتُفي عن مثلها في نظيرتها من سورة الملك فسَلك في الثانية مسلك الإيجاز لقرب العهد بنظيرها .

(341/532)

وإنشاء الجنات من صنع الله تعالى أول إنبات الجنات في الأرض ومن بعد ذلك أنبتت الجنات بغرس البشر وذلك أيضاً من صنع الله بمَا أودع في العقول من معرفة الغرس والزرع والسقي وتفجير المياه واجتلابها من بُعد فكل هذا الإنشاء من الله تعالى .

والجنَّة : المكان ذو الشجر ، وأكثر إطلاقه على ما كان فيه نخل وكَرْم .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ كمثَل جنة بربوة ﴾ الآية في سورة البقرة (265) .

وما ذكر هنا من أصناف الشجر الثلاثة هو أكرم الشجر وأنفعه ثمراً وهو النخيل والأعناب والزيتون ، وتقدم الكلام على النخيل والأعناب والزيتون في سورة الأنعام (99) وفي سورة النحل (11) .

والفواكه : جمع فاكهة ، وهي الطعام الذي يتفكه بأكله ، أي يتلذذ بطعمه من غير قصد القوت ، فإن قُصد به القوت قيل له طَعام .

فمن الأطعمة ما هو فاكهة وطعام كالتمْر والعِنب لأنه يؤكل رطباً ويابساً ، ومنها ما هو فاكهة وليس بطعام كاللوز والكمثرى ، ومنها ما هو طعام غير فاكهة كالزيتون ، ولذلك أخر ذكر شجرة الزيتون عن ذكر أخويها لأنه أريد الامتنان بما في ثمرتهما من التفكه والقوت فتكون منَّة بالحاجيِّ والتحسيني .

ووصف الفواكه بـ ﴿ كثيرة ﴾ باعتبار اختلاف الأصناف كالبسر والرطب والتمر ، وكالزيت والعنب الرّطْب ، وأيضاً باعتبار كثرة إثمار هذين الشجَرَيْن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 18 صـ ﴾

(342/532)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17) ﴾

نلحظ أن للعدد سبعة مواقف في هذه السورة وأسراراً يجب أن نتأملها ، ففي استهلال السورة ذكر سبحانه سبعة أصناف : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون * الذين هُمْ . . ﴾ [

المؤمنون : 1 – 2] .

وفي مراحل خَلْق الإنسان نجده مَرَّ بسبعة أطوار : سلالة من طين ، ثم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم لحماً ، ثم أنشأناه خَلْقاً آخر .

وهنا يقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ . . ﴾ [المؤمنون : 17] .

وفي موضع آخر قال : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ . . ﴾ [الطلاق : 12] .

فهذه سبعة للغاية ، وسبعة للمغيَّا له ، وهو الإنسان ، وسبعة للسماوات والأرض المخلوقة للإنسان .

وطرائق : جمع طريقة أي : مطروقة للملائكة ، والشيء المطروق ما له حجم يتسع بالطَّرْق ، كما تطرق قطعة من الحديد مثلاً ، فانظر إلى السماء واتساعها . وقُلْ : سبحان مَنْ طرقها .

وتلحظ أن الحق سبحانه لم يذكر هنا الأرض ، لماذا ؟ قالوا : لأن الأرض نقف عليها ثابتين لا نخاف من شيء ، إنما الخوف من السماء أنْ تندكّ فوقنا ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق غَافِلِينَ ﴾ [المؤمنون : 17] فلن نغفل عن السماء من فوقكم ، وسوف نُمسكها بأيدينا ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ . . ﴾ [فاطر : 41] .

ثم يعطينا الحق – تبارك وتعالى – الدليل الحسيّ على هذه الآية ، وكيف أن الله تعالى رفع السماء فوقنا بلا عَمَد ، ومثال ذلك الطير يُمسكه الله في السماء : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن . . ﴾ [الملك : 19] .

(343/532)

نعلم أن الطير يطير في السماء بحركة الجناحين التي تدفع الهواء وتقاوم الجاذبية فلا يسقط ، كالسباح الذي يدفع بذراعيه الماء ليسبح ، فإذا ما قبض الطائر جناحيه ومع ذلك يظل مُعلّقاً في السماء لا يسقط فمَنْ يُمسِكه في هذه الحالة ؟ هذه صورة تشاهدونها لا يشكّ فيها أحد ، فإذا قلت لكم أني أمسك السماء أن تقع على الأرض فصدّقوا وآمنوا ، واستدلوا على الغيب بالمشاهد .

وكأن الحق سبحانه في قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الخلق غَافِلِينَ ﴾ [المؤمنون : 17] يقول : اطمئنوا إلى السماء من فوقكم ، فقد جعلتُ لها التأمينات اللازمة التي تؤمّن معيشتكم تحت سقفها ، اطمئنوا لأنها بأيدينا وفي رعايتنا .

لكن ، ما المراد بقوله ﴿ عَنِ الخلق ﴾ [المؤمنون : 17] أهو الإنسان أم خَلْق السماء ؟ المراد : ما كُنَّا غافلين عن خَلْق السماء ، فبنيناها على ترتيبات ونظم تحميكم وتضمن

سلامتكم .

والغفلة : تَرْك شيء لأنه غاب عن البال ، وهذه مسألة لا تكون أبداً في حق الله – عز وجل – لأنه لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأرض . . ﴾

يقول تعالى عن الماء : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ . . ﴾ [المؤمنون : 18] فهل الماء مَقرُّه السماء ؟ لا ، الماء مقرُّه الأرض ، كما جاء في قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ . . ﴾ [فصلت : 9 – 10] .

(344/532)

لما يستدعي الخالق – عز وجل – الإنسان إلى هذا الوجود جعل له في الأرض مُقوّمات استبقاء حياته من الهواء والقوت والماء ، والإنسان كما قلنا يستطيع أن يصبر على الطعام ، وصبره أقل على الماء ، لكن لا صبرَ له على الهواء ؛ لذلك شاءت قدرة الله ألاّ يُملّكه لأحد ؛ لأنه مُقوّم الحياة الأول ، فالغلاف الجوي والهواء المحيط بالأرض تابع لها وجزء منها

داخل تحت قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا . . ﴾ [فصلت : 10] بدليل أنهم حينما يخرجون عن نطاق الأرض يمتنع الهواء .

ومن حكمة الخالق – عز وجل – وقدرته أنْ جعل الماء على الأرض مالحاً ؛ لأن الملح أساس في صلاح الأشياء التي يطرأ عليها الفساد ، فالماء العذب عُرضة للتغيُّر والعطن ، وبالملح نصلح ما نخشى تغيُّره فنضعه على الطعام ليحفظه ونستخدمه في دباغة الجلود . الخ .

لذلك قال الشاعر :

يَا رِجَالَ الدينِ يا مِلْحَ البَلَدِ . . . مَنْ يُصلح الملحَ إذَا المِلْحُ فَسَد

إذن : أصل الماء في الأرض ، لكن ينزل من السماء بعد عملية البَخْر التي تُصفيه فينزل عَذْباً صالحاً للشرب وللري ، وقلنا : إن الخالق سبحانه جعل رقعة الماء على الأرض أكبر من رقعة اليابسة حتى تتسع رقعة البَخْر ، ويتكون المطر الذي يكفي حاجة أهل الأرض .

ومن رحمة الله بنا أن ينزل الماء من السماء ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ [المؤمنون : 18] يعني : بحساب وعلى قَدْر الحاجة ، فلو نزل هكذا مرة واحدة لأصبح طوفاناً مُدمّراً ، كما حدث لقوم نوح ولأهل مأرب . وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : 21] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأرض . . ﴾ [المؤمنون : 18] لأننا نأخذ حاجتنا من ماء المطر ، والباقي يتسرب في باطن الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض ﴾ [الزمر : 21] ومن عجيب قدرة الله في المياه الجوفية أنها تسير في مسارب مختلفة ، بحيث لا يختلط الماء العَذْب بالماء المالح مع ما يتميز به الماء من خاصية الاستطراق ، والعاملون في مجال حفر الآبار يجدون من ذلك عجائب ، فقد يجدون الماء العَذْب بجوار المالح ، بل وفي وسط البحر لأنها ليست مستطرقة ، إنما تسير في شعيرات ينفصل بعضها عن بعض .

والمياه الجوفية مخزون طبيعي من الماء نُخرجه عند الحاجة ، ويُسعِفنا إذا نَضُبَ الماء العَذْب الموجود على السطح ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأرض .

. ﴾ [المؤمنون : 18] ليكون احتياطياً لحين الحاجة إليه ، فإذا جَفَّ المطر تستطيعون أن تستنبطوه .

ثم يُذكِّرنا الحق سبحانه بقدرته على سَلْب هذه النعمة ﴿ وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ [المؤمنون : 18] يعني : سيروا في هذه النعمة سَيْراً لا يُعرِّضها للزوال ، وقال في موضع آخر : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك : 30]

وحين تَعُدّ نِعَم الله التي أمتنّ علينا بها بداية من نعمة الماء : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ

﴿ [المؤمنون : 18] تجدها أيضاً سبعة .

ويبدو أن لهذا العدد أسراراً في هذه السورة ، فقد ذكر من أوصاف المؤمنين سبعة ، ومن مراحل خَلْق الإنسان سبعاً ، ومن السماء والأرض سبعة ، وهنا يذكر من نعمه علينا سبعة ؛ لذلك كان للعلماء وقفات عند هذا العدد بالذات .

(346/532)

وأذكر ونحن في المملكة السعودية وكنت أستاذاً في كلية الشريعة ومعي بعض الأساتذة ورئيس بعثتنا الشيخ زكي غيث – رحمه الله وغفر الله له – ورئيس بعثة المعارف الأستاذ صلاح بك الباقر ، وكان دائماً ما يجلس معنا شيخ علماء المملكة في هذا الوقت السيد إسحق عزوز ، وكان يجمعنا كل ليلة الفندق الذي نقيم فيه ، وكنا نتدارس بعض قضايا العلم .

وقد أثار الشيخ إبراهيم عطية قضية هذا العدد في القرآن الكريم ، وكان يقرأ في تفسير القرطبي فوجد فيه : قال عمر بن الخطاب لابن عباس : يا ابن عباس أتعرف متى ليلة القدر ؟ فقال ابن عباس : أغلب الظن أنها ليلة السابع والعشرين ، فلما سمعنا هذا الكلام قلنا : هذه سبعة ، وهذه سبع وعشرون ، فلما اختلفنا اقترح علينا الشيخ محمد أبو علي

- أطال الله عمره - أن نذهب لنصلي في الحرم بدل أن نصلي في الفندق عملاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان كلما حزبه أمر يقوم إلى الصلاة ، وقلنا : ربما يفتح الله علينا في هذه المسألة .

وبعد أن صلينا جلسنا نناقش هذه المسألة ، فإذا برجل لا نعرفه على سمة المجاذيب غير مهتم بنفسه ، يجلس بجوارنا ويُنصت لما نقول ، ثم شاركنا الكلام وقال : ألم يقُل رسول الله صلى الله عليه وسلم : " التمسوها في العشر الأواخر من رمضان " إذن : فدعكم من العشرين يوماً ، واحسبوا في العشر الأواخر ، ثم نظرنا فلم نجده ، كأن وحدة الزمن التي توجد بها ليلة القدر هي هذه العشر ، وكأنها بهذا المعنى ليلة السابع ، وهذه أيضاً من أسرار هذا العدد ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 76] .

أطال الله في عمر مَنْ بقي من هؤلاء ، وغفر الله لمن ذهب .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ . . ﴾

(347/532)

الجنة : المكان المليء بالأشجار العالية والمزروعات التي تستر مَنْ يسير فيها ، أو تستره عن الخارج ، فلا يحتاج في متطلبات حياته إلى غيرها ، فهي من الكمال بحيث تكفيه ، فلا يخرج عنها . واختار هذه الأنواع ﴿ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ [المؤمنون : 19] لما لها من منزلة عند العرب ، وقال ﴿ فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ [المؤمنون : 19] لأنه لم يحصر جميع الأنواع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(348/532)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17) ﴾

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ قال : السموات السبع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ قال : لو كان الله مغفلاً شيئاً أغفل ما تسفي الرياح من هذه الآثار يعني الخطا .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18)

﴾

أخرج ابن مردويه والخطيب بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أنزل الله من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار : سيحون ، وهو نهر الهند ، وجيحون وهو نهر بلخ ، ودجلة ، والفرات وهما نهرا العراق ، ونهر مصر . أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة ، من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل فاستودعها الجبال ، وأجرها إلى الأرض ، وجعلها منافع للناس في أصناف معايشهم . فذلك قوله ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض ﴾ فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله جبريل فيرفع من الأرض القرآن والعلم كله ، والحجر من ركن البيت ، ومقام إبراهيم ، وتابوت موسى بما فيه ، وهذه الأنهار الخمسة ، فيرفع كل ذلك إلى السماء . فذلك قوله ﴿ وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدنيا والآخرة " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عطاف قال : إن الله أنزل أربعة أنهار : دجلة ، والفرات ، وسيحون ، وجيحون ، وهو الماء الذي قال الله : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ﴿ فأنشأنا لكم به جنات ﴾ قال : هي البساتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(349/532)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ على ذَهَابٍ بِهِ ﴾ : " على ذَهابٍ " متعلقٌ ب " لَقادرون " واللامُ كما تقدَّم غيرُ مانعةٍ من ذلك ، و " به " متعلقٌ ب " ذَهاب " وهي مرادِفَةٌ للهمزةِ كهي في ﴿ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة : 20] أي على إذهابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 325.326 ﴾

(350/532)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17) ﴾

الحقُّ – سبحانه – لا يستتر عن رؤيته مُدْرَكٌ ، ولا تخفى عليه – من مخلوقاته – خافية .

وإنما الحُجُبُ على أبصارِ الخَلْقَ وبصائرهم ؛ فالعادةُ جاريةٌ بأنه لا يخلق لنا الإدراكِ لِمَا وراء الحَجُبِ . وكذلك إذا حلَّتْ الغفلةُ القلوبَ استولى عليها الذهول ، وانسدَّت بصائرها ، وانتفت فهومها .

وفوقنا حُجُبٌ ظاهرة وباطنة ؛ ففي الظاهر السمواتُ حجبٌ تحول بيننا وبين المنازل العالية ، وعلى القلوب أغشية وأغطية كالمُنْية والشهوة ، والإرادات الشاغلة ، والغفلات المتراكمة .

أمَّا المريدون فإذا أَظَلَّتْهُم سحائب الفَتْرَةِ ، وسَكَنَ هيجانُ إرادتِهم فذلك من الطرائق التي عليهم .

وأما الزاهدون فإذا تحرّكَ بهم عِرْقُ الرغبة انْفَلَّتْ قوة زهدهم ، وضَعُفَتْ دعائمُ صَبْرِهم ، فَيَتَرَخَّصُون بالجنوحِ إلى بعض التأويلاتِ ، فتعودُ رغباتهم قليلاً قليلاً ، وتَخْتَلُّ رتبةُ عزوفهم ، وتَنْهَدُّ دعائم زهدهم ، وبداية ذلك من الطرائق التي خَلَقَ فوقهم .

وأما العارفون فربما تِظِلُّهم في بعض أحايينهم وَقفةٌ في تصاعد سرِّهم إلى ساحات الحقائق ، فيصيرون مُوقَفِين ريثما يتفضّلُ الحقُّ – سبحانه – عليهم بكفاية ذلك فيجدون نفاذاً ، ويرفع عنهم ما عاقهم من الطرائق .

وفي جميع هذا فإنَّ الحقَّ سبحانه غيرُ غافلٍ عن الخلقِ ، ولا تاركٍ للعِباد .

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18)

أنزل من السماء ماءَ المطر الذي هو سببُ حياةِ الأرضين ، وذلك بقدرٍ معلوم . ثم . . .
البلادُ مختلفةٌ في السَّقْي : فبعضها خِصْبٌ ، وبعضها جَدْبٌ ، وسَنةً يزيد وسنةً ينقص ، سنةً يفيض وسنةً يغيض .

(351/532)

كذلك أنزلنا من السماء ماءَ الرحمة فيحيي القلوب ، وهي مختلفة في الشُّرْب : فمِنْ موسَّع عليه رزقه منه ، ومِنْ مُضَيِّقٍ مُقَتَّرٍ عليه . ومِن وقتٍ هو وقت سحٍّ ، ومنْ وقتٍ هو وقت حَبْسٍ .
ويقال ماء هو صوب الرحمة يزيل به دَرَنَ العُصَاةِ وآثارَ زلّتهم وأوضارَ عثرتهم . وماء هو سقي قلوبهم يزيل به عطَشَ تحيهم ، ويحيي به موات أحوالهم ؛ فَتَنْبُت في رياض قلوبهم فنونُ أزهار البسط ، وَصنوف أنوار الروح . وماءٌ هو شراب المحبة فيخص به قلوباً بساحات القرب ، فيزيل عنها به حشمة الوصف ، وَيسكن به قلوباً فيعطلها عن التمييز ، وَيحملها على التجاسر ببذل الرُّوح ؛ فإذا شربوا طَربوا ، وإذا طَربوا لم يُبالوا بما وَهَبوا .
فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19)
كما يحيي بماءِ السماءِ الغياضَ والرياض ، ويصنّف فيها الأزهارَ والأنوارَ ، وتثمر

الأشجارُ وتجري الأنهار . . . فكذلك يَسْقِي القلوبَ بماءِ العرفان فتورق وتثمر بعد ما تزهر ، ويؤتى أُكلَها : من طيب عيش ، وكمالِ بسطٍ ، ثم وفورِ هيبة ثم رَوْحِ أُنسٍ ، ونتائجِ تَجَلِّ ، وعوائد قُرْبٍ . . . إلى ما تتقاصر العباراتُ عن شرحه ، ولاَ تطمع الإشارات في حَصْره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 572 . 573 ﴾

(352/532)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(42) ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا علي ذهاب به لقادرون * ﴾

بقلم : د . زغلول النجار

هذه الآية الكريمة جاءت في نهاية السدس الأول من سورة (المؤمنون) , وهي سورة مكية , وآياتها مائة وثماني عشرة آية , ويدور محورها الرئيسي حول قضية الإيمان , وصفات المؤمنين , ودلالات ومؤشرات ذلك , ومقارنته باضداده من الكفر بالله أو الشرك به (تعالي الله عن ذلك علوا كبيرا) .

وقد استهلت السورة الكريمة بإثبات الفلاح للمؤمنين , واستعراض جانب من صفاتهم , وإثبات ميراث جنات الفردوس لهم خالدين فيها أبدا , وتابعت بالإشارة إلي عدد من آيات الله في الأنفس والآفاق , تشهد له (سبحانه وتعالي) بكمال الألوهية , والربوبية , والوحدانية , وبطلاقة القدرة المبدعة في الخلق مما يثبت له (سبحانه) القدرة علي الافناء والبعث , وقد كانا دوما من حجج الكافرين والمتشككين والمعاندين .

واستمرت سورة (المؤمنون) بعد ذلك في تأكيد حقيقة الإيمان كما دعا إليها رسل الله أجمعين ومنهم الصفوة من لدن سيدنا نوح (عليه السلام) إلي خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله (صلي الله وسلم عليه وعليهم أجمعين) , وعرضت السورة لشئ من قصص هؤلاء الأنبياء والمرسلين (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعون) الذين حملوا لأممهم الأمر الإلهي بالإيمان بالله (تعالي) ربا , وتوحيده , وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله , والخضوع له بالطاعة والعبادة والحرص علي المطعم الحلال الطيب , والعمل الصالح المفيد ,

وتأكيد وحدة الإنسانية , ووحدة الدين , هذه الإنسانية التي خالقها واحد , وأصلها واحد , ودينها واحد , وإلي هذا الخالق

(353/532)

العظيم الذي له ملك السماوات والأرض ومن فيهن يرجع الجميع ويعودون ليحاسبوا علي أعمالهم في حياتهم الدنيا بالإحسان إحسانا , وبالإساءة عقابا أو غفرانا حسب مشيئة رب العالمين وأمره .

وتابعت السورة الكريمة باستعراض عدد من شبهات المكذبين لدين الله الحق , الضالين عن هدايته , المحاربين لرسله وأنبيائه وأوليائه إلي الحد الذي يدفع الرسل والأنبياء , والأولياء إلي الاستنصار بربهم فيهلك الله المكذبين (من أمثال الصهاينة المجرمين الذين يعيثون اليوم فسادا في أرض فلسطين , بدعم من الإدارة الأمريكية الفاجرة الكافرة , وصمت من بقية المشركين والكافرين والمتخاذلين) , ومن سنن الله التي لا تتوقف , ولا تتخلف أن يهلك المكذبين الكافرين الفجرة , وأن ينجي عباده المؤمنين , كما سيحدث إن شاء الله (تعالي) علي أرض فلسطين , وفي كل أرض محاصرة , وإلي أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وتمضي السورة في استعراض اختلاف الناس بعد الرسل , مؤكدة مرة أخري وحدة الرسالة

السماوية , ووحدة الجنس البشري , وإن افترقوا إلي مؤمن وكافر , وتكرر ذكر شئ من صفات كل من هاتين المجموعتين من البشر , وتشير إلي مصير كل منهم في الآخرة , وتؤكد أن المدد لنفر من الكافرين والمشركين في هذه الحياة الدنيا هو من قبيل استدراجهم , وليس دليل خير فيهم , فالمدد بالمال والبنين , والعلو الكاذب في الأرض , كما هو الحال مع كل من الأمريكيين والصهاينة الغاصبين لا يمكن أن يكون الا غضبا من الله تعالي عليهم من قبيل استدراجهم حتي إذا أخذهم لم يفلتهم إن شاء الله تعالي . . . . ! ! ! .

وتستنكر سورة (المؤمنون) المواقف المعادية من المشركين لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) في القديم كما تستنكره في الحديث دون أدني مبرر واحد , وتشير إلي تعلل المشركين والكافرين بتشككهم في إمكانية البعث بعد الموت لجهلهم بطلاقة القدرة الإلهية , وقياسهم علي الله (

تعالي) ظلما بمعايير الناس .

(354/532)

وتسأل سورة (المؤمنون) الناس عددا من الأسئلة المنطقية حتي يجيبوا بفطرتهم , وينطقوا ما يؤكد تفرد الله (تعالي) بالألوهية , والربوبية والوحدانية , وأنه تعالي قيوم السماوات

والأرض ومن فيهن , المنزه عن الشريك والصاحبة والولد وأنه (تعالي) بيده ملكوت كل شئ , وهو الذي يجير ولايجار عليه . . .

ويأمر الله (تعالي) رسوله الكريم في هذه السورة المباركة (والأمر بالتالي لكل المسلمين) أن يدفع بالتي هي أحسن , وأن يستعيذ بالله من همزات الشياطين .

وتختتم السورة بمشهد من مشاهد الآخرة يهان فيه كل كافر ومشرك , ويؤاخذ علي مواقفه الخاطئة في الدنيا , وتنتهي بإقرار التوحيد الخالص لله (تعالي) , وبالتوجيه بضرورة طلب الرحمة والمغفرة منه لأنه (تعالي) هو أرحم الراحمين . .

والإشارات الكونية التي استشهدت بها سورة (المؤمنون) علي ما ورد فيها من حق إشارات عديدة منها ما يلي :

(1) خلق السماوات والأرض بالحق .

(2) اختلاف الليل والنهار .

(3) إنزال الماء من السماء بقدر وإسكانه في الأرض .

(4) خلق الحياة بمختلف صورها .

(5) خلق الإنسان بمراحله المختلفة (الجنينية وما بعد الجنين) حتي يكتمل خلقه , ويتم ميلاده , ويستمر في مراحل نموه حتي وفاته , ثم بعثه وحسابه , وخلوده في حياة ابدية مقبلة إما في الجنة أبدا أو في النار أبدا .

(6) خلق السمع والبصر والأفئدة للإنسان , وبث جنسه في مختلف بقاع الأرض .

(7) تبادل الموت والحياة .

أقوال المفسرين

دورة الماء حول الارض

في تفسير قوله (تعالي) :

وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض , وإنا علي ذهاب به لقادرون * .

(المؤمنون :18) .

(355/532)

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) ما نصه : يذكر الله تعالي نعمه علي عبيده التي لا تعد ولا تحصي في إنزاله القطر من السماء بقدر , أي بحسب الحاجة , لا كثيرا فيفسد الأرض والعمران , ولا قليلا فلا يكفي الزرع والثمار , بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به , . . . فسبحان اللطيف الخبير الغفور , وقوله :(فأسكناه في الأرض أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض , وجعلنا في الأرض قابلية إليه , تشربه , ويتغذي به ما فيها من الحب والنوي , وقوله :(وإنا علي ذهاب به لقادرون) أي : لو شئنا ألا تمطر لفعلنا ,

ولو شئنا أذي لصرفناه عنكم إلي السباخ والبراري والقفار لفعلنا , ولو شئنا لجعلناه أجاجا لا ينتفع به لشرب ولا لسقيا لفعلنا , ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلي مدي لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا , ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم المطر من السحاب عذبا فراتا زلالا , فيسكنه في الأرض , ويسلكه ينابيع في الأرض , فيفتح العيون والأنهار , ويسقي به الزروع والثمار , تشربون منه ودوابكم وانعامكم , وتغتسلون منه , وتتطهرون منه وتتنظفون , فله الحمد والمنة .

وجاء في باقي التفاسير كلام مشابه تماما لما ذكره ابن كثير , فيما عدا المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزي الله كاتبيه خيرا) والذي أشار في هامشه إلي شئ من ارتباط هذه الآية الكريمة بدورة الماء حول الأرض وأضاف : وتشير هذه الآية إلي الحكمة العالية في توزيع الماء بقدر أي : بتقدير لائق حكيم , لاستجلاب المنافع ودفع المضار . . ثم معني آخر للآية الكريمة يفيد أن مشيئة الخالق ـ جل وعلا ـ اقتضت أن تسكن في الأرض كمية معلومة من المياه في محيطاتها وبحارها تكفي لحدوث التوازن الحراري المناسب في

هذا الكوكب , وعدم وجود فروق عظيمة بين درجات حرارة الصيف والشتاء لا تلائم الحياة , كما في بعض الكواكب والتوابع كالقمر . . . كما أن مياه الأرض أنزلت بقدر معلوم , لا يزيد فيغطي كل سطحها , ولا يقل فيقصر دون ري الجزء البري منها .

وفي الحقيقة أن هذا السبق القرآني بالإشارة إلي أن أصل الماء الذي يمكن أن يستفيد به الإنسان من تحت سطح الأرض هو ماء المطر يعتبر جانبا من جوانب الإعجاز العلمي في كتاب الله , لأن السائد عن ذلك الماء تحت السطحي في كل الحضارات السابقة علي البعثة المحمدية (علي صاحبها أفضل الصلاة وأزكي التسليم) من مثل الحضارة اليونانية القديمة أنه مندفع إلي داخل القارات من ماء البحار والمحيطات عبر هوة سحيقة تخيلوها وأسموها تاتار

(Tatare) .

أما أرسطو فقد افترض أن بخار ماء التربة يتكاثف في التجاويف وقد استمرت هذه الافتراضات الخاصة سائدة حتي النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي (1877 م) , ولم تتبلور العلاقة بين ماء المطر والماء تحت سطح الأرض إلا أخيرا جدا مع بدايات القرن العشرين , وإن كان برنارد باليسي

BernardPalissy

قد أشار إلي شئ من ذلك في أواخر القرن السادس عشر الميلادي (1580 م) وكذلك

ديكارت في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي .

دلالة الآية الكريمة في ضوء المعارف العلمية المكتسبة

الماء سائل شفاف , وهو في نقائه لا لون له ولا طعم ولا رائحة , ويتركب جزيء الماء من ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأكسجين , وترتبط هذه الذرات الثلاث مع بعضها البعض برابطتين تساهميتين تشكلان زاوية مقدارها 105 درجات , مما جعل لجزيء الماء قطبين كهربيين يحمل احدهما شحنة موجبة والآخر شحنة سالبة .

والماء من أهم ضرورات الحياة , فبدونه لا تقوم , ولذلك كان خلق الحياة الباكرة في الماء , وظلت الحياة في الماء منذ 3,8 بليون سنة مضت وإلي يومنا الراهن , وحتي يرث الله الأرض ومن

عليها , بينما لا يتعدي عمر الحياة الأرضية علي اليابسة أربعمائة مليون سنة . وأجساد الكائنات الحية كلها يغلب علي تركيبها الماء الذي تتراوح نسبته في جسم الانسان بين 93% بالنسبة للجنين في أشهره الأولي (الثلاثة إلي الأربعة أشهر الأولي من حياة الجنين) إلي 71% في الانسان البالغ , هذا بالاضافة إلي أن جميع الأنشطة الحياتية من مثل عمليات تصنيع

الغذاء , وهضمه , وتمثيله , وإخراجه , وعمليات الأكسدة والاختزال , والانقسام , والنمو , والتكاثر , وغيرها لا يمكن لها أن تتم في غيبة الماء , فالنبات علي سبيل المثال يأخذ غذاءه من التربة عن طريق العناصر والمركبات الذائبة في ماء التربة والذي يمتصه ومحاليله بواسطة الشعيرات الجذرية , وترتفع هذه العصارة الغذائية في الأوعية الخشبية للنبات بالقدرة التي أعطاها الله تعالي للماء علي الارتفاع بالخاصية الشعرية , وقدرته علي خاصية التوتر السطحي , كذلك فان عمليات التمثيل الضوئي لا يمكن أن تتم في غيبة الماء , وبعد الاستفادة بالقدر الكافي من الماء في بناء خلاياه وأزهاره وثماره يطلق النبات الماء الزائد عن حاجته إلي الجو بعمليات عديدة منها النتح والتبخر .

وبالمثل فإن كلا من الانسان والحيوان يأخذ القدر اللازم له من الماء عن طريق الطعام والشراب , ويفقد الزائد منه عن حاجته بواسطة العديد من العمليات من مثل التنفس , والعرق , والدموع , والاخراج , وغيرها من الافرازات الجسدية .

من الصفات الطبيعية المميزة للماء

من الصفات الطبيعية التي خص الله (تعالي) بها الماء والتي جعل لها أهمية قصوي للحياة مايلي :

(1) البناء الجزيئي ذو القطبية المزدوجة : يتكون جزيء الماء من ذرتي هيدروجين تحملان شحنة كهربية موجبة وترتبطان بذرة أكسجين تحمل شحنة كهربية سالبة بواسطة

رابطتين تساهميتين تشكلان زاوية مقدارها 105 درجات وهذا البناء الجزيئي المميز جعل للماء

(358/532)

من الصفات الطبيعية والكيميائية مايميزه عن غيره من السوائل والمركبات الهيدروجينية .

(2) درجتا التجمد والغليان : يتجمد الماء عند درجة 4 مئوية , ويغلي عند درجة مائة مئوية , ولهاتين الخاصيتين أهمية قصوي لاستمرارية الحياة إذ يبقي الماء سائلا في درجات حرارة أجساد كل الكائنات الحية لتساعد علي إتمام جميع الأنشطة الحيوية ومنها التغذية , وتمثيل الغذاء ونقله الي الخلايا والأنسجة المختلفة وإتمام عملية الأكسدة والاختزال وإخراج الفضلات والنمو والتكاثر وغيرها .

(3) الحرارة النوعية : ويقصد بها كمية الحرارة اللازمة لرفع درجة حرارة جرام واحد من الماء عند درجة 4 مئوية بمقدار درجة مئوية واحدة . وهي حرارة نوعية مرتفعة مما يمكن جسم الانسان وأجساد غيره من الكائنات الحية من مقاومة التغيرات الجوية المختلفة بدرجة كبيرة .

(4) الحرارة الكامنة : والحرارة الكامنة لتبخر الماء هي الحرارة اللازمة لتبخير جرام واحد

من الماء دون أن تتغير درجة حرارته , وتبلغ 540 سعرا حراريا , وكذلك فإن الحرارة الكامنة لانصهار الماء المتجمد (الجليد) أي : كمية الحرارة اللازمة لصهر جرام واحد منه دون أن تتغير درجة حرارته تبلغ 80 سعرا حراريا .

وارتفاع قيم الحرارة الكامنة للماء يكسبه مقاومة كبيرة في التحول من الحالة الصلبة إلي السائلة إلي الغازية , وهذه الخاصية تجعل من الماء واحدا من أفضل السوائل المستخدمة في إطفاء الحرائق إذ يستهلك كمية كبيرة من الحرارة . من الوسط الذي يحترق قبل أن ترتفع درجة حرارته , مما يعين علي خفض درجة الحرارة وإلي إطفاء الحرائق .

(5) اللزوجة والتوتر السطحي : وتعرف لزوجة السائل بمقاومته للحركة , أما التوتر السطحي فهو خاصية من خصائص السوائل الساكنة , وفيه يكون السطح الحر للسائل مشدودا ليأخذ أقل مساحة ممكنة , ويتميز الماء بلزوجة عالية نسبيا بسبب انجذاب جزيئاته إلي بعض بفعل

الرابطة الهيدروجينية وتزيد هذه اللزوجة بانخفاض درجة حرارة الماء لزيادة قرب جزيئات الماء من بعضها البعض حتي درجة 4 مئوية حين تبدأ في التباعد , وتتسبب

الرابطة الهيدروجينية في زيادة التوتر السطحي للماء مقارنة بالسوائل الشبيهة .

وهاتان الخاصيتان تساعدان علي مزيد من التماسك بين مواد الخلية الحية , وعلي إكساب الخلايا شكلها الخاص وتساعدان علي امتصاص العصارة الغذائية بواسطة الشعيرات الجذرية وعلي رفعها مقاومة الجاذبية الأرضية إلي الفروع والأوراق وحتي القمم النامية في أعلي النبات بارتفاع يفوق الارتفاع الذي يحدثه الضغط الجوي (حوالي عشرة أمتار) , ويعين علي ذلك فقدان الماء من الأوراق بواسطة عمليات النتح والتبخر حيث يصل الضغط المائي أضعاف الضغط الجوي وان كان ذلك يختلف حسب نوع النبات وظروفه البيئية وذلك لكي يستمر ارتفاع العصارة الغذائية من الشعيرات الجذرية عبر السيقان والفروع إلي الأوراق والزهور والثمار .

وتساعد لزوجة الماء وتوتره السطحي أيضا علي إبطاء عملية فقدان الماء من الأوراق عبر ثغورها , ومن أجساد الانسان والحيوان عبر مسام الجلد , وإذا خرج الماء الزائد يبقي علي سطح كل من الأوراق والجلد برهة حيث يتبخر فيبردهما ويكسبهما شيئا من الرطوبة في الجو الحار .

وتساعد خاصيتا اللزوجة والتوتر السطحي المرتفعتان نسبيا للماء في حماية السفن والبواخر المحملة بالأحمال الثقيلة من الغوص في الأعماق وذلك بدفعها إلي أعلي وزيادة قدرتها علي الطفو .

(6) قلة كثافة الماء عند تجمده : من الثابت علميا أن قوة الرابطة الهيدروجينية تتلاشي بين جزيئات الماء بارتفاع درجة حرارته مما يجعل جزيئات الماء منفردة في حالة التبخر , ومزدوجة أو ثلاثية في حالة السيولة حسب درجة الحرارة , وفي حالة رباعية في حالة الجليد الرخو

(Snow)

وفي حالة ثمانية في حالة الجليد الصلب

(Ice)

وفي الحالة الأخيرة يزداد الحيز

(360/532)

المكاني الذي تشغله ثماني جزيئات مما يقلل من كثافة الجليد وهي خاصية ينفرد بها الماء لأنها لازمة لحياة الكائنات الحية في المناطق المتجمدة .

من الصفات الكيميائية المميزة للماء

نظرا لتركيبه الجزيئي الفريد فإن الماء يتميز بعدد من الصفات الكيميائية الفريدة , ومن الصفات الكيميائية المميزة التي خص الله تعالي بها الماء مايلي :

(1) مقاومة جزيء الماء للتحلل إلي ذراته : فنظرا للرابطة الهيدروجينية القوية لجزيء الماء , ولوجود الذرات في داخل الجزيء بشكل مائل فإن هذا الجزيء يصعب تحلله إلي ذراته إلا بنسب ضئيلة (11%) وفي درجات حرارة مرتفعة (2700 درجة مئوية) , وهذه الخاصية تعين المحاليل الحيوية المختلفة علي البقاء في أجساد الكائنات الحية .

(2) قدرة الماء الفائقة علي إذابة العديد من المواد الصلبة والسائلة والغازية : إن البناء الجزيئي للماء بميل ذراته , وثنائية قطبيته , وروابطه الهيدروجينية جعلت من الماء أعظم مذيب يعرفه الانسان خاصة بالنسبة للمواد المؤينة من مثل الأملاح والقواعد والأحماض ولذلك أطلق عليه اسم المذيب العالمي .

ويذيب الماء ثاني أكسيد الكربون مكونا حمض الكربون بينما يذوب الأكسجين في الماء متخللا جزيئاته , وفي الحالة الأولي تسهل عملية نقل ثاني أكسيد الكربون للاستفادة به في عملية التمثيل الضوئي التي تقوم حياة النباتات عليها , كما تسهل عملية التخلص منه في كل من الانسان والحيوان والنبات , وفي الحالة الثانية يعتبر ذوبان الأكسجين في الماء من ضرورات الحياة للاستفادة به في عمليات التنفس بالنسبة للكائنات التي تعيش في الماء .

(3) قدرة الماء علي الأكسدة والاختزال : يدخل الماء في العديد من عمليات الأكسدة والاختزال , وفي الأولي تفقد العناصر إليكترونا أو أكثر , بينما تكسب ذلك في الثانية , وهي عمليات أساسية في تفتيت الصخور , وتكوين التربة وتركيز الخامات , وإعداد

الغذاء لكل من النبات والحيوان والإنسان , وفي أكسدة الدم واختزاله , والدم يتكون أساسا من الماء .

(4) قدرة الماء الفائقة علي التفاعل مع المركبات : يتحد الماء مع أكاسيد الفلزات مكونا إيدروكسيداتها ومطلقا الحرارة , ومع أكاسيد اللافلزات مكونا أحماضا , وهي عمليات مهمة في تفتيت صخور الأرض , وتكوين التربة , وتكوين العديد من الثروات الأرضية وتركيزها .

(5) قدرة الماء المحدودة علي التأين : يتأين الماء بصعوبة إلي أيون الهيدروكسيل السالب , وأيون الهيدروجين الموجب , ويساعد هذا التأين علي إتمام العديد من العمليات الكيمائية اللازمة لاستمرارية الحياة .

(6) قدرة الماء علي تصديع التربة وشقها :

تتكون التربة أساسا من المعادن الصلصالية , وهذه تتكون من صفائح رقيقة جدا أعطاها الله (تعالي) القدرة علي التشبع بالماء (التميؤ) فتتمدد إلي عشرات مرات أطوالها , ويؤدي ذلك إلي تباعد أسطحها عن بعضها البعض , فتهتز وتربو إلي أعلي , وترق رقة

شديدة حتي تنشق لتفسح طريقا سهلا للسويقة الطرية المنبثقة من داخل البذرة النابتة , ولولا هذه الخاصية ما أنبتت الأرض , ولا كانت صالحة للعمران وتتمدد صفائح الصلصال بالتميؤ لحملها شحنات كهربية سالبة علي أسطحها , تمكنها من الاتحاد مع الشحنات الموجبة علي جزيء الماء مما يؤدي إلي جذب تلك الصفائح متباعدة عن بعضها البعض . والعكس من ذلك يحدث عند الجفاف حيث تتلاشي الروابط الكهربية بين شحنات صفائح الصلصال وشحنات جزيء الماء عند جفافه فتتشقق الأرض لشقوق سداسية أو قريبة من السداسية مما يعين علي شيء من تهوية التربة

توزيع الماء الأرضي

يعتبر كوكب الأرض أغني كواكب المجموعة الشمسية بالماء ولذا يسميه علماء الأرض باسم الكوكب المائي أو الكوكب الأزرق , وتقدر كمية الماء الأرضي بحوالي 1337 مليون كيلو متر مكعب , ويوجد في الحالات السائلة والغازية والصلبة موزعا

في البحار والمحيطات , والبحيرات والأنهار والجداول , وغيرها من المجاري المائية , كما يوجد علي هيئة جليد فوق القطبين وعلي قمم الجبال , وعلي هيئة مخزون مائي تحت

سطح الأرض , كما يوجد علي هيئة قدر من الرطوبة في كل من التربة والغلاف الغازي للأرض , ويغطي الماء السائل أكثر قليلا من 71% من مساحة الأرض , بينما يغطي الجليد نحو 9% من مساحتها ويتعذر في الطبيعة وجود ماء نقي تماما , غير أن ماء الأمطار والثلوج المتساقطة تعد من أنقي حالات الماء الطبيعي , ولكنه ما ان يصل الي سطح الأرض حتي يبدأ في إذابة جزء من املاح صخورها ويتوزع الماء الأرضي علي النحو التالي :

دورة الماء حول الأرض

ثبت أخيرا أن كل الماء الموجود علي سطح الأرض قد اندفع إلي سطحها أصلا من داخل الأرض عبر ثورات البراكين , وقد سبق القرآن الكريم بثلاثة عشر قرنا علي الأقل بالإشارة إلي تلك الحقيقة التي يصفها الحق (تبارك وتعالي) في محكم كتابه بقوله (عز من قائل) :

والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها *(النازعات :30 . 31)

وعندما بدأ هذا البخار في التصاعد من فوهات البراكين الي الغلاف الغازي للأرض وجد أن الله (تعالي) قد هيأ له سطحا باردا يتكثف عليه في الأجزاء العليا من نطاق التغيرات الجوية (نطاق الرجع) والذي يتميز بتبرده مع الارتفاع حتي تصل درجة حرارته الي ستين درجة مئوية تحت الصفر فوق خط الاستواء , وذلك اساسا نتيجة للبعد عن سطح الأرض الذي يمتص حرارة الشمس ويعيد إشعاعها الي غلافها الغازي .

وعند انخفاض درجة حرارة الهواء المحمل ببخار الماء مع الارتفاع فوق مستوي سطح

البحر فان رطوبته النسبية ترتفع نظرا لانخفاض كثافته وبالتالي انخفاض ضغطه , وعندما تبلغ رطوبته النسبية 100% فإن ضغطه يساوي ضغط بخار الماء , وتسمي درجة الحرارة تلك باسم نقطة الندي

(DewPoint)

أو درجة حرارة التشبع ببخار

الماء .

(363/532)

وانخفاض درجة حرارة الهواء المشبع ببخار الماء بارتفاعه في نطاق التغيرات الجوية الي مادون نقطة الندي يؤدي مباشرة إلي تكثف قطرات الماء منه وانفصالها عنه فتتكون السحب وهي مجموعة من قطيرات الماء المتناهية الضآلة في الحجم (نحو عشرة ميكرون في القطر) , وتبدأ في التكون ابتداء من 2 كيلو متر فوق مستوي سطح البحر الي نحو 8 كيلو مترات فوق مستوي سطح البحر او أكثر من ذلك .

والهواء المحمل ببخار الماء يتبرد بارتفاعه الي المستويات العليا من نطاق التغيرات الجوية (7 الي 16 كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر) او باصطدامه بقمم الجبال الشاهقة , أو

بالتقائه مع موجة هوائية باردة .

والهواء الجاف يتبرد بمعدل عشر درجات مئوية لكل كيلو متر ارتفاعا فوق مستوي سطح البحر , ويتناقص هذا المعدل الي ست درجات مئوية مع كل كيلو متر ارتفاع في حالة الهواء الرطب , نظرا لتأثير الحرارة الكافية علي تبخر جزء من الماء المحمول مع الهواء الرطب هذا بالاضافة الي ان ارتفاع الهواء الي اعلي يؤدي الي تمدده لوجوده تحت ضغط منخفض , ويؤدي هذا التمدد الي مزيد من الانخفاض في درجة الحرارة تبعا لقوانين تمدد الغازات .

بالاضافة الي انخفاض درجة حرارة الهواء المشبع ببخار الماء الي مادون درجة الندي فإن سقوط ماء المطر يتطلب تكون نويات من البرد (الثلج) او وجود بعض هباءات من الغبار او الاملاح القابلة للذوبان في الماء وهذه تسهم في مزيد من تجميع قطيرات الماء الي بعضها البعض وبالتالي تؤدي الي هطول الأمطار لعجز الهواء عن حمل القطيرات الكبيرة الحجم نسبيا من الماء (من عشري ملليمتر الي نصف ملليمتر في القطر) فتبدأ بالتساقط علي الأرض بفعل الجاذبية

وبسقوط الماء علي سطح الأرض , وعودته إليها ليجري علي سطحها سيولا جارفة , تفتت الصخور , وتشق الفجاج والسبل , وتكون الأودية ومجاري الأنهار والجداول , وتكون التربة , وتركز عددا

من ثروات الأرض , ثم تفيض إلي المنخفضات مكونة البحيرات , والبحار والمحيطات , كما يتجمد جزء من هذا الماء علي هيئة طبقات الجليد فوق قطبي الأرض , وفي قمم الجبال العالية , ويتسرب بعض هذا الماء كذلك غير ظاهر (منكشف) الطبقات المسامية والمنفذة الي تحت سطح الأرض , علي هيئة عدد من التجمعات المائية المختزنة في صخور القشرة الأرضية , ويبقي بعضه عالقا بالتربة علي هيئة رطوبة أو بالغلاف الغازي للأرض علي هيئة بخار الماء .

ومن هنا بدأت دورة الماء حول الأرض في ثبات واستقرار يشهدان لله الخالق بطلاقة القدرة , وعظيم الصنعة , وإتقان الخلق , فبفعل حرارة الشمس يتبخر سنويا 380.000 كيلو متر مكعب من الماء من الأرض إلي الجزء السفلي من غلافها الغازي , منها 320.000 كيلو متر مكعب يتبخر من أسطح البحار والمحيطات , ويتبخر الباقي (60.000 كيلو متر مكعب) من أسطح اليابسة (من الأنهار وغيرها من المجاري المائية , ومن البحيرات , ومن النتح والبخر من أسطح النباتات , وتنفس كل من الانسان والحيوان , والبخر من الخزانات المائية تحت سطح الأرض , ومن رطوبة التربة , وهذا البخار المائي تحمله الرياح وترفعه إلي الأجزاء العليا من نطاق التغيرات الجوية (16.7 كم فوق مستوي سطح البحر) حيث يتكثف ما به من بخار الماء ويعود مرة أخري إلي الأرض مطرا , أو ثلجا , أو بردا ,

أو ضبابا أو ندي , ليعاود الكرة مرة أخري ليتم دورة الماء حول الأرض .

ومن سمات أحكام تلك الدورة أن مجموع كمية المطر النازلة علي أسطح البحار والمحيطات سنويا (284.000 كيلو متر مكعب) يقل عما يتبخر منها بحوالي 36.000 كم 3, ومجموع كمية المطر الساقطة علي اليابسة سنويا (96.000 كم 3) تزيد بنفس الكمية (36.000 كم 3) , عن مجموع كمية البخر من سطح اليابسة (60.000 كم 3) وهذه الزيادة تفيض إلي البحار والمحيطات حتي يبقي سطح الماء بها ثابتا في

الفترة الزمنية الواحدة , ولولا دورة الماء حول الأرض لفسد كل ماء الأرض , ولتعرض كوكبنا لحرارة قاتلة بالنهار , ولبرودة مجمدة بالليل .

خزانات الماء تحت سطح الأرض .

تنقسم خزانات الماء تحت سطح الأرض إلي نوعين رئيسيين كما يلي :

(1) خزانات ماء مالح أو شديد الملوحة : وهذا الماء محتبس بين مسام الصخور الرسوبية المتجمعة في البحار القديمة التي كانت تغمر مساحات كبيرة من يابسة اليوم وانحسرت عنها , وبقي هذا الماء المالح بل الشديد الملوحة في بعض الأحيان محصورا بين حبيبات تلك

الصخور الترسيبية القديمة لملايين السنين حيث تزداد ملوحته باستمرار تعرضه لشيء من التفاعلات الكيميائية (من مثل إذابة المزيد من الأملاح) والفيزيائية (من مثل البخر) .

وهذا الماء المالح عادة ما يوجد علي أعماق بعيدة نسبيا من سطح الأرض , ومن أمثلته الماء المصاحب للنفط في مكامنه .

(2) خزانات ماء قليل الملوحة إلي متوسط الملوحة .

وهو ماء متجمع من ماء المطر النازل من السماء (بمتوسط ملوحة دون 20 جزءا في المليون) علي طبقات من الصخور المسامية والمنفذة فيتحرك ماء المطر فيها بفعل الجاذبية الأرضية أولا متجها إلي الأسفل أي : الي مستويات أدني من سطح الأرض حيث تزداد ملوحته بالتدريج , وتستمر هذه الحركة الرأسية للماء حتي تتضاءل المسامية والنفاذية , وهنا يبدأ ماء المطر في التحرك جانبيا فوق طبقات قليلة المسامية والنفاذية (أو عديمتهما) لتكون خزانا مائيا تحت سطح الأرض , وإن كانت الطبقات مائلة فإن الماء يتحرك في اتجاه ميل الطبقات حتي يصل الي الماء المالح المحصور بين حبيبات الرسوبيات التي تجمعت في البحار القديمة السابقة التي انحسرت عن الأرض منذ ملايين السنين , فيتجمع الماء القليل الملوحة طافيا فوق الماء المالح والشديد الملوحة للفرق بين كثافة الماءين .

ولولا مسامية ونفاذية بعض صخور الأرض , ما تجمع ماء

المطر , ولا أسكن في الأرض , ولولا التغيرات الرأسية والجانبية في كل من المسامية والنفاذية ما أمكن خزن أي من ماء المطر , ولا أمكن اسكانه في صخور الأرض علي هيئة مكامن مائية لآلاف بل لعشرات الآلاف من السنين إن لم يكن لملايين السنين في بعض الأحوال , حتي يستفيد به أجيال من الخلق خزنه الله (تعالي) لهم بعلمه وقدرته وحكمته . . . ! ! !

ولولا حفظ هذه المكامن المائية من أخطار الحركات الأرضية من مثل الخسوف والتصدعات الأرضية , والثورات البركانية , والمتداخلات النارية ما بقيت تلك المكامن المائية بل دمرت بالكامل , ولذلك قال ربنا (تبارك وتعالي) :

. . . وإنا علي ذهاب به لقادرون (المؤمنون : 18)

وقال (عز من قائل) : قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين (الملك : 30)

وقد يغور الماء المخزون في صخور القشرة الأرضية بتكون الصدوع والخسوف الأرضية , كما قد يغور بالضخ المفرط الزائد عن معدل تدفق الماء إلي البئر , وفي الحالتين لا يحفظ الماء في صخور الأرض أو يعوضه إذا غار الا رب العالمين . ويخرج الماء من تحت سطح الأرض بقوة وعنف اذا كان واقعا تحت ضغوط عالية , وقد يخرج بطريقة طبيعية علي هيئة العيون والينابيع الطبيعية , التي قد تشارك في تغذية بعض الأنهار أو البحيرات ولكن اذا كان الماء تحت سطح الأرض تحت ضغوط منخفضة فإنه لا يمكن الوصول اليه الا بتشقق

الأرض عنه أو بالحفر عليه .

ويصف القرآن الكريم هاتين الحالتين بقول الحق (تبارك وتعالي) : . . . وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار , وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء . . . (البقرة : 74)

وتتراوح مسامية الصخور الخازنة للماء تحت سطح الأرض بين 20% و 30% وإن تدنت في بعض الحالات إلي 5% أو زادت الي 60% , وتختلف درجة اتصال هذه الفراغات مع بعضها البعض باختلاف الصخور , وتعرف هذه الخاصية باسم النفاذية , ويستدل بها علي قدرة الصخور

(367/532)

في إنفاذ السوائل من خلالها , علما بأن حركة السوائل في الصخور بطيئة بصفة عامة , وإن كانت في حركة دائبة . ولولا هذا الاعداد المتقن لصخور الأرض , وتمايزها في مساميتها ونفاذيتها , وظهور تلك الطبقات المنفذة علي سطح الأرض , وتبادلها مع طبقات مصمتة أو غير منفذة , ولولا الأحكام الشديد في دورة الماء حول الأرض , ولولا اخراج هذا الماء أصلا من داخل الأرض ما أمكن لهذا الكوكب أن يكون صالحا للحياة من أي شكل ولون , ولذلك يمن علينا ربنا (تبارك وتعالي) بقوله (عز من قائل) :

وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا علي ذهاب به لقادرون . (المؤمنون :18)

وهي حقائق تشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق , كما تشهد للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة , لأنه لم يكن لأحد في زمن البعثة المحمدية الشريفة ولا لقرون متطاولة من بعدها إلمام بأي من تلك الحقائق , فسبحان منزل القرآن بعلمه , والصلاة والسلام علي خاتم أنبيائه ورسله , وعلي كل من تبع هداه ودعا بدعوته , واستن بسنته , والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية . بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(368/532)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman Bin Mohammed AL-QAMMASH

27